بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

بيان القرآن بما يرضي الله تعالى

تتكون مخطوطة القرآن بجامعة برمنغهام من صفحتين من القرآن الكريم. وقد استخدم الخبراء في علم المخطوطات مسارع جامعة أكسفورد الإشعاعي الذي يحلل عمر المخطوطات بواسطة نظير الكربون المشع. وتبيّن "في حينها" أن عمر المخطوطة يبلغ نحو 1370 عاماً، إذ استُنتِجَ أنها دُوّنت في الفترة ما بين عامي 568 و645م. ومع العلم أن فترة نبوة النبي محمد (ص) كانت بين عامي 610 و632م، فهذا يعني بالضرورة أن شخصاً عاصر النبي محمد(ع) وعاش معه هو من دوّن هذه المخطوطة... وهو ما قد يجعلها من أقدم نسخ المصحف في العالم.

مقدمة

القرآن كتاب الله

هذا الوصف له هيبته، لأن مصدره الإله عزّ وجلّ، وقد أنزل كتابه سبحانه على البشر، وجعل فيه الهداية لهم. هذا ما نعرفه عن القرآن. وعند التحليل، نجد أن فهم البشر لكتابه تعالى للاهتداء به، يتوقف على ناحية متعلقة به تعالى وعلى ناحية متعلقة بنا. يتوقّف على بيانه تعالى لكلامه بلغة من لغات البشر، ويتوقّف على ما يريده تعالى بعباده.

شاء تعالى البيان مع الدقّة في الكلام باللغة العربية، فلم يتخلّ عن الدقة لأجل سهولة الفهم لدرجة الركاكة، ولم يتعلّق بالدقة لدرجة صعوبة أو استحالة البيان، وهذا ما تفهمه من مجموع الآيات "الجمل القرآنية" الواصفة لكتابها أنها مبينة ومفصلة ومنها قوله تعالى في الآية الثالثة من سورة فصلت {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}.

شاء تعالى لكتابه أن يكون حركيا عبر التاريخ، شاء هداية من يريد الاهتداء، ورغّبه بالازدياد هدى، وبيّن له ما يهمّه من أساسيات العقيدة والشريعة والسلوكيات التي يرضى بها تعالى، وهذا ما تفهمه من الآية الثانية من سورة الجمعة {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}. أمّا الآخرون فكان القرآن لهم ابتلاء، حيث فيه ما يريهم أساسيات الحقّ والباطل بشكل واضح، ولكن فيه أيضا

ما يريبهم وما يستصعبون قبوله كما تفهم من الآية 26 من سورة البقرة {إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ}.

هذا ينقلنا إلى الناحية المتعلقة بنا لفهم الهداية من كلامه تعالى. حيث من بعد الأمور المفروض توافرها في الإنسان لفهم الكلام، من عقل ودراية ومعرفة للّغة وخبرة حياتية... يأتي أول وأهم عامل لفهم الهداية وهو القلب، لأن درجة سلامة القلب تحدّد درجة ونوع التماشي مع الهداية في كلامه تعالى كما تخبرك العديد من الآيات ومنها الآية 37 من سورة ق {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ}. أساس الفكر والنفسية "القلب" إمّا أن يكون متوافقا متماشيا مع ما يسمعه، أو لا، وعندها سيرفضه، ولن يقبله، ويعارضه، وقد يعلن الاختلاف عنه أو يحوّره ليتوافق مع ما يراه مناسبا، وخلال تحويره يتصرّف مثل اللاواعي بمخالفة صريح الكلام، بينما هو واع ويعلم ما يفعله ولكن فكره ونفسيته يتعاميان عمّا تقترف يداه.

بما جعله تعالى فينا من قابلية لتمييز الخير من الشرّ، وحرية الإرادة التي منحها تعالى لنا لنختار ما نريده منهما، وبناء عليه سيكون موقفنا من الحقّ والباطل، وهذا ما يقوم عليه كل الكلام القرآني المتوجّه لنا بالكلام بالتكليف كما يُفهم من العديد من الآيات، منها الآيات التالية من سورة الشمس {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)}، ولا اختلاف بين كلامه تعالى وبين الحقّ، فقوله تعالى هو الحقّ، وهكذا سيكون لكل واحد منّا موقف مختلف أمام كلامه تعالى.

كيف نفهم كتابه تعالى

افترض أننا فعلا نريد التعرّف على الحقّ الصافي، عندها يجب علينا رمي كل ما نعرفه لنتعلّم من القرآن، وإلا فسنخترع دينا جديدا على هوانا، وحتما ستدخل أشياء من هوانا السيّء على ديننا.

أكبر خطر على تفسير القرآن سببه إسقاط ما نعرفه عليه، ومثله في السوء التفسير بناء على معطيات متغيرة ونحن نظنّ أنها من الثوابت، حيث الطريق السليم هو التعلّم مما يقوله القرآن، على أساس اقتناعنا بأن مصدره إلهي، واقتناعنا أن إلهنا حكيم.

هذا القرار بالتعرّف على الحقّ واتباعه مهما كان، قد تظنّه قرارا سهلا، لأنك تضع في بالك أنه لن يكون بعيدا عمّا أنت عليه حاليا، أو هو نفسه ما أنت عليه، فماذا لو كان الضلال في بعض أساسيات ما أنت عليه؟ ماذا لو كانت المشكلة الأساس في قلبك؟ وقلبك ليس مهتما بفهم ما يقوله القرآن حقا! بل يريد فهمه بحسب رغباته ويريد أن يصير الحقّ ما يريده هو.

هذا هو عمق سبب اختلاف تفاسير المسلمين "والآخرين"، وسبب توافق بعض الجماعات منهم، فاختلفوا لأن كل واحد يريد الحقّ كما يراه هو، وتوافقوا على شيء ما كمجموعات مذهبية لأن الرغبة مشتركة بينهم في فهم ما... كل المتمذهبين من المسلمين، وكل بقية المنتمين لدينه تعالى من يهود ونصارى... وكل بقية الناس بمختلف عقائدهم، كل هؤلاء ألم يسألوا أنفسهم عن سبب اقتناع الكثيرين بما ورثوه من محيطهم؟ بلى سألوا، وتسمع من المستهترين منهم أن الوضع الطبيعي للبشر الوراثة والاقتناع والإعجاب... لكل إنسان بما يجده في بيئة مولده، فهؤلاء يعتبرون الحقّ نسبيا وتابعا للمزاج ولما يرتاح له الناس.

أمّا بعض الباحثين عن الحق بالتفكير والدراسة، تراهم بغالبيتهم مصرّين على أحقية عقيدة بيئتهم وضلال الآخرين، والقليل منهم تراهم منصفين في شيء ما، معترفين بخطأ ما في عقيدة وشريعة وسلوكيات بيئتهم... الباحثون الدارسون العلماء المحققون... هؤلاء موجودون في كل بيئة، وهؤلاء ألم يسألوا أنفسهم وينتبهوا أنهم ليسوا الأذكى لوحدهم فالآخرون فيهم أذكياء! أم الأذكياء فقط من مجموعتهم ومن مذهبهم؟ ألم يسألوا أنفسهم أن الآخرين أيضا يعتبرون أنفسهم على الحق، وهم لا يدّعون بل يعتقدون بذلك من صميم قلوبهم، فهل الكل يكذبون فيما يعتقدون به وأنت ومجموعتك فقط الصادقون؟ ألم يسألوا أنفسهم عن احتمال ولادتهم في البيئة الأخرى، وأنهم هم أنفسهم سيكونون من أشدّ المؤمنين بالموروث الثقافي لتلك البيئة؟ إن هذا الشعور الذي لديك بالاطمئنان إلى صحة معتقدك بشكل عام، هو نفسه

موجود عند الآخرين، وإن لم تقتنع بذلك، فأنت لن تفهم القرآن، لأنك لن تقرأه لتتعلّم منه، بل ستجعله يكرّر ما تعتقد به أنت.

هل أحتاج لكتاب تفسير لفهم كتابه تعالى

لا ونعم، أمّا الأساسيات فلا تحتاج إلا لمستوى ثقافة متوسّط عادي جدا لفهمها، وأقصد بالأساسيات الأساسيات التي بالأصل كُلِّفنا بسببها، وهي طلب الحقّ، مما يعني الإيمان به، مما يعني الالتزام بالصالحات. هذه هي الأساسيات، وبعدها تأتي عناوين الإيمان والتشريع والسلوكيات كالتفاصيل بالنسبة لهذا الأساس.

إن لم نتفق على الأساس، عندها سنختلف كثيرا، حيث في قرآنه لم يهتم سبحانه كثيرا بالتفاصيل، لأنها تطبيقات، واهتم بالأساس، لتصنيفنا لشيء أنه حقّ وخير، وهو نفسه معناه رغبتنا فيه لأنفسنا، حيث نريد الاستفادة والسعادة... وتصنيفنا لشيء أنه باطل وشرّ، هو نفسه معناه نفورنا منه لأنفسنا، حيث لا نريد الأذى. من هذا العمق نتعامل نحن البشر مع بعضنا البعض، ومن هذا العمق كلّفنا سبحانه، حيث صار الإنسان يُجْزَى بالسوء إذا فعل الشرّ كما فهمنا من أمثال الآيات التي نقلتها لك من سورة الشمس في آخر الفقرة الأولى، ومثلها الآيات من سورة التين {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6)}.

هذا المفهوم البسيط تراه منتشرا في كل كلام القرآن، وعليه يبني سبحانه مجازاتك إن كفرت بتوحيده كإله، لأن كل أفعاله تعالى فيما صمّمه وخلقه واضحة وسهلة الفهم وتشير للإله الواحد الأحد ذي الأسماء الحسنى والقدرات الفائقة. إن كنت ترفض هذه الحقيقة الواضحة السهلة جدا، فأنت لا رغبة لك بالحقّ، أو ترغب به جزئيا بحسب ما يناسب هواك، وعلى هذا المعنى جاءت الآيات من الآية 61 وما يليها من سورة النمل {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ}.

ما يحتاج لتفسير من القرآن، هو بعض التفاصيل، بسبب وجود مواضيع لا خبرة لي فيها ولا علم، وكمثال على ذلك العلم بعقليات ونفسيات كل أنواع الناس من الكفّار من الدرجة العالية مرورا بالأقل مرورا بالمؤمنين من الدرجة المنخفضة وصولا للمؤمنين من الدرجة العالية، لأني أفهم ما أنا عليه من إيمان "متوسط"، وحين يتكلّم القرآن عن أنواع أخرى من الناس، تكون حالة نظرية بالنسبة لي، وأحتاج لدراسة تقدّم لي تفسيرا لأفهم الكلام عنهم، أو أن أدرسها بجهدي. ما أدراني بكل التشريعات، هل كلّها مرّت معي في حياتي واختبرتها؟ بالطبع لا، ولذلك هي حالات نظرية بالنسبة لي وأحتاج لتفسيرها أو دراستها... أمّا ما يخطر ببالك من الحاجة لكتب التفسير لتفسير بعض الكلمات وبعض تراكيب جمل القرآن، فهذا من المفروض أن يكون من باب تبسيط العبارة من الدقّة العالية إلى الكلام الدارج في زمانك، ولكن للأسف صار هذا المجال مضيعة للوقت والجهد والمعنى، لأن التفاسير لا تعرض معنى واحدا بسيطا بل تعرض معانيَ متعددة ومختلفة! وصار هذا التخالف هو التفسير!

مشكلة التفاسير

عندما لا يقدّم لي كتاب التفسير معنى واضحا لكلمة أو لجملة أو لمفهوم، عندها لماذا يسمّى تفسيرا؟ وعندما يكون التفسير متماشيا مع هوى جماعة المفسّر، مذهبيا عقائديا وتشريعيا وسلوكيا، عندها لماذا لا أنتبه أنه إسقاط لهوى هذه الجماعة أو تلك على كلامه تعالى، وليس تفسيرا لكلامه تعالى؟ لا أنتبه لأني أهوى ما يقولونه لأني مولود في جماعة منهم... وقد حصل هذا من قبل كما تقول الآية 13 من سورة المائدة {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ...}. مشكلة التفاسير أنها تفاسير متعددة لنفس الكلام، بينما المفروض أن يكون للكلام الإلهي تفسير واحد، كتبسيط له بعبارة قريبة من كلامنا الدارج، وبعد ذلك تأتي الدراسات، وهذا ما نتوقعه من كتاب يتناول دراسة قرآنية.

هذه الدراسة بلا تمذهب، وقبل ذلك بلا تديّن بأي عقيدة أو تشريع أو سلوكيات، نسأل إن كان يوجد شخص بهذه الصفات حتى يقدّم لنا دراسة موضوعية لهذا الكتاب المسمّى بالقرآن والذي يقولون إنّه نازل من عند الإله؟ هذه هي الدراسة التي أريدها حتى أرى كلاما صافيا أمامي لأرى إن كان القرآن كلام الإله حقّا. الغريب أنك هكذا سترى القرآن لو كنت أصلا طالبا للحقّ الصافي، ستراه كتابا لا ينحاز لمذهب، ولا لدين، ولا لعقيدة ولا لسلوكيات، بل يعرض عليك ما ستراه أنت حقّا وصلاحا لو أردت الحقّ، وأمّا إن لم تكن راغبا بالحقّ فالقرآن لن يعرض عليك أي شيء، لأنك سترى كلّ شيء فيه كما تريده أنت، مغيّرا ما يعرضه عليك ليوافق هواك. لنتعرّف الآن على أمّهات مشاكل التفاسير التي حاولت تجنّبتها في هذه الدراسة.

مشاكل التفاسير

المشكلة الأولى الاعتماد على الروايات لتفسير كلمات القرآن ولتفسير الجمل "الآيات" ولمعرفة سبب النزول، ولمعرفة ما قاله الرسول (ع) عن الآية، ولمعرفة ما قاله الصحابة عن الآية... أول سؤال بديهي يخطر بالبال بعد أرتال التفاسير المعتمدة على الروايات، ما هي النتيجة؟ هل لدينا تفسير يقدم لنا معنى بسيطا واضحا؟ والسؤال يبدأ من تفسير لكلمة، ولجملة، ولعقيدة، ولتشريع، أو سلوك. لو كان أسلوب الاعتماد على الروايات ناجحا، إذن لماذا نرجع للتفاسير الروائية ولا نجد الجواب الواضح؟ بل نجد تفاسيرَ متضاربة، أو إذا وجدنا جوابا فَلِمَ لا نجده على قدر الآمال؟

المشكلة الثانية الناتجة عن المشكلة الأولى هي توافق المفسرين الضمني على أكثر من معنى للكلمة الواحدة وللجملة الواحدة، ولهذه الحالة تسميات رنّانة، كالإعجاز القرآني البلاغي بتوافر الكثير من المعاني الصحيحة للكلمة وللجملة الواحدة، والتأويل بحسب اختلاف مستويات الفهم والإيمان، والبطون، وأستار الانكشاف... ولست أتحدث عن معان متوافقة منبثقة من بعضها البعض، بل عن معان مختلفة متخالفة، أو لا توافق بينها.

أيضا ضمنيا توافق المفسرين على كون غالبية السور لا تتناول موضوعا أو محورا واحدا، ففي رأي الكثيرين منهم، تقفز السورة من فقرة لأخرى بدون أي علاقة بينهما.

وضمنا أيضا توافق المفسرين على قبول تقطيع نزول السور على سنين، وتداخل نزول آيات السور مع بعضها، حيث يقولون إنّه قبل اكتمال السورة تنزل سورة أخرى أو تنزل آيات من سورة أخرى وبعد أيام أو سنين تعود لتنزل تكملة السورة.

ضمنا أيضا توافقهم على نسخ الآيات على معنى إلغاء آية ما لتشريع ذكرته آية أخرى.

مما سبق انبثق أسلوب التفسير الموضوعي للقرآن لتلافي المشاكل الناتجة، وذلك بدلا من البحث عن أسباب المشكلات "التي اخترعوها وسببوها هم".

المشكلة الثالثة: الاعتماد على الموروث المتراكم، على مبدأ: حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا. بدل البحث عن نشأة الفكرة لنرى إن كانت صحيحة، بدل ذلك نأخذها كالمسلمة ونفسّر بها القرآن، ويصير لدينا خلق ما في الدنيا في ستة أيام من أيام الأسبوع وفي اليوم السابع استراح سبحانه... وخلق آدم (ع) فورا بلا أبوين، وخلق زوجته من ضلعه ليصير للذكر ضلع ناقص! والحيوانات نزلت في كيس مع آدم(ع) من الجنّة... وللذكر في الإرث مثل حظ الأنثيين دائما، والزانية ترجم، والكافر المسالم لا حرمة له... والقرآن إعجازه ببلاغته...

المشكلة الرابعة: الاعتماد على هوى المجموعات "المذاهب والطوائف والجماعات"، حيث لكل جماعة روايات خاصة، وآراء خاصة، وانطلاقا من خطوط التماس تلك يبدأ الدفاع الأعمى المستميت عن المذهب بتفسير القرآن بما يناسب المذهب!

نبعت مشكلة خطيرة جدا من المشكلتين الثالثة والرابعة، مشكلة التشريعات الذكورية، على الرغم من انتباه بعض الدارسين للقرآن بكلامه التشريعي من جهة حقوق الإناث، إلا أنهم مثل البقية كانوا ذكوريين في فهم التشريعات!

المشكلة الخامسة والأهم، التقديس الأعمى للقرآن انطلاقا من عقلية العصبية، بدل تعامل المفسرين مع القرآن كمتعلمين منه، فرضوا أنفسهم كعلماء ولم يعد مقبولا منهم إلا الجواب عن كل شيء، أمّا لو كانوا متعلمين من القرآن، لقالوا حين واجهوا كلمة أو جملة أو مفهوما أو... حين يقول القرآن شيئا ولم يقتنعوا بما فهموه، أو لم يعجبهم ما فهموه، أو رأوه باطلا، أو رأوه يؤيّد رأي المذهب الآخر... لو كانوا متعلمين لكتبوا واصفين لحالتهم بصراحة بدلا من تمييع الموضوع عبر التطويل فيه بِلَيِّ الكلام الممل بلا طائل...

ليس صحيحاً تمتّعنا كلّنا بقدرات الفهم في كل المواضيع التي تناولها القرآن، وليس صحيحاً أننا كلنا قلوبنا سليمة لدرجة التماشي مع كل ما قاله القرآن، حتى إنّ الفساد في قلوبنا سيرينا بعض كلام القرآن مخالفا لما نراه عقلانيا وصلاحا، حيث من المفروض أن نعرض ما فهمناه على الآخرين كما هو، طارحين السؤال على غيرنا إن كان لديه فهم آخر، وذلك على أساس أننا كلنا متعلمون من القرآن.

المشكلة السادسة: ترسيخ فكرة الاعتماد على معارف مسبقة لفهم القرآن، كمعرفة بقواعد اللغة وفنونها والبلاغة، ومعرفة التاريخ والعقائد المختلفة والفقه، ومعرفة بفروع العلوم كالطب والفلك... وبسبب قوة هذه الفكرة التي ارتبطت بها غالبية التفاسير المنتشرة بيننا، صرنا لا نرى القرآن إلا مرتبطا بشيء من خارجه، ولا يمكن فهمه من دون ذاك الشيء، وهذا غير سليم.

انتفاض

تراكم قراءات عشرات من السنين في مختلف أنواع العلوم، وتجميعي للملاحظات تحت كل آية لها علاقة بما قرأته، وعند مراجعتي للملاحظات لمحاولة فهم الآية، كانت النتيجة مشابهة لحال قراءة بقية التفاسير، تيه. حيث إنّ الذي هربت منه مما أجده في التفاسير من الحاجة لتفسير للتفسير، وقعت فيه أثناء محاولتي لفهم القرآن لأني نسخت طريقتهم في التعاطي مع القرآن، وهكذا كانت النتيجة هي نفسها: الضياع. لهذه الأسباب وصلت إلى ضرورة النظر في كل المناهج التفسيرية، وتحديد الأسباب المانعة من الفهم، وبعد أخذ وردّ، وجرأة على معارضة المسلمات، كان القرار الأول بالانتفاض ورفض المعاني المتعددة للكلمة أو الجملة.

بدأت بتحديد الأسباب المؤدية إلى المعاني المتعددة، ووجدت سببها الأول الروايات بما فيها من معانٍ متعددة للكلمات والجمل، واختلافها في رواية التاريخ وما يسمّى بأسباب النزول... يليه تراث التفاسير حيث حشا غالبية المفسرين كتبهم بالمعاني المقترحة حتى لو كانت بعيدة عن كلام الآية. ويليه تراث غالبية القواميس بما شحنوا به قواميسهم من استعمالات متعددة للكلمة الواحدة بدلا من التنبيه على التراخي والتساهل في الاستعمال المسبب لتعدد المعنى الواحد للكلمة.

كما ترى، هي نفسها الأسباب المؤدية للقبول بالتفاسير المتعددة، حيث تقديس الروايات مانع من رميها حتى لو أدّت لطرح معان متخالفة للقرآن.

تقديس تراث المفسرين المشحون بالاختلافات من خلفية القبول بالمعاني المتعددة، وليس من خلفية البحث عن معنى واحد، بل والعمل على إضافة معنى جديد لإغناء التراث وتضخيمه! وتقديس القديم على أساس أننا بعيدون عن العرب الأقحاح بينما أصحاب القواميس أقرب منّا للفصحاء، وبرأي الغالبية الساحقة، لا مجال لتصحيح القواميس القديمة ومناقشتها، ويحق لنا فقط خلط ما في القواميس بلا تنقيص ولا زيادة، وكأن مؤلفي القواميس معصومون وقواميسهم فيها كل ما نحتاجه وتقدّم لنا ما نريده، بل وكأنهم بكتبهم قدموا لنا تعاريفَ متوافقة لكل الكلمات ولا تحتاج لأي دراسة أو تدقيق!

الانتفاضة الثانية والأصعب كانت برمي كل الموروث مهما كان عنوانه، والبداية مع قراءة القرآن من دون أحكام مسبقة مؤيدة أو معارضة، لأن هذا كتاب منسوب للإله، وقاله للناس محمّد بن عبد الله، إذن لنرى ما فيه ونحاكمه بما نفهمه منه، لنتأكد أنه من الإله...

الانتفاضة الثالثة والأصعب مما سبق: الإذعان. لأنه بعدما تبيّن أن كل كلام القرآن عن الحقّ والصلاح، صارت المسألة الإعلان عن القبول بهما كما هما، أو الإعلان عن رفض الالتزام بهما، أو الإعلان عن المزاجية بقبول ما يعجبنا. بعد الإيمان بإلهية مصدر هذا القرآن، صار ضروريا بالنسبة لي "ولك" الإذعان به حتى لو على المستوى النظري حتى لو لم أتماش معه عمليا، وهذا ليس فسقا ولا نفاقا، ولكنه فصل للنظر عن العمل، لتصويب النظر، وتمرين العمل عليه. بهذه الانتفاضات الثلاث، ستتلبّس أنت وأنا حالة نزول القرآن فجأة في زمنك، وتفهمه كما لو أنك تسمعه من محمد بن عبد الله شخصيا، بلا تقديس مسبق لا للقائل ولا لما يقوله. بلا تراث ديني يفرض عليك رؤية الأمور من منظارها. هذا إن كان لديك الجرأة لتصبأ عن دين محيطك وأهلك وزوجتك وأولادك... فهذا ما عرضه النبي محمد (ع) على محيطه نقلا عن الإله سبحانه.

في الأخير كلام لا بد منه

إنّ المساهمين في محاولة فهم كلامه تعالى عبر تفسيره، وعبر تطبيقه، فيهم المؤمنون الطاهرون الذين لا ينوون السوء ولا يقصدونه، ورغم ذلك فلسبب أو لآخر تراهم وقعوا هنا أو هناك، لأن سلامة القلب بشقيه الفكري والنفسي شرط لفهم القرآن، مضموماً إليه تنمية القدرة على الدراسة من فقه ومقارنة بالاستفادة من مجهود الآخرين، ومن تحليل واستخلاص... فيهم النبهاء والباذلون مجهوداً واضحاً لمحاولة تقديم شيء ذي قيمة، وقد قدّموا، فجزاهم سبحانه خير الجزاء، وإلى كل هؤلاء أقدم هذه الدراسة المبنية على تطوير أفضل ما قدّموه.

ما بعد الأخير، فإني أجيز لأيٍّ كان استعمال ما ورد في هذه الدراسة بدون الحاجة لأخذ إذني، وبدون الإشارة إلى المصدر.

طارق ناصر

96171528827
29 نيسان 2022،الجمعة 27 رمضان 1443.
t_nasser@hotmail.com
malikao@gmail.com
مراجعة ثانية في أول حزيران 2026. الموافق 15 ذو الحجة 1447

سورة الفاتحة (1) ص 1

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ{1})
نقول لهذه الجملة: البسملة.

بسم الله، أي يبدأ الكلام بالاسم "الله" المحدّد المميّز المخصّص له عزّ وجلّ، وكما جرت العادة في المراسلات والمراسيم الرسمية والدولية والشخصية أن تبدأ تلك الكتب باسم أعلى شخصية أو سلطة، مثلا: باسم ملك بريطانيا، أو: بأمر الحاكم العثماني... باسم الدولة اللبنانية... على أساس أنها الجهة العليا التي يستند عليها الكلام في قوّته المعنوية والتنفيذية، يبدأ سبحانه وتعالى الكلام معنا باسمه المحدّد المخصّص له، وبالتالي نكرر هذه التسمية ونفتتح الكلام باسمه المخصّص له تعالى على أساس أن ما نقرأه من قرآن يستند بقوته المعنوية والتنفيذية إليه تعالى.

تذكّر دائما أن كلمة "الله" هي اسم علم مخصص لإلهنا سبحانه، ولا أحد غيره أبدا نقول له: الله. وأمّا ما قيل عن أصل اشتقاقها من التأليه أو ضمير الغائب "هو"... وغيرها من الاحتمالات، هي تخمينات لم نتمكن من الجزم بصحة واحدة منها، لأن الكلمة قديمة جدا جدا في تاريخ البشرية، وترجع لآلاف من السنين إلى ما قبل أي مصدر مكتوب موجود لدينا، وعلى الأقل ترجع لعهد آدم (ع)، وبالتالي نحن بعيدون جدا عن الكلمات التي كانت مستعملة بين الناس في زمن أوائل استعمال البشرية لكلمة "الله"، والأرجح أنه اسم اشتقه الناس من التأليه بما زرعه تعالى في البشر من قدرات حتى يشيروا إليه تعالى ككائن فائق القدرات والصفات.

حتى الدراسات الحالية لأصل الكلمات واشتقاقها، والمعتمدة على المقارنة بين اللغات وبين بعض اللغات المصنفة كبدائية التي يتحدّث بها سكان بعض الغابات... رغم ما في تلك الدراسات من منهجية علمية ونتائج تبدو عقلانية، هي مجرد فرضيات وتخمينات قوية حاليا.

الرحمن، الموصوف بالاعتناء بمخلوقاته بما فيه مصلحتهم، الذي يؤمن لهم ما يحتاجونه وما هو نافع لهم، وبالنسبة لنا فقد خلقنا تعالى بالصفات والقدرات الرائعة التي فينا، وأمّن لنا سبحانه البيئة التي نحتاجها لنعيش، وهي الأرض بمواردها وما عليها وما في باطنها... والشمس المنيرة... وأمّن لنا ما نحتاجه لنصل إلى الجنة في آخرتنا، وأرسل رسله بالكتب التي فيها العقيدة الصحيحة والشريعة الصالحة...

الرحيم، الموصوف بالعناية الخاصة بالمؤمنين من مخلوقاته، وهذا التخصيص لمعنى كلمة رحيم ليكون فقط للمؤمنين هو ما نفهمه من عموم القرآن الذي استعمل كلمة رحيم عندما كان الكلام مخصصا للمؤمنين، حيث الآخرون هم بقرار منهم خرجوا من تحت مظلّة الرحمة الإلهية، بسوء أفعالهم، وبقي المؤمنون تحت مظلة رحمته تعالى ولهم عناية خاصّة

تترجم عمليا في الدنيا بتأمينه تعالى لهم كل ما يحتاجونه حتى يزيد إيمانهم، وفي الآخرة وحدهم ينالون المغفرة ومضاعفة الحسنات، وأمور أخرى.

إذن، البسملة هي افتتاح الكلام الإلهي الموجّه إلينا على أساس أنه عزّ وجلّ الإله الأعلى قدرة وسلطة وأنه يعتني بشكل عام وخاص بمخلوقاته لما فيه مصلحتهم، ونقولها قبل قراءة القرآن لنستحضر في بالنا أنه هو تعالى صاحب هذا الكلام القرآني، حيث القوّة المعنوية والتنفيذية لما يقول تعالى بأنه سيفعله في الدنيا والآخرة، يستند إلى الإله الله سبحانه، وهو بصفات الرحمة العامة والخاصّة.

درج في ثقافتنا الإسلامية استعمال البسملة قبل أي شيء سنقوم به، على أساس التبرّك باسمه تعالى واستجلاب رحمته تعالى علينا للتوفيق في أعمالنا... ويمكنك التبحّر في معاني البسملة ومظاهر رحمة ربك سبحانه، ولكن انتبه، ففي حالة القراءة في الصلاة، لا تتوقع أنك تستطيع استحضار كل المعاني والشروحات والتوسعات في ذهنك، لأن هذا غير ممكن، ولا تفهم من كتب التفاسير أو الأخلاق والتصوّف والعرفان... أن مؤلفي تلك الكتب يمكنهم استحضار كل هذه المعاني الطويلة العريضة في ذهنهم عندما يبسملون في الصلاة! أو عندما يقرؤون الفاتحة أو تسبيحات الركوع...
وتظن أنك أقل منهم إيمانا! لا، بل عند قراءتك لتلك الشروحات التي في الكتب يصير عندك غنى وازدياد في الفهم للدين الإلهي، ويصير للبسملة معنى أفضل عندما تقرأها في الصلاة، ومع ازدياد فهمك وتبحرّك في معاني الكلمات وتطبيقاتها، وازدياد التزامك بالشريعة والسلوكيات الإيمانية، سيتطور عندك فهم ما تقوله في صلاتك، وسيحضر في ذهنك معاني كلمات الصلاة بالشعور، انتبه، بالشعور والإحساس، وليس بتكرار ما قرأته في الكتب من صفحات أو بتكرار ما سمعته وقيل لك.

بعد هضمك لمعنى رحمة ربك سبحانه، وصيرانها قناعة حقيقية عندك، وعندما تذكرها في الصلاة، عندها لن يحضر في ذهنك أن الرحمن هو الذي يعتني بمخلوقاته ويؤمن لهم حاجاتهم... بل ستشعر برحمة ربك سبحانه، كمجرد شعور من دون شروحات، ولن تبقى الكلمات من دون معنى، وبشكل ببغائي، بل ستعني لك كما تعني لك الكلمات العادية عندما تتكلم في حياتك اليومية وفي أشغالك وتسليتك.

يجب أن يصل المؤمن إلى مرحلة تصل فيها كلمات الصلاة عنده ليكون لها معنى عادي، مثل الكلمات العادية التي نستعملها ونفهمها من دون التفكير في تعريفها وشروحاتها... هذه الحالة التي أحاول وصفها لك مشابهة لحالة الذي يتعلّم لغة جديدة، في البداية سيترجم في ذهنه كل ما يسمعه إلى لغته الأولى، وبعد التمرّس الطويل تصير اللغة الجديدة عنده مثل لغته الأصلية، فاهما لكلماتها وجملها من دون ترجمتها في ذهنه إلى لغته الأصلية، ونفس الشيء مع كلامه تعالى وصفاته من بعد التعمّق في معانيها عندها لن تضطر "لترجمتها" إلى لغتك وستفهمها بالبداهة.

من هنا ننتقل إلى القناعة بالكلام الإلهي ومعاني صفاته تعالى، وحتى لو استحضرت تعريف كلمة "رحمن" في ذهني، فإن لم يكن عندي قناعة بها بشكل صحيح، ولنقل أني أعترض على بعض الأمور، ولي رأي فيها لو كان لديّ القدرة على التحكّم بها، ولا يعجبني أنه تعالى لم يفعل كما أرى... ولم أهضم ما بيّنه تعالى عن الأمور التي لا تعجبني من بلاء وفتنة تحصل معنا... عندها ليست المشكلة في تعريف معاني الكلمات، بل المشكلة في مستوى الإيمان... وقد ربط القرآن ذلك دائما بمستوى القلب السليم، حيث كلما كان أساس فكرنا ونفسيتنا سليما، كلّما تماشينا مع كلامه تعالى ومع فهم صفاته وفهم حكمته فيما فعله.

القرآن كان ينزل على النبي محمد (ع)، وكان (ع) يتلوه على الناس مبتدئاً بجملة: بسم الله الرحمن الرحيم. وهذه الجملة هي التي تجعل الكلام الذي بعدها محصورا بأنه من عند الله تعالى وهو قرآن، وليس من كلام النبي محمد (ع)، علما أن الفرق واضح جلي بين الكلامين.

هناك جدل بين العلماء حول كون البسملة جملة افتتاحية عامّة أو آية من كل سورة، وعمليا، هذا الكلام في أصله ليس له تطبيق عملي إلا في الصلاة لنعلم إن كان يجب ذكر البسملة قبل قراءة الفاتحة، وغالبية المسلمين يقولون بأنها آية من الفاتحة ويجب قراءتها في الصلاة، أمّا في قراءة شيء آخر في الصلاة بعد الفاتحة، ترى بعضهم يجيز قراءة أي آية من القرآن، وبعضهم يوجب قراءة أي سورة كاملة من القرآن "إلا السور التي فيها آية سجدة واجبة... وهذا كلام في موضوع آخر"، الآن يأتي السؤال عن وجوب ذكر البسملة قبل قراءة السورة على أساس أننا مع البسملة نكون قد قرأنا

السورة كاملة من أولها، والخلاف من أصله يرجع إلى الروايات التي نقلوها عن صلاة النبي (ع) بقراءة سورة كاملة دائما بعد الفاتحة أو قراءته (ع) أحيانا بعض آيات من سورة ما... وأكثر ما وصلنا من روايات عنه (ع) تشير لقراءته لسورة كاملة... والمعتمد قديما في صلاة الجماعة بين الصحابة وعموم من تلاهم، قراءة سورة كاملة في الصلوات الخمس الواجبة، ولكن هذا لا يعني أكثر من ترجيح قراءة سورة كاملة مع الفاتحة في الركعتين الأُولَيَيْنِ في الصلاة.

(الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{2})
الحمد لله، عمله تعالى دائما موصوف بأنه حميد جيد حسن، سواء أكان عملا حسنا معي أو مع غيري، وهذا المعنى من المفاهيم التي تأخذها من القرآن عندما يخبرك أنه تعالى خلق السماوات والأرض وما فيهن بالحقّ، وأنه تعالى لم يخلقهما باطلا، ولا لاهيا أو لاعبا... فكان عملا صحيحا صائبا حين خلق الدنيا بهذا التصميم، وهكذا يخبرك سبحانه عن نفسه لتنتبه وتتعلّم صفاته تعالى.
إن خطر ببالك الذين سيتعذّبون في نار الآخرة وأمور كهذه لتعتبرها غير حميدة، فقد سبقت البسملة وأخبرتك أنه تعالى يتعامل مع كلّ مخلوقاته برحمته، وهم الذين يقررون بفعلهم للسيئات الخروج من رحمته إلى غضبه وعقابه.
إن خطر ببالك تركه تعالى للمجرمين يرتكبون المجازر، وأن العمل الحميد هو منعهم... فأصل خلقته تعالى لنا في الدنيا مع القدرة على تمييزنا الخير من الشرّ وحرية الإرادة والاختيار منهما، تتضمّن أن يختار البعض منّا الإجرام... فالخطأ ليس فيمن خلقنا في أحسن تقويم، بل في الذين قرّروا أن يكونوا أسفل سافلين، وهناك آخرة خالدة ستجازى فيها الناس على ما فعلوه...
إن خطر ببالك الأمراض والآفات والتشوهات... من الخلقة للأجنة والأطفال، فهي مما كسبت أيدي الناس مما نتج من سوء أفعالهم التي سبّبت رفع العناية الإلهية عنهم، ومما نتج من تلويثهم لفكرهم ولبيئتهم ولجسدهم... هذا ما تفهمه من عمومية الآية 41 من سورة الروم "ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ"، وعمومية الآية 48 من سورة الشورى "... وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ".
الحمد لله، ربّ العالمين، المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس. كما نقول للأب: ربّ الأسرة، وللأم: ربّة المنزل، ولصاحب المؤسسة: ربّ العمل... فكلمة ربّ لها تدرجات في الربوبية من أقل مستوى باستعمالها لوصفنا نحن كمسؤولين عن آخرين، وصولا إلى وصفه تعالى بالربوبية بالمسؤولية عن الناس من مستوى إلهي، من خلقهم وبقاء حياتهم ورزقهم... أمّا كلمة إله فلا تتحمّل التدرج في معناها لأنها بتقويم استعماله تعالى لها، ترى حصرها بنفسه سبحانه، لأنه وحده الخالق وهو ليس مخلوقا، ووحده بالصفات والقدرات الفائقة.
سبحانه نبّهنا في قرآنه مرارا أنه ليس ربّا لأهل مكة لوحدهم، أو ربّا للعرب لوحدهم، أو ربّا للمسلمين لوحدهم، لا، بل هو ربّ العالمين، ربّ لكل الناس. ننتبه لعمق معنى هذا الكلام عندما نقرأ لبعض المتذاكين من العلمانيين الذين يصنّفون الشعوب تاريخيا بأسماء آلهة تلك الشعوب، على أساس أن تلك الآلهة الوهمية لها قيمة حقيقية في مقابله تعالى! وعلى أساس أنهم كلّهم "معه تعالى" آلهة اخترعها الناس! الله رب للعرب، وزيوس ربّ اليونان... وتفهمها عند المقارنة مع المشركين، لأنهم لا مشكلة عندهم أن يكون للآخرين آلهة خاصّة بهم، وسيحترمونها! من هذا نفهم معنى تأكيده تعالى في القرآن على كونه الإله الأحد لكل الناس، للعالمين، سواء الذين آمنوا به أم كفروا به.

(الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ{3})
الرحمن، الذي يعتني بالعالمين لما فيه مصلحتهم، إلى أن يقرروا هم الخروج منها وعندها لا يعود تعالى رحماناً معهم بل يغضب عليهم وتبقى رحمته تعالى محصورة بمن بقي تحتها ويصير وصفه تعالى بالنسبة لهم بصفة.
الرحيم: الذي لديه عناية خاصة بالمؤمنين. عموم القرآن يستعمل وصفه تعالى بالرحيم خصوصا إذا كان الكلام مع أو عن المؤمنين، حيث هنا في الدنيا يحظون بالدعم والتأييد الإلهي الخاص بهم، واستجابة دعائهم... وفي الآخرة وحدهم ينالون المغفرة ومضاعفة الحسنات...

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ{4})
الفترة الزمنية التي في الآخرة والتي سيتم فيها مطالبتنا بالتبعات التي علينا، فهو تعالى يملكها، حيث ذلك اليوم "الزمن" له لوحده تعالى ولا أحد غيره له سلطة هناك.
كلمة يوم تشير لعموم أي زمن يحصل فيه حدث أساسي بغضّ النظر عن طوله، ويتخلّله أحداث فرعية نسمّيها ساعات، فيوم الدين زمن طويل جدا، يبدأ من يوم قيامتنا من الموت، وأول ساعة من ذلك اليوم بالنسبة لنا هي ساعة قيامنا من الموت، وبعدها أيام فرزنا وحشرنا زمرا، وأيام محاسبتنا... وصولا إلى آخر يوم وآخر ساعة حيث يدخل آخر واحد إلى الجنّة أو النار، فكلّ هذا هو يوم الدين، وعلى نفس المعنى كان كلامه تعالى عن خلق السماوات والأرض الدنيا في

ستّة أيام، كانت إشارة لمراحل زمنية مختلفة الطول ومختلفة في الأحداث التي جرت فيها، وراجع كمثال دراسة الآيات من 9 وما بعدها من سورة فصلت.
كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، وهي ليست اصطلاحا مخصّصا كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، لأنها تشير لعامّة تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئا ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني فأنا مدين له، لأن خلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعا بسبب سعة تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى عندها أكون مدينا له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة... ولدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات فعلنا بإرادتنا للصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا الاختيار... كلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".
بالنسبة للآخرة فهناك ندان بأعمالنا، وما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هو التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. هنا في الدنيا أيضا يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسبا بحكمته فقد يديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.
بعبارة أخرى، يوم الدين هو اليوم الذي يطالبونني فيه بما عليّ من تبعات لأني في الدنيا كنت أميز بين الخير والشرّ ومتمتعا بحرية الإرادة للاختيار بينهما... ومضافا لذلك وصلني خبر منه تعالى عن عذابه لفاعلي السيئات، فأكون مدينا بفعلي للسيئات وهو نفسه الإدانة بفعلي لما يخالف كلامه تعالى، ومدينا لغيري من الناس بالأعمال السيئة التي ارتكبتها معهم، وأيضا سأطالب في يوم الدين بحقوقي، بما يدين الآخرين لي به، وسبحانه حدّد للمؤمنين أجرا فسيدينني بالأجر الذي حدّده لي...
لكن تركيز السورة هنا على العلاقة بيني وبينه تعالى، لأن آيتنا هنا عمومية لأي حساب في الآخرة، فأنا أدين الآخرين الذين لي حقوق معهم وهم يدينونني، ولكن سياق السورة يجعلنا نفهم أنها لخصوص ما سيدينني به الإله سبحانه في يوم لن يكون فيه لأي أحد آخر أي سلطة، فالملك فقط وفقط له تعالى. تجد هذا المعنى متكررا كثيرا بصيغ متعدّدة في القرآن... حيث هنا في الدنيا يمكننا مخالفة القوانين والنجاة من العقاب بالرشوة أو بالمعارف والمحسوبيات... أمّا في الآخرة فلا نجاة من الحساب الإلهي لأنه تعالى حدّد ذلك اليوم لمحاسبتنا ولن يسمح فيه بأي سلطة تتدخّل لأي أحد غيره تعالى.
بقي شيء بالنسبة لاختلاف البعض في قراءة بعض كلمات القرآن بما نسميه بالقراءات، ومنها كلمة "مالك" الواردة هنا في الآية، وقد قرأها البعض "ملك"، فلمزيد من التوسّع حول ذلك راجع ما ذكرناه في دراسة الآية 6 من سورة الأعلى "سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَى"، وسيتبين لك أن القراءة المسمّاة بقراءة حفص عن عاصم هي قراءة جمهور المسلمين المتوارثة عبر الذاكرة الجماعية للمسلمين من فم لأذن، جيلا بعد جيل وصولا إلى الرسول محمّد(ع)، والقراءات الأخرى كلّها شاذة ولها أسبابها...

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ{5})
إياك نعبد، فقط حصرا نتصرّف على أساس أننا مفروض منّا الطاعة لك فقط وفقط، إن كلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة وهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك. أما ما تعارفنا عليه بتسمية العبادة من صلاة ومناجاة... هذه من تطبيقات العبادة وليست حصرية فيها لأنها شاملة لكل ما تطيعه به تعالى.
أنت سبحانك إلهنا ونحن عبيدك، وها نعلن لك سبحانك كما علّمتنا أننا نعبدك أنت فقط، ونشعر بأننا عبيدك وعمليا نعلن طاعتنا لكلّ أوامرك سبحانك أنت فقط. كلام السورة هنا تعليم منه تعالى للمؤمنين وليست لإقناع الآخرين بدينه تعالى، وبناء عليه تخاطبك السورة معتمدة على مخزونك الثقافي الإيماني، وتقوّم لك تعابيرك المعبّرة عن إيمانك ليتقوّم فكرك ونفسيتك.
بغض النظر عن ارتباط الحصول على الثواب منه تعالى في الآخرة على الإيمان والعمل الصالح الذي قمنا به ونحن راغبون بالثواب منه تعالى، وبحصر النظر فقط في واقع حال كوننا تابعين لإلهنا، الذي خلقنا ورحمنا... نفهم أننا مفترض منّا عبادته "طاعته" هو وحده فقط، وإن لم نعبده، أو لم نعبده وحده فهناك الآخرة التي سنتجازى فيها على ذلك.
وإياك نستعين، وحصرا منك نطلب العون، حيث هناك أمور نرغب بها ولا يمكننا تحقيقها لوحدنا ولذلك نطلب منك مساعدتنا لتحقيقها، وها نعلن لك سبحانك كما علّمتنا في قرآنك عبر هذه السورة، بأننا نؤمن بأنك أنت فقط يمكنك إعانتنا على تحقيق ما نرغب به، ومن عموم القرآن تعلم أنه على رأس الأمور التي يجب علينا الاهتمام بها وطلب العون على

تحقيقها هي: الإيمان التامّ الحقيقي الصحيح، والعمل الصالح. هذا يسبّب رضاه تعالى، وترجمة ذلك عمليا علينا هو النجاة من النار الخالدة والفوز بالجنّة الخالدة. نستعينه تعالى في كل أمورنا الإيمانية، وأي أمور أخرى نرغب بحصولها هنا في الدنيا القصيرة الفانية فلا قيمة لها أمام الآخرة الخالدة.
قديما وحديثا يدرج بين الناس تديّن مبني على عقلية العلاقة مع جني الفانوس السحري الخرافي، على أساس أنك إن صرت مؤمنا بدين ما، عندها يجب أن ينتج عن ذلك شيء مميز لك هنا في الدنيا، لتكون طلباتك من إلهك مستجابة وأمورك ميسرة... بغض النظر عن صوابية أفعالك وعن الظروف المحيطة بك... ومن هذه العقلية سنفهم طلب الاستعانة هنا بأنه يتضمّن تحقيق النجاح في الدراسة والتجارة والشفاء من المرض... وهذا في أساسه صحيح بشكل ما، ولكنه ليس كما هو دارج بين الناس الذين يفسرون العديد من آيات القرآن على هذه المعاني بينما أكثر الآيات لم تقصد ذلك أصلا، وبضبابية يظن الكثيرون أن كلمة دعاء وتصريفاتها في القرآن تشير في العديد من الآيات إلى ما تطلبه منه تعالى لتحقيقه لك هنا في الدنيا من نجاح وتيسير وشفاء... وهذا بالغالب الأعم غير صحيح، وراجع دراسة الآيات التي تظنّها كذلك لترى معناها الصحيح، ولمزيد من التوسّع حول الدعاء راجع دراسة الآية 186 من سورة البقرة "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ".

(اهدِنَــــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ{6})
أهدنا، ضعنا حيث نكون على الشيء الصحيح الذي يوصلنا للغاية الصحيحة، وهو، الصراط، الطريق الأساسي، وهذا وصف للإيمان الأساسي الذي تتبع منه بقية العقائد والأعمال والنيّات، المستقيم، الذي يوصف بأنه على الأحسن، الذي لا اعوجاج ولا انحراف فيه، والآيات التالية ستفصّل أكثر بالكلام عن الصراط.
ننتبه، فكوني مسلما لأني تلفّظت بالشهادتين لا يعني بأني على الصراط المستقيم، لأن الكثير من الناس يظنون بأنهم من أتباع هذا الدين لمجرد انتمائهم لمجتمع مسلم ولأهل مسلمين، ويعتبرون أنفسهم من المهتدين لأنهم على الدين الصحيح، أمّا في الحقيقة فاتباع تعاليم الإسلام وتطبيقها هو الاسلام، أمّا تسجيل كلمة مسلم على البطاقة الشخصية "الهوية أو جواز السفر..." فهذا لا يجعلني مهتديا مميزا بالإيمان. هناك فرق بين إعلاني أني مسلم واعتقد بأن هذا الدين إلهي وصحيح، وأن بقية الأديان فيها تحريف أو سيئة، وأني ألتزم فعليا بما يقوله هذا الدين الإلهي، وبين مجرد إعلان انتمائي لهذا الدين وأنا لا ألتزم بكل ما فيه من صلاح، وهكذا تفهم أننا نطلب منه تعالى هدايتنا، ليضعنا على العقيدة الصحيحة، لنؤمن به تعالى وبمعاني صفاته، الحميد الحكيم الخبير الرحمان الملك... وأن يضعنا على الشريعة الصحيحة.
بقي شيء، فطالما أوامره تعالى مذكورة في القرآن، وهي الهداية، فماذا نطلب منه تعالى حين ندعوه لهدايتنا إلى الصراط المستقيم؟ بينما يمكننا قراءة أوامره وتنفيذها. هكذا ترى أن نزول كتاب من عنده تعالى هو من تطبيقات هدايته تعالى لنا لنعلم ما هو الصحيح، ولكن هذا هو الجانب السهل، والجانب الأصعب هو الالتزام بتلك الأوامر كما هي بدون اعتراض ينتج عنه فسق أو نفاق، وهذا ما نطلبه منه تعالى، أن يهدينا، أن يوفّقنا ليسيّر الأمور والظروف ليجعلنا نتبع ما نعرف أنه صحيح ومن عنده تعالى، وبتعابير قرآنية أخرى كالذي ورد في الآية 43 من سورة الأحزاب "هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا" نفهم أنه تعالى يتدخّل وبما يراه مناسبا ليعرقل للمؤمنين فعل السوء ويسهّل لهم فعل الصالحات، وينير قلوبهم لطرد وسوسات السوء...

(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ{7})
أي صراط نطلب منه تعالى هدايتنا إليه؟
صراط الذين أنعمت عليهم، ندعوه ليهدينا سبحانه لنفس الطريق الأساسي الذي كان عليه الذين حصلوا على نعمة، على شيء جيّد منه تعالى، فمن كان على الطريق الإلهي الصحيح سيكون في نعمة، أموره تمام التمام، وهو صراط المؤمنين الحقيقيين، غير المغضوب عليهم، هناك صراط آخر عليه أناس مغضوب عليهم، عليهم الغضب الإلهي، لأنهم قاموا بأعمال سيئة لا يمكن السكوت عنها، وترجمة الغضب الإلهي عليهم هو تعذيبهم في نار جهنّم.
ولا الضالّين، أيضا ندعوك سبحانك أن لا نكون على صراط الضالين، وهم الذين يمشون على الطريق الخطأ الذي لن يوصلهم لنهاية جيدة.
لاحظ الآيات قسمت الناس إلى مهتدين، ومغضوب عليهم، وضالين. هذا التعبير المختصر يشير ضمنا إلى كل التدرجات من أقصى الإيمان مرورا بالإيمان الضعيف وصولا إلى أقصى الابتعاد عن الإيمان، وبعدها وصولا إلى أقصى الكفر.
المغضوب عليهم شاملة لكل من خالف الهدى مع علمه يقينا بأنه يفعل السوء وهذا نفسه مخالفة دينه تعالى، كالكافر والمشرك والمفسد والمجرم... وصولا إلى الذي يعلن أنه على دينه تعالى "مسلم مسيحي يهودي..." ولكنه يخالف الأوامر الصريحة التي قالها تعالى، فهذا لا تجاوز ولا تغاضي عن أعماله السيئة وسينال العقاب عليها، هذا هو معنى الغضب عندما نصفه به تعالى، وهناك الضالين الذين يظنون بأنهم مهتدون، الذين استخفوا أنفسهم وأقنعوها بصحة

المعلومات الدينية الفاسدة الدارجة بينهم، ولم يفكروا فيها ولم يتعبوا أنفسهم بدراستها... ويكتفون بالثقافة الدينية العامّة المنتشرة بين الناس من حولهم، هؤلاء ليس لديهم نيّة صريحة لمخالفة أوامره تعالى إن علموا بها، وهم يعتبرون ما هم عليه من دين هو المطلوب منهم ويكفيهم.
تجد في بعض كتب التفاسير تحديدا للمغضوب عليهم بأنهم اليهود، وتحديدا للضالين بأنهم المسيحيون، ولكن هذا تفسير غير دقيق، حيث هناك ضالون من اليهود، وهناك مغضوب عليهم من المسيحيين، بل وهناك ضالون ومغضوب عليهم من المسلمين الذين ينطبق عليهم وصفهم بغضبه سبحانه عليهم بسبب مخالفتهم للأوامر الإلهية الصريحة، ووصفهم بالضلال لكونهم مكتفين بالمعلومات الدينية "المذهبية الموروثة" المنتشرة من حولهم من دون التدقيق في صحّتها، وهذا تراه بشكل واضح في العقلية المذهبية والطائفية بين المسلمين، وتراه في المسلمين المتراخين المتساهلين بالحلال والحرام والمكتفين بإطلاق كلمة مسلم عليهم من دون تطبيقهم الكامل لتعاليم الدين الإلهي.

سورة البقرة (2) ص 2

تبدأ السورة بتقسيم الناس لثلاث فئات: مؤمنين من كل التاريخ البشري، وكفّار علنا، وكفّار تحت ستار النفاق والفسق.
ثم تتحدث بالخصوص "مع وعن" أهل الكتاب من مسيحيين ويهود وصابئة... الذين لم يلتزموا بهذا الكتاب "القرآن"، وتدعوهم للإيمان به عبر شرح عقيدته وشريعته المبيّنة للدين الإلهي الحقّ، وتردّ على كل أقوالهم المعارضة والمخالفة لما يقوله هذا القرآن، وتفصّل الكلام حول نفسياتهم ونواياهم... كأسباب لرفضهم الحقّ القرآني الواضح الذي يدّعون أنهم عليه...
تلاحظ فيها توجّها خاصا لبني إسرائيل من أهل الكتاب، على أساس أنهم أمّة مرجعية بسبب كتاب التوراة الذي يعتبر مرجعا لبقية أهل الكتاب من مسيحيين وغيرهم، لأنه الأقدم. واختيار التركيز على بني إسرائيل من بين اليهود على أساس أنهم النواة العلمية المرجعية لبقية اليهود لأنهم أحفاد أشخاص كانوا أساسيين في تاريخ الدين...
على كل حال، هذا القرآن كتاب هداية ينبهنا مما وقع فيه من سبقنا من أهل الكتاب حتى لا نهوي كفرا أو فسقا ونفاقا على آثارهم.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(الم{1})
هذه حروف نقرؤها مقطّعة هكذا: ألف لام ميم.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوَّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوِّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ{2})
الحروف الهجائية المقطعة "الم" من {ذَلِكَ الْكِتَابُ}، وتعلم من عموم القرآن أنها إشارة للكتاب الرئيسي الذي في السماء العالية، وهو موصوف بأنه، لا ريب فيه، ليس فيه أي خلل ولو بسيط في معلوماته لأنها حقيقية ومطابقة تماما للواقع ومسجّلة بشكل واضح بدون تشويش واضطراب، وبالتالي لا تصيب قارئها حالة ريب، فلا تصيبه حتى أقل درجة من تكذيب محتواه، وبخصوص الكلام عن الكتاب الرئيسي الإلهي، لا يوجد أقل درجة احتمال أن مصدره غير إلهي.

ذلك الكتاب ليس كتابا عاديا، وفيه كل شيء وعن كل شيء، وترى ذلك جليا في الآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

ذلك الكتاب، هدى للمتقين، الكلام عن المتقين عن الذين يتجنبون ويتحاشون، والمقصود المتجنبون للسيئات وهو نفسه تجنّبهم لغضب وعقاب ربهم سبحانه، فيهديهم فيوصلهم الكتاب للغاية الصحيحة التي يريدون الوصول إليها، والترجمة العملية هي وصولهم إلى مرضاته وجنّته تعالى.

عادة نفترض تحوّل الناس من الكفر إلى الإيمان عبر الأنبياء والرسل والكتب الإلهية، على أساس أنهم كانوا كلهم بالأصل كفرة ومن بعد الكتب والأنبياء آمنوا، وهذا التعميم ليس دقيقا، لأن القرآن يخبرنا عن أناس قلوبهم سليمة، لديهم بصيرة، يسمعون وأحياء... وحين يسمعون الكلام الإلهي عبر رسله أو كتبه سبحانه، يهتدون، وهنا كما ترى في الآية قولها عن المتقين يهتدون بذلك الكتاب الذي نزل منه هذا القرآن، وبالتالي هم يهتدون بهذا القرآن، لأنهم بالأصل متقون، وأساسا لا يريدون فعل السوء، وهو نفسه تجنّبهم للتواجه مع غضبه وعقابه تعالى، وهذا القرآن الذي من ذلك الكتاب الإلهي، يعرض عليهم الحقّ ليصير لديهم مستند إلهي لعقائدهم وشرائعهم وسلوكياتهم، ويتماشون معه "فيهديهم" لأنهم بالأصل راغبون بما فيه. أمّا أصحاب القلوب الغلف، والعميان والصمّ... الأموات، ومن هم أسوأ من البهائم، هؤلاء لا الكتب ولا الرسل ولا الأنبياء سيهدونهم ولن يغيروهم من الكفر إلى الإيمان... طبعا هناك حالة وسطية بين أقصى الكفر وأقصى الإيمان، وهم المتعلقون ببعض الشهوات والغرائز ولديهم ميول متفاوت نحو الكفر في أشياء ونحو الإيمان في أشياء أخرى، وقد شملتهم آيتنا هنا بالطريق لكونهم لديهم بعض التقى... مخاطباً الجانب التقي فيهم، ليكون الكتاب هدى لهم أيضا.

هذا الكلام يكون فهمه أسهل بالنظر إلى مفهوم قرآني أساسي عن خلقه تعالى لنا مع قابلية تمييزنا للخير من الشرّ، وهذا ما تشير له عدة آيات منها الآية 10 من سورة البلد {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}، وخلقه لنا مع كرهنا لحصول السوء معنا وكرهنا بالأساس لفعل السوء كما تشير له عدة آيات منها الآية 4 من سورة التين {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}، ومضافا له تمتعنا بحرية الإرادة لنختار ما نريد، حيث قبل لصق الحقّ والباطل والخير والشرّ والصلاح والفساد... بدينه تعالى مستعملين مصطلحات دينية كالحلال والحرام والثواب والحسنات... قبل ذلك كل الناس مكلفون بما زرعه تعالى فيهم من تمييز للخير من الشرّ وحرية إرادة للاختيار بينهما. بناء على هذا الأساس القرآني الذي بسببه كلّفنا تعالى وسيجازينا، يكون حتى الذين لم يصلهم أي كلام منه تعالى عبر رسله أو عبر مؤمن صالح أو عبر كتاب... يكونون مكلفين مثلنا بما يمكن أن تسميه بالإنسانية، ويُجْزَوْنَ مثلنا على ما علموا أنه سوء وفعلوه، وما هو خير وتركوه... ولم يوجّه القرآن كلامه لهم لأننا نفترض أنهم لم يسمعوا به، ولم يحدثنا عنهم بشكل مباشر صريح لأننا لا شغل لنا بهم، ومن فحوى كلام القرآن عن الناس والإنسان والعالمين... نفهم أنه لا فرق في الآخرة بين حساب كل الناس، حيث الكبائر من السيئات هي الخطيرة مصيريا في الآخرة، وسوؤها واضح معلوم لكل الناس، وعلى رأسها اختراع آلهة والشرك به تعالى بدون دليل، أو الكفر به تعالى من أصله، وهذا ليس شيئا تؤمن به من الخبر عبر الآخرين أو عبر كتاب، بل هو من شيء مزروع فيك فكريا وبعده نفسيا للتعرّف عليه تعالى من آيات خلقه لك ولما حولك، وبعد الشرك تأتي بقية السيئات من العيار الثقيل كقتل نفس بريئة والغشّ والزنا و... وأمّا غير ذلك من التفاصيل فليست بخطورتها، وهكذا ترى أنه وبحسب

ما تعرفه تُحاسَب، وأساسيات معرفة السوء من العيار الثقيل واضحة للجميع، وإن تعرّفت على بقية التفاصيل من فكرك أو من الآخرين عندها ستُحاسَب من بعدما تبيّن لك الحقّ...

ملخص الكلام، بالأصل هناك متقون للسوء والشر والفساد، وهؤلاء حين يصلهم الكلام الحقّ من أي مصدر كان، يتماشون معه ولا يرونه شيئا غريبا جديدا، وهذه حالتهم عند وصول هذا القرآن لهم، فيكون لهم هاديا.

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{3})
المتقون:
{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}، هم في حالة تصديق واعتقاد بما غاب عنهم، والغيب هو عموم ما غاب عنك سواء حصل في الماضي أو سيحصل في المستقبل أو حصل في زمنك ولكنك لم تشهده، فكلّ ذلك هو عموم الغيب.

الأخبار التي وصلت للمؤمنين عبر الأنبياء والكتب الإلهية عن أمور لم يشاهدوها أو يختبروها، هم يعتقدون بصحّتها، يعتقدون بصحّة كلّ الأخبار التي وصلتهم عن وحدانيته وصفاته تعالى... وعن الملائكة (ع)، والآخرة والحساب والجنة والنار... مضافا للإيمان هم، {وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ}، يفعّلونها لا يعطّلونها فلا يهملون التوجّه والإقبال على شيء ما، وهذه الكلمة صارت مصطلحا دينيا يشير للتوجّه بالحركات والكلام المعروف بالصلاة الواجبة، وهي الفريضة الدينية التي نقيمها خمس مرات في اليوم وتعبّر عن عبادتنا لله تعالى، علما أن كلمة "صلاة" عمومية لأي توجّه، ودينيا هي لعمومية أي توجّه عبادي، ومن سياق الكلام تعلم إن كانت تشير للحركات والكلمات المحدّدة التي وصلتنا عن النبي محمّد (ع) "الصلوات الخمس اليومية"، وهذا ما قصده القرآن غالبا، أو تشير لعموم التوجّه إليه تعالى بالكلام أو التعابير الحركية المعبرة عن الإيمان والطاعة والاحترام والخضوع له تعالى، وبذلك تشمل عموم الذين سبقونا بالصلاة الواجبة المختلفة بشيء ما عن صلاتنا الحالية، ومن الآية التالية تعلم أن الكلام هنا مع المؤمنين من بعد النبي محمّد (ع)، فتكون الصلاة هنا إشارة للصلوات الخمس المعروفة بين المسلمين.

هم أيضا، {وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ}، من الأشياء التي حصلوا عليها منه تعالى ولها ارتباط بما يحتاجونه لحياتهم ويرغبونه، مما يؤكل من طعام أو من مال يشترون به ما يحتاجونه...

هم {يُنفِقُونَ}، هم لديهم شيء قابل للاستهلاك ويجعلونه عند الآخرين ليستهلكه الآخرون، يصرفون، ومن عموم القرآن تعلم أنهم يقدّمون للمحتاجين مما حصلوا عليه من تعبهم وعملهم ومصالحهم... وتذكّر دائما أن القرآن ركّز كلامه بالإنفاق على من يحتاج للمساعدة، ولا يوجد في القرآن شيء اسمه صدقة مستحبة على شخص يحتاج للمساعدة الضرورية، بل دائما يجب علينا مساعدة من يحتاج للمساعدة الضرورية.

ستجد في الكتب توسّعا في معنى الإنفاق مما رزقنا إياه تعالى ليشمل الإنفاق من العلم، وهذا توسّع في المعنى وليس من أصل معنى كلمة رزق، وضرورة نشر العلم يمكن اشتقاقها بسهولة من آيات عديدة من القرآن، ولكن آيتنا هنا لم تقصده ولم تقصده الآيات التي استعملت كلمة رزق، وهذا التوسّع في تفسير القرآن بهذا الشكل الذي لا يستند على اللغة المفهومة من الكلام، هو سبب من أسباب تشويه مقاصد القرآن عبر تضييع تركيز كلامه وما يريدنا تعالى فهمه لننتقل إلى عشرات المعاني المختلفة والمتخالفة للآية الواحدة! حتى لو كانت بعض المعاني التي اقترحوها بعيدة عن سياق الآية تراهم يذكرونها! على أساس اعتقدهم بأنها كلام جيّد، ولكنها ليست تفسيرا! ولكن لو أراده تعالى لقاله مباشرة، وللأسف نجد هذا النوع من التفاسير منتشر في عموم كتب التفاسير.

الكلام هنا مديح معلوم أنه للمؤمنين بالغيب بالحقّ، وسيأتيك في السورة كلام طويل عن الذي جعلهم مؤمنين، لأنهم بسبب الآيات آمنوا بالغيب وأقاموا الصلاة وأنفقوا. تلاحظ في عموم القرآن تركيزه على الإيمان ومن بعده اختياره لنموذج الصلاة والإنفاق من بقية تشريعاته تعالى، وهذان النموذجان يجعلانك ترى بسهولة أن دينه تعالى ليس لجعلك مختلفا بشكل منفرد لا علاقة له بمجتمعك، حيث تصلي في زاوية بيتك وتدعو وتصوم... وكأنها أمور شخصية خاصة بك، لا، بل الإيمان والالتزام بدينه تعالى نموذج عنه أمور عبادية خاصة بك ولها أثرها عليك وعلى الآخرين لأنك بتأديتك لها ترسّخ التزامك بالأعمال الصالحة وهذا سينعكس حتما على الآخرين، ونموذج الإنفاق على المحتاجين والإنفاق على عموم مصالح المسلمين كأمر منه تعالى للمنتمين لدينه، هذا من الواضح فيه ربط دينه تعالى بمجتمعنا،

فالآية هنا على معنى: آمنوا وعملوا الصالحات، وهذان العنوانان شاملان لكل الحقّ والصلاح، وأبرز نموذج تطبيق لهما هو الصلاة والإنفاق، وهذا ما تكرر كثيرا في القرآن.

(والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ{4})
{وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ}، يعتقدون، {بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ}، ومما سيأتي من كلام في السورة عن مختلف أنواع عقائد الناس، نفهم هنا أن الكلام عن الذين يؤمنون بهذا القرآن النازل من الإله سبحانه على النبي محمد (ع)، وبالتالي هم سيلتزمون بما فيه.

{وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ}، ويؤمنون بما أنزله تعالى من الكتب التي نزلت في وقت سابق على الأنبياء كالتوراة والإنجيل وصحف الأنبياء والمشهور منها بين الناس صحف شيث وإبراهيم وداوود ويحيى... عليهم السلام.

{وَبِالآخِرَةِ}، وبالتي تأتي بعد الحياة الأولى التي نحن فيها الآن، هم {يُوقِنُونَ}، لديهم اعتقاد مطابق للواقع والحقّ، لديهم اعتقاد بأننا سنعود إلى الحياة مرة ثانية، وهذا الاعتقاد صحيح مطابق للواقع.

تذكّر دائما أن الإيمان بالكتب التي نزلت من قبل هي حالة المؤمنين الذين يعتقدون أنه تعالى لا يترك عباده بلا هداية، وسمعوا بكتب إلهية نزلت من قبل وهم لا ينفون صحّة هذا الخبر، ولولا أن تلك الكتب قد تحرّفت وتلاعب بها الناس لكانت مرجعا معتمدا للمؤمنين إلى يوم القيامة، وهذا القرآن قال عن نفسه إنّه نزل لعدة أسباب أهمها أن ما سبقه من كتب قد حرّفها الناس، ولذلك لم تعد صالحة لاعتبارها مرجعا للعقيدة والشريعة الإلهية بسبب تحريفها.

من ناحية ثانية، هذه الجملة المتكررة في القرآن عن الإيمان بالكتب السابقة، تشير لكون النبي محمّد (ع) حلقة من سلسلة طويلة من حاملي الكتب الإلهية عبر التاريخ، وليس كتابه (ع) بدعة، وليس شيئا جديدا لم يحصل من قبل، وليس شيئا جديدا عمّن سبقه بل مصدّقاً لهم ومتمماً لهم ومصحّحاً لما تحرّف... هذا الدين الإلهي القرآني هو امتداد لعمق سحيق بآلاف من السنين عبر التاريخ، وامتداد لكتب إلهية سابقة نزلت، ولهذا الكلام ارتباط بالعديد من الموضوعات منها الفرق الهائل بين هذا الدين الإلهي الواحد "هو نفسه" منذ آلاف السنين بنفس العقيدة وبنفس أساسيات الشريعة منذ أول بشري تأهّل ليتكلّف وهو آدم (ع)، وبين الأديان الأخرى التي لا امتداد تاريخياً لها، لأن لها بداية معلومة أنها من اختراع البشر... ومنها أن المنتمين لدينه تعالى سابقا قبل نزول هذا القرآن فليأخذوا علما أنه لم يأت القرآن بدين جديد بل هو نفس دينهم قد أعاد تعالى عرضه علينا من جديد خاليا من التحريفات التي أضافها الناس إليه عبر التاريخ... وبدورنا نحن المنتمون لهذا الدين، لا نشعر بالفرق بيننا وبين من سبقونا بالإيمان، بل نشعر بأننا امتداد لهم...

كلمة يقين بحسب استعمال العرب لها وبحسب استعمال القرآن تعني: معلومة مطابقة للواقع. وكمثال: عندي معلومة بأن الخبز في المطبخ. وواقعا في الحقيقة كان الخبز هناك، فهذه معلومة يقينية لأنها مطابقة للواقع. أمّا لو كنت لسبب أو لآخر متأكدا بأن الخبز في المطبخ، وعندي براهين على ذلك، وفي الحقيقة والواقع لم يكن الخبز في المطبخ، عندها حالتي لا توصف باليقين لأنها لم تتطابق مع الواقع، وبهذا المعنى حصريا استعمل القرآن كلمة يقين، للمعلومة المطابقة للواقع، وأمّا درجة تأكدي من معلومة ما، فلا تُوصف باليقين إلا إذا طابقت الواقع.

(أُوْلَـئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{5})
كل الذين يحملون الصفات السابقة يقول سبحانه عنهم: {أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ}، فالمسؤول عنهم من مستوى إلهي قد وضعهم على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، {وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، وهم الذين يوصفون بأنهم مجيدون مصيبون في فكرهم وعملهم.

الوصف بالمفلحين عامّ مثل الوصف بالصالحين والعاملين للصالحات والمحسنين... ونفهم الفلاح بأنه عموم فعل الخير وترك السوء، حتى لو كان أحد ما منتمياً لدينه تعالى وفعل سوءاً فهذا ليس مُفْلِحاً على مقياس ما نميّزه نحن من مُفْلِح وطالح، وهو نفسه كلامه تعالى الذي يعرضه علينا لنكون مُفْلِحين، مع الإضافة إلى أننا نحن وبسبب فساد في قلوبنا قد نفقد وضوح الفرق بين الصالح والطالح عندها يأتي كلامه تعالى في قرآنه كمقوّم يعرض الحقّ الصافي.

نلاحظ أن هداه تعالى هو الوحيد الذي يؤدي إلى الفلاح، لأنك قد تسأل عن الطريق فيهديك أحدهم ولكن إلى الطريق الخطأ، أمّا هدى الله تعالى فهو هدى حقيقي على مقياس الحقّ المطلق النابع من صفاته الحسنى سبحانه، وبالتأكيد هداه تعالى يوصل إلى الفوز المعلوم بأنه جنّة خالدة.

إلى هنا انتهينا من الحديث عن الذين كان إيمانهم وعملهم صحيحاً، وتنتقل السورة إلى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ{6})
{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الناس الذين هم في حالة إنكار لكل ما سبق وآمن به المؤمنون، الذين لم يعتقدوا بالكتب الإلهية ولا بالغيب ولا بوجوب الصلاة والإنفاق وأنكروا كون القرآن من الإله سبحانه...

هؤلاء: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ}، لا فرق عندهم، نفس الشيء بالنسبة لهم، {أَأَنذَرْتَهُمْ}، إن أخبرتهم عن حتمية حصول شيء سيئ "في آخرتهم" بسبب توافر شروط حصوله فيهم، فأخبرتهم بالحساب والعقاب العسير في الآخرة بسبب كفرهم، {أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ}، أم تركتهم ولم تخبرهم بالعقاب الحتمي على كفرهم، على كلتا الحالتين فهم: {لاَ يُؤْمِنُونَ}، لا يعتقدون بصحة الكتاب والغيب ووجوب الصلاة و...

القرآن ينبّهنا لوجود أناس بالأساس فيهم مواصفات جيدة، قلبهم "نفسيتهم وفكرهم" سليم من الأساس، وعندما نزل القرآن اهتدوا به، لأنه يتماشى مع فكرهم ونفسيتهم، وهناك أناس من الأساس منغمسون في العقلية والنفسية النابعة من قلب مريض كما سنرى من الآية التالية، وهؤلاء لن يهتدوا ولا بأي شكل، وهذه النوعية من الكفّار كانت موجودة من قبل النبي محمد (ع)، وفي زمنه (ع) وممتدة إلى عصرنا وما بعده، وهي عقلية الكفر الجامد الصلب الإصراري أمام أي دليل مهما كان نوعه، فمثل بعضها بلا فرق إذا أنذرتهم أو تركتهم.

الآية لا تقول للنبي محمد (ع) أن يترك الكفّار من دون إنذار، بل يجب إنذارهم، وهذا جانب من وظيفته كرسول من الله تعالى، وبعضهم قد يؤمن فعلا ولا يكون قلبه فاسدا بالتمام، ولكن تخبرنا الآية عن نوعية من الناس الكافرة التي لن تؤمن ولا بأي حالة، ولا بأي شكل، ولا بأي وسيلة، لا بالبراهين ولا بالآيات، كأمثال فرعون الذي لم يؤمن رغم تسع آيات متنوّعة من أنواع مختلفة... وسوف تلاحظ من بقية السورة ومن عموم القرآن أن الآيات المشابهة لآيتنا هذه تقصد أن العطل فيهم وليس فيما هو معروض عليهم، لأن العطل ليس في الدين الإلهي إنما فيهم لأنك مهما عرضت عليهم من عقلانية ومنطق وآيات ومهما حاولت معهم ليفهموا ويقتنعوا... فهم لديهم قرار عميق بأن لا يتركوا ما هم عليه، لأن قلوبهم غلف وهم عُمْيٌ عن رؤية الحقّ.

ضع في بالك دائما الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى معانيَ قرآنية رائعة، فتصور شخصا أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، هذا تحذّره من سلوك الطريق السيّء، لأنه حاليا ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ...}، والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ...}.

أمّا إذا سلك طريق الخطر، عندها تنذره، لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله.

الإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتما ما يضرّه، فتنذر الكافر حيث هو في حالة ستسبّب له العقاب حتما، وقد ورد هذا كثيرا في القرآن.

التحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يتلبّس بما سيسبّب له الضرر، فتحذّر المؤمنين من مخالفة دينه تعالى. هذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، فقد يقوم المؤمن بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، عندها تنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة المسيحيين المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}، ولدينا تهديد بالعقاب لعموم المؤمنين المشمولين بالتهديد من فكرة الإيمان بفعل السيئات على أساس أن يحمل أحد ما السيئات

عنهم {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ}، ولدينا أيضا المشمولون بالتهديد إن لم يتغيّروا نحو الأحسن وهم موعودون بالمغفرة كما ورد في الآية {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}، ونفس المفهوم في الآية 45 من سورة النازعات {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا}.

(خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ{7})

{خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ}، جعل تعالى شيئا ما فوق نهاية قلوبهم، على مدخل أساس فكرهم ونفسيتهم... حيث يصل الإيمان إلى فكرهم ونفسيتهم ولكن الختم على مدخل قلبهم وهو الشيء الذي ينتهي به مدخل قلبهم (كالسدادة) يمنع وصول مفاهيم الدين الإلهي إليهم، لذلك يرفضونه قبل أن يستوعبوه. وختم تعالى، {وَعَلَى سَمْعِهِمْ}، وجعل سبحانه شيئا على نهاية عملية استيعاب الأصوات، حيث يصلهم الصوت الناقل للكلام الإلهي، وتتحرّك طبلة الأذن، وتنقله لأعصاب الدماغ... ولكن بسبب الختم على مدخل استيعاب معنى الصوت، لا يصير معنى ما سمعوه من قناعاتهم، وعمليا كأنهم لم يصلهم الصوت.

الآية 23 من سورة الجاثية {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً...}، نجد فيها فصلا بين الختم على القلب والسمع، وبين الغشاء على البصر، وهنا انتهاء كلمة الغشاوة بالضمة يشير لكونها ليست مفعولاً به للفعل (ختم)، مما يعني فصل الجملة إلى جملتين، الأولى {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ}، والجملة الثانية منفصلة {وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}.

{وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}، ويحيط شيء ما من كلّ أو من بعض الجوانب بقدرتهم على إدراك معنى الصورة، حيث يرون ما يدعوهم إلى الإيمان ولكن لا تدخل الصور إلى إدراكهم بسبب ما غشي (أي أحاط) ببصرهم وصار يمنعه من إدراك معنى الصور الإيمانية.

{وَلَهُمْ}، ولهؤلاء الكفّار، {عَذَابٌ عَظِيمٌ}، وفي الآخرة سيعانون ضررا جسديا ونفسيا لا يمكنهم تحمله أو الاعتياد عليه. تعلم من القرآن أنهم سيشعرون في نار الآخرة وفي كل لحظة بأنهم يكادون يموتون من شدة الألم، ويرافقهم هذا الشعور إلى الأبد، فأي عذاب أعظم من هذا؟

نعرف من آيات أخرى عديدة سبب الختم على القلوب والسمع والغشاوة على أبصار هؤلاء، هم بقرارهم بالكفر صنعوا تلك الأختام والغشاوة، وبناء على قرارهم ختم عليهم ربنا سبحانه. مثلما تزرع البذرة في تربة ومناخ مناسبين، وإذا أعطيتها كمية مناسبة من الماء ستنمو، وهكذا سبحانه صمّمها بهذا الشكل، ليكون هو تعالى الذي جعلها تنمو، حيث نمو هذه النبتة قد بدأ بعمل نحن قمنا به وانتهى كما صمّم له ربنا سبحانه، ولذا نمت النبتة. هنا قام هؤلاء الناس بالانغماس في الكفر مما أوصلهم إلى تكوُّن ختم على قلبهم وسمعهم وغشاوة على بصرهم. بعبارة أخرى، لا يتجنّى سبحانه عليهم ويضع الختم والغشاوة لهم، ليست حالتهم أنهم يريدون الإيمان ولكنه تعالى يمنعهم، لا، بل كلّنا مخلوقون مصمّمون بشكل إذا تمرّسنا على الكفر عندها ينطبع قلبنا وسمعنا بالكفر، ويصير مدخل إدراكنا للأمور محكوما بعقلية الكفر بصلابة من شدّة ممارستنا وتكرارنا لإنكار الحقّ وأفعال الكفر، وبصرنا من كثرة قمعه ومنعه من إدراك معنى الصور التي تعبّر عن الحقّ، سيصير أعمى عن رؤية الحقّ. الله تعالى لا يظلمهم ولكنهم هم بقرار منهم يحصلون على الختم والغشاوة، ولن يمنعهم تعالى من الوصول إلى هذه الحالة، بل خلقهم تعالى وصمّمهم مع قابلية الوصول إلى هذه الحالة، وبالتالي يكون هو تعالى من جعل الختم والغشاوة عليهم.

هذا المفهوم ينطبق على كل كلامه تعالى عندما ينسب الأشياء لنفسه، وخذ مثلا الآية 64 من سورة الواقعة {أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}، لو أنت قمت بتصميم كائنات وجعلت فيها قدرات وقابليات، وجعلتها تجوع، وخلقت لها بيئة يتوافر فيها الطعام... فأنت رزقتهم، وأنت أطعمتهم... ونفس الشيء لو صمّمت بيئتهم بحيث ينزل من سمائها المطر، فأنت أنزلت المطر... وإذا اختمر هذا المفهوم لديك ستفهم بسهولة كل كلام القرآن النَّاسِبِ له تعالى إضلال الناس أو هدايتهم، وستفهم عمق الآية 17 من سورة الأنفال {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى...}.

إلى هنا ذكرت السورة المؤمنين من أقصى درجات الإيمان، وذكرت الكافرين من أقصى درجات الكفر الصريح، وتنتقل إلى ما بينهما مما هو غير واضح لنا كفرهم أو إيمانهم لترينا تصنيفهم...

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ{8})
{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا}، يقول صرنا في حالة تصديق واعتقاد، {بِاللَّهِ}، بصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، وسياق الكلام عن اعتقادهم به إلهاً أحداً وبصفاته الحسنى.

ويقولون آمنّا، {بِالْيَوْمِ الآخِرِ}، وهو يوم القيامة من الموت وما بعده من حساب، لأننا هنا الدنيا التي نعيش فيها هي الحياة الأولى، ومن بعد تبدّل الدنيا تبدأ التي ستأتي في الآخرة حيث سنقوم من الموت لِنُحاسَب.

{وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ}، ليسوا بمعتقدين فعلاً بما يقولون، فقط يقولون هذا الكلام ولكنهم لا يعتقدون به فعلاً.

سبق الكلام عن المؤمنين من الدرجة العالية، وبعدهم جاء الكلام عن الكافرين علنا، وهنا في الآية ترى النوع الثالث من الناس، وهم المؤمنون في العلن ويظنون أنفسهم مؤمنين، ولكن النظرة الإلهية تبين أنهم ليسوا مؤمنين، وهكذا تكون السورة قد بيّنت لنا عمّاذا ستتحدث، فرغم كبر حجمها وتشعّب مواضيعها إلاّ أنها لا تخرج عن الحديث عن هذه الأنواع الثلاثة من الناس.

نلاحظ تقسيماً آخرَ للناس في سور أخرى من القرآن، حيث هنا جمعت المؤمنين كلهم في قسم واحد، وضمنهم الذين لديهم تقصير في بعض التفاصيل الإيمانية ولكن يبقى توصيفهم كمؤمنين مقبولاً إيمانهم، ولم تقسمهم إلى ثلاث درجات كما ورد في عدة آيات من القرآن: من المؤمنين الخالصين السابقين كما ورد في الآية 10 من سورة الواقعة {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ}، إلى الأقل منهم وهم أصحاب اليمين كما ورد في الآية 27 من سورة الواقعة {وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ}، إلى الذين خلطوا عملاً سيئاً بعمل صالح، وتجد ذلك في الآية 102 من سورة التوبة {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}. أمّا آيتنا هنا فقد فصلت بين ثلاثة أنواع من الكفر: كافر يعلن أنه كافر، وكافر يعلن أنه مؤمن ولكن إيمانه وممارساته مخالفة لأساسيات الدين فهو منافق، وكافر علني بشيء وفي نفس الوقت يؤمن علنا بشيء آخر وهو نوع من الفسق.

(يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ{9})
{يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا}، يعتقدون أَنَّهُ سبحانه مع الذين هم في حالة اعتقاد حقيقي بهذا الدين، يعتقدون أنهم لا يعرفون حقيقة كفرهم وفسقهم ونفاقهم. الخدعة هي أن تظن شيئاً وتكون الحقيقة شيئاً آخرَ، وهؤلاء يقولون بأنهم مؤمنون على أساس أن كلامهم هذا سيمر عليه تعالى ويصدّقهم وسيمرّ على المؤمنين ويُصَدِّقُونَهُم.

{وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}، إذا أردت جعل شخص ما يصدق كذبتك، لن تصارحه بأنك تكذب، ولكن إن كان يعلم أنك تكذب في إيمانك وأكملت مسرحيتك الإيمانية عليه فأنت في الحقيقة تخدع نفسك "بالعاميّة: تخدع حالك" وأنت لا تشعر بذلك، ولا تتفاعل بشكل صحيح مع شيء يحصل مع نفسك، وتراه شيئاً آخر، لترى أنهم يعتقدون أنك مؤمن بينما في الحقيقة هم يعلمون أنك لست كذلك، وأيضاً أنت تخدع نفسك بظنّك أنك مؤمن بينما أنت لست كذلك.

(فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ{10})
{فِي قُلُوبِهِم}، في أساس فكر ونفسية أولئك المخادعين، {مَّرَضٌ}، خلل طرأ عليهم، عندهم خلل نفسي وفكري تجاه الدين الإلهي، وهذا المرض يجعلهم يشكّون في صحّة الدين الإلهي رغم وضوحه أمامهم! هم رغم قيامهم في الظاهر بحركات وألفاظ الإيمان، وهي حقّ، إلا أن قلوبهم لم تُشْفَ من الكفر والشك بالدين الإلهي!

{فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا}، فجعلهم تعالى يزدادون خللا في فكرهم ونفسيتهم، وعمليا يزدادون شكّاً وترددا وكفرا... من أمور امتحنهم سبحانه بها ولم يتمكنوا من استيعابها وقبولها، ومن الأمثلة الكثيرة على ذلك في القرآن: حين أمرهم تعالى بالقتال ووعدهم بالنصر... وحين أمرهم بالصدقة ووعدهم بالثواب... وحين قال لهم بأن الملائكة الموكلة بتعذيب

الكافرين في جهنم عددهم قليل كما هي الحالة في الآية 31 من سورة المدّثر {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا...}.

{وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، ولهم ضرر لا يمكنهم تحمله، {بِمَا}، بسبب الذي، {كَانُوا يَكْذِبُونَ}، فلم يكونوا يقولون الحقيقة حين قالوا بأنهم مؤمنون وسينالون العقاب على ذلك.

لاحظ التعبير القرآني عن مرض قلوب هذه النوعية من الناس، حين يُعرَض دينه تعالى على الذي قلبه سليم، سيقتنع به لأن قلبه السليم يتماشى معه، لأن فكره ونفسيته تقبله، أمّا الذي في قلبه خلل في السلامة، يكون مريضاً نفسياً وعقلياً، مثل الذي تتكلّم معه بكلام منطقي عقلاني ولكنه لا يقتنع معك، فتقول بأنه مريض عقلياً ونفسياً، وهذا لن يتماشى تماماً مع كلامه تعالى، لأن هناك أموراً سيئةً يفعلها ويحبّها ومتعلق بها ولن يتركها...

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ{11})
{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ}، إذا قال أحد ما لهؤلاء المخادعين: {لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ}، لا تقوموا بأعمال فاسدة حيث تعيشون، فلا تقوموا بأعمال ضد مصالحكم ومصالح غيركم في المكان الذي حياتكم وحياة الآخرين عليه.
{قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}، نحن بعكس ما تقولون لأننا فقط نقوم بإصلاح، بتقويم وتصحيح الفساد الموجود.
نلاحظ أنّ الآية هنا تطرح عنوانا عموميا، حيث لم تتحدّث عن نوع الفساد الذي يفعلونه، وهو متنوّع وكثير وستتحدّث السورة عن العديد من أنواعه من التلاعب بالعقيدة والشريعة الإلهية التي تنعكس على الفرد والمجتمع.
نلاحظ أنّ كل القرآن يعتمد على أساس ما تطرحه الآية هنا، لأن الإيمان والالتزام بدينه تعالى ليس شيئا غريبا عجيبا تقنع نفسك به وتلتزم به على عماه متغاضيا عمّا تراه منافيا للعقل أو سيئا، بل دينه تعالى هو الحقّ بالمعلومات التي يطرحها، وهو الصلاح فيما يأمر به وينهى عنه، وهنا الآية مثلها مثل عموم القرآن الذي لم يفصل ولم يميّز بين ما ينهى عنه تعالى وبين ما نراه نحن سيئا مكروها فعله.
كثيرا ما يحصل بين الناس جدل حول تحديد الفساد من الصلاح في بعض المسائل، وكأن تصنيف بعض الأمور بين الخير والشرّ مطّاط واستذواقي يتحمّل عدة وجهات نظر، وهذا أبدا بتاتا غير صحيح، كمسألة قتل طفل واحد بريء في مقابله إنقاذ مليارات البشر من الموت... أمثال هذه المسألة في أساسها ليست وجهات نظر متساوية، بل هي اختلافات درجة سلامة القلب، مما يعني اختلافات في رؤية الصوابية في الأمور على مقياس أساسي ثابت، والتعبير الاصطلاحي عن ذلك أن الخير والشر مطلق فله مرجعية ثابتة تحدّده بدقة وليس قابلا للمطاطية، وبحسب درجة سلامة قلب "فكر ونفسية" كل واحد منّا، سيعرض وجهة النظر التي تتماشى مع قلبه.
هكذا ننتقل للجدل حول المرجعية لتقييم خير الأمور من شرّها، سائلين إن كانت مستندة على الأفكار والمشاعر الإنسانية؟ نعم ولا، لأننا كلنا فينا الفكر والنفسية ولكن لسنا كلنا نملك فكرا ونفسية سليمة حتى يكون كل واحد منّا رأيه مرجعا صالحا، ولا تظنّ أن أي واحد من الناس يمكنه في لحظة ما تصفية فكره ونفسيته ليعطيك حكما صائبا، لا، لأن سيرة حياتنا من مجموع القرارات التي اتّخذناها والأمور التي فعلناها ستبقى متحكمة بنا مهما حاولنا الخروج منها لنكون حكماء، وبسبب هذا نصير أمام آراء مختلفة من كل واحد منّا، بينما يبقى الحقّ ثابتا.
هكذا يصير تثبيت مرجعية الحقّ والخير والصلاح... مرتبطاً بالقلوب السليمة من الدرجة العالية فقط وفقط.
كمؤمنين به تعالى إلها صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا بالصفات والقدرات الإنسانية ومنها قدرتنا على تمييز الخير من الشرّ، نحن نؤمن بأن هذه القدرة ترجع إلى صفاته تعالى الحكيم على معنى رؤية الصوابية في الأمور، والذي منحنا شيئا من ذلك بما يتعلّق بنا كبشر بما نتعاطى به من شؤوننا، فصرنا حكماء بهذا المقدار. هكذا نصير باحثين في معنى الحكمة من مستوى إلهي، لأننا نحن مجعول فينا شيءٌ من تلك الحكمة، فما منشأ تلك الحكمة؟ والأمر سهل بالنظر إلى مجموع صفاته الفائقة سبحانه وتعالى الذي طبيعته مختلفة جدا جدا عن طبيعة مخلوقاته، حيث لا حاجات شخصية له من أي شيء كان، لأنه الغني، ولا يمكن لأي أحد فرض أي شيء عليه، لأنه العزيز، ويعلم بكل شيء سيحصل أينما كان، فهو الخبير، و... وهكذا ترى أنه بسبب القدرات الفائقة ينتج صفات فائقة في الحسن، وبالتالي لا معنى للعبثية ولا للتسلية ولا للّعب ولا للّهو... بالنسبة له تعالى.
هذا هو أساس الحكمة مستندا إلى قدراته الفائقة سبحانه والناتج عنها صفات فائقة في الحسن، وبناء عليه صمّمنا تعالى جاعلا فينا القدرات المناسبة لنميّز الخير من الشرّ بحسب ما سنتعاطى به من شؤون بشرية، ومع منحنا حرية الإرادة لاختيار ما سنفعله، وهكذا اكتمل بالنسبة لنا ما يسبب محاسبتنا على فعل ما يمكننا رؤيته سوءا وعلى ترك ما نراه خيرا واجبا، ومجازاتنا على ما فعلناه.

من علمه تعالى أن درجات سلامة قلوبنا متفاوتة، لأننا بغالبيتنا تشوّهت رؤيتنا لخير بعض الأمور من شرّها بسبب ممارستنا لبعض السيئات... لذلك زوّدنا سبحانه بهذا القرآن كمرجعية لنقيس عليها الأمور، وتتضمّن شروحات وتبريرات لكل ما قال عنه تعالى أنه خير أو شرّ حتى نقوّم رؤيتنا له ونتمكّن من رؤيته على حقيقته.
سبحانه لا يعرض علينا عقيدة بالمعنى الدارج بين الناس لعقائدهم، كاختراعهم لعقيدة دينية أو وطنية أو قومية أو حزبية... بل يعرض علينا المعلومات عن نفسه كما يراها هو سبحانه، ويخبرنا بشفافية عمّا يراه من وحدانيته كإله وصفاته الحسنى وقدراته الفائقة... ويعرض علينا ما فعله وما قرّره كما يراه هو بشفافية أيضاً، ويخبرنا بصراحة عن تبريرات قراراته وأفعاله، وهذا ما نسمّيه نحن بالعقيدة بينما هي مجرد أخبار بالنسبة له تعالى، والأدلة عليها حتى نؤمن بها تأتي من كونها معلومات يقينية مطابقة للواقع، وهكذا بالعقلانية السليمة سنرى أي معلومات أخرى غيرها أنها باطلة بسبب تعارضها مع الفكر السليم، كحالة رب العالمين الواضحة أمام سخافة اختراع كل جماعة إلها خلقهم لوحدهم، ويرزقهم لوحدهم، وينزل الماء عليهم... ومختلف عن الإله الذي خلق الآخرين وينزل الماء على الآخرين...
أيضا سبحانه لا يعرض علينا شريعة بالمعنى الدارج بين الناس لشرائعهم، لأنهم أحيانا يشرّعون ما يهوونه ويرغبون به حتى لو كان سيئا، كتحليلهم للربا والزنا والمخدرات... بينما يختصر سبحانه كل تشريعاته بوصف الحقّ، لأنها خير وصلاح، مع شروحات لما قد نراه حسنا بينما هو سيّء، وخذ مثلا حالة الآية 219 من هذه السورة {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا...}، بكل شفافية وصراحة ووضوح يخبرك تعالى أنه حرّم الخمر والميسر "القمار بأشكاله كلّها" بالرغم من وجود منفعة فيهما، ولكن الإثم أكبر من المنفعة، ولمزيد من التوسع حول هذه النقطة راجع دراسة الآية.
هنا الكلام مع أناس يفعلون الفساد بأنواعه المختلفة، وحين يقول لهم أحد ما أنهم يفعلون الفساد، يردّون بأنه مصلحون، فهل هم فاقدون لقدرة التمييز ومعذورون؟ لا، لا هم ولا أي نوع من أفعال السوء لها تبرير أو عذر مقبول عنده تعالى، وإلا لفقد الحساب والجزاء معناه. قد يكونون فعلا صادقين، وبسبب شدة عمى قلوبهم صاروا يرون الفساد إصلاحا، هل هذا تبرير وعذر لهم حتى لا يتحاسبوا على ما صاروا يرونه حسنا بينما هو سيئٌ؟ لا، لأنهم من قبل وبإرادتهم فعلوا ما كانوا يرونه سيئا وتمرّسوا عليه عنادا وتكرارا حتى عميت قلوبهم ولم يعودوا يرونه سيئا لا هو ولا بقية السيئات، وأقصى درجة من هذه الحالة يكون أصحابها من أصحاب أقصى درجات في النار.
لا يوجد تبرير أو عذر يقبله تعالى لأي إنسان فعل سوءا بإرادته حتى لو كان عن ضلال كحالة المقتنعين أنهم وحدهم إلى الجنة والآخرين كلّهم إلى النار، والمقتنعين بجواز قتلهم حتى لو كانوا مسالمين، بل يجوز قتل أطفالهم! كما فعل المسلمون ببعضهم، وكما يفعل بعض اليهود بالأبرياء والأطفال المسلمين في فلسطين.
بقي شيء متعلّق بالموضوع عن أهلية التكليف، لنتكلّم عن الفاقد للقدرات العقلية والنفسية الكافية لتمييز الخير من الشرّ أو للاختيار بينهما، كالذي في دماغه أو غدده خلل ما، هذا عطل فكره ونفسيته ليس من نتاج قراراته، وبمقدار ما يميّز يتحاسب. ولا يوجد تبرير لما تسميهم بالبسطاء طالما هم بالأصل يميّزون بين أساسيات الخير والشر، وترى ذلك جليا من مفهوم عمومية الآية 47 من سورة غافر {وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ}.

(أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ{12})
{أَلا إِنَّهُمْ}، هؤلاء المخادعون بالتأكيد هم، {هُمُ الْمُفْسِدُونَ}، وصفهم لأعمالهم بالصلاح لن يغير من حقيقة فسادها، {وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ}، هم غرقوا في الفساد حتى صاروا يرونه صلاحاً وهم لا يعلمون أنهم لا يتفاعلون مع الأمور بشكل صحيح.
الفساد وصف لعموم ما هو غير صحيح من ناحية قبوله أو رفضه من جهة حدّدت ما هو مطلوب، بينما ما حصل مخالف للمطلوب، وعلى معيار الحقّ والباطل الأساسيين يصير الفساد وصف لعموم الشرّ المرفوض بالنسبة للصوابية والحكمة المطلقة المستندة إلى صفاته الحسنى سبحانه والتي يراها البشر بالقلب السليم.
ترى في كلّ زمان نماذج عن أمثال أولئك المخادعين، انظر إلى عموم الحكّام والسياسيين والأثرياء والموظفين وأصحاب المهن والعمّال والزوجات والأزواج والشباب والشابّات... وعلماء الدين... وانظر إلى المجتمع الذي هم فيه إن كانت شريعته تعالى مطبّقة فيه؟ تجدهم كلّهم يقولون بأنهم مسلمون، ولكن ماذا بقي من الإسلام غير المنظر؟ فهل يخادعونه تعالى؟ أم يخدعون أنفسهم؟ وهل يصلحون في الأرض أم يفسدون فيها؟ وما معنى الفقر المدقع والثراء الفاحش بمليارات الدولارات؟ وما معنى القصور الخيالية مقابلها بيوت بين القبور وبين مجاري الصرف الصحّي؟ وما معنى انتشار الملاهي والخمور والدعارة؟ وما معنى كلام علماء السوء الذين يغطّون على فساد الحاكمين ويتلون على الناس ما أملاه عليهم السياسيون والأجهزة العسكرية والأمنية؟
لا تنظر للآيات على أنها تتحدّث عن أفراد محدّدين من النافذين في المجتمع من حكام وعلماء... لا، لأنها تتحدّث عنّي وعنك وعنه وعنها... ومعنا كلّنا من كبيرنا إلى صغيرنا، حتى لا نشعر بالبراءة من الخداع والفساد لأننا مواطنون عاديون لا حول لنا ولا قوّة، لا، فأثناء عملي في تنظيف الشارع يمكن أن أكون مفسداً... وفي معاملتي مع زوجتي

وأولادي، أو مع أهلي وجيراني... وفي تأييدي لزعيم أو انتخاب نائب أو مختار أو عضو بلدية... يمكن أن أكون مفسداً...
الآية تتحدّث معي وعنّي أيضا على مستوى ما أطُولُه بإرادتي وأفعالي.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَـكِن لاَّ يَعْلَمُونَ{13})
{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ}، إذا قال أحد ما لهؤلاء المُخَادِعين الكاذبين: {آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ}، كونوا معتقدين ملتزمين بدينه تعالى مثل بقية الناس، فلا تخترعوا عقيدة أو شريعة "فاسدة" مخالفة لدينه تعالى، لأنه سبحانه قد أوصل إليكم دينه، وأنتم لا تلتزمون به وتفسدون... وحين يتم تنبيههم لتصرفاتهم الشاذّة المخالفة لدينه تعالى وأنّ الإيمان ليس شيئاً للتلاعب به على المزاج...

عندها: {قَالُوا}، المخادعون الكاذبون المدّعون لانتمائهم لدينه تعالى: {أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء}! هل تطلبون منّا تقليد السخفاء والبسطاء في خفّة تفكيرهم؟ هذا الدين بعقيدته وشريعته كما هي، هو للسفهاء أي للعاديين البسطاء الذين يمشون كالغنم والماعز خلف الآخرين، ونحن لسنا مثلهم، نحن عقولنا أوسع وفكرنا أشمل ورؤيتنا أبعد وأعمق... نحن نفسّر العقيدة الدينية ونطبّق الشريعة من نظرتنا الراقية للأمور وليس كالبسطاء.

السفاهة وصف لعموم أي قول أو عمل نابع عن خفّة العقل "بساطة" أو تعطيل العقل "السخافة"، السفاهة تتدرّج من البساطة في العقل، إلى اختيار ألا نستعمل العقل، وهذا أحيانا نسمّيه بتعبيرنا الدارج: سخيف. وينتج عن السفاهة كلام فاسد أو قلة أدب أو...

{أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء}، هم البسطاء والسخفاء في خفّة تفكيرهم، {وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ}، ليس لديهم علم بأنهم هم السفهاء. تفهمها أكثر من الآية 130 من هذه السورة حين تخبرك أنّ الراغب عن ملّة النبي إبراهيم (ع) فقد سفه نفسه {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ...}، حيث من منظوره تعالى يرى التارك لدينه سفيهاً، لأن الإله سبحانه وتعالى بعظمته وصفاته الفائقة اختار لنا هذا الدين القيّم، وأي كلام غيره سيكون عقلانياً حكيماً أكثر من كلامه تعالى؟! لا، بل حتما السفاهة في الكلام الآخر، وهؤلاء بتركهم لدينه تعالى هم السفهاء ولكن لا يعلمون أنهم سفهاء، مثل الذين تقول لهم إنّ الصلاة واجبة فيستهزئ ويقول إنّ الإيمان الحقيقي يكون بالقلب والصلاة مجرد حركات وكلام للبسطاء الذين لا يستوعب عقلهم وقلبهم الإيمان. أو كالذي تقول له إنّ الزكاة واجبة، فيقول إنّه هو يحدّد من يستحق ومن لا يستحق، وهو يحدّد أين يصرف أمواله... وطبعاً سيصرفها حيث سيستفيد من الجماهير ومن الخدمات والوجاهة...

(وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ{14})
{وَإِذَا لَقُواْ}، تلاقى المخادعون الكاذبون مع، {الَّذِينَ آمَنُواْ}، مع الذين هم في حالة اعتقاد بهذا الدين الإلهي، {قَالُواْ آمَنَّا}، اعتقدنا وصدّقنا بالدين مثلكم. {وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ}، فكانوا من قبل معكم أيها المؤمنون وبعدها ذهبوا وصاروا لوحدهم مع الشياطين، مع الموصوفين بالقيام بأعمال الضلال لأنفسهم وللآخرين، فيقولون لهؤلاء الشياطين: {إِنَّا مَعَكُمْ}، نحن لسنا مع هؤلاء المؤمنين بالدين، وإذا سمعتمونا نقول بأنّا مؤمنون فـ {إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ}، لا نقول إننا مؤمنون عن اعتقاد، لأننا نبطن الهوان والاستخفاف ولأننا لا نعتبر لدينهم أي قيمة حقيقية.

نعرف من عموم القرآن أن كلمة "الشيطان" صفة لكل من يقوم بأعمال الضلال لنفسه وللآخرين، وإبليس هو رأس الشياطين، وأعوانه من الجنّ أيضاً يضللون البشر والجنّ الآخرين فهم شياطين، ومن الناس أيضاً يوجد شياطين لأنهم يجعلون إضلال غيرهم عملاً جزئياً أو كلياً لهم، كما نعلم في عصرنا عن وجود أجهزة مخابرات عالمية ومحلية عندها مكاتب وضباط متخصصون في التفرقة بين المسلمين، ويوجد لديهم أعوان من مرتدِي العمامات، وراخِي اللحى. هؤلاء كلهم شياطين، لذلك لا تفهم من الآية أنهم يجلسون مع إبليس وأعوانه من الجنّ، لا بل هي تشير لشياطين من الناس.

بعبارة أخرى، هم حين يتحدّثون مع شخص يحاول إضلالهم لأنه سمعهم يقولون بأنهم مؤمنون، يجيبونه: لا تتعب نفسك "لا تعذّب حالك" لأننا نحن لسنا مؤمنين بل كنّا نستهزئ حين قلنا بأننا مؤمنون.

بالنسبة لكلمة "آمن"، لم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإسلام أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه

بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها "مؤمنون..." في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، فآمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كلاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{15})
{اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ}، ينظر إليهم ويعاملهم بخلفية الهوان والاستخفاف بهم ليعتبرهم بلا قيمة، {وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ}، لا يقطعهم سبحانه بل يستمر في إمدادهم بإتاحة ما يستخدمونه في طغيانهم في تجاوزهم لحدود الخير والصلاح وهو نفسه تجاوزهم لما يقوله سبحانه عن المسموح والممنوع، فلا ينهي تعالى حياتهم "لا يميتهم" ولا يتدخّل لتغيير الظروف لِيَمْنَعَهُم من الطغيان، بل يمدّهم في طغيانهم، {يَعْمَهُونَ}، بحيث لا يكون لديهم رؤية واضحة للأمور، فلا يرون أنفسهم كافرين ولا يثبتون على الإيمان.
قارنها مع تدخّله تعالى لزيادة إيمان المؤمن وإنارة قلبه وحمايته من الشياطين... فالمخادعون يتركهم تعالى أحياء على الأرض، وحياتهم والأرض التي يعيشون عليها بيده تعالى، ويمكنه تعالى في أي لحظة إماتتهم أو منعهم غضباً عنهم من الطغيان... ولكنه تعالى استهزأ بهم وتركهم يظنون أنفسهم يخدعونه، وتركهم يطغون حتى يغرقوا أكثر فأكثر في السيئات، ومعلوم أنهم سيتحاسبون في الآخرة بعذاب أليم خالد على استهزائهم وطغيانهم...

(أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ{16})
{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ}، حصلوا على وضعهم على الطريق الخطأ، {بِالْهُدَى}، بمقابل تخليهم وبيعهم للشيء الذي يوصل للغاية الصحيحة، حيث كان الهدى متاحاً لهم ولكنهم بادلوه وأخذوا الضلالة بدلاً منه! مثلما تشتري الخبز والسيارة بالمال، فهؤلاء كان ما يضعهم على الطريق الإيماني الصحيح، الذي قيمته عالية، كان متاحاً لهم، لأنهم يعرفونه ويعلنون أنهم مؤمنون! ولكنهم باعوا الهدى فتخلوا عنه، واشتروا الضلالة فأخذوها بدلاً من الهدى!

{فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ}، فلم يكسبوا من بيعهم الهدى وشرائهم الضلالة أي شيء له قيمة مضافة على هذه التجارة، على هذه المبادلة بإعطاء شيء وأخذ شيء مكانه بقصد الحصول على شيء يستفيدون منه أو يضيفونه لما عندهم، كربح، ولو حصل العكس فباعوا الضلالة واشتروا الهدى لكانوا أضافوا إلى ما لديهم ربحاً إضافياً، لأنهم سيربحون رضاه تعالى وينتج عن ذلك امتيازات الإيمان من مغفرة وجنّة خالدة... وهذا هو الربح العظيم.

{وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ}، ببيع الهدى وشراء الضلال ليس التصرف الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة.

علينا رؤية هذا من منظور الآية، لأننا عادة نريد المشي على الطريق الصحيح الذي فيه مصلحتنا العقلانية، ولا أحد يقول بأنه يريد أن يضلّ، وإذا مشيت على خط القرآن معتقدا أنك تمشي على الهدى فقد أصبت، وإذا لم تَمْشِ على هدى القرآن، واعتقدت أن مخالفته أفضل وأنسب لك، عندها ستعتقد بأنك اهتديت للطريق الصحيح بترك الدين الإلهي، ولكن في الحقيقة أنت لست من المهتدين، لأن هذا طريق الفساد ونهايته إلى العقاب.

هنا عندما تقول الآية بأنهم اشتروا الضلالة بتخلّيهم عن الهدى وتقصد الهدى الحقيقي، لأن من اشترى الضلالة كان يظن بأنه مهتد بهذا الطريق الجديد، فتقول له الآية: لا، طريق من يخادع ويكذب ويفسد ويستهزئ بالمؤمنين... هو الضلال وليس فيه هدى.

العقيدة الحقّ هي توحيده تعالى والإيمان بالرسل والكتب والآخرة... والشريعة الحقّ هي شريعته تعالى، وأي شيء غير ذلك فهو فاسد باطل ظالم... ضلال ولا يوصل لغاية صحيحة.

كثيرا ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، وهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيرا أم شرا، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فقد ضلّ عنك صيدها.

وقد استعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، ولم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، لذلك لن يفيدوه بشيء.

واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى (ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ{17})
{مَثَلُهُمْ}، أولئك المخادعون الكاذبون شبههم، {كَمَثَلِ}، كشبه الشخص، {الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً}، لم يكن معه نار وجمع وقوداً، جمع ما يشتعل وأشعله من نار أخرى، أشعل ناراً خاصة به، المخادع ليس معه نور الهداية، بل أخذ من نور الهداية ليهتدي، {فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ}، المكان المحيط به الذي كان معتماً مظلماً صار مضاءً، من المفروض أن يصير بإمكانه رؤية ما حوله، من المفروض أن يهتدي، ولكن، {ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ}، أخذ تعالى النور الذي معهم والصادر عن النار، لم تنر نارهم ما حولهم، لأنهم استوقدوا ناراً وتركوا المصدر الحقيقي للنور وتعلقوا بشيء يظنون أنه يهديهم، {وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ}، تركهم سبحانه في عتمات من كل الجهات، {لاَّ يُبْصِرُونَ}، لا يدرك وعيهم معنى الصورة التي أمامهم، لا يرون الحقّ من الباطل ولا الصلاح من الفساد، ولا مصلحتهم من الضرر...

لنتصور المشهد كله من منظور إلهي: شخص في مكان معتم في الليل، لا يرى شيئاً من حوله بسبب شدة الظلام، وهناك نار تنير الظلام، لم يستنر بنورها، بل أخذ منها وأشعل ناراً أخرى حتى يكشف المكان، من المفروض أن ينتشر نورها من حوله، ولكنه واقف قرب النار، والمكان لا يزال معتماً! طبعاً هذا في الواقع لا يحصل لأن النار ستنير ما حوله ولكن تريدك الآية أن تتصوره قد حصل، وتشبهه بمن ترك نور الهدى الحقيقي والوحيد الذي ينير الدرب الصحيح، تركه واختار الخداع، وهو يظن نفسه على نور ولكن في الحقيقة هو بلا نور.

هذا المثال تشبيهي لحالة المؤمنين من الخارج والكفّار من الداخل، هؤلاء أعلنوا إيمانهم، ووقفوا قرب مصدر للضوء كان من المفروض أن ينير طريقهم في الحياة، ولكنهم في الحقيقة لا يستنيرون به لأنهم فعلاً لا يزالون يقفون في الظلام! يمشون في حياتهم على طريق الضلال، لأنهم في الظلمات ولا يرون أمامهم.

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ{18})
إضافة لعماهم عن نور الهدى هم: {صُمٌّ}، لا يسمعون الكلام الحقّ، {عُمْيٌ}، لا يرون طريق الحقّ، {فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}، لا تفاعل منهم كتجاوب مع الهداية.

الرجع والرجوع... هو عموم ما يصدر من تفاعل كتجاوب مع شيء ما، وعاد يعود... لعموم ما صار على حالة كان عليها سابقاً، أولئك لا يسمعون ولا يبصرون كيف سيكون منهم رجع؟ كيف سيتجاوبون مع كلام الحقّ أو رؤية طريق الحقّ؟

عندما تتكلم مع شخص ما ستتوقع منه أن "يرجع" أن يرتدّ منه جواب على أثر كلامك، وعندما تلوح بيدك لشخص ستتوقع أن يرجع "يرتد" منه تلويح، ولكن إن كان أطرش أعمى، لن يرجع منه شيء إن تكلمت معه أو لوّحت له.

ربما يكون أولئك المخادعون الكاذبون يعيشون في رغد العيش، من بيوت وسيارات، وأعمال ومال... وربما يكونون من المثقفين أو حملة الشهادات الجامعية العالية... ولكن في الحقيقة وفي نظره تعالى هم في الظلمات، لأنهم يفعلون السيئات ولا يهتمون بالحقّ والصلاح.

ألفت انتباهك لهذا لأن بعض الناس يقولون: إن كانت حياة غير المتدينين "مخادعين أو كفّار" مريحة وفيها سهرات وحفلات وضحك ومرح... هل هذه هي الظلمات؟ كلّنا نحبّ هذه الأمور! نكتفي بالردّ بالإشارة إلى السكر والمخدرات كمسببات لفقدان التوازن العقلي وما ينتج عنه من كلام وأفعال لا يرضى عنها العاقلون المحترمون... والزنا الذي ينتج عنه... والمصروف المالي العالي على الترف والملذات وما ينتج عنه من العمل بالسوء مهما كان نوعه للحصول على المزيد من المال...

نرجع لهذه النوعية من المخادعين الكاذبين الذين يعيشون في حالة ظلام دائم، وننتقل مع السورة إلى التشبيه الثاني:

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ{19})
إذا لم تكن حالة المخادعين الكاذبين في ظلام دائم، في بعض الأحيان يرون بصيصاً سريعاً للنور: أو شبههم كالتالي: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ}، وهو المطر الغزير الذي يصبّ صبّاً، وهذا المطر، {فِيهِ ظُلُمَاتٌ}، فيه عتمة من كل الجهات، من شدة تراكم السحاب "غيوم" وحجبها للضوء، {وَرَعْدٌ}، وبمعلوماتنا الحالية نقول إنّه صوت ناتج عن تفريغ الشحنة الكهربائية من ذرات بخار الماء التي في الغيوم، {وَبَرْقٌ}، فيه ضوء قوي لامع سريع غير مستمر، وبمعلوماتنا الحالية نقول إنّ سبب البرق هو تفريغ الشحنة الكهربائية من ذرات بخار الماء التي في الغيوم مع الأرض أو باتجاه غيمة أخرى لتتعادل شحنتها الكهربائية...

لنتصور شخصاً يقف في البرية، في ليلة غزيرة المطر، وثيابه تبللت بالكامل، والمياه تدخل الأذنين والعينين والأنف من رذاذها القوي، وفوق ذلك ظلام دامس، ومعه صوت الرعد القوي، والبرق القوي. هذا هو تشبيه حال الذي يعيش في الكفر، هذه حالة فكره وكلامه وعمله، ظلام بظلام، ومع الظلام اضطراب "شواش" وأشياء تجعله يستصعب رؤية الطريق الصحيح وارتباك بفقدان الاستقرار من الخوف والفزع من الرعد والبرق.

{يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم}، يسدون آذانهم حتى لا يسمعوا الصوت القوي الصادر، {مِّنَ الصَّوَاعِقِ}، من الشيء القوي المفاجئ، وهو صوت الرعد وضوء البرق القوي السريع بلا إنذار سابق، يسدونها، {حَذَرَ الْمَوْتِ}، انتباهاً من الموت الذي يتوقعون حصوله إذا اكتملت شروط حصوله بإصابتهم بالصواعق، سدّ الآذان لا يردّ الموت، ولكنه تعبير حركي إنساني لا إرادي في هذه الحالات المخيفة.

{وَاللّهُ مُحِيطٌ}، عملياً سلطته تعالى من كل جانب ومن كل النواحي، محيطة، {بِالْكَافِرِينَ}، بالمنكرين لدينه تعالى غير المعتقدين به، كان عليهم أن يحذروه سبحانه، ولكنهم يحذرون من الصواعق! يكفرون بربهم ولا يحذرونه! مع أنه محيط بهم في كل جوانبهم! يراقبهم، ويسجل لهم أعمالهم، وسيحاسبهم ويجازيهم، ولكنهم لم يحذروه.

ضع في بالك دائماً أنّ كلمة "صعق صاعقة..." هي وصف لعموم أي شيء قوي مفاجئ، وليست مختصّة بالبرق ولا بالرعد، بل تعمّ أي شيء قوي يأتي فجأة، كالزلزال والخسف والبركان وإعادتنا إلى الحياة في الآخرة... هذه أمور قوية تحصل فجأة ولذلك توصف باللغة العربية بأنها صاعقة.

(يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{20})
نكمل مع تشبيه فكر ونفسية المخادعين الكاذبين بحال الذي يعيش في عاصفة هوجاء في ليل معتم:

{يَكَادُ}، على شعرة، {الْبَرْقُ}، الضوء القوي السريع غير المستمر، {يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ}، بحركة سريعة يأخذ قدرتهم على فهم الصورة التي أمامهم، بعبارة أخرى قد بقي للبرق القليل حتى يعميهم كلياً من شدة قوة الضوء. المقصود بالتشبيه هنا أن نور الإيمان قوي جدا عليهم، ولا يتحملونه، لأنّ فكرهم ونفسيتهم لا يتماشيان مع الخير الذي فيه.

{كُلَّمَا أَضَاء لَهُم}، البرق، {مَّشَوْاْ فِيهِ}، في الضوء، {وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ}، من جديد عادت العتمة، {قَامُواْ}، انتصبوا على أقدامهم وتوقّفوا عن الحركة، توقفوا في مكانهم.

هم لا يعيشون في حالة عادية، هم في الظلام والغواش والحجب والعوائق... عملياً هم متعلقون بالدنيا وبأهوائهم ومشتهياتهم السيئة، وبما أنهم يقولون بأنهم مؤمنون، فهم أحياناً يسمعون كلاماً يقنعهم من شخص مؤمن حقاً، نور الإيمان غير ثابت معهم، ولكن يبرق لهم أحياناً، ويرون لمحة حقّ أحياناً، ويمشون على أساسها، ولكن إذا لم يبرق لهم ضوء من نور الإيمان، عندها يقفون في مكانهم المظلم المعتم من جديد.

نفهمها بشكل أسهل إذا تصوّرنا وصف القرآن لحالة المؤمن الذي من حوله النور، فهو لا يعيش في حالة برق "الضوء غير المستمر"، بل بنور مستمر يمشي على هداه... أمّا المخادعون فسيكون النور "الدين الإلهي الحقّ" لمحات خاطفة

بالنسبة لهم، بعض الأحيان ينير لهم طريق الهداية، وكمثال، فرضاً هم كانوا مظلومين وفي دينه تعالى تشريع يعطيهم حقّهم من الظالم، هذه كَبَرْقَةٍ تنير لهم، وأمّا قبلها وبعدها لو قدروا على ظلم غيرهم لما رأوه سيئاً ولفعلوه.

{وَلَوْ شَاء اللَّهُ}، من بين الخيارات العديدة أمامه تعالى، {لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ}، حتى برقة الإيمان الخاطفة التي في النوادر تحصل معهم لتنير لهم الطريق، لو شاء الله تعالى لجعلهم لا يرونها أبداً ولجعلهم لا يسمعون شيئاً يهتدون به، فيبقون في صمم وظلام كفرهم الدامس.

سبحانه منح الناس قدرة تمييز الحقّ من الباطل، والذين تتحدّث عنهم الآية هنا هم في موضوع ما رأوا الحقّ وأرادوه لأنه يناسبهم، فلنقل إنهم تعرّضوا للظلم ولاغتصاب حقوقهم، وفي نفس الموضوع إن لم يكن الحقّ يناسبهم عندها يعارضونه، ولنقل إنهم صاروا أقوياء وقادرين على ظلم وغصب حقوق الآخرين، عندها سيفعلونه. هؤلاء ما معنى تمتعهم بالسمع والبصر الممنوح لهم منه تعالى بالأصل حتى يميّزوا الخير ويفعلوه، ويميّزوا السوء ويتجنبوه، هل ممنوح لهم ليستخدموه في السوء؟ ألم يفكروا بذلك وأنّه تعالى لو شاء لجعلهم فاقدين للحواس من أصله وكنموذج بارز حاستي الرؤية والسمع.

{إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، لديه سبحانه القدرة على فعل أي شيء يريده في أي شيء، ويمكنه سبحانه ليس فقط حرمانهم من هذه اللمحة من الضوء، لأنهم لا يستحقون رؤيتها، بل يمكنه حرمانهم من الحواس أصلاً.

ضع في بالك دائماً أنّه تعالى خلقنا بقابلية تمييز الخير من الشرّ، الفساد من الصلاح، وسبحانه لا يأمر إلا بالخير ولا ينهى إلا عن الفساد، وبناء عليه يكون دينه الحقيقي سبحانه هو الخير لنا في الدنيا والآخرة، وكمؤمنين لسنا نقنع أنفسنا بدينه تعالى بالرغم من فساد فيه، بل إمّا قلوبنا غير السليمة جعلتنا نرى فساداً في كلامه تعالى، أو ما نظنّه من دينه تعالى يكون في الحقيقة فاسداً وليس من دينه سبحانه، وبناء عليه تفهم كل كلام القرآن عن الضلال والهدى، والفساد والصلاح...

الآن لنتصور الحالة المعاكسة كما تصفها آيات القرآن، حيث المؤمنون لهم نور دائم يمشون به في الناس، هم على هدى كلامه تعالى يمشون على أساس الدين الإلهي في فكرهم وكلامهم وعملهم... وهكذا يراهم سبحانه، والآن نفهم ما قالته الآيات السابقة: أمّا الذين هم كفّار علناً ومن الداخل، هؤلاء في عتمة دائمة، وأمّا الذي هو كافر من الداخل ولكنه يقول عن نفسه إنّه مؤمن، هذا قد يجلس ويتحدث مع مؤمنين حقيقيين، وقد يقرأ كتباً دينية... وقد تمر عليه لحظات يرى فيها النور الحقيقي للإيمان، وقد يقتنع بشيء من الحقّ، ولكنه لن يستمر على الحقّ أو لن يتبع كلّ ما هو حقّ.

في الفقرة التالية ستبدأ الآيات بطرح وتصحيح العقيدة الإيمانية، مقوّمة طريق الاعتقاد بتوحيد الله تعالى، وعندما نغور في آيات هذه السورة الطويلة سنقرأ بشكل موسّع عن العقيدة وعن التشريع، وسنجد كيف أن الناس أجناس أمامهما، لنجد من آمن والتزم وهناك من كفر علناً، وهناك من أبطن الكفر وأعلن الإيمان، فلا تَنْسَ هذا لأنه محور السورة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ{21})
بعد التشبيهات السابقة يرجع الخطاب للناس كافة من أهل الكتاب "ونحن من ضمنهم"، ومن كفّار بجميع أنواعهم لدعوتهم إلى الإيمان:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ}، من كل البلدان والألوان والأعراق... يقول لكم الله تعالى:

{اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ}، تصرفوا على أساس أنكم عبيد مفروض منكم طاعة المسؤول عنكم كلّكم من مستوى إلهي، {الَّذِي خَلَقَكُمْ}، الذي ركبّكم وألّفكم من المواد، {وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ}، سبحانه ليس ربّاً جديداً بل هو نفسه الربّ الذي ركّب وألّف الناس الذين كانوا من قبلكم وماتوا فاعبدوه تعالى، {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، من المفروض ومن المتوقّع منكم إن قمتم بعبادته وحده أن تتّقوا، فتصيروا موصوفين بأنكم تتجنبون وتتحاشون، وهنا الكلام عن وصف حالتهم لتجنّبهم للسوء.

عادة نحصر معنى العبادة بالصلاة والصوم والحجّ... وإذا توسّعنا نسمي الزكاة عبادة، وإذا توسّعنا أكثر نسمّي كل طاعة لله تعالى عبادة، معتبرين فعل أي خير وترك أي سوء عبادة، وهذا الأخير هو المعنى الأساسي الصحيح لكلمة عبادة وعبد التي تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة وهكذا تكون مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على

معنى فرض الطاعة على المملوك. بناء عليه إن عبدناه تعالى يعني أننا أطعناه فيما أمر به، وسبحانه لا يأمر إلا بالخير ولا ينهى إلا عن السوء، وهكذا تكون نفسها عبادته تعالى التقوى من فعل السوء، وضمّاً مع الكلام السابق عن حالة الذين أعلنوا أنهم مؤمنون وهم ليسوا كذلك، هؤلاء درجات من السوء، تأتي الآية هنا بعموميتها لتوجه كلامه لهؤلاء ولجميع الناس، وتصرّفكم كعبيد له تعالى عبر اتباع ما يصلكم في قرآنه، من بعد هذا من المفروض أن تكونوا موصوفين بالتقوى.

كلمة "لعلّ" استبدلها في كل المواضع التي وردت في القرآن بـ: من المفروض ومن المتوقّع. سترى معاني الآيات سهلة ليست بالتعقيد والشرح الطويل المنتشر في التفاسير لتبرير ما يظهر منها من معانٍ غير سليمة بسبب حملها على معنى التمني والترجي والإشفاق والإطماع...

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ{22})

اعبدوا ربكم سبحانه: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ}، الذي خلقها بطريقة لتكون لكم، فأتاحها لكم، {فِرَاشاً}، ممدودة تحتكم، مثلما تمدّ السجّاد في البيت قائلا: فرشت السجاد. وتقول: فرشة النوم... الأرض التي نمشي عليها مفروشة ممدودة بالتراب والصخور والنباتات... العرش لعموم ما كان عالياً والفرش لعموم ما كان تحت.

{وَالسَّمَاء بِنَاء}، السماء وهي عموم ما هو فوقنا كفضاء، وهنا سياق الكلام عن غلافنا الجوّي بغيومه وصولا إلى المساحة التي فيها النجوم، قد بناها سبحانه مراكما المواد "ذرات وعناصر وطاقة وفراغ وظواهر..." حتى صارت السماء مبنية بالنجوم والمجرات والمساحات... وجوّ من هواء وغيوم في غلاف الأرض الجوّي... من فوقكم ومن تحتكم أثر أعماله تعالى ظاهر.

{وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء}، مما فوقكم نزل عليكم الماء عبر عملية المطر، وهكذا تفهم تعابير القرآن التي استعملت كلمة سماء: لعموم ما هو فوقنا. هذا يشمل سماءنا والسماء العالية، ونزول الماء من المعلوم أنه من خصوص المساحة التي فوقنا وفيها الغيوم.

لا تقصد الآية أن المطر ينزل من سماء يسكن فيها الملائكة وسبحانه كما يتصوّر البعض بسذاجة، وإن كان سياق آيات القرآن يشير إلى نزول شيء من عنده تعالى بالتعبير عن نزوله من السماء، وهو مجرد تعبير عن نزول شيء عليكم من فوقكم، من عند العالي عليكم، من إلهكم، ولا يشير إلى مكان يجلس فيه تعالى ويرمي بالأشياء علينا من هناك... هذا هو الفهم الطفولي الساذج لكلامه تعالى، والذي تعشّق قديماً في عموم ثقافة المنتمين لدينه تعالى، وصارت تلك التفسيرات هي الدين الإلهي! بينما كلامه تعالى معناه مختلف.

{فَأَخْرَجَ بِهِ}، بالماء، {مِنَ الثَّمَرَاتِ}، مما ينتج من النباتات من فاكهة وخضار وبقول... {رِزْقاً لَّكُمْ}، هي أشياء تصير معكم لتسدّوا بها حاجاتكم الحياتية ورغباتكم، فتأكلوا وتشربوا وتبيعوا...

القرآن ليس كتاباً لعلم النباتات أو الفلك أو الطب... ما يتحدّث عنه القرآن هو نماذج للفت الانتباه وليس كلاماً يفهمه المتخصّصون فقط، وليس موجّها للمتخصصين فقط، بل لعموم الناس، ولكن رغم ذلك لا يتهاون القرآن في دقّة التعابير، ودقّة التعبير هي سبب حاجتنا لدراسة ما يقوله القرآن لفهم التعبير الدقيق لغوياً، وهنا استعملت الآية كلمة سماء على معناها العمومي كما يستعملها عموم الناس للإشارة إلى حيث النجوم وإلى حيث الغيوم، نحتاج لدراسة القرآن لأنه أحيانا بعض ما لفت انتباهنا إليه من نماذج آيات تصميمه وخلقه تعالى، لسبب أو لآخر قد لا نكون ملتفتين لها، كوصف الجبال بأنها راسية، وبتذكّر الزلازل تنتبه أن وجه الأرض كلّه راسٍ...

الثمرات كلمة عامة ترادف باستعمالنا الحالي كلمة منتوجات غذائية نباتية، و {رِزْقاً لَّكُمْ} تعني أنه صار معكم ما يمكن أن تأكلوه مباشرة أو تخزّنوه.

{فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً}، لا تقولوا إنّه يوجد ندّ له تعالى، أشباه وأمثال له تعالى في القدرات الفائقة من مستوى إلهي، لا تقولوا إنّه توجد آلهة قادرة على الخلق والتخطيط مثله سبحانه، {وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}، من الواضح أن الله تعالى وحده الإله الذي صمّم وخلق وأنتم تعلمون ذلك، لا تخترعوا له تعالى أنداداً وأنتم تعلمون أنه الإله الأحد.

ما معنى اختراع هذه الجماعة إلهاً مختلفاً عن إله جماعة أخرى وكلاهما مختلفان عن إله جماعة أخرى... واختراع كل جماعة آلهة خاصة بها... بينما من الواضح أننا على نفس الأرض وتحت نفس السماء والرزق متاح للجميع والمطر يحدث على كل الأرض... من الواضح أن نفس الإله صمّم وخلق كلّ هذا، ما معنى جعل البعض أنداداً له تعالى حين يخترعون له شركاء في الألوهية؟!

بقي شيء، سبحانه خلقنا وفينا قابلية التعرّف عليه من أفعاله، وإلا فكيف سنتعرّف عليه؟ لذلك ترى القرآن يلفت انتباهنا لأفعاله سبحانه مع ذكر صفاته لتعريفنا به تعالى، والكتب القديمة التي نزلت منه تعالى قصدت نفس الشيء، ولكن لم يفهمها غالبية المتدينين بشكل صحيح، علقوا حيث علق الآخرون في السذاجة والطفولية، وقد تقصّد سبحانه خلقنا في بيئة نفقد فيها السيطرة على كثير من الأمور، ومنها نموذج نزول الماء الذي نحتاجه بشدة لنشرب ونسقي مزروعاتنا وماشيتنا، وهذه الظاهرة من المفروض أن تدلك على كائن بقدرات فائقة صمّمها ونفّذها، وبهذه البساطة يجد عموم الناس أنفسهم مدفوعين للإيمان بإله فائق القدرات.

الأبحاث التي تتحدّث عن الإيمان البدائي للإنسان البدائي صحيحة من حيث المبدأ، وأنه نسب فعل ما يجهل سببه إلى الإله... هذا ليس عيباً في إيماننا، وإلا كيف سيتمّ التعرّف على الذي خلقنا وخلق بيئتنا؟!

لنركّز على نموذج كلامه تعالى عن نزول الماء، وعمّا فهمه غالبية المنتمين لدينه تعالى من هذا الكلام، ومن بعدها صار ما فهموه هو الدين! هم وبعلومهم البسيطة جهلوا آليات حدوث الكثير من الأمور، وكان أبسط تفسير لما يحدث أن يقولوا إنّه من فعل إلهي مباشر، آمنوا بإله أحد، وآمن الآخرون بآلهة متخصّصة، وصاروا مشركين لديهم إله للمطر وإله آخر للنار...

نعم، هذا الإيمان البدائي مشترك بيننا وبين المشركين، وهو الأساس الذي زرعه تعالى فينا لنتعرف عليه، ولكنهم اخترعوا آلهة متعددة وجعلوا لله تعالى أنداداً بلا سبب وجيه ولا عقلاني، من الواضح بالعقلانية أن الإله واحد أحد. ولترى أنهم انحرفوا عن قصد عنه تعالى بمزاجية، تراهم اخترعوا أسماء لآلهتهم التي لم تتواصل ولا بأي طريقة معهم!

بينما عبر آلاف متواصلة من السنين قد تواصل معنا إله واحد، واسمه الله عزّ وجلّ، وعبر آلاف من السنين نقل لنا رسله نفس الكلام مُخْبِراً لنا سبحانه فيه عن نفسه وعن قراراته... وكان في كلامه سبحانه محفّزاً مفعّلاً لما خلقه فينا من قدرات لنتعرف عليه.

لم يلغ سبحانه في كلامه آليات حدوث الأشياء، والمطر له أسباب تجعله ينزل، وهو سبحانه الذي صمّم وخلق الدنيا، وصمّم فيها ظاهرة نزول الماء، هو سبحانه الذي ينزل الماء، ليس على معنى فتحه تعالى بيده لخزان ماء في السماء، ولا على معنى قيام الملائكة بفتح الخزانات... بل على معنى ما ورد في الآية 12 من سورة الرعد {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ}، الغيوم الممطرة تنشأ وتتراكم، وعلى معنى أوضح في الآية 57 من سورة الأعراف في ذكر مراحل من حدوث المطر {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ...}، الكلام عن مراحل سبقت نزول الماء هو إشارة لآليات سبّبت نزول الماء.

هو نفس الكلام عن مراحل نشوء الدنيا بسماواتها السبع في ستة أيام، هي ستّ فترات زمنية، حصل في كل فترة منها شيء... وراجع في ذلك دراسة الآية 9 وما بعدها من سورة فصلت {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ}.

هو نفس الكلام عن نشوء الحياة الإنسانية على الأرض، وراجع كمثال عن ذلك الآية 7 وما بعدها من سورة السجدة {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}.

كلامه تعالى مختلف عن التفسيرات الطفولية الساذجة التي نشرها غالبية المؤمنين على أنها دينه تعالى، لأنهم ألغوا آليات حدوث الأشياء بأسباب، مفسرين لقوله تعالى إنّه يفعل الأشياء بأمر واحد، قائلا للشيء كن، فيكون، على أساس أنه سيكون بلا آليات، وفوراً! بينما كل كلامه تعالى عن الأمور كان يشير إلى حدوث ما يأمر به تعالى "حتما"، وأحيانا فوراً بحسب ما يراه تعالى مناسبا، ولكن حتى ما يحصل فوراً توجد آليات لحدوثه، سواء كنا قادرين على فهم آلياتها، أو نفهمها بالتقريب، أو كانت فوق مستوى فهمنا، وعلى أي حال، لا يوجد شيء سحري عجائبي تحصل فيه الأمور بلا سبب، وهذه الفكرة كخلفية هي التي جعلتنا نقبل بحصول الأمور بلا آليات، حتى أننا في ثقافتنا نقبل أن يفعل البشر شيئاً ما بلا آليات، كالذين يؤمنون بالسحر" بالمعنى الخرافي، لأنه في الحقيقة هو الخدعة" وكالذين يؤمنون بقدرة أحجار مختلفة على الخواتم بالتأثير في أمور حياتنا.

هكذا صرنا نفهم الفرق بين كلامه تعالى وبين تفسيرنا له، ما عرضه المتدينون من تفسيراتهم وفهمهم على أنه الدين الإلهي، وبناء عليه تدمّر دينهم من بعد تعرّفنا على آليات حدوث الأشياء، حتى صار المتدينون يحاربون أي علم أو فرضية أو تجربة أو نظرية... تتحدّث عن آلية نشأة الكون ونشأة الحياة، ويعتبرونها كفرا لأنها بنظرهم معارضة لدينه تعالى! وبناء عليه يفهم الآخرون أن هذا الدين سينهار إن اكتشفنا آلية حدوث الأشياء، ويتبخر إلهنا الذي لم نعد بحاجة له لتفسير ما يحدث، وصار لدينا فرضيات ونظريات تشرح آلية نشأة الكون وصولا إلى آلية نشأة الحياة على الأرض، ومن السذاجة والطفولية قول القائل: هناك إله صمّم وخلق. لأننا صرنا نعرف كيف حصلت الأشياء، بينما نحن بهذه الفرضيات والنظريات نحاول التعرّف على ما يمكننا فهمه من آليات فعله تعالى للأشياء.

ها أمامك القرآن ككتاب إلهي لم يتحرّف لحد الآن، وستجد فيه كلامه تعالى واضحاً، وسترى أنه مختلف عن الدين الذي يطرحه المنتمون لدينه تعالى، تجد فيه كلاما عن مراحل حدوث الأشياء، وفيه كلام واضح عن خلقه تعالى لنا بحيث نتعرّف عليه مما فعله، ومما نخاف منه، ومما نفقد القدرة على السيطرة عليه... الإيمان البدائي الذي دفعنا للإيمان بالإله، هو الطريقة التي صمّمها تعالى لنتعرّف عليه، وإلا كيف سنتعرّف عليه!

ختاما نتذكّر العديد من الأمور التي يسمّيها تعالى آيات تدل عليه وتعرّفنا به سبحانه، لدينا كتبه التي من الواضح من محتواها مستواها الإلهي، ولدينا رسله على امتداد آلاف من السنين على نفس العقيدة، ولدينا ما نسميه بالمعاجز "آيات"، وهي الحوادث غير العادية التي جرت وكانت الأجواء حصرية الدلالة على أنها من فعله تعالى، وهي كثيرة كنجاة النبي إبراهيم (ع) من النار، ونجاة النبي نوح (ع) والمؤمنين بسفينة ضخمة، ودمار قوم النبي لوط (ع) ونجاته... وتحوّل العصا لحيّة وانفلاق البحر... وصولا إلى هذا القرآن، الذي سيبهرك إن قرأته بقلب سليم متخليا عمّا تعرفه وتعلمته من تراثك الديني، وآيتنا التالية واحدة من أدلة كثيرة عن صدور هذا القرآن من مصدر إلهي.

هل يمكن تأليف سورة مثل القرآن؟

(وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ{23})

{وَإِن كُنتُمْ}، أيها الناس، {فِي رَيْبٍ}، من أول وهلة ومن دون تدقيق حصل لديكم شعور باحتمال انتفاء صحة، {مِّمَّا}، من الذي، {نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا}، على المخلوق الذي خلقناه ونحن نملكه، على محمد (ع)، كان لديكم شعور بأن الكتاب الذي نزل على النبي محمد (ع) ليس من عند الله تعالى، وهو إمّا من تأليف محمد (ع) لوحده أو من تأليفه وتأليف آخرين شاركوا معه، إذا خطر ذلك ببالكم، {فَأْتُواْ بِسُورَةٍ}، بمجموعة جمل تحوي موضوعاً كاملاً واضحاً، {مِّن مِّثْلِهِ}، من شبه سور هذا القرآن، {وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم}، أشهروا وأعلنوا لعموم من يشهدكم من يحضركم ويراكم ويسمعكم ويمكنكم التواصل معه، {مِّن دُونِ اللَّهِ}، اتركوه تعالى ولا تطلبوا عونه ولا تدخّله ولا تستعينوا بما أنزله... وادعوا من تستطيعون التواصل معه ليساعدكم في تأليف سورة مماثلة لسور القرآن، {إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، وتكملة الجملة تعرفها لوحدك، إن كنتم لا تكذبون حين تقولون إنّ هذا القرآن يمكن لبشر أن يخترعه، عندها يمكنكم أنتم بالاستعانة بمن استطعتم لوحدكم من دونه تعالى أن تخترعوا مثل هذا القرآن وتزعموا أن إلهاً أنزله.

نتذكّر الآية السابقة ونلاحظ أنّ القرآن يشدّد في الكثير من الآيات على أن الإله الحقيقي لا بد أن يرسل لعباده رسولاً ليعرّفهم بنفسه وليخبرهم لماذا خلقهم وما هي أوامره... ها قد أرسل سبحانه عبده البشري محمد (ع)، وأنزل عليه كتاباً

اسمه القرآن، وكان ينزل على دفعات، وكل دفعة كانت سورة، والسورة الواحدة أيضاً اسمها قرآن لأنه يمكن قراءتها، والسورة هي مجموعة الجمل التي تتحدث عن موضوع محدّد يريدنا ربنا سبحانه الانتباه له للتعلم منه...

بعض الناس لا يلتزمون بما في القرآن على أساس أنهم لا يؤمنون بأنه من عند الله تعالى، إن لم يكن القرآن من عنده تعالى عندئذ هو من تأليف النبي محمد (ع)، وهو عبد لله تعالى من البشر مثلكم، وإذا كان بإمكان محمّد (ع) تأليف هذا القرآن، جرّبوا أن تقوموا أنتم بتأليف سورة تشابه وتساوي هذا القرآن في موضوعها وقيمتها ومتانتها، لأن سور القرآن تخبرنا عن الكثير من الأمور التي نصنّفها بالعقائدية والتشريعية والسلوكية والمواعظ والتاريخ... لكن اللبّ هو الخبر عنه تعالى وعن توحيده وصفاته وأفعاله وقراراته، وعن التشريعات والسلوكيات، وعن خلقه لنا في الدنيا لنتحاسب في الآخرة، لتكن تلك السورة التي تؤلفونها تخبرنا عن إله من آلهتكم أو عن آلهتكم كلّها وما فعلت وماذا قرّرت وما هي تشريعاتها للبشر ولماذا خلقتهم...؟ وما هو الدين الذي تعرضه علينا. هذا هو جوهر التحدّي.

صحيح أن القرآن شديد المتانة لغوياً لأن إلهاً بقدرات فائقة ألّفه، إلاّ أن جوهره هو الهداية للحقّ، وأي كلام يخالف ما يذكره القرآن مباشرة أو بالفحوى سيكون كلاماً غير صحيح، وأي كتاب سيتم تأليفه ويخالف ما جاء في القرآن سيكون كاذباً، لأنه لن يتحدّث بأمور صحيحة عن الشؤون الإلهية التي لا يعلمها إلا الإله، ولن يعبّر عمّا يريده الإله تعالى منّا، ولا عن السبب الحقيقي لوجودنا وعن آخرتنا... ولن يعرض علينا تشريعاتٍ وسلوكيات صالحة.

القرآن قد برهن على صحة كل ما فيه، برهن على صحته هو ككتاب من عند الله تعالى عبر طروحاته الحقّة العقلانية الحكيمة الصالحة... التي لا سوء فيها نهائياً، عبر تناسق معلوماته التي لا تعارض بينها ولا بأي شكل، عبر مرور أربعين سنة على عمر النبي محمّد (ع) الأمي الذي فجأة صار يتلو هذا القرآن، خلال فترة نزوله لقرابة الثلاث والعشرين سنة لم يبدّل ولم يعدّل أي كلمة منه... برهن كثيراً على التوحيد، وعلى النبوة وعلى الآخرة والحساب والشريعة... وهكذا نرى أنه لن يصمد أي كتاب أمام عظمة القرآن كلام الإله سبحانه.

الآية هنا تتحدّاهم أن يؤلّفوا سورة تعرض دينهم مدّعين أن مصدرها إلهي.

ننتبه لخطورة ما وقع فيه الكثيرون عند حصرهم "إعجاز" الإتيان بمثل هذا القرآن ببلاغته، أو جعلهم البلاغة على رأس استحالة تقليد القرآن، لأن فن البلاغة الذي وضعوا قواعده وانبهروا به، لا شيء أمام القرآن، ومن أكبر الأخطاء استخراج قواعد بلاغية من كلام المخلوقات، وقياس القرآن عليها، نرى الخطورة في تطبيق العلوم الفلكية والطبية والفيزيائية وغيرها على آيات القرآن، لأن القرآن كتاب هداية وليس كتاب نظريات علمية، وتلك النظريات تتغير، ممّا يسبّب التشويش في عقول المؤمنين الذين اقتنعوا بتفسير علمي لآية ما، ثم يتبين فيما بعد خطأ التفسير العلمي! مما قد يجعلهم يشعرون بخطأ في القرآن، كذلك البلاغة، لأن فيها آراء مختلفة، ويمكن لأي كان اختراع قاعدة جديدة يستذوقها ورأي جديد يخالف الآراء القديمة، كيف يقولون إنّ التحدي بالبلاغة؟ علماً أن قواعد البلاغة التي يتحدثون عنها غير ثابتة، وغير متفق عليها بين الجميع. كيف اخترعوا هم قواعد البلاغة، ونسبوا تحدّي تأليف كلام مثل القرآن على أساس قواعدهم التي اخترعوها هم! التحدي ليس بين قواعدهم وبين الكفّار! بل التحدي من الله تعالى لمن يكفر بالقرآن.

بعبارة صريحة ومباشرة، إن كان التحدّي بما يسمّونه بالبلاغة، وقام أحدهم بتأليف كلام نثري أو سجعي أو شعري، واتفق كل علماء اللغة على أنه كلام شديد البلاغة، عندها هل يصير القرآن خاسرا للتحدّي؟ ماذا لو كانت القصيدة غزلية أو إباحية وفاحشة أو بكلام سوء وإجرامية؟ هل سيقولون إنّ القرآن خسر التحدّي أمام هكذا نوعية كلام؟!

هكذا ترى بسهولة سخافة كلامهم عن الإعجاز بالإتيان بمثل هذا القرآن بسبب بلاغته، لأن استعمال الإله سبحانه للغة من لغة البشر بقدراته الفائقة سبحانه، سينتج عنه دقة استعمال لا يمكن للبشر الوصول إليها، ولكن الكلام ليس عن هذه النتيجة الحتمية من تأليف الإله لكتاب بلغة البشر، بل الكلام والتحدي عن المحتوى الذي نسمّيه عقائدياً وتشريعياً وسلوكياً.

جرت عدة محاولات لتأليف سور مثل سور القرآن، وكانت تقليداً في غاية السخافة، بعضها اعتمد على الكلمات والجمل الواردة في القرآن! حيث اقتبس وألّف موضوعاً آخر ولكن بسهولة يمكن اكتشاف أنها نسخة مقلّدة عن القرآن.

هناك كتاب البهائي الذي قلّد مضمون القرآن ولم يخالفه في الكثير من أساسيات العقيدة والتشريع، ولكن تركيبه اللغوي ركيك بشكل فاضح جداً جداً، أين هو من مستوى متانة تعابير القرآن التي لوحدها تشير للمستوى الإلهي في الكلام! أين هو من المواضيع التي فصّلها تعالى في مختلف السور بحسب ما يناسب موضوع كل سورة منها، أين هو من الهامش الذي تركه تعالى لنا في تطبيق أساسيات تشريعاته... مؤلف كتاب البهائية لم يفهم ذلك، وحشى قرآنه بتفاصيل كان قد تركها القرآن لتكون هامش مرونة لتناسب كل زمان ومكان.

أخيراً أكاد أعجز عن الكلام عن الذين قالوا عن الإعجاز بالصرفة! وهم من المسلمين الذين يقولون إنّه تعالى صرفنا عن قدرة قول كلام مشابه للقرآن، يعني يمكننا ذلك! ولكنه تعالى يتدخّل ويصرفنا عن تأليف سور مشابهة للقرآن، لو لم يصرفنا تعالى عن ذلك فبالقدرات التي نتمتع بها لفعلناها وألّفنا قرآناً مشابهاً لقرآنه تعالى... من أين اخترعوا هذا؟ هل قاله تعالى؟ أم ذلك واضح من كلامه تعالى أو بالبداهة؟ ستلاحظ في كلامهم الغرق في الأفكار شططا، لأن الصرفة التي يتحدثون عنها هي منعنا من تأليف سورة "بليغة"، ناسين وغافلين عن جوهر التحدّي بالمحتوى، وهو الأساس، ما هو الدين الذي ستعرضه عليّ مما ستؤلّفه؟ هذا هو السؤال.

قد برهن القرآن على صحة نفسه من عدّة جوانب ولم يذكر صرفتهم، يبدو أنهم هم لديهم ريب! من نظرة ضبابية للموضوع ستقول: القرآن كلام باللغة العربية، ولدينا فطاحل في البلاغة، عندها ما المانع من تأليفهم لموضوع كامل مشابه لسور القرآن؟! هذا الكلام منهم ناظر إلى اللغة والبلاغة ولكنه غير ناظر إلى المحتوى والأسلوب والغاية... كما ترى هو كلام ضبابي من دون تدقيق، أين قدرتنا نحن البشر أمام قدرته تعالى! نحن على مستوانا يمكننا تنسيق الكلام ولكن سيبقى مستوانا كلّنا مجموعين بعيداً جداً جداً عن مستواه تعالى حين يتكلّم بدقة من مستوى إلهي، لا يمكن بتاتاً أن يستعمل تعالى كلمة ما بدل كلمة أخرى أنسب منها وأدقّ، هذا مستحيل، أمّا نحن كلّنا مجموعين سنقع في الاستعارة والمجاز والكناية والتراخي في معاني الكلمات... ستخوننا العبارة... ستغيب عنّا الكلمة الدقيقة... هذا ما تراه منتشراً في التفاسير حيث عجزوا عن فهم استعماله تعالى للكلمات بدقّة فجعلوها مترادفة مع كلمات أخرى...

للأسف، نسبوا للقرآن هذا النوع من البلاغة! جاعلين فيه استعارة وكناية ومجاز... وسترى في دراستنا هنا أن كل كلامهم "تقريبا" عن البلاغة القرآنية هراء، حيث تعاملوا مع كلام الإله سبحانه وتعالى مثلما يتعاملون مع كلام المخلوقين، بدلا من الاستفادة من فرصة استعمال الإله للّغة العربية بدقة وتقانة من مستوى إلهي، والتي نتج عنها تقويم غير عادي للغتنا العربية...

كل ما سبق من كلام كان عن اللغة، وقد أطلت عليك علماً أنه يوجد في بالي كلام كثير لم أذكره لك، أمّا عن المحتوى فمن يمكنه تأليف سورة من نظرة إلهية؟! القرآن اعتبر مسألة الفرق اللغوي بينه وبين كلام الناس مسألة واضحة جداً جداً، أين هم من مقدرة الإله على استعمال اللغة بالمفردات والتركيب؟ ولم يركّز عليها وركّز في التحدّي على معنى ومحتوى الكلام، لقد كان التحدّي عن الإتيان بسورة أي بموضوع تامّ تعرض ديناً.

لديهم مشكلة عويصة نابعة من فكرة العرب الأقحاح الفصحاء، حيث صار عندهم العربي المولود في الصحراء في خيمة منعزلة عن العرب المتواصلين مع الأجانب، صار فصيحا قحّا بليغا... وقاموسا بشريا لكل اللغة العربية بالكامل، ومرجعا نقيس عليه كلام القرآن، هكذا صار كل عربي، "أعرابي: يعيش في البادية" مرجعاً لغوياً تاماً! ما هذا الكلام؟! لقد كانوا يلحنون: لا يلتزمون بالمتعارف عليه نطقا للكلمات... وأهل مكّة ويثرب والطائف... كان الكثيرون منهم يلحنون، وبقية العرب كذلك، ها هي كتب دراسات قواعد اللغة القديمة صريحة وواضحة بذلك، هذا يرفع وذاك ينصب والآخر يجزم... نفس الكلمة في نفس الجملة!!! راجع في ذلك كمثال كتاب قطر الندى. من ناحية قواعد اللغة كان لدى العرب مشكلة اختلاف كبير جدا بينهم، من ناحية معاني الكلمات لديهم مشكلة بشرية عادية ناتجة عن ضعف القدرات البشرية، الأعرابي في الصحراء ما أدراه بمعاني الكلمات لأسماء وصفات يستعملها البحارة؟ أو النجارون أو الحدّادون أو صنّاع القماش والأواني والفخّار...! ما هذا الهراء المنتشر في الكتب وكلام الموصوفين بالعلماء عن اعتبار أحمق جاهل بسيط لا يعرف من الحياة إلا خيمته وعنزته أنه مرجع لغوي موثوق! بل وفوقها هو قاموس بشري! بالله عليكم أعيدوه إلى حجمه الطبيعي كبشري، وليكن كلامه مُعِيناً لدراسة لغة العرب، ولا مشكلة في ذلك، وقارنوا بين كلام هذا وذاك، وبين بيت شعر لهذا أو ذاك، ولكلام أو خطبة أو حكمة... لهذا أو ذاك... هذا شيء طبيعي عادي، ولكن لله درّكم

أفيقوا من سكرتكم، ليس كل قول عربي مرجعاً لغوياً وأنتم تعلمون اختلافهم في قواعد اللغة وفي إتقانها وفي المستوى الفكري واللغوي والمعرفي... لقائلها.

من ناحية أخرى مختلفة عن مسألة التحدّي بالإتيان بمثل هذا القرآن ولكن لها ارتباط بالمسألة، سترى في دراستنا هذه الكثير من لفت الانتباه حول الكلام القرآني من نظرته تعالى إلينا وإلى السماوات والأرض وإلى قراراته، ستجد كلاماً لا يخطر على بال بشر، كمثال على ذلك تعليق كل شيء حدث ويحدث وسيحدث بمشيئته وعلمه تعالى، الأمثلة عن ذلك كثيرة جداً جداً ومنها حالة قطع كلام امرأة عمران في الآية 36 من سورة آل عمران {فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ...}، ومنه ما ورد في الآية 108 من سورة هود {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ}، ومنه نسبة كل شيء لنفسه تعالى لأنه المصمّم الخالق وهذا كثير الورود في القرآن ومنه ما قالته الآية 64 من سورة الواقعة {أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}، والآية 17 من سورة الأنفال {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى...}، والآية 9 من سورة النحل {وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}.

هكذا نرى أن كل آية في القرآن ترينا بمعناها أن مصدرها إلهي... هذا الجانب أهمّ وأعمق وأعوص علينا من تقليد القرآن لغوياً، من أين سنأتي بالنظرة الإلهية للأمور حتى نؤلّف موضوعاً مماثلاً لسور القرآن؟! لماذا يقولون إنّه تعالى سيصرفنا عن هذا ونحن أصلا لا قدرة لنا على ذلك لأننا لن نستطيع رؤية كل الأمور من النظرة الإلهية.

نعم، يمكننا استعمال الثقافة الدينية لتأليف موضوع ديني، يمكننا جعله يبدو كأنه كلام إلهي، بل يمكننا جعله يبدو كطريقة تنسيق كلمات وجمل القرآن، ولكن قابله مع كلام القرآن من ناحية المحتوى واللغة وسترى الفرق الهائل، حيث الإله بقدرته الفائقة استعمل لغتنا بدقّة فائقة، ودراستنا هذه بتدقيقها بمعاني الكلمات توصّلت إلى الإضاءة على الدقّة القرآنية في استعمال الكلمات بدقة غير مسبوقة في كلام العرب، كالفرق بين الخوف والخشية، والإنذار والتحذير، وأصبح وفؤاد وصدر وقلب...

إذن، الآية تحفّزهم وتتحداهم للانتقال من النظرة الضبابية والكلام في الهواء إلى التطبيق، هكذا يقول البعض: يمكنني تأليف كلام مثل القرآن. عندها تقول له الآية: انتقل إلى التطبيق وتوقّف عن الكلام في الهواء، وقم بتأليف سورة على أساس أنها من كلام الله أو من كلام آلهتك أو من كلامك لتثبت أن القرآن مصدره بشري، ولنرى ماذا سيحصل. قمّة نجاحك ستكون بجمع سفهاء حولك، لا يختلفون في تفاهتهم عن عبّاد الأصنام، هل تتصوّر شخصاً في جمجمته دماغ يعمل ويعبد حجراً منحوتاً، أو يعبد بشرا؟!

نفس الشيء سيحصل معك ومعه ومعهم لو ألّفوا كتاباً وقالوا إنّه نازل من عند الإله، مسيلمة ادّعى النبوّة في عصر النبي محمّد (ع)، وألّف سورا قال بأنها نزلت من عنده تعالى، وأعلن عشرات الآلاف إيمانهم به وتأييدهم لهم، بل خاضوا الحروب ضد النبي محمّد (ع) وضدّ المسلمين من بعد وفاة النبي، ولكن هل تعلم أن تلك الآلاف كانت من أحفاد "ربيعة" على أساس أن النبي محمّد (ع) وقريش وعموم أهل مكّة والمدينة وما حولهما من أحفاد "مضر"، وأحفاد "ربيعة" لن يقبلوا باتباع شخص من "مضر"! لو قرأت تاريخ مسيلمة ومن معه وقرأت السور التي ألّفوها لرأيت شبههم شبه التمام مع سخافة الذي عبد الحجر، ولرأيت أن أتباع مسيلمة كانوا يشمئزّون من سخافة سوره ولكنهم اتبعوه بعصبية جاهلية لأنهم رفضوا أن يكون من "مضر" نبي وقائد على "ربيعة"... لو قرأت كتاب البهائية ونظرت إلى تاريخهم لرأيت نفس سخافة مسيلمة ومن معه.

القرآن لم يتحداهم بالإتيان بسورة مماثلة لسوره على أساس أنهم إن ألّفوا أي سورة فسيخسر القرآن التحدّي، لا، بل سورة بكل معنى السورة، كجمل تعبّر عن رؤية إلهية، عن حكمة إلهية، عن هداية، عن تشريع فيه مساحة واسعة وهامش لثقافات الناس وتغيّر مزاجهم بما لا يتعارض مع أساسيات الصلاح... عن كلام يبدو عليه الفرق الهائل بينه وبين كلام البشر في القيمة المعنوية أولاً، وبعدها ثانياً في قيمة الدقّة والأسلوب والتعبير...

مختصر ما تقصده الآية يمكن تشبيهه بأخذ أي قانون مدني لأي دولة، وتضمّ معه كتاباً عن عقيدتهم الإيمانية مهما كانت عقيدتهم سواء أكانت موحدة أو مشركة أو كافرة أو ملحدة أو... وتؤلف من ذلك سورةً، موضوعاً ما، وتدّعي أنها ذات قيمة أعلى من قيمة القرآن، هذا هو التحدّي.

انتبه جيداً لأصل ما يعرضه القرآن علينا، حيث لا يعرض ديناً غريباً من الفضاء الخارجي لكائنات فضائية... بل يعرض الحقّ والصلاح، إن قام البشر بتأليف كتاب تشريع وسلوكيات، متوافقةً تماماً مع كلام القرآن، فهم لم يتحدّوه، وليست النتيجة خسارة القرآن للتحدّي، بل كلاهما تماشيا مع بعضهما، هذا هو أصلاً ما يعرضه عليك تعالى بما جعله فيك من قابلية لتمييز الحقّ من الباطل والصالح من الفاسد، حتى أنه تعالى وبصراحة أخبرك مراراً وتكراراً أن البشري العبد الصالح إبراهيم (ع) قد كان فكره وتشريعه وسلوكياته من المستوى المثالي والنابع مما جعله تعالى فينا كلنا من قابلية على رؤية الحقّ والصلاح، أجرى تعالى عقيدة وتشريعاتٍ وسلوكيات إبراهيم ديناً للناس ليريك أن هذا هو ما يقبله ويريده منّا جميعاً.

يعني بكل صراحة ووضوح، لا مشكلة شخصية له تعالى معنا لتقديس كتابه لمجرد أنه كتابه لننبذ أي كتاب آخر، بل المشكلة في كلام الباطل عن الإله بالشرك به لأن هذا غير صحيح، أو نسبة صفات سيئة له تعالى لأن هذا غير صحيح، أو ... حيث كتابه تعالى جاء مشحوناً بالأدلة المتنوّعة التي تريك الحقيقة عنه تعالى وعن حكمته... جاء مشحوناً بتبريرات التشريعات والسلوكيات التي يريك صلاحها لتلتزم بها، هذا هو لبّ التحدّي.

ماذا لو كان كتاب تشريع بشري فيه اختلاف عن القرآن ويعجبنا أكثر منه؟ وهو مبني على عقيدة معارضة أو مخالفة تماماً لما يقوله القرآن "شركية علمانية إلحادية..." وتعجبنا أكثر منه؟ هنا التحدّي، بل هذا هو التحدّي، لأن القرآن يريك حسن وصلاح ويقين ما يعرضه عليك ليكون ديناً لك، ويريك الأسباب التي جعلت سلامة قلبك تتشوّه حتى صرت ترى ما يخالفه حقاً وصلاحاً لتقوّم رؤيتك للأمور معتمداً على مصدر ذي صفات وقدرات فائقة.

السورة، "الموضوع أو المقالة أو الكتاب..." التي ستؤلفها ويكون فيها ما نسميه بالعقيدة كاملةً أو فقط أساسياتها أو جانب منها... والتشريعات والسلوكيات التي ستعرضها كاملةً أو أساسيات منها أو نموذج عنها... قارنها بالعقلانية مع كلام القرآن، سترى أنها إمّا متوافقة معه تماماً إن كانت سلامة قلبك "سلامة أساس فكرك ونفسيتك" من الدرجة العالية جداً، أو متخالفة جزئياً معه فأنت لست بعيداً كثيراً عن الحق والصلاح، أو متخالفة في الأساس معه، فأنت في مشكلة عقلية ونفسية من المستوى العالي جداً.

عن هذا الكلام تتفرّع مشكلة ما نراه سوءاً في القرآن، سأختصر لك المسألة بمراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أنها تعرض عقيدة أو تشريعاً سيئاً، سترى أن دراستنا هذه متقدمة كثيراً ومختلفةً عمّا توارثناه من إسقاطاتنا لخلفياتنا على كلامه تعالى حتى بدت بعض الآيات عارضة لتشريعات وسلوكيات سيئة، ليس لأني أنا بشخصي متميّز بإيماني وفكري وعبقريتي، لا، بل استفدت كثيراً من تفاسير لعقول محترمة وجبّارة، وبالخصوص السيدين الطباطبائي والآلوسي "لولا سقوطهما في العصبية المذهبية"، وتفاجأت من التشابه الشديد بين دراستي في اعتمادها الأساسي على معاني الكلمات وبين كتاب جوامع الجامع للطبرسي، هذا هو سرّ ادّعائي لتقدّم هذه الدراسة عن غيرها، الالتزام الحرفي بالمعنى اللغوي الصحيح للكلمات وتراكيب الجمل.

كل هذا الجهد المضني الذي بين يديك من دراستي للقرآن، وبتقييمي الشخصي له رافعاً له بالقيمة عن الدراسات والتفاسير الأخرى، ما هو إلا البداية البسيطة نحو دراسات أرقى وأنقى وأفضل منها بكثير سيأتي بها من هو أفضل منّي في المجالات المطلوبة لدراسة كلامه تعالى، فرضاً كان فعلاً لكتابي هذا قيمة عالية حالياً عند الآخرين، فأنا لا أرى في كل ما طرحته إلا البذرة التي تحتاج لدراسة متأنية وصقل وتقويم بل وتصحيح، فدع كل خلفياتك الدينية والثقافية جانباً، ولا تجعلها حاكمة على فهمك للقرآن، بل تعلّم منه من الصفر بلا أي خلفية، وابحث عن المعنى الحرفي اللغوي للكلمات وتراكيب جمل القرآن، عندها سترى قرآنه تعالى، وسترى بوضوح استحالة تأليف سورة من مثله حتى لو اجتمعت الإنس والجنّ معاً لفعل ذلك.

أمّا إن كان فيك خلل ما يمنعك من فهم صريح كلامه تعالى، فأي كلام آخر مخالف للقرآن سيعجبك، بل أصلاً حالياً أنا وأنت كذلك، ولدينا تشريعات وعقائد وسلوكيات مخالفة لكلامه تعالى في قرآنه ولسنا نرفضها بل لا نعترض عليها بل لا نريد ما يقوله القرآن!

من هذه العقلية والنفسية كيف سنفهم تحدّي القرآن للآخرين بالإتيان بسورة من مثله بينما نحن أصلاً مخالفون لما يقوله القرآن لأنه لا يعجبنا؟! ضع هذا في بالك وحاكم كلام الخائضين في هذه المسألة، سترى أنهم يتفلسفون نظرياً على

الآخرين بالتحدّي بتأليف سورة مثل القرآن بينما هم لديهم مشكلة مع بعض ما يقوله القرآن! من هذا ستفهم لماذا ابتعد البعض "بل الكثيرون" عن فكرة التحدّي بالمحتوى واتجه نحو التحدّي بالبلاغة وبالإعجاز العلمي وبأخبار المغيبات عما سيحصل في المستقبل... لأنه هو نفسه عنده مشكلة مع بعض المحتوى! المشكلة من التفاسير الناتج عنها عقائد وتشريعات وسلوكيات فاسدة، ذلك بدل إعادة النظر والبحث عن أسباب هذه النتائج السيئة لمعاني القرآن، تعاموا عنها خوفاً من ضعفهم عن بيان الحقّ وخوفاً من توهين كتابهم المقدّس، بل خوفاً من توهين طائفتهم وجماعتهم ومذهبهم المقدس، المشكلة كل المشكلة في فساد القلوب المتعلّق بالموروث والمذهب... المانع من فهم حقيقة كلامه تعالى.

(فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ{24})
{فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ}، لم تأتوا بسورة مثل القرآن، {وَلَن تَفْعَلُواْ}، يخبركم سبحانه أنكم لن تستطيعوا تأليفها، عندها من المفروض تأكّدكم أن القرآن من عنده تعالى، {فَاتَّقُواْ النَّارَ}، تجنبوا وتحاشوا النار، {الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}، التي مادة اشتعالها الناس والحجارة، وهي نار جهنم التي في الآخرة، {أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}، جهّزها وهيّأها سبحانه للمنكرين للقرآن بأنه من عند الله تعالى.

النار هي ما يصدر عن احتراق النفط أو الخشب... أما النار التي في الآخرة تصدر عن الناس الذين يتعذّبون فيها، وتصدر عن الحجارة الحامية مثل حمم البراكين...

بما أنه من الواضح أن هذا القرآن مصدره إلهي فهناك عقاب لمن كفر به ولم يعتقد ولم يعمل بما فيه، ولم يعرض القرآن علينا الترهيب بالعقاب قبل التأكّد بأنفسنا من عجزنا عن الإتيان بمثله، وبالتالي تأكدنا بأن مصدره إلهي، بعدها جاء التهديد.

أكرّر لك ما ذكرناه في الآية السابقة، ماذا لو ألّف أحدهم سورة، وآمن بها الناس أنها من عند الله تعالى! أو من عند إله غيره؟ هناك كمثال "طائفة البهائية" المؤمنون بكتاب نزل بعد النبي محمد (ع)! كيف تقول الآية هنا أنكم أيها الناس لم تقلدوا القرآن ولن تستطيعوا تقليده! الجواب واضح من شرحنا للآية، لأنها تقول عن سورة مشابهة للقرآن، أمّا تلك السور البهائية فمن الواضح ركاكتها بكلماتها وبتركيب جملها، وبتعابيرها. هي تقليد ركيك للقرآن في جوانب العقيدة والتشريع، وهي محاولة فاشلة بامتياز، هذا ما تقوله الآية هنا.

{فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ} إن لم تستطيعوا تأليف سورة مماثلة لسور القرآن، {وَلَن تَفْعَلُواْ} لن تستطيعوا تأليف سورة مماثلة لسور القرآن، لأن المحاولات التي جرت فعلاً لتأليف سور، كانت محاولات فاشلة بامتياز، ولا يزال التحدّي قائماً لكل من يرغب في تأليف سورة.

أمّا كيف آمن بعض الناس بتلك السور السخيفة المزيفة؟ الجواب بسيط، هذه التوراة والإنجيل المحرفتان بشكل واضح، ويعرف الجميع أنهما مجموعة كتب من تأليف البشر الذين تلاعبوا بالتوراة والإنجيل الأساسيين، رغم ذلك، تجد كثيراً من الناس يؤمنون بقداسة كامل هذين الكتابين!

أضف إليهما كتب الديانات الأخرى كالبوذية والهندوسية، كتبهم من تأليف البشر، ولهم أتباع كثيرون، إذا قرأت تلك الكتب، عرفت بسهولة الفرق بينها وبين القرآن، والقرآن يردّ على التحريفات الواردة في تلك الكتب، لكن كما هناك سخفاء عقول لدرجة عبادتهم صنماً صنعوه بأيديهم من الصخر والخشب! هناك سخفاء عقول يؤمنون بكتب سخيفة، هؤلاء يستحقون التعذيب في النار بكل تأكيد، لأنهم هم بإرادتهم استسخفوا أنفسهم وكفروا بكتاب واضح أن مصدره إلهي.

(وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَـذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{25})
في مقابل الذين أنكروا إلهية مصدر القرآن هكذا في الضباب أو استسخفوا أنفسهم بترك الإيمان به، أو آمنوا بكتاب سخيف...

{وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ}، انقل الخبر السارّ للذين أعلنوا اعتقادهم بأن القرآن مصدره إلهي، الذين اعتقدوا بالحقّ الذي جاء في القرآن وعليه أدلة عديدة من توحيد لله تعالى، واعتقدوا بكتبه ورسله وملائكته وآخرته... {وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ}، قاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، سبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، عملياً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموماً وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، حتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، هذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائماً أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به.

هذا الكلام له عمق، لا توجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. هذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو سيئ" إنما هو في الحقيقة اختراع من البشر وليس أمراً إلهياً.

هؤلاء بشّرهم، {أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ}، لهم أماكن توصف بروعة ما فيها من المناظر الطبيعية والبساتين والورود وما يشتهون... وتلك الجنات، {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}، تحت شجرها وعلى جنباتها تسير أنهار المياه والمشروبات الرائعة الطعم كما تقرأ من نماذج في الآية 15 من سورة محمّد {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى...}. لا تبالغ في التصوّر لتظنّ الجنّة مستنقعات، ويمكنك مقاربة الصورة مع ما تراه هنا في الدنيا من أماكن طبيعية رائعة فيها أنهار وجداول وشلالات....

{كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا}، كلما صار معهم منه تعالى من الجنّات من أشياء يرغبونها، {مِن ثَمَرَةٍ}، من نتاج نباتات الجنات، {رِّزْقاً}، شيئاً يلبّون به رغبتهم بأكله أو شربه، وسياق الكلام عن الأكل والشرب، {قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ}، من قبل أيضاً صار معنا ما نأكله مثله، وليس أقل طعماً أو جودة من الذي أكلناه من قبل، بل هو ممتاز دائماً، سترى هذا المعنى من تكملة الجملة:

{وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً}، ما صار عندهم من رزق يشبه بعضه، هذا يعني أنها متشابهة مع القديمة بالمواصفات الممتازة، ولو كانت هي نفسها بنفس الطعم والرائحة لما قالت الآية إنها متشابهة، هي تخبرك أن الطعم والنكهة والرائحة مختلفة ولكن من نوعية عالية مرغوبة مثل التي سبقتها، أي هناك تجدّد دائم لنكهات الشراب والطعام.

{وَلَهُمْ فِيهَا}، وللمؤمنين في الجنة، {أَزْوَاجٌ}، الموصوفون بأنهم معهم ومن نفس التصنيف، {مُّطَهَّرَةٌ}، خالون من الأشياء أو المواصفات السيئة المكروهة، المقصود أنهم موصوفون بالنقاوة والصفاء التام من الشرّ والعيوب الفكرية والنفسية والجسدية، ومن عموم القرآن تعلم أن المقصود بالأزواج الحور العين.

{وَهُمْ}، المؤمنون، {فِيهَا}، في الجنات، {خَالِدُونَ}، لا يموتون ولا يفنون.

نلاحظ دائماً أن القرآن يقرن بين الإيمان والعمل الصالح مع بعضهما، والنتيجة للإثنين معاً دخول الجنة، لا الإيمان بدون عمل صالح ينفع، ولا العمل الصالح من دون إيمان ينفع، بل كلاهما معاً ينفعان.

(إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَـذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ{26})

ورد في هذا القرآن أمثلة تشبيهية، لا تشبه الأمثلة المتداولة بين الناس، وقد يقارنها بعض الناس بين الحِكم والأمثال القرآنية، لنرى ماذا يقوله تعالى عن ذلك:

{إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي}، لا يمتنع عن القيام بشيء يعتبره الآخرون معيباً، وهو التالي: {أَن يَضْرِبَ مَثَلاً}، أن يقول تشبيهاً تقريبياً أو كنماذج أو كشرح، {مَّا بَعُوضَةً}، وهي الحشرات الصغيرة جدا، ونقول لها بالعامية: برغش. لا يستحي تعالى أن يضرب مثلاً، {فَمَا فَوْقَهَا}، فوق البعوضة في صغر الحجم، بما هو أصغر من البعوضة.

لا يعلق في ذهنك من كلمة "مثل" أنها مخصّصة لكلام الحكمة القصير، والذي عادة له وقع موسيقي أو غرابة معنى وتركيب كلام... الأمثال عمومية للتشبيه وللنماذج أو للشرح والبيان، حيث كلام القرآن عن الأقوام التي أهلكها تعالى هي أمثال، هي نماذج لنقيس عليها حالة الذي يكرّر ما فعلته تلك الأقوام، وسؤاله تعالى عن مصدر أسماء آلهة المشركين هو مثل، لأنه بيان يشرح فيه تعالى أنهم متوهّمون اخترعوا دينهم من خيالهم...

الأمثلة السابقة عن الذين استوقدوا ناراً... وعن الذين يضعون أصابعهم في آذانهم... هي أمثال أقرب إلى بالنا من بقية الأمور التي ذكرها القرآن وكانت أمثالاً، لأننا لسنا معتادين على عمومية الاستعمال القرآني للأمثال، وقد لا نرى كلامه عن الأقوام التي أهلكها تعالى أمثالاً، كما ورد في الآية 45 من سورة إبراهيم {وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ}، وأوضح منها الآية 112 من سورة النحل {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}.

إن لم تَرِدْ كلمة مَثْل "بسكون الثاء" أو كلمة مَثَل "بالفتحة على الثاء" فعادة لا نلتفت أن الكلام القرآني عن مثل، وفي دراستنا هذه أكثرنا من القول إنها نماذج.

الآية هنا تنبّه كلّ من سيعلّق على الأمثال التي ضربها القرآن، إن كان ضرب المثل ببعوضة سيكون دقيقاً موصّفاً لما يريدنا تعالى الانتباه له، فلا يستحي تعالى بضرب المثل ولو ببعوضة أو بما فوقها في الصغر.

{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ}، الذين أعلنوا اعتقادهم بالله تعالى وبكتبه وبرسله... {فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ}، أنّ المثل الذي يضربه لنا الله سبحانه، هو الحقّ، هو الصواب من ربهم سبحانه، كيفما كان ومهما كان المثل سيحترمونه ويؤمنون به لأنه كلام ربهم سبحانه، ويعلمون أنه كلام صواب صحيح حكيم.

لو كان اختلاف وجهات النظر بيننا نحن لقلنا: الحقّ معي، أو الحقّ معك. لكن القرآن دائماً يعبر بشكل مختلف حيث يقول: الحقّ من ربّك، الحق من ربّهم. لا يقول أبداً: الحق مع ربّك. هناك فرق كبير بين القولين، عندما تقول: الحق معي. هذا يتضمّن إمكانية كون الحق مع غيرك، ويتضمّن أنّ هذه المرّة الحقّ معك، وربما في مرة أخرى يكون مع غيرك، أمّا التعبير القرآني دائماً يقول: الحقّ "من" ربّك. لأنه تعالى لا يصدر عنه إلّا الحقّ دائماً.

{وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ}، الذين أنكروا وحدانية ربهم سبحانه وأنكروا رسله وكتبه... {فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً}، ماذا قصد تعالى من التشبيه بهذا الشيء؟ هم بالعموم لا يؤمنون بأن القرآن من عنده تعالى، وليسوا معترضين على كلام يعتقدون أنه من عند الله تعالى، هم يقولون: من غير المعقول أن يكون هذا الكلام من عند الله تعالى، ماذا يريد الله تعالى بهذه الأمثال؟ هناك تشبيهات ذكرها القرآن ولا تعجبهم، لو كان سبحانه قائلها فلماذا اختار مثلاً لا يعجبهم؟ ألا يريدهم أن يهتدوا؟

الجواب على سؤالهم: أراد الله تعالى بالمثل الذي ترونه غير مناسب أن، {يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً}، عدد كبير من الناس عبر التاريخ لن يقتنعوا به ولذلك سيكونون على الشيء الخطأ الذي يوصلهم للنتيجة الخطأ، {وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً}، عدد كبير من الناس أيضاً عبر التاريخ ستضعهم أمثلة القرآن على الشيء الذي يوصلهم للغاية الصحيحة.

{وَمَا يُضِلُّ بِهِ}، لا يصير على الشيء الفاسد من تلك الأمثلة، {إِلاَّ الْفَاسِقِينَ}، الفاعلون للأمور التي يعرفون مخالفتها للدين الإلهي، فقط هؤلاء يضلّهم تعالى بالأمثال التي يعلم أنها لن تعجبهم. علما أنه سبحانه بالأساس لم يرد إضلال الناس، بل زوّدهم بما يهديهم، ولكن بعضهم قرّر الكفر والفسق مهما كانت الأدلة واضحة على صحّة دينه تعالى، هؤلاء يتقصّد سبحانه ضرب مثل في قرآنه يجعل حقيقتهم تظهر، لأنهم ليسوا مؤمنين حقيقيين وسيظهر ذلك من اعتراضهم على ما لم يعجبهم في كلامه تعالى.

إذن، هناك أناس يعتقدون أنهم يعرفون مواضيع أهمّ من المذكورة في القرآن، ولديهم اقتراحات عن أساليب الهداية التي يجب أن يتبعها الإله ليهديهم، وبرأيهم من المفروض بالإله أن يقول كلاماً يعجبهم، على أساس أن الكتاب نازل لهدايتهم، ولن يهتدوا إلا إذا كان الكلام عن أمور على خاطرهم... لا، كلامه تعالى راقٍ وأكثر من كاف للهداية، ولكنكم ستبقون على موقفكم معترضين على هذه وتلك والأخرى، ولن يعجبكم أي شيء، لأنكم من الأساس عندكم مشكلة، ها يقولها تعالى لكم بصراحة ووضوح لتروا أن المشكلة فيكم، لو ضرب تعالى في كلامه مثلاً عن بعوضة "عن برغشة"

أو حشرة أصغر منها، وطبعاً سبحانه لن يقول كلاماً فارغاً تافهاً حتى لو كان في مفرداته ذبابة وبرغشة، فإن المؤمنين الحقيقيون بحكمته تعالى وبعلمه... سيرونها كلاماً حقاً مفيداً، أمّا الآخرون سينقّبون ويجدون في كلامه تعالى حتماً ما سيعلّقون سلباً عليه، حتى لو تحدّث سبحانه فقط وفقط عن أمور قالوا في السابق عنها أنها أمور مهمّة جدا ولا يوجد أهمّ منها، هم لن يؤمنوا، وقد جاءهم في هذا القرآن من كل مثل ولم يؤمنوا.

الآيات السابقة تحدثت عن تحدّيه تعالى للناس بتأليف سورة مثل سور القرآن، والسورة كلام عن موضوع كامل يبين هدفاً ومحوراً محدداً، وهنا أكملت السورة الموضوع بالتحدث عن الكلمات القصيرة، وهي الأمثال والحكم، هناك روائع منها من تأليف الناس، ولكنها تختلف عن القرآن، لأن القرآن ليس كتاب أمثال، بل تمر فيه الأمثال لنفهم هداية ربنا سبحانه لنا، كل الأمثلة القرآنية محوريتها الهداية، أمّا الأمثال الشعبية والحكم، إنما هي عادة حول شؤون الحياة، ولذلك لا يمكن مقارنتها بأنها أجود أو أرقى أو أمتن من القرآن، وأصلاً لا وجه للشبه الجوهري بينهما، ولذلك كانت أمثلة القرآن مختلفة، سبحانه لم يقل في القرآن أي مثل من أمثلة الناس، بل ولا حتى قريباً منها في الكلمات، بل وحتى في المعنى فإن التشابه بسيط جداً جداً، إذا قرأت الكتب التي قارنت بين أمثلة الناس مع بعض آيات القرآن، وتمعنت فيما قيل، ستجد أن الأمثال القرآنية ليست كما يقولون، لأن معاني آيات القرآن بعيدة كثيراً عن الأمثال والحكم التي ذكروها، ويمكنك مقارنة المعاني التي ذكروها مع دراستنا هذه لترى الفرق، وقد قارنت بينها ورأيت عجباً في تلاعبهم بالمعاني القرآنية لتطابق اكتشافهم الذي أرادوا منه التميّز بين الناس...

انتبه جيداً يا عزيزي ويا عزيزتي من أقوال تجدها هنا وهناك في الكتب عن أمثلة شعبية وبيوت من الشعر... ومقارنتها مع بعض آيات القرآن، لا تقبل بما يقولونه على ضبابيته، بل تحقّق منه وقارنه مع المعاني الدقيقة للآيات وسترى الفرق الشاسع بين تلك الأمثال والأشعار وبين ما تقوله الآيات، اللهم إلا أن يكون مثلاً أو بيت شعر اعتمد على المعنى القرآني، فتألّف من بعد نزول القرآن، عندها ستجد شبهاً بينه وبين ما يقصده القرآن لأنهم نحلوا معناه أو كلماته من القرآن.

(الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{ 27})

لنتعرف على السبب الذي يجعل الفاسقين يضلون من كلام وأمثال القرآن، لنتعرف على فكر وتصرفات الفاسقين:

{الَّذِينَ يَنقُضُونَ}، الذين قاموا بأعمال تبين خروجهم من الارتباط والالتزام من، {عَهْدَ اللَّهِ}، فسخوا ما أعلنوا التزامهم به مع الله تعالى، عملياً هو تركهم الالتزام بطاعته تعالى وطاعة رسله، {مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ}، من بعد التشديد والتأكيد بقوّة على العهد.

مسألة الالتزام بكلامه تعالى لا تتحمّل التراخي، مثل تعهّد ولدي بغسيل سيارتي، بل هو عهد موثّق، هو التزام مشدّد عليه بتهديد شديد على مخالفته، من لم يلتزم بالدين الإلهي سيكون عقابه النار الخالدة.

وهم أيضاً، {وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ}، حيث أمر تعالى بوصل "بصلة" الرحم، التواصل الاعتناء بالأقارب، وهم لا يهتمون بهم.

{وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ}، لا يصلحون بل يقومون بأعمال فاسدة، يعملون بأحكام وقوانين من اختراعهم وعلى هواهم السيّء ويتركون دينه تعالى، يشعلون الحروب، أو يتعاملون بالربا والرشوة، أو يتعاطون الزنا والفحشاء والمخدرات والمسكرات، أو يغشّون، أو يروّجون المخدرات والمسكرات والفحشاء...

{أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}، هناك شيء له أهمية "كبيرة" ولم ينالوه، حيث الإيمان والعمل الصالح ينتج عنه هنا في الدنيا حياة سعيدة للجميع، وينتج عنه في الآخرة جنّات خالدة، بنقضهم وقطعهم وإفسادهم، للحصول على شهوات ونزوات وأملاك وسلطة... بالطرق السيئة هنا في الدنيا هذا ليس ربحاً بالمقارنة مع الجنّات الخالدة التي لن يحصلوا عليها. من الآية 25 من سورة الرعد {وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}، المشابهة لآيتنا هنا والتي في ختامها بدل الخبر عن الخسارة تجد خبراً عن لعنتهم وسوء الدار لهم، من عموم تعابير ومفاهيم القرآن تعلم أنهم سيحصلون على نار خالدة.

بقي شيء، نقض العهد معه تعالى يتضمّن فعل أي سوء وترك أي صلاح، وهو نفسه مخالفة أي أمر من أوامره تعالى، ويتضمّن تكذيب الحقّ وقطع الرحم والغشّ وشهادة الزور... نقض العهد لا يعني أنهم سيقومون بمخالفة كل دينه تعالى بالحرف والنقطة بكل شيء، لا، قد يحرّمون الغشّ في هذا المجتمع أو يحرمون المخدرات في ذاك المجتمع... لكن بالعموم لا يعتبرون أنفسهم ملزمين بدينه تعالى، اختارت الآية قطع الرحم والإفساد كأبرز نماذج عن مخالفة أوامره تعالى والتي تمسّ حياتنا، كما ترى سياق الآيات هنا لا يتحدّث عن الشرك به تعالى بل عن مخالفة دينه تعالى ممن اطّلع عليه.

أخذ الميثاق منّا له تعالى هو عرضه تعالى علينا دينه، لا تتصوّر دائماً حالة الميثاق والعهد كحالة الجلوس على طاولة وتوقيع الاتفاقيات، أو الوقوف أمام أحد ما وإعلان كلام عن ميثاق وعهد، معه تعالى هذا ليس ضرورياً، بل بما فينا من قدرة لتمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ وحرية إرادة، هذا يلزمنا بترك الباطل والشرّ، مجرد وصول كلامه تعالى لنا إن كفرنا سنكون خارج العهد والميثاق وإلى نهاية حتمية بالعذاب، وإن آمنا صرنا تحت عهد ميثاقي معه تعالى.

هناك حالة مميزة كرّرها القرآن عن رفع جبل فوق بني إسرائيل كعلامة إلهية على إمضاء ميثاق أعلنه بنو إسرائيل حينها بالالتزام بدينه تعالى، تقرأ ذلك في الآية 154 من سورة النساء {وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ...}، أمّا بقية حالات الميثاق مع بقية الناس، ترجع إلى الأساس، ترجع إلى ما فينا من قدرة على تمييز الخير من الشرّ، وعرضه تعالى لدينه علينا، هكذا نصير تحت شيء شديد لا يتحمّل التهاون به، ويصير وصف الحالة ميثاقاً لمن تعهد باتباع الحقّ لأن هذا مزروع فينا كلّنا. أنا وأنت تحت ميثاق معه تعالى، لدينا تعهد شديد له تعالى بالإيمان وفعل الصالحات.

كما ترى، هذا لا يعني أن من كفر بدينه تعالى فلا التزامات عليه لأنه لم يتعهد ولم يواثق، وبالتالي لا عقاب له، لا، هذا أساساً حالته سيئة جداً لأنه منكر للحقّ وفاعل للسيئات ورافض للالتزام بكلامه تعالى، وعلى هذا عقاب شديد.

في عموم القرآن تجد برّ الوالدين وصلة الرحم ملصقين بتوحيده تعالى كأهمّ بندين في نظره تعالى، بعد ذلك يأتي الإصلاح كأهم بند ثالث في الدين الإلهي.

التفت إلى عموم القرآن الذي اعتبر علاقة الشخص به سبحانه شيئاً شخصياً من أهمّ الأمور للشخص، عادة يخطر ببالنا أن الصلاة والصوم والحجاب واللحية... هم أساس الدين، لكن ترى في القرآن أن الأمور الشخصية بينك وبينه تعالى من الأساسيات لك كفرد، مع العلم أنها مؤثرة على الآخرين لأنها تجعلك عاملاً للصالحات... ترى تركيز القرآن أكثر على التصرفات التي تتعلّق بالمجتمع من حول الشخص، ما بينك وبينه تعالى من أمور التزامك أنت شخصياً بالأمور التي تخصّك تحدّث عنها القرآن وحصرها بك من ناحية، وأراك أثرها على الآخرين لأنها هي الإعلان والضمانة لهم أنك من الملتزمين بدينه تعالى، بالتالي لديك ناموس تلتزم به، وبمعرفتهم لناموسك الصالح يتعاملون معك بالأمانة والزواج والشراكة... لكن التشديد القرآني الأكبر كان دائماً على مساعدة الآخرين، كصلة الأرحام والإنفاق على المحتاجين "الزكاة والصدقة..." ومعاملة بقية الناس بالحسنى والصلاح... أحيلك إلى قراءة سورة الماعون لتكون لك نموذجاً بارزاً عن عموم طريقة القرآن في الكلام معنا بالأمور الشخصية والعامّة.

(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{28})
{كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ}، هذا الكلام مع الذين لا يؤمنون بالله تعالى ولا برسله ولا بكتبه، وينقضون ويقطعون ويفسدون، كيف تنكرون ولا تعتقدون بالله، بصاحب هذا الاسم المميز المحدّد له كإله أحد خالق؟ كيف تنكرون دينه ورسله وكتبه...؟ كيف، وبأي حجة؟

{وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً}، فاقدين لحالة الفعل والتفاعل، فاقدين للوعي والفكر ولجسد مرتبط به يتحرك ويحسّ... هذه حالتنا قبل أن يخلقنا سبحانه، قبل أن نولد من أمهاتنا، {فَأَحْيَاكُمْ}، جعلكم كيانات تفعل وتتفاعل، جعل فيكم الوعي والإحساس... هذه حالتنا في الحياة الدنيا التي نحن فيها الآن، نعلم كلّنا أننا مررنا قبلها في حالة لم يكن لنا فيها كيان، وصفها القرآن بأننا لم نك شيئاً كما ورد في الآية 9 من سورة مريم {...وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}، هنا تصفها الآية بحالة الموت، بعدها صار لنا كيان حيّ وهو حالتنا الآن.

{ثُمَّ يُمِيتُكُمْ}، يعيدكم لحالة فقدان الفعل والتفاعل، يغيب وعينا، يتعطل جسدنا ويتحلل إلى تراب، {ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}، يعيده سبحانه مرة ثانية لكم حالة الفعل والتفاعل، {ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، بعد أن أحياكم في الآخرة ستعودون إليه تعالى، لن تنتقلوا إلى عالم لم يخلقه تعالى أو لا يسيطر عليه تعالى، أو يعيدكم تعالى إلى الحياة مثل حياتكم الدنيا حيث البلاء ليرى ما تفعلون... لا، بل كما نفهم من عموم القرآن سنرجع إليه تعالى ليحاسبنا ويجازينا، ترى تعابيرَ قرآنيةً عديدة بمعنى آيتنا هنا منها الآية 11 من سورة الروم {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}.

كيف تكفرون بالذي جعلكم أحياء؟ نفس هذا السؤال طرحه القرآن بعدة أشكال، منها: من الذي خلقكم؟ هل خلقتم أنفسكم؟ أو هكذا خرجتم من لا شيء من دون خالق؟ أو هكذا بالصدفة خرجت الحياة البشرية من الطبيعة من دون إله صمّم وخلق الطبيعة؟ كيف تفكرون بمن خلقكم ولا تطيعونه! وتكفرون به وبرسله وبكتبه...؟

أنتم تعلمون أنكم كنتم أمواتاً وصرتم أحياءَ وستموتون، ها يخبركم الذي جعلكم تمرّون في هذه المراحل أنكم ستعودون إلى الحياة، على أي أساس تكفرون به تعالى؟ بالتالي على أي أساس تفسقون لدرجة الكفر بدينه وكتبه وآخرته...؟ مع أنه من الواضح جداً أنكم تحت مسار قوّة إلهية تتحكّم بأساس أساس كيانكم.

ركّز القرآن مراراً على لفت انتباهنا للحياة كفضل منه تعالى علينا، أننا لم نحصل عليها ولن نحصل عليها إلا من قدرة من مستوى إلهي، هذا شيء من المفروض أن يدفعنا للإيمان به تعالى.

آيتنا هنا والعديد غيرها تعطي نفس المعنى، لأننا في حالة الصفر قبل تصميمه وخلقه تعالى للدنيا، لم نك نحن البشر شيئاً كما تعلم وكما قالت في الآية 67 من سورة مريم {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}، هذه الحالة يصفها تعالى بالموت لأنها حالة افتقاد الحياة، سواء كنت حيّاً وفقدت حياتك فأنت ميّت، أو كنت لا شيء ولم تكن حيّاً من قبل فأنت فاقد للحياة، فأنت ميّت. لدينا أيضاً حالة استثنائية بموت أناس هنا في الدنيا بجسدهم الطيني وانتقال حياتهم إلى شكل آخر وضمن الدنيا، قد ورد ذلك في الآية 169 من سورة آل عمران {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}، هؤلاء وبناء على مفاهيم القرآن نفترض أنه سيمر عليهم زمن يموتون فيه حين تتبدل السماوات والأرض ليقوموا من جديد في الآخرة من التراب، أقول نفترض ذلك لأني لم أجد تصريحاً قرآنياً خاصاً لهم عن حالتهم حين تتبدل السماوات والأرض، لكن الكلام القرآني عن قيامنا من موتنا في الآخرة دائماً عمومي للجميع وبشكل مشابه، مما يبدو أنهم ضمن الذين سيقومون من موتهم في الآخرة وهذا يعني أنه في زمن ما سيموتون تماماً فتنطبق عليهم الآية هنا مع البقية علماً أنه يبقى استثناؤهم وارداً لأن كلام الآية هنا ليس موجّها لهم.

لمزيد من التوسع حول حالة الموت والحياة وإعادة الحياة، راجع دراسة الآية 67 من سورة مريم {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{29})
{هُوَ الَّذِي خَلَقَ}، ألّف وركّب، {لَكُم} أيها الناس، {مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً}، من تراب وصخر ونبات وحيوان وظواهر من ليل ونهار وشتاء... مثلما كان السؤال عمّن خلقكم، البيئة التي أنتم فيها من خلقها؟ هي أيضاً لم تأت من الفراغ لوحدها، لم تتركب كما ترونها لوحدها، بل الله سبحانه صمّمها وخلقها بهذا الشكل وهذه الخصائص وهذه الظواهر.

نلاحظ أنّ كل ما في الأرض متاح لنا لاستخدامه، قد خلقه تعالى لنا، لكن كما نبّهتنا الكثير من الآيات، ممنوع الإسراف والتبذير والإفساد والتخريب في كل ما سنستعمله.

{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء}، صار الحال بشكل مناسب للتعامل مع السماء، من ناحيته تعالى دائماً في حالة مناسبة بسبب قدراته الفائقة جداً، لكن خلق الكائنات يقتضي المرور بمراحل، حين تهيّأت السماء للانتقال للمراحل التالية عندها استوى سبحانه إليها لم يهملها أو يتركها لغيره، وجّه أوامره تعالى لاستكمال تشكّلها. بتعبير آخر في مرحلة ما من استكمال خلق الأرض حصل استكمال لخلق السماء، هذا سبب استعمال "ثمّ" التي تفيد التشريك في هكذا حالات وليست حصراً للتراتبية، أثناء تشكّل الأرض اكتمل تشكّل بقية السماوات، استوى إليها تعالى حيث صار الحال مناسباً بينه تعالى وبينها لاستكمال تشكّلها، {فَسَوَّاهُنَّ}، صيّرهن بالتمام متناسبات مع ما يريده تعالى، صيّرهن {سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}،

هي تشمل السماء السابعة التي نفترض أن فيها الملائكة العالية (ع) وصولا إلى السماء التي فيها النجوم والمجرات ونسميها نحن بالكون...

{وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ}، من كيفية التصميم والخلق والتناسب بين ما خلق... {عَلِيمٌ}، لا أحد يعلّمه أو يعلم أكثر منه سبحانه، بعبارة قرآنية أخرى: هو تعالى أحسن الخالقين لأنه الأعلم بالتخطيط والتنفيذ.

الاستواء إلى السماء لا يعني كونه تعالى كان مهملاً لها أو غير متوجّه لها، ثم استوى إلى السماء، لا، لا تفهمها أنه تعالى أعلى من الكائن ونزل في المستوى حتى استوى "تساوى" مع الكائن وتعامل معه، لا، لا تفهمها بسذاجة أنه تعالى له جسم وغيّر توجّهه ووقفته ليستطيع التعامل مع السماء، لا، بل الاستواء هو وصف حالة التعامل معها، لأنه سبحانه يتعامل مع كل مخلوقاته باستمرار، لكن حين يخبرنا سبحانه عن تعامله بشكل محدّد مع كائن محدّد، لا يوجد تعبير آخر غير الاستواء إلى ذلك الكائن، نفس هذا المعنى يجري على التعبير الوصفي بوجه له تعالى، وجه الله، ويد الله... تصورها مثل محطّة إرسال تبث وكلّ اللواقط متواصلة معها، لكن لواحد من اللواقط قد خصّصت محطة البث برنامجاً خاصاً به. هنا الآية تخبرنا أنه تعالى ينفّذ مخططه لخلق الأرض وحان دور إكمال مخططه للسماء، استوى إلى السماء لتنفيذ تصميمه تعالى للسماوات.

طبعاً لا تَنْسَ أن سماءنا "كوننا" مخلوقة من المواد التي نعرفها من هيدورجين وهيليوم وكربون ونحاس... ومن أشياء أخرى نسميها الطاقة، ومن أشكال أخرى من المادة "نطلق عليها حالياً اسم المادة المظلمة والمادة المعتمة"، ربما في المستقبل تتغير هذه المعلومات... على كل حال، السماوات الأخرى ليست من نفس مادّة سمائنا، لسنا نراها حالياً...
الجنّ قد سبقونا في التنقّل بين تلك السماوات وصولا إلى سماء الملائكة (ع)، في المستقبل سوف يأتي دورنا للتنقّل بين تلك السماوات... راجع الآية 33 من سورة الرحمن، والآية 17 من سورة المؤمنون.

حتى ذلك الحين وازدياد معلوماتنا عن بقية السماوات تبقى الاحتمالات مفتوحة بالنسبة لنا لفهم اكتمالها سبعاً أثناء تكوّن الأرض، معلوماتنا الحالية تشير لعمر قصير لكوكب الأرض بالنسبة لعمر كوننا "السماء الأولى بالنسبة لنا"، علماً أن كوننا لم يتوقّف عن التشكيل بعد، وما زال متغيراً بولادة نجوم وموتها وولادة مجرات... لنفترض أن عمر الأرض أربعة مليارات سنة، ولنفترض أن عمر الكون ثلاثون ملياراً سنة، عندها سيخطر ببالنا أن بقية السماوات اكتمل تشكلها خلال الأربع مليارات سنة من عمر كوكب الأرض، هذا تقريباً متناسب مع كلام الآية هنا، لكنه لا يعني أن بقية السماوات لم تكن مشكلة وتشكلت، بل سوّاهن تعالى سبع سماوات، فكنّ في طور التشكّل مثلما كوننا المرئي لا يزال نشطاً يتشكّل.

الآن لنرى لماذا خلقنا الله تعالى، ولماذا أرسل لنا رسلاً وكتباً، ولماذا توجد جنة ونار... فيما يلي سنعرف أيضاً أنه الإله الحقيقي الوحيد، لأنه يخبرنا لماذا نحن موجودون، وما هو مصيرنا، نعرف الفرق بين الإله الحقيقي الذي يخبر عباده بما هو مطلوب منهم ومصيرهم، وبين الآلهة الوهمية، هيا لنرى لماذا خلقنا سبحانه، وماذا حصل في البداية:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{30})
هذا الطرح يعالج واحدة من أعمق الإشكاليات التي طالما تساءل عنها الكثيرون (كيف عرفت الملائكة بفساد البشر وسفكهم للدماء قبل خلق آدم؟)، واستنتاجك المنطقي من قوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ...} بأن الاصطفاء يقتضي وجود آخرين لِيُصطفى منهم، هو استنتاج دقيق وعقلاني جداً ينسجم مع الآيات ويرفع اللبس عن مسألة "أول بشري".

لقد تابعت تطبيق منهجيتنا على المقطع: حافظت على الفقرات تماماً، حذفت وخففت أدوات العطف (الواو، الفاء) في بدايات الجمل لمنحها استقلالية وقوة، أدرجت الألفاظ والآيات القرآنية بين الأقواس { }، وقمت بضبط بعض الهفوات النحوية والإملائية (مثل جزم الفعل "تَنْسَ"، إثبات النون في "تعلمونها"، ضبط تنوين النصب كـ "عدوانياً"، وتصحيح العطف في "الصالحون").

تعيدنا السورة إلى ما قبل أن يصير منّا مؤمنون ومنافقون وفاسقون وكافرون، تعيدنا إلى أوّل ما شاء تعالى أن يجعل منّا خلفاء له، إلى أوّل من تأهّل منّا ليكون خليفةً، كمؤمن صالح... لنتابع:

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ}، إذ قال المسؤول عنك من مستوى إلهي للمخلوقات من نوع الملائكة (ع)، التي "تملك" صفات وقدرات مميزة، أهمّها أنها لا تعصيه تعالى أبداً، تطيعه وتنفذ أوامره بدقة وبدون تأخّر كما تفهم من عموم القرآن ومنه الآية 6 من سورة التحريم {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}، هم مثلنا ومثل أي مخلوق من حيث لا يتحمّلون ولا يستطيعون التواصل معه تعالى بشكل مباشر، هذا القول الذي قاله تعالى لهم والذي تنقله الآية هنا، كان من وراء حجاب كما تفهم من عموم كلام القرآن عن تواصله تعالى مع عموم المخلوقات، بالنسبة للملائكة (ع) ترى ذلك صريحاً في الآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ...}.

تذكّر دائماً أن لفظة "ملائكة" مؤنثة، مثل كلمة: الشمس البيوت الرجال... لفظها مؤنث، ونقول لها "هذه"، لا تدل على أنوثة حقيقية لتلك الأشياء، بل هو تأنيث لفظي، الملائكة (ع) بما نعلمه من القرآن "ومن التراث الديني" لا تتكاثر ولا تتزاوج وليس لديها شهوات... أصلاً لا معنى للذكورة والأنوثة بالنسبة لتكوينهم.

هل آدم (ع) أوّل بشري؟

قال ربنا سبحانه وتعالى للملائكة (ع):

{إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ}، سأعيّن وأحدّد في الأرض، {خَلِيفَةً}، من سيكون له صفة معنوية مرتبطة بي، من يخلفني ويكون ممثلاً لي على الأرض. تفهم كلمة "خليفة" مثل أي كلمة أخرى تتحمّل التدرّج في معناها، خليفة رئيس العشيرة سيقوم بمهام رئاسة العشيرة، وخليفة رسول الله (ع) يقوم بمهامه بدلاً منه، وخليفته تعالى هي تنفيذ دينه تعالى على نفس المخلّف وعلى الآخرين، قد ورد هذا اللفظ بهذا المعنى الصريح في الآية 26 من سورة ص حين وصفت النبي داوود (ع) بأنه خليفة له تعالى في الأرض {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ...}، بتعبيرنا الدارج وصفته كممثّل لدينه تعالى بين الناس.

لا تَنْسَ أننا بنظره تعالى كلّنا من المفروض أن نمثّله تعالى على الأرض، هذا ما تجده هنا وهناك في مختلف آيات القرآن، تحديده تعالى لشخص "غيري" كخليفة، لا يعني أني لا يجب عليّ أنا التحلّي بالصفات اللائقة لأكون خليفةً، لأننا أنت وأنا "على كلّ حال" مكلّفون باتباع دينه تعالى بالحرف وبدقة، حيث كلّنا في الأساس مشروع خليفة له تعالى، البعض منّا "الأنبياء والرسل والصالحون..." حافظوا على صفات الخلقة الإلهية الموجودة فيهم والتي أشارت لها الآية 4 من سورة التين {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}، وبقوا لائقين بوصفهم كخلفاء له تعالى.

استغربت الملائكة (ع)، {قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا}، هل تحدّد في الأرض خليفةً، "من البشر"، {مَن يُفْسِدُ فِيهَا}، من يقوم بأعمال موصوفة بأنها فاسدة غير صالحة، {وَيَسْفِكُ الدِّمَاء}، يجعل الدم مسفوكاً فيسيل من جسدهم على الأرض، الذين تقول سبحانك أنك ستجعل منهم خليفةً، هم يقتلون بعضهم وهذا من أفظع الجرائم، ويقومون بالأعمال الفاسدة الأخرى، أوتجعل منهم خليفةً لك في الأرض، يمثّل اسمك!؟

{وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ}، نسبّح فننزهك من كل الصفات السيئة الباطلة، نبتعد عن وصفك بأمور معيبة، بحمدك، نعترف بأن كل أعمالك حميدة جيدة، لا ننسب لك أي صفة تدل على أنك قمت بعمل سيئ، بل ننزهك ونعتقد بأن أعمالك كلّها جيدة.

{وَنُقَدِّسُ لَكَ}، نؤمن بأن مكانتك عالية، نعبّر لك عن إيماننا بمكانتك العالية، هل هناك أفضل منّا؟ نحن بهذه الصفات التي فينا نرى أنفسنا لائقين أكثر من البشر لمكانة خليفة لك.

أجابهم سبحانه: {قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}، هناك معلومات عندي لا تعلمونها، بناء على هذه المعلومات جعلت من البشر خليفةً لي على الأرض.

بوضوح ترى الملائكة (ع) تتحدث عن البشر، وهي تراهم يفسدون في الأرض ويقتلون بعضهم البعض، لأنها تعرفهم، هي لا تتحدث عن شيء سيحصل في المستقبل، وإلاّ لعلموا بما سيأتي من معلومات عن البشر الأطهار الذين يستحقون أن يكونوا خلفاء، هذا ما يعلمه تعالى وهم لا يعلمونه {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}. إذًا ومن دون شك كان هناك بشر غير آدم (ع)، وكان سلوكهم عدوانياً بشكل عام أو بعضهم عدوانياً لدرجة إلحاق الضرر الجسدي والقتل بالآخرين من البشر، يؤيّد ذلك ما ورد في الآية 33 من سورة آل عمران عن اصطفاء آدم (ع) ليكون الأنبياء من ذريّته، {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}، الاصطفاء هو تحديد المميّز من بين أشياء. بناء عليه يكون آدم (ع) أول بشري تأهّل ليتكلّف بالأوامر الإلهية، من سبقه وعاصره من البشر لم يصل ولا واحد منهم إلى المستوى المطلوب من سلامة القلب حتى يتواصل سبحانه معه...

تلاحظ الأدب الإلهي، حيث إله بقدرات فائقة بعيدة كلّ البعد وتفوق كل قدرات كل المخلوقات بشكل لا مقارنة فيه بتاتاً، رغم ذلك لم يقل سبحانه لملائكته (ع): هذا قراري ولا نقاش فيه ولست مضطراً لأشرح لكم. لا، بل ترى أخذاً ورداً سببه طبيعة الصفات الفائقة له عزّ وجلّ، الحكيم الذي لا يعبث، العليم الذي يعلم الغيب كلّه، الحليم الذي ليس لديه أي سبب ليستعجل في أي شيء... العزيز الذي لا يمكن لأي أحد أن يفرض عليه أي شيء... لماذا لن يجيبهم سبحانه طالما هو سبحانه بهذه الصفات الفائقة التي تتضمّن أدباً وخلقاً من مستوى إلهي، أخاف إن لم أكن دقيقاً في التعبير عن صفاته تعالى فيما يتعلّق بالأخلاق والأدب، أظن أنّ ما قلته كافٍ لك ليبقى في ذهنك دائماً نوعية صفاته العالية سبحانه أثناء قراءتك للقرآن، سترى نموذجاً آخر مماثلاً بعد قليل عندما تقرأ كيف تعامل سبحانه مع إبليس حين عصاه... هذا المبدأ أصلاً منتشر بوضوح حتى في كلامه معنا نحن سبحانه حين لا يكتفي بفرض دينه علينا بل يزودنا بالأدلة والتبريرات والشروحات... لكل ما يقوله عن نفسه وقراراته وتشريعاته.

بالنسبة للتوسّع في موضوع آلية بداية خلقة البشر، أحيلك إلى الآية 26 من سورة الحجر. مختصراً هنا ألفت انتباهك للفرق بين كلامه تعالى وبين ما درج في ثقافتنا الدينية، حيث ورثنا ممن سبقنا من أهل الكتاب الكثير من تفسيراتهم لكلامه تعالى، تماشينا معها لنفس السبب الذي أوقعهم في تفسيراتهم غير الصحيحة، كانت تفسيراتهم لكلامه تعالى عن آدم (ع) تبدو جيدة لهم وبقيت تبدو جيدة لنا لأننا لم نجد تفاسيرَ أخرى أنسب، لأن السؤال عن كيف بدأت الحياة البشرية، كان جوابنا مثل جواب أهل الكتاب عليه، أن آدم (ع) أول بشري، قد خلقه تعالى مباشرة من تمثال طين نفخ فيه فصار فوراً من لحم ودم... لم يكن للآخرين في حينها من المشركين والملحدين أي جواب نهائياً عن ذلك... تعدّدت الآراء حول خلق زوجة لأوّل بشري، الغالبية أعجبهم أنها خلقت من ضلع من صدر آدم (ع)، لهم فرضيات مختلفة حول نشأة بقية الحيوانات... بعضهم لم ينتبهوا أن السؤال عن نشأة الكائنات يمتد ليصل إلى النباتات...

من هذه التفسيرات وصلنا إلى مسألة تزويج أبناء آدم (ع) من أخواتهم... أو من الجنّ، أو من حوريات من الجنّة...

يكفيك هذا المقدار الذي وبضبابية ربما تعتقد أنه كلامه تعالى، لكن هذا القرآن كلامه تعالى أمامك ولا تجد فيه ذلك، إنما هي تخمينات ولا مشكلة في ذلك، لكن المشكلة في رفع قيمة التخمينات وتثبيت صحّتها لدرجة القداسة على أنها دينه تعالى ومعاني كلامه، هذه هي المشكلة بدلاً من القول صراحةً إنها تخمينات.

ها صرت ترى الفرق بين كلامه تعالى وبين كلام المفسرين له، لست بصدد تسخيف تفسيراتنا أو تفسيرات اليهود والنصارى لكلامه تعالى عن آدم (ع) وعن خلق حواء من ضلعه، وعن تزويج أولاده من أخواتهم أو من حوريات الجنّة!... في حينها كانت هذه التفسيرات تبدو منطقية للجميع، بل كانت تبدو كالفيزياء الكمومية في تقدمها العلمي أمام الآخرين من غير المنتمين لدينه تعالى والذين لم يكن لديهم أي تفسير آخر لنشأة الإنسان...

أكرر لك، لا مشكلة في أي فرضية، مهما تقدمت علومنا سنبقى أطفالاً نخدش سطح المعرفة، سنسقط هنا وهناك، نتعثّر محاولين تعلّم المشي... لكن المشكلة في تقديس الفرضيات القديمة مانعين طرح فرضيات جديدة، ها أمامك آيتنا هنا في تفسير كلماتها على طبيعتها، لترى منها كلامه تعالى بشكل صافٍ، ها تقرأ أن الملائكة يرون بشراً يقتلون بعضهم البعض، ومنهم تأهّل شخص ليتكلّف بدينه تعالى، بعد هذا الكلام الأساسي، تأتي الفرضيات المفتوحة لنا لاكتشافها

للتعرّف على آليات خلقه تعالى للبشر... لا مشكلة في افتراض النشوء والارتقاء "التطوّر"، ولا مشكلة في فرضية تشكّل الدنا "DNA" في نيزك من الفضاء...

بقي شيء، بناءً على ما سبق هنا وعلى عموم كلام القرآن، لدينا احتمال أن يكون آدم (ع) جدّاً لبعض البشر الحاليين والبقية ليسوا من أولاده، إن فرضنا أن ذريته وحدها نجت عبر التاريخ فيكون (ع) جدّاً لكل البشر الحاليين، ما بين أيدينا من معطيات قرآنية لم أجد منها ما يحسم هذا الفضول، تعبير الآية 27 من سورة الأعراف بعبارة "يا بني آدم" {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ...} ليس بالضرورة أن يكون موجّهاً لجميع البشر، مثلها مثل حالة عبارة "بني إسرائيل" الواردة في الآية 76 من سورة النمل {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} لأن هذا القرآن يقصّ أيضاً على عموم بقية اليهود والمسيحيين... نفس الشيء في الآية 23 من سورة السجدة {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ} كتاب التوراة هدى للعالمين، لو عبّر القرآن صراحةً عن كون آدم (ع) "والداً" للبشر "لنا"، لفهمنا صراحةً أن بقية البشر انقرضوا، لكنه عبّر بالأب، هذا الوصف لا يعني أبداً أنه الوالد...

الآن نأتي إلى مسألة مرتبطة بذلك، لو كان الطوفان الذي جرى في عهد النبي نوح (ع) عالمياً شاملاً لكل وجه الأرض، أو كان في بقعة كبيرة ولكنه ترك أثراً سبّب كارثة بيئية قاتلة لكل البشر على كل الأرض، نضمّ ذلك مع ما ورد في الآية 77 من سورة الصافات {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} لَفهمنا أنّه فيما بعد هذه المرحلة كل البشر الحاليين من ذرية النبي نوح (ع)، لكن لا معطيات كافية لديّ من القرآن لحسم هذه المسألة، ليس واضحاً إن كنّا كلنا الحاليين من ولد آدم (ع) ولا واضحاً إن كنّا كلنا من ولد النبي نوح (ع)، أصلاً هذه المسألة مجرد فضول، هي مفتوحة على كل الاحتمالات ومتروكة للبحث التاريخي الآثاري والبيولوجي وخصوصاً علم الجينات أو أي علم آخر حالي أو جديد لتحديد القرابة بين البشر.

أثناء بحثك فيما سبق، ضع في بالك أنّ تقديرات المنتمين لدينه تعالى للبعد الزمني بيننا وبين النبي نوح وآدم، هي مجرد تخمين وليست دقيقةً، بل شخصياً لا أظنّه كذلك، وأعتقد أنه أبعد بكثير مما يخمّنون.

(وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{31})
كي يبيّن سبحانه للملائكة (ع) أن البشر يوجد منهم من يستحق منصب الخلافة الإلهية:

{وَعَلَّمَ}، ربنا سبحانه، {آدَمَ الأَسْمَاء}، سياق الكلام عن الذين سيكونون خلفاء فهي أسماء أبنائه المتأهلين ليكونوا خلفاء، وهي أسماء الأنبياء والأوصياء والصالحين... {كُلَّهَا}، صار آدم (ع) يعرف أسماءهم كلّهم إلى آخر حياة البشرية.

{ثُمَّ عَرَضَهُمْ}، أظهر سبحانه على الملائكة (ع) أصحاب تلك الأسماء الذين هم محور الاهتمام لكونهم الخلفاء.

من سياق الكلام تعلم أنه يبدو "وبشكل ليس لدينا تفاصيل عنه"، أن ما تمّ عرضه على الملائكة يبيّن أن المعروضين فيهم مواصفات إيمانية عالية، وليس واضحاً للملائكة أنهم سيكونون من البشر، أمّا كيف حصل عرضهم ومما تشكّلوا وهم لم يولدوا بعد... وكيف علمت الملائكة (ع) أنهم بصفات عالية... ليس لدينا أي تفصيل قرآني صريح. من مخزون ثقافتنا الدينية لوصف حدث كهذا نستعمل كلمة أنوار على أساس أنها كلمة لتوصيف ما نجهل توصيفه بطريقة أخرى، ولتوصيف ما ليس من المادة التي نتكوّن نحن منها... نقول المعروضين كانوا أنواراً... وبنفس الطريقة نعبّر عن تكوين الملائكة في تراثنا الديني قائلين عنهم أنواراً... لكن هذا مجرد تعبير لا يساعد على التصوّر ولا يستند إلى أي كلام قرآني صريح.

{فَقَالَ} سبحانه للملائكة (ع):

{أَنبِئُونِي}، أخبروني بشيء علمه غير منتشر، {بِأَسْمَاء هَؤُلاء}، يبدو واضحاً أن الملائكة (ع) يرون أمامهم كائنات مميزة تستحقّ منصب الخلافة، وليس واضحاً أنهم من البشر ومن ذرية آدم (ع)، هل تعرفونهم من هم وما هي

أسماؤهم؟ {إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، في استغرابكم لتعييني من البشر خليفةً، مما يعني أنكم تظنون أنكم تعرفون معلومات كثيرة تؤهلكم حتى تقترحوا عليّ شيئاً غير الذي أقوله.

عندما استغربتم اختياري من البشر خليفةً، وطلبتم حصولكم أنتم على هذا الشرف، مما يعني أنكم ظننتم أن معلوماتكم حول عموم الكائنات كافية لتستغربوا قراري لأنكم ترون البشر يفسدون ويسفكون الدماء، واقترحتم أنه كان من الأفضل اختياركم أنتم كخلفاء، إذا كنتم صادقين في هذا الاستغراب والطلب، عندها أخبروني بأسماء هؤلاء الذين ترونهم بشكل واضح أنهم أفضل منكم، هل هم منكم، من الملائكة؟ من الجنّ؟ من البشر؟ وهل تعرفونهم؟

مختلف المدارس الفكرية الإسلامية مع الزمن تراكم لديها نظريات متعددة لتفسير كلامه تعالى على أسس مترابطة لكل واحد منهم، بعضهم يقول بأننا كلّنا كنّا شيئاً ما قبل ولادتنا في الدنيا، لديهم تعابير متنوّعة ومختلفة عن ذلك، حيث بعضهم يسمّيه بعالم الذرّ رابطين ذلك بالآية 172 من سورة الأعراف {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ}، وبعضهم يسميه بعالم الأنوار، وبعضهم لديهم كلام عن الطينة... بعضهم استخدم المصطلحات الفلسفية اليونانية عن عالم المثال والأشباح والجواهر والهيولى... وغير ذلك من الأقوال التي نسجوا للبعض منه ربطاً مع بعض الآيات القرآنية، ستجده غير صحيح لو راجعت دراستها في دراستنا هذه.

لأن كلام القرآن الواضح الصريح يقول بأننا لم نك شيئاً وخلقنا تعالى، وكنّا أمواتاً وخلقنا، قبل توالدنا من أبوينا كنّا لا شيء.

أمّا الحالة التي تتحدّث عنها الآية هنا، نرى اكتفاء القرآن بالاختصار الشديد الذي تفهم منه فقط أن المعروضين يظهر عليهم علامة الإيمان العالي جداً، وأنهم هم أصحاب الأسماء التي تدل على أنهم من ذرية آدم (ع) كما ستقول الآية بعد التالية، هذا فقط لا غير. أما ما قالوه من تحاليل عن ذلك فهو تخمينات، أقربها للقرآن أن قراره تعالى بخلق الدنيا والآخرة تقارن مع علمه تعالى بكل ما سيحدث فيهما بالتفصيل، ومن ضمنه علمه تعالى بالمؤمنين من الدرجة العالية من البشر، أي شيء سيصير مخلوقاً فكل المعلومات عنه مسجلة في كتاب، قد مرّ معك ذلك في دراسة أول آية من هذه السورة، بالتحليل نقول إنّ عرضه تعالى لتلك المعلومات "بشكل ما" عن البشر المميزين إيمانياً، صاروا معروضين للملائكة (ع) بحيث يرون أنهم مميزون جداً ولا يبدو لهم أنهم من أبناء آدم (ع).

(قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ{32})
الملائكة (ع) بعد رؤيتهم لتلك المعروضات أصحاب الأسماء، يبدو واضحاً تأكدهم "بطريقة لم تذكرها الآيات" بأنها كائنات مميّزة جداً إيمانياً، ويبدو أنهم مميزون عن الملائكة ومؤهلون ليكونوا خليفةً له تعالى، ولم يعرفوا من هم، ولا أنهم سيكونون من البشر من ذرية آدم (ع)، قالوا:

{سُبْحَانَكَ}، ننزهك من كل الصفات السيئة، {لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا}، العلم الذي منحته لنا محدود ولم يتضمّن معرفتنا بهذه الكائنات الراقية لنخبرك بأسمائهم، أنت سبّوح أي منزّه عن النقص في كل شيء، ومنزّه عن النقص في المعلومات بينما نحن لسنا منزّهين عن ذلك، ها أمامنا شيء معروض لا نعلم اسمه، {إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ}، أنت الذي يعلم كل شيء، ونحن علمنا محدود، وأنت، {الْحَكِيمُ}، ترى الصوابية في الأمور وقراراتك وأفعالك كلها على الصوابية، لا تعبث ولا تلعب قراراتك وأفعالك كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، بالتساهل نقول بأن أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، لأنه لا يفعل لغاية له سبحانه.

سياق الكلام هنا عن استغرابهم لجعله تعالى خليفة من البشر، وبعدها عرضه تعالى عليهم أشياء يجهلون أسماءها، أكيد لهم ارتباط بقرار جعله تعالى من البشر خليفةً، هكذا تأتي آيتنا هنا كتبرير منهم لاستغرابهم لأنهم وبحسب المعطيات التي أمامهم ويرونها من تصرفات البشر يقتلون ويفسدون... خرجوا بنتيجة انتفاء استحقاق البشر للخلافة الإلهية، يبدو واضحاً أنه تعالى يريهم سبب قراره، يريهم كائنات يبدو واضحاً أنها مميزة جداً إيمانياً، هذا واضح للملائكة (ع) التي لم ترهم من قبل، أو رأتهم من قبل ولم تعلم بأنهم سيكونون من ذرية آدم (ع)...

نكرّر الكلام عن طريقة تعاطيه تعالى مع مخلوقاته بشفافية وصراحة وبحسب قدراتهم "مستواهم كمخلوقات محدودة القدرات"، حيث القرآن مشحون كلّه بذلك، كمثال عليه كلامه تعالى مع إبليس سائلاً له عن سبب رفضه السجود لآدم (ع)... وكمثال عليه براهينه تعالى لنا أنه الإله الواحد الأحد، وتشريعاته التي برّر لها، وقبل ذلك كلّه براهينه لنا أن تصميمه وخلقه للدنيا والآخرة كان حكيماً وحقاً...

(قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ{33})
{قَالَ يَا آدَمُ}، قال الله تعالى لآدم (ع): {أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ}، أسماء هؤلاء غير معلومة فقم بإخبار الملائكة (ع) بها. {فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ}، عندما أخبر آدم (ع) الملائكة (ع) بأسماء تلك الكائنات التي يجهلون من هي، وكما يبدو فإنه (ع) قال لهم: هذا ابني، وهذا ابن ابني... سياق الكلام عن شرحه تعالى للملائكة سبب اختياره الخليفة من البشر، حتى يرى الملائكة أنهم لو كانوا يعلمون ما يعلمه تعالى لما استغربوا ذلك.

قال سبحانه للملائكة (ع): {أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ}، وغيب، {وَالأَرْضِ}، كل ما غاب عن الآخرين وحصل في السابق، وكل ما يحصل الآن، وكل ما سيحصل في المستقبل فإني أعلمه، سواء كان في السماوات السبع الواسعة جداً جداً، أو في الأرض.

{وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ}، أعلم ما يظهر منكم إذا تحدثتم أو فعلتم شيئاً ما، {وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ}، أعلم بما في سرّكم وفي ضمائركم وأبقيتموه داخلكم، قد كنتم تقولون في أنفسكم إنكم الأفضل من بين مخلوقاتي، وكنت أعلم ذلك، بالنسبة لكل بقية المخلوقات فبعلمه تعالى بكل شيء اختار من البشر من يكون له تعالى خليفةً لأنه تعالى رأى أنهم المؤهلون لذلك.

ننتبه جيداً، يبدو أن إبليس كان حاضراً حين حصل هذا العرض، ومن هذا العرض علم إبليس بوجود أناس مخلصين من ذريّة آدم (ع) وبدرجة عالية جداً تفوق إخلاص بقيّة الكائنات، كل ما تقرؤونه في القرآن عن إبليس حينما يقول بأنه سيغوي كل الناس إلا المخلصين، المعلومات التي عنده عن المخلصين يبدو أنها من هذه الحادثة هنا، حيث رأى المخلصين، وعلم أنه يستحيل عليه غوايتهم.

التفاسير والكتب تجد فيها كلاماً كثيراً حول الأسماء وما تمّ عرضه، الغريب أن أكثر كلامهم لا يتماشى مع ما تقوله الآيات، كيف يتماشى تفسيرهم للأسماء بأنه تعليم اللغة لآدم (ع)! أو تعليمه أسماء الحيوانات والأشياء... ما دخل هذا مع موضوع الخلافة والعرض على الملائكة (ع)! إذا قرأت أو سمعت هذا الكلام أو غيره فانتبه لبعده عن موضوع الآيات.

بقي شيء، القرآن لم يذكر آدم (ع) بوصف النبوّة، وبناءً عليه لم نذكره في دراستنا بهذا الوصف.

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ{34})
{وَإِذْ قُلْنَا}، قال تعالى، {لِلْمَلاَئِكَةِ} (ع): {اسْجُدُواْ لآدَمَ}، عبّروا عن احترامكم لآدم (ع) بما يمثّله هو وبعض ذريته من مكانة عالية عندي. {فَسَجَدُواْ}، استجابوا وعبّروا عن احترامهم لآدم (ع) بطريقة تناسب طبيعة تكوين الملائكة (ع). هذا الكلام عن سجود الملائكة عمق يريك أنهم كائنات تتمتّع بحرية الإرادة، يمكنها الرفض وألا تسجد، لكنهم دائماً مطيعون له تعالى وهذا معنى مدح القرآن لهم بالكرام والبررة والأمانة، الأمر لهم بالسجود وطاعتهم بفعله ليس تحصيل حاصل لأنهم مبرمجون على طاعته تعالى، لا، ليس لأنهم بلا شهوات وغرائز، هم يفتقدون ما نتمتع به نحن من حواس ورغبات نريد إشباعها مما نتج عن خلقتنا من طين، لكنهم كما يبدو واضحاً فيما نسمّيه بالجانب النفسي هم مثلنا، يحبون ويكرهون ويمكنهم التكبّر...

{إِلاَّ إِبْلِيسَ}، فقط الذي اسمه إبليس، {أَبَى}، رفض بشدّة، لم يسجد تعبيراً عن احترامه لآدم (ع)، {وَاسْتَكْبَرَ}، اعتبر نفسه أكبر من السجود لآدم الذي يراه أصغر منه بالقيمة، {وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}، من المنكرين لطاعة ربه سبحانه.

نعرف من الآية 50 من سورة الكهف {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} واضحاً أنه لم يكن من الملائكة (ع)، بل كان من الجنّ، نعلم من القرآن أيضاً أن الجنّ يمكنهم الانتقال إلى سماء الملائكة (ع)، قد صاروا ممنوعين من الاقتراب منها وصارت الملائكة (ع) ترجمهم إذا حاولوا الاقتراب من السماء العالية، راجع كمثال ما ورد في الآيات 17 و 18 من سورة الحجر {وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ، إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ} ... إبليس حين حدثت حادثة السجود لآدم (ع) كان يصعد إلى سماء الملائكة (ع) ويقضي وقتاً هناك، عندما صدر الأمر بالسجود لآدم (ع)، كان إبليس هناك في سماء الملائكة (ع)، ولم يسجد.

هنا الآيات لم تتحدث بالتفصيل عما جرى بين ربنا سبحانه وإبليس، لأنها أرادت التركيز على الإشارة لسبب عداوة إبليس لنا.

ربما تفكر وتقول: طالما إبليس ليس من الملائكة (ع)، والأمر صدر للملائكة (ع) بالسجود لآدم (ع)، إذًا إبليس ليس واجباً عليه السجود، لأنه من الجنّ وليس من الملائكة (ع)، لكننا نجد في سورة الأعراف في الآية 12 أن الأمر الإلهي شمل إبليس بالسجود، {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}، مما يعني أن الأمر أصلاً صدر للملائكة (ع) وبما أن إبليس كان بينهم ويعتبر نفسه من المقربين منه تعالى مثل الملائكة (ع) من هذه الناحية شمله الأمر بالسجود.

الواضح من كلام إبليس أنه كان يظن نفسه من المؤمنين من أعلى الدرجات، عاش بين الملائكة العالية (ع) يعبد ويسبّح ويحمد... على أساس أنه من مرتبتهم "أو يظن نفسه أعلى منهم إيمانياً!" هذا يتوافق مع المشهور في ثقافتنا الدينية عن إبليس... إلى أن صدر الأمر للملائكة (ع) بالسجود وكان إبليس بينهم، ورفض الاستجابة! تلاحظ أنه حتى إبليس لم يبرّر بأنه لم يسجد لأنه ليس من الملائكة (ع)، الأمر الإلهي صدر وسجد كل من في تلك السماء، كلّهم ملائكة (ع) وليس بينهم إلا إبليس أجنبياً، يمكنك أن تتصور "تتخايل" مشهد سجود كل الملائكة (ع) وبقاء إبليس في وسطهم واقِفاً! هكذا لوحده لم يسجد! من الطبيعي أن يسأله ربنا سبحانه: لماذا لم تسجد إذ أمرتك؟ أنت هنا على أساس أنك من الذين يطيعونني دوماً، وعلى أساس أنك مثلهم ولذلك أنت الآن بينهم، لماذا لم تسجد...؟

أمّا بالنسبة لكيفية سجود الملائكة (ع)، نحن نسجد عندما نقرّب وجهنا كثيراً من الأرض أو حين نضع جبهتنا على الأرض، لكن الملائكة (ع) لا تشبهنا في شكلها ولا في تكوينها كما تعلم، طالما لا يمكننا رؤية الملائكة (ع) الآن، ولا نعلم كيف شكلها، وأصلاً الآن لا يمكننا تصوّر شكلها وهيئتها، يكفينا أن نعلم أنها قامت بتعبير "ما" يسمّى سجوداً.

لا تَنْسَ أن السجود تعبير له تدرجات من الاحترام الشديد إلى الخضوع والطاعة، سجود الملائكة (ع) لآدم (ع) طبعاً ليس سجود عبادة لآدم (ع) بل أمر إلهي لهم بالتعبير عن شدّة احترامهم لما يمثّله آدم (ع) من خلافة له تعالى، كحالة سجود أهل النبي يوسف (ع) له كما ورد في الآية 100 من سورة يوسف {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ...}.

نعرف من سور أخرى من القرآن أن محاورة جرت بين ربنا سبحانه وبين إبليس، أعلن على أثرها إبليس أنه سيبرهن لله تعالى أن البشر لا يستحقون أن يسجد لهم، سيغويهم ليخالفوا أوامره تعالى، وسيطيعونه، التركيز هنا في السورة فقط على عداوة إبليس لنا على إثر تحديد البشر من نسل آدم (ع) كخلفاء له تعالى في الأرض، سنرى في الآيات التالية أوّل عمل شيطاني قام به إبليس مع البشر.

(وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ{35})

{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ}، ليكن مسكنك حيث تقيم، {أَنتَ وَزَوْجُكَ}، قرينتك "زوجتك"، {الْجَنَّةَ}، المكان الموصوف بروعته، نفترض أن مناظره الطبيعية جميلة والرزق متوافر فيه.

هناك كلام كثير في الكتب عن مكان هذه الجنّة، حتى قيل إنها نفس الجنّة التي يخلد فيها المؤمنون في الآخرة! هذا كلام عجيب لأن جنّة الآخرة في الآخرة التي تأتي بعد انتهاء الأولى وتتبدّل السماوات والأرض، في زمن آدم (ع) لم تكن

موجودة، ولا الآن هي موجودة، الجنّة التي تتحدّث عنها الآية هنا كانت في مكان ما على الأرض التي نعيش عليها الآن، راجع الآيات التي تدفعك للاعتقاد أنها لم تكن على الأرض لترى دراستها...

كلمة جنة شبه اختفت من أدبياتنا لوصف أماكن رائعة على الأرض، إذا استعملناها لذلك ظننا أننا نستعير الكلمة لأنها بالأصل لجنّة الآخرة! لا زلنا نستعمل المصغّر منها "جنينة"، علماً أن القرآن مراراً استعمل وصف الجنّة لأماكن على الأرض ومنها ما ورد في الآية 15 من سورة سبأ {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ...} وما ورد في الآية 17 من سورة القلم {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ} وغيرها.

تذكّر دائماً أن القرآن لم يذكر اسم زوجة آدم (ع)، بينما المشهور في ثقافة المتدينين أن اسمها: حواء. هو اسم ورد في الروايات وفي كتب اليهود والمسيحيين.

نرجع للآية، {وَكُلاَ مِنْهَا}، مسموح لكما الأكل مما فيها، {رَغَداً}، الأكل متوافر فيها بكثرة وبنوعية جيدة، {حَيْثُ شِئْتُمَا}، يمكنكما أكل أي شيء من أي مكان فيها، {وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ}، سياق الكلام معهما عن الأكل، يكون النهي عن الاقتراب من هذه الشجرة المحدّدة حتى لا يأكلا منها، كشجرة واحدة لا توجد شجرة ثانية مثلها أو الإشارة لنوعية الشجرة ليكون المنع من الاقتراب من هذه النوعية من الشجر، ممنوع الأكل منها، إذا أكلتما منها، {فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}، من الموصوفين بأنهم لم يكونوا عادلين أو منصفين، ليس معكما حقّ بالأكل من هذه الشجرة طالما أكل كل الجنّة مباح لكما وهو يغنيكما عن الأكل من هذه الشجرة، وطالما الذي أتاح لكما هذه الجنّة يأمركما ألا تأكلا فقط من هذه الشجرة.

نعلم من بقية القرآن أنهما سيكونان ظالمين أيضاً لسبب آخر إن أكلا منها، لأنها ستسبب لهما ما يجعلهما ينزعان عنهما ثيابهما، بالتحليل قلنا إنهما فقدا وعيهما وخلعا عنهما ثيابهما وتجولا من دون ثياب في الجنة إلى حين استفاقا وشاهدا نفسيهما عاريين ولا ثياب بقربهما... راجع الآية 22 من سورة الأعراف {فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ...}، والآية 121 من سورة طه {فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى}، من الواضح أن الأكل من تلك الشجرة له تأثير عقلي ونفسي، نشبّهه بأثر تناول بعض أنواع المخدرات النباتية التي تختلف في تأثيراتها على البشر، حيث باختلاف المواد فيها يختلف أثرها، منها ما يسبب الضحك، ومنها ما يسبب الاكتئاب، أو العنف أو التكلّم بكثرة أو تفعيل الشهوات...

تذكّر دائماً أن تواصله تعالى مع أي مخلوق لا يمكن أن يتمّ بشكل مباشر، بسبب الفرق الهائل جداً جداً بينه تعالى وبين المخلوقين، في الآية 51 من سورة الشورى نرى تصريحاً بأنه تعالى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ...}. الآيات التي تتحدث عن آدم (ع) قد نشعر بأن الكلام مباشر بينه تعالى وبين آدم (ع)، نفس الشعور يحصل عندما نقرأ عن كلامه تعالى مع الملائكة (ع) وإبليس، لكن هذا غير صحيح، لمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 51 من سورة الشورى.

بقي شيء، ما في التراث الديني لعموم أهل الكتاب وعموم المسلمين يشير إلى خلق زوجة آدم (ع) من ضلعه، هذا ما لا تجد له أي أثر من القرآن، قد سبق في الآية 33 كلام عن سلوكيات بشر آخرين قبل آدم (ع)، منه نفترض بسهولة أن زوجة آدم كانت من البشر المعاصرين له. بالنسبة للتوسّع في موضوع بداية خلقة آدم (ع) وزوجته أحيلك إلى الآية 26 من سورة الحجر، لتفاصيل أكثر راجع الآية 45 من سورة النجم، بالنسبة لمزيد من التوسّع حول ما جرى في تلك الجنّة راجع دراسة الآيات من بعد الآية 19 من سورة الأعراف ستجد هناك عرض القرآن تفاصيل أوسع عن هذه الحادثة.

(فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ{36})

{فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ}، الشيطان وصف لعموم من يقوم بأعمال ضالّة لنفسه أو للآخرين، والوصف هنا بالشيطنة يشير لإبليس الذي أزلّ آدم (ع) وزوجته، من سياق الكلام تعلم أن إبليس أزلّهما فلم يتركهما يثبتان على ما أمرهما به تعالى ألا يقربا الشجرة للأكل منها، موسوساً لهما ليأكلا منها ولذلك جرى وصفه بالشيطنة.

{فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ}، كان آدم (ع) وزوجته في جنة حيث الرغد، لكن بسبب شيطنة إبليس وزللهما، عاقبهما تعالى بالخروج من الجنّة.

السورة هنا لم تدخل في تفاصيل إصرار إبليس على إضلال البشر أثناء كلامه معه تعالى، لأن تركيزها على المكانة العالية التي رشّحنا لها تعالى، تركيزها على الخلافة الإلهية، أنت تعلم أننا بغالبيتنا لم نرتق إلى مستوى الخلافة الإلهية، لبّ سورتنا هذه عن افتراق الناس لمؤمنين من الدرجة العالية حافظوا على أهليتهم لوصفهم بخلافته تعالى، وآخرين ابتعدوا أشدّ الابتعاد عن هذا الوصف فكفروا، وبين المؤمنين والكافرين تدرجات من أناس نافقوا وفسقوا... {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} كما ورد في الآية 20 من سورة سبأ.

{وَقُلْنَا}، قال تعالى: {اهْبِطُواْ}، يا آدم (ع) وزوجته من الجنة، تعلم من الآية 13 من سورة الأعراف {قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ}، إبليس جرى طرده من السماء العالية بعدما رفض إطاعة أمره تعالى بالسجود لآدم (ع)، وبعدما أقسم لله تعالى بأنه سيعمل على إضلال البشر، كما ورد في الآية 39 من سورة الحجر {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}، هكذا ترى بوضوح أن آدم وزوجته أصلاً كانا على الأرض، وجاء لهما أمر بالهبوط من الجنّة إلى مكان لا يتوافر فيه الرزق والأمان، وفي نفس الوقت جرى طرد إبليس من سماء الملائكة...

{اهْبِطُواْ}، انزلا من الجنّة يا آدم وزوجته لتستقرا في مكان آخر، كتحصيل حاصل إبليس سينزل معهما على الأرض ليستمر في مهمّة إضلالهما مع ذريتهما، {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}، ستكونون معارضين بكره لما يريده الآخر ولما فيه مصلحة الآخر، آدم (ع) وزوجته من جهة، وإبليس من جهة أخرى الذي أعلن أنه سيعمل بكل جهده ليجعلنا نضل ولا نصل إلى أهلية خلافته تعالى.

يمكننا تصوّر سبب خروجهما من الجنّة من جراء حيوانات مفترسة دخلتها فهربا من الجنّة خوفاً... أو بسبب خراب الجنّة بكارثة طبيعية... أو احترقت... أو بكل بساطة مشيا وخرجا منها متوجهين إلى مكان آخر تنفيذا لأمره تعالى، أو مضافاً لذلك وبالتحليل أيضاً قد يكونا شعرا بالإحراج والخجل من نزعهما للباسهما في مكان عام فيه بشر آخرون... كل الاحتمالات مرجّحة والمشكلة ليست هنا، بل المشكلة فيما علق في ذهننا من تراكم ثقافتنا التاريخية الدينية أن تلك الجنّة هي جنّة الآخرة! أو جنّة لا تشبه جنان الدنيا، بينما الكلام القرآني الواضح الصريح أنها مكان على الأرض متوافر فيه الشراب والطعام، مثله مثل أي مكان حالياً فيه ما يكفينا لنعيش بسلام، آخذين بعين الاعتبار ما هو بالنسبة لذلك الزمان جنّة مُؤَمَّنٌ فيها الرزق، لأن متطلبات الحياة القديمة أقل بكثير من متطلباتنا الحياتية الحالية، تصوّرها مثل حالة حياة قبائل الغابات...

بعد خروجهما من الجنّة ستتوسّع دائرة العداوة بين المؤمنين من جهة وإبليس ومن معه من شياطين الجنّ والإنس من جهة أخرى. عملياً هذه العداوة ستتمثّل بكل تدرجات العداوة، من الكره والمعارضة من جانب المؤمنين لعموم الشياطين، إلى الأذية الجسدية أو النفسية والقتال... بين المؤمنين وبين الإنس الشياطين...

بالنسبة للتعبير بالهبوط، لا يعني أكثر من الانتقال المعنوي أو المادي من حالة عالية إلى أخفض منها والاستقرار فيها مع تخلل بينهما، ترينا الآية 48 من سورة هود {قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ}، والآية 61 من سورة البقرة {... اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ...} تريك أن الهبوط ليس بالضرورة من مجال مرتفع من فضاء عال، حتى لا تفهم من تعابير القرآن بأمره تعالى بهبوط آدم وزوجته من الجنّة أن الجنّة التي كانا فيها كانت في السماء وهبطوا منها إلى الأرض، لا، لأن التعبير بالهبوط ورد في تعابير العرب والقرآن للمسافر الذي ينتقل على الأرض من مكان لآخر، كما في الآية 61 من هذه السورة حيث كان الكلام عن الهبوط من حيث بنو إسرائيل يتوافر لهم المنّ والسلوى إلى مصر من الأمصار فيه زرع، وهو هبوط من أرض إلى أرض، هنا أيضاً الهبوط من جنّة على

الأرض إلى بقعة أخرى على الأرض لا توصف بأنها جنّة، حيث الأكل فيها غير متوافر كما كان في الجنّة، ومناخها ليس كمناخ تلك الجنّة... وليست آمنة...

{وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ}، مكان تستقرون فيه فتثبتون فيه حيث تمضون حياتكم فيه، ستهبطون من مكان يوصف بالجنّة على الأرض إلى مكان آخر على الأرض لا يوصف بأنه جنّة ولكن يمكنكم العيش فيه، ولكم في الأرض، {وَمَتَاعٌ}، منفعة واستفادة مما هو موجود فيها، من أكل وشرب ولباس وبيوت... {إِلَى حِينٍ}، هذا الاستقرار له زمن ينتهي فيه، لأنكم ستموتون في النهاية، والأرض بدورها سيحين لها زمن تتبدّل فيه... من الواضح أن الكلام هنا عن الاستقرار موجّه لآدم (ع) وزوجته وذريتهما فيما بعد، أمّا إبليس سيتبعهما ليكمل شيطنته معهما ومع ذريتهما، هو من الجنّ وهم قادرون على الانتقال في السماوات كما نعلم من القرآن، أمّا نحن ففي المستقبل سنتمكّن من التنقّل بين السماوات كما تعلم من صراحة الآية 33 من سورة الرحمن {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}، هكذا يبدو لك أن الكلام في آيتنا هنا عن الاستقرار في الأرض موجّه لآدم (ع) وزوجته، وبالتبعية موجّه لإبليس الذي أعلن أنه لن يتراجع عن إضلال البشر بالوسوسة لهم، بالتالي سيتبع آدم وذريته حيث كانوا ليضللهم...

ننتبه ونتذكّر دائماً أن المخطط الإلهي لنا كان من الأساس بجعل آدم (ع) ونسله خليفةً في الأرض، لم يتفاجأ سبحانه بما قرّر إبليس فعله مع البشر، راجع في ذلك الآيات 20 و 21 من سورة سبأ {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ}، لم يكن قراره تعالى بإخراج آدم (ع) وزوجته من الجنّة فجائياً، ولم يكن رفض إبليس للسجود مفاجأة، ولم يكن إصرار إبليس على إضلالنا مفاجأة له تعالى...

مثلما كان مكان إقامة آدم (ع) وزوجه جنّةً بسبب إيمانهما وعملهما الصالح، حتى الآن لا يزال الوعد الإلهي للمجتمعات إن آمنت وعملت صالحاً أن تصير بلادها جنّةً من مستوى عالم الدنيا، راجع كمثال الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، والآية 6 من سورة الأنعام {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ}.

(فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{37})

فأزلهما الشيطان... أكلا من الشجرة وخالفا بذلك أوامره تعالى، ندم آدم (ع) كما يبدو واضحاً من الآيات، لم يعرف ماذا يقول لربه سبحانه ليغفر له، وبطريقة ما بالوحي أو من وراء حجاب أو عبر رسول:

{فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ}، وصله من المسؤول عنه من مستوى إلهي كلمات، طبعاً تعلم بالبداهة أنها كلمات تعلّمها ليستخدمها (ع) في إعلان التوبة وطلب المغفرة.

لاحظ وانتبه، مثلما كان أول تكليف إلهي مباشر وصريح لآدم (ع) بالنهي عن الأكل من الشجرة، وعلى ما يبدو أنه أوّل تكليف إلهي لبشري، وكانت أوّل مخالفة بالأكل منها، هنا ترى أوّل تعليم لآدم (ع) بأنّه تعالى يغفر ويتوب عليه، قد علّمه تعالى كيف يستغفر ويتوب.

قام آدم (ع) بقول الكلمات التي تعبّر عن توبته، {فَتَابَ عَلَيْهِ}، فتح له سبحانه صفحة جديدة ولن يحاسبه على ما مضى.

{إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ}، هو الذي يقبل توبة التائب عبر فتح صفحة جديدة، سبحانه ليس قاسياً فظاً صلباً لئيماً... تعالى عن ذلك علواً كبيراً، فالذي فعل السوء واعترف بسوء ما فعله وأعلن أنه لن يكرره، سبحانه يقبل اعترافه ويتجاوز عنه، وعملياً لن يحاسبه ولن يعاقبه عليه.

كما ترى، التوبة هي إعلانك فتح صفحة جديدة تاركاً الماضي، ولن تكرر المخالفة وبناء عليه يتوب عليك سبحانه، فاتحاً لك صفحة جديدة وينسى لك ما مضى.

{الرَّحِيمُ}، الموصوف بالعناية الخاصّة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم. كلمة رحمن وصف عام يشمل العناية بكل المخلوقات إلى أن يقرّروا هم الخروج منها، والرحيم وصف خاص استعمله القرآن لخصوص العناية بالمؤمنين لأن الآخرين هم خرجوا من رحمته تعالى، تعلم من القرآن أن الرحمة الخاصّة بالمؤمنين تشمل مغفرة ذنوبهم ومضاعفة حسناتهم... هذه الأمور وغيرها الكثير لا ينالها إلّا المؤمنون.

بالنسبة للكلمات التي تلقّاها آدم (ع) من ربّه سبحانه، هي من حيث الأساس ليست مختلفة عمّا يقوله القرآن لنا، خذ مثلاً عن ذلك سورة الفاتحة كتعليم لنا لما نقوله ونردّده، وخذ مثلاً ما ورد في الآية 286 من هذه السورة {... رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}.

لا يوجد دعاء عجيب غريب في كلماته ومفعوله كما هو وللأسف دارج بين الناس، ترى بعضهم يبحث في الكتب القديمة عن جملة لها مفعول عجائبي! هم يعتقدون أن تلك الجمل لو قلتها سينزل الرزق عليك كالمطر والزبائن ستتراكم في متجرك وسيارتك لن تخرب والعانس سيأتيها عشرات العرسان... نفس الفكرة عن جملة خاصة "سرية" تقولها ليغفر تعالى لك ذنوبك، هذا كله كلام فارغ وهراء، لأن أي كلام موزون عقلاني يراعي الصدق، ويراعي استعمال الكلمات بشكل يتماشى مع صفاته وأفعاله تعالى، سيكون كلاماً له قيمة عالية، ولأن قلوبنا ليست سليمة تماماً فإذا اخترعنا دعاءً عندها سنقحم فيه كلاماً غير موزون، أو غير مقبول، لمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 200 و 201 من هذه السورة {... فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}.

(قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{38})
استئناف الكلام السابق من بعد الأمر بالهبوط وقبل حصول التوبة، مثلما نقول: ذهبت بالأمس وكنت بالكاد أستطيع المشي وسيارتي معطلّة و... و... وأكثرت التفاصيل ولم تذكر إلى أين ذهبت، ثم تعود وتقول لتستأنف كلامك: ذهبت إلى الجامعة... السورة تريد الوصول بك إلى آيتنا هنا، إلى ما بعد الهبوط من الجنّة، حيث صار من بعدها يأتي الهدى، وقبل ذلك عرّجت على تلقّي آدم (ع) لكلمات، كنموذج للهداية الإلهية إلى التوبة، وعادت الآيات من جديد لاستئناف الكلام من بعد الأمر بالهبوط من جنّة رغد العيش إلى مكان شقاء.

{قُلْنَا}، قال تعالى: {اهْبِطُواْ مِنْهَا}، انزلوا من الجنّة لتستقروا في مكان آخر، {جَمِيعاً}، أنت وزوجك بالأساس وسيتبعكما إبليس، {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى}، إذا جاءكم منّي شيء يضعكم على الشيء الصحيح الذي يوصلكم للغاية الصحيحة، وصلتكم أوامره تعالى عبر الوحي أو عبر رسول أو عبر كتاب... {فَمَن تَبِعَ هُدَايَ}، الذي مشى على ما أقول عنه إنّه يوصل للغاية الصحيحة، التزم بما أقوله، {فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ}، ليس متوقعاً لهم حصول ضرر لهم لا يمكنهم تجنّبه، سيتحاسبون ولكن لا عذاب لهم في الآخرة، {وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}، في الآخرة لن يشعروا إلا بالسرور، لأنهم لا ينقصهم شيء ولا يحصل لهم شيء ليس على خاطرهم ولا يأسفون على أي شيء فاتهم من الدنيا...

(وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{39})
{وَالَّذِينَ كَفَرُواْ}، الذين أنكروا هداه تعالى بعد أن وصلهم لم يتّبعوه، {وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا}، لم يصدقوا الأمور المميزة المنسوبة له تعالى. كلامه تعالى الهادي هو شيء مميز ومن لم يصدّق به، لم يؤمن ويلتزم به، {أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ}، مع بعض في النار، {هُمْ فِيهَا}، في النار، {خَالِدُونَ}، لا يموتون ولا يخرجون منها أبداً ولا هي تخرب.

تلاحظ أنّ التهديد للكافرين مبني على تكذيبهم للآيات، هناك أمور مميزة منسوبة له تعالى، تدلّ على صحّة كل ما يقوله تعالى، رغم ذلك هم كفروا، هكذا يستحقون العقاب خلوداً في النار، معلوم لك من بقية القرآن أنهم لو أتتهم كل أنواع الآيات لن يؤمنوا، لو منحهم تعالى فرصة ثانية من بعد حسابهم في الآخرة أيضاً لن يؤمنوا... لذلك كان الحكم عليهم

الخلود في النار لأنهم مهما عاشوا في الدنيا سيبقون على كفرهم، لمزيد من التوسّع حول ذلك راجع كمثال دراسة الآية 28 من سورة الأنعام {بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}.

لا تنسج في الضباب صورة من خيالك عن حالة إنسان كافر به تعالى ولكنه مسالم وفاعل للخير... لترى أن تعذيبه خالداً في النار أقصى مما يستحقّ، أنت لست أرحم منه تعالى، ولا أحكم، بالتدقيق بالتأكيد لن تجد مسالماً فاعلاً للخير كافراً به تعالى، على الأقل ستجده داعماً مؤيداً منتخباً مصفّقاً... لرئيس أو زعيم فاسد مجرم من العيار الثقيل، على الأقل سيتحمّل نصيبه من هذا التأييد، الذي نتج عنه قتل لأبرياء، ودمار لمجتمعات... في يوم القيامة سنرى كلنا أن الخالدين في النار فعلاً يستحقون ذلك، بل حتى هم من بعد محاسبتهم لن يقولوا إنّ عذابهم خالدين في النار فيه ظلم، لأن ربك لا يظلم مثقال ذرة كما هو واضح مما نراه من أفعاله ومما قاله عن نفسه في الآية 40 من سورة النساء {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}.

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ{40})
بعد كلام السورة العام لجميع من وصله هذا القرآن، انتقلت لتوجّه الكلام الإلهي إلى أمّة قديمة جداً وصلها هداه تعالى ولا يزال لتلك الأمّة امتداد تاريخي إلى حين نزول هذا القرآن، هم أحقّ وأجدر من غيرهم بالإيمان بالقرآن، لأنهم يعرفون الهدى، القرآن امتداد للهدى الإلهي الذي يمتد من آدم (ع) مروراً بأنبيائهم، هم يعرفون الله تعالى والأنبياء والحساب والجنة والنار...:

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}، يا أبناء النبي يعقوب (ع)، إسرائيل هو اسم آخر للنبي يعقوب (ع) ويتم تسمية ذريته بنسبتهم إليه (ع)، هم ليسوا كلّ اليهود ولكن يخصّصهم القرآن بالكلام لأنهم بشكل عام الحاكمون دينياً على بقية اليهود، هم الأكثرية من اليهود "في حين نزول هذا القرآن بحسب ظنّي"، علماء الدين عادة منهم، هم مجموعة من ذرية ترجع في نسبها إلى نبي من أنبيائه تعالى، هذا سبب أساسي في تحفزيهم على اتّباع بقية أنبيائه تعالى...

{اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ}، استحضروا في بالكم الأمور الجيدة التي حصلت معكم منّي، "وأبرزها النجاة من ظلم فرعون لكم"، {وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي}، كونوا أوفياء، ليكن تاماً، لا تخونوا، بما أعلنتموه لي من التزامكم باتباع هداي، {أُوفِ بِعَهْدِكُمْ}، بالمقابل سألتزم بالتمام بعهدكم، بما التزمت به لكم، أعتني بكم هنا في الدنيا طالما أنتم مؤمنون صالحون وأدخلكم الجنّة، {وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ}، لتصبكم الرهبة مني فقط، ليكن خوفكم مع الشعور بالعجز منّي فقط.

في السابق وبسبب إيمانكم بشكل عامّ نلتم منه تعالى عناية مميزة، ها هي الفرصة أمامكم مرة أخرى لتكونوا تحت عنايته تعالى وعهده بالعناية بكم في الدنيا والآخرة إذا التزمتم بعهد الإيمان، وآمنتم بهذا القرآن...

(وَآمِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ{41})
{وَآمِنُواْ}، اعتقدوا، {بِمَا أَنزَلْتُ}، بهذا القرآن الذي نزل منه تعالى، وهو، {مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ}، مؤكداً مؤيداً للكتاب الذي معكم، القرآن بعقيدته وشريعته يتماشى مع أساسيات التوراة، كالتوحيد وتحريم أفعال الشرّ والسوء، والآخرة والجنة والنار والرسل والملائكة (ع)... هكذا يبدو واضحاً لكم أن هذا القرآن من نفس المصدر الذي أتت منه الكتب التي معكم، لأنه يعرض نفس دينكم.

ضع في بالك دائماً أن الجمل القرآنية بصيغها المختلفة حول تصديق هذا القرآن للكتب التي سبقت، لا تقصد أن كل ما في تلك الكتب صادق، بل يؤكّد القرآن حصول تحريف في تلك الكتب كما سيأتي في الآية 79 من هذه السورة {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ}، لكن المقصود هو وضوح كون هذا القرآن امتداداً لتلك الكتب، وأنهم بالأصل من نفس المصدر، حيث مجمل ما في تلك الكتب وأساسياتها ورغم التحريف يبقى واضحاً أنهم والقرآن من نفس المصدر ولهم نفس الفحوى، هذا لا يحتاج لتفكير عميق لمعرفته، لأنه حتى دراسات العلمانيين من عصرنا تسمّي اليهودية والنصرانية والإسلام باسم أديان

التوحيد مميّزة لها بهذا الاسم عن بقية أديان أهل الأرض، وأحياناً تسمّيها باسم الدين الإبراهيمي بسبب شبه التطابق بين أساسيات كتب هذه "الديانات".

{وَلاَ تَكُونُواْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ}، بالقرآن، هذا التصرف غير مقبول بتاتاً منكم، لأنكم يا بني إسرائيل كمنتسبين لدينه تعالى من المفروض أن تكونوا أول المؤمنين بالقرآن، لا أوّل المنكرين له.

يخطر ببالنا من كلمة "أول مؤمن" الأولية التي لم يسبقهم إليها أحد، لكن هذا التعبير لا يشير إلى ذلك حصراً بل يشير إلى حالة أول ما عُرض عليهم هذا القرآن، ما كانت "أوّل" ردّة فعل لهم؟ تنبههم الآية ألا يكون الكفر بالقرآن "أوّل" ما يصدر منهم، هذا ليس من المفروض حصوله مع أناس وصلهم كتاب من نفس مصدر الكتاب الذي لديهم ويؤمنون به.

يفيدنا وضع هذه الجملة في بالنا عندما نقرأ الآية 163 من سورة الأنعام {لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}، والآية 143 من سورة الأعراف {... وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}، والآية 51 من سورة الشعراء {إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ}، والآية 12 من سورة الزمر {وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ}، والآية 81 من سورة الزخرف {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}. هذه الجمل لا تشير أنه لا أحد من قبل كان مؤمناً... بل أول ما عُرض عليهم الإيمان آمنوا.

بعبارة أخرى عرض دينه تعالى على الناس سينتج عنه حالة كفر بعضهم به، ليكونوا من أوائل من كفر، لا تكونوا من الأوائل بالكفر بينما المفروض أن تكونوا من أوائل المؤمنين.

{وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً}، لا تتخلوا عن الأمور المميزة المنسوبة له تعالى بثمن قليل، كما نقول: اشترى بالمال التفاح. هم كان لديهم آياته تعالى "كالمال" فتخلّوا عنها "دفعوه" للحصول على شيء ثمنه "قيمته أمام ما تدفعه" قليلة بالمقارنة مع ثمن "قيمة ما تستحقّه" آياته تعالى، الذي تتوقعون الحصول عليه من الدنيا من منافع في مقابل بيعكم "تخلّيكم" عن الأمور المميزة من مستوى إلهي، بتخلّيكم عن كلامه تعالى وأوامره الواردة في هذا القرآن، سيكون قليلاً بالمقارنة مع ما ستحصلون عليه لو تمسكّتم بآياته تعالى، لو آمنوا بهذا القرآن لحصلوا على جنّات خالدة.

{وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ}، تجنبّكم وتحاشيكم لشيء ما فليكن حصراً منّي. كما تعلم هناك تقوى منه تعالى وهناك عموم اتقاء أي شيء آخر، كاتقاء الاشتعال بالنار، واتقاء الخسارة التجارية، واتقاء الأشرار... الكلام هنا عمومي عن تقواه تعالى ومضافاً له عن مقابلة تقواه تعالى مع تقواهم من الناس المانعين لهم من الإيمان بهذا القرآن، حيث كل واحد منهم هو فرد من جماعة بني إسرائيل، أوّل ما سيخطر بباله أنه إن آمن بهذا القرآن عندها جماعته ستقوم ضدّه، وسينبذوه باعتباره خائناً لهم أو خارجاً عن ملّتهم... وسيؤذوه... لذلك يتقيهم، ويبقى على كفره بالقرآن، لذلك تقول له الآية إنّه في مسألة الإيمان فليكن تقواك منه تعالى حصراً لا من الناس.

(وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ{42})
{وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ}، لا تجعلوا الصواب الصحيح ممتزجاً غير مميّز عن الأشياء غير الصائبة، الأمور الحقّ الصحيحة الصواب التي يقولها هذا القرآن لا تقولوا عنها أشياء باطلة غير صحيحة وأنتم تقصدون تشويش الحقّ ليصير كأنه هو الباطل. تقولون مثلاً: إنّ الرسول الحامل لكتاب الله تعالى يجب أن يكون من بني إسرائيل (ع) وليس من بني إسماعيل (ع)... أو تقولون إنّ هذا القرآن ليس من نفس المصدر الذي أتى منه التوراة... رغم علمكم أن هذا الكلام باطل غير سليم، هذا سيجعل الحقّ مشوشاً وأنتم تقصدون إخفاء الحقّ. سيأتيك في السورة هنا ردود القرآن على أمور باطلة قالوها عن هذا القرآن وعن الرسول (ع)...

ولا، {تَكْتُمُواْ الْحَقَّ}، قولوا الشيء الصواب ولا تبقوه مخفياً، {وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}، هذه مخالفة يرتكبها من يعلم أنه يرتكب المخالفة، لأنهم يعلمون أن هذا القرآن حقّ موافق لكتابهم لكنهم لا يقولون هذا الكلام، إنكارهم للقرآن ليس لكونهم لا يعلمون أنه صحيح بل مع علمهم بصحّته، لا تفعلوا هذا.

(وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ{43})
هذا المقطع يبرز الامتداد الطبيعي لرسالة التوحيد، ويسقط الحواجز النفسية التي اصطنعها بنو إسرائيل باعتبارهم الأديان اللاحقة "تطفلاً" أو "اقتباساً". إشارتك إلى جذور الصلاة والزكاة في التشريع الإلهي القديم وتفكيك حصرية هذه العبادات بالإسلام تؤكد على وحدة الدين الإلهي بشكل عقلاني ومتين.

لقد قمت بضبط النص وتنسيقه وفقاً للمنهجية الصارمة التي نعتمدها: حافظت على تقسيم الفقرات بالكامل، خففت من أدوات العطف الاستئنافية لتأخذ الجمل استقلاليتها، أدرجت الألفاظ والآيات القرآنية بين الأقواس { }، وصوبت بعض الهفوات النحوية والإملائية (مثل: تصحيح "سيفهموا" إلى "سيفهمون" و"ستكونوا" إلى "ستكونون"، تصحيح الممنوع من الصرف "تشريعات" إلى "تشريعات"، إعراب "ثلاثة أوقات"، وضبط تنوين النصب وتصحيح الخطأ الطباعي في "فشعورهم").

يكمل سبحانه كلامه مع بني إسرائيل:

{وَأَقِيمُواْ}، فعّلوا لا تعطّلوا، لا تتركوا أو تهملوا، {الصَّلاَةَ}، التوجّه والإقبال على شيء ما، هذه الكلمة صارت مصطلحاً دينياً يشير للتوجّه بالحركات والكلام المعروف بالصلاة الواجبة، هي الفريضة الدينية التي نقيمها خمس مرات في اليوم وتعبر عن عبادتنا لله تعالى، علماً أن كلمة صلاة عمومية لأي توجّه وإقبال، عبادي أو غيره.

هذا الكلام موجّه لبني إسرائيل عبر القرآن، قد أمرهم تعالى في السابق على لسان الأنبياء بالصلاة، هكذا سيفهمون بأن نفس التوجيهات الإلهية موجودة في هذا القرآن وفي الكتب التي أنزلها تعالى عليكم من قبل.

الآية لا تأمرهم بالبقاء على طريقتهم في الصلاة، بل تأمرهم بالانتقال إلى الصلاة التي يقوم بها الرسول الناقل لهذا القرآن، يبدو من القرآن بشكل غير صريح أنه يوجد شبه كبير جداً بين الصلوات التي أمر تعالى بها عموم أنبيائه وبين الصلاة التي نصليها نحن من سنّة النبي محمّد (ع)، لا يمكننا الجزم بأن اليهود قد تلاعبوا بطقوس الصلاة اليومية الواجبة، لكن من عموم تلاعبهم بعموم التشريعات نستوحي إمكانية كبيرة لتلاعبهم بالصلاة، طبعاً لا نتحدّث عن عوام اليهود غير الملتزمين فهؤلاء ليسوا معياراً لأنهم كالمسلمين الذين لا يصلّون ولا يصومون، بل نتحدّث عمّا ورد في كتبهم الأساسية وفي ممارسات المتدينين منهم، من المعلوم عنهم من كتبهم ثلاثة أوقات أساسية للصلوات الواجبة في اليوم، "صبح عصر مساء"، تتضمّن خمس "أو ستّ" صلوات منفردة موزعة على الأوقات الثلاثة، لديهم صلوات مستحبّة في الليل ومختلف أوقات النهار... عندهم غسل للوجه ولليدين وللرجلين قبل الصلاة كوضوئنا... قراءة من وقوف وركوع وسجود... قد شاهدت فيديو "أرهقني البحث عنه على الإنترنت" لبعض طوائفهم يتوضؤون ويصلون بشكل كبير جداً مثلنا.

{وَآتُواْ الزَّكَاةَ}، اجعلوها عند من يوزّعها أو وزّعوها أنتم بحسب ما أمر سبحانه.

كلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، تشير لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكية، مال زاك، طعام زاك..."، منذ القدم صارت مصطلحاً دينياً يشير إلى دفع نسبة محدّدة من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ...}، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، يدفع منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة {...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...}، تكون نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... يتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

كما ترى، الزكاة ليست شيئاً جديداً طرحه هذا القرآن، بل هي من أساس الدين الإلهي، ها أنت ترى أن بني إسرائيل يعرفونها وكانوا مأمورين بها، قد جدّد القرآن طرحها، أما ما تجده في بعض أدبياتنا وبعض تفاسير القرآن عن تشريع الزكاة في المدينة بعد هجرة الرسول محمّد (ع) إليها، وبناءً عليه تفسيرهم للقرآن على هذا الأساس، فكلامهم غير صحيح أو غير دقيق، لأن الزكاة مثل تشريعات حرمة الزنا والسرقة... دينه تعالى دين الصالحات ولم تصر هذه الأمور

سيئة من بعد نزول قرآن يقول إنها سيئة، رغم نزول قرآن عنها من بعد الهجرة فمعلوم أنها ليست تشريعاً جديداً، نفس الشيء بالنسبة لحرمة الخمر ووجوب الزكاة، إعادة طرح القرآن للتشريعات لا يعني أنها جديدة...

ننتبه دائماً أنّ القرآن لم يستعمل كلمة زكاة ليشير إلى وجوبها واستحباب ما بعدها من الإنفاق على المحتاجين، لا، بل الزكاة كالصلاة هي الواجب "الروتيني، المتكرر" كل سنة مرّة على الأقل، أو حين وصول الأملاك إلى مستوى الغنى الزائد... ضع في بالك دائماً أن القرآن أوجب علينا دائماً مساعدة من هم بحاجة للمساعدة الملحّة طالما نستطيع ذلك.

{وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ}، انحنوا له تعالى مع الحانين ظهورهم، عبّروا عن احترامكم وخضوعكم له تعالى مع الذين يعبّرون عن ذلك، هذا تعبير عن الانضمام إلى جماعة المؤمنين على معنى أنكم إذا فعلتم ذلك فأنتم لستم شواذاً بل ستكونون منسوبين لعموم من ركع له تعالى عبر التاريخ. من ناحية ثانية فيها إشارة للمشاركة في صلاة الجماعة، يبدو لك من هذا الكلام أن تراثهم الديني شبه التمام مع تراثنا الذي يحثّ على إقامة الصلاة الواجبة اليومية جماعة، كمجموعة أفراد مع بعض يقومون بحركات الصلاة مع بعض، قد مرّ معي في كتب اليهود وجود صلاة جماعة كثيرة الشبه بصلاتنا.

إذًا، عبر هذا القرآن يتوجّه سبحانه لكم بنفس الأوامر الأساسية التي وصلتكم وتعرفونها أنها من أساسيات دينه تعالى، لا شيء جديد، ليس مطلوباً منكم الانتقال لدين جديد، بل المطلوب الاستمرار على الدين الإلهي الصحيح.

بقي شيء، قبل نزول هذا القرآن اعتبر بنو إسرائيل النبي عيسى (ع) والمؤمنين به، اعتبروهم متطفلين على دينهم، على أساس أنهم اقتبسوا من دينهم واخترعوا ديناً مشابهاً، نفس الشيء حيث اعتبروا النبي محمّد (ع) والمؤمنين به والقرآن، اقتباساً من دينهم وتطفلاً عليهم، ما تقرؤه هنا من كلامه تعالى معهم يريهم دينه تعالى وأنهم يعتبرون أنفسهم منتمين له، من البديهي أن يكون دينه تعالى واحداً، هذا القرآن لن يعرض عليهم عقائد أو تشريعات جديدة، بالتالي فشعورهم بالاستعلاء على الذين يتهمونهم بالمتطفلين على دينهم، تهدمه الآيات هنا بإرجاعهم إلى دينه تعالى الذي يعيد طرحه سبحانه من جديد عبر هذا القرآن صافياً خالياً من أي تحريف، إن كانوا فعلاً منتمين لدينه تعالى فها هو كتاب منه فليؤمنوا به...

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ{44})
يكمل سبحانه كلامه مع بني إسرائيل:

{أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ}، يأمرونهم بعموم التصرفات التي تعبّر عن الاهتمام بالصلة والعلاقة الطيبة، {وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ}؟ لا تأمرون أنفسكم بالبرّ؟ {وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ}! وأنتم تقرؤون المعلومات عن البرّ من مستند إلهي، وفيه مكتوب أنكم كلّكم مكلّفون بالبرّ بلا استثناء؟! {أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}، من لديه العقل، من لديه القدرة على فهم واستيعاب الأمور هل يقرأ ما يأمره بالبرّ ولا ينفّذه هو، ويأمر غيره بتنفيذه!

الكتاب الذي بين أيديهم يأمرهم بالتصرف معه تعالى ومع أوامره بشكل يعبّر عن اهتمامهم بإقامة صلة معه تعالى، قد ورد في القرآن في سورة البقرة الآية 177 أنّ البر هو: الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر والملائكة (ع) والكتاب والنبيين... هذا كله مذكور في كتبهم، هم يأمرون الناس بما هو موجود في كتبهم، يأمرونهم بالإيمان به تعالى وبكتبه ورسله... لكنهم ينسون أنفسهم! لو التزموا هم بما أمروا به غيرهم، لما تغيّر عليهم أي شيء عندما جاءهم هذا الرسول والقرآن.

لننظر للآية من منظور إلهي، إلى المشهد كأنك ترى عالم دين يدعو الناس للالتزام بكتاب إلهي وصلهم من رسول إلهي، حجّة عالم الدين على الناس تستند في قوتها إلى الكتاب الذي يتلوه عليهم لأن مصدر الكتاب إلهي، الآن انظر إلى عالم الدين وقد جاءه رسول إلهي بكتاب إلهي، أليس من المفروض منه اتّباع الرسول والكتاب الجديد؟! هو كان يأمر الناس باتباع الكتاب القديم، ما معنى رفضه هو نفسه اتباع الكتاب الجديد!

طبعاً هذا نموذج تطبيقي وإلا كلام الآية عمومي، لأنهم يأمرون بقية بني إسرائيل بالبرّ، ويأمرون بقية الناس بالتوحيد والبرّ، لكنهم نسوا أن يأمروا أنفسهم بالبرّ وهم يقرؤون كتاباً إلهياً يأمرهم بالبرّ! أهملوا الصلاة والزكاة كنموذجين أساسيين عن بقية تشريعاته تعالى، لو أنهم كانوا ملتزمين بدينه تعالى، لن يتغيّر عليهم أي شيء يسمعونه من هذا القرآن ومن الرسول الناقل له.

(وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ{45})
{وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ}، حتى تكونوا مؤمنين حقيقيين لا تتصرفوا بشكل غير مدروس أو غير مناسب بعصبية أو انفعال... هناك ظروف ضاغطة عليكم ومانعة لكم من الإيمان بهذا القرآن فآمنوا وتعاملوا معها بصبر لأنها ستزول ولن تستمر.

الكلام عن الاستعانة بالصبر عمومي ولكنه هنا لخصوص حالة مجيء رسول جديد بكتاب جديد، لأن ما هم فيه من ثقافة دينية محرّفة وطائفية ومذهبية... ومناسبات وطقوس دينية خاصّة بهم... ولباس ديني مميز... كلّه من الصعب تركه للرجوع إلى الدين الإلهي الأصيل الذي قوّمه هذا القرآن، علماً أن الآيات ركّزت على أساسيات ما بقي من الدين الإلهي في ثقافتهم الدينية وحثّتهم على الالتزام بها على أساس أن هذا القرآن ليس كتاباً جديداً لدين جديد يحمل تعاليم مختلفة عن تعاليمهم، لذلك ترى الآيات تذكّرهم بالشبه التمام في أساسيات ثقافتهم الدينية مع هذا القرآن، لتنبّههم إلى أنّ الدين الإلهي ممتدّ وأن هذا القرآن امتداد له.

واستعينوا، {وَالصَّلاَةِ}، بالتوجه لربكم بالعبادة، هذان العملان يساعدانكم على الإيمان بالقرآن وبالنبي محمد (ع).

تلاحظ ورود نفس المعنى في الآية 153 من هذه السورة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}، ما يبدو من عموميتهما ورواج ذلك في أدبياتنا لتحقيق ما نريد بالاستعانة بالصبر والصلاة، إلا أن سياق الكلام قبل الآيتين عن نفس الموضوع، عن الالتزام بدينه تعالى، الصبر مما تواجهه كمانع لك عن الالتزام بدينه تعالى، والصلاة نموذج تطبيقي عن الالتزام بدينه تعالى، طالما تصلي فأنت عملياً تمارس إيمانك.

{وَإِنَّهَا}، الصلاة، {لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ}، يراها كبيرة غير محمولة كل من يرفض الخضوع لله تعالى، الخاشعين، وهم الذين يشعرون بفقدان القدرة بشكل عام نتيجة الضعف والمسكنة أمامه تعالى فهؤلاء لن يروا الصلاة كبيرة.

إذًا من تطبيقات التدين هو التوجّه نحوه تعالى بالعبادة، الصلاة، وليست شيئاً شخصياً اخترعناه نحن، الدين لله تعالى، ما همّكم يا بني إسرائيل وأين مشكلتكم إن نزل كتاب إلهي جديد، أو جاء رسول إلهي جديد طالما الموضوع عن دينه تعالى وليس مسألة شخصية خاصة بكم؟ قد تراكم لدى بني إسرائيل ثقافة دينية صارت مقاومتها صعبة، وتلك الثقافة شردت عن أصل التدين له تعالى، وصار الدين تراثاً خاصاً بهم، لتغيير هذا عليهم بالصبر حتى يتحمّلوا المشقات الفكرية والنفسية من التغيّر، وعليهم الاستعانة بالصلاة حتى يتذكّروا دائماً أن الموضوع ليس شخصياً لهم، حيث الصلاة هي التوجّه نحوه تعالى بالعبادة، وبإقامتها تعني أنه ما يأمر به تعالى فليمشِ علينا وليكن كما يريد تعالى.

(الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ{46})
الصابرون المصلون، الخاشعون هم: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُو رَبِّهِمْ}، الذين لديهم اعتقاد بأنه سيحصل تواجه بينهم وبين المسؤول عنهم من مستوى إلهي، في الآخرة ليحاسبهم، هذا الظنّ يؤكّد سبحانه صحّته لأنه هو سبحانه قاله لنا، يستند هذا الاعتقاد إلى علم صحيح.

نحن بشكل عام لا نتقبّل حديث القرآن عن مؤمنين "يظنون" بأنه توجد آخرة، ونحاول تفسير الظنّ في أمثال هذه الجمل بأنه يقين، مفترضين أن المؤمن يجب أن يكون عنده يقين بالآخرة، مثلما بداية هذه السورة قالت: وبالآخرة هم يوقنون. هذا الوصف باليقين يشير إلى تطابق معلومتهم مع الواقع، أما بالنسبة لكلمة "ظنّ" فهي اعتقادك بشيء ما مستنداً إلى

شيء ما، إن كان ما تستند عليه صحيحاً كان ظنّك صحيحاً، هذه حالة المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم سبحانه كما ورد في الآية هنا 46 من سورة البقرة {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، هم مستندون في ظنّهم على آياته وكلامه تعالى. أما إن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران {... وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ...}، استناداً للحالة الحرجة التي كانوا فيها ظنّوا أنه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء. بين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند عليها ولكنه ليس مقتنعاً بها، لا تزال الأمور عنده مرجّحة لاحتمالات أخرى، هذا ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}، هؤلاء يريدون اللمس المباشر لحصول ساعة قيامهم من الموت حتى يعتقدوا بها ولا يكفيهم الاستناد إلى معلومات تدلّ عليها، يريدون اليقين بها عيانا حتى يؤمنوا. هذه الحالة قريبة جداً من الاصطلاح "في علم المنطق" والدارج لمعنى كلمة ظنّ على معنى وجود عدة احتمالات. ها صرت تعلم المعنى اللغوي الأساسي لكلمة "ظنّ" فانتبه للفرق بينه وبين المعنى الاصطلاحي حتى لا تفسّر القرآن على أساس المعنى الاصطلاحي.

بناءً عليه يصير بعض المؤمنين عندهم يقين بالآخرة، وآخرون عندهم أقل من اليقين، عندهم ظن قوي، وآخرون ظنّهم أقل قوّة، وآخرون عندهم شك، وآخرون ناكرون لها نهائياً. القرآن يتحدث عن كل هذه الأنواع، وهنا يتحدث عن مؤمنين عندهم ظن قوي بوجود آخرة، هذا اعتقاد يمكن أن يكون قوياً جداً كيقين ويمكن أن يكون أقل من اليقين.

معنى تفضيل بني إسرائيل وحلم المدينة الفاضلة
{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ{47}}
يكمل ربنا سبحانه كلامه مع بني إسرائيل:

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}، يا أيها الجماعة المنتسبة للنبي يعقوب (ع):

{اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ}، استحضروا في بالكم وكلامكم وعملكم، نعمتي، هي الأشياء التي توصف بكونها نعمة بأنها جيّدة، بعد الآية التالية ستبدأ السورة بذكر هذه النعم.

{وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}، في الماضي ومن بين كل الناس قد حصلتم منّي على أشياء مهمّة من دون أن تكون فرضاً واجباً عليّ، لا تنسوا هذا الجميل، قد فضّلتكم بأمور لم أفعلها مع كل الناس من أولهم لآخرهم.

أنتم تعلمون أنكم قديماً حصلتم على عنايتي الخاصة بكم من بين كلّ الناس من أولهم لآخرهم بسبب إيمانكم، وبذلك صرتم تعلمون ماذا أفعل "من عناية" مع الذي يؤمن، ها أنا أشجعكم على الرجوع إلى هذا لتكونوا من المفضّلين، إن تخليتم عن إيمانكم لن تنالوا التفضيل...

تعلم من عموم القرآن أن سبب تفضيلهم قديماً على بقية الناس بالنعم الإلهية والعناية، أنهم "كمجموعة" أعلنوا إيمانهم بالله الواحد وأعلنوا أنهم سيتبعون شريعته، نتذكّر العدد الكبير للأنبياء من بني إسرائيل مما يدل على وجود أتقياء مميزين بينهم ارتقوا في الإيمان واستحقوا مرتبة النبوة، بسبب هؤلاء المؤمنين "القلائل" اعتنى سبحانه بكل بني إسرائيل كمجتمع مؤمن، هذا التفضيل كان سارياً حين كانوا بالمجمل يؤمنون بالأنبياء والكتب الإلهية، التفضيل الإلهي ليس دلالاً وعواطفَ إلهية لهم هكذا على المزاج "وهذه ليست من صفاته تعالى"، بل مرتبط بإيمانهم به تعالى، حين خالفوا الإيمان نزل عليهم عقاب مهين جداً جداً لم ينزل على غيرهم، حين حوّل تعالى منهم أقواماً لقردة بصريح عبارة الآية 65 من هذه السورة {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}، وما ورد في الآية 167 من سورة الأعراف {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} يريك بوضوح أنهم ليسوا الأفضل عنده تعالى بل فضّلهم تعالى ببعض نعمه وبعضهم أساؤوا فاستحقوا المهانة.

بعبارة أخرى، الآية تقول إنّ ما فعله تعالى معهم من فضل، لم يفعله مع كل الناس من أولهم لآخرهم، وليس معنى الآية أنهم الأفضل عنده تعالى من بين كل الناس من أولهم لآخرهم، من الواضح جداً أن تفضيله تعالى لهم بنعمه قديماً لأنهم

في حينها كانوا إيمانياً أفضل من بقية الشعوب، قد فضّلهم تعالى ليكونوا نموذجاً لكل من يخطر بباله "وجوب" تدخله تعالى لمصلحة المنتمين له، هذا مفهوم قرآني صحيح تقرأه صراحةً في الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، الآية هنا تعرض عليهم أن يعودوا للإيمان السليم حتى يعود تفضيله تعالى لهم مع جملة بقية المؤمنين من بقية الجماعات.

تفهم بوضوح معنى {فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} أنها لا تشير لأفضليتهم "إلا إذا كانوا فعلاً مؤمنين من الدرجة العالية أكثر من غيرهم"، تفهمه من الآية 20 من سورة المائدة {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ}، تفضيله تعالى لهم بأنه آتاهم ما لم يؤته لغيرهم من نعمه.

مجموع كلام هذه الفقرة الطويلة من سورة البقرة من الآية هنا إلى الآية 74 عمّا تفضّل به تعالى بشكل غير عادي على بني إسرائيل، سترى فيه شيئاً مميزاً، حيث العديد من الناس من مختلف العقائد يخطر ببالهم أفكار عن طرق وأساليب تمحو الفساد والظلم ليعيش الناس بسلام، المتدينون يضيفون على ذلك التفكير بطرق لنشر دينه تعالى بين الناس... منذ القدم نظّر المفكّرون لإيجاد حلول عملية لذلك عبر ما كتبوه عن أنظمة الحكم وعن التشريعات لتشكيل المدينة الفاضلة، وحديثاً تنتشر أفلام ومسلسلات عن محاولات بأفكار خيالية لتأسيس المدينة الفاضلة حيث يعيش الناس بسلام وأمان وهناء...

كلام الفقرة الطويل هنا يريك تجريبياً أنّ أي فكرة تخطر على بالنا لتدخّله تعالى بقدرته الفائقة لتحقيق الأماني والأحلام... ليعيش الناس بسلام، ويكونوا مؤمنين صالحين، لن تغيّر أي شيء.

تضرب لك السورة هنا مثلاً "بني إسرائيل" الذين كان يبدو منهم الطيبة والصلاح ويعانون من ظلم الحاكم "فرعون وآله" ويعانون من الفقر ومن نقص الموارد... الحلّ الجذري الأفضل الأمثل أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم، ويكونوا في منطقة آمنة من أي عدو، هذا ما حصل بعد عبورهم البحر، حيث تدخّل سبحانه وأنقذهم بنقلهم من مصر من تحت ظلم فرعون...

بعدها تدخّل تعالى بنفسه لتأمين الطعام "المنّ والسلوى"، وتأمين الشراب "بضرب النبي موسى (ع) للحجر"، وأتاح تعالى لهم قرية جاهزة بمواردها للانضمام لأهلها المسالمين المؤمنين للعيش فيها "بشرط أن يقولوا حطّة"...

كل ذلك لم يغيّر حال بني إسرائيل نحو الأحسن لا إيمانياً ولا صلاحاً، بقوا كما هم على فكرهم ونفسيتهم متدرجين من الأشدّ سوءاً إلى الوسط إلى الأشدّ إيماناً، وبقيت حالة مجتمعهم فاسدة.

تعرض لك آيات الفقرة كل فضل إلهي عليهم، وبعده ما فعلوه هم من سوء، تعرضه عليك ليكونوا نموذجاً وعبرة لكل من يفكّر أو يخطر بباله أن التدخّل الإلهي بالعناية بقوم ما سينتج عنه مدينة فاضلة، لا، هذه مسألة من طرفين، أحدها تدخّله تعالى في مجريات الأمور، والثاني هم القوم أنفسهم يجب أن يكونوا فعلاً عاملين على تحقيق مدينة فاضلة، الرغبة فيها "نظرياً" لا تكفي.

سنستبق دراسة الآيات التالية لنذكر ملخصاً عنها، بدايتها مع لفت الانتباه إلى أنّ الآخرة الخالدة هي المهمّة وأن ما يجري في الدنيا مؤقت، كلام الفقرة هنا ليس مصبوباً اهتمامه على محاولة "إلهية" لتأسيس مدينة فاضلة، هذا سيكون ناتجاً عن أفراد مجتمع مؤمنين صالحين، أول تدخّل إلهي كان بإغراق فرعون وآله العصابة الحاكمة الظالمة، حيث النجاة من تحت حكمهم الظالم مستحيل لولا التدخّل الإلهي، بعدها مباشرة مواعدته تعالى لهم لينزل عليهم كتاباً فيه الهداية لهم لشؤون دنياهم وآخرتهم، هكذا تصير حالتهم حاكمين لأنفسهم في منطقة آمنة ومعهم دستورهم، هذا من بعدما كانوا مستضعفين مظلومين ممنوعين من تطبيق الصلاح...

لكنهم في أول اختبار لحكم أنفسهم "بغياب النبي موسى (ع) على الجبل" أوّل شيء فعلوه ويكرهه سبحانه الذي تدخّل بشكل واضح ليخلّصهم من فرعون، أنهم مثّلوا له عزّ وجل جسد عجل! اختراع عقيدة من هذا النوع من المستوى المنخفض جداً، من البديهي أن يتبعه اختراع شريعة وسلوكيات فاسدة، لو استمرّت حكومة عابدي العجل، لكانوا فيما

بعد قتلوا الذين لا يعبدون عجلهم كما هو واضح من الآية 150 من سورة الأعراف {... وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي...}، هي شبه التمام للحالة التي كانوا يعانون منها تحت حكم فرعون!

أترك لك التحليل في بقية ما ذكرته الفقرة وصولاً إلى الآية 74، سترى منها أن أي فكرة تخطر في بالك لإيجاد حلّ حتى يعيش قوم ما مؤمنين صالحين بسلام وهناء، عبر تدخّل إلهي لتغيير ظروف حياتهم، عبر إهلاك الحاكمين الظالمين، وعبر تأمين موارد رزق... هذا لن يغيّر القوم الظالمين، بل سيعطيهم شعور الدلال عليه تعالى كما حصل مع بني إسرائيل وهذا تعرفه وتسمعه من كلامهم قديماً وحديثاً ونقلته الآية 18 من سورة المائدة {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ...}، إن كنت تسأل نفسك لماذا لا يتدخّل سبحانه بقدراته الفائقة في حوادث ترى أنت أنه يجب أن يتدخّل سبحانه لصالح المنتمين لدينه، ها هو نموذج تفضيله تعالى لبني إسرائيل على العالمين، وها هي النتيجة.

(وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ{48})
يا بني إسرائيل:

{وَاتَّقُوا}، تحاشوا وتجنبوا، {يَوْماً}، زمناً يقع فيه حدث رئيسي، الكلام هنا عن يوم القيامة من الموت وما بعده من أيام الحساب وصولاً إلى المجازاة بالنار أو الجنّة، مراراً عبّر القرآن عن كل تلك الفترة من الزمن بيومئذٍ ويومٍ، أو أشار لأول يوم منها وهو يوم القيامة من الموت الذي يبدأ من قيامنا من الموت وبعده أيام تنتهي بدخول الجميع إلى الجنّة والنار، حينها، {لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً}، هناك جزاء، هناك شيء كمقابل وهو العقاب على فعل السوء، لا يمكن لأي شخص التبرّع بأخذ العقاب عن شخص آخر، مع أن هذا لن يحصل ولكن لأخذ العلم من الآن تخبرنا الآية هنا بذلك حتى لا نحلم بأن أحداً ما سيتبرّع ويأخذ العقاب عنّا، لا يمكن لأحد التدخّل فارضاً قوّته لينجّي شخصاً آخر، ولا...

في ذلك اليوم: {وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ}، الشفاعة هي عموم استخدام القيمة المعنوية أو السلطوية لتغيير الظروف نحو الأحسن، الفاعل للسيئات يرى أن مصيره النار عندها يطلب منه تعالى أن يشفع به بسلطته وبقيمته المعنوية كإله، سيطلب من الملائكة ومن المؤمنين أن يشفعوا له فيتوسّطوا له بقيمتهم المعنوية عنده تعالى حتى يعفو عنه، لن يقبل سبحانه منه ذلك، الكلام هنا عن الذي سيئاته من العيار الثقيل كالكفر بهذا القرآن فهذا لا يقبل تعالى منه شفاعة.

العبارة هنا تفهمها بشكل أسهل من الجملة التالية "ولا يؤخذ منها عدل" هو يريد تقديم شيء حتى ينجو من العقاب، لنتصوّر أنه قال: هل تقبل منّي يا رب تقديم شفاعة أحد ما لي؟ الجواب: لا، لن نقبل منك شفاعة أحد بك. الكلام هنا عن حالة الذي قرّر تعالى إدخاله إلى النار بسبب سيئاته الكبيرة، هذا لا يرضى تعالى بالشفاعة له، ليس الكلام عن عموم نفي الشفاعة من أي أحد لأي أحد، لا، هناك شفاعة يأذن بها تعالى من الملائكة ومن المؤمنين من الدرجة العالية وسبحانه يشفع في الذين لم يرتكبوا السوء من العيار الثقيل، تقرأ ذلك في عدة آيات منها الآية 255 من سورة البقرة {...مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ...}.

في الآخرة: {وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ}، شيء يعادل كبدل مساوٍ، نقول: هذا الغداء يعدل ألف غداء. قاصدين أنه لذيذ جداً لدرجة مساواته لألف غداء من طعام مختلف. كما نقول: هذا البيت يعدل مئة ألف دينار. في يوم القيامة لا يوجد أي نوع من العدل عن العقاب يمكن أخذه من أحد، قد يخطر ببال أحد ما أنه في يوم القيامة سيقول: عدل " البدل المساوي" لارتكابي الذنوب أن تأخذوا كل مالي وتتركوني أدخل الجنة. أو يقول: خذوا كل أولادي وارموهم في النار عدل "كشيء مساوٍ بدلاً مني" واتركوني أدخل الجنة. أو يقول: اتركوني أصلّي وأصوم هنا في ساحة يوم القيامة لملايين أو مليارات السنين "عدل" ذنوبي حتى تنتهي كلها... هي كلمة عدل نفس المعنى عندما تستعملها في المحاكمة، حيث العدل هو الحكم بالجزاء "كبدل" مساوٍ للجرم.

وفي يوم القيامة:

{وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ}، لا أحد يحقّق لهم أو يساعدهم على تحقيق ما يريدونه، لا يمكن لأحد تجميع عدد من الرجال لمقاتلة الملائكة (ع) حتى ينتصر عليها ويدخل الجنة بالقوة، لا أحد لديه صفة معنوية لينصرهم بكلامه ويمنع بقوّته المعنوية

العذاب عنهم... هذا وأمثاله غير وارد بتاتاً لأنهم كلهم تحت سيطرته تعالى الذي لا يحتاج للتدخّل أصلاً بسبب توظيفه تعالى للملائكة (ع) بإدارة أحداث يوم القيامة وما بعده، هم كائنات لا تعصيه تعالى وشديدة القوة.

هكذا عرضت الآية الاحتمالات الأربعة التي يمكن أن يفكر فيها أحد ما لدخول الجنة، الأول: أن يتحاسب عنك شخص آخر. الثاني: أن تعتمد على شفاعة شخص مؤمن تعرفه. الثالث: أن تقدّم عدلاً "بدلاً" مالياً أو عبادياً... الرابع: أن تقاومه تعالى أو تقاوم الملائكة (ع) بمعونة معنوية أو بقدرات جسدية بالتعاون مع بقية الكفّار. كل هذه الاحتمالات غير واردة، لا تستسخفوا أنفسكم ولا بأي طريقة من هذه الطرق وتفكّروا أنكم ستنجون من العقاب، لأن النجاة طريقها واحد: الإيمان والعمل الصالح.

كما ترى الكلام مع بني إسرائيل وعنهم لك، ضمناً هو يخاطبك حتى لا تفكّر مثلهم.

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ{ {49})

يكمل سبحانه كلامه مع بني إسرائيل حتى يحثّهم على الإيمان عموماً وعلى الإيمان بهذا القرآن خصوصاً، تبدأ السورة من هنا بفقرة من آيات طويلة تذكرّهم كيف اعتنى بهم سبحانه، بالرغم من ارتكابهم للكثير من الأخطاء سبحانه سامحهم وغفر لهم... سنتابع كل هذه الفقرة حتى نصل إلى أنّ الذي آمن منهم قديماً إيمانه صحيح، نرى في نهايتها أنه من بعد نزول هذا القرآن صار اتّباع هذا القرآن هو المعيار للإيمان الصحيح، ستذكر لنا بقية السورة أسباب ذلك...

لنبدأ بالفقرة هنا، أولاً:

{وَاذْكُرُواْ} يا بني إسرائيل، {إِذْ نَجَّيْنَاكُم}، خلصناكم من الخطر، {مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ}، من أقارب فرعون بالنسب، الكلام عن عائلته الحاكمة، حيث كانوا، {يَسُومُونَكُمْ}، ينالكم يصيبكم منهم، {سُوءَ الْعَذَابِ}، العذاب أنواع ودرجات وهم أصابوكم بعذاب من نوع سيء جداً جداً، {يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ}، يقتلون الأولاد الذكور بدم بارد عبر قطع أوداج رقابهم، {وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ}، يتركون الإناث أحياء، {وَفِي ذَلِكُم}، في هذه الحالة لدرجة القتل استخفافاً واستهتاراً بكم، {بَلاء}، شيء يصيبكم ليغيّركم، {مِّن رَّبِّكُمْ}، من المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {عَظِيمٌ}، ليس بلاءً عادياً بل كبيراً.

كما تعلم، سبحانه لم يأمر فرعون وآله بفعل السوء مع بني إسرائيل، لكنه تعالى ترك الأمور تحصل مع قدرته على التدخل وقد تدخل فعلاً فيما بعد... يسميها تعالى بالبلاء وينسبها له لأنه تعالى يمكنه التدخل لمنع ذلك لكن تركه يحدث لفترة لسبب، بالتحليل ترى العديد من الأسباب لذلك، يجمعها ما يقوله القرآن صريحاً عن هكذا حالة في الآية 11 من سورة الرعد {... إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...}، تغيير الحال لأي قوم من النعمة إلى السوء وبالعكس، يكون بسبب ما كسبوه من أفعالهم السيئة أو الحسنة، سبحانه يتدخل لينصرهم أو يبعد الكوارث إن انتشر في القوم نيّة الصلاح وبدؤوا بالتحرك على أساسه...

ما فعله آل فرعون بهم هو الحالة العامّة لما يحدث معنا كلنا عبر العصور كنتيجة لتمتعنا بحرية الإرادة والتي على أساسها نفعل الخير أو الشرّ مع بعضنا بإرادتنا، هذا هو بالأساس بلاؤه تعالى لنا ببعضنا وبأنفسنا هنا في الدنيا، هو بلاؤنا بشهواتنا وغرائزنا بما يؤثّر على كلّ واحد منّا لوحده، وبما يؤثّر على الآخرين... تعلم أنه سبحانه يمكنه التدخّل ليغيّر الأحوال، بل فعلاً يتدخل سبحانه ويغيّر الأحوال إلى الأحسن إذا أعلن الناس إيمانهم واستغفروا.

تذكّر دائماً أن فرعون هو لقب لمنصب أعلى سلطة حاكمة في بعض فترات الحكم في مصر، مثل لقب الملك عند العرب، ولقب كسرى عند الفرس، ولقب قيصر عند الرومان... ضع في بالك دائماً أن القرآن لم يتحدّث إلا عن فرعون واحد محدّد، هو الفرعون المعاصر للنبي موسى (ع)، بالنسبة لتحديده قد ترجّح لديّ أنه خوفو ولمزيد من التوسع في ذلك راجع دراسة الآية 6 من سورة القصص {وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ}.

بالنسبة لسبب قتل الذكور من المواليد الجدد لبني إسرائيل وترك المواليد الإناث، بناءً على التحليل المستند على التاريخ، كي يضمن فرعون أن بني إسرائيل لن يقوموا بأي عمل عسكري ضدّه، كان يجعل عدد الذكور محدداً كل مدة من الزمن عبر قتل المواليد الذكور الجدد، هكذا لا يكون عند بني إسرائيل أمل في تكوين قوة عسكرية لتدافع عنهم ضد جيش فرعون المتوكّل بمهمة الأمن الداخلي للبلد، أقدّم لك هذا التحليل بالاعتماد على مفاهيم وردت في التراث اليهودي، ووردت في عموم تاريخ الشعوب التي لها تاريخ في الاستعباد والاستعمار، أمّا ما هو دارج منتشر في عموم موروث ثقافتنا الإسلامية وثقافة اليهود والمسيحيين عن وصول خبر لفرعون عن ولادة لشخص من بني إسرائيل سيدمّر مملكته... ولذلك أمر بقتل كل المواليد الذكور الجدد، لا دليل عليه من القرآن ولا إشارة صريحة له، ولا يفسّر قيام عامّة الممالك التي لها تاريخ في الاستعباد والاستعمار بقتل الأولاد الذكور...

تعلم تفاصيل قصة خروج بني إسرائيل من تحت حكم فرعون بالتفصيل من سور أخرى من القرآن، أمّا هنا تركيز الفقرة فقط على أنه تعالى هو نجّاهم من وضع غير عادي في ظلمه، لم يكن لهم أي أمل بالنجاة منه لولا تدخّله تعالى.

الذي تحت مظلّة الإيمان سينال عناية إلهية، هذا هو فحوى بداية كلام السورة مع بني إسرائيل لتحفّزهم ليبقوا على خطّه تعالى "أو الرجوع إلى خطّه تعالى" عبر اعتماد ما جاء من هدى في هذا القرآن...

في أدبياتنا درج القول عن استعباد فرعون لبني إسرائيل، على المعنى الدارج لكلمة استعباد، وتأيّد عندنا ذلك من عبارتين وردتا في الآية 22 من سورة الشعراء ولم يرد في القرآن غيرها {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}، والآية 47 من سورة المؤمنون {فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ}، لكن على المعنى الأساسي لكلمة عبد التي تشير لمن مفروض منه أو عليه الطاعة، هي مقابل الحرّ وليست مرادفة للمملوك، علماً أن الملكية من تبعيتها العبودية. هكذا نصير أمام وساعة في المعنى في حالة بني إسرائيل تحت حكم فرعون، لأن الحالة العامة أنهم كلهم تحت حكمه وسلطته مثلهم مثل بقية المواطنين التابعين لسلطة فرعون، والحالة الخاصة أن بني إسرائيل لم يكونوا مواطنين من الدرجة الأولى، لدى البعض منهم حياته الخاصّة كطبيب ومهندس وتاجر وساحر... وبعضهم الآخر عمال.

تفهم ذلك من حالة قارون الثري النافذ من بني إسرائيل تحت حكم فرعون، ومن حالة السحرة كنموذج عن مهنة مارسها بعض أفراد بني إسرائيل، لست أقصد أنهم كانوا مرتاحين أو لديهم حقوقهم كاملة ولم يعمل البعض منهم بالسخرة مقابل وجبة الطعام... بل أقصد أن تشبيه الصورة عن حالتهم كلّهم بشكل مزرٍ فهذا مبالغ فيه، تصوّرها مثل حالة العيش تحت حكم ديكتاتور تعرفه من عصرك أو سمعت به.

مفهوم الاستعباد في ثقافتنا بعيد كثيراً عن أصل معنى الكلمة ومنطلق من تطبيقات سيئة جداً لها، هكذا صار لها معنى في بالنا وبعيد عن المعنى اللغوي الذي استعمله القرآن لها، لا ننتبه لذلك ونفسّر القرآن على ما في بالنا من معنى "تطبيقي سيّء" لكلمة {عَبْد}. لغوياً كلمة {عَبْد} تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، الملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك. بهذا المعنى استعملها القرآن.

أقول لك هذا لأنني متأثر بخلفية استعباد فرعون لبني إسرائيل على المعنى الدارج في ثقافتنا التاريخية الدينية "جعلهم يعملون بلا أجرة والسياط فوق رؤوسهم..."، قد حاولت الابتعاد عن وصفهم بالاستعباد، رغم ذلك وأثناء المراجعة لهذه الدراسة أجد فلتات مني لوصفهم بالاستعباد، هذا وللأسف شيء حصل حتى في مواضيع أخرى قد تقوّمت عندي أكثر بعد دراستها، لكن فلتات الخلفية الثقافية أسرع وأقوى من استحضار معلومة جديدة توصّلت لها عن دراسة.

(وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ{50})
ثاني الأمور التي أنعم بها تعالى على بني إسرائيل:

{وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ}، يا بني إسرائيل، {الْبَحْرَ}، المكان الذي فيه الكثير من المياه، هذه القصة مشهورة في التراث الديني وذكرها القرآن مراراً حيث صار البحر فَرْقاً "مفروقاً" كممرات عبرها بنو إسرائيل حين لحق بهم فرعون بجيشه،

جعل سبحانه ماء البحر يفترق يبتعد عن بعضه، بذلك تمكن بنو إسرائيل من العبور خلال الفرق إلى الطرف الآخر للبحر. نستعمل كلمة "فرق" بهذا المعنى عندما نشير لإبعاد شعر رأسنا عن بعضه، نقول: فرق شعر.

{فَأَنجَيْنَاكُمْ}، خلّصناكم من الخطر، من الجيش الذي لحق بكم، {وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ}، الأشخاص الذين بينهم وبين فرعون نسب وكانوا العائلة الحاكمة قد ماتوا بالاختناق بالماء ذلك حين أطبق عليهم البحر، {وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}، أنتم في حالة توجيه اهتمامكم العام بهم، تتفرجون من بعيد على منظر موتهم غرقاً بإطباق البحر عليهم، أمام أعينكم أريناكم ماذا فعلنا بهم.

كلمة بحر تشير لتجمّع كبير للمياه، سواء أكان حلواً أو مالحاً، جارياً أو راقداً، بما أن الكلام عن انشقاق البحر قد حصل في مصر فالمرشحان للحادثة هما البحر الأحمر ونهر النيل، حيث كلاهما تصدق عليهما كلمة بحر.

من غير المؤكّد إن كانت الحادثة جرت في النيل أو الأحمر، لمزيد من التفاصيل راجع دراسة الآية 63 من سورة الشعراء {فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ}.

(وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ{51})
ثالث الأمور التي اختارتها السورة لتذكرها عمّا أنعم به سبحانه على بني إسرائيل:

{وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى}، حدّد سبحانه وقتاً للكلام مع النبي موسى (ع) في منطقة ما، تعلم من عموم القرآن أن الموعد كان للنبي موسى (ع) منفرداً لوحده على جبل كما تفهم من الآية 80 من سورة طه {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ...} مضمومة مع الآية هنا، المشهور أنه جبل في منطقة سيناء وأن ذلك حصل في زمن قريب من بعد مرورهم من البحر، الموعد كانت مدّته، {أَرْبَعِينَ لَيْلَةً}، {ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ}، من بعدما ذهب النبي موسى (ع) لوحده إلى الجبل جعل بنو إسرائيل من تمثال مصنوع من الحليّ على شكل عجل "ذكر البقرة" جعلوه لأنفسهم إلهاً! {وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ}، العدل والإنصاف استمراركم على عبادة الإله الحقيقي ومن الظلم، ليس معكم حقّ أن تخترعوا إلهاً من أوهامكم وتصنعوا له تمثالاً وتعبدوه.

تلاحظ في الآيات الست التي ذكرت العجل "الآية هنا، والآية 54 و 92 و 93 من هذه السورة، والآية 153 من سورة النساء، والآية 152 من سورة الأعراف" لم تصرّح باتخاذهم له إلهاً، أنت تكمل الجملة مما تعرفه، يبدو أنه تعالى كره التصريح بذلك لما فيه من قلّة أدب وقيمة للمكانة الإلهية، لأنهم قصدوا من العجل تمثيله عزّ وجلّ بشكل تعبيري، هذا الفعل كريه جداً، لم يصرّح به سبحانه إلا مرّة واحدة في الآية 88 من سورة طه {فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ}، لم يكرّر القرآن هذا الشيء المعلوم.

(ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُمِ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{52})
النعمة الثالثة التي أنعم بها سبحانه على بني إسرائيل:

{ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُمِ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ}، من بعد عبادتكم لتمثال العجل مرّينا على ما فعلتموه ولم نتوقّف عنده، عملياً ألغينا معاملتكم على أساس هذا السوء، {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، كان من المفروض ومن المتوقّع منكم أن تشكروه تعالى، تشعروا وتعبّروا عن اعترافكم بجميل ما فعله تعالى معكم لأنه لم يعاقبكم على هذا الذنب العظيم.

من عموم القرآن تفهم أن العفو كان عليهم كلّهم كأمة، حين قرّر بعضهم عبادة العجل، حصلوا على تأييد عدد كبير من سفلة وسفهاء بني إسرائيل، على أساس أن النبي موسى (ع) مات على الجبل ولن يرجع لأن الموعد الذي علموا هم به كان لثلاثين ليلة، لكنها طالت عن ذلك لأربعين... لم يتحرّك المؤمنون ضدّهم لمنعهم بالقوّة من عبادة العجل لأنهم كانوا يعلمون أن التدخّل سيؤدّي إلى القتال... عندها قرر المؤمنون انتظار رجوع النبي موسى (ع)... حين رجع (ع) صدر أمر إلهي للمؤمنين بقتال عبّاد العجل الذين على ما يبدو سرعان ما صار لهم كيان تراتبي سلطوي مبني على عبادة العجل، ترأس البعض منهم مشروع عبادة العجل وأظهروا الشراسة وفرض هذا الدين على البقية... انزوى المؤمنون

عنهم... بعد عودة النبي موسى (ع) حصل القتال بأمر إلهي... مات عدد من عبّاد العجل... أثناء القتال صدر عفو إلهي عن الجميع... كما ترى العفو صدر عليهم كأمّة...

لا تزال تلاحظ اختصار القصص هنا حيث توسّعت فيها سور أخرى، لأن التركيز هنا في الفقرة لا يزال على العناية الإلهية لمن آمن، كتحفيز لرجوع بني إسرائيل إلى دينه تعالى المتمثّل بهذا القرآن حتى ينالوا العناية الإلهية...

(وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ{53})
النعمة الإلهية الرابعة على بني إسرائيل، أثناء موعده سبحانه مع النبي موسى (ع):

{وَإِذْ آتَيْنَا}، صار مع موسى (ع) منّا، {الْكِتَابَ}، وهو المسمّى التوراة، وآتاه سبحانه {وَالْفُرْقَانَ}، وصف للكتاب، كونه يفرق به بين الحقّ والباطل، {لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}، من المفروض ومن المتوقع منكم أن تكونوا على الشيء الصحيح الذي يوصلكم للغاية الصحيحة، من المفروض باتباعكم للكتاب أن تكونوا على الإيمان بالحقّ وعمل الصالحات وبذلك تصلوا إلى مرضاته تعالى وإلى الجنّة.

نلاحظ أنّ القرآن يسمي نفسه "فرقاناً" أيضاً كما سمّى التوراة فرقاناً، ترى ذلك في الآية الأولى من سورة الفرقان {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}، هذا وصف للكتابين كونهما يفرقان بين الحق والباطل، ما وافق ما فيهما مما نسمّيه من عقيدة وتشريع فهو الحق وما خالفهما فهو الباطل.

ما يسمّى الآن بالتوراة هي مجموعة كتب جمعها أحبار اليهود على مرّ التاريخ، توراة النبي موسى (ع) بقي منها الشيء القليل في التوراة الحالية، يقولون بأن الأسفار الخمسة الأولى الموجودة الآن في كتاب التوراة، هي التوراة المنسوبة للنبي موسى (ع) وبقية الأسفار من تأليف أنبياء آخرين ومن تأليف الأحبار، بمراجعة الأسفار التي ينسبونها للنبي موسى (ع) ستجد أن غالبيتها الساحقة مقولة عنه (ع) وليست مقولة منه ولا مقولة من الله تعالى، هذا شيء لا ينفيه اليهود الذين يقرّون بأن كتب التوراة قد أحرقت وتلفت في زمن سبي البابليين لهم، قد كتبها من جديد الكاهن "عزرا" ممّا يتذكّره منها "وما أعجبه مما تذكّره"، كتبها قبل ميلاد السيد المسيح (ع) بحوالي خمسمئة عام، هذه النسخة هي المعتمدة حالياً والمنتشرة بين الناس...

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{54})
تعود الآيات لتعقّب على حادثة عبادة العجل:

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ}، لجماعة الناس التي كان (ع) ينتمي لجماعتهم والمتفاعلة مع مسألة الدين، قال (ع) لهم بعد نزوله من الجبل حاملاً التوراة:

{يَا قَوْمِ}، يا جماعة الناس المتفاعلة مع الدين الإلهي والتي أنتمي لها، {إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ}، لم تكونوا منصفين ولا عادلين مع أنفسكم التي من المفروض أن تحموها من الضرر، عبادة العجل ستسبب لأنفسكم الضرر، لم يكن معكم حقّ فيما فعلتموه بأنفسكم، ظلماً أشركتم وهذا يليه عقاب إلهي.

{بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ}، أعلنوا إقلاعكم عمّا سبق وافتحوا صفحة جديدة، {إِلَى بَارِئِكُمْ}، إلى الذي أحدثكم بكيان لكم، إلى الذي جعلكم تخرجون إلى الحياة بهذا الشكل الإنساني، معلوم أن العجل مجرد تمثال لا يقدّم ولا يؤخّر، ولا علاقة له بوجودكم، بل بشكل ما أنتم برأتم العجل وصنعتم له كيانه، أمّا الذي "برأكم" أخرجكم إلى الدنيا، إنما هو الله سبحانه، فتوبوا إليه.

{فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ}، عملياً هو أمر للمؤمنين بالهجوم على الذين عبدوا العجل لإنهاء حياتهم، لكن كلّهم من النظرة الإلهية هم بنو إسرائيل، لذلك قال تعالى لهم: {فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ}. هذا تعبير يرادف: اهجموا على بعضكم البعض. {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ

عِندَ بَارِئِكُمْ}، هذا القتل لمن عبد العجل موصوف بأنه جيد عند الذي جعلكم موجودين بكيان، إذا لم تقتلوهم ستكونون أنتم أيضاً خارج العناية الإلهية.

تلاحظ استعمال كلمة البارئ، نفهم منها مناسبة الكلام عن العجل الذي اعتبروه بارئاً لهم، وإلا فما معنى عبادتهم له! تريك الكلمة مدى سخافة ما فعلوه، لأنهم صنعوا الذي صنعهم! نفهم منها أن الذي فعلاً برأكم قد قرّر الآن إنهاءكم، أنتم مصنوعاته وقد قرر إنهاء حياتكم بأمره للمؤمنين بقتل من عبد العجل.

عبارة: {فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ}. قد توحي لك بأن يقتل كل شخص نفسه، العبارة التي قد تقترحها لتفيد الأمر للمؤمنين بقتل من عبد العجل: اقتلوا بعضكم. لكن جملة: اقتلوا بعضكم. يمكنك قولها لأي مجموعة من الناس، حتى لو كانوا كل مجموعة من بلد ودين وعرق ولون مختلف، بما أن بني إسرائيل مجموعة واحدة من الناس الأقارب، ومترافقين بالمعيشة والمكان... التعبير بقتلهم لأنفسهم يشير لقيامهم هم بقتل بعضهم البعض.

من التعابير القليلة في القرآن ما ورد هنا عن ظلم النفس بمعنى نتيجة تسبيب الضرر لها، أمّا الظلم فهو لعامة توصيف ما ليس حقاً، ترى هذا المعنى واضحاً صريحاً في أكثر استعمال القرآن لكلمة ظلم ومنه ما سيأتي في الآية 59 من هذه السورة {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}، استبدل كلمة "ظلم" بجملة "ليس معه حق" وسياق الكلام سيريك بماذا لم يكن معه حقّ، غالباً كلام القرآن عن الذين كفروا ظلماً لأن الأدلة على الإيمان كثيرة ومتنوّعة وأكثر من كافية وواضحة... رغم ذلك كفروا، لم يكن معهم حقّ حين كفروا.

{فَتَابَ عَلَيْكُمْ}، حصل القتال وفتح سبحانه صفحة جديدة لبني إسرائيل، أمّا الذين حصل قتلهم من عبّاد العجل قد ماتوا مشركين وفاتتهم فرصة التوبة. {إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ}، هو الذي يقبل توبة التائب، ليس تعالى قاسياً فظاً صلباً لئيماً... تعالى عن ذلك علواً كبيراً، حتى من أساء معه تعالى لدرجة عبادة غيره، إن تاب المخطئ عندها سيتوب تعالى عليه بفتح صفحة جديدة له، وإنه، {الرَّحِيمُ}، الذي لديه عناية خاصة للمؤمنين لما فيه مصلحتهم، الرحمن صفة عامّة للعناية بما فيه مصلحة كل المخلوقات، لكن هناك أمور خاصة كالتوبة والمغفرة ومضاعفة الحسنات... لا ينالها إلا المؤمنون، لذلك عبّر القرآن عن ذلك بصفة الرحيم للإشارة إلى العناية الخاصة بالمؤمنين فقط.

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ{55})

{وَإِذْ قُلْتُمْ}: {يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ}، لن نصير في حالة الاعتقاد بما تقوله عن الإله سبحانه، {حَتَّى نَرَى اللَّهَ}، إلى أن يصير لدينا صورة محدّدة له تعالى، {جَهْرَةً}، بشكل واضح مباشر. تجد في عموم ثقافة أهل الكتاب وفي رواياتنا أن عدداً من قوم النبي موسى (ع) طلبوا سماع صوته تعالى وبعدها طلبوا رؤيته تعالى... لم يرد في القرآن شيء صريح إلا عن طلبهم لرؤيته تعالى، هذا ما تجده في آيتنا هنا، وتجد في الآية 155 من سورة الأعراف {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ}، هو كلام عمومي عن حصول لقاء لم تذكر الآية إن كانوا طلبوه لسماع الصوت أو لرؤيته عزّ وجلّ، لكن ضمّاً مع آيتنا هنا التي لا تتعارض بل تتماشى مع ما هو مشهور عن طلبهم للسماع أولاً، وبعدها قالوا إنهم لن يؤمنوا حتى يروه تعالى جهرة فأخذتهم الصاعقة...

{فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ}، الصاعقة وهي الشيء القوي المفاجئ، لم تتركهم أحياء كما تفهم مما ورد في الآية 155 من سورة الأعراف، فمتّم، {وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}، أنتم في حالة توجيه اهتمامكم العام، لم يحصل تحديد جهة لرؤيته تعالى، لأنهم توقّعوا رؤيته تعالى فركّزوا نظرهم لكنهم ماتوا قبل تمكنهم من رؤية أي شيء لأن رؤيته تعالى مستحيلة.

يقولون في الكتب كلاماً مبسّطاً تقريبياً تشبيهياً أنه تعالى كشف طبقة رقيقة جداً جداً من الحجاب بينه تعالى وبينهم، لم يتحمّل كيانهم، ماتوا بسرعة ولم يروا أي شيء، لكن هذه تعابير تقريبية لتعطيك صورة تخيلية مبهمة لا تستفيد منها

بشيء، لأنه سبحانه من المستحيل على أي مخلوق رؤيته لأن طبيعته مختلفة عن طبيعة كل بقية المخلوقات، كما وصف سبحانه نفسه في الآية 11 من سورة الشورى {... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ...} ليس له تعالى شكل ولا تركيب ولا مادة لكيانه...

البعض في أدبياتهم لديهم كلام عن أنواره تعالى من وراء حجب... على أساس أنهم يرون ذلك بقلوبهم... هذا من تراكم الثقافات حتى نتج عنها ترف فكري ونفسي لن تجد له تصريحاً قرآنياً، بل تجد نفياً قاطعاً له.

أقرب كلمة في لغتنا لتوصيف ما حدث أنه تعالى "تجلّى" كاشفاً بطريقة ما عن نفسه لهم ولم يتحمّلوا وفوراً ماتوا، قد استعمل سبحانه تعبير التجلّي لوصف نفسه عندما سأل النبي موسى (ع) عن رؤيته تعالى كما ورد في الآية 143 من سورة الأعراف {... فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا...}، راجع دراسة تلك الآية لترى الفرق بين طلبهم للرؤية جهراً ليؤمنوا، وبين طلب النبي موسى (ع) للرؤية على سبيل إن كان يوجد طريقة ممكنة لذلك، من هذه الحادثة تعلمنا كلنا بالجواب الصريح وبهذه التجربة العملية أن رؤيته تعالى مستحيلة غير ممكنة.

(ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{56})

{ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ}، أقمناكم فأنهضناكم إلى الحياة من بعدما فارقتموها، {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، من المفروض ومن المتوقّع منكم أن تعبّروا له تعالى عن جميل ما فعله معكم حيث أعادكم إلى الحياة وأعطاكم فرصة ثانية لتكونوا مؤمنين صالحين.

من فحوى الآية 155 من سورة الأعراف ترى أن النبي موسى (ع) طلب الرحمة لهم، استجاب سبحانه وأعادهم إلى الحياة، {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ}.

(وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ{57})

نكمل مع تفضّله تعالى على بني إسرائيل بالنعم حينما كانوا بالمجمل أمّة مؤمنة:

{وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ}، جعلنا الغيوم الرقيقة تحجب الشمس عنكم، لتحميكم من حرارة الشمس في أثناء إقامتكم أو مسيركم، المشهور أنهم حين خرجوا من مصر بعد غرق فرعون وجنوده باتجاه سيناء، هي منطقة فيها بقع صحراوية، وحرارة الشمس فيها شديدة، فاشتكوا من شدتها، عندها جعل سبحانه فوقهم الغيوم الرقيقة لتكون لهم ظلاً من الشمس.

{وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى}، لأن منطقة سيناء التي اشتهر أنهم وصلوا إليها بعدما عبروا البحر، يؤيّد ذلك كلام القرآن عن نزول التوراة في الطور والمشهور أنه في سيناء... في منطقة سيناء بقع كبيرة جرداء خالية من الزرع والحيوانات، قد احتاج بنو إسرائيل للطعام، فأنزل سبحانه عليهم المنّ وهو اسم لإفرازات الشجر الصمغية أو السائلة، حيث جعل سبحانه الأشجار تفرز هذه المادة وهم استخدموها لصنع المأكولات. نحن نعرف عدة أشجار تفرز سوائل حلوة لذيذة مثل شجرة القيقب، وسائلها مشهور بالاسم الفرنسي "إرابل"، وشجرة البلوط تفرز صمغاً نصنع منه حلوى، لتلك الحلوى عدة تسميات منها: المنّ والسلوى، من السما، غاز... بما لدي من مصادر لم أستطع حسم تحديد نوع الإفراز النباتي ومن أي نبتة كان، ولا كيف أكلوه، لربما طبخوه لأكله وربما كان صالحاً للاستهلاك كما هو... لا أدري.

وأنزل عليهم سبحانه السلوى وهي اسم لفصيلة من الطيور تشمل: الفرّي، السمّان، الحجل... فكانت متاحة لهم لالتقاطها وأكلها...

كلمة "أنزلنا" قد توحي بنزول المنّ والسلوى من السماء، بحيث تتصورها كأشياء تقع من السماء، لكنها أشياء موجودة على الأرض، وسبحانه أمر بتواجدها على الأرض في وقت محدّد، سبحانه أمر بحصول بني إسرائيل على المنّ والسلوى، إذا كنت تنظر للأمور من بعيد كحالة فستصفها بأنها: نزلت عليهم "وصلتهم" من عنده تعالى.

{كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}، ما صار معكم منه تعالى لتسدّوا به حاجتكم للأكل وهو موصوف بأنه من الطيبات من المرغوب المحبوب لكم وليس خبيثاً رديئاً، فكلوه فاستهلكوه.

{وَمَا ظَلَمُونَا}، تصرفّهم غير المنصف ليس مؤذياً له تعالى، {وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}، هم ظلماً سببوا لأنفسهم ما يؤذيها، لم يكن معهم حقّ بما سبّبوه لأنفسهم. هنا الكلام عمومي عن عموم تصرفاتهم الظالمة أنها لا تؤذيه تعالى بل تؤذيهم هم، سترى نموذجاً عن الظلم الذي كانت نتيجته ظلماً لأنفسهم في الآية بعد التالية وفي الآية 61.

قال بعضهم إنّ التظليل ونزول المنّ والسلوى قد حصل في فترة "التيه"، هذا غير صحيح، لأن التيه حصل بعد رفضهم قتال القرية الكافرة التي أمرهم تعالى بدخولها... بعدها حصل التيه ولم ينزل فيه المنّ والسلوى.

الآيات 160 وما يليها من سورة الأعراف ستجد فيها نقلاً لنفس هذه الأحداث، من هنا وهناك فهمنا أنهم في مرحلة ما بعد حصول حادثة عبادة العجل... وأثناء مسيرهم، حصل إخراج الماء لهم وإنزال المنّ والسلوى، تأففوا منه، صراحةً نجد في الآية 161 من سورة الأعراف أمراً إلهياً بسكن القرية التي ستتحدّث عنها الآية التالية، بعضهم بدّل الاستغفار على باب القرية بالسخرية... طردهم أهل القرية... وعادوا لحالة خروج الماء من صخرة ونزول المنّ والسلوى، بعدها الأمر الإلهي بقتال أهل قرية كافرة... ورفضهم، بعد ذلك حصل التيه لأربعين سنة، وفيه انحرموا من خروج الماء من ضرب النبي موسى (ع) لصخرة بعصاه... وانحرموا من المنّ والسلوى الذي كان بأمر إلهي متوافر بكثرة.

المشهور في التراث الديني وأدبياتنا أن المنّ والسلوى كان طعامهم الوحيد، هذا لا يبدو صحيحاً، بل هما دعم إلهي إضافي كوجبة رئيسية بالإضافة لما معهم من الحنطة ولبن الماشية وما يجدونه حولهم من ثمار الأشجار وبقول وحشائش...

(وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ{58})
{وَإِذْ قُلْنَا}، قال تعالى لبني إسرائيل:

{ادْخُلُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ}، لقد كان توجيه مسيرهم من بعد خروجهم من مصر يمرّ على قرية، على مجموعة أناس مستقرّة مع بعض، لا يعني أنها مجموعة بيوت قليلة، كلمة قرية قديماً كان معناها: مجموعة أناس مجتمعون في مكان واحد، سواء كان تجمّعهم كبيراً، وبتعبيرنا الحالي نسميه مدينة، أو صغيراً، وبتعبيرنا الحالي نسميه قرية.

{فَكُلُواْ مِنْهَا}، فيها الخضار والحيوانات... {حَيْثُ شِئْتُمْ}، من أي مكان فيها كلوا، لن يرفضكم أهل القرية، لن يجبروكم على العيش في زاوية منها، بل ستتمكنون من الأكل منها حيث شئتم، {رَغَداً}، بسهولة ووفرة ومما ترغبون، لن تحملوا الهمّ من النوعية أو الوفرة أو تزاحم الآخرين على الأكل... لا مشاكل ولا أذية، لكن بشرط:

{وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً}، اسجدوا عند باب القرية، عبّروا عن شدّة احترامكم وخضوعكم له تعالى، قرّبوا وجوهكم من الأرض أو ضعوا جبهتكم على الأرض أثناء مروركم من باب القرية، {وَقُولُواْ حِطَّةٌ}. من تكملة الجملة ترى أنه تعالى يعلّمهم الدعاء، يا رب حطّ، ضع، أنزل عنّا ذنوبنا.

إذا سجدتم وطلبتم الحطة لذنوبكم فعندها، {نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ}، نسامحكم على الأعمال والأقوال الخطأ غير الصحيحة التي صدرت منكم، هي الذنوب التي قمتم بها.

{وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ}، الذين منكم لهم أعمال موصوفة بأنها حسنة وليس عليهم خطايا لأنهم استغفروا منها في السابق، سيزيد تعالى في حسناتهم.

الخلاصة: إذا سجدتم وطلبتم الحطة عن ذنوبكم، سيجعل سبحانه أهل هذه القرية يستقبلونكم بالترحاب. شرط تدخّله تعالى ليستقبلكم أهل القرية أن تستغفروه عن أخطائكم بالسجود على باب القرية.

أمّا بالنسبة لتحديد القرية التي دخلوها، فغير معلومة لنا، لا فائدة "إيمانية" من معرفتها، لو التزم الناس بالصدق في نقلهم للأخبار والتاريخ، لما كان لدينا هذا الخلط العشوائي من المعلومات المتضاربة التي تجعل الثقافة الدينية في مستوى متدنٍ من الوثوقية، المستوى متدنٍ ليس فقط في تحديد هذه القرية، بل المستوى متدنٍ في الغالب الأعم الساحق مما نقلوه عن التاريخ الديني... الكلام ليس عن اليهود والمسيحيين فقط، قد انتقلت عدوى التخريف والهراء والكذب والمبالغات في حوادث التاريخ إلى المسلمين...

لا تخلط بين هذه القرية وبين القرية التي أمرهم تعالى بالدخول لاحتلالها، تلك القرية كانت كافرة حتماً ومعادية للمؤمنين، أمّا هذه التي أمرهم تعالى بالسجود قبل دخولها، فمن غير المعلوم إن كانت كافرة، من المرجّح أن الأمر بالسجود وطلب الاستغفار كان عاملاً مؤثراً عند أهل القرية لأن حركة السجود سيلاحظونها بسهولة، يبدو أنها كانت ستعني لهم شيئاً ما سيجعلهم يتعاطفون مع بني إسرائيل، ربما كانوا موحدين على دين النبي إبراهيم (ع) وربما كانوا كفاراً مسالمين وسبحانه لا يسمح بالاعتداء على المسالمين. الآية التالية سيبدو لك منها أن أجواء من السخرية على باب القرية ظهرت من بني إسرائيل، ورآها أهل القرية، هي كانت السبب في طردهم لبني إسرائيل.

(فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ{59})
{فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ}، الذين قدّم لهم سبحانه عرضاً لا يمكن رفضه، وهو السجود وطلب حطّ الذنوب مقابل استقبال أهل القرية لهم بالترحاب، لم يكن معهم حقّ بمخالفتهم لأمره تعالى، فبدلوا، {قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ}! قد قيل لهم أن يقولوا: حطة. لكنهم بدّلوها بكلمة أخرى، بكلمة سخرية! لنقل مثلاً أنهم بلغتهم بدّلوها بـ: حنطة. شنطة. بطّة...

لم يؤمنوا أن كلمة "حطّة" ستجعل أهل تلك القرية يستقبلونهم بترحاب! لأنها مجرد كلمة في نظرهم، لا تقدم ولا تؤخر!

{فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ}، على الذين لم يكونوا عادلين ولا منصفين لم يكن معهم حقّ بمخالفتهم لأمره تعالى، أنزل عليهم سبحانه: {رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء}، شيئاً مكروهاً منفراً، عملياً سياق الكلام عن جعله تعالى لمن ينظر إليهم أن يكرههم.

هذا الرجز، {بِمَا}، بسبب أنهم، {كَانُواْ يَفْسُقُونَ}، كانوا يخرجون عن طاعته تعالى وهم يعلمون بذلك، عن قصد خالفوها.

نزل الرجز عليهم، وترجمته على الأرض أنهم صاروا مكروهين عند أهل القرية، من الواضح أنهم طردوهم ولم يسمحوا لهم بالشراء والبيع في القرية، ولا بالبقاء فيها ولا في جوارها. هكذا خرجوا من القرية طرداً، ولم يستطيعوا الاستقرار فيها... هذا عملياً معنى ظلمهم لأنفسهم، لأنه سبحانه لم ولن يتأثّر إذا خالفوا أوامره تعالى.

الجملة تريك أن البعض منهم فعلوا ذلك وليس الجميع، ربما الظالمون كانوا أكثرية وربما أقلية، لكن بسببهم قام أهل القرية بطرد الجميع.

(وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ{60})
خرجوا من القرية... عادوا إلى البراري والبوادي، في أثناء تنقلهم لم يبق معهم ماء، لم يجدوا ماءً من حولهم، لا نهر ولا برك ماء...

{وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ}، طلب (ع) ماءً لسقاية جماعة الناس التي كان ينتمي لجماعتهم، {فَقُلْنَا}، قال تعالى له رداً على طلبه (ع) الاستسقاء:

{اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ}، نتصور أنه حجر كبير نسبياً، وموجود في مكان قريب من الخيام التي نصبها بنو إسرائيل أثناء استراحتهم بعد تنقلهم في البريّة، أو نفترض أنهم كانوا يبنون خيامهم تاركين ساحة بينهم، والحجر في الساحة...

{فَانفَجَرَتْ}، خرجت بقوّة، {مِنْهُ}، من الحجر، {اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً}، فتحات في الصخرة عددها 12، من سياق الكلام تعلم أنها عيون، أنها فتحات خرجت منها المياه لتسقي بني إسرائيل.

{قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ}، كل مجموعة من الناس، كل جماعة من بني إسرائيل، مشربهم، المكان المخصّص لهم للشرب منه. من كلام الآية 160 من سورة الأعراف عن نفس الحادثة مع ذكرها لكونهم اثنتي عشرة عائلة {وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ...}، من عموم الثقافة اليهودية تعلم أنهم كانوا اثنتي عشرة "عائلة"، كل عائلة تنتسب لولد "لسبط" من أولاد النبي يعقوب (ع) كجدّ لهم، عائلة تنتسب للنبي يوسف (ع) وعائلة أخرى جدّها بنيامين وهكذا... كما يبدو قد كانت كل عائلة تنصب خيامها في مجموعة منفصلة عن الآخرين، ومشت المياه من كل عين باتجاه خيام مجموعة من الناس.

تلاحظ أنه تعالى تقصّد جعل الماء ينبع من ضرب النبي موسى (ع) للحجر وجريان الماء برقم محدّد مساوٍ لعدد العائلات، من الواضح أنه سبحانه أراد لهم ولنا أن نرى أن الحادثة ليست صدفة، لا مجال للشكّ أن النبي موسى (ع) كان الواسطة في إخراج الماء، نفهم هذا القصد من عموم ما نسمعه هنا وهناك عن تبهيت وتسخيف بعض الآيات الإلهية التي حوّرها بعض الناس لتصير عادية أو من نواتج الطبيعة أو بالصدفة أو مبالغ فيها ولم تحصل بشكل إعجازي...

{كُلُواْ}، المنّ والسلوى، هذا ما سيبدو لك من الآية التالية، {وَاشْرَبُواْ}، من الماء الذي نبع من الحجر، {مِن رِّزْقِ اللَّهِ}، مما صار معكم للأكل منه تعالى.

{وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ}، لا يكن ما يصدر منكم حيث تعيشون في الأرض موصوف بأنه غير منظّم، مثل الذي يفعل أي شيء من دون دراسة عواقبه ولا يفكّر فيه مرتين، {مُفْسِدِينَ}، غير مصلحين، هو أي عمل سيّء لدين ودنيا الناس، عملياً الفساد هو العمل بعكس دينه تعالى... ينطبق عليه وصف العثو كما نقول بالعامية: أهوج ملخبط طايش...

هذا الرزق الذي تحصلون عليه من طعام وشراب، متوافر من دون أي تعب، حتى أن الماء يجري قرب خيامكم، ولستم محكومين لأحد، ليس هناك أي سبب يجعلكم تقومون بعمل فاسد، لأن أموركم كلها بخير.

لاحظ أن العناية الإلهية لا تزال مستمرة لهم رغم ارتكاب البعض منهم سوء تبديل طلب الحطّة عن الذنوب، دخول القرية بشكل مسالم كان العرض الإلهي الأوّل عليهم، وننتقل في الآية التالية إلى حالة أخرى:

لكن قبل ذلك ترى أنه من بعض الأمور التي يظنّها الناس سبباً للفساد بينهم من سرقة وغشّ ونصب واحتيال... وما ينتج عن ذلك من خلافات ومشاحنات... هو قلّة الموارد، ها أنت ترى أرضاً شاسعةً واسعةً متاحة لبني إسرائيل لوحدهم للسكن فيها وزراعتها ورعي مواشيهم... وترى طعاماً وماءً وفيراً مستمراً، فهل بقي سبب ما للعثو والفساد؟ لا، لكن حتى في هكذا ظروف مثالية ترى أن النموذج بني إسرائيل لم يصيروا مجتمعاً صالحاً، تتذكّر أن القرآن لم يتحدث معهم وعنهم ليريك أنه يهينهم، لا، بل هم نموذج بالنسبة لك لترى عيوبهم وتتعلّم منها ولا تقع فيها... إن خطر ببالك أنت كفرد أو كمجتمع تعانون من الفساد بمختلف أنواعه بسبب قلّة الموارد من أرض أو طعام أو شراب، فها أنت ترى أن تدخّله تعالى لسحب هذه الذرائع لن يجعلك ولن يجعل مجتمعك صالحاً... إمّا أن تكون كذلك من الأساس أو لن يغيّرك شيء إلا بالقوة المفروضة عليك...

(وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ{61})

بعد أن عاشوا مدة من الزمن على المن والسلوى والماء...

{وَإِذْ قُلْتُمْ}، قال بنو إسرائيل، {يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ}، لم نعد نتحمّل الأكل كل يوم من المنّ والسلوى حيث لا تنويع فيه، سوف نعبّر عن انزعاجنا بشكل غير لائق، لقد مللنا من طعمته مع وجود إمكانية للحصول على طعام طعمه مختلف.

{فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا}، أعلن وأشهر للمسؤول عنك من مستوى إلهي، أن يخرج لنا ممّا تنبت الأرض من الخضار التي نأكلها من دون طهي، كالخس والبقلة والرشاد... {وَقِثَّائِهَا}، يشبه الخيار ويسميه البعض بالفقوس أو المأتى. {وَفُومِهَا}، الحبوب التي يمكن طحنها لتصير خبزاً كالحنطة والشعير والذرة، {وَعَدَسِهَا}، الحبات الصغيرة المفلطحة دائرياً ومنها الأسود والبرتقالي والمبرقع... {وَبَصَلِهَا}.

هم يضربون أمثلة عن أنواع النباتات التي اشتاقوا لطعمها، لكن انتبه: هم يطلبون أن ينبتها لهم ربهم سبحانه! طالبين خروجها لوحدها من دون عمل! هذا رغم المساحة الشاسعة حولهم وصلاحها للزراعة أو ممكن استصلاحها... كلّها متاحة لهم، رغم توافر المياه التي نبعت من الحجر، ورغم توافر إمكانية ممارسة الزراعة، دلّلوا أنفسهم، يريدون منه تعالى أن ينبت لهم الزرع جاهزاً بلا أي عمل منهم!

يعني مع المنّ والسلوى كان متاحاً لهم أن يزرعوا، لكنهم تكاسلوا وتدللوا ويريدون منه تعالى أن ينبت لهم! كما ترى سبحانه يريك نتيجة تدخّله التي حوّلتهم لمجتمع كسول خامل يعتمد على الدعم الإلهي بدلاً من الاستفادة منه لتحسين حالهم... يريكهم ليكونوا نموذجاً لك عن نفسك وعن أي مجتمع ترى أنه تعالى يجب أن يتدخّل ليؤمن لهم رزقهم...

ننتبه لطريقة حديثهم مع النبي موسى (ع)، حيث قالوا له: ادع لنا ربك. لم يقولوا: ادع ربنا! الذين طلبوا خروج النباتات لوحدها بدون جهد، من الواضح أنهم لم يكونوا من المؤمنين الحقيقيين.

قال النبي موسى (ع):

{أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى}، الأقرب إلى القيمة القليلة، {بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ}، الكلام عن الطعام والحالة، توافر الأمن وساعة الأرض والماء والمنّ والسلوى، يعطيهم وقتاً مريحاً ليزرعوا ويحصلوا على الإنتاج بعد أشهر، لكنهم لم يزرعوا ويريدون الآن أن تتوافر لهم منتوجات زراعية متنوّعة، بل يريدون منه تعالى أن تكون المنتجات جاهزة! بدل بناء مجتمع مدني حيث هم في حالة خير، في أمان وأرض واسعة وماء وطعام متوافر، طلبوا الآن ما هو أدنى منه، طلبوا أرضاً مزروعة بمختلف أنواع الخضروات وجاهزة للحصاد!

الآن ماذا تتوقّع؟ هل سينبت لهم تعالى ما طلبوه وهم كسالى خاملون؟ بعدها هل تتوقّع أن يطلبوا منه تعالى طهي الطعام لهم!...

قال لهم النبي موسى (ع):

{اهْبِطُواْ مِصْراً}، انزلوا حطّوا رحالكم في مكان معمور، في بلدة، فيها الزرع كما طلبتم، لم تقل لنا الآية اسم المكان الذي أشار إليه النبي (ع)، لأنه غير مهم، بل الأهمية لاستجابته تعالى لطلبهم، {فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ}، الذي طلبتموه ستحصلون عليه، قد سألتم عن تنويع الطعام، اذهبوا إلى بلدة فيها ما تطلبون.

بالنسبة لكلمة "مصراً" كما نقول: جال في الأمصار. نقصد أنه دار وجال على بلدان مختلفة، كل واحد من تلك البلدان هو: مصر. أي المكان الذي فيه عمارة وزراعة أو بيوت... لو كانت "مصر" هنا اسم بلد لكانت ممنوعة من الصرف بدون ألف تنوين.

بالنسبة لكلمة سأل، المعنى الأساسي لها هو المرادف تقريباً لمعنى كلمة "طلب" المستعملة حالياً، لم يستعمل القرآن كلمة "طلب" بالمعنى الدارج حالياً واستعمل بدلاً منها كلمة سأل التي هي لعامّة إرادة شخص لشيء ما من شخص آخر، سواء أراد جواباً أو أراد غرضاً أو مساعدة...

نتذكر الآية 58 التي مرّت قبل قليل، حيث تحدثت عن تجربتهم الأولى السيئة مع أول قرية دخلوها... هناك كانت العناية الإلهية لدخولهم سلمياً إلى قرية فيها الحياة العادية والطعام العادي، أمّا هنا، قد تغيّر الوضع، العرض الإلهي السابق لم يعد متاحاً، صار العرض الجديد بدخولهم إلى قرية ما بقتال أهلها... لن يتدخّل تعالى ليجعل دخولهم سلمياً... هذا ما

تعلمه من الآية 24 من سورة المائدة {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}، هذا ما تفهمه من تكملة الجملة هنا {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ}.

نرجع للآية، {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ}، لصقت بهم ولاحقتهم المذلّة، هي الانقياد للغير بسبب ضعفهم، قرارهم صار بيد غيرهم، وضربت عليهم، {وَالْمَسْكَنَةُ}، صاروا بحاجة للآخرين ليساعدوهم.

{وَبَاؤُواْ}، صاروا في مكانة، {بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ}، اعتبر تعالى ما فعلوه لا يمكن تمريره بدون ردّ قاسٍ، صاروا يستحقون العقاب الإلهي.

لاحظ أنهم كان بإمكانهم بناء قريتهم حيث ينزل المنّ والسلوى وتتوافر المياه للزراعة، لكنهم أشاعوا الملل بين قومهم من المنّ والسلوى وطلبوا منه تعالى أن ينبت لهم الزرع! كحالة دلع وغناج! لكنه تعالى جاءهم بعرض على قياس إيمانهم، آمراً لهم هذه المرّة بالقتال لدخول قرية ما للحصول على مكان مهيّأ للسكن والزراعة... هذه الحادثة معلومة مشهورة جداً من عموم الثقافة الدينية ومن القرآن، من بعدها حكم عليهم تعالى بالتيه، بالضياع في البراري لأربعين سنة كما جاء في الآية 26 من سورة المائدة {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}.

{ذَلِكَ}، الحكم عليهم بالذلّة والمسكنة، {بِأَنَّهُمْ}، بسبب أنهم، {كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ}، ينكرون الأمور المميزة المنسوبة له تعالى بمستواها الإلهي، {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ}، النبيون هم الأشخاص الذين يصلهم النبأ منه تعالى، ينزل عليهم الوحي منه تعالى لهداية الناس، هؤلاء النبيون لم يرتكبوا أي جرم يستحقون عليه أن يقتلوهم، كانوا يقتلونهم هكذا باطلاً، بغير حقّ ومن دون أي جريمة.

ذلك، الذي أصابهم من ذل ومسكنة وغضب، {بِمَا عَصَوا}، بسبب مخالفتهم لأوامره تعالى، {وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ}، يتعدّون الحدود التي رسمها الله تعالى لهم، لم يلتزموا بتنفيذ أوامره تعالى.

كما ترى، الآية قفزت بالزمن من حادثة عصيانهم مرّة ثانية لأمره تعالى حيث رفضوا قتال الكافرين... مع أنهم فيما بعد قتلوا النبيين!

حوادث قتل الأنبياء والمؤمنين قليلة عبر التاريخ قياساً مع عدد كل الناس، وقياساً مع الحروب التي خاضها مختلف الناس وقتلت الملايين... فرضاً لو حدثت مرّة واحدة، وقتل قوم ما نبياً واحداً، هذا يكفي حتى يكون نموذجاً لا يمرّ عليه تعالى بالنظر للعدد "واحد"، لا، لأن هذا الواحد أهمّ عنده تعالى من المليارات، سيذكره تعالى في كلامه كنموذج لأبشع ما يمكن أن يفعله الكافرون بآياته تعالى.

المشهور بين الناس أنهم قتلوا النبيين يحيى (ع) وزكريا (ع)، ليس لدينا في القرآن أي تسمية أو ذكر لحادثة جرى فيها فعلاً قتل "إنهاء حياة" نبي إلا محاولتهم قتل النبي عيسى (ع)، لدينا في التاريخ كلام عن محاولات يهود مدينة يثرب اغتيال النبي محمّد (ع) وقبله محاولة اغتيال للنبي داوود (ع) وللنبي سليمان (ع)، ربما لم يتحقّق فعلاً قتل لأي نبي عبر التاريخ ولكن صار موصوفاً من حاول قتلهم بأنه قاتل للأنبياء رغم منعه تعالى من حدوثه، راجع استعمال العرب والقرآن لكلمة "قتل" ومشتقاتها لترى أن المباشرة بأي عمل بقصد إنهاء حياة الآخر فهو قتل حتى لو لم يتحقّق القتل، هنا التعبير بقتلهم النبيين ليس بالضرورة أنه تحقّق وأنهم أنهوا حياة نبيين، بل يكفي قيامهم بعمل يقصدون منه إنهاء حياة نبي ما فهو عمل قتل حتى لو لم يتحقّق.

إن خطر ببالك أن التعبير بـ "قتالهم النبيين" سيعطي بشكل أصرح المعنى الذي ذكرناه، كلامك صحيح ولكن من تبعات هذا التعبير أن يكون القتال من الطرفين، هذا معنى لا تريد الآية قوله، لأن النبيين لم يقاتلوهم بل هم فقط قتلوا "وليس قاتلوا" النبيين.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{62})

الآية هنا تقطع الفقرة التي تتحدث عن النعم والتفضيلات التي تنعّم بها بنو إسرائيل، وكيف أنهم أساؤوا التصرف، لتقول:

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ}، اعتقدوا بدين الله تعالى بشكل عام، هناك أشخاص مؤمنون بدينه تعالى وليس لهم اسم انتساب لمسمّى ديني محدد، هذه بالنسبة لنا حالة المؤمنين في عهد الأنبياء شيث (ع) إدريس (ع) صالح (ع) هود (ع) نوح (ع) وإبراهيم (ع)... هؤلاء وأتباعهم لم يكن لتدينهم اسم ديني ينتسبون له، أو لم يصلنا اسمهم الديني، لم يكونوا يهوداً أو نصارى أو مسلمين... كاسم ديني.

{وَالَّذِينَ هَادُواْ}، الموصوفين بهذه الصفة كاسم ديني لهم، الوصف أنهم أنابوا ورجعوا لربهم سبحانه في أمورهم وشؤونهم، هم المؤمنون من اتباع شريعة النبي موسى (ع) وقد تحول اسمهم إلى: يهود. على معنى المنيبون الحامدون، نجد هذا المعنى في القواميس العبرية لكلمة "يهود" واشتقاقها من هاد هدنا "هداية"، حيث في اللغتين العربية والعبرية هي نفس الكلمة بنفس المعنى، راجع في ذلك ما نقله القرآن من قول النبي موسى (ع) في الآية 156 من سورة الأعراف {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ...}. أمّا ما هو دارج بين البعض عن نسبتهم ليهوذا "أحد أولاد النبي يعقوب (ع)"، فيبدو أنه غير دقيق.

{وَالنَّصَارَى}، هم الذين أعلنوا أنهم أنصار مؤيدون للنبي عيسى (ع) وماشون على دينه.

{وَالصَّابِئِينَ}، تسمية معناها بالعربية: الذين خرجوا عن دين من حولهم من الناس، بالمعنى اللغوي العام يمكن إطلاق هذه التسمية حتى على بعض الجماعات المشركة التي تخرج عن محيطها الإيماني، قد جرى إطلاق هذه التسمية على مجموعات مختلفة من الناس عبر التاريخ، لكن الآية تتحدث عن الصابئين الذين يتبعون دين الله تعالى، الخارجين عن دين مجتمعهم المشرك أو المنحرف، أشهر الصابئين من الموحدين لله تعالى هي المجموعة التي اتبعت النبي يحيى (ع)، يقال لهم: المندائيين، أو الصابئة المندائيين، لديهم كتب ينسبونها إلى آدم (ع) وشيث (ع) وإدريس (ع) ويحيى (ع)... كلمة "صبأ" في نصوصهم الدينية بلغتهم السريانية والآرامية... تعني: اصطبغ وتلون، مثلاً: اصطبغ بالإيمان. أمّا اصطلاحاً في استعمال العرب قديماً في زمن نزول هذا القرآن فهي وصف لعامّة من خالف قومه في شيء، حتى أن النبي محمّد (ع) وصفوه بها عندما أعلن توحيده...

هؤلاء بالصفة العامة "الذين آمنوا" أصحاب الصفات الدينية "اليهود، النصارى والصابئون" {مَنْ آمَنَ} منهم {بِاللَّهِ}، اعتقد أن صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز أنه الخالق الإله الرب الأحد... {وَالْيَوْمِ الآخِرِ}، اعتقد بالزمن الذي سيأتي في الآخر بعد هذه الحياة الدنيا، هو يوم القيامة من الموت، عملياً هو الاعتقاد بزمن الحساب على الأعمال التي قمنا بها.

مضافاً إلى هذا الإيمان: {وَعَمِلَ صَالِحاً}، قام بالأعمال الصالحة الجيدة، قد خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، هم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، سبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، عملياً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموماً وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، حتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، هذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائماً أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنوا به. هذا الكلام له عمق، حيث لا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك، هذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو سيّء" إنما هو في الحقيقة اختراع من البشر وليس أمراً إلهياً.

الانتساب بالاسم فقط للإيمان أو لاسم ديني، مثلما نقول: هذا يهودي وذاك نصراني والآخر مسلم... من انتمى بالاسم فقط ولم يكن مؤمناً عاملاً للصالحات، لن ينفعه الانتساب بالاسم، بل الإيمان مع العمل الصالح كلاهما معاً ينفعان.

{فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ}، لهم أجرهم، لهم ما يستحقّونه منه تعالى كبدل عن إيمانهم وعلمهم الصالح، {عِندَ رَبِّهِمْ}، عند المسؤول عنهم من مستوى إلهي، ليس معنى أجرهم أنه فرض واجب عليه مجازاتهم بالجنّة، لا، بل هو سبحانه من فضله حدّد لهم شيئاً يستحقونه على إيمانهم وعملهم الصالح وسينالونه.

{وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ}، لن يشعروا بأنه سيصيبهم مكروه أو خطر لا يمكنهم تجنّبه، عملياً سيكونون في الأمان في الآخرة.

{وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ}، بل سيكونون في أشد حالات السرور في الآخرة، هنا في الدنيا حتى لو كنت غنياً وتملك كل ما تريد، لكنك تحزن على فقدان شخص عزيز، أو تحزن على احتراق بيتك أو على مرض أصاب أحباءك... أمّا في الآخرة فلا حزن أبداً.

هنا الآية قطعت سياق الفقرة عن فضائله تعالى على بني إسرائيل لتلفت انتباهنا لشيء مهم، حيث تحدثت الآيات السابقة عن النعم والتفضيلات الإلهية التي أعطاها تعالى لبني إسرائيل خصوصاً، سبحانه يخاطبهم عبر هذا القرآن حتى ينبههم ليؤمنوا بالقرآن كي يبقوا على الخط الصحيح الذي سبّب لهم تلك النعم والتفضيلات، لكن أثناء عرض تلك الآيات، ركّزت على النعمة الإلهية من جانب، وعلى من تعامل معها بشكل سيء من جانب آخر، بيّنت كم كان ربنا سبحانه رحيماً حين أعطاهم الكثير من الفرص...

لكن الآيات لم تتحدث عن الذين كانوا مؤمنين حقاً ومطيعين بالكامل، والذين أساساً هم سبب نزول الخير وسبب تفضيله سبحانه لبني إسرائيل، لم تتحدث عنهم لأنه لا مشكلة معهم بسبب سلوكهم الجيد، استمرار اهتمام ربنا سبحانه ببني إسرائيل سببه أولئك المؤمنون، أمّا المشكلة فهي مع المنتمين بالاسم لدينه تعالى وليسوا مؤمنين حقيقيين وعاملين للصالحات، هم الذين تتحدث معهم وعنهم هذه الآيات، الآية هنا أخبرتنا أن المؤمنين بشكل عام غير مهمشين من الكلام نهائياً، بل هم بكل أسمائهم "الدينية" المختلفة "مؤمنين يهود مسيحيين وصابئة" هم واحد، ونفس الإيمان. ولهم أجرهم والأمان... لا خصوصية خاصّة لبني إسرائيل إلا لكونهم أمّة أعلنت تدينها، لذلك نالت الفضل الإلهي كأمّة، بقية المنتسبين لدينه تعالى ليسوا مهمّشين في نظره تعالى أو هم درجة ثانية، لا، لاحظ معي ذكر الآية لليهود، هذا تعبير عن عامّة أتباع النبي موسى (ع) ويشمل بني إسرائيل وغيرهم من الناس الذين اتبعوا التوراة، مما يريك أنه لا خاصية إيمانية لبني إسرائيل عن غيرهم.

نلاحظ نفس الآية تكررت باختلاف بسيط في سورة المائدة 69.

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ{63})
نكمل مع الآيات التي تتحدث مع "وعن" بني إسرائيل لتدفعهم للإيمان بهذا القرآن:

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ}، أخذ سبحانه منكم التأكيد الشديد على اتباع أوامره التي أنزلها عليكم في كتاب التوراة كما ستقول تكملة الآية، حيث في البداية كان معكم خبر بضرورة اتباع التوراة، ثم جرى توثيق، تأكيد التشديد على هذا.

{وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ}، الجبل، لا تنسوا هذه الحادثة غير العادية، قد رفعنا الجبل عن الأرض وصرتم تحته! لا تنسوا هذه الحادثة.

يبدو أن رفع الجبل فوقهم مرتبط بالميثاق الذي التزموا به، قد ورد نفس المعنى في الآية 171 من سورة الأعراف {وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.

دينه تعالى لا يتحمّل التهاون أو التراخي فيه، لأنه أصلاً وأساساً ميثاق، شيء مؤكّد بقوّة، مجرد إعلان أي شخص أنه تابع للدين الإلهي حينها يصير تحت ميثاق، تحت شيء إن تهاون به أو تلاعب به عندها لن يحمل صفة المؤمن المتدين بشكل صحيح تّام، يبدو من الآية أن بني إسرائيل عاهدوا ربهم سبحانه على اتباع الكتاب الذي نزل عليهم، في حادثة علنية، كإعلان قالوه أو قاله النبي موسى (ع) لهم ووافقوا عليه، رفع ربنا سبحانه الجبل فوق رؤوسهم كإشارة على أخذه تعالى العهد منهم.

هذه الحادثة فريدة من نوعها، وتفهمها من جهتك أنك لم تحدث معك حادثة غريبة غير عادية حتى تأكّدت بقبوله تعالى منك ميثاقك بإعلانك لالتزامك بدينه، عندها نسأل: هل لو كنت فاسقاً أو منافقاً أو في قلبك مرض من العيار الثقيل، ورأيت الجبل صار فوقك كعلامة منه تعالى على قبوله ميثاقك بالتزامك بدينه، هل سيتغيّر حالك لتصير مؤمناً؟ لا، لأن المؤمنين من الدرجة المقبولة يزداد إيمانهم من هكذا حوادث، وإن لم تحصل فهم سيبقون مؤمنين، أمّا الآخرون فلن يتغيّر فيهم ولا أي شيء لا من هكذا حادثة غريبة عجيبة ولا من أي حادثة أخرى، ها هو القرآن مشحون بالنماذج عن ذلك، منها فرعون وتسع آيات، وثمود وناقة خرجت من صخرة... وها هم بنو إسرائيل وجبل فوقهم، وفي الآية التالية سترى أنها لم تنفعهم...

بناءً على الميثاق: {خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم}، من عقيدة وشريعة، {بِقُوَّةٍ}، نفذوه بكامله ولا تتهاونوا أو تضعفوا في تطبيقه، الصلاة واجبة، والزكاة واجبة والعقاب على السرقة والزنا... واجبة، لا تضعفوا بل كونوا أقوياء في تطبيق الأحكام الإلهية.

{وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ}، داوموا على استحضار المعلومات التي في الكتاب الذي أعطيناكم، وهو توراة النبي موسى (ع)، عملياً يعني أن يجعلوه مرجعاً ومصدراً أساسياً لعقيدتهم وشريعتهم وسلوكياتهم.

{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، من المفروض ومن المتوقّع إذا أخذتم فعلاً بما في الكتاب أن تتجنبوا وتتحاشوا غضبه وعقابه سبحانه.

تجد في الكتب كلاماً متنوّعاً مختلفاً عن حادثة رفع الجبل فوقهم، وأغلبه تحليلات واختراع سيناريوهات لا تستند إلى واقع، أمّا الذي يوافق ما نفهمه من القرآن، أنه بعد إعلانهم "كأمّة" اتباع التوراة التي نزلت على النبي موسى (ع)، قد جرى قلع جبل من مكانه ليمرّ فوق رؤوسهم كإشارة لهم على المراقبة الإلهية لهذا الميثاق، هذا ما يمكن أن تفهمه من الآيات التي ذكرت هذه الحادثة، ولا شيء آخر.

(ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ{64})
{ثُمَّ تَوَلَّيْتُم}، توجّهتم باتجاه آخر، {مِّن بَعْدِ ذَلِكَ}، من بعد أخذ ميثاقكم لم تلتزموا به واتّجهتم باتجاه آخر غير الالتزام بدينه تعالى، لا تنسَ أن المشكلة ليست مع المؤمنين لتذكيرهم بفضله تعالى، بل المشكلة مع الآخرين، لأنه ليس كلّ بني إسرائيل تولّوا بل الذين توجّه لهم الآيات الكلام.

{فَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ}، أنتم تستحقون العقاب الشديد ولكن فضلاً من ربكم سبحانه ومن دون أن تكونوا مستحقين، {وَرَحْمَتُهُ}، ولولا عنايته بكم لما فيه مصلحتكم، {لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ}، لفقدتم شيئاً له أهمية كبيرة، لكنتم لم تحصلوا على مغفرته تعالى ولا على أجر...

من دون أن يكون لكم فرض واجب عليه تعالى، بسبب عنايته هو سبحانه بكم، "بسبب وجود مؤمنين حقيقيين بينكم وولادة مؤمنين حقيقيين منكم فيما بعد..."، لولا ذلك لكنتم من الخاسرين، لكنتم من الذين لم يحصلوا على شيء له أهمية "كبيرة"، لفاتكم مغفرته تعالى وثوابه، ولربما لأهلككم تعالى.

نفهمها بالواقعية التي تعامل بها تعالى مع عموم عباده، خذ مثلاً ما ورد في الآية 2 وما بعدها من سورة الروم {غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ...}، الروم في حينها منتمون بالاسم لدينه تعالى، وكما هو معلوم من التاريخ أنهم لم يكونوا كلّهم مسيحيين مؤمنين صالحين، بل حتى فيهم المؤمنون بأن النبي عيسى (ع) ولد له تعالى وإله... هذه ليست حالتهم هم فقط، بل حالة عموم المجتمعات ومنها الذين عاصروا النبي محمّد (ع) وحقّقوا معه الانتصارات، والذين أتوا من بعدهم... هنا نفس الشيء، بنو إسرائيل كمجتمع هم خليط أكثريته في حين حصول هذه الحوادث التي تذكرها الفقرة هنا، أكثرهم كانوا أقل من المقبول إيمانياً، كحالة عموم مجتمعاتنا المسلمة قديماً وحالياً، هكذا ترى أنه تعالى لم يجعل معيار رحمته الخاصة بالمؤمنين وتدخله في مجريات حياة الأقوام، أن يكونوا مؤمنين من الدرجة العالية القريبة من درجة الأنبياء، لأن هذا شيء غير واقعي لم يحدث، لأنه لم يتواجد مجتمع غالبيته مؤمنون من الدرجة العالية، ويبدو مما نعرفه من التاريخ السابق أنه لن يحدث حتى في المستقبل.

سيأتيك في الآية التالية إشارة إلى ما لا يمكن تمريره، مما يجعل الرحمة مرفوعة والغضب الإلهي نازل على مجتمع ينتمي بالاسم لدينه تعالى.

(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ{65})
التهديد بعذاب على التولّي عن ميثاقكم "تركه" عليه مثال تعرفونه: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ}، وعندكم علم بـ {الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ}، فالبعض من بني إسرائيل تخطوا حدودهم فلم يلتزموا بأمر ربهم سبحانه بالتوقف عن العمل {فِي السَّبْتِ}، وهي قصة مشهورة في الأدبيات الدينية الإسلامية، وقد ذكرها القرآن في الآية 163 من سورة الأعراف، حيث أمرهم تعالى بالتوقف عن العمل يوم السبت، ولكنهم لم يلتزموا فعملوا فيه...

{فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً}، فتحولوا إلى قرود "سعادين أو شمبانزي أو نسناس..."، {خَاسِئِينَ}، فحالكم بعد تحوّلكم يدل على عجز قدرتكم على تحدّي أوامره تعالى.

لاحظ أنه كما كان فضله عليهم غير عادي؛ بفلق البحر، وإنزال المن والسلوى، وتفجير المياه من صخرة، ونزول كتاب إلهي، ورفع الطور... أيضاً العقاب كان غير عادي، ولن تجد في كل التراث الديني ولا في القرآن مثل هذا العقاب بما نسمّيه نحن بالمسخ، وحتى أعتى الكافرين المجرمين أهلكهم تعالى ولم يحصل لهم تحويل لحيوانات.

عادة في كلامنا نضيف تحويلهم لخنازير وإلى قردة، علماً أن القرآن هنا وفي الآية 166 من سورة الأعراف: {فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}، حدّد تحويلهم لقردة فقط، وما جاء عن تحويل لخنازير في الآية 60 من سورة المائدة: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ...} يبدو لقوم آخرين غير الصيادين.

هناك كلام عن المسخ، علماً أن القرآن لم يستعمل هذه الكلمة "مسخ" لوصفهم. وفي عمقه تحليل للكلام الإلهي: إن كان تحويلاً حقيقياً للجسد ليصيروا قردة قلباً وقالباً، متضمّناً تغيير هيئتهم وفكرهم مع احتفاظهم بما يمكن للقردة الاحتفاظ به مما يشابه الإنسان... أو كان فقط تحويلاً للشكل مع بقاء المضمون إنساناً، أو تغيّراً جزئياً في الشكل من شعر كثيف على الجسم وانحناء الظهر... مع بقاء المضمون إنساناً، أو لا شيء مما سبق؛ بل هي تعابير مجازية عن تحوّل مجتمعهم لحياة القرود بتخلّفهم وتراجعهم لحالة الإنسان البدائي، كما نصف شخصاً مهتاجاً بأنه كالثور، فبقوا كما هم ولكن صارت تصرفاتهم بدائية كالقردة.

أولاً، لم يستعمل القرآن كلمة مسخ أو مشتقاتها إلا في الآية 67 من سورة يس: {وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلاَ يَرْجِعُونَ}، وقصدت تشويه الخلقة في يوم القيامة للكافرين لتصير مانعة لهم من الوصول إلى الصراط مشياً أو زحفاً... ولم يستعمل القرآن كلمة مسخ لحالة الذين صاروا قردة أو خنازير، بل استعمل "جعلهم، وأن يكونوا"، وهذه تعابير مباشرة لتحويل الخلقة، ولا تتضمّن معنى التشويه كما تتضمنّه كلمة مسخ، بل تشير بشكل مباشر لمعنى التحويل. طبعاً بلا مهانة للقرد والخنزير لأنهما حيوانان صمّمهما تعالى ولم يفضّلهما في الخلقة كما فضلّنا بالفكر المؤهّل للتكليف لدرجة خلافته تعالى، إنما المهانة للذي تحوّل من أحسن صورة إلى ما دونها حتى ينكسر تكبره وتعاليه على أوامره تعالى، وكتنكيل يتّعظ منه الآخرون حتى لا يتدللون عليه تعالى ويفسّرون حلمه عليهم كأفضلية ثابتة لهم وأنهم فوق العقاب، وليست المهانة للقرد ولا للخنزير.

أمّا السؤال عمّا جرى بعد تحويلهم؛ للأسف ما تجده في تراثنا وتراث أهل الكتاب التاريخي فهو غير موثوق، ولا تخرج منه بنتيجة موثوقة بسبب تضاربه وتخالفه، لربما اختلطت الحقيقة مع التخمينات، وربما كل ما قالوه تخمينات... على أي حال، فنحن لا يهمنّا الفضول، بل يهمّنا أنه تعالى عاقبهم بشدة وإهانة غير مسبوقة رغم انتمائهم بالاسم لدينه تعالى.
ولمزيد من التوسّع حول سبب عذابهم هكذا، راجع دراسة الآية 163 من سورة الأعراف: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}، وسترى هناك بالتحليل أن السبب الرئيسي لم يكن صيدهم يوم السبت، بل عموم فسقهم وتولّيهم عن دينه تعالى، وكنموذج عن ذلك صيدهم يوم السبت.

(فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ{66})
{فَجَعَلْنَاهَا}، جعل سبحانه حادثة التحويل لقردة، {نَكَالاً}، عقاباً شديداً بحيث من يراهم أو يسمع بهم سيخاف من هذا العقاب، فهي نكال {لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا}، لمن عاصرها فحضرها من الناس وشاهدها، ونكالاً لـ {وَمَا خَلْفَهَا}، وللذين سيأتون خلفها، أي بعدها، لمن سيسمع بها من الناس فيما بعد.

{وَمَوْعِظَةً}، هي تجعل من يسمعها يتّعظ ويكون منتبهاً لأعماله حتى لا يصيبه العقاب، وهي موعظة {لِّلْمُتَّقِينَ}، للموصوفين بسلوك التجنّب، والكلام عن المتجنبين للسوء وهو نفسه تجنّب غضبه وعقابه تعالى، وعملياً هم المطيعون له تعالى.

ها هو القرآن يعيد تذكيركم بالتحويل لقردة كعقاب، لتتذكّروا أن تفضيلكم ليس خارجاً عن القاعدة الإلهية بالعناية فقط وفقط بالمؤمنين، وكتشجيع لكم للعودة إلى دينه تعالى لتنالوا فضله تعالى عليكم، وتحذير لكم من مغبّة ما قد يحصل معكم إن لم تلتزموا بأوامره تعالى، وهذا ما تريد الفقرة هنا قوله.

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ{67})
تبدأ الآيات من هنا بالحديث عن قصة حصلت مع بني إسرائيل، لتكمل الفقرة كلامها معهم وعنهم، وتبيّن نموذجاً عن محاولاتهم للتملّص من تطبيق دينه تعالى... حيث ستعلم في سياق الآيات الآتية أن القصة هنا تدور حول شخص مقتول، والقاتل مجهول...

وتبدأ الآيات من بعد ما سألوا النبي موسى (ع) عن ضرورة التدخّل الإلهي لتحديد القاتل. ويبدو من الآيات أنهم كانوا يعرفون القاتل، وأن جماعة "كبيرة أو نافذة" من المجتمع كانت "السبب ما" تريد إخفاء القاتل والتستّر عليه، ربما لأنه نافذ ومن أصحاب المكانة عندهم أو ابنٌ لنافذ... فحاولوا تضييع وتمييع الموضوع... وتماشى سبحانه معهم من دون أن يشعروا، حتى يجهّزوا تجمعاً كبيراً من الناس، وعندها، وأمام الجميع، نطق المقتول باسم قاتله، رغم أنهم كانوا يريدون تمييع الموضوع... لنرى كيف حصل ذلك:

{وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ}، لجماعة الناس التي لها كيان الجماعة وهو (ع) ينتمي لجمعتهم، "قال (ع) للسائلين عن اسم القاتل": {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً}.

{قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا}، هل تعتبرنا بلا قيمة وتستخف بنا وتستهين بعقولنا؟ هل كلامك معنا عن خلفية الهوان والاستخفاف بنا! فما دخل ذبح البقرة بمعرفة القاتل!

{قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ}، قال النبي موسى (ع): فهذه تهمة خطيرة وأنا ألتجئ فأحتمي بالله تعالى من هذه التهمة، {أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}، أن أكون من الذين يتصرفون بطيش لا عن دراسة ولا تفكير، فيستهزئون من الناس؛ لأن ذبح البقرة هو فعلاً الحلّ لمعرفة القاتل.

لننتبه جيداً، هناك حوادث ذكرها القرآن مشابهة لحادثتنا هنا من ناحية إذاعتها وانصباب اهتمام الناس بها؛ فحادثة إحراق النبي إبراهيم (ع) سبقها جمهرة الناس بسبب انصباب اهتمامهم على من كسّر آلهتهم، وذلك بحملة دعائية لمهرجان إحراق ضخم... وتحدّي فرعون بالسحرة للنبي موسى (ع) حدث في يوم عيد يجتمع فيه كل الناس، وقد سبقته حملة دعائية فرعونية... وهنا، أمره تعالى بذبح بقرة لمعرفة القاتل، سيبدو لك من تكملة القصّة أنه تحضير إلهي لجذب اهتمام أكبر عدد من الناس. والغوغائيون الذين يريدون تضييع الجريمة، هؤلاء، وعلى غفلة منهم، قد شاركوا في شدّ اهتمام الناس أكثر فأكثر إلى القضية...

بكل بساطة، كان بإمكانه تعالى إعادة إحياء الميّت من دون الحاجة إلى ذبح بقرة، ولكن حتى لا تكون حادثة عابرة وعادية، قرّر سبحانه التماشي مع الغوغائيين، وجعل غوغائيتهم حملة دعائية تجذب اهتمام الغالبية الساحقة من المجتمع.

أمّا ما ستجده في مختلف الكتب عن قصّة هذا المقتول فلن يفيدك بأي شيء؛ لأنها مجرد تفاصيل للفضول. وأمّا ما ينفعك للعبرة الإيمانية فستجده كاملاً هنا في الآيات. وأصلاً، هناك اختلاف وخلط وتشويش في الكلام الذي يقولونه، وبسهولة ترى في كلامهم أنهم حرّفوا القصة ورووها بتصرّف حتى تشوّهت وصار منها نسخ مختلفة، بينما العبرة من القصة هي غوغائية الناس في نفس الوقت الذي يقومون فيه بأنشطة يبدو منها الاهتمام والتركيز...

(قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ{68})
{قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ}، أعلن وأشهر للمسؤول عنك من مستوى إلهي، {يُبَيِّن لّنَا مَا هِيَ}، يوضّح لنا ما هي مواصفات هذه البقرة التي ستأتي بطريقة ما بالجواب عن اسم القاتل؟

علماً أنه (ع) في البداية قال لهم: اذبحوا بقرة، بحيث إن أي بقرة تحلّ المشكلة. ولكن هذه الجماعة لا تريد معرفة القاتل، ولذلك يريدون تعقيد الموضوع وتضييعه، فيسألون عن مواصفات البقرة حتى يماطلوا ويتملصوا بحجة أنهم لم يجدوا البقرة المناسبة، فيضيع الموضوع...

لننتبه جيداً كيف يقولون: "ربك" للنبي موسى (ع)، ولا يقولون: "ربنا"! مما يدل على ضعف إيمانهم.

{قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ}، قال النبي (ع): إن ربي سبحانه يقول إنها بقرة {لاَّ فَارِضٌ}، ليست مسنّة كبيرة في العمر، {وَلاَ بِكْرٌ}، وليست في أول عمرها ولم تلد بعد، بل {عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ}، أي في متوسط العمر، بين الفارض والبكر.

{فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ}، فقد أمركم تعالى بذبح أي بقرة بهذه المواصفات، فاذبحوها وتوقفوا عن المماطلة؛ لأن هذه الصفات متوافرة بكثرة وليست تعجيزية.

(قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِـعٌ لَّوْنُـهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ{69})
ذهب هؤلاء ثم عادوا، و {قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا}؟ ومن الواضح جداً أنهم يماطلون لتضييع الموضوع!

قال النبي (ع): {قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ}، أي ربي سبحانه يقول إنها بقرة صفراء، {فَاقِعٌ لَّوْنُهَا}، لونها شديد وواضح، {تَسُرُّ النَّاظِرِينَ}، فالملتفتون الموجّهون تركيزهم العام إلى البقرة سيشعرون بالسرور بسبب صفاء لونها وصحّتها.

باختلاف المناطق تختلف ألوان البقر، والبقر الأصفر اللون يبدو أنه كان شائعاً في منطقة وزمن حصول هذه الحادثة كما سترى من الآية التالية، فهذه صفة ليست تعجيزية.

من خبرتي الشخصية ومما رأيته من مربّي الماشية، تسميتهم للون بعض الماشية بـ "الأصفر"، وهو وصف نقبله أنت وأنا؛ لأنه الوصف الأنسب لذلك اللون مقارنة ببقية الألوان الأساسية، فلا هو عسلي ولا بني فاتح. لذا، لا تتصوّر "الصفار" كلون الطلاء الأصفر بالتمام، فأنا لم أرَ هذا اللون في المواشي التي يصفها الرعيان فعلاً بالأصفر. ونفس الكلام ينطبق على وصف الرعيان للعنزة بـ "الشقراء"، بينما لونها بالنسبة لك ولي ليس أصفر...

لاحظ وانتبه، إلى الآن لم يذكر لهم سبحانه أي صفة تعجيزية؛ فأي بقرة متوسطة العمر تفي بالغرض، وأي بقرة لونها أصفر وصحّتها جيدة تفي بالغرض.

لاحظ وانتبه أيضاً لاستنتاجنا حول مماطلتهم بكثرة الأسئلة حتى يُميِّع ويضيع الموضوع. ولكن، من بعد الأخذ والردّ، ظهر جانب نفسي آخر، وهو جانب "لزوم ما لا يلزم". وهي نفسية وعقلية ترى أثرها في كل شؤون حياتنا، وما يتعلّق بالدين ليس خالياً منها؛ فترانا نغوص في تفاصيل لا طائل ولا فائدة منها. خذ مثلاً الشكّ في الصلاة، وفي تمام الغسل، وتمام الوضوء... والوسوسة من النجاسات... تعتبر واضحة وصريحة في سوئها. فكثرة الأسئلة التحديدية للبقرة ليست مختلفة عن تلك العقلية؛ فالله سبحانه كان يقبل بأي بقرة، ولكن نتيجة إصرارهم على التدقيق في مواصفاتها، فقد تماشى سبحانه معهم.

(قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ{70})
ذهبوا مرة ثانية ثم عادوا بحجّة جديدة لتضييع الموضوع، {قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ}، {إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا}، يوجد الكثير من البقر بهذه المواصفات، وكلها تشبه بعضها، ولم نعرف بالتحديد البقرة التي تتكلم عنها!

{وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة، وبيده أن يختار لنا أن نكون على الشيء الصحيح الذي يوصلنا لما نريد. طبعاً، لا تفهم من هذه الجملة الإيمانية أنهم من المؤمنين الحقيقيين المتوكلين عليه تعالى؛ لأنها مجرد جملة قالوها ليماطلوا، لربما يصلوا إلى نقطة يقول فيها النبي موسى (ع) شيئاً عن البقرة يجعل إيجادها مستحيلاً، وينتهوا من الموضوع!

(قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ{71})
قال النبي موسى (ع): {إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ}، أي ليست في مذلّة العمل في إثارة الأرض، فهي معززة، وهي لا تعمل في فلاحة الأرض.

{وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ}، لا تعمل على جرّ المياه للحرث، أي للأرض التي تم العمل عليها لتنتج؛ فحراثة الأرض هي صفتها عندما تكون مهيّئة للإنتاج عبر فلاحتها.

{مُسَلَّمَةٌ}، سالمة خالية من أي عيب، {لاَّ شِيَةَ فِيهَا}، لا شيء سيّئ فيها، فلا قرنها مكسور "إن كانت من ذوات القرون"، ولا ظلفها مكسور، ولا مجروحة ولا مريضة... فهي بقرة متروكة على راحتها لا تعمل.

{قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ}، قلت الصواب الصحيح ولم تكن تعبث؛ لأن هذه الصفات ستحدّد لنا البقرة المطلوبة.

يبدو لك واضحاً أنهم فرحوا بهذه الصفات، فقد وصلوا إلى ما يريدونه من تضييع الموضوع؛ لأنهم اعتقدوا أنهم لن يجدوا بقرة قد دلّلها صاحبها لهذه الدرجة! ولكنهم خابوا، فبسبب الأخذ والردّ والتطويل، انتشر بين الناس خبر هذه البقرة المدللة التي لا شية فيها، وقد وجدوها بكامل الصفات المذكورة.

{فَذَبَحُوهَا}، فذبحوا البقرة عبر تمرير سكين على رقبتها، {وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ}، وقبل شعرة من إتمام عملية الذبح، جاء الأمر الإلهي الذي ستنقله الآية ما بعد التالية بضرب الميّت بشيء من البقرة المذبوحة.

ورد في الكتب كلام عن هذه البقرة، وفي بعض تلك القصص أن صاحبها ولدٌ يتيم لرجل مؤمن... وأنه فرض عليهم سعراً خيالياً ليبيعها لهم... وبذلك صار غنياً... وكما ترى،هذه تفاصيل فضولية ولا علاقة لها بما تريد الآيات قوله، بل هي بشكلٍ ما نموذجٌ عمّا تذكره الآيات هنا من دخول الناس في تفاصيل غير مطلوبة ولا تفيد.

(وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ{72})
هنا بعبارة قصيرة "معترضة لمجرى الأحداث"، نتعرف على سبب طلب النبي (ع) من هؤلاء أن يذبحوا بقرة:

يقول ربنا سبحانه: {وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا}، جرت عملية قتل منكم لنفس، والكلام هنا عن قتل إنسان. القاتل واحد منهم، ولكنه غير محدّد بعد، ولذلك خاطبهم ربنا سبحانه كمجموعة: قتلتم نفساً.

{فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا}، حيّدتم التهمة عن أنفسكم في الجريمة. بالتحديد، هم كجماعة يريدون التستّر على القاتل، ودرء العقاب عنه، أي تجنيبه إياه.

{وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ}، ما لم تقولوه سيجعله تعالى يخرج؛ لأنهم كانوا يعرفون القاتل، أو على الأقل قسم منهم يعرفونه، لكنهم تكتموا عليه ولم يعلنوه، والله تعالى سيخرج إلى العلن ما كتموه ولم يعلنوه.

لاحظ أن الآية جاءت معترضة بين الآية السابقة التي تحدثت عن ذبح البقرة، وبين اللاحقة التي ستبين ماذا حصل بعد الذبح، وذلك للإضاءة على سبب الطلب. وقد اختارت اللحظة الأكثر تشويقاً والتي ينتظرها المتجمهرون، وهي لحظات ما بعد ذبح البقرة. ماذا حصل بعد ذلك إذن؟

(فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{73})
هم لم يكونوا يعرفون ماذا سيحصل إن ذبحوا بقرة؛ لذلك ماطلوا، وذهبوا وعادوا، وسألوا عن مواصفاتها... رغم علمهم بأن ربنا سبحانه لم يحدّد في البداية أي مواصفات للبقرة. تركهم سبحانه يماطلون لأنه في النهاية سيعلن ما كتموه من معرفتهم للقاتل، بل إن المماطلة ستجعل مزيداً من الناس يهتمون بالقصة، ويتابعون الأحداث بشغف، ويحضرون بعدد أكبر أثناء عملية ذبح البقرة... وبذلك تقع الفضيحة لما حاولوا ستره.

بعد أن ذبحوها وفوراً، {فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا}، قال تعالى لهم عبر النبي موسى (ع): اضربوا جثة الميت ببعض أجزاء البقرة، بذنبها أو بقطعة لحم منها... فقط اضربوه بأي شيء منها.

يظهر لك من تكملة الجملة أن الميت عاد إلى الحياة بعد ضربه بشيء من البقرة المذبوحة. {كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ}، بكل سهولة كما ترون يجعل سبحانه الحياة ترجع إلى الأموات، وهذا الكلام تذكير بالوعد الإلهي لعودتنا كلّنا إلى الحياة في الآخرة لمحاسبتنا ومجازاتنا.

{وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ}، الأمور المميزة المنسوبة له تعالى ستحصل أمامكم بصورة محدّدة؛ قدرته سبحانه على إحيائكم في الآخرة سيجعل لها صورة محدّدة عبر الأمور المميزة التي ستحصل معكم، وهو إحياء هذا الميّت. {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، من المتوقّع والمفروض أن تستوعبوا وتفهموا ما رأيتموه، لتدركوا أن ربكم سبحانه سيعيد خلقكم كلكم ليحاسبكم.

هذا المشهد يجب أن يجعلكم تعقلون وتفهمون وجود حياة آخرة "وحساب وجزاء"، وقد جعلكم سبحانه تشاهدونه لعلّكم تنتفعون منه. من المفروض ألا تعودوا لأعمال السوء، لأنكم شاهدتم بأعينكم دليلاً على عودتكم في الحياة الآخرة.

لم تكمل الآيات ماذا حصل، لكن من الواضح أن الميت قد رجع إلى الحياة وهو يعرف من قتله، فأخبرهم عنه...
وركّزت الآيات على الجماعة التي تكتمت على القاتل؛ لو آمن هؤلاء بالآخرة لما فعلوا هذا. ها هم يرون دليلاً ملموساً على إعادته تعالى لإحيائنا، هل سيعقلون من ذلك ليستقيموا؟ وهل عقل وفهم هؤلاء من هذه القصة شيئاً ما؟ لنرى:

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ{74})
{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم}، صارت قاسية صلبة قلوبكم، أي أساس فكركم ونفسيتكم، {مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ}، من بعد إحياء الميّت لم تلن لذكر الله تعالى وآياته وعظمته وآخرته... {فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ}، في شدّة قسوتها، {أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً}، من الحجارة.

{وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ}، من البعض منها تخرج المياه بقوّة وبكثرة وتجري من بين الصخور لتشكّل أنهاراً. ورغم قسوتها، يجد الماء طريقه بين شقوق الصخور ويكسرها ليخرج بقوّة وبكثرة، كالينابيع الجبلية. {وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ}، يتشقق ولا يتكسر، بل يتباعد عن بعضه ويخرج من شقوقه الماء. {وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ}، يقع من مكانه؛ إذ لديه "بشكل ما" وعي لتوقّع الضرر منه تعالى، أو وعي لما لا يرضى به ولا يحبّه، ليتجنبّه بفعل ما يرضى عنه تعالى.

الصخور ورغم صلابتها فيها خير، أمّا قلوب هؤلاء فصلبة لا يخترقها أي شيء! وأمام آية عظيمة جرت أمام أعينهم، لم يتغيّروا وبقوا كما هم!

{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}، عموم ما تقومون به لا يجري من دون انتباهه تعالى له. وهنا الكلام خصوصاً عمّا تقومون به من فعل للسوء بناءً على إنكاركم لآياته، وها هو يخبركم أنكم تحت المراقبة.

نلاحظ في القرآن عدة آيات تتحدّث عن وعي وشعور لما نسمّيه نحن "الجمادات". الأرض والسماء والجبال يتحدّث معها تعالى وتجيبه، كما ورد في الآية 11 من سورة فصلت: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}، أو يصف لها مشاعر كالخشية كما بيّنت آيتنا هنا. من ناحيتنا، هي جمادات لا حياة فيها ولا وعي لها لأننا لا نراها تفعل، لكن من ناحيته تعالى يخبرنا عن تواصله معها. لا تتعب نفسك لتفهم كيف يحصل هذا التواصل، بل عليك بتوسيع أفقك لترى أننا بكياننا لا نختلف في تكويننا عن الأرض والجبل والسماء... أنت وأنا كتلة من المادة، والجمادات كذلك. نوع الوعي الذي تسبّبه كتلة دماغنا، "مروراً بنوع التفاعل الذي تسببه كتلة معالج الكومبيوتر"، نزولاً إلى وعي بقية الحيوانات، وصولاً إلى وعي النباتات بتحسّسها للرطوبة والهواء والأصوات... هذا التفاعل ندركه من ناحية قدرتنا نحن على التعامل مع هذه الكائنات. أمّا من ناحيته تعالى، فيخبرنا من نظرته الإلهية أن للصخور شعوراً يعادل شعورنا بالخشية. طرق التواصل مع الكائنات الأخرى يجب ألا تُحصر فقط بالوسائل الإنسانية كالكلام والإشارات... الإله سبحانه أدرى بمخلوقاته وصفاتها، وليس له أفق محدود مثلنا.

لا تفهم أني أحاول إقناعك بوجود وعي وشعور للصخور على أساس أني أفهم طبيعتهما، بل أحاول جعلك توسّع أفقك لتدرك أن أي كيان، مهما كان تركيبه، مشابه لك في تكوينه من المادة. وما المانع من وجود نوع من الوعي والشعور له بالشكل الذي يناسبه؟ ما اعتدت عليه من صفاتك الإنسانية من كلام، وفهم للكلام، وحركات، وإشارات كتعابير للوعي والفهم، لا يجب حصره بك وببقية الناس لتنفي عن بقية الكائنات امتلاكها لنوع آخر من الوعي. ما المانع من وجود وعي وشعور غير نوع وعيك وشعورك؟ نوع لا تفهمه وأصلاً يفوق قدرتك على استيعابه.

بالنظرة الإلهية، وعيك وشعورك ووعي الصخور وشعورها متشابهان بالنسبة له تعالى من حيث كونهما وعياً وشعوراً. وها هو يخبرك أنه يرى فينا وفي الصخور تشابهاً في شعور الخشية. أمّا كيف تشعر الصخور؟ فهذا فوق قدرتنا على الفهم.

أطلت عليك الكلام لأنك ستجد في كتب التفسير، وفي عموم الكتب الدينية، من يحوّر معاني الآية هنا ليجعلها مجازية لا تعبّر عن حقيقة؛ فتارةً يجعلون نفس وجود الصخرة في مكانها تسبيحاً، وتارةً سقوطها من ارتفاعها سجوداً وخشية... حتى إنك ستجد من يصف الكلام الإلهي بأنه نوع من المبالغة، كما نبالغ نحن ونقول لشخص إن قلبه أقسى من الصخر... وتجد أيضاً من يقول بأن لكل تركيب من أي مادة وعياً وشعوراً، حتى الذرة المفردة... اترك كل ذلك والتزم بما قاله القرآن، وتوقّف عن التحليل في أمور خارج قدرتك، واعلم فقط أن تصنيفك للوعي والشعور بناءً على صفاتك الإنسانية تصنيف صحيح من جهتك وبالنسبة لقدراتك؛ لأن الصخرة بالنسبة لك لا وعي ولا شعور لها. لكن لا يحق لك نفي وجود نوع آخر للوعي، حتى لو كان لصخرة، ولا تخالف صريح الخبر القرآني عن حصول كلام "ما" بينه تعالى وبين السماوات والأرض؛ فالإله يخبرك عن وجود نوع آخر من الوعي مختلف تماماً عن وعيك.

(أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ{75})
{أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ}، هل ترغبون "أيها المسلمون" أن يصير بنو إسرائيل في حالة اعتقاد بما تعتقدون أنتم به، مع أمل بحصول ذلك؟

أنتم كمسلمين تشعرون بالعاطفة تجاههم؛ لأنكم تعلمون أنّ الإسلام متصل بالأديان السابقة، وترغبون في إيمان أهل الديانات السابقة بدينكم، مع أمل بذلك لكون الدين الإلهي واحداً. كيف تطمعون في إيمانهم، {وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ}، مجموعة تقوم بعمل جماعي، أي قسم من بني إسرائيل، {يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ}، عبر الوحي الذي ينقله لهم الأنبياء، {ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ}، يغيّرونه عن معناه الأساسي، {مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ}، من بعد ما دخل إلى عقولهم ووعيهم وفهموه، {وَهُمْ يَعْلَمُونَ}، تحريفهم للكلام الإلهي كان عن علمٍ بما يعملون، وليس بالاشتباه أو بالخطأ، بل عن قصدٍ وتعمّد.

هذه النوعية من الناس التي تتلاعب بمعاني كلام الله تعالى عن إصرار وتصميم حتى يتوافق مع مزاجهم السيّء، كيف تتوقعون إيمانهم لكم! بعبارة أخرى، كان عندهم دين صحيح، ولكنه لم يعجبهم فحرّفوه. بناءً على ذلك، كيف تتأملون منهم الإيمان من جديد بدين صحيح! لقد حرّفوه حتى صار دينهم على مزاجهم وأهوائهم، وكيف سيتغيّرون وهم يحملون هذه العقلية!

التحريف عام يشمل التلاعب بالكلمات الإلهية عبر تغييرها لتتبدّل المعاني، أو تفسير كلامه تعالى بشكلٍ محرّف... أو تأليف مواضيع ولصقها بكتاب الله تعالى.

(وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ{76})

{وَإِذَا لَقُواْ}، تلاقوا وتواجهوا بنو إسرائيل مع {الَّذِينَ آمَنُواْ}، أي المعتقدين بهذا القرآن وبالرسول الناقل له، ونسمّيهم نحن بالمسلمين، {قَالُواْ آمَنَّا}، يقولون للمسلمين: اعتقدنا بهذا القرآن وبالرسول محمّد أنه امتداد للدين الذي نحن عليه، وكلاهما من نفس المصدر.

{وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ}، أي كان بنو إسرائيل في خلوة لوحدهم، {قَالُواْ} لبعضهم البعض: {أَتُحَدِّثُونَهُم}، أتقولون للمسلمين وهم يسمعون {بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ}؟ لقد كان يوجد حاجز بين الكفّار والدين، أمّا بنو إسرائيل فقد فتح الله تعالى عليهم ليفهموا الدين الإلهي، وأنه مستمر، وأنّ الإسلام هو الامتداد الصحيح. بناءً على ذلك، يقولون لبعضهم: هل تتحدثون مع المسلمين لتخبروهم بما فتح الله عليكم من الفهم، وتقولوا لهم إن دين الإسلام صحيح، {لِيُحَاجُّوكُم بِهِ}، بهذا الكلام، {عِندَ رَبِّكُمْ}؟ إذا كنتم تعترفون لهم بأن دينهم صحيح، عندها ستكونون مجبرين على اتباع دينهم، وسيكون للمسلمين عليكم حجّة؛ كبرهان ودليل عليكم أمام المسؤول عنكم من مستوى إلهي، بأنهم أبلغوكم عن دينه الصحيح وأنكم اعترفتم بصحّته. {أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}؟ أليس لديكم عقل يستوعب هذا؟ ألا تفهمون أنه يجب ألا تعترفوا أبداً لهم بصحة الإسلام؟

يبدو من هذه الآية أن قسماً من بني إسرائيل قد احتك بالمسلمين، وعلموا بالتقاطع بين دينهم والإسلام، وكانوا يقولون للمسلمين: دينكم لا يختلف عن ديننا، وهما دين واحد. أمّا عندما يجتمع بنو إسرائيل لوحدهم، فإن الرافضين للتخلّي عن ثقافتهم الدينية المحرّفة ينبهون من تحدّث مع المسلمين ألا يؤكد لهم صحة الإسلام؛ إذ سيكون الموقف محرجاً أمام الله تعالى إذا اعترفنا بصحة الإسلام، لأنه تعالى سيطالبنا إذا لم نسلم. ليكون الحل بإنكار صحة دين الإسلام، واعتباره ديناً آخر مختلفاً ومخالفاً لدين اليهود، بدل الحديث مع المسلمين بما فتح الله علينا وصرنا به نميّز دينه الصحيح. بدلاً من ذلك، يجب أن نقول بأنهما دينان مختلفان وليسا من نفس المصدر.

كيف تطمعون إذن أن يؤمنوا لكم أيها المسلمون وهم بهذه العقلية والنفسية؟

الآيات تعرض عليك نفسيتهم وسبب رفضهم الأساسي للتماشي مع هذا القرآن ومع الرسول محمّد (ص)؛ لأنهم متعلقون بثقافتهم الدينية ويستصعبون تغييرها، بل يرفضون تغييرها على أساس أن التغيير دمار لهم بفقدان هويتهم المميّزة لهم عن بقية الناس. لم يفهموا أن هذا القرآن استمرارية لدينهم، بل فهموا أنه إنهاء لما هم عليه، وأمر بتركه، والانضمام لدين القرآن، بينما الحقيقة أنه تقويم وتصحيح للعودة إلى الدين الصحيح.

تفهمها بسهولة إذا التفتّ لما نحن عليه من مذاهب وطوائف إسلامية، حيث العقلاء منّا يقولون إننا كلّنا على نفس الدين. لكن إذا طلبت منهم التخلّي عن مذهبهم وطائفتهم للاندماج كلنا تحت اسم واحد وهو الإسلام، تراهم يرفضون! كأنك تعرض عليهم شيئاً جديداً! أو تطلب منهم التخلّي عن شيء مهمّ جداً! بينما أنت تطلب من الجميع العودة إلى كلمة سواء وراية الحق بالوحدة... والعمل على إعادة النظر في كل ما يميّز الطوائف والمذاهب عن بعضها لنبذه وإهماله حتى نعتصم بحبله تعالى جميعاً مع بعض... لكننا نرفض، معتبرين أن ما يميّز مذهبنا وطائفتنا عن الآخرين واجب التمسّك به!

خذ مثلاً إضافة شهادة الولاية للإمام علي، وحذف "حيّ على خير العمل" من الأذان للصلاة. معلوم للجميع الأذان الذي كان على عهد رسول الله (ص)، ومعلوم للجميع أن هذه الإضافة والحذف مذهبية بامتياز. ما معنى الاستمرار بذلك سوى نفس العقلية التي تتحدّث عنها الآية هنا، والتي للأسف نعتبرها مع أمثالها من الآيات مجرد إهانة وتقليل قيمة لبني إسرائيل، بدل الاهتداء بها كي لا نفعل مثلهم...

(أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ{77})
{أَوَلاَ}، "قريبة بالمعنى من: أفلا"، وهل لا {يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ}، ما يقولونه بالسر والخفاء عن الآخرين، {وَمَا يُعْلِنُونَ}، ويعلم تعالى ما يقولونه علناً أمام الجميع؟

ما معنى اتفاقهم السرّي على رفض هذا القرآن وهذا الرسول مع تأكّدهم بأنه امتداد لدينه تعالى؟ وما معنى هذا الإنكار إن كان تعالى يعلم باتفاقهم؟ في تديّنهم واعتقادهم وثقافتهم، أليسوا يعلمون أنه تعالى يعلم كلّ شيء؟ إذن، ما معنى هذا الاتفاق السرّي عليه تعالى! سيكون له معنى سرّي على المسلمين، أمّا عليه تعالى، أيّ سرّ يختفي أمام من يعلم كلّ شيء!

هذا تنبيه للذين يستسخفون أنفسهم ويقنعونها بأمور تافهة؛ أيّ عقيدة يعتقدون إذن؟ وأيّ دين يدّعون أنهم يتبعون؟ هناك مثال شائع بين الناس يصف حالتهم؛ فهم "كما يُقال" كالنعامة التي يطاردها حيوان مفترس وتضع رأسها في حفرة، على أساس أنها إن لم ترَ العدو فلن يراها! علماً أن المثال غير حقيقي، لكنه يعطيك صورة واضحة عن الموضوع؛ لأن معرفتهم بحقيقة صحة هذا القرآن يخفونها ويجعلونها سرّاً حتى لا يعلم سبحانه بها! ما هذه السخافة!

(وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ{78})
{وَمِنْهُمْ}، من بني إسرائيل، {أُمِّيُّونَ}، بالنسبة للكتاب الإلهي هم منسوبون للحالة التي ولدتهم فيها أمهاتهم؛ هم أميّون لا علم لهم به، وهذا ما ستقوله تكملة الجملة: {لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ}، هناك مستوى إيماني مطلوب لفهم الكتاب الإلهي، وهؤلاء يحبّون أن يعلموا الكتاب، ولكنه في الواقع بعيد المنال عليهم، ومحاولاتهم لفهمه ما هي إلا أمنيات.
{وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ}، سياق الكلام هنا عن استنادهم لمعلومات غير صحيحة تجعلهم يعتقدون أنهم يعرفون الكتاب، لكن ظنّهم هذا غير صحيح.

سنفهم هذه الآية لو قارنّاها مع حالتنا نحن مع القرآن؛ كم من التفاسير للقرآن ألّف الناس؟ وكم تمنّى المفسرون أن يفهموا القرآن؟ وكم ظنّوا أنهم يعلمون معناه؟ وكم وصلوا إلى تفاسير مخالفة لظاهر كلام القرآن؟ وكم من تفاسير مبنية على المذهبية والعصبية وبعيدة أصلاً عن جوهر الدين الإلهي؟ وكم من عقيدة وتشريع استنبطوا من القرآن وكان مبنياً على هواهم السيّء، ومنه تحليلهم لقتل الأبرياء المسالمين؟

مثلما تقول عن شخص إنه أمّي بالزراعة، أمي بالرياضيات... أمّي بالكتابة... الأمية وصف لعموم أي حالة لمن لم يحصل على أي علم. هكذا يكون الجاهل بمعاني الكتاب الإلهي أمّياً. هناك من يعتقد بأنه يعلم الكتاب الإلهي، لكنها في الحقيقة مجرد أمنية لديه ولم تصر حقيقة. لا تفهم أن أمنيته صادقة مبنية على رغبة حقيقية بمعرفة الكتاب الإلهي، بل أمنيته مشروطة بموافقة ما في الكتاب لما لديه من مخزون ثقافي وعقائدي وتشريعي ومذهبي... لأنه يريد أن يصير الكتاب الإلهي موافقاً لما يراه هو.

بذلك، ما يقوله عن الكتاب لن يكون حقيقة مطابقة للواقع، بل سيكون ظنّاً لا يستند إلى علم صحيح؛ لأن الظنّ هو أي اعتقاد يستند لعلم، إن كان يستند إلى علم صحيح، سيكون ظنّك صحيحاً، وإن لم يستند إلى علم صحيح، سيكون ظنّك غير صحيح.

(فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ{79})
{فَوَيْلٌ}، سيصيبهم شيء عظيم (والكلام هنا عن التعذيب بالنار في الآخرة)، {لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ}، هم لم يجدوا كتاباً في مكان ما وظنّوا أنه كتاب إلهي... بل هم كتبوه. والذي كتبه يعلم بأن الوحي الإلهي لم ينزل عليه، بل من أفكاره وبيده كتبه، أي من تأليفه الشخصي مباشرة. {ثُمَّ يَقُولُونَ} للناس: {هَذَا} الكتاب {مِنْ عِندِ اللَّهِ}، {لِيَشْتَرُواْ بِهِ}، أي بما كتبوه، {ثَمَنًا قَلِيلاً}. ما كتبوه صار كالمال، يقدمونه للآخرين ليحصلوا على شيء بالمقابل؛ كالحصول على

أناس يتبعونهم ويسمعون كلامهم، ليصيروا وجهاء وزعماء وعلماء، ويجمعوا مال التبرعات والصدقات ليصرفوه على مشتهياتهم... كل هذا يُعدّ ثمناً "قيمة" قليلاً مقابل العذاب الكبير الذي سينالهم جرّاء تأليف كتاب بأيديهم ونسبته له تعالى. من ناحية أخرى، ما يتوقعون الحصول عليه في الدنيا هو ثمن قليل أمام ما كانوا سيحصلون عليه في جنان الآخرة الخالدة لو آمنوا عن حقّ.

{فَوَيْلٌ لَّهُم}، مصيبة وعذاب عظيم سيصيبهم، {مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ}، من الذي كتبوه. وادعاؤهم أنه نزل من عنده تعالى سيسبّب لهم عذاباً في جهنم.

{وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ}، مصيبة عظيمة لهم من الذي يحصلون عليه بسبب تأليفهم لكتاب وقولهم إن مصدره إلهي؛ لأنه سيسبّب لهم عذاباً في جهنم.

لدينا حالة إسلامية مشابهة لما تقوله الآية؛ قديماً في عهد النبي محمّد (ص) ألّف المدعو مسيلمة كلاماً ونسبه لله تعالى... ومرّ غيره وغيره... مروراً بالمتنبي الشاعر المشهور... وصولاً إلى نموذج البهائي الأول مؤسس البهائية... لكن الجو العام الغالب عند عامّة المسلمين قاوم أي تلاعب بالقرآن. حتى خزعبلات القرّاء ومخترعي القراءات لم تستطع الصمود أمام قراءة عامّة المسلمين للقرآن بالطريقة التي توارثوها عن الأجيال التي سبقتهم من الجيل الأول. بالتالي، القرآن المتداول عند عامّة الناس لم يدخل عليه أي كلام غير كلامه تعالى. (راجع في ذلك ما ورد مراراً في دراساتنا هذه عن اختلاف القراءات، ومنه ما درسناه في الآية 31 من سورة الرحمن: {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ}).

أمّا بنو إسرائيل، ها هي أمامك التوراة المطبوعة، التي يعتقد العديد من اليهود المتدينين "عن عصبية جاهلية" بأنها كلّها من وحي إلهي! بينما البعض من المتدينين المثقفين منهم يقولون إنها من تأليف أشخاص لم يكونوا أنبياء، لكنهم كانوا مؤيدين بالإلهام الإلهي! نفس الكلام يقوله المسيحيون عن الإنجيل! وللأسف، العقلانية تبدو عند العلمانيين "الملحدين وغير الملحدين" الذين يقولون ما يرونه كحقيقة عن التوراة والإنجيل المتداولتين بين أيدينا؛ إذ يصرحون بأنهما من تأليف أشخاص لديهم ثقافة دينية، وليستا وحياً ولا إلهاماً إلهياً، وأن فيهما الكثير من الهفوات والتعارض. يقولون في أبحاثهم عن التوراة والإنجيل: "... إن الكاتب خلط بين حادثة كذا وحادثة كذا... إن الكاتب استلهم من قصّة خرافية يونانية محوّراً إياها وجاعلاً أبطالها شخصيات دينية...". هذا الحكم بالتحريف على تلك الكتب كان المتدينون أجدر به من العلمانيين.

لدينا نفس المعاناة مع الروايات، التي كثيراً ما نغلق عقولنا عن فسادها وسوئها. بدل الإعلان عن رفضها، ترانا نبرّر لها، بل نصدّقها ونكذّب أعيننا! حتى إننا اخترعنا علماً للدراية لدمج ما تعارض منها مع بعضه للخروج بنتيجة موحدّة...! بل نفسّر بها كلامه تعالى لتصير تفسيراً روائياً مقدّساً ممنوعاً معارضته؟!

(وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{ ({80

إليك النص بعد المراجعة اللغوية والتدقيق، مع الاستمرار في تطبيق النسق المعتمد بوضع الآيات القرآنية بين الأقواس المخصصة، وتقليل استخدام حرف العطف "الفاء" لضمان قوة السبك وانسيابية المعاني، وتوضيح تسلسل الأفكار:

الذين علموا أن القرآن والرسول الناقل له حقّ ولم يؤمنوا، أو الأميون الذين فسروا الكتاب الإلهي على مزاجهم، أو الذين يحرّفون الكتاب الإلهي؛ هؤلاء أوهموا أنفسهم وقالوا:

{لَن تَمَسَّنَا النَّارُ}، لن يتلاقى جسدنا مع النار التي في الآخرة، {إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً}، معلومة نهايتها. سنتعذب لأيام قليلة لا تصل إلى أسبوع أو شهر إن لم نؤمن بهذا القرآن ورسوله. عادةً في كلام الناس، يشير التقدير بـ "الأيام المعدودة" إلى أقل من وحدات الزمن الأكبر؛ أي لما هو أقل من أسبوع وشهر وسنة. هؤلاء يقولون إنه في السابق غفر تعالى لنا مراراً عن ذنوب كبيرة لأننا شعبه المختار من الناس، وقد فضّلنا على العالمين، وبعد انتهاء تلك الأيام القليلة في النار كعقاب على ما فعلناه سندخل إلى الجنة.

{قُلْ}، لهؤلاء عبر القرآن: {أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا}، هل كان لكم التزام منه تعالى معكم بذلك؟! من قال لكم إنها ستكون أياماً قليلة؟ هل قال تعالى لكم هذا؟ {فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ}، لن يأتي تعالى بشيء آخر بعد ما عهد به، ولن ينقض أو يتراجع تعالى عن التزامه ووعده إذا وعدكم! هل هناك عهد إلهي لكم بأنكم لن تخلدوا في النار وأنتم واثقون جداً من هذا العهد!

هم يعلمون أنه تعالى إذا وعد وفى، فهل وعدكم سبحانه بأنكم لن تدخلوا النار إلا لأيام قليلة، حتى تكونوا متأكدين جداً مما تقولون؟ وهم يعلمون أنه سبحانه لم يعدهم بشيء كهذا، فكيف يخترعون وعداً إلهياً من أوهامهم! وأصلاً ما معنى هكذا وعد إلهي لمغفرة ذنوب جماعة ما مهما فعلوا من سوء، لمجرد أنهم منتمون بالاسم لدينه تعالى!

لاحظ أن الكثير من المسلمين لديهم نفس الفكرة، حين يقولون إن المسلم وبسبب نطقه بالشهادتين "شهادة التوحيد وشهادة رسولية محمّد (ص)" لن يخلد في النار. بعضهم يقول إن المسلم لن يخلد حتى لو كان قاتلاً للنفس البريئة لأنه من الموحّدين! ويقولون إن من كان على مذهبهم أو من طائفتهم، لن يخلد في النار ولو كان فاسقاً فاجراً قاتلاً...! أو يقولون إن العذاب سيكون لمدّة قليلة... هذا نوع من علم الكتاب الإلهي بالظنّ، وهو تحريف للدين الإلهي. نفس ما يقوله بنو إسرائيل وقعنا فيه، ولم نفهم أن كلامه تعالى في قرآنه عنهم كان لتنبيههم، وفي الوقت نفسه لتنبيهنا ألا نفعل مثلهم.

حسناً، إمّا أن يكون وعداً منه تعالى لكم بأنكم لن تبقوا لمدة طويلة في النار، {أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}؟ تخترعون هذا الكلام من دون أن تعلموا إن كان صحيحاً أو خطأ؟ انتبهوا لأنفسكم؛ لأنها لن تكون أياماً معدودة بل ستكون خلوداً مؤبداً في جهنم، كما سنرى في الآية التالية.

لكن قبل ذلك، نجد نفس السؤال موجّهاً لنا كمسلمين: هل لدينا في هذا القرآن وعد إلهي بنفي خلود أي مسلم في النار مهما فعل؟ حتى لو قتل النفس البريئة؟ حتى لو أفسد في الأرض؟ أم ما يقولونه عن انتفاء خلود المسلم "أو المنتمي إلى مذهبهم وطائفتهم" هو قول عليه تعالى بما لا يعلمون؟ بالاشتقاق والاستنباط، ومن مفاهيم كلامه تعالى، استخرجوا هذا الكلام من دون علم بهكذا كلام إلهي مباشر واضح. من السخافة، وصولاً لأدنى درجات التفاهة، ألا نرى الآية هنا تتحدّث عن عموم المتدينين ونحصر تفسيرها ببني إسرائيل؛ لأنها تتحدّث عنهم ومعهم، ومع عموم من يقرأ هذا القرآن ولديه نفس الأفكار التي يتداولونها.

هل كلام القرآن عن بني إسرائيل فقط لنشر غسيلهم الوسخ والمفاضحة فيهم، أم لنقيس أنفسنا عليهم لأننا صرنا مثلهم؟ هم أهل كتاب ونحن أهل كتاب، وهم فعلوا كذا وكذا... وها هو يهينهم تعالى ويعدهم بالعذاب، هل حالتهم مختلفة عن حالتنا بالرغم من فعلنا لنفس أفعالهم!

إن لم نقرأ كلام القرآن مع وعن أهل الكتاب السابقين على أنه صار موجهاً لنا، وقرأناه على أساس أن الكلام معهم فقط، بينما هو معهم وعنهم، و"عنهم" ليست موجهة فقط لهم، بل هي عنّا؛ لأننا نحن الآن موصوفون بنفس حالاتهم الكثيرة التي أعاب فيها القرآن عليهم. وتلك الإهانات الموجّهة لهم بسبب سوء فعلوه، تكون موجّهة لنا أيضاً. لا تنظر بضبابية العمى إلى المسلمين لتجعلهم قديسين، ماسخاً اليهود كافّة وكأن كل المسلمين أفضل من كل اليهود! لا، لأن الكل متشابهون ونفس الشيء؛ فيهم الفسقة والمنافقون، وفيهم المجرمون، وفيهم المتلاعبون بالدين الإلهي والمحرّفون لكلامه تعالى...

حدود التصحيح

(بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيـئَتُهُ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{81})
{بَلَىٰ}، نفي لزعمكم "لن تمسّنا النار"، بل حتماً ستمسّكم. {مَن كَسَبَ}، أي اقترف فعلاً وجنى من ورائه {سَيِّئَةً}، أي أمراً مذموماً، وسبحانه لا ينهى إلا عمّا هو قبيح ومذموم. وفي واقع الأمر، السياق يتناول من أتى منهياً عنه.

{وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ}، لم ينجُ من إثمه الذي اقترفه؛ إذ لم يره جرماً حين ارتكابه ولا بعد ذلك، ولم يتب منه، فطوّقته تبعات صنيعه السيئ من كل جانب. {فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ}، هذه الفئة مقترنة بالنار وملازمة لها، {هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، باقون في العذاب لا يموتون ولا يبرحونها أبداً، وهي دار لا تفنى.

السيئة التي يُعاقب مقترفها لأيام معدودة هي الزلة التي لا ترقى لتكون من الكبائر العظام. قد يكون العقاب الأخروي يسيراً للحظة أو لأيام، وقد يمتد لأحقاب مديدة. غير أن المقام هنا يختص بالموبقات التي توجب على فاعلها الخلود في الجحيم، وهي ذاتها التي يزعم بنو إسرائيل أن العقاب الإلهي عليها سيكون أمداً يسيراً.

الحديث إذن يدور حول كبائر الآثام، كالكفر برسوله وكتابه، وتحريف كلامه ودينه... وعلاوة على ذلك، هم ماضون في غيّهم، ومصرّون على عنادهم، ولم يخطر ببالهم طرفة عين أن يستغفروا منها!

السنّة الإلهية المطرّدة تقضي بمحاسبة كل من اجترح سيئة وأحاطت به، دون توبة أو استغفار. فإن كانت من كبائر الذنوب، عندها لا مناص من الخلود في النار لفاعلها أياً كان. أمّا إن كانت من صغائر الهفوات، فهناك آيات قرآنية أخرى تولّت تفصيلها...

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{82})
في مقابل مَن أصرَّ على الذنب الكبير، هناك: {الَّذِينَ آمَنُوا}، وهم الذين اعتقدوا بالدين الإلهي اعتقاداً صحيحاً، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، أي باشروا الأعمال الصالحة النافعة. لقد خلقنا سبحانه بقدرةٍ تميز الصالح من الفاسد، وهم بادروا إلى التصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح والحسن؛ فالله سبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، وعملياً ترك هؤلاء ما حرّمه تعالى وفعلوا ما أوجبه. يشيع بين الناس عموماً، وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بالدين هو العمل الصالح، حتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، فبمجرد القيام به تُعد عاملاً للصالحات، بيد أن هذا المفهوم غير دقيق، ومخالف لأصل مفاهيم القرآن وأساسها؛ فالقرآن يؤكد دائماً أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح، وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب فيه، ولذلك ينسجم أصحابها مع دينه تعالى ويؤمنون به.

هذا الكلام له عمق؛ إذ لا توجد حالة نقول فيها: "لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني"، سواء كان عقيدة أو شريعة أو سلوكاً. لأن هذا يعني إمّا وجود خلل في القلب منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى لكونك محبّاً لشيء فاسد، أو أنَّ ما ظننته أمراً إلهياً وهو "سيئ" إنما هو في الحقيقة اختراع بشري وليس أمراً إلهياً.

{أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ}، هذه الفئة من الناس سيكونون معاً في ذلك المكان الموصوف بروعته، {هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، لا يموتون ولا يفنون، ولا يلحق بالجنة زوال.

سيشعر المؤمنون في الآخرة بأنهم خالدون لا يدركهم الموت، بخلاف حالنا هنا حيث نخشى الموت من المرض والحوادث والشيخوخة؛ أما في الآخرة، فأهل الجنة يشعرون بأن أجسادهم لا تموت ولا تهرم. بإمكانك تصور هذا الشعور لمن يدخل الجنة ببهائها وروائعها وهو يعلم أنه سيتنعم بها بلا نهاية، ولن يصيبه الملل منها بتأكيد إلهي! وتصور في المقابل شعور من يدخل النار وهو يعلم أنه لن يخرج منها ولن يموت، وسيبقى في ألمٍ لا ينقضي!

نتذكّر دائماً أن القرآن يقرن بين الإيمان والعمل الصالح معاً، والنتيجة لهما هي دخول الجنة؛ فلا الإيمان دون عمل صالح يجدي، ولا العمل الصالح دون إيمان ينفع، بل كلاهما معاً هما سبيل النجاة.

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ{83})
{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ}؛ أخذ سبحانه تأكيداً غليظاً على {بَنِي إِسْرَائِيلَ}، وهم ذرية النبي يعقوب (عليه السلام)، حيث عرض سبحانه عليهم دينه وأفهمهم بصراحة أنه لا مجال للتراخي أو التهاون فيه؛ لكونه ميثاقاً، وكان أساسه ما يلي:

{لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ}، أي لا تتصرفوا على أساس أنكم ملزمون بطاعة أحدٍ على مستوى الألوهية إلا الله تعالى، صاحب الاسم المحدّد والمميز وحده؛ فكلمة "عبد" تشير إلى من فُرضت عليه الطاعة، وهي تقابل "الحر"، والملكية يتبعها العبودية بمعنى فرض الطاعة على المملوك. وما تعارفنا عليه بتسمية "العبادة" من صلاة ومناجاة إنما هي من تطبيقات العبادة وليست حصرية فيها؛ لأن العبادة مفهوم شامل لكل ما نطيع به الله تعالى.

{وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}، وقد أخذ تعالى ميثاقكم بأن تعاملوا الوالدين معاملة حسنة، فتهتموا بهما، وتراعوا شأنهما، وتخاطبوهما بلطف. وكذا {وَذِي الْقُرْبَى}، وهم المنتسبون إليكم بالقرابة من إخوة وأخوات وأعمام وعمات وأخوال وخالات؛ فكلهم أخذ الله ميثاقكم بأن تعاملوهم بإحسان أيضاً.

{وَالْيَتَامَى}، الذين فقدوا من يعيلهم ويرعاهم، وعادة ما يكون اليتم بفقد الأب، وكلمة اليتم تشمل فقدان الأم أيضاً، بيد أن عموم مجتمعاتنا ذكورية تعتمد فيها الأسرة على الأب؛ فالمطلوب هو الإحسان إليهم والاهتمام بشؤونهم ومساعدتهم بتأمين الحماية والرعاية اللازمة.

{وَالْمَسَاكِينِ}، الذين تعثرت أحوالهم المالية، بدءاً من الفقير المدقع الذي لا يملك قوت يومه، وصولاً إلى صاحب المهنة أو المحل الذي ساءت ظروفه فصار يحتاج للمساعدة المالية في مأكله أو ملبسه أو علاجه؛ فقد أخذ الله ميثاقكم أن تحسنوا إليهم وتهتموا بحالهم.

وكذلك أخذ ميثاقكم في قوله: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}، فليكن منطقكم حسناً من الجوانب كافة؛ فإن طلب أحدكم المساعدة ولم تستطيعوا فلا تهينوه، وإن ساعدتموه فلا تمنّوا عليه، وإذا تحدثتم فلا يكن حديثكم بفوقية أو استعلاء، ولا تستهينوا بقيمة الناس أو تسخروا منهم بالتعليقات المؤذية اللاذعة.

{وَأَقِيمُوا}، أي فعّلوا ولا تعطّلوا أو تتركوا {الصَّلَاةَ}، وهي في الأصل التوجّه والإقبال نحو شيء ما، ثم صارت مصطلحاً دينياً يشير إلى التوجّه بالحركات والأقوال المخصوصة في "الصلاة المفروضة"، وهي الفريضة التي نقيمها خمس مرات في اليوم تعبيراً عن عبادتنا لله، علماً أن كلمة صلاة عامة لأي توجّه عبادي أو غيره. وما لدينا من مصادر يشير إلى وجود صلوات في تاريخ بني إسرائيل تشبه صلواتنا اليومية كثيراً، وكانت في الأصل خمس مرات في ثلاثة أوقات، ولكن يبدو أنه اعتراها التخفيف فمسخها عامة الناس وتراخى فيها علماؤهم، حتى غدت بالكاد تُشبه الصلاة الأصلية من قراءة وركوع وسجود، تماماً كما اكتفى عوام المسيحيين بإشارة "التصليب".

{وَآتُوا الزَّكَاةَ}، أي سلموها لمن يوزعها أو تولوها بأنفسكم وفق ما أمر الله. وكلمة الزكاة في اللغة تشير إلى "اللياقة والنزاهة" في الشيء، فيُقال: "زكّاني عند المدير"، و"نفس زكية"، و"مال زاكٍ"؛ ومنذ القِدَم صارت مصطلحاً دينياً يشير إلى دفع نسبة محددة من المال، وكما ورد في الآية 215 من سورة البقرة: {قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ}، والخير هنا يشمل النقود والمجوهرات والمحاصيل والأنعام. ففي حال بلغت أموال الشخص حدّ الغنى، وجب عليه دفع ما يوصف بـ "العفو" من أمواله، كما في الآية 219 من سورة البقرة: {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ}، وهي نسبة يسيرة مما تملك لا تؤثر على معيشتك، وتُسلم لإدارة مختصة أو تصرفها مباشرة على المحتاجين في غياب تلك الإدارة، وفق المصارف المذكورة في الآية 60 من سورة التوبة.

ينبغي التنبه هنا للخطأ الشائع الذي يظن أن آيات الزكاة نزلت حصراً بعد الهجرة إلى المدينة؛ فصحيح أنه في المدينة صار للمسلمين دولة وصندوق لجباية الزكاة وتوزيعها مركزياً، إلا أن البعض خلط بين هذا التنظيم وبين "أصل فرض الزكاة" في الدين الإلهي، فتوهموا أنها تشريع جديد جاء به القرآن. والحقيقة أنها من أصل دين الله الذي كُلّف به بنو إسرائيل قديماً كواجب فردي، حيث يخرج المؤمن نسبة "العفو" من ماله ويصرفها في سبيل الله، وفي حال وجود بيت مال موثوق بإشراف وليّ الأمر، قد يصير لزاماً دفعها إليه.

حسناً، هذه هي الالتزامات التي عاهدتم الله على تنفيذها، فماذا كانت النتيجة؟ {ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ}، أي اتجهتم اتجاهاً آخر بعيداً عن هذا الميثاق، فتركتموه ولم تنفذوه، {إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ} ممن التزموا بالعهد، {وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ}، أي تاركون لأمر الله وكأنكم تعتبرونه غير ذي أهمية.

تستكمل السورة حديثها مع بني إسرائيل وعنهم بعد أن حفزتهم على العودة لدين الله المتمثل في هذا القرآن والرسول محمد (صلى الله عليه وآله)، وتلفت الآية انتباههم وانتباهنا إلى أن مشكلتهم مع القرآن ليست في جوهره؛ فأساس الدين الإلهي الذي نزل عليهم كان يتضمن التوحيد وبر الوالدين، وهي ذات الأصول الموجودة في القرآن، لكنهم قديماً لم يلتزموا بها إلا قليلاً.

بعبارة أخرى، فإن ظاهر تدينهم الذي يتحججون به لرفض القرآن يتبين أنه مجرد شعار لا حقيقة له؛ فلا فرق جوهرياً بين أصل دينهم وبين ما يطرحه القرآن، ولا معنى لتمسكهم بدينهم وهم قد نقضوا ميثاقه. فلو استقاموا على أصل الميثاق لكانوا متفقين تماماً مع القرآن؛ إذ لا يطرح القرآن جديداً في الأساسيات، وما وُجد من تعديلات إنما هو في بعض التفاصيل التشرعية الثانوية، كإلغاء حرمة العمل يوم السبت أو تغيير القبلة، بينما بقيت العقيدة ثابتة بلا أدنى تغيير.

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ{84})
{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ}، سجّلنا عليكم التأكيد الشديد على شيء لا تهاون ولا تراخٍ فيه، وهو ما يلي: {لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ}، أي لا تجعلوا دماءكم مسفوكة تسيل على الأرض، ولا تتقاتلوا مع بعضكم البعض. وكلمة "سفك" لم ترد في القرآن إلا مرتين وفي هذه السورة؛ هنا وفي الآية 30 حيث كانت سبب الاعتراض الاستفهامي من الملائكة (عليهم السلام) الواصفين البشر بأنهم يسفكون الدماء.

{وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ}، لا تهجموا على بعضكم، ولا يطرد المنتصرُ الآخرين ويحتل بيوتهم وأرضهم.

{ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ}، ثبّتم هذا الميثاق على أنفسكم، {وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ}، تؤكدون على أنفسكم دون الحاجة ليؤكد لكم شخص آخر أنكم وعدتم ربكم سبحانه بأن لا تتقاتلوا ولا تطردوا بعضكم. لم يكن أخذ الميثاق من آخرين أو أثناء غيابكم، بل كنتم موجودين تسمعون وترون، وهي تأتي على معنى: خاطبتك أنت بنفسك شخصياً أو عبر رسول أو كتاب. ولكن هل التزمتم؟ لنرَ النتيجة من الآية التالية.

قبل ذلك، تذكّر دائماً أن أخذ الميثاق منّا له تعالى إنما هو عرضه تعالى علينا لدينه، فلا تتصوّر دائماً حالة الميثاق والعهد كحالة الجلوس على طاولة وتوقيع الاتفاقيات، أو الوقوف أمام أحد ما وإعلان كلام عن ميثاق وعهد؛ فمعه تعالى ليس هذا ضرورياً، بل بما فينا من قدرة لتمييز الحق من الباطل والخير من الشر، وهذا يلزمنا بترك الباطل والشر. مجرد وصول كلامه تعالى لنا، فإن كفرنا فنحن خارج العهد والميثاق وإلى نهاية حتمية بالعذاب، وإن آمنا نصير تحت عهد ميثاقي معه تعالى. هناك حالة مميزة كرّرها القرآن عن رفع جبل فوق بني إسرائيل كعلامة إلهية على إمضاء ميثاق أعلنه بنو إسرائيل حينها بالالتزام بدينه تعالى، وتقرأ ذلك في الآية 154 من سورة النساء: {وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ}. أما بقية حالات الميثاق مع الناس، ترجع إلى الأساس؛ إلى ما فينا من قدرة على تمييز الخير من الشر، وعرضه تعالى لدينه علينا، وهكذا نصير تحت عهد شديد لا يتحمل التهاون به، ويصير وصف الحالة ميثاقاً لمن تعهد باتباع الحق. أنا وأنت تحت ميثاق معه تعالى، ولدينا تعهد شديد له سبحانه بالالتزام بدينه.

هذا لا يعني أن من كفر بدينه تعالى خالٍ من الالتزامات لأنه لم يتعهد ولم يواثق، وبالتالي لا عقاب له؛ لا، لأن حالته أساساً سيئة جداً بسبب إنكاره للحق وفعله للسيئات ورفضه الالتزام بكلامه تعالى، وعلى هذا ينال عقاباً شديداً.

لاحظ بديهية ما تقوله الآية، فأنتم جماعة من جدّ مشترك لأنكم كلكم بنو إسرائيل، وأنتم منتمون لدينه تعالى، ومعلنون التزامكم بفعل الصالحات، ومعكم شريعة حقة لاتباعها ولحل الخلافات بالحق؛ لذلك ليس من المفروض أن تصل بينكم الأمور إلى حالة التخالف أو التقاتل، وقد واثقكم تعالى على ذلك بصريح العبارة عبر أنبيائه وكتبه.

(ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ{85})
بعد الميثاق والإقرار والشهادة: {ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ}، بعد الميثاق ها أنتم {تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ}! تتقاتلون مع بعضكم البعض، وسبب ذلك معلوم وهو البغي بدلاً من فعل الصالحات والتحاكم إلى الحق.

{وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ}، تطردون بعضكم البعض من البيوت والأماكن التي تدور فيها معيشتكم، حيث يطرد المنتصرُ المهزومين. {تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ}، تتعاونون على فريق منكم بالإثم، فتتحملون تبعات الأعمال السيئة التي تقومون بها مع الآخرين وتعلمون قبحها؛ كالغيبة والنصب والغش في التجارة. {وَالْعُدْوَانِ}، تتعاونون على الآخرين بتجاوز الحدود التي رسمها الله لكم، فتقتلونهم وتسرقونهم وتستعبدونهم. العدوان وصف لعموم تجاوز الحدود بالاعتداء على الشريعة الإلهية وعلى الناس، عبر معارضة التشريع الإلهي بتشريع مخالف وسلب الحقوق. هجومك على بريء لضربه هو عدوان، وإن كنت عالماً بسوء فعلتك فأنت آثم؛ وهكذا تكون السيئات وجوهاً لعملة واحدة يختلف تصنيفها بحسب الزاوية التي ننظر منها، فهي ذنب وإثم وجرم وعدوان ومعصية، لكنها تبقى جميعاً سيئات تتداخل في تصنيفها من حيث السوء ويصعب فصلها عن بعضها؛ فالجرم ما عليه عقاب، والإثم ما عُلم سوؤه، والذنب مخالفة الأوامر، والعدوان تجاوز الحدود.

{وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ}، إذا ربحتم الحرب وصاروا أسرى معتقلين عندكم، تأخذون من أهلهم وأقاربهم الفدية المالية مقابل إطلاق سراحهم، {وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ}، فمن الأساس يحرم عليكم إخراج هؤلاء من بيوتهم، وبالتالي يحرم أسرهم، فكيف وصلتم إلى استحلال الفدية مقابل فكاك أسرهم؟

{أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ}، هل تعلنون اعتقادكم والتزامكم بما ورد في تشريعات الكتاب الإلهي، فتؤمنون بوجوب الصلاة والصوم والطهارة والنجاسة؟ {وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}، تنكرون تشريعات أخرى، كحرمة قتل وأسر وطرد بعضكم لبعض؟ فأين الالتزام بالميثاق معه تعالى؟

لفهم هذه الآيات، ما عليك إلا النظر حولك لترى كيف يعلن بعض المسلمين إيمانهم بكتاب الله تعالى، ثم يقومون بقتل وتهجير إخوانهم والتعاون بالعدوان والأسر تحت اسم الكتاب والدفاع عن الدين! هم يؤمنون ببعض ما ورد في الكتاب كالصلاة والصوم، لكنهم يكفرون بآياته التي تمنع قتل وتهجير وسبي أي مسلم لله تعالى.

{فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، ليس المقابل الذي يحصل عليه من يقوم بهذه الأعمال إلا حالة من الخزي والخجل من قبيح ما صار إليه في هذه الحياة. الأسر والقتل والتهجير الذي يبدو في ظاهره سيطرة وانتصاراً ليس إلا خزياً لكم، وليس شيئاً تفتخرون به، ونظرة بقية الناس لكم عبر التاريخ ستكون احتقاراً لأنكم كنتم مع بعضكم بهذا السوء.

{وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ}، في زمن القيام من الموت يُردّهم الله إلى حياة فيها عذاب لا يمكنهم تحمله أو الاعتياد عليه.

{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}، عموم ما تقومون به لا يجري دون انتباهه تعالى، فسبحانه يرى ويسجل كل شيء، وأنتم تحت المراقبة.

نقرأ في كتب التاريخ وكتب اليهود أنفسهم أنهم كانوا يتقاتلون ويهجمون على بعضهم البعض ويأسرون، وفقرة التاريخ حول النبي داوود (عليه السلام) مليئة بهذه الأحداث. وها نحن المسلمون اليوم نتقاتل، ونهجّر، ونأسر، ونفادي، وما هذا إلا خزي في الدنيا إذ جعلنا أنفسنا أضحوكة ومحل سخرية للشعوب الأخرى، ولنا في الآخرة عذاب شديد.

(أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ{86})
كما في الغالب من آيات القرآن التي تتحدث عن الأعمال السيئة للناس، فإنها تشرح سبب ارتكابهم السوء: {أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ}، اشتروا الحياة القريبة التي هم فيها الآن بتقديمهم شيئاً مقابلها، كما يُقدم المال لشراء الأغراض. يمكنك تصور الآخرة كالمال في يدك، فهي شيء له قيمة عالية جداً لأنها آخرتك الخالدة؛ والآن تصور تخليك عن هذه الآخرة لتحصل على الدنيا، هذا هو حال "شاري الدنيا بالآخرة". لقد تخلوا عن الآخرة بهذه الأعمال السيئة واشتروا الحياة الدنيا التي منحتهم المال أو القوة أو السيطرة، ولو فكروا بالجنة الخالدة لما باعوها بهذه الأشياء القليلة التافهة الزائلة. وبسبب حبهم وتعلقهم بهذه التفاهات الدنيوية ارتكبوا السوء.

{فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ}، الضرر الذي سيصيبهم لن يقلّ، بل سيستمر مؤلماً شديداً، لأنهم بقرار منهم وعن علم بالنتيجة باعوا آخرتهم ولم يتراجعوا عن سوئهم. {وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ}، لا يؤيدهم ولا يساعدهم أحد لينجيهم من العذاب.

نلاحظ في القرآن وصفه للحالة الدائمة المستمرة لأهل النار بأنهم "خالدون فيها"، وهي حالة ألم دائم. كما نجد آيات تتحدث عن تعذيب بمختلف الأنواع، ونفهم منها انتقالاً من تعذيب إلى آخر وكلّه شديد. ونجد آيات تتحدث عن خبوت للنار ثم استعار، ومعنى ذلك أن التعذيب مستمر والألم مستمر، ولا تخفيف عن حالة التعذيب. وأثناء الانتقال من نوع تعذيب إلى آخر لا توجد فترة استراحة، وبين خبوت النار واستعارها من جديد لا توجد فترة راحة من الألم.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ{87})
الآيات لا تزال تتحدث مع بني إسرائيل وعنهم، وبالتحديد تخاطب الذين لم يؤمنوا بهذا القرآن ورسوله، وقد لاحظنا كيف ناقشت أبرز تصرفاتهم وأفكارهم، وهنا تكمل السورة الحديث:

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ}، صار مع النبي موسى (عليه السلام) الكتاب المسمى بالتوراة، وهي جزء صغير من التوراة المطبوعة حالياً. لم يكن النبي موسى (عليه السلام) النبي الأخير، {وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ}، أتبع سبحانه وأرسل من بعده الرسل؛ وهم الأشخاص الناقلون للكلام الإلهي لتوصيله للناس. لم يتوقف سبحانه عن إرسال رسل ليبلغوكم بكلامه، ومثلما تسمى آخر حجر في الشعر قافية لأنها تتبع آخر الكلام، فكلمة "قفّينا" هنا تعني يتبعه من بعده رسل، وصولاً إلى النبي عيسى (عليه السلام).

{وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ}، الأشياء التي توصف بأنها واضحة، وهي الأمور التي تدلكم على أن عيسى (عليه السلام) رسول إلهي وتدشدكم إلى الدين الصحيح. {وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}، ساند تعالى النبي عيسى (عليه السلام) بكائن "روح" يوصف بأنه صافٍ بلا إضافات في كيانه، ويوصف بالقدس لما له من مكانة واعتبار وحظوة حقيقية عالية جداً. المشهور في تراثنا الديني أنه الملاك جبريل "جبرائيل" (عليه السلام)؛ ومن فحوى القرآن بضم الآيات لبعضها نرى أن روح القدس وصف للملاك جبريل (عليه السلام)، إذ تشير الآية 102 من سورة النحل لمن نزل بهذا القرآن بوصفه روح القدس: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ}، والآية 97 من سورة البقرة تشير للملاك جبريل (عليه السلام) بأنه نزل بهذا القرآن: {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ}. يبدو أن جبريل هو روح القدس، ولو فرضنا وجود ملائكة آخرين مثله يوصفون بالروح والقداسة، فعادة لن يستعمل القرآن وصفاً واحداً يشير لشخصين دون التمييز بينهما، ولا يبدو من الآيات أي تمييز بين الشخصيات الموصوفة بالروح في القرآن؛ لذلك نفترض أنها تشير لنفس الملاك وهو جبريل (عليه السلام).

على أي حال، نضع في بالنا دائماً أننا بحديثنا عن الملائكة والروح نتكلم عما لم نختبره ولن نختبره في حياتنا الدنيا؛ لأننا هنا لن نراهم ولن نلمسهم. يترجح الكلام بين القليل من المعلومات التي وصلتنا عنهم من كلامه تعالى، وبين الكثير من التحليل، وهنا ننتبه جيداً لأننا عادة نقيس الأمور على ما نعرفه بالتمثيل؛ فلدينا فكرة عن الكيانات وانفصالها عن بعضها بالجسد والوعي، ونعمم هذا على عالم الملائكة، لكن هل تعميمنا صحيح؟ وما أدرانا بطبيعة الروح كجنس من المخلوقات؟ هل معلوماتنا عن الكيان وطبيعة الكائن والوعي هي التي ستسري على أي مخلوق؟ ما أدرانا إن كانت توجد صفات وحالات فوق قدرتنا على الاستيعاب ولا يمكننا فهمها تحصل مع الملائكة والروح؟ أقول لك هذا لتنتبه دائماً أن كلامي معك حتى لو كان يبدو لك عقلانياً منطقياً، لربما هو كذلك لأننا كلانا أضعف من رؤية الشيء الآخر الذي هو الواقع الصحيح. بكلامنا عن الروح ككائن من جنس كائنات موصوفة بالروح وأنه جبريل (عليه السلام)، فهذا تحليل اشتقاقي من كلامه تعالى؛ ربما هم كائن واحد بوعي مشترك بين الجميع مضافاً إليه وعي خاص لكل واحد، وربما ينفصلون جزئياً عن بعضهم، وربما ينفصلون كلياً أو هم أصلاً كلياً منفصلون بلا اتصال.

نعلم من آيات القرآن أن النبي عيسى (عليه السلام) قد صنع بيديه تماثيل صغيرة من الطين على شكل طيور، ثم نفخ فيها فعاشت وطارت أمام أعين الناس، ونعلم أنه أعاد بعض الأموات إلى الحياة وشفى المرضى؛ ويبدو أن هذه الأفعال ناتجة عن التأييد بروح القدس كما يظهر في الآية 110 من سورة المائدة.

النبي موسى (عليه السلام) الذي نزل عليه كتاب التوراة الذي تعتمدونه ديناً لكم لم يكن الرسول الأول ولا الأخير، فقد جاء من بعده العديد من الرسل الذين نسبتموهم إلى دينكم، كالرسول داوود (عليه السلام) وابنه سليمان (عليه السلام). كان آخرهم من بني إسرائيل النبي عيسى (عليه السلام)، وكان مميزاً جداً؛ إذ جاءكم بالبينات الواضحات التي تبين لكم الدين، وكان مؤيداً بروح القدس. فهل آمنتم يا بني إسرائيل بهؤلاء الرسل، وبالأخص بالرسول المميز عيسى (عليه السلام)؟

{أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ}، كلما جاءكم رسول من عند ربكم سبحانه بما لا يوافق أهواءكم وما تشتهونه وترغبون به، كان رد فعلكم أن {اسْتَكْبَرْتُمْ}، أي رأيتم أنفسكم أكبر من الإيمان به. {فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ}، جماعة من الرسل لم تؤمنوا بهم ووصفتموهم بأنهم كاذبون لا يقولون الحقيقة، {وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ}، وجماعة أخرى من رسل ربكم سبحانه تنهون حياتهم.

مشكلة تكذيبكم للرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ليست جديدة مع رسول إلهي، بل حتى من بني إسرائيل أنفسهم جاءكم رسل لم تعجبكم أقوالهم بسبب تعلقكم بالدين الذي حرفتموه؛ فكذبتم بعض الرسل الإلهية الذين كانوا منكم، بل ووصل بكم الأمر إلى قتل الرسل. مشهور ما فعلتموه مع النبي المميز جداً عيسى (عليه السلام)؛ كذبتموه، وحاربتموه، وتحدثتم عن أمه بكلام بذيء، وحاولتم صلبه، رغم قيامه بأعمال غير عادية بسبب تأييده بملاك من المرتبة العالية جداً الموصوف بروح القدس، ورغم ذلك لم تؤمنوا به.

تذكّر دائماً تركيز القرآن الكريم على تسمية النبي عيسى (عليه السلام) بعبارة "عيسى ابن مريم"؛ فقد ورد في تاريخ اليهود العديد من الشخصيات المهمة التي تحمل اسم عيسى، وستجد أكثر من عشر شخصيات بارزة تحمل هذا الاسم بعدة تصريفات في اللغتين العبرية والآرامية، ومنها: عيسو، يسوع، يشوع، جشوا، يشوا. كلها ترجع في الأصل إلى اسم عيسى، مثلما ترجع أسماء (أحمد، محمد، حمد، محمود، حمود، حميدو) إلى أصل واحد وهو "حمد". لهذا السبب، وحتى يتميز النبي عيسى الحقيقي ويتحدد بالضبط عن هؤلاء، وعن الأشخاص المزيفين الذين ادعوا أنهم المسيح، يسميه القرآن مع اسم أمه مريم التي ولدته من دون أب، مضافاً إلى ذلك تكريم السيدة مريم بذكر اسمها مع اسم ولدها المميز لأنها كانت مميزة جداً.

(وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللّه بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ{88})
{وَقَالُوا}، هؤلاء من بني إسرائيل: {قُلُوبُنَا غُلْفٌ}، أساس تفكيرنا ومشاعرنا موصوفة بأنها مغلفة، عليها ما يحويها كشيء يمنع وصول أي أمر آخر إلى تفكيرنا ونفسيتنا. الذنب ليس ذنبنا لأننا لم نؤمن، بل بسبب الغلاف لن نؤمن بهذا القرآن والرسول، ومن سبقه من كتب ورسل لم تعجبنا.

هذا عذر أقبح من الذنب، لم يستقصدهم تعالى ويخصّصهم بغلاف على قلوبهم بينما هم يريدون الإيمان، ولم يخلقهم سبحانه مع غلاف على قلوبهم. {بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ}، طردهم سبحانه من عنايته ورحمته بسبب إنكارهم لرسله تعالى وكتبه والبينات. {فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ}، بأمور قليلة جداً اعتقدوا، والكثير من الأمور الدينية الأخرى قد كفروا بها؛ بعبارة أخرى، هم يؤمنون بالبعض القليل من الكتاب ويكفرون بالكثير.

هم يقولون: نحن لا نؤمن لأن قلوبنا لا تطيعنا، عليها غلاف يمنعها من الإيمان، وما ذنبنا نحن إن كانت قلوبنا رفضت هذا الرسول أو ذاك؟ كلامهم يشبه قول من يقول: الله خلقني هكذا، أنا هكذا، طبعي عصبي هكذا. الجواب: كفركم اختيار أنتم تقررونه، وقد سبّب لعنكم، ولذلك صرتم ترفضون الإيمان.

حالتهم في {فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ} تشبه حالة عموم المسلمين حالياً؛ حيث ينتسبون بالاسم لدينه تعالى، ودولهم إسلامية بالاسم، بينما شرائعهم تسير على الهوى الفاسد مع قليل من شرعه تعالى. للأسف، الكثير من هذا القليل الذي اعتمدوه كشرع ديني فاسدٌ ناتج عن فتاوى فاسدة، كتحليل الربا في القروض البنكية، وتحليل الخمور أو غض الطرف عنها وعن المخدرات وأماكن الدعارة، وغض النظر عن سوء تصرفات الحكام الناهبين لخيرات البلاد.

(وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ{89})

{وَلَمَّا جَاءَهُمْ}، وعندما جاء لبني إسرائيل، {كِتَابٌ}، هذا القرآن، {مِّنْ عِندِ اللَّهِ}، وهذا الكتاب، {مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ}، مؤكّد للكتاب الذي جاءهم منه تعالى من قبل وهو التوراة؛ لأن القرآن يؤكد بأنه والتوراة من المصدر نفسه، ولا يكذّب التوراة ويقول عنها بأنها ليست من عنده تعالى بل يصدقها ككتاب إلهي، ولا ينافيها بطرح دين جديد بل يتماشى مع أساس ما فيها...

{وَكَانُوا}، بنو إسرائيل، {يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا}، يقولون للمنكرين للدين الإلهي من عبدة الأصنام والمشركين إنّه تعالى سيرسل نبياً، وسيكون إلى جانبنا ضدكم، وسيكون في المستقبل الفتح لنا؛ وما هو مغلق علينا سيكون مفتوحاً، والغلبة والنصر والحكم... سيكون لديننا.

{فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا}، هذا الكتاب "القرآن" هم يعرفون أنه من مصدر إلهي لتطابق أساسياته مع كتابهم، {كَفَرُوا بِهِ}، لم يعتقدوا به!

{فَلَعْنَةُ اللَّهِ}، طرد وإبعاد من رحمته تعالى، {عَلَى الْكَافِرِينَ}، على الناكرين لهذا الكتاب.

لاحظ أن مخزون ثقافتك من القرآن يضيف إلى هذه الآية أنهم استفتحوا بقدوم رسول جديد كانوا ينتظرونه، وهذا صحيح، وسياق الكلام هنا في الآية وما سبقها من كلام كان عن خصوص مجيء الكتاب الإلهي، وهذا يشمل ضمناً رسولاً ناقلاً له، إذ إن كفرهم بالكتاب يتضمن كفرهم بالرسول الناقل له.

مشهور في التاريخ انتظارهم للمسيح، وما زالوا ينتظرونه لأنهم كفروا بعيسى ابن مريم عليهما السلام، وفي ثنايا بعض أدبيات اليهود والنصارى كلام عن إسماعيلي وتلميحات أخرى يقول بعضهم إنها تشير للنبي محمّد العربي الأمي... راكب الجمل... الحفيد للنبي إسماعيل(ع)، ويؤيّد ذلك الدعاء الوارد على لسان النبيين إبراهيم(ع) وإسماعيل(ع) في الآية 129 من هذه السورة: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ...}، على الأقل نفترض توارثهم لخبر هذا الدعاء، إضافة إلى ما تقول الآية 157 من سورة الأعراف: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ...}.

على أي حال، ليس في تراث اليهود ولا المسيحيين أن نبياً ما من الأنبياء السابقين هو آخر نبي، بعكس ما جاء صريحاً في هذا القرآن بأن محمداً(ع) آخر الأنبياء كما تقرأ في الآية 40 من سورة الأحزاب: {مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ...}، ونحن المؤمنون بهذا القرآن لسنا ننتظر نبياً، بينما اليهود والمسيحيون ينتظرون نبياً.

بغض النظر عن أي أبحاث من تراثهم لمعرفة اسم وصفات الذي ينتظرونه، وأين ذُكر ذلك... من الأكيد في تراثهم أنه لم يأت بعد آخر الأنبياء، وبالنسبة لنا وعبر كلامه تعالى في هذا القرآن فإن محمداً(ع) آخر الأنبياء، وهم لم يؤمنوا به.

(بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ{90})

{بئسما}، بئس الذي، يا لسوء يا لقبح الذي، {اشتروا به أنفسهم}، لأن نفسي أنا من المفروض أن تكون أهمَّ شيءٍ عندي، والمفروض أن قيمتها عالية جداً، وإذا قررتُ التخلّي عنها "أبيعها"، يجب أن يكون ما أحصل عليه مقابلها له قيمة عالية جداً، وكما نقول إذا هجم عليك لصٌّ بيده سلاحٌ سيقتلك به، نقول: اشترِ نفسك وأعطه المال. حتى لا تتعرض للقتل، أعطِ اللصَّ مالك، وهكذا تكون قد اشتريت نفسك، لأن قيمة نفسك أعلى بكثير من المال. هنا نفس الطريقة في التعبير، ولو عرّضت نفسك للخطر مقابل شيءٍ قيمته قليلة تكون مخطئاً، والآن تصوّر تعريضك نفسك للخطر مقابل شيءٍ أصلاً لا قيمة له! بل سيءٍ! هم كفروا بشيءٍ سيسبّب لأنفسهم عذاباً مهيناً خالداً، وتخلّوا عن أنفسهم مقابل الكفر!

{أن يكفروا}، أن ينكروا ولا يؤمنوا، {بما أنزل الله}، بهذا القرآن النازل من عنده تعالى، {بغياً}، طلباً لشيءٍ آخر غير الذي قرّره سبحانه، ولم يعجبهم، {أن ينزّل الله من فضله}، من دون أن يكون فرضاً واجباً عليه، "بتحديده شخصاً

للنبوة"، {على من يشاء}، أمامه تعالى خيارات عديدة وعلى من يراه مناسباً وعلى من يختاره من عباده، أي من الناس الذين مفروض منهم وعليهم طاعته تعالى، ويجعل أحدهم رسولاً.

المشهور أن بعضهم رفضوا أن يكون الرسول إسماعيلياً "من نسل النبي إسماعيل (ع)" ويريدونه من بني إسرائيل...

{فباؤوا}، صاروا في مكانة، {بغضب على غضب}، فوق الغضب الذي كان عليهم أصلاً وقد تراكم فوقه غضبٌ آخر، لأن كفرهم يسبب غضبه تعالى مما يعني أنه لا يمكن السكوت عن حالتهم ولن يمررها تعالى بدون ردٍّ قاسٍ، وكفرهم بغياً هو تصرّفٌ آخر لا يمكن تمريره بدون ردّ، هكذا صاروا في حالةِ مغضوبٍ عليهم مرتين فوق بعض.

{وللكافرين}، ولهذه النوعية الناكرة لكتابه ولرسوله تعالى، {عذاب مهين}، ضررٌ يسبّب لهم الشعور بأنهم بلا قيمة، لأنهم لم يعطوا قيمةً لاختياره سبحانه نبياً عربياً من نسل النبي إسماعيل (ع)، لذلك سوف يجعلهم تعالى بلا قيمة في الآخرة، وسيشعرون بالاحتقار أثناء تعذيبهم.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{91})

{وإذا قيل}، قال أحد ما، {لهم}، لهذه النوعية من بني إسرائيل: {آمنوا بما أنزل الله}، أعلنوا اعتقادكم بالقرآن.

{قالوا}: {نؤمن بما أنزل علينا}، فقط الكتاب الذي نزل علينا نحن بني إسرائيل "التوراة" نعلن اعتقادنا به ككتاب إلهيٍّ.

{ويكفرون بما وراءه}، وينكرون صحة القرآن الذي جاء وراءَ، بعد التوراة، {وهو الحقّ}، وما جاء وراء التوراة صوابٌ وليس باطلاً أو كذباً وهو حقاً من عنده تعالى، {مصدقاً لما معهم}، وهذا القرآن مؤكدٌ للتوراة التي معهم، والقرآن يدل على أنهما كلاهما من نفس المصدر، ولا يقول عن التوراة إنها ليست من عنده تعالى، والقرآن لم يأتِ بدين جديدٍ...

{قل} للمنكرين لنبوتك عبر هذا القرآن، {فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين}؟ الأشخاص الذين كان يصلهم النبأ منه تعالى لينقلوه لكم، وهم أنبياء من بني إسرائيل وعلى نفس كتابكم ويدعونكم للإيمان بما معكم، ولماذا أنهيتم حياتهم بالقتل إن كنتم فعلاً معتقدين بدينه تعالى!؟

عندما تقولون إنكم لديكم كتابٌ إلهيٌّ ولستم بحاجة لنبي جديدٍ يأتيكم بكتاب جديدٍ، ولا تؤمنون إلا بنبي من بني إسرائيل، أو لأي سبب آخر... عندها ما معنى قتلكم لأنبياء من بني إسرائيل؟! واضحٌ أن كلامكم فارغٌ، ومشكلتكم هي مع أساس الإيمان، وليست مع عربية ويهودية النبي.

المنتشر بين الناس أنهم قتلوا النبيين يحيى (ع) وزكريا(ع)، وليس لدينا في القرآن أي تسمية أو ذكر لحادثة جرى فيها فعلاً قتل نبيٍّ إلا محاولتهم قتل النبي عيسى(ع)، ولدينا في التاريخ كلام عن محاولات يهود مدينة يثرب اغتيال النبي محمّد(ع) وقبله محاولة اغتيال للنبي داوود(ع) وللنبي سليمان(ع)، وربما لم يتحقّق فعلاً قتلٌ لأي نبي عبر التاريخ ولكن صار موصوفاً من حاول قتلهم بأنه قاتل للأنبياء بالرغم من منعه تعالى من حدوثه، وراجع استعمال العرب والقرآن لكلمة "قتل" ومشتقاتها وسترى أن المباشرة بأي عمل بقصد إنهاء حياة الآخر هو قتلٌ حتى لو لم يتحقّق القتل، وهنا التعبير بقتلهم النبيين ليس بالضرورة أنه تحقّق وأنهوا حياة نبيين، بل يكفي قيامهم بعمل يقصدون منه إنهاء حياة نبي ما وهو عملُ قتلٍ حتى لو لم يتحقّق.

وإن خطر ببالك أن التعبير بـ "قتالهم النبيين" سيعطي بشكل أصرحَ المعنى الذي ذكرناه، فكلامك صحيح ولكن من تبعات هذا التعبير أن يكون القتال من الطرفين، وهذا معنىً لا تريد الآية قوله، والنبيون لم يقاتلوهم بل هم فقط قتلوا "وليس قاتلوا" النبيين.

وكدليل على أن أساس العطل فيكم:

(وَلَقَدْ جَاءكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ{92})
{ولقد جاءكم موسى}، وهو منكم من بني إسرائيل، جاءكم، {بالبينات}، بالأمور الواضحة التي تبيّن بكل وضوح أنه رسولٌ من الله تعالى ويجب طاعته، من آيات الحية وانفلاق البحر... وماذا فعلتم؟

{ثم اتخذتم العجل من بعده}! جعلتم لأنفسكم من ذكر البقرة إلهاً! وتعلم من آيات عديدة معنى هذه الجملة المختصرة: وما أن غاب عنكم النبي موسى(ع) ليحضر لكم التوراة، حتى صنعتم تمثالاً على شكل ذكر البقرة وقلتم إنه إلهكم؟! وترى ذلك صريحاً في الآية 88 من سورة طه {فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ}، ولم يكرّر القرآن هذا الشيء المعلوم بسبب فظاعة كراهته، لأنهم مثّلوه عزّ وجل بالعجل! لذلك ترى الآية هنا مقطوعة، {ثم اتخذتم العجل}. وتركت لك تكملة باقي الجملة لأنه معلومٌ ولأنه قبيحٌ جداً ذكره.

{وأنتم ظالمون}، لم يكن معكم حقٌّ بذلك، ومن دون أي حجة أو منطق أو عقل... أو أي شيء يمكن فهمه! صنعتم تمثالاً وقلتم إنه إلهٌ! ولا تتحجّجوا بأعذار واهية، وقد سبق منكم مخالفتكم للنبي موسى(ع) شخصياً، ولم تكن مخالفةً عاديةً، بل تمسّ أساس الدين الإلهي، حيث قد عبدتم العجل! من الواضح أن المشكلة فيكم.

لا تفهم الكلام أنَّهُ تعالى يحاسبهم ويحمّلهم ذنب ما فعله أجدادهم منذ آلاف السنين، وقد كان فيهم مؤمنون من الدرجة العالية وهؤلاء مستثنون من الكلام، إنما الكلام موجّهٌ للمنافقين الفاسقين المدّعين أنهم على حقٍّ، هؤلاء تذكّرهم الآيات أن نوعيتهم الفاسدة من بني إسرائيل كانت قديماً وفعلوا كذا وكذا... وهم الآن يفعلون السوء بشكل مشابه، لينتبهوا أنهم ليسوا أمّةً معصومةً من الخطأ لا قديماً ولا الآن.

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ{93})
{وإذ أخذنا ميثاقكم}، أخذ تعالى تأكيداً شديداً من بني إسرائيل، وذلك حين وصلهم الدين الإلهي الذي لا تهاون ولا تراخٍ فيه، {ورفعنا فوقكم}، فوق رؤوسكم، {الطور}، الجبل، حيث رفع الجبل عن الأرض "كما يبدو" كان علامةً إلهيةً على تأكيد الاتفاق معهم أن يكونوا مؤمنين صالحين.

{خذوا ما آتيتكم بقوة}، لقد أعطاكم سبحانه التوراة ونفذوا ما فيها بقوة من دون تهاون أو استهتار في تطبيقها، {واسمعوا}، وأي شيء يحصل معكم وليكن سمعكم موجّهاً لما يقوله سبحانه.

{قالوا}: {سمعنا}، وصل كلامك إلى إدراكنا، {وعصينا} وخالفنا ما سمعناه.

الآيات تتحدث مع السيئين من بني إسرائيل لتنذرهم أن كل حججهم غير صحيحة، ولذلك نرى تركيزاً على العاطلين من بني إسرائيل، وهم أصحاب العقلية المنحرفة والحجج الباطلة، ولا تنسَ أنه كان فيهم الأتقياء وقالوا سمعنا وأطعنا، وكرامة لهؤلاء أكمل ربنا سبحانه عنايته ببني إسرائيل.

{وأشربوا في قلوبهم العجل}! وامتصّ أساس فكرهم ونفسيتهم حبّ العجل الذي عبدوه حين صعد النبي موسى(ع) إلى الجبل! {بكفرهم}، هذا التشريب للعجل في قلبهم سببه إنكارهم للدين الإلهي من الأساس، ولو كان في قلوبهم بذرة إيمان صحيحة لما استخسفوا أنفسهم لهذه الدرجة المتدنية بعبادة عجل. هكذا تريك الآيات أن تلك النفسية العاطلة لعابدي العجل قديماً، ما زالت متواجدة في بني إسرائيل الذين لم يكونوا يعبدون العجل صراحةً أثناء نزول هذا القرآن، ولكنهم يحتفظون بنفس العقلية الفاسدة لدرجة تشويه دينه تعالى بعبادة عجل! الكلام أيضاً ضمناً يشير لعقلية عبادة العجل كتصلبٍ وتحجّرٍ تافهٍ أمام الحقّ الواضح، ورفضهم لهذا القرآن وتعلّقهم بما هم عليه من دين فاسدٍ، وهم يعلمون بمدى انحرافه بسبب تحريفهم له حتى يتوافق مع أهوائهم السيئة، وهو عقلية عبادة الموروث والعادات... وهي نفسها مفهوم عقلية عبادة العجل.

{قل}، لهم عبر هذا القرآن: {بئسما}، يا لسوء الذي، {يأمركم به إيمانكم}، إن كان قتلكم للأنبياء، وعبادتكم للعجل... إن كان هذا ما تعتقدون به ويسبّب رفضكم للرسول محمّد(ع) وللقرآن، وما أتعسه وأسوأه من إيمان، {إن كنتم مؤمنين}، إن كان هذا هو نوع إيمانكم، وكنتم فعلاً معتقدين بالدين الإلهي بهذا الشكل.

(قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِندَ اللهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{94})
بعض بني إسرائيل يعيشون في فكرةٍ غير طبيعية، ويعتمدون عليها في رؤيتهم للأمور، وتجعلهم يشعرون بالعظمة حتى أمام كلامه تعالى! ولنسمعها:

{قل}، أيها الرسول محمّد(ع) لبني إسرائيل عبر هذا القرآن:

{إن كانت لكم الدار الآخرة}، الأماكن التي تدور فيها نشاطات حياتكم وفيها بيوت وأماكن تسرحون فيها... والتي في الآخرة، يعني الجنّة، وإن كانت لكم، {عند الله}، بقرار منه تعالى شخصياً، {خالصة من دون الناس}، ولا شريك لكم فيها، وهي لكم من دون بقية الناس! وإن كان لن يدخل الجنة إلاّ أنتم، {فتمنوا الموت}، حتى تتركوا هذه الدنيا وتنتقلوا مباشرة إلى جنّات الآخرة المضمونة لكم بحسب ما تقولون، وعادة أنتم تشعرون أن الموت يبدو مستبعداً حصوله في هذا الوقت، فتمنّوه فارغبوا وأحبّوا حصوله قريباً، {إن كنتم صادقين}، إن كانت فعلاً جنّات الآخرة مضمونة لكم، ولكم فقط!

كل الكلام الذي قاله القرآن لهذه النوعية من بني إسرائيل، وكل المنطق وكل الحجج وكل الشروحات، تقف عاجزة عندما يقولون: الجنّة لنا مهما فعلنا، ومهما فعلتم، وأنتم أيها المسلمون لن تدخلوا الجنة أبداً.

بناءً على هذا الاعتقاد فلماذا أنتم متعلقون بالدنيا! انظروا لأنفسكم لتروا أنكم لا تتمنون الموت مما يعني أنكم لستم فعلاً ضامنين للجنة لكم! وهكذا ترون أنه مجرد كلام فارغٍ، أمّا في الحقيقة فهم:

(وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمينَ{95})
{ولن يتمنوه أبداً}، مهما طال بهم الزمن لن يرغبوا ولن يحبّوا حصول الموت، {بما}، بسبب الذي، {قدّمت أيديهم}، مثلما تقدّم لي الطعام، هم قدّموا لأنفسهم أعمالاً سيئةً، ووضعوا أعمالاً سيئةً في الأمام في المقدمة وقد قاموا بها بأيديهم بأنفسهم، هكذا صاروا بعيدين جداً عن الإيمان بالآخرة والتعلّق بجنّاتها بسبب تمرّسهم في مخالفة الدين الإلهي، بل صاروا بالعكس متعلقين بالدنيا وناسين للآخرة، ولذلك لن يتمنوا الموت أبداً بتاتاً.

{والله عليم بالظالمين}، الذين ارتكبوا الأعمال الظالمة ولم يكن معهم حقٌّ بها، ها يخبرك الذي يعلم كلّ شيء أنهم لن يتمنّوا الموت أبداً، وكلامهم عن ضمانهم دخول جنّة الآخرة إنما هو مجرد كلامٍ فارغٍ يقولونه ولا يؤمنون به.

بقي شيءٌ تراه منذ القدم مما تقرؤه هنا في الآيات وتراه في عصرنا من تبجّح العديد من علماء اليهود وشخصياتهم المتكلمة، فترى تعالياً على كل الآخرين من الناس، على أساس أنهم هم أساس الدين الإلهي والمسيحيين والمسلمين مجرد متطفلين عليهم ولن يصلوا إلى مستوى الأصليين، ومهما جهد الآخرون إيماناً وصلاحاً وأفعال خير، هم لن ينالوا الجنّة الخالدة أو سيدخلونها ليكونوا خدماً لبني إسرائيل أو سيكونون في جنّة أقل من عادية ولا تصل في مستواها إلى الجنّة التي يدخلها الأسوأ حالاً من بني إسرائيل من عابدي العجل وقاتلي الأنبياء... فالآيات هنا مع وعن أصحاب هذه العقليات التافهة تتحدّث، والتي للأسف لها شبهٌ في العديد من أدبيات المسلمين المدّعين أن مذهبهم وحده على الحقّ، وحتى فسّاق مذهبه خيرٌ من خيار الآخرين!

(وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ{96})

بل بعكس تمنيهم للموت يخبرنا العليم بهم سبحانه:

{ولتجدنهم أحرص الناس}، أشد الناس اجتهاداً وعنايةً، {على حياة}، ويخافون على حياتهم ويبذلون كل جهدهم للحفاظ عليها، متجنبين لأصغر المخاطر، {ومن الذين أشركوا}، فهم يخافون على حياتهم حتى أكثر مما يخاف على حياتهم المشركون به تعالى! من المفروض أن يخاف المشركون كثيراً على حياتهم، لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ومتعلقون بالدنيا، ولكنَّ بني إسرائيل أشد تمسكاً بالحياة حتى من هؤلاء! مع أنهم يقولون بأن الجنة لهم، وفقط لهم!

{يودّ}، يريد راغباً شيئاً لم يحصل، ويحبّ، {أحدهم}، الواحد من بني إسرائيل، {لو يعمّر}، لو يعيش، {ألف سنة}، {وما هو بمزحزحه}، بمحركّه بمبعده ولو قليلاً، {من العذاب أن يعمّر}، حتى لو عاش ألف سنة وأكثر في النهاية مصيره إلى الموت والعقاب بالنار في الآخرة.

{والله بصير بما يعملون}، صورة أعمالهم يدركها تعالى ويعي معناها، وليس مثل كاميرا المراقبة التي تسجّل ولا تعي ما يجري، فهم تحت المراقبة.

والآية لا تحدّد الألف سنة كأقصى حدّ لتمنياتهم، بل تطرحه كرقم كبير جداً.

(قُلْ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ{97})
هنا لدينا أفكارٌ أخرى كسبب لكفرهم بالقرآن والرسول محمّد(ع)؟:

{قل من كان عدواً}، كارهاً معارضاً، للملاك جبريل "جبرائيل" (ع)، {فإنه}، الملاك جبريل(ع)، {نزّله}، نزّل القرآن، {على قلبك} على أساس فكرك ونفسيتك، {بإذن الله}، فالنبي محمد(ع) لم يختر الملاك جبريل(ع) لينزّل عليه القرآن بل الله تعالى اختار الملاك جبريل(ع) لنقل القرآن، والملاك جبريل(ع) لا يمكنه أن يقوم بإيصال الوحي لمن يشاء، وهذا نفس ما تقوله الآية 64 من سورة مريم {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا}، وعندما صدر أمر إلهي للملاك جبريل(ع) بتنزيل الوحي على الرسول محمّد(ع)، عندها قام الملاك بوظيفته، وأذن له تعالى بإيصال الوحي.

القرآن الذي أنزله جبريل(ع)، {مصدقاً}، مؤكداً مؤيداً، {لما بين يديه}، من الكتب، لأن القرآن لا ينفي إلهية مصدر تلك الكتب ولم يأت بدين جديد... بل يصدّقها ويؤكّد ما فيها من كلام إلهي، وكلاهما القرآن والتوراة من مصدر إلهي واحد.

والقرآن، {هدىً}، فيه ما يضعكم على ما يوصلكم إلى غاية صحيحة، وهي الوصول إلى الإيمان بالحقّ وفعل الصالحات، وهذا يوصل إلى مرضاته تعالى ومغفرته وثوابه... والقرآن، {بشرى}، خبرٌ سارٌّ، {للمؤمنين}، لمن هم في حالة اعتقاد بهذا الدين، لأنه يخبرهم بأنهم سيدخلون إلى الجنة.

نحن أمام عذر جديد يخترعه بنو إسرائيل حتى يتحجّجوا ولا يؤمنوا بهذا الرسول وقرآنه، وقالوا إنهم لديهم أسباب تجعلهم يعادون جبريل(ع)، ونفترض أنهم يقولون هذا لأن الملاك جبريل(ع) قام بعمل عدائي ضدّهم حين عصوه تعالى ونزل عليهم عذابٌ بأمر إلهي ونفّذه الملاك جبريل(ع)، وأنت تقول يا محمّد بأن جبريل ينزل عليك بالوحي، وبسبب عداوتنا مع جبريل فنحن نرفض اتّباعك... وردّت عليهم الآية بأولاً: لنفترض جدلاً أنكم معكم حقٌّ بإعلان العداوة للملاك جبريل(ع)، مع أنه ليس معكم حقٌّ كما سنرى في الآية التالية، ولكنه (ع) مجرد ناقل للكلام الإلهي ومصدّق للكلام الذي في كتابكم، وناقل للهدى والبشرى، فما معنى رفضكم للهدى والبشرى حتى لو كان فرضاً معكم حقٌّ بعداوته!

الكلام على معنى: لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قيل. وكائناً من كان ومهما كان موقفكم منه، إنما هو موظف منه تعالى لنقل كلام الهدى والبشرى لكم، ولا معنى لرفضكم لما نزل.

ولكن، هل يحق لهم أصلاً إعلان العداوة للملاك جبريل(ع)؟ لِنَرَ:

(مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ{98})
{من كان}، من الناس يعلن أنه، {عدواً}، كارهاً مبغضاً، {لله} تعالى {وملائكته}(ع) {ورسله}(ع)، وعدواً للملاك {جبريل} "جبرائيل" (ع) وللملاك {ميكال} "ميكائيل"(ع)، {فإن الله}، يعلن سبحانه بأنه، {عدوٌّ للكافرين}، مبغضٌ كارهٌ للمنكرين لدينه تعالى.

سبحانه يعلن لنا أن الملائكة(ع) عموماً والملاكين جبريل(ع) وميكال(ع) بالخصوص، والرسل(ع)، فعداوتهم كعداوته تعالى، والذي قال بأنه عدوٌّ لأي واحد من هؤلاء فسبحانه معادٍ له.

نلاحظ أن الملاك جبريل(ع) يتم لفظ اسمه بعدة طرق: جبرائيل، جبرايل... والملاك ميكال(ع) يلفظ اسمه أيضاً: ميكائيل ميخايل...

أمّا سبب إعلان عداوة بني إسرائيل لهذا الملاك أو ذاك فلم يذكرها القرآن، لأنها غير مهمة، لأن الملائكة(ع) لا تقوم بأي عمل إلا بأمر منه تعالى، فالعداوة لأي ملاك(ع) لأنه قام بعمل لم يعجبهم، إنما بالحقيقة عداوةٌ لله تعالى الذي أمر الملاك(ع) بالقيام بذاك العمل، لأن الملائكة(ع) لا يعصونه تعالى فلن يفعلوا أي شيءٍ يخالف أوامره تعالى فما معنى العداوة لهم!؟ وقد قيل إنَّ بعض بني إسرائيل قالوا: جبريل وميكال كانا ينزلان بالعذاب على قومنا، ولذلك نحن نكرههما ونعاديهما ونعادي من يتعامل معهما ويحبهما! وهذا سببٌ رئيسيٌّ يدفعنا للكفر بمحمّد الذي يقول بأنَّ الملاك جبريل ينزل عليه بالوحي...

(وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ{99})
{ولقد أنزلنا إليك}، أيها النبي محمد(ع)، {آيات}، أموراً مميزةً بمستواها الإلهي، والكلام عن جمل وسور هذا القرآن، وهي، {بينات}، واضحاتٌ جداً بأنها إلهيةٌ وليست بحاجة لكثير من التفكير بأن مصدرها إلهيٌّ.

{وما يكفر بها}، وما ينكر الآيات ولا يعتقد بها، {إلّا الفاسقون}، واضحٌ أنها الدين الإلهي وهم لا يلتزمون بها ويخالفونها، فهؤلاء لا تهمّهم الآيات الإلهية لأنهم أصلاً فاسقون: من داخلهم ليس لديهم قرارٌ بطاعة ربهم سبحانه.

آياته تعالى واضحةٌ بأنه منه سبحانه، والكفر بها كفرٌ بشيءٍ معلومٍ أنه منه تعالى وهذا هو الفسق.

تذكّر دائماً الفرق بين مصطلحاتنا وبين المعاني الأصلية للكلمات، فالفسق في استعمال القرآن استناداً للمعنى اللغوي عند وصف حالة إنسان مع الدين، هو الخروج عن شيءٍ علنيٍّ قاله الدين، ويوصف به المشرك والكافر المخالف بكفره لما أعلنه الدين، ويوصف به أهل الكتاب لمخالفتهم ما أعلنه تعالى في كتبهم، ولمخالفتهم لما أعلنه تعالى في القرآن، ونوصف به نحن لمخالفتنا لأمور صريحة وواضحة يقولها القرآن. واصطلح بعضهم على كلمة فسق وفاسق لتشير للمسلم الذي علناً يخالف الدين، في مقابل المنافق الذي بالسرّ يخالف الدين، وهذه المعاني تقبل اشتقاقها من الأساس اللغوي للكلمات ولكن ما ذكرته لك هو المعنى الذي استعمله القرآن، فإذا كان هناك شيءٌ نعلم أن الله تعالى قاله، وخالفناه، بالسرّ أو بالعلن، فهذا فسقٌ دينيٌّ، أما على عموم المعنى اللغوي للفسق فهو خروجٌ أو مخالفةٌ عن شيءٍ متّفقٍ أو متعارفٍ عليه. أمّا النفاق فهو عموم إخفاء الكفر بكل شيءٍ أو ببعض الأمور، ولم يؤمن ولكن يمثّل أمام الآخرين أنه مؤمنٌ، وقد يفعل السوء علناً أو بالسرّ فلا علاقة لتعريف النفاق بذلك، وبهذا المعنى استعملها القرآن.

(أَوَكُلَّمَا عَاهَدُواْ عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ{100})
ما هذه الحالة التي يعيشها بنو إسرائيل؟ ما هذا المنطق:

{أو كلما عاهدوا عهداً}، كلما وعدوا ربهم سبحانه بالالتزام بطاعته وطاعة رسله، مرة بعد مرة، {نبذه}، ترك العهد فلم يحترمه، لم يلتزم به، {فريقٌ}، جماعةٌ منهم؟ فأين المنطق؟ لقد عاهدوا ربهم سبحانه أن يطيعوه ويطيعوا رسله،

ولكن يخرج منهم فريقٌ يقول: لا نتبع الرسول ولا نقتنع به إلا إذا كان من بني إسرائيل! أو يقول فريقٌ آخر: لا نتبع رسولاً ينزل عليه جبريل(ع)! فما معنى هذا الكلام! وأي عهد هذا! عهدٌ مطّاطٌ يخرقونه على مزاجهم!

{بل أكثرهم لا يؤمنون}، أساساً عندما عاهدوا ربهم سبحانه فأكثرهم لم يكونوا معتقدين بدينه تعالى.

لا غرابة من إنكارهم لرسالة الرسول محمّد(ع)، لأن فرقاً مختلفة من بني إسرائيل نبذوا في السابق عهوداً من عهودهم له تعالى.

تذكّر دائماً أن العهد معه تعالى لا يعني حصراً أن أقف وأعلن وأقول: أتعهد بالالتزام بدينه تعالى. فهذا عهدٌ، ولكن أيضاً كوني لم أعلن كفري بدينه تعالى، وعملياً فأنا أنتمي لهذا الدين، كحالتك وحالتي، نكون عملياً تحت عهد اتباع دينه تعالى، فإمّا أن تكون مسلماً ملتزماً وإمّا أن تكون غير ذلك، وما هو الغير ذلك؟ هو الفسق أو النفاق أو الكفر أو الشرك، ونهايته الخلود في النار، فإن لم تكن منهم بقي أن تكون تحت عهد الالتزام بدينه تعالى، وهذا يتضمّن عهداً باتباع رسله تعالى وكتبه، وإلا فما معنى انتمائك لدينه تعالى؟ وهذا ما تقوله الآية عن أكثرية بني إسرائيل الذين ليسوا فعلاً مؤمنين حقيقيين.

قارن وصف الآية للمجتمع الإسرائيلي مع مجتمعك المسلم من حولك، فهل كل الذين حولك ملتزمون تماماً بدينه تعالى؟ وهل هم في كل أعمالهم يسيرون على شرعه تعالى؟ هل كلهم يصلون ويصومون ويزكّون ويبرّون والديهم ويحسنون لجيرانهم وأقاربهم... ويحتكمون للشرع في خلافاتهم... ولا يغشّون وليس فيهم لصوصٌ ونصّابون ومحتالون... ضع هذا في بالك لتفهم ما تقوله الآيات عن بني إسرائيل، ولتفهم أن نفس الكلام موجّه لنا أيضاً.

(وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{101})
كمنتمين لدينه تعالى فقد عاهدوه سبحانه على طاعة الرسل التي يرسلها، ولكن ماذا فعلوا:

{ولما}، وعندما، جاءهم {رسول من عند الله} تعالى، كالرسول داوود وسليمان... وزكريا ويحيى وعيسى... عليهم السلام، {مصدّق}، مؤكّدٌ مؤيّدٌ، {لما معهم}، فلم يأتهم بدين جديدٍ يعارض دينهم، ولم يأتِ بكتاب يعارض الكتاب الذي معهم... فبشكل واضح كان الرسول امتداداً للدين الإلهي، {نبذ}، ترك ولم يلتزم، {فريق}، مجموعةٌ، {من الذين أوتوا الكتاب}، نبذوا، {كتاب الله وراء ظهورهم}! فلم يجعلوه أمامهم ليسيروا على هداه ولم يهتموا به!

{كأنهم لا يعلمون}! كالذي لم يصله علمٌ بوجوب اتباع الرسل الإلهية ووجوب اتباع الكتب الإلهية! وكأنهم لا يعلمون أن هؤلاء الرسل على نفس الخطّ الإلهي، وكأنهم لا يعلمون أنه من أساسيات هذا الدين اتباع الرسل والكتب الإلهية، فما هذا التدين الذي يدّعونه!

بعبارة أخرى، نبذهم للرسول محمّد(ع) وللقرآن ليس جديداً، وسيرتهم مليئة بنبذ الرسل والكتب الإلهية، والآية التالية ستعرض علينا وتذكّرهم بنموذج بارز جداً عن تركهم لرسول إلهي ولكتاب إلهي، ولحاقهم بالسحرة وكتب السحر!

معلومٌ واضحٌ مما في التوراة الحالية من أسفار لعلماء اليهود، أنه مراراً وتكراراً كانت جماعاتٌ منهم يرفضون الإيمان بالرسل، وبعد موت الرسل بزمن ما، تراهم هم أنفسهم الذين كانوا كافرين به يعلنونه رسولاً! ويكفرون بالرسول الجديد! بعدما يموت يعلنونه رسولاً! وهكذا تأتي الجماعات معلنة الإيمان بالرسل السابقين وكفرهم بالذي يعاصرهم! والسبب معلومٌ، فلا خطر عليهم من الرسول الذي مات لأنه لن يصدر منه فعل معارضة لسوئهم، بينما الرسول الذي في زمانهم يعارضهم...

خذ مثلاً حالة النبي زكريا(ع) والتي من الواضح من التوراة ومن فحوى القرآن تعرّضه لمعاداة العديد من علماء عصره الرافضين الإيمان به كنبي، وهذا ما حصل "وبحسب التوراة" مع العديد من الأنبياء السابقين كداوود وسليمان... وسيأتيك في الآية التالية مثالٌ عن ذلك، ولكن بعد موت الرسل، ألّفوا لهم أسفاراً تروي قصة حياتهم

وضمّوها للتوراة! إلا النبي عيسى(ع) لأن حالة إيمانهم به بعد موته تستدعي الإيمان بما جاء به (ع) من تقويمات لتحريفاتهم، تلك التحريفات التي وصلت لدرجة امتهان علماء الدين اليهود للدين بالربا...

(وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ{102})

ولنرَ إذا اتبع بنو إسرائيل كل الرسل الإلهية، ولنرَ إذا تمسكوا بكتابهم كما يدّعون، فهل سبق لهم أن نبذوا رسولاً وكتاباً إلهياً كما هم الآن ينبذون الرسول محمّد(ع) والقرآن؟ لِنَرَ نموذجاً من أسوأ ما يكون مما فعلوه في تاريخهم:

{واتبعوا}، ومشوا على خط، ما {تتلو الشياطين}، واتّبعوا ما يقرؤونه عليهم الموصوفون بفعل الضلال لأنفسهم وللآخرين، {على ملك سليمان}، على المملكة التي كان يحكمها النبي سليمان(ع) كان يوجد جماعة شياطين لديها كتاب أو كتب وتقوم بقراءة ما فيه على الناس. بنو إسرائيل لديهم كتاب التوراة الإلهي، ونبذوه واتبعوا ما تتلوه عليهم الشياطين! فأي تدين هذا! حيث الشياطين حتما ستعلّمهم أموراً فاسدةً شريرةً سيئةً.

سيخطر على بالنا قصد الآية لشياطين من الجنّ، ولكن لا يبدو لا من الآية هنا ولا من بقية القرآن أي تواصل مباشر لأي إنسان مع الجنّ إلّا مع النبي سليمان(ع) فقط، بناءً عليه فالأرجح أن الملكين والشياطين في الآية هم من البشر.

{وما كفر سليمان}، ولم ينكر النبي سليمان(ع) دينه تعالى وكتابه تعالى، لأنه لم يتبع ما تتلوه الشياطين، وسيطر على الريح وكلّم الطير وتسخّرت له الجنّ... ليس عبر السحر، بل عبر تسخير إلهي لبعض قوى الطبيعة لرسوله سليمان(ع).

هذا الاتهام للنبي سليمان(ع) بممارسة السحر موجود ومنتشر في الثقافة اليهودية إلى الآن، وقد انتقل منهم إلى المسيحيين والمسلمين! وتجد في أسواق المسلمين كتباً منسوباً ما فيها من سحر إلى كتاب يرجع إلى النبي سليمان(ع)!

النبي سليمان(ع) لم يكفر به تعالى ولا بدينه ولا بكتبه بل كان ملتزماً بالتمام ولم يمارس السحر، {ولكن الشياطين}، الجنّ والإنس العاملين على إضلال الآخرين ، {كفروا}، أنكروا كتاب وتعاليم ربهم سبحانه، واخترعوا شريعة جديدة، وحلّلوا وحرّموا... وتذكّر دائما: إن الذي يصفه القرآن بالشيطان فهو يقوم بعمل مضاد لعمل الأنبياء، حيث يقوم بإضلال الناس وإغوائهم لفعل السوء، ابتداءً من الشرك بالله تعالى، والكفر بكتبه ورسله وآخرته، ومروراً بإنكار حلاله وحرامه تعالى...

الشياطين كفروا، {يعلمون الناس السحر}، والسحر هو الخدعة، هو طريقة لجعل الأمور غير الحقيقية تبدو حقيقية، فهناك أمور غير عادية ولا يمكن "أو من الصعب جداً" تحقيقها بالطرق العادية، وما يفعله الناس ليبدو أنهم فعلوا شيئاً من هذه الأمور فهو السحر، لأن الحمامة لا تنبثق في يد الساحر، ولا تختفي تحت القبعة، ولكن الساحر يخدعنا ويخرجها من كمّ يده ويجعلنا نعتقد أنها انبثقت فجأةً بين يديه، والحيّات التي صنعها سحرة فرعون كانت حبالاً وعصياً خيّل للناس أنها أفاع كما هو واضح من الآية 66 من سورة طه {قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}، فبالأصل لا يوجد شيء اسمه التأثير بالطبيعة عبر كلام التمائم والتعاويذ أو الصيام واستدعاء الأرواح أو الجنّ أو الملائكة(ع)... لتحقيق أمور غير عادية، وكل ما في الأمر أنهم يتعلمون الخدعة.

ما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، فهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، ونقل القرآن عن الكفّار اتهامهم للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، والقول عن الآيات الإلهية أنها سحر، فهذا كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

لننظر إلى ما نريده من السحر، لننظر للأسباب التي تدفعنا لتحقيق أمور عبر السحر، فنحن نرغب بالحصول على الكثير من المال، ونرغب بالزواج من تلك الفتاة أو تلك الفتاة ترغب بالزواج من ذاك الشاب، ونكره هذا الرجل أو تلك المرأة ونريد أذيتهما، ونريد معرفة رقم ورقة اللوتو الرابحة، ونريد معرفة نجاح هذه التجارة أو فشلها، ونريد معرفة ماذا سيحصل في المستقبل، ونريد شفاءنا أو شفاء أحبائنا من المرض... هذه هي بعض العناوين التي يريد الناس تحقيقها، وغالبيتها الساحقة سيئة، والقليل القليل منها بالأصل مباح، لكن تحقيق المباح بالطرق الملتوية يجعله سوءاً، فيجوز ملاطفة فتاة بكلام لائق لأنك فعلاً تريد الزواج منها، ولكن هل يجوز "بالسحر" بالتلاعب بالخدعة بمشاعرها لتجبرها على حبّك؟! هل يجوز تسخير جنّي "كما يدّعون" ليتلاعب بمشاعرها ويجعلها تحبّك؟! ولنفترض أن الجنّي يمكنه فعل ذلك، فهل يجوز أن تسحرها بطريقة أو بأخرى لتحبّك غصباً عنها؟! فرضاً لو صدق السحرة بقدرتهم على فعل هذه الأمور، فهل هذا مقبول؟

هل تقبل أن تصير أنت مغسول الدماغ ومشاعرك لعبة بين أيدي الآخرين ليجعلوك تحبّهم أو ليجعلوك تكره زوجتك؟ هذا على فرض كون السحر يمكنه فعل ذلك، فهل هذا موافق لكتابه تعالى؟ لا، بل هذا سوءٌ واضحٌ حرامٌ.

ألسنا في كتاب الله تعالى مأمورين بالعمل لكسب الرزق؟ وبقبول رأي الآخرين بنا وأن لا نجبرهم على الرغبة بالزواج منّا؟ وأن نستعمل الدواء لنتداوى؟ وأن لا نتّهم أحداً بسرقة إلا مع بيّنة؟ أليس هذا ما يأمرنا به ربنا سبحانه في كتابه؟ أم أمرنا سبحانه بالسحر والشعوذة وتسخير الجنّ والملائكة(ع) لتحقيق ما نريده؟ أم نحن في دار الامتحان للصبر على ما نتعرّض له؟ فما معنى القدرات السحرية لفعل كل ما نريده في حياة صمّمها تعالى لنتعرّض فيها للبلاء؟ وهذا لبّ ما تقوله الآيات هنا، فالإيمان بالسحر وممارسة السحر يتعارضان مع دينه تعالى، أولاً من ناحية الأفكار والأمور التي نريد تحقيقها عبر السحر وأغلبها سيئة مخالفة لأوامره تعالى "مخالفة للصلاح"، وثانياً لإيماننا بالخرافات وكفرنا بسنّة الله تعالى فينا التي صمّمنا على أساسها والتي تعني وقوعنا في المحن لامتحاننا بها.

تذكّر دائماً دائماً، أنّ ما يوجد في كتب السحر من أشياء خارقة، إنما هي خرافات لم تحصل ولن تحصل عبر طرق سحرية، وأقصى ما يمكن أن تحصل عليه يكون عن طريق الخدعة، كما حوّل سحرة فرعون العصيان والحبال إلى أفاعيَ عبر التمويه والتلاعب، ولكنها لم تتحول فعلاً لحيّات، وأمّا تسخير الجنّ أو الملائكة(ع) ليحققوا مطالبك، فكلها تخاريف وأوهام وللأسف وقع في تصديقها حتى بعض المحترمين العقلانيين، بينما واقع سيرة حياة الناس خالٍ من أي أثر فعلي لهكذا أمور خارقة، إلا اللهم قصص يرويها البعض النادر، والتي بقليل من العقلانية ترى أنها أوهام أو خرافات أو كذب...

نعود لنتذكّر ما تريد السورة قوله هنا، فالبعض من بني إسرائيل يقولون بأنهم متمسكون برسلهم وبكتابهم، ويرفضون الرسول محمّد(ع) وكتاب القرآن، ولكن وكما ترى فهم في مرحلة من تاريخهم تركوا كتاب الله تعالى ولحقوا بما تقوله الشياطين! وإلى الآن تجد منهم من هم كذلك، وتجد من المسيحيين والمسلمين من هم كذلك أيضاً!

وترك بنو إسرائيل كتاب الله تعالى ورسوله واتبعوا ما يتعلمونه من سحر من الشياطين، وما يتلوه الشياطين مما، {أنزل على الملكين} {ببابل} {هاروت وماروت}، فهناك كائنان موصوفان بأنهما يملكان يحوزان تحت سيطرتهما... شيئاً ما، فهما ملكان وليسا من الملائكة، واسمهما هاروت وماروت، وكانا يعيشان في مدينة بابل، وأشهر مدينة حملت هذا الاسم كانت في بلاد ما بين النهرين "العراق حالياً"، وكان قد نزل على هذين الملكين شيء ما، وأخذت منه الشياطين وصاروا يعلمونه للناس.

نتذكّر تسخير شياطين الجنّ للنبي سليمان(ع)، الذي كان يراهم ويتعامل معهم أمّا بقية الناس فغير معلوم إن كانوا يرونهم أو يمكنهم التعامل مباشرة معهم، وهذان الملكان يبدو أنهما من شياطين البشر.

{وما يعلمان من أحد}، وأي واحد يعلمانه السحر، {حتى يقولا}: {إنما نحن فتنة}، نحن فقط شيء تتعرّض له ليختبرك إلهك، فنحن امتحان واختبار لك، {فلا تكفر}، فلا تنكر دينه تعالى، فهما كانا مثل السحرة والمشعوذين وقارئي الطالع والبخت... الذين في عصرنا، الذين يستعملون القرآن للسحر! فهم يعلمون الناس السحر وينبهونهم أن لا يفعلوا به السوء! مع أنهم هم يفعلون السوء أصلاً باستخدام السحر! فلا تفهم هذه الجملة عن الملكين أنهما كانا بريئين، لا، فهما مثل السحرة والمشعوذين والمشايخ... الذين في عصرنا، الذين لا يعلنون لنا أنهم ضدّ أوامره تعالى، بل بالعكس،

يعلنون لنا أنهم من المؤمنين ويحذّروننا من الحرام! وخذ مثالاً عنهم قول إبليس المنقول في الآية 16 من سورة الحشر {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ}.

{فيتعلمون منهما}، ويتعلّم الناس من الملكين هاروت وماروت، {ما يفرقون به بين المرء وزوجه}، ويحاولون جعل الزوج يكره زوجته، أو يحاولون جعل الزوجة تكره زوجها! وهل هناك سوء أكبر من هذا! وهل هناك خدعة مفضوحة أكثر من قولهما للناس ألا يكفروا، وهم يعلّمان الناس عملاً صريحاً في سوئه ويخالف أوامره تعالى! فإن لم يكن التفريق بين الزوج وزوجته سوءاً من نوع الكفر بأوامره تعالى فما هو الكفر إذاً؟

{وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله}، ولن يتغيّر حال الزوج والزوجة ليكره أحدهما الآخر بقوّة قاهرة، بل بإذن الله تعالى، فالسحر ليس شيئاً يخرج عن سيطرة الله تعالى، إنما هو مثله مثل أي شيء آخر، مثل الدواء الذي يشفي لأن الله تعالى هو صمّم هذه الدنيا وأجسادنا بهذه الطريقة، بحيث عندما نشرب الدبس مثلاً فإن كبدنا يتنشط، فالسحر لا يمكنه تخطي أمر الله تعالى، فلا يؤثر لأن له قوة خارقة على قدرة ربنا سبحانه، بل لأنه يعمل ضمن المجال الذي سمح تعالى بحصوله، فهناك تركيبات كيميائية تجعل من يشربها في مزاج سيءٍ، ويكره الذين حوله من الناس، وإذا شربها الرجل فسيكره زوجته، وسيتصورها كشيءٍ بشعٍ... وهذا نوع من السحر الذي كانوا يمارسونه، أو بجعل الشياطين توسوس في عقل الرجل بأن ينظر نظرة سوء للنساء، وإذا أطاعهم سيجعلونه يقارن بينهن وبين زوجته، وفي النهاية سيرى زوجته قبيحة وسيكرهها... هذه الأشياء وغيرها هي سحر "خداع" قد تركها تعالى تعمل، ولكنه ليس شيئاً خارقاً كما يتصوّر أكثر الناس، وبالتأكيد ليس السحر خارقاً لسيطرة الله تعالى.

لا داعي لتصوّر قدرات سحرية خارقة للذين تتحدّث عنهم الآية، بل يكفي أنهم مثل الفاشلين الذين في عصرنا، الذين قد ينجحون إذا استعملوا طرقاً لها أثر حقيقي، مثلاً إذا استعملوا موادَّ لها تأثير على المزاج والنفسية...

{ويتعلمون ما يضرّهم}، ما يغيّر حالهم وما حولهم للأسوأ، {ولا ينفعهم}، فلا يحصلون على النفع على الاستفادة منه، لننظر إلى الأشياء التي يريدها الناس عبر السحر، فما هو النفع منها؟ وستجدها إمّا سوءٌ وعليها عقاب شديد، وإمّا حلال بالأصل ولكن الطرق الملتوية تجعلها سوءاً، وإمّا لا يمكن تحقيقها أصلاً عبر السحر! فأين المنفعة من السحر وترك كتاب الله تعالى!

لاحظ الآية اختارت من بين العناوين التي يطرحها السحرة لإغراء الناس لتعلّم السحر، اختارت نموذج التفريق بين المرء وزوجته، فهذا ليس كل ما تعلمّه الناس من الملكين أو من الشياطين، ولكن هذا نموذج بارز من ثقافة المتعاطين بالسحر، ولن تجد عاقلاً يناقش بسوئه ولذلك اختارته الآية، فإن كانت بقية العناوين لا يبدو منها السوء، فخذ علماً أنها سيئة، ومثال العمل على التفريق بين زوجين يبيّن لك أن هذا طريق لا رحمة فيه ولا أخلاق ولا ناموس.

{ولقد علموا لمن اشتراه}، والناس الذين يتعلمون السحر ويمارسونه أو يقصدون الآخرين ليفعلوه لهم، حتى يفرّقوا بين المرء وزوجته كمثال، قد علموا أن من اشترى السحر، من تخلّى عن دين الله تعالى وأخذ السحر بدلاً منه، فإنه، {ما له في الآخرة من خلاق}، فلا نصيب فلا قسمة له من خيرات الآخرة، فلن يرى الخير في الآخرة أبداً.

{ولبئس}، ويا لسوء، {ما شروا}، ما باعوا، {به أنفسهم}، فقد تخلّوا عن أنفسهم مقابل أشياء قبيحة سيئة، {لو كانوا يعلمون}، لو درسوا الموضوع فعلاً، ولو كان عندهم فهم، لعلموا بسوء بيعهم لأنفسهم بشيء سيءٍ كالسحر، لأنهم سببوا لأنفسهم عذاباً في جهنم.

أنصحك عزيزي القارئ لوجه الله تعالى، أن لا تتعب نفسك بالبحث في الكتب الدينية عن هاروت وماروت ومن هما، وما تاريخهما، فما في تلك الكتب معلومات بلا قيمة، وهذان الكائنان ليسا من الملائكة(ع) حتماً، فالملائكة(ع) كلّهم قد حسم القرآن موضوعهم وأخبرنا أنهم لا يعصونه تعالى ولا يضلّون الناس... ووصف الآية لهما بالملكين لا يدل على أكثر مما تعنيه كلمة ملك، فهي تعني: كائن لديه شيء، يملك شيئاً ما. المواصفات العالية الطهارة التي "تملكها" الملائكة(ع)، سبّبت حملهم لوصفهم بالملك وملاك وملائكة، حتى أننا نستعمل هذه الأوصاف للأطفال عندما نقول: هذا الطفل ملاك. والقدرات العالية جداً التي "تملكها" الملائكة(ع) أيضاً سبّبت وصفهم "بملك وملاك وملائكة..." لأن هذه الكلمة تشير في الأصل لعموم أي شيء يملكونه، وصارت وصفاً ملتصقاً بكائنات محدّدة قد اتّصفت تماماً بملكيتها

للصفات الطاهرة والقدرات العالية، وصارت الكلمة اسماً لهم: ملائكة. ونفس الشيء بالنسبة لتسميتنا بالبشر التي تعني أن لنا بشرة بدل الشعر أو الجلد السميك.

هنا وصف الآية للمدعوين هاروت وماروت بأنهما ملكان، لا يعني أكثر من كونهما مَلَكَا معلومات تتيح لهما قدرات غير متاحة للآخرين. يمكن أن يكونا من الجنّ أو من الإنس، ولكن بسبب غياب أي إشارة لتواصل الجنّ المباشر مع أي إنسان إلا النبي سليمان(ع)، فالأرجح عندي أن هاروت وماروت من البشر، أمّا ما تجده في الكتب الإسلامية عن كونهما من الملائكة(ع)... فهو خرافات لا أساس لها من الصحة، وحتى لو بحثت في كتب اليهود والمسيحيين فلن تجد شيئاً معقولاً عنهما، فلا تنسَ أن اليهود والمسيحيين عموماً هم مؤمنون بكتاب سحري يقولون أن النبي سليمان(ع) اعتمده لتسخير الجنّ والريح والتكلّم مع الطير! فكيف ستحصل من ثقافتهم على شيء عقلاني منطقي حول الملكين هاروت وماروت!؟ والكثير منهم يؤمن بأن إبليس كان من الملائكة العالية!

إذاً، لدينا إشارات ربما تفيد في المستقبل للتعرّف على تفاصيل تاريخية أكثر عن هذين الشخصين إن حصلنا على آثار، وأمّا ما في الكتب الدينية عن هذه الآية ومن فيها، فلا فائدة فيه، والمصادر التي نقّبت فيها لم توصلني إلى أي أثر تاريخي ملموس... ولا لأي معلومة إضافية زيادة عما قالته الآية...

بسبب طول ما قلنا حول هذه الآية، لا تنسَ أن أصل الموضوع كان عن ترك البعض من بني إسرائيل لكتاب ربهم سبحانه واشتغالهم بكتب السحر، وهذا هو المطلوب فهمه من الآية هنا، فافهمه ولا تضِعْ عنه في متاهات هاروت وماروت والسحر...

لا تتعب نفسك بنوع السحر وفنونه وتأثيره، لتقع في الخطأ الذي تنبهك منه الآية التي إنما تذكّر بني إسرائيل بأنهم تركوا كتاب ربهم سبحانه واتبعوا كتب السحر! فلا تترك كتاب الله تعالى وتلحق السحر، أو تستعمل كتاب الله تعالى لتقوم بالسحر، فهذا عقابه أشدّ.

العجب العجاب ما وجدته في بعض كتب تفاسير القرآن المرموقة المشهورة، حيث أشار مؤلفوها لبعض الكتب التي يعتبرونها موثوقة للسحر! كأمهات لكتب السحر! ولا أدري ماذا كان يدور في بالهم! فهل يشجعوننا على قراءة تلك الكتب! أم يدلوننا على أوثق مصدر لتعلّم السحر! مع العلم أني قرأت غالبية تلك النوعية من الكتب وباللغتين العربية والإنجليزية**، حتى أني قرأت كتاباً قديماً جداً منسوباً للنبي سليمان(ع)... حتى أني جالست الذين يتعاطون هذه الأعمال، وحضرت ما يفعلونه... وها أخبرك من بعد دراسة طويلة ومعمّقة تتضمّن تسجيل الملاحظات ودراستها... أنه كلام فارغ تقنع نفسك بصحته إذا تراخيت في استقامة عقلك وفكرك واستسخفت نفسك وصرت تفسّر الأمور العادية على أنها خارقة.

أيضاً ألفت انتباهك لخدعة تحصل بين مدّة وأخرى، حيث يقوم المحتالون باستعمال صندوق له كعبان، ويغرونك بوضع المال فيه حتى يقوم الجنّ بمضاعفته ليصير بالملايين، ويقومون أمامك بتجربة مبلغ صغير في البداية، ليغروك بإحضار مبلغ أكبر، وحين تأتي بالمبلغ الكبير يخدعونك بطريقة أو بأخرى ويسلبونك وأموالك... أيضاً ألفت انتباهك لمادة كيميائية لن أذكر اسمها لك، وهي مادة إن لمستها أو شممتها ستجعلك كالمسطول، وقد استعملتها أجهزة المخابرات لاستخراج المعلومات ممن يعتقلونهم، ويستعملها النشالون، فهي تؤثّر لدرجة أن السارق بعد أن يجعلك تشمّ المادّة، فهو لا يعذّب نفسه بمد يده لسرقتك، بل وبكل بساطة يأمرك أن تعطيه كل ما معك، وتستجيب له... ويمكنك توسيع أفقك الآن لتفسّر الأمور السحرية التي يتخيلها الناس أثناء تسطيلهم من البخور السحري...

ما سبق من كلام ليس المقصود منه تحريم ما نسميه في عصرنا بمهنة لاعب الخفّة الذي يقيم العروض للتسلية، فهذا من نوع السحر بالمعنى اللغوي لكلمة سحر، ولكنه شيء آخر غير الذي ينهى عنه تعالى معاقباً عليه.

أخيراً انتبهوا أيها المسلمون من قراءة الكف والفنجان والرقى والتعاويذ... فهي سحر حرام، فلا تغرنّكم الدنيا الحقيرة أمام الآخرة الرائعة، واسعوا لتحقيق مطالبكم الحلال عبر التوجه إلى الله تعالى بالعبادة والدعاء، والعمل والسعي والصبر، ولا تتعلقوا بالدنيا وتجعلوها كل همّكم، ولا تعتقدوا أن ربكم سبحانه لا يستجيب لطلباتكم، وتعتقدوا أنكم يمكن

تحقيقها عبر السحر وتحضير الجنّ! راجعوا أنفسكم، وانظروا في مطالبكم التي تريدون تحقيقها، هل هي صالحة؟ هل هي أهم من الآخرة؟ لنرَ:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُواْ واتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّه خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ{103})
{ولو أنهم}، بنو إسرائيل بدلاً من اتباعهم للسحر، {آمنوا}، اعتقدوا بربهم سبحانه وكتبه ورسله وآخرته... ولو أنهم، {اتقوا}، فتجنّبوا فعل السوء وهو نفسه تجنّب غضبه وعقابه تعالى، وهنا آخر الكلام كان عن تركهم لكتابه تعالى واتّباعهم للسحر، ولو فعلوا العكس، {لمثوبة من عند الله}، لشيءٍ سيرجع عليهم من عنده تعالى بسبب إيمانهم، {خيرٌ}، موصوفٌ بأنه جيدٌ في مقابل سوءٍ الذي اعتقدوا أنهم سيحصلون عليه من السحر، {لو كانوا يعلمون}، لو كان في معلوماتهم فعلاً أن ثوابه تعالى بالمغفرة والجنّة خيرٌ مما سيحصلون عليه في الدنيا من السحر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ْوَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ{104})
{يا أيها الذين آمنوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم في حالة اعتقاد بدينه تعالى "المؤمنين بالرسول محمّد(ع)":

لا تقولوا لرسولكم، {راعنا}، راعِ ظروفنا، فما تقوله لنا وتطلبه منّا صعبٌ علينا تنفيذه، وقولوا بدلاً من {راعنا}: {انظرنا}، أعطنا بعضاً من الوقت لننفّذ ما تطلب.

{واسمعوا}، ليكن توجّهكم لما يقوله الرسول(ع) لكم بعد أن تقولوا: {انظرنا}. نفّذوا قوله لأنه رسولٌ من الله تعالى، ولا يحق لكم الاعتراض وطلب المراعاة، ومسموحٌ لكم فقط على الأكثر أخذ بعض الوقت قبل التنفيذ، إن كان ما قاله الرسول(ع) يتحمّل انتظار بعض الوقت.

{وللكافرين}، وللمنكرين للدين الإلهي وللرسول الإلهي، الذين لا يسمعون كلامه(ع) فلهم، {عذاب أليم}، ضررٌ لا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه في نار الآخرة. وبناءً عليه لا تتأثّروا بأفعال بني إسرائيل حيث لا معنى للإيمان بدينه تعالى من دون طاعة هذا الرسول(ع).

القاعدة العامّة لأي شخص أعلن اعتقاده بهذا الدين ألا ينظر للأمور الدينية من نظرة توافقها مع عاداته وما يستسهله ويرغب به، فلا يحق له طلب المراعاة لحصوله على إلغاء أو تسهيل أو استثناء من الواجبات الصالحات وهي نفسها الأوامر الإلهية، وبالنظر لما تتحدّث عنه السورة هنا، فالكلام موجّهٌ لعامّة المؤمنين، وبالخصوص للمؤمنين بالرسول محمّد(ع) وبالقرآن، وبالطريق تمرّر الكلام لبني إسرائيل، على اعتبار أن هذا الرسول محمّد(ع) هو امتداد لدينهم وليس ديناً جديداً، وبالتالي فما يقوله الرسول(ع) يجب عليهم تنفيذه كونهم من المؤمنين بدينه تعالى، ولا يحقّ لهم المطالبة بتخفيف أو إلغاء ما يقوله الرسول(ع) لهم، وإلا فلا معنى لإيمانهم إن لم يلتزموا بما يقوله هذا الرسول(ع)، وهذا ما تقوله الآية بشكل غير مباشر حين توجّه كلامها لمن أعلن إيمانه بالرسول محمّد(ع).

طبعاً لم تذكر الآية ما يقوله الرسول(ع) ليطيعوه... على أساس أن الرسول لن يطلب من المؤمنين أموراً شخصية أو مزاجية أو سيئة، فمحور الحديث هنا عن طاعته كرسولٍ ناقل للكلام الإلهي من تشريعات وقضاء بين المؤمنين.

تذكّر دائماً أن كلمة "كفر" ومشتقاتها، لا تعني أكثر من إنكار شيءٍ ما، ومداها واسع التطبيق، من إنكار لألوهيته تعالى، أو إنكار لوحدانيته، أو إنكار لحكمته... أو فقط إنكار لرسله أو لكتبه أو لملائكته(ع) أو للآخرة والحساب... أو إنكار فقط لوجوب الصوم أو الصلاة أو الزكاة... هكذا استعملها القرآن لعموم أي إنكار ورفض ولو لشيء واحد أو شيئين أو كل شيء.

ننتبه دائماً أن الأحكام التي تجدها في عموم كتب التشريع "الفتاوى" والتي عمّموا فيها إهدار دم أو مال أو عرض أي كافر مهما كان نوع كفره، فهي من المخالفات الصريحة لكلامه الواضح تعالى والذي ورد في الآية 8 من سورة الممتحنة {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، وهي من نوع تطبيق المصطلح الذي اخترعوه للكفر على كلمات القرآن بدلاً من الالتزام بمعاني الكلمات الأساسية، وهنا كما ترى في آيتنا فهي تتوجّه لبعض الناس بوصفهم بالذين آمنوا، وفي آخرها تنبيه وتهديد لهم ألا يوصفوا بالكفر بسبب رفضهم ولو لأمرٍ واحدٍ صدر من الرسول(ع)، وهذا لا يعني أبداً بتاتاً أنهم ستجري عليهم أحكام

من كفر بكل الدين الإلهي، لا وألف لا، حتى المسلم الذي في الظاهر لا يقوم بممارسات مخالفة للدين، وحتى لو كنت تعلم بأنه لا يصلّي ولا يصوم، فلا يوجد أي أمرٍ إلهي بوجوب معاقبته طالما لم يعلن معاداته للمؤمنين، وقد فصل القرآن بين عقابه هو تعالى لمن عصاه، وبين من أمرنا نحن بمعاقبته، فالسارق الذي يخبرنا بأنه غير مقتنع بحرمة السرقة، يكون كافراً بمسألة حرمة السرقة، وله عقابٌ محدّدٌ "قطع يده"، ولا تجري عليه أحكام هدر دمه كالمحارب الكافر بكل دينه تعالى، وهذا مثالٌ واضحٌ بسيطٌ يبيّن لك الفرق الهائل بين بعض ما تجده في كتب المسلمين الفقهية، وبين أساس الدين الإلهي عبر ما يقوله هذا القرآن.

قيل في بعض كتب التفاسير إن اليهود كانوا يتلاعبون بلفظ كلمة {راعنا} التي على معنى المراعاة، لتصير "راعينا" على معنى أنك ترعى مواشينا، كسخريةٍ منهم بالرسول(ع)، ووردت نفس الكلمة في الآية 46 من سورة النساء، ولكن سياق الكلام هنا وهناك لم يكن يشير لذلك، وربما حصل التلاعب منهم بكلمة {راعنا} أو غيرها، ولكن هذا موضوعٌ آخر وليس قريباً حتى من المفهوم الذي تطرحه الآية عن عقلية ونفسية التعامل مع الأوامر الإلهية.

(مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{105})
كونوا مطيعين ولا تتأثروا بنصائح أهل الكتاب لكم بمزاجيتهم في دينهم واتباع رسلهم لأنهم:

{ما يودّ}، لا يريد ولا يرغب، {الذين كفروا}، وسياق الكلام عن الذين كفروا بالنبي محمّد(ع) وبالقرآن، {من أهل الكتاب}، من الذين ينتمون لكتاب من الكتب السابقة التي نزلت منه تعالى، فاليهود أهل كتاب التوراة، والمسيحيون أهل كتاب الإنجيل، فلا هؤلاء، {ولا المشركين}، الذين جعلوا آلهة مع الله تعالى، لا يودون، {أن ينزل عليكم من خير من ربكم}، فبإيمانكم بالنبي محمد(ع) ودينه تعالى تصيرون مشمولين بالخير، بالأمور الجيدة من المسؤول عنكم من مستوى إلهي، كالرحمة والهداية والمغفرة والنصر...

{والله يختص برحمته}، يخصّص عنايته لما فيه مصلحة، {من يشاء}، فأمامه تعالى خيارات عديدة ويختار سبحانه أن يرحم هؤلاء ولا يرحم الآخرين، وقد أخبرنا تعالى أنه اختصّ المؤمنين برحمة خاصة لا ينالها الآخرون، فأهل الكتاب والمشركون لا يمكنهم توجيه رحمة ربنا سبحانه باتجاههم أو منعها عن غيرهم، بل هو سبحانه يقرر لمن سيخصّص رحمته، وقد أخبرنا أنه سيخصّصها سبحانه للذين يطيعونه.

{والله ذو الفضل العظيم}، والله تعالى منسوب إليه صفة الفضل، صفة تقديم أشياء جيّدة للآخرين من دون أن تكون فرضاً واجباً عليه سبحانه، وتقديماته سبحانه توصف بأنها عظيمة لأنها من أعلى المواصفات الحسنة، والكلام هنا عن تفضّله تعالى على الذين آمنوا برسول وبكتاب من عنده تعالى، ويلي ذلك رحمة ومغفرة وجنة... للمؤمنين.

انتبهوا أيها المسلمون؛ لأن اقتراحات أهل الكتاب لكم لا تنمّ عن خير، وسلوكيات أهل الكتاب "الذين لم يؤمنوا كما يجب" ليست نموذجاً جيداً للاقتداء به، فهم سبق وقالوا للرسل الإلهية "راعونا"، ولم يقولوا "انظرونا"... على كلّ حال خذوا علماً أيها المؤمنون بالرسول محمّد(ع) أنَّ الذي لم يؤمن بهذا الرسول من أهل الكتاب أو المشركين فهو لا يريد لكم الخير، ولا يعجبه أن يرى فضلاً إلهياً عليكم.

لو كررت لك فانتبه للعلاقة بين آيتنا هنا وبين الكلام الذي سبق عن سلوكيات بني إسرائيل، حيث الآية هنا تريدك ألا تكون مثلهم، وأن لا تجعلهم نموذجاً تقتدي به، وأي كلامٍ "دينيّ" يقولونه لك وهو نابع من سلوكياتهم الدينية فهو لا يعبّر عن إرادتهم للخير لك من ربّك سبحانه؛ لأنهم منزعجون من إيمانك بهذا الرسول والقرآن، ويزعجهم رؤيتك بخير وعلاقة طيبة متبادلة معه تعالى؛ لأنها تدل على صحّة تدينك وفساد تدينهم وهذا ما لا يريدونه.

ضع هذا الكلام في بالك؛ لأن السورة من الآية السابقة دخلت في موضوع تقليد المؤمنين الجدد لأهل الكتب الإلهية السابقة، وسترى ذلك صراحةً في الآية 108.

الناسخ والمنسوخ!
(مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {106})
إليك النص بعد مراجعته نحوياً وإملائياً، مع الالتزام التام بكافة الشروط، ووضع الكلمات القرآنية بين الأقواس { }، وتمييز التعديلات بالخط العريض:

مما سبق ومن الآية 108 الآتية نفهم آيتنا هنا بوضوحٍ، فأهل الكتاب مما يتحججون به لرفضهم الإيمان بالرسول محمّد(ع) أنه (ع) لم يكرّر ما حصل مع الأنبياء السابقين: لم يمشِ على الماء، ولم يحيِ الموتى، ولم يضربِ الحجرَ ليخرج منه الماءُ... وهكذا يطلبون نسخ تلك الآيات حتى يؤمنوا، أو يقترحون على المسلمين أن يطلبوا من نبيهم القيام بتلك الآيات...

{ما ننسخ من آية}، فلا يقوم سبحانه بتكرار شيءٍ شبيهٍ ومميزٍ بمستواه الإلهي، كالأمور التي حصلت مع الأنبياء السابقين، كما حصل من تكرار لآيةِ إحياء الموتى على أيدي الأنبياء، فهذه آيةٌ منسوخةٌ أي تكررت كنسخةٍ ثانية، {أو ننسها}، أو يجعلها تعالى منسيةً، فلا يكررها تعالى، {نأتِ بخيرٍ منها}، فما سيأتي من آيةٍ إلهيةٍ سيكون أفضلَ منها، {أو مثلها}، بالشبهِ التمام، من ناحية فالقرار بيده سبحانه يقرر ما سيأتي من آيات، ومن ناحية ثانية فمستوى الآيات التي تأتي منه تعالى يكون كلُّها مستواها مرتفع، سواء كرّر تعالى آيةً سابقة أو جاءتنا منه تعالى آيةٌ جديدة.

تتذكّرُ من عموم القرآن أنه سبحانه يؤيّد رسله ودينه بالآيات حتى تكون دليلاً على دينه تعالى، وعادة ينصرف ذهننا فقط إلى الأمور الخارقة التي نسميها معجزةً، وهذا بشكل ما صحيح، ولكن بما يراه تعالى مناسباً تكون الآية، وكما ترى فكلامه تعالى عبر هذا القرآن هو آيةٌ.

سنرى فيما يلي في الآية 108 تنبيهاً للمسلمين ألا يطلبوا من النبي محمد(ع) آياتٍ كما طلب بنو إسرائيل من النبي موسى(ع)، وهنا كمقدمةٍ تخبرنا الآية أن الآيات، الأمور المميزةَ بمستواها الإلهي، والتي درج تسمية عامّة الناس لها بالمعجزاتِ، فهي تحدث بقرار منه تعالى، وتكرارها أيضاً يحدث بقرار منه تعالى، وإن لم تفهم ما تقوله الآية فالتفت إلى ما يقوله البعض عندما يقارنون بين الرسول محمّد(ع) والرسول موسى(ع)، أو بين الرسول محمّد(ع) والرسول عيسى(ع)، ويخرجون بنتيجة أن القرآن الذي هو آية الرسول محمّد(ع)، فهو ليس بمستوى إحياء الموتى ورفع الجبل وشقّ البحر...

{ألم تعلم أنّ الله على كل شيء قدير}؟! فإن كان أحد ما يفكر في طلب الآيات ليرى إن كان الله تعالى يمكنه فعلها، ألا يعلم أنه تعالى قادرٌ فيمكنه فعل أي شيءٍ يريده؟ هل تطلب حصول الآيات لترى إن كان تعالى قادراً على فعلها؟ من النظرة الإلهية لكلام الناس مع الرسول محمّد(ع) مقارنين بينه وبين آيات الرسل السابقين وطالبين منه (ع) القيام بآياتٍ أقوى من الآيات التي قام بها الرسل السابقين، أو على الأقل فلتكن نسخةً عنها، من النظرة الإلهية هم في الحقيقة يطلبون منه تعالى القيام بهذه الآيات، فهل يريدون اختبار مدى قدرته تعالى؟!

لتكن آيتنا هنا نموذجاً لك لتفرّق بين قرآن من تأليفه تعالى، وتهمة تأليف النبي محمّد(ع) للقرآن، حيث في كلّ القرآن تجد دائماً كلاماً من النظرة الإلهية وليس من وجهة نظر الرسول محمّد(ع)، وهنا ترى الكلام الموجّهَ للنبي محمّد(ع) مقترحين عليه الإتيان بآياتٍ... وترى الردّ القرآني من وجهة نظره عزّ وجلّ، لأن طلب الآية من الرسول(ع) هو في الحقيقة طلب منه تعالى أن يأتي بها على يدي الرسول(ع)، فما معنى هذا الكلام؟ هل تشكّون في قدرته تعالى على نسخ الآيات السابقة أو الإتيان بأفضل منها!

ننتبه ونتذكّرُ دائماً، أن كلمة آية معناها: الشيءُ المميزُ. فنقول: آية في الجمال. آية في الروعة. آية في العلم... فلا تحصر معنى كلمة آية بجملةٍ من القرآن، لأن كلمة آية تشمل جمل القرآن بسبب تميّزها بكونها كلاماً إلهياً، ولكن كلمة آية أعمُّ من ذلك، واستعمال القرآن لكلمة آية ليشير لجمل القرآن أقل بكثير من استعمالها للإشارة بها إلى أمور مميزةٍ بمستواها الإلهي، كالكائنات "خلقنا وخلق السماوات والأرض..." وظواهر الطبيعة "الليل والنهار والشفق..."، وهنا في الآية "في هذه الجملة المميزة كونه سبحانه وتعالى قائلها"، فهي تشير لعموم أي شيءٍ مميزٍ بمستواه الإلهي، وما ستجده في بعض التفاسير عن نسخ آيات القرآن بمعنى إلغاء مفعولها وإلغاء ما قالته آيات سابقة... واستبداله بحكم آخر، فهو هراءٌ لم يقله القرآن وليس معنى آيتنا هنا، وأصلاً لا يوجد شيء اسمه نسخ بهذا المعنى في القرآن، وقد انتشرت هذه الفكرة

السخيفة الفاسدة بين الكثير من علماء المسلمين، وصار بينهم مباراة في اكتشاف الآيات المنسوخة! وراجعْ ما قالوه عن الآيات مع دراستنا هذه لترى أن كلامهم فاسد ومستواه متدنٍ علمياً ويفتقد للتدقيق.

انتبه جيداً للموقّرين من العلماء الذين عملياً رفضوا كل الآيات "الجمل القرآنية" التي قيل عنها إنها منسوخة، وبنفس الوقت وبشكلٍ ضبابي بقي قبولهم لفكرة النسخ! وترى أثره في كلامهم! وفي نفس الوقت ترى عقلانيتهم تظهر في الآيات "الجمل القرآنية" التي قيل عنها إنها منسوخة فيرفضون معنى النسخ للآيات حين يفسرونها! وكمثالٍ فهذا الرفض كثير الانتشار في كتابي الطباطبائي والآلوسي رحمهما الله، وكان الأجدر بهما بعدما انتهيا من تفسير القرآن ولم يبق شيءٌ قبلوا الاعترافُ بنسخهِ، أو بقي على مضض آيةٌ أو آيتانِ، فكان الأجدر بهما نسف فكرة النسخ هذه من أصلها.

يبدو أنهما أدركا أن فرضية النسخ المفتوحة الانطباق على أي آية، تكون مخرجاً ضرورياً لهما أيضاً عند الاصطدام بآيات تبدو متعارضة. أمّا وقد انتهيت من الدراسة الكاملة للقرآن، ولم أجد ولا آيةً متعارضة مع الأخرى، ولم أجد ولا آيةً تؤكد أو تشير لوجود نسخ في القرآن بالمعنى الذي قالوه، فأراني مضطراً لإعدام فكرة الناسخ والمنسوخ في القرآنِ.

انتبه هنا جيداً لسياق الكلام، حيث لا معنى بتاتاً لقطع جملتنا هنا عن الفقرة التي تركّز عليها السورة، ولا معنى بتاتاً لتفسيرها على أنها تتحدّث عن نسخ وإنساء آيات القرآن، وترى هذا واضحاً مما سبق، وستراه أوضح في الآية ما بعد التالية، فآيتنا هنا جملةٌ من موضوع يتحدّث مع المؤمنين ألا يتأثّروا بأهل الكتاب طالبين من الرسول آياتٍ "معاجز"...

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ{107})
لفتُ انتباهٍ إلى قدرته العالية سبحانه القادر على {نسخ الآيات} أو الإتيان {بخيرٍ منها}:

{ألم تعلم أنّ الله له ملك السماوات والأرض}، وهم له وسبحانه حرُّ التصرّفِ فيهم كيفما يشاء، فالآيات التي تطلبونها هي لا شيءٌ أمام حريته تعالى في التصرف في كل ما في الدنيا لأنّه سبحانه يمكنه فعل أي شيءٍ بهما.

تذكّرْ دائماً أنَّ التعبير القرآني {السماوات والأرض}، مرادفٌ لقولنا: كلَّ ما في الدنيا، كلُّ شيءٍ. ويشابه في مقصده ما نقوله نحن بتعبيرنا: كلُّ الوجود. مع الانتباه للفرق في دقّةِ التعبير بين الجملتين لأنَّ كلمةَ "وجود" اصطلاحيةٌ ولم يستعملها القرآن بالمعنى الذي وضعه الناس من خارج استعمال أهل اللغة العربيةِ للغتهم.

مثلما تملك أنت هاتفك وسيارتك وثيابك... ويمكنك فعل ما تشاء بهم على مستواك، فسبحانه بمستواه الإلهي يملك كلَّ شيءٍ بدون أي استثناءٍ، ويمكنه فعل ما يشاء بهم، فيمكنه إماتتنا جميعاً، أو إحياء كلِّ الموتى، أو جعل الجبال كلِّها ترتفع عن الأرض... أي آيةٍ يتصوّرونها من المعلوم أنّه تعالى يمكنه فعلها لأنّه يملك كلَّ شيءٍ من مستوى إلهيٍّ.

{وما لكم}، وليس لكم، {من دون الله} {من ولي}، فلا يوجد من تعتبرونه مرجعاً لكم وتصيرون تابعين له من مستوى إلهيٍّ غير صاحب الاسم المحدّد المميّز الله سبحانه، {ولا نصير}، فمن دونه تعالى أيضاً لن تجدوا من يساعدكم على تحقيق ما تريدونه رغماً عن إرادة الآخرين. الذي سيكون ولياً لكم ليتولّى أموركم، وتكونوا تابعين له تسمعون كلامه ويعتني بكم غير المالك لكل شيءٍ؟! ومن يمكنه نصركم ليحقّق لكم ما تريدونه غير المالك لكل شيءٍ؟! عندها ما معنى امتحانكم للرسول الإلهي بالإتيان بآيةٍ؟! هل هو امتحانٌ لله تعالى؟

تذكّرْ دائماً أنَّ التعبير "من دونه" مثل قولنا: ذهبتم من دوني. سواء ذهبتم مع غيري أو ذهبتم لوحدكم وتركتموني، فإن لم يكن تعالى وليّكم فمن من دونه سيكون ولياً لكم كوليٍّ حقيقيٍّ لديه القدرات لفعل ما يريد؟

(أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ{108})
{أم تريدون}، أيها المؤمنون بهذا الدين وهذا الرسول، أن تسألوا رسولكم، محمداً(ع)، وتعبرون له عن إرادتكم لحصولِ شيءٍ منه، كما {سئل موسى من قبل}؟ مثلما عبّر بنو إسرائيل عن إرادتهم لشيءٍ من الرسول موسى(ع)؟

هنا الكلام بعد أن صار في عقول بعض المسلمين اقتناعٌ أو شبه اقتناع بكلام أهل الكتاب، أو مسبقاً حتى لا يخطر ببالنا شيءٌ كهذا، حيث قال "ويقول" أهل الكتاب: أنبياؤنا كنّا نطلب منهم الآيات فيقوموا بها، فاسألوا رسولكم أن يقوم بالآيات أمامكم حتى تتأكدوا أنه فعلاً رسولٌ...

ينبّه سبحانه المسلمين من هذا التفكير، حيث طلب بنو إسرائيل من النبي موسى(ع) العديد من الطلبات، وحقّق لهم بعضها سبحانه، وهم طلبوا أيضاً أشياء غير منطقية، فقد سألوه(ع) أن يكلمهم تعالى... وسألوه(ع) أن يروه تعالى! فهل تريدون أيها المسلمون أن تسألوا رسولكم ليريكم الله تعالى {جهرة}؟ وهذا أشهر طلبٍ "غير عقلاني" سأله بنو إسرائيل، فهل إلى هذا المستوى تريدون الوصول؟! إلى مستوى قصد التعجيزية في الطلبات!

بالنسبة لكلمة سألَ، فالمعنى الأساسي لها هو المرادف تقريباً لمعنى كلمة "طلب" المستعملة حالياً، ولم يستعمل القرآن كلمة "طلب" بالمعنى الدارج حالياً واستعمل بدلاً منها كلمة سألَ التي هي لعامةِ إرادة شخص لشيءٍ ما من شخص آخر، سواء أراد جواباً أو أراد غرضاً أو مساعدةً...

{ومن يتبدّل الكفر بالإيمان}، فيكون مؤمناً برسالة محمّدٍ(ع) ثم يبدّل اعتقاده بالإنكار، فينكر دينه تعالى لأن محمداً(ع) لم يأتِهِ بالآيات التي على خاطره، {فقد ضلّ سواء السبيل}، فسبيله فسلوكه لم يكن مستقيماً متناسباً "سوياً" مع السبيل الإلهي، واتبع سبيلاً آخر لا يوصل لغاية مطلوبة.

الذي آمن بنبوة محمّدٍ(ع) وأسلم، فما حاجته بالآيات؟ وهل سيكفر إذا لم يرَ الآيات! وكيف يكفر وقد تعرّف على السبيل الحقّ الصالح الصحيح! أصلاً ألم يلتزم بدينه تعالى وما يقوله الرسول محمّدٌ(ع) لأنه رآه سبيلاً حقاً صالحاً؟ عندها ما معنى التأكيد المستمر لصحّة دينه تعالى بالآيات التي تخطر بباله! فاليوم يطلب تأكيداً، وبعده يطلب تأكيداً، ويأتي آخر ويطلب تأكيداً من نوع آخر...

من الواضح من الآية 55 من هذه السورة {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} أنه تعالى قد غضب عليهم وأهلكهم بالصاعقة، وهنا وبكل سهولة إذا قايست الكلام مع طلب الرؤية كمثالٍ فستفهم الآيات بسهولة، فهل تريدون أيها المسلمون أن تطلبوا الآيات... وتطلبوا الآيات... حتى تصلوا إلى أن تسألوا رسولكم أن يريكم الله تعالى {جهرة}! فهذه كانت النهاية مع أهل الكتاب الذين يحشون رؤوسكم ويشجعونكم لتطلبوا الآيات من رسولكم.

انتبه، لكون هذه الآيات ليست مخصصة لمن كان في عهد النبي محمّدٍ(ع) لأنها تتحدث معنا أيضاً، حتى لا يخطر ببال أحد من المسلمين أن نبيّنا(ع) أضعف ممن سبقه من الأنبياء لأنه لم يقم بأعمال مثل التي قام بها الأنبياء من قبله، ووجدت صفحات الإنترنت مليئة بمقالات الترهات من هذا النوع، وللأسف لم ينتبه البعض من المسلمين أن الآيات التي يقوم بها الأنبياء هي ليست جوهر الدين، ولا تجعل نبياً أفضل من نبي، وبالغوا في بعض الأشياء التي حصلت مع النبي محمّدٍ(ع)، وبالغ من سمعها فوق المبالغة... وهكذا... حتى اخترعوا آيات للنبي محمّدٍ(ع) ويقولون أنها تفوق الألف آية! ويقولون أن الشجرة أتت إليه(ع)... والحصى سبّح في يده(ع)... وأرضع(ع) الحسنان لبناً "حليباً" من إبهامه... وغيرها وغيرها من آيات اخترعوها لترفع من نبيّهم على خلفية عقلية مشجعي كرة القدم، حيث نبيّهم لهم وهم يشجعونه ويرفعون مكانته ويخترعون له الآيات ليبدو مستواه أعلى من أنبياء الآخرين! وهي نفس العقلية التي دفعت بالنصارى ليقولوا عن نبيّهم إنه تجسيد للإله وبذلك يكون نبيهم الأقوى! وماذا ستقول عن نبيّك لتغلب نبيّهم الذي صار إلهاً!

هؤلاء المسلمون نسوا أكبر دليل على نبوته(ع)، وأوضح دليل على طريق الله تعالى: القرآن. فأي دليل أقوى من القرآن؟! وطريقة طرح القرآن والآية هنا لهذه المسألة تجدها دائماً تنطلق من خلفية قدرتنا على تمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، وذلك بعد تعرّفنا على سواء السبيل عبر هذا القرآن، وبعد تعرّفنا على المعلومات الحقّ عنه تعالى وعن قراراته، وبعد تعرّفنا على شريعة وسلوكيات نراها جيدة وحسنة وصالحة، وعلى كل ما سبق نجد براهينَ وأدلةً يذكرها تعالى لنا، فهل نحتاج لأدلةٍ لنؤمن بما نراه حقاً ولنلتزم بما نراه صالحاً؟ وهذا ما تقوله الآية هنا ويسألنا تعالى عنه عبر القرآن.

مراراً طرح القرآن هذه النقطة من السلاسة إلى الفجاجة، فمثلاً سبحانه يأمر ببرّ الوالدين، والصدقة على المحتاجين، ويعاقب على الغشّ، ويحرّم قتل الأبرياء... و... هل تحتاج لآيةٍ "معجزة" خارقةٍ فظيعةٍ ضخمةٍ تثبت لك أن هذا الكلام مصدره إلهيٌّ لتلتزم به؟! هذا ما تقوله الآية هنا عن {تبدّل الكفر بالإيمان} كضلال عن {سواء السبيل}، وهذا نفسه ما يقوله القرآن في بقية سوره بعباراتٍ متنوّعةٍ أكثرها تكراراً كعناوين الصراط المستقيم وسبيل الله وعمل الصالحات... وأكثرها تكراراً كتطبيقات الصدقة "الزكاة" وبرّ الوالدين والقول الحسن...

(وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {109})

لماذا لا يترككم أهل الكتاب بحالكم مؤمنين؟ ولماذا يقترحون عليكم أن تسألوا نبيكم(ع) ليأتي بالآيات، هل ذلك بقصد تعجيزه(ع)؟ لِنَرَ:

{ودّ}، على خاطرهم ورغب، كثير من أهل الكتاب، أكثر الذين ينتمون إلى كتاب إلهيٍّ كالتوراة والإنجيل، يرغبون، {لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً}! عندهم رغبة شديدة بجعلكم ترتدون عن الاعتقاد والالتزام بدينه تعالى، لتتراجعوا عنه تاركين الإيمان به، {حسداً من عند أنفسهم}، فعندهم شعورٌ سيئٌ إن حصل معكم خيرٌ، وذلك حسداً من عند أنفسهم، الكتاب الإلهي الذي ينتسبون له لا يأمرهم بالحسد للمؤمنين، يتمنون لو تفقدون الخير الإيماني الذي أنتم فيه، وحتى لا يخطر بالبال أنَّ كتابهم "الإلهي" يشجعهم على حسد المؤمنين الجدد، فقد عبّرت الآية بالحسد من عند أنفسهم هم.

الحسد حصل، {من بعد ما تبين لهم}، من بعد ما ظهر لهم بشكل واضح، {الحقّ}، الصواب الشيء الصحيح، فأهل الكتاب متأكدون أنَّ محمداً(ع) رسولٌ من الله تعالى، وأنَّ الدين الذي يعرضه هو نفس الدين الإلهي الممتد من أول رسول بعثه تعالى، لذلك حسدوكم على هذا الخير الذي أنتم فيه لأنكم آمنتم وهم لا يريدون أن يؤمنوا، ويريدونكم أن تكونوا خارج هذا الخير؛ لأنكم أتباع الدين الصحيح وهم لا يحبون لكم الخير، ومن هذا ينطلق كلامهم معكم حين يقترحون عليكم أن تسألوا رسولكم ليأتي بالآيات بقصد تعجيز الرسول(ع) وهذا يتضمن فكرة تعجيزه تعالى، وبالتالي ستنفرون أيها المسلمون من الرسول ومن الدين الإلهي وترجعون كفاراً.

{فاعفوا}، ومرّوا عن تصرفات أهل الكتاب ولا تتوقّفوا عندها، لا تعطوا لكلامهم قيمةً عالية؛ لأن حالتهم حالةٌ منتشرة بين الناس الذين ينصحونك بشيءٍ سيئٍ لم يفكّروا بعواقبه قبل قوله لك، كالذي ينصحك بضرب أطفالك وتعنيفهم لتؤدّبهم... بدلاً من تفهّم أطفالك وحاجاتهم والعمل على تسوية فكرهم ونفسيتهم... وهذا شيءٌ نلمسه من عموم الذين حولنا الذين كثيراً ما يقولون كلاماً لم يفكروا فيه، وبسبب تمرسهم على الكلام غير المدروس تراهم حتى في الأمور المهمّة في حياتهم يعانون من التعامل معها بشكل صحيح؛ لأن فكرهم ونفسيتهم تمرّس على الاستهتار والغوغائية وفقد قابلية التفكير والعقلانية. هنا سبحانه يأمرك بالعفو عن أهل الكتاب بناءً على هذه النفسية المستهترة المنتشرة بين عامّة الناس.

{واصفحوا}، ولا تركّزوا على ما فعلوه ليبقى أمامكم للكلام فيه، لا، بل اتركوه ولا تهتموا به، {حتى يأتي الله بأمره}، حتى يحصل ويتنفذ ما قرّر الله تعالى أن يحصل لهم، وقد قرّر لهم سبحانه "أمراً" مصيراً سيحصل، وسيأتي، وانتظروه أيها المسلمون، والكلام عن شيءٍ سيحصل معهم هنا في الدنيا، واعفوا واصفحوا عنهم حتى لا يبدو منكم عداوة لهم لربما يتغيّر حالهم ويؤمنوا... أو يؤمنوا ضمنياً... أو...

{إن الله على كلّ شيء قدير}، فيمكنه تعالى فعل الأمور التي يقرّرها بشأن أهل الكتاب. نعلم من القرآن والتاريخ أنَّ قسماً من أهل الكتاب آمن فيما بعد، وقسمٌ حارب وانهزم... وقسمٌ غادر الجزيرة العربية... وفي النهاية انتشر الدين الإلهي...

(وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {110})

ولا تهتموا لأقوال أهل الكتاب، وتمسكوا بدينكم:

{وأقيموا}، فعّلوا لا تعطّلوا، لا تتركوا أو تهملوا، {الصلاة}، التوجّهَ والإقبال على شيءٍ ما، وهذه الكلمة صارت مصطلحاً يشير للتوجّهِ بالحركات والكلام المعروف بالصلاة اليومية الواجبة، وهي الفريضة الدينية التي نقيمها خمس مرات في اليوم وتعبّر عن عبادتنا لله تعالى، علماً أنَّ كلمة صلاة عموميةٌ لأي توجّهٍ وإقبالٍ، عباديٍّ أو غيره.

{وآتوا الزكاة}، اجعلوها عند من يوزّعها أو وزّعوها أنتم بحسب ما أمر سبحانه.

كلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّةِ اللياقة المحترمة في شيءٍ بالنسبة لشيء، حيث تشير لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكية، مال زاك، طعام زاك..."، ومنذ القدم صارت مصطلحاً دينياً يشير إلى دفع نسبةٍ محدّدةٍ من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ...}، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمةُ أموالِ الشخص إلى حدٍّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائدِ، عندئذ يدفع منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة {...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...}، وتكونُ نسبةٌ قليلةٌ مما تملك بقدرٍ لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصةٍ بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجينَ ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

{وما تقدموا لأنفسكم}، كما تقدّم لي الطعام، وأيُّ شيءٍ تقدموه لأنفسكم وهي الأعمال التي تجعلوه في الأمام في المقدمة، {من خير}، من أمور توصف بأنها جيدة، وبالتالي أخّرتم الأعمال السيئة فلم تقدموها ولم تقوموا بها وقدمتم الأعمال الجيدةَ وقمتم بها، {تجدوه عند الله}، فلن تفقدوه وسيكون عمل الخير أمامكم عنده تعالى، مسجلاً وعليه حسناتٌ وجنّاتٌ... لأنّه تعالى لا يزيد ملكه ولا ينقص ولا يستفيد بشيءٍ من أعمال الخير التي تقومون بها، وإنما تقدمونها أنتم لأنفسكم، وستجدونه عند الله تعالى الذي يسجّله لكم وسيعطيكم عليه أجراً في الآخرة.

{إن الله بما تعملون بصير}، وصورةُ أعمالكم يدركها تعالى ويعي معناها، وليس مثل كاميرا المراقبة التي تسجّل ولا تفهم ما يجري، بل أنتم تحت المراقبة ويسجّل تعالى حسناتكم.

ضع في بالك دائماً أنَّ مخزون ثقافتك الدينيَّ متراكمٌ مما تعلمناه من القرآن، وأنت تعلم بأنّك تحت المراقبة الإلهية ولذلك قد لا تعني لك الجملة هنا الشيء الكثير، ولكن تكرارها في القرآن في مواضيع مختلفة وبعبارات متنوّعة هو السبب في ترسيخها في ثقافتنا، ويريدنا تعالى ترسيخها في فكرنا ونفسيتنا حتى نشعر فعلاً بأنّه تعالى مراقبٌ لنا في كل زمان ومكان ويعي ما نفعله.

نرجع لسياق الكلام، وإقامةُ الصلاة وإيتاء الزكاة... هو الدين الحقّ، أمّا الجدال مع أهل الكتاب وعداوتهم... أو السماع لاقتراحاتهم... فهي أشياء لا تفيد، وفقط الإيمان والعمل الصالح ينفعان وكنموذجٍ بارزٍ عنهما الصلاة والزكاة، ولا تلتهوا بأشياء أخرى لا تنفعكم ولا أهمية لها كطلب الآيات.

(وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{111})
{وقالوا}: {لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً}، من اليهود. وقال اليهود: لن يدخل المكان الذي في الآخرة والموصوف بروعته إلا من كان يهودياً. بنو إسرائيل هم أبناء أبناء النبي يعقوب(ع)، ولكن فيما بعد انضمّ إليهم أناس من غير بني يعقوب(ع)، وصار الجميع اسمُهم يهود، وقد انتشرت هذه التسمية من الكلمة التي قالها النبي موسى(ع) بالعبري القديم كما يبدو مما نقله القرآن في الآية 156 من سورة الأعراف بالعربية عن لسان النبي موسى(ع): {إنّا هدنا إليك}. أي تُبنا وأنبنا إليك وحمدناك، وهذا المعنى استنسبته أهمّ القواميس العبرية لأصل كلمة "يهود".

{وقالوا}، ومن تكملة الجملة تعلم أنَّ القائلين هم المسيحيون: {لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى}، فقط الذين أعلنوا أنهم أنصار للنبي عيسى(ع) سيدخلون جنّة الآخرة، يعني بتعبيرنا الدارج: لن يدخل الجنّة إلا المسيحيون.

هل هذا القول صحيحٌ؟ لا: {تلك أمانيهم}، تمنياتهم، ما يرغبون ويحبّون حصوله مع أنَّه بعيد المنال، وهو غير صحيحٍ، لأنَّه سبحانه لم يقل هذا الكلام، وأصلاً هو كلامٌ غير منطقيّ! وكما قالت الآية 67 من سورة آل عمران، والنبيُّ إبراهيم(ع) لم يكن يهودياً ولا نصرانياً {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، وهكذا على تصنيفهم لن يدخل النبي إبراهيم(ع) الجنة؟ بالطبع سيدخل، وكل الأنبياء والصالحين الذين جاؤوا قبل النبيين موسى وعيسى عليهما السلام، لم يكونوا لا يهوداً ولا نصارى! ما هذا الكلام السخيف!

{قل}، لهم عبر هذا القرآن: {هاتوا برهانكم}، أحضروا دليلكم الذي يثبت أنَّه لن يدخل إلى الجنة إلا اليهود أو النصارى! هاتوه، {إن كنتم صادقين}، إن كان كلامكم صحيحاً فمن المفروض أن يكون عليه دليل.

لاحظ، أنَّ الآيات تردّ حتى على الكلام الفارغ الذي قالوه ولا دليل عليه، حتى لا يبقى أي تشويشٍ في عقول المؤمنين سببه كلام أهل الكتاب... وسترى البرهان المعاكس على كلامهم في الآية التالية.

(بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{112})
{بلى}، نفيٌ لقولهم عن حصريةِ دخولِ الجنةِ لليهوديّ أو النصرانيّ، بالتأكيدِ غيرهم سيدخلُ الجنّةَ، {من أسلم وجهه لله}، فجعل وجهه، ما يتوجّه به، منقاداً لله تعالى، مطيعاً بالكامل بالتحديد لصاحب الاسم "الله" سبحانه وتعالى، فلا يفعل أي شيء لا يرضى تعالى عنه، {وهو محسن}، يحسن فعل الأشياء، ويقومُ بالأمور على الوجه الحسن، حسنٌ عمله وقوله، وهذه الجملة مرادفةٌ لوصف من يعمل الصالحات، فهذا، {له أجره عند ربّه}، هذا الشخص سيعطيه المسؤول عنه من مستوىً إلهيٍّ ما حدّده تعالى له كشيءٍ يستحقُّه كمقابلٍ على إسلامه وعملِه الحسن، وسيدخله تعالى إلى الجنة.

{ولا خوف عليهم}، ولن يشعروا بأنهم سيتعرضون لأي ضررٍ أو خطرٍ، فهم في الأمان، فهذه النوعية من الناس في الآخرة لن يتعرضوا للعقاب، {ولا هم يحزنون}، ولن يشعروا بالانزعاجِ من تعرّضهم لشيءٍ يسوؤهم أو لفقدانِ أو نقصانِ أي شيء يحبونه، والمقصود هنا أنهم لا يأسفون على متاع الدنيا، وسيرون في جنة الآخرة ما يجعلهم ينسون الدنيا وما فيها.

القاعدة الإلهية لدخول الجنة هي إعلانُ الإسلامِ الانقيادِ لله تعالى والإحسانُ في العمل والقول. أمّا ما هو مكتوب على البطاقة الشخصية "الهويّة"، فلا يفيد بشيءٍ، حتى لو كان مكتوباً على هوية الأحوال الشخصية: مسلم. فهذا لا يعني شيئاً عنده تعالى، ولا يعني أنك ستدخل الجنة، لأنك من الداخل يجب أن تعلن إسلامَكَ لله تعالى، وأن تحسن في عملك، وكائناً من كنت، ومهما كان مكتوباً على بطاقة هويتك، فإن أسلمتَ لربِّك وأحسنتَ بعملِك، فأنت إلى الجنة.

أما بالنسبة للتعبير بـ: {وهو محسن}. بنفس المعنى جاءت تعابيرٌ متعددةٌ في القرآن وأكثرها تكراراً جملة {عملوا الصالحات}، حيث سبحانه خلقنا وفينا قابليةَ تمييزِ الصالحِ من الفاسدِ، الخيرِ من الشرّ، الحسنِ من السوءِ... وسبحانه لا يأمر إلا بما هو حسنٌ صالحٌ وخيرٌ... وبناءً عليه يكون من عمل صالحاً قد اتبع كلامه تعالى.

حسنٌ، لقد ردَّتِ الآيةُ على اليهود والنصارى حين قالوا إنهم فقط لوحدهم سيدخلون الجنة، موضحةً أنَّ الإسلامَ لله تعالى والعمل الحسنَ يدخلان الجنة، وهذا ما أنزله تعالى على جميع أنبيائه ورسله فمن أين اخترعوا الكلام المعاكس!

هذا ما قاله اليهود والنصارى لكم لتنفروا من تدينكم بهذا القرآن الذي سيبدو بلا فائدةٍ إلا إذا كنتم يهوداً أو نصارى، ولكن، هل هذا ما يقولونه فقط لكم؟ وماذا يقول اليهود عن النصارى؟ وماذا يقول النصارى عن اليهود؟ فلنرَ:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَىَ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ{113})
{وقالت اليهود ليست النصارى على شيء}، وتدينهم هراءٌ لا قيمة له، لا نعترف بدينهم، ليس معهم شيءٌ له قيمة وهم ليسوا على الدين الصحيح، وبالتالي لن يدخل النصارى إلى الجنة.

{وقالت النصارى ليست اليهود على شيء}، وتدينهم هراءٌ لا قيمة له، لا نعترف بدينهم، ليس معهم شيءٌ له قيمة وهم ليسوا على الدين الصحيح، ودينهم انتهى مفعوله وإن لم يتّبع اليهود ديننا فلن يدخلوا إلى الجنة.

تريد الآية أن تبين لنا أنهم كما يقولون لنا إنَّ ديننا لا قيمة له وتديننا لا قيمة له، وكلٌّ واحدٍ منهم يقول للآخر: دينك غير صحيح. وهم أيضاً يقولون لبعضهم إنكم لن تدخلوا الجنة!

كلاهما يقولان هذا الكلام، {وهم يتلون الكتاب}! هل كلامهم هذا مكتوبٌ في الكتاب الإلهي؟ هل في الكلام الإلهي تحديدٌ لمذهبية الدين! وهل للدين الإلهي اسمٌ خاصٌّ أم هو دينٌ عامٌّ لكل من آمن وعمل صالحاً؟ ومن ناحية ثانية فكيف يقول اليهود للنصارى لستم على شيءٍ مع أن النصارى يقرّون ويعترفون بالتوراة! أليست هي كتاباً من عند الله تعالى، أليست هي شيئاً! وأيضاً، كيف يقول النصارى عن اليهود إنهم ليسوا على شيءٍ، أليست التوراة شيئاً!

كلاهما يتلوان التوراة، وكلاهما يعترف بها ككتابٍ إلهيٍّ، وكلاهما يقولان للآخر: لست على شيءٍ! ومن هذا المعنى تلاحظ دقة ما يقوله تعالى عبر هذا القرآن أنَّ القرآن مصدقٌ لما سبقه من كتب، فهو لا يقول عن المنتمين لها إنهم ليسوا على شيءٍ، مع أن كتبهم تحرّفت ودينهم على هواهم... بل يقول لهم إنَّهُ امتدادٌ لدينهم مع تقويم للانحرافات التي أدخلوها على الكتب الإلهية...

{كذلك قال الذين لا يعلمون}، وهناك آخرون من التابعين للدين الإلهي وليسوا من اليهود ولا من المسيحيين وأيضاً قالوا إنه لن يدخل الجنَّةَ أحدٌ غيرهم وأن البقية ليسوا على شيءٍ... مثل المندائيين والصابئة...

نلاحظ المسلمينَ بشكل عامٍ لا يظهرون احتراماً للتوراة والإنجيل الحاليين، لأنهما محرفان، ولكن نلاحظ القرآن ورغم قوله بتحريفهما، تجده يتحدث عنهما بأنهما لا يزالان في الأساس كتابينِ نازلينِ من عند الله تعالى، ويدعونا تعالى لاحترام الكتابين، واحترام من يتبعهما، أمّا حساب من لا يتبع القرآن فليس علينا، بل على ربنا سبحانه.

{فالله يحكم بينهم}، فيصدر تعالى حكمه على هؤلاء الناس، {يوم القيامة}، في زمن القيام من الموت، {فيما}، في الذي، {كانوا فيه يختلفون}، فهم اختلفوا ولم يتفقوا على الدين الصحيح، وكلٌّ جماعة لها رأيٌ غير الجماعة الأخرى، ويقول الواحد منهم للآخر: دينك لا قيمة له. حسنٌ، سيأتي يوم القيامة، ويحكم سبحانه بين هؤلاء.

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ{114})
{ومن أظلم}، ومن هو أشد ارتكاباً للظلم، من أكثر واحد لم يكن معه حقٌّ، فلم يكن عادلاً منصفاً، ممن، من الشخص الذي، {منع مساجد الله}، الأماكن المخصصة للسجود لله تعالى، للعبادة للصلاة، منع، {أن يذكر فيها اسمه}؟ منع استحضار اسمه تعالى في تلك الأماكن، فمنع المؤمنين من دخولها للصلاة فيها...

{وسعى}، وعمل وهو قاصدٌ، {في خرابها}، في جعل المساجد غير صالحة للعبادة، عبر تخريب أرضيتها وحيطانها...

عندما تتعرضون أيها المؤمنون بهذا القرآن للمضايقات المتنوعة من أهل الكتاب، على نية كرههم لتدينكم... تذكروا أنهم هم بين بعضهم البعض قد منعوا بعضهم البعض من دخول مساجدهم بل سعوا في خراب مساجد الآخرين.

{أولئك}، الذين يمنعون غيرهم من ذكر اسم الله تعالى في المساجد، ويسعون في خرابها، ويفعلون ذلك باسم الدين، حيث في الآيات السابقة قرأنا كيف لا يعترف اليهود بأي عبادةٍ مسيحيةٍ، ولا يعترف المسيحيون بأي عبادةٍ يهوديةٍ، وكلاهما لا يعترفان بعبادة المسلمين والصابئة... وعبر التاريخ فإنّ من سيطر منهم على منطقةٍ أو بلدٍ فإنه يمنع الأديان الأخرى من الاجتماع في أماكن العبادة لله تعالى "مساجد"، فإذا سيطر اليهود منعوا المسيحيين من الاجتماع في الكنائس، وإذا حكم المسيحيون منعوا اليهود من الاجتماع في الكنيست، مع العلم أنها أماكن لعبادة نفس الإله لكلا الديانتين! ونسوا أن القضية الأساس هي ترك أي إنسانٍ يعبد الله تعالى، وممنوعٌ منعه من العبادة، حتى لو كان هناك تحويرٌ في طريقته بالعبادة، أو كانت عليها ملاحظات... لأن القاعدة الأساس: لا تمنع أي إنسانٍ من عبادة الله تعالى.

الآية السابقة قالت إنَّ الحكم بالخلافات بينهم هو لله تعالى في يوم القيامة، وهذا ما أمرهم وأمرنا به تعالى من معاملة الآخرين عموماً وخصوص المنتمينَ لدينه تعالى من الملل الأخرى، فطالما هم بحالهم مسالمون فلا يحقُّ لنا منعهم من إقامة طقوسهم العبادية المعبرة عن عبادته تعالى...

أولئك المانعون لغيرهم من عبادته تعالى إلا على طريقتهم، وسعوا في خراب أماكن العبادة للآخرين الموحدين... {ما كان لهم}، فلم يكن متوقعاً منهم ولا يحق لهم، {أن يدخلوها}، أن يدخلوا المساجد التي منعوا الآخرين من العبادة فيها وسعوا في خرابها، {إلا خائفين}، فلو كانوا فعلاً يعرفون الله تعالى، فكيف يدخلون إلى أماكن مخصصة لعبادته تعالى ليمنعوا الذي فيها من عبادته تعالى!؟ أو ليخربوها من دون الشعور بحصول عقابٍ أكيدٍ من ربهم سبحانه!

من المفروض أن يدخلوها خائفين، أن يشعروا بخطرٍ منه تعالى لا يمكن تجنّبه إذا كانوا يؤمنون بالعقاب الإلهي لمن منع الآخرين من عبادته تعالى...

تذكّرْ أنّ القرآن حرّم على المسلمين منع الآخرين عن عبادته تعالى، ومنعهم من تخريب أي مكانٍ مخصص لعبادة الله تعالى، وسمح فقط بهدم ومنع إقامة الديانات الوثنية المشركة في مجال حكومة المسلمين. إذا خطر ببالك أن المسيحيين مشركون لأنهم قالوا إنَّ النبي عيسى(ع) ابنٌ لله تعالى، فهذا ستتحدث عنه الآيات بعد قليل، ولكن لم يسمح القرآن للمسلمين بمنع المسيحيين من العبادة لله تعالى بالرغم من أن بعض تلك الطقوس العبادية بدعٌ لا يرضى تعالى عنها.

المانعون عن عبادة الله تعالى، الساعون في خراب المساجد: {لهم في الدنيا خزي}، لهم حالة الوصف بالخجل من قبيح ما صاروا فيه، فسيأتي عليهم زمن يتعرضون فيه للإهانة من قبيح ما فعلوه، {ولهم في الآخرة عذاب عظيم}، ضررٌ ضخم لأنهم يمنعون غيرهم من عبادة الله تعالى! وباسم الدين الإلهي!

لا يذهب فكرك لحصر كلمة مساجد بأماكن العبادة المخصصة للمسلمين، فكلمة مساجد عموميةٌ وتدل على الأماكن المخصصة للتعبير عن الخضوع والاحترام له تعالى، سواء أكانت يهوديةً أم مسيحيةً...

بقي شيءٌ متعلق بالآيات السابقة والآتية، فمن نظرتي الضيقة أنا، أرى أتباع المذهب الذي أنا عليه أنهم على الحق، والبقية من المسلمين على الباطل، وبالتالي قد يصل تقييمي لعبادتهم أنها باطلةٌ وليسوا على شيءٍ... والبقية من المذاهب والطوائف الإسلامية يرونني على الباطل كما أراهم... وكلنا كمسلمين نرى المسيحيين واليهود أنهم على الباطل بسبب دينهم المحرّف... وهم يرون بعضهم ويروننا بنفس النظرة، بل ولا تنسَ الطوائف التي في دينهم من كاثوليك وأرثوذكس... الذين أيضاً لا يعترفون بصحة ديانة بعضهم البعض...

هنا الآيات تعرض علينا نظرته تعالى لنا كلّنا، فطالما أننا كلّنا نتوجّه له تعالى بالعبادة ونعتبر أنفسنا من التابعين لدينه، ونبني أماكن عبادةٍ على اسمه تعالى، ففي هذا الموضوع كلّنا مثل بعض في نظره تعالى، بغض النظر عن اختلافنا في الطقوس العبادية، في كيفية صلاة هذا وذاك، من هنا ينبهنا القرآن لحدودنا التي يجب ألا نتخطّاها، فما علاقتي أنا بطريقة عبادة الآخرين له تعالى!؟ هم لا يعبدونني أنا لأحدد إن كانت تعجبني عبادتهم، أو أقبلها أو أرفضها أو أقيّمها... هم يعبدونه تعالى وهو سبحانه يقيّم عبادتهم، وهم عنده تعالى ومهما كانت طريقة عبادتهم له تعالى، هم أفضل ممن يعبد الصنم والطبيعة والدهر والنار...

نحن المسلمونَ وقعنا فيما وقع به الذين سبقونا من أهل الكتاب، حيث بين بعضنا البعض نقيّم بعضنا البعض، بل وأحياناً نعتبر اليهود والمسيحيين أفضل من المسلمين الآخرين من المذاهب المختلفة عنّا! بل لا نرى فرقاً بينهم وبين المشركين به تعالى! بل نهدم دور عبادتهم ونمنعهم من دخولها! بل نقاتلهم! وكلّ ذلك ونحن مقتنعون تماماً بأننا على الحق!! وها ترى أمامك صريح القرآن يمنعنا منعاً باتاً بالحكم على عبادة الآخرين طالما هم يعلنون أنهم على دينه تعالى، فحاورهم بالتي هي أحسن وإن لم يقتنعوا فدعهم وشأنهم. هذا هو دينه تعالى الذي تراه في قرآنه تعالى، وأي شيءٍ غير ذلك إنما هو دينٌ ستتحاسب عليه.

(وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ{115})

على كل حال، وبمناسبة الحديث عن المساجد، فاليهود قبلتهم "فيتوجّهون أثناء الصلاة" إلى بيت المقدس، والمسيحيون قبلتهم إلى الشرق، ولكن هذا ليس سبباً حتى يمنع أحدهما الآخر من الذهاب إلى أماكن العبادة:

{ولله المشرق}، الجهة التي تخرج فيها الشمس من خلف الأفق عند الصباح، ولله تعالى، {المغرب}، الجهة التي تنزل فيها الشمس تحت الأفق قبل المساء، فليس هناك إلهٌ آخرُ يملك ناحية الشرق، وإلهٌ آخرُ يملك ناحية الغرب، فكلاهما لله تعالى، ولا يوجد إلهٌ سواهُ تعالى في كل الاتجاهات.

{فأينما}، ففي أي اتجاهٍ ما، سواء للمشرق أو المغرب أو الشمال أو الجنوب، {تولّوا}، فعامة توجيه نشاطكم باتجاه ما، وهنا الكلام عن التوجّه بالصلاة، {فثمّ}، فموجودٌ، {وجه الله}، فيستقبل تعالى عبادةَ من توجّه إليه تعالى بالعبادة، حيث تصوّرَ اليهود أنهُ تعالى أصلاً لا يستقبل عبادةَ المسيحيين لأنهم يتوجهون إلى الشرق وهو الاتجاه الخطأ! وكذلك تصوّرَ المسيحيون عن اليهود الذين يتوجّهون لبيت المقدس! لذلك تقول الآية إنهُ تعالى يستقبل العبادة من كل الاتجاهات.

{أن الله واسع}، فهو سبحانه غير محدودٌ وهو في كل الدنيا، وهو {عليم}، فلا يغيب عن علمه شيءٌ، فإذا كان أحدُ الناس يعبده وهو يدير وجهه في أي اتجاهٍ، فسبحانه يعلم بتلك العبادةِ ولا تغيب عنه، فمن أدارَ وجهه إلى الشرق فسبحانه أمامه ويعلم بعبادته، ومن أدار وجهه إلى جهة بيت المقدس "أو أي جهة: أيضاً سيجده تعالى أمامه ويعلم بعبادته لأنهُ تعالى غير محصور بأي جهة.

نتذكر أنهُ تعالى ليس كمثله شيءٌ كما ورد في صريح الآية 11 من سورة الشورى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، فلا يشبهه شيءٌ، ونحن لدينا وجه، وسبحانه يقول أنَّ له وجهاً، لكن لا تتصور أبداً وجهاً من فم وعينين وأذنين وأنفٍ لله تعالى، لا فسبحانه لا يشبه أي شيءٍ، ولكن كما نحن نستقبل الكلام والرؤية والسمع بوجهنا، فسبحانه يستقبل العبادة، ويسمع ويرى من كل الاتجاهات، وفي كل الأماكن، ووصف هذه الحالة بلغة البشر أنهُ تعالى في كل الاتجاهات وجهه. نفهمها بشكل أبسط إذا سمعنا أحداً ما يقول بأنهُ يدعو ولكنه تعالى لا يسمعه، أو يقول بأنهُ سبحانه لا يرى المجازر التي تحصل... أو إذا صليت باتجاهٍ ما فهو اتجاهٌ لن يستقبل سبحانه فيه دعائي أو صلاتي... وهكذا نفهم أنَّ وجهه تعالى يشير إلى توجُّهِه تعالى، يشير لاستقباله لكلامنا وتوجُّهه على ما نفعله، ووصف حالته تعالى بلغتنا: وجهه تعالى علينا، توجّهه تعالى. عملياً كمثالٍ فـ "نتوجّه" نحن بالدعاء له تعالى، وسبحانه "يتوجّه" نحونا برحمته، فنحن نريد وجهه تعالى، نريد أن يتوجّه إلينا، وبما أنهُ تعالى دائماً واسع عليم، فوجهه في كل الاتجاهات. هذا ليس تبريراً وفذلكةً لمعنى وجهه تعالى، بل هي حقيقة معاني الكلمات هكذا، فأنا أتوجّه بالعضو الذي فيه حواس البصر والسمع والشمّ، فهو وجهي الذي أتوجّه به، وسبحانه يتوجّه إلينا ولكن طبيعته تعالى ليس فيها عضو أو جزء أو شيء منفصل... فمعنى توجُّهِه تعالى هو نوع الاهتمام والتصرف مع شيء ما، متوجِّهاً بالغضب على ذاك وبالرحمة على هذا...

كل العابدين له تعالى ومهما كان اسمُ ديانتهم، يستقبل سبحانه عبادتهم، فلا تخترعوا خزعبلاتٍ كحججٍ لمنع الآخرين عن عبادته تعالى لأنهم لا يتوجّهون في عبادتهم إلى نفس الجهة التي تتوجّهون أنتم إليها.

(وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ{116})
قد مرّ الحديث عن منع اليهود والنصارى بعضهم البعض من العبادة لأسباب متعددة، هنا تنوّه الآية أنّه سبحانه غير راضٍ عن قول بعض المسيحيين وبعض اليهود بأنَّ ربنا سبحانه عنده ولد! ولكن رغم ذلك فلا يجب أن يمنعوا بعضهم من عبادته تعالى، ولا يجب أن نمنعهم نحن من عبادة الله تعالى...

{وقالوا}: {اتخذ}، جعل لنفسه، {الله} تعالى {ولداً}! فاختار شخصاً ما ليعتبره كولدٍ له!

{سبحانه}، تنزّه عن هذا القول، فمعلومٌ بأدنى تأمُّلٍ استحالة ولادة ولدٍ منه تعالى، وبقي أن يعتبر تعالى فيتّخذ من مخلوقاته ولداً له، وحتى هذا ليس له معنى بالنسبة للإله ذي الصفات الحسنة والقدرات الفائقة.

بل له، بل منسوب له تعالى، {ما في السماوات والأرض}، وهذه هي حدود دنيا المخلوقات، وهذا التعبير مشابه لقولنا: كل الدنيا له، كل شيءٍ له. حيث سبحانه إله وبقية الموجودات إنما هي مخلوقات له، وهو مصمّمها وخالقها ويملكها، فكيف يكون واحدٌ من تلك المخلوقات معتبراً كولدٍ له! ما معنى ذلكَ والمخلوقات له كلّها.

{كل له}، كل من في السماوات والأرض من مخلوقات فهم لله تعالى، {قانتون}، هم تحت سلطته، تحت أمره، سواء أعلنوا ذلك أم لم يعلنوا، آمنوا بذلك أم لم يؤمنوا، فواقع الحال أنهم مخلوقاته وتحت سيطرته وتحت أمره ولا يمكنهم فعل أي شيءٍ معاكساً لما يأمر تعالى بحصوله لهم.

المخلوقات التي يملكها تعالى، وهي قانتة له تعالى أي تحت سلطته وأمره من كل النواحي، فما معنى اعتبارُ واحدٍ منها ولداً له! هل تتصور اعتبارك لنملة كولد لك! هكذا "تقريباً" نحن المخلوقات أمام ربنا سبحانه الإله العظيم، فنحن كلنا أقل من حبة تراب.

الذي يقول أنَّه عزّ وجلّ اتّخذ من مخلوقاته ولداً، ربما يقصد أنَّ هذا الولد متميزٌ عن بقية المخلوقات، فهنا تؤكد الآية بأنَّه يوجد إلهٌ واحدٌ، والبقية كلهم مخلوقات، ولا يوجد مخلوقٌ مع مميزات إلهية، لا، ولا يوجد نصفُ إلهٍ، لا، ولا يوجد إلهٌ متجسّدٌ في مخلوقٍ، لا، فكل هذا لا معنى له، وفقط يوجد نوعان: إلهٌ واحدٌ من جهة، وكل البقية مخلوقات مملوكة له وتحت أمره.

بقي شيءٌ متكرّرٌ كثيراً في القرآن ونتذكّره دائماً، حيث نجده سبحانه وبكل شفافية وصراحة يقول: لا أرى أمامي إلا السماوات والأرض، وأنا خلقتها، وهي كل شيءٍ فهذه حدود الدنيا التي فيها المخلوقات، وبناء عليه أخبركم أني وحدي الإله والبقية كلّهم مخلوقات قانتة أي واقعة تحت سيطرتي، فما معنى أن تقولوا عن كائن ما بأني اعتبرته ولداً لي، بينما هم كلّهم مثل بعض بالنسبة لي؟

أمّا بالنسبة للفلسفات التي ينمّقونها لتبرير معنى الولدية له تعالى، فراجع في ذلك الآية 73 من سورة المائدة وما سيأتي في الآية التالية.

(بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ{117})
الله سبحانه، {بديع السماوات والأرض}، فلم يكن لهما أساسٌ ولا تصميمٌ ولا شيءٌ يشبههما، وجعلها موجودة كما هي الآن، وكما قلنا سابقاً: هناك من جانب "إله"، ومن جانب آخر "مخلوقات" خلقها ذلك الإلهُ ولا يوجد أي شيءٍ آخر، وهذا الخبر ينقله تعالى لنا بكل شفافية بحسب ما يراه أمامه، فالكلامُ يكون عن الإله الذي بَدَعَ كل شيءٍ بدون استثناءٍ.

{وإذا قضى أمراً}، وإذا قرّر البديع حصول أمرٍ ما، فأراد سبحانه فعل شيءٍ ما، {فإنما يقول له كن فيكون}، فحتماً سيحصل. هنا الكلام عن بَدْعِهِ تعالى لكل شيءٍ، حيث قضى تعالى أمرَ إيجاد السماوات والأرض، فصدر منه تعالى الأمر، فخرجت السماوات والأرض من لاشيءٍ وصار لها كيانٌ.

كيف يتصور أحد ما أن يكون للإله ولد، وبأي طريقة يكون للإله ولدٌ؟ إن كانت كلّ -أكرر- كلّ المخلوقات قد خرجت إلى الدنيا بنفس الطريقة، وخرجت ابتداعاً من لا شيء قبلها، وبأمرٍ صدر منه تعالى! فهذا الذي تقولون عنه: ولدٌ للإله، كيف خرج إلى الدنيا وصار له كيانٌ؟ أليس بنفس الطريقة التي خرج بها البقيةُ؟ ألم يبتدعه تعالى؟ فلماذا هو ولد والبقية لا إن كانت كل المخلوقات متساوية بالنسبة له، وقد قال لها كوني، فكانت.

الجملة هنا تشير إلى شيءٍ مختلفٍ غير الذي أشارت له الآية 26 من سورة الأنبياء {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ}، فهناك الكلام عن تميّز مخلوقٍ ما عنده تعالى بالقيمةِ، وهي التي تعلمها من قيمة المؤمنين العاملين للصالحاتِ العالية عنده تعالى، والتي يوصف بها الملائكةُ والأنبياءُ والصالحون، فهؤلاء مهما ارتفعت قيمتهم عنده تعالى فستصلُ إلى درجة {عِبَادٌ مُكْرَمُونَ} ولا تجعل ولا أي واحدٍ منهم ولا بأي شكل معتبراً كولدٍ له تعالى. أمّا هنا فالكلامُ عن نوعية خلقة المخلوقات، حيث من لا شيء أمامه تعالى، {قضى} سبحانه خلق السماوات والأرض،

فصمّمها وخطّط لها، وعلم بكل شيءٍ سيجري فيها بالتفصيل، وصدر أمره بتكوُّنِها وتكوّنت. عندها ما معنى اعتبارُ مخلوقٍ ما منها ولداً له تعالى؟!

نحن البشرَ نطلق اسمَ السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبةِ النجوم التي نراه ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكةِ(ع) ونطلقه معنوياً على الجنة... لذلك ضع في بالك دائماً أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاءٍ أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهةٍ ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكبٌ... لا، بل عموم أي جهةٍ لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...} وهي إشارةٌ إلى وجود سبعِ أرضينَ مقابل سبعِ سماوات ولم تقصد وجود أرضٍ "كوكب" أو أراضٍ "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرضٌ بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرضٌ بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرضٍ أو أراضٍ.

عادة نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير فنستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، فنقول: خلق سبحانه الدنيا. ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تبيراً صحيحاً دقيقاً بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصِّفُ الدنوَّ بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى}.

كما ترى فقولُه تعالى: {كن} هو قراره تعالى بتشكل الأشياء، {فيكون}، فحتماً ستتكوّن، والجملة لا تقصد فورية حصول الأشياء، لأن السماوات والأرض لم تتشكّل فجأةً وبلمحِ البصر، لا، إنما حتماً ستكون، وذلك بعد ستِّ أيام "ست مراحل" تشكّلت سبع سماوات وأرض، وبعد مليارات السنين من تشكّلها تشكّلت أنت... وبعد أشهر من قوله تعالى {كن}، تشكّل النبي عيسى(ع) في بطن أمّه كما تفهم من الآية 47 من سورة آل عمران {قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} مضموماً للآية 22 من سورة مريم {فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا} وبعد أشهر كبرَ بطنها وخرجتْ إلى الفلاة... وكلّنا بقرار ابتداعي صرنا، أنا من أم وأب، والنبي عيسى (ع) من أمّ فقط، وناقة ثمود بلا أم ولا أب وفوراً...

أكرر لك يا عزيزي ويا عزيزتي، فما هو منتشر بين عموم الناس أن جملة : {كن فيكون}. تعني الفورية في حصول الأشياء، فهذا غير صحيحٍ، إنما تعني فقط وفقط أنَّ الشيء سيكون حتماً، وقد يكون الأمر بتكوّن الشيء فجأةً بسرعةٍ هائلةٍ، وقد يكون الأمر بتكوّن الشيء على مراحل، لا فرقَ، لأنَّه سيتكوّن حتماً طالما صدر الأمر الإلهي.

على كل حال، لو تركت الضبابية التي في ذهنك عن فورية حدوث الأشياء عندما يقول تعالى للشيء {كن}، ونظرت إلى كل ما حولك وتعرفه، ستجد أن كلَّ الأشياء مرّت في مراحل قبل اكتمالها، وستجد أن الكثيرَ الكثير الكثير منها لا معنى للفورية فيه، فما معنى فورية خلق السماوات والأرض؟ وما معنى خلقي معها فوراً؟ وما معنى أن أفتح عيني لأجد نفسي في جهنّم لأنَّه تعالى يعلم أنَّه لو خلقني فسأخالف أوامره تعالى وأفعل السوء مستحقاً العقاب، ففوراً، {كن فيكون}، خلقني سبحانه في النار. هل هذا له معنىً؟!

بكل وضوح تراه بلا معنىً، وعليه انتبه للفكرة الضبابية المنتشرة كقناعةٍ عن معنى "{كن فيكون}"، فبالطبع قدراته تعالى فائقة ويمكنه تعالى فعل أي شيءٍ فوراً، ولست أحاول إقناعك بالعكس، بل أسألك عن المفهوم الضبابي الذي لا تطبيقَ له من حولك عن هذه الفكرة، لأن القرآن لم يقل جملة "{كن فيكون}" كوصفٍ لقدراته الفائقة سبحانه فقط، بل قالها لنفهم أنَّ أمره تعالى حتماً يتحقّق، سواء في لحظة أو بعد ملياراتٍ من السنين، لأن هذا يرجع لما صمّمه وخطّط له تعالى، كخلقك وخلقي بعد مليارات السنين من بداية خلق سمائنا... وحياتنا القصيرة... وموتنا... وبعد ذلك محاسبتنا... هذا مثالٌ عن "{كن فيكون}"، كن إنساناً بعد كذا وكذا من السنين... وعش ومت... وستتحاسب.

لمزيد من التوسّع حول دراسة جملة "{كن فيكون}" راجع دراسة الآية 82 من سورة يس {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}.

(وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ{118})
أخبرتْنا الآيات السابقة أن أهل الكتاب طلبوا من النبي محمّدٍ(ع) مباشرة أن يأتيهم بالآيات... واقترحوا على المسلمين أن يطلبوا منه(ع) الإتيان بالآيات:

{وقال الذين لا يعلمون}، أناسٌ من أهل الكتاب ومن المسلمين الذين تأثّروا بما قاله أهل الكتاب لهم، أو لوحدهم صدر منهم هذا الكلام، فلو كان لديهم علمٌ له قيمة، أو معلومات عن الدين الإلهي لما قالوا: {لولا يكلمنا الله}، فإذا أراد هدايتنا فلماذا لا يكلمنا ويتحدث معنا؟ لماذا يرسل رسولاً مع أنه تعالى يمكنه التحدّث مع كل واحد منّا مباشرة، سواء وحياً أو كما تكلّم مع نبيّه موسى(ع).

{أو تأتينا آية}، أو يحصل أمامنا شيءٌ مميزٌ منسوبٌ له تعالى، فيحصل شيءٌ غيرُ عاديٍّ يجعلنا نقتنع بأنه من أفعالِهِ تعالى وبالتالي نقتنع بدينه تعالى، كأن نرى الملائكة(ع) أو نرى الجنة أو نطير أو تتحوّل الحجارة لمعدن الذهب... وهكذا سنؤمن.

نفس التعبير بالعامية: لو كانوا بيفهموا، ما قالوا {لولا يكلمنا الله} تعالى أو {تأتينا آية}... لو كانوا متعلمين لما قالوا هذا الكلام. ما معنى أن يكلمك الله تعالى أو ترى آيةً لتؤمن؟ ولتؤمن بماذا؟ لنفترض أن القرآن بالنسبة لك فيه كلامٌ منطقيٌّ ولا عقلانيٌّ وفاسدٌ، فهل ستؤمن به إذا كلّمك تعالى وأراك آيةً ما؟ وهكذا تفهم عندما تقول الآية أن الذين لا يعلمون يسألون أن يكلّمهم الله تعالى... لأنهم لم يصلوا إلى مرحلة العلم بصوابية الدين الإلهي، ولا يزالون يرون فيه أموراً لا تتماشى مع أفكارهم ومفاهيمهم، وبشكل أدق، فقلبهم غير السليم يرفض بعض ما يقوله الدين الإلهي ولذلك يريدون طريقة أخرى للاقتناع به.

{كذلك قال}، نفس الكلام قد صدر، {من الذين قبلهم}، فمن قبل وعبر التاريخ يوجد من الناس من قال، {مثل قولهم}، مثلما قال هؤلاء حين وصلهم الدين الإلهي، {تشابهت قلوبهم}، فمركز تفكيرهم ونفسيتهم متشابهةٌ، لأن نفس الكلام صدر من هذه الناس وممن قبلها وقبلها... بسبب امتلاكهم لنفس العقلية والنفسية، وصدر نفس الكلام من بعدهم وبعدهم إلى عصرنا وما بعده أيضاً من الذين لديهم نفس العقلية والنفسية.

الجواب على طلبهم: {قد بيّنا الآيات}، وضّحنا الأمور المميزة بمستواها الإلهي، الأمور التي تدلّ عليه تعالى وعلى دينه فهي واضحة، {لقوم}، لجماعة من الناس المتفاعلة مع الآيات، {يوقنون}، لديهم اعتقاد حقيقي بشيءٍ مطابقٍ للواقع، فهم مؤمنون به تعالى وبصفاته وبقراراته، ومؤمنون بأن أوامره كلّها صالحة، وهذان شيئانِ مطابقانِ للواقع، لأن الإيمان بكلامه تعالى فعلاً حقٌّ وشريعته فعلاً صالحةٌ.

طلبهم لسماع كلامه تعالى وطلبهم لآية ما، حتى يؤمنوا، يبدو منه وكأنه لم يصلهم آياتٌ تدل على مستواها الإلهي! لدرجة أنه لا خلقهم ولا خلق بيئتهم ولا الظواهر من حولهم ولا الرسول ولا القرآن ولا العقلانية العقائدية ولا الصلاح التشريعي الذي في القرآن... كل ذلك ليس كافياً ليؤمنوا؟! نعم هذه النوعية من الناس لن تؤمن ولا بأي طريقة كما تفهم من عموم القرآن ومن الآية 111 من سورة الأنعام {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ}، وفي مقابلهم يوجد من يفهم ويستوعب أن ما يقوله الدين الإلهي هو حقٌّ وصوابٌ وصلاحٌ ومطابقٌ للواقع... ويرى كل ما حوله آياتٍ تدل على صحّة الدين الإلهي، ولا يحتاج لأي آيةٍ جديدة ليؤمن.

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ{119})
{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ}، أيها الرسول محمد(ع) إلى الناس، {بِالْحَقِّ}، بالصوابِ، من الناحيتين فقرارنا بإرسالك كان صواباً، وما تحمله منّا للناس هو الصواب، وقد أرسلناك لهم بالحقّ بالكلام الصحيح، {بَشِيراً}، تحمل الخبر السار المفرح

الحقيقي لمن آمن لأنه سيدخل الجنة، وبالحق، {وَنَذِيراً}، تحمل الخبر السيئ لمن لم يؤمن لأنه حتماً سيدخل النار بسبب توافر شروط حصول ذلك له.

{وَلَا تُسْأَلُ}، ولن يسألك سبحانه، ولن يعبّر لك عن إرادته لجواب منك، {عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ}، عن الذين مع بعض في المكان الموصوف بضخامة سوء ما فيه. بالتعبير الحالي: لست مسؤولاً عنهم لأنهم لم يؤمنوا، ليس النبي وكيلَ أعمالٍ إلهيٌّ ليصير الناس مؤمنين منتمين لدينه، ولذلك لا يتحمّل مسؤولية إيمان الناس، حيث عمله (ع) فقط تبليغ رسالة ربه سبحانه، ليُبشّرَ بالجنة، ويُنذرَ من النار... ولن يسأله تعالى عن الذين صاروا في النار لماذا لم يؤمنوا.

من دراسة أشعار العرب قديماً قبل الإسلام وجدت فرقاً بسيطاً بين كلمتي جحيم وجهنّم، فجهنّم باستعمال القرآن هي اسمُ مكان مشتق من الوصف بجهنم الذي يشير لسوء الحالة أو المكان، واستعمال هذا الوصف لمكان تعذيب في الآخرة يكون وصفاً للأنواع المختلفة المسببة للعذاب مما فيها، ففيها النار المحرقة وفيها الضرب وفيها طعام كريه ورائحة كريهة... وتفهم ذلك من فحوى الآية 49 من سورة غافر {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ...}. وفي بيتين من الشعر قبل الإسلامِ وجدت إشارة بكلمة جحيم لضخامة النار، ويناسبها ذلك في القرآن كما ورد في الآية 97 من سورة الصافات {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ}، هكذا يكون الجحيم وصف الضخامة في السوء.

الواضح لك أن كلمة مسؤول مسؤوليتي... {وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} من اشتقاقات استعمال معنى المسؤولية بالمعنى الدارج حالياً، ومعناها الأساسي أنَّه سبحانه لن يعبّر لك عن إرادته لجواب منك عن سبب كفرهم بك، فلن يحاسبك على ذلك.

كل الكلام السابق الذي ذكرته الآيات، عن كفر قسم من أهل الكتاب بالنبي(ع)، حيث تحدثت عن كل أفكارهم السابقة وردّت عليها، تقول هنا باختصار شديد الخلاصة: أيها النبي محمد(ع) ليس مطلوباً منك الاستجابة لطلباتهم لتفعل لهم المعجزات والأمور الخارقة، ولا مطلوباً منك تأمين كلامي معهم مباشرة من دون واسطتك، فأنت بشيرٌ ونذيرٌ وإذا لم يؤمنوا وصاروا من أصحاب الجحيم فليست مشكلتك ولن نحاسبك على كفرهم. وورد هذا المعنى بعباراتٍ متنوّعة في القرآن منها الآية 107 من سورة الأنعام {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ}.

ضع في بالك دائماً الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى معانٍ قرآنيةً رائعةً لن تراها من مرادفة كتب التفاسير لهما مع بعض "أنذر بحذّر وبالعكس" أو تفسيرهما بالخوف أو الخشية... حيث ستجد في عموم التفاسير استعمالهم هذه الكلمات لتفسير بعضها البعض كمترادفات، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لترى المعنى الدقيق لهذه الكلمات في أي آية تظن أنها ستكون مترادفة فيها لترى الفرق، ومثلها كلمة يرجو المختلفة عن يأمل ويطمع... ولفهم الفرق بين كلمتي "حذَرٍ وإنذارٍ" تصور شخصاً أمامه طريقانِ، واحدٌ يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، ففي هذه الحالة "تحذّره" من سلوك الطريق السيئ، لأنّه حالياً ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، أمّا إذا سلك طريق الخطر "فتنذره" لأنّه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. الإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتماً ما يضرّه، فتنذر الكافر لأنّه في حالة ستسبّب له العقاب حتماً. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يصير فيما سيسبّب له الضرر، فتحذّر المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

هذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، لأن المؤمن قد يقوم بعمل واحدٍ مخالفٍ لدينه تعالى، عندها تنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة النصارى المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}.

(وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ {120})

{ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى}، أيها النبي محمّدٌ(ع) ورغم تصرفاتك وأقوالك الحقّة فلن يصدر منهم تعابيرُ عن قبولهم بسرور لك ولأفعالك، {حتى تتّبع}، حتى تكون على، {ملّتهم}، ثقافةِ وعقيدةِ وعاداتِ اليهود، عندها

سيرضى عنك اليهود معلنينَ قبولهم بسرور لما تفعله وتقوله، أو تتبع فتكونَ على ملّةِ ثقافةِ عقيدةِ أو عادات النصارى، عندها سيرضى عنك النصارى.

{قل} لهم أيها النبي(ع): {إنّ هدى الله هو الهدى}، ما يقوله تعالى عن الأشياء التي توصل للغاية الصحيحة، هو الهدى وغير ذلك فلن يوصلكم لغايةٍ ترغبون بها فعلاً، فاتباع ملّتكم الحالية ليس هدىً حقيقياً، لأنكم لستم على الحقّ والصلاح بالتمام، وما أنتم عليه من تحريف لدينه تعالى لا يوصل إلى مرضاته تعالى والجنّة.

{ولئن اتبعت}، فكنت على، {أهواءهم}، فاتبعت العقيدة والعادات التي اخترعها هؤلاء من هواهم من الأمور التي يهوونها فيحبونها ويرغبون بها "وهي سيئةٌ" وأضافوها على الدين الإلهي وهي مخالفة له، فاتبعتها، {بعد الذي جاءك من العلم}، بعدما صار لديك علمٌ واضحٌ أكيدٌ بالدينِ الصحيحِ، من بعدما وصلك القرآن بما فيه من معلوماتٍ، عندها، {ما لك من الله من ولي}، لا أحدٌ يتولاك ليكون مرجعاً لك وتكون تابعاً له، ليكون مسؤولاً عنك لتسمع كلامه ويهتم بك "من مستوى إلهيّ"، لأنك باتباع أهوائهم تكون قد تركت دينه تعالى وبالتالي لن يكون تعالى وليَّك، وإذا عاقبك سبحانه فلن تجد من ترجع إليه لينجّيك، {ولا نصير}، وليس هناك أحدٌ يمكنه نصرك ليحقّق ما تريده، لينجيك من عقاب ربّك سبحانه.

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{121})

{الذين آتيناهم الكتاب}، والكلام موجهٌ للذين صار معهم منه سبحانه الكتب قبل القرآن، مثل التوراة والإنجيل، هؤلاء، {يتلونه}، يقرؤونه مستندينَ إلى ما في الكتاب، {حق تلاوته}، لا يخرجون عن النصّ، يقرؤونه بفهمٍ ومن دون تحريف كما هو، ومن دون التلاعب به، ومن دون تحوير معانيه، لا يتبعون أهواءهم بل يتبعون الكتاب، فعلاً يعتبرونه مستنداً أساسياً.

{أولئك يؤمنون به}، هؤلاء فعلاً موصوفون بأنهم معتقدون به ككتابٍ إلهيٍ. لأنهم لا يقرؤونه وهم لديهم شكٌّ في مصدره، أو يشكّون في صحة معانيه، أو يشكّون في قصصه، أو يشكّون في وجود تناقضٍ فيه... أو يقرؤونه وهم لديهم مخزونٌ من المعلومات جاعلين الكلمات والجمل تطابق أفكارهم وعقائدهم وعاداتهم ومذهبهم الفاسد! وهذا ما حصل مع اليهود والنصارى، حيث بدّلوا كتبه تعالى بأهوائهم.

القاعدة الأساس لتصنيف المؤمن بهذا الدين الإلهي عن غير المؤمن هي الالتزام بالكتاب الإلهي، وليس بطلب الآيات وطلب كلامه تعالى معهم... هذه ليست نوعيةً مؤمنةً. لأن الكتاب الإلهي مستندٌ كافٍ لمن يريد أن يؤمن بحقٍّ، وما في الكتاب الإلهي كافٍ ليجعلهم مؤمنين، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فمن التزم بما في الكتاب الإلهي هو الموصوف حقاً بالإيمان، ولا يصدر منه خزعبلاتُ طلب الكلام معه تعالى أو طلب الآيات... وهكذا نرى الأمور تترابط مع بعضها.

{ومن يكفر به}، والذي ينكر الكتاب الإلهي، ينكر أنَّهُ من الإله تعالى أو ينكر ما فيه... {فأولئك هم الخاسرون}، فالله تعالى لا يخسر شيئاً، ولا النبي(ع) ولا المؤمنون، إنما هؤلاء يخسرون أي سيفوتهم الحصول على شيء له أهميةٌ "كبيرةٌ"، لأنهم سيخسرون المغفرة والجنة.

بالنسبة لمعنى كلمة تلاوة فهي القراءة عن مستندٍ ثابتٍ، مكتوبٍ أو مسموعٍ أو مرئيٍّ أمامك مثلما تعدّدُ أشياءَ أمامك، كتلاوتِه تعالى للآيات علينا عند ذكره للظواهر والكائنات، فكلامُه سبحانه عنها هو تلاوةٌ للآيات عن مستند لأنها الآيات أمامنا.

الآية هنا فيها عمقٌ مهمٌّ جداً، حيث سيخطر ببالك أن كتبهم محرّفةٌ فما معنى مدح الذي آمن بها؟ فانتبهْ أنَّ أساسيات الإيمان لا تزال واضحة في تلك الكتب، وحتى الأناجيل التي بين أيدينا لم تصرّح بأن النبي عيسى(ع) مولود منه تعالى أو معتبراً كولدٍ له تعالى "وليس فيه أن السيدة مريم أمُّ الله عزّ وجلّ"، وراجعْ عدّةَ ترجمات عربية للإنجيل وسترى فيها عن لسان النبي عيسى(ع) أننا كلنا موصوفون بالبنوةِ له تعالى، وسترى أن بعض الترجمات العربية التي يقولون فيها عن لسان النبي عيسى(ع) يخاطبُه تعالى بأبي، ففي العديد من الترجمات الأخرى للنص الآرامي ستجد الترجمة بسيّدي...

على أي حال فالعمقُ الذي في الآية هو شبهها بحالتنا، حيث النص الإلهي "القرآن" الذي نتلوه، فالنسخةُ المنتشرة بيننا بما يسمّى برواية حفص عن عاصم لم تتحرّف بعد، ورغم ذلك تجد تفاسيرَه فيها إخراجٌ للكلام عن مواضعه وتحريف، واستخراج لعقائدَ فاسدةٍ أسوأُها قولهم عن رؤية وجهه تعالى، وأنَّهُ حرٌّ فيما يفعله وقد يقرّر إدخال فرعون إلى الجنّة، وأنَّ بيننا وبينه تعالى واسطةٌ... واستخراج تشريعاتَ فاسدةٍ كتحليلِ الربا من غير المسلمين، وتحليل العقد المنقطع على الزانية، وتحليل قتل المسالمين من المذاهب أو الأديان الأخرى... ورغم ذلك فكلنا لا نزال موصوفين بالإيمان به ككتابٍ من مصدر إلهيٍّ، وكلام الآية هنا عن المقبولةِ درجة صلاحِهم من الذين سبقونا من عموم أهل الكتاب، فلنقل كحالة عموم المصلين الصائمين المزكّين... وليس عن المنافقين والفاسقين من العيار الثقيل.

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ{122})
خاتمةُ الخطاب مع بني إسرائيلَ الذين لم يؤمنوا بالإسلامِ، مع زبدة الموضوع وهو الحساب في الآخرة، حيث يقول سبحانه معيداً الجملة التي وردت في الآية 47 من هذه السورة:

{يا بني إسرائيل}، يا أيها الجماعة المنتسبة للنبي يعقوب(ع):

{اذكروا}، استحضروا في بالكم وكلامكم وعملكم، {نعمتي}، وهي الأشياء التي توصف بأنها نعمة بأنها جيدةٌ، والتي ذكرت السورة فيما سبق العديد منها.

واذكروا، {أني فضلتكم على العالمين}، في الماضي ومن بين كل الناس قد حصلتم منّي على أشياءَ مهمةٍ من دون أن تكون فرضاً واجباً عليّ فلا تنسوا هذا الجميل، وقد فضّلتكم بأمور لم أفعلها مع كل الناس من أولهم لآخرهم.

لمزيد من التوسّع حول التفضيل راجع ما قلناه في دراسة الآية 47 من هذه السورة.

تكملة الكلام في الآية التالية تحفيزٌ لهم ليعودوا إلى الصراط الإلهي ويتبعوا هذا القرآن، وإلا فحالتهم في الآخرة ستكون سيئةً جداً...

ضع في بالك دائماً أنَّ الكلام مع بني إسرائيلَ بالخصوص، دون الكلام مع كل اليهود بالعموم، سببه أنَّ "اليهود" الأوائل الذين حصلوا على فضله المميز تعالى في عهد النبي موسى(ع) وما بعده، كانوا بغالبيتهم الساحقة من أحفاد أحفاد... النبي يعقوب "إسرائيلَ"، ولا تنسَ أنَّ بني إسرائيلَ بالخصوص من بين اليهود قد حافظوا على الرئاسة الدينية، فاستمرّوا على حمل صفة علماء الدين بشكل شبهِ حصريٍّ من بين كل بقية اليهود، ومن هذا الجانب يكون الخطاب معهم على أساسِ أنَّ بقية اليهود يتبعونهم دينياً.

(وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ{123})
{واتقوا}، وتحاشوا وتجنبوا، {يوماً}، وسياق الكلام عن خطرٍ عليهم في زمن قيامنا من الموت وما بعده، حيث: {لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً}، فإذا كانت هناك نفسٌ ستنال المقابل على أعمالها فالنفسُ الأخرى لا تجزي عنها، فلا يمكنها تقديم أي مقابلٍ كبدلٍ عن عقاب الآخر، لا بالقوة ولا بتقديم الحسنات ولا بأخذ السيئات عن الآخر... حتى لو -فرضاً- قدّم نفسه لينال العقاب كمقابلٍ فلن ينفع.

وفي يوم القيامة وما بعده: {ولا يُقبل منها}، من أي نفسٍ، {عدلٌ}، شيءٌ يعدل كبدلٍ مساوٍ، حيث قد يخطر ببال أحد ما أنه في يوم القيامة سيقول: عدلٌ (البدل المساوي) لارتكابي الذنوب أن تأخذوا كل مالي وتتركوني أدخل الجنة. أو يقول: خذوا كل أهلي وارموهم في النار عدلاً (بدلاً مني) واتركوني أدخل الجنة. أو يقول: اتركوني أصلّي وأصوم هنا في ساحة يوم القيامة لملايينَ أو ملياراتِ السنين عدلاً لذنوبي حتى تنتهي كلها... وقد سبق ورود هذا المعنى في الآية 48 من هذه السورة.

وفي يوم القيامة: {ولا تنفعها شفاعةٌ}، لا تنفع الوساطة، والشفاعة يجري استعمالها عادةً لوصف عمومِ استخدام القيمة المعنوية أو السلطويةِ لتغيير الظروف نحو الأحسن، لدفع ضررٍ تستحقّه أو وقعت فيه بإرادتك، ويبدو في الاستعمال العاميّ تساهلٌ ليشمل الظروف القاهرة التي توقعنا في ضررٍ حتى لو لم يكن لنا دخل في حصوله، مثل الطلب من قدّيسٍ ليشفع عنده تعالى لنجاتنا من زلزالٍ... وليس من الواضح في كلام العرب قدِيماً إن كان هذا الحال يندرج تحت أصل المعنى للشفاعة لإتاحةِ منفعةٍ.

من عموم القرآن تفهم أنَّ الشفاعة لا تنفع مع الذي حكم عليه تعالى بالعذاب في النار؛ لأن الاعتماد على الإيمان والعمل الذي قمنا به، أمّا الاعتماد على الشفاعة لأني أحب هذا النبي أو ذاك الوصي... وأداوم على ذكره والتحدث عنه وأزور قبره... مع تركي للواجبات الدينية وفعلي للسيئات! فهذا لن ينفع بشيءٍ إذا حكم تعالى بالعقاب.

هنا تقول الآية إنَّ الشفاعة لا تنفع، وكلامها عن الذين حكم عليهم تعالى بالنار، يعني حتى لو شفع لك أحد المؤمنين، وكنت لا تستحق الشفاعة، فإنَّ الشفاعة لن تنفعك. أمّا إن كان عندك تقصيرٌ في بعض الأشياء، عندها تنفعك الشفاعة، وأمّا أن تكون الحالة مثل حالة بني إسرائيل الذين تتحدّث عنهم الفقرة هنا وقد ركبوا رؤوسَهم ولم يتبعوا الإسلامَ رغم كل الوضوح بأنه رسالة من ربنا سبحانه، فهؤلاء بالتأكيدِ لن تنفعهم شفاعة.

أصلاً لن يشفع لهم أحد ما، وتخبرهم الآية منذ الآن أن يرموا هذا النوع من الأفكار من رؤوسهم لأنها لن تنفعهم.

وفي يوم القيامة: {ولا هم ينصرون}، ولا ينصرهم أحد، فلن يحقّق لهم أي أحد أي شيء يريدونه، فلا يمكن لأحد التدخلُ بقوته ويفرض دخولهم إلى الجنّة، أو يقوم بتجميع عدد من الرجال لمقاتلة الملائكة(ع) حتى ينتصر عليها ويدخل الجنة بالقوة، أو أي شكلٍ آخر... فهذا غير وارد بتاتاً لأنهم كلهم تحت سيطرة الملائكة(ع) الشديدة القوة، الغليظة المعاملة، وفوق ذلك فالكلُّ تحت أمره تعالى.

ورد في الآية 48 من هذه السورة نفس معاني آيتنا الحالية تقريباً: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ}، والآيتان عرضتا الاحتمالات الأربعة الملتوية التي يمكن أن يفكر فيها أحد ما لدخول الجنة:

1. أن يتحاسب عنك شخص آخر أو أن يقدّم لك من حسناته.
2. أن تقدّم عدلاً (بدل) مالياً أو عبادياً.
3. أن تعتمد على شفاعة شخص مؤمن تعرفه.
4. أن تقاوم الملائكة(ع) منفرداً أو بمعونة بقية الكفّار.

فكل هذه الأفكار لن تنجيكم يا بني إسرائيل من النار إن كفرتم بهذا القرآن. طبعاً هو نفس الكلام موجّهٌ لجميع المنتمين لدينه تعالى عبر توجيهه لبني إسرائيل.

الإمام الذي سنتحاسب على ولايته

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ{124})

من وحي الفقرة السابقة تكمل السورة كلامها مع وعن بني إسرائيل وعموم أهل الكتاب، وكلامها معنا وعنّا، وتربط تديننا كلّنا بالدين الإلهي إلى آلافٍ سبقت من السنين إلى تاريخ النبي إبراهيم(ع)، وتلفت انتباهنا للامتداد التاريخي للدين الإلهي على أنه خطٌّ ننتمي له، كطريقٍ أساسيٍّ له امتدادٌ طويلٌ ومن المفروض بنا كلّنا التوجّه نحوه لنمشي عليه ونلتحق بسلسلة المؤمنين عبر التاريخ الذين سبقونا ومشوا عليه... البداية مع نموذجٍ بارزٍ لشخص توقّره عموم الديانات الإلهية، ويليها ربط هذا الشخص بالدين الممتد بطقوسه إلى مكة، وبعدها ربط بني إسرائيل به... مما يوصلنا إلى نتيجة امتداد الدين الإلهي وصولاً إلى الرسول محمّدٍ(ع) وقرآنه والطقوس العبادية التي يطرحها هذا القرآن...

{وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ}، والبلاءُ وصفُ عموم الإصابة بشيءٍ من المحتمل أن يغيّرك، من مرضٍ أو كارثةٍ أو عدوٍ... سأبليك: سأصيبك بما قد يغيّرك. أصاب النبي إبراهيم(ع) شيءٌ من المسؤول عنه من مستوى إلهيّ، امتحنه، {بِكَلِمَاتٍ}، حيث أراد سبحانه امتحانه حتى يظهر إخلاصه، فقال سبحانه له(ع) كلمات، ويبدو من سياق الحديث أنَّ الكلمات هي مجموع عموم الأمور التي مرّ بها(ع) من الافتتان بدينه عبر محاولة أهل مدينته حرقه... إلى أمره(ع) بذبح ولده... وبعدها كلمات "والتي صار وصفُها صُحفَ إبراهيم" وفيها تعليمه الشريعة وتكليفه(ع) بالحلال والحرام والواجبات... ونقل هذه الكلمات للناس، وسترى بعد انتهاء هذه الفقرة كلاماً عن الابتلاء الإلهي للمؤمنين بالحرب... وبالشريعة...

{فَأَتَمَّهُنَّ}، فبالتمام بلا أي نقصانٍ ولا مرور حالاتِ انقطاع، اجتاز النبي إبراهيم(ع) كل تلك الابتلاءاتِ على التمام، ولهذا السبب قال له ربنا سبحانه:

{إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}، قدوةً ومرجعاً أساسياً، فسأجعلك نموذجاً وقدوةً تتبعها الناس في سلوكك وعقيدتك لأنك اجتزت كل الابتلاءاتِ بنجاحٍ، لأنك لم تتراجع عن إيمانك حتى بعد رميك بالنار... والتزمت بالتمام بالشريعة... لذلك صرت من الآن مرجعاً أساسياً للناس في الإيمان والسلوك.

قال النبي إبراهيم(ع): {وَمِنْ ذُرِّيَّتِي}؟ من الذين سينفصلون مني، من أولادي، فهل سيكون من أولادي أئمةٌ؟ هل ستجعل يا ربي ممن يولدون منّي من يكون مثلي قدوةً للناس؟

قال له سبحانه: {لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}، لا يحصل منّي على، فلا يطال منّي، عهدي، الذي التزمت أنت به لتكون إماماً للناس، فلا يناله منّي، الظالمون، الذين ليسوا عادلين ولا منصفين، فالذي من ذريتك يترك الإيمان والعمل الصالح وهذا ظلمٌ، لأن الدين الإلهي حقٌّ واضحٌ وتركه يعني اتباع الباطل ظلماً، فهذه النوعية ظالمةٌ لن يعطيهم تعالى عهد الإمامة للآخرين، فلن يجعلهم يحملون صفة الملتزم بتمثيله تعالى كأئمةٍ يتبعها الناس.

بخصوص ما كانت تتحدث عنه الآيات، مع بني إسرائيل وهم أحفاد النبي إبراهيم(ع)، ومرّت بحديثها مع النصارى، وكلاهما يعتبران النبي إبراهيم(ع) إماماً لهما، هنا الآية تنبههم، فإن كان النبي إبراهيم(ع) جدَّك أو تعتبره إمامك التاريخي دينياً، فهذا لا يعني أن تكون مثله إماماً للناس ليتبعوك، لأنك إن كنت ظالماً بتركك للدين الإلهي المستقيم، فلن تحمل صفة الإمامة الإلهية.

كما تقول الآية، طلب النبي إبراهيم(ع) منه سبحانه أن تكون ذريته صالحةً، كما ندعو نحن أن تكون ذريتنا صالحةً، وقد طلب النبي إبراهيم(ع) أيضاً أن يكونوا قدوةً في الصلاح لغيرهم، ولكن الجواب الإلهي وضّح أنه سيكون في ذريتك ظالمون، ولن يكونوا أئمةً، وأنتم يا بني إسرائيل كان منكم أئمةٌ حين كان بينكم صالحون، وهذا الرسول محمّدٌ(ع) من ذرية إبراهيم(ع) وقد استحقّ الإمامة...

بعبارةٍ أصرحَ وبشكل بديهي، وحيث معلومٌ انحصار النبوة في ذرية النبي إبراهيم(ع) كما تفهم من الآية 33 من سورة آل عمران {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}، ولكن ليس كل من انتسب للنبي إبراهيم(ع) سيكون له هالة القداسة ومرشحاً مؤهلاً ليتبعه الناس، والكلام هنا مع بني إسرائيل ليعرفوا حجمهم الطبيعي، لأن منهم فسقةً ومنافقين وكفرةً ومجرمين... ومنهم من صار إماماً كالنبي موسى(ع) والنبي عيسى(ع) وغيرهم، والنبي محمّدٌ(ع) تأهل لمنصب الإمامة ولم يتأهل في عصره واحد منكم لذلك، فعليكم باتباعه.

الإمام هو من يتبعه غيره ويتخذه قدوةً ومرجعاً، وقد وصف القرآن الأنبياء بأنهم أئمةٌ، ووصف الشيطان وزعماء الكفّار بأنهم أيضاً أئمةٌ كما ورد في الآية 12 من سورة التوبة {...فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ...}، هكذا نفهم أنَّ كل شخصٍ يتبعه ويقلده أشخاصٌ آخرون، يكون إماماً لهم، ولكن عندما يقول ربنا سبحانه عن شخصٍ ما إنه نصّبه فعهد إليه بمنصب الإمامة، فهذا يعني أنَّ هذا الشخص هو إمامُ حقٍّ، وقدوةٌ إلهيةٌ، بمنصبٍ إلهيّ.

بالنسبة لكلمة عهد، فكما نستعمل نحن كلمة "عهد" هكذا: عهد النبي(ع) برئاسة الجيش لأسامة. فصار أسامة ملتزماً بقيادة الجيش، هنا عهد ربنا سبحانه بالإمامة للنبي إبراهيم(ع) أي صار (ع) ملتزماً بمنصب الإمامة.

بالنسبة لما تجده في الكتب من أبحاث اشتقاقية من الآية هنا عن الإمامة كمنصبٍ إلهيٍّ لخلافة النبي محمّدٍ(ع)، فها هو ظاهرُ الآية أمامك لا يدل على شيء مما يقولونه، ومشكلة هؤلاء أنَّ المفهوم القرآني لوجوب ولاية المؤمنين لبعضهم البعض، فهو مفروغٌ منه ولا ينكره إلا من ركب رأسه واستسخف نفسه، والقرآن جاء بكلامٍ عموميٍّ كمبادئَ لتحديد مواصفات أولي الأمر، الولاة، الأئمة، القادة... والخلاف حول تحديد الشخص أو الأشخاص الأفضل تاريخياً ليكونوا خلفاءَ للرسول، مهملينَ بذلك المبدأ القرآني عمَّن يجب الآن في عصرنا اتباعه، فهو كلامٌ فارغ لا فائدة منه سوى تعميق التفرقة بين المسلمين، لبقاء الحاكمين وعلماء الدين الفاسدين حكاماً علينا...

نحن كلُّنا سنتحاسب على الذين واليناهم في عصرنا، ولن نتحاسب على ولاية أشخاصٍ لا تطبيقَ عمليٌّ لولايتهم في عصرنا سوى الاستفادة من أحاديثهم وسيرتهم، بينما الولاية التي سنتحاسب عليها هي الولاة من رؤساء وأمراء وملوك وحكامٍ ووزراء ونوابٍ وأعضاء مجالس بلدية ومخاتير ورؤساء أحزاب وعائلات وعشائر... فهؤلاء سنتحاسب على دعمنا وتأييدنا وانتخابنا وتصفيقنا... لهم، وسنتحاسب على ترك ولاية الصالحين من عصرنا.

(وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ{125})
نكملُ الربطَ بين النبيِّ إبراهيمَ(ع) والرسولِ محمّدٍ(ع)... كخطٍّ واحدٍ ممتدٍّ للدينِ الإلهيِّ:

{وإذ جعلنا البيت}، الكعبة "البناء المربّع" التي في مكّة وهي المكان الوحيد المشهور باسم بيته تعالى، جعلناه، {مثابةً للناس}، والثَّوبُ عامةُ الرجوع إلى شيء، والثوابُ ما يرجع عليك من عملٍ قمت به، والكلام هنا عن مكانٍ يثوبونَ إليه فيقصدوهُ ويرجعوا إليه كبيتٍ لربنا سبحانه، وعملياً هو بيتٌ ليقصده من يريد التقرب إليه سبحانه.

وجعل سبحانه الكعبة، {أمناً}، مثلما تقصد بيتاً أهله من أهل الكرم والشيم والضيافة، فعندما يقول سبحانه عن بيتٍ ما على الأرض إنه سمّاه بيته، وعندما يدعوك سبحانه للذهاب إليه، فأنت في أمنٍ، حيث الذنوب التي ارتكبتها، ثمّ ثُبتَّ (أي عدتَ)، فرجعت إلى بيت ربك سبحانه، عندها ستكون آمناً في ذلك البيت، فلن يعاقبك سبحانه فذنبُكَ مغفورٌ.

{واتخذوا}، واجعلوا أيها الناس بأمرٍ منه تعالى، من {مقام إبراهيم}، من المكان الذي كان يقوم فيه النبي إبراهيم(ع) للصلاة وعموم العبادة والدعاء، فاتخذوه فاجعلوه، {مصلىً}، مكاناً تصلون فيه فتتوجّهونَ فيه إليه سبحانه بالعبادة، فتقتدون بإبراهيم(ع).

الكلام عن المكان المعروف الذي يبعد عن الكعبة التي في مكّة عدّةَ أمتارٍ، ومشهورٌ باسم: مقام إبراهيم(ع). حالياً يوجد "نصبٌ صغيرٌ" من بناءٍ معدنيٍّ وحجريٍّ بحجم شخصين واقفين قرب بعضهما تقريباً، موجود في المكان الذي كان يقف فيه النبي إبراهيم(ع)، وعندما نذهب للعمرة أو الحجّ نقوم بالصلاة ركعتين خلف هذا النصب "المقام" امتثالاً للأمر الإلهي بالصلاة حيث كان يصلّي النبي إبراهيم(ع).

{وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل}، فوضعناهما تحت التزامٍ ينفّذانه: {أن طهّرا بيتي}، وهو مبنى الكعبة، فاجعلاه خالياً من الأشياء المكروهة السيئة التي لا تناسبُ مكاناً للعبادة، فلا تسمحا بوضع الأصنام فيه، ولا تسمحا بعبادة غيره تعالى فيه... ولا تسمحا بجعله مكاناً للتجارة، أو للمخاصمة... فاجعلاه مقصداً طاهراً: خالياً من كل شيءٍ يعكّر صفو العبادة، {للطائفين}، للمارين به، للحائمين الدائرين حوله، ومقصداً طاهراً، {والعاكفين}، للملازمين الذين يقيمون بقربه للعبادة لمدةٍ طويلة، ومقصداً طاهراً {والركع السجود}، الذين يركعون لله تعالى، فيحنون ظهورهم أو يجلسون على ركبهم، السجود، الذين يسجدون لله تعالى فيقربون وجههم من الأرض أو يضعون جبهتهم على الأرض. هناك حركات للتعبير عن أقصى الاحترام والخضوع له تعالى ومنها إحناء الظهر "ركوع"، وتقريب الوجه من الأرض "سجود"، فليكن البيت مكاناً طاهراً لمن يريد التعبير بأقصى أشكال التعبير للخضوع والاحترام له تعالى، عبر إعلان النبيينِ ذلك للآخرين ومنعهما الآخرين من ممارسة أي طقوسٍ فيها شركٌ به تعالى.

الآية كما ترى تشير ضمناً للنبي محمّدٍ(ع) وهو من أولاد أولاد... النبي إسماعيل(ع)، والنبي إسماعيل(ع) هو ابن النبي إبراهيم(ع)، فتريد الآيات "ضمناً" توضيح العلاقة بين النبي محمّدٍ(ع) وبين النبي إبراهيم(ع) عندما طلب(ع) أن يكون

من ذريته أئمةٌ كما ورد في الآية السابقة، وهنا الآية تريد بالتحديد توضيح العلاقة بين الكعبة التي في مكّة، وهي المدينة التي ولد فيها النبي محمّد(ع)، وقومه "قريش والآخرون" يقومون بالطقوس حولها، وهذا الدين الإلهي يأمر بالقيام بطقوسٍ عباديةٍ حول الكعبة... وهكذا توضّح الآية علاقة هذه العبادة بالنبي إبراهيم(ع)؛ لأن الكعبة مكانٌ محدّدٌ من ربنا سبحانه ليقصده الذي يريد التقرب منه سبحانه وليست اختراعاً عربياً أو قرشياً، ولا بدعةً جاء بها النبي محمّد(ع)، وسنرى المزيد من التوضيحات فيما يلي.

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{126})
{وإذ قال إبراهيم}:

{ربِّ اجعل هذا بلداً آمناً}، يا ربي، المسؤول عنّي من مستوى إلهيٍّ، اجعل هذا بلداً آمناً، فهذا المكان المحدّد الذي له اسم، وفيه بيتك، اجعله آمناً بحيث لا تحدث فيه حروب ونزاعات، {وارزق أهله من الثمرات}، واجعل "أهلَه" المنتمين لهذا البلد يحصلون على ما يحتاجونه ويسدّون به حاجاتهم من أشياءَ للأكل، من الثمرات، من الأشياء التي تنتجها النباتات والحيوانات، {من آمن منهم بالله}، فلست أدعوك لترزق عموم الناس بل أدعوك لخصوص من كان في حالة اعتقاد بك "أحداً فرداً صمداً حكيماً..."، {واليوم الآخر}، وهو يوم القيامة من الموت وما سيليه من الحساب.

{قال}، الله تعالى:

{ومن كفر}، ومن أنكر ولم يعتقد بديني من الناس الساكنين قرب بيتي، {فأمتعه}، فأعطيه من متاع الدنيا ما يعيش به من مال ولباس ومسكن وطعام... {متاعاً قليلاً}، لمدة قليلةٍ من الوقت وهي المدة التي يعيشون فيها في الدنيا، والتي زمنها قليلٌ بالنسبة للآخرة الخالدة، {ثم}، بعد ذلك، {أضطره}، فأجعله غصباً عنه وبدون رغبة منه يذهب، {إلى عذاب النار}، فأجعله مضطراً للدخول إلى مكان مشتعل ولا يمكنه إلّا أن يدخل إليه، وعذاب النار هو، {بئس}، أسوأ أتعس، {المصير}، أسوأ ما تصير إليه الأمور، وأتعس نهاية ونتيجة.

مكة سيكون فيها الأمن والرزق المتوافر لمن آمن بالله تعالى واليوم الآخر، أمّا من كان كافراً ويعيش في مكة، فسيتمتّع فينال من الأمن والرزق لأنه بجوار الكعبة، ولكنه في الآخرة سيتحاسب على كفره، فلن تنفعه مجاورة الكعبة.

هل هذا الكلام يعني أنّ مكة لم يحصل ولن يحصل في تاريخها حرب أو نزاعات أو مشاكل أمنية؟ لا، فقد تعرّضت لحوادث عسكرية ولكن تلك الحوادث كانت على مستوىً صغيرٍ جداً، ولم تصل إلى مستوى الحروب الحقيقية، ونتذكّر أنّه سبحانه تدخل حين هجم أبرهة بالفيل على الكعبة لتدميرها... ومن ناحية ثانية أمر سبحانه كل من يؤمن بدينه أن تكون مكة بلداً آمناً، فلا يقيم المؤمنون حروباً فيها... ولو كان أهل مكة عبر التاريخ ملتزمين بدينه تعالى لما مرّت عليها ضربة كفّ، ولكن وبالرغم من شركهم فقد حظوا من الأمن بما لم يحظَ به غيرهم من المدن الأخرى، وهذا شيء كان محورياً في كلام الآية 67 من سورة العنكبوت {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ}، ومحورياً في كل سورة قريش.

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{127})
{وإذ يرفع إبراهيمُ}، بينما يقيم النبي إبراهيم(ع)، {القواعدَ}، الأساسات، {من البيتِ}، من الكعبة، {وإسماعيلُ}، ابنه أيضاً يساعده ليقيم معه قواعد الكعبة، وهذا يعني أنهما قاما بتجديد البناء القديم للكعبة فرفعا القواعد، حيث كانت هناك أساساتٌ ورفعاها فجعلاها بيتاً، وتعلم أنهما جعلاها بناءً مربعَ القاعدة مكعباً.

وإذ يرفعان القواعد... يقولان: {ربنا تقبل منا}، فاقبلْ منّا هذا المجهود الذي بذلناه لبناء بيتك، لأننا قمنا به لترضى عنّا، {إنك أنت السميع}، أنت تسمع كلَّ شيءٍ فتسمع هذا الدعاء، {العليم}، تعلم كلَّ شيءٍ، فتعلم أننا نريد رضاك.

التعبير برفع القواعد من البيت يعطي معنىً أنَّ البيت قديمٌ ورفعا قواعده، فالكعبة من تراثِ الدين الإلهي القديم جداً جداً، وحتى من قبل النبي إبراهيم(ع)؛ لأنه(ع) لم يبنِهِ بل جدّد بناءه القديم، وهكذا نتذكّر أنَّ الكعبة ليست بدعةً في قداستها، وليست من تراث العرب، ولم يخترعها الدين الإسلامي، بل كما ورد في الآية 96 من سورة آل عمران، فالكعبة هي أول بيتٍ وضعه الله تعالى للناس ليتقربوا إليه: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ}.

ضع هذا في بالك دائماً لأننا نجد أناساً يقارنون بين هذا الدين الإلهي، وبين بقية الأديان التي اخترعت من أوهامها أماكنَ مقدسةً، تلك الأماكن امتدادها التاريخي محدودٌ، فإمّا اندثرت مع اندثار المتدينين بتلك الديانة، وإمّا تاريخها جديدٌ يرجع لألفٍ أو ألفي سنة، وأمّا الكعبة التي في مكّة، فترجعُ رمزيتها الدينية لآلاف السنين لما قبل النبي إبراهيم(ع).

بقي شيءٌ، فالرسول محمّدٌ(ع) من أحفاد أحفاد... النبي إسماعيل(ع) ابن النبي إبراهيم(ع) المذكور هنا بأنه شارك أباه في تجديد بناء الكعبة، وفي هذا الكلام لفت انتباهِ عموم أهل الكتاب -وبالخصوص لفت انتباهِ بني إسرائيلَ- أنهم ليسوا مميزين لوحدهم بنسبهم إلى النبي إبراهيم(ع). وللأسف هم يردّون على هذا بقولهم إنَّ النبي إسماعيل(ع) كان ابنَ جاريةٍ "هاجر" ولذلك فقيمتُه أقل من قيمة النبي إسحاق(ع) ابن السيدة سارة! ولهذا السبب تجد في بعض أدبياتهم كلاماً عن أفضليةِ انتقال الدم الإسرائيليّ من ناحية الأم لأولادها...

(رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{128})
{ربنا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهيٍّ، {واجعلنا مسلمين لك}، وفقنا لنكون منقادينَ وتحت أمرك، {ومن ذريتنا}، ومن الذين سينفصلون عنّا من أولادنا، اجعل يا رب، {أمةً}، مجموعةَ أناسٍ تشترك في شيء ويصير لها امتدادٌ تاريخيٌّ، {مسلمةً}، فليكن ما تشترك به وله استمرارية هو الانقياد والطاعة لك.

ويا ربنا، {وأرنا}، فاجعلْ لنا صورةً محددةً عن، {مناسكنا}، وهي الأعمال التي نعبّرُ بها عن عبادتنا لك وتقربنا منك، فأخبرْنا ماذا وكيف نفعل حتى نعبّر لك عن إسلامنا لك، فها قد أقمنا البناء وانتهى، ونريد التقرّب منك في هذا المكان فقل لنا ماذا نفعل لنتقرب منك.

سنرى فيما يلي من آيات أنَّ المناسك التي أوحى بها سبحانه لهما هي مناسك الحجّ، من إحرامٍ وطوافٍ وسعيٍ...

لاحظ أنهما(ع) لم تخطر ببالهما فكرة اختراع مناسكَ دينيةٍ؛ لأنهما من مستوى الذين يعلمون بسوء وحرمة اختراع طقوسٍ دينيةٍ... وبكل تأكيد لن يقوما بأي عملٍ من دون أن يكون بأمرٍ منه تعالى، وهذا شيءٌ يجب الانتباه له جيداً؛ لأن أي شيءٍ تقوم به في حياتك العادية من مباحاتٍ فأنت حرٌّ فيه، أمّا عندما تفعل شيئاً باسم الدين الإلهي، فانتبهْ ولا تخترع أو تقمْ بشيءٍ اخترعه غيرك، فالتزمْ بما جاءك من القرآن أو السنة الشريفة "الصحيحة".

{وتب علينا}، وافتح لنا صفحةً جديدةً، فاقبلْ إعلاننا بأننا نريد فتح صفحةٍ جديدةٍ معك مبتعدينَ عن كلّ السيئات.

{إنك أنت التواب}، نعلم أنَّك الذي يقبل توبة التائب، فلست قاسياً فظاً صلباً لئيماً... تعاليت عن ذلك علواً كبيراً، وحتى من أساء معه تعالى لدرجة عبادة غيره، فإن تاب المخطئ عندها سيتوب تعالى عليه، {الرحيم}، فلديك عناية خاصة للمؤمنين لما فيه مصلحتهم.

الرحمنُ صفةٌ عامةٌ للعناية بما فيه مصلحة كل المخلوقات، ولكن هناك أمورٌ خاصة كالتوبةِ والمغفرةِ ومضاعفةِ الحسنات... لا ينالها إلا المؤمنون، ولذلك عبّرت الآية هنا بصفة {الرحيم} للإشارة إلى العناية الخاصة بالمؤمنين فقط.

دائماً نراجع ما ورد في الآيتينِ 17 و18 من سورة النساء لنتذكّر معنى التوبة التي يقبلها تعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا، وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}.

نلاحظ إعلانهما التوبة مما يعني أنه قد صدر عنهما(ع) سوءٌ، ونفس الكلام عن أمرِهِ تعالى لنبيه محمّدٍ(ع) بالاستغفار الذي ورد عدّةَ مراتٍ ومنه الآية 55 من سورة غافر: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ...}، فهذه النوعية من

الناس لا تفعل السوء عن قصد لأنهم يكرهونه، ونفهم ذلك من كرهنا نحن ضعفاء الإيمان لبعض السيئات، كالغشِّ والكذبِ والسرقةِ وقتلِ الأطفال... وتلك النوعية من الناس يكرهون كل ما يرونه سيئاً ولا يفعلونه، ولكن بالخطأ وعن غير قصد قد يتحملون مسؤولية سوءٍ ما، ونضرب لذلك مثلاً مشهوراً في تاريخ النبي محمّدٍ(ع) من براءته مما فعله خالد حين قتل مسلمينَ على الشبهة... ونضيف لذلك أنَّ ما هو مباحٌ لنا فهو ليس مباحاً لتلك النوعية الطاهرة من الناس، فهم في منصب خلافته تعالى ومنصب قيادة دينيةٍ... فمثلاً هم ممنوعون من المزاح على راحتهم حين يريدون، ومسؤولونَ عن الدقة في كلامهم لأن الناس يعتبرون كلامهم مرجعاً دينياً... وهذا قد يحصل فيه خللٌ غير مقصودٍ ولا معلوم لهم... نضيف على ذلك أنَّهم يشعرون بالمسؤولية الدائمة بهداية الناس وتقويم إيمانهم وسلوكياتهم، ويشعرون بالتقصير في التقرّب منه تعالى رغم الفرق الهائل بين الوقت والجهد الذي يبذلونه ويقدمونه في طاعته تعالى وبين ما نقدّمه نحن... كل ذلك بالنسبة لهم سيئاتٌ يطلبون منه تعالى مساعدتهم لتجنبِها والعفو عنهم...

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ{129})
الآية هنا ترى فيها الربط الواضح المباشر الصريح جداً بين النبي محمّدٍ(ع) وبين جدّه إبراهيم(ع)، ونكمل مع دعاء النبيين:

{ربنا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهيٍّ، {وابعث فيهم}، وأقمْ في أهل هذا البلد، {رسولاً منهم}، فليكن من ذريتنا التي ستأتي من سكان هذا البلد، رسولاً من عندك، {يتلو}، يقرأ على الناس عن مستندٍ يكون منك، {آياتك}، الأمور المميزة بمستواها الإلهي والمنسوبة لك، التي تدل على الهداية بأنك واحدٌ لا شريك لك، وأنَّه توجد آخرة...

{ويعلّمهم}، ذلك الرسول، {الكتاب}، فينزل من عندك سبحانك كتابٌ عليهم، يشرح لهم ويُدرّسهم كيف تكون العقيدة الصحيحة، والعبادة الصحيحة، والسلوك الحياتي الصحيح...

{ويعلمهم الحكمة}، ويعلمهم كيف يرون الصوابية في الأمور، فهو التطبيق العملي بصوابيةٍ لما في الكتاب.

{ويزكيهم}، فيجعلهم لائقين، وبمناسبة الكلام عن التدين فالزكاةُ هنا تشير لرفع الخبث والفساد عنهم ليصيروا لائقينَ كصالحينَ طاهرينَ بتركهم للعقائد المنحرفة والأعمال السيئة.

{إنك أنت العزيز}، أنت موصوفٌ بكل ما تحمله كلمة عزيز من معنى، فأنت المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكلٍ كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فأنت فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... وبناءً عليه يمكنك فعل ما تريد فحقّقْ لنا دعاءنا.

وإنك أنت، {الحكيم}، ترى الصوابية في الأمور وقراراتك وأفعالك كلها على الصوابية، فلا تعبث ولا تلعب؛ لأن قراراتك وأفعالك كلها متقنةٌ وحقٌّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول بأنَّ أفعاله تعالى لها غاياتٌ وأهدافٌ سامية، ولكن بالتدقيق ترى أنَّه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فلا يفعل لغاية له سبحانه.

فعندما نطلب منك أن تبعث رسولاً... نحن نعلم أنك حكيمٌ تعلم أكثر منّا ما هو الأنسب، ولا نقصد تعليمك ماذا تفعل.

الآية تتحدث بشكلٍ واضحٍ عن البشارة بنبوة محمّدٍ(ع)، حيث الكلام يتضمّن بعث رسولٍ في مكّة، وقد تحدّثت آياتٌ عن علم بني إسرائيل بتحقّق هذا الدعاء وبتوقّعهم خروج نبيٍّ من مكة، راجع الآية 157 من سورة الأعراف {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ...}، وها نحن نتعرّف على أصل البشارة من أين أتت، وقد كتبت هذه البشارة في كتبهم، ولكن حالياً لا نجدها بشكلٍ صريحٍ في الكتب المنتشرة؛ لأنهم مَحَوْها أو حَوّروها أو طمسوها بتفسيرٍ محرّف.

(وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ{130})

{وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ}، ومن يترك ويلحق شيئاً آخرَ، فلا يرغب بـ {مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ}، ثقافة وعادات النبي إبراهيم(ع)، {إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ}، فلديه عقلٌ يعرض عليه الأفكار العقلانية ولكنّه وبقرارٍ منه اختار اللاعقلانية، فهو ليس سفيهاً فليس بسيطَ العقل ولكنه سفه نفسه، فاختار أن يكون سفيهاً، اختار خفّة العقل وما ينتج عنها من تفاهة وسخافة. ها قد طرحت الآيات كيف كانت عقلية وسلوك وعادات النبي إبراهيم(ع) وأنَّ الرسول محمداً(ع) على ملّته ومرتبطٌ به أشد الارتباط، ومن يترك هذه الملّة ويلحق غيرها بعدما تبيّنت له الأمور، فهو قرّر تسفيه نفسه، هو قرر ألا يكون ذا فهمٍ ولا تفكيرٍ سليمٍ بتركه للحقّ الواضح.

تذكّر أنَّ السفاهة تتدرّج من البساطة في العقل، إلى اختيار ترك استعمال العقل، وهذا ما نسمّيه بتعبيرنا الدارج: سخيفٌ.

أيُّ ملّةٍ، أو أيُّ ثقافةٍ وعاداتٍ وعقيدةٍ دينيةٍ... تخالف ما قام به النبي إبراهيم(ع) فهي غير معترفٍ بها عنده تعالى، حيث سبق أنْ جعله تعالى إماماً للناس، وقدوةً للناس.

الكلام هنا موجّهٌ للجميع، شاملاً بني إسرائيل خصوصاً واليهود والنصارى عموماً، فمن لم يتبع الرسول محمداً(ع) سيكون خارجاً عن ملّة النبي إبراهيم(ع)، ويكون هذا الخارج سفيهاً. هذا لا يعني أبداً بتاتاً أنَّ كلّنا نحن المسلمين لسنا سفهاء، لا، فلا يكفي الانتماء بالاسم لدينه تعالى بلا تطبيق حتى نكون خارج وصف السفاهة.

{وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ}، انتقيناه لتميّزه، فاختار سبحانه النبي إبراهيم(ع) لميزة موجودة فيه، {فِي الدُّنْيَا}، فحدّده تعالى بأنَّه هنا في الحياة الدنيا كشخصٍ مميزٍ، وجعل ملّته(ع) ملّةً للدين الإلهي لم يكن عن عبثٍ، لأنَّه(ع) تميّز كثيراً عن البقية حتى اصطفاه تعالى وجعل ملّته(ع) ملّة الدين الإلهي.

{وَإِنَّهُ}، النبي إبراهيم(ع)، {فِي الْآخِرَةِ}، في الحياة التي ستأتي في الآخِر بعد الدنيا، {لَمِنَ الصَّالِحِينَ}، موصوفٌ بأنَّه من الذين عملوا أعمالاً صالحةً جيدةً، وهذا يعني بأنَّه(ع) سيكون له أجرٌ حسنٌ عليها.

قد يخطر ببالنا أنَّه سبحانه اصطفاه معناها أنَّه تعالى اختار "إبراهيم" ليكون نبياً رسولاً إماماً... على معنى: تركني أنا كشخصٍ عاديٍّ، و"إبراهيم" كان مثلي شخصاً عادياً، فاختاره فميّزه تعالى، فاصطفاه فجعله نبياً رسولاً إماماً... لا، بل هو "إبراهيم" تميّز عنّي بفكره ونفسيته وعمله، ولهذه الأسباب جعله تعالى نبياً رسولاً إماماً... فأنت عندما تختار من أشياءَ معروضة أمامك، ستختار ما تراه مميزاً، وهذا هو الاصطفاء، فهو "إبراهيم" كان مميزاً ولذلك اصطفاه تعالى، معطياً إياه صفةً معنويةً دينيةً، ومعاملةً خاصةً مميزةً.

أغلب الناس لا ينتبهون للدقة في موضوع اختياره تعالى لأنبيائه ورسله، وأحيلك إلى سورة الأنبياء التي لم يرد فيها كلمة "نبيٌّ" وكانت مخصصة للحديث عن الأشخاص المميزين، الذين بسبب تميّزهم عنّي بفكرهم ونفسيتهم، بقلبهم السليم، حيث رفضوا أي فكرةٍ عاطلةٍ فلم يخترعوا أي عقيدةٍ أو شريعةٍ... ورفضوا التماشي مع أي نفسيةٍ عاطلةٍ، فلم يحسدوا أو يتكبّروا... ورفضوا أي عملِ سوءٍ ولم يتركوا أي عملٍ واجبٍ... لهذه الأسباب اصطفاهم تعالى.

أمّا ما يقوله عامّةُ الناس: الله تعالى ميّزهم فجعلهم أنبياء، على معنى أنَّه كان يمكن أن يختارني كما أنا نبياً، فهذا غير صحيحٍ، لأنهم هم(ع) تميّزوا وعندها ميّزهم تعالى بالنبوةِ والرسالةِ والاصطفاء... مثلما رحمته تعالى عامةٌ للجميع، ولكن للمؤمنين رحمةٌ خاصةٌ، وللأشد إيماناً رحمةٌ أشدُّ خصوصيةً لهم، حيث يتواصل معهم تعالى، وهكذا بحسب إيماننا ننال رحمةً منه تعالى وبإرادتنا نبتعد عن رحمته تعالى إلى أن نصير تماماً تحت غضبه.

فيما يلي جوهر ولبّ ملّة النبي إبراهيم(ع):

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ{131})

{إذ قال له}، للنبي إبراهيم(ع)، {ربّه}، المسؤول عنه من مستوى إلهيٍّ: {أسلم}، كن منقاداً لأوامري بالكامل.

أجاب النبي إبراهيم(ع) وقال: {أسلمت}، أعلنت أني تحت إمرةٍ ومنقادٌ، {لرب العالمين}، للمسؤول من مستوى إلهيٍّ عن كل الناس.

حتى كلمةُ إسلامٍ التي حملها النبي محمّدٌ(ع) كوصفٍ لدينه، هي تراثٌ إلهيٌّ قديمٌ ممتدٌّ من النبي إبراهيم(ع)، والأساس لملّةِ النبي إبراهيم(ع) هو الإسلامُ لله تعالى، الانقياد له تعالى.

قد يخطر ببالنا سؤال: متى أمر ربنا سبحانه نبيه(ع) أن يسلم؟ فنحن لا نتصور أنَّ النبي إبراهيم(ع) كان نبياً حين أمره ربه أن يسلم، فما معنى أنَّ الشخص يكون نبياً ولم يسلم لربه!

ولكن لو انتبهت أنَّ النبي إبراهيم(ع) كان يعيش في مجتمعٍ قد انمحى فيه كلُّ شيءٍ إلهيٍّ، فلم يبقَ من شريعة النبي نوح(ع) أيُّ شيءٍ! والنبي إبراهيم(ع) فقط باتباعه لفطرته وصل إلى معرفة الله تعالى، ومن دون أيِّ تعليمٍ من أحد، ولذلك عندما نزل عليه الوحي بالأنباء منه تعالى صار وصفُه نبياً، وبعدها تعلّم(ع) الدين الإلهي بعقيدته وشريعته، وهكذا يمكننا تصوره بأنَّه(ع) في تلك الفترة الأولية من نبوته، قد أمره ربه سبحانه أن يسلم، أن يكون مطيعاً له بالكامل، وتعلّم أنَّ الإسلام الكامل لله تعالى هو ما يسمّيه تعالى بالدين، وهذا ما تريدنا الآية فهمه حتى نكون على ملّةِ "ثقافة عادات سلوك..." النبي إبراهيم(ع).

(وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ{132})
{ووصى بها إبراهيم بنيه}، ترك (ع) لأولاده "الإسلام له تعالى" كتعليماتٍ ليلتزموا بها، فوصَّى النبيينِ إسماعيل وإسحاق عليهما السلام "وعيسو وبقية أولاده (ع) وهم ليسوا مشهورين"، {ويعقوبُ}، وهو ابنُ النبي إسحاق(ع) ابنِ النبي إبراهيم(ع)، لأن الكلمة "يعقوب" مرفوعة بالضمِّ فهو فاعل لـ "وصَّى" وليس مفعولاً لها، فيعقوب(ع) وصَّى بنفس الوصيةِ لأولاده: النبي يوسف(ع) وبنيامين ويهوذا... فقال لهم مثلما قال النبي إبراهيم(ع) لأولاده:

{يا بنيَّ}، يا أولادي، {إن الله اصطفى}، انتقى اختار لكم شيئاً مميزاً وهو، {الدين}، فالأمور التي تسمّى "{الدين}"، ما تدينون به لإلهكم، فالتبعاتُ التي عليكم لإلهكم لأنكم مخلوقاته، قد اصطفاها تعالى لكم، فلم يخترها عبثياً أو عشوائياً أو أدخل فيها أموراً بلا قيمة أو فاسدة... لا، بل مجموع التبعات التي عليكم كونكم عبيداً له تعالى، مجموع التعليمات التي عليكم الالتزام بها والتي تسمّى "{الدين}"، قد اختارها لكم تعالى لأنها مميزة.

بعبارةٍ أخرى، فالتدينُ بدينه تعالى هو التزامٌ بشيءٍ مميزٍ جداً جداً لأنهُ سبحانه وتعالى هو الذي اختاره.

{فلا تموتن}، فلا تفارقوا الحياة، {إلا وأنتم مسلمون}، فاجتهدوا أن تموتوا وأنتم على حالة الانقياد لأوامره تعالى، على حالة الالتزام بدينه تعالى.

نلاحظ أنَّ إطلاقَ كلمةِ إسلامٍ على ملّة النبي إبراهيم(ع) وعلى الدين الإلهي لم ينقطع، بل حتى أبناء النبي يعقوب(ع) الذي يسمّى أيضاً إسرائيل، وينتسب له بنو إسرائيل، قد حملوا تسمية الإسلامِ للدين الإلهي.

بقي شيءٌ، فمن البديهي أنَّ النبي إسماعيل(ع) جدَّ النبي محمّدٍ(ع) أيضاً قد وصَّى أولاده بالإسلامِ، ولكن سياق الكلام هنا لا يناسبه الحديث عن هذا، حيث في فتراتٍ من التاريخ انقطع الإسلامُ عن الاستمرار في ذرية النبي إسماعيل(ع)، حتى كاد ينعدم وجود موحدٍ لله تعالى بينهم كما تعلم من تاريخ مكّة وساكنيها قريش المشركين الإسماعيليين، بعكس حالة بني النبي يعقوب(ع) ابنِ النبي إسحاق(ع) أخي النبي إسماعيل(ع)، لأن بني إسرائيل كان وضعُ التوحيد بينهم أفضلَ حالاً من بني النبي إسماعيل(ع) كما يبدو لك من التاريخ، حيث ترى وصول بني النبي إسماعيل(ع) بغالبيتهم في عهد النبي محمّدٍ(ع) إلى الشرك وعبادة الأصنام...

سترى من الآية التالية أنَّ السورة لا تزال في أجواء لفت انتباه الجميع، ولفت انتباه بني إسرائيل بالخصوص لأمورٍ تاريخية مرتبطة بأجدادهم الذين كانوا امتداداً للدين الإلهي، وفي مرحلة ما، كانوا كالمؤسسين من جديد للدين الإلهي بعد فترةٍ من فساد عموم غالبية الناس.

كلمة دينٍ استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، وليست اصطلاحاً مخصَّصاً كاسمٍ لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّصُ معناها، وهي عامةُ تبعاتِ شيءٍ ما على أحدٍ ما، فأنت مدينٌ لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعاتٌ عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدينٌ لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئاً ينفعك، ولهذا العمل تبعاتُ اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني فأنا مدينٌ له، لأن خلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعاً بسبب وساعةِ تبعات الخِلقةِ، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى

أكون أيضاً مديناً له تعالى بما رزقني... وأنا مدينٌ له تعالى بتوحيده... ومدينٌ له بالطاعة، ومدينٌ له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدينٌ له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة... ولدينا معنىً عميقٌ لكلمة دينٍ إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعاتٌ أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا الاختيار... وكلُّ ذلك شمله القرآن بكلمة {الدين}.

بالنسبة للآخرة فهناك نُدانُ بأعمالنا، فما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة {في يوم الدين} سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هو التعذّبُ بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. هنا في الدنيا أيضاً يوجد تبعاتٌ لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسباً بحكمته فقد يديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ{133})
{أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ}، هل كنتم يا أهل الكتاب حاضرينَ بأنفسكم تسمعون وترون، {إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ}، حين جاء وقت وحالة فقدان الحياة إلى يعقوب، ابنِ النبي إسحاقَ(ع) ابنِ النبي إبراهيمَ(ع)، وتتذكّر أنَّ النبي يعقوب(ع) له اسمانِ: يعقوب، وإسرائيل.

عندما كان(ع) في آخر أيام عمره، وصار في حالةٍ جسديةٍ تعبةٍ جداً جداً، وعلم أنَّه سيموت قريباً جداً، {إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ}، لأبنائه: {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي}؟ من هو الإله الذي ستعتبرون أنفسكم مفروضاً منكم طاعته؟ وكلمة عبدٍ تشير لمن مفروضٌ منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك. أمّا ما تعارفنا عليه بتسمية العبادة من صلاة ومناجاة... فهي من تطبيقات العبادة وليست حصريةً فيها لأنها شاملة لكل ما تطيعه به تعالى.

قال أبناؤه: {قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ}، جدِّكَ، {إِبْرَاهِيمَ}، وعمِّكَ، {وَإِسْمَاعِيلَ}، وأبيكَ، {وَإِسْحَاقَ}، عليهم السلام، فنتصرّف على أساس أننا عبيدٌ فمفروضٌ منّا طاعة الموصوف بالصفات الفائقة من مستوى إلهيٍّ لنفس الذي اعتقد به آباؤك.

نعبده، {إِلَهًا وَاحِدًا}، لا إله غيره، فلا نؤمن إلا به ككائنٍ له الصفات والقدرات الفائقة وأنهُ خلقنا ويملكنا... عملياً يعني سنطيعه وحده تعالى في التشريع والعقيدة وندعوه وحده كإلهٍ وننذر له... {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}، ونحن له منقادون مطيعون لأوامره.

أيضاً وأيضاً، الدين "الإسلامُ لله تعالى" انتقل من النبي إبراهيم(ع) ووصل إلى النبي إسرائيل(ع) شخصياً، ومنه إلى أولاده الذين صار اسمهم واسم أبناء أبنائهم... فيما بعد: بنو إسرائيل.

التراث اليهودي في التوراة وفي الكتب التي من مستوى الروايات والتأريخ اليهودي، نلاحظ فيها أنَّ موضوع وصية الأنبياء لأولادهم، وأولادهم لأولادهم وهكذا... لها حيّزٌ واضحٌ من الاهتمام، فلديهم كمٌّ كبيرٌ من هذه الوصايا، وفيما يسمّى بمخطوطات البحر الميت -ومحتواها بعضه مشابه للتوراة وبعضه زيادة عليها وبعضه مختلف- تجد فيها العديد من الوصايا المنسوبة للأنبياء.

لاحظْ ذكرَ النبيِّ {إِسْمَاعِيلَ}(ع) في الوصية، والذي مع مرور الزمن لم يعد يحظَ باهتمامٍ واحترامِ اليهود كنبيٍّ، ولا احترامِ المؤمنين والأنبياء من نسله، لدرجةِ إغفالِ ذكرهم كلياً من التوراة! بل لدرجةِ اعتباره واعتبارِ نسله درجةً ثانيةً لأنهم من أبناء الجارية هاجر، مقابل أولاد النبي {إِسْحَاقَ}(ع) ابنِ سارة، وهذا يريك جانباً من المرض النفسي بحبِّ التميّز والذي يجعله الناس من ضمن دينهم كعقيدةٍ.

إذاً، في أساس تشكّل بني إسرائيل من أجدادهم الأوائل، لدينا التزامٌ بدينه تعالى وليس بدينٍ خاصٍّ بهم، وبالنظر للحالة التي وصل إليها بنو إسرائيل كأصحاب دينٍ خاصٍّ بهم كأنهم هم محور الدين الإلهي ومنبعه ومصدره... بحيث فصلوا أنفسهم عن الدين الإلهي، كما في حالة كفرهم بهذا القرآن وبالرسول الناقل له رافضينَ الإيمان بهما؛ لأنهم لم يعودوا

يروا أنفسهم كامتدادٍ لدينه تعالى، بل كمتدينينَ بدينٍ خاصٍّ بهم، وليسوا مضطرينَ للتماشي مع القرآن والرسول الناقل له... الآية هنا وما سبقها يشيرون لهذا المعنى، فأنتم يا بني إسرائيل كان أجدادكم في الأساس على الالتزام بالإسلامِ لله تعالى، وما صرتم فيه من معارضة للرسل والكتب الإلهية يجعلكم خارجينَ من أصل وأساس دين أجدادكم، فلم تعودوا مسلمين حقاً.

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ{134})
إن كنتم يا بني إسرائيلَ تفتخرون بانتسابكم لهؤلاء الأطهار، فـ:

{تلك أمة}، تلك جماعةٌ من الناس تشترك في شيءٍ ما ولها امتدادٌ تاريخيٌّ، {قد خلت}، كانت موجودةً وذهبت تاركةً مكانها، {لها ما كسبت}، ما حصّلت عليه مما نتج عن أعمالها الصالحة أو الطالحة، {ولكم ما كسبتم}، لكم ما حصّلتم عليه مما نتج عن أعمالٍ جيدةٍ أو سيئةٍ قمتم بها أنتم، {ولا تسألون عما كانوا يعملون}، فلن نتوجّه لكم بطلب شيءٍ منكم عنهم، فلن نطلب منكم جواباً عمّا فعلوه عندما نحاسبهم ونحاسبكم.

لا علاقة لكم بما عملوه، وهنا الكلام بالخصوص عمّا عملوه من أمورٍ جيدةٍ أكسبتهم كرامةً عنده تعالى وحسنات، فأنتم لا نصيب لكم منها بأيِّ شكلٍ، ولا يوجد مبررٌ لكم لأي شعورٍ بالتميّز ولا لافتخاركم بالانتساب لهم على أساس أنَّ هذا الانتساب يكسبكم شيئاً ما من الأعمال الصالحة التي قام بها هؤلاء الأطهار.

انظر إلى ما تقوله الآية من عيون بني إسرائيلَ الذين يرون أنفسهم مميزين عن باقي الناس بانتسابهم ليعقوب ابنِ إسحاق ابنِ إبراهيم عليهم السلام، حيث هؤلاء شخصياتٌ مميزةٌ جداً، ولكن لا معنى لافتخار بني إسرائيلَ على بقية الناس بالانتساب لهؤلاء؛ لأن القاعدة الإلهية تفصل بين عمل الأشخاص، لأن تميّز الأجداد هو ميزةٌ لهم وليس لكم، وتميّزكم أنتم كأشخاصٍ سيكون له قيمةٌ فعليةٌ لكم إن تميّزتم بالإيمان والعمل الصالح.

نفهمها أكثر بمقارنتها مع الملوك ووارثي المناصب السياسية والاجتماعية والدينية... على أساس الإرث الذي يعتمد على نقل المنصب والأهمية من الأب لابنه لمجرد أنَّه ابنه، ونقله من الابن للحفيد وما يليه... فقط على أساس القيمة الاعتبارية للجدّ المؤسّس... فترى الملك يورّث مملكته لأبنائه... والرئيس يرث منصبه ابنه... والوزير... والنائب... وعالم الدين... فتنتقل مناصب الآباء لأبنائهم... من هذه العيون يرى بنو إسرائيلَ وراثتهم للدين الإلهي، على أساس أنَّها تحصيل حاصل لمجرد أنَّهم من نسل النبي يعقوب(ع)، ويتميّزون بذلك من دون بذل أي مجهودٍ لاستحقاق التميّز! هكذا تأتي آيتنا هنا وبكل صراحة لتدمّر هذا المفهوم الذي لا يتماشى مع القيمة الحقيقية التي يعطيها تعالى لكل شخصٍ بحسب ما كسب هو بنفسه لنفسه.

(وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{135})
بعدما بيّنت الآيات السابقة أنَّ القيمة الحقيقية للتدين هي الانتساب لملّةِ النبي إبراهيم(ع) بالإسلامِ لله تعالى:

{وقالوا}، وقال أهل الكتاب لعموم الناس ولعموم من آمن بهذا القرآن: {كونوا هوداً}، كونوا على دين اليهود، {أو نصارى}، على دين المسيحيين، {تهتدوا}، فتكونوا على الشيء الذي يوصلكم للغاية الصحيحة، على طريق الإيمان الصحيح، ولماذا اختراعكم لدين "الإسلامِ" كدينٍ جديدٍ؟

اليهود يقولون عن دينهم إنهُ الهدى والمسيحيون يقولون عن دينهم إنهُ الهدى، وهذا تفهمه لوحدك رغم جمع الآية للكلامين مع بعض، فلا اليهودي يعترف بصحة دين المسيحيين ليدعو الناس للانضمام للمسيحية، ولا المسيحيون سيروّجون للانضمام لدين اليهود، بل جماعة اليهود يقولون لكم كونوا هوداً تهتدوا، وجماعة النصارى يقولون لكم كونوا نصارى تهتدوا.

{قل}، أيها النبي محمد(ع) لهؤلاء عبر هذا القرآن: {بل ملة إبراهيم حنيفاً}، عقيدة وعادات وثقافة النبي إبراهيم(ع)، فقد كان مائلاً عن كل شيء ومتوجهاً فقط نحو الدين الإلهي، وهذا هو الهدى.

{وما كان}، النبي إبراهيم(ع)، {من المشركين}، فلم يجعل معه تعالى إلهاً آخرَ، لأنكم في دينكم يوجد مشركونَ بالله تعالى، كما تصفهم الآية 31 من سورة التوبة {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، فما علاقة هذا الشرك بالنبي إبراهيم(ع) أصلاً! وعندما تعطون نصائح دينيةً للآخرين على الأقل فليكن دينكم لا يتضمّن مشركينَ!

بعبارةٍ أخرى: ألستم تقولون لعموم الناس وللمسلمين أن يكونوا هوداً أو نصارى، واليهود والنصارى كلاهما عندهم أناسٌ يقولون بأنَّ لله تعالى ولداً! وكلاهما فيهما من يربّبُ القديسين... فماذا لو اتبع أحدٌ ما نصيحتكم وآمن بمذهب الذين جعلوا له تعالى ولداً! فهل كانت ملّة إبراهيم(ع) تقول بأنَّ الله تعالى عنده ولدٌ إلهٌ! أو بربوبية القديسين! هل الهدى فعلاً في اليهودية والمسيحية وهما يتضمنانِ ما يخالف توحيده تعالى؟!

عليك أن تضع في بالك نظرة اليهود والمسيحيين للمسلمين، فهذا القرآن لا يقول إنهُ دينٌ جديدٌ بل امتدادٌ لدينه تعالى منذ آلاف السنين، ومرَّ في فتراتٍ منه صار للمنتمين لدينه تعالى اسمُ اليهود وبعدها اسمُ النصارى "المسيحيين"، والعقيدة والتشريعات أساسياتها واحدة بلا خلاف "الحقّ والصلاح"، وهكذا نصير بنظرهما مجرد متطفلين على دينهم، ونحاول تقليدهما وهم الأصل، وسترى ذلك بوضوح عندما تميّز بين أساس دينهم في كتبهم وبين ممارسات عامة الناس وكلام علمائهم العاميِّ مع الناس، فهنا ستجد فرقاً لأن الصوم والصلاة والزكاة... ممسوخة، والتشريعات يستهترون بها... بينما في الأساس فمواقيتُ وحركات الصلاة متشابهة جداً، والصوم والزكاة هو نفسه، والتشريعات من حرمة الربا والزنا ووجوب الحشمة في اللباس... هو نفسه... وهكذا ترى أنَّهم يروننا كمتطفلينَ فضوليينَ عليهم.

من هذه النظرة تنقل الآية دعوتهم لنا للانضمام إلى دينهم بدلاً من اختراع دينٍ جديدٍ، ويردّ عليهم تعالى أنَّ تديّنهم انحرف عن دينه تعالى حتى في الشيء الأساسي وهو توحيد الألوهية والربوبية من مستوى إلهيٍّ، لأن بعض الجماعات منهم ألّهوا وربّبوا قديسيهم.

للأسف نواجه نحن المسلمينَ نفس المشكلة، فماذا تقول للآخرين حتى ينضموا للإسلامِ، ولأي مذهبٍ سينضمون؟ وماذا تجيب عن مخالفة صريح كلامه تعالى من كلِّ المذاهب بلا استثناء بسبب تقديسهم للروايات ولقائليها، وهو نفسه معنى تربيب اليهود والمسيحيين لقديسيهم مخالفينَ كلامه تعالى... ولا تقل بينك وبين نفسك أنَّ مذهبك خالٍ من مخالفات القرآن، فللأسف لا يا عزيزي، ولست أبالغ حين أقول لك أنَّ كل مذاهبنا بلا استثناء لديها في عقائدها وتشريعاتها وسلوكياتها ما يخالف صريح القرآن، وقد بحثت هذا الموضوع في كتابي "نحو فقه قرآني".

(قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ{136})
قولوا أيها المسلمون: {آمنّا بالله}، اعتقدنا بصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، كإلهٍ أحدٍ، {وما أنزل إلينا}، فقولوا آمنّا بالذي نزل إلينا من كتابٍ وهو هذا القرآن، {وما أنزل إلى إبراهيم}، مثل الذي نقلته الآيات السابقة عن الإسلامِ لله تعالى والصلاة والحج... وآمنّا بما نزل على الأنبياء: {وإسماعيل وإسحاق ويعقوب}، وآمنّا بما نزل على {الأسباط}، وهم العائلات التي تفرّعت من أبناء النبي يعقوب(ع) "إسرائيل"، حيث كان منهم الكثير من الأنبياء كيوسفَ وصموئيلَ وأشعياءَ ودانيالَ... عليهم السلام.

{وما أوتي موسى وعيسى}، فقد صار معهما منه سبحانه كتابا التوراةِ والإنجيلِ.

{وما أوتي النبيّون من ربّهم}، وقولوا أيضاً آمنّا بالذي وصل من المسؤول من مستوى إلهيِّ إلى النبيينَ وهم الأشخاص الذين يصلهم نبأٌ منه تعالى لهداية الناس، فهناك أنبياء آخرون نزل عليهم وحيٌ وكتبوه، كصُحفِ الأنبياء شيثٍ(ع) وإدريسٍ(ع) وداودَ(ع) ويحيى(ع)...

{لا نفرق بين أحد منهم}، كلهم عندنا بذاتِ المكانة النبوية، والاحترام والمحبة الإيمانية...

{ونحن له}، لله تعالى، {مسلمون}، منقادون مطيعون.

أنت تعلم من العديد من سور القرآن أنَّه لا يجوز للمسلمين أن يقولوا: أنا لدي مذهبٌ أو طائفةٌ أو جماعةٌ غير بقية المسلمين. كمثالٍ عن ذلك الآية 105 من سورة آل عمران: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُم عَذَابٌ عَظِيمٌ}، وهنا في الآية لدينا نظرةٌ أوسعُ، حيث لا يجوز أصلاً أن يقول أي متدينٍ بدين الله تعالى إنَّه غير بقية المتدينين. عندما قالوا: {كونوا هوداً أو نصارى} جعلوا في دين الله تعالى فِرقاً ومجموعاتٍ مختلفة عن بعض، وهذا غير موجود في دينه تعالى، وغير مسموح به، وقد اعتدنا القول: الديانات السماوية ثلاث وهي: اليهودية والمسيحية والإسلام. ولكن القرآن لا يقبل بهذه التفرقة؛ لأن الدين واحدٌ، وبالنسبة للقرآن فهي أسماءٌ مختلفة حملها المؤمنون بدينه تعالى في أزمنة مختلفة وكلّهم على دينٍ واحدٍ، وهو الإسلام، الانقياد لله تعالى.

كما ترى، تنهانا الآيات عن تقليد اليهود والنصارى حيث فصلوا الدين الإلهي الأساسيَّ عن دينهم، وصار لهم دينٌ خاص بهم مقابل الدين الإلهي الممتد عبر التاريخ، ضع هذا في بالك دائماً لأن القرآن ركّز عليه، ودائماً لفت الانتباه لانقطاع الأديان الأخرى عن الامتداد التاريخي، فلتلك الأديان بدايةٌ في التاريخ وجديدةٌ ولا امتداد عميق لها. أمّا دينه تعالى فقد ذكره القرآن صراحة من عهد آدم(ع) كأوّلِ شخص من البشر تأهل ليتكلّف، ومن بعده أقوام فيهم رسل وصولاً إلى النبي نوح(ع)، ومن هناك مروراً بسلسلةٍ من الأنبياء... مروراً بالنبي إبراهيم(ع) وبمن أشارت إليهم الآية... وصولاً إلى النبي محمّد(ع)، وهذا بعكس انقطاع إيمان اليهود والمسيحيين عن الاستمرار بالإيمان بالأنبياء، فدينه تعالى يتضمّن الإيمان بكل ما سبق ونزل.

بقي شيءٌ، فهل إعلاننا الإيمان بما نزل على الأنبياء السابقين يكون تطبيقه العملي أنَّ ما نزل عليهم متوافرٌ بين أيدينا وقرأناه؟ لا، والآية هنا تأمرك أن تعلن امتداد دينك للخط المشهور بهؤلاء الأشخاص، فأنت على دينهم وامتدادٌ لهم ولما في كتبهم لأنه لا تغيّرَ في دينه تعالى، إلا اللهم ما ندر من تفصيل ما في بضعةِ تشريعات.

(فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{137})

أولئك الذين قالوا لكم أنْ تكونوا على ملة اليهود أو ملة النصارى، {فإن آمنوا}، فاعتقدوا {بمثل ما آمنتم به}، وهي الأمور التي ذكرتها الآية السابقة، {فقد اهتدوا}، فقد صاروا على الشيء الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، فصاروا على الطريق الإلهي الصحيح، {وإن تولوا}، فتوجّهوا عن هذا الإيمان باتجاه الإيمان بشيءٍ آخرَ، {فإنما هم في شقاق}، في افتراقٍ في انقسامٍ في ابتعادٍ عن الهدى الصحيح.

{فسيكفيكهم الله}، فلست بحاجة للتعامل معهم، فسيرد تعالى على أقوالهم، وسيفشل مخطَّطهم ضدّ المؤمنين، وسيحاسبهم في الآخرة. يبدو الأمر وكأنَّ الله يمنح المؤمن "ضمانة كفاية" شاملة؛ أنت انشغل بالبلاغ، ودع "تسيير الحسابات" لخالق الأكوان.

والله هو {السميع}، يسمع كل شيء، وبالتحديد هنا، فسبحانه يسمع ما يقولونه لك عن الهدى...

والله {العليم}، يعلم كل شيء... وهاتان الصفتان تعنيان بأنَّ هؤلاء الناس تحت المراقبة الإلهية، وسيتولى الإله موضوع التعامل معهم، فلا تهتم بهم أيها الرسول(ع)، وأكمل مهمتك في التبليغ والإنذار.

(صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ{138})

{صِبْغَةَ اللَّهِ}، هذا هو اللون الإيماني الذي يريدنا تعالى الانصباغَ به، حيث الإيمانُ بما مرّ من أنبياء وكتبهم هو التلوّنُ بدينه تعالى، {وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً}؟ وإذا هدانا صاحب الاسم المحدّد له والمميّز "الله" تعالى لننصبغَ لنكون مصبوغينَ لنكون ملوّنينَ بملّةِ النبي إبراهيم(ع) وبقية الأنبياء، فهل هناك صبغةٌ أحسنُ من هذه! هل هناك صابغٌ أحسنُ من الله تعالى حتى نتبع صبغته؟

أنت تعلم أنَّ الصبغة تشير للعناوينِ الوصفية، لما نسميه بالعقيدةِ والتصرفات، فتكون عقيدتنا وسلوكياتنا منسوبةً له تعالى، ونتصرف كما يأمر تعالى، وهكذا يصير وصف حالنا أنَّنا مصبوغونَ بالتصرّفِ الذي ينتمي لدينه تعالى. كما

تصف الناس على الصبغة بحسب لباسهم وهندامهم، قائلاً: هذا متديّنٌ متزمّتٌ، وذاك متدينٌ مذهبيٌّ، والآخر غير محتشمٍ... وهكذا الوصف هنا، والآية ما قبل السابقة بكلامها عن الإيمانِ بالأنبياء على أساس أنَّهم نفس الصبغة مع اختلاف الأشخاص والأسماء والأزمنة، ونحن كمؤمنينَ فعلى نفس الصبغة.

{وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ}، نتصرّف معه فقط على أساس أنَّهُ وحده تعالى مفروضٌ منّا طاعته، فلا نشرك به مثلما أشركتم عندما قال بعضكم إنَّه تعالى عنده ولدٌ واعتبر نفسه عبداً لذاك الولد، أو نشرك به عندما نطيعكم في دينٍ من تحويركم وخرافاتكم لتكونوا بذلك أرباباً شركاء لله تعالى في تصبيغ عقائد الناس.

(قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ{139})
{قل}، أيها النبي(ع) لهؤلاء عبر هذا القرآن:

{أتحاجوننا في الله}، هل تتحدثون معنا على أساس أنَّ معكم برهاناً قوياً عن الإيمان الصحيح بالله تعالى على الطريقة التي تقولونها، {وهو ربنا وربكم}، ليس المسؤول عنكم من مستوى إلهيٍّ لوحدكم بل مسؤولٌ عنّا أيضاً، من المعلوم أنَّ الله تعالى ليس ربّكم لكم لوحدكم حتى تتحدثوا بطريقةٍ حصريةٍ عن ربوبيته تعالى لكم لوحدكم، وعلى هذا الأساس تتحدثون معنا وكأنَّ كلَّ شيءٍ تقولونه أنتم يكون حجةً، وهو صحيحٌ وبرهانُه فيه!

نحن لسنا دخلاءَ غرباءَ وأنتم الأصليونَ، لأنَّ ربوبيته تعالى ليست حصريةً لكم وكأنها ملكٌ خاصٌّ لكم وكأننا شيءٌ غريبٌ ونتدخّل في شيءٍ لا علاقة لنا به. وانتبه جيداً لهذا المعنى الذي طرحته الآيات السابقة عن شعور اليهود والنصارى أنَّ المنتمين لهذا القرآن دخيلونَ متطفلونَ على دينهم وأنهم هم الأصليونَ.

نكمل الكلام: {ولنا أعمالنا}، التي سنتحاسب عليها بالثواب أو العقاب أمام ربّنا سبحانه، {ولكم أعمالكم}، التي ستتحاسبون عليها بالثواب أو العقاب أمامه سبحانه، هكذا نكون كلينا أمام نفس الإله سبحانه متساويينِ ولا قيمة لنا إلا بأعمالنا.

{ونحن له مخلصون}، ولا نتبع غيره بل نعتبر أنفسنا تابعين له تعالى فقط، فسبحانه ليس إلهنا الخاص، بل نتقرّب منه ونخلص له عبادتنا حتى ينظر إلينا ويعطينا قيمةً.

(أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ{140})
أنتم الذين قلتم للمسلمين: {كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا}، فبأي حجةٍ قلتم هذا الكلام!

{أَمْ تَقُولُونَ}، أأنَّ الأنبياء، {إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ}، عليهم السلام، وتقولون أنَّ، {وَالْأَسْبَاطَ}، والمقصود الأنبياء والصالحون الذين كانوا من سبطِ (من أبناء) يعقوب: إسرائيل. فهل أجدادكم هؤلاء، {كَانُوا هُودًا}، من اليهود، {أَوْ نَصَارَىٰ} من المسيحيين؟!

أنتم تدعوننا لدينكم الخاص! لأنَّ كلَّ هؤلاء كانوا على دينٍ واحدٍ، وهو الإسلام لله تعالى، ولم يخترع أيُّ واحدٍ منهم ديناً خاصاً به، وإن كنتم تعترفون بأنهم أنبياء لله تعالى، فهل كان أيُّ واحدٍ من هؤلاء يهودياً أو نصرانياً! لا، لأنَّ هؤلاء الأنبياء (والصالحين) وغيرهم الكثير قد كانوا قبل النبيينِ موسى وعيسى عليهما السلام! فإذا كانت الهداية فقط بالانتماء لليهودية أو النصرانية فهذا يعني أنَّ هؤلاء لم يكونوا مهتدين!

{قُلْ} لهم عبر هذا القرآن: {أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ}؟ الدين لله تعالى، فهل أنتم تعلمون الدين الصحيح أكثر من الله تعالى "صاحب الدين" حتى تقولوا أنتم لنا وتعلموننا عن الدين الصحيح! لأنَّ هؤلاء الأنبياء كانوا على دينه تعالى، فهل أنتم لديكم دينٌ نابعٌ من علمكم وهو أفضلُ من دينه تعالى الذي كان عليه هؤلاء الأنبياء؟!

{وَمَنْ أَظْلَمُ}، ومن هو أشدّ ظلماً وبدون إنصافٍ وعدلٍ، {مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ}، فمن هو الشخص الأشدّ ارتكاباً للظلم من الشخص الذي أخفى ما علمه من الله تعالى ولم يُبْدِهِ، ممن شهد أنَّ دين أنبياء الله تعالى كلُّه واحدٌ بلا فرقٍ بينهم، ورغم ذلك كتم هذه المعلومة مخفياً لها! حتى لا يعترف بنبوة محمّدٍ(ع) وحتى يقول له(ع): لن نتبعك لأننا على دين الأنبياء السابقين، والدين اليهودي أو المسيحي هو الصحيح، ودينك غير صحيح...

{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}، وعموم ما تقومون به لا يجري من دون انتباهه تعالى له، بل يراقبكم سبحانه فيسمع ويرى ما تعملون. يعني سيحاسبهم تعالى على ما يعملون؛ لأنَّ التلاعب بالكلام وكتم الشهادة وتركهم اتّباعَ النبي محمّدٍ(ع)... هذا كلُّه يتابعه سبحانه، فانتبهوا من عقابه.

لاحظ سهولة انطباق كلام الآية على المذاهب والطوائف التي اخترعها الناس لتميزهم عن الآخرين ضمن دينه تعالى، فهل النبي محمّدٌ(ع) كان معتزلياً أو أشعرياً أو شيعياً أو سنياً حنبلياً أو شافعياً... وغالبيتهم يدّعون ذلك بشكلٍ ما ناسبينَ للنبي أحاديث تؤيد مذهبهم متعامينَ عن الأحاديث التي ينسبها الآخرون للنبي وتؤيد مذهبهم، ولم يروا أنهم كلُّهم على الخطأ في اختراع مذهبيةٍ متميزةٍ بالفقه والعقيدة ولباس علماء الدين ولباس المتدينين وشكل حلق اللحية والشارب والفرق بالتكتّف أثناء الصلاة والفرق في الأذانِ... والعديد من الفروقات المذهبية التي سيتحاسب الجميع عليها بدون استثناءٍ.

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{141})
{تِلْكَ أُمَّةٌ}، تلك جماعةٌ من الناس تشترك على شيءٍ ما ولها امتدادٌ تاريخيٌّ، {قَدْ خَلَتْ}، كانت موجودةً وذهبت تاركةً مكانها، {لَهَا مَا كَسَبَتْ}، لتلك الأمة ما حصّلت عليه مما نتج من أعمالِها الصالحةِ أو الطالحةِ، {وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ}، لكم ما حصّلتم عليه مما نتج من أعمالٍ جيدةٍ أو سيئةٍ قمتم بها فهو لكم، {وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، ولن نتوجّه لكم بطلب شيءٍ منكم عنهم، فلن نطلب منكم جواباً عمّا فعلوه عندما نحاسبهم ونحاسبكم.

مثلما المؤمنون بهذا القرآن والرسول الناقل له، لهم أعمالهم ولكم أعمالكم، حيث الجميع متساوونَ بالمحاسبة أمامه سبحانه، فأيضاً لا علاقة لكم بما فعله أجدادُكم(ع)، وهنا الكلام بالخصوص عن حصرية الانتماء لله سبحانه بناءً على حصرية الانتساب لأجدادٍ من الأنبياء، فهذا لا يعني حصريةَ الربِّ سبحانه لكم، وأصلاً أجدادكم لم يكن الربُّ سبحانه حصرياً لهم، وإنما مقياس الانتساب له تعالى هو ما تعملونه، فإن كان ما عمله أجدادكم سبَّبَ تميُّزَهم عنده تعالى فهذا التميُّزُ خاصٌّ بهم ولا علاقة لكم به، وتميُّزكم أنتم ينتج عمّا تكسبونه أنتم من أعمالكم.

نلاحظ أنَّه التنبيهُ للمرة الثانية في السورة للفصل بين فضل وشرف الأمم الطاهرة من الأنبياء السابقين من جهة، وبين الحاضرين من اليهود وبني إسرائيلَ والمسيحيين، وقد ورد نفس الكلام من قبل في هذه السورة في الآية 134، ولكن لسببٍ مختلفٍ قليلاً.

(سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{142})
بعدما بيّنت السورةُ فيما سبق من كلامٍ طويلٍ أنَّ هذا القرآن وهذا الرسول(ع) الناقل له، هما امتدادٌ لدينه تعالى، وبعدما عرّجت السورة فيما سبق من كلامٍ على الكعبة التي في مكة وربطتها بـ النبيينِ إبراهيم(ع) وابنه النبي إسماعيل(ع)... وبعدما أطالت الكلام مع بني إسرائيل بالخصوص ومع عموم اليهود وأهل الكتاب لتنبّههم لأمورٍ عديدةٍ... دخلت السورة الآن في موضع القبلة:

{سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ}، وتذكّر أنَّ السفاهة تتدرّج من البساطة في العقل، إلى اختيار ترك استعمال العقل، وهذا ما نسمّيه بتعبيرنا الدارج: سخيفٌ. وهم من تقصدهم الآية هنا، وبهذا التعبير الدارج تصير الآية هكذا: سيقول السخفاءُ من عموم الناس الذين لا يتماشون مع ما يقوله هذا الدين الإلهي، من اليهود والمسيحيين والمشركين والمنافقين والفاسقين:

{مَا وَلَّاهُمْ}، ما الذي جعل المسلمين يتّجهون باتجاهٍ آخرَ، {عَنْ قِبْلَتِهِمُ}، عن المكان الذي كانوا يقبلون عليه، عن الاتجاه الذي يجعلونه قبالتهم أمامهم، وتعلم أنَّ السؤال عن الاتجاه الذي يتوجه إليه المسلمون في الصلاة، فما الذي غيّرهم عن الاتجاه السابق إلى اتجاهٍ جديد؟

من المشهور في كتب التاريخ أنَّ المسلمين كانوا يتوجّهون باتجاه بيت المقدس الذي في فلسطين عندما يصلّون، فبيت المقدس كان القبلة للمسلمين لأكثر من عشر سنوات، ولكن فيما بعد، نزل الوحي الإلهي على النبي محمد(ع) وأمره بالتوجّه نحو الكعبة التي في مكة أثناء الصلاة... وبعد ذلك نزلت سورتنا هذه لتتحدث عن سبب تحويل القبلة، وعن قصة القبلة الجديدة وعلاقتها بالنبي إبراهيم(ع)...

{قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}، قل لهؤلاء السفهاء عبر هذا القرآن: الجهة التي تبزغ فيها الشمس عند الصباح والجهة التي تسقط خلفها الشمس قبل المساء كلاهما لله تعالى، وبأيِّ اتجاهٍ أمرنا تعالى أنْ نتّجه أثناء الصلاة فسنتّجهُ إليه تعالى؛ لأن جهات الشروق والغروب وما بينهما صمّمها وخلقها سبحانه، فمن السفاهة استغرابُ تحويل القبلة بأمرٍ إلهيّ من بيت المقدس إلى الكعبة، وكأنه تعالى محصورٌ باتجاه بيت المقدس ولا يستقبل صلوات من اتّجهَ باتجاهٍ آخرَ! وهذه هي السفاهة.

والله تعالى، {يَهْدِي}، يضع على الشيء الصحيح الموصل للغاية الصحيحة، {مَن يَشَاءُ}، فمن بين الخيارات العديدة هناك أناسٌ يحدّدهم تعالى ليهديهم، {إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}، إلى طريقٍ أساسيٍّ، يوصف بأنَّه على الأحسن ولا اعوجاج ولا انحراف فيه. الاتجاه الذي يريده سبحانه حالياً للمصلين هو باتجاهِ الكعبة، وتنفيذ أوامره سبحانه هو الصراط هو الطريق الذي ليس فيه ميلانٌ ولا اعوجاجٌ عن الحقّ، وعندما أمر تعالى المسلمين بالتوجه إلى الكعبة فهذا التوجه هو العمل الصحيح، ومن يلتزم به يكن على الصراط على الطريق الإيماني الأساسي الذي لا اعوجاج فيه. هذا التعبير نفهم معناه عندما تسمع اتهاماً ببطلان الصلاة لأن الوجهة (القبلة) غير صحيحة، فيأتي الوصف لهذه الحالة أنَّ المتوجهين على مكة في صلاتهم هم على الصراط المستقيم في ذلك.

لاحظ وانتبه إلى أنَّ بعض الناس يعلقون على القشور، ولا يرون اللبّ، فإذا قال سبحانه بأنَّ الاتجاهات ليس لها أهمية إلا عندما يحدّدها سبحانه، وإذا أمرك بالتوجّه إلى جهةٍ محددةٍ أثناء صلاتك فهذا لا يعني أنَّه تعالى لا يستقبل الصلاة من جهةٍ أخرى إن أمرك بالتوجّه إليها؛ لأن المسألة اعتباريةٌ، ولا قيمة للاتجاه إلا لأنَّه تعالى أمرك بالتوجّه نحوه، وبعض الناس سفهاء، فتفكيرُهم سخيفٌ ولا يفهمون ذلك، وهذه النوعية من الناس لا يهتدون بهداه تعالى، بل يصرّون على ما يرونه مهماً ولا يفهمون لبّ كلامه تعالى.

عندما قالت الآية إنَّه تعالى يهدي من يشاء، كانت تشير لكون السفهاء خارجينَ عمن يهديهم تعالى، حيث الذي استسخف نفسه وصار فكره تافهاً، ولم يعد يفهم الكلام العقلاني، فكيف سيهتدي ويرتقي لمستوى كلامه تعالى؟ وكيف سيفهم أن تغيير القبلة شيءٌ اعتباريٌّ؟ وأنَّه سبحانه كل الاتجاهات له، وهو يحدّد اتجاه قبلتنا بما يراه مناسباً؟

أطلت عليك الكلام لأنَّه تعالى ليس مزاجياً ليختار هذا ويهديه ويترك ذاك ضالاً، فهذا ليس معنى {يَهْدِي مَن يَشَاءُ}، وصار واضحاً أمامك أنَّه تعالى صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا مع حرية الإرادة والاختيار، ونحن بهذه المساحة الممنوحة لنا نختار الإيمان أو الكفر، ومن اعتاد على الأفكار السخيفة متماشياً معها ولم يرفضها... حتى صار سفيهاً، فهذا بقراره اختار ألا يهتدي، ولن يفهم موضوعاً دينياً عادياً كمسألةِ تغيير القبلة، وسيرفضها، وهو شخص ليس على صراطٍ مستقيمٍ، وليست أفكاره متماشية مع الطريق الأساسي، ويضيع ويتوه في الزواريب والمفارق الصغيرة.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{143})

{وَكَذَلِكَ}، بأمرنا لكم بتحويلِ القبلةِ باتجاهِ الكعبةِ، {جَعَلْنَاكُمْ}، أيها المؤمنون، {أُمَّةً}، جماعةً من الناس لها امتدادٌ تاريخيٌّ على شيءٍ مشتركٍ، وهنا الكلام عن التزامكم بالدين الإلهي، {وَسَطًا}، بين الأمم فلا تميلون إلى أيٍّ منها بل وسطاً بين الجميع؛ لأنَّ قرار تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة جعل المسلمين لا على قبلة اليهود "بيت المقدس" ولا على قبلة النصارى الذين بعضهم قبلته بيت المقدس وبعضهم قبلته جهة شروق الشمس، بل على قبلةٍ صلّى عليها النبي إبراهيم(ع)، النبي المعترف به من الجميع بأن ملته هي ملةٌ إلهيةٌ، فإن كان النبي إبراهيم(ع) قد توجه إلى الكعبة، عندها من المفروض أن تصير الكعبة قبلةً وسطيةً ترضي الجميع.

{لِتَكُونُوا}، أيها المؤمنون بدينه تعالى، {شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ}، على أساس أنكم وصلكم مباشرةً عبر هذا القرآن أمرٌ إلهي بتغيير القبلة للكعبة، وعملياً ففي يوم القيامة تدلون بشهادتكم مؤكدينَ أمامه سبحانه أنَّ التبليغ الإلهي قد وصلكم ووصل إلى الجميع عبر هذا القرآن... {وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}، فهو بنفسه قد شهد وصول الأوامر الإلهية إلى الجميع عبر هذا القرآن، وعملياً ففي يوم القيامة أيضاً يكون(ع) شاهداً على التزامكم أو تكذيبكم لأمرٍ إلهيٍّ صريحٍ ومباشرٍ.

ننبّه دائماً فالآيةُ قالت بأنَّه سبحانه {جعلكم} شهداء... وهذا لا يعني أنَّ كلَّ المسلمين شهداء، لأنَّ فيهم الفاسق والمنافق، ولذلك سيكون الرسول(ع) أيضاً شهيداً على الجميع ومن ضمنهم "المسلمون" بأنه(ع) بلّغهم رسالة ربه سبحانه.

{وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا}، ولم نجعل الاتجاه الذي كنت مقبلاً عليه، الذي تجعله قبالتك أمامك وأنت تصلّي، ومن سياق الكلام ستعلم أنَّ النبي محمداً(ع) كان في البداية يصلّي باتجاه بيت المقدس الذي في فلسطين، ولم يجعله تعالى يتّجه إلى بيت المقدس {إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ}، يتبع الرسول بما ينقله من أوامر ربه سبحانه، ليعلم تعالى من ليس عنده مشكلةٌ في اتباع الأوامر التي تصله عبر هذا الرسول(ع).

بتحويل القبلة من بيت المقدس للكعبة سيظهر من يتبع الرسول(ع)، {مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ}، من الذي يصير بالمقلب الآخر، بالاتجاه الآخر، فيرجع إلى الكفر أو النفاق. هو امتحانٌ إلهي ليعلم سبحانه من سيطيع الرسول(ع) ويبقى على تديّنه من بعد تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة.

{وَإِنْ كَانَتْ}، أي عمليةُ تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، {لَكَبِيرَةً}، صعبةً وأكبرَ من قبولها، {إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ}، فالذين هم على الشيء الإلهي الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، ليس عندهم مشكلةٌ في التحوّل للقبلة الجديدة.

تذكّر أنَّ الأمر بتحويل القبلة قد نزل وحياً كأمرٍ على الرسول(ع) قبل نزول هذه السورة، وهنا السورة تتحدث عن الأسباب لتغيير القبلة، وتنبّه أهل الكتاب أنه سبحانه حدّد لهم القبلة وهو نفسه قد غيّرها الآن، فلنفسِ السبب الإيماني الذي جعل قبلتهم باتجاه المشرق أو بيت المقدس، فهو نفسه السبب الذي من المفروض أن يجعل قبلتهم نحو الكعبة.

من المناسب هنا التذكّر من كتب التاريخ أنَّ الكثير من القرى والمجتمعات يجعلون شيئاً مقدساً مميزاً خاصاً بهم لوحدهم، ومسألة القبلة من الأشياء التي تسبب التنازع بين الناس، حيث الكعبة في مكة، ومكة فيها قبيلة قريش التي تفتخر على بقية الناس بالكعبة... ولهذا السبب اخترعت قبيلة ثقيف كعبةً خاصةً بها في مدينة الطائف! واخترع ملك الحبشة "أبرهة" كعبةً في اليمن! وغيرهم من القرى اخترعوا أماكنَ مقدسةً... ونتذكر أنَّ المسيحيين ولشدة ما عانوا من التعذيب والاضطهاد من اليهود في بدايتهم، لهذا تركوا التوجه إلى بيت المقدس وأعلنوا الشرق قبلةً لهم، ونتذكر أنَّ الآيات هنا كانت بشكلٍ غالبٍ تتحدث مع بني إسرائيل، الذين قبلتهم بيت المقدس... إذا تذكّرت كل هذا ستعرف كم هي حساسيةُ التحوّل في الصلاة من قبلةٍ إلى قبلةٍ أخرى عند هؤلاء الناس، طبعاً إلا الذين هدى الله تعالى، فهؤلاء يعلمون أنها مسألةٌ اعتباريةٌ، وأنه تعالى يعتبرها بما يراه مناسباً ولا مشكلة عندهم مع أي اتجاهٍ طالما سبحانه أمر به.

{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}، ومستحيلٌ أن يتقصّد سبحانه أنْ تفقدوا اعتقادكم بدينه، وهذه قاعدةٌ عامةٌ والكلام هنا عن تحويل القبلة حيث لم يقصد منه تعالى ألا يعجبكم لتتركوا دينه، فسبحانه لا يفعل هذا، {إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ}، ليس صلباً قاسياً، فيقدّر حالة الضعف عند المؤمنين ولا يركّز عليها ليؤذيهم، {رَحِيمٌ}، لديه عنايةٌ خاصةٌ للمؤمنين بما فيه

مصلحتهم، فالذين إيمانهم حقيقيٌّ لن يضيع إيمانهم وسيتبعون الرسول(ع)، أمّا السفهاء، المتعلقون بالأمكنة والاتجاهات، فستظهر حقيقتهم كمنافقينَ وفاسقينَ ويتركون الرسول(ع).

إن خطر ببالك أنه تعالى لم يكن يعلم من سيتبع الرسول(ع) ومن سيتركه عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، عندها عليك بالانتباه لكل الآية، لأن آخرها قال إنه تعالى لا يضيع إيمانكم، فإذا كنت مؤمناً فسبحانه لا يريد جعلك كافراً أو منافقاً... ولكن إن كان بين الذين أعلنوا الإيمان يوجد كفّارٌ أو منافقون أو فاسقون فلن نعلمهم وسنظن أنهم يتبعون الرسول(ع)، وكيف سنعلمهم؟ عبر تحويل القبلة سنعلم قسماً منهم، وسيعلمهم الله تعالى، وسيجعلهم سبحانه يظهرون على حقيقتهم، فقبل الاختبارات كانت هذه النوعية الرديئة من الناس تبدو مؤمنةً، ولكن بهذا الامتحان يظهرون على حقيقتهم، ويعلم تعالى بشكلٍ علنيٍّ من هو مؤمنٌ حقيقيٌّ، ومن لن يتحمّل أوامره تعالى.

بعبارةٍ أخرى، فالامتحاناتُ الإلهية لا تغيّر المؤمن، فلا تجعله ينحرف، إنما تجعل الأشخاص يظهرون على حقيقتهم، وإذا كان الله تعالى يعلم كل شيء، ويعلم كل ما سأفعله، عندها لماذا أمضي الوقت في الدنيا، فمن الأساس فليخلقني تعالى وليرمني في الجنة أو في النار. هل هذا منطق؟ لا، لأنك لو دخلت النار ستقول: لم أفعل شيئاً! فلماذا تعذبونني! ولن تقبل أنه بعلمه تعالى بالغيب علم أنك ستكون فاسقاً مستحقاً للخلود في النار فخلقك مباشرةً هناك... لأنَّ هذا التصرف ليس حكيماً، ولذلك خلقك سبحانه هنا في الدنيا مع الفرصة الكاملة لتكون مستحقاً للجنة، وامتحنك، "{لِيَعْلَمَ}" ماذا ستفعل، مع أنه عزّ وجلّ يعلم سلفاً ماذا ستفعل.

(قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ{144})
ما زلنا في أجواء الحديث عن تغيير القبلة وأسبابه وتبعاته، ونتذكر دائماً أنَّ تغيير القبلة قد حصل بأمرٍ إلهيٍّ بالوحي إلى النبي محمّدٍ(ع) قبل أن تنزل هذه الآيات:

أيها النبي محمد(ع): {قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ}، فحصول صورةٍ محددةٍ عن حالة تقلب وجهك من منقلبٍ من جهة، إلى منقلبٍ آخرَ إلى جهةٍ أخرى في السماء، فهذه الصورةُ المحددةُ متحققةٌ عندنا، فلسنا غافلين عنها، ومن سياق الكلام نفهم أنَّه(ع) كان يتعرض للمضايقة الشديدة من اليهود (والنصارى وعموم المشركين والمنافقين) الذين لا يعترفون بدينه ويعتبرونه متطفلاً على الدين والإله الخاص باليهود والنصارى... واليهود يتفاخرون عليه(ع) لأنه يصلي باتجاه قبلتهم...

أحياناً عندما كنت تتضايق منهم بسبب توجهك في أثناء الصلاة باتجاه بيت المقدس، كنت تقلّب وجهك في السماء، فمرةً تنظر لهذه الناحية ومرةً لتلك الناحية من السماء؛ لأنك تعلم أنَّ كلَّ الاتجاهات تصلح لتكون قبلةً لأنها كلها لله تعالى، وأصلاً وجهه تعالى ليس محصوراً بجهةٍ محددةٍ... وكنت تنتظر منه تعالى الأخذَ بعين الاعتبار ما يحصل معك من مضايقات، لأنك بالصلاة ذات الحركات والمواقيت المشابهة لصلاة اليهود وبالتوجّه نحو قبلتهم، تبدو وكأنك متطفّلٌ على دينهم ودخيلٌ... وهذا ما كانوا يقولونه عنك... وأنت لم تكن تعلم أنَّ التوجه لبيت المقدس مؤقتٌ، وأنه سبحانه تركها قبلةً حتى يحين الوقت المناسب لتغييرها.

{فَلَنُوَلِّيَنَّكَ}، فلسوف نوجّهك، فلنجعلنك تتوجّه لـ {قِبْلَةً تَرْضَاهَا}، لاتجاهٍ لجهةٍ تصير قبالتك، تقبلها بسرورٍ لأنها تعجبك، {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، فتوجّه بوجهك ناحية اتجاه المسجد الحرام، وهي الباحة حول الكعبة التي في مكة، وأصل معنى كلمات جملة "المسجد الحرام" هو: مكان السجود الذي تُحرمُ فيها بعض الأمور، حيث توجد أشياءٌ ممنوعٌ القيام بها أثناء التواجد فيه. هذا الوصف صار اسماً للباحة التي حول الكعبة التي في مدينة مكة، وهي باحةٌ كبيرةٌ وتمتد حتى الصفا والمروة، وزمزم... ولأن الكعبة لها صفة: بيت الله؛ فالباحة حولها لها حرمةٌ واحترامٌ، ولذلك يقال لكل الباحة: المسجد الحرام، أي الذي له حرمة، لأنه باحة بيت ربنا سبحانه. هناك ممنوعٌ الصراخ والجدال والكلام بأيِّ شيءٍ خارج العبادة بسبب حرمة المكان، والمسموح هو العبادة والدعاء والمناجاة فقط.

ننبّه لتعبير الآية حيث القبلة ليست بناء الكعبة فقط، بل كل المسجد الحرام، وانتبه أيضاً أنَّ صورة البناء مع قبّةٍ ومئذنةٍ التي التصقت في ذهننا كمعنىً لكلمة مسجد فهي غير صحيحة؛ لأن كلمة مسجد عامةُ الانطباق على أيّ بقعةِ أرضٍ سواء أكانت جرداء أم عليها بناء... طالما هي مكانٌ مخصصٌ للعبادة.

{وَحَيْثُمَا كُنتُمْ}، وأينما كنتم أيها المؤمنون، {فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}، فوجّهوا وجوهكم أثناء الصلاة باتجاه المسجد الحرام، فهذا الأمر بتحويل القبلة إلى الكعبة موجّهٌ للجميع، ولم يعد يحقّ لكم كمؤمنينَ بدينه تعالى التوجّه في الصلاة إلى قبلةٍ غير المسجد الحرام.

{وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، الذين وصلهم منه سبحانه كتاب، {لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ}، يعلمون أن التوجه إلى المسجد الحرام حقٌّ صوابٌ، وليس باطلاً، {مِن رَّبِّهِمْ}، من المسؤول عنهم من مستوى إلهيّ؛ لأن المسجد الحرام من الأماكن المحترمة عند الله تعالى وفيها أول بيتٍ وضع للناس كبيتٍ له تعالى، وكان هو أوّلَ قبلةٍ للناس، أمّا التوجّه إلى بيت المقدس فقد حصل تاريخياً بعد توجّه الأنبياء سابقاً إلى الكعبة.

عمومية جملة "الذين أوتوا الكتاب" لا تقصد قطعاً أنَّ كل المسيحيين واليهود يعلمون أنَّ الكعبة أوّلُ بيتٍ منسوب له تعالى وأنها أجدرُ لتكون قبلةً إذا قرّر تعالى ذلك، لا، فمنهم الجهلة ومنهم المستهترون ومنهم من لم يقرأ الكتب وليس لديه ثقافةٌ دينيةٌ أصلاً، ولا يعلم أن بيت المقدس في دينه تعالى هو قبلةٌ مستحدثةٌ بعد الكعبة... وهكذا تفهم أنَّ الآية تشير لوجود هذه المعلومة في مصادرهم وثقافتهم الأساسية، فالعلماء منهم (والمثقفون دينياً) يعلمون بمكانة الكعبة عنده تعالى وكونها القبلة الأولى، لذلك تشير إليهم الآية كمرجعٍ لقومهم ليسألوهم إن كانت الكعبة مرتبطة بدينه تعالى أم أنها من اختراع العرب.

{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}، فالذي يقوم به أهل الكتاب وعموم المشركين والمنافقين والفاسقين من مضايقات لك بسبب القبلة، ليس يجري من دون انتباهه تعالى له، فالذين ينكرون مكانة المسجد الحرام رغم معرفتهم بمكانته العالية، هم تحت مراقبته تعالى ولن يترك سبحانه لهم هذا الإنكارَ دون محاسبة.

إذا عشنا في أجواء نزول السورة لنرى كيف نظر أهل الكتاب للنبي محمد(ع) وللمسلمين، مثلما هم الآن ينظرون إلينا كطفيليين على دين هو لهم، وليس دينا إليها استمر بالنبي محمّد(ع)، عندها نفهم جانب مهم من معنى تحويل القبلة لتنفي التبعية الطفيلية.

لو كانت اختلاف وجهات النظر بيننا نحن لقلنا: الحق معي، أو الحق معك. ولكن القرآن دائماً يعبر بشكل مختلف فيقول: {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ}، {الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ}. ولا يقول أبداً: الحق مع ربّك. حيث هناك فرقٌ كبيرٌ بين القولين، فعندما تقول: الحق معي، فهذا يتضمّن إمكانية أنْ يكون الحق مع غيرك، ويتضمّن أنَّه هذه المرة الحق معك وربما في مرة أخرى يكون مع غيرك، أمّا التعبير القرآني فكان دائماً يقول: الحق "{مِنْ}" ربّك؛ لأنَّه تعالى لا يصدر عنه إلّا الحقّ دائماً.

(وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ{145})
{وَلَئِنْ أَتَيْتَ}، وإذا صار منك عند {الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، للذين وصلهم منه تعالى كتابٌ كاليهود والنصارى وغيرهم... {بِكُلِّ آيَةٍ}، بأي آيةٍ مهما كان نوعها، بأيّ شيءٍ مميّزٍ في مستواه الإلهي، حتى تبرهن لهم أنَّ المسجد الحرام قبلةٌ شرعيةٌ إلهيةٌ، بدليل أنَّ النبي إبراهيم(ع) صلّى باتجاهها... {مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ}، لن يجعلوا المسجد الحرام قبالتهم حين يصلّون. هم لديهم قرارٌ راسخٌ قطعيٌّ بأنْ لا يحوّلوا قبلتهم مهما حصل، ومهما وصلهم من دليلٍ إلهيٍّ ومهما كان نوعه، وقرارُهم ثابتٌ على البقاء على قبلتهم؛ لأنَّ الموضوع شخصيٌّ بالنسبة لهم وليس موضوعاً دينياً يسير بأمره تعالى.

{وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ}، ليكن بعلمك وعلمهم أنَّه صدر أمرٌ إلهي بمنعك من التوجّه بالصلاة ويكون بيت المقدس أو أي اتجاهٍ آخرَ قبالتك.

{وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ}، إن حاججوك على كون قبلتك غير متوافقة مع قبلتهم وبالتالي دينك يختلف عن دينهم، فالمسيحيون قبلتهم الشرق "عموماً"، واليهود قبلتهم بيت المقدس، فأساساً هم ليسوا على قبلةٍ واحدةٍ. لو كان كلُّ أهل

الكتاب على قبلةٍ واحدةٍ لكان بشكلٍ ما فيها وجهةُ نظرٍ في كلامهم عن اختلاف قبلتهم عن قبلتك، وبغض النظر عن الأمر الإلهي الذي يحسم الموضوع، ولكن لهم قبلتانِ "على الأقل" فليتناقشوا مع بعضهم أولاً وبعدها ليأتوا ويناقشوك.

{وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم}، فكنت على مزاجهم وما يحبّونه، وهنا الكلام على إصرارهم القطعي بالبقاء على قبلتهم، فتركت التوجه نحو المسجد الحرام واتّجهتَ حيث هم مصرُّونَ، {مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ}، من بعدما علمت بأمره تعالى بالتوجه الحصري نحو المسجد الحرام، {إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ}، أنت بالتأكيد من الذين ليس معهم حقٌّ وظلماً لم يتبعوا الأمر الإلهي الواضح. حيث الحق أن تتبع أوامره تعالى في تحديد قبلتك، وستكون ظالماً بمخالفتك للحق والصواب إذا تركت تنفيذ أمرٍ إلهيٍّ مباشرٍ.

ضع في بالك أنَّه في مختلف كتب التفاسير اختلافٌ في تفسيرهم للظلم، وأكثر الأحيان يفسرون أي كلمةِ ظلمٍ في سياقٍ مثل سياق آيتنا هنا، على أنه ظلمٌ بمعنى التعدّي (ظلمني أي تعدّى عليّ). وهذا ليس المعنى الدقيق للكلمة؛ لأنها بشكلٍ عام تعني: لم يكن معه حقٌّ.

خبر تحويل القبلة سيكون ساراً للنبي(ع)، وبالتأكيد لن يفكّر بالتوجه من جديد إلى بيت المقدس أو غيره؛ لأنه بالأصل قد عانى من تعليقات اليهود له عن ذلك... ولن يطلب منه تعالى تغيير قبلة الصلاة، وهنا عندما تنبهه(ع) الآيات من تغيير قبلته عن المسجد الحرام فإنما تنبه المؤمنين على مدى التاريخ ألا يغيّروا قبلتهم تحت طائلة العقاب، وتركّز على مزاجية أهل الكتاب في موضوع القبلة، وأنَّ المهمّ بالنسبة لهم ليس أوامره تعالى بل أهواؤهم أهمُّ، وهم يعتبرون تغيير قبلتهم بسبب آيةٍ جاء بها النبي محمّد(ع)، يعتبرونه خسارةً لهم، وغلبة وانتصار للنبي محمّد(ع)، وكأن الموضوع شخصيٌّ بينهم وبينه(ع)!

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ{146})
{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ}، الذين وصلهم منه تعالى كتابٌ إلهيٌّ، كالتوراة والإنجيل... {يَعْرِفُونَهُ}، يعرفون الكتاب الإلهي، {كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ}، فأبناؤك من طفولتهم تحفظ شكلهم وتُميّزهم بوضوحٍ عن أبناء الآخرين، وهؤلاء يعرفون الكتاب الإلهي فوراً حين يقرؤونه أو يسمعونه، فمن محتواه يعرفون أنَّه إلهيٌّ.

{وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ}، قسماً من أهل الكتاب، {لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ}، يخفون معرفتهم الحقيقية بالكتاب الإلهي حيث يرون كتاب القرآن ويعرفون أنَّه من مصدرٍ إلهيٍّ ولكنهم يخفون هذه المعلومة عن الآخرين، {وَهُمْ يَعْلَمُونَ}، بتعبيرنا الدارج: وهم لا يجهلون ما يفعلونه، فعن علمٍ وقصدٍ لا يقولون إنَّ القرآن من مصدرٍ إلهيٍّ.

بناءً عليه، فأيُّ شيءٍ يقولونه لك وهو مخالفٌ للكتاب الذي وصلك، فخذ علماً بأنَّهم يعلمون أنَّ كتابك مصدره إلهيٌّ، والأمر الذي فيه باتخاذ المسجد الحرام قبلةً إنما هو أمرٌ إلهيٌّ، ولا معنى لاتباعِ أهوائهم وترك الأمر الإلهي بتغيير القبلة لتتجه قبالة قبلتهم!

الآية هنا كلامها عامٌّ ومن ضمن عموميته شموله الكلام عن القبلةِ التي هي محور الفقرة هنا، وأيُّ أمرٍ يرد في هذا القرآن فما معنى تركه طالما تعرف أنَّه أمرٌ إلهيٌّ واردٌ بكتابٍ إلهيٍّ؟ وخذ علماً أنَّ الذين يعارضونك من أهل الكتاب إنما هم من داخلهم يعلمون أنَّ القرآن مصدره إلهيٌّ.

لاحظ وانتبه إلى أنَّ القرآن لم يستعمل ولا مرةً في حقّه تعالى كلمة "عرف" أو أياً من مشتقاتها؛ لأن المعرفة من التعرّفِ وهي العلم بالاعتماد على الأماراتِ بطريقةٍ غير مباشرةٍ، عبر مقارنة ما دخل حواسك وتصوراتك ومفاهيمك مع ما في ذاكرتك، والعلم حديثاً بشيءٍ لم تكن تعلمه أو العلم بالتلقين من آخرين لشيءٍ لا تعلمه... هو التعرّف، لذلك لا يوصف تعالى بالمعرفة ويوصف فقط بالعلم؛ لأنَّه سبحانه لا تغيب عنه أيُّ معلومةٍ حتى يتعرّف عليها أو حتى يقارن بينها وبين ما يعلمه، فعلمُه فائقٌ.

(الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ{147})

مرّةً أخرى: {الْحَقُّ}، الصواب، {مِن رَّبِّكَ}، من المسؤول عنك من مستوى إلهيّ، فلا تتبع أهواءهم والكتابُ الذي معك من ربّك وهو الحقُّ الصواب. بناءً عليه يكون الأمرُ بالتوجّه إلى المسجد الحرام الذي فيه بيتٌ كان قد حدّده ربنا سبحانه منذ القدم كأوّلِ بيتٍ على الأرض منسوبٍ له تعالى، فتغييرُ القبلة إليه حقٌّ صوابٌ، ولا يصدر عن ربّك شيءٌ إلا الحقُّ فلا تهتم بما يقولونه من هرطقات، {فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}، الذي معه حقٌّ واضحٌ لا يتراجع عنه بسبب كلامٍ تافهٍ، فالمماراةُ معناها: الكلامُ التافه أمام حقيقةٍ ناصعةٍ. والذي جادلك يماري؛ لأنه يعلم أنَّ كلامك هو {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ}، فلا تصر مثلهم متراخياً متهاوناً فيما تعلم أنَّه حقٌّ، بل كن واثقاً صلباً.

من المحسوم أنَّ النبي(ع) لن يتراجع عن الحق، ولن يقول شيئاً يخالف أوامره وتعليماته تعالى؛ لأنه أصلاً(ع) متعلّقٌ بالحقّ، ولأنه صادقٌ لا يكذب، ولا يتبع هواه... ولأجل هذه الصفات اختاره تعالى ليكون رسولاً، والآية تشدّد عليه(ع) ليبقى كما هو واثقاً صلباً في إيمانه.

الآية أيضاً تعليمٌ لنا لنكون أشداءَ في إيماننا بناءً على الكلام الإلهي، لا نتهاون ولا نتراجع عن الحق الذي وصلنا من ربنا سبحانه؛ لأنَّ الحقَّ من ربّنا سبحانه دائماً، ولو قلنا إنَّ الحق "مع" ربنا سبحانه لكنّا نفتح مجالاً للجدل، فمرّةً الحق "مع" ربّنا سبحانه ومرّةً الحق "مع" غيره سبحانه -مثلما نحن نقول عندما نختلف- ولكن لا، والقرآن يعبّر دائماً بأنَّ الحق {مِن رَّبِّكَ} سبحانه، حيث لا مجال لألا يكون معه حقٌّ سبحانه ولا في أي شيءٍ حتى نتمارى نحن المؤمنين متجادلينَ مع غيرنا حول إن كان كتابه سبحانه يقول الحقّ.

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {148})

{وَلِكُلٍّ}، لكل إنسان، {وِجْهَةٌ}، اتجاه، {هُوَ مُوَلِّيهَا}، هو متوجّهٌ نحوها، فالناس أجناسٌ في أديانهم، وأنت تولّي وجهك باتجاه المسجد الحرام بناءً على أمرٍ إلهي، والآخرون لهم قبلةٌ أخرى، ولذلك لا تهتموا أيها المؤمنون بموضوع اتجاه قبلة غيركم، ولا تهتموا إلى أين يتوجّهون، وليكن اهتمامكم: {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}، فليكن عندكم حسُّ السباق وهو شعور المسارعة على فعل الخيرات، على فعل الأشياء التي توصف بأنَّها خير، والتي تُسبّبُ الخير لكم في آخرتكم، وها قد صار واضحاً لكم أنَّ الخير "باتباعِ أمره تعالى" وهو باتخاذ المسجد الحرام قبلة.

{أَيْنَ مَا تَكُونُوا}، في أي مكان وفي أي اتجاه، {يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا}، من دون استثناء، ففي يوم القيامة سيتم إحضار كل الناس أينما كانوا في أي مكانٍ كان ومن كلِّ الاتجاهات، وبناءً عليه ليكن هدفكم المسابقة على فعل الخير لأنكم في النهاية ستموتون وتحملون أعمالكم معكم لتتحاسبوا وتُجازَوْا عليها، وفي أي مكان مِتّم سيأتي بكم تعالى ليُعيدَكم إلى الحياة ويحشركم جميعاً.

{إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، كلُّ شيء تحت قدرته فيمكنه تعالى فعل أي شيء يريده، فيقدر فيمكنه سبحانه أن يحضركم في يوم القيامة من كل الأماكن، وسيحاسبكم سبحانه.

ترينا الآية أن الاتجاه الحقيقي للمؤمن هو الاهتمام بالآخرة وليس بالاتجاهات على الأرض، حيث صار الكلام عن القبلة مثل الكلام عن البوصلة والاتجاهات التي لا أهمية لها بتاتا أمام توجيه البوصلة نحو الآخرة.

ضع هذه الآية دائماً في بالك لتنتبه أنَّ كلام بعض السور عن إعادتنا إلى الحياة من القبور ما هو إلا نموذجٌ عن مكانٍ عادةً يكون فيه رفات الأموات، ومثله الكلام عن الأجداث، ومن الأرض... ومن المعلوم أنَّ البعض يموتون في الأنهار أو البحار أو يحتَرِقونَ فيتبخّرون... ضع آيتنا هنا في بالك لأنَّها لعمومِ أي مكانٍ أو حالةٍ مِتنا فيها، سواء تبخّرنا وصرنا غازاتٍ أو متنا في الفضاء... فسيأتي بنا تعالى جميعاً، وتلك الآيات التي ذكرت القبور والمرقد والأجداث... كانت تقصد تفعيل صورةٍ محددةٍ في بالنا من ذكرها لتلك الأماكن، وسياق الكلام هناك يحتاج لتفعيل تلك الصور.

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ{149})

النبي(ع) بعد أكثر من عشر سنين من الدعوة في مكة كما هو مشهور، هاجر إلى يثرب (المدينة)، ونعلم من التاريخ أنَّه قبل مرورِ سنةٍ على وجوده(ع) في يثرب، جرى تغييرُ القبلة، فهل إذا انتقل إلى مكانٍ آخَرَ ستتغير القبلة؟ لا:

{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ}، ومن أي مكانٍ كنت فيه ثم خرجت منه: {فَوَلِّ}، أَدِرْ، {وَجْهَكَ}، ما تتوجّهُ به، {شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، ناحية الاتجاه، {وَإِنَّهُ}، أي التوجّه إلى المسجد الحرام، {لَلْحَقُّ}، هو الصواب، {مِن رَّبِّكَ}، من المسؤول عنك من مستوى إلهيٍّ، فهذا ما قرّره ربك سبحانه وهو صوابٌ، فيكون التوجه لناحيةِ المسجد الحرام شرعياً تماماً، وليس باطلاً.

{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}، وعموم ما تقومون به لا يجري من دون انتباهه تعالى له، يراقبكم ويعلم كلَّ شيء، فالتزموا بتنفيذ أوامره.

لاحظ أنّنا نحن الآن لا نفكر في موضوع التوجه للمسجد الحرام للصلاة، لأنَّها جزءٌ من حياتنا، أما في زمن نزول الآيات فكان الوضع مختلفاً، حيث اعتاد الناس على المسلمين وهم يتوجهون إلى بيت المقدس للصلاة، وذلك منذ بداية نشر الإسلام، ولمدةٍ تفوق العشر سنين، وتغييرُها حَدثٌ غير عاديٍّ بين الناس في ذلك الحين...

كما ترى من ربط هذا الدين كامتدادٍ لما سبقه من كتبٍ وأنبياء ورسل عبر التاريخ، حيث جعل بيت المقدس أوّلَ قبلةٍ للمسلمين كان مؤشراً على استمرار المؤمنين على الخط السابق، فآخرُ المؤمنين بدينه تعالى وهم عموم أهل الكتاب - وبالخصوص بني إسرائيلَ- كانوا يتوجهون نحو بيت المقدس، وهذا كان بأمرٍ إلهيٍّ كما قد يبدو من الآيات التي لم تعارض ذلك، والرسول محمّدٌ(ع) أمره تعالى بالتوجّه نحو بيت المقدس حين كان في مكة مجاوراً للمسجد الحرام، وحينها لم يكن(ع) على احتكاكٍ باليهود والنصارى وبالتالي لم يتعرّض لأيِّ جدلٍ أو ضغطٍ منهم، بل حصل ذلك بعد انتقاله(ع) إلى مدينة يثرب التي يسكنها عشائرُ وقبائلُ من اليهود، وعائلاتٌ من النصارى، إذاً بعد هجرته(ع) إلى يثرب نزلت هذه السورة.

الأمر الإلهي في بداية الوحي بالتوجّه نحو بيت المقدس، لأكثرَ من عشر سنين، كان مؤشراً لأهل الكتاب بأنَّ هذا الرسول(ع) امتدادٌ لدينه تعالى، وبالتالي هو امتدادٌ لدين أهل الكتاب وليس ديناً جديداً لعربيٍّ جعل رمز مدينته "الكعبة" قبلةً لدينه.

(وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ{150})
مرةً ثانيةً للتأكيدِ على تحويلِ القبلةِ:

{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ}، ومن أي مكانٍ كنت فيه ثم خرجت منه أيها النبي(ع)، {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، فأدر فوجهْ ما تتوجّهُ به فليكن ناحية المسجد الحرام، البقعة التي فيها الكعبة والصفا والمروة وزمزم...

{وَحَيْثُمَا كُنتُمْ}، أينما كنتم أيها المؤمنون، {فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}، فليكن ما تتوجّهونَ به ناحية المسجد الحرام، {لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ}، حتى لا يكون للناس عليكم شيءٌ كدليلٍ على صحّة دينهم وفساد دينكم، فيقول الناس من غير المسلمين: هذا مسلمٌ ولا يزال مقتنعاً بقبلتنا ويُصلّي باتجاهها... وهذه حجةٌ ودليلٌ وبرهانٌ على أنَّه يقلّدنا وأنَّ ديننا صحيحٌ لأنَّه غير مقتنعٍ بتغيير القبلة نحو مكة...

حتى لا يخطر ببال بعض المؤمنين البقاءُ متوجهينَ ناحية بيت المقدس أثناء الصلاة، ولا يخطر ببالهم أنَّه لا مشكلة في ذلك لأنَّها كانت قبلةً، فيمكنهم التوجه للمسجد الحرام في مكة أو للمسجد الأقصى في فلسطين، أو حتى لا يخطر ببالهم أنَّه لا مشكلة في التوجه لأيِّ جهةٍ طالما أنَّه تم تغيير القبلة وأنَّه تعالى في كل الاتجاهات يستقبل الصلاة... حتى لا يخطر هذا وغيره في بال أحد، تنبههم الآية ليلتزموا بالتوجه من الآن وصاعداً لناحية المسجد الحرام فقط.

مضافاً إليه، وحتى لا يخطر ببالهم أنَّهم انفصلوا عن دينه تعالى ذي الامتداد التاريخي، فهم بشكلٍ ما لديهم شعورٌ بأنَّهم صاروا مثل أهل الكتاب، منهم ومعهم على نفس الدين، وعلى نفس القبلة، وتغييرها باتجاه مكة التي يحكمها ويسكنها

المشركون، الذين جعلوا إطفاء هذا الدين وقتل المؤمنين من وظائفهم اليومية، هذا ليس أمراً سهلاً إعطاء قيمةٍ دينيةٍ لمدينةٍ يحكمها ويسكنها مشركونَ من أشد الأعداء للدين الإلهي...

{إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}، الذين لم يكونوا منصفينَ ولا عادلينَ ولا محقّينَ، الذين يعلمون بالأمرِ الإلهي بتغيير القبلة إلى مكانٍ هو أصلاً فيه أول بيتٍ منسوب له تعالى، ورغم ذلك يُصرّون على التعليق على المؤمنين في موضوع تغيير قبلتهم، فهؤلاء لن تنفع معهم الحجج وسيجادلونَ ويناقشونَ ويعلّقونَ ويسخرونَ... {فَلَا تَخْشَوْهُمْ}، فلا يصِرْ عندكم شعورُ توقّع حصول الأذية منهم وتريدون تجنّبَه عبر تركِكم للقبلة التي أمركم بها ربكم سبحانه، {وَاخْشَوْنِي}، وليكن عندكم شعورُ توقّع حصول الضرر والعقاب من ربكم سبحانه، وهذا العقاب يمكنكم تجنّبُه عبر إطاعة أوامر ربكم سبحانه؛ لأنَّ رفض الظالمين لما تفعلونه لن يسبب لكم مشاكلاً لها قيمة أمام المشاكل التي ستنتج من مخالفة أوامره سبحانه، فتجنبوا عقاب ربكم سبحانه.

{وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ}، فبتغيير القبلة هو نعمةٌ لكم، كشيءٍ جيدٍ يفعله تعالى معكم، وإتمامها يعني استمرار حصول الأمور الجيدة لكم بلا انقطاع عنكم؛ لأنَّ الإتمامَ وصف لشيء لم ينقطع بل استمر حتى النهاية، والإكمالَ وصف لشيء حصل فيه فترات تقطّع حتى وصل إلى النهاية، والنعمة الإلهية لا تنقطع ولذلك لا يعبّر القرآن عن النعمة الإلهية وعن النور الإلهي وعن الكلمة الإلهية... بالإكمال، بل دائماً يعبّر بالإتمام لأنَّها أمورٌ مستمرة لا تنقطع حتى نهايتها.

{وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}، ومن المفروض ومن المتوقّع باتباعكم لكلامه سبحانه، بالتوجه نحو المسجد الحرام، أن تهتدوا، أن تكونوا على الشيء الذي يوصلكم للغايةِ الصحيحة، فتكونوا على السلوك الذي يوصلكم إلى آخرةٍ سعيدة ويبعد عنكم العقاب...

انتبه دائماً لكلمة "{لعلّ}" التي وردت عدّةَ مراتٍ في القرآن، وهي لتوقع أو طلب شيءٍ يمكن حصوله، وليست للتمني، فعندما يقول سبحانه: {لعلكم تهتدون}، {لعلكم تشكرون}... فهو سبحانه لا يتمنى ولا يرجو... بل من المتوقع ومن المفروض منّا أن نهتدي لأنَّه أنزل كتاباً... وأن نشكره لأنَّه أنعم علينا... فهي مثل "{عسى}" التي الاحتمال فيها من ناحيتنا نحن وليس من ناحيته تعالى.

بقي شيءٌ تراه هنا بوضوح، فالخشية ليست مرادفة للخوف، لأنَّ الخشية شعورٌ بخطَرٍ يمكن تجنّبُه، وهنا كما ترى فالمؤمنونَ مهدّدونَ بعقابٍ إلهي إن تركوا التوجّه نحو المسجد الحرام، لذلك ينبّههم تعالى ليخشوه من خطرٍ يمكنهم تجنّبُه بالبقاء على أمره تعالى، أمّا الخوف فهو شعورٌ بخطَرٍ تشعر بأنَّه يفوق قدرتك على تجنّبِه، فتشعر بأنك لا يمكنك تجنّبُه، وهنا لا معنى لتفسير الخشية بالخوف؛ لأنَّ المؤمن على القبلة التي أمر بها تعالى، فلماذا سيخاف؟ بل عليه أن يخشى عقابه تعالى فيبقى عليها. بهذه الدقة في المعنى راجع الآيات التي تخطر ببالك وورد فيها استعمال كلمتي خوف وخشية لترى روائع المعاني القرآنية من دقّة الاستعمال، وترى الفرق بين إلهٍ يستعمل اللغة بدقة وبين كلام البشر.

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ{151})

{لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا}، فالنعمُ يتمُّها تعالى عليكم، وعليكم بخشيته تعالى، ولعلكم تهتدون بمثلِ ما أرسل فيكم رسولاً ينقل لكم كلامه تعالى، {مِّنكُمْ}، من زمانكم ولغتكم ومحيطكم... {يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا}، يقرأ عليكم من مستندٍ، آياتنا، الأمور المميزة بمستواها والمنسوبة له تعالى، وهي جملُ القرآن المميزة بمستواها الإلهي، وعلى أساسها تهتدون.

{وَيُزَكِّيكُمْ}، ويجعلكم لائقين، فيرفع عنكم خبث العقائد المنحرفة وخبث الأعمال السيئة وتصيروا زاكينَ لائقين.

{وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ}، وهو القرآن فيعلمكم معانيه وتشريعه...

{وَالْحِكْمَةَ}، ويعلمكم رؤية الصوابية في الأمور، وهنا المقصودُ تعليمكم تطبيق كلامه تعالى على الحالات والأمور التي تصادفكم.

{وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}، فقبل هذا الرسول(ع) كان يغيب عنكم الكثير من المعلومات التي تتعلّق بحياتكم الدنيا والآخرة، وخذ مثلاً تنظيم العلاقات الاجتماعية عبر التزام الناس بحدودها وتساويهم في الحقوق... والتكافل الاجتماعي عبر مركزيةٍ ماليةٍ... وغيرها الكثير من الأمور التي كانوا لا يعلمونها...

بقي شيءٌ لن تلحظه من طريقة تفسيرنا للآية ولكن ستراه من تفاسيرَ أخرى لم تعطِ للحكمة معناها الدقيق، حيث ينطرحُ سؤالٌ: ما الفرق بين الكتاب والحكمة؟ أليس الكتاب حكيماً؟ فهل سيعلّمهم(ع) شيئاً موصوفاً بالحكمة ولم يذكره الكتاب؟ وغيرها من الأسئلة التي تصيرُ بلا معنى إن فهمنا أنَّه(ع) يعلّمهم كيف يرون ويتعاملون بصوابيةٍ مع الأمور، ففي الحياة تفاصيلُ كثيرةٌ هائلةٌ، ولم يذكر القرآن كيفية التعامل معها، ولكنه ذكر الأساسيات، وخذ مثلاً بسيطاً كتوظيف مسؤولٍ عن بيت المال من المسلمين، فمن تختار؟

كما ترى فالقرآنُ ذكر أساسيات صفات اللائقين بشكلٍ عام من صفة الأمانة والصدق... ولكن هل تجد فيه كلاماً عن اختيار من يجيد الحساب ليكون موظفاً مالياً؟ لا، ومن الحكمة اختيارُ موظفٍ يجيد الحساب لوظيفة محاسب. ومثله التفاصيل الهائلة التي تجدها في كتب الفتاوى فيما يخصّ المعاملات بين الناس، فأكثرُ ما فيها تشريعاتٌ استخرجها المشرّعون من الحكمة من العقلانية، وحتى تشريعاتِ العبادات أكثر تفاصيلها من الحكمة من العقلانية، حيث تجد في باب الوضوء كلاماً طويلاً عريضاً عن ماء الوضوء، وأنْ يكون طاهراً حلالاً قراحاً... وكلّها تفاصيلُ لن تجدها في القرآن لأنَّه اعتمد على الحكمة فينا...

هذا بابٌ ينفتح منه ألف باب، لأنَّ أشد ما ينفّر الناس من الدين أن يكون للدين رجالٌ، كـ "رجل دين"، التي تعني أنَّه وحده حامل هذه الصفة يحقّ له التكلّم باسم الدين والبقية ممنوع عليهم، فهو وحده الحكيم! وبمراجعةٍ تاريخيةٍ سريعةٍ مشهورةٍ لنفور الكثير من المسيحيين من دينهم ستراهم قد نفروا من الكنيسة وأزاحوها عن الحكم بسبب طرح رجال الدين لأنفسهم كعصابةٍ تمنع الآخرين من الكلام في دينه تعالى، وصاروا فكرياً منغلقين على أنفسهم حتى تراكم لديهم كمٌّ هائلٌ من عقائد وفتاوى سيئة تحجّروا عليها... والذين أزاحوهم عن السلطة لم يستبدلوا دينهم، بل بقوا مسيحيين "بالهوية" ولكن بنسخةٍ معدّلةٍ علمانية تفصل بين الدين والدولة...

الحكمة هي رؤية الأمور بشكلٍ صائب، وهي تفاصيل الدين التطبيقية، وليست حكراً على أحد، وخوف علماء المسلمين من فلتان الناس ليشرّعوا على هواهم إن أعلن "علماء الدين" أنَّ تطبيقات الدين متاحةٌ للجميع للبحث فيها، إنما هو خوفٌ في غير محلّه، وها الناس لم تنضبط ولن تنضبط، ومن يُردِ الحقَّ سيجده وسيكون عليه، ومن لم يرده فلن تستطيع ضبطه، وليست وظيفتك منع ما أتاحه تعالى لتضبط إيمان الناس، فسبحانه منحنا العقل، وسيحاسبنا على أساسه، ومنحنا القدرة على تعلّم الحكمة والتمرّس عليها، ومنحنا القدرة على رؤية الحقّ وإمكانية رفضه واتباع الهوى، وها التاريخ مليءٌ بمسلمينَ على موجة الهوى بالرغم من منع العلماء للناس من الخوض في تشريعات وعقيدة الدين خوفاً من الانحراف...

نعم، ننتقل إلى حالة حكم علماء الدين لفرض ما يقولونه على الناس بالقوة مانعينَ الجميع من المعارضة، وتاريخياً فهذه من أسوأ المراحل، لا لأنَّ الدين الإلهي سيّءٌ، بل لأنَّ نفس العقلية الفاسدة التي ينتج عنها ملكٌ أو رئيسٌ أو حاكمٌ... فاسد، ستتحوّل لينتج عنها حاكمٌ باسم الدين الإلهي وفاسد، والفرق الهائل بين ما تجده في القرآن وبين فتاوى الإجرام يدفعنا للخوف من حكومة علماء الدين، حيث مجموع فتاوى مختلف المذاهب "الإسلامية" ليس مختلفاً بشيءٍ عن فساد أهل الكتاب الذي ترى هجوماً قرآنياً عليه...

هذا لا يعني أنَّ الكل فاسدون، ولكن -وللأسف- فعادةً السيئونَ يتنطحون للمناصب ويستلمونها بأيِّ ثمنٍ كان، والمؤمنون الصالحون خامدون لا يواجهون الصعاب...

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ{152})

{فَاذْكُرُونِي}، فاستحضروني في فكركم وقولكم وعملكم، وهنا الكلام عن هذه الأشياء "النعمة" التي منحها تعالى لكم، وعندها، {أَذْكُرْكُمْ}، استحضركم بقراري بإنعامي عليكم.

{وَاشْكُرُوا لِي}، واشعروا وقولوا الكلمات التي تعبّر عن حصولكم على أمورٍ جيدةٍ مني.

{وَلَا تَكْفُرُونِ}، ولا تنكروا فضائلي ونعمي وإحساني عليكم.

نلاحظ الشبهَ بين هذه الحالة هنا، وبين الاهتمام الذي كان لبني إسرائيلَ؛ فقديماً كان من بين بني إسرائيلَ أناسٌ أطهارٌ ولهذا السبب اعتنى بهم سبحانه، فالعائلة كلُّها شملها نِعَمُ وإحسانُ ربنا سبحانه، وفضّلهم تعالى على العالمين... وهنا الحديث معنا نحن المؤمنينَ بدينه تعالى، فلنذكره سبحانه حتى يذكرنا، ونشكره حتى يعطينا، ولا نكفر بنعمه حتى تبقى نعمه علينا.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ{153})
تعقيباً على الكلام عن النعم الإلهية على المؤمنين ولفتِ انتباهنا لكيفية ذكره تعالى حتى يذكرنا:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، فأعلنوا بأنَّهم معتقدون ملتزمون بالدين الإلهي:

{اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ}، حتى لا تتراجعوا عن إيمانكم ولا تعبّروا بشكلٍ سيءٍ، ولا تردّوا على ما يحصل معكم ولا تحبونه بشكلٍ سيءٍ، ولا تتصرفوا بشكلٍ غير مدروسٍ أو غير مناسبٍ، فهذا "الصبر" استعينوا به، وهو يعينكم فيساعدكم على الحفاظ على إيمانكم.

{وَالصَّلَاةِ}، واستعينوا بالتوجه لربكم سبحانه، فالصلاة الواجبة اليومية التي نصلّيها خمس مرات أيضاً التمسُّكُ بها يعين على الحفاظ على الإيمان.

{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}، مع الذين لا تفلت أعصابهم، مع الذين لا يتصرفون بشكلٍ غير مدروسٍ أو غير مناسبٍ عندما يتعرّضون لما يزعجهم أو يكرهونه، فلا يرتكبوا السوء ليحلوا مشكلتهم، ولا يتصرفوا بعصبيةٍ... بل يلتزموا بالأوامر الإلهية، وهناك حلولٌ لهذه المشاكل وهؤلاء لن يتركهم سبحانه.

عملياً ذكره تعالى الذي تحدّثت عنه الآية السابقة والذي ينتج عنه ذكره تعالى لنا، فهذا الذكر بأبرزِ نماذجه: الصبر والصلاة. تذكره تعالى فتصبر، تذكره تعالى فتُصلّي، يذكرك تعالى فينعم عليك.

المجتمع الذي يكون مؤمناً مستغفراً بالعموم الغالب، لا يكون للمنافقين والفاسقين القلائل فيه تأثيرٌ كبيرٌ، فهذا المجتمع وبقرارٍ إلهيٍ حاسمٍ، سيعيش هنا في الدنيا بنعيمٍ إلهيٍ، حيث تبتعد عنه الكوارث، وتنزل عليه الخيرات... وإذا هاجمهم عدوٌّ ما، فسيتولّى تعالى نصرهم... وهذا صريحٌ من الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، ولكن هذا لا يعني أنَّهم سيعيشون هنا بشكلٍ يماثل العيش في جنّة الآخرة، لا، فهناك لا حزن على فقد حبيب، ولا مرض، ولا هموم... ولكن يعني أنَّهم سيحصلون على أفضلِ ما يمكن بالنظر إلى ظروف الحياة على الأرض بهذا الجسد الذي يتأذّى ويموت، ومجاورينَ لأناسٍ ليسوا متماشينَ مع أوامره تعالى مما سيُسبّبُ النزاعات والحروب...

الوعد بالنعم الإلهية على المؤمنين هنا في الدنيا متاحٌ دائماً، وما يمنع حصوله بشكله التامّ الكامل هو وجود أناسٍ معارضينَ للدين الإلهي، وبكل بساطةٍ ترى ذلك لو افترضنا أنَّ كل الناس التزمت بما يقوله هذا القرآن، فلن تزعج أحداً، ولن يزعجك أحدٌ، لا بالغيبة ولا بالإهانة ولا بالاستهزاء... ولا بالكذب أو النميمة... ولن يفتقر أحدٌ لأنَّ بيت المال ضمانةٌ... ومتوافرٌ فيه المال لأنَّ الكل يُزكّونَ... ولن يخاف الآخرون من اعتدائك عليهم ولن تخاف من اعتدائهم عليك، لا بالكلام ولا بالفعل... أمّا وهناك أناسٌ يعتدون ويسرقون ويغشّون ويسخرون ويقتلون... عندها تبرز مشكلةُ عيشة المؤمنين الحقيقيين في بيئةٍ مؤذيةٍ، وكلما قلَّ عدد المؤمنين كلما صعبت حياتهم.

هل حتى يعيش عددٌ قليلٌ جداً من المؤمنين في نعيمه تعالى هنا في الدنيا، سيقوم سبحانه بجعل المجتمع الذي يعيشون فيه والذي بغالبيته فاسد، فهل يجعله تعالى كلَّه يعيش في نعيم؟ أصلاً وكما ترى فالكلامُ في داخله تناقضٌ؛ لأنَّ أي مجتمعٍ هو أصلاً في نعيم، ويبقى كذلك إلى أن يقوم أفراده بالاعتداء على بعضهم البعض...

الآن، صرنا نرى معنى النعم الإلهية على المؤمنين التي لا تعني أنَّهم سيعيشون هنا في الدنيا كما يعيش أهل جنّة الآخرة، والسبب هو وجود أناسٍ يفسدون... وينتج عن المفسدين مصاعبُ يعاني منها المؤمنون الذين هم أصلاً تحت رعايته تعالى بحسب ما يراه تعالى مناسباً، وحتى تستمر عليهم العناية الإلهية تأمرهم الآية بالاستعانةِ بالصبر والصلاة.

مرَّ معك كلامٌ طويلٌ ذكرته السورة عن خزعبلات بني إسرائيلَ وتعليقاتهم المؤذية للمؤمنين... وكان آخرها موضوع قبلة الصلاة، وبعدها أمرت السورة المؤمنين بالالتزام بالقبلة التي حدّدها تعالى، وهذا شيءٌ كان في حينها أمراً عظيماً... فعرّجتِ السورة على ذكر عنايته تعالى بالمؤمنين، وهنا في هذه الفقرة استطردت السورة في موضوع معاناة المؤمنين من محيطهم الفاسد المانع من انتشار النعم الإلهية على الجميع، وبالتالي سيتعرض المؤمنون للمعاناة... فليصبروا وليهتموا بعموم تطبيقات الإيمان والتي من نماذجها الصلاة، وقد مرَّ في الآية 45 من هذه السورة {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ} وهو نفس مفهوم الآية هنا حيث كان السياق عن مشاكلَ وصعابٍ تواجه المؤمنين من الالتزام بدينه تعالى.

(وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ{154})

عندنا حالةٌ تبدو متطرفةً بنظرنا، لأنَّ بعض الناس يتوقعون أنْ تكون أحوالهم هانئةً وبرخاءٍ لأنهم آمنوا بالإسلامِ! ولكن هناك من يتم قتله بسبب إيمانه! فلنرى النظرة الإلهية لهذه الحالة:

يا أيها الذين أعلنوا أنَّهم مؤمنون بالدين: {وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ}، الذي ينهي الآخرون حياته ويموت، {فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، في مسلكٍ يرضى عنه ويأمر به سبحانه، بالدفاع عن إيمانه وعن نفسه أو أهله وموطنه... لا تقولوا عنهم: {أَمْوَاتٌ}، فاقدون للحياة.

{بَلْ أَحْيَاءٌ}، فهم لا يزالون يفعلون وينفعلون، وفي تراثنا الديني نقول إنَّ الأموات ينتقلون إلى البرزخ، وهو تعبيرٌ استوحوه من الآية هنا مضموماً مع الآية 100 من سورة المؤمنون: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}. فهم في الدنيا التي نحن فيها ولكن نقل سبحانه وعيهم وفكرهم وذاكرتهم... من جسدهم الطيني إلى شكلٍ آخرَ من أشكال الحياة، {وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ}، لا تتفاعلون مع شيءٍ يحصل فعلاً، فلا بأعينكم ترونهم أحياءً ولا تلمسون شيئاً من نتاج أفعالهم، ولا تتعاملون معهم لا بشكلٍ مباشرٍ ولا غير مباشر...

أقصى ما يمكن حصوله مع المؤمن كأذيةٍ من الآخرين هو القتل، وها يخبرك تعالى أنَّ المقتول في سبيله لا يموت، بل ينتقل فوراً إلى عالمٍ آخرَ (في الدنيا) أفضلَ من حياتنا هنا، وذلك قبل دخوله خالداً لجنّةِ الآخرة.

الواضح من القرآن أنَّ الذين يقتلون في سبيل الله تعالى "فقط" يبقون أحياءً فيما درج في ثقافتنا بتسميته بالعالم البرزخي، ويعيشون في مكانٍ يوصف بأنَّه جنةٌ بسبب روعته، ولكنه ليس جنةَ الآخرة ولا حتى بمواصفاتها الفائقة؛ لأنَّ جنةَ الآخرة تتكوّن في الآخرة من بعد ما تتبدّلُ سماوات وأرض الحياة الدنيا... وفي تراثنا الإسلامي نقول لجنةِ المقتولين في سبيله تعالى: جنة البرزخ.

أمّا بقية الناس من نوعية الرسل والأنبياء والصالحين والمؤمنين العاديين... فلم يتحدث عنهم القرآن، ولا يظهر من القرآن أنَّهم ينتقلون إلى جنةٍ قبل جنةِ الآخرة، ولكنَّ القرآن أيضاً لم ينفِ حصول ذلك، وفي الروايات تجد كلاماً كثيراً عن حياةٍ في القبر لكل من يموت... وهو كلامٌ منتشرٌ بشكلٍ ساحقٍ بين المسلمين، فضع في بالك دائماً أنَّه كلامٌ في تفاصيل ليس لها أي مستندٍ قرآنيٍّ، والقرآن فقط وفقط تحدّث عن استمرار حياة المقتولين في سبيله تعالى.

درج أيضاً في ثقافتنا الدينية تسمية المقتولين في سبيله تعالى بـ "الشهداء"، وهذه ليست تسميةً قرآنيةً خاصةً لهم، بل تسميةٌ عموميةٌ لكل من لديه شيءٌ يشهد به أمامه تعالى على الآخرين، سواء أكان نبياً أو مؤمناً عادياً، ويمكن القول إنَّ المقتول في سبيله تعالى من الشهداء لأنَّه يشهد على من قتله، ولكنَّ القرآن لم يذكر ذلك صراحةً.

أمّا بالنسبة للتعبير القرآني {فِي سَبِيلِ اللَّهِ} فأيضاً درج في أدبياتنا جعله تبييراً عن شيءٍ مثاليّ لا علاقة لنا به، فصرنا نلصق سبب القتال به تعالى، وصار معيباً الكلام عن الدفاع عن أنفسنا وعن أرضنا وأرزاقنا وأعراضنا... بينما القتال في سبيل الله تعالى معناهُ أنَّكَ تتعرّض لمن يقوم بعملٍ قتاليّ عدائيّ ضدّك وأنت تدفع شرّه عنك، وبالأساس لا تكون أنت معتدياً عليه، وحين قاتلته بقيت ملتزماً بالصلاح فلم تَجُرْ عليه.

هذا له أسبابٌ كثيرةٌ منها "فتاوى الإجرام" بقتال حتى المسالمين، وهكذا وبدون أي سببٍ ظاهريّ لك بقتالهم لأنهم لم يعتدوا عليك، اخترعوا عنوان "القتال في سبيله تعالى" لهكذا حالات، فأنت لا دخل لك بالموضوع بل الله تعالى يأمرك بقتالهم! وهذا واحدٌ من الأسباب التي حرّفت معنى جملة "القتال في سبيل الله تعالى"، بينما أصلاً لا يوجد شيءٌ في القرآن مما يقولونه، وبالعكس ترى في القرآن الكثير من التبريرات التي لأجلها أَذِنَ أو أمر تعالى بقتال الأعداء المقاتلين، وهي تبريراتٌ تتعلّق بتعرّض المؤمنين للقتل، فلا يوجد شيءٌ اسمه قتال في سبيله تعالى ولا علاقة لنا به إلا لأنَّه تعالى أمر به، لا، وراجع كلَّ القرآن وسترى بوضوح عكس ما هو منتشر ودارج بين الناس.

ولدراسة هذا الموضوع راجع الآية 8 من سورة الممتحنة: {لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، وضم إليها الآيات 190 و191 و192 و193 من هذه السورة:

> {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ}.

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ{155})

{وَلَنَبْلُوَنَّكُم}، سنصيب الذين آمنوا بشيءٍ من المحتمل أن يغيّرهم، {بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ}، بالقليل من الشعور بأنَّ الضرر الأكيد سيصيبكم، ولن يكون خوفاً عارماً شاملاً لكل الأوقات، بل خوفٌ يمكنكم تحمله، ويمرّ عليكم في بعض الأزمنة، مثل الخوف من هجوم الأعداء، والخوف من المرض الوبائي...

{وَالْجُوعِ}، الشعور بالحاجة إلى الطعام وقلّةِ توافره، فلن يكون مجاعةً تلازمكم، بل سيحصل في بعض أيام حياتكم جوعٌ سببه النقص في المواد الغذائية بسبب الحصار أو الافتقار أو الجفاف...

{وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ}، ستمرون بحالةٍ اقتصاديةٍ ماليةٍ سيئةٍ، فلا يتوافرُ معكم المال لشراء ما تحتاجونه.

{وَالْأَنفُسِ}، سيموت منكم أناسٌ لأسباب الحروب أو الأمراض...

{وَالثَّمَرَاتِ}، سيكون نتاجُ النباتات والحيوانات قليلاً.

وفي أثناء تلك البلوى: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}، وأنقل الخبر السار المفرح للذين يتصرفون بشكلٍ واعٍ ومدروسٍ أمام الابتلاءاتِ، والآية التي بعد التالية فيها البشارة لهم.

قبل أن نكمل، تذكّر دائماً أنَّ هذه الدنيا مصممة هكذا، ولا مجال لتصيرَ مثل جنة الآخرة بالسلام والاطمئنان، وإن كان المجتمع بغالبيته صادقاً في إيمانه، فلن يبتليه تعالى بهذه الأمور، وهذا واضح من الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، أمّا إن كثر في المجتمع المنافقون والفاسقون، عندها حتماً سيمرون بظروفٍ صعبةٍ، وكمثالٍ عن ذلك كلام الآية 179 من سورة آل عمران: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ...} فيصيبهم البلاء ليظهر الخبثاء على حقيقتهم الكامنة.

(الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ{156})
{الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ}، إذا وقعت عليهم حالةٌ سيئةٌ من الابتلاءاتِ السابقة أو غيرها، قالوا:

{إِنَّا لِلَّهِ}، نحن منسوبونَ له وهو يملكنا ونحن له مملوكونَ، ونحن تحت أمره وحكمه وملكه، {وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، في النهاية فإنَّ كلَّ ما يحصل من مصائب فله نهايةٌ، وسنرجع كلُّنا لنقف بين يديه تعالى ليحاسبنا ويجازينا في الآخرة.

هم لا يتوقفون عن الإيمان بربهم سبحانه، بل يعتمدون عليه في حلِّ مشكلتهم، وإن لم تَنْحَلَّ في زمنهم وماتوا فلا مشكلة؛ لأنَّنا كلَّنا سنموت وسنرجع إليه تعالى ليحاسبنا ويجازينا.

(أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ{157})
{أُولَئِكَ}، الذين يعلنون بأنَّهم لله تعالى وأنَّهم إليه يرجعون، {عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ}، فيتوجه نحوهم اهتمامُ المسؤول عنهم من مستوى إلهيٍّ.

{وَرَحْمَةٌ}، وعليهم عنايةٌ لما فيه مصلحتهم، فكلُّ ما يحصل معهم هنا في الدنيا سيصبّ في مصلحتهم في الآخرة، فسيكون عليه حسناتٌ وسيكون لهم مغفرةٌ ومضاعفةٌ للحسنات...

{وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}، هم الذين على الشيء الذي يوصلهم للغاية الصحيحة.

لاحظ أنَّ القرآن يتحدث عن الامتحانات لمجتمعاتٍ فيها أناسٌ مزيفونَ، يقولون بأنَّهم مؤمنونَ، وحين تقع المصائب، يزداد المؤمنون إيماناً، والمزيفون إمّا أن تُسبّبَ لهم المصائبُ الاهتداء أو الزيادة في الكفر... أمّا المجتمع الذي في غالبيته يلتزم بأمره تعالى ويداوم على الاستغفار ولا تحصل فيه الذنوب الكبيرة بشكلٍ علنيٍّ، فهذا المجتمع لن يحصل له البلاء.

والموضوع معقّدٌ من ناحيةٍ وبسيطٌ من ناحيةٍ أخرى؛ بسيطٌ لأنَّ كلَّ ما يحصل فيه فائدةٌ للمؤمن، فإذا كانت حرباً أو رخاءً، مرضاً أم صحةً، فقراً أم غنىً... سيصبر المؤمن الحقيقي في كلِّ الحالات ويكسب الحسنات للآخرة الخالدة التي لا موت فيها ولا نهاية لها. ونفس الموضوع معقّدٌ عند انخفاض المستوى الإيماني للشخص الذي سيشعر بالانزعاج من البلاء، فلن يتحمّله، وسيشكّك برحمته وحكمته تعالى.

(إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ{158})
انتهت فقرةُ الاستطرادِ وكانت حول الصبر على عموم البلاء الذي يتعرّض له المؤمن، وترجع السورة إلى نموذجٍ من البلاء وهي تعليقاتُ واعتراضاتُ أهل الكتاب على الطقوس الدينية التي يطرحها هذا القرآن والرسولُ الناقلُ له، وذلك ليبرهنوا أنَّ القرآن والرسول(ع) ليسا امتداداً للدين الإلهي وبالتالي ليسا امتداداً لدينهم... فترجع بنا السورة إلى المسجد الحرام، وطقوسٍ عباديةٍ أجراها هذا الدين فيه...

{إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ}، وهما "كانتا" مرتفعينِ صغيرينِ عن الأرض، وتقعان في باحة المسجد الحرام قرب الكعبة وهما، {مِن شَعَائِرِ اللَّهِ}، بتعبيرنا الدارج: طقوسٌ عباديةٌ أقرّها تعالى لعباده، حيث المشيُ بين الصفا والمروة ذهاباً وإياباً سبع مراتٍ أثناء العمرة أو الحج، ليس عملاً من اختراع أهل مكة، بل هو عملٌ جعله تعالى كطقوسِ عبادةٍ، تخليداً لحادثةٍ حصلت مع المرأة المؤمنة هاجر زوجة النبي إبراهيم(ع) وأمّ النبي إسماعيل(ع) كما هو مشهورٌ جداً في التاريخ.

القصة معروفةٌ عند أهل الكتاب، وعند أهل المنطقة العربية، حيث ترك النبي إبراهيم(ع) زوجته "هاجر" وابنه "إسماعيل(ع)" قرب الكعبة بأمرٍ منه تعالى كما تفهم من فحوى الآية 37 من سورة إبراهيم {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}، وانصرف النبي(ع)، وبقيت المرأة والولد لوحدهما في مكانٍ صحراوي، وبعد نفاد الماء والغذاء من السيدة

هاجر "كما يقولون"، تركت ابنها ومشت لتبحث عن ماء، ووصلت لتلة الصفا لتنظر حولها، فبكى ابنها إسماعيل(ع) فرجعت باتجاهه ووقفت على تلة المروة لتنظر إن كان ابنها بخيرٍ، ثم عادت ومشت باتجاه تلة الصفا لترى إن كان بجوارهما أي مصدرٍ للماء، ولكن كلما وصلت للصفا سمعت ابنها يبكي عادت إلى المروة، وهكذا سبع مراتٍ حتى رأت الماء يجري قرب ابنها، وهي نبع الماء التي اسمها زمزم.

هذا الكلام عن سبب شعيرة الصفا والمروة تخليداً لما حصل مع السيدة هاجر، هو مشهورٌ جداً بين الناس، ولم أجد في مختلف الكتب أي كلامٍ آخرَ معارضاً لهذا الكلام، ولمزيدٍ من التفاصيل راجع الآية 37 من سورة إبراهيم، والآية هنا اكتفت بالإعلان أنَّه من الشعائر الإلهية لتعطيه صفةً دينيةً.

{فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ}، فالذي قصد، البيت، الكعبة، لأداء فريضة الحجّ، الذي يتضمّن إحراماً وتلبيةً وطوافاً وصلاة ركعتين وسعياً والوقوف بعرفة ومبيت في منى ونحراً... والحجّ واجبٌ مرة واحدة في العمر على كل من يستطيع الذهاب إليه كما هو واضح من الآية 97 من سورة آل عمران {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا}، ويمكن تأديته في واحد من أشهر ثلاثةٍ: شوال أو ذي القعدة أو ذي الحجة، كما هو معلوم في الكتب ويبدو من الآية 197 من هذه السورة {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ}، وللأسف لم يعد هذا منتشراً مشهوراً بين الناس ويصرُّون على التكدّس أثناء الحج في شهر ذي الحجة.

{أَوْ مَنِ اعْتَمَرَ}، أو قام بالعمرة وهي واجبةٌ أيضاً لكل من يستطيع ولمرة واحدة في العمر، والدارج الآن القيام بالعمرة والبقاء في مكة بانتظار اليوم الثامن من ذي الحجة للقيام بأعمال الحجّ... راجع كتب الفقه لمعرفة التفاصيل. لغوياً العمارة هي بناء المكان وتجهيزه والسكن فيه أو زيارته... والعمرة الواجبة هي زيارةٌ عباديةٌ للبيت الحرام ويمكن القيام بهما في أي شهر من الأشهر التالية: شوال، ذي القعدة، ذي الحجة. أمّا العمرة المستحبة فيمكن القيام بها في أي وقت كان.

نرجع للآية، فمن حجّ أو اعتمر، {فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا}، فلا مشكلةَ عليه، أن يقوم بالطواف عدّةَ مراتٍ فيذهب ويأتي بين الصفا والمروة، حيث يقوم الحاجُّ أو المعتمر بالذهاب والإياب سبع مراتٍ بينهما، فهذا العمل ليس من اختراع العرب بل هو شعيرةٌ دينيةٌ قديمةٌ بدأت من أيام النبي إبراهيم(ع)، وهما جزءٌ واجبٌ من الحج والعمرة. الكلام موجهٌ لمن يقول إنَّ السعي (المشي بين الصفا والمروة) هو اختراعٌ من العرب وأدخله المسلمون في دينهم! لا، بل هما من الشعائر العبادية لله تعالى.

{وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا}، والذي قام بالحجّ والعمرة الواجبة وبعدها تطوع، فحجّ أو اعتمر تطوعاً، فقد انتهى الواجب الذي عليه ومن نفسه أحبّ تكرار الحجّ أو العمرة، {فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ}، فسيعلن له تعالى عن قيامه بعملٍ جيدٍ حيث تطوّع للتقرّب منه تعالى، فيجزيه تعالى عليه ثواباً، والله تعالى، {عَلِيمٌ}، يعلم كل شيء، وهنا المقصود الحاجُّ أو المعتمر المتطوّعُ، فبحسب ما يرى تعالى في قلبه من نيةٍ صافيةٍ، يشكر لعبده بقدر نيّته للتقرب.

عبارة "{لَا جُنَاحَ}" في كل القرآن لا تقصد الاستحباب ولا الوجوب، فقد يكون العمل الذي تتكلّم عنه واجباً أو مستحباً، فيقول لك القرآن إنَّه "لا مشكلةَ دينية في فعله" فهو واجبٌ أقرّه تعالى كواجبٍ لنا، أو مستحبٌّ أو مباحٌ أقرّه تعالى لنا كمستحبٍ أو كمباحٍ فلا مشكلةَ دينيةً عليك في فعله، وهذا هو مرادف معنى "لا جناح".

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ{159})

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ}، يخفونَ ولا يظهرون، {مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ}، من الأمورِ الواضحةِ التي توضّح الدين الإلهي الصحيح، ويكتمون {وَالْهُدَىٰ}، الشيء الذي يوصل للغايةِ الصحيحة، ما يدلُّ على الطريق الصحيح، {مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ}، من بعد ما وضّحه تعالى للناس، {فِي الْكِتَابِ}، الذي نزل على هؤلاء الناس.

هناك أناسٌ نزل عليهم كتابٌ منه سبحانه يبيّنُ فيه الدين الصحيح، وهذا الدينُ هو نفسه الدينُ الذي يبلّغه النبي محمد(ع) للناس، ولكنهم يكتمون ما يعرفونه؛ لأنهم -وكما سبق وأخبرتنا السورة عنهم- تلاعبوا بالدين الإلهي حتى صار على مزاجهم، ويعرضون ما اخترعوه على الناس على أساس أنَّه من الكتاب الإلهي.

بالنسبة لخصوص الكلام هنا، فمراسمُ الحج والعمرة لها أساسٌ في الكتب التي أنزلها سبحانه من قبل، ولكنَّ هؤلاء الناس يقومون بالتعليقِ على شعائر الحج والعمرة قائلينَ إنَّها ليست من الدين الإلهي، بل اختراعٌ عربيٌّ، أو من اختراع أهل مكة بالتحديدِ... وقد أدخلها النبي محمد(ع) إلى الدين... وكلامهم بالخصوص عن السعي بين الصفا والمروة الذي في نظرهم يبدو سخافةً! فما معنى المشي سبع مراتٍ بين تلتينِ! وما هو الشيء الديني الإلهي في ذلك... مع العلم بأنَّ كلَّ شيءٍ من مراسم الحج والعمرة قد قام به النبي إبراهيم(ع) بأمرٍ منه تعالى، وكلَّ المراسم لها معانٍ وتعبّرُ عن شيءٍ معلومٍ... وهذا مكتوبٌ في الكتب التي نزلت سابقاً.

{أُولَٰئِكَ}، الكاتمونَ للمعلومات الواضحة في الكتاب الإلهي: {يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ}، يطردهم ينبذهم تعالى من رحمته، {وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ}، أيضاً المؤمنون يلعنونهم بطلبهم منه تعالى طرد هؤلاءِ الناس من رحمته سبحانه.

ما معنى كتمانهم لمعلوماتٍ واضحةٍ قالها تعالى وبدلاً منها عرض معلوماتٍ أخرى على الناس على أنَّها منه تعالى؟ وهذا الكلام عموميٌّ مع وعن عموم من سبقنا من أهل الكتاب، ومعنا؛ لأننا نحن مذاهبُ "إسلامية" وعلى المزاج نفسّر كلامه تعالى بما يناسب هوانا المذهبي، وكلُّ واحدٍ منهم يتّهمُ الآخرين باتباعِ الهوى!...

(إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{160})
ولكن هل الحكمُ عليهم باللعن نهائيٌّ لجميع الكاتمين؟ لا: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا}، أقلعوا عمّا سبق وفتحوا صفحةً جديدةً، {وَأَصْلَحُوا}، فكانت أعمالهم الجديدة موصوفةً بأنَّها صالحةٌ، وهنا الكلام عن عموم التزامهم بالدين الإلهي، والجملة التالية عن خصوص موضوع فقرتنا: {وَبَيَّنُوا}، ووضّحوا للناس الترابط بين كتابهم الإلهي وهذا القرآن.

بهذه الشروط الثلاثة: {فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ}، يفتح سبحانه لهم صفحةً جديدةً ولا يبقى تعالى على موقفٍ صلبٍ منهم بالرغم مما فعلوه. {وَأَنَا التَّوَّابُ}، الذي يقبل توبة التائب، فسبحانه ليس قاسياً فظاً صلباً لئيماً... تعالى عن ذلك علواً كبيراً، فمن أساء ومهما كانت سيئته فإذا ترك ما سبق وفتح صفحةً إيمانيةً جديدةً سيقبل سبحانه توبته ويفتح له صفحةً جديدةً، ولا يحاسبه على الماضي.

{الرَّحِيمُ}، الذي لديه تعالى عنايةٌ خاصةٌ بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، وبناءً عليها سينال المؤمنون التوبة والمغفرة وتكفير السيئات ومضاعفة الحسنات... وأمّا غير المؤمنين فلا مغفرة لهم ولا مضاعفة للحسنات ولا شفاعة... لأنهم هم بإرادتهم خرجوا من تحت مظلة الرحمة الإلهية.

لاحظ هنا كيف استلحقت الآياتُ الذي ارتكب الذنب العظيم الذي يجعله ملعوناً، فلم تغلق عليه باب التوبة، وهذا من روائع أقوال ربنا سبحانه، وبابُ التوبة نبّهت عليه الكثيرُ الكثيرُ من الآيات بأنَّه دائماً مفتوحٌ. لاحظ أيضاً المبدأ القرآني الأساسي: {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، بالمرادف له هنا "{تَابُوا وَأَصْلَحُوا}"، فكلاهما معاً ينجيان.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ{161})
{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، فأنكروا دينه سبحانه، {وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ}، وفقدوا حياتهم وهم على حالة إنكارِ دينه تعالى، فلم يتوبوا في حياتهم، {أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ}، طردُه وإبعادُه لهم فلا ينظر إليهم سبحانه برحمته، {وَالْمَلَائِكَةِ}، التي لن ترأف بهم فلن تطلب لهم تخفيف العقاب، {وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}، فكل الناس -الملعونُ منهم وغير الملعونِ- كلهم يلعنون من يلعنه الله تعالى، وهنا الكلام عن الآخرة، ففي الدنيا ليس كلُّ الكافرين يلعنون كلَّ من لعنه تعالى، أمّا في الآخرة فسيلعنُ الكفارُ بعضهم بعضاً طالبينَ منه تعالى أنْ ينزل أشدَّ العقاب بالكافرين الآخرين، وكمثالٍ عن ذلك ما ورد في الآية 38 من سورة الأعراف: {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا}، وهذا لعنهم لبعضهم، وما ورد في

الآية 44 من سورة الأعراف: {وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}، وهذا لعن المؤمنين لهم، فالناس أجمعين يلعنون من لعنه تعالى.

(خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ{162})
وهؤلاءِ الملعونونَ: {خَالِدِينَ فِيهَا}، ملتصقونَ بحالةِ اللعنةِ وعملياً ملتصقونَ بجهنمَ حيث لا يموتون ولا يخرجون منها، {لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ}، فيبقى الضررُ مؤلماً دائماً ولا يعتادون عليه، {وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ}، ولا تمرُّ عليهم فتراتُ إنظارٍ أو إمهالٍ، فلا توجدُ استراحةٌ من العذاب ولو للحظةٍ.

يبدو من القرآن أنَّنا عندما سنفتح أعيننا في يوم القيامة سنعلمُ بأنَّنا لا نموت، وسيكونُ الرعبُ لمن يعلمُ بأنَّه لن يخرج من جهنمَ؛ لأنَّه يشعرُ بنفسه بجسده وبعقله بأنَّه لا نهايةَ لهذا العذاب.

نفهمُ من عموم القرآن أنَّه تعالى يعطي كلَّ واحدٍ منّا فرصةً كاملةً في حياته حتى يصل إلى نهايةِ استقرارِ عقليته ونفسيته على الكفر أو على الإيمان، أو على ما بينهما... وبعدها يتوفاه تعالى. هذا واضحٌ من الآيات العديدة التي تربطُ بين خلودِ نوعيةٍ محددةٍ من الناس في العذاب وبين النفسية والعقلية الفاسقة أو المنافقة أو الكافرة التي وصلوا إليها في حياتهم، وأنَّها لن تتغير مهما طال عمرهم، ولو ردّهم تعالى إلى دار الامتحان مرةً ثانيةً فحتماً سيعودون ليستقروا على نفس حالةِ الكفر أو الفسق أو النفاق التي كانوا عليها سابقاً، كما هو واضحٌ من عدة آيات منها الآية 28 من سورة الأنعام: {... وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}، وهذا سببُ خلودهم في العذاب؛ لأنَّ الخلود في جهنمَ ليس مقابل سنواتٍ قليلةٍ من الحياة في الكفر أو الفسق أو النفاق، لا، بل هو مقابل نفسيتهم وعقليتهم التي استقرّت ولن تتغيّر عن الكفر أو الفسق أو النفاق، وهذا ما نراه متكرراً بكثرةٍ في القرآن صراحةً عبر وصفهم بالعمى والموت وتغليفِ القلب.

هذا الكلامُ من تطبيقات الإيمان بصفاته تعالى: العليم عالم الغيب الحكيم الخبير... فإن لم تؤمن بهذه الصفات له تعالى لربما تقول: لا، ربما إن طال عمرهم وتغيّرت ظروفهم سيؤمنون. لا، لن يؤمنوا ولو بعد تريليون سنةٍ، بل لو خلدوا في الدنيا فهم لن يؤمنوا.

(وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ{163})
{وَإِلَٰهُكُمْ}، الكائنُ الموصوف بالقدرات والصفات الفائقة الذي أنتم تابعون له، {إِلَٰهٌ وَاحِدٌ}، فهو نفس الإله للجميع، {لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ}، فلا يوجد إله غيره.

توقّف يا عزيزي عند هذه الجملة التي من كثرة تكرارنا لها وسماعنا لها ربما لم تعد تعني لنا الكثير، ولم تعد تفعل فينا أثراً بقدر قيمتها الحقيقية الهائلة. كما ألفت انتباهك إلى عموم بقية الأديان والثقافات التي استعملت كلمة "ربّ" وما يرادفها لوصف كائنات بقدرات عالية من مستوى إلهيٍّ، حيث هناك فرقٌ كبيرٌ جداً بين كلمة "ربّ" وبين كلمة "إله"، والغالبية الساحقة من ديانات الشرك القديمة والحالية، استعملوا كلمة "ربّ" أو ما يرادفها لوصف الذين عبدوهم، وعلى مستوى المثقفين منهم فنادراً ما تجد استعمالهم لكلمة "إله" أو ما يرادفها لوصف من يعبدونهم.

تجد هذا الفرق بين استعمال هاتين الكلمتين واضحاً في كلام القرآن مع المشركين، حيث بداية اختراع إله من الوهم والخيال يبدأ من افتراض "ربّ" مسؤول عن المطر، أو عن إنباتِ الزرع، أو عن صحة الماشية وتكاثرها، أو عن البحر والريح والشمس... ككائن مسؤول عن هذه الظواهر بسبب قدراته العالية الأعلى من قدراتنا التي لا تتحكم بهذه الظواهر.

بعدها تتطور الفكرة ليصير الكائن موصوفاً بقدرات فائقة لا يمكن أن نتصف بها نحن العاديين... فيصير من مستوى إلهيٍّ... لأن البذرة المزروعة في تكويننا للبحث عن سبب خلقنا وسبب خلق ما حولنا لنتعرف على خالق عظيم صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا... فهذه البذرة التي وضعها تعالى فينا لنتعرف عليه، إن تعاملنا معها

من عقلية ونفسية منحرفة عندها سنخترع آلهةً من أوهامنا، وإن مشينا على النموذج الإبراهيمي وبقية الأنبياء(ع) بالقلب السليم، عندها سنصل إليه تعالى وحده، ككائن أحد في قدراته الفائقة...

بهذه الخاصية خلقنا سبحانه لنتعرف عليه من خلال ملاحظة خلقتنا وخلقة ما حولنا، وملاحظة ما يحدث من أمور تحتاج لقدرات عالية لحدوثها... وإلا فكيف سنتعرف عليه سبحانه؟ وها القرآن صريح بأن طرق تعرفنا عليه تعالى والمزروعة فينا متنوعة، منها الملاحظة للسؤال عمّن خلق، والسؤال عن سبب وجودنا، ومنها فقداننا القدرة على التحكم في الكثير مما حولنا، ومن ذلك تنتج مشاعر كالخوف الناتج عن فقداننا القدرة على التحكم ببعض ما يجري معنا... وكالحب بالتعلق بمن تفضّل علينا بالحياة والنعمة... فهذا الإيمان البدائي، النابع من تصميمه تعالى لنا، هو طرق تعرفنا عليه سبحانه.

من ناحية ثانية يخبرنا سبحانه مراراً وتكراراً في القرآن انطلاقاً من نظرته سبحانه لكل السماوات والأرض، أنه سبحانه وبكل شفافية لا يرى إلهاً غيره، لا فوقه ولا على جنبه ولا تحته... ولا ربع إله ولا نصف إله ولا كائن بنفحة إلهية... وهذا واضح من العديد من الآيات منها الآية 33 من سورة الرعد: {... وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ...}.

بناءً عليه وفيما يخص الكلام هنا فمن ناحية ثالثة، يكون إله أهل الكتاب هو نفس إله الآخرين، وإله هذا القرآن وإله الرسول الناقل له، هو نفس إله أهل الكتاب.

بخصوص آياتنا هنا، يتوجه الكلام إلى الذين يكتمون ما أنزله تعالى للناس، حيث الإله واحد لا إله غيره، فما معنى ما يفعلونه من التلاعب بكتبه سبحانه حتى يشوّهوا ما يقوله هذا القرآن والرسول الناقل له! طالما هو نفس الإله ولا إله غيره الذي أنزل الكتب عليهم وأنزل هذا الكتاب، ولو فعلاً آمنوا بوحدانيته تعالى كإله، عندها لما قاموا بتشويه ما هو واضح ويدل على أن طقوس الحج والعمرة قد أمر بها الإله الأحد فعلاً.

لكن من نفسية وعقلية منحرفة سيئة تعاملوا مع كتبه تعالى على أساس أن كتبهم من إله غير الإله الذي نزّل هذا القرآن، بالرغم من علمهم بتصديق كتبهم لهذا الكتاب وأيضاً تصديق هذا الكتاب "القرآن" لكتبهم كما هو واضح من الآيات العديدة منها الآية 3 من سورة آل عمران: {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ}.

نرجع للآية، وكلامها عن الإله الواحد، {الرَّحْمَٰنِ}، الذي يعامل كل مخلوقاته بما فيه مصلحتهم، طبعاً إلى أن يقرروا هم الخروج من رحمته تعالى وبالتالي تنحصر رحمته الخاصة تعالى بالمؤمنين ويصير وصفه تعالى حينها بأنه، {الرَّحِيمِ}، الذي لديه عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، فيهديهم ويغفر لهم ويضاعف لهم الحسنات... وهذه الأمور وغيرها لا تحصل عليها كل المخلوقات.

سأنقل لك دراسة عن كلمة إله، سيتكرر فيها بعض ما ذكرناه منذ قليل، فتذكّر دائماً أننا كبشر قد جعل سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرف عليه سبحانه من ملاحظة أفعاله "آياته في خلقه" ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء... وينتج عن ذلك مشاعر التعلق بالقوة الإلهية الفائقة عند الوقوع في الشدائد... فوضعنا كلمة نصف بها الكائن ذي الصفات والقدرات العالية جداً عن قدراتنا، وهي كلمة "إله" كوصف لذي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلق به عند الوقوع في الورطات...

في الحقيقة فالكائن الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة هو الله سبحانه، وقد تساهل الناس في استعمال كلمة إله لتنطبق على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، حيث يطلقونها على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أن فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي...}.

القرآن يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهيِّ، فيقوّم اللغة ككل، ويقوّم دقة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة "إله"، يخبرنا أنها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرج في استعمالها.

المشركون الناطقون باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... استعملوا كلمة إله بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي "الواقعي" حين وصفوا بها غيره تعالى. مثلما استعمل الكثيرون كلمة سحر للدلالة على قوة خارقة غير مرتبطة بالأسباب والمسببات الطبيعية للأمور، بينما السحر مجرد خدعة... وغيرها من الكلمات والجمل التي معناها لا يطابق الواقع، كالزواج من الجنيات، والطلاسم المكتوبة على الورق وذات تأثير على الطبيعة والبشر...

قارنها مع كلمة "ربّ"، فأنا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... هذه كلمة تتحمّل التدرج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهيٍّ، فهي لا تتحمل التدرج؛ لأنها حصراً له تعالى ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهيّ.

كلمة إله في حقيقة معناها لا تتحمل التدرج لينوصف بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، فحين يخبرك أنه خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، وسبحانه وظّف الملائكة(ع) التي خلقها لتنفيذ بعض أوامره... من هذا ترى بوضوح أنه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، فماذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدد له والمميز "الله" جل جلاله قد فعل كل شيء، فما معنى ألوهية غيره! وهذا ملخّص مبسط للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

ألفت انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، وتجدهم حصروا استعمال كلمة إله للرب الكبير، واستعملوا للآخرين وصف الربّ، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون: إله المطر وإله الحرب... وعلى كل حال فالقرآن رفض توصيف غيره تعالى بالألوهية والربوبية من مستوى إلهيٍّ، حيث المشركون يعتقدون بوجود كائن "ربّ" مسيطر على المطر من مستوى إلهيّ وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم أنه توصيف لألوهية أربابهم.

من ناحية ثانية لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، حيث يصير الهوى إلهاً كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ...}، وهي لا تشير لاعتقاد الشخص بأن هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لاختراع دين فيه ما يهواه، ليكون عملياً يعبد هواه.

بالنسبة لأصل كلمة "الله" ستجد كلاماً كثيراً حولها، ويبدو من تتبع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حالياً بالسامية... أن الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة "إله" ومنها جرى اشتقاق اسم العلم "الله"، وهذا الاسم لم يكن متداولاً في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط حيث تجد عند الآخرين نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، فكلمة إله واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات ما يسمّى بأصل اللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة الله من وصف الإله ومتى، فهل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قديماً عبر الوحي، فالأرجح عندي "استذواقاً" أنه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك "استذواقاً" لأن المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين إلى الوراء بدون مستند صريح لتأكيد كلام ما، فهو بطبيعته يصير استذواقياً لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا ذات نفسي ستجدني في سياق كلام آخر قد استذوق أنه تعالى هو سمّى نفسه، فليس من المعقول ولا من المقبول منك أن تطلب حسماً من الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دليلاً حاسماً، ولا مقبول من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنه الصحّ إلا اللهم إن قدّم دليلاً دامغاً، وهذا لا يبدو ممكناً في مسألتنا هذه.

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ{164})

هل كان الإلهُ الواحدُ للجميع، الأحدُ الرحمنُ الرحيمُ، خافياً غيرَ معروفٍ حتى أخطأ هؤلاء في كتمانِ تصديقِ ما في كتبهم للقرآن؟ يعني هل لديهم عذرٌ؟ هل يوجدُ أحدٌ عنده مواصفاتٌ وقدراتٌ تشبه التي يملكها ربنا سبحانه حتى يكون لأهل الكتاب إلهٌ خاصٌ بهم وللمسلمين إلهٌ خاصٌ بهم...؟ هل إلههم غيرُ إلهِ المؤمنين بهذا القرآن؟ لنرى:

{إِنَّ فِي خَلْقِ}، إنَّ في تأليفٍ وتركيبٍ، {السَّمَاوَاتِ}، عموم ما هو فوق كفضاءٍ ويقابله أرض، وهنَّ سبعُ سماواتٍ كلُّ واحدةٍ منها تقابلها أرضٌ تناسبها، وفي خلق {وَالْأَرْضِ}، عموم ما هو تحت سماء، والكلام عن الأرض التي نعيش عليها بجبالها وصخورها وترابها وسهولها ومحيطاتها... ولكن هذا لا يعني حصر كلمة أرض بكوكب الأرض؛ لأنَّ سطح القمر أرضٌ وسطح الشمس أرضٌ مقابل السماء... وهكذا لبقية السماوات لكل واحدة منها أرضٌ أو أراضٍ تقابلها كما هو واضح من الآية 12 من سورة الطلاق: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ...}.

السماواتُ والأرضُ هي حدودُ الدنيا وكلُّ ما فيها من مخلوقاتٍ من كائناتٍ وظواهرَ، بحسب ما كلّمنا عنه القرآنُ بما يتعلّق بنا، وكما ترونها بتصميمٍ متناسقٍ واحدٍ يدلُّ على إلهٍ واحدٍ صمّمها كلَّها وخلقها.

{وَاخْتِلَافِ}، "يأتون خلف بعض"، في تعاقب، ذهاب وقدوم، {اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}، هذا المشهدُ الضخمُ الذي يراه الجميعُ ولا يحتاجون لأكثر من النظر إليه لملاحظته، أليس آية تدلُّ على إلهٍ واحدٍ أحدٍ جعل ظاهرة الليل والنهار تحصل على كل الأرض لجميع الناس؟ فما معنى الإيمان بإلهٍ خاصٍّ بقومٍ ما وليس هو نفسه إله الآخرين إن كانت بيئتكم تحصل فيها أمورٌ مشتركةٌ بينكم كلّكم؟ بينما هي أمورٌ تدلُّ على إلهٍ واحدٍ أحدٍ للجميع.

{وَالْفُلْكِ}، السفن والمراكب والفلوكة... {الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ}، التي تسير بالتتابع، باستخدامها للصيد وبنقلهم ونقل أغراضهم... أليس فيه آية؟ فلو كان الإله الذي أتاح لكم صنع السفن لكم لوحدكم فمن أتاح جريان سفن الآخرين بما ينفعهم؟ وهل أنتم لكم إلهٌ سخّرها لكم والآخرون من دون إلهٍ سخّروا السفن؟ أم لهم إلهٌ آخر سخّرها لهم؟...

{وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}، وهو ماء المطر، فانظر لأيِّ بقعةٍ من الأرض كانت خاليةً من الحياة النباتية والحيوانية، وبعد نزول الماء عليها تنتعش "الحياةُ" النباتية فيها. النظرة الساذجة للمشركين تقول بأنَّ إلههم المخصّصَ للمطر أنزل عليهم المطر، فمن أنزله على الآخرين؟ إلهٌ آخر أم نفس الإله؟ أم هكذا لوحده ينزل ولا يوجد من صمّم وخلق حتى تحصل هذه الظاهرة...؟

{وَبَثَّ فِيهَا}، ما نشر سبحانه في الأماكن المختلفة على الأرض، {مِن كُلِّ دَابَّةٍ}، فانتشر على الأرض من الأنواع المختلفة من الدواب من الكائنات التي تدبُّ، تتحرك على الأرض، وهي كل الحيوانات والحشرات، أليس في ذلك آية؟

{وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ}، انصرافها وتحوّلها وانتقالها من مكانٍ إلى مكانٍ. {وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}، الغيوم التي تحمل المطر، الذي ينتقل بينهما في الجو لينقل المطر من هنا إلى هناك... بالسُّخرةِ، أي من دون أي مقابلٍ منّا، ومن دون أن يكون لنا أي دخل به لأننا لا نقدّم أي مجهودٍ عندما يقوم السحاب بنقل الماء لنا من مكان لآخر.

إنَّ في كل ما سبق: {لَآيَاتٍ}، أمورٌ مميزةٌ بمستواها الإلهي، أمورٌ تدلُّ على إلهٍ فائق القدرات وراء تصميمها وحصولها، {لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}، لجماعةٍ من الناس متفاعلةٍ فلها كيانٌ وتتشارك مع الآيات في المكان والزمان، لديهم عقلٌ يعمل بشكلٍ سليمٍ فيستوعبوا ويفهموا أنَّها أمورٌ مميزةٌ وراءها إلهٌ واحدٌ أحدٌ.

دعنا لا ننجرف في تفسير هذا النوع من الكلام القرآني على طريقة الإعجاز العلمي في القرآن؛ لأنَّ كلَّ القرآن تحدّث مع الناس العاديين الذين بكل بساطةٍ يلتفتون للمشاهد التي حولهم، والليل والنهار لم تصفهما الآيات لشخصٍ في الفضاء ينظر إلى الأرض، ولم يدخل القرآن في موضوع كروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس... بل اكتفى بالنظرة العادية من أي إنسان عادي لظاهرة الليل والنهار، والذين لم تكفهم هذه النظرة ليروا أنَّهم أمام آية من العيار الإلهي، ونمّقوا الكلام القرآني فأدخلوا فيه النظريات العلمية ليبرهنوا أنَّ القرآن عظيم... فهؤلاء عندهم مشكلةٌ إيمانيةٌ؛ لأنَّ كلامه تعالى السهل البسيط العادي لم يقنعهم!

دائماً لننظر لهذه الآيات من نظرتنا العادية ومن نظرته تعالى، وسترى تكراراً كثيراً لهذا الكلام في دراستنا هذه للقرآن، فتصوّر لو أنك أنت قمت بتصميم كائناتٍ وبيئةٍ ليعيشوا فيها، وجعلت لتلك الكائنات مميزاتٍ تتماشى مع بيئتها، ولديك

قدراتٌ عاليةٌ تمكّنك من خلق الكائنات بفكرٍ وأحاسيسَ وغرائزَ وخيالٍ... وجوع، فهل ستقوم بطبخ الطعام لها أو بحركةٍ سحريةٍ خرافيةٍ يصير الطعام أمامها فجأةً لتأكل منه! أم ستجعل الطعام متوافراً في بيئتها مع القدرة فيها على الاستفادة من الطعام من بيئتها؟ بحيث تصمّم وتخلق في بيئتها تربةً ونباتاً وماءً وهواءً... متناسباً مع بعضه لينتج عنه طعامٌ لكائناتك... وفي هذه الحالة ألا تكون أنت رازقهم؟ من هذه النظرة نفهم كلامه تعالى واصفاً نفسه بالفاعل لكل شيء، فهو رازقنا، وإن لم يؤمن البعض بذلك ويريدون طعاماً جاهزاً ينبثق فجأةً أمامهم كلّما جاعوا ليؤمنوا بجملة "الله رازقهم" فهؤلاء حتى لو حصل ذلك لن يؤمنوا به تعالى.

هل تتوقّع من تلك الكائنات التي أنت خلقتها قيامها بشيءٍ يفاجئك ولم يخطر على بالك؟ هذا "قد" يحصل إن كانت قدراتك محدودةً، أمّا قدرات الإله الفائقة لخلقك وخلق بيئتك فتتضمّن مسبقاً علمه تعالى بكل ما يمكن أن ينتج عنك، فاختراعُك للسفن كان من الأساس من ضمن تصميم الإله سبحانه لك عبر زرع الفكر والملاحظة والخيال فيك... وجعل صفاتٍ مناسبةٍ في الماء والخشب... هكذا تفهم أنَّ الفلك (وسائل النقل البحري) ليست من اختراعك واستخدامك لفكرك وخيالك ولبيئتك بشكلٍ فاجأه تعالى ولم يكن يتوقّعه سبحانه، لا، بل من الأساس يعلم الإله سبحانه بما يمكن أن تصل إليه البشرية من اختراعاتٍ نابعةٍ من قدراتهم الفكرية ومواصفات بيئتهم. هكذا تفهم كلامه تعالى السهل الواضح من نظرتنا العادية ومن نظرته تعالى للأمور.

أيضاً علينا الفصل بين ما تقصده الآيات ولا نخلط المواضيع ببعضها، فهناك آياتٌ تحدّثت عن الكوارث الطبيعية المدمّرة، وآياتٌ تحدّثت عن الظواهر الطبيعية العادية، وكلاهما يدلُّ على إلهٍ بقدراتٍ فائقةٍ، أمّا اعتبار الكارثة الطبيعية المدمرةِ عملاً لا يمكن أن يصدر عن إلهٍ له صفات الرحمة والرأفة... فهذه نظرة من لم يؤمن بصفاته تعالى ولا بكلامه؛ لأننا في دار بلاءٍ ولسنا في جنة الآخرة، وهناك في جنة الآخرة لا كوارث ولا آفاتٍ ولا مرض... أمّا هنا فمن ضمن تصميمه تعالى لنا ولبيئتنا، توجد كوارث طبيعية ومرض وموت... وقد ربط القرآن كلَّ ذلك بالبلاء الذي نتعرّض له كامتحانٍ لنا وإظهارٍ لحقيقة إيماننا، فإن كنّا مؤمنين حقيقيين ستنتفي أكثرُ المشاكل لأنَّ الحكومات الصالحة تعمل على علاجها وفوق ذلك سيتدخلُ سبحانه ولن نتعرّض للكوارث الطبيعية كما هو صريح من الآية 96 من سورة الأعراف: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

هذا كلامٌ يجرّنا إلى ما نراه من نعيمٍ للبلدان التي قد يعتبرها بعضُ المتدينين لا تستحقُّ النعمة التي يعيشون فيها... في مقابل الفقر والقحط والزلازل التي تضرب بلداً مسلماً أو فقيراً... فإن آمنت فعلاً بأنَّه تعالى حكيمٌ، وانتبهت لما تقوله أنت عن عدل حكّام تلك البلدان مع مواطنيها، وفساد بلاد المسلمين حكّاماً ومواطنين...

هنا سأكتفي بهذا الملخص ولمزيدٍ من التفاصيل أحيلك إلى الآيات الكثيرة التي تحدّثت عن فساد الناس وأسباب الكوارث... وكمثالٍ عن ذلك الآية 41 من سورة الروم: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

الخلاصةُ من الآية هنا، أنَّ كلَّ هذه الآيات والظواهر تدلُّ على الإله الخالق العظيم الواحد الأحد، وليس هناك إلهٌ لليهود وآخر للمسيحيين وآخر أنزل هذا القرآن، كي ينتبه الذين يحاولون تشويه هذا القرآن أنَّهم إن كانوا يؤمنون بالإله الخالق لكل شيء، والمسؤول عن كل الظواهر التي حولهم والتي تدلُّ على إلهٍ واحدٍ أحدٍ، فلينتبهوا لأنهم يحاولون تشويه كتابٍ إلهيّ بتشويههم للقرآن.

حب بعض الناس كحبّ الله!

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ{165})

أمام وضوح وحدانيته تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ}، فيجعل لنفسه، {مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا}، يجعل شيئاً ما بالنسبة له مساوياً مشابهاً له تعالى في المكانة الإلهية، كما نقول: ذهبتم من دوني، ونقصد: ذهبتم وتركتموني. بعض الناس يجعلون من دون الله تعالى أنداداً، تاركينَ اعتباره تعالى وحده إلهاً ويتعلقون بمن جعلوهم مساوين له تعالى في مقام الألوهية، وعملياً هو الحبُّ والطاعةُ لأحدٍ ما غيره تعالى بمستوى الحبِّ والطاعةِ المفترضِ أن يكونَ للإله فقط.

{يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ} ! يشعرون برغبة التواصل والتقرّب... تجاهَ تلك الأنداد، من علماء دينٍ أو شخصياتٍ دينيةٍ أو شخصياتٍ سياسيةٍ أو اجتماعيةٍ أو أسطوريةٍ... فيحبونهم مثلما من المفروض أن يحبوا الله تعالى!

من سياق الكلام السابق ترى أنَّ الكلام هنا بالخصوص عن أناسٍ من أهل الكتاب جعلوا بعض شخصياتهم الدينية بمكانة الإله عزَّ وجلَّ؛ لأنهم يسمعون كلامهم ويطيعونهم، ويقدّسونهم لمستوى ربوبيٍّ إلهيٍّ... ومن داخلهم يوجدُ محبةٌ لهم مساويةٌ للمحبة التي يجب أن تكون للإله سبحانه وتعالى.

لاحظ أنَّ صراحة كلام الآية قد تكونُ ثقيلةً لدرجةِ استبعادِكَ أنَّها تتحدث معك؛ لأنك "على المستوى النظري" لن تحبَّ أحداً ما كحبّك للإله، أو تحبّه من مستوى الحبِّ الإلهي... ولكن هل هذا صحيح؟ نحن نرى الناس من حولنا يكفرون ويسبُّونَ له تعالى عند أول لحظة غضب، وعند موت من يحبّون، وعند خسارة مالية، وعند إزعاج الجيران لهم... حيث أرخصُ شيءٍ عندهم وأسهله هو التجرّوءُ عليه عزَّ وجلَّ... كما نرى الناس تقول لهم: قال القرآن، فيقولون لك: لا يهمُّنا فقد قال فلان كذا... وعاداتنا كذا...

بشكلٍ أيسرَ ستفهمها إذا قايست محبة بعض الناس لمُغنٍّ أو مغنيةٍ أو ممثلٍ تلفزيوني أو سينمائي أو ممثلة... أو لشخصيةٍ دينية... أو زعيمٍ سياسي... فهل تحبُّه تعالى أكثر من هؤلاء؟ هل أنت مطيعٌ له تعالى ومتعلّقٌ به وترغب بالتواصل معه تعالى... أكثر منهم؟

أنت تحبُّ العالم الديني الربانيَّ الفلاني وتثق به، وعندما يقول: نحن مذهبنا فقط على الحق ونحن وحدنا المسلمون وبقية المذاهب المسماةِ إسلامية إنما في الحقيقة ليسوا مسلمين ويجوز سبُّهم ولعنهم وقتلهم وسبيهم... فبهذا أنت جعلته نداً له تعالى، تسمع كلام ذلك الشخص وهو مخالفٌ لكلامه تعالى الواضح الصريح في قرآنه الآمر بالتمسّك بحبله تعالى المانع لنا من التفرّق، والذي تكرر صراحةً ومراراً وبشكلٍ مباشرٍ في القرآن ومنه الآية 103 من سورة آل عمران: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا...}، ومنه الفقرة الطويلة التي مرَّت هنا في السورة بكلامها مع وعن بني إسرائيلَ بدايةً من الآية 84: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ}، والطامة الكبرى صريح الآيات 9 و10 من سورة الحجرات: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}، والتي فسّروها طائفياً ومذهبياً بشكلٍ معيبٍ مخزٍ بحيث نفى كلُّ مفسّرٍ لها صفة الإيمان عن المسلمين من المذاهب الأخرى!

هنا الآيات في سياقها كانت تتحدث عن الذين اتبعوا علماء ورؤساء وزعماء أهل الكتاب في زمن النبي محمد(ع)، ولكن انتقلت السورة من هنا للتحدث بشكلٍ عام عن سلوكياتٍ مشتركةٍ بين أهل الكتاب وعموم الناس، الآية هنا تتحدث عن كلِّ الأزمنة التي يتكرر فيها تركُ الناس لكلامِ تعالى واتباعُ غيره، وتصفه بأنَّه حبٌّ نديٌّ، كحبٍّ من المستوى الإلهي لأحدٍ ما غيره تعالى.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ}، في المقابل، الذين هم في حالة اعتقادٍ حقيقيٍّ بأحديَّتِهِ ووحدانيته تعالى فهم يشعرون برغبة التقرّب والتواصل بشكلٍ شديدٍ معه تعالى، وعملياً هم لا يطيعون غير الله تعالى، وعندما يطيعون النبي(ع) فإنَّهم يطيعونه تعالى لأنَّه(ع) ينقل لهم أوامره سبحانه، وإلا فلو افترضنا جدلاً أنَّ النبي(ع) قال لهم شيئاً مخالفاً لأوامره تعالى فهم لن يطيعوه...

{وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا}، الذين لم يكن معهم حقٌّ فلم يكونوا عادلين ولا منصفين ولا محقين حين لم يحبّوه تعالى لوحده من مستوى إلهيٍّ، وكان حبهم لغيره تعالى ظلماً فلم يكن معهم حقٌّ حين أحبوا مخلوقاً بنفس محبتهم للخالق، والكلام عملياً عن ترك كلامه تعالى وفعل ما قاله محبوبهم الآخر، فلو حصلت لهذه الناس صورةٌ محددةٌ، {إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ}، حين يصير عندهم صورةٌ للضرر الذي سيصيبهم في الآخرة، {أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}، أنَّ كلَّ القوة في القدرات والصفات المميزة والفائقة التي افترضوها في تلك الأنداد هي غير موجودة، وأنَّ كلَّ القوة والسيطرة هي فقط لله تعالى؛ لأنَّه سبحانه في يوم القيامة وحده سيسمح لهذا بدخول الجنة، وسيرمي ذاك في النار، ولا أحدَ يمكنه فعل أي شيء، فلو أنَّهم يرون الآن تلك الصورة التي ستصير لديهم في يوم القيامة لعلموا أنَّ كلَّ أنواع القوة من مستوى إلهيٍّ فهي لله تعالى لوحده.

بعبارةٍ أخرى، هم يحبون أشخاصاً بناءً على اعتقادهم بقوةٍ ما لتلك الأشخاص، كقوةٍ دينية، أو قوةِ المنصب، أو قوةِ المال، أو قوةِ الشخصية والكاريزما والسلاسة والهضامة... ولكن لو أنَّهم الآن يرون عذاب الآخرة لمن أحبَّ أحداً ما بمستوى حبّه المفترض أن يكون حصراً للإله، وكانوا علموا أنَّ هذا العذاب ناتجٌ عن القوة المنحصرة بمستواها الإلهي فيه وله وحده سبحانه وتعالى، وبناءً عليه سيسألون أنفسهم: مَن أحقُّ بالمحبّة المميزة من مستوى إلهيٍّ؟

هذا بشكلٍ ما منتشرٌ بين الناس المستعدين لسبّه تعالى بألفاظٍ نابية، ولكنهم يجنُّ جنونهم إذا لم تمدح قديسهم! والآية هنا تخبرهم أنَّ قديسهم ومهما علا شأنه فهو تحت أمره تعالى وفي الآخرة لا يوجد قرارٌ لأحدٍ غيره تعالى، فإن لم تكن على علاقةٍ طيبةٍ معه تعالى، عندها لن ينفعك كلُّ القديسينَ لكل الأديان وفوقهم الملائكة، فلو كنت تذوب في حبّهم وفعلت الفظائع لأجلهم... هذا كلُّه في الهواء بلا قيمة ولن ينجيك من عقابه تعالى لأنك اعتبرت لغيره قيمةً أعلى من قيمته سبحانه وتعالى.

{وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ}، ولو أنَّهم يرون أنَّ الله هو الذي فعل شيئاً يستحق عليه تسبيب الألم له، فالله تعالى يُسبّبُ له ألماً شديداً لا يمكن تحمّله ولا الاعتياد عليه.

سبحانه وتعالى أكرهُ ما يكره: الشرك به، أن تجعل له شركاء في الألوهية؛ لأنَّه سبحانه بشكلٍ واضح هو الإله الواحد للجميع الأحد ولا إله غيره إطلاقاً، وأي شيءٍ آخَرَ إنما هو اختراعٌ من الأوهام والتخريفات.

بعبارةٍ أبسط: الآية تنذر من يجعل لله تعالى أشخاصاً شريكةً له تعالى في مقام الألوهية أو الربوبية من مستوى إلهيٍّ، وتخبره أنك لو رأيت العذاب الشديد في الآخرة لما تجرأت على جعل شركاء لله تعالى حتى في مستوى المحبّة.

نلاحظ في القرآن أنَّه تعالى يعتبر كلَّ من لا يسمع أوامره، ويسمع أوامر غيره، يعتبره سبحانه مشركاً، فليس بالضرورة أن تصلي وتنذرَ... لذلك الشخص حتى تعتبره شريكاً لله تعالى، بل يكفي أن تسمع كلامه وتترك كلام الله تعالى ولو لمرةٍ واحدة.

لدينا مثالٌ تطبيقيٌّ عن الحبِّ لغيره تعالى، حيث أمر سبحانه بالحج مرةً واحدة في العمر لمن استطاع إليه سبيلاً، لكن للأسف تجد بين المنتمين لهذا الدين من لديه مزاراتٌ يعتقد بقدسيتها وأهميتها أكثر من بيته تعالى! ويعتبر زيارتها حجاً أهمَّ من الحجِّ لبيته تعالى! وهذا من التطبيقات الواضحة لآيتنا هنا عن الذين يحبون أنداداً له تعالى أكثر من حبهم له سبحانه...

(إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ{166})
هناك في الآخرة بعد رؤية العذاب الشديد، حيث تتطاير ألسنة اللهب من جهنم التي تصدر أصواتاً مرعبة، ولا يزال الناس يتحاسبون في يوم القيامة وما بعده: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا}، حيث الرؤساء والزعماء الذين اتّبعهم الناس وجعلوهم أنداداً مساوين لله سبحانه، سيعلنون أنَّهم بريئون فلا علاقة لهم، {مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا}، يعلنون أنَّهم بريئون من الذين سمعوا كلامهم ونفّذوه، فلا علاقة لهم بمن أحبّهم كحبّه تعالى... حيث القائد الفلاني، والزعيم الفلاني، وعالم الدين الفلاني، ورئيس البلد الفلاني، ورئيس الوزراء الفلاني، ورئيس الحزب... الذين اتبعهم الناس في مخالفة أوامر الله تعالى، فإنَّ القائد والزعيم... في يوم القيامة يعلنون أنَّهم لا علاقة لهم بتصرفات هؤلاء، بينما هؤلاء أحبّوهم على أساس أنَّهم سينفعونهم في الآخرة! {وَرَأَوُا الْعَذَابَ}، التابعون والمتبوعون سيرون العذاب ولكنَّ الكلام هنا بالخصوص مع التابعين، مع من أحبَّ أحداً ما كحبّه لله تعالى، فعندما صار عندهم صورةٌ محددةٌ للعذاب الذي هم فيه وسيقعون في المزيد منه، {وَتَقَطَّعَتْ}، انقطعت ولم تعد موصولة، {بِهِمُ الْأَسْبَابُ}، فلم يجدوا ولا أي طريقةٍ ولا أي وسيلةٍ للنجاة من العذاب، فها قد تبرّأ منهم الذين أحبوهم! وإذا كان هناك سببٌ ما، أو طريقةٌ ما تُسبّبُ نجاتهم من النار، فإنَّهم مقطوعون عنها ولا وصلة لهم بأيّ شيءٍ يُسبّبُ نجاتهم من العذاب؛ لأنَّ المؤمنَ سبب دخوله الجنة هو إيمانه وطاعته لربه سبحانه، أمّا هؤلاء فلا يوجد ولا سببٌ ولا وسيلةٌ تنجيهم من العذاب.

(وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ{167})

{وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا}، الذين اتخذوا الأنداد من دون الله تعالى: {لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً}، لو أنَّ لنا رجعةً إلى الحياة الدنيا كمحاولةٍ ثانيةٍ، {فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ}، فنعلن في تلك الكرّة أنّنا لا علاقة لنا بهؤلاء الأشخاص فلن نحبّهم بتاتاً ولا نسمع كلامهم بتاتاً... {كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا}، فمثلما أعلنوا هنا في يوم القيامة أنَّهم لا علاقة لهم بنا، فلو أمكننا فعل ذلك بهم في محاولةٍ أخرى نعود فيها إلى الحياة التي فيها تكليف.

في الدنيا كنّا من محبّيهم، وجمهورهم المصفق لهم وأنصارهم وجنودهم... ونعلن بأنّنا أتباعهم ومحبوهم والمتعلقون بهم والمستميتون في حبهم والدفاع عنهم... وقد نفضوا أيديهم منّا في يوم القيامة! فيا ليت بإمكاننا الرجوع مرة ثانية إلى الحياة التي فيها تكليف (مثل الحياة الدنيا) حتى نتبرأ منهم. {كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ}، مثل هذا سيحصل في يوم القيامة وما بعده، يريهم الله أعمالهم، فما قاموا به في الدنيا سيصير عندهم صورةٌ محددةٌ له، سيرون هذا العمل وذاك والآخر... ويتحسرون: لماذا فعلنا هذا وذاك وذاك؟! ليتكرّر الشعور النفسي المزعج من خسارتهم للثواب وحصولهم على العقاب من أعمال تافهة كان بإمكانهم بكل سهولة تجنّبها. {وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ}، سيكونون خالدين فيها، ولن ينفعهم أي شيء.

تذكّر دائماً أنَّهم لو عادوا كرّة ثانية فهم سيكررون محبّتهم لأندادٍ من دونه تعالى، هذا ما ذكره لنا القرآن مراراً وتكراراً، حيث لن يموت أي شخص قبل استقرار نفسيته وفكره على الإيمان أو الكفر أو الفسق أو النفاق أو ما بينهم... ولو عاد إلى الحياة التي فيها تكليف، لعاد إلى ما استقرّ عليه سابقاً، ولن أطيل عليك هنا فهناك آيات عديدة فصّلت في هذا الموضوع، ومنها ما ورد في الآية 28 من سورة الأنعام: {بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{168})
{يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا}، والكلام عن استهلاك ما تسدُّونَ به جوعكم، {مِمَّا فِي الْأَرْضِ} التي تعيشون عليها، {حَلَالًا}، من الأشياء غير المحرمة والتي لا يسألكم عليها فلا يحاسبكم عليها سبحانه، فلا تأكلوا من الطعام المسروق أو المغصوب... وكلوا، {طَيِّبًا}، فلا تأكلوا من الأشياء الخبيثة مثل الحشرات والديدان والحيوانات المفترسة أو من جيفة الحيوان... {وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ}، لا تكونوا على مسارِ الشيطان الموصوف بقيامه بأعمال الضلال والسوء لنفسه وللآخرين، فلا تنفّذوا الأمور التي يدلكم عليها الشيطان؛ لأنه يدلكم على السوء وعلى الخبيث، ويهدف لإضلالكم عن طريق الحق وعن هداه ورضاه تعالى. {إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ}، الشيطان (إبليس وأشباهه في الخبث) لكم عدوٌّ مبينٌ، هو بشكلٍ واضحٍ لا يريد لكم الخير، ويفرح عندما تتأذون، ويعمل كل جهده حتى تضلوا وتفقدوا قيمتكم عنده تعالى، فلا تظنوا أبداً به الخير لأنه من دون شك وبشكلٍ مبينٍ واضح: عدو. هكذا تصير مسألة الأكل من الحرام والخبيث من الأمور التي على لائحة أفعال الشيطان لإضلالنا عن الحقّ والطيّب.

ضع في بالك أنَّ الآيات هنا تتحدث بالعموم مع كل الناس مع البقاء في أجواء الكلام مع وعن بني إسرائيل وعموم أهل الكتاب، وهم تلاعبوا بتشريعاتِ المأكول والمشروب الحلال والحرام، فغيّروا فيه، حيث بعضهم جعلوا الخمر ولحم الخنزير حلالاً... وبعضهم حرّموا لحم الجمل... ومن لم يكن متديناً إلا بالاسم (على بطاقة الهوية الشخصية) فهؤلاء تصرفوا مثل الكفّار والمشركين، ولا يهمّهم الحلال ولا الحرام ولا الطيّب ولا الخبيث ولا المذكّى، ووصف الحالة قرآنياً بأنَّ الشيطان له دخلٌ بذلك لأنه يوسوس لنا حتى نأكل الخبيث؛ لأنه عدوٌّ لنا، ويريدنا أن نفعل الخبائث.

هذا الكلام القرآني صارت أدبياتنا بعيدة عنه نسبياً لأننا تشرّبنا بثقافةٍ دينيةٍ لم تعد ترى الأمور من بدايتها، فصرنا مباشرةً وفوراً نصنّف المأكولات بالحلال والحرام، على أساس أننا نتحدث مع أنفسنا ومع الآخرين كمنتمين لدينه تعالى وسنلتزم بأكل ما نُصنّفُه حلالاً ونترك ما نُصنّفُه حراماً، وبهذا نفقد وضوح أساس التبرير القرآني الذي جعل هذا حلالاً وذاك حراماً، بينما تجد القرآن يصفها بالخبيث والطيّب، ومن هذا الأساس تُصنّفُ حلالاً وحراماً، وهكذا يصير لتدخّل الشيطان معنى حيث يوسوس لنا لأكل الخبيث الحرام الذي عليه عقاب، ويوسوس لنا لتحريم الطيّب.

في بداية دراسة هذه السورة (وفي العديد من السور) كرّرنا مراراً الكلام عن جعله تعالى فينا قدرةَ تمييز الخير من الشرّ والطيّب من الخبيث، وأنه تعالى منحنا حرية الإرادة للاختيار بينهما، وهذا هو الأساس الذي نتحاسب ونُجزى

عليه كلُّنا كبشر، وهذا هو نفسه دينه تعالى بعرضِه علينا المعلومات الحقّ والتي لدينا قابليةُ رؤيتها حقاً لنؤمن بها، والتي نصطلح عليه بالعقائد، وهو نفسه دينه تعالى بعرضِه علينا فعل العمل الصالح وترك السوء، والذي لدينا قابلية رؤية صلاحه لنفعله وسوءه لنتجنّبه.

أيضاً نتذكر عموم القرآن الذي برّر لنا عموم ما أمر به تعالى فيما نصطلح عليها بالتشريعات (الفتاوى)... حيث برّر لنا عموم ما حرّمه تعالى من أكل بوصفه بالخبيث، على أساس أنَّ ما فينا من قابلية لتمييز الصالح من الفاسد سيتماشى مع ذلك ويراه خبيثاً فينفر من أكله، ولكن بسبب فساد قلوبنا صرنا نحتاج لتقويمها بمساعدة إلهية لتحديد الخبيث من الطيّب، وترى بعض المجتمعات فقدت ذلك لدرجة أكلها لكل شيء قابل للأكل، حتى الصراصير والديدان والقوارض كالجرذان...!

بالتحليل المستند للمفهوم القرآني عن طبع القلوب وعماها... نفهم أنَّ ما نراه خبيثاً ونتغاضى عنه ونأكله، سيجعل نفورنا من عموم الخبث يخبت، ومع التمرّس على ذلك بتكراره سنفعل خبيثاً آخَرَ... إلى أن ينمحي مفهوم الخباثة من بالنا، ونصير بلا ناموس، بلا عيب ولا مستحى ولا أخلاق في بقية الأمور الإنسانية.

هكذا ترى أنَّ اللياقة بالانصافِ بالقيمة الإنسانية العالية، تحدّدها وصف أفعالنا من خبث وطيبة، وما نأكله لا يختلف بالقيمة عن بقية عموم ما نفعله، حيث بعضهم يظنُّ أنَّ أكل الصراصير شيءٌ منفصلٌ لوحده عن بقية كل أمور حياتنا ولا رابطة بينهما، ويقولون إنه أصلاً لا ضرر على الإنسانية من أكل الصراصير والديدان، على أساس أنَّ العادة هي ما يجعلنا نصنّف الأمور بالخبث والطيبة، لا؛ لأنَّ مفهوم الخباثة في ذهننا واحدٌ ومرتبطٌ بكل ما نفعله، وأسألك عن الضرر على الإنسانية من وصفي لك بأوصاف سيئة؟ فسماع الكلام ما هو إلا شيءٌ فيزيائيٌّ ينتج من تحريك للهواء الذي يحرّك طبلات أذنيك، ولكنك ترفض ذلك وتقول إنَّ الكلام له قيمةٌ خبيثةٌ وطيبةٌ، والذي لا يتأثر من وصفه بالسوء ستقول عنه بأنَّه فاقد للإحساس ولم يعد إنساناً سوياً...

نفس الشيء وصف الأكل حين ترى الآخرين يأكلونه، فإن تحمّلتَ أكلهم للصراصير فهل تتحمّل أكلهم للعذرة وشرب البول...؟ ولا تنظر للموضوع على أنك في مكان منفصل عن هؤلاء، فلو انفقدَ تمييزُ الخبيث عن المأكولات لصرت في وسط جماعات تأكل ما يجعلك تشمئز منه...

الاستهتار بأيِّ فعلٍ رأيناه فاسداً أو خبيثاً أو سيئاً أو ضرراً أو شراً... ومهما كان نوع الفعل، من أكل أو شرب خبيث منفور منه لكرهه أو سيءٍ بسبب طريقة الحصول عليه من السرقة أو الغشّ أو الاختلاس... كل الأفعال ومهما كان نوعها من التي نفعلها لأنفسنا أو مع الآخرين... تستند أهميتها على تصنيفها بالخبث أو الطيبة، طبعاً مع التأكيد على الفرق بينها بدرجة سوئها، حيث لا مقارنة بين سوء قتل نفس بريئة، وبين سوء أكل صرصار، فلن تدخل النار خالداً فيها لأنك فقط أكلت صرصاراً، ولكنك من هذا الفعل ستجعل فكرك ونفسيتك يتهاونان ويستهتران في مفهوم الخباثة والطيبة، وستفعل أموراً أخرى، وأخرى حتى تفعل شيئاً معيباً من العيار الثقيل في سوئه.

هنا يبرز السؤال: لماذا خلق تعالى طعاماً خبيثاً؟ والجواب يبرز بكل سهولة لأنه ليس كلُّ شيءٍ قابل للأكل سيكون طعاماً، فأوراق الأشجار وأغصانها الطرية قابلةٌ للأكل ولكن الكثير منها ليس طعاماً لأنه مُرٌّ أو يُسبّبُ ضرراً... ليس هناك بالأصل طعامٌ خبيثٌ، بل هناك أشياءٌ قابلةٌ للأكل، وبعضها أشياءٌ موصوفةٌ بالخباثة بسبب رائحتها النتنة وطعمها المقرف أو تغذّيها من أشياء مقرفة...

هل القاعدة أنَّ كل ما حلّله تعالى لا ضرر فيه على جسدنا، وكل ما حرّمه فيه ضررٌ على جسدنا؟ لا، فلن تجد كلاماً قرآنياً يُصرّحُ بذلك؛ لأنَّ القرآن ناظرٌ للضرر الجسدي والنفسي، وهذا المعنى صريحٌ من وصف بعض المأكولات التي حرّمها تعالى بالخبائث، والذي يتضمن الشعور بالنفور من رائحة أو منظر أو طعم الشيء بغض النظر عن ضرره على جسدنا.

في موضوع حلية وحرمة الطعام تفاصيلُ كثيرةٌ اكتفى القرآن بذكر الأساسيات منها تاركاً هامشاً واسعاً لنا كمرونةٍ، والكثير مما تجده في كتب الفقه هو خليطٌ بين أساسيات ذكرها القرآن وأساسيات نابعة من تصنيف العقلاء منّا للخبيث والطيّب، وبين القليل النادر الذي صرّح تعالى بحرمته أو حليته، وبين موروث مبني على ما تعارف عليه جيلٌ ما أو

مجتمعٌ ما بضرره فحرموه، كثمار البحر التي تُسبّبُ الموت لبعض الناس من الحساسية (خصوصاً الحساسية من رخويات البحر)... أو نفعه الشديد (بحسب معتقدهم) فحلّلوه كبول الجمل كدواءٍ...

لمزيد من التوسّع في دراسة حلية الطعام راجع الآية 93 من سورة آل عمران: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ...}، وراجع دراسة الآية 96 من سورة المائدة: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا...}، وفيها تحدثنا عن تحليل البعض لجراد البرّ... أيضاً سيأتيك في الآية التالية كلام إضافي عن مسألة الاستهتار بحرمة وحلية الطعام...

(إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{169})
{إِنَّمَا}، حصراً وفقط، {يَأْمُرُكُمْ}، الشيطانُ، {بِالسُّوءِ}، بالأعمال السيئة، كالغيبة والكذب وأذية الآخرين وقتل الأبرياء وعموم الاعتداء... ويأمركم، {وَالْفَحْشَاءِ}، وهذه الكلمةُ استعملها القرآنُ حصراً لوصف الأعمال الجنسية الغرائزية السيئة كالزنا والشذوذ... {وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، فتقولون عنه تعالى إنه حرّم هذا وحلّل ذاك، وأمر بهذا ونهى عن ذاك بعكس ما قاله فعلاً سبحانه. هذا ما نقع فيهِ عموماً بسبب أهوائنا السيئة، ولكنَّ خطورته أكبرُ عند علماء الدين؛ لأنهم يفتون والآخرون يقلدونهم، وأيُّ استهتارٍ منهم في شيءٍ صغيرٍ تافهٍ في حياتهم العادية، سينعكس أثره حتماً على فتاواهم. لستُ أقول لك هذا لتتهم جميع العلماء بالسوء بسبب وضوح اختلافاتهم التي تعني حتماً أنَّ أحدهم أخطأ، فهذا جزئيّاً صحيحٌ، وبينهم الكثيرُ من السيئين، ولكنَّ من بينهم العديدَ من ذوي النوايا الحسنة، والقليلَ من العقلاء الصالحين، وهذا ليس من اكتشافاتي بل هو رأيُ الغالبية الساحقة من الناس ومؤيَّدٌ بما لدينا من آثارٍ عنهم...

برأيي فمن شبه المستحيل وجودُ علماء لم يحصل منهم خطأ، حتى لو لم يكن مقصوداً، وعندما تتذكّر أنَّ سياق كلام الفقرة مع كل الناس وخصوصاً مع المنتمين لدينه تعالى الرافضين لهذا القرآن وللرسول الناقل له، عندها ترى أنَّ التنبيه هنا يجري حتى علينا نحن، أنا وأنت وعلماء الدين، وحالنا معلومٌ فكلنا بلا استثناء خطّاءونَ أصلاً على المستوى العملي، وينتج عن ذلك أن نخطئ حتى على المستوى النظري، والحلُّ بالبداية مع ما نعلم سوءه لنتركه مهما كان صغيراً، وبعد ذلك يتحسّن حالنا وتقلُّ الأخطاء، ولذلك ترى أهمية معرفة سيرة علماء الدين في سلوكياتهم الشخصية حتى ترتفع الوثوقية لمعرفة الأقرب للصواب من بينهم...

نلاحظ أنَّ القرآن دائماً ينبهنا أنَّ أوامره تعالى تختلف بشكلٍ واضحٍ جداً عن أوامر الشيطان؛ لأنه سبحانه يأمر بالتوحيد والعدل والإحسان... أمّا الشيطان فيأمر بعكس ذلك، ولا يمكن أبداً أن يوسوس الشيطان بشيءٍ جيدٍ لنا، يعني إن كان تعالى يقول لنا عن طعامٍ ما إنه حلالٌ وعن الآخَرِ إنه حرامٌ، فالشيطان سيوسوس لنا بالعكس ليرينا الخبيثَ طيباً، بدليل أنه بشكلٍ واضحٍ يأمر بالسوء والفحشاء واختراع كلامٍ باطلٍ عنه تعالى، فهل سيقول العدوُّ لنا عن الخبيث بأنه خبيث؟! أم سيشجعنا على الخبيث لنتضرر؟

هكذا ترى أنَّ الآيتين مجموعتانِ مع بعضهما لتعطيا مفهوم الفرق بين ما يحلّله تعالى ويحرّمه، وبين ما يوسوس به الشيطان، حيث الطعامُ والشرابُ من الأمور التي يسهل علينا التهاونُ والاستهتارُ بها، وليست بخطورة أمورٍ كثيرةٍ أخرى، فهل سأدخل النار لأني فقط أكلتُ لحم الخنزير؟ هل ترك الدينُ الإلهي كلَّ الأمور المهمّة ويريد تقييد حياتنا في تحليله وتحريمه بعض الأطعمة والأشربة...؟

واقعُ الحال يفرض وجود تصنيفاتٍ للسوء، لتصير هناك درجاتٌ في تصنيف سوء بعض الأمور، والطعامُ الحرامُ ليس بدرجة سوء القتل للأبرياء ولا الغشّ ولا.... ولكن لا تنفي عنه صفة الخبيثِ ولو من الدرجة المنخفضة، فهل تقبل بدينٍ يبيح لك فعل كلِّ سوءٍ من الدرجة المنخفضة؟ وأنت تعلم أنَّ الاستهتار والتهاون بما سوؤه صغيرٌ، سيؤدي حتماً إلى التهاون والاستهتار بما سوؤه أكبر، وقارن بين ما تصنّفه أنت كسوءٍ كبير، وبين ما يفعله الآخرون، وستجد نفسك بسهولة تتحدثُ لساعاتٍ منظّراً عن سوء الغش والاحتيال واستغلال المناصب... ولكن هل يمكنك رؤيةُ نفسك ومحاسبتُها على سوئها؟

آيتنا هنا معناها نظريٌ لأكثريتنا الساحقة؛ لأننا نرى ما يفعله الآخرون ونصنّفه بالسوء والفحشاء، ولا نرى ما نفعله نحن! وكلُّ سوءٍ أو فحشٍ أفعله أنا، سيجعلني أنفر من كلامه تعالى إن رأيته يصفني أنا، ولذلك ترى فكرنا يهرب من ذلك وينتقل بنا إلى الكلام عن الآخرين. التهاونُ بالسيئات من العيار الخفيف ترى أثره بالتهاون بالسيئات من العيار الثقيل لدرجة أنَّ لائحة الأعمال الموصوفة بالسوء أو الفحش صارت صغيرةً جداً بالنسبة لما نفعله نحن، وهي أكبرُ بقليلٍ مما يفعله الآخرون، بينما هو نفسُ ما نفعله نحن!

كلامُ الآية هنا مع الذين بقي فيهم ما يكفي من قدرةٍ على تمييز السوء والفحشاء، وإلا فلا معنى لها مع الذي يريد السوء والفحشاء، ولا يقبل أصلاً بتصنيفها سوءاً وفحشاءَ، ليصير بنظره الغشُّ وأكلُ حقوق الآخرين والتحايلُ التجاري واستغلالُ المنصب... شطارةً إذا فعلها هو، وهي نفسها سوءٌ إن فعلها الآخرون معه. العقدُ المنقطعُ أو زواجُ المسيارِ من الزانية ليس فحشاً إن فعله هو، وإغواءُ متزوجةٍ أو عزباء لا يريد الزواج منها... رجولةٌ إن فعلها هو، وفحشاءٌ إن فعلها الآخرون مع زوجته أو ابنته!

أطلتُ عليك الكلام لأنَّ القليل من المجتمعات تفهم معنى مشكلة عداوة الشيطان لنا، والكثيرون أصلاً يعتبرون الشيطان كشيءٍ خرافيٍّ مجازيٍّ من التراث الديني، وهم معهم حقٌّ في ذلك لأنهم لا يرون فرقاً بين ما يَهوونه وبين ما يقول عنه الدينُ الإلهي إنه من وسوسة الشيطان، وهؤلاء أصلاً الشيطانُ لا يتعب نفسه بالوسوسة لهم لأنهم مكتفونَ ذاتياً بأفكارِ السوء والفحشاء.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ{170})
لا تزال الآيات تتحدث من وحي الكلام مع أهل الكتاب، مع أنَّها عموميةٌ لكل الناس وهي تتحدث مع كل من يسمع كلام الشيطان: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ} لهؤلاء التابعين لخطى الشيطان: {اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ} كونوا على، فالتزموا بأوامره تعالى الموجودة في كتبه تعالى والتي نقلها لكم أنبياؤه ورسله. قالوا: "لا، لن نتبع ما تقولون"، بل {نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا}، فمن دون أي تدخّلٍ منّا وجدنا آباءنا وآباء آبائنا... على شريعةٍ وسلوكياتٍ وعقيدةٍ ونحن سنكون عليها؛ لأننا وجدنا آباءنا يحللون هذا ويحرمون ذاك، ونحن سنفعل مثلهم.

{أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا}، هل حتى لو كان آباؤهم ليس لديهم عقل؟ فلا يستوعبون ولا يفهمون الأمور بشكلٍ صحيح! {وَلَا يَهْتَدُونَ}، وحتى لو كان آباؤكم لا يهتدون، لا يتبعون الشيء الذي يوصلهم للغاية الصحيحة؟ فهل تتبعونهم أيضاً! بعبارةٍ أخرى، رؤية الهدى بالعقل هي المقياس، ولذلك علينا اتباع من يقول كلاماً منطقياً، وكلاماً يدل على الهدى، فقبل أن يقولوا إنَّهم يتبعون آباءهم عليهم الانتباه إلى أنْ يكون آباؤهم عاقلين وعلى الهدى؛ لأنَّ اتباع أجدادنا وكبارنا وزعمائنا... على عماهم، هو كلامٌ سخيفٌ، فما معنى اتباعهم إن كانوا بلا عقلٍ ولا هدى!

كما ترى فهذه قاعدةٌ إلهيةٌ أساسيةٌ واضحةٌ وثابتةٌ، حيث لا يوجد شيءٌ تقلّد به الآخرين ولا تتحاسب عليه، فطالما لم تعقله لتراه هدىً، ستتحاسب عليه إن كان مخالفاً لأوامره تعالى. كلُّ ما ورثته من مجتمعك كمذهبٍ وسلوكياتٍ وثقافةٍ وعاداتٍ... لن يكون حجةً لك أمامه تعالى لتقول إنَّك وجدتهم هكذا وفعلت مثلهم، حتى لو كانوا مسلمين، بل عليك أنْ تعقل وتفكّر لترى إن كان ما يفعلونه هدىً.

من ناحيةٍ ثانيةٍ تخاطبنا الآية عن العقل والهدى معاً، حيث هناك سيئاتٌ لم نعقلها لأننا لم نفكّر فيها ولم ننتبه لما قاله القرآن عنها، خذ مثلاً الربا الذي حرّمه تعالى وترى مسلمينَ يتعاملون به! ويقولون إنَّ ظروفهم القاهرة دفعتهم للاستدانة، والطرف الآخر يرى استفادةً كبيرةً من غباء الكثير من الواقعين تحت ضغطٍ ماليٍّ الذين لا يعون مخاطر الاستدانة بالربا، التي بعدها غالباً غالباً سيفقدون كل شيءٍ بسبب العجز عن تسديد الربا... هؤلاء لا يعقلون أنَّ التاريخ مشحونٌ بمعلوماتٍ عن تدمير الربا للمجتمعات وأنَّه سببٌ رئيسيٌّ للطبقية فيها، وهي طبقيةُ سيطرةٍ ماليةٍ تليها سيطرةٌ سياسيةٌ واجتماعيةٌ وبنيويةٌ...

من ناحية الهدى، هناك أناسٌ كثيرون لا يعقلون مخاطر الربا، ولكنهم يجدون هذا القرآن يحرّمه صراحةً، وهم يؤمنون بأنَّ هذا القرآن إلهي، فعلى الهدى هم يمشون حتى مع التزامهم بشيءٍ لم يفهموه؛ لأنه سبحانه فصّل فيما حرّمه وحلّله

ليكون عقلانياً، وقبل ذلك جعل القرآن واضحاً أنَّه إلهي المصدر، وبالتالي يصير من المفروض حصول قناعةٍ بإلهيةِ مصدره، وبعدها الالتزام بما فيه، وفهمه، وإن تعذّر فهمه لسببٍ ما، ربما لأنَّه ليس من الأمور التي احتككتُ بها في حياتي لأفهمها... فهناك حتماً عقلانيةٌ لم أصل أنا إلى المستوى المطلوب لأستوعبها، ولكني متأكدٌ بعشراتِ الأدلة أنَّه كلامٌ إلهي، وأني لست خبيراً بالأمور المالية... وبناءً عليه أصرُّ على أنَّ اتباعه هدىً، مع العلم أنَّه لم يرد في القرآن تشريعٌ من دون ذكر تبريراته الدافعة لتحريمه.

الآية تسأل عن عقلانية ما وصلهم من آبائهم، أو كون آبائهم على الهدى، فهل نقلوا لهم الدين عن مصدرٍ موثوقٍ بأنَّه إلهي ليكون فعلاً يوصلهم للطريق الصحيح؟ أم لديهم مصدرٌ أحكم وأعلم وأخبر منه تعالى ليشرّع لهم؟

(وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ{171})
{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ}، وشبهُ الذين كفروا، الذين أنكروا أوامر ربهم سبحانه، كشبه الذي يصيح، فيتكلم بكلامٍ غير مفهوم، {بِمَا لَا يَسْمَعُ}، بينما هو لا يسمع ما يقوله، مثل الأصم الأطرش الذي لا يوجد عطلٌ في حنجرته وفمه ويمكنه إصدار الأصواتِ ولكن لا يمكنه أن يسمعها، ولذلك يصدر منه صوتٌ ولكنه ليس كلاماً، بل نعيقاً، وهو لا يسمع حتى النعيق الذي يصدر منه، {إِلَّا دُعَاءً}، إلا إشهاراً وإعلاناً عاماً لكل من يمكنه أن يسمع، أو ينعق، {وَنِدَاءً}، فيوجّه الصوت لشخصٍ محدّدٍ، فكلامه من طرفٍ واحدٍ، يدعو أو ينادي ولا يحاور لأنه لا يسمع حتى يردّ، مثل البهيمة التي بصوتها تعلن عن شيء (عن ألمها عن جوعها عن عطشها...) أو تنادي شيئاً (تنادي ولدها أو صاحبها)، تنعق فيصدر منها صوتٌ ولكنها لا تحاور ولا تأخذ وتعطي بالكلام معها.

{صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}، الكفّارُ صمٌّ لا يسمعون، وهنا المقصود أنَّهم لا يسمعون كلام الحق والهدى، بكمٌ لا يتكلمون، وهنا المقصود أنَّهم لا يتكلمون بكلام الحق، عميٌ لا يرون، وهنا المقصود أنَّهم لا يرون الحق، فطالما أنَّ الحواس التي تزودهم بالمعلومات معطلةٌ فقط عن استقبال الهدى، فهم لا يعقلون، فليس لديهم قدرةُ عقلٍ وفهمٍ واستيعابِ الأمور.

هؤلاء الكفار عندما قال لهم رسولُ اللهِ(ع) أو قال لهم مؤمنٌ: اتبعوا ما أنزل الله سبحانه. أجابوه بأنَّهم لا، لن يتبعوا كلامه سبحانه بل سيتبعون ما كان آباؤهم يعملون من دون التفكير به إن كان صالحاً حقاً، فهؤلاء بماذا نصفهم؟
بتعابيرِنا العامية نقول: "عمتحكي مع حائط" أو مع بهيمٍ. تتوقع من الإنسان أن يردّ عليك بعقلانيةٍ، وإلا فما معنى الكلام معه؟ وإن كان يصدر منه صوتٌ ككلامٍ فما قيمته وما معناه؟ إن لم يكن عقلانياً فهو نعيقٌ، وما الفرق بين كلامه وبين كلام الأبكم؟ وإن لم يسمع كلام الحقّ فما الفرق بينه وبين الذي أصلاً لم يسمع؟

لهم جسدٌ فيه قدراتٌ عاديةٌ ولكنهم بلا عقلٍ، فصحيحٌ أنَّهم لديهم عيونٌ وآذانٌ وقدرةٌ على الكلام... ولكن ما يقولونه بلا معنى، وإذا قيل لهم شيءٌ له معنى فهم لا يفهمونه، ولو كان لديهم عقلٌ يستوعب ما يقولونه لما قالوه، ولفهموا أنَّ من يتكلّم بهكذا كلامٍ فهو فاقدٌ لمعنى الإنسانية ذات القيمة بالعقل والهدى.

ننتبه دائماً للآيات التي تتحدث عن الصمّ والبكم والعمي، فهي لا تتحدث عن عيبٍ ونقصانٍ في الأشخاص المعاقين جسدياً، بل تتحدث عن عيبٍ في عقل وفهم الأشخاص الذين حواسهم تعمل بشكلٍ صحيحٍ، بحيث تنقل حواسهم لهم المعلومات ولكنهم لا يعقلوها لأنَّهم عطّلوها عن قصدٍ وصاروا كالأنعام، أمّا المعطّلةُ حواسهم فعلاً فبعضهم قد يكونون من مقلدي آبائهم على العمى، وبعضهم مؤمنون صالحون، والقيمة التي أعطاها تعالى للأعمى المؤمن كنموذجٍ عن المصابين بإعاقةٍ، لم تكن قيمةً عاديةً ولا مثيل لها في كل أدبيات الأديان كافةً، وراجع في ذلك بداية سورة عبس وسترى عجباً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ{172})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، الكلام في الآية السابقة (168) كان موجَّهاً لعموم الناس، وهنا الكلام موجَّهٌ إلى خصوص الذين أعلنوا أنَّهم معتقدون بدينه تعالى: {كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}، استهلكوا ما تسدُّونَ به جوعكم، مما حصلتم عليه

وصار معكم من الأشياء التي تُؤكل وتكون موصوفةً بأنَّها طيبةٌ؛ أي محبوبةٌ مرغوبةٌ وليست خبيثةً "مقرفةً..."، فكلوه واستهلكوه. تفهمها بشكلٍ أبسطَ إذا التفتَّ إلى الديانات التي تحرّم أشياءَ طيبةً كاللحم... أو التفتَّ إلى الديانات التي تحلّل أكل أشياءَ خبيثةٍ "مقرفةٍ" كالميتة والكلب والخنزير... وهذا ما ستقوله الآية التالية.

{وَاشْكُرُوا لِلَّهِ} على الطيبات، ليكن تعبيركم عن حصولكم على شيءٍ جيدٍ محصوراً لله تعالى، {إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}، إن كنتم تتصرّفون فعلاً على أنَّه تعالى وحده مفروضٌ منكم طاعته. بعبارةٍ أبسطَ، المتوافرُ لكم لتأكلوه فهو منه تعالى؛ لذلك ليكن تعبيركم بالشكر له تعالى فقط على الأكل المتاح لكم، إن كنتم فعلاً تعتقدون أنَّكم عبيده، وأنَّه مفروضٌ منكم طاعته هو فقط على أساس أنَّه إلهكم الأحد.

التفتْ إلى أكلك ولا تعتبره "تحصيل حاصل" وكأنه هكذا من لا شيء صار متاحاً لك؛ لأنَّ الذي خلقك وخلق بيئتك قد أتاح لك الحصول على الطعام من بيئتك مستعيناً بالقدرات التي جعلها تعالى فيك، وإن كان أحدٌ ما يعتقد أنَّه بقدراته الذاتية يحصل على طعامه فهذا لم يؤمن بأنَّه عبدٌ لله تعالى، ومن شكر أحداً غيره تعالى على الطعام، فقد شكر آلهةً وهميةً، أو شكر شكراً من مستوى إلهيٍّ لإنسانٍ قدّم له الطعام... فهذا أيضاً لم يؤمن بشكلٍ حقيقيٍّ عميقٍ بأنَّه عبدٌ لله تعالى الذي خلقه في بيئةٍ متاحٍ فيها الطعام.

تذكّر دائماً أنَّ الطعام حاجةٌ أساسيةٌ لبقائنا أحياء، وسبحانه صمّمنا وخلقنا في بيئةٍ فيها ما نحتاجه، وستجد في دراستنا هذه تكراراً للنظرة الإلهية لنا ومقارنتها بك أنت إذا افترضنا أنك صمّمت وخلقت كائناتٍ وبيئةً... فإن كانت قدراتك عاليةً عندها ستجعل البيئة تعمل بتناسقٍ متناسبٍ مع الكائنات ولن تحتاج لتنزيل الطعام لهم مطبوخاً ليأكلوه، بل تجعله متاحاً لهم عبر ما ينتج من بيئتهم، وهكذا ترى أنَّ الطعام المتاح لنا، والذي هو حاجةٌ أساسيةٌ لاستمرار حياتنا، قد توافرَ لأنَّ خالقنا سبحانه قد أتاحه لنا. هناك من لن يؤمن به تعالى إلا أن تنزل عليه مائدةٌ من السماء، وإن نزلتْ فعلاً وتكرّر نزولها، فمن جديدٍ لن يؤمن به تعالى وسيعتقد أنَّ طبيعة الدنيا تجعل الموائد تتشكّل لوحدها وتصير جاهزةً أمامه للأكل...! وهكذا ترى أنَّ التفاحة على الشجرة آيةٌ إلهيةٌ ورزقٌ منه تعالى لك.

قد يخطر ببالك أنَّ الخالق لو خلقنا بدون الحاجة للطعام فكلُّ موضوع الشكر على الطعام ينتهي، وهذا صحيحٌ لو كنت بلا مشاعرَ وأحاسيسَ، وهل ستدخل الآن في بقية المشاعر والأحاسيس التي معك وتفترض أنَّها لو لم تكن موجودةً لكان موضوع شكره تعالى لا قيمة له! بلا مشاعرَ ولا غرائزَ ولا شهواتٍ... لكنتَ أنت في قيمةٍ مختلفةٍ؛ لأنَّ الجوع وسدَّ الجوع من روائعِ خلقتنا، وتذوّق الطعام والالتذاذ به من أروع روائع تصميمنا وخلقتنا، فهل تتخلّى عن هذه المشاعر! وعن غيرها وغيرها... لتعترض على خلقتنا بها لأنك لا تريد المرور بامتحانِ الحلال والحرام، ولا تريد الدخول في امتحان شكره تعالى عليها؟ فكّر في كل مشاعرك وأحاسيسك وشهواتك وغرائزك... وسترى أنَّها كلَّها نعمةٌ رائعةٌ، ونحن بسبب فساد أنفسنا وبسبب فساد الآخرين نحوّلها لنقمةٍ؛ لأنه تعالى لم يخلق فينا رغبةً لا منفسَ سهلٌ لها بالصلاح، ولكن نحن نجعل حياتنا معقدةً بسيئاتنا...

(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{173})

يستمر الكلام مع الذين آمنوا وهم خصوص الذين أعلنوا أنَّهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين الإلهي، وهذا لا يعني بتاتاً أنَّ الآخرين يحقُّ لهم الأكل مما يشاؤون بدون عقاب، لا، فقد سبق وقرأنا أمره العام تعالى لكل الناس بالتزام أكل الطيّب.

{إِنَّمَا}، حصراً وفقط، {حَرَّمَ عَلَيْكُمُ}، فممنوع وعليه عقاب أكل: {الْمَيْتَةَ}، وهي الحيوان الذي يجوز أكله ولكنه مات من دون ذبح أو نحر أو صيد، فمات من المرض أو لأنه وقع عن جبل أو لأنَّ حيواناً آخَرَ آذاه أو من الضرب أو الخنق... والآية 3 من سورة المائدة ضربت نماذجَ عن ذلك: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ...}. وحرّم عليكم سبحانه، {وَالدَّمَ}، شرب دم الحيوانات كلها، حتى الحيوانات التي يجوز أكلها كالبقر والغنم والدجاج، فحرامٌ تجميع دمها لشربه، وأمّا ما بقي في العروق (الشرايين) واللحم من بعد الذبح أو (النحر للجمل) فيجوز استهلاكه مع الأكل أو الطهي. وحرّم عليكم سبحانه،

{وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ}، العضلات وبقية الأعضاء حرام، أما العظم والظفر والجلد... فعادة الناس لا تأكلها لذلك لا معنى لأن تقول عنها الآية حرام أكلها، (وستبدو سخيفة لو قالت ذلك). وحرّم عليكم سبحانه، {وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ}، ما قيل عليه كلاماً استهلالياً كمقدمة للذبح، كلاماً يسبق الذبح أو النحر أو الصيد، لغير الله، للآلهة الوهمية... كأن يقول الذابح: "شكراً للقمر"، أو "باسم الكواكب"... أو لا يقول الذابح أي شيء ولا ينوي أي نية... فمن المفروض أن يستهلَّ فيسبق الذبح أو النحر أو الصيد بكلامٍ يذكر فيه اسم الله تعالى؛ لأنه سبحانه خالق هذه الحيوانات لنأكلها، وهو سبحانه سمح لنا بقتلها لنأكلها، لذلك يجب ذكر اسم الله تعالى عند القيام بقتل الحيوانات التي سنأكلها.

الميتة والدم... حرام، ولكن، {فَمَنِ اضْطُرَّ}، الذي دفعته الظروف لأكلها غصباً عنه وهو لا رغبة له فيها، فلم يوجد أمامه خيارات أخرى غيرها، لأنه جائع ولا يمكنه الحصول إلا على هذا الطعام، كالسجين عند الكفّار الذين يقدمون له لحم خنزير، أو كالذي في الغابة أو الصحراء ووجد حيواناً ميتاً ولم يجد نباتاً أو فاكهةً أو حيواناً حلالاً ليأكله... فهذا مضطر للأكل من الميتة وإلا سيموت من الجوع، فلا بأس عليه أن يأكل منها، ولكن بشرط أن يكون، {غَيْرَ بَاغٍ}، غير طالبٍ لذلك أو فارضٍ له على نفسه، فيكون راغباً فيه أصلاً ويتلاعب بالظروف حتى يصير أكله محصوراً بما هو حرام، مثلاً: يرغب أحدهم في أكل لحم الخنزير، فيذهب من دون طعام إلى مكان بعيد يوجد فيه خنازير، ويبقى هناك حتى يجوع، فيصطاد خنزيراً ويأكله، لأنه لا يجد طعاماً غيره. فهذا باغٍ، وسيتحاسب على أنه أكل حراماً مع أنه مضطر. ويأكل من هذه الأشياء عند الاضطرار بشرط أن لا يكون، {وَلاَ عَادٍ}، معتدٍ، فلنفرض بأنه سافر ليقتل أو يسرق أناساً أبرياءَ، فهو معتدٍ، وفي الطريق انقطع من الطعام، فاضطر لأكل لحم الخنزير، هذا سيتحاسب لأنه أكل حراماً مع إنه مضطر. {فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ}، فإذا كان مضطراً غير باغٍ ولا عادٍ، فلن يُسجَّلَ عليه أنه ارتكب حراماً يعلم بحرمته. الإثمُ هو وصفُ من علم بشيءٍ ما أنه سوءٌ ورغم ذلك فعلَه، فهذا آثمٌ، ومن أكل من هذه المحرمات وهو يعلم أنها حرامٌ ولكنه مضطرٌ لأكلها، فلن يُسجَّلَ عليه أنه آثمٌ، إلا الباغي والعادي فهؤلاء عليهم إثمٌ.

{إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}، وهنا الكلام عن المضطر فيغفر له تعالى فلا يجازيه على أكل الحرام، ورحيمٌ، فلديه عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم. لأنَّ صفة "الرحمن" عامةٌ لكل المخلوقات، وصفة "الرحيم" لخصوص المؤمنين، وهنا كما ترى فلو غيرُ المؤمن اضطر لأكل طعامٍ حرامٍ فلن يغفر تعالى له؛ لأنه غير مشمول بالرحمة الخاصة بالمؤمنين، ومن تطبيقات الرحمة الخاصة بالمؤمنين: المغفرة ومضاعفة الحسنات ونيل الشفاعة... والعفو عنهم في حالة اضطرارهم للمخالفة.

بقي أن نتكلّم عن مفهومٍ أساسيٍّ منتشرٍ في القرآن، حيث ما يصفه تعالى بالسوء لا يتغيّر وصفه بالسوء تحت أي ظرفٍ كان، وهنا ترى أنَّ الأكل الحرام يبقى عليه العقاب ولكنه تعالى "يغفره" لمن كان مضطراً غير باغٍ ولا عادٍ، وأمّا الكافرُ فحتى لو كان مضطراً غير باغٍ ولا عادٍ فسيتحاسبُ على أكله للحرام... نفس المفهوم تجده في الكلام عن استغفار الأنبياء لأنفسهم عند حصول شيءٍ يصفه تعالى بأنه سيءٌ؛ لأنَّ أي علاقةٍ لأي نبي أو رسول بشيء سيء، ولو عن غير قصد، فيجب على النبي أو الرسول الاستغفار منه، وحتى بعد غفران الذنب، لا يتغيّر توصيف العمل السيء ولا يتغيّر ليصير عملاً حسناً لا عقاب عليه، لا، بل فقط يلغي سبحانه العقاب عليه. وسنرى من الآية التالية أنَّ هذه الأشياء المذكورة هنا كانت محرمة في الكتب السابقة.

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{174})
{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ}، يخفونَ ولا يظهرون، {مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ}، فقد أنزل عليهم سبحانه كتباً مذكوراً فيها أنَّ الميتة والدم ولحم الخنزير... محرمةٌ، ولكنهم كتموا هذه المعلومات فأخفوها ولم يظهروها.

{وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا}، مقابل كتمان هذه المعلومات، ثمناً قليلاً؛ لأنهم من الواجب عليهم أنْ يقولوا للناس إنَّها حرامٌ وممنوعةٌ، ولكن تُعرضُ عليهم مصالحُ ماليةٌ من السكوت عن المحرمات أو من تحليلها، فيكتمون حرمتها ليحصلوا على ثمنٍ مقابل كتمانهم، من ثمنٍ ماليّ أو منصبٍ أو رغبةٍ بأكل الحرام الممنوع، أو استجلاباً لمن يرغب بها ليصير

من أتباعهم... هل هذا الثمن الذي اشتروا به الكتمان فعلاً يستحقُّ مخالفة أوامره تعالى؟ لا، بل قليلٌ جداً جداً أمام ما سينالونه من عقابٍ منه تعالى.

{أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ}، فإن أكلوا هم من الطعام الحرام أو مما حصلوا عليه من فتواهم بتحليل الحرام، أو بسبب أكل غيرهم من الحرام بسبب فتواهم... فسيتحاسبونَ على كلِّ ذلك وسيكون عذابهم بأنْ يأكلوا غصباً عنهم من النار التي في الآخرة، وتجد في القرآن هنا وهناك كلاماً عن جوع أهل النار الشديد واضطرارهم لأكل حمم المعادن الذائبة المقرفة، كمثالٍ عن ذلك ما ورد في الآية 4 من سورة يونس: {... وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ...}.

{وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، هم موصوفونَ في الظاهر بأنَّهم من أهل الكتاب الإلهي ومن المؤمنين، ولأنهم عصوه تعالى بشيءٍ رخيصٍ جداً، لذلك لن يكون لهم قيمةٌ يوم القيامة، حيث لن يوجّه تعالى الكلام لهم على أساس أنَّهم محترمونَ ومؤمنونَ، فمن السهل طاعته سبحانه بترك هذا الطعام الحرام؛ لأنَّ الطعام الحلال اللذيذ متوافرٌ، ولكن مع علمهم بأنَّه سبحانه حرّمه، وهم غير مضطرينَ لأكله، أكلوه! بل أكثر من ذلك حيث أخفوا المعلومات عن حرمة هذه المأكولات عن بقية الناس، فعندما قال لهم النبي محمد(ع) إنَّها حرامٌ، عارضوه! وقالوا له: "كتبنا السماوية تقول بأنَّه حلالٌ، وكلامك غير صحيحٍ، ولماذا تحرّم على الناس هذه الأشياءَ الحلالَ المحببةَ النافعةَ! أليس حراماً عليك أنْ تجعل الناس يتركون هذه الأشياء...". لذلك لا يتحدث معهم ربنا سبحانه يوم القيامة، مع أنَّهم كانوا يصلّون له، ويعبدونه ويدَّعونَ أنَّهم على دينه.

{وَلَا يُزَكِّيهِمْ}، ولا يجعلهم تعالى لائقينَ، فلا يغفر لهم ولا يعتبر لهم قيمةً ولا يحترمهم فلا يرفع سبحانه عنهم خبث السيئات التي ارتكبوها، ومن جهةٍ أخرى هم فعلوا حراماً، ولن يغير تعالى معايير الحلال والحرام لأجلهم حتى يكون عملهم زاكياً لائقاً بالمؤمنين.

{وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، للكاتمينَ للمعلومات... عذابٌ أليمٌ، ضررٌ لا يمكنهم تحمّله أو الاعتياد عليه.

(أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ{175})
الكاتمون للمحرمات التي ذكرها تعالى في كتابه، {أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ}، دفعوا الهدى ثمناً ليحصلوا بدلاً منه على الضلالة، تخلّوا عمّا يجعلهم على الشيء الصحيحِ الذي يوصلهم للغايةِ الصحيحة، واستبدلوه بالشيء الذي لا يوصلهم للغايةِ الصحيحة!

{وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ}، المغفرةُ كانت متاحةً لهم من ربهم سبحانه، وكان لديهم مجالٌ ليقبل تعالى استغفارهم على ذنوبهم ليسامحَهم عليها ويدخلهم الجنة، ولكنهم باعوا المغفرة فتخلّوا عنها واشتروا العذاب!

طبعاً هم لا يرون أنفسهم اشتروا الضلال أو العذاب، بل يرون أنفسهم سعداءَ بما حصلوا عليه من ثمنٍ لقاء كتمانهم لما حرّمه تعالى، ولكن من النظرة الإلهية فما قيمةُ ما حصلوا عليه هنا في الدنيا؟ هو لا شيء مقابل العذاب في الآخرة.

{فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ}! العذابُ سيكون في النار، فهل هم قادرونَ على أن يصبروا وأن يتحملوا ويحافظوا على هدوئِهم أمام عذاب النار حتى باعوا الهدى والمغفرة واستبدلوها بالضلال؟!

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ{176})
{ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ}، ذلكَ العذابُ الذي ينتظرُ الكاتمينَ للحقِّ، بسببِ أنَّ اللهَ نزَّلَ الكلامَ الإلهيَّ كاملاً بمواضيعه بالصوابِ، وليس ناقصاً ولا باطلاً ولا عن ضلالٍ ولا عن عبثٍ، ولا يمكن التعاملُ مع كتابٍ إلهيٍّ باستهزاءٍ واستخفافٍ، أو بالظنِّ بأنَّ فيه أشياءَ خاطئةً، أو لا قيمةَ حقيقيةً لكلامه فيمكن التلاعبُ به... لأنَّه تعالى نزَّلَ كتباً تقول: "هذا حلالٌ وذاك حرامٌ". ويجبُ الالتزامُ بتلك الكتب؛ لأنها لم تنزل للعبثِ أو حتى نتخيَّرَ بين اتّباعها وبين تركها وكأنها بلا أهميةٍ.

{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}، الذين كان لهم آراءٌ مختلفةٌ بين بعضهم ومختلفةٌ عما يقوله الكتابُ، فهم {لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}، بينهم وبين الحقّ انفصالٌ بعيدٌ، هم منشقونَ عن الحقّ. بعبارةٍ أخرى، فهؤلاء الذين يقولون بأنَّ هذه الأشياءَ غيرُ محرمةٍ في كتابهم، هم أصلاً غيرُ متفقين على كتابهم! لأنهم فرَقٌ ومذاهبُ مختلفةٌ! وكلُّ فرقةٍ ومذهبٍ عندها أشياءٌ حرامٌ وأشياءٌ حلالٌ بشكلٍ مختلفٍ عن الآخرين! من الواضح بأنَّهم أصلاً بعيدون عن الكتاب الإلهي؛ لذلك عليهم أولاً الاتفاقُ فيما بينهم على فهم الكتاب، ثم بعد ذلك فليتحدثوا عن الحلال والحرام مع غيرهم.

نلاحظ أنَّها حالةُ المسلمين اليوم، لأنَّ الخطأَ الأساسيَّ بدأ من انقسامهم لفِرَقٍ مختلفةٍ، واتباعهم لأشخاصٍ غيرِ مؤهلينَ للقيادة... إلى أن وصلنا إلى مرحلةٍ صار فيها لكلِّ فرقةٍ حلالٌ وحرامٌ يختلفُ عن الآخرين! للأسف أيضاً، إن نشرتَ دعوةً للناس للانضمام إلى هذا القرآن ألن تستحيَ إن قالوا لك: "إلى أيِّ مذهبٍ أو طائفةٍ تدعونا؟ فاذهب أولاً وقرّر أنت وبقيةُ أمثالك من المنتمين لدينك، فقرّروا عقيدةً واحدةً وشريعةً واحدةً وسياسةً واحدةً... وبعدها ستكونونَ محترمينَ وجديرينَ بدعوة الآخرين إلى دينكم". هكذا ترى أنَّ القرآن الذي يهينُ من سبقنا من أهل الكتاب على ما فعلوه من سوءٍ في دينهم، صار موجَّهاً لنا وينطبقُ علينا.

{لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} (177)

السؤال المركزي الأهم: ما هو {البر}؟ كيف يكون الشخص بارًا أي مهتمًّا بالصلة وبالعلاقة الطيبة مع ربه سبحانه؟ تحدثت الآيات السابقة "معنا ومع عموم أهل الكتاب وخصوصًا بني إسرائيل" عن اتجاه {القبلة} للصلاة، وبيّنت أن الله تعالى وحده يحدّد {القبلة}، وأصلًا هو سبحانه موجود في كل الاتجاهات، ولكن عندكم أيها اليهود والنصارى كتاب من ربكم سبحانه فيه الحلال والحرام وتلاعبتم به! فهل يحق لكم أصلًا المناقشة في موضوع اتجاه قبلة الصلاة وأنتم تخالفون الحلال والحرام الموجود في كتاب ربكم سبحانه الذي بين أيديكم؟!

سوف تلاحظ من هنا أن السورة ستبدأ بسلسلة توجيهات إلهية مباشرة للمؤمنين، على أساس أن هذا القرآن هدى {للمتقين}، وهذه كانت افتتاحية السورة التي من بعدها وصلت إلى فقرة طويلة للحديث والمقارنة مع وعن بني إسرائيل الذين لم يبقوا على الالتزام بكتابهم... وها يعرض القرآن على الجميع توجيهات إلهية للهداية:

{ليس البر}، ليس الاهتمام بالصلة، والكلام هنا عن الصلة مع الله تعالى، {أن تولوا}، أن تتجهوا، {قبل}، قبالة فتجعلوا قبالكم، تقبلون باتجاه، {المشرق}، ناحية بزوغ الشمس من خلف الأفق، {والمغرب}، ناحية سقوط الشمس خلف الأفق، لأن هذا مجرد توجه لناحية، وهو عمل تعبيري لا معنى له وحده، ولا يعبر وحده ولا يختزل كل الإيمان والدين، ولكن {البر}، لكن الصلة مع الله تعالى، هي مجموعة أمور أساسية من المفروض أن تكون موجودة فيكم حتى يكون التوجه إلى قبلة ما في الصلاة فعلًا له قيمة ومعنى...

قبل دخولنا في مفردات أساسيات {البر}، ألفت انتباهك لتصرفات يقوم بها بعض الناس على أساس أنها اختزلت الدين والإيمان، وأبسطها تسمية الأولاد بأسماء الأنبياء والشخصيات الدينية، وتعليق لوحات {آيات} قرآنية في بيوتهم... على أساس أنها أعمال تختزل كل الإيمان وتسقط عنهم بقية التكاليف! وغيرها الكثير الكثير من الأعمال التي يعتبرها الناس ذات قيمة عالية أهم بكثير من بقية الأعمال الدينية! كإقامة الموالد النبوية وتكاليف الزينة عليها... بتكاليف تسد حاجة فقير وهو جارهم أو من أقاربهم! أو زيارة أماكن مقدسة وتأخير أو تجاهل فريضة الحج الواجبة! وغيرها الكثير من الأعمال المشابهة لنقاش التوجه إلى الشرق أو الغرب أو المسجد الحرام أو بيت المقدس... وهناك أمور أساسية أهم بكثير من هذه المفردات.

لنعد إلى تفاصيل أساسيات {البر} معه تعالى:

{من آمن بالله}، وهذه الجملة المختصرة تعرف تكملتها وحدك، فهي تشير للاعتقاد بصاحب هذا الاسم المحدد المميز له تعالى أنّه الإله الواحد الأحد بالصفات الفائقة الحسنة.

{وآمن} اعتقد، {باليوم الآخر}، بالزمن الذي سيأتي في الآخر بعد انتهاء زمن الدنيا وتبدل السماوات والأرض وحصول يوم القيامة من الموت وبعده المحاسبة وبعده المجازاة.

{وآمن بالملائكة}، فصدّق بأنها موجودة حتى لو لم يرها، وآمن بأمانتها وقدراتها التي تفوق قدرات بقية المخلوقات وبالتالي فهي تنفّذ أوامره تعالى بأمانة وبدقة، وقد أخبرنا تعالى عنها أنها كائنات عملت كواسطة ناقلة لأوامره تعالى فتوحي للأنبياء والرسل، وهكذا يصير الإيمان بها من ضروريات الإيمان بوجود وصلة بينه تعالى وبين الأنبياء والرسل.

{وآمن بالكتاب}، واعتقد أنه تعالى أنزل كتبًا إلينا، وهذا يتضمن الإيمان بأنه يجب الالتزام بما فيها.

{وآمن بالنبيين}، وهم الأشخاص الذين يصلهم نبأ منه سبحانه لهداية الناس. والنبأ هو عامة الخبر غير المنتشر علمه بين الناس... وأيضًا هذا يتضمن الإيمان بأن الأنبياء أمناء على نقل ما وصلهم إلينا منه تعالى بالتمام، ووجوب طاعتهم...

{وآتى}، وأوصل وأعطى، {المال}، بكل أنواعه، سواء المال النقدي من معدن أو من ورق أو الإلكتروني... أو ما هو بقيمة المال كالطعام والشراب والأملاك... {على حبه}، فآتى المال ولديه شعور الرغبة بالتقرب والتواصل معه تعالى.

آتى المال لـ {ذوي القربى}، للذين بين الشخص وبينهم قرابة، من أرحامه، كأمه وأبيه وإخوانه وأخواته وأولادهم...

وآتى المال لـ {اليتامى}، وهم الذين فقدوا معيلهم ولا زالوا بحاجة للمساعدة بسبب صغر سنهم.

وآتى المال لـ {المساكين}، وهم الأشخاص الذين يمرون في ظروف صعبة، وتشمل حالة الفقر المدقع وفقدان كل شيء، وصولًا إلى من لديه مصلحة أو مهنة ولكن ظروفه متعثرة وبحاجة للمساعدة.

وآتى المال لـ {ابن السبيل}، ابن الطريق وهو الشخص الذي لسبب من الأسباب سافر من بلده وتنقل على السبيل، على الطرقات والممرات، حتى صار الآن بحاجة للمساعدة، فربما لديه أملاك وأموال في بلده ولكنه الآن لا يستطيع الوصول إليها وصار محتاجًا للمساعدة، مثل مسافر سرق اللصوص ماله، أو شخص سافر ليتاجر فخسر كل أمواله في التجارة... فهذا غريب وليس ابن بلدك فهو ابن السبيل، وقد أوصلته المسالك "الطرقات" إلى المكان الذي أنت فيه، ويحتاج للمساعدة ليرجع إلى بلده أو ليستقر في بلدك...

وآتى المال لـ {السائلين}، الذين يعبرون عن إرادتهم لشيء منكم، وبالاستعمال الدارج حاليًا فهم "الطالبون" للمساعدة المالية، وأنت قد تعرفهم أو لا تعرفهم معرفة شخصية ويسألونك أن تساعدهم...

لنتوقف هنا قليلاً منتبهين لما يقوله بعض الناس: كنت سأساعده وحدي من دون أن يطلب مني ولكن ولأنه طلب مني فلن أساعده. على أساس أن هذا الشخص كان يريد أن تكون المبادرة منه، أو يقول إن طلب المساعدة أشعره بأن السائل طامع فيه أو يحسده... أو أشعره السائل بأن له حق عنده... هذه الأعذار لا يقبلها تعالى، فإن تبين لك حاجته للمساعدة فساعده ولا تخترع الأعذار النابعة من نفسية مريضة.

وآتى المال للذين {في الرقاب}، كما نقول: هذه العيال في رقبتي. يعني أنا مسؤول عن العناية بهم، وأشهر نموذج لمن في رقبة الشخص هم العبيد التابعين له أو التابعين للمسلمين الآخرين، ولكنه تعبير عام لعموم الذين هم في رقبته وهو مسؤول عنهم لتعلقهم بشكل أو بآخر به، كالخدم والعمال الذين قضوا عمرهم معه ولا يجيدون عملاً إلا بخدمته... أو هم أصلًا يعملون مقابل الطعام أو القليل من المال... وأيضًا الأسرى والمساجين وأمثالهم من الذين لا يمكنهم العمل لتأمين المال للطعام أو اللباس وصاروا في رقاب المسلمين، وصارت رعايتهم واجبةً على المسلمين، وتشمل أيضًا أسرى المسلمين الذين عند الأعداء... ولم أجد في اللغة ولا في القرآن ما يخصص كلمة {في الرقاب} التي وردت مرتين، هنا وفي الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ...}، لم أجد ما يخصصها فقط بالعبيد لا في اللغة ولا في سياقها.

{والبر} توصيف لمن {أقام}، فعّل ولم يعطل ولم يترك أو يهمل، {الصلاة}، التوجه والإقبال على شيء ما، وهذه الكلمة صارت مصطلحًا دينيًا يشير للتوجه بالحركات والكلام المعروف بالصلاة الواجبة، وهي الفريضة الدينية التي

نقيمها خمس مرات في اليوم وتعبر عن عبادتنا لله تعالى، علمًا أن كلمة صلاة عمومية لأي توجه وإقبال، عبادي أو غيره، فالذي كان قبلنا لم يكن في صلاته فاتحة وسورة بل كان فيها قراءة لكلام آخر... هذا لا يعني أنها ليست صلاة وأن الصلاة حصرًا لما نفعله نحن فقط، لا، بل هي كلمة كمصطلح ديني تشير لعموم أي صلاة قررها تعالى لنا مهما كان شكلها، طبعًا لا يحق لك اختراع صلاة بدل التي نعرفها أو أن تغير فيها...

{وآتى الزكاة}، وجعلها عند من يوزعها أو وزعها بنفسه بحسب ما أمر سبحانه.

كلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، حيث تشير لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكية، مال زاكٍ، طعام زاكٍ..."، ومنذ القدم صارت مصطلحًا دينيًا يشير إلى دفع نسبة محددة من {خير}، راجع الآية 215 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ...}، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حد يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، عندها يدفع منها ما يوصف {بالعفو} من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة {...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...}، فتكون نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فريضةً من اللهِ واللهُ عليمٌ حكيمٌ}.

نلاحظ فصل الآية بين إيتاء المحتاجين وإيتاء الزكاة، لأن الذي يدفع الزكاة التي لها قيم محددة "بحسب اختلاف المعايير الاقتصادية" على المال والزرع والحيوان... فهذا لا يجعله حرًا في بقية ماله، بل يجب عليه التصدق على المحتاجين من أقربائه والأيتام والمساكين... ولا يحق له ترك إنسان محتاج للمساعدة حتى لو كان قد دفع الزكاة المحددة "كضريبة" طالما هو قادر على مساعدتهم.

والأبرار هم {الموفون بعهدهم إذا عاهدوا}، الأوفياء فلا يخونون، بعهدهم، بما أعلنوا التزامهم به، إذا عاهدوا، إذا أعلنوا أنهم التزموا بشيء ما، هم يوفون به بالتمام ولا يخونون، وعمليًا فهم إذا عاهدوا الله تعالى ورسوله على الطاعة، لا يخونون ولا يقصرون، وإذا عاهدوا الناس باتفاقية عمل أو شراكة... لا يخونون ولا يقصرون...

والأبرار هم {الصابرين}، الذين لا يتصرفون بشكل غير مدروس أو سيئ إذا تعرضوا للضغوطات، في {البأساء}، في الظروف التي تسبب شعورًا سيئًا مزعجًا بالضيق، كالحرب والجفاف والزلزال... لأن البائس قد يعترض أو يتأفف على ربه عز وجل، وقد ينحرف عن دينه... أما الأبرار فيبقون مؤمنين مهما اشتدت الظروف البائسة لأنهم يعتقدون أنها لن تستمر ولها نهاية.

والصابرون في {الضراء}، في الظروف التي تسبب الضرر لهم كالمرض... أو تسبب الضرر لما حولهم كتلف المزروعات أو حالات المرض لعائلته أو لحيواناته أو كثرة تعطل معداته وآلاته...

والصابرون {حين البأس}، الشيء الشديد جدًّا جدًّا، حينما فعلًا يكون هناك ظروف شديدة، فبعض الناس الذين لم يعيشوا في حرب أو في كارثة ضخمة، هؤلاء عندما يمر عليهم بأس: حالة صعبة، هم يظنون أنهم في حالة بأس شديد، ولكن هناك فعلًا بأس شديد، كحالة المحارب في المعارك، وحالة من أصابته الكوارث الضخمة التي تدمر وتقتل...

{أولئك الذين صدقوا}، بهذه الصفات هم فعلًا الذين {صدقوا}، فلم يكن إيمانهم كذبًا أو نفاقًا أو فسقًا.

{وأولئك هم المتقون}، هم الموصوفون فعلًا بأنهم {المتقون} المتجنبون لغضب ربهم سبحانه.

لاحظ وانتبه جيدًا لشيء ركّز عليه القرآن كثيرًا وكرره، حيث بعض الناس وبضبابية من دون تدقيق يقولون: ما همي من الدين، وعندي شؤون حياتي التي تشغلني وهي ليست من اهتمامات الدين. بالعكس بل كل الأمور فيها خير وشر وصلاح وفساد... وهذا هو كلام الدين عن هذه التوصيفات، ولفت القرآن انتباهنا مرارًا وتكرارًا أنّ تطبيقنا لدينه تعالى ضامن لحل مشاكل الحياة، وهنا كما ترى، فإيماننا بالله تعالى وملائكته وثواب الآخرة... من المفروض أن يجعلنا ملتزمين بمساعدة المحتاجين واحترام حقوق الناس، وأبرز ما ورد في القرآن ربطه التوحيد بِبِرّ الوالدين، وكثيرًا ما

تكرر في القرآن ربط الصلاة بالزكاة، وأكثر ما ورد فيه الكلام عن الإيتاء والإنفاق والصدقة... مضافًا إلى ذلك الأوامر الإلهية الحقوقية باحترام حقوق الآخرين، والأوامر الإلهية الأخلاقية...

نلاحظ أيضًا أن أصل الكلام كان عن تولية الوجه نحو قبلة، حيث قال أهل الكتاب للمسلمين أن تولية وجوهكم نحو كذا هو {البر}، فيصير المبتدأ أصل الموضوع {أن تولوا وجوهكم}، والخبر الواصف للموضوع {البر}، وهنا الآية تركت هذه الجملة الأساسية كما هي وأدخلت "ليس" لنفيها، وقدمت الخبر {البر}، واسم ليس ينتصب، فنصبت {البر}، فالجملة هكذا: ليس أن تولوا وجوهكم... {البر} ولكن البر... فالجملة الأولى التي بين هلالين هي اسم ليس، والبر خبرها. حيث أصل الموضوع عن تولية القبلة وليس عن {البر}، والبر هنا خبر وصفي سبقته "ليس" لنفي حصر تولية القبلة به.

الآية 189 من هذه السورة التي ورد فيها {ليس البر أن تأتوا البيوت...}، وهناك {البر} بالضمة على الراء لأنها اسم ليس وهي تركيز الموضوع وبقية الكلام واصف للبر. على كل حال لا تشغل بالك بهذا، وإنما ذكرته لك لأن أحمقًا عنده كتاب تعليقات على القرآن، ومن غبائه ذكر أن القرآن فيه أخطاء لغوية، ورفع ونصب {البر} في الآيتين واحدة من اكتشافاته العظيمة لأخطاء القرآن! بينما هو وكما في كل كتابه وكتابات أمثاله عن القرآن إنما برهنوا عن غبائهم، ولا أقصد غباءهم اللغوي، لأنهم يعلمون يقينًا أن تركيب الجملتين صحيح، ويبدو من كتبهم ومقالاتهم معرفتهم بقواعد اللغة، إنما أشير لغبائهم في كذبهم على كتاب إلهي، ومحاولة تضليل الناس عن قصد بالكذب، وهذا هو الغباء، فأي مصيبة يجرونها على أنفسهم أمام الله تعالى!

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ{178})
بعدما تعرفنا على {البر} الإلهي وهو نفسه الاعتقاد الحقّ والعمل الصالح، نكمل مع تشريعات دينه تعالى وهي نفسها التي أنزلها تعالى في الكتب السابقة: {يا أيها الذين آمنوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنّهم معتقدون ملتزمون بالدين الإلهي: ننتبه عندما يتحدث القرآن هنا مع الناس الذين آمنوا، قد تستغرب وتقول: كيف يقول القرآن عن هؤلاء الناس بأنهم مؤمنون مع أن فيهم قتلة! فانتبه جيدًا، لأنه إن كان هؤلاء الناس لم يعلنوا إيمانهم بالإسلام عندها كيف تطلب منهم أن يلتزموا بحكم إسلامي؟ عندما يتحدث القرآن مع المسلمين ينبههم بأنهم مؤمنون بالإسلام، وهذه أحكام الإسلام، فنفذوها. تصور حصول حادثة قتل في مجتمع ليس فيه مسلمون، هناك لا يمكنك أن تقول لهم أن ينفذوا حكم الإسلام، لأنهم بكل بساطة سيقولون لك: نحن لا نؤمن بالإسلام. هنا الآية "وعموم القرآن حين يوجّه الخطاب {للذين آمنوا}"، إنما يتحدث مع مجتمع يقول بأنّهم مؤمنون بالإسلام، فتقول لهم الآية: يا أيها الناس الذين أعلنوا إيمانهم بالإسلام فهذه أحكامه لتنفّذوها... {يا أيها الذين آمنوا}، {كتب عليكم}، كتب سبحانه عليكم فسجّله عنده وأنزلَ عليكم أمرَ {القصاص}، الاقتصاص، أخذ الحقّ من الغير، في {القتلى}، في أخذ الحقّ من أجل المقتولين، في الحالة التي ينهي أحدٌ منكم حياة شخص آخر، والكلام هنا عن إنهاء حياة الآخرين من دون حقّ. {الحر بالحر}، الرجل الحر الذي لا يملكه إنسان آخر، الذي قتله رجل حرّ أيضًا، فحكم القصاص هو قتل "الحرّ" القاتل المتعمد القاصد. {والعبد}، الذي ليس حرًّا، والكلام عادة عن المملوك لغيره، فإذا قتل عبد عن قصد عبدًا آخر، فالقصاص يكون بقتل العبد القاتل. {والأنثى بالأنثى}، فقصاص الأنثى المقتولة بقتل الأنثى التي قتلتها عن عمد، حرّة بحرّةٍ، أمة بأمةٍ "عبدة بعبدة". نعلم من الآية 92 من سورة النساء أنه إذا حصلت عملية القتل بالخطأ عندها لا يحق لنا قتل القاتل "... وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ..."، أمّا هنا الكلام في الآية فهو عن القاتل متعمدًا، ومن الآية التي تلتها نعلم أن القاتل المتعمّد سيخلد في جهنم "وَمَنْ يقتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا"، حتى لو عفا أهل القتيل عن القاتل فسبحانه لن يعفو عنه حتى يتوب. الآية 45 من سورة المائدة تخبرنا أن إنهاء حياة يقابله إنهاء حياة "وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ...."، وبناء عليه فالآية هنا افترضت علمك بذلك وقفزت عنه للحديث عن الاكتفاء بالقاتل المحدّد الذي قتل، كتوجيه للذين يحمون القاتل بتقديم شخص آخر بدلًا منه، وهكذا نفهم أن الآية هنا تشير لقتل القاتل والمنع من استبداله بشخص آخر، وليست تشير إلى حصرية الاقتصاص من القاتل الحرّ إذا قتل حرًّا، فأنَّ حرًّا قتل عبدًا عمدًا، ويقولون في كتب الفقه أن الحرّ يدفع الدية ولا يحقّ لأصحاب العبد المقتول قتل الحرّ. ويقولون نفس الشيء عن الرجل الحرّ إذا قتل أنثى عمدًا، ويقولون أنّه لا يحقّ لأهل الأنثى قتل الرجل القاتل ويأخذون الدية فقط، وهم يقولون ذلك ذاكرين الآية هنا كدليل، {الحر بالحر}، ولكنها على نفس المعيار ستقول، {والعبد بالعبد}، {والأنثى بالأنثى}، فلو أنثى قتلت رجلًا، فهل تدفع الدية ولا يحقّ لأهل الرجل المقتول قتلها؟ في كتب

الفقه يقولون أنها تقتل، وبذلك لا يستقيم كلامهم السابق الذي استنتجوه من الآية عن حكم الحر بالحر، لأن نفس الكلام في الآية عن الأنثى بالأنثى ويصيرُ كلامهم مخالف للآية! لأنهم يحكمون بقتل الأنثى التي قتلت حرًّا. يبدو واضحًا من كلامهم ذكورية النظرة التشريعية، ومثله العديد من فتاويهم كرجم الزانية وتطبيقهم لذلك، علمًا أن القرآن حكم بجلدها حتى لو كانت متزوجة، ولم يذكر أبدًا بتاتًا أي شيءِ عن رجمها أو قتلها، وراجع في ذلك دراسة الآية 2 من سورة النور "الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ..."، ولم أسمع في تاريخهم رجمًا لزانٍ وتسمع بعض الحوادث النادرة عن جلد بعض الزناة من الرجال... {فمن عفي له من أخيه شيء}، وحصل القاتل على شيء من العفو، ومرّوا على ما فعله ولم يتوقّفوا عنده، فلم يطالبوا بعقابه بالقتل، فَعُفِي له شيء، من أخيه في الإيمان، فعفا الذي له الحقّ بقتل القاتل، فلم يطالب بقتله... {فاتباع بالمعروف}، ويأتي بعد العفو ما هو متعارف عليه بين الناس، ويدفعُ القاتل مالًا لولي المقتولِ، للمسؤول عن المطالبة بمحاسبة القاتل، ويقدّمُ لأهله فدية متعارف عليها بين الناس. {وأداء إليه}، وتسليم الدية المالية إلى الذي عفا يكون، {بإحسان}، بشكل غير استفزازي أو تحقيري أو منّة... الذي سامح عفوًا عن القاتل يجب معاملته بأقصى درجات المعاملة الحسنة. لاحظ التعبير بأداءٍ، لأن الفدية صارت أمانة ولم تعد ملكًا للقاتل، حيث من حين وقوع القتل صار لولي المقتول ملك مالي في ذمة القاتل، ودفع الفدية له هو أداء وليس عطاء. لا تتصور في بالك شخصًا يقتل شخصًا آخر وتقيس عليها فهمك للآيات، فلا تتصور حالة بسيطة للقتل، لأن هناك حالات تخطيط وتصميم وتنفيذ للقتل، وهناك حالات تحدث من دون تحضيرات، كالمشاجرة التي تتحول إلى عراك وقتلٍ، أو المزاح الذي يتحول إلى جدّ وقتلٍ، أو الاستهتار الذي ينتج عنه قتل، أو من فقدان للوعي من المسكر والمخدرات... هناك حالات وظروف كثيرة مختلفة ينتج عنها القتل، فتصور أن شخصًا "عن قصد" رمى شخصًا في الماء وهو يعلم بأن المرمي لا يجيد السباحة، ومات، فهذا عند العقلاء هو قتل عمد، ولكن الذي رماه وليس له أي مصلحة في قتله، ولم يكن يكرهه، ويقول أنّه لم يقصد قتله... فهذه قضية قتل عمد، لأن رميه في الماء كان مقصودًا، وحتى لو رماه استهتارًا ولم يكن في نيته قصد قتله، فإذا رأيناه يرميه سنقول بأنه يحاول قتله. تصور أنّه كان يركض، فاصطدم بشخص واقف على حافةٍ، وعن غير قصد رماه في الماء، ومات غرقًا، فهذه قضية قتل خطأ... وقد ذكرت لك هذه الأمثلة حتى تنتبه أنّ العفو عن القاتل في بعض الحالات أرجح من المطالبة بقتله، وبحسب اختلاف المجتمعات تجد أنّه في الحوادث الفردية للقتل عمدًا فغالبًا أنت لست أمام من يمتهن القتل، بل أمام ظروف استثنائية سريعة أدّت للقتل لا عن هدوء أعصاب وتصميم... وحتى تعلم أنّه في كل قضية يوجد تفاصيل تختلف عن حادثة أخرى، اعتبر الآية هنا عنوانٌ عامٌّ، والتفاصيل يتم تحديدها عبر الخبراء والقضاة والمحامين... الناس أجناس، بعضهم نظريًا وعمليًا يرفض العفو عن القاتل حتى لو تأكد بأنّه لم يكن متعمدًا، وبعضهم نظريًا وعمليًا يعفو عن القاتل حتى لو كان القاتل خطّط بهدوء أعصاب لذلك، وبين هذا وذاك تأتي تشريعاته تعالى بالحقّ. دينه تعالى يوجد فيه عفو عن القاتل، ولكن لا يحقّ للدولة أن تقرّر العفو عن القاتل العامد، بل القرار بيد أهل المقتول، وما تسمعه من كلام عن قساوة الإسلام بحكم قتل القاتل، إنما هو هرطقات وتخريفات، حيث في الدول التي تمنع قتل القاتل المتعمّد شهدنا حالات اعتراض عديدة من أهل المقتول لأن بعضهم يريدون إنهاء حياة القاتل... وفي الدول التي تجيز قتل القاتل المتعمّد شهدنا عفوًا عليه من أهل المقتول... فأصل طرحه تعالى لإمكانية العفو عن القاتل المتعمد، يأخذنا إلى حالة الرحمة والميل إلى العفو في حالات يكون للعفو فيها معنى للرحمة، وإلا فما معنى العفو عن قاتل لم يندم! ومستعد لتكرار القتل، وقد سبق له أن قتل أبرياء وهو يمتهن القتل؟! في بعض هذه الحالات ينتقل بنا الحكم القرآني لوصفه بالمفسد في الأرض والذي يجب قتله إذا كان ممتهنًا للقتل، وترى ذلك في الآية 33 من سورة المائدة "إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ". الكلام يجر الكلام، فما يقال عن إحصاءات معدّل الجريمة الأعلى في البلدان التي فيها حكم من الدولة بقتل القاتل المتعمّد، وكلام عن مستوى أقل للجريمة في البلدان التي تعفو عن القاتل المتعمّد، والخروج بنتيجة أن حكم الإعدام للقاتل لا يخفّف من الجرائم، "وفي الفقرة التالية سنتوسّع في الكلام عن النتيجة من الإحصاء"، ولكن حكمه تعالى بجواز قتل القاتل المتعمّد لم يكن فقط لتخفيف نسبة الجريمة، وها ترى ذلك هنا، فما معنى إجرائه تعالى لحكم العفو من أهل المقتول؟! ستفهم منه أن الكلام ليس للتشجيع عن العفو عن المجرمين الذين قتلوا أبرياء وسيقتلون المزيد، بل عن الذين وقعوا في ظروف استثنائية وليس من عادتهم القتل... من ناحية ثانية فالكلام الإحصائي الجافّ الذي لا يخرج بنتيجة ربط مباشر بين الإحصاء والنتيجة، وهو كلام فارغ، لأننا نحن نعلم أن البلدان التي تعيش استقرارًا اقتصاديًا وأمنيًا... لسكانها، ستخفّ فيها نسبة الجريمة، وليس حكم الدولة بالعفو عن القاتل هو السبب في ندرة الجرائم في تلك الدول، بل الاستقرار الاقتصادي والأمني... هو السبب الأرجح والأوضح لتدنّي نسبة الجرائم. هل تتوقّع انخفاض نسبة الجريمة في المجتمعات التي إحصائيًا مرتفعة الجريمة فيها لمجرد إصدار قانون لا يجيز قتل القاتل المتعمّد؟! {ذلك}، السماح بالعفو عن القاتل هو، {تخفيف}، جعل الأمور أخفّ عليكم، {من ربكم}، من المسؤول عنكم من مستوى إلهي، فليست كل حالات القتل عن دم بارد وتصميم عميق بالقتل، بل هناك حالات يندم فيها القاتل، وهناك حالات قتل عن طيش واستهتار... وذلك السماح الإلهي بالعفو عن القاتل، {ورحمة}، ففيه عناية بكم لما فيه مصلحتكم. {فمن اعتدى}، فقام بأي اعتداء، من {بعد ذلك}، من بعد حصول العفو، {فله عذاب أليم}، فله ضرر لا يمكنه تحمّله أو الاعتياد عليه خالدًا في نار الآخرة، فإذا غيّر ولي

الدم رأيه من بعد العفو وقتل القاتل، أو قتل شخصًا يحبّه القاتل... أو القاتل ندم وتاب فعلاً خوفًا من العقاب، ولكن من بعد العفو عنه اغترّ بالعفو ومن جديد قتل بريئًا آخر... فله عذاب أليم. انتهت الآية وقد أعطتنا عناوين رئيسية أساسية منها: محاسبة القاتل المتعمّد بالقتل فقط من دون تبديل أو زيادة... ويمكن لولي المقتول العفو الكامل عن القاتل وأخذ الفدية المتعارف عليها، أو قبول فدية مهما كانت النوعية أو الكمية التي اتفق عليها مع الجاني، وقد تركت الآية التفاصيل الكثيرة لأن تحديد مقدار الفدية يكون بحسب قدرة كل أهل منطقة على دفع الفدية، لأن متوسّط مدّخرات الناس تختلف من منطقة لأخرى ومن زمن لآخر، حيث في بلد ما يكون الألف دينار مبلغًا كبيرًا يكفي للعيش منه لسنة، ويكون هو معدّل مدخرات الناس، وفي منطقة أخرى تكون الألف دينار مصروف شهر، ومتوسط مدخرات الناس عشرين ألف دينار... هكذا ترى لماذا ترك القرآن تحديد الفدية للناس لتقديرها بحسب الإمكانيات المادية لمجتمعهم، ضع هذا في بالك كنموذج عن هامش المرونة الذي تركه القرآن لنا لتحديده بما يناسبنا في مختلف الأزمنة والأمكنة. أمّا ما تجده في كتب الفتاوى عن تحديد الدية، فهو ليس لكل زمان ومكان، ومنقول عن تطبيقات جرت قديمًا وقد حكمت بها الأجيال الأولى من المسلمين بما يناسب زمانهم ومنطقتهم. ننتبه جيدًا، العفو عن القاتل لا يعني أنّه تعالى عفا عنه أيضًا، فسبحانه يعفو عنه إذا تاب واستغفر وندم فعلاً عن جريمته، وإذا لم يتب عندها سيتحاسب كما لو أنّه قد قتل الناس جميعًا، وتقرأ ذلك في الآية 32 من سورة المائدة "... مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا..."، وسيخلد في جهنم كما ورد في الآية 93 من سورة النساء "وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا"، وهنا الآية في آخرها تهدّد القاتل ووليّ المقتول، وقد أعطاه ربنا سبحانه حق العفو أو القصاص، وإذا ولي المقتول قتل القاتل المتعمّد فلا شيء على الوليّ، فلا عقاب، وإذا عفا فلا يحق له التراجع، وإذا تراجع وغيّر رأيه وقتل القاتل فقد اعتدى، ويصير قاتلاً، وله عقاب بعذاب شديد عنده سبحانه.

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيْ الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ{179})
{ولكم في القصاص}، في الاقتصاص في أخذ الحقّ من المعتدي، وهنا الكلام عن حكم قتل القاتل المتعمد، لكم، {حياةٌ} {يا أولي الألباب}، وهم الذين عندهم "اللبّ" فعندهم شيء له قيمة في داخلهم، فيفكرون ويفهمون الأمور بطريقة صحيحة، هؤلاء سيرون أن قتل القاتل المتعمد ليس أخذًا لحياته كجريمة مثل جريمته، بل قتله حياة للباقين، حيث لا معنى للحياة في أجواء الإجرام، والعقاب سيردع الناس عن ارتكاب الإجرام، وتنتشر الطمأنينة والأمان وهكذا يصير لحياة المجتمع معنى.

قتل القاتل المتعمد ليس عملاً مساويًا في سوئه لنفس ما فعله القاتل، ولا يجعلنا قتلة مجرمين مثل القاتل، بل هناك حالات يحيا المجتمع بسلام بسبب وجود حكم يسمح بقتل القاتل العامد، عندما يخاف الناس من العقوبة، بشرط أن يكونوا من {أولي الألباب}، أمّا لو كانوا بلا لبٍّ، بل شيء له قيمة في داخلهم، بلا فهم، يصير هذا الحكم بلا قيمة عندهم وسيبقى القتل منتشرًا بينهم...

لا تنفي الآية أن قتل القاتل هو تكرار للقتل، ولكن الأولى جريمة والأخرى حياة للمجتمع، لأنها حماية من قاتل قد يكرر فعلته، وحماية ممن يفكر بقتل الآخرين لأنه سيحسب حسابًا للعقاب قبل أن يفعلها. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فهناك مجتمعات فيها طبقية سيادية تجعل من بعضهم جريئًا على قتل الآخرين ومعه ضمانة "سيادية" بالنجاة من العقاب لأنه الزعيم أو ابن الزعيم... أو لديه عائلة تقف معه حتى لو كان على الباطل... أو هو شخص يريد إرعاب مجتمعه... هذه أمور نضعها في الحسبان عندما نبحث في تداعيات وخلفيات الحكم بقتل القاتل المتعمد "مع السماح لأهل المقتول بإمكانية العفو عنه".

هذا الكلام يجرنا إلى كلام آخر، حيث المجتمع الحي، وهو المجتمع الذي فيه الصفات الأساسية لمعنى الحياة من كرامة وأمن واستقرار... والمجتمع الميت هو الفاقد لأساسيات الحياة حيث لا تشعر بالأمان على حياتك وأملاكك من اعتداء الآخرين، فماذا لو كان القاتل مميتًا للمجتمع ومحميًّا من العقاب، وعفا أهل المقتول عنه خوفًا منه ومن جماعته؟ هنا تأتي آيتنا مدعومة بعموم مفاهيم القرآن عن المفسدين في الأرض لتلغي عفو أهل القتيل وتنزل {القصاص} بالقاتل وتحمّل كل المجتمع مسؤولية تنفيذ ذلك...

هذا يجرنا إلى الكلام عن الحكومة، فالإسلام لا معنى له من دون حكومة، ولن يصير الإسلام حكومة إلا إذا قام المجتمع بتحكيمه، إذا انتخب الناس أو دعموا أو نصّبوا... من يلتزم بتنفيذ أحكامه تعالى، وإلا فلا حياة من {القصاص} لأنه لن

يطبّق إلا على الضعيف، والكل، الكل سيتحاسبون على ذلك في الآخرة، وسيكونون مشاركين للمفسدين في الأرض، بل هم المفسدون في الأرض، وكل واحد منهم سيتحاسب على قدر ما كان بإمكانه فعله لمنع الفساد.

انتبه ولا تقع في مصيدة تكرار بعض الكلمات في القرآن، فتظن أن {أولي الألباب} تقصد نفس الأشخاص هنا وفي الآيات الأخرى، لأن {أولي الألباب} معناها عموم أصحاب الفهم، وقد يكونون مؤمنين جدًّا وملتزمين جدًّا، وقد يكونون مؤمنين عاديين، وقد لا يكونون مؤمنين متدينين ولكن في موضوع القتل وفهم عواقبه، لهم لبٌّ، فيفهمون الحكم ويفكرون، ويرتدعون عنه... حيث لا علاقة للفهم بدرجة إيمانهم، وهنا لا تتحدث الآية عن درجة الإيمان بل عن درجة الفهم العادي في موضوع محدّد.

مسألة الوصية في الميراث
(كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ{180})
تكمل السورة توجيهاتها للذين آمنوا حتى يكونوا مهتدين:

{كُتِبَ عَلَيْكُمْ}، سجّل تعالى عليكم أيها المؤمنون وأنزل تعالى عليكم حكمًا مع رسله، وأمركم وفرض عليكم تعالى ما يلي: {إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ}، إذا صار الموت عنده، {إِنْ تَرَكَ خَيْرًا}، إن ترك أشياء موصوفة بأنها خير، حيث من بعد موته سيبقي أشياء لها قيمة ومفيدة ماديًّا كالمال والعقارات والبيوت... {الْوَصِيَّةُ}، كتب عليه تعالى، وأمره وفرض عليه تعالى أن يترك تعليماتٍ لينفذوها، طبعًا بعد موته.

بقية استعمال القرآن لتعبير {حَضَرَ الْمَوْتُ} ترى إشارتها لحالة من لا زال حيًّا ويشعر بأن موته قريب، وقد ورد ذلك في الآية 133 من سورة البقرة "أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ..."، والآية 18 من سورة النساء "وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ..."، وبالخصوص الآية 106 من سورة المائدة "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ...". إذًا هي حالة الكبير في العمر المريض، أو لأي سبب كان يعلم الإنسان أنّه قريبًا سيموت... لذلك سنلتزم هنا بتفسيرها بذلك، ولولا ذلك فهي تحتمل معنى: ترك وصية لتنفيذها حين يحضر الموت. وعلى هذا المعنى سيصير واجبًا على كل من لديه شيء موصوف بأنه خير، بأن يكتب وصيته حتى لو كان شابًّا يافعًا، وهذا ليس شيئًا تفعله الناس عادة، ولم يفرضه تعالى علينا.

وبعبارة أخرى وقد أمركم سبحانه أن توصوا في حياتكم بما سيفعله الآخرون بما تتركونه من خير إن متم، وتصير الوصية واجبة عليكم إن شعرتم بأن موتكم قريبًا، ويوجد ما يستدعي ترككم لوصية تنظّم الميراث بحسب ما ترونه مناسبًا، حتى لا يتنازع الورثة ومن لهم عليكم حقٌّ...

الوصية، {لِلْوَالِدَيْنِ}، الأم والأب "البيولوجيين"، {وَالْأَقْرَبِينَ}، أقارب الموصي الأقرب فالأقرب، أولاً أولاده، وبعدهم إخوانه وأخواته ثمّ أعمامه وعمّاته وأخواله وخالاته وأولادهم...

الوصية يجب أن تكون، {بِالْمَعْرُوفِ}، بالمتعارف عليه بين الناس، بما يقبله العاقلون من عامّة الناس المؤمنين ولا يرفضونه، فلا يترك الفقير من أقاربه دون ميراث ويعطي الغني، أو يعطي البيت الذي يعيش فيه أهله لشخص آخر ويتركهم بلا بيت... أو يعطي لولده الذي يحبّه أكثر ويحرم بقيّة أولاده...

الوصية بالمعروف، {حَقًّا}، شيء واجبٌ، {عَلَى الْمُتَّقِينَ} الذين يتجنبون غضب ربهم سبحانه لأنّه تعالى هو كتب عليهم ذلك.

يبدو من الآية هنا وغيرها من الآيات التي تتحدث عن الوصية، أنّه تعالى يتحدّث معنا على أساس أنّنا من المفروض بنا "كحاملين لصفات الإيمان" أن نكون وحدنا عادلين في وصيتنا لتوزيع أموالنا وأملاكنا من بعد موتنا، حيث الأساس هو تركنا نوصي بحصص من ميراثنا بما يتناسب مع حالة أقاربنا، وإن كان التقسيم بالمعروف ووافق الورثة عليه، أو لم يوافق بعضهم عليه فطالما هو بالمعروف، ويتماشى مع أساس التقسيم الذي ورد في آية الميراث، فالوصية شرعية.

هناك في آيات الميراث في سورة النساء من الآية 11 وما بعدها، قد حدّد لنا القرآن تقسيمًا عامًّا يناسب الحالات العامّة للناس الذين لم يتركوا وصيةً، أو تكون تلك الآيات مرجعًا لمن يريد أن يوصي، أو مرجعًا لمن يعترض من الورثة على الوصية... وكتطبيق عملي للوصية استنادًا إلى آيات الميراث في سورة النساء وإلى السنّة النبوية التي علمنا منها أنّه مسموح لنا الحرية التامّة في الوصية بثلث "على الأقل" ممتلكاتنا وأموالنا لمن نشاء، وتؤيد الآيات أساس الفكرة بكلامها "من بعد وصية"، وبهذا الثلث "وأكثر بحسب اختلاف الظروف" نراعي به وضع الأشخاص الأشد فقرًا من أقربائنا، ونراعي وضع من يحتاج لمنزل واستشفاء... أما الثلثان الباقيان فإن لم يكن للميّت وصيةٌ عندها يجب تقسيمهم بالحصص التي ذكرتها آيات الميراث التي وردت في سورة النساء، إلا إذا وافق الورثة برضاهم التام على تقسيم آخر بينهم... وهنا الآية تنبهنا لواجب الموصي الأساسي، وواجبنا الأساسي نحن للتعامل مع الوصية كما سيأتي.

بقي شيء عن آيتنا هنا وغيرها من الآيات العمومية عن الوصية، التي ورد بعضها في سورة النساء قبل ذكر تقسيمات الميراث بعبارة "من بعد وصية"، فهذه الآيات من غير المعقول أن تكون منسوخة بآيات تقسيم الميراث، ويجب اعتبارها تشريعًا يتم اعتماده بالتماشي مع آيات الميراث، حيث لا معنى لذكر الوصية في القرآن مرارًا إن لم يكن لها تطبيق ومنسوخة بالآيات التي تحدّد الحصص، ولا يبقى معنى لحرية الوصية في شيء مما نملك حتى لو وصينا به للغرباء، علمًا أنّ هذا معمول به منذ عهد الرسول (ع) وإلى عهدنا! ولا معنى لورود الكلام عن الوصية أثناء الكلام عن تقسيم الميراث لو كان حكم الوصية منسوخًا كما قالوا، فراجع الآيات 11 وما بعدها من سورة النساء وستجد عبارة "... مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ..." في كلتا الآيتين.

بعبارة مباشرة تردّ على كل من قال بأنّ آيتنا هنا وأمثالها منسوخة بآيات الميراث التي وردت في سورة النساء، فإن كانت الحصص والتقسيمات المذكورة في آيات الميراث في سورة النساء هي القاعدة الحصرية لتقسيم الميراث فما معنى الوصية التي وردت في تلك الآيات كشرط واضح عن الحصص من بعد وصية يوصي بها أو دين؟! وما معنى حرية التصرف بثلث التركة "على الأقل" وهو شيء متأكدون من حصوله وإجراء النبي (ع) له؟

هذه النوعية من التفاسير التي تنسخ الآيات، والمستهترة بكلامه تعالى، قد سبّبت تحجير العقل وتعقيدات في الأحكام الشرعية، لأنّنا كثيرًا ما نسمع عن حرمان أيتام الابن والابنة من الميراث، لأنّهم لم يرد لهم حصّة من ميراث جدّهم في آيات المواريث بعد موت والدهم أو موت أمهم قبل موت جدّهم، وكثيرًا ما نسمع عن حرمان البنت أو الأم أو الأخت من ميراث العقار، ونسمع بحالات يقوم فيها الأولاد ببيع المنزل الذي تسكن فيه أمهم أو أختهم التي لا حول لها ولاقوة... وكثيرًا ما نرى محاولات قانونية شرعية للتخلص من هذه المشاكل التي يرى فيها القاضي ظلمًا...

تلاحظ الآية هنا تنبّهنا لهذه الحالات وغيرها الكثير، فالذين من أقاربنا وليس لهم حصّة في الميراث ووضعهم حرجٌ جدًّا، أو لهم حصّة من التقسيم الذي ورد في آية الميراث ولكنه أقل مما يناسبهم... يكون حلّ هذه الأمور بالوصية بالمعروف، ولا داعي للبحث عن تبريرات لتوريث الأحفاد الأيتام من الجدّ، ولا لتوريث الزوجة من عقار زوجها وهو مأواها الوحيد... فإن لم تكن الوصيّة بالمعروف، عندها تأتي حلول أخرى يقوم فيها متخصصٌ بإعادة تقسيم الميراث بالمعروف بما يناسب ظروف الورثة...

(فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{181})
{فمن بدَّله}، وسمع الوصية التي شهد عليها حيث قيلت أو كتبت أمامه وهو يسمع الإملاء من الموصي، وغيّر التقسيم الذي ورد فيها، بعدما سمعه، وكان تبديله للتقسيم لا عن خطأ أو سهو، بل هو يتذكّر ما سمعه من الوصية ولكن يبدّله على مزاجه أو تحت الضغط أو بالرشوة... {فإنّما إثمه}، فيتسجّل على من فعله أنّه ارتكب الذنب عن قصد ومع علمه بأنّه ذنب، {على الذين يبدّلونه}، وليس على الميت، فلنقل بأنّك أوصيت ببيتك لأبويك، ولكن إخوتك بدّلوا الوصية وقالوا بأنّهم سمعوك توصي بتقسيم البيت بين الجميع، والبيت صغير ولا يمكن تقسيمه لغرفٍ، وكانت النتيجة أن صار أبواك بلا مأوى، فإثم وذنب هذا العمل لا علاقة لك به، بل الإثم على الذي بدّل كلامك.

يبدو من الآية هنا إشارةٌ إلى أنّ الشخص الذي سيموت عليه أن يحتمل التبديل في وصيته من بعد موته، لذلك تصرّ الآية عليه ليقوم بواجبه حتى لو كان متأكدًا أنّ أحدًا ما سيقوم بتغيير وصيته، وحتى لو كان يعلم بأنّ أفضل وأوثق الشهود لن

يصمدوا أمام الضغوطات وسيبدلون الوصية، وحتى لو كان يرى كل من حوله لن يلتزموا بالوصية إذا شهدوا عليها... فليقم هو بواجبه ويوصي بما يرضيه تعالى وإثم التبديل يقع على الذين يبدلون الوصية.

{إنّ الله سميعٌ}، يسمع كل شيء، يسمع كل الوصيات ويسمع إذا حصل تبديلها، وهو {عليمٌ}، فيعلم كل شيء، وهذا تحذير للذين يبدلون الوصيات بأنّه تعالى يراقبهم وسيحاسبهم.

(فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{182})
هناك حالة لا تكون فيها الوصية بالمعروف ويكون فيها ظلم أو أذيّةٌ للورثة، وهل يحقّ للمسؤول عن تنفيذها، أو من له الحكومة كقاضٍ أو وكيلٍ شرعيٍّ أو مفتٍ مع قدرةٍ تنفيذيةٍ أو بدونها... وهل يحقّ له تبديل الوصية ليحكم بغير ما مكتوب فيها؟

{فَمَنْ خَافَ}، فمن شعر بوقوع الضرر الأكيد على الورثة وهو ضرر لا يمكن تجنُّبه، {مِنْ مُوصٍ}، من شخص ترك تعليماتٍ ليفعلوها بأمواله وأملاكه بعد مماته، خاف منه، {جَنَفًا}، ميلاً سيئًا غير عادل، في الوصية، لأنّه مال ناحية أحد الأشخاص بشكل فاضح، وأعطى شخصًا أو آخرين وحرم شخصًا أو آخرين بشكل فاضح، أو آذاهم بما لا يناسبهم في تقسيم خيراته.

أو خاف من {موصٍ}، {إِثْمًا}، حرامًا معلومةً حرمته، فالوصية التي أوصى بها تأمر بفعل شيء نتيجته حرامٌ معلومةٌ حرمته، لنفترض أنّه حرم أبويه من الميراث وهما فقيران، فهذا إثم لأنّه علنيٌّ معلومٌ مخالفته لأوامره تعالى بالوصية للوالدين، وإذا خطر ببالك أنّهما محميان بالآيات التي في سورة النساء والتي أعطتهما حصةً، وعندها لا قيمة للوصية، فهذا صحيح بشكل ما، وهو سبب ذكره تعالى لتلك الحصص لتكون أقل حماية يؤمنها تعالى من التعرّض للظلم في وصية ما.

أمّا إذا فرضنا أنّه أوصى ببناء خمّارةٍ، أو ملهى للفساد... وهذا ما ذكروه في التفاسير {للإثم} هنا، فهذه الوصية من الأصل ساقطة ولا يجوز تنفيذها، ولا أظنُّ الآية هنا تتحدّث عن هذا المثال الذي أصلاً خارج الاحتمال، وفي غالبية التفاسير كان هذا تفسيرهم {للإثم} بناء على إهمالهم لقيمة الوصية ونسخها "إلغائها" بآيات الميراث التي وردت في سورة النساء، وهذا لا يبدو صحيحًا.

الذي سمع الوصية كشاهدٍ ويخاف من تنفيذ الوصية لأنّها غير عادلة ومضرة بالورثة، أو أنّها تدعم عملاً حرامًا... ولهذا السبب، {فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ}، بين الورثة، فلم يلتزم بحرفية تنفيذ الوصية الجانفة أو الآثمة وعدّلها بما يناسب الورثة، طبعًا بالاتفاق مع الورثة بالمتعارف عليه بين المؤمنين العقلاء، وبما يتماشى مع آيات الميراث 11 و 12 من سورة النساء... {فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ}، فمخالفة الوصية حرام معلوم ولكن في هذه الحالة ومَن بدَّلها لن يتسجّل عليه أنّه ارتكب الحرام عن قصد.

{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ}، يتجاوز عن هذه المخالفة، وعمليًّا يعني إلغاء العقاب على مخالفة الوصية في حالة الوصية الجانفة أو الآثمة، {رَحِيمٌ}، فلديه عناية خاصّة بالمؤمنين بما فيه مصلحتهم، لأن تبديل الوصية بالأصل حرام ممنوع، ولكن لعنايته تعالى بالمؤمنين سمح بتبديلها إن كانت جانفة أو آثمة.

قارنها كمثالٍ مع الذين يحرمون أهلهم وأقاربهم ويورثون الكلب! وفي قانون دولهم يجب تنفيذ الوصية، ويدّعون أنّهم عقلانيون متحضّرون وأنّ شريعة القرآن متخلّفةٌ!

وكما تلاحظ يوجد الكثير من التفاصيل للوصية والميراث والحصص، ولكن الآيات أرادت فقط تبيان أمرين أساسيين: الأساس الأول أنّ الموصي يجب عليه الانتباه لكيفية توزيع أملاكه بعد موته، فيوصي إن كان هناك ضرورة لمراعاة ظروف الورثة. والأساس الثاني أنّه يجب على من ينفذ الوصية الانتباه أنّ الوصية ليست كلامًا مقدّسًا، ويجب عليه أن لا ينفذها إن كانت ظالمة أو آثمة، ويجوز في هذه الحالة تعديل الوصية بموافقة الورثة وبما هو متعارف عليه بين

المؤمنين. هكذا تصير آيات الميراث التي في سورة النساء، خطوطًا عامّة يجب التماشي معها إن لم يكن هناك ظروف حرجة للورثة.

نتذكر أنّ آيات السورة بشكل عام تتحدث عن الأحكام التي كانت قديمًا مسجلة في الكتب التي أنزلها الله تعالى، ويتم إعادة ذكرها في القرآن لتصحيح التحريف الذي فعلوه بدين الله تعالى، ولذلك نلاحظ السورة هنا أنّها لا تذكر التفاصيل لأحكام الميراث، واكتفت بما أوجبه تعالى على الشخص الموصوف بأنّه مؤمن بدينه تعالى، فهذا سيهتم بالوصية للوالدين والأقربين... بالمعروف.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ{183})
نكمل مع التشريع الإلهي الذي كان مذكورًا في الكتب السابقة، وهذا النوع من الكلام القرآني هو نموذج عن تصديق القرآن للكتب الإلهية التي نزلت سابقًا:

{يا أيها الذين آمنوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنّهم في حالة اعتقاد والتزام بالدين الإلهي، {كتب عليكم الصيام}، سجّلَ تعالى قرار إلزامِكم بالامتناع عن شيء تفعلونه عادةً، ومن المعلوم مما سيأتي من كلام ومما تعلمه من ثقافاتك الدينية أنّ المقصود بالصيام هنا هو بالتحديد الامتناع عن الملذات الجسدية والطعام والشراب وغيره... فقرّر تعالى أن تصوموا عن ذلك وسجّلَ ذلك عنده وأرسل أمرَ الصيام عبر رسوله (ع) لكم.

{كما كتب على الذين من قبلكم}، فالصيام ليس شيئًا جديدًا، حيث كتبه سبحانه علينا مثلما كتبه على الذين من قبلنا من المؤمنين، على عموم من سبقنا من أنبياء ورسل ومؤمنين كان الصيام واجبًا عليهم أيضًا.

كتبه تعالى عليكم، {لعلكم تتقون}، فمن المتوقّع ومن المفروض إن صمتم أن تتجنبوا وتتحاشوا عموم السوء وهو نفسه المؤدّي إلى تجنّب غضبه وعقابه سبحانه، فالصوم من المفروض أن يجعلنا أتقياء لأنّه يعوّدنا على ترك أمور حلالٍ وصعب تركها... ولذلك كتبه الله تعالى علينا، ويتوقع تعالى منّا أن نتقي السوء إذا صمنا.

طبعًا هناك من يصوم ولا يتقي، فيفعل المحرمات "وللأسف كلنا كذلك"، ولذلك عبّرت الآية بـ "لعلّ" لأنّ الصوم من المفروض أن يجعلنا متقينَ ولكن البعض منّا يكون الصوم له مجرد جوعٌ وعطشٌ بلا استفادة إيمانية... حتى أثناء الصوم! والمشكلة فيه لأنّ الصوم هو الامتناع عن الطعام والشراب والملذات الجنسية... ومن المفروض بالذي يصوم عن ذلك أن يتمرّن على الامتناع عن فعل السوء، فطالما استطاع الامتناع عن الأشياء الضرورية الأساسية في حياته، من المفروض أنّه يستطيع الامتناع عن السيئات.

نلاحظ المسيحيين واليهود "بفرقهم المختلفة" تختلف طريقة صومهم، ولكن وبقليل من دراسة أسس كتبهم ترى أنّ الأساس عندهم كان مثل صومنا، وهم تلاعبوا به، وأجروا عليه تخفيضات وتنزيلات! حتى تغيّر وصار عند بعضهم: صوم عن المشتقات الحيوانية فقط من الصباح حتى الظهيرة ليوم واحدٍ فقط في السنة!

(أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{184})
الصوم، {أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ}، زمن معلوم نهايته، فليس مفتوحًا وغير محدّدٍ، وسنرى من الآية التالية أنّ الصوم لمدة شهر رمضان، وبما أنّه شهر قمري وظهور الهلال قد لا يكون ممكنًا رؤيته... لذلك هو يتراوح "عرفًا" بين 29 و30 يومًا لا أكثر ولا أقل. هذا من ناحية ومن ناحية ثانيةٍ وحتى لا يخترع الناس في الدين الإلهي، وحتى لا يأتي من يجعل نفسه تقيًّا أكثر من الآخرين، متفلسفًا وبطريقة ما يصير الصوم الواجب لأكثر من شهر "كما جعله بعض المسيحيين لأربعين يومًا"، ويصير "مثلاً" الاحتياط بالصوم قبل أسبوع من شهر رمضان، وبعده بأسبوعٍ... لمنع هكذا احتمالات خزعبلاتيةٍ وغيرها، عبّرتِ الآية بأنّه {أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ}، فالواجبُ صوم شهر هجريٍ فقط واسمه رمضان وانتهى الموضوع، وهذا ما تقصده الجملة هنا بقولها {أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ}.

{فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا}، في جسمه خلل طرأ عليه، بحيث لا يمكنه الصوم لأنّه يحتاج للدواء أو للشرب أو للأكل للمعافاة من المرض... أو يتألّم كثيرًا أو يتضرّر جسده من الصوم... أو كان، {عَلَى سَفَرٍ}، في حالة سفر، وحضرَ شهر رمضان وهو ليس في وطنه ولن يقيم هناك فلن يبقى حيث هو لمدة طويلة، أو كان مسافرًا على الطريق ولم يصل إلى حيث هو ذاهب... {فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}، أي في هاتين الحالتين "المرض والسفر"، فيعدُّ بنفس عدد الأيام التي فاتته ويصومها من أيامٍ أخرى في بقية أشهر السنة، وضمنًا فإذا كان شهر رمضان في تلك السنة 29 يومًا فإنّ المريض أو المسافر يكمل عدد أيام صومه حتى تصير 29، وإذا كانت أيام شهر رمضان في تلك السنة 30 يومًا فإنّ المريض أو المسافر يكمل صومه في بقية الأشهر حتى يصير صومه 30 يومًا، وهذا قد يكون من أسباب قول الآية بأنّها {أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ}، فبحسبِ عدد أيام شهر رمضان يجب الصوم فقط.

{وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ}، يطيقون الصوم، فيمكنهم صومه ولكن ببذل طاقة كبيرةٍ، بمشقة وتعب كبيرٍ، وهؤلاءِ عليهم، {فِدْيَةٌ}، شيء كبدلٍ عن الصوم، فلا يصومون بل يدفعون "فدًى" وهو: {طَعَامُ مِسْكِينٍ}، ويقدّمونَ وجبة أكل متعارف عليه أنّها مقبولة، يتم تقديمها لـ {مِسْكِينٍ}، وهو الذي لا يملك أي شيء "فقير" وصولاً إلى الذي أوضاعه المالية متعثرة، فعنده سيارة وبيت ولكنه الآن يمر بظروف اقتصادية صعبة وبحاجة للمساعدة.

هكذا تحدثت الآية أولاً عن المريض والمسافر، ثم عمّن يستطيع الصوم ولكن ببذل طاقة كبيرة جدًّا، فيصيبه إرهاق غير محمول من الصوم، ليس لأنّه يمر بفترة مرض بل لأنّ جسده ضعيف وبدنه لا يتحمل الصوم مثل بعض الأولاد في أول بلوغهم، وبعض كبار السن.

أما الذي نهائيًّا لا يقدر على الصوم، فهذا لا ينطبق عليه الوصف {يُطِيقُونَهُ}، ولم تذكر له الآية أي حكم، مما يبدو أنّه حتى لا يجب عليه الفدية.

{فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا}، صام تطوُّعًا صام في الأيام التي لا يجب عليه فيه الصوم، صام خارج شهر رمضان "استحبابًا" رغبة منه في الخير، للحصول على الخير، على الثواب منه تعالى، {فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ}، وفعلاً هو يفعل الخير لنفسه، فيتقبلُ تعالى صومه ويجازيه بالحسنات. كما ترى وهذهِ الجملة من تفاصيل سبب قول الآية عن أيام الصوم الواجب أنّه أيامٌ معدودات، وما زاد عنه فهو تطوّع.

{وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ}، فلا تنظروا لموضوع حرمان جسدكم من الطعام والشراب على أنّه شيء مضرٌّ بالجسد، لا، بل من يمكنه الصوم فإنّ الصوم خير له فإنّه ينفعه، هذا، {إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، إن كان لديكم معلومات لها قيمة ومطابقة للواقع. لأن الثواب الذي تحصل عليه من الصوم مضمون وهائل، ولو قارنته مع مشقّة الجوع والعطش والتعب من الصوم لعلمت أنّ الأجر في الآخرة أعظم بكثير مما تحمّلته.

لاحظ الآية هنا لا تزال في أجواء التذكير بالدين الذي أنزله سبحانه سابقًا عبر رسله، وتذكّرنا بأنّ الصوم كان واجبًا في شريعة النبيَّينِ موسى وعيسى عليهما السلام، وقد كان مثل صومنا الحالي في أحكامه كما يبدو من التعبير {كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ}، والآية التالية ستعيد تكرار حكم الصوم مع تحديد التوقيت للأيام المعدودة للصوم، وكما يبدو فقد تغير الشهر الذي يجب فيه الصوم بيننا وبين من سبقنا، إمّا بسبب تلاعبهم بالتاريخ، أو لحكمة إلهية بتغييره مثل الحكمة من تغيير القبلة.

بقي شيء، وأمامَ صريح القرآن بانتفاء وجوب الصوم على المسافر، نجد الكثيرين من علماء المسلمين قد أوجبوا الصوم على المسافر! على أساس أنّنا اليوم نسافر بشكل مريحٍ بالسيارات والطائرات، وإن لم يكن هذا الكلام من نوع المخالفة الصريحة لظاهر أوامره تعالى فكيف تكون المخالفة؟!

ها أمامك آية ليس فيها أي مجال للمرونة، بل حتى أنّها شاملة لحالة أنّك مسافر على الطريق، فجملةُ {عَلَى سَفَرٍ} تشمل من كان على الطريق أيضًا وليس مستقرًّا بعد، فكيف يفتون بما يخالف صريح القرآن! والعجب منهم حين يبحثون في سيرة النبي (ع) لتثبيت حكم الصوم للمسافر مبررينَ للحالات التي أفطر فيها الرسول (ع) حين كان مسافرًا بأنّه خرج لجهاد عدوٍّ! ومتجاهلينَ بوضوح أنّ أساس الأحكام صريح القرآن وبعدها ندرس على ضوئها الروايات.

كما ترى، لم يحدد القرآن المسافة التي توصف بالسفر وقد تركها كهامشٍ مرونة لنا حتى لا تصير على المتر والسنتي، ويبقى تحديدها عرفيًّا للعقلاء الذين يصفون الحالة بالسفر، وقديمًا في عرفهم كانت تقارب الخمس ساعات مشيًا على الأقدام أو أقل منها على حصان يمشي مشيته العادية، مما يقارب العشرين كيلو مترٍ في عصرنا، فإنْ كان هناك نظر في مسألة الإفطار في السفر فهو بالبحث حول تحديد عرفيٍّ جديد لمسافة السفر أو إبقاء القديم.

أما ما يقولونه عن سهولة السفر في عصرنا فلست أدري كيف قارنوا الأمور، لأنّ مسافة السفر على الحصان مساوية لرحلة صيد أو نزهة، وهي بين ساعتين إلى ثلاث ساعات، وعلى مهل يقطع الحصان مسافة السفر، فما تخيلوه عن مشقة السفر قديمًا وسهولته في عصرنا إنما هو مجرد كلام لم يبنِ تعالى على أساسه الحكم، ولا إشارة في القرآن أو الروايات إلى ذلك، وأصلاً فالسفرُ لمسافات طويلة بالطائرة مرهق، وتضيف عليه فرق الوقت الكبير بين البلدان...

(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{185})
إعادة صياغة دراسة رؤية الهلال لتغيير الخلفية التي تجعل المسألة فيها قداسة وأهمية لخصوص إصابة ليالي القدر، التي لا مستند قرآني لما يقوله الناس عنها من خصوصية استجابة الدعاء فيها، إعادة الصياغة لتصير المسألة اعتبارية من ضمن هامش المرونة الذي لا يقيّد ويعقّد حياة الناس بالاختلاف في تحديد بداية ونهاية الشهر، مثل تركه لقيمة الزكاة وممّا، والنتيجة أنه أي معيار عقلاني يمكن اتخاذه أساسا موحدا لكل الناس حتى يعتمدوه كلهم معا.
{شَهْرُ رَمَضَانَ}، وهو من الأشهر القمرية، هو الشهر {الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ}، وبدايةُ نزول هذا القرآن على الرسول محمد (ع) كانت في شهر رمضان، والقرآن {هُدًى لِلنَّاسِ}، فيضعهم على الطريق الصحيح الذي يوصلهم للغايّة الصحيحة، والقرآن {وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى}، أمور واضحة توصل للهدف الصحيح، {وَالْفُرْقَانِ}، من الأشياء الواضحة التي تفرق فتبين الفرق، وسياق الكلام عن الفرق بين الحقّ والباطل.

ونعلم من سورة القدر أنّه سبحانه قد أنزل القرآن في ليلة القدر في شهر رمضان، وبعد ذلك بدأت السور تنزل على سنوات متفرقة على النبي محمد (ع).

ونعلم أنّ القرآن قسم من كتاب إلهي كبير جدًّا، وقد تم تحديد قسم من المعلومات المذكورة في ذلك الكتاب الأساسي لتتحول إلى اللغة العربية بحيث يمكن للبشر قراءتها، فصار القسم الذي تحول إلى اللغة العربية اسمه: قرآنًا. أي يمكن للبشر قراءته. والآيةُ الواحدة قرآنٌ والسورة قرآنٌ وكل القرآن قرآنٌ.

المسلمون، وبحسب ما وردهم من روايات عنهم، تراهم بغالبيتهم في أدبياتهم شبه متفقين أنّ بداية تلقي النبي محمد (ع) للقرآن لم تكن في شهر رمضان! وهذا مخالف لصريح القرآن! حيث قد قالوا أنّ بداية البعثة حصلت في شهر رجبٍ، وربطوا ذلك ببداية نزول القرآن وقالوا أنّ القرآن نزل في شهر رجبٍ! علمًا أنّه من الممكن أن يكون نزول الوحي (ع) أول مرة وبدون قرآن في شهر رجبٍ، وبداية نزول القرآن في شهر رمضان، هذا إن لم تكن روايات بداية البعثة في رجب من الأصل غير صحيحة.

المصرُّون على بداية نزول القرآن في رجب برّروا الآيات التي تقول أنّ القرآن نزل في شهر رمضان على أساس أنّ القرآن نزل من الكتاب الرئيسي الذي في السماء السابعة إلى السماء الرابعة في شهر رمضان، وبقي هناك، ومن هناك صار ينزل على دفعات على الرسول محمد (ع)، وهذا كلام لا استنادٌ قرآنيٌّ له.

{فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ}، فمن كان حاضرًا "صحيح الجسم وليس مسافرًا..." حين بدأ شهر رمضان، {فَلْيَصُمْهُ}، فليمتنع بإرادته عن الأكل والشرب و... طوال مدة الشهر كله، فهذا هو التوقيت لصومكم أيها المسلمون. والذي {شَهِدَ} شهر رمضان ولكن {كَانَ مَرِيضًا}، في جسمه خلل طرأ عليه، بحيث لا يمكنه الصوم لأنّه يحتاج للدواء أو للشرب والأكل للمعافاة من المرض... أو يتألّم أو يتضرّر جسده من الصوم... {أَوْ كَانَ عَلَى سَفَرٍ}، فلم يكن في وطنه أو كان على طريق السفر، {فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ}، فيعدُّ بنفس عدد الأيام التي فاتته ويصومها من أيامٍ أخرى، فإذا كان شهر

رمضان في تلك السنة 29 يومًا فإنّ المريض أو المسافر يكمل عدد أيام صومه حتى تصير 29، وإذا كانت الأيام 30 فيكمل القضاء حتى الثلاثين.

لاحظ تكرار حكم وجوب الإفطار على المريض والمسافر، فالآيةُ السابقة كانت تتحدّث عن عموم وجوب الصوم ووجوب إفطار المريض والمسافر، وهنا كررت الكلام عند تحديدها للشهر الذي يجب علينا صومه للتأكيد المشدّد، ورغم ذلك قرّر البعض من علماء المسلمين أنّ الحكم للمسافر بوسائل النقل الحديثة كالسيارة أو الطائرة أن يبقى صائمًا!

{يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ}، أيها المؤمنون أن يحصل معكم، السهولة لتمشي الأمور معكم براحة، {وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}، لا يريد تعالى تصعيب الأمور عليكم بحيث لا تمشي أموركم براحة، فلا يجبركم على الصوم وأنتم مرضى ولا يمنعكم من أخذ الدواء الضروري... ولا وأنتم على سفر.

القاعدة العامة هي اليسر في الصوم، أمّا كل ما يسبب العسر الشديد فهو يسقط الصوم، وهذه القاعدة مساوية للتي قالتها الآية السابقة عن {الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ} صوم شهر رمضان، وقد استخرج منها العلماء أحكامًا شرعيةً عمّن يجب عليه الصوم، ومن يجب عليه الإفطار، ومن يجب أو لا يجب عليه الفدية أو القضاء...

المؤمن الحقيقي لا يبحث عن الأعذار حتى لا يصوم، فيجب ألا نتأثر بمن يختلق الأعذار، وعلينا أن نتحمّل الصوم وهو ليس سهلاً، ولكن الانتفاع من التقوى قربةً إلى الله تعالى التي يجب أن تنتج عن الصوم هو الهدف الرئيسي مضمومًا لها الأجر منه تعالى.

{وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ}، فبصومكم فيما بعد "إن كنتم مرضى أو على سفر" يكتمل النقص في صومكم لنفس مدة شهر رمضان، فيكمل صومكم بنفس عدة أيام شهر رمضان الذي شهدتموه، فإن كان 29 أو 30 يومًا عندها أكملوا صومكم بقضاء الأيام التي كنتم فيها مرضى أو مسافرين.

{وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ}، وتؤمنوا وتعلنوا بأنّه تعالى كبير في مستواه الإلهي بهذا الأمر بالصوم الذي يدلّكم على الشيء الذي يوصلكم للغايّة الصحيحة، فمن صام وشعر بفائدة الصوم الإيمانية فسيكبّر تعالى على هذا الأمر الذي أوصله للغايّة الصحيحة، من الشعور بالتقرّب إليه تعالى والرحمة، وتوقّع المغفرة والدخول إلى الجنّة.

{وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، فمن المفروض والمتوقّع منكم أن تعلنوا حصولكم على شيء جيدٍ منه تعالى. لأن الصوم فيه ثواب كبير من ربنا سبحانه، ويساعد على التقوى، "ويبدو أنّه في حالات كثيرة مفيد للجسد"، ولم يأمرنا سبحانه بالصوم إذا كان يسبب لنا المشقة الشديدة، والصائم حين يحين الإفطار يشعر بالنعمة الكبيرة الممنوحة لنا منه تعالى بالشعور بالجوع والعطش والرغبة... فنشعر بقيمة هذه النعمة التي فينا وقيمة نعمته تعالى بإتاحة الطعام والشراب اللذيذين... ومن المتوقع منّا أن نشكره سبحانه أمام كل هذا.

رؤية الهلال لشهر رمضان ما نحن فيه من حيرة لبداية ونهاية شهر رمضان من تتبُّع تولُّد الهلال وإمكانية رؤيته، قد سبّب لأبناء المدن المتجاورة أن يبدؤوا وينهوا الصيام في أيام مختلفة، بل حتى أهل المدينة الواحدة بعضهم يبدأ بالصوم قبل الآخرين! وباختصار نهمل فيه الآراء العديدة، ونحصر الكلام عن جعل بداية ونهاية شهر رمضان موحّدةً لكل أهل الأرض، حيث من غير المعقول أنّه شهر ويختلف في تحديده أهل مدينة واحدة! والمحاولات لتوحيد بداية ونهاية الشهر، فبعضها صحيح ولكن ينقصها القليل من التصحيح، والله أعلم.

أي بقعة على الأرض حصلت فيها رؤية بالعين "المجردة وبدون مقاريب التلسكوب" لهلال شهر رمضان، فهذا في عصرنا سيكون توافقًا بين الحسابات والواقع، وما قيل قديمًا عن ترك الاعتماد على الحسابات الفلكية والاعتماد على الرؤية بالعين فقط، كان سببه ضعف الحسابات عن تحديد إمكانية رؤية الهلال وليس ضعفها عن حساب تولُّد القمر.

أي بقعة على الأرض حين تحصل فيها رؤية بالعين المجردة للهلال، فذلك الغروب هو بداية شهر رمضان وإمكانية الرؤية للهلال معلوم أنّها ستبقى من لحظتها مستمرة لكل من سيأتي عليهم ذلك الغروب، وننتبه جيدًا، فهذا الغروب الذي حصلت فيه رؤية الهلال، بمساره المستمر على وجه الأرض يكون غروب أول ليلة من شهر رمضان، ونتتبّع الغروب نفسه وفي كل بقعة يمر عليها، وحيث سيمرّ، سيكون أول ليلة من شهر رمضان.

هذا الكلام ربطًا على العرف الثقافي الديني المشهور جدًّا عن بداية اليوم من أول الغروب، متذكرينَ ما نقوله عن ليلة الجمعة، حيث على العرف الجديد لبداية اليوم من الساعة صفر "تمام الساعة الثانية عشر ليلاً" يقابله العرف الشرعي لبداية اليوم من المغرب، وخذ مثلاً عن ليلة الجمعة في الثقافة الدينية المعلوم أنّها مساء يوم الخميس، هكذا ترى أنّ الليلة التي غربت فيها الشمس، وشوهد الهلال فيها، تكون بداية شهر رمضان، وهي أول ساعة من ليل شهر رمضان في الثقافة الدينية، وسينتقل هذا الغروب إلى البلدان التالية، وسيكون هو بداية الشهر لتلك البلدان التي سيمرّ عليها ذلك الغروب.

أطلت عليك الكلام بالشرح الممل لأني وفيما لدي من كلام كثير قالوه عن تحديد بداية شهر رمضان، لم أجد من يقول بما أقوله لك هنا، وأقرب كلام من كلامهم لكلامنا هذا قد جعل الغروب الذي شوهد فيه الهلال، جعلوه بداية شهر رمضان حتى للذين لم يمرّ عليهم هذا الغروب بعد، فجعلوه للبلدان التي سبق ومرّ فيها هذا الغروب ولم تحصل فيه رؤية عندهم.

قبل أن نأخذ مثالاً توضيحيًّا لنراجعَ بعض الأساسيات، فإذا تولّد القمر، متجاوزًا الشمس لجهة الشرق، وصار القمر لجهة الشرق والشمس بالنسبة له لجهة الغرب، فهما يبقيان قريبينِ جدًّا من بعضهما في البداية، ويبتعد القمر عن الشمس رويدًا رويدًا لجهة الشرق خلال أيام الشهر... وبعد ولادة القمر وحين تغرب الشمس تحت الأفق ولا نعد نراها، فالهلالُ لا يزال أمامنا، ولا نراه بالعين إن كان قريبًا من الشمس، ونراه بوضوح إن كان بعيدًا عنها، وبشكل أساسي يتحكّم بإمكانية رؤيتنا له المدة التي مرّت على تولُّد القمر ومدى بعد تلك اللحظة عن غروب الشمس، فكلما حصل التولّد بعيدًا بوقته عن المغرب كلما تحسّنت إمكانية رؤية القمر لأنّه سيكون بعيدًا أكثر عن الشمس، فإذا تولّد القمر فجرًا ستكون إمكانية رؤية الهلال عند غروب ذلك اليوم محتملةً جدًّا إذا ساعدت الظروف الجوية على ذلك، وكانت زاوية انعكاس نور الشمس على القمر مناسبة لرؤيتنا لها...

النقطة الثانية مسألة رؤية الهلال، ففلكيًا يبدأ الشهر القمري من لحظة تولُّد الهلال، أي حين يجتاز خط مسار القمر خط مسار الشمس ويصير قبلها بالنسبة لنا "من الأرض"، وهذا المعيار الفلكي لم يعتمده أحد من المسلمين من قبل "قديمًا" لتحديد بداية شهر الصوم، حيث توارثنا عن الرسول (ع) أمرًا بالالتزام برؤية الهلال بالعين المجردة لتحديد بداية شهر رمضان، ويؤيّد ذلك عامة التكاليف الشرعية المعتمدة على الحسِّ، لا على الحسابات المجردة، فأنا لا أقول "بنجاسة" ثوبي وجسدي من رذاذ البول الذي لا أراه بعيني ولا أشعر به، علمًا أنّه بالحسابات الدقيقة حتمًا تناثر الرذاذ وحتمًا أصاب ثوبي وجسدي، وأنا لا أرسم خطًّا على نهاية شعر رأسي حين كنت شابًّا ليكون تحديدًا لوجهي الذي أغسله في وضوئي بعدما تساقط شعري... وبناء عليه فبدايةُ الشهر القمري تكون برؤية القمر بالعين المجردة، أو بمرور ثلاثين يومًا من الشهر السابق، حتى لو كنّا نعلم بأننا فلكيًا صرنا في شهر جديد، فطالما لم تحصل رؤية بالعين المجردة للقمر، فشرعًا الشهر لم يبدأ بعد.

بناء عليه، فأيُّ افتراضٍ لتحديد بداية لشهر رمضان يجب أن يتماشى مع ما حصل مع الرسول (ع) لأنّه من غير المقبول طرح "مبدأ" يجعل صيام الرسول (ع) غير صحيح، علمًا أنّنا في كتابنا "نحو فقه قرآني" رأينا أنّ الرسول فقيه...

خذ مثلاً توضيحيًّا من طرحنا هذا، مثلاً غربت الشمس في لبنان ولم نر الهلال "تولّد الهلال في النهار وغربت الشمس قبله وتستحيل رؤيتنا للهلال بسبب قربه من الشمس". هذا الغروب بالنسبة لنا شرعًا هو ليلة من شهر شعبان، والنهار التالي من شهر شعبان إلا إذا كان مرّ 30 يومًا من شعبان، عندها نعتبر الليلة لرمضان، وهذا شيء آخر لا نقاش فيه، ولنكمل مع حالة الحيرة بين 28 و29 من شعبان أو أوّل رمضان، حيث انتقل الغروب ليصل إلى البرازيل "مثلاً" وهناك شوهد الهلال بالعين المجردة، والآن صار هذا الغروب بداية شهر رمضان "للبرازيل" والمحدّدُ برؤية الهلال بالعين، عندها نمشي مع هذا الغروب الذي سيمرّ على أستراليا واليابان والصين، في هذا الوقت في لبنان نحن لا زلنا في الصباح من نهار شعبان، فلنعد للمشي مع الغروب الذي صار في الهند وروسيا، وصرنا في لبنان بعد ظهر نهار شهر شعبان، وفي البرازيل صاروا في فترة صباح أول يوم من شهر رمضان، ومشت فترة الغروب ووصلت إلينا، فهذه بداية أول ليلة من شهر رمضان في لبنان.

الآن تعقيبًا على المثال وما سبقه من نقاط، فالذي قال بتوحيد بداية شهر رمضان لكل الأرض اعتمادًا على الفلك والرؤية معًا، اعتبر الغروب في لبنان غروبًا فلكيًّا لأول ليلة من شهر رمضان حتى لو لم نر الهلال بالعين، واعتبر الغروب في البرازيل، التي "مثلاً" صار بين غروبها وبين تولُّد القمر ساعات طويلة جدًّا جدًّا، اعتبره غروبًا محدّدًا بالعين المجردة لرؤية الهلال، وبالتالي يصير ما سبقه من غروب من بعد تولُّد القمر، يصير غروبًا لأوّل ليلة من شهر رمضان، وهذا غير صحيح، وعليه يكون تحديد بداية شهر رمضان اعتباريًّا محضًا وعلميًّا محضًا في نفس الوقت! علميًّا لن يمر بداية شهر إلا وسيكون مستحيلاً رؤية الهلال عند بعض الذين حصل عندهم غروب قريب بالزمن من ساعة تولُّد القمر، وسيكون سهلاً رؤية الهلال عند البعيدين عن ساعة تولُّد القمر، وبناء عليه، فالحكم ببداية شهر رمضان عند الجميع من سابق ولاحق لأنّه في بقعة على الأرض حصلت رؤية، فهذا شهر علمي فلكي محض. وفي نفس الوقت صار اعتباريًّا محضًا لأن السابقين لديهم حالة استحالة رؤية الهلال.

لنراجع ما طرحناه مع أقرب ما قيل، ولنطبّق الحالتين على عهد الرسول (ع)، لأن ما طرحناه يمشي مع الغروب، ويمرّ علينا غروب ليلة فلكية لشهر رمضان ولا نصوم بسبب تعذّر رؤية الهلال، وهذا ما كان سيحصل في عهده (ع)، وفي الغروب التالي ستكون الرؤية ممكنة "بسبب مرور وقت طويل على تولُّد القمر". أمّا على طرح الذين جعلوا "اللّيل" عندي في لبنان مشترك مع الحسّ بالعين في البرازيل، فصيام النبي محمد (ع) لم يكن متوافقًا مع هذا التشريع، فهل من المعقول أن يكون صومه (ع) غير مطابق لفتوانا!

علمًا أنّ الرسول (ع) فقيه أفتى بما رآه مناسبًا لزمانه، ولكن أي فرض آخر سيواجه مشاكل عقلانية أو تفصيلية، حتى لو اعتمدنا تولُّد القمر قبل الغروب بداية للشهر، فهناك بلدان متجاورة سيختلفون في بداية الشهر، وهذا شيء طبيعي بسبب الطبيعة الفلكية...

بقيت نقطة شائكة التفت لها من سبقنا قديمًا، ففي عهد النبي (ع) وما بعده اعتمدت المدن المجاورة على إشعال النار كعلامةٍ للآخرين المجاورين "المشتركين معهم في الغروب"، أنّ رؤية الهلال تمّت، وهم بدورهم يشعلون النار ليراها من جاورهم فيعلم ببداية شهر رمضان... لكن ماذا لو كانت المدن متصلة من البرازيل إلى لبنان وأشعلوا النار عند رؤيتهم للهلال، وأشعلتها المدن الأخرى وصولاً إلينا، وهكذا نصير في حالة من أفتى بأنّ الغروب الذي مرّ علينا وكان يستحيل رؤية الهلال فيه، أنّه من شهر رمضان! ولكن ماذا لو وصلت النار إلى من حصل عنده الغروب ولكن بعد الغروب حصل تولُّد القمر؟ فهذا فلكيًّا وشرعيًّا ما زال في شهر شعبان!

وكما ترى، فإشعالُ النار، كإرسالِ خبر عن رؤية الهلال، مقصود به المجاورون الذين حصل عندهم غروب الشمس معًا.

وبناء على طرحنا فإنّ الغروب الذي حصلت فيه الرؤية قد يمرّ على بلد في أقصى شمال أو جنوب الكرة الأرضية ولا يحصل فيه رؤية بسبب استحالة الرؤية لأنّ القمر بالنسبة لهم ما زال قريبًا من الشمس، هؤلاء هل ينتظرون الغروب التالي ويكون مرّ على الآخرين يوم أو يومان من شهر رمضان؟ لا، لأنّهم على كلّ حال مرّ عليهم غروب ليلة شهر رمضان والنهار التالي صيام حتى لو استحالت رؤيتهم للهلال، وإن كانوا مشتركين في الغروب مع من حصلت عنده الرؤية لأول مرة، كالمشتركين مع البرازيل في الغروب في المثال الذي طرحناه، فهؤلاء يبدأ شهرهم مع البرازيل.

لاحظ أنّ تحديد بداية ولادة اليوم على الأرض من خط الطول 180 درجة، قد تداخل مع الذي أفتى محدّدًا النهار التالي للغروب كبدايةٍ لشهر رمضان، وإذا كنت من محبي التدقيق فسأترك لك التفاصيل لترى الفرق بين تثبيت ولادة اليوم من الأسبوع على الأرض والمتعارف عليه حاليًّا من منتصف الليل على خط الطول 180، وبين تحديد بداية اليوم من الغروب الذي حصلت فيه رؤية الهلال بالعين، وهكذا ترى أنّ طرحنا الذي لاحقنا فيه الغروب يكون منطقيًّا أكثر من طرح ملاحقة ولادة اليوم من الخط 180، حين قالوا بأنّ الغروب الذي حصلت فيه الرؤية علامة فورية لبداية الشهر للجميع من اليوم التالي الذي يبدأ من الخط 180، وسترى معنى ما ألفت انتباهك له لو ألغيت أسماء الأيام، واعتمدت الأرقام، وقلت عن الغروب الذي حصلت فيه رؤية بالعين أنّه الليلة واحد من رمضان، والذي ستمر عليه هذه الليلة فقد مرّ عليه الأول من رمضان.

أخيرًا، طرحنا ورغم شموليته وسهولته وتوحيده للصوم والإفطار فهو لا يخلو من بعض التعقيدات في التفاصيل لتحديد البلدان المجاورة للغروب الذي حصلت فيه الرؤية، وحلّها سهل بالعقلانية بحسب ما نراه مناسبًا لكل حالة منهم، وانتبه دائمًا أنّ أي طرح ومهما كان نوعه "بحسب اطلاعي" لن يكون حلاً يوحّد صوم الجميع لأنّ كروية الأرض وسير الغروب عليها، سيجعل بلدين متجاورين يختلفان حتمًا بتحديد اليوم، مثلما الآن نحن على وجه الأرض بعضنا يومه سابق أو لاحق ليوم بلدان أخرى، فبعضنا يومه الاثنين وآخرون يومهم الثلاثاء، كالفرق بين نيوزيلندا وهاواي.

الدعاء والاستجابة

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ{186})

{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي} عَنِّي {فَإِنِّي قَرِيبٌ} {أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}، وإذَا الذين مفروضٌ منهم طاعتي عبّروا لك عن إرادتهم لمعرفة شيء، عَنّي، أنا إلههم، فأخبرهم أنّي لست بعيدًا عنهم، فإذا أحدٌ ما من عبادي دعاني وأشهرَ وأعلنَ لي شيئًا، معلنًا إيمانَهُ بي كإلهٍ، فإنّي إله حقيقي. هذا لا يعني أنّه تعالى يستجيب منفذًا الطلبات، بل يعني أنّه سبحانه إله حقيقي، فتدعوني أنا طارق باسمي، فأنا المسمّى طارق سأجيب، وتدعو الله إلهك فيجيب لأنّه فعلاً إلهك.

{فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي}، عندما أدعوهم "للإيمان بي بتوحيدي وطاعتي" وليهتمّوا وينفذوا ما أقوله لهم، {وَلْيُؤْمِنُوا بِي}، وليعتقدوا بي إيمانًا حقيقيًّا أَنّي إلههم الأحد بالصفات الحسنى، {لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}، ومِنَ المتوقع والمفروض، أن يكون فكرهم وتصرفُهم رشيدًا راشدًا، فيفكّرون ويتصرّفون بشكل عقلاني مدروسٍ وله قيمة، لأن الإيمان به تعالى والالتزام بكلامه رشيد.

صحيح أَنَّ الآية عامةٌ ولكن تماشيًا مع أمره تعالى في الآيات السابقة عن الصوم، وفي حالة الانقطاع عن الطعام والشراب، والشعور بالجوع والعطش، وذلك استجابةً لأمره تعالى، تأتي آيتنا هنا لتخبرك أَنَّ الذي صمت له فهو قريب يجيب دعوتك له، يجيب على إعلانِكَ وإشهارِكَ أَنَّكَ مؤمن به وملتزم بدينه.

بالنسبة لكلمة "دعاء" ومشتقاتها، تجد استعمال العرب للكلمة بطريقتين: يائيةٍ وواويةٍ "دعوت ودعيت" مثل "طغوت وطغيت". هذا في استعمال العرب ولكن كل القرآن استعملها فقط بالواو من الأصل الصرفي "دَعَوَ"، ووردت مرتين للمبني للمجهول مع ياء في الآية 12 من سورة غافر {إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ}، وفي الآية 53 من سورة الأحزاب {وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا}، وهذا مما جرى به لسان العرب في هذهِ الحالةِ، وكما ترى فَمِنَ الاستعمال لا يمكن حمل الكلمتين "بالواو أو بالياء" على نفس المعنى إلا إذا كانتا على معنى عموم الإشهار والإعلان، وكذا الحال فيما جرى عليه لسان العرب بما ورد مرتين بالياء في الآية 4 و37 من سورة الأحزاب {أَدْعِيَاءَكُمْ}، {أَدْعِيَائِهِمْ}.

بعد مراجعة استعمال القرآن لكلمة "دعاء" وبالنظر لسياق الكلام الذي وردت فيه، تجدُها بعيدة كل البعد عن المعاني المتعارف عليها بين الناس، حيث المنتشرُ أَنَّها لما تطلبه منه تعالى لتحقيقه لك، بينما هي لعامة الإعلان والإشهار عن أي شيء، ومن ضمنه الإعلان عما تريده... لكن استعمال القرآن لها كان عادةً على قصدية الإعلان والإشهار أَنَّه تعالى الإله الواحد الأحد... وطلب المغفرة والعفو منه سبحانه.

من هنا ندخل على ما تعارف عليه الكثير من الناس المنتمين لدينه تعالى "وغيرهم" عن شيء يعتبرونه أساسيًّا للانتماء لأي دين كان، حيث استجابة الإله "والقديسين" للطلبات وتحقيقها هو من المحفزاتِ بل من الأساسيات عند بعضهم للانضمام لدين ما...

الكثير مِنّا يفهمون الآية تقول: كل دعاء "طلب تحقيق شيء" مستجاب وسيتحقق. وهذا غير صحيح بتاتًا، ولم يحصل من قبل مع أي إنسان، ولن يحصل، لأن كل الناس تدعو طالبة منه تعالى تحقيق شيء ما، وتصوّر لو كل أدعيتهم مستجابةٌ متحققةٌ! فما معنى الامتحان في الدنيا؟ وما معنى وجودنا في الدنيا من أصله؟ وما معنى الثواب والعقاب في الآخرةِ؟ فعلى هذه الحالة سيكون كل الناس أغنياءَ أصحاءَ مسرورينَ... ورغباتهم تتحقّق ولا داعي للخلافات بينهم ولا لفعل السوء... وكلما تعرضوا لمشكلة ما وبالدعاء سيحلونها، وفورًا! وهل يتوافق هذا الكلام مع امتحاننا في الدنيا بالفقر

والمرض والجوع والخوف...؟ لا، إذًا الدعاء بمعنى طلب تحقيق شيء والذي يستجيب له تعالى، فهو الدعاء الذي يرى تعالى أنّه مناسبٌ بحكمته للاستجابة.

نحن اخترعنا من أوهامنا فكرة الدعاء له تعالى كفكرة الطلب من جنيّ الفانوس السحري الخرافي الذي يحقّق أمانينا، وألبسنا هذه الفكرة له تعالى ولقرآنه، وصارت علاقتنا معه تعالى كالعلاقة مع جنيّ الفانوس السحري الخرافي، حيث ندعوه تعالى بالطلبات التي تخطر على بالنا، وإن لم يحققها نُشككُ فيه! في قدراته! في حكمته! في سماعه لنا وقربه مِنّا! على أساس أنّه من تبعات الانتماء لدينه تعالى كمؤمن به أن يستجيب لطلباتي ويحققها!

لو درست تلك الطلبات لوجدت أغلبَها سخيفٌ بلا معنى وطفوليٌّ، وبعضها طلبًا لتغيير سُنّة الله في عباده، كتغيير أخلاق وعقلية وتصرفات من يهمُّنا أمره... وبعضها طلبًا لمعجزة تتعارض مع تصميمه تعالى لحياتنا في تعرّضنا لامتحانات الدنيا، كشفاء مريض من علّةٍ قاتلة... وبعد هذا الكلام سنسأل: ماذا بقي لندعوه تعالى به طالبينَ تحقيقه؟ ناسينَ أهمَّ ما يجب أن ندعو به، طلب المغفرة والرحمة. أمّا الأمور الأخرى ومهما كان نوعها فتقدير الاستجابة للدعاء وتحقيقه كلّه أو جزء منها أو تبديله بشيء أفضل... سيكون قرارًا ينبع من حكمته تعالى لما فيه مصلحة عباده في الدنيا الآخرة.

من القرآن نفهم أَنَّ مسار حياتنا الشخصية والاجتماعية مرتبط بمدى التزامنا بأوامره تعالى، حيث هناك سيئاتٌ نرتكبها ينتج عنها بلاءاتٌ، كالحرب والمرض والإعاقة والكوارث... وإن لم نصحّح فكرنا وسلوكنا ليكون على الصراط المستقيم فما معنى استجابته تعالى لطلباتِنا برفع البلاء الناتج عن سيئات نحن ارتكبناها ولم نتب منها! وإن كنت أنت لوحدك مؤمنًا حقيقيًّا والذين من حولك عليهم ذنوبٌ جماعية لا يستغفرون منها، عندها كيف يستجيب لك تعالى ويمنع الكوارث عن المجتمع؟ كما ترى، فأدعيتُنا يجب أن تكون مدروسة ونابعة من فهمنا لدينه تعالى، وها أمامك سيرة الأنبياء التي ذكرها القرآن، والنبيَّانِ إبراهيم وزكريا عليهما السلام بعد أن شاخا رزقهما تعالى ولدًا... وترى اندهاش النبي زكريا (ع) من استجابة دعائه حين طلب ولدًا، وراجع ذلك مطوّلاً في بداية سورة مريم، وهذا يدلُّكَ على خجله (ع) منه تعالى لأن مسار حياته أصلاً تحت المراقبة الإلهية، وهو مؤمن بالعناية الإلهية له لما فيه مصلحته الإيمانية، وبالتالي لا داعي لطلب شيء دنيوي منه تعالى، لأنّه سبحانه سيؤمنُهُ للمؤمن بما يناسب... واندهاشه (ع) من الاستجابة لأنّه تعالى أخبرنا باستجابته الحتمية لدعاء "طلب" المغفرة فقط، وأما بقية الأمور فمتروكة لتقديره تعالى إن كانت مناسبة لنا تحقيقها أم لا.

(أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ{187})
{أُحِلَّ لَكُمْ}، فجعله تعالى حلالاً ولا عقاب عليه في {لَيْلَةَ الصِّيَامِ}، في وقت ليل اليوم الذي تصومونه، والصومُ من الفجر إلى المغرب والإفطارُ في الليل أي من المغرب إلى الفجر، وفي وقت الإفطار في الليل أحلَّ تعالى لكم {الرَّفَثَ إِلَى نِسَائِكُمْ}، والرَّفثُ كما يبدو من استعمال العرب لها قديمًا ومن القواميس أنّها كلمة عامة توصفُ العلاقة الجنسية من الكلامية إلى الجسدية بين الرجل والمرأة، وفي الليل في شهر رمضان مسموح الرَّفثُ، والمقصود هنا إباحة كلام الغزل والملامسة الخارجية والعلاقة الجنسية حتى إشباع الرغبة، هذا كله مسموح في الليل من شهر رمضان للصائم، أما في النهار فالرَّفثُ حرام على الصائم.

من تكملة الكلام سنفهم لماذا استعملت الآية هنا كلمة رفثٍ التي تتضمّن الغزل بالكلام واللمس والمعاشرة... حيث ظن بعض المسلمين أنّه حتى كلام الغزل حرامٌ، وحتى اللمس بدون معاشرة، ظنوا أنّه كله حرامٌ في شهر رمضان ليلاً ونهاراً.

{هُنَّ}، نساؤكم، {لِبَاسٌ لَكُمْ}، فقد خلقكم سبحانه لتكون المرأة "الحلال" لباساً للرجل عندما يشعر بالرغبة فيلامسها ويلتصق بها فيتغطّى جزء من بدنه بها... {وَأَنْتُمْ}، الرجال، {لِبَاسٌ لَهُنَّ}، للنساء فعندما يشعرن بالرغبة يلامسنكم

بجسدهن ويتغطّى جزء من جسدهن بكم... يعني سبحانه هو خلق فيكم هذه الشهوة فلا تكبتوا شهوتكم في الليل في شهر رمضان مع نسائكم الحلال.

{عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ}، فتتصرفون بنيةٍ أنّكم ترتكبون الخيانة لأمرٍ إلهيٍّ، فتتقاربون وتتلامسون ظنّاً منكم أنّ ذلك حرامٌ، "وحرمتُهُ تكليف بما لا تطيقونه"، {فَتَابَ عَلَيْكُمْ}، فشعوركم بأنّكم كنتم ترتكبون السوء قد طوى عنه تعالى فلن يعتبره ذنباً ولن يحاسبكم عليه.

{وَعَفَا عَنْكُمْ}، ومرَّ على ما فعلتموه فلن يطالبكم بحقّه تعالى عندما كنتم تظنون أنّكم تخالفون أوامره، فلن يعاقبكم على المخاتنةِ مع أنّكم كنتم تظنون بأنّكم تفعلون الحرام في ليالي شهر رمضان.

{فَالْآنَ}، بعد أن علمتم أنّه حلال، {بَاشِرُوهُنَّ}، فقاربوا نساءكم بالمعاشرة، وهنا المقصود كما ترى هو المعاشرة حتى إشباع الرغبة فهي حلالاً في ليلة الصيام، {وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ}، فقد كتب لكم، فسجّلَ لكم فقرّرَ تعالى أنّ المعاشرة في ليالي شهر رمضان حلالٌ...

{وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ}، فعندما يخرج النور بقوة من الأفق على شكل خط طويل في السماء من جهة الشرق ويصير واضحاً بأنّه خيطٌ أبيضُ، وتمييزُهُ عن الخيط الأسود الذي بقربه، عندها يكون قد حان وقت الفجر، وعندها يجب التوقف عن المعاشرة والطعام والشراب.

لا تحاول تصوّر الخيط الأبيض من الأسود، بل يجب أن ترى الفجر بنفسك حتى تفهم الوصف، وحتى تعرف أنّه يوجد خيطٌ أبيضُ يظهر أولاً ثمّ يختفي، ونسمّيه الفجر الكاذب، وبعده يظهر خط أبيض قوي ويبدأ بالتوسع، وهذا هو الفجر الذي تتحدث عنه الآية وهو الذي نسميه بالفجر الصادق.

حالة الفجر هذه "خيطٌ أبيضُ" تحصل في أكثر الأيامِ في المناطق التي على خطِّ الاستواء وما يجاورها، أمّا في المناطق القريبة من القطبين فحالة تشكّل خيطٍ أبيضٍ تكون فيها قليلةً، وكلما اقتربت من القطبين تصير نادرة خلال أيام السنة، وحالياً نعتمد على الحسابات الفلكية لما يسمّونه: وقتَ الشفق. وندر أن تجد من يستطلع وقت الفجر بنظرهِ، وقديماً كانوا يعتمدون على النظر لرؤية الفجر، أو على التقريب من ربط زمن الفجر منذ يوم أو يومين مع موقع نجمٍ من النجومِ في السماء إذا نزل تحت الأفق جهة المغرب عند الفجر أو خرج من خلف الأفق جهة المشرق...

{ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ}، فلا تمر عليكم فترة انقطاع عن الصيام من لحظة خروج شعاع الضوء الأبيض إلى الليل إلى فترة العتمة. يعني لا يمكنكم قطع الصيام وإكماله أثناء النهار، فتقطع صيامك بشربة ماءٍ في النهار مثلاً، ثم تكمل صيامك، فهذا غير مسموح، بل بلا انقطاعٍ يجب مواصلة صيام النهار حتى نهايته إلى الليل، وبالانتباه للفرق بين معنى كلمتي أكملَ وأتمَّ، تعلم أنّ الإكمال وصف لشيء يتحمّل مرور فترات انقطاع عند حصوله، والإتمامُ وصف لشيء لا يتحمّل فترات انقطاع قبل نهايته، مثل الصوم الذي لا يتحمّل توقيفه لدقيقةٍ لشربِ الماء ثم "إكمال" الصوم، بل يجب إتمام الصوم بلا انقطاعٍ طوال النهار.

الليل هو غياب قرص الشمس خلف الأفق، وهذا يكون واضحاً في المناطق المنبسطة السهلية، أمّا الذي يعيش في وادٍ "صغير" فإنّ غياب الشمس خلف الجبل لا يعني أنّ الليل قد بدأ، وهناك الكثير من المناطق التي فيها جبال تجعلنا نرى قرص الشمس يغيب باكراً، ولذلك في تلك الحالات نستدل على غياب الشمس بالنظر إلى جهة الشرق إن لم يكن بيننا وبينه جبل، فننتظر غياب الضوء الضبابي الأحمر من جهة الشرق كعلامةٍ على نزول قرص الشمس تحت أفق المغرب، أو نعتمد على الحسابات التي تساعدنا على معرفة توقيتِ غياب قرص الشمس بالنسبة لأفقِنا...

{وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ}، أمّا إذا كنتم في شهر رمضان عاكفينَ ملازمينَ للمساجد للأماكن المخصّصة لعبادتِهِ تعالى، والاعتكاف هو قضاء ثلاثة أيامٍ متتالية على الأقل في المسجد، والتفرغِ للعبادة... فإذا كنتم معتكفين فلا تباشروا النساء طوال مدة الاعتكاف حتى لو في الليل.

{تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا}، فلا تتخطوا هذه الأوامر، فالصومُ عن الأكل والشرب والمعاشرة في نهار شهر رمضان، كل ذلك مسموح في الليل إلا في حالة الاعتكاف فممنوعةٌ المعاشرة، فلا تقربوها، فلا تقتربوا من تلك الحدودِ حتى لا تتعدوها فتتحاسبوا وتتعاقبوا.

{كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}، بهذا التوضيح الذي مرّ، يوضّحُ سبحانه الأمور المميزة بنسبتها إليه تعالى، فهذا الكلام المنسوب له تعالى عن شريعة صوم شهر رمضان هو مميّز بنسبته له تعالى، وقد وضّحَهُ تعالى للناس، فليس مبهماً لا نفهمه ولا متعارضاً مع بعضه... لعلّهم يتقون، فهذا أمره المميّزُ الواضح تعالى لنا ومِنَ المتوقّع ومِنَ المفروض أن نتحاشى ونتجنب غضبه تعالى إذا صمنا...

بقي شيء، فلدينا في ثقافتنا مفهومانِ يتضاربانِ ويتعارضانِ أحياناً، حيث مرة لدينا قناعة بأنّ أوامره تعالى لنا قد نزلت على الرسول (ع) حصراً وفقط عبر الوحي القرآني، ومرّةً لدينا قناعة بأنّه هناك أوامر إلهية قد نزلت وحيًا من خارج القرآن، وهنا في الآيات تجد فيما سبق كلاماً يبدو منه أنّ الأمر الإلهي لنا بصيام شهر رمضان قد بدأ من لحظة نزول الآيات: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ}... وبعدها تجد في آيتنا هنا أنّ بعض الناس كانوا يختانون أنفسهم، فهم في شهر رمضان ويصومونه ويختانون أنفسهم بالمعاشرة ليلاً مع نسائهم... فلو كانت آيتنا هنا موجودة في سورة أخرى لقلنا أنّ الأمر بصوم شهر رمضان قد نزل في سورة، وبعدها صام الناس، وقام بعضهم بالمخاتنةِ، فنزلت آية تتحدّث عن موضع المخاتنة هذا، ولكن هنا في سورتنا هذه نجد الأمر بالصوم وكأن الآن ولأول مرّة يصل الناس أمر بالصوم، وبعدها مباشرة في آيتنا هنا تجد أنّهم فعلاً كانوا صائمين. يبدو للوهلة الأولى وفي نفس الوقت أنّ الأمر بالصوم نزل وهم صائمون!

التخريج السهل لهذه الحالة بالقول أنّ الآيات الأولى عن الأمر بالصوم نزلت، وتوقّف نزول القرآن لمدة، وبعدها صام الناس وحصلت المخاتنة، فنزلت آيتنا هنا لتبين الأوامر الإلهية.

لكن، عموم القرآن على الطريقة التي فهمناه بها في دراستنا هذه، تراه لا يتماشى مع هذا الكلام، ويبدو كثيراً في القرآن تأخّر نزول الوحي الإلهي بالقرآن عن موضوع قد سبق وحصل وجاء القرآن ليبين النظرة الإلهية لما حصل، وترى ذلك جليًّا واضحًا في الآيات التي تتناول التعليق على الحوادث التاريخية التي حصلت في عهد الرسول (ع)، فمن بعد وقوع تلك الحوادث نزلت الآيات... أوضحها آيات التعليق على ما جرى في معركة أحد الواردة من الآية 121 وما بعدها من سورة آل عمران، وموضوع سورة التحريم، والآية 12 وما بعدها من سورة المجادلة... وهنا نفس الشيء، فالأمرُ بالصيام نزل وحياً على الرسول (ع) بغير قرآنٍ، وصام الناس، وحصلت المخاتنة، ونزلت سورتنا هذه شاملة لعدّة أوامر إلهية للناس ومن ضمنها صراحة الأمر الإلهي بالصوم وبعض التفاصيل التي تتعلّق بالصوم ومنها المخاتنة، وهذا الفهم بهذه الطريقة يتماشى مع عموم ما يقوله القرآن الذي غالباً نزل بعد وقوع الحوادث بوقت طويل نسبياً، وغالباً لم ينزل أثناءها.

بقي شيء آخر، فهناك مناطق على الأرض يمر عليها فترات يستمر فيها النهار بلا انقطاع لعدة أيامٍ، أو يستمر الليل لعدة أيامٍ... ولا يحصل فجر... هؤلاء كيف يصومون إن لم يتحقّق عندهم فجر وغروب؟ كما ترى فنحن أمام حالة لا يبدو لها حكمٌ واضحٌ وصريح، لأن كلام الآية عن الليل والفجر يربط الصوم بحالة حصول هذه الظواهر، وهل يسقط الصوم عن الذي لم تحصل عندهم هذه الظواهر؟ لا، لأن الأمر الإلهي لمن شهد الشهر وهم شهدوا شهر رمضان وأقربُ حلّ لذلك هو الاعتماد على أقرب نقطة لهم يتحقّق فيها شروق قرص الشمس من ثمانيةَ عشرةَ درجة تحت الأفق، أو يمكنهم اعتماد أي مواقيت أخرى يجدونها أنسب وأقرب للعقلانية، كاعتماد مواقيت مكةَ، أو اعتماد أقرب شهر حصلت فيها المواقيت عندهم...

هذا يأخذنا إلى خلاف في وقتِ الإفطار، حيث أنّ الفجر متفقٌ عليه عند الغالبية كونه الفجر الصادق، على درجة 18 تحت الأفق للشمس، أما المغرب "وقتُ صلاة المغرب والإفطارُ" فعلى ما يبدو من تراثنا التاريخي أنّه قديماً كان متفقاً عليه بغياب قرص الشمس خلف الأفق، وبعدها يبدو من التاريخ دخول حالات مسلمين قاطنينَ في مناطق جبلية، فالذي في الوادي أو بينه وبين مغرب الشمس جبل، سيتعذّر عليه رؤية غياب القرص، ولذلك أفتوا له بتحديد المغرب من غياب الحمرةِ من جهة المشرق، لأنّه مؤشّرٌ على نزول قرص الشمس تحت الأفق، أكرر لك، فكما يبدو من دراسة الروايات أنّ غياب الحمرةِ المشرقية ليس وقتاً للصلاة أو الإفطار، بل مؤشّرٌ على غياب القرص لمن تعذّر عليه التواجه مع الأفق وقرص الشمس لرؤية غيابها خلفه.

(وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ{188})
ويا أيها الذين آمنوا، {لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل}، بشكلٍ فاسدٍ غير سليمٍ وغير صحيحٍ، فلتكن معاملاتكم المالية بالحقِّ، فلا يأكل الواحد منكم مال الآخرِ بطرق فاسدةٍ، وهذا الكلام عموميٌّ ويشمل الربا والغشّ والنصب والاحتيال... ولكن الآية تركيزها في تكملة الكلام عن الرشوة فقط.

{ولا تدلوا} بأموالكم، ولا تقدموا أموالكم إلى الحكام دلوًا أي هكذا تقديمًا لهم بلا معاملة تجاريةٍ، وقد شملت الآية بتعبير {الإدلاء} كل العناوين التي يحتالون بها على نتيجة معناها الرشوة، يعني لا تدفعوا الرشوة باسم الهدية أو المساعدة... إلى الذين في مواقع الحكومة على الناس كالرؤساء والوزراء والنواب والمسؤولين والموظفين الذين لديهم مسؤولية حكوميةٍ... حتى تحصلوا على امتيازات حصريةٍ لكم، فتحصلوا على الأراضي والمياه والكهرباء... العامةِ لكم لتتصرفوا بها، وتحصلوا على التزامات والمناقصات والأعمال التي تخصّ الدولة أو الحكومة أو البلدية... مثلما يحصل حاليًا في عصرنا من "رشوة" الحكام "من لديه موقع حكم ومسؤولية حكوميةٍ..." للحصول على التزامات الإنشاءاتِ كالمباني والطرقات والجسور... والتزامات التجهيزات كعتاد الجيش ولباسه... فلا تدفعوا "الرشوة"، {لتأكلوا فريقًا}، فتكونوا فريقًا مجتمعينَ من الناس يأكل أموال الفريق الآخرِ من الناس، وهكذا ينقسم مجتمعكم إلى فريقينِ: فريق يأكل أموال الناس، وهم "الراشي والمرتشي"، وفريق مأكول ماله وهم بقية الناس من دافعي الضرائب الذين لم يرشوا الحكام وكلّفتهم التزامات الحكومة أكثر مما تساوي، أو لا يمكنهم بالطرق الرسمية المنافسة على الاستفادة من التزامات وأشغالِ... الدولة.

فلا تدفعوا المال للحكام لتأكلوا أموال غيركم من الناس، {بالإثم وأنتم تعلمون}، فهذه الطريقة تعلمون أنّها سيئةٌ وعليها عقاب فلا تفعلوها.

الآية هنا تطرح كلامًا عميقًا عن سياسة الدولة، وترسم لها عنوانًا عامًّا مانعًا من حصول الحكامِ على أي نوع من المال من الآخرين بلا معاملة تجاريةٍ بينهم، وهذا ما شملته الآية بالدقةِ بكلمة {الإدلاء} ليشمل الرشوة والمساعدة والهدية والهبة والمنحة... والشراكة التي لا مبرر لها إلا استغلال منصب الشريك في الحكومةِ...

كما ترى، لقد تركت الآية هامشًا مرنًا لتطبيق هذا المفهوم، وربما نستنسب إنشاء هيئة رقابة قضائيةٍ خاصةٍ لذلك، وربما نستنسب قوننة محاكمة الحكامِ لأي قاضٍ جزائيٍّ، وربما... المهم هو تطبيق ما يمنع حصول ذلك بأي طريقة نراها مناسبة، وإلا لفسدت الدولة وصار عليها عصابةٌ ماليةٌ حاكمةٌ تشرّع وتقونن بما يناسبها...

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ{189})
{يَسْأَلُونَكَ}، يعبّر المسلمون لك أيها الرسول محمدٌ (ع) عن إرادتهم للحصول على معلومة منك عن، {الْأَهِلَّةِ}، عن الأشهر القمرية التي تعتمد على ولادة القمر بشكل هلال، فَالْأَهِلَّةُ هي تحديد بداية الشهر بالهلال واستهلاله أي رؤية هلاله، فلماذا هناك أهمية لِلْأَهِلَّةِ لتحديد الأشهر في دين الله تعالى؟ أليست كل الأيام مثل بعضها؟

قل لهم عبر هذا القرآن:

{الْأَهِلَّةُ} هي {مَوَاقِيتُ}، مواعيد زمنية محددةٌ، {لِلنَّاسِ}، يحدّدون بها معاملاتهم العادية، كمدة العمل ومدة الإيجار... ولحساباتهم لزراعتِهم ومواشيهم، وصومهم...

وَمَوَاقِيتُ {الْحَجِّ}، وهو مصطلح لقصد مكةَ للقيام بالطقوس الدينية المعروفة، ويمكن القيام به في "مواقيت" معلومة وهي شهر شوال أو ذي القعدة أو ذي الحجةِ.

{وَلَيْسَ الْبِرُّ}، وليس الاهتمام بالصلة معه تعالى، {بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا}، من أسطحها وبالتسلق على جدرانها، فإذا أردت أن تبرَّ، أن تصل أحدًا ما لاهتمامك برضاه أو التقرّب منه... فذهبتَ إلى بيته، ولكن دخلت من

النافذة، أو من الشرفة، أو تسلقت الجدار... فهذه ليست زيارة برٍّ، وحين يقول تعالى لكم أن تحجوا بيته في واحد من هذه الأشهر الثلاثة، ولكن ذهبتم إلى بيته لتحجوا في وقت مختلف، فهذا ليس برًّا.

{وَلَكِنَّ الْبِرَّ}، الاهتمام بالصلة: {مَنِ اتَّقَى}، فلم يخالف أوامره سبحانه، {وَأْتُوا}، وجاؤوا إلى، {الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا}، من حيث يتم استقبالهم من الباب، والكلام هنا عن الالتزام بالتوقيت الذي يحدّده صاحب البيت، وبالتحديد فالكلامُ عن الذهاب إلى الْحَجِّ في الأشهر التي حدّدها تعالى وتعرفها الناس، والقرآن لم يذكرها لأن الناس تعرفها ولا اختلاف بينهم فيها.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}، وتجنبوا غضبه وعقابه إذا خالفتم أوامره تعالى، {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، وعندما تلتزمون بالمواقيت التي يحددها الله تعالى، كالصوم في شهر رمضان، والحج في واحد من الأشهر الثلاثة، واتقيتم ربكم سبحانه فمن المفروض ومن المتوقّع أن تفلحوا، أن تكون أعمالكم فالحة، فأجدتم بالقيام بالعمل الصحيح.

نلاحظ ورود {الْبِرَّ} في آية سابقة بالفتحة على أنَّهُ خبر ليس مقدّمٌ، وهنا {الْبِرُّ} بالضمة لأنَّهُ اسم ليس.

مرّ معنا أَنَّ تفاصيل مراسم الْحَجِّ مرتبطة بالنبي إبراهيم (ع)، وهنا تخبرنا الآية أَنَّ التوقيت منه تعالى، يعني لا دخل للعرب ولا لأهل مكةَ بأي شيء من توقيت أو طقوس الْحَجِّ، فكلُّهُ من تحديده تعالى.

تلاحظ غياب كيان الدولة أو مركزية الحكومة عن المجتمع الذي نزلت فيه هذه الآية، لأن الاهتمام بالمواقيت ينبعث من تبعات الأمور المهمةِ التي تحتاج لمواقيت، وعادةً تحصل هكذا أمور حين يكون للمجتمع كيان منظّمٌ كدولة، أو حكومة مركزية، عندها يصير الاهتمام بتوثيق الاتفاقيات التجارية والعقود مع إثبات تاريخ لها، وتحديد مواقيت للزراعة بعد معرفة الأوقات المناسبة لذلك، وتحديد مواقيت لجباية الضرائب...

هنا السؤال عن {الْأَهِلَّةِ} أتى بعد تحديده تعالى للصوم في شهر محدّدٍ، رمضان، ولتحديد رمضان يحتاج الناس لمتابعة ظهور الهلال لتحديد الأشهر، وعامة الناس في المجتمعات البسيطة، لا اهتمام لهم بتحديد اليوم أو الشهر أو حتى السنة، ولذلك تجد التباسًا كبيرًا في تحديد مواليد ووفيات أهم الشخصيات الإسلامية من النبي (ع) والصحابة المشهورين، وتجد التباسًا في تحديد تواريخ المعارك والبعثة... السبب يتضحُ لك من آيتنا هنا، من سؤال عوام الناس عن أهمية تحديد شهر للصوم مما يستدعي متابعة الأهلة وتذكرها... لتفهم أَنَّهُمْ لم يكونوا معتادين على أهمية المواقيت.

(وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ{190})

من هنا تبدأ السورة مع بعض الأحكام التشريعية مع تبريراتها كعادة القرآن في ذكر تبريرات كل شيء قاله، مع بعض الاستطرادات الجانبية على طريقة: الكلام يجرُّ الكلام. فأولاً وأصلاً وأساساً فهذا القرآن كتاب هداية، وأي موضوع له تفريع يمسُّ الهداية فالقرآن سيستطرد ويدخل فيه.

والسورةُ من قبل في السورة قرأنا عن {القصاص} وتبريره، والسورةُ من آية {القصاص} وما قبلها اختارت مواضيع تهم المجتمع كمجتمع وهي مواضيعُ من النوع المتداول بين الناس والذي يمسُّ كل الناس، وتريك ضمناً أنّها تشريعاته تعالى التي هي نفسها نزلت في كتبه السابقة.

{وقاتلوا في سبيل الله}، وليكن سبب دخولكم في قتال في حالة إنهاء حياة لأحد ما، في مسلك يرضى عنه ويأمر به سبحانه، بالدفاع عن إيمانه وعن نفسه أو أهله وموطنه... ولا يكن قتالكم لأهداف أو أسباب لا يرضى عنها تعالى ولا يرخّص القتال فيها، كالاختلافات الشخصية والعائلية ودواعي الطغيان والسيطرة والسلب والنهب... {وقاتلوا}... {الذين يقاتلونكم}، ومَن كان فعلياً يقوم بأعمال حربية ضدكم عبر إنهاء حياة البعض منكم، فيجب عليكم قتاله، {ولا تعتدوا}، فلا تقوموا بالاعتداء على الآخرين، فلا تقوموا بأعمال غير مسموحة لكم في مجال الآخرين، والاعتداء عموماً ممنوعٌ وهنا الكلام خصوصاً عن الأعمال القتالية وما يشبهها، ومَن لم يقاتلكم ولم يقم بعمل عدائي تجاهكم ولم يعلن الحرب عليكم... فاتركوه بحاله.

{إنّ الله لا يحب المعتدين}، فالذين لم يتجاوزوا مجالهم فلم يتدخلوا في مجال حياتكم وحريتكم... فلا ينوون حربكم وقتالكم فإن اعتديتم عليهم فسبحانه سيكرهكم، ولأن الكلام عن افتراض ولم يحصل فلا داعي للكلام الثقيل، ولذلك عبّرت الآية عن أنّه تعالى لا يحبُّ المعتدين، فهذه الجملة ليست من نظرة استهانة بقتل الآخرين، بل مراعية لمشاعر من يسمع الكلام لأنه لم يفعل شيئاً وهي توجيهات ولا داعي للقساوة في تعابيرها للتهديد بجهنّم.

وعموم كلام القرآن وخصوص سورة الممتحنة والآية 8 و9 منها تعطيك كلاماً صريحاً مثل كلام الآيات هنا "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ"، ولا يجوز قتال الآخرين ولا لأي سبب إلا إذا هم أرادوا قتالنا، وكفرُهم أو شركهم أو مخالفتهم لديننا أو لمذهبنا... ليس سبباً مبيحاً لنا لقتالهم.

ومن عموم القرآن تفهم أنّه تعالى لا يأمر بفرض دينه سبحانه على المجتمعات، ولا يفرض على المسلمين جعل المشركين مؤمنين بالقوّة ولا بالقتال، ولم يجز قتالهم إلا إذا هم بادروا بالأعمال العدائية أو ظهر منهم استعداد للأعمال العدائية... فعندها يكون قتالهم واجباً حتى يسلموا... ولمزيد من التفاصيل راجع دراسة سورة براءة "التوبة".

تفهمها أكثر إذا انتبهت إلى ما يقوله بعض الناس الجبناء أو البسطاء أو الخونة أو المتخاذلون... حين يتعرضون لعمل عسكري عدائي، فيقولون أنَّ القتال حرام... وقد نموت إذا قاتلنا... وهذا العمل العدائي سينتهي ولن يستمر فلا داعي للقتال... أو سنتعاون مع العدو ونعيش بأمان وسلام... فلهؤلاء تقول الآية: لا، قاتلوا المعتدين ولا تعتدوا فهذا أمر إلهي واجبٌ عليكم تنفيذه، وتبريره أنّهم هم المعتدون عليكم ولستم أنتم.

ودرج في أدبياتنا تفسير غير واقعيّ ولا صحيحٍ لعبارة {القتال في سبيل الله}، على أساس أنّه أمر قتال ننفذّه لمجرد أنّه أمر إلهي ولا علاقة لنا به، ومِن المعيب عندهم أن يكون عنوان القتال الدفاع عن النفس ضدّ المعتدي، أو الدفاع عن الأرض والعرض والمال... وبعدها تأتي التحليلات عن القتال الديني والبحث عن سبب ديني له لأن الأعداء يحاربون ديننا... وأنّه لولا الخلاف الديني لكنّا بسلام معهم... وللأسفِ وهذه ليست حالتنا نحن فقط المدّعين للإيمان بالقرآن بل هي حالة عامة للمنتمين لمختلف الأديان... ويستغلّ هذه العناوين اللاعبون بالناس المستفيدون من الحروب والنزاعات...

وليس همّنا الرئيسي هنا أسباب الآخرين للقتال، بل الكلام مع المدّعين الانتماء لدين الله تعالى، فهؤلاء يعتبرون أفعالهم تطبيقاً لكلامه تعالى، وهؤلاء درج في أدبياتهم تفاسير غير واقعيّةٍ ولا صحيحةٍ لجملة {القتال في سبيل الله}، فيرون أنفسهم مضطرين لإيجاد سبب ديني لقتال الآخرين، ويكون سبباً لا علاقة لنا نحن به، فيصوّرون الآخرين كمحاربين له تعالى، ولدينه، وللمؤمنين به... وهذا في بعض الأحيان صحيح، ولكن من دراسة التاريخ ترى أنّه في غالبية الأحيان فكلا الطرفين المسلمين والآخرين فاسدانِ أبعد ما يكون عن دينه تعالى ورغم ذلك فكلاهما أو أحدهما يدّعي أنّه مضطر لقتال الآخرين بأمر إلهي!

الله سبحانه وتعالى في قرآنه أولاً برّر لنا سبب إذنه للمنتمين لدينه بقتال الآخرين بأنَّ الآخرين يعادوهم ويقاتلوهم، على أساس أنَّ المنتمين لدينه أعمالهم صالحة وليسوا معتدين ولن يعتدوا على أي أحد في مناطق نفوذهم وسيطرتهم، بل سيعاملوهم معاملة المسلمين طالما هم مسالمونَ، ولأي سبب كان، فحين يتعرّض المنتمون لدينه تعالى لاعتداء قتالي، فعندها يجب عليهم وبأمر إلهي ردّ الاعتداء حتى تمام التأكد بأنَّ المعادين لن يكونوا قادرين على أذيتهم وأذية المنضمّين لحلفهم...

سنشعر بأن هذا الكلام غريب عن الكلام القرآني الذي أكثر من استعمال كلمات "كفروا وأشركوا وحاربوا الله ورسوله والمؤمنين..." والتي بضبابية نظنّها تعابير لحصرية أسباب قتال الآخرين، بينما هي بالنظر لأساس أساس معنى هذا القرآن ككتاب هداية، أنّه يوجد فئة من الناس مهتدية فتؤمن بالحق وتفعل الصلاح، والآخرون متدرجون من ذلك وصولاً إلى الكفر بالحقّ وفعل السوء والفساد، ولن تجد نصاً قرآنياً يأمر بقتال الآخرين لمجرد أنّهم مخالفونَ لك بشيء إيماني فكري عقائدي... إلا إذا سلخت آية ما عن سياقها وفعلت بها ما يمكن فعله بجملة "لا إله" تاركاً تكملتها "إلا الله"، وأصرح الآيات في هذا المعنى ما ورد في الآية 8 من سورة الممتحنة "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ

يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ"، والتي كررناها كثيراً في دراستنا علماً أنَّ كل القرآن متماشٍ معها وفيه ما يشابهها، ولكننا وللأسف لم نعتمد القرآن مرجعاً أساسياً لديننا كما ندّعي، فلدينا كمّ هائل من الروايات والسيرة التي رغم سيئاتها الكثيرة من دسّ وكذب ونقص وتشويه وتخالف وتعارض... التي تجعل مهمّة استخراج الأحكام منها أصعب ما يكون في مقابل النص القرآني المبين، ولدينا كمّ أهول منه من الدراسات والفتاوى التي نعتبرها مرجعية يجب مراعاتها ومقارنة النتاج معها...

بالبداهة تعلم أنَّ القتال سببه حتماً اعتداء أحدهم على الآخر، أو كلاهما معتد، وندر في تاريخ البشرية نشوب حرب لسبب محض دينيّ بعكس ما يروّج له بعض المؤرخين، وها أمامك الحروب الضخمة من غزوات ما قبل الميلاد بين الفرس والمصريين وبلاد ما بين النهرين والإغريق والرومان... ولديك غزوات هولاكو ونابليون... وحرب بحر الصين والحرب العالمية الأولى والثانية... ولسنا ننفي الحروب الصليبية والفتوحات الإسلامية، ولكنك تعلم أن الجنود فقط في هذه الحروب كانوا مسيّرين بعناوين دينية، أمّا قادتهم الآمرونَ بتلك الحروب فأهدافهم كانت السيطرة والانتشار.

فلنرجع إلى القرآن، كتاب الهداية الإلهي الذي يعرض الحقّ والصلاح، وهذا هو معنى دينه تعالى، فالقرآن لا يعرض علينا شيئاً غريباً عجيباً نؤمن به على عماه، بل نؤمن به وننفذّه حتى لو رأيناه سيئاً، لا، وألف لا، بل يعرض علينا ما فينا إمكانية فهمه لتقويم رؤيتنا للحقّ والباطل والصلاح والفساد، وعبارة {القتال في سبيل الله} اختصرت كل الحقّ المجيز لنا قتل الآخرين بوصفه مربوطاً بسبيله تعالى الذي لا يحبّ المعتدين والباغين والمفسدين والمجرمين... ومن عكس هذه معلومةٌ الأمور التي توصف بسبيله تعالى، فإذا استبدل القرآن وصف الأعداء المقاتلين بالكافرين والمشركين فهو لم يقصد أبداً بتاتاً أنَّ كفرهم وشركهم هو السبب الوحيد لقتالهم، بل قصد أن يريك الفرق بين المؤمنين به والملتزمين بكلامه وأنّهم دائماً على سبيله تعالى، فلا يعتدون ولا يفسدون ويعملون الصالحات... وأنَّ الآخرين لا ناموس لهم ولا رادع لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ولذلك لا يجدون أنفسهم مضطرين للالتزام بفعل الصالحات طالما الاعتداء على الآخرين والانتصار عليهم ممكن... ولذلك قاتلوكم، لأنهم ليسوا مؤمنين.

ونحن نصير مثلهم حين نمسخ معنى {القتال في سبيل الله} ليصير تبريراً للاعتداء على الآخرين بحجّة أنّهم فقط وفقط مخالفونَ لنا في الدين أو المذهب...

(وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ{191})
{واقتلوهم}، فالذين يقاتلونكم فانهوا حياتهم، {حيث ثقفتموهم}، أينما استطعتم أن تطالوهم، فطالما أنتم في حالة حربٍ فيحقُّ لكم قتل أي شخصٍ منهم طالما يناله سلاحكم، وتعني العمليات العسكرية غير محصورةٍ في ساحات الحرب وزمن القتال بل في أي مكان وزمان يقع فيه تحت يدكم واحد من أعدائكم الذين هم في حالة حربٍ معكم فاقتلوهم.

{وأخرجوهم من حيث أخرجوكم}، فإن احتلوا دياركم أو أرضكم وأخرجوكم منها، فيجبُ عليكم القتال واسترداد دياركم وأرضكم وطردهم.

{والفتنة أشد من القتل}، والفتنة هي عموم التأثّر وتغيّر الحال "معنويًّا أو ماديًّا" بعد التعرّض لشيء ما، وتتدرج من أعجبه فتعلّق به وتغيّرَ بسببه، إلى أجبروه عليه وتماشى معه فتغيّرَ بسببه، أو تعرّض للشيء ولم يتغيّر، فقد افتتن ولم يتغيّرْ. والكلام هنا عمومي ومنه إعلانهم الحرب على المؤمنين وتخييرهم بين قتلهم وبين تراجعهم عن إيمانهم وعن تطبيق إيمانهم بفعل الصالحات، فالمعروضُ عليهم ليتغيّروا له هو الإذعان والاستسلام للباطل عقائديًّا وتشريعيًّا، وهوَ أشدّ من القتل، فالموتُ أفضل من التغيّرِ للكفر والفساد أو العيش تحت هكذا حكم فاسد.

{ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام}، في الباحة التي فيها الكعبة وتضم الصفا والمروة وزمزم... فلا تقوموا بإنهاء حياة عدوّكم في تلك المنطقة، {حتى يقاتلوكم فيه}، في المسجد الحرام، {فإن قاتلوكم}، فهجموا عليكم لإنهاء حياتكم وأنتم في المسجد الحرام، {فقاتلوهم}.

{كذلك}، بهذا الحكم الإلهي بالقتال حتى في المسجد الحرام إن قاتلوكم فيه، {جزاء الكافرين}، مقابل معادل يناله المنكرون لدينه تعالى، فحرمةُ المكان باقية ولكن هم لم يعد لهم حرمةٌ في مكان لم يعتبروا له حرمة وقاتلوكم فيه.

(فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{192})
فإن {انتهوا}، فتوقفوا تماماً عن قتالكم، فإن الله {غفورٌ}، فيلغي العقاب عن الذنب، {رحيمٌ}، فلديه عناية خاصة لِما فيه مصلحة من آمن.

وتعلم من عموم القرآن أن المغفرة هي تطبيق عملي للرحمة الخاصة بالمؤمنين، والكفار ولا بأي شكل يُغفر لهم ولو ذنب واحد، فيكون الكلام هنا موجهاً لمن كان يقاتل المؤمنين وانتهى عن قتالهم نهائياً بإعلانه لتبنيه مبادئهم، أو هو إعلانه لإسلامه، فتخبره الآية بأن الله تعالى ليس لئيماً حقوداً صلباً جافاً... سبحانه وتعالى، بل دائماً باب المغفرة والرحمة مفتوح له، فإن آمن فالمغفرة كتطبيق عملي للرحمة الخاصة بالمؤمنين بانتظاره. وآيتنا هنا مشابهةٌ في لفظها ومعناها لِما ورد في الآيتين 38 و39 من سورة الأنفال {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ، وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}.

والكلام في الآيتين السابقتين والتالية مثل كل بقية كلام القرآن الذي أراد دائماً إفهام الآخرين أن باب استقباله تعالى لهم دائماً مفتوح، فإن الآن انتهوا عن قتال المسلمين فلم يعودوا يشعرون بالعداوة لهم، فهم صاروا قريبين من مغفرته تعالى لهم طبعاً بشرط أن يحسن إيمانهم ويكون عملهم صالحاً.

فلنراجع بعض أساسيات القرآن، فمع الشرك به تعالى لا غفران لأي ذنب، والقاتل المتعمد لنفس بريئة، فحتى لو شعر بسوء ما فعله وندم عليه وطلب منه تعالى المغفرة، ففرضاً حصل ذلك، فإن كان مشركاً فلا غفران لأي ذنب آخر ارتكبه، وهذا فحوى وصريح عموم القرآن ومنه الآية 48 من سورة النساء {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا}، فلنضع الشرك جانباً وننظر لباقي الاحتمالات التي يُوصَف بها من قاتل المؤمنين ظلماً وعدواناً، فقد لا يكون مشركاً، وقد ينتهي عن قتال المؤمنين ولا يسلم، فهل هذا لا غفران له؟ لا، بل يغفر تعالى له إذا استغفر علماً أنه سيتحاسب على كل بقية الأمور الأخرى التي لم يؤمن بها. وهذا تفصيل تضمنته وقصدته الآية هنا بكلامها العمومي، والآية التالية على نفس هذه العمومية، وكلاهما لم يشترطا الإسلام في الذي انتهى.

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ{193})
{وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة}، فطالما هم على كفرهم وقوّتهم فلن يتركوكم بحالكم وسيحاولون فتنتكم، فسيحاولون تعريضكم لضغوطات حتى تتركوا إيمانكم وتصيروا تحت حكمهم الفاسد... فقاتلوهم حتى تتوقّف عنكم وعن غيركم تلك الضغوطات، فقد يخاف بعض المسلمين على أرواحهم أو أموالهم ومصالحهم التجارية... من الكفار، فيكونون ضعفاء في {الفتنة} في الامتحان، فيتراجعون عن الإسلام حفاظاً على حياتهم، أو يتعاونون معهم ضد المسلمين... وقد يفتن الكفّار المسلمين ويشترونهم بالمال أو الشهوات ومخالفة دينه تعالى...

{وقاتلوهم حتى}، {يكون الدين لله}، فما نتصرّف على أساس أننا ندين به كتبعات علينا يكون لصاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى فقط، فندين له تعالى لوحده بطاعة أوامره من مستوى إلهي، وبناء عليه فيجب علينا العمل على تهيئة أجواء نعيش فيها ونحن نطبّق دينه تعالى.

وكلمة {دين} استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، فهي ليست اصطلاحاً مخصّصاً كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، وهي عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي

بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئاً ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني فأنا مدين له، فخلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعاً بسبب وساعة تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

ولدينا معنى عميق لكلمة {دين} إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختيار... فكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة {الدين}، وهذا لبّ ما تشير له الآية هنا، فالآخرون كذّبوا بالحقّ ولم يعتمدوا الصلاح معياراً لحياتهم وحكومتهم، وتأمرنا الآية أن يكون معيارنا نحن ما هو تبعات علينا لله تعالى فنؤمن بالحقّ ونكون صالحين.

وبالنسبة للآخرة وهناك ندان بأعمالنا، وما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة {في يوم الدين} سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هو التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضاً يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسباً بحكمته فقد يديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

{فإن انتهوا}، فتوقفوا بلا عودة عن فتنة المسلمين، سواء أسلموا أو استسلموا أو أقلعوا نهائياً عن معاداتكم... {فلا عدوان}، فاتركوهم ولا تسلبوهم حياتهم أو حريّتهم أو أرزاقهم... {إلاّ على الظالمين}، فليبقَ العدوان على الذين لم يكن معهم حقّ حين اعتدوا عليكم. فليس هناك عنوان آخر يجيز لكم قتال الآخرين، سواء أكانوا من غير طائفتكم أو من غير دينكم أو مشركين... وفقط هناك عنوان واحد يجيز لكم قتال الآخرين، من اعتدى عليكم فكان ظالماً حين اعتدى عليكم فهذا تقاتلوه فقط.

وهناك تفاصيل تظهر من كلام الآية، منها أن الجماعة التي انتهى إعلان عداوتها لكم، فإن بقي منهم شخص أو جماعة معادية فهؤلاء فقط تعادوهم ولا علاقة للباقين، {فلا عدوان إلا على الظالمين}. ومنها أن الآية لا تعطي المسلمين الحقّ دائماً، فربما حصل العداء من الآخرين لأن المسلمين ظلموهم، فهؤلاء حتى لو قاموا بعمل عدائي ضدّكم فهم ليسوا ظلمة، ويجب إيجاد حلّ معهم يعطيهم حقوقهم، ومن بعد ذلك تحكم إن كانوا معادين لم يقبلوا بالحقّ...

وآيتنا صريحة بوجود عنوان واحد يجوز فيه قتال الآخرين، وهو اعتداؤهم على المسلمين، وتجد الكثيرين من المسلمين ألغوا معناها فنسخوها بآيات أخرى فسّروها مجيزة لقتال كل من لم يكن مسلماً، وهذا غير صحيح، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه للآيات التي فسّروها انطلاقاً من حسّ الإجرام والاستهتار عند الكثيرين منهم لترى أنها واضحة ولا تتماشى مع فتاويهم الإجرامية الاستهتارية بعباده تعالى.

(الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ{194})
بعد الكلام عن وجوب قتال من قاتلكم حتى لو قاتلكم في المسجد الحرام، ننتقل إلى شيء مشابه: {الشهر الحرام بالشهر الحرام}، وهناك أشهر من السنة اسمها: الأشهرُ الحرامُ، وهي الأشهر التي يُمنع فيها القتال. وهي محرّمٌ، ذو القعدةِ، ذو الحجّةِ، رجبُ. فإن قاتلوكم في شهر من هذه الأشهر، فإنها لا تعد أشهراً حراماً مع هؤلاء الناس الذين قاتلوكم فيها، فيمكنكم قتالهم في أي شهر كان، حتى لو كان غير الشهر الحرام الذي قاتلوكم به وحتى لو كان من الأشهر الحرام.

فلو قاتلوكم في رجب، وهو شهرٌ حرامٌ، فيحق لكم قتالهم في أي شهر آخر حتى لو كان من الأشهر الحرام، فليس فقط شهر رجب لم يعد حراماً، فإن الشهر الحرام الذي لم يحترموه فهو مثله مثل شهر حرامٍ آخر فهم لن يحترموه، فاهجموا عليهم في أي شهر شئتم، في ذي القعدة أو محرّمٍ أو ذي الحجّة أو أي شهر.

ولا يغب عن بالك أن الأشهر الحرام هي بمثابة هدنة للحروب، والمسلمون ملتزمون بالتوقف عن القتال في الأشهر الحرم، ولكن بشرط التزام عدوهم بحرمتها، فإن لم يلتزم، فالمسلمون أيضاً غيرُ ملزمين.

لاحظ أن الكلام السابق والكلام الحالي نوع من تنبيه المؤمنين أن لا يكونوا ملزمين بشيء لا يلتزم به عدوّهم فيستغلّ الظروف ويؤذيهم، فهم يلتزمون بحرمة القتال في المسجد الحرام وفي الأشهر الحرم، فهل يقفون ويتفرّجون على عدوّهم يقتلهم في المسجد أو في شهر حرامٍ!

{والحرمات}، وهي عموم الأمور التي لها حرمة، فلها حكم إلهي بالعقاب على فعلها، وهنا الكلام عن المسجد الحرام والأشهر الحرام وهي {قصاصٌ}، فكل الأمور التي جعل لها تعالى حرمة أو حراماً فعليها قصاصٌ، علينا أخذ الحقّ لها، فإذا قاتلوكم في المسجد الحرام أو في أحد الأشهر الحرام، فعلى هذا العمل قصاصٌ، وعقابٌ وأخذُ الحق والردّ يكون بالقتال، حتى لو في الأشهر الحرم أو المسجد الحرام.

{فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم}، وقام بعمل مضاد لمصلحتكم ورغباتكم في مجالكم وفيما يمسّكم، بقصد قتلكم أو بقصد أذيتكم... فاعتدوا عليه بمثلِ ما اعتدى عليكم، حتى لو في الأشهر الحرام أو في المسجد الحرام، فإن كان يقصد القتل فاقتلوه وإن كان يقصد الأذية فقط كعراك الأيدي فآذوه ولا تقتلوه...

وانتبه فلا تستخرج من الآية أن كل شيء يفعله المعتدي فيجوز لنا أن نفعل مثله! فإذا مثّل وقطّع جثة مسلم وداسها... فلا يجوز لنا أن نفعل مثله، فالاعتداء بالقتل يكون الردّ عليه بالقتل، والاعتداء بالضرب يكون الردّ عليه بالضرب، ولا يزال الكلام عن الأشهر الحرم والمسجد الحرام، ولنفترض أنه مثّل ونكّل بالمسلمين فلا يجوز التمثيل به مهما فعل، بل يتم قتله فقط.

{واتقوا الله}، فتجنوا غضبه وعقابه، فعندما تحاسبون المعتدي فلا تتجاوزوا أوامره تعالى، فإن كان الاعتداء بضربة كفّ فلا يحقّ لك الرد بضربة سكين... ولنفرض أن أحد المعتدين قام بتعذيب مسلم ما، فيحق لنا تعذيب المعتدي بنفس المقدار الذي عذّب به المسلم ومن دون زيادة، ويدعم هذا المفهوم ما ورد في الآية 45 من سورة المائدة {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ...}، ولا يحق لنا تعذيب البقية...

{واعلموا أن الله مع المتقين}، مع الذين يتجنبون ويتحاشون، وهنا الكلام عن تجنّبهم لفعل الاعتداء، وبالتالي تجنّبهم لغضبه وعقابه سبحانه، فيراقبون تصرفاتهم حتى لا يخالفوا أوامره سبحانه فهو معهم، فيتدخّل لتكون الأمور في مصلحتهم...

(وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ{195})
{وأنفقوا}، بالمعنى الدارج واصرفوا، وسياق الكلام عن مالكم وأملاككم، {في سبيل الله}، في مسلك يرضى عنه ويأمر به سبحانه.

{ولا تلقوا بأيديكم}، فلا ترموا أنفسكم بأيديكم، فتقوموا بعمل بأنفسكم لأنفسكم، {إلى التهلكة}، إلى الهلاك، إلى استنفاد أموالكم وأملاككم، فتهلكوا أنفسكم إن أنفقتم كل ما تملكونه أو أنفقتم مما تحتاجونه أنتم لاستمرار أعمالكم وأشغالكم فتصيروا فقراء وبحاجة للمساعدة، فينهاكم تعالى عن إلقاء أنفسكم في هذه التهلكة.

{وأحسنوا}، فافعلوا كل ما هو موصوف بأنه حسن، وهنا الكلام وصف لحسن الإنفاق في سبيله تعالى، يعني فليكن إنفاقكم حسناً، وما لم يعد صالحاً للاستهلاك أو للاستعمال وكنتم سترمونه في النفايات فليس عملاً حسناً اعتباره إنفاقاً في سبيله تعالى، ومن يحتاج للطعام ليسد جوعه ليس من الحسن إعطاءه الفاكهة التي استغنيت عنها وتكاد تتعفّن... {إن الله يحب المحسنين}، وسبحانه لديه تقييم إيجابي للذين يكون عملهم موصوفاً بأنه حسن، وعملياً فسبحانه يخصصهم بمعاملة خاصة برحمته.

لاحظ أن كلام الآية عمومي لعامّة أي إنفاق في سبيله تعالى، فهو يشمل الإنفاق على الأهل أو الأقارب أو الأيتام أو المساكين... أو على أمور المسلمين العامة كالمدارس والطرقات... أو على حاجات الدفاع عن المسلمين...

وتذكّر دائماً، أن القرآن يذكر {الزكاة} على أنها مصطلح ديني لضريبة تدفعها كلما صار لما تملك نصاباً، فصار تقييم وضعك أنك فاض عنك المال بكثرة... بشرط أن تكون من العفو ومن الخير... ويتحدّث عن {الصدقة} على أساس أنه من الواجب علينا دائماً دائماً مساعدة من يحتاج للمساعدة طالما نحن قادرون على مساعدته، وخاصة في الأمور الحياتية الأساسية، وبعدها تأتي آيات عمومية كآيتنا هنا لعامة الإنفاق فيما يحتاجه الناس لتسيير حياتهم، وتصفه بأنه إنفاقٌ في سبيل الله تعالى.

ونتذكر أن الكلام السابق كان عن القتال في سبيل الله تعالى، وهنا يأتي الأمر بالإنفاق ورأى البعض أن الكلام فيها لخصوص الإنفاق على القتال في سبيل الله تعالى، وأن التحذير من التهلكة هو الهلاك من العدوان إن لم ننفق على المدافعين عنا، وهذا الكلام لوحده صحيح، ولكن عموم القرآن يذكر الإنفاق ويشجّع عليه ويذكر معه التحذير من إنفاق كل ما تملك أو مما تحتاجه أنت لاستمرار حياتك حتى لا تصير أنت فقيراً بحاجة للمساعدة، وقد ورد ذلك في الآية 29 من سورة الإسراء {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا} ، فالتهلكة هنا تقصد استنفاد مالك وما تملك لا استنفاد حياتك بهجوم الأعداء عليك.

بقي شيء من الفضول، وما يقولونه عن إعجاز تكرّر بعض كلمات القرآن بعدد ملفت، كقولهم عن تكرار كلمة {ليل} اثنتي عشرة مرّةً وكلمة {نهار} اثنتي عشرة مرّةً... فقد تتبعت غالبية الكلمات التي قالوها ووجدت غالبية كلامهم كذب إلا في أقل من عشر كلمات، ومما تحققت وتأكدت منه كلمة {شهر} بالمفرد "{شهر}، {شهراً}" فقد تكررت اثنتي عشرة مرّةً، وتكررت كلمة {شهر} بالمثنى "{شهرين}" مرتين فقط. كلمة {رجل} بالمفرد تكررت أربعاً وعشرين مرّةً، وكلمة "{امرأة}، {امرأت}" أيضاً تكررت أربعاً وعشرين مرّةً. كلمة {يأمرون} تكررت سبع مرات، وكلمة {ينهون} أيضاً تكررت سبع مرات. كلمة {الخبيث} بالمفرد تكررت سبع مرات، وكلمة {الطيب} بالمفرد تكررت سبع مرات. وهناك كلمات أخرى فيها الكثير من التراخي والاستنسابية بحيث يلغون كلمة أو كلمات لسبب غير وجيه ويدّعون أن الأعداد متساوية كقولهم عن تكرار كلمة {ملائكة} و**{الشيطان}**.

والغريب أن الحالة الوحيدة الصادقة بالتمام والوضوح فهي ليست منتشرة في مقالاتهم وكتبهم! ففعلاً تكررت في القرآن جملة {الله يحب} ست عشرة مرّةً، وجملة {الله لا يحب} ست عشرة مرّةً.

لكن، هل يعني هذا أي شيء؟ لا، فلا يحتاج القرآن لخزعبلات من هذا النوع ليصير له قيمة أو لنؤمن بأنه من مصدر إلهي، فما فيه من حق وصلاح هو قيمته.

(وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ{196})
الذهاب إلى مكّة لأداء الطقوس الدينية الواجبة قسمان: عمرةٌ وحجٌ، وهما واجبان مرةً واحدة في العمر، ويمكن تكرار العمرة أو الحجّ تطوعاً "استحباباً، نفلاً" بقدر ما تشاء.

{وأتموا الحجّ والعمرة لله}، فلا يحق لكم تغيير رأيكم بعد الابتداء بمراسم العمرة أو الحجّ، فتتركوها أو تنقصوا منها، فهي مراسم تقومون بها لله تعالى، فلها احترامها ويجب إتمامها بلا انقطاع حتى نهايتها. وهنا الآية ستتحدّث عن خصوص الحالات الاضطرارية التي يسمح بها سبحانه لقطع مراسم الحج أو العمرة.

وبدايةُ مراسم العمرة أو الحجّ تكون بالإحرام، ويلبس الرجال ثياباً من دون خياطة، ويحرم عليهم وضع العطور أو الصيد البري أو مقاربة النساء أو الجدال... ولا يجوز فك حالة الإحرام إلا بعد الانتهاء من المراسم، فماذا لو حصل مع المحرم شيء منعه من إكمال عمرته أو حجّه، فهل يبقى محرماً طول عمره؟! أو يعلن تركه لإحرامه، هكذا من دون إكمال المراسم؟

والكلامُ هنا عن الابتداء بهاتين العبادتين، سواء كنت تؤدّيها واجبة لأول مرةٍ أو تؤدّيها استحباباً بعد أن أديت الواجب، ففي كلتا الحالتين حين تعلن الابتداء بأي منهما فيجب الإتمامُ إلى نهاية الطقوس، مثل الاعتكاف وهو مستحب ولكن حين تبدأ به فلا يحق لك قطعه بلا سبب قاهر كما هو مشهور.

وقبل الدخول فيما تقوله الآية وحتى نفهمها جيداً ولنتعرّف بشكل سريع على مراسم الحج والعمرة:

المسلم المقيم في مكة، والمسلم المقيم خارج مكة، كلاهما يعلنان الإحرام من أماكن مختلفة مخصصة لكل واحد منهم "تسمّى الميقات" للبدء بالحج أو العمرة. ومن هذه اللحظة يحرم عليهم أشياء: كوضع العطور والزينة، وقتل الحيوانات... والاستحمام ومقاربة النساء...

ويحقّ لنا القيام بالعمرة الواجبة وحدها من دون حج، ولها مراسم أقل من مراسم الحج، ومراسمها محصورة بحرم البيت المعمور "في باحة المسجد الحرام"، وننهي إحرامنا أخيراً بتقديم هديٍ في مكة، ونحلق من شعرنا أو نقص من أظافرنا.

وإذا كنا نريد الجمع بين الحج والعمرة الواجبة، كما هو دارج في أيامنا، فيحق لنا فك إحرام العمرة بعد الطواف والسعي بين الصفا والمروة من دون تقديم هديٍ، ونفك إحرامنا ونحلق من شعرنا أو نقص من أظافرنا، ثم بعدها نحرم من جديد، ونكمل المراسم... ثم نقدم الهدي في منطقة اسمها منى، وبعدها نفك إحرامنا بقص الشعر... وهناك العديد من التفاصيل الواجبة اختصرتها لك... لأن التركيز هنا على المراحل التي نحرم فيها ومتى نفك الإحرام، وسوف نرى أن الآية تتحدث عن حالات اضطرارية لقطع الحج والعمرة قبل إتمامهما، وستتحدث عن كيفية التعامل مع تلك الحالات، أمّا إذا لم يحدث شيء اضطراري من الأمور التي ذكرتها الآية، فلا يجوز أبداً قطع مراسم العمرة أو الحج:

{فإن أحصرتم}، وحصركم ومنعكم شيء ما من إكمال الحج أو العمرة بعد دخولكم في المراسم، فبعد أن أحرمتم أحصرتم، ولنقل: مرضتم مرضاً شديداً، أو منعكم العدو من السفر، أو سرقكم سارق على الطريق، أو ضاع جواز السفر... فهل تبقى محرماً كلّ عمرك؟ لا ففي هذه الحالة حتى تحلّوا إحرامكم قبل إتمام المراسم، {فما استيسر}، فعليكم بما كان يسيراً مريحاً سهلاً عليكم، بما توفّر وكان سهلاً عليكم، فيمكنكم تحمّل ثمنه، {من الهدي}، وهذا وصف لما تقدّمه كهدية من الحيوانات المحللة الأكل من الجمال أو البقر أو المعز أو الغنم... ليتم توزيع لحمه على الفقراء...

وإذا لم تكملوا مراسم الحجّ بعد إحرامكم بسبب الإحصار، وأرسلتم هدياً ليتم ذبحه، {ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله}، فلا تحلّوا إحرامكم حتى يكون الذبح قد تمّ في أي مكان في مكة للمعتمر، وفي منطقة اسمها منى للحاجّ، أو إذا منعه العدو أو ظرف قاهر جداً من الهدي في تلك الأماكن فيهدي في أي محلّ، فيهدي حيث هو أو في أي مكان آمن... فلا تحلقوا شعركم كعلامة على فكّ الإحرام حتى يصل الهدي إلى المكان المناسب، فهنا تنبهنا الآية أن الواجب هو تقديم الهدي أولاً، ثم حلق الرأس حتى نفك إحرامنا ونعود لحياتنا العادية.

ننتقل لفك الإحرام بقص الشعر، {فمن كان منكم}، أيها الحجاج أو المعتمرون، مريضاً، فطرأ خلل على جسده يمكن علاجه، وهو مضطر لحلاقة شعره، ولنقل أنه مضطر لحلق شعره لدهن جلدة رأسه بالدواء قبل انتهاء الطقوس، فهذا يمكنه حلق رأسه قبل تقديم الهدي، ولا يكون حلق رأسه فكاكاً من الإحرام، فبعد تقديم الهدي، يعلن فك إحرامه...

أو، لم يكن مريضاً ولكن، {به أذى من رأسه}، فلم يكن متضرراً جسدياً ولكنه متأذٍ، فمثلاً وقع صمغ أو دهان على رأسه ويجب حلق الشعر لإزالته.

وفي هاتين الحالتين "المرض أو الأذى في الرأس" المسببتين لحلق شعر الرأس قبل الهدي، فعندها: {ففديةٌ من صيام أو صدقة أو نسك}، وهي شيء يفدي به فيقدّمه لاستبدال حالة تعذّر قيامه بحلق الرأس، فقد حلقه سلفاً، فيصوم "ومن تكملة الآية نعلم أن الصوم يكون لمدة ثلاثة أيام، لأنه لو كان أكثر أو أقل من ثلاثة أيام لم تتركه الآية"، أو يقدّم مساعدة لمن يحتاجها وهنا من المشهور بين المسلمين أن يقدّم طعاماً للمساكين، ومن الآية 89 من سورة المائدة نرى إطعام عشرة مساكين مقابل صيام ثلاثة أيام، وهو عموم العمل العبادي الذي نتقرّب به إلى الله تعالى، ويصدق عليه ما هو مشهور بين المسلمين من تقديم ذبيحة كاملة في سبيل الله تعالى ويوزّعها على المساكين، ولكن هذا مشابه تماماً لنتيجة إطعام مساكين، وبناء على عمومية استعمال القرآن لكلمة {نسك}، كما في مثال الآية 128 من هذه السورة {رَبَّنَا

وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا...}، فتبقى الكلمة على عموميتها وتطبيقها بتكرار عمل عبادي من أعمال الحج، أو البقاء في حرم المسجد لليلة... وهكذا فنحن أمام خيارات نختار منها ما نشاء، من صوم أو إطعام ستّة مساكين أو عموم أي أعمال عبادية مناسبة لمناسك الحجّ.

ترجع الآية إلى حالة الإحصار، {فإذا أمنتم}، فلم تعودوا محصرين ممنوعين من إكمال مراسم العمرة والحج، {فمن تمتّع بالعمرة إلى الحج}، فقام بمراسم العمرة وأنهاها وفكّ إحرامه فاستفاد من حالة فك الإحرام فزالت عنه الأمور التي كانت محرّمة، ويريد مواصلة عمرته بالحجّ، فإنه يقصّر فيحلق من شعره أو يقص أظافره، ولا يقدم الهدي في مكة، ويحق له البقاء في مكة والتمتع بكل ما كان ممنوعاً عليه عندما كان محرماً أثناء قيامه بالعمرة، كالتعطّر ومقاربة النساء... فمن تمتّع بما كان محرماً أثناء العمرة، إلى حين موعد الحجّ، فلا يجب عليه الخروج من مكة والذهاب إلى المكان الذي تبدأ فيه الناس بمراسم الإحرام للحجّ، وتلك الأماكن اسمها: الميقات. فيمكنه إنهاء العمرة، وفك إحرامه، والاستفادة من تحلّله مما كان ممنوعاً عليه أثناء الإحرام، وانتظار يوم بدء مراسم الحج، فيبدأ حجّه، فيعلن الإحرام من مكة ويكمل المراسم...

فالذي يريد وصل عمرته بالحج، فلا يجب عليه البقاء محرماً من بداية العمرة حتى تقديم الهدي في الحجّ، بل ينهي العمرة، ويفك إحرامه، ويتمتع بما كان محرماً، حتى يصل موعد الابتداء بمراسم الحج، فيحرم من جديد من حيث هو موجود في مكّة، لأن إعلان الإحرام يكون قبل الوصول إلى مكّة في نقاط تعرفها الناس "ميقات" للقادمين من المناطق البعيدة المختلفة، فلا يجب على المعتمر مغادرة مكّة إلى واحدة من تلك النقاط ليحرم للحج، بل يحرم من مكّة.

وعندما يحين موعد تقديم الأضحية في مراسم الحج فيقدّم، {فما استيسر من الهدي}، ما كان يسيراً مريحاً له دفع ثمنه، من الحيوان الذي يقدّمه، فيذبح حيواناً محلل الأكل بحسب قدرته المالية والمشهور بين الناس الاختيار بين: الجمال والبقر والضأن والمعز. وهذه معلوم الفرق بين أثمانها، فبحسب المتيسّر له منها يقدّمه، وبعد الأضحية يفك إحرامه فيحلق أو يقصّر...

وماذا لو لم يبق معه مال كاف لشراء أضحية، أو لم يجد أضحية ليشتريها، فهل يبقى محرماً؟ لا، {فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة}، لم يجد هدياً لأنه لم يبق معه مال لشراء هدي، أو لم يجد في السوق أي هدي ليشتريه، فيصوم ثلاثة أيام في الحجّ، ومن الواضح أنه يفك إحرامه بعد انتهاء صيام اليوم الثالث، وبعد ذلك يصوم سبعة أيام عندما يرجع إلى بلده... وهذا القيد حتى لا يشتبه علينا التخيير بين الثلاثة والسبعة والعشرة، فالواجب مؤلّف من ثلاثة تكملتها سبعة لتصير عشرة كبدل عن الهدي.

{ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام}، الكلام عن تكملة الصوم سبعة أيام، لمن لا يتم اعتبارهم من سكان منطقة المسجد الحرام، أمّا إن كان من أهل منطقة المسجد الحرام، فسكنه في مكّة أو قريباً منها ولا سفر بينه وبينها، فهذا يكمل فيما بعد صيام العشرة أيام...

{واتقوا الله}، فتجنبوا غضبه وعقابه، ففي هذه الحالات الاضطرارية فقط يحق لكم فك إحرامكم وتغيير مناسك العمرة والحج.

{واعلموا أن الله شديد العقاب}، لمن خالف أوامره بشكل عام، وبشكل خاص، فهنا تحذّر الآية من الاستهتار أو الاستخفاف بالإحرام.

(الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ{197})
الحجّ ليس في أي وقت شئتم، بل هو في {أشهرٍ معلوماتٍ}، يعلمها الناس، وهي: شوالٌ، وذو القعدةِ وذو الحجةِ.

الآية السابقة تحدثت عن حرمة قطع مناسك الحجّ وعن الحالات الاضطرارية لترك الإحرام... وهنا ستتحدث الآية عن التزاماتٍ أخرى للحاج، وعليه إعادة حجّهِ إن لم يلتزم بها:

{فمن فرض فيهن الحجّ}، فمن فرض على نفسه أن يكون حاجاً، سواء أكان الحجّ واجباً عليه أو أنه يحجّ استحباباً، فعندما يدخل في مراسم الحج في واحدة من تلك الأشهر، وصار محرماً فيجب عليه الالتزام بما يلي:

{فلا رفث}، فلا علاقة جنسية مسموحة ولا من أي نوع، ولا بالنظر الشهواني ولا بالكلام ولا بالمعاشرة... لحلاله لزوجته في الحجّ، فمن الأصل الرفث مع غير زوجته حرامٌ في أي وقت وزمان كان.

{ولا فسوق}، فأي عمل يعلم الحاج بحرمته فإن قام به فقد أخلّ بحجّهِ. والفسوق عن الدين أصلاً ممنوع حتى خارج حالة الحجّ، ولكن الفسوق في الحجّ يجعله باطلاً غيرَ مقبول.

{ولا جدال في الحجّ}، والجدل هو عموم محاولة كل طرف إقناع الآخر، وتدرجاته تتحدّد من السياق، من التمسّك بالرأي إلى الليونة. وفي الحجّ ممنوعٌ التحدث بأي موضوع تختلف فيه مع الآخرين من النوع الجدلي الذي تحاول فيه إقناع الآخرين، فممنوعٌ الجدل بالدين أو بالسياسة أو بالوضع الاجتماعي أو السياسي...

{وما تفعلوا من خير}، من صلوات وتسبيحات ودعوات... يعلمه الله، فأنتم تحت المراقبة وسيعطيكم سبحانه أجراً عليه.

{وتزوّدوا}، فاحصلوا على الزاد، وهنا الكلام في عبادة، فاعملوا على تجميع ما ستحملونه معكم إلى يوم القيامة من أعمال حسنة، فأطيعوا الله تعالى بترك الرفث والفسوق والجدال واجتهدوا بالعبادة في الحجّ لأنه سيكون زاداً لكم في الآخرة، فكما تحمل طعامك وشرابك عندما تسافر، والحجُّ فرصة لتتزود بالحسنات للآخرة. وعادة الحجّاج يقرؤون القرآن ويصلّون نوافلَ ويقرؤون أدعية المديح لله سبحانه والاستغفار...

{فإنّ خير الزاد} {التقوى}، أفضل ما يمكن أن تحمله معك، وهي تجنب عقاب وغضب الله تعالى، وبخصوص الحجّ، فتكون التقوى بطاعته تعالى بترك الرفث والفسوق والجدال والالتزام بمناسك الحجّ.

{واتقون}، فتجنبوا وتحاشوا غضبي وعقابي، {يا أولي الألباب}، يا أيها المنسوب لهم اللبّ، الذين عندهم شيء له قيمة في داخلهم، فالذين لديهم في لبّهم في داخلهم عقل وفكر وفهم للأمور فالكلام موجّه لهم ليتقوه تعالى. وتتذكّر دائماً أن القيمة التي يعتبرها تعالى قيمة حقيقية للإنسان هي حين يكون مؤمناً تقياً، فلا قيمة للغنى بالمال ولا بالمناصب ولا بالشهادات... وليس عاقلاً فطناً ذكياً ذو لبّ من يعصيه تعالى، وعادةً يذهب فكرنا في حياتنا العادية عند الكلام عن ذي الألباب والعالمين والذين يعقلون... إلى مقياسنا نحن للناس، إلى أصحاب الشهادات والمناصب والمال... أمّا بنظره تعالى فالنظرة مختلفة، فمن كان في نظرنا بسيطاً أقل من عادي لأنه فقير أو إنسان عادي غير بارز في شيء من الأمور التي نراها مهمةً، فإن كان مؤمناً عاملاً للصالحات فهو ذو لبّ وعقل وفهم في تقييمه تعالى.

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ{198})

كما تعلم، كان العرب يحجّون قبل نزول القرآن، ولكن كان بعضهم يحجّ على هواه، فينقص من أعمال الحجّ أو يزيد أو يغيّر في ترتيب أعمال الحجّ... ومع مرور الزمن اختلفت بعض المراسم بين الناس، والتشريعُ الأساسي لمناسك الحج كما وضّحه القرآن هو: الإحرامُ والطوافُ وصلاة ركعتين... والسعيُ... وبعدها الذهاب إلى منطقة جبل عرفات والوقوف هناك للذكر والاستغفار، وبعد العصر الانطلاق إلى مكان اسمه المزدلفة "{المشعر الحرام}"، والوقوف فيه حتى صلاة الصبح، ثم الانطلاق إلى منطقة تسمّى: منى... وهنا الآيةُ تتحدث عن الوقوف في المزدلفة كما هو مشهور جداً تسميتها {بالمشعر الحرام}. وهو مشعر شعيرة كمكان للشعائر كمعلم لإقامة التعابير والحركات الدينية كالأدعية والصلوات، وهو حرام فله حرمة فهناك أشياء ممنوع القيام بها هناك. والمزدلفة تقع بين منطقة جبل عرفات ومنطقة منى، ويجمع منها الناس الحصى لرميها في منى على نصب الشيطان... وبعضُ الناس كانوا يقولون إنّ الوقوف في المزدلفة ليس صحيحاً، وكانوا يكملون طريقهم في الليل ليصلوا إلى منى، وهنا الآيةُ تصحّح هذا، فتقول عن الوقوف في المزدلفة إنّهُ صحيحٌ:

{ليس عليكم جناحٌ}، ليس هناك مشكلة {أن تبتغوا فضلاً من ربكم}، أموراً جيدة يعطيكم إياها المسؤول عنكم من مستوى إلهي من دون أن تكون فرضاً واجباً عليه سبحانه، والكلام هنا عن الوقوف في {المشعر الحرام} على أساس

أنّهُ عملٌ عباديٌّ وعليه أجرٌ وقد نفى البعض عنه ذلك، فتقول الجملة هنا إنّهُ صحيحٌ وفيه تطلبون منه تعالى فضلاً... وقارنها مع الذين أنهوا كل مراسم الحج وقبل انطلاق قافلتهم راجعةً إلى بلادهم، وبعضهم يسرع ويقوم بعمرة مستحبةٍ التي تستغرق حوالي الساعتين، فهذا يريد فضلاً من ربّهِ فيريد أن تتسجّل له حسناتٌ، ونفس المفهوم تقوله الجملة عن الوقوف في {المشعر الحرام}، فهي فرصةٌ صحيحةٌ للحصول على فضلٍ منه تعالى وليست بدعةً أو زيادةً لا معنى لها، بل بالعكس فهي من المناسك الواجبة.

{فإذا أفضتم من} منطقة جبل {عرفاتٍ}، وبقيتم فيها المدةَ المطلوبةَ وحان وقت الإفاضة، وقت الخروج من عرفات، وبما أنّ الحجاج يكونون كثيراً، فعبّرت الآيةُ عن خروجهم من عرفات كما يفيض الماء من الكوب، فيسيل الماء إلى خارج الكوب من كثرته، وكلمة فاض ليست مخصصة للماء بل عمومية ووصف الناس بها حقيقيٌّ.

ومن بعد الخروج من عرفات، {فاذكروا الله عند المشعر الحرام}، ومن المشهور جداً أنّ الكلام عن منطقة تسمّى "المزدلفة" فهي الموصوفة هنا {بالمشعر الحرام}، وإنّ ذكرَ الله تعالى هناك يسبّب حصولكم على فضلٍ كبيرٍ من ربكم سبحانه.

{واذكروه}، واستحضروا ربكم سبحانه في فكركم وكلامهم وسلوككم، {كما هداكم}، بمثل الشيء الذي وضعكم عليه لتكونوا فعلاً ذاكرين له تعالى بشكل صحيحٍ، فقولوا عنه تعالى مثلما علّمكم، فالأشياء التي تعلمتموها من القرآن وعن لسان نبيه(ع) فهي الأشياء التي توصلكم لذكر صحيحٍ له تعالى.

الكلام هنا عموميٌّ يشمل عموم هدايته تعالى لنا لنكون على ما يوصلنا إلى مرضاته والجنةِ، وبخصوص مراسم الحج، فيجب الالتزام بما علّمنا تعالى.

{وإن كنتم من قبله}، من قبل هدايتكم لكيفية ذكره تعالى، {لمن الضالين}، من الذين على الطريق الخطأ غير العارفين بالطريق الصحيح.

وفي {المشعر الحرام} اذكروا ربكم سبحانه بالتحميد والتسبيح والشكر والتنزيه فهذه فرصةٌ لا تفوّتوها للحصول على فضلٍ من ربكم سبحانه، وسبب ذكركم له سبحانه أنّهُ هداكم للإيمان وقد كنتم ضالين عن الخط الصحيح. فعلينا كلنا شكره سبحانه على إرساله للنبي محمد(ع) بالقرآن لنصحّحَ اعتقادنا وعملَنا ونبتعد عن الضلال.

بقي شيء، فجملةُ {ليس عليكم جناحٌ} حرفياً معناها: ليس هناك مشكلة في كذا... فأنت أمام أعمالٍ كان يقوم بها عموم العرب قبل الإسلامِ، وقد بيّن القرآن أنّها ليست تراثاً خاصاً بهم اخترعوه هم مثلما نرى في الديانات الأخرى طقوساً في أماكن يحدّدونها... لا، بل هي طقوس أمر بها تعالى من عهد النبي إبراهيم(ع)، {فلا جناح} تعني أنّهُ لا مشكلة في هذا العمل فقد أقرّه تعالى كطقسٍ من طقوس الحجّ. ضع هذا المعنى دائماً في بالك لجملة {لا جناح} التي لا تقصد الاستحباب ولا الوجوب، فقد يكون العمل واجباً أو مستحبّاً، عندها يقول لك القرآن إنّهُ لا مشكلة في فعله لأنه واجبٌ أقرّه تعالى كواجبٍ لنا، أو مستحبٌّ أو مباحٌ أقرّه تعالى لنا كمستحبٍ أو مباحٍ.

(ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{199})
ثم بعد ذكر الله تعالى في {المشعر الحرام} "المزدلفة":

{أفيضوا}، اخرجوا من حدود منطقة المزدلفة، {من حيث أفاض الناس}، فلا تخترعوا طرقات ومناسك جديدة، فالتزموا بما هو معروف وكان يقوم به الناس من عصر النبيين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. وهذا التحرّكُ من المزدلفة يكون بعد صلاة الفجر باتجاه رمي الجمرات على نصب في منطقة تسمّى منى.

{واستغفروا الله}، فتلك المناسك تفرُّغٌ لعمل عبادي فاطلبوا منه تعالى في أثناء أدائكم لتلك المناسك أن يتجاوز سبحانه عن ذنوبكم فلا يعاقبكم سبحانه عليها.

{إن الله غفورٌ}، ليس صلباً جافاً لئيماً... سبحانه وتعالى، بل يغفر لمن استغفره، فيتجاوز عن السيئات، والله، {رحيمٌ}، فلديه تعالى عناية خاصّة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، والمغفرة من أبرز نماذج الرحمة الخاصّة بالمؤمنين فالآخرون لا ينالونها ولا بأي شكل.

نلاحظ التعبير عن خروج الناس من مكان لآخر في الآيات بكلمة {فاض} التي نستعملها عادة عندما نصف الماء الزائد عن الوعاء لدرجة أن يخرج من وعائه، واستعملها القرآن هنا لتدل على الخروج من حدود عرفات إلى المزدلفة ثم الخروج من حدود المزدلفة إلى منى كوصف لجماعة كبيرة من الناس تتحرك مع بعض.

(فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ{200})

{فإذا قضيتم}، أنهيتم أدّيتم، {مناسككم}، الأعمال التي قصدتم بها التقرب إلى الله تعالى، وبناء على ما سيأتي في الآية الثالثة من كلام عن المبيت في منى، فالكلام هنا عمّا بعد فك الإحرام وبداية المبيت في منى وتقديم الهدي "نحر جمل أو ذبح بقرة أو غنمة أو كبش..." فالحجاج يأكلون من تلك الأضحية، فتصور أنهم كانوا في حالة إحرام لمدة عدة أيام "أو شهر أو أزيد حينما كان السفر براً مشياً أو على الدواب"، ولا يذبحون ليأكلوا، فيأتي يوم العيد ويذبحون، ويفكّون إحرامهم... وينصبون الخيام في منى ليمضوا فيها يومين أو ثلاثةً، وليس عليهم واجبات سوى رمي الجمرات التي تستغرق وقتاً قليلاً، وبقية الوقت مع اللحم الوفير والطبخ والشواء... والأحاديث... وتأتي آيتنا هنا حتى لا تعيشوا في "الشعور" بانتهائكم من العلاقة معه تعالى بانتهاء الإحرام... وبالتالي الانتهاء من ذكر الله تعالى:

{فاذكروا الله}، فاستحضروه تعالى بلسانكم وبقلوبكم بشكره وحمده وبتقواه والانتباه من عقابه... {كذكركم آباءكم}، كما تتحدثون عن أفضالهم عليكم، وهذه الحالة الغالبة العامة للناس فيتحدثون عن عائلاتهم ومحاسن أقاربهم أمام الآخرين الذين تعرّفوا عليهم حديثاً...

أو، {اذكروا الله}، {أشدّ ذكراً}، فليكن ذكركم لربكم بحمده وشكره وتذكّر نعمه عليكم... أشد من ذكركم لآبائكم.

وذكر الآباء نموذج تطرحه الآية عن شيء له قيمة تتحدّث به الناس، فمدح الآباء أمام الآخرين عمل محبوب عنده تعالى، ولكن الناس عندما يجتمعون يتحدّثون بأمور أخرى أيضاً، فاختارت الآية أبرز نموذج حسن من أحاديث الناس مع بعضهم، ونبّهتنا أن لا يكون ذكره تعالى أقل من هذا النموذج رغم حسنه، بل فليكن ذكره تعالى أشدّ، فلتكن تعابيركم عن محاسن فعاله تعالى وصفاته أقوى من ذكركم لمحاسن آبائكم.

{فمن الناس من يقول}: {ربنا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {آتنا}، فليكن عندنا منك، {في الدنيا} {حسنةً}، فنريد الأمور الموصوفة بأنها حسنة جيّدة هنا في هذه الحياة، فأعطنا المال والأملاك والزوجة والنجاح والعمل... فهو يطلب أشياء للدنيا وبينما هو، {ما له}، ليس له، {في الآخرة}، في الحياة التي تأتي في الآخر بعد انتهاء الحياة الدنيا فما له من، {خلاقٍ}، من قسمة من نصيب من خيراتها! فلا يحصل على شيء في الآخرة لأنه لم يهتم بها! يعني هو في حياته من المتعلقين بالدنيا المهملين للآخرة، فليس له أعمال فيها نيّة القربى منه تعالى، أو أحرقها بذنوب كبيرة... ويرى مناسك الحج فرصة له ليطلب منه تعالى، فيطلب أموراً للدنيا وهو بحاجة ماسة ليكون عنده شيء له قيمة في الآخرة...

والآيةُ بدأت بالحديث عن الذي وصل إلى فكّ الإحرام واقترب من نهاية مراسم الحج... ونبهته أن يذكر ربه سبحانه كما يذكر آباءه بعنايتهم به وبالاحترام والطاعة وطلب الرضا... ولا يكن مثل الذي لا يذكر ربه سبحانه، فلا يهتم برضاه وطاعته وطلب رضاه، وهذه النوعية يمكن التعرف عليهم عندما يقولون لربهم سبحانه: أعطنا السعادة في الدنيا.
وينسون الآخرة التي سيحاسبهم سبحانه فيها، وهم ليسوا في حالة من لديه حسنات كافية للنجاة من النار والفوز بالجنّة.

ويمكننا فهم الآيات على أنها تتحدث عن الناس بشكل عام، ولكن لننتبه لتحدثها بشكل خاص عن الحجاج، فهناك حجاج قاموا بالمناسك وليس لهم أي همّ للآخرة! ويطلبون من ربهم سبحانه أن يعطيهم هنا في الدنيا أموراً جيدةً ولا يسألون عن الآخرة! فعادة القرآن يركّز على نماذج بارزة ومنها نفهم بقية الأمور، فالمنظر لشخص يقوم بالحجّ يوحي بأنه حتما حصّل على حسنات للآخرة، وهذا غير صحيح، فهناك أعمال سوء تدمّر كل الحسنات، كالرفث أو الفسوق أو الجدال

في الحجّ، والفسوق كلمة شاملة لكل عمل حرّمه تعالى في حياتنا العادية، فعمل واحد من ذلك سيجعل الحجّ باطلاً ملغياً... وها نرى الكلام الإلهي لتنبيهنا حتى لا نكون من الذين يعيشون في مسرحية أداء طقوس فيها جهد وتكاليف مالية، وهي خالية المضمون "بلا حسنات عليها"، ومن مؤشرات ذلك الحاجّ الذي يعلم أن ذنوبه كبيرة ومصيره الحالي إن مات فإلى العقاب في الآخرة، ورغم ذلك لم يهتم بطلب المغفرة من بعد جهد وتكاليف الحجّ، ويستغلّ الفرصة لطلب بدل عن أتعابه لأمور دنيوية!

وهذه المشكلة منتشرة في عموم فكرة الانتماء لدين، فالدين المطلوب المرغوب هو الدين الذي يحقّق لنا طلباتنا هنا في الدنيا، وترى أكثر الأمور انتشاراً بين المتدينين هي الأدعية أو الأعمال التي تفعلها ويحقّق لك سبحانه ما طلبته، حتى أنّ أدبيات عوام الناس ينتشر فيها أنّ أفعال "التصوّف والعرفان" من أذكار مكرّرة بالآلاف وأدعية سريّة خاصة وصلوات خاصة... أنّها تجعل طلباتك الدنيوية منه تعالى متحققة حتما، أو حتى أنّها تجعلك أنت قادر على فعل العجائب فيصير لديك قدرات خارقة لتحقيق ما ترغب به في الدنيا... وهذه هي المفارقة بحد ذاتها حيث من المفروض أنّ "التصوّف والعرفان" هو قمّة الزهد بالدنيا!

ويسأل الناس عن دعاء أو ذكر أو صلاة أو نذر... ليحقّق لهم شيئاً دنيوياً يرونه مهمّاً جداً وحرجاً لهم، وعندما تجيبهم بأنه لا يوجد في دينه تعالى شيء خاص لحالتهم، فلا يوجد دعاء أو صلاة أو نذر... خاص بالرزق أو بالزواج... وأنّ الإشارة القرآنية الوحيدة المباشرة لذلك كانت بالتقوى والاستغفار فهما السبيل الوحيد لتدخله تعالى في مجريات حياتنا بما فيه مصلحتنا في الدنيا والآخرة، تراهم يشعرون بالانكسار والانبخاع والزهد في دين يرون أنهم يقدّمون له الكثير بينما هو لا يحقّق لهم ما يريدون!

أساس أساس ما يطرحه سبحانه علينا في قرآنه هو معلومات عنه تعالى وعن قراراته، ويعلمنا ويقوّم لنا نظرتنا لكل الأمور حتى تكون أعمالنا صالحة، فهل هذا ما نرفض الإيمان والالتزام به إن لم نجد في دينه تعالى شيئاً نفعله ويحقّق لنا طلباتنا الدنيوية؟!

(وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ{201})
أمّا من يذكر الله تعالى كما يذكر آباءه أو أشدّ ذكراً: ومن الناس من يقول: {ربنا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {آتنا}، فاجعل عندنا، {في الدنيا حسنةً}، هنا في هذه الحياة اجعلنا نحصل على أمورٍ توصف بأنها حسنة جيدةٌ، كالمال الحلال والنجاح بما يرضيك، والصحة في طاعتك... وفي نفس الدعاء يقولون: {وآتنا في الآخرة حسنةً}، وأيضاً هم مهتمون بالحسنات لعالم الآخرة، فيطلبون المغفرة والجنة وما فيها من خيرات، ويقولون: {وقنا عذاب النار}.

ننتبه جيداً، ففي تراثنا أدعية منتشرة هنا وهناك من اختراع أناس ليسوا من المستوى الإيماني العالي، فأدعيتهم ليست منسوجة من القرآن، فتجد فيها طلباتٍ دنيوية بدون أي طلب للآخرة! وهذا في عصرنا صار شائعاً جداً على وسائل التواصل الاجتماعي، ومن يؤلّف تلك الأدعية ومن ينشرها لم ينتبهوا أنها طلبات دنيوية مخالفة لِما نبهت إليه الآيات هنا عن الاهتمام بالآخرة أيضاً، بل عموم القرآن يركّز على الاهتمام بالدعاء للآخرة أكثر بكثير جداً مما يذكره عن الدنيا، وعلى رأس تلك الأدعية: طلب المغفرة.

وتجد الفرق الشاسع الواضح بين الأدعية التي يؤلّفها عوام المؤمنين وبين التي يؤلّفها النوعية الممتازة من المؤمنين، وأبرز مثال للمقارنة فيمكنك قراءة الدعاء المسمّى بدعاء كميل والمنسوب للإمام علي، أو كتيّب الأدعية المسمّى بالصحيفة السجادية المنسوب لزين العابدين، وخصوصاً أدعية المناجاة فيها، لترى الفرق الهائل الشاسع بين هذه النوعية من الأدعية وبين ما يخترعه الناس، فآداب الدعاء من وحي القرآن تبدأ بالحمد والاستغفار مطولاً وبعدها وبشكل عابر سريع قد يمر فيها طلب شيء دنيوي.

أمّا غير هذه الآداب، وكثيرٌ من الأدعية التي يخترعها الناس ويرسلونها على الهواتف، تشبه الكلام مع جنّي الفانوس السحري "الخيالي" ولا تشبه الكلام مع الإله عزّ وجلّ.

وكما تلاحظ فأدبُ الدعاء طالبين منه تعالى شيئاً دنيوياً أن يكون حسنةً، فنتوكّل عليه تعالى لتيسير أمورنا، وليس لتحقيق ما نريده فهذا أكثر الأحيان لا معنى له رغم اقتناعنا الشديد بأهميته! فتصوّر فريقي كرة قدم وكلاهما قبل المباراة طلبا الفوز منه تعالى، وبشدّة وتركيز وقراءة الفاتحة للتيسير... فعلى أي معيار وأساس سيستجيب سبحانه لهما معاً وكيف؟! وعلى معايير عوام الناس فلو تشكّل فريق كرة قدم من العلماء الزهّاد فهؤلاء سيفوزون بكأس العالم حتماً ضدّ فريق من نخبة لاعبي كرة القدم عالمياً! فهل هذا معقول أو مقبول!

وخذ مثالاً آخرَ، فما معنى دعائي طالباً النجاح في الامتحان الذي لم أدرس له جيداً؟ ونجاحي فيه وفي الامتحان التالي إلى أن صرت طبيباً، فبأي معلومات سأعالج الناس وأنا نجحت لأنه تعالى بشكل عجائبيٍ نجّحني! فهل أكمل مسيرة الدعاء طالباً منه تعالى شفاء مرضاي...؟! فالدعاء طالباً تيسير أمورك له معنى، ولكن الدعاء طالباً النجاح بدون دراسة فهذا لا معنى له.

هذه نماذج تريك سخافة وطفولية منسوبة لدينه تعالى، بل يعتقدون أنها حالات المؤمنين من الدرجة العالية بدينه تعالى! ويحلمون أن يكونوا من الموصوفين بالإيمان من الدرجة العالية للوصول إلى حالة استجابته الحتمية والفورية تعالى لطلباتهم!

للأسف تحكّمت هذه العقلية بالكثيرين، وفقدوا بوصلة الهدى وواقعية النظرة للأمور حتى أنهم وجدوا في القرآن آيات سلخوها وقصّوها عن سياقها لتعطي المعنى المختزن أساساً في بالهم، وفسروا كلامه تعالى بغير ظاهره... ووجدوا في سيرة الرسول (ع) ما يدعم تصوّراتهم، متجاهلين وضوحَ الصورة القرآنية وسيرة الأنبياء الواقعية البعيدة كل البعد عمّا يقولونه، بل وحتى هم أنفسهم يعيشون الأوهام ففي خيالهم يرون أن الطلبات تتحقّق...

فلو كان كلامهم صحيحاً ألم يكن الأجدر حدوثه مع الأنبياء في كل مواقف حياتهم؟ بينما سيرة الأنبياء تريك العكس، ونادراً ما حصل معهم شيء مميزٌ مما يتصوّره الناس، فالنبيُّ محمدٌ (ع) شخصياً مات له ثلاثةُ أطفالٍ بالمرض، فهل من المعقول أن نتداول نحن دعاءً خارقاً يشفي المرضى ورسول الله شخصياً لم يعرفه! ومرّت على منطقة المدينة ومكّة شبه مجاعة في عهد الرسول (ع) وأصابت الجميع... وكم مرّة ضربت الأوبئة الأجيال الأولى من المسلمين... والكثير من الأمثلة التي تريك أن الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...} لم تتحقّق بالكامل حتى على الجيل الأول من المسلمين الذين كان بينهم الرسول شخصياً، وليس العطل من جانبه تعالى بل معلوم لك من القرآن بوضوح كم كان فيهم من منافقين وفاسقين...

للأسف فأمام سيرة ضخمة لقرابة الثلاث وعشرين سنة من حياة محمدٍ (ع) كرسولٍ، والتي ترى فيها واقعية التعاطي مع الأمور، تجد القليل النادر جداً جداً من روايات تدعم فكرة الدعاء الذي يحقّق الطلبات، فضخّموا هذا القليل "الذي أكثره كاذب" حتى عَمِيَتِ العيون عن العقلانية والواقعية... وبسبب ذلك تمرُّ فترات ينبذ فيها العقلانيون الدين الإلهي رافضينه لأنهم يرونه ديناً للبسطاء والساذجين، ومعهم حقّ، فالعديد من المسمّين بعلماء الدين روّجوا لهذا النوع من الدين... وعادة يجمعون جماهير واسعة حولهم من البسطاء... والقلةُ من العقلاء من علماء الدين عبر التاريخ فصوتهم غير مسموع ومنبوذون ولا جمهور لهم! لأنهم يحاربون العصبية المذهبية، ويحاربون الجهل... وهذه أمور لا يريد غالبية الناس سماعها...

(أُولَـئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ{202})
{أولئك}، الداعون الطالبون للحسنة في الدنيا والآخرة، وطالبو الوقاية من النار، لهم {نصيبٌ}، لهم حصةٌ محددةٌ، {مما كسبوا}، من الذي حصلوا عليه مما نتج من أعمالهم، وأنت لا تتعامل مع جنيّ الفانوس السحري "الخيالي" ليحقق لك طلباتك مهما كانت، بل تدعو الإله الحكيم الخبير... وإن دعوته تعالى طالباً تحقيق شيء من أمور الدنيا ولم يجد سبحانه لك مصلحة لإيمانك فيما طلبت، أو لم تكن ساعياً لتحقيق ما طلبت واكتفيت بالقعود وطلب تحقيق أمانيك... فلن يحققها تعالى لك، ولكن على كل حال سينتج من دعائك له تعالى شيء، وسيكون لك نصيبٌ منه، ويحققه تعالى فيما بعد في ظروف أنسب، أو جزئياً يتحقق، أو يحقق لك تعالى ما هو أفضل منه... وعلى كل حال سيسجل لك حسناتٌ بسبب توجهك له تعالى بالدعاء والطلب.

قارنها مع ما سبق من كلام عن الذين كانوا يطلبون الحسنة فقط للدنيا وهم {لا خلاق لهم}، فلا نصيب لهم من الخير في الآخرة، لأنهم لم يعملوا لها، ولم يحسبوا لربهم سبحانه حساباً فلن يكون لهم حصةٌ في سعادتها، فما معنى استجابتِهِ سبحانه لتحقيق طلبات دنيوية لهذه النوعية من الناس؟ معناه زيادة نشاطهم الفسقي، وهذا موضوع تناولته العديد من السور الأخرى.

والله {سريع الحساب}، والجملة عمومية لسرعة حساب السيئات أو الحسنات، وسياق الكلام هنا عن كل كلمة أو عمل يصدر عنا فحسابهُ تعالى عليها بالحسنات يتسجل فوراً، بدون تأخير ولو للحظة، فمباشرةً يتم تحديد قيمة الحسنة التي كسبتها من دعائك.

وجملة {سريع الحساب}، فهي تعبّر عن السرعة في تنفيذ شيء ما، كما نقول: كم حسابك؟ وفوراً بعدها: خذ حسابك. وهكذا يفهمها "عامة" الناس أنهُ تعالى يعاقب فوراً من أساء فيجعله مريضاً أو يميته... ولكن هذا تفسير غير دقيق، فعامةُ الآيات التي استعملت جملة {سريع الحساب} فكانت تقصد أنهُ تعالى لا يستغرق وقتاً لحساب الحسنات أو السيئات، ففوراً يحسبها سبحانه بدقة.

وجانب من معناها يشير إلى جواب يسأله بعض الناس عن المليارات من البشر الذين في كل ثانية يصدر عنهم مختلف أنواع الأعمال التي لها تقييم سلبي أو إيجابي، ويتراكم ذلك ثانية بعد ثانية لتصير الكمية مهولة من المعلومات، فتأتي أمثال آيتنا هنا لتخبرنا أنهُ تعالى يتعامل مع الكميات الضخمة من المعلومات بسهولة، فهو بصيرٌ سميعٌ عليمٌ خبيرٌ... {سريع الحساب}.

(وَاذْكُرُواْ اللّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ{203})
نرجع لتكملة مناسك الحج: {واذكروا الله}، فاستحضروه تعالى في فكركم وعملكم، وهنا الكلام بخصوص ذكره تعالى في مناسك الحجّ بعد الإفاضة من المزدلفة إلى منى ورجموا وضحّوا وفكّوا إحرامهم... {واذكروه} تعالى، {في أيامٍ معدوداتٍ}، وهي الأيام الثلاثة التي تأتي بعد يوم تقديم الأضحية "عيد الأضحى"، وعادة هي الأيام 11، 12، 13، وفي هذه الأيام الثلاثةِ ينام الحاج في منى، {فمن تعجّل في يومين}، ولم يكمل الثلاثةَ واستعجل فترك منى بعد يومين وانصرف قبل إتمام الأيام الثلاثةِ، {فلا إثم عليه}، فلن يعتبره تعالى مرتكباً لمخالفةٍ، {ومن تأخّر}، عن اليومين وبقي ثلاثةَ أيام وأيضاً، {لا إثم عليه}، فهو مخيّرٌ بين البقاء في منى يومين أو ثلاثةٍ.

ورغم وضوح الآية نجد في كتب الفقه من يقول عمن ينفر "يخرج" من منى بعد ظهر اليوم الثاني إنه آثم! ونجد من يقول عمّن يبقى لليوم الثالث إنه آثم! ومن حين الخلاف في ذلك قديماً ورغم نزول حكم إلهي به إلا أنه لا يزال مستمراً! لأن عقلية العصبية الجاهلية متوافر لها دائماً زبائن لتركب رؤوسهم.

{فلا إثم عليه}، {لمن اتقى}، لمن تجنّب غضبه وعقابه تعالى عموماً وهنا الكلام خصوصاً لمن اتقى أثناء مراسم الحج، ووصل للمبيت بمنى، {فلا إثم عليه} سواء بات يومين أو ثلاثةً، والحاجُّ مغفورةٌ ذنوبه لأنه أثناء مراسم الحج قد استغفر وأعلن التوبة ورجم الشيطان... فكلُّ ذنوبه القديمة قد محاها له ربنا سبحانه طالما اتقى، ولن تؤثر مسألة المبيت يوماً أو يومين على الغفران له.

{واتقوا الله}، فتجنبوا وتحاشوا غضبه وعقابه في بقية حياتكم.

{واعلموا أنكم إليه تحشرون}، ففي الآخرة سوف يتم جمعكم مع بعض بقرار منه تعالى سواء قبلتم أم لم تقبلوا، لتتحاسبوا، فلذلك عليكم أن تتقوه تعالى فتتجنبوا عقابه.

وتلاحظ أننا لن نستطيعَ أن نفهم من الآية أنها تقصد {بالأيام المعدودات}، الأيام الثلاثةَ بعد يوم العيد، والتي نسميها: أيامَ التشريقِ. ولم تذكرها الآية بالتفصيل، والسبب أنها مشهورة جداً بين الناس، كما لاحظت في بقية مناسك الحج أن القرآن لم يذكر التفاصيل، بل تحدث عن كيفية فك الإحرام في الحالات الضرورية، وتحدث عن نقطتين خلافيتين بين

الناس وهما الوقوف في {المشعر الحرام} والمبيت في منى، فمراسمُ الحج مشهورة بين الناس، وهي ليست معقدة كما قد تتصور.

وبمناسبة الحديث، فخذ تفاصيل الصلاة اليومية التي نصليها، فالقرآن لم يذكر تفاصيلها، لأن حركاتها وكلماتها اشتهرت بين المسلمين، وما تجده من خلافات بين الكتب الفقهية "للمذاهب المختلفة!" وأكثره لا معنى له، لأن أساس الصلاة عند الجميع واحد وصحيح، والخلاف في تفاصيل غير ضرورية "ليست واجبة" فترك تلك التفاصيل التي يختلفون عليها لا يبطل الصلاة.

أقول لك هذا وعسانا كلنا نتقي الله تعالى ونتوحّد مع بعض، بدلاً من مرض التوحّد متجنّبين بعضنا البعض! فما أسخفنا ونحن وقود للنار بالفتنة التي سفّهتنا في عينه تعالى وجعلتنا سخرية لبقية الأمم.

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ{204})
نكمل مع التنبيه على نوعية الناس السيئةِ التي ظاهرها الإيمان، فقد تحدثت الآيات السابقة عن الذي يحجُّ وهو لا يسألُ عن الآخرة!

{ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا}، فما تسمعه يقوله عن الحياة الدنيا التي أنتم فيها الآن يكون تقييمك له أنهُ كلامٌ مستنسبٌ جيدٌ حسنٌ، فمثلاً يقول عنها بأنها دار ممر ولا يجب التعلقُ بها، ويقول كلام زهدٍ في الدنيا... فتستحسن وتستنسب كلامه، وتعتقد أنهُ شديدُ الإيمان زاهدٌ بالدنيا ومتعلقٌ بالآخرة.

{ويشهد الله} فيقول: الله سبحانه يشهد فيرى ويؤكدُ أنّ قلبي غير متعلقٍ بالدنيا فهي مجرد فرصةٍ لاكتساب الحسنات وأني أعتبرها ممراً للآخرة...

وهو، في الحقيقة، {ألدّ الخصامِ}، من أشدُّ المخاصمين! والخصامُ هو عموم أي خلاف يسبب حالةً نفسيةً بين شخصين من النفور والكره وصولاً إلى العداوة، وفي الحقيقة هو متعلقٌ بالدنيا لدرجة أنهُ شديدُ الخصومة فيما يتعلق بها، وبتعابيرنا الدارجة وهو ليس زاهداً بها كما يدّعي بل متعلقٌ بها ويخاصم لأجلها وبشدةٍ.

فقط أقواله تدل على أنهُ غير متعلقٍ بالدنيا! أمّا حين يجدّ الجدّ، فهو يخاصم أي ينفر ويكره ويعارك ويشاجر على أي شيء دنيويٍ! ولنرى المزيد من تصرفاته:

(وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ{205})
{وإذا تولى}، وإذا ذهب وانطلق في حياته العادية من بعدما انتهى من كلامه الديني عن زهده بالدنيا، {سعى}، تحرك قاصداً القيام بأعمال، في الأرض ليُفسد فيها، ويقوم بأعمال تُخرب الأرض، {ليُهلك}، ليستنفد ليُنهي، {الحرث}، وهو عموم ما يكون فيه قابلية إنتاجٍ من البذر فيه، سواء للأرضِ أو الحيوانِ، وهنا الكلام عن {الحرث} لخصوص الأرض الزراعية، ويُهلك، {النسل}، عموم ما يكون فيه قابلية التناسل، قابلية خروج شيء ما نسلاً من منفذ مع بقاء الأصل، والكلام لا يزال عمّا ينتج ولكن ليس من جهة {الحرث} بل من جهة {النسل}، وهذه الكلمة مستعملة بكثرة لوصف تناسل الحيوان من ذكر حين يطرح بذوره في الإناث. والمفسدُ يستنفد بشكل سيئٍ النتاج النباتي والحيواني والإنساني.

يقومُ المفسد بمنع الماء عن غيره، أو يلعب بالأسعار حتى لا يستطيع غيره العمل في الزراعة وتربية الحيوانات، أو يخفض القيمة الجمركية للواردات الزراعية والحيوانية لأن له مصلحة فيها، وعندها لا يستطيع أهل بلده المنافسة مع البضائع الأجنبية... أو يمنع المساعدات عن المزارعين لأنه هو أو أقرباؤه يتاجرون باستيراد المنتوجات الزراعية من الخارج...

الآيةُ عامةٌ في الإفساد، وإنما هي تضرب مثالاً عاماً عن أبرز نموذج يؤذي الناس، فالفسادُ يحصل في صناعة وتجارة الملابس، وفي صناعة وتجارة الأجهزة الإلكترونية، ومواد البناء... ولكن الإفساد بالطعام النباتي والحيواني هو إفساد بشيء أساسي لحياة الناس ويدمّر أيَّ مجتمعٍ...

ولا تنسَ أن {الحرث} و{النسل} يشملاننا نحن البشر أيضاً، والمفسدُ يهلكهم بالحروب والأدوية الفاسدةِ وتلويث البيئة...

{والله لا يحب الفساد}، والمفسدُ الذي لم يُرخِ لحيته ولا يناديه الناس "الحاج فلان" ولا يحمل السبحة في يده ولا يأتي ويذهب إلى المسجد أو المناسبات الدينية... فهذا لم تتحدّث عنه الآية لأنه لم يخدعك، فهو لم يتستر بالدين، فالكلام هنا عمّن أعجبك قوله على أساس أنهُ من المتدينين المؤمنين الصالحين... ولكنه مفسدٌ، وها أيها المؤمن الحقيقي يخبرك الله تعالى أنهُ لا يُحبُّ {الفساد}، فالكلام ليس موجهاً للمفسد بل موجهاً للمؤمن حتى يتعرّف على المفسد، وتنبّهُ الآية المؤمن أن لا يكون فاسداً وتستعمل عبارة لطيفة معه فتخبره أنهُ تعالى لا يحب الفساد.

ضع هذا في بالك في عموم ما ورد في القرآن أنهُ تعالى لا يُحبُّهُ، فقد وردت حيث لا داعي للكلام القاسي، وخذ مثلاً كلامك معي حيث تريد تحذيري وتنبيهي فتقول: سأكسر عظامك لو فعلت كذا وكذا... فهذه نبرة عالية لا مبرر لها لأنك تعلم أني حالياً لست ناوياً لفعل السوء، والجملة الأنسب: لا أحب أن تفعل كذا وكذا... وعلى هذا المفهوم جاءت الآيات التي وجّهت كلامها مع المؤمنين مستعملة عبارة مشابهة لعبارة "الله يحب أو لا يحب".

(وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ{206})
وإذا قيل له، إذا قال أحدهم للمفسد: {اتقِ اللهَ}، تجنب غضب وعقاب الله تعالى فتوقف عن الإفساد. عندها، {أخذتْهُ العزةُ بالإثمِ}، فبدل أن يشعر بالذلّ من فساده فبالعكس شمله الشعور بالاعتزاز، بالسيطرة والعلو بنفسه، بقوته بجبروته... بقدرته المالية العالية أو بمنصبه الحكومي... {بالإثمِ}، بالذنب الواضح الذي يرتكبه، فالآثمُ هو الذي يرتكب السوء عن قصد ومع علمه بأنه يرتكب السوء، فيجب أن يشعر بالخجلِ بالذلِّ عندما تنبهه، ولكن هذه النوعية من الناس حين تذكر لهم فسادهم منبهاً لهم ليتّقوهُ تعالى، فهم لا يتراجعون!

وتفهمُها بشكل أبسط إذا عكستها، فالعزّة التي لها معنى حقيقي تكون للمؤمن العامل للصالحات، فهذا يحقّ له الشعور بالعزّة بسبب نظافة فكره ومشاعره وعمله.

{فحسبُهُ جهنمُ}، فليكن المكان الموصوف بسوء ما فيه من نار متأججة وضرب... كافياً له لتعذيبه، فهو لم يهتم بالتقوى، فجهنم ستكون كافية له ولن يحتاج غيرها كعقابٍ.

{ولبئسَ المهادُ}، فما أسوأ جهنّم من أرضية تمّت تهيئتها ليقف أو يجلس أو يستلقي فيها، فالفراشُ على الأرض هو مهادٌ جيدٌ، ولكن لو فرشت الأرض بالشوك، وأجبرت شخصاً ما بالنوم عليه، فالشوك أيضاً مهاد ولكنه عاطل، وجهنم كلّها متأججة فكل أرضيتها توصف بأنها أسوأ مهاد، وبالمقارنة مع أسوأ مهاد هنا في الدنيا فمهاد جهنّم أسوأ بكثير.

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ{207})
تنقلنا الآيات للنوعيةِ الثانية من الناس:

{ومن الناس من يشري نفسه}، فيُقدّمُ نفسه متخلياً عنها، وبتعبيرنا الحالي نقول: يبيع نفسه. {ابتغاء مرضات الله}، وهو بهذا التخلي عن نفسه يطلب رضاه تعالى ليقبل أعماله وأقواله بمحبةٍ، ففي مقابل هؤلاء المفسدين الذين لا يحبهم ربنا سبحانه ولا يحب أعمالهم، وهناك من لا يسألُ عن نفسه، بل يبيع نفسه فيتخلى عنها، لأجل رضاه تعالى عنه، فيصير ضمن الذين قبل تعالى بهم بمحبةٍ.

وكما ترى فقد اختارت السورة نموذجاً مناقضاً ومعاكساً تماماً للمفسد، فاختارت المقارنة بينه وبين من يتخلى عن نفسه ويقدمها حتى يحصل على رضاه تعالى، والنموذجُ المعلوم عن هذه الحالة هو الذي يشارك في القتال في سبيله تعالى فرغمَ علمه بأنهُ قد يموت ولكن لأن في القتال رضاه تعالى فهو مستعد ليشري نفسه.

{والله رؤوفٌ بالعباد}، فسبحانهُ ليس قاسياً صلباً بتعامله مع الذين مفروضٌ منهم طاعته، فمن ابتغى رضاه تعالى فسيحصلُ عليه إن كانت نيتهُ صادقة حتى لو كان تاريخه مشحوناً بالآثامِ.

بالنسبة لكلمة {شرى} فهي لعموم مبادلة أي شيء بشيء مع الاهتمام بقيمة ما سيأخذه أنهُ بالنسبة له أهمُ مما قدّمه، ولا تركزُ على قيمة ما قدّمه. فهي على معنى أن أحداً ما أخذ شيئاً مقابل شيء للمنفعة. فيصدقُ الشراء كوصفٍ لطرفين سواء البائع الذي أخذ المال "{شرى} منه"، أو الشاري الذي أخذ البضاعة "{اشترى} منه". واستعمالُ كلمة "{شرى}" بهذه الطريقة لم تعد دارجة، فنستبدل {شرى} بباع، ونقول {اشترى} فحصل العكس فوقع البيع من غيره عليه، فهو وصف حاله حين حصل الشراءُ. ومثلها في التصريف "{شرى} هو لغيره، {اشترى} هو من غيره" ولكن ما تزال مستعملة: عذر هو غيره، اعتذر هو من غيره. عرف هو الشيء، اعترف هو لغيره. وعزل هو الشيء، اعتزل هو عن غيره.

من استعمال العربِ يبدو الفرق بين البيع والشراء أنّ البيع ناظر لعملية تقديم شيء، والشراء ناظر لعملية أخذ شيء.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{208})
{يا أيها الذين آمنوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بالدين الإلهي، {ادخلوا في السلم كافةً}، كلكم جميعاً من دون استثناء كونوا في حالة {السِّلم} في حالة المنقادين، كونوا من الذين يقودكم الدين الإلهي وتلتزمون به. وقد ميّز اللغويون بين {السِّلم} بالكسرة على السين على أنها تشير للانقياد فيناسبها هنا الانقياد له تعالى، ومنها اشتقاق الإسلام ومسلمين... وبين {السَّلم} بالفتحة على السين على أنها الأمان بين المتعادين كما ورد في الآية 90 من سورة النساء {فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا}، وكما ورد في الآية 35 من سورة محمد {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ...}. وقد استعمل القرآن كلمة {كافة} أربعَ مراتٍ هنا وفي ثلاث آياتٍ من الواضح فيها أنها على معنى كلكم جميعاً.

{ولا تتبعوا خطوات الشيطان}، ولا تكونوا حيث يمشي الذي يقوم بأعمال الضلال ويعمل على إضلالكم. فالشيطان "إبليس وأشباهه من الخبثاء من الجنّ والإنس" يريد منكم أن تتبعوه ولا تدخلوا في الانقياد له تعالى.

{إنه}، الشيطان، لكم {عدوٌ مبينٌ}، يقوم بأنشطة سيئةٍ تطالكم وليس لكم فيها مصلحة وهذا يحصل منه بشكل واضحٍ، فمعلومٌ أنّ شياطين الجنّ توسوس لكم حتى لا تسلموا له تعالى، ووسوسته ستكون واضحةً لكم أيها المؤمنون، فهي عروض لفعل السوء، وإن بدا لكم أنها لسعادتكم فاعلموا أنهُ عدوٌ لكم ولن يكون بمخالفتكم الإسلام له تعالى أي مصلحةٍ حقيقيةٍ.

(فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{209})
{فإن زللتم}، فإن لم تثبتوا على ما هو مفروض منكم البقاء عليه، فلم تبقوا على {السلم} على الانقياد له تعالى، واتبعتم الشيطان، {من بعد ما جاءتكم البينات}، من بعد ما جاءتكم الأمور الواضحة التي تُبيّن لكم أن الانقياد له تعالى عملٌ صحيحٌ، وبعدما جاءكم خبر إلهي واضح بالانتباه من الشيطان ورغم ذلك لم تثبتوا على الإسلام.

{فاعلموا أن الله عزيز}، منفيٌّ عنه عموم الذلة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... فإن لم تثبتوا على الإسلام وفرضاً زللتم لدرجة قوية فسبحانه لن يتأثر بذلك. ونفهم ذلك بسهولة عندما ننتبه للذين يعتقدون أنهم يقدمون شيئاً له تعالى، ويعطوهُ تعالى قيمةً إن آمنوا والتزموا، وأنه تعالى سيصير بلا جماهير إن تركوا دينه، وتأتي صفة {عزيز} لتختصر

كل هذا وترينا أنه تعالى من هذا الموقع العالي جداً جداً يتعامل معنا وليس بحاجة لإيماننا واهتمامه تعالى بإيصال {البينات} لنا لنسلم ليس سببه حاجةً له تعالى.

والله {حكيمٌ}، يرى الصوابية في الأمور وقراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب فقراراته وأفعاله كلها متقنة وحقٌّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول بأنَّ أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، لأنه لا يفعل لغاية له سبحانه. وسياق الكلام هنا عن ترك الإسلام له تعالى عبر مخالفة كلامه، وفرضاً كنت تخالف كلاماً عبثياً سيئاً لكان معك حقٌّ، ولكنك تخالف كلام {الحكيم}.

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأمُورُ {210})
أولئك المفسدون، والذين لا يدخلون في {السلمِ} فلا يسلمون له تعالى، هل {ينظرون}، هل ينتظرون، وهل سيمرّ عليهم وقت على هذه الحال ولن يتغيّروا، {إلّا أن يأتيهم الله في ظللٍ}، في أشياء تستر ما خلفها مانعة الرؤية، من {الغمامِ} {والملائكةِ}، فيكون الغمامُ والملائكةُ كحجاب بينه تعالى وبينهم فعندها سيسلمون؟

{وقضي الأمرُ}، فحصل الأمر وحصل الشيء الذي يريد سبحانه حصوله، فانتهى الموضوع، فبعد شعورنا بحضوره سبحانه ورؤيتنا للملائكة (ع) فقد انتهى الموضوع، فإمّا إلى الجنة وإمّا إلى النار، فمن مات وهو على حالة الإفساد في الأرض ومن مات ولم يسلم، فقد انتهى موضوعه حينها ولن ينال فرصة ثانية للتغيير بعد يوم القيامة وما بعده وهل ينتظرون ذلك الزمن ليؤمنوا؟

{وإلى الله ترجع الأمورُ}، فمرجوع كل الأمور كل القضايا والشؤون وكلها يتم إرجاعها إلى الله تعالى، فليس موضوع الآخرة فقط بيد الله تعالى، بل كل الأمور ترجع إليه سبحانه، فعنده سبحانه مخططٌ لكل شيء، وستحصل الأمور كما خطّط لها سبحانه وتعالى.

ومهما عشنا ومهما كانت قوتنا... ففي النهاية سنرجع إلى الحياة في الآخرة حيث الأمور كلها بيده تعالى فقط، فهنا في الدنيا لنا حرية الاختيارِ والتصرف، ونفعلُ ونقول ما نشاء، فلا ندخل في {السلمِ} ونفسد في الأرض... والأمورُ بيدنا وهذا ما شاءه تعالى، أمّا في يوم القيامة وما بعده فلا نملك أي شيء، وسنكون تحت السيطرة الكاملة لله تعالى، ونتحاسبُ بعدله ورحمته، ولا يمكننا الهرب أو الاختباء...

بتعبير آخر، ورؤيتهُ تعالى مستحيلة وغير ممكنة لأي مخلوق، وحتى الملائكة العالية لا يمكنها رؤيته تعالى، بل لا يمكنها التعامل بشكلٍ مباشرٍ معه سبحانه بسبب الفرق الهائل بين "طبيعته" سبحانه المختلفة تماماً عن تكوين مخلوقاته، وتقرأ ذلك صريحاً في الآية 11 من سورة الشورى في كلامه تعالى عن نفسه بأنه ليس كمثله شيء، وسبحانه يوحي للملائكة لأنهم لا يقدرون على التعامل المباشر معه تعالى وقد ورد ذلك صريحاً في الآية 12 من سورة الأنفال "إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا...".

وهنا الكلام عن حالة أناس لم يؤمنوا هنا في الدنيا، فهل سيؤمنون إذا رأوه تعالى؟ وأنت تعلم أن هذا غير ممكن لا الآن ولا في الآخرة، وبما أنه مستحيل على أي مخلوق رؤيته تعالى، وتقولُ الآية أنكم لن تؤمنوا إلا إذا رأيتم شيئاً يدل على أنكم حتما تواجهونه تعالى فهل عندها ستؤمنون؟ ولن تؤمنوا حتى تروا الملائكة؟ ورؤية الملائكة ممكنة وستحصل لنا في الآخرة، وبناء عليه، حيث لا يمكن رؤيته تعالى ولكن يمكن الشعور بوجوده تعالى وأننا نلاقيه ونواجهه، ويمكن رؤية الملائكة، جاءت آيتنا هنا لتقول لهم: أنتم الآن أيها المفسدون لم تؤمنوا، فماذا تنتظرون حتى تؤمنوا؟ هل تريدون رؤيته تعالى ورؤية ملائكته لتؤمنوا؟ فرؤيته تعالى غير ممكنة ولكن في الآخرة ستحصل أجواء تجعلكم تشعرون بأنكم أمامه تعالى، وهي حالة انشقاق السماء {بالغمامِ} {والملائكةِ}، وسيكونون {كالظللِ} "كالحجاب" بينكم وبينه تعالى، وستشعرون أنه تعالى خلفهم، وعندها ستؤمنون؟ ولكن لا نفع من الإيمان حينها لأنه وقت الحساب والجزاء...

لدينا عدةُ آيات تحدثتْ عن نفس المعنى، فتحدثّت عن الذين يريدون الآن رؤية الملائكة (ع) ليؤمنوا بدينه تعالى، فأخبرهم سبحانه بأنهم سيرون الملائكة ولكن في الآخرة، وحينها لن ينفعهم إيمانهم وتقرأ ذلك صراحةً في الآية 22 من سورة الفرقان {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا}، وهنا الآية على نفس المعنى

ولكن على معنى أضخم، فهل سيبقون على فسادهم ولن يسلموا حتى يروه تعالى شخصياً؟ هذا غير ممكن، ولكن في الآخرة سنواجهه تعالى من خلف حجاب، فمن بعد قيامنا من الموت ستتشقق السماء فوقنا، وتنبثق منها غيوم وملائكة، وسيكونون ظللاً كحجاب بينه تعالى وبيننا، فهل عندها سيؤمنون؟ وما نفع الإيمان حينها؟ {فقد قضي الأمرُ}، وترى المعنى واضحاً وصريحاً في الآية 158 من سورة الأنعام {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أو كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ}."

تلاحظ أن العبارات الشارحة لحالة {الظلِّ} مضطربة عندي، وقد استبدلتها بحجاب، ولنضعْ الأساسيات ومنها سترى أن التعابير بالكاد تصف حقيقة المشهد لأن لغتنا بشرية لأمور بشرية مع توسّع تصوّري وبالمفاهيم ولكنه يبقى ضمن الحدود البشرية، والشؤون التي تتعلّق به تعالى وبالملائكة (ع) وبعضُها تعجز لغتنا عن التعبير عن وصفها لأننا نحن نعجز عن فهمها أو تخيّلها.

طبيعتهُ تعالى مختلفة تماماً عن طبيعة كل مخلوقاته، ولذلك يستحيل على أي مخلوق أن يتواصل معه تعالى بشكل مباشر، لا برؤيته تعالى ولا برؤية شيء منه، وأصلاً لا يصح قولنا رؤية "شيء منه" تعالى، ولا لمسه ولا سماعه... ولا قدراتُنا ولا حواسنا نحن ولا قدرات ولا حواس بقية المخلوقات المختلفة عنّا يمكنها التواصل معه تعالى، أبداً بتاتاً ولا بأي شكل لأنه مستحيل.

يبدو من القرآن أنهُ يستحيل علينا هنا في الدنيا بهذا الجسد رؤية الملائكة كما هي إن لم تتمثّل بشكل ومادة يمكن لحواسنا التعامل معها، أمّا في الآخرة فسنراهم لأن تكويننا نحن سيكون مختلفاً...

والقرآن يخبرنا أننا في الآخرةِ سنتعامل معه تعالى شاعرين متيقنين بأننا نتعامل معه سبحانه، أمّا كيف وما سبب هذا الشعور واليقين؟ وحالياً سيكون كلامنا عنه تخمينياً مثل أي كلام عن شكل الملائكة.

بناءً على ما سبق من أساسيات حاول فهم كلامه تعالى في القرآن عن حضورنا أمامه في الآخرة لمحاسبتنا، وحاول أن تفهم كلامهم في الكتب الصوفية والعرفانية عن الحجب بيننا وبينه تعالى هنا في الدنيا والآخرة على هذه الأساسيات، وما لم يوافقها فانتبه منه، وفي كلامهم الكثير من الترف الفكري والتخيّلي، والتراخي، وكلامهم مصبوغ بهالة قداسة الدرجة العالية من القرب منه تعالى لدرجة تجعلنا نهاب معارضتهم! والأنكى من ذلك وصفهم لنا بأننا سطحيون قشريون لا نفهم كلامهم العميق الذي يحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم وقبلها يحتاج لإيمان قوي كإيمانهم!

لا تفهم أني لا أحترمهم بل بالعكس سيرةُ البعض منهم مشرّفة على كل الأصعدة، وفيهمُ العالمون العابدون المجاهدون للظلم... وخلافي معهم على الناحية الفكرية فقط، وانتبه أنهم بين بعضهم البعض مختلفون فيما يقولون إنهُ انكشف لهم من حقائق! فلماذا هم مختلفون في الفتوى! وفي تفسير القرآن! وفيما يقولون إنهُ انكشف لهم من العالم العلوي ورأوه بقلوبهم!

لست أعيب عليهم بوصف نتاجهم في مسائل الإلهيات بالترف الفكري، بل أعيب عليهم ادعاءَ كل واحد منهم أنه يرى الحقائق يقيناً! بينما هناك حالات يكونون فيها في نفس المسألة متخالفين فيما بينهم! وعلى الأقل فلماذا لم يخرجوا بفتاوى تشريعية موحدةً! أليسوا يدّعون رؤية ما يطلبون من حقائق!

هؤلاء لديهم في كتبهم كلام كثير لتفسير آيتنا هنا وأمثالها، فانتبه من الترف الفكري، ومن تفسيرهم لكلامه تعالى بما لا يوافق المعاني اللغوية للكلمات التي يمكن أن يفهمها أي ناطق باللغة العربية، وانتبه من إسقاطهم لمصطلحاتهم وأفكارهم تلبيساً لكلامه تعالى...

(سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ{211})
{سل}، اسأل، وعبّر عن إرادتك للحصول على جواب من {بني إسرائيل} من المنسوبين للنبي يعقوب (ع):

{كم آتيناهم من آية بينة}، كم وصلهم منّا من شيء مميز من مستوى إلهي بشكل واضح؟ تلك الآيات الواضحة عن العقيدة والشريعة الإلهية ليسلموا وينتبهوا من اتباع خطوات الشيطان...

{من يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته}، فعندما يكون لدينا نص إلهي "توراتي أو قرآني..." صريح يدلنا على الصالح والفاسد والحقّ والباطل، فهذه نعمة، فهذه أمور موصوفة بأنها جيدة نافعة وتدل على الخير في الدنيا والآخرة، ولكن من يبدّل النعمة الإلهية باتباع خطوات الشيطان، {فإن الله شديد العقاب}، فما يعقب فما يأتي بعد حالة إفسادهم ومخالفة أوامره تعالى فلن يكون سهلاً أو بسيطاً أو يمكن تحمله، لا، بل سيكون مؤلماً جداً جداً ومستمر ولا ينقطع ولا استراحة فيه...

(زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ{212})

{زيّن للذين كفروا الحياة الدنيا}، الذين أنكروا دينه تعالى كانت هذه الحياة التي نحن فيها الآن بالنسبة لهم جميلة بسبب ما فيها من أمور يرغبونها، فسبحانه زيّنها بالمقدار الذي يجعلنا سعداء فيها وفي نفس الوقت راغبين بالآخرة، ولكن الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء يزينونها بشكل يجعل السوء والشرّ يبدو جميلاً، وهذه هي مشكلة تزيّن الدنيا للذين كفروا.

{ويسخرون من الذين آمنوا}، الذين كفروا وتعلّقوا بالدنيا ينتقدون الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بالدين الإلهي بازدراء ودونية على أساس أنهم فاقدون للعقلانية وما هو طبيعي مقبولٌ، لأن الذين آمنوا ليسوا متعلقين بسيئات الدنيا، فيتخلون عن أشياء تبدو ممتعة لأنها سيئة وسبحانه حرّمها وجعل عليها عقاباً، لهذا ينتقد الكفّار بازدراء ونظرة دونية.

{والذين اتقوا}، الذين كان سلوكهم وتصرفهم عن تقى، تجنبوا فعل السوء، وهو نفسه تجنّب غضب وعقاب ربهم سبحانه، فهؤلاء هم، {فوقهم يوم القيامة}، في زمن القيام من الموت حين يقفون في يوم الحساب، سيكون الأتقياء في موقع الفوقية في كل شيء بالنسبة للذين كفروا، سيكونون جالسين في الأماكن المريحة والخدم يقدمون لهم الطعام والشراب، وتعاملهم الملائكة (ع) بفائق الاحترام والتقدير، أمّا الكفار فهم تحت في كل شيء، في أماكن نتنةٍ مشحونةٍ بالغبار والدخان... منهكين من الجوع والعطش... يتعرضون للإهانات والضرب... هذه المقارنة فقط في يوم القيامة وما بعده... أمّا بعد ذلك فالكفّار إلى النار، والأتقياء إلى الجنة، حيث الفرق هائل جداً بين المصيرين.

{والله يرزق}، يعطي الأشياء التي نحتاجها لسدّ حاجاتنا ورغباتنا، {من يشاء}، فأمامه تعالى خيارات عديدة فيمكنه أن يرزق هذا ويقدر على ذاك... لا أحد يحدّد له تعالى الأشخاص الذين سيرزقهم. هنا الآية تتحدّث عن رزق الآخرة التي شاء فاختار وقرّر تعالى أن يرزق فيها المتقين فقط، ويرزقهم تعالى في الآخرة، {بغير حساب}، هم ماذا قدّموا لربنا سبحانه حتى يرزقهم، وهل لهم عليه تعالى شيء كفرض واجب حتى يرزقهم؟ لا، فمن دون أن يكون بينهم وبينه سبحانه حساب فسبحانه سيرزقهم ويعطيهم على حسناتهم، فحتى المتقين ليس فرضاً واجباً عليه تعالى أن يرزقهم، فلا حساب بينهم وبينه تعالى ليطالبوه أن يرزقهم.

بعبارة أخرى، في يوم القيامة وما بعده سيكون الرزق للمتقين فقط، ومن تعلق بزينة الدنيا ونسي الآخرة، وسخر من المؤمنين: لا رزق له في الآخرة.

ننتبه للتعابير القرآنية المتنوعة عمّا يحصل عليه المؤمن في الآخرة من سعادة، والتي كلها تدور حول نفس المعنى، لأنه سبحانه حدّد أجراً من عنده على الإيمان والعمل الصالح، وهذا ليس واجباً عليه تعالى، ويصفه القرآن بالفضل، ومن ناحية ثانية يصفه بأنه {أجر غير ممنون} لأنه تعالى لا يطالب المؤمنين بفعل أي شيء في الجنة، وحتى كلمة شكراً غير واجبة عليهم...

لاحظ من الآية 204 عرّجت السورة على الإضاءة على النوعية السيئة من الناس عامة، ومن المسلمين خصوصاً، وقد تناولت الفساد والدخول في السلم، وهنا تلفت انتباهنا لمن سبقنا ممن وصلتهم آيات ولم يبقوا ماشين عليها، يعني بدأت السورة تشابه بين ما حصل مع بني إسرائيل، وبين ما يحصل وسيحصل مع المسلمين، لنتابع ونرى:

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{213})

{كان الناس أمة واحدة}، من تكملة الكلام سترى أن الجملة لا تقصد بالناس كل الناس على الأرض، بل كلامها حصراً عن الذين جاءهم دينه تعالى وأعلنوا أنهم عليه، فكانوا مجموعة لها امتداد تاريخي ومشتركين في العقلية والعقيدة، أمة توحِّد لله تعالى، فالدين هو واحد من البداية، {فبعث الله النبيين}، وهم الأشخاص الذين يصلهم النبأ، فينزل عليهم منه تعالى وحي بخبر عِلْمُهُ غير منتشر بين الناس، فبعثهم أنهضهم تعالى، {مبشرين}، حاملين الخبر السار للمؤمنين بدخول الجنة، {ومنذرين}، وحاملين للخبر السيء بالعقاب في الآخرة لكل من توافرت فيه شروط الحصول على العقاب.

تلاحظ القرآن يختصر مواصفات عديدة في كلمة {نبي} عندما يطلقها على أحد ما، فهي بالأساس تعني أنه شخص وصله نبأ، وصله خبر غير منتشر عِلْمُهُ بين الناس، وصارت مصطلحاً دينياً لمن وصله نبأ منه تعالى، وصارت تتضمّن أن من يصله النبأ الإلهي فهو شخص مميز في صدقه وأمانته ونزاهته... فاكتفى القرآن كثيراً بوصف النبوة لشخص أو أشخاص على أساس أنهم ضمناً سيقومون بنقل البشارة والإنذار الإلهي بأمانة تامة بدون زيادة أو نقصان، وأنهم أناس محترمون في سلوكهم...

{أنزل معهم}، مع {النبيين}، {الكتاب}، الذي فيه التعاليم الإلهية، {بالحق}، بالصواب من ناحيتين فالأولى أنه ليس في تلك الكتب شيء باطل بل كلها حق صواب، فلا يوجد فيها أحكام وتشريعات سيئة أو ظالمة، أو معلومات "عقائد" باطلة... ومن ناحية ثانية فيحقّ للإله سبحانه أن يأمر عبيده، فإنزال كتاب فيه أوامره وتعليماته فهو حقّ له سبحانه، ويجب على الناس اتباع تلك الكتب، فلم ينزلها تعالى وخيّرهم باتباعها أو تركها وكأنها بلا قيمة، بل على أساسها سيتحاسب الناس في آخرتهم.

كما تعلم، في كل فترة كان ينزل كتاب على أحد الأنبياء، ويقوم بقية الأنبياء الذين يأتون معه أو بعده، فيقومون بتوجيه الناس لتنفيذ ما في الكتاب الإلهي.

{الكتاب} أنزله سبحانه، {ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه}، هناك أمور اختلف الناس فيها فلم يتفقوا، فيكون الكتاب الإلهي هو المرجع الذي يعتمده الناس عندما لا يتفقون مع بعض في العقيدة والإيمان، والتشريعات كالتجارة والإجارة والشراكة...

لكن لم يبق الناس أمة واحدة باتباعهم للكتاب الإلهي: {وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه}، فالذين آتيناهم الكتاب اختلفوا في الكتاب فلم يتفقوا حتى على الكتاب الإلهي الذي أصلاً من أهداف نزوله أن يتفقوا! {من بعد ما جاءتهم البينات}، من بعد ما جاءتهم الأمور الواضحة، {بغياً بينهم}، طلباً رغبةً في أمور لا حقّ لهم بها، فهم قصدهم أن يكونوا مختلفين عن الآخرين وأن لا يتفقوا معهم على الأمور بسبب بغيهم بسبب طلبهم الزائد عمّا هو حق لهم.

لاحظ أن الجملة تكون أبسط إذا وضعت كلمة "إلّا" مباشرة قبل جملة "بغياً بينهم"، فتصير هكذا: {وما اختلف فيه} "..." {الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات} {إلا} {بغياً بينهم}، وهكذا ترى أنّ القرآن قدّم "إلّا" للتركيز عليها لحصر اختلافهم ببغيهم، فتريدك الآية أن تفهم أن الكتاب الإلهي الذي نقله الأنبياء كافٍ ليكون الجميع متفقين ولكنهم هم عندهم إرادة البغي بالرغم من الأمور الواضحة التي في الكتاب الإلهي...

بعبارة أخرى: لم يكن هناك أديان مختلفة "يهودي، صابئي، مسيحي، مسلم، موحد، مندائي..." إنما كان الدين الإلهي واحد، فالناس كانوا أمة واحدة في عهد أول الأنبياء، وبعد طوفان النبي نوح (ع)، ثم بعد النبي إبراهيم (ع)، فلم يكن هناك أسماء مختلفة لدين الله تعالى، ولم يكن هناك تشريعات مختلفة منتشرة بين الناس تحت اسم دين الله تعالى، مثل حالتنا اليوم حيث نرى الأديان المنتسبة لدين الله تعالى تختلف في العقيدة والتشريع... وكلها تقول بأنها إلهية صحيحة! ثمّ بعث سبحانه الأنبياء ليبلغوا رسالته، بالتبشير والإنذار، وذلك بعدما بدأ الناس بالتلاعب بالعقيدة والشريعة، وأنزل

سبحانه مع الأنبياء كتباً فيها {بينات} "واضحات" من عنده تعالى يشرح فيها بشكل واضح المعلومات الحق عنه تعالى وعن قراراته والتي نسميها بالعقيدة، وفيها عرض لأساسيات الأعمال الصالحة والفاسدة حتى نعتمدها كتقويم لما اشتبه علينا.

الناسُ العاديون غير المتخصصين بالدين، وليسوا من الزعماء والرؤساء، فهؤلاء يسألون المتخصصين والمسؤولين عنهم، فيسألونهم عن العقيدة والحلال والحرام والواجب... وإذا قام هؤلاء الناس العاديون بشيء خطأً، فإن الخطأ يكون محصوراً بهم، أمّا الذين {أوتوا الكتاب}، وهم الأشخاص المتصدون لتعاليم الدين والزعامة والرئاسة والقضاء والتبليغ الديني... فهؤلاء إذا اختلفوا في الدين، فإنها مصيبة، لأنهم سيغيّرون عقيدة وشريعة آلاف وملايين ومليارات البشر، وهؤلاء هم الذين تتحدث عنهم الآية، فتقول إنه بسبب البغي فبسبب طلب العلماء والزعماء والرؤساء للخلاف بينهم... طبعاً بتأييد من جماهير لهم نفس الهوى، فكل زعيم واحد منهم يريد السيطرة على أكبر مجموعة من الناس عبر جمعهم حوله لوحده، فيخترع شيئاً ويغيّر في الدين! فيصنع فرقةً أو طائفةً أو مذهباً أو حتى ديناً جديداً! فهو عن قصد صنع الخلاف والاختلاف في الدين، ووافقه جماعة من الناس لهم نفس الهوى الفاسد...

{فهدى الله}، فوضعهم على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {الذين آمنوا}، الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بالدين الإلهي، {لما اختلفوا فيه من الحق}، فقد صار هناك اختلاف في الدين، ولم يعد واضحاً، ولكنه تعالى هدى المؤمنين إلى الحق فجعله واضحاً لهم، وذلك بالرغم من محاولة طمس الحق الواضح ببغي الباغين، فهداهم تعالى، {بإذنه}، بسماح منه سبحانه حصلت الهداية للمؤمنين ليعرفوا الحق، فإرادة هداية المؤمنين موجودة لدى الملائكة (ع) والرسل، والله سبحانه سمح لهم بالقيام بهداية الناس.

{والله يهدي}، يضع على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {من يشاء}، فأمامه تعالى خيارات عديدة وقد أخبرنا مراراً أنه شاء الاهتمام بمن قلبه سليم، فيهديه تعالى، {إلى صراط}، إلى طريق إيماني أساسي، {مستقيم}، يوصف بأنه على الأحسن فهو غير منحرف ولا اعوجاج فيه.

إذن، يوجد أناس تعمل على هداية الناس، ويأذن سبحانه لها فيتركهم يهدون الآخرين بناء على ما في كتبه، وفي نفس الوقت لا يوجد لدينا قدرة على أن نهتدي لولا أنه سبحانه شاء هدايتنا، فإرادتنا على اختيار الهدى ليست إرادة ذاتية بل متعلقة بأن يشاء الله تعالى لنا تركنا نختار الهدى، وهذا طبيعي ومنطقي، فكيف نتصور أن يشاء الله تعالى هداية من لا يريد أن يهتدي! فطبعاً سيهدي سبحانه من يريد أن يهتدي.

آيتنا هنا تتضمن جواباً عن سؤال: فلماذا هناك الكثير من الأنبياء والكتب؟ فنبي واحد وكتاب واحد كانا سيجعلان دينه تعالى واحداً بدلاً من الأديان المنتشرة الآن. بعبارة أخرى: فما معنى تغييره تعالى للدين من الإبراهيمية لليهودية والمسيحية للإسلام؟ وكما ترى فالآية تقول إن دينه تعالى هو نفسه من الأول إلى الآخر، وجاء النبيون {مبشرين} {ومنذرين} على أساس ما في كتبه تعالى فلم يأتوا بدين جديد، وإنما الناس اختلفوا فلم يتفقوا على دينه تعالى، وسبب الاختلاف أنهم بغوا أنهم عن علم وعن قصد أرادوا أن يكونوا مختلفين مع بعض.

يمكنك رؤية نفس الحالة السيئة فينا، فكلنا ندّعي أن إلهنا واحد ونبينا واحد وكتابنا واحد، ورغم ذلك اختلفنا لمذاهب وطوائف متناحرة تكفّر وتشتم بعضها البعض!

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ{214})
{أم حسبتم}، خطر في بالكم ومن دون أي دراسة أو تأكيد إلهي، سياق الكلام مع المسلمين، {أن تدخلوا الجنة}، فتكونوا في المكان الذي يوصف بروعة ما فيه بمناظره الخلابة وما فيه من أمور رائعة، والكلام عن جنة الآخرة، وحسبتم أن تدخلوها هكذا، {ولما}، ولحدّ الآن لم يحصل شيء ما ولكن من المتوقّع أن يحصل، {يأتكم مثل}، شبه، {الذين خلوا من قبلكم}، كانوا قبلكم ومضوا، كانوا قبلكم وماتوا وصارت الأرض خالية منهم وصرتم مكانهم.

هنا أنتم تسمعون عن تلاعبهم بالدين الإلهي، وعن خذلانهم للرسل، وعن خروجهم عن طاعة الله تعالى، وعن وجود منافقين وفاسقين فيهم، وعن تراجعهم عن الدين عند الفتن والامتحانات... هل تحسبون أنكم لن تمروا بامتحانات مثل الامتحانات التي حصلت للذين من قبلكم! هكذا تقولون بأنكم مؤمنون وتدخلون الجنة قبل أن تأتيكم امتحاناتٌ مثل الذين خلوا من قبلكم!؟

{مستهم}، حصلت معهم وأحسّوا بها، {البأساء}، الأشياء القاسية جداً كالحروب والكوارث والفتن... ولم تكن عابرة وسهلة بل {مستهم} فشعروا ببأسها فعلاً، {والضراء}، وهو تغيّر أحوالهم أو أحوال ما حولهم للأسوأ، كالمرض والفقر والنزاعات، {وزلزلوا}، فجرى هزّ وتحريك ثباتهم، فمرّت عليهم ظروف زلزلتهم فهزّت كل شيء فيهم، {حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله}؟ متى سيحقّق تعالى ما نريده لنرتاح؟ فزلزلوا لدرجة لم يعودوا يرون الأمل بالنصر والخروج من الضائقة الشديدة التي هم فيها ولا بأي شكل إلا بنصر يأتي منه تعالى، فما الذي يؤخّر النصر الذي وعد به تعالى فهم متضايقون جداً جداً.

{ألا إن نصر الله قريب}، بالتأكيد، نصر الله قريب، فليس بعيداً تحقيقه تعالى لما ترغبون.

إعلاننا لإيماننا ليس كافياً لدخولنا إلى جنة الآخرة، بل ستمرُّ علينا امتحاناتٌ نثبت فيها صدقنا، وسيجعلنا تعالى نمرّ بامتحانٍ لدرجة استعجال التدخّل الإلهي الموعودين به، وكما تعلم فالبعض سييأس وآخرون سيتراجعون عن إيمانهم... والبعض سيخون ويتعامل مع الأعداء...

ضع في بالك دائماً أنه تعالى لا يضع أفخاخاً للمؤمنين حتى يتراجعوا عن إيمانهم، بل واقع الحال أن بعض المجتمعات تصير متوالدة متوارثة للانتماء لدينه تعالى، ويصير الجميع حاملين لصفة المؤمنين بدينه تعالى، كحالة عامة بلاد المسلمين، ولكنهم خليط من المؤمنين الحقيقيين والفاسقين والمنافقين، وهؤلاء يقولون بأنهم سيدخلون إلى الجنة، مثلما سمعت من قبل في هذه السورة ما قاله اليهود والنصارى في الآية 111 "{وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}"، وما ورد قبلها في الآية 80 من سورة البقرة "{وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً...}"، ولدينا نفس الكلام يصدر من العديد من المسلمين، تأتي آيتنا هنا لتخبرنا أننا لن نتلقّى منه تعالى معاملة استثنائية خاصة لأننا منتمون لدينه، فلو كان الجميع أو الغالبية إيمانهم مقبولاً، فعندها يتدخّل سبحانه بمقدار ما يستحقون لرفع البلاء عنهم.

في عصرنا أصابتنا جائحة فيروس كورونا، الذي أثره أقل من الوباء الفتاك، ولكنه خطير... ورأينا الجماعات المختلفة من الأديان بمذاهبها وطوائفها، كلّ واحدة منها تدّعي أن الفيروس لن يصيبهم هم لوحدهم لأنهم لوحدهم المؤمنون الحقيقيون والبقية لا قيمة لدينهم ولا لإيمانهم... وقد ثبت بالدليل القاطع أن الفيروس لم يميز أحداً، أصلاً لم يتدخّل سبحانه لحماية أي جماعة، لأن كلّ مجتمعات البشرية من مختلف الأديان أفسد من بعضها، والمجتمعات الأقل ضرراً هي التي تتمتّع بحكومات يرضى عنها تعالى، وليست فاسدة...

في مسألة دخول جنة الآخرة نتمتّع في غالبيتنا بنفس العقلية، تأتي آيتنا هنا كدليلٍ قاطعٍ أن دخول الآخرة يحصل عن جدارة الإيمان والعمل الصالح، وليس بمجرد الادّعاء أننا منتمون لدينه تعالى.

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ{215})
من هنا تبدأ الآيات بذكر أشياء مهمة في حياة المتدين الذي يريد معرفة الطريق الحق، ولا يريد الوقوع في أخطاء الأمم السابقة، ومن اللطافة أن تأتي بعض هذه الأمور كجواب لسؤال صدر من المسلمين، فليس بالضرورة أن يكون السؤال قد صدر فعلاً منهم، بل وكما يقولون: لسان حال من يريد السير على الخير ومعرفة ما يرضيه تعالى فسيسأل هذا السؤال:

{يسألونك}، يعبّر لك المسلمون عن إرادتهم للحصول منك على معلومة أيها النبي (ع): {ماذا ينفقون}؟ ماذا يصرفون كتقدمة منهم للمحتاجين، فهل يجب أن يكون الإنفاق من المال أو يمكن أن يكون من الطعام أو الثياب أو الماء... فهل

الأشياء الأخرى غير المال هي إنفاق؟ ... وماذا ينفقون؟ وماذا نقدّم لغيرنا حتى يتسجّل لنا أننا أنفقنا كعملِ خيرٍ في سبيله تعالى ونكسب عليه حسنات؟

هنا السؤال حصراً عن نوعية ما ينفقون منه فسيأتيك بعد قليل في السورة السؤال عن الكمية التي ينفقونها {العفو}.

قل أيها النبي (ع) لهم عبر هذا القرآن:

{ما أنفقتم من خير}، بكل أشكال ما هو موصوف بأنه خيرٌ جيدٌ حسنٌ له قيمة ومحترم، سواء أكان مالاً أو طعاماً أو لباساً... فليس مهماً تحديد ما تنفقونه بل مجرّد كونه خيراً كشيءٍ يجد الناس فيه خيراً لهم فهو إنفاق يرضى عنه تعالى ويعطي عليه حسنات، ولكن ليكن إنفاقه على هذا الترتيب:

{فللوالدين}، وهما الأب والأم، {والأقربين}، وهم الأخوة والأخوات والأعمام والأخوال وأبناؤهم... {واليتامى}، وهم الصغار الذين فقدوا من كان يعيلهم فصرف عليهم، {والمساكين}، وهم عموم الذين أحوالهم المالية متعثرةٌ، بداية من درجة الفقر المدقع حيث لا يملكون الطعام أو اللباس أو المسكن، وصولاً إلى الذين يملكون بيتاً أو أرضاً أو متجراً ولكن حالتهم المادية متعثرة وصاروا بحاجة للمساعدة، {وابن السبيل}، ابن المسلك الطريق، وهو الشخص الذي أجبرته الظروف على البقاء بعيداً عن بلده، وساقته السبل الطرق إلى بلدك، فربما يكون غنياً في بلده، ولكنه الآن في بلدك يحتاج للمساعدة.

{وما تفعلوا من خير}، وأيُّ عمل موصوف بأنه خيرٌ جيدٌ نافعٌ للناس تقومون به، سواء أكان مالياً سكنياً اجتماعياً تعليمياً... فالمهم أن يكون خيراً، ففيه منفعة ومصلحة للناس ولا يكون شراً، ويحتاج إليه الناس كشق الطرقات أو تنظيفها أو بناء المدارس أو الجوامع... فإن الله به، بعملِ الخيرِ الذي قمتم به، {عليم}، فسبحانه يعلم كل شيء بالتفصيل، فلن يذهب أي عملِ خيرٍ تقومون به من دون تسجيله تعالى له، وعملياً هذا يعني أنه تعالى سيثيبكم عليه.

التوجيه الإلهي لكم ما يلي: إن كلّ عملِ خيرٍ يحتاج إليه الناس فهو إنفاق في سبيل الله تعالى، ولكن مع الأولوية في الإنفاق على الأهم فالمهم والذي بعده إذا تساوت حالة الحاجة بينهم، فالبداية تكون مع الوالدين ثمّ الأقربين... هذا الترتيب إن لم يكن حالة واحدٍ منهم حرجة جداً أكثرَ من الآخرين، ففرضاً ابن السبيل الذي هو في آخر الترتيب كان وضعه مزرياً حرجاً أكثرَ من الآخرين، فيجب مساعدته أولاً.

ضع في بالك آيتنا هنا فهي وصّفت عامةَ الإنفاق بأنه حصراً مما هو خير، وهذا عنوان واسع جداً يشمل كل ما نحتاجه وموصوف بالخير، وقد استفدنا من ذلك لفهم ما ننفق للزكاة، فلا معنى لحصر كلام الآية هنا عن نوع ما ننفق منه لخصوص الصدقة مفصولة عن الزكاة، فكلاهما إنفاق وإيتاء وإعطاء... وبناء عليه فلا معنى لحصر الزكاة في الأشياء التي كانت موجودة في مجتمع الرسول (ع) ومعتمدة كوجبة "القمح والشعير والتمر والزبيب"، فما معنى وجوب الزكاة في التمر واستحبابِه في الذرة في كندا؟ حيث لا تمر والاعتماد على الذرة في معيشة الناس. ومثله السؤال عن استحباب زكاة الأرز في الهند والصين وما بينهما من بلدان تعتمد الأرز كوجبة أساسية، ولا تعتمد التمر ولا الزبيب.

تلاحظ القرآن يترك هامشاً تشريعياً واسعاً للمرونة في كل ما يمكن تركه للناس ليناسب زمانهم ومكانهم وأعرافهم، ونادراً ما دخل في التفاصيل، وأصلاً نادراً ما تكلّم عن التشريعات واكتفى بذكر أمّهات الأمور وأخطرها وأشدها أهمية، ورغم ذلك فقد ذكر لنا كل الأساسيات التي نحتاجها، وخذ مثلاً عنوان الأمانة والوفاء بالعهد، فهما أساسان في كل المعاملات من إجارة وشراكة وزواج...

نفس الشيء بكلامه عن الزكاة فلم يذكر عنها أي شيءٍ تفصيليٍ، لأنه تعالى تقصّد ترك هامشِ مرونةٍ يتناسب مع مختلف ظروف الناس في البيئات والأزمنة المختلفة، ولذلك فهمنا من عنوان {خير} هنا أنه وصف لعامة ما ننفق منه ومن ضمنه الزكاة، مع مراعاة خصوصيةً للزكاة كضريبة واجبة عندما يصير معك ما يفيض عن حاجاتك... وسيأتيك الكلام بعد قليل في الآية 219 عن الكمية التي ننفقها عموماً ومن ضمنها الزكاة.

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ{216})

{كتب} عليكم، سجّل تعالى فقرّر تعالى عليكم، {القتال}، أن تعملوا على إنهاء حياة الآخرين طبعاً إذا هم قرروا قتالكم، فالكلام هنا عن أنه تعالى لم يسمح لكم بالاستسلام أو الهرب على أساس أنكم مسالمون، لا، فإذا تعرضتم للاعتداء فيجب أن تقاتلوا، وتجد العديد من التفاصيل عن ذلك في مختلف السور، {وهو كره لكم}، فأنتم تنفرون من القتال ولا تريدونه، وهذا مديح قرآني لهذه النفسية الكارهة للقتال، مما يعني أنهم صاروا في حالة الاعتداء عليهم وبأمر منه تعالى فهم مجبرون على القتال.

{وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم}، ومن المحتمل المرجّح ولكن غير الأكيد، أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، فبشكل عام من المرجّح أن تكرهوا الحربَ لأن فيها الموتَ والجرحَ... هذه أمور غير جيدة ولكن ربما الخير والإفادة من القتال، فهذا مرجّح، فالخير في القتال أنكم إذا انتصرتم فلن يفرض الآخرون إرادتهم عليكم... ولن يسلبوكم حقوقكم... ولكن هذا غير أكيد لأن بعض الناس يسقطون في سلوكيات منحرفة محرمةٍ أثناء الحرب، وبعضهم يصير جباراً باغياً بعد الانتصار...

بشكل عام أيضاً: {وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم}، فمن المحتمل المرجّح غير الأكيد، أن تحبوا شيئاً، فترغبوا أن لا تقاتلوا، وهو شرٌ لكم، فتكون نتيجته في الأخير شراً وسوءاً، وأيضاً هذا وارد مع أنه غير أكيد فهناك احتمال أن يفرض الآخرون إرادتهم عليكم لتكونوا مثلهم مخالفين لدينه تعالى.

تركت الجملة هامشاً واسعاً لوصف مختلف الحالات، تصوّر لو أنها عبّرت عن أمر إلهي للمؤمنين بالقتال دائماً على عموميته، فهذا سيعني أننا حتى لو كنا أضعف بكثيرٍ من عدونا ولا أمل لنا بالنصر، فيجب أن نقاتل حتى نموت كلنا ولا مجال للسلم بمعاهدة أو الهجرة أو الاتفاق على حكم ذاتي أو... وهذا غير صحيح. أو تصوّر لو أن عدونا يعرض علينا السلم الدائم مقابل ضمانات متبادلة... ففرضاً أنه لم يعادنا كرهاً لنا بل خوفاً منا، فهل نقاتله؟ فالآية هنا توجّه كلامها للحالة النفسية للمؤمنين الذين من المفروض أن يكونوا بالأصل كارهين للقتال، فهذه هي نفسية المؤمنين الحقيقيين فهم ليسوا دمويين، وتخبرهم أن يضعوا مشاعرهم هذه جانباً عندما يصيروا أمام حالة واحدةٍ من خياراتها القتال، فلا يكن حبكم أو كرهكم للشيء هو المعيار، فكونوا عمليين ناظرين للخيرِ والشرِ في الأمور. ستجد في مختلف السور بعض التفاصيل لهذه الأمور وبالخصوص ما ورد في سورة براءة.

{والله يعلم وأنتم لا تعلمون}، فالأمر بالقتال جاءكم ممن يعلم بالأمور أكثر منكم، فعن علم بنتائج حكيمة للأمر بالقتال جاءكم الأمر منه تعالى بقتال الأعداء.

كراهيةُ القتال مبنية على أساس الكلام مع أناسٍ مؤمنين، لا رغبة لهم في أعمال تنهي حياة الآخرين بسبب تمييزهم للخير من الشر وكرههم للشر وهذا هو نفسه سبب إيمانهم بدينه تعالى لأنهم يتماشون معه، فالكلام عن كره القتال ليس مع المجرمين المدّعين للتدين، فهؤلاء غرامهم في الاعتداء على الآخرين، ولديهم فتاوى وتفاسير للقرآن على هواهم. من ناحية ثانية فهناك الكارهون للقتال بسبب جبنهم وتعلّقهم بالدنيا...

تلاحظ الأسلوبَ القرآني، فنحن لو قمنا بإعادة صياغة القرآن على طريقتنا البشرية، لرتّبنا الآيات التي تبدأ بـ {يسألونك} مع بعضها، ولكن الصياغة الإلهية بعثرت هذه الجمل وفرّقتها، وهي أربعَ عشرةَ جملةً قرآنية تبدأ بكلمة {يسألونك}، فلو وضعت هذا الأسلوبَ في بالك، وضممت إليه العديد العديد مما قد يخطر ببالك إعادة ترتيبه، لانتبهتَ بسهولة من الأسلوب أن القرآن من صياغة بعيدة كلّ البعد عن طريقة صياغة البشر، فعن قصد جعل تعالى صياغة القرآن بعيدة كلّ البعد عن طريقتنا نحن في صياغة الكلام، مع الاحتفاظ بظهور المعاني التي يريدها تعالى وبدقّة، وإلا فلولا هذه الفروق ولولا التميّز الواضح للأسلوب القرآني عن كتبنا التي نؤلّفها نحن، فكيف سيتميز كلامه تعالى عن كلامنا؟ وكيف سنميزه عن كلام النبي محمد (ع)؟

التفتْ أنه بنظرة سطحية لما ستراه في القرآن من تبعثر للمعلومات، كتبعثر {يسألونك}، وكبتبعثر قصصِ الأنبياء، فهذا يعني أننا لم نصل إلى مستوى التماشي مع فهم موضوع السور، وسترى في دراستنا هنا تحليلاتٍ "جيدةً ومقبولةً ووسطاً وضعيفةً" عن أسباب اختيار هذه السورة لذاك الجانب من قصةِ نبي ما، وسبب اختيار سورة أخرى جانباً آخرَ

من قصةِ نفس النبي، فقد استحكمت فينا النظرة السطحية وتقطيع فقراتِ السور وفصل ترابطها، والأسباب عديدة، أبرزُها آخر موضة لتفسير القرآن تفسيراً موضوعياً، بحيث يتم تسمية موضوعٍ محددٍ ويتم ربط كل ما يتعلّق به من كلّ السور، وليس في هذا الأسلوب مشكلة، فهو مما قصده القرآن بالكلام عن دراسته، إلا أن المشكلة أنهم بنوه على أساس إلغاء وحدة موضوع كل سورة، فتقسمت السورة لفقراتٍ لا علاقة بينها، وبنوا بدلاً منها علاقةً لفقرة ما في هذه السورة مع فقرة في سورة أخرى، مع فصل كلّ فقرة عن سورتها ومحيطها!

ألفتُ انتباهك لمحاولات عديدة في عموم كتب التفاسيرِ لربط فقرات كل سورة مع بعضها، وبرز من هذه المحاولات بعض الأمور الجميلة الرائعة، ولكن العقلية التي تحكمت بعموم المفسرين، كانت عقلية تبعثر نزولِ آيات نفس السورة على سنين يتخلّلها نزول متبعثر لآيات من سور أخرى، وعقلية الناسخِ والمنسوخِ، وعقلية التفسير الموضوعي المبني على تقطيعِ فقرات السور... وعقلية الابتعاد عن ظاهرِ وترابط الآيات بسبب الاعتماد على الروايات... وبعض الروايات التي أخرجت الآيات عن محيطها لتجعلها محصورة في فلان من الناس أو في حادثة... وغيرها العديد من الأسباب التي منعت خروج نتائج أفضل مما هو موجود بالنسبة لفهم موضوع ومحور كل سورة، ودراستنا هذه وبسبب اعتمادها التامّ على وحدة موضوع كل سورة، فأظنّ أن النتائجَ أفضلُ... ولكن لا يزال فيها خلل ناتج عن محدوديتي في بعض المجالات التي لم أختبرها أو لم تنل وقتاً كافياً لدراستها... وناتج عن قلّة تراكم معلومات مفيدة من التفاسير السابقة للاستفادة منها لتحديد محور كلام كل سورة.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{217})

{يسألونك}، يعبّر لك المسلمون عن إرادتهم للحصول منك على معلومة أيها النبي (ع): عن {الشهر الحرام قتال فيه}؟ هل يجوز قتال الأعداء فيه؟ أم نتركهم يقاتلوننا ونحن لا نرد أو نهرب؟ أو لا نُبادرهم بقتال في شهر حرام؟

هناك أربعة أشهر من السنة القمرية وهي: محرم، رجب، ذو القعدة وذو الحجة. كان محرماً ممنوعاً فيها القتال بين العرب "بشكل عام"، والمسلمون عامةً يسألون الرسول (ع): هل نحن المسلمون نقاتل في هذه الأشهر أم نلتزم بها مثل بقية الناس؟ الجواب:

{قل}، أيها الرسول (ع) لعامة المسلمين عبر هذا القرآن: {قتال فيه كبير}، نعم ولتكن أكبر المعارك في الأشهر الحرام فلا مشكلة، "طبعاً إذا اضطررتمْ كما نعلم من آيات أخرى"، فهناك أشياء قد فعلها الكفار هي أكبر من حرمة القتال في الأشهرِ الحُرُم.

{وصد عن سبيل الله}، فمن يرد من الناس المشي على المسلك الإلهي فهم يقومون بمنعه، {وكفر به}، إنكارٌ لوحدانيته سبحانه، وإنكارٌ لِدِينِهِ تعالى...

{وصد}، ومنع عن، {المسجد الحرام}، عن الكعبة وباحتها وتوابعها، فالكفار قاموا بمنع المسلمين من أداءِ مناسك الحج والعمرة.

{وإخراج أهله منه}، طرد وتهجير المسلمين من سكان المسجد الحرام إلى خارج مكةَ.

نتذكرُ أن المسجد الحرام هو الباحة الكبيرة التي حول الكعبة والتي تضم الصفا والمروة وزمزم... فتلك الباحة لها حرمة فلها مكانة واحترام، فالقتال فيها والسباب والمجادلة... كله ممنوع، باعتبارها ساحة لما اعتبره ربنا سبحانه بيتاً ليعبده الناس بقربه.

فكل ذلك حصل منهم في عموم أشهر السنة ومن ضمنها الأشهرُ الحرامُ، من قتال هم يبادرونكم به، وكفر وصدّ وإخراج فهو، {أكبر عند الله}، أكبر من حرمة القتال في الأشهر الحرم، فبالمقارنة بين ما يفعله عدوكم الذي لم يُراعِ أي حرمة للأشهر الحرام فقاتلكم فيها، ولم يُراعوا حرمة لله تعالى فكفروا به تعالى، ولا لدينه فقد صدّوا الناس عنه، ولا للمسجد الحرام فقد صدوكم عن الحجّ، ولا لكم فقد هجّروكم من بلدكم... ومعلوم بالبداهة أن هذه الأعمال العدائية حصل البعض

منها في الأشهر الحرام، وكل ذلك أكبر عنده تعالى من حرمة القتال في الأشهر الحرام، فحتماً يجوز بل يجب قتال هذه النوعية من الناس في الأشهر الحرام لأنهم أصلاً لم يتوقّفوا عن الأنشطة العدائية فيها.

فالقاعدة الأساسية أن الطرف الآخر إن احترم الأشهر الحرام، فلم يقم بأي نشاط عدائي فيه، فيجب عليكم أيضاً أن تتوقّفوا عن أي نشاط عدائي ضدّه في الأشهر الحرام، وأمّا غير ذلك فبما ترونه مناسباً تتصرفون به مع عدوكم حتى لو كان قتالاً كبيراً سيحصل في شهر من الأشهر الحرام.

{والفتنة أكبر من القتل}، فما يفعله عدوكم من تعريضكم وتعريض بقية المؤمنين للفتنة للضغوطات للامتحانات حتى تتركوا الإيمان والصلاح، فهذا أكبر من قتالكم لهم، فبمقارنة قتالكم لهم في الأشهر الحرام مع الفتنة التي فعلوها من قتلكم وصدّكم وكفرهم وتهجيركم... فهذه الفتنة أكبر من قتالكم لهم في الأشهر الحرام. لو قستم حرمة القتال في الشهر الحرام مع فظاعة ما يفعلونه لرأيتم أنه لا مقارنة بين الاثنين، فانتهاك حرمة الأشهر الحرم لا شيء أمام ما يفعلونه.

{ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم}، فهم لن يتوقّفوا عن الأنشطة القتالية التي تنهي حياتكم حتى تتراجعوا عن تدينكم بهذا الدين الإلهي، {إن استطاعوا}، فأي قدرة متاحة لهم ليجعلوكم تتراجعوا عن دينكم فسيستعملوها. أنتم تواجهون عدواً يستعمل كل الطرق والأساليب حتى يجعلكم تتركون دينكم، ويفعل كل السيئات والممنوعات، والبعض منكم ما يزال يسأل عن جواز القتال في الأشهر الحرم!

{ومن يرتدد}، من يتراجع منكم، عن دينه، عن الالتزام بما عليه من تبعات لكونه عبداً لله تعالى، {فيمت وهو كافر}، فتنتهي حياته وهو في حالة إنكار لدينه تعالى تارك للإسلام، {فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة}، فالأعمال التي قاموا بها عندما كانوا مسلمين قبل أن يرتدّوا فإنها ستحبط فستفقد قيمتها، فحتى لو كان قد صلّى وصام وزكّى وقاتل... لعشرات السنين ولكنه ارتد عن الإسلام ومات وهو مرتدٌّ، فكل أعماله السابقة قد انهارت وفقدت قيمتها ولن يأخذ عليها ولا أي حسنة، لا هنا في الدنيا سيكون لإيمانه السابق قيمة، فلن يعامله تعالى على أساس أنه كان مؤمناً فلن يراعيه، بل سيأمر المسلمين بمعاملته على حالته الحالية وهي الكفر، ولا في الآخرة سينفعه إيمانه السابق، لأن الأعمال الحسنة السابقة التي قام بها قد حبطت، ففقدت قيمتها.

أولئك، المرتدون عن الإسلام هم، {أصحاب النار}، هم الرفقة المجموعة التي ستدخل النار، وهم فيها، في النار، {خالدون}، لا يخرجون منها أبداً، ولن يموتوا ولن يفنوا وهي النار لن تخرب النار.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَـئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{218})
إن الذين {آمنوا}، الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين، والذين {هاجروا}، وتركوا بيوتهم وأملاكهم وأشغالهم، وهجروا وغادروا بالمرة البلد الذي كانوا فيه. سياق الكلام عن هجرتهم لأنهم كانوا ممنوعين من الالتزام بدينه تعالى في بلدهم، فتخلوا عنه ليحافظوا على دينهم. {وجاهدوا}، فقاموا بمجهود وبعملٍ فيه جهد فيه صعوبة. سياق الكلام يشير إلى قيامهم بعمل شاق قتالي في سبيل الله، في مسلك ضمن ما أمرهم به الله تعالى، ولم يرتكبوا السوء أثناء جهادهم، ولم يعتدوا أو يقتلوا الأبرياء...

أولئك الذين بهذه الصفات، {يرجون} {رحمة الله}، فيحبون مع توقعهم لحصولهم على عناية منه تعالى فيها مصلحتهم من نصر ومغفرة وثواب...

الله {غفور}، وسيغفر لهم ذنوبهم التي كانوا ارتكبوها، ويتجاوز سبحانه عنها لأنهم {آمنوا} و{هاجروا} و{وجاهدوا}.

الله {رحيم}، ولديه تعالى عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، وأبرز تطبيقات تلك الرحمة الخاصة هي مغفرة الذنوب ومضاعفة الحسنات والهداية...

القرآن استعمل صفة {الرحمن} ليصف عنايته تعالى لما فيه مصلحة مخلوقاته عموماً، واستعمل صفة {الرحيم} ليخبرنا أن المؤمنين لهم عناية خاصة لما فيه مصلحتهم خصوصاً؛ فالآخرون بقرار منهم خرجوا من مظلة الرحمة

الإلهية ولذلك صار للمؤمنين عناية خاصة، والمغفرة وتكفير الذنب ونور البصيرة والقلب... يحصل عليها المؤمنون فقط...

الخمر "والمخدرات" والقمار
(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ{219})
{يسألونك}، يعبّر لك المسلمون عن إرادتهم للحصول منك على معلومة أيها النبيُّ(ع)، عن {الخمر}، وهي من أبرز النماذج عن المسكرات التي تسبب فقدان التحكم بالعقل، ويسألونك عن {الميسر}، وهو القمار بشكل عام، ومن أشهر طرقه القديمة هي السباقات بالخيل واللعب بالقداح و{الأزلام}... فالميسر يشمل المراهنة والقرعة، فالمراهنة مثل الرهان على الرابح في سبق الخيل أو السيارات أو مباريات كرة القدم... ويشمل القرعة كاليانصيب واللوتو في أيامنا، وقديماً كان اسم لعبة القمار بالقرعة: {الأزلام}.

اسمح لي أن أضع السؤال مثلما نسمعه من بعض الناس: لماذا حرمهما الدين مع أننا إذا استعملناهما بحكمة وتعقّل فسننتفع منهما! فما الضرر من تناول كمية صغيرة من الخمر حتى نشعر بالابتهاج والانتعاش؟ وما الضرر من القمار باللوتو إن كنت سأخسر مبلغاً صغيراً لن يضرني، وسيربح أحدنا مبلغاً كبيراً ويتحسّن وضعه المالي؟

قل لهم أيها النبيُّ(ع) عبر هذا القرآن: فيهما، في الخمر والميسر، {إثم كبير}، ذنب كبير يقوم به الإنسان عن قصد وهو يعلم أنهما سيئان، فمن يكن عقله معه فهو يعلم أنه عندما يشرب أو يتعاطى المخدرات أو يأكل أشياء تسبب السكر، فهو يعلم بأنه سيفقد السيطرة على تفكيره، ويعلم بأنه سيقوم بأشياء سيئة أثناء فقدانه للسيطرة على عقله، ولا يوجد شيء اسمه: أنا لا أشرب حتى أسكر، فأتوقف عن شرب المسكرات قبل أن أفقد عقلي. فلماذا تشرب إذاً؟ ولا بدّ أنه في يوم ما ستشرب حتى تسكر، والأنكى من ذلك أن أحدهم يكون فاقداً لعقله وأثناء ذلك يقول بأنه ليس سكراناً! ويفعل السوء والعيب، وبعدها يجادلك أنه حين يشرب فهو يسيطر على نفسه! فتحليل المسكرات والمخدرات بكميات قليلة لن يضبط أحداً ما عن يوم يفلت فيه الانضباط ويفعل السوء بل وليصير مدمناً...

ومن تبعات التراخي فيما هو معلوم من سوء كبير سينتج حتماً عن المسكرات والمخدرات، ورغم ذلك تعاطيها مع الادعاء عادة بالسيطرة على مستوى فقدان الوعي، فمن هذا ينشأ استهتار بالسوء الذي قد يفعله المخمور أو المنتشي من المخدرات، فبعض الجماعات المستهترة تفقد قيمة لكل شيء سيّء لأنهم متوافقون عالمون بأنهم سيفعلونه حين يسكرون أو ينتشون...

ومن يلعب القمار فهو يعلم أنه قد يخسر كل ماله ويصير مديوناً، أو قد يجعل بقية اللاعبين مفلسين ومديونين... ورغم ذلك لا يفهم أن تشريع حليّة القمار بمبلغٍ صغيرٍ لن يوقف الرغبة بالقمار بمبلغٍ كبيرٍ، وسيمارس الناس القمار حتى أن بعضهم سيفقدون كل مالهم وبيوتهم وأملاكهم... وتتدمّر حياتهم وحياة المرتبطين معهم، وإن كنت لا ترى ضرراً من القمار بمبالغ صغيرة للتسلية أو مقابل ربح كبير لن يضرّ الآخرين المساهمين بمبالغ صغيرة... فقد قابلت أشخاصاً مدمنين على القمار بالمبالغ الصغيرة جداً، لدرجة أنهم لا يراكمون المال لإنفاقه على القمار، بل يعملون يوماً واحداً ويقامرون بأجره وهم لا يملكون غيره! وفي اليوم التالي نفس الشيء... ويفضلّون القمار بهذه المبالغ الصغيرة على حاجات أولادهم، بل حتى على طعامهم هم شخصياً!

فيهما، {منافع للناس}، ففي الخمر منافع فقد استعملوه كمخدر لإجراء العمليات الجراحية منذ بداية اكتشافه إلى عهد قريب من الحرب العالمية الأولى... واستعملوه لمساعدة بعض الحالات النفسية العصيبة... وللمنفعة من القمار لنأخذ مثلاً اللوتو، فهي تجمع كميات صغيرة من المال من أناس كثيرين، وبعدها تكون الجائزة الكبيرة لشخص واحد، فينتفع ويصير ثرياً من دون أن يكون قد أضرّ بالباقين لأنهم دفعوا للمشاركة في القمار مبلغاً صغيراً جداً.

{وإثمهما أكبر من نفعهما}، لكن الإثم، السوء المعلوم سوؤه الناتج عن المسكر والقمار فهو أكبر من المنفعة، فلذلك فهما محرَّمان. فلو مرّةً واحدةً فقدت عقلك بسبب الخمر وارتكبت سيئة شنيعة، فزنيت حتى مع المحارم، وهذا ما نسمع

بحصوله في بيوت شاربي الخمر... ولو مرة واحدة جمحت في القمار وخسرت كل مالك واستدنت بالفائدة لتقامر، وهذا يحصل مع المدمنين على القمار، فهذه المرة الواحدة هي دمار شامل، وهي سبب كاف للابتعاد عن المسكرات والقمار.

انتبه، فلم يكن العرب عموماً يعرفون المخدرات "الحشيش والأفيون" فلم يكن تعاطيها معلوماً أو منتشراً بينهم، وكانوا يخمّرون عصير الفاكهة أو الحليب أو الدبس... حتى يصير خمراً مسكراً، ويبدو من التاريخ أنه بعد وفاة الإمام علي بدأ شراب الفقاع بالانتشار بشكل علني، وهو شراب الشعير المخمّر "البيرة"، فافتتن الناس بالفقاع، وشربوه على أساس أنه ليس خمراً! فقالوا بأنه ليس حراماً! وفي حينها العلماء والمؤمنون حقاً من المسلمين حرّموه ولم يشربوه، وقد واجهت الأمة الإسلامية فيما بعد أنواعاً عديدة من هذه المشاكل، مثل القات وحشيشة الكيف "القنب الهندي" والأفيون تدخيناً وشماً وحقناً، والمركبات الكيميائية التي تسبب فقدان السيطرة الكاملة على العقل بدرجات مختلفة، فبعضها خفيف وبعضها قوي جداً، فكان البلاء أمام هذه المسكرات أن الناس رغبت بها وحلّلتها! وقام بعض مرتدي اللباس الديني بتحليلها على أساس أن الحرام هو ما كان يصنعه العرب من الخمر، وأن القرآن برأيهم لم يحرّم عموم المسكرات، وأن أي شيء آخر غير الخمر حلال!

معلوم لك أن عموم كلام القرآن عن نماذج، ومعلوم أن المشكلة في الخمر هي حالة السكر، فيكون {الخمر} نموذجاً عن كل بقية ما يسبّب السكر، وبناء عليه فما كان كثيره مسكراً، فقليله حرام. فأي مادة سواء أكانت شرباً أو تنشقاً أو أكلاً أو لصقاً على الجلد أو قطرة في العين... أو بأي طريقة كانت، فستسبب الكميات الكبيرة منها "كوب كوبين حقنة..." فقدان السيطرة على التفكير، فالكمية الكبيرة حرام قطعاً، والكمية القليلة من تلك المادة هي حرام قطعاً.

لا يغرك أن الكحول يوجد بكميات قليلة في العصير الطبيعي للتفاح والعنب و... ، فتقول: كيف يكون شرب العصير الطبيعي حلالاً مع العلم بوجود نسبة ضئيلة من الكحول فيه؟ الجواب أن الحرام هو الطعام أو الشراب أو الغبار... الذي يسبب فقدان العقل، أمّا العصير، فحتى لو شربته بكميات كبيرة فإنه لن يسبب السكر، أمّا إذا كان هناك نبتة أو فاكهة تسبب السكر فهي حرام، حتى لو كانت طبيعية.

انتبه جيداً، فغير صحيح أبداً ما يقوله البعض في التفاسير والدراسات أن تحريم المسكرات كان تدريجياً، بل هي حرام في كل شرائع الله تعالى، ومن البداية كان النبي محمد(ع) يعلن بأنها حرام، ويكفيك ملاحظة ذكر {الميسر} مع {الخمر} في الآيات، فلماذا لم يتحدثوا عن التدرج في تحريم القمار! فلماذا اختاروا الخمر وتركوا الميسر مع أنهما معاً في الآيات! سأقول لك لماذا: لأنهم وجدوا روايات تتحدث عن شرب بعض المسلمين للخمر، فبرّروا لهم، وقالوا أن الشرب حصل أثناء التحريم التدريجي للخمر وقبل تحريمه نهائياً... ولم يجدوا روايات تتحدث عن القمار! ولو أنهم التزموا بالقرآن، لما استنتجوا التدرج في التحريم، ففكرة التدرج في تحريم الخمر ناتجة عن الروايات، وهذه مشكلة منتشرة بين المسلمين، فأكثر أكثر الروايات تجعلنا نوجّه معاني القرآن باتجاه غير صحيح. فإن صحّت تلك الروايات فيمكنك بسهولة أن ترى منها أن بعض المسلمين الأوائل ورغم علمهم بحرمة الخمر تعاطوه، وحصل معهم ما حصل، وأعاد تعالى التنبيه على حرمة الخمر في الآية 91 من سورة المائدة "{إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ}" مستفيداً مما وقع من حوادث من السكارى حتى نفهم عملياً سبب التحريم، وتكرار الكلام القرآني عن الخمر مرة هنا ومرتين في سورة المائدة لا يشبه أبداً تصويرهم للموضوع بضخامة التدرج في تحريم الخمر، فهنا جاءت الصراحة في منفعة ما منهما ولكن التحريم سببه الضرر الأكبر منهما، وهناك في الآية 90 من سورة المائدة "{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}" تكرار مع تصوير السوء بالرجس من عمل الشيطان، وبعدها في الآية 91 تبرير آخر لسبب تحريم الخمر والميسر... فأين التدرج في التحريم؟!

بقي شيء من نموذج التعلق بحرفية الكلام لتحريف الأحكام، فالمسكر كان في عهد الرسول(ع) شبه محصور بما ينتج عن التخمير للعصير والحليب... وعلى هذا الأساس أفتى البعض بأن حشيشة الكيف حلال لأن القرآن والرسول(ع) لم يحرّمها فلم يذكرها بالاسم، وهذه سخافة واضحة لأن الحرمة لما أسكر، لما أفقد السيطرة على العقل، والخمر هو النموذج المسكر الذي كان معلوماً في عهده (ع)، وتبرير تعاطي الحشيشة على أساس أنها لا تفقد السيطرة على العقل هو سخافة وتفاهة فقد رأينا نماذج من المتعاطين للحشيشة، ورأيناهم "مسطولين" لا يعون ما يقولونه، وللأسف تسمعهم

فيما بعد يدّعون أنهم لم يفقدوا وعيهم، وحتى حين يرون آخرين مسطولين من الحشيش يقولون لك أنهم هم لا يصلون إلى هذه الحالة من التسطيل!

مثل هذا الكلام ينطبق على {الزكاة} التي حصرها البعض بالنقدين الذهب والفضة على أساس أن العملة الورقية لم تكن موجودة في عهده(ع)، فقالوا إنه لا زكاة على العملة الورقية! بقي شيء مهم جداً انتبه له دائماً وسترى عجباً في قرآنه تعالى، سبحانه بشفافية وصراحة تحدّث معنا في كل المواضيع بدون استثناء، وبرّر عزّ وجلّ لكل ما قاله، فمن معلومة أنه تعالى الإله الواحد الأحد مروراً ببقية ما نسمّيه بالعقائد ومروراً بالتشريعات ووصولاً إلى أصغر تنبيه على سلوك ما، فكلّه بدون استثناء بشفافية عرضه تعالى ومع تبريراته وأدلته، وخذ مثالاً عن الشفافية في كلامه عن نفسه سبحانه أنه إله وواحد أحد، الكثير من الجمل التي ذكرت أنه تعالى رب وإله السماوات والأرض، وهما له، وله ملكهما، فقد كان الكلام بشفافية عمّا يعلمه تعالى ويراه أمامه، فيتكلم معنا سبحانه من رؤيته لكل ما هو موجود ويخبرنا بكل شفافية أنه لا يرى إلا نفسه فقط والبقية كلهم مخلوقاته، وترى هذا واضحاً في الآية 18 من سورة يونس "{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ؟! سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}"، وهكذا بقية المعلومات التي ذكرها تعالى في قرآنه عمّا يعلمه وعمّا فعله وعمّا قرّره، فهي معلومات نقلها لنا بشفافية...

هنا في الآية ترى نموذجاً عن الشفافية والوضوح في تشريعاته تعالى، فبكل صراحة وشفافية لم ينف المنفعة من الخمر والميسر، ولكن برّر لتحريمهما بالسوء الكبير المتوقّع منهما والمعلوم للجميع. {يسألونك}، يعبّر لك المسلمون عن إرادتهم للحصول منك على معلومة أيها النبي(ع): {ماذا ينفقون}؟

وقد مرّ معنا منذ قليل نفس السؤال، وكان الجواب هناك بذكر على من ننفق بالترتيب بحسب الأولوية، وقالت الآية أن كل أنواع الخير هي إنفاق، سواء أكانت مالاً أو ثياباً... فهناك كان الكلام عن نوعية ما يعتبره تعالى إنفاقاً وعلى من، وهنا أرادت السورة إعادة السؤال لتجيب عن شيء آخر متعلّق بالإنفاق.

قل لهم عبر هذا القرآن أن ينفقوا: {العفو}، قل للمسلمين أن يصرفوا فيقدموا المعفو عنه، ما لا يتوقّفون عنده ويمكنهم تركه وعوفه، فهو ما زاد عن حاجتكم، ما لا يضرّكم الإنفاق منه، فلا تنفقوا ما تحتاجونه وتصيرون أنتم بحاجة لمن ينفق عليكم، ولا تنفقوا مما يظهر أثر فقدانه عليكم كما ورد في الآية 29 من سورة الإسراء "{وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا}".

تلاحظ الآية هنا والقرآن عموماً لم يحدّد لا الكمية ولا النوعية للذي يأمرنا تعالى بإنفاقه، فقد ترك تحديد النوعية والكمية بحسب الظروف المناسبة لنا وللمجتمع، واكتفى بوصف الإنفاق المأمورين به بالخير والعفو، فإن كنت تملك ما تحتاجه لتعيش ولديك عفو فلديك فائض لا تتأثّر به إن فقدته، فأنت غني، فأنفق منه، وليكن من نوعية تصفها الناس بأنها خير، فيها خير لمن أنفقت عليه.

نلاحظ التفسيرات الأخرى المذكورة في الكتب للعفو، فهي لا تتماشى مع الإنفاق، وأبرز ما قيل هو العفو عن الحقوق التي لك على الناس، وصحيح أن هذا جيّد، ولكنه ليس إنفاقاً! فالسؤال عمّا ينفقون!

كذلك، وهكذا بما قالته الآية عن الخمر والميسر والإنفاق من العفو، {يبين}، يوضّح، الله لكم الآيات، فالأمور المميزة بنسبتها له تعالى قد بيّنها تعالى لكم بشكل واضح حتى تتعلموا دينه تعالى بشكل واضح، {لعلكم تفكرون}، فبعد أن بيّن لكم تعالى كلامه عن دينه بشكل واضح فمن المفترض ومن المتوقّع أن تفكّروا فتستعملوا عقولكم بالتفكير في هذه الأحكام لتروا أنها صائبة صحيحة حكيمة... وفي الآية التالية تكملة لجملة "{لعلكم تتفكرون}" {في الدنيا والآخرة}...

عندما يتكلم سبحانه عن تحريم الخمر والميسر وعن الإنفاق ويشرح بهذه الطريقة السلسة، فلم يقل تعالى: الخمر والميسر حرام. الإنفاق يكون من المال والطعام. بل جاءت الآيات بطريقة لطيفة تشرح وتوضّح، حتى نفهم ونفكّر، وننتبه للعلاقة بين السوء وأثره السيّء في الدنيا والآخرة، وتبين أن الإنفاق المأمورين به ليس مضراً لنا مالياً...

ننتبه، فيجب عليّ أن أفكر وأحرك ذهني عندما تقول لي الآيات أن أتفكر، فخذ مثلاً عن التفكير في هذه الآيات: هناك عدة آيات نبّهت أن القرآن إلهي المصدر، ولا يمكن أن يكون من تأليف البشر أو شيطانياً، فالبشر عندما يكتبون قوانينهم

فهم لا ينظرون للآخرة، بل يتبعون المزاج العام للناس، أو مزاجهم الشخصي، والشيطان لن يأمر الناس بترك الأشياء التي تضرهم، بل سيشجعهم عليها، فتحريم الخمر والميسر لأن إثمهما أكبر من نفعهما، والإنفاق بالصدقة وضمنا بالزكاة يكون من المال الذي يزيد عن حاجتك، فهو بالتأكيد تشريع إلهي... فهذه اللفتة هي واحدة من الأمور الكثيرة التي يمكننا التفكّر فيها.

للأسف ترى في أدبياتنا الإسلامية الشيء وعكسه، فمرةً نتبجّح بأن ديننا دين العقل والفهم والتفكّر، ومرةً نمنع أنفسنا والآخرين من التفكّر على أساس أننا بعد الإيمان بدينه تعالى فعلينا بالتسليم بالإيمان والعمل حتى بما لم نقتنع به وحتى بما رأيناه سيئاً!

هذه المشكلة لا يمكن أبداً بتاتا أن تنتج عن الالتزام بما يقوله القرآن، لأنه لم يذكر ولا أي شيء بدون تبريراته وأدلته، فالمشكلة تنتج مما يقوله الناس، وهم يدّعون أنهم متمسكون بالقرآن وسنّة الرسول(ع)، والمشكلة حتماً ليست مما قاله الرسول(ع)، بل بما فهموه هم مما قاله الرسول(ع)، مضافاً له أساس مشكلة إسقاطهم هم لقناعتهم على ما يقوله القرآن والرسول(ع)، مضافاً له مصيبة الكذب والدسّ والنقصان والتشويه... في المنقول عن الرسول(ع)... فمن هذه الأمور صار لدينا دين آخر مختلف عن الإيمان بما عرضه القرآن بشكل واضح مع أدلته "آياته"، ومختلف عن العنوان الوصفي العام للشريعة والسلوكيات بوصفها بالعمل الصالح، فصار لدينا فتاوى نراها سيئة ورغم ذلك يجب علينا الالتزام بها!

هناك أمور متعلقة بكلام الآية هنا بتحديدها لما ننفقه بوصفه {عفو}، أهمّها أنها حدّدت الصدقة من مال أو أملاك يمكنك الاستغناء عنها، فلا تسبّب لك ضرراً إن تصدّقت بها، وطبعاً لا تقصد الأشياء التي تنوي رميها، بل تقصد أن لا تصير أنت بحاجة للمساعدة بعد أن تتصدّق على الآخرين، وأن لا تتأثّر حياتك بما أنفقته.

{العفو} هو المقياس القرآني للزكاة الذي التزم النبي(ع) بتطبيقه بنسبة تراوحت بين الاثنين ونصف من المئة إلى العشرة أو العشرين في المئة، مما يجب الزكاة عليه عندما تكون الكمية أو العدد فوق حاجتك لمدة تفوق السنة، فيمكنك بسهولة دفع الزكاة ولن تتأثّر معيشتك لأنك مأمور بدفع العفو فقط وفقط.

تحديد نسبة المدفوع أو الكمية التي يصير الزكاة فيها واجباً، فقد تركه تعالى عن قصد ليكون تحديدها مناسباً لمختلف المجتمعات، ففي مجتمع يكفي ألف دينار فيه للعيش براحة لمدة سنة، فمالكها غني وعليه زكاة فيما زاد عن الألف، وفي مجتمع آخر لا تكفي العشرة آلاف دينار للعيش فيه بكرامة لمدة سنة، فهذا ليس عليه زكاة، ويبدو من سيرة الرسول أن الضريبة "{الزكاة}" تصاعدية، فنسبتها مختلفة بين متوسطي الحال وبين الأثرياء الذين لن يتأثّروا بدفع نسبة 20 بالمئة مما تجب فيه الزكاة بسبب غناهم الفاحش.

ما هو دارج في بعض الفتاوى لدفع الزكاة حتى مما ادخرته لتشتري بيتاً أو لتدخل في مشروع تجاري أو... فهذا في بعض الأحيان قد يكون منافياً للوصف بالعفو، ولذلك لم يحدّد تعالى أي نسبة واجبة لأنها ستكون عمومية لكل الأزمنة والأمكنة والأشخاص، وهذا غير معقول، وحتى في زمن الرسول(ع) وما بعده في زمن الخلفاء نقلوا روايات فيها اختلاف واضح في نسبة الزكاة على نفس الشيء، وهذه الروايات تعكس لك تخفيضات جرت في نسبة الزكاة لبعض الأشخاص بسبب ظروف مختلفة... وهذا يتوافق مع الوصف القرآني لكل ما ننفقه بأن يكون من {العفو}.

(فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاء اللّهُ لأعْنَتَكُمْ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{220})
... {تتفكرون}، {في الدنيا والآخرة}؛ هذه الشروحات من المفروض أن تجعلكم تفكروا في سبب حرمة هذه الأشياء بسبب سوئها عليكم في الحياة هنا، وأثر سوئها عليكم في الحياة الآخرة.

{يسألونك}، يعبّر لك المسلمون عن إرادتهم للحصول منك على معلومة أيها النبيُّ(ع): عن {اليتامى}، عن الصغار الذين فقدوا من يعيلهم.

في بعض المجتمعات عندما يموت الأب فزوجته وأولاده يصيرون تحت رحمة الأقوياء في العائلة أو في المجتمع، ويتسلط أبو الزوج أو أخوه أو الزعيم... فيتسلط على الأرملة وعلى أولادها، ويصيرون بلا إرادةٍ، فيقررون عنهم مصيرهم المالي والتعليمي والزواج...

قل أيها النبيُّ(ع) للمسلمين عبر هذا القرآن: {إصلاحٌ لهم خيرٌ}، فلا مشكلة في التدخل في شؤونهم ولكن للإصلاح وليس للإفساد، فالتدخل لإصلاح شؤونهم المالية والاجتماعية... هو عمل خير مطلوب منكم.

{وإن تخالطوهم}، تتعاملوا معهم على أنهم من نسيج مجتمعكم، {فإخوانكم}؛ فهم مشاركون لكم في الإنسانية والدين، هم أنداد لكم مثلكم مثلهم ولستم تخترعون شيئاً جديداً إذا تعاملتم معهم كما تتعاملون مع بقية الناس. لا تنبذوهم "فهم ليسوا حرفاً ناقصاً"، وأصل فكرة أنهم أيتام وأنهم صاروا أقل منكم أو صاروا غيركم لتتعاملوا معهم بفوقية أو استهتار... أو بطريقة مختلفة عن تعاملكم مع الآخرين... أصلاً هذا غير صحيح فهم إخوانكم، هم مثلهم مثلهم، لهم كامل حقوقهم واحترامهم.

سبحانه عندما يقول لكم إنّه يسمح لكم بالتدخل في شؤون الأيتام فانتبهوا، {والله يعلم المفسد من المصلح}، الذي يقوم بأعمال صالحة لمصلحة الأيتام، ويعلم الفرق بينه وبين {المفسد}، الذي يتصرف في شؤون الأيتام بشكل فاسد مضرٍ لهم؛ فأنتم تحت المراقبة.

بعض الناس يطمعون في أملاك الأيتام، ويطمعون في البنات الأيتام... فيتسلطون عليهم، ويأكلون أموالهم... هنا الآية تقول بوجوب العناية بهم، ووجوب معاملتهم معاملة أخوةٍ دينية إنسانية.

{ولو شاء الله لأعنتكم}، لجعل معاملتكم مع الأيتام أشدَّ عليكم، أصعب؛ فيمكنه منعكم من أخذ الأجرة على الاعتناء بهم، أو منعكم من الأكل من طعامهم نهائياً حتى لو استضافوكم... ولأوجب عليكم خدمتهم مجاناً، ولأوجب عليكم أن يكون حالهم أفضل من حالكم فتقدموا لهم أموالكم حتى يصيروا مرتاحين أكثر منكم...

{إنَّ الله عزيزٌ}، فأصلاً لا يفرض الآخرون عليه تعالى أي شيء، وهم كلهم أذلاء أمامه. عملياً هنا لا يحتاج {العزيز} إليكم لمساعدته في الأيتام، ولا يؤثر عليه الموضوع أصلاً؛ فلا تظنوا بأنكم تنفعون الله تعالى عندما تقومون بواجبكم مع الأيتام، لأنه تعالى لا ينتفع بشيء ولا يضره شيء ولا يحتاج لشيء... هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى {العزيز} بمعنى العزة المطلقة، القاهرة، العظيمة... فيجب علينا إطاعته عندما يأمرنا بالعناية بالأيتام، فبعزّته هو تعالى قادر على محاسبتنا ومعاقبتنا وإثابتنا... فنحن أذلاء أمامه تعالى.

وهو {حكيمٌ}، فيرى الصوابية في الأمور وقراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب، وقراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء. بالتساهل نقول إنَّ أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنّه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فلا يفعل لغاية له سبحانه. فعندما أمركم بالإصلاح في معاملة الأيتام "مع التهديد لمن يعاملهم معاملة فاسدة"، ولم يفرض عليكم الاهتمام بهم بشكل يسبب لكم التعب والمشقة كأن تعاملوهم باهتمام أكثر من اهتمامكم بأولادكم... أو أن تعملوا على إدارة مصالحهم بالمجان مع ضمان الخسارة حتى في الظروف القاهرة... هذا القرار واضح أنّه عن حكمة.

ربما تكون أنت في مجتمع يهتمّ بالأيتام فتستغرب كلام الآية، ولكن خذ علماً أنَّ الكثير من المجتمعات تهمل الأيتام وينبذونهم... وبعضها يعاملهم بفوقية تصل إلى حدّ الاستعباد... ومن أبرز أشكال الفساد في معاملة الأيتام في عصرنا هو جمع التبرعات باسم الأيتام وسرقتها واغتصابها ونصبها عليهم؛ فبعضهم نصابون محتالون يأكلون كلَّ ما يجمعونه باسم مساعدة الأيتام والفقراء، وآخرون يعطون الأيتام والفقراء القليل مما جمعوه ويتملّكون الباقي لأنفسهم، ويبررون لأنفسهم أنّهم لولا جهودهم لما حصل الأيتام على أي شيء، علماً أنّه تعالى أجاز لمن يعمل على مساعدة الأيتام والفقراء أن يأخذ أجرة، ولكن بأي حقّ يصير وضعهم المالي مرتاحاً أكثر من وضع الأيتام! فأي أجرة هذه التي تفوق أجرة رئيس وزراء أو أجرة مدير شركة عالمية!

(وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ{221})

{أيها الذين آمنوا}: {ولا تنكحوا المشركات}، اللاتي يعتقدن بآلهة غيره أو معه، تعالى، فلا تقيموا معهن ما يتضمّن إقامة علاقة جنسية، وهذا ما تعنيه كلمة نكاح وتصير بتعبيرنا الحالي: فلا تتزوجوهن، حتى {يؤمنَّ}؛ فإذا اعتقدن أن الإله هو الله تعالى لوحده والتزمن بدينه، فعندها لا مشكلة في الزواج بهنَّ. {ولأمةٌ}، وهي المؤنث للعبد، وهي المقابل للحرة لأنها فاقدة لحريتها ومفروض عليها طاعة غيرها، وهي في عرف الناس الأنثى المملوكة، {مؤمنةٌ}، معتقدة بالله تعالى إلهاً أحداً وملتزمة بدينه تعالى، {خيرٌ من مشركةٍ}، فهي موصوفة بأنها أحسنُ من التي تعتقد بأنه تعالى عنده شركاء في الألوهية، {ولو أعجبتكم}، حتى لو كان تقييمكم للمشركة في نظركم أنها أجمل أو... من الأمة المؤمنة، فالأمة المؤمنة خير منها.

{ولا تنكحوا المشركين}، فلا تزوِّجوا بناتكم للمشركين، للمعتقدين بوجود شركاء في الألوهية له تعالى، حتى {يؤمنوا}؛ فإذا اعتقد المشرك بالإلهِ الأحدِ والتزم بدينه تعالى فيمكن لكم تزويجُهُ ابنتكم.

{ولعبدٌ}، وهو الرجل الفاقد لحريته، المفروض عليه طاعة غيره، وفي عرف الناس هو الذكر المملوك، {مؤمنٌ}، {خيرٌ من مشركٍ}، من رجل حرّ غير مستعبد ولكنه يعتقد بأن الله تعالى له شركاء في الألوهية، {ولو أعجبكم}، فحتى لو كان تقييمكم للمشرك أن شكله أجمل أو أغنى أو حرّ... فالعبد المؤمن خير منه للزواج به.

{أولئك}، المشركون والمشركات بالله تعالى، {يدعون إلى النار}؛ فبزواجك من مشركة فهي قد لا تفرض عليك المحرمات وترك الواجبات، ولكنها حتماً ستعرضها عليك، فتعرض عليك الخمر وسهرات الفجور وخيانة الأمانة وعقوقَ الوالدينِ... وتعرض عليك إهمالَ واجباتك الدينية... المشركُ سيفعل ذلك بالمؤمنة إذا تزوجها، هذا إن لم يفرض عليها غصباً عنها أن تترك إيمانها، وهذه دعوة إشهارٍ إعلانٍ من المشرك والمشركة إلى دخول النار للمؤمن أو المؤمنة الذي تزوج منهم.

{والله يدعو إلى الجنة}، فيشهر ويعلن لكم أن تعملوا الصالحات حتى تدخلوا إلى المكان الموصوف بروعة ما فيه، ويدعو سبحانه إلى {المغفرة بإذنه}؛ فباب المغفرة، وهي تجاوزُهُ تعالى عن الذنوب، فهذا الباب مفتوح لمن تراجع عن الشرك وآمن، وهنا الكلامُ بالخصوص مع المؤمن الذي رأى مشركة أعجبته ويريد الزواج منها أو المؤمنة التي تريد الزواج من مشرك، فالله تعالى يدعو المشرك والمشركة إلى المغفرة، ليغفر لهم، فالزوج المشرك أو الزوجة المشركة لن يشجعا أزواجهما على الاستغفار بل بالعكس سيشجعانهم على ارتكاب السوء، أمّا سبحانه يريد أن نكون في وضع نتحفز فيه على طلب المغفرة، وعملياً هي حالة ترك السوء والنفور منه عبر معاشرة زوجة مؤمنة أو زوج مؤمن يحفزان أزواجهما على ترك مخالفة أوامره تعالى، والدعوة للجنة والمغفرة تكون {بإذنه}، فأنا وأنت وهو حين ننقل للآخرين دعوة الانضمام إلى قافلة الداخلين إلى الجنّة فهذا نقلٌ عمّا قاله تعالى، فدخول الجنّة يحصل بإذنه تعالى.

كلامُهُ تعالى القرآني دائماً على نفس المباني، وأساسها أننا نحن بقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ وبحرية الإرادة لفعل ما نريد منهما، فليس لنا فضل لا عليه تعالى ولا على الآخرين إن كنّا صالحين، فهل تقبل أن أمتَّكَ لأني صالح لم أعتدِ عليك؟ أم هذا متوقّع منّي؟ نفسُ الشيء كلامُهُ تعالى معنا عن الأجر على الإيمان والصالحات، فليس واجباً عليه تعالى إثابتك، بل من فضله حدّد أجراً للمؤمنين بالحق العاملين للصالحات، وبناء عليه فأنا لا دخل لي بمسألة قرار دخول الجنّة للمؤمنين العاملين للصالحات، فبإذنه تعالى يدخلونها، وبإذنه تعالى أنا أدعو الآخرين ليدخلوها.

{ويبين الله آياته للناس}، فيوضّح الأمور المميزة المنسوبة له تعالى، وهنا الآيات هي كلامه تعالى عن حرمة الزواج من مشرك أو مشركة فقد بيّن فوضح سبحانه سبب هذه الحرمة، فهم يدعوننا إلى النار، {لعلهم يتذكرون}؛ فمن المفروض ومن المتوقّع أنه بعد هذه الآيات الواضحة أن يستحضروا حكمة ومعاني تحريمه سبحانه للزواج من مشرك أو مشركة.

بالنسبة لكلمة {خير} في استعمال القرآن فكثيراً ما نستنسب تفسيرها على معنى {أفضلَ}، وأحياناً يصدق هذا المعنى بالتبعية من فحوى الكلام، ولكن بعض الاستعمالات القرآنية لنفس الصياغة تريك أنه لم يقصد بكلمة {خير} أن تكون

رديفاً لكلمة {أفضلَ}، وكمثال واضح عن ذلك ما ورد في الآية 16 من سورة العنكبوت "{وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}"، فمرادفتها بأفضلَ في أمثال هذه الآية سيعطيك معانيَ غير دقيقة بل وغير مقبولة إلا إذا حملت معنى {الأفضل} على عموم المقابلة بين الأسوأ والأحسن، ولكن هذا ليس معناها بل هذا معنى كلمة {خير}، وكلمة {أفضل} في أشعار العرب قبل الإسلام محصورةٌ بين الحسنِ والأحسنِ، فلو قلت إنَّ الإيمان أفضلُ لكم فهذا قد يعني أن الكفر حسن والإيمان أحسن، لا، فالإيمان {خيرٌ} لكم مما يعني ضمناً أن الكفر سوء لكم.

لم يستعمل القرآن كلمة {أفضل} بتاتاً، واستعمل التعبير {بالخير} وهو أوسع بالمعنى، فهو يقابل الشرّ كما في الآية 11 من سورة النور "{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...}"، واستعملها بمعنى ما يقابل الحسن فالآخر أحسن وليس شراً، كما ورد في الآية 271 من سورة البقرة "{إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...}"، فإبداء الصدقة ليس سوءاً وإنما إخفاؤها أحسن، وهنا يمكن استعمال كلمة {أفضل}.

يعني لا ترادُفَ بين {خير} و{أفضل}، فهما في بعض سياق الكلام يتقاطعان تطبيقياً حيث يكون الذي تقارن بينهما كلاهما جيدان، فعندها يصدق قولُ {خير} أو {أفضل}، ولكن حين يكون الكلام عمومياً يشمل ما كلاهما جيدان ويشمل أيضاً ما أحدهما جيد والآخر سيئٌ، ويشمل الوصف مطلقاً بمقارنة الحسن مع مطلق الوصف بالحسن، فحتى لو لم يكن هناك طرف آخر للمقارنة والمقارنة مع مطلق الوصف، كوصفه تعالى {بخير الرازقين} و{خير الحاكمين}... فهو تعالى بالمقارنة مع وصف الحسن مطلقاً كرازق وحاكم فهو {خيرٌ} موصوف بذلك؛ فكلمة {أفضل} ليست وصفاً صحيحاً لهذه الحالات وكلمة {خير} صحيحة.

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ{222})
{يسألونك}، يعبّر لك المسلمون عن إرادتهم للحصول منك على معلومة أيها النبيُّ(ع): عن {المحيض}، وهو العادة الشهرية للنساء، ومن الجواب سترى عماذا كان السؤال بالخصوصِ، قل لهم عبر هذا القرآن: {المحيض} هو {أذىً}، وكلمة أذى مستعملة بالدقة القرآنية لعموم ما تتضايق منه وتشتكي منه ولا تريده "جسدياً أو نفسياً" ولكنه أقل من تسميته بضررٍ، وبعد قليل ستقول الآية أنهُ بعد إزالة الدم فلا تعد الأذية موجودة فلا مشكلة بالمعاشرة الجنسية، ونفهم أن الأذى في جانب منه يشير للدم الذي ننفر عموماً من رؤيته ورائحته... {فاعتزلوا}، فتنحوا عن معاشرة {النساء في المحيض}، فلا تعاشروهن في أثناء عادتهن الشهرية، {ولا تقربوهن}، بالمعاشرة، {حتى يطهرن}، فلا يعد فيهن الذي يسبب النفور والأذى النفسي وهو الدم، وهذا الطهر يحصل عند انتهاء فترة الحيض، أمّا بقية الأمور "غير العلاقة الجنسية التامّة" من الملاطفة والملامسة وغيره... فهي ليست حراماً أثناء المحيض.

كلمة أذى تشير لشيء تشتكي منه، نفسياً أو في جسدك، ويكون أقل من الضرر، والقرآن قد استعمل كثيراً كلمة "أذى" ليشير إلى أذىً نفسيٍ، ولذلك حملناها هنا على الأذى النفسي للزوج والزوجة من رؤية ورائحة الدم، وأمّا من تغلبه شهوته على تلك الأذية فلا يمانع من التلطخ والمنظر والرائحة... فهذه حالة شاذة، وتصير غير شاذة عند المجتمعات التي نزل مستواها في عموم ما هو بالعادة مقرف ولم يعتادوا النظافة...

{فإذا تطهرن}، فتمت إزالة ما يسبب النفور، فغسلن موضع الدم من بعد انتهاء فترة المحيض، {فأتوهن}، فعاشروهن، {من حيث أمركم الله}، من القبل، فهو الموضع الذي كان الكلام عنه وهو الموضع الطبيعي للمعاشرة الجنسية.

ننتبه، الآية لم تتطرق لموضوع الحلية أو الحرمة في الدبر، إنما تحصر الحديث عن موضع خروج الدم، والمشهور أن الزوج والزوجة يجوز لهما الاستمتاع الجسدي بكل أشكاله ما دام برضاهم، ولكن لا يحق لها أن تمنعه من معاشرتها في قبلها، ولا يحق للزوج أن يفرض عليها بقية الأشياء، وهنا حتى لا يفهم الزوج أنهُ يحق له فعل ما يشاء غصباً عن زوجته، حددت له الآية الحقّ فقط في القبل، والأمور الأخرى تحصل برضا الزوجة فقط.

{إن الله يحب التوابين}، يحبّ سبحانه الذين يقلعون عن ارتكاب السوء من أصله أو إذا ارتكبوه لم يستمروا عليه. يحب سبحانه {المتطهرين}، الذين يحافظون على طهارة أنفسهم، وهي الخلو من الأشياء السيئة التي تسبب النفور والأذى النفسي. هنا الكلام عن ابتعاد الزوج والزوجة من المقاربة التامّة أثناء الحيض، فهذا الترك لهذا العمل في تلك الفترة هو تطهرٌ، هو خلو وابتعاد عمّا هو سيئ.

(نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ{223})
بمناسبة الحديث عن المعاشرة، {نساؤكم}، والكلام عن اللاتي هنَّ حلالٌ لكم للمعاشرة الجنسية فهنَّ، {حرثٌ لكم}، هنَّ بعملية المعاشرة قابلاتٌ لإنتاج الأولاد، فتضعون فيهن بذوركم "الحيوانات المنوية" ليصير عندكم أولاد، {فأتوا حرثكم أنّى شئتم}، بأي طريقة أو وضعية قرّرتم.

الآيةُ تؤكد أنَّ الزوجين يجوز لهما التلامس بأي عضو كان من جسديهما، وبأي طريقة أو وضعية يرغبان بها، بشرط رضاهما كلاهما. الأساسُ هو الحرث: إنجاب الأولاد، وهي العلاقة من القبل، ولكنَّ هذا لا يتعارض مع أي رغبة بالمعاشرة بأي وضعية أو طريقة بجسد الزوجين.

بمراجعة استعمال القرآن لكلمة {أنّى} ستجد أنَّها ليست للدلالة حصراً على الزمن، ولا معنى لإشارة الآية إلى المعاشرة "بوضعية" لإنجاب الأولاد فقط فهذا معلومٌ حليَّتُهُ، بل يبدو جلياً أنَّ الآية تعرض فكرة المعاشرة الجنسية بين الزوجين على أنَّها أساساً للحرث أي لإنجاب الأولاد، ولكنْ لا مانع من إتيان الحرث كيفما شئتم؛ فبرضا الطرفين يمكنهما فعل ما يرغبان بجسديهما. لو نظرت إلى التراث الديني اليهودي والمسيحي وغيره... لوجدتهم يحرّمون الاستمتاع الجنسي وينسبون حرمته إلى الدين الإلهي! ويحصرون العلاقة بفعل وبنية لإنجاب الأولاد فقط، ممنوعٌ الشعور بالاستمتاع على أساس أنَّه ذنب! هنا الآية توضّح أنَّ الدين الإلهي لا يمنع الاستمتاع بل أطلقه لكل ما يحبُّه الزوجان، طبعاً برضاهما معاً.

{وقدّموا لأنفسكم}، كما تقدم لي الطعام، فيمكنك أن تقدم لنفسك أعمالاً عليها حسنات، وتؤخّر الأعمال السيئة فلا تقم بها. هنا الكلام بالخصوص عن الالتزام بأمر ربكم سبحانه بإتيان النساء بعد التطهر فأنتم تقدمون عمل خير لأنفسكم بترككم السوء، وسترون نتيجته في آخرتكم.

{واتقوا الله}، فتجنبوا عقابه وغضبه عليكم إذا خالفتم أوامره.

{واعلموا أنكم ملاقوه}، فستتواجهون مع ربكم سبحانه في الآخرة، فلن تموتوا وتفنوا وتنتهي قصتكم، لا، بل سترجعون إليه سبحانه لتقفوا أمامه ليحاسبكم ويجازيكم.

{وبشّر المؤمنين}، فانقل لهم الخبر السار، معلومٌ أنَّه الخبر بدخول جنّة الآخرة لمن أطاعه سبحانه...

(وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{224})
{ولا تجعلوا الله عرضةً}، شيئاً معروضاً دائماً، {لأيمانكم}، لتأكيداتكم القوية من حلفانٍ وقسمٍ وعهدٍ من النوع القوي. تحلفوا بالله أو تقسموا بالله عرضةً "على العمال والبطال" من دون التفكير بقيمة اليمين وبالالتزام باليمين؛ تحلفون وتقسمون وتألون وتعاهدون... بالله تعالى لغواً في المناسب وغير المناسب، ومن دون توقيرٍ واحترامٍ لجلاله، على المهم وغير المهم، على الصدق وعلى الكذب، على ما تنوون الالتزام به وعلى ما لا تنوون الالتزام به... هذا سيئٌ، أمّا الصحيح فهو:

{أن تبروا}، تتصرفوا بطريقةٍ تعبّر عن اهتمامكم بالصلة وتبتعدوا عن القطيعة معه تعالى. هنا الكلام عن قيمة علاقتكم معه تعالى بعدما استعملتم اسمه سبحانه في يمينكم؛ عندما تحلفون أو تقسمون يميناً بالله تعالى فلا تقطعوه بل بروه، والتزموا بيمينكم به تعالى.

{وتتقوا}، تتجنبوا غضب وعقاب ربكم سبحانه. هنا الكلام عن ألا تكونوا غير مهتمين لغضبه وعقابه عندما تؤكدون باسمه تعالى في يمينكم وأنتم لا تنوون الالتزام باليمين أو لا يهمّكم الالتزام به.

{وتصلحوا بين الناس}، والكلامُ عموميٌّ ويقصد ألا تكونوا مفسدين باليمين به تعالى يميناً كاذباً، ولا تكونوا مفسدين إن كانت اليمين الصادقة ستؤدّي إلى الإفساد بين الناس. في حالة التوفيق بين الناس وتأليف قلوبهم، تخبر أحدهم بأن الآخر المتخاصم معه يحبّه ويحترمه... فيسألك أن تقسم، وعندها يجوز لك أن تقسم بذلك، بل لا يجوز لك ألا تقسم؛ سبحانه قد أجاز بل أوجب عليك أن تقسم باسمه كاذباً إذا كان ذلك سيصلح ما بين الناس من خلاف، ومن بعد الصلح بينهم ربما سيعلمون أنك كذبت ولن يعد ذلك مهماً إن صلحت العلاقة بينهم.

{والله سميعٌ}، يسمع كل شيء، يسمع تأكيدنا باسمه، والله {عليمٌ} يعلم كل شيء، يعلم إن كنّا قلنا اليمين حتى نلتزم به، نحن تحت مراقبة السميع العليم.

(لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِيَ أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ{225})
علمنا من الآية السابقة أنَّ القاعدة لليمين بالله تعالى هيَ: البرُّ باليمين به تعالى أي تنفيذُ اليمين، وتقواهُ تعالى باليمين فلا نحلف أو نقسم أو نألي أو نعاهد... ونحن غير مهتمين بعقابه سبحانه، ألا يخالف اليمين الإصلاح بين الناس فلا يكون مفسداً. الآن سننتقل إلى يمين من نوع آخر:

{لا يؤاخذكم اللهُ باللغوِ في أيمانِكم}، لا يأخذ عليكم مأخذاً، لا يسجّلُ تعالى عليكم، لا يحاسبكم الله تعالى باللغو في أيمانكم، فيكون اليمين لغواً غير مقصود منه الجدية، مثلما يقول الرجل لامرأته: والله أنت أجمل امرأة في العالم. فهذا يمين لغوٍ ولكنه لا يستوجب منك كسر القواعد لليمين التي ذكرتها الآية السابقة، فهذا اليمين ليس سيئاً ولا حراماً.

ولكن، الله تعالى، يؤاخذكم، فيسجّلُ عليكم ليحاسبكم {بما كسبت قلوبُكم}، بالذي نتج عن أساس فكركم ونفسيتكم، من فكرة ونية الذنب أو من فكرة ونيّة العمل الصالح. فإذا قلت لجارك السيئ: والله أنت أفضل جار. ولكنك في قلبك تسخر منه، فاللهُ تعالى يعلم ما في قلبك ويعلم نيَّتَكَ، وسوف يحاسبك عليها. أمّا إذا قلت: والله أنت أفضل جار. وتريد جعله يلين لتتحسن جيرته، فأنت تقوم بعمل صالح، فالنيَّةُ والفكرة التي في قلبك هي التي تحدّدُ إن كنت ترتكب سوءاً حراماً أم لا.

اللهُ {غفورٌ}، فيتجاوز عن سيئة اليمين الكاذب في الحالات التي ذكرتها الآيات، ويتجاوز عن سيئات من كذب به تعالى وندم بعد ذلك طالباً المغفرة.

{حليمٌ}، بتعبيرنا الدارج: طويل البال، فلا يردّ سبحانه فوراً على الخطأ الذي يتحمّل الصبر عليه. فحتى لو أخطأت معه تعالى باليمين باسمه لغواً "مع نية طيبة"، فسبحانه لا يؤاخذكَ؛ لأنه {حليمٌ}، وهنا الموقف لا يستدعي الصلابة والشدّة، ولا يعاقبك تعالى لأنك تقصد النيّةَ الطيبة مع أنك أخطأت في استعمال اسمه تعالى لغواً.

يمينُ اللغو المعفو عنه الذي تتحدث عنه الآية هو من نوع يمين التوقف عن التدخين، أو التوقف عن أكل الحلويات، أو المبالغة في مغازلة الزوجة... وليس من نوع اليمين في المحكمة وفي القضايا؛ فتلك شهادة زور مع يمين كاذبة وعقابها شديد جداً جداً، وهي من نوع الإفساد بين الناس. وحتى يغفرها تعالى لك فيجبُ أن تخبر من يعنيهم الموضوع أنك أقسمت يميناً كاذبةً ويجبُ أن تشهد بالحقيقة، ولا تنفعك كفارة الصيام أو أي شيء آخر. أيضاً اليمين الذي تتحدث عنه الآية ليس يمين الغش في نوع البضاعة، مثل يمين الباعة أنَّ بضاعتهم جيدة وجديدة... فهذا غشٌّ سوءٌ حرامٌ.

(لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآؤُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{226})
بمناسبة الحديث عن اليمين فـ: {للذين يؤلون من نسائهم}، فيقولون: آليت ألا أقرب "بالمعاشرة" زوجتي بعد اليوم؛ بحيث يفرضون على أنفسهم ألا يقتربوا من نسائهم "للمعاشرة" باستعمالهم لكلمة آليت أو أشباهها في القوة بحيث تصير يميناً، فتصير شيئاً قوياً، قسماً أو عهداً قوياً؛ فلنقل أنَّهُ تخالف مع زوجته، أو لأي سبب آخر فأقسم وقال: يمين الله آليت على نفسي ألا ألمسك طوال عمري، أو لمدّةِ خمسة أشهر أو أكثر...

فإن كان كلامه جدياً وذهب فعلاً للتنفيذ، ففي هذه الحالة: {تربصُ}، انتظارُ حصول شيء ما متوقعٍ حدوثه، {أربعةِ أشهرٍ}، يعني انتظار مدّةِ أربعة أشهر التي قد يحصل في خلالها تراجع للزوج عن إيلائه ومقاربة زوجته، وخلال الأربعة أشهر يوجد احتمالان: {فإن فاؤوا}، انتبهوا لخطئهم وعادوا إلى حالة الزوجية السليمة، فتراجعوا عن الإيلاء، فانتبه الأزواج الذين أقسموا ألا يعاشروا زوجاتهم أنَّهُ لا يحق لهم الاستمرار في التزامهم باليمين، فعاشروا زوجاتهم قبل مرور أربعة أشهر؛ {فإنَّ اللهَ غفورٌ}، فيتجاوز عن الذنب الناتج عن هذا النوع من القسم، و{اللهُ رحيمٌ} فلديه تعالى عناية خاصةٌ بالمؤمنين ومن أبرز مصاديقها تخصيصهم بغفران الذنوب.

يمكن للزوج طلاق زوجته إن لسبب أو لآخر لم يعد راغباً في مقاربتها، أمّا أن تبقى زوجته وقد أقسم ألا يقاربها، فهذا ممنوع. تنتظرُ زوجته أربعة أشهر ليتراجع عن قسمه، فإن قبل مرور الأشهر الأربعة قاربها، فسبحانه يغفر له قسمه، وطبعاً عليه كفارة قسم اليمين.

الاحتمالُ الثاني: أن تمر فترة الأربعة أشهر من دون أن يعاشر زوجته وبقائه على إيلائِه عليها، فـ:

(وَإِنْ عَزَمُواْ الطَّلاَقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{227})
{وإن عزموا}، قرروا بشدةٍ وبإصرارٍ، {الطلاق}، وقرّر الزوج إنهاء الرابطة الزوجية، {فإنَّ اللهَ سميعٌ}، فيسمع كل شيء، ويسمع طلاقهما، {عليمٌ} يعلم كل شيء، فهما تحت المراقبة الإلهية. والإيلاءُ إخلال من الزوج بشرط أساسي في الزواج، والإيلاءُ حرام من الأصل ولا يسمح تعالى أن تعيش الزوجة تحت رحمة رجل أقسم ألا يقاربها...

إن حصل الإيلاء، ورغم كونه حراماً، فقد أجرى عليه تعالى حالة {العدّة} في {الطلاق} مع زيادة شهر ليتراجع الزوج فيه عن إيلائه، وإلا فيتمُّ إجباره على الطلاق، ولا يسمح تعالى ببقاء الزوجة تحت رحمة مزاج الزوج الذي آلاها.

بعبارةٍ أخرى، لا يحق للزوج في شريعته تعالى أن يترك زوجته أكثر من {أربعة أشهرٍ} من دون معاشرة، وهذا في الظروف الاضطرارية الشديدة جداً جداً، فإن تركها طوال هذه المدة بسبب إيلائه، فهي "تشبه" التي طلقها زوجها وتنتظر مرور الوقت، فإن مرت الأشهر الأربعة، فالزوج مجبور إما على معاشرة زوجته، أو أن يطلقها، والأشهر الأربعة يتم احتسابها مثل {عدّة} الطلاق، فتكون التطليقة بائنة وتغادرُ المرأة بيت زوجها فوراً بعد طلاقه لها من بعد مرور الأشهر الأربعة من الإيلاء.

قد يحصل خلاف بين زوجين يسببُ نفورهما من المعاشرة، أو أحدهما يرغب بالمعاشرة والآخر لا يرغب، وقد تستمر هذه الحالة لأشهر أو سنين، ومع أنها وضعٌ غير طبيعي وغير مقبول لزوجين من المفروض أن يكون بينهما {رحمة} و{مودّة}، ولكن طالما لم يطلب أحدهما الطلاق فهما وشأنهما مهما طالت المدة.

لكنَّ الإيلاء حالة مختلفة، فقد اعتبرها سبحانه شيئاً كالطلاق في معناه، فإن حصل الإيلاء صار الزوجان تحت حكم إلهي يجبر الزوج على التراجع عن إيلائه خلال مدةٍ أقصاها {أربعة أشهر} وبعد ذلك إن لم يتراجع فهو مجبور على الطلاق.

بقي شيء، الآيةُ 224 السابقة نبّهت من جعله تعالى عرضة {لأيماننا}، فقد يغضب الرجل من زوجته ويقول: والله لن أعاشركِ كل عمري... وهو يقصد {اللغو} ولا يقصد الجد، ويظهر ذلك من نسيانه لحلفانه بعد دقيقة ومقاربته لزوجته... فهذا اللغو في اليمين ينبّه منه تعالى للتوقف عنه، ولا يعتبره تعالى ذا قيمة، وميز بينه وبين الإيلاء، الذي يكون بنيةٍ جدية ويتنفذ فعلاً ويهجر الرجل زوجته... وفرقت الآيات بينه وبين اللغو الذي يعلم الزوجان أنهُ غير جديٍّ.

(وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكُيمٌ{228})

بمناسبة الحديث عن الطلاق فـ: {المطلقات}، بشكل عام، {يتربصن}، ينتظرن حصول شيء متوقعٍ حدوثه، بأنفسهن، تنتظر لترى نفسها إن كانت حاملاً أو سيتراجع زوجها عن الطلاق، ينتظرن حصول ذلك حتى مرور {ثلاثة قروء}؛ ثلاث فترات من الحيض، فعندما يقول الزوج لزوجته بحضور شاهدين عدلين إنَّها طالق، فإن لم تكن التطليقة الثالثة، فإن الزوجة تبقى في منزل زوجها وتنتظر: فإما أن يتراجع زوجها عن الطلاق ويلامسها بقصد التقرب منها، وإمّا أن يظهر حملها فلا يتنجز الطلاق إلا من بعد الولادة... وإمّا أن يمرّ عليها ثلاث فترات من الحيض، وبعد ذلك تصير مطلقة وتخرج من منزل زوجها.

من الأحاديث التي وردتنا واستنباطاً من جملة {ثلاثة قروء} نفهم أنَّ الطلاق لا يصح والمرأة في حالة طهر واقعها فيه زوجها، فيجب الانتظار حتى تصير في حالة طهر لم يواقعها فيه وعندها يصحّ إيقاع الطلاق، ومن الآية 4 في سورة الطلاق نعلم أنَّ مدة {تربص} المرأة "{عدة} الطلاق" أقصاها ثلاثة أشهر، تكون {القروء} هنا هي فترات الحيض كاملة حتى تساوي ثلاثة أشهر من بداية أول يوم نقاء من المحيض "طهارة"، هذا الفرض لأقصى مدة عدةٍ للمطلقة إن وقع الطلاق في "الطهارة" في أول يوم نقاء من المحيض، ولو وقع في آخر الطهارة "بدون حصول معاشرة خلالها" فستكون مدّة العدة أقل، والآية التي في سورة الطلاق والتي ذكرت عدد ثلاثة أشهر، فقد كانت ناظرة إلى أقصى مدّة عدةٍ للتي لها عدةٌ منتظمة، وهي الحالة العادية للنساء.

انتبه ففي بقية الآيات التي ستلي سنجد أحكاماً تفصيلية أكثر عن العدة والطلاق وأنواعه، لأن الآية هنا تتحدث عن أول مرة يحصل فيها الطلاق من الزوج، والزوجة لا تريد الطلاق، وهناك حالات أخرى ستتحدث عنها الآيات.

{ولا يحل لهن}، المطلقات لسن أحراراً وبدون مساءلة، {أن يكتمن}، أن يخفين ولا يخبرن، {ما خلق الله في أرحامهن}، فإن كانت المرأة حاملاً وطلّقها زوجها فلا يحلّ لها، فلا يحق لها أن تخفي عليه أنَّها حامل، يطلقها وتخرج من منزله بعد ثلاثة أشهر وهي تعلم أنَّها حامل، هذا حرام وعليه حساب، يجب أن تخبر زوجها أوّلَ ما علمت بأنها حامل، {إن كنَّ}، النساء المطلقات، {يؤمنَّ بالله}، يعتقدن به تعالى وبدينه، {واليوم الآخر}، فيعتقدن بالحساب على الحرام والحلال في الحياة التي ستأتي في الآخر بعد الحياة الدنيا.

درج "بشكل ما" بيننا أنَّ العدة قد فرضها تعالى على المرأة حتى نتأكّد بأنها ليست حاملاً، ولكن ستجد في سورة الطلاق بشكل صريح جداً أنَّ العدة سببها إعطاء فرصة للزوجين لإيجاد حل قبل تنجّز الطلاق، وهي فرصة للتوافق من جديد قبل حصول الطلاق فعلياً بعد انتهاء العدة، وهذا يحتاج لتفصيل ودراسة تحدد متى العدة للتأكد من الحمل، ومتى تكون فرصة للتراجع عن الطلاق.

{وبعولتهن}، وهو الرجل الذي كان يمكنه "شرعاً" معاشرة المطلّقة ولا يزال يمكنه ذلك ضمن العدّة، فحتى لو طلّقها فلا يزال يحمل وصف البعل، أي الذي يمكنه معاشرتها "شرعاً"، {أحق بردهن}، فالبعل أحقّ بردّ المطلقة في ذلك، في فترة {الثلاثة قروء} "أو في فترة الحمل وقبل أن تلد الزوجة..."، وهذا الكلام نفهمه من حالات تعتبر فيها المطلقة نفسها بأنَّها أهينت ولا تريد الرجوع إلى بعلها، أو أهلها أو المجتمع يضغط عليه أو عليها حتى يستمرا بالطلاق... يأتي الكلام هنا ليشير إلى أفضلية الرجوع عن الطلاق... {إن أرادوا إصلاحاً}، أراد وقصد الزوج والزوجة أن يصلحا الحال بينهما، ولكن إن أراد الزوج أو الزوجة فساداً، فيريد أن يردّ زوجته ليضايقها ويضرها، وهي "فرضاً" وعدت بتغيير سلوكها حتى يرجع عن طلاقها ولكنها كانت تكذب وتريد الانتقام منه... ففي هذه الحالة فمن الأفضل لهما الطلاق.

أمّا بعد انتهاء العدة تصير المطلقة مخيرة بين الزواج مرّة جديدة من زوجها السابق، أو الرفض أو البقاء عزباء أو الزواج من رجل آخر، ولا يعد للطليق أفضلية شرعية للزواج منها من جديد، لأن هذه الأفضلية الشرعية كانت فقط ضمن العدة.

{ولهنَّ}، للزوجة في حياتها العادية مع زوجها أو للمطلقات ضمن العدّة، {مثل الذي عليهن بالمعروف}، ولهنّ مثل ما عليهن، فلها أن يعاملها زوجها بالمعروف بما هو متعارف عليه بين الناس المؤمنين العقلاء من الكلام اللائق والتعاطي الحسن... فلا يكن فظاً ولا هي تكن فظةً، ولا يعاملها كخادمةٍ ولا تعامله هي كعبدٍ، وفي الطعام واللباس فلا يبخل عليها وهي لا تطلب أكثر مما هو يقدر عليه وأكثر مما هو متعارف عليه بين الناس المؤمنين، والتنزهُ فلا يحبسها ولا هي

تحجز حريّته... فكل ما هو معروف بين الناس المؤمنين العقلاء من المعاملة الطبيعية العادية فهو حق للزوجة وحقّ للزوج، ويتضمّن ذلك النظافة الشخصية للزوجة والزوج أو الطليق والطليقة... وتزيّنها واهتمامها بزوجها حتى لو كانت في عدّة الطلاق... وتعاونهما معاً على نظافة وترتيب بيتهما...

{وللرجال عليهن}، على النساء، {درجةٌ}، كلام الرجل فيما يخص حياتهما الزوجية يكون فوق كلامها بدرجة، فإذا اختلفا في الرأي بالأمور البسيطة التي تخص حياتهما الزوجية عندها على المرأة إطاعة الرجل، طبعاً بما أمر به الله تعالى وبالمعروف، وفيما لا يخص حياتهما الزوجية حيث ليس للرجل على امرأته شيء، فمثلاً لا يحق له جعلها خادمة له أو لأبيه أو لأمّه...

انتبه جيداً للأفضلية بدرجة واحدة، وليس بناطحة سحاب واستعباد، والدرجة في الأمور التي تخصّ حياتهما الزوجية فقط وفقط بما أمر به تعالى وبالمعروف.

{والله عزيزٌ}، منفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... عندما يأمرنا سبحانه بمعاملة زوجاتنا بالمعروف لا نشعر أحد ما أنَّهُ يقدّم له سبحانه شيئاً إذا عامل زوجته بالمعروف، إنما هذا واجب عليه وسيتحاسب وينال العقاب إنْ عاملها بسوء، وهي أيضاً ستتحاسب إن أساءت، ومن ناحية ثانية فإن العزيز بعزةٍ مطلقة قاهرة عظيمة، إذا أمرك بمعاملة زوجتك بالمعروف فيجب أن تطيعه.

{والله حكيمٌ}، يرى الصوابية في الأمور وقراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب فقراراتُهُ وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول إنَّ أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنَّهُ لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فلا يفعل لغاية له سبحانه. وقد شرّع الحكيم الطلاق بعد القروء الثلاث أو بعد الولادة للحامل... وأن يكون للرجل {درجةٌ}... هذه القرارات ليست عبثية بل عن حكمة وعن غايات حسنة.

لاحظ أنَّ القرآن استعمل كلمة {بعل} بدل كلمة {زوج} في الحالات التي أراد الإشارة فيها إلى عموم من يحمل وصف {البعل}، فهو يحمل وصف الحقّ بالمعاشرة الجنسية، ليشمل الزوج ويشمل الطليق حتى تنتهي عدّة طليقته "إذا قاربها ينتفي الطلاق"، وفي آيات أخرى من القرآن سيبدو أنَّ الوصف بالبعل يشمل سيّد الأمة ويشمل من تزوّج من أمة برضى سيّدها...

انتبه، لا تحاول استخراج كل أحكام الطلاق من هذه الآية فقط، فهناك آيات عديدة في سور أخرى تحدثت عن تفاصيل أخرى للطلاق، والكلام هنا من نوع التبنيد القانوني المتداخل، وليس من نوع البند الجامع المانع:

(الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ أَن يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{229})
الطلاق، الانفكاك من ارتباط، والكلامُ هنا عن الانفصال بين الزوجين يكون: {مرتانِ}؛ الكلامُ هنا عن حالة حيث وقع الطلاق مرتين، وهناك الطلاق الثالث الذي ستتحدث عنه الآية التالية. فبعد الطلاق الثاني، {فإمساكٌ بمعروفٍ}، فيحافظ الزوج على زوجته عنده بالمعروف فيعاملها المعاملة الحسنة المتعارف عليها بين المؤمنين العقلاء، ويتراجع عن طلاقها ويرجعها إليه كزوجةٍ ويعاملها بالمعروف.

{أو تسريحٌ}، فتخرج من بيته لحال سبيلها، {بإحسانٍ}؛ فلا يضرّها بوضع شروط عليها ألا تتزوج من جديد، أو يحبسها، أو يهددها، أو لا يدفع لها حقوقها...

الآيةُ هنا تتحدث عن طلاقين "أمّا الطلاق الثالث فحكمه في الآية التالية"؛ طلق أول مرة، ثم أرجعها في {العدة}، أو بانت فانتهت عدتها أو طلقها بناءً على طلبها وبعد ذلك عاد وتزوج منها، فكلُّ هذه الحالات هي أولُ طلاق. ومرة ثانية طلقها، فأيضاً {إمساكٌ بمعروفٍ}، فلتبقى عنده كزوجةٍ وتتعاملا بما تعارف عليه المؤمنون العقلاء، أو {تسريحٌ بإحسانٍ}، فانتهت {العدة} وذهبت لحال سبيلها مطلقةً؛ فإن عاد وتزوجها وحصل طلاق ثالث فهذا ما ستتحدث عنه

الآية التالية حيث لا إمساك بل تسريح فوراً، مع الأخذ بعين الاعتبار ما ورد في الآية 6 من سورة الطلاق من تأمين مسكن للمطلقة خلال مدّة {العدة}: "{أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ...}".

{ولا يحلُّ لكم}، فيحرم وعليه عقاب إلهي، {أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً}؛ فعندما حددتم مهر "صداق" الزواج، سواء أكان كل المهر مقدماً ولا يزال كله أو قسم منه في ذمّة الزوج، أو كان هناك مهر مؤخرٌ لحين الطلاق أو الوفاة، فلا يحق لمن طلق زوجته أن يأخذ من هذا المال أي شيء، إلا في حالة واحدة "حين تفتدي هي بالمهر فهي تطلب الطلاق":

{إلا أن يخافا}، فيشعر الزوجان بالتأكيد، {ألا يقيما حدود الله}؛ فيشعران بالتأكيد أنهما فيما بينهما لن يتقيدا بالحدود التي أمر بها تعالى بين الزوج والزوجة من المعاملة بالمعروف من كلا الطرفين... فيعطلان حدوده تعالى ويهملانها فيؤذيان بعضهما. لأنه لا يحق لها منعه من المعاشرة، ففي هذه الحالة، فإن هما أعلنا أنهما إن رجعا لبعضهما فلن يكونا زوجين بينهما المعاملة التي يأمر بها تعالى، {فإن خفتم}، فأنتم كقضاةٍ أو كمتدخلين لحل المشكلة فشعرتم أنهما بالتأكيد {ألا يقيما حدود الله}، فلن يحترما الشريعة الإلهية للعلاقة بين الزوجين، {فلا جناح}، فلا مشكلة على الزوجين، {فيما افتدت به}؛ فيما تنازلت به الزوجة عن حقوق السكن والطعام... خلال {العدة}، أو تنازلت به الزوجة من المهر المؤخر للطلاق أو المعجل ولم تحصل عليه بعد... أو حتى لو دفعت لزوجها مالاً زيادة عن المهر ليطلقها، فليس هناك مشكلة أن تدفع الزوجة أو تتنازل عن مهرها أو تتنازل عمّا تبقى من مهرها أو تتنازل عن حقها في تأمين مسكن لها... طالما صارا يخافان ألا يقيما حدوده تعالى.

أساسُ التشريع ناظر لفتح مجال لتراجع الزوج عن الطلاق أثناء {العدة} في حال كانت الزوجة غير راغبة بالطلاق، ولكن هناك تفاصيل أخرى؛ فإن كانت الزوجة أيضاً راغبة بالطلاق، وكلاهما لا يريدان البقاء في مكان واحد "أثناء {العدة}"، فبشرط الخوف من تجاوزهما للحدود الإلهية في تعاملهما مع بعض باحترامٍ، ففي هذه الحالة فقط تقول الآية إنهما يمكنهما إلغاء وجوب بقائها في بيته، وتكمل {عدة} طلاقها منفصلة عنه في بيت لها أو بيت أهلها... فأصل تشريعه تعالى للطلاق يتضمن إعطاء فرصة للزوجين حتى يتراجعا عن قرارهما، فحتى لو كانا كلاهما راغبين بالطلاق، والزوجة لم تطلبه، ويمكنهما تمضية {العدة} معاً باحترامٍ، فيجب أن يبقيا معاً حتى تنتهي {العدة}.

وإن كانت الزوجة أيضاً غير راغبة في الرجوع إلى زوجها، فحصل الطلاق برضا الطرفين، ولكن لسبب أو لآخر فزوجها يريد إبقاءها عنده حتى تنتهي عدتها مع أنه هو مشارك في قرار الطلاق؛ فإن خافا ألا يقيما حدوده تعالى، فيمكن للزوجة أن تتنازل عن حقّها في المسكن والنفقة، أو تتنازل عن المهر أو شيء من المهر، أو تدفع لطليقها حتى لا تبقى عنده أثناء {العدة}، لأنه وبالرغم من قراره بالطلاق فهو يريدها أن تبقى عنده أثناء عدتها، وهذه أصلاً هي حالة تشريعه تعالى لبقائها عنده في {العدة}.

المتعارفُ عليه بين الناس تسمية الطلاق الذي يحصل بطلب من الزوجة: طلاق الخلع. وبشكل ما فالآياتُ متضمنةٌ لهذا النوع من الطلاق حين تكلمت عن إمكانية تسريحها قبل انتهاء {العدة}، ولكن ليس بالسهولة التي قد تتصورها، فقد قيدت الآية هذه الحالة بالخوف من تجاوز حدوده تعالى...

معلومٌ أنه في أكثر الحالات يحدث خلاف ينتج عنه نفور بين الزوجين ويظنان أنَّ الطلاق هو الحل، وتكون فورة تهدأ بعد ذلك؛ ولذلك على المتدخل بينهما أو القاضي... ألا يتماشى مع مزاجهما الحالي، وألا يأخذ كلامهما بجدية، وعلى الأقل ومن بعد إصرارهما يحاول بشتى الطرق أن تقضي المطلقة {العدة} في بيت زوجها إلا إن خاف ألا يقيما حدوده تعالى فيؤذيا بعضهما بالكلام الجارح أو...

كثيرٌ من الأحيان ترانا لا نعلم حدوده تعالى ولا معنى العشرة بالمعروف التي تحدثت عنه الآية؛ فأيضاً من واجب المتدخل بين الزوجين أن يعلمهما معنى ذلك. كلامُ عموم القرآن عن تشريعات فيها أنثى قد جاء بصيغة تحفظ حقوقها؛ لأن غالبية المجتمعات ينتشر فيها النفوذ الذكوري وبالتالي فهؤلاء ستكون تشريعاتهم ذكورية، أي تعطي الذكور حقوقاً زيادة عمّا لهم على حساب الإناث. ولذلك وجهت الآية هنا كلامها للرجل أن يمسكها بالمعروف، وقد لا يعرف معنى ذلك ولديه ظنّ أنَّ المرأة ستكون له ولأهله خادمة... ولديها مهارات العاهرة... ومتزينة وعلى أهبة الاستعداد لرغباتها

دائماً... ولديها مدخول شهري تقدمه له... أو أهلها يجب أن يساعدوه مالياً... وهو نفسه ضمناً الكلام عن المعاملة بالمعروف موجهٌ للزوجة التي قد لا تفهم معنى المعاملة بالمعروف وأنها ليست مثلما يفعلونه في الأفلام من عواطف وملاطفة ومسايرة على مدى اليوم... فتتصور أنَّ زوجها يجب أن يعاملها كمجنون ليلى! وأمور أخرى يجب تنبيه الزوجين منها...

ننتبه فقد نبهت الآية أنَّ الزوج الذي يريد الطلاق، لا يحق له إجبار زوجته على مسامحته بالمهر، أو أن تدفع له من مالها أو أملاكها، وكذلك لا يحق له معاملتها معاملة سيئة حتى تطلب هي الطلاق فيشترط عليها التخلي عن المهر أو أن تدفع له ليطلقها؛ فهذا حرام. إنما تتحدث الآية عن حالة نفور الزوجة من زوجها، وكرهها له لأسباب يقبلها الشرع والعقل، أو حتى لو قبل هو تطليقها لمجرد أنها هي طلبت الطلاق حتى لو من دون عذر شرعي لها... فلا مشكلة أن تسامحه أو تدفع له ليطلقها طالما هذه رغبتهما. طبعاً لا تنسى أن هذه الحالة لن تحصل مع شخصين بينهما ودّ، بل هما شخصان لم يتمسك أحدهما بالآخر، ولو بقيا مع بعضهما فالأرجح أنَّ مصيرهما الشجار والتشاحن؛ فلا تنظر لكلام الآية عن الطلاق أنها تستسهله، لا، بل تطرحه على أنه الحلّ الأفضل من حياة الشجار والمشاحنة والنفور والأذى...

{تلك حدود الله}؛ هذه هي الخطوط الإلهية التي يجب الالتزام بها في المعاملة والطلاق والمهر والفدية، {فلا تعتدوها}؛ فلا تتجاوزوها وتتصرفوا على هواكم.

{ومن يتعدَّ حدود الله فأولئك هم الظالمون}؛ هم الذين لا يتبعون العدل والإنصاف، فلن يكون معهم حقّ إن لم يلتزموا بما تقوله الآيات؛ فالآياتُ طرحت ما يعطي كلَّ واحدٍ حقّه، وأي حكم آخر فهو ظلم وليس عدلاً ولا إنصافاً.

هناك كلام بين المسلمين حول الطلاق ثلاث مرات في مرّة واحدة، حيث يقول الرجل لزوجته وبدون شهود أو أمام شاهدين عدلين: أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق. فهذه ثلاث مرات، أو يقول لها وهما لوحدهما أو أمام شاهدين عدلين: أنت طالق. وبعد ذلك في أثناء العدة يكرر ويقول: أنت طالق. وبعدها للمرّة الثالثة وأثناء العدة يقول: أنت طالق. فقد قال البعض إنَّ هذه الحالات هي ثلاث تطليقات وتصير الزوجة بائنة لا يحلّ للزوج إرجاعها إلا بعد أن تتزوّج من رجل آخر، وكما ترى فهذا الكلام مخالف لظاهر الآيات التي تحدّد لكل طلاق عدة، ومخالف لما ستجده في سورة الطلاق عن تعليل مدّة العدة لتكون فرصة للتراجع عن الطلاق، ناهيك عن فساد الطلاق قرآنياً بدون شاهدين عدلين كما ورد صريحاً في الآية الثانية من سورة الطلاق: "{فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ...}".

(فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ{230})
{فإن طلقها}، والكلام تكملة للآية السابقة، وفكّ ارتباطه بزوجته للمرة الثالثة، {فلا تحل له}؛ لا يجوز له الزواج منها، {حتى تنكح}، إلى أن تعقد عقد زواج "يتضمّن إقامة علاقة معاشرة" فتتزوج، زوجاً غيرَهُ. إذ تزوجت رجلاً آخرَ، {فإن طلقها}، الزوج الجديد وأعلنَ فكاك ارتباطه بالزواج منها، {فلا جناح}، لا مشكلةَ، عليهما، على الزوجين القديمين، {أن يتراجعا}، أن يعودا عن حالة انفصال الزواج؛ فعندها يحلّ للزوج القديم الذي طلقها ثلاث مرات أن يتزوجها من جديد من بعدما تزوجت من غيره "وحصل زواج فعلي يتضمّن معاشرة" وتطلقت، بشرط، {إن ظنا}، فيكون عندهما اعتقاد مبني على تغيرات في حياتهما تفيد بأنهما إن تزوجا هذه المرة، {أن يقيما حدود الله}، فيفعلا ما يأمر به تعالى من واجبات وحقوق على كل واحد منهما ومنها المعاملةُ بالمعروف.

وكما تلاحظُ، فشرط إقامة حدوده تعالى بين الزوجين، وضمناً شرط المعاملة بالمعروف هما الأساسيانِ في نية الزواج، فمن كانت نيته غير ذلك فهو يرتكب السوء.

{وتلك حدود الله}؛ لا الطلاق ممنوع، ولا الطلاق لأكثر من ثلاث مرات مسموحٌ إلا أن تتزوج "تنكح" رجلاً آخرَ ويطلقها ذاك الآخر، وهذه هي الحدود التي رسمها تعالى لنا كقانون ينظّم علاقاتنا الزوجية.

{يبينها}، يوضحها سبحانه، {لقومٍ يعلمون}، لأناس متفاعلون مع حالات الزواج والطلاق ولديهم في قناعتهم شيء صحيحٌ، وبتعبيرنا العامي الدارج: ناس بيفهموا. فهم يعيشون في مجتمع فيه حالات معاناة من تعارضِ الأزواج، ومعاناة من استهتارِ الزوجة بزوجها واستهتار بروابطها الأسري، ومعاناة من استهتارِ الزوج بزوجته وروابطه الأسري... ومعاناة من استهتار الزوج بالطلاق وكأنه لعبة، ومعاناة عكسية من اعتبار الزواج رباطٌ مقدسٌ لا يجوز فكاكه حتى لو كره الزوجان بعضهما... فمن يفهمُ سيرى هذه التشريعات القرآنية بشكل واضح أنها لمصلحة الناس.

بقي شيء، فشرط الزواج من رجلٍ آخرَ وإقامة علاقة تامةٍ معه "وهذا ما يعطيه معنى استعمال كلمة "نكاح""، وبعدها الطلاق منه حتى تحلّ للذي طلقها ثلاثاً. الإلهُ سبحانه الذي منح الزوج حقّ إيقاع الطلاق فقد افترض تعالى في الزوج احترامَ هذه السلطة، فهي ليست لعبة، فمن غير العقلاني أن يطلّقا من دون نفورٍ من أحدهما للآخر، فإمّا أن يجدا حلاً ليعيشا في احترام وتفاهم أو فليتطلقا، وقد فرض تعالى شرطاً قاسياً جداً جداً على الزوج والزوجة حين حكم عليهما من بعد الطلاق الثالث أن يعاشرها رجلٌ آخرٌ ويطلقها حتى يرجعا لبعضهما، وهذه القساوة لم تفرض عليهما، بل هما كانا يجب احترازهما منها ويجدا حلاً لمشاكلهما قبل الوصول إلى الطلاق الثالث أو فعلاً إنهاء هذا الزواج الفاشل.

عبارةُ {لا جناح} في كل القرآن فهي لا تقصد الاستحباب ولا الوجوب، فقد يكون العمل الذي تتكلّم عنه واجباً أو مستحباً، فيقول لك القرآن إنَّهُ "لا مشكلة دينية في فعله" فهو واجب أقره تعالى كواجب لنا، أو مستحب أو مباح أقره تعالى لنا كمستحب أو كمباح؛ فلا مشكلة دينية عليك في فعله.

(وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النَّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لَّتَعْتَدُواْ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوَاْ آيَاتِ اللهِ هُزُواً وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{231})

{وإذا طلقتم النساء}، ففي حالة الانفكاك من الزواج بعد الطلاق الأول والثاني، {فبلغن أجلهن}، فانقضت القروء الثلاثة "أو مرت ثلاثة أشهر للتي يحصل الشك في مدة طهرها"، {فأمسكوهن}، وأبقوهن عندكم، وأعيدوهن إليكم كزوجةٍ ولكن، {بمعروفٍ}، بما هو متعارف بين الناس العقلاء المؤمنين من المعاملة الحسنة، فلا يحق للزوج أن يرد امرأته وهو ينوي الانتقام منها أو يعذبها أو يؤذيها أو يحبسها... {أو سرحوهن}، فاتركوهن يذهبن في سبيلهن مطلقاتٍ، {بمعروفٍ}، بما هو متعارف عليه بين عقلاء المؤمنين من دون تهديد أو أذيةٍ أو أكلٍ لحقوقها... {ولا تمسكوهن}، فيبقين عندكم بتراجعكم عن الطلاق أثناء العدة، {ضراراً لتعتدوا}، لتضروهن فتجعلوا حالتهن سيئةً، كالسجينةِ أو كالإقامةِ الجبرية وليس كزوجةٍ... أو فقط لمنعها من الزواج، فتمسكوهن، لتعتدوا، لتتجاوزوا حدوده تعالى التي رسمها لكم. {ومن يفعل ذلك}، فلا يعامل الزوجة بالمعروف أو يسرحها بالمعروف، {فقد ظلم نفسه}، فلم يكن معه حق فيما فعله بنفسه فقد اختار لنفسه أن يتعذب في الآخرة. وكما ترى فهو بالإضرار بها والاعتداء عليها يظلمها ولكنه في الواقع يظلم نفسه.

{ولا تتخذوا آيات الله هزواً}، فهذا الكلام التشريعي هو آياتٌ، هو أمور مميزةٌ منسوبةٌ له تعالى فلا تتعاملوا معها بخلفية الاستهانة بها فتتعاملوا معها بلا جديةٍ وكأنها بلا قيمة، وبناء عليه لا تلتزمون بالتشريعات الإلهية ولا تحترمونها، فتتصرفوا من قوةٍ رافضين تشريعه سبحانه، وكأنه كلام بلا قيمة ويمكنكم مخالفته... فتؤذوا نساءكم وتضروهن.

{واذكروا نعمة الله عليكم}، تذكروا واستحضروا في فكركم وقولكم وعملكم، النعم الأشياء الجيدة الحسنة التي قدمها لكم سبحانه؛ فبسبب إعلانكم أنكم مؤمنون فقد اهتم بكم سبحانه، وجعل لكم شريعة تعطي لكل واحد منكم حقوقه، فإذا هزئتم من تشريعه تعالى فلم تتعاملوا معه بجديةٍ فعندها ستفقدون النعمة الإلهية.

نجد بعض الناس لا يهتمون بشرعه تعالى ويعاملون الزوجة بمهانة، وإذا سمعوا بشرعه تعالى فإنهم يسخرون منه! ويعتبرونه غير صحيح، فهم رجال، وهم متسلطون طبيعياً على النساء! ولكن ينسون أنَّ لديهم بناتاً وأخواتٍ ستتزوج، فالشرعُ هو نعمة إلهيةٌ على الجميع، بمن فيهم هم أنفسهم.

اذكروا {ما أنزل عليكم من الكتاب}، فاستحضروا في فكركم وعملكم أنَّهُ تعالى لم يتركَكم لتتصرفوا على هواكم السيئ فقد احترمكم وأنزل عليكم كتاباً من عنده، وهو كتاب من مستوى إلهي موجهٍ إليكم وهو هذا القرآن، فما معنى اتخاذ آيات القرآن هزواً! واذكروا {الحكمة}، رؤية الأمور بصوابية، الأمور التي لا عبث ولا فساد فيها التي تعلمتموها من هذا الدين الإلهي.

{يعظكم به}، ويحدد لكم ماذا يجب أن تفعلوا "عبر ما ورد في الكتاب والحكمة" حتى لا تقعوا في المشاكل.

{واتقوا الله}، فتجنبوا غضبه وعقابه إن عصيتموه.

{واعلموا أن الله بكل شيء عليم}، ويعلم كل شيء، فإذا ظلمتم نساءكم فأنتم تحت المراقبة الإلهية، فهذه هي تلك الدرجة التي أعطاكم الله تعالى إياها على نسائكم، فإذا استخدمتموها بشكل سيئٍ فلا تظنوا أنكم لستم تحت المراقبة الإلهية.

بقي شيء من تكرار الآيات السابقة لكلمة "{بمعروف}" وصولاً بتكرارها إلى الآية 236، وبعدها في نفس الموضوع من جديد في الآية 240... فهي نموذج لك عن هامش المرونة الذي تركه تعالى لنا في التشريعات لتحديده بما يناسب مختلف المجتمعات والأزمنة، والعقلاءُ المؤمنون في كل مجتمع هم المعيار لتحديد المعروف في مجتمعهم وتقويم تماشيه مع دينه تعالى، فالأمرُ بالمعروف ليس أمراً بما تعارف عليه الناس، بل هو ما تعارف عليه العقلاء المؤمنون من الناس أنهُ جيدٌ؛ في بعض المجتمعات تعارف الناس على الزوجة أنها تكون خادمة للزوج ولإخوته ولأولاده ولأهله ولأقاربه... ولكن هذا ليس عرفاً مقبولاً بين عقلاء المؤمنين وهو أصلاً لا يتماشى مع حدوده تعالى إلا بشرط صريحٍ ضمن عقد الزواج أنها ستقبل بخدمة أهله... وقبلت. أو كان وضعه معلوماً واضحاً لها أنها من بعد الزواج ستعيش مع أهله وتخدمهم، أو أن الحالة العامة لمجتمعهم أن تخدم زوجها وأولاده فيكون شرطاً عرفياً لا حاجة للتصريح به كشرطٍ أثناء إجراء عقد الزواج...

هناك الكثير من مشاكل الزوجيةِ الماليةِ فيما يتعلق بمصاريف البيت أو المصاريف الشخصية، والكثير من المشاكل من المعاملة السيئة... وهناك الكثير من الخلفيات النفسية والفكرية غير السليمة التي تتحكم بمزاج الزوجين ولا تظهر على العلن ولا يقولانها عند حضورهما عند القاضي أو عند من تدخل لمساعدتهما... وكل ذلك وغيره شملته الآيات بوصف {المعروف}، وضمناً الكلامُ عن تعليمهما ذلك المعروف، فواقعُ الحياة أن يتعلم الزوجان كيف يتصرفان كزوجين من الخبرة، علماً أنهُ من الأفضل تعلم ذلك قبل الزواج! وبالأساسِ فالحالةُ الأصيلة المفترضة بالزوجين أنهما مؤمنان عاملان للصالحات، وهذا لوحده كفيل بضمان التزامهما بحدوده تعالى، ولكن يبقى خبرة المعاملة بالمعروف التي يفقدانها لأنهما لم يمرا من قبل بتجربة الزواج...

(وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ{232})
الحديثُ في الآيات السابقة مع الزوج كي لا يرتكب السوء في موضوع الطلاق مع زوجته، الآن ستتحدث الآية مع الزوج ومع أهل الزوج وأهل الزوجة، وعن المجتمع من حولهم:

{وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن}، وأعلنتم انفكاك الزواج ومرت الطهوراتُ الثلاثُ، "أو مرت الأشهرُ الثلاثةُ على التي عدتها غير مستقرةٍ، أو أنجبت المطلقة التي كانت حاملاً..."، وخرجت من منزل طليقها، {فلا تعضلوهن}، فلا تشددوا بالتضييق عليهن فتجعلوا تلك المطلقات في مشكلة إذا أردن {أن ينكحن أزواجهن}، فلا تقفوا في طريقها إن أرادت أن ترجع لزوجها الذي طلقها {إذا تراضوا بينهم بالمعروف}، وقبلا بمحبةٍ أن يلتزما بالتعامل مع بعضهما بما هو متعارف عليه بين المؤمنين العقلاء من المعاملة الحسنة بين الزوجين، مع رضا مع تعبيرٍ عن محبةٍ للاتفاق بهذا الشكل من المعاملة. الطلاقُ يحصل لأسباب عديدة، ولكنها كلها ترجع إلى أن واحداً من الزوجين، أو كلاهما معاً، قد خرج عن المعروف في طريقة كلامه أو تعامله مع الآخر، وإذا تطلقا وانتهت العدةُ، ثم بعد ذلك تراضيا على التعامل مع بعضٍ {بالمعروف}، فلا تقفوا في طريق المطلقة وتمنعوها من الزواج مرّة ثانية من زوجها الذي طلقها.

أهلُ وأقاربُ المطلقة قد يقفون في طريقها حتى لا ترجع لطليقها، فيقولون لها: لو كان يحبك لما طلقك... لو كان يريدك فعلاً لتمسك بك... لقد أهانك وأخرجك من بيته فكيف سترجعين لعنده... هذا كله كلامُ سوءٍ إن كان الطليقان قد أبديا أنهما يريدان احترام حقوق بعضهما ويريدان الرجوع لبعضهما.

{ذلك يوعظ به}، يعرف من يسمعه كيف لا يقع في المشاكل، {من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر}؛ الذي يعتقد بصاحب هذا الاسم رباً إلهاً فيطيعه في أوامره تعالى، ويعتقد بأنه توجد آخرةٌ من بعد الموت في هذه الحياة، وفي الآخرة حسابٌ؛ عندها سيتعظ وسيتعلم من هذا الكلام ولا يقف في طريق التي تريد العودة إلى طليقها، فلن يرتكب السوء بمنعها من ذلك، وسيلتزم بشرعه سبحانه.

{ذلكم أزكى لكم وأطهر}، أليق لكم، لائق بكم كمؤمنين، وأنقى وأخلى من العيوب لكم؛ لأنها إن لم ترجع لزوجها الأول فهذا يعني إما بقاءُها من دون زوج، أو زواجها من رجل آخر، وابتعادها عن أولادها... فالعلاقةُ الثابتة المستقرة مع رجل واحد هو أطهر، وأزكى؛ فاستمرارُ العلاقة بين زوجين هو عمل لائق بالمؤمنين ولائق بمن قررا الزواج من بعضهما.

{والله يعلم وأنتم لا تعلمون}، ربما يميل بعضنا إلى ألا ترجع المطلقة لطليقها، ولكن الله تعالى يقول لنا أن نميل إلى التوفيق بينهما وتسهيل الرجوع لأنه هو تعالى يعلم أن هذا أفضل ونحن لا نعلم، فلنسمع كلامه سبحانه.

بقي شيء، من لم يكن اختصاصه القضاء والمحاماة والتدخل في مشاكل الناس، هذا لن يفهم أن تسهيل الإسلام للطلاق ليس تسهيلاً اعتباطياً من نظرة قلة قيمة للرابطة الزوجية، وها ترى آيتنا هنا تحفز على رجوع الزوجة لطليقها، على أساس أن الطلاق الذي حصل قد يكون درساً لهما... ورأيت من قبل أنها تبقى في بيت طليقها حتى تنتهي عدتها على أساس أنه قد تحن قلوبهم على بعض في تلك الفترة، أو يدرسا خياراتهما... ويتراجعا عن الطلاق...

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {233})

لا يزال الحديث عن التشريعات الإلهية فيما يتعلق بالشؤون العائلية: {والوالداتُ}، الأم التي عندها ولد، {يرضعنَ}، يطعمن من لبنهن "حليبهن"، {أولادهنَّ}: {حولينِ كاملينِ}، فمن زمن محددٍ يحلُّ مرةً ثانيةً، مثلاً من رجب الآن حين الولادة إلى حلول رجب مرةً ثانيةً فهذا حولٌ، وحلول رجب مرةً ثالثةً يصيرُ حولانِ قمريانِ كاملانِ من أربعةٍ وعشرين شهراً، وتقطيعُ الرضاعة خلال {الحولينِ} لا يجيزُ لهن تكملة المدة من بعد {الحولينِ}، لسببٍ أو لآخرَ إذا توقفتْ عن إرضاعه لشهر، فمن بعد انتهاء {الحولينِ} لا تضيفُ شهراً ترضعه فيه، فالإرضاعُ {لحولينِ كاملينِ} {لمن أراد أن يتم الرضاعة}، فالحولانِ هما تمام فترة شرب المولود من لبن "حليب" أُمّهِ.

من الواضح أنَّ مَنْ لم يُردْ إتمامَ الرضاعة فيمكنُ للأُمِّ التوقفُ عن إرضاعِ المولود قبل {الحولينِ}.

هذا الكلامُ هو نفسهُ وردَ في الآية 14 من سورة لقمان التي تقول بأنَّ {الفصال} عن الرضاعة {في عامين}:
"{وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ}"، فخلال عامين من عمر الطفل أو لنهاية العامين يتمُّ إيقافُ الرضاعة.

أمّا ما ورد في الآية 15 من سورة الأحقاف: "{وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا...}" فلم يكن كلاماً تشريعياً عن مدّةِ الحمل والإرضاع، بل سياق الآية عن مدّةٍ من مراحل اكتمال نمو الإنسان، فراجع دراستها لترى معناها.

بعبارة أبسط، فهناك إرضاع تام ومدّتُهُ أربعةٌ وعشرون شهراً مهما كانت مدّةُ الحمل، فمن أراد أن يتمَّ الرضاعة حتى نهايتها المسموح بها فلمدّة {حولينِ} من بعد ولادة الولد يتمُّ الإرضاعُ، وتعبيرٍ آخرَ لمدّةِ عامين من عمر الطفل يتمُّ الإرضاعُ، ومن بعد ذلك تنتهي الرضاعةُ سواء كانت مدّةُ حمل الولد ستةَ أشهرٍ أو سبعةً أو ثمانيةً أو تسعةً أو عشرةً،

ومن أراد توقيف الرضاعة قبل "تمامها" ففي أي وقت يمكنه ذلك، طبعاً لا تنسَ أنَّ الكلامَ هنا عن حاجة الولد للرضاعة بالنظر إلى حالة استغنائه عن الرضاعة بتناول الطعام العادي، ومن جهة أخرى فالكلام عن مدّةِ بقاءِ الولد مع أُمّهِ المطلقةِ قبل أن يتمَّ فصله عنها.

{وعلى المولودِ لهُ}، على أب الطفل الرضيع، {رزقهنَّ}؛ رزقُ المرضعة وهو ما يصير معها ممّا تسدُّ به حاجاتها، ممّا يؤكل أو ممّا تشتري به ما يؤكل، وعليه، وعلى الوالد، {كسوتهنَّ}؛ عموم لباس المرضعة، فيشمل الثياب التي تخرج بها والتي ترتاح بها في البيت، والرزق والكسوة يكونان {بالمعروف} بما هو متعارف عليه بين المؤمنين العقلاء بما يرونه مناسباً.

ننتبه وننظر لهذا الكلام من ناحية قانونية، من ناحية حصول خلاف بين الزوج والزوجة، فبين الوالد وطليقته خلاف على إرضاع الولد وفصاله عن والدته، وفي حالات الرضا والوفاق بين الوالد والوالدة فالأمور ليست بحاجة للتدخّل بينهما، ويفعلانِ ما يرضيهما ويريانهِ مناسباً، فالآيات هنا هي قوننة ما يحصل فيه خلاف.

{لا تكلف نفس إلا وسعها}؛ لا يأمر لا يشرّعُ لشخص ما بالقيام بشيء إلا وسعَها، إلا بوساعةِ قدرتها، فسبحانه لا يتخطى في تشريعه إلى ما لا يمكننا تحمّله، وبالتالي من ناحية ثانية لا يحقُّ لأي إنسان أنْ يكلّفَ فيفرض على إنسان آخر شيئاً فوق طاقته، فالرزقُ والكسوةُ المفروضة على الوالد للوالدة المرضعة يكونانِ بحسب قدرته، وعلى هذا الأساس:

{لا تضارَّ والدةٌ بولدِها}؛ لا يحقُّ لنا تسبيبُ الضرر، سوء الحال، لوالدة بسبب ولدها "بنت أو صبي"، ولا يحق لزوجها أو طليقها أو للمجتمع إجبارُها على إرضاع ولدها حتى لو كانت متضررة جسدياً من ذلك، أو إذا تقدّم للمطلقة من يريد الزواج منها واشترط عليها التوقّف عن إرضاع الولد... أو أن يضعها الوالد تحت الأمر الواقع: إمّا أن ترضعيه أو يموت ولن أدفع لك أجراً...

{ولا مولودٌ لهُ} وهو الأب، أيضاً لا {يضارَّ}؛ لا يحقُّ لزوجته أو طليقته أن تصيبه بضرر بسبب ولده "بنت أو ابن"، ولا يحق للأُمِّ التي سترضع الولد أن تطالب الوالد بما لا يستطيع تأمينه فتفرض عليه أجراً عالياً جداً، أو حتى تجبره على القبول بشروطها ليُرجعها أو لغايات أخرى... أو ترمي له الولد وهي تعرف أنَّهُ لن يجد مرضعة، أو أنَّهُ لا يملك المال ليستأجر مرضعة...

تذكّر دائماً أنَّ الآيةَ لا تتحدّث عن حالة توافق ورضاً بين الوالد والوالدة، بل في حال وقوع خلاف بينهما فالقاعدة هي منعهما من تكليف بعضهما بما لا يستطيعان، ومنع التكليف بما يضرّهما.

{وعلى الوارثِ مثلُ ذلكَ}؛ إنْ مات الوالد فعلى من يرثه، فعلى من تنتقل له ملكية ما تركه الوالد، {مثل ذلك}؛ فعليه أن يدفع للمرضعة {بالمعروف} من الميراث الذي تركه الوالد الميت، سواء كانت المرضعة بالإيجار أو مطلقةً أو زوجة لها حصّةٌ في الميراث فأجرُ الرضاعة تحصل عليه المرضعة من الميراث قبل تقسيم الميراث على الورثة.

{فإنْ أرادا}، فقرّر الأبوان، متزوجان أو مطلقان، أرادا {فصالاً}، فصل إبعاد الولد عن الرضاعة "الفطام"، {عن تراضٍ} منهما، فاتفقا وقبلا لأي سبب كان وبمحبةٍ على فطم الولد قبل {الحولينِ كاملينِ}، وحصل ذلك عن {تشاورٍ} من الوالدين، فلم تتفرد الأُمُّ بالقرار لوحدها أو يتفرّدُ الأب بالقرار لوحده، بل تحدّثا بالموضوع وتوصلا إلى نتيجة إيقاف الرضاعة، طبعاً لما فيه مصلحة الثلاثة: الوالدة والمولود والوالد. فعندها {فلا جناح عليهما}، لا مشكلة عليهما بتوقيفِ الرضاعة، يعني لا يجب أن تستمر الرضاعة {لحولينِ} بل يمكن إيقافها قبل ذلك إن كانت لا تسبب مشكلة لأحد الثلاثة.

انتهينا من القسم الأول من أحكام الرضاعة، حيث فهمنا أنَّ الأُمَّ لها الحقُّ الأول في إرضاع ولدها إن كانت قادرة على إرضاعه ولديها لبن "حليب" كاف يشبع منه المولود... وننتقل إلى حالة أخرى:

{وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم}، أن تستأجروا مرضعة لإرضاع أولادكم، {فلا جناح عليكم}، لا مشكلة، {إذا سلمتم ما آتيتم}؛ ما أعطيتم للمرضعة السابقة "الأم أو المطلقة" {بالمعروف}، فلم تنقصوا من أجرها بل أعطيتموها بعدد الأيام التي أرضعته فيها بحسب ما هو متعارف عليه بين الناس. فلنقل أنَّ المرضعة السابقة مرضت أو جفّ لبنها... وكان الاتفاق معها على إرضاع الطفل إلى الفطام، فيجب أن تحصل على أجر المدّةِ التي أرضعت الطفل فيها.

{واتقوا الله}، فتجنبوا غضبه وعقابه فلا تخالفوا أوامره التي شرحها لكم عن الرضاعة والفصال والأجرة.

{واعلموا أن الله بما تعملون بصير}، فصورة أعمالكم يدركها تعالى ويعي معناها، فليس مثل كاميرا المراقبة التي تسجّل ولا تفهم ما يجري. فالاحتيالُ والتملص من الواجبات تجاهَ الوالدة والمولود والمرضعة... لن يمر من دون أن يراه ربنا سبحانه، فانتبهوا فأنتم تحت المراقبة الإلهية أيها الناس.

بقي شيء، لا ننظر إلى الآيات على أنَّها تحوّل العلاقة الأسرية إلى علاقة مادية مالية، فهنا الكلام عن حقوق المرأة؛ فليس تحصيل حاصل أنْ تصير الأُمُّ مرضعة كفرض واجب عليها، ومثله فليس تحصيل حاصل أنَّ الزوجة خادمة لزوجها تطبخ وتنظّف البيت وتغسل وتهتم بكل ما يخصّ الأولاد... فهذه النظرة دمّرتْ مجتمعاتنا، وجعلت الزوج متسلطاً بالظلم على زوجته، وصولاً إلى زوج ينام للظهيرة ولا يعمل وزوجته تذهب من الفجر إلى الحقل وترجع لتخدمه!؟ ولا أحد من المجتمع يعترض!

عبارةُ "لا جناح" في كل القرآن فهي لا تقصد الاستحباب ولا الوجوب، فقد يكون العمل الذي تتكلّم عنه واجباً أو مستحباً، فيقول لك القرآن أنَّهُ "لا مشكلة دينية في فعله" وهو واجب أقرّهُ تعالى كواجب لنا، أو مستحب أو مباح أقرّهُ تعالى لنا كمستحب أو كمباح ولا مشكلة دينية عليك في فعله.

(وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ {234})
الذين {يتوفون} منكم، الذين يتم استيفاءُ سحب أنفسهم من بينكم، فيموتون منكم. {ويذرون}، ويتركون ولا يعد لهم علاقة، {أزواجاً}، زوجاتٍ؛ إنَّ الزوجات من بعد وفاة أزواجهنَّ {يتربصن بأنفسهن}، ينتظرن شيئاً متوقعاً حدوثه، فلا يفعلن شيئاً بأنفسهن أي لا يتزوجن مرة ثانية لمدة {أربعة أشهرٍ وعشراً}؛ أربعة أشهرٍ مضافاً إليها عشرة أيامٍ أخريات من أيام الشهر الخامس.

{فإذا بلغن أجلهن}، وصلت الأرملة إلى الزمن المحدد وهو "أربعة أشهر وعشرة أيام"، {فلا جناح عليكم}، فلا مشكلة عليكم {فيما فعلن في أنفسهن}؛ ففي خلال عدّة الوفاة "أربعة أشهر وعشرة أيام" أنتم "أهلها ومجتمعها" مسؤولون عن منعها من الزواج خلال تلك المدّة، أمّا بعدها فلا مشكلة عليكم فيما فعلت في نفسها؛ فخطبت أو كتبت كتابها أو انتقلت لبيت زوجٍ جديدٍ... {بالمعروف}، بالشيء الطبيعي العادي الذي يفعله المؤمنون العقلاء، فلا يحق لأي أحدٍ منع الأرملة من الزواج أو الخطبة بعد مرور الأجل لعدة الوفاة ولو بعد يوم واحد.

عبارةُ {لا جناح} في كل القرآن لا تقصد الاستحباب ولا الوجوب؛ فقد يكون العمل الذي تتكلم عنه واجباً أو مستحباً، فيقول لك القرآن إنهُ "لا مشكلة دينية في فعله" فهو واجبٌ أقرّهُ تعالى كواجبٍ لنا، أو مستحبٌّ أو مباحٌ أقرّهُ تعالى لنا كمستحبٍ أو كمباحٍ؛ فلا مشكلة دينية عليك في فعله.

ننتبه، فما ورد في سورة الطلاق كان عن عدّة المطلقة الحامل، وليس عن عدّة الأرملة الحامل، وكلاهما حكمهما لأبعد الأجلين؛ فعلى أي فرض كان سواء الطلاق أو الوفاة مع الحمل أو بدونه، فعلى الأقل يجب أن يمر على المطلقة {ثلاثة قروءٍ} "تعادل في أقصاها ثلاثة أشهر" قبل أن تتزوج من رجل آخر غير طليقها، وعلى الأقل يجب أن يمرّ على الأرملة {أربعة أشهرٍ وعشراً} قبل أن تتزوج من رجل آخر؛ فإن كانتا حاملين فإن وضعت المطلقة قبل الأشهر الثلاثة فتكمل عدتها للأشهر الثلاثة، وإن وضعت بعد الأشهر الثلاثة من الطلاق فتنتهي عدّتها حين تضع مولودها، وإن كانت الأرملة حاملاً ووضعت قبل أربعة أشهرٍ وعشرة أيام، فتكمل الأربعة أشهر والأيام العشرة لتكتمل عدّتها، وإن وضعت بعد أربعة أشهرٍ والعشرة أيام من وفاة زوجها، فتنتهي عدّتها حين وضعت مولودها.

{والله بما تعملون خبيرٌ}، فلديه سبحانه أخبارٌ وتفاصيلُ كل ما تفعلونه فانتبهوا أن تمنعوا الأرملة من الزواج بعد انتهاء عدتها ولو بيوم.

بالنسبة للآية 240 من هذه السورة، فهي ستتحدّث عن الفترة المسموح فيها للأرملة بالبقاء في بيت زوجها الذي توفي مع النفقة عليها من الميراث لمدةِ حول. بضمّها مع آيتنا هنا نفهم أنها قبل إكمال الحول وبعد مرور {أربعة أشهرٍ

وعشراً} يمكنها مغادرة بيت زوجها المتوفى لتسكن في بيت آخر، وحينها تتوقف "قبل مرور الحول" عن الاستفادة من النفقة عليها من الميراث، وطبعاً هذا غير حصتها من الميراث.

نلاحظُ الآية تعالج موضوع المجتمع أو الأولاد أو أهل الميت الذين قد يعيبون على المرأة الأرملة الزواج بعد وفاة زوجها، ويعاملونها على أنها خائنة وغير وفية لزوجها، علماً بأنَّ نفس المجتمع لا ينظر بنظرة معيبة للرجل الذي تموت زوجته ويتزوج بعدها! بل بعد شهر أو شهرين من بعد وفاة زوجته يعيبون عليه إن بقي عازباً! هذا ما قصدناه مراراً عن ذكورية مجتمعاتنا والتي لسببها جاءت عموم تشريعات القرآن من نظرة حقوق المرأة.

(وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىَ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ{235})
كلامُ الآية هنا عامٌ لأي حالة ذكر يرغب بالزواج من أنثى، ولكن فيها تعليق إجراء الزواج ببلوغ {الكتابِ أجلهُ}، مما يجعلها تتكلمُ عن الأرملة بشكل خاص.

{ولا جناح عليكم}، فلا مشكلة عليكم، فيما {عرضتم به}، فقدمتم أنفسكم كمحلٍّ اهتمام للأنثى على أنكم مرشحون مؤهلون، من {خطبةِ النساء}، لخطبة أنثى ما، لطلب الزواج من أنثى ما فيما بعد، فحتى لو كانت في عدة الوفاة "ونفس الحكم لمن كانت في عدة الطلاق الثالث"، فلا مشكلة أن تقولوا لها أشياءَ تبينُ أنَّكم تعرضون أنفسكم عليها كمرشحين للخطبة بعد انتهاء العدة، ولا يجوز التصريح بالرغبة في خطبتها أبداً، فلا يجوز أن يقول لها: أنا أريد خطبتك أو الزواج منك بعد انتهاء العدة.

لكن انتبه، فهذا لا يعني جواز أن تكون بلا لياقة فتكون وقحاً في التعريض بالخطبة للأرملة "أو المطلقة ثلاثاً" وهنَّ في العدة، بحجة أنَّ القرآن يقول إنَّهُ لا مشكلة، بل انتبه، فالقرآنُ يقول: "لا مشكلة في التعريض للخطبة في الظروف والأوضاع المناسبة" المتعارف عليها بين الناس المحترمين. هذا ما تفهمه ضمناً من جملة {لا جناح عليكم} التي في كل القرآن فهي لا تقصد الاستحباب ولا الوجوب؛ فقد يكون العمل الذي تتكلم عنه واجباً أو مستحباً، فيقول لك القرآن إنَّهُ "لا مشكلة دينية في فعله" فهو واجبٌ أقرّهُ تعالى كواجبٍ لنا، أو مستحبٌّ أو مباحٌ أقرّهُ تعالى لنا كمستحبٍّ أو كمباحٍ؛ فلا مشكلة دينية عليك في فعله.

انتبه، فالتعريضُ للخطبة كأن ترسل لها هدية، أو تزورها "بحضور أحد أقاربها" وتتحدث معها عن نفسك عن عملك عن علمك عن مكانتك... فلا تقل صراحة أنك تريد الخطبة ولكن تبينُ لها أنك تعرض نفسك لتكون مرشحاً للخطبة، لا أكثر.

{ولا جناح عليكم} لو {أكننتم في أنفسكم}، كما نقول لحبّةِ اللؤلؤ إنَّها مكنونةٌ في الصدفة، فأبقيتم الرغبة في الزواج من الأرملة داخل أنفسكم، فلا مشكلة لأنها لم تعد على ذمة رجل. يعني بالعكس، فحين كانت متزوجة فهناك مشكلة في رغبة الزواج منها، الرغبة فيها، واشتهائها... فهي على ذمة رجل.

{علم الله أنكم ستذكرونهن}، فيخطرن ببالكم، فهي ستصير متاحةً لكم للزواج منها بعد انتهاء عدتها، ولهذا السبب تريدون القيام بحركة ما تجعلها تنتبه لرغبتكم بها قبل أن يسبقكم أحد آخر بالزواج منها، ولكن {لا تواعدوهن سراً}؛ فالأرملة التي لا تزال في عدتها فلا تقولوا لها وعداً بالزواج منها بالسرِّ من دون علم بقية الناس، فحتى بالسرِّ بينك وبينها لا يجوز أن تعدها بالزواج منها، {إلّا أن تقولوا قولاً معروفاً}، كلاماً متعارفاً عليه بين الناس في هذه الحالة؛ فالمسموحُ أي كلام لطيف ولكن بشرط أن لا يكون صريحاً في طلب يدها للزواج، فقط مسموح التحدث على شكل تعارف وتقارب في الأفكار وإبداء الإعجاب بشكل غير مباشر ومهذَّبٍ...

{ولا تعزموا عقدة النكاح}، لا تقرروا بحزم، إجراء عقد اتفاق يتضمن إقامة علاقة جنسية، إجراء الزواج، {حتى يبلغ الكتاب أجله}، الموعد المكتوب المحدد، وقته المحدد لانتهائه، أي حتى تنتهي عدة الوفاة. فرضاً حصل تقارب في وجهات النظر وظهر من الأرملة أنَّها متماشية مع عرض الخطبة، فهذا لا يعني الانتقال للمرحلة الثانية وإعلان قرار

بزواجهما بعد انتهاء العدة، فبعد انتهاء العدة يحق لكم التحدث عن الزواج بشكل مباشر أو الحديث عن تحديد موعد للزواج، أو إجراء عقد الزواج... عمومُ جدية الحديث عن إجراء الزواج وما يتعلق به مسموح فقط بعد انتهاء العدة.

{واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه}، فانتبهوا من خطر عقابه تعالى إذا أكملتم شروط حصول عقابه تعالى لكم. إذا اجتمع رجل وامرأة، وهي لا تزال في عدتها، وهو لديه رغبة بها أو هي لها رغبة به، فإلى هنا لم تكتمل شروط تسجيل عقاب إلهي عليهما؛ فشروط حصول العقاب الإلهي هو التقدم في العلاقة بكلام الغزل أو الكلام الصريح عن الخطبة أو عن الزواج... وكأنها ليست في عدتها، فاحذروا لأنه تعالى يعلم ما يدور في فكركم ومشاعركم، فلا تنجرفوا إلى السوء...

{واعلموا أن الله غفور}، فيتجاوز عن الذنب، فقد لا يتمالك نفسه أو لا تتمالك نفسها ويعبرانِ عن محبّتهما لبعضهما البعض... أو يستعملان عبارات تعبّر عن ذلك وهما منجرفان لا يقصدان السوء... فعليهما أن يستغفراه تعالى في هذه الحالة. كما ترى، فلا تزال الآيات تفترض أن الكلام مع مؤمنين حقيقيين لا نيةَ لهم بمعصيته تعالى، فالكلامُ هنا مع مؤمنين محترمين، وأمّا لو تطورت الأمور لأكثر مما ذكرته الآية فهو زنا عليه عقاب هنا في الدنيا قبل الآخرة.

اللهُ {حليمٌ}، بتعبيرنا الدارج "طويل البال"، فلا يعاقب سبحانه فوراً على تلك الأفكار الحرام لأنها أتتنا في حالة ضعف، وقد لا نستطيع ضبطها بالكامل؛ لذلك يحلم علينا سبحانه وينتظرنا حتى نستغفر من تلك الأفكار حتى يغفر لنا لأنه {حليمٌ}.

(لاَّ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنُّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ{236})

{لا جناحَ عليكم}؛ عبارةُ {لا جناح} في كل القرآن لا تقصد الاستحباب ولا الوجوب، فقد يكون العمل الذي تتكلمُ عنه واجباً أو مستحباً، عندها يقول لك القرآن إنهُ "لا مشكلة دينية في فعله" لأنه واجبٌ أقرّهُ تعالى كواجبٍ لنا، أو مستحبٌّ أو مباحٌ أقرّهُ تعالى لنا كمستحبٍ أو كمباحٍ ولا مشكلة دينية عليك في فعله.

لا مشكلة عليكم إنْ طلقْتُم، أعلنتم انتهاء الزواج أمام شاهدين على الأقل كما ذكرت الآية 2 من سورة الطلاق: "{فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ...}"، {ما لم تمسوهنَّ}؛ التي كنتم عاقدين عليها ولم تلامسوها الملامسةَ الخاصةَ التي تحصل بين زوج وزوجة، ولم تدخلوا بها، أو {لم تفرضوا لهنَّ فريضةً}؛ لامستموهنَّ ولكن حين أجريتم عقد النكاح لم تفرضوا على أنفسهم أن تدفعوا لها مهراً "صداقاً"، فلا مشكلة عليكم إن "السببٍ أو لآخرَ" أردتم طلاقها.

إيقاعُ الطلاقِ غيرُ مشروطٍ بحصول دخول أو بوجود مهرٍ؛ فقد يقول قائل: ما معنى الطلاق لأنثى لم يحصل أصلاً معنى الزواجِ بها، ولم تحصل معاشرة؟ فهي أصلاً قبلت بالعقد لحصول المعاشرة فهو عقدٌ لحصول المعاشرة؟ قبل ذلك ما معنى الطلاق؟ فتجيبُ الآية أنهُ لا مشكلة في الطلاق كونه إنهاءً لارتباط عقدِ الزواجِ، وليس بالضرورة حصره في إنهاء إقامة علاقة المعاشرة.

قد يقول قائل: ما معنى طلاق من قبلت بالزواج من دون مهرٍ؟ فهي قبلت أن تكون بلا حقوق على أساس استمرار الزواج إلى وفاتها أو وفاة زوجها، فهي لم تحسب حساب الطلاق قبل ذلك، وقبلت بالعقد بلا مهرٍ؟ فتجيبُ الآيةُ أنهُ لا يوجد زواجٌ لا يمكن إنهاؤهُ، ولا بأي شكلٍ يمكن أن تجبر الزوج أو الزوجة على الاستمرار بالزواج غصباً عنهما.

ننتبه جيداً، فقد تنظر لهذه الآيات على أنها جافةٌ تتعاملُ مع الزواج بشكلٍ قانونيٍ جافٍ وكأنَّهُ علاقةٌ تجاريةٌ؛ فأينَ المشاعرُ من الحبِّ والرغبةِ والرحمةِ... والترابط وانفكاك الأسرة... فانتبه لعموم القرآن الذي يحفز على العلاقة الطيبةِ عموماً بين كلِّ الناس، وبالأحرى أن تكون العلاقة طيبةً مع الأهل والأسرة، أمّا الكلامُ التشريعيُّ فهو ينطبق على حالاتٍ يحصل فيها الخلاف بين الزوجين.

ننتبه أكثرَ لمصيبةِ استغلالِ بعضِ الرجالِ "وأهلهم" للفوقية الذكورية المنتشرة في الكثير من المجتمعات على أساس أنَّ الذكرَ قيمتُهُ أعلى، وأنهُ يمكنه الزواج ممن يشاء وساعةَ يشاء، وأهل الأنثى عليهم أن يرضوا بالشروط التي يفرضُها

العريسُ... والأنثى عليها أن تقبل بأي عرضٍ حتى تنستر وتتزوجَ... فحالةُ إجراء عقدٍ بلا مهرٍ ستكون لها عاقبةٌ وخيمةٌ إن حصل الطلاق، فقد تذهب الأنثى بلا أي مالٍ تستعينُ به في معيشتِها إن لم ينصفها القاضي أو المجتمع... بل ويتجرأ الرجلُ على طلاقها لأنَّهُ لا مهر عليه ليتحمل دفعَهُ إن طلّقَها... فقد يستسهل طلاقَها... لذلكَ نرى تشريعاتَ قرآنيةً تحمي الأنثى من الاستخفافِ والاستهانةِ بها، وهذه التشريعاتُ لحمايتِها هي الحدُّ الأدنى الممكنُ فرضُهُ على الرجل في حال كانت الأنثى لم تعِ احتمال طلاقٍ.

لو أطلتُ عليك، فكثيراً ما طرح بعضُ العقلاءِ دفترَ شروطٍ للزواج يعرضونَهُ على من يريدانِ الزواج، ووضعوا في الدفترِ الحدَّ الأدنى الضامنَ لحقوق الأنثى بسبب انتشار ثقافةِ الفوقية الذكوريةِ في عموم مجتمعاتٍ، وآيتُنا هنا شرطٌ إلهيٌّ "بالحدّ الأدنى" لحفظ حقوق الأنثى التي لا حولَ لها ولا قوةَ إن علقتْ عند رجلٍ لا يخاف اللهَ تعالى.

{ومتعوهنَّ}، للتي لم تمسوهنَّ وللتي ليس لها مهرٌ، {فمتعوهنَّ}؛ فأعطوهنَّ ما يؤمنُ لهن متاعَ الحياةِ، {على الموسعِ}، على الذي في سعةٍ ماليةٍ، فهو مرتاحٌ مالياً، {قدرُهُ}؛ فبقدرِ راحتِهِ الماليةِ فإنه يعطي المطلقةَ مالاً أو غيرَهُ لتنفقَ منه على نفسِها لتعيشَ، فبحسب قدرته المالية ينفقُ عليها؛ فإن كان غنيّاً فينفقُ عليها بشكلٍ مريحٍ لها.

{وعلى المقترِ قدرُهُ}، على الذي المالُ معه بقترةٍ بقلةٍ، فالإنفاقُ بحسب قدرتِهِ الماليةِ؛ فلا تفرضوا عليه أن يعطيها مالاً فوقَ طاقتِهِ وفوقَ ما يمكنه أن يدفعَهُ لها.

سنعرفُ من الآية التالية أنَّ المطلقةَ التي لم يدخل بها زوجها، فيحقُّ لها {نصف المهر}، وسنتحدثُ عن حالةِ التي لم يتحددْ لها مهرٌ في عقدِ النكاحِ... أمّا هنا فكلامُ الآية عن {الإمتاعِ} وهو النفقةُ بعد الطلاق وليس عن المهرِ.

هذا {متاعاً بالمعروفِ}، الدفعُ للمطلقةِ حقّاً، شيئاً واجباً، {على المحسنينَ}؛ على الذين يحسنونَ العملَ، وبالعكسِ فمن طلقَ ولم يهتم بحالةِ المطلقةِ المعيشيةِ فهذا من المسيئين عملاً، ولم يقمْ بما هو حقٌّ عليه القيام به.

كما ترى فقد اختارت الآية نموذجاً قد نفترضُ أنَّهُ لا حقَّ للأنثى فيه على الرجلِ إن طلقَها؛ فهي إمّا لم يحصل بينَهُ وبينَها معاشرةٌ فلماذا سيصرف عليها إن طلقَها، وإن هي أصلاً قبلت بالزواج منه بلا مهرٍ فلماذا سيصرف عليها إن طلقَها؟ فتأتي آيتُنا هنا لتنبهَنا أنَّ النفقة واجبةٌ حتى في هاتين الحالتينِ.

بقيَ شيء؛ كمْ هي المدةُ التي يجب فيها على الطليقِ الإنفاقُ على طليقتِهِ؟ هذا لم تحددْهُ الآية لأنها حالةٌ تختلفُ كثيراً بين حالة مطلقةٍ وأخرى، وبين حالة رجلٍ قادرٍ على الإنفاقِ على طليقته لمدةٍ طويلةٍ أو رجلٍ بالكادِ يمكنه الإنفاقُ على نفسِهِ... فهذا تقييمُهُ متروكٌ للقضاةِ المؤمنين العقلاء ليحكموا بما يناسب مختلفَ الحالاتِ والمجتمعاتِ...

(وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إَلاَّ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {237})
{وإن طلقتموهن}، وفككتم رباط الزواج، {من قبل أن تمسوهن}، من قبل أن يحصل بينكم وبينهن الملامسة الخاصة التي تحصل بين الزوج والزوجة، فلم تحصل معاشرة جنسية، {وقد فرضتم لهن فريضةً}، فأوجبتم وحددتم على أنفسكم أن تدفعوا للتي طلقتموها مهراً أثناء إجراء عقد الزواج، {فنصف ما فرضتم}؛ فللمطلقةِ نصف المهر، {إلا أن يعفون}، فيمرون عن مسألة المهر، فلا يطالبن بما لهن من مهر، فيسامحن بحقهن فلا يطالبن بالمهر، هذا إن كانت المطلقة واعية راشدة، {أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح}، فلا يطالب بالمهر فيسامح الذي بيده فلديه سلطة أو وكالة عن هذا العقد، فهو ولي للتي ليست راشدة كأبيها أو جدّها، أو الوصي عليها أو وكيل عن راشدة...

{أن تعفوا}، فتسامح الزوجة أو من بيده عقدة النكاح، فلا يطالبوا بنصف المهر أو بأي قيمةٍ ماليةٍ أو غيرِها، فهو {أقرب للتقوى}، أقرب لتجنب مخالفة أوامره تعالى؛ لأن المهر يدفعه الزوج حتى تمكنه الزوجة من نفسها، فيقاربها، وهنا لم يقاربها، فالأقربُ لتنفيذ أوامره تعالى هو ألا يطالبوه بنصف المهر لأنه لم يمسها.

{ولا تنسوا الفضل بينكم}، فالفضل هو تقديم شيء للآخرين أو تنازل عن شيء للآخرين من دون أن يكون فرضاً واجباً على من فعله أو قدّمَهُ؛ فهذا ضعوه في بالكم دائماً كسلوكٍ محبوبٍ مرغوبٍ إيمانياً، فتفضلوا على من طلق قبل

المساس وسامحوه بالمهر، فهذا أفضل من أخذه بالرغم من تثبيته كحقٍ للمطلقةِ، طبعاً إن كان وضع المطلقة المالي يتحمّلُ الاستغناء عن نصف المهر أو أنَّها لم تتضرّر مالياً من الزواج فربما تركت عملها وكانت تعتمد عليه في معيشتها وربما...

{إن الله بما تعملون بصير}، فصورةُ أعمالكم يدركها تعالى ويعي معناها، فليس مثل كاميرا المراقبة التي تسجّل ولا تفهم ما يجري. إذا كانت هناك نوايا خبيثة عند الرجل من الأساس، أو كان هناك حيلة أو خدعة، أو كان الزواج لمصلحة... مثلما يحصل ممن يتزوّجانِ طمعاً في الحصول على جنسية بلد أجنبي، وبعد الحصول عليها يتطلقانِ فينخدعُ بذلك واحد منهما... ومن تفضّل فلم يطلب بالمهر قربةً لله تعالى فتفضُّلُهُ سيتسجّلُ عنده تعالى ويجازيه عليه... فكلُّ الأعمال تحت المراقبة الإلهية.

بقي شيء لم تذكره الآيات عن التي لم يكن لها مهر في عقد النكاح، فالعقدُ صحيح، وقد تركته الآيات لأن تفاصيله كثيرة ومعلومة من فحوى الكلام، ويبدو أنَّ الآيات افترضت واقع حال رضا تام عقلاني من الأنثى حين قبلت بعقد نكاح بلا مهر، فربما هي التي طرحت نفسها على الذكر راغبة بالزواج منه، وربما هي غنية وهو فقير وبناء عليه قبلت بالزواج بلا مهر، وربما هي عرضت عليه مالاً ليتزوجها... كما ترى فهذه حالات لا تتضرّر فيها الأنثى من عقد نكاح بلا مهر، وأمّا إن كان الحال أنَّها غبية أو واقعة تحت ظروف قاهرة أو... فحتى لو لم يتحدد في العقد مهر لها، فلها مهر يحدّده العقلاء المؤمنون بما يرونه مناسباً لها ولزوجها؛ يدعم ذلك ما ورد في الآية 25 من سورة النساء "... {فانكحوهن بإذن أهلهن {وآتوهن أُجورهن بالمعروف}..."، والآية 24 من نفس السورة "... {فما استمتعتم به منهن فآتوهن أُجورهن فريضة}..."، هنا الكلام في الآية عن طلاق قبل الاستمتاع وبناء عليه فليس دفع نفس المهر فريضةً للتي لم يتحدد لها مهر، إلا لسبب آخر طارئ خارج عن الموضوع؛ فلنقل مثلاً أنَّهُ مزاجياً تزوجها ومزاجياً طلقها وهي مقبولة الأوصاف خَلْقاً وخُلُقاً، ولنقل أنَّها تركت وظيفتها التي كانت تعتاش منها بسبب زواجها وليس متاحاً لها من بعد الطلاق تأمين مورد معيشي... فهذه أمور قد تحدث في أي موضوع آخر غير الزواج وينفرض فيه أشياء ويصير الحكم فيها للعرف العقلائي، هذا ما قصده تعالى بوصف تعليم النبي(ع) للمؤمنين {الكتاب} و{الحكمة}؛ فالكتاب يعرض الأساسيات والقليل من التفاصيل، والحكمة تقتضي النظر في التفاصيل والأمور الطارئة والظروف المختلفة.

(حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ{238})
ننتقل الآن لمقطع معترضٍ بين أحكام الزواج، حتى يكون فاصلاً بين الأحكام المختلفة للزواج ولا تتداخل مع بعضها؛ ففيما سيأتي تكملةٌ عن تلك الأحكام في شؤونٍ مختلفةٍ عمّا سبق.

{حافظوا}، اعتنوا لا تهملوا أيها المؤمنون، على {الصلوات}، على التوجه بشكلٍ متكررٍ، وهذه الكلمة صارت مصطلحاً دينياً يشير للتوجه نحوه تعالى بالعبادة بحركاتٍ وكلماتٍ محددةٍ نسميها الصلوات الخمس؛ واعتنوا بها وصونوها فلا تغفلوا عنها أو تضيعوها، وأقيموها في أوقاتها، فلا تؤجلوها أو تتركوها... ولتكن تأديتكم لها فعلاً صلاةً، فيكون فيها التوجه نحوه تعالى بالكلام بدون شرودِ الذهن وبدون مخالفة ما نقوله ونفعله في الصلاة...

{والصلاة الوسطى}، أيضاً حافظوا على ما يتوسطُ، على الصلاة ما بين الصلوات. الواجبُ "كما هو مشهورٌ جداً بين عموم المسلمين" الصلاةُ خمس مراتٍ في ثلاثة أوقاتٍ كلَّ يومٍ، وهناك صلاةُ نافلةٍ مستحبةٌ تتوسطُ بين تلك الصلوات، أيضاً حافظوا عليها. قد ذكر منها القرآن الصلاة في الليل صراحةً وبالتورية؛ راجع الآية 79 من سورة الإسراء: "{وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا}".

{وقوموا لله قانتين}؛ فلا تعطلوا أو تهملوا إعلان الطاعة والحاجة. عندما تقومون لتأدية الصلاة لتفعيلها فكونوا قانتينَ، وبنفسية الإحساس بالطاعة والحاجة لله تعالى.

نلاحظ كلاماً حول تحديد {الصلاة الوسطى} على أساس أنَّ الآية تقصد صلاةً من الصلوات الخمس وتصفها {بالوسطى}؛ قالوا هي صلاة الصبح لأنها وسط الصلاة في اليوم "بين العشائين والظهرين"، وقيل العصر وقيل الظهر... وقيل أيضاً إنَّهُ يوجد سببٌ للتركيز على واحدةٍ من تلك الصلوات الخمس لأهميتها عن غيرها. مَنْ قالَ إنَّها

"صلاة الفجر" برَّر أهميتها بأنَّ الناس يكونون نياماً في وقتها... أو لأن الناس تنشغل في وقت الظهر أو العصر فيتركون الصلاة فيهما... كلامُهم جميلٌ كنصائح وإرشاداتٍ دينيةٍ ولكن لا علاقة له بالآية؛ لأنها ستكون "حزورةً، أحجيةً"، ولن يكون واضحاً من الآية أي صلاةٍ هي، ولكن من عموم القرآن تفهم أنَّهُ تعالى أمرنا بصلاةٍ نافلةٍ تتوسطُ الصلوات الواجبة؛ فيكون الكلام هنا عن تحفيزنا على المحافظة على الصلوات المستحبة التي تتوسطُ الصلوات الواجبة. قد ذكر القرآن منها صراحةً صلاة الليل التي وردت في الآية 79 من سورة الإسراء، وفي غيرها من الآيات بشكلٍ غير مباشرٍ...

مضافاً لذلك نجد في التراث اليهودي خمس صلواتٍ موزعةً على فتراتٍ من اليوم تماماً كصلواتنا نحن الخمس الواجبة، ومضافاً لها صلاةٌ سادسةٌ بعد منتصف الليل، وهذه الصلاة تعتبرها بعض الطوائف اليهودية واجبةً.

(فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ{239})
{فإنْ خفتم}، إنْ شعرتم بخطرٍ أكيدٍ لا يمكنُ تجنبه، فحصلَ عندكم خوفٌ أثناءَ أداءِ الصلاةِ من عدوكم أو من حيواناتٍ مفترسةٍ أو من أيِّ شيءٍ آخرَ يمنعكم من القيامِ بحركةِ الركوعِ أو السجودِ حتى لا يحصلَ ما تخافون منه أثناءَ قيامكم بتلك الحركات، أو توجهكم إلى القبلةِ يعيقُ عليكم المراقبةَ من حولكم لتروا ما تخافون منه... {فرجالاً}، فصلوها على أرجلكم وقوفاً أو مشياً، {أو ركباناً}، أو صلوا وأنتم راكبون على الحيواناتِ أو في السيارةِ أو الطائرةِ...

{فإذا أمنتم}، شعرتم بالخلوّ من الأذيةِ والضررِ... فلا تستمروا في أداءِ الصلاةِ واقفين أو راكبين، {فاذكروا اللهَ}، فاستحضروه تعالى في فكركم وقولكم وحركاتكم، {كما علمكم}، مثلما علمكم تعالى عبر نبيه(ع)، {ما لم تكونوا تعلمون}؛ فتفاصيلُ الصلاةِ غيرُ مذكورةٍ في القرآنِ، وقد تعلمناها من النبيِّ محمدٍ(ع) الذي تعلمها من ربنا سبحانه، ونحنُ لم نكن نعلمُ كيف نصلّي لربنا سبحانه.

فكرْ بالموضوعِ بطريقةٍ مختلفةٍ، فنحنُ نعلمُ أنّهُ يجبُ التعبيرُ عن عبادتنا لإلهنا، ولكن كيف نعبدهُ بطريقةٍ جيدةٍ؟ لم نكن نعلمُ، وقد علمنا سبحانه عبر نبيه محمدٍ(ع) كيف نصلي له؛ فيجبُ الالتزامُ بما تعلمناه، وممنوعٌ الاختراعُ.

بقدرِ ما يمكنكم القيامُ به من الصلاةِ الواجبةِ من توجهٍ إلى القبلةِ أو الحركاتِ والقراءةِ... ويجبُ أن تقوموا به، وما لا يمكنكم القيامُ به بسببِ الخوفِ فلا مشكلةَ فيمكنكم تركه، فلا يجوزُ لكم تركُ الصلاةِ ولا في أيِّ ظرفٍ كان، حتى لو اقتصرتِ الصلاةُ على تكبيرةٍ واحدةٍ وفي قلبكم، ولكنَّ هذا للحالاتِ الاضطراريةِ فقط؛ {فإذا أمنتم} فعودوا إلى الصلاةِ كما تعلمتموها من الرسولِ(ع).

طبعاً الحديثُ عموماً مع المهتمِّ بتدينه، فوقتُ الصلاةِ فيه مساحةٌ، فإنْ علمَ بانتهاءِ ما يجعلهُ خائفاً قبل انتهاءِ وقتِ الصلاةِ، فهو سينتظرُ حتى ذلك وبعدها يصلي بشكلٍ عاديٍّ، فالكلامُ هنا عن خوفٍ حصلَ عندكَ من بدايةِ وقتِ الصلاةِ وتعلمُ أنّهُ سيستمرُّ حتى نهايةِ وقتِ الصلاةِ... وبقيةُ تفاصيلِ ظروفِ الخوفِ وما لا يمكنكَ القيامُ به من أركانٍ وفروعِ الصلاةِ... فقد بذلَ العلماءُ جهدهم لتحديدهِ بعقلانيةٍ، ومطالعةُ ما قالوه يعطيكَ فكرةً عمّا ستفعلهُ إنْ حصلَ معكَ خوفٌ يمنعكَ من أداءِ الصلاةِ بكلِّ أركانها وفروعها... وهذا النوعُ من الفتاوى التي لا تجدُ تفصيلاتها في القرآنِ هو ما تركهُ تعالى عن قصدٍ لأنَّ تقييمهُ مختلفٌ بين شخصٍ وآخرَ وبيئةٍ وأخرى. لنقل مثلاً إنَّ شخصينِ مسافرانِ في طريقٍ عليه لصوصٌ، وأحدهما متمرّسٌ وعملهُ أصلاً حمايةُ المسافرين من قطاعِ الطرقِ، فهذا سيكونُ مطمئناً أكثرَ من المسافرين معهُ، وبتقديره أنّهُ الآن لا خطر، فيصلي بشكلٍ عاديٍّ، وفي الوقتِ نفسهِ فالآخرون خائفون، فيحقُّ لهم الصلاةُ بما يرونهُ مناسباً مع أخذهم لحذرهم من اللصوص، وقد تتصوّرُ العكس فالحامي يتوقّعُ الخطرَ وحتى يبقى مراقباً يصلي بشكلٍ غيرِ عاديٍّ، والمسافرون مطمئنون لأنّهُ يحرسهم فيصلون بشكلٍ عاديٍّ... وهكذا ترى كمثالٍ أنَّهُ تعالى كثيراً ما تركَ هذه التفاصيلَ لأنَّ تقييمها يختلفُ من شخصٍ لآخرَ ومن بيئةٍ لأخرى.

(وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيَ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{240})

نرجعُ لأحكامِ الزواجِ ومتعلقاتِهِ بعد الفاصلِ عن الصلاةِ. الواضحُ من الفاصلِ أنَّ الموضوعَ السابقَ قد انتهى وأنَّنا ندخلُ في موضوعٍ جديدٍ وهو:

الذين {يتوفون} منكم، يتمُّ استيفاءُ أخذِ أنفسِهِم، الذين يموتون منكم، {ويذرون}، يتركون ولا يعدُّ لهم علاقةٌ بسبب موتهم؛ ويتركون {أزواجاً}، "زوجةً أو زوجاتٍ"، {وصيةً لأزواجهم}، ويتركون تعليماتٍ للتصرفِ بأموالهم وأملاكهم لصالحِ زوجتهم أو زوجاتهم، {متاعاً إلى الحول}؛ وهو مأمورٌ بتركِ تعليماتٍ ويحسبُ حساباً لتأمينِ متاعِ أمتعةٍ وهي حاجاتُ الزوجةِ من الطعامِ والثيابِ وأثاثٍ وغيرِهِ... من أموالِهِ وأملاكِهِ لأرملتِهِ، ويحسبُ حسابها بحسبِ ما يناسبها حين يوصي، إلى {الحول}؛ من وقتِ وفاةِ زوجها إلى حلولِ إلى مرورِ نفسِ الوقتِ مرةً ثانيةً. فلنقل أنَّهُ مات في شهرِ شباط فإلى حينِ "حولِ" قدومِ شهرِ شباط مرةً ثانيةً، فإلى سنةٍ كاملةٍ بدون انقطاعٍ؛ فلو فرضاً لسببٍ ما خرجت الأرملةُ من البيتِ لشهرٍ، فهي لا تبقى شهراً بدله بعد مرور اثني عشر شهراً، {غيرَ إخراجٍ}؛ فلا يحقُّ لأحدٍ من الورثةِ أو غيرهم أن يخرجها من البيتِ خلال {الحول}.

يجبُ على المؤمنِ الانتباهُ لزوجتِهِ بعد مماتِهِ ويحسبُ لها حساباً في وصيتِهِ أن تبقى على نفقتِهِ من ميراثِهِ لمدةِ سنةٍ بعد موتِهِ، وذلك بالإضافةِ لحصتها المحددةِ من الميراثِ على الأقل بما حددتهُ آياتٌ في سورةِ النساء؛ ولا يقسمُ الوصيةَ وينسى نفقةَ زوجتِهِ بحسبِ ما يناسبها ويحفظُ كرامتها. فرضاً نسي أو أصلاً لم يوصِ بذلك فيجبُ على بقيةِ الورثةِ أن يحسموا من الميراثِ وقبل تقسيمِهِ حصةً للأرملةِ تكفيها مصروفَ لمدةِ سنةٍ، ولا يحقُّ لأحدٍ إخراجها من بيتِ زوجها المتوفى خلال {الحول}، إلا إذا هي خرجت.

لا تنسَ أنَّ الآيةَ ضمنياً ناظرةٌ إلى إمكانيةِ تزوجِ الأرملةِ بعد مرورِ عدتها، فتنظرُ إلى استبعادِ قدومِ زوجها الجديدِ إلى بيتِ زوجها المتوفى ليسكنَ معها على احتمالِ وجودِ إخوتِهِ فيه أو والديهِ... وإلا فإذا لم يكن لدى الورثةِ مشكلةٌ في بقائها في البيتِ معهم في حصتها من الميراثِ... فلا مشكلةَ في بقائها ولكن بعد {الحول} تنتهي نفقتها. تذكرْ أنَّ الآياتِ هنا تفترضُ أنَّ الأرملةَ لا تمانعُ من الزواجِ مرةً ثانيةً... فإن كانتِ الظروفُ لا تشيرُ لاحتمالِ زواجها فهذا لا يعني أنهُ يحقُّ للورثةِ إخراجها من منزلِ زوجها المتوفى، لا؛ فهي لها حصةٌ فيه والكلامُ هنا ناظرٌ إلى احتمالِ إمكانيةِ تزوجها من جديدٍ. عندها لا يحقُّ لها إحضارُ زوجها الجديدِ إلى حصتها في بيتِ زوجها القديمِ إلا إذا وافقَ الورثةُ أو لم يكن هناك وارثٌ غيرها للميتِ أو أخذتِ المنزلَ كحصةٍ لها من الميراثِ بدلَ أموالٍ أو أملاكٍ أخرى... وبسببِ احتمالِ إحضارِ زوجها الجديدِ إلى بيتِ زوجها القديمِ مع وجودِ أهلِهِ فيه أو إخوتِهِ أو... لهذا السببِ نجدُ في بعضِ الرواياتِ أنَّ الأرملةَ لا ترثُ من العقارِ، ولكنَّ تلك الرواياتِ كانت ناظرةً إلى أرملةٍ ستتزوجُ وتحضرُ زوجها إلى حصتها في البيتِ... وعوَّضوا عليها بثمنِ حصتها من البيتِ... وأكررُ لكَ فهذا كلهُ ناظرٌ لحالةِ إحضارِ زوجها الجديدِ إلى البيتِ الذي فيه أهلُ زوجها القديمِ...

{فإن خرجن}، فغادرتِ الأرملةُ منزلَ زوجها الميتِ، في أيِّ وقتٍ كان خلال {الحول}، {فلا جناح عليكم}، فلا مشكلةَ عليكم، {فيما فعلن في أنفسهن من معروفٍ}؛ فلا تطالبوهنَّ بالبقاءِ لمدةِ سنةٍ من دون زواجٍ، أو تجبروهنَّ على البقاءِ في منزلِ زوجها الميتِ، فالأرملةُ هي التي تختارُ إما البقاءَ أو المغادرةَ، ولا مشكلةَ في ما تفعلهُ بنفسها {بالمعروف} بالمتعارفِ عليهِ بين المؤمنين العقلاءِ من خطبةٍ أو زواجٍ "طبعاً بعد انتهاءِ عدّةِ الوفاةِ"، أو تكملةِ الدراسةِ أو العملِ...

اللهُ {عزيزٌ}، المنفيُّ عنهُ عمومُ الذلةِ بأيِّ شكلٍ كان، من التبعيةِ والحاجةِ وفرضِ إرادةِ الآخرين عليهِ... فهو فوق الجميعِ، ويقابلها صفةُ الذليلِ الذي تحت غيرِهِ ويحتاجُ لغيرِهِ أو يحتاجُ للأشياءِ من غيرِهِ... لذلك تصدرُ عنهُ الأوامرُ، ويجبُ علينا طاعتها.

وهو {حكيمٌ}، لا يقولُ لكم هذا التشريعَ عن عبثٍ بل عن رؤيةٍ للصوابيةِ في الأمورِ بأنَّ فيها مصلحتكم. فوصفُهُ تعالى {بالعزة} ليس سبباً حتى يشرّعَ لنا تعالى على مزاجٍ وعن عبثٍ، فمضافاً لقدرتِهِ تعالى على فرضِ أيِّ شيءٍ يريدُهُ علينا، فهو تعالى لا يتصرّفُ إلا عن حكمةٍ. أمام هاتين الصفتين وتشريعهِ تعالى للأرملةِ فلا نزالُ في مجتمعاتنا نسمعُ الجهلةَ يعيبونَ على الأرملةِ الزواجَ قبل السنةِ، بل ويمنعونها بالكلامِ القاسي، بل وحتى بالقوة! بل حتى بعضهم يفرضون عليها الموت بلا زواج! ويشاركُ المجتمعُ في ذلك بمدحها للبقاء أرملةً وبالتعييبِ على التي تتزوجُ من بعد وفاةِ زوجها! بينما يعيبون على الرجل البقاء عازباً بعد وفاةِ زوجتِهِ!

ننتبه جيداً، الآيةُ هنا حصراً تتكلمُ عن حقٍّ للأرملةِ بالنفقةِ والمبيتِ إلى {الحول}، وأمّا عن حقّها في الزواج من جديدٍ فهو بعد انتهاءِ العدةِ "أربعة أشهرٍ وعشرة أيامٍ".

(وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ{241})
الآيةُ السابقةُ تحدثتْ عن حكمِ نفقةِ ومبيتِ الأرملةِ، الآن ننتقلُ لحكمِ التعاملِ الماليِّ والمبيتِ مع المطلقةِ: {وللمطلقاتِ}، المرأة التي طلقها زوجها، {متاعٌ}، استفادةٌ من الطعامِ والثيابِ والأثاثِ... {بالمعروفِ}، بما هو متعارفٌ عليه بين عقلاءِ المؤمنينَ. عندما تبقى في بيتِ زوجِها لمدةِ ثلاثةِ قروءٍ، فيجبُ على مَنْ طلقها أنْ يصرفَ عليها بشكلٍ متعارفٍ عليهِ بين المؤمنينَ العقلاءِ من نوعيةِ الطعامِ واللباسِ والمسكنِ... هذا تعقيباً على الكلامِ السابقِ عن نفقةِ الأرملةِ ممّا تركهُ الزوجُ... الكلامُ هنا يبني عليه؛ فما دامتِ المطلقةُ في بيتِ طليقِها أو بالتوافقِ خرجتْ منهُ قبلَ {العدةِ} فلها عليهِ النفقةُ. إنِ انتهتِ {العدةُ} ولم تتزوّجْ من غيرِهِ وكانتْ بحاجةٍ للنفقةِ، فالحدُّ الأقصى بناءً على الآيةِ السابقةِ كان لسنةٍ. الأرملةُ كانتْ مستفيدةً مالياً من المهرِ المؤخّرِ ومن حصّتِها من الورثةِ، هنا الحالُ نفسُ الشيءِ فينظرُ القاضي إنْ كانتِ المطلقةُ مستفيدةً من المؤخّرِ بما يكفيها...

هذا {المتاعُ}، الاستفادةُ الماليةُ أو غيرُها، {حقّاً}، شيءٌ واجبٌ، {على المتقينَ}؛ على الذينَ يتجنبونَ غضبَ وعقابَ اللهِ تعالى؛ فليسَ {المتاعُ} اختيارياً بل واجبٌ وعليهِ حسابٌ.

ننتبه لبعضِ الموروثِ الدينيِّ الذي قطعَ الآيةَ هنا عن سياقِها واستبدلَ معنى كلمةِ "متاع" بما اصطلحوا عليه بـ "المتعةِ" وهو عقدُ الزواجِ المنقطعِ المحدّدِ الأجلِ؛ فآيتُنا هنا أصلاً لا علاقةَ لها بهذا الموضوعِ.

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{242})
{كذلك}، وهكذا كما قرأتم، {يبين الله لكم}، يوضّح، {آياته}، الأمور المنسوبة إليه تعالى بمستواها الإلهي، والمقصودُ هنا هو كلامه تعالى المميز عن أحكام نفقة الأرملة والمطلقة، {لعلكم تعقلون}؛ هذه التفاصيل من المفروض ومن المتوقعُ أن تجعلكم تفهموا تشريع ربكم سبحانه بدلاً من تشريعات وأعراف ظالمة تخترعونها.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ{243})
من هنا تبدأ السورة بمقدمةٍ قبل الدخولِ بالأمرِ الإلهيِّ للمؤمنين بالقتالِ:

{ألم ترَ}، أيها النبيُّ(ع) وأيها القارئُ للقرآنِ، ألم يصرْ لديكَ صورةٌ محددةٌ، كما نقولُ بالعاميةِ: ما شفتَ. ألم تلتفتْ، إلى {الذين خرجوا من ديارهم}، من الأماكنِ التي كانت تدورُ فيها وتحصلُ فيها شؤونُ حياتهم؛ ففيها بيوتهم وأشغالهم وبساتينهم... التعبيرُ {بديارهم} يشيرُ إلى أنَّ أمورهم كانت على التمامِ حيث كانوا. خرجوا من ديارهم، وهم {ألوفٌ}، عددهم بالآلافِ من الأشخاصِ، وتركوا بيوتهم وأملاكهم... وخرجوا منها، {حذر الموت}، تجنباً لفقدانهم لحياتهم الذي كانوا يتوقعونه إذا بقوا في ديارهم؛ فشروطُ موتهم لم تكتمل ولكن ظنوا أنَّهم إذا بقوا في ديارهم فستكتملُ الشروطُ التي تسببُ موتهم. أولُ ما يخطرُ ببالنا من هذا الكلامِ أنَّهم هربوا من الموتِ بوباءٍ فتاكٍ معدٍ كالطاعونِ أو نوعٍ من الإنفلونزا...

{فقال لهم الله موتوا}، افقدوا حياتكم، فماتوا. خرجوا من ديارهم هرباً من الموتِ وماتوا وهم خارجُ ديارهم، ونفترضُ أنَّ الوباءَ انتقلَ معهم وقضى عليهم. الأمرُ الإلهيُّ بموتهم هو على كلِّ حالٍ مثلُ أيِّ أمرٍ إلهيٍّ بموتِ أيِّ شخصٍ منّا؛ فلا أحدَ يموتُ إلا بأمره تعالى.

{ثمَّ أحياهم}، بعد مدةٍ أعادهم تعالى إلى حالةِ الحياةِ، ورجعوا إلى الحياةِ هنا في الدنيا. يعني هو قرارٌ إلهيٌّ بحصولِ حادثةٍ واضحةٍ جداً تبينُ أنَّهُ لا فرارَ من قراره تعالى إذا قررَ للناسِ أن يموتوا، وأنَّهُ تعالى قادرٌ على إحياءِ الناسِ هنا في الدنيا كنموذجٍ ودليلٍ عن إحيائهم في الآخرة.

{إنَّ اللهَ لذو فضلٍ على الناسِ}، فيوصفُ تعالى بأنَّ الفضلَ منسوبٌ له، فيقدمُ سبحانه أموراً جيدةً للناسِ من دونِ أن يكونَ تقديمها فرضاً واجباً عليه سبحانه، وإحياءُ هذه الجماعةِ مثالٌ عن فضله تعالى على الناس.

{ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يشكرون}، الغالبيةُ منهم، لا يعبرون له تعالى عن حصولهم على أمورٍ جيدةٍ لهم منه تعالى، فلا يعترفون له تعالى بالفضلِ عليهم!

لاحظ أنَّ الآيةَ لا تريدُ إخبارنا قصةً، فذكرتْ القليلَ منها لتخبرنا العبرةَ فقط؛ فلا نعرفُ مَنْ هم الذين حدثَ لهم ذلك، ولا أين كانوا، ولا مما هربوا... ويمكنكَ أن تجربَ حظكَ في معرفتهم من التاريخِ والرواياتِ، وللأسفِ لن تصلَ إلى شيءٍ محسومٍ واضحٍ، ولكن ما الفائدةُ من معرفةِ ذلك؟! سبحانه يريدنا أن نركزَ على شيءٍ واحدٍ: هربهم من الموتِ لم ينفعهم، وفضله تعالى عليهم بإحيائهم من جديدٍ. فليكنْ تركيزكَ هنا على هذه النقطةِ، وسيأتيكَ في السورةِ مقطعاً طويلاً يبدأُ من الآيةِ 258 عن أدلةٍ تاريخيةٍ معلومةٍ حدثَ فيها إحياءٌ للأمواتِ.

أمّا الفضولُ لمعرفةِ المزيدِ عن القومِ فما سببهُ؟ بعضُ الناسِ ليسوا مؤمنين من الدرجةِ العاليةِ بالقرآنِ ويريدون دليلاً ملموساً على صحةِ كلامهِ، فيبحثون في التاريخِ عمّا يكونُ ترجمةً لكلامِ القرآنِ لتصديقهِ. بعضهم الآخرُ يضيعُ عمّا يريدهُ القرآنُ ويجذبهُ الفضولُ. بعضهم إذا سألوه عن هويةِ أولئك الناسِ لا يستطيعُ أن يقولَ: "لا أعلمُ" على أساسِ أنَّهُ لن يكونَ عالماً ذا قيمةٍ إن لم يعلمْ! وكما ترى من عمومِ دراستنا هذه، فالبحثُ عن تطابقِ القرآنِ مع تاريخٍ ما فليسَ هو المشكلةَ، بل المشكلةُ في التيهِ عمّا يقولهُ القرآنُ للتلهي بالفضولِ. المشكلةُ في تاريخٍ ثقافيٍّ دينيٍّ مشحونٍ بالترهاتِ والمبالغاتِ والتحريفِ والكذبِ والاستهتارِ بالحقائقِ و... للأسفِ لا يمكنُ الاعتمادُ على غالبيتها الساحقةِ لتفسيرِ القرآنِ، إلا مَنْ سفهَ نفسهُ، وبلغَ ما في ذلك التراثِ تقديساً منه للتراثِ على حسابِ المصداقيةِ والعقلانيةِ.

هناك مَنْ جعلَ الكلامَ هنا مجازياً عن موتهم بالجهلِ وحياتهم بالعلمِ، وهناك آخرون بآراءَ أخرى أيضاً تجعلُ الكلماتِ تشيرُ لغيرِ المعنى المفهومِ الظاهرِ منها لغوياً؛ فهؤلاء بعضهم معذورٌ لأنَّ الدارجَ بقوةٍ في ثقافتنا أنَّ القرآنَ يتحملُ تأويلهُ على معنى مخالفٍ للمعنى الظاهرِ للكلماتِ، بل والدارجُ أنَّهُ يتحملُ عدةَ تأويلاتٍ مختلفةٍ متخالفةٍ وكلها يقبلونها! بل والدارجُ أنَّ التفسيرَ كتفسيرنا هذا والمبنيَّ على التعلقِ الحرفيِّ بمعاني الكلماتِ الظاهرِ المفهومِ للناطقِ باللغةِ العربيةِ، فهو تفسيرٌ من مستوى منخفضٍ والأرقى منهُ هو التفسيرُ الذي يعطيكَ {الباطن}، فيعطيكَ معنى لا يظهرُ من معاني الكلماتِ باللغةِ العربيةِ! وهكذا صارَ من الدارجِ بلعنا لتفاسيرَ مجازيةٍ للقرآنِ! ولستُ أدري ما مشكلةُ هؤلاء مع هذه الحادثةِ! أخمنُ أنَّهم افترضوا أنَّها لو كانت فعلاً جرت بالمعنى اللغويِّ للكلماتِ فستكونُ حادثةً مميزةً جداً ومذكورةً في التاريخِ بوضوحٍ، وفاتهم أنَّ التاريخَ تعرضَ للتشويهِ من المنتمين لدينه تعالى، وتعرضَ للتشويهِ من الآخرين؛ فليسَ صحيحاً أنَّ كلَّ الحوادثِ المهمةِ لها مستندٌ تاريخيٌّ، ولا داعي للغرابةِ من حادثةٍ يذكرها تعالى بصراحةٍ ووضوحٍ وليس لدينا من القرآنِ ما يوجهُ معناها باتجاهٍ آخرَ، بل وسياقُ بقيةِ الكلامِ عن الأمرِ بقتالِ الأعداءِ ومشكلةِ الخوفِ من الموتِ بسببِ القتالِ... يؤكدُ أنَّ الكلامَ هنا عن قومٍ ماتوا وأعادَ تعالى إحياءهم...

إذاً، هم {ألوفٌ} من الأشخاصِ هربوا من الموتِ ولكنَّهُ سبحانه أماتهم {ثمَّ أحياهم}؛ والعبرةُ هي أنَّ الهروبَ لم ينجهم من الموتِ، وبناءً عليه "ما سيأتي في الآيةِ التاليةِ" عندما يأتيكم أمرٌ بالقتالِ فلا تخافوا من الموتِ وقاتلوا لأنَّ الموتَ والحياةَ بيده تعالى، ولو هربتم من الموتِ فقد يلحقُ بكم... وعندما يقررُ تعالى لكم أن تموتوا عندها لن تتمكنوا من الهربِ، وعندما يقررُ تعالى لكم البقاءَ أحياءً فلن تموتوا، وبناءً عليه:

(وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{244})

{قاتلوا في سبيلِ اللهِ}، بناءً على ما تقدّمَ من الكلامِ عن الهربِ من الموتِ أنَّهُ لا يفيدُ إذا كان هناك قرارٌ إلهيٌّ بموتِكم، فلا تهربوا من القتالِ خوفاً من الموتِ، ولا تقاتلوا كمعتدينَ طغاةٍ، بل أنتم مأمورون بالقتالِ حصراً في سبيله تعالى، في مسلكٍ يرضى عنهُ تعالى، للدفاعِ عن أنفسِكم وأرضِكم وعرضِكم ومالِكم وكرامتِكم وإيمانِكم الذي يعني عملياً أنَّكم عاملون للصالحاتِ وأعداؤكم فاسدون.

{اعلموا أنَّ اللهَ سميعٌ}، يسمعُ كلَّ شيءٍ، فأنتم تحت المراقبةِ إنْ قلتم أو فعلتم شيئاً لتتحججوا به حتى لا تقاتلوا، فسبحانهُ يسمعُكم، واللهُ {عليمٌ}، عندهُ علمٌ تفصيليٌّ بكلِّ شيءٍ، فيعلمُ إنْ كنتم فعلاً قادرينَ على القتالِ أم لا، ومستطيعينَ للمشاركةِ في القتالِ أم لا...

درجَ في أدبياتِنا أنَّ القتالَ في سبيله تعالى يعني أنْ نجدَ سبباً دينياً لقتالِ الآخرين، وقد تداخلَ كلامُهم مع تفاسيرَ غيرِ صحيحةٍ للقرآنِ حيث أجازوا الاعتداءَ على المسالمين... بينما أساسُ دينِهِ تعالى أنَّهُ ليس ديناً غريباً غيرَ ما نميزهُ نحنُ أنَّهُ خيرٌ لنفعلهُ وأنَّهُ شرٌّ لنتركهُ؛ فلا يوجدُ شيءٌ اسمهُ القتالُ في سبيله تعالى ولا علاقةَ لنا به. حتى لو كان الآخرون يقاتلوننا لأنَّنا مؤمنون بدينه تعالى فمشكلتُهم معنا أنَّهم يريدون فرضَ عقائدِهم وتشريعاتِهم وسلوكياتِهم الفاسدةِ علينا، وحتى لو اختصرتَ كلَّ ذلك معتبراً أنَّهم يقاتلوننا لسببٍ عقائديٍّ محضٍ، فهذا افتراضٌ من الخيالِ ويقتنعُ به البسطاءُ؛ لأنَّ الأصلَ دائماً في القتالِ هو المصالحُ للنافذينَ وللناسِ، والاختلافُ العقائديُّ عملياً هو اختلافٌ في ضابطةِ التشريعاتِ والقوانينِ، وقد شرحَ القرآنُ ذلك مراراً بكلامهِ عن الآخرين أنَّهم لا يرجونَ {الآخرةَ} ولذلك ستكونُ تشريعاتُهم لا تراعي الحقَّ والصلاحَ بل تراعي أهواءهم.

(مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{245})
لتشجيع المؤمنين على القتال، يقول سبحانه لنا: {مَن ذا الذي}، من هو الشخص الذي، {يقرض الله}، يقدّم له تعالى شيئاً ويمكنه تعالى ردّه بسهولة لكم، وهذا فرق التعبير بالقرض عن عموم الدين، {قرضاً حسناً}، وما تقدّموه يكن موصوفاً بأنهُ حسنٌ جيدٌ، وتنفقوا من مالكم على المحتاجين وعلى أمور المسلمين قربةً له تعالى بلا منّةٍ ولا كبرةٍ ولا فوقيةٍ... وليس من فضلاتكم وما استغنيتم عنه لعطل فيه... {فيضاعفه له أضعافاً كثيرةً}، سيجعلُ تعالى القرض مضاعفاً قد زادت قيمته بمراتٍ؛ تقدمُ لربك سبحانه نفسك ومالك فيعطيك أجراً هائلاً بدلاً منهما، ويعطيك الخلود في جنةٍ رائعةٍ...

ضع في بالك أن مضاعفة شيء ما هي زيادة على كميته أو نوعيته أو قيمته على الأقل بمرة واحدة، فضعف التفاحة: تفاحتانِ. لكن من عموم القرآن تفهم أنه بمجرد اعتباره تعالى لعمل قمت به أنه صالحٌ وعليه ثوابٌ حسنٌ، سيتحوّلُ ذلك العمل إلى ضعف قيمته على المقياس الإلهي، فالصدقةُ بنيّةٍ صافية بتفاحةٍ، ليس الثواب عليه تفاحتانِ أو بصندوق تفاحٍ أو بشجرة تفاحٍ في الجنّة، لا، بل على المقياس الإلهي أصلاً يكون الثواب قصوراً وبساتينَ... والمثل عن التفاحة هو للتقريب فقط، ولم ترد هذه التفاصيل في القرآن ولكن فقط لتقريب الفكرة ذكرتها لك، وعلى كل حال فهذا الكلام من أوضح المفاهيم القرآنية، وتكبر المضاعفة للثواب كلما كبرت نية القربى له تعالى وكانت صافية...

الله {يقبض}، فهو الآخذ لكل شيء، فالرزقُ والحياة والسعادة والهناء... كله بيده فهو تعالى يأخذه من البشر.

الله {يبسط}، فهو المعطي لكل شيء، فالحياةُ والرزق والجنة... كلها بيده تعالى فيعطي من يشاء بقدر ما يشاء... فبيده تعالى قرار القبض والبسط، فعندما يأمركم بالإنفاق في سبيله فالرزقُ أساساً مبسوط لكم منه تعالى، ومنه تعالى حصل قبض الرزق على الذين تنفقون عليهم، ومن ناحية ثانية فعندما يعدكم تعالى بالأضعاف الكثيرة فهذا بناء على سيطرته تعالى على القبض والبسط في الدنيا والآخرة.

{وإليه ترجعون}، فيتم إرجاعكم إلى الحياة مرةً ثانيةً في الآخرة بعد انتهاء حياتكم الدنيا، فلن تفنوا وتنتهوا بعد موتكم أو تنتقلوا لعالم ليس لله تعالى سلطة فيه... بل سترجعون إليه تعالى في الحياة الآخرة ليحاسبكم.

سواءٌ قدّمتَ نفسك للقتال أو قدّمتَ أموالك في سبيل الله تعالى، واعتبرها تعالى قرضاً له، فسيعطيكَ أجراً عظيماً على هذا القرض، وسواء لم تقدم نفسك وأموالك قرضاً لله تعالى، فعلى كل حال ستموت وترجع إلى ربك سبحانه وسيحاسبك.

ضع في بالك دائماً أنَّ كلمة دين لعموم التبعات التي صارت على شخص ما لأي سبب كان، فأخذتُ منك مالاً فصرتُ مديناً لك، وعليَّ تبعات أخذ المال منك، فيجبُ عليَّ ردّها إليك، أمّا القرض فيبدو من استعمال العرب والقرآن أنّهُ وصف لخصوص الحالة التي تأخذ فيها شيئاً من الآخرين ويمكنك بسهولة ردّه، ولم يعبّر تعالى عمّا نقدّمه في سبيله أنّهُ

دين له تعالى، ودائماً عبّر تعالى عن استقباله لما يقدّمه المؤمنون بأنه قرض، فبكل سهولة يمكنه تعالى أن يردّه بسبب قدراته الإلهية الفائقة.

في بعض الأدبيات الدينية ذكر للآيات التي ورد فيها تعابير القرض لله تعالى ويفسرونها على أساس أنّها تقصد ما تقرضه من مال للناس، فبالرغم من القيمةِ العالية عنده تعالى لإقراض الآخرين ولكن الآيات لم تقصده بل قصدت ما تقدّمه أنت في سبيله تعالى فيعتبره تعالى قرضاً له.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ{246})
من هنا ستروي لنا الآيات قصةً عن القتال وفيها العديد من العبر: ألم ترَ، أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن ألم يصرْ لديك صورة محددةٌ، كما نقول بالعامية: ما شفت. ألم تلتفتْ، إلى {الملأ}، إلى جماعة الوجهاء والرؤساء، من {بني إسرائيل}، من أحفاد النبي يعقوب(ع)، ألم ترَ الحادثة التي حصلت معهم، {من بعد موسى}، من بعد وفاة النبي موسى(ع).

{إذ قالوا}، قال هؤلاء الجماعةُ الذين لهم مركز بين قومهم، قالوا {لنبيٍ لهم}، لشخص كان يصله نبأ منه تعالى، قالوا:

{ابعث}، أقم لنا، {ملكا}، شخصاً يملك أمرنا، حاكماً علينا بسلطات عالية، {نقاتل في سبيل الله}؛ نقوم بأعمال لإنهاء حياة الآخرين في مسلك يرضى عنه ويأمر به سبحانه، بالدفاع عن إيماننا وعن أنفسنا وأهلنا وموطننا... سترى من تكملة الآية أنَّ العدو فعلاً هجم عليهم في السابق وقتل منهم وهجّرهم من ديارهم...

هم يقولون بأنَّهم مستعدونَ للقتال ولكن يريدون أنْ يتعيّن عليهم ملك من الله تعالى حتى يقاتلوا؛ هم لا يريدون القتال تحت قيادة شخص عادي، هذا شيء نسمعه كثيراً من الناس الذين يقولون: لو كنّا في عصر نبي ما لكنّا قاتلنا معه حتى الموت، ولكن لن نقاتل الآن لأنَّنا لا نثق بالأشخاص الذين في القيادة... بما أنَّ القائلين لهذا الكلام كثر، فلماذا لم يثقوا بواحد منهم! ما هذا الشرط التعجيزي للمشاركة في قتال عدو سيمحوهم ويحتلّ بلادهم!

قال النبي(ع): {هل عسيتم}، فهل يصير الاحتمال والراجح غير الأكيد، {إنْ كتب عليكم القتال}، في حال أمركم تعالى بقتال العدو، {ألا تقاتلوا}؟ أنْ لا تقاتلوا؟ بعبارة أخرى، فهل هناك احتمال مرجحٌ أنْ لا تقاتلوا إنْ أمركم تعالى بالقتال؟

هل أنتم جديونَ فعلاً برغبة القتال في سبيلِ الله تعالى؟ أم فقط تتكلمون بكلام فارغ، وإنْ جاء الأمر بالقتال فربما وعلى الأرجح لن تقاتلوا؟

قالوا، أجابت جماعة الوجهاء للنبي(ع): {وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله}؟ وكيف لا نقاتل في مسلك يرضى عنه تعالى فنحن لا نريد الاعتداء بل نريد القتال ضمن أوامره تعالى، {وقد أخرجنا من ديارنا}، هجم علينا العدو وأخرجنا من حيث كانت تدور حياتنا حيث بيوتنا ومشاغلنا وأراضينا... طردنا وتهجّرنا... {وأبنائنا}، فكلّنا أخرجنا العدو.

هؤلاءِ قد هجم العدو على قريتهم، وهزمهم فهربوا كلهم من ديارهم هم وأبناؤُهم؛ أحياناً يهرب المقاتلون فقط ويبقى النساء والأولاد وكبار السنّ، لكنَّ هؤلاء هربوا كلهم واحتل العدو قريتهم. يبدو أنَّهم كانوا قد تجهّزوا للهرب من حين ما علموا أنَّ العدو قادم! لذلك يسألهم النبي(ع) إنْ كانوا فعلاً مستعدينَ لقتال العدو واسترداد ديارهم!

{فلما كتب عليهم القتال}، فأخبرهم عبر النبي(ع) أنَّهُ سبحانه سيأمرهم بقتال عدوهم. سترى من الآية التالية أنَّهُ تعالى قد عيّن لهم {ملكاً} ليقودهم في قتال عدوّهم، {تولوا}، ذهبوا باتجاه آخر! تركوا الموضوع وتجاهلوه! عندما صار الموضوع جدياً، لم يعودوا يتحدثون عن القتال! صاروا يتحدثون عن بناء قرية جديدة بدل القديمة التي احتلها العدو، أو عن اختيار مناطق جديدة للزراعة بدل سهولهم القديمة، وعن بناء البيوت! والحياة بسلام...

{إلا قليلاً منهم}، القليلُ منهم أعلنوا أنَّهم ملتزمون بما يأمر به تعالى، تجهّزوا للحرب.

{والله عليم بالظالمين}؛ فلم يكن معهم حقّ بترك القتال، ظُلماً تركوه. الله تعالى لديه علم تفصيلي بهؤلاء، فيعلم تعالى بأنَّهم متخاذلون؛ فهم قد أثاروا موضوع القتال والحماسة، ثم عندما أتى الأمر الإلهي غيّروا رأيهم! ليس معهم حقّ بذلك.

نلاحظ أنَّ القرآن لسبب أو لآخر لم يذكر اسم النبي(ع)؛ حيث لا أهمية لمعرفته طالما أنَّ زبدة الكلام معلومة من القصةِ؛ في التراث اليهودي نجد القصةَ التي تتحدّث عنها الآيات هنا مشهورة جداً، ونجد فيها اسم النبي صموئيل "مع اختلاف في التلفّظ بهذا الاسم: شموئيل، إشموئيل، اشمويل..."، في هذه القصة برز النبي داوود(ع)، وهو من أهمّ الشخصيات في التراث اليهودي.

(وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ{247})
تدخلُ السورةُ إلى أهمِّ تفاصيلِ القصةِ لتريكَ أنَّ طلبهم بتعيينِ ملكٍ عليهم ليقاتلوا لم يكن إلا مسرحيةً من الكثيرين منهم، فهم جبناءُ متخاذلونَ...

قال لهم نبيهمُ(ع): إنَّ اللهَ قد بعثَ لكم، أقام لكم الشخص الذي اسمه: {طالوت}، حدَّدَهُ تعالى، ملكاً عليكم، فيكونُ له منصبُ القيادةِ العليا عليكم لتطيعوا أمرَهُ.

قالوا، قال {الملأ}: {أنّى}؟ كيف وبأي سببٍ، يكونُ له، لطالوتَ، الملكُ علينا؟! كيف يتمُّ تعيينُ {طالوت} ملكاً علينا لنطيع أوامرَهُ؟! نحنُ أحقُّ، فلنا الأفضليةُ، بالملكِ منه، فنحن {الملأ} ونحنُ الرؤساءُ والزعماءُ وهو إنسانٌ عاديٌّ من عامةِ الشعبِ، وليس عنده منصبُ زعامةٍ اجتماعيةٍ... هذا من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ طالوتُ، لم يُؤتَ، لم يحصل على، سعةٍ، وفرةٍ، من المالِ، فهو ليس غنيّاً بل ليس حتى من متوسطي الحالِ! فإذا لم يكن من عائلةٍ فيها زعماءُ وقادةٌ فعلى الأقل حتى نقبل به ملكاً علينا فليكنْ من الأغنياءِ!

قال النبيُّ(ع): إنَّ اللهَ {اصطفاهُ}، انتقاه عليكم بسببِ تميُّزِهِ، فقد وجده الأنسبَ من بينكم ليكون ملكاً. المقياسُ الإلهيُّ ليس بمكانتهِ الاجتماعيةِ أو بمقدارِ المالِ الذي يملكهُ، وزادَهُ {بسطةً}، زيادةً عنكم، في العلمِ، فبدلَ أن يبسطَ فيزيدَ فيمدَّ تعالى له في المالِ فقد بسطَ له تعالى في العلمِ، فهو عنده معلوماتٌ زيادةٌ عنكم ويفكّرُ ويقرّرُ ويتصرفُ على أساسٍ علميٍّ على أساسٍ منطقيٍّ عقلانيٍّ، بعبارةٍ أخرى فهو الأعلمُ الأفهمُ بينكم في شؤونِ الإدارةِ والحربِ، وزادَهُ سبحانه {بسطةً} في، {الجسم}، فزادَ له ومدَّهُ تعالى في سلامةِ وقوةِ الجسدِ وقدرةِ التحمُّلِ... فهو مؤهلٌ لقيادةِ الحربِ التي كانت في حينها تتطلّبُ مجهوداً جسدياً عالياً، وهاتان الصفتان هما المؤهلتان للشخص ليكون ملكاً ليقود حرباً.

اللهُ {يؤتي ملكَهُ} {مَنْ يشاءُ}، فالملكُ لكل شيءٍ أصلاً له تعالى، وأمامه تعالى خياراتٌ عديدةٌ وهو تعالى يختارُ مَنْ يريدُ ليكون ملكاً عليكم. بالمقارنةِ مع اختيار الناس لشخصٍ ما ليكون ملكاً عليهم، ومقارنة ذلك باختياره تعالى لشخصٍ ليكون ملكاً على الناس، فسبحانهُ الملكُ المالكُ لكل شيءٍ، فيملككم والأفضليةُ له تعالى ليختار ملكاً عليكم، وها قد أخبركم تعالى أنَّ البسطة في العلم والجسم لطالوتَ قد جعلته المرشحَ الإلهيَّ لمنصب الملكِ.

اللهُ {واسعٌ}، غير محدودٍ فيمتدُّ ملكُهُ وقدرتُهُ على كل شيءٍ، فاختيارهُ تعالى لملكٍ عليكم هو من تطبيقاتِ وساعةِ ملكه تعالى.

{عليمٌ}، يعلمُ تعالى كلَّ شيءٍ، ومن تطبيقاتِ علمه تعالى هنا العلمُ بالأفضلِ بينكم ليكون ملكاً.

نلاحظُ في التراث اليهودي أنَّ اسمَ {طالوت} يختلف لفظُهُ من كتابٍ لآخرَ، من تالت إلى شاول إلى شاوول... ولكنَّها نفسُ الشخصيةِ التي تتحدثُ عنها القصةُ هنا. بالنسبةِ لفرقِ التلفُّظِ بالأسماءِ بين القرآنِ وبين التوراةِ، فقد اتبعَ القرآنُ لفظَ العربِ في حين نزولهِ لذاك الاسمِ، فهناك يهودٌ عربٌ، وتتذكرُ أنَّ السورةَ قد أكثرت من الحديث معهم ومع بني إسرائيل خصوصاً. على ما يبدو هم كانوا يلفظونَ هذه الأسماء التاريخيةَ بهذا الشكل الذي ذكره القرآنُ.

(وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{248})
{وقال لهم نبيُّهم}، قال النبيُّ(ع) للملأ المعترضين على تعيين طالوت: {إنَّ آيةَ ملكِهِ}، الشيء المميز الذي سيأتي به طالوت كدليلٍ على أنَّهُ الملكُ المعينُ من الله تعالى، {أن يأتيكم التابوتُ}؛ التابوتُ هو صندوقٌ له طولٌ وعرضٌ وارتفاعٌ مناسبٌ لحجم الإنسان، {فيه سكينةٌ من ربكم}، فيسببُ لكم التابوتُ السكونَ والهدوءَ بدون اضطرابٍ. الكلامُ هنا عن الحرب فالسكينةُ تشير للاطمئنانِ أثناء الحرب فلن تخافوا أو ترتبكوا من العدو. في التابوت {بقيةٌ مما تركَ}، شيءٌ باقٍ من الأشياء التي تركها {آلُ موسى وآلُ هارون}. فقد ترك المرتبطون معهما بالنسب، أولادهما وأولاد أولادهما، تركوا أشياء من مخلفاتِ النبيين في ذلك التابوت. لا نعرف ما هي تلك الأشياء، فربما تكون ألواحَ التوراة الصخرية، وربما عصاتا النبيين أو ثياب... على كلِّ حالٍ هي أشياءُ خاصةٌ لها علاقةٌ بالنبيين وخاصةٌ لدرجةِ أنَّ آلهما فقط يملكانها من بعد وفاة النبيين، ومن المفروض أن تسببَ هذه الأشياءُ دفعاً معنوياً للمؤمنين أثناء الحرب، فتذكرهم بأنهم على خط النبيين العظيمين اللذين كانا على الخط الإلهي.

{التابوتُ} الذي فيه تلك الأشياء {تحمله الملائكة}. أيضاً لا نعرف كيف حملته الملائكةُ(ع)، فربما كان الصندوق يطفو في الهواء لوحده، أو وزنه خفيف أثناء حمله رغم أنَّهُ مصنوعٌ من مادةٍ ثقيلةٍ أو رغم ثقل الأشياء التي فيه فحمله خفيفٌ... على كلِّ حالٍ فالناسُ الذين كانوا هناك قد علموا أنَّ الملائكةَ(ع) تحمله، فكان أمامهم دليلٌ ملموسٌ على الدعم الإلهي لطالوت.

{إنَّ في ذلك لآيةً لكم}، التابوت وما فيه وحمل الملائكة(ع) له، لآيةٌ شيءٌ مميزٌ لكم، فيدلكم على أنَّ طالوتَ هو الملكُ المعينُ من الله تعالى.

{إن كنتم مؤمنين}، إن كنتم فعلاً معتقدين وملتزمين بالدين الإلهي؛ ففي التابوت تراثٌ دينيٌ وليس شيطانياً أو سحراً، فما سترونه سيقنعكم بأحقية طالوت بالملك، إن كان أصلاً لتلك الأشياء الدينية قيمةٌ عندكم، فهي لها قيمةٌ فقط عند المؤمنين الحقيقيين.

انتبه ولا تستغرق في تفاصيلَ غيرِ التي ذكرتها الآية، فلا يوجد شيءٌ مهمٌ غير الذي تحدثت عنه الآيات كما هو. العبرةُ أنَّ الوضع كان مأساوياً لتلك الجماعة، فقد كان أعداؤهم أقوى وأكثر منهم، وهم كانوا بحاجةٍ لدعمٍ إلهيٍ لينتصروا. جاءهم الدعم الإلهي بتعيين الشخص الأنسب للقيادة، وحتى يتأكدوا بأنَّهُ مدعومٌ منه تعالى فقد جعل سبحانه التابوت آيةً لطالوت، والذي على ما يبدو أنَّهُ كان مفقوداً... وبطريقةٍ ما سيعلمون أنَّ الملائكةَ(ع) تحمله، ولكن كما ترى فإنَّ هذه الأشياء لم تنفع إلا مع المؤمنين! هذا درسٌ لنا أنَّ المؤمنَ الملتزمَ بدينه سبحانه فهو مطيعٌ في كل الظروف؛ من الأساس ثبت على مشروع القتال عددٌ قليلٌ قبل تعيين الملك وقبل التابوت، وبعدها كما سنرى فقد أكمل الطريق وشارك فقط المؤمنون.

يعني هناك أناسٌ يختلقون الأعذار دائماً حتى لا يشاركوا في القتال، وحتى لو حللت لهم تلك الأعذار ومهما فعلت معهم من مساعدةٍ أو آياتٍ فهم لن يتغيروا.

المشهور في التراث اليهودي أنَّهم كانوا يحملون معهم هذا التابوت إلى الحرب، والآيةُ هنا لا تصرحُ بذلك.

(فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ{249})
{فلما فصل طالوت بالجنود}؛ عندما انفصل بالأشخاص الملتزمين بتنفيذ ما يأمرهم به، انفصل بهم عن المدنيين، والكلام عن الذين خرج بهم ليأمرهم بتحقيق ما يريده من مهام عسكرية الطابع، فمشى وانفصل بالمقاتلين عن المدنيين غير المكلّفين بالقتال كالنساء والمرضى وكبار السنّ... أو المتخاذلين... قال طالوت:

{إنَّ الله مبتليكم بنهرٍ}؛ سيمتحنكم، بنهرٍ، {فمن شرب منه فليس مني}، فليس معي في الجيش، {ومن لم يطعمه}، فلم يتذوّق قليلاً أو يتذوّق كثيراً، فلم يشرب الماء، {فإنه مني}، فأنا أيضاً لن أشرب وملتزم بالأمر الإلهي ومن لم يشرب فهو منّي كوني أمثّل الذين سيلتزمون بالأمر الإلهي بترك الشرب من النهر، {إلا من اغترف غرفةً بيده}؛ فملأ كفَّ يده بالماء مرّة واحدة وشرب.

في أثناء مسيرنا لحرب العدو سوف نعطش، ونمرّ بقرب نهر ماء، فلا تشربوا منه، ومسموح لكم فقط أن تبللوا ريقكم بقليل من الماء، وسنعرف السبب بعد قليل.

{فشربوا منه إلا قليلاً منهم}؛ فشرب الجنود من النهر، إلا قليلاً منهم، فعدد غير كبير منهم التزموا بأمر ملكهم ولم يشربوا. وسيبدو لك من تكملة الجملة أنهم شربوا بكميات كبيرة، ربما لأن الجو كان حاراً جداً، أو مرّ عليهم وقت طويل بلا ماء...

{فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه}؛ فعندما تخطّى وابتعد عن النهر، طالوت والذين آمنوا معه، الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {قال الذين شربوا} من النهر حتى ارتووا:

{لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده}؛ فلدينا القدرة على القتال ولكن اليوم في هذا الزمن فقدرتنا غير كافية بمحاربة {جالوت}، وهو اسم قائد جيش العدو، ولا طاقة لنا بـ {جنوده}، أي بقتال الأشخاص الملتزمين بأوامره. فبعدما شربوا من الماء، ومشوا بعيداً عن النهر، أحسّوا بالتعب الشديد والإرهاق.

هذه النوعية من الناس، أساساً لم يرد سبحانه مشاركتهم في المعركة التي ستغير تلك الحقبة من التاريخ، فمن بعدها سيقوم النبي داوود(ع) بتأسيس دولة مؤمنة... فابتلاهم تعالى بالنهر حتى لا يحظوا بشرف المشاركة في معركة سيتحقّق فيها النصر الإلهي.

{قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله}؛ فيستندون إلى علم "صحيح" بأنه توجد آخرة ويوجد حساب وجنّة ونار، وأنهم سيتواجهون معه تعالى لمحاسبتهم، قالوا:

{كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله}؛ هناك حروب كثيرة حصلت في التاريخ وكان المنتصر فيها الجيش الذي عدده قليل، فنحن نؤمن بأن النصر من عنده تعالى، حتى لو كان عددنا قليلاً {فبإذنه تعالى}، أي بسماح منه تعالى سننتصر.

فإذا كانت جيوش كافرة صغيرة تنتصر على جيوش كافرة أكثر منها عدداً بسبب صبرها وبأسها في الحرب، فيسمح الله تعالى لها أن تنتصر، يتركها تنتصر، ونحن وإن كان عددنا قليلاً ولكننا مؤمنون بربنا سبحانه وبآخرته... والعدد ليس معياراً أكيداً لحسم النصر للجيش الكبير على الصغير.

{والله مع الصابرين}؛ سبحانه يؤيّد الذين لا يتصرفون بشكل غير مدروس أو غير مناسب كردّ فعل في حالة الأزمات. فسنواجه العدو ويدور القتال ونتعرّض للجراح والقتل والضغط... وإذا حافظنا على ضبطنا لأعصابنا عندها سيكون سبحانه معنا.

"الظنّ" هو اعتقادك بشيء ما مستنداً إلى شيء ما، فإن كان ما تستند عليه صحيحاً كان ظنّك صحيحاً، وهذه حالة المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم سبحانه كما ورد في الآية 46 من سورة البقرة: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، وكما ورد في الآية هنا: {قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللهِ} فهم مستندون في ظنّهم على آياته وكلامه تعالى. وإن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران: {... وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ...}، فاستناداً للحالة الحرجة التي كانوا فيها ظنّوا أنه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء.

بين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند عليها ولكنه ليس مقتنعاً بها، فلا تزال الأمور عنده مرجّحة لاحتمالات أخرى، فهذا ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية: {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}، فهم يريدون أن يلمسوا مباشرة حصول ساعة

قيامهم من الموت حتى يعتقدوا بها ولا يكفيهم الاستناد إلى معلومات تدلّ عليها، فيريدون اليقين بها عياناً حتى يؤمنوا.
وهذه الحالة قريبة جداً من الاصطلاح "في علم المنطق" والدارج لمعنى كلمة ظنّ على معنى وجود عدة احتمالات.
وها صرت تعلم المعنى اللغوي الأساسي لكلمة "ظنّ" فانتبه للفرق بينه وبين المعنى الاصطلاحي حتى لا تفسّر القرآن على أساس المعنى الاصطلاحي.

(وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ{250})
{ولمّا برزوا}، عندما اقتربوا وصار يراهم جالوتُ وجنودُهُ، فصاروا متواجهينَ لبعضهم، {قالوا}، عندها قال طالوتُ والمؤمنونَ:

{ربنا}، المسؤولُ عنّا من مستوىً إلهيٍّ، {أفرغ علينا صبراً}؛ فوعاءُ الصبرِ الذي فينا املأهُ فاجعلنا لا نتصرفُ بشكلٍ سيئٍ أو غيرِ مدروسٍ عند التعرّضِ للأزماتِ حتى نجدَ الحلولَ المناسبةَ.

{وثبّت أقدامنا}، فلا تزلَّ في أرضِ المعركةِ، فلا نفكّرُ بالهربِ، بتعبيرٍ أبسطَ لا تجعلنا نستعملُ أرجلنا للهربِ أو التراجعِ.

{وانصرنا على القوم الكافرين}؛ وحقّقْ لنا ما نريده، على جماعةِ الناسِ المتفاعلةِ مع بعض بإنكارِ دينكَ، وهم جالوتُ وجنودُهُ.

(فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ{251})
{فهزموهم بإذن الله}، بسماحٍ منه تعالى لحصول الهزيمة للكفار وانتصار المؤمنين، {وقتل داوودُ جالوتَ}، وجالوتُ هو القائد العسكري لجيش العدو.

{وآتاه الله الملك}، فجعل تعالى داوود(ع) ملكاً على الناس، وأتاه تعالى {الحكمة}، فكان يرى الأمور بشكل صائب، فجعل سبحانه أقواله وتصرفاته حكيمة لها أهداف سامية ولها قيمة عالية.

{وعلّمه} سبحانه {مما يشاء}؛ وتعلم من عموم القرآن أنه تعالى علّم نبيّه داوود(ع):

- صناعة الدروع: كما ورد في الآية 80 من سورة الأنبياء: "{وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ...}".
- منطق الطير: كما ورد في الآية 16 من سورة النمل: "{وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ...}".
- الكتاب: ومن المفروض أنه(ع) تعلّم الكتاب... وربما هناك أمور أخرى أيضاً تعلمها ولم يذكرها القرآن.

{ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض}، عبر الحروب؛ فهناك مفسدون لو حكموا لفسدت الأرض، فانتشر فيها حكم الظالمين وانتهى العدل، ولكن يدفع سبحانه هؤلاء الناس بأناس آخرين فيتقاتلون ولا يسود الظلم على كل الأرض ولا يستحكم الظالمون المفسدون، مثل حالة دفع جالوت الظالم بطالوت(ع) وبالنبي داوود(ع) ومن معهما من المؤمنين، فلولا ذلك {لفسدت الأرض}، لانتشر فيها الباطل وما ليس فيه مصلحة الناس، وهنا الكلام عن العقيدة والشريعة الكافرة بما فيها من فساد.

{ولكن الله لذو فضل على العالمين}، فيقدّم سبحانه لكل الناس أموراً جيدة من دون أن يكون تقديمها فرضاً واجباً عليه تعالى، فلم يترك سبحانه المفسدين يحكمون عبر أمره سبحانه للمؤمنين بقتال الفاسدين، ونصره تعالى للمؤمنين.

انتبه، فبعض الباحثين يصرُّ على أنَّ ملك الأنبياء هو ملكٌ معنوي، يعني كل الأنبياء ملوك لأنَّ معهم تفويضاً إلهياً بالحكم بين الناس وعلى الناس، ولكنَّ القرآن تحدث صراحة عن ملك دنيوي، عن حكم دنيوي عندما تحدث عن النبيين داوود وسليمان عليهما السلام، وعن حكم طالوت(ع)؛ فلا معنى للإصرار على الحكم المعنوي عند تفسير كلمة "{ملك}" عندما تتعلق بالأنبياء، فبعضهم فعلاً كانوا ملوكاً على الناس بكل ما للكلمة من معنى الحكومة، فهناك شؤون ملوكية لا علاقة لها بالنبوّة، كشقّ الطرقات وجرّ المياه وبناء المرافق العامة والتعيينات الإدارية... فهذه شؤون لا دخل للأنبياء بها كونهم أنبياء، فقد يتدخّلون بها مثلهم مثل أي شخص له رأي فيما يراه الأنسب للمجتمع.

ونلاحظ في القرآن أنَّ الإذن الإلهي هو سماحه للمخلوقات بتنفيذ إرادتها؛ وهنا فالمؤمنون صبروا، وقاتلوا بجدّ، فصارت ظروف المعركة لجانبهم، وسمح تعالى لهم أن ينتصروا، فلم يتدخل تعالى لينهزموا، ولم يتدخّل تعالى "مباشرة" لينتصروا، فلم ينهِ تعالى حياة أعدائهم هكذا بدون سبب ظاهر. تصوّرها معركة بين جيشين كافرين، ومن الناحية الإلهية لا توجد أهمية لانتصار أي من الفريقين، فيتركهما تعالى لظروف المعركة، ويحصل النصر لأحدهما على الآخر؛ فالله تعالى "بشكل ما" لم يتدخل، وحصل النصر لمن انتصر {بإذنه تعالى} فهو تعالى تركهم ينتصرون. فهناك أمور يشاء فيها تعالى أن تحدث بحسب ما يريد، وهناك أشياء يتركها تمشي على القوانين التي وضعها تعالى للبيئة التي فيها تحدث الأمور، وهذا معنى إذنه تعالى.

هذه القصّة التي ذكرتها الآيات هنا مشهورة جداً في تراث أهل الكتاب، وفيها تفاصيل لم يذكرها القرآن الذي اكتفى بما يعطيك العبرة من القصّة. ولا تنسَ دائماً أنَّ القصص المهمّة تتعرّض للتشويه بسبب إدخال التحليلات وإكمال نواقص "السيناريو" عليها، وقد حصل ذلك كثيراً في نقل تاريخ الحوادث التي جرت في عصر النبي محمّد(ع). أضرب لك مثالاً عن أحد المشاركين في معركة بدر، والذي فيما بعد كبر في السنّ وضعفت قواه العقلية، وكان يقسم بأنه رأى الملائكة(ع) على أحصنة وأنهم يضعون عمامات بيض وهم يقاتلون الكفّار في بدر... ومعلوم أنَّ المعاصرين له والمشاركين في بدر اتهموه بالتخريف، ورغم ذلك بقي "الهمج الرعاع" ينقلون رواياته لأنها تعجبهم!

فلا تتوقّع أن تجد كلاماً دقيقاً في تراث أهل الكتاب عن معركة طالوت وجالوت، ولا تتوقّع ذلك من تراثنا نحن؛ فقد قام المسلمون بنقل التراث الإسرائيلي عن قصّتنا هذه وأقحموها في تراثنا من دون التصريح بالمصدر، فصار لها مصداقية مضافة لأنها عن لسان مسلمين من الجيل الأول! وهي بالأصل حين كانت في مصدرها التوراتي كان فيها تفاصيل مشكوك في صحّتها. ذكرت لك هذا لتنتبه أنَّ التفاصيل في كتب التفاسير منقولة غالباً من التراث التوراتي بدون تحقيق، بل ومع تشويه إضافي من الناقلين المسلمين!

تلاحظ اختلاف التلفظ بالأسماء؛ فاسم جالوت في التراث العبري مكتوب بعدة طرق، والعبرية والآرامية فيها حرف غير مستعمل بالعربية الفصحى، وهو لفظة حرف الجيم على الطريقة المصرية العامية (G)، ويبدو من تراث أهل الكتاب أنَّ حرف الجيم في اسم "جالوت" كان في لهجتهم ملفوظاً على طريقة الجيم المصرية (Goliath).

(تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ{252})
{تلك آياتُ اللهِ}، تلك القصةُ عن انتصارِ المؤمنين القلائل هي أمورٌ مميزةٌ منسوبةٌ له تعالى، {نتلوها}؛ نقرأها من مستندٍ، والمستندُ هنا هو علمهُ تعالى المباشرُ لما جرى. نتلوها عليك أيها النبيُّ محمّدُ(ع) عبر هذا القرآن، {بالحق}؛ فهي صائبةٌ، وليست شيطانيةً أو كاذبةً بل صحيحةٌ؛ فلولا تلك الحروبُ التي خاضها المؤمنون لكان الفسادُ منتشراً في الأرض بالكامل، وهي مثالٌ عن نصره تعالى للفئةِ القليلةِ المؤمنةِ على فئةٍ كثيرةٍ.

{وإنك}، أيها النبيُّ محمدُ(ع)، {لمن المرسلين}؛ فنحن الإله عيّناك رسولاً للناس لتنقل لهم هذا الكلام.

تلاحظ أنَّ وصف ما جرى من تدخّلٍ إلهيٍّ بأنه {آية}، ووصف نقله بأنه آية، قد جاء بعد أمره تعالى للمؤمنين عبر الرسول محمّد(ع) بقتال أعدائهم. وترى في العديد من السور تشابهاً كبيراً بين هذه القصة وبين ما جرى مع المسلمين؛

فهناك "الممثلون المسرحيون" الذين يطالبون بأمرٍ إلهيٍّ مباشرٍ لقتال الأعداء، فيطلبون نزول سورةٍ منه تعالى وفيها أمرٌ مباشرٌ بقتال هذا العدو وذاك، كما نقلت لنا الآية 20 من سورة محمد: "{وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ...}".

الأهم من ذلك كله هو التبرير الذي تذكره الآيات لأمره تعالى للمؤمنين بقتال الأعداء؛ فهناك أناسٌ يستسخفون أنفسهم ويقولون بأنهم مؤمنون بدينه تعالى، ومؤمنون بحرمة القتال على أساس أنَّهُ تعالى لا يمكن أن يأمر بقتل الآخرين! ولديهم تبريراتٌ لكل ما ورد في النصوص الإلهية عن أمره تعالى بالقتال، فيجعلوها محصورةً بوجود نبي تقاتل تحت رايته وأنت مطمئنٌ بأنه أمرٌ إلهي، ويقولون إنه بدون نبي فإن حصل الانتصار فسيحكم فلانٌ وفلانٌ وهم ليسوا بصفاتٍ إيمانيةٍ عاليةٍ.

الآيات هنا أظهرت جانباً من هذه المسرحيات الإيمانية الزائفة، وأظهرت أنَّهُ تعالى لم يأمر بقتال الكفّار إلا لإيقاف الإفساد في الأرض، وأنه سبحانه مدّةً بعد مدّةٍ يدفع المفسدين بحربٍ تكسرهم وتوقف امتداد فسادهم. الكلام هنا عن فسادٍ عامٍ، أهمه نشر الكفر العقائدي، ويتبعه نشر الفساد في الأرض في مصالح الناس، فتصير الحكومة جائرةً، بتشريعات ظالمةٍ، وطبقية حاكمين مستبدين مقابل رعيّةٍ مسحوقةٍ.

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَـكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ{253})
{تِلْكَ الرُّسُلُ}، اَلَّتِي سَبَقَتِ الرَّسُولَ مُحَمَّدًا(ع)، {فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ}، فأعطينا بعضهم أُمُورًا جَيِّدَةً أكثر مما أعطينا للآخرين مِنْ دون أن يكون ذلك فَرْضًا وَاجِبًا عليه تعالى، فبعضهم تحصل معه أشياء لا تحصل مع الآخرين، فلكل رسول حالة خاصة من الفضل الإلهي عليه، فلا تفترضوا أن يحصل كل شيء مع كل رسول، {مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ}، فلم يكلّم سبحانه الجميع، فليس من المفروض أن يحصل هذا التفضيل مع الجميع، بل سبحانه يحدّد مع من يتكلّم ومع من يرسل وَحْيًا...

مَشْهُورٌ كلامه تعالى مع نبيّه موسى(ع)، اَلَّذِي لم يكن عبر حنجرة وحلق ولسان... بل خلق سبحانه الصوت في الشجرة أو في الهواء أو في أذن النبي(ع)... فيسمع النبي(ع) صَوْتًا قد شكّله تعالى، ونفهم من عموم القرآن ومن الآية 51 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ}... والآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا}... فالكلام الإلهي مع أي كائن كان، مَلَكًا، نَبِيًّا... مع الملاك جبريل(ع) أو آدم(ع) أو إبليس... فيكون كلامه تعالى: إمّا وَحْيًا، أو من وراء حجاب. فَمُسْتَحِيلٌ حصوله مباشرة لأننا نحن يفرض علينا تكويننا نَقْلَ المعلومات للآخرين عبر إصدار الصوت من الفمّ، فلو تصوّرت أنه سبحانه قد تكلّم مع نبيّه(ع) مباشرة أو مع الملاك جبريل(ع) أو مع آدم أو مع إبليس... عبر صدور الصوت منه تعالى مباشرة، فأنت تفترض أنه تعالى هذه هي طريقته بنقل المعلومات للآخرين، فمن الأصل هذا غير صحيح، مَضْمُومًا إليه أنه تعالى ليس كمثله شيء بصريح عبارة الآية 11 من سورة الشورى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}... فللآخرين فم ولسان وحنجرة... أو أي تكوين لإصدار الصوت، أو أي طريقة لنقل المعلومات للآخرين... وسبحانه ليس مثلهم بَتَاتًا ولا بأي شكل...

مَا حَصَلَ مع الرسل السابقين ليس بالضرورة يجب أن يحصل مع الرسول محمد(ع)، فلا تتوقعوا تكرار كل ما حصل سَابِقًا من نزول السكينة والتابوت مع النبي محمّد(ع)... عِلْمًا أَنَّ القرآن قد أخبرنا أن السكينة الإلهية قد نزلت على النبي(ع) وعلى أصحابه كما ورد في الآية 26 من سورة التوبة {ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ}... ولكن لا تضعوا في بالكم وجوب تكرار كل ما حصل مع من كان قبلكم معكم.

{وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ}، فجعل سبحانه بعض الرسل في درجة أعلى من درجة الآخرين، فليسوا كلّهم بنفس الدرجة، فبعضهم أعطاه سبحانه مسؤوليات أكثر من الآخرين، وبعضهم أعطاه كِتَابًا وجعل كلامهم يمشي على الرسل الآخرين... وبعضهم جعله تعالى مَلِكًا على الناس...

{وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ}، فصارت معه الأمور الواضحة، وهو الإنجيل فقد كان طريق الله تعالى وَاضِحًا فيه.

{وَأَيَّدْنَاهُ}، فساند تعالى النبي عيسى(ع)، {بِرُوحِ الْقُدُسِ}، بكائن "روح" فيوصف بأنه صَافٍ بلا إضافات في كيانه، ويوصف بالقدس فله مكانة واعتبار عَالِيَةٌ جِدًّا، اَلْمَشْهُورُ في تراثنا الديني أنه الملاك جبريل "جبرائيل"(ع)، مِنْ فَحْوَى القرآن بضمّ آيات لبعضها ترى أن روح القدس وصف للملاك جبريل(ع)، فالآية 102 من سورة النحل تشير لمن نزل بهذا القرآن بوصفه بالروح القدس {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ}... والآية 97 من هذه السورة تشير للملاك جبريل(ع) بأنه نزل بهذا القرآن {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ}... وفرضا كان هناك آخرون مثل الملاك جبريل(ع) يوصفون بالروح، وبالقداسة، فعادة لن يستعمل القرآن وَصْفًا وَاحِدًا يشير لشخصين من دون التمييز بينهما، مثل حالة استعماله لكلمة فرعون، فهي دائما تشير لنفس الفرعون الذي كان على عهد النبي موسى(ع)، وَبِنَاءً عليه وَمَدْعُومًا بما هو مشهور بين عموم المنتمين لدينه تعالى فالملاك جبريل(ع) هو الروح القدس الذي تأيّد به النبي عيسى(ع).

عَلَى أي حال فنضع في بالنا دَائِمًا أننا بكلامنا عن الملائكة والروح نتكلّم عمّا لم نختبره ولن نختبره في حياتنا الدنيا، فلن نراهم ولن نلمسهم... فهو كلام بين القليل من المعلومات التي وصلتنا عنهم من كلامه تعالى، وبين كثير من التحليل، هُنَا نَنْتَبِهُ جَيِّدًا، فعادة نحن نقيس الأمور على ما نعرفه بالتمثيل، فلدينا فكرة عن الكيانات وانفصالها عن بعضها بالجسد، والوعي، ونعمّم من هذا على عالم الملائكة، فهل تعميمنا صحيح؟ فما أدرانا بطبيعة الروح كجنس من المخلوقات؟ فهل معلوماتنا عن الكيان وطبيعة الكائن والوعي، هي المعلومات التي ستجري على أي مخلوق؟ فما أدرانا إن كان يوجد صفات وحالات فوق قدرتنا على استيعابها ولا يمكننا فهمها وتوصف بها الملائكة والروح؟ أقول لك هذا لتنتبه دائما أن كلامي معك حتى لو كان يبدو لك عَقْلَانِيًّا مَنْطِقِيًّا، فربما هو كذلك لأننا كلانا أضعف من رؤية الشيء الآخر الذي هو فِعْلًا الصحيح والواقع... هُنَا بِكَلَامِنَا عن الروح ككائن من جنس كائنات موصوفة بالروح، وأنه جبريل(ع)، فهو تحليل اشتقاقي من كلامه تعالى، فربما هم كائن واحد بوعي مشترك بين الجميع وَمُضَافًا إليه وعي خاص لكل واحد، وربما ينفصلون جُزْئِيًّا عن بعض، وربما كُلِّيًّا ينفصلون أو هم أَصْلًا كُلِّيًّا منفصلون بلا اتصال...

نَعْلَمُ من آيات القرآن أن النبي عيسى(ع) قد صنع بيديه تماثيل صغيرة من الطين على شكل طيور، ثم نفخ فيها، فعاشت وطارت أمام أعين الناس... نَعْلَمُ أنه أعاد بعض الأموات إلى الحياة، وشفى المرضى... يَبْدُو من التأييد بروح القدس وَخُصُوصًا في الآية 110 من سورة المائدة {... إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي}... فيبدو أن هذا التأييد هو السبب لقيام النبي عيسى (ع) بهذه الأمور.

نُلَاحِظُ في القرآن تَرْكِيزًا على وصف الملاك جبريل(ع) بالتحديد أنه روح، ولكن في عموم التراث الديني نجد ملائكة آخرين كالملاك ميكال "ميكائيل"(ع) الذي ذكره القرآن في الآية 98 من هذه السورة {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ}... والملائكة(ع) التي لم يذكرها القرآن بالاسم كملك الموت المشهور في تراثنا أَنَّ اسمه عزرائيل(ع)، والنافخ في الصور والمشهور في تراثنا باسم إسرافيل(ع)، وخازن النار الذي سمّوه من وصف القرآن له بمالك في الآية 77 من سورة الزخرف {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ}... فنفترض أنهم ملائكة(ع) من نفس الفئة فنفترض بِنَاءً عليه أنهم كلّهم روح، فكلّهم من نفس درجة صفاء تكوين الملاك جبريل(ع)، ونفترض أنهم هم هذه النوعية التي يشير إليها القرآن عندما يستعمل كلمة روح بالمطلق من دون تحديد كما ورد في الآية 38 من سورة النبأ {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا}... ولكن نضع في بالنا دَائِمًا أن الروح الذي تكلّف بمهمّات ذكرها القرآن، فهو بالتحديد الملاك جبريل(ع) وذلك واضح من الآيات التي ذكرت نفس المهمّات وذكرت اسم الملاك جبريل(ع) بدل وصفه بالروح.

كَلِمَةُ الرُّوحِ وصف للتكوين، فقد يكون الروح مَلَاكًا، وقد يكون الروح شَيْئًا صَافِيًا مثل الذي جعله تعالى في آدم(ع) كما ورد في الآية 29 من سورة الحجر {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}، فهي نفس الكلمة التي يستعملها العرب لعموم أي شيء صَافٍ، كالمشروبات الروحية التي تحصل بالتقطير، وروح النعناع... فافصل بين استعمال القرآن لهذه الكلمة بمعناها العربي الأساسي وبين اصطلاح الناس عليها أنها الحياة أو الفكر أو الوعي أو القدرة أو الطاقة أو الجوهر...

{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ}، فأمامه تعالى خيارات يختار منها، وهنا الكلام عن لو أنه تعالى أراد إجبار الناس فعندها، {مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ}، فلو قرّر تعالى فلن يتحارب الناس الذين جاؤوا من بعد الرسل، {مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ}، من بعدما جاءتهم الأمور الواضحة التي من المفروض أن تجعلهم كلّهم معتقدين وملتزمين بدينه تعالى.

بعبارة أخرى فقد أرسل سبحانه الرسل بالبينات، حتى يكون الناس على الخط الواضح أنه صحيح، وبما أنهم هنا في الدنيا فقد "شاء" فاختار تعالى أن يكون لديهم حرية الإرادة للاختيار بين المشي على البينات أو الاختلاف والاقتتال، فهم رغم البينات اقتتلوا ولكن لو أراد تعالى إِجْبَارَهُمْ على الإيمان، لأجبرهم غَصْبًا عنهم، ولكنه سبحانه أخبرنا أنه لم يشأ ذلك فلن يجبرهم.

ضع في بالك دَائِمًا القاعدة الأساسية التالية: سبحانه قد أعطانا حرية الإرادة لنختار بين الإيمان والكفر، ولن يجبرنا على الإيمان، بل أرسل لنا رسله لِيَدُلُّونَا على الهدى، وإذا خطر ببال أحد ما أنه تعالى يريدنا أن نؤمن ولكنه غير قادر على جعلنا مؤمنين، فهو مخطئ، فلو شاء تعالى لجعلنا مؤمنين غَصْبًا عنّا، ولكن عندها نصير بلا حرية وبلا اختيار، ولا يعد لِمُحَاسَبَتِنَا على أعمالنا أي معنى، لأننا نصير غَصْبًا عنّا مؤمنين، فما معنى دخولنا الجنة ونحن لم نفعل شَيْئًا جَيِّدًا بإرادتنا؟ وما معنى دخولنا النار ونحن لم نفعل شَيْئًا سَيِّئًا بإرادتنا؟

نَنْتَبِهُ على التركيز في الآية على أن البينات الواضحات من الإنذار من الفساد والسوء... قد وصلت للناس، ورغم ذلك اقتتلوا، فلم يكن تعالى ليحاسبهم على اقتتالهم قبل وصول البينات لهم.

{وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا}، فرغم وصول الأمور الإلهية الواضحة فهم لم يتّفقوا ليكونوا كلّهم عليها، فلم يتبعوها وبالتالي حصل الخلاف بينهم، {فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ}، فاعتقد بما قالته البينات، {وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ}، فأنكر البينات.

{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا}، فأمامه تعالى خيارات عديدة ولديه سبحانه القدرة على فعل ما يريد، فبإمكانه تعالى إِجْبَارَهُمْ على الإيمان والالتزام غَصْبًا عنهم، فيبرمج عقولهم أو يعاقبهم فَوْرًا عند كلّ خطأ... {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}، فقد أراد فقصد سبحانه تركهم أَحْرَارًا في اختياراتهم، وهم اختاروا أن يتقاتلوا رغم نزول أمره تعالى البيّن الواضح عليهم والذي يأمرهم فيه بالإيمان ويمنعهم من القتال.

تذكّر دَائِمًا تركيز القرآن الكريم على تسمية النبي عيسى(ع) هكذا: "عيسى ابن مريم". فقد ورد في تاريخ اليهود العديد من الشخصيات المهمة التي تحمل اسم عيسى، وستجد أكثر من عَشْرِ شَخْصِيَّاتٍ بَارِزَةٍ جِدًّا، وكلهم يحملون الاسم عيسى ولكن بعدة تصريفات، فهناك عدة تصريفات لِلِاسْمِ عيسى في اللغة العبرية والآرامية، ومنها: عيسو، يسوع، يشوع، جشوا، يشوا... وكلها بالنسبة لليهود "وللعرب" ترجع في اللغة العربية والعبرية والآرامية... إلى اسم عيسى، "مثل أحمد محمد محمود حمود... فكلها من حمد"، ولهذا السبب وحتى يتميز ويتحدد النبي عيسى الحقيقي بالضبط عن هؤلاء، وحتى يتميز عن الأشخاص المزيفين الذين ادعوا أنهم المسيح، فيسميه القرآن مع اسم أمه مريم التي ولدته من دون أب، وَمُضَافًا له تكريم السيدة مريم بذكر اسمها مع اسم ولدها المميز لأنها هي كانت مُمَيَّزَةً جِدًّا.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ{ {254})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يَا أَيُّهَا الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {أَنْفِقُوا}، اَلْمَقْصُودُ اصرفوا على الآخرين المحتاجين، {مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ}، من الأشياء التي صارت معكم منه تعالى والتي تَسُدُّونَ بها حاجاتكم وما تَرْغَبُونَهُ، من طعام أو مال، مَعْلُومٌ أن الكلام عن الإنفاق منه "في سبيل الله تعالى"، فأنفقوا، {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ}، مِنْ عموم مفاهيم القرآن تعلم أنه زمن قيامنا من الموت وما بعده حيث، {لَا بَيْعٌ فِيهِ}، فلا مبادلات تجارية في يوم القيامة وما بعده، فلا يمكنكم أن تبيعوا شيئا تملكونه لتشتروا به الحسنات أو الجنة، وأنفقوا من قبل يوم، {لَا}، يوجد فيه، {خُلَّةٌ}، صداقة حميمة تنفعك، فخليلك الذي بينك وبينه علاقة حميمة جدا سينفعك هنا في الدنيا، وَيُسَاعِدُكَ ويقاتل دفاعا عنك، ويدفع المال عنك... أمّا في الآخرة فلن يتعرّف عليك إن كنت من الذين لم ينفقوا في سبيله تعالى، اَلَّذِي كان خليلك في الدنيا فهو غير مستعد لأن يأخذ عنك ولو ذنبا صغيرا في ذلك اليوم...

{وَلَا شَفَاعَةٌ}، اَلشَّفَاعَةُ اِسْتِعْمَالُهَا عادة لوصف عموم استخدام القيمة المعنوية أو السلطوية لتغيير الظروف نحو الأحسن، لدفع ضرر تَسْتَحِقُّهُ أو وقعت فيه بإرادتك، يَبْدُو في الاستعمال العامّي تساهل ليشمل الظروف القاهرة التي توقعنا في ضرر حتى لو لم يكن لنا دخل في حصوله، وليس من الواضح في كلام العرب قديما إِنْ كان هذا الحال يندرج تحت أصل المعنى للشفاعة لِإِتَاحَةِ منفعة. اَلْكَلَامُ هنا مع الذي لن تنفعه الشفاعة في الآخرة إن لم ينفق مما رزقه سبحانه، فَرْضًا لو توسّط له كل الملائكة(ع) وَالْمُرْسَلِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ فلن ينفعه ذلك لأنه سيتحاسب إن لم ينفق.

نَتَذَكَّرُ دَائِمًا أن القرآن قال كلاما مختلفا عن الشفاعة، كُلُّ كلام كان يقصد شيئا غير الآخر، فنفى الشفاعة عموما وكان يقصد أنه لا يمكن لأي مخلوق أن يفرض عليه تعالى الشفاعة، فلن يقف مؤمن أو ملاك ليضرب رجله بالأرض "يحتجّ معترضاً" ويقول: معي حقّ الشفاعة وأريد أن يدخل هذا الكافر إلى الجنّة. فهذا ما كانت تنفيه بعض الآيات ومنها ما ورد في الآية 255 من السورة هنا {... مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ...}، يُمْكِنُكَ مراجعة دراستنا هذه لأي آية تظن أنها تنفي الشفاعة لترى أن سياقها يشير لنفي فرض الشفاعة عليه تعالى. هُنَاكَ آيات نفت الشفاعة وكانت تشير لحالة من يطلب الشفاعة وليس فيه صفات تؤهله لنيل الشفاعة، فهي منفية عنه حصرا وليست منفية عن الآخرين، هُنَا اَلْكَلَامُ عن الذي لم ينفق فهذا سيفقد ميزة الشفاعة له.

أما الشفاعة التي تنفع فهي للمؤمنين الذين خلطوا عملا صالحا بآخر طَالِحٍ لم يكن من العيار الثقيل... فيتدخل سبحانه ليغفر لهم أو ليخفّف عنهم العذاب، أو يأذن سبحانه للملائكة(ع) والمؤمنين من الدرجة العالية ليشفعوا لهم...

{وَالْكَافِرُونَ}، المنكرون لشريعته تعالى وبالأخص المنكرون للإنفاق في سبيله تعالى من الرزق الذي منحهم سبحانه إياه، {هُمُ الظَّالِمُونَ}، هم الموصوفون بأنهم ليس معهم حَقٌّ، فالعدل والإنصاف أن تنفق بأمر من الذي رزقك سبحانه، لَيْسَ معك حَقٌّ أن لا تنفق حين يأمرك تعالى، فَظُلْمًا لم تنفق.

تَفْهَمُ من عموم القرآن أن الإنفاق الواجب بأمر إلهي ليس محصورا بالزكاة أو الخمس فقط، بل طالما نحن قادرون على المساعدة فيجب الإنفاق في كل حالة نجد فيها محتاجا للمساعدة أو على الأمور التي يكون فيها عامّة المسلمين بحاجة لشيء أساسي في حياتهم... حَتَّى لو دفعنا الخمس والزكاة فَيَجِبُ الإنفاق في سبيله تعالى في الحالات الحرجة للآخرين.

بَقِيَ شَيْءٌ ضعه في بالك دَائِمًا، فكلمة كفر بمعناها اللغوي وباستعمال القرآن تعني عموم إنكار وتكذيب شيء ما، ومجالها واسع من أقصى الكفر به تعالى كإله، أو الكفر بوحدانيته تعالى... أو الكفر برسله تعالى... أو الكفر بكل كتبه وتشريعاته تعالى... وُصُولًا إلى ما تتحدّث عنه الآية هنا، هُوَ إعلان الإيمان بالدين الإلهي، وَالتَّمَنُّعُ عن الإنفاق في سبيله تعالى، فهو كفر بهذا التشريع فقط وفقط.

لا تفهم كلمة كفر على إطلاقها على إنكار كلّ شيء كلما وردت في القرآن، لأنه القرآن ورد وصف المسلم بالكفر كما في آيتنا هنا، هَذَا الوصف بالكفر لا يجعل كل الكفّار بمعيار واحد، وفي بعض كتب الفقه والفتاوى نجد الكثير من التهاون والاستهتار في نشر وتعميم كلمة كافر على هذا وذاك، يعتبرون تارك الصلاة كافر، وَتَارِكُ صلاة الجمعة كافر، والذي لا يصوم كافر... الوصف صحيح لأنهم كافرون بهذه النقطة، لَكِنَّ اَلْمُصِيبَةَ أن المفتين قد فهموا أن حكمه مثل حكم الكافر بالله تعالى! اَلْمُصِيبَةُ الثانية أنهم يحللون دم ومال وعرض الكافر حتى لو كان مسالما! كَلَامُهُمْ هذا هو الاستهتار بالدين ونزول مستوى التشريع والاشتقاق من الدين إلى مستوى تفاهتهم وسفالتهم وإجرامهم الدفين في داخلهم.

(اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ{255})

بعد كل الأحاديث السابقة التي تحدّثت عنها السورة، تأتي هذه الآية المشهورة في ثقافتنا الدينية بِاسْمِ: آية الكرسي.

لِتَتَحَدَّثَ عن صفات رَبِّنَا سبحانه، حتى نفهم أنه سبحانه الْمُسَيْطِرُ الوحيد على كل شيء في الدنيا والآخرة...

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، فَالْمَوْصُوفُ بوصف الإله فقط هو المسمّى بالاسم المحدّد المميّز "الله" عزّ وجلّ، فمفهوم كلمة إله كونها وَصْفًا لكائن لديه قُدُرَاتٌ وصفات فائقة عالية جدا جدا عن الآخرين، فهو لا ينطبق إلا على صاحب الاسم "الله" سبحانه وتعالى، ومن مشتقات هذا الكلام أن الطاعة والحمد والشكر والتسبيح وَالنُّذُورَاتِ والدين... يجب أن يَكُونَ كُلُّهُ للإله الله، الذي صنع المخلوقات، ويدير شؤونها...

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، هَذِهِ الجملة خبر منه تعالى لنا أنه الإله الأحد، وتجد في مختلف سور القرآن أَدِلَّةً كثيرة مختلفة منه تعالى على صحّة هذا الخبر وأبرزها بالنسبة لنا أنه لا أثر لأي فعل في السماوات والأرض لأي إله غيره، وأبرزها كخبر منه تعالى أنه لَمْ يَرَ أَثَرًا لإله غيره وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 18 من سورة يونس {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}، ومما يَعْلَمُهُ من طبيعة نفسه يرى استحالة تواجد كائن آخر مثله وهذا ما تفهمه من سورة التوحيد...

أَبْسَطُ ما نفهمه من القرآن أنه تعالى خلقنا وجعل فينا قابلية الوصول إلى معرفته كإله واحد أحد، فبالنظر للآيات التي فينا ومن حولنا، وإن لم نخترع من أوهامنا أو هوانا أو تخريفاتنا... آلهة، فسنراه تعالى إِلَهًا وَاحِدًا أَحَدًا.

لاحظ أن كلمة ربّ يمكن وَصْفِي بها كربّ لعائلتي وذاك ربّ العمل وتلك ربّة منزل... أمّا كلمة إله فلا بالمعنى المتواطئ ولا بالمعنى المشكّك يمكن إطلاقها على غيره تعالى، فلا تدرجات فيها ولا المعنى يتحمّل مشاركة الكلمة مع كائن آخر غيره تعالى، وقد تراخى الناس في معنى كلمة إله ووصفوا بها من ليس فائقا في الصفات والقدرات، فوصفوا بها كائنات خيالية ووصفوا بها إنسانا أو ملاكا... فنحن البشر اخترعنا كلمة إله لنصف بها ما نشعر به ونراه من أفعال كائن فائق القدرات، وهناك كائن واحد فقط بهذه الصفة "فائق القدرات:إله"، وأخطأ من تراخى باستعماله لكلمة إله وَاصِفًا بِهِ غَيْرَهُ سبحانه.

{الْحَيُّ}، وكلمة حيّ كوصف لكائن ففيها تدرجات تتناسب مع الكائن، فعموما الحياة هي الفعل والانفعال والتفاعل، فتفعل شيئا وَتَتَفَاعَلُ أو تنفعل من شيء، وتدرجات تطبيقها من نظرتنا نحن تبدأ من النبات الذي ينفعل من الماء والتربة والهواء والضوء... ويفعل النمو والثمر... مُرُورًا بالحيوان الذي يفعل فيؤثّر على ما حوله، وينفعل فيتأثّر بما حوله... وُصُولًا لحياة الإنسان وهي ما ينتج عنه وما ينتج من الْآخَرِينَ عليه... والآلة التي تنتج المصنوعات وتتأثر بالعوامل، فهي بشكل ما موصوفة بالحياة، مع الفرق الهائل بيننا وبينها، وهذا الفرق غير بعيد كثيرا عن الفرق بيننا وبين النبات الذي وبكل صراحة وصفه القرآن بالحياة، بل تحدّث القرآن عن فعل وانفعال "كشكل من أشكال الحياة" للأرض والسماوات والجبال، فمن ناحيته تعالى يمكنه التعامل معهم، ومن ناحيتنا نحن فهم جمادات لا حياة لها ولا وعي لها ولا بأي شكل.

هَكَذَا ترى أن أي تعريف لكلمة حياة سيتأثّر بما هو على مقياسك أنت يستحقّ وصفه بالحياة، ولن أطيل عليك كثيرا فيمكنك مراجعة الأبحاث الكثيرة جدا والمنتشرة في الكتب والمقالات، والنابعة من نظرة دينية أو علمانية أو علمية... عن الحياة ومعناها، ولن تصل منها إلى أي نتيجة تجمع وصف كل شيء يقول عنه الآخرون أنه حيّ، وما ذكرته لك هنا عن تدرجات انطباق كلمة حياة من الانفعال فقط لشيء ما، مُرُورًا بالفعل والانفعال مع اختلاف في تدرجات مستويات ما يقصده أو ما هو مجبور عليه الفاعل والمنفعل، كالفرق بين النبات والحيوان والآلة... وُصُولًا إلى وصفه سبحانه وتعالى بالحياة على مقياس إلهي، فيفعل سبحانه ولا ينفعل، وكما ترى فهذا تعريف بسيط يتضمّن تدرجات تجعل كل شيء ينضوي تحت وصفه بالحياة، وَانْتِقَالُ وصفه بالممات حين يفقد ما سبق ووصفناه به بالحياة، فالإنسان يموت وجسده لا يزال ينفعل بالظروف البيئية حتى يتحلّل، ولكن ما كان موصوفا به كحياة إنسان، قد فقده، وصار الكلام عن جسد لإنسان ميّت، فيفعل وينفعل الجسد بمستوى مختلف عن الحالة السابقة...

سُبْحَانَهُ حي، ومن عموم القرآن تعلم أنه تعالى يفعل بغيره ولا ينفعل من غيره. فيتأثّر الآخرون بأفعاله سبحانه ولا يتأثّر سبحانه بما يفعله الآخرون. ومن جوانب المقصود من وصفه تعالى بالحي، مقارنته تعالى مع ما اعتبره الآخرون آلهة، كالصنم الذي لا حياة فيه، أو أجدادهم الأموات، أو الآلهة الوهمية... وإن كانت السورة لم تتطرّق لهذه الاعتقادات ولكنها جانب من مقارنة وصفه تعالى بالحي، والجانب الآخر الذي تشير إليه بقية الآية والسورة عموما أنه تعالى لم يخلق ما

في هذه الدنيا ومات بعد ذلك، فوصفه تعالى بالحي هو وصف مطلق لا حدود له، لا بالزمن ولا بالنوعية، فبلا بداية كان سبحانه موصوفا بأنه حي، وإلى ما لا نهاية سيبقى موصوفا بأنه تعالى حي، وهذه تعابير وصفية على مقياس ما نفهمه نحن للزمن وإلا فطبيعته سبحانه لوحدها فلا معنى للزمن بالنسبة لها، فبالنسبة للآخرين هو سبحانه الأول والآخر كما وصف نفسه في الآية 3 من سورة الحديد {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ}...

{اللَّهُ}، {الْقَيُّومُ}، القائم بذاته على ذاته، طَبْعًا هو تعالى قيوم على مخلوقاته ولكن صفة الحي كانت له تعالى بالنظر إِلَى نفسه فكذلك صفة قيوم نفهمها بأنها له تعالى بالنظر إلى نفسه، فنحن أحياء ولنا كيان ووعي وفي بيئة نأكل ونشرب... لأنه تعالى قيوم قائم علينا، فلولاه تعالى لما كان لنا قيام، لَكُنَّا أمواتا بلا حياة، وهكذا نفهم أنه تعالى قيّوم فلا أحد منحه الحياة ولا أحد منحه الصفات أو القدرات... بعبارة أبسط: فهو تعالى قائم بنفسه، كامل تام بنفسه لوحده.

نفهمها بشكل واضح عندما يصف سبحانه كل شيء بأنه تعالى هو خلقه، فمن ناحية هناك مخلوقات، ومن ناحية ثانية فهو تعالى لوحده مختلف عن كل شيء. وقد ركّز القرآن على تكرار هذا الكلام لنميّز بين المخلوق، وهو حتما متألّف متركّب من شيء ما مهما كان تركيب المخلوق بسيطا صافيا "كالروح" فهو مؤلّف مركّب، أمّا سبحانه، فقيّوم، فليس مركبا ولا مؤلّفا من أي شيء حتى نسأل عمّن خلقه وعمّن قوّمه، فلكل مخلوق خالق، هو المبدأ القرآني الذي بتعابير عادية فهمنا منها أنه تعالى أَصْلًا لا ينطبق عليه سؤال: من خلق الله. لأن المخلوق له بداية وله كيان محدّد وله مادة "مهما كان نوعها، حتى لو سميتها طاقة أو نور أو روح أو جوهر..."، فهو مؤلّف من شيء ما... وكل هذا لا ينطبق عليه تعالى، فهو قيوم، ففي ذاته كل الصفات والقدرات، ولم يأخذها من أحد.

هذا يأخذنا إلى كلام أعمق، إلى حيث الطبيعة مختلفة تَمَامًا، إلى حيث أسئلتنا النابعة من أنفسنا ومما نراه من حولنا، لا يعد لها أي معنى حين نَسْتَنْبِطُ أسئلة منها عن كيانه تعالى، وبعبارة أبسط فجملة "من خلق الله" هي جملة بلا معنى وغير صحيحة لأنه تعالى ليس مركّبا وليس له مادّة فكلمة مخلوق لا تنطبق عليه أَصْلًا حتى تسأل عمّن خلقه، فنحن نسأل عن العلّة والمعلول لمن فيهم صفات المعلول، ونسأل عن السبب والمسبّب لمن فيهم صفات تسبيبهم، أمّا سبحانه فطبيعته مختلفة ولا تنطبق عليه لفظة معلول ولا مسبّب...

مِنْ هذا الكلام ترى فرقا جوهريا بين الآيات الدالة عليه تعالى وبين الأدلة الفلسفية، ففيها ما فيها وعليها ما عليها من تعليقات، وأمّا ما ذكره القرآن صَرَاحَةً كآيات دالة عليه تعالى وعلى صفاته فهي أخبار عاكسة للواقع، وبالتالي فالواقع تكتفي بوصفه ولا تحتاج لأدلة على صحّته.

خذ مثالا التعبير بإثبات وجود الله عزّ وجلّ عبر أدلة فكرية فلسفية... فهذه الطريقة بالكلام لن تجد ولا أي شيء قريب منها في القرآن، لأنه تعالى هو المتكلّم، وكلامه عن نفسه أخبار مما يعلمه هو سبحانه عن نفسه، وكلامه عمّا فعله وقرّره فهو أَيْضًا أخبار منه تعالى عما فعله وقرّره، وبما أن هذا هو الواقع، الحقّ، فكل شيء سيدل عليه ويؤكده، فَحَتْمًا هناك من صمّمني وخلقني، وحتما هو حيّ وقيّوم... وحتما قدراته فائقة... ولا يوجد إله غيره لأنه لا أثر لإله غيره...

هَكَذَا ترى الفرق بين أدلة القرآن على صدق كلامه تعالى، وبين ما يسمّونه بالأدلة الفلسفية التي ورثها المسلمون من الفلاسفة وحاولوا تطبيقها على بعض آيات القرآن. ولست أنفي أهمية الدراسات الفكرية المنطقية، بل أنبّهك أن بعض أدلتهم من نوع الترف الفكري كدليل التسلسل والدور اللَّذَيْنِ يتضمنان مفهوم اللانهاية الاعتباري... وبعض أدلتهم فاسدة ومبنية على معطيات فاسدة كنظرية الأفلاك التسعة والعقول العشرة...

{لَا تَأْخُذُهُ}، لا تصيبه أو تستحوذ عليه، لا يحصل معه حالة، {سِنَةٌ}، نوم خفيف لا يفقد فيه كل الْإِحْسَاسِ بمحيطه، وبالعامية نقول: نصف نائم، لأنه يشعر قليلا بما يجري حوله ولكنه غير وَاعٍ بشكل تامّ. ولا يأخذه سبحانه، {نَوْمٌ}، فلا يصير في حالة الفقدان التام للإحساس بالمحيط. فسبحانه واع دَائِمًا، وبكامل قواه دَائِمًا، ومدرك لكل شيء دَائِمًا... ولو أصابه سبحانه سنة أو نوم، لفقد وعيه وإدراكه للسماوات والأرض، ولكان بحاجة لشيء يحافظ له على حياته، لأنه سيفقد وعيه لو نام، فكيف سيبقى له كيان ومن يحافظ على استقراره؟

تصوّر لو أصاب ربنا سبحانه غفلة من أي نوع كان، فهل تعلم ماذا سيحصل؟ سَيَخْتَفِي كل شيء، ونحن سَنَخْتَفِي، هكذا سَنَنْمَحِي في اللحظة التي سَهَا فيها ربنا عزّ وجلّ، وترى فحوى هذا المعنى في الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ}...

{لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، فكل شيء منسوب له سبحانه، فمنسوب له تصميمهم وخلقهم وإدارتهم فهو مالكهم... فكل السماوات السبع من سماء الملائكة العالية(ع) وما تحتها وُصُولًا إلى سمائنا وَالْأَرَضِينَ بين السماوات، فكلهم مع ما فيهم هم له سبحانه، والتعبير القرآني بالسماوات والأرض يقصد به كل شيء، وبتعبيرنا المتساهل فيه نقول: كل الدنيا.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أَيْضًا على قبّة النجوم التي نراها لَيْلًا ونطلقه أَيْضًا على عالم الملائكة(ع) ونطلقه مَعْنَوِيًّا على الجنّة... لذلك ضع في بالك دَائِمًا أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنويا" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أَرْضٌ لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}... وهي إشارة إِلَى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أَرَاضٍ "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أَرْضًا بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أَرَاضٍ.

اِنْتَبِهْ لتسلسل الكلام، فربنا الإله الأحد الحي القيوم الذي لا يفقد وعيه لا جُزْئِيًّا ولا كُلِّيًّا، وله كل شيء. لأن كل شيء مرتبط بالإله الحي الذي أعطى الحياة لكل شيء، الإله القيوم الذي يجعل كل شيء مَوْجُودًا وله كيان، الإله الذي لا يفقد وعيه ففي كل لحظة هو وحده يحافظ على وجود كل شيء... هَكَذَا تلاحظ التسلسل والترابط في الكلام.

{مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}؟ والشفاعة استعمالها عادة لوصف عموم استخدام القيمة المعنوية أو السلطوية لتغيير الظروف نحو الأحسن، لدفع ضرر تستحقّه أو وقعت فيه بإرادتك، ويبدو في الاستعمال العامّي تساهل ليشمل الظروف القاهرة التي توقعنا في ضرر حتى لو لم يكن لنا دخل في حصوله، وليس من الواضح في كلام العرب قديما إنْ كان هذا الحال يندرج تحت أصل المعنى للشفاعة لِإِتَاحَةِ منفعة. فمن هو الذي يتوسّط عنده تعالى لرفع العذاب عن أحد ما، إلّا إذا سمح تعالى بذلك؟ بعبارة أبسط: من يمكنه أن يفرض عليه تعالى أن لا يعاقب كائنا ما على ذنبه؟

فإذا أراد سبحانه معاقبة شخص ما، فمن هو الذي يمكنه التدخّل ليفرض عليه سبحانه تغيير حكمه؟ وَهَذَا المعنى تقصده آيات القرآن التي نفت الشفاعة في يوم القيامة من ملاك أو مؤمن من الدرجة العالية لشخص قد صدر عليه الحكم الإلهي بالعقاب، فهناك شفاعة ذكرتها العديد من الآيات، ولكن لا يوجد شفاعة يمكن فرضها عليه تعالى، وإنما تحصل الشفاعة بإذن ربنا سبحانه، بسماح منه تعالى.

نكرّر الكلام بِعِبَارَاتِنَا الدَّارِجَةِ، فلا أحد يقف في يوم القيامة ويضرب رجله بالأرض "يحتجّ مُعْتَرِضًا" ويقول: عندي حق الشفاعة، وأريد أن أشفع لأبي. وهكذا يكون ربنا عزّ وجلّ "مَجْبُورًا" على إدخال أبيه إلى الجنة حتى لو كان كافرا بالألوهية مشركا مفسدا في الأرض! لا، هذا غير صحيح، فلا أحد يمكنه فرض الشفاعة عليه سبحانه، بل بإذن منه تعالى يمكن حصول الشفاعة لأشخاص لم يرتكبوا الجرائم من القياس الكبير، وهذا المعنى بفرض تنفيذ الشفاعة عليه تعالى هو الذي ينفيه القرآن.

{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ}، فيعلم سبحانه بالأشياء التي أمامهم ويتعاملون معها، ويعلم سبحانه، {وَمَا خَلْفَهُمْ}، وهي الأشياء التي ليست أمامهم، وهنا الكلام عامّ فيشير إلى عموم ما بين أيدينا من أشياء وأمور تحصل ونراها أمامنا، وعموم الأشياء والأمور التي تحصل خلفنا، سواء التي حصلت أمامنا في الماضي ولا نزال نتذكّرها أو نسيناها، أو التي حصلت ولم نكن حاضرين حين حصولها، سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

{وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ}، فهو تعالى يعلم كلّ شيء عن كل شيء والبقية فقط وفقط يعلمون ما يخبرهم به سبحانه، أمّا إذا لم يخبرنا تعالى، فنحن لن نعلم أي شيء مما يعلمه هو تعالى، فنحن نعلم الأشياء التي بين أيدينا، وهناك

أشياء ليست بين أيدينا بل خلفنا فَسَنَتَعَرَّفُ عَلَيْهَا إِذَا التفتنا لها، إذا تطورنا في العلوم أو إذا بحثنا بها... فتصير أمامنا، ولكن، هل يمكن أن نعلم شيئا عن الملائكة(ع) والآخرة والشيطان...؟ وهل نعلم كل صفاته تعالى؟ وهل نعلم كل مخطّطاته تعالى؟ وَأَصْلًا كم هي الكمية من المعرفة التي نملكها والتي يستوعبها دماغنا أمام القدرات الفائقة لعلمه عزّ وجلّ؟! فبطبيعة الحال لا يمكن لأي مخلوق أن يعلم كل ما يعلمه تعالى، فهذا فوق قدرة أي مخلوق على التحمّل.

لاحظ أن القرآن لم يستعمل ولا مرّة في حقّه تعالى كلمة "عرف" أو أي من مشتقاتها، فالمعرفة من التعرّف وهي العلم بالاعتماد على الْأَمَارَاتِ بطريقة غير مباشرة، عبر مقارنة ما دخل حواسك وتصوراتك ومفاهيمك مع ما في ذاكرتك والخروج بنتيجة من ذلك، أو تسجيل معلومة جديدة كالعلم حديثا بشيء لم تكن تعلمه أو العلم بالتلقين من آخرين لشيء لم تكن تعلمه... هو التعرّف، ولذلك لا يوصف تعالى بالمعرفة ويوصف فقط بالعلم، فسبحانه لا تغيب عنه أي معلومة حتى يتعرّف عليها أو حتى يقارن بينها وبين ما يعلمه، فعلمه فائق.

{وَسِعَ كُرْسِيُّهُ} سبحانه {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، فالكرسي الإلهي الملكي واسع جدا جدا، ففي كل الدنيا، "كل الوجود" ينتشر ملك وحكم وسيطرة ربنا سبحانه.

نتذكّر دَائِمًا أن العرش والكرسي تعابير مشابهة للتعابير التي نستعملها نحن لوصف من يجلس على الحكم، فالكرسي كوصف لشيء، فهو ما نجلس عليه، وَمَعْنَوِيًّا هو وصف لمن يجلس على الحكم، وهكذا تنطبق عليه تعالى لأنه حاكم. بشكل بسيط فلنقل أن ملكا على الناس وَأَصْلًا ليس لديه كرسي خشبي أو بلاستيكي أو معدني... ليجلس عليه، فهو سيبقى ملكا، وسيبقى موصوفا بأنه الجالس على كرسي الملك، فهذا كرسي معنوي يعبّر عنه عَمَلِيًّا سيطرة الملك على مملكته، وهكذا كرسيّه تعالى يعبّر عن سيطرته سبحانه على كل الدنيا، وَمَادِّيًّا فنحن عادة نجلس على كرسي فيكون في قصر ما كرسي مخصّص للملك... هَكَذَا نفهم أن كرسيه تعالى باتساع كل نقطة في كل السماوات والأرض، فلا يوجد نقطة فيهما ولا يحكمها تعالى ويسيطر عليها.

{وَلَا يَئُودُهُ}، ولا يتعبه ولا يرهقه تعالى، {حِفْظُهُمَا}، صيانة ورعاية وجود السماوات والأرض واستمرارهما، فلا يتعب سبحانه حين يجعلهما مَوْجُودَتَيْنِ بما فيهما من كائنات وظواهر... فالآية قالت أنه تعالى "قيوم" قائم بذاته من دون أن يحافظ على وجوده أي أحد، وهنا تقول أنه تعالى هو يحافظ على وجود كل شيء، عبر وساعة كرسيه تعالى على كل ما في دنيا المخلوقات، وهو الذي جعل لكل شيء كيانا وشكلا وهيئة وحياة... وسبحانه لا يتعب من المحافظة عليهم. فالآية هنا على معنى الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ}...

{وَهُوَ الْعَلِيُّ}، الأعلى من كل شيء في كل المواصفات والقدرات، فلا أحد من مخلوقاته يشبهه، فسبحانه حي، ونحن أحياء، ولكن هناك فرق كبير هائل جدا جدا بين حياته تعالى التي لا تعتمد على أي شيء، وبين حياتنا التي تعتمد عليه تعالى بالكامل... فالقيمة الحقيقية لكل شيء يتصف به سبحانه فهي قيمة أعلى من أي شيء تتصف به مخلوقاته، فالملائكة(ع) التي تحمل العرش هي الملائكة(ع) التي أوكلها ربنا سبحانه بصيانة وحفظ وحمل كيان كل شيء، فهي قوية جدا جدا، ولكن قوّة ربنا سبحانه "أعلى" من قوّتهم بكثير جدا جدا جدا جدا... فَبَقَاؤُهُمْ أحياء ولهم كيان فهو متعلّق به تعالى.

{وَهُوَ}، {الْعَظِيمُ}، والعظيم وصف أقصى درجة في التميّز ومن تبعات ذلك الابتعاد كثيرا عن المقارنة مع الآخر. فعندما نقول عن ملك أو رئيس أو قائد بأنه عظيم، لأن سلطته كبيرة، أو قدرة جيشه وأعوانه كبيرة، أو بقعة سيطرته كبيرة... فإن عظمة كل المخلوقات هي لا شيء أمام الإله الواحد الذي لا إله غيره، والذي لا يحتاج لشيء، والخالق لكل شيء، وصاحب السلطة المطلقة، والقدرة المطلقة...

نُلَاحِظُ أن هذه الآية لشدة جمالها بسبب جمال الذي تصفه سبحانه، تكاد تجعلنا ننسى سياق السورة، فهذه الآية جاءت لتنبّهنا إلى وجوب طاعة صاحب هذه الصفات والقدرات، فلا نكفر ولا ننافق ولا نفسق... بل نؤمن بالحقّ ونفعل الصالحات ونترك السيئات وهذا ما يرضى عنه إلهنا سبحانه.

(لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{256})

{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}، الدِّينُ، مَا تدينون به، وَمَا عليكم من تبعات، هُنَا اَلْكَلَامُ عن التبعات التي علينا له سبحانه، مَا ندين به له سبحانه بتأليهه وحده وبطاعة أوامره... ليس بالإكراه بل يكون طواعية منكم، لَنْ يُكْرِهَكُمْ وَلَنْ يَجْعَلَكُمْ سبحانه غَصْبًا عنكم معتقدين وملتزمين بأنكم مَدِينُونَ له، "مُتَدَيِّنِينَ بالإسلام"، وَلَنْ يُجْبِرَكُمْ بتغيير عقولكم حتى تعتقدوا به وتلتزموا بشريعته، لا، {قَدْ تَبَيَّنَ}، صَارَ وَاضِحًا، {الرُّشْدُ}، التفكير والتصرف بشكل صحيح، {مِنَ الْغَيِّ}، من التفكير والتصرّف بلا عقلانية، باتباع الغريزة والشهوة و... بشكل فاسد.

سُبْحَانَهُ جَعَلَ فينا قابلية تمييز الخير من الشرّ والحقّ من الباطل، وجعل فينا ما يجعلنا نرغب بالحقّ والصلاح ونراه رُشْدًا، وفينا ما يجعلنا نكره الباطل والفساد ونراه غَيًّا، عَبْرَ قُرْآنِهِ وضّح سبحانه لنا طريق الرشاد فَأَخْبَرَنَا بالمعلومات الصحيحة بوضوح حتى نؤمن بها من بعدما نرى أنها حَقٌّ، ووضّح لنا التصرف الصحيح عبر ترك ما نراه نحن سُوءًا وفعل ما نراه نحن سَيِّئًا... وترك لنا حرية الاختيار بينهما، والنتيجة للطريقين أن وَاحِدًا يوصلنا إلى الجنة، والآخر يوصلنا إلى النار.

{فَمَنْ يَكْفُرْ}، مَنْ ينكر ولا يؤمن، {بِالطَّاغُوتِ}، بأي شيء موصوف بأنه طغيان بأنه تَعَدٍّ وتجاوز للحدود المسموح بها، وَلَا يُؤْمِنُ بأي دين أو شريعة أو قانون أو عقيدة غير دين الله تعالى، {وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ}، يَعْتَقِدُ به تعالى وبدينه، {فَقَدِ اسْتَمْسَكَ}، تمسّك تعلّق بِقُوَّةٍ، {بِالْعُرْوَةِ}، بشيء يربطه بالحبل الإلهي، وهي عروة، وَصْلَةٌ، {الْوُثْقَى}، المشدودة بإحكام، المعقودة جيدا، {لَا انْفِصَامَ لَهَا}، لا انْفِصَالَ لا انْفِكَاكَ لتلك الوصلة.

بعبارة أخرى إِذَا ربطت نفسك بشيء، فَسَتَخْتَارُ الارتباط بشيء متين، وَإِذَا اخترت دينا لتكون عليه، من عقيدة وشريعة وسلوك، فَسَتَخْتَارُ ما فيه صلابة ومتانة، طَبْعًا هذا إن كنت تختار بعقلانية وحكمة، اَلْكُفْرُ بالطاغوت والإيمان به تعالى هو الوصلة التي فِعْلًا لها قيمة الثبات، فهي وصلة مع شيء قوي جِدًّا، ولا تنفصل إلا إذا نحن قرّرنا الانفصال عنها.

{وَاللَّهُ سَمِيعٌ}، يَسْمَعُ كل شيء، يَسْمَعُ أقوالنا التي تعبّر عن إيماننا بدينه أو تعبّر عن إيماننا بالطاغوت.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ}، يَعْلَمُ كل شيء بالتفصيل، وَيَعْلَمُ إن كنّا مؤمنين به تعالى أو بالطاغوت.

هُنَاكَ من عوام الناس من يفسّر الآية على معنيين من نفس الاشتقاق، يَقُولُ إِنَّ الآية تقصد أنه تعالى لم ولن يكرهنا غَصْبًا عنّا لنكون مؤمنين ملتزمين بدينه، وَبِنَاءً عليه يقول إِنَّنَا أحرار في الإيمان بدينه أو الكفر به، وهذا صحيح سُبْحَانَهُ أَصْلًا يقصد هذا المعنى هنا في الآية، آيَتُنَا هنا شبيهة في صراحة معنى الآية 99 من سورة يونس {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}. يُخْبِرُكَ سبحانه بأنك أمام طريق رشد معروض عليك في دينه تعالى، والطرق الأخرى غَيٌّ، لَكِنَّ بيت القصيد في النتيجة أَيُّ طريق تختاره منهما فَأَنْتَ لوحدك تتحمّل عواقبه، فِي الآخرة عقاب على الغيّ وثواب حسن على الرشد.

بَعْضُهُمْ يفسّر الآية علينا نحن المنتمين لدينه تعالى أَنَّنَا لا يحقّ لنا فرض ديننا على الآخرين، مِثْلَمَا تعالى تركهم أَحْرَارًا ليختاروا الرشد أو الغي، نَحْنُ أَيْضًا نَتْرُكُهُمْ، وهذا صحيح جُزْئِيًّا، حيث حدودنا مع الآخرين أن نبيّن لهم الحقّ من الباطل والشرّ من الخير، ولا نفرض عليهم الإيمان غَصْبًا عنهم بديننا، أمّا بعض تطبيقات ديننا فَحَتْمًا ستنطبق عليهم في ظلّ حكومة تتبنّى الشريعة الْإِسْلَامِيَّةِ، فِي شريعته تعالى هُنَاكَ قانون عَامٌّ على كلّ الناس كقانون أي دولة علمانية تعاقب من يخالفه وتعتبره كحقّ للدولة للمطالبة به، كالأعمال التي تصنّف إرهابية وكمخالفة إشارات المرور... هُنَاكَ قوانين للمظاهر الاجتماعية للمحافظة على الأخلاق العامّة، حَتَّى في الدول العلمانية أَغْلَبُهَا يمنع التعرّي في الأماكن العامة، وغالبيتها الساحقة تمنع تعاطي الخمور في الأماكن العامّة...

مِثْلُهَا تَمَامًا يُوجَدُ قوانين في شريعته تعالى ويتم فرضها بالإكراه على الناس إذا كانت الحكومة إسلامية، تَمَامًا مثلما تفرض أي دولة قوانينها على مواطنيها، تُكْرِهُهُمْ على تنفيذ القوانين، وَإِلَّا فَسَيَطَالُهُمُ العقاب، بِهَذَا المعنى هُنَاكَ إكراه في الدين فيما يخصّ قانون الدولة، هَذَا بعكس المعنى الذي فسّروا به الآية، أَصْلًا الآية لم تكن تقصد المعنى الذي ذكروه ولا ردّنا عليهم.

لاحظ أن كلمة طاغوت تبدو غريبة بعض الشيء، وأنها غير منتشرة الاستعمال، ويبدو أنها اشتقاق قرآني "من الطغيان" وربما لم يسبق أن استعمله العرب، أو ربما استعملوه قبل نزول القرآن ولكن لم يصلنا أثر عن ذلك منهم عبر أشعارهم، ومثلها حالة كلمة إِسْتَبْرَقٍ، حيث مِنَ البديهي أن أشعارهم قبل الإسلام لم تستعمل كل كلمات اللغة العربية وكل الاشتقاقات من الكلمات.

أشار القرآن بكلمة طاغوت للشخص وللقانون وللشريعة... التي تخالف حدود الحقّ والصلاح وهي نفسها الحدود الإلهية، أَيُّ مخالفة هي طغيان، فهي خروج عمّا حدّده لنا تعالى، إِن اعتبرت نفسك عَبْدًا لإنسان أو لإله غيره تعالى فَقَدْ طغيت وعبدت الطاغوت، وإن اعتقدت بعقيدة تخالف العقيدة الإلهية فَقَدْ طغيت وعبدت الطاغوت... هَكَذَا، اَلطَّاغُوتُ صفة عامة لكل أنواع وأشكال الطغيان، والقرآن قصد بها الطغيان على الأوامر الإلهية.

(اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{257})

{اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا}، فَهُوَ تعالى بالنسبة للتابعين له الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بدينه فَهُوَ سبحانه وَلِيُّهُمُ الْمَرْجِعُ لهم يَعْتَبِرُهُمْ تابعين له، {يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ}، من العتمات من كل الجهات، حيث يحصل التخبّط من فقدان رؤية طريق الحقّ، {إِلَى النُّورِ}، إلى الوضوح، إلى حيث يرون أمامهم بوضوح، فلا يترك سبحانه المؤمنين في الضلال بسبب العتمة من كل الجهات، بل يَجْعَلُهُمْ تعالى يرون الحقّ أمامهم وَاضِحًا ليكونوا عليه. هَذَا تطبيق عملي لولايتهم له تعالى وولايته عليهم تعالى، فهم تابعون له سبحانه وهو سبحانه يعتني بهم.

اَلْكَلَامُ هنا عَطْفًا على كلام الآية السابقة المبني على ما جعله تعالى فينا من نفور من الباطل والسوء، إلى أن نرغب بسوء ما ونفعله مع علمنا بسوئه، وبسبب ذلك يحصل تشوّه في رؤيتنا للأمور، ويكبر التشوّه كلما تكرر منّا فعل السوء، إلى أن نفقد الرشد، ويصف تعالى هذه الحالة بأنها الظلمات، حيث نفقد رؤية الخير من الشرّ، ونصير نرى السوء صَالِحًا... اَللَّهُ سبحانه يتولّى الذين آمنوا فهو المرجع لهم لأنهم مؤمنون به كإله لهم، ولذلك يبيّن لهم طريق الحقّ، بِالْأَسَاسِ كُلُّنَا فينا قابلية إبراهيمية، فسلامة قلب النبي إبراهيم(ع) التي منها وصل إلى كل المعلومات الحقّ التي يمكن أن يصل إليها الإنسان، كُلُّنَا لدينا نفس ما لديه، وَلَكِنْ نَحْنُ رُوَيْدًا رُوَيْدًا مع تقدمنا بالعمر نشوّه قلوبنا بفعل السيئات وتكرارها... مِنْ هذا الواقع هذه الأكثرية تشوّهت قلوبهم بتدرجات مختلفة، وَبَقِيَ عند بعضهم سلامة قلب كافية لوصفهم بالمؤمنين لأنهم لا يزال قلبهم يرغب بالحقّ أكثر من رغبته بالباطل، فهؤلاء يخرجهم تعالى من الظلمات إلى النور عبر كلامه القرآني هذا معهم، يَعْرِضُ عليهم المعلومات الحقّ والشريعة والسلوكيات الصالحة ويخبرهم بما هو فاسد سيّء ليتجنّبوه، وَمُضَافًا له هُنَاكَ الدعم الإلهي لهم بإنارة قلوبهم، وَأَمْرُهُ تعالى للمؤمنين أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، وأن يتواصوا بالحقّ والصبر، نَتِيجَةُ ذلك أننا نساعد بعضنا على رؤية الهدى.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا فلم يعتقدوا به تعالى ولا بدينه، {أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ}، فهم تابعون ومرجعهم الذي يتجهون إليه ويسمعون كلامه موصوف بالطغيان بتجاوز حدوده بشكل كبير، كَمَا ترى فالإله سبحانه وحده يحق له إصدار الأوامر لعبيده ويجب عليهم طاعته، سُبْحَانَهُ لن يأمرهم إلا بالحقّ والصلاح، وأي كائن آخر يأمرهم بعكس ما يأمر به تعالى فهو طغيان من قياس طاغوتي، فهو تَعَدٍّ وتجاوز لحدوده من القياس الكبير جدا، فهو ترك للحقّ وفي نفس الوقت ترك لما أمر به تعالى.

فِي ذيل الآية السابقة تحدثنا عن كلمة "طاغوت" لُغَوِيًّا، عَمَلِيًّا فالطاغوت هم إبليس ومن عاونه من الجنّ والأفراد من الناس أو الجماعات من المجتمع الذين يأمرون بالسوء وينهون عن الصلاح، فهؤلاء، {يُخْرِجُونَهُمْ}، يخرجون أتباعهم، {مِنَ النُّورِ}، من الطريق الواضح، {إِلَى الظُّلُمَاتِ}، إلى العتمات إلى الطَّرِيقِ الضَّلَالِ حيث لا يرون الهدى...

{أُولَئِكَ}، الطاغون وأتباعهم هم، {أَصْحَابُ النَّارِ}، فهم مع بعض في النار التي في الآخرة، {هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، لا يخرجون منها ولا يموتون فيها ولن تخرب النار...

لاحظ دائما نفس المفهوم يطرحه القرآن بطرق مختلفة، يَحْصُرُ الحقّ به تعالى وأي شيء آخر هو باطل، والذي يقوله تعالى هو الصحيح الذي لا كذب فيه، هُوَ الصلاح الذي لا فساد فيه، مَا يقوله الآخرون إن لم يكن موافقا لكلامه تعالى، يكون كلامهم طاغوت، كلامهم طغيان، فهو كاذب متجاوز للصدق، فَاسِدٌ مُتَجَاوِزٌ للحق، هُوَ نَفْسُهُ الكفر بدينه تعالى.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{258})
{أَلَمْ تَرَ} أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت. فالتفت إلى الخبر التالي أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، كمثال عن وضوح ولايته الحقّ تعالى، فِي مقابله الإصرار على اتباع الطاغوت الفاسد الباطل:

التفت، {إِلَى الَّذِي}، إلى الشخص الذي، {حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ}، حاججه (ع) فقال كلاما كبرهان على صحّة معتقده وفساد معتقد النبي إبراهيم(ع)، {فِي رَبِّهِ}، في المسؤول عنه من مستوى إلهي، {أَنْ آتَاهُ}، حيث أعطى تعالى لذاك الشخص، {الْمُلْكَ}، فسمح له سبحانه أن يكون ملكا فارضا سلطته على الناس، فأصلا هو ملك لأنه تعالى صمّم بيئتنا بحيث تتيح له ولغيره أن يصير ملكا... بِنَاءً على ملكه بحرية تصرّفه فيما حوله وتنفيذ الناس لأوامره قال كلاما للنبي إبراهيم(ع) عن ربّ النبي إبراهيم(ع) يبرهن فيه أن عقيدة إبراهيم(ع) بربّه تعالى هي عقيدة غير صحيحة، فمن ملكه "الذي بالأصل أتاحه له ربّ إبراهيم(ع)" فشعر بربوبية تصل إلى مستوى الألوهية!

{إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ}، للملك ليعرّفه على ربنا سبحانه:

{رَبِّيَ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ}، فما تراه من حولك من حياة تولد، ونهاية لحياة الناس، فإنما ربّي هو المسيطر عليها.

نَتَنَبهُ جيدا، فأنا ربّ بيتي، وأنت ربّ العمل، وذاك ربّ الماشية... فبيتي تحت سيطرتي وكلمتي تمشي فيه فأنا المسؤول عنه من مستواي لرعاية من فيه، والمعمل يمشي بكلامك لرعاية العمل والعمّال، والماشية يتصرف بها ذاك... فهذه ربوبية لنا على أشخاص وأشياء من حولنا، وهي على مستوانا، وربوبيته تعالى من مستواه الإلهي، الَّذِي حاجج النبي إبراهيم(ع) كان ملكا، فهو عنده ربوبية المملكة التي يسيطر عليها، ولكنه شعر أنّه ربّ بكل ما للكلمة من معنى واسع! فقد شعر بربوبية من مستوى إلهي! مثل ربوبية الله عزّ وجلّ، النِّقَاشُ هنا حول هذه النقطة بالتحديد.

لِيَبْقَ في بالك أنه منذ قليل تحدثت آية الكرسي عن أساسيات صفاته تعالى والتي تفوق بشكل فائق جدا جدا صفات كل بقية الكائنات.

{قَالَ} ذلك الملك بناء على سلطة الملكية على ما حوله، والتي أصلا يتمتع بها لأنه تعالى سمح بذلك:

{أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}! طَبْعاً لا قدرة لديه على خلق الحياة في الأموات ولا قدرة لديه على توفّي الأحياء، بل يمكنه أن يصدر أوامره لمن حوله فيترك هذا الشخص حيّا، ويصدر أوامره لمن حوله فيقتلوا ذاك الشخص.

هذه سخافة من هذا الملك، فهو رغم وضوح سيطرة ربنا سبحانه عليه بشخصه بالحياة والموت، فهو لا يملك القرار بحق نفسه في تحديد الخروج إلى الحياة، ولا تحديد الخروج منها، ورغم ذلك اعتبر تصرفه في ترك شخص آخر حَيّاً، وقتل شخص آخر، اعتبره سيطرة على الحياة والموت! هَذَا نموذج واضح فاضح عن الطاغوت حيث يشرد ويطير الطاغي ليصل إلى التخريف.

{قَالَ إِبْرَاهِيمُ}:

{فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ}، فيجعل الشمس تطل علينا وتبدأ سيرها في السماء من جهة الشرق المعروفة التي يحصل منها بروز قرص الشمس، فإن كنت تعتقد نفسك ربا حقيقيا، {فَأْتِ بِهَا}، بالشمس، {مِنَ الْمَغْرِبِ}، فاجعلها تطل وتبدأ مسيرها من الجهة التي نراها الآن تغرب فيها.

{فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ}، فالذي لم يعتقد بوحدانية ربوبية الله تعالى، قد تعرّض لشيء لم يكن يتوقّعه لأنه لم يكن له أساس بالنسبة له، فهو يقول بأنه رب، ويستطيع فعل أي شيء، لأنه الملك المسيطر... ولكنه لا يستطيع قَطْعاً جعل الشمس تخرج من الغرب! مِنَ الظلمات التي صار فيها لم يعد يرى أن الربوبية الْحَقِيقِيَّةِ من المفروض أن تمتد ليصل مجالها إلى التحكّم بمسار الشمس، هَذَا ما سبّب انبهاته، فهذا شيء لم يكن في أساس توقعاته للنقاش في الربوبية ومعناها، فالربّ الحقيقي من مستوى إلهي هو الذي يجعل الشمس تخرج من جهة معلومة محددة يَوْمِيّاً "في المنطقة التي حصل فيها النقاش"، أَنْتَ مجرد شخص عادي، مَاذَا يعني أن تكون مَلِكاً رَبّاً على بقعة ما من الأرض! إِنَّمَا حصلت على هذا الملك والسيطرة الصغيرة لأنه تعالى سمح بذلك.

الْبُهْتَانُ هو ما تفعله أَوْ يفعله الآخرون معك، أو ما تقوله أو تسمعه ولا أساس له بالنسبة لك، فلا يطابق توقعاتك ولا ما في فكرك، أو لا يطابق توقعات وفكر غيرك. كَمِثَالٍ عنه القول عن شيء فعله أناس أو فرد، وبالنسبة لك فمن غير المتوقّع منهم فعل ذلك، فلا أساس لديك لتتوقّع فعلهم ذلك، ففي هذه الحالة يوصف القول بأنه بهتان، سواء فعلوه حَقّاً أو لم يفعلوه، فالتوصيف بالبهتان يجري حتى على من فعل شَيْئاً لا تتوقّع منه فعله، عَلَى هذا المعنى جاء كلام الآية 16 من سورة النور "وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ"، وكلام الآية 12 من سورة الممتحنة "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ...". مِنْ تبعاتها استعمال البهت عند حصول شيء بشكل مفاجئ لم تتوقعه فلم يكن هناك أَسَاسٌ لحصوله بحسب معلوماتك والمعطيات التي معك، عَلَى هذا المعنى جاء الكلام في الآية هنا "... قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ...".

{وَاللَّهُ لَا يَهْدِي}، لا يضع على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}، الجماعة الذين لم يكونوا منصفين ولا عادلين حين تفاعلوا مع آياته وكلامه تعالى، فَالْعَدْلُ والإنصاف الْإِيمَانُ بربوبية من مستوى إلهي له وحده تعالى فقط بسبب الآيات الكثيرة والمتنوّعة على ذلك، وَمِنَ الظلم فليس معه حَقٌّ رَفْعُ الربوبية من مستوى بشري في أمور محدودة قد سمح تعالى لنا بالتصرّف بها لتصير ربوبية من مستوى إلهي، وَمَنِ استسخف نفسه وأنزل الربوبية من مستواها الإلهي إلى مستوى ما يمكننا نحن فعله، فهذا لن يهديه تعالى لأنه ظالم، فعقليته لو كانت عادلة لما نزلت إلى هذا المستوى السخيف الذي يجعل الجميع أَرْبَاباً من مستوى إلهي، فأي واحد منّا لديه القدرة على ارتكاب جريمة وإنهاء حياة شخص ما، فهل هذا يجعلنا كلنا أَرْبَاباً من مستوى إلهي!

أَمْثَالُ هذا الكلام القرآني له عمق، فالذي لسبب أو لآخر رفض الحقّ الواضح أمامه، ولو في مسألة أو مسائل محددة، فهذا ظالم، فليس معه حقّ بذلك، فعن قصد وإصرار ظُلْماً رفض الحقّ، فكذّب بمعلومات صحيحة أو صنّف شَيْئاً خَيْراً أنه شر... هَذَا هو الضلال سُبْحَانَهُ لا يهدي الظالمين. أمّا لو لسبب أو لآخر رفض أمام الآخرين الحقّ الواضح أمامه ولكنه من داخله أو فيما بعد شعر بسوء ما فعله، فهذا بقي فيه أمل ليهتدي، هَذَا يهديه تعالى عبر هذا القرآن عندما يوضّح له سوء أو حسن الأمور، وعندما يريه عواقبها...

نُلَاحِظُ الآية لم تذكر اسم الشخص الذي تناقش مع النبي(ع)، لأن اسمه غير مهم، فهو مجرد نموذج عن شخص صار عنده حكم وملك هنا في الدنيا، فشعر بالسيطرة، فهو نموذج طاغوتي يخرج الناس من النور إلى الظلمات، فهو ملك ويواليه قومه الذين لم يوالوه تعالى، فكيف سيصلون إلى هداه تعالى إن كانوا مستسخفين لأنفسهم إلى هذه الدرجة!

إِذَا شعرت برغبة معرفة من يكون هذا الشخص، وأين حصلت الحادثة، وماذا حصل بعدها، فهذا شعور طبيعي، لَكِنْ لَا تَنْسَ، أن كل هذا الفضول غير مهم، الْمُهِمُّ هو الانتباه للعبرة.

الْآيَةُ هنا نقلت محاججة النبي إبراهيم(ع) للملك حول الموت والحياة، وَانْتَقَلَا بعدها حيث بهته (ع) بمسألة شروق الشمس... فِي الآيات التالية سنرى تكملة للكلام عن إحيائه تعالى للأموات عبر طرحها لنماذج من خارج المجرى العادي للأمور...

بقي شيء من فحوى كلام الآية عن المحاججة، فتريك نموذج الظلمات، فترى كيف يصير الشخص أعمى أمام الحقائق الناصعة، حَتَّى لو كنت مُؤْمِناً فهذا لا يعني أنك قادر على محاججة أي كان، فقد يقول لك جملة ما، وترى أنها باطلة، ولكنك قد تفتقد لمهارة وخبرة المحاججة فلا تردّ عليه بما يبهته، بل قد تقول له شَيْئاً ويبدأ الجدل بينكما ويطول الكلام...

قَدْ تسكت لأنه بهتك، هَذِهِ حالة المؤمنين الَّذِينَ ليس لديهم خبرة في مواجهة وحوار الآخرين، عِلْماً أن درجة الإيمان العالية تساعد دَائِماً في هكذا مواقف، فيرى المؤمن فَوْراً الحقّ ويميّزه، هَذَا يساعده على محاججة الآخرين بكلام قاطع حاسم.

هنا يُمْكِنُنَا الافتراض أن كَلَاماً طَوِيلاً في مختلف شؤون الدين قد حصل بين النبي إبراهيم(ع) وذاك الملك، ويمكننا افتراض الاحتمال الثاني أن هذه المسألة هي الوحيدة التي انطرحت وانتهى الموضوع، لَكِنْ على أي حال فالنبي إبراهيم (ع) اختار رَدّاً مُنَاسِباً ينهي الموضوع.

فلو قال الْمَلِكُ إِنَّ الشمس لِوَحْدِهَا تشرق وتغرب، فهذا نفي للربوبية، بِالتَّالِي نفي لربوبية الملك، فهو بِنَاءً على سيطرته على الأمور ادّعى أنه لا ربّ فوقه يسيطر على الأمور، حَسَناً، فشروق الشمس حدث، فهل أنت تسيطر عليه؟

بِنَاءً على معطياتنا الحالية نعلم إِنَّ الأرض تدور حول نفسها فينتج عن ذلك رؤيتنا للشمس تشرق وتغرب، لَدَيْنَا نظريات عن بداية تشكّل كوننا وُصُولاً إلى الحالة التي نحن فيها من مجرات ومجموعات شمسية... ينتج عنها ظاهرة الغروب والشروق... فلو قلت إِنَّ هذا هو سبب الشروق والغروب وليس هناك إله يحرّك الأشياء، فأنت تردّ على بعض المنتمين لدينه تعالى، فهم يقولون إِنَّهُ تعالى بيده مُبَاشَرَةً وبدون سنن أو آليات... يفعل الأشياء، لَيْسَ كلامك رَدّاً على كلامه تعالى الذي بصراحة ووضوح أخبرك عن مراحل لخلق السماوات والأرض، ومن ضمنها مراحل لخلق الأرض... فهذا الكلام الإلهي عن تصميم نتج عنه أحداث مُتَسَلْسِلَةٍ مترابطة وُصُولاً إلى ما نحن عليه وما نسمّيه بالكون بمجراته وشموسه وكواكبه.... والحياة على الأرض... والظواهر من ليل ونهار وشروق...

بِالنِّسْبَةِ لنا كمؤمنين بأنه تعالى يهب الحياة ويأخذها، فلو خطر ببالنا كيف يحصل ذلك؟ فتأتيك الآيات التالية مع نماذج عملية ملموسة عن إعادته تعالى للحياة للأموات من خارج الحوادث العادية...

(أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِـي هَـَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {259})

الْآيَةُ السابقة تحدثت عن شخص ادعى الربوبية من مستوى إلهي، تَحَدَّاهُ النبي إبراهيم (ع) بقدراته تعالى على إحياء الموتى... وحصل ما حصل... وهنا في الآية والتي تليها عادت السورة لنقطة إحيائه تعالى للموتى، وَوَجَّهَتْ كلامها إلى مُؤْمِنٍ لَكِنَّ عنده تساؤل حول إعادته تعالى الحياة للموتى، أَعْطَتْنَا نماذج ملموسة عن ذلك:

{أَوْ} لم تر كيف يخرج تعالى الذين آمنوا من الظلمات إلى النور؟ التفت إلى الخبر التالي، {كَالَّذِي}، فالملك الذي تحدّثت عنه الآية السابقة حاجّ في الربوبية بسيطرته على الأمر بقتل الأشخاص، وهنا الكلام مثله لَكِنْ على شكل تساؤل، هُنَاكَ شخص "مؤمن"، {مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ}، كان على طريقه مكان فيه تجمّع سكّاني، كان طريق مروره قرب مكان فيه بيوت، {وَهِيَ خَاوِيَةٌ}، خالية من الداخل، {عَلَى عُرُوشِهَا}، فلا تزال على عماراتها على بنيانها وبيوتها وبساتينها... لَكِنْ لا يوجد أحد في داخلها، فهي قرية، تجمّع سكاني قد مات أهله، صارت الْعُرُوشُ أي العمارات وَالْإِنْشَاءَاتُ بلا ناس.

{قَالَ أَنَّى}؟ كيف وبأي طريقة، يُحْيِي اللَّهُ هذه القرية بعد موتها؟ فهو مؤمن بأنه تعالى سيحيي هذه القرية في يوم القيامة، لَكِنَّ منظر مرور الزمن الطويل على موتهم جعله يتساءل: فكيف وبأي طريقة يتم إرجاعهم إلى الحياة؟

نلاحظ ما قاله النبي زكريا(ع) للملائكة(ع)، وما قالته السيدة مريم(ع)، فكلاهما يعلمان أن الله تعالى قادر على إعطائهما وَلَداً، وقد قالا: {أَنَّى} يكون ولد. ثم تحدثا عن الطريق الطبيعي للحصول على ولد، وهو مفقود في حالتهما، فالنبي زكريا(ع) كان هَرِماً وامرأته عَاقِراً، والسيدة مريم(ع) لم يمسسها بشر، {فَأَنَّى} فكيف سيكون ولد؟

السؤال هنا مُحَدَّدٌ، فكيف بعد مرور الزمن الطويل على الميت، كيف يرجع إلى الحياة؟ الأمور من حولنا تدل على أنه لن يرجع وقد انتهى، نحن نؤمن بأن الله تعالى قادر على إرجاعنا، لَكِنْ كيف؟ السؤال عن الآلية والتقنية وترابط الأمور المؤدية لحصوله...

هذا هو السؤال الذي سأله هذا الشخص الذي لم تذكر اسمه الآية، لا يهم معرفة اسمه، ومن المشهور في عموم ثقافات المتدينين بأنه نبي، وهنا في القصّة سترى أنه تواصل مع ربنا سبحانه فقد أوحى إليه وسأله... مما يشير لكونه نَبِيّاً، لم تذكر الآية اسم القرية، فلا أهمية لذلك، لِنُرَكِّزْ على فهم سؤاله لنفهم الجواب، فهو يؤمن بأنه تعالى سيعيد إحياء الموتى، لَكِنْ كيف يحصل هذا؟

لَكِنْ قبل ذلك، نحن لدينا نفس السؤال مع أننا نؤمن بقدرته تعالى على إرجاع الأموات، فبعد موتنا يتحلل جسدنا ويصير تُرَاباً يختلط بتراب الأرض وَتَمْتَصُّهُ النباتات... فكيف وبأي طريقة سنرجع؟

الجواب منه تعالى هنا سيأتي بالتنفيذ وليس بالشرح الكلامي لكيفية حصول إعادة الميّت إلى الحياة:

{فَأَمَاتَهُ اللَّهُ}، فجعله بلا حياة، مِائَةَ عام، وسترى من تكملة الكلام أنه فورا مات على وجه الأرض من دون دفن، لمدة مِائَةِ عام، فأكلت الحشرات والحيوانات لحمه، ونبتت عليه النباتات، وعظامه تفتتت... العام هو الفترة بين بداية السنة ونهايتها، فلم يُحْيَ بالضبط في نفس الشهر الذي مات فيه بل خلال العام رقم مِائَةٍ عاد إلى الحياة، فعاد إلى الحياة في شهر آخر من السنة غير الشهر الذي مات فيه.

{ثُمَّ بَعَثَهُ}، فأقامه سبحانه من موته إلى الحياة، ثم {قَالَ كَمْ لَبِثْتَ}؟ كم مرّ عليك من الزمن في حالة النوم؟ كم من الزمن بقيت فَاقِداً لوعيك؟

{قَالَ} ذلك الشخص:

{لَبِثْتُ}، فبقيت زمنا متوقفا عن الحركة الواعية ففقدت وعيي، {يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ}، نهارا وليلا كاملين، أو أقل من نهار وليل كاملين. فلنقل بأنه عند الظهر أماته سبحانه، ثم بعد مِائَةِ سنة أعاده تعالى إلى الحياة عند الصباح أو الظهر أو المغرب، فعندما استعاد حياته فهو يشعر كما نشعر نحن عندما ننام ونستفيق من جديد، فنشعر بأننا كنّا فاقدين للوعي وقد استعدنا وعينا، لَكِنْ لا نشعر بمرور الوقت، لن نعرف كم من الوقت قد مضى علينا فاقدين للوعي، فَخَمَّنَ ذلك الشخص "على أقصى تقديراته" بأنه ربما لبث نام يوما كاملا من الظهر مرورا بيوم إلى ما بعد الظهر، أو أنه نام ساعة أو ساعتين من الظهر إلى ما قبل المغرب، فهذا ما نشعر به بعد الاستيقاظ من النوم. طَبْعاً لا ندري بالضبط متى مات ومتى عاد، ضَرَبْتُ لك مثالا عن فترة الظهر لتقريب الفكرة.

{قَالَ} له سبحانه:

{بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ}، فبقيت من الزمن في حالة سكون وغياب للوعي. ليس بالضبط 12 شهرا مكررين مِائَةَ مرة، فلم تعد إلى الحياة في نفس الشهر الذي متّ فيه، بل خلال العام الْمِائَةِ الأخير استعدت حياتك. فلم يَتَخَطَّ الْمِائَةَ سنة ولم يكملها كلّها بالتمام، بل استعاد الحياة في العام مِائَةٍ في شهر قبل الشهر الذي مات.

رغم موتك لمدة مِائَةِ عام حتى تحلّل جسدك بالكامل، فعندما أحييناك مرة ثانية فأنت لا زلت تشعر بأنك نفس الشخص الذي مات. فأنت بعد إعادة إحيائك، ما زلت أنت نفسك ولست نسخة أو شَخْصاً آخر، بعد مرور مِائَةِ عام على موتك على وجه الأرض فقد تحلّل جسدك وأكلتك الحشرات والحيوانات...

{فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ}، فوجّه اهتمامك العام إلى منظر طعامك الذي كان معك للأكل منذ مِائَةِ عام، وانظر إلى شرابك، إلى الماء الذي كان معك منذ مِائَةِ عام، لم تتغير مواصفاته فلم يحمض أو يعفن أو يخمج، فقد عادا هما نفسهما بنفس المواصفات، فبقدرتي على إعادتك أنت نفسك من دون تغيير، أستطيع إرجاع الطعام والشراب إلى نفس ما كانا عليه من مِائَةِ عام، فلنقل أن قطعة الخبز كان عليها لطخة سواد وملحها زائد قليلا... بكل سهولة ترجع هي نفسها، وليس شبهها.

{وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ}، ووجّه اهتمامك العام إلى منظر حمارك، الحيوان الذي كان معك، فأيضا قد عاد إلى الحياة وهو نفسه بالضبط الحمار الذي كنت تملكه.

{وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ}، فسوف تكون عودتك إلى الحياة بعد مِائَةِ عام شَيْئاً مميزا يراه الناس غير عادي، من خلال رجوعك المميّز إلى الحياة بعد اختفائك عن الناس لِمِائَةِ عام، فسيراك الناس كدليل ملموس أنه تعالى قادر على إعادة الناس إلى الحياة هم أنفسهم مرة ثانية في يوم القيامة في الآخرة.

عندما يراك الناس وهم لا يعرفونك لَكِنَّكَ تعرف أخبار آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وبيوتهم وأملاكهم وشجرهم... عندما تلتقي بأقاربك وهم قد سمعوا باختفائك من أهلهم... فهم سيتأكدون بأنك كنت ميتا لِمِائَةِ عام، وها قد عدت إلى الحياة مرة ثانية.

{وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا}، فوجّه اهتمامك العام إلى العظام، ومن سياق الكلام تعلم أن الْإِشَارَةَ لعظام الحمار قبل أن يتشكّل، فالجملة السابقة معترضة قبل إخبارنا برؤيته للحمار يعود إلى الحياة أمام عينيه، انْظُرْ كيف نجعلها تنشز، تتميز عن محيطها، فتتميز عن التراب لتخرج منه، فيتشكل هيكل عظمي، {ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً}، ثم انظر كيف نلبس العظام لحما، ها ترى اللحم ينمو على الهيكل العظمي للحمار، وهكذا يكتمل الجسد حتى ينتهي ويعود كما كان.

{فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ}، فعندما توضّح له كيف يعود الميت هو نفسه إلى الحياة من دون أي تغير، {قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، فمن قبل رؤيتي الآن لما حصل معي ومع طعامي ومع حماري فأنا أصلا أعلم بقدرته تعالى على فعل ما يريده بأي شيء.

نلاحظ في التراث اليهودي في الكتاب المسمّى مراثي أرميا، أن "أبيملك الإثيوبي، عبد ملك، عبد الملك" قد نام قبل سبي نبوخذ نصر لبني إسرائيل واستفاق بعد سِتٍّ وَسِتِّينَ أو سَبْعِينَ سنة. لَكِنَّ القصتين لا تشابه بينهما إلا بموت شخص لمدة طويلة وعودته إلى الحياة، النص هنا يتحدث عمّن مرّ على مدينة خاوية فأماته تعالى، في تلك القصة أنه مات قبل حصول خراب المدينة واستعاد الحياة ووجد المدينة خاوية وبعد أقل من سنة عاد بنو إسرائيل إلى القرية من الأسر... إذا افترضنا أنه نفس الشخص والقرآن يصحّح المعلومات المشوهّة التي تناقلها الناس بعد تشويهها، فتصير الحادثة بعد دمجها بما ورد في كتاب مراثي أرميا كما يلي: هجم الكلدانيون على بني إسرائيل وسبوهم كعبيد إلى العراق، خوت القرية وبقي فيها القتلى، مرّ الشخص، سأل عن كيفية إعادة الأموات إلى الحياة، أماته تعالى مِائَةَ عام، عاد بنو إسرائيل من الأسر، عاد الشخص إلى الحياة. هذا الافتراض على افتراض حصول هذه الحادثة لذاك الشخص "أبيملك" بِعَيْنِهِ، لَكِنْ يوجد قصص أخرى أقل شهرة من هذه القصّة تفاصيلها أقل تشابها مع آيتنا، وهي قصص متشابهة لشخص مات مدّة طويلة وعاد إلى الحياة، فقد قيل ذلك أيضا عن آخرين من بني إسرائيل هم عزير وإرميا وحزقيل، هذا لا يجعلنا نجزم بأن أبيملك هو الشخص الذي تتحدّث عنه الآية هنا، بل ربما هي نفس القصّة حين حصل هجوم الكلدانيين... لَكِنَّ الشخص الذي مات لم ينقلوا اسمه بشكل صحيح، أو لم ينقلوا التفاصيل بشكل صحيح "كالعادة"...

على كلّ حال فالقصّة خبر إلهي مضروب لنا كمثل، هذا الخبر له جذور في التراث الديني وقد تشوّهت القصّة مثلها مثل باقي الحوادث التي يشوهّها الناس عندما ينقلونها، أسباب التشوهات عديدة، منها ضعف الذاكرة... فقدان الانتباه والتركيز مع راويها... إضافة شيء عليها من خيال الراوي عن غير قصد أو عن قصد لجذب اهتمام السامعين... على كلّ حال فمن لا يؤمن أصلا بأنه تعالى على كلّ شيء قدير فحتى لو رأى بعينيه تشكل الحياة أمامه فلن يؤمن، قصتنا هنا خبر للمؤمنين وحجّة على البقية وليس الهدف منها جعل المنكرين للبعث يؤمنون، بل هي شيء مميّز ويعتبرها شَيْئاً مميّزا من هو أصلا مؤمن به تعالى وبدينه.

بقي شيء ملفت، فعادة يقول الناس: هل مات أحد وذهب إلى الآخرة ورجع حتى نؤمن بالآخرة؟ إذا هضمت مفاهيم القرآن جيدا ستنتبه أن الآخرة تأتي في الآخر بعد انتهاء الحياة الدنيا، فالآن جنّة الآخرة ونارها ليستا مَوْجُودَتَيْنِ أصلا. ننتقل إلى سؤال آخَرَ: فهل هناك من مات ورجع حتى نؤمن بالحياة بعد الموت؟ هذا السؤال تجيب عنه آيتنا هنا.

بقي شيء آخر ننتبه له جيدا، فتحليلاتنا عن إعادة الحياة إلى المواد فهي مشابهة لمحاولتنا خلق الحياة فيها، فلنفترض أننا استطعنا تركيب الذرات لتشكّل كائنا حَيّاً، وفككناها، ثم ركّبناها من جديد بالضبط كما كانت، فهل عاد نفس الكائن إلى

الحياة أم هذه نسخة عنه؟ هذا الكلام مشابه لما تطرحه الآية هنا عن إعادة تركيب جسد الميّت. قديما قال المؤمنون إن الجسد ليس كياننا الحقيقي وإنما هو وعاء لروحنا، والروح هي كياننا الحقيقي، فأينما وضعت الروح ستحصل على الشخص صاحب الروح... وكما ترى فهذا الكلام يحلّ مشكلة إعادة تركيب المواد فلم تعد هي المهمّة لنسأل إن كانت نسخة، لأن الروح أو النفس أو الروح والنفس معا "فيها الوعي والفكر والنفسية والذكريات..." مَحْفُوظَةٌ وستعود إلى الجسد.

لَكِنْ، هل لدينا مستند قرآني صريح بهذا الكلام؟ لا. هل لدينا تلميح؟ لا. أقصى ما لدينا هو تراث ديني ضخم مشحون بهذه المعلومات التي جعلتنا نعتقد بضبابية أنها موجودة أو مستنبطة من القرآن.

آيتنا هنا بصراحة تشير لإعادة تشكيل الجسد من التراب، وغيرها الكثير من الآيات تشير لعودتنا في الآخرة من التراب، وإخراجنا من القبور والأجداث... وإنباتنا من الأرض نَبَاتاً... لن تجد ولا أي تلميح للنفس أو الروح فيما يتعلّق بإعادة الأموات، وأصلا هما في اللغة العربية ليس لهما نفس المعنى الاصطلاحي الدارج في ثقافة الناس.

يبدو لي والله العالم، أن كلمة "نسخة" في هذا الموضوع مشابهة لكلمة وجود وعدم بالمعنى الاصطلاحي الفلسفي، فالعدم مفهوم لا انطباق له على أي شيء، فلا يمكن ولا بأي شكل أن تشير إليه، فقط في ذهنك يمكنك التعامل مع هذه الكلمة التي لا واقع لها، وكلمة "وجود" لم يستعملها القرآن ولا العرب قديما على المعنى الاصطلاحي كما تعلم، لم يصف بها تعالى نفسه، هذا شيء مهم جدا لتنتبه أنه تعالى حصر كل شيء، كل ما في الدنيا بالتعبير عنها بالسماوات والأرض، هذا التعبير لا يجعله تعالى مَحْصُوراً ضمنها، ضمن ما هو موجود، على أساس أن خارج السماوات والأرض العدم. فهو تعالى مختلف وبعيد كل البعد في تكوينه عن إمكانية فهمنا ولو بالتقريب، لا يصحّ وصفه بما نصف به مخلوقاته إلا برفع الوصف إلى المستوى الإلهي بعد نزع خصائص المخلوقات من الوصف، هناك يصير عَصِيّاً علينا فهم الأمور بالضبط، نتحوّل إلى التصوّر التخيلي التقريبي...

بناء عليه، فإعادة تشكيل الكيان، كما تحدّثت الآية عن إعادة تشكيل الميّت من التراب، لا معنى للقول عنه بأنه نسخة، لأننا لا نفهم منها معنى النسخة والحقيقية طالما كلاهما متطابقان فيما يخص الوعي والذاكرة والفكر والنفسية... لن نميّز بين المفهومين "النسخة والحقيقية" ولا بين الكيانين القديم والحالي، لا علم لنا بعمق معنى المادة التي نتشكّل منها لنحدّد معنى للنسخة والحقيقة، فهناك مستوى عميق إلهي لمعرفة الأشياء ونحن بعيدون كل البعد عن ذلك المستوى.

لا معنى لكلامهم عن المعدوم أنه لا يرجع بذاته، بناء عليه قالوا إن إعادة تشكيل المادة سيكون نسخة، فأصلا لا معنى تَطْبِيقِيٌّ لكلمة معدوم وهي مُجَرَّدُ اصطلاح فكري ترفي، ومن قال بأننا فعلا ننعدم بالمعنى الفلسفي؟! فهل فعلا ننمحي تماما؟ وما معنى ذلك؟ هل لهذا الكلام مستند قرآني؟ لا. فالموت فقدان الحياة، فهو فقدان لكل أشكال الفعل والانفعال، والفناء ورد مرة واحدة في الآية 26 من سورة الرحمان، في اللغة العربية ليس الفناء مرادفا للعدم ولا شَبِيهاً له، ومعناها قريب من انتهى ولم يعد له كيان محدّد.

قد أطلت عليك هنا كثيرا وبقي كلام له علاقة بالموضوع وقد ذكرته في دراسة الآية 67 من سورة مريم {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً}.

الكلام هنا مشابه تماما للكلام حول السؤال عن نشوء الحياة، فالقرآن ذكر مراحل ولم يعرض آلية كيفية فعله تعالى للأشياء، تركها لنا مفتوحة للتفكير والتجربة في عالم قائم على سنن نسميها بالأسباب، فنبحث عن ترابط الأمور لنكتشف آلية حصولها، فالخبر القرآني عن نزول الماء ذكر مراحل كما تجد في الآية 57 من سورة الأعراف {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}، لا يخبرنا أكثر من تصميمه تعالى للبيئة الأرضية بحيث يحدث فيها نزول للمطر، أمّا آلية حصول ذلك، من تبخّر المياه وارتفاعها للأعلى لأن حرارتها أخف من برودة الهواء... وتشكّلها سحبا في طبقة يتعادل فيها الضغط الجوي بالنسبة لكثافة الغيمة... وهكذا وصولا إلى تكاثف البخار من أسباب عديدة ونزول الماء، فهذه الآلية من جهتنا نحن هكذا نفهمها بالتجربة والمراقبة وتحويلها إلى حسابات رِيَاضِيَّةٍ كيميائية فِيزْيَائِيَّةٍ...

نفس الشيء عن تشكّل الحياة الحيوانية، فالخبر القرآني عن نشأتها لا يزيد عن ذكر بعض مراحلها، عن أصل مادتها من تراب وماء، صلصال، بعدها سلالة، بعدها خلق منها زوجها، صارت السلالة بالنطفة... صار البشر... تأهّل منهم آدم(ع) للتكليف... أمّا آلية حدوث ذلك عبر النشوء والارتقاء، أو عبر إجبارية المسار للخواص الفيزيائية، وبعده الكيميائية، وبعده البيولوجية لنشوء الحياة... أو... فهذه آليات نكتشفها بالاختبار والملاحظة، لم يطرح القرآن نظرية علمية حتى يمنعنا من البحث في المجالات العلمية المختلفة، بل طرح كلاما عَقْلَانِيّاً يفهمه أي إنسان عاقل، إذا أردنا التعمّق بأكثر مما قاله القرآن فعلينا بالتفكير والفرضيات والتجربة، وللأسف فالنتائج ستتحكّم بنا لنفهم القرآن على أساسها، بينما القرآن يريدك أن تبقيه خارج الموضوع لتبقى حُرّاً فيما تفترضه وتحاول اكتشافه...

هنا في الآية والآية التالية نرى مُؤْمِنَيْنِ يسألان عن آلية حدوث الحياة، آلية رجعة الأموات إلى الحياة، بسؤال موجّه له تعالى، وليس سؤالا استنكاريا أو كفريا أو تكذيبيا أو... بل هو نفسه السؤال المسموح به والذي نطرحه نحن ونقول من بعده: استغفر الله. على أساس أنه سؤال ممنوع دينيا وينطلق من كفر! لا، نحن نؤمن بكلامه تعالى الْمُؤَيَّدِ بالآيات المبينة، فسنرجع إلى الحياة، سيحاسبنا تعالى ويجازينا، لَكِنَّ السؤال هنا عن الآلية، عن كيفية حصول ذلك عمليا، والجواب مفتوح لنا لاختباره والتفكير فيه، ولست بحاجة للاستغفار إن سألت عنه.

لمزيد من التوسّع حول هذا الموضوع راجع دراسة الآية 51 من سورة يس وما بعدها {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ}.

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{260})
نُكْمِلُ مع المثال الثاني عن تَدَخُّلٍ من غير العادة لإرجاعه تعالى الحياة للأموات.

{وَإِذْ}، في مرة من الْمَرَّاتِ، {قَالَ إِبْرَاهِيمُ}: {رَبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {أَرِنِي}، اجعل عندي صورة محدّدة، {كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى}، فاجعلني أرى كيف يحصل رجوع الأموات إلى الحياة.

{قَالَ}، له ربنا سبحانه: {أَوَلَمْ تُؤْمِنْ}؟ ألم تَصِرْ في حالة الاعتقاد بأني أحيي الأموات؟

نحن نعلم بأن الله تعالى يعلم كل شيء، ويعلم لماذا يسأله النبي(ع)، لَكِنَّهُ سبحانه يجعل النوايا تخرج من الشخص، فتذكّر كيف سأل سبحانه إبليس عندما لم يسجد، فسبحانه يعلم بأن إبليس متكبّر، لَكِنْ يريد تعالى جعل نواياه تظهر وتصير واضحة لإبليس ولمن يسمع المحاورة... هُنَا يريد سبحانه أن تخرج نوايا النبي إبراهيم(ع) لتصير واضحة للنبي(ع) ولنا نحن السَّامِعِينَ لهذه الحادثة.

{قَالَ}، النبي(ع): {بَلَى}، فأنا أنفي أني لست مُؤْمِناً وأؤكّد أني مؤمن بأنك سبحانك تحيي الموتى، {وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}، فهذا السؤال يخطر في بالي وأحتار فيه، فأفكّر فيه لأني لا أعرف كيف ترجع الحياة إلى الموتى، فأريد أن ألمس آلية حصول ذلك، فأشعر أن قلبي، أساس فكري ونفسيتي لم يستقر على فهم محدّد لهذا الشيء.

قد تشعر بأنك مُتَعَلِّمٌ جِدّاً وتعرف كيف ترجع الحياة، فتقول بأن روح الحيوان لا تفنى، وأنها باقية، وعندما نموت فإن الروح تذهب إلى السماء، وتبقى هناك حتى يحين موعد نفخها في الْأَجْسَادِ مرة ثانية... لَكِنِ انتبه، فهذه النظرية لم يقلها القرآن، إِنَّمَا هي تراث تطور بين المسلمين "وبين من سبقنا من المنتمين لدينه تعالى" مع مرور الزمن، ومن جواب الآية هنا تعلم أن هذا ليس جَوَاباً صَحِيحاً لمعرفة كيفية إعادة الحياة إلى الموتى، يُمْكِنُكَ مراجعة الآية السابقة لمزيد من التفاصيل حول الموضوع.

نَحْنُ لِحَدِّ الآن لا نملك القدرة على "فهم آلية" كيفية رجوعنا إلى الحياة بعد الممات، إِنَّمَا نؤمن بما يقوله ربنا سبحانه، بدليل أن خلق الحياة "من نبات وحيوان وحشرات..." يحصل كَثِيراً من حولنا، وفي كل لحظة.

بدليل أن الذي خلقنا أوّل مرة فهو نفسه يقول بأنه سيعيد خلقنا مرة ثانية، فمثلما خلقنا أول مرة فيمكنه بسهولة تكرار العملية... وبدليل ضخامة الكون وضخامة وتنوّع الظواهر التي فيه... فالذي خلق هذه العظمة الهائلة لن يعجز على خلقنا نحن المخلوقات القليلة الصغيرة...

إذاً، يريد النبي(ع) أن يرى كيف تحصل، فيريد رؤية الآلية وكيفية التنفيذ، ورغم ذلك ومع أنه سيراها تحدث أمامه إلَّا أنه(ع) لن يفهم بالعمق كيف عادت الحياة، تَمَاماً كما حصل مع النبي(ع) الذي تحدّثت عنه الآية السابقة، ففقط سيرى نَمُوذَجاً عن ذلك... فلنتابع:

{قَالَ} سبحانه لنبيه(ع): {فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ}، اختر أي أربعة طيور تريد، {فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ}، فاجعل الطيور في صرّة في كيس، ومن تكملة الكلام نفهم أنهم مُقَطَّعُونَ في الصرّة، {ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً}، فقسّم ووزّع أجزاء الطيور المختلطة على عدّة جبال.

يعني: قطّع الطيور الأربعة، واجعلهن في كيس تحمله معك وتوزّع الخليط من اللحم والعظم والريش... على مسافات بعيدة، فعلى هذا الجبل جزء من خليط الطيور، وعلى ذاك جزء، فبعّد المسافة كما تشاء...

{ثُمَّ ادْعُهُنَّ}، اطلب من الطيور المقطّعة المبعثرة المنشورة هنا وهناك، اطْلُبْ منهن الحضور إليك، وسوف ترى أن الطيور، {يَأْتِينَكَ سَعْياً}، فسيعودون إلى الحياة، ويأتون إليك سَعْياً قَاصِدِينَ المجيء إليك.

فلنقل إنَّ النبي(ع) وزّعهن وقال: تعالوا إليّ. فقد جعل سبحانه الأمر بإعادة الحياة يصدر من النبي(ع) عندما يناديهم: تعالوا إليّ. فيبدأ جريان عملية الإحياء للطيور، فيعودون إلى الحياة ويأتون إلى الذي صدر النداء منه.

{وَاعْلَمْ}، أيها النبي إبراهيم(ع)، {أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ}، منفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... فإذا أراد سبحانه إعادة الحياة لتلك الطيور، فبعزّته يمكنه فعل ما يشاء.

{حَكِيمٌ}، فيرى الصوابية في الأمور وقراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب فقراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول بأن أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية لَكِنْ بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فلا يفعل لغاية له سبحانه. فقرار خلق الحياة مع إمكانية خلقها مرّة ثانية في الذي فقدها، فقابلية استرجاع الميّت للحياة، لم يكن قَرَاراً عَبَثِيّاً ومن دون هدف بل عن حكمة، بِنَاءً عليه فقرار إرجاع الناس إلى الحياة في الآخرة لمجازاتهم هو الحكمة من خلقهم هكذا.

إلى هنا انتهينا من موضوع قدرته تعالى على إعادة إحياء الموتى، وتذكّر كيف دخلت إليه السورة من موضوع الأمر بقتال العدو، وانتقلت منه إلى تنبيهنا أن لا نهرب من العدو بسبب خوفنا من الموت لأن الموت والحياة بيده تعالى، ثم انتقلت إلى التنبيه أنه تعالى المسيطر الوحيد على الحياة والموت، ثم انتقلت إِلَى أنه سبحانه بكل تأكيد سيعيد إرجاعنا نحن بذاتنا إلى الحياة في يوم القيامة ليحاسبنا...

بِالنِّسْبَةِ للتوسع في موضوع آلية عودتنا إلى الحياة، فراجع ما ذكرناه في الآية السابقة، وما ذكرناه في دراسة الآية 67 من سورة مريم والآية 51 من سورة يس.

(مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ{261})
من هنا يبدأ التركيز في فقرة طويلة عن الإنفاق والمال: من النية، والتعامل، والموانع النفسية... والمحفزّات الإيمانية للإنفاق... والتعامل التجاري الصحيح... والتركيز في البداية على حجم الثواب وَتَعَلُّقِهِ بصفاء نية الإيمان، لَكِنْ قبل ذلك نتذكّر أن الأمر القرآني بالإنفاق عمومي يشمل كل أنواع الإنفاق، فالزكاة إنفاق، والصدقة المستحبة إنفاق، وحين ترى مُحْتَاجاً فواجب عليك الإنفاق عليه إن كنت مُسْتَطِيعاً حتى لو سبق ودفعت الزكاة والخمس.

{مَثَلُ}، شبه، {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ}، الذين يصرفون، {أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، في المسلك الذي يرضى تعالى عنه في مساعدة المحتاجين وعلى عموم حاجات المسلمين، {كَمَثَلِ}، كشبه، {حَبَّةٍ}، وهنا المقصود بِالْحَبَّةِ الكيان النباتي شبه الكروي الذي يتم أكله كما هو بلا غلاف عليه، كالقمح والشعير والفول... هُنَا من كلمة سنبلة تعلم أن المقصود هو حبّ من نوع النبات الذي له سنبلة فهو القمح أو الشعير... {أَنْبَتَتْ}، فنما من الحبّة، أنتجت، {سَبْعَ سَنَابِلَ}، والسنبلة اسم لحاوية نبات القمح والشعير وأشباهها، فنمت الحبة، وارتفع ساقها، ونما عليها سبع سنابل، {فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ}، في كل حاوية يوجد، {مِائَةُ حَبَّةٍ}، من القمح أو الشعير... فمن حبة واحدة نتج سَبْعُمِائَةِ حبة.

فإذا أنفقت دِرْهَماً من مالك، في مصرف يرضى عنه سبحانه، وأنت لا تريد إِلَّا مرضاته تعالى، فتصور هذا الدرهم مثل حبة القمح التي تحدثت عنها الآية، فسينتج لك منه في الآخرة سَبْعُمِائَةِ دِرْهَمٍ، لَكِنِ انْتَبِهْ، فثواب إنفاق الدرهم لن يكون في الآخرة أن يعطوك سَبْعُمِائَةِ دِرْهَمٍ، لا، فلنقل إِنَّ ثواب هذا الدرهم في الآخرة قصر مع توابعه... فسيكون لك في الآخرة سَبْعُمِائَةِ قصر، أو قصر وتوابعه بجمال وروعة مضاعفة سَبْعُمِائَةِ مرة... وكل ذلك من ثواب الدرهم. ولنقل إِنَّ ثواب هذا الدرهم أن يَمْحُوَ لك ذَنْباً ما، ففي الآخرة سَيَمْحُو سَبْعُمِائَةِ سيئة... ففي الآخرة لن تجد أَكْوَاماً من المال بسبب الصدقة التي تصدقت بها، بل ستجد أَكْوَاماً من أُمُورٍ حَسَنَةٍ.

انْتَبِهْ أن تشغل بالك في القمح وأنواعه وكمية إنتاجه! فالآية لا تتحدث عن علوم النبات، بل تضرب مَثَلاً تَشْبِيهِيّاً عن شيء صغير ينتج عنه كميّة كبيرة، فقد فهم البعض من آيتنا هنا أنه يوجد نوع قمح يعطي في السنبلة مِائَةَ حبة!

{وَاللَّهُ يُضَاعِفُ}، يزيد في نتاج الثواب أكثر من السَّبْعِمِائَةِ، {لِمَنْ يَشَاءُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة وبحكمته تعالى يقرّر أن ينال بعض الناس مضاعفة أكثر من سَبْعِمِائَةٍ... خُذْ مَثَلاً الفقير الذي يملك درهمين وأنفق دِرْهَماً منهما، فهذا نتوقّع أن يكون ثوابه مُضَاعَفاً بشكل هائل أكثر ممن يملك الْمَلَايِينَ وأنفق دِرْهَماً، ونفهم من القرآن أنه سبحانه شاء أن يضاعف أَضْعَافاً هائلة لمن أنفق في سبيله تعالى في الظروف الصعبة أكثر ممن أنفق في ظروف الرخاء والراحة، قَدْ وَرَدَ صَرَاحَةً هذا المعنى في الآية 10 من سورة الحديد "وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"، وعلى نفس المعنى الآيات 14 وما بعدها من سورة البلد "أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ".

{وَاللَّهُ وَاسِعٌ}، فليس مَحْدُوداً، هُنَا الكلام عن التوسعة في زيادة الثواب، فيمكنه بكل سهولة أن يوسّع فيضاعف الثواب.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ}، فيعلم كل شيء، وبما أن نيّتك والظروف المحيطة هي التي تحدّد قيمة الإنفاق، فالكلام عن علمه تعالى بذلك.

تذكّر أن مضاعفة شيء ما هي زيادة على كميته أو نوعيته أو قيمته على الأقل بمرة واحدة، فضعف التفاحة: تُفَّاحَتَانِ. مِنْ عموم القرآن نفهم أنه بمجرد اعتباره تعالى لعمل قمت به أنه صالح فسيعطيك عليه أَجْراً، فسيتحوّل ذلك العمل إلى ضعف قيمته على المقياس الإلهي، فالصدقة بنية صافية بتفاحة، ليس الثواب عليه تُفَّاحَتَيْنِ أو صندوق تفّاح، لا، بل على المقياس الإلهي يكون الثواب قُصُوراً وَبَسَاتِينَ... هَذَا الثواب تتم مضاعفته فيصير بنوعية أعلى أو بعدد أكبر بنوعية مختلفة... الْمَثَلُ عن التفاحة هو للتقريب فقط، فلم ترد هذه التفاصيل في القرآن لَكِنْ فَقَطْ لتقريب الفكرة ذكرتها لك، تَكْبُرُ المضاعفة للثواب كلما كبرت وكانت صافية نيّة القربى له تعالى كالحالة التي تذكرها الآية 9 من سورة الإنسان "إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا"، وسيأتيك نفس المفهوم في الآية التالية.

(الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{262})
{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ}، يدفعون يصرفون، {أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، في مسلك يرضاه تعالى، {ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ}، فلا يقومون بِإِتْبَاعِ المال الذي أنفقوه، فلا يأتي من بعد إنفاقهم: {مَنًّا}، مِنِّيَّةً تَمْنِيناً، فلا يطلبون ممن أعطوه من مالهم أن يشكرهم ويمدحهم... فلا يريدون أن يكون لهم "بالعامية: تربيح جميلة" وَمِنِّيَّةٌ على الفقير أو على الدولة الإسلامية أو على أهلهم...

ولا يتبع إنفاقهم، {أَذىً}، فلا يؤذون من أنفقوا عليه بكلامهم، فلا يُهِينُونَهُ أو يُحَقِّرُونَهُ أو يَشْتِمُونَهُ... أو يَجْعَلُونَهُ يشعر بأنهم أعلى أو أفضل منه...

فإذا كانت النية في سبيله تعالى، ولم يصدر منهم مَنٌّ ولا أَذىً، فـ**{لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ}**، فالمسؤول عنهم من مستوى إلهي حدّد لهم أَجْراً سيعطيه لهم مقابل إنفاقهم.

{وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ}، ففي يوم القيامة من الموت حيث الأجواء المرعبة، فهم لن يشعروا بأن خَطَراً أو ضَرَراً سيصيبهم، لأنهم في الأمان.

{وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}، فلن يحصل أي شيء ليس على خاطرهم ولن يشعروا بأنه حصل من قبل في الدنيا شيء لم يكن على خاطرهم، مَثَلاً التخلّي عن المال وإنفاقه على المحتاجين في الأيام الصعبة نتج عنه حرمانهم من أمور محبوبة في الدنيا، فهل في الآخرة سيحزنون على إنفاقها لأنهم لم يجدوا النتيجة التي ترضيهم؟ لا، فما سيجدونه في الآخرة سيجعلهم يفرحون أشدّ الفرح على ما أنفقوه في الدنيا.

بقي شيء، فِي تراثنا الديني اشتقاقات لبعض مشاهد يوم القيامة من القرآن، يَقُولُونَ إِنَّ المؤمن حين يرى الثواب الهائل في الآخرة سيندم ويتمنّى لو أنه جمع حسنات أكثر، وسيتمنّى لو أنه قضى عمره في كسب الحسنات... هَذَا صحيح لَكِنْ ليس للمؤمنين الذين يفتحون أعينهم في الآخرة مع البشرى بالجنّة، فهؤلاء لن يشعروا بالندم أَبَداً بَتَاتاً ولا بأي شكل، الْكَافِرُ سيندم، ومن كان "بشكل ما" مُؤْمِناً لَكِنْ حسناته قليلة جِدّاً ويتعرّض للإهانة بسبب سيئاته الكثيرة... فهذا سيخاف من النار... وَمُتَعَلِّقٌ برحمته تعالى بالشفاعة... فهذا يندم ويخاف إلى أن يفوز بالجنّة.

مَنْ يدخل الجنّة لن يشعر بأي شيء مزعج ولا بأي شكل، ولن يندم أنه لم ينفق أكثر، ولن يحزن لأنه ليس في الدرجة العالية... فما سيجده في نفسه وحوله، حتى لو كان في أخفض درجة في الجنّة، فهو سيكون سَعِيداً به ولن يرى أن الآخرين لديهم ما هو أفضل مما لديه، ولن يميّز أَبَداً بَتَاتاً أنهم أعلى منه أو سعيدون أكثر منه... هَذَا ما نفهمه من عموم القرآن بكلامه عن اجتماعات المؤمنين وشرابهم وطعامهم مع بعض، وعن اجتماع المؤمن بأهله، رَاجِعْ في ذلك دراسة الآية 21 من سورة الطور "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ".

(قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ{263})
{قَوْلٌ مَعْرُوفٌ}، كلام متعارف عليه بين الناس، وهو الكلام الحسن اللطيف العقلاني، {وَمَغْفِرَةٌ}، دعاء بأن يغفر تعالى، هما، {خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ}، مَوْصُوفَةٍ بالحسن من تقديم مساعدة لمن يحتاجها من مال أو طعام أو ثياب... {يَتْبَعُهَا أَذىً}، فيأتي بعد الصدقة كلام وتصرفات مؤذية تسبب الإهانة والمذلّة والاحتقار.

إِذَا لم ترد إعطاء الفقير لأنك تشك في أنه فقير، أو لأنك تراه قادرا على العمل والحصول على المال... أو لأنك أنت لم تكن مُرْتَاحاً ماليا حين طلب مساعدتك... فعلى كل حال لا يجب أن يصدر منك إلا قول معروف بين الناس، ككلام لا يصنّفه الناس أَنَّهُ سَيِّئٌ، فتقول له مثلا: يسّر الله تعالى أمرك... رزقك ورزقنا... أو تدعو له بالمغفرة من الله تعالى، فهذا خير من أن تعطيه مَالاً ثُمَّ تؤذيه بالكلام فتقول له: خذ هذا واغرب عن وجهي، لا تدعني أرى وجهك مرة ثانية، لو أنك لست كَسُولاً مُهْمِلاً لما احتجت للمساعدة...

الْآيَةُ لا تقول أنك يمكنك أن تنفق، أو أن لا تنفق وتقول بَدَلاً منها كلمة طيبة، لا، بل تقول: إن حصل معك، ولأي سبب كان، أنك ستنفق ولكن مع صدور كلام الأذية والإهانة، فانتبه فقد لا تنال الأجر على الصدقة إن كان الكلام المؤذي من العيار الثقيل، فقد يكون الأجر قَلِيلاً بالمقارنة مع الذنب الذي حصلت عليه بسبب الكلام المؤذي...

{وَاللَّهُ غَنِيٌّ}، فلا يحتاج صدقتكم حتى تنفقوا، فإنما تنفقون وأنتم المستفيدون من الحسنات.

{وَاللَّهُ حَلِيمٌ}، بتعبيرنا الدارج" طويل البال، فلا يستعجل، هُنَا الكلام عمّن استجاب لأمر الإنفاق ولكن أتبعه بأذى، فسبحانه لن يستعجل ويمسح الثواب عن الصدقة ويسجل سيئة على الأذى، بل سينبهنا حتى ننتبه ونراجع أنفسنا ونحسّن سلوكنا.

بِالنِّسْبَةِ لوصفه تعالى بالغني فليس تفسيرها أنه تعالى يملك كل شيء بِالتَّالِي يصير المعنى أنه سبحانه يملك ما يحتاجه، فهذا غير صحيح، فكلمة "غني" تفيد معنى الاستغناء، وهو عموم انتفاء عموم الحاجة لعموم أي سبب، إمّا لأنك لا تحتاج أَصْلاً للشيء، هَذِهِ حالته تعالى "الغني" بالنسبة لكل شيء، وحالة الملائكة بالنسبة لطعامنا... أو غني لأنك لديك ما تحتاجه هَذِهِ حالتنا حين نملك الطعام والشراب... أو غني لأنك تملك ما يمكّنك من الحصول على ما تحتاج، هَذِهِ حالتنا حين نملك المال لنشتري به ما نحتاجه. تَرَى هذا المعنى للاستغناء بشكل مباشر وواضح لأصل معنى كلمة "غني" في تعبير {... وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} كما ورد في الآية 97 من سورة آل عمران، فبوضوح يشير الوصف بالغني للاستغناء، فلا حاجة له تعالى بهم ولا بإيمانهم ولا يتضرّر منهم مهما فعلوا.

بِالنِّسْبَةِ لكلمة "خير" في استعمال القرآن فكثيرا ما نستنسب تفسيرها على معنى "أفضل"، وأحيانا يصدق هذا المعنى بالتبعية من فحوى الكلام، لَكِنَّ بعض الاستعمالات القرآنية لنفس الصياغة تريك أنه لم يقصد بكلمة خير أن تكون رَدِيفاً لكلمة أفضل، كَمِثَالٍ واضح عن ذلك ما ورد في الآية 16 من سورة العنكبوت {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، فمرادفتها بأفضل في أمثال هذه الآية سيعطيك مَعَانِيَ غير دقيقة بل وغير مقبولة إلا إذا حملت معنى الأفضل على عموم المقابلة بين الْأَسْوَإِ والأحسن، لَكِنَّ هذا ليس معناها بل هذا معنى كلمة خير، وكلمة "أفضل" في أشعار العرب قبل الإسلام مَحْصُورَةٌ بين الحسن والأحسن، فلو قلت إِنَّ الإيمان أفضل لكم فهذا قد يعني إِنَّ الكفر حسن والإيمان أحسن، لا، فالإيمان خير لكم مما يعني ضِمْناً أَنَّ الكفر سوء لكم.

لَمْ يستعمل القرآن كلمة أفضل بَتَاتاً، واستعمل التعبير بالخير وهو أوسع بالمعنى، فهو يقابل الشرّ كما في الآية 11 من سورة النور {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...}، واستعملها بمعنى ما يقابل الحسن فالآخر أحسن لَيْسَ شَرّاً، كما ورد في الآية 271 من سورة البقرة {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...}، فإبداء الصدقة ليس سُوءاً وإنما إخفاؤها أحسن، هُنَا يمكن استعمال كلمة أفضل.

يعني لا ترادف "خير" بـ "أفضل"، فهما في بعض سياق الكلام يتقاطعان تَطْبِيقِيّاً حيث يكون اللَّذَانِ تقارن بينهما كلاهما جَيِّدَيْنِ، فعندها يصدق قول خير أو أفضل، لَكِنْ حين يكون الكلام عُمُومِيّاً يشمل ما كلاهما جيدان ويشمل أَيْضاً ما أحدهما جيد والآخر سَيِّئٌ، ويشمل الوصف مُطْلَقاً بمقارنة الحسن مع مطلق الوصف بالحسن، فحتى لو لم يكن هناك طرف آخر للمقارنة والمقارنة مع مطلق الوصف، كوصفه تعالى بخير الرازقين وخير الحاكمين... فهو تعالى بالمقارنة مع وصف الحسن مطلقا كرازق وحاكم فهو خير موصوف بذلك، فكلمة أفضل ليست وَصْفاً صَحِيحاً لهذه الحالات وكلمة خير صحيحة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ{ 264})

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بدينه تعالى، {لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ}، فلا تجعلوا ما تقدمونه للمحتاجين بَاطِلاً فَاسِداً غير سليم، فتصير الصدقة بلا مفعول، فتصير بلا أجر منه تعالى، فلا تجعلوها معطّلة، {بِالْمَنِّ}، الْمِنِّيَّةِ، بِنِيَّةِ أن يشكركم ويعترف لكم بالجميل من أنفقتم عليه، فلا تكن صدقة تنبع من نفسية تربيح الجميل، ولا تعطلوها، {بِالْأَذَى}، بالشتم وَالْإِهَانَةِ والاحتقار والاستعلاء لمن أنفقتم عليه.

فلا تكونوا، {كَالَّذِي يُنْفِقُ}، يصرف {مَالَهُ}، {رِئَاءَ النَّاسِ}، حتى يراه الناس، حتى يصير عندهم صورة محدّدة عنه أنه يصرف، فيقولون عنه إِنَّهُ فاعل خير ومحسن وقلبه طيب... {وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ}، وهو لا يعتقد به تعالى وعمليا فهو لا يعتقد أنه ينفق في سبيل الله تعالى بل ينفق حتى يصير له مُعْجِبُونَ من الناس ويتباهى أمامهم... ولا يؤمن بـ {الْيَوْمِ الْآخِرِ}، بالزمن الذي سيأتي في الآخر بعد انتهاء زمن الدنيا، وعمليا فهو لا يؤمن بآخرة سنعود فيها إلى الحياة

لنتحاسب ونحصل على ثواب الإنفاق. فلو كان يؤمن بالآخرة لكان أنفق حتى يحصل على الأجر ولكنه أنفق حتى يمدحه الناس.

فهذا المرائي غير المؤمن بالله تعالى ولا بالآخرة، {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ}، فشبهه كشبه، {صَفْوَانٍ}، وهو الحجر الأملس الذي ليس عليه شقوق أو فجوات، {عَلَيْهِ}، على الحجر الصفوان، {تُرَابٌ}، فإذا حاولت أن تزرع في هذا التراب الذي على صخرة ملساء فماذا يحصل؟

{فَأَصَابَهُ}، فلامس الطبقة الترابية التي على الحجر، {وَابِلٌ}، كمية كبيرة من المطر، {فَتَرَكَهُ}، فترك الوابل الحجر الذي كان عليه التراب، {صَلْداً}، صُلْباً، فقد أزاح المطر التراب وظهر وجه الحجر الصلب.

هؤلاء المنفقون أموالهم رئاء الناس وهم لا يؤمنون بالله تعالى ولا بالحساب في الآخرة، {لَا يَقْدِرُونَ}، لا يستطيعون، {عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا}، فلا يَحْصُلُونَ ولا على أي شيء كنتاج من عملهم بالزراعة، وبتذكرنا للآية التي شبّهت الحسنات الناتجة عن الصدقة بنية صحيحة كحبة أنبتت سبع سنابل، نعرف أن المثال بالتراب هنا يشير لأرضية لزراعة القمحة "الصدقة"، وكان من المفروض أن تنمو وينتج عنها سنابل، لَكِنْ هُنَا التراب موجود والمطر موجود، لَكِنْ لم تثبت البذرة حتى تنمو، لأن المطر أزال التراب عن الصخرة، فهم لا يستطيعون تحصيل أي نتيجة مما كسبوا.

فأنت حين تعمل وقبل حصولك على الإنتاج، فإنك في حالة: تَكَسُّبٍ. في حالة العمل للحصول على نتاج مما تعمله، فحين تزرع وتعتني بالزرع فأنت تتكسّب، لَكِنْ إذا لم ينتج ثمار من الزرع، فأنت لم تقدر أن تحصل على شيء من التكسّب.

بعبارة أبسط فلو قرّرت الزراعة لتكسب الإنتاج منها، فهل ستزرع حبة قمح على تراب قليل على سطح صخرة؟ فمعلوم لك أن نزول الماء سيزيل التراب وسيبقى الوجه الصلب للصخرة، والصدقة التي من المفروض أن ينتج عنها أجر منه تعالى، فإذا فعلتها مع مُرَاءٍ، فالرياء يبطل الْإِنْتَاجَ من الصدقة فلن تحصل على الأجر منه تعالى.

الْأَسْهَلُ من ذلك أن نفهمها هكذا: ماذا كسبوا من تلك الصدقة؟ الجواب: كسبوا لا شيء لأنهم مراؤون يريدون أن يراهم الناس يتصدقون وَيَمْدَحُوهُمْ وهم لا يؤمنون بالأجر منه تعالى على الصدقة.

{وَاللَّهُ} سبحانه {لَا يَهْدِي}، لا يضع على الشيء الموصل للغاية الصحيحة، {الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}، الجماعة الْمُتَفَاعِلَةَ مع كلامه تعالى بإنكاره، الْمُنْكِرِينَ لألوهيته ولآخرته تعالى، فالمؤمن عنده رغبة الحصول على الحسنات، حتى لو كانت رغبة ضعيفة، فيقرأ آيات ربّه سبحانه، فيهتدي ويعمل على أن تكون نيّته صافية، أمّا الكافر المصرّ على الكفر فلا يوجد طريقة لهدايته إلا بالتدخل الإلهي لتغيير عقله، وهذا شيء لن يفعله سبحانه، فلن يهديه بالقوة، ولن ينير قلبه بل سيتركه لشهواته وللشياطين.

الْآيَةُ تنبّه المؤمنين من فقدان الأجر على الصدقة إن آذوا أو منّنوا الذي تصدقوا عليه، وتنبههم أَنَّ هذه العقلية والنفسية مشابهة للمرائي الذي لا يؤمن به تعالى ولا بالآخرة التي فيها سيحصل على الأجر منه، فمن المفروض بهم كمؤمنين أنهم بالصدقة يريدون الأجر منه تعالى، فهم ليسوا كالمرائي الكافر، وحين يُمَنِّنُونَ وَيُؤْذُونَ فما الفرق بينهم وبين المرائي الكافر؟ ففي هذه الحالة كلاهما لا يطلبان الأجر منه تعالى، فِعْلاً سبحانه يخبرنا أنه لا يعطي أَجْراً لهذه الحالات.

هَلْ على حالة المؤمن المرائي أجر؟ فتصدّق ويريد منه تعالى الأجر ويريد أن يمدحه الناس، فهل سيؤجره تعالى؟ من عموم مفاهيم القرآن عن أنه تعالى لا يظلم ولو مقدار ذرة نفهم أن الأجر على قدر النية الصالحة ولو كانت على قدر ذرة، فالأجر يكون على قدر ما نواه قربة له تعالى، فلنقل إِنَّهُ تصدّق مُرَائِياً وطالبا للأجر منه تعالى بِمِائَةِ درهم، ففكره ومشاعره فيها نسبة ميل ورغبة لمدح الناس له، ونسبة لطلب الأجر منه تعالى، ولنقل إِنَّ الناس مدحوه، وشعر بالفرح والارتياح من ذلك، فهل أصابه الشعور بالفرح والارتياح بنفس النسبة حين فكّر أَنَّهُ تعالى سيعطيه الأجر على الصدقة؟ ومن نسبة فرحه وارتياحه نعرف كم له من الأجر عنده تعالى، وبسبب الْمُرَاءَاةِ فحتما لن يكون الأجر منه تعالى على الصدقة بِمِائَةِ درهم، وقد يكون أَجْراً على درهم واحد بالرغم من إنفاقه مِائَةِ درهم، وقد يكون الأجر صِفْراً إن لم يشعر بأي شيء تِجَاهَهُ تعالى حين تصدّق.

(وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {265})

{وَمَثَلُ}، وَشِبْهُ، {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ}، يصرفون يعطون، {أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ}، فيطلبون وَيُرِيدُونَ أن يقبل سبحانه عمل إنفاقهم بمحبّة، فهم لا ينفقون حتى يرضى الناس عنهم، وينفقون، {تَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ}، فينفقون عن إيمان ثابت من أنفسهم بالله تعالى وبآخرته، فهؤلاء، {كَمَثَلِ}، كشبه:

{جَنَّةٍ}، مكان يوصف بروعة ما فيه من مَنَاظِرَ طَبِيعِيَّةٍ خضراء وبستان وحدائق... {بِرَبْوَةٍ}، بأرض صالحة لتربية النبات، وكلمة ربوة روابي مستعملة لوصف المناطق السهلية الخضراء المائلة إلى وجود مرتفعات ومنخفضات فيها. {أَصَابَهَا}، أصاب الجنة التي بربوة، {وَابِلٌ}، كمية كبيرة من المطر، فشربت التربة بغزارة، {فَآتَتْ أُكُلَهَا}، فأنتجت ما هو صالح للأكل، {ضِعْفَيْنِ}، مرتين زيادة عن إِنْتَاجِهَا العادي، فلنقل إنَّ الشجرة كانت تثمر 20 كيلو تفاح، فأثمرت أربعين لأنها شربت ماء بكمية كبيرة ومناسبة لها، فهذا ضعف واحد، والآية تضرب المثل بالضعفين، مما يعني أنها أنتجت 60 كيلو تفاح.

{فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا}، فلم يصب تلك الجنة، {وَابِلٌ}، كمية كبيرة من المطر، فلنقل أصابها، {طَلٌّ}، وهو المطر الخفيف، يعني ستعطي إِنْتَاجاً عَادِيّاً، لَكِنْ سينتج عنها شيء.

نتذكّر الآية التي تحدثت عن نتاج الصدقة كأنه بذرة لحبة قمح أَنْتَجَتْ سبعمئة حبة، وأنّه تعالى يضاعف الانتاج لمن يشاء، فهنا نفس الشَّيْءِ، فبحسب صفاء نيّة المنفق للمال، وبحسب الظروف المالية والاجتماعية والأمنية... تَتَحَدَّدُ كمية الأجر، فدرهم صدقة في أيام صعبة مَالِيّاً على الناس، قيمته أعلى من درهم صدقة في أيام الرخاء، فالدرهم الأول مثل الجنة التي أصابها وابل وَأَنْتَجَتْ ضعفين، والدرهم الثاني مثل الجنة التي أصابها مطر خفيف فأنتجت لَكِنْ بشكل عادي.

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}، فصورة أعمالكم أيها الناس يدركها تعالى ويعي معناها، لَيْسَ مثل كاميرا المراقبة التي تسجّل ولا تفهم ما يجري. فيعلم سبحانه كم كانت نيّتك صافية حين أنفقت، ويعلم بالظروف الصعبة حين أنفقت... وعلى هَذِهِ البصيرة الربانية يتم تحديد كمية الأجر التي ستحصل عليها.

(أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ{266})

{أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ}، هل يرغب أحدكم ويكون على خاطره، {أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ}، مكان يوصف بروعة ما فيه، {مِنْ نَخِيلٍ}، من الشجر الذي ينتج البلح والتمر والرطب، وَمِنْ، {أَعْنَابٍ}، وهي النباتات التي تنتج العنب، {تَجْرِي}، تسير، {مِنْ تَحْتِهَا}، من تحت تلك الأشجار والعرائش، فسواقي الماء جارية بين أشجار الجنة، التي، {لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ}، فكلّها تثمر وتنتج، ففيها أنواع عديدة من النباتات الناجحة التي كلّها تنتج بشكل جيد، ومن تحتها الأنهار فتشرب المزروعات حتى ترتوي.

بَعْدَ ذلك، {أَصَابَ}، صاحب الجنّة، {الْكِبَرُ}، فصار مُسِنّاً لا يقدر على العناية بجنته، كَانَ {لَهُ ذُرِّيَّةٌ}، وهم الذين انفصلوا عنه بولادتهم منه، فله أولاد، {ضُعَفَاءُ}، جَسَدِيّاً أو بالخبرة الزراعية، فليس لديهم القدرة على الاعتناء بالجنّة، يعني صاحب الجنّة لديه أولاد هو مسؤول عنهم لأنهم ضعفاء، صَارَتْ قوّته ضعيفة، لَدَيْهِ همّ تأمين الذريّة الضعفاء، وَلَدَيْهِ همّ تأمين نفسه، هَا قد صار كَبِيراً في السنّ ولم يعد قَادِراً على العناية بالجنّة، فلم يعد يحصل على نتاج منها، ولا أولاده لديهم القدرة على العناية بها...

{فَأَصَابَهَا}، فأصاب الجنّة، {إِعْصَارٌ}، وهو الهواء الشديد، {فِيهِ نَارٌ}، فاشتعلت الجنة أو انتقلت النار من مكان آخر وتزامن ذلك مع هواء قوي أجّج النار، {فَاحْتَرَقَتْ}، ذَهَبَ كل التعب والعناية.

مَاذَا يمكن لصاحب الجنة أن يفعل؟ لا شيء. فهو كبير في السن وغير قادر على العمل، لَدَيْهِ أولاد ضعفاء جَسَدِيّاً أو بالخبرة الزراعية، فلا يوجد إمكانية لإعادة زرع وغرس بستان جديد، فمن أين سيعيش وقد احترق مورد رزقه؟

هَلْ تودّ فهل ترغب بمحبّة أن تكون في مكان هذا الشخص؟

مَنْ يملك المال في الدنيا ولا ينفقه في سبيله تعالى "من دون منّ أو أذى"، أو ينفق المال لَكِنَّهُ غير مؤمن بالله تعالى وبآخرته، فهو مثل صاحب الجنّة التي لن يتمكّن بعد الآن من بناء واحدة أخرى، ولا ذريته ستتمكّن من إقامتها لتصرف عليه من بعدما كبر بالعمر وصار ضَعِيفاً وخربت الجنّة! هَلْ تودّ أن تصل في عالم الآخرة إلى مرحلة ترى فيها أموالك مثل الجنّة التي احترقت! هَلْ تريد أن لا تنفق مالك لتكسب الأجر منه تعالى وتصل إلى هذه النتيجة؟ هَلْ تريد أن تكون نهايتك هكذا؟

{كَذَلِكَ}، بهذا المثل، {يُبَيِّنُ}، يوضّح، {اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ}، الأمور المميزة بمستواها الإلهي، فهذا الكلام الإلهي الْمُمَيَّزُ التمثيلي عن كسب الأجر أو فقدانه أو الحزن من الإنفاق بطريقة سيئة أو من ترك الإنفاق... وَتَشْبِيهُهُ بمضاعفة نتاج الزرع والزرع على صلد... وَاحْتِرَاقُ البستان... {لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ}، فمن المتوقّع وَمِنَ المفروض أن يتحرك فكركم من بعد سماعكم لهذا الكلام الْمُمَيَّزِ، فتفكّروا بالإنفاق كما أمركم تعالى حتى تحصلوا على الثواب وَتَنْتَبِهُوا من أن تكون آخرتكم عاطلة.

لَاحِظْ كيف صوّرت الآية الإعصار بأنه يحمل النار، فكما نرى حين تحترق الغابات، فإن تيّار الهواء يحمل النار ويقويها ويجعلها عنيفة، فكيف إذا كان الوضع سَيِّئاً جِدّاً! فكيف إذا كان الهواء إِعْصَاراً! فالآية تشبّه الأمر بشكل عنيف، لأن ما سيحصل في يوم القيامة هو فِعْلاً عنيف، فتصور وصولك إلى هناك ووقوفك في بقعة كان يمكن أن تكون مكوّمة فيها الحسنات الناتجة عن إنفاق المال في سبيل الله تعالى، فإذا بك تقف في بقعة محروقة لا شيء فيها!

نَنْتَبِهُ لشيء مهم تشير له الآية، فنحن نعمل حسابنا لـ: "تقاعدنا". فعندما نكبر في العمر، ولا نَعُودُ قادرين على العمل، فإننا نريد مَرْدُوداً يؤمن لنا المعيشة، هُنَا الآية هكذا تصور الفكرة، فتسألنا: هل تريد أن تصل إلى عمر تفقد فيه القدرة على الإنتاج، مع انقطاع الأمل من ذريتك أن تصرف عليك، وأن تحترق أملاكك، فتحترق شركتك أو مخزنك أو باصك أو محلّك التجاري...! فالتقاعد الحقيقي هو عالم الآخرة، حيث لا يوجد أي إمكانية للإنتاج هناك، فهنا العمل وهناك فقط الحصاد، فهل تريد أن تصل إلى الآخرة ولا شيء معك! وصار مَعْلُوماً لك أن الصدقة في سبيله تعالى بلا منّ ولا أذى عليه في الْآخِرَةِ الخالدة أجر مضاعف بل وبأضعاف...

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ{267})
هنا الآية ستتحدث عن نوعية الإنفاق والنفسية للمنفق من زاوية أخرى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم اعتقدوا والتزموا بالدين الإلهي وبالآخرة، {أَنْفِقُوا}، اصرفوا ادفعوا، {مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ}، من الذي حصلتم عليه كنتاج من أعمالكم وكان موصوفا بأنه جَيِّدٌ مَحْبُوبٌ، فلا تنفقوا من الأشياء السيئة التالفة الخربة الرديئة... ولا من النصب والاحتيال والسرقة والغشّ... وأنفقوا من طيبات، {مِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ}، من الذي أخرجه تعالى لكم من الأرض من نتاج النبات وثمارها، فأنتم مجرد واسطة خير لمساعدة المحتاجين لأن قدرتكم على الإنتاج وكل ما يتعلّق به والبيئة المنتجة التي تعيشون فيها... فكلّها منه تعالى.

{وَلَا تَيَمَّمُوا}، فلا يكن مقصدكم الإنفاق من، {الْخَبِيثَ}، الشيء الموصوف بأنه سَيِّئٌ مَكْرُوهٌ، فتختاروا الرديء العفن المضروب من الفاكهة أو الخضار أو الحبوب، والأشياء المكسورة الخربة، فلا تيمموا فتقصدوا في نيتكم وعملكم أن تنفقوا من النوعية الفاسدة الخربة.

الأشياء التي تنفقونها إذا كانت خبيثة فماذا لو أنفقها أحد ما عليكم؟ فهل كنتم ستأخذونها وأنتم راضون عنها؟ فَلْنَرَ:

{وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ}، فهذه الأشياء التي ستنفقونها، لو أنها جرى تقديمها لكم، وأخذتموها فلن تأخذوها، {إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ}، فإذا كنتم مضطرين لأخذه فسوف تغمضون أعينكم عن خبثه وَتَأْخُذُونَهُ لأنكم مضطرون، والعرب من هذه الكلمة يستعملون اشْتِقَاقاً يُعَبِّرُ عن "الإغماض" في الشيء، أي فيه عيوب تسكت عنها.

فقيسوا ما تقدمونه على أنفسكم، فهل تقبلون به أنتم لو قدمه الآخرون لكم؟ فلماذا تقدمون أَشْيَاءَ تعرفون أن من سيأخذها سيغمض فيها، فسيرى عيوبها وسوئها وخبثها! وإن كان مُضْطَرّاً فسيأخذها ولن يقول لكم أي شيء.

{وَاعْلَمُوا} أيها الناس {أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ}، لا يحتاج إليكم ولا لأي أحد ولا لصدقتكم، فعندما يأمركم أن تختاروا النوعية الجيدة لتنفقوا منها، فهذا لا يعني أنه هو سبحانه سيأخذها ويحتاج إليها، لا.

والله، {حَمِيدٌ}، فأعماله سبحانه كلها حميدة كلها موصوفة بأنها جيّدة، فَقِيَاساً مع عمله الحميد تعالى حين رزقنا من الطيبات فعلينا نحن أن يكون إنفاقنا حَمِيداً.

بِالنِّسْبَةِ لوصفه تعالى بالغني فليس تفسيرها أنه تعالى يملك كل شيء بِالتَّالِي يصير المعنى أنه سبحانه يملك ما يحتاجه، فهذا غير صحيح، فكلمة "غني" تفيد معنى الاستغناء، وهو عموم انتفاء عموم الحاجة لعموم أي سبب، إمّا لأنك لا تحتاج أَصْلاً للشيء، هَذِهِ حالته تعالى "الغني" بالنسبة لكل شيء، وحالة الملائكة بالنسبة لطعامنا... أو غني لأنك لديك ما تحتاجه هَذِهِ حالتنا حين نملك الطعام والشراب... أو غني لأنك تملك ما يمكّنك من الحصول على ما تحتاج، هَذِهِ حالتنا حين نملك المال لنشتري به ما نحتاجه. تَرَى هذا المعنى للاستغناء بشكل مباشر وواضح لأصل معنى كلمة "غني" في تعبير {... وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} كما ورد في الآية 97 من سورة آل عمران، فبوضوح يشير الوصف بالغني للاستغناء، فلا حاجة له تعالى بهم ولا بإيمانهم ولا يتضرّر منهم مهما فعلوا.

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ{268})
{الشَّيْطَانُ}، الذي يقوم بأعمال الضلال لنفسه وللآخرين، وهو الخبيث إبليس وأشباهه الخبثاء من الجنّ والإنس، {يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ}، فيوسوس في عقولكم أنكم إذا أنفقتم سَتَصِيرُونَ فقراء وتنقصكم الأشياء التي تحتاجونها، وهكذا لن تنفّذوا أمره تعالى بالإنفاق.

الشَّيْطَانُ، {يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ}، بالقيام بأعمال جنسية مُحَرَّمَةٍ.

{وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ}، فإذا أطعتموه تعالى وطلبتم منه المغفرة فسيتجاوز عن سيئاتكم فلن يحاسبكم عليها.

ويعدكم سبحانه، {فَضْلاً}، فسيمنحكم أُموراً وأشياء جيدة من دون أن تكون فَرْضاً وَاجِباً عليه تعالى، فيزيد ويضاعف حسناتكم، ويمنحكم حياة خالدة في الجنة... وهذا فضل منه تعالى وليس فَرْضاً وَاجِباً عليه سبحانه.

{وَاللَّهُ وَاسِعٌ}، غير محدود، سواء في نفسه فهو سبحانه غير محدود، أو سواء في عطائه فلا يوجد له سبحانه حدود، فعندما يقول بأنه سيعطينا فَضْلاً منه، فلا يمكننا تصور ما سنحصل عليه، لأنه فوق قدرتنا على التصور، لأن المعطي واسع القدرة، واسع العطية.

والله، {عَلِيمٌ}، فيعلم كلّ شيء، فسبحانه إلهك خالقك يعلم ما يسعدك وسيجعلك سَعِيداً في الآخرة.

بِالْمُقَارَنَةِ بين وعد الشيطان لنا بالفقر إذا أنفقنا، وبين وعد ربنا "الواسع" بالأجر في الآخرة، فأي وعد سنصدّق؟

إذا خطر ببالك أَنَّ من يصرف من ماله فمن البديهي أن ماله سينقص، ولكن السؤال: هل سيصير فَقِيراً؟! الْآيَةُ تنبهه أَنَّ من يوسوس لك بهذه الفكرة هو الشيطان، ولا يريد مصلحتك، بدليل: أَنَّ الله تعالى يأمرك بكل الأمور الطيبة، أمّا الشيطان فيأمرك بالفاحشة، فهل تتوقع خَيْراً ممن يأمرك بالفحشاء التي من الواضح سُوءُهَا وَخُبْثُهَا وَفَسَادُهَا! هَذِهِ الصورة في بالك عن فقرك بسبب فقدك للمال حين تنفق منه، فهل أَصْلاً أمرك تعالى بالإنفاق من مالك لدرجة تصير معها أنت فَقِيراً! لا، وهكذا تنتبه من أمر الشيطان لك بالفحشاء أنه وبكل وضوح يتلاعب بك، فيريك السوء حَسَناً، والحسن سَيِّئاً، فيريك الفحش مَرْغُوباً ويريك أن الإنفاق سيسبب لك الفقر.

كَلَامُ الآية عن نفسية وعقلية الذي لا ينفق لأنه يخاف من الفقر، بِالتَّالِي فما سيتصدّق به سيكنزه حتى يستعين به في وقت الشدّة، وهذا شيء تراه في الناس، فترى متوسطي الحال يكنزون مبالغ صغيرة "بالكاد تشتري سيارة" ويشعرون بالأمان بسببها، وترى الأغنى منهم يكنزون مبالغ تشتري شقّة أو شُقَقاً سكنية، وترى الأثرياء لا يشعرون بالأمان حتى من بعد تكديسهم للملايين، وترى الأشدّ ثَرَاءً يكدسون المليارات. وأصحاب المليارات قد يتصدقون بمليار، وهذا مبلغ ضخم، ولكن كم بقي معهم؟ ولماذا أبقوا معهم هذه الكمية الضخمة من المال؟

معلوم لك أنه تعالى لا يأمرنا بإنفاق كل ما معنا، ولا يأمرنا بالإنفاق إلا إذا كنا نحن لن نحتاج للمساعدة من بعد الإنفاق، وهذا توصيف لحالة الغني ولكن ننتبه جَيِّداً فليس مفهوم الغنى الذي تحدّث عنه تعالى مُشَابِهاً لمعيار الناس للغني، أَصْلاً سبحانه لم يستعمل تعابير كهذه، فلم يقل أنك إن صرت غَنِيّاً فيجب عليك أن تتصدّق أو تزكّي، ولكن المفهوم القرآني يقول بأنك إذا كنت لن تحتاج للمساعدة إذا تصدّقت، وكان هناك من يحتاج للمساعدة، فتصدّق عليه. ونحن وضعنا مَعَايِيرَ حاولنا فيها تطبيق هذا الكلام الإلهي، فقلنا إنَّ الغني هو الذي يملك ما يكفيه كمصروف معيشة لمدة سنة، وللأسف ثبت عندنا هذا المعيار وانتشر بشكل سَيِّئٍ، فترى الناس يقولون: أنا لست غَنِيّاً ولست في الأمان المالي... وفيما بعد يشتري شُقَقاً ويؤجرّها! أو يسافر لأيام في مرحلة استجمام تكفي مصروف سنة لعائلة فقيرة! أو تعلم أنه كدّس في البنوك مَالاً يكفي لشراء عمارة!

لست أعارض مراكمة الناس للمال حتى يستثمروها في مشاريع إنتاجية، فهذا سيؤمن تَوْظِيفاً بِالتَّالِي ازْدِهَاراً عَامّاً للاقتصاد... ولست مُوَافِقاً للذي أحواله مقبولة اقْتِصَادِيّاً فيعيش بكرامته ومع بعض الكماليات، ويطالب الأثرياء بمساعدته حتى يترفّه، قُرْآنِيّاً لا هذا مقبول ولا ذلك مقبول، فصاحب المال أحقّ من الآخرين بالترفّه به، والذي يحتاج للمساعدة ليعيش يجب على القادر مساعدته.

لَا يوجد قُرْآنِيّاً قاعدة اقتصادية واحدة لكل الحالات ولكل الأزمنة والأمكنة، فلا يوجد أمر إلهي بتوزيع كل ما في بيت مال المسلمين، ولا بإبقاء احتياط، بل يوجد عناوين أساسية لإنفاق الصدقات على مورد كذا وكذا... ولا يوجد تحديد لنسبة الزكاة "جباية الضريبة"... ولكن يوجد أساس واحد: سيتحاسب الجميع إن كان في زمانهم من يحتاج للمساعدة ليأكل أو يلبس أو يتداوى... وهم يستطيعون مُسَاعَدَةً ولم يساعدوه. وسيتحاسب الْمَسْؤُولُونَ ومن نصّبهم ودعمهم وانتخبهم... إن كان هناك شيء يحتاجه المسلمون كالطرقات والماء والكهرباء... ولم يُؤَمِّنْهُ لأنه فاسد أو غير جدير بمنصبه.

كَمَا ترى فكلام الآية القصير بالخوف من الفقر، هو عنوان لكلام طويل عريض بسبب تشعباته وَارْتِبَاطَاتِهِ...

(يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ{269})
الله، {يُؤْتِي} يعطي يوصّل، {الْحِكْمَةَ}، رؤية صوابية الأمور، الطريقة السليمة بالتفكير والتصرف، {مَنْ يَشَاءُ}، أَمَامَهُ تعالى خيارات عديدة وقد صمّم سبحانه عقولنا ونفسيتنا بحيث تجعل المؤمن يرى الفاحشة سيئة، وتجعله يرى أن الشيطان لا يصدر عنه أي خير لنا، فقد شاء سبحانه للمؤمن أن يكون حَكِيماً، فلا يصدّق وعد الشيطان بالفقر، بل ينفق، وهذه هي الحكمة المتعلقة بخصوص الإنفاق.

{وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ}، فمن يعطيه سبحانه رؤية الأمور بصوابية، {فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً}، فالتصرف السليم النابع عن تفكير سليم هو خير ما بعده خير، لأن الحكيم يحصل على رضا ربه سبحانه كيفما تحرك... مَعْلُومٌ أَنَّ حصاد الحسنات عند الحكيم يحصل في كل ثانية بلا توقف، فأي خير أكثر من هذا؟

{وَمَا يَذَّكَّرُ}، لَا يَتَذَكَّرُ، لا يستحضر في فكره وعمله هذا الكلام عن الأمر الإلهي بالإنفاق وعن الشيطان وكذبه وعن الحكمة، {إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}، المنسوب لهم اللُّبُّ، الذين عندهم شيء له قيمة في داخلهم، فيفكرون ويفهمون الأمور بطريقة صحيحة. حَتَّى عندما يمدح سبحانه الشخص الذي أنفق ويعتبره حَكِيماً، فإن العابث لن يفهم هذا الكلام، وسيعتبره صَفْصَفَةَ كلام! فأين الحكمة في إعطاء الآخرين أموالي بدل أن أتمتّع أنا بها... أمّا أصحاب اللُّبِّ، الذين ليسوا

فارغين من الداخل فلديهم فكر وفهم، فهؤلاء يفهمون أهمية هذا المدح الإلهي للحكمة والسعادة الخالدة لمن أنفق في الآخرة.

يمكن اشتقاق كلام كثير من الآيات هنا، حِينَ تقدم مساعدة للمحتاج فقد انتشلته من الفقر، ولو تكافل كل المجتمع على ذلك لما بقي فقير، حَالَةُ التكافل التَّضَامُنِيّ ستطالك أنت إن انقلبت عليك الظروف وصرت مُحْتَاجاً للمساعدة، أو تطال أولادك أو أحفادك... فمن لديه لُبٌّ يصل بتفكيره إلى أبعد من حسابات خسارة المال بالإنفاق منه، فسيرى كم هي المصلحة والفائدة للجميع في الدنيا، ومصلحة لمن أنفق أكثر أهمية في الآخرة.

(وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ {270}
{وَمَا أَنْفَقْتُمْ}، مَا صرفتم أو دفعتم، {مِنْ نَفَقَةٍ}، وهي الشيء الذي تدفعه لمساعدة الآخرين الذين هم بحاجة للمساعدة أو صرفته لمصلحة عموم المسلمين، من صدقة واجبة على من يحتاج المساعدة في شيء ضروري، أو صدقة مستحبّة على من يحتاج شَيْئاً لَيْسَ ضَرُورِيّاً، أو زكاة أو خمس، {أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ}، فلسبب ما أوجبتم على أنفسكم شَيْئاً لِتُقَدِّمُوهُ قربة لله تعالى، من شيء مالي أو شيء له إنتاج، فتقول مَثَلاً: نذرت كل أو بعض إِنْتَاجِ هذا الموسم لله تعالى. أَنْفَقْتَهُ على الفقراء... {فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ}، فهذا الإنفاق لا يذهب هَبَاءً، بل يتسجّل عند ربنا سبحانه.

بِالنَّذْرِ يمكنك جعل شيء ما وَاجِباً على نفسك إذا تحققت أمنيتك... لَا يحق لك التراجع عن تنفيذ ما نذرته، الْكَلَامُ هنا عن نذر يكون عن إنفاق شيء يحتاجه الناس، لَيْسَ الكلام هنا عن نذر صيام مستحب أو الحجّ المستحب "المندوب النافلة"...

{وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ}، فالذين لم يكونوا منصفين ولا عادلين، فلم يكن معهم حقّ حين لم ينفقوا على المحتاجين وهم قادرون على ذلك، وَظُلْماً لم يفوا بنذرهم... فهؤلاء ليس لهم أحد يحقّق لهم ما يريدونه، فوحده تعالى القادر على نصرهم هَا يخبرك تعالى أنه لن ينصرهم، فلن يعينهم على تحقيق ما يرغبون به، وَعَمَلِيّاً فالكلام عن يوم القيامة حيث سيتم الحكم عليهم بالعذاب، لَنْ يجدوا من ينصرهم للخلاص من العذاب لأنهم لم ينفقوا ولم يفوا بنذرهم.

كما تلاحظ فسياق الكلام فيه تحفيز على النذر بما تكون نتيجته إِنْفَاقاً على المحتاجين، كنذر إطعامهم أو توزيع مَالٍ أو ثِيَابٍ... عليهم.

(إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ {271})
{إِنْ تُبْدُوا}، إِنْ تُظْهِرُوا أَوْ تُعْلِنُوا، {الصَّدَقَاتِ}، الصَّدَقَةُ هي عموم أي شيء له قيمة مالية تقدمها لا لغاية تجارية أو ربحية من الناس، دِينِيّاً فهي الإنفاق فيما يرضى عنه تعالى، فَالْمُسَاعَدَاتُ التي تُقَدِّمُونَهَا للمحتاجين "ولعموم حاجات المسلمين"، فَيَعْرِفُ الناس أنكم تصدّقتم، {فَنِعِمَّا هِيَ}، الصَّدَقَةُ جيدة وتستحق أن تُعْلِنَ أنك تفعل الصدقة، فأنت تقوم بعمل حسن ولا داعي للخجل منه، فهو نعم العمل.

{وَإِنْ تُخْفُوهَا}، فَتَتَصَدَّقُوا بحيث لا يعلم الآخرون بأنكم تصدّقتم، {وَتُؤْتُوهَا}، فَتَجْعَلُوهَا عند، {الْفُقَرَاءَ}، للذين ينقصهم أشياء يحتاجونها ولا يمكنهم تأمينها، {فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}، الصَّدَقَةُ في الخفاء موصوفة بأنها جيدة لك وللفقير، الْفَقِيرُ لن يشعر بالمذلة والضعف أمام بقية الناس لأنهم لم يعلموا أنك تصدّقت عليه، وأنت اهْتَمَمْتَ بأن لا يعلم إلا الله سبحانه بما فعلته.

{وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ}، ويستر سبحانه عنكم من الأعمال السيئة التي قمتم بها، فيجعل سبحانه الصدقة السريّة لها مفعول تكفير تغطية لبعض السيئات التي قمتم بها، فتصير سَيِّئَاتٍ سِرِّيَّةً لا يعلم بها إلا الله تعالى. عَمَلِيّاً ففي الحساب في الآخرة لن يطالبكم سبحانه بها أمام الناس ولن يعلم بها أحد غيره تعالى ولن يحاسبكم عليها. بعبارة أخرى، الصَّدَقَةُ بالسرّ تخفي بعض أنواع السيئات، فتجعلها لا تظهر في كتاب أعمالنا ولن يعلم بها الآخرون.

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}، فلديه أخبار وتفاصيل كل ما تعملون.

يبدو من دقّة استعمال القرآن لكلمات لغتنا أن كلمة "عمل" تشير لعامّة وصف حالتك السلوكية بما سينتج عنه من أثر، فهي وصف لك لعموم مباشرتك لأي شيء، فعندما نسأل: ماذا عملت أو ماذا تعمل؟ فالسؤال عنك. كَلِمَةُ "فعل" تشير للأثر المتحقّق مما عملت، سواء أنجزته أو باشرت بإنجازه، فهو وصف لما نتج أو سينتج عنك، فعندما نسأل: ماذا فعلت أو ماذا تفعل؟ فالسؤال عمّا نتج. بَعْضُ اسْتِعْمَالَاتِنَا لهاتين الكلمتين دقيقة، والكثير منها مُتَسَاهَلٌ به، فنتقيّد بالدقّة حين نقول: ما عملك؟ فتجيب نَجَّارٌ حَدَّادٌ أُسْتَاذٌ... ولا نقول لهذه الحالة: ما فعلك؟ وحين نقصد السؤال عمّا نتج من وقتك وحركتك نقول: ماذا فعلت؟ ولا نقول: ماذا عملت؟ هُنَاكَ اشتقاقات كلامية يتداخل فيها الفعل مع العمل، فكلاهما نشتق منهما اسم الفاعل "عامل وفاعل"، وكلاهما نشتق منهما اسم المفعول "معمول مفعول"، رَغْمَ ذلك تبقى النظرة الأساسية في الكلمات، فَالْعَامِلُ نَاظِرَةٌ للشخص، وَالْفَاعِلُ ناظرة لما نتج عنه، وَالْمَعْمُولُ ناظرة لمن عمله، وَالْمَفْعُولُ ناظرة لما تحقّق.

الْآيَةُ تقول إنَّ الصدقة بالسر أفضل من الصدقة بالعلانية، لَكِنَّ الله خبير فيعلم إن كانت نيتك صافية حين تصدّقت بالعلن، أو أنك اضطررت للتصدّق علنا، وأنّك تفضّل التصدّق بالسرّ لَكِنَّكَ لم تستطع.

كما تلاحظ فَالصَّدَقَةُ لا تكفّر لا تستر عن كل أنواع السيئات، السَّيِّئَاتُ التي نرتكبها ضد بعضنا كالغيبة والاحتيال والشتيمة... فهذه السيئات لا يمكن سترها، لأنها مفضوحة ويعرفها الذين كانوا حاضرين حين قمنا بها، فإن لم يسامحونا سَيُطَالِبُونَنَا بها... الْآيَةُ تتحدث عن ستر وإخفاء لسيئات يمكن سترها، {يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ}، فكما تصدّقت بالسرّ ولم يعرف أحد، فالسيئات التي قمت بها في السرّ ولم يعرف بها أحد فإنها ستبقى بالسرّ وسيخفيها ربنا سبحانه، فلن يحاسبك عليها في يوم القيامة ولن يعرف بها أحد لأنك تصدّقت بالسرّ.

فَحْوَى الكلام أنه تعالى سيعمل على إخفاء ما يمكن إخفاؤه ضمن ما يحفظ حقوق الآخرين التي علينا لهم، ومن فحوى الكلام القرآني عن اهتمامه الشديد سبحانه بالمؤمنين فنفترض أنه تعالى سيحل مشكلة سيئة المؤمن مع الاخرين والتي استغفر منها لَكِنَّهُمْ لم يسامحوه عليها هنا في الدنيا، بأنه تعالى وبدون معرفة الآخرين سيعرض عليهم مسامحة المؤمن مقابل مسامحتهم على سيئات ما ارتكبوها هم... هَذَا تحليل يتماشى مع عموم مفاهيم القرآن، وَتَدْعَمُهُ رِوَايَاتٌ قالت ذلك صراحة...

نَنْتَبِهُ فَقَدْ ورد صراحة في الآية 31 من سورة النساء أَنَّ تكفير السيئات مشروط بالابتعاد عن الكبائر {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً}.

بقي شيء، فبعد آيتين سيأتيك كلام عن الصدقة سرا وعلانية، وتجد في مختلف السور كلاما عن ذلك فحتى لا يشتبه علينا الموضوع ونظن أنه تعالى لا يحب صدقة العلن وفقط لديه تقدير عال لصدقة السرّ، لا، الصَّدَقَةُ التي من المناسب لها أن تكون بالسرّ لها أجرها العظيم، والصدقة التي من المناسب لها أن تكون بالعلن فَأَيْضاً لها أجرها العظيم، هُنَاكَ حالات لا بدّ فيها من الصدقة بالعلن، فهل يتركها المؤمن؟! لا، لَكِنْ عَادَةً هناك مجالات كثيرة للصدقة سرّا بشكل لا يعلم به إلا من تصدّقت عليه، خُصُوصاً إن كان لا يحبّ أن يعلم الناس بالصدقة عليه، فهذه الحالات وغيرها لا تفسدها وتخرّبها بفعلها علنا أو فضحها بالكلام عنها.

(لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ{272})
{لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ}، وضع الناس على الشيء الذي يوصلهم للغاية الصحيحة لَيْسَتْ مَسْؤُولِيَّتُهُ عليك أيها الرسول(ع) وأيها المؤمن، فلم نوكل إليك وضع الناس على الطريق الصحيح على أساس أن نحاسبك إن لم يهتدوا، أنت لست مِثْلَ مَسْؤُولٍ عن العمّال وإنتاجيتهم، ولست ناظر مدرسة مَسْؤُولاً عن تعليم وسلوك التلاميذ... لا، موضوع هداية الناس ليس من مسؤوليتك، فأنت لا تتحمل أي مسؤولية إن لم يهتدوا.

{وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي}، يضع على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {مَنْ يَشَاءُ}، هناك خيارات عديدة أمامه تعالى وقد شاء تعالى هداية الذين حافظوا على قلوبهم الطيبة الطاهرة، أمّا الذين بإرادتهم صارت قلوبهم خبيثة فلن يهتدوا، لَنْ يجبرهم ربنا سبحانه بالقوة على الاهتداء.

عِنْدَمَا تبلّغ الناس بكلامه تعالى عن نيّة الإنفاق في سبيله ونوعيته وكيفيّته، فأنت لا تتحمل أي مسؤولية إن لم ينفقوا.

{وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ}، وأي شيء موصوف بأنه من الأشياء الجيدة الحسنة وقد صرفتم منه في سبيله تعالى، {فَلِأَنْفُسِكُمْ}، فهذا عمل خير لأنفسكم لأن الحسنات ستتسجّل لكم، فالرسول(ع) "والمؤمن" لن يُحَاسَبَ إن لم تنفقوا، لَنْ يأخذ من حسناتكم إن أنفقتم. نعم سيكون له حسنات منفصلة عن حسناتكم إن كان هو السبب في تحفيزكم على الإنفاق لَكِنَّ حسناتكم لن تنقص.

{وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ}، تتوّجهون باتجاهه تعالى حين تنفقون، وعمليا الذي أنفق فقد حصل على رضاه ومحبتّه سبحانه. وعندما يقول لكم الرسول(ع) أَنَّهُ تعالى يأمركم بالإنفاق، فأنتم تطيعون ربكم سبحانه، لِأَجْلِ وجه ربكم سبحانه تصدّقتم، فاتجهتم باتجاهه تعالى طالبين أن يتّجه هو تعالى باتجاهكم برحمته ومغفرته، ولا علاقة للرسول(ع) بالموضوع إلا تبليغكم بالرسالة الإلهية التي تأمركم بالإنفاق.

{وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ}، وأي شيء من الأشياء الجيدة تنفقوه في سبيله تعالى، فهي لم تذهب خسارة لأن الخير، {يُوَفَّ إِلَيْكُمْ}، لاحقا ستأخذونه تامّا بلا نقصان، سيعود الخير عليكم بالتمام لتحصلوا عليه فيما بعد، وقد قرأنا قبل قليل أَنَّ الحسنة تصل مضاعفة حسناتها إلى السبعمئة وأكثر.

{وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}، ولن يخلف ربكم سبحانه ما وعدكم به، فلا تفكّروا أَنَّكُمْ إن أنفقتم هنا أنكم رُبَّمَا لن تجدوا شيئا في الآخرة، فهذا ظلم لِأَنَّ ربكم سبحانه قد وعدكم بالأجر، وسُبْحَانَهُ لن يظلمكم بالأمر بالإنفاق من مالكم هنا في الدنيا من دون أن تأخذوا عليه مُقَابِلاً في الآخرة.

(لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ{273})
عدة آيات من القرآن ذكرت لنا على من ننفق، على الأرحام والأيتام والمساكين... لَكِنْ بما أنّ أساس الإنفاق هو أن تنويه في سبيله تعالى، فهناك من يحتاج أن تنفق عليه لأنه صار فَقِيراً بسبب التزامه بسبيل الله تعالى:

{لِلْفُقَرَاءِ}، للذين ينقصهم أشياء يحتاجونها للعيش ولا يمكنهم تأمينها، فالفقير وصف لمن كان يفقد شَيْئاً يحتاجه، سواء أكان فَاقِداً لكلّ شيء أو فَاقِداً لشيء محدّد. وَصْفُ المسكين يشمل الفقير الذي لا يملك أي شيء لتأمين ما يحتاجه ويتدرج الوصف وُصُولاً إلى الذي يملك سيارة وَبَيْتاً وَأَرْضاً وَمَتْجَراً... لَكِنَّ ظروفه المالية متعثرة.

فالفقراء {الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، فوقعوا تحت حصار تحت شيء منعهم من التقدم ومن التحرّك، هُنَا الكلام عن شيء منعهم من العمل والتكسّب، فِي سبيل الله تعالى كان إحصارهم، فبسبب فعلهم والتزامهم بما يرضى عنه تعالى انحصرت عنهم الموارد المالية، فَلْنَقُلْ إِنَّ الكفّار سرقوا أموالهم، أو اغتصبوها منهم أو طردوهم من أملاكهم وأشغالهم... أو قطع الكفّار التعامل التجاري معهم فلم يعودوا يبيعونهم أو يشترون منهم... فصاروا فقراء بسبب التزامهم بدينه تعالى.

{لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ}، فلا يستطيعون الانتقال من المكان الذي هم فيه حتى تتحسن فرصهم الاقتصادية في مكان آخر، فَلْنَقُلْ إِنَّ هذا الذي صار فَقِيراً لديه شهادة علمية تخصصية كدكتور أو مهندس، أو لديه مهنة جيدة كالنجّار أو الحدّاد، أو هو تاجر... ففي المكان الذي يتواجد فيه حَالِيّاً، لم يتمكن من إيجاد عمل، لَكِنَّهُ سيجد عَمَلاً لو انتقل إلى مكان آخر، لَكِنَّهُ لا يستطيع الانتقال أو السفر "لا يستطيع ضَرْباً في الأرض"، ربما لأنه لا يملك تكاليف للسفر أو لا يملك تكاليف تأسيس حياة جديدة في مكان جديد، أو أن الطريق خطير غير آمن، أو في المكان المناسب له وتتوافر فيه فرص عمله هي أماكن محكومة ممّن لا يريده مُؤْمِناً...

هذه النوعية من الناس كانت عيشتهم كريمة، وغير معتادين على الفقر، فثيابهم ومأكلهم وحديثهم... لا يَدُلُّ على أنهم فقراء، {يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ}، فيخطر في بال الذي لم يفكّر ولم ينتبه جَيّداً أنهم أغنياء ويملكون ما يكفيهم ليعيشوا، {مِنَ التَّعَفُّفِ}، بسبب تعففهم ترفعهم، فهم لا يركضون على المساعدات، ولا يقولون لأحد أن يساعدهم، ولا يتأففون أو يشكون أو يطلبون المال...

هؤلاء، {تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ}، بملامحهم بعلامات خاصة تميّزهم، {لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً}، بإصرار، فإذا عبّر عن إرادته لمساعدة منهم، فطلب مَالاً، فهو لا يطلبه منهم إلْحَافاً بإصرار وبتكرار، أو لا يطلبه بشكل صريح، بل يحاول أن لا يظهر لك أنه فقير، فتلاحظ عليه أن مصروفه مثل الفقراء، ويمرّر كلمة مختصرة عن حالته أنها ليست جيدة ولا يطيل الكلام... أو يقول عن شيء ما أنه غير قادر على شرائه... فهذه هي السمة العلامة التي منها تعلم أنه فقير متعفّف.

هل انتبهت، فالذي حالته المالية أَسَاساً ضعيفة أو سيئة، فالناس تعرفه، وهو نفسه تأقلم مع الفقر، لَكِنَّ الذي كان مَيْسُوراً، وصار فَقِيراً، "وخاصة الذي بسبب إيمانه صار فَقِيراً" فهذا النوع من الناس لا يتحمّل أن يطلب المساعدة من الآخرين، فهي صعبة عليه، فهؤلاء انتبه لهم أيها المؤمن، فقد تظنّهم أغنياء، لَكِنْ هناك سمة، فهناك علامات تجعلك تعرف أنهم فقراء وبحاجة للمساعدة، فانتبه إذا أحد ما طلب مساعدة بشكل غير مباشر، فربما يسألك إن كنت لا تحتاج لسيّارتك الثانية، ويسكت. وربما يسألك أن تحسب له سِعْراً رَخِيصاً على الطعام الرخيص أَصْلاً... فهكذا ستعرف أنه يعاني من ضائقة مالية، فمساعدته واجبة عليك وعلى بقية المسلمين.

{وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ}، فأي شيء تعطونه للمحتاجين ويكون من أشياء حسنة لها فائدة وقيمة، {فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}، فهذه النوعية من الناس ربما تحتاج للمال، للبضاعة، وربما تحتاج لعيادة أو مكتب أو مخزن أو متجر... فكل هذا خير جيد والله تعالى يعلم ماذا أنفقتم فيسجّل لكم الأجر عليه.

بقي شيء، في حين نزول هذه الآيات كان هناك بعض الوظائف الإدارية للمسلمين وعليها أَجْرٌ يتم دفعه من بيت المال للموظّفين، ولم يكن هناك مُقَاتِلُونَ مُتَفَرِّغُونَ للقتال بِأَجْرٍ من بيت مال المسلمين، كأفراد الجيش، وحين كان يأمر الرسول(ع) بالتجهّز لقتال عدو، فكل من هو قادر على حمل السلاح سيترك أشغاله ويتجهّز للقتال... آياتنا هنا لا تتحدّث عن المشغولين بالقتال لدرجة أنهم لا يستطيعون العمل وصاروا فقراء، وقد ذكرت بعض كتب التفسير هذا المعنى وهو لا يتماشى مع واقع الحال في زمن نزول هذه الآيات، مع العلم أنه يجب على المسلمين الإنفاق على المتفرغين للقتال، لَكِنَّ آيتنا هنا تتحدّث حَصْراً عن الذين أصابهم الضرر بسبب إيمانهم، وأيضا وصفهم باحتساب الجاهل أنهم أغنياء من التعفّف لا يتماشى بَتَاتاً مع ما قالوه عن قصد السورة لأصحاب الصفة، وهي بقعة كانت ملاصقة للمسجد النبوي الذي في المدينة المنوّرة، وكانت مَكَاناً مَعْرُوفاً للجميع بمبيت الفقراء فيه، فكيف سيحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف! وهو مكان ينام فيه المشردون والفقراء!

(الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{274})

الخلاصة:

{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ}، يصرفون في سبيله تعالى، {أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ}، فلا يراهم أحد يتصدّقون، وينفقون بـ{النَّهَارِ}، فيراهم الناس، وينفقون، {سِرًّا}، لَيْلًا أو نَهَارًا ولكن بالمخفي عن الناس فلا يخبرون أَحَدًا بما أنفقوه، وينفقون، {عَلَانِيَةً}، بالعلن فيعرف الناس بأنهم أنفقوا... فطالما أن النية في سبيله تعالى ومن دون مِنَّةٍ أو أَذًى، ومن الطيبات:

{فَلَهُمْ}، لهؤلاء المنفقين، {أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ}، فالمسؤول عنهم من مستوى إلهي قد حدّد لهم شَيْئًا يستحقونه على إنفاقهم وسيعطيه لهم، طَبْعًا من فضله وليس فَرْضًا وَاجِبًا عليه سبحانه أن يؤجرهم.

{وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ}، فالمنفقون لن يكونوا في حالة الاصطدام مع خطر ما سيحصل في يوم القيامة وما بعده، فهم لم يطيعوا إبليس حين خَوَّفَهُمْ من الفقر، وأطاعوه تعالى، فلذلك لن يشعروا بأنهم سيصيبيهم أي ضرر أو خطر في يوم القيامة، فسيشعرون بالأمان هناك.

{وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}، ففي يوم القيامة سيحزن الذي لم ينفق عندما يرى الحسنات المضاعفة للإنفاق التي حصل عليها غيره، ولكن من أنفق فهو سعيد مسرور بالإنفاق.

ننتبه، للآيات السابقة التي قالت إنَّ الصدقة بالسرّ أفضل من الصدقة بالعلن، ولكن طالما نيّة المؤمن سليمة من الرياء والتكبّر... فسيحصل على أجره من الله تعالى على الإنفاق كيفما كان، نَفْهَمُ آيتنا هنا أن المؤمن ينفق سِرًّا وَعَلَانِيَةً ولا يهمه أي شيء، فطالما وجد فرصة مناسبة للصدقة فإنه يقوم بواجباته ويتصدّق ولا يهمه إن كانت بالسرّ أو بالعلن أو بالليل أو بالنهار، فهناك فقراء نعرف عنهم أن أنفسهم عفيفة ولا يتحملون أن يَتَصَدَّقَ عليهم الناس بالعلن، فالمؤمن سيحاول مساعدتهم بالسر، ولكن إن كانوا بحاجة لمساعدة فورية والآن، فهل يتركهم المؤمن بلا مساعدة وينتظر الفرصة ليساعدهم بالسر! لا، بل يساعدهم عَلَنًا لأنهم الآن بحاجة للمساعدة... أو فلنقل إنَّ الناس يسخرون من الذي يتصدّق على الفقراء، فالمؤمن لا يهتم بما يقوله الناس، وإذا وجد فَقِيرًا بحاجة للمساعدة فيساعده عَلَنًا ولا يهتم بما يقوله الناس...

(الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{275})
في مقابل المنفقين طالبين الأجر منه تعالى، هُنَاكَ من يستغل ظروف الناس المحتاجين، وبدل مساعدتهم هُوَ يأخذ منهم:

{الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا}، فإذا كان شخص ما بحاجة لمساعدة فلم يتصدّقوا عليه، فطلب منهم دَيْنًا، فَاسْتَدَانَ منهم المال وفرضوا عليه رِبًا، الْفَائِضَ، الفائدة. مَثَلًا: تأخذ مئة درهم وتردّها بعد شهر مئة وعشرين، فالعشرون هي الربا. أو بعد شهرين تردّها مئة وأربعين، فالأربعون هي الربا، الفائدة، الْفَائِضُ... هَذَا يسمونه: ربا النسيئة. هُنَاكَ ربا الفضل وهو أن تبادل مع غيرك أشياء من نفس النوع، فتعطيه كيلو أَرُزٍّ حبتها كبيرة وتأخذ منه كِيلُوَيْ أَرُزٍّ حبتها صغيرة.

الَّذِينَ يأكلون الربا، فيأخذون الزيادة على المال من الناس، يأكلون أموال الناس، {لَا يَقُومُونَ}، لا يَصِيرُونَ فاعلين فلا يتصرفون من هذا الأكل للربا، {إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ}، فالشيطان الْمَوْصُوفُ بالقيام بأعمال الضلال لنفسه وللآخرين عبر الوسوسة لهم، والذي أطاع وسوسته فقد أصابته مَسَّةٌ، لَمْسَةٌ شيطانية، واللمسة الشيطانية هي تَخَبُّطٌ هِيَ فقدان الاتزان، فسيُفَكِّرُ وسيتحدث بطريقة شيطانية تخبطية غير موزونة.

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا}، فالمسّ الشيطاني لهم وتخبّطهم واضح من قولهم:

{إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا}، فعندما أشتري السيارة بألف، وأبيعها لك، فتعطيني أَلْفًا وَمِئَةً، فما الفرق إن أعطيتك أَلْفًا "نقدا، كاش"، وبعد شهر أعطيتني أَلْفًا وَمِئَةً! فالبيع مثل الربا. فبالبيع أخذت منك مئة، وبالربا أخذت منك مئة، فما الفرق؟!

لاحظ: من يتخبّط في أفكاره لدرجة أنه لا يرى الفرق بين البيع والربا، فهو ممسوس من الشيطان، فقد لمسه في عقله بوسوسته، فصار يقول هذه التفاهات، هُنَاكَ فرق كبير واضح بينهما، ومن وضوح الفرق بينهما فقد:

{أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ}، فيمكنك أن تبيع فتتبادل تِجَارِيًّا من الآخرين ولا مشكلة في هذا ولا عقاب عليه، ولكن الله تعالى قد، {حَرَّمَ الرِّبَا}، فجعله مَمْنُوعًا وعليه عقاب.

مَنْ قال بأنه لا فرق بينهما فهو مخبول ممسوس في عقله من الشيطان ويتخبّط في فكره، فيخرج عنه هذا الكلام، ولم تَرُدَّ عليه الآية لتشرح الفرق بين الربا والبيع لأن الفرق واضح جِدًّا جِدًّا، وقد تحدثت معه الآية بحسم وحزم: البيع حلال، الربا حرام. فالبيع تبادل تحصل فيه المنفعة للطرفين، والربا فيه طرف بحاجة للمال والآخر يعطيه المال أو البضاعة ويشترط عليه زيادة، فكيف يشبه البيع الربا؟

{فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ}، كلام وعظ، كلام يحدّد له ما الصحّ وما الخطأ حتى لا يقع في المشاكل، فالموعظة هنا هي التنبيه على الفرق بين البيع الحلال والربا الحرام، وأنه على الربا عقاب، {فَانْتَهَى}، فتوقف ولم يعد أَبَدًا للربا بعدما اتّعظ، {فَلَهُ مَا سَلَفَ}، ما حصل عليه سَابِقًا من الربا فهو ملك له، فلا يجب عليه أن يردّه للناس، ولكن ننتبه جَيِّدًا لتكملة الآية: {وَأَمْرُهُ}، وموضوعه والحكم فيما صدر منه، {إِلَى اللَّهِ}، فحسابه فيما فعله سَابِقًا من الربا لم يذهب، فالآية تتحدث عن المال الذي حصل عليه من الربا سَابِقًا، فإن توقف عن الربا، فكل ما حصل عليه سَابِقًا من الربا فهو ملك له، أمّا الحساب على المخالفة فموضوع آخر، وهو عند الله تعالى.

{وَمَنْ عَادَ}، فتعاطى بالربا من جديد من بعدما علم أنه تعالى يحرّمه، {فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ}، فهم سَيَكُونُونَ مع بَعْضٍ في نار الآخرة، {هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، لا يموتون فيها ولا يخرجون منها ولا هي تخرب.

فِي الكتابة القديمة لكلمة ربا، قد كتبوها هكذا "ربوا" لأنهم "وكما يبدو" في عصر نزول وتدوين القرآن كانوا بعد لفظ حرف الباء يصدرون صَوْتًا يميل إلى إصدار حرف الواو، ولا يزال هذا اللفظ لهذه الكلمات وبهذه الطريقة مُتَدَاوَلًا حَالِيًّا في اللغة السريانية، التي يكاد ينقرض الناطقون بها من السريان الأصليين، وهي مثل بعض اللهجات العربية القروية المنتشرة في الأرياف والبوادي، وخاصّة في المناطق التي كان يسكنها الْفِينِيقِيُّونَ والكنعانيون الَّذِينَ لم تكن لغتهم ولهجتهم تختلف كَثِيرًا عن السريانية... ومثلها كانوا يلفظون كلمة "صلواة، زكواة..." وقد كتبها المسلمون الأوائل بهذا الشكل متّبعين طريقة اللفظ على ما يبدو.

فِيمَا بعد التَّفْخِيمُ بالإمالة إلى الواو في هذه الكلمات وَأَشْبَاهِهَا، لم يعد دَارِجًا بين العرب المتمدنين الذين توافقوا على قراءة وسطية نسميها الآن: القراءة الفصحى. هَذِهِ القراءة وصلتنا مع تغيّرات عبر الزمن وليست نفس القراءة بمخارج الأحرف التي كان يتلفّظ بها أهل مكّة أو المدينة في عصر الرسول(ع)، على كلّ حال فهي لهجة قراءة لمخارج الأحرف ولا تغيّر أي شيء في معنى الكلمات، ولكن مقارنة كتابتها بالرسم القديم مع الرسم الحديث، مع نسيان تطوّر قواعد الرسم عبر التاريخ، وافتراض أن ما نرسمه الآن هو الأصل وأن ما يخالفه خطأ، وبالإضافة للاعتقاد بأن ما نسمعه الآن من تلفّظ مشاهير قرّاء القرآن لكلمات القرآن أنه نَقْلٌ بالضبط عن "لهجة" الرسول(ع) والجيل الأول من المسلمين، فهذان الأمران سيجعلاننا نتصوّر أن رسم هذه الكلمات قد حصل بالخطأ، لا، فقد رسموها بأقرب طريقة لما كانوا يلفظونها به، ونحن الآن نمشي على لهجة تطوّرت وتغيرت كَثِيرًا منذ عهد الرسول(ع) ونسمّيها اللهجة الفصحى.

ظنّ البعض أن التخبّط من مسّ الشيطان هو شبيه بالحالات الهستيرية التي تحصل مع بعض الناس على أساس أن الجنّ قد دخل في جسدهم وسكن فيه وسيطر عليهم، وهذه خرافات لم تحصل ولا تحصل، وللأسف هي منتشرة في عموم ثقافات المتدينين من المسلمين والآخرين من أهل الكتاب وأديان أخرى... هناك أمراض نفسية، وتشوهات فكرية، وخلل في الدماغ، أو خلل تسبّبه إفرازات هرمونات غير متوازنة في الجسد، أو تعاطي مواد تسبب التلف لأعصاب الدماغ، أو تسبّب خَلَلًا في إفرازات الهرمونات... هذه الأمور ينتج عنها قيام بعض الناس بتصرفات غير عادية، وقد درج بين الناس اعتقاد تلبّس الجنّ بهؤلاء الأشخاص، عِلْمًا أن القرآن ينفي تَمَامًا أي قدرة للجنّ على فعل هذا بنا، فأقصى ما يمكن أن يفعلوه هو الوسوسة لا أكثر، وهنا الآية تتحدّث عن التخبّط من المس، فهل رأيت مُرَابِيًا يقوم بتصرفات كالتي يقولونها عن شخص سكن الجنّ فيه؟ لا، لأن التخبّط الذي تقصده الآية هو التخبّط الفكري والهلوسة الفكرية والنفسية عندما يقول المرابي إِنَّ البيع مثل الربا، فهذا قد وسوس له الشيطان وأعجبته الفكرة فاقتنع بها وصار مُدَافِعًا شَرِسًا عنها لدرجة عماه عن الفرق الهائل الشاسع بين البيع والربا، وهذا هو التخبّط من مسّ الشيطان، وعندما ترى كل من تعامل بالربا يقوم بحركات هستيرية كما يفعل الذين يقولون بأن الجنّ سكنهم، فعندها كذّبني وقل إِنَّ الآية تشير لسكن وتلبّس الجنّ بالناس.

لمزيد من التوسع في مسألة الربا راجع دراسة الآية 39 من سورة الروم {وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ}.

(يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ{276})
{يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا}، لا يترك لَهُ أي أثر جيد في الآخرة، {وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ}، ويجعل ما تقدمونه للمحتاجين يَرْبُو يَنْمُو ليكبر.

لا تَنْسَ أن المقارنة هنا بين الإقراض بالربا وبين الصدقة، حيث كانت الآيات السابقة تتحدث عن المحتاج للمال، وقالت إِنَّهُ يجب علينا مساعدته، أمّا اسْتِدَانَةُ المال مع تحديد الربا! فهذا عمل حرام، وكلمة "الربا" مشتقة من "التربية" على معنى النمو للمال، لأن المال يزداد مع مرور الوقت، ولكنه تعالى لم يجعل في الآخرة أي نمو للربا، بل محقه أي جعله تعالى بلا أثر حسن، فمن جاء يستدين منك، واستدان المال مع ربا، فلا تظن أنك فعلت خيرا لأنك ساعدته، لا، لا يوجد خير في الربا، إنما الخير في الصدقات التي تَرْبُو تَنْمُو تزداد حتى تصل إلى الآخرة أَكْوَامًا مضاعفة من الحسنات.

{وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ}،لا يحبّ كل ناكر للشريعة، {أَثِيمٍ}، يرتكب السوء وهو يعلم بأنه سوء.

الرِّبَا سوءه معلوم، ومن كفر ومن أنكر حُرْمَتَهُ، وقام بالمراباة، فهو أثيم لأنه يرتكب الحرام مع معرفة بأنه حرام، والله تعالى لا يحبه، وعمليا لَنْ ينظر إليه تعالى برحمته.

تُلَاحِظُ أن الآيات التي وردت فيها جملة "الله يحب، لا يحب" كان مَقْصُودًا منها توجيه الكلام لمن يفهم، وليس المقصود منها تخفيف سوء الفعل الذي لا يحبّه تعالى، فَرْضًا أنا لم أفعل الربا من قبل، وجاءني أَحَدٌ ما يطلب دَيْنًا، وعرض عليّ إعطائي ربا عليه، وفرضا كان هذا دارجا بين الناس كما هي الحال حين نزول هذه السورة، فهذا مجتمع معلن لإيمانه، ولم يرد تعالى توجيه كلام قَاسٍ لهم بسبب هذه الفعلة السيئة لأن القساوة غير مناسبة، لذلك يستعمل التعبير بأن الربا شيء يفعله الكافر الأثيم، فلا تكونوا منهم لأنه تعالى لا يحبّهم.

ضع هذا في بالك لأن بعض الناس وبضبابية يتّهمون القرآن بالقساوة بسبب تهديداته بالنار والجحيم وجهنّم والعذاب الأليم... وغضبه ولعنه تعالى... وينسون لمن كانت تلك التهديدات موجّهة، هي كانت موجّهة للمجرمين المفسدين الغشّاشين القتلة... وإن لم تكن اللهجة قاسية معهم وعنهم، سيقولون في الآخرة: لم نشعر بتهديد جِدِّيٍ.

لَنْ تجد مؤمنا يرى تلك التهديدات قاسية، لأنها لا تتكلّم معه لأنه عامل للصالحات، بينما الذي يرى القرآن قاسيا في تعابيره فهذا لديه مشكلة في حبّه ورغبته بسوء ما، ولا يريد أن يسمع عقابا شديدا عليه.

هَكَذَا ترى أن بعض آيات القرآن لم تكن قاسية رغم كلامها عن سوء كبير، لأنها كانت توجّه كلامها للمحترم، للذي بالعتاب واللوم يترك السوء أو لا يفعله.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{ 277})
{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا}، فاعتقدوا بربّهم وشريعته وآخرته... {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، فقاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، حيث خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلّا بما هو صالح، عملياً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى. وبشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموماً وحتى بين المؤمنين، أنّ الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، حتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائماً أنه تعالى لا يأمر إلّا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به. وهذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنّ في قلبك خللاً منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو سيّء" فهو في الحقيقة اختراع من البشر وليس أمراً إلهياً.

{وَأَقَامُوا}، فعّلوا لم يعطّلوا ولم يهملوا، {الصَّلَاةَ}، التوجّه والإقبال على شيء ما، وهذه الكلمة صارت مصطلحاً يشير للتوجّه بالحركات والكلام المعروف بالصلاة الواجبة، وهي الفريضة الدينية التي نقيمها خمس مرات في اليوم ونتوجّه بها إليه تعالى لنعبّر عن عبادتنا له تعالى، علماً أنّ كلمة صلاة عمومية لأي توجّه وإقبال، عباديّ أو غيره.

{وَآتَوُا الزَّكَاةَ}، فجعلوها عند من يوزّعها أو وزّعوها هم بحسب ما أمر سبحانه، وكلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، فتشير لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكية، مال زاكٍ، طعام زاكٍ..."، ومنذ القدم صارت مصطلحاً دينياً يشير إلى دفع نسبة محدّدة من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ..."، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، فيدفع منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة "...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ..."، وتكون نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ

لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ".

{لَهُمْ}، لهؤلاء الناس الذين بهذه الصفات، {أَجْرُهُمْ}، لهم ما يستحقون الحصول عليه مما حدّده تعالى لهم "من فضله"، وهنا الكلام عن الأجر في الآخرة. ليس واجباً عليه تعالى أن يؤجرهم، وتفهم أساس ذلك من الفهم الصحيح لمعنى الإيمان وعمل الصالحات، فالإيمان بهذا الدين هو التصديق بمعلومات هي أصلاً تراها أنت صحيحة بسبب الأدلة الكثيرة والمتنوّعة عليها، والعمل الصالح هو القيام بما تراه صالحاً وترك ما تراه سيّئاً، حتى لو لم يحدّد سبحانه أجراً على ذلك، فهل ستكون مكذّباً للحق فاعلاً للسيئات؟! وتصير مثل الذي يريد أن يبجله الناس لأنه لا يؤذيهم؟! وبعد ذلك يأتي الوعد الإلهي بالأجر من فضله كشيء ليس واجباً عليه تعالى حيث حدّد الجنّة كأجرٍ للمؤمنين العاملين للصالحات.

{وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ}، فمن نظرته تعالى لهذه النوعية من الناس يخبرنا أنهم في الآخرة لن يتعرضوا للضرر أو الخطر، فهم في الأمان.

{وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}، ولن يصيبهم شعور مزعج بسبب فقدان أو نقصان أي شيء، فلا يأسفون على الدنيا، لأنهم سيرون في جنة الآخرة ما يجعلهم ينسون الدنيا وما فيها.

نلاحظ القرآن دائماً يقرن بين الإيمان والعمل الصالح مع بعض، والنتيجة للاثنين معاً هي دخول الجنة، فلا الإيمان بدون عمل صالح ينفع، ولا العمل الصالح من دون إيمان ينفع، بل كلاهما معاً ينفعان.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{278})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، فأعلنوا بأنهم معتقدون بهذا الدين: {اتَّقُوا اللَّهَ}، فتجنبوا وتحاشوا غضبه وعقابه، {وَذَرُوا}، اتركوا ولا تَعُدْ لكم علاقة بـ، {مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا}، ما بقي لكم عند الناس، فلا تطالبوهم بالربا بالمال الزائد عن المال الذي استدانوه منكم، {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، إن كنتم حقّاً وفعلاً معتقدين بهذا الدين.

نتذكّر الآيات السابقة بقولها عن التائب الذي توقّف عن المراباة فإنه يملك ما سلف، ما سبق وحصل عليه من الربا، ما أخذه في السابق قديماً فلا يجب عليه ردّه للناس، وهنا تكمل الآيات لتقول للمرابي: من الآن وصاعداً من بعد ما اتعظّت بكلامه تعالى توقّفْ عن مطالبة الناس بالربا، فالمال الزائد عن القرض الذي كنت تأخذه منهم فتوقّفْ عن أخذه، وطبعاً يحق لك المطالبة بمالك من دون الربا.

(فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ{279})
{فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا}، فلم تتركوا ما بقي لكم مع الناس من الربا، {فَأْذَنُوا}، فخذوا أَذَاناً إعلاناً، {بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}، فسيتم التحرك العملي ضدكم، بإجباركم بالقوة على ترك المراباة، وإجباركم على ترك ما بقي لكم من الربا.

{وَإِنْ تُبْتُمْ}، فتوقّفتم وأقلعتم عن المراباة وفتحتم صفحة جديدة خوفاً من الحرب الإلهية عليكم، أو لأنكم اقتنعتم من الموعظة، {فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ}، فلكم مالكم الأساسي قبل الربا. فإذا استدنتَ من المرابي ألفاً، ولنقل أنّ الربا عليها مئة في الشهر، ولكن المرابي تاب، فله رأس ماله، وهو الألف، فيطالب به، ولا يطالب بالمئة بعد الألف.

{لَا تَظْلِمُونَ}، بالفتحة على التاء، فبهذا الحكم لا تقومون بعمل غير عادل أو غير منصف مع غيركم.

{وَلَا تُظْلَمُونَ}، بالضمّة على التاء، فلا يصيبكم الظلم من غيركم لأنكم لم تخسروا وستستردون رأس مالكم.

بالنسبة لكلمة "{فَأْذَنُوا}" فهي ليست من أخذ الإذن، بل مثل أَذَانِ الظهر، أَذَانِ المغرب... أَذَانِ الحرب... حرفيّاً معناها: إعلان شيء ما بطريقة تصل إلى أُذُنِ السامع، وفي الاستعمال هي عموم الإعلان عن حصول شيء ما.

(وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{280})
{وَإِنْ كَانَ}، الذي استدان منكم قديماً بالفائدة بالفائض بالربا قبل التزامكم بتحريم الربا، {ذُو عُسْرَةٍ}، فهو موصوف الآن بأنّ أموره عسيرة صعبة وبالتحديد أوضاعه المالية غير مرتاحة فلا يمكنه الآن دفع الدين، {فَنَظِرَةٌ}، فانتظار مدّةٍ، {إِلَى مَيْسَرَةٍ}، إلى حين تصير حاله ميسّرةً، إلى أن تصير أوضاعه المالية ميسّرةً مرتاحة ويمكنه دفع الدين، فاصبروا عليه ولا تفرضوا عليه ردّ الدين رغم علمكم بأنّ أموره الآن متعسّرة.

{وَأَنْ تَصَدَّقُوا}، فالدين الذي لكم تعتبرونه صدقة على الشخص الذي لا يستطيع الدفع، فتساعدونه بمسامحته بالدين، {فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}، فهذا موصوف بأنّه عمل جيّدٌ، {إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، إن درستم الموضوع وعلمتم ضخامة الثواب على الصدقة، فستعلمون أنّ اعتبار الدين الذي على المحتاج صدقة هو شيء جيّدٌ لكم، فإن حصّلت الدين ممّن يحتاج للمساعدة فأرهقته وحصلت على مالك وانتهى الموضوع، أمّا إن تصدّقت عليه فكسبت الحسنات للآخرة، وهذا بالطبع خير لك.

ليكن بعلمك عزيزي القارئ أنّ المرابي عادة يفضّل إعطاء المال لمن لا يمكنه الدفع، لنقل إنّه أعطاه ألفاً، والربا مئة في الشهر، فمن لا يستطيع دفع الدين، فسيدفع الربا، والشهر الذي يليه سيدفع الربا، وعادة عندما يتأخر عن الدفع إنّ الربا يرتفع، فيصير مئتين في الشهر... فالمرابي يستفيد من الذين حالتهم معدومة فيأخذ منهم ما استدانوه منه أضعافاً مضاعفة، ويصل الحال بهم أن يكبر الدين مع الربا كثيراً حتى يأخذ المرابي بيته ومخزنه...

مرّ في العام 2008 كساد اقتصادي أصاب الكثير من الدول، ويرجع في عمقه إلى النظام الربوي العالمي الذي أحرق فيه أصحاب رؤوس الأموال، وأحرقوا الطبقة المتوسطة مستولين على مدخراتهم القليلة بسبب نظام الدين بالربا، على أساس أنّ هذا النظام ترعاه الدولة وقوانينها تكفل حقوق المواطنين والربا ييسّر أمورهم... وهذه ليست أول حادثة كارثية من الربا، ولن تكون الأخيرة، ولم يكن التعامل بالربا فقط سبباً في الكارثة، ومضافاً إليه كان التعامل بالقمار على الطريقة الحديثة التي يسمّونها بالأسهم والبورصة للعملات والمعادن والنفط... فالتعامل بها حرام إلّا إن كانت تعبّر عن قيمة حقيقية كسلعة ملموسة أو قيمة تجارية أو صناعية كمشارك في الملكية... ولمزيد من التوسّع حول الربا راجع دراسة الآية 39 من سورة الروم "{وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ}".

(وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ{281})
{وَاتَّقُوا}، وتجنبوا وتحاشوا، {يَوْماً} {تُرْجَعُونَ} {فِيهِ}، زمناً يتم إرجاعكم فيه، {إِلَى اللَّهِ}، وهو يوم القيامة من الموت.

{ثُمَّ تُوَفَّى}، فيتم إعطاء {كُلُّ نَفْسٍ} بالتمام والكمال، {مَا كَسَبَتْ}، ما حصّلت عليه مما نتج من أعمالها التي قامت بها في الدنيا بالتمام، {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}، بل ستتم معاملتهم بالحقّ، فبقدر ما نتج بالضبط عمّا عملوا سيجدونه، سواء أكان حسناتٍ أو سيئاتٍ.

الآية تكمل الحديث مع المرابين، وتُنْذِرُهُمْ من يوم القيامة ليتجنبوا عقابه تعالى لأنهم فيه سيحصلون على نتائج أعمالهم السيئة، ونتيجة عمل الربا عاطلة، ونتيجة الصدقة رائعة...

ضع في بالك عند قراءة آيات كآيتنا هنا والتي تفيد المحاسبة بالضبط على نتيجة ما عملناه، فالسيئات لا يزيدها تعالى عمّا فعله المسيئون، ولكن الحسنات يضاعفها تعالى، وهذا من ضمن ما نتج عن إيمانهم وليس معارضاً لما تقوله الآيات عن الجزاء بالتمام بما نتج عمّا فعلنا، فنتيجة العمل الحسن تتضمّن مضاعفة حسناته، فمجازاة المحسن بالتمام تتضمّن مضاعفة حسناته بحسب صفاء نيّته بالقربى له تعالى.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيراً أَو كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللّهِ وَأَقْومُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{282})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بدين الله تعالى:

{إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ}، حيث أخذ أحدكم مالاً من الآخر ليردّه له فيما بعد، وصار على أحدكم تبعات مالية لشخص آخر، {إِلَى أَجَلٍ}، إلى زمن، على أساس أن يردّ ما أخذه في زمن، {مُسَمًّى}، محدّد. لنقل إنّي أخذت منك مالاً والأجل والمدة الزمنية لأرد لك المال، مسمّى حيث حدّدناه لآخر الشهر، أو بعد سنة...

{فَاكْتُبُوهُ}، سجّلوا هذا الاتفاق، وليكن هناك وثيقة مكتوبة مسجّلٌ فيها ما اتفقتم عليه، ولا تتكلوا على الكلام والذاكرة، بل اكتبوا الاتفاقيات.

انتبه فالدين اسم عام يشمل كل أنواع التبعات التي على أحدهم لآخر، ويشمل أخذ الشيء قبل دفع ثمنه، أو دفع الثمن قبل الحصول على السلعة أو الغرض، والدين هنا يشمل استدانة المال "نقدي، كاش" ويشمل القرض والتجارة والبيع المؤجّل...

كتابة الاتفاقيات لها أصول، والبداية مع مواصفات الكاتب للاتفاقية:

{وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ}، بين الشخصين أو الأشخاص الذين بينهم اتفاق مالي، ليكتبْ: {كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ}، وليكن الكاتب للاتفاق شخصاً موثوقاً منكما بأنه يكتب بالعدل لا يزيد ولا ينقص، ولا يكذب فيما يكتبه، ولا يغيّر في الاتفاقية، ولا يكتب اتفاقية ظالمة تخالف الشرع، أو تخالف مصلحة أحد الطرفين، ولا يخترع من عنده...

حتى لو كان أحد طرفي الاتفاقية يجيد الكتابة، أو كان هو أصلاً كاتباً بالعدل معتمداً بين الناس، ففي الاتفاقيات المهمّة يجب أن يكتبها شخص لا علاقة له بالاتفاقية "ليس طرفاً مشاركاً في الدين"، وسترى ذلك جليّاً في الآية التالية.

{وَلَا يَأْبَ}، ولا يمتنع رافضاً، {كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ}، اتفاقية بين الناس، {كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ}، حيث علّمه سبحانه أن يكتب بالعدل وأن لا يشارك في الغشّ ولا في معاملة ربوية... ويجب على من يعرف كتابة الاتفاقيات أن يكتب للناس عندما يطلبون منه، ولا يحق له رفض الكتابة لهما، ولكن يجب على الكاتب الرفض إذا طلب أحد ما منه أن يكتب بعكس ما علّمه الله تعالى.

{فَلْيَكْتُبْ} الكاتب، {وَلْيُمْلِلِ}، ليقم بالإملاء وليقل ما سيكتبه الكاتب {الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ}، الذي عليه أن يدفع أو يسلّم البضاعة... ليقل هو للكاتب ماذا سيكتب، أنا استدنت منك المال، وأنا يجب أن أردّه لك، لذلك أملي على الكاتب، وأقول له أن يكتب: اسمي فلان واستدنت من فلان مبلغ كذا على أن أردّه بتاريخ كذا...

من غير المقبول أن يملي على الكاتب الشخص الذي أعطى الدين، ومن غير المقبول أن تقول: أنا فلان استدان مني فلان مبلغ كذا... ويشهد عليها شاهدان... بل يجب أن يتكلّم الشخص الذي عليه الحقّ، الشخص الذي أخذ المال ويجب عليه ردّه وهو يملي على الكاتب.

{وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ}، الكاتب للاتفاق ليتجنّب وليتحاشى عقاب وغضب المسؤول عنه من مستوى إلهي، ولا يكتب ما لا يرضى عنه تعالى أو على هواه، ولا يحرّف الكلام، بل يكتب بشكل واضح وصريح لا يقبل الشك في القراءة والفهم للنص.

{وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً}، لا ينقص الكاتب من الحق شيئاً، وليكتبه كما هو، حيث اتفق الطرفان عليه، ولا يحقّ له التغيير فيه طالما هو على الشروط المقبولة في شرعه تعالى.

كما تلاحظ الكلام عن متخصص في الاتفاقيات يعلم بالشريعة وأمين، ويعلم بالموضوع الذي تجري فيه الاتفاقية ليحمي الطرفين من أي سوء يجهلانه من نتائج توقيع الاتفاق... وهذا الكلام له عمق، لا وجود لاتفاقية ملزمة لطرفين وقّعا عليها إن كانت مخالفة لشرعه تعالى أو تتضمن ضرراً ظاهراً أو مخفياً لأحد الطرفين أو هضماً لحقوقه... والحماية من ذلك عبر كاتب بالعدل، وإن لم يعتمداه أو كان الكاتب فَقَدَ أوصافه ككاتب بالعدل، للطرفين حقّ مراجعة الاتفاق على مقياس أوامره تعالى حتى بعدما وقّعا عليها...

الكلام هنا من روائع التشريعات الإلهية التي لم تكن معلومة ولا معتمدة في محيط النبي محمّد (ع).

{فَإِنْ كَانَ} "الشخص" {الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ}، الشخص الذي استدان وأخذ المال، إن كان، {سَفِيهاً}، عنده بساطة في عقله، فهو ليس مجنوناً، ولا يستقصد البساطة، ولكنه فعلاً لا يستطيع تركيب جمل قانونية بشكل سليم حتى يمليها على الكاتب، كبسيط العقل، {أَوْ} كان الذي عليه الحق {ضَعِيفاً}، عقله سليم ولكن خبراته وقدراته الفكرية ليست بمستوى إجراء الاتفاقيات كالصغار وبعض الطاعنين في السن... {أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ}، لسبب ما لا يستطيع هو بنفسه أن يقول الاتفاقية أمام كاتب العدل، لنقل إنّه مريض، أو مشغول جدّاً ولا يمكنه الذهاب إلى كاتب العدل أو مسافر... أو كان أخرسَ أو أبكمَ... أو كانت لغته غير لغة الكاتب وغير لغة الطرف الآخر الذي يتّفق معه... في أي حالة من هذه الحالات وأشباهها، {فَلْيُمْلِلْ}، ليقل الاتفاقية للكاتب بالعدل، {وَلِيُّهُ}، الشخص الذي يعتبر مرجعاً له في هذا الموضوع، سواء كان وليّه بالقرابة كأبيه أو وليّه كمسؤول عنه كالوصي... أو محامياً أو خبيراً وكيله بوكالة رسمية... أو المترجم... {فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ}، لا يقول الظلم والكذب، بل ينتبه إن كانت المعاملة صحيحة عادلة، وبعد ذلك يملل على الكاتب، ولا يضيف المملي أي شيء من عنده إلّا بموافقة صاحب العلاقة الأساسي.

{وَاسْتَشْهِدُوا}، واطلبوا أن يشهد على الاتفاقية بينكم، {شَهِيدَيْنِ}، وتحضروا شخصين ليشهدا، ويسمعان الكلام الذي اتفقتم عليه، وفيما بعد يشهدان بأنّهما سمعا الاتفاقية، وعادة يتم ذكر اسم الشهود على ورقة الاتفاقية، ويمضي أو يبصم الشهود على الورقة.

الشاهدان على الاتفاقية يكونان {مِنْ رِجَالِكُمْ}، فإن لم يكونا "الشاهدان" رجلين، فيمكن أن يكونا: {رَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ}، {مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ}، وتقبلون بمحبّة أن يكونا من الشهداء لتصيرا شاهدتين، الرجال عادة عندهم خبرة في المعاملات وإذا اخترتم امرأتين لتشهدا يجب أن يفهما بالمعاملة التي تشهدان عليها، {أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا}، فاختيار امرأتين للشهادة بدل رجل واحد سببه أنّ إحدى المرأتين وبسبب نقص خبرتها لم تتذكّر بالضبط شروط الاتفاقية، {فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى}، وتقوم المرأة الثانية بإنعاش ذاكرتها فتذكّرها بما سمعتاه، النساء بشكل عام لا يتعاطينَ بالاتفاقيات والعقود المالية، وتنقصهنّ الخبرة في فهم الاتفاقيات وبالتالي سينسينَ ما اتفقوا عليه، وفي حالة نقص الخبرة يمكن الاستفادة من المرأتين معاً لتذكير بعضهما بالاتفاقية.

ننتبه جيّداً، فهذا الكلام ليس استنقاصاً من المرأة بل هو موجّه للمجتمع الذي لا تتعاطى المرأة فيه الشؤون المالية، وحتى في المجتمعات التي صارت النساء فيها تدير الدولة والشركات والبنوك... فهنّ قلّة بالنظر إلى بقية نساء مجتمعهن، وستفهم هذا الكلام أكثر إذا انتبهت أنّ الشاهد حتى لو كان رجلاً فذكورته ليست كافية، يجب أن يكون فهيماً بما يجري الاتفاق عليه، فإن كانت المرأة كفوءةً في مجال الاتفاقية التي تجري فهي أجدر بالشهادة من الرجل، وترى ذلك عمليّاً فيما وردنا عن النبي (ع) في الأمور النسائية التي أخذ فيها بشهادة نسائية متخصصة.

{وَلَا يَأْبَ}، ولا يمتنع رافضاً، {الشُّهَدَاءُ}، على الاتفاقية، {إِذَا مَا دُعُوا}، إذا طُلب منهم الحضور، للشهادة، إذا تمّت دعوتهم للحضور ليشهدوا على الاتفاقية لا يحقّ لهم أن يأبوا، أن يرفضوا الحضور. لنقل إنّه حصل خلاف بين طرفي الاتفاقية، وأحدهم ادّعى أنّ الاتفاقية مزوّرة... وقام القاضي باستدعاء الشهود الذين كانوا حاضرين حين حصلت الاتفاقية، لا يحق للشهود الامتناع عن الحضور عند القاضي أو الحاكم أو عند من يحلّ الخلاف...

{وَلَا تَسْأَمُوا}، لا تشعروا بالسأم بالتثاقل وانتفاء الرغبة، {أَنْ تَكْتُبُوهُ}، أن تسجّلوا اتفاقية الدين، {صَغِيراً}، كان الدين، {أَوْ كَبِيراً}، {إِلَى أَجَلِهِ}، طالما كان الدين محدّداً بأجل فله وقت محدد، فاكتبوه وحدّدوا التاريخ والمبلغ على الورقة.

{ذَلِكُمْ}، أي الكتابة، {أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ}، بهذا الشكل يأخذ كل واحد حقّه كما يرضى تعالى، وعند الكتابة يكون الاختلاف في فهم الاتفاق أقل من الاختلاف بما قالوه ولم يكتبوه، وإذا حصل خلاف، وبدل أن يحصل الجدل الفارغ حول: قلت لي هذا... لا بل قلت غير ذلك... فإنّ النص المكتوب يوضّح ما تمّ الاتفاق عليه، وعملياً هو أقسط، فهو يعطي القسط لكل واحد، وكلّ واحد يحصل على ما له بالضبط مما اتفقوا عليه، وإن كانت الآية عرضته من ناحية نظرته تعالى حيث يرى تعالى الاتفاق المكتوب أقسط من الاتفاق الشفهي الذي يعتمد على الذاكرة، فإن حصل خلاف ولم يكن الاتفاق مكتوباً فإنّ الاعتماد على الذاكرة أصلاً هو محلّ الخلاف لأن كلّ واحد من الطرفين يقول إنّهما اتفقا على شيء والآخر يقول إنّهما اتفقا على شيء آخر، وعملياً القسط "ما لكل واحد بالضبط" فالذي يحقّ لكل واحد منهما، سيكون مضموناً أكثر إذا تسجّل الاتفاق على الورق.

الكتابة للاتفاقيات، {وَأَقْوَمُ}، تفعيل لا تعطيل ولا إهمال، {لِلشَّهَادَةِ}، حتى الشهود عندما يشهدون على وثيقة مكتوبة ويؤكدون صحّتها تكون شهادتهم أفضل من تذكّرهم لشيء غير مكتوب.

{وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا}، الكتابة هي أدنى هي أقرب شيء حتى لا يصيبكم ريب، لا يصيبكم أي شعور بأي احتمال في صحّة الاتفاقية، قد نتفق بالكلام ولكن كل واحد منّا له تفسيره الخاص للمبلغ والتوقيت، ونوع الدفعات وكميتها... ونوع البضاعة وكميتها... وهذا يحصل كثيراً بين الناس، ولكن عندما تتم كتابة الاتفاقية، فإن ما في ضمير طرفي الاتفاقية سيظهر على الورقة، وهكذا تكون الأمور أوضح ولن يحصل ريب فيما اتفقا عليه. حين اتفقا هناك أمور تبقى في الهواء غير محدّدة، وهناك ريب فيما اتفقا عليه لأنه غير واضح، أمّا حين كتابته فالأمور تصير واضحة لا ريب فيها.

طبعاً تفترض الآية كتابة اتفاقية بكل بنودها المعلومة، مثل نماذج الاتفاقيات الجاهزة المخصّصة للموضوع الذي اتفقا عليه، وهناك نماذج مخصّصة لبيع السيارات بالدين بالتقسيط حيث ترتفع المسؤولية عن حوادث السير وعن أعطال السيّارة... عن البائع، ومثلها هناك نماذج اتفاقيات للبيوت والبضائع...

الكلام السابق كان عن الدين إلى أجل، وهو يشمل أي شخص قبض مالاً ويجب عليه أن يردّه أو يسلّم بضاعة بدلاً منه في تاريخ محدد، وتشمل التجارة، حيث تدفع ثمن ثلاّجة، ولكن تستلمها بعد شهر، وتأخذ من البائع إيصالاً بالدفع... أو تستلمها وتقسّط ثمنها...

كلّ ما سبق من الأمر الإلهي بكتابة الدين، {إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً}، تكون عملية تبادل أحد أطرافها أو كلاهما يقصدان الربح، يقصدان الزيادة على رأس المال، {حَاضِرَةً} بينكم، يجري الاستلام والتسليم بالتمام كله في الوقت الحاضر، في هذه الحالة أنتم مخيّرون في كتابة اتفاقية أو أن لا تكتبوها، والتجارة هي بيع البضائع وشراء البضائع ويقصد أحد طرفيها "أو كلا الطرفين" زيادة رأس ماله، كما يحصل في المحلات التجارية للألبسة والأطعمة... ندفع ونأخذ أغراضنا، وندفع على الصندوق ونستلم البضاعة من المخزن... هذه تجارة حاضرة ليس فيها تأخير في التسليم والاستلام، وهذه التجارة، {تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ}، عادةً تتم إدارة هذه التجارة بين شخصين ولا تحتاج لشهود وكتابة، مثلما يحصل في المحلات التجارية للأطعمة والألبسة.

نحن الآن نكتفي بالحصول على إيصال بالدفع، وفاتورة من البائع في المحلات التجارية.

{فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا}، في حال كانت المعاملة تجارة حاضرة ويتمّ فيها فوراً دفع الثمن وأخذ البضاعة عندها ليس عليكم مشكلة أن لا تكتبوا ولا تسجّلوا هذا النوع من التجارة التي يكون فيها الاستلام والتسليم في نفس الوقت.

{وَأَشْهِدُوا}، أحضروا شهوداً، {إِذَا تَبَايَعْتُمْ}، إذا صار بينكم عملية بيع، عند إجرائكم لعملية بيع "لها أهمية" كبيع سيّارة أو بيت أو محل تجاري... أشهدوا أنكم بعتم... ونحن في عصرنا، نذهب إلى كاتب العدل لإنجاز المعاملات المهمّة التي لها قيمة، ونحضر معنا شهوداً على اتفاقية، أو يشهد عليها كاتب العدل... وهذا هو نفس ما تحدثت عنه الآية.

انتبه، نحن أمام آية تتحدث عن شيء واجب، عندما قالت إنّه يجب أن تكتبوا الدين الذي له تاريخ للسداد، والبيع، ويجب أن يكتبه متخصص، وأن يكون عليه شهود، هذا يعني أنّ من لم يلتزم بهذا فهو يرتكب الحرام، ويخالف أوامر ربنا سبحانه.

لا تَنْسَ أنّ العديد من معاملات البيع البسيطة اليومية التي يمارسها عامّة الناس بكثرة، كالشراء من دكّان السمانة أو محلات الثياب...ليست معاملات خطيرة ولا تحتاج إلى شهود، ولكن ترى فائدة الإيصال بالبيع عندما تواجه مشكلة مع النوعية أو المقياس... وترغب بالتبديل أو بردّ البضاعة، وهذا الإيصال نوع من الكتابة بين البائع والمشتري.

{وَلَا يُضَارَّ}، ولا يلحق الضرر، {كَاتِبٌ}، من كتب الاتفاقية، {وَلَا شَهِيدٌ}، ولا من شهد على اتفاقية، كلّ أنواع الضرر من تغيّر سوء الحال للأسوأ ممنوعٌ حصولها للكاتب ولا للشهيد، حيث أوجب سبحانه على الكاتب أن يكتب بالعدل وعلى الشاهد أن يشهد بالعدل، وحين كتابة الاتفاقية لا يجوز أذيتهما أو تهديدهما لتكون الاتفاقية غير شرعية، وأيضاً عندما يحضران إلى القاضي عند استدعائهما لا يجوز إلحاق الضرر بهما ليشهدا بشيء غير شرعي... وحتى لو كانا مشغولين ويتضرران من الحضور، لا يحق إجبارهما، ولا يحق لنا أمرهما بالسفر أو بترك عملهما... بل يجب على من دعاهما أن يتكفّل بمصاريفهما... وإن كانا يتعرضان للتهديد يجب حمايتهما...

{وَإِنْ تَفْعَلُوا}، الضرر بالكاتب أو الشهيد، {فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ}، هي حالة تعبّر عمّا فيكم من الخروج عن شيء واضح معلوم قاله الدين الإلهي، وهذا التصرف ينبع عن فسوق موجود فيكم، ومن نظرته تعالى لحالة قيامكم بإضرار الكاتب أو الشهيد يصفها بأنها فسوق بكم، حالة خروجكم عن الدين الإلهي وأنتم تعلمون بأنكم تخالفون أوامره تعالى.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}، تجنبوا غضبه وعقابه، في كل ما تحدّثت عنه الآية، اكتبوا وأشهدوا... ولا تضروا الكاتب أو الشهيد.

{وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ}، بما قالته الآية تعلّمتم منه تعالى كيف تتعاملون ماليّاً مع بعضكم حتى لا تقعوا في المشاكل وحتى تكون معاملاتكم شرعية على مقياس رضاه تعالى.

{وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، أنتم تتعلمون من الذي يعلم كل شيء.

(وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ{283})

{وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ}، فكنتم مسافرين على الطريق، {وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً}، فلم تجدوا من يكتب لكم الاتفاق لأنكم على سفر ولستم في مدينة أو قرية حتى تحصلوا بسهولة على كاتب، لنقل إنّي التقيت بك في الطائرة، وأردت شراء سيارة منك، ونريد تثبيت الاتفاق، ولكن لا يوجد كاتب عدل في الطائرة، ولا نعرف الناس الذين فيها ليشهدوا... {فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ}، في هذه الحالة أدفع لك رهناً وهو أي شيء له قيمة، يدل على أني ارتبطت معك وأنك ارتبطت معي، لنقل إنّي دفعت لك مئة دينار، فهذا هو الرهن، والشرط أن يكون الرهن مقبوضاً يأخذه الطرف الآخر في الحال، فلا معنى للرهن إن لم تستلمه حين اتفقنا، أقول لك: اتفقنا أن تبيعني سيارتك بألف، وسأعطيك عربوناً "رهن" مئة، ولكن بعد يومين أعطيك المئة الرهن. فهذا ليس سليماً، فلا يمكنك ربط الطرف الآخر بالاتفاق إن لم تعطه شيئاً.

الآية السابقة وآيتنا الحالية تشيران إلى ضرورة كون الكاتب للاتفاقية لا علاقة له بالاتفاقية، فلا هو الدائن ولا المدين، لا البائع ولا الشاري... خاصّةً إن كانت الاتفاقية مهمّةً.

كل ما سبق من كيفية تسجيل الاتفاقات التجارية هو الأساس، ولكن كما يحصل أنك تأتمن شخصاً ما على مبلغ من المال، تقول له بالسرّ: احتفظ لي بهذا المال وسآخذه حين أحتاجه. ولا تكتب عليه ورقة ولا شهود، كذلك يحصل شيء منه في بعض الرهان والاتفاقيات.

{فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً}، فأعطى أحدنا للآخر أماناً لأنه لم يتمكن من كتابة الاتفاق وإشهاد شهود، أو لأنه كان يثق بالشخص الآخر، {فَلْيُؤَدِّ} فليسلّم الشخص {الَّذِي اؤْتُمِنَ} على شيء، فليدفع وليسلّم الأمانة لأصحابها، {وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ}، فليتجنّب العقاب من صاحب الاسم المميّز الله المسؤول عنه من مستوى إلهي، فلديه سبحانه عقاب لمن يخون الأمانة.

المعاملة التجارية كما تلاحظ، ليست مالية جافّةً، والشطارة والتلاعب لتحصيل مالٍ أكثر... هو جفاف إيماني في التفكير التجاري، الآية تعبّر عن التجارة بالأمانة، وتعتبر أن المال التجاري أمانة، وكما لا يناقش الناس في ضرورة ردّ الأمانة

لأصحابها، فمال التجارة والشراء والبيع والدين... هو أمانة، يجب أن تعطي الناس حقّهم فهو أمانة عندك، ولا يحق لك الاحتفاظ بما هو للناس.

يعني، في حال اتفقتم وحصل ارتباط بالرهن، وبسبب الظروف القاهرة لم تكتبوا ما اتفقتم عليه، فلا يحقّ لمن أخذ الرهن أن ينكره، أو أن يتراجع... فإن لم يكن بينكم كتاب عن الاتفاقية فهذا لا يعني أنه لا يوجد شرف وأمانة، في عصرنا بعض الناس يجرون الاتفاقات بين بعضهم ويكتبونها، ولكن يتملّص منها أحدهم بحجّة أنه لا قيمة للاتفاقية التي لم يكتبها كاتب عدل مرخّص من الدولة مع طوابع وأختام الدولة على الاتفاقية... إنكار هكذا اتفاقيات هو فعل سوء وعليه عقاب.

{وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ}، فلا تسكتوا ولا تقولوا الشهادة على اتفاقية كنتم عليها شهوداً، فإذا كنت شاهداً فحضرت ورأيت وسمعت، فلا تسكت إذا حصل خلاف بين الأشخاص الذين شهدت على الاتفاقية بينهم، بل يجب أن تشهد وتقول ما تعلمه.

{وَمَنْ يَكْتُمْهَا}، ومن يسكت فيستر ويخفي الشهادة، {فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ}، فأساس فكره ونفسيته قد ارتكب سوءاً وهو يعلم بأنه يرتكب السوء الصريح الواضح، لا يظن أنه لن يأثم لأنه لم يفعل شيئاً، كتم الشهادة فعل سوء، قد نفكّر بأن الذنب يكون على شيء أفعله فقط، فالذنب على فعل الغيبة باللسان، فاللسان آثم. على فعل القتل، فاليد آثمة... ولكن من كتم الشهادة لم يفعل أي شيء! لا بل فعل، فقلبه آثم، فهو ليس حرّاً في أن يكتم الشهادة.

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}، يعلم سبحانه من عنده نيّة ارتكاب السوء، ويعلم من يتلاعب بالكلام والاتفاقيات... لا شيء يغيب عنه سبحانه، يعني أنتم تحت المراقبة وعلى كل الأخطاء حساب...

(لِّلَّهِ ما فِي السَّمَاواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {284})

في ختام السورة، نتذكّر بدايتها، حيث تمحورت حول انقسام الناس لفئات وأنواع متعددة... فمنهم المؤمن الخالص، والكافر الخالص، والمائل للإيمان، والمائل للكفر أكثر... هنا الآيات تختتم كل المعاني التي مرّت:

{لِلَّهِ}، لصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، وهذه حدود كل الدنيا التي فيها المخلوقات وكلّها بما فيها منسوبة له سبحانه، حيث صمّمهم وخلقهم ويتابع شؤونهم وهم تحت سيطرته، {وَإِنْ تُبْدُوا}، تظهروا تقولوا، {مَا فِي أَنْفُسِكُمْ}، فتظهر نواياكم وضمائركم، الإيمانية أو الكفرية، {أَوْ تُخْفُوهُ}، فلا تظهروا ما في أنفسكم من كفر أو إيمان، على كلا الحالين، {يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ}. إذا كان الشخص كافراً ولكنه أخفى كفره لأنه مضطر، أو لأن مصالحه ستتضرّر إن أعلن كفره... أو كان مؤمناً ولكنه أخفى إيمانه خوفاً من الموت... أو كان الشخص معلناً لكفره، أو معلناً لإيمانه... فكل ذلك يحصل في مملكة الله تعالى الذي يعلم كل ما يجري، وسوف يحاسبنا تعالى عليه في الآخرة.

{فَيَغْفِرُ} سبحانه، {لِمَنْ يَشَاءُ}، حيث أمامه تعالى خيارات عديدة وقد أخبرنا سبحانه أنه شاء التجاوز عن سيئات المؤمنين المطيعين المصلين المزكّين المتصدّقين... هؤلاء إن صدر منهم ذنب واستغفروه تعالى فسيغفره تعالى لهم.

{وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ}، حيث أمامه تعالى خيارات عديدة وقد أخبرنا أنه تعالى شاء تعذيب الكفّار والمنافقين والفاسقين.

صحيح أنه تعالى حرّ ويفعل ما يشاء، ولكن هل هذا يعني أنه سبحانه قد يرمي المؤمن في النار، والكافر في الجنة، لأنّه حر ويفعل ما يشاء! للأسف هناك بسطاء يفهمون هذا من القرآن ومن أشباه آيتنا هنا، ولا ينتبهون أنني أنا حرّ وأنت حرّ ويمكننا فعل ما نشاء، فهل هذا يعني أننا بلا أخلاق وبلا حكمة وعبثيّون! الله سبحانه فيه كل الصفات الحميدة، فهو سبحانه يتصرف على حسب صفاته الحسنة، فهو حكيم ودود رحيم... شديد العقاب... وقد أخبرنا مراراً وتكراراً وبمختلف أنواع العبارات أنه شاء مجازاة المؤمنين بأحسن الجزاء، وشاء مجازاة الكفار بما كانوا يعملون من سيئات، فما معنى قول الذي يفسّر بعض الآيات مثل آيتنا هنا أنه تعالى حرّ وقد يشاء إدخال فرعون إلى الجنّة!

{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، فكلّ شيء تحت قدرته سبحانه حيث يمكنه فعل أي شيء يريده بهم، عندما قرّر أن يغفر للمؤمنين فلا أحد يمكنه منعه، وعندما قرّر سبحانه تعذيب الكفّار فلا أحد يمكنه منعه.

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ {285})

{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ}، اعتقد الذي ينقل الرسالة الإلهية للناس بما ينزل عليه أنه نازل عليه من المسؤول عنه من مستوى إلهي، {وَالْمُؤْمِنُونَ}، كذلك آمنوا بما نزل على الرسول أنه من ربّهم، وما نزل يمكن تلخيص الأساسيات فيه لما يلي:

{كُلٌّ}، كل واحد من المؤمنين، {آمَنَ بِاللَّهِ}، اعتقد بالله تعالى إلهاً واحداً أحداً...

{وَمَلَائِكَتِهِ} (ع)، فاعتقد أنها كائنات تطيع ربها سبحانه ولا تعصيه وتقوم بكل ما يأمرها به تعالى على أتم وجه ومن دون أي خلل، لأن الملائكة (ع) هي التي تنقل رسالة ربنا سبحانه إلى رسله، فإن كان عندنا شك في قوّتها وصدقها وأمانتها... فكيف سنعتقد بأن الرسالة الإلهية قد وصلتنا سليمة!

من المفيد هنا استحضار ما ورد في سورة النجم، حيث تجد المعنى العميق لشهادة الرسول محمّد (ع) وإيمانه على ما ينقله لنا، من ناحية هو نموذج عن أرقى سلامة قلب، أرقى وأصفى وأنقى أساس فكر ونفسية، وبالتالي فهو كإنسان مرجعي لنا لتمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، ومن ناحية ثانية كلّ ما يمكن لإنسان اختباره وله علاقة بالهداية فقد اختبره الرسول محمّد (ع)، وكنموذج عن ذلك مسألة رؤية الملائكة "بفؤاده" ورؤية السماوات العلى... في مقابل الذين اخترعوا أسماء ووظائف لملائكة وكواكب واعتبروهم آلهة وعبدوهم... فإن كان يهمّك هذا فراجعْ دراسة سورة النجم.

{وَكُتُبِهِ}، بالكتب التي نزلت على الأنبياء السابقين أنها كانت كتباً إلهيةً مثلها مثل القرآن، فالقيمة للكتب التي نزلت وليست للكتب المحرّفة التي بين أيدينا الآن.

{وَرُسُلِهِ}، واعتقد بالذين حملوا الرسالة الإلهية فلم ينكر كونهم رسلاً منه تعالى، وتفهمها بالعكس حيث هناك من آمن بالرسول موسى (ع) وأنكر رسولية الرسول عيسى (ع)، وهناك من آمن برسولية الرسولين موسى (ع) وعيسى (ع) وأنكر رسولية الرسول محمّد (ع) أمّا المؤمنون الحقيقيون فيؤمنون بكلّ الرسل الإلهية.

{لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ} تعالى، فالرسول محمّد (ع) والمؤمنون يعتبرون كلّ الرسل مثل بعض، فلا ينكرون أي واحد منهم، وكلّهم لهم نفس المكانة والاحترام.

من البديهي لك أنه ليس واجباً عليك معرفة أسماء وتاريخ الرسل السابقين لتؤمن بهم، فهذا لا أهمية له إلّا للموعظة والعبرة، ولكن الأهمية للإيمان بالخطّ الإلهي الممتد إلى أوّل ما تكلّفت البشرية وصولاً إلى آخر نبي، فهذا يعني أنك لست على دين بدعة مخترع، بل على دين عمره بعمر تأهّل البشرية للتكليف.

{وَقَالُوا}، فقال المؤمنون: {سَمِعْنَا}، فوصلت إلى أذهاننا كلماته تعالى، {وَأَطَعْنَا}، فنفّذناها والتزمنا بها، {غُفْرَانَكَ}، فنطلب منك يا ربّنا أن تتجاوز عن ذنوبنا، {وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}، ففي النهاية التي لن تتغيّر، سيكون مصيرنا نهايتنا في الآخرة حتماً بين يديك سبحانك.

تذكّر عندما تحدّثت السورة عن بني إسرائيل والمسيحيين عندما قال البعض منهم بأنّه تعالى له ولد، وبعضهم أنكر إيمانهم ببعض الرسل، وتذكّر أنهم جعلوا لأنفسهم رأياً في الملائكة (ع)، فيعجبهم الملاك ميكال (ع) ولا يعجبهم الملاك جبريل (ع)... وتذكّر إنكارهم الرسول محمد (ع) وإنكارهم الكتاب "القرآن" الذي نزل عليه...

ضع في بالك دائماً أنّه تعالى يصنّفنا كمؤمنين وكافرين على أساس نقاوة القلب "الفكر والنفسية" أولاً، فالذي قلبه مريض أو عليه غشاوة وأعمى... فهذا هكذا لوحده هو كافر أو مشرك أو فاسق أو منافق، هكذا لوحده وبسبب فكره ونفسيته وقبل أن يأتيه رسول بكلام إلهي، فلن يغيّر فيه الرسول أي شيء إن لم يغيّر هو نفسه فكره ونفسيّته، وبالعكس،

هناك من قلبهم سليم فهم من الأساس لا يخترعون آلهة أو عقيدة من خيالهم ولا يقبلون بشريعة فيها ظلم... فهم لوحدهم مؤمنون، وعندما يأتيهم رسول بكلام إلهي فهم يبقون على طبيعتهم ويلتحقون بالدين الإلهي الذي يعلّمهم الكتاب والحكمة... فهم يتماشون معه، وهناك العديد من الآيات كآيتنا هنا والتي تقول: المؤمن آمن بالله تعالى وبكتبه... عادةً نحن نفترض أن الشخص لا يكون مؤمناً، ويأتيه كلام إلهي، فيؤمن. وهذا صحيح من جانب أن المؤمن صار مؤمناً بالكلام الإلهي الذي وصله، وغير صحيح من جانب أن المؤمن أصلاً لم يتّصف بالإيمان حين وصله الكلام الإلهي، فهو من الأصل مؤمن، من الأساس قلبه سليم، وآمن بكلامه تعالى، ولمزيد من التوسّع راجعْ في ذلك دراسة الآية الثانية من هذه السورة "{ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}".

طبعاً هناك حالة من لم يكن مؤمناً، فكان كافراً مشركاً... وآمن، فهذا من بذرة الإيمان التي في قلبه آمن، فمما بقي مما زرعه تعالى فيه من سلامة فكر ونفسية آمن.

هناك شيء آخر تذكّره دائماً، فالقرآن لم يستعمل كلمة اعتقد أو أي من مشتقاتها، وفي أشعار العرب قبل الإسلام لم أجدهم استعملوا كلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا عن شيء ثابت في القلب والفكر، وتلاحظ القرآن استعمل كلمة آمن بشكل مرادف كثيراً لما نفهمه نحن الآن لكلمة اعتقد.

(لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ{286})

{لَا يُكَلِّفُ}، لا يفرض ولا يوجب فلا يأمر، {اللَّهُ نَفْساً}، فلا يأمر تعالى شخصاً أن يقوم بشيء، {إِلَّا وُسْعَهَا}، فبمقدار ما يسعها، وبما تقدر عليه، وبما يمكن للنفس أن تفعل يكلّفها تعالى فيأمرها بأن تفعل هذا أو تترك ذاك.

هذه القاعدة الإلهية لها وجهان، الأول من جهة ربنا سبحانه لأنه لن يأمرنا بشيء لا نستطيع القيام به، والثاني أنه سبحانه لن يحاسبنا إن لم نقم بشيء أمرنا به ولكننا لسبب أو لآخر لم نستطع عليه.

لنأخذ الصيام مثلاً، حيث يعلم سبحانه أننا نستطيع الصوم، ولذلك كلّفنا بالصوم، وقد أمرنا بشيء يمكننا القيام به، وكما ترى إنّ الملايين يقومون به بشكل عادي، ولكن إن كانت هناك حالة ضعف جسدي أو مرض، فهؤلاء ليس بوسعهم الصوم، والتكليف بالصيام يسقط عنهم.

القاعدة الثانية: {لَهَا}، لكل نفس، {مَا كَسَبَتْ}، ما حصّلت عليه مما نتج من أعمالها، فستحصل على الحسنات التي نتجت مما قامت به.

{وَعَلَيْهَا}، على كل نفس، {مَا اكْتَسَبَتْ}، ما تحصّلت عليه مما نتج من عملها السيّء، مما فعلته مباشرة أو مما نتج عمّا فعلته.

إذاً، القاعدة الأساسية هي أنّه تعالى لا يأمرنا إلّا بما يمكننا القيام به، وإذا التزمنا بما يأمرنا فلنا ما كسبنا "ما نتج" من ثواب حسن، وإذا لم نلتزم فلنا ما كسبنا فهناك سيئات سترتد علينا عواقبها.

هناك ظروف قاسية تمر بعض الأحيان على الناس، وهي ناتجة منّا شخصيّاً أو ممن حولنا أو ممن كان قبلنا، ومن هنا ينقل لنا سبحانه دعاء عن المؤمنين وهم في حالة صعبة، أو هم يتجنبون المرور بحالة صعبة، ولا يريدون أن تخرب آخرتهم بسبب الظروف الصعبة أو القاهرة، وأثناء قراءتها لا تَنْسَ القاعدتين السابقتين:

{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {لَا تُؤَاخِذْنَا}، لا تسجّل علينا مأخذاً أو مَحْمَلاً، فلا تسجّل علينا أننا ارتكبنا سيّئة، {إِنْ نَسِينَا}، فذهب شيء ما عن بالنا أن نقوم به وهو واجب علينا، فلم نتذكّره، مثلاً: أنا أعرف بوجوب تفقّدي لحال أهلي وأولادي، ولكني انشغلت، فنسيت المرور عليهم لأرى ماذا يحتاجون... وقد أنسى وعداً عليّ وعدّت الناس به وأغفل عنه ويذهب عن بالي...

{رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا}، إن {أَخْطَأْنَا}، فبالخطأ فعلنا شيئاً لم نكن نظّنه خطأً، أو أقنعنا أنفسنا بأنّه صواب، وعلى كل حال تبيّن فيما بعد أننا أخطأنا فلا تسجّل علينا أننا عصيناك وارتكبنا ذنباً، فلا تحاسبنا عليه.

في كِلْتَيِ الحالتين "النسيان والخطأ" يمكنك افتراض أنّ من ارتكبهما لم يعلم بأنّه صدرت منه سيّئة، بعكس من ارتكب الإثم لأن كلمة إثم هي توصيف للعمل الذي ارتكبته وأنت تعلم أنّه سيّء، لنفترض أنّك قمت بإثم، فأنت تعرفه وستتوب عنه وتطلب المغفرة عليه، ولكن هنا في هاتين الكلمتين "النسيان والخطأ" كان التركيز على الأعمال السيّئة التي تسجّلت عليك وأنت لا تدري بها أو لم تقصدها، فحصلت ولك علاقة بها... لنقل إنّك وظّفت شخصاً لا تعلم بفساده وأفسد، فأنت تتحمّل مسؤولية ويجب أن تصحّح ما نتج من فساد وأن تستغفر من هذا الخطأ وليس مغفوراً لك إن لم تستغفر منه.

الكلام يجر الكلام، وهذا يأخذنا إلى مفهوم قرآني أساسي: السيء يبقى توصيفه سيّئاً ولا يتغيّر توصيفه ليصير حسناً ولا بأي شكل، فالنسيان أو الخطأ الذي ينتج عنه عمل سيّءٌ، فعليه حساب، وهذا ما نفهمه مما نقله القرآن عن توجيه الكلام الإلهي للرسل بالاستغفار، فهم لم ولن يقوموا بعمل سيّءٍ عن قصد، فقلبهم سليم، ولكن بالخطأ أو نسياناً يكون لهم علاقة بأعمال سيئة، كحالة استغفار النبي داوود (ع) في مسألة الخَصْمَيْنِ، كما ورد في الآية 21 وما بعدها من سورة ص، وحالة تولية الرسول محمّد (ع) لأشخاص بمهام عسكرية وخلالها قتلوا أبرياءَ... فيتحمّل الرسول (ع) نصيبه من ذلك لأنه هو ولّاهم...

{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا}، لا تضع علينا، {إِصْراً}، تبعات من شيء سابق، {كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا}، فإذا قام مجتمع من الناس بارتكاب السيئات، فأولادهم سيحملون إصراً أي تبعات ما فعله أهلهم، لنقل إنّ الآباء لم يتجهّزوا لحرب الأعداء، فوقعوا تحت الاحتلال، فتحمّل أبناؤهم الإصر: تبعات هذه المشكلة وصاروا تحت الاحتلال... ولنقل إنّ الأهل قاموا بارتكاب السوء من الربا والغش... فيتحمّل الأولاد عقاب العيش في بيئة فاسدة... فالأساس في سنن الحياة الاجتماعية أن يتأثر الجيل الجديد بما تركه الجيل القديم، فهذا هو الإصر الذي تتحدّث عنه الآية هنا، فهو ما ينتج عما فعله الذين كانوا قبلنا، فيا ربنا لا تجعلنا نتحمّل تبعات ما فعل غيرنا، مثلما جعلت الذين كانوا قبلنا يحملون تبعات نتائج أعمال ما كان يفعل من كان قبلهم.

{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {وَلَا تُحَمِّلْنَا}، فلا تطلب منّا أن نحمل، {مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ}، ما لا قدرة لنا على حمله، فإن كان يوجد شيء واجب، ولكننا لا نستطيع حمله، فلا تجعلنا نحمله يا رب، مثلاً: لا تجعل مسار الأمور يجري باتجاه حرب أمنية، أو عسكرية، أو اقتصادية... ونحن لا قدرة لنا على صدّها والانتصار فيها، فإن كان لنا القدرة عليها فنحن مطيعون، ولكن إن كنت تعلم يا رب بأننا لا طاقة لنا بحملها فأبعدها عنّا.

تذكّرْ جيّداً، حيث قبل قليل نبّهنا سبحانه بأنه لا يكلّفنا إلّا بما نستطيع، هذا من ناحيته تعالى، ولكن الظروف قد تكون صعبة لدرجة أن الأمور تصير فوق طاقتنا على التحمّل، ففي هذه الحالة يسقط التكليف عنّا، والمؤمنون لا يطلبون سقوط التكليف بل هم مستعدون للتكليف بما يتحملونه حتى لو كان صعباً، وهنا ترى أنهم يطلبون السلامة.

{وَاعْفُ عَنَّا}، فمرّ عن سيئاتنا ولا تتوقّف عندها، والعفو بشكل عام أن لا تطالبنا بما لك عندنا. طبعاً هذا بناء على كلامه تعالى عن رحمته الخاصّة بالمؤمنين، فسبحانه لا يعفو عمّا يفعله الكافر أو الفاسق أو المنافق.

{وَاغْفِرْ لَنَا}، فتجاوز عن سيئاتنا، فسامحنا على سيّئاتنا التي ارتكبناها.

{وَارْحَمْنَا}، فَاعْتَنِ بنا لما فيه مصلحتنا.

{أَنْتَ مَوْلَانَا}، فنحن نعتبرك سبحانك مرجعاً لنا ونحن تابعون لك، فنسمع كلامك ونطيعه ونعتمد عليك سبحانك في مساعدتنا.

{فَانْصُرْنَا}، فحقّق لنا ما نرغب به، {عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}، على جماعة الناس المتفاعلة مع دينك بإنكاره.

الكلام هنا هو المعاني من الأفكار والمشاعر التي في المؤمنين وقد صاغها تعالى بكلام ينسبه لهم، فهي كتعليم منه تعالى لنا لنقولها، وفي نفس الوقت هي واقع حال أفكارهم ومشاعرهم حتى لو لم يقلها بالحرف ولا واحد منهم كما

تقولها الآية، فلا تتصوّر أن المؤمنين أو واحداً منهم قال حرفيّاً ما تقوله الآية هنا، ونقله سبحانه عنه، لا، لا داعي لهذا التصوّر فليس المقصود نقل أدعية المؤمنين بل المقصود الإضاءة على فكرهم ومشاعرهم وصياغته بكلام دقيق.

سورة آل عمران (3) ص 50
تركّز السورة على العقيدة الصحيحة الأساسية توحيده تعالى، والإسلامِ له تعالى، والكلام مع الجميع عموماً ومع المسيحيين خصوصاً، وتتناول أهم الجوانب المختصّة بالعقيدة والشريعة المسيحية وما يقابلها من عقيدة إلهية أصيلة، مروراً بمحاولات البعض من أهل الكتاب وخصوصاً البعض من المسيحيين لإضلال المسلمين وإخراجهم عن دينهم، وبثّ الفرقة بينهم...

ثم تنتقل السورة لتوجيه كلامها للمؤمنين وبلاءاتهم الاجتماعية والمالية وبأعدائهم، وقد وصلت إلى هناك من زاوية فرح بعض أهل الكتاب بالسوء الذي يصيب المؤمنين، على أساس أنه لو كان دين النبي محمّد (ع) صحيحاً لما أصاب المؤمنين به السوء... وتعرض لهم ولنا النظرة الإلهية لتلك المواضيع الأساسية في حياتهم...

نلاحظ السورة في قسمها الأول ركّزت على أساسيات العقيدة ولم تركّز على أساسيات التشريع كما حصل في سورة البقرة التي تناولت في جزء كبير منها تأكيد صحّة أساسيات التشريع الإسلامي وربطه بالتراث الديني الإلهي الممتد من أول تكليف للناس مروراً بالنبي إبراهيم (ع) وبالشريعة اليهودية، لأن قسماً من المسيحيين يعتمد على التوراة كشريعة، فيكون تصحيح شريعتهم مشتركاً مع تصحيح شريعة اليهود، أمّا القسم من المسيحيين الذي لا يعتمد شريعة التوراة، وهو مقتنع بالقليل القليل الموجود بين أيديهم في الإنجيل، فقد تحدّثت معه السورة بأن ترك الشريعة والاكتفاء بالقليل منها هو خطأ واضح فادح...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(الم{1})
هذه حروف نقرؤها مقطّعة هكذا: ألف لام ميم.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للّغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمّد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوّل سبحانه قسماً منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآناً: صار يمكننا قراءته من بعدما تحوّل إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوّل إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحاً أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآيات 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجنّ والإنس، ومسجّل فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة؛ فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى ممّا يتكوّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدّاً جدّاً عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيليّة أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمناً واشتقاقاً مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمناً واشتقاقاً من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تتسجّل فيها أعمالنا متصلّة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآناً "كتاباً يمكن للبشر قراءته".

أمّا بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معان خاصة لهذه الأحرف المقطّعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرّد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآناً، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيّاً لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطاً متماشياً مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحّة نفسه.

أمّا البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطّعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السريّة بينه تعالى وبين نبيّه محمّد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضاً لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مراراً وتكراراً عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسّط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمّل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرّاً لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصّص في مصطلحاتهم المطّاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوّف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قدّيسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمّق مزخرف لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحاً للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيراً آخَرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدّد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطّعاً في سورة ق"، هذا أيضاً باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلاً من فهم الأحرف مستعصياً إلا على قلّة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفّقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطاً بالاستذواق، ممّا لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطّعة ستكون جاذبة مستفزّة للكفّار الذين كانوا يسدّون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثّر ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نقوّم هذا الاحتمال ليكون عامّاً في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصوّر مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدّون آذانهم، فهو تصوّر بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سوراً تبدأ بأحرف مقطّعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، وتكرّر نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعاً"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدّماً في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرّر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، فماذا كنت تتوقّع منها؟ السحر؟ القوّة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السرّ الخاصّ بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوّة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرّها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كلّ ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، فلا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميّز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقترح تفسيراً للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمناً بالحق وملتزماً بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميّز ما بعده تميّز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحبّ الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلاً غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... فأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكراً على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

(اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ{2})
نفس الجملة وردت في بداية الآية 255 من سورة البقرة.

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، وهذه الجملة خبر منه تعالى لنا أنه الإله الأحد، وتجد في مختلف سور القرآن أدلّة كثيرة مختلفة منه تعالى على صحّة هذا الخبر وأبرزها بالنسبة لنا أنه لا أثر لأي فعل في السماوات والأرض لأي إله غيره، وأبرزها كخبر منه تعالى أنه لم ير أثراً لإله غيره وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 18 من سورة يونس "{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}"، ومما يعلمه من طبيعة نفسه يرى استحالة تواجد كائن آخر مثله وهذا ما تفهمه من سورة التوحيد...

أبسط ما نفهمه من القرآن أنه تعالى خلقنا وجعل فينا قابلية الوصول إلى معرفته كإله واحد أحد، بالنظر للآيات التي فينا ومن حولنا، وإن لم نخترع من أوهامنا أو هوانا أو تخريفاتنا... آلهة، فسنراه تعالى إلهاً واحداً أحداً.

لاحظ أنّ كلمة ربّ يمكن وصفي بها كربّ لعائلتي وذاك ربّ العمل وتلك ربّة منزل... أمّا كلمة إله فلا بالمعنى المتواطئ ولا بالمعنى المشكّك يمكن إطلاقها على غيره تعالى، فلا تدرجات فيها ولا المعنى يتحمّل مشاركة الكلمة مع كائن آخر غيره تعالى، وتراخى الناس في معنى كلمة إله ووصفوا بها من ليس فائقاً في الصفات والقدرات، فوصفوا بها كائنات خيالية ووصفوا بها إنساناً أو ملاكاً... نحن البشر اخترعنا كلمة إله لنصف بها ما نشعر به ونراه من أفعال كائن فائق القدرات، وهناك كائن واحد فقط بهذه الصفة "فائق القدرات: إله"، وأخطأ من تراخى باستعماله لكلمة إله واصفاً به غيره سبحانه.

{الْحَيُّ}، وكلمة حيّ كوصف لكائن فيها تدرجات تتناسب مع الكائن، عموماً الحياة هي الفعل والانفعال والتفاعل، فتفعل شيئاً وتتفاعل أو تنفعل من شيء، وتدرجات تطبيقها من نظرتنا نحن تبدأ من النبات الذي ينفعل من الماء والتربة والهواء والضوء... ويفعل النمو والثمر... مروراً بالحيوان الذي يفعل فيؤثّر على ما حوله، وينفعل فيتأثّر بما حوله... وصولاً لحياة الإنسان وهي ما ينتج عنه وما ينتج من الأخرين عليه... والآلة التي تنتج المصنوعات وتتأثر بالعوامل، فهي بشكل ما موصوفة بالحياة، مع الفرق الهائل بيننا وبينها، وهذا الفرق غير بعيد كثيراً عن الفرق بيننا وبين النبات الذي وبكل صراحة وصفه القرآن بالحياة، بل تحدّث القرآن عن فعل وانفعال "كشكل من أشكال الحياة" للأرض والسماوات والجبال، فمن ناحيته تعالى يمكنه التعامل معهم، ومن ناحيتنا نحن فهم جمادات لا حياة لها ولا وعي لها ولا بأي شكل.

هكذا ترى أنّ أي تعريف لكلمة حياة سيتأثّر بما هو على مقياسك أنت يستحقّ وصفه بالحياة، ولن أطيل عليك كثيراً فيمكنك مراجعة الأبحاث الكثيرة جدّاً والمنتشرة في الكتب والمقالات، والنابعة من نظرة دينية أو علمانية أو علمية... عن الحياة ومعناها، ولن تصل منها إلى أي نتيجة تجمع وصف كل شيء يقول عنه الآخرون إنّه حيّ، وما ذكرته لك هنا عن تدرجات انطباق كلمة حياة من الانفعال فقط لشيء ما، مروراً بالفعل والانفعال مع اختلاف في تدرجات مستويات ما يقصده أو ما هو مجبور عليه الفاعل والمنفعل، كالفرق بين النبات والحيوان والآلة... وصولاً إلى وصفه سبحانه وتعالى بالحياة على مقياس إلهي، فيفعل سبحانه ولا ينفعل، وكما ترى فهذا تعريف بسيط يتضمّن تدرجات تجعل كل شيء ينضوي تحت وصفه بالحياة، وانتقال وصفه بالممات حين يفقد ما سبق ووصفناه به بالحياة، فالإنسان يموت وجسده لا يزال ينفعل بالظروف البيئية حتى يتحلّل، ولكن ما كان موصوفاً به كحياة إنسان، قد فقده، وصار الكلام عن جسد لإنسان ميّت، فيفعل وينفعل الجسد بمستوى مختلف عن الحالة السابقة...

سبحانه حي، ومن عموم القرآن تعلم أنه تعالى يفعل بغيره ولا ينفعل من غيره. فيتأثّر الآخرون بأفعاله سبحانه ولا يتأثّر سبحانه بما يفعله الآخرون. ومن جوانب المقصود من وصفه تعالى بالحي، مقارنته تعالى مع ما اعتبره الآخرون آلهة، كالصنم الذي لا حياة فيه، أو أجدادهم الأموات، أو الآلهة الوهمية... وإن كانت السورة لم تتطرّق لهذه الاعتقادات ولكنها جانب من مقارنة وصفه تعالى بالحي، والجانب الآخر الذي تشير إليه بقية الآية والسورة عموماً أنه تعالى لم يخلق ما في هذه الدنيا ومات بعد ذلك، فوصفه تعالى بالحي هو وصف مطلق لا حدود له، لا بالزمن ولا بالنوعية، فبلا بداية كان

سبحانه موصوفاً بأنه حي، وإلى ما لا نهاية سيبقى موصوفاً بأنه تعالى حي، وهذه تعابير وصفية على مقياس ما نفهمه نحن للزمن وإلّا فطبيعته سبحانه لوحدها لا معنى للزمن بالنسبة لها، فبالنسبة للآخرين هو سبحانه الأول والآخر كما وصف نفسه في الآية 3 من سورة الحديد "{هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ...}".

{اللَّهُ}، {الْقَيُّومُ}، القائم بذاته على ذاته، طبعاً هو تعالى قيوم على مخلوقاته ولكن صفة الحي كانت له تعالى بالنظر إلى نفسه فكذلك صفة قيوم نفهمها بأنها له تعالى بالنظر إلى نفسه، فنحن أحياء ولنا كيان ووعي وفي بيئة نأكل ونشرب... لأنه تعالى قيوم قائم علينا، فلولاه تعالى لما كان لنا قيام، لكنّا أمواتاً بلا حياة، وهكذا نفهم أنه تعالى قيّوم فلا أحد منحه الحياة ولا أحد منحه الصفات أو القدرات... بعبارة أبسط: هو تعالى قائم بنفسه، كامل تام بنفسه لوحده.

نفهمها بشكل واضح عندما يصف سبحانه كل شيء بأنه تعالى هو خلقه، فمن ناحية هناك مخلوقات، ومن ناحية ثانية هو تعالى لوحده مختلف عن كل شيء. وقد ركّز القرآن على تكرار هذا الكلام لنميّز بين المخلوق، وهو حتماً متألّفٌ متركّبٌ من شيء ما مهما كان تركيب المخلوق بسيطاً صافياً "كالروح" فهو مؤلّف مركّب، أمّا سبحانه، فقيّوم، فليس مركّباً ولا مؤلّفاً من أي شيء حتى نسأل عمّن خلقه وعمّن قوّمه، فلكل مخلوق خالق، هو المبدأ القرآني الذي بتعابير عادية فهمنا منها أنه تعالى أصلاً لا ينطبق عليه سؤال: من خلق الله. لأن المخلوق له بداية وله كيان محدّد وله مادة "مهما كان نوعها، حتى لو سميتها طاقة أو نور أو روح أو جوهر..."، فهو مؤلّف من شيء ما... وكل هذا لا ينطبق عليه تعالى، فهو قيوم، ففي ذاته كل الصفات والقدرات، ولم يأخذها من أحد.

هذا يأخذنا إلى كلام أعمق، إلى حيث الطبيعة مختلفة تماماً، إلى حيث أسئلتنا النابعة من أنفسنا ومما نراه من حولنا، لا يعد لها أي معنى حين نستنبط أسئلة منها عن كيانه تعالى، وبعبارة أبسط فجملة "من خلق الله" هي جملة بلا معنى وغير صحيحة لأنه تعالى ليس مركّباً وليس له مادّة فكلمة مخلوق لا تنطبق عليه أصلاً حتى تسأل عمّن خلقه، فنحن نسأل عن العلّة والمعلول لمن فيهم صفات المعلول، ونسأل عن السبب والمسبّب لمن فيهم صفات تسبيبهم، أمّا سبحانه فطبيعته مختلفة ولا تنطبق عليه لفظة معلول ولا مسبّب...

ومن هذا الكلام ترى فرقاً جوهريّاً بين الآيات الدالة عليه تعالى وبين الأدلة الفلسفية، ففيها ما فيها وعليها ما عليها من تعليقات، وأمّا ما ذكره القرآن صراحة كآيات دالة عليه تعالى وعلى صفاته فهي أخبار عاكسة للواقع، وبالتالي فالواقع تكتفي بوصفه ولا تحتاج لأدلة على صحّته.

خذ مثالاً التعبير بإثبات وجود الله عزّ وجلّ عبر أدلة فكرية فلسفية... فهذه الطريقة بالكلام لن تجد ولا أي شيء قريب منها في القرآن، لأنه تعالى هو المتكلّم، وكلامه عن نفسه أخبار مما يعلمه هو سبحانه عن نفسه، وكلامه عمّا فعله وقرّره فهو أيضاً أخبار منه تعالى عما فعله وقرّره، وبما أن هذا هو الواقع، الحقّ، فكل شيء سيدل عليه ويؤكده، فحتماً هناك من صمّمني وخلقني، وحتماً هو حيّ وقيّوم... وحتماً قدراته فائقة... ولا يوجد إله غيره لأنه لا أثر لإله غيره...

هكذا ترى الفرق بين أدلة القرآن على صدق كلامه تعالى، وبين ما يسمّونه بالأدلة الفلسفية التي ورثها المسلمون من الفلاسفة وحاولوا تطبيقها على بعض آيات القرآن. ولست أنفي أهمية الدراسات الفكرية المنطقية، بل أنبّهك أن بعض أدلتهم من نوع الترف الفكري كدليل التسلسل والدور اللذين يتضمنان مفهوم اللانهاية الاعتباري... وبعض أدلتهم فاسدة ومبنية على معطيات فاسدة كنظرية الأفلاك التسعة والعقول العشرة...

(نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ{3})
الله الإله الأحد الحيّ القيوم، مستعملاً أحرفاً من لغة بشرية وكنموذج منها "{الم}"، {نَزَّلَ عَلَيْكَ}، أيها النبي محمد (ع)، {الْكِتَابَ}، وهو القرآن، {بِالْحَقِّ}، بالصواب، وليس بالباطل أو بالعبث أو بالظلم، لأنه سبحانه نزّله سيكون انعكاساً لصفاته الحسنة الفائقة سبحانه، ومحتواه حق صحيح صائب وليس فيه كذب أو كلام باطل سيء، ومن ناحية ثانية بما أنه الإله الأحد يحقّ له تنزيل كتاب علينا لنلتزم بما فيه، وسنتحاسب على ذلك وإلا لكان تنزيله عبثاً، والنقطة الأهم من توصيف نزول الكتاب بالحقّ هي الإجابة عن كلام وقح: خلقني الله وأنا حرّ ولست ملزماً بأي كلام منه.

ويجيب عن تساؤل يخطر بالبال: لماذا لم يخلقنا سبحانه ويتركنا ولا يتدخّل بنا؟ والجواب أنه تعالى محقّ مصيب حين نزّل كتاباً فيه عقيدة وشريعة مفروضة علينا، بعبارة أبسط: سبحانه له الحقّ في ذلك لأنه الإله.

الكتاب الحقّ هو: {مُصَدِّقاً}، مؤكّداً مؤيّداً، {لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ}، فهو يؤكّد الكتب التي سبقته على أساس أن القرآن على الخط المتتابع لنزول كتب إلهية سبقته، فهو يؤكد أنّ الكتب السابقة نزلت من عند الله تعالى ولا ينفي ذلك. تفهمها بسهولة إذا قارنت إنكار اليهود للإنجيل، وإنكار اليهود والمسيحيين للقرآن، وتصديق القرآن للتوراة والإنجيل بأنهما "بالأساس" كتابان إلهيان.

ضع في بالك دائماً أنّ تصديق القرآن للكتب التي سبقته لا يعني أنها ليست محرّفةً، لا، بل يعني فقط وفقط تصديقه بأنّها في الأصل كتب نزلت من عنده تعالى، وأنّ القرآن امتداد لهما وليس ديناً جديداً. وتفهم نفس المعنى من كلام العلمانيين حين يقولون عن الكتب الثلاثة "التوراة والإنجيل والقرآن"، أنها نفس الدين، ويسمونه الدينَ الإبراهيمي أو الدين التوحيدي.

{وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ}، وهي الكتاب الذي نزل على النبي موسى (ع)، وبحسب أقوال اليهود فهي الأسفار الخمسة الأولى من التوراة الحالية، حيث أضاف اليهود إليها فيما بعد كتباً أخرى منسوبة لأنبياء ولعلماء يهود، فصارت مجلّداً كبيراً ويسمونه كلّه توراة. نلاحظ أنه حتى التوراة المنسوبة للنبي موسى (ع) "والإنجيل" لم تأتِ بصيغة القول منه تعالى مثلما ترى طريقة كلام هذا القرآن أنه كلامه تعالى، بل تراها بصيغة نقل الكلام عنه تعالى وعن النبي موسى (ع)...

وأنزل تعالى، {وَالْإِنْجِيلَ}، على النبي عيسى (ع)، والكتاب الحالي الذي يسمونه الإنجيل هو مجموعة كتب فيها أشياء من سيرة حياة وأقوال السيد المسيح (ع)، فيها بعضٌ من جمل الإنجيل الأساسي. وأحيلك إلى أي مصدر محايد لترى أن الأناجيل الحالية من تأليف الذي تحمل اسمه، فلوقا ألّف كتاباً منها ومرقس ألّف كتاباً... وأنّ الكثير من الأناجيل كانت منتشرة في بداية المسيحية من بعد وفاة النبي عيسى (ع) واختارت منها الكنيسة هذه الأربعة المشهورة حالياً، ومؤلّفوها ليسوا من تلامذة النبي عيسى (ع) ولم ينقلوا الكلام مباشرة منه... وأضافت الكنيسة لها كتباً أخرى...

بغضّ النظر عن التحريف في تلك الكتب فإنّ هذا القرآن ليس ديناً جديداً بل هو على نفس خط تلك الكتب الإلهية التي نزلت من قبل، والكتابان الرئيسيان اللذان نزلا قبله هما: التوراة والإنجيل.

مراراً وتكراراً لفت القرآن انتباهنا للامتداد التاريخي لدينه تعالى، من أوّل بشري تأهّل ليتكلّف "آدم (ع)" مروراً بالنبي نوح (ع)... إلى آخر رسول مع كتاب "محمّد (ع)"، حتى يتميّز الدين الحقّ الإلهي بهذا العمق التاريخي لآلاف السنين عن بقية الأديان التي اخترعها الناس.

(مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ{4})
التوراة والإنجيل نزلا، {مِنْ قَبْلُ}، القرآن، وكل هذه الكتب نزلت: {هُدًى لِلنَّاسِ}، لتضع الناس على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، إلى الطريق الصحيح في الإيمان والعمل الصالح الذي يوصلهم لرضاه تعالى وجنّة الآخرة.

{وَأَنْزَلَ} سبحانه {الْفُرْقَانَ}، إذْ إنَّ كل الأشياء التي أنزلها تعالى يمكن وصفها بكلمة مختصرة: فرقانٌ. فهي تفرق بين الحقّ والباطل، وتجعل الفرق واضحاً بين الصالح والفاسد، فلا حجّة للناس عليه تعالى ولا يمكنهم القول إنّهم لم يستطيعوا التفريق بين الحق والباطل، بين دينه تعالى وبين دين من اختراع الناس.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا ولم يؤمنوا، {بِآيَاتِ اللَّهِ}، بالأمور المميزة المنسوبة له تعالى، والكلام عمومي لكل الآيات مما خلقه تعالى ومما قاله، وسياق الكلام هنا عن الذين لم يؤمنوا بتلك الكتب المميزة والمنسوبة له تعالى، والتي تدل على امتداد تاريخي عميق لدينه تعالى وهي فرقان، فالكافرون، {لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ}، لهم ضرر لا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه.

{وَاللَّهُ عَزِيزٌ}، منفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره...

{وَاللَّهُ}، {ذُو انْتِقَامٍ}، منسوب له تعالى صفة الانتقام، فمن يرتكب السوء بمخالفة أوامره سبحانه فلن يتركه تعالى من دون عقاب، بل ينتقم منه تعالى ويعاقبه سبحانه على ما فعله من سيئات، ومن عموم القرآن تعلم أنّ الانتقام الإلهي حتمي لمن مات وهو مصرّ على الكفر، وسبحانه عزيز فسيفرض هذا الذي قرّره من تعذيب للكافرين.

إذاً نحن أمام كتاب وكتب نزلت من الإله الأحد الحي القيوم، فما معنى كفرنا بها! وما معنى إنكارها وترك ما فيه! استخفافاً أم استهتاراً أم مزاجيةً... فخذوا علماً بأنّ الكفر بالكتب الإلهية عليه عقاب شديد، وبعد ذلك فأنتم وشأنكم آمنوا أو اكفروا فالله عزيز ذو انتقام.

كلمة عزيز تشمل أنه تعالى لا يحتاج حتى لهذا الانتقام، فلن يصيبه تعالى الاضطراب ولا القلق إذا لم ينتقم، فهم تحت السيطرة وراجعون إليه تعالى... فالانتقام بالنسبة لنا يرتبط بالمشاعر عندما نوصف نحن به، ولكنه بالنسبة لله تعالى هو وصف لإله ولا يتضمّن أي انفعالات إنسانية، فهو أخذ الحق الإلهي منهم، حيث كفروا به تعالى، وأهانوا مكانته عزّ وجلّ، واستهتروا بكلامه سبحانه وتعالى، وسخّفوا مخططه سبحانه... فمحاسبتهم على هذه الأمور بالتعذيب هو انتقام منهم لقلّة أدبهم على المقام الإلهي.

نتذكّر دائماً أنّ لغتنا تتحمل وصف ما تستطيع عليه قدراتنا الفكرية، فطالما أنا بعيد كل البعد عن فهم الطبيعة الإلهية، فلا يمكنني وضع كلمات دقيقة لوصفه تعالى، ولوصفه تعالى سأستعمل الكلمات التي أوصّف بها المخلوقات، وأسحب منها ما هو خاص بالمخلوقات لتنطبق عليه تعالى ويصير مستواها إلهيّاً، فأنا أسمع بطبلات أذني، أو بإشارات كهربائية على أعصاب دماغي، أو بتفاعل كيميائي بالأعصاب، أو بتفاعل كيميائي في خلايا الدماغ... ومجال سمعي محدود بنطاق ذبذبات محدّد، ومجال فهمي للإشارات ليكون لها معنى بالنسبة لي، وهو محدود أيضاً، فأنا أسمع والله سبحانه يسمع، ولكن مع الفرق الهائل في تطبيق الكلمة عليّ وعليه تعالى الذي يسمع كلّ شيء مهما كان نوعه، ويسمع ما لا أسمع، وما لا أفهم إن سمعته، وما لا أفهم ما معنى سماعه أصلاً، ككلام السماء والأرض.

هكذا وصفه تعالى بأوصاف المشاعر، من حبّ وغضب وانتقام... فهي بالأصل من لغة البشر ولاستعمال البشر، وليست لغة إلهية ولتوصيفه تعالى، وحتى نفهم معناها الدقيق حين نصفه تعالى بها، فإننا نسحب منها ما هو بشري، فسبحانه لا يتأثّر بأي شيء، ويغضب كموقف منه تعالى من الفاعل للسوء، ويحبّ سبحانه كموقف منه للمحسنين... فكلّ ما يخطر ببالنا من ابتسامة أو انبساط لعضلات الوجه... كتعبير جسدي للحبّ، فلا معنى له بالنسبة له تعالى. وكذلك الانتقام، فهو بنا مرتبط بتغيّرات تحصل فينا، ولا ننام من التفكير به، ونكون عصبيين... إلى أن ننتقم ونأخذ حقّنا من الآخر... أمّا سبحانه فلا يعني وصفه بهذه الكلمة إلّا أنه تعالى سيأخذ الحقّ حتماً ممن عصاه وأساءَ.

(إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَىَ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء{5})
{إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى}، إنّ صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز لا يستتر، {عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}، فكلّ الأمور أمامه سبحانه مكشوفة واضحة، فالذي آمن بآياته فهو تعالى يعلم به ووعده بالأجر، ومن كفر بها فهو تحت المراقبة ووعده تعالى بالعذاب الشديد.

ضع في بالك دائماً أنّ كلمة سماء توصيف لعموم ما علا، مهما كان نوعها، وأي مقابل لها فهو أرض. فأرضنا ليست الأرض الوحيدة، وليست الوحيدة حتى في كوننا، سطح القمر أرض، والسطح الغازي للمشتري أرض أيضاً... فهناك سبع سماوات ولكل سماء أرض أو أراضٍ في مقابلها، وترى ذلك واضحاً في تعبير الآية 12 من سورة الطلاق "{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...}".

(هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{6})

للفت الانتباه على أنه سبحانه يعلم كل شيء:

{هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ}، فيجعل لكم صورة، فيجعل لكم هيئة وقواماً وشكلاً إنسانياً، {فِي الْأَرْحَامِ}، في مكان البويضة في بطن "رحم" الأم، فعندما تكونوا أجنّة في بطون أمهاتكم تتكون صورتكم فتتكون هيئتكم فأعضاء جسدكم تأخذ صورة إنسان.

ويصوركم، {كَيْفَ يَشَاءُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة وبأي صورة أراد فيمكنه تصويركم، والصورة التي أنت عليها الآن وصورتي كما أنا... هي التي شاءها تعالى أن تكون لنا مذ كنّا في أرحام أمهاتنا، من صورتي وأنا جنين فطفل ففتى... فصورتي الإنسانية الخاصّة بي هي التي تميزني عن بقية الحيوانات.

فهناك في مكان ليس مكشوفاً أمامكم، تتشكّل صوركم، فأنتم لا تفعلون أي شيء أثناء حصول الصورة لكم أو لغيركم، فهو تعالى من أساسكم قد شكّلكم، فكيف سيخفى عليه تعالى شيء ما في السماوات والأرض! ومن ناحية ثانية فأنا ما علاقتي وما سيطرتي على صورتي التي تشكّلت بها؟

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، فلا موصوف بصفات الألوهية الفائقة ولا بالقدرات الفائقة إلا هو سبحانه، وهنا الكلام عن التصوير في الأرحام فهذه قدرة من مستوى إلهي، وبقرار منه تعالى فوق قرار أي كائن آخر يخلق ويصوّر... فهذه نماذج عن الصفات الألوهية التي لا يمكن لأحد أن يغيّر فيها بدون سماح منه تعالى بذلك، فسيطرته تعالى واضحة علينا من بداية تصويرنا. ولمزيد من التوسّع حول جملة "لا إله إلا هو" راجع دراسة الآية الثانية من هذه السورة.

والله، {الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... فتصويرنا في الأرحام من تصميمه تعالى ولا يمكننا التدخّل من مستوى إلهي في ذلك.

والله، {الْحَكِيمُ}، فيرى الصوابية في الأمور وقراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب فقراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول بأن أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فلا يفعل لغاية له سبحانه. وهنا الكلام عن تصويره تعالى عن حكمة.

ننتبه جيداً، فتفسير كلامه تعالى بسذاجة سيوصلنا إلى الإيمان الساذج، فقديماً وإلى الآن لا تزال منتشرة عقلية الإيمان به تعالى بدفعه سبحانه إلى حيث لا نعلم سبب حصول الأشياء، وقديماً فهموا كلامه تعالى عن تنزيله للمطر وإنباته للنبات وخلقه لآدم (ع)... أنه عمل يقوم به تعالى مباشرة "بيديه"، علماً أنه تعالى كان يلفت انتباهنا لتصميمه للدنيا بحيث يحصل فيها ما حصل، على قياس ما ورد في الآيتين 63 و64 من سورة الواقعة "{أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ، أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}"، والعديد من الآيات التي نسبت صنعنا نحن للسفن له تعالى، ومنه الآية 12 و13 من سورة الزخرف "{... وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ، لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ}"، على أساس أنه تعالى خلقنا وفينا هذه القابليات التي تؤهلنا لصنع السفن والزراعة في بيئة تحفّزنا على ذلك، وبالتالي فهو تعالى الذي صنع الفلك وزرع.

فالكلام هنا عن تصويره تعالى لنا في الأرحام يشير إلى تصميمه لنا هو تعالى من مستوى إلهي بحيث نأخذ صورتنا في الرحم، وقديماً علم الناس أن الأهل لهم تأثير على صورة أولادهم، فكثير من الأولاد يشبهون أهلهم، فهذا تصويره تعالى لنا في الأرحام بحيث نرث الجينات من أهلنا ومن متغيرات بيئتنا... وحالياً يمكننا التلاعب بالجينات لتغيير صورة الجنين، وهذا لا يعني أننا كمؤمنين سندفعه تعالى إلى الخلف إلى حيث لا نعلم السبب ونقول أنه تعالى يصورنا بتصميمه للجينات... فحتى تلاعبنا نحن بصورة الجنين، هو نفسه تصويره تعالى لنا في الأرحام، مثل صنعنا للسفن ونسبتها له تعالى أنه خلقها، ومثل حراثتنا ونسبة الزراعة له تعالى، ومثله القتل حيث أحدهم ينهي حياة الآخر، وفعل الموت منسوب له تعالى... راجع الآية 17 من سورة الأنفال "{فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى...}".

وهكذا ترى أن السؤال عن الصور المشوهة لجنين ما، ليس تهمة له تعالى بخلقه لإنسان معاق أو مشوّه... فكلامه تعالى يشير إلى تصميمه تعالى لبيئتنا ولنا بحيث نتوالد متأثرين بمتغيرات تحكم علينا صورتنا وتكويننا، فإن تعاطى الأب أو

الأم دواء أو مادة كيميائية... تسبّب تشوّه خلقة الجنين، فهذا من فعله تعالى لأنه هو تعالى صمّمنا بهذه القابلية، وطبعاً هذا لا يلغي المسؤولية عنّا في أعمالنا في المساحة الحرّة الممنوحة لنا، وهذا لا يجعله تعالى مسؤولا عن الأمور السيئة الناتجة عن أفعال مخلوقاته، ولا مسؤولا عن الظروف المسببة للأمور السيئة بشكل يلغي أي مسؤولية للآخرين.

وفي دراستنا هذه سأكرر لك مثالا يسهّل لنا فهم الكثير من أساسيات مفاهيم القرآن، وهو مثال تخيلي عنك أنت لو قرّرت خلق كائنات في بيئة، وقررت جعلها بتفاصيل كثيرة، فجعلتها كائنات تنمو وتتكاثر... فتجوع وتحتاج للأكل وتشعر بالطعم لترغبه... فلنقل أنك خلقت أسماكا في حوض ماء، فهل سترش لهم الطعام على سطح الماء أم ستجعل بيئتهم ينتج عنها الطعام لهم؟ أو ستجعل الأمر خليطا بين نتاج جاهز للأكل من البيئة "كالتفاح في بيئتنا" وبين نتاج بحاجة للطهي "كالقمح في بيئتنا"... وهكذا تكون أنت محييها ومميتها ورازقها... وهنا السؤال: فهل ستكفر بك الكائنات ولن تعتبرك رازقا لها لأنها تجد الطعام في بيئتها، وهي تزرعه، ولا ترى تدخّلك المباشر... ولن تؤمن بك إلا إذا رششت لها الطعام على سطح الماء؟

كثيراً ما ذكر لنا القرآن أننا نعيش في بيئة مشحونة بأنواع مختلفة من الآيات فينا وحولنا وكلها تدل على إله فائق القدرات والصفات صمّمها وخلقها، وأنها أكثر من كافية ليؤمن من كان فكره ونفسيته سليمة، وأن أي آية أخرى زيادة فلن تجعل من لديه قرار بالكفر مؤمناً. فحتى لو نزلت علينا من السماء أطباق الطعام مطهية ساخنة، فالكافر سيبقى كافراً وسيجد تبريرات لنزول الطعام وتكون نافية لنزولها منه تعالى.

وبالعكس، فالذي قلبه، فكره ونفسيته سليمة، فسيراه تعالى فيما خلقه ومن نفسه ومن بيئته، من زراعته وصناعته للسفن... ومن أي شيء يحصل سيراه تعالى.

هنا الكلام عن تصويرنا في الأرحام، مثل رؤية الأسماك "التي خلقتها أنت" لتكاثرها وحملها لصورة والديها، وتأثّرها بمتغيرات بيئتها، فأنت خلقتها هكذا. طبعاً مع الفارق الهائل بين قدراتك أنت إن خلقت وبين القدرات الفائقة له تعالى، فأنت مخلوق، ومحكوم بقدرة أعلى منك، أمّا سبحانه فإله أحد، يحكم كلّ الآخرين بتصميمه لهم، ولا يمكنهم الخروج عن تصميمه تعالى، فمهما فعلنا، ومهما تلاعبنا بالجينات... فنحن سنبقى محكومين بما أتاحه تعالى لنا، ولن نصل إلى حيث نفاجئه تعالى بشيء لم يتوقّعه، فهذا مستحيل على العليم.

(هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ{7})

حتى نفهم ما تقصده هذه الآية، نتذكر ما فعله اليهود والمسيحيون بالكتب الإلهية، حيث حرفوا كلامها ومعانيها وتفاسيرها، حتى صارت بعض عقائدهم تخالف أساس العقيدة الإلهية! ووصل بعضهم بالتحريف لدرجة أنهم جعلوا النبي عيسى (ع) شريكاً له تعالى في الألوهية!

{هُوَ}، الله الذي لا إله إلا هو، {الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ}، أيها النبي محمد (ع)، {الْكِتَابَ}، فالكتاب الذي بين يدينا وهو القرآن، فهو نازل من عند ربنا سبحانه، ولا يغيب هذا عن بالك أبداً، فهذا: كتاب إلهي، كتاب من العلي، كتاب ربي... فلا كتاب أهم منه، ولا كتاب أصدق منه، ولا كتاب أحقّ بالقراءة أكثر منه... إذاً فالكتاب ليس من تأليف المخلوقات، بل من الله تعالى.

{مِنْهُ}، من الكتاب يوجد، {آيَاتٌ}، أشياء مميّزة بنسبتها له تعالى وهنا المقصود الجمل القرآنية، {هُنَّ مُحْكَمَاتٌ}، أي التي أحكم الله تعالى صياغة كلماتها وجملها بحيث جعلها سبحانه تعطي معنىً واحداً بسيطاً، كما نقول: أحكم إغلاق القنينة. فالجمل الواضحة والتي تعطي معنىً واحداً صريحاً هي المحكمات، مثلاً: لا إله إلا هو. ليس كمثله شيء. فهذه واضحة أنه لا يوجد أي شيء مثل ربنا سبحانه. ومثلاً ما ورد في الآية 32 من سورة المائدة "{... مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا...}"، فهذه الآية واضحة وصريحة بحرمة قتل النفس البريئة وبالعقاب الشديد جدّاً على ذلك.

هذه الآيات المحكمات، {هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ}، أساسه ومرجعه، فعندما تريد فهم القرآن بشكل واضح ففي القرآن جملٌ واضحة تدلك على المعاني الأساسية التي يريدك سبحانه أن تفهمها، وإلى تلك الآيات "الأمّ" ترجع لتقيس أو تقارن بقيّة الآيات عليها، مثلما نقول عن المراجع العلمية الأساسية إنها أمهات الكتب، لأننا نقيس ونقارن ما في بقية الكتب على الأمهات لنفهم معناها الدقيق.

{وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ}، ففي القرآن آيات تعطي معاني تشبه أشياء أخرى، فالجملة المحكمة نفهم منها معنىً واحداً، والجملة المتشابهة قد تجعلنا يخطر ببالنا عدة معاني. مثلاً: يد الله فوق أيديهم. إن الفضل بيد الله. وقالت اليهود: يد الله مغلولة، غلت أيديهم بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء... فكل هذه الآيات وغيرها تقول إن لله تعالى يدينِ، ولكن الآية التي تقول إنه سبحانه ليس كمثله شيء، تعطي معنىً واضحاً، بأنه لا يوجد شيء يشبه ربنا سبحانه، فهي محكمة واضحة المعنى، وأمّا الآيات التي ذكرت أن لله تعالى يداً، فهي من المتشابهات وهي تعطي معنىً صحيحاً بعد إرجاعها إلى المحكم، إلى ليس كمثله تعالى كشيء، لأن معنى اليد هو الطريقة والوسيلة والأدوات لتقوم بعمل ما، فربنا سبحانه يفعل ما يريد عبر قدرته بالسيطرة على الأشياء، وعبر الملائكة (ع) وعبر المؤمنين... فهذه أيادي ربنا سبحانه وليست يداً فيها خمسة أصابع ولحم وعظم!

فيما سيأتي سندرس الكلام بتطبيقه على واقع حال المسلمين الذين حرّفوا معنى كلامه تعالى، فكلام الآية عمومي لكل ما تشابه علينا واتبعناه تاركين المحكم، وحين نزلت كانت تشير لنوعية من الناس "أهل الكتاب" لا يختلفون عن المسلمين الذين نطبّق عليهم الكلام.

{فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ}، فأساس فكرهم ونفسيتهم غير سليم ويوجد فيه مرض وتشويش، فهؤلاء، {فَيَتَّبِعُونَ}، يلحقون يمشون خلف، {مَا تَشَابَهَ} {مِنْهُ}، من القرآن، فيتركون الأوامر الإلهية الواضحة كالتي تنهى المسلمين عن الفرقة والتمذهب والتناحر والتقاتل... ويتبعون آيات تعطي معاني مختلفة، فيفسرون آيات قتال الكفّار حتى على الكفّار المسالمين، بل حتى على بقية طوائف المسلمين، بل حتى على بقية المسلمين المسالمين!

ويتركون الآيات الواضحة التي تنفي أن يكون لله تعالى شبه، أو ندّ أو كفو... ويقولون بأن لله تعالى وجهاً ويداً ورجلاً مثل الآدميين! وينزل ليلة الجمعة على حمار ويتنقّل بين الناس! وكما ترى فهذا تطبيق لكلام الآية على أناس جاؤوا فيما بعد، ولكنه هو نفسه بالشبه الكلام عن نوعية الذين نزلت الآية في زمنهم وكانت تصفهم، فهم من نفس العقلية والنفسية والاختلاف فقط في التطبيقات لأمراضهم...

لماذا يتركون الآيات الواضحة ويستخرجون معاني تناسبهم من آيات أخرى؟ إنما يفعلون ذلك، {ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ}، فيريدون تعريض الناس لشيء يغيّرهم، فيقع الناس في فتنة الاختلاف في الدين ويستفيدوا هم من الفتنة ليصيروا زعماء وقادة... وليستفيدوا مالياً ودنيوياً...

ويتبعون المتشابه من القرآن، {وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ}، فيريدون طرح معان تطبيقية لكلامه، طبعاً يريدون طرح معان لم يقلها وقد استخرجوها من المتشابه، وهم في قلوبهم مرض فنتيجة تأويلهم للقرآن ستكون فاسدة حتماً، وتعلم من عموم القرآن أن سلامة القلب، سلامة الفكر والنفسية، هي المفتاح لفهم معاني القرآن، ومن كان في قلبه زيغ في فكرة ما أو في مفهوم ما فنتيجة تفسيره للقرآن ستكون زائغة في تلك الفكرة أو المفهوم.

والتأويل هو ما تؤول إليه الأمور، فهو الترجمة العملية لما قيل، فهو ما سيحصل بناء على ما قيل. فكلام القرآن عن القيام من الموت والجنّة والنار... هو كلام لم يتأوّل الآن، فلم يتحقّق فعلياً، لأننا لا زلنا في الدنيا، وسيكون تأويله حين تحصل الآخرة، فسيتحقّق في حينها، وترى هذا المعنى جلياً في الآية 53 من سورة الأعراف "{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ...}". وهكذا ترى مثالاً واضحاً عن معنى التأويل، ومثله الكلام عن تأويل المنامات، فهو سؤال عن تحقّق معناها، ونفس المعنى للتأويل يشير لفهم حقيقة وتطبيق عموم الآيات.

{وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ}، فالمعنى الحقيقي للكلمات يعلمها تعالى فقط، فهناك آيات مهما حاولنا أن نتأوّلها أن نفهمها على حقيقتها فإننا لن نستطيع، فلا يعلم حقيقة معناها أحد غير الله تعالى، فمن يفكّر بأنه يمكنه تصوّر وفهم حقيقة كل ما

يتحدّث عنه القرآن، فهو مخطئ، فأين إمكانياتنا العقلية من تصور بداية خلق الموجودات من ملائكة (ع) وجنّ وبشر! إن كانت قدراتنا لا تتيح لنا حتى معرفة أي شيء عن الملائكة (ع) أو الجنّ، فمن أين سنفهم بشكل واضح الآيات التي تتحدث عنهم!

والآيات التي تتحدث عن الآخرة، بحسابها وميزان أعمالها وجنتها ونارها... فمهما حاولت تصوّرها على حقيقتها، فلن تستطيع، فكل ما في بالك هو خيال وليس حقيقة، وفقط الله سبحانه وتعالى يعلم تأويل هذه الآيات فيعلم معانيها الحقيقية التطبيقية، ومراراً استعمل القرآن تعابير عن الدراية "ما تدري، وما أدراك..." ليشير للفرق بين سماعنا بالشيء وبين معرفتنا الحقيقية بالشيء. فسبحانه هو الأول وهو الآخر، فيعلم لوحده كل شيء، وبقية المخلوقات تغيب عنها أشياء كثيرة، فلا يفهمونها ولا يقدرون حتى على تصورها.

ومن هذا الباب لتأويل القرآن الذي لا يعلمه إلا سبحانه، فمنه حقيقة تكوينه تعالى، ومحاولة تصوّره تعالى، ومحاولة فهم الطبيعة الإلهية، وأزليته وسرمديته تعالى، أوليته بلا بداية وآخريته بلا نهاية... فهذه الأمور من المستحيل أن نعلمها إلا كخبر يصلنا منه تعالى ونؤمن به كما هو، وهذا المعنى ستراه في تكملة الآية:

فهناك من يتبع المتشابهات القرآنية، وهناك، {وَالرَّاسِخُونَ}، المتجذّرون الثابتون، {فِي الْعِلْمِ}، فلديهم علم ثابت غير متزلزل، {يَقُولُونَ} {آمَنَّا} {بِهِ}، اعتقدنا بالقرآن، {كُلٌّ} {مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا}، المحكمات من عند المسؤول عنّا من مستوى إلهي، فنفهم معناها بقدر ما نفهمه مع علمنا بمحدودية فهمنا، والمتشابهات من عند ربنا سبحانه فنردّها إلى المحكمات ونعرف أن علمنا محدود ويمكن أن نخطئ إذا لم نلتزم بكلامه سبحانه، وسنرى تكملة حديث الراسخين بعد قليل.

فلدينا آيات معانيها واضحة جدّاً "محكمات"، ولدينا آيات "متشابهات" يمكن لمن في قلبه زيغ أن يعطيها معاني مختلفة، والحقيقة الأساسية أن الفهم الحقيقي الكامل للقرآن ممكن لله تعالى فقط، لأن القرآن تحدث عن أشياء لم نكن موجودين حين حصلت، وتحدّث عن أشياء لم تحصل بعد، وعن أشياء أصلاً فوق قدرتنا على الفهم والتصوّر... فكيف يمكننا فهمها كلّها عن حقّ؟ وأمام آيات القرآن هناك المغرم بالتلاعب بالدين لغايات غير إيمانية، فيتبع المتشابه، وهناك الذين علمهم ثابت، نابع عن إيمان ثابت، فيعرفون أن كل القرآن رباني فيؤمنون به كما هو بردّ المتشابه إلى المحكم.

{وَمَا يَذَّكَّرُ}، فلا يستحضر في عقله وضميره وكلامه أن القرآن كلّه من عند الله تعالى، وأن تأويله الكامل ممكن فقط لله تعالى، {إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}، المنسوب لهم اللبّ، الذين عندهم في لبّهم في داخلهم شيء له قيمة، فلديهم عقل صاف ونفسية سليمة فيفكرون ويفهمون الأمور بطريقة صحيحة.

فسبحانه جعل هذه الجملة تقطع كلام الراسخين في العلم، ليبين أن عقولهم فهيمة، وأن هذه النوعية فقط يمكنها فهم كلامه سبحانه.

ومقابل الراسخين هناك الذي يغيّر في معاني الآيات لأنها لم تعجبه! ومن يتلاعب في كلماتها حتى تصير مقبولة على مزاجه! كأنه يريد ترقيع القرآن! وهذه العقلية سببها أنهم لم ينتبهوا لمصدر القرآن، ولم ينتبهوا لفقدانهم القدرة على تأويل كل القرآن، وأنه عليك ترك الآيات على ظاهرها من دون تلاعب، مع التمسك بالآيات الواضحة، وفهم بقية الآيات بالتنسيق والتماشي مع الآيات الواضحة.

لذلك نرى الراسخين في العلم يقولون: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا...

قبل أن نكمل، نسأل، لماذا جعل تعالى في الكتاب آيات متشابهات ولم يجعله تعالى كلّه محكماً؟ السبب هو ضرورة تبسيط القرآن حتى نتمكّن نحن من فهمه، فتبسيطه ينتج عنه جمل تتحمّل معاني متعددة لمن لم يدرسها بقلب سليم. وألفت انتباهك لدراستنا للقرآن هنا، فأنت تقرأ هذه الجمل لأنك لم تستطع فهم القرآن لوحدك، وقد بسّطت لك الجمل، وأنا بدوري اعتمدت على من سبقني، وأضفت مجهوداً جديداً، وبالتالي ستكمل أنت الطريق لتضيف مجهوداً جديداً لم أستطع أنا الانتباه له أو لم أفهمه، أو شرّدني زيغي عنه...

وكما ترى في هذه الدراسة، فتبسيط الجمل لأفهمها أنا وليفهمها الآخرون، هو ما أمرنا به تعالى حين أمرنا بدراسة كتابه، فالجمل التي أستعملها هنا لتبسيط معاني القرآن ليست أفضل من الجملة القرآنية، فلا يمكنك القول: لماذا من

الأساس لم يقل تعالى الجملة البسيطة التي أفهمها مثل الجمل الموجودة في هذه الدراسة! لا، فالجملة البسيطة دائماً تكون ركيكة وغير دقيقة، ولو كان القرآن كذلك، مثل كتاب البهائية الذين ينسبونه لله تعالى، والذي سيميتك من الضحك لركاكاته وسخافة تقليده للقرآن بطريقة صبيانية، فعندها ما الذي سيقنعك بأن القرآن كتاب إلهي إذا كان ركيكاً لا دقّة في كلماته ولا في صياغة جمله؟

وهناك سبب آخر، فاللغة البشرية نشأت منّا، من قدراتنا نحن على التعبير، فطائر البلبل يقدر على إصدار قرابة الواحد والعشرين نغمة ليعبّر فيها عمّا يريده من البلابل الأخرى، "مع قلّة ما يريده منها بحسب رأينا"، وهكذا ترى أنك مخلوق ذكي أذكى من البلبل ولكن تبقى مخلوقاً تعبّر عمّا تريده من المخلوقات الأخرى، فلغتنا لم تنشأ من تعاملنا مع كائنات أعلى منّا "بالثقافة"، فليس لدينا كلمات صريحة ومباشرة لعالم الملائكة (ع) والجنّ، ومن الواضح جدّاً أننا ليس لدينا كلمات صريحة ومباشرة للتعبير عنه تعالى، فاستعمال القرآن لكلمة يد الله تعالى ووجه الله تعالى... هو التبسيط حتى حدود الدقّة الممكنة من كلمات اللغة العربية، فليس تبسيطاً لدرجة الركاكة، ولا تعقيداً لدرجة استحالة فهمه، ولهذه الأسباب جعل تعالى في كتابه آيات محكمات بكلمات واضحة وصريحة، كآية "ليس كمثله شيء"، وعليها نقيس بقية الجمل القرآنية التي تصفه تعالى باليد والوجه...

بقي شيء، فكلام الآية عن المحكم والمتشابه والزيغ فهو كلام عمومي، عن أمور العقيدة أو الشريعة أو عن أخبار سابقة أو آتية أو عن المفاهيم... فخذ مثلاً كلامهم عن أنه تعالى حرّ ويفعل ما يشاء، وإن شاء في الآخرة فممكن أن يحصل ويرمي مؤمناً في النار ويجعل كافراً في الجنّة! وهذا كلام موجود في بعض تفاسير القرآن! فيقولون ذلك بالرغم من عشرات الآيات التي أخبرك فيها تعالى بصراحة ووضوح أنه شاء إدخال المؤمن إلى الجنّة ولن يخلف تعالى وعده... وخذ مثلاً كلامهم عن الزقوم أنه نباتات "سيليلوز" لها شوك وطعمها مقرف مرّ... فهذا تأويل سيطير منه فرحا أهل النار لو كان صحيحاً، فليس في النار إلا الحمم.

(رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ{8})

{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا}، فلا تجعل أساس فكرنا ونفسيتنا مُشَوَّشاً يميل وينحرف عن السلامة، {بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا}، بعد أن وضعتنا على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية التي ترضاها ونريدها، وبعد أن آمنّا بك سبحانك وبملائكتك (ع) وبكتبك... صرنا نرى الحقّ ونميّزه عن الباطل فلا تزغ قلوبنا فلا تجعلنا نرى السوء والباطل محبوباً مرغوباً، وهنا الكلام بالخصوص حين نحاول فهم دينك، لا تجعل قلوبنا تزيغ، وساعدنا لنفهم آياتك بشكل غير صحيح بدلاً من تأويلنا لها بالسوء.

{وَهَبْ لَنَا}، وأعطنا من دون أي مقابل منّا لك، {مِنْ لَدُنْكَ}، من عندك، {رَحْمَةً}، عنايةً بنا لما فيه مصلحتنا، {إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}، أنت الذي يهب بكثرة، أنت الذي يعطي كثيراً جدّاً جدّاً من دون أن يأخذ أي مقابل، فإذا وهبتنا من رحمتك فهذا شيء عادي بالنسبة لك سبحانك لأنك أصلاً وهّاب، كثير الهبة.

من كان قلبه صافياً لا زيغ فيه فلن ينحرف عن الهدى، ولكننا نعلم من أنفسنا أننا كبشر نشعر بالتعلق ولو بشكل طفيف بأشياء دنيوية، وهذا يحبّ المال، وذاك يحبّ الجاه، وهذا يحبّ الأولاد، وآخر يحبّ... عندما نريد فهم كلامه تعالى نخاف من تَحَرُّكِ هذا الحبّ لأمور دنيوية أن يجعلنا نزيغ عن الحق، مثلاً يكون عندي مصلحة ربوية مع البنك، وأقوم بتحوير الآيات التي حرّمت الربا بوضوح، وأتلاعب بمعناها حتى تناسب مصلحتي وأنا لا أشعر بأنّي تحت تأثير التعلق بشيء دنيوي! لأن الزيغ جعلني أراها هكذا! فألغى الواضح أمام عيني أنّه تعالى يحرّم الربا بدون قيد أو شرط، وأنا أحلّله من الآخرين المخالفين لديننا مثلما قال اليهود في الآية 75 من هذه السورة "{... قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ...}"، أو أحلّله لأني لم أشترط على البنك الفائدة وهو من عنده يعطيني إياها...

مثلاً في تفسير آيتنا السابقة عندي تعلّق بقدّيسين من مذهبي، وأريد رفعهم بأقصى ما أستطيع، وأفسّر الآية على أنهم الراسخون في العلم وأنهم يعلمون تأويل القرآن، عِلْماً أنّ سياق الكلام عن حقيقة انطباق الكلام القرآني على الواقع، وهذا شيء يتضمّن أموراً من غير الممكن إلّا له تعالى علمه، وبالخصوص فيما يتعلّق به تعالى بصفاته وقدراته، وبما يتعلّق بالآخرة التي لا نعلم عنها إلّا الخبر وسبحانه وحده يعلم حقيقة ما سيجري "وكأنه يراه"... هذا هو معنى التأويل،

وترى كلام القرآن مع النبي محمّد (ع) بعبارة "ما أدراك" كالتي وردت في الآية 3 من سورة الحاقة "{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ}"، وغيرها التي تشير لنفس المعنى الذي نقوله هنا، وهي كلام عن شيء يستحيل على مخلوق معرفته، لأنّه وحده تعالى يعلم كل تأويل القرآن، والبقية متاح لهم علم ما يستطيعون تأويله كبشر.

(رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ{9})
{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ}، لزمن، {لَّا رَيْبَ فِيهِ}، فليس لدينا حتى شعور قليل باحتمال أنه لن يَحْصُلَ، ويوم الحساب قادم حتمًا لأنك أنت سبحانك أخبرتنا بذلك.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ}، فلا يعطي سبحانه موعدًا ويخلفه بشيء آخر يخالفه، ولا يقول سبحانه عن شيء سيفعله ولا يُنَفِّذُهُ، فسيأتي الموعد بالتأكيد.

نحن نعلن أننا نؤمن بآخرتك التي وعدتنا بها، فلذلك أعلنّا إيماننا بكل ما قلت لنا، ودعوناك بكل ما سبق حتى تكون سبحانك راضيًا عنّا حين نلقاك.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئاً وَأُولَـئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ{10})
{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا آيات الله تعالى، وهنا الكلام عن إنكار توحيده وإنكار كتبه تعالى وإنكار المحكم من كتبه تعالى... {لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم}، فإذا كنت بحاجة لتأكل وتلبس وتصرف... فبالمال تَغْنَى وتحصل على ما تريده من أكل ولبس... أو كنت ستتعرّض لهجوم، فأنت بحاجة للحماية، والحرّاس أو أولادك يُغْنُونَكَ وتحصل على الحماية، وهؤلاء الذين لديهم سلوكيات مخالفة للدين الإلهي، فإن كانوا أغنياء وإن كان عندهم أولاد فلن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم {مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا}، هنا في الدنيا تدفع المال وتحصل على ما تريده، حتى الجريمة يمكنك الإفلات من عقابها بدفع الفدية والرشوة ويُغْنِيكَ المال عن العقاب، والأولاد هنا في الدنيا يَدْعَمُونَكَ بالمال، أو بمناصبهم ومعارفهم، أو بقدراتهم الجسدية، ويُغْنُونَكَ بالكثير من الأمور، ولكن في الآخرة، لن يَنْفَعُوا الذي حُكِمَ عليه تعالى بالعذاب، فلن يغنوا عنه بأي شيء إن كان كافرًا.

{وَأُولَئِكَ}، الناس الذين كفروا، {هُمْ وَقُودُ النَّارِ}، فهم بأنفسهم بأجسادهم بسيئاتهم يجعلون النار تشتعل، فهم حطب جهنم كنوع من وقودها، مثلما البنزين والكاز والخشب... وقود النار في الدنيا.

كما تعلم من عموم القرآن، حتى لو كان أولاد الكافر مؤمنين، فلن ينفعوه.

بقي شيء، فالقرآن عادة يعتمد ذكر النماذج البارزة لتقيس عليها بقية الأمور، هنا الكلام عن الأولاد كنموذج عن أقرب من يمكن أن تفكّر به، فمَنْ لديه عصابة من الغرباء، فلن يعتمد على دعمهم الدائم له مثلما لو كانت عصابته من أولاده، فإذا كان الأولاد لن ينفعوا الكافر، فبالأحرى أن الغرباء لن ينفعوه.

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ{11})
المنكرون لآيات القرآن، دأبهم، عادتهم في التصرف أمام الآيات، {كَدَأْبِ}، كعادة ما يُفْعَلُ باستمرار، {آلِ فِرْعَوْنَ}، أقارب فرعون بالنسب، وفرعون كان في بعض حقبات تاريخ مصر لقبًا لِلشَّخْصِ الحاكم، مثل كسرى عند الفرس والقيصر عند الرومان والملك عند العرب... ودائمًا يشير القرآن للفرعون الذي كان على عهد النبي موسى(ع) وحصلت أمامه آيات عديدة ولم يؤمن لا هو ولا آله، فدأب واستمرار هؤلاء المنكرين "حاليًا" من دون تغيّر في إنكارهم للآيات، مثل استمرار إنكار آل فرعون، ومثل، {الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}، من الناس أصحاب نفس العقلية والنفسية.

كانت تأتيهم آيات من المفروض أن تجعلهم يُؤْمِنُونَ، ولكنهم نوعية من الناس لها امتداد تاريخي على نفس العقلية، دأبوا على كفرهم واستمروا لا يتغيرون على نفس عقلية الإنكار.

{كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}، فالآيات الأمور المميزة المنسوبة له تعالى قالوا عنها إنها ليست صادقة وغير صحيحة، فهي ليست من الإله ولا تدل على الإله ولا يتوجّب علينا الإيمان بها وبما يقوله الرسل...

{فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ}، فتناولهم ولم يتركهم، {بِذُنُوبِهِمْ}، بمخالفتهم لأوامر ربهم سبحانه، وكما ترى فالكلام عن الذين هنا في الدنيا تعامل معهم سبحانه بحسب ذنوبهم، حيث أصابهم تعالى بكارثة، وبنفس الشيء بذنوبهم سيعاملهم تعالى في الآخرة.

{وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}، فما يعقب وما يأتي منه تعالى بعد مخالفتهم لأوامره لا يمكنهم تَحَمُّلُهُ من شدته، ولا يمكنهم الاعتياد عليه مع الوقت، لا، فالشعور بالألم والانزعاج والضيق الشديد هو دائم مستمر في كل لحظة.

لاحظ أن من أنكر آيات القرآن، أو تلاعب بها فترك محكمها ولاحق متشابهها ليستخرج منها شيئًا باطلًا، فمثله مثل فرعون وحاشيته، فهؤلاء تعاملوا مع آيات ربهم سبحانه بنفس الطريقة، فأنكروها، وتركوا وضوحها، ولحقوا تفسيراتهم الخاصة لها، وقالوا عنها بأنها سحر أو ناتجة عن ظروف طبيعية مترابطة متلاحقة... فلاحظ الشبه الذي تريدنا الآيات الانتباه له بين آيات جمل القرآن وبين آيات "والتي نسمّيها: معاجز" النبي موسى(ع)، فكلاهما آيات، وكلاهما يقع في مشكلة من يتلاعب بهما أو ينكرهما أو يكذّبهما، ويُؤَوِّلُهُمَا على مزاجه.

(قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ{12})
{قُلْ} أيها النبي(ع) وأيها المؤمن عبر هذا القرآن {لِلَّذِينَ كَفَرُوا}:

{سَتُغْلَبُونَ}، فلن تنتصروا ولن تحقّقوا ما تريدونه، {وَتُحْشَرُونَ}، فيتم جمعكم بقرار منه تعالى سواء قبلتم أم لم تقبلوا، {إِلَى جَهَنَّمَ}، إلى مكان موصوف بأن كلّ ما فيه سَيِّئٌ جِدًّا، {وَبِئْسَ}، أسوأ أتعس، {الْمِهَادُ}، الأرضية، المكان الذي تمّت تهيئته ليقف أو يجلس أو يستلقي فيه، فالفراش على الأرض هو مهاد جيد، ولكن لو فُرِشَتِ الأرض بالشوك، وأجبرت شخصًا بالنوم عليه، فالشوك أيضًا مهاد ولكنه عاطل، وجهنم أرضها وعرة ملتهبة يقضون عليها حياتهم، فهي أيضًا مهاد...

فلا هنا في الدنيا سيتحقق ما تريدون أيها الكفار، والأسوأ من ذلك مصيركم في الآخرة.

الآيات حين نزلت كانت تتحدث عن نموذج عام، فكلما كان هناك مؤمنون وفي مقابلهم كفّار، فإن الغلبة ستكون للمؤمنين إذا توافرت فيهم الشروط الإيمانية الكافية لِتَدَخُّلِهِ تعالى لصالحهم، وكدليل على أن النصر دائمًا سيكون للمؤمنين:

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ{13})
أيها الكفّار وأيها المؤمنون: {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ}، شيء مميّز كعلامة كدليل على أن النصر يكون للمؤمنين، والآية كانت، {فِي فِئَتَيْنِ}، في مجموعتين كل مجموعة منتسبة لمجموعة مختلفة عن الأخرى من الناس، مقاتلون من الناس المؤمنين ومقاتلون من الكافرين، {الْتَقَتَا}، تلاقيا تواجها، حيث التقيا للحرب، وحصل اللقاء في أرض المعركة.

{فِئَةٌ}، مجموعة من المجموعتين، {تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، فتقوم بأعمال لإنهاء حياة الآخرين في مسلك يرضى عنه ويأمر به، فهم ليسوا معتدين ولا طاغين ولا ظالمين، {وَأُخْرَى}، والفئة الأخرى، {كَافِرَةٌ}، ناكرة لربها ولدينه، فتقاتل في سبيل غايات سيئة لا يرضى عنها تعالى.

{يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ}، فيحصل للمؤمنين صورة محددة للكافرين بعددهم مرتين، {رَأْيَ الْعَيْنِ}، فهم فعلًا تحصل الصورة في أعينهم، أَنَّ عدد الكافرين أكثر من عدد المؤمنين بمرتين، فهي معركة كان فيها عدد الكفّار أكبر من عدد المؤمنين بمرتين، فلنقل إِنَّ المؤمنين ألف مقاتل والكفّار ألفان.

{وَاللّهُ يُؤَيِّدُ}، يساند يساعد، {بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة وقد شاء أن يؤيد بنصره المؤمنين المقاتلين في سبيله، ولذلك حتى لو كان عدد أعدائهم أكبر بمرتين، فسيؤيدهم سبحانه ويحقّق لهم ما يريدونه.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، في انتصار القلّة المؤمنة على الكثرة الكافرة، {لَعِبْرَةً}، شيء نعتبر به، فكرة أو اعتقاد نستخرجه من بعد سماعنا لحالة انتصار العدد القليل للمؤمنين على العدد الكبير للكافرين، والعبرة، {لَّأُولِي الأَبْصَارِ}، للمنسوب لهم القدرة على إدراك ووعي الأمور، فمن يرى الأمور والحوادث بوعي وفهم، فهو فعلًا يبصر ما يجري، فمن ينتبه بأنه حصل في التاريخ مرات عديدة أن انتصر المؤمنون وقد كان عددهم قليلًا وعدد الكفّار أكبر، فعليه أن يأخذ العبرة فيستخرج فكرة تثبت في ذهنه عن التدخّل الإلهي لمصلحة المؤمنين.

نتذكّر كيف انتصر جيش طالوت الصغير على جيش جالوت الكبير، ونتذكّر كيف انتصر قرابة ثلاثمئة مسلم في معركة بدر على أكثر من ألف مشرك، وبما أن السورة نزلت بعد معركة بدر فأقرب لفت انتباه لمن يقرأها في حينه سيكون لمعركة بدر، التي صارت نموذجًا جديدًا في حينها لانتصار المؤمنين القلائل على عدو أكثر منهم بثلاث مرات.

تأييده "نصره" تعالى لمن يشاء، تعبير يترك هامشًا ولا يفرض عليه تعالى نصر المؤمنين دائمًا، فقد يكونون أسوأ من عدوّهم ومنتمين فقط بالاسم لدينه تعالى وهم بغالبيتهم منافقون وفاسقون... وقد يتخاذلون ويفشلون ويجبنون... فهؤلاء لا يستحقون أن ينصرهم سبحانه، كحالة الهزيمة في معركة أحد والتي ستتحدّث عنها سورتنا هذه مطولًا من الآية 121 وما بعدها.

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ{14})
لماذا لا يؤمن بعض الناس بآيات ربهم سبحانه؟ لِنَرَ السبب:

{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ}، فهم يرون أشياء "مُزَيَّنَةً" حسنة جميلة ويشتهونها ويريدون الحصول عليها، من:

{النِّسَاءِ}، عبر شهوة النظر أو اللمس...

{وَالْبَنِينَ}، وهذه كلمة عامّة تجمع الأولاد الذكور والإناث إن لم يكن ما يُقَيِّدُهَا بالذكور، ويقابلها البنات التي حَصْرِيًّا للإناث، وتلاحظ في القرآن عدّة آيات نبّهت من حبّ الحصول على البنين أي الأولاد الذكور وكره الحصول على البنات واعتبرته ذنبًا، وبالنظر للعموم الغالب من المجتمعات الذين يُفَضِّلُونَ أن يكون لديهم أولاد ذكور، نَبَّهَ القرآن عدّة مرات من هذه النفسية المريضة، مع العلم بوجود أشخاص ومجتمعات قليلة يحبون أن يكون لديهم بنات، وعلى كلّ حال جعل القرآن تساوي حبّ الحصول على البنات والبنين من علامات الإيمان، والكلام هنا عموميٌّ عن حبّ الحصول على أولاد سواء من الذكور أو الإناث أو من كليهما.

وزيّن للناس حبّ... {الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ}، والقنطار هو تَقْرِيبًا: أربعة آلاف دينار من العملة الذهبية، أو تَقْرِيبًا: اثنان وخمسون ألف درهم من العملة الفضية، مع اختلاف في التقديرات بين بلد وآخر وبين وزن العملة المتداولة بين بلد وآخر، وما ذكرته لك هو أقرب تقدير لما كان مُتَدَاوَلًا في بيئة نزول هذه الآيات.

على أي حال كلمة قنطار تشير للكمية الكبيرة، كما نقول بالعامية: الملايين المملينة. فهم يحبون أن يكون لهم قناطير مقنطرة، أي كميات متكدسة من المال، من الذهب أو الفضة، وقديمًا كانت العملة المصنوعة من الذهب اسمها دينار والمصنوعة من الفضة اسمها درهم، وبتعبيرنا الحالي نقول: يحبون أن يملكوا ملايين ملايين الدولارات، أو مليارات مليارات الدولارات.

انتبه للفرق بين قنطرة التي لوصف الشكل المنحني في العمارات، وجمعها قناطر، وبين قنطار وجمعها قناطير والتي تشير لوصف الكمية الكبيرة.

وزيّن للناس حبّ... {وَالْخَيْلِ}، الحصان والفرس، {الْمُسَوَّمَةِ}، التي بكامل الصفات المرغوبة من الصحة والقوة.

وزيّن للناس حبّ... {وَالْأَنْعَامِ}، وهي عموم الحيوانات الموصوفة بأنها نعمة، وهي الماشية الأليفة التي نأكل لحمها من بقر وإبل وضأن وماعز... ويحبون أن يكون لديهم قطعان من المواشي.

وزيّن للناس حبّ... {وَالْحَرْثِ}، وهو صفة لعموم ما فيه قابلية إنتاج من بعد البذر أو الشتل فيه، وهنا المقصود الأرض التي تصير حَرْثًا بعد بذرها وشتلها... إلى حين نمو نباتاتها وخروج الإنتاج، من الثمار والزهور والأعشاب، فهم يحبون أن يملكوا البساتين والحقول.

كما تلاحظ هذه الأشياء هي نموذج شامل من العصر القديم لمختلف أنواع الشهوات الأساسية التي نشتهيها في الحياة، حيث شملت اللائحة الشهوة الجنسية والطعام والأولاد والمال والماشية، وجمال الحيوانات والمناظر الطبيعية.

{ذَلِكَ}، الذي تَزَيَّنَ للناس حبّه من شهوات... هو، {مَتَاعُ}، فهي أشياء للاستعمال والاستفادة منها في، {الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، الحياة التي نعيشها الآن.

{وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}، ففي الآخرة لديه تعالى مكانة ومكان حسن جِدًّا لِإِيَابِكُمْ إليه، فنحن الآن في الدنيا في الحالة الأولى "حالة الذهاب"، وعودتنا إليه تعالى في الآخرة هي حالة الإياب، وعنده تعالى مكان حسن وهو الجنّة، وعنده تعالى المكانة الحسنة وهي الاحترام والتقدير لمن آب فعاد من بعد الحياة الدنيا إليه تعالى، طبعًا لمن آمن وعمل صالحًا.

تريد الآية التنبيه من التعلق بشهوات الدنيا وترك الاهتمام لما بعد الدنيا، وهو الذي يؤدّي ببعض الناس إلى الكفر بآيات الله تعالى لأنهم يريدون الحصول على هذه الشهوات والرغبات حتى لو بالسوء.

لاحظ الآية لم تقل من الذي زيّن للناس حبّ الشهوات، مع أنه توجد آيات تقول إنَّ الشيطان يزيّن للناس، وتوجد آيات تقول إنه تعالى خلق المشتهيات زينة. المسألة بسيطة، فعندما أُحِبُّ المشتهيات لدرجة فعل السوء ونسياني للآخرة، فإن نفسي الأمّارة بالسوء مع الشيطان كلاهما زيّنا لي حبّ الشهوات السيئة حتى نسيت الآخرة وحسابها... وأمّا عندما أحبّ الشهوات الحلال ولا أرتكب السوء ولم أَنْسَ الآخرة، فأنا إنسان طبيعي أرى الأشياء الجميلة التي خلقها ربنا سبحانه جميلة.

بعبارة أبسط، سبحانه خلق الدنيا مزينة، محبوبة مرغوبة، والمؤمن بدينه تعالى يسعد بها بالصلاح وهو نفسه ما أمره به تعالى، ويعمل فيها للآخرة، أمّا الكافر فيكتفي بها ولا يريد غيرها فلا يعمل للآخرة، ويفعل السوء، وهنا يصير تزيينها شَيْطَانِيًّا وسببًا للكفر بالآيات الدالة عليه تعالى وعلى صدق كلامه عن الآخرة بحسابها وجزائها على أعمالنا.

نلاحظ القرآن يصف ما في الدنيا بأنه متاع، وأبدًا لم يصف ما في الآخرة بأنه متاع، وهذه إشارة للفرق بين ما نجده في الدنيا من استفادة لسد حاجاتنا ورغباتنا، أما ما في الآخرة فهو ليس لسدّ الحاجة بل حصرًا للسعادة والفرح، فلا تأكل لتسدّ جوعك بل تأكل لتستلذّ بالطعم الطيّب، ولن تشعر بأي انزعاج أو ضرر إذا أكلت كميات كبيرة جِدًّا جِدًّا...

(قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ{15})
{قُلْ}، أيها النبي(ع) "وأيها المؤمن" للناس عبر هذا القرآن:

{أَؤُنَبِّئُكُم}، فهل أطلعكم على نبأ، على خبر لم ينتشر علمه بينكم، {بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ}، بشيء موصوف بأنه خير أكثر من شهوات الدنيا التي تشتهونها؟:

{لِلَّذِينَ اتَّقَوْا}، للذين تحاشوا وتجنبوا، والكلام عن الذين تجنّبوا الكفر بالآيات وفعل السوء وهو نفسه تجنّب غضب وعقاب ربهم سبحانه، لهم، {عِندَ رَبِّهِمْ}، عند المسؤول عنهم من مستوى إلهي، {جَنَّاتٌ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها، بمناظرها الخضراء الخلّابة، وبما فيها من وسائل سعادة وترفيه... {تَجْرِي}، تنتقل بالتحرك المتتابع، {مِن تَحْتِهَا}، من تحت أشجار تلك الحدائق والبساتين، {الْأَنْهَارُ}، ولا تبالغ لتتصوّر المشهد كمستنقعات، فهنا في الدنيا منظر المياه الجارية تحت الأشجار وعلى جنبات البساتين يخلع القلوب من جماله، فكيف سيكون الشعور في الآخرة مع كوننا خالدين في تلك الجنّات الواسعة المتنوعة المناظر... لا نموت ولا نمرض ولا نتعب ولا نشيخ... وليس في تلك

الجنّات أي عيب أو خلل، وتلك الأنهار من مختلف الألوان والنكهات كما ورد في الآية 15 من سورة محمّد "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى...".

{فِيهَا}، في الجنات للمتقين، {أَزْوَاجٌ}، قرناء، وهنا الكلام عن زوجات، {مُّطَهَّرَةٌ}، فلا شيء مكروه أو معيب في تلك الأزواج، فهي خالية من أي شيء يسبب النفور أو التعييب، فالأزواج كاملة المواصفات من كل النواحي جسديًا ونفسيًا.

فوق كل ذلك، للمتقين، {وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ}، يَقْبَلُ سبحانه بمحبّة كل ما يفعلونه، فلا رقابة ولا تسجيل أعمال ولا محاسبة ولا ممنوعات في الجنة، بل يعيشون في رضاه تعالى الدائم عنهم مهما فعلوا، فلا يعترض سبحانه عليهم مهما فعلوا بل بمحبّة يقبل كلّ ما يفعلونه هناك في الجنّة.

نتذكّر دائمًا أن كلمة رضا ومشتقاتها، معناها في كلام العرب وفي القرآن: وصف شعور كتعبير عن القبول وانتفاء الاعتراض بل بالعكس الموافقة المتدرجة من السرور إلى الحب عن فعال أحد ما، والوصف يشمل شعورك على العمل أو على صاحب العمل.

هي ليست وصفًا لقبول شيء مكروه، فهذا وصفه الصبر، في أدبياتنا نجد كلامًا عن الصبر على المكروه، وأن الرضا بالمكروه أعلى من الصبر، وهذا معنى لم يستعمله القرآن في كلامه، ومخالف للمعنى اللغوي لكلمة رضا "بالدقة القرآنية لاستعمال الإله للغة البشر"، ويحمل في طياته معاني أخرى مرفوضة إذا قارنتها مع مفاهيم القرآن، فسبحانه لا يخصّص "من عنده" مكروهًا لمؤمن حتى يكون إيمانه عاليًا بالرضا عليه، فأي مكروه غير محبوب يحصل مع المؤمن فهو بسبب ذنب ارتكبه المؤمن أو ذنب ارتكبه غيره، وليس منه تعالى أبدًا بتاتًا وهذا واضح من عموم كلام القرآن ومنه الآية 30 من سورة الشورى "وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ".

نعم لا مشكلة بالتهاون في معاني الكلمات في الأدبيات التي بيننا إلا إذا كانت تعبّر عن شيء ديني منسوب له تعالى، فالقرآن دقيق في تعابيره ولا يتهاون أو يتساهل في معاني الكلمات التي يستعملها "من بعدما قوّم استعمالها بدقة"، وعندما نتهاون نحن ويصير للكلمات معانٍ نظنها من مفاهيم قرآنية، وعندما تترسخ معاني الكلمات في ذهننا، فعندها سنقع في مشكلة تفسير كلام القرآن على أساس المعنى والمفهوم الذي أصلًا تراخينا فيه.

خذ مثلًا الكم الهائل من الآيات التي تصف روعة الجنّة وأن من يدخلها سيبقى مذهولًا بروعة ما فيها أبدًا، بلا ملل ولا أي رغبة في شيء آخر، فكل ما يرغب به يجده في الجنّة، بل يجد فيها ما لا يخطر على باله... وكمثال جامع لذلك ما ورد في الآية 108 من سورة الكهف "خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا" فهو راض بها، وراض عنه تعالى، وهذا هو معنى كلمة الرضا لغويًا وهكذا استعملها القرآن، وهي لا تتحمّل ولا تتوافق مع ما درج في أدبياتنا عن الرضا على شيء مكروه، والذي سيعني ضمنًا احتمال حصول شيء مكروه في الجنّة، ورغم ذلك سيرضى عنه المؤمن، لا، فانتبه دائمًا من ذلك.

{وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}، يُدْرِكُ ويعي سبحانه حالة العباد أي المفروض منهم طاعته، وَيَعْلَمُ سبحانه بدقة من هو المتقي فعلًا، ومن هو المنافق أو الكافر، فلا يخطر ببال أحد أنه يمكنه خداعه سبحانه بالتمثيل عليه، لا، قد ينجح هؤلاء في خداع الناس، ولكن لا يمكنهم خداع البصير سبحانه.

كلمة عبد تشير لمن المفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، فكأن كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، فكلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، فهي جمع الجمع، أثناء الكلام بدقّة قد تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، فتقول الآيات: عبيد. وردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وقد تكون لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام "وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ"، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وقد تكون لمجموعات

العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس "يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ"، فهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخرون جاءهم رسول، وعبيد آخرون... فجمع الجمع "عباد"، فكلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جدًا عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء "وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا".

(الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ{16})
المتقون، {الَّذِينَ يَقُولُونَ}: {رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {إِنَّنَا آمَنَّا}، فاعتقدنا بك وبملائكتك ورسلك وكتبك وآخرتك...

{فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا}، فتجاوز عن الأعمال التي خالفنا أوامرك فيها.

{وَقِنَا}، فجنّبنا وأبعد عنّا، {عَذَابَ النَّارِ}.

بالنسبة لكلمة آمن لم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإسلام أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها "مؤمنون..." في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، فآمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كلتاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ{17})
المتقون هم: {الصَّابِرِينَ}، الذين يتصرفون بشكل واعٍ ومدروس في الأزمات ولا يفقدون أعصابهم... ويجدون حلولًا مناسبة، ولا يُخْطِئُونَ بالتصرف أو بالكلام عند الغضب أو الظروف الصعبة ولا يضربون أو يكسرون... حيث يبقى إيمانهم ثابتًا في الظروف الصعبة المتنوعة.

{وَالصَّادِقِينَ}، في إيمانهم ليسوا من الكاذبين المنافقين مع ربهم سبحانه أو مع عباده، لأنَّ الصدق مع الله تعالى في الإيمان هو نفسه ينبع عنه الصدق في التعامل مع الناس.

{وَالْقَانِتِينَ}، المعلنين الطاعة لربهم سبحانه، الذين تصرفاتهم كلها تحت أمره سبحانه، في العبادة يقنتون ويعلنون أنهم تحت أمر ربهم سبحانه، وفي حياتهم العادية هم لا يقومون بأي عمل يخالف أمره سبحانه.

{وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ}، الطالبين للمغفرة للمسامحة عن الأخطاء التي صدرت عنهم، والسحر هو الوقت بعد منتصف الليل يستغفرون ربهم سبحانه فيه.

تعلم يا عزيزي ويا عزيزتي أن القيام بالليل للاستغفار شيء مميّز جدًا جدًا، وله تدرجات تبدأ من حالة من الاستيقاظ العفوي غير المقصود في الليل لسبب أو لآخر استيقظت، وأول كلام تقوله الاستغفار، إلى الذي يستقصد الاستيقاظ في الليل لصلاة ركعتين... وصولًا إلى الذين يحيون الليل بالصلاة والدعاء، ويمكنك أن تقيس هذا النوع من العلاقة معه تعالى بالعلاقة مع شيء تحبّه جدًا، لنقل إنك موعود بمبلغ كبير جدًا في منتصف الليل، فهل كنت ستنام؟ أو موعود بقدوم حبيبك من السفر في منتصف الليل فهل كنت ستنام؟ أنا ألفت انتباهك للأمثال التي أعرفها من نفسي، وأقيس عليها الكلام القرآني عن حبّ وتعلّق المؤمنين به تعالى لدرجة القيام بالليل للتقرّب منه تعالى بالاستغفار والعبادة، فأنا أقيس شعورهم هذا بما أعرفه من مشاعري في أمور أخرى.

(شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{18})

الأساس في كل الحديث القرآني الإيماني الديني ما هو؟ بالنسبة لموضوع السورة هنا، فمن كفر بآيات الله تعالى، فبماذا يكون قد كفر أساسًا؟ ومن آمن، فما هو أساس إيمانه؟ والمحكم من كلامه تعالى ما هو؟ فَلْنَرَ:

{شَهِدَ اللَّهُ}، فسبحانه يقول لنا إِنَّهُ هو نفسه يشهد فينقل لنا خبرًا هو نفسه سبحانه يعلمه جيدًا عن نفسه الجليلة:

{أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، فصاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" يخبرنا أَنَّهُ متأكد ويعلم بِأَنَّهُ لا يوجد ولا أي كائن غيره موصوف بالصفات والقدرات الفائقة التي يوصف هو تعالى بها، فيشهد ويخبرنا مما يراه ويعلمه أَنَّهُ هو وحده الإله.

ننتبه لهذا المعنى جيدًا، فنحن نؤمن به تعالى بسبب ما نراه في خلقتنا وخلقة ما حولنا، والذي قلبه سليم فسيرى الآيات تدل على إله واحد أحد، وتدعّم هذا لأنه الإله الوحيد الذي أرسل لنا رسلًا متتابعة وكتبًا من أول ما صارت البشرية قابلة للتكليف، ولأنه تعالى أجاب عن كل تساؤلاتنا في كتبه... ولكن هل يوجد إله غيره في كون آخر أو في عالم آخر أو حاليًا محبوس أو... أو هل يوجد كائن ما كنصف إله، أو ربع إله، أو بنفحة إلهية... أو هل يوجد كائن تجسّد فيه الإله وصار ذلك الكائن إلهًا جديدًا... لا، لا، لا، فالله عزّ وجلّ يقول لنا إِنَّهُ يشهد فينقل لنا خبرًا هو متأكد من صحته، أَنَّهُ لا يوجد إله غيره في أي كيفية أو مكان أو عالم أو كون أو...

{وَالْمَلَائِكَةُ}، وهي الكائنات التي خلقها سبحانه والموصوفة بتملّكها لصفات وقدرات عالية مميّزة عن بقية الكائنات، فهي أيضًا تشهد بأنها لا تجد إلهًا آخر غير الله تعالى. وتفهم معنى شهادتهم هذه عندما تتذكّر أن بعض الناس قالوا عن الملائكة إِنَّهُمْ آلهة. وفرضًا كان السامع للكلام هنا من عابدي الملائكة فلتعترض الملائكة وتتواصل مع أحد ما من البشر وتخبره أَنَّهُمْ آلهة... وأمّا إن كان السامع أصلًا لا يؤمن بأن هذا القرآن كتاب إلهي، وبالتالي فكلام القرآن عن شهادة الملائكة لن يعني له أي شيء، وهذا بالأساس لم يعرض عليه القرآن الاقتناع به ككتاب إلهي من أمثال آيتنا هنا، بل لفت انتباهه لآياته تعالى في خلقه... ولرسله وكتبه... وهذا القرآن بمواضيعه وطريقة كلامه وبصدق البشري الأمي الذي لم يغيّر ولم يعدّل على حرف من القرآن... فبهذه الأمور وغيرها آمنّا بأن كلام القرآن مصدره إلهي...

{وَأُولُو الْعِلْمِ}، والموصوفون بأنهم منسوب لهم العلم أيضًا يشهدون أَنَّهُ لا يوجد إله غير الله سبحانه، فهؤلاء بسلامة فكرهم ونفسيتهم يشهدون أَنَّهُ تعالى الإله الأحد، ومما وصلهم منه تعالى يشهدون أَنَّهُ أحد. فعندما تقرأ القرآن، وتسمع فيه آيات ربنا سبحانه عن الخلق والإنبات والليل والنهار... وتسمع فيه الأجوبة عن مختلف الأسئلة بشكل يجعلك تشعر من دون شك أَنَّ الإله سبحانه يتكلم بهذه الجمل والأجوبة، فيصير عندك علم صحيح بأن الله عزّ وجلّ هو الإله الأحد ولا إله غيره.

الله سبحانه وملائكته(ع) وأولو العلم يشهدون بوحدانية الألوهية لله تعالى.

يشهدون بأن الله سبحانه، {قَائِمًا}، غير مهمل بل مُفَعِّلٌ، فيدير الشؤون، {بِالْقِسْطِ}، بما لكل واحد بالضبط. فهمنا أَنَّهُ الإله الأحد، ويؤكد لنا سبحانه أَنَّهُ على رؤوس مخلوقاته ليس طاغيًا عابثًا مستهترًا لعوبًا... عزّ وجلّ عن ذلك، بل سيطرته الإلهية بالقسط بالمقياس الصحيح بما لكل واحد بالضبط فسبحانه وتعالى لا يظلم ولا يتعدى ولا يعبث ولا يكذب ولا يبالغ... وسترى من الآية التالية المعنى العملي لقيامه تعالى بالقسط فيما يخصّ تحديده تعالى للدين الذي يجب أن نكون عليه، والنابع من وحدانيته تعالى في الألوهية وقيامه تعالى بالقسط.

ضع في بالك أننا حاليًا لدينا استعمال لكلمة "قائم" يقارب أصل استعمال العرب، فنقول: القائم بالأعمال، القائم بالمهام... على معنى المسؤول عن الأعمال والمشرف على تنفيذ المهام... وهذا المعنى غير صريح من كلمة قائم بل من مشتقات تطبيقات معناها، فأساس الكلمة بهذا التصريف كان يشير قديمًا للتفعيل والاهتمام والابتعاد عن الإهمال.

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}.

{الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... {الْحَكِيمُ}، فيرى الصوابية في الأمور وقراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب فقراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول بأن أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أَنَّهُ لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فلا يفعل لغاية له سبحانه.

هذا هو أساس القضية الإيمانية: لا إله إلا الله القائم بالقسط العزيز الحكيم. ويمكنك أن تسرح في فكرك لتربط: خلقنا وتكليفنا بالدنيا ومحاسبتنا ومجازاتنا في الآخرة... لتربطهم مع قسط وعزّة وحكمة ربنا سبحانه وتعالى، ولن تجد ذلك صعبًا.

(إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ{19})
ما هي التبعات التي علينا كمخلوقات مملوكينَ عبيد له تعالى؟

{إِنَّ الدِّينَ}، إنَّ التبعات التي علينا نحن، الحقّ والواجب الذي يجب أن نكون عليه لأننا عبيد للإله سبحانه، فالدين محدد {عِندَ اللَّهِ} تعالى وهو، {الْإِسْلَامُ}، الانقياد له تعالى، وهذا ما يجب علينا فعله نحن البشر الإسلامُ لإلهنا. قرأنا في الآية السابقة أنه تعالى الإله الأحد وأنه قائمٌ بالقسط وانطلاقًا من ذلك يكون الدين له تعالى إسلامنا له تعالى، ويكون دينًا إسلامًا مبنيًّا على القسط الإلهي، حيث لا ظلم ولا تكليف بما لا نطيق...

إذا استدنت منك وأخذت منك المال فأنا صار عليّ تبعات ردّ المال لك، أو العمل عندك مقابل المال... فأنا مدين لك بشيء، فعليّ تبعات لك لأني أخذت المال منك، وكوننا مخلوقينَ وخالقنا الله تعالى الإله الأحد، فعلينا تبعات، نحن ندين للإله سبحانه لأنه خلقنا، وسبحانه يخبرنا بما ندين به له، والدين المأمورون به هو: الإسلامُ. هو الانقياد له تعالى، ونسمع ما يقوله تعالى لنا ونلتزم به ولا نحيد عنه، وأي شيء غير ذلك فهو ليس دينًا مقبولًا.

{وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، الذين صار عندهم كتاب منه سبحانه كالتوراة والإنجيل، ولم يتفقوا على الإسلام له تعالى بل اختلفوا وكان لكل جماعة منهم دين مختلف، {مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ}، من بعدما جاءهم كلام إلهي واضح عن كون الدين له تعالى هو الإسلامُ، إلا {بَغْيًا بَيْنَهُمْ}، إلا بدافع الخروج عن كلامه تعالى، فقط طلبًا وقصدًا للخلاف والتفرقة بينهم.

مَنْ يأتيهم كتاب من ربهم سبحانه فَمِنَ المفروض أن يهتدوا للدين الصحيح، ويكون الناس كلهم على دين واحد، ويتفقوا ولا يختلفوا، لأنَّ الإله واحد، ودينه واحد، ولكن من بعدما جاء العلم الإلهي الصحيح الواضح للناس، اختلفوا! ولم يكن دينهم الإسلامَ! هذا يحلل وذاك يحرّم ما حلّله الآخر! وهذا له مذهب والآخر له مذهب آخر! والبعض منهم وصل به الأمر لاختراع آلهة واتخاذ أرباب من دونه تعالى! وسبب الاختلاف لم يكن لأن الدين الإلهي فيه مشكلة، أو لأن الله تعالى قد غيّر في الدين، أو الدين لم يكن واضحًا... لا، إنما المشكلة في الناس فهم بسبب البغي بينهم حصل الخلاف في الدين، مِنْ بعدما آتاهم "جاءهم وصلهم" العلم الواضح، اختلفوا بسبب إرادة البعض منهم أن يختلف عن الآخر حتى يتميّز عنه ويحصل على مشتهيات دنيوية أكثر... فهكذا يحصل الخلاف والاختلاف في الدين الإلهي.

سترى من الآية التالية نموذجًا تطبيقيًا عن علم جاءهم عبر هذا القرآن وهم يحاجون في الإسلامِ بدينه تعالى.

{وَمَن يَكْفُرْ}، ومن ينكر ولا يؤمن، {بِآيَاتِ اللَّهِ}، بالأمور المميّزة المنسوبة له تعالى، والتي تدل على وحدانيته وعلى كون الدين هو الإسلامُ له تعالى، فليأخذ علمًا، {فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}، كلّ كلمة وكل نيّة وكل حركة إنَّ الحساب عليها يتسجّل فورًا، ولا يتم تأخيره ولو لثانية، بل فورًا يتم تسجيله وحفظه، وعندما يأتي يوم المحاسبة فستكون المحاسبة دقيقة جدًا.

(فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ{20})
{فَإِنْ حَاجُّوكَ}، مِنْ بعدما علمت أنه تعالى الإله الأحد... وأن الدين الإسلام... وأنهم اختلفوا عن دينه تعالى بَغْيًا بينهم... حَيْثُ حَاجُّوكَ وَقَالُوا لك كَلَامًا يريدون أن يبرهنوا به على صحّة دينهم وفساد دينك، {فَقُلْ} لهم عبر هذا القرآن:

{أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ}، فاستسلامي انقيادي وتركيزي كله باتجاه واحد باتجاه الله تعالى أنا، {وَمَنِ اتَّبَعَنِ}، مَنْ يُوصَفُ بأنه يتبع كلامي فهو يجب أن يكون مثلي مُسْلِمًا وجهه لله تعالى، وإلا فهو ليس من التابعين لي.

يعني بكل بساطة، بِأَيِّ شيء تحاجونني؟ إنْ كان الدين لله تعالى فأنا أعلن إسلامي له، مَاذَا تريدون يا أهل الكتاب أن تبرهنوا لي وتقنعوني به؟ وَمَا السوء وأين الخطأ في إسلامي لله تعالى حتى تحاججونني؟

{وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، وهم الناس الذين نزل عليهم كتاب إلهي من قبل، كاليهود والمسيحيين والصابئة والمندائيين... وقل للناس، {وَالْأُمِّيِّينَ}، الذين لم ينزل عليهم كتاب إلهي ولم يتبنّوا كِتَابًا إِلَهِيًّا، هُمْ مثل المنسوب لأمّه حين ولدته حيث لا يعلم أي شيء، كما نقول: أُمِّيٌّ بالكتابة، أُمِّيٌّ بالزراعة... وهنا الأمية بتعبيرنا الدارج هي: الجهل بمعرفة الكتاب الإلهي. قُلْ لهم أيها الرسول(ع):

{أَأَسْلَمْتُمْ}؟ أنا مسلم فهل أنتم منقادون مطيعون لله تعالى كما فعلنا نحن؟ فِي كتبكم وصلكم الأمر الإلهي صَرِيحًا بأن يكون دينكم الإسلامَ "الانقياد له تعالى" وَهَلْ أنتم ستنقادون لكلامه تعالى؟ لَا داعي للمحاججة لِأَنَّ العلم واضح، وَالدِّينُ له تعالى هو الإسلام له، لِنَتَّفِقْ على ذلك، ومن بعدها لَا معنى للمحاججة بيننا لأننا سنكون على نفس الدين.

{فَإِنْ أَسْلَمُوا}، إنْ انقادوا لله تعالى، {فَقَدِ اهْتَدَوْا}، حَيْثُ صاروا على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة.

{وَإِن تَوَلَّوْا}، وَتَرَكُوا الإسلام وكان توجّههم باتجاه آخر وَلَمْ يلتزموا به، {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ}، فالمطلوب منك فقط التبليغ، توصيل رسالة ربك سبحانه كما هي من بِدَايَتِهَا لنهايتها، وليس مَطْلُوبًا منك أي شيء آخر.

يعني مُهِمَّتُكَ أن توصل رسالة ربك سبحانه لهم، وهي تتضمن الأجوبة عن كل ما يتعلق بالعقيدة والشريعة والسلوكيات، ولست مَسْؤُولًا عن إيمانهم بها أو كفرهم.

{وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}، يُدْرِكُ سبحانه ويعي حالة الناس الذين مَفْرُوضٌ منهم طاعته، وَيَعْلَمُ من اهتدى ومن تولّى من الناس. ومنذ قليل في الآية 15 توسعنا في معنى كلمة عباد.

الْحَوَادِثُ كلها تتسجّل، تَصَوَّرْ أنك تشاهد التلفاز وتقوم عيناك وأذناك بالعمل على استقبال المعلومات ولكنك كنت تفكّر بشيء آخر، أَنْتَ ترى التلفاز ولكنك لست بَصِيرًا حَيْثُ شرد ذهنك ولست تعي المعلومات التي تدخل رأسك من التلفاز، أما سبحانه فبصير لأنه دَائِمًا يعي المعلومات.

يعني فقط بلّغ الرسالة أيها الرسول محمّد(ع)، ونحن نراقب كل شيء بدقة وتسجيل وإدراك لما يحصل.

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ{21})
مقابل دين الإسلام لله تعالى هناك:

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ}، الذين ينكرون ولا يؤمنون، {بِآيَاتِ اللَّهِ}، بالأمور المميزة المنسوبة له تعالى ومنها هذا الكلام القرآني، {وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ}، فينهون حياة الأشخاص الذين يصلهم نبأ، وهذه الكلمة "نبي أنبياء نبيين..." صارت مُصْطَلَحًا لمن يصله منه تعالى خبر غير منتشر عِلْمُهُ بين الناس لهدايتهم، فيقتلونهم {بِغَيْرِ حَقٍّ}! فالأنبياء لم يقوموا بأي جريمة تستحق أن يقتلوهم عليها، فلو فرضنا أن نَبِيًّا قد قتل عن عمد شَخْصًا بَرِيئًا، فيحقّ لنا قتل النبي، ولكن هذا لم يحصل فلم يقم نبي بقتل بريء عَمْدًا، ونقرأ في التاريخ أن بني إسرائيل "حاولوا" قتل العديد من الأنبياء للتخلّص منهم لأنهم لا يريدون أن يسمعوا من الأنبياء كلام ربهم سبحانه!

{وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ}، فهناك أناس ليسوا أنبياء ولكنهم أمروا بالقسط، أمروا الآخرين بالتعامل مع الأمور بإعطاء كل شيء ما له بالضبط، فما له تعالى يَفْعَلُونَهُ بالضبط وما للناس بالضبط... أي بلا اختراعات ولا عقيدة أو قوانين من الهوى أو على قياس مصالح النافذين وأصحاب السلطة... فمن قال لهم بأن الكفر والشرك والغش وَالرِّبَا والاستعباد والكذب والاستيلاء والتسلط... حرام، فإنهم يَقْتُلُونَهُ. وكما ترى فإن لم يكن القائل نَبِيًّا فهو مؤمن يقوم بواجبه في نهي الناس عن فعل السوء وأمرهم بفعل الخير، فهذا أَيْضًا قاموا بقتله.

الْقَاتِلُ للنبي أو للمؤمن يكون شَخْصًا وَاحِدًا أو أَشْخَاصًا مَعْدُودِينَ، ولكن كل من وافق على القتل فهو شريك في الجريمة، وكل من سمع بها وكان رَاضِيًا بها أو سكت عنها فهو قاتل أَيْضًا، فأنت "إن شاء الله تعالى" لا تملك الشعور بالكره للأنبياء، ولكن لو كنت ترتكب السوء، فربما ستشعر بالكره للأنبياء الذين يفضحون مرتكبي السوء، من المرابين والزناة والغشاشين والشاذين والنصابين ومسببي الفرقة والمذهبية... فهكذا تقول الآية عن هَؤُلَاءِ الناس، إِنَّ قتلة الأنبياء والمؤمنين هم كل الناس الذين رضوا بقتلهم.

حَوَادِثُ قتل الأنبياء والمؤمنين قليلة عبر التاريخ قِيَاسًا مع عدد كل الناس، وَقِيَاسًا مع الحروب التي خاضها مختلف الناس وقتلت الملايين... وَفَرْضًا لو حدثت مرّة واحدة، فقتل قوم ما نَبِيًّا وَاحِدًا، فهذا يكفي حتى يكون نَمُوذَجًا لا يمرّ عليه تعالى بالنظر للعدد "واحد"، لا، فهذا الواحد أهمّ عنده تعالى من المليارات، وسيذكره تعالى في كلامه كَنَمُوذَجٍ لأبشع ما يمكن أن يفعله الكافرون من قتل لشخص يأمرهم بالحق والصلاح.

الْمَشْهُورُ بين الناس أنهم قتلوا النبيين يحيى (ع) وزكريا(ع)، وليس لدينا في القرآن أي تسمية أو ذكر لحادثة جرى فيها فِعْلًا قتل نبي إلا محاولتهم قتل النبي عيسى(ع)، ولدينا في التاريخ كلام عن محاولات اغتيالهم للنبي محمّد(ع) وقبله محاولة اغتيال للنبي داوود(ع) وللنبي سليمان(ع)، فربما لم يتحقّق فِعْلًا قتل لأي نبي عبر التاريخ ولكن صار مَوْصُوفًا من حاول قتلهم بأنه قاتل للأنبياء بالرغم مِنْ منعه تعالى من حدوثه، وراجع استعمال العرب والقرآن لكلمة "قتل" ومشتقاتها وسترى أن المباشرة بأي عمل بقصد إنهاء حياة الآخر فهو قتل حتى لو لم يتحقّق القتل، هُنَا التعبير بقتلهم النبيين ليس بالضرورة أنه تحقّق وأنهوا حياة نبيين، فيكفي قيامهم بعمل يقصدون منه إنهاء حياة نبي ما فهو عمل قتل حتى لو لم يتحقّق.

إِنْ خطر ببالك أن التعبير بقتالهم المؤمنين سيعطي بشكل أصرح المعنى الذي ذكرناه، على أساس أن القتال وصف لمن يقصد إنهاء حياة الآخر، فكلامك صحيح ولكن من تبعات هذا التعبير أن يكون القتال من الطرفين، وهذا معنى لا تريد الآية قوله.

{فَبَشِّرْهُم}، فأوصل الخبر لهؤلاء القتلة المنكرين للآيات، فأخبرهم عن شيء سيحصل معهم، فَأَخْبِرْهُمْ عن شيء ينتظرهم: {بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}، بضرر لا يمكن تحمّله، فهو ليس مثل العذاب في الدُّنْيَا، الذي يمكن أن تتحمّله، أو تعتاد عليه، أو يمر فيه فترات راحة، أو تموت منه... فعذاب الآخرة لا موت بعده، ولا انقطاع للشعور به ولو لثانية، وهو مستمر بلا نهاية.

نلاحظ أن كلمة "بشرى" هي سماعك لخبر جيد عن شيء يهمّك، حصل ولم تعلم به أو سيحصل، أَثْنَاءَ انتظار الخبر تستبشر فتريده مُوَافِقًا لما تحبّ، وعندما نستعملها لخبر سيّء نقصد بالتبشير الصدمة بخبر معاكس عمّا نرغب به.

(أُولَـئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ{22})
{أُولَئِكَ}، الناكرون للآيات القاتلون للأنبياء وللمؤمنين هم، {الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ}، فلم يعد لأعمالهم الحسنة التي قاموا بها أي قيمة، {فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}، فلن ينالوا ما يناله المؤمنون في الدنيا من النور الإيماني والهدى والتأييد الإلهي... ولا تزن أعمالهم شيئًا في ميزان الآخرة، فلا أجر عليها.

يَكُونُ هؤلاء يعلنون إيمانهم في الظاهر، وقد يَكُونُونَ من الذين يرتدون ثياب علماء الدين، وَالْوَاعِظِينَ، وحملة لواء الدفاع عن الدين، يصومون ويصلّون ويقدمون المساعدات الإنسانية... ولكن من داخلهم ليسوا مؤمنين حقيقيين بآيات الله تعالى، وهم قتلة للمؤمنين. وقد يَكُونُونَ من الأميين غير التابعين لكتاب إلهي، وقاموا بمساعدة الأيتام أو اختراع دواء شفى الملايين... فهذا عمل حسن ولكنه حابط ويفقد قيمته إذا لم يؤمنوا بدينه تعالى، فلماذا سيعطيهم سبحانه الأجر وهم يكفرون به ويقتلون من يأمرهم باتبّاع كلامه تعالى!

{وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ}، لن يجدوا من سيحقّق لهم ما يريدونه في الدنيا وَالْآخِرَةِ، لن يتدخل سبحانه لمصلحتهم هنا أو في الآخرة، ولا الملائكة(ع) ولا المؤمنون، هم لوحدهم مع ذنوبهم وجرائمهم، وأعمالهم الحسنة حابطة، ولا يوجد أي أحد يمكنه منع العذاب عنهم "في الدنيا إن تقرر لهم" والآخرة.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوْتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ{23})
{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، كما نقول بالعامية: ما شفت، وَالْتَفِتْ... إلى {الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ}، حَيْثُ صار معهم منه سبحانه قسمة من كتابه الإلهي، وَهُمْ أناس كان لهم حصّة بنزول كتاب إلهي عليهم كالتوراة والإنجيل وصحف الأنبياء، وَالْتَفِتْ إلى الذين وصلهم كتاب إلهي عندما، {يُدْعَوْنَ}، تتم دعوتهم ويُشْهِرُ ويعلن لهم أحد ما، {إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ}، إلى هذا القرآن ليكون هو الحكم هو الدستور والشريعة والقانون الذي يحكم الناس، فبما أنه كتاب من الله تعالى فيجب أن يقبلوا بما هُوَ موجود فيه من عقائد وأحكام، ولكنهم لا يقبلون أن يكون كتاب من الله تعالى حَكَمًا بينهم!

بينما على أساس أنهم أهل كتاب، وعلى أساس أنهم مقتنعون بأن قيمة دينهم بسبب كتاب من الإله، وعليه فيجب أن يقبلوا بكتاب من الإله ليكون شريعة وعقيدة لهم، هَذَا القرآن هو كتاب إلهي، فلماذا لا يقبلون بما فيه عن العقيدة والشريعة التي اختلفوا فيها؟

نَنْتَبِهُ جَيِّدًا، الآيَةُ تعرض علينا أساس أساس فكرة الانتماء لكتاب إلهي، طَالَمَا أنت تعلن انتسابك لدين مرتبط بكتاب إلهي، فالأساس هو هذا الارتباط بالكتاب، وإذا جاءك كتاب إلهي آخر، فبناء على أساس تدينك وإيمانك يجب عليك اتّباع الكتاب الإلهي، هَؤُلَاءِ الناس يرفضون هذه الفكرة! قَبْلَ الدخول في البرهنة لهم على صحّة هذا الكتاب الإلهي كونه فِعْلًا نَازِلًا من عنده تعالى، قَبْلَ ذلك لِنَرَ من الأساس إن كانوا مستعدين لاتّباع كتاب إلهي، وإن كانوا مستعدين لترك ما هم عليه لاتباع الكتاب الإلهي... مَرَّ معك أن بعضهم قتلوا الأنبياء والصالحين!

{ثُمَّ يَتَوَلَّى}، يذهب باتجاه آخر، {فَرِيقٌ مِّنْهُمْ}، قسم منهم، {وَهُم مُّعْرِضُونَ}، غير مهتمين بالمرة لما تمّ عرضه عليهم! فأي دين وأي إيمان هم عليه! أليسوا يقولون إِنَّهُمْ أتباع لكتاب إلهي، فما معنى تولّيهم وإعراضهم عن كتاب إلهي؟ تَذَكَّرْ أن الكلام هنا من نظرته تعالى على كون هذا القرآن كلامه تعالى، وأنهم مهما جاءتهم بيّنات تثبت ذلك فهم مصرّون على مخالفة هذا الكتاب "الجديد"، سَنَرَى في الآية التالية سَبَبًا من تولّيهم عن القرآن.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ{24})
ذلك الذي ذكرته الآية السابقة من إعراضهم عن الرجوع إلى الكتاب الإلهي، سببه، بأنهم قالوا: {لَن تَمَسَّنَا النَّارُ}، ففي الآخرة لن يتلاقى جلدنا مع النار، {إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ}، زَمَنًا مُحْصًى مُحَدَّدًا، نحن نرتكب السوء بمخالفتنا لكتاب الله تعالى، ولكن لا يهم، فنحن لن نخلد في النار، بل سندخلها فقط لعدة أيام محدّدة، ثم سنخرج منها وندخل الجنة، فلسنا مضطرين لاتباع ما يقوله القرآن ويمكننا مخالفته.

{وَغَرَّهُمْ}، فخدعهم وجعلهم يطمعون بشيء غير صحيح، {فِي دِينِهِم}، فيما كانوا يدينون به لربهم سبحانه، في التبعات التي عليهم له تعالى، {مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ}، ما كانوا يخترعون من أشياء غير صحيحة ولا أساس لها.

بِالْأَسَاسِ هم يدينون بالطاعة لربهم سبحانه، فإذا أنزل سبحانه كِتَابًا فيجب عليهم اتباع ما فيه، ولكنهم افتروا فاخترعوا: أنهم لن يخلدوا في النار حتى لو فعلوا السوء، وأن ترك القرآن ليس معصية كبيرة، بل صغيرة جِدًّا وأكثر ما يمكن أن تسببه هو عدة أيام في جهنم! فهذا الافتراء سبّب لهم ترك القرآن.

لاحظ أننا لدينا أفكارٌ مشابهة لهذا الكلام، فترى بعض الناس من المسلمين يخالفون عَلَنًا بَعْضًا أو الكثير مما يقوله القرآن، على أساس أَنَّ المسلم لا يُخَلَّدُ في النار مهما فعل! بل بعضهم لأنه من المذهب الفلاني ومن أتباع الشخصية الفلانية فهو حَتْمًا لن يدخل النار! مهما فعل! وإن كانت أدبيات "العلماء" لهذا الكلام من نوع المبالغة كبيوت الشعر التي يقول قائلها إِنَّهُ سيرتكب كل المحرمات وهو معتمد على حب الإمام علي لنجاته من النار، عِلْمًا أَنَّ قائلها معلوم سلوكه الإيماني البعيد عن الفسق والنفاق، فإن لهذا الكلام تَبِعَاتِ استهتار منتشرة بين الناس، فهي عقيدة عندهم ويطبقونها فِعْلًا! ويتم تغذيتها بكلام مذهبي طائفي مدعوم بروايات وأحاديث! وتفسير آيات!

هذه النوعية من الناس فليكن بعلمهم ما يلي:

(فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ{25})
{فَكَيْفَ}، فماذا سيكون الحال، {إِذَا جَمَعْنَاهُمْ}، أتى بهم كلّهم سبحانه، {لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ}، لزمن حَتْمًا واقع ولا يوجد ولا أي احتمال مهما كان ضَعِيفًا بخلاف ذلك، وهو يوم القيام من الموت فهو يوم الجمع الذي سيحصل حَتْمًا.

{وَوُفِّيَتْ}، فأعطيت بالتمام، حيث حصلت، {كُلُّ نَفْسٍ} على، {مَّا كَسَبَتْ}، ما حصلت عليه مما نتج عن أعمالها التي قامت بها في الدنيا بالتمام، {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}، فمن دون أي زيادة ظالمة أو تنقيص سيحصلون على نتائج أعمالهم، فعندها كيف سيكون حال الَّذِينَ كفروا بالكتاب الإلهي وأعرضوا عنه ولم يقبلوا به حَكَمًا بينهم!

هُمْ من اختراعهم قالوا إِنَّهُمْ لا يخلدون في النار، بل لا يبقون فيها إلا لعدة أيام، ولكن كيف سيكون الحال في يوم الحساب عندما يكون القانون الإلهي وَاحِدًا وفوق الجميع بالتساوي، فكل الذين تركوا آيات الله تعالى فحسابهم وَاحِدٌ، لأن كل شيء كسبوه سيوفّى إليهم فسيحصلون عليه كَامِلًا بالتمام بلا نقصان، فلا فرق بين أهل الكتاب حين يكفرون بآيات الله تعالى، وبين الكفّار أو المشركين أو عبدة الأصنام... حين يكفرون بآيات الله تعالى.

يَا أهل الكتاب أنتم تعلمون بأن من كفر بآيات الله تعالى فحسابه عسير، فلا تستثنوا أنفسكم، لأنكم ستحصلون على نفس ما سيحصل عليه الكافر المشرك الملحد الذي يكفر بآيات الله تعالى، فمثلكم مثله من العذاب الأليم، ولن تكون أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ إن كان مجموع سيئاتكم حكمه خُلُودَكُمْ في النار.

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{26})
الذين يكفرون بآيات الله تعالى ويعرضون عن كتابه ويفترضون أنهم مهما فعلوا فلن يدخلوا النار أكثر من أيام معدودة، فليعلموا مع من يتعاملون، {قُلِ} لهم عبر هذا القرآن:

{اللَّهُمَّ}، الذي اعتبر نفسي منتسبًا له وهو يملك الصفات والقدرات الفائقة بشكل منفرد، {مَالِكَ الْمُلْكِ}، فالمخلوقات كلها في الدنيا بكل أنواعها وأشكالها هي الـ: ملك. كما نقول عن الأراضي والجبال إنها مملكة لملك مصر أو لكسرى... لم يستعمل القرآن كلمة مملكة عندما تحدث عن عالمنا، بل قال عنها إنها: ملك. والله تعالى مالك لهذا الملك، بتعبير أبسط: ملك المملكة.

{تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ}، فأمامك سبحانك خيارات عديدة وبناء عليها تعطي الملك لهذا أو لذاك، فلا يفكر أحد بأن الملوك حصلت على مملكتها بقدرتها القاهرة لربنا عزّ وجلّ، لا، إنما هم تحت سيطرة الملك الأصلي، فهو سبحانه سمح لهذا وذاك أن يكون ملكًا أو رئيسًا أو زعيمًا...

{وَتَنزِعُ}، تبعد وتأخذ يا إلهي، {الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ}، فكما علمنا أن من يحصل على الملك فإنما يسمح له تعالى بالملك، ومن يخسر ملكه فإنما سبحانه أخذه منه.

الآية لا تقول إنه تعالى اختار مثلًا "خوفو" فجعله ملكًا، لا، إنما تقول إنَّ الفرعون خوفو لم يصر ملكًا بقدرته الذاتية، فخوفو ليس المالك أصلًا لأي شيء، فملك كلّ شيء أصلًا له تعالى لوحده، ولم يصر أي أحد ملكًا بقدرة تقهر وتغلب قدرة ربنا عزّ وجلّ، بل سبحانه صمّمنا وخلقنا بحيث يمكن لأحدنا أن يصير ملكًا...

اللهم أنت الذي، {تُعِزُّ مَن تَشَاءُ}، أمامك سبحانك خيارات عديدة وبناء على ملكك لكل شيء تجعل هذا أو ذاك عزيزًا والبقية أذلاء له، وتجعل من تشاء حرًا مستقلًا في تصرفه ورأيه وليس محكومًا لمن هو أقوى منه أو لمن يملك أكثر منه... فيصير حاكمًا فارضًا ما يريده على الآخرين.

{وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ}، وتجعل هذا أو ذاك ضعيفًا تحت أمر غيره، ومحتاجًا لغيره ليعمل أو يأكل ويلبس ويسكن...

{بِيَدِكَ الْخَيْرُ}، أنت المسيطر على الأشياء الخيّرة التي نحتاجها في الدنيا لنسعد بها ونستمتع بها، فالملوك والأغنياء والأعزّاء إنما أنت سبحانك سمحت لهم أن يكون عندهم خيرات الدنيا، لأن الخير بيدك وتحت سيطرتك سبحانك.

{إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، كلّ شيء تحت قدرتك، يمكنك فعل أي شيء تريده بأي شيء.

(تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ{27})

نكمل مع تعليمه تعالى لنا كيف يكون الإيمان الحقيقي بملكه وقدرته:

{تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ}، تجعل فترة العتمة من اليوم تدخل في فترة النور من اليوم، وأي إنسان يمكنه ملاحظة ذلك حيث بعد غروب الشمس تبدأ العتمة بالانتشار.

{وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}، وتجعل فترة النور تدخل في فترة العتمة، ونلاحظ ذلك عندما يَبْدَأُ الضوء بالانتشار صباحًا.

لا يذهب فكرك في التعمق بعلم الفلك والفيزياء لتفهم الآية، لا، لأنها تتحدث عن ظاهرة يراها ويفهمها كل الناس، وإن كانت تتكرر كل يوم فهذا لا يعني أنها بسيطة وروتينية، لا، بل عظيمة من دون الحاجة إلى أي معرفة بالفيزياء للضوء أو لعلم الفلك.

المشهد هنا لمن يقف على الأرض ويرى الغروب والشروق، وليس الكلام مع من يقف في الفضاء أو ينقل له قَمَرٌ اصْطِنَاعِيٌّ من الفضاء صورة لدخول الليل في النهار، لا، كل كلام القرآن مع شخص واقف على الأرض يرى المظاهر من حوله.

لِيَكُنْ في بالك دائمًا، بأننا نحاول اختراع آلات وأنظمة، وننبهر بها عندما تنجح، وهي تستغرق منّا جهدًا في تصميمها وتنفيذها، فقارن بين أعظم اختراعاتنا وبين أي شيء خلقه ربنا سبحانه من حولك، مِنْ أصغر الكائنات الميكروية إلى أكبرها، قارن ولاحظ عظمة ربنا سبحانه، وانتبه لتكرر تعاقب الليل والنهار بنجاح في كل لحظة منذ ملايين السنين، وَانْتَبِهْ لضخامة المشهد الممتد على كل وجه الأرض... وربما لو حاولت يومًا ما تصميم آلة لتعمل شيئًا متقنًا متكررًا، ورأيت صعوبات التصميم والتنفيذ، عندها ستلتفت أكثر إلى ما تقوله الآية لك.

{وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ}، وتجعل كائنًا حَيًّا يفعل وينفعل، وتجعله يخرج من مواد لا تفعل ولا تنفعل، فنحن البشر مخلوقون من التراب، وإذا كوّمت ترابًا وماءً بوزن جسمك فالفرق هائل بينك وبين الكومة بالرغم من أنك مركّب من هذا الطين، وعلمًا أن الحياة الإنسانية التي أنت عليها خرجت من هذا الطين، وسبحانه من فعل ذلك.

تتذكّر الآية 28 من سورة البقرة "كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ..." وأمثالها الواصفة لنا بالإحياء ومن قبل كنّا أمواتًا، حيث لم نك شيئًا كما عبّرت الآية 67 من سورة مريم "أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا"، فإخراج الحيّ من الميّت يصدق علينا حين خلقنا تعالى أول مرّة، إذ لم نك شيئًا، ولم يكن لنا كيان لنفعل أو نتفاعل، وهذا هو نفسه الوصف بالموت، ثم وهبنا تعالى الحياة، وهكذا يصير وصفنا أَنَّا خرجنا من الموت إلى الحياة.

{وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ}، وتجعل الأشياء الحيّة تموت، مثلما نموت نحن ونفقد حياتنا، ونفقد القدرة على الفعل والانفعال، ونصير جسدًا ليس فيه حياة إنسانية وبعدها نصير ترابًا.

بعبارة أخرى، انظر من حولك، فستجد أشياء حيّة مثل النباتات والحيوانات والبكتيريا والطحالب... فمن أين جاءت؟ ومن أخرجها إلى الحياة؟ الله سبحانه أخرجها من الموت إلى الحياة، إلى حالة تفعل وتنفعل فيها الكائنات من حالة سابقة كان لا فعل ولا انفعال لها.

لا تتوسّع في معاني الكلمات القرآنية عندما تكون الكلمات لا تتحمّل التوسّع، هنا لا تتوسع وتقول إنَّ المؤمن هو الحي الذي يخرج من أبوين كافرين ميتين، أو الكافر "الميت" يولد من أبوين مؤمنين، فهذه المعاني صحيحة ولكن سياق الكلام هنا معنا عن الحياة البيولوجية.

{وَتَرْزُقُ}، وتعطي الأشياء التي نسدّ بها حاجاتنا ورغباتنا، التي تؤكل أو التي نستعملها لنشتري بها ما يؤكل وما نحتاجه، طعامٌ ومالٌ...، {مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}، حيث أمامك سبحانك خيارات عديدة، ويمكنك أن تعطي هذا وأن تحرم ذاك، ولكن ليس لأي أحد منّا حساب معه تعالى، فليس لنا فرض واجب عليه تعالى أن يرزقنا، فنحن ماذا قدّمنا لربنا سبحانه حتى رزقنا؟ يعني هل لنا عليه شيء حتى يرزقنا؟ لا، إذًا من دون أن يكون بيننا وبينه سبحانه حساب فإنه رزقنا وأعطانا.

إذا عملت لديك، أو أعطيتك شيئًا، صار بيني وبينك حساب، وعندما تعطيني أَجْرِي عن العمل، أو تعطيني خبزًا بدل التفاح، فأنت تعطيني بحساب، ولكننا عندما نحصل على شيء من ربنا سبحانه، فَذلك يكون مِنْ كرمه وتفضّله ورحمته، لأننا لم نعطه أي شيء، ولم نقدّم له شيئًا، لأنه أصلًا يملكني ويملك كل شيء، فماذا يمكننا أن نقدم له تعالى حتى يكون بيننا وبينه حساب؟

في الكتب عمومًا نجد فهمهم لكلمة "بغير حساب" في بعض السور أنها تعني: بلا انقطاع، أو بدون الالتزام بما يحصلون عليه فقط من حسناتهم حيث سيتم مضاعفة ما يحصلون عليه، وهذه المعاني وغيرها صحيحة ونجدها منتشرة في مختلف آيات القرآن، ولكن جملة "بغير حساب" تشير للعطاء منه تعالى تَفَضُّلًا علينا وليس بسبب حساب بيننا وبينه تعالى، فليس هناك فرض واجب عليه تعالى أن يسدّد حسابنا ويرزقنا لأننا أصلًا ليس لنا عليه تعالى أي شيء.

(لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ {28})
من الأمور الأساسية في الدين الإلهي:

{لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}، المؤمنون وهم الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بالدين الإلهي، فغير مسموح لهم ترك موالاة إخوانهم المؤمنين ليوالوا الكفّار، فلا يحقّ لهم اعتبار أنفسهم تابعين للمنكرين لدينه تعالى وأنهم مرجع لهم، ويسمعون كلامهم ويتبعون آراءهم وقوانينهم...

{وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ}، حيث يعتبر الكفّار أولياءه ويترك ولاية المؤمنين، {فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ}، فهو لا علاقة له بالله تعالى، فإيمانه وتدينه ليس لهما أي علاقة بالله تعالى، حتى لو كان يصلي ويصوم وله لحية أو لها حجاب... فمن جعل الكفّار الناكرين للدين أولياء له، ويسمع رأيهم العقائدي أو الديني أو السياسي أو الاجتماعي... ويعمل ولو لمرة واحدة على أساس ما سمعه منهم وهو مخالف لما يقوله المؤمنون، ولو لمرة واحدة في حياته فهذا ليس مؤمنًا حقيقيًا ولا علاقة لإيمانه بالله تعالى.

{إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ}، إلا أن توالوهم لتتجنبوا شيئًا، والكلام عن تجنّب شيء سيئ ستتعرضون له من الكافرين إن لم تعلنوا أنكم موالون لهم، {تُقَاةً}، تجنبًا تحاشيًا، حيث كنتم مضطرين للعمل عندهم أو للعيش في بلدانهم، وتظهرون للكفار أنكم توافقونهم الرأي ولكنكم من الداخل لا توافقونهم وإنما أنتم مضطرون لمجاراتهم حتى لا يؤذوكم، ففي هذه الحالة يمكنكم إظهار الموالاة للكفّار، وأنكم معجبون بكلامهم.

{وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}، يُنَبِّهُكُمْ من عقابه شخصيًا إذا اكتملت شروط حصولكم على العقاب، فأنتم لحدّ الآن لم تتوافر كل شروط حصولكم على عقابه تعالى، فإذا خالفتم أوامره تعالى فعقابكم سيحصل بالتأكيد ولن يتوكل به أحد غير الله تعالى طبعًا عبر أمره للملائكة بتعذيبكم ورميكم في النار... فلا تتهاونوا بأوامره ولا تستخفوا بها، فليس الموضوع لعبةً أو بسيطًا، بل ممنوع ولاية الكفّار، إلا تقاة، وسبحانه يعلم إن كنتم مضطرين لاتقائهم ولا يمكنكم الخروج من تحت حكمهم، أم أنتم مستهترون وعلى خاطركم موالاتهم، وهذا ما ستشير له الآية التالية، وقد فصّلت فيه سور أخرى من القرآن بكلامها عن الهجرة وكمثال عن ذلك الآية 97 من سورة النساء "إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا".

{وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}، فمصيرنا والنهاية التي لن تتغيّر هي الوقوف بين يدي الله تعالى. لِنُقَارِنْ بين تمتعنا بشيء في الدنيا مقابل رجوعنا للمحاسبة والمجازاة عليه في الآخرة، فكم سنستفيد من علاقتنا مع الكفار وإظهار الولاية لهم! وهل

يساوي شيئًا أمام رجوعنا الحتمي إلى ربنا سبحانه؟ فالعقاب شديد جدًا ولا يوجد شيء يستحق التعلق به إن كان سيؤدي بنا إلى عقاب ربنا سبحانه.

ضع في بالك دائمًا الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى مَعَانِيَ قرآنية رائعة، تَصَوَّرْ شخصًا أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، حيث تحذّره من سلوك الطريق السيّء، فهو حاليًا ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية "وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ..."، والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران "لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ...".

أمّا إذا سلك طريق الخطر، فتنذره، لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. الإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتمًا ما يضرّه، فتنذر الكافر حيث هو في حالة ستسبّب له العقاب حتمًا، وقد ورد هذا كثيرًا في القرآن. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يتلبّس بما سيسبّب له الضرر، فتحذّر المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

هذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، قد يقوم المؤمن بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، فتنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة المسيحيين المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف "وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا"، وعموم المؤمنين المشمولين بالتهديد من فكرة فعل السيئات على أساس أن يحمل أحد ما السيئات عنهم "وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ"، والمشمولين بالتهديد إن لم يتغيّروا نحو الأحسن موعودون بالمغفرة كما ورد في الآية "إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ"، ونفس المفهوم في الآية 45 من سورة النازعات "إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا".

(قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {29})

{قُلْ}، للناس أيها النبي(ع) عبر هذا القرآن: {إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ}، حين لا تقولوا حقيقة تفاعلكم مع الأمور، ولا تظهروا ما في داخلكم من مشاعر وأفكار نتجت عن تفاعلكم مع الإيمان أو الكفر، {أَوْ تُبْدُوهُ}، أو تظهروا وتعلنوا ما في صدوركم مما تفاعلتم معه، على كِلْتَا الحالتين، {يَعْلَمْهُ اللَّهُ} تعالى.

الآية السابقة تحدّثت عن حالة اضطرارية لإخفاء الإيمان تقاة تجنبًا للضرر من الكفّار، فمن أظهر للكفّار أنه يوافقهم في الرأي، مِنْ داخله فهو إمّا فعلًا موافق لهم، أو من الداخل هو مؤمن، على كِلْتَا الحالتين فالله سبحانه يعلم داخله، لِنَفْتَرِضْ أَنَّ شخصًا من داخله كافر، ويدّعي أنه مؤمن وَأَنَّهُ مضطر للتماشي مع الكفّار، فهذا لا يخدع إلا نفسه، لأن الله تعالى يعلم ما يخفيه في صدره.

إن خطر ببال أحدكم أَنَّ علمه سبحانه بما في صدورنا غير معقول، ليكن بعلمه أن هناك أكثر من ذلك:

{وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، وهذا التعبير يشابه قولنا: كل ما يجري في الدنيا يعلمه تعالى، حيث حصر القرآن كل ما كان غيره تعالى بالسماوات والأرض، من السماء العليا إلى الأرض حيث السامع لهذه الجملة، فهي سبع سماوات ولكل سماء أرض تناسبها، وسماؤنا نحن وكوكب الأرض أرض لها وسطح القمر أرض لها... وهذه كلّ حدود الدنيا وما فيها وسبحانه بالتفصيل يعلم كل شيء فيها كلّها.

كل ما يجري في الظاهر من أقوال وحركات وتحركات في كل الدنيا، وكل ما يجري من أفكار وأحاسيس لكلّ المخلوقات، فإن الله سبحانه يعلمه.

{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، فكلّ شيء تحت قدرته تعالى فيمكنه سبحانه فعل أي شيء يريده، وعلمه تعالى بما في صدورنا من الأمور البسيطة التي يقدر عليها تعالى بسهولة، أصلًا كل شيء سهل بالنسبة له تعالى.

بالنسبة لكلمة "صدر، صدور" فقد استعملها القرآن كما يستعملها الناطقون باللغة العربية، وفي العديد من اللغات الأخرى لديهم نفس التعبير بالصدر عن التفاعل الداخلي للإنسان مع ما يراه ويسمعه ويشعر به مما يتعرّض له... نحن عندما نتعرّض لمختلف الظروف، نشعر بالانقباض أو الانشراح... في صدرنا، حيث استعملنا كلمة صدر لتوصيف حالة تفاعلنا مع الأمور، وحتى لو لم تشعر بأي شيء في قفصك الصدري، من انقباض أو صعوبة في التنفّس أو راحة... فمجرد تفاعلك مع ما تعرّضت له، فإن مختلف اللغات البشرية تعبّر عن هذا التفاعل بأن شيئًا حصل في صدرك، وحتى السرّ الذي تخفيه عن الآخرين تعبّر عنه مختلف اللغات بأنه في صدرك، وكلّنا نعلم أن السرّ ليس في القفص الصدري، فليس تحته في الرئة أو القلب أو المريء... بل هو تعبير يشير لحالة تفاعلنا مع ما ندركه سواء بقي مخفيًا أو ظهر له أثر حسّي في منطقة الصدر أو على تعابيرنا وحركاتنا.

(يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ{30})

{يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ}، في الزمن الذي يجد كل شخص من الناس، {مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا}، فأعمال الخير التي قام بها كل واحد ستكون موضوعة أمامه، وَطَبْعًا سيكون سَعِيدًا باللقاء مع أعمال الخير.

{وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ}، من أمور موصوفة بأنها سيئة، ستجده أَيْضًا مُحْضَرًا مَوْضُوعًا أمامها، {تَوَدُّ}، تريد وترغب النفس، {لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ}، وبين ما عملت من سوء، {أَمَدًا}، مدة زمنية غير محددة، ويكون الزمن، {بَعِيدًا}، غير قريب، فلا يرغب أي أحد بلقاء أعماله السيئة، ويتمنى لو أنه لَمْ يَلْقَهَا، فِي يوم القيامة من الموت يعلم أنه حَتْمًا سيلاقي أعماله السيئة ولكن يرغب ويحبّ لو أن بينها وبينه زَمَنًا طَوِيلًا جِدًّا قبل اللقاء بها.

أَبْسَطُ تصوّر لحالة رؤية الأعمال هو رؤيتها مسجلة في الكتب التي ستتوزّع علينا والتي سجّلت فيها الملائكة(ع) أعمالنا حين كنّا في الدنيا كَمَا ورد في الآية 17 و 18 من سورة ق "إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ"، وهكذا يسجلون ما نفعله وفي يوم القيامة يُعْرَضُ علينا ما سَجَّلُوهُ كما ورد في الآية 49 من سورة الكهف "وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا".

{وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}، فينبهكم من عقابه لكم شَخْصِيًّا إذا اكتملت شروط حصولكم على العقاب، فإذا خالفتم أوامره تعالى فعقابكم سيحصل بالتأكيد ولن يتوكل به أحد غير الله تعالى، وَعَمَلِيًّا هذا يعني أَلَّا تتهاونوا بأوامره تعالى ولا تستخفوا بها. وفي الآية 28 السابقة توسعنا في معنى الحذر وفرقه عن الإنذار.

{وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}، فلا يركّز سبحانه على نقاط ضعف عباده، أي الذين الْمَفْرُوضُ منهم طاعته، فلا يخطّط لهم ليسقطوا ويتعذّبوا، لا، بل يحذّرهم من نفسه من عقابه لأنه رؤوف بهم، ويمكننا كلنا الوقوف حيث يكون ربنا سبحانه رَءُوفًا معنا، فلا نكفر ولا نشرك ولا نعصي... فيغفر لنا ما عملنا من سيئات.

تَحَدَّثْنَا عن معنى كلمة عباد في الآية 15 من هذه السورة فراجعه لمزيد من التفاصيل.

بقي شيء، نَحْنُ لدينا مصطلحات وثقافة ذهبت بَعِيدًا عن أصل مفاهيم القرآن، حَيْثُ يَخْطُرُ ببالنا تفسير جملة {مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ} أنه طاعتها له تعالى بفعل الواجب وترك الحرام، وبالعكس نُفَسِّرُ ما فعلت النفس من سوء بأنها فعلت الحرام وتركت الواجب الذي يأمر به تعالى، وهذا صحيح ولكن كلام القرآن أوسع نظرة من ذلك، فهناك عموم الخير وعموم السوء، فسبحانه في قرآنه يرينا أنه لا يعرض علينا شَيْئًا جَدِيدًا غَرِيبًا كَدِينٍ لنلتزم به، بل يعرض علينا الخير لنتماشى معه، وينبّهنا من السوء لنبتعد عنه.

عَادَةً نحن كمؤمنين نختصر الحياة بمصطلحات دينية، حرام حلال، واجب مباح، مستحب، مكروه... بينما القرآن يركّز على الخير والشرّ، والصلاح والفساد، الحسن والسوء، العدل والظلم... على أنها مفاهيم وصفية للأعمال والأقوال والسلوكيات... وأننا من المفروض أن نميّز بينها، وأن نختار الخير لأننا نرغبه ونترك السوء لأننا نراه سَيِّئًا. وإلا فإن لم يكن هذا هو المفروض بنا، وكان مَقْبُولًا اختيارنا للسوء الذي لا يمكننا رؤية سوئه، فما معنى الدين؟! وما معنى أي

شيء أَخْلَاقِيٍّ أو إنساني أو اجتماعي أو قانوني...؟ تَحَدَّثَ معنا سبحانه مُخَاطِبًا العقلانية التي جعلها فينا، ولو بأقل درجة حكمة قبل أن تتشوّه رؤيتنا للأمور بسبب إصرارنا عليها رغم علمنا سَابِقًا بأنها سيئة، فعندها سيكون للحديث عن الخير والشر والصلاح والفساد معنى.

في الكثير من أدبياتنا تخطينا الكلام عن أساس خلقته تعالى لنا مع قابلية التكليف، حيث زرع تعالى فينا تمييز الخير من الشرّ، العقلانية "والمنطق" والحكمة... واستعمل القرآن أَوْصَافًا عديدة لذلك، من يعقلون وأولي الألباب والأبصار... وانتقلنا من هذه إلى عرض دينه تعالى بجفاف الحلال والحرام والواجب، وكأنها تكاليف إضافية كأعباء على مجريات حياتنا، بينما هي في غالبيتها الخير الذي من المفروض بنا التوصّل إليه لوحدنا بقلب سليم، كالأمور التي نسمّيها إنسانية من مساعدة وعون الآخرين واحترام حقوقهم... وهكذا سترى الزكاة عمل خير وليس كضريبة، ونفس الشيء بالنسبة للصلاة فهي شكر ومديح لمن خلقك ورزقك ووعدك بجنّة خالدة، وفي نفس الوقت غسيل للسيئات التي فعلتها كما تقول الآية 114 من سورة هود "وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ..."، وهكذا ترى الفرق بين تعبير القرآن عن عملوا {الصَّالِحَاتِ}، ووجدت {مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا}، و{وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ}... وبين فهم التدين بدينه تعالى كأعباء إضافية، وكأعمال والتزامات نقوم بها زيادة عن الآخرين، بينما هي ترجمة عملية للخير والصلاح.

(قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{31})
{قُلْ}، أيها الرسول(ع) للناس عبر هذا القرآن:

{إِن كُنتُمْ}، أيها الناس، {تُحِبُّونَ اللّهَ}، فلديكم شعور التعلّق به تعالى والرغبة في رضاه عنكم عن حق، {فَاتَّبِعُونِي}، فكونوا على ما أنا عليه، وآمنوا بما آمنت وافعلوا كما أفعل، عندها، {يُحْبِبْكُمُ اللّهُ}، حيث من مستوى الحبّ الإلهي الذي ترجمته الرضا والرحمة والمغفرة... يتعامل معكم تعالى، {وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}، حيث يتجاوز عن مخالفاتكم لأوامره فلا يحاسبكم عليها.

{وَاللّهُ غَفُورٌ}، فليس صلبًا قاسيًا جافًا لئيمًا... يأخذ موقفًا واحدًا لا يتراجع عنه سبحانه، بل بكثرة يسامح من طلب منه المسامحة حتى لو كفر به تعالى وبعدها آمن.

{وَرَحِيمٌ}، فلديه سبحانه عناية خاصة للمؤمنين لما فيه مصلحتهم.

الآية تعرض الإيمان بالإسلام بالانقياد له تعالى عبر ما يقوله هذا القرآن، على أناس يقولون بأنهم يحبون الله تعالى، وربما يَكُونُونَ من أهل الكتاب أو من غيرهم، حيث تعرض عليهم الآية أنهم إن اتبعوا النبي(ع) فإن كل ما فعلوه سَابِقًا من ذنوب فإنها ستكون مغفورة، وسيبدؤون حياتهم من جديد من دون ذنوب، لأن الله غفور لمن طلب المسامحة ورحيم بالمؤمنين فلهم عناية خاصة، يعني تعالوا ادخلوا تحت الرحمة الخاصة بالمؤمنين.

ضع في بالك دَائِمًا أن الكلمات التي في اللغة وتعبّر عن المشاعر ونستعملها لوصفه تعالى، فَهُوَ استعمال مع الفارق بيننا وبينه تعالى، أَنَا أحبّ وَأَرْغَبُ بإقامة علاقة أو تواصل مع شيء ما، وينتج عن هذا الشعور أمور نابعة من كياني كإنسان، حيث أهيم في الحبّ وأصير لَا عَقْلَانِيًّا كالمجنون... كحبّ قيس لليلى... أو أتحوّل إلى مجرم كحبّ زليخا للنبي يوسف(ع)... هذا وأمثاله شيء إنساني، أمّا سبحانه وتعالى فنستعمل كلمة حبّ لوصفه تعالى ولكن على مستواه الإلهي، وَنَضُمُّ لمعناها أنه تعالى عزيز لا يتأثّر ولا يتغيّر في حكمته أي شيء إن كانت كلّ الكائنات لا تحبّه تعالى، أو كانت لا تستحقّ أن يحبّها فلن يتأثّر سبحانه وتعالى بَتَاتًا، نَحْنُ نعيش مشاعر الحب التي تسعدنا ونبتهج بها أمّا سبحانه وتعالى فلا يعيش هذه المشاعر الإنسانية فحالته سبحانه واحدة دائمة لا تتغيّر، وأوصاف المشاعر ننسبها له تعالى مع الفارق الهائل بيننا وبينه تعالى، فمحبته تعالى عَمَلِيًّا هي رضاه الذي يُتَرْجَمُ عَمَلِيًّا العناية.

خذ مَثَلًا كوني في حالة غضب شديد، فمشاعر الحبّ تنمحي مني حيث سيطر الغضب عليّ... أمّا سبحانه وتعالى ففي نفس الوقت يغضب أشد الغضب على أحد ما وفي نفس الوقت يحبّ أشد الحبّ أَحَدًا آخر، ويحلم على ذاك ويكره هذا ويغفر لآخر... ويدير شؤون الكائنات والدنيا... وينير قلب هذا ويغشي قلب ذاك... كل ذلك في نفس اللحظة، وهكذا ترى

الفارق بين وصفنا ووصفه تعالى بالكلمات التي من نوع المشاعر، حيث لا ينفعل سبحانه بأي شيء، وترجمة هذه الكلمات بالنسبة له تعالى هي كيفية معاملته تعالى مع الأشياء، بِنَاءً على تقييمه عزّ وجلّ بما يتميّز به تقييم هذا عن ذاك، فهذا محبوب عنده تعالى لأنه مؤمن بالحق وعامل للصالحات حيث سيعامله تعالى بكذا وكذا، وَيَهْدِيهِ ويزيد من حسناته... وذاك مكروه حيث سيتركه يضل ويمدّ له في الغيّ... وهكذا نستطيع بسهولة فهم وصفه تعالى بما هو بالنسبة لنا مشاعر أَنَّهُ وصف تعامله تعالى مع الأمور، بغضب ترجمته ضرر، أو بحبّ ترجمته رحمة. أمّا أعمق من ذلك فهو دخول في نفسيته تعالى وهذا فوق قدرتنا على فهمه ولذلك نقف عند حدود فهمنا ونحاول التعمّق مع الأخذ بعين الاعتبار بقية ما نعرفه عنه تعالى، وأنه ليس كمثله شيء.

(قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ{32})
{قُلْ}، للناس عبر هذا القرآن: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ}، فاسمعوا لأوامر الله تعالى ولأوامر رسوله(ع) وَنَفِّذُوهَا. {فَإِن تَوَلَّوْا}، حيثُ تَوَجَّهُوا باتجاه آخر غير ما يقوله تعالى والرسول، وَتَرَكُوا طاعة ربهم سبحانه ورسوله، {فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}، فليس لديه تعالى تقييم جيد للناكرين لحق ربهم سبحانه ورسوله(ع) في الطاعة.

الإله سبحانه يجب طاعته، ويجب إطاعة رسول الإله أيضًا طبعًا فيما يخص موقعه كناقل للكلام الإلهي وكقائد، ومن كفر وَأَنْكَرَ وجوب طاعة الإله ورسوله، فإن الله تعالى لا يحبه، فلا مجال لأن يكون له تقييم جيد عند ربنا سبحانه، ولن ينال المغفرة على ذنوبه... ولا مجال لأن ينال الجنة في الآخرة.

نفهم هذه الآية بالنظر لاستهتار الناس بالدين وبالالتزام به، حيثُ إِنَّ بعضهم بينه وبين نفسه وهكذا لوحده يعلن نفسه مُؤْمِنًا مُتَدَيِّنًا على مزاجه، وهو لا يصلي ولا يصوم ولا يعتمد القرآن شريعة...

هذا الرسول محمّد(ع) الذي يأمركم ربنا سبحانه بطاعته، هو (ع) فرد ذو امتداد من عائلة مميزة، لِنُكْمِلْ مع الآيات:

لكن قبل ذلك ضع في بالك في عموم ما ورد في القرآن أنه تعالى لا يحبّه، وَرَدَتْ حيث لا داعي للكلام القاسي، وخذ مَثَلًا كلامك معي حيث تريد تحذيري وتنبيهي فتقول: سأكسر عظامك لو فعلت كذا وكذا... فهذه نبرة عالية لا مبرر لها لأنك تعلم أني حَالِيًّا لست نَاوِيًا لفعل السوء، والجملة الأنسب: لا أحب أن تفعل كذا وكذا... وعلى هذا المفهوم جاءت الآيات التي وَجَّهَتْ كلامها مع المؤمنين مستعملة عبارة مشابهة لعبارة "الله يحب أو لا يحب".

بقي شيء من الفضول، مَا يقولونه عن إعجاز تكرّر بعض كلمات القرآن بعدد ملفت، كقولهم عن تكرار كلمة ليل 12 مرة وكلمة نهار 12 مرة... تَتَبَّعْتُ غالبية الكلمات التي قالوها ووجدت غالبية كلامهم كَذِبًا إلا في أقل من عشر كلمات، ومما تحققت وتأكدت منه كلمة شهر بالمفرد "شهر، شَهْرًا" تَكَرَّرَتْ 12 مرة، وتكررت كلمة شهر بالمثنى "شهرين" مرتين فقط. كلمة "رجل" بالمفرد تكررت 24 مرة، وكلمة "امرأة، امْرَأَت" أَيْضًا تكررت 24 مرة. كلمة "يأمرون" تكررت 7 مرات، وكلمة "ينهون" أَيْضًا تكررت 7 مرات. كلمة "الخبيث" بالمفرد تكررت 7 مرات، وكلمة "الطيب" بالمفرد تكررت 7 مرات. وهناك كلمات أخرى فيها الكثير من التراخي والاستنسابية بحيث يلغون كلمة أو كلمات لسبب غير وجيه ويدّعون أن الأعداد متساوية كقولهم عن تكرار كلمة ملائكة والشيطان.

الْغَرِيبُ أن الحالة الوحيدة الصادقة بالتمام والوضوح لَيْسَتْ منتشرة في مقالاتهم وكتبهم! فِعْلًا تكررت في القرآن جملة "الله يحب" سِتَّ عَشْرَةَ مرة، وجملة "الله لا يحب" 16 مرّة.

لكن، هل هذا يعني أي شيء؟ لا، لَا يحتاج القرآن لِخُزَعْبَلَاتٍ من هذا النوع ليصير له قيمة أو لنؤمن بأنه من مصدر إلهي، فما فيه من حقّ وصلاح هو قيمته.

(إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ{33})

من هنا سندخل في فقرة ستتحدث عن آيات ربانية عظيمة، كان من المفروض أنها تجعل الناس يُؤْمِنُونَ، وَبِخَاصَّةٍ اليهود والمسيحيين، ولكن هذا لم يحصل! وبداية افتتاحية الحديث بربط النبوة والعناية الإلهية بهداية الناس من آدم(ع)، وأن كلّ الأنبياء هم من ذرية واحدة...

{إِنَّ اللَّهَ}، إن صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {اصْطَفَى}، اختار وَانْتَقَى بسبب ميزة موجودة فيهم، حَيْثُ انْتَقَى {آدَمَ} (ع) بسبب ميزة موجودة فيه فجعله تعالى أوّل بَشَرِيٍّ تَكَلَّفَ بالأوامر الإلهية لأنه (ع) تأهّل لذلك، وهذا ما نفهمه من عموم كلام القرآن عن أول بشري تتوجّه إليه الأوامر الإلهية وما نفهمه من الآية 30 من سورة البقرة "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً..."، حيث كان الكلام يشير لآدم(ع) وذريته. وجعله تعالى أَبًا لكل الأنبياء كما يبدو من الآية هنا والتي تليها، وَاصْطَفَى {نُوحًا} (ع)، فجعله تعالى رَسُولًا... وحصل الطوفان ومات الكثير من الناس، وَانْتَقَى ربنا سبحانه نبيه نوح(ع) ليكون أَبًا لكل الأنبياء الذين جَاءُوا من بعده، كما سيبدو لك من تكملة الكلام.

وَاصْطَفَى سبحانه، {آلَ إِبْرَاهِيمَ} (ع)، للمنتسبين بالنسب له(ع)، وَكَانَتِ الأنبياء أيضا كلها من آله(ع)، كلمة الآل تشمل أولاد البنت وسترى معنى ذلك في "آل عمران"، ولا ندري إن كانت السيدة مريم الحالة الوحيدة كامتداد لنسب نبي من ناحية الأم المنتسبة لإبراهيم(ع). وَاصْطَفَى سبحانه، {آلَ عِمْرَانَ} (ع)، وَأَيْضًا الْمُنْتَسِبُونَ له بالنسب كانوا مميزين، وهم ابنته السيدة مريم(ع) وابن ابنته النبي عيسى(ع)، وكما تلاحظ اسْتَعْمَلَتِ الآية تعبير الآل الذي يشمل البنت "مريم" التي منها امتداد النبي إبراهيم والنبي عمران إلى النبي عيسى عليهم السلام.

ننتبه لتمييز الآية لآل عمران(ع) عِلْمًا أَنَّهُ مشمول تحت آل إبراهيم(ع) والسبب أنه جدّ النبي عيسى(ع)، وسيأتيك في هذه السورة في الآية 59 كلام مع الذين ألّهوا النبي عيسى(ع)، وَالْآيَةُ هنا مرتبطة أيضا بذاك الكلام، وَالنَّبِيُّ عيسى (ع) بشري بالتمام وأمّه مريم(ع) وجدّه عمران(ع)، فهو (ع) من آل عمران من آل إبراهيم من آل نوح من آل آدم عليهم السلام.

اصطفاهم تعالى، {عَلَى الْعَالَمِينَ}، من بين كل الناس اختارهم تعالى لأنهم مُمَيَّزُونَ.

كَلِمَةُ اصطفى لم يستعملها القرآن لانتقاء محدّد، مِنَ السياق تعلم بماذا اصطفى، لِذَلِكَ لَا تستنتج أن الاصطفاء هنا كان اختيارهم للنبوّة، السَّيِّدَةُ مريم(ع) اصطفاها تعالى وَانْتَقَاهَا من بين الناس لتكون أُمًّا مُمَيَّزَةً لشخص مميّز، وهي ليست نَبِيَّةً، ويمكنك مراجعة كلّ السورة التي سمّاها الناس بسورة الأنبياء بسبب ذكر العديد من الأنبياء فيها، عِلْمًا أَنَّهُ لم ترد في تلك السورة كلمة نبي! ولترى أن السيدة مريم مذكورة هناك مع أشخاص مدحتهم السورة، وَتَفْهَمُ منها أنهم هم بالأصل كانوا مميّزين وبعدها اختارهم تعالى ليكون منهم أنبياء أو رسل أو صدّيقة، وهذا هو معنى اصْطِفَائِهِمْ.

هُنَاكَ كلام هنا وهناك في الكتب عن نبوّة "آدم"(ع)، والقرآن لم يصفه وَلَا مَرَّةً بأنه نبي، وإن كان ذكره مع الأنبياء كما في آيتنا هنا، ومثله (ع) مثل لقمان(ع) والسيدة مريم(ع)، ذَكَرَهُمُ القرآن بتميّزهم ولم ينسب لهم النبوّة، ونفس الكلام عن النبي نوح(ع) حَيْثُ لَمْ يصفه القرآن مباشرة بالنبوة ولكن سياق كلام القرآن عنه يختلف عن سياق الكلام عن آدم(ع)، وَوَحْيُهُ تعالى لأحد ما ليس مَعْنَاهُ صَيَرَانَ الموحى إليه نَبِيًّا، وَأُمُّ موسى أوحى تعالى لها كما ورد في الآية 7 من سورة القصص "وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى..." ومعلوم أنها ليست نَبِيَّةً بالمعنى التَّوْظِيفِيِّ.

لَدَيْنَا المعنى اللغوي الأساسي للوصف بالنبوة والتي تصدق على كل من وصله نبأ، ولدينا الوصف الذي من سياق الكلام يشير لشيء ديني على معنى وصول نبأ منه تعالى على أحد ما فيما يخص دينه تعالى، ولم يستعمل القرآن كلمة نبي إلا لوصف هذه الحالة، ولم يستعملها إِلَّا في الذين توظّفوا منه تعالى لنقل النبأ للآخرين، وآدم(ع) وَصَلَتْهُ أنباء منه تعالى، فهو على المعنى اللغوي نبي، ولكن لا تجد في القرآن كَلَامًا عنه مُشَابِهًا للذين توظّفوا بالنبوة، رُبَّمَا هناك سبب لذلك، وربما هذا من تبعات واقعية وصول النبأ منه تعالى على أحد ما مع تدرجات في أهمية ما وصله والمساحة البشرية التي يحتك بها من وصله النبأ... مُضَافًا له أننا في بالنا حصرية قيام أحد ما بهداية الناس وَمُوَافَقًا عليه منه تعالى لذلك أنه يجب أَنْ تَصِلَهُ أنباء منه تعالى ويكون نَبِيًّا، فماذا لو كان نوح(ع) يقوم بهداية الناس معتمدا على قلبه السليم ومن دون وحي إلهي فيما يخص هداية الآخرين، والأنباء التي وصلته منه تعالى كانت بخصوص بناء سفينة...

هَا القرآن أمامك ولن تجد فيه تَصْرِيحًا بنزول الوحي لهداية الناس على إبراهيم(ع) طالما هو في المدينة التي حاولت إحراقه، حِينَهَا لا يوصف بالنبوة لا بالمعنى اللغوي ولا الاصطلاحي، وكل ما قاله وفعله مستند لقلبه السليم.

رُبَّمَا حالة آدم(ع) هكذا، وَبِمَا لديه من سلامة قلب تعامل مع الأمور بلا وحي يخصّ هداية الآخرين...

(ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{34})
هؤلاء الأطهار من آدم(ع) بالفروع من أولاده مرورا بالنبي نوح(ع) وبعده مرورا بالنبي إبراهيم(ع) بفرعَيْهِ النبي إسحاق(ع) والنبي إسماعيل(ع)، وصولا من النبي إسحاق إلى النبي عمران(ع) وابن ابنته الرسول عيسى(ع)، ومن جهة ثانية وصولا إلى الرسول محمّد(ع) من النبي إسماعيل (ع) ابن النبي إبراهيم(ع) فهم ذرية، وقد انفصلوا عن بعضهم البعض بولادة الواحد من الآخر، فهم جدّ وأولاد أولاد... {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ}، وكلهم مرتبطون بالنسب فهم ذريّة، وكلّهم بعضهم من بعض فيتشاركون في النسب بلا فرق، فهذا من ذرية إسماعيل بن إبراهيم وجدّه نوح وذاك من ذرية إسحاق بن إبراهيم وجده نوح، وتفهمها بشكل أبسط عندما تنتبه لقول الإسرائيليين عن أنفسهم أنهم ساميُّون، ليميّزوا أنفسهم عن بقية الشعوب، علما أن بقية العرب ساميُّون، والإسماعيليين ساميُّون أصيلون ومن نفس الجدّ إبراهيم الوالد لإسحاق وإسماعيل، فهم {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ} بلا فرق.

{اللّهُ سَمِيعٌ}، فيسمع كل شيء، و{اللّهُ عَلِيمٌ} فيعلم بكل شيء، وعلى هذا الأساس اصطفاهم وعلى هذا الأساس ذكرهم سبحانه لنا بتميّزهم.

ننتبه لشيء مهم جدا، فهناك سؤال عن ارتباط عموم الأديان بجغرافيا محدّدة، والبوذية مركزها الشرق الأقصى، وهناك أديان مناطقية لجزيرة ما أو لبلد ما... وكما ترى فدينه تعالى مرتبط جغرافيا بمنطقة الشرق الأوسط، ومن آيتنا السابقة والحالية نفهم أن سبب تركيز الأنبياء والرسل في هذه المنطقة أنهم هم مميزون وتأهلوا ليصيروا أنبياءَ ورسلاً، وبعبارة صريحة مباشرة نقول: لم يتأهّل أي إنسان من خارج هذه العوائل ليستحقّ توظيفه بالنبوة أو الرسالة.

بهذا نفهم سبب حرمان بقية المناطق من الأنبياء، فهم لم يتأهل منهم أحد إلى هذا المستوى العالي، وبالتحليل لهذا ستصل إلى نتائج لتفسر بها كيفية وصول كلامه تعالى لتلك المناطق النائية التي نعلم يقينا أن الكثير منها لم يصلها كلامه تعالى، وإذا لم يتأهل من تلك المناطق من يستحق توظيفه بالنبوة، فهو انعكاس عن حالة عامة لسلامة القلب منتشرة بين أهل تلك المناطق، فمجموع فكر ونفسية تلك المناطق لم يَصِلْ إلى حيث التأهل للتكليف، أو مستوى تكاليفها منخفض، أو ليست في مستوى التكليف الراقي فبقيت مكلفة بالحدّ الأدنى مما يعرفونه من خير وشرّ، وهذا هو نفسه الأساس الذي يُكَلَّفُ به جميع العاقلين، جميع الناس، وهم مُكَلَّفُونَ بالذي تراكم من ثقافة الخير في مجتمعهم، وهذا في جوهره لا يختلف عن حالة أي مجتمع آخر جاءه نبي، فأنا كفرد أميّز بين الخير والشرّ لن أفقد هذا التمييز أينما كنت، وعليه سيحاسبني سبحانه أينما كنت، وما تجده من قوانين خير في مختلف المجتمعات فهو من هذه البذرة الموجودة فينا كلنا والتي على أساسها سيحاسبنا سبحانه، سواء وصلنا خبر من نبي أو لم يصلنا، فهذا هو الحدّ الأدنى للتكاليف، فهو ما نعرفه نحن من خير لنفعله، ومن شرّ لنبتعد عنه.

الآيات ستدخل من هنا على جانب من قصة آل عمران، وصولا إلى النبي عيسى(ع)، وهي كما تعرف ففيها العديد من الآيات الإلهية، وستذكر الفقرة لنا توضيحات حول حقيقة النقاط المهمة من قصّة آل عمران وتصحّح ما ورد من تزييف في التاريخ، والبداية مع دعاء ونداء: فربنا سبحانه {سَمِيعٌ} فيسمع كل شيء، و{عَلِيمٌ} فيعلم كل شيء، وقد سمع النداء التالي:

(إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{35})
{إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ}، ومن المشهور جدا في تاريخ ثقافتنا الدينية أنها كانت أرملة حين قالت ما سيلي، ويبدو أنها كانت الوصية على ابنتها في غياب زوجها "المتوفى" حتى قررت مصير ابنتها وحدها:

{رَبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ}، فحدّدت لك نَذْرًا، وأوجبت على نفسي لك، {مَا فِي بَطْنِي}، الجنين الذي في بطني، {مُحَرَّرًا}، منّي خَالِصًا لك، {فَتَقَبَّلْ مِنِّي}، فاقبل منّي ما أوجبته على نفسي لك سبحانك حيث تخلّيت عن ولدي الذي في بطني ليكون لك، {إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ}، تسمع كل شيء فتسمع نذري، وأنت، {الْعَلِيمُ}، فتعلم كل شيء وتعلم صدق نيتي في نذري.

من المشهور في التاريخ أنها كانت حاملاً حين مات زوجها النبي عمران(ع)، فقرّرت نذر الولد الذي في بطنها، مُحَرَّرًا من خدمتها ورعايتها، ليكون خَادِمًا لله تعالى، على أساس أن تضعه في المعبد حين يكبر ليقضي حياته هناك في الأعمال الدينية.

لسبب أو لآخر، أرملة النبي عمران(ع) كانت تعتقد أنها حاملٌ بصبي، ربما لأنها اعتقدت أنه يجب أن يكون نَبِيًّا مثل أبيه، أو ربما اعتقدت أنه يجب أن يكون المسيح الذي كانوا ينتظرونه... على أي حال:

(فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ{36})
{فَلَمَّا وَضَعَتْهَا}، عندما أنجبت ما في بطنها، {قَالَتْ}، امرأة النبي عمران(ع):

{رَبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى}، أنجبتُ أنثى، وتعلم مما هو مشهور في التاريخ أن الأنثى لن يَسْمَحَ لها علماء اليهود بالعيش في المعبد، ويقولون إِنَّهُ أصلا كان ممنوعاً دخول النساء على المعبد الرئيسي.

تقطع الآيات كلام الأرملة، لأنها تخبره تعالى بشيء هو سبحانه أصلا يعلمه، {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ}، فسبحانه يعلم أنها وضعت أنثى.

لاحظ وانتبه جيدا كيف قطع القرآن كلام المرأة الجليلة، حتى ينبّه أنها فقط هي المتفاجئة، أمّا سبحانه فقد كان يعلم بأنها ستنجب أنثى، وهذه الأنثى سيكون لها شأن عظيم، فهي السيدة مريم(ع).

تكمل المرأة الجليلة كلامها:

{وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى}، وسياق الكلام عن نذرها المولود محرراً، أي في خدمة الله تعالى، هذا إن كان ذكراً، فلا يمكن ترك الأنثى لتعيش في المعبد، فهذا لم يحصل سابقا، ولن يقبل به رؤساءُ المعبد.

لاحظ وانتبه جيدا، ففي بعض الأدبيات الشعبية الذكورية يتلون هذه الآية للدلالة على أفضلية الذكر على الأنثى، وفي بعض الأدبيات الأخرى التي تدّعي العلمية يتلون هذه الآية للدلالة على أفضلية الأنثى لأن المولود هو السيدة مريم العالية الشأن... بينما سياق كلام الآية عن نذر المولود ليكون في المعبد، وفي عرفهم هذا كان حصراً للذكور.

الجملة لا علاقة لها بالأفضلية لا من قريب ولا من بعيد، بل كل القرآن أكّد على الأفضلية بالإيمان والعمل الصالح بغض النظر عن الجنس، وهذا لا ينفي الفروقات الجسدية والقدرات الجسدية واختلاف النفسية والمشاعر... بين الذكر والأنثى، وهذه الفروقات لا تسبب أفضلية عنده تعالى بل ينتج عنها بعض الفروقات التشريعية، ولمزيد من التوسع راجع دراسة الآية 34 من سورة النساء {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ...}.

{وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ}. ونعرف من التراث اليهودي أن اليهود كانوا يعتبرون "مريم" أخت النبيين موسى(ع)
وهارون(ع) من أقدس الشخصيات النسائية عندهم، حتى إِنَّهُمْ كانوا ينادونها: النبيّة. وعلى ما يبدو من الكلام هنا ومما ورد في الآية 28 من سورة مريم {يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا} فعابوها واتهموها بالزنا وسخروا منها لتسميتها باسم مريم أخت النبي هارون(ع) التي كانت مرافقة دائمة له كما يقولون في التراث اليهودي، فيبدو لك من الكلام هنا أن تسميتها بمريم كان تَيَمُّناً بتلك المرأة، على أساس أنه اسم أنثوي له ارتباط بالنبوّة وبالمعبد.

{وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا}، وأعتقد أنك منيع وأطلب أن تكون الْعَوْذَ لها، الحماية لها ولمن سينفصل منها "بالولادة أو بغيرها" فتحميهم أيضاً، {مِنَ الشَّيْطَانِ}، من الذي يقوم بأعمال الضلال ويعمل على إضلال الناس وإبعادهم عن طريق

الهداية، و{الرَّجِيمِ}، ومشهور وصف إبليس بالرجيم لأن الملائكة(ع) رمته بالشهب وطردته من السماء العالية حين أبى السجود لآدم(ع)، ولا تزال الملائكة(ع) ترجمه وترجم بقية الشياطين كلما حاولوا الاقتراب من السماء العالية، وعملياً فرجيم كوصف للشيطان هو طرده من الرحمة الإلهية.

يعني كما هو رجيم فَلْيَبْقَ مرجوماً مبعداً عنها وعن ذريتها.

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ{37})
{فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا}، المسؤول عنها من مستوى إلهي قبل السيدة مريم(ع)، {بِقَبُولٍ حَسَنٍ}، فهي منذورة له سبحانه محررة من أي خدمة أو تبعية لأي إنسان، فقبلها سبحانه من أمّها.

{وَأَنْبَتَهَا}، فجعلها تكبر وتنمو، {نَبَاتًا}، نموا، {حَسَنًا}، فكانت معيشتها برعاية إلهية.

{وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا}، فجعل كفيلها في الرعاية النبي زكريا(ع).

هنا الآيات اختصرت مسيرة حياتها، حيثُ دخلت السيدة مريم(ع) وهي طفلة إلى المعبد، مع أنه كان مستحيلا قبول رؤساءِ المعبد بذلك، وتدخّل سبحانه مرة ثانية عندما جعل كفالتها برعايتها والمسؤولية عنها للنبي زكريا(ع)، وكما يبدو من التاريخ فهو المنفرد بين علماء اليهود في حينها بالتقوى والبقية فاسدون من درجات مختلفة... وسنرى التدخل الإلهي في الآيات التالية، وسنرى كيف رعاها سبحانه:

{كُلَّمَا دَخَلَ}، النبي زكريا(ع)، {عَلَيْهَا}، على السيدة مريم(ع)، {الْمِحْرَابَ}، وهي في غرفتها الخاصة، {وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا}، وجد النبي زكريا(ع) عند السيدة مريم(ع) شيئاً يُؤْكَلُ، وجد طعاما. وهكذا كلما أراد زيارتها لتفقدها ولمساعدتها فيما تحتاجه، كان يجد عندها طعاما، فلم تكن تَحْتَاجُ للطعام الذي يحضره لها النبي زكريا(ع).

هكذا مرّت الأيام والسيدة مريم(ع) مستغنية عن الطعام الذي يحضره لها النبي زكريا(ع)، وكان النبي زكريا(ع) يظن أن أشخاصا في المعبد أو من خارجه كانوا يحضرون لها الطعام، ولكن في النهاية سأل عن الطعام، ومن طريقة السؤال نعرف أن النبي زكريا(ع) راقب غرفة السيدة مريم(ع) ليرى من أين يأتيها الطعام أو أن نوعية الطعام كانت غير عادية، ولنقل إنَّ فيها فاكهة في غير موسمها... لسبب أو لآخر لم يعلم النبي زكريا(ع) مصدر الطعام ولم يخطر في باله أنه من عنده تعالى، ومن تركيب الجملة تعلم أنه سابقا لم يسألها، وفي مرّة من المرات سألها، فقال:

{يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا}؟ كيف وبأي طريقة تحصلين على هذا الطعام؟ ونفترض من سياق السؤال أن الاستغراب من كيفية وصوله إليها ومن أين؟ ونفترض أنه (ع) أخذه الفضول فراقب المحراب ولم يَرَ أحدا يدخله... وبالرغم من ذلك وجد عندها طعاما!

أجابت السيدة مريم(ع) وقالت:

{هُوَ}، هذا الرزق يأتيني، {مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}، {إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}، الطريقة العادية للحصول على الطعام هي العمل للحصول على المال لشرائه، أو العمل على إنتاج الطعام مباشرة بالزراعة أو تربية المواشي، ولكن الطعام الذي حصلت عليه السيدة مريم(ع) كان، {بِغَيْرِ حِسَابٍ}، من دون أي مقابل قدّمته لله تعالى، وهذا المعنى عمومي لكل ما يرزقنا تعالى به، فنحن ليس لنا عليه تعالى فَرْضٌ وَاجِبٌ أن يرزقنا لا هنا ولا في الآخرة، وبدون حساب بيننا وبينه تعالى يرزقنا.

بعبارة أبسط، نحن لم ندفع المال لربنا سبحانه ليرزقنا، ولم نقدّم له أي شيء حتى نطالبه أن يرزقنا، فلا حساب بيننا وبينه تعالى، وطاعتنا له تعالى بالصلاة والصوم والزكاة... لا تَجْعَلُهُ تعالى مفروضا عليه أن يرزقنا، فهذه واجبات علينا... وسبحانه {يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة يختار منها بحكمته من دون أن يكون فرضا واجبا عليه سبحانه أن يرزق هذا أو ذاك.

يعني هذا الرزق، الطعام والفاكهة والشراب. لَيْسَ من الناس، بل من الله تعالى، لأنها تجده هكذا أمامها في محرابها.

حالياً نجد في المساجد، في المكان الذي يقف فِيهِ إمام الصلاة، نجد في الحائط تجويفا بسيطا يسمونه المحراب، ودرج نقش آيتنا هذه حول التجويف، وفي الحقيقة فإن هذه تسمية رمزية، فالمحراب هو أكبر من تجويف صغير، فهو الغرفة الخاصة، سواء أكانت صغيرة أو كبيرة، وسواء أكانت على السطح أو تحت البيت، وسواء أكانت منفردة أو ملحقة بغرفة. فالسيدة مريم(ع) لم تسكن مع بقية الناس في المعبد، بل كان لها "مِحْرَابٌ" أي غرفة خاصة منعزلة أو بعيدة عن بقية المساكن.

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء{38})
{هُنَالِكَ}، في تلك الحالة التي أبهرت النبي زكريا(ع) من العناية الإلهية بتأمين الرزق للسيدة مريم(ع)، التفت إلى نفسه وليس عنده أولاد، وَصَارَ هو وزوجته كبيرَيْنِ في السن، والسيدة مريم(ع) كَبِرَتْ وصارت صبية، فمن لا يرغب أن يكون عنده ابنةٌ أو ابنٌ بمثل طهارة السيدة مريم(ع)؟ {هُنَالِكَ} {دَعَا} النبي زكريا(ع) {رَبَّهُ}، أشهر وأعلن للمسؤول عنه من مستوى إلهي:

{رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {هَبْ لِي}، أعطني من دون أيِّ مقابل منّي، {مِنْ لَدُنْكَ}، من عندك، {ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً}، فَمَا ينفصل منّي "بالولادة" يكون طَيِّباً ليس فيه خبث وسوء.

{إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ}، لِأَنِّي أدعوك وأنا متأكد أنك تسمع دعائي، إشهاري وإعلاني.

نُلاحِظُ أنها المرة الأولى التي يطلب فيها النبي زكريا(ع) أن يرزقه تعالى ولداً، رغم السنين الطوال التي مرّت عليه وعلى زوجته وهما يرغبان في أن يكون لهما ولدٌ، لَمْ يَطْلُبَا منه تعالى، وتركا الأمور تمشي بحسب ما قدّره تعالى، ولكن مشهد السيدة مريم(ع) مع الرزق يأتيها منه تعالى في غرفتها "محرابها"، جعل النبي زكريا(ع) يتمنى أن يكون له ابنٌ صالحٌ.

(فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَـى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ{39})
بعد مدة من الزمن...

{فَنَادَتْهُ}، فتوجّهت بكلامها إليه، {الْمَلَائِكَةُ}، {وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي}، أثناء قيامه بالتوجّه والإقبال، وهنا تفهمها أنه يقوم بطقوس الصلاة "من كلام وحركات"، {فِي الْمِحْرَابِ}، في الغرفة الخاصة، ونعلم مما هو مشهور في التاريخ ومن آيات أخرى أنه (ع) كان في غرفة مميزة في المعبد، وكان الناس خارج تلك الغرفة في باحة المعبد في مراسم دينية... وخرج (ع) من المحراب فاقدا للقدرة على إصدار الأصوات... وراجع في ذلك الآية 11 من سورة مريم {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}، قالت له الملائكة(ع) بينما كان يصلّي في المحراب:

{أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ}، فيخبرك بحصول شيء سارّ مفرح، والبشارة، {بِيَحْيَى}، بولد اسمه يَحْيَى، {مُصَدِّقًا}، يوصف بأنه لا يعارض فيؤكّد، {بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ}، فهناك كلمة إلهية لن ينكرها ولن يكذّبها النبي يَحْيَى(ع).

بِحَسَبِ ما هو مشهور وما يبدو من الكلام فالنبي زكريا(ع) مثله مثل أرملة النبي عمران(ع) ومثل المؤمنين في ذلك العصر، فقد كانوا ينتظرون رسولا مصلحا لانحراف علماء الدين اليهود، وَكانوا ينتظرون المسيح(ع)، الذي جاءتهم البشارات به منذ زمن طويل، وكما تفاجأت امرأة النبي عمران(ع) أنها أنجبت ابنة، وَكَانَتْ تتوقع صبيا ليكون المسيح(ع)، هُنَا نلاحظ أن اسم الولد للنبي زكريا(ع) تَمَّ تحديده منه تعالى حتى لا يعتقدوا أنه المسيح(ع)، ومع البشارة بالولد جاءت البشارة بأن موعد ولادة المسيح(ع) قَرِيبٌ، فالكلمة الإلهية التي سيصدّق بها النبي يَحْيَى(ع) ستكون النبي عيسى(ع)، فسوف يؤيده ويؤمن به، وهذا أقرب معنى بالنظر لمجمل الحالة حينها، فهم ينتظرون المسيح وهذا الولد ليس المسيح بل مصدّق به، فسيعاصره.

الولد يَحْيَى(ع) سيكون، {سَيِّدًا}، فسيكون له أتباع وهو سيّد عليهم.

سيكون، {حَصُورًا}، حاصرا مانعا نفسه من شيء ما، فلن يعمل على الحصول على ولد، وهذا المعنى لكلمة حصور منتشر بين المسلمين والمسيحيين، والكلام هنا مع النبي زكريا(ع)، وبالتحليل نفهم أن الكلام الإلهي معه(ع) بوصف الحصور لابنه حتى لا يفكّر بأن المسيح(ع) سيكون من أولاد النبي يَحْيَى(ع).

سيكون، {نَبِيًّا}، فيصله النبأ منه تعالى، فسيأتيه الوحي بأخبار غير منتشر علمها بين الناس، وسيكون، {مِنَ الصَّالِحِينَ}، من الذين وصلوا لدرجة الصلاح الخير في عقيدتهم وأعمالهم.

نَعْلَمُ من الآية 7 من سورة مريم {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا}، أن الاسم: يَحْيَى. هو تسمية إلهية لم يسبق أن تسمّى بهذا الاسم أحد من قبله (ع)، فكان أول شخص بهذا الاسم، وهي تعطي معنى: فَلْيَكُنْ حيّا.

(قَالَ رَبِّ أَنَّىَ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ{40})
النبي زكريا(ع) أخذته الدهشة، فقال:

{رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {أَنَّى}، كيف وبأي طريقة، {يَكُونُ لِي غُلَامٌ}! مِنِ استعمال القرآن لكلمة غلام يبدو أن الأب العجوز سيعيش حتى يرى ولده تَجَاوَزَ مرحلة البلوغ فالملائكة(ع) بشّرته بذلك حين استعملت كلمة غلام.

{وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ}، فصرت كبيرا جدا في السن، ولم يعد جسمي فتيا حتى أنجب أولادا! {وَامْرَأَتِي}، وزوجتي من الأساس، {عَاقِرٌ}، فلا يمكنها أن تحبل! لَا أنا ولا زوجتي يمكننا إنجاب أولاد، بِأَيِّ طريقة سأحصل على ولد! الْمَلَائِكَةُ تبشره بولد ولكن كيف سيحصل هذا!

{قَالَ}، أحد الملائكة(ع) مجيبا على التساؤل:

{كَذَلِكَ}، هكذا كما بشّرناك، {يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة وَقَرَّرَ الاستجابة لدعائك ليكون عندك ذرية طيبة.

لاحظ، أنك تَشْعُرُ بالاستغراب من استغراب النبي زكريا(ع)، وَتَسْأَلُ: كيف يستغرب النبي من قدرة الله تعالى؟! ولكن انتبه جيدا، فالنبي(ع) لم يستغرب من قدرة الله تعالى، فهو يعلم أنه تعالى على كل شيء قدير، إنما يقول النبي(ع):
الطرق العادية التي أعرفها لإنجاب الولد مفقودة، فبأي طريقة سيكون عندي أنا الكبير في السنّ ولد منّي ومن زوجتي العاقر؟!

بِهَذَا الكلام من نبي ترى إيمانا مختلفا عن الثقافة الدارجة بيننا عن التلفظ بالاسم الأعظم وحصول شيء ما هكذا ومن دون سبب بشكل عجائبي سحري، فها القرآن يؤكد على وجود آليات لحصول كل الأشياء وحتى التي يفعلها سبحانه وتعالى، فلها آليات لا نفهمها ولكن ليست سحرية بالمعنى الخرافي لحصول الأشياء فقط لمجرد أنه تعالى أرادها أو النبي أرادها أو من قال الاسم الأعظم أرادها... فعقلية سذاجة الإيمان بتأثير كلمات أو أسماء له تعالى إذا قلتها فسيكون لها مفعول سحري لحصول الأمور بلا أسباب وبلا ارتباط بالواقع، فهذه مدمّرة للإيمان العقلاني السليم، وتجعلنا لا نفهم كلام نبي واضح كلامه عن السؤال عن الأسباب المفقودة لإنجاب الولد، واستغرابه التدخل الإلهي بآليات لا يفهمها ليصير عنده ولد.

كَمَا كان النبي إبراهيم(ع) يؤمن بقدرة الله تعالى على إرجاع الموتى إلى الحياة، ولكنه أراد رؤية حصول العملية، وتقرأ ذلك في الآية 260 من سورة البقرة {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ...}، وكما أيضا أبدى النبي إبراهيم(ع) استغرابه حين بشّرته الملائكة بإسحاق(ع) في الآية 54 من سورة الحجر {قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ}، فهنا النبي زكريا(ع) يعلم أنه تعالى على كل شيء قدير ولكن يسأل: {أَنَّى}. كيف وبأي طريقة سيحصل هذا! ونلاحظ أن الملائكة(ع) أجابته أنه سيحصل بتدخل إلهي، فسيكون فيك وفي زوجتك قدرة التناسل والإنجاب.

يُمْكِنُنَا فهم استغرابه (ع) بسبب شدّة الفرح والمفاجأة، وأيضا هذا شيء نستصعب قبوله بسبب الثقافة الدينية غير الصحيحة المنتشرة بيننا، ففي ثقافتنا أن النبي دُعَاؤُهُ مستجاب، بل وفي ثقافة البعض أن النبي يمكنه فعل ما يشاء... على أساس ولايته التَّكْوِينِيَّةِ، وتبعية الكون له بالسيطرة عليه... ولكن عموم القرآن لا يؤيّد هذه الثقافة على إطلاقها، فدعاء أي مؤمن مستجاب لا يعني أنه يتعامل مع جنّي الفانوس السحري الخرافي الذي يحقّق له أمانيه، فكلّنا محكومون بالبلاء لامتحاننا في الدنيا، فأي بلاء سيكون للذي دُعَاؤُهُ مستجاب حتما ويمكنه أن يطلب ما يشاء! وأصلا لا يعيش الأنبياء حالة التأكّد من تحقيق دعائهم لأنهم يعلمون أنه تعالى بحكمته يجري الأمور برحمته لما فيه مصلحتهم الإيمانية، وكل ما يحصل معهم فهو بعينه تعالى، وكما يتدرّب المؤمن على القتال ويستعدّ، فالدعاء واحد من ضروريات النصر الإلهي، والنبي زكريا(ع) مثله مثل أي إنسان عادي مخلوق بصفات إنسانية تتضمّن القدرة على الإنجاب والرغبة في الإنجاب، وَأَخَّرَ تعالى حصول نبيّه(ع) على ولد إلى الحين المناسب، إلى حين اكتملت الظروف المناسبة مع الدعاء، فمن دون الدعاء لم يكن سيحصل على الولد.

هَكَذَا نميّز بين أمور عادية تحصل بمجريات عادية، متوكلين عليه تعالى راجين سير أمورنا بالعافية، فدائما سبحانه يدير كل شيء، ولمسات بسيطة تغير الكثير بالنسبة لنا... وبين هذا الكلام وبين دعاء النبي زكريا(ع) طالبا الولد من شيخ وعاقر، نفهم أن أدب الدعاء لطلب شيء نرغبه يختلف عن طلبات لا تنتهي وكلها نرغب بها! لَاغِينَ حالة الدنيا كبلاء وممر للآخرة، فسيرة الأنبياء قرآنيا تشير لحالة نادرة في حياتهم يطلبون فيها منه تعالى شيئا ما.

(قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ {41})
النبي زكريا(ع) أراد أن يعرف الناس أن الولد سيأتيه بسبب تدخل إلهي، فقال:

{رَبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {اجْعَلْ لِي آيَةً}، اجعل لي شيئاً مُمَيَّزاً، كعلامة تدل على أنك سبحانك استجبت لدعائي وتدخلت حتى يكون لي ولد.

{قَالَ}، الله تعالى عبر الملائكة(ع):

{آيَتُكَ}، الشيء المميّز، {أَلَّا تُكَلِّمَ} {النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ}، فلا يخرج الكلام من فمك مهما حاولت أن تتكلم، {إِلَّا رَمْزًا}، ويمكنك التحدث مع الناس بالإشارات من فمك أو وجهك أو يديك...

{وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا}، فاستحضر في فكرك وعملك المسؤول عنك من مستوى إلهي كثيرا، وَداوِمْ على تَذَكُّرِ نعمه وصفاته تعالى، {وَسَبِّحْ}، فقم بِتَنْزِيهِهِ تعالى عن الصفات التي لا تليق بمستواه تعالى الإلهي، {بِالْعَشِيِّ}، في الفترة الزمنية التي يكون الضوء في السماء خَفِيفاً من فترة المغرب حتى المساء، وسبّح في، {الْإِبْكَارِ}، في الفترة الصباحية الباكرة وهي الفترة بعد الفجر، يعني داوم على التسبيح في كل الأوقات، كما نقول: من الصبح لِلْمَسَاءِ.

نَتَذَكَّرُ دائماً أن ذكر الصفات الحسنة له تعالى هو التطبيق العملي للتسبيح، فهو التنزيه عن الصفات السيئة، فذكرنا له تعالى بالحميد ينفي عنه تعالى قيامه بأي عمل سَيِّئٍ فَاسِدٍ، ووصفه تعالى بالحكيم هو تسبيح له تعالى ينفي عنه العبث أو التسلية...

(وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ {42})
{إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ}:

{يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ}، فاختارك كصفوة بسبب تميّزك، فأنت مع مجموعة الأنبياء والرسل والصالحين من المرتبة العالية، فقد اصطفى سبحانه وَاخْتَارَ الأفضل من الناس والبداية مع آدم(ع) والنبي نوح(ع)... والسيدة مريم(ع) من ضمن الذين جرى اصْطِفَاؤُهُمْ.

{وَطَهَّرَكِ}، فلم يترك فيك أي شيء مكروه من الصفات، فصرت خالية من الصفات السيئة المكروهة.

{وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ}، فأنت الخيرة المميزة من بين النساء من كل الناس.

الاِصْطِفَاءُ الأول جَعَلَ السيدة مريم(ع) مع مجموعة الأنبياء والرسل المصطفين، وهم كلهم رجال، والاصطفاء الثاني هو لإخبارنا أنه تمّ اختيارها كخيرة مميزة على نساء، على إِنَاثِ، العالمين، كل إِنَاثِ العالم.

لاحظ وانتبه أَنَّ كلّ القرآن لم يذكر اسم أي أنثى إلا السيدة مريم(ع)، وَتَحَدَّثَ عن نساء مؤمنات، أبرزهن زوجة فرعون، ولكن لم يذكر اسمهنّ.

بقي شيء، ففي تراث المشاحنات المذهبية والطائفية بين المسلمين، هناك كلام عن الأفضلية الإيمانية لشخصيات هذا المذهب أو ذاك، والعراك حول أفضلية زوجة الرسول الأولى السيدة خديجة، أو زوجته السيدة عائشة، أو ابنته السيدة فاطمة... وبعضهم جعل شخصيته المذهبية أفضل نساء العالمين، حتى أفضل من السيدة مريم! على أساس أن السيدة مريم أفضل نساء عصرها وأن سيدته أفضل نساء العالمين من الأولين والآخرين، ضاربا بعرض الحائط آيتنا هذه، مُؤَوِّلًا لها على مزاجه لينتصر في معركة ضد طواحين الهواء.

السَّيِّدَةُ مريم تخصّني أنا كَمُنْتَمٍ لدينه تعالى وليست تخصّ المسيحيين، وليست سيدتهم الممنوع عليّ اعتبارها سيدة لي بل وسيدة نساء العالمين، فهذه عقلية العصبية التي تجعل في دينه تعالى فِرَقًا وشيعا، ولست مُضْطَرًّا للبحث عن امرأة خاصة بجماعة أنتمي إليها لِأُبَجِّلَهَا فوق نساء العالمين لأنتصر بها على قديسات الآخرين...

(يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ{43})
{يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ}، فكوني تحت طاعة المسؤول عَنْكِ من مستوى إلهي، {وَاسْجُدِي}، فعبّري بالحركات عن أقصى حالات الاحترام والخضوع له تعالى، فقرّبي وجهك من الأرض، أو ضعي جبهتك على الأرض، {وَارْكَعِي}، فانحني، {مَعَ الرَّاكِعِينَ}، مع الْحَانِينَ ظهورهم. وهذا الكلام يشير لأمر مشاركتها في طقوس العبادة مع الْآخَرِينَ، فشاركي في صلاة الجماعة.

(ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ{44})
{ذَلِكَ}، الذي ذكرته الآيات السابقة عن امرأة النبي عمران(ع) والنبي زكريا(ع) والسيدة مريم(ع)، {مِنْ أَنْبَاءِ}، من أخبار ليست منتشرة، {الْغَيْبِ}، من الأمور التي كانت غائبة عنك فلم تكن تعرفها أيها النبي محمّد(ع)، {نُوحِيهِ إِلَيْكَ}، فنخبرك بها بلا كلام وعبر معلومات تصل إلى وعيك من عندنا عبر ملائكتنا التي تضع المعلومات في ذهنك.

{وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ}، فما كنت بينهم، {إِذْ يُلْقُونَ}، إذ يرمون، {أَقْلَامَهُمْ}، ما يكتبون به، {أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ}، حيث اختلف الزعماء في المعبد حول كفالة السيدة مريم(ع) حين كانت صغيرة، فكل واحد منهم أراد أن يتكفّل برعايتها فيكون المسؤول عنها، فأجروا قرعة بالأقلام، ومن المشهور أنهم رموا أقلامهم المصنوعة من القصب في بركة ماء لها مسرب، وتخرج الأقلام من المجرى، ومن بقي قلمه للآخر في بركة الماء يكون هو الفائز، حيث شارك الجميع ولكنه تعالى تدخل وجعل قلم النبي زكريا(ع) يبقى مكانه في الماء، وهكذا حصل على كفالة السيدة مريم(ع) ومرت منذ قليل تسمية النبي زكريا(ع) بالكفالة في الآية 37 "فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا...".

{وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ}، والخصام هو عموم أي خلاف يسبب حالة نفسية بين شخصين من النفور والكره وصولا إلى العداوة، حيث اختلفوا بعنف حول أحقية الكفالة لمريم(ع)، فكل واحد أراد أن يكون هو المسؤول عنها.

نعلم مما فعلوه مع السيد المسيح(ع) أنهم لم يكونوا مؤمنين حَقّاً، فنعلم أنهم هنا لم يكونوا يريدون كفالة السيدة مريم(ع) لأنهم يحبون فعل الخير، لا، إذ كانت أهدافهم سيئة، ولذلك تدخل سبحانه وجعلها في كفالة النبي الطاهر زكريا(ع).

نتذكّر ما أشارت إليه امرأة النبي عمران(ع) حين وضعت أنثى، فلم يكن دارجاً لا من قبل ولا من بعد السيدة مريم(ع) أن تعيش أنثى في المعبد، وترى في الآية هنا التدخّل الإلهي لتحويل الوضع من رفض لدخولها (ع) إلى المعبد إلى الاختصام في كفالتها في المعبد! فقبلوا بذلك بل وتخاصموا على كفالتها! وهذا طبعاً حصل أول ما دخلت السيدة مريم(ع) على المعبد وقبل ما ذكرته الآيات السابقة عن نزول الرزق إلى محرابها.

الوحي هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خيراً أم شرّاً، وبناء عليه فكل أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وحياً لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وترى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ"، حتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال "إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...".

ينطبق فعل الوحي على أي كائن كان "إنساناً، حيواناً، مَلَكاً أو جِنّاً" إما بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم، وطرق فعل الوحي وأنواعه متعددة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم "فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا". ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا"، وما ورد في الآية 193 و 194 من سورة الشعراء "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ". أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات "فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ..."، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل. ووحي عبر إصداره تعالى صوتاً في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص "فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ"، مضافاً لها الآية 13 من سورة طه "وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى"، فكلامه تعالى معه(ع) وحي لأن الكلام ليس صادراً مباشرة منه تعالى فهذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، فيصير وصف الحالة أن كلامي يصلك وحياً.

هناك وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ" ففي النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

الوحي يصدق على وحي الخير والشر، فالشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا..." ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... فالوسوسة في الفكر... والإلقاء في الرُّوعِ "في الوعي"... مهما كان نوعه خيراً أو شراً فهو وحي.

(إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ{45})

{إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ}: {يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ}، فيقول لك خَبَراً سَارّاً سيحصل معك، ويُبَشِّرُكِ، {بِكَلِمَةٍ مِنْهُ}، فقد قَرَّرَ سبحانه وقال كلمته بأن يكون لك ولد اسمه: {الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ}.

سيكون {وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا}، من الوجهاء، مُحْتَرَماً مُقَدَّراً عند الناس كشخصية دينية في الدنيا، ووَجِيهاً في الآخرة، فسيكون أيضاً شخصية محترمة مقدّرة في الآخرة، وسيكون، {مِنَ الْمُقَرَّبِينَ}، فبعكس إبليس المرجوم الملعون المطرود، فهناك مقربون يهتم سبحانه بهم ويبقي على التواصل برحمته وعنايته معهم...

من الآية 17 من سورة مريم {فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا}، ومن حصرية استعمال القرآن لوصف الروح للملاك جبريل(ع) كما فهمنا من ضمّ الآية 193 من سورة الشعراء {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ}، مَضْمُوماً لها الآية 97 من سورة البقرة {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ...} وهذا لا يلغي الوصف بالروح لملائكة آخرين، ولكن هذه عادة القرآن إذا استعمل وَصْفاً مُحَدَّداً فسيكون لنفس الشخص كحالة استعماله لكلمة فرعون دَائِماً للذي كان مُعَاصِراً للنبي موسى(ع) من دون الحاجة لتحديده في كل مَرَّةٍ، فمن هذا نعلم أن الملاك جبريل(ع) قد حضر عند السيدة مريم(ع) مُتَمَثِّلاً على شكل بشر، وفي الآية بعد التالية ستنقل الآيات الكلام بالمفرد عن ملاك واحد {قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} ويبدو أن كلام الآية هنا مثل حالة قائد أمر جنوده بِمُهِمَّةٍ، وقام بها واحد منهم، فوصف الحالة أن الجنود نفّذوا المهمة، فوجّه تعالى أمره للملائكة بنقل البشارة، ونفّذ المهمة الروح.

من التاريخ نعرف أن ملوك بني إسرائيل كانت تقام لهم مراسم تتويج، وكان يقوم أحد الأنبياء أو الرُّؤَسَاءِ الدينيين بـ: "مسح" رأس من سيصير مَلِكاً بزيت الزيتون كدلالة على تعيينه، فتسمية النبي عيسى(ع) بالـ "مسيح" تدل على أن الله تعالى عيّنه مَلِكاً على الناس، ونعرف أنه (ع) لم يتبعه الناس فلم يَصِرْ مَلِكاً فِعْلِيّاً حَاكِماً بِسُلْطَةٍ تنفيذية، ولكن هذا لا يعني أي شيء، فهو (ع) مَلِكٌ بتعيين إلهي، وإذا لم تتبعه الناس فهذا لا يغيّر أي شيء، مثلما يبعث الله تعالى رَسُولاً ولا يتبعه الناس، فهذا لا يغيّر أي شيء، فالرسول يبقى رَسُولاً، والملك المعيّن من الله تعالى يبقى مَلِكاً.

تذكّر دَائِماً تركيز القرآن الكريم على تسمية النبي عيسى(ع) هكذا: {عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ}. فقد ورد في تاريخ اليهود العديد من الشخصيات المهمة التي تحمل اسم عيسى، وستجد أكثر من عَشْرِ شخصيات بَارِزَةٍ جِدّاً، وكلهم يحملون الاسم عيسى ولكن بعدة تصريفات، فهناك عدة تصريفات لِلاسْمِ عيسى في اللغة العبرية والآرامية، ومنها: عيسو، يسوع، يشوع، جشوا، يشوا... وكلها بالنسبة لليهود "وللعرب" ترجع في اللغة العربية والعبرية والآرامية... إلى اسم عيسى، "مثل أحمد محمد محمود حمود... فكلها من حمد"، ولهذا السبب وحتى يتميز ويتحدد النبي عيسى الحقيقي بالضبط عن هؤلاء، وحتى يتميز عن الأشخاص المزيفين الذين ادعوا أنهم المسيح، فيسميه القرآن مع اسم أمه مريم التي ولدته من دون أب، وَمُضَافاً له تكريم السيدة مريم بذكر اسمها مع اسم ولدها المميز لأنها هي كانت مُمَيَّزَةً جِدّاً.

(وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ{46})
الولد الذي نُبَشِّرُكِ به، {يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ}، وهو في أرضية مُهَيَّأَةٍ للنوم أو البقاء فيها، وهنا المقصود في أصغر سرير يوضع فيه الرضيع، حيث في فترة الطفولة المبكرة جِدّاً وقبل أن يكون هناك أي احتمال لنطقه بشكل طبيعي، فَفِي أيامه الأولى سينطق ويقول كَلَاماً مَفْهُوماً.

{وَكَهْلاً}، سَيُكَلِّمُ الناس وهو كهل أي في مرحلة ما بعد الشباب وقبل الشيخوخة، فَالْكَهْلُ هو العمر بين الثلاثين وَالْخَمْسِينَ، وَكَمَا تكلم في المهد وقال إِنَّهُ عبد الله سبحانه ورسوله... سَيَقْضِي عمره بشكل طبيعي حتى يصل إلى عمر الثَّلَاثِينَاتِ وما بعده ويقول للناس من جديد إِنَّهُ يحمل لهم رسالة من ربه، لِذَلِكَ نستنتج أنه(ع) سيقوم بعمله الرسالي ابْتِدَاءً من سن الكهولة، أي من بعد سن الثلاثين. وسيكون، {مِنَ الصَّالِحِينَ}، وليس من السَّيِّئِينَ، لِأَنَّ باطنه وأعماله وأقواله ستكون صَالِحَةً نَافِعَةً خَيِّرَةً.

(قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ{47})
لم يخطر ببال السيدة مريم(ع) أن الولد سيكون من دون أب، وَلَمْ يخطر ببالها أن تحبل هكذا لوحدها بأمر منه تعالى، إِذْ ذهب فكرها إلى الحياة العادية لأي زوجين يهبهما الله تعالى وَلَداً، فقالت السيدة مريم(ع):

{رَبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {أَنَّى}، فكيف وبأي طريقة، {يَكُونُ لِي وَلَدٌ}؟ فإذا كانت الطرق العادية للحصول على الولد مفقودة فكيف سيكون لي ولد؟ فأنا لم أتزوّج؟

{وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ}، فلم يلمسني "وهنا المقصود بالتحديد: لمس معاشرة" أي واحد من الناس "وهنا المقصود بالتحديد: أي ذكر"، سواء بالحلال أو الحرام، فلا أنا متزوجة ولا أنا فعلت علاقة بالحرام مع أي ذكر! فكيف سيكون لي ولد!؟

انتبه، فأنت تعرف القصة، وتعرف أنها حبلت بأمر رباني، أمّا هي (ع) فلم يخطر ببالها هذا الشيء، ولذلك فهي (ع) تستغرب.

{قَالَ}، الملاك جبريل(ع): {كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ}، يركّب ويؤلف، {مَا يَشَاءُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة وَقَرَّرَ أن يخلق لك وَلَداً من دون معاشرة مع أي رجل، إِذْ قرّر تعالى أن تحبلي وبكل سهولة سيتم تركيب وتأليف بذرة جنين في بطنك، مثلما خلق سبحانه كل هذه المخلوقات. {إِذَا قَضَى} سبحانه {أَمْراً}، فإذا قرّر سبحانه حصول شيء ما، {فَإِنَّمَا يَقُولُ} للشيء: {كُنْ}. {فَيَكُونُ}، فَحَتْماً سيصير الشيء مَوْجُوداً. بعض الأحيان فَوْراً وبعض الأحيان بعد حين بحسب طبيعة ما أمر تعالى بتكوينه ولكنه حَتْماً سيكون في الوقت الذي حدّده تعالى.

سَتَحْبَلِينَ من دون أب لطفلك لأنه تعالى أمر بحصول هذا الحبل خِلَافاً للمتعارف بين الناس.

نَتَذَكَّرُ العديد من الآيات التي تقول مباشرة أو من معنى الكلام عن كل الأشياء أن ربنا سبحانه قال لها: كوني. فكانت. فصارت موجودة، فكلها متساوية بالنسبة له سبحانه، فكلها مخلوقات، ويتحكّم سبحانه بها، وَأَمَرَ أن تتكون أنت من أب وأم، وأمر أن يتكون النبي عيسى(ع) من دون أب، ولا تقصد الآية أن تقول أن كل الأشياء تحصل فَوْراً حين يأمر بها الله سبحانه، وبلا آليات، بل تقصد أنها حَتْماً ستحصل.

بعبارة أبسط فلا تفهم جملة "كن فيكون" على أنها تعني الفورية، فهي لا تقصد أن الأمور تحصل فَوْراً، بل تقصد أن الأمور ستحصل حَتْماً. وبمراجعة ما تعرفه من نفسك ومما حولك فكل ما تراه هو تطبيق فعلي لأمره تعالى لكل شيء أن يكون فكان، حَيْثُ خلق تعالى السماوات والأرض في ستة أيام، وحصل هذا من بعدما قال لها كوني فكانت بعد ست مراحل... وها ترى تسلسلك من آباء وأمهات... وقضاءك حياتك... ومماتك ومرور زمن حتى يأتي يوم القيامة... وهناك الخلود... حيث لا معنى لحصول كل ذلك فَوْراً، فما معنى أن تفتح عينيك لتجد نفسك في النار فَوْراً لأنه تعالى يعلم أنك ستكون من أهل النار فخلقك فَوْراً هناك! وقبل ذلك فما معنى قراره تعالى بخلقك الذي تحقّق بعد مليارات السنين من خلق الدنيا؟ معناه أنه تعالى قال أن تكون، فَحَتْماً كنت في الوقت المناسب... نعم هناك بعض الأمور الإلهية التي تحصل فَوْراً، ومنها نفخ الروح في بطن السيدة مريم(ع) وحبلها في تلك اللحظة، وبالتعمّق قَلِيلاً بهذا المثل وبأي مثل تظن أنه فوري، سترى أن الفورية ما هي إلا زمن قصير جِدّاً.

أَنْتَ تعلم أن آليات حدوث ما يأمر به تعالى تتخطّى ما نعرفه نحن بعلومنا، فنحن محدودون جِدّاً جِدّاً، فتصوّر إِنْسَاناً بقدرة عشرة أدمغة، فهذا سيفعل العجائب، والآن تصوّره بقدرة ألف دماغ، فهذا سيصير كلامه عن الأمور بالكاد مَفْهُوماً لك، وهكذا نفهم أنه تعالى الإله الواسع الحكيم... الخالق للسماوات والأرض، يفعل الأشياء بآليات وأسباب تتخطّى قدرتنا على فهمها على حقيقتها.

مَا بالنسبة لنا فَوْراً حدث، وَيَبْدُو من دون آليات وأسباب مترابطة حدث، فهذا على مستوى فهمنا نحن للأمور، أمّا على المستوى الإلهي فالموضوع مختلف تَمَاماً...

أقول لك هذا لأن تسريبات من هذه العقلية عن الاعتقاد بحدوث الأمور فَوْراً بلا أسباب ولا آليات، تجعل الكثير من أساسيات فكرنا مُشَوَّهاً، وينعكس تشوّهه على فهم القرآن، وعلى شؤون حياتنا، ومنه الاعتقاد بأن كلمة تخرج من الفم يمكن أن تكون هي السبب في حدوث شيء ما، كالذين يعتقدون أن التلفظ بما يسمونه بالاسم الأعظم، سَيُسَبِّبُ حدوث ما تأمر به... ومنه إيمان الناس بتأثير علينا أو على الواقع بسبب كتابة الطلاسم على الورق!

(وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ{48})
تكمل الملائكة (ع) حديثها مع السيدة مريم(ع): {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ}، فسيكون عنده (ع) علم من الكتاب الإلهي الرئيسي، لأن تكملة الجملة ستشير لتعلّمه (ع) التوراة والإنجيل فبقي كتاب يخطر على بالنا من كلام القرآن عنه وهو الكتاب الرئيسي الذي فيه كل شيء عن الدنيا والآخرة، طَبْعاً ليس لديه (ع) القدرة على استيعاب كل المعلومات التي في ذلك الكتاب، فحتى الملائكة العالية لا تقدر على ذلك، وفقط سبحانه القادر على العلم بكلّ شيء. وتعلم أنه (ع) تمكّن من إعادة الحياة للموتى بل تمكّن أن يخلق من الطين طُيُوراً... وغيرها الكثير من الأشياء... ونفترض أنها من نَتَائِجِ تعليمه ما في الكتاب، ومن نَتَائِجِ تأييده (ع) بروح القدس كما يبدو من الآية 110 من سورة المائدة.

ويعلمه الله تعالى، {الْحِكْمَةَ}، فسيرى الأمور بصوابية وتكون كل تصرفاته وأقواله حكيمة هادفة لها غايات سامية، فلن يكون عَابِثاً مُسْتَهْتِراً، والحكمة ليست شَيْئاً مُخْتَلِفاً عمّا في الكتاب، فالكتاب حكيم، ولكنها رؤية الصوابية في الأمور، فالحكمة هي الصوابية في فهم وتطبيق ما في الكتاب.

ويعلمه تعالى، {التَّوْرَاةَ}، وهي في الأساس بضعة كتب نزلت على النبي موسى(ع) ولكنها في عهد السيد المسيح(ع) كانت قد صارت مجموعة كتب منسوبة للعديد من الأنبياء بالإضافة لكتب الكهنة... ويعلمه تعالى، {الْإِنْجِيلَ}، وهو كتاب جديد سينزل خَصِيصاً على النبي عيسى(ع).

مِنَ الدارج بين الناس تسميتهم للتوراة بالعهد القديم، وللإنجيل بالعهد الجديد. وأما بالنسبة لمعنى كلمة إنجيل فقد قيل إِنَّهَا من أصل يوناني وتعني البشارة، الْخَبَرَ السَّارَّ. وكلمة توراة بالعبرية تعني: التعاليم.

(وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{49})

هَذَا الطفل حين يكبر سيكون، {رَسُولاً}، من الله تعالى، {إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ}، إلى المنتسبين للنبي يعقوب(ع)، فالمشهور بين الناس أن للنبي يعقوب اسْماً آخر وهو إسرائيل، وهذا الولد (ع) رسول منه تعالى للناس بشكل عام، ولكن بخصوص بني إسرائيل فهناك أشياء خاصة بهم لِأَنَّ عِنْدَهُمْ كِتَاباً وَشَرِيعَةً، وسيجري سبحانه تحديثات وتصحيحات عليها لترجع سليمة كما كانت وخالية من التحريف عبر رسوله النبي عيسى(ع).

الْجُمْلَةُ هنا ليست منتهية، فهي لا تحدّد كونه (ع) رَسُولاً فقط لبني إسرائيل وأنه ليس رَسُولاً لغيرهم، لا، بل هو واقع الحال حيث إِنَّهُمْ نواة المنتسبين لدينه تعالى من بين كلّ الناس، وتقويم ما لديهم ليعود الدين الإلهي خَالِياً من التحريف كان وَاحِداً من مُهِمَّاتِ النبي عيسى(ع)، وهذا ما تقصده الآية هنا بقولها إِنَّهُ رسول لهم يفعل كذا وكذا، ليردّهم إلى الدين القويم.

تُلَاحِظُ أن الملائكة(ع) لم تقل عنه رَسُولاً لليهود، فاليهود هم كل من اتبع شريعة النبي موسى(ع)، واليهود تابعون لعلماء بني إسرائيل الذين هم من نسل النبي يعقوب(ع) الذي اسمه الثاني إسرائيل، لِذَلِكَ تلاحظ توجيه الحديث في مناسبات عديدة لبني إسرائيل بما أنهم مُتَنَصِّبُونَ ويتحملون المسؤولية الدينية عن بقية اليهود من القوميات المختلفة، ففي التراث اليهودي انْحَصَرَتِ الغالبية الساحقة من علماء الدين ببني إسرائيل ولهذا السبب توجّه لهم القرآن بالكلام في الكثير من الآيات.

لَاحِظْ كيف دخلت الآيات بشكل جميل رائع من حديث الملائكة(ع) في الماضي مع السيدة مريم(ع) إلى ما سيحدث في المستقبل، وانتقلت بشكل متصل مع حاضر السيد المسيح(ع)... وَصَارَتْ تَكْمِلَةُ الجملة من كلام السيد المسيح(ع):

{أَنِّي}، يا بني إسرائيل، {قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ}، بشيء مميّز بمستواه الإلهي كدليل على رسالتي الإلهية، {مِنْ رَبِّكُمْ}، من المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ}، أُرَكِّبُ وأؤلف لكم، {مِنَ الطِّينِ}، من التراب الناعم المعجون بالماء، وهذا التعبير القرآني يرادف تعبيرنا الحالي: من المواد، من الكربون والكالسيوم والحديد... أُرَكِّبُ من الطين، {كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ}، كالشكل الخارجي لطائر، وهو الحيوان الذي له ريش وأجنحة... {فَأَنْفُخُ فِيهِ}، وَأَجْعَلُ في داخل الطائر المصنوع من الطين "شيئا"، {فَيَكُونُ طَيْراً}، فَيَتَحَوَّلُ إلى طائر حقيقي من ريش ولحم ودم، {بِإِذْنِ اللَّهِ}، بسماح منه تعالى، فليس بقدرتي الذاتية المنفصلة عن قدرة الله تعالى بل بسماح منه تعالى تجري على يديّ عملية خلق طير من لحم ودم من الطين.

{وَأُبْرِئُ}، أشفي، {الْأَكْمَهَ}، وهو الشخص الأعمى الذي تغيّر لون عينيه لأن عدسة عينه معطوبة.

{وَأُبْرِئُ}، {الْأَبْرَصَ}، وهو الشخص الذي لديه مرض جلدي، حَيْثُ عِنْدَهُ بقع شديدة البياض على جلده، وَقَدِيماً كان هذا المرض يسبّب تساقط الجلد وبعده يتساقط اللحم، وكانوا يخافون منه كَثِيراً لأنه لا علاج له ويسبّب الألم الشديد وَمَنْظَراً قَبِيحاً ورائحة منتنة... وتطول مدّته قبل أن يقتل.

{وَأُحْيِي الْمَوْتَى}، وَأَجْعَلُهُمْ يرجعون إلى الحياة مرة ثانية، {بِإِذْنِ اللَّهِ}، بسماح منه تعالى، وليس بقدرة منفصلة أو قاهرة فوق قدرة الله تعالى، بل بسماح منه تعالى أتمكن من فعل هذه الأشياء، مثلما نحن نقوم بأعمالنا بإذن منه تعالى، وَيَتْرُكُنَا سبحانه نتحرّك ونعمل ضمن القدرة التي أعطانا والتي لا تتجاوز قدرته تعالى.

{وَأُنَبِّئُكُمْ}، وَأُخْبِرُكُمْ بشيء غير منتشر بينكم، {بِمَا تَأْكُلُونَ} في بيوتكم، حَيْثُ يُمْكِنُنِي أن أخبركم ماذا أعددتم وحضّرتم لتأكلوا اليوم.

{وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ}، حَيْثُ يُمْكِنُنِي أن أخبركم بما تضعونه جَانِباً لأوقات الحاجة من مؤنة طعام أو مال في بيوتكم، وهذه أمور لا يعلمها إلا كل واحد منكم عن بيته ولا يعلم بما في بيوت الآخرين، لِأَنَّ هَذِهِ أخبار خاصة جِدّاً جِدّاً بكل واحد منكم، يعني بكل وضوح ستعرفون أني أعلم أسراركم الخاصة، ولن تشكوا في صحة كلامي.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، الذي أقوم به، {لَآيَةً}، لهو شيء مميّز، يدل على أني رسول إلهي، {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، إن كنتم فِعْلاً من المعتقدين بدينه تعالى، إِذْ أَنْتُمْ تقولون بأنكم منتسبون لدينه تعالى وهذه آيات تدل على أني رسول من الإله، أمّا إن كنتم من المنافقين أو من الكافرين من داخلكم وتتظاهرون بالإيمان بالدين الإلهي، فلن تؤمنوا مهما فعلت، ولكنكم في الظاهر من المؤمنين، أَنْتُمْ أبناء الأنبياء ومعكم كتبهم... وتنتظرون رَسُولاً... وتعرفون الآيات الإلهية... فإن كنتم حَقّاً مؤمنين فيجب أن تؤمنوا بي وبآياتي لأنها هي نفسها التي تؤمنون بها.

ضع في بالك دَائِماً أن السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شَيْئاً غير حقيقي أنه حقيقي. فالساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد بأنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، وأنت متأكّد بأنها لم تختف، فهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر. وما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه يتحقّق ما يريد، فهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، ونقل القرآن عن الكفّار اتهامهم للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، والقول عن الآيات الإلهية أنها سحر، كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب كلمة سحر.

أَيْنَ السحر في شفاء من كان أعمى! لقد صار الشخص يبصر أَيْنَ هي الخدعة! وهناك أشخاص أقامهم النبي عيسى(ع) من الموت، وعاشوا، وصاروا يتنقلون بين الناس، وَأَيْنَ هي الخدعة! وكما ترى هُنَاكَ أناس سخيفة بلا منطق ولا فهم، ولا يريدون أن يؤمنوا، يَقُولُونَ عن الآيات بأنها سحر، وانتهى الموضوع!

تُلَاحِظُ أن الذين قلوبهم غير سليمة، ولا رغبة لهم بشفائها، فهؤلاء إن جاءهم رسول بلا آيات، والتي نسمّيها بالعامية معاجز، فلن يؤمنوا ويطلبون معجزة، وإن جاءتهم معجزة، طلبوا نَوْعاً آخر، وها أنت أمام رسول جرت على يديه أمور متنوّعة غاية في العجائبية، وماذا كانت النتيجة؟ أَنْتَ تعلم أن أكثر اليهود لم يؤمنوا به! والذين آمنوا به قِسْمٌ كبير منهم ربّبوه، وآخرون ألّهوه، وآخرون جعلوه هو الإله مُتَمَثِّلاً على شكل بشري! وحجّتهم هي أفعاله غير العادية! وهكذا يريك سبحانه عبر سرد قصص من حياة بعض الرسل، يريك لماذا نوّع الآيات، وقلّلها وأكثر منها للبعض، وهكذا ترى أن المشكلة ليست في الآيات بل في الذين لديهم قرار صلب بالبقاء على ما هم عليه أو تحويل دينه تعالى لما يحبّونه...

(وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ{50})
نكمل مع كلام النبي عيسى(ع) مع بني إسرائيل: وأكون، {مُصَدِّقاً}، لا أنفي بل مُؤَكِّداً، {لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ}، فَأُعْلِنُ بأنه كتاب نازل من عند الله تعالى، فأنا على نفس الخط وَمِنْ نفس الإله أحمل لكم الرسالة، حَيْثُ أكمّل عمل الرسل السابقين وأنا على نفس الدين ولم آتكم بدين جديد.

نُلَاحِظُ أن علماء الأديان والتاريخ والفلسفة، يضعون الدين الْإِسْلَامِيَّ واليهودي والمسيحي في تصنيف واحد، وَأَطْلَقُوا عَلَيْهَا تسمية: الأديان السماوية الثَّلَاثَةَ. الدين الإبراهيمي. دين التوحيد. وَهَؤُلَاءِ الباحثون وبالرغم من أن الكثيرين منهم علمانيون لا يعتقدون بأي دين، لَاحَظُوا بوضوح أن هذه الأديان هي خط واحد ومتتابعة مع بعض... وهذا ما يريد أن يقوله القرآن في العديد من الآيات، وهذا بالضبط ما يقوله النبي عيسى(ع) هنا.

{وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ}، فَأَنْقُلُ لكم تَشْرِيعاً يجعل بعض الأشياء التي كانت حَرَاماً، كانت ممنوعة وعليها عقاب ولا يجوز فعلها، تَصِيرُ حَلَالاً ولا عقاب على فعلها.

الْقَلِيلُ جِدّاً من أمور عاقب سبحانه بني إسرائيل بها، كما قالت الآية 146 من سورة الأنعام "وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ

بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ"، فَجَعَلَهَا تعالى حَرَاماً عليهم لأنهم ارتكبوا الذنوب... ونفترض هنا أن النبي عيسى(ع) سيحلّلها لهم من جديد، وربما هناك أمور غيرها ولا علم لنا بها.

{وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ}، جئتكم بشيء مُمَيَّزٍ من المسؤول عنكم من مستوى إلهي، وعلى ما يبدو فهو (ع) يقصد الإنجيل لأنه الباقي الوحيد الذي لم تذكره الآيات.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ}، فَتَجَنَّبُوا عقابه وغضبه، {وَأَطِيعُونِ}، فَاسْمَعُوا كلامي ونفّذوا ما أقول لكم.

(إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{51})
{إِنَّ اللَّهَ}، إن صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {رَبِّي}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {وَرَبُّكُمْ}، وهو نفسه المسؤول عنكم من مستوى إلهي، فأنا وأنتم متساوون بالنسبة لربنا سبحانه، فأنا مربوب مثلكم، وأنا لا أتبع رَبّاً جَدِيداً بل أتبع الله تعالى الذي هو ربكم.

بَلَّغَهُمُ النبي عيسى(ع) أنه هو شَخْصِيّاً شَخْصٌ عَادِيٌّ، وليس رَبّاً بل مَرْبُوباً تَابِعاً للربّ مثله مثل بقية الناس، وبلّغهم أنه رسول من نفس الإله الذي هم منتسبون لدينه، وهو الله الذي لا إله غيره.

{فَاعْبُدُوهُ}، فتصرّفوا على أساس أنكم مفروض منكم طاعته، فأنا وأنتم متفقون على وجوب عبادة الله تعالى، وَأَرْسَلَنِي هو سبحانه إليكم بشريعة من عنده، فهل من المنطقي أن تتركوا أوامره وتفعلوا شَيْئاً آخر! {فَاعْبُدُوهُ}، {هَذَا صِرَاطٌ}، هذا طريق إيماني أساسي، {مُسْتَقِيمٌ}، يوصف بأنه على الأحسن فلا اعوجاج ولا انحراف فيه، وهذا الذي جئتكم به وأقوله لكم من عقيدة وتشريع هو طريق مستقيم غير منحرف.

مَا تقوله الآيات هنا فأنت تؤمن به كَمُسْلِمٍ، وَتَعْتَبِرُهُ كَلَاماً رُوتِينِيّاً وتحصيل حاصل، ولكن انتبه، فأنت خَتَمَ لك القرآن الأنبياء بمحمّد(ع)، وما تقرؤه هنا عن رسول رفضه الكثير من الناس وعلى رأسهم غالبية بني إسرائيل، وهكذا ترى أن ما يعرضه النبي عيسى(ع) عليهم، هو ما من المفروض أن يكون بَدِيهِيّاً لهم، وأن يكونوا هم عليه أَصْلاً من تديّن، والإضافة الوحيدة كون عيسى(ع) رَسُولاً، وَهَا جَاءَهُمْ بآيات غير عادية تثبت رسالته...

(فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ{52})
{فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى}، عِنْدَمَا لمس بشكل صريح النبي عيسى(ع)، {مِنْهُمُ الْكُفْرَ}، حَيْثُ كُلُّ ما ظهر من بني إسرائيل "واليهود" هو الإنكار لرسالته، عندها، {قَالَ} (ع):

{مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ}، من ينصرني فيعمل على تحقيق ما أريده، ويكون نصره لي نَصْراً إليه تعالى، فلا أطلب نصرتكم لي لغاية شخصية أو طمع في مكسب مالي أو رئاسة... بل إلى الله تعالى يكون هدف نصرتكم، فلا ينصرني شَخْصِيّاً كما يفعل الناس حتى يصل الشخص المنصور إلى الزعامة والرئاسة، ويحصل المناصرون على السلطة، بل ينصرني وهو ينوي نصرته لي حَصْراً فيما يرضى عنه تعالى ويتماشى مع أوامره. إذاً يسأل النبي عيسى(ع) عن أشخاص ليقوموا بنشر الدين الإلهي في خضمّ معارضة وجهاء وعلماء بني إسرائيل.

{قَالَ الْحَوَارِيُّونَ}، أي الأشخاص الذين كانوا مرافقين شبه ملازمين للنبي عيسى(ع) وَيَتِمُّ اعتبارهم من أصحابه الخاصّين، قالوا: {نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ}، نحن المؤيدون العاملون على تحقيق ما يرضى عنه تعالى.

{آمَنَّا بِاللَّهِ}، فاعتقدنا به رَبّاً أَحَداً... {وَاشْهَدْ}، علينا أيها الرسول فأنت تسمع ما نقول فتصير شَاهِداً علينا، {بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}، فنحن منقادون لله تعالى، لأننا سنسلم لك أمرنا فنطيعك، فإذا سألك سبحانه عنّا إن كنّا أطعناه تعالى عبر إطاعتك فتقول بأننا أطعناه ونفّذنا أوامره.

فِي الآخرة سيشهد الرسول (ع) على كل الناس إن كانوا أطاعوه، والحواريون يطلبون منه من الآن أن يشهد بأنهم منقادون لأوامر الله تعالى، فهم سينفذون كل ما سيطلبه رسوله (ع).

(رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ{53})
نكمل مع كلام الحواريين: {رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {آمَنَّا}، اعتقدنا، {بِمَا أَنْزَلْتَ}، بالذي أنزلت من عندك وهو كتاب الإنجيل وما سبقه من كتب إلهية، وعمليا اعتقدنا أنه العقيدة والشريعة التي يجب اتباعها... {وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ}، فكنّا على كلامه وَنَفَّذْنَا ما أمرنا به، {فَاكْتُبْنَا}، فسجّلنا وَاجْعَلْ أسامينا وَاجْعَلْنَا نحن، {مَعَ الشَّاهِدِينَ}، مع الذين تعتبرهم يؤكّدون صحّة ما نزل أمامهم، فنشهد في الآخرة أن هذا آمن وذاك لم يؤمن... فلا تكتبنا مع المشهود عليهم فيقول الآخرون من المؤمنين في الآخرة أننا أخطأنا بهذا وخالفنا دينك ورسولك(ع) بذاك...

فِي الْآخِرَةِ هناك من آمن ويشهد عليه الرسول أنه آمن، ويشهد عليه المؤمنون أَيْضاً، وهناك من لم يؤمن فيشهد عليه المؤمنون أنه لم يؤمن وأنه ارتكب السوء... وَالْحَوَارِيُّونَ طلبوا من الرسول عيسى(ع) أن يشهد بأنهم مسلمون، وهنا يطلبون أن يكونوا هم شهداء على الناس إن آمنوا أو كفروا، فلا يريدون أن يشهد عليهم الناس أنهم كفروا.

بَقِيَ شَيْءٌ، إِذْ من المشهور في ثقافة المسيحيين أن الحواريين كانوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً، وبعضهم يضمّ امرأة إليهم "مريم المجدلية"، ومن المشهور بينهم أن أحد الحواريين "يهوذا الاسخريوطي" خَانَ بالنبي عيسى(ع) وأرشد جنود الرومان عليه ليلقوا القبض عليه بتهمة التحريض ضد الاحتلال الروماني... ولكن هذا الكلام ليس دَقِيقاً فهو أفضل سيناريو يمكن جمعه من ثقافتهم، مثله مثل الروايات الكثيرة التي عندنا والتي لا تعطيك في الكثير من الأحيان شَيْئاً وَاضِحاً، وتحتاج للدمج بين الروايات والحذف من هذه واللصق من تلك... حتى تخرج بِقِصَّةٍ مُتَنَاسِقَةٍ ولا يمكنك أن تجزم بصحتها.

ضَعْ في بالك دَائِماً، أن المسمّى "بولس الرسول" المشهور جِدّاً والذي يعتبره المسيحيون أساس نشر الدين المسيحي، كَانَ فِعْلاً مُعَاصِراً للنبي عيسى(ع)، وتجد تاريخه وَاضِحاً في كتب المسيحيين، إِذْ كَانَ من علماء اليهود وكان اسمه شاوول وَغَيَّرَهُ فيما بعد ليصير "بولس"، وكان في حياة النبي عيسى(ع) من أشد المعادين للمؤمنين، بل وقام بقتل البعض منهم شَخْصِيّاً، فلم يكن من الحواريين... وستجد قصّة تحوّله إلى الإيمان بالنبي عيسى(ع) بعد وفاة النبي عيسى(ع)... أنه كان ذَاهِباً إلى الشام لقتل أحد تلامذة النبي عيسى(ع)... وفي الطريق في الصحراء، وهو لوحده، ظهر له السيد المسيح(ع)... فآمن... وستجد في التراث المسيحي "هنا وهناك" أن برنابا الذي كان من حواريي النبي عيسى(ع) وغيره من المؤمنين عَارَضُوا بِشِدَّةٍ ما قام به بولس من تحركات وتشريعات وعقيدة وطقوس دينية...

تَذَكَّرْ دَائِماً أن الأناجيل التي بين أيدينا والمعتمدة من الكنيسة الْكَاثُولِيكِيَّةِ، "أناجيل متى ويوحنا ولوقا وَمَرْقُسَ"، لَيْسَ من كتّابها ولا واحد من الحواريين أو من تلامذة النبي عيسى(ع)، وهذا ليس اكْتِشَافاً من اختراعي بل هو معلوم عند المثقفين المسيحيين...

انْتَبِهْ جَيِّداً، الْكِتَابُ الذي يسمّى إنجيل برنابا وَتَدَاوَلَهُ الناس منذ عهد قريب، هُوَ تَخْرِيفَةٌ وليس من تأليف برنابا، ومن قام بنشره هو شخص يقول بأنه كان قِسّيساً مَسِيحِيّاً وأسلم بعد قراءة هذا الإنجيل الذي يرد فيه البشارة باسم النبي محمّد (ع)...، عِلْماً أنه شخص فاسد وَتَنَصَّبَ إِمَاماً لأحد المساجد في مصر "كما كان مَكْتُوباً على صفحته على الْإِنْتَرْنِتِ"، وفي مقالاته على الْإِنْتَرْنِتِ لم يكن له شغل إلا بثّ التفرقة بين المسلمين، ومن فظائعه الترضّي على يزيد وتبرير فعلة كربلاء، بل وجعل سيد شباب أهل الجنّة المذنب بخروجه على إمام زمانه! وغيرها من النقر والحفر والنكت في كل ما ينعش التفرقة بين المسلمين... وَحَصَلَتْ بيني وبينه مراسلات الكترونية عدّة بعدها علمت أنه الناشر للإنجيل المنسوب لبرنابا، وكان كل تركيز مراسلاته على أمور مذهبية عصبية بين المسلمين...

(وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ{54})
{وَمَكَرُوا}، جَمَاعَةٌ من بني إسرائيل خطّطوا ضدّ النبي عيسى(ع)، حَيْثُ هاجموه واتهموه بمخالفته للدين... وحاولوا تأجيج الرومان ضدّه ليقتلوه كما هو مشهور في كتب تاريخ المسيحيين ... {وَمَكَرَ اللَّهُ}، فَخَطَّطَ سبحانه في مقابل تخطيطهم، {وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}، فَلَا يمكر سبحانه عن ظلم أو اعتداء.

سَنَعْلَمُ من الآية التالية أنهم لم يتمكنوا من تحقيق مكرهم فَلَمْ يتمكّنوا من قتل النبي(ع)، ونعلم من الآية 157 من سورة النساء ظنّهم أنهم صلبوه، فَكَانَ مكر الله تعالى أقوى بكثير من مكرهم، إذْ أراد لهم تعالى أن يظنوا أنهم قتلوه.

(إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ{55})
{إِذْ قَالَ اللَّهُ}: {يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ}، سأستوفي نفسك، سَوْفَ آخذ الحياة الجسدية منك بالتمام، {وَرَافِعُكَ إِلَيَّ}، حَيْثُ سَتَتْرُكُ عالم البشر وتنتقل من بينهم، {وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، لِأَنَّكَ نقي خَالٍ من الأمور المعيبة بين أناس كافرين غير معتقدين بدينه تعالى، سَوْفَ أطهّرك منهم وَسَوْفَ أبعدك عن هؤلاء المكروهين السيئين، وإني، {جَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ}، الذين قالوا إِنَّهُمْ على دينك وتابعون لكلامك، سوف أجعلهم، {فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، سوف يكون المسيحيون حَاكِمِينَ مُسَيْطِرِينَ على الذين أنكروا رسالتك، من وقتك هذا، {إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، إلى زمن القيام من الموت في الآخرة.

مِنَ القرآن نعلم أن المقصود هم المؤمنون، ففي زمننا، المسيحيون المؤمنون والمسلمون المؤمنون هم فوق اليهود، حَيْثُ الْمُسْلِمُونَ هم حَالِيّاً يعتبرهم القرآن أنهم هم الأتباع الحقيقيون للنبي عيسى(ع).

بنو إسرائيل وعموم اليهود لن يكونوا حاكمين على المسيحيين "ولا على المسلمين". ولكن سَتَمُرُّ فَتْرَتَانِ في التاريخ يكون فيهما اليهود في قوة الإفساد في الأرض كما ورد في سورة الإسراء، ولكن لن يحصلوا على قوة الحاكمية.

{ثُمَّ} بعد انقضاء حياتكم الدنيا، {إِلَيَّ}، إلى الله تعالى، {مَرْجِعُكُمْ}، فسترجعون إليه تعالى ولن تختفوا بعدما تَمُوتُونَ، ولن تذهبوا إلى إله غير الله تعالى، {فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ}، فَتَصْدُرُ أحكامي وَقَرَارَاتِي بينكم، {فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}، حَيْثُ كُلُّ جماعة كان لها رأي مختلف عن الأخرى، فلم تَتَّفِقُوا على اتباع الدين الإلهي المستقيم، وسبحانه سيعطي الحقّ لصاحب الحقّ، ويحكم على الظالم والكافر بالعقاب المناسب...

الِاخْتِلَافُ الذي تتحدث عنه الآية حول رسالة النبي عيسى(ع)، وحول الاختلاف في الدين، والإنجيل، والصلب والرفع...

نلاحظ هنا أن النبي عيسى(ع) كان على علم بأنهم سيحاولون قتله، وأنه سيتم رفعه إلى السماء، ونعرف من التاريخ المسيحي بأنهم يؤمنون بأنه (ع) تمّ صلبه ثم إعادته إلى الحياة ثمّ رفعه إلى السماء فلم يبق جسده على الأرض، وَيُؤَكِّدُ القرآن أنّه تمّ رفعه (ع) ولكن قبل الصلب، وأن الذي صلبوه لم يكن السيد المسيح(ع)، بل شبّه لهم أنهم صلبوه، إذْ صلبوا شَخْصاً آخر، وهذا ما تجده صَرِيحاً في الآية 157 من سورة النساء "وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا".

نَنْتَبِهُ، عَلَى ما يبدو أن الحواريين وقلّة آخرين كانوا يعرفون أن النبي عيسى(ع) تمّ رفعه إلى السماء قبل الصلب، وهذا تراه مما بقي من أقوال نشروها بين الناس عن ارتفاعه (ع) إلى السماء... ولكن بقية الناس لم تعرف، وَشَاهَدُوا عملية الصلب لشخص كانوا يعتقدون أنه السيد المسيح(ع)، إذْ شُبِّهَ لهم، ولذلك انتشر بين الناس أنه تمّ صلبه ثمّ رفعه، مع تأكيد جماهيري واسع من الدعاية التي نشرها اليهود عن قتلهم للمسيح كما قَرَأْنَا في الآية 157 من سورة النساء، والدين الإلهي الصافي عمل الحواريون على نشره، ولكن شَخْصاً كان اسمه شاوول وكان من المتخصصين بقتل أتباع النبي عيسى(ع)، وَفَجْأَةً تحوّل إلى الدين المسيحي... وغيّر اسمه ليصير بولس... ليخفي تاريخه القديم الأسود بقتل المؤمنين... وَسَيْطَرَتْ أفكاره وأفكار مساعديه وأتباعه على الدين المسيحي، وغابت تعاليم الحواريين الأصلية... فصار أغلب ما بين أيدينا اليوم من نتاج أفكار "بولس الرسول" والمجمع الكنسي الذي تمّ إنشاؤه في روما بعد سنين طويلة من وفاة تلامذة السيد المسيح(ع)، وهذه الجماعة المسيطرة اعتمدت نُصُوصاً مسيحية دينية تناسب تفكيرها، وقامت بإلغاء بقية النصوص، فمن الطبيعي أن نجد انْتِشَاراً لفكرة صلب النبي عيسى(ع)، لأنها كانت عقيدة غالبية عوام الناس، ولم يعرف بالحقيقة إلا الْحَوَارِيُّونَ الذين لم تنتشر معلوماتهم بسبب التأثير القوي لبولس وللذين اتبعوه... وفيما بعد كان التأثير الكبير للجماعة المؤسسة للدين الكاثوليكي على مذهب بولس "الملقّب بالرسول"، ومن هناك صارت العقيدة المنتشرة هي حصول صلب النبي عيسى(ع).

إذا كنت تستغرب هذا الكلام عن المسيحيين وكيف يؤمنون بأمور مزيفة، فأحيلك إلى ما انتشر وتعارف عليه الناس عن شيء يسمّونه "المبعث النبوي الشريف"، حَيْثُ انتشر بيننا أن أول نزول للقرآن حصل في السابع والعشرين من شهر رجب، ورغم صراحة مخالفة هذا الكلام للقرآن الذي يقول بأنه نزل في شهر رمضان، ورغم ركاكة سند تلك الروايات وركاكة ما فيها من تفاصيل... إلّا أنها موافقة للمزاج العامّ للتديّن "الدارج" بين الناس، مثلها مثل روايات نزول ملكين وقيامهما بفتح صدر الرسول محمّد(ع) حين كان وَلَداً وانتزاع قلبه وغسله... وإرجاعه إلى مكانه... مثلها مثل روايات الكرامات والمعجزات التي اخترعوها للنبي محمّد(ع) ويقولون إِنَّهَا كرامات بالآلاف وَوَصَلَنَا منها القليل... وانتشرت تلك الروايات وبلعها الناس وصارت جُزْءاً من ثقافتهم، فهي ليست تكاليف دينية فلا تكلّفهم بأي عبء أو مجهود... بل مجرد كلام يتناقلونه ليكون النبي الذي "يخصّهم" أقوى من الشخصيات الدينية التي تخصّ الآخرين!

من هذه الأمثال تفهم انتشار قصّة صلب النبي عيسى(ع) بين الناس، حيث صار للقصّة تفاصيل، وكل تفصيل له ارتباط بشيء آخر تاريخي وديني، وَالْحَوَارِيُّ بطرس سينكر النبي عيسى(ع) مرتين قبل صياح الديك... وحمله (ع) الصليب على درب الجلجلة... ووقوعه (ع) على الأرض من ثقل الصليب عدة مرات وكل مرّة كانت لمغفرة ذنوب المؤمنين... وخروج الدم من رئتيه وهو على الصليب من طعنة رمح... وغيرها وغيرها الكثير من التفاصيل التي تراكم تبهيرها وتمليحها مع مرور الزمن وتشرّبت في ثقافة الناس، وصار من المستحيل قبولهم بأنها قصّة غير صحيحة...

هَذَا تَمَاماً مثلما لا يقبل المسلمون اليوم بالاكتفاء بكونهم مسلمين، بل هم سنّة أو شيعة أو أباضية أو فاطمية أو زيدية أو إسماعيلية... حَيْثُ تشربت الطائفية المذهبية في ثقافتنا لدرجة جعلت كل واحد منّا يرى أن مذهبه هو الاسلام، وَاسْمُ مذهبه مرادف لكلمة اسلام، بل هو بالتحديد معنى كلمة الاسلام! والبقية مخطئون لأن لهم أسماء مذهبية أخرى... فإن استطعت أن تقول في مجتمعك بأننا كلنا مُسْلِمُونَ ولا فرق بيننا، نَاقِلاً لهم عشرات الآيات القرآنية التي تأمرنا بالوحدة ونبذ الفرقة... ووجدتهم يقتنعون معك بذلك ويتوقّفون عن الكلمات المذهبية والطائفية، فعندها ربما ستجد مَسِيحِيّاً يقتنع معك بأن النبي عيسى(ع) لم يتمّ صلبه.

(فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ{56})
حكم الله تعالى في يوم القيامة في الاختلافات بين الناس سيكون كما يلي:

{فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا دين الله تعالى ورسله وكتبه... {فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً}، حَيْثُ سيصيبهم ضرر لا يمكنهم تحمّله، {فِي الدُّنْيَا}، إِذْ يسلط عليهم من يعذبهم ويقتلهم، أو يصيبهم بكارثة طبيعية أو اقتصادية... وَعَذَاباً شَدِيداً في، {الْآخِرَةِ}، حَيْثُ بعد انتهاء الحياة الدنيا وقيامهم من الموت في الآخرة سَيَكُونُونَ من المعذبين أَيْضاً بعذاب شديد لا يمكن تحمّله ولا الاعتياد عليه.

{وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}، ولا يوجد من يحقّق لهم ما يريدونه، إِذْ لا يوجد من يعينهم أو يدافع عنهم ليدفع عنهم العذاب.

(وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ{57})
{وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين اعتقدوا بالله تعالى وبرسله وبكتبه... {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، وقاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، حَيْثُ خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، وَعَمَلِيّاً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عُمُوماً وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دَائِماً أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فَيُؤْمِنُونَ به. وهذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مُقْتَنِعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إِمَّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت مُحِبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو سَيِّئٌ" فهو في الحقيقة اختراع من البشر وليس أَمْراً إِلَهِيّاً.

هؤلاء، {فَيُوَفِّيهِمْ}، فيُعْطِيهِمْ سبحانه بالتمام، {أُجُورَهُمْ}، ما حدّده تعالى "بفضله" لهم كشيء يَسْتَحِقُّونَهُ منه تعالى على الإيمان والعمل الصالح.

{وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}، إِذِ الذين كفروا ليس معهم حقّ فَظُلْماً كفروا، لِأَنَّ دينه تعالى واضح أنه صحيح وسبحانه لا يأمر إلا بالأعمال الصالحة، وسبحانه لا يحب هذه النوعية من الناس التي تترك الحقّ والصلاح، وهذه دعوة للجميع وللمسيحيين خُصُوصاً أَلَّا يكونوا من الذين لا يحبّهم سبحانه.

نُلَاحِظُ دَائِماً القرآن يقرن بين الإيمان والعمل الصالح مع بعض، والنتيجة لِلِاثْنَيْنِ مَعاً هي دخول الجنة، فلا الإيمان بدون عمل صالح ينفع، ولا العمل الصالح من دون إيمان ينفع، بل كلاهما مَعاً ينفعان.

التَّعْبِيرُ في الآية عن نفي محبته تعالى للظالمين جاء بعد الآية السابقة التي تحدّثت عن مصير الكافرين، وآيتنا التي تحدثت عن المؤمنين العاملين للصالحات، لِذَلِكَ نَفْهَمُ من هذا أنه تعالى لا يحبّ الظالمين كإشارة إلى الذين بين بين، فهم ليسوا كافرين تَمَاماً ولا مؤمنين تَمَاماً، فإن كانوا يضحكون على أنفسهم ويخترعون ما يجعلهم من الفائزين بالجنّة في الآخرة، كالذين يقطعون الكلام الْقُرْآنِيَّ ويأخذون منه جُمَلاً نَاقِصَةً وَيَصِلُونَ منها لنتيجة أنه تعالى غفور رحيم، وبالتالي سيغفر لهم، وهم متجاهلون متناسون عن قصد تَكْمِلَةَ الكلام عن أنه تعالى شديد العقاب، فهؤلاء لم يرد سبحانه الكلام معهم بقساوة جافة بتهديدهم بالعقاب، وَاسْتَعْمَلَ معهم عبارة "لا يحبّ".

عموم ما ورد في القرآن عن أمر لا يحبّه تعالى، وَرَدَ حيث لا داعي للكلام القاسي، وخذ مَثَلاً كلامك معي حيث تريد تحذيري وتنبيهي فتقول: سأكسر عظامك لو فعلت كذا وكذا... فهذه نبرة عالية لا مبرر لها لأنك تعلم أني حَالِيّاً لست نَاوِياً لفعل السوء، والجملة الأنسب: لا أحب أن تفعل كذا وكذا... وعلى هذا المفهوم جاءت الآيات التي وجّهت كلامها مع المؤمنين مستعملة عبارة مشابهة لعبارة "الله يحب أو لا يحب".

بقي شيء من الفضول عمَا يقولونه عن إعجاز تكرّر بعض كلمات القرآن بعدد مُلْفِتٍ، كقولهم عن تكرار كلمة ليل 12 مَرَّةً وكلمة نهار 12 مَرَّةً... حَيْثُ تَتَبَّعْتُ غالبية الكلمات التي قالوها ووجدت غالبية كلامهم كَذِباً إلا في أقل من عشر كلمات، ومما تحققت وتأكدت منه كلمة شهر بالمفرد "شهر، شَهْراً" إِذْ تَكَرَّرَتْ 12 مَرَّةً، وتكررت كلمة شهر بالمثنى "شهرين" مرتين فقط. كلمة "رجل" بالمفرد تكررت 24 مَرَّةً، وكلمة "امرأة، امرأت" أَيْضاً تكررت 24 مَرَّةً. كلمة "يأمرون" تكررت 7 مرات، وكلمة "ينهون" أَيْضاً تكررت 7 مرات. كلمة "الخبيث" بالمفرد تكررت 7 مرات، وكلمة "الطيب" بالمفرد تكررت 7 مرات. وهناك كلمات أخرى فيها الكثير من التراخي والاستنسابية بحيث يلغون كلمة أو كلمات لسبب غير وجيه ويدّعون أن الأعداد متساوية كقولهم عن تكرار كلمة ملائكة والشيطان.

الْغَرِيبُ أن الحالة الوحيدة الصادقة بالتمام والوضوح لَيْسَتْ منتشرة في مقالاتهم وكتبهم! إِذْ فِعْلاً تكررت في القرآن جملة "الله يحب" سِتَّ عَشْرَةَ مَرَّةً، وجملة "الله لا يحب" سِتَّ عَشْرَةَ مَرَّةً.

لكن، هل هذا يعني أي شيء؟ لا، لا يحتاج القرآن لِخُزَعْبَلَاتٍ من هذا النوع ليصير له قيمة أو لنؤمن بأنه من مصدر إلهي، لأن ما فيه من حقّ وصلاح هو قيمته.

(ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ{58})
{ذَلِكَ}، الذي سبق من جوانب قصة حياة النبي عيسى(ع)، ومعاملته تعالى مع الكافرين ومع المؤمنين... {نَتْلُوهُ} عليك، نقوله لك عن مستند، ومن علمه تعالى وشهادته على ما حصل مع النبي عيسى(ع)، ومن قراره تعالى بما سيفعله بنا في الآخرة، فمن هذا المستند تتم قراءة هذه المعلومات عليك عبر هذا القرآن، نتلو عليك، {مِنَ الْآيَاتِ}، من الأمور المميزة المنسوبة له تعالى بمستواها الإلهي، ونتلو عليك {مِنَ الذِّكْرِ}، من الشيء الذي تستحضره في فكرك أو تقوله بلسانك، ووصفه بأنه {الْحَكِيمِ}، فليست تلاوة آيات عبثية أو شيطانية بل فيه الصوابية.

افهمها على مبدأ شفافيته تعالى معنا بالكلام، على معنى: هذا من المعلومات الإلهية وجرى نقله كما هو. ومعلوم لك أن الناس حين يشهدون حدثا ما، بعضهم ينقله بشكل مختلف عن الآخرين ويحذف ويضيف... لأنه ينقل الأمور كما رآها متأثّرا بما في فكره ونفسيته، أمّا الحكيم، وهو الذي يرى الصوابية في الأمور، فينقلها لك بالحكمة بالصوابية كما هي.

رَكَّزَتِ الآيات السابقة على أهم جوانب حياة النبي عيسى(ع)، والتي اختلف فيها الناس، فهناك من اتهم السيدة مريم(ع) بالزنا، وهناك من قال بأنها تزوجت من شخص اسمه يوسف النجّار، وأن يوسف هذا كان خطيبها حين حَبِلَتْ وأنه والد الطفل... وهناك من قال بأن النبي عيسى(ع) لم يتكلم إنما تكلم الروح القدس عبر فم النبي عيسى(ع)، وهناك من قال بأن أمّه(ع) كانت تتكلّم من دون تحريك شفتيها فكان يبدو أن الطفل يتكلّم... وهناك من لم يؤمن بالآيات التي جرت على يد النبي عيسى(ع)، ولا يصدّق بإحيائه للموتى ولا بإبرائه للمرضى، وهناك من قال عنه(ع) أنه كان طبيبا ماهرا أو مشعوذا أو مُتَلَاعِبًا بنفسية الناس من حوله... وهناك من قال بأنه (ع) مات على الصليب ليفدي المؤمنين من ذنوبهم، فيكون العذاب الذي أصابه (ع) بدل العذاب الذي سيصيب المؤمنين في نار الآخرة... والكثير الكثير من الخلافات والأقوال... لذلك ذكرت الآيات السابقة القصة الحقيقية لمن أراد أن يؤمن، وذكرتها عبر وحي إلهي نزل على النبي محمد(ع) على شكل آيات قرآنية، فهي معلومات متلوّة، والتلاوة هي نقل المعلومات عن مستند، والمستند هنا هو علمه تعالى، فيكون مضمونها صحيحا مئة في المئة، وهذا في مقابل ما نقله الناس بتصرّف منهم في الأحداث، ومقابل تنزيلها كمعلومات عامة على الرسول(ع) ليصيغها بتصرف أو لينقلها الآخرون بتصرّف، لا، بل نزلت حرفيا بكلمات من معلوماته تعالى.

كما تعلم، هناك أمور تدخل فيها الوحي "الملاك"، وتحدث (ع) مع النبي محمد(ع) فيها، ولكنها لم تكن آيات قرآنية، فذكرها النبي(ع) للناس، والناس رووها لمن لم يسمعها من النبي(ع)... وهكذا حتى وصلت إلينا، ولكن، لا يوجد ولا رواية وصلت إلينا ونحن متأكدون من صحتها مثلما نحن متأكدون من صحة آيات القرآن. تصور لو أن الوحي أخبر النبي(ع) بقصة النبي عيسى(ع)، والنبي محمد(ع) أخبرها للناس، فلمئة سبب لن تصل إلينا القصة بالتمام والكمال ومن دون تشويه، أمّا وصولها إلينا عبر القرآن "وحيا بنص من كلام إلهي" فهو ضمانة بأنها من مصدر إلهي بالتمام، فسيتم نقل النص مع قداسة المحافظة على المطابقة بالحرف باللفظ... ولذلك تقول الآية هنا عن قصّة النبي عيسى(ع) التي تحدّثت عنها الآيات السابقة بأنها وحي إلهي بالتمام لأنها قرآن، فهي صحيحة مئة بالمئة، وهي حكيمة، فهي ليست مثل القصص التي عبث بها الناس حتى تَحَرَّفَتْ.

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ{59})
{إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ}، إن شبه التقريب للنبي عيسى(ع) عنده تعالى، {كَمَثَلِ}، كشبه، {آدَمَ}، {خَلَقَهُ}، ركّب وألّف تعالى النبي عيسى(ع) وآدم(ع)، {مِن تُرَابٍ}، من المواد التي على الأرض، بتعبيرنا الدارج: من المواد، من كربون وكالسيوم وهيدروجين... ثمّ قال له ربنا سبحانه: {كُنْ}، تشكّل إنسانا حيا. ولا يمكن لأي شيء أن يمانع إرادة ربنا سبحانه، فعندما يأمر سبحانه: {فَيَكُونُ}. وَيَتَشَكَّلُ وَيَحْصُلُ ويستجيب لأمر ربنا القدير، حَتْمًا سيصير.

آدَمُ(ع) اصطفاه تعالى كأوّل بشري تأهّل لِيُكَلَّفَ بالأوامر الإلهية، والأنبياء كلّهم من ذريته، وهو مخلوق من تراب، ونوح من ذرية آدم، وإبراهيم من ذرية نوح، وعمران من ذرية إبراهيم، ومريم ابنة عمران، وَعِيسَى ابْنُ مريم. وَرَدَ معنا تنبيه على ذلك في الآية 33 من هذه السورة، والنبي عيسى(ع) من الواضح أنه مخلوق مركّب مؤلّف مثله مثل البقيّة من تراب، وَلَمْ يخالف في تكوينه تكوين جدّه أبي الأنبياء كلّهم آدم(ع)، فلماذا قلتم عنه ربّ أو إله وهو لا فرق بينه وبين جدّه في أي شيء! فكلاهما من تراب!

لا يوجد أي سبب حتى تخترعوا للنبي عيسى(ع) طبيعة إلهية، وَلا يوجد سبب لِأَنْ تَقُولُوا عنه إِنَّهُ إله، أو تجسيد للإله، أو حلول للإله... فتوقفوا عن فلسفة الكلام الفارغ، فالنبي عيسى(ع) بشري مئة بالمئة، مثله مثلكم، مثل جدّه آدم(ع).

يعني وبكل وضوح ومن دون أي خزعبلات مِنَ الواضح أن النبي عيسى(ع) من ذرية آدم(ع)، بشري مخلوق من تراب، وكل الفلسفة وصفصفة الكلام والتخريجات والتحويرات لن تنفع أمام هذه الحقيقة الناصعة، ولا يمكننا أن نقول إلّا أنّ النبي عيسى(ع) إنسان وُلِدَ بطريقة استثنائية.

ننتبه لشيء مهم جدا، ونتذكّر وصف إبليس لآدم(ع) أنه من تراب من طين من صلصال، فتصوّر نفسك مخلوقا من نار، من طبيعة مختلفة تماما عن طبيعة مواد الأرض، فسترى أن الأرض ونباتها وحيوانها، مجرد تراب له أشكال متعددة، وَكُلُّهَا مُتَشَكِّلَةٌ من مواد طينية، من كربون وكالسيوم وحديد وَأُوكْسِجِين... وبالعكس تصور لو أنك أنت "الطيني" تنظر

إلى الجنّ وعالمهم، فكلهم من نار بالنسبة لك، ونحن بالنسبة لهم كُلُّنَا من طين، أَنَا والشجرة والصخرة والكنبة التي أجلس عليها والكومبيوتر بين يدي... كلهم من طين، من المواد التي على الأرض. وكما ترى من الآيات العديدة في القرآن، نَحْنُ بالنسبة له تعالى أيضا كلنا من طين، الآن تصور ما يلي: اَللَّهُ تعالى، الإله الذي ليس كمثله شيء، وهناك من يقول إِنَّ النبي عيسى(ع) المخلوق من طين ابْنٌ لله الإله، حلّ فيه الإله، تجسّد فيه الإله، بل هو إله! فهل لاحظت ما تريد الآية قوله؟ اَلْإِلَهُ ليس كمثله شيء، والبشر مخلوقات من طين، والنبي عيسى(ع) واحد من البشر لا يختلف عن جدّه آدم(ع) وبالتالي هُوَ لا يختلف عن كل بقيّة البشر، وَهُوَ من طين، فما معنى أن يكون إلها!

وَاجَهْتُ مع بعض المسيحيين مشكلة عويصة في إقناعهم بالطبيعة البشرية للنبي عيسى(ع)، لأن العقيدة السائدة المنتشرة بين العديد من المتدينين المسيحيين صارت هي أساس وجوهر دينهم، وكل شيء فيها بنوه ومحوروه حول الطبيعة الإلهية للنبي عيسى(ع)، فصار من الصعب عليهم التراجع... ففي الأناجيل نقلوا عن لسان النبي عيسى(ع) أنه كان يقول عن الله تعالى: أبي. مع العلم أنه في الأناجيل وَرَدَ عن لسانه أيضا أنه يقول للناس عن الله تعالى: أَبُوكُمْ. ونلاحظ في الصلوات المسيحية أن الناس تقول عن الله تعالى: أبانا الذي في السماوات. ونلاحظ أن الترجمات المختلفة للإناجيل في العديد من اللغات تحمل كلمات مختلفة بدل كلمة: أبي، أبانا، أَبُوكُمْ! وَنَجِدُ فيها كلمات مختلفة عن هذه، وَنَجِدُ: سيدي، سيدكم، سيدنا. ونجد ربي ربكم ربنا... مما يدل بوضوح عَلَى التلاعب بتبديل كلمات الأناجيل.

اَلْعَقِيدَةُ التي تجذّرت وانتشرت في عقول المسيحيين المتدينين بأن النبي عيسى(ع) بعذابه وموته على الصليب حَمَلَ خطايا البشر المؤمنين، ولولاه لدخلنا كلنا إلى النار، وأننا يجب أن نؤمن بأنه (ع) انْصَلَبَ لِتُغْفَرَ خطايانا، فَقَطْ وفقط بسبب هذا الإيمان بالصلب سَتُغْفَرُ خطايانا! وهكذا تصير مسيحيا، والمسيحيون فقط سيدخلون إلى الجنة... وكما ترى إِنَّ هذه العقيدة تجعل من الصعب عليهم تقبّل أي فكرة أخرى، كما حصل مع بني إسرائيل المقتنعين بأنهم شعب الله تعالى المختار من بين الناس، فهم يعتقدون أنهم وحدهم سيدخلون إلى الجنة، ولن يدخلوا إلى النار! وعلى أكثر احتمال فإن دخلوا إلى النار فلأيام معدودات فقط! ولذلك لا يجدون سببا وجيها في ترك عقيدتهم ودينهم، مهما قلت لهم وحاججتهم، إلاّ اللهم من كان في قلبه بذرة إيمان حقيقية فإنه سيقتنع بالكلام الحقّ، وسيترك العقيدة الباطلة، وهؤلاء عددهم قليل جدا جدا، بل نادرون جدا.

نتذكّر دائما أنه في عالمنا نحن البشر لا يوجد شيء سوى التراب والماء، وهذا التعبير القرآني يشابه قولنا: المواد. من حديد وكربون وكالسيوم ونحاس وهيدروجين وَأُوكْسِجِين... فهذه هي المواد التي نتألّف منها، فلحمنا ودمنا وعظمنا وقلبنا ودماغنا... كلّه مؤلّف من هذه المواد، والتعبير القرآني عن ذلك هو خلقنا تركيبنا تأليفنا من التراب والماء.

بقي شيء، وَبَعْضُهُمْ قال إِنَّ الآية تقصد الشبه بين خلق آدم(ع) من دون أب وأم، وبين خلق النبي عيسى(ع) من دون أب، فيكون المعنى أن ولادة النبي عيسى(ع) من دون أب لا تجعله إلها، فها آدم(ع) من دون أب وأم ولم تقولوا عنه أنه إله... ولكن الآية هنا لا تقصد ذلك، بل لا يوجد في القرآن كلام صريح يؤكّد أَنَّ آدم(ع) خَلَقَهُ تعالى من دون أب وأم، وكل ما يخبرنا القرآن به أن آدم(ع) أوّل من تكلّف بالأوامر الإلهية، ومن الواضح في سورة البقرة أن الملائكة(ع) كانوا يرون على الأرض بشرا يفسدون ويسفكون الدماء... وَاسْتَغْرَبُوا أن يجعل تعالى منهم خليفة... كما ورد في الآية 30 من سورة البقرة "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ..." فمنها تفهم أن آدم(ع) أوّل بشري تأهل ليتكلّف.

مِنَ المعلوم تشكّل النبي عيسى(ع) في بطن أمّه، وَحَبَلُهَا به، فالصورة التي تَخْطُرُ في بالك عن خلق آدم(ع) من تراب، كونه تمثالا من طين ونفخ تعالى فيه الروح فصار من لحم ودم، فكيف يكون خلق النبي عيسى(ع) في بطن أمّه؟ هل وضع الملاك في بطنها تمثالا صغيرا من الطين ونفخ فيه فصار طفلا؟ أنا لا أنفي إمكانية حصول هذا التصوّر وأنه آلية محتملة، لِأَنَّ إمكانية حصوله معلومة مما فعله النبي عيسى(ع) عندما نفخ في تماثيل الطين وصارت طيورا، ولكن تلك الحادثة موصوفة بالتفصيل الذي يشير حتما إلى صنع تمثال من الطين كهيئة الطير والنفخ فيه، والسؤال هنا عن انتفاء وجود هذه التفاصيل الواضحة في خلق آدم(ع) أو خلق النبي عيسى(ع)، وآيتنا هنا تدلّ بالضبط وفقط على التشكّل من المواد، والإله لا يتشكّل من المواد، ولا فرق بين أبيكم آدم(ع) وبينكم في التكوين، ولا فرق بين أبيكم آدم(ع) وبين ولده النبي عيسى(ع) في التكوين.

هذا وهذا فقط ما يبدو من الآيات، والختام بقولنا: والله تعالى أعلم. يشير إلى وصولنا إلى أقصى طاقتنا في دراسة الآيات، وأننا مستعدون لقبول أي دراسة أفضل، وفي النهاية اَلْعَمَلُ بأقصى طاقتنا الدراسية هو ما كلّفنا تعالى به، وهذا ما توصّلنا إليه.

(الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ{60})
{الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ}، الصواب الصحيح من المسؤول عنك من مستوى إلهي أيها النبي(ع)، فما قلناه لك عبر القرآن هو الصواب الصحيح بلا أدنى شك، {فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ}، والمراء هو عموم أي كلام تافه، سواء أكان حول أمر تافه، أو كان ردا على الحق الواضح بكلام تافه، أيُّ كلام مخالف لهذا الكلام عن النبي عيسى(ع) فهو تافه لا قيمة له ولا يستحقّ اهتمامك لتشارك فيه.

نَنْتَبِهُ لتعبير الآية: {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ}. لَمْ يستعمل القرآن أبدا تعبير: الحق مع ربّك. لأننا نحن نقول: الحق معي**،** والحق معك. فهذا يعني أَنِّي هذه المرّة معي حق، ويمكن في مرة ثانية أن يكون معك حق. أما الله تعالى فدائما الْحَقُّ، مَا يصلنا منه تعالى فهو حق دائما، {فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ}، وَلَا تُفَكِّرْ أصلا في الموضوع ولا تتعامل أصلا مع هذا الموضوع بالأخذ والردّ، لأن الحق دائما ما يقوله تعالى.

(فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ{61})
{فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ}، إِذَا أحد ما جاءك بالحجج، جاءك بما يعتقد أنه برهان في ألوهية النبي عيسى(ع) ليثبت لك أنك مخطئ، {مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ}، من بعدما وصلك العلم الإلهي الصحيح، وَقُلْتَ له الكلام الإلهي الصريح الصحيح حول حياة النبي عيسى(ع) وحول نبوته وإنسانيته، ولكنه لم يقتنع معك بل أتاك ببراهين تثبت ألوهية النبي عيسى(ع)، {فَقُلْ}، لمن حاجّك:

{تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ}، نطلب من أولادنا الذكور والإناث الحضور وأنتم تطلبون من أبنائكم الحضور، ونطلب حضور {وَنِسَاءَنَا}، زوجاتنا، {وَنِسَاءَكُمْ}، وأنتم أيضا تطلبون حضور زوجاتكم، {وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ}، نَحْنُ الرجال المتحاججون نحضر أيضا، كَمَا نقول بالعامية: نجتمع كلّنا نِسَاءً وَرِجَالًا وَأَوْلَادًا، نَجْتَمِعُ كلنا صغارنا وكبارنا من أقرب الناس لنا.

{ثُمَّ}، بعد الدعوة إلى الاجتماع كلّنا، {نَبْتَهِلْ} إلى الله، أَنْتُمْ تطلبون منه سبحانه التدخّل لصالحكم، ونحن نطلب منه سبحانه التدخّل لصالحنا.

{فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ}، نَجْعَلُ الطرد من رحمة الله تعالى، {عَلَى الْكَاذِبِينَ}، فإن كنت أنا ومن اجتمع معي نكذب فيما نقوله عن الله تعالى وعن العقيدة به تعالى، فليصبني الطرد من الرحمة الإلهية فأصير ملعونا، وإن كنتم أنتم تكذبون ولا تقولون الحقيقة فليصبكم الطرد من الرحمة الإلهية فتصيروا ملعونين بلا رحمة من الله تعالى عليكم.

اَلْكَلَامُ هنا بالمباهلة موجّه لأهل الكتاب المسيحيين، لِأَنَّهُمْ يؤمنون بالله تعالى، ويؤمنون بالآخرة، ويعرفون معنى اللعنة، وهنا الكلام الإلهي معهم عبر رسوله محمّد(ع)، مِنْ ناحية الرسول فَإِنَّهُ متأكّد من صحّة ما يعتقد به، ويطرح على أهل الكتاب كلاما عقلانيا حكيما، ومن ناحية أهل الكتاب، هَلْ هم مقتنعون فعلا بما يقولونه حتى يباهلوا الرسول محمّد(ع)؟ وهل فعلا لم تقنعهم الحجج والبراهين والأخبار التي ينقلها لهم الرسول محمد(ع) عن بشرية النبي عيسى(ع)؟ إذا كانوا من داخلهم كذلك، فليكن عندهم الجرأة أن يلعنوا الكاذب، وهذا اللعن هم يفهمون معناه، وَمَعْنَاهُ الطرد من الرحمة الإلهية للكاذب.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، مَا هي نتيجة هذا اللعن؟ نتيجته طرد من الرحمة الإلهية، وسيكون أثره في الدنيا والآخرة، لِأَنَّ أَحَدَ الطرفين حتما على حقّ، وكلاهما يكذبان بعضهما، وَمِنَ المستحيل أن يكون الطرفان مقتنعين بصحة ما يقولانه وَأَحَدُهُمْ حتما يعلم أنه يكذب أو يتراخى أو يتساهل أو يبالغ.... وبالتالي هُوَ يعلم بأنه يكذّب الحق ويعارضه، فإن اقتصر ضرره على نفسه وهو ساكت لا يعمل على إفساد عقيدة الآخرين، فهذا موضوعه يختلف عن الذين يعلنون

للجميع أن العقيدة التي ينقلها النبي محمد(ع) عن النبي عيسى(ع) غير صحيحة، ولم يقتنعوا بأي كلام عقلاني، فإن لم يقتنعوا بكلام الإله فبماذا سَيَقْتَنِعُونَ؟ وهكذا بقي أن يطلبوا حلول اللعنة الإلهية على الكاذب إن كانوا فعلا معتقدين بأنهم على حقّ، والأثر سيكون خلودا في جهنّم بلا غفران للكاذب مع انقطاع أو شبه انقطاع تامّ للأمل بتوبته هنا في الدنيا، وَهَذِهِ حالة حرمانه من الهداية والنور وتغليف وطبع قلبه...

رَبَطَ المسلمون هذه الآيات بحادثة تاريخية، حيث قالوا إنَّ وفدا من مسيحيي مدينة نجران، وهي حاليا عاصمة محافظة نجران فيما يسمّى الآن بالمملكة السعودية، وهذا الوفد جَاءَ إلى المدينة وقابل النبي(ع)، ويوجد عدة روايات بينها اختلافات، ولكنها تقول بأنهم ناقشوا النبي(ع) حول صحة دينه ودينهم... ولم يصل النقاش معهم إلى نتيجة، وَكَانَ آخر الكلام "أن نزلت آيتنا هذه" ليتباهل الوفد مع النبي(ع)، حَضَرَ الوفد إلى اللقاء للمباهلة، وحضر النبي(ع) وَأَحْضَرَ معه ابنته السيدة فاطمة وَوَلَدَيْهَا الحسن والحسين وَزَوْجَهَا عَلِيًّا عليهم الصلاة والسلام، عِنْدَمَا رأى الوفد أن النبي(ع) قد حضر بأعزّ أفراد عائلته للمباهلة، مما يعني أنه متأكد أنّه سينتصر في المباهلة وأن اللعنة ستنزل على الوفد المسيحي، خَافُوا، وانسحبوا من المباهلة...

انتبه عزيزي القارئ، وَلَا تجعل الآيات تجمد عند أي حادثة تاريخية، وَلَا تبحث في التاريخ ولا تنتبه أن القرآن لم يرد جعل آياته محصورة بحادثة تاريخية، لِأَنَّهُ ليس كتاب أخبار وتأريخ، بل كتاب هداية يذكر الأخبار والتاريخ للهداية، كَمَا تلاحظ ذَكَرَتِ الآيات القصّة الحقيقية للنبي عيسى(ع)، فهو وأمّه عليهما السلام كَانَا بَشَرِيَّيْنِ تحت العناية الإلهية المميزة، وَلَيْسَا بطبيعة إلهية، ولا بقدرة ذاتية أمكنهما أن يفعلا أي شيء غير عادي... وَبَيَّنَتِ الآيات كل شيء لمن كان مسيحيا، وَبَيَّنَتْ أن الدين المحمدي هو نفسه الدين العيسوي الصحيح وغير المحرّف، وَيَجِبُ اتباع القرآن وترك كل ما سبق.

سَجَّلَتِ الآيات للتاريخ، أن من لم يهتد بالأجوبة التي ذكرها القرآن، فحاله مثل حال من لم يقتنع من النبي محمد(ع) شخصيا، وأن الدعوة للمباهلة مفتوحة حين تنتهي المناقشة وتصير بلا فائدة بسبب تصلّب الطرف الآخر ضد الحقّ الواضح...

هَذِهِ المشكلة مشابهة لما نقله القرآن عن قول الكافرين عن آياته تعالى التي جرت على يدي رسله أنها سحر، وهكذا يعترفون أنها غريبة وأنهم لا يمكنهم تقليدها، ولكنها ليست إلهية بل سحر، وانتهى الموضوع ولن يؤمنوا، وَأَرَانَا تعالى ذلك في نموذج فاقع بارز حين جمع فرعون السحرة وفشلوا... وهو لم يؤمن! هُنَا الكلام عن المباهلة له معنى كآخر حلّ مع من يؤمن باللعنة الإلهية على الكاذب بشيء من العيار الثقيل، وليس له معنى في حالة فرعون...

أُخْبِرُكَ يا عزيزي القارئ عن مشكلة عويصة تنتج عن التعلق بالروايات لتطبيق القرآن عليها، كَمَا تلاحظ في دراستنا هنا، اعْتَمَدْنَا على التعلق بآيات القرآن على أساس أن لكل سورة موضوعا خاصا تعالجه، ولم نتعلق بالروايات، وبالخصوص، لم نتعلّق بالروايات التي تتحدث عن أسباب نزول الآيات، وهنا لا بد أن أذكر لك سببا وجيها لابتعاد دراستنا عن روايات سبب النزول، فِي كتب التواريخ ستجد أن قدوم وفد نصارى نجران كان في سنة تسع من بعد هجرة الرسول(ع)، وبحسب المتعلقين بالروايات، هَذَا يعني أن هذه الآيات لا بد أنها نزلت أثناء زيارة هذا الوفد، ولكن هناك رسائل كَتَبَهَا النبي(ع) إلى المقوقس وإلى هرقل في السنة السادسة من بعد الهجرة، وهي تتضمن آيات من هذه الفقرات! فكيف تكون الآيات نازلة لتتحدث عن زيارة الوفد المسيحي النجراني للمدينة في السنة التاسعة، وَكَانَتِ الآيات موجودة ونازلة قبل ذلك في السنة السادسة!

انتبه، ولا تظن أني أريدك أن تتخلى عن الروايات، أو تظن أنها كلّها بلا قيمة، لا، إنما أريدك أن تكون على الأساس الصحيح، نَتَّخِذُ القرآن أساسا، وندرسه، ويكون عاما منطبقا على كل العصور، ونستفيد من دروسه، ولا يكون كتاب قصص بلا هدف، هذا من جانب، ومن جانب آخر، عَلَيْنَا أن لا نرفع أي شيء من الروايات حتى يساوي القيمة القرآنية الإلهية، لِيَكُنِ البحث الروائي التاريخي منفصلا عن الدراسة الخالصة للقرآن، وبذلك نحصل على دراسة صافية قرآنية تجعلنا نفهم ما يريده سبحانه منّا بوضوح، ويكون لدينا دراسات أخرى تاريخية جغرافية فلسفية روائية... لِيَكُنِ الخلاف والاختلاف في تلك الدراسات مفصولا عن الرسالة الواضحة من ربنا سبحانه، حتى لا يتشوّش فكرنا بأمور جانبية ليست أساسية.

أَخْفَيْتُ عنك عزيزي القارئ الكثير من الروايات التي رووها عن النبي(ع) وعن الصحابة والتابعين وعن الأئمة... والتي فيها الكثير من الاختلافات، بل فيها التناقض مع ظاهر القرآن، وإنما أَخْفَيْتُهَا فَلَمْ أَذْكُرْهَا في هذه الدراسة حتى لا تتشوش أفكارك، وحتى يبقى تركيزنا على فهم القرآن صافيا واضحا، فلو أننا وثقنا برواية عن النبي(ع) وأنها منقولة بالتمام كما هي من دون تحريف، فإننا سنضعها على الرأس والعين، وسنعمل بها، وأصلا من المستحيل أن لا يتماشى كلامه (ع) مع ما يقوله القرآن، ولكن هذه النوعية من الروايات نادرة جدا جدا، والبحث عنها واستخراجها صعب جدا جدا، ولا تغرنك البساطة التي تَشْعُرُ بها عند من فسّر القرآن بالروايات، وَتَشْعُرُ بأني أبالغ في كلامي، صدقني، فإنك إن بحثت ستجد في الغالب الأعم رواية مضادة لكل رواية، وستجد أن الأسانيد ضعيفة وواهية للكثير منها... ولذلك، كان الطريق الأسلم لفهم القرآن هُوَ دراسته دراسة منفصلة عن الروايات، وكلما شعرنا بحاجة لرواية لفهم آيات القرآن، فهذا يعني أننا لم ندرس الآية جيدا، وكلما شعرنا بالحاجة للبحث عن سبب نزول الآية حتى نفهمها، فهذا يعني أننا ابتعدنا عن موضوع سور القرآن، لأننا نبحث عن حصرها وتجميدها في حادثة حصلت في قديم الزمان، والقرآن لم يرد أبدا أن يذكر لنا شيئا جامدا، بل دائما أرادنا أن نستفيد من قصصه، وأن نجعلها تنطبق على كل عصر وزمان.

في الأخير لا تفهم أننا ننفي حصول حادثة المباهلة مع وفد نجران، ولكن ما ننفيه هو نزول الآيات هنا لخصوص تلك الحادثة، وأمّا حادثة وفد نجران فَذَكَرَهَا العديدون في الكتب وهي تطبيق للأمر الإلهي الذي تقرأه هنا، كَمَا قالوا في مجمل الروايات حَضَرَ النبي (ع) ومعه صهره وابنته وولداهما عليهم صلوات الله تعالى، ووفد نجران كان من الرجال فقط، وهكذا ترى التزام النبي محمّد(ع) بدعوة أقرب الناس إليه للمباهلة وَهُوَ متأكّد بأن اللعنة لن تنزل عليهم، وَتَرَاجَعَ وفد نجران عن المباهلة قبل الابتداء باللعن وانسحبوا...

مِنَ المؤسف ما تجده في طيات بعض الكتب عن شحن طائفي مذهبي تعصّبي، أَمَامَ شهرة هذه الحادثة التي استخدمها فيما بعد طائفة من المسلمين ليثبتوا أن شخصياتهم الدينية أعلى من شخصيات الطوائف الأخرى، هُنَاكَ من لم يتحمّل ذلك، واخترع رواية أدخل فيها السيدة عائشة إلى وفد النبي(ع) للمباهلة، بل وهناك من أدخلها مع أبيها أبي بكر وأخرج عليا من القصّة! لِيَكُنْ هذا نموذجا لك عن سخافة الطائفية والمذهبية التي أنت عليها ولا تراها سخيفة، خاصة حين تكون البطولة للمقدسين عندك... وكله كلام فارغ منع تعالى عنه وأمرنا بالوحدة.

(إِنَّ هَـذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ اللّهُ وَإِنَّ اللّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{62})
{إِنَّ هَذَا}، الذي ذكرناه لك أيها الْقَارِئُ للقرآن عن النبي عيسى(ع)، {لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ}، سرد للحوادث بالصواب الصحيح الصادق، وَهِيَ كلام إلهي، {وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ}، فلا أحد موصوف بالصفات والقدرات الفائقة إلا صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" عزّ وجلّ، فلا النبي عيسى(ع) ولا أمّه (ع) ولا أي شخص أو شَيْءٍ آخر هو إله، لا، وَفَقَطْ وفقط الله تعالى هو الإله الأحد الذي لا إله غيره.

{وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ}، فهو الموصوف تماما بالعزّة بكل ما تحمله من معنى، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... وَهُوَ فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... وَكُلُّ المخلوقات أَذِلَّاءُ أمام قدرته وإرادته سبحانه، فما معنى أن يقولوا عن النبي عيسى(ع) أنه إله!

هُوَ، {الْحَكِيمُ}، يَرَى الصوابية في الأمور وقراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب وَقَرَارَاتُهُ وأفعاله كلها متقنة وَحَقٌّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول إنّ أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فلا يفعل لغاية له سبحانه. فكلامه سبحانه هنا عن النبي عيسى(ع) نابع من حكمة، من صوابية رؤية الأمور. يَا أيها المسيحي المؤمن بغير ما يقوله هذا القرآن انتبه أنك لا تقرأ معلومات من تأليف محمّد، بل من تأليف الإله الذي لا إله إلا هو.

(فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ{63})
{فَإِن تَوَلَّوْا}، فتوجّهوا باتجاه آخر غير الكلام الصحيح، وَذَهَبُوا عنه وَلَمْ يعلنوا أنهم مؤمنون به، {فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ}، فمن ترك الحقّ فهو مفسد يريد السوء والشرّ ولا يريد الصلاح والخير، وهنا الكلام عن الذين يريدون

مصلحتهم الدنيوية السيئة من الكفر ومن مخالفة الدين الصحيح، وَيَبْقَوْنَ على دين محرّف وهم يعلمون بأنه محرّف، ويعلمون أن أوامر رَبِّهِمْ تعالى تَحَرَّفَتْ ولم تعد صحيحة، ولكنهم لا يهتمون! وهذا هو الفساد.

إنْ كان هناك أحد ما يمكنه أن يحدّد بشكل صحيح ما هو الفساد، فمن البديهي أن الإله الأحد هو العليم بالمفسدين وعليم بالمصلحين.

هَؤُلَاءِ هل يظنون أنه تعالى غافل عنهم؟ لا، بل لديه تعالى علم تفصيلي بالمفسدين، وَهُمْ تحت المراقبة، هذا من جانب ومن جانب آخر وَإِنْ كانوا لا يرون أنفسهم مفسدين فليأخذوا علما أن الإله يصنّفهم كمفسدين، فماذا سيقولون بعد ذلك؟

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ{64})
{قُلْ}، أيها النبي(ع) "وأيها المؤمن" عبر هذا القرآن:

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ}، يا أيها الناس الذين نزل عليهم كتاب من ربنا سبحانه وهم يعلنون أنهم منتسبون للكتاب الإلهي، وهنا تتحدث الآيات بالخصوص مع المسيحيين.

{قُلْ}: {تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ}، كما نقول: ألقى "كلمة" على الجماهير، ونقصد أنه قال جملا، وهنا الدعوة إلى كلام بلا فرق متساوي مشترك، {بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ}، لكلام يكون نفس الشيء بالنسبة لنا ولكم، تَعَالَوْا إلى كلام أساسي نتفق عليه ونشترك كلنا فيه، وهو التالي:

{أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ}، نَحْصُرُ المفروض علينا طاعته بالله تعالى، فهذا هو أساس الدين الذي ندّعي كلانا أننا ننتمي له، وبناء عليه، {وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا}، فلا نجعل له تعالى شركاء في العبادة، وَلَا نتصرّف أَنَّنَا عبيد لغيره.

{وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ}، فلا نترك الربّ الحقيقي، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، ونجعل من واحد من البشر ربا، فنقول إنَّ فلانا مسؤول عنّا من مستوى إلهي، أَنْتُمْ جعل البعض منكم النبي عيسى(ع) ربا، وبعضكم جعل أيضا السيدة مريم(ع) ربّة، وآخرون جعلوا القديسين أربابا... وكما ترون نَحْنُ أيضا يمكننا أن نفعل مثلكم، وَيُمْكِنُنَا اختيار شخصيات دينية خاصة بنا لنجعلها ربّا، ولكن هل هذا يتماشى مع الدين الذي ندّعي أننا ننتسب له؟ فلنتفق نحن وأنتم على توحيد الربوبية لله تعالى فقط، وَنَعْتَقِدُ أنه تعالى الوحيد المسؤول عنّا من مستوى إلهي، وأنه وحده الْمَفْرُوضَةُ منّا طاعته، أليس هذا هو أساس الدين؟

لِلْأَسَفِ بعض المسلمين اتخذوا أربابا من دونه تعالى وفي نفس الوقت يرفضون الاعتراف بذلك، كقولهم: يشفيك فلان أو فلانة. ويمرّر يده فلان أو فلانة على رأسك لتشفى... أو يحرسك فلان... فهذه أمور دارجة ومتداولة بين العديد من المسلمين وهم يظنون أنهم بذلك يَكُونُونَ أشدّ إيمانا من الآخرين! لأنهم يعتقدون بقدسية لهؤلاء الأشخاص، وهذا ليس فيه مشكلة، إنما المشكلة وصفهم بأوصاف الربوبية من مستوى إلهي، فهم لم يؤلهوهم بل ربّبوهم، فصاروا يشفون ويرزقون ويحققون النذور لهم...

{فَإِن تَوَلَّوْا}، إِذَا اتَّجَهَ أهل الكتاب عن هذا الكلام باتجاه آخر وَتَرَكُوهُ ولم يلتزموا به، {فَقُولُوا}، لهم أيها المؤمنون:

{اشْهَدُوا}، سَمِعْتُمُونَا بوضوح، {بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}، فنحن نعلن بكل صراحة ووضوح أننا منقادون لله تعالى، فهل الدين الإلهي غير الْإِسْلَامِ له تعالى بالشكل الذي نقوله لكم؟ لا، فإن لم تقبلوا معنا بِالْإِسْلَامِ بالانقياد للإله الأحد بالعبادة والربوبية فاعترفوا بأننا نحن أَخْلَصْنَا انقيادنا لله تعالى، وهذا شيء لا يمكن ولا يحقّ لكم أن تقولوا إنَّ فيه مشكلة.

أَلْفِتُ انتباهك مسبقا لما ستتذكره السورة في الآية التالية، وَمِنَ الضروري جدا تكراره بكثرة، أَيُّ شيء ننسبه للدين الإلهي يجب أن يتماشى مع تدين الذين سبقونا، فلا معنى للدين الواحد للإله الواحد إن كان في عقيدته اختلاف، وَمَا معنى إيمان النبي إبراهيم(ع) بِالْإِسْلَامِ لله تعالى بالشكل المشهور جدا بين الناس والموافق تماما لما طرحه القرآن من توحيد الْأُلُوهِيَّةِ والربوبية والعبودية لله تعالى، وَمَا معنى صحّة هذا الإيمان مع إيمان من جاء بعد إبراهيم(ع) ويقول بأنه على نفس الدين ولكن لديه شخصيات يألهها ويربيها ويعبدها بشكل لم يفعله النبي إبراهيم(ع)! فمن منهما المتدين بدين صحيح؟! وكيف يجتمع إيمان الشرك هذا مع البقاء على ما كان يؤمن به النبي إبراهيم(ع) من توحيد؟! وعليك يا

عزيزي أن تتوسّع في هذه القاعدة لتقيس عليها أي شيء تؤمن به، فإن كان ما تؤمن به لم يسع من كان قبلنا، ففي إيمانك خطأ يجب تصحيحه، وربما يكون إيمانك صحيحا على قاعدة صحيحة ولكنك مسخت القاعدة لتجعلها على قياس مذهبي طائفي...

لَاحِظْ في دراستنا هذه أن الأمر الإلهي الذي ورد بالمفرد للنبي محمّد(ع)، "قل..."، أَقْحَمْنَا فِيهِ أيضا المؤمن القارئ للقرآن، فَفَسَّرْنَا: قل أيها النبي محمّد(ع) للناس عبر هذا القرآن، وأضفنا إليه: قل أيها المؤمن للناس... وكما ترى في آيتنا هنا تأكيد على هذا المفهوم، بَدَأَتْ بالأمر "قُلْ" لمن نزل عليه القرآن مباشرة، وانتقلت في الأخير للأمر: فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون. مما يعني أن الأمر الإلهي بالمفرد والموجّه للرسول(ع) مُوَجَّهٌ للنموذج الأرقى الذي ينقل الكلام الإلهي للناس، ومن بعده المؤمنون يتمثّلون بالنموذج الأرقى، فيقومون بواجبهم في نقل الكلام الإلهي للآخرين.

اَلْفَارِقُ بين أي مؤمن مهما كان وبين النموذج "النبي محمّد(ع)" معلوم، ومعلوم سبب أمر القرآن بالتحديد للنموذج النبي محمّد(ع) بأن يقول كذا... فهو (ع) فيه الصفات التي أهّلته ليكون رسولا، وهذا ليس موجودا في أحد في عهده ولا بعده(ع)، وَالْمُؤْمِنُ يقول أيضا فيكرّر ما أمر تعالى نبيّه(ع) أن يقوله للناس، ولكن المؤمن ليس رسولا يخلفه تعالى، وَالْعُطْلُ الذي في صفات المؤمن لن يؤثّر على نقله لكلام سبق ونقله النموذج الرَّاقِي محمّد(ع)، وَلَنْ ينزل مستوى الكلام الإلهي بسبب نقلي أنا ذِي السيئات والخطايا للكلام الإلهي للناس، لأن نموذجا رَاقِيًا نَقَلَهُ أولا، وأنا لست الدليل على الأمانة وصدق النقل كما هو من الإله سبحانه، بل الضمانة على صدقه من النموذج محمّد(ع) الصادق الأمين الناقل الأول لهذا الكلام الإلهي.

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ{65})
{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ}، أَنْتُمْ مجموعة من الناس تقول عن نفسها إِنَّهَا منتسبة وتابعة لكتاب إلهي، وهنا الكلام يشير لكم بأهل الكتاب على أساس أنكم يجب أن تكونوا أول الناس التزاما بالكتاب الذي معكم، وأول الناس إيمانا بالكتاب الإلهي الجديد:

{لِمَ تُحَاجُّونَ} في {إِبْرَاهِيمَ}، فكيف تقحمونه في كلامكم وبراهينكم، فَتَقُولُونَ إِنَّ دينكم منسوب له... {وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ}! مِنْ بعد موت النبي إبراهيم(ع) بوقت طويل نزلت عليكم تلك الكتب، فكيف يكون النبي إبراهيم(ع) تابعا لكم وتابعا لما نزل عليكم وقد مات قبل نزولها! {أَفَلَا تَعْقِلُونَ}! فما هذا الكلام من دون تعقّل! من دون تفكير!

عِنْدَمَا عرض عليهم النبي محمد(ع) أن نَتَّبِعَ كلنا عقيدة النبي إبراهيم(ع)، فنكون موحّدين مثله، وَنَكُونَ على كلمة سواء، نَحْنُ متفقون أَنَّ دينه (ع) كان صحيحا، ولكنهم رفضوا! وهم أقحموا اسمه (ع) في محاججتهم للآخرين على أساس أن النبي إبراهيم(ع) شخصية مركزية كجزء من دينهم، ومن الواضح أنهم أثناء محاججتهم، أثناء كلامهم الذي يحاولون فيه إثبات صحّة دينهم، يقولون عن النبي إبراهيم(ع) إِنَّهُ على دينهم بدل أن يقولوا إِنَّهُمْ هم على دينه!

بعبارة أخرى انْغِمَاسَهُمْ وغرقهم في ضلالهم أعماهم عن رؤية أبسط حقيقة، فمن المفروض أن يكونوا هم على دين النبي إبراهيم(ع)، والنبي محمّد(ع) يعرض عليهم أن نكون كلّنا على دين النبي إبراهيم(ع)، بينما في كلامهم جعلوا النبي إبراهيم(ع) على دينهم! علما أَنَّ التوراة والإنجيل نزلا من بعد وفاة النبي إبراهيم(ع)؟! فَبَنُو إسرائيل من بعد نزول التوراة صاروا يهودا، وبعض اليهود من بعد نزول الإنجيل صاروا نصارى، وَنُزُولُ الكتب منه تعالى ليس المقصود مِنْهُ تفرقة الناس بل إعادة جمعهم، ولكن واقع الحال أَنَّ الناس تأطّروا بإطار الانتساب للتوراة، وبعدهم تأطّر آخرون بكتاب الإنجيل، وهكذا يكون النبي إبراهيم(ع) خارج الإطارين، وواضح ذلك جدا من رفضكم دعوة النبي محمّد(ع) لكم للعودة إلى دين النبي إبراهيم(ع).

بقي شيء عليك الانتباه له دائما، قَدِيمًا اعتبر اليهود أَنَّ المسيحيين متطفلون على دينهم وأنبيائهم، على أساس أَنَّ الدين الإلهي محصور بهم، وبالتحديد محصور بما هم عليه من عقيدة وشريعة، فالمسيحيون بنظر اليهود حين يقحمون في أدبياتهم عقائد وتشريعات وأنبياء فهم متطفلون ودخلاء على اليهود، وَكِلَاهُمَا اليهود والمسيحيون نَظَرَا للنبي محمّد(ع) بنفس النظرة، على أنه دخيل ومتطفّل على دينهم، ومزعج كلامه عن أنبيائهم وكأنهم أنبياؤه... بل اعتباره نفسه عابدا

لنفس إلههم أيضا مرفوض! ومن هذه العقلية سنفهم بسهولة كلام القرآن عنهم هنا وفي سور أخرى، فهم يتعاملون مع الدين الإلهي بعقلية الخصوصية لهم، فإما أن تكون مثلهم على ما هم عليه، وإما أَنْتَ مرفوض، ومن هنا تدخل عليهم الآيات لتقول لهم: ماذا لو كنت بالضبط على نفس دين النبي إبراهيم(ع)؟ فهل تدينني مرفوض وخطأ!

نَفْسُ الكلام موجّه إلينا، آخذين بعين الاعتبار أَنَّ لدينا هذا القرآن الذي لم يطرأ تحريف عليه، ولكن، طرأ تحريف على تفسيره، فصرنا مذاهب في تفسيره عقائديا وتشريعيا، وَلَدَيْنَا قاعدة لتصحيح الخلل في تفاسيرنا، فأي شيء تعتبره أساسيا من دينه تعالى، ولا تجده متماشيا مع إيمان النبي إبراهيم(ع)، فراجعه واسأل نفسك عنه مرة ومرتين وثلاث عنه، خصوصا فيما يتعلّق بالعقيدة وهي محور الكلام هنا، مَعْلُومٌ أَنَّ أساسيات التشريع الإلهي واحدة، ولكن لسبب اختلاف مناسبة بعض التشريعات لبعض الأزمنة والأمكنة، صار يبدو أنه نزلت تشريعات جديدة، وخذ مثلا عادة مجتمع النبي يعقوب(ع) "إسرائيل"، والتي نفترض أنه لم يكن دارجا فيها أكل الخنزير، ولهذا السبب لم يكن متعارفا بين المؤمنين تحريم أكله لأنهم بالأساس لا يَأْكُلُونَهَا، ونفترض أنه(ع) لم يكن يأكل إِلَّا اللحم من المواشي المحللة، ولسبب أو لآخر امتنع عن أكل بؤبؤ العين وسلسلة العامود الفقري والطحال... فَهَذِهِ أمور حتى القرآن لم يذكر حرمة أكلها رغم شهرة حرمة أكل بعضها في عموم التراث الفقهي للمسلمين، وهذا الموضوع تراه مَطْرُوحًا قُرْآنِيًّا في الآية 93 من هذه السورة {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ...}، وترى أن السورة كلامها هنا في الآية عمومي ولخصوص العقيدة، ولكنها بعد قليل لم تترك مسألة الشريعة مهملة بدون جواب وسؤال عنها...

هُنَا فهمنا أَنَّ العقيدة للدين الإلهي واحدة بلا أي تغيير ولو بالحرف منذ آدم(ع) مرورا بإبراهيم(ع) وصولا إلى هذا القرآن، وبعد قليل ستتناول السورة مسألة بعض الاختلافات في أمور تشريعية لا يمكن ولا بأي شكل اعتبارها تَعَادِيلَ على شرعه تعالى لِأَنَّهَا نادرة طفيفة جدا جدا ولا تمسّ الأساسيات.

(هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ{66})
{هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ}، أتيتم بما تعتقدون أنه برهان على صحّة دينكم، {فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ}، نَاقَشْتُمْ في قصّة حياة النبي عيسى(ع) وأمّه(ع)، وعن الإنجيل... فهذه أمور لديكم فيها معلومات، وحاججكم القرآن بتصحيح معلوماتكم، ولكن على أي حال، {فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ}؟! عِنْدَمَا تمّ طرح الحقيقة الدامغة عليكم، وشعرتم بالضعف، فبدل أن تؤمنوا بشكل صحيح، قمتم بالمعاندة، وأخذتم تأتون ببراهين تؤكد صحّة كلامكم من خارج نطاق ما تعلمونه، ولهذا السبب وصلتم إلى كلام سخيف عن النبي إبراهيم(ع) بأنه تابع لدينكم، وأنه خاص باليهود، أو خاص بالمسيحيين!

{وَاللَّهُ يَعْلَمُ}، يعلم كل شيء، {وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}، فلا علم لكم بقدر ما يعلم تعالى، أَنْتُمْ لم تنتبهوا أَنَّ القرآن نازل من عند الله تعالى، وَتُنَاقِشُونَ بحريّة، وكأنكم تناقشون شخصا مثلكم! ولكنكم تجادلون في كلام ربنا سبحانه، وهو يعلم كل شيء، يَعْلَمُ الماضي بكل تفاصيله، ويعلم كل تفاصيل حياة البشرية، ومن ضمنها حياة النبي إبراهيم(ع).

نَنْتَبِهُ، عِنْدَمَا نقرأ هذه الآيات قد نستغرب من سخافة الذين قالوا عن النبي إبراهيم(ع) أنه كان يهوديا أو نصرانيا، لأنه من الواضح أنه(ع) مات قبل أن يَتَشَكَّلَ هَذَانِ الدِّينَانِ، انْتَبِهْ جيدا، هم قالوا إِنَّهُ لهم، وأنهم على دينه، وبما أنهم يقولون عن أنفسهم إِنَّهُمْ نصارى، فهذا الكلام يعني أن النبي إبراهيم(ع) كان نصرانيا، لأنهم يقولون إِنَّهُمْ معه على نفس الدين.

انْتَبِهْ مرة ثانية، اَلْأَفْكَارُ السخيفة التي يتم طرحها، إِنَّ البعض منها مع مرور الوقت ومع التكرار والانتشار، تصير أساسية! فِكْرَةُ أن النبي إبراهيم(ع) كان مسيحيا، هي سخيفة جدا بالنسبة لك، لأنك ومن دون أي جهد فكري يمكنك الانتباه لهذه السخافة، ولكن لا تستغرب أن يقولها هؤلاء وغيرهم، هُنَاكَ أفكار سخيفة تنتشر بين الناس، بل منتشرة دائما بين الناس، لأنهم بكل بساطة: لا يهتمون بالحكمة والعقلانية، وَيَجْتَرُّونَ ويبتلعون ما وافق عصبيتهم ومذهبهم وتميّزهم.

لَا تبتعد كثيرا، بل انظر إلى المسلمين من حولك، كَمْ من الأفكار "الأساسية" لمذهب من المسلمين غير مذهبك، تراها سخيفة وغير عقلانية؟ فخذ علما أَنَّهُ تُوجَدُ أساسيات في مذهبك هي فعلا سخيفة وغير منطقية، بدرجة سخافة المسيحي الذي يعتقد أَنَّ النبي إبراهيم(ع) كان مسيحيا!

حَتَّى لا يكون الكلام في الهواء، اَلنَّبِيُّ محمّد(ع) ماذا كان؟ سنيا أم شيعيا أم فاطميا أم اسماعيليا أم زيديا... أخبرني؟ طبعا من السخافة أن تقول إِنَّهُ (ع) كان على مذهبك أو طائفتك، ويمكنك أن تدّعي أن مذهبك أو طائفتك هي على ما كان عليه محمّد(ع)، ولكنك سترفضني إن قلت إِنِّي على دين محمّد(ع)، وستصرّ لأحدّد لك من أي مذهب أو طائفة أنا. وللأسف تستسخف المسيحيين واليهود حين ينسبون النبي إبراهيم(ع) لهم، ولكنك لا تَسْتَسْخِفُ نفسك حين تنسب النبي محمّد(ع) لنفسك أليس كذلك! علما أَنَّ المذاهب والطوائف تشكّلت بعد وفاة النبي محمّد(ع)، ولكن نحن الْمُسْلِمِينَ وجدنا الحلّ، لَدَيْنَا روايات عن النبي(ع) تمدح عن المستقبل مذهبنا وطائفتنا! وأنها وحدها الناجية والبقية في النار! تماما مثلما قال اليهود إِنَّهُمْ وحدهم الفرقة الناجية والبقية في النار، ومثلما قال النصارى، ومثلما نقول نحن، بل كلنا ندّعي أن طائفة وحيدة ناجية والبقية في النار!

(مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{67})
{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا}، وهذا واضح جدا جدا، فَهَاتَانِ التَّسْمِيَتَانِ جَاءَتَا من بعده(ع).

{وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا}، فَكَانَ مائلا عن كل شيء ومتوجها فقط نحو الدين الإلهي، وهذا التعبير يرادفه أنه (ع) مستقيم على الطريق الصحيح، {مُّسْلِمًا}، منقادا لله تعالى، فلم يخترع في الدين ولم يخالف أوامر ربنا سبحانه بل سلّم وَانْقَادَ في فكره وعمله كلّه لله تعالى.

{وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، فلم يقل عن النبي عيسى(ع) ولا عن غيره إِنَّهُ إله!

بعبارة أخرى: فإن كنتم تعتقدون أَنَّ النبي إبراهيم(ع) شخصية دينية أساسية، فكونوا مثله، فهو لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا مشركا، بل كان مستقيما ومسلّما أموره كلّها لله تعالى.

أَيُّ فكرة أو عقيدة تقولونها ولم يكن يعتقد بها النبي إبراهيم(ع) فهذا يعني أنّكم مختلفون عنه، وَإِذَا شخص ما أعلن اعتقاده فقط بكل ما اعتقد به النبي إبراهيم(ع) فماذا ستقولون عنه؟ هَلْ توافقون على تدينه وتعتبرونه سليما صحيحا؟!

نَفْسُ المفهوم ينطبق على عقائدنا المذهبية والطائفية، وَأَيُّ كلام يقولونه كشرط للإيمان الصحيح، ولم يكن يؤمن به من سبقنا من الأنبياء، فهو شرط مرفوض. وإن خطر ببالك أَنَّ دين النبي إبراهيم(ع) لم يكن فيه تكاليف كالتي طرحها هذا القرآن، فهذا غير صحيح، فالصلاة والزكاة والحج والصيام... كَانَتْ من قبل وَاجِبَةً من أول ما تكلفت البشرية، وعلى أي حال فالكلام هنا عن الإسلام هنا بمعناه العام وخصوصا في الجانب الإيماني، فهو عن وجوب تصرفنا كعبيد له تعالى، فإن جاءنا كلامه سبحانه، فنلتزم به بالحرف، فهذا دين النبي إبراهيم(ع).

(إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ{68})
{إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ}، إن أحقّ الناس بالقول إِنَّ النبي إبراهيم(ع) خاص بهم، هم مجموعتان، الأولى هم: {الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ}، وهذا منطقي، فَكُلُّ من جاء بعده وكان نسخة عن عقيدة وإيمان النبي إبراهيم(ع) في التوحيد والإسلام لله تعالى، يُمْكِنُهُ أن يَقُولَ: إِنَّ النبي إبراهيم(ع) نموذجي أمثولتي قدوتي... ويمكنه أن يدّعي أنه تابع له، لِأَنَّهُ يعتقد بنفس ما كان (ع) يعتقد.

اَلْمَجْمُوعَةُ الثانية التي لها أولوية بالنبي إبراهيم(ع)، والتي يحق لها أن تقول عنه (ع) بأنه نموذجهم وأمثولتهم وقدوتهم، هي: {هَذَا النَّبِيُّ}، محمد(ع)، هذا الشخص الذي يصله نبأ منه تعالى لهدايتكم، {وَالَّذِينَ آمَنُوا}، والذين اعتقدوا بهذا النبي(ع)، هَؤُلَاءِ أولى الناس بإبراهيم(ع) وَيَحِقُّ لهم الْإِعْلَانُ أَنَّهُ(ع) خاص بهم، لِأَنَّهُمْ فعلا مثله في العقيدة والإسلام لله تعالى.

{وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ}، وَهُمْ تابعون له تعالى وهو مرجعهم، يُطِيعُونَهُ وهو سبحانه يعتني بهم. وبما أن الحديث هنا عن النبي إبراهيم(ع) لأن اليهود والمسيحيين ادعوا بأنه (ع) خاص بهم وأن دينهم ودينه واحد، صَارَ الحديث عن التبعية والتقليد للنبي إبراهيم(ع)، وللرد على هذا الكلام، شَرَحَتِ الآيات ما شرحت، وَأَنَّ النبي محمد(ع) ومن آمن معه لهم الأولوية بالتشابه مع النبي إبراهيم(ع)، ولكن، الأساس الأساس هو ولاية الله تعالى، لِأَنَّ مُوَالَاتَنَا للنبي إبراهيم(ع)

ليست له لشخصه، بل نواليه لأنه مُوَالٍ لله تعالى، وَالْأَسَاسُ الأساس: أَنَّ الله تعالى ولي المؤمنين، المرجع الذي يطيعه المؤمنون.

(وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ{69})
{وَدَّتْ}، رغبت بحصول شيء على خاطرها، {طَّآئِفَةٌ}، الطائفة تشير لجماعة وجماعة وجماعة... فهي مجموعة من جماعة لها وصف مشترك، وَكُلُّهُمْ لا يزال لهم عنوان أساسي يجمعهم، وَكَمِثَالٍ ما ورد في الآية 87 من سورة الأعراف "وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا..." وَكُلُّهُمْ من مدين من قوم النبي شعيب(ع) ومجموعة "طائفة" آمنت وطائفة كفرت. مَجْمُوعَةٌ، {مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}، من الذين لهم كتاب نزل منه سبحانه وهم يعلنون أنهم منتسبون له، وهنا تقصد بشكل خاص: المسيحيين. جَمَاعَةٌ من المسيحيين يودّون، {لَوْ يُضِلُّونَكُمْ}، لو يجعلوكم على الطريق غير الصحيح والذي لا يوصل للغاية الصحيحة، وَلَدَيْهِمْ رغبة بأن تتركوا الْإِسْلَامَ له تعالى.

لَكِنْ في الحقيقة إِنَّ هؤلاء، {وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ}، فَهُمْ رَأَوْا الطريق الصحيح، ولا يريدون المشي عليه، وَبَيْنَمَا هم يستهدفون المسلمين لإخراجهم عن الطريق الصحيح، فإنما بالحقيقة هم يقومون بإخراج أنفسهم عن الطريق الصحيح.

انتبه، وَقَدْ يَنْجَحُونَ في إضلال بعض المسلمين، ولكنه تعالى يخبرهم أَنَّهُمْ بعملهم الإضلالي هذا، هم يقومون بالابتعاد أكثر فأكثر عن الطريق الصحيح.

{وَمَا يَشْعُرُونَ}، وَلَا يتفاعلون مع شيء يحصل معهم، اَلضَّلَالُ الَّذِي ينوونه لغيرهم، إنما في الحقيقة يحصل معهم أولا، وهم لا يتفاعلون معه على هذا الأساس وكأنه لا يحصل معهم. يعني من النظرة الإلهية ومن نظرتي الشخصية عليّ أنا أن أهتم بكوني على الهدى، وأمّا الرغبة في صيران غيري على الضلال، فهو ضلال لي، وَهَذِهِ رغبة لا تتماشى مع كوني على الهدى، وَهَذَا عمل شيطاني.

طبعا هذا من النظرة الإلهية لاعتباره تعالى الْمُؤْمِنِينَ بالنبي محمّد(ع) على الهدى، وبعدما بيّنت الآيات هنا للآخرين أنهم "الآخرين" ليسوا على الهدى إن لم يكونوا على ما كان عليه النبي إبراهيم(ع)، فَلَمْ يَبْقَ شيء لم تشرحه الآيات عن فساد إِسْلَامِهِمْ بسبب اتخاذهم أَرْبَابًا وَآلِهَةً غيره تعالى، وفوق ذلك يودّون لو الآخرين يتركون الْإِسْلَامَ له تعالى!

بِالنِّسْبَةِ لكلمة {طَآئِفَةٌ}، فهي هنا لا تشير للكاثوليك أو البروتستانت أو... بل لمجموعة أشخاص من نفس المذهب أو من مذاهب مختلفة ولكن يجمعهم نفس العقلية حين يتواجهون مع مسألة إيمانكم، وَلَدَيْهِمْ رغبة في أن تكونوا أي شيء آخر غير الهدى، وَهُمْ لا يتحملون أن يكون غيرهم معه حقّ، لأنهم يريدون البقاء على دينهم "الفاسد المحرّف" الذي يعجبهم، تَحَرَّفَ دينهم بمجهود مشترك ليصير على المزاج العام للجماهير.

اَلْآيَةُ هنا تتحدّث عن عقلية مشجعي كرة القدم، الذين يصير فريقهم في الدرجة الثانية، وبإدارة فاسدة ولاعبين مستهترين غير أكفّاء... وَيَبْقَوْنَ يُشَجِّعُونَهُمْ! وهي نفسها عقلية مشجعي الزعماء، وَيَنْتَخِبُونَهُمْ مع أنهم أثبتوا بجدارة فسادهم وسوء إدارتهم للأمور! والكلام هنا عمّن سيبقى على دينه ولن يتغير مهما بيّنت له سوء عقيدة وتشريعات دينه، ويرغب لو أنك ضال مثله أو أكثر منه حتى لا تتمكن من التعليق على دينه!

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ{70})
{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ}، يا أيها الناس الذين ينتسبون لكتاب إلهي، وهنا تتحدث الآية مع المسيحيين بالخصوص: {لِمَ تَكْفُرُونَ}، لِمَ لا تؤمنون وَلِمَ لا تعتقدون، {بِآيَاتِ اللَّهِ}، بالأمور المميزة المنسوبة له تعالى، {وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ}، ومن الآية التالية تعلم أن آيتنا هنا تقصد أنهم يشهدون فيقرّون بأن ما هو أمامهم "هذا القرآن" أَنَّهُ آية ربانية صحيحة واضحة، فكلامه العقلاني عن أساس الدين الإلهي لا يمكن الشكّ في مصدره أَنَّهُ ليس منه سبحانه... وتصحيحه وتقويمه لعقائدهم يبدو منه واضحا أَنَّ مصدر الكلام إلهي... مع العلم أَنَّهُمْ لم يعلنوا ذلك ولكن القرآن يخاطب ضمائرهم التي تشهد بِأَنَّ القرآن آية إلهية، فلماذا تكفرون بها؟ فما السبب العقلاني حتى تنكروه؟!

الجواب معلوم فهو عنادهم وصعوبة تخلّيهم عن ثقافتهم الخاصّة بهم.

ضع في بالك دائما أَنَّ كلمة "آية، آيات" لا تقصد دائما ما يسميه الناس "بالمعاجز" التي يقوم بها الأنبياء، ولا تضع في بالك أَنَّهَا حصرا لجمل القرآن، لا، بل كل شيء مميّز يكون وصفه: آية. كآية في الجمال، آية في الفهم، آية في الروعة... آية إلهية... وهكذا تفهم من سياق جمل القرآن الميزة أو الشيء المميّز الَّذِي يشير إِلَيْهِ عندما استعمل كلمة آية، فهنا الْإِشَارَةُ بالآيات إلى هذا القرآن المميّز بكونه كلاما إلهيا حيث صحّح العقيدة المسيحية وردّ على حججهم بكل وضوح. علما أَنَّ جعلها عمومية لتشير إلى كل الآيات، من مخلوقات وظواهر، والتي تدل على توحيده تعالى، أيضا ممكن هنا في الآية، على أساس أَنَّهَا آيات مؤكدة لأصل التوحيد والصفات الإلهية، ومن بعدها نضم كلمات القرآن على أَنَّهَا آيات كلامية موضحة لدينه تعالى.

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ{71})
{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ}، يا أيها الناس المنتسبون لكتاب إلهي:

{لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ}، فتجعلون الحق الصحيح ممتزجا غير مميز عن السيّء الفاسد، فلا يظهر الحقّ؟ وَيَكُونُ الحقّ واضحا أمامكم ولكنكم تقولون عنه إِنَّهُ باطل فلا يعد الحقّ واضحا بسبب تشويشكم عليه، وَتَخْتَرِعُونَ إشكالات وتشويهات على الأشياء الصحيحة حتى تلتبس فتختفي صحّتها وتظهر وكأنها باطلة فاسدة غير صحيحة!

مَثَلًا: الحق أَنَّ الإله واحد، وبهذا آمن كل الأنبياء والرسل الذين تعترفون بهم، من عهد آدم(ع) وصولا إلى النبي عيسى(ع)، وَعَشَرَاتٌ أو "مئات أو آلاف" من الأنبياء الْإِلَهِيِّينَ كان إيمانهم التوحيد، وكانوا حربا وعداوة للشرك والكفر، لِمَاذَا تشوّهون هذه الحقيقة الواضحة، وتخترعون ألوهية للنبي عيسى(ع)! وتخترعون طقوسا دينية وتلغون تشريعاتَ... وَلِمَ {تَكْتُمُونَ}، تخفون ولا تقولون، {الْحَقَّ}، الصواب، فلا تظهرونه، {وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}! عَنْ علم وَعَنْ قصد تقومون بإخفاء الأشياء الصحيحة! وبتعبيرنا الدارج: أنتم لا تجهلون الحق بل تعرفونه جيدا ورغم ذلك تجعلونه يلتبس وَيَتَشَوَّشُ! فما معنى هذا التصرف!

قيل في بعض كتب التفاسير إِنَّ الآية هنا تقصد إنكارهم لنبوّة النبي محمّد(ع) المكتوبة عندهم في كتبهم، ولكن لا يمكن ولا بأي شكل فهم هذا المعنى من الآيات لوحدها، لِأَنَّ سياقها لا يشير إلى ذلك بالخصوص، وكلّ السورة لم تشر إلى شيء من هذا، وَإِنْكَارُهُمْ لنبوته ليس بالضرورة التعليق عليه بناء على إنكارهم أو تحريفهم للكلام عن البشارة به في كتبهم، هَا هو أمامهم بشحمه ولحمه، وَتَارِيخُهُ وتصرفاته وكلامه، أكبر دليل على كونه نَبِيًّا على نفس خَطِّ الدِّينِ الإلهي.

(وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{72})
{وَقَالَت طَّائِفَةٌ}، قالت مجموعة تختلف عن مجموعات أخرى وكل المجموعات تَنْتَمِي لمجموعة أكبر، {مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}، من المنتسبين لكتاب إلهي: {آمِنُوا}، أعلنوا اعتقادكم، {بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا}، الْقُرْآنُ نزل وأعلن بعض الناس الاعتقاد به، أَعْلِنُوا إيمانكم بالقرآن وَتَمَاشَوْا مع المؤمنين، أَعْلِنُوا أمامهم أنكم مقتنعون بقرآنهم بدينهم، {وَجْهَ النَّهَارِ}، حين تواجهون أول فترة الضوء من اليوم، أول الصباح، فهكذا سيظنونكم غير متعلقين بالمسيحية، بل تبحثون عن الحق. وبعد ذلك، {وَاكْفُرُوا}، أَنْكِرُوا اعتقادكم، {آخِرَهُ}، فِي آخر النهار قولوا لهم إِنَّنَا لم نقتنع بالقرآن بأنه إلهي، {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، عندها من المفروض ومن المتوقّع أن يرجع المؤمنون بالقرآن عن إيمانهم به، من المفروض أننا بهذه الطريقة سنجعل المسلمين يتركون دينهم.

عِنْدَمَا ترى شخصا آمن كما تؤمن ولكنه بعد ذلك تراجع عن إيمانه، سيصير عندك شكّ في صحّة إيمانك، وستتساءل عن السبب الذي دفعه لترك الإيمان بهذا القرآن؟ لأنه لو اقتنع به لبقي مؤمنا، إذن لا بدّ أن خللا ما موجود في إيماني ولم ألحظه ورآه هو حتى لم يستمر على تديّنه... وهكذا تصير الإشكالات التي تطرحها تلك الطائفة على القرآن، تصير أكثر إقناعا أو على الأقل تسبّب التشويش على من آمن ولم يكن إيمانه صافيا، فهذا ممكن أن يتراجع عن إيمانه إذا قاموا بهذه المسرحية عليه.

(وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ{73})

نُكْمِلُ مع مكيدة أهل الكتاب الذين كانوا يتفقون مع بعضهم: {وَلَا تُؤْمِنُوا}، ففي داخلكم لا تعتقدوا، {إِلَّا لِمَن تَبِعَ}، لمن كان على، {دِينَكُمْ}، ما تدينون به كتبعات عليكم لإلهكم سبحانه، فَقَطْ لمن كان مسيحيا "أو يهوديا" فهذا فقط آمنوا بما يقوله حقا، أمّا إعلانكم لإيمانكم بالقرآن فليكن مجرد تمثيلية. وتكملة الجملة ... {أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ} سبحانه.

هنا يقطع تعالى نقل كلامهم ليمرر لهم ردّا على القسم الأول من كلامهم، {قُلْ}:

{إِنَّ الْهُدَى}، إن الكون على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {هُدَى اللَّهِ}، فالأشياء التي يقولها تعالى هي فقط التي توصل للغاية الصحيحة، فأنتم أمام كلام إلهي اسمه القرآن، وهو الهدى الحقيقي الوحيد، فما معنى تمثيليتكم هذه؟ {أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ}، فيصير عند غيركم كتاب منه تعالى للهداية وهو هذا القرآن وهو مثل كتابكم ولأجل هداية الجميع فما معنى ترككم لكتاب الهداية والقيام بتمثيلية؟ أضف إلى ذلك أنه قديما حاول الكثيرون إضلالكم عن الهدى الذي آتاكم من ربكم سبحانه وَقَالُوا عن الهدى الذي معكم إِنَّهُ ضلال، وها أنتم هؤلاء تحاولون إضلال من هداه الله تعالى!

نعود لكلام المسيحيين "واليهود" حيث يقولون لبعضهم البعض أَلَّا يؤمنوا إلا لمن تبع دينهم... أو يحاجوكم عند ربكم سبحانه، إِذًا فعلا آمنتم لأحد ما ولم يكن من دينكم فعندها سيكون لهم حجّة، سَيَكُونُ لهم شيء كبرهان عليكم يؤكّد أمام المسؤول عنكم من مستوى إلهي أن ما يقولونه صحيح، فأي مسيحي يصير مسلما فإنه سيسبب لنا مشكلة أمام ربنا سبحانه، وَسَيَصِيرُ موقفنا محرجا، وسيصير علينا حجّة، فسبحانه سيقول لنا: لقد اقتنع هذا المسيحي بالإسلام، مما يعني أن الإسلام كان واضحا له أنه الحق، فلماذا لم تؤمنوا أنتم؟

تُلَاحِظُ الآيات هنا مماثلة لأجواء الآيات التي وردت في سورة البقرة بكلامه مع وعن اليهود، وترى ذلك كمثال في الآية 76 "وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ".

{قُلْ}، لهم عبر هذا القرآن: {إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ}، فالأمور الجيدة التي يحصل عليها الناس هي منه تعالى ومن دون أن تكون فرضا واجبا عليه سبحانه، وهنا الكلام عن صيران الشخص مؤمنا مهتديا وَوَصَلَهُ كتاب إلهي، فهذا بيده تعالى، فقراره عنده تعالى، {يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة وبحكمته يقرّر من سيحصل على فضله سبحانه، من سيأتيه كتاب ومن سيصير مؤمنا، فليس بقدراتكم الذاتية ولا بما تحددونه أنتم ينزل منه تعالى كتاب ويصير هذا الشخص أو ذاك مؤمنا، بل بقرار منه تعالى وسماحه يحصل هذا.

عَمَلِيًّا أنتم تهربون من الحصول على الفضل الإلهي عليكم، لِأَنَّ صَيْرُورَتَكُمْ مؤمنين "لو حصل" سَيَكُونُ فضلا إلهيا عليكم، وَخُزَعْبَلَاتُكُمْ وخططكم وحركاتكم هذه للهروب من الإيمان بالحقّ هي هروب من الحصول على الفضل الإلهي!

{وَاللَّهُ وَاسِعٌ}، غير محدود في فضله وإحسانه على عباده، فأنتم لا يمكنكم الوقوف في طريق الهداية الإلهية.

{وَاللَّهُ}، {عَلِيمٌ}، يعلم بكل تفاصيل كل شيء، وَيَعْلَمُ بخططكم ومكيدتكم، وَلَنْ تنجح مخططاتكم لطالما سبحانه يعلم بكل شيء.

قد ينجح من يحاول إضلال المسلمين بإضلال واحد أو مَجْمُوعَةٍ كبيرة منهم، ولكننا نعرف من القرآن، أنهم ينجحون في إضلال الذي لم يؤمن أصلا، وَيَكُونُ من الأساس في قلبه مرض وَمُتَعَلِّقًا بالدنيا... فهذا أصلا لم يكن مهتديا.

انْتَبِهْ لهذا الكلام جيدا، لِأَنَّ القرآن يؤكد أن من اهتدى للحق، هو من الأساس يحب الهداية ويبحث عنها، وَهَذَا لا يمكن لكل الشياطين من الجنّ والإنس إضلاله، وإنما من كان شكّاكا، أو ميّالا لحب الدنيا والتعلّق بالشهوات والغرائز السيئة، هَذَا وكما ترى ليس مؤمنا حقيقيا، وَهُوَ من الأساس لم يهتد تماما، وبامتحان بسيط سيظهر على حقيقته، وَقِيَامُ بعض أهل الكتاب بتمثيلية الإيمان بالقرآن صباحا والكفر بالقرآن مساء أمام شخص لم يدخل الإيمان في قلبه، هَذَا قد يتأثّر، وهذا ليس مؤمنا حقيقيا أصلا.

نَعْلَمُ من القرآن أن هذه النوعية من الناس أصلا يمتحنها سبحانه حتى يظهر من قلبها الكفر الحقيقي... سَوَاءٌ مثّلتم عليهم أم تركتموهم هُنَاكَ حتما بلاء آخر لهذه النوعية من الناس، وهو بلاء لا يتركهم مستترين بالإيمان، وهذا شيء ستقرؤه في الآية 179 من هذه السورة "مَا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ...".

بقي شيء، انْتَبِهْ جيدا لطريقة القرآن في تناول الموضوع من نظرة إلهية، فلو أنا أو أنت أو "محمّد(ع)" كنّا سنجيب على هذه التمثيلية المكيدة، لما استطعنا رؤيتها من النظرة الْإِلَهِيَّةِ، لِأَنَّ جملة "الهدى هدى الله... والفضل بيد الله..." تبيّن لك الاختلاف الكبير بين كلامنا نحن وبين الكلام الإلهي النابع بوضوح من نظرة إلهية مختلفة تماما عن قدرتنا نحن للنظر إليها.

بِالنِّسْبَةِ للمسرحية الهزلية فصولها لا تزال مستمرة، يَنْشُرُونَ على مواقع التواصل وعلى الشبكة "مواقع الانترنت" وفي الكتب، أن بعضهم أسلم، وَأَعْجَبَهُ شيء ما في الْإِسْلَامِ، ولكن بعد مدة خاب ظنّه، وَتَرَكَ الْإِسْلَامَ وعاد إلى "النور الإيماني" المسيحي أو اليهودي.

(يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{74})
{يَخْتَصُّ}، يحدّد بالخصوص، {بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة ويقرّر سبحانه لمن ستكون العناية التي فيها المصلحة، وَلَسْتُمْ أنتم الذين تحددون، بعبارة أخرى، إذا حدّد سبحانه شخصا أو أشخاصا حتى ينالوا الرحمة بهدايتهم إلى الطريق الصحيح، فلا يمكن لأي أحد منعهم من الحصول على هذه الرحمة الإلهية.

طَبْعًا، لن يختار سبحانه شخصا مجرما أسود القلب والعمل ليختصّه برحمة الهداية، بل كما هو واضح من القرآن يهتم سبحانه بالأشخاص الذين قلبهم سليم، فكرهم ونفسيتهم سليمة، الذين فعلا يريدون أن يهتدوا، فهؤلاء هم النوعية التي شاء تعالى أن يختصّهم برحمته.

{وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}، منسوب له صفة الفضل، صفة تقديم أشياء جيّدة للآخرين من دون أن تكون فرضا واجبا عليه سبحانه، وتقديماته سبحانه توصف بأنها عظيمة بأنها من أعلى المواصفات.

كَيْفَ تتصورون أنكم بتمثيلياتكم وحركاتكم الرخيصة ستجعلون الهداية الربانية تفشل!

(وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ{75})
{وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}، من الناس المنتسبين لكتاب إِلَهِيٍّ، وهنا سياق حديث السورة كان بالخصوص عن المسيحيين، ولكن عمومية الوصف بأهل الكتاب تشمل المسيحيين "محور الحديث" وتشمل الآخرين كاليهود والصابئة... هُنَاكَ أشخاص منهم: {إِن تَأْمَنْهُ}، تَضَعْ عنده أمانة بشكل مباشر، تَضَعْ عنده أموالك أو شَيْئًا له قيمة ليبقى عنده ويردّه لك فيما بعد، أو تتاجر معه فَيَأْخُذَ البضاعة بالأمانة... أي على أساس أن يدفع ثمنها فيما بعد... ولنفترض أن مقدار الأمانة كان، {قِنطَارًا}، وهذا وصف للكمية الكبيرة والتي في حين نزول هذا القرآن كانوا يعتبرونها قرابة أربعة آلاف دينار من العملة الذهبية، فإنّ منهم من، {يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ}، يُعِيدُ تسليمك إياه عندما تطلبه منه، وَلَا يخون الأمانة.
{وَمِنْهُم}، من أهل الكتاب أشخاص، {مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ}، بقطعة نقدية واحدة من الذهب ليردّها لك فيما بعد فإنه، {لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ}، وَلَا يعطيك إِيَّاهُ عندما تطلبه منه، {إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا}، إلا إذا بقيت واقفا فوق رأسه تطالبه فلم تهمله ولم تتركه، وَلَا يمكنك تركه لأنه سيتهرّب من الدفع حاليا، وفي المستقبل لن يدفع لك، وَلْنَفرِضْ أنك بعت شيئا بقيمة دينار لشخص مسيحي أو يهودي، وَأَخَذَهُ بالأمانة، على أساس أن يدفع ثمنه فيما بعد، بَعْضُهُمْ لن يدفعه إلا إذا تابعته وَلَاحَقْتَهُ وبقيت تطالبه. هُنَاكَ منهم من يردّ الأمانة حتى لو كانت ثروة ضخمة، وبعضهم يخون حتى لو كان المبلغ صغيرا.
{ذَلِكَ}، الفعل الخياني ولو لمبلغ صغير، {بِأَنَّهُمْ قَالُوا}، بسبب قول البعض من المسيحيين أو اليهود: {لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ}، نَحْنُ أهل كتاب إلهي، وغيرنا أميّون وَهُمْ منسوبون للحالة التي ولدتهم فيها أُمَّهَاتُهُمْ حين كانوا جهلة، وهنا المقصود أن الآخرين ليس لديهم كتاب إلهي، فليس علينا منه تعالى أي سبيل أي مسلك لنتحاسب إذا خنّا الأمانة مع الأميين، وَلَا إثم علينا بذلك لأنهم ليسوا من أهل كتاب إلهي وسبحانه لا يطالبنا إن خنّا الأمانة مع غير المنتمين لدينه.

{وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ}، هَذَا شيء لم يسمح به تعالى ولم يقله لهم عبر رسله وأنبيائه وكتبه، وَلَمْ يقل سبحانه أنه لن يحاسبهم إن خانوا الأمانة مع من يتعاملون معهم من بقية الناس، {وَهُمْ يَعْلَمُونَ}، يَعْلَمُونَ أنه سبحانه لم يقل لهم ذلك، وَقَدِ اخترعوه من رأسهم كتبرير لخيانتهم.
لِلْأَسَفِ نسمع من بعض المسلمين كلاما مشابها حيث يجيزون خيانة أمانة من لم يكن مسلما! وهذا الكلام عن الأمانة يشير ضمنا إلى كل سوء من هذا النوع كالسرقة والنصب والاحتيال... وللأسف بَعْضُ "علماء" المسلمين أجاز سرقة ونصب أموال الآخرين من غير المسلمين! علما أن الأجيال الأولى من المسلمين وبسبب أمانتهم في معاملاتهم المالية جَعَلُوا الكثيرين من الشعوب التي تعاملوا معها يؤمنون، وهذا شيء مشهور جدا في التاريخ، اَلْأَجْيَالُ الأولى من المسلمين الذين تنقّلوا في البلدان قاموا بتعريف الآخرين بدين الْإِسْلَامِ ولكن سلوك الأمانة التي فرضها عليهم الْإِسْلَامُ جَعَلَتِ الْعَدِيدِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْإِسْلَامِ فقط وفقط بسبب أمانة المسلمين، وإذا بالبعض منّا يشرّع خيانة المسلم لغير المسلم! بل يشرّع سرقته والاحتيال والنصب عليه! وهذا شيء كان موصوفا به بعض جماعات اليهود عبر التاريخ، وهذا من الأسباب التي من أجلها كانوا مكروهين في العالم الغربي، وصار لدى الناس هناك مصطلحات سيئة عنهم، يَقُولُونَ: حريق يهودي، للبيت الذي أحرقه صَاحِبُهُ مدعيا أنه حادث حتى يحصل على مال من شركة التأمين. ويقولون تفليسة يهودية، لمن أخذ قرضا من البنك وَادَّعَى أنه أفلس ولا يستطيع رد القرض... ويقولون: معاملة يهودية، لمن حاسبك بدقة بما له، وتراخى فيما لك عنده وَرَاوَغَ حتى لا تأخذ حَقَّكَ. بعضنا للأسف يَفْرَحُ من هكذا صيت سيّء لليهود، وينسون أنهم محسوبون على المنتمين لدينه تعالى، وهكذا تفهم بعض كلام القرآن مع اليهود والمسيحيين وعنهم، سُبْحَانَهُ يطالبهم بانتمائهم لدينه وأنهم شوّهوه وحرّفوه وفعلوا السوء باسم دينه...
لِلْأَسَفِ أيضا، لَصِقَتْ بنا نحن الْمُسْلِمِينَ صِفَةُ الإرهاب بقتل الأبرياء، وهذا حصل فعلا، وإذا بقينا على هذه الحالة من فتاوى الإجرام والفساد، أَتَوَقَّعُ أن تلتغي الأوصاف السيئة المنتشرة بين الناس عن اليهود وتنتشر بدلا منها مصطلحات جديدة، كالإجرام الإسلامي، والاحتيال الإسلامي...

(بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ{76})
{بَلَى}، نفي لقولهم إِنَّهُ ليس عليهم في الأميين سبيل، بالتأكيد هناك سبيل للأميين عليهم، لأن الخيانة غير مسموحة، ومأثوم من يخون الأمانة، فبماذا يأمر الله تعالى؟

{مَنْ أَوْفَى}، الذي أنجز بالتمام ولم يخن، {بِعَهْدِهِ}، بما ألزم به نفسه، التزم بعقد عمل أو تجارة أو وعد... {وَاتَّقَى}، وتجنّب وتحاشى، وسياق الكلام عن تجنّب الخيانة، {فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}، يحبّ الذين يتجنبون الأعمال السيئة وبالتالي يتجنبون غضبه وعقابه سبحانه.

كما تلاحظ، خيانة الأمانة والعهد والميثاق والاتفاق... عليها عقاب مهما كان الذي فعلها، ومع أيٍّ كان، حتى لو كنت مسلماً، وتعاملت مع أي إنسان آخر غير مسلم، وصار بينك وبينه عهد وأمانة، فلا يحق لك أن تخونه، وسوف تتحاسب على الخيانة.

هنا نموذج عن سوءٍ فَعَلَهُ أهل الكتاب مخالفين كلامه تعالى، حيث نبههم القرآن منه، وترى الكثيرين منّا يفعلونه هو نفسه، ومستعملين نفس التبرير، ومع ملح وبهارات، فكل من ليس مسلماً يعتبرونه من المعادين المحاربين! وبعضهم يعتبر كل من ليس على مذهبه مهدوراً ماله ودمه وعرضه! وهذا نموذج بارز عن الفرق بين دينه تعالى وبين دين رجال الدين، وعلماء الدين...

كما ترى، الآيات ذكرت الأمانة، وهذا لا يعني حصر الكلام فقط عنها، لأن الأمانة مجرد نموذج عام عن عموم ما له علاقة أو يشبهه، وهي الحدّ الأدنى من المعاملات بين الناس، لأن الطرفين تعهّدا لبعضهما، وطبعاً الأسوأ منه هو النصب والاحتيال والسرقة والغشّ...

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{77})
{إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ}، الذين يبيعون ما ألزموا به أنفسهم، وأكّدوا التزامهم به بسبب انتمائهم لدينه تعالى الذي يؤكد على الوفاء بالعهد، ويشترون بـ {أَيْمَانِهِمْ}، بقسم اليمين، بالشيء القوي الذي أعلنوه، حيث أعلنوا عن قوّة أمانتهم بالتأكيد بالله تعالى ومستندين للانتماء لدينه، ولذلك اقتنع الآخر بالتعامل معهم وأمّنهم، فيبيعون عهد الله تعالى ويبيعون

يمينهم ويأخذون بدله {ثَمَنًا قَلِيلًا}، لا قيمة له أمام الثواب الذي كانوا سيحصلون عليه في الآخرة لو التزموا بالعهد أو اليمين، ومن ناحية ثانية، الربح الدنيوي الذي حصلوا عليه من الخيانة قليلٌ جداً أمام العقاب الذي سيصيبهم في الآخرة.

عندما تتعامل مع شخص آخر بالتجارة أو الإجارة أو القرض أو... صار بينك وبينه عهد اتفاق على أن تعطيه حقه، ويعطيك حقك، وبما أنك من أهل الكتاب "مسلمٌ أو مسيحيٌّ أو يهوديٌّ..."، فهو يتعامل معك على أساس أن دينك يأمرك بالالتزام بالأمانة والعهد، وهذا هو عهد الله، وحين تعاملت معه أكّدت التزامك باليمين بالله... عندها كيف يحق لك أن تخون عهداً اتفاقاً وعداً يميناً... مبنياً على كونك مؤمناً بدين يأمرك بالالتزام بالأمانة، وأعلنت أنك مؤكّدٌ لذلك ولن تخون!

الآية عامة شاملة، حيث أي إنسان مهما كان دينه وعقيدته، لا يحق لك أن تحلف له كذباً، ولا يحق لك أن تخونه.

{أُولَئِكَ}، الخونة للعهد واليمين، {لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ}، في الآخرة هناك أمور جيدة سيتم توزيعها، ومهما كان نوع التقسيم، بحصص متساوية أو بحسب كل واحد وما يستحقّه أو شيء من رحمته تعالى... فهم لن يحصلوا على أيِّ شيء.

{وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ}، من قبل في الدنيا كانوا يقولون شيئاً ويفعلون شيئاً آخر، فكلامهم كان بلا قيمة لأنه بلا مصداقية، ولذلك لن يكلّمهم سبحانه، لأنهم أناس مستواهم أقل من المستوى المقبول للذي يستحقّ أن تعطيه من اهتمامك لتتكلّم معه، ومن ناحية ثانية، بِاسْمِهِ تعالى خانوا العهد والأمانة، حيث لم يعتبروا له قيمة سبحانه، وجعلوا العهد به واليمين به بلا قيمة أمام الآخرين...

{وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ}، ولا يوجّه سبحانه اهتمامه العام بهم، ويُهملهم مثلما أهملوا قيمته التي استند إليها العهد والأمانة مع الناس، وعملياً لن يهتم سبحانه بمعاناتهم ولن يرحمهم ولن يرأف بهم.

{وَلَا يُزَكِّيهِمْ}، ولا يعتبرهم لائقين، ولا يساعدهم ليكونوا لائقين بوصف الإيمان، كما نقول: زكّاني فحصلت على الوظيفة. ونقصد أنه بيّن لياقتي بالوظيفة. في يوم القيامة من يزكّيه تعالى عملياً يصير وصفه لائقاً ليكون من زمرة المؤمنين، وهؤلاء الخونة لن يعتبرهم تعالى لائقين بوصفهم مؤمنين أهل كتاب منتمين لدينه تعالى... هؤلاء حتى لو كانوا من المصلين المزكّين الصائمين... فإنهم بسبب خيانتهم لن ينالوا التزكية الإلهية، ولن يكونوا لائقين بالمكانة المحترمة عنده تعالى.

{وَلَهُمْ}، في الآخرة، {عَذَابٌ أَلِيمٌ}، ضرر لا يمكن تحمُّلُهُ ولا الاعتياد عليه.

(وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ{78})

{وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا}، فمِنْ أهل الكتاب قسم يفترقون عن الآخرين ويقومون بعمل مشترك بينهم لا يقوم الآخرون به، {يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ}، حيث لم يتركوا لسانهم بلا ميلان حين قرأوا الكتاب، ولم يلتزموا بما في الكتاب الإلهي ولم يقرأوه كما هو، بل لووه وحرّفوه بألسنتهم، {لِتَحْسَبُوهُ}، حتى يخطر في بالكم من دون دليل وفقط اعتماداً على ما يقولونه، أنَّ ما يقرأونه هو {مِنَ الْكِتَابِ} الإلهي الذي نزل على النبي عيسى(ع)، لأنَّ تركيب جُمَلِهِ وصياغتها على طريقة صياغة كلامه تعالى، {وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ}، حيث إنَّ ما يلوون به ألسنتهم ليس من الكتاب الأصلي الذي نزل على النبي عيسى(ع)، بل هو كلام من تأليفهم ومشابه في طريقة كلامه للنص الأصلي للكتاب الإلهي.

{وَيَقُولُونَ هُوَ}، هذا الذي نقرأه، {مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}، لأنَّ الكتاب الذي معنا مثل القرآن، وكلّه صحيح، فلماذا سنترك ما يقوله كتابنا؟

{وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}، لأنَّ مضمون ما يقولونه وستذكر الآية التالية نموذجاً بارزاً منه، إذْ مِنَ المستحيل أن يكون من كلامه تعالى، إذْ مستحيل أن يقول تعالى إنَّهُ له ولد، ومن المستحيل أن يقول عن النبي عيسى(ع) وعن السيدة مريم(ع) إنَّ لهما طبيعة إلهيَّةً... ومن المستحيل أن يحلّل تعالى الخمر والربا وخيانة الأمانة...

{وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ}، حيث هناك مقاطع في الإنجيل الذي بين أيدي المسيحيين وهو من تأليف أناس معروفين، مثل أعمال الرسل والرسائل... فضلاً عن أن الأناجيل الأربعة المعتمدة عند أغلبية طوائف المسيحيين "إنجيل متى، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، وإنجيل مرقس" إنما تمّت كتابتها بعد وفاة النبي عيسى(ع) من أشخاص لم يعيشوا أصلاً مع النبي عيسى(ع)، فهي على الأكثر لا تتعدى قيمتها قيمة الروايات "الضعيفة" التي رواها المسلمون عن النبي محمد(ع).

هؤلاء عندما يلوون ألسنتهم بهذه الكلمات والجمل، ويقولون بأنها من عنده تعالى فهم يكذبون عليه تعالى بكلام لم يقله، {وَهُمْ يَعْلَمُونَ}، بأنها ليست من عنده تعالى وإنما هي من تأليف أشخاص معروفين بأنهم ليسوا من الأنبياء، ولم يكتبوه من إملاء النبي عيسى(ع) عليهم.

يخطر في البال أن الآية تقصد بليّهم ألسنتهم بالكتاب، أنهم قرأوه ترتيلاً على اللحن الذي نقرأ فيه القرآن، حيث ذكرت بعض كتب التفاسير هذا المعنى، ولو دقّقت فيه، لرأيت أنه معنى بعيد، هل المقصود أنهم يقرأون ما لديهم من إنجيل ترتيلاً ليظنّ المسلمون أنهم يقرأون القرآن؟ لأنَّ الفرق بين المتنين واضح ولن يغيّر الترتيل أي شيء، وماذا سيكون معنى حسباننا أنه من الكتاب "من القرآن"؟ هل هم يقرأون من الإنجيل؟ أم هل يزيدون كلاماً إضافياً على الإنجيل ويقرأونه ترتيلاً ليظنّ المسلمون أنه قرآن؟ ليكون قصدهم تأليف سور مثل القرآن؟ وكما ترى، هذا المعنى بعيد جداً عن سياق الآيات هنا...

مَنْ فسّر آيتنا هنا عن ليّ اللسان على معنى تقليد "لحن، موسيقى، نغم..." قراءة القرآن، ففي التدقيق ترى أنه لا معنى مناسب له في سياق الآيات هنا، خصوصاً بالنظر للآية التالية التي فيها تكملة الكلام، والتي تبين بوضوح أن ليّ اللسان هو تحريف بإضافة جمل على الكتاب الإلهي وصياغة تلك الجمل بطريقة مشابهة لطريقة الكلام الإلهي...

علماً أنَّنا في عصرنا سمعنا واحداً من المسيحيين المصريين الحاقدَ بعنف على الإسلام والمسلمين، وله منصب ديني مسيحي كنسي، ويكذب ويفتري على الإسلام والمسلمين ولا يخجل... سمعناه يقلّد ترتيل القرآن بقراءة بعض مقاطع من الإنجيل، ولكن هذا لا يعني أي شيء، وليس مستنداً لتفسير الآية بأنه المعنى لليّ اللسان. لأنَّ الترتيل لا يثبت أن القرآن من عنده تعالى، ولا ترتيل أي جمل أخرى من كتاب آخر سيثبت أن القرآن ليس متميّزاً، إذْ أصلاً الترتيل المتعارف عليه في عصرنا إنما هو فنّ تطوّر وتبلور بهذا الشكل من بعد وفاة الرسول(ع)، ولا الرسول(ع) ولا الجيل الأول من المسلمين كانوا يقرأون بالفنيات المتداولة بيننا، ولا تجويدهم كان هكذا ولا ترتيلهم، وللأسف إنَّ الغالبية الساحقة من المسلمين من بعد عشرات السنين من وفاة الرسول(ع) تماشوا مع استحباب التغنّي بالقرآن حتى اعتقدوا أن الرسول(ع) والجيل الأول من المسلمين كانوا يقرأون كما يقرأ المتفننون بغناء القرآن... والقلّة القليلة جداً جداً من علماء المسلمين عبر التاريخ عارضوا قلّة الأدب في غناء القرآن، ولكن مع مرور الوقت تغيّر المزاج العام واعتادت أذننا على غناء القرآن ولم نعد نستغربه ولا نستهجنه... بل ونعتقد أن الرسول(ع) والصحابة كانوا يقرأون هكذا!

كَمُلَخَّصٍ من ذاكرتي لما بقي فيها مما قرأته عن تاريخ الترتيل والتجويد، إلى أقرب عصر لنا في أواخر القرن الثامن عشر ميلاديٍّ، استقر العالم الإسلامي بغالبيته على قراءة علماء دمشق، التي كانت قريبة جداً مما يسمّى حالياً ومتعارف عليه بالترتيل، كالتسجيلات الصوتية للحصري والمنشاوي وعبد الباسط والطبلاوي... والجيل السابق لهؤلاء وبحسب ما اطلعت عليه، بدأت فيه طريقة جديدة في التجويد، وانتقلت منهم إلى هؤلاء القرّاء، وغالبية العلماء استهجنوها ورفضوها، ولكن عوام الناس استحسنوها وانتشرت في مصر وانتقلت للعالم الإسلامي.

قبل هذا في عهد الجيل الثالث والرابع من المسلمين حصل تقريباً نفس الشيء، ونفترض أنه كانت تمرّ فترات نهوض وخمود لطريقة القراءة بالغناء للقرآن، وصولاً إلى عصرنا...

(مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ{79})
ما لووا به ألسنتهم، فالجمل التي ألّفوها لتحسبوها من الكتاب الإلهي تضمّنت شيئاً فظيعاً:

{مَا كَانَ لِبَشَرٍ}، من غير الممكن أن يقوم إنسان مخلوق من البشر، {أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ}، وسترى أن الكلام هنا كنموذج عن النبي عيسى(ع) الذي صارَ معه منه تعالى كتاب الإنجيل فصار رسولاً ناقلاً للكتاب الإلهي، ويؤتيه تعالى {الْحُكْمَ}، وهذه الكلمة في أساسها تشير لعموم ضبط الأمور على ما هو مطلوب على الصواب، وكوصف للرسول فهي رؤيته الأمور بصوابية واتخاذِ قرارات هادفةٍ وأعماله رزينةٌ، ويؤتيه تعالى {النُّبُوَّةَ}، فيصله نبأ منه تعالى عبر نزول الوحي عليه، فشخص بشري مخلوق وبهذه الصفات الثلاث مثل "النموذج" النبي عيسى(ع) الذي هو مخلوق بشري نزل عليه كتاب الإنجيل، وأعطاه تعالى الحكمة، وجعله نبياً فيتلقى الوحي الإلهي، فما كان له أن يقول للناس، فمن غير المعقول أن يقول مثل هكذا شخص للناس، {ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ}:

{كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ}، تصرّفوا على أساس أنكم مفروض منكم طاعتي، بدلاً من حصر العبادة بالله تعالى لوحده.

فهذا غير ممكن، لا ولا بأي طريقة يمكن أن يصدر كلام الشرك هذا عن شخص بهذه المواصفات.

انتبه كيف افتتحت الآية الكلام عندما قالت: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ}... مِنَ البداية، فطالما هو من البشر، فهو حتما مخلوق، وليس إلهاً، ولا بمواصفات إلهية، وفوقها تواصل معه الإله تعالى وأتاه الكتاب فجعله رسولاً وآتاه الحكمة والنبوة، وهذه أمور لا يحصل عليها أي شخص كان، فقط وفقط من كان ذَا قلب سليم ومتميّزاً بصلاحه سيحصل على هذه الأمور، فشخص كهذا بهذه الصفات فهل من الممكن أن يقول للناس أن يكونوا عباداً له! يمكن لشخص آخر بغير هذه الصفات أن يفعلها ويقول للناس أن يعبدوه كما فعل فرعون، أما من بهذه الصفات فمستحيل أن يفعلها.

انتبه، بالنسبة لله تعالى، إنَّ أي عبادة لغيره تعالى، يعتبرها تركاً له سبحانه، أنتَ وأنا يخطر ببالنا أن هؤلاء مرة يعبدون النبي عيسى(ع) ومرة يعبدون الله تعالى، ولكن في نظر الله تعالى، فإنهم في المرة التي يعبدون فيها النبي عيسى(ع) إنهم تركوا عبادة الله تعالى، وعبدوا من دون الله تعالى شيئاً آخر، يعني قاموا ولو في دقيقة واحدة من الزمن بترك عبادة الله تعالى وعبدوا غيره، وهذا يكفي حتى يصيروا موصوفين بالشرك بوحدانية الله تعالى.

لكن، الشخص الذي نزل عليه الكتاب وآتاه ربنا سبحانه الحكمة وهو نبي، فإنما يقول للناس:

{كُونُوا رَبَّانِيِّينَ}، كونوا تابعين منتسبين للمسؤول عنكم من مستوى إلهي، {بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ}، لأنَّ الكتاب الإلهي الذي تعلّمونه للآخرين بعدما أن تعلمتموه أنتم، فالتزموا بما فيه وهو يأمركم أن تكونوا ربانيين ولا يأمركم أن ترببوني أنا، {وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ}، فأنتم أنفسكم حين تدرسون الكتاب وتقرأونه لتفهموه ولتستخرجوا منه تعاليم دينكم، أصلاً سترون الأمر فيه واضحاً أن تكونوا ربانيين لا تربون أحداً غيره تعالى.

لاحظ، الرَّبَّانِيُّ، المنتسب للربّ تعالى، وهي صفة الانتساب لمسؤول ما، والكلام هنا عن العبادة، فيكون الوصف بالرباني انتساباً للمسؤول عنّا من مستوى إلهي لنعبده، وبعبارة أبسط، مِنَ المتوقّع من رسول حكيم نبي أن يلفت انتباه الناس لما تعلّموه ويعلّمونه ويدرسونه في الكتاب الإلهي، والذي صراحة يأمر بتربيب الله تعالى حصراً وفقط.

(وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ{80})
الذي بهذه الصفات، {وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ}، وهم الأشخاص الذين يصلهم نبأ منه تعالى لهداية الناس، {أَرْبَابًا}، فهذا الشخص "الرسول الحكيم النبي" من غير المتوقع منه بل من غير الممكن أن يأمركم بتربيب ملاك أو نبي، فلا يأمركم أن تعتبروا واحدا منهم مسؤولا عنكم من مستوى إلهي.

{أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}؟! هل من المعقول أن يأمركم بالكفر بالإنكار لوحدانية الله تعالى بعد أن صرتم منقادين لله تعالى؟! فالحالة الأخرى هي الكفر أو الشرك، هل من المعقول بعد أن وحّدتموه تعالى، بعدما دعاكم الرسول النبي الحكيم إلى التوحيد، أنْ يقوم الرسول هو نفسه بدعوتكم للشرك أو الكفر بتغيير أربابكم إلى أرباب أخرى؟!

النبي عيسى(ع) أرسله الله تعالى لكل الناس، ولكن المحيط الذي نشر فيه رسالته، كان بغالبيته من اليهود، واليهود بغالبيتهم يعلنون أنهم مسلمون، حيث يعلنون أنهم منقادون بالتوحيد لله تعالى، هل من المعقول أن يدعوهم النبي

عيسى(ع) للكفر بتوحيد الله تعالى! فإذا كان الأساس والجوهر واللبّ في دين الله تعالى: الإسلام له وحده تعالى، الاستسلام والانقياد والتبعية لله تعالى وحده، فهل من المعقول أن يقوم أحد أنبيائه بالدعوة لربوبية لغير الله تعالى!

أساس الدين شيء مركزي ومهم في القرآن، وتلاحظ أنَّ القرآن يركّز على عقيدة النبي إبراهيم(ع) أنها كانت جوهرية أساسية، وأن كل من اعتقد بما اعتقد به النبي إبراهيم(ع) فإن اعتقاده صحيح، أمّا من أضاف أو أنقص شيئاً من تلك العقيدة، فاعتقاده غير صحيح، بعبارة أخرى: لا يوجد مستجدات أو تغييرات على أساس العقيدة. عندما يقوم أي شخص بتغيير تلك العقيدة، فهو يخترع، لو كان النبي عيسى(ع) أو الملاك "الروح القدس(ع)" أو السيدة مريم(ع) أو القديسون... لو كانوا أيضاً آلهة، ولو كان يجب أن يتم تقديسهم وعبادتهم، فهذا شيء فات كل الأنبياء من قبل! هذه عقيدة وعمل عبادي لم يقم به كل الأنبياء السابقون! كيف يكون صحيحاً!

القاعدة الأساسية للعقيدة الصحيحة: كل ما آمن به كل نبي لوحده، يشبه تماماً ما آمن به غيره من الأنبياء، لا زيادة ولا نقصان في عقيدة أي نبي عن أي نبي آخر، وأي زيادة تأتي فهي من اختراع الناس، مهما كان مصدرها، وتلك الزيادة العقائدية لم يؤمن بها الأنبياء السابقون، فهذا يعني أنها زيادة واختراع، وأنها غير صحيحة وعليها عقاب.

بقي شيء، أنا ربّ بيتي، وزوجتي ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... وهذه الكلمة لا تعني أكثر من مسؤول عن شيء ما، وتجد كلمة "ربّ" منتشرة الاستعمال في ديانات الشرك، وكثيرا ما يرتكب الناس الأخطاء في ترجمة النصوص الأثرية، يستعملون كلمة إله بدل كلمة ربّ، ويقولون عن عقيدة المشركين: كان لديهم إله للحرب، وإله للمطر، وإله للخصوبة... علماً أن صراحة الترجمة غالباً تكون: ربّ الحرب، ربّ المطر، ربّة الخمر والكرمة... هذا لا يعني أن قولهم صحيح، ولكنه يعطيك فكرة أوضح عن التراخي في العقيدة وتوهم أمور غير صحيحة، هناك أمور مستواها عادي، والمسؤول عنها ربّ من مستواه، كربّ البيت وربّ العمل... وهناك أمور مستواها إلهي، وربّها حصراً إله، وغالباً تجد في عقائد المشركين توحيدهم بربّ فوق بقية الأرباب، وكما ترى لن تجد ربّاً للثلج ولا للبحر عند مشركين يعيشون في منطقة صحراوية! ولا ربّاً للزراعة في منطقة ثلجية، ولا ربّاً للتجارة والسفر لمشركين لا يتعاطون التجارة أو السفر... وستجد عندهم ربّاً واحداً مسؤولاً عن كل شيء آخر لم يحدّدوا له ربّاً من خيالهم.

أقول لك هذا، لأنه درج بين المسيحيين استبدال هذه الربوبية بالقدسية، هناك قدّيس للسفر، وقديس للمطر وقديس للزراعة... وهذه أمور من مستوى إلهي وتعيين قديس لها يماثل تعيين ربّ لها بلا فرق.

وهنا وهناك تجد القرآن يوصّف من اتبع عالم دين منحرف عن العقيدة والشريعة الإلهية، وانحرافه واضح المخالفة لنصّ إلهي، فهذا يعتبره القرآن تربيباً، وهكذا تفهم بدايات تربيب المسيحيين للنبي عيسى(ع) بوصفه ببعض الشؤون من مستوى إلهي، وتطوّر ذلك وصولاً إلى تربيبه (ع) بالألوهية بشكل صريح علني، ومروراً بتربيب شخصيات دينية بتخصيصهم ببعض الأمور ذات المستوى الإلهي، حيث اخترعوا قدّيسة للتوبة وقدّيس للتجارة وآخر للنجارة و... ولا يزالون إلى الآن يخترعون قدّيسين لعناوين جديدة طرأت علينا، إذِ البحث جار عن قديس للتكنولوجيا والاتصالات!

انتبه، للأسف لسنا بعيدين كثيراً عنهم، لدينا قديسون من الشخصيات الإسلامية المتخصصة أيضاً، ونفس الشيء المسلمون المؤمنون بربوبية لقديسيهم على شفاء المرضى وتيسير الرزق والنجاح في الدراسة وتأمين العريس للعانس... لديهم تبريرات تحيّد هذا التقديس عن الربوبية، ولكن على من يضحكون؟ كلامهم نفسه كلام أهل الكتاب عن قدّيسهم، وكلام كليهما هو نفسه كلام المشركين عن أربابهم! وسبحانه بكل صراحة ووضوح حذّر وأنذر من ذلك وسمّاه شركاً، على من يضحكون وبماذا يبررون!

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ{81}﴾
قبل أن نبسّط معاني هذه الآية علينا استرجاع الموضوع الذي تحدّثت عنه الآيات السابقة، فبعض المسيحيين قالوا إنَّ النبي عيسى(ع) بأنه هو قال لهم أَنْ يجعلوه مع الروح القدس والله تعالى أربابا! وأُموراً غيرها فاسدة أخرى قالوها... حسناً، فهل هذا شيء يفعله النبيّون؟ حيث أَرَتْكَ الآيات السابقة أنهم لن يفعلوا ذلك وهنا تريك الآية أنه حتى النبيّون مكلفون مثلنا بالبقاء على الخطّ الإلهي... حيث تضرب مثالاً عن نموذج نبي ما، والأنبياء عادة من المفروض اتصافهم

بالحكمة، وقبل النبي أو في عصره كان هناك كتاب إلهي، فالنبي مثلنا مثله مأمور بالتقيد بالحرف بما يصل منه تعالى، وبناء عليه فيا أيها المنتمون لدينه تعالى وبالخصوص المسيحيّون محور كلام الفقرة هنا، فعلى أي أساس ترفضون الإيمان بالرسول الناقل لهذا القرآن طالما أنَّ الأنبياء السابقين لو كانوا أحياء الآن فهم بالميثاق الإيماني ملزمون بالإيمان به ونصرته...

هذه من الحالات القليلة التي نعيد فيها صياغة كلمات الآية قبل دراسة كلماتها، لأننا من مخزوننا الثقافي صار لدينا اصطلاحاتٌ متشابكة لكلمة نبي ورسول، ستجعلنا لا نرى معنى الآية بوضوح.

{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ}، أخذ تعالى التأكيد الشديد الذي لا تهاون ولا تراخِيَ فيه من الأشخاص الذين يصلهم النبأ الإلهي لهداية الناس، حيث أخذ منهم تأكيداً شديداً على شيء سيلتزمون به، ومعلوم لك أن الكلام عن التزامهم بدينه تعالى، {لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ}، بسبب أنَّهُ صار معكم منّي كتاب نازل من عندي، سواء نزل قبلكم ووصلكم أو نزل في زمانكم... ولما آتيتكم من {حِكْمَةٍ}، حيث كنتم بفضله تعالى أيها النبيّون ترون الأمور بصوابية، وصار تفكيركم وأقوالكم وتصرفاتكم كلها حكيمة ولها أهداف وغايات سامية راقية ولا عبث فيها، وترون الحق وتميّزونه بوضوح، {ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ}، شخص ينقل لكم رسالتي، والكلام هنا عن عموم أي شخص لديه وظيفة الناقل المباشر لكلامه تعالى في كل المواضيع ذات الصلة، فلا تضع في بالك معنىً اصطلاحيّاً لكلمة رسول على أنها حصراً للذي نزل عليه كتاب، لا بل كلما وردت فاتركها على معناها العام الذي يتخصّص من سياق الكلام، فالكلام هنا عن نموذج كمثل، فلو كان النبيّون جاءهم رسول فهم مأمورون باتباعه، حيث جاءهم شخص ينقل رسالة ما منه تعالى، سواء أكانت كتاباً كاملاً فيه كل أساسيات الشريعة والعقيدة، أو كتاباً مخصّصاً في موضوع ما من العقيدة، أو كان ناقلا لأمره تعالى في موضوع محدّد، كالنبي شعيب(ع) الرسول الناقل كلامه تعالى لقومه في خصوص مسألة الغشّ...

بعبارة أخرى يتحمّل معناها كلام الآية ونفترضه لتقريب الصورة، فلنقل إنَّ نبيَّيْنِ معاصرَيْنِ لبعضهما، والأول جاءته رسالة إلهية تأمره بشيء، فالنبي الآخر يجب عليه أن يتبعه، وإن فيما بعد جاء للنبي الآخر رسالة فعلى النبي الأول أن يتبعه، فالأساس هو اتباع ما يرسله تعالى حتى لو كنت نبيّاً ولم تنزل عليك الرسالة.

حين نقول نموذج فهو ليس في الفراغ فلدينا بعض الأمثلة المعروفة أبرزها تصديق النبي هارون(ع) للنبي موسى(ع)، فكلاهما وصفهما القرآن بالنبوة والرسالة، والنبي موسى(ع) كان حاملاً لرسالة خاصة منه تعالى لفرعون، وسانده هارون(ع)، وبعد ذلك وصل موسى(ع) كتاب التوراة والتزم به هارون(ع)، وهكذا ترى أن الجمود إصراراً بحثاً عن معنىً اصطلاحيّاً لكلمة رسول ونبي، لن يجعلك ترى ما يقوله القرآن لأنه لم يستعمل هذه الكلمات بشكل اصطلاحي أضيق من كون النبي عموم من وصله نبأ منه تعالى عن الهداية، والرسول عموم من أرسله تعالى بشيء، وبالتحليل لتقريب الفكرة نفترض أن النبي شعيب(ع) لم يحتج وحياً إلهيّاً يخبره أن الغش سوء عليه عقاب شديد، ولم يحتج وحياً إلهيّاً ليأمره بالنهي عن منكر الغشّ، فقام بواجبه مضافاً له تأييد بالوحي الإلهي أنك يا شعيب تفعل الصواب وأخبر قومك مباشرة عن إلهمهم عبر الوحي لك أننا نعدهم بعذاب شديد، وهكذا ترى أن شعيباً مرسلٌ بهذه المسألة الخاصة، ولأنه تلقّاها وحياً كنبأ منه تعالى، فصار وصفه لغويّاً نبيّاً.

نكمل مع نموذج أنه لو كان هناك نبي وجاءه رسول فالنبي مأمور باتباع الرسول فيما جاء به من ربّه، {مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ}، فيؤكّد ولا يخالف بل يتماشى مع الدين الذي أنتم عليه من الوحي النازل عليكم ومن الكتاب والحكمة، فأخذ تعالى ميثاقكم أيها النبيّون أنكم {لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ}، فطالما لا يخالف عقيدتكم فاعتقدوا بصحّة رسوليته، وآتوني ميثاقكم أنكم {وَلَتَنْصُرُنَّهُ}، فتعملون على تحقيق ما يريد تحقيقه، فتؤيدونه ولا تضادونه ولا تخالفونه.

قال الله تعالى للأنبياء بعد هذه المقدمة:

{أَأَقْرَرْتُمْ}، هل تقرّون بذلك، هل تثبتون التزامكم بالإيمان به ونصرته، {وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ}، على هذا الإقرار، {إِصْرِي}؟ فكما الميثاق هو وثاقة عبر شدّ وإحكام الاتفاق، فكذلك الإصر هو الصرّ والصرّة ومنه الإصرار، هَلْ تعطونني إصراركم على ذلك؟ ومن ناحيتي هو موضوع لا يتحمّل التهاون وأصرّ عليه، فهل قبلتم تشديدي عليكم أن تلتزموا بذلك؟ بعبارة أبسط، فهل أنتم موافقون على الالتزام بشدّة بهذا الميثاق الذي لن أتساهل فيه؟

{قَالُوا}، فقال الأنبياء: {أَقْرَرْنَا}، نقرّ قولك فنعلن ثباتنا على هذا الميثاق، فنعلن عزمنا على الالتزام به.

كلّ شخص أعلنه الله تعالى نبيّاً، فسبحانه جعله يقرّ بهذا الميثاق، فيجب على كل الأنبياء اتباع الرسول الذي كان قَبْلَهُمْ أو جاء في عَصْرِهِمْ.

نلاحظ من الآية السابعة من سورة الأحزاب "وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا"، أنه تعالى أخذ مواثيقَ من الأنبياء بشكل منفصل عن المواثيق التي أخذها تعالى من الرسل الخمسة الذين ذكرتهم الآية، وهم يشتهرون الآن بوصفهم أولي العزم اشتقاقاً من الوصف القرآني لهم.

الآيات هنا تتحدث عن النبيين وتقصد بشكل غير مباشر عموم الناس وخصوصاً المسيحيّين الذين رفضوا الإيمان بالرسول محمد(ع) ورفضوا نصرته، ورفضوا تأييده، وزعموا أنهم لا يتبعون إلاّ الرسل الذين على دين المسيحية أو اليهودية! على أساس أنهم استوحوا كلامهم هذا من أنبيائهم، فالآية هنا تقول إنَّهُ أصلاً لا يوجد أساس لهذا الكلام، ففَرْضاً كان محلّكم أنبياءَ فهناك ميثاق مأخوذ من الأنبياء بأن يتبّعوا رسل الله تعالى، فبأي حجة تقومون أنتم أيها المسيحيون برفض اتباع الرسول محمد(ع)! وكمثال على تبعية الأنبياء للرسل نذكر: النبي لوط(ع) الذي اتبع الرسول إبراهيم(ع)، والنبي هارون(ع) الذي اتبع الرسول موسى(ع)، وكلّ الأنبياء آمنوا بمن سبقهم من الرسل والتزموا بالشريعة التي تركها الرسل مثل الكثير من أنبياء بني إسرائيل، ونذكر منهم: النبي زكريا(ع) والنبي عمران(ع) اللذين كانا تابعين للشريعة التي تركها الرسول موسى(ع).

قال الله تعالى:

{فَاشْهَدُوا} أيها الأنبياء أني أخذت منكم هذا الميثاق، فهنا في الدنيا أعلنوا عن ذلك، وفي الآخرة عندما ستتواجهون مع الذين نسبوا لكم كلاماً باطلاً، وقالوا عنكم إنَّكم دعوتموهم لرفض التبعية لرسل الله تعالى، فحين سنحاسبهم على ذلك سنحضركم لتشهدوا أنكم أنتم أنفسكم قد تمّ أخذ الميثاق منكم بأن تتبعوا الرسول الإلهي.

{وَأَنَا} "ربكم" {مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ}، فأصادق بنفسي على هذا الميثاق الذي جرى، ففي وقت لاحق في يوم القيامة فسوف أؤكّد ما حصل. فأمام هذا الكلام الإلهي عن الميثاق مع الأنبياء ماذا ستقول أيها المنتسب لكتاب إلهي إذا خالفت رسولاً إلهيّاً!

ننتبه جيّداً لطريقة ربنا سبحانه في التعامل مع الأمور، أولاً لاحظنا أنه سبحانه كان يعلم بوجود أناس سيرفضون اتباع الرسول الإلهي بحجّة أنه لم يكن على دينهم ومن ملّتهم ومن بيئتهم... فالنبي محمد(ع) من قبيلة غالبيتها مشركة، وليس يهوديّاً ولا من بني إسرائيل ولا مسيحيّاً... ولهذا استصعب قسم من المسيحيين الإيمان به. ولذلك أخذ سبحانه ميثاقاً مع كل أنبيائه أن يكونوا أتباعاً للرسول الذي سبقهم أو يعاصرهم مهما كان موقعه الجغرافي أو نسبه وحسبه، فهكذا لا يكون لبقية الناس أي حجّة على ربنا سبحانه، ويجب عليهم اتّباع الرسول محمد(ع)...

فَكِّرْ فيها على طريقة الذين يعترفون بالنبي عيسى(ع) نبيّاً رسولاً صاحبَ كتاب، ولكنهم يعتبرون أنفسهم أتباعاً للنبي يحيى(ع) ولا تجد في تراثهم الديني أي شيء عن النبي عيسى(ع)! على قاعدة هذا النبي لنا، وذاك النبي نبي ولكنه للآخرين وليس لنا، فهكذا يرى تعالى حالة اليهود بإنكارهم للنبي عيسى(ع) ومثله يرى تعالى المسيحيّين بإنكارهم للنبيّ محمّد(ع) وكأنهم لا علاقة لهم به رغم ادّعائهم أنهم منتمون لدينه تعالى!

جعل سبحانه الأنبياء شهوداً على وجوب التبعية للرسل الإلهية، وجعل نفسه سبحانه معهم شاهداً، أساساً هو سبحانه شاهد على كل شيء، وشهادته تعالى أصدق من كل شهادة، ولكنه سبحانه دائما يتعاطى مع الأمور بشفافية، فإذا فعلت سوءاً بالسرّ عن البشر فسبحانه يراك، ولكنه سبحانه خصص لك ملائكة(ع) خاصة بكل واحد منّا لتقوم بتسجيل كل أعمالك، وتحضر تلك الملائكة(ع) في يوم القيامة لتشهد عليك، وفوق ذلك ستشهد أعضاء جسدك عليك... علماً أنَّ الله تعالى أصدق الشاهدين والعالم بكل شيء، فيكفي أن يقول لك سبحانه أنك ستتحاسب على فعلتك كذا وكذا، ولكن لا، فسبحانه يحضر الشهود، وهذا هو التعامل الرائع من مستوى إلهي مع الأمور، وهذا هو السبب لوجود يوم للحساب، فلولا ذلك، لكنّا متنا، وفجأة انتقل هذا إلى التعذيب الخالد في النار من دون إجراءاتِ محاسبة، وانتقل ذاك إلى الجنة الخالدة من دون عملية محاسبة، فوراً وعند لحظة موتنا فسبحانه يحسب لنا سيئاتنا وحسناتنا بشكل دقيق، فهو سبحانه

سريع الحساب، ويمكنه فوراً مجازاتنا بالعقاب أو الثواب، ولكنه سبحانه قرّر أن تجري الأمور على قانون المحاسبة العادلة وبشفافية حيث لا يمكن ولا بأي شكل الاعتراض على طريقة المحكمة والشهود وتقييم الذنب أو تقييم الحسنة... وكل ذلك يحدث بحضور المجرم أو المحسن.

بقي شيء، عن عموم كلام القرآن عن أخذ الميثاق، فأخذ الميثاق منّا له تعالى فهو عرضه تعالى علينا دينه، فلا تتصوّر دائماً حالة الميثاق والعهد كحالة الجلوس على طاولة وتوقيع الاتفاقيات، أو الوقوف أمام أحد ما وإعلان كلام عن ميثاق وعهد، فمعه تعالى ليس هذا ضروريّاً، فبما فينا من قدرة لتمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، فهذا يلزمنا بترك الباطل والشرّ، ومجرد وصول كلامه تعالى لنا فإن كفرنا فنحن خارج العهد والميثاق وإلى نهاية حتمية بالعذاب، وإن آمنا فقد صرنا تحت عهد ميثاقٍ معه تعالى. وهناك حالة مميزة كرّرها القرآن عن رفع جبل فوق بني إسرائيل كعلامة إلهية على إمضاء ميثاق أعلنه بنو إسرائيل حينها بالالتزام بدينه تعالى، وتقرأ ذلك في الآية 154 من سورة النساء "وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ..."، وأمّا بقية حالات الميثاق مع بقية الناس، فترجع إلى الأساس، فترجع إلى ما فينا من قدرة على تمييز الخير من الشرّ، وعرضه تعالى لدينه علينا، وهكذا نصير تحت شيء شديد لا يتحمّل التهاون به، ويصير وصف الحالة ميثاق لمن تعهد باتباع الحقّ. فأنا وأنت تحت ميثاق معه تعالى، فلدينا تعهد شديد له تعالى بالالتزام بدينه.

كما ترى فهذا لا يعني أن من كفر بدينه تعالى فهو لا التزامات عليه لأنه لم يتعهد ولم يواثق، وبالتالي فلا عقاب له، لا، فهذا أساساً حالته سيئة جداً لأنه منكر للحقّ وفاعل للسيئات ورافض للالتزام بكلامه تعالى، وعلى هذا عقاب شديد.

هنا جرى أخذ ميثاق من النبيين بكذا وكذا، أمّا كيفيته وآليته فغير معلومة لي، فربما هو ضمناً مع الإيمان به تعالى والالتزام بعموم ما يصلهم منه سبحانه، وصاغته الآيات بشكل خصوصي لمسألة اتباع الرسل، وربما فعلاً نزل وحي فيه تعابير كصياغة قانونية للكلام، وهذا ما توحي به الآية هنا، ولكن على أي حال فزبدة الموضوع أنه ليس مقبولاً انتساب شخص لدينه تعالى ونزل عليه وحي فصار موصوفاً بالنبوة دينيّاً، أن يفتح دكّاناً دينيّاً على حسابه، بل يبقى على نفس الخطّ، بل حتى لو لم ينزل عليه هو شخصيّاً رسالة ما منه تعالى، وسمعها من شخص آخر وكانت مصدّقة لما معه، فيجب عليه اتباع الرسول.

أكرّر لك ما تقصده الآية: يا أيها المدّعون أنكم على دينه تعالى، كيف جعلتم لأنبيائه تعالى دكاكين دينية لكل واحد منكم دكّانه الخاص وأنبياؤه الخاصّون ورفضتم الإيمان بالرسول محمّد(ع) بينما لو أنبياءُكم عاصروا الرسول محمّد(ع) لآمنوا به ونصروه.

(فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ{82})
{فَمَنْ}، من الناس، {تَوَلَّى}، فذهب باتجاه آخر وترك اتباع الرسول، {بَعْدَ ذَلِكَ}، من بعد أن شهد الله تعالى وَأَنْبِيَاؤُهُ أن اتباع الرسول واجب، {فَأُولَئِكَ} التاركون للرسول الإلهي، {هُمُ الْفَاسِقُونَ}، هم المخالفون لشيء صريح أعلنه تعالى.

الموضوع ليس مزاجيّاً أو متروكاً لهواهم، بل بأمر منه تعالى يجب اتّباع رسله، ومن لم يتبعهم فهو فاسق، فأمامه شيء علنيٌّ منه تعالى وهو يخالفه.

مِنَ الواضح بحسب سياق السورة أن الكلام موجّه بشكل خاص للمسيحيين من أهل الكتاب، الذين يعلمون أنه حتى الأنبياء تتبع الرسل، فما هو السبب الوجيه الذي جعلهم هم لا يتبعون الرسول محمداً(ع)!

(أَفَغَيْرَ دِينِ اللّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ{83})
هؤلاء التاركون للرسول محمّدٍ (ع)، {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ}؟ فهل يريدون، هل يطلبون أن يتّبعوا عقيدةً وشريعةً كَتَبِعَاتٍ عليهم لله تعالى غيرَ ما أمر به تعالى؟ فأيَّ عقيدةٍ وشريعةٍ يريدون أن يكونوا تحت حكمها؟

ما يأمر به تعالى يَصِلُ للناس عبر الرسل، فإن لم يتبعوا الرسولَ محمداً (ع) الناقل للدين الإلهي، فأي شيء يريدون أن يدينوا به؟ وعلى أساسٍ سيسمّون أنفسهم مُنْتَمِينَ لدينه أو لأنبيائه أو لكتابه تعالى؟

ضع في بالك أنَّ الآيات السابقة كانت تتحدث بشكلٍ عامٍّ مع كل أهل الكتاب، ولكن بالخصوص مع المسيحيين، فالسؤال هنا لعموم أهل الكتاب وبالخصوص منهم للمسيحيين.

{وَلَهُ} سبحانه {أَسْلَمَ}، فانقاد وكان تحت التبعية والطاعة، {مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وكلمة {سَمَاءٍ} وصفٌ لعموم ما علا من فضاءٍ ويقابله {أَرْضٌ}، وهنّ سبع سماواتٍ ولكل سماءٍ منها أرضٌ تناسبها، مثلما كوكبنا أرضٌ لسمائنا وسطح القمر أرضٌ لسمائنا... وهكذا بقية السماوات لها ما يناسبها من أرضٍ أو أراضٍ، وهذا التعبير القرآني يشابه قولنا: كلُّ مَنْ في الدنيا.

{أَسْلَمَ}، {طَوْعًا}، بإرادته ورغبته ومن خاطره، {وَكَرْهًا}، فغصباً عنه، هو تحت السيطرة الإلهية.

سواءٌ مَنْ أسلم بإرادته أو غصباً عنه فكلُّهم، {إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}، فسيموتون ويرجعون إليه تعالى في يوم القيامة، ولن يموتوا ويفنوا، ولن يذهبوا بعد موتهم إلى عالمٍ ليس تابعاً لسلطته تعالى، ولن يرجعوا إلى إلهٍ غيره تعالى...

السماواتُ السبع والأرض بما فيها من مخلوقاتٍ مع البشر والجن، كلُّها مسلمةٌ منقادةٌ طوعاً أو كرهاً لله تعالى، فما هو خياركم أنتم؟ فهل تبغون دينه تعالى لتكونوا من المسلمين طوعاً، أو تبغون ديناً غير دينه تعالى وأنتم أصلاً وغصباً عنكم مثلكم مثل كل الكائنات واقعون تحت سلطته تعالى، وإليه سترجعون؟

تذكّر دائماً أنَّ كل الكائنات لها وعيٌ ما، وسبحانه يتعامل معها بطريقةٍ ما، وكلُّ كائنٍ مهما كان تكوينه، أرض جبل سماء حشرة شجرة... إنسان حيوان... جن ملاك... كلُّها لديها بطريقةٍ ما إمكانية الإسلامِ له تعالى طوعاً باختيارها، أو الرفض، ولكنها على كلِّ حال فحتى لو رفضت فهي لا تزال واقعة تحت سيطرته تعالى كرهاً غصباً عنها، فهل أيها المنتسب لكتاب إلهي ستتماشى مع واقع حالك وتسلم لمن أصلاً أنت تحت سلطته أو تعلن رفض الإسلامِ له تعالى؟ وبهذا الطرح تفهم أنَّ التماشي مع واقع الحال هو التصرّف المنطقي العقلاني ففي النهاية كلُّنا سنرجع إليه تعالى.

مِنْ جانبٍ آخر، لا تنسَ أنَّ كل الكائنات لها وعيٌ ما، والآية هنا لا تتحدّث فقط عن الكائنات التي نحن نصنّفها أنها واعية وذكية، كالجنِّ والإنس والملائكةِ (ع)، لا،بل يؤكد القرآن وبصراحة أنَّ كل الكائنات ومهما كان تكوينها، لها وعيٌ ما، وسبحانه يتعامل معها بحسب وعيها ذاك، حتى لو كانت بالنسبة لنا جماداً.

(قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ{84})
{قُلْ}، أيها النبي محمّدٌ (ع)، وأيها المؤمن وأعلن عبر هذا القرآن: {آمَنَّا بِاللَّهِ} تعالى، اعتقدنا بالله تعالى ربّاً إلهاً أحداً... {وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا}، فأنا من زمرة المؤمنين وما وصلنا منه تعالى من كتاب "هذا القرآن" أيضاً نؤمن به أنَّه كتابٌ إلهيٌّ واجبٌ اتّباعُهُ، {وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ}، أيضاً آمنّا به، وآمَنَّا بما أنزل على ابنيه النبيين، {إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ}، {وَيَعْقُوبَ}، وهو نفسه اسمه إسرائيل، وهو ابن النبي إسحاقَ (ع). وآمنّا بما نزل على {الْأَسْبَاطِ}، على العائلات التي تفرّعت من أولاد النبي يعقوبَ (ع) الاثني عشر، والكلام عن الأسباط ليس لكل الأولاد بل بالخصوص للأنبياء من أبناء وأبناء أبناء النبي يعقوبَ (ع)، كالنبي يوسفَ (ع) وصموئيل وأشعيا ودانيال... عليهم السلام.

{وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى}، أيضاً آمنّا به، حيثُ صار معهم منه تعالى التوراة والإنجيل، ونحن نؤمن بها أنَّها كتبٌ نازلةٌ من عند الله تعالى، {وَمَا أُوتِيَ} {النَّبِيُّونَ}، فنؤمن بما أوتي الأشخاص الذين كان يصلهم نبأٌ منه تعالى، فنؤمن بصحف الأنبياء، والمشهور منهم صُحُفٌ منسوبةٌ لآدم وشيث وإدريس ويحيى... عليهم السلام.

{لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ}، فكلّهم في اعتقادنا على نفس الخطِّ وبمنزلة واحدة، فنحن نؤمن بكل أنبياء الله تعالى من دون أي تفرقة، فليس هناك دكاكين دينية كنبيٍّ لجماعة ما ولا تعتقد به جماعة أخرى... {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}، منقادون مطيعون، فكلُّ نبيٍّ أو رسولٍ تمَّ تعيينُهُ من الله تعالى، فإننا لا نخالف أمر ربنا سبحانه، بل نعتبره نبياً محترماً مفروضَ الطاعة.

لاحظ حالة الحرب والكراهية الشديدة بيننا وبين العديد من اليهود في عصرنا الحالي، ولكن هذا لم يمنعنا أبداً من الاحترام الشديد لكل أنبياء اليهود، لأنهم أنبياء الله تعالى، وليسوا مُعَيَّنِينَ من اليهود، بل نحن أحقُّ بهؤلاء الأنبياء، لأننا

مثلنا مثلهم: مسلمون لله تعالى. طبعاً إن كنّا مؤمنين صالحين، وإلا فربما بل حتماً بعضُ اليهود من غير المجرمين هم أفضلُ من بعض المسلمين الفاسدين المجرمين.

نلاحظ أنَّ الميثاق الذي تمَّ أخذه من الأنبياء يتكرر معنا ومع النبي محمّدٍ (ع) في هذه الآية، فنحن مأمورون باتباع كل الأنبياء والرسل الإلهية، ومأمورون بالإيمان بكتبهم.

بقي شيءٌ، اليهود يعتبرون المسيحيين دخلاء متطفلين على دينهم، فالمسيحيون جاءهم أمرٌ بالإيمان بكل من سبق من أنبياء ورسل وكتب إلهية، واليهود يعتبرون أنَّ أنبياءهم وكتبهم لهم! ونفس الشيء حيث اعتبر المسيحيون أنهم الأصل وأنَّ المسلمين متطفلون دخلاء على دينهم. وهذا شيءٌ كرّره ونبّه عليه القرآن كثيراً حين تكلّم معهم، وحين علّم المسلمين عن الامتداد التاريخي لدينهم الممتد لآلاف السنين إلى أول من تكلّف من البشر وهو آدمُ (ع)، فيريد تعالى لنا أن نتحلّى بالثقة حين نعلن إسلامنا، حيث لا أحد دخيلٌ على أحد، لأن الدين التوحيدي هو دينه تعالى لكل الناس، وأنبياؤُهُ ورسله وكتبه تعالى لكل الناس.

(وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ{85})
{وَمَنْ يَبْتَغِ}، يَرْغَبُ يَطْلُبُ، {غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا}، غيرَ الانقياد والطاعة له سبحانه كَتَبِعَاتٍ عليه، يريدُ أن يكون دينه مختلفاً عن الانقيادِ والطاعة لله تعالى، {فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ}، فلن يقبل تعالى منه أيَّ عملٍ، {وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}، سيفقدُ أشياءَ لها قيمةٌ، ففي الحياة الآخرةِ التي ستأتي بعد الأولى حين قيامنا من الموت، هناك أشياءُ لها قيمةٌ ولن يحصلوا عليها، ولن يدخلوا الجنّةَ.

تذكّر دائماً أنَّ الدين هو عامّةُ التبعات، فأنا مدين لك بالمال، لأني أخذت المال منك وعليَّ تبعاتُ ردِّهِ أو العمل عندك بما يقابل مالك... وأنا عبدٌ له تعالى فعليَّ تبعاتٌ، أنا مدينٌ بطاعته تعالى، وهكذا تفهم كل الآيات التي ذكر فيها القرآن كلمة دينٍ، فهي مشابهةٌ لكلمة تبعاتٍ، أما كثرة استعمالها على معنى: الإيمان بما يقوله تعالى، فقد جعلها بالنسبة لنا ككلمة منفردة لها معانٍ استنسابية أخرى... وهنا ترى أنَّ تبعات كوني مخلوقاً عبداً له تعالى هو أن أسلم له تعالى، وأنقادَ له، وأطيعَ أوامرَهُ بالتمام، ومن لم يكن كذلك، والكلام هنا عموميٌّ ولكن بالخصوص مع المسيحيين الذين رفضوا طاعة الرسول محمّدٍ (ع) ولووا ألسنتهم باختراع كلامٍ نسبوه له تعالى، فمهما فعلوا، ومهما صلّوا وصاموا وتصدّقوا... فكلُّ ذلك حابطٌ بلا قيمةٍ ولن يقبله تعالى، وعملياً لن يجازيهم تعالى عليه بالحسنات، وإن كانوا يتوقعون الفوز بالجنّةِ، فها تخبرهم الآية وبكل صراحة أنهم لن يحصلوا عليها، وسيخسرونها، ومن المفيد هنا تذكّر كلام القرآن عن المسلمين المنافقين والفاسقين لأن صفة الإسلام أو الانتماء بالاسم للإسلامِ ليس هو ما تتحدّث عنه الآية، بل حقيقة الإسلامِ هي المنجية سواءٌ توصف بها يهوديٌّ أو مسيحيٌّ "أو هندوسيٌّ أو بوذيٌّ... إن لم يكن مشركاً به تعالى....".

كلمة "إسلام" عموميةٌ في القرآن لكل دينه تعالى من آدمَ (ع) إلى يوم الدين، وليست مخصصةً لنا نحن المؤمنينَ بالقرآن، بل اعتمدها القرآن كتسمية لعموم المؤمنين بدينه تعالى في أي زمنٍ كانوا، وأخبرنا القرآن أنَّ أوّل من استعملها من البشر لتوصيف نفسه ومن يتبعه كان النبيُّ إبراهيمُ (ع) وقد أيّدها تعالى وأجراها سبحانه كتوصيف لكل المؤمنين بدينه سبحانه، وتقرأ ذلك في الآية 78 من سورة الحج {... مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ...}. وعملياً، من بعد نزول القرآن، ينحصر الإسلامُ له تعالى بما جاء في القرآن وما قاله وفعله الرسول محمّدٌ (ع) كتطبيق عمليٍّ للقرآن، وقبل ذلك فالمؤمنون الحقيقيون من أتباع الرسل السابقين هم أيضاً مسلمون.

(كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{86})
{كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ}، لأيِّ سببٍ وبأي طريقة سيضع تعالى على الشيء الصحيح الذي يوصل للغايةِ الصحيحةِ، {قَوْمًا}، جماعةً من الناس متفاعلةً مع دينه تعالى، {كَفَرُوا}، أنكروا الدين الإلهي، {بَعْدَ إِيمَانِهِمْ}! وهنا لا يزال سياق الكلام مع عموم أهل الكتاب وبالخصوص المسيحيين، فهم آمنوا بأساس الدين الإلهي من توحيد ووجوب اتّباع الرسل الإلهية... وبعد ذلك رَبَّبُوا غيره تعالى وكفروا برسوله محمّدٍ (ع)؟ {وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ}، فبحواسهم ووعيهم حصل لديهم علمٌ أكيدٌ بأنَّ الرسول محمداً (ع) حقٌّ وليس باطلاً ولا مزيّفاً، فعلموا بالتأكيد أنّه رسولٌ إلهيٌّ.

{وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ}، ووصلت إليهم الأمور الواضحة التي لا تشويش فيها والتي تدل على صحّة الإيمان وعلى صحّة رسالة الرسول محمّدٍ (ع).

كيف سيهدي تعالى هذه النوعية من الناس؟ يعني من بعدما صار معهم وأمامهم كل ما يمكن أن يهديهم ورغم ذلك كفروا بالرسول محمّدٍ (ع) فماذا سيفعل سبحانه بعد ليهديهم؟ لم يَبْقَ إلّا أن يهديهم سبحانه بالقوّة عبر التلاعب بعقولهم!

{وَاللّهُ لاَ يَهْدِي}، لا يضع على الطريق الذي يوصل للغايةِ الصحيحةِ، {الْقَوْمَ}، جماعةَ الناس التي لها كيان المتشاركين في نفس الزمان والمكان المتفاعلين مع شيءٍ ما، وهنا الكلام عن تفاعلهم مع دينه تعالى، {الظَّالِمِينَ}، الذين لم يكن معهم حقٌّ ولم يكونوا عادلين ولا منصفين حين كفروا بعدما صار الهدى واضحاً أمامهم، فهم أنكروا كل الأمور الواضحة التي تدل على الطريق الصحيح، هؤلاءِ لن يهديهم سبحانه لأنه وكما ترى لم يعد يوجد أية طريقة ليهتدوا إلا بالقوة عبر التلاعب بعقولهم، وجعلهم آلاتٍ مبرمجةً بلا إرادة، وهذا التلاعب بالتفكير لن يفعله الله تعالى مع أي أحد من الناس، ولن يجبرهم تعالى على الإيمان ساحباً منهم حرية الإرادة، ولن ينير قلوبهم غصباً عنهم.

(أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ{87})
{أُولَئِكَ}، الذين حصلوا على الوسائل المناسبة والأكثر من كافية للهداية ورفضوها:

{جَزَاؤُهُمْ}، المقابلُ على كفرهم، وما سيحصلون عليه بسبب كفرهم، {أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ}، عليهم الطرد من الرحمة الإلهية، فكلُّ ما سيحصل معهم هو سيّئٌ لهم، وعليهم لعنة {الْمَلَائِكَةِ}، الكائناتُ التي لها اعتبارٌ عنده تعالى وقد خلقها بقدرات عالية، لن تطلب لهم منه تعالى الرحمة لهم وهي بدورها لن ترحمهم حين تعذّبهم، وعليهم لعنة {النَّاسِ أَجْمَعِينَ}، فكلُّ الناس سوف لن ترحمهم وستطلب لهم الطرد من الرحمة الإلهية.

لاحظْ القرآن يخبرنا عمّا بعد يوم القيامة أنَّ الملائكةَ (ع) والمؤمنين يلعنون الظالمين، ويخبرنا أنَّ الظالمين أيضاً يلعنون بعضهم البعض، هكذا كلُّ الناس أجمعين تلعن الظالمين، فكلُّ ظالمٍ واحدٍ سينال اللعنة من كل الناس التي خلقها تعالى.

ليأخذَ هذا الكلام حقَّهُ فَلْنُشَبِّهْهُ بتعرّضنا للإهانة من الآخرين، عندها سنتضايقُ ولن نتحمّل ولن ننام الليل من الانزعاج... وبعض الناس حسّاسون ولا ينامون الليل لأنَّ أحداً ما مرّ بجانبهم ولم يسلّم عليهم! الآن نفهم معنى الإهانة والاحتقار من كل الناس للكافرين، فسبحانهُ يحتقرهم، وملائكته، والمؤمنون، وهم الكافرون يحتقرون بعضهم البعض، وهذا الجانب النفسي من التعذيب ركّز عليه القرآن كثيراً بتعابير مختلفة...

(خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ{88})
هذه النوعية التي حصلت على كل شيءٍ مناسبٍ لتهتدي ولم تَهْتَدِ، هم:

{خَالِدِينَ فِيهَا}، في نار الآخرة لا يموتون ولا يخرجون منها، و{لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ}، هم سيشعرون بالألم بشكلٍ دائمٍ من دون تخفيفٍ، وعلى نفس الشعور المؤلم المستمر سيعيشون إلى ما لا نهاية، {وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ}، فلا تمر عليهم فتراتُ إنظارٍ، فتراتُ راحةٍ، ولا انقطاعَ بين مراحل التعذيب، ولا انقطاعَ في الشعور بالألم بين الانتقال من نوع تعذيبٍ لآخر.

لنفترض أنَّه ارتكب سوءاً سَبَّبَ له الضرب أو الحرق أو الرعب... لن تمر فتراتُ إنظارٍ "انتظار" كفتراتِ راحةٍ بين مراحل التنويع في العذاب، هنا في الدنيا ينقلون السجين من مكانٍ لآخر، على الأقل في هذه الفترة تمرّ أوقاتٌ ينقطع فيها التعذيب عنه، أمّا في الآخرة، فلا يوجد ولا لحظةٌ من دون الشعور بالألم الشديد.

كما نشعر هنا في الدنيا بأننا سنموت بسبب المرض أو الشيخوخة أو بحادثٍ... في الآخرة سنشعر بأننا خالدون لا نموت، مَنْ يدخل إلى النار سيشعر بالمصيبة الكبيرة، وسيكون متأكداً بأنَّه لا نهاية لهذا الألم.

(إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ{89})

{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}، فتحوا صفحةً جديدةً وآمنوا وأعلنوا أنهم لن يرجعوا للكفر بالرسول والقرآن مرّةً ثانيةً، {وَأَصْلَحُوا}، وعملوا الصالحاتِ، وقاموا بالأعمال الصالحة التي يقوم بها المؤمنُ، {فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ}، فلا يبقى سبحانه على موقفٍ صلبٍ بل يتجاوز عن سيئاتهم ويسامحهم عن الذنوب التي ارتكبوها.

اللهُ {رَحِيمٌ}، فلديه تعالى عنايةٌ خاصّةٌ بالمؤمنين لما فيه مصلحتُهم، وعملياً هذه الرحمة الخاصة بهم هي التوبة عليهم ومغفرة ذنوبهم ومضاعفة حسناتهم... وهذه أمورٌ لا يحصل عليها إلا المؤمنون.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ{90})
الكلام السابق عن الإسلامِ ديناً له تعالى، وكان مع وعن النموذج المسيحيِّ، وهنا الكلام بالأخص عن نماذج منهم آمنت ثم كفرت:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، أنكروا الدين الإلهي، {بَعْدَ إِيمَانِهِمْ}، بعد اعتقادهم به، يعني كانوا كفّاراً ثم آمنوا ثم كفروا، سواء كانت حجّتهم أنه نفس الدين ولا داعي لاتباع الرسول محمّدٍ (ع) ويمكنني أن أكون يهوديّاً أو مسيحيّاً، وعمليّاً هذا كفر بالرسول والقرآن... أو كانت حجّتهم أن الخلافات ليست جوهرية، أو... فكلُّه غير مقبول من بعد ما تبيّن لهم الهدى كما قالت من الآية 86، بناءً على الكلام السابق يكون المقصود أنهم انتهجوا الإسلام له تعالى بعدما رأوا الآيات الدالة على أنَّ محمّداً (ع) رسولٌ إلهيٌّ فآمنوا به، ثم كفروا فعادوا لإنكار الرسول محمّدٍ (ع) والقرآن مكتفين بعقائدهم وتشريعاتهم وأنبيائهم، {ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا}، على الأقل بينهم وبين أنفسهم فكّروا في أسباب تركهم للهدى باحثين عن أعذار لأنفسهم للرجوع إلى دينهم السابق، وأثناء ذلك تبيّن لهم أجوبة على أعذارهم ورغم ذلك رفضوها، أو أنَّ أحداً ما حاججهم وبيّن لهم الهدى، ولكنهم عناداً وتصلّباً ركبوا رؤوسهم واستمروا على الكفر، وفعلوا من جديد السيئات وربما فعلوا سيئات لم يكونوا يفعلونها من قبل... في كل هذه الاحتمالات هم موصوفون بمراكمة الكفر فكراً وسلوكاً، {لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ}، توبتُهم السابقة حين آمنوا بالنبي والقرآن لن يقبلها تعالى، وحتى أثناء كفرهم حين يرتكبون سيئة ما ويتوبون منها لن يقبلها تعالى لأنهم كفروا بالهدى، {وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ}، هم الذين على الشيء الخطأ الذي يوصلهم للنتيجة الخطأ، إذا أردت أن تعرف من هم الضالون، فَمَنْ أوضح ضلالاً من الشخص الذي آمن فتعرّف على الطريق الصحيح ثمّ بعد ذلك كفر! وحين فعل السيئات تاب ظانّاً أنَّه مهتدٍ وأنَّه تعالى سيتوب عليه!

ضع في بالك أنَّ التوبة عموميّةٌ وخصوصيّةٌ، هناك توبة عموميّةٌ من كل السيئات عبر إعلان الإسلامِ له تعالى، وهذا ما نصف به الكافر قائلين "كيوم ولدته أمّه"، فالذي أسلم كلُّ ذنوبه السابقة مغفورة، وهناك توبة خصوصيّةٌ من سيئة ما، حتى المشرك قد يفعل سوءاً ويندم عليه ويتوب منه إلى الله تعالى، ولكن بسبب شركه توبته ليست مقبولة ولنفس السبب حتى أفعاله الحسنة تحبط وَتَفْقِدُ قيمتها ولا ينال أجراً عليها.

بناءً عليه نفهم كلام آياتنا هنا بعموميّةٍ وبخصوصيّةٍ، بالعمومِ يقبل سبحانه التوبة الحقيقية للمؤمن بكل أساسيات دينه تعالى، للموحّد المؤمن بكل رسله وكتبه سبحانه والآخرة... ويقبل سبحانه التوبة من الذي كان مؤمناً وفعل سيئةً... مثل حالتنا نحن، ونفس هذه التوبة العمومية والخصوصية لا يقبلها تعالى من الذي شعر بأنه سيموت وتابَ، وهذا ما نقرأه في الآية 18 من سورة النساء {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}، في قسمها الأول تخبرنا عن الذي انتظر لآخر زمن عمره وشعر بأنه سيموت وتابَ، لن يقبل تعالى توبته هذه مهما كان نوعها عموميّةً أو خصوصيّةً، وفي قسمها الثاني تخبرك أنَّ الكافر قد يتوب من سيئة ما مع أنه باقٍ على كفره، ولكن بسبب موته كافراً لن يتوب تعالى عليه.

بناءً عليه نفهم بسهولة آياتنا هنا، واضعين في بالنا عمومية الانطباق على مختلف النماذج، هي لا تقول بأنَّ الذي آمن ثم كفر قد انحسم أمره ولن يقبل تعالى توبته إذا أسلم عن حقّ مؤمناً بالأساسيات، لا، باب التوبة دائماً مفتوحٌ حتى لو كفر وآمن وكفر وآمن مليون مرّة، صحيحٌ أنَّ هذه ليست حالات إيمان حقيقيّةً وإلا فلو كانت حقيقية لاستمرّ على إيمانه كل عمره، ولكن إذا في الأخير فعلاً آمن عن صدق فسبحانهُ حتماً يقبل توبته.

بل تقول إنَّ الذي تاب من عموم الكفر وأسلم مؤمناً بالأساسيات، ثم كفر، وهناك نموذج من هذه الحالة للذين يزدادون كفراً، حيث فعلوا الأمور السيئة من جديد وراكموا أفعال الكفر، هؤلاءِ توبتهم غير مقبولة سيتحاسبون على السيئات

السابقة قبل توبتهم، وسيتحاسبون على السيئات التي فعلوها أثناء فترة إيمانهم حتى لو أثناء ذلك تابوا منها، وسيتحاسبون على السيئات التي فعلوها من بعدما كفروا، وأيضاً حتى لو تابوا منها. الكلام عن رفضه تعالى لتوبتهم ليس رفضاً لإعلانهم لإسلامهم مرّة ثانية، بل إخبارهم من الآن أنَّ كل سيئاتهم سيتحاسبون عليها إن لم يموتوا على الإيمان.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ{91})
{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا دينه تعالى، {وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ}، في آخر أيّام حياتهم لم يكونوا مؤمنين، هؤلاءِ، {لَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ}، لن يقبل الله تعالى من أي واحد منهم، {مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ}، لو قَدَّمَ فِدَاءً مُقَابِلاً بَدَلاً عن نفسه حتى لا يتحاسب، حيثُ لو قَدَّمَ ذَهَبًا بكمية هائلة، حتى لو كانت كمية الذهب تملأ سطح الأرض فلن يقبلها تعالى منه.

بعض الناس يفكرون بأنهم في يوم القيامة يمكنهم أن يقدموا مالهم أو ذهبهم أو حسابهم في البنك أو أراضيهم أو شركاتهم... لله تعالى حتى يرضى عنهم! بعض الناس عندهم فكرة عن الإله أنَّه يمكن رشوته! أو أنَّه يفرح بالهدايا! أو أنَّه يحبّ الذهب! فتخبرهم الآية وبكل صراحة: مهما كان معك من مالٍ فلن يفديك من عذابه تعالى إن كفرت.

{لَهُمْ}، وللكافرين، {عَذَابٌ أَلِيمٌ}، لهم في جهنّم ضررٌ لا يمكن تحمُّلُهُ ولا الاعتياد، {وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}، لن يعمل أي أحد على تحقيق ما يريدونه، ولن يعينهم أو ينقذهم أحد من ذلك العذاب الأليم.

نتذكَّرُ من التاريخ أنَّ بعض الناس يضعون أشياءَ ثمينة مع الميت، وهم يظنون أنَّها ستنفعه في الحياة الآخرة! وبعض الناس الأغنياء يظنون أنَّهم لا تنقطع صفة الغنى والثروة عنهم حتى بعد موتهم! وكأنَّه يوجد شيءٌ اسمه: ميّتٌ غنيٌّ، وميّتٌ فقيرٌ! يعتقدون أنَّهم سيبقون مسيطرين على ثروتهم حتى بعد موتهم! أو تصنيفهم كأغنياء سيبقى حتى بعد موتهم، كميّتٍ غنيٍّ! وكل هذه الأفكار وغيرها تجعلهم يعتقدون أنَّه إذا كان يوجد يوم للحساب، فيمكنهم استعمال أموالهم لدفع الفدية عن الأعمال السيئة، أو شراء الحسنات أو شراء قطعة أرض في الجنة!

حسناً، نبّهتنا الآية أن نلغي من رؤوسنا فكرة الإنفاق من مالنا في الآخرة، فهناك لا يوجد إمكانية للإنفاق أصلاً، ولا ينفع الإنفاق هناك، فأين ينفع الإنفاق؟ لْنَرَ:

(لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ{92})
{لَنْ تَنَالُوا}، لن يحصل عندكم، {الْبِرَّ}، الصلةَ العلاقةَ الطيبةَ، وهنا الكلام عن وصفكم بالعلاقة الطيبة معه سبحانه، لن توصفوا بذلك، {حَتَّى تُنْفِقُوا}، حتى تصرفوا، {مِمَّا تُحِبُّونَ}، من الأشياء التي تحبونها وكنتم ترغبون بها، فإعطاءُ الفقراء من الطعام الذي كنت تنوي رميه في النفايات، أو من الأشياء المستعملة أو الخَرِبَةِ التي كنت تنوي التخلص منها... فهذا التصرف لن يجعلك بعلاقة طيبة مع ربك سبحانه، مع العلم أنك تنفق. بالعكسِ، عندما تنفق من الطعام الذي ستأكل منه وترغبه، وعندما تعطي الفقراء من المال القليل الذي معك... فأنت فعلاً ستكون موصوفاً بأنَّكَ بارٌّ معه تعالى.

{وَمَا تُنْفِقُوا}، وما تصرفوا، {مِنْ شَيْءٍ}، من مالٍ أو ثياب أو طعامٍ... {فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ}، بما أنفقت، {عَلِيمٌ}، فسبحانهُ يعلم كل شيء، لأنه يرى ويسمع كل شيء. قُمْ بالإنفاق في سبيله تعالى وقُرْبَةً له وأنت مطمئن كل الاطمئنان أنَّهُ سبحانه يراك، وإن أنفقت أشياء تالفة فسبحانه يراك وسيعطيك من اهتمامه على قدر الأشياء التالفة الخَرِبَةِ... وإن كانت من أشياء لها قيمة محبوبة، فسيكون لك قيمةٌ عالية عند ربك سبحانه.

لا تفهم من الآية أنّي إذا أنفقت المال على الفقراء وأنا أريد التقرّب منه تعالى، أنفقتُ من شيء أحبه، يعني أنا أحبّ المال ورغم ذلك أنفقتُ منه في سبيله تعالى، لا، بل نفهم الآية هكذا: عندما تقصد أن تكون بارّاً أي بعلاقة طيبة مع أمك وأبيك، فإنك لا تشتري ثلاجة جديدة لبيتك، وتحمل الثلاجة القديمة التي لا تعمل كما يجب، ومنظرها قديم... وتعطيها لوالديك، فهذا ليس برّاً، هذا عملٌ أقل من عادي، بل قد يكون سيّئاً، الآيةُ تقول أنَّكَ إن أنفقت وأنت تقصد أن تكون بارّاً مع ربك سبحانه، فعليك بالإنفاق من الأشياء المحبوبة لديك، الثيابُ القديمة الرَّثَّةُ تكسب عليها حسنات إن أعطيتها

للفقراء، ولكن مستوى العلاقة مع ربك سبحانه يكون على قدر ما أنفقت، إن كنت غنيّاً مستطيعاً فلا تتوقع أنك بثياب قديمة رثّةٍ تتصدّق بها ستتقرب كثيراً من ربك سبحانه وستنال عظيم الأجر منه، لا، إنما تنال الأجر العظيم إن كانت هذه هي ثيابك رثّةً قديمةً ولا قدرة لك على شراء أفضل منها وتتصدَّقُ منها.

لا تفهم الإنفاقَ مما نحبّ يعني الإنفاق مما نحتاجه في حياتنا بشكل ضروريٍّ، ممنوعٌ الإنفاقُ مما تحتاجه أنت لاستمرار حياتك بحيث إذا أنفقته تصير محتاجاً للمساعدة، فهذا لا يأمرك به تعالى بل وينهاك عنه، وتقرأ ذلك في الآية 29 من سورة الإسراء {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا}.

الآنَ لِنَجْمَعَ الآية السابقة مع آيتنا هنا لنفهم أنَّ أيَّ فكرة في رأس أحدهم عن أخذ مالٍ معه إلى القبر لينفقه في الآخرة، فهي فكرةٌ وهميةٌ، وهناك طريقة واحدة حتى نحصل على الانتفاع في الآخرة من الإنفاق، وهي الإنفاق هنا في الدنيا في سبيله تعالى بقصد البرّ معه تعالى من أشياء محبّبةٍ لنا.

(كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِـلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{93})
بعد الانتهاء من أساسيات الكلام عن العقيدة مع أهل الكتاب، ترجع السورة للكلام مع أهل الكتاب عموماً ومع المسيحيين خصوصاً في مسألةٍ تشريعيةٍ، لأنَّ العقيدة في دينه تعالى من أوّل بشريٍّ تُكُلِّفَ "آدمُ" إلى يوم الدين واحدة على المسطرة والحرف والنقطة، ولكن التشريعات يحصل فيها تغيّراتٌ، وهي طفيفةٌ جداً في دينه تعالى وتلك التغييرات لم تمسّ العناوين الأساسية.

اختارت السورة نموذجاً من أمورٍ قالها بعض أهل الكتاب "وآخرون" كتعليق على هذا القرآن، فأشكلوا على أمورٍ عن الطعام الحلال والحرام، فهناك أطعمةٌ يقول عنها النبي محمّدٌ (ع) أنَّها حلالٌ وأخرى يقول عنها حرامٌ، فاعترضَ عموم أهل الكتاب عليه على أساسٍ أنَّ كلامه هذا دليلٌ على انتفاء تماشي دينه مع دينهم، وأنت تعلم أنَّ العموم الغالب من المسيحيين قديماً وحديثاً يحللون أكل كلِّ ما يؤكل ولا يتبعون ما حلّلته أو حرّمته التوراة، فتجيبُهُمْ الآية:

{كُلُّ الطَّعَامِ}، كلُّ ما هو متعارفٌ عليه بين الناس أنهم يأكلونه كطعامٍ لسدّ جوعهم والتغذّي منه والتفكهن بطعمه، {كَانَ حِلًّا}، كان مسموحاً به وليس عليه عقابٌ إلهيٌّ، {لِبَنِي إِسْرَائِيلَ}، كان حلالاً لأبناء وأبناء أبناء النبي يعقوبَ (ع) الذي كان له اسمان: يعقوبُ وإسرائيل. فالنبيُّ يعقوبُ (ع) هو نبيٌّ على شريعة جدّه النبي إبراهيمَ (ع)، ولم تقل الآية إنَّ كل "الأكل" كان حِلّاً لهم، لأنَّ الأكل يشمل كل ما يمكن بلعه، حتى الخشب والعذرة... أمّا التعبير بالطعام فيشير لخصوص ما تعارف عليه الناس أنَّه طعامٌ.

كلُّ الطعام كان حلالاً لهم، {إِلَّا مَا حَرَّمَ}، إلّا ما منع، {إِسْرَائِيلُ}، النبيُّ يعقوبُ (ع)، {عَلَى نَفْسِهِ}، فهناك أطعمةٌ لم يكن (ع) يأكلها، فكانَ يمتنع عن أكلها نهائياً، وقد حرّمها على نفسه.

النبيُّ يعقوبُ (ع) الذي هو إسرائيل كما هو مشهورٌ، فهو الوالد والجدّ الأساسي الذي تفرّع من ذريته مجموعةٌ من الناس صار اسمهم: بنو إسرائيل، وتسميتهم الدينية يهود. وقد أعلن (ع) عن امتناعه عن أكل بعض أنواع الأطعمة، ولا نعرف ما هي الأطعمة التي كانت متعارفةً في تلك الأيام، ولا نعرف ما هي الأطعمة التي امتنع النبي يعقوبُ (ع) عن تناولها، ولا نعرف إن كان هناك أنبياءٌ قبله قد حرّموا أنواعاً من الطعام على أنفسهم... إنَّما تريد الآية أن تفهمنا أنَّ النبي يعقوبَ (ع) الذي ينتسب إليه مجموعةٌ كبيرة من أهل الكتاب، فهو أوّل شخصٍ يمتنع عن بعض الأطعمة، ليس لأن الله تعالى منعه، وليس لأنها حرامٌ، ولكن ربما لأنَّه (ع) علم أنَّها ستكون حراماً فيما بعد فامتنع عن أكلها، وربما علم بضررها الجسدي أو النفسي... في الحقيقة لا ندري لماذا حرّمها (ع) على نفسها، ومعرفة هذا الشيء غير مهمّةٍ، بل المهم أن نعرف أنَّ الجدّ الأساسي لقسم من أهل الكتاب "بنو إسرائيل" قد حرّم بعض أنواع الطعام على نفسه، أمّا بقية الناس فقد كان كل الطعام حلالاً لهم، وفي ذيل الكلام سنتوسّع قليلاً عن الطعام الذي كان حلالاً...

وقد حصل هذا التحريم من النبي يعقوبَ (ع) على نفسه لبعض أنواع الطعام، {مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ}، فالتوراة نزلت على النبي موسى (ع) والنبي يعقوبُ (ع) قد مات قبل أن يولد النبي موسى (ع) بعشرات السنين على الأقل.

إذَنْ، تشريع الحلال والحرام لأنواع الأطعمة المختلفة للمتدينين، هو شيءٌ حصل رسمياً بأمر منه سبحانه في التوراة، وقبل ذلك كان كل الطعام حلالاً على الناس، وانتبه فليس كل ما يؤكل حلالاً بل فقط ما يسمّى طعاماً.

{قُلْ}، أيها النبي (ع) عبر هذا القرآن لمن يعترض عليك من عموم أهل الكتاب في الشريعة التي نزلت عليك، قل لهم:

{فَأْتُوا}، فأحضروا التوراة، {فَاتْلُوهَا}، فاقرؤوها مستندين إلى ما هو مكتوب، {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، بعض المسيحيين يقولون إنَّ كل الطعام حلالٌ في دينه تعالى، وأي كلام عن طعامٍ حرامٍ فهو مخالفٌ لدينه تعالى... متجاهلين وجود حلالٍ وحرامٍ في التوراة! وبعض أهل الكتاب يقولون إنَّ في التوراة شريعة للحلال والحرام من الطعام، ومن خالفها فهو ليس على الدين الإلهي، فخذوا علما أنَّه قبل نزول التوراة كان كل الطعام حلالاً، فهل كل من سبق وكان قبل نزول التحريم والتحليل في التوراة، هل كان مخالفاً للدين الإلهي؟!

خُذُوا علماً أنَّه قبل التوراة كان كل الطعام حلالاً لبني إسرائيل، ابتداء من أبناء النبي يعقوبَ (ع) مروراً بعهد النبي يوسفَ (ع) وصولاً إلى النبي موسى (ع) الذي نزلت عليها التوراة واذكر فيها حرمة بعض أنواع الأطعمة، فتشريع الحلال والحرام بخصوص الأطعمة هو أمرٌ بيده تعالى، وأنتم تقولون إنَّ الدين المسيحي امتدادٌ لشريعة النبي موسى (ع)، فتعالوا وأحضروا كتاب التوراة الذي نزل على النبي موسى (ع) حتى نرى إن كنتم صادقين بأنكم ملتزمون بما فيه.

انْتَبِهْ جيداً، الإناجيل الموجودة حاليا، لا يوجد فيها نصوص صريحة عن الطعام الحلال والحرام، بل كما يبدو منها، فإنَّ كل الأكل والشراب حلالٌ! وهذا معارضٌ تماماً للتوراة! فقد علمنا من القرآن أنَّ النبي عيسى (ع) قد أمره ربنا سبحانه بتحليل بعض الأمور ومنها الأطعمة التي كانت حراماً، ولكن لم يأمره أن يحللها كلها، وتقرأ ذلك في الآية 50 من هذه السورة {...وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ...}.

إذا كنتم تعترضون على تحليل وتحريم الطعام الذي يقوله لكم النبي محمّدٌ (ع)، فاعتراضكم في غير محلّه، لأنَّ كتاب التوراة الذي تؤمنون بأنه نازل منه سبحانه، فيه حلالٌ وحرامٌ، فهل تقولون أيها المسيحيون بأنكم لا تؤمنون بالتوراة؟ وإذا قبلتم بالتوراة كما تقولون فكيف لا تقبلون الآن من النبي محمّدٍ (ع) نقله عنه تعالى عن هذا الطعام حلالٌ، وعن ذاك حرامٌ؟!

التوراة حللت الطيبات من الطعام وحرمّت الخبائث، وفيما بعد حرّم تعالى بعض الطيبات كعقاب لبني إسرائيل على مخالفتهم لأوامره تعالى كما ورد في الآية 146 من سورة الأنعام {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}، أمّا الكلام عمّا حرّمه النبي يعقوبُ على نفسه (ع) وهو حلالٌ لمن قبله وحوله وبعده إلى حين نزول التوراة، فنفترض أنَّها من الأطعمة التي علم (ع) بضررها الجسدي والنفسي، ففي شريعتنا وشريعة التوراة، فإن أكل بعض أجزاء الحيوان حرامٌ، ولم يذكرها القرآن ووصلتنا عبر الرسول محمّدٍ (ع)، فلم يعتبرها القرآن من المواضيع الحسّاسة للهداية حتى يذكرها كتابٌ إلهيٌّ، ولم يعتبرها من الأمور التي تستحقّ التوعّد عليها بالعقاب، علما أنَّ عليها عقاب ولكن ذكر هكذا أمور في كتابٍ إلهيّ سيجعل الكتاب الإلهي يدخل في أمور قليلة الشأن.

ما ذكره القرآن من محرمات اقتصرت على العيار الثقيل منها، فمن البديهي وجود فرقٍ بدرجة السوء بين المحرمات، فالعبوس في وجه الأولاد والزوجة وبدون سبب، سيئة، وعليه عقاب، ولكنه ليس مساويا لقتل نفسٍ بريئةٍ، ويبدو أن القرآن قفز عن هذا النوع من المحرمات واكتفى بذكر عناوين عامّة تشملها ويمكن اشتقاقها منها حتى لا يصير القرآن مهزلة للفكاهيين المستهترين الذين سيقولون: ما هذا الدين السخيف الذي يهددني بالعقاب إن عبست في وجه طفلي، أو إن أكلت حدقة عين البقرة، أو أكلت سلسلة ظهر الغنم...

كما ترى، فبدل النظر إلى تدرجات سوء ما حرّمه تعالى، وحصر بعضهم الكلام في أقلّها سوءاً، فسيجعل من الدين مهزلة لمن لم يفهم أن هذه التدرجات أمرٌ واقعٌ، فماذا لو شرّعت الدولة السجن عشر سنين لمن أوقف سيارته في مكانٍ ممنوع الوقوف فيه؟! وبالعكس فماذا لو تغاضت الدولة عن هكذا مخالفات؟! كما ترى فحتما في دينه تعالى محرماتٌ من الدرجة المنخفضة في سوئها، وبعض الطعام نموذجٌ منها.

هكذا ترى أنَّ الكلام هنا مع بعض المسيحيين الذين حلّلوا كل أنواع الأكل، فهو يلفت انتباههم لوجود حلالٍ وحرامٍ للطعام في الكتاب "التوراة" الذي يقولون أنهم امتدادٌ له، وأي تغيير في الحلال والحرام يجب أن يكون مستندا إلى مستندٍ إلهيٍ، ولا يحقّ لهم التعليق على الرسول محمدٍ (ع) حين ينقل لهم الحلال والحرام عنه تعالى.

لأسفٍ، ما نعلمه من تاريخ الكنيسة الكاثوليكية الأولى، وما نراه من انتشار لتعاليمها على بقية الكنائس، ففيه تهاونٌ لدرجة الاستهتار بكل عناوين شريعته تعالى، فحلّلوا الخمر ولحم الخنزير، بل وعموم أي لحم كان... بل وبعضهم حلّلوا الشذوذ الجنسي والمخدرات... ومسخوا الصلاة بتغييرها حتى اختفت معالمها، ومسخوا الصوم حتى صار انقطاعا عن المشتقات الحيوانية فقط... هذا ناهيك عن تأليه النبي عيسى (ع) وأمّه (ع) وتربيب قدّيسهم...

(فَمَنِ افْتَرَىَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{94})
بعدما تبيّن بكل وضوح وجود شريعة إلهية بالطعام الحلال والحرام، {فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ}، مَنِ اخترع شيئاً تلفيقاً ولم يقله تعالى له، {الْكَذِبَ}، لا أساس له من الصحة، لم يقلها تعالى أساساً، {مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}، من بعد التوضيح بأنَّ التوراة كتابٌ إلهيٌّ فيه حلالٌ وحرامٌ، أصرَّ قائلاً أنَّهُ تعالى لم يحرّم أي طعام، {فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، هم الموصوفون تماماً بأنهم ليس معهم حقٌّ.

الافتراءُ هو أن تنسب لي شيئاً لم أقله لك، ويكون الافتراء كذباً حين تنسب لي شيئاً لست موافقاً عليه ولم أقله أصلاً لا لك ولا لغيرك. وهنا هم قالوا أنَّه تعالى شرّع حلية كل الطعام، وهذا افتراءٌ سبحانهُ لم يقله، وهذا الافتراء كاذبٌ، لأنَّه تعالى ليس فقط لم يقله بل يعارضه ولا يوافق عليه.

(قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{95})
{قُلْ}، أيها النبي (ع) عبر هذا القرآن:

{صَدَقَ اللَّهُ}، فصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز سبحانه يقول إنَّهُ في التاريخ الذي مرّ على الناس من قبلكم، حَلَّلَ لهم أطعمةً وحَرَّمَ أطعمةً أخرى، فصدق الله تعالى، فقال حقّاً وليس كذباً.

{فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ}، ثقافةً عقيدةً وتصرفاتٍ، {إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}، فكانَ مائلاً عن كل شيءٍ ومتوجهاً فقط نحوه تعالى، وكان مستقيماً على الحق والصلاح.

{وَمَا كَانَ}، النبي إبراهيم (ع)، {مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، حيثُ كان يعبد ويطيع الله تعالى وحده فقط، أمّا ما تقومون به من اعتبار النبي عيسى (ع) ربّاً، أو القديسين أرباباً... أو تتركون شريعته تعالى التي يقولها لكم النبي محمد (ع)، وهي نفسها أساسيات التشريع في كتاب التوراة، فأنتم تجعلون له تعالى شركاءَ في الربوبية والتشريع، وهذا مخالفٌ تماماً لما كان يفعله الشخص الذي يتفق عليه الجميع أنَّه النموذجُ المثاليُّ المشتركُ بينهم، وهو النبي إبراهيم (ع).

بِعِبَارَةٍ أخرى، إن كنتم فعلاً من التابعين للنبي إبراهيم (ع) فهو شخصٌ ملتزمٌ تماماً بالأوامر الإلهية، وها جاءتكم عبر هذا القرآن أوامرُ إلهيةٌ، فهل ستلتزمون بها لتكونوا تابعين لملّة النبي إبراهيم (ع) لتكونوا موحدين مثله بالتمام؟

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ{96})
نتذكّر الآيات العديدة في سورة البقرة التي تحدثت بالخصوص مع اليهود، وشرحت لهم أنَّ الطقوس والرموز والأماكن التي اعتبرها الدين الإسلامي دينية، هي على علاقة مباشرة بالنبي إبراهيم(ع) وليست أشياءَ خاصة بالعرب. هنا تتحدث الآيات مع أهل الكتاب عموماً ومع المسيحيين بشكلٍ خاصٍ، وتقول لهم:

{إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ}، أولَ مكانٍ وضعه تعالى للناس ليعتبروه بيتاً للعبادة، فَيَقْصِدُوهُ ليتقربوا إلى الله تعالى، أولُ بيتٍ إلهيٍّ رسميٍّ كرمزٍ دينيٍّ إلهيٍّ، {لَلَّذِي بِبَكَّةَ}، بمكّةَ، وهو الكعبة، على ما يبدو أنَّ الاسم الأصلي القديم جدّاً لمكّةَ كان: بكّةَ. مِنَ الآيات التالية تعلم بالتأكيد أنَّ بكّةَ هي مكّةُ لأنها ستقول إنَّ ببكةَ يوجد مقامُ النبي إبراهيم(ع) ومن دون

شكٍّ فإنَّ مقامَ النبي إبراهيم(ع) بمكّةَ... يعني لا يوجد بيتٌ رمزيٌّ إلهيٌّ قبل الذي في بكّةَ فهو أولُ بيتٍ، ومعلومٌ أنَّها تقصد الكعبة، وهي البناء المُكَعَّبُ قرب الصفا والمروة في مكّةَ.

لاحظْ أنَّ مسألةَ تسمية الكعبة ببيتٍ ليست غريبةً إن التفتّ أنَّ كل أماكن العبادة من جوامع ومساجد وكنائس... هي بيوتٌ للعبادة، وهي منسوبةٌ كبيوتٍ لله، على معنى بيوت عبادة لله، معلومٌ أنَّه تعالى لا يسكنها، وأوّلُ بيتٍ بُني لعبادته تعالى هو الذي بمكّةَ، واعتبره تعالى له قدسيةً خاصةً، ونسبه لنفسه كبيتٍ له ليعطيه قيمةً معنويةً نتأثّر بها نحن حين نتواجد قرب ذاك البيت...

وهذا البيت، {مُبَارَكًا}، هو مكانٌ تمَّ تعيينه كمكانٍ خاصٍّ لعبادة الله تعالى، فالخيرُ المعنوي "البركة" موجودٌ في ذلك البيت الرمز.

وهذا البيت، {وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ}، يضع كلّ الناس على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، ليس بيتاً للعرب لوحدهم، وهو رمزٌ إلهيٌّ عامٌّ لكل الناس لتأدية طقوسٍ يرضاها تعالى، فهو شيءٌ يدلّ عليه تعالى ويوصلنا إلى الإيمان به تعالى...

نُكَرِّرُ، الكعبة التي في مكّةَ هي أولُ بيتٍ للعبادة، وأولُ رمزٍ دينيٍّ كمكانٍ مرتبطٍ بعبادة الله تعالى، وأوّلُ عابدٍ موحّدٍ قابلٍ للتكليف من البشر كان آدمُ(ع) وليس معلوماً لنا من بنى الكعبة، ولكن المعلوم أنَّ النبي إبراهيم(ع) جدّد بناءها، وهي ليست من تراث قبيلة النبي محمد(ع) وليست من تراث العرب، فلا تُساوِهَا مع الأماكن الأخرى التي اخترع الناس لها قدسيةً في دياناتهم، فالعديدُ من الديانات لديها جبلٌ مقدّسٌ في بقعٍ مختلفةٍ من الأرض، ولديهم مياهٌ مقدّسةٌ، ومغارةٌ مقدّسةٌ... في اليابان والصين وكمبوديا والهند... وإيطاليا "روما" واليونان... والبيرو.. وهؤلاء وآلهتهم الوهمية مع أماكنهم المقدسة ودينهم الذي اخترعوهُ، لا يمكن مقارنتهم بدينه تعالى وكلامه وبيته.

مِنَ الآية 127 من سورة البقرة {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ...} فهمنا أنَّ النبيَّيْنِ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قاما بتجديد بناء الكعبة، حيثُ يبدو أنَّ حيطانها انهارت على طول الزمن، أو كانت مبنيةً بطريقةٍ بدائيةٍ وقاما بتجديد البناء... فالنبيَّانِ أعادا بناءَهَا من قواعدها من أساساتها الباقية على الأرض، مما يعني أنها كانت من قبلهما مبنيةً، نحن نتحدّث عن آلافٍ من السنين عمقاً في تاريخ البشرية لبيتٍ محدّدٍ له تعالى، ونتحدّث عن دينٍ بدايته مع آدمَ(ع) وهو أوّل بشريٍّ قابلٍ للتكليف الإلهي، مِنْ بداية وعي البشرية وترقيها الذي يمكّنها من استقبال تكاليفَ إلهيةٍ، مِنْ هناك لدينا دينٌ واحدٌ مستمرٌّ وصولاً إلى هذا القرآن.

(فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَـاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ{97})
هذا البيت له قصص وعلاقة وثيقة مع النبي المُوَقَّرِ النموذج المثالي إبراهيمَ (ع) المُعْتَرَفِ به من عموم المتدينين كنموذجٍ عن الإيمان والالتزام بدينه تعالى.

{فِيهِ آيَاتٌ}، في ذلك البيت يوجد أمورٌ مميّزةٌ بنسبتها للدين الإلهي، أمورٌ مميّزةٌ تؤكّد أنَّهُ بيتٌ إلهيٌّ وليس من اختراع الناس، بدليل أنَّ في البيت، {مَقَامُ}، مكانٌ خاصٌّ كان يقوم فيهِ، النبي إبراهيمُ (ع)، مكانٌ كان يفعل فيه النبي (ع) شيئاً، طبعاً سيكون المكان للصلاة والدعاء بما أن الحديث هنا عن طقوس دينية.

خُذْ علماً عزيزي القارئ أنَّ بعض القبائل العربية قد بنت بيتاً في مدينتها مشابهاً للكعبة التي في مكّة، وأقاموا مراسمَ عباديةً حوله مشابهةً لمراسم الحج، ولكن، ما قيمة تلك البيوت إن لم يذهب إليها أي نبي أو رسول من الإله الذي يعبدونه؟ يمكنكَ تخصيص قطعةِ أرضٍ لعبادة الله تعالى، ويمكنك أن تبني فيها مسجداً لعبادته تعالى، ولكن، هذا المسجد مثله مثل أي مسجدٍ آخر، ولن يكون أبداً مثل المسجد الحرام الذي فيه الكعبة، لأنَّ الله تعالى أمر بعضاً من أنبيائه ورسله أن يذهبوا إلى مسجد مكة للعبادة ولإقامة طقوس الحاج من طوافٍ وسعيٍ... البيتُ الذي في مكة أخبرنا الأنبياء والرسل بأنَّه البيت الرسمي للعبادة لله تعالى.

عندما يقول القرآن لعموم الناس ولعموم أهل الكتاب وبالخصوص للمسيحيين، يقولُ عن مكانٍ مشهورٍ في مكة تعرفه كل الناس، وهو بقعةٌ ملاصقةٌ للكعبة، وتبعد عنه أمتار قليلة، وتلك البقعة مشهورةٌ بأنَّ النبي إبراهيمَ (ع) قد وقف فيها للعبادة والدعاء، فهذه آيةٌ، هذا شيءٌ مميّز كدليلٍ على أنَّ الحرمة والقداسة لهذا البيت ليست من اختراع العرب، فرسولٌ مشهورٌ معترفٌ به عند الجميع، قد وقف هناك يدعو، فهذا يؤكد ارتباط الكعبة بالإله حيثُ رسله قدّسوها.

{وَمَنْ دَخَلَهُ}، دَخَلَ إلى المسجد الحرام وهي الباحة التي فيها الكعبة، {كَانَ آمِنًا}، فعليهِ أمانٌ من الله تعالى، حيثُ يُستبعد الخطر منه تعالى، وهنا الكلام عموميٌّ عن أي خطرٍ كان، سواءٌ خطر رفض العبادة أو العقاب منه تعالى، فهو في المكان الصحيح للعبادة والتقرب إليه تعالى، هذا الأمان في مقابل الأماكن الأخرى غير المقدسة والتي لا ارتباطَ تاريخيّاً لها بدينه تعالى، وقد اخترع لها الناس قدسيةً، بعضُها قدسيته وهميةٌ ولا يرضى سبحانه باختراع قدسياتٍ للأماكن، مَنْ يكن فيها فهو ليس في مكانٍ له قدسيةٌ، وبالتالي فهو في خطر رفض عبادته بسبب اختراع قدسيةٍ للمكان...

أيضاً الأمانُ ممتد للتشريع، فهو مكانٌ حرّم تعالى فيه القتال والرفث والفسوق... كما تفهم من فحوى الآية 179 من سورة البقرة {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ...}، كلُّ من يؤمن به تعالى فأنت في أمانٍ من خطره في ذلك البيت...

بعبارةٍ أخرى عندما تضع في ذهنك وجود بيوتٍ أخرى لطقوسٍ دينيةٍ مشابهةٍ للحج، تلك البيوت اخترعها الناس من دون أي وحي إلهي أو تأكيد إلهي رسمي، فإن ذهبت إليها للعبادة وتقديم الأضاحي وللطواف حولها... فأنت لن تحصل على الأمان الإلهي الموجود في مكة، بل أنت في خطر من العقاب، لأنَّ بيت مكة فقط هو البيت الرسمي لطقوس الحج.

إلى الآن يوجد بيوتٌ منتشرةٌ هنا وهناك، وتقوم الناس بأداءِ طقوسٍ مشابهةٍ للحج حولها، كبيوت البهائيين، وبيوتٍ للبوذيين والهندوس والسيخ... وبيوتٍ للمسيحيين منتشرةٍ حول العالم، ولا ننسى اعتبار بيت المقدس وما يجاوره عند المسيحيين واليهود بيتاً وأماكنَ للحج... كلُّ من ذهب لتلك الأماكن لأداء طقوسٍ مشابهةٍ للحج، فهو في خطر من العقاب الإلهي، لأنَّهُ تعالى لم يحدّدها كبيتٍ للحج، لقصد التقرب إليه تعالى بطقوسٍ ومراسمَ خاصةٍ.

{وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ}، حيثُ فرض تعالى على الناس أن يحجوا بيته، أن يقصدوه للقيام بمراسمَ عبادةٍ، من طوافٍ وسعيٍ ونحرٍ...

يجب الذهاب إلى الحج على، {مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا}، حيثُ كان عنده القدرة ولا موانع من ذهابه للحج، فالحجُّ واجبٌ على كل الناس إذا استطاعوا السفر إلى مكة، حيثُ كان معهم إيجارُ الطريق، وصحّتُهم جيدةٌ للسفر، ومعهم ثمن الطعام، ويمكنهم ترك ما يكفي من المال لمن يعولون من أهلٍ وأولادٍ... طبعاً الحجُّ واجبٌ مرّةً واحدةً في العمر وليس كلما استطعنا الحج.

{وَمَنْ كَفَرَ}، أنكر أنَّ الحج واجبٌ، {فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}، غنيٌّ عن كل الناس من أولهم لآخرهم ولا يحتاج تعالى لأي شيء منهم، وليس بحاجة لحجّهم حتى لو لم يحجّ ولا واحدٌ منهم فلا يؤثّر ذلك عليه تعالى.

بالنسبة لوصفه تعالى بالغني ليس تفسيرها أنَّهُ تعالى يملك كل شيء وبالتالي يصير المعنى أنَّهُ سبحانه يملك ما يحتاجه، هذا غير صحيح، كلمة "غنيّ" تفيد معنى الاستغناء، وهو عموم انتفاء عموم الحاجة لعموم أي سبب، إمّا لأنك لا تحتاج أصلاً للشيء، وهذه حالته تعالى "الغنيّ" بالنسبة لكل شيء، وحالة الملائكة بالنسبة لطعامنا... أو غنيٌّ لأنك لديك ما تحتاجه وهذه حالتنا حين نملك الطعام والشراب... أو غنيٌّ لأنك تملك ما يمكّنك من الحصول على ما تحتاج، وهذه حالتنا حين نملك المال لنشتري به ما نحتاجه. وترى هذا المعنى للاستغناء بشكلٍ مباشرٍ وواضحٍ لأصل معنى كلمة "غنيّ" في تعبير {... وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} كما ورد في الآية هنا، بوضوحٍ يشير الوصف بالغني للاستغناء، لا حاجة له تعالى بهم ولا بإيمانهم ولا يتضرّر منهم مهما فعلوا.

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ{98})
{قُلْ}، أيها النبي (ع) عبر هذا القرآن:

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ}، يا أيها الناس الذين تقولون بأنكم منتسبون لكتابٍ إلهيّ، يا أيها اليهود والنصارى والصابئة... {لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ}؟ لماذا تنكرون الأمور المميزة المنسوبة له تعالى؟ القرآنُ أجاب عن كل استفساراتكم، وبيّن لكم الطريق الصحيح، وها لفت انتباهكم لمقام النبي إبراهيمَ (ع) في مكّةَ، والحجُّ الذي يأمر به هذا القرآن إلى مكّةَ صار واضحاً لكم أنَّه أمرٌ إلهيٌّ إلى مكانٍ له امتدادٌ تاريخيٌّ وصولاً إلى النبي إبراهيم (ع) "وما قبله"، لِمَ تنكرون كل هذه الأمور الإلهية المميزة؟ {وَاللّهُ شَهِيدٌ}، حاضرٌ يسمع يرى يشهد، {عَلَى مَا تَعْمَلُونَ}، أيُّ عملٍ تقومون به تحت المراقبة الإلهية، فما هذه الجرأة على الكفر بآياته تعالى؟!

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنتُمْ شُهَدَاء وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ{99})
{قُلْ}، أيها الرسولُ (ع) عبر هذا القرآن: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ}، أيها المنتسبون لكتابٍ إلهيّ، {لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ}؟ لماذا الذي أعلن أنَّهُ صار معتقداً ملتزماً بدينه تعالى تمنعونهُ من السير على مسلكه تعالى؟ {تَبْغُونَهَا}، ترغبون أن تكون سبيله تعالى، {عِوَجًا}، ملتويةً غير مستقيمةٍ! لا تقبلون الدين الصحيح الذي ينقله لكم الرسول محمّدٌ (ع) وتريدون أن يكون الإيمان على طريقتكم ملتوياً غير مستقيمٍ، وفيه تشريعاتٌ وعقائدُ غير صحيحةٍ توافق ما تهوونه.

تفعلون هذا الصدّ، وترغبون الطرق الملتوية، {وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ}، بحواسِّكُمْ وفكركم أنتم عارفون للحق وعارفون بما يصدر عنكم، فَتَصَرُّفُكُمْ بالمنع والابتعاد عن السبيل الإلهي، هو عن وعيٍ كاملٍ منكم وعن قصدٍ وتصميمٍ وليس عن جهلٍ بالحقيقة.

{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}، عمومُ ما تقومون به لا يجري من دون انتباهه تعالى له، ولا تحصل هذه الأشياء من دون معرفته تعالى بها، لأنه سبحانهُ يشهد كل شيءٍ يحصل في كل لحظةٍ وفي كل مكانٍ، ولا يغفل عن شيءٍ، أنا الآن مشغولٌ بالكتابة، وغافلٌ عمّا يحصل في الغرفة المجاورة، لأنَّ تركيزي مصبوبٌ على الكتابة، ولا قدرةَ لي على التركيز على أكثر من شيءٍ واحدٍ، أمّا سبحانه فلا يغفل عن أي شيءٍ أبداً، لا تجري الأمور إلا بعلمه وتحت مراقبته تعالى.

كما قالت الآية السابقة إنَّهُ سبحانه يشهد ما يفعلون من كفرٍ، هنا قالت نفس الشيء ولكن بطريقةٍ مختلفةٍ، فسبحانهُ لا يغفل عمّا تعملون، فكيفَ تتجرؤون على مخالفة أوامره والتصرف على هواكم!

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ{100})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، فأعلنوا أنَّهُمْ معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{إِنْ تُطِيعُوا}، فتسمعوا وتنفذوا كلام، {فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ}، تطيعوا كلام قسمٍ من الناس الذين وصلهم كتابٌ إلهيٌّ من قبلكم، وهذا القسم منهم يعمل على شيءٍ مشترك بينهم فهم فريقٌ يعمل على إضلالكم، فإن تطيعوهم، {يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ}، فترجعوا إلى حالة الناكرين للدين الصحيح من بعد اعتقادكم به، فلا تعتقدوا أنكم ستكونونَ مؤمنين إن تركتم الإيمان بهذا الرسول والقرآن، حتى لو صرتم مع أهل الكتاب الحاليين.

ليسَ كل أهل الكتاب لديهم مخططٌ لإضلالكم، البعضُ منهم ربما يتحدث معك عن الدين وهو يريد طرح وجهة نظره ولا يقصد أن يغيّر لك دينك، وربما يريد فقط التعرّف على دينك من باب البحث عن الحقيقة، وربما يؤمن بدينك، أو من باب الفضول ولا عداوةَ له مع الآخرين ولا ينوي تغيير دينه مهما جاءته من آيات... ولكن هناك فريقٌ منهم متخصّصٌ بالعمل على إضلال المؤمنين، فهم يعلمون أنَّ هذا الرسول والقرآن حقٌّ ويعملون على إبعاد الناس عنه، فانتبهوا منهم.

رغمَ أنَّ القرآن يعتبر الدين الإلهي له عقيدةٌ واحدةٌ، وشريعةٌ أساسيةٌ واحدةٌ، وأخبرنا أنَّهُ تعالى يرى اليهود والمسيحيين قد غيّروا في الدين من رأسهم، فرغم كل هذا، فإنَّ القرآن علّمنا أن لا نجبرهم على تغيير دينهم بالقوة، وأمرنا أن نتعايش معهم بسلام طالما هم مسالمونَ... ولكن حتى لا نشعر بالتساهل والتراخي الإيماني بسبب تركهم على دينهم، وكأنَّ لنا حريةَ الاختيار بين القرآن وبين أن نصير مسيحيين أو يهوداً... فهذا غير صحيح.

نَنْتَبِهُ أكثر، الآياتُ التالية سوف تنتقل للحديث عن التفرقة بين المسلمين، هنا تنبهنا الآية من مخطط إخراجنا عن الخط الصحيح، بكل أشكال الخروج، من التلاعب بالدين، أو التراخي في أحكامه... وصولاً إلى التمذهب والفرقة، كما سنرى في الآيات القادمة:

(وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{101})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، فأعلنوا أنهم معتقدون بهذا الدين:

{وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ}، كيف تنكرون الدين الإلهي، {وَأَنْتُمْ}، في نفس الوقت، {تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ}، تسمعونَ كلاماً تَتِمُّ قراءتُهُ عن مستندٍ عن الأمور المميزة المنسوبة له تعالى، فهذا القرآن "آياتٌ" كلامٌ إلهيٌّ مميّزٌ فكيف تُطِيعُونَ بعض أهل الكتاب تاركين ما يُتْلَى عليكم منه تعالى؟ وكيف تكفرون، {وَفِيكُمْ رَسُولُهُ}؟ فهناك شخصٌ يقول لكم إنَّهُ رسولٌ مرسلٌ من ربكم سبحانه، وربكم يأمركم بكذا وكذا، فكيف، وبأي منطقٍ تتركون الرسول الإلهي الناقل للكلام الإلهي والمعيّن منه تعالى وتلحقون بهؤلاء المدّعين أنَّهم تابعون لنفس الإله! هل كلامهم بقيمة كلام رسولٍ إلهيٍّ! أو فوقه!

{وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ}، فيحتمي ويتحصّن به تعالى، {فَقَدْ هُدِيَ}، عَنْ حقٍّ صارَ على الشيء الصحيح الذي يوصله لغايةٍ صحيحةٍ، {إِلَى صِرَاطٍ}، إلى طريقٍ إيمانيٍّ أساسيٍّ، {مُسْتَقِيمٍ}، يوصف بأنَّهُ على الأحسن فهو غيرُ منحرفٍ ولا اعوجاج فيه.

آياتُهُ تعالى ورسوله هما الحصن والقلعة، الحماية الإلهية، فَمَنْ آمن فقد اعتصمَ، احتمى، التجأ إلى الله تعالى، صار على الطريق الصحيح، لأن بقية الطرقات غير صحيحة، فكلُّها ملتويةٌ ولا توصل إلى الجنة، بل حتماً توصلك إلى النار، فهل تتركون الصراط المستقيم لتطيعوا فريقاً من أهل الكتاب يريد إضلالكم؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ{102})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنَّهُمْ معتقدونَ ملتزمونَ بهذا الدين:

{اتَّقُوا اللَّهَ}، تجنبوا وتحاشوا غضبه وعقابه، {حَقَّ تُقَاتِهِ}، لتكن التقوى صحيحةً ولا تكن باطلةً مزيفةً، ما تعرفونه من سوءٍ فاجتنبوه ولا تتلاعبوا به، وما تعرفونه واجباً فقوموا به ولا تهملوه، وكما ترى فهذا المعنى يرادف القول القرآني في الآية 16 من التغابن {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ...}.

الآياتُ تتحدث مع الذين أعلنوا أنَّهُمْ ملتزمون بالدين، ونبّهتهم الآيات السابقة من الاستماع لما يقوله أهل الكتاب لترك القرآن وترك ما يقوله الرسول(ع)، واعتبرت هذا كفراً وليس إيماناً، وهنا تكمل لتنبههم بأنَّ التقى الحقيقي يكون باتباع القرآن وما يقوله الرسول(ع).

{وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}، لا تفقدوا حياتكم إلا وأنتم معلنون انقيادكم وطاعتكم، طبعاً لله تعالى وحده، وإلا فستكون مصيبتكم كبيرة في الآخرة.

لاحظْ أنَّهُ ينصرف ذهننا من كلمة "مسلمون" لخاصَّةِ التسمية لديننا نحن كشيءٍ مختلفٍ عن دين المسيحيين، ولكن بإرجاع الكلمات إلى معناها اللغوي الأساسي مثلما استعملها القرآن، لن ترى أنَّهُ تعالى يميّز ديناً اسمه الإسلام عن دينٍ اسمه المسيحي عن دينٍ اسمه اليهودي، بالأصلِ كلُّ الدين له تعالى الإسلام، الانقياد لله تعالى، وكلُّ الذين سبقونا وصولاً إلى آدمَ(ع) هم بالوصف مسلمونَ.

هنا الآية لو فرضاً ذكرها تعالى هي نفسها في الإنجيل أو التوراة، لَهَا نفس المعنى، لا تموتن إلا وأنتم مسلمون، علماً أنَّهُ ليس مقبولاً من أي أحدٍ عاصر القرآن وما بعده أن يتركه، ليس لأنه دينٌ جديدٌ، وليس لأنه دينٌ اسمه الإسلام وسبحانه يأمرنا بالإسلام أي بالانتماء لدينٍ اسمه الاسلام، لا، بل لأن القرآن أعاد تجديد الدين الإلهي هو نفسه مصححاً ما تحرّف، ولهذا فمن غير المقبول تركه واتباع دينٍ إلهيٍّ سابقٍ فيه تحريفٌ من فعل الناس.

بالنسبةِ للتعبير بحقّ تقاته تعالى، فهو يبدأ من الالتزام بترك ما تراه سوءاً وفعل ما تراه خيراً، وهو نفسه الالتزام بما تعرفه من حلالٍ وحرامٍ وواجبٍ... وصولاً إلى أن لا تخترع حراماً وواجباً، مَنْ يخترع ويتلاعب بالدين، فيحرّم شيئاً

حلّله الدين، مثلما حرّم بعض اليهود لحم الجمل، وظننت نفسك تتقي الله تعالى بترك أكل لحم الجمل، فأنت "في الحقيقة" لست تقيّاً، لأنك لست مسلّماً أمرك لله تعالى، هو سبحانه لم يقل لك إنَّ هذا حرامٌ. بالعكسِ، مثلاً قد يقلب شيئاً حراماً ويجعله واجباً، مثل خيانة العهد مع من يخالفك في الدين، فيقنعك بأنك يجب أن تسرق ماله، حتى لا يصير عنده قوةٌ اقتصاديةٌ... علماً أنك عقدت عهداً معه! فتظن نفسك بخيانتك للأمانة بأنك تتقي الله تعالى! إذنْ، الإسلامُ لله تعالى وحده، الاستسلام بالطاعة لله تعالى وحده، هو الطريق الوحيد الصحيح لتقوى الله تعالى، لتجنب غضبه وعقابه.

(وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ{103})
الآنَ ستنتقل السورة إلى شيءٍ مشتقٍّ من حالة أهل الكتاب حين رفضوا هذا القرآن متمسكين بما لديهم حتى مع علمهم بفساد بعض ما بين أيديهم ووضوح سلامة هذا القرآن تماماً من أي سوءٍ أو فسادٍ، وستعتبر أنك فهمت حالتهم مما سبق من كلامٍ حين لم يروا دينه تعالى كحبلٍ واحدٍ ليتمسكوا به هم والآخرون، وستعرض لك الوقوع في حالتهم تلك من منظورٍ مختلفٍ، فترى نفسك على خط هذا القرآن ولكنك تفعل ما يفعله أهل الكتاب، فترفض الآخرين وتعلن نفسك الوحيد على الحقِّ من بين المسلمين الآخرين!

فيما سيأتي سنتوسّع في كلام الآيات وسيقفز إلى ذهننا حالة مذاهبنا الآن، علماً أنَّ الآيات نازلة قبل نشوء التسميات بكثير، ولكنها تنطبق بالضبط على أي حالة تفرّق، ففي عصر نزول هذه الآيات، كان هناك جماعاتٌ تميّز نفسها وأخرى تعزل نفسها، وحالة مسجد ضرار نموذجٌ عن ذلك كما تقرأ في الآية 107 من سورة التوبة {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ...}، وكان هناك النعراتُ العائلية والطبقية... وكانت بوتقاتُ الأصحاب موجودةً، ولم أستغرق في عرضها لك لأن رؤية ما نحن فيه الآن أسهل، والكلام يقصد بالضبط ما نحن فيه على مستوى الطائفية والمذهبية، فالآياتُ خاطبت الجيل الأول من المسلمين محذّرةً لهم من التفرق، وها قد صرنا في التفرق بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

يا أيها الذين أعلنوا أنَّهُمْ ملتزمون بهذا الدين:

{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا}، فليكن التمسك بحبل الله تعالى بما يربطكم ويجعل لكم صلةً به تعالى، فمرجعُ أموركم في شؤونكم فليكن موصولاً به تعالى واعتصموا به فاعتقدوا فقط به مانعاً لكم، في حمايتكم وملجأكم فكلكم في كل أموركم فلتكن برابط به تعالى، فلا تتمسكوا بحبل آخر وتعتصموا به، {وَلَا تَفَرَّقُوا}، لا تتفرقوا، عن الحبل الواحد ليكون لكل واحد منكم حبلٌ مختلفٌ عن الآخرين، فالحبلُ الإلهي هو القرآن فلا تتفرقوا عنه، ولا يخترع كل واحد منكم تفسيراً خاصاً للقرآن، أو تُدخلوا شيئاً جديداً على الدين...

إذا كنت في حفرةٍ، أو كنت في الظلام، أو كنت تخاف الوقوع... فأنت تريد حبلاً متيناً لتتمسّك به، لتعتصم به كمانع لك من السقوط، ونحن في هذه الحياة نحتاج إلى حبلٍ نتمسك به حتى نبقى على الحقِّ والخير والصلاح، وهذا فيه خير دنيانا وآخرتنا، وهذا هو حبل الله تعالى الذي مدّه لنا عبر القرآن عارضاً الحقَّ والصلاح بشكلٍ صافٍ. ونفهم الجملة بشكلٍ أبسط حين ترى شخصاً تاركاً لكلامه تعالى، فإذا قلت له شيئاً من كلامه تعالى اعتصم بالقومية والشيوعية والعلمانية والحرية... وبالنسبة لنا كمسلمين تخاطبهم الآية، فأيضاً وللأسف ترانا نعتصم بمذاهبنا بدلاً من الاعتصام بحبله تعالى! بل وكل واحد منّا يدّعي وبكل ثقة وصلابة أنَّهُ وحده الحق والبقية ضالّونَ!

فسبحانهُ يأمر كل من أعلن أنَّهُ مؤمنٌ بهذا الدين أن يتمسك بالحبل الإلهي مع بقية الذين أعلنوا أنهم مؤمنون، ويمنعهم من تعدد الحبال، فانظر لحالنا اليوم، فكلٌّ فرقة لها حبلها الخاص! وكل فرقة تقول عن الأخرى أنها ضالةٌ! وكل فرقة تريد من الفرق الأخرى أن تكون على حبلها!... والحقيقة أن كل من قال عن نفسه إنَّ له مذهباً إسلامياً خاصاً، أو طائفةً إسلاميةً خاصةً، أو فرقةً إسلاميةً خاصةً... فكلٌّ هؤلاء بكلامهم هذا قد تركوا حبل الله تعالى، وتمسكوا بحبالهم الخاصة، فبمجرد أن يكون الحبل العقائدي والتشريعي الذي تتمسك به هو خاصٌّ بك، بمذهبك، بطائفتك، بفرقتك... فأنت لست على حبل الله تعالى.

المصيبة الكبرى عندما يقول كل واحد منهم إنَّهُ هو وحده على الخط الصحيح! علماً أنَّهُ في داخل كل مذهب يوجد اختلافاتٌ، فكيف تكون الاختلافات في مذهبك كلها حبل الله تعالى، ويكون الاختلاف مع المذهب الآخر دليلاً على ضلال مذهبهم! وكثيراً ما سمعت من عوام الناس وبعض المسمين بالعلماء أنَّ مذهبهم لا خطأ فيه ولا خلافات بين علماء مذهبهم، وإن اعترفوا بخلاف ما فهم يجعلونها نقطةً تافهةً، ولا تسمّى خلافاً في نظرهم، ولكن هي ذاتها نفس النقطة إن قالها أحدٌ ما من مذهبٍ آخر، فهي خلافٌ يثبت أنَّ الآخر ضالٌّ...

{وَاذْكُرُوا}، يا أيها الذين أعلنوا إيمانهم بهذا الدين، فتذكّروا فاستحضروا في بالكم وقولكم وعملكم، {نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ}، فتذكّروا الشيء الجيد الذي حصلتم عليه من ربكم سبحانه، {إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً}، معادين لبعضكم، تقومون بأعمال معارضة لمصالح بعضكم البعض، وتعلم من التاريخ أنَّ عموم الناس والعرب منهم وهم نموذجٌ عن الكلام القرآني هنا، فقد كان بينهم عداوةٌ حتى بين أفراد الفخذ من العائلة الواحدة، ففي نفس العائلة عداوةٌ، والعائلة كلها معاديةٌ لعائلة أخرى، وهذه العوائل من قبيلة واحدة معاديةٌ للقبائل الأخرى... وعداوة الأوس والخزرج معلومةٌ بقساوتها وتاريخها المرير... {فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ}، فجعل سبحانه في أساس تفكيركم ومشاعركم، إلفةً اعتياداً وتماشياً مع بعضكم بلا تنافرٍ، {فَأَصْبَحْتُمْ}، فأوّل ما صرتم من بعد تأليف قلوبكم بالإيمان بدينه تعالى وتمسككم بحبله تعالى، أصبحتم، {بِنِعْمَتِهِ}، بالشيء الجيّد منه تعالى، فصرتم، {إِخْوَانًا}، تتشاركون في الإيمان، فخرجتم من العداوة لأنه سبحانه جمعكم وشارككم كلكم تحت راية دينه حيث لا تفرقة بين الناس. فالنعمةُ الإلهية فالشيء الجيد هنا هي هذه الإلفة والمحبة الناتجة عن تمسككم كلّكم بحبله تعالى لأنكم انتميتم لدين لا يفرق بين المنتمين له بالحقوق والواجبات.

أيُّ نعمة أكبر من هذه النعمة؟ فالدين الإسلامي سبّب الإلفة "الاعتياد التماشي بلا تنافر" للمسلمين الأوائل، فأصبح مجتمعهم "بشكلٍ عامٍ" آمناً متوحّداً وقوياً.

وقبل ذلك، {وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا}، على حافّةِ، {حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ}، لأنَّ البعض كان ملحداً، والآخر مشركاً، وهذا لا يعرف الدين الصحيح، وذاك اتّبع دينا منحرفا... وكل تلك الحالات المتفرقة المختلفة تجعل صاحبها على حافة النار، وبمجرد موته فسيقع في نار جهنم في الآخرة، فهذه الحالة التي كنتم عليها قبل هذا الدين الإلهي.

{فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا}، فخلّصكم سبحانه من تلك النار عندما قدّم لكم الدين الصحيح.

نلاحظ الجمع بين شيئين مع بعض، فحبل الله تعالى، وتمسك الجميع بهذا الحبل يوصل لمرضاته تعالى، وينجيكم من النار في الآخرة، وفي نفس الوقت يجعلكم معتادين متوافقين مع بعضكم البعض. فهذا كلُّه كلامٌ مترابطٌ، فربما يجتمع الناس على حبلٍ واحدٍ، ويكون بينهم إلفةٌ ومحبةٌ، ولكن قد يكون حبلهم ينتهي في جهنّم، أمّا الحبل الوحيد الذي يجمع كل الصفات المرغوبة: الإلفة في الدنيا، والجنة في الاخرة، فهو حبل الله تعالى فقط.

المقارنة بين حالتين: الإلفة بسبب التمسك بحبلٍ واحدٍ، والتفرّق بسبب تعدد الحبال، وهذا يؤدي إلى العداوة والانهيار... وإلى النار... وللأسف هذا هو حالنا اليوم يا أيها الذين آمنوا.

{كَذَلِكَ}، بهذه المقارنة بين حالتكم السابقة من العداوة والتشتت وانتفاء الأمن وانتشار الكراهية... وبين التمسك بحبلٍ إلهيّ واحدٍ فينتج عنه الوحدة والإلفة والقوة... ورضاه تعالى، فبهذا الكلام، {يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ}، الأمور المميزة المنسوبة له تعالى، فيتّضح لكم الطريق الإلهي الصحيح، فترون أنَّ التمسك بحبلٍ إلهيّ واحدٍ هو شيءٌ صحيحٌ، وآياته تعالى هنا بالتحديد هي المقارنة بين الإلفة الحالية وانتشار المحبّة والأمن والتكافل والتعاضد، وبين العداوة السابقة وانتشار الفوضى والقسوة والفساد...

{لَعَلَّكُمْ}، فمن المتوقع ومن المفروض منكم من بعد هذا البيان والتوضيح لآياته تعالى، {تَهْتَدُونَ}، فتكونوا على الشيء الصحيح الذي يوصلكم للغاية الصحيحة، فمن المفروض ومن المتوقّع منكم بعد بيان آياته تعالى لكم أن تتمسكوا بالحبل الإلهي.

معلومٌ لك من القرآن شفافية كلامه تعالى عن الجيل الأول من المسلمين أنّهم لم يكونوا كلّهم مؤمنين من الدرجة العالية، فكان فيهم فسقةٌ ومنافقونَ، ولكن المجموع العام كان فيه انضباطٌ عالٍ لنبذ التفرقة واعتماد قائد واحد "الرسول

محمّد(ع)" ومرجع واحد "القرآن"، فقد رأوا نتيجة الوحدة بالقوة الاقتصادية والأمنية والعسكرية والاجتماعية... ونتج عن ذلك سريعا في وقتٍ قياسيٍّ نواةُ دولة قوية جدا انتشرت مترامية الأطراف.

تصوّر لو أن حالة الجيل الأول من المسلمين لا زالت منتشرة على هذا العدد الهائل من المسلمين حاليا، كيف ستكون أوضاعنا إيمانياً وصلاحاً؟!

أمام آية بغاية الوضوح كهذه، ترانا مصرّين أن جميع الآخرين يجب أن يصيروا على مذهبنا! وبدلا من التوحّد معا أصابنا التوحّد لكل واحد منا لوحده!

(وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{104})
نعم، هناك في داخل هذا الدين أناسٌ فاسقون ومنافقون، فاسدون مفسدون، أناسٌ سيخترعون مذهباً خاصّاً بهم، وأناسٌ يريدون التميُّزَ عن بقية المسلمين... أناسٌ أدخلوا همجيتهم وأضغانهم وشهواتهم وغرائزهم السيئة إلى الدين، وباسم الدين يكفّرون المسلمين الآخرين... الطريق الصحيح للتعامل معهم لا يكون بالتفرّق والتمذهب والعداء لهم، بل تكمل السورة كلامها مع الذين أعلنوا التزامهم بهذا الدين:

{وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ}، ليكن منكم مجموعةٌ لها امتدادٌ تاريخيٌّ ومتفقةٌ على العمل التالي: {يَدْعُونَ} "الناس" {إِلَى الْخَيْرِ}، لا إلى الشرّ، ليكن منكم مجموعةٌ تقوم بدعوة المسلمين للقيام بأعمال الخير، للتفكير بشكلٍ خيّرٍ، لترك الأعمال السيئة مثل العداوة والاقتتال والتفرقة... {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ}، {يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ}، بما هو متعارف في الدين وبين المؤمنين العقلاء أنَّهُ شيءٌ جيّدٌ، {وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}، فيمنعون الناس نهائياً بلا عودة، عن القيام بأعمالٍ منكرةٍ ينكرها لا يؤيدها ويرفضها الدين وعقلاء المؤمنين. فالمنكرُ من مقابلته مع "عرف معرفة" يعطي معنى حصول صورةٍ أو مفهومٍ ونفي تطابقه مع ما لديك، فهو عموم ما ليس معروفاً على الوجه المطروح، كرفضٍ لتصنيفه.

{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، الدعاة إلى الخير {الْآمرونَ} {بِالْمَعْرُوفِ} {النّاهونَ} {عَنِ الْمُنْكَرِ}: هم المفلحون، هم الذين قاموا بعملٍ فالحٍ، أجادوا فيما عملوا لأنهم عملوا الصحيح.

عادةً يذهب فكرنا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى الشريعة، نقولُ أنَّ الواجبات التي فيها هي المقصودة بالمعروف، والأشياء الحرامَ هي المنكر، هذا صحيح، ولكن الأصحّ منه هو التعميم، الشريعةُ لم تتدخّل في كل التفاصيل الصغيرة لحياة الناس، كما تعلم، في كل مجتمعٍ يوجد خصوصياتٌ وعادات وتقاليد خاصة به، وهي لا تخالف الشريعة، ولكنها تختلف عن عادات وتقاليد مجتمعٍ آخر، في مجتمعٍ فقيرٍ، ليس من المعروف أن تشتري لأولادك ثياباً غاليةً جدّاً بقصد إظهار نعمة الله تعالى عليهم، فهذا عملٌ منكرٌ... في مجتمعٍ غنيٍّ، ليس من المعروف أن ترقّع ثياب أولادك لتعلمهم الزهد، فهذا منكرٌ في هذا المجتمع...

أضرب لك مثالاً آخَرَ أوضحَ حتى تلتفت للمساحة التي تركها القرآن لتتناسب مع أوضاع الناس وأنَّ ذلك لا يغير بأصل الشريعة والعقيدة الإلهية، هناك مساحةٌ تركها الدين الإلهي لما هو متعارف عليه بين الناس، الأمرُ بالمعروف ليس محصوراً بالأمر بما أمر الله تعالى به بشكلٍ صريحٍ، بل يمتدّ إلى الأمر بما تعارف عليه المؤمنون العقلاء في مجتمعهم بما يتوافق مع أساسيات الدين الإلهي، خُذْ هذا مثالاً: في مجتمعٍ فقيرٍ، قتل مؤمنٌ مؤمناً آخَرَ بالخطأ، فيجبُ عليه دفع دِيَةٍ، لِنَقُلْ أنَّهُ من المعروف عن الفدية في مجتمع الفقراء أن تكون عشرة آلاف درهم... الأمرُ بالمعروف يكون بتدخلك عند أهل المقتول لتقنعهم أن لا يطلبوا فديةً أعلى من هذا الرقم، علماً أنَّ الشريعة لم تحدد رقماً محدّداً للفدية، لأنها تركت تقدير قيمة الفدية لتقدير الناس، لأن المجتمعات تختلف فيما بينها، من مجتمعٍ فقيرٍ جدّاً، إلى مجتمعٍ غنيٍّ جدّاً، فتكونُ قيمة الفدية مختلفةً بين تلك المجتمعات، والقيمة المتعارف عليها "في كل مجتمع لوحده" تكون هي المعروف، والقيمة الناقصة أو الزائدة تكون هي المنكر.

الآياتُ تتحدث فيما يخص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حالة وجود تفرقة بين المسلمين، يجبُ علينا إرجاعهم إلى الأساسيات الدينية والعرفية الموافقة للدين الإلهي، والتي يرى مجتمعهم أنّها هي الصحيحة وليست شواذاً. نقفُ في وجه الدعاة للمذاهب الخاصة، ونساعد الداعين للرجوع إلى الإسلامِ وترك التفرقة... نقفُ في وجه السبّابين الشتّامين...

ونساعد المحبّبين والموفّقين، ونقف في وجه الباحثين عن الاختلافات للتعييب على غيرهم... ونساعد الباحثين عن المشتركات لجمع المسلمين على كلمةٍ واحدةٍ...

يخطر ببالنا أنَّهُ إذا شاع سوءٌ بين الناس صارَ عرفاً بينهم، فتصيرُ الأمور المعروف هو الأمر بما تعارفوا عليها، كحالة قوم النبي شعيبٍ (ع) الغشاشين في المكيال والميزان، الغشُّ صار "عرفاً" معروفاً بينهم! من هذا الأساس صاروا ينهون شعيباً عن التعييب عليهم بل ويطالبونه أن يكون مثلهم ومؤيداً لهم... لا، فالمنكرُ والمعروفُ معيارُهما القدرة التي جعلها تعالى فينا لتمييز الخير من الشرّ، وبعضنا يتعامى عن سوء بعض الأمور فيفعلها، ويفعلها... إلى أن يصير يراها حسنةً فيفقد التمييز بين الحسن والسوء في تلك المسألة... وإذا أصاب ذلك جماعةً كبيرة فهو عرفُ سوءٍ بينهم، والآخرين الذين ما زالوا يميّزون الخير من الشرّ هم عقلاء، هؤلاءِ هم المعيار، هؤلاءِ مأمورونَ بنهي مجتمعهم عن المنكر الذي صار معروفاً بينهم.

يعني، لا يصير العرف مفروضاً على الدين الإلهي إن كان عرفاً فاسداً، حتى لو تعارف كل المجتمع عليه أنَّهُ جيّدٌ، فهذا مجتمع فاسد تعارف على الفساد، والمعيار للمعروف هم المؤمنون العقلاء.

خلاصة الكلام من سياق الفقرة، الآيةُ هنا ترينا ماذا يجب علينا فعله كمؤمنينَ في مجتمعنا عندما تحدثُ خلافاتٌ بين الناس، حتماً هناك وصفُ المنكر والمعروف لخلافاتهم، بدلاً من التماشي مع تقاسم الناس لمجموعاتٍ كل مجموعةٍ لديها عقيدةٌ أو شريعةٌ خاصةٌ بها، يجبُ محاربة ذلك والعمل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{105})
يا أيها الذين أعلنوا أنهم ملتزمون بهذا الدين:

{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا}، مثل الذين لم يمشوا على طريقٍ واحدٍ، وكان لكل واحدٍ منهم طريقٌ خاصٌّ في العقيدة والشريعة والسياسة... فلم يعودوا فريقاً واحداً، ولا تكونوا مثل الذين، {وَاخْتَلَفُوا}، فكل واحدٍ أو جماعةٍ لها رأيٌ مختلفٌ عن الآخر، فلم يعودوا ملّةً واحدةً، فلا يحصل معكم كما حصل مع الذين تفرقوا واختلفوا، {مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ}، من بعدما وصلتهمُ الواضحاتُ، الأمور الواضحة التي يجب أن تكونوا عليها كلُّكم مع التحذير من كل أشكال التفرقة والاختلاف وأنها توصلكم للانحطاط والاقتتال والنار... حيثُ بيّن في كلامه تعالى كل شيءٍ حول هذا الموضوع، وخصوصاً في الآيات السابقة من هذه السورة، فلا تقعوا في التفرقة والاختلاف.

{وَأُولَئِكَ}، الذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءتهمُ البينات الإلهية، {لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}، فكل الضرر في الآخرة في جهنم أليمٌ لا يمكن تحمُّلُهُ أو الاعتياد عليه، فكله من النوع العظيم الضخم الأشد، نفسيّاً وجسديّاً...

إذا كنتُ أستعملُ كلمة "ننتبه" في دراستنا القرآنية هذه حتى ألفت انتباهك لشيءٍ مهمٍّ، فيا عزيزي ويا عزيزتي لا بد هنا أن أستعملَ كلمة: خطرٌ. فإن زِلْتَ تستعمل توصيفاً مذهبياً أو طائفياً لنفسك، ولا تكتفي بأن تقول: مسلمٌ... وإن كنت لا تزال ترى نفسك وحدك أنت والمشاركينَ لك في مذهبك أنكم أنتم وحدكم تمثلون الإسلامَ الصحيح... وإن كنت لا تزال تقول كلماتٍ تعبّر فيها عن هجومك على فكر غيرك من المسلمين، وتجادل وتبيّن العيوب... فأنت في خطرٍ شديد، لأنك ذاهب إلى عذابٍ عظيمٍ، وها أمامك كلامه تعالى.

كُنْ يا عزيزي ويا عزيزتي من الفالحين، كُنْ من الدعاة للخير، آمراً بالمعروف بأسلوبٍ حسنٍ، فلا ترتكب المنكر أثناء أمرك بالمعروف، لأنَّكَ تريد الوحدة للمسلمين وتُنبّهُ المخطئين على خطئهم، ولكن فليكن تنبيهك لهم أيضاً بالمعروف بالحسنى، فلا تتهمهم بأنهم ليسوا مسلمين، ولا تكن عنيفاً معهم، ولا تكن سبّاباً شتّاماً لعّاناً... فهذا منكرٌ وليس معروفاً.

كما ترى، فإن لم نخرج أنا وأنت من العصبية المذهبية، فما نفع دراستنا للقرآن! فإن كنّا ننظر إلى القرآن بأنه كتابُ هدايةٍ، ولكننا متمسكون بمذهبيتنا وعصبيتنا وطائفتنا... فأين هي الهداية! وإن كان القرآن صريحاً بالعذاب "العظيم" للمتفرقين المختلفين، وكنا نحن لا نزال منهم، فما نفع دراستنا وفهمنا للقرآن!

بقيَ شيءٌ، فواقع حال الابتعاد الجغرافي بين المجتمعات، والاختلاف التاريخي والبيئي... يولّد اختلافاً في العادات والمعروف... ولهذا ترك تعالى لنا هامشاً للمرونة في التشريعات والسلوكيات، وهذا الواقع لم نفهمه ولم نتعامل معه بعقلانية، ولا زِلْنَا مصرّين على تحطيم عادات وثقافة الآخرين حتى لو كانت متوافقة مع دينه تعالى!

مِنَ الطبيعي حصول اختلافاتٍ سياسية واجتماعية وفقهية بين مختلف المجتمعات، فهناك أسسٌ، وهناك الكثير من الأمور الاستذواقية، التي لا نراها مزاجية ونعتقد أنها فكرية وعليها براهين، بينما هي في عمقها تابعة للاستذواق والمزاج، وليست المشكلة هنا، بل في رفض الآخر وكأن مزاجي واستذواقي أنا هو الدين! وممنوعٌ على الآخرين تكوين ثقافة خاصة بهم نابعة من عاداتهم وتاريخهم وبيئتهم...

نعمْ، فكلما غلبت علينا الحكمة النابعة من كلامه تعالى، تقاربتْ أفكار المجتمعات، وهذا لا نرى له بوادر ليحصل، فلن تغلب علينا الحكمة "كمجموع" ولن تتقارب ثقافة مجتمعاتنا، فهل نعلن العداء لبعضنا! أم نقبل بالاختلافات على أمل تخطيها بشرط تخفيف الإضاءة عليها لتذوب لوحدها من التأقلم ومن رفع المستوى الإيماني والفكري للناس.

هكذا نفهم أمره تعالى لنا بالتمسك بحبله ليس بركل الآخرين ليفلتوا الحبل لنبقى وحدنا كطائفة أو مذهب متمسكين بالحبل، لا، بل بقبول الآخرين طالما بيننا وبينهم شيءٌ مشتركٌ، فعلى الأقل كلانا ندّعي الانتساب لهذا القرآن.

للأسفِ، هناك تراثٌ ضخمٌ من الشحن الطائفي والمذهبي للكراهية، ولكل فريق أحاديثُ وتفاسيرُ للقرآن تدعم شحن الخلافات، وإن قفزت تلك الأفكار إلى رأسك، ومنعتك من رؤية أوامره تعالى الصريحة بنبذ الفرقة، فماذا أقول لك؟ أنت بين نار تقديس الموروث وكلام القديسين، وبين تقديس كلامه تعالى الذي لم يعد ظاهراً صريحاً بالوحدة بين المسلمين بسبب كلام القديسين! وسأقول لك أنّي مطمور في غرفتي ومغمور لوحدي، ولست طامعاً في شيء من رئاسة أو شهرة، ولا استفادةَ لي من مذهب أو طائفة لأخسرها أو لأربحها، وفي هذا الموضوع فكلامه تعالى عندي هو المقدّس، وكلامي هذا هو كلام من لا ناقة له ولا جمل في التمذهب والتفرقة، فأخبرني عنك؟ وما هي دوافعك؟ وهل تستطيع تحريف ظاهر المعنى الواضح للآيات هنا؟ وَتَضْحَكَ على نفسك أنك ستدخل الجنّة متعصباً لمذهبك متعادياً متنافراً من الآخرين... فلمن العذاب العظيم؟

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ{106})
العذاب العظيم للمتفرقين والمختلفين في الآخرة، الناسُ في يوم القيامة نوعانِ:

{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ}، فهناك زمنٌ يكون فيه المتمسكون بحبل الله تعالى وجوههم نضرةٌ مستبشرةٌ لا غبرةَ عليها ولا آثارَ تعذيبٍ أو إرهاقٍ... وهناك زمنٌ، {تَسْوَدُّ وُجُوهٌ}، فتصيرُ سوداءَ من الغبار والدخان والإرهاق والتعذيب...

{فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ}، فيقولُ لهم ربنا سبحانه والملائكةُ (ع) والمؤمنون: {أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}؟ فأنكرتُمُ التمسك بحبلٍ إلهيّ واحدٍ، ولحقتم التفرقة والاختلاف بعد أن تعرّفتم على الدين الحقّ ورأيتموه واضحاً صحيحاً؟ {فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ}، فبسببِ إنكاركم لأمره تعالى بالتمسّك بحبله تعالى، فذوقوا العذاب، حيثُ لن تشاهدوا الضرر أو تسمعوا عنه، بل ستعيشون فيه لتتحسّسوه وتشعروا به.

(وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{107})
{وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ}، وجوههم نقيّةٌ لا أثرَ للانزعاج عليها ولا للضرر، لأنهم حضروا إلى الآخرة وهم كانوا في الدنيا متمسكين بحبل الله تعالى، وَتَرَكُوا الفرقة والاختلاف، {فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ} تعالى، في عنايته تعالى لما فيه مصلحتُهم، والترجمة العملية لهذه الرحمة هي المغفرة ومضاعفة الأعمال ودخولهم إلى جنّةٍ رائعةٍ، {هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، في العناية لما فيه مصلحتُهم إلى ما لا نهاية.

(تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ{108}

{تِلْكَ}، التحذيرات من العذاب العظيم في الآخرة للمتفرّقين المختلفين، من المسلمين عن بعضهم البعضِ، وممّن سبقنا من أهل الكتاب عن بعضهم البعضِ وعنّا... والتبشير للمتمسكين هي، {آيَاتُ اللَّهِ}، أمور مميزة بنسبتها له تعالى، {نَتْلُوهَا عَلَيْكَ}، نقرؤها عليك عبر هذا القرآن عن مستند، {بِالْحَقِّ}، بالصواب وليس بالباطل وليست كذبًا.

عندما يصلنا خبر منه تعالى عن عقاب لمن ترك حبله، وعن ثواب لمن تعلّق بحبله، فهذا كلام مميّز لأنه هو تعالى قاله، وقاله تعالى ليس من الهواء بل يستند هذا الكلام إلى صفاته وقدراته الفائقة سبحانه، وبناءً عليه فكلامه تعالى تلاوة عن صفاته وقدراته، وهو تعالى لا يخلف وعده وسيتحقق ما قاله عن الاسوداد والابيضاض في الآخرة للوجوه.

{وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ}، وسبحانه لا يريد بهذا التعذيب ظلمًا لأي واحد من الناس، لا يريد سبحانه ولا يقصد ولا يرغب أن يظلمهم، ولذلك أخبرهم من الآن عن العقاب لمن ترك التمسك بحبله تعالى، حتى يُنَبِّهَهُم، فلو لم يُنَبِّهْهُم سبحانه بالعقاب على ترك الوحدة والاتحاد، ثم حضروا في يوم القيامة وعاقبهم، عندها لن يكون تعالى على حقّ في ذلك، حيث سيظلمهم تعالى لأنه لم يخبرهم بأن هذا ممنوعٌ عَلَيْهِ عِقَابٌ.

بعبارة أخرى، ها نحن نخبركم عن مستند إلهي على القدرات والصفات الإلهية الفائقة وعبر هذا القرآن عن العذاب الذي سيحصل مع المختلفين التاركين للتمسّك بحبله تعالى سواء أكنتم من أهل الكتاب أم من المسلمين، لأنه من الظلم معاقبتكم وأنتم لا تعلمون أن التفرقة عليها عقاب، وها نحن أخبرناكم.

إذًا، لينتبه كل الذين يقولون إنّ مذهبهم هو الحق، وأنّه على كل المسلمين أن يكونوا مثلهم، ولْيَنْتَبِهْ، أنّه تمّ تحذيره، فعليه بالتعلق بحبل الله تعالى وبترك حبل الطائفية والمذهبية والعصبية، لأنها لن تنفعه في الآخرة كما هو واضح وصريح من كلام الآيات هنا.

(وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ {109})
{لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، فمنسوب له تعالى تصميم وخلق وملك وتدبير "إدارة"... كلِّ السماوات السبع والأرض، وهذا التعبير القرآني يشير إلى كل ما في الدنيا. عندما قرّر سبحانه تعذيب من ترك حبله، وعندما قرّر إثابة من تمسك به، فهذا يرجع لسبب أن كل شيء منسوب له تعالى فيملكنا ويملك كلّ شيء ويمكنه فعل ما يشاء بنا.

يعني هي على معنى: أسألك بالقضية التي حَتَمْتَهَا وَحَكَمْتَهَا وَغَلَبْتَ من عليه أَجْرَيْتَهَا. وحالنا كمكلفين بدينه تعالى مع نهاية فيها عقاب وثواب، فهي قضية مبنية على كونه تعالى مصممًا خالقًا مالكًا مسيطرًا متابعًا مدبرًا... لكل شيء، وهذا قراره سبحانه فينا. فليعترض على ذلك من يعترض، فهذا القرار الإلهي نابع من حكمة من مستوى إلهي.

{إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}، فأي أمر وأي شيء فإن القرار فيه يرجع له تعالى، وبيده تعالى القرار والحكم الأولي والنهائي، وعنده سبحانه مخطط لكل شيء، وكل شيء يحصل بحسب ما خطّط له سبحانه، وكل الأمور بيده تعالى، ومصيرنا ومصير كل الكائنات والسماوات بيده وتحت تصرفه سبحانه.

لا يُفَكِّرْ أي واحد منكم أيها المسلمون أنه توجد طريقة تحميه من العقاب إن ترك التمسك بحبل الله تعالى، ولحق المذهب والطائفة، لا، فالقرار بالتعذيب صادر من الله تعالى، ولا يوجد أي مهرب من هذه النتيجة، لأن الأمور كلها بيد الله تعالى، وسبحانه قرّر التعذيب والثواب بهذا الشكل وهذا سيحصل حتمًا.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضًا على قبّة النجوم التي نراها ليلًا ونطلقه أيضًا على عالم الملائكة (ع) ونطلقه معنويًا على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائمًا أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنويًا" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}... وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراضٍ "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا

يصير كوكبنا الترابي أرضًا بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراضٍ.

(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ{110})

{كُنتُمْ}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم ملتزمون بهذا الدين، كنتم عبر التاريخ، {خَيْرَ أُمَّةٍ}، أفضل أحسن جماعة لها امتداد تاريخي ومشتركة على رأي واحد، وهنا الكلام عن الإسلام له تعالى، فكنتم {خَيْرَ أُمَّةٍ}، {أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}، فهناك أمم قبلكم خرجت للحياة وكانت على دينه تعالى ولكن لم تكن بمستواكم لأنكم:

{تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ}، تأمرون الناس بما هو متعارف عليه بين المؤمنين العقلاء وهو نفسه يتماشى مع كلامه تعالى، فتقولون لمن حولكم، ولبعضكم البعض أن يلتزموا بالمعروف، ويفعلوا ما هو متعارف عليه، ومعلوم تماشيه مع الدين ومنتشر بين الناس المتدينة العاقلة، وتأمر من حولك بالصلاة والزكاة والصيام والصدقة و... وتأمرهم بفعل الأشياء المتعارف عليها بين المؤمنين أنها حسنة وجيدة... راجع ما مرّ منذ قليل في الآية 104.

{وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}، فتمنعون غيركم من القيام بشيء منكر لا يؤيده ويرفضه الدين وثقافة المؤمنين العقلاء، وتنهون عن هذه الأمور وتأمرون الناس بتركها وأن لا يكرروها نهائيًا، وتنهون الكاذب عن الكذب، وتنهون السارق والغاصب والنصّاب... وتنهون عن المحرمات... وعن الأشياء التي ينكرها الناس المتدينون...

المنكر من مقابلته مع "عرف معرفة" يعطي معنى حصول صورة أو مفهوم ونفي تطابقه مع ما لديك، فهو عموم ما ليس معروفًا على الوجه المطروح، كرفض لتصنيفه.

لاحظ ما كررناه مرارًا عن طريقة كلامه تعالى معنا في قرآنه والذي صار في الخلف عندنا مستبدلينه بأدبياتنا الدينية التي تراكمت حتى بسببها لم نعد طريقة كلامه تعالى، فسبحانه في قرآنه لا يعرض علينا دينًا غريبًا عجيبًا لنجبر أنفسنا على الإيمان به، بل يعرض علينا ما يمكننا نحن رؤيته حقًّا وصلاحًا، فقد جعل تعالى فينا القدرة على تمييز ذلك، وبناءً عليه يدعونا للإيمان بالحقّ وعمل الصالحات.

هنا جملة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عمومية وشاملة لكل شيء يوصف بالمنكر أو المعروف، فهي مرادفة لعملوا الصالحات التي تتضمّن تركهم للسيئات، وتعرض نفس هذه الفكرة من زاوية أننا كبشر لدينا بالأساس قلب "أساس فكر ونفسية" يميّز بين الخير المرغوب لنا والشرّ المنفور منه، وهذا هو نفسه ما يأمرنا به تعالى محافظًا على نفس التسمية بالحسنة والسيئة، ومضيفًا عليها الجزاء بالعقاب على السيئة وبالسعادة على الحسنة.

سياق الكلام في الفقرة هنا لا يزال عموميًا وقابلًا للانطباق على كل المؤمنين الحقيقيين المنتمين لدينه تعالى من أوّل ما تكلّفت البشرية، وبعدها تبدأ التدرجات في الانطباق بحسب تدرجات مستوى إيمان المجتمعات.

بالعمومية الواسعة جدًا كنتم أيها المؤمنون "الحقيقيون" بدينه تعالى خير من بقية الأمم، فأنتم تأمرون بالخير وتنهون عن الشرّ، وهذا هو نفسه دينكم فتأمرون بالصدقة والأمانة والصدق... والإيمان بالحقّ... فعقائدكم حق وتشريعاتكم وسلوكياتكم صالحة، هذا بالمقارنة مع أمم سادت فيها عقائد وتشريعات باطلة فاسدة شريرة...

بعدها يتضيّق العنوان قليلًا مع محافظته على الأساسيات، فيصير شاملًا للتفاصيل التي تركها تعالى كهامش مرونة لنا لنتحرك ضمنها بما يناسب مختلف الأزمنة والأمكنة، وهذا ما تشمله عبارة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

{وَتُؤْمِنُونَ}، فتعتقدون، {بِاللَّهِ}، بصاحب هذا الاسم المحدد المميز إلهًا أحدًا ربًّا... فتطيعونه وحده تعالى، وعمليًا فلديكم كتاب من ربكم سبحانه، فتراجعونه وتلتزمون بعقائده وحلاله وحرامه، وإذا سمعتم أي شخص كان، فإنكم تراجعون كتاب ربكم سبحانه لتروا إذا كان كلام هذا الشخص صحيحًا ومطابقًا أو متماشيًا مع كلامه تعالى في الإيمان والتشريع والسلوكيات.

{وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم}، فقد دخلت الآيات السابقة على حديث التفرقة وترك حبل الله تعالى، دخلت عليه من الحديث عن فريق من أهل الكتاب أرادوا إضلال المؤمنين ليتركوا دينهم، وليتفرقوا ويختلفوا... فلو آمن أهل الكتاب

بدل عنادهم وكفرهم وتمسكهم بحبل غير إلهي، لكان خيرًا لهم، فهو العمل الموصوف بأنه خير لأن هذا هو دينهم المعروض هو نفسه في هذا القرآن.

هكذا ترى أن الآيات هنا أوسع في نظرتها من تفسيرها على مجتمع مسلم مغلق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فنظرتها شاملة بكلامها مع أهل الكتاب، فدينكم هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان به تعالى... وهذا نفسه ما يطرحه هذا القرآن، وإذا فعلتم ذلك فأنتم خير أُمَّةٍ، وإن لم تكونوا كذلك فبأي تصنيف وعلى أي قاعدة ترون أنفسكم منتمين لدينه تعالى ومختلفين عن المشركين والعلمانيين والملحدين...؟

على كل حال، فهل كل أهل الكتاب نواياهم سيّئة؟ لا، {مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ}، فبينهم من يعتقد بالله تعالى بحقّ، فهناك من مات منهم قبل نزول القرآن، وكانت نواياه طيبة مخلصة لله تعالى، فهذا لم يصله نص إلهي صحيح خالٍ من التحريف ليهتدي به مقوّمًا ما تخالف الناس عليه... ولكنه اتبع الأشياء الجيدة التي وصلته وتماشت مع سلامة قلبه، فهذا مؤمن له مكانته الإيمانية عند ربنا سبحانه، وإن كان هناك شخص مثله بعد ظهور النبي محمد (ع)، ولم يصله الإسلام صحيحًا ووصله مُشوَّهًا، وكان عنده نوايا طيبة، وكان يلتزم بأحسن ما وصله من الدين الإلهي، فهذا يعتبره ربنا سبحانه مؤمنًا، ولكن، هل يوجد الكثير من هذه النوعية بين أهل الكتاب؟ لا، {وَأَكْثَرُهُمُ}، وغالبية أهل الكتاب، {الْفَاسِقُونَ}، خارجون عن الأمور العلنية التي يقولها الدين، فما قاله الدين بشكل واضح عن العقيدة والحلال والحرام... فهم يخالفونه وهم يعلمون بما يفعلونه من مخالفة.

(لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ{111})
إن بقيتم على المواصفات التي تجعلكم خير أمّة:

{لَن يَضُرُّوكُمْ}، لن يغيّر الفاسقون من أهل الكتاب حالكم إلى الأسوأ، {إِلَّا أَذًى}، فَتُصَابُونَ بسببهم بأضرار خفيفة جدًّا، ولن يستطيعوا تغيير دينكم، ولا التلاعب به، ولكن يمكنهم التسبب ببعض المشاكل الصغيرة.

{وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ}، فيقوم أهل الكتاب بعمل حربي ضدّكم لإنهاء حياتكم، فإنهم، {يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ}، فيعطونكم جهة أقفيتهم ظهورِهِم، فلن يصمدوا في الحرب ويواجهوكم وجهًا لوجه، بل سيوجّهون ظهورهم باتجاهكم، فسيهربون منكم.

{ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ}، فلن يحصلوا على النصر عليكم من أي جهة كانت، ولن يجدوا من يحقّق لهم ما يريدونه من قتالكم، فسبحانه أقوى قوة في السماوات والأرض وسيؤيدكم أيها المؤمنون، أمّا هم فلن يحصلوا على نصر أو تأييد يمكّنهم من التغلب عليكم.

هذا طبعًا إن تمسكتم بحبله تعالى جميعًا، وإلا فلا نصر إلهيٌّ لنا والضرر منهم سيكون كبيرًا.

معلومٌ لك أن النصر يحصل لجماعة كفّار على جماعة أخرى كافرة، ولكنه ليس نصرًا إلهيًّا، بل إجرام، والكفّار ينتصرون على مسلمين، مما يعني أن المسلمين كانوا متفرقين متخالفين، فلن ينالوا النصر الإلهي إلا إذا التزموا بحبله تعالى، وإذا كان جماعة ما مسلمين بالاسم لأنهم مجرمون فاسدون فانتصارهم على الآخرين هو إجرام وليس نصرًا إلهيًّا، وهذا ما ستقوله الآية التالية.

(ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ{112})
{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ}، انفرضت ولصقت على أهل الكتاب، {الذِّلَّةُ}، الانقياد والتبعية لغيرهم وفقدانهم للحكم والرئاسة، {أَيْنَ مَا ثُقِفُوا}، في أي مكان بحيث يمكن للمؤمنين أن يطالوهم، فإنهم في حالة الذلة والانقياد لحكم المؤمنين.

{إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ}، فإن ترك المسلمون التمسك بحبله سبحانه، وصار أعداؤهم أفضل إيمانيًّا وتشريعيًّا منهم، فسينصر سبحانه الآخرين. وهذه شفافية بالكلام النابع من إله سبحانه وتعالى، الحكيم الخبير الحقّ... فلن ينصر جماعة ما لمجرد انتسابهم بالاسم لدينه، فإن كان الآخرون بالمجموع العام أفضل منهم فسينصر سبحانه الآخرين.

وإلّا، {بِحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ}، فإن أصاب المسلمين الفرقة والاختلاف، فإن أهل الكتاب سيغلبونهم بحبل من الناس، بأناسٍ متحدين معهم على حرب المسلمين.

تنبّهنا الآيات أنّ الحكم الإلهي الأول على أهل الكتاب هو انتصار المؤمنين عليهم، إلا في حالتين: حين يترك المسلمون التمسك بالحبل الإلهي، ويصير أهل الكتاب أقرب من المسلمين إليه تعالى من شدّة ما انحرف المسلمون. والحالة الثانية حين يقوم عدد كبير من الناس بمساندة الأعداء بالعتاد والجند، ولا يقوم المسلمون بمد حبل العون لبعضهم البعض. ففي هاتين الحالتين لن يكون أهل الكتاب أذلّةً تحت حكم المسلمين بل بالعكس، فسيكون المسلمون تحت حكم الأعداء.

{وَبَاءُوا}، وباء أهل الكتاب فصاروا في مكانة، {بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ}، فما قاموا به لا يمكن أن يمرره تعالى بدون ردٍّ قَاسٍ، {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ}، ففرض وألصق تعالى عليهم، {الْمَسْكَنَةُ}، فلم يعودوا أعزّاء أقوياء حاكمين لأنفسهم مع العلم أنهم منتسبون لكتاب إلهي، بل صاروا مساكين تحت حكم الظالمين، {ذَٰلِكَ} الغضب والمسكنة، {بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ}، فلا يعتقدون بالأمور المميزة المنسوبة له تعالى، وبسبب ذلك تشوّهت عقائدهم وتشريعاتهم وسلوكياتهم، {وَكَانُوا}، {يَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ}، الأشخاص الذين يصلهم نبأ منه تعالى لهداية الناس، يقتلونهم، {بِغَيْرِ حَقٍّ}، بل ظلمًا وعدوانًا، فلو أنّ نبيًّا قام بعمل إجرامي، وقتلوه، فسبحانه لن يحاسبهم على قتله، ولكنهم قتلوا الأنبياء فقط لأنهم يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر!

{ذَٰلِكَ}، الذلة أمام المؤمنين والغضب الإلهي والمسكنة المفروضة على أهل الكتاب، {بِمَا عَصَوْا}، بسبب مخالفتهم لأوامره سبحانه، {وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ}، فيتعدّون حدودهم بمخالفة أوامره سبحانه.

انتبهْ، فقد كان أهل الكتاب في السابق هم المنصورين من الله تعالى، هم المؤيّدِين منه سبحانه، ولكنهم بعدما كفروا بالآيات وتلاعبوا بالإيمان وعصوا وقتلوا الأنبياء... فإنهم فقدوا العناية الإلهية بهم، وتحوّلت العناية للأمة الجديدة التي هي خير أمّة إذا التزمت بحبل الله تعالى وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر... أمّا أنّه من الواضح حالنا اليوم، فلم نعد خير أمّة، بل متشرذمين يتلاعب بنا كلّ من حولنا!

حوادث قتل الأنبياء والمؤمنين قليلة عبر التاريخ قياسًا مع عدد كل الناس، وقياسًا مع الحروب التي خاضها مختلف الناس وقتلت الملايين... وفرضًا لو حدثت مرّة واحدة، فقتل قوم ما نبيًّا واحدًا، فهذا يكفي حتى يكون نموذجًا كعقلية لا يمرّ عليها تعالى بالنظر للعدد "واحد"، لا، فهذا الواحد أهمّ عنده تعالى من المليارات، وسيذكره تعالى في كلامه كنموذج لأبشع ما يمكن أن يفعله الكافرون بآياته تعالى. والمشهور بين الناس أنهم قتلوا النبيين يحيى (ع) وزكريا (ع)، وليس لدينا في القرآن أي تسمية أو ذكر لحادثة جرى فيها فعلًا قتل نبيٍّ إلا محاولتهم قتل النبي عيسى (ع)، ولدينا في التاريخ كلام عن محاولات اغتيالهم للنبي محمّد (ع) وقبله محاولة اغتيال للنبي داوود (ع) وللنبي سليمان (ع)، فربما لم يتحقّق فعلًا قتل لأي نبي عبر التاريخ ولكن صار موصوفًا من حاول قتلهم بأنه قاتل للأنبياء بالرغم من منعه تعالى من حدوثه، وراجع استعمال العرب والقرآن لكلمة "قتل" ومشتقاتها وسترى أنّ المباشرة بأي عمل بقصد إنهاء حياة الآخر فهو قتل حتى لو لم يتحقّق القتل، فهنا التعبير بقتلهم النبيين ليس بالضرورة أنّه تحقّق وأنهوا حياة نبيّين، فيكفي قيامهم بعمل يقصدون منه إنهاء حياة نبي ما فهو عمل قتل حتى لو لم يتحقّق.

إنْ خطر ببالك أنّ التعبير بقتالهم المؤمنين سيعطي بشكل أصرحَ المعنى الذي ذكرناه، فكلامك صحيح ولكن من تبعات هذا التعبير أن يكون القتال من الطرفين، وهذا معنى لا تريد الآية قوله.

(لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ{113})

هل كل أهل الكتاب عاطلون؟ لا: {لَيْسُوا سَوَاءً}، ليسوا كلهم نفس الشيء أو متساوين، في العقيدة والتصرفات، {مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}، من الذين ينتسبون لكتاب إلهي، يوجد، {أُمَّةٌ}، مجموعة من الناس لها امتداد تاريخي وتتفق على شيء مشترك "وهو الإيمان"، {أُمَّةٌ}، {قَائِمَةٌ}، لم تعطّل لم تهمل ولم تترك بل بقيت تفعّل ما يلي: {يَتْلُونَ}، يقرؤون استنادًا لكتابهم الإلهي، {آيَاتِ اللَّهِ}، الأمور المميزة المنسوبة له تعالى التي يجدونها في كتابهم، يتلونها، {آنَاءَ}، ساعات وأوقات أثناء، {اللَّيْلِ}، في فترة العتمة من اليوم، {وَهُمْ يَسْجُدُونَ}، يعبّرون بأقصى طرق التعبير عن احترامهم

وخضوعهم لله تعالى، فهم ملتزمون بآياته تعالى وبعبادته بل ومن العبّاد من الدرجة الأولى من الذين يقومون للعبادة في الليل.

هناك أشخاص عبر التاريخ وفي مختلف الأماكن على الأرض من أهل الكتاب وهم من العبّاد الحقيقيين لله تعالى، وإن كان عددهم قليلًا جدًّا، ولكن سبحانه ينبّهنا أنهم موجودون، ولم ينتقلوا إلى الدين الإسلامي لأنه لم يصلهم، أو لم يصلهم بشكل صحيح، أو ... حتى لو فرضًا كان هذا المؤمن الحقيقي من أهل الكتاب شخصًا واحدًا، فإن القرآن يعطيه حقّه، ويذكره لنا بالخير، ولْنَنْتَبِهْ أنه موجود فلا نحكم على كلّ أهل الكتاب بالفساد.

لا يغرّك أن نقول عن المؤمنين الحقيقيين من أهل الكتاب إنّ عددهم قليل جدًّا، فلا يذهب فكرك أنّ المؤمنين من المسلمين عددهم ضخم، لا، فالآية 40 من سورة الواقعة تخبرنا أن المؤمنين الحقيقيين من هذه الأمّة هم ثلّة {وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ}، والأكثرية منّا قد خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيّئًا... وراجع أيضًا الآيتين 101 و 102 من سورة التوبة {وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ، وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}، اللتين تخبرانك عن كثرة النفاق وكثرة الذين خلطوا عملًا صالحًا بآخر سيّئًا من المسلمين...

لا يَغُرَّنَّكَ تسمية أولادنا محمّدًا وصلاتنا عليه واقتناء قرآن في بيوتنا... بأننا صرنا مختلفين عن اليهود والنصارى لأننا آمنا بآخر رسول وآخر كتاب، فواقع حال الأكثرية الساحقة من المسلمين فسق ونفاق وكفر بما جاء به محمد (ع) وبما في هذا القرآن، ولا تبتعد كثيرًا وتذكّر منذ قليل أمره تعالى بالتمسك بحبله، وقبلها أمره بالصدقة... وبعدها أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر... فأين نحن من ذلك حتى نكون أفضل عنده تعالى من بقية أهل الكتاب الحاليين!؟

(يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ{114})
تلك النوعية المؤمنة من أهل الكتاب: {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}، فيعتقدون بأنه الإله والرب الأحد الواحد للجميع، ويؤمنون بـ {الْيَوْمِ الْآخِرِ}، فيعتقدون أنه سيأتي يوم ستتم محاسبة الناس فيه، فنحن هنا في الدنيا أوّلًا، وهي الحياة الأولى، ومن بعدما تنتهي الدنيا، تأتي الآخرة، الحياة الأخرى بعد الأولى، وفي الآخرة يوم ستتم محاسبة الناس فيه، وعمليًّا فمن يؤمن بالآخرة فهذا يعني أنه سينتبه لتصرفاته ولعقيدته حتى لا يطاله العقاب في الآخرة.

{وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ}، فيأمرون الآخرين بما هو متعارف عليه أنه متوافق مع الدين الإلهي ومتعارف عليه بين المؤمنين العقلاء، فيأمرون ببر الوالدين والصدق والأمانة... {وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}، فيأمرون الناس بترك الأشياء المنكرة التي لا يوافق عليها الدين الإلهي ولا يعترف بها أنها جيّدة فينكرها المؤمنون ويعتبرونها سيئة، فيأمرون الآخرين نهيًا أي بتركها نهائيًّا بلا عودة، كالكذب والفاحشة والخيانة والغيبة...

{وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ}، الأعمال والأقوال الجيّدة من كل الأنواع، من مساعدة الناس ماليًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا ودينيًّا... فهم يقومون بها كلما سنحت لهم فرصة لذلك، وانتبه فهم لا يسرعون ولا يتسرّعون، بل يسارعون فلا يهملون ولا يتباطؤون، وأيضًا لا يتهوّرون أو يتصرفون بدون تفكير، {وَأُولَئِكَ}، النوعية من أهل الكتاب، {مِنَ الصَّالِحِينَ}، من الذين صلحت فحسنت عقائدهم وأعمالهم ولم تكن فاسدة.

طبعًا هذه موافقة إلهية على إيمانهم وسلوكهم تصلهم عبر هذا القرآن كخبر، وإن لم تصلهم تبقى خبرا للآخرين عن نظرته الإلهية سبحانه وتعالى للأمور.

(وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ{115})
{وَمَا يَفْعَلُوا}، وأي عمل يفعله الصالحون من أهل الكتاب، {مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ}، وكان خيرا فلن ينكره لهم ربنا سبحانه، بل سَيُقِرُّ سبحانه لهم عملهم ويعتبره عملًا صالحًا وعليه ثواب.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ}، حيث لديه علم دقيق وتفصيلي، {بِالْمُتَّقِينَ}، بالأشخاص الذين هم فعلًا يتجنبون ويتحاشون، وسياق الكلام عن تجنّبهم للسوء، وعمليًّا هو تجنّب مخالفة أوامره تعالى، وبالتالي هو تجنّب لغضبه وعقابه سبحانه، ونحن ننخدع بشخص منافق يقوم بأعمال الخير، ونظنّه تقيًّا، ولكنه تعالى يعلم من هو التَّقِيُّ ومن هو المنافق.

من القرآن تعلم أن الكفر والشرك به تعالى سيجعل كل الأعمال الحسنة بلا قيمة في يوم القيامة، حتى لو قضى الكافر أو المشرك كل عمره في خدمة الفقراء والمحتاجين، وأنفق كل أمواله على الفقراء... كل ذلك سَيُحْبَطُ وسيفقد قيمته لأنه لم يكن يعترف بالله تعالى ربًّا وإلهًا مجازيًا على الحسنات، فلماذا سيعطي الله تعالى لهذا الكافر أجرًا! ولكن أهل الكتاب يوجد منهم أناس لم يقوموا بأي عمل يسبب إحباط الحسنات وإبطالها، هؤلاء لن ينكر لهم ربهم سبحانه أعمالهم، بل سيعطيهم عليها الثواب في الآخرة.

هذه الفقرة تريك جانبًا مختلفًا عن نظرتنا نحن عادةً للأمور، حيث نحن نفسّر كلامه تعالى بصلابة العصبية للانتماء لآخر نبي وكتاب، بينما سبحانه يرى كل المنتمين لدينه مثل بعض، ونحن واليهود والمسيحيون أهل كتاب، وإذا نظرت بدقة لحالنا ولحالهم لرأيت بشفافية أن القليل النادر جدًّا منّا مختلف عن كل البقية من أهل الكتاب ونحن ضمنهم، ولرأيت أن المسيحيين واليهود والمسلمين بغالبيتهم يشبهون بعضهم البعض، لأن الغالبية تدّعي الانتساب لدينه تعالى، والغالبية ليسوا فعلًا ملتزمين بدينه تعالى.

ما تقوله الآيات هنا عن مؤمنين من أهل الكتاب يمدحهم تعالى، نحن نرفض أن يكونوا من الذين عاصروا النبي مُحَمَّدًا(ع) ولم يتبعوه، ونرفض أن يكونوا من بعد ذاك الزمان طالما وصلهم القرآن، بينما لن تجد في القرآن كلامًا كهذا، وستجد أن الإسلام له تعالى هو الأساس، وليس الانتماء لدين اسمه الإسلام مثلما هو دارج في أدبياتنا كتفسير للآية 85 التي مرّت {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}، وبناءً عليه وبنظرة إلهية محضة وبشفافية من مستوى إلهي ترى أنه تعالى يمدح بعضًا من المؤمنين الممتازين من أهل الكتاب فيما بعد نزول القرآن.

هناك بينهم موحدون لا يُرَبِّبُونَ أحدًا غيره تعالى، وهناك بينهم ملتزمون بالصالحات، وأفترض من عندي أن هؤلاء إن وصلهم القرآن عندها سيرَوْنَهُ مقدسًا مثلما يرون كتابهم بل ربما سيرونه أقدس لأنه منقول بلغة ولهجة مباشرة منه تعالى حيث تشعر أنه تعالى يتكلم معك مباشرةً. فهؤلاء حتى لو لم يعلنوا إسلامهم، هم بالمعنى القرآني لكلمة إسلام هم مسلمون.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئاً وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{116})
نتابع من الآية السابقة التي أعطت قيمة لأعمال المؤمنين من أهل الكتاب، وتأتي هذه الآية لتقول إنّه لا قيمة لأعمال من كفر:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، فأنكروا العقيدة والشريعة الإلهية الصحيحة ولم يؤمنوا بها، {لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}، فما يملكونه من مال وأملاك، وما لديهم من أولاد أقوياء، إنّهم لا منفعة منهم عندما يحاسبهم تعالى.

هنا في الدنيا يشعر الأغنياء بالقدرة على فعل أي شيء يريدونه، حتى إنّهم يمكنهم ارتكاب جريمة قتل بشكل علني ولن يحاسبهم عليها أحد! فبأموالهم يشترون القضاء الفاسد وشهود الزور... وبشكل أوضح، أنا أملك المال، أنا غني، ولكن ما نفع المال في الصحراء حيث لا ماء فلا يمكنني شراء الماء بالمال لأنه مفقود؟ فلن يغنيني مالي عن العطش... وهنا في الدنيا يشعر الأشخاص الذين لديهم أولاد كثيرون أو أولاد إخوتهم أو أن أولاد عائلتهم كثيرون، يشعرون بالقوة والتسلط على غيرهم، وأنهم يمكنهم فعل أي شيء لأنهم عصابة قوية، في الآخرة لن ينفعهم ذلك، فلا المال ولا الأولاد سينفعونهم أمام الله تعالى.

ضع في بالك أنّ كلام القرآن عموما عن أبرز النماذج، فإن كان أحد ما لديه أولاد كعصابة، فهذا نموذج بارز جدا عن الاعتماد على المخلصين، فالكلام هنا ليس حصريا عَمَّنْ له أولاد كعصابة له، بل عن نموذج، فمن لديه عصابة أو مؤيدين من عَامَّةِ الناس، فسيفكّر بالاعتماد عليهم في مختلف الظروف.

{أُولَئِكَ}، الكفّار، {أَصْحَابُ النَّارِ}، سيكونون مع بعض في نار الآخرة، {هُمْ فِيهَا}، في النار، {خَالِدُونَ}، لا يفنون ولا يموتون ولا يخرجون منها ولا هي تخرب.

الآيات السابقة كانت تتحدث عن المؤمن بالله تعالى وبالآخرة وأنّه يقوم بأعمال الخير لأنه يَتَّقِي الله تعالى فيريد تجنّب غضبه وعقابه سبحانه، أمّا هنا فاكتفت الآية بالقول إنّ الكافر لن ينتفع بماله الكثير ولا بعصابته حتى لو كانت عصابته هم أولاده، فلن يستغني بهم عن أي شيء في الآخرة، فلن ينفعوه بشيء إذا كان كافرا، فهناك كفّار فقراء ضعفاء لم تتحدث عنهم الآية فهم سيدخلون النار أيضا، ونبهتهم الآيات بشكل عادي مشترك مع كل بقية الناس، أمّا الأغنياء والأقوياء فتنبههم الآية بأن المال والقوة لا ينفعان الكافر في الآخرة.

لا تفهم من الآية اعتبارها كل الكفّار لديهم أموال وأولاد، فهذا معلوم أنّه غير صحيح، ولا تفهمها أنّها تهدّد فقط من لديه أموال وأولاد، لا، بل اختارت نموذجا من الكفّار لديه أموال وأولاد حتى لا يخطر بباله أنهم سيغنونه عن العذاب في الآخرة، فليأخذ علما أنّ هذا لن يحصل.

(مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِـذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَـكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ{117})
لماذا لا توجد قيمة للأعمال "الحسنة" للكفار؟:

{مَثَلُ}، شبه، {مَا يُنْفِقُونَ}، الذي ينفقه الكفّار من مال لمساعدة المحتاجين... {فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، التي نعيش فيها الآن، {كَمَثَلِ}، كشبه، {رِيحٍ}، هواء قوي، {فِيهَا صِرٌّ}، "بالكسرة تحت الصاد" فيها صوت قوي وضجّة، {أَصَابَتْ}، تلك الريح القوية، {حَرْثَ قَوْمٍ}، جماعة من الناس مُتَفَاعِلِينَ مع بيئتهم وقاموا بالحرث وقاموا بتهيئة شيء للإنتاج، وهنا المقصود الأرض التي جهّزوها وبذروها وشتلوها إلى حين صارت أو سيصير فيها إنتاج زراعي، أولئك القوم الحارثون، {ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ}، ففعلوا شيئا لم يكن معهم حقّ فيه، فلم يكونوا عادلين مُحِقِّينَ، ومن السياق نفهم أنهم لم يتبعوا الدين الإلهي وهذا ظلم لأنّ العدل والإنصاف والحق أن يتبعوا دينه تعالى الواضح أنه حقّ وصلاح، {فَأَهْلَكَتْهُ}، فأهلكت واستنفدت وأماتت الريح القويّة الحرث، فأتلفت المزروعات قبل أن تنتج أو حين أثمرت.

الآية لا تقول إنّ كل قوم كفّار حرثوا الأرض سيصيب حرثهم ريح تُهْلِكُهُ، ذكر القرآن حصول هذا عدّة مرات كعقاب لقوم كان لهم سلوك ما مُخَالِفٌ للدين الإلهي، ولا يمكن تمريره بدون عقاب دنيوي من بعدما جاءهم رسول ينذرهم... فعاقبهم تعالى ليتّعظ بهم الآخرون، وها هنا تشير الآية لشبه هذه الحالة مع من أنفق وهو ظالم، فمن أنفق ومات وعاد في الحياة الآخرة، فهذا يتوقّع رؤية ما أَنْتَجَهُ إنفاقه من حسنات، ولكن الظلم بترك الدين الإلهي يجعل الإنفاق بلا نتاج كالحرث الذي أَهْلَكَتْهُ الريح، والآية السابقة كانت تتحدّث عن المال الذي لا يغني صاحبه عن العقاب في الآخرة، وهنا تقول إنّ ما أنفقه من ماله هنا في الدنيا لن يكون له نتاج في الآخرة بسبب كفره.

{وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ}، فهل العدل والإنصاف أن يعطيهم تعالى حسنات على إنفاقهم وهم كفّار؟ لا، وبتعبيرنا العامّي: فمعه حقّ تعالى أَلَّا يعطيهم حسنات على الإنفاق. ونفهم هذا النوع من الكلام الإلهي بنظرة ميكانيكية آلية، فإشعال النار لا يحوّل الماء إلى ثلج بل يبخّره، فهكذا صمّم تعالى هذه العلاقة بين النار والماء، والإنفاق مع الكفر لا ينتج عنه حسنات بسبب التصميم الإلهي للعلاقة بين إنتاج الحسنات والإنفاق بشرط الإيمان، وهكذا تُفْهَمُ كل الجمل القرآنية التي تشبه جملتنا هنا، فسبحانه لم يظلم الكفّار حين لم يحسب لهم حسنات، لأنّ التصميم الإلهي للدنيا والآخرة، لا يسمح بحدوث ذلك، وبنظرة أعمق، فلماذا ألزم نفسي بالدين الإلهي وأبتعد عن السوء وألتزم بالخير إن كان الكفر والإيمان كلاهما نفس الشيء ينتج عنهما حسنات؟! وبناء على ما تعلمناه من كلام الحكمة الإلهية، فمن الظلم نيل الكافر حسنات...

{وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}، فهم لم يكن معهم حقّ حين كفروا، وبالتالي حرموا أنفسهم من نيل الحسنات، فلم يكن تعالى ظالما لهم بل هم لم يكونوا منصفين عادلين مع أنفسهم حين حرموا أنفسهم من نيل الحسنات عن الإنفاق.

سبحانه أوصل لهم الهدى الواضح وهم كفروا به، فليتحمّلوا نتيجة كفرهم.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ{118})

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الناس الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين: {لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ}، في الظاهر أنتم مؤمنون، تمشون وتتعاملون وتتحدثون مع المؤمنين على أساس أنكم جزء منهم، فلا يكن لكم من دون المؤمنين بطانة، ولا يكن لكم في الباطن في السرّ معشر غير معشر المؤمنين، لأنَّ الثوب له ظاهر تراه الناس، وله بطانة من الداخل لا تراها الناس، فلا يكن في الظاهر أصدقاؤكم ومعشركم وأحباؤكم من المؤمنين، أما في الباطن في الداخل فمن دون المؤمنين مِنْ غير المؤمنين يوجد لكم أحباء ومعشر من الكفّار أو الفاسقين أو المنافقين.

لِنَقُلْ إنَّ شخصا أعلن إيمانه، أو مَوْلُوداً بين المسلمين، ويعيش في مجتمع المؤمنين على أساس أنه واحد منهم، ولكن له بطانة من الأصحاب غير المؤمنين "من أهل الكتاب أو من غيرهم"، يسهر معهم، ويسافر للتسلية معهم، ويذهب للنزهة معهم... من دون المؤمنين يترك معاشرة المؤمنين ويعاشر هؤلاء على أساس أنه يرتاح لأجوائهم أكثر مما يرتاح لأجواء المؤمنين.

هؤلاء: {لَا يَأْلُونَكُمْ}، لا يقصّرون فيكم، {خَبَالًا}، فسادا في الرأي والعمل، إنَّ الذين تتخذهم بطانة لك من غير المؤمنين على أساس أنهم من أقرب الناس إليك وأنك ترتاح معهم، فإنهم لا يقصّرون في جعل رأيك وعملك فاسدا، لن يتركوك مؤمنا صالحا، ولن يتحوّلوا ليصيروا مؤمنين، بل سيعملون على جعلك فاسدا مثلهم.

هؤلاء، {وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ}، ما هو شديد عليكم وما يضايقكم "كمؤمنين" يفرحهم ويرغبون بحصوله لكم، يحبون أن يصيب المؤمنين أشياءٌ تجعلهم متضايقين منزعجين، {قَدْ بَدَتِ}، وظهرت علنا، {الْبَغْضَاءُ}، كراهية تعاطيهم وعلاقتهم مع المؤمنين، {مِنْ أَفْوَاهِهِمْ}، من فمهم من كلامهم، تصدر عنهم التعليقات التي تبين كرههم لأي علاقة بينهم وبين المؤمنين، وتحصل منهم فلتات هنا وهناك تبيّن بغضهم لكم، {وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ}، والذي لا يظهرونه من تفاعل أفكارهم ونفسيتهم مع الأمور، {أَكْبَرُ}، أضخم من الكره البسيط الذي يظهر من كلامهم، إذْ لديهم تفاعل كره كبير للمؤمنين في أفكارهم ونفسيتهم.

{قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ}، وَضَّحْنَا لكم، {الْآيَاتِ}، الأمور المميزة المنسوبة له تعالى، حَيْثُ شرحنا لكم بكلام إلهي مميّز عن نفسية البعض من أهل الكتاب "والكفّار"، حتى تنتبهوا، فلا تتركوا المؤمنين وتستمتعوا بعشرة أناس آخرين، {إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ}، إن كنتم تفهمون، فلا تكونوا كالحمقى ولا تقتنعوا بهذا الكلام.

مَنْ يضحك على نفسه ويعتقد بأشخاص من أهل الكتاب "أو الكفّار" سيحبونه إذا كان مؤمنا ملتزما، فهو غبي أو يتغابى ولا يعقل ولا يفهم، لأنهم بالتأكيد سيحاولون جرّه لارتكاب المحرمات، وبالتأكيد سيتحدثون بالعاطل عن المؤمنين وعن سلوكياتهم الإيمانية... وسيتماشى معهم، وبالتأكيد إنَّ الكره للمؤمنين في قلوبهم هو أكبر بكثير مما يظهر على ألسنتهم، فلا تكن أَحْمَقَ لا تعقل لا تستوعب آيات دلائل علامات الله تعالى التي وضّحها لك.

الكلام هنا رغم ما يبدو من عموميته إلا أنه يتكلّم عن المعروف كرههم للمؤمنين وليس عن كل الناس، فلا مانع من مصادقة أَيٍّ كان طالما ليس معلنا للعداء للمؤمنين.

(هَا أَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ{119})

{هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ}، ها أنتم أيها المسلمون، {تُحِبُّونَهُمْ}، لديكم رغبة في التعاطي مع أهل الكتاب لأنكم تعترفون بدينهم وبأنبيائهم... {وَتُؤْمِنُونَ}، وتعتقدون، بالكتاب الإلهي {كُلِّهِ}، أنتم تؤمنون بكل الكتاب الإلهي الذي نزل منه تعالى، وَالَّذِي يتضمن كل صحف الأنبياء وكتبهم، وَأنتم أيضا تؤمنون بالكتاب النازل على أهل الكتاب أيضا، وَتؤمنون بالتوراة والإنجيل وصحف الأنبياء...

{وَإِذَا لَقُوكُمْ}، التقيتم بأشخاص من أهل الكتاب، عندها {قَالُوا آمَنَّا}، اعتقدنا بدينكم أنه امتداد لديننا وأنه لا فرق بينهما، وأنهما من مصدر واحد. لَا تفهمها أَنَّهُمْ يعلنون إسلامهم بقولهم آمنّا، لا، بل لا يوجد لديهم كلام ولا حجج على القرآن فيضطرون ليقولوا إنَّ هذا الدين القرآني امتداد لدينهم المستند لكتاب إلهي، {وَإِذَا خَلَوْا}، ذَهَبُوا وتركوكم وَصار أهل

الكتاب في خلوة عنكم لوحدهم وليس معهم أشخاص مُسْلِمُونَ، إِنَّهُمْ {عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ}، فمن شدة انزعاجهم وتضايقهم الذي لم يستطيعوا كتمه، إِنَّهُمْ يشدون بأسنانهم على أطراف أصابعهم في منطقة الأظافر، فبعض الناس عندما يتضايقون بشكل شديد فهم يعبرون عن شدة تضايقهم بالعضّ على شفاههم أو بلطم وجوههم أو بالعض على أصابعهم... وَاختارت الآية تعبيرا واحدا من الحالات المتعددة للتعبير الحركي عن حالة الغيظ كنموذج.

{قُلْ} لهؤلاء المغتاظين: {مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ}، المضايقة التي تشعرون بها ولا تتمكنون من ضبطها أو إخفائها فلتلازمكم حتى تقتلكم، حيث بعض الناس يموتون من شدة القهر والانزعاج، فَتُصِيبُهُمْ سكتة قلبية أو انفجار في شرايين الدماغ... {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}، لديه علم تفصيلي بما يدور في صدوركم، بما تتفاعل به نفسيتكم وفكركم، فعندما تُظْهِرُونَ إيمانكم في العلن وَتُخْفُونَ الكره الشديد للمؤمنين في صدوركم، سُبْحَانَهُ يعلم بما تخفونه.

لاحظ الآية تتحدث عن نوعية خاصة من أهل الكتاب، عن البعض منهم، الذين يعيشون في مجتمع فيه مسلمون، أو يتعاطون مع مسلمين، والمسلمون يظهرون لأهل الكتاب الحبّ والمودة، فتقوم هذه النوعية من أهل الكتاب بإظهار الاحترام للمسلمين ولدينهم، ولكن في الحقيقة بَعْضُهُمْ من أشدّ الكارهين لكم ولدينكم.

(إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ{120})

{إِنْ تَمْسَسْكُمْ}،إن تصبكم وتشعروا بـ {حَسَنَةٌ}، بشيء حسن شيء جيد، {تَسُؤْهُمْ}، عندها يشعر هؤلاء الناس من أهل الكتاب بأن شيئا سيئا أصابهم لأن شيئا حسنا حصل معكم، {وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ}، وإن حصل معكم شيء سَيِّئٌ عاطل مُؤْذٍ، فإن هؤلاء الناس من أهل الكتاب، {يَفْرَحُوا بِهَا}، يَشْعُرُونَ بحالة نفسية جيّدة لأنكم في مصيبة.

{وَإِنْ تَصْبِرُوا}، إن تَتَصَرَّفُونَ بشكل مدروس وَوَاعٍ حين تصيبكم السيئة التي لن تستمر، {وَتَتَّقُوا}، ولا تَفْعَلُوا السوء، وهو نفسه تجنب غضب وعقاب ربكم سبحانه، عِنْدَهَا، {لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا}، لأنهُمْ لا يعلنون عداوتهم وكرههم لكم، ولكن في السرّ هم يكيدون لكم، أي يستعملون الحيل ليضروكم لتتغير حالكم لِلْأَسْوَأِ، وَيساعدون من يريد ضرركم، ولا يُحَذِّرُونَكُمْ من أي خطر قادم... ولكن إن صبرتم واتقيتم، عندها لن تضركم حيلهم ومكائدهم.

{إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}، كل شيء تحت سيطرته سبحانه، وَلَا يخرج أي شيء عن السيطرة الإلهية لأنه سبحانه محيط بكل شيء، حَيْثُ إِنَّ كل الأشياء في مملكته، وكلها تحت حكمه وسيطرته، وَلَا يمكن أن يفلت منها أي شيء عن السيطرة الإلهية، ولذلك عِنْدَمَا يقول سبحانه للمؤمنين أَنَّ الكيد لن يضرهم إن كانوا صابرين متقين، فلأنه سبحانه محيط بكل شيء ويمكنه التحكم بكل شيء، وسوف يحمي المؤمنين المتقين من الكيد.

مِنْ هنا سوف تبدأ الآيات بالحديث عن شيء سيء جدا أصاب المسلمين، حَيْثُ خسروا في معركة أحد، وَاستغل البعض من أهل الكتاب هذه الخسارة حتى يبرهنوا للمسلمين أنهم غير مؤيدين من الله تعالى، فلو كان المسلمون دينهم صحيحا لكان الله تعالى نصرهم، ولكنهم خسروا وهذا يعني أن دينهم غير صحيح... وسنرى كيف توسعت الآيات في هذا الموضوع لتشرح أسباب الخسارة بالتفصيل، وتوسعت لتتحدث عن المسلمين الذين يفكرون بطريقة مشابهة لتفكير أهل الكتاب...

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{121})

تعقيباً على ما سبق من نصره تعالى للمؤمنين، ومن فرح بعض الآخرين بمصيبة تحل بالمؤمنين، من هنا بداية فقرة توضّح أن المسلمين المؤمنين هم فعلاً مؤيدون منه سبحانه ولكن بشروط، وتوضّح الفقرة أيضاً أسباب نزول المصيبة عليهم... وسوف نرى النظرة الإلهية للخسارة والربح في الحروب، وسوف نتعلّم الكثير من الأشياء، وأهمّها أن: الشيء السيئ الذي يصيب المسلمين لا يعني أبداً أن دينهم غير صحيح، بل يعني أن تدينهم والتزامهم بأوامره تعالى كان فيه خلل... لندرس الآيات:

{وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ}، قمت أيها النبي محمد(ع) من بعد مرور أمور سابقة، والكلام هنا عن حالة إعلان التجهّز للحرب... وخرجت من بيتك ومن البيوت التي تخصّك وتركت المنتمين لك، وانطلقت تفعل ما نويت عليه من قبل،

{تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ}، تعطيهم وتحدّد لكل واحد منهم، {مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ}، أماكن يقعدون يتمركزون فيها للقتال، فهذه الفرقة مقعدها مكانها في الأمام، وتلك الفرقة على اليمين... وهذه الفرقة تتألف من ضاربي الرماح، وتلك الفرقة للإسناد...

{وَاللَّهُ سَمِيعٌ}، حيث يَسْمَعُ كل شيء يجري معكم أثناء استعدادكم للقتال، ويسمع ما قاله الرسول(ع) ويسمع ما تقولونه لبعضكم البعض، {وَاللَّهُ عَلِيمٌ}، ويعلم كل شيء. فأنتم تحت المراقبة الإلهية فيما تقولونه وفيما تفعلونه.

لاحظ، أنك كمسلم تعتقد أنه تعالى يسمع ويرى كل شيء يحصل أينما كان، ربما لا تلفت انتباهك جملة: {وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}. لأنك لا تشعر بأنك تتعلم منها أي شيء جديد، ولكن انتبه، لأن القرآن بهذه الجمل، وبتركيزه عليها دائماً، وبشكل منتشر في الغالب الأعم من الآيات، يرسّخ في ذهننا أنه تعالى حاضر في كل مكان وزمان، ومنتبه ويسمع ويرى كل شيء، وأن كل شيء تحت المراقبة والسيطرة، لذلك ترى غالباً تكراراً لذكر صفاته تعالى في أواخر الجمل القرآنية، وبسبب هذا التكرار رسخ المفهوم في بالك، فلم تعد ترى ضرورة لتكراره علماً أن أصل تكراره بهذا الشكل هو الذي رسّخ في ذهنك مفهوم كوننا تحت المراقبة الإلهية.

الآيات ستتحدث عن معركة خسر فيها المسلمون، كمثال، حتى تستخرج منها أسباب الخسارة... وتنبهنا لأشياء أخرى... والمعركة هي معركة أحد، وتلاحظ أن القرآن لم يذكر اسمها، ولم يحدّدها، لأن هذا غير مهم علماً أنها واضحة ومعروفة ومشهورة جداً، حيث إنها المعركة الوحيدة التي خسرها المسلمون في عهد النبي محمد(ع)، وجبل أحد يبعد عن المدينة حوالي أربعة كيلومترات، والآية هنا تقول إن النبي(ع) انطلق بالجيش من المدينة باتجاه جبل أحد، وتستغرق المسيرة أقل من ساعتين، لنتابعْ ما جرى في تلك المعركة:

(إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ{122})
نعرف من التاريخ المشهور المنتشر في الكتب، أنه بعد معركة بدر التي انتصر فيها المسلمون على كفّار مكة، إن الكفّار رجعوا إلى مكة، واستعدوا جيداً، وبعد قرابة السنة، رجع كفّار مكة بجيش يقارب الثلاثة آلاف مقاتل باتجاه مدينة يثرب، حتى ينتقموا من المسلمين، وعلم المسلمون بقدوم الجيش، وقرروا الخروج من المدينة لملاقاة الكفّار في منطقة أحد، وقام النبي محمد(ع) بتجميع المقاتلين وتقسيمهم، وكان عددهم قرابة الألف مقاتل، وانطلق بهم نحو منطقة أحد، وتقول الروايات إنّه في الطريق غيّر المنافق عبد الله بن أبي رأيه، فرجع إلى المدينة، ورجع معه قرابة الثلاثمئة مقاتل، وقفزت الآيات عنه ولم تذكره، ومتروك لك تحليل إهمالها له، ولكن الكلام في الآية يشير إلى حدوث شيء ما، ففي الطريق:

{إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ أَنْ تَفْشَلَا}، فمجموعتان من المسلمين جاءتهم بقوّة فكرة التوقّف عن إتمام المسير باتجاه أحد، ونووا تنفيذ الفكرة ولكن لم ينفّذوها، فبقيت مجرد "همّ" لم يتحقق فعلياً.

على أثر انسحاب الثلاثمئة مقاتل مع عبد الله بن أبي، والذي لم تذكره الآيات، واهتمّت بذكر ما حصل بعده عندما قررت مجموعتان أخريان أيضاً الرجوع إلى المدينة، حيث شعروا بأنهم إن أكملوا الطريق إلى منطقة أحد، فإن الخسارة محتومة، وخاصة بعد أن صار عدد المقاتلين المسلمين أقل، ولكنهما فيما بعد، غيّرا رأييهما، وأكملا المسير مع البقية للقتال.

{وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا}، فهو تعالى مرجعهما، فالطائفتان من المفروض أنهم مؤمنون يوالونه تعالى ويعتبرون أنفسهم تابعين له تعالى، فكيف يهمّون بالفشل الذي يتعارض مع ولايتهم لله تعالى! ومن ناحية ثانية، بعد اعتقادهما بأنه تعالى وليهما كيف لا يثقان بأنه تعالى سينصرهم؟

{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ}، فَلْيَعْتَمِدْ، {الْمُؤْمِنُونَ}، المعتقدون به وبدينه وبرسوله...

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{123})
أيها المسلمون بشكل عام، وأيها المسلمون الذين فكّرتم بالانسحاب لأنكم ستخسرون:

{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ}، بالمكان الذي اسمه بدر، {وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ}، وكنتم في حينها أذلّة ضعافاً ليس فيكم قوّة الدفاع عن الحكم الذاتي، وليس لديكم العزّة والقوة العسكرية أمام الآخرين الأقوى منكم.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ}، فتجنبوا غضبه عليكم عندما تفكرون بأنه تعالى لن ينصركم، أو أنكم في بدر انتصرتم بقوتكم أو بالصدفة... فاتقوه سبحانه، {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، فمن المفروض ومن المتوقّع منكم أن تعبّروا له تعالى عن حصولكم على شيء جيد منه حين نصركم ببدر.

ننتبه جيداً، لأن القرآن يركّز على أن النصر بيد الله تعالى، وأن النصر في معركة بدر برغم قلّة عدد المسلمين حينها، حيث كانوا قرابة الثلاثمئة في مواجهة ألف مقاتل من الكفّار، هو نصر إلهي، وليس صدفة، وليس ضربة حظ... وهنا تريد الآية القول للمسلمين: قال لكم سبحانه إنه هو نصركم في بدر برغم حالتكم العسكرية التعيسة حينها، فاتقوا الله تعالى ولا تفكروا أنكم انتصرتم بالصدفة أو بقوتكم، فهذا غير صحيح، {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، فمن المتوقع منكم أن تشكروا ربكم سبحانه لأنه جعلكم منتصرين في بدر التي بالمقاييس العادية كان يجب أن تنهزموا فيها، وعموماً في أي حالة مشابهة فلتلازمكم التقوى حتى ينصركم سبحانه.

(إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ{124})
للتأكيد بأن النصر في معركة بدر كان إلهياً، حيث كان قسم منكم يتوقعون الخسارة قبل أن تبدأ المعركة، وهذا واضح، حيث قلتم هذا علناً للنبي(ع) وقال لكم ما يلي:

{إِذْ تَقُولُ}، أيها النبي(ع) قبل حصول معركة بدر، تقول، {لِلْمُؤْمِنِينَ} للذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، الخائفين من الخسارة التي تبدو واضحة ومؤكدة، تقول لهم:

{أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ}، أن يدعمكم باستمرار، {رَبُّكُمْ}، المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ}؟ فإن كان عدد الكفار ألفاً، فهل يكفيكم أن ينزل ربكم سبحانه عليكم من السماء ثلاثة آلاف ملاك يساعدونكم في القتال؟

من الآية 9 من سورة الأنفال نرى أن أول وحي نزل على النبي(ع) أخبره عن ألف ملاك سينزلون، وسيكونون مردفين حيث سينزل بعدهم آخرون {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ}، ويبدو من الكلام هنا أن العدد ألف لم يسبب الاطمئنان لبعض المسلمين! لذلك مرة ثانية نزل الوحي وأخبر النبي(ع) بأن المدد بالعدد مفتوح حتى تحقيق النصر.

(بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ{125})
{بَلَى}، نفي لكون الإمداد بالملائكة(ع) غير كافٍ، بل بالتأكيد الإمداد بهم يكفي، {إِنْ تَصْبِرُوا}، فتضبطوا أعصابكم وتتصرفوا بوعي ودراسة، و{تَتَّقُوا}، فتتجنّبوا فعل السوء وهو نفسه تجنّب غضبه وعقابه تعالى، فلا تهربوا أو تتخاذلوا أو تعتدوا على بريء... فإن فعلتم ذلك، {وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا}، فيحضرون بسرعة إلى ساحة القتال للمساعدة من دون أي تأخير في هذا الزمن.

عدد الملائكة(ع) التي يتم إرسالها للدعم غير محدود بألف أو ثلاثة آلاف بل، {يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ} سبحانه {بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ}، مسددين لضرباتكم، حيث يجعلون ضرباتكم فاعلة في العدو.

الملائكة(ع) لن تنزل حاملة للسيف أو الرمح، ولن تقاتل عنكم، بل أنتم ستقاتلون، ولكن الملائكة(ع) ستسوّم نشاطكم العسكري، مما يَجْعَل ضربة السيف والرمح والسهم... تصيب العدو...

(وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ{126})

وردت آية مشابهة في الآية 10 في سورة الأنفال {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}.

نبّهتنا الآيات السابقة أنّ النصر الإلهي في بدر لم ينتج عن قوتكم العسكرية، بل نتج عن قرار إلهي بجعلكم منتصرين، وحتى لا نفهم أنّ نزول الملائكة(ع) يحسم من سينتصر في المعركة:

{وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ}، مسألة نزول الملائكة(ع)، {إِلَّا بُشْرَى} لكم، فهي خبر مفرح يسبب السرور لكم، {وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ}، حيث تشعرون باستقرار في أساس أفكاركم ونفسيتكم بأنّه سبحانه معكم وسينصركم، {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ}، الذي يفرض ما يريده على الآخرين وهم لا يمكنهم أن يفرضوا عليه تعالى أي شيء، وإذا قرّر سبحانه أن تنتصروا، فهو سبحانه بعزّته وذلّة كل الآخرين بانقيادهم وخضوعهم تحت حكمه تعالى، ولا يحتاج للملائكة(ع) حتى يتحقق لكم النصر، إنما هم موظفون، ويمكنه سبحانه بأساليب أخرى تحقيق النصر، ويمكنه سبحانه من دون توظيف لأي مخلوق آخر أن يحقق لكم النصر...

{الْحَكِيمِ}، يرى الصوابية في الأمور، وعندما يُقَرِّرُ سبحانه انتصاركم أو هزيمتكم، فهذا القرار يكون عن حكمة وليس عن عبث.

لا تستنتج من الآية أنّ الملائكة(ع) لم تنزل وأنّها كانت مجرد بشرى لتطمئن قلوب المؤمنين، لا، بل نزلت الملائكة(ع) في معركة بدر، وسدّدت ضربات المؤمنين، وربطت على قلوبهم، وثَبَّطَتِ الكفّار... ولكن الآية تريدنا أن نفهم أنّ الأساس الأساس في تقرير مصير المعركة هو بيده سبحانه، حيث مع أو بدون نزول الملائكة(ع) كنتم بشكل أو بآخر ستنتصرون لأنّه سبحانه قَرَّرَ لكم أن تنتصروا، ولكن أخبركم ربكم سبحانه بدعمه لكم بالملائكة(ع) فشعرتم بالاطمئنان مثل اطمئنانكم لو أنّ جيشاً من آلاف المقاتلين انضمّ إليكم، ولكن النصر من عنده تعالى وليس من كثرة الجيش أو من نزول الملائكة(ع).

كل المخلوقات لها كيان لأنّه سبحانه في كل لحظة يرعاها ويهتم بها لتبقى، وإذا تركها سبحانه فإنّها تزول، وهذا مبدأ أساسي تراه من الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ...}، حيث إنّ كل شيء بيده سبحانه، ولو أراد إماتة الكفار في تلك المعركة، سبحانه يمكنه مَحْوَهم فوراً، حيث يمكنه تعالى فعل أي شيء يريده، ودائماً القرآن ينبهنا أنّ كل شيء تحت السيطرة الإلهية المباشرة، ولكنّه سبحانه يترك مخلوقاته تعمل وتتدخل وتحارب و... والملائكة(ع) مجرد موظفين يأمرهم تعالى بنصر المؤمنين، وبحضورهم وبغيابهم نفس الشيء، حيث يمكنه تعالى نصر المؤمنين بملايين الطرق الأخرى...

(لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ{127})
هناك عدّة أمور تحصل في المعركة وفيما بعدها، وبالحكمة الإلهية يتم تقرير مصير هذه المعركة، فنتيجتها على الكفّار إمّا:

{لِيَقْطَعَ} ليفصل، {طَرَفًا}، قسماً، {مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، وليس قطعاً كإنهاء كلي، بل طرفاً قسماً منهم، حيث يموت البعض منهم ولا يموتون كلهم، فيقلّ عدد المقاتلين الكفّار بموت البعض منهم.

{أَوْ يَكْبِتَهُمْ}، حيث يقلل سبحانه من قوتهم العسكرية ويجعلها مكبوتة ولا يتركها قوية، {فَيَنْقَلِبُوا}، ويتركون أرض المعركة، {خَائِبِينَ}، ولا يحصلون على شيء يريدونه منكم، ويغادرون من دون تحقيق أي هدف عسكري، ولا يقدرون على قتلكم أو كسر قوّتكم.

بقي شيء، ما تراه في الأفلام والمسلسلات من مشاهد للقتال في معركة بدر فهو غالباً غير صحيح، حيث في تلك التصويرات ترى المسلمين كلّهم معهم سيوف أو رماح أو نبال، وعلى صدورهم الدروع... وثيابهم بلون أبيض موحّد... وهذا غير صحيح، حيث كانوا قرابة الثلاثمئة مقاتل ومعهم فرسان "حصانين" على الأكثر، وحتى إنّ بعض الإشارات التاريخية تشير لتوافر عشرة سيوف على الأكثر! ولا أظن هذا صحيحاً ولكنه يعطيك فكرة مغايرة لما هو في بالك... وبمراجعة كتب التاريخ سترى أنهم بغالبيتهم قاتلوا بالمسوح "أدوات الزراعة كالمعول والمنكوش والرفش..." وقاتلوا

بالعصي والحجارة... وأثناء سير المعركة كانوا يلتقطون السيوف أو الرماح من قتلى المشركين "الذين معهم سيوف ورماح" ويكملون القتال بها، ومقاتلو المشركين المزودين بالأسلحة كانوا كُثُراً...

(لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذَّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ{128})
{لَيْسَ لَكَ}، أيها النبي(ع)، {مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}، ليس لك من الموضوع شيء، فكيف ستنتهي المعركة، وكيف سينتهي نصركم فهذا ليس من الأمور التي تقررها أنت، لأنّ هذا الأمر ليس بيدك، والنصر وقطع الطرف أو الكبت هو من عنده سبحانه، وليس بيدك ولا بيد أحد غيره سبحانه.

نُكْمِلُ مع الخيارات التي اختارها سبحانه بحكمته، حيث فهمنا من الآية السابقة خيارَيْنِ يجعلان الكفار منصرفين من أرض المعركة خائبين، قطع الطرف أو الكبت، واختارهما سبحانه كنهاية عسكرية للمعركة، وليس للنبي(ع) أي قرار بكيفية انتهاء المعركة، وننتقل لخيارين آخرين، ومن الواضح أيضاً أنه ليس لأي أحد قدرة عليهما سواه تعالى:

{أَوْ يَتُوبَ} الله {عَلَيْهِمْ}، على الكفار، فإذا فتحوا صفحة جديدة وأعلنوا إيمانهم فيما بعد، فسبحانه سيقبل هذا الإعلان منهم، {أَوْ يُعَذِّبَهُمْ}، فيموتون وهم كفّارٌ أو منافقون أو فاسقون ويعذّبهم تعالى في الآخرة، {فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}، فهم لم يكن معهم حقّ حين كفروا لأن دينه تعالى واضح أنه صحيح وفوقها أعطاهم تعالى فرصة للتوبة.

نحن في مقاييسنا يكون النصر بسحق الأعداء وإنهائهم كلّهم، ولكن بمقاييسه تعالى فالأمر مختلف، فلو مات الألف مشرك في بدر لما استطاعوا بعد سنةٍ تجميع أنفسهم لقتال المسلمين من جديد في أحد، وهذا من وجهة نظرنا نحن، وها ترى من وجهة نظره تعالى أن في المشركين أناساً سيؤمنون فيما بعد، وسيكون من نسلهم مؤمنون، وبحكمته تعالى قرّر قطع طرف منهم أو كبتهم... وأنت تعلم من التاريخ أن الكثيرين منهم آمنوا، وها نحن في عصرنا أمام أحفادهم كأمّة مسلمة، وهذا ما تقوله الآيات هنا عن النصر الإلهي بحكمة إلهية لم تحصل فيها إبادة للمشركين، وهذا الكلام بالرغم من شدّة ما عاناه منهم المسلمون الأوائل ولكن ها ترى أمامك النتيجة، أمّة مسلمة.

إلى هنا توقفت السورة عن موضوع النصر في بدر وما قرّره تعالى حينها، واستطردت بفقرة ستمتد حتى الآية 139 وستتحدّث فيها عن الصفات الإيمانية، وستعود بعدها لتدخل فوراً على موضوع معركة أحد.

(وَلِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{129})
الآيتان السابقتان قالتا إنّه عند قطع الطرف أو الكبت للكفار فليس لك من هذا القرار أي شيء أيها النبي(ع)، ثم أكملت لتقول إنّه سبحانه يتوب على الكفار أو يعذبهم، وهذا شيء فقط بيده سبحانه والسبب:

{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، وهذا التعبير القرآني يشير لحدود الدنيا التي فيها المخلوقات وكل ما فيها لصاحب الاسم المحدد المميز الله، وبناءً على هذه الملكية لكل شيء يمكنه تعالى أن:

{يَغْفِرُ}، يتجاوز عن السيئات فلا يعاقب على السيئة، {لِمَنْ يَشَاءُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة وأخبرنا تعالى أنّه اختار "شاء" أن يغفر للمؤمنين وحتى للكافر الذي قاتل المؤمنين إن تاب وآمن، {وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ}، فلا يغفر له ذنوبه ويحاسبه عليها، وأخبرنا سبحانه أنّه اختار "شاء" وقرّر أن يعذب من مات ولم يؤمن.

{وَاللَّهُ غَفُورٌ}، فليس صلباً لئيماً قاسياً، سبحانه وتعالى، بل يغفر لمن طلب منه المغفرة حتى لو كان كافراً مقاتلاً للمؤمنين، وكما تلاحظ سبحانه يخبرنا عن نفسه بأنّه غفور حتى لا نقطع الأمل، وحتى يعلم الجميع أنّهم مهما فعلوا فيمكنهم الرجوع بالتوبة... وسيغفر لهم سبحانه.

{وَاللَّهُ}، {رَحِيمٌ}، فلديه عناية خاصّة للمؤمنين بما فيه مصلحتهم، فالمؤمنون وحدهم تنالهم المغفرة ومضاعفة الحسنات... فمن آمن وتاب فسيصير تحت الرحمة الخاصّة بالمؤمنين وهي تتضمّن المغفرة و...

الآيات التي تقول بأنّه سبحانه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، لا تقصد أنّه سبحانه وتعالى "مزاجي" أو "عبثي"، فمن السخافة الاستنتاج أنّه سبحانه يغفر لشخص مات كافراً وقتل نفساً بريئةً وسيضعه تعالى في الجنّة... لأنّه تعالى حرّ ويمكنه فعل ما يشاء! ومن السخافة الاستنتاج أنّه سبحانه سيرمي مؤمناً عاملاً للصالحات في جهنم لأنّه تعالى حرّ

ويفعل ما يريد! سبحانه يمكنه فعل ذلك، ولكنّه سبحانه أخبرنا أنّه شاء وقرّر تعذيب الكفّار والمغفرة للمؤمنين، وهذا ما يفعله الإله ذو الصفات الحسنى.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ{130})
تسلسل موضوع السورة حتى تحدثت عن النصر والخسارة في الحرب، وانتهت الفقرة التي تحدثت عن أسباب نصر المؤمنين في الحرب، وضربت معركة بدر كمثال، والنتيجة كانت أن النصر وتفاصيله بيده سبحانه، وبعد ثماني آيات سيأتي الحديث عن خسارة المؤمنين للحرب، وبين فقرتي النصر والخسارة، جرى تمرير فقرة فاصلة تبين أشياء أخرى بنفس أهمية النصر والخسارة، فهي فقرة ستتحدث عن السلوك الإيماني الصحيح في حياتنا العادية وستطرح نماذج من أهم الأمور التي تحدّد فعلاً إن كنّا مؤمنين مستحقين للنصر الإلهي...

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون ملتزمون بهذا الدين:

{لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا}، حيث ما ينتج عن المعاملة الربوية هو سوء فلا تأكلوه ولا تستهلكوه وتتصرفوا به كأنه مال حلال.

الربا هو مثلاً: أن تعطي أحدهم مئة دينار، وتشترط عليه أن يردها مئة وعشرين ديناراً بعد شهر. سواء خسرها في تجارته أو صرفها على عياله أو... فلست مهتماً بما فعل بالمال، لأنك تريد مالك مع الزيادة، مع الفائدة، مع الربا.

{أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً}، حيث إنّ بشاعة الربا أنه أضعاف أنه زيادة كمية مماثلة على ما أعطيته، درهم درهمين، عشرة ريالات لعشرين ريالاً... بل وزيادة على الزيادة، وإن لم يدفع لك المال مع الزيادة في أول شهر، فبعد شهرين تطالبه بالمال والفائدة والفائدة على الفائدة! بل وعادة يرفعون قيمة الفائدة! لْنَقُلْ إنّ أصل الاتفاق على ربا بنسبة عشرة بالمائة، وإذا تأخر عن الدفع في الوقت المتفق عليه، يطالبه بالعشرة بالمئة، وفوقها عشرة على العشرة بالمئة، وهكذا... بل يفرضون قيمة جديدة ويرفعون الفائدة لتصير عشرين بالمئة لأنك تأخرت عن الدفع وهكذا... وتصير المائة دينار مئتين وثلاثمائة وأكثر... في مدة قليلة!

الربا سوء حرام ولو كان بشيء قليل، والآية أرادت أن تبين بشاعة الربا لكونها تصير متضخمة بشكل فظيع، حيث ذكّرتنا بأبشع نموذج ربوي، وهو المضاعفة أضعافاً فوق أضعاف.

ألفت انتباهك عزيزي القارئ إلى الآيات التي تتحدث عن البيع والتجارة في المفهوم القرآني، حيث إنّ الأساس هو التبادل بيني وبينك في المنتوجات، وآخذ من الأشياء التي أنتجتها أنت من ثياب أو طعام... وأعطيك في مقابلها ما أنتجته أنا من ثياب وطعام من نوع مختلف عن إنتاجك، وحلّل لنا سبحانه اختلاف الكمية بين ما أعطيك وبين ما آخذه، ولكن بشرط أن يكون المنتوج من صنف مختلف، حيث أعطيك كيلو قمح وآخذ منك كيلوين من الأرز... وحلّل سبحانه التعاملات المالية مع الربح، حيث أعطيك عملة معدنية أو ورقية لها قيمة متعارف عليها، وآخذ منك طعاماً أو أي منتوج حلال آخر...

بين هذه المعاملات بين البشر، هناك أشخاص يقعون في ورطة، ويحتاجون للاستدانة، وأكّد لنا سبحانه ضرورة الاهتمام بهؤلاء الأشخاص ومساعدتهم، حيث كرّر لنا تعالى كلامه عن الإنفاق والإيتاء والصدقة والزكاة... وتلك الصدقة تذهب ولا نأخذ من الفقراء أي شيء مقابلها هنا في الدنيا، ووعدنا تعالى في مقابلها أجراً منه في الآخرة...
وكذلك أمرنا تعالى بإعطاء المال دَيْناً لمن يطلب منّا الدين، وأيضاً وعدنا تعالى بالأجر عليه في الآخرة، ومنعنا سبحانه من أخذ الربا على الدين، وسمح لنا باسترجاعه بنفس قيمته فقط ومن دون زيادة.

اعذرني لأنني أطلت عليك، وسوف أطيل بعد، بسبب انتشار الربا في المجتمعات، وكما يبدو من السورة هنا، إنّ أهل الكتاب الذين يقولون عن أنفسهم إنهم مؤمنون بدينه تعالى كانوا يتعاملون بالربا في زمن النبي(ع)، مع أن الربا حرام على لسان كل الأنبياء والرسل!

من يفكّر بأن النظام الربوي هو السبب في نهضة المجتمع الغربي، فليتذكّر المآسي التي سببها النظام الربوي في الأزمات الاقتصادية، حيث تحكّم أصحاب المؤسسات المالية بالناس، وأفقروهم ودمّروا حياتهم... ولنتذكّر أنه حين كان المسلمون في أوج حضارتهم، إنّ نظامهم الاقتصادي لم يكن قائماً على الربا.

يا أيها الذين أعلنوا أنهم ملتزمون بهذا الدين: الربا حرام.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}، وتجنبوا غضبه وعقابه عليكم واتركوا التعامل الربوي، {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، بتقواكم وبترككم للربا إنّ سلوككم الإيماني يصير له حظ أوفر بالفلاح، ومن المفروض ومن المتوقّع أن تكونوا من الذين قاموا بعمل فالح، وأجادوا فيما عملوا لأنهم عملوا الصحيح بتركهم للربا.

بالنسبة لمسألة الربا لمزيد من التوسّع راجع دراسة الآية 39 من سورة الروم {وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ}.

(وَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ{131})
{وَاتَّقُوا النَّارَ}، فتجنبوا وتحاشوا نار الآخرة، {الَّتِي أُعِدَّتْ}، فتمّت تهيئتها وإعدادها، {لِلْكَافِرِينَ} للناكرين للدين الإلهي، فأنتم تقولون إنّكم آمنتم بهذا الدين، فلا تتعاملوا بالربا وتسبّبوا لأنفسكم دخول النار التي تمّ تحضيرها للكافرين.

نتذكّر من القرآن وجود أنواع من الأعمال التي تسبب الخلود المؤبّد في النار، مثل الشرك والقتل... وتوجد أعمال لا تسبب الخلود في النار، مثل الربا، ولكن، لا ننسى أن النار في الآخرة ليست نزهة، والعقاب غير المؤبد فيها لا يعني ساعات وأيام، فسيبقى بعضهم في جهنم لمليارات السنين وبعدها يخرجون إلى أقل درجة في الجنة، فيا أيها الشخص الذي أعلن أنه مؤمن: هل أنت مستعد للبقاء مليارات من السنين في جهنم بسبب الربا؟

للأسف بعض الناس غير المستعدين للمشاركة في حرب الأعداء هنا في الدنيا هرباً من القتل أو الجرح أو الأسر... أو رغبة في البقاء في بيوتهم وبين أهلهم... هؤلاء بعضهم يستسهل العذاب في جهنّم في الآخرة طالما في الأخير سيخرج منها، على أساس أنه لم يرتكب شيئاً يسبّب له الخلود فيها... وليس نقاشنا هنا عن أعماله إن كانت تسبّب له الخلود فيها، إنما كلامنا عن استسهاله لعذاب جهنّم وهو هنا في الدنيا لا ينام الليل من انزعاجه من جماعة لم تَدْعُهُ إلى سهرة أو عرس! ويشكو همومه لساعات من لسعة بعوضة "برغشة"! ويستسهل مليارات السنين في جهنّم!

(وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{132})
يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون بهذا الدين:

{أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ}، والتزموا بما يقوله لكم سبحانه في كتابه، والتزموا بما يقوله لكم الرسول (ع) لأنه يعمل ملتزماً بما يرضاه تعالى، {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}، فمن المتوقع ومن المفروض إن أطعتم أن تنالوا العناية الإلهية الخاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتكم، حيث يغفر تعالى لكم ويضاعف حسناتكم....

ضع في بالك دائماً أن كلمة "لعلّ" استعملها القرآن لوجود احتمال لحصول شيء ما من المفروض حصوله إن كانت كلّ شروطه تامّةً، والاحتمال ليس من جهته تعالى، بل من جهتنا نحن، فقراراته تعالى محسومة، فسيدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات إلى الجنّة، ولديه تعالى رحمة خاصة للمؤمنين حيث يغفر لهم ويكفّر عنهم سيئاتهم... ومن اتقى وأطاع مثلك ومثلي ومثله... فسيقع هنا وهناك في ذنب ما، وإذا كان الذنب كبيراً جداً فلن ننال الرحمة الإلهية، ولذلك لا يحسم القرآن بعض الأمور المتعلقة بسلوكنا ويستعمل لها كلمة "لعلّ"، وإن اتقينا وأطعنا على التمام فحتماً سننال الرحمة، فتكون "لعلّ" تحقّقت، وإذا قمنا مع ذلك ببعض الأعمال السيئة الصغيرة فمن المفروض ومن المتوقّع نيلنا الرحمة وانغفار تلك الذنوب، وإذا مع التُّقَى والطاعة قمنا بذنب كبير جداً فلن تتحقّق "لعلّ".

(وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ{133})
يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون بهذا الدين:

{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ}، فلا تكونوا بطيئين بل استغنموا كل الفرص التي تؤدي إلى تجاوزه تعالى عن ذنوبكم، حيث يسامحكم عليها المسؤول عنكم من مستوى إلهي، لا تتباطؤوا، ولا تؤجلوا، ولا تهملوا... ولا يوجد مكان لتذهب

إليه اسمه مغفرة، بل من بعدما ترتكب السوء اطلب المغفرة فوراً، وهناك أعمال تسبّب المغفرة سارع إليها، وعندما يتاح لك فرصة صدقة على فقير فلا تؤجلها، بل سارع وتصدّق عليه، وعندما يحين وقت الصلاة فسارع...

{وَسَارِعُوا إِلَى}، {جَنَّةٍ}، إلى مكان يوصف بروعة ما فيه بمناظره الطبيعية الخلابة، من حدائق وأنهار وجبال وقصور ومباهج... لأنّ الطريق إليها عبر المسارعة بالاستغفار.

تلك الجنة، {عَرْضُهَا}، وساعتها مساحتها، {السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ}، حيث إنها ضخمة جداً جداً، وفيها ما لا يمكننا تصوّره من التنوع الهائل للأطعمة والأشربة وأماكن النزهات ووسائل الترفيه والسعادة...

لا تفهم كلمة عرض في مقابل الطول، لأنّ أصل معنى الكلمة لا يتضمّن ذلك، حيث إنّ العرض هو الوساعة، وهي كلمة عرض لوحدها تشير لكلّ المساحة، كما قيل في الآية 51 من سورة فصلت {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ}، وأنت تعلم أن هذا لا يشير إلى العرض في مقابل الطول بل للضخامة.

تلك الجنة، {أُعِدَّتْ}، حيث جرى إعدادها وتهيئتها، {لِلْمُتَّقِينَ}، للذين يتجنبون، والكلام عن تجنّب السوء وهو نفسه تجنّب ما يغضبه سبحانه.

تذكّر أن القرآن عبّر عن كل الدنيا التي فيها المخلوقات بأنها السماوات والأرض الحالية، حيث إنّ هذه هي كل دنيا المخلوقات المحصورة بهذه الحدود التي لا نفهم منها إلى الآن حدود سمائنا... وكلمة سماء تعبير عن عموم ما علا من جو أو فضاء، ويقابلها أرض لعموم ما كان تحتها، وسماؤنا أرضها ليست أرضنا فقط، حيث سطح القمر أرض، وسطح المشتري الكوكب الغازي أيضاً أرض، أقول لك هذا حتى لا يذهب فكرنا إلى وساعة الجنّة بأنها أرض واحدة ممتدة متّصلة بحجم السماوات والأرض.

بعبارة أبسط، إنّ دنيانا الحالية وساعتها ممتدة من السماء التي نحن فيها، وبناءً على المتعارف عليه في ثقافتنا الدينية وعلى ما تفهمه من عموم كلام القرآن سماؤنا هي رقم واحد، وصولاً إلى السماء السابعة وهي آخر سماء، وأيضاً المتعارف عليه في ثقافتنا الدينية أنها سماء الملائكة العالية(ع) ولن تجد في القرآن أي كلام مباشر عن ذلك، وهذه الحالة للسماوات ستتبدّل حين تنتهي الدنيا وتنتقل إلى حالة أخرى، حالة الآخرة، وكما يبدو من الكلام القرآني، من جديد ستتشكّل سبع سماوات يقابلها أراضيها، وهكذا نرى أن التعبير هنا بوساعة الجنة كعرض السماوات والأرض، يشير إلى حدود كلّ الآخرة، كشبه لحدود الدنيا التي نحن فيها الآن، وهكذا نفهم أن كل الآخرة ستكون جنّة، وبقعة كنقطة صغيرة فيها، فلنقل بالتحليل أنّ كوكباً واحداً فيها هو أكثر من كافٍ كمكان لجهنّم لمليارات من البشر.

بهذا التفصيل إنّ الكثير من الجدالات التي قيلت عن آيتنا هذه تراها صارت بلا معنى، حيث إنّ كثيراً منها ينطلق من أفكار ضبابية غير مدروسة وبدون تعمّق... حتى لو جرى تخصيص مجرة كاملة لتكون مكاناً لجهنم، فتلك المجرة ستكون أقل بكثير من بحصة بالنسبة لوساعة سمائنا نحن، وستكون أقل من حبّة رمل بالنسبة لوساعة السماوات.

هكذا ترى أنه بالنسبة لمعطياتنا الحالية وتصوراتنا النابعة من واقعنا، حيث سماؤنا نحن الحالية التي نسميها بالكون هي لوحدها فيها مليارات المجرات وتريليونات الكواكب، ونحتمل ونتصوّر أن الآخرة بمجراتها وكواكبها كلها جنان، ولكل مؤمن كواكب أو مجرات... وكما ترى إنّ هذا تصوّر لا أدري إن كان مطابقاً لواقع الآخرة، ولكن الأكيد من كلام آيتنا هنا أن جنّة الآخرة هائلة الوساعة.

(الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ{134})
المتقون الذين سيدخلون إلى تلك الجنة الهائلة الضخامة، الهائلة التنوع في المباهج والملذات، هم:

{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ}، يصرفون من أموالهم، {فِي السَّرَّاءِ}، عندما يكونون مسرورين مرتاحين، عندما لا توجد حروب ولا أزمات، وينفقون من أموالهم في، {الضَّرَّاءِ}، عندما يكونون غير مرتاحين وفي حالة ضرر وأحوالهم سيّئة، كما في حالات الظروف الصعبة من أزمات مالية أو اجتماعية أو صحية... وهذا التعبير مشابهٌ لما ورد في الآية 14 من سورة البلد "...في يوم ذي مسغبة".

عندما يجدون فقيراً محتاجاً للمساعدة يساعدونه، حتى لو كانت الأحوال صعبة، حيث إنّ بعض الناس عندما تصير الأحوال الاقتصادية صعبة، يخفّ البيع والشراء والإنتاج... وفي هذه الحالة يحتفظون بمالهم ولا يتصدقون على الفقراء، وينتظرون حتى تصير الأوضاع جيدة لينفقوا على الفقراء.

لا ننسى أن كل ما تذكره الآية من مواصفات وتمدحه فهي من دون أي شك مواصفات ممدوحة ومحبوبة، ولكن حتى يكون لها أجر من ربنا سبحانه، يجب أن نفعلها ونحن ننوي أننا ننفق ونكظم ونعفو لوجه الله تعالى، وعندما نذكره سبحانه في نيّتنا، عندها يصير له سبحانه علاقة بما عملنا، وعندها سيعطينا سبحانه أجراً على أعمالنا، أمّا لو عملنا كل الصالحات ولم نكن ننوي التقرب بها إلى الله سبحانه، فلماذا سيعطينا عليها أجراً؟ لأنّ المديح في القرآن دائماً وحصراً للمنفقين المؤمنين المطيعين لله تعالى ولرسوله(ع).

الداخلون للجنة هم أيضاً:

{وَالْكَاظِمِينَ}، الكاتمين الحابسين، {الْغَيْظَ}، وهو ظهور آثار الغضب، فلا تظهر عليهم آثار الغضب، وحتى أشدّ حالات الغضب التي تدفعنا إلى إظهار حالتنا العصبية فهم يكتمونه ولا يظهرونه، فإذا انزعجوا من شيء ما فلا يبدؤون بالصراخ أو التكسير أو الضرب أو السباب... بل يكتمون انزعاجهم ولا يتصرفون أي تصرف سيئ.

{وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ}، حيث إنّ السيئات التي ارتكبها الناس معهم يعتبرونها لا تستحقّ التوقّف عندها، وعملياً لا يطالبونهم بما قالوه من سوء عنهم ولا بما فعلوه من سوء معهم.

{وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}، يحب الذين يقومون بأعمال حسنة، وكتم الغيظ والعفو عن الناس هو من باقة الأعمال الحسنة. وتذكّر دائماً أن كلمة "محسن" ومشتقاتها هي وصف لعموم من قام بعمل حسن، أمّا التنازل عن حقّك للآخرين أو منحهم ما لا يستحقون أو التفضّل عليهم... فهو من تطبيقات الاتصاف بالعمل الحسن، حيث ليست كلمة محسن محسنين إحسان... مخصصة لهذه العناوين.

لا يغب عن بالنا أن هذه الفقرة افتتحت الحديث عن حرمة الربا، وهنا تحدّثت عن الإنفاق، ومن يحتاج للمساعدة يجب مساعدته، ويحرم استغلال ظروفه السيئة، حيث إنّ المرابين يتصيّدون الذين في ورطة، لأن المتضايق سيقبل بأي شرط يفرضه عليه المرابي، وسيقبل بالأضعاف المضاعفة على الربا لأنه لم يجد من ينفق عليه أو يقرضه.

بقي شيء من الفضول، ما يقولونه عن إعجاز تكرّر بعض كلمات القرآن بعدد لافت، كقولهم عن تكرار كلمة ليل 12 مرة وكلمة نهار 12 مرة... تتبعت غالبية الكلمات التي قالوها ووجدت غالبية كلامهم كذباً إلا في أقل من عشر كلمات، ومما تحققت وتأكدت منه كلمة شهر بالمفرد "شهر، شهراً" حيث تكررت 12 مرة، وتكررت كلمة شهر بالمثنى "شهرين" مرتين فقط. كلمة "رجل" بالمفرد تكررت 24 مرة، وكلمة "امرأة، امرأت" أيضاً تكررت 24 مرة. كلمة "يأمرون" تكررت 7 مرات، وكلمة "ينهون" أيضاً تكررت 7 مرات. كلمة "الخبيث" بالمفرد تكررت 7 مرات، وكلمة "الطيب" بالمفرد تكررت 7 مرات. وهناك كلمات أخرى فيها الكثير من التراخي والاستنسابية بحيث يلغون كلمة أو كلمات لسبب غير وجيه ويدّعون أن الأعداد متساوية كقولهم عن تكرار كلمة ملائكة والشيطان.

الغريب أن الحالة الوحيدة الصادقة بالتمام والوضوح ليست منتشرة في مقالاتهم وكتبهم! حيث فعلاً تكررت في القرآن جملة "الله يحب" ست عشرة مرة، وجملة "الله لا يحب" ست عشرة مرّة.

لكن، هل هذا يعني أي شيء؟ لا، لأنّ القرآن لا يحتاج لخزعبلات من هذا النوع ليصير له قيمة أو لنؤمن بأنه من مصدر إلهي، لأنّ ما فيه من حقّ وصلاح هو قيمته.

(وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ{135})

نكمل مع مواصفات الداخلين إلى الجنة: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً}، قاموا بعمل غرائزي جنسي سيئ، {أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ}، حيث إنّ من العدل والإنصاف لنفسي أن أسبّب لها السعادة وإذا سبّبت لها العقاب ظلمتها وليس معي حق في ذلك، وهنا الكلام عمّن قام بعمل سيئ وسيسبّب لنفسه العقاب، وعندها، {ذَكَرُوا اللَّهَ}، حيث بعد قيامهم بالعمل السيئ

استحضروا ذكر الله تعالى في فكرهم وقولهم وعملهم، {فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ}، وطلبوا منه سبحانه التجاوز عن الأعمال السيئة التي قاموا بها.

{وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ}؟ وهذا سؤال ضخم جداً جداً، حيث إنّ تركيبة الدنيا كما صمّمها تعالى وصولاً إلى الآخرة، تتضمّن وصول من فعل الذنوب إلى العذاب، مثل تركيبة بيئتنا حين تشعل النار في الخشب وتتوقّع احتراقه حتماً، وهكذا نرى أن المطلوب قدرة من مستوى إلهي لتغيير مصير من أذنب حتى لا ينتهي في العذاب، وهذا ما يعرضه الإله سبحانه علينا، مغفرته.

معنى الذنب بالاستعمال القرآني مدعوماً باستعمال العرب لها قديماً، يعطي معنى: مخالفة الأوامر. والسيئة هي وصف العمل السيئ، بغض النظر عن مخالفته لأوامره تعالى علماً أنه تعالى ينهى عن ارتكاب الأمور السيئة. والعقاب عموم ما يعقب أي شيء، ويكثر استعمالها في الأمور السيئة المضرّة الناتجة عن ارتكاب السيئة أو مخالفة الأوامر، والخطأ عموم ما ليس صحيحاً... وبناءً عليه، إنّ الأعمال التي منعنا تعالى عنها، هي متوافقة مع ما نراه نحن سيئاً لأنه تعالى صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا مع قابلية تمييز السيئ من الحسن، ومخالفة أوامره تعالى مرادف للتعبير بالذنب، المطابق لوصف العمل بأنه سيئ، والذي يعقبه ضرر لمن فعله. ومن هذه الناحية يصير السؤال واضحاً جداً، حيث صرنا حصراً أمام الحاجة لمستوى إلهي لتغيير مصير مرتكب الذنوب، وها سبحانه يتيح لنا طلب المغفرة ليتغيّر مصيرنا.

{وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا}، حيث حين فعلوا السيئة اعترفوا بسوئها ولم يصرّوا على أنهم لم يفعلوا السوء، {وَهُمْ يَعْلَمُونَ}، أنها سيئة، حيث يفعل أحدهم السوء ويصرّ أنه لم يفعل السوء ويكون في الحقيقة فعلاً لا يقصد السوء، وهذا يستغفر حين يعلم بسوء ما فعله.

عموم كلام القرآن يشير لهذا المفهوم لمحاسبتنا ومجازاتنا على أساسه، وما ميّزناه سيئاً فيجب تركه حتى لو رأينا أو سمعنا فتوى من أكبر العلماء والمفسرين تقول بأنه حسن، وحتى لو فهمنا آية من القرآن تأمر بفعل شيء نراه سيئاً يجب أن لا نفعله، إلى حين إصلاح الخلل الذي فينا والذي جعلنا نفهم الآية بهذا الشكل، لأن القرآن يستحيل أن يأمرنا بسوء.

كلام الآية هنا يشير إلى شيء مهم جداً، حيث كلنا نفعل السوء، وهذه مشكلة، ولكن لها حلّ بالاستغفار منها، ولكن ماذا لو فعلت السوء ولم أعترف بسوئه؟ عندها تصير المشكلة كبيرة، ولا أمل من التوقّف عن هكذا فعل، ولن نستغفر منه أصلاً لأننا لم نره سيئاً، وكمثال ما نفعله من غيبة للآخرين بذكر عيوبهم، حيث نتحجّج بأنهم هم هكذا، وهذه أمور هم فعلوها ولم يخجلوا... ونبرّر لسوء الغيبة بدلاً من الاعتراف بسوء ما فعلناه، وهذا ما تقصده الآية بقولها "{وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}"، وما تعلم سوءه فَاعْتَرِفْ بسوئه، ولا تعاند ولا تضحك على نفسك بالتبرير له، لأنك بفعلك له يتسجّل عليك ذنوب ستتحاسب وتتجازى عليها.

(أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ{136})
{أُولَئِكَ}، الأشخاص أصحاب تلك المواصفات، {جَزَاؤُهُمْ}، المقابل على تصرفاتهم وأعمالهم سيكون، {مَغْفِرَةٌ}، تجاوز عن ذنوبهم، إلغاء للعقوبة على الذنوب، {مِنْ رَبِّهِمْ}، من المسؤول عنهم من مستوى إلهي، وجزاؤهم بعد المغفرة، {وَجَنَّاتٌ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين وقصور ومباهج... {تَجْرِي}، تسير بالتتابع، {مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، ولا تبالغ في تصوّر منظر الجنّة من تعبير "تجري من تحتها الأنهار"، حيث إنها ليست مستنقعات، ولدينا هنا في الدنيا أماكن لأشجار وحدائق وشلالات ومناظر أنهار وجداول... نشتهي المكوث فيها، والتشبيه بهذه الأماكن. وتلك الأنهار لمتعة النظر والسمع ومشروبات لذيذة لأهل الجنة كما تقرأ في الآية 15 من سورة محمد {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى...}، {خَالِدِينَ فِيهَا}، لأنهم في تلك الجنات لا يموتون ولا يفنون.

ننتبه أنهم يشعرون بأنهم خالدون، حيث إنّ الشعور بالخلود في مكان رائع لا تنتهي فيه وسائل الترفيه والفرح، وتتجدّد وتتغير بحيث لا مجال للملل كما قالت الآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}، إنّ نفس الشعور بالخلود هناك سيسبب الفرح. وبالعكس إنّ الشعور بالخلود في جهنم، الشعور لوحده، يسبّب المضايقة الشديدة.

{وَنِعْمَ}، ويا لجودة ويا لحسن، {أَجْرُ الْعَامِلِينَ}، لأن هذه الجنّات كأجرٍ كمقابل حدّده تعالى للمتقين وهي نِعْمَ الأجر، حيث إنها من أفضل ما يكون من مقابل على ما عملوه.

نلاحظ من القرآن أنه لن يدخل الجنة أي شخص عليه ذنب، والطريقة الوحيدة لدخول الجنّة لمن عليه ذنب هي أن يغفر الله تعالى ذنوبه إمّا بالعقاب عليها في الدنيا، وهذه حالة الذين فيهم أمل بالاستغفار والتضرّع من بعد وقوعهم في مصائب الدنيا، وهذا ما تفهمه من فحوى الآية 48 من سورة الزخرف {وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، أو بعقاب في يوم القيامة وما بعده أثناء الحساب حيث العذاب قبل عذاب النار، وهذه حالة من ينال الشفاعة حيث قبلها ستكون حالته غير مريحة... أو بقضاء وقت في النار يمتد من لحظة إلى مليارات السنين أو أكثر "لا أدري"، وهذا ما نفهمه من معنى تدرجات في شدّة العذاب في جهنّم من الأشد للأخف، وبالتالي واقع الحال أن بعض الذنوب تستوجب العقاب ولا تستوجب خلوداً في النار... أو يغفر تعالى ذنوب المسيء بسبب عمل حسن جداً قام به، كالموت في سبيل الله تعالى، أو بمحو حسنة مقابل سيئة في ميزان الأعمال... أو بالشفاعة إن كانت ذنوب من العيار الخفيف... ولكن النتيجة: الانتهاء من الذنوب يجب أن يحصل قبل دخول الجنة.

(قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ{137})
{قَدْ خَلَتْ}، كانت موجودة وذهبت تاركة مكانها، {مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ}، طريقة ومنهاج في التصرف، وما ذكرته الآيات السابقة من مواصفات حسنة، فهذه سنّة، منهاج وطريقة الدين الصحيح، ومضى من قبلكم على الأرض سنن مختلفة عن هذه السنّة.

{فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ}، امشوا في الأرض، حيث إنّ آثار بعض أولئك الناس ما زالت موجودة على الأرض، {فَانْظُرُوا}، ووجّهوا اهتمامكم العام إلى منظر آثار أولئك الناس التي مضت وهي على سنّة مختلفة عن سنّتكم، وانظروا، {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ}، ما عقب ما أتى بعد، خاتمة ونتيجة أعمال، {الْمُكَذِّبِينَ}، غير المصدقين بالدين الإلهي، حيث انتهوا وماتوا وتدمرت مدنهم وصارت آثاراً، وبكل وضوح انتهت حياة من كان قبلكم، وأنتم ستنتهي حياتكم، ولكن السنّة المنهاج الطريق التي اتبعوها في سلوكهم، هي الفرق الجوهري، فمن كان سلوكه إيمانياً وصالحاً فسينتقل لآخرة رائعة، وأمّا من كان سلوكه مكذّباً للإيمان، فسينتهي من الدنيا، وستكون آخرته سوداء.

(هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ{138})
{هَذَا}، الكلام في هذه الفقرة هو، {بَيَانٌ}، توضيح، {لِلنَّاسِ}، حيث إنها تبيّن توضّح لكل الناس كيف يجب أن يكون سلوكنا وتفكيرنا.

هذا الكلام، {هُدًى} وليس ضلالاً، لأنه كلام يضعنا على الأشياء الصحيحة التي توصلنا للغاية الصحيحة.

هذا الكلام هو، {مَوْعِظَةٌ}، حيث يحدّد لنا ما يجب فعله وما يجب تركه حتى لا نقع في المشاكل.

الهدى والموعظة من هذا الكلام هو، {لِلْمُتَّقِينَ}، للذين يتجنبون السوء وهو نفسه تجنّب غضب وعقاب ربهم سبحانه.

الكلام عن الربا والإنفاق وكظم الغيظ... والجنة... هو بيان هو توضيح منه سبحانه لكل الناس، ولكنه كلام فارغ بالنسبة للمكذّبين، وفي نفس الوقت هو هدى وموعظة للمتقين فقط.

(وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{139})
نرجع لموضوع هزيمة المؤمنين في الحرب، حيث كانت الفقرة ما قبل السابقة تمهّد للحديث عن الهزيمة في معركة أحد، وابتدأت بالحديث عن النصر في معركة بدر، مع أن الظروف في بدر كانت أصعب، ثم جاءت فقرة مستقطعة تتحدث عن السلوك الإيماني الصحيح، وها جاءت الفقرة التي ستتحدث عن الهزيمة في معركة أحد.

عادة القرآن هذه بالكلام المستقطع هي من الفروق الجوهرية بين طريقة كلامه تعالى وطريقتنا نحن، حيث نحن نرى الكلام عن الربا دخيلاً على فقرتي الحرب والخسارة، أمّا سبحانه فكل المواضيع بالنسبة له باقية على نفس أهميتها، لأن

السلوكيات الإيمانية المذكورة هي التي تحدّد الفرق بين المؤمن والآخرين والتي على أساسها سينصره تعالى، وترى واضحاً هنا من الآية هنا تقليلها من أهمية الخسارة في معركة أحد وأنها ليست آخر الدنيا، ولذلك لم تردك أن تصب التركيز على الخسارة بل تصب التركيز على السبب، فلو كنتم مؤمنين مخلصين عبر الالتزام بما ذكرته الفقرة السابقة لما خسرتم...

{وَلَا تَهِنُوا}، ولا تشعروا بالوهن ولا تفقدوا الحماسة والعزيمة، وليس الوهن من المهانة بدليل ما ورد في الآية 104 من سورة النساء {وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ...}، {وَلَا تَحْزَنُوا}، ولا يصيبكم شعور بالانزعاج المعاكس للسرور أو للحالة العادية. بعبارة أخرى، فما حصل لكم من خسارة فليس آخر الدنيا، ولم يكن عظيماً ضخماً كما تتصورون.

{وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ}، ولستم الأسفلين ولستم تحت الكفّار، هذا، {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، فإن كنتم فعلاً معتقدين بهذا الدين فأنتم الأعلون.

حتى بعد الهزيمة العسكرية أنتم أعلى من الكفار، لأن هذه الهزيمة لم تنهكم ولم تضعكم تحت حكمهم ولا زلتم موعودين بالنصر الإلهي عليهم.

من الواضح أن هذه الآيات لم تنزل أثناء معركة أحد، بل نزلت بعدها لترينا المنظور الإلهي لما حدث لتعليم المؤمنين دروساً مما حصل. وهذا منتشر بكثرة في القرآن، بعكس ما تصوّره لك الروايات التي تلصق نزول الآيات بأحداث على أساس أن الآية فوراً نزلت في حادثة ما، حيث غالباً هذا ليس بصحيح.

(إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ{140})

{إِنْ يَمْسَسْكُمْ}، إذا أصابكم وشعرتم به في مقابل الأمور التي تسمعون عنها ولم تصبكم، أصابكم، {قَرْحٌ}، إصابات جسدية أو نفسية بسبب الخسارة في الحرب، {فَقَدْ مَسَّ}، أصاب وأحسّ، {الْقَوْمَ}، جماعة الناس المتفاعلة معكم بالحرب حيث بينكم وبينهم قتال حيث مسّهم، {قَرْحٌ مِثْلُهُ}، إصابات جسدية ونفسية مثلما أصابكم.

هناك أمور مؤذية تسمعون عنها أو تصيب أشخاصاً ترونهم، ولكن القرح مسّكم أنتم وشعرتم به فعلاً من جراء ما حصل في معركة أحد، حيث انتصرتم عليهم في معركة بدر، وحينها أصاب الكفار قرحٌ في تلك المعركة مثل قرحكم الآن، ولماذا هم تجمّعوا واستعدّوا من جديد للقتال رغم القرح الذي أصابهم في بدر؟ حيث جاؤوكم ليقاتلوكم من جديد، وأصابوكم بقرح فهل سَتَهِنُونَ وتَحْزَنُونَ أَمْ تُؤْمِنُونَ بأنكم الأعلون وتقاتلون من جديد؟

{وَتِلْكَ الْأَيَّامُ}، تلك الأزمنة التي يحصل فيها قرح، {نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ}، حيث يتداولونها، مرةً يأخذها الكفار ويقرحون المؤمنين، ومرة يأخذها المؤمنون ويقرحون الكفار.

لا يوجد قرار إلهي حاسم بنصر الذين يقولون عن أنفسهم بأنهم مؤمنون، وستلاحظ من الآيات التي ستأتي أنه توجد شروط إلهية حتى ينصر تعالى المؤمنين، وإذا لم تتحقق تلك الشروط، فسبحانه لن ينصرهم.

من أهم الأسباب الرئيسية التي لأجلها لم يقرر سبحانه انتصار المؤمنين دائماً:

{وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا}، حيث يصيبكم سبحانه بقرح حتى يظهر الأشخاص الذين آمنوا عن حقّ، لأن المؤمن لا يهن ولا يحزن، {وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ}، أشخاصاً يحضرون ويَسْمَعُونَ ويرون ما يجري، وبعدها عندما يَمُوتُ في تلك المعارك أو يبقى حياً فهو سيكون في يوم القيامة شاهداً مؤكداً على ما فعله الكفّار بحربهم ضد المؤمنين، حيث قتلوهم، وشاهداً على من تخاذل من المؤمنين.

نلاحظ أنه سبحانه لن يتّخذ من جميع المشاركين في القتال شهداء، بل سيتخذ منكم شهداء، لأن النوعية ذات النية الإيمانية الصافية هي المؤهلة لتشهد على كفر الكفار وعلى تخاذل من تخاذل من المؤمنين.

{وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}، وإن كان بينكم من لم يكن مؤمناً صادقاً، فهذا ليس معه حق، وهو ظالم، لأنه يتظاهر بأنه مؤمن، وسيصيبكم تعالى بالقرح لتظهر هذه النوعية من الناس على حقيقتها.

عندما تقول الآيات إنّه سبحانه يريد أن يعلم من هو المؤمن الحقيقي من المؤمن المزيف، فسبحانه يعلم كل شيء، ويعلم أصلاً من هو المؤمن الحقيقي من المزيّف، وبناءً عليه الآية تقصد أنّه تعالى يريد إظهار الشخص على حقيقته بالامتحان، وهذا صحيح، وهو تفسير بسيط مقبول لكل الآيات التي تتحدث عن علم الله تعالى لشيء لم يحدث بعد.

لكن هناك معنى أعمق لهذا الكلام، حيث في المدرسة لا نحرم التلامذة الكسالى من الامتحان، حتى رغم علمنا من علاماتهم الراسبة خلال السنة الدراسية أنهم لن ينجحوا في الامتحان النهائي، ولكن نتفاجأ بنجاح أحدهم! لأنه في الأيام الأخيرة بذل جهداً لينجح، ونتفاجأ بتلميذ مجتهد رَسَبَ! إذن، الامتحان ضروري جداً، والامتحان الإلهي للبشر لا علاقة له بالعلم الإلهي المطلق العام الشامل، والذي منه سبحانه يعلم بدقة كيف ستكون نتيجة الامتحان، ولو عاملنا سبحانه على أساس علمه المطلق، لما كان للحياة الدنيا أي معنى، وعليه كان تعالى خلقنا ورمى من يعلم أنّه سيكفر في جهنم مباشرةً، ولأدخل من يعلم بأنه سيؤمن إلى الجنة بمجرد أن يفتح عينيه على الحياة، وهل لهذا الكلام معنى؟ لا، لأن الاعتراض سيكون من الشخص الذي دخل إلى النار وهو لم يمر بالامتحان... ومعه حقّ بالاعتراض.

علمه سبحانه بشيء لم يحصل بعد، هو علم صحيح يقيني "إن جاز التعبير"، ولكن لا معنى له لو كان في الفراغ، ولا معنى له إذا لم نخرج إلى الحياة، ولم نمر بامتحانات، وحتى يصير هذا العلم حقيقياً لأنه مرتبط بنا، فلا بد أن نمر بامتحانات حتى يعلم الله تعالى فعلاً وفي الحقيقة من منا سيؤمن ومن منا سيكفر. وكما ترى المعنيان لهذه الجملة صحيحان، وواحد بسيط والآخر أعمق.

ننتبه دائماً أننا في ثقافتنا الحالية نقول عن كل مقتول في سبيل الله تعالى إنّه شهيد يشهد على من قتله، ولكن القرآن لم يستعمل هذه الكلمة "شهيد" حصراً في هذا المعنى "للمقتول"، وإنما استعملها القرآن للشخص المؤمن ذي المواصفات الإيمانية التي تؤهله للإدلاء بإفادة في يوم القيامة، حيث إنّ الْمَقْتُولِينَ في سبيل الله تعالى ليسوا كلهم من الشهداء الأساسيين على الكفار، وسيكونون شهداء على من قتلهم، وهذه حالة كل مقتول حتى لو في حادث فردي... وهناك من يموت من المرض ولكنه يكون شهيداً في يوم القيامة لأن سلوكه ومواصفاته الإيمانية تؤهله ليشهد على كفر قومه وعلى سلوكهم المشين.

ما درج بين عموم الناس من تسمية قتلاهم بالشهداء، وبعضهم أصلاً لا يؤمن بدينه تعالى ولا بالآخرة، فهذه التسمية موروثة من ثقافة الأجيال الأولى من المسلمين، حيث قبل ذلك لم أصادف في تراث العرب أي كلام عن وصف المقتول بالشهيد، وفجأةً ترى في كلام الجيل الأول من المسلمين تعيين هذه الكلمة لقتلاهم، وبشكل ما يبدو أن هذا الوصف باللغة العربية للمقتول، تأثّر به الآخرون الذين يفتقدون لكلمة وهّاجة رنانة لوصف قتلاهم، واستوردوها...

ضع في بالك في عموم ما ورد في القرآن أنه تعالى لا يحبّه، حيث وردت حيث لا داعي للكلام القاسي، وخذ مثلاً كلامك معي حيث تريد تحذيري وتنبيهي وتقول: سأكسر عظامك لو فعلت كذا وكذا... لأنّ هذه نبرة عالية لا مبرر لها لأنك تعلم أني حالياً لست ناوياً لفعل السوء، والجملة الأنسب: لا أحب أن تفعل كذا وكذا... وعلى هذا المفهوم جاءت الآيات التي وجّهت كلامها مع المؤمنين مستعملة عبارة مشابهة لعبارة "الله يحب أو لا يحب"، هنا في الآية الكلام مع مؤمنين شاركوا في قتال، وكانوا ظالمين لأنهم لم يلتزموا بأوامر الرسول(ع) وحصلت الهزيمة... ولا داعي للكلام القاسي معهم مثل الكلام مع الظالمين من الكافرين، لأن هؤلاء يتحدّث معهم القرآن بأقصى لهجة مثل ما سيرد بعد قليل في الآية 151 {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ}.

(وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ{141})
من أسباب إصابة القرح للمؤمنين أيضاً:

{وَلِيُمَحِّصَ}، ليستخرج سبحانه، {الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين عن حقّ اعتقدوا بدينه تعالى، {وَيَمْحَقَ}، فلا يترك أثراً وينهي، {الْكَافِرِينَ}، فلا يترك أي اختلاط بين المؤمنين والكافرين.

المحق ليس المقصود منه إنهاء الكفّار، فليس المقصود منه قتلهم كلهم، لا، لأنّ الآيات تتحدث عن مؤمنين مزيّفين بين المؤمنين الحقيقيين، وشملت المزيفين مع الكافرين، والمحق لعموم الكافرين يعني أن لا يكون لهم أثر بين المؤمنين،

فلنعتبر الناس خليطاً ممزوجاً، فالتمحيص هو استخراج المؤمنين وفصلهم لوحدهم، وهكذا ينمحق الكفّار فلا يبقى لهم أثر بين مجموعة المؤمنين.

بعبارة أخرى، خسر المؤمنون في المعركة، فمن كان مؤمناً حقيقياً فإنه لا يتراجع عن إيمانه رغم الخسارة، والمؤمن المزيّف "الكافر الخفي" نفسيته تدفعه للتراجع عن دينه وعملياً سيقف مع الكافر الذي انتصر، وهكذا يتميز المؤمن الحقيقي ويتمحص من الخليط، وينمحق الكفار فلا يبقى لهم أثر اختلاط مع المؤمنين.

هذا شيء تراه بوضوح في الأزمات، حيث هناك أناس لا يقومون بواجباتهم ويتفلسفون بتحليل الأحداث بالتعليقات السيئة على الآخرين الذين قاموا بواجباتهم، بل وتجد منهم دعاة للاستسلام للعدو على أساس أنه الحلّ الأفضل، والضامن لهم عيشة رفاهية تحت حكم العدو! حيث كثيراً ما تشتكي الناس من ظروفها الاقتصادية ومن الدمار والقتلى والجرحى... من الحروب، ويلقون باللوم على الله تعالى وعلى الدين وعلى المؤمنين... وستأتيك تفاصيل دقيقة عن كل ذلك فيما سيأتي من السورة.

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ{142})
أنتم الذين قلتم عن أنفسكم مؤمنين:

{أَمْ حَسِبْتُمْ}، فخطر في بالكم ومن دون أي دليل أو مصدر موثوق، {أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ}، التي في الآخرة، {وَلَمَّا}، ولحدّ الآن لم، {يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ}؟ لحدّ الآن لم يعلم سبحانه الذين قاموا بعمل فيه جهد يأمرهم به إيمانهم، وأنفقوا أو قاتلوا. هل خطر في بالكم أنكم بمجرد قولكم عن أنفسكم مؤمنين سبحانه سيجعلكم تدخلون الجنة ولم يمتحنكم بعمل فيه جهد بالحرب أو بالإنفاق؟

{وَلَمَّا}، {يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}؟ وتفكّرون بأنكم ستدخلون الجنة قبل أن يعلم سبحانه الصابرين منكم من قبل إلى الآن؟ وهم الذين لا يتململون ولا يتأففون ويبقى تصرّفهم واعياً ومدروساً في الظروف الصعبة التي لن تستمر.

إن كان النصر دائماً للذين قالوا عن أنفسهم مؤمنين، فكيف سيظهر المؤمنون الحقيقيون من المزيفين؟ هل كل من قال عن نفسه إنه مؤمن فهو سيدخل الجنة من دون امتحان؟ وهل كل من شارك في المعارك فهو مجاهد صابر؟ لا، حيث هناك معارك يكون فيها المؤمنون عددهم كبير، وسلاحهم متفوق على عدوهم، وتدريب المؤمنين واستعدادهم أعلى... مَنْ شارك في هذه المعارك، هل فعلاً هو مجاهد صابر؟ لا، بل يوجد امتحانات، ويتبين بعدها من هو المجاهد الحقيقي الذي قاتل في الظروف الصعبة، ولم يتخاذل...

انتبهْ لتعبير: {وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ...} حيث يتم استعمال كلمة "لمّا" عندما تريد نفي شيء من الماضي إلى الآن، لأن الذين آمنوا قالوا في الماضي إنهم مستعدون للجهاد والصبر على الإيمان وكانوا يظنون بأنهم بقولهم هذا سيدخلون إلى الجنة، والآية تقول: لا، لأن هذا مجرد كلام، والقول لا يكفي، وستتعرضون للبلاء حتى يعلم الله تعالى الحقيقيين من المزيفين، حتى تظهروا على حقيقتكم. من الماضي ولحد الآن لمّا يعلم الله تعالى "عملياً" علم شهادة، من هو المزيف من الحقيقي لأنكم لم تمروا بالاختبار وكل ما صدر منكم فهو مجرد كلام، وسبحانه عالم الغيب حيث يعلم ما في أفكاركم ومشاعركم، ويعلم ماذا سيكون قراركم إذا أمركم بالحرب، ويعلم ماذا ستفعلون في الحرب إذا شاركتم... وكل هذا هو علم بالغيب، أما في الواقع المشهود فلم يحصل شيء، ونحن نتحاسب على ما نفعله في الواقع، ولا نتحاسب على ما يعلم الله تعالى أننا سنفعله، ولذلك يمتحننا تعالى حتى يظهر ويتحقّق ما سنفعل.

أكرر لك لأن ما تجده في الكثير من الكتب يسبّب تشويشاً، حيث إنّ ما يعلمه تعالى بالغيب عنّا، لحدّ الآن لم يصر علماً واقعاً مشهوداً، وبعد أمره سبحانه لنا بالجهاد، يصير علمه تعالى للغيب، يصير فعلياً، فإذا جاهدنا، وفي علم الغيب يعلم تعالى أننا سنجاهد، فعندها يعلم تعالى عملياً أننا مؤمنون، وإذا لم نجاهد، وفي علم الغيب كان تعالى يعلم بأننا لن نجاهد، أيضاً يعلم تعالى فعلياً وعملياً أننا لسنا مؤمنين حقيقيين.

تَصَوَّرْ لو أنه تعالى يحاسبك على أشياء لم تفعلها، تَصَوَّرْ أن يحاسبك تعالى على الهروب من القتال وأنت أصلاً لم تعاصر أي حرب في حياتك! حيث يحاسبك تعالى لأنك لو حصلت حرب لكنت هربت! وهكذا تفهم جملة "{وَلَمَّا يَعْلَمِ

اللَّهُ} تعالى..." حيث قبل حصول امتحانك لم يحصل علم فعلي بما سيصدر منك، وبعد حصول الامتحان يحصل العلم الفعلي وتتحاسب على ما فعلته.

نتذكّر دائماً أنه تعالى لا يصنع أفخاخاً للمؤمنين ليرتدوا عن إيمانهم، بل بالعكس هؤلاء يهديهم تعالى بإنارة قلوبهم وتسيير الظروف بما يجعل إيمانهم أقوى، بل سبحانه يبتلي ويفتن الذين يدّعون أنهم مؤمنون حتى يظهروا على حقيقتهم، وفرضاً كان مجتمع ما كلّه من المؤمنين الحقيقيين من أوله لآخره، فهؤلاء لن يفتنهم تعالى ولن يبتليهم بل سيفتح عليهم بركاته، وهذا صريح الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...}.

(وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ{143})
أيها القائلون عن أنفسكم إنكم مؤمنون:

{وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ}، تتمنون ترغبون وتحبون حصول فقدان الحياة الذي كنتم تستبعدون حصوله، وهذا ما تعطيه كلمة أُمْنِيَّةٍ، {مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ}، من أن تلتقوا بالموت، حيث كنتم تقولون إنكم مؤمنون وستدخلون إلى الجنة بعدما تموتون، وكنتم مشتاقين للموت حتى تدخلوا إلى الجنة! وهذا كلّه كان قبل خوضكم لمعركة تشعرون فيها أنكم ستموتون!

{فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ}، حيث حصلت عندكم فعلاً صورة محددة للموت، وذلك في معركة قتالية خاسرة مات فيها رفقاؤكم، {وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}، وأنتم مُوَجِّهُونَ انتباهكم العام للموت من حولكم. مِنْ قبل كنتم تتمنونه وأمّا الآن "في نموذج معركة أحد" فقد رأيتموه وصار أمامكم ومتاحاً لكم، ولم تعودوا تتمنون الموت!

لاحظ كيف تركت الآية الكلام مفتوحاً على الآية السابقة، شيء رائع، ها أمامكم عمل فيه جهد مع فرصة دخولكم المضمون إلى الجنة، ماذا ستفعلون؟ هل ستستمرون على تمنّي الموت طمعاً في الجنّة أم ستغيّرون رأيكم؟

الأساس في الموضوع كان: خسارة المؤمنين للحرب وعلاقتها بصحّة دينهم، على أساس إن كان دينهم إلهياً صحيحاً فالنصر مضمون في كل الظروف... حيث قلبت السورة الكلام لتتحدّث عن صحّة تدينهم، لأنّه إن كان تدينهم مستقيماً فالنصر مضمون، وبوجود منافقين بين المؤمنين فالخسارة واردة لفضح المنافقين.

هنا الآية تطرح الموضوع من زاوية أخرى: انسوا السؤال عن الخسارة في الحرب، حيث كنتم تتمنون الموت حتى تدخلوا الجنة، وها جاءتكم الفرصة في هذه المعركة لتموتوا وتدخلوا إلى الجنّة، لماذا تغيرتم وصار اهتمامكم مصبوباً على الدنيا وعلى ربح المعركة!

أساس التفكير الإيماني الصحيح هو أن تعتبر كل معركة هي فرصة للموت في سبيل الله تعالى حتى تدخل الجنة، أما الربح والخسارة فموضوع لا يخصك وليس بيدك، لذا قُمْ بواجبك، وما يحصل بعدها هو موضوع آخر ليس من شؤونك، لأنك لست تعرف ماذا خَطَّطَ ربك سبحانه.

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ{144})
{وَمَا}، وليس، {مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ}، وظيفته إيصال رسالة ربه للناس، لا أكثر ولا أقل، {أَفَإِنْ مَاتَ}، ففقد الرسول محمّد(ع) حياته بموت طبيعي من المرض أو الشيخوخة، {أَوْ قُتِلَ}، حيث إنّ شخصاً ما أنهى له حياته في المعركة أو اغتيالاً، {انْقَلَبْتُمْ}، فانعكس اتجاهكم وبدل الاتجاه إلى الأمام رجعتم واتجهتم، {عَلَى أَعْقَابِكُمْ}، إلى الخلف، ورجعتم إلى الطريق الذي كنتم عليه سابقاً، ورجعتم إلى الكفر وتركتم الدين الإلهي لأن الرسول مات أو قتل؟! فما هذا الكلام؟! لأنه مجرد حامل للرسالة الإلهية وتدينكم ليس مرتبطاً به، حيث إنه على كلّ حال سيموت بالمرض أو الشيخوخة أو بالقتل... فهل ستتراجعون عن دينكم حين يموت؟

هناك ناحيتان في هذا الكلام، أولاً وقبل كل شيء إنّ فكرة مشاركة رسول في معركة كضمانة للنصر فيها، على أساس أن دينه صحيح، ويجب، "يجب" أن يكون مؤيداً منه تعالى، وبالتالي فإن خسارة المعركة دليل على أنه ليس مؤيداً منه تعالى، وبالتالي فهو ليس برسول... فهذا غير صحيح، فلنسأل عن الأساس، فما محمّد إلا رسول، شخص وظّفه تعالى لنقل الكلام الإلهي للناس ليهتدوا، لا أكثر ولا أقل، ويمكن أن يخسر الحرب، ويمكن أن يقتلوه، ويموت من المرض... فلا ارتباط بين كونكم بينكم رسول وبين إيمانكم وواجباتكم.

الآية تطرح مبدأً أساسياً يفصل بين الإيمان بدينه تعالى كتكليف واجب على كل واحد منّا، وسنتحاسب عليه، وبين كون الرسول بيننا، حيث أصلاً قبل السؤال عن خسارة معركة خاضوها مع رسول كقائد لهم، فماذا لو مات الرسول أو قتله الأعداء، وهذا ممكن حصوله في أي لحظة، فهل تتركون تديّنكم بدينه تعالى؟!

من المشهور جداً في التاريخ أنه في معركة "أحد" التي اختارتها السورة كنموذج، أنه انتشر بين المسلمين في أثناء المعركة أن الرسول محمّد(ع) قُتِلَ، حيث هزمهم المشركون ووصلوا إلى خيمة الرسول(ع)... وصار المشركون ينادون أنهم قتلوا الرسول(ع)... وبعض "المؤمنين" الذين سمعوا هذه النداءات اهتزّ إيمانهم بالدين من أساسه، على أساس أن الرسول الإلهي من المفروض أن ينتصر، فكيف يقتله المشركون؟ فأي دين إلهي هذا إن كان الرسول سيقتله المشركون؟ يعني: خسرنا وقتلوا الرسول فلم نحصل على دعم إلهي، مما يعني أن ديننا ليس إلهياً وهذا المقتول ليس رسولاً منه تعالى.

تتحدّث آيتنا هنا عمّا هو أعمّ من ذلك، حيث إنه على كلّ حال سيموت هذا الرسول(ع) قتلاً أو بالمرض، فما الفرق إن مات في المعركة أو عاش مئة سنة ومات بالشيخوخة؟! فهل تتركون دينكم بعدما يموت؟!

{وَمَنْ يَنْقَلِبْ}، فالذي ينعكس في منهجه في تفكيره وسلوكه، وينعكس عن طريق الإيمان، {عَلَى عَقِبَيْهِ}، ويرجع للطريق الذي كان عليه، ويرجع للكفر، {فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا}، فلينقلب وليرجع كافراً، لأنه سبحانه لن يتضرر بأي شيء ولن يتغير حاله ولا ما حوله إلى الأسوأ.

لا تتصوروا بأنه سبحانه وتعالى سيترجّاكم حتى تبقوا مؤمنين، ولا تتصوروا أنكم تفيدونه سبحانه بإيمانكم، لا، لا، وألف لا، فلو كفرتم كلكم فلن تضروه سبحانه ولا بأي شيء، ولن ينقص ملكه، ولن تتغير قيمته الإلهية، ولن تفشل مخططاته تعالى... حيث أصلاً لا أنتم ولا أي مخلوق غيركم يمكنه أن يضره تعالى ولا بأي شكل.

{وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}، فمن شكره تعالى على إرسال رسول للهداية، ومن شكره تعالى على نعمة الإيمان، وأعلن أنه حصل على أمور جيّدة منه تعالى، فسبحانه سيجزيه حيث سيعطيه مقابلاً على شكره.

انتبه وليبق ذهنك في موضوع: رسول رسالة إيمان. إنّ الرسول والرسالة شأن إلهي، أمّا الإيمان فمن شأنك، فإن تركت الرسول والرسالة ولم تؤمن فلن تضره سبحانه بل ستضر نفسك، وإن آمنت فأنت بالتأكيد ستكون شاكراً له سبحانه على الرسول وعلى الرسالة، وستنتفع، لأنه سبحانه سيجزيك بجنّة الآخرة.

ولا تَنْسَ أبداً أن الآيات عامة وتنطبق على كل حادثة مشابهة لما حصل في أحد، ها نحن بلا رسول، ولا تزال الآيات تنطبق علينا، وفي أي معركة يموت فيها القائد، أو في أي مجتمع يموت فيه الداعية الذي كان له تأثير على الناس، فهذا لا علاقة له بدين الله تعالى، فلا عذر لنا بترك الدين الإلهي أو الانحراف عنه.

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ{145})
بالأساس: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}، موتكم في المعركة، أو هروبكم من الموت في المعركة وموتكم في ظروف أخرى، موت الرسول(ع)... موت كل الناس، لم يكن ليحصل إلا بسماح منه سبحانه، {كِتَاباً مُؤَجَّلاً}، فبما أننا كلنا خَطَّطَ لنا سبحانه أن نموت في الدنيا، فَكَتَبَ لنا أن نموت، وهذا الكتاب "التسجيل" بتحديد وقت موتنا هو مؤجل، وَمِنَ اللحظة التي نخرج فيها إلى الحياة فإن موتنا مؤجل فلن يحصل قبل أوانه، وَرُبَّمَا تكون حياتنا للحظة، وربما تمتد لسنين، ولكننا نعيش حتى يحين الوقت المكتوب لنا للموت، ونموت.

كُلُّكُمْ ستموتون بظروف مختلفة ضمن البيئة التي تعيشون فيها، ويحصل موتكم لأنه تعالى يسمح للظروف أن تنهي حياتكم، وتحديد وقت موتكم بيده تعالى وَأَصْلاً مُسَجَّلٌ سَلَفاً ومعلوم عنده تعالى.

{وَمَنْ يُرِدْ}، من مقصده ورغبته، {ثَوَابَ الدُّنْيَا}، فهنا يريد أن ترجع عليه أعماله بنتيجة، ولم يهتم بنتيجة يحصل عليها في الآخرة سَوْفَ، {نُؤْتِهِ مِنْهَا}، فسينال نتيجة ما من الدنيا.

{وَمَنْ يُرِدْ}، والذي من الناس يكون مقصده ورغبته، {ثَوَابَ الْآخِرَةِ}، فيريد أن ترجع عليه نتائج أعماله في الآخرة التي بعد هذه الدنيا سَوْفَ، {نُؤْتِهِ مِنْهَا}، نعطه منها، ففي الآخرة سترجع عليه نتائج أعماله.

{وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ}، سَنُعْطِي مُقَابِلاً للذين أعلنوا أنهم حصلوا على أمور جيّدة منه تعالى.

لاحظ أن من أراد الدنيا، حَيْثُ أراد هنا التمتع بمالها وشهواتها... قَالَتْ عنه الآية أنه سيحصل على شيء منها، رُبَّمَا يحصل على القليل "فيكون فَقِيراً"، وربما على الكثير "فيكون غَنِيّاً أو ثَرِيّاً"، وفي نفس الوقت مَنْ أراد الآخرة حَيْثُ أراد هناك أن يحصل على الجنّة، فهذا سيحصل على شيء منها، وربما سيحصل على القليل لأن عمله للآخرة كان قليلا، لأنه خلط أَعْمَالاً صَالِحَةً بِطَالِحَةٍ، فيدخل إلى الجنّة ولكن بدرجة منخفضة، وربما سيحصل على الكثير فسيكون من درجة الرسل والأنبياء والصالحين... ولكن نبّهت الآية أنه سبحانه قَرَّرَ مجازاة الشاكرين، بِغَضِّ النظر عما يستحقه الذي أراد الآخرة، بِمُجَرَّدِ وجود نيّة لديه للآخرة، فهو شاكر لربه سبحانه على الرسول والرسالة ووجود آخرة سينال فيها أَجْراً... وشاكر لربه سبحانه على الهداية للحصول على المكاسب في الآخرة، فسبحانه سيعطيه مُقَابِلاً على شكره هذا، وتعلم من القرآن أن أقل درجة في جنّة الآخرة هي أعلى بكثير جدا جدا مما في كل الدنيا.

(وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ{146})
{وَكَأَيِّنْ}، كَأَيٍّ، مثل أي، {مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ}، فهناك حوادث حرب حصلت من قبل مع أنبياء مع أشخاص كان يصلهم نبأ، حَيْثُ يَصِلُهُمْ منه تعالى خبر غير منتشر علمه بين الناس لهدايتهم، وَقَاتَلَ مع الأنبياء أشخاص ربيون أشخاص منتسبون لربهم سبحانه، لِأَنَّهُمْ ليسوا من الدنيويين بِالْمَصَالِحِ السيئة من العدوانية والطغيان، وهؤلاء الربيون كانوا كُثُراً، كم من الكثير من الربانيين قاتلوا مع أنبياء "ولكنهم خسروا"، {فَمَا وَهَنُوا}، حَيْثُ لَمْ يُصِبْهُمُ الوهن التراخي، {لِمَا أَصَابَهُمْ}، بسبب ما حصل معهم، {فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، من الواضح من سياق الكلام أنهم خسروا وهم يقاتلون في مسلك يرضى عنه ويأمر به سبحانه، بالدفاع عن إيمانه وعن نفسه أو أهله وموطنه...

{وَمَا ضَعُفُوا}، حَيْثُ بعد الخسارة بقوا أقوياء، وَلَمْ يتصرفوا على أساس أن قوتهم أقل من المطلوب لقتال العدو، {وَمَا اسْتَكَانُوا}، حَيْثُ لَمْ يقتنعوا بحالة خسارتهم لِيَهْدَؤُوا بالاعتراف بشعور العجز عن الانتصار.

{وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ}، يحب تعالى الذين يتصرفون بشكل واع ومدروس في الظروف التي يواجهونها، وَيَبْقَوْنَ على موقف ثابت، متمسكين بدينهم وبرباطة جأشهم حتى عند خسارة الحرب.

النَّبِيُّ محمد(ع) ليس أول نبي يخسر معركة، حَيْثُ قبله مَرَّتْ في التاريخ حوادث قتال مع أنبياء خَسِرُوا مَعَارِكَ، وَكَانَ يقاتل مع هؤلاء الأنبياء أناس ربيون أناس منسوبون للرب بسبب صفاتهم الإيمانية العالية لِأَنَّهُمْ مؤمنون صالحون.

بعد قليل سنرى وسنعرف لماذا خسر المسلمون معركة أحد، بالرغم من وجود نبي وَرِبِّيِّينَ بينهم، وَهَذِهِ الخسارات للأنبياء في المعارك، والتي تشير إليها الآية هنا، مِنَ الواضح أن لها أسبابا للخسارة سنراها بعد بِضْعِ آيات.

(وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ{147})
{وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ}، أولئك الربيون الخاسرون في المعركة، {إِلَّا أَنْ قَالُوا}، وَمِنْ بعد خسارتهم لم يقولوا إلا ما يلي:
{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا}، فَنَحْنُ قمنا بأعمال مخالفة لأوامرك وَنَسْتَحِقُّ عليها العقاب، فَتَجَاوَزْ عن ذلك فَلَا تعذبنا.

{وَاغْفِرْ لَنَا}، {إِسْرَافَنَا}، مبالغتنا في التصرف، {فِي أَمْرِنَا}، في شؤوننا في أفعالنا وأقوالنا ووقتنا... فَأَسْرَفْنَا وَتَجَاوَزْنَا الحد المعقول المقبول. رُبَّمَا أَسْرَفُوا في وقتهم فَقَضَوْهُ فِيمَا لا يحسّن تدينهم، وفي غير الاستعداد لقتال الأعداء... وربما أسرفوا في مصروفهم، في لباسهم في طعامهم... وأهملوا الاستعداد بالعتاد المناسب للحرب...

{وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا}، فَلَا تَزِلُّ أقدامنا في أرض المعركة فَلَا نُفَكِّرُ بالهرب، بتعبير أبسط فَلَا تجعلنا نستعمل أرجلنا للهرب أو التراجع، {وَانْصُرْنَا}، فَحَقِّقْ لنا ما نريده، {عَلَى الْقَوْمِ}، على الناس الَّذِينَ لَهُمْ كيان كجماعة الْمُتَفَاعِلَةِ معنا، فَنُقَاتِلَهُمْ، {الْكَافِرِينَ}، النَّاكِرِينَ لدينك.

حَسَناً، الآية السابقة تحدثت عن خسارتهم في المعركة، وهذه الآية تتحدث عن معرفتهم لسبب خسارتهم، فَهِيَ نتجت إما عن ذنب، وإما عن إسراف، وإما عن تخاذل، وإما عن ترك التوكّل عليه تعالى... وَانْتَبِهْ، فَهُمْ علموا أنه سبحانه لم ينصرهم لأن واحدة من هذه الأمور السيئة كفيلة بحرمانهم من نصره سبحانه لهم.

(فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ{148})
بَعْدَ معرفتهم لسبب خسارتهم، {فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا}، حَيْثُ رَجَعَتْ عليهم نتائج أعمالهم هنا في الدنيا، وَإِيمَانُهُمُ الصحيح رَجَعَ منه عليهم خير في حياتهم الدنيا، ومن الواضح حصول نصر لهم في معركة أخرى بعد الخسارة أو عناية إلهية أبعدت عنهم الأعداء.

آتَاهُمْ سبحانه، {حُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ}، حَيْثُ فِي الحياة الآخرة التي بعد هذه الدنيا أَيْضاً سيرجع عليهم شيء حسن بسبب ما عملوه في الدنيا، {وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}، حَيْثُ يُحِبُّ سبحانه الذين يقومون بالأعمال الحسنة، ولأنه تعالى يحبهم فَسَيُعْطِيهِمْ ثواب الآخرة وَيُضَاعِفُهُ لهم.

تَذَكَّرْ دَائِماً أَنَّ كلمة "محسن" ومشتقاتها هي وصف لعموم من قام بعمل حسن، كما هو واضح من الآية هنا، أَمَّا التنازل عن حَقِّكَ للآخرين أو منحهم ما لا يستحقون أو التفضّل عليهم... فهو من تطبيقات الِاتِّصَافِ بالعمل الحسن، وَلَيْسَتْ كلمة محسن محسنين إحسان... مخصصة لهذه العناوين.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ{149})
إليك النص بعد المراجعة اللغوية والنحوية الدقيقة وفقاً للشروط المطلوبة:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين: {إِنْ تُطِيعُوا}، فَتَسْمَعُوا الكلام وتنفذوا ما يقوله، {الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا هذا الدين الإلهي فَلَمْ يعتقدوا به، إِنَّ الكفار، {يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ}، يَرُدُّوكُمْ على الطريق الذي كنتم عليه، يَرُدُّوكُمْ إلى الخلف إلى الكفر، وفي هذه الحالة، {فَتَنْقَلِبُوا}، فَتَنْقَلِبُ حالتكم فَتَتَغَيَّرُ وتصيروا، {خَاسِرِينَ}، فَسَتَفْقِدُونَ أُمُوراً لها أهميّة "كبيرة" وَسَتَفْقِدُونَ المغفرة والجنّة وتخلدون في عذاب الآخرة.

كما ترى، الْكَلَامُ هنا عن أصل تشريعه سبحانه لقتال الكفّار المعادين، حَيْثُ إِنَّ الخلاف معهم على طاعته تعالى هو سبب القتال من ناحيتهم، ومن ناحية المؤمنين فَلَا سبب لقتال الكفّار إلا حين بدأ الكفّار بأعمال عدائية، لِأَنَّ الكفار يريدون أن تطيعوهم حتى يتوقفوا عن عداوتكم، وإن أَطَعْتُمُوهُمْ فَسَتَرْجِعُونَ كُفَّاراً خَاسِرِينَ لرحمته تعالى، ولا يوجد حَلٌّ وَسَطِيٌّ، فَإِمَّا أن تبقوا مؤمنين ويبقى الكفّار مُعَادِينَ لكم وسيقومون بِأَنْشِطَةٍ عدائية ضدّكم، أو تنقلبوا إلى الكفر ليتوقفوا عن معاداتكم.

(بَلِ اللّهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ{150})
{بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ}، فمعنى وصفكم بالمؤمنين يعني أنكم تُوَالُونَهُ تعالى حَيْثُ تَعْتَبِرُونَ أنفسكم تابعين له تعالى وهو مرجع لكم في عقيدتكم وشريعتكم، وَلَيْسَ الْكَافِرُونَ أَوْلِيَاءَ لكم لتطيعوهم.

{وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ}، أفضل من يمكنه أن يعينكم على تحقيق ما تريدونه.

أَنْتُمْ تابعون لأقوى قوّة في الدنيا، وتلك القوّة تعلن لكم أنها تعتبركم تَابِعِينَ لها وستنصركم، فهل هناك أفضل من ذلك؟

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ{151})

كنموذج عملي عن ولايتكم لأقوى قوّة: {سَنُلْقِي}، سنرمي ليستقر عند من يستقبل، {فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا}، في مركز أساس تفكير ونفسية الذين أنكروا الدين الإلهي، سنضع فيه، {الرُّعْبَ}، أقصى درجات الشعور بالخطر الشديد، {بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ}، بسبب جعلهم له تعالى شركاء في الألوهية، حَيْثُ جعلوا الأصنام والأرواح... آلهة شريكة له تعالى في الألوهية والربوبية من مستوى إلهي، {مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً}، حَيْثُ لَا يوجد شيء صادر منه تعالى يقوّي وَيَدْعَمُ هذا الكلام، وَلَا صحة لهذا الكلام، لأنه تعالى إله، ولم يقل لنا أَنَّهُ يوجد آلهة أخرى معه، فكيف، بِأَيِّ سلطان، بِأَيِّ حجة قوية اخترعوا آلهة معه تعالى إن هو سبحانه الإله لم يقل ذلك؟

تصور قولي لامرأة أَنَّهَا أنجبت عشرة أولاد، وهي تقول إِنَّهَا ليس عندها أولاد! فهل أنا سأكون أخبر منها! وَهَلْ سأكون أنا الصادق وهي الكاذبة؟ هَلْ تتصور الإله لا يعرف إن كان هناك آلهة غيره! وهل تتصور أننا نحن نعرف آلهة متعددة، والله سبحانه لا يعرفها! فإذا لم يقل لنا سبحانه أَنَّهُ يوجد عدة آلهة، فبأي سلطان، بِأَيِّ حجة قاهرة، بِأَيِّ دليل قوي سنقول بأنه يوجد آلهة متعددة؟! فهؤلاء يستحقون أن يتدخل سبحانه ويجعلهم مرعوبين من المؤمنين، لأنهم ظُلْماً جعلوا له شركاء في الألوهية من أوهامهم وخيالهم...

عَلَى نفس المفهوم جاءت الآية 18 من سورة يونس {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} هَلْ من المعقول أن البشر علموا بآلهة غيره تعالى وسبحانه لا علم له بها؟!

{وَمَأْوَاهُمْ}، والمكان الذي سيرجعون إليه هو، {النَّارُ}، في الآخرة، {وَبِئْسَ}، ويا لسوء، {مَثْوَى}، مكان إقامة طويلة لا يملكونه " لِأَنَّ النار ليست ملكهم، في مقابل الجنة التي ملّكها تعالى للمؤمنين"، والنار بئس مثوى، {الظَّالِمِينَ}، الذين لم يكن معهم حقّ حين أشركوا، حَيْثُ أشركوا ظُلْماً من دون أي سلطان على كلامهم.

قَبْلَ الإجابة عما حصل من خسارة في النموذج معركة أحد، وفي أي معركة تحصل فيها الخسارة للمؤمنين عبر التاريخ، فإن الآيات اختتمت شرحها بالسبب الرئيسي الذي يجعله تعالى ينصركم ويساعدكم على الكفار، لِأَنَّ الكفار بدون حقّ جعلوا لله تعالى شركاء، ويريدون فرض ذلك عليكم، وإن لم تقبلوا، قاتلوكم، ولذلك سمح تعالى لكم بقتالهم "إن قاتلوكم"، وسينصركم عليهم، هذا من حيث المبدأ، وإلا فإن كانوا مسالمين معكم ولا يُبْدُونَ أي نيّة عداوة فلا يجوز الاعتداء عليهم كما هو واضح من الآية 8 من سورة الممتحنة {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

بِالنِّسْبَةِ لكلمة "ثوي، مثوى" دَرَجَ في أدبياتنا أن نقول: جعل تعالى مثواك الجنّة. ولكن من استعمال القرآن لهذه الكلمة نعلم أن معناها: إقامة شخص في مكان لا يملكه وليس له، كالضيف والسجين والعبد... وهي حالة النبي يوسف(ع) في قصر العزيز كما ورد في الآية 21 من سورة يوسف {... وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ...}، وكحالة النبي موسى(ع) في مدين كما ورد في الآية 45 من سورة القصص {... وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا...}، وكحالة أهل النار في النار كما ورد مِرَاراً ومنه ما ورد في الآية 12 من سورة محمّد {... وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ}.

أَهْلُ الجنّة يرثون الجنّة وَيَمْلِكُونَهَا وهي لهم... كما ورد مِرَاراً ومنه الآية 11 من سورة الْمُؤْمِنُونَ {الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، لُغَوِيّاً لا يصحّ وصف من في الجنّة بأنه ثاو فيها، ولم يرد وصف كهذا أبدا في القرآن، وأمّا أهل النار فثاوون فيها لأنها ليست مِلْكاً لهم، لِأَنَّهُمْ مسجونون فيها مُؤَبَّداً، حَيْثُ إِنَّ السجين لا يملك السجن وليس وَارِثاً له بل ثاو فيه.

(وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ{152})

بعد أن وضعتنا الآيات السابقة على السكة الإيمانية الصحيحة لنفهم أسباب أمره تعالى للمؤمنين بالدفاع عن أنفسهم بسبب تدينهم... والوعد بنصرتهم من وليّهم سبحانه، جاء الآن وقت الشرح لما حصل من خسارة في معركة أحد، وانتبه دائما، فالآيات لا تتحدث بخصوص معركة أحد فقط، بل هي عامة وتنطبق على كل حادثة مشابهة، فالقرآن يهدف من قصصه أن نتعلم حتى نهتدي للحق، ولا يهدف من قصصه أن يؤرخ لنا، أو يسلينا بقصص تاريخية، لا، فكل ما فيه من قصص وأخبار إنما هي لمساعدتنا على الاهتداء لطريق الإيمان الصحيح، وَاخْتَارَ لنا معركة "أحد" كنموذج، فلنتابع:

{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ}، فَقَالَ لكم عن شيء أَنَّهُ سيحققه لكم، فقال بأنه سينصركم لأنكم مؤمنون، وَصَدَقَ فَوَفَّى سبحانه بوعده ونصركم في كل معارككم، وفي معركة أحد نصركم أيضا.

{إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ}، فبسماح منه تعالى تُلَاحِقُونَهُمْ ويفرّون من أمامكم، فالظروف في ساحة المعركة كانت في البداية لصالحكم، {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ}، فلم تنجحوا فيما هو مطلوب منكم، حَيْثُ لَمْ تنجحوا في الحفاظ على الظروف العسكرية التي تمنحكم النصر، فخلخلتم صفوفكم العسكرية بسبب تقصير منكم.

{وَتَنَازَعْتُمْ}، حَيْثُ لَمْ تتفقوا، {فِي الْأَمْرِ}، في الأمور في المواضيع، فصار لكل واحد منكم رأي مختلف عن الآخر في أمور عسكرية أثناء جريان المعركة.

{وَعَصَيْتُمْ}، فَخَالَفْتُمْ أمر الرسول(ع) حَيْثُ لَمْ تطيعوه في الحفاظ على أماكنكم العسكرية واتباع الخطة التي اتفقتم عليها، ولم تطيعوه (ع) حين أمركم بالاستمرار بالقتال بعدما حصل الخلل.

إذاً، حصل النصر وتحقق الوعد الإلهي، وكانت كل الأمور على تمام، حتى فشلتم وتنازعتم وعصيتم. وَحَصَلَ ذلك، {مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ}، حَيْثُ كنتم تحبون النصر وَرَأَيْتُمُوهُ يتحقق فحصلت لديكم صورة محدّدة للنصر، ولكنكم لم تحافظوا عليه!

في نهاية دراسة هذه الآية سأذكر لك ما تشير إليه الآية بالتفصيل كتطبيق على النموذج "معركة أحد"، ولكن حتى تبقى هنا على اتصال بين معاني الآية "والنموذج معركة أحد"، فهي تتكلم عن ترك بعض المقاتلين أماكنهم فدخل العدو من تلك الثغرة... فانقلبت المعركة لصالح المشركين...

{مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا}، فترك مكانه لأنه طمع فيما تركه الكفار في أرض المعركة، حَيْثُ يريد الحصول على الثياب والسلاح والحلي... ومنكم من خاف من الموت وتعلق بالدنيا فهرب حين شعر أن المعركة صارت لصالح العدو، وأن الخسارة محتملة... {وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ}، حَيْثُ لَمْ يهتم بالغنائم ولا بالموت، بل كان كل همّه مَصْبُوباً على الآخرة، فقاتل وفي فكره همّ واحد: الحصول على ثوابه تعالى في الآخرة.

{ثُمَّ}، بعد الفشل والتنازع والمعصية، {صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ}، فَحَوَّلَكُمْ سبحانه عن النصر عليهم، {لِيَبْتَلِيَكُمْ}، ليصيبكم ما سيغيّركم، لتلتصق بكم الهزيمة ويرى تعالى ردّة فعلكم عليها، فلو انتصرتم وقتها لصار الفشل والتنازع والعصيان... أشياء عادية عندكم، وَلَقُلْتُمْ إِنَّ النصر سيحصل مهما فعلنا، ففي هذه الحالة ماذا سيكون الفرق بينكم وبين الكفار؟ ولكن أصابتكم الخسارة لتتغيّروا نحو الأحسن وتتعلموا درسكم.

الْكَافِرُ لا يهمه النجاح في عين الله تعالى، وأنتم فعلتم مثله، ففشلتم، والكافر يتنازع مع بقية الكفار لأنه يريد فرض رأيه، وأنتم تنازعتم، والكافر يعصي الله تعالى ورسوله(ع)، وأنتم عصيتم الرسول(ع)، والكافر يريد الدنيا فينسى كل شيء لأجلها، وأنتم فعلتم مثله... إذاً، الخسارة ضرورية لكم حتى تتعلموا درسكم وتتخلصوا من كل هذه الأخطاء، وحتى يظهر المؤمن الحقيقي من المزيف كما سنرى من الآيات.

{وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ}، فَمَرَّ سبحانه عما حصل ولم يعتبره مُهِمّاً ليتوقّف عنده، وَمَرَّ عن هزيمتكم ولم يحاسبكم على ما سبب الخسارة حَيْثُ لَمْ يحاسبكم على فشلكم وتنازعكم وعصيانكم، ولن يعتبركم غير مؤمنين لأنكم ما زلتم تقولون إِنَّكُمْ معتقدون ملتزمون بهذا الدين، ولن يأمر رسوله(ع) بمعاقبتكم أو نبذكم أو تأنيبكم...

{وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ}، حَيْثُ يُوصَفُ سبحانه بأن الفضل منسوب له، وَيُوصَفُ سبحانه بتقديم الأمور الجيدة من دون أن تكون فَرْضاً وَاجِباً عليه سبحانه، ذو فضل، {عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}، فمن أعلن اعتقاده والتزامه بهذا الدين فقد حصل على الفضل الإلهي بالعفو عنه، طَبْعاً إن استغفر منه.

لاحظ وانتبه كيف لم تذكر الآية أي شيء تفصيلي من مجريات المعركة، لا عن النبّالة، ولا عن الممر الخلفي... بل حتى إِنَّهَا لم تذكر اسم المعركة أصلا! فلا يخطر ببالك أننا لن نفهم ماذا تقصد الآيات لو لم نقرأ كتب التاريخ، لا، لأن الأساس هو التنبيه على أنه تعالى وفى بوعده، وَأَنَّ المقاتلين صدر منهم فشل وتنازع وعصيان وحبّ للدنيا... فلا تظن أنك ستفهم الآيات أكثر إذا استغرقت في تحليل معركة أحد بالبحث تاريخيا في حوادثها.

انْتَبِهْ فَلَا تقع في مشكلة حصر الآيات واختزال معانيها في معركة أحد، فإن ربط كل كلمة هنا حَصْراً بما جرى في أحد فسيؤدي بك إلى العمى عن رؤية العمومية والشمول في الآيات، فهي تنطبق على كل معركة يخوضها المؤمنون، وشخصية الرسول(ع) هي شخصية القائد، فحتى لو لم يكن بيننا رسول، ومررنا بنفس الظروف، فالآيات تنطبق علينا.

حَتَّى لا يبقى في نفسك فضول، فَسَأَذْكُرُ لك زبدة من المعركة:

عدد جيش المسلمين كان قرابة السَّبْعِمِئَةِ، وعدد جيش الكفار قرابة الثَّلَاثَةِ آلاف، ولذلك، وَقَفَ جيش المسلمين بحيث تحيط بهم الجبال من ثلاثة جوانب، وَتَبْقَى فسحة من الأمام لمواجهة الكفار، وكان هناك ممر ضيق بين الجبال من خلف المسلمين، فوضع النبي(ع) خَمْسِينَ رَامِياً للنبال "قوس وسهم"، وضعهم على الممر حتى لا يأتي العدو من الخلف، وحتى تنحصر المعركة في جهة واحدة من الأمام، ومن المشهور في التاريخ أن النبي(ع) قال لهؤلاء الرماة أَلَّا يتركوا أماكنهم مهما حصل، وَفَقَطْ يتركوها حين يأمرهم هو (ع) بذلك، ولكن الرماة حين رأوا النصر الساحق في أرض المعركة، تركوا أماكنهم، وبقي عدد قليل، "قيل أقل من عشرة وقيل قرابة الخمسة عشر"، فلم يتمكنوا من إيقاف فرقة خيّالة كان يقودها خالد بْنُ الوليد، فقامت بالالتفاف حول الجبل وهاجمت من الممر الخلفي، فمات بعض الرماة للنبال، وانتشر الخيالة خلف المسلمين فجأة، وانتقلوا بسرعة يقتلون المسلمين المشتتين...

تضعضع وضع المسلمين، وشعروا بالهزيمة، فبعضهم صمد، وبعضهم تراجع إلى الجبل، وبعضهم هرب... فكانت النتيجة: الخسارة.

(إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمَّاً بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ{153})
حَسَناً، قَرَأْنَا في الآية السابقة الجواب عن السبب المباشر للخسارة في معركة أحد، وقرأنا قبلها شرحا للنظرة الإلهية للربح والخسارة، وَأَسْهَبَتِ الآيات في الشرح ووصلنا إلى آيتنا هنا، فأنتم أيها المشككون في الدين والرسول(ع) لأنكم خسرتم المعركة، أَنْتُمْ ماذا فعلتم في أرض المعركة؟ فَلْنَرَ:

{إِذْ تُصْعِدُونَ}، حَيْثُ تمشون في الاتجاه الأسهل "للهروب"، فِي اللغة العربية يوجد تعبيران للتنقل، مَنِ انتقل باتجاه الجبل نقول له: صَعَدَ. فتحة فتحة فتحة على كل أحرف الفعل، ولو كانت كلمتنا هنا من هذا الاشتقاق لكانت "تصعدون" فتحة سكون فتحة. ومن مشى باتجاه السهل نقول له: صَعِدَ. فتحة كسرة فتحة، ومنه كلمة صعيد، يَبْدُو أن كلمتنا هنا من هذا الاشتقاق وتقصد أنهم ركضوا في أسهل طريق أو ممر، حتى لو كان على جبل "صعودا" وَالْكَلَامُ هنا عن الهروب من المعركة على أي طريق متاح ليس فيه أعداء، على الأسهل.

{إِذْ تُصْعِدُونَ}، إِذْ تتجهون في أسهل الطرقات للهروب، {وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ}، حَيْثُ لَا أحد منكم يلوي رقبته ليرى حال المسلمين الآخرين... وَلَا تلتفون ولا تهتمون بأي شخص بقربكم أو في طريقكم، حَتَّى لو كان يوجد مقاتل كافر في طريقكم تركتموه وأكملتم الهرب! وحتى لو مررتم بجريح منكم لم تلوا عليه... وحتى لو سمعتم الرسول(ع) يناديكم لم تلتفتوا وأكملتم الهرب! يعني كما نقول بالعامية: خط واحد على الهريبة.

{وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ}! بَدَلَ أن تكونوا حوله، ويدعوكم للقتال، صَارَ الرسول(ع) آخركم! في الآخر! ومن هناك من أخراكم يعلن ويشهر لكم لترجعوا للقتال! بَقِيَ هو والقلة القليلة من المؤمنين حوله يقاتلون، والبقية هربوا!

بِسَبَبِ هروب البعض منكم، {فَأَثَابَكُمْ}، حَيْثُ أَرْجَعَ عليكم تعالى مما فعلتم، {غَمّاً بِغَمٍّ}، لِأَنَّ الشعور بثقل نفسي مزعج جدا من شيء حصل وسيحصل رَجَعَ عليكم مما عملتم، وسترى من الآية التالية أن الشعور بالغمّ متنوّع بين المؤمنين، مِنْهُمْ من شعر بالغمّ عندما اعتقد أن الرسول(ع) قُتِلَ، بينما هو حيّ يناديه ليثبت في القتال ولم يَسْتَجِبْ له، وسترى في الآية التالية أن منهم من أصابه الغمّ بسبب شكّه في دينه... هَا خسرنا وقتل الرسول(ع) وانتصر المشركون... إذاً نحن لسنا على الدين الصحيح. ضع هذا في بالك لأن عموم كتب التفاسير ذكرت أمورا أخرى لا تتماشى مع سياق الآيات.

أَصَابَكُمْ تعالى بالغم الناتج عن الخسارة، {لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ}، حتى لا يصيبكم شعور نفسي مزعج ممّا مرّ ولم تحصلوا عليه من النصر والغنائم، لأنكم لم تكونوا تستحقون النصر ولا الغنائم، {وَلَا}، تحزنوا، على {مَا أَصَابَكُمْ}، على ما حصل معكم من القتل والجرح والانهزام، فَيَلْتَهِيَ بعضكم بهمّ الخسارة وبعضكم بهمّ دينه وبعضكم بهمّ تخاذله.

{وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}، حَيْثُ لَدَيْهِ كل الأخبار والتفاصيل عن أعمالكم، مِنْكُمْ من ثبت ومنكم من فرّ ومنكم من حَيَّدَ... ولكل واحد منكم سبب لما عمله... كُلُّكُمْ تحت المراقبة الإلهية.

ضَعْ في بالك دائما أن كلمة "ثواب" صارت مصطلحا دينيا فيما بيننا يشير حصرا إلى ما نحصل عليه من حسنات منه تعالى، مع العلم بورودها في القرآن للحصول على العقاب أيضا منه تعالى كما نقرأ في الآية 36 من سورة المطففين {هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}، وقبل ذلك هِيَ مشتقّة من ثوّب ثوب، وَاسْتَعْمَلَهَا القرآن على أساس معناها المشابه لكلمة: رجع على... حَيْثُ رَجَعَ عليّ منه تعالى حسنات أو عقاب، رجعت على المكان... ومن استعمالاتها المنتشرة في القرآن: رجوع شيء عليّ مما فعلته. وهنا هم فشلوا وتنازعوا وهربوا... فَرَجَعَ عليهم الشعور بالغمّ كنتاج من هذه الأعمال.

يَبْدُو من آياتنا هنا ومن الآية التالية أنه تعالى لم يرد تدمير كل المؤمنين معنويا بسبب انهزام العديد منهم، لِأَنَّ أساس سبب حصول المعركة هو إيمانهم وشرك الأعداء، وإيمان البعض منهم لم يكن صحيحا، حَيْثُ إِنَّ فكرة أن تدينهم صحيح وأن بينهم رسول من الإله نَتَجَ عنها فكرة الانتصار دائما على الأعداء مهما كانت الظروف، على أساس أن النصر الإلهي محسوم دائما لهم... ومهما كانت الظروف... وهذه هي النقطة التي تمحورت حولها الآيات وأصلا بدأت منها، كَمَا ترى من آيتنا هنا مِنْ بعد الهزيمة أصاب بعض الهاربين غَمٌّ يتمحور حول صحّة الدين الذي آمنوا به! وهذه النقطة كانت بحاجة لمعالجة، وَعَالَجَهَا تعالى بجعلهم ينهزمون ليواجهوا الحقيقة العملية أمامهم ويلمسوها بأيديهم: الله تعالى ينصركم بشروط. فَلَا ينصركم على الطريقة التي قالها بنو إسرائيل للنبي موسى(ع) كما ورد في الآية 24 من سورة المائدة {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}، ولا إذا فشلتم وتنازعتم وهربتم... ولا إن كان في صميم تديّن البعض منكم شكّ. وهذا الشكّ ستراه في الآية التالية أَنَّهُ ظَهَرَ إلى العلن بعد الخسارة.

بقي شيء، حَيْثُ إِنَّ القرآن لم يستعمل كلمة: همّ التي نشتق منها مهموم. وَاسْتَعْمَلَ كلمة غمّ القريبة بالمعنى من كلمة همّ الدارجة حاليا.

(ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {154})

بَعْدَ انتهاء المعركة، {أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ}، من بعد الشعور النفسي الثقيل، حَيْثُ بَعْضُكُمُ اغتمّ من الخسارة، وبعضكم بالشكّ في دينكم... أَنْزَلَ عليكم سبحانه، {أَمَنَةً}، شُعُوراً بالأمان باستبعاد الخطر، {نُعَاساً}، عبر شعوركم بالنعاس، بالحاجة للنوم، {يَغْشَى}، ينتشر ويحيط النعاس "جزئيا أو كليا" بـ، {طَائِفَةً مِنْكُمْ}، حَيْثُ كُلُّ من شارك في المعركة هم مجموعة، ومن هذه المجموعة مجموعة أصابها النعاس، ومن الواضح أن النعاس أصاب طائفة المؤمنين الحقيقيين فقط.

{وَطَائِفَةٌ}، ومجموعة أخرى من الذين شاركوا في المعركة، {قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ}، هَمُّوا وَنَوَوْا فعليا القيام بأشياء، ولكن في النهاية لم يفعلوها، وَبَقِيَتْ هَمّاً خطر على بالهم بقوة ولم ينفذوه، ونلاحظ أن الآية لم تذكر بماذا همّوا، ويمكن الاستنتاج أنهم همّوا بالهروب علنا، أو همّوا بترك الدين، أو همّوا بالانضمام للكفار... لا ندري، ولكن من الواضح أنها نوايا للقيام بأمور غير البقاء على تدينهم، وَقَفَزَتْ عنها الآية حَيْثُ لَمْ تذكرها صراحة.

وهؤلاء، {يَظُنُّونَ بِاللَّهِ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ}، فَالظَّنُّ هو الاعتقاد بشيء، ومرة يكون هذا الظن هذا الاعتقاد نَاتِجاً عن شيء صحيح، وَيَسْتَنِدُ على شيء صحيح، وتارة يكون مُسْتَنِداً على شيء غير صحيح، فَالظَّنُّ الحقّ الصواب الصحيح المستند لعلم صحيح هو الإيمان به تعالى عَلِيماً خَبِيراً صادق الوعد حَكِيماً... أما هؤلاء فيظنون بالله تعالى كما يظن به تعالى من كان في الجاهلية، في حالة الجهل في حالة الاعتقاد والعمل عن طيش قبل الإسلام، فَالْإِسْلَامُ طرح عليكم العلم الصحيح وعلى أساسها يجب أن تكون ظنونكم مبنية على علم إلهي، أَمَّا ترك العلم الإلهي واعتماد الظن الناتج عن جهل عن طيش عن استهتار لا عن دراسة... فينتج عنه أن هذا الرسول كاذب، أو ربّه تعالى خذله! ولم يصدق بوعده معه! ولم يهتم به... فهذا ما كان يظنّه البعض منهم.

{يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ}؟ هل أَمْرٌ وَهَلْ موضوع الدين والكفر، هَلْ لنا فيه شيء؟ إن كان هناك دين صحيح ونازل من الإله، وكان هناك كفر غير مدعوم من الإله، فهل لنا نصيب وحظ من هذا الموضوع، فكيف تجتمع خسارتنا مع ضرورة دعم الإله للمنتمين لدينه؟!

{قُلْ} لهم: {إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ} بيد الله، أي أمر كان، أي موضوع يخطر ببالكم أو لا يخطر ببالكم، فَكُلُّهَا بيده تعالى وهو المسيطر عليها وَيُقَرِّرُهَا.

هؤلاء الذين لم يصبهم الأمن نُعَاساً، {يُخْفُونَ}، فَلَا يظهرون، {فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ}، حَيْثُ هناك أمور لا يُظْهِرُونَهَا لك، فَسُؤَالُهُمْ إذا كان لهم من الأمر شيء ليس عن براءة، ولا نَابِعاً عن إيمان، بل هم يخفون بداخلهم أشياء لا يَقُولُونَهَا، بعبارة أخرى: هؤلاء لم يعد إيمانهم صَحِيحاً، أو لم يكن من الأساس صَحِيحاً.

{يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ}، لو كان لنا علاقة بالدعم الإلهي على أساس أن تديننا صحيح وأن مُحَمَّداً رسول إلهي، {مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا}، هَا أنهى حياتنا المشركون وَقَتَلُوا بَعْضاً منّا، فكيف يكون ديننا إِلَهِيّاً وكيف تكون أنت رسول الإله ومعنا وعد بالنصر، ورغم ذلك يصيبنا القتل حَيْثُ قتل المشركون العديدين منّا؟!

{قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ}، كنتم في الأماكن التي تبيتون فيها ولم تخرجوا إلى مكان آخر للقتال، {لَبَرَزَ}، لظهر إلى المواجهة، {الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ}، فَالْأَشْخَاصُ الذين كتب لهم الله تعالى أن يموتوا بسبب إنهاء الْآخَرِينَ لحياتهم، لَبَرَزُوا، {إِلَى مَضَاجِعِهِمْ}، إلى الأماكن التي سترتمي فيها أجسادهم.

فَالَّذِي في علم الغيب الإلهي مكتوب أنه سيموت قَتْلاً، حتى لو لم يخرج هذا الشخص إلى المعارك والحروب، وبقي في بيته، فبما أنه مكتوب أنه سيموت قَتْلاً، فسيموت قَتْلاً حَتْماً وسيبرز حَيْثُ سيواجه مصرعه قَتْلاً حتى وهو في بيته.

عِنْدَمَا تسألون عن المسلمين الذين قتلهم الكفار هنا في أرض هذه المعركة، بأنهم لو كانوا منصورين من ربهم سبحانه لما ماتوا هنا، فهذا غير صحيح، لِأَنَّ مَنْ كتب عليه ربنا سبحانه الموت قَتْلاً، فهو سيموت قَتْلاً أينما كان، وحتى لو كان في بيته ولم يشارك في الحروب.

إِنَّمَا جرى القتل لهم في أرض المعركة، {لِيَبْتَلِيَ مَا فِي صُدُورِكُمْ}، حَيْثُ إِنَّ تفاعلكم مع دينه تعالى بهذا الإيمان الأعوج كان كَامِناً وأراد تعالى إصابتكم بالخسارة التي ستغير هذه الحالة، وَبِسَبَبِهَا يظهر إلى السطح تفاعلكم الحقيقي مع دينه سبحانه.

{وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ}، حَيْثُ هُنَاكَ في طيات وخفايا أساس تفكيركم ونفسيتكم يوجد أشياء سيئة، ويريد سبحانه أن يُمَحِّصَهَا أَيْ يستخرجها من خباياها، فَتَظْهَرَ أمراض الذي في قلبه مرض، وَتَظْهَرَ سلامة الذي قلبه سليم.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}، فَلَدَيْهِ تعالى علم تفصيلي بما يدور في صدوركم، حَيْثُ يَعْلَمُ تعالى تفاعل فكركم ونفسيتكم مع ما يجري معكم. وبناء على علمه تعالى بوجود أفكار ومشاعر سيئة لدى البعض منكم، وتفاعل سيّء مع ما يجري معكم، قَرَّرَ تعالى أن يموت منكم قتلى في المعركة وقرّر تعالى أن تخسروها في النهاية.

بِالنِّسْبَةِ لكلمة "صدر" إن لم يكن القصد بها لأعضاء الجسد، فهي التفاعل الداخلي مع ما تدركه، وَهِيَ إشارة إلى حيث تدور تفاعلاتك مع الأفكار التي نتجت من تفاعلك مع الأمور، بتعبير أبسط فَالصَّدْرُ هو وصف لمخزن تفاعلك الفكري والنفسي مع الأشياء، وعلامات الوجه والجسد هي التعبير الآخر العلني لما في صدرك.

كَمَا هناك تعابير تظهر على وجهنا هُنَاكَ تعابير داخلية نعبّر عنها بالكلمات بأنها في صدرنا، حَيْثُ نَشْعُرُ أَحْيَاناً فِعْلاً في القفص الصدري حيث الرئتان والقلب، فَنَشْعُرُ بالانقباض أو الانشراح مما يجري معنا... لِذَلِكَ عَمَّمَ عموم الناس من مختلف اللغات عن هذه الحالة بالتعبير بالصدر لكل ما هو في داخلنا من تفاعل مع ما يحصل معنا، سواء شعرنا فِعْلاً بصدرنا بشيء أو لم نشعر، فصارت كلمة صدر تشير لعموم تفاعلنا الداخلي الفكري والنفسي مع الأمور، وَضِمْناً يشمل ذلك أسرارنا وما نخفيه.

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ{155})

{إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ}، الذين ذهبوا مغادرين باتجاه آخر منكم أيها المؤمنون المقاتلون "في أحد"، حَيْثُ تَرَكَ بَعْضُكُمُ المعركة وَاتَّجَهُوا باتجاه آخر، {يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ}، يوم معركة أحد حيث تلاقى جمع المسلمين وجمع الكفار فهؤلاء، {إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ}، وَالْمَوْصُوفُ بقيامه بأعمال الضلال استطاع جعلهم يزلون لا يثبتون على الحقّ، {بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا}، لِأَنَّهُمْ أساسا كانوا كسبوا فَحَصَلُوا على نتائج سيئة من أعمال سيئة قاموا بها، وَحَصَلُوا على التعلق بالدنيا، وعلى حبّ الشهوات السيئة... ولذلك استطاع الشيطان أن يستزلهم أن يسقطهم عن الإيمان الصحيح، وَجَعَلَهُمْ يتبعونه وينحرفون عن الدين الإلهي، وهنا الكلام عن نتيجة ذلك فهذا ما جعلهم يهربون ويتركون المعركة، ليحافظوا على حياتهم.

{وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ}، حَيْثُ مَرَّ سبحانه عمّا فعلوه ولم يتوقف عنده، وَلَمْ يطالب الأشخاص الذين هربوا، وَسَامَحَهُمْ ولم يعاقبهم، وَلَمْ يقل سبحانه عنهم إِنَّهُمْ ليسوا مسلمين، ولم ينزل سبحانه عليهم عذابا من عنده، ولم يأمر سبحانه نبيه(ع) برميهم في الحبس، أو نبذهم...

{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ}، حَيْثُ لَا يأخذ موقفا صلبا قاسيا لا يتغيّر بل يتجاوز عن السيئات، طبعا لمن استغفر وتاب، فَيُسَامِحُهُ سبحانه.

{وَاللَّهُ حَلِيمٌ}، حَيْثُ لَا يعجل ولا يمكن استفزازه. وهنا نرى أن الهاربين كانوا يستحقون العقاب الإلهي، ولكنه سبحانه حليم، بتعبيرنا الدارج "طويل البال"، حَيْثُ لَمْ يعاقبهم على الفور بل عفا سبحانه عنهم وَمَرَّ عن خطئهم وَسَامَحَهُمْ، وحلم عليهم وَانْتَظَرَهُمْ سبحانه حتى يستغفروا ويتحسن إيمانهم.

انْتَبِهْ جيدا، فَالْآيَةُ هنا تتحدث عن أشخاص هربوا بزلّة شيطانية، لِأَنَّ عِنْدَهُمْ إيمَاناً لا بأس به، وليسوا منافقين بشكل كامل، ولكن كما يحصل معنا نحن الْمُؤْمِنِينَ الْعَادِيِّينَ حين نرتكب ذنبا ما، حين يغرينا الشيطان، فَنَزِلُّ، كما تزل قدمنا فَتَقَعُ على الأرض، فهؤلاء عفا عنهم ربهم سبحانه لأنها زلّة عابرة وليست مقصودة وليست نابعة من كفر أو فسق أو نفاق متجذّر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِـي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{156})

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين قالوا عن أنفسهم إِنَّهُمْ معتقدون وملتزمون بالدين الإلهي:

{لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا}، كالذين أنكروا ولم يعتقدوا بدينه تعالى، والكلام عمومي حتى لا يتشبّه المؤمنون بالكفّار ولكن هنا الكلام بالخصوص عن الانتباه من التشبّه بالكفّار حين لا يُؤْمِنُونَ بأن مقادير الحياة والموت والنصر... بيده

تعالى، {وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ}، حيث قال الكافرون للمشاركين معهم في النسب والمعيشة ومكان السكن... {إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ}، إذا قام إخوانهم الْمُؤْمِنُونَ بالسفر أو الهجرة... ففي عموم أي حالة يتركون فيها ديارهم، {أَوْ كَانُوا غُزًّى}، حَيْثُ شارك إخوانهم في غزوة وَخَرَجُوا لمحاربة العدو، ففي كلا الحالتين سواء تركوا ديارهم للعمل والتجارة أو لمحاربة عدو ما... فإن الكفار يقولون لإخوانهم: {لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا}، حَيْثُ لم يسافروا وبقوا في بلدنا، ولم يغادروا ويشاركوا في الحرب، فإنهم، {مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا}، لَبَقُوا أحياء.

عَادَةُ الذين لا يؤمنون بأن الموت قرار إلهي حتمي سيصيب الجميع أينما كانوا، فهؤلاء إِنْ وَاحِدٌ منهم ترك بيته وسافر ليعمل أو ليدرس أو ليتاجر... أو خرج لقتال عدو ما، فهم مباشرة يقولون: لو بقي بيننا لما مات. وكأن من يبقى في بيته سيعيش أكثر من الذي يخرج من بيته! أو لا يموت أبدا!

تَذَكَّرِ الآية ما قبل السابقة، حين خسر المؤمنون وقال البعض منهم أَنَّهُمْ لو بقوا في بيوتهم لما مات من مات منهم في معركة أحد، حَيْثُ نَبَّهَتْهُمْ تلك الآية أَنَّ الموت قتلا لا يصيب فقط الذين يخرجون إلى ساحات القتال، لِأَنَّ العدو يهجم على البيوت ويقتلهم داخلها، واللص يفعل ذلك أحيانا، ومن بينك وبينه مشاكل من أهل قريتك يفعل ذلك أحيانا... وهنا تنبّههم أَنَّ هذا الكلام مشابه لكلام الذي لا يؤمن بما كتبه تعالى من مواعيد "آجال" موتنا، على أساس أن أخذ الحيطة والحذر والبقاء في البيت سيحمي من الموت وسيؤجله! ولو فكّروا بعقلانية للمحة لعلموا أن هذا غير صحيح.

{لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ}، فهذا التفكير والشعور النابع من الكفر به تعالى كمقدّر للحياة والموت والذي يسبّب الشعور بالحسرة على خسارة أحبّتهم للحياة الدنيا، جَعَلَهُ تعالى هكذا مسببا للكفّار الحسرة على فقدان أحبتهم.

تفهمها بشكل أبسط إذا الْتَفَتَّ لتفكير المؤمن الذي يفقد إخوانه، لِأَنَّهُمْ إذا كانوا مؤمنين فسيدخلون إلى الجنّة، سَوَاءٌ مات عزيزهم في داره أو مهاجرا أو مسافرا أو مقاتلا... لا فرق، لِأَنَّ نهاية المؤمنين إلى الجنّة، يَحْزَنُ على فراقهم ولكن لا يتحسّر عليهم، حَيْثُ لَا يوجد سبب للحسرة، وَلَمْ يفت عليه ولا عليهم شيء، بل سيحصلون على أفضل مما كان معهم في الدنيا، وهذا ما ستراه في الآية التالية.

الآن انظر لنفس الحالة من نظرة من لا يؤمن بجنّة الآخرة، لِأَنَّ موت شخص عزيز عليه يعني أَنَّ ذلك الشخص ذَهَبَ ولن يعود إلى الحياة ثانية، وَانْتَهَى وفقد الاستمتاع بالدنيا. وهذا هو شعور الحسرة الناتج عن الكفر وهو شعور صَمَّمَنَا سبحانه لنصاب به إن كفرنا، وهذا ما تقوله الآية هنا، فلا تكونوا مثلهم لا تعتقدون به تعالى وبالآخرة... وهنا التركيز في الآية على هذا، فلا تكونوا مثل الكفّار الذين يعتقدون أَنَّنَا نموت بسبب الظروف المحيطة بنا فقط وفقط ولا سيطرة إلهية على الموضوع، وسترى القسم الثاني في الآية التالية.

{وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ}، فهو تعالى يجعل الحياة في الأشياء، وَيَجْعَلُهَا تفعل وتنفعل، وهو تعالى يأخذ الحياة من الأشياء، لِأَنَّ السيطرة بيده تعالى على الحياة والموت وليست بيدكم، وليست متروكة للظروف لوحدها... وَالْحَيْطَةُ والحذر لن يمنعا عنكم الموت، لِأَنَّكُمْ كُلَّكُمْ ستموتون حتما.

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}، حَيْثُ صُورَةُ أعمالكم يدركها تعالى ويعي معناها، لِأَنَّهُ ليس مثل كاميرا المراقبة التي تسجّل ولا تفهم ما يجري، وَعِنْدَمَا تفكرون وتقولون وتعملون مثل الكفّار الذين لا يؤمنون بسلطته تعالى، وهذا يعني أَنَّكُمْ مصابون بشيء من نوع الكفر، فعالجوه لأنكم تحت المراقبة الإلهية.

(وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ{157})
{وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، حَيْثُ قَامَ الأعداء بإنهاء حياتكم وأنتم لم تقوموا بعمل حربي مبني على مصالح دنيوية سيئة، وَلَمْ تكونوا باغين معتدين، بل كنتم على مسلك يرضى عنه تعالى وَكُنْتُمْ ملتزمين بدينه تعالى، حَيْثُ لَمْ تقاتلوهم وهم مسالمون، أو لأجل الغنائم أو الرئاسة أو السيطرة عليهم...

{أَوْ مُتُّمْ}، حَيْثُ فَارَقْتُمْ الحياة بسبب خلل في جسدكم أو بسبب حادث ما... فَعَلَى كلا الحالتين، {لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ}، تجاوزه تعالى على ذنوبكم بعد الموت أو القتل، {وَرَحْمَةٌ}، أَيِ الحصول منه تعالى على عناية لما فيه مصلحة من مات

أو قتل، {خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ}، حَيْثُ ما يحصلون عليه في الدنيا مهما كان نوعه أو حجمه أو نوعيته، فَالْحُصُولُ على المغفرة والرحمة بعد الموت يكون مَوْصُوفاً بالخير بالحسن مما يجمعه الناس من مال أو أملاك أو سلطة أو...

تَذَكَّرِ الآية السابقة التي نقلت لنا حسرة الكفّار على من مات أو قتل، حَيْثُ إِنَّ الحسرة سببها اعتقادهم أن من مات أو قتل انْتَهَى وفقد الحياة نهائيا، ولن يعود إلى الحياة، فلا آخرة ولا جنّة ولا نار، وَالْحَسْرَةُ عليه لأنه لم يعد يتمتّع بهذه الحياة وملذاتها، وهذا الاعتقاد مبني على إنكار إله صمّمنا وخلقنا بحيث نموت، وإنكار للآخرة، وبيّنت الآية السابقة أننا مصممون مخلوقون لنموت حتما، لِأَنَّ السلطة الإلهية التي فوقنا قررت ذلك، وهنا ركّزت الآية على كون ما في الآخرة خَيْراً "أفضل" مما في الدنيا، طبعا لمن آمن، وبدل أن تقول إِنَّ الآخرة خير لمن مات أو قتل مؤمنا عاملا للصالحات، اسْتَبْدَلَتْهُ بوصف من مات وحصل على المغفرة والرحمة، وهذا شيء لن يحصل إلا للمؤمن العامل للصالحات، وهذا لا معنى للحسرة على فقدانه للحياة الدنيا، لِأَنَّ ما سيحصل عليه في الآخرة سيكون أفضل بكثير.

بِالنِّسْبَةِ لكلمة "خير" في استعمال القرآن كَثِيراً ما نستنسب تفسيرها على معنى "أفضل"، وأحيانا يصدق هذا المعنى بالتبعية من فحوى الكلام، ولكن بعض الاستعمالات القرآنية لنفس الصياغة تريك أنه لم يقصد بكلمة خير أن تكون رديفا لكلمة أفضل، وكمثال واضح عن ذلك ما ورد في الآية 16 من سورة العنكبوت {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، وَمُرَادَفَتُهَا بأفضل في أمثال هذه الآية سيعطيك مَعَانِيَ غير دقيقة بل وغير مقبولة إلا إذا حملت معنى الأفضل على عموم المقابلة بين الْأَسْوَإِ والأحسن، ولكن هذا ليس معناها بل هذا معنى كلمة خير، وكلمة "أفضل" في أشعار العرب قبل الإسلام مَحْصُورَةٌ بين الحسن والأحسن، فلو قلت إِنَّ الإيمان أفضل لكم فهذا يَعْنِي أن الكفر حسن والإيمان أحسن، لا، لِأَنَّ الإيمان خير لكم مما يعني ضمنا أن الكفر سوء لكم.

لَمْ يستعمل القرآن كلمة أفضل بتاتا، واستعمل التعبير بالخير وهو أوسع بالمعنى، حَيْثُ يقابل الشرّ كما في الآية 11 من سورة النور {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...}، واستعملها بمعنى ما يقابل الحسن فَالْآخَرُ أحسن وليس شرا، كما ورد في الآية 271 من سورة البقرة {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...}، لِأَنَّ إبداء الصدقة ليس سوءا وإنما إخفاؤها أحسن، وهنا يمكن استعمال كلمة أفضل.

يَعْنِي لا ترادف "خير" بـ "أفضل"، لِأَنَّهُمَا في بعض سياق الكلام يتقاطعان تطبيقيا حيث يكون الذي تقارن بينهما كلاهما جَيِّدَيْنِ، وَعِنْدَهَا يصدق قول خير أو أفضل، ولكن حين يكون الكلام عموميا يشمل ما كلاهما جَيِّدَيْنِ ويشمل أيضا ما أحدهما جيد والآخر سَيِّئٌ، ويشمل الوصف مطلقا بمقارنة الحسن مع مطلق الوصف بالحسن، حَتَّى لو لم يكن هناك طرف آخر للمقارنة والمقارنة مع مطلق الوصف، كوصفه تعالى بخير الرازقين وخير الحاكمين... فهو تعالى بالمقارنة مع وصف الحسن مطلقا كرازق وحاكم فهو خير موصوف بذلك، لِذَلِكَ كلمة أفضل ليست وصفا صحيحا لهذه الحالات وكلمة خير صحيحة.

بَقِيَ شيء، حَيْثُ درج في بعض أدبيات المنتمين لدينه تعالى أن القتال في سبيل الله شيء لا علاقة لنا به، على أساس أننا نحن لسنا متضررين ونبحث عن تبرير يلصق سبب قتالنا للآخرين به سبحانه، كالدفاع عن دينه، وعن كتابه ورسوله... وليس عند هؤلاء مقبولا أن تقول إنهم قتلونا أو سلبوا أرضنا أو مياهنا أو خيراتنا... ولذلك نقاتلهم، لِأَنَّ برأيهم هذا شيء معيب!

هذا الكلام بشكل ما ليس سليما، لِأَنَّ أساس وصفنا بالمنتمين لدينه تعالى يعني إيماننا بالحقّ والتزامنا بالصالحات، فلا نعتدي ولا نبغي على الآخرين إن كانوا مسالمين مهما كان دينهم، وهذا شيء صريح من القرآن كلّه، وكمثال عنه الآية 8 من سورة الممتحنة {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، وإن حصل وَاعْتَدَى الآخرون علينا فقط لأننا مُخْتَلِفُونَ عنهم في الدين، فبسبب اعتدائهم علينا نُقَاتِلُهُمْ، ولكن مثلما تطرّف المسلمون في معنى القتال في سبيله تعالى ساحبين منه أي مصلحة لنا في القتال وتتماشى مع ما يرضاه تعالى، جَعَلُوا كل الآخرين بين حالتين: إمّا يجب قتاله ليسلم غصبا عنه، حتى لو كان مسالما لا يعادينا، وإما هو من أهل الكتاب وإما أن يسلم أو يدفع الجزية. وهذا الكلام مخالف لصريح القرآن الذي يمنع من الاعتداء على الآخرين المسالمين مهما كان دينهم.

فِي مقابل هذا التطرّف في الطرف الآخر لن تجد من يقول علنا بأن اعتداءه عليك بغي، بل سيجد المبررات، ومنها أنك مخالف له في الدين وكافر ومهرطق... بينما في الأساس الْمُشْكِلَةُ ليست فيما تؤمن به ولا يمسّ شؤونهم بل في رغبتهم بالاعتداء والبغي والإجرام وسلب الآخرين... وَمَهْمَا كان دينك سيهاجموك إن استطاعوا، والمشكلة أنك تطبّق الصلاح والخير والطبقة الحاكمة منهم حتما لا تريد ذلك، بل تريد قانونا يناسب بقاءهم حاكمين ومستفيدين.

الْقِتَالُ في سبيله تعالى قرآنيا هو أولا قتال الذين يُقَاتِلُونَنَا أو لديهم النيّة لذلك وأن يكونوا هم المعتدين، هذا فقط وفقط اسمه قتال في سبيله تعالى. نُدَافِعُ عن أرضنا وعرضنا وأموالنا ومواردنا... ويصير الوصف في سبيله تعالى إن لم نعتد ولم نبغ على الآخرين.

(وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى الله تُحْشَرُونَ{158})
{وَلَئِنْ مُتُّمْ}، بمرض أو حادث... {أَوْ قُتِلْتُمْ}، حَيْثُ قَامَ أحد ما بإنهاء حياتكم، عَلَى كِلْتَا الحالتين: {لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ}، حَيْثُ يَتِمُّ جمعكم بقرار مِنْهُ تعالى سواء قبلتم أم لم تقبلوا وَيَجْمَعُكُمْ لتقفوا بين يديه سبحانه، وَلَنْ تموتوا وتنتهوا، أو تختفوا نِهَائِيّاً أو تذهبوا إلى مكان آخر... بل إلى صاحب الاسم الْمُحَدَّدِ الْمُمَيَّزِ الله تعالى سيتم جمعكم لتقفوا بين يديه ليحاسبكم.

طَالَمَا أَنَّنَا وبأي طريقة متنا، وبأي عمر متنا، وبأي مكان متنا... فَالنَّتِيجَةُ وَاحِدَةٌ: سيتم حشرنا في يوم القيامة لنقف بين يدي الله تعالى، والربح والخسارة، والحسرة والفرح، هناك في الآخرة لهما قيمة حقيقية لأنها خالدة.

مَنْ تحسّر على موت عزيز عليه لأن الميت ترك الدنيا وجمالها وشهواتها... فهو مُخْطِئٌ، لأن الميت إن كان مؤمنا انْتَقَلَ إلى الجنة التي لا مقارنة بينها وبين ما في الدنيا.

نرجع إلى سبب دخول السورة على هذا الموضوع، حَيْثُ وَقَعَ قتلى من المسلمين يوم معركة أحد، ومن بقي حيا من المؤمنين تُنَبِّهُهُ السورة أَلَّا يتحسّر على المقتولين، لِأَنَّ هَذَا شيء يفعله الكفّار الذين لا يؤمنون به تعالى ولا بالآخرة، وَمِنْ نظرته تعالى لنا يرى أَنَّنَا كُلَّنَا سنموت في النهاية، سواء كنّا في بيتنا أو في سفرنا أو في الحرب... وَلَا فرق، ومن فقد حياته لأي سبب كان، وكان مؤمنا، انْتَقَلَ إلى مغفرة ورحمة وهما أفضل بكثير جدا جدا مما كان يمكن أن يحصل عليه من سعادة في الدنيا، لِأَنَّهُمَا سَيُسَبِّبَانِ له دخول الجنّة الخالدة الرائعة... هَلْ هناك سبب للتفكير في موضوع المقتولين في سبيله تعالى واعتباره مصيبة لهم أو لنا، والتحسّر عليهم؟ وهذا ما أرادت السورة طرحه.

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ{159})
الآن نرجع إلى الخسارة، وإلى الهاربين المشككين بالدين.

{فَبِمَا}، بِسَبَبِ، {رَحْمَةٍ} {مِنَ} {اللَّهِ}، عناية لما فيه مصلحتهم من الله تعالى، {لِنْتَ} {لَهُمْ}، حَيْثُ لَمْ تكن قاسيا عليهم وكنت طَرِيّاً معهم وَلَمْ تكن عنيفا مع الهاربين، حَيْثُ لَمْ تهنهم ولم تعاقبهم... وَالسَّبَبُ أنه تعالى أمرك بأن تكون رحيما معهم.

{وَلَوْ كُنْتَ}، أيها الرسول(ع)، {فَظّاً}، كلامك وتصرفك قَاسٍ مُؤْذٍ مع الخاسرين، ولو كنت، {غَلِيظَ الْقَلْبِ}، قَاسِيَ القلب بلا أي لين أو طراوة، لَوْ كان أساس تفكيرك ونفسيتك فيه قساوة مستمرة، لَوْ كنت قاسيا وعاقبت وعنّفت ولمت وهدّدت... وَلَمْ تَنْسَ ما فعلوه حتى خسرتم المعركة... إذاً، {لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ}، لَابْتَعَدُوا عنك حين كان يجب أن يكونوا معك.

انْتَبِهْ، صحيح أن البعض منهم هربوا من المعركة، ولكن لا تزال السورة تعتبرهم هربوا حين شعروا بأنهم وقعوا في الخسارة الأكيدة، حَيْثُ لَمْ يتحمّلوا ويصبروا حين تغيّرت ظروف المعركة لصالح أَعْدَائِهِمْ، لِأَنَّهُ في الحروب والمعارك لا تبدأ بالانتصار وتستمر هكذا إلى النهاية بدون حصول خسائر وانقلاب في موازين القوى لصالح العدو، بل تَتَغَيَّرُ الظروف وتصير الحسابات مائلة إلى كفّة انتصار العدو، وبالتوكّل عليه تعالى والصبر والثبات يسترجع المؤمنون سيطرتهم على ميدان المعركة وَيُحَقِّقُونَ النصر... فِي معركة أحد كان النصر للمؤمنين سَاحِقاً في البداية، وبعدها هجم

الخيّالة من الخلف وَتَشَتَّتَتْ صفوف المقاتلين المسلمين وتفرّقوا، وبما أن عددهم أقل من عدد الأعداء صَارَ كل مسلم لوحده مُحَاطاً بعدد من الأعداء... حَيْثُ الْبَعْضُ صبر وقاتل، وَالْبَعْضُ هرب...

هُنَاكَ فرق كبير بين العسكري المقاتل المخضرم المتدرّب المشحون بالإصرار والثبات، وبين الهواة، حَيْثُ كِلَاهُمَا يرتدي بدلة قتالية أو يحمل السلاح، ولكن الفرق هائل بينهما حين يبدأ القتال، وسبحانه وتعالى ينبّه المؤمنين أنهم ليسوا هواة، لِأَنَّ إيمانهم إذا كان حقيقيا فسيجعلهم مقاتلين أشاوس لا يخسرون أي حرب مهما كانت الظروف، دَعْكَ من التصورات التي عندك عن حروب العرب وبطولاتهم وفروسيتهم... هَذِهِ صور مُبَالَغٌ فيها، حَيْثُ إِنَّ القليل النادر جدا من معاركهم كَانَ فِعْلاً مَعَارِكَ، والأغلبية الساحقة كَانَتْ استعراضات همجية غوغائية لا علاقة لها بالمعارك والحروب، على طريقة معارك الأطفال والفتيان، هجمنا فهربوا، هجموا فهربنا... تبارز فلان وفلان... والبقية واقفون يشاهدون المبارزة! وبعدها تبارز فلان وفلان... ستفهم ما أقوله لك بشكل أفضل إذا راجعت التاريخ لترى عدد القتلى من المسلمين في كلّ المعارك التي خاضوها في عصر الرسول(ع)، حَيْثُ إِنَّهُ قليل جدا جدا أمام الصورة الضخمة المنتشرة في أذهاننا عن الحروب والمعارك والغزوات... لَا أقصد أبدا الاستهانة بما جرى، بل ألفت انتباهك إلى الفرق الهائل بين تلك الحروب وبين حروب أخرى كانت أشد شراسة وواجه فيها المسلمون جُيُوشاً نِظَامِيَّةً، لِأَنَّهَا حروب بين جيوش منظّمة لا تتراجع إلّا بعد سحقها بدمار هائل...

اَلْجِيلُ الأول من المسلمين كان فيهم المؤمنون من الدرجة العالية والذين صبروا وثبتوا في معركة أحد كمقاتلين حقيقيين، والأغلبية الباقية كانوا هواة في موضوع القتال، وَمَا مرّ عليهم سابقا في حياتهم عَلَى الأكثر هو خوض عراك بالأيدي مرة أو مرتين أو أكثر في كلّ حياتهم... وَأَصْلاً غَالِبِيَّتُهُمْ لم يَكُنْ لديهم عتاد عسكري من سيف أو رمح أو نبل... وإيمانهم لم يكن بالدرجة الكافية لثباتهم في المعركة بعد ميلان الكفّة للمشركين... أطلت عليك كثيرا حتى لا تفهم أنه تعالى هنا يتعامل مع مخضرمين في القتال وَعَفَا عنهم رغم فرارهم من المعركة، لا، بل بالنظر إلى فقدانهم الخبرة في الحروب، وضعف إيمانهم، رحمهم سبحانه وتعالى.

{فَاعْفُ} {عَنْهُمْ}، مُرَّ عن أفعالهم أيها الرسول(ع) ولا تتوقّف عندها، وَلَا تطالبهم بما فعلوه، وَلَا تحملها عليهم ذِلَّةً، فإذا قال أحدهم شَيْئاً فلا تقولوا له: هارب من المعركة ولا يحقّ لك أن تتكلم.

{وَاسْتَغْفِرْ} {لَهُمْ}، وَاطْلُبْ لهم من ربهم سبحانه أن يتجاوز عن ذنوبهم ولا يعاقبهم عليها.

{وَشَاوِرْهُمْ} {فِي} {الْأَمْرِ}، وَأَشْرِكْهُمْ في المشاورة واستطلاع الآراء حين تواجهون أَمْراً مَا، وَلَا تنبذهم وَتَعْتَبِرْ كلامهم بلا قيمة لأنهم هربوا في تلك المعركة، لِأَنَّنَا انتهينا من تلك القصة.

{فَإِذَا} {عَزَمْتَ}، حَيْثُ حصل عندك عزم وَقَرَّرْتَ بشدّة فعل شيء ما، وَحَصَلَ عندك قرار وقناعة بشيء ما، سواء حصلت على العزم من استشارة المؤمنين المجاهدين، أو مشاورة الذين كانوا من الهاربين، لَا يهم، المهم أنك أنت حصل عندك قناعة وقرار بالقيام بهذا العمل، {فَتَوَكَّلْ} {عَلَى} {اللَّهِ}، وَاعْتَمِدْ عليه تعالى بأنه سبحانه سيجعل هذا العمل يتم على شكل يرضيه سبحانه.

أَنْتَ القائد والقرار النهائي عندك، وتشاور مع البقية قبل اتخاذك لأي قرار نهائي، لِأَنَّكَ تريد تحقيق شيء ما، وربما عند أحدهم فكرة أفضل لتحقيق ما تريده ولم تخطر على بالك... وبعد ذلك وعندما يصير عندك قرار بما ستفعله، فتوكّل على الله تعالى وافعله.

الْآيَةُ لا تقصد أن يبقى الرسول(ع) على القرار الذي اتخذه حتى لو كان سيصطدم بالحائط، لا، بل بالنظر إلى نموذج معركة أحد، التي حصل قبلها بلبلة البقاء في المدينة وانتظار جيش العدو أو الخروج لملاقاتهم في أحد، بَعْدَ الدخول في القرار الذي اتخذه القائد، لَا تراجع طالما لم تتغيّر الظروف... مَرَّ معك سَابِقاً أنهم في الطريق إلى أحد رَجَعَ عبد الله بْنُ أبي ومعه عدد كبير من المقاتلين، حَيْثُ غيّر رأيه في الطريق! واستحقرته السورة بشكل واضح وَقَفَزَتْ عن سيرته وما فعله ولم تذكره، ويبدو وَاضِحاً أنها لم تعتبره من المؤمنين لا هو ولا الذين انسحبوا معه، وذكرت ما كاد يجعل بعض الآخرين يرجعون معه... ولكنهم في النهاية ثبتوا وأكملوا الطريق... بِالنَّظَرِ لهذا النموذج يأمر سبحانه الرسول "القائد" بالثبات على قرار اتخذه عن مشورة طالما لم تَحْصُلْ تَغَيُّرَاتٌ في الظروف وتكون مؤثّرة على القرار الذي اتّخذه...

{إِنَّ} {اللَّهَ} {يُحِبُّ} {الْمُتَوَكِّلِينَ}، نَحْنُ ندرس ونخطّط ونجهّز... ولكن قدراتنا محدودة، والنجاح غير مضمون، والأهم من ذلك، يَجِبُ أن ننتبه لما يرضيه تعالى، وَالتَّوَكُّلُ على الله تعالى لإنجاح مشروعي، إنما يكون بنية أن يكون مشروعي يرضيه تعالى، وفي حال نجاح مشروعي، أن يبقى الله تعالى رَاضِياً عني، وعمليا هو بقائي مُؤْمِناً عَامِلاً للصالحات فهذا هو النجاح، أما الحصول على المال وعلى المنصب مع خراب آخرتي، فهذا ليس نَجَاحاً، ولو توكلت واعتمدت على الله تعالى في مشروع سيؤدي بي إلى النار في الآخرة، فسبحانه لن يجعل المشروع ينجح إن كنت أنا مَشْمُولاً برحمته تعالى... وهكذا نفس الشيء في قرار الحرب، لِأَنَّ التوكّل عليه تعالى ضروري جِدّاً لأنه ينبع من وعده تعالى للمؤمنين بالنصر، وسبحانه يحبّ من يتوكّل عليه، وترجمة هذا الحبّ مغفرة ورحمة وثواب... ونصر إذا اكتملت في المقاتلين شروط النصر.

(إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ{160})
{إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ}، فَيُؤَيِّدُكُمْ تعالى لتحقيق ما تريدونه، وهنا الكلام عن نصركم في الحرب، {فَلَا غَالِبَ لَكُمْ}، حَيْثُ لَنْ يستطيع أي أحد أن يغلبكم أن ينتصر عليكم أن يمنعكم من تحقيق ما تريدون، بل حتما ستنتصرون بالتأكيد إنْ قَرَّرَ سبحانه لكم النصر.

{وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ}، حَيْثُ يَتْرُكُكُمْ تعالى بلا دعم وأنتم بحاجة للدعم للمساندة، {فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ}؟ مِنْ أين تحصلون على النصر إن كنتم بحاجة لمساندة والقرار الإلهي كان أن يترككم للظروف؟ بعبارة أبسط: إن كنتم بحاجة لدعم من مستوى إلهي لتنتصروا، ولم ينصركم تعالى، ومعلوم أنه لا يوجد إله غيره تعالى، فَمَنْ سينصركم من مستوى إلهي! لِأَنَّ النصر من مستوى إلهي فَقَطْ مضمون، وإن لم تحصلوا عليه فَلَا ضمانة لكم بالنصر.

انْتَبِهْ، لِأَنَّهُ سبحانه يسيطر على كل شيء، وَهُوَ سبحانه يقرر من سينتصر في كل الحروب، ولكن عندما يكون طَرَفٌ مُؤْمِنٌ مُشَارِكاً في الحرب، التدخل الإلهي يصير مُخْتَلِفاً، وَهُنَا الآية تتحدث عن حالة مشاركة جيش مسلم في معركة، فإن كان الجيش بحاجة لمساعدة، ولم يكن يستحقها لأن فيه أُنَاساً كُثُراً يقاتلون وإيمانهم ليس بالدرجة المقبولة حَيْثُ أكثرهم فسّاق ومنافقون، فَهَذَا الجيش لن يحصل على مساعدة إلهية، ولن يوجد من يقدم له مساعدة تضمن له النصر. وأما الحالات الأخرى للحروب فَلَمْ تتحدث عنها الآية، لأنها غير مهمة، حَيْثُ إِنَّ كل حرب ليس فيها طرف مؤمن فَإِنَّ تدخله سبحانه فيها يكون على مقاييس أخرى...

{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ}، لِيَعْتَمِدِ، {الْمُؤْمِنُونَ}، المعتقدون الحقيقيون بدينه تعالى، وَلَا يعتمدوا على كثرة العدد ولا على التنظيم ولا على التسليح... حَيْثُ إِنَّ هذا كلّه ضروري ولكنه ليس سببا أكيدا للانتصار.

هُنَاكَ العديد من الآيات التي تؤكد على المؤمنين وجوب الاستعداد للحرب بالتدريب والتجهيز والتخطيط... كما ورد في الآية 60 من سورة الأنفال {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ...}، ومع كل ذلك يجب عليهم التوكل عليه سبحانه، حَيْثُ يجب الاعتماد عليه، لأنهم يقاتلون في سبيله، أي حصرا فيما يرضيه، وإن انتصروا فَيَجِبُ عليهم الاعتقاد أنه سبحانه نصرهم، لأنه هو المسيطر على كل شيء.

(وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ{161})
{وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ}، ما كان لشخص يصله نبأ منه تعالى، حَيْثُ يَصِلُهُ منه سبحانه خبر غير منتشر عِلْمُهُ بين الناس "لهدايتهم"، لِأَنَّهُ من غير المسموح لأي نبي، {أَنْ يَغُلَّ}، أن يحمل شُعُوراً ثقيلا على المؤمنين كالحقد والكره، فهذا ممنوع عليه، عِنْدَمَا تحدثت الآية ما قبل السابقة عن العفو عمن هرب أو قصّر في المعركة، أو شكّك بالدين الإلهي بسبب الخسارة، وأمرتنا باعتباره من جديد عضوا من المجتمع المسلم، وبكامل الصلاحية، وحتى إشراكه في المشورة وأخذ رأيه في الأمور... فهنا تؤكد الآية على شيء أكبر، حَتَّى إِنَّ حمل شعور سَيِّئٍ على هؤلاء بسبب ما فعلوه سَابِقاً، ممنوع، وبالأخص، لِأَنَّ الأنبياء ممنوع أن يحملوا أي غلّ على المؤمنين، حَيْثُ لَا في الظاهر يبيّن لهم النبي(ع) أنه يحمل صورة سيئة عنهم، ولا في الباطن، وَلَا يخفي في قلبه صورة سيئة عنهم، بل يعتبرهم مسلمين مثلهم مثل البقية.

طَبْعاً نحن في أجواء كلام عن أناس خبرتهم في الحروب ضعيفة، وعهدهم بالإيمان جديد، أي آمنوا منذ مدة قليلة... وشاركوا في الحرب... ولكن الظروف انقلبت عليهم وَصَارَتْ وَاضِحَةً لَهُمُ الهزيمة... وإلّا لِأَنَّ الهارب من الزحف عقابه الخلود في جهنّم وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 16 من سورة الأنفال {وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}.

{وَمَنْ يَغْلُلْ}، مَنْ يحمل في قلبه كُرْهاً أو حِقْداً أو حَسَداً مَخْفِيّاً على المؤمنين المخطئين سَابِقاً، {يَأْتِ بِمَا غَلَّ} به {يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، حَيْثُ إِنَّ هذا الشعور سيظهر في يوم القيامة على أنه عمل سَيِّئُ، وسيتحاسب عليه.

{ثُمَّ تُوَفَّى}، تعطى بالتمام، {كُلُّ نَفْسٍ}، كل إنسان، {مَا كَسَبَتْ}، ما حصلت عليه مما نتج من أعمالها التي قامت بها في الدنيا من سيئات أو حسنات، حَيْثُ في يوم القيامة سيحصل على ما نتج من سيئات الغلّ، {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}، حَيْثُ بالعدل والحق يكون الحساب في يوم القيامة. يَعْنِي أولئك أساؤوا بما سبب خسارة المعركة، ولكنهم لم يقصدوا ذلك، وَعَفَا تعالى عنهم... أَمَّا الذي في قلبه غلّ عليهم، ولم يمحه من قلبه، فسيتحاسب على غلّه.

فَسَّرُوا الغلّ هنا بالخيانة في الغنيمة، على أساس أن الرسول(ع) لن يخون في تقسيم الغنائم، لِأَنَّ النبالة الذين غادروا أماكنهم وسببوا الخسارة في معركة أحد، قيل إنهم تركوا أماكنهم خَوْفاً من تقاسم المسلمين للغنائم وترك النبالة بلا حصة، وقيل إِنَّ الرسول(ع) كَانَ وعدهم بحفظ حصتهم... هُنَا وبحسب المفسرين، إِنَّ الآية تقول لهم إِنَّ الرسول(ع) ما كان ليخونكم. ولكن كما تلاحظ، فمن المستحيل أن نفهم من الآيات لوحدها هذا التفسير، وسياق الآيات لا يدل على هذا المعنى، بل يدل على ما ذكرناه، وهو يتوافق تَمَاماً مع ما ورد في الآية 10 من سورة الحشر {... يَقُولُونَ رَبَّنَا... وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا...}، بِمَا أن القاعدة في دراستنا هنا هِيَ الاعتماد أَوَّلاً على المعنى الدقيق للكلمات، وبما أن كلمة غلّ تعطي المعنى الذي ذكرناه، وعلى هذا المعنى ربطها سهل بما سبق من كلام، ومتوافق مع آيات أخرى من القرآن، فلا يحقّ لنا ترك ما ظهر لنا من المعنى لنطبّق الآيات كيفما كان على الحوادث التاريخية، لِأَنَّنَا عندما نقوم بتفسير آية ما اعْتِمَاداً بالكامل على شيء من تلك الكتب التاريخية، بحيث لا يمكن فهمها من دون تلك الكتب، فهذا يعني أننا ابتعدنا عن المعنى الحقيقي للآية.

(أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَن بَاء بِسَخْطٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{162})

{أَفَمَنِ اتَّبَعَ}، هَلْ من كان على، {رِضْوَانَ اللَّهِ}، ما يعلن تعالى عن قبوله بمحبّة، حَيْثُ ترك السيئات وفعل الحسنات، وهنا الكلام عن الذين سببوا الخسارة للمعركة لِأَنَّهُمْ في الأساس جاؤوا إليها طالبين رضاه تعالى، ولكن حصل ما حصل... هَؤُلَاءِ ممنوع حمل الغلّ عليهم لِأَنَّهُمْ ليسوا، {كَمَنْ}، كالذي، {بَاءَ}، صارت مكانته، {بِسَخَطٍ} {مِنَ اللَّهِ}، برفض مع كره من الله، حَيْثُ إِنَّهُمْ ليسوا مثل الذين لم يقبلهم ولم يحبّهم تعالى.

هَذَا الذي أصابه سخط إلهي وصار، {مَأْوَاهُ}، مرجعه للمكوث والبقاء في، {جَهَنَّمُ}، المكان الموصوف بسوء ما فيه، {وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}، في أَسْوَأِ وأتعس نهاية وخاتمة لن تتغيّر، وهي خلود في النار.

لَوْ كانوا من الذين تنطبق عليهم أوصاف الذي باء بسخط منه تعالى، فَهَذَا تغلّ عليه ولن يحاسبك تعالى على غلّك عليه، بل بالعكس مَفْرُوضٌ منك كرهه ويؤجرك تعالى على كرهك له.

(هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللهِ واللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ{163})

التابعون لما يرضيه تعالى عنهم والمسخوط عليهم، {هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ}، حَيْثُ ليسوا كلّهم مثل بعض، فَمِنْهُمْ في درجة الرضا عنه بأقصاها، ومنهم في درجات السخط عليه بأقصاها.

{وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}، حَيْثُ صورة أعمالهم يدركها تعالى ويعي معناها، لِأَنَّهُ ليس مثل كاميرا المراقبة التي تسجّل ولا تفهم ما يجري. كُلُّ عامل منكم، وكل عمل قام به، سُبْحَانَهُ بصير بهذه الأعمال، فَيَعْلَمُ بها، بل وأكثر، فَيَعِيهَا تعالى ولا يخفى عليه شيء من دلالاتها ومقاصدها، ولا نوايا من قام بها، وماذا كان يقصد...

عَلَى أساس هذه البصيرة سُبْحَانَهُ يجعل الناس في درجات مختلفة، حَيْثُ مِنْهُمْ من يغضب عليه أشد الغضب لأن أعماله سيئة جِدّاً جِدّاً، ومنهم من يحبه تعالى أشدّ الحب لأن أعماله حسنة جِدّاً، وبين الغضب الشديد والحب الشَّدِيدِ، يوجد درجات عديدة، من الغضب الأقل، فالأقل منه...

بِنَاءً عليه عِنْدَمَا يأمركم تعالى أَلَّا تَغْلُّوا على هذه النوعية من الناس، النموذج الذي فشل وهرب... في أحد، فَخُذُوا عِلْماً أَنَّ هناك تَصْنِيفاً بدرجة منخفضة عنده تعالى لبعض المؤمنين، لِأَنَّ هؤلاء على الأقل عند هذا الحدّ الأدنى لأنهم أَسَاساً ذهبوا للمعركة طالبين رضاه تعالى، وقاتلوا... وانتصروا... ولكن بسبب قلة الخبرة والانتظام خسروا، فَلَا تضعوا من عندكم تَصْنِيفاً للمؤمنين غير تصنيفه تعالى، وَلَا تعتبروا قيمة إلا للمؤمنين من الدرجة العالية، لا.

هَذَا موضوع يمكننا الكلام فِيهِ مُطَوَّلاً جِدّاً لأنه مرتبط بكثير من تفاصيل حياتنا، حَيْثُ ننظر نظرة دونية للذي لا يصلّي التراويح جماعة أو لا يحضر قراءة دعاء كميل... بينما هما عملان أَصْلاً لم يفعلهما رسول الله(ع)! حَيْثُ كان يصلّي المستحبات لوحده، وأكثر الأحيان في بيته، ولم ينقلوا عنه أي صلاة جماعة لصلاة نافلة ولا أي دعاء جماعي في المسجد!

(لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ{164})
{لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ}، حَيْثُ إِنَّ الذين أعلنوا أنهم معتقدون بهذا الدين أَعْطَاهُمْ تعالى شيئا يجب عليهم شكره تعالى عليه والتعبير عن جميل ما فعله تعالى معهم، {إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ}، إِذْ أقام فيهم، {رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ}، لِأَنَّ الجماعة التي صارت مؤمنة في عصر النبي محمد(ع) حَصَلَتْ على منّة إلهية، حَيْثُ في زمانهم وفي مكانهم أَقَامَ سبحانه رسولا من عنده للناس، فيجب عليهم شكره تعالى على هذه النعمة.

هُنَاكَ الكثير من المجتمعات على وجه الأرض على مرّ الزمان، ولم يبعث سبحانه فيهم رسولا من عنده، وَمِنَ الواضح منّة ربنا سبحانه على ذلك المجتمع الذي بعث فيه النبي محمد(ع).

مِنَ الواضح هنا أن الآية تتحدث مع من يفكر من هؤلاء الناس أنه يقدم شيئا عظيما لربه سبحانه، لِأَنَّهُ يحارب لأجل الدين الذي لم ينتشر بعد، وما يزال في نظره الدين ضعيفا... وَيَرَى لنفسه فضلا ومنّة، لا، فالمنّة لله تعالى عليكم لأنه بعث لكم رسولا من أنفسكم من مجتمعكم من بيئتكم.

هَذَا الرسول، {يَتْلُو عَلَيْهِمْ}، يقرأ على المؤمنين استنادا لما ينزل عليه من وحي، {آيَاتِهِ}، الأمور المميزة المنسوبة له تعالى، حَيْثُ يقرأ لهم القرآن المميّز لأنه كلام إلهي. يعني بدلا من التفكير بما تُقَدِّمُونَهُ أنتم باتباعكم الرسول فانتبهوا أن الرسول ناقل للكلام الإلهي لكم.

{وَيُزَكِّيهِمْ}، حَيْثُ إِنَّ الرسول(ع) يزكي المؤمنين، وَيَجْعَلُهُمْ لائقين بوصف الإيمان، لائقين أمامه تعالى، وَعِنْدَمَا يدلّهم على الصح والخطأ في الأعمال والعقيدة، فيقوّم لهم النظرة للأمور لِيَلْتَزِمُوا بالحق والصلاح فهو في الحقيقة إنما يجعل أنفسهم وأعمالهم زاكية، لائقة محترمة... وَيُبْعِدُ عنهم خبث وفساد العقائد المنحرفة والأعمال السيئة.

كَمَا ترى فَإِنَّ هذه الجملة من صميم أساس معنى القيمة الإنسانية المميزة بين الخير والسوء، لِأَنَّكُمْ باتباعكم للرسول والإيمان والالتزام بدينه تَصِيرُونَ زَاكِينَ، تَصِيرُونَ لائقين لأنكم ستعملون الصالحات وتنتهون عن السيئات عبر مساعدة من الرسول الإلهي المؤيد بتسديد إلهي عبر الوحي بكلام يوضّح الحقّ من الباطل والخير من الشرّ.

{وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ}، حَيْثُ إِنَّ الرسول يعلّم المؤمنين الكتاب الإلهي، وَيَقْرَأُ عليهم القرآن، وَيَشْرَحُهُ لهم، ويعلم (ع) المؤمنين، {وَالْحِكْمَةَ}، حَيْثُ يعلمهم كيف يرون الأمور بصوابية، فَتَصِيرُ أفعالهم وقراراتهم وأقوالهم لها أهداف حسنة وسامية، وَعَمَلِيّاً الحكمة هي تطبيق دينه تعالى بشكل صائب عقلاني على ما يجري أمامهم.

اَلْكِتَابُ حكيم، من حكيم، وبناء عليه تصيرون حكماء، وَالرَّسُولُ وبناء على ما في الكتاب يعلمكم كيف ترون الصوابية في الأمور عبر تطبيق الكلام الإلهي.

{وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}، حَيْثُ قبل الرسول (ع) لا يمكن وصف الحالة التي كانوا عليها غير الضلال غير الابتعاد عن الحقّ بشكل مبين واضح، من كفر وشرك وظلم وقتل وزنا وسرقة... لِأَنَّهَا كلها أمور سَيِّئَةٌ ولا توصل لغاية صحيحة.

قَارِنُوا بين المنّة الإلهية بإرسال رسول في زمنكم بل ومن مجتمعكم، وبين حالة الضلال الواضحة التي كنتم عليها، فهل تشعرون بأن لكم فَضْلاً على ربكم سبحانه إذا نصرتم رسوله(ع)؟ أم ترون ما تعرضتم له من مشاكل "كخسارة معركة أحد" شيئا كبيرا قدمتموه له تعالى وأنه تعالى لم يقدّم لكم شيئا؟ وسنرى من الآية الآتية أن هذه العقلية كانت موجودة لَدَى البعض، فَلْنَرَ:

قَبْلَ ذلك ألفت انتباهك لكلمة "منّة"، التي لم يستعملها القرآن لوصف ما سيحصل عليه المؤمنون في الآخرة، واستعمل بَدَلاً منها "فضل" لِأَنَّ المنّة تستوجب الشكر على ما حصلت عليه، وحيث لا يوجد في جنّة الاخرة ولا أي شيء واجب على المؤمنين، عَبَّرَ القرآن بالفضل عمّا يحصلون عليه هناك، لأن الفضل هو فقط وفقط: وصف لما تحصل عليه وأنت ليس لك فَرْضٌ وَاجِبٌ بذلك على من أعطاك، حَيْثُ من عنده وبقرار منه أعطاك، وهذه حالة ما يحصل عليه المؤمنون في الآخرة.

بقي شيء، حَيْثُ إِنَّ بعثه تعالى لرسول في زمان ومكان ما، يَحْدُثُ بتقدير إلهي، مثلما كل مجريات الأمور في السماوات والأرض تحدث بتقديره تعالى، وهذا المعنى منتشر في عموم كلام القرآن ومنه صراحة الآية 22 من سورة الحديد {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}، وبعض التدخلات الإلهية واضحة لنا كالأحداث التي نعتبرها غير عادية كانفلاق البحر وَإِطْبَاقِهِ على فرعون وجنوده، وبقية الأحداث نراها مِنْ ناحيتنا مجريات طبيعية لمسارها، ولكن دراسة سورة يوسف تريك جَانِباً عميقا من تدخله تعالى بشكل يستحيل علينا رؤيته حتى صار النبي يوسف(ع) عزيزا في مصر يهدي أهلها، وتجد ذلك في كلام الآية 21 من سورة يوسف {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}، والآية 56 من نفس السورة {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} بعدما صار(ع) عزيزا. فما تراه في بداية القصة أَنَّ أَبَاهُ ميّزه في نظر إخوته، الذين قرروا رميه في الجب، والتقطته السيارة وباعوه في مصر لعزيزها... مِنْ ناحيتنا لا نرى تدخله تعالى بل نرى مجريات أحداث عادية مترابطة، ولكنه تعالى يخبرنا أنها جرت على مقاديره ليصل النبي يوسف(ع) إلى مصر لهداية أهلها.

مِثْلُهَا ما جرى مع النبي موسى(ع) من رمي أمّه له في النهر بوحي إلهي، لِأَنَّ هذا تدخّل إلهي مباشر، ثم تحريم المراضع عليه أيضا تدخل إلهي ليرجع (ع) إلى أمّه، ثم جرت الأمور بشكل عادي من تسلسل الحوادث فقتل النبي موسى(ع) رجلا من أتباع فرعون وهرب إلى مدين... وعاد إلى مصر بعد سنين، بتقدير إلهي كما هو صريح من الآية 40 من سورة طه {إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى}.

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية سُبْحَانَهُ لا يتواصل مع بشري لتكليفه بهداية الناس ليصير نبيا أو رسولا إن لم يكن بالأصل في البشري صفات تؤهله لذلك، فإن لم يكن سليم القلب بالدرجة الكافية فلن يجعله تعالى خليفة له بين الناس.

لَمْ يتأهل أحد من البشر لهذه الدرجة إلا ذرية آدم(ع) وبعدها من ذرية النبي نوح(ع) وبعده من ذرية النبي إبراهيم(ع). هَذَا حصل ليس لأنه تعالى لم يرد من بقية الناس أن يتأهل أحد، لا بل هم لم يتأهل منهم أحد.

الآن بضمّ الكلام مَعَ بعضه نفهم أن تقديره تعالى للأمور أوصلها إلى حيث البشري محمّد(ع) الذي فيه الصفات المناسبة ليكون رسولا، حَيْثُ سيبعثه تعالى في الزمان والمكان الذي يراه بحكمته مناسبا، وقد منّ سبحانه على أهل زمان ومكان ببعثه(ع) فيهم.

انْتَبِهْ جيدا، هَا كل القرآن أمامك ويؤكد لك أن وجود رسول بيننا أو حصول آيات أمامنا، لِأَنَّ هذا لن يغيّر أي شيء فينا إن لم يكن بالأصل لدينا قرار بالاهتداء للحقّ، حَيْثُ إِنَّ القاعدة الإلهية الأساسية الحاكمة على كلّ شيء، والتي منها

تصمّمت الدنيا والآخرة، أنه لا حظوظ فيما يتعلق بالهداية، حَيْثُ فقط حرية الإرادة الممنوحة لنا هي التي تحدّد باختيارنا مصيرنا في الآخرة.

نعم هناك حظوظ في بقية الأمور الأخرى، كالشكل والزمن والبيئة والولادة لِأَبَوَيْنِ ثريين... ولكن أساسيات غالبية الأمور متشابهة بالعموم للجميع فيما يخصّ الهداية، وَمَنْ يظنّ أنه محظوظ لولادته في مجتمع مسلم، وبالتالي ولادته مسلما، فهذا لا يعني أي شيء، وترى ذلك بوضوح من الواقع، فكم من مسلم فاسق ومنافق بل كافر! وكم من بوذي أو سيخي أو يهودي أو مسيحي... موحد عامل للصالحات؟

في الواقع نرى الغالبية الساحقة من المسلمين مستواهم الإيماني منخفض، وبعصبية دينية منحناهم تذكرة دخول للجنّة لأنهم موحدون مؤمنون بالرسول محمّد(ع) والقرآن، وهذا معارض لصريح كلامه تعالى الذي ذمّ أهل الكتاب بقولهم نفس هذا الكلام كما ورد في فحوى الآية 111 من سورة البقرة {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.

عَمَلِيّاً هؤلاء مسلمون بالاسم لِأَنَّهُمْ موحدون مؤمنون بالرسول والقرآن بالكلام فقط، وأحيانا حتى بالكلام يعلنون كفرهم، فحين يجدّ الجدّ وَأَهْوَاؤُهُمْ لا تتوافق مع القرآن والرسول، فهم يعلنون أنهم لن يقبلوا بهما.

اَلْكَلَامُ يجرّ الكلام، حَيْثُ في الآخرة أيضا لا يوجد حظوظ، لِأَنَّنَا كلنا نتجازى بما فعلناه بالتمام، ولن ينفعنا ولن يضرّنا من بعد موتنا إلا ما لنا علاقة به، فلو تصدّقوا عنّي بجبل من الذهب، وَإِنْ لم أُوصِ بذلك من مالي أو مما لي علاقة به، فلن أنال ولا أي حسنة منه. ولمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 29 من سورة محمد {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ}، والآية 28 من سورة نوح {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً}.

الخلاصة أن بعثة رسول فيهم ليست حظّا حاسما في الهداية، حَيْثُ ترى أنهم مثلنا من حيث النسبة في تدرجات الإيمان، حَيْثُ فيهم منافقون وفاسقون بالنسبة التي فينا، وأنت تعلم أني لست أقصد الدقة في النسبة والأعداد، بل أقصد الرؤية العامة، وهذا لا يلغي المنّة عليهم، لِأَنَّ الذي في عصرهم أو في عصرنا أو في أي زمان ومكان، وعنده نية الاهتداء الحقيقية، فهذا سيهتدي، ومعاصرته لرسول لن تزيده هدى عنّا، ولكن يبقى شعور معاصرة رسول إلهي شَيْئاً مُخْتَلِفاً للمؤمنين من الدرجة العالية. أمّا نحن الْمُؤْمِنِينَ من الدرجات المنخفضة بِضَبَابِيَّةٍ نَفْتَرِضُ أننا سيتحسّن إيماننا لو عاشرنا الرسول(ع) وهذا غير صحيح، ونظن أننا سنسعد برؤيته والعيش في زمنه، وهذا غير صحيح، بل بالعكس لأننا لن نتحمّل ملاحظاته السلبية على سلوكياتنا، ولن نتحمّل أخذه للحقّ منّا...

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {165})

{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ}، عِنْدَمَا حدثت معكم حادثة، وهنا الكلام عن مصيبة مؤذية، حَيْثُ خسرتم في معركة أحد ووقع منكم قتلى وجرحى، وَتِلْكَ المصيبة كنتم، {قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا}، حَيْثُ حدثت منكم مثلها بالتمام، فَفِي معركة سابقة أصبتم العدو بمثل ما أصابكم في هذه المعركة من القتل والجرح والهزيمة، لِأَنَّ هناك مثلية بين المصيبتين.

{قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا}؟ كيف حصل هذا؟ كان بالتأكيد يجب أَلَّا تحصل هذه المصيبة علينا، فَكَيْفَ حصلت؟

يَعْنِي، في السابق "في معركة بدر" كنّا قلائل وبسلاح أقل وبتجربة أقلّ وبعدد أقلّ... وانتصرنا، وَهَذِهِ معركة مثل تلك، بل نسبيا ظروفها أفضل، فَكَيْفَ خسرنا في هذه؟! لِأَنَّنَا من المفروض أننا مؤيدون منه تعالى ومعنا رسوله؟!

نَتَذَكَّرُ قول الآية أَنَّهُ لا منّة لكم عليه سبحانه بإيمانكم، بل هو تعالى يمنّ عليكم، وَهُنَا عندما يتساءل هؤلاء عن الخسارة، وَيَسْتَغْرِبُونَ لأنهم كانوا يقولون: إن كان هذا الدين صحيحا فَيَجِبُ أن نكون مدعومين من الإله وننتصر دائما.

{قُلْ} لهؤلاء: {هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ}، المصيبة سببها أنتم، لِأَنَّكُمْ فشلتم وتنازعتم وعصيتم وهربتم... كما ورد في الآية 152 من هذه السورة.

{إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، حَيْثُ لَدَيْهِ سبحانه القدرة على فعل أي شيء يريده بأي شيء، وَلَا شك في قدرته تعالى على تحقيق النصر لكم ولو كنتم شخصا وَاحِداً ضد الملايين لِأَنَّهُ سبحانه قادر على إبادة الملايين، كشبه حالة محاولة

مدينة بأكملها إحراق النبي إبراهيم(ع)... ولكنه تعالى لن ينصر الفشلة المتنازعين الهاربين، حتى لو كانوا المؤمنين الوحيدين بدينه، فَإِمَّا أن يكون فيهم أناس بدرجة مقبولة من الإيمان فَيَثْبُتُونَ وَيَصْبِرُونَ حتى يتدخل تعالى لينصرهم، كما حصل في معركة بدر، أو إذا كانوا فاشلين متخاذلين فَلَنْ ينصرهم سبحانه وهذا ما حصل في معركة أحد.

بقي شيء، حَيْثُ في الكتب ستجد كلاما عن المماثلة بالعدد بين قتلى الكافرين وجرحاهم في بدر مع قتلى المؤمنين وجرحاهم في أحد بالعدد، يَقُولُونَ إِنَّ قتلى الكفّار في بدر سَبْعُونَ، وقتلى المؤمنين في أحد سَبْعُونَ. ولا أدري إن كان هذا صحيحا، حَيْثُ حاول البعض إحصاء الأسماء ولكن النتيجة لا يمكن أن تحلف على صدقها بسبب كثرة الروايات الكاذبة والمشوهة والمستهترة بالحقائق... على كل حال، الْمُمَاثَلَةُ في الآية ليست للعدد، بل للتشابه العمومي بين الحادثتين في وقوع قتلى وجرحى، لِأَنَّكُمْ في السابق قتلتم وجرحتم منهم وانتصرتم عليهم، وهم الآن قتلوا منكم وجرحوا وانتصروا، فَلَا تسألوا بضبابية وبتعامي: أنى هذا؟ لِأَنَّ سببه أنتم...

(وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ{166})
{وَمَا أَصَابَكُمْ}، والذي حلّ بكم من خسارة وقتل وجرح، {يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ}، يوم تلاقى جمع الكفار وجمع المسلمين في منطقة جبل أحد، {فَبِإِذْنِ اللَّهِ}، فبسماح منه تعالى حَصَلَ ذلك، لِأَنَّ السيطرة الإلهية كاملة ومطلقة، وَهُوَ سبحانه أذن وَسَمَحَ أن تصيبكم الخسارة ولم يتدخّل تعالى لتنتصروا، والسبب:

{وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ}، حتى يظهر المؤمنون الحقيقيون، لِأَنَّ كلكم كمجموعة أعلنت أنها مؤمنة، تُخْفِي في ضمنها مؤمنين حقيقيين، ومؤمنين وَسَطاً، ومؤمنين مزيفين، وبسبب ما أصابكم من خسارة تَبَيَّنَ المؤمن الحقيقي من المزيفين الذين شككوا في ربهم سبحانه ورسوله(ع)...

طَبْعاً سبحانه يعلم سلفا كل شيء وقبل حصوله، وَلْنَقُلْ أَنِّي أعلنت إيماني، وسبحانه يعلم أني مزيّف، وَلَنْ يحاسبني على الهروب من الحرب إذا لم تحصل حرب أصلا، حَيْثُ لَنْ تظهر حقيقتي إلا بعد مشاركتي في الحرب ونخسر بسببي، عِنْدَهَا ستظهر حقيقتي، وأهرب، وسيعلم تعالى أني مزيف فِعْلِيّاً، وعندها يحاسبني على زيفي. وهذا معنى "وليعلم المؤمنين" حَتَّى يصير علمه تعالى مُتَنَفِّذاً فِعْلِيَاً يَجِبُ أن يمرّ المؤمنون في امتحان.

سَيَتَكَرَّرُ كَثِيراً في دراستنا هنا كلام عن أنه لا معنى لحصول الأشياء والحكم عليها بناء على علمه تعالى بالغيب، مَا معنى أن أفتح عيني لأول مرّة في حياتي لأجد نفسي في جهنّم على أساس أنه في علمه تعالى أني سأكفر وأشرك لو خلقني في الحياة الدنيا، حَيْثُ اخْتَصَرَ تعالى كلّ ذلك ورماني في جهنّم! هل لهذا الكلام أي معنى!؟ لا، ولذلك نمرّ في المصائب، ليعلم تعالى عِلْماً فِعْلِيّاً تَنْفِيذِيّاً من سيكون مؤمنا فعلا ومن سيكفر، وقبل ذلك سبحانه يعلم سلفا ماذا سيحصل.

تَتَذَكَّرُ دَائِماً أنه تعالى لا يصنع أَفْخَاخاً للمؤمنين حتى يكفروا، لا، بل يمتحن المؤمنين لأن فيهم فسقة ومنافقين من درجات مختلفة وهؤلاء لن تظهر حقيقتهم بدون امتحان، أمّا لو كانت الجماعة التي يحصل اعتداء عليها مؤمنة من الدرجة فوق المقبولة، فلا امتحانات، وَتَدَخُّلٌ إلهي حتمي لجعل الأمور أيسر ما يمكن على المؤمنين...

(وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ{167})
مَا أصابكم من خسارة فسببه أيضا: {وَلِيَعْلَمَ}، الله تعالى، {الَّذِينَ نَافَقُوا}، الذين قالوا عن أنفسهم مُؤْمِنِينَ بينما هم في الحقيقة لم يؤمنوا، حَيْثُ سَيَظْهَرُونَ فِعْلِيّاً على حقيقتهم عندما يختبرهم سبحانه بالحرب.

لَاحِظِ الآيات لم تترك أحدا له علاقة بالخسارة إلا وتحدثت عنه، من الطاهر إلى الأقل منه وصولا إلى الكافر، ومن الذين كانوا في المعركة بكل أنواع تصرفاتهم وعقلياتهم، وصولا إلى هنا، إلى الذين بقوا في بيوتهم ولم يشاركوا أصلا، حَيْثُ ظهر بشكل واضح هؤلاء الْمُنَافِقُونَ عندما:

{وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، تعالوا وشاركوا في الحرب ويكون سلوككم يرضى عنه تعالى حتى ننتصر على الكفار ولا يحكمونا بالكفر... لِأَنَّهُمُ الْمُعْتَدُونَ الْبَاغُونَ... {أَوِ ادْفَعُوا}، فَأَبْعِدُوا العدو، فَدَافِعُوا عن أنفسكم وعيالكم وبيوتكم...

فِي الحالات العادية إنَّ الناس تشارك في الحروب لأسباب عديدة، منها للسيطرة وللاستغلال وللغنيمة أو بسبب العداوة... أَنْتُمُ الذين تقولون عن أنفسكم مُؤْمِنِينَ، تعالوا شاركونا في القتال، ولديكم سَبَبَانِ للقتال، الأول هو الصحيح، وهو قتال الكفار في سبيله تعالى لِأَنَّنَا لسنا الباغين ولا المعتدين وهم يريدون قتلنا للسيطرة علينا، والسبب الثاني: على الأقل شاركونا في قتال الكفّار حتى لا يهجموا عليكم ويقتلوكم، فَادْفَعُوا العدو عنكم وَأَبْعِدُوا القتل عن أنفسكم على الأقل، لأنكم تقولون عن أنفسكم مُؤْمِنِينَ، فمن المفروض أنكم أعداء للكفار، وسيهجمون عليكم، حَتَّى لو لم يكن عندكم نية القربى من الله تعالى في القتال، على الأقل فَلْيَكُنْ عندكم نية الدفاع عن أنفسكم.

أجاب المنافقون وَقَالُوا:

{لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ}، نَحْنُ لا نجيد القتال، ولو كنا نعرف كيف نقاتل لكنا سرنا وراءكم ولذهبنا معكم إلى المعركة.

لَاحِظْ، لَا قيمة لسبيل الله تعالى عندهم، ولا يرون أنفسهم مؤمنين معرّضين لخطر الكفّار، وَلَا يرون أنهم بحاجة للدفاع عن إيمانهم! ولا يوجد جواب غير أنهم لا يعرفون كيف يقاتلون! بحجّة أنهم غير مدربين، ولا يملكون اللياقة البدنية المناسبة، ولا الأسلحة المناسبة...

كَلَامُهُمْ يكون صَحِيحاً ولو جزئيا، ولكن من الواضح أن هذا ليس جوابا مقنعا، لِأَنَّ من يتأكد بأنه معرض للخطر، فعليه أن يقاتل بأي وسيلة، وبأي قدرات متاحة، وإلا فإنه يحكم على نفسه بالموت بسهولة أو أنه سيترك الإيمان، وهؤلاء كما ترى، لَا مشكلة عندهم بترك الإيمان، فلماذا سيقاتلون!

{هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ}، لِأَنَّ من لا يرد القتال في سبيله تعالى، ولا يرد الدفاع عن إيمانه لأنه لا يعتبر المهاجمين على المؤمنين يقصدونه، فهو أقرب للكفر من الإيمان، وَلَا مُشْكِلَةَ عنده إن انتصر الكفر، حَيْثُ سيترك الإيمان ويلتحق بالكفر.

{يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ}، بِمَا يتفوهون به، مِنْ فمهم يقولون، {مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ}، حَيْثُ يظهرون بأنهم مؤمنون، ويقولون أقوال الإيمان، وأنهم ضد الكفر، ولكن هذا ليس مطابقا لما في قلوبهم، لما في أساس تفكيرهم ونفسيتهم، لِأَنَّ في قلبهم كُرْهاً للإيمان وَحُبّاً للكفر.

{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ}، بما يخفون ولا يقولونه، لِأَنَّ هذه الجمل التي يقولونها لا تعبّر عَمَّا يريدون قوله فعلا، لِأَنَّهُمْ منافقون وسيقولون كلاما منافقا، ولن يقولوا: نحن لسنا مؤمنين ونريدكم أن تخسروا وأن ينتصر الكفّار... وهذا ما يَكْتُمُونَهُ ويعلمه تعالى.

(الَّذِينَ قَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{168})
{الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا}، الْمُنَافِقُونَ قعدوا فلم يقوموا للقتال كما أخبرتنا الآية السابقة، وهم الذين بقوا في المدينة والذين رجعوا من قبل الوصول إلى منطقة جبل أحد، وهم جماعة عبد الله بْنِ أُبَيٍّ، فهؤلاء بعد خسارة إخوانهم الذين يشتركون معهم في الدين، قالوا عنهم:

{لَوْ أَطَاعُونَا}، لو لم يذهبوا إلى القتال وبقوا معنا كما قلنا لهم، {مَا قُتِلُوا}، ما كان الكفّار أَنْهَوْا حياتهم.

لِأَنَّهُمْ أَصْلاً قعدوا ولم يساعدوهم، والآن لا يلومون أنفسهم، بل يلومون من خرج أنه لم يسمع لنصيحتهم بترك الخروج؟!

لَاحِظْ أنك تسأل: ماذا تقول للبيت بالفرنسية؟ فليس السؤال عن شيء ستقوله للبيت، بل التعبير سُؤَالٌ عن معنى كلمة بيت بالفرنسية، وهنا السؤال: ماذا قال الذين قعدوا عن الذين قتلوا؟ وَرَدَتْ نفس الصيغة في الآية 51 من سورة النساء {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً}، فراجع دراستها لترى التماثل في استعمال هذه الصيغة من الكلام.

{قُلْ}، لهؤلاء القاعدين غير المشاركين في الحرب: {فَادْرَءُوا}، فَحَيِّدُوا ولو بأي طريقة، {عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، إن كانت نصائحكم تحيّد الموت عن أحد ما، فإن كنتم صادقين بذلك فلماذا أنتم تموتون؟ حَيْثُ مهما عشتم ستموتون فأين نصائحكم التي تحيّد عن الموت؟

حِينَ يأتيكم الموت هل يمكنكم تحييده عنكم؟ لِأَنَّ من يذهب للقتال لن يموت إن لم يقرّر سبحانه موته، ولو قرر سبحانه موته فسيموت حتى لو كان قَاعِداً في بيته، وَمِنَ الواضح جدا أنكم لا يمكنكم دفع الموت عن أنفسكم حين يأتي أجلكم.

(وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ{169})
{وَلَا تَحْسَبَنَّ}، ولا يخطر ببالك ومن دون دليل، أن الأشخاص، {الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، حَيْثُ أنهى العدو حياتهم وهم شاركوا في الحرب بما يرضيه ويأمر به تعالى، لِأَنَّهُمْ لم يكونوا باغين ولا معتدين، فلا يخطر ببالك أنهم، {أَمْوَاتاً}، حَيْثُ انتهوا ولم يعد لهم أثر أو فعل.

تَذَكَّرْ ما قالته الآيات السابقة عن التحسّر على الميت، وأن هذه الحسرة مبنية على الاعتقاد بأن من مات انْتَهَى وفقد ملذات الدنيا، وكانت الآيات هناك تنبّه المؤمنين من التفكير بهذه الطريقة المشابهة لطريقة تفكير الكفّار، وهنا تردّ بنفس الكلام على المنافقين الذين يعتقدون أن من مات انْتَهَى.

{بَلْ}، هؤلاء القتلى هم، {أَحْيَاءٌ}، حَيْثُ لا يزالون في حالة فعل وتفاعل، {عِنْدَ رَبِّهِمْ}، عند المسؤول عنهم من مستوى إلهي في الدنيا ولكن في عالم غير عالمكم، {يُرْزَقُونَ}، يصير معهم الأشياء التي تظنون أنهم فقدوها في عالمكم، لِأَنَّ لديهم ما يسدّون به حاجاتهم ورغباتهم حَيْثُ يأتيهم الطعام والشراب و...

نُلَاحِظُ من القرآن، أَنَّهُ قَالَ صراحة فقط عن المقتولين في سبيله تعالى أنهم لا يموتون بل يبقون أحياء، أمّا في تراثنا الديني المنتشر بين المسلمين، فجميع الذين يموتون ينتقلون إلى ما يسمّونه بعالم البرزخ، وهو بحسب تعابيرهم عالم بين عالمنا وعالم الآخرة، ولمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 100 من سورة الْمُؤْمِنُونَ {... كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}، ويحيون هناك، حَيْثُ من كان مؤمنا سيعيش في جنّة البرزخ كما يقولون، ومن كان كافرا سيتعذّب في نار البرزخ... وهذه أمور من الصعب جدا جدا اشتقاقها من القرآن، لِأَنَّ الشيء الوحيد الصريح في القرآن أن المقتولين في سبيله تعالى فقط وفقط يبقون أحياء بعد موتهم في عالمنا، حَيْثُ يبقون في الدنيا ولكن في عالم آخر، ولدينا الكثير من الآيات التي تخبرنا عن المفاجأة التي يعبّر عنها الكفّار حين يفتحون أعينهم في الآخرة، مما يدل بوضوح أنهم لم يكونوا أحياء من بعد موتهم في الدنيا، بل فقدوا وعيهم تماما حين ماتوا في الدنيا وَأَوَّلُ ما فتحوها مرّة ثانية سيكون في يوم القيامة، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 52 من سورة يس {قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا...}.

لا أريد جعل أفكارك مشوّشة، وَلْنُرَتِّبْ هذه المعلومات بغض النظر عمّا في تراثنا، ونكتفي بما ذكره القرآن، لِأَنَّ كل الناس سيموتون، ولكن المقتولين في سبيله تعالى إِنَّهُمْ بعد موتهم بيننا لا يفقدون حياتهم، بل ينتقلون مباشرة إلى حياة في عالم آخر، وليس في الآخرة، وفي ذلك العالم يعيشون ويأكلون ويشربون ويتنقلون... بانتظار يوم القيامة. وبقية الناس عندما يموتون يفقدون حياتهم، حَيْثُ يفقدون وعيهم، وعندما يفتحونها في يوم القيامة، لَا يشعرون بمرور الزمن، حتى لو كانت فترة موتهم لمليارات السنين، لِأَنَّهُمْ بلا وعي، وعندما يقومون في يوم القيامة سَيَشْعُرُونَ بأنهم فارقوا الحياة الدنيا منذ ساعات أو أيام قَلِيلَةٍ... هَذِهِ هي المعلومات التي زودنا بها القرآن، أما غير ذلك فهو بحث في الروايات، له اختصاصه، ولا يتداخل مع دراستنا القرآنية هنا.

بقي شيء منتشر في ثقافتنا عموما ويسبّب التشويش على فهمنا للقرآن، حَيْثُ إِنَّ الدارج بين عموم المتدينين من مسلمين وأهل كتاب، استعمال تعبير: مات وانتقل إلى الآخرة. صار بالآخرة. وهذا غير صحيح، لِأَنَّنَا الآن في الدنيا، ومن مات لا يزال في الدنيا، وبعد تبدّل الدنيا ستأتي الآخرة، حَيْثُ الآن لا يوجد آخرة، لِأَنَّ الآخرة تأتي بعد انتهاء الدنيا، الآخرة في الآخر بعد الدنيا... ويكفيك هذا التنوّع في التعابير المملة بتكراري لها حتى لا تنسى ذلك، وحتى تتخلّص من كثير من التشويش في موروث ثقافتنا الدينية.

(فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{170})
المقتولون في سبيله تعالى انتقلوا إلى حياة أخرى من بعد موت جسدهم بيننا:

{فَرِحِينَ}، لديهم شعور بحالة نفسية جيّدة، {بِمَا}، بسبب الذي، {آتَاهُمُ}، وصلهم منه سبحانه، {مِنْ فَضْلِهِ}، من الأمور الجيدة التي لم تكن فرضا واجبا عليه تعالى حين منحها لهم، فما حصلوا عليه من الرزق ومن المُشْتَهَيَاتِ والمسرّات... فكلّه فضل منه تعالى وهم فرحون به.

{وَيَسْتَبْشِرُونَ}، ينتظرون شيئا سارا مفرحا، {بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ}، من المؤمنين الذين تركوهم خلفهم وراءهم وما زالوا أحياء في عالمنا فهم ينتظرون قدومهم، فالمؤمنون المقتولون سبقوهم إلى جنّة "البرزخ" وينتظرون قدوم بقية المقتولين في سبيله تعالى إليهم.

{أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ}، أن لا خوف على المقتول في سبيله تعالى، لن يشعر بأنه سيصيبه أي مكروه أو ضرر، بل يشعر أنه دائما في الأمان والراحة والسعادة، {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}، ولن يصيبهم أي شعور مزعج من فراق عالمنا، فلن يأسفوا على ما تركوه أو فارقوه في الدنيا.

بعبارة أبسط، المقتولون في سبيله تعالى في جنّة خلقها تعالى قبل جنّة الآخرة، وهم فرحون هناك، وينتظرون قدوم الذين لم يموتوا قتلا في سبيله تعالى بعد، ويستبشرون بقدومهم إلى الجنّة التي هم فيها حيث لا خوف ولا حزن.

هناك روايات عديدة اشْتُقَّتْ من آيتنا هنا مَعَانِيَ عديدة، فقالوا إنَّ الملائكة(ع) تخبر أهل البرزخ بقدوم فلان وفلان... فيستبشرون بهم... ولكن الآية على عموميتها تفيد أنهم يستبشرون لعموم من سيأتي إليهم مقتولا في سبيله تعالى، سواء كانوا يعرفونه سابقا أم لا، فاستبشارهم عامّ، ولو قارنّاها مع فكرة شعور غير المؤمنين بالحسرة على من مات لفقدانه سعادة الدنيا، سنفهم استبشار المقتولين في سبيله تعالى بمن سيموت قتلا في سبيله تعالى ويلتحق بهم إلى حيث السعادة التي تفوق سعادة عالمنا.

لِنَقُلْ إنَّ أهل البرزخ ولشدة سعادتهم في جنّتهم حيث لا خوف ولا حزن، وحيث كل ما يسعدهم يجدونه هناك... فهم صاروا يعلمون أن القتل في سبيله تعالى له نتيجة رائعة لم يعشها من لم يقتل بعد، وحين تخبرني أنت عن شخص قتل في سبيله تعالى فلن يكون شعوري بالبشارة له بجنّة رائعة في "البرزخ" سوى اعتقادي بخبر ذكره القرآن، فأستبشر له بتلك الجنّة، مع حزني على فراقه إن كنت أعرفه... ولكن الذي في تلك الجنّة يستبشر وهو يعيش ما يبشّر به، كأنه سعيد في حفلة رائعة ينتظر قدوم الآخرين إلى تلك الحفلة، وليس بالضرورة أن يعرفهم، بل يستبشر بعموم من سيكون مثله نَوَى القربى له تعالى وقاتل وقتل...

المُلْفِتُ في التوصيف أنهم سينسون كل همومهم السابقة، فنحن الآن لدينا حسابات لما بعد موتنا، وتتضمّن حزننا على أمور نعتقد أنها سَتُدَارُ بطريقة سيئة في غيابنا، وأن بعض أحبتنا يحتاجون إلينا، أو هناك ظروف حربية قتالية مخيفة سيئة جدا جدا يمرّ بها أحبة المقتول في سبيله تعالى... كل هذا وغيره، لن يؤثر على سعادة المقتول في سبيله تعالى، فربما ينقطع تماما عن أخبارهم ولشدة سعادته بتلك الجنة سينسى أصعب وأكبر مصيبة كان يعلم بوقوع أَحَبِّ أَحِبَّائِهِ بها، وربما من شدة روعة ما يجده حوله سيفهم أن المؤمن ومهما كانت مُعَانَاتُهُ في عالمنا، هي لا شيء أمام الأجر الذي يَرَوْنَ نماذج منه قبل جنّة الآخرة، وربما...

(يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ{171})
{يَسْتَبْشِرُونَ}، يتوقعون أشياء مفرحة، {بِنِعْمَةٍ} {مِنَ} {اللَّهِ}، بأشياء توصف بأنها نعمة جيدة ممدوحة تأتيهم منه تعالى، {وَيَسْتَبْشِرُونَ}، {بِفَضْلٍ}، بأشياء جيدة يحصلون عليها منه سبحانه وهي ليست فرضا واجبا عليه تعالى.

{أَنَّ} {اللَّهَ} {لَا} {يُضِيعُ} {أَجْرَ} {الْمُؤْمِنِينَ}، فالذين في حالة اعتقاد والتزام بدينه تعالى، وضمنهم المقتول في سبيله تعالى، فإنَّ لَهُمْ أجرا، بدلا حَدَّدَهُ تعالى لهم كشيء من فضله تعالى يستحقونه على إيمانهم، وهذا الأجر لن يضيع، بل سيعطينا تعالى إياه من دون أي شك، فلا يخطر ببالنا أنه سبحانه سينساه، أو سيغيّر قراره، أو سيقع خطأ ما ولا نحصل على شيء... لا، لن يضيع أجر المؤمنين.

قيل إنَّ الآية هنا تقول إنَّ المقتولين في سبيله تعالى يستبشرون بدخول جنّة الآخرة، ولكن لا داعي لهذا التفسير، لِأَنَّ سياق الكلام عنهم حيث هم في جنّة "البرزخ" ويتوقعون المزيد من النعم والفضل الإلهي.

لَوْ لم يقل سبحانه إنَّهُ سيعطينا أجرا على الإيمان، فنحن لا نستحق شيئا، حتى لو آمَنَّا والتزمنا بدينه تعالى ومتنا قتلا في سبيله، فنحن لم نقدّم خيرا له تعالى، بل آمنّا بالحق وفعلنا الصالحات وقاتلنا البغاة المعتدين، عَلَى ماذا الأجر كفرض واجب منه تعالى لنا؟! تصوّر حالة امتناني على الناس وطلبي أجرا منهم لأني لست شريرا! هَلْ هذا معقول؟ ونفس المفهوم هو عرضه تعالى علينا ما يسمّى بدينه، لِأَنَّهُ عرض للمعلومات عنه تعالى وعمّا فعله وعن قراراته، ونحن مُزَوَّدُونَ بالقدرة على رؤيتها حَقّاً صَوَاباً، فَاعْتِقَادُنَا به، وَإِيمَانُنَا ليس إنجازا ولا منّة لنا عليه تعالى أن نؤمن به، ونفس الشيء عرضه تعالى علينا الصالحات لنفعلها، لِأَنَّهَا نفسها ما نراه نحن صالحا، والتزامنا بها ليس إنجازا ولا منّة لنا عليه سبحانه أن نكون نحن صالحين.

كُلُّ ما سيعطيه تعالى للمؤمنين سواء فيما يسمّى بجنّة البرزخ للمقتولين في سبيله أو لبقية المؤمنين في جنّة الآخرة من ثواب، فهو فضل منه سبحانه، ولا يجب عليه تعالى إِعْطَاؤُنَا أي شيء، وبما أنه سبحانه وعدنا بالثواب الحسن على طاعته، وَحدّد ما يستحقّه المؤمنون، وَحدّد الأجر، فهو سبحانه أوجب على نفسه أن يعطينا الأجر، ولن يغير رأيه، ولن يمنعه سبحانه أي شيء من فعل ما يريده.

بقي شيء عن انتقال الأموات إلى عالم غير عالمنا، وَجسدهم الطيني "كربون كالسيوم هيدروجين..." يبقى هنا، والسؤال: هل يعيد سبحانه تشكيلهم من مادة أخرى فيستعيدوا وعيهم وذاكرتهم... أو هناك شيء "روح نفس جوهر هَيُولَى طاقة..." ينتقل من الميّت من هنا إلى عالم آخر ويتلبس بجسد ما من مادة العالم الآخر... أم هو ذاك العالم من مادة الروح أو الطاقة... وَالاحتمالات مفتوحة ومطروحة، وبعضها يتماشى مع مفاهيم القرآن وبعضها لا دليل عليه من القرآن، ولكن لَا واحدة منها صريحة من القرآن، فمجال البحث مفتوح على كل الاحتمالات، لِأَنَّ هذا خبر ودليل صحّته كلامه تعالى عنه، وربما يتحسّن فهمنا للموضوع إذا تطوّرت علومنا أكثر وفهمنا معنى الحياة والموت أكثر، وخصوصا إذا تمكّنا من فهم آلية إرجاع الأموات إلى الحياة، وَنحن الآن نعيد إنعاش القلب، وربما في المستقبل سنتمكن من إعادة إنعاش الدماغ... فطالما ليس لدينا كلام إلهي صريح عن آلية انتقال المقتولين في سبيله تعالى إلى جنّة في عالم آخر في الدنيا، فالموضوع مطروح للبحث وقبول مختلف الاحتمالات...

(الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ{172})
الآيات تحدّثت عن القاعدين، وعن الذين قتلوا في سبيله تعالى، والآن جاء دور:

{الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ}، فكانت ردّة فعلهم كما يريد تعالى ويريد رسوله(ع)، والكلام هنا عن الاستجابة لقتال الكفّار، {مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ}، من بعد الإصابة في الجسد والنفس، حَيْثُ هناك أناس خرجوا من المعركة وهم جرحى جسديا من الأسلحة وجرحى نفسيا من الهزيمة، ورغم ذلك اسْتَجَابُوا لله تعالى وللرسول(ع)، وَحِينَ وصلهم أمر بالاستعداد من جديد لمعركة جديدة لَبَّوْا النداء.

{لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا}، للذين من هؤلاء الناس الذين استجابوا وكان عملهم مَوْصُوفاً بأنه حسن، {وَاتَّقَوْا}، وَتَجَنَّبُوا الفعل السيّء، لَهُمْ، {أَجْرٌ}، وَهُوَ شيء حدّده تعالى أنهم يستحقونه، {عَظِيمٌ}، ليس كيفما كان أو عَادِيّاً.

دَائِماً من القرآن نرى باب الاستقبال الإلهي مَفْتُوحاً لمن حسّن سلوكه ونيته، وَفَهِمْنَا من الآيات أَنَّ المقتولين في سبيله تعالى في النموذج "معركة أحد" أَنَّهُمْ في أجر عظيم، وَتَأْتِي آيتنا هنا لتخبرنا عن باب ثوابه تعالى المفتوح دائما، وهنا الكلام مع النموذج "من بقي حيا من بعد الخسارة في معركة أحد"، وَبَدَلَ الملامة على الخسارة والتوعّد بالعقاب نفهم من الآية هنا أنهم أحياء ولا يزالون يتعرّضون لتلقّي نِدَاءَاتٍ أخرى للقتال، فإن استجابوا فلهم أجر عظيم لن يكون أقل من أجر غيرهم من المؤمنين الذين قتلوا قبلهم.

يبدو واضحا من الآية أن المسلمين كانوا لا يزالون يعانون من الجراح من المعركة الخاسرة أحد، وَتَمَّ اسْتِدْعَاؤُهُمْ من جديد لمحاربة العدو، لِأَنَّ الآية تتحدث عن الذين استجابوا للنداء للحرب من جديد بعد وقت قليل من الخسارة في أحد.

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ{173})
الذين استجابوا للدعوة للمشاركة في الحرب من جديد، هم موقع تقدير إلهي لأنهم:

{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ}، أخبروهم: {إِنَّ النَّاسَ}، وسياق الكلام عن الناس الذين كنتم تقاتلونهم، {قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ}، لِأَنَّهُمْ جمعوا المقاتلين ويريدون الهجوم عليكم مرة ثانية، ويريدون استغلال خسارتكم في أحد، واستغلال نقص عددكم، وجراحكم وشعوركم بالخسارة حتى يقضوا عليكم بهجمة أخرى، {فَاخْشَوْهُمْ}، فليكن عندكم شعور من خطر تجمّع الكفّار لقتالكم، ويمكن تجنّب ذلك الخطر بالاستسلام أو الفرار، فاهربوا أو استسلموا طالما تستطيعون تجنّب الخطر من الكفّار.

ننتبه جيدا للتعبير بالخشية، لأنه خطر يمكن تجنّبه بالفرار أو الاستسلام أو التفاوض... ولو كان التعبير بالخوف لكان قصدهم أنه خطر لا يمكن تجنّبه ولا بأي شكل، وهذا غير صحيح. وَمَا تجده في الكتب بتفسير الخوف بالخشية والخشية بالخوف هو مثال عن الفرق بين دقّة التعبير من مستوى إلهي، وبين التعبير بمستوى بشري، وكل كلمات القرآن تعابير دقيقة من مستوى إلهي، ودراستنا هذه قَطَعَتْ شوطا لا بأس به في التعرّف على دقّة معاني الكثير من الكلمات المستعملة في القرآن، وهذه الدقّة هي من أهمّ البراهين على إلهية مصدر هذا القرآن، وبالقدر القليل الذي وَصَلْتُ إليه في هذه الدراسة تبيّن الفرق الهائل بين كلامه تعالى وبين كلامنا، فكيف الحال عندما نصل إلى دقّة أعمق؟

خُذْ علما أَنَّ بقية اللغات لَدَيْهَا نفس الكلمات المتقاربة، ولا تجد في قواميسها فرقا حادا بين معانيها، ويعتمدون الترادف بينها، ولو دقّقت جيدا لوصلت في مختلف اللغات إلى جمل لا تجدها تتحمّل استبدال كلمة بأخرى يقولون عنها مترادفة، مع أنك لا تعلم لماذا لا تهضم تبديلها؟ والسبب في ذلك يعود لعادتك على استعمال الكلمات بِمَعَانٍ مطاطة "مجاز استعارة كناية..." ومحافظة ذاكرة مخزونك اللغوي على معنى "نمطي" أصلي للكلمة، طبعا ليس كلّ إنسان لديه مخزون لغوي لكل الكلمات، أمّا الإله بقدراته الفائقة، فيعبّر بدقة، ولا تخونه العبارة، وليس مضطرا لاستعمال المجاز والاستعارة... طالما هناك كلمة دقيقة للمعنى الذي يريد تعالى قوله لنا.

مِنْ بعد ما قال بعض الناس للمؤمنين عن الخشية من تجمّع الكفّار لقتالهم من جديد، {زَادَهُمْ إِيمَاناً}، أضاف الله تعالى على اعتقاد المؤمنين بدينه، أضاف تعالى اعتقادا أشدّ، مِمَّا زاد تمسكهم بالدين، {وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ}، هو تعالى معنا ولا نحتاج لغيره، نحن نحتسبه هو فقط، {وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}، وسبحانه أفضل من يسيّر الأمور كما يجب، فإن كان هناك معركة جديدة ستحصل فنحن مكتفون به تعالى ونعتقد بأنه سيسيّر الأمور على أحسن ما يكون.

(فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ{174})
بسبب اعتمادهم على ربهم سبحانه ماذا حصل؟

كَانَ الأعداء ينوون الهجوم عليهم من جديد، والآن بعد الخسارة الطازجة، وبعد الجراح النفسية والجسدية، التي حصلت منذ أيّام فإن الحسابات تشير إلى خسارة ثانية أشدّ من الأولى، ولكن بعد أن استجابوا لله تعالى ولرسوله(ع)، ماذا حصل؟

{فَانْقَلَبُوا}، انْقَلَبَتْ وَتَغَيَّرَتْ حالهم من السوء وَصَارُوا، {بِنِعْمَةٍ}، بشيء يوصف بأنه جيد مرغوب لهم وفيه مصلحتهم، {مِنَ} {اللَّهِ} {وَفَضْلٍ}، وأمور جيدة حصلوا عليها منه تعالى وليست فرضا واجبا عليه سبحانه، {لَمْ} {يَمْسَسْهُمْ} {سُوءٌ}، لم يصبهم أي شيء سَيِّئٍ، ومن التاريخ نعلم أنه أصلا لم تحصل المعركة.

يبدو واضحا من الآية أنه سبحانه تدخل ولم يجعل المعركة تحصل. وَرَجَعَ الكفار إلى ديارهم، ورجع المسلمون إلى ديارهم.

{وَاتَّبَعُوا}، وكان المؤمنون على، {رِضْوَانَ} {اللَّهِ} تعالى، فكل ما يقبله تعالى بِمَحَبَّةٍ يفعلونه، فهؤلاء المستجيبون ورغم الجراح، اتَّبَعُوا ما يرضيه تعالى، ولذلك نجّاهم سبحانه من هجوم الكفار.

لَوْ لم يستجيبوا لله تعالى ولرسوله(ع) ولم يخرجوا للقتال، لكان الكفار طمعوا بضعف المؤمنين ولهجموا عليهم مرة ثانية مباشرة بعد أحد في أي تجمّع كان.

{وَاللَّهُ} {ذُو} {فَضْلٍ} {عَظِيمٍ}، والله منسوب إليه صفة فعل الفضل، صفة تقديم أشياء جيّدة من دون أن تكون فرضا واجبا عليه سبحانه، وتقديماته سبحانه توصف بأنها عظيمة بأنها من أعلى المواصفات.

ستجد في كتب التَّوَارِيخِ أن الكفّار وبعد انتصارهم على المؤمنين في معركة أحد، ارتاحوا وقرروا الهجوم من جديد على الرسول ومن معه، حَيْثُ بعد المعركة تشرذم المؤمنون فرارا وبقي القليل منهم مع النبي(ع) في أحد مستميتين بالقتال، حتى إنَّ الكفّار لم يعد لديهم الجرأة على الاقتراب من الرسول(ع) وَابْتَعَدُوا وصاروا يرمون المؤمنين بالنبال والحجارة... إلى أن يئسوا منهم، وبعد ذلك ذهب الكفّار وأعاد المسلمون تجمّعهم... ووصلهم خبر أن الكفّار لم يتفرّقوا بعد المعركة، بل ينوون ملاحقة المؤمنين والهجوم عليهم في تجمّعهم أو الهجوم على مدينة يثرب "المعقل الرئيسي للرسول محمّد(ع)"... وهذا حصل في غضون يومين أو ثَلَاثَةٍ من بعد معركة أحد، لِذَلِكَ أمر الرسول(ع) المؤمنين بالسير لملاقاة الكفّار وذلك بالرغم من الخسارة والجراح ونقص العدد... فَانْطَلَقُوا باتجاه الكفّار... وَوَصَلَ خبرهم إلى الكفّار الذين كانوا متجمعين في مكان قريب نسبيا من يثرب، فَانْسَحَبُوا خائفين من مجموعة تنوي الانتقام بشراسة من الخسارة... وتفرّقوا وذهبت كل قبيلة إلى قريتها... ووصل المسلمون إلى مكان الكفّار فلم يجدوهم... وهكذا تَسَجَّلَتْ لهم نقطة عنده تعالى أنهم استجابوا لنداء القتال حتى من بعدما أصابهم القرح، وَتَسَجَّلَتْ لهم نقطة عند الأعداء أنهم لم يضعفوا وَهُمْ مستعدون للقتال من جديد، وهذا شيء مهمّ جدا.

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{175})
{إِنَّمَا}، حصرا وفقط، {ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ}، الذي يقوم بأعمال الضلال لنفسه وللآخرين، إبليس وأشباهه من الخبثاء، {يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ}، وَالأشخاص الذين جعلوا أنفسهم تابعين للشيطان كمرجع لهم وَيُطِيعُونَهُ، وَهُوَ يخوّفهم مِمَّا يَجْعَلُهُمْ يشعرون بوقوع الضرر الأكيد عليهم الذي لا يمكن تجنّبه من الحرب مع الكفار.

{فَلَا تَخَافُوهُمْ}، فلا تشعروا بأن الكفّار سَيَضُرُّونَكُمْ ضررا لا يمكنكم التخلّص منه، {وَخَافُونِ}، بل خافوني أنا ربكم، فاشعروا بخطر الضرر الأكيد الذي لا يمكن تجنبّه منه تعالى فقط، {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، إن كنتم فعلا معتقدين بدينه تعالى.

بعبارة أخرى، أَيُّ واحد منكم يشعر بالخوف من حرب الكفّار فليعلم أن الشيطان تَغَلَّبَ عليه وجعله يخاف، وإن كنتم فعلا معتقدين به تعالى فلا تخافوا من أي مخلوق، وخافوه هو تعالى فقط.

كَلِمَةُ خوف تعني: الشعور بضرر لا يمكن تجنّبه. والضرر الوحيد الذي لا يمكن تجنّبه هو الضرر الذي يقرره تعالى لك، وأي كائن آخر لَا يمكنه أن يضرّك إن قرّر تعالى لك السلامة، وعلى أي حال كُلُّ أضرار الدنيا زائلة بموتنا بعمرنا القصير، والدنيا زائلة وسننتقل إلى الآخرة وهناك الحكم الإلهي بالجزاء بِالنَّارِ أو بالجنة الخالدة.

بِالنِّسْبَةِ لكلمة آمن لَمْ أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الْإِسْلَامِ أي استعمال لكلمة "اعتقد وَمُشْتَقَّاتِهَا" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها "مؤمنون..." في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، حَيْثُ إِنَّ "آمن" على أصل معناها اللغوي، و"اعتقد" على معناها الاصطلاحي الدارج، كِلْتَاهُمَا تَعْنِيَانِ عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{176})
نتذكّر أن الآيات تحولت في حديثها عمن شارك في المعركة الخاسرة، إلى من لم يشارك أصلا، لِنُتَابِعْ:

{وَلَا يَحْزُنْكَ}، فلا تشعر بالضيق من الناس، {الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ}، فيدخلون في أي فرصة متاحة لهم لإنكار الدين الإلهي، فلا تحزن بسبب بعض الناس الذين كلما حصلت حادثة فإنهم بدون مهلة أو تباطؤ يذهبون في طريق الكفر، والحديث هنا عام ويشمل كل الناس غير المؤمنين الْحَقِيقِيِّينَ، حَيْثُ يَشْمَلُ الكفار العلنيين، والكفار المخفيين "المنافقين" تحت اسم الإسلام، وهم الذين كانت تتحدث عنهم الآيات السابقة من الذين يلومون إخوانهم على الخروج للحرب...

{إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً}، فمهمتك أنت كرسول هي تبليغهم رسالة ربهم سبحانه وقيادتهم بما فيه مرضاته، ولكن بعد حادثة ما، كحادثة الخسارة في معركة أحد، فهذه الناس تسرع لتأخذ موقفا غير مبني على الإيمان، فلا قيمة عندهم للقتل في سبيله تعالى، ولا يؤمنون بسيطرته سبحانه على النصر والهزيمة، ولا بسيطرته على الحياة والموت، ولا بوجود آخرة وجنّة... وهم بكفرهم لن يلحقوا الضرر به سبحانه فلن تتغيّر حاله تعالى ولا ما حوله لِلْأَسْوَإِ.

تذكّر أن هذه النوعية من الناس تعتقد أنها ألحقت الضرر به سبحانه، أو ألحقت الضرر بدينه، أو بأتباع دينه، فهم يفكرون أنهم قوة مؤثرة، فلو شاركوا في معركة أحد، لكان النصر حليف المسلمين، وَهُنَا تريد الآية أن تبين أنهم لن يؤثروا في شيء، لِأَنَّ نَتِيجَةَ الحوادث ليسوا هم من يسيطر عليها، وإن كانوا يشعرون بأنهم شيء مهم في مجريات الأحداث، فهم مخطئون، لأنهم هم أنفسهم يمشون على المخطط الإلهي التالي:

{يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الْآخِرَةِ}، الحظ هو الحصّة التي تحصل عليها ولكن من قرار اتّخذه غيرك، فأنت لا تحدّدها، وفي الحياة التي ستأتي في الآخر بعد انتهاء الدنيا هُنَاكَ ثواب ودخول للجنة، وهذا شيء لا قرار لهم فيه لتكون الجنّة من نصيبهم، لِذَلِكَ وَضَعَ سبحانه هؤلاء الناس أمام امتحان يجعلهم يسارعون إلى الكفر، لأنهم هم فعلا لا رغبة لهم بالإيمان ومنافقون، وَهُوَ مخطط إلهي حتى لا يكون لهم حظّ في دخول جنّة الآخرة.

{وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}، ففي الآخرة في نار جهنم لن يكون ضررهم سهلا، وهذا ما يريده سبحانه لهؤلاء.

(إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّواْ اللّهَ شَيْئاً وَلهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{177})
{إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ}، الذين باعوا الإيمان واستبدلوه بالكفر وَهُمْ، {لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً}، لِأَنَّ هؤلاء يفكرون بأنهم شيء مهم، وأنهم لو آمنوا وأطاعوا الرسول(ع) وشاركوا في الحرب، لحصل النصر للمسلمين، ولكانت أمور الله تعالى بخير! وَيَعْتَقِدُونَ بأن أمور الله تعالى تضررت بسببهم!

تجيبهم الآية بأنهم أبدا لا يمكنهم أن يضروه تعالى، ولا بأي شكل، بل الضرر كل الضرر عليهم هم، {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، فلهم ضرر لا يمكنهم تحمله ولا الاعتياد عليه.

مَنْ هو المتضرر من الكفر؟ الله تعالى أم هم المتخاذلون العاصون لأوامره تعالى؟

(وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْماً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ{178})
{وَلَا يَحْسَبَنَّ}، ولا يخطر ببالهم ومن دون أي دليل، {الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا الدين الإلهي ولم يؤمنوا به، وبتعبيرنا الدارج: هل يخطر ببالهم، {أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ}، فَنُعْطِيهِمْ وقتا أطول في الحياة، حين نتركهم من دون عقاب في الدنيا أَنَّهُ، {خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ}، لا، {إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ}، وَهُمْ بقوا أحياء ويعيشون بشكل عادي رغم كفرهم، {لِيَزْدَادُوا إِثْماً}، فكلما طال عمرهم زَادَ ارتكابهم لمخالفة أوامره تعالى عن قصد.

{وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}، ففي مقابل كفرهم وزيادة إثمهم لَهُمْ ضرر يشعرون فيه بالألم النفسي بأنهم بلا قيمة، بعذاب يتضمّن شعورهم بالمهانة وَالِاحْتِقَارِ.

مَنْ يعتقد بأنه يصيب ربنا سبحانه بالضرر، فهذا يستحق المهانة والمذلة.

(مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ{179})

الخسارة في معركة أحد كانت من ضمن المخطط الإلهي:

{مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ}، فليس من المفروض أن يترك المؤمنين ولا يعد له علاقة بهم، {عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ}، على حالتكم فأنتم في الظاهر: مجتمع من "المؤمنين"، ولكننا فهمنا كل شيء عن هذا المجتمع من الآيات السابقة، وَعَرَفْنَا أن فيهم كُفَّاراً أَصِيلِينَ في الكفر يتظاهرون بالإيمان، وأقل من ذلك بقليل، وَنِفَاقاً وَفِسْقاً... وَإِيمَاناً ضَعِيفاً... وَإِيمَاناً قَوِيّاً... فما كان سبحانه ليترككم هكذا لوحدكم على ما أنتم عليه من ظاهر الحال، {حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}، حتى يجعل تعالى الخبيث العاطل الفاسد، {يَمِيزَ}، يَتَمَيَّزُ وينفصل، {مِنَ الطَّيِّبِ} الجيد الصالح.

إذاً حصلت الخسارة عن تخطيط إلهي حتى لا يترك سبحانه المؤمنين الطيبين مخلوطين مع الخبثاء.

{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ}، فسبحانه لا يجعل الناس مُطَّلِعَةً على الأشياء الغائبة عنهم، وَمَا هو مستور مخفي من معلومات مستقبلية لَنْ تَرَوْهُ، لِأَنَّ خسارتكم أو ربحكم للمعركة كان غائبا عنكم، وما سينتج عن الخسارة بظهور الكفّار والمنافقين هو أيضا شيء كان غائبا عنكم فلم تعلموا به، وسبحانه كان يعلم النتيجة وما بعد النتيجة، وعادة سُبْحَانَهُ لا يخبر الناس عن هذه الأشياء.

{وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ}، من الأشخاص الذين عيّنهم لنقل كلامه تعالى للناس، يَجْتَبِي وَيَخْتَارُ من الرسل أشخاصا محدّدين ويضمهم لمجموعة الأشخاص الذين يطلعهم على الغيب، {مَنْ يَشَاءُ}، حَيْثُ أَمَامَهُ تعالى خيارات عديدة وَأَخْبَرَنَا تعالى أنه اختار أصحاب القلوب السليمة ليجعلهم رسلا للناس، واختار بعض الرسل ليطلعهم على بعض أمور الغيب.

فِي حالتنا هنا، مُحَمَّدٌ(ع) رسول لم يشء تعالى أن يطلعه على غيب خسارة معركة أحد، فلم يكن(ع) يعلم بالقرار الإلهي لخسارة المسلمين للمعركة وَمَرَّ معك في فقرة طويلة سبب قراره تعالى لحصول الخسارة... وآخرها حتى يميز تعالى الخبيث من الطيّب.

{فَآمِنُوا بِاللَّهِ}، فاعتقدوا اعتقادا صحيحا أنه الإله الربّ المسيطر الذي يجب أن تطيعوه، {وَرُسُلِهِ}، أيضا آمنوا بهم كلهم أنهم مبعوثون من عنده تعالى لتبليغكم رسالته. فهذا الرسول الذي بينكم ليس من المفروض أن يعلم الغيب، ليعلم أنه سيخسر في معركة أحد ليتجنبها... فخسارته فيها لا تعني أنه ليس رسولا منه تعالى.

{وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا}، فَتَعْتَقِدُوا بدينه تعالى وتتجنبوا السوء، وهو نفسه تجنّب غضبه وعقابه سبحانه، {فَلَكُمْ} {أَجْرٌ}، فلكم ما حدّده تعالى أنكم تستحقونه كثواب مقابل على الإيمان والتقوى، {عَظِيمٌ}، وَهُوَ لَيْسَ أجرا عاديا بل عَظِيماً ضَخْماً كَبِيراً... بكل المقاييس، من الفخامة والروعة والسعادة...

بعبارة أخرى، أَنْتُمْ لن يكون لكم اطلاع على الغيب لتعرفوا إن كنتم ستخسرون أو تربحون في الحرب، ولكن هذا ليس عاما، حَيْثُ هُنَاكَ أناس يتم إخبارهم بما سيحصل، وهؤلاء الناس من الرسل، وحتى الرسل لَيْسَ كلهم يتم إخبارهم بما سيحصل، وحتى من يتم إخبارهم بما سيجري فإنه لن يكون عامّا وفي كل الأمور. إذاً بَعْضُ الرسل يتم إخبارها أحيانا بأشياء ستقع في المستقبل، وفي حالة الرسول محمّد(ع) قَرَارُهُ تعالى كان أن لا يعلم النبي محمّد(ع) بالخسارة في معركة أحد.

أكرر لك، عَلَيْكَ أن تتصوّر نفسك في تلك المعركة، ومعك محمّد(ع) الذي تؤمن بأنه رسول يتواصل معه الإله سبحانه، وَخَسِرْتَ المعركة وقتل الأعداء رفاقك وجرحوا الآخرين بهزيمة نكراء... عندها ستفكّر: كيف يكون قائدنا رَسُولاً من الإله ولم يخبره الإله بأننا سنخسر؟! فلو أخبره لما أتينا إلى هذه المعركة، أو لوضعنا استراتيجية حربية أخرى...
وَتُجِيبُهُ الآية هنا أنه تعالى قرّر أن لا يخبر رسوله(ع) بحصول الخسارة، وأفهمتنا أنه تعالى ليس دائما يخبر رسله بالغيب.

بقي شيء نضعه دائما في أذهاننا، حَيْثُ إِنَّ الآية هنا تتحدّث عن غيب الخسارة التي ستحصل في المستقبل، ولكن كلمة غيب أعمّ من ذلك فهي تشمل كل ما غاب عنّا، سواء كان في الماضي حصل ولم نعلم به، أو في الحاضر يحصل الآن في مكان لسنا شاهدين عليه، وليس بالضرورة أن يكون بعيدا عني، لِأَنَّ مَا يحصل الآن في بيت جاري الملاصق لبيتي فهو غيب بالنسبة لي، وما يحصل في الغرفة المجاورة لغرفتي فهو غيب... وما سيحصل في المستقبل هو غيب، وسياق

الكلام القرآني يحدّد لنا إن كانت الآيات تشير لعموم الغيب أو لشيء حصل في الماضي أو لشيء سيحصل في المستقبل أو الحاضر.

لَا ننسى أن كميّة المعلومات الهائلة الناتجة عن كلّ ما حصل ويحصل وسيحصل في السماوات السبع والأرضين، لا يمكن لأي مخلوق أن يستوعبها، لِذَلِكَ فَقَطْ وفقط وفقط وحده الله سبحانه وتعالى يمكنه معرفة كل الغيب، وبقية الكائنات ومهما كانت قدراتها عالية فلا يمكنها إلا معرفة جزء ضئيل جدا جدا من الغيب، وبخصوص ما سيحصل في المستقبل يُمْكِنُ للكائنات أن تتوقّعه، ولكن لا يمكنهم أبدا ولا بأي شكل التأكّد من حصوله، إلا إذا أطلعهم تعالى على ما سيحصل.

إلى هنا لم تترك الآيات أي شيء لم تشرحه عن الخسارة، من أساس السيطرة الإلهية على النصر حيث نصر سبحانه المسلمين من قبل في ظروف كانت أصعب، وانتقالا إلى من تخاذل قبل المعركة، إلى من تذبذب في الطريق، إلى النصر في بداية المعركة، ثم للفشل والتنازع والعصيان وحبّ الدنيا، إلى المستغربين المعترضين على الخسارة رغم هروبهم من المعركة، إلى المشككين في الدين بسبب الخسارة، إلى الاستجابة للقتال مرة ثانية والجراح لا تزال تنزف، إلى القاعدين في بيوتهم يحللون أسباب الخسارة والمتحسّرين على الموتى، إلى القيمة العالية لمن مات في سبيل الله تعالى، والقيمة السيئة للقاعدين، إلى التخطيط الإلهي لتمييز الخبيث من الطيب.

يَجِبُ أن تكون لَاحَظْتَ الروعة في الحديث الإلهي العام الشامل لكل التفاصيل المهمة، بحيث لا يوجد أي فكرة لم تتم معالجتها، وتصحيح أصل خطأها.

الْآنَ ترجع الآيات إلى من كانت توجّه الحديث لهم في الأصل، وَتَرْجِعُ لأهل الكتاب كنموذج عن بقية من يفكّر أو يفعل مثلهم:

(وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ {180})

{وَلَا يَحْسَبَنَّ}، ولا يخطر ببالهم ومن دون دليل، {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ}، فما معهم من مال وطعام... هو منه تعالى، وهم لا ينفقون ويحتفظون حبّا بالاحتفاظ به، {مِنْ فَضْلِهِ}، من الأمور الجيدة التي معهم من مال وأملاك... والتي ليست فرضا واجبا عليه تعالى منحها لهم، فلا يخطر ببالهم أنه، هو "البخل" {خَيْراً لَهُمْ}، فمن يبخل ولا ينفق كما يأمره سبحانه بالصدقة على المحتاجين، فأولا هذه الأشياء أصلا ليست ملكه، وليست من قدرته الذاتية صارت معه... فهي من فضله تعالى الذي صمّمنا وخلقنا في بيئة بحيث ينتج عن ذلك أن يصير معنا ما نملكه، وثانيا فهو لا يفعل خيرا مع نفسه حين يحتفظ بالمال والطعام والأملاك لنفسه، {بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ}، فهو ضرر وشيء سيّء للبخلاء لأنهم، {سَيُطَوَّقُونَ}، سيحيط بهم، {مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، فالمال والطعام والأملاك... التي لم ينفقوا منها على المحتاجين فهي ستطوّقهم فستحيط بهم في زمن القيامة من الموت كجبال عالية من السيئات المشتعلة التي سيتعذبون بها وبسببها.

الْكَلَامُ هنا وفي كل القرآن عن الصدقة يُشِيرُ إلى قدرتك على مساعدة المحتاج للمساعدة، وإلى قدرتك على الإنفاق على الشؤون العامة الضرورية للمسلمين ولم تنفق، فهذا وهذا فقط عليه عقاب، وما نسمّيه بالصدقة المستحبّة بمساعدة الآخرين لتحسين حياتهم بأمور ليست ملحّة... فهذا لم يركّز القرآن عليه عِلْماً أنه تعالى يعطي أجرا عليه ولكن لا يعاقب على تركه.

نُلَاحِظُ من القرآن في سورتي البلد والهمزة أن من يبخل ولا ينفق فعليه نار مؤصدة في جهنم، أي تحيط به من كل الجوانب، وهنا نلاحظ نفس المعنى ولكن بتعبير الطوق في يوم القيامة.

{وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، فكل ما نجمعه ونظن أننا نملكه وسينفعنا، فإننا سنتركه ونموت، ويرثه ربنا سبحانه، فحتى هذه الملكية الاعتبارية التي من خلالها نعتقد أننا نملك بها هذه الأشياء في الدنيا، فبعد موتنا نتركها لمالكها الأصلي، نتركها لله تعالى، ولسنا نحن فقط سنفقد ما كان معنا، بل كل من في السماوات والأرض كان معه شيء ما حَصَلَ عليه من فضله تعالى، فسيتركه وَلَنْ يَعُودَ ملكا له في الآخرة وسترجع الملكية لمالكها الأساسي سبحانه.

لَاحِظْ أن هذا تشجيع لنا على الإنفاق، فطالما أننا سنموت ولن نستفيد مما جمعناه بل سيضرنا إن لم ننفق منه، فلننفقه كما أمرنا سبحانه، طبعا ننفق بشكل لا يجعلنا نحن بحاجة للمساعدة كما ورد في الآية 29 من سورة الاسراء {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً}.

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}، فلديه سبحانه أخبار وتفاصيل كل ما نعمله ونقوم به. فمن أنفق يعلم به تعالى، ومن بخل فيعلم به تعالى، ويعلم بالكمية التي أنفقها، وبنفسيته وبظروفه... وعلى هذا الأساس سيحاسبه.

مِنْ هذه الآية تدخل السورة في الحديث مع كل الناس ومع أهل الكتاب بشكل خاص، لتتحدث عن نفسية أشخاص لم يقتنعوا بالدين الإلهي لأنه يأمرهم بالصدقة، وإليك تكملة الحديث، فلنتابع:

(لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ{181})
{لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا}: {إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ}، فهناك أشياء يحتاجها ولا يملكها، {وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ}.

فهم يسخرون من النبي(ع) ومن الدين الإلهي! فيقولون: ما هذه السخافة؟ أيأمرنا ربنا بصرف أموالنا التي تعبنا في تحصيلها على الفقراء؟ أهذا ما يقوله دينكم؟ فإن كان هذا الكلام صحيحا، فإن الله فقير، ليس معه المال ولذلك لم يعط المحتاجين للمساعدة، ونحن أغنياء وَيَطْلُبُ منا نحن مساعدة المحتاجين؟

الجواب على كلامهم مَرَّ في الآية السابقة فسبحانه من فضله آتاهم الغنى، ومن الواضح أنهم سيموتون ويرثهم تعالى، فكيف يَكُونُونَ أغنياء ويكون المالك الأصلي الذي منحهم ما يملكونه فقيرا!

{سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا}، عن فقر الله تعالى، فهذه السخرية وهذا الاستهزاء بالساحة الربوبية العليا هو ذنب مضاف إلى ذنب البخل، فسيسجّله في كتاب أعمالهم.

{وَ}سنكتب، {قَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ}، إنهاءهم لحياة الأشخاص الذين وصلهم النبأ منه تعالى، فهذه النوعية من الناس، بهذه العقلية الساخرة المستهزئة بربها سبحانه وتعالى، وَالْمُسْتَهْتِرَةِ بأنبيائه، فهي نفسها العقلية التي جعلت الناس من قبلهم يقتلون الأنبياء لأنهم أمروهم بطاعة الله تعالى، وَقَتَلُوا الأنبياء، {بِغَيْرِ حَقٍّ}، فلو قام نبي ما بقتل نفس بريئة لكان يحقّ لهم قتله، ولكن الأنبياء لم يفعلوا أي شيء حتى يقتلوهم.

نلاحظ إدراج موضوع قتل الأنبياء سابقا مع موضوع الناس البخيلة عن الصدقة والمستهزئة، لأن العقلية هي واحدة مشتركة بين من بخل وقتل، وبين من بخل في عصر نزول هذا القرآن فلو استطاع لقتل النبي محمّد(ع) ليتخلص من مواعظه.

{وَنَقُولُ}، فيقول سبحانه في يوم القيامة وما بعده للبخلاء المستهزئين ولقتلة الأنبياء: {ذُوقُوا}، تحسسوا والمسوا، {عَذَابَ الْحَرِيقِ}، فلن يكون ضَرَراً وهميا أو بسيطا، لا، فستشعرون بالنار لدرجة أن جسمكم سيحترق.

حَوَادِثُ قتل الأنبياء والمؤمنين قليلة عبر التاريخ قياسا مع عدد كل الناس، وقياسا مع الحروب التي خاضها مختلف الناس وقتلت الملايين... وفرضا لو حدثت مرّة واحدة، فقتل قوم ما نبيا واحدا، فهذا يكفي حتى يكون نموذجا لا يمرّ عليه تعالى بالنظر للعدد "واحد"، لا، فهذا الواحد أهمّ عنده تعالى من المليارات، وسيذكره تعالى في كلامه كنموذج لأبشع ما يمكن أن يفعله الكافرون بآياته تعالى. والمشهور بين الناس أنهم قتلوا النبيين يحيى (ع) وزكريا(ع)، وليس لدينا في القرآن أي تسمية أو ذكر لحادثة جرى فيها فعلا قتل نبي إلا محاولتهم قتل النبي عيسى(ع)، ولدينا في التاريخ كلام عن محاولات اغتيالهم للنبي محمّد(ع) وقبله محاولة اغتيال للنبي داوود(ع) وللنبي سليمان(ع)، فربما لم يتحقّق فعلا قتل لأي نبي عبر التاريخ ولكن صار موصوفا من حاول قتلهم بأنه قاتل للأنبياء بالرغم مِنْ منعه تعالى من حدوثه، وَرَاجِعِ استعمال العرب والقرآن لكلمة "قتل" ومشتقاتها وسترى أن المباشرة بأي عمل بقصد إنهاء حياة الآخر فهو قتل حتى لو لم يتحقّق.

إنْ خطر ببالك أن التعبير بقتالهم المؤمنين سيعطي بشكل أصرح المعنى الذي ذكرناه، فكلامك صحيح ولكن من تبعات هذا التعبير أن يكون القتال من الطرفين، وهذا معنى لا تريد الآية قوله.

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ{182})
{ذَلِكَ} التعذيب بالحريق، {بِمَا}، بسبب الذي، {قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ}، كما نقول إِنَّكَ قَدَّمْتَ لي الطعام، وَهَؤُلَاءِ قدّموا بِأَيْدِيهِمْ بأنفسهم لأنفسهم أعمالا سيئة، حَيْثُ قتلوا الأنبياء، وبخلوا ولم يتصدقوا... وأخرّوا الأعمال الحسنة فلم يقوموا بها، بِأَيْدِيكُمْ وَبكامل إرادتكم وبتنفيذ منكم ارتكبتم الأعمال السيّئة، ولذلك أَنْتُمْ تستحقون الحريق.

{وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ}، ليس بكثير ولا بقليل الظلم، {لِلْعَبِيدِ}، للذين مفروض منهم طاعته، لِأَنَّ هذا العذاب الضخم هو العذاب الذي يَسْتَحِقُّونَهُ فعلا، وَهُوَ العدل والإنصاف لهم وليس فيه أي ظلم.

لِلتَّوَسُّعِ في معنى كلمة عبيد راجع دراسة الآية 15 من هذه السورة.

انْتَبِهْ ولا تقع في خطأ من قال إنَّ ظلّام صيغة مبالغة تفيد نفي الكثرة، ولا تنفي القلة، وَإِنَّ نفي كثرة الظلم هنا في الآية لا ينفي الظلم القليل! حَيْثُ بعضهم قال مفسرا أنه سبحانه وتعالى يمكن أن يظلم قليلا! مع العلم أننا لدينا آيات تقول بصراحة ووضوح أنه تعالى لا يظلم أحدا ولو بمقدار ذرة، وتقرأ هذا صريحا في الآية 49 من سورة الكهف "وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا"، وكما تقرأ في الآية 54 من سورة يس "فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ"، والأكثر وضوحا وصراحة وبشكل مباشر ما نقرؤه في الآية 40 من سورة النساء "إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا..."، لِذَلِكَ لَا يظلم ربنا سبحانه أي مخلوق، بل يعطيه حقه ولو كان أصغر من حبة رمل، ويعاقبه ولا يزيد عليه في العقاب وَلَا يضربه ولو بحبة رمل زيادة عمّا يستحق.

عِلْماً أَنَّ الآية هنا لا تتحدث عن هَذَا الموضوع أصلا! بل تتحدث عن ظلم قليل إن عاقبتك بضربتين بعدما ضربتني ضربة واحدة، وظلم كثير إن كسرت لك عظامك وقتلتك في النهاية لأنك صفعتني على وجهي مرة واحدة، فَأَنَا ظَلَّامٌ في معاقبتك، فَهَلْ رمي البخلاء عن دفع الصدقة، وَقَتَلَةِ الْأَنْبِيَاءِ في عذاب الحريق في جهنم، بحيث يحترق جسمهم فعليا، ولكنهم لا يموتون، ويبقون في حالة الاحتراق، هَلْ هو ظلم كبير؟ مَنْ قتل نبيا، فليقتلوه كما قتل، ومن بخل فليبخلوا عليه كما بخل، لا، لِأَنَّ العقاب العادل هو حرقهم بالنار بشكل فظيع خالد، وهذا ليس ظلما كبيرا لهم، بل هو ما يستحقونه بالضبط، ولذلك استعملت الآية التعبير "بظلّام" لتشير إلى المبالغة فيما فعلوه وأن عذابهم الشديد ليس مبالغة في جزائهم.

انْتَبِهْ عزيزي، إنْ لم تكن من تلك النوعية "بخيلا مستهزئا قاتلا للأنبياء..." فأنت لا تعرف نفسيتهم، وربك سبحانه أخبر بنفسيتهم المجرمة، وهم يستحقون هذا العقاب الكبير، وإن كنت أيها القارئ واحدا من تلك النوعية من الناس، فحتى لو اعترضت على العذاب، وأقنعت نفسك بأنه مبالغ فيه وغير واقعي، فهذا شأنك، ولكن خذ علما أَنَّ هذا سيحصل، ورأيك فيه لن يغير أي شيء، وَيُمْكِنُكَ أن تقول ما تشاء، لِأَنَّ كُلَّهُ سيتم إضافته فوق سيئاتك.

نَحْنُ نؤمن بأنه تعالى حكيم ونؤمن ببقية صفاته الحسنى، ونؤمن بما يقوله عن نفسه في هذا القرآن والمؤيد بآيات كبراهين وحجج لنرى صدقها، لِأَنَّ تعذيبه تعالى لهؤلاء له سبب حتى يكون شديدا خالدا، ومنه بالتحليل شبه الصريح ما تجده في الآية 28 من سورة الأنعام "بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ"، لَوْ أبقاهم تعالى أحياء في الدنيا خالدين لما تغيّروا عمّا هم عليه، ولو كان هناك أمل بتغيّرهم نحو الأحسن عندها لن يميتهم سبحانه قبل ذلك، وبناء عليه لن يعترضوا في الآخرة ويقولوا إنَّ العذاب أشدّ مما يَسْتَحِقُّونَ، لأنهم سيرون أنه دقيق بقدر ما كسبوه بأيديهم.

(الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{183})
{الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا}، ترك عندنا شيئا، فأمرنا أَنْ {لَا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ} {حَتَّى يَأْتِيَنَا} "الرسول" {بِقُرْبَانٍ}، بشيء يقرّبه وَيُقَدِّمُهُ إلى الله تعالى، {تَأْكُلُهُ النَّارُ}، فتنزل نار من السماء لتأكل القربان، وَكَتَبْرِيرٍ لكفرهم بالرسول محمّد(ع) يقولون إِنَّهُ تعالى نَبَّهَنَا أَلَّا نؤمن بأي شخص يقول عن نفسه إِنَّهُ رسول إلهي حتى نرى بأعيننا أَنَّهُ قدّم قربانا

لله تعالى، فَيَذْبَحُ كَبْشاً أو عِجْلاً... وتنزل نار من السماء تحرق الحيوان المذبوح كعلامة على صدق تواصل ذاك الشخص مع الإله سبحانه. قُمْ يا محمد(ع) بتقديم قربان، وإن نزلت نار من السماء وأكلت القربان، فأنت رسول حقيقي، وإن لم تفعل فأنت لست رسولا إلهيا.

{قُلْ}، عبر هذا القرآن لهم: {قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ}، أشخاص ناقلون للكلام الإلهي من قبلي جَاءُوكُمْ بالأشياء الواضحة التي تدل على رسالتهم، {وَبِالَّذِي قُلْتُمْ}، حَيْثُ قدم البعض منهم قربانا وأكلته النار، أو فعلوا أمورا خارقة للعادة، {فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ}؟ لِمَاذَا أنهيتم حياة هؤلاء الأشخاص، {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}؟ هَلْ فعلا تؤمنون بالرسول الذي يأتيكم بقربان أو بشيء غير عادي؟ لِمَاذَا في تاريخكم قتلتم أشخاصا جَاءُوكُمْ بقربان وأكلته النار، أو جَاءَكُمْ بشيء واضح يدل على أَنَّهُ رسول؟ لِأَنَّ كلامكم أَصْلاً غير صحيح، وَلَا يوجد عهد بهذا الشكل من ربنا سبحانه لكم، حَيْثُ حَصَلَ فعلا أن قام بعض الرسل بتقديم قرابين أكلتها النار، أو بفعل أمور غير عادية وَقُمْتُمْ بقتلهم؟

نَعْرِفُ من القرآن تكذيب هذه النوعية من الناس للرسول موسى(ع) وللرسول عيسى(ع)، ونعرف الآيات البيّنة "الواضحة" المشهورة التي قام بها هذان النبيان، ونعرف أن كِلَيْهِمَا تَعَرَّضَا لمحاولة القتل من الناس الذين كانوا يقولون عن أنفسهم مُؤْمِنِينَ! لِأَنَّ هذه النوعية من الناس عقليتها واحدة، فَهُمْ لا يريدون الإيمان بالشكل الصحيح كما أمرهم سبحانه، وَيُرِيدُونَ دينا يتماشى مع هواهم السيّء ومستعدون لقتل أنبيائه ورسله!

(فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ {184})
{فَإِنْ كَذَّبُوكَ}، وَهَذَا ليس بشيء جديد، {فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ}، لِأَنَّكَ لست أوّل رسول تكذّبه الناس حَيْثُ من قبلك جاء للناس رسل ولم يصدّقوهم بأنهم رسل منه تعالى، تلك الرسل {جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ}، قدّموا للناس الأشياء الواضحة التي تدل على إرسالهم من ربنا سبحانه، وَسَيَخْطُرُ ببالنا قيامهم بما نسميه بالمعاجز، وهذا شيء ذكرته الآية السابقة وهنا تكملة الجملة يشير إلى أصل وأساس ما يَعْرِضُونَهُ علينا لنؤمن ونلتزم به، لِأَنَّهُمْ يعرضون الحقّ والصلاح، وهذا ما تقصده الآية {بِالْبَيِّنَاتِ}، بالواضحات على أنهم رسل من الإله لأنه لا سوء فيما يقولونه بل كله خير وهذا لوحده كَافٍ حتى يؤمن بهم الناس.

وَجَاءُوا {وَالزُّبُرِ}، بالكلام المكتوب، حَيْثُ نزل عَلَى بعض الأنبياء وحي وكتبوه، وصار بين أيدي الناس مكتوبا، مثل كتب آدم وشيث وإدريس وداوود وَيَحْيَى... عليهم السلام. "ومثل التوراة"، لِأَنَّهَا وثائق بين أيدينا وقراءتها ترينا أن مصدرها إلهي.

وَجَاءُوا {وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ}، وَهُوَ الشَّيْءُ ذُو المواضيع التامة الذي يضيء طريق الهداية، مثل التوراة والإنجيل. وسياق الكلام يشير لكتب فيها أساسيات العقيدة والشريعة كاملة، حَيْثُ تَخْتَلِفُ عما نسميه {الزُّبُرَ} كوصف لعموم ما هو مكتوب ويشمل الكتب الإلهية "التوراة والإنجيل" إن كتبها الناس. مِمَّا يَجْعَلُ الكلام عن وصفين، وصف لعموم ما هو مكتوب "مزبور" كَوَثَائِقَ ملموسة، ووصف لعموم ما هو مواضيع تامة "كتاب" سواء أكان مزبورا أم لا، كحالة التوراة المكتوب على الورق، والإنجيل الذي لم يُكْتَبْ بإملاء من النبي عيسى (ع) على الورق، لِذَلِكَ هُوَ كتاب غير مزبور.

يَا أيها الرسول محمّد(ع) لا تستغرب إن كذّبوك، لِأَنَّ هذه عادات هذه النوعية من الناس وليست شيئا جديدا.

(كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ {185})
{كُلُّ نَفْسٍ}، كل واحد من الناس، ومن دون أي استثناء، {ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}، فسوف تذوق وَتُحِسُّ بفقدان الحياة التي في هذا الجسد، فكلنا سيموت جسدنا مهما عشنا، وحتى الْمَقْتُولُونَ في سبيله تعالى، فَذَاقُوا الموت بجسدهم بيننا قبل الانتقال إلى ما نسميه بعالم البرزخ...

{وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ}، ففقط تحصلون بالتمام على، {أُجُورَكُمْ}، على مقابل أعمالكم التي حدّدها تعالى أنكم تستحقونها في، {يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، في زمن القيام من الموت. فهذا هو الموضوع الأساسي الذي يجب أن تنتبهوا له كلكم أيها الأحياء. فكلّكم ستموتون وفي يوم القيام من الموت ستحصلون بالتمام على ما حدّده تعالى كمقابل على ما عملتموه.

{فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ}، فأزاحته أعماله عن دخول النار ولو بمقدار بسيط تمت تنحيته عن النار، {وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ}، فأدخلوه إلى الجنّة، ولو بأقل درجة فيها، {فَقَدْ فَازَ}، فَحَصَلَ على شيء يرغب به ويطلبه وله قيمة حقيقية.

مَنْ كان أجر أعماله لا يكفي لإبعاده عن النار، وسقط فيها، ولو في أقل درجاتها، فهو في مصيبة كبيرة، ومن نجا من النار ولو على الحافة، وَذَهَبَ إلى أقل درجة في الجنة فهو في نعيم كبير، لأن أقل درجة في النار هي مصيبة كبيرة، فالعذاب فيها يستمر لملايين ومليارات السنين... وأقل درجة في الجنّة أروع من كلّ روائع الدنيا.

{وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}، فليست الحياة التي نعيشها الآن، {إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}، فهي انتفاع واستفادة مما فيها للغرور لمن يغتر بها، فتغرّه شهواتها وزينتها وَيَتَعَلَّقُ بها ويظن أنه لا فرحة أكبر من فرحتها... ولكنها في الحقيقة لا شيء حتى أمام أقل درجة في الجنة.

لَا تغتروا بالدنيا بشهواتها وملذاتها السيئة، واعملوا على دخول جنة الآخرة، فإن أقل درجة فيها فوز.

نُلَاحِظُ أَنَّ القرآن يصف ما في الدنيا بأنه متاع، ولا يصف ما في الآخرة بالمتاع، وهذه إِشَارَةٌ للفرق بين ما نجده في الدنيا من استفادة لسد حاجاتنا ورغباتنا، أمّا ما في الآخرة فهو ليس لسدّ الحاجة حتى لا نتضرّر بل حصرا للسعادة والفرح، فلا تأكل لتسدّ جوعك وإن لم تأكل تموت، بل تأكل لتستلذّ بالطعم الطيّب، ولن تشعر بأي انزعاج أو ضرر إذا أكلت كميات كبيرة...

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ{186})
{لَتُبْلَوُنَّ}، سَوْفَ يصيبكم شيء من المحتمل أن يُغَيِّرَكُمْ، وَسوف تمرون في الاختبار والامتحان وسيكون، {فِي أَمْوَالِكُمْ}، حَيْثُ نأمركم بِالْإِنْفَاقِ منها في سبيله تعالى، وسوف تتعرّض مصالحكم الاقتصادية للضرر بسبب أذية الكفّار لكم... وَ{لَتُبْلَوُنَّ}، {فِي أَنفُسِكُمْ}، حَيْثُ نأمركم بالقتال في سبيله تعالى، وسيصيبكم ضرر نفسي وجسدي من أذية الكفّار لكم، وَبعضكم يَقْتُلُونَهُ وبعضكم يُجْرَحُ أو يُضْرَبُ أو يُؤْسَرُ...

{لَتَسْمَعُنَّ}، سَوْفَ تسمعون كلاما، {مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، من الناس الذين أعطاهم سبحانه كتابا من عنده من قبل أن يعطيكم القرآن، وهم اليهود والنصارى حَيْثُ آتاهم سبحانه كتابي التوراة والإنجيل قبل أن يُؤْتِيَنَا القرآن، وَسوف تسمعون أيضا، {مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا}، من الناس الذين جعلوا لله تعالى شركاء في الألوهية، سوف تسمعون، {أَذًى كَثِيرًا}، أشياء كثيرة مؤذية، وَيسخرون من دينكم، ومن نبيّكم، وبالتحديد سَيَسْخَرُونَ من قيامكم بالصدقة على المحتاجين، ومن خسارتكم وموت البعض منكم في الحرب...

{إِن تَصْبِرُوا}، فَتَبْقَى تصرفاتكم وَاعِيَةً وَمَدْرُوسَةً عند البلاء وعلى الأذية من أهل الكتاب والمشركين، فَهِيَ أذية غير مستمرّة، وَ{إِن}، {تَتَّقُوا}، فَتَتَجَنَّبُوا وتتحاشوا الأعمال السيئة التي تسبب غضب وعقاب ربكم سبحانه، {فَإِنَّ ذَٰلِكَ}، الصَّبْرَ وَالتَّقْوَى هما، {مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}، وَمن بين الأمور المختلفة، كالقوة والثبات والجهد والعبادة والقتال... إِنَّ الصبر والتقوى من بين تلك الأمور هما عزم حقيقي، هما من الأمور الشديدة جدا، لِأَنَّهُمَا يحتاجان لقوة إرادة صلبة.

هُوَ مدح إلهي لمن اتقى وصبر، وَشَبَّهَهُ بمدحنا نحن لشخص حين نقول له: يا بطل. وَهنا الكلام نفس الشيء، لِأَنَّهُ وصف إلهي للمؤمنين كمدح لهم بأنهم أصحاب عزم.

(وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ{187})

{وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ}، التَّأْكِيدَ الشَّدِيدَ الذي لا تهاون وَلَا تَرَاخٍ فيه، أخذه تعالى من، {الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، من الذين صار عندهم منه تعالى كِتَابٌ كالتوراة والإنجيل، وَأَخَذَ سبحانه تَأْكِيدًا شَدِيدًا منهم أن: {لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ}، فَتَجْعَلُونَهُ واضحا للناس، وَلَا تتلاعبوا بمعانيه ليصير الحلال حراما، والحرام حلالا، {وَلَا تَكْتُمُونَهُ}، فَلَا تخفونه، وَتَحْذِفُونَ منه أشياء، أو تُخْفُونَ منه أشياء عن الناس، وَهَذَا كان التأكيد الإلهي عليهم، {فَنَبَذُوهُ}، فَتَرَكُوا الكتاب ولم يهتموا به، {وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ}، وَلَمْ يكن أمامهم كمصدر معتمد لتنفيذ ما فيه، {وَاشْتَرَوْا بِهِ}، بالكتاب، {ثَمَنًا قَلِيلًا}، حَيْثُ تخلوا عن الكتاب وَبَاعُوهُ بثمن قليل لا يساوي قيمة المحافظة عليه واتّباعه، {فَبِئْسَ}، فَتَعِسَ ويا لسوء، {مَا يَشْتَرُونَ}، لِأَنَّهُمْ باعوا الكتاب ذَا القيمة العالية وحصلوا على أشياء قيمتها قليلة جدا، من الجاه والمال والسيطرة والشهوات... فَمَا قيمة هذه الأشياء أمام كتابه تعالى؟ فَيَا لتعس ويا لسوء هذا الاستبدال لكتاب الله تعالى بهذه الأشياء التافهة التي اشتروها.

تذكّر دائما أن الميثاق الإلهي مع المؤمنين هو طرح الدين الإلهي عليهم على أساس أن الدين الإلهي لا يتحمّل التراخي أو التهاون به، فَلَا مجال لحمل صفة المؤمن أو المتدين بدينه تعالى مع تَرَاخٍ في الإيمان أو الدين، وَهَذَا هو الميثاق، الشيء المؤكّد، وهنا وفي عموم استعمال القرآن لكلمة ميثاق، لَا تتصور أنه تعالى قال لهم... وقالوا له أنهم سَيُبَيِّنُونَ الكتاب... لا، لِأَنَّ الْكِتَابَ بما فيه من كلام إلهي، لَا يتحمّل في نفس الوقت الإيمان به وتحريفه أو كتمانه أو بيعه، وهذا معنى الميثاق، فَمَنْ وصله الكتاب صَارَ تحت شيء شديد لا تهاون ولا تَرَاخٍ فيه، فَيَجِبُ التعامل بكل احترام وأمانة مع الكتاب الإلهي.

(لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{188})

{لَا تَحْسَبَنَّ}، لا يخطر ببالك ومن دون دليل أَنَّ، {الَّذِينَ يَفْرَحُونَ}، الذين يشعرون بحالة نفسية جيّدة، {بِمَا}، بسبب ما، {أَتَوْا}، بما قاموا من أعمال، من تشويش وكتم وبيع للكتاب، {وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا}، وَهَؤُلَاءِ يحبون أن يحمدهم ربهم سبحانه ويحمدهم الناس فَيَمْدَحُونَ عملهم على أشياء حميدة وفي الحقيقة هم لم يفعلوها! لِأَنَّ الذي يستحق الحمد هو من قام بِشَيْءٍ حَمِيدٍ، شَيْءٍ جيد، وهو الذي حفظ الميثاق معه تعالى عبر تبيان الكتاب وإظهاره، ولكن أين العمل الجيد الذي قام به هؤلاء؟ بعبارة أخرى، إِنَّهُمْ يعتبرون ما قاموا به حميدا! ويحبّون أن يُحْمَدُوا عليه! ولكنهم أصلا لم يفعلوا الشيء الذي يستحق الحمد!

قارنها مع الذين تراهم في عصرنا يبثّون الفرقة بين المسلمين، حَيْثُ إِنَّهُمْ علنا وصراحة يخالفون أوامره تعالى بالوحدة، وفوق ذلك يتوقّعون أن يحمد لهم تعالى أفعالهم! ويتوقّعون أن يحمدهم الناس! على أساس أنهم يحافظون على دينه تعالى ويصحّحون عقيدة وشريعة الناس! ويجعلون الناس على المذهب الحقّ! ولولاهم لَفَرَطَ الدين وضاع مذهب الحقّ!

مِثْلُهُمُ الذين يتحدثون عن أمور كاذبة يلصقونها بالدين ليبدو الدين الإلهي عظيما! كالإعجاز العلمي في القرآن من الإعجاز الطبي والعددي والرياضي والفلكي... بينما هو الدين الإلهي عظيم، وعملكم ليس ممدوحا لِأَنَّكُمْ تكذبون وتجعلون من دينه تعالى سخرية أمام العقلاء الذين يرون كذبكم...

{فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ}، لَا يخطر ببالك من دون تفكير، أنهم {بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ}، حَيْثُ إِنَّ الآية 185 قالت إِنَّ من زُحْزِحَ عن النار وأدخل الجنة فَقَدْ "فاز"، وهؤلاء التاركون لميثاق ربهم سبحانه، الفرحون بتزوير الكتاب، الطالبون أن نحمدهم، وَهَذَا شعورهم هم، وهذا ما يَحْسَبُونَهُ هم، ولكن في الحقيقة إِنَّهُمْ ليسوا بمفازة من النار، لِأَنَّ الفوز بالجنّة وهم لن يفوزوا بالنجاة بدلا من دخولهم النار، {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، وَلهم ضرر لا يمكن تحمله ولا الاعتياد عليه.

(وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللّهُ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{189})

انتهت السورة من النماذج العاطلة من هذه النوعية من أهل الكتاب، وتختتم موضوعها بالنماذج الحسنة، وتبدأ بهذه المقدمة:

{وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، فَصَاحِبُ هذا الاسم الْمُحَدَّدِ الْمُمَيَّزِ "الله" جلّ جلاله مَنْسُوبٌ له كل شيء، بالتصميم والخلق والمتابعة والإدارة "التدبير"... وَ{اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، فَلَدَيْهِ القدرة على فعل أي شيء يريده بِأَيِّ شيء.

التَّعْبِيرُ بالسماء يشير لعموم ما عَلَا "معنويا" أو من فضاء أو غيره، وَتُقَابِلُهُ أَرْضٌ لعموم ما كان تحت، فَلَا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إِلَّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، فَعُمُومُ أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فَهِيَ أَرْضٌ، وَلِذَٰلِكَ ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...} وَهِيَ إشارة إِلَى وجود سبع أَرَضِينَ مقابل سبع سماوات وَلَمْ تَقْصِدْ وجود أرض "كوكب" أو أَرَاضٍ "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فَهُوَ أرض، فَكَوْكَبُنَا الترابي أرض بالنسبة لسمائنا، ومثله سطح القمر فَهُوَ أرض لسمائنا، وسطح المشتري الغازي أرض لسمائنا... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أَرَاضٍ.

سُبْحَانَهُ يرى نفسه من جهة ولا يرى أمامه من جهة ثانية إلا السماوات والأرض، التي خلقها هو، فَهَذِهِ هي كل حدود دنيا المخلوقات، وبناء عليه يخبرنا وبكل شفافية أنه الإله الأحد لأنه لم يلمس أَثَرًا لأي قوة يمكنها منعه من فعل ما يريد، فَالْبَقِيَّةُ كلهم مخلوقات، ويخبرنا تعالى مما يراه ويلمسه من قدرته على فعل أي شيء يريده بالسماوات والأرض.

انْتَبِهْ، عِنْدَمَا أقول لك: أكلت القارب المصنوع من الخشب، وتركت لك المسامير لتأكلها، وبعد ذلك سنشرب ماء البحر كله في خمس دقائق... أو عندما أقول لك: البارحة شاهدت التلفاز من أذني حيث كانوا يلعبون كرة القدم وَغَدًا كسروا لي الشاشة... هَذَا كلام فارغ، لِأَنَّهَا كلمات صحيحة إِنْ أُخِذَتْ كل واحدة منها لِوَحْدِهَا، ولا مشكلة فيها، ولكن ترتيبها لا معنى له، وكذلك سخافة من يقول: طالما الله على كل شيء قدير فَهَلْ يمكنه أن يجعل لنفسه شَرِيكًا؟ وهل يمكن أن يجعل الدائرة مربعة، وتبقى في نفس الوقت دائرة؟ وهل يمكنه سبحانه أن يحشر الدنيا في بيضة دجاجة، من دون أن يَكْبُرَ حجم البيضة ولا أن يَصْغُرَ حجم الدنيا؟... هم يقصدون أنه توجد أشياء لا يقدر تعالى عليها، وهذه أصلا ليست أشياء، بل هذه جمل لا معنى لها، بل أكثر من ذلك، وَبِعَقْلِنَا الصغير المحدود كيف سنفهم هذه الأمور إن حصلت فعلا؟ وَعِنْدَمَا يتفلسف أحد ما عليك، وتقول له إِنَّهُ تعالى يقدر على كل شيء، وحتى على هذه الأشياء، فَيَقُولُ لك المتفلسف: كيف؟ أرني. وأنت أَصْلًا لا علاقة لك بالموضوع حتى تريه أو تشرح له كيفية إمكانية ذلك! وحتى الشخص المتفلسف لا يمكنه أن يفهم كيفية حدوث ذلك، لأنه أَصْلًا يقول جُمَلًا لا معنى لها حتى بالنسبة له! وهي مجرد صفصفة كلام فارغ.

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ{190}))
{إِنَّ فِي خَلْقِ}، في تأليف وَتَرْكِيبِ، {السَّمَاوَاتِ}، السبع، {وَالْأَرْضِ}، فَكُلُّ سماء يقابلها أرض أو أَرَاضٍ، ولكن الكلام معنا، فَعَادَةً يختصر القرآن الإشارة لبقية الأراضي ويعبّر بطريقة نفهم منها الإشارة إلى أرضنا، لأن الكلام معنا.
سماؤنا وأرضنا خَلَقَهَا وَرَكَّبَهَا وَأَلَّفَهَا سبحانه، ومعطياتنا الحالية تشير لتألفها من المواد التي نعرفها والمسمّاة فِي الجدول الدوري للعناصر من حديد ونحاس وَأَلُمِنْيُوم وسيليكون... ويوجد غيرها ست سماوات، وَهِيَ مؤلفة من مواد لا نعرفها.

{وَفِي}، {اخْتِلَافِ}، تعاقب، {اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}، فَيَذْهَبُ الليل ويخلفه النهار، ثم يذهب النهار ويخلفه الليل، فَيَخْلُفَانِ وَيَتَعَاقَبَانِ حَيْثُ يأتي أحدهما خلف الآخر على سطح الأرض.

{لَآيَاتٍ}، لأمور مميّزة، {لِّأُولِي الْأَلْبَابِ}، للمنسوب لهم اللب، للذين عندهم شيء له قيمة في داخلهم، وليسوا فارغين، حَيْثُ يفكّرون ويفهمون الأمور بطريقة صحيحة. فَهِيَ نماذج عن الأمور المميّزة التي تدل على المستوى الإلهي لمن خلقها وسبّب الظواهر، فَالَّذِي في داخله شيء له قيمة، وَلَهُ لبّ، سَيَرَاهَا مميّزة وَسَيَرَاهَا آيات تدل عليه تعالى وعلى صفاته وَقُدُرَاتِهِ الفائقة سبحانه.

أَمَّا من يتفلسف ويسأل عن قدرته تعالى على خلق الدائرة المربعة، فَهُوَ ليس من أولي الألباب، إنما أحمق متفلسف.

لَا يغب عن بالك أن الآيات هنا تتحدث عن نوعية من المؤمنين، سواء أكانوا من الزمن الماضي قبل النبي محمد(ع) أو في زمانه أو بعده.

بقي شيء، حَيْثُ إِنَّنَا عادة نرى سماءنا التي فيها النجوم والمجرات، وهذه ليست إلا سماء واحدة من سبع سماوات، ومن القرآن نعلم أننا في المستقبل سننتقل من سمائنا هذه إلى سماوات أخرى كما ورد في الآية 33 من سورة الرَّحْمَنِ {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} ولكن قبل

ذلك، كيف يكون في خلق السماوات آية لنا ونحن لم نَرَ إلا سماء واحدة؟ الجواب بسيط، لِأَنَّكَ لم تَرَ كل الورد الجوري الجميل، ورأيت البعض منها، ولكنك تقول إِنَّ كل الورد الجوري جميل، وهكذا ترى سماء واحدة رائعة هائلة الضخامة، ويخبرك تعالى عن سماوات أخرى أيضا ضخمة... فَتَعْتَبِرُ السماء التي تراها الآن نموذجا عن قدرته تعالى الخالق لسماوات أخرى.

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ {191})
أُولُو الْأَلْبَابِ الْفَاهِمُونَ لآياته تعالى، هم: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ}، فَيَسْتَحْضِرُونَهُ سبحانه بقلبهم ولسانهم، وَيُمَجِّدُونَهُ ويسبحونه... {قِيَامًا}، قائمين مستندين على أرجلهم وقوفا أو مشيا، {وَقُعُودًا}، على الكراسي أو على الأرض أو في السيارة، {وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ}، وهم مستلقون على أي جنب من جسدهم، على الجانب الأيمن أو الأيسر أو على الظهر. ففي أي حالة كانوا فيها فهم في ذكر دائم لربهم سبحانه وتعالى.

{وَيَتَفَكَّرُونَ}، حَيْثُ يَبْحَثُونَ فكريا، {فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، في تركيب وتأليف هذه الدنيا بالشكل الذي تراه... ومن التكملة ستعرف بماذا يتفكرون حين يقولون: {رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا}، لم تركّب وتؤلّف هذه الدنيا بمخلوقاتها وبالظواهر التي فيها على أساس فاسد وغير سليم، لا، {سُبْحَانَكَ}، حَيْثُ نُعْلِنُ تنزيهنا لك عن الصفات التي لا تليق بك، لِأَنَّهُ من غير المعقول أن من يملك صفات وقدرة عظيمة فائقة نتج عنها سبع سماوات وأراض بهذه التفاصيل الهائلة... مِنَ المستحيل أن يكون خَلَقَهَا لعبا أو لهوا أو عبثا وبلا حكمة... {سُبْحَانَكَ} عن هذه الصفات العاطلة، ننزهك وَنَعْتَقِدُ بأنك ليس فيك صفات سيئة.

{فَقِنَا}، اجْعَلْ لنا وقاية حماية من، {عَذَابَ النَّارِ}.

بعبارة أخرى: من يتفكر في هذه الدنيا سيعرف أن لها مالكا صمّمها وصنعها، وهذه الدنيا ضخمة جدا ورائعة التصميم، تدل على الصفات والقدرة العظيمة الفائقة للخالق، فهل من المعقول أن لا يكون هناك حكمة من خلقه لِهَذِهِ الدنيا؟ وَهَلْ خلقها للتسلية وعن عبث؟ لا، سبحانك ننزهك عن التسلية والعبث، لِأَنَّ هُنَاكَ مُخَطَّطًا أَخْبَرْتَنَا عنه، حَيْثُ قُلْتَ إِنَّهُ يوجد آخرة وحساب للمخلوقات بحسب ما تتحلّى به تلك المخلوقات من إرادة... {فَقِنَا} وَاحْمِنَا من عذاب النار التي قلت إِنَّهَا مسكن لمن أنكر وحدانيتك وخالف أوامرك فاعلا السيئات.

ذِكْرُ الله تعالى بالتسبيح والحمد والشكر، ليس محصورا في أي زمان أو مكان بالنسبة للمؤمن، ففي أي وضعية كان المؤمن فيها قائما قاعدا او مستلقيا، ومهما كان يفعل، وَلَا تَسْتَثْنِ أي فعل كان، لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ الذي لا يرتكب السوء، سيجد أنه يذكر ربه بالحمد والشكر والتسبيح والدعاء في أي مكان وأثناء أي عمل كان، ومن دون أي استثناء.

مَا سيأتي من كلام فهو المعاني من الأفكار والمشاعر التي في الأبرار ويصوغها تعالى بكلام ينسبه لهم، وَهِيَ كَتَعْلِيمٍ منه تعالى لنا لنقولها، وفي نفس الوقت هِيَ وَاقِعُ حال أفكارهم ومشاعرهم حتى لو لم يقلها بالحرف ولا واحد منهم كما تقولها الآيات، لِذَلِكَ لَا تَتَصَوَّرْ أن المؤمنين أو واحدا منهم قال حرفيا ما تقوله الآيات هنا، ونقله سبحانه عنه، لا، لا داعي لهذا التصوّر لِأَنَّهُ لَيْسَ المقصود نقل أدعية المؤمنين بل المقصود الإضاءة على فكرهم ومشاعرهم وصياغته بكلام دقيق.

(رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ {192})
نكمل مع أولي الألباب بعدما طلبوا الوقاية من النار:

{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ}، فَجَعَلْتَهُ مُهَانًا بسبب قبيح ما فعله.

{وَمَا لِلظَّالِمِينَ}، فَلَا يوجد للأشخاص الذين لم يكن معهم حقّ، وهم الذين كفروا بك وبدينك وبرسلك وَالْآخِرَةِ... مع أن الأدلة عليها واضحة وَلَمْ يكن معهم حقّ حين كفروا، فَظُلْمًا كفروا، فَلَا يوجد لهم، {مِنْ أَنصَارٍ}، فَلَنْ يجدوا من ينصرهم ليحقّق لهم الخروج من النار.

لاحظ، المؤمنون لهم أنصار في يوم القيامة، بداية من ربّ العزة الذي سيغفر لهم، وكل التابعين له تعالى من الملائكة(ع) والأنبياء والمؤمنين من الدرجة العالية سَيَطْلُبُونَ الشفاعة للمؤمنين الذين ارتكبوا بعض السيئات الصغيرة... أما الظالمون، فَلَا أحد يتدخل في موضوعهم، ولا أحد مستعد للشفاعة لهم، بل لن يجدوا من يحبّهم، والكلّ يكرههم، وحتى هم الظلمة أنفسهم يكرهون بعضهم البعض.

(رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ{193})
نكمل مع أولي الألباب:

{رَّبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ}، سمعنا شخصا يوجّه الكلام لترسيخ معلومة، للاعتقاد، ويقول: {أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ}، أعلنوا اعتقادكم بالمسؤول عنكم من مستوى إلهي، {فَآمَنَّا}، فاعتقدنا بك سبحانك ربّا.

{فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا}، فتجاوز عن الأعمال التي خالفنا بها أوامرك، فلا تعاقبنا عليها.

{وَكَفِّرْ}، وَغَطِّ واستر، {عَنَّا سَيِّئَاتِنَا}، فلا تجعل الأمور السيئة التي فعلناها تظهر، وَنَطْلُبُ أن لا يراها الآخرون في يوم القيامة.

{وَتَوَفَّنَا}، فخذ أنفسنا عندما نموت بشكل تام واجعلها حين تأخذها، {مَعَ الْأَبْرَارِ}، مع الأشخاص الْبَارِّينَ بك، الذين لديهم صلة حسنة معك، وهم الموحدون لك المؤمنون برسلك وملائكتك وكتبك... فلا تجعلنا مع زمرة الأشرار، وبقية تفاصيل البر ذَكَرَتْهَا الآية 177 من سورة البقرة.

يُمْكِنُكَ فهم كلام المؤمنين هنا على أنه لسان حالهم بعدما سمعوا الرسول الإلهي يدعوهم للإيمان فآمنوا وقالوا هذا الكلام... أَيْ أَنَّهُمْ لَمْ يكونوا مؤمنين وجاءهم رسول فآمنوا وقالوا هذا الكلام، ولكن ننتبه، لِأَنَّهُ فِي عموم القرآن ترى أنه حتى قبل وصول رسول إلهي لهم إِنَّهُمْ أصلا مؤمنون، لِذَلِكَ ضَعْ في بالك دائما أن تصنيف الناس عنده تعالى يعتمد على القلب السليم، أساس الفكر والنفسية السليمة، وهم الذين لم يخترعوا آلهة من أوهامهم، وهم الذين لا يعتدون على الآخرين، ويرفضون ظلم الآخرين... وَهَذِهِ النوعية من الناس أصلا تصنيفها عنده تعالى أنهم مؤمنون، وبعدما يأتيهم كتاب أو رسول فإنهم يتماشون معه مع تصحيح لبعض ما اشتبه عليهم من الخير والشرّ... وللتوسّع في هذا المفهوم راجع دراسة الآية 2 من سورة البقرة {ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}.

(رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ{194})
{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ}، فَرُسُلُكَ نَقَلُوا لنا منك وعدا: كلاما عن شيء ستفعله، بأننا إن آمنا بك فستجعلنا في الجنة من بعدما تغفر لنا، {وَلَا تُخْزِنَا}، ولا تجعلنا مهانين بسبب قبيح ما فعلناه، {يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، في زمن القيام من الموت في الآخرة.

{إِنَّكَ}، يا ربنا، {لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}، فلا تقول عن شيء ستفعله ولا تفعله، وَلَا تعطي موعدا وتخلف به فَيَمُرَّ الموعد ولا يحصل المتوقّع، وَلَا تأتي خلف الموعد بكلام آخر فلا تنفذ الكلام الأول، بل أنت صادق الوعد، وَوَعَدْتَنَا بالكرامة والثواب الحسن في الآخرة.

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللّهِ وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ{195})
{فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ}، فَرَدَّ للمؤمنين المسؤول عنهم من مستوى إلهي أَنَّ طلبهم سيتحقّق بما يلي:

{أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُمْ}، فَكُلُّ من عمل منكم عملا حسنا سَيَكُونُ له قيمة محفوظة، وسنعطيها له في الآخرة.

سَوَاءٌ أكان العامل منكم، {مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ}، فلا فرق، {بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ}، لِأَنَّ الإناث لَسْنَ من كوكب الزهرة، والرجال ليسوا من المريخ، بل كلاهما يشتركان معا في توليد البنات والصبيان، وَهَذَا البعض من البشر "الذكر مثلا" هو من ذلك البعض من البشر، من الإناث.

لَا فرق بين المرأة والرجل في نظرة الله تعالى الإيمانية، فَأَيُّ رجل أو أي امرأة قَامَا بعمل جيد، فعملهما محفوظ لهما ولن يضيع، لأنكم أساسا لا فرق بينكم وَأَنْتُمْ من بعض، لِأَنَّ كِلَاكُمَا إنسان وتولدون من بعضكم البعض.

هُنَاكَ ديانات تجعل فرقا "إنسانيا" وفرقا "إيمانيا" بين الرجل والمرأة، ولكن الدين الإلهي الصحيح جَعَلَ فروقات في الوظائف والمسؤوليات المطلوبة من الرجل والمرأة، وَخَفَّفَ عن المرأة أكثر مما أوكل للرجل، كالقتال وتحصيل الرزق للعائلة والمسؤولية... وفي المقابل أوكل للمرأة التربية والرعاية العائلية، ولكن في موضوع قيمة الإيمان، كِلَاهُمَا مُتَسَاوِيَانِ، لِأَنَّ أجر الرجل على القتال والعمل لا يقل ولا يزيد عن أجر المرأة العفيفة الراعية المربية.

{فَالَّذِينَ هَاجَرُوا}، حَيْثُ تركوا مدنهم أو قراهم نهائيا، {وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ}، من الأماكن التي كانت تدور فيها أمور حياتهم ومعيشتهم، من بيوتهم وأشغالهم... حَيْثُ تم طردهم منها، {وَأُوذُوا}، وَتَعَرَّضُوا للأذية الجسدية والنفسية، {فِي سَبِيلِي}، في مسلك إلهي كانوا عليه، وَلَمْ يتم تهجيرهم وطردهم وأذيتهم لأنهم غشاشون أو سارقون أو مُفْتَعِلُو مشاكل... بل لأنهم يمشون على سبيل الحقّ والصلاح وهو نفسه سبيل الله تعالى فَطَرَدُوهُمْ وشتموهم وضربوهم...

{وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا}، حَيْثُ شاركوا في المعارك لإنهاء حياة الكفّار، وانتهت حياتهم فَقَتَلَهُمُ الكفار، فَهَؤُلَاءِ:

{لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ}، إِنَّ الأعمال السيئة التي صدرت منهم، والتي يحملونها معهم إلى يوم القيامة، سَوْفَ أكفرها عنهم وَسَوْفَ أغطّيها وأسترها فلا تظهر عليهم، لِتَصِيرَ كأنها غير موجودة ولا يعلم بها الآخرون، وَلَنْ يتحاسبوا عليها.

وَرَدَ صراحة في الآية 31 من سورة النساء أن تكفير السيئات مشروط بالابتعاد عن الكبائر {إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا}.

{وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ}، سوف أضعهم في أماكن موصوفة بروعة ما فيها، بمناظرها الطبيعية الجميلة حَيْثُ فيها بساتين وحدائق وما يسبب لهم السعادة، {تَجْرِي}، تسير بالتتابع، {مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، أنهار المياه واللبن والخمر والعسل... كما نفهم من الآية 15 من سورة محمد {مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى...} وَفَصَّلَتْ لنا العديد من الآيات عن تلك الجنات بروعتها وجمالها، وَنَبَّهَتْنَا أننا لا يمكننا الآن تصوّر روعتها لأنها فوق تصورنا بل فوق قدرتنا على التخيّل. لِذَلِكَ لَا تبالغ في تصوّرها كمستنقعات بل تَصَوَّرْهَا كأجمل منظر طبيعي هنا على الأرض لأنهار وأشجار وشلالات ونوافير مياه...

التَّكْفِيرُ للذنوب والإدخال الى الجنة هو: {ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ}، شيء يرجع عليهم منه تعالى بسبب إيمانهم، وَكَمَا تلاحظ فإن الأساس هو المحاسبة بدقة على أعمالنا، ولكن من تعرّض للتهجير والأذية والقتل في سبيله تعالى فإن له معاملة خاصة، من تكفير للذنوب وإدخال لجنات فائقة الروعة وفوق ما يستحق... وهذا ما كان يسأل عنه المؤمنون، لِأَنَّهُمْ يعرفون أَنَّ لديهم أخطاء، ويرتكبون بعض الذنوب، ويريدون حلا إلهيا لهذه المشكلة.

{وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ}، عِنْدَمَا سيرجع منه تعالى شيء على المؤمنين سَيَكُونُ موصوفا بأنه حسن جيّد، وَلَنْ يكون سيئا لا يعجبنا، أو عاديا، لا، بل كل الحسن وَكُلُّ الروعة والجمال في الثواب الذي يعطيه تعالى للمؤمنين.

لَا ملل في الجنة، ولا تكرار، ولا شعور بالنفور أو الانزعاج... بل فرح وبهجة واستمتاع دائم...

إِنْ فهمنا من الآية أن كل من تعرض للتهجير مع الطرد مع الأذية مع القتل، هو فقط سينال التكفير عن الذنوب، فَنَكُونُ مخطئين، لأن أي واحدة من هذه الأمور تسبّب التكفير عن الذنوب، طالما أنها في سبيله تعالى، وَوَرَدَ في الآية 12 من سورة المائدة أشياء أخرى تسبب التكفير للذنوب {وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...}.

(لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ{196})
انتهينا من الحديث عن النوعية المميزة من الناس، ونرجع إلى شيء آخر:

{لا يَغُرَّنَّكَ}، لا يخدعك شيء غير صحيح وهو، {تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا}، وفي هذا المنقلب الذين أنكروا الدين الإلهي وفي ذاك المنقلب، {فِي الْبِلَادِ} في الأماكن الكبيرة التي على الأرض ولها اسم، وهم يتقلبّون فتتغير أماكنهم من مكان لآخر، ويعيشون وينتقلون بأمان، ويحكمون ويسيطرون هنا وهناك، فهذه السيطرة للكفار على البلاد لا تجعلك تنغرّ فتنخدع وتظن أنهم فِعْلًا مسيطرون وأحوالهم تمام.

هناك آيات تتحدث بشكل يشير إلى تقلب الكفار على نفس البلاد، حيثُ يموت كفار كانوا يحكمون في منطقة ما، ويأتي كفار آخرون يحكمونها، فأيضًا لا يغرك تقلبهم في المداورة في الحكم، فمرة هؤلاء القوم الكفرة ومرة أخرى كفار غيرهم أو من نوع آخر...

لاحظ في بعض البلاد الإسلامية مُعَانَاةً من الأوضاع الأمنية والاقتصادية والصحية... بينما هناك بلدان غير مؤمنة تنعم بالرخاء والراحة... فلا تغتر وتنخدع براحتهم أيها المؤمن، فهذا لا يعني أي شيء، لأنه لا يعني رضاه تعالى عنهم، فهو لا يعني سوى أنهم نظّموا حياتهم، عِلْمًا أن الكلام هنا في الآية عن الكفّار من مستوى كفّار قريش، بينما في عصرنا بعض البلاد من غير المسلمين قد يكون تعالى فِعْلًا رَاضِيًا عنهم أكثر من رضاه عَنْ بلد مسلم فقير... لأن سلوكيات أولئك الناس أقرب إلى الصلاح من سلوكيات المسلمين... وهذا موضوع آخر لا تقصد الآيات هنا الكلام عنه.

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ{197})
هذه السيطرة أو الانتشار والراحة للكفّار في البلاد إنما هي {مَتَاعٌ قَلِيلٌ}، هي تمتع بالاستفادة والانتفاع بما هو متاح في الدنيا، وهو قليل وليس بالشيء الكثير، فلا أهمية له وَلا يغرنك ويخدعك ويجعل عندك شُعُورًا بأنهم في أحسن حال وتنسى الْآخِرَةَ التي نسوها.

بَعْدَ هذه السيطرة والمتاع القليل فإن، {مَأْوَاهُمْ}، مرجعهم ليسكنوا في، {جَهَنَّمَ}، في المكان الموصوف بسوء ما فيه من النار المتأججة، {وَبِئْسَ الْمِهَادُ}، وَأَسْوَأُ أرضية، أَسْوَأُ مكان تمّت تهيئته لِيَقِفَ أو يَجْلِسَ أو يَسْتَلْقِيَ فيه، فالفراش على الأرض هو مهاد جيد، ولكن لو فُرِشَتِ الأرض بالشوك، وأجبرت شَخْصًا أن ينام عليه، يكون الشوك أَيْضًا مهاد ولكنه مهاد عاطل، وَأَرْضُ جهنّم وعرة حامية يقضون عليها حياتهم، فهي أَيْضًا مهاد...

(لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللّهِ وَمَا عِندَ اللّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ{198})
{لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ}، الذين تجنبوا عقاب وغضب المسؤول عنهم من مستوى إلهي فأطاعوه، {لَهُمْ جَنَّاتٌ}، لهم أماكن موصوفة بروعة ما فيها بمناظرها الطبيعية وَفيها البساتين والحدائق... {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، تسير من تحتها الأنهار المتنوعة من المشروبات اللذيذة، {خَالِدِينَ فِيهَا}، لا يموتون ولا يفنون في تلك الجنّات.

{نُزُلًا}، مَكَانًا ينزلون فيه من بعد الرحلة الدنيوية، {مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}، ونحن نعرف القدرة العظيمة لربنا سبحانه، عِنْدَمَا يقول لنا أَنَّ الجنة هي نُزُلٌ فهي مكان لتنزل فيه من بعد رحلتك في الحياة الدنيا، وَأَعَدَّهُ وجهّزه هو سبحانه، فمن المتوقع أن يكون رَائِعًا فوق الخيال، وَهُوَ ليس نُزُلًا من عندي، وليس مَصِيفًا أو مُنْتَزَهًا من عندي أنا مَثَلًا، بل من عند الله تعالى، وَكَمَا نجد نُزُلًا مُنْتَجَعًا مَصِيفًا أجمل من آخر، فالجنة هي نُزُلٌ من "عند" الله تعالى، من تصميمه وتخطيطه سبحانه وتعالى.

{وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ}، موصوف بأنه جيد حسن، {لِلْأَبْرَارِ}، للذين لديهم صلة حسنة مع ربهم سبحانه، وَهم مؤمنون به وبملائكته(ع) وبكتبه ورسله وآخرته و... وفي الآية 177 من سورة البقرة نتعرف على كل النوايا والأعمال التي تجعل لنا بِرًّا، صِلَةً مع ربنا سبحانه.

إذًا، مقابل متاع الدنيا القليل، مَا عند الله تعالى من جنات، هي خير كشيء موصوف بأنه جيد للأبرار، فلا تغتروا بالدنيا وتنخدعوا براحة الكافرين فيها.

لَوْ كنت في ظروف صعبة لأنك مؤمن، فلا تتأفف ولا تنخدع لتفعل السوء مُحَاوِلًا الحصول على متاع الدنيا، واعمل على أن تكون من الأبرار حتى تحصل على شيء هو خير من هذه الدنيا.

(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَـئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ{199})
نرجع بالتحديد لمن كانت السورة تتحدث معهم وعنهم:

{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}، فمن الناس الذين ينتسبون لكتاب إلهي، المنتسبون للتوراة والإنجيل، {لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ}، فهناك منهم من يعتقد به تعالى، {وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ}، أَيْضًا يؤمن بالقرآن الذي نزل إليكم منه تعالى، {وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ}، فيؤمن بما أنزل تعالى على أهل الكتاب السابقين، وَيُؤْمِنُ بالتوراة والإنجيل والقرآن، وَالْبَعْضُ من أهل الكتاب سينتقل للإيمان بهذا القرآن مع استمراره بالإيمان بما سبق وأنزله تعالى، فسيصير مثلكم مثل المؤمنين العاديين، وبما أننا بالأصل مع أهل الكتاب على خط إيماني واحد فَعَبَّرَتِ الآية عن إيمان البعض من أهل الكتاب بهذا القرآن بأنه ليس انْتِقَالًا، حَيْثُ يؤمنون بما أنزل إلينا وما أنزل إليهم.

{خَاشِعِينَ لِلَّهِ}، يشعرون بفقدان القدرة نتيجة ضعفهم أمام صاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى، {لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا}، فالأمور المميزة المنسوبة له تعالى والتي وصلتهم منه سبحانه هُمْ لا يبيعونها بأثمان دنيوية قليلة، فلا يتخلّون عنها لأجل المنصب أو المال أو الشهرة أو الشهوة... فهذا ما فعله علماء السوء بتلاعبهم بالعقائد والتشريعات حتى يجمعوا الناس حولهم بالعصبية والمذهبية والميل للسوء والفساد والإجرام...

{أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ}، فما حدّده تعالى كاستحقاق بَدَلًا لإيمانهم ولأعمالهم فَسَيَجِدُونَهُ، {عِنْدَ رَبِّهِمْ}، عند المسؤول عنهم من مستوى إلهي سبحانه، فهم مؤمنون حقيقيون، وتنبهنا الآية لنلتفت لقيمة هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب حتى لا نشعر بأننا مختلفون عنهم، وتنبههم أنهم مرحّب بهم بهذا الاستمرار على دينه تعالى.

{إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}، فاستمرارية هؤلاء الأشخاص على خَطِّ الْإِيمَانِ، وإيمانهم بما جاء به النبي محمد(ع)، لا تُسَبِّبُ أي مشكلة لاحتساب حسناتهم القديمة والجديدة، فكلها تتسجل فَوْرًا وبسرعة، ويتم جمعها ومضاعفتها بسرعة.

وَرَدَ ذمّ قرآني لمن كان من أهل الكتاب ولم ينتقل للإيمان بالنبي محمّد(ع)، وورد مدح للبعض منهم على أساس أنهم موحّدون له تعالى ولكن تتضمّن عقيدتهم وشريعتهم تحريفات عليها عقاب، وورد مدح للبعض منهم على أساس أنهم يحبّون المؤمنين ويفضّلونهم على الكفّار... أمّا هنا فلا تريد الآية التعبير عن إسلام البعض من أهل الكتاب بالانتقال من دينه إلى الْإِسْلَامِ، لِأَنَّهُ أَصْلًا ليس انْتِقَالًا، ولذلك عبّرت بطريقة تجعلنا نفهم أنه استمرار لإيمانه السابق عبر التمسّك بالكتاب الجديد القرآن.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ{200})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الناس الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{اصْبِرُوا}، تصرّفوا عن وعي ودراسة، لا تفقدوا أعصابكم وتتصرّفوا بعشوائية وعبثية وعصبية... وَتَحَمَّلُوا ولا تتراجعوا عن الإيمان، لأنكم في النهاية إمّا ستتغير حالكم في الدنيا نحو الأحسن، ولكن بالتأكيد ستكون آخرتكم رائعة إن صبرتم.

{وَصَابِرُوا}، وليشجع بعضكم البعض على الصبر، فلا تقم بتثبيط وتهديم عزيمة المؤمنين بالتخويف والتشكيك وفقدان الأعصاب أمامهم...

{وَرَابِطُوا}، والتزموا بأماكنكم، وهذه الكلمة تستعمل عادة للثبات في المعارك، {وَاتَّقُوا اللَّهَ}، وتجنبوا وتحاشوا غضبه وعقابه، فلا تعصوه بفعل السوء وأطيعوه بفعل الصالحات، {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، فإذا صبرتم ورابطتم واتقيتم فمن المتوقع ومن المفروض أن تكونوا من الذين قاموا بعمل فالح، وَأَجَادُوا فيما عملوا لأنهم عملوا الصحيح.

نتذكّر دَائِمًا أن كلمة {لَعَلَّ} ترادف: من المفروض ومن المتوقّع. مِنْ ناحيته تعالى الأمور محسومة، فمن مات مُؤْمِنًا عَامِلًا للصالحات فله المغفرة والجنّة، ولكن من ناحيتنا نحن الْأُمُورُ غير محسومة إن كنا سنبقى مؤمنين عاملين للصالحات إلى أن نموت، ولذلك ترى القرآن يعبّر عن حالة التزامنا بأوامره تعالى بِأَنَّ لها نتيجة لعلنا نصير فيها، فإذا صَلَّيْتَ وَصُمْتَ وَزَكَّيْتَ... وابتعدت عن السوء وبقيت هكذا إلى أن تنتهي حياتك، فحتما وَصْفُكَ تَقِيٌّ وستنال الجنّة، ولكن طالما أنت حيّ وقابل للتغيّر وفعل السوء، عندها لن يقول لك سبحانه أنك إذا صليت فستدخل الجنّة حَتْمًا، لِأَنَّ هذا لن يكون تَعْبِيرًا دَقِيقًا ولا صَحِيحًا حَيْثُ إِنَّكَ لا زلت في حالة إمكانية ارتكاب السوء.

سورة النساء (4) ص 77

محورية السورة: تقواه تعالى في عموم الناس، وَخُصُوصًا في الضعفاء والأرحام.

نلاحظ كثرة ورود "كان الله ... صِفَتَيْنِ" "الله كان ... صِفَتَيْنِ" بشكل مُلْفِتٍ عن بقية السور.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً{1})
افتتاحية السورة بتنبيه على القرابة بين كل الناس، فلم توجّه كلامها للذين آمنوا بل لكل الناس:

آدم(ع) أب أم والد لكل البشر؟

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ}، {اتَّقُوا رَبَّكُمْ}، فتجنبوا غضب وعقاب المسؤول عنكم من مستوى إلهي عبر تجنّبكم للسوء، وسنعرف من السورة أنه تعالى يُحَذِّرُنَا مِنِ ارتكاب السوء مع بقية الناس وخصوصا مع الأرحام.

{الَّذِي خَلَقَكُمْ}، الذي ألفكم ركبكم، {مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}، حَيْثُ ألفكم وصنعكم من المواد، ومن نفس واحدة لِأَنَّكُمْ كلكم بشر مثل بعض ومتوالدون من نفس الأصل، {وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا}، حَيْثُ من نفس واحدة خرجتم وصرتم ذكرا وأنثى، وَالذكر والأنثى ورغم الاختلاف البيولوجي بينهما فهما تكوّنا من نفس الكائن، {وَبَثَّ مِنْهُمَا}، حَيْثُ نشر سبحانه في مختلف الأماكن من النفس وزوجها، وَخرج منهما، {رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً} كَثِيرَاتٍ، وهكذا صرتم جماعات من الناس من جنسين.

فِكْرَةُ خلق زوجة آدم(ع) من ضلعه لا مستند قرآني لها، وليست تفسيرا ظاهرا من الآية هنا ولا من غيرها، وكلام القرآن عن آدم تراه دائما في سياق الكلام عن تأهّل أوّل واحد من البشر للتكليف بدينه تعالى، وَلن تراه في كل القرآن في كلامه عن مراحل خلق الإنسان، فنحن أسقطنا فكرة آدم كأوّل بشري على كلامه تعالى، بينما كلامه تعالى عن آدم يشير لأوّل بشري تأهّل ليتكلّف بدينه تعالى...

تَفْسِيرُ كلامه تعالى لأمثال آيتنا هنا بأنه كلام عن آدم، كَانَ مقبولا قديما كتفسير "للكتب الإلهية القديمة وورثناه لتفسير القرآن به" لأنه كان الشيء الوحيد الذي خطر على بالهم ورأوه عقلانيا منطقيا بالنسبة لمعطياتهم، والآن مع تطوّر علومنا صرنا نراها تفسيرا طفوليا ساذجا، ونتعلّم من هذا الخطأ أن نتجنّب تفسير القرآن بناء على معطياتنا الحالية التي مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تتغيّر أيضا، فالقاعدة الأساسية لتفسير القرآن لتبسيط معانيه أن يكون التفسير قابلا للفهم لكل الذين سبقونا ولنا وللذين سيأتون بعدنا، وإن لم نخرج بهكذا نتيجة فاعلم أنه تفسير على معطيات ستتغيّر وسيتغيّر معها التفسير، إلا

اللهم توسيع الأفق مستفيدين من معطيات عصرنا كما سترى بعد قليل في تفسير مسألة الخلق من نفس واحدة، بشكل يتحمّل فهم الكلام للجميع مع الإشارة دائما أنه تحليل...

مِمَّا فهمناه من الآية 30 من سورة البقرة عن وجود بشر قبل ومع آدم(ع) رأتهم الملائكة(ع) يفسدون... "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ..."، نفهم أن آدم(ع) هو أوّل من تأهّل ليتكلّف بالأوامر الإلهية، وهو وزوجته ليسا أوّل مخلوقين بشريين على وجه الأرض، ففي زمنهما وقبلهما كان يوجد بشر، وقبل ذلك وكما يبدو من العديد من الآيات أَسَاسُ خلقتنا من المواد من كربون وكالسيوم وحديد وماء... والتعبير القرآني عن ذلك هو خلقتنا من طين "من ماء وتراب"، وبعدها تكاثر الكائن أو الكائنات بطريقة ما... وبعده صار تحوّل في الكائن لِيَصِيرَ هناك ذكر وأنثى، وهذا واضح من تشابه الخلقة الدالّ على تناسل الجنسين من أصل واحد، وصارت العلاقة بين الذكر والأنثى هي الطريقة للتناسل... وصولا إلى ظهور البشر... وصولا إلى ظهور آدم(ع) وزوجته، وهذا ما سنفهمه من عموم القرآن بغض النظر عن التراث الثقافي الديني الشائع بيننا، وبالاستناد لمعاني الكلمات القرآنية مَدْعُومًا بمعطيات من عصرنا قابلة للتعميم على الذين سبقونا ليفهموها مِمَّا يَعْلَمُونَهُ من شبه كبير في تكوين الذكر والأنثى، وكمثال عن ذلك الثَّدْيَانِ عند الرجل...

هَذَا الفهم سيكون منطقيا عقلانيا بالنسبة لنا حاليا بسبب تماشيه مع افتراضات علمية قوية لنشأة الحياة على الأرض، وربما ما هو عقلائي حاليا سيصير ساذجا طفوليا فيما بعد، ولذلك نحاول جهدنا الاستفادة من المعطيات وليس تفسير القرآن بناء عليها بشكل يستعصى على الأقدمين فهمه من معاني كلمات القرآن.

أمّا التعابير القرآنية التي نفهم منها أن آدم(ع) أب لكل البشر، فربما هو أب لكل من بقي من البشر وبقية السلالات انقرضت، وربما لا، وهو الأرجح لأن القرآن لم يستعمل التعبير لآدم(ع) بالوالد فهو أب على معنى العمّ، كتوصيف النبي إسماعيل(ع) أبا لأحفاد أخيه إسحاق(ع) كما ورد في الآية 133 من سورة البقرة وغيرها "أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...".

على أي حال، نضع في بالنا دائما أن القرآن لم يدخل في الآليات التفصيلية لأي عمل إلهي، وإنما ذكر بعض المراحل، فالقرآن لا يطرح علينا نظريات علمية، بل يحفزّنا على البحث العلمي لاكتشاف ترابط الأمور... وبناء عليه فأي موضوع كان، فهو محلّ للبحث، مَوْضُوعُ الموت والحياة، نشأة الكون، ظهور الكائنات، بداية البشرية والحيوانات، بداية الحياة عموما ومن ضمنها البكتيرية والنباتية... تفسير سبب ظاهرتي الليل والنهار، تفسير آلية ظاهرة نزول الماء... عودتنا إلى الحياة بعد الموت... كُلُّهَا مواضيع مطروحة للبحث عن آليات حصولها، وأي نتيجة تخرج منها فلا علاقة لها بالدين الإلهي لا بالتأييد ولا بالمعارضة.

لِذَا لَا ننجرف مع ما يقوله البعض عن نظريات علمية تثبت خطأ الدين، أو تثبت أنه لا إله... وتكون ردّة فعلنا الأولية محاربة النظريات متخذين دور المؤمنين المدافعين عن الدين بدلا من التروي والدراسة، وبدلا من التوقّف عن تقديس الموروث الثقافي الديني المتراكم من معلومات المتدينين السابقين الطفولية الساذجة من مرحلة ما قبل البحث العلمي الرصين.

أَنَا لا أفهم أين المشكلة الدينية في نظرية النشوء والارتقاء "التطور"؟! رُبَّمَا هي صحيحة، ربما بعضها صحيح، وربما خطأ... لِأَنَّهَا نظرية بيولوجية أحيائية "رائعة" تحاول تفسير ظهور الحياة على الأرض، وتبحث عن آليات حدوث الحياة التي نراها الآن، وهذا ما أمرنا تعالى بالتفكير به حين مدح المتفكرين في خلق السماوات والأرض في الآية 191 من سورة آل عمران "... وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ..." ، وأمّا تفسير نتائج تلك النظرية على أنها تجعل خروج الحياة تحصيل حاصل من الظروف البيئية وخواص المواد من دون وجود إله، فهذه سخافة تغاضت عن كل النتيجة التي يظهر منها بوضوح وجود كائن بصفات وقدرات فائقة صمّم وخلق كوننا "وبقية السماوات" في ستّة فترات زمنية بطريقة تجعلها تمشي مترابطة بأحداثها، وصولا إلى الاستقرار النسبي الذي نراه الآن، وصولا إلى تبدّل الدنيا لتصير الآخرة محلّها... فراجع دراسة الآيات حول الآية 10 من سورة فصلت لترى صراحة الكلام الإلهي عن خلق الكون بمراحل مترابطة "وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ".

اَلْأَسْخَفُ من نفي الإله المصمّم الخالق هو التفكير الساذج البسيط لبعض المؤمنين الذين يفهمون أنه تعالى بيديه يخلق مباشرة وبدون ترابط بين الأمور وبدون أسباب وتوافق بينها وبدون تدرّج... على مثال خلقة تمثال من طين كما يفعل النحّات، ونفخ الروح فِيهِ، ليتحوّل الطين مباشرة وفورا إلى لحم ودم وعظام وأعصاب... ويصير التمثال كائنا حيّا اسمه آدم... وَحاليا نرى هذه بساطة زائدة في فهم كلامه تعالى القائل إِنَّهُ خلق السماوات والأرض في ستة فترات زمنية، والقائل إِنَّنَا من سلالة من طين...

لَقَدْ أطلت عليك فلنكمل بما سيتكرّر مِرَارًا في دراستنا هذه عن تصوّرك أنت لنفسك وَأَنْتَ تُقَرِّرُ خلق كائنات، فلنقل إِنَّكَ صمّمت وخلقت أسماكا في حوض ماء، فقدراتك ستنعكس فيما خلقت، فكلما علت قدراتك كَثُرَتِ التفاصيل في مخلوقاتك، وَجَعَلْتَهَا تجوع وتنمو وتتكاثر، الآن سؤال: كيف ستؤمّن لها الطعام؟ هل عبر رشّه على سطح الماء أو عبر جعل البيئة ينتج عنها الطعام؟ كما ترى حَجْمُ قدراتك يجيب عن هذا السؤال، فإن علت فستجعل الطعام ينتج عن البيئة... الآن سؤال آخر: هل سترى الكائنات أن خالقا بقدرات عالية صمّمها هي وبيئتها وخلقها ورزقها... أم يريدون نزول الطعام مباشرة منك ليؤمنوا بك؟

كما ترى فهذا المثال المبسّط هو نفسه كلّ الكلام القرآني عن أفعاله تعالى، فهل لن تؤمن به تعالى كخالق إلا إذا رأيت تماثيل الطين تتشكّل وَفَوْرًا تصير بشرا أو حيوانات أو نباتات... ولن تؤمن به تعالى إلا إذا نزلت عليك من السماء وجبة جاهزة مطهية ساخنة من الطعام حتى تؤمن بأنه تعالى يرزقك؟ هذا الإيمان البسيط هو ما نشره المتدينون عبر التاريخ ومنه انطلقوا ليحاربوا الآخرين، والآخرون كفروا وحاربوا هذا الدين، الذي وبكل وضوح ترى أنه ليس دينه تعالى بل دين الناس وأفكار الناس، وثقافة تراكمت ألصقوها بالدين الإلهي حتى صارت تفسيرا لكلامه تعالى وصرنا لا نميّزها عن دينه تعالى.

نرجع للآية، لِأَنَّكُمْ كلكم في الأساس أقارب ومن عائلة واحدة بل من نفس واحدة.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}، فتجنبوا غضبه وعقابه، {الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ}، الذي فيما بينكم تعبّرون عن إرادة الحصول على شيء من الآخرين بالله تعالى، حَيْثُ تَقُولُ: أسألك بالله أن تساعدني.

لِذَا اتقوا الذي تساءلون به، {وَالْأَرْحَامَ}، وهم الأقارب "الآباء، الإخوة، الأولاد، الأعمام..." وَأَيْضًا تقولون لبعضكم ما معناه: أسألك الرحم أن تساعدني... لِأَنَّ بينك وبينه قرابة وأنت تذكّره بالقرابة بينكم حتى يساعدك.

فإن كنتم في أقصى حالات التعامل فيما بينكم تسألون بعضكم بالله تعالى وبالرحم، فأنتم ملتفتون لشدّة أهميته تعالى عندكم ولشدّة أهمية الرحم، لعلاقة القرابة النسبية بينكم، فاتقوا الله تعالى وعمليا يعني أطيعوا أوامره سبحانه طالما تعتبرونه تعالى مهمّا جدا لكم فلا تفعلوا السوء، واتقوا القرابة التي بينكم وعمليا هذا يعني تجنّب التعامل بشكل مسيء مع الأرحام مع الأقارب، طالما تعتبرونها شيئا مهمّا جدا لكم.

{إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}، لا يغفل عنكم، وَيراقبكم، فانتبهوا من مراقبته لكم حول تقواه، وحول معاملتكم للأرحام.

هَذَا هو محور السورة: تقوى الله تعالى في الأرحام، وفي بقية الناس لأنهم أصلا كلهم أقارب لبعض من نفس واحدة، وستتحدث السورة عن أبرز الأضداد لتقواه تعالى في الأرحام، وهو النفاق من الذين يقولون بأنهم مؤمنون وهم يفعلون السوء مع الآخرين...

أَخِيرًا، بالبداهة تفهم ما تريد أول آية من سورتنا قوله: أنت ذكر وتلك أنثى، ومن الذكر والأنثى تناسل الناس، كل الناس، لِأَنَّكُمْ كُلَّكُمْ من نفس الكوكب ومن نفس أساس التكوين، إِذًا كُلُّكُمْ أرحام بالأصل، وهذا شيء ليس بحاجة لدراسات عميقة لتراه، بل يكفي لفت انتباهك له، إِذْ كلنا إنسان، ومن هنا ستنطلق السورة لتحذيرنا من التعامل مع عموم الناس بظلم، والتحذير من التعامل بظلم مع النساء ومع أقاربنا بشكل خاص...

(وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً{2})
تبدأ السورة بالتنبيه على تقواه تعالى مع أضعف أعضاء المجتمع مع الناس:

{وَآتُوا الْيَتَامَى}، الأولاد الذين فقدوا المسؤول عنهم "الذين فقدوا أباهم" فلتكن معهم، {أَمْوَالَهُمْ}، فلا تأخذوها غصبا أو بالحيلة... لأن الأب مات، والأم ضعيفة لا تستطيع المطالبة بحقوق أولادها، والأولاد صغار ولا قوة لهم أمامكم...

صحيح أن المشرّدين وأولاد الشارع هم في مستوى الأيتام بل ربما بعضهم أكثر سُوءًا، فما ذكرته الآية ما هو إلا نموذج بارز عن إنسان ضعيف ولكن له حق، حَيْثُ ترك له أبوه مَالًا، فلا تسلبه أو تغصبه ماله، فهذا اعتداء كبير جدا جدا.

لَاحِظْ أننا نعبّر بكلمة أموال عن كل شيء له قيمة، فلا يعلق في ذهنك أن العملة الورقية هي فقط اسمها: مال. لا، فهذه اسمها أَمْوَالٌ نَقْدِيَّةٌ، فكل ما له قيمة فهو مَالٌ، فالمواشي والبيوت والأراضي... كلها لها قيمة مالية، فهي مَالٌ ونسميها أَمْوَالًا عَيْنِيَّةً.

الحالة الثانية: {وَلَا تَتَبَدَّلُوا}، فلا تَقُومُوا بتبديل المال، {الْخَبِيثَ}، الرديء العاطل الفاسد، بالمال، {الطَّيِّبِ}، الجيد الصالح، فمثلا تَأْخُذُونَ مواشي اليتيم الجيّدة، وَتَسْتَبْدِلُونَهَا بمواشي رديئة، أو مثلا تَأْخُذُونَ قطعة أرض اليتيم التي في وسط المدينة، وَتُعْطُونَهُ قطعة أرض قيمتها أقل في الصحراء...

الحالة الثالثة: {وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ}، فتخلطوها مع بعض فلا يُعَدُّ مال اليتيم وَاضِحًا ويضيع حَقُّهُ، فمثلا: تأخذ أموال الأيتام وتقول إِنَّكَ أضفتها إلى شركتك وَصَارَتْ لليتيم حصة معك، ولكنك لم تحدد مقدار حِصَّتِهِ، ولا يعرف كم يملك، وإذا حصلت خسارة فإنك تأخذها من مال اليتيم، وإذا حصل ربح فالنسبة الأكبر لك...

{إِنَّهُ}، هذا الاعتداء على أموال الأيتام بأشكاله المختلفة الذي ذكرت الآية أبرز نماذجه، أو بأي شكل كان، {إِنَّهُ}، {كَانَ حُوبًا كَبِيرًا}، ولم ترد كلمة حُوبٍ في القرآن إلا هنا، ويبدو من استعمال العرب لها أنها تشير لشيء له علاقة بالمحيط الصغير حول المرء، لأقاربه وجيرانه الملاصقين الذين يصيرون بمثابة أقاربه، وسياق الكلام هنا عن شناعة سوء الاعتداء على أموال الأيتام كالاعتداء، فهذا شيء معيب وبشكل كبير، فالحساب عليه يكون كبيرا أيضا، وسيأتيك في الآية العاشرة من هذه السورة أن العقاب على ذلك سيكون بالحريق في بطون الآكلين لأموال الأيتام في الآخرة.

(وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ{3})

الآية السابقة نبّهت وهدّدت مِنَ السيطرة على أموال الأيتام الصغار أو الفاقدين للقدرة على الدفاع عن حقوقهم، كنموذج بارز عن الضعفاء، وَالْآنَ ننتقل إلى حقّ آخر للأيتام:

{وَإِنْ خِفْتُمْ}، إن شعرتم بشيء "سيء" أكيد، {أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى}، أَنْ لا تعطوا القسط، لا تعطوا ما للفتيات اليتيمات بالضبط، فشعرتم بأنكم بالتأكيد ستضرون اليتيمات وَلا تعطوهن ما لهنّ بالضبط كاملا، وتكملة الكلام عنهن كزوجات، {فَانْكِحُوا} فتزوجوا {مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ}، فلا تتزوجوا من اللاتي لا يعجبنكم، بل تزوجوا من اللواتي يَطِبْنَ لكم وَتشعرون بأنكم ترغبون بهن، {مَثْنَى}، زَوْجَتَيْنِ، {وَثُلَاثَ}، ثَلَاثَ زوجات، {وَرُبَاعَ}، أربع زوجات. فاتركوا الزواج من يتيمة لا تعجبكم، وَلا تتزوجّوها لأنها متاحة وَتَضُمُّوهَا كزوجة "زيادة" على الزوجات، لا، لِأَنَّكُمْ لستم تفعلون الخير معهن بهذه الطريقة، فاتركوهن إن خفتم ألا تقسطوا بمعاملتهن كزوجة محترمة، حَيْثُ أتحنا لكم الزواج بما طاب لكم من النساء غير اليتيمات وصولا حتى أربع زوجات...

اَلْآيَةُ هنا لا دلالة صريحة فيها على حصر الزيجات بأربع، كَمَا ترى بوضوح أنها لا تفرض عليك الزواج بِاثْنَتَيْنِ لأنها لم تذكر الواحدة، كَذَلِكَ لا تفترض أنها توقفك عند الرابعة، لِأَنَّ سياق الكلام ليس لتحديد كم يجوز، بل عن أنه يجوز الإكثار، فلست محصورا في شرعه تعالى بواحدة، ولولا التفسير المشهور جدا بين عموم المسلمين أن الحدّ الأقصى المسموح به للرجل الزواج من أَرْبَعِ نساء، لرأيت الآية توحي بشكل ما بذلك لأنها توقّفت عند الأربعة ولكنها لا تصرّح به.

كَمَا نفرّق بين استعمال: واحد وأول وَوَاحِدَةٍ. واثنين وثاني ومثنى... حَيْثُ نستعمل كل كلمة منها في جملتها المناسبة، هُنَا، أنسب كلمة لوصف رجل متزوج من اثْنَتَيْنِ هي أن نقول: تزوج مثنى. يعني تزوج بعدد اثنين. وتزوج ثلاث. يعني

تزوج بعدد ثلاث مرات. وتزوج رباع. يعني تزوج بعدد أربع مرات، وَالآية لا تشير لجواز الزواج بِتِسْعِ نساء "2+3+4" لِأَنَّ سياق كلامها عن الإكثار فقط.

أَرْبَعُ نسوة عَدَدٌ كَبِيرٌ أكثر من كاف للإشارة إلى جواز الإكثار من الزوجات لِذَلِكَ توقفت الآية عنده، فإن لم تكن تشير للحد الأقصى المسموح، فهي على الأقل تشير للعدد الأكبر الذي يَشْطَحُ إليه أحد ما إذا كانت رغبته قوية وجسده يلبّي رغباته، وَالكلام يجرّ الكلام، حَيْثُ إِنَّ بعضهم يرغب بزوجة ثانية ويتزوج ولكنه بعد مدة يطلق واحدة منهما لأنه نفسيا وجسديا "وماليا" لم يتحمّل زوجتين، وبعضهم يتزوج بأربع ولا تسمع باعتراض من زوجاته وَلا يطلبن الطلاق لأنه لا يلبي رغباتهن... وَالسماح بتعدد الزوجات ليس فرضا واجبا على كل رجل، بل لمن يرغب ويستطيع، وليس هضما لحقّ المرأة بإشباع رغباتها، لِأَنَّ الذي يعدد الزيجات ولا يقدر على تلبية رغبات زوجاته تراه يرجع للواحدة...

{فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا}، فشعرتم أَنَّهُنَّ زوجاتكم سيتضررن بالتأكيد لأنكم ستفرقون بينهن بالمعاملة العاطفية أو المالية... {فَوَاحِدَةً}، فِي حالة الخوف من ارتكاب السوء بإهمال الزوجة القديمة والاهتمام بالجديدة، أو بالعكس... فلا يحق لك الزواج مرّة ثانية.

اَلْآيَةُ هنا على معنى أن الكلام يجرّ الكلام، حَيْثُ إِنَّ البداية مع الزواج من يتيمة كشفقة، فلا تفعلوه إن كانت النتيجة أنها لن تتعامل كزوجة محترمة مقدرة، ومتاح لكم الزواج حتى أربع نساء على خاطركم ولستم مضطرين للزواج من اليتيمة فلا تجعلوا يتمها وشفقتكم عليها حجّة للزواج منها كزوجة من الدرجة الثانية، والكلام يجرّ الكلام، حَتَّى بقية النساء المتاحات لكم للزواج منهن أَيْضًا إن شعرتم أنكم لن تكونوا عادلين معهن فلا يجوز لكم تعديد الزوجات ويجب عليكم الاكتفاء بزوجة واحدة بغض النظر عن كونها يتيمة أو غيرها...

{أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}، وأيضا على معنى الكلام يجرّ الكلام، لِأَنَّكُمْ ربما بسبب حالتكم المالية المتعثرة لن تقدروا على الزواج من اثنتين إلا أن تعيش واحدة منهن مكتفية والثانية ستعاني ماليا، أو من الأساس حالتكم المالية غير كافية لتأمين حياة كريمة لحرّة، فعندها تزوّجوا من أمة، لِأَنَّ تكاليف الزواج منها وتكاليف مصاريف حياتها يمكنكم تحمّلها. {ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا}، لِأَنَّ هذا الاكتفاء بزوجة واحدة حرّة أو بأمة أدنى "أقرب" حتى لا تصيروا معيلين مسؤولين ماليا عن عائلة بما يفوق طاقتكم.

مجموع كلام الآية صار عن حالتين، عِنْدَمَا لا نقدر على إعالة "تقديم المال والاحتياجات" لعدة زوجات، ولا نقدر على توزيع المحبة والاهتمام والمعاملة الممتازة بالتساوي، وَلا نعدل بالمعاملة ولا بالمصروف، فَاكْتَفِ بزوجة واحدة، أو بأمة.

اَلْإِمَاءُ "العبدات" كَانَ أمرا واقعا في ذلك الزمان إلى زمن لم يتجاوز المئة سنة من عصرنا، حَيْثُ كانت العبودية لا تزال منتشرة... وراجع دراسة الآية 6 من سورة المؤمنين لمزيد من التوسع عن العبيد، وعلى كل حال وَواقع حال المتطلبات المالية للعبدة أقل من المتطلبات المالية للحرة، من مهر ونفقة على شؤون المعيشة... لِأَنَّ كلام الآية هنا عن الإعالة وليس عن المعاملة والمعاشرة، إِذْ هذه محسوم أنها يجب أن تكون بالمعروف...

(وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً{4})
نكمل مع تقواه تعالى في الناس، ونكمل مع حقوق اليتيمات وبشكل عام للنساء:

{وَآتُوا النِّسَاءَ}، وليكن معهن منكم، {صَدُقَاتِهِنَّ}، "بالضمّة على الدال" مهرهن، {نِحْلَةً}، فليخرج من ملككم إلى ملكهن بالتمام بكل رضا وطيب نفس، لِأَنَّ الْمَهْرَ تدفعه للأنثى لأنها قبلت الزواج بك، وانتهى، حَيْثُ صَارَتْ زوجتك، ولك عليها حقوق الزوجية، ولم يعد لك أي علاقة بالمهر لِأَنَّهُ صَارَ ملكا لها، فلا تتلاعب عليها لتنساه، أو تفاوضها عليه بشيء آخر، أو تمنعها من التصرّف به كما تشاء، أو تضع في بالك أنك ستحصّله منها فيما بعد...

{فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ}، إن طابت النساء لكم عن شيء من المهر، إن سامحتكم بكل رضاها بقسم منه وَلَمْ يكن عندها مانع من تصرّف الزوج به، {فَكُلُوهُ}، فاستهلكوه واستعملوه، {هَنِيئًا}، بالهنا بمسرّة من دون أي مشكلة أو أذى،

{مَرِيئًا}، من دون أي غصة، فلا داعي للشعور بالحرج أو المضايقة لأنها هي من طيب نفسها ومن دون إكراه سامحت بشيء من المهر.

كما ترى، لَا تَزَالُ الكثير من مجتمعاتنا تعاني من استضعاف النساء، وكثيرا ما طرح القرآن تشريعاته تعالى من منظور النساء، بتوجيه الكلام للرجال ليعطوا للنساء حقوقهن، ولكن صدق فينا القول: على من تَتْلُو مزاميرك يا دَاوُودُ. حَيْثُ إِنَّ الْكَثِيرِينَ يعتبرون المهر كرقم بلا قيمة، لِأَنَّ لديهم ألف طريقة للتفلّت منه، بالضغط والإكراه على الزوجة بالمعاملة السيئة حتى هي تطلب الطلاق متنازلة عن حقوقها... وبالتهديد بالطلاق مع المنع من رؤية الأولاد... ولا دراية لي بشرع المجوس في هكذا أمور، ولكن عادتنا بتوصيف من لا ناموس له أنه من الْمَجُوسِ، وعلى هذا المعنى فالكثير من مجتمعاتنا مجوس في التعامل مع المرأة. وَلَا تفهم من كلامي تقديس المرأة، لِأَنَّ سُوءَ الخلق والأخلاق منتشر، ولكن الكلام عن الاستضعاف لدرجة تمييع وتشويه معنى تشريعاته تعالى.

(وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً{5})
لِنَتَّقِ الله تعالى في المسألة التالية:

{وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ}، ولا تعطوا البسطاء الذين عقلهم خفيف، الذين عندهم ضعف وبساطة في التفكير، فلا تعطوهم أموالكم لأنهم سيصرفون المال بسفاهة على أشياء لا قيمة لها ولا يحتاجونها... ويمكن أن يقعوا ضحية الاحتيال، فلا تعطوهم الأموال، {الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا}، لتقوم بها أموركم، التي تَعْتَمِدُونَ عليها لإقامة لتفعيل أمور حياتكم، وَتَأْكُلُونَ وَتَشْرَبُونَ وَتَلْبَسُونَ وَتَسْكُنُونَ وَتَتَدَاوَوْنَ... فلا تعطوها للسفيه حتى لا يتم صرفها بسفاهة على أمور تافهة.

السَّفِيهُ هو الذي عقله خفيف كالبسطاء والكبار في السن في أرذل العمر "الخرف الكامل أو الجزئي"، وإذا كان وَاجِبًا علينا إدارة مال السفيه فمن البديهي أن المجنون يجب أَلَّا نعطيه ماله ليصرفه، لِذَا يَجِبُ أن ندير شؤونه أَيْضًا.

{وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا}، فليكن للسفهاء ما يسدّون به حاجاتهم ورغباتهم، من طعام وبقية الحاجات الحياتية... بعبارة أبسط أَعْطُوهُمْ رِزْقًا بَدَلًا من المال، فإن كانوا في أقصى درجات السفه فاشتروا أنتم لهم ما يَحْتَاجُونَهُ ليأكلوا، {وَاكْسُوهُمْ}، أَمِّنُوا لهم عامّة اللباس من تلك الأموال، سواء ما يخرجون به أو ما يرتدونه في المنزل... وَأَنْتُمُ اشتروا لهم ما يلبسونه. وَأَدِيرُوا شؤونهم الحياتية حتى الخاصّة منها.

{وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا}، فتحدثوا معهم بالطريقة المتعارف عليها ويقبلها منكم الناس العقلاء، وَلا تتحدثوا معهم بسخافة أو استهزاء وقلة قيمة. حَيْثُ يُطَالِبُ السفيه بماله، فلا تقل له إِنَّهُ أهبل ومجنون، ولا تضحك عليه، بل استعمل الكلمات التي لا ينكرها الناس حتى لو تساهلت بالتعبير كما لو أنك تتحدث مع طفل، لِذَا لِيَكُنْ خطابك معه بشكل محترم...

هذه الآية تحدثت عن قسم ضعيف من الناس وَيحتاج للعناية والمساعدة، وهم السفهاء، وحددت أَنَّهُ بشكل عام، لا يحق لنا ترك السفيه يتحكم بأمواله، ويجب علينا إدارتها وحتى إدارة الأمور الحياتية الخاصّة به والمتعلقة بالمال، وإذا لم يكن عنده مال ورثه أو وهبه له أحد ما... أو قبل أن يصير سَفِيهًا كان غَنِيًّا... فهو له مال من الصدقات، فَنَفْسُ الشيء، حَيْثُ مِنَ الصدقات يجب أن نصرف عليه أَيْضًا بشكل إداري، سَوَاءٌ كان ماله أو مال الصدقات فَقَدْ شملته الآية بوصفه "أموالكم"، وَلا نعطيه مَالًا بيده بل نقوم نحن بتأمين احتياجاته، وندخل من الحكم الشرعي للاعتناء بالسفيه، سواء كان يَتِيمًا أو غيره، صَغِيرًا أو كَبِيرًا، حَيْثُ سَوْفَ تدخل السورة من هنا على إدارة مال الأيتام في الآية التالية.

قبل ذلك نلاحظ التعابير القرآنية التي تنطلق من النظرة الإلهية، هُنَا {لَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ} لا تشير حصرا للمال الذي أنا أملكه وأعطيه للسفيه، حَتَّى ماله الشخصي يجب أَلَّا نتركه تحت إدارته، وهذا التعبير مشابه لتعبير {اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ}... لِأَنَّهُ مِنَ النظرة الإلهية كلكم من بعض، ومثل تعبير {لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ} حَيْثُ إِنَّ كُلَّ أموالكم أموال لكم كلّكم، بعبارة أبسط، فإذا أعطيت جماعة من الناس مَالًا، وتقاسموها بينهم، فبالنسبة لك عندما تخاطبهم ستقول لهم: {لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ}، {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ}... وهكذا تجد الكلام القرآني معنا دَائِمًا من النظرة الإلهية لنا كلّنا حيث هو تعالى جعل المال معنا.

بَقِيَ شيء، مِنْ صريح الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا}... نرى أَمْرًا إِلَهِيًّا بدفع الإيجار لعمّال على الجباية والعناية والتوزيع للزكاة وبقية الموارد المالية، وهذا يأخذك إلى واقع حال تطبيق شريعته تعالى الذي يستدعي إنشاء إدارات، ناهيك عن الأمور العادية التي اعتاد الناس إنشاء إدارات لها، هُنَا نحن أمام أمر بتوظيف لإدارة شؤون ما قد تعبّر عنه بأنهم مُعَاقُونَ عقليا، وفي سورتنا هذه وغيرها شؤون أخرى صريحة بتوظيف من يهتم بإدارتها، لَا زِلْنَا نتذكر أن موضوع سورتنا هذه تقواه تعالى في الناس وبسهولة تشتق منه الاهتمام بالضعفاء.

(وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً{ (6}
بالنسبة لإدارة أموال الأيتام السفهاء بسبب صغر سنّهم، وليس لديهم الخبرة الكافية للتعامل بالأمور المالية:

{وَابْتَلُوا الْيَتَامَى}، فاختبروهم لتروا إن كانوا تغيروا وصاروا قادرين على إِدَارَةِ أموالهم عبر تعريضهم لما يجعلهم يكتسبون خبرة... فإذا كنت وصيا أو مسؤولا عن أيتام، فشغّلهم في أموالهم بالتدرج ليكتسبوا الخبرة، {حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ}، حَيْثُ صَارَ لديهم رغبة "واعية عقلانية" بالزواج، {فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ}، فشعرتم مع اطمئنان وبراحة من تصرفاتهم، {رُشْدًا}، تفكيرا وتصرفا صحيحا، عن وعي وذكاء، ولم يعودوا أطفالا، وَبِكُلِّ راحة واطمئنان شعرتم أنهم راشدون، {فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ}، إلى الأيتام، {أَمْوَالَهُمْ}، فَسَلِّمُوهُمْ أموالهم التي كانت تحت إدارتكم لتصير تحت إدارتهم المباشرة.

نلاحظ في عموم ثقافتنا الدينية التشريعية أننا نربط بين البلوغ الجسدي للنكاح، وهو قابلية الجسد على إقامة علاقة جنسية، وبين التعبير القرآني هنا عن بلوغ النكاح، عِلْمًا أن المعنى أعمّ من ذلك، فهو ضِمْنِيًّا يشمل وصول الجسد إلى البلوغ الجنسي، ويشمل ما هو متعارف عليه في مجتمعاتنا من البلوغ إِلَى سنّ الرغبة بالزواج مع قبول المجتمع لهذا الزواج، فالآية هنا تتحدّث عن حالة مثل حالة رفضك لولد كعريس لابنتك أو كقبولك بشاب تعتبر فيه القدرة على إنشاء أسرة، وهذا المفهوم المرادف لكلمة "رشد"، وَلَمْ يُحَدِّدِ القرآن عمرا للزواج، لا من التسع سنوات "قمرية" للبنت، ولا من الخمسة عشر سنة "قمرية" للفتى، ولا للوصول إلى سنّ الثامنة عشر... بل تركه القرآن مفتوحا بسبب اختلاف الناس في الوصول إلى سنّ الرشد، وبسبب اختلاف ثقافات الناس التي تعتبر هذا رشيدا وذاك لا يزال ولدا بالنظر إلى ثقافتهم وخصوص تقييم مجتمعهم للرشد. وعلى هذا فالرشد هنا المرتبط بالنكاح هُوَ المتعارف عليه بين الناس أنه شابّ أو شابّة يعي أو تعي ما ستقدم عليه من زواج وعائلة ومسؤوليات... من دون تحديد لعمر "أربعة عشر سنة، ستة عشر، ثمانية عشر، أو واحد وعشرون..." ملزم كل المجتمعات في كلّ الأزمنة، بل هو متروك لتقدير الناس بحسب ثقافتهم.

بعبارة أخرى، اَلْمَقْبُولُ في مجتمعكم كقادر على تحمّل مسؤولية الزواج، مِمَّا يَعْنِي أنكم تَعْتَبِرُونَهُ رَاشِدًا، فَسَلِّمُوهُ أمواله إن شعرتم أنه قادر على إدارتها بشكل عقلاني مقبول.

{وَلَا تَأْكُلُوهَا}، فلا تستهلكوا أموال الأيتام، {إِسْرَافًا}، فوق الحد المعقول، فالذي يدير أموال اليتيم يحق له أن يأخذ منها مصروفا لنفسه لِأَنَّهُ يصرف وقتا وجهدا في إدارتها، لِذَا تُنَبِّهُهُ الآية أن لا يصرف من مال الأيتام على نفسه بإسراف بمبالغة، بل يأكل ويشرب ويلبس ويسكن... وَيَأْخُذُ أجرته على الإدارة مثله مثل الناس العادية في أي وظيفة عادية مشابهة ومن دون أي زيادة، ولا تأكلوا أموال اليتيم، {بِدَارًا}، فتبادروا إلى صرفها في أسرع وقت فتحسبوا حساب، {أَنْ يَكْبَرُوا}، فلا تسرفوا أو تصرفوها بسرعة قبل أن يكبر اليتيم ويأخذها، مَثَلًا: لا تصرفها على أشياء تخصك وأنت تقول بأنك ستحسم ما أخذته من أجار السنوات القادمة، وَتَعْتَبِرُ نفسك أخذت أجارك سلفا، وفي الحقيقة إنما أنت تريد الاستعجال للأكل من مال اليتيم لأنه في الأشهر القليلة المقبلة سوف تكون مجبورا على إعطائه أمواله لأنه صار كبيرا وراشدا.

{وَمَنْ كَانَ} منكم {غَنِيًّا}، فكان يملك ما يكفيه من المال ليصرف على أمور حياته، {فَلْيَسْتَعْفِفْ}، فليقم بإدارة مال الأيتام من دون أن يأخذ منها أَجْرًا على الإدارة، أو يأخذ أَجْرًا خفيفا أقل من المتعارف عليه.

{وَمَنْ كَانَ}، يدير أموال الأيتام وكان هذا المدير، {فَقِيرًا}، تنقصه لوازم الحياة، {فَلْيَأْكُلْ}، فليستهلك من أموال اليتيم، {بِالْمَعْرُوفِ}، بما هو متعارف عليه بين المؤمنين العقلاء، فليأخذ منها أَجْرًا على الإدارة مثلما تأخذ الناس العادية على أي وظيفة عادية تستهلك نفس الوقت والجهد.

{فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ}، فحوّلتم إدارة أموال الأيتام النقدية والعينية إلى الأيتام بعد أن آنستم منهم رشدا، {فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ}، فأحضروا أشخاصا يشهدون فيرون ويسمعون أنكم أعطيتم اليتيم كل ماله، لِأَنَّكَ كمدير لمال اليتيم يعلم الناس بأن مال اليتيم معك، فإن أعطيته ماله ولم يشهد أحد من الناس عليك، فربما يطالبك اليتيم فيما بعد بماله، والناس تعرف أن ماله معك، وَسَيُطَالِبُونَكَ بدفع المال لليتيم من جديد.

{وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا}، فإن كنت تحتسبه تعالى فتعتمد عليه فيما حصل وسيحصل معك كجهة وحيدة ترعاك فسبحانه فِعْلًا يكفيك لوحده لرعايتك، كما نقول: حسبي الله. ونقصد أنه تعالى يكفيني. وهنا الكلام عن هذه التشريعات الكافية لكم، والضامنة لحقوقكم وتنظيم شؤونكم.

(لِّلرِّجَالِ نَصيِبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً{7})
من هنا تدخل السورة على تقواه تعالى في الناس، وبالخصوص في الأرحام، في موضوع حقوق الميراث، فالقاعدة العامة الأولى للميراث: حقوق النساء محفوظة في شريعة الله تعالى.

{لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ}، للذكور حِصَّةٌ قِسْمَةٌ قَدَرُهَا محدّد، {مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ}، من الأشياء التي تركها الوالدان الأب والأم بعد وفاتهما، ولهم حصّة من الأشياء التي تركها، {الْأَقْرَبُونَ}، الزوجة أو الولد أو الأخ أو العم...

{وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ}، بلا أي تمييز، فكلاهما له حصة محدّدة من الميراث وهي حصّة مختلفة.

الذكور والإناث لهم حصة من التركة من الميراث، {مِمَّا قَلَّ مِنْهُ}، من الميراث، {أَوْ كَثُرَ}، يعني سواء كان ما تركه الميت قليلا أو كثيرا، سواء ترك دينارا واحدا أو مليار دينار، فلكل واحد منهما حصّة محدّدة، {مَّفْرُوضًا}، إجبارياً محدّداً كفرض فلا يمكن التهاون به أو تغييره، وسنرى في الآيات الآتية كيف تُقَسَّمُ حصص التركة على الإناث والذكور.

بعضَ الأحيان يكون الميراث قطعة أرض ثمنها قليل، وإذا توزعت على الورثة فالحصص ستكون تقريبا بلا أي منفعة لأي منهم لأنها لا تشتري شيئا له أهمية، وبعض الناس يستهترون ويحرمون البقية من هكذا ميراث بحجّة أنه قليل وهم أحوج من الآخرين له، وعادة تكون النساء الطرف الأضعف، ويعارض الذكور ويأخذون حصصهم والنساء ضعيفات ويقولون إنهنّ سامحن إخوتهنّ...

(وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفاً{8})
{وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ}، إذا كان موجوداً أثناء تقسيم الميراث، {أُولُو الْقُرْبَى}، الموصوفون بالقرابة، الذين بينهم وبين الميت قرابة، كالإخوة والأعمام والأخوال والعمات أو أبنائهم... وكانوا لا حصّة لهم من الميراث، أو حضر القسمة، {الْيَتَامَى}، وطبعاً المقصود الصغار الذين فقدوا معيلهم، وعادة هم الفاقدون لأبيهم، أو حضر، {الْمَسَاكِينُ}، وهم الأشخاص الذين حالتهم المادية متعثرة وبحاجة للمساعدة.

{فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ}، فأعطوهم شيئاً من الميراث ليحصلوا على ما يسدّون به حاجاتهم، وأعطوهم طعاماً محسوباً أنه من الميراث، أو أعطوهم مالاً ليشتروا به ما يأكلونه... {وَقُولُوا لَهُمْ}، لهؤلاء الأقرباء أو الأيتام أو المساكين، {قَوْلًا مَّعْرُوفًا}، متعارفاً عليه بين الناس وتكلّموا معهم باحترام ولا تستعملوا عبارات الإهانة، ولا عبارات التكبّر والاستعلاء.

انتبه، لأنَّ عامة الآيات الكثيرة التي تتحدث عن الصدقة لم تقصد أن تأمرنا "أمراً واجباً" بجعل الفقراء أغنياء، لا، حيثُ الصدقة تكون بأي شيء له قيمة، كالصدقة بوجبة طعام أو بمال يشتري وجبة طعام، وبحسب قدرتك تتصدّق، وكلما

كبرت الصدقة كبر الأجر، وبناءُ بيت للفقير أو تأمين التعليم والطبابة... كلُّه صدقة مرتفعة الأجر، وتذكّر دائماً أنه لا يوجد شيء اسمه صدقة مستحبّة إن كان معك ما تتصدّق به على من يحتاج إلى المساعدة في مسألة ضرورية، فهذا واجب دائماً، وهنا تفترض الآية حالة حصولك على ميراث، مما يعني أنك صار معك ما يمكنك أن تتصدّق منه على المحتاجين، فارزقهم منه، حيثُ أتاك رزق وتأمرك الآية أن تشاركهم فيه بشيء، وهنا لا تقصد الآية أن تأمرك بقيمة محددة للفقراء من الميراث، وحتى لا تفهم أنها تأمرك بإعطائهم حصّة في الشركة أو البيت أو الأرض... عبّرت بـ"{فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ}"، حيثُ يمكنك التصدّق بطعام أو بمبلغ قليل أو كثير، وتتصدّق بحسب ما تتحمله حالتك المادية على افتراض أن حصتك من الميراث جعلتك ميسور الحال.

(وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً{9})
{وَلْيَخْشَ}، وليكن عندهم شعور التوقّع من حصول شيء سيّء يمكن تجنبّه، ولينتبهوا ويحسبوا حساباً وليتجنّبوا حصول الضرر، {الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ}، لو كان لهم من بعد موتهم، {ذُرِّيَّةً ضِعَافًا}، أولاداً انفصلوا عنهم بالولادة "أو بغيرها" وهم يفقدون القوة اللازمة، كأبناء وحفدة ضعاف لأنهم صغار في السن أو هناك متجبرون مستقوون عليهم... {خَافُوا عَلَيْهِمْ}، فشعروا بحصول ضرر أكيد على ذريّتهم إذا لم يحصلوا على المال الذي تركوه لهم، {فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ}، فليتجنبوا غضب وعقاب الله تعالى عليهم فلا يفعلوا السوء، {وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا}، كما نقول: سدّد على الهدف. فليقولوا كلاماً صائباً في محلّه بلا شطط عن الشريعة.

لو كان لديك ذرية "أولاد وأولاد أولاد" ضعافٌ، وكنت تصرف عليهم في حياتك، وتخاف عليهم بعد موتك أن يقوم أقرباؤك أو أحد ما بالتسلّط على ما تركته من بعد موتك، ويحرموا ذريتك من ميراثك، فهذا سبب واضح لك أن لا تفعل نفس الشيء بميراث من مات وخلفه ذرية ضعافٌ يمكنك التسلّط عليهم، فاتّقِ الله تعالى حتى تكون التقوى في ميراث الناس شيئاً منتَشِراً في مجتمعك، وهذا يعطي ضمانة لذريتك أن تحصل على ميراثها حتى لو كانت ضعيفةً. وتلاحظ بشكل واضح التعبير بالذرية الذي يشير للأولاد، وأولاد الأولاد، وأولاد أولاد الأولاد... يعني تصرّفك الآن سيؤثّر فيما سيأتي على ذريتك في المستقبل، فإن كان أولادك أقوياء فربما أولاد أولادك لن يكونوا أقوياء، وإن تسلّطت على ما يتركه الناس للأيتام الضعفاء... فسيترسّخ ذلك في ثقافة مجتمعك، وسيأتي الدور على أيتامك وأيتام ذريتك ليعانوا من تسلّط أحد ما عليهم.

إن كنت لا تقبل بتسلّط الأقوياء على ما تتركه لذريتك "لأيتامك"، إذن كيف تتسلّط أنت على ما تركه الآخرون لذريتهم "لأيتامهم"؟

عادةً هذه الحال تراها بوضوح في الذي بنى شركة ويرغب باستمرار ملكيتها لذريته، أو لديه أرض أو بيت يراه مميّزاً ويرغب باستمرار الاستفادة منه أو باستمرار الملكية من أجداده إلى أحفاده، ولكن هناك أمثلة أشدُّ خطورةً، حيثُ تنتشر ثقافة التسلّط على الضعفاء، وتكون ذريتك هم الضعفاء، ونتيجة لذلك سيعيشون الفقر والظلم...

(إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً{10})
تكملة الآية السابقة لتحذير ناهبي حصة الأيتام والضعاف من الميراث:

{إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا}، الذين يستهلكونها بغير حق، وبشكل عام سواء أَكَلَ من حصة الأيتام من الميراث، أو مما يتصدق به الناس عليهم، فإنْ أَكَلَ أموالهم بغير حق، ولم يكن له على الورثة أو الميّت دين أو أجرة... فهؤلاء، {إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا}، لأنَّ هذه الأموال التي أكلوها على اليتيم هي في الحقيقة نار ستحرقهم من الداخل في الآخرة.

{وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا}، سيكونون مُصْلَيْنَ متعرّضين، لسعير، لنار مستعرة متأججة لها ألسنة لهب حارقة بشدة.

من الداخل ستحرقهم النار ومن الخارج أيضا، ورغم هذا التهديد الشديد ترى انتشار الجمعيات التي تجمع التبرعات باسم الفقراء والأيتام وينهبونها! أو يعطون الفتات للمستحقين وهم يعيشون في النعيم!

(يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيماً{11})

ما تذكره الآيات هنا هو الخطوط الرئيسية لتقسيم الميراث، مع مرونة في التقسيم بما يناسب ظروف الورثة، وكما فهمنا من الآية 180 من سورة البقرة {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ}، أنَّ الأساس هو الإجازة لمن يريد تقسيم أملاكه في حياته أو بعد مماته، أن يكتب وصية لِيُقَسِّمَهَا على أساس ما يناسب ظروف ورثته وأقاربه، وإن لم تتناسب وصيته مع ظروفهم، فيمكنهم التقاسم هم فيما بينهم بالتراضي، وإن لم يتراضوا ننتقلْ إلى ولاية المؤمنين ويتدخّلْ حَكَمٌ "كقاضٍ" بين الورثة، ويستعمل الحَكَمُ هامش الثلث إلى النصف من التركة لمراعاة ظروف الورثة بالمعروف بما يتماشى مع التقسيمات التي تذكرها الآيات هنا.

ما تذكره الآيات هنا ليس تقسيمات حديّة، وكما هو معلوم التراضي عادة حالة شائعة بين المتوارثين، حيثُ هناك بيت أو بيوت، وأرض أو أراضٍ، أو دكّان أو شركة... وهذه أشياء لا يمكن أحيانا التعامل معها بحديّة التقسيم ليتشارك الجميع في نفس البيت وفي نفس قطعة الأرض ونفس الدكان والسيارة...

ضَعْ في بالك أنَّهُ تعالى أرادنا في هذه السورة أن نتقيه في الآخرين، وهنا الكلام توجيهات إلهية بدل الاستقواء والتسلّط على ميراث الميّت وحرمان الضعفاء منه... وليكون لهم حصّةٌ تتحدّد بالوصية أو بما ستذكره الآيات هنا "كمرجعية" أو بالتراضي بلا استقواء واستضعاف أو ضرر يمكن تلافيه بتعديل التقسيم، وخاصة النساء، ولذلك ترى الآيات تطرح المواريث مع التركيز من جهة عرضها لحصة النساء.

عادةً نحن ندرس هذه الآيات على أساس احتوائها لكل احتمالات التوريث المحتملة بأوجز تعابير، وبناء عليه سندرسها بعيدا عن الروايات التي كالعادة وصلنا منها المتخالفات والمتعارضات مع بعضها... ولا أدّعي أن هذا التفسير هو الصحيح، وإنما هو أقصى ما فهمته منها بعد التمعّن فيها لوحدها "لسنين" من دون أي موروث ثقافي من خارج القرآن.

لِنَبْدَأْ بدراسة تقسيمات الميراث:

{يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ}، يوصل إليكم تعالى أوامره لتتصرّفوا على أساسها في توريث أولادكم، وتبدأ الآية بالحديث عن حصّة أولاد الميّت، سواء إذا كانوا لوحدهم بلا وارث آخر فهم يتقاسمون الميراث هكذا، أو كان معهم ورثة "أبوان أو زوج أو زوجة" للميّت، ويأخذ أولئك الورثة حصصهم بحسب ما سيأتي، "وسيأتيك الكلام عن ميراث الإخوة"، وما بقي من الميراث من بعد حصة الأبوين والزوج يتقاسمهُ الأولاد على الشكل التالي:

{لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ}، فإن كان للميّت ولدٌ ذكرٌ واحدٌ ومعه أختان، فللذكر حصّة ليس له قرار في تحديدها وهذا معنى كلمة "حظّ"، وحصّته النصف ولأختيه حظّ النصف، ولكل واحدة منهما الربع من أصل التركة.

{فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ}، ثلاث إناث أو أربع أو أكثر في مقابل ذكر واحد، {فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ}، ويُقَسَّمُ بالتساوي عليهن، والثلث الباقي للولد الذكر.

{وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً}، بنت وحيدة في مقابل ذكر وحيد، {فَلَهَا النِّصْفُ}، ولأخيها النصف.

وبناء عليه، ولدانِ "ذكرانِ" أو أكثر من ذكر، مع بنت أنثى أو مع إناث، فللذكر مثل حظّ الأنثيين.

هكذا تنتهي كل الحالات المتوقّعة لتقسيم التركة على الأولاد فيما بينهم إذا كانوا لوحدهم الوارثينَ، أو يكون هذا التقسيم على الأولاد مما بقي من التركة من بعدما أخذ الأبوان أو الزوج "أو الزوجة" حصّتهم...

بقي شيء، وهل يرث الأحفاد من جدّهم أو جدّتهم إذا كان أبوهم ميّتاً أو أمّهم ميّتةً قبل جدّهم أو قبل جدّتهم، وهل يأخذون حصّة أبيهم أو أمهم مما تركه جدّهم أو جدّتهم؟ ولا يبدو ذلك صريحاً من التعبير بـ {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ}... فلو شملنا الأولاد مع الأحفاد لصار لكل حفيد حصّة مماثلة لأعمامه إن كانت كلمة ولد تشملهم، ولكن بسهولة يمكن إقحام الأحفاد بافتراض كلام الآية عن نموذج، ويصير الولد الميّت محسوبا له حصّة اعتبارية يرثها أولاده، ولسنا مضطرين لإجراء حكم الحصة الوهمية على بقية الورثة، لأنَّ هذا قياس غير مقبول عقلاً،

ومثلاً لا معنى لإجرائه على الزوج الميّت قبل زوجته والتي تركت إرثاً، لنعطي منه لأبوي الزوج حصّة ابنهم لو كان حيّاً، لأنَّ كلمة زوج لا تشملهم ولكن كلمة أولاد "بشكل ما" تشمل الأحفاد... ومضافاً إلى هذا صريح ما في الآية ما قبل السابقة التي عبّرت عنهم بالذرية، وصريح في المرونة التي تركها القرآن كمساحة في الوصية للوالدين والأقربين بما يراه الموصي مناسباً كما ورد في الآية 180 من سورة البقرة، وصريح في المفهوم العام لتصحيح أوضاع الورثة "الأقربين" عند تقسيم الميراث عليهم بالمرونة المتاحة من الثلث إلى النصف للتصرّف بها بما يناسب حال الورثة، وهذا هو السبب لفهمنا للروايات أنها متخالفة لأنها استعملت هذا الهامش بينما نحن قرأناها باحثين عن الحديّة في التقسيم بنسب وأرقام محدّدةٍ... ومضافاً لما سبق عن دعم توريث الأحفاد نجد شيئاً صريحاً مما تذكره الآية التالية عن توريث الكلالة، وهو كلام عن توريث لِلْإِخْوَةِ بما يعادل حصّة الأبوين.

على الأقل وبغض النظر عن كل ما سبق يحق للموصي تخصيص أيتام أولاده من ثلث أو نصف ما سيتركه، وهذا شيء لم يذكره القرآن ولكنه مفهوم وواضح جداً من تكرار الكلام عن الوصية حتى هنا من بعد ذكر الآيات للحصص، وما معنى الوصية وبماذا يفيد الكلام عنها إذا لم يكن مسموحاً للميت إلا الالتزام بالحصص المذكورة هنا؟ وهكذا ترى أن تطبيقات الرسول (ع) والجيل الأول من المسلمين للميراث كانت ناظرةً لمرونة تتراوح بين الثلث والنصف لمراعاة ظروف الورثة... أو يخصّص القاضي من التركة للأيتام إن خالف الجدّ ما أوصاه به تعالى في ذريته، ولم يُوصِ لهم مع حاجتهم للمال...

أمّا لماذا لم تذكرهم الآية صراحةً؟ فهذا مثل الكثير من الأمور التي تركها القرآن اعتماداً على ما افترضه فينا من عقلانية، حيثُ حرّم لحم الخنزير ولم يجد داعياً لذكر تحريم أكل عظمه أو جلده لأنَّ هذه عادةً لا تؤكل... ولم يتحدّث عن حلية وقَرَاحِ ماء الوضوء... ولم يذكر هنا ميراث الخنثى تاركاً هذه الحالة لنا لتحديد عرفي أو بيولوجي للتعامل مع الخنثى كذكر أو كأنثى، أو ترك القرآن التفاصيل اعتماداً على ما افترضه فينا من أخلاقيات للمؤمنين، حيثُ لم يذكر شيئاً عن تربية الأطفال وهذا لا يعني الإجازة بالكذب عليهم أو بضربهم أو تعنيفهم... وفي الكلام عن الميراث هنا وكما تسمع عن لا أخلاقيات حرموا فيها أحفاداً فقراء من الميراث... أو استولوا على حصصهم المحدّدة بوصية... كذلك تسمع عن حالات أخلاقيات تنازل فيها الورثة عن حصصهم لأحفاد أو لأولاد فقراء للميّت...

نرجع للآية، {وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ} إن كان له، للميّت، ولد، ذكر أو ذكور أو بنت أو بنات أو ذكور وبنات... ويتم تقسيم ما تركه الميّت على ستِّ حصصٍ، وينال الأب حصّة من ستّ حصص، والأمّ حصّة من ستّ حصص، {مِمَّا تَرَكَ}، ومن أصل ما تركه الميّت أولاً يحصل الأبوان على حصّتهما، والباقي يرثه الأولاد بحسب ما ورد في أول جملة من آيتنا هنا. يعني لا حاجة لإجراء عملية حسابية للحصص على النسب الموروثة بين الأبوين والأولاد، بل أولاً يأخذ الأبوان حصّتهما، وما بقي يتم تقسيمه على الأولاد بحسب ما ورد في بداية الآية، فلو فرضنا وجود زوج أو زوجة وأب وأم وأولاد، فحصة الزوج أو الزوجة والأبوين تحسم أولاً مما تركه الميّت والباقي للأولاد.

نكمل مع الآية: {فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ}، لا أنثى ولا ذكر، {وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ}، وصارت ملكية ما تركه الميّت لأبويه، {فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ}، ويتم تقسيم الميراث على ثلاثة، وتحصل الأم على حصّة من تلك الثلاثة، ومن البديهي أن الباقي "ثلثان" هما حصّة الأب.

{فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ}، لم يكن للميّت ولد وورثه أبواه، وللميّت إخوة، {فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ}، ونقسم الميراث على ستّة وتأخذ الأم حصة واحدة منها، ومن البديهي أن الباقي للأب ولا شيء لِلْإِخْوَةِ، لأنَّ الكلام عن {وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ}. يعني تصير حصة الأم أقل وتكبر حصّة الأب إن لم يكن للميت ولد وكان له إخوة.

بضمّ الآية التالية ترى أنه إن لم يكن للميتة ولد ولها زوج فله النصف مما تركت، و"من" الباقي للأم الثلث إن لم يكن للميتة إخوة والباقي للأب، و"من الباقي" للأم السدس إن كان له إخوة والباقي للأب، لأنَّ الآية لم تقل أن حصة الأبوين في هذه الحالة مما ترك، وحصّة الأم لم تحدّد من أصل ما ترك بل من بعد حسم حصة الزوج أو الزوجة، وهكذا تبقى حصّة الأب أكبر من حصّة الأم في كل الحالات.

من ظاهر الكلام نفهم أنه مع وجود الأب والولد الذكر لا يرث الإخوة لأن حصصَ الأب والولد الذكر مستوعبة لكل ما بقي لأنها لم تتحدّد.

{مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا}، حيثُ كل التقسيم السابق للميراث يكون من بعدما يوصي الميت بشيء ما، من بعدما ترك ورقة عليها وصيّته، أو شيئاً ما قاله كوصية أمام شهود عن صرف شيء مما يملكه من بعد موته لفلان أو على كذا... ولنقل أوصى ببناء مسجد، أو بمبلغ كذا للأيتام... أو خصّص واحداً من الناس من أقربائه أو من غير أقربائه بشيء من أمواله أو أملاكه... ومن المشهور بين الناس من سنّة النبي (ع) أنه يحقّ له أن يوصي بالثلث "إلى النصف" من أمواله، وإن كانت الآيات تعطي معنى أوسع من ذلك، ولذلك تجد في الروايات التطبيقية للوصية أنها تمتد من الثلث إلى النصف إلى كلّ التركة، فإن وافق الورثة على ما وصّى به الميّت بترك كل أملاكه للفقراء "مثلاً"، فلا مشكلة، وإن لم يوافقوا فلا يمكنهم الاستحواذ على كلّ ما تركه الميّت، وبحسب ما يراه القاضي مناسباً لظروفهم وبما يناسب ما تركه الميّت، فعلى الأقل يعطي الفقراء ثلث ما تركه الميّت إن كان ذلك ممكناً وغير مُضِرٍّ بالورثة، وربما كانت أملاك الميّت هي البيت الذي يسكنه الورثة ولا بيت آخر لهم...

{أَوْ دَيْنٍ}، فإن كان على الميّت ديونٌ للناس، فيجب ردّها لهم قبل تقسيم ميراثه. ونتذكّر أن مهر الزوجة المؤخّر حتى أجل الوفاة هو أيضاً دينٌ على الزوج، ويجب دفعه لها قبل تقسيم ميراثه، وأيضاً نفقة المطلقة وأُجْرَةُ الإرضاع، والديّات والكفّارات... ومعهم نفقة الأرملة لمدة سنة...

{آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا}، لأنَّكم في حياتكم معهم لا تدرون من سيهتمّ بكم ويساعدكم وليس لكم مصلحة بحسم الأمور معهم وبناء عداوة أو كره بسبب تقسيم للميراث بوصية منكم علنية تحرم أحدهم...

هذا التقسيم للميراث هو، {فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ}، ويجب تنفيذها من دون تلاعب بها. طبعاً هذا لا يعني إجبارنا على أخذ الحصّة حيثُ يمكن التنازل عنها للآخرين، ولكنه يعني أننا لا يحقّ لنا كموصين حرمان الآخرين على الأقل من هذه الحصص مع الأخذ بعين الاعتبار حرية الميت في الوصية بالثلث إلى النصف.

{إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا}، يعلم كل شيء، وهنا الإشارة أنه يعلم ما هو الأفضل لنا، ولذلك قسّم تعالى الميراث بهذا الشكل، وكان الله، {حَكِيمًا}، وعندما قسّم تعالى الميراث بهذا الشكل، فَعَنْ حكمة قسّمه وليس عن عبث أو مزاجية. لأنَّنا نحن مزاجيون، نحبّ هذا ونكره ذاك... على أمور وخلافات غالباً تكون تافهة، فلو كان أمر الوصية متروكاً لنا بدون الضوابط التي ذكرتها الآيات، سترى بعض الناس تورّث كلبها ولا تورّث أقاربها! خُذْ هذا النموذج كأسوأ ما يمكن أن يفعله البعض، وانزل منه إلى حرمان واحد من الأولاد، أو إعطاء واحد منهم أكثر من الآخرين... وغالباً يفعلون هذا من مزاجهم وليس عن حكمة، ولذلك تدخّل تعالى وبيّن لنا أفضل ما يمكن أن يتنفّذ كحالة عامّة يمكن انطباقها على الكثيرين، حيثُ لا تتحمّل الأحكام الإلهية مساحة أكبر من حرية الموصي بالثلث أو النصف، لأنَّه ربما يكون جائراً ظالماً ويحرم ولداً لا يستحقّ الحرمان... وربما يكون أحد أولاده عاطلاً جدّاً جدّاً معه، ولا يستحقّ في نظرنا أن يرث، ولكن لو تركت في الوصية مساحة لحرمان الولد الذي كان عاقّاً، فمن يضمن لنا أن كل الناس معاييرها مضبوطة؟ فكم من أب أو أمّ يغضبُ على ولد بارّ ويحابي ولداً عاقّاً؟

(وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ{12})

{وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ}، فإن ماتت الزوجة فزوجها يحصل على نصف ما تركته، {إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ}، للزوجة، {وَلَدٌ}، فزوجته ماتت وليس لها أولاد، لا ذكور ولا إناث، لا من زوجها الأخير "ولا من الذي قبله على فرض أنها كانت متزوجة سابقاً"، فلزوجها التي ماتت وهي على ذمّته النصف.

{فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ}، فكان الميّت امرأة ولها ولد من زوجها الأخير أو من غيره، {فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ}، {مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ}، فإن كانت المتوفاة قد خصّصت من أموالها حصّة لصرفها على أي شخص كان أو لأعمال الخير أو... وإن كان عليها دين فيتم ردّ ديونها كلّها وبعد ذلك يأخذ الزوج حصّته.

{وَلَهُنَّ}، للزوجة أو الزوجات، {الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ}، ويتم تقسيم الميراث على أربعة وتأخذ الزوجة أو الزوجات هذه الحصّة، {إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ}، فالميّت رجل ولا ولد له لا ذكر ولا أنثى سواء من التي توفّى عنها الميّت وهي على ذمّته، أو لا ولد له من غيرها.

{فَإِن كَانَ لَكُمْ}، للرجل الميّت، {وَلَدٌ}، من آخر زوجة أو زوجات، أو من غيرهن من زوجات متوفيات أو مطلقات، {فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم}، ويتم تقسيم الميراث على ثمانية وتأخذ الزوجة أو الزوجات هذه الحصة، {مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ}.

وربط هذا الكلام مع ما سبق، فإن كان للميّت ولد عندها يأخذ الزوج أو الزوجة مع الأبوين يأخذون حصّتهم من تقسيم نسبتهم كلهم مجموعين على التركة أولاً، ففي هذه الحالة قيّدت الآيات حصصهم "{مِمَّا تَرَكَ}"، ومما بقي يأخذ الأولاد حصصهم على التقسيم الذي ذكرناه في الآية السابقة، وبحسب ما فهمناه فطالما هناك أب يصير ما بقي كله للأولاد حتى لو كانوا بنات أو كانت بنتاً وحيدةً ولا يرث الإخوة.

ربطا مع الآيات السابقة فإن لم يكن للميّت ولد، عندئذ الزوج أو الزوجة يأخذون حصصهم أولاً، و"ما بقي" يتم تقسيمه على الأبوين ثلثا للأم وثلثان للأب إن لم يكن للميت إخوة، فإن كان له إخوة فمما بقي من بعد حسم حصة الزوج أو الزوجة تأخذ الأم السدس والباقي للأب. يعني دائماً حصة الأب أكبر من حصّة الأم بسبب تقييد الآيات للتقسيم بـ: {مِمَّا تَرَكَ}.

{وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ}، تورث كلالة، وفي الاستعمال القديم قبل الاسلام للعرب لم أجد تحديداً لمعنى الكلالة غير إشارتها للابتعاد عن النسب بشكل ما، وما ستجده في التفاسير وغالب كتب اللغة والروايات من معنى لكلمة كلالة فهو متأثر بما فهموه هم من تقسيمات الميراث، ولا يبدو منه تحديدهم اللغوي لمعنى كلمة كلالة، فهم بذلك يضعون مصطلحا فقهيا للكلمة وليس المعنى اللغوي، ولم يوصلهم ذلك لأي نتيجة موحدة...

من فحوى الآية السابقة التي فتحت في بعض زواياها حصة الأب والولد الذكر لتستوعب ما بقي، ومن الآية هنا وفحوى آخر آية من السورة والتي فيها كلالة مع حالة جديدة حيث وصفت ميراث الميّت بالكلالة مع ليس له ولد، نفهم المعنى العملي لكلا الآيتين، عمليا هو وصول الميراث إلى الإخوة، ونفهم أن الكلالة هنا حالة ليس فيها أب ولا ولد ذكر، وحالة الكلالة في آخر السورة ليس فيها أب ولا ولد ذكر أو أنثى. وهذا معنى بعيد عن المزاج الفقهي العام لمختلف مذاهب المسلمين، وما ذكروه عن كون الكلالة هنا وفي آخر آية من السورة يشيران إلى توريث الإخوة من الأب أو من الأم... فهو بعيد جدا عن ظاهر الآيات التي لن تفهم منها أبداً ولا بأي شكل أي شيء مما يقولونه، إلا إذا كان لديهم دليل على معنى كلمة "كلالة" يدعم ما يقولونه، وأبسط دليل على بعد المعاني التي طرحوها اختلافهم الشديد فيما اشتقوه من حصص للورثة، والغريب ما تجده في كلامهم لتفسير الآية عن توريث الإخوة من الأب أو الأم مع غياب الكلام عن تحديد حصّة ميراث لِلْإِخْوَةِ من الأب والأم معاً، وكأن الأخوة من الأب أو الأم لهم أولوية ميراث أكثر من الإخوة من الأب والأم معاً...

أبسط ما نفهمه من تقييد آخر آية من السورة للكلالة بإضافة شيء جديد عليها أنه ليس للميت ولد مطلقاً لا ذكر ولا أنثى، وما نجده هنا من تحديد لحصص الإخوة بالسدسين كحدّ أقصى، وهي حصة الأبوين إن كان للميت ولد، فظاهر كلام الآيات يشير لكون الكلالة وصف لمن مات أبوه قبله، ومضافاً لذلك أنه ليس له ولد ذكر. فالأب والولد الذكر معاً فقط هما المانعان من وصول الميراث لِلْإِخْوَةِ، ومع وجود أولاد للميت فحصص الإخوة مذكورة في الآية هنا، أما إن لم يكن للميت ولد لا ذكر ولا أنثى فحصّة الإخوة تحددها آخر آية من السورة.

نرجع للآية، {وَلَهُ}، للرجل الميّت، {أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ}، وهذه الحالة مشابهة لحالة البنت إن كانت واحدة في مقابل أخ واحد والتي ذكرتها الآية السابقة، فحصة الولد الذكر وأخته متساوية بالنصف إن كانا الولدين الوحيدين للميّت، وكما ترى فحصة السدسين لِلْإِخْوَةِ مساوية لحصة الأبوين إن كان للميت ولد، فالإخوة هنا يرثون حصّة كانت مخصصة لأبويهم، مما يعني أنه يوجد بنت أو بنات للميّت ولكن ليس للميّت ولد ذكر وأبوه مات قبله.

{فَإِن كَانُوا}، الإخوة، {أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ}، أكثر من أخ وأخت، {فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ}، فتبقى حصتهم السدسان "وهي مساوية للثلث" ويتم تقسيمها بالتساوي على الذكور والإناث بالتفصيل الذي ذكرته أول جملة من الآية السابقة.

حتى لا تضيع انتبه أن الآية لم تغيّر نسبة ما يرثه الإخوة، فالسدسان هما نفس قيمة الثلث.

إذاً هذا ما يظهر من دراسة الآيات لوحدها من دون التأثر بأي مخزون ثقافي، إلا إذا تبين لنا ما يحدّد معنى مختلف لكلمة كلالة، فكلامنا هذا يعني مشاركة الإخوة للأولاد البنات بالميراث في حالة وفاة أب الميّت قبله.

الكلام هنا ضمنا يشير إلى حصول الأخوة على السدسين وهي حصّة الأب والأم "الميتة من قبل"، فلو الأب موجود لما ورث الأخوة أصلاً، "وأيضاً لو الولد الذكر موجود لما وصل ميراث للأخوة"، وإن كانت الأم حيّة فلها السدس سواء كان للميت أولاد أو بدون أولاد طالما للميت إخوة، وهذا الكلام عن أم ترث مع الأخوة فهو ضمناً يشير إلى بقاء سدس فقط ليرثه الأخوة فالسدس الآخر أخذته الأم إن كانت لا تزال حيّة، والثمن للزوجة والربع للزوج إن كانا حيَّيْنِ لأنه يوجد للميّت ولد "بنت أو بنات".

هكذا نطرح مفهوما مرنا للكلام عن التوريث، فكلام الآية هنا عن حصّة الإخوة بالثلثين هو أقصى ما يمكن أن تصل إليه حصتهم إن كانت الأم ماتت من قبل وللميت ولد بنت أو بنات. وبالتالي فللاخوة الثلثان بشروط وليست حصّة مفروضة لهما.

هذا التوزيع للحصص يكون، {مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ}، فتنفيذ ما في الوصية على أساس أن كاتب الوصية لم يقصد التسبّب "بالضرر" بسوء أحوال الورثة، فلم يورّث شخصا منهم أو لغيرهم شيئا يحتاجه الآخرون بشدّة... فأمر تنفيذ وصية الميت، ليس مطلقا وفي جميع الأحوال، فلو وصّى بقسم من ماله على أمور سيئة فمن البديهي أن لا ننفّذ وصيته، والآية هنا تفترض أننا لن نفعل ذلك، وهي تتحدّث عن وصية فيها ضرر للورثة، فلا يجب تنفيذها.

{وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ}، هذه التعلميات صادرة منه تعالى وقد صار تنفيذها من مسؤوليتكم.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ}، يعلم إن كنتم تقصدون الضرر للورثة، ويعلم بما أنسب لكم بتقسيم الميراث، والله، {حَلِيمٌ}، بتعبيرنا الدارج: طويل البال. فلا يمكن استفزازه عبر مخالفة أوامره، وهذا الكلام موجّه للمشاركين في الضرر في تنفيذ وصية الميت، فتريد الآية تنبيههم بأنه سبحانه يعلم بنواياهم، ولكنه سبحانه يحلم عليهم لذلك يعطيهم فرصة ليقوموا بتصحيح الخطأ إن أخذوا حصّة تزيد عن حصتهم، ليردّوها إلى صاحبها.

هناك كلام في الكتب عن حرمان الأنثى "بنتاً أو زوجة أو أمّا أو أختا..." من العقار، وقد ورد في بعض الروايات ما يدعم ذلك وورد فيها أيضاً ما ينافيه، ففي بعض الروايات تجد حرمانا للأنثى من الدور "البيوت والحوانيت: الدكاكين..." والعقار أي الأراضي ببناء عليها أو بدون بناء... وفي بعض الروايات تجد الأنثى ترث من البيت والعقار... والسبب أن الروايات التطبيقية لآيات الميراث قد وصلتنا ناقصة، والبعض منها علّل حرمان الأنثى من العقار لأنها إذا تزوّجت فسيأتي رجل غريب ليشارك أهل الميّت في المنزل أو العقار... تصوّر أرملة شابّة مات زوجها، وأولاده وأهله في بيته، فماذا لو تزوّجت وانتقل زوجها الجديد للعيش معها في حصّتها في المنزل؟... بعض المشرّعين حرموها بالكامل من العقار وآخرون حكموا لها بالحصول على قيمة حصّتها المالية النقدية من العقار، وبعضهم ترك ذلك بحسب ظروف الورثة، وهذا هو الصحيح، فبحسب الظروف المناسبة للورثة يتم تقسيم الميراث الذي يتضمّن عقارات أو بيوت... ولا يوجد حكم قرآني يحرم الأنثى من العقار والديار... بل ترك القرآن كل تقسيم التركة بما يناسب ظروف كلّ الورثة بحيث لا يحصل ضرر على أحد منهم، وهذا يتضمّن إعطاء البعض منهم قيمة العقار أو حصّة منه، أو المنع من بيعه حتى لا يصير بعض الورثة بلا بيت...

في آخر السورة ستجد كلاما عن كلالة من نوع آخر غير المذكور هنا، وهي كلالة عن موت الأبوين قبل الميّت الموروث وأنه بلا أولاد ذكورا وإناثا.

(تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{13})

{تِلْكَ}، التقسيمات لما يتركه الميّت والوصية وردّ الديون للناس من تركة الميت، {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ}، التي حدّدها تعالى لنا، ويجب أن لا نتخطى تلك الحدود، {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، والكلام عن عموم الطاعة وهنا بالخصوص عن الميراث، حيثُ يأخذ حصته المحددة له من الميراث، ويعطي الآخرين حصصهم، ولا يستقوي على الضعفاء... فهذا المطيع، {يُدْخِلْهُ}، ربنا سبحانه إلى، {جَنَّاتٍ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها مما يسرّه ومناظر طبيعية خلابة من بساتين وحدائق... {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، أنهار المياه العذبة وبمختلف أنواع النكهات، وبصوت خريرها، وألوانها ولمعانها... {خَالِدِينَ فِيهَا}، لأنهم في تلك الجنات لا يموتون ولا يفنون ولا الجنّات تخرب أو تفنى.

{وَذَٰلِكَ}، الخلود في تلك الجنات هو، {الْفَوْزُ}، هو الحصول على ما يطلبونه ويريدونه، {الْعَظِيمُ}، الكبير الضخم الهائل، لأنَّ كل ما تتصوره في الدنيا من سعادة... كُلُّهُ لا شيء أمام ما يوجد في جنات الآخرة، وأقل درجة من جنات الآخرة هي أعظم روعة من أي شيء في الدنيا، يعني لا تجعل طمعك بحقوق الآخرين يحرمك من جنّة خالدة رائعة.

لا تَنْسَ أن السورة تتمحور حول تقواه تعالى في عموم الناس، وبالخصوص في الأرحام، وبالأخص في الإناث، لأنهنّ "وإلى الآن في غالبية مجتمعاتنا" لا زلن الضعيفاتِ في الحصول على حقّهن من الميراث، ولذلك حدّدت لهن الآيات حصّتهن، وسترى تهديداً إلهياً لمن يتخطّى حدوده تعالى ويحرم الآخرين من حقّهم في الميراث، وسبق الكلام في السورة بالتشديد والتهديد على أكل مال الأيتام...

(وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ{14})
{وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، الذي يخالف ما قاله تعالى وقاله رسوله (ع)، وهذا التهديد عمومي وهنا الكلام عن خصوص من يقوم بمخالفة التقسيم الإلهي للوصية، {وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ}، ولا يقف عندها بل يتجاوزها ويتخطاها، فمثلاً حدوده أن لا حصة له من الميراث بحسب التقسيم الإلهي، ولكنه لا يلتزم، ويتعدّى حدوده، ويأخذ من التركة! أو له حصّة ولكنه تحايل أو بالقوّة أخذ حصّة أكبر مما يستحقّ.

هذا، {يُدْخِلْهُ}، ربنا سبحانه، {نَارًا}، في الآخرة، {خَالِدًا فِيهَا}، لا يموت ولا يفنى، {وَلَهُ}، في النار، {عَذَابٌ مُّهِينٌ}، لأنَّ النار تحرقه من الخارج، ولكن ليس هذا فقط، لأنه تجرأ على ربنا سبحانه حين خالف الحدود، فسوف تتم إهانته على تلك المخالفة، وطريقة تعذيبه في النار ستجعله يشعر بأنه محتقر مهان بلا قيمة، ونفسياً سيتعذب.

لاحظ أننا نقرأ أو نسمع بعض الناس يتجرؤون ويتطاولون على رب العزة، فهؤلاء سيتم تحقيرهم وإهانتهم في النار، وعندما يقول سبحانه بأن عذابهم مهين، فهذا يعني أنهم بالتأكيد سيشعرون بعذاب نفسي من الاحتقار، ولن يتمكنوا من الحفاظ على قوتهم العقلية والنفسية، بل كلّ من تعدّى حدوده سينهار من أول لحظة يفتح فيها أعينه على عالم الآخرة.

نلاحظ أن من يقصد مخالفة شريعته تعالى، سيخلد في جهنم، ومن متابعة الآيات سنعرف أنه حتى لو كان مسلماً، وخالف عن قصد، ولم يتب، فسيخلد في جهنم.

بقي شيء، حيثُ أثناء قراءتك لتقسيمات الميراث، سيقفز إلى ذهنك ومشاعرك حالتك الاجتماعية مع أقاربك، وهذا ليس معياراً صحيحاً للحكم على الأمور، وبالرغم من ذلك فإنَّ فكرك ونفسيتك سيحكمان عليك لتعترض أو توافق على ما تقوله آيات الأحكام، فانتبه يا عزيزي ويا عزيزتي، حيثُ هذا يحبّ زوجته ويرغب في أن ترث كل ماله ولا يأخذ منه إخوتُه، وذاك يعيش معها غصباً عنه ويتمنى لو بعد موته أن تتعس حالتها وأن يأخذ إخوتُه كل ماله... لأنَّ ما تشعر به أنت تجاه أقاربك ليس المعيار لوضع الأحكام الشرعية على أساسه، ومضافاً إلى ذلك بقية الارتباطات التشريعية الأخرى، حيثُ إنَّ تقليل حصّة الأنثى يبدو بسبب الأعباء المطلوبة من الذكر لتأمين عياله وأقاربه، وغيرها من الأمور... فإن تبينت لك الأحكام من ظاهر الكلام الإلهي، فخذ بها وإلا فأنت مشمول بالتهديد بالنار لأنك جعلت أفكارك ونفسيتك حاكمة على كلامه تعالى.

(وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً{15})

نكمل مع تقواه تعالى وبالخصوص في النساء، فهن الضعيفات إن ارتكبن خطأ ما، حيثُ تنزل عليهن من مجتمعهن أقصى العقوبات، ويتغافل المجتمع عن الذكر إذا ارتكب نفس الخطأ! بل ومن التشريعات الذكورية جعل العديد من العلماء الآيةَ هنا منسوخة بآية جلد الزانية الواردةِ في الآية 2 من سورة النور {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ}، بل شوّهوا حتى تلك الآية وأفتوا برجم الزانية! بل المجتمع الذكوري المدّعي للإسلام يقتل الأنثى على الشبهة!

{وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ}، يَقُمْنَ بعمل جنسي سيّء، {مِن نِّسَائِكُمْ}، فإذا قامت النساء بعمل شهواني جنسي سيّء، {فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ}، على المتهمة، واطلبوا أن يشهد، {أَرْبَعَةً مِّنكُمْ}، وحتى يثبت عليهن أنهن قمن بعمل جنسي سيّء يجب أن يكون شاهدهن أربعة أشخاص، فإن شاهدهن أقل من أربعة أشخاص فلا يحق لمن شاهد أن يتكلم بأي شيء بل يسكت ولا يتكلم في الموضوع أبداً بتاتاً ولا مع أي أحد، وهذا واضح من الآية 4 من سورة النور {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}.

الآيةُ الآن تتحدّث بعد حصول الحادثة، حيثُ تقول: اطلبوا من أربعة أن يشهدوا... وليس تتحدّث عن لحظة وقوع الحادثة، وليس معناها أن ترى الحادثة وتذهب لتبحث عن ثلاثة ليشهدوها ليروها، لا، بل تقول: حتى تثبت التهمة يجب أن يكون لديكم أربعة شهداء كانوا أثناء حصول الفاحشة.

{فَإِن شَهِدُوا}، فقال الأربعة بأنهم شاهدوا الإناثَ يَقُمْنَ بالفاحشة، {فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ}، المرتكبات للفاحشة، واحبسوهنّ في البيوت وامنعوهن من الخروج، {حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ}، حتى يأخذ الموت حياتهن في الدنيا، {أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا}، أو حتى يجعل تعالى لهن طريقاً للخروج من الحبس في البيت، وهذا إن تابت وتبيّن حسن سلوكها...

الفاحشةُ وصف لعموم أي عمل جنسي سيّء، وتشمل الزنا والسحاق واللواط، وتشمل ما هو أقل من ذلك، مثل التعري والملامسة البسيطة والتقبيل... طبعاً مع من لا يحلّ لها القيام بذلك معه... وهنا الآية عمومية لم تُحَدِّدْ نوع الفاحشة، ولندرسها مع الآية التالية لنرى ماذا تقصد، حيثُ التعبير بـ {اللَّاتِي} وفي الآية التالية بـ {وَاللَّذَانِ}، واللذانِ للمثنى لِتَشْمَلَ وصف الذكرين أو أنثى وذكر، وعقابهما الأذية... ويبقى هنا {اللَّاتِي} أنهن إناث مع بعضهن فَعَلْنَ الفاحشة، ولا عقاب لهن إلا الحبس بدون أذية.

عقابُ الزنا بالمقاربة الجنسية الكاملة للمحصنة محدّد في الآية 2 من سورة النور {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ}، وهنا العقاب بالحبس في البيوت بعموميته أيضاً يشمل ما بعد الجلد للزانية وما بعد عموم أي فاحشة ترتكبها الإناث، فلا قتل لهن، وإذا ظهرت عليهن أماراتُ التوبة والصلاح والفهم لسوء ما قمن به، فعندها يتم إطلاق سراحهن وَيَرْجِعْنَ لِحَيَاتِهِنَّ الطبيعية.

نتذكر أن تركيز السورة على تقواه تعالى في الناس، وهنا تقواه تعالى في خصوص النساء، ومما سيأتي في الآية التالية نفهم أن عقاب النساء الفاعلات للفاحشة الحبس فقط، فإن كانت محصنة زانية بعلاقة معاشرة تامة... فجلد وحبس، وإن كانت الفاحشة مع ذكر وأقل من الزنا بالعلاقة التامة، وكانت ملامسة، فالعقاب أذية وحبس كما ستقول الآية التالية.

كم من فتاة قتلها أهلها وأقاربها لمجرد رؤيتها تمشي مع شابّ ما... فإذا انتبهنا لهذه النقطة علمنا أن الآية هنا والآية 2 من سورة النور {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ...} تؤكدان على أنه لا قتل للأنثى حتى للمحصنة الفاعلة للزنا التام، وفقط جلد إن ثبت عليها الزنا بأربعة شهود.

من أمر الحبس في البيت، نفهم أنها إن كانت عزباء أو أرملة أو مطلقة تعيش في بيت أهلها، فلا يحق لأهلها رميها في الشارع بسبب عمل جنسي سيّء، ولا يحق لهم التبرّي منها، ولا يَحقّ لهم قتلها ولا أذيتها حتى بالكلام إلا لتأديبها، وإذا كانت متزوجة فلا تأمر الآية الزوج بأن يطلقها، حيثُ يمكنه تطليقها، وترجع إلى بيت أهلها ويحبسونها... ويمكن للزوج أن يحبسها في بيته إلى أن تظهر عليها علامات التوبة والصلاح... إلا إذا كانت الحالة ملاعنة بين الزوجين وهذا شيء تحدثت عنه الآيات حول الآية 7 من سورة النور {وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ}.

نعيد الكلام، لأنَّ السورة هنا تعرض تشريعاته تعالى لنتقيه في الضعفاء، وعرّجت على مسألة النساء الفاعلات للفاحشة، وأقصى عقاب لهن هو الجلد مئة جلدة إن كان زنا، وإن لم يكن زنا أو كان زنا وانجلدت، فمن بعدها عقاب الحبس، لا أكثر ولا أقل.

بقي شيء، وما معنى الشهداء الأربعة؟ حيثُ عادةً الحوادث كهذه تكون سريّة وبالكاد يراها واحد أو اثنان...؟ وما معنى ثلاثة شهدوا الحادثة فإذا أخبروا الآخرين بها فَيَنَالُونَ هم العقاب لأنهم ليسوا أربعة؟ لِذَلِكَ يأمرهم القرآن كما نفهم من الآية 4 من سورة النور أن يسكتوا وينسوا الموضوع نهائياً! {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}، معناه أنه تعالى يريد التضييق على هكذا أمور حتى لا تنتشر أحاديث عن الفاحشة بين الناس، لأنَّ من أهم أسباب انتشار الفواحش هو التداول بها مما يسبّب لفت انتباه الناس لها كتشجيع على فعلها.

ما نسمعه في مجتمعاتنا من استسهال الحديث بأعراض الناس للتسلية بهم وكأننا ملائكة وهم شياطين، لدرجة تنامي الشائعات الكاذبة من بداية مع مُفْتَرٍ رمى كلمة عن فتاة ما، أو فعلاً تلك الفتاة أخطأت بعمل صغير، وتداول الناس سيرتها مع بهارات وتمليح... حتى جعلوا منها زانية فعلت الكبيرة وبتكرار! إنَّ هذا الاستسهال بشرف الناس عليه عقاب إلهي، وقولي لك عن فاحشة نقلاً عن آخرين لم يكونوا أربعة شهود حين وقعت الحادثة، هذا عليه عقاب في الآخرة وفي الدنيا عليه جلد...

ناهيك عن تجاهلنا لمعنى المؤمن المحترم الذي لا يتسلّى بالكلام عن سيئات الناس، ناسين أن الكثير من الأمور ليست للتداول ومحلّها فقط أمام قاضٍ في محاكمة، وهنا في الآيات "وفي عموم القرآن" ترى أمراً إلهياً باستيعاب من ارتكب أو ارتكبت الفاحشة بعدما تاب، باستيعابه كعنصر عادي طبيعي في مجتمعه، فكيف يجتمع هذا الأمر الإلهي مع من يتسلّون بالكلام عمّا فعله الناس! ويقولون وبكل وقاحة: نحن لا نفعل حراماً، هم فعلوا الحرام ونحن فقط نتحدّث بما فعلوا... لا، فأنتم تَفْعَلُونَ الحرام وعقابكم عنده تعالى قد يكون أشد من عقاب فاعل الحرام إذا كان عمله زلّة لم يقصد منها أن تنتشر في المجتمع.

(وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً{16})
من تحليل الآية هنا بتعبير "{اللَّذَانِ}" وتعبير الآية السابقة بـ "{اللَّاتِي}"، فهمنا أن الكلام هنا عن ذكرين أو ذكر وأنثى.

{وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا}، يَقُومَانِ بالفاحشة {مِنكُمْ}، فإذا قام ذكران، أو ذكر وأنثى بفاحشة بعمل جنسي سيّء ولكنه أقل من الزنا التام ولم يحصل دخول... كَالتَّعَرِّي والملامسة البسيطة والتقبيل... {فَآذُوهُمَا}، بما هو مناسب من الجلد تَعْزِيراً "عقاب أذية" بما هو أقل من ثمانين جلدة، لأن الثمانين جلدة هي أقل عقاب حدّ ذكره القرآن، وهنا الآية لم تذكر لهما عِقَاباً فيجب أن يكون أقل من عقاب الحدّ، أو بدل الجلد بالضرب الخفيف أو بالتعنيف بالكلام أو بحلق شَعْرِهِمَا كعلامة على قيامهما بعمل سيّء، أو النفي للذكر... {فَإِن تَابَا}، وَفَتَحَا صفحة جديدة وَلم يعودا يَنْوِيَانِ ارتكاب الفاحشة مرة ثانية، {وَأَصْلَحَا}، وَتَبَيَّنَ لكم أنهما يتصرفان بشكل طبيعي مِثْلُهُمَا مِثْلُ بقية الناس، {فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا}، ولا تعتبروهما موضع اهتمام دائم بسبب ما فعلاه، ولا تلاحقوهما دَائِماً بالكلام القاسي والمواعظ القاسية، بل انسوا الموضوع من بعد تَوْبَتِهِمَا، وعودوا لِمُعَامَلَتِهِمَا بشكل عادي.

{إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا}، يقبل التوبة، وَمَنْ يَطْوِ الصفحة القديمة فإنَّهُ سبحانه يفتح له صفحة جديدة.

وَكَانَ اللَّهُ، {رَّحِيمًا}، لأنَّ هذا الشخص لم يعلن أنه كافر، ولم يعلن أنه معاند للدين، وَهُوَ لا يزال من المسلمين، ولذلك لم ترتفع عنه رحمة الله تعالى، وَمَا زال تحت العناية الإلهية الخاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، وعلى هذا الأساس يقبل سبحانه توبته، لأنه ارتكب عَمَلاً فَاحِشاً ولكنه تاب وأصلح.

هذا كلام الله عزّ وجلّ، أمّا كلام المجتمع الذكوري حيث يسيطر الذكور، وتكون العقوبات لا تشمل الذكور، فإنَّ المراجل والشهامة والكرامة تكون على النساء فقط! والمصيبة أنهم ينفذون أشد العقوبات بالتي تقوم بالفاحشة من أي

نوع كان، ولكن لا نسمع عن معاقبة الذكر الذي يقوم بالفاحشة حتى لو كَانَ الزنا مع محصنة! أو حتى اغتصاب لطفلة! بل في الكثير من مجتمعاتنا يتفاخرون بالشاب المرتكب للزنا!

للأسفِ فإنَّ هذه العقلية الذكورية نتوارثها وتصير من ثقافتنا وتنتقل إلى علماء الدين، وَتَصِيرُ مُقَاوَمَتُهُمْ لها صَعْبَةً بل وَمُسْتَحِيلَةً، وَيَرَوْنَ النصوص التشريعية القرآنية من هذا المنظور الذكوري!

كما ترى فإنَّهُ سبحانه يأمرنا بالإعراض عن التائبين من الفاحشة، وَنُعَامِلُهُمْ مثل بقية الناس، بينما مجتمعاتنا تسليتها بشرف الناس، وبالتحليل والتبهير والتمليح للحوادث بالتضخيم... واتهام الأبرياء، متجاهلين صراحة التحذير من لعنته تعالى الوارد في الآية 23 من سورة النور {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.

بقي شيء، حيثُ إنَّ الدارِجَ في بعض كتب الفقه شيء مختلف عمّا تقوله الآيات هنا، وَدَمْجاً لها مع الآيات التي تحدّثت عن الزنا، تصير الحالة هناك حالة حصول دخول، والحالة هنا حالة ما هو أقل من الدخول، وبناء عليه سواءٌ كانت الحالة ذَكَراً وأنثى أو ذكرين، فإنَّ ما هو أقل من الدخول حُكْمُهُ الأذى، وإن كان فيه دخول فَحُكْمُهُ على المحصنين مئة جلدة.

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً{17})

تحدثت الآية السابقة عن قبوله سبحانه للتوبة، فهل نفهم بأننا يمكننا ارتكاب ما نريد من سوء ثم بعد ذلك نتوب، وكأن شيئاً لم يحصل؟ لا، وَلْنُتَابِعْ:

{إِنَّمَا التَّوْبَةُ}، قبوله تعالى للتوبة، وَفَتْحُهُ تعالى صفحة جديدة لمن ارتكب السيئة، وَإِلْغَاؤُهُ تعالى للعقوبة على الذنب، هي فقط، على {الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ}، يقومون بعمل سيّءٍ، {بِجَهَالَةٍ}، عن جهل، عن طيش عن استهتار لا عن دراسة وانتباه، {ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ}، مباشرةً من بعد العمل السيّء يندمون ويعلنون بأنهم تائبون ولن يعودوا لارتكابه مرة ثانية.

{فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}، وَيُلْغِي العقاب على ما فعلوه سابقاً، ويعتبرهم كأنهم لا ذنب لهم.

{وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا}، حيثُ يعلم سبحانه كلّ شيء بالتفصيل وبدقة، وَيَعْلَمُ من ارتكب السوء عن جهل أو عن علم وإصرار، ويعلم تعالى من تاب حقاً.

وَكَانَ اللَّهُ، {حَكِيمًا}، لأنَّ هذه الأحكام والمعاملة الإلهية نابعة عن صوابية رؤيته تعالى للأمور، وبعضُ الناس لا يسمعون لهذه الأحكام على أساس أنها أقل بكثير مما يجب فعله مع مرتكبي الفاحشة، وبهذا يفترضون أنهم أعلم وأحكم منه تعالى!

(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً{18})

{وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ}، فتحه تعالى لصفحة جديدة لَاغِياً العقاب على مَا مَرَّ، {لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ}، فيقومون بالأعمال السيئة كالفاحشة وغيرها ولا يَتُوبُونَ من قريب وَيَنْتَظِرُونَ، {حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ}، إذا جاء إلى أحدهم، {الْمَوْتُ}، فشعر بأنه سيموت بعد وقت قليل، من المرض أو بسبب الشيخوخة أو من تعرضه لحادث مميت... عندها {قَالَ}: {إِنِّي تُبْتُ الْآنَ}.

فهذا لن يقبل سبحانه توبته لأنها بلا معنى، لأنه متأكد بأنه سيموت، فما معنى أنه تاب! لأنَّ التوبة معناها فتح صفحة جَدِيدَةٍ مُقْلِعاً عمّا سبق بِأَنَّنِي لن أكرّر عمل السوء، فإذا لم يعد لدي مجال لتكراره لِأَنَّنِي متأكد أَنَّنِي سأموت، فما معنى التوبة!

{وَلاَ}، التوبة للأشخاص، {الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ}، وهذا الكلام عمومي يشمل حالات، وَلْنَقُلْ إِنَّهُ كان مُؤْمِناً وقام بعمل سَيِّءٍ، ثم تاب، ثم بعد ذلك كفر... ومات وهو كَافِرٌ مُنْكِرٌ لله تعالى أو لرسله أو لشريعته، فهذا مَثَلُهُ مَثَلُ من كان كَافِراً من أوّل وعيه، فَلَنْ تَكُونَ له توبة، وَسَيُحَاسَبُ على الأعمال السيئة التي قام بها في السابق في الفترة التي كان فيها مُؤْمِناً، وكأنه لم يتب منها. وَلْنَقُلْ إِنَّهُ كان كَافِراً ثم آمن تَائِباً من أعماله، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ تعالى تواب وَتَابَ على كفره السابق ولن يحاسبه عليه، ولكن بعدها عاد للكفر، ومات كَافِراً، وَالفترةُ السابقة التي كان كَافِراً فيها والتي غفرها تعالى له بعدما آمن، فهذه سيعود الحساب عليها. وَلْنَقُلْ إِنَّهُ لم يؤمن ولا مرّة ولكنه تاب في حياته من سَيِّئَةٍ ما، وَمِثْلَمَا تحبط أعماله الحسنة وَتَفْقِدُ قيمتها لأنه ليس مُؤْمِناً، فكذلك توبته بلا قيمة وَسَيُجَازَى على السوء الذي فعله حتى لو تاب منه طالما مات كَافِراً.

{أُولَٰئِكَ}، التائبون بعد فوات الأوان، {أَعْتَدْنَا}، جَهَّزْنَا وَحَضَّرْنَا لهم، {عَذَابًا أَلِيمًا}، ضَرَراً لا يمكن تحمله ولا الاعتياد عليه.

تذكّر دَائِماً أن القرآن عادة يطرح نماذج بارزة عن أمور واضحة للفهم، لِذَلِكَ لا تقصد الآية هنا حصر كلامها عن الذي فقط وفقط صار على حافّة قبره من المرض أو الشيخوخة... حيثُ هناك الكثيرون يموتون بالحوادث فجأة ولم يكونوا يتوقعون الموت، فهل هم مستثنون من الكلام عن التوبة؟ وَلْنَقُلْ مات ولم يتب وَيَقُولُ في يوم القيامة: لو أتيحت لي الفرصة بعمر أطول لكنت تبت... لا، لأنَّ أي فرصة من الحياة مهما كانت مدّتها فهي مجال كان مُتَاحاً للتوبة، وأبرز نموذج عن ذلك الذي قضى حياته إلى المعدّل العام لحياة الناس، لستين أو سبعين أو ثمانين سنة ولم يتب، وحين شعر بالموت القريب، تاب. وهذا النموذج الواضح اختارته الآية.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهاً وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً{19})
نُكْمِلُ مع تقواه تعالى في النساء:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الناس الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {لَا يَحِلُّ لَكُمْ}، ليس عملا بلا عقاب عليه، فلا يجوز لكم، {أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا}، أن تَنْقُلُوا ما يَمْلِكْنَهُ إليكم لتتصرّفوا به كما تشاؤون غَصْباً عنهن، والكلام هنا عمومي عن كلّ ما تملكه المرأة ويريد زوجها التسلّط عليه، لأنَّ كلمة "إرث" ليست محصورة بموت من كان يملك وانتقال الملك لآخر، حيثُ إِنَّهُ سبحانه يورّث المؤمنين الجنّة، وهذا لا يعني أكثر من انتقال الملكية بدون استرداد وبدون بيع ولا شراء ولا عوض ولا بدل... لِذَلِكَ هنا الكلام لا يعني أنه ينتظر زوجته لتموت ليرثها، بل هو كلام لعموم أي مال أو أملاك للمرأة ويقوم الرجل بنقل الملكية وحريّة التصرف لنفسه ومنعها هي من التصرّف فيما تملكه، سواء أكان إِرْثاً لها من أهلها أو مَهْراً أو مَالاً من تعبها أو من هبة... فمالُها لها وهي حرّة التصرّف به.

تكملة الكلام تريك أن ما قالوه عن وراثة أهل الزوج لشخص زوجته من بعد وفاته، ليزوجوها من يشاؤون... لا تقصده الآية علما أنه حرام.

{وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ}، ولا يحل لكم أن تعضلوهن، أن تجعلوا أُمُورَهُنَّ في معضلة، بشكل يصعب حلّه بالتضييق والتصعيب... {لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ}، لأنك عندما تزوجتها حَدَّدْتَ لها مَهْراً، صَدَاقاً، فلا تضيّق عليها حتى تسترجع منها المهر أو تسامحك به، وَتَعْضُلُهَا عبر منعها من زيارة أهلها أو أصدقائها لتجعلها تعيد لك المهر أو تسامحك به حتى تسمح لها بزيارة أهلها مَثَلاً.

أو تريد تطليقها ولا تريد دفع المهر لها، وَتُضَيِّقُ عليها، حتى تسامحك بالمهر مقابل طلاقها، فهذا لا يحل لك.

{إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ}، فَيَقُمْنَ بعمل جنسي سيّء واضح أنه حرام وواضح أنهن ارتكبنه، وليس عبر الشك والاحتمال، بل مبينة بحيث رأيتموهن بشكل واضح بأعينكم، أو كما قالت آية سابقة، بأن يشهد عليهن أربعة شهود، فعندها يحق لكم أن تعضلوهن بالحبس حتى يتوفاهن الموت "أو يتبن"، أو تطلقوهن من دون أن يحصلن على المهر المؤخّر.

ستجد في الكتب كَلَاماً أَنَّ الآيات هنا منسوخة بالآيات في سورة النور والتي تتحدّث عن عقاب الجلد للزاني والزانية، فيقولون إِنَّ الآيات هنا منسوخة "ملغيّة"! وهذا كلام غير صحيح بَتَاتاً.

{وَعَاشِرُوهُنَّ}، وَتَعَامَلُوا مع النساء في الحياة المنزلية، {بِالْمَعْرُوفِ}، بما هو متعارف عليه بين المؤمنين العقلاء من الاحترام والكلام معهن بشكل لائق، ومصروفهن المالي بشكل لائق... فلا تعاملوهن بفوقية أو فظاظة أو كأنها عبدة أو خادمة أو حرف ناقص.

{فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ}، حيثُ لم تعودوا تشعرون بالمودة والحبّ تِجَاهَهُنَّ ولسبب أو لآخر صرتم تشعرون بالنفور منهن، {فَعَسَىٰ}، وَمِنَ المحتمل المرجّح غير الأكيد، {أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ}، في ذلك الشيء الذي كرهتموه، {خَيْرًا كَثِيرًا}، فإن كرهت زوجتك فلا تحكم على زواجك منها بالطلاق، وَاصْبِرْ عليها، لأنَّ هناك احْتِمَالاً رَاجِحاً أن يكون ما تكرهه هو شيء فيه خير، بل وفيه خير كثير، مَثَلاً: راجع تصرفاتك أنت، لأنه ربما يكون كرهك لزوجتك ليس نابعا من شيء سيّء في زوجتك، بل ربما يكون من شيء سيّء فيك، فإن صبرت فربما انتبهت أن العطل السلوكي الإيماني والأخلاقي فيك، وفي هذا الإصلاح خير كثير لك.

والكلام هنا يفترض أن الزوج مؤمن محترم، ولو بأقل درجات الإيمان والاحترام، لأنَّ الكلام هنا ليس عن كره الزوجة لأنه رأى أجمل منها، أو تعرّف على أغنى منها، أو صار يريد امرأة مثقّفة معها درجة علمية، أو يريد موظّفة عندها مردود مالي... لأنَّ هذه الأمور كانت أمامه قبل أن تفهم زوجته أنه يريد قضاء حياته معها حين قبلت بالزواج منه...
وإن أصرّ على الطلاق لأمثال هذه الأسباب، وكره زوجته لأجلها، فهذا تنبّهه الآية هنا ليلتفت لنفسه... وليلتفت إِلَى أَنَّ المهر حكم به تعالى لأجل هكذا أمور حتى لا يتعامل الزوج بمزاجية في طلاق زوجته، وهذا شيء من واجب عقلاء المؤمنين العناية به، فإن شعروا منه المزاجية والأسباب التافهة للطلاق، سَوَاءٌ حاول التضييق على الزوجة لتتنازل عن المهر أو كان مستعدا لدفع المهر، فعلى عقلاء المؤمنين ضمان حقوق المرأة من هكذا مستهتر بتعديل المهر المؤخر إن كان قليلا ولا يكفيها للعيش بكرامة "مثل تعديل مهر التي جعلوا لها مهرا أقل بكثير مما تأخذه نظيراتها" أو إلزامه بالنفقة... ومثله من كره زوجته لأسباب تافهة كالخلافات التي تحصل بين الأولاد... ومثله الزوج الذي يتدخّل في الشؤون المنزلية من طبخ وتنظيف... وصولا إلى الذي تزوّج بالتي ليس لديها خبرة في الحياة ويحاسبها على تصرفاتها كأنها ناضجة...

الآيةُ هنا تدافع عن النساء المظلومات، ولا تدافع عن السليطات طويلات وبذيئات اللسان الحاقدات الحسودات المبذّرات...

(وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً{20})
{وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ}، إن قَرَّرْتُمُ الطلاق والزواج من أنثى أخرى، {وَآتَيْتُمْ}، أعطيتم أو حدّدتم لـ، {إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا}، مَهْراً كَبِيراً جِداً من المال، حيثُ إِنَّ القنطار أربعة آلاف دينار من العملة النقدية الذهبية، {فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا}، ولا تأخذوا من القنطار أي شيء.

لأنَّ قرار الطلاق قرارك، وعليك أنت تحمّل هذا القرار، حتى لو كنت دفعت لزوجتك مَهْراً غَالِياً جِدّاً جِدّاً، وبعد الزواج منها لم تعجبك، أو لم تتفاهم معها، أو أعجبتك أُنثَى أُخْرَى... فهذه ليست مشكلتها، لأنها لم تطلب الطلاق، ولذلك لا يحقّ لك أن تسترجع من المهر أي شيء.

{أَتَأْخُذُونَهُ}، هل تأخذون كلّ المهر أو شَيْئاً من المهر، {بُهْتَانًا}، لأنَّ هذا التصرّف مفاجئ كونه لا يوافق أي منطق ومن دون أي أساس، ومن دون أي وجه حق نِهَائِيّاً، و{إِثْمًا}، ذَنْباً عن قصد وأنتم تعلمون أنه ليس من حقّكم، {مُّبِينًا}، وَاضِحاً، وَبِشَكْلٍ واضح أنتم ترتكبون الذنب عن علم منكم بأنه سوء.

إذَا أنت غيّرت رأيك، وأنت قررت الطلاق، عندها بأي حق ستأخذ من مهر زوجتك! حتى لو كان أربعة آلاف دينار ذهبي، لأنها لم تطلب الطلاق، فلا يحقّ لك أن تأخذ منها ولو دِينَاراً وَاحِداً، لا بالتضييق عليها حتى تضغط عليها لتطلب هي الطلاق مُتَخَلِّيَةً عن المهر، ولا بالقوة، ولا بالتهديد... ولا بأي طريقة، إِلَّا أن تسامحك هي من طيب خاطرها، ويجب على عقلاء المؤمنين التأكد من طيب خاطرها الذي يَبْدُو عليها ولكنها لسبب أو آخر مجبورة.

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً{21})
{وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ}، كيف تأخذون المهر أو شيئاً من المهر، {وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ}؟ فلم يبق بينك وبينها أي شيء مستور! حيثُ كنتما زوجينِ! وربما يكون لك صديق تتحادث معه يومياً، وتقرر أنت تركه، فهذا شيء صعب، ولكن زوجتك حالتها أصعب، لأنها عاشت معك يومياً، بل لم يكن بينك وبينها أي ستر! وهي لم تقرر تركك، بل أنت قررت التخلي عنها، فكيف وبأي حق تريد أن تأخذ من مهرها وأنت قرّرت طلاقها!

{وَأَخَذْنَ}، هنّ النساء، {مِنكُم}، أيها الرجال، {مِّيثَاقًا}، تأكيداً شديداً، {غَلِيظًا}، لا لين فيه. لأنَّ الزواج هو عقد، وحين قبلت بك زوجاً، حيثُ أخذت المرأة منك ميثاقاً غليظاً، وهو عقد الزواج مع المهر، لأنَّ الزواج ليس لعبة، وحين تتخلى المرأة عن أي ستر بينها وبينك، وتقدم نفسها لك، وتحبل منك... فهذا كان في مقابل أخذها ميثاقاً غليظاً منك على أن تتزوجها لتصونها وتحافظ عليها وترعاها مدى العمر، وتعطيها المهر، وهذا ليس لعبة حتى تغيّر رأيك وتطلقها ولا تدفع لها المهر أو تأخذه منها...

تلاحظ من عموم كلام القرآن عن الزواج أنه يجعل المرأة مستحقّة للمهر من الرجل مقابل قبولها بتقديم نفسها للمعاشرة، ويكسر بذلك أي شعور بالفوقية للرجال، حيثُ إنَّ كل النساء أمامه وكلهن يجب أن يدفع لهن المهر الذي يناسبهن، وما يدرج في بعض الأزمنة والمجتمعات من فوقية للذكور الذين يختارون الزوجة، والأنثى ترضى بأي شخص يتقدّم لها، فهذا ليس مجتمعاً سليماً، بل مريضاً في فكره ونفسيته ودينه... حتى وصل إلى هذه الحالة من الذكورية المفرطة.

مِثْلُهُ في السوء الاستهتار بعقد الزواج لأن الزوج يمكنه إنهاؤه ساعة يشاء وعلى مزاجه، لا، لا يرضى تعالى بذلك، لأنَّ الزواج عقد، ولإنهائه يجب أن تكون الأسباب وجيهة، وإلا فعلى عقلاء المؤمنين حماية النساء من الأزواج المستهترين.

(وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاء سَبِيلاً{22})
{وَلَا تَنكِحُوا}، فلا تعقدوا الزواج على، {مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ}، حيثُ لا يحق لِلِابْنِ أن يتزوج "خالته" امرأة أبيه، سواء كانت مطلقة من أبيه أو أرملة من أبيه، {إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ}، فإذا كان أحد منكم تزوّج من "خالته" امرأة أبيه قبل نزول هذا الحكم، فلا يجب عليه تطليقها، ولكن من الآن صَاعِداً فهذا النوع من الزواج باطل ممنوع.

هذه العادة كانت موجودة قَدِيماً، وربما تكون موجودة في بعض المجتمعات في عصرنا، فإن أسلموا، فلا يجب عليهم التطليق، ولكن بعدما أسلموا وعلموا بهذا المنع فلا يجوز لهم الزواج من نساء كنّ زوجات لِأَبِيهِمْ.

{إِنَّهُ}، هذا الزواج ممن كان الأب مُتَزَوِّجاً منها، {كَانَ فَاحِشَةً}، لِأَنَّهُ عمل جنسي سيء، {وَمَقْتًا}، وَشَيْئاً مَمْقُوتاً وَتَقْيِيمُهُ سيّء جِدّاً مَكْرُوهٌ حتى التحدّث به، تَصَوَّرْ أن يفكر الِابْنُ بالزواج من زوجة أبيه إن مات أَبُوهُ أو إن طلقها، وَالِابْنُ كان يراها بلباس منزلي... يعني هما لا يتعاملان مع بعض كَأَجْنَبِيَّيْنِ، بل كعائلة، وكأنها أُمُّهُ، ولكن مع فكرة أنه يمكنه الزواج منها! فهذا شيء مَقِيتٌ، شيء من السيّء التحدّث به أو عنه، {وَسَاءَ سَبِيلًا}، حيثُ ليس الزواج بطليقة أو أرملة الأب، ليس سَبِيلاً طَرِيقاً جَيِّداً لتنفيس الشهوة أو لبناء عائلة، بل طريق سيء.

بمجرد تحريم الزواج من امْرَأَةِ الأب، يحصل حاجز نفسي يمنع الولد من اشتهاء زوجة أبيه قبل أن يطلقها أبوه أو تترمل، وَفِي حالة زوجة الِابْنِ عَادَةً يعتبر الأب كنته كابنته، لِذَلِكَ لَا يفكر فيها بأي شهوة، مع أنها تتصرف في اللباس أمامه كما تتصرف بناته، وزوجة الأب أَيْضاً تتصرف في لباسها مثل الأم، فإذا كان هناك تفكير بإمكانية الزواج منها فَيَشْتَهِيهَا الولد أو هي تشتهيه! وهذا فحش، وممقوت، وليس طَرِيقاً صَحِيحاً في الحياة.

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً{23})

{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ}، وهي المرأة التي أنجبتك، وهي ممنوعةٌ ولا يحق لِلِابْنِ ولا بأي شكل أن يتزوج أمّه، لأنَّهُ عمل عليه عقاب، وحتى لو فَرْضاً كانا لا يعلمان أنه حرام، وتزوجا، أو قبل أن يسلما تزوّجا، فإنهما ينفصلان عن بعضهما فَوْراً، ولا حاجة لطلاق، لأن الزواج من أصله باطل. وأم أمك... أيضاً حرام، وأم أبيك... حرام.

علمنا من الآية السابقة أنَّ الخالة زوجة الأب هي حرام أيضاً، وكان لها استثناء خاص إذا حصل الزواج قبل أن يسلما... وتلاحظ أننا من الآية بسهولة نتعرف على الذين يحرم على المرأة الزواج منهم، حيثُ حرام أن تتزوّج من أبيها أو جدّها من ناحية أبيها... أو جدّها من ناحية أمّها...

وحرمة الزواج وبطلان الزواج من أصله هو نفسه في الحالات التالية:

{وَبَنَاتُكُمْ}، البنات التي تنجبهن، بناتك، وبنات بناتك...

{وَأَخَوَاتُكُمْ}، من أمك وأبيك، أو من أمك، أو من أبيك.

{وَعَمَّاتُكُمْ}، أخوات أبيك من أبويه أو من أمه أو من أبيه.

{وَخَالَاتُكُمْ}، أخوات أمّك من أبويها أو من أمها أو من أبيها.

{وَبَنَاتُ الْأَخِ}، بَنَاتُ أَخِيكَ، وبنات بنات أَخِيكَ...

{وَبَنَاتُ الْأُخْتِ}، بَنَاتُ أُخْتِكَ، وبنات بنات أُخْتِكَ...

{وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ}، فإذا امرأة أرضعتك فأطعمتك من لبنها "حليبها" وأنت طفل رضيع، عمرك أقل من عامين من حياتك، حيثُ تصير حَرَاماً عليك. والرضاعة التي تسبب الحرمة هي التي تسبب النمو للرضيع، يعني هي الرضعة التي تساوي وجبة غذاء، فلو كان الرضيع جائعاً ورضع حتى الشبع، حيثُ يسبب صَيْرُورَةَ التي أرضعته حَرَاماً عليه كأنها أمّه.

{وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ}، الطفلة التي رضعت معك من نفس المرأة، فهي حرام عليك، ونشتق أنَّ بنات التي رضعت معك حرام.

{وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ}، حماتك، حيثُ بمجرد عقد قرانك على أي امرأة فإنَّ أمّها تصير حَرَاماً عليك.

{وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ}، بنات الزوجة من زوجها السابق، اللاتي في حجوركم، في أماكن سكنكم وبالتحديد في المكان المحدّد الخاص بأهل البيت وليس للضيوف، اللواتي في بيوتكم، يعني انتقلن للعيش معكم في مسكنكم. فإن كانت الزوجة الجديدة متزوجة من قبل وعندها بنات "وتطلّقت أو صارت أرملة"، وانتقلت هي وبناتها لتعيش في حجرك، فالبناتُ يصرن ربائب لك، فيحرم عليك الزواج من بنات زوجتك. وَيَكُونُ لزوج المرأة السابق بنات من زواج آخر، فزوجتك ليست أمّهم، فهاتِهِ البنات لم تلدهن هذه المرأة التي تزوّجتها، فهنَّ لَسْنَ رَبَائِبَ لك، ولا يحقّ لك التعامل مَعَهُنَّ كأنهن بناتك أو ربائب، فلا يدخلن في حجورك، في غرف بيتك الخاصّة بك حيث لا تلتزم زوجتك ولا بناتك بلباس كاللباس الذي يضعنه أمام الأجانب، فالبنات من زوجتك فقط ربائب، والبنات من غير زوجتك هن أجنبيات عليك، وممنوع تنقلهن بلباس كلباس بناتك أمامك، ولا يصحّ وصفهن بالربائب حتى لو عِشْنَ معك في منزلك، وَلْنَقُلْ إِنَّهُنَّ صغار في السنّ وقبلت انتقالهن للعيش معك، فهذا لا يعني أنهن صرن ربائب.

على كل حال، الرَّبَائِبُ حَرَامٌ بشرط أن يَكُنَّ {مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ}، فحصلت معهن معاشرة تامة، فعندها تحرم بَنَاتُهَا عليك، {فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ}، فلا مشكلة عليكم أن تتزوجوا من إحدى بناتها، طَبْعاً بعد أن يقع طلاق أمّها.

ننتبه جَيِّداً، لأنَّ التشريعات تراعي مختلف الحالات التي قد تحصل، بغض النظر عن الأدبيات العرفية، ولو تعاطيت شؤون الإفتاء، لأصابتك الدهشة من الحالات التي يسأل عنها الناس ولا تخطر ببالك ولا تراها في أحلامك، فحالة طلاق أم قبل الدخول بها، والزواج بعد ذلك من ابنتها، إنما تذكره الآية كحالة قد تحصل، فحتى لو كان مُسْتَهْجَناً لك هذا وغريباً، فهذا لا يعني أي شيء، حيثُ هناك حالات كهذه، وحكمها ما تقوله الآية.

{وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ}، النساء اللاتي صرن حلالاً "للمعاشرة" على أبنائكم، زوجة ابنِكَ سواء التي دخل بها أو فقط عقد قرانه عليها، الذين من أصلابكم، فإن لم يكن من صلبك بل كان من صلب رجل آخر، فيجوز أن تتزوج من طليقته أو أرملته، وَلْنَقُلْ أنك تزوجت من امرأة كان عندها ولد من زواج سابق، فهذا الولد ليس من صلبك، فإذا تزوج هذا الولد وطلق، أو ترملت زوجته، فيجوز لك أن تتزوج منها. وَلْنَقُلْ مَثَلاً أنك تبنّيت ولداً يتيماً، فهو ليس من صلبك، فيمكنك أن تتزوج من أرملته أو طليقته.

ويجري نفس الحكم بالحرمة على زوجات أولاد أولادك، وزوجات أولاد بناتك.

{وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ}، حرام أن تتزوج أختين معاً، {إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ}، فما حصل قبل أن تسلم، وكنت فيما مضى قد تزوجت بأختين معاً، فلا يجب عليك أن تطلق إحداهما، فيمكن أن تبقيهما زَوْجَتَيْنِ لك. وانتبه لتعبير "{تَجْمَعُوا}" يعني في نفس الوقت ممنوع أن تكون متزوجاً من أختين، أمّا إن ماتت زوجتك أو طلّقتها فيجوز أن تتزوج من أختها.

{إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا}، حيثُ يَتَجَاوَزُ عن الذنوب ولا يأخذ موقفاً قَاسِياً جَافّاً، وَيُسَامِحُ من خالف هذه التشريعات قبل أن يسلم ويعلم بها. فمن جمع بين الأختين فقد خالف شريعته تعالى، ومن تزوج بخالته امرأة أبيه أيضاً فقد خالف شريعته تعالى، ولكن بما أنه حصل قبل إسلامهم وعلمهم بحرمة هذا التشريع فإِنَّهُ سبحانه لن يُعَاقِبَهُمْ عليه.

تذكّر المفهوم الأساسي الذي ينبني عليه كلام القرآن دَائِماً، لأنَّ العملَ السيئَ يبقى توصيفه سيئاً مهما كانت الظروف، حيثُ الزواج من إحدى هذه المحارم عمل سيّء، حتى لو قبل الإسلام، حتى لو من دون معرفة بالحرمة، وكما ترى اسْتَثْنَى تعالى {مَا قَدْ سَلَفَ} في حالتي الزواج بامرأة الأب والأختين، وسبحانه يغفره مع بقاء توصيفه بأنه سيّء ولكن حصل ويمكن تمريره، أمّا لو كان الزواج من أي واحدة من المحارم الأخرى، فلا يجري الاستثناء والزواج باطل.

وَكَانَ اللَّهُ {رَّحِيمًا}، فلديه سبحانه عناية خاصّة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، وعلى أساس هذه الرحمة ينال المؤمنون المغفرة الإلهية ولا ينالها الكافرون، وَلْنَقُلْ إنَّ كافراً جمع بين الأختين، وعلم فيما بعد أنَّهُ تعالى يحرّم ذلك، فالمسلمُ لن يعاقبه تعالى إن أبقاهما زَوْجَتَيْنِ بسبب شموله بالرحمة الإلهية الخاصّة بالمؤمنين سَيَغْفِرُ له تعالى هذه السيئة استثنائياً، أمّا الكافر فَسَيُحَاسَبُ على هذا العمل السيّء إن أبقى طليقة أو أرملة أبيه زوجة له أو أبقى أختين كزوجتين له.

(وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{24})

{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ}: {الْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ}، النساء المُحْصَنَةُ المصونة إمّا بِالزَّوَاجِ، أو أنها حرة "عزباء أو مطلقة أو أرملة" فهي حرام عليك بدون زواج، {إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}، فأمتك "عبدتك" إذا رضيت أن تقربها فلا حاجة لعقد زواج عليها، وسنتحدث في دراسة الآية التالية عن العبودية.

كل ما سبق من التشريعات هو، {كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ}، كفرض كتبه سبحانه عليكم لتلتزموا به ولا يحق لكم التلاعب أو التهاون به.

{أُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ}، وراء الذي ذكرته الآيات، حيثُ يَحِقُّ لكم الزواج من غير هذه النساء، {أَن تَبْتَغُوا}، أن تطلبوا الزواج، {بِأَمْوَالِكُم}، بدفع المهر، {مُّحْصِنِينَ}، صائنين لأنفسكم، فلا تغصبوهن على الزواج منكم، ولا تتزوجوا من الزانيات، {غَيْرَ مُسَافِحِينَ}، فلا تقيموا علاقات من دون عقد زواج "ولا تقيموا علاقات مع من لا يجوز الزواج بها".

{فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ}، بِسَبَبِ استمتاعكم بهن بالانتفاع منهن بإشباع الرغبة، {فَآتُوهُنَّ}، أَعْطُوهُنَّ، {أُجُورَهُنَّ}، البدل المالي المحدّد لأنهن قَبِلْنَ بتقديم أنفسهن لكم، أعطوهن مهرهن صداقهن، {فَرِيضَةً}، شَيْئاً مَفْرُوضاً عليكم شَيْئاً وَاجِباً. إِذَا تزوجت من أنثى، وحصلت على الانتفاع الجنسي منها، فيجب دفع المهر لها كَامِلاً، ونعرف من الآية 237 من سورة البقرة، أن التي لم يحصل معها الاستمتاع وطلقتها، فلها نصف المهر.

المهر هو اتفاق مالي، يمكن دفعه مرة واحدة أول عقد الزواج، ويمكن تأجيله للطلاق أو الوفاة، ويمكن تقسيمه على دفعات، وعادة يقسمه الناس على دفعتين، الأولى أول الزواج "مُقَدَّمٌ"، ودفعة ثانية مؤجلة للطلاق أو الوفاة "مُؤَخَّرٌ"، والآية هنا تتحدث عمّا يسمّى بالمقدّم "الدفعة الأولى"، حِينَ حصول الاستمتاع "الانتفاع الجنسي" فإن المهر "المقدّم والمؤخّر" يصير مُسْتَحَقّاً بالتمام للأنثى، فيجب دفع المقدّم، وإن حصل الطلاق أو الوفاة فيجب دفع المؤخّر، وهذه فريضة وليست لعبة، وَعَلَيْهَا حساب لمن خالفها.

نَنْتَبِهُ، لِأَنَّ الآيَةَ تتحدث عن النكاح الدائم والمنقطع، عن الاستمتاع بشكل عام، ومن المشهور تَارِيخِيّاً أن الزواج في عصر النبي (ع) كان نوعين: دائم ومنقطع. وبدون أي نقاش لأن التاريخ واضح جِدّاً، فإن تحريم الزواج المنقطع بين بعض المسلمين حصل بعد وفاة النبي محمد (ع) بعدة سنوات في زمن الخليفة عمر بْنِ الخطاب.

{وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ}، لَا مُشْكِلَةَ عليكم، {فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ}، بَعْدَ الِاعْتِرَافِ بحقّها بالمهر الذي صار دفعه للزوجة فريضة، وَلَا مُشْكِلَةَ، إذا تراضيتم، توافقتم بمحبّة، على طريقة الدفع أو أن تسامح الزوجة بالمهر أو بقسم منه عن محبّة.

{إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا}، حيثُ يَعْلَمُ إن كنت تنوي دفع المهر أم أنك محتال. وَكَانَ اللَّهُ، {حَكِيمًا}، لِأَنَّهُ عَنْ حِكْمَةٍ عَنْ صَوَابِيَّةٍ فرض سبحانه المهر، وليس عن عبث، وَعِنْدَمَا جعل سبحانه قرار الطلاق بيد الرجل، جَعَلَ سبحانه للمرأة مَهْراً يكون ضمانة لها من مزاجية بعض أنواع الرجال.

نَنْتَبِهُ، حيثُ يَجِبُ تحديد المهر في العقد، لِأَنَّ هَذَا ما تَعْنِيهِ كلمة "فريضة"، وَتَحْدِيدُ المهر في العقد فريضة وليس مُسْتَحَبّاً، ونعرف أنه إذا لم يتحدد المهر في عقد الزواج، سواء عن جهل أو عن قصد، فالزواج لا يكون بَاطِلاً، بل تستحق المرأة مَهْراً عُرْفِيّاً، أي مَهْراً مُسَاوِياً لما تعارف عليه الناس، فيكون مهرها مثل مهر النساء الأخريات في مجتمعها، وراجع في ذلك دراسة الآيات 236 و 237 من سورة البقرة.

(وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{25})

{وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا}، فلم يكن عنده الطَّوْلُ الْقُدْرَةُ "المالية"، {أَن يَنكِحَ}، أن يعقد على أُنْثَى بما يتضمّن إقامة علاقة جنسية معها، أن يتزوج، {الْمُحْصَنَاتِ}، الحافظة لنفسها بزواج، أو بإرادتها أو لأنك لا تملكها، فهي المرأة التي ليس لك سلطة عليها لتقربها، وهذا يشمل أي امْرَأَةٍ "من غير محارمك" حرة أو أمة لم تتزوجها، أو أمة لا تملكها. فإن لم يستطع لسبب مادي أن يتزوج من محصنة مؤمنة، {فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم}، فتزوجوا من الإماء، {مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ}، من اللواتي أعلنّ اعتقادهن والتزامهن بدينه تعالى، فالحديث هنا عن مؤمن فقير لا يستطيع الزواج من حرة مؤمنة، فليتزوج من فتاة "أنثى فتية" أمة مؤمنة، فيطلبها للزواج من سيّدها.

لاحظ استعمال كلمة فَتَيَاتِكُمُ، ففيها إشارة إلى العمر والحالة الجسدية، من بعد البلوغ الجسدي إلى الخمسينيات تقريبا، بكرا أو ثيّبا بلا فرق، فالإشارة في الكلام أنها موصوفة بالفتاة يشير إلى صفات فيها كافية للرغبة في نكاحها.

لاحظ التركيز على "مؤمنة" للزواج بها.

ضع في بالك أن كلام القرآن غالبا عن أبرز النماذج، وهنا النموذج عن مؤمن فقير يريد الزواج الآن ولم يعد يطيق الصبر على العزوبية، فَالْإِمَاءُ حَلٌّ، كنموذج، ففي عصرنا لم يعد هناك إِمَاءٌ، ولكن لا تزال هناك مجتمعات أفقر من مجتمعات، ففقير في مجتمع غني هو تقريبا متوسّط الحال بالنسبة لمجتمع فقير، ومرغوب به كزوج لبناتهم.

{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم}، فأنتم حين تحكمون على محصنة أو أمة بأنها مؤمنة، لأن الله تعالى يشجعكم على الزواج من "مؤمنة" فهو أعلم بإيمانكم الحقيقي، {بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ}، فلا فرق بين المؤمنة المحصنة، وبين المؤمنة الأمة، بعضكم من بعض، فإيمانيا لا يوجد فرق.

{فَانكِحُوهُنَّ}، فتزوجوهن، {بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ}، من بعد أن يسمح الذين تنتمي إليهن، فيجب أخذ إذن أهلها الذين تنتمي لهم، فربما تكون أمة لرجل أو لِامْرَأَةٍ، فيجب أخذ إذن وليّها.

{وَآتُوهُنَّ}، أعطوا الأمة التي تزوجتها، {أُجُورَهُنَّ}، البدل المالي الذي تستحقّه وهو هنا المهر، {بِالْمَعْرُوفِ}، بما هو متعارف عليه بين الناس، فحتى لو كانت أمة فهناك مهر متعارف عليه بأنه مناسب لها.

الْإِمَاءُ، {مُحْصَنَاتٍ}، حافظات لأنفسهن بهذا الزواج، {غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ}، فلا يقمن علاقة غير شرعية، فهذا الزواج يمنع مالكها من مقاربتها أو من عرضها على رجل آخر غير الذي تزوّجها، {وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ}، فحالة زواج الأمة من حرّ ليست مثل حالة من يأخذون أخدان كأصحاب للعشرة من دون زواج، فهي ليست مثل اللاتي يعشن مع رجل لمدة من الزمن من دون زواج، بل صارت زوجة محصنة.

فهذا الزواج من أمة هو زواج شرعي تام لا يختلف بأي شيء عن أي زواج آخر، وعلى الجميع التعامل مع الموضوع بهذه القيمة، فممنوع الاستهتار بالحقوق الزوجية للأمة لا من زوجها ولا من بقية أفراد المجتمع.

{فَإِذَا أُحْصِنَّ}، فإذا صارت الأمة محصنة، مصانة بهذا الزواج، فلا يمكن لأي كان أن يقرب منها إلّا زوجها، فصارت أمة على ذمّة رجل، {فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ}، فقمن بعمل جنسي سيء من أي نوع كان، {فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ}، فتنال نصف العقاب الذي تناله الحرّة المحصنة، فنجد في الآية الثانية من سورة النور أن العقاب للزانية مئة جلدة فيكون عقاب الأمة المحصنة خمسون، وهذا يدل على أن الرجم بالحجارة حتى الموت هو ليس العقاب القرآني على الزنى للمحصنة، فما معنى نصف الرجم! فإن اعتبر الحاكم الشرعي أو القاضي الشرعي أن الزانية مفسدة في الأرض، بسبب كثرة ارتكابها للزنا وتجاهرها به، أو لسبب آخر... فعندها يكون من أحكامها القتل بسبب الإفساد في الأرض، وراجع في موضوع الإفساد الآية 33 من سورة المائدة {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ...}.

{ذَٰلِكَ}، العرض الإلهي للزواج من أمة مؤمنة، هو، {لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ}، فمن منكم صار عنده شعور توقّع الضرر من العنت من شدّة صعوبة تعامله مع الحالة، من تضايقه من شهوته، فيمكنه الزواج من أمة، فهو حلّ من المفروض أنه سهل على الفقراء.

و"أن" بالفتحة على الهمزة، {وَأَن تَصْبِرُوا}، فلا تتصرفوا بشكل غير واعي أو غير مدروس هو، {خَيْرٌ لَّكُمْ}، في مقابل ارتكاب السوء، فإن لم تتمكنّوا من الزواج من حرّة أو من أمة لتنفيس شهوتكم فالصبر خير لكم من ارتكاب السوء.

تلاحظ أن التشديد القرآني الإلهي على الزنا بعقاب الخلود في جهنّم بشكل واضح في الآية {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا}، ورغم ذلك فمن ناحيتنا نحن فلا يحقّ لنا أكثر من جلد الزناة، ولا يحق لنا فعل أي شيء مع المشرك "المسالم"، ويجوز لنا العفو عن القاتل. فبعضنا يظنّ أن القسوة مطلوبة في الأحكام التي تتعلّق بالفاحشة "فيفتي بالرجم" ولكن هذا ليس من شأننا فهذا ليس ديننا لنخترع فيه بل دينه تعالى وهو الحكيم.

ولا أجد العبارات المناسبة للكلام عمّا لا يجوز ولكنه ليس من عيار الزنا بالعقاب، ففي أدبياتنا الدينية تخويف وعقاب شديد حتى على أبسط الفحشاء والسوء... فأخاف من تقليل غضبه تعالى منها، بالرغم من أنه واقع حال كون السيئات درجات في السوء، فأخاف أن نستهتر بالفاحشة لأنه تعالى في قرآنه لم يجز لنا معاقبة فاعليها بما هو متعارف عليه بين الناس من قسوة...

وننتبه، فالتحليلات الاجتماعية والدينية للزواج عند البعض من الناس، تذهب بنا إلى تصوّر الزواج المثالي، إلى تأسيس العائلة، وتربية الأولاد، وبناء المجتمع... وهؤلاء يستعيبون ذكر الرغبة الجنسية كدافع أساسي للزواج... والبعض الآخر يعرض تحليلات نفسية وبيولوجية تذهب بنا إلى الزواج بقصد توريث جيناتنا... وبعضهم يعرض تحليلات اقتصادية اجتماعية تذهب بنا إلى الزواج بقصد المشاركة في تكاليف وأعمال وأعباء الحياة... وبعضهم يركّز على جانب الرغبة الجنسية كدافع للزواج... وهكذا نجد الكثير من التحليلات التي تقترب وتبتعد عمّا يقوله القرآن الذي

عرض جانب نظرته تعالى لنا كمخلوقات لديها مشاعر ورغبات وشهوات، وقد صرّح القرآن ولفت انتباهنا إلى جعله تعالى فينا مشاعر المودّة والرحمة، وحبّ الولد، والشهوة... ولم يشر القرآن إلى أي منها كسبب منفرد للزواج عند كلّ الناس، فمن المعلوم اختلاف أسباب الناس للقيام برابط الزواج، وهنا ترى في آيتنا هذه تركيزا على حالة طغيان الشهوة وعرض حلّ لها حتى لا يقع المؤمن في السوء، فنحن أمام حالة الحاجة والرغبة.

وتلاحظ أن السخفاء يعلّقون على كلام القرآن باعتباره يتضمّن كلاما شهوانيا يختصر الرباط المقدّس للزواج بالشهوة، على أساس أن الشهوة الجنسية في رأيهم هي شيء معيب... وآخرون يعلّقون على الكلام القرآني أنه ينظر للزواج كأنه علاقة تجارية ففيه العقد والمهر، وكما ترى فهم تحت مستوى التقييم، فكلام الإله سبحانه ناظر لتشريع العلاقة الزوجية وناظر إلى الرغبة التي خلقها تعالى فينا، وإنكار شهوتنا على أساس أنها شيء حيواني معيب، لن يغيّر من واقع وجودها فينا، ووجود الخلافات بين الأزواج لن يغيّره اعتبار الزواج رباط مقدّس من مستوى مثالي ملائكي، فهذا كلام خيالي ولن تجد في القرآن إلا الكلام العقلاني الواقعي العملي.

{وَاللَّهُ غَفُورٌ}، فيتجاوز عن السيئات، فيسامح على الذنب، وَاللَّهُ {رَّحِيمٌ}، فلديه سبحانه عناية خاصة للمؤمنين لما فيه مصلحتهم. وكما ترى فالكلام هنا عمّن لديه شهوة جارفة، فربما ارتكب السوء وهو يبرّر لنفسه أنه تحت ضغط شديد، فجاءت آيتنا هنا لتنبهه وتعرض عليه الحلول، أو أن يجد حلا يرضاه تعالى.

بالنسبة للعبودية، فعلى مرّ التاريخ اختلفت نظرة الناس للعبودية، فقد كانت العبودية دارجة قديما في غالبية الأمم، ومنذ مدّة قليلة في القرن العشرين صار دارجا النفور من العبودية، فنسي الجميع ما كان دارجا متعارفا عليه أنه مقبول لدرجة جعلت المفسرين والفقهاء والمفكرين المسلمين، جعلتهم في عصرنا يشعرون بالحرج من الآيات التي تتحدّث عن العبيد، وتراهم مباشرة يغيّرون الموضوع ويشيرون لعدالة الإسلام، ومسحه للعبودية عبر تحرير العبيد وعتقهم ومكاتبتهم، وجعل تحريرهم فدوا كتكفير عن بعض السيئات...

كلامهم صحيح، ولكن الصحيح أيضا أن العبودية كانت منتشرة، ولها تشريعات في القرآن، ولست بوارد نفي أفضلية كون جميع الناس أحرارا، فإن كان المزاج العام للناس الآن مضادا للعبودية، فأين المشكلة! ففي حين نزول هذا القرآن وإلى زمن غير بعيد لم يكن هذا المزاج العام، بل كانت العبودية واقعا منتشرا بين الناس، فإن وقع المسلمون تحت الأسر من أعدائهم فقد كان مصيرهم العبودية، فلم يكن المسلمون وحدهم يستعبدون...

ولننظر لأحكام العبيد في القرآن، ولن تجد فيه حكما أو تشريعا يأمر باستعباد أحد، وأقصى ما ستجده عن تقييد الحرية فهو عن أسر الأعداء المحاربين فقط، وما فعله الرسول محمّد(ع) من استعباد للأسرى "كما نقلوا في التاريخ" فقد كان حكم الأمر الواقع بسبب اعتماد الطرف الآخر له، وبسبب الخيارات الأخرى الضيقة، فإما قتل أسرى الأعداء أو تركهم أحرارا وفي ذلك خطر إعادة تشكيل قوّة معادية، أو سجنهم ليموتوا في السجن أو سجنهم لمدة طويلة جدا وهذا ليس حلا عمليا للسجين أو للساجن له، أو استعباد الأسرى.

فقونن النبي محمّد(ع) هذا الواقع بناء على مبادىء القرآن، بتحرير أسرى الأعداء من بعد أسرهم إن كانت الأمور تشير لاستبعاد الخطر منهم، أو استعبادهم وتفريقهم إن كان هناك خطر من تجمّعهم من جديد كمعادين مقاتلين.

علما أننا لا نجد في التاريخ سوى "زعم بعضهم" استعباده(ع) لبعض أعدائه، بينما لا تجد ولا أي أثر في التاريخ بعد ذلك لأولئك الذين قيل عنهم مستعبدين! فلا تجد ولو إسما واحدا لرجل أو امرأة من الأقوام الذين قيل عنهم أن الرسول(ع) استعبدهم ولا يزالون عبيدا، فيبدو واضحا أن كلامهم عن استعباد الرسول(ع) لبعض أسرى أعدائه كان في حدّه الأقصى لمدة قصيرة جدا جدا لا تتعدّى الأيام، وبعدها إطلاق سراحهم، ولكن أصحاب العقلية الإجرامية تعاموا عن ذلك مبيحين استعباد الآخرين واغتصاب نساءهم...

وأكرّر لك لتنتبه جيدا، فرغم ما قاله البعض عن استعباد الرسول(ع) لأعدائه، ورغم التعارف على ذلك أنه من المسلمات التاريخية، فبأدنى نظرة عقلانية لكل التاريخ ستجد أن هذا الزعم كاذب، والدليل عليه واضح لأنك لا تجد في الروايات ولا إسما واحدا لعبد في المدينة من الذين أسرهم الرسول(ع)، ولا تجد ولا إسما واحدا لأي طفل منهم صار بعد ذلك مسلما، علما أن كفّار العرب كلّهم أسلموا بعد مدة قليلة من الزمن، ولا تجد في التاريخ إسما ولو لإبن واحد من

أبناء الصحابة ولّدته عبدة مأسورة من الأعداء، نعم تجد في التاريخ زواجا من مملوكات وتجد أولادا منهم، وكمثال على ذلك إبراهيم ابن النبي محمد(ع) من ماريا القبطية التي أعتقها(ع) ثم تزوجها...

فكل الكلام المنتشرة عن حالات استعباد الرسول (ع) لأسرى الأعداء لمدة طويلة، وعن استعباد واغتصاب نساء الأعداء، فهو كذب من أوهام المسلمين المجرمين، ومن أحلامهم بالبقاء على دين الجاهلية...

وهذا ما تراه من تاريخ تطبيق الرسول محمّد(ع) للقرآن، فلم يكن له (ع) عبيد سوى ما قالوه عن زيد بن حارثة الذي اشترته السيدة خديجة ولدا صغيرا ووهبته للرسول الذي ربّاه كولد له وليس كعبد، وبلال بن رباح الذي قالوا عنه في كتب التاريخ أن أبا بكر اشتراه لتحريره من ظلم أمية بن خلف ويقولون أنه وهبه للرسول(ع)، ومعلوم من التاريخ أن بلالا لم يعش بين المسلمين كعبد، ولم يعمل عند الرسول(ع) أصلا لا في بيته للخدمة ولا كعبد في وظيفة ما...

وبالنسبة للنساء، فكلهن أعتقهن النبي(ع) وتزوجهن، فلم يقارب ولا واحدة منهن وهي مملوكة يمين "عبدة أو أمة".

وبحسب ما نقلوه في كتب التاريخ، فحالات تسريح الرسول محمّد(ع) للأسرى أو فداءهم أكثر بكثير من حالات استعبادهم "التي زعموها ولا تجد لها بعد ذلك أثرا في التاريخ"، وأشهرها طلقاء مكّة من بعد الفتح، وبعدهم تسريح هوازان من بعد معركة حنين، وقبلها فداء أو تسريح حصل لمختلف جماعات يهود المدينة وخيبر... وهكذا ترى أنه تعالى ترك لنا هامشا واسعا في القرار المناسب لمختلف الظروف والأزمنة والمجتمعات... لاستعباد الأعداء أو سجنهم أو مفاداتهم أو قتلهم "إن ثبتت عليهم جرائم...".

وأكرّر لك لتنتبه أشدّ الانتباه مما يقال عن إبادة الرسول(ع) لكل ذكور بعض أعدائه، ولما يقال عن سماحه(ع) لأصحابه باستعباد نساء الأعداء ومعاشرتهن غصبا عنهن... فهذه أكاذيب ألّفها مجرمون مشابهون في إجرامهم لبعض المعاصرين للرسول(ع)، أولئك بقوا على عقليتهم الإجرامية القديمة بلا ناموس ولا قرآن، واستمرّ الحال هذا من بعد الرسول عمليا وفتوائيا مخالفا لكلام القرآن الصريح حتى صار من المتعارف عليه والمنتشر فتاوى تبيح اغتصاب العبدات "ملك اليمين"، وقد درج ذلك بين المسلمين! وصار منتشرا في ثقافتنا الحريم والجواري...

التصرفات المشهورة عن الرسول(ع) هي وحدها العاكسة لدينه تعالى، وأمّا تصرفات كل بقية المسلمين وفتاويهم فهي عاكسة لدينهم هم، فهو (ع) لم يكن له عبيد يخدمونه، ولا قارب أنثى "أمة عبدة ملك يمين" قبلما يتزوجها، وما ينقله البعض من أخبار شاذّة عن ذلك، وما قاله البعض كفتوى تجعل اغتصاب المملوكة رغما عن إرادتها حلالا، فما هو إلا انعكاس لعقليتهم الذكورية الإجرامية.

ما قاله القرآن يساوي بين الزوجة وملك اليمين من ناحية حليّة المقاربة كما ورد في الآيتين 6 من سورة المؤمنين والآية 30 من سورة المعارج {إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ}، فلمقاربة مملوكتك لا تحتاج لعقد قران عليها ويكفي موافقتها، وإن رفضت وطلبت الزواج من مالكها حتى تسمح له بمقاربتها، أو طلبت الزواج من أي أحد آخر حرا كان أم عبدا، فهي وشأنها، وهذا واضح من كل كلام القرآن الذي عليك بإعادة قراءته من دون أفكار "ذكورية إجرامية" مسبقة عن هذا الموضوع، وسترى بوضوح أن للعبدة "الأمة المملوكة" فلها حرية اختيار من تقاربه ومن تتزوجه، وهذا واضح وصريح من الآية 25 من سورة النساء {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ...}.

نعيد فنقول أن القرآن لم يذكر من موضوع تشريع تقييد الحرية إلا الأسر للأعداء، فلم يذكر أي شيء عن الكيفية التي تبيح استعباد الآخرين، ومن ناحية ثانية فقد كان الأمر الواقع المنتشر بين الناس استعبادهم للشعوب الضعيفة من أي دين أو عرق كان، فهل تشريعات القرآن التي تضمّنت كلاما عن العبيد وملك اليمين قصدت واقع الحال هذا، أو قصدت فقط الهامش المسموح التحرّك به في حالة استعباد الأسرى من الأعداء المقاتلين من غير المسلمين؟

من عموم القرآن وبالخصوص من سورة الممتحنة وبالأخص من الآية 8 منها {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، تجد منعا قرآنيا بكل أشكاله من التعرّض بالأذى لأي إنسان كان مهما كان عرقه أو دينه إلا إذا كان معاديا محاربا، وأي آية قد يفسّرها أحدهم ويقول

بأنها تشرعن استعباد المسالمين من الكفّار أو من أهل الكتاب، فراجع دراستنا هذه لترى معناها، وسترى أن كلامهم غير صحيح. أمّا ما في الروايات عن هذا الموضوع ومخالف لصريح القرآن فمصيره الرمي والإهمال وتكذيب ناقليه عن الرسول(ع)...

وننتقل الآن إلى واقع الحال الذي كان عليه الناس في عصر النبي محمّد(ع)، حيث كانوا يشترون ويبيعون العبيد المسالمين المخطوفين من مختلف الجنسيات ومختلف الأديان، فهل في عهده (ع) تعامل المسلمون بذلك أم انحصرت تعاملاتهم في العبيد من الأعداء؟

طبعا حين نقول "المسلمون" نقصد المؤمنين الحقيقيين منهم، فقد اشتهر في عهده (ع) بعض المسلمين "المنافقين والفاسقين" الذين يجبرون عبداتهم على الزنا، وقد منعهم النبي(ع) من ذلك بأمر إلهي كما ورد في الآية 33 من سورة النور {... وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا...}، ومن منطوق الآية بكلامها عن الإحصان تفهم أنه حتى مالكها لا يحقّ له مقاربتها إن لم تقبل، وبالتالي فلا يحق له السماح للآخرين بمقاربتها غصبا عنها... ويحقّ لها اختيار زوجها مع موافقة أهلها ومن ضمنهم مالكها...

أكتفي بهذا المقدار الذي فيها الأساسيات القرآنية لترى نظرة قرآنية مختلفة عن العبيد مما هو دارج في مختلف الكتب المسمّاة اسلامية.

وما تجده في القرآن عن العبيد وما تجده في كتب التاريخ من تصرفات المؤمنين الحقيقيين مع العبيد والإيماء، كتطبيق عملي للإيمان في التعامل مع الآخرين، ترى فيه فرقا عمّا تجده في الكثير من كتب الفقه عند كلّ المسلمين، التي بعضها كتبها فقهاء مجرمون، يحلّون استعباد أي إنسان ليس من طائفتهم أو مذهبهم! بل يهدرون دم وعرض الآخرين! حتى المسلمين المسالمين! وقد اعتمدوا في ذلك على روايات كاذبة رواها مجرمون أمثالهم، واعتمدوا على سيرة مجرمين من المسلمين اتخذوا منهم منارة للدموية، فها القرآن أمامك، وها دراستنا له، فراجع أي آية قالوا أنها تدعم كلامهم لترى أنهم كاذبون ومجرمون.

وبالنسبة لتعبير ملك اليمين، فمعنى كلمة ملك: هو عموم أي شيء يرجع إليك أمره فيتبع لك مع التحكّم به والسيطرة عليه. وكلمة يمين لعموم التعامل مع أي شيء براحة واقتدار وقوة وتحكّم. فيصير تعبير ملك اليمين يعني: السيطرة مع اقتدار. فهو شخص تتصرّف به فتأمره بقوة اقتدارك عليه. وكلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

من هذا المعنى اللغوي الأساسي للكلمات ترى أن استعمال القرآن لها للتعبير عمّا يقصده فهو بعيد كل البعد عن الممارسات السيئة للناس مع المملوكين ملك يمين والمستعبدين، فقارن معنى كلمة "ملك يمين وعبد" مع خادم أو خادمة أو عامل أو عاملة مقابل المبيت والطعام، وسترى أن القرآن يقصد هذا المعنى حصريا، أمّا ممارسات "المسلمين" ورواياتهم وفتاويهم فهي تمثّلهم هم ولا تمثّل دينه تعالى المطروح في قرآنه.

(يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{26})
بهذه الأحكام التي ذكرتها الآيات السابقة: {يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُبَيِّنَ}، أن يوضّح لكم، حيثُ يَصِيرُ الحلال والحرام وَاضِحاً لكم، ويريد تعالى أن، {يَهْدِيَكُمْ}، يضعكم على الشيء الصحيح الذي يوصلكم للغاية الصحيحة، {سُنَنَ}، طرق وعادة تصرف، {الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ}، طَبْعاً يقصد تعالى طريقة وعادة تصرّف المؤمنين الَّذِينَ سبقونا على أساس أن هذا الدين القرآني امتداد للدين الإلهي، فهو امتداد للسنن التي اتّبعها المؤمنون من قبلنا. لأنَّ هذا الحلال والحرام هو نفسه على كل الناس، وهو نفسه الدين الإلهي الذي جاءت به الأنبياء من البداية، ولم يتغير.

ويريد تعالى أن، {يَتُوبَ عَلَيْكُمْ}، ولا يزال الكلام مع من غلبته شهوته، فإن كان فعل سُوءاً فَقَدْ بيّن له تعالى أن الحلول الحلال غير معدومة والصبر أفضل له من ارتكاب السوء، فإن فعل سُوءاً قبل أن يعلم أنه لا تهاون إلهي مع السوء حتى في أقصى حالات طغيان الشهوة، فليتب وَلْيُعْلِنْ إقلاعه عن السوء وسبحانه لن يلاحقه بالذنب الذي عليه، وَسَيُسَامِحُهُ إن تاب. {وَاللَّهُ عَلِيمٌ} حيثُ يَعْلَمُ كل شيء، وَيَعْلَمُ من كانت توبته حقيقية، ويعلم أن الشهوة تَطْغَى علينا، وَاللَّهُ، {حَكِيمٌ}،

لِأَنَّهُ عِنْدَمَا قرّر هذه التشريعات للزواج الحلال وتحريم الأمور الأخرى، فَعَنْ حكمة عن صوابية قررها وليس عن عبث.

(وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً{27})
{وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ}، حيثُ لم يكن تعالى يقصد التضييق عليكم وكأنه ينتظركم أن تخطئوا ليعاقبكم، لا بل العكس، يقصد تعالى فتح صفحة جَدِيدَةٍ لكم عندما تَتَغَيَّرُونَ وَتَبْتَعِدُونَ عن السوء عبر لفت انتباهكم لحلول حَلَالٍ...
{وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ}، الَّذِينَ يلحقون ما يشتهونه وهم لا يهتمّون بالصلاح والسوء، يريدون {أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا}، أن تنحرفوا وَتَحِيدُوا عن الطريق الإلهي الصحيح بأقصى انحراف ممكن.

هناك أناس متعلقون بالشهوات ولا يهمّهم إن كانت سيئة، حيثُ يشجعون الآخرين على تنفيس شهوتهم بالسوء، حتى لو كان الحلال مُتَاحاً مُتَوَافِراً فهؤلاء منجرفون وراء الشهوات السيئة، والكلام هنا عن مؤمن يتعرّض لضغط من شهوته ويعرض عليه الآخرون الفاحشة من الزنا والأعمال السيئة... فتنبّهه الآية منهم، وتلفت انتباهه إِلَى أَنَّ هذه النوعية من الناس لا تعرض عليه حَلّاً لحالته، بل يعرضون عليه ما يجعله مُنْحَرِفاً مَائِلاً عن الصلاح، وهم أَسَاساً لديهم رغبة بجعله مثلهم مَائِلاً تَمَاماً عن الصلاح.

بعبارة أخرى، يَتَصَوَّرُ المؤمن الواقع تحت ضغط الشهوة أن من يعرض عليه تنفيس الشهوة بما يخالف بالسوء، يَتَصَوَّرُ أنهم يتفهّمون وضعه وحاجاته ويريدون مساعدته، لِذَلِكَ تنبّهه الآية منهم، لِأَنَّ هؤلاء يريدون إخراجه من الصلاح، وَفِيمَا بعد سيصير مثلهم، حيثُ إِنَّ الحلال متاح له ولهم ولكنه سينجرف مع السوء.

(يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً{28})
{يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ}، هذه التشريعات للحلال والحرام ليست للتضييق عليكم، بل للتخفيف للتسهيل، فمن يشعر أَنَّ الدين الإلهي يقيده ويربطه، لْيُرَاجِعْ أموره وَلْيَرَ أين ضيّق عليه تعالى وبماذا؟ فإن بقي فيه عقل لم تحكمه الشهوة عندها سيرى أن ما حرّمه تعالى هو فقط السوء.

{وَخُلِقَ}، حيثُ تَرَكَّبَ وَتَأَلَّفَ، {الْإِنسَانُ}، الغالب الأعم من الناس، {ضَعِيفًا}، وهنا الكلام عن الشهوات، حيثُ إِنَّ أساس تركيبة الأغلب الأعم من الناس هُوَ الضعف أمام الشهوات.

لا تقصد الآيات الذمّ لهذا الضعف، بل تريد التوضيح أنه مجبول فينا فهو من تركيبتنا، وموجود في الغالب الأعم فينا، وأنه سبحانه يعلم هذا الضعف أمام الشهوات، ولذلك خفف تعالى عنّا ولم يجعل تنفيس الشهوة مُسْتَحِيلاً إلا بالحرام أو بتكاليف عالية لا نقدر عليها، بل بيّن لنا كيفية التعامل مع الشهوة بالحلال.

يَخْطُرُ ببالنا أن أصل تصميمنا بشهوة قوية سبّب لنا الوقوع في الحرام، فلو كانت شهوتنا أقل لكنّا تعاملنا معها بعقلانية أكبر ولما جرفتنا نحو السوء، هذه الفكرة تتضمّن الاعتراض على أساس تصميمنا، وأنه لا يتماشى مع إمكانية صَيْرُورَتِنَا مُؤْمِنِينَ، وهذا غير صحيح.

خَالِقُنَا يعلم المقدار المناسب لجعل الشهوة فينا، ولو كانت أقل من ذلك، لابتعد الناس عن الزواج، وَدَعْكَ من الكلام الفارغ عن تعميم كل حالات الزواج انْطِلَاقاً من العقلانية لاستمرار نسل البشرية ورغبة نقل الجينات... لأَنَّ الشهوة والرغبة هي على رأس الدوافع الطبيعية للزواج، ومن يتغابى ويعتبر هذا الكلام إِبَاحِيّاً جِنْسِيّاً مَعِيباً... ويعيب على الدين الإلهي الحديث فيه، فهو غبي أو يتغابى نَاكِراً حاجة أساسية موجودة فينا، وهم أنفسهم هؤلاء تجدهم يعلّقون على الدين الذي يحرّم عليهم تنفيس شهوتهم بالحرام! وَيَقُولُونَ إِنَّهَا حاجات طبيعية والدين يخالف طبيعتنا! فلا إن تحدّث الدين عن الشهوة يقبلون، وَيُهَاجِمُونَ الدين ويعتبرون كلامه مَعِيباً إِبَاحِيّاً... ولا إن حرّم الدين أمورا شهوانية فاسدة يقبلون على أساس أنه يخالف طبيعتنا!

الكَلَامُ يجرّ الكلام، حيثُ إِنَّهُ سبحانه وتعالى لم يفعل معنا إلا الخير، وبالأصل هو حميد لا يفعل إلا الخير، ولكن حين نعاني من شيء ما، ومهما كان هذا الشيء، فلننظر إن كان السوء سببه هو تعالى أو نحن؟ وعادة يقفز على بالنا الكوارث الطبيعية والولادات المشوّهة والحروب... وَنَلُومُهُ تعالى عليها، وفي مسألة الحروب معلوم أنها من فعل

البشر، ونلومه تعالى إذا لم يتدخّل، وهذا موضوع آخر فلنركّز هنا عَلَى مسبّب السوء لنا، لأنَّهُ في الحروب هم الناس بقرار منهم يتقاتلون، والولادات المشوّهة معلوم سببها من عوامل من صنع الإنسان، من الأكل غير الصحّي والعادات غير الصحية وتلوّث البيئة... والكوارث الطبيعية ما هي إلا طبيعة حياة كوكبنا المتجددة... ورغم ذلك فسبحانه وعدنا بالتدخّل للعناية بنا من كل ذلك إن آمَنَّا والتزمنا بالصالحات، وهذا صريح في الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، فَرَاجِعْ دراستها لمزيد من التوسّع.

هنا الكلام عن شهوة، تَصِلُ في حدّها الأقصى للسيطرة على العقلانية، وبالأصل فإنَّ الشهوة والرغبة والمشاعر والأحاسيس والملذات الجسدية... شيء رائع منحه تعالى لنا، والمشكلة في إشباع هذه الأمور، فهل متاح لنا إشباعها؟ وما السبب حتى البعض منّا يعاني من تحقيق رغباته؟

سبحانه وتعالى في الآية هنا والسابقة بِصَرَاحَةٍ وشفافية يخبرك أنه لم يصممك ويخلقك بحيث تصير في وجه الحائط مَجْبُوراً على فعل السوء لتحقيق رغباتك، لا، ولا تظن أن فعل السوء هو الحلّ، لا، لأنَّ المعاناة سببها أننا نحن مجتمعاتنا فيها فساد يسبب الفقر المانع من الزواج، ويسبب تقاليد وعادات فاسدة تقيّد حياتنا وتعقّدها، حيثُ ما زالت بعض مجتمعاتنا تعيب الزواج من مطلقة! وتعيب على الأرملة الشابة الزواج من بعد وفاة زوجها!

في بعض مجتمعات دولنا الْإِسْلَامِيَّةِ وصل الضغط فيها على الشبان والشابات لدرجة لا تطاق بسبب فساد الدولة والمجتمع الذي أوصلهم للحائط بلا قدرة على الزواج... وَانْجَرَفَتِ الأمور نحو الزنا... وبعضهم أجرى قوننة للعلاقات بالزواج العرفي والمسيار والمتعة... الذي تعامل معه الناس باستهتار مثلما تعاملوا مع أي شيء عقلاني كالزواج المنقطع المعلوم تشريعه في دينه تعالى والمساوي في شرعيته للزواج الدائم كعقد يضمن للطرفين حُقُوقاً قَابِلَةً لِقَوْنَنَتِهَا مِثْلَهُ مثل الزواج العادي...

لَا تلومه تعالى على منحك رغبة رائعة، وَلُمْ نفسك ومجتمعك لأَنَّكُمْ بعاداتكم وسلوكياتكم وصلتم إلى هنا، وتتابعون ليرث أولادكم سوء الحال...

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً{29})
ننتقل الآن إلى تقواه تعالى في الناس في المواضيع التالية:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين: {لَا تَأْكُلُوا}، لا تستهلكوا، {أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ}، بالنصب والاحتيال والغش والقمار والمراهنة والربا... بل فليكن بالحق، فإذا أكلت استهلكت وَأَخَذْتُ منك مَالاً فممنوع أن آخذه بطريق الباطل، {إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً}، إلا أن تكون عملية بيع وشراء يقصد أحد طرفيها أو كلاهما، يقصدان زيادة الربح على رأس المال، {عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ}، عن قبول بمحبّة، وَأَبِيعُكَ شَيْئاً وَآخُذُ مالك وأربح منك، وأنا أقصد زيادة الربح على رأس مالي، وهذه هي التجارة، وهي مسموحة إن كانت عن تراض عن رضى وقبول منّا، حَيْثُ أنت تقبل أن أربح منك وأن آخُذَ مالك لأني أمنّت لك ما تحتاجه...

أنا أعمل، وَأُنْتِجُ شَيْئاً ترغب الناس بشرائه، وَأَبِيعُهُ لهم وهم يعلمون أني سأربح منهم، أو أشتري بضائع من تاجر، وأبيعها للناس وهم يعلمون أني سأربح منهم، حَيْثُ يَعْلَمُونَ أني سآخذ منهم مَالاً زيادة عن الثمن الذي اشتريت به البضاعة من التاجر، فهذا حلال، أما النصب والاحتيال، والربا والتسلط... وبيع الأشياء التي تحتاجها الناس بأسعار عالية جِدّاً، بشكل أنهم لا يرضون عن الربح الفاحش الذي أحصل عليه، فهذا سوء حرام يعاقب تعالى عليه.

انْتَبِهْ وَلَا نَفْهَمُ أن كل شيء غير التجارة عن تراض فهو حرام، لا، بل كل معاملة غير محقّة حرام، لِأَنَّ البَاطِلَ معروف مشهور، وليس بحاجة لأن تدل عليه، حَيْثُ إِنَّ الرِّبَا باطل، والقمار والمراهنات باطلة، والشيكات بلا رصيد عمل باطل، وبيع البضاعة المغشوشة والمزورة باطل... ومن جانب آخر إِنَّ الْهِبَةَ والإجارة والشراكة... مثلها مثل التجارة، كلها حلال.

يا أيها الذين أعلنوا أنهم ملتزمون بهذا الدين: {وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ}، فلا تقتل نفسك ولا تقتل مُؤْمِناً آخَرَ، وَكَمَا لا يحقّ لكم التصرف بأموالكم بطريقة باطلة، كَذَٰلِكَ فَإِنَّ أنفسكم "حياتكم" لا يحقّ لكم التصرف بها بطريقة باطلة، فلا يحق لك قتل نفسك ولا بأي شكل، ولا يحق لك قتل غيرك إلا بالحقّ.

هناك تعابير قرآنية مشابهة لتعبير: {لَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ}. وكانت تشير إلينا كمجموعة تقتل بعضها، وَهَذَا من النظرة الإلهية لنا كلّنا كأنفس. وبتعبيرنا العامي نستعمل عبارات مشابهة كالتالي: لا تقتلوا بعضكم. لا تقتلوا بعضكم البعض. وبالعامية الدارجة نقول: لا تقتلوا حالكم. وهو تعبير مشابه جِدّاً للتعبير القرآني، وهذا التعبير العربي استعمله القرآن في قضية القتل بعد عبادة بعض بني إسرائيل للعجل في الآية 54 من سورة البقرة {... {فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ}...}، ومعلوم أنه أمر للمؤمنين بقتل عَابِدِي العجل، وهنا في الآية نحمله على معناه الواسع لأنه لا يوجد شيء يضيّق المعنى، لِذَٰلِكَ نَفْهَمُ من الآية أن الانتحار ممنوع، وقتل أي إنسان لم يرتكب أي جريمة تستحق القتل أَيْضاً ممنوع.

نَجِدُ في القرآن والروايات تَأْيِيداً للنهي عن قتل النفس انْتِحَاراً حتى بالهجوم على العدو، حَيْثُ نَجِدُ مَنْعاً من هجوم شخص منفرد على جيش العدو، ويعدّونه قَتْلاً للنفس، لأنه بالتأكيد سيموت، وهذا ممنوع.

{إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا}، حَيْثُ يَعْتَنِي بكم لما فيه مصلحتكم يا أيها الذين أعلنوا أنهم مؤمنون، فهذا التشريع لحرمة أكل المال بالباطل وحرمة قتل النفس هو تشريع إلهي لما فيه مصلحتكم.

آيَتُنَا هنا عنوان عام رئيسي يمكن أن تتوسّع في الاشتقاق منه لبناء نظام مالي صالح، ويبقى تحته هامش مرونة كبير قابل للتكيّف مع مختلف الأزمنة والأمكنة والمزاج العام... وَمَثَلاً لا تحديد قُرْآنِيٌّ لنسبة الأرباح، لِأَنَّ هَذَا شَيْءٌ قابل للمرونة ومن الضروري المرونة فيه، وحدّه الأقصى هو الاحتكار والاستغلال بما يفوق قدرة الناس على تحمّله للمواد الأولية الضرورية للحياة، فهذا فساد، وبعدها وبحسب عادات كل مجتمع يتولّى القيّمون تحديد السلع المعتبرة من ضروريات مجتمعاتهم لتحديد سقف لأسعارها بما يناسب المعدّل العام لدخل الفرد والأسرة...

(وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً{30})
{وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ}، الذي يأكل أموال الناس بالباطل، أو يقتل نفسه أو يقتل شَخْصاً بَرِيئاً، {عُدْوَانًا}، بِنِيَّةِ الاعتداء وعن قصد لمخالفة أوامره تعالى، حيثُ يكون عندك غايات شهوانية سيئة أو عصبية أو مالية فاسدة... {وَظُلْمًا}، من دون أي حق، حيثُ يكون هناك خلاف بينك وبينه ولكنك لا تريد الحقّ، والحقّ معه، ورغم ذلك أكلت ماله أو قتلته، فهذا ظلم.

{فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا}، فسوف نجعله يقف أمام نار الآخرة ليحترق بها، {وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا}، سَهْلاً حيثُ تمشي الأمور براحة كما يريدها تعالى، وَبِكُلِّ سهولة ومن دون أي عوائق سَيُنَفِّذُ حكم التعذيب بالنار لهؤلاء الآكلين لمال الآخرين بالباطل وللقتلة. نَحْنُ نُهَدِّدُ ونتوعد... ولكن عند التنفيذ قد لا ننجح، أما سبحانه فَتَنْفِيذُ لتهديده يسير سَهْلٌ جِدّاً.

(إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً{31})
تكمل السورة الكلام مع الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين: {إِن تَجْتَنِبُوا}، إن تبتعدوا لا تقتربوا، {كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ}، الأشياء الكبيرة التي أمركم سبحانه بتركها، كأكل مال اليتيم، والزنا والقتل والنصب والاحتيال...
{نُكَفِّرْ}، نستر نغطي، {عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ}، نجعلها لا تظهر ولا يكون لها أثر، {وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا}، له قيمة عالية وشأن عَالٍ، فستدخلون إلى الجنة التي لا يقاس بسعادتها أي شيء من الدنيا، حيث لا أكرم، ولا أشرف ولا أرقى من جنة الآخرة.

لا نستنتج من الآية بأننا يمكننا الابتعاد عن الكبائر وارتكاب الصغائر لأنه في الأخير سيتم التكفير عنها، لا، لأَنَّهُ مستحيل أن تشجّعنا الآية على ارتكاب السيئات، حتى لو كانت صغيرة، إنما تنبّهنا ليكون عزمنا شَدِيداً أمام الذنوب الكبيرة لنتجنّبها ونحصل على مغفرة الأمور الصغيرة. بعبارة أخرى، إن عملت على اجتناب كبائر الذنوب ستحصل على تكفير إلهي لعامّة ذنوبك الأخرى. تَصَوَّرْهَا مثل حالة المؤمنين العاديين الذين يتجنبون الزنا والقتل والخمر والنصب والاحتيال... ولكن يقعون هنا وهناك في ذنب ما، حيثُ إِنَّ سيرتهم اليومية لا تتضمّن ارْتِكَاباً للكبائر، وَهَؤُلَاءِ

وبسبب سلوكهم المبني على نيّة تجنّب الكبائر سَوْفَ يحصلون على تكفير إلهي، على ستر إلهي لذنوب لا تستحق أن يهانوا بمحاسبتهم عليها.

بعض الكتب فيها كلام عن الذنوب الكبيرة والصغيرة، والقرآن لم يستعمل وصف الصغيرة واستعمل وصف اللمم كما تقرأ في الآية 32 من سورة النجم {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ...}، لأنَّ واقع الحال وجود فرق هائل بين قتل نفس بريئة عن عمد، وبين المزاح الثقيل، حيثُ كِلَاهُمَا سوء ولكن واقع الحال يفرض وصف أحدهما بالكبير والآخر بالأقل منه سُوءاً، وبالتالي لَمْ يحكم سبحانه بالعقاب الشديد على أي عمل بغض النظر عن درجة سوئه، بل هُنَاكَ أعمال يمكن التغاضي عنها بالنظر لسوئها القليل نسبيا.

مِنْ فحوى كلام الآية هنا سنشعر بدافع لمعرفة الكبائر حتى نتجنبها نِهَائِيّاً، وهذا شيء جيّد، ولكن الأساس أننا كمؤمنين أَصْلاً نتجنّب أي شيء سيّء، ولذلك عبّرت الآية 32 من سورة النجم عن سيئات المؤمنين باللمم، بتوصيفها بما يشبه الفتات والتوافه من الأشياء، لِأَنَّهُ لا سيئة صغيرة في نظر المؤمنين طالما هي سيئة.

(وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً{32})
تكمل السورة الكلام مع الذين أعلنوا أنهم ملتزمون ومعتقدون بهذا الدين:

{وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ}، حيثُ هُنَاكَ أمور جيدة حصل عليها الآخرون من فضله تعالى وَلَمْ يحصلوا عليها بقدرتهم الذاتية المنفصلة عنه تعالى، ولم يحصلوا عليها لأنه فرض واجب عليه تعالى منحها لهم، فلا تتمنوا وَلَا ترغبوا بها وتحبوا الحصول عليها وهي أمور ترونها بعيدة المنال وحصل عليها غيركم.

بعبارة أخرى، مَا حصل عليه الآخرون فَهُوَ نصيبهم من الفضل الإلهي، والأماني لن توصلكم إلى أي مكان، والجملة التالية ستشرح أكثر.

{لِّلرِّجَالِ}، للذكور، {نَصِيبٌ}، حصة قسمة محدّدة لهم، {مِّمَّا}، من الذي، {اكْتَسَبُوا}، من الذي حصلوا عليه من عمل قاموا به، فَمَا معهم وتتمنونه فَهُمُ اكْتَسَبُوهُ، وَقَامُوا بعمل للحصول عليه، {وَلِلنِّسَاءِ}، للإناث، {نَصِيبٌ} حصة قسمة محدّدة، {مِّمَّا}، مِنَ الَّذِي، {اكْتَسَبْنَ}، مما حصلن عليه من عمل قمن به.

الكَسْبُ هو الطريق النموذجي للحصول على الفضل الإلهي ولا معنى لتمنّي الحصول على ما حصل عليه الآخرون، فلا يتمنّى الرجل ما حصل عليه رجل آخر أو امرأة، ولا تتمنّى امرأة ما حصلت عليه امرأة أخرى أو رجل. لِأَنَّهُمْ حصلوا على ما معهم "عادة" بالكسب، وَأَنْتَ نفسك ما معك من فضل إلهي عليك حَصَلْتَ عليه بكسبه، بالعمل على إنْتَاجِهِ، والحالات القليلة التي يحصل فيها بعض الناس على الغنى من ميراث أو من هبة أو... فهي حالات قليلة لم تجعلها الآية نَمُوذَجاً للقياس عليه، واستعملت تَعْبِيراً دَقِيقاً يشملها "{مِّمَّا}"، حيثُ لَيْسَ كل ما معنا من الكسب بل مما كسبنا ومما لم نكسبه، كالذي نحصل عليه من الميراث وهذا ما ستذكره الآية التالية.

{وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ}، لِأَنَّ هُنَاكَ "فَضْلاً" وَهُنَاكَ أمور جيدة يقدمها تعالى لنا من دون أن تكون فَرْضاً وَاجِباً عليه، فَاسْأَلُوهُ وَعَبِّرُوا له عن إِرَادَتِكُمْ لتلك الأشياء منه تعالى.

{إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}، وَعِنْدَمَا يأمرنا تعالى أن نسأله ليعطينا من فضله فليس لأنه ينتظرنا أن نخبره بحالنا، لِأَنَّهُ سبحانه يعلم بحالنا وحاجتنا، وَهُوَ سبحانه يعلم كل شيء، ولكنها ظروف الحياة التي تمر على جميع الخلق، وبعضهم لا يسأل أي شيء، لأنه لا يريد أي شيء للدنيا، ويريد فقط الآخرة، وهذا هو السلوك الإيماني الراقي، وبعضهم يريد هنا أشياء للدنيا، لا لارتكاب المعصية، بل للاستعانة بتلك الأشياء على شؤون الحياة المريحة، وَهَذَا عنده اهتمام قليل بالدنيا، فَلْيَسْأَلِ الله تعالى أن يعطيه من فضله بدل تمنّي ما حصل عليه الآخرون.

(وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً{33})

{وَلِكُلٍّ}، من الذكر والأنثى، {جَعَلْنَا مَوَالِيَ}، أُنَاساً مُوَالِينَ أُنَاساً كمرجع لبعضهم، {مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ}، وتكملة الجملة بعد جملة "{وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ}": {فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ}، يعني ترك الوالدان أو الأقربون مِيرَاثاً، وأنا لي حصّة مفروضة فيه بحسب تقسيم الميراث على الأقارب، حيثُ تَقُولُ الآية لي أَنَّ أي شخص يحقّ له أن يكون له مَوَالٍ، سواء أكان ذَا منصب أو شَخْصاً عَادِيّاً "{وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ}" لِأَنَّ أي شخص من الناس يمكن أن يكون له مَوَالٍ وهذه الحالة ليست حكرا على بعض الناس، وحين يموت فلمواليه للذين كان تَابِعاً لهم أو هم كانوا تابعين له، فلهم حصّة من ميراثه حيثُ يجب عَلَيَّ أن أعطيها لهم، كَنَمُوذَجٍ يَنْطَبِقُ هَذَا الكلام على الذين كان يساعدهم مَالِيّاً في حياته بمعاش شهري، أو كالذين تبنّاهم كما وصفتهم الآية 5 من سورة الأحزاب {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ...}.

{وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ}، والذين قلتم لهم يَمِيناً وَقُلْتُمْ لهم شَيْئاً قَوِيّاً، مَعْقُوداً مُبْرَماً بقوّة وَأَعْلَنْتُمُ الاتفاق عليه، حيثُ إِنَّ الكلام هنا عن شخص قلت له ما يفيد معنى جعلك مُلْزَماً بتوريثه، فالأصل أن الوالدين والأقربين من أولاد أو إِخْوَةٍ أو أَعْمَامٍ... هم الوارثون، وَيَنْضَمُّ إليهم مَنْ بيمين معقودة أي شخص قررت أن تجعل له حصّة من ميراثك، حتى لو لم يكن من أقاربك، ويمكنك في حياتك فعل شيء من ذلك في غير الميراث، مَثَلاً تقسم له أنك ستعتبره أَخاً لك، وتقصد أن كل ما يجب عليك لأخيك صَارَ وَاجِباً عليك له، فإذا صار مَدْيُوناً ساعدته بسداد ديونه... وَسِيَاقُ الكلام هنا عن خصوص الميراث لِأَنَّكَ حِينَ تكتب وصية يمكنك أن تجعل له حصّة كحصّة أخيك "أو أكثر".

{فَآتُوهُمْ}، أَعْطُوهُمْ وأوصلوا إليهم، {نَصِيبَهُمْ}، حِصَّتَهُمُ المحدّدة، لِأَنَّهُ سَبَقَ وأخبرتنا السورة عن تقسيم ميراث الميّت بين أرحامه والزوج أو الزوجة، وهنا تُضِيفُ عليهم الأولياء للميّت وَمَنْ كان الميّت قال له يَمِيناً معقودة وَالْتَزَمَ معه بأن يكون له حصّة مما يتركه، لِيُشَارِكَ الورثة حتى لو لم يتم ذكره في الوصية، حيثُ تَأْمُرُنَا الآية هنا بحصر من لهم حصّة في ميراث الميّت أن يكون الورثة حَصْراً من أبويه أو أقربائه الأقرب فالأقرب، ومعهم الْمَوَالُونَ ومعهم مَنْ كان قال له من مات "قبل أن يموت طَبْعاً" قال له يَمِيناً يَتَضَمَّنُ أن له حصّة مما يتركه، فهذا المضاف على الوالدين والأقربين فَأَعْطُوهُ حِصَّتَهُ من الميراث.

{إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا}، لِأَنَّهُ حِينَ عقد ذلك الشخص اليمين، فإنه أقسم بالله سبحانه، والله سبحانه شَهِيدٌ حَاضِرٌ على اليمين، فلا يحق للورثة منع تنفيذ هذا اليمين، لأنه كان يَمِيناً بالله تعالى، ويجب تنفيذه.

أمّا بالنسبة لحصّة المولى والذي عقدت له يَمِيناً ليرث منك، فلم تحدّدها الآية وَتَرَكَتْ لها هامش مرونة بما يناسب مختلف الظروف، وتلاحظ أن هذه اليمين تختلف عن الوصيّة، حيثُ فِي الوصية يقول الشخص إِنَّهُ قرّر ترك المبلغ الفلاني لفلان، وهذا لم يحصل مع الموالي ومن أقسم له الميّت يَمِيناً أَوْ يورّثه، وحدود ما يمكن الوصية بتوريثه لغير الأقارب بين الثلث والنصف بحسب ما يناسب الظروف ويتماشى مع المعروف... "أو حتى كل شيء إن وافق الورثة"، أمّا في اليمين فقد وصلتنا روايات نفهم منها أَنَّ الْمُتَعَارَفَ عَلَيْهِ في حالة التوريث باليمين أن ينال المُقْسَم له حصّة السدس، ويبدو أنها حصّة تفسير تطبيقي للآية بحسب العرف الدارج بينهم في زمانهم.

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً{34})

{الرِّجَالُ} {قَوَّامُونَ} {عَلَى} {النِّسَاءِ}، لا يهملون ولا يتركون أمور النساء بلا عناية، {بِمَا}، بسبب ما، {فَضَّلَ} {اللَّهُ} {بَعْضَهُمْ} {عَلَى} {بَعْضٍ}، فالتشريع الإلهي منح الرجل أشياء لم يمنحها للمرأة، ومنح المرأة أشياء لم يمنحها للرجل، ولكن بعض ما حصل عليه الرجال كفضل منه تعالى مِنْ دون أن يكون فَرْضاً وَاجِباً عليه تعالى منحه للرجال، فلم تحصل عليه النساء، وهي القدرة على التعامل مع أمور جسدية ونفسية وعقلية... أكثر شدّة مما يمكن للأنثى "بشكل عام غَالِبٍ" أن تتحمّله.

{الرِّجَالُ}، {قَوَّامُونَ}، {بِمَا} {أَنْفَقُوا} {مِنْ} {أَمْوَالِهِمْ}، ويبدو لك من تكملة الكلام أن الآية تشير لنفقة المهر والمعيشة الواجبة على الرجل لزوجته، فبسبب تحمّل الرجل لأعباء زوجته المالية صَارَ قوّاما عليها، فلا يهمل أمورها

وما تحتاجه بحسب ما يراه مُنَاسِباً، طَبْعاً ليس على مزاجه بل على مقياس ما تفضّل به تعالى عليه من قدرات وبالمعروف بين المؤمنين العقلاء.

ننتبه جَيِّداً، إذْ لا يوجد في استعمال العرب قديما لكلمات "قوّام، قَوَّامُونَ، قيّام، قَيِّمُونَ..." أي معنى صريح لمرادف: مسؤول تطيعه. ولا في القرآن يوجد هذا المعنى الصريح، بل هو من تبعات ومشتقات القيام على الشيء، فأصل المعنى هو التفعيل والاهتمام بدل التفريط أو الإهمال. وَمن تبعات هذا المعنى إن كان الوصف لـ: قائم على شخص، أَنْ يكون مُرَاقِباً أو مَسْؤُولاً عن تصرفات ذلك الشخص، مُوَجِّهاً للنصائح والتعليمات له، وإذا تساهلت كثيرا في معنى قائم عليه تصل إلى معنى: آمِراً على الشخص الآخر. ولكن هذا التساهل في التوسّع بالمعنى لم يستعمله القرآن، لِأَنَّ الرجال ليسوا قوامين على كل أمور النساء، وليست النساء تحت أمر الرجال في كلّ شيء، لا، بل فقط فيما يخصّ الشؤون المالية والنفقات بالمال الذي حصّله الرجل، فهو قائم على زوجته، لا يترك ولا يهمل أمورها التي لها علاقة بزواجهما بحسب ما يراه هو مُنَاسِباً على مقياس المعروف بين المؤمنين العقلاء، وليس على مزاجه.

بعبارة أبسط، بعض المسؤوليات الأساسية في الحياة الزوجية يتحمّلها الرجل، ولكن هذا لا يجعل المرأة عَبْدَةً له، ولا خَادِمَةً، ولا مَسْلُوبَةَ الإرادة... مَثَلاً لا يحق له التحكّم بها ليحبسها في البيت ويمنعها من الخروج، إلا لسبب وجيه...

أطلت عليك الكلام بسبب اللغط الذي تسمعه وتقرؤه حول هذه النقطة، وَمن ضمن ما تقرؤه أن القَوَّامِينَ غير الْقَيِّمِينَ، وهذا ناتج عن استعمال حديث للناطقين باللغة العربية، أمّا في أساس اللغة وحين نزول القرآن فلم تكن هذه الكلمات تشير للمعاني الصريحة التي درجت فيما بعد، والتي منها فسّر بعضهم كلام القرآن. حَيْثُ إِنَّ العرب قبل القرآن وكما هو واضح من أشعارهم، لم يستعملوها بالمعنى الدارج حَالِيّاً، ولم أجد جذرين مختلفين لكلمة قوّام وقيّام لِأَنَّ كلاهما من كلمة قائم. حتى قوّم على معنى جعله مُسْتَقِيماً ليست من جذر مختلف بل من معنى تفعيل الشيء على الأحسن المحمود.

يَخْطُرُ ببالك أننا في عصر مختلف عمّا تحدثّت به الآيات، إذْ في عصرنا وفي بعض المجتمعات دَرَجَ أن تعمل المرأة وتحصل على المال، وهي متعلمة ومدركة لأمور الحياة، وتتولّى مسؤوليات كبيرة... ولكن حتى في هذه الظروف لا تزال المرأة غير واقعة تحت هذه المسؤوليات إن قام بها الرجل، فلا تتحاسب عليها إن لم تتصدّ لها، وَليس تَقْلِيلاً من شأن المرأة إن رفع تعالى عنها المسؤولية طالما يقوم الرجال بواجباتهم، إذْ من البديهي وجود نساء يتفوقّن على بعض الرجال في التدبير وحسن التصرّف، حَيْثُ إِنَّ أزواجهن لم يتفضّل سبحانه عليهم بالقدرات العقلية أو البدنية أو المالية... وبالتالي لا قيومية لهم على النساء فيما يفقدونه، وقبل ذلك ألفت انتباهك أنه في عصر نزول القرآن وقبله أَيْضاً كان يوجد مجتمعات تعمل فيها المرأة، وبعضهن تفوّقن على بعض الرجال في الفهم والدراية، وَهذا ليس شَيْئاً تناقش فيه الآية، بل تتحدّث عن مجتمع صغير تحت سقف بيت، وتحدّد له قَوَّاماً عليه، مثلما تجد الكثير الكثير من الآيات التي تتحدّث عن النبي محمّد(ع) كمسؤول عن محيطه ومن يتّصل به، فهو (ع) نموذج لم تحصر الآيات فيه موقع المسؤولية، وتجد الكلام القرآني الكثير المنتشر عن وجوب ولاية المؤمنين المتصدّين للقيادة...

قَوَّامِيَّةُ الرجل في بيته وعلى زوجته ليست سوى أرجحية غالبة معمول بها أَصْلاً بين الناس وَأكّدها التشريع الإلهي وحدّد لها أطرها فلم يجعلها قوامية لدرجة الاستعباد وسحق الزوجة، بل قوّامية بما فضّل به الله تعالى الرجل على المرأة من قدرات جسدية ونفسية ومالية...

أَخِيراً، إذا التزمت بالمعنى الأصلي لكلمات الآية فستجد أن أكثر النقاش حول قوامية الرجل على المرأة فارغ، وينبع من خلفيات عالقة في أفكار لم تتوازن مع ما يرضاه تعالى، فإن كانت قوامية الرجل على المرأة بحسب ما أمر به تعالى وبالمعروف بين المؤمنين فهل هناك اعتراض من أي أحد؟ وهل في ذلك سحق للمرأة وتقليل من شأنها؟ فلنأخذ الأمور إلى أقصى حدّ، فهل كلّ واحد منّا سيبقى مُعْتَرِضاً لا يرضى عن أي شيء لأنه ليس هو رئيسا للبلاد؟ إذْ إِنَّ هذا منصب متاح لنا، وجلس فيه واحد، فأين المشكلة إن ترأّس بالعدل والقانون؟ وهكذا ترى أن ما يجادل به الناس حول جعل الاسلام الرجل قَيُّوماً على المرأة، جِدَالُهُمْ نابع من سوء تصرّف الرجال من خارج أوامره تعالى وخارج ما هو متعارف بين المؤمنين الحقيقيين، وينتج عن سوء التصرّف مطالبة المرأة بحياة زوجية أفضل...

لِنَبْتَعِدْ عن التلاعب بمعاني الآيات، وَلْنَرَ صَرَاحَةً ما تقول، وبعدها لِنَضَعْ إصبعنا على الجرح لنداويه، ولا نتراشق بالآيات وتفسيرها، لأنها لم تجعل المرأة عَبْدَةً ولا خَادِمَةً للرجل، ولم تجعل الرجل سَيِّداً مَالِكاً، ولم تجعل المرأة فَاقِدَةً

لأنوثتها وَاقِعَةً تحت ضغط تكاليف الحياة خارج عائلتها، إِذْ هناك الكثير من الأمور المهمّة المطلوبة من الزوجة ضمن بيتها، وَصرنا نراها أُموراً تَافِهَةً ثَانَوِيَّةً، عِلْماً أن الحياة الزوجية تتهدّم بسببها ولا نزال مصرين أن حسن التبعّل للمرأة ليس من أسباب تفرّق الأسرة! إِذْ إِنَّ الأنوثة باللطافة والكلام الحسن وتهدئة البال ونشر أجواء الراحة... صارت فقط في الخيال والأفلام وفي الحياة العملية لا تطبيق لها! وفي المقابل يصرّ الرجال أن تسلّطهم المزاجي ليس سَبَباً لتفرّق الأسرة، والرجولة عندهم هي فرض رأيهم دَائِماً! إِذْ إِنَّ هذا هو المرض المستشري في العقليات والنفسيات المريضة، وإلّا فما الضرر من قيومية رجل مؤمن عاقل على زوجته وهو يعمل بما يأمره تعالى، وبما هو متعارف عليه بين المؤمنين العقلاء؟

{فَالصَّالِحَاتُ}، من النساء اللاتي يقمن بأعمال صالحة، وَعَمَلِيّاً يقمن بالواجبات التي أمرهن تعالى بها، وفيما يخص الحياة الزوجية، فالصالحات هنّ: {قَانِتَاتٌ}، مُعْلِنَاتٌ أنهن تحت الطاعة والحاجة، فلا معنى للزوجة إن كانت مزاجية حين يقترب منها زوجها، فلا يحق لها منعه أو تنفيره... ولا معنى للزوجة إن كانت معارضة دَائِماً للرجل كاللواتي يثبطن عزيمة الزوج من اقتحام مغامرة تجارية، أو معارضة لتجارة أو عمل لا يبدو منه خطورة الخسارة... ومثال آخر من حياتنا العملية اعتراض بعض الزوجات المزاجيات على صداقات فردية أو عائلية للزوج...

الصَّالِحَاتُ، {حَافِظَاتٌ} {لِلْغَيْبِ}، إِذْ في غياب الزوج إِنَّ الزوجة لا تخونه، بل تحفظ، {بِمَا} {حَفِظَ} {اللَّهُ}، ما أمرها به سبحانه أن تحفظه فهي تحافظ عليه، وَلا تضيّعه ولا تفرّط به ولا تهمله... وسياق الكلام عن صلاحها بترفّعها ورقيّها عن الزنا الجسدي أو بالنظر لرجل آخر لتشتهيه أو بكلام غير لائق مع رجل آخر...

هَاتَانِ الصفتان "القنوت والحفظ" هما تَجْعَلَانِ الزوجة موصوفة بالصلاح، والقوامية للرجل من الناحية الزوجية متعلقة بهاتين النقطتين فقط لا غير. فلا حقّ للرجل أن يفرض على زوجته إلا في حدود المواضيع التي تتعلّق بقنوتها في واجباتها تِجَاهَهُ وحفظ معنى الزوجية بالإخلاص لزوجها. إِذْ ليست خادمة وليست بلا كيان...

تَنْتَقِلُ الآية إلى الزوجات غير الصالحات: {وَاللَّاتِي} {تَخَافُونَ}، تشعرون بضرر أكيد، من، {نُشُوزَهُنَّ}، خروجهن عمّا هو مطلوب من الزوجة، وَعلمنا أن المطلوب منها هو أن تكون قَانِتَةً فيما يتعلّق بواجباتها الزوجية وَحَافِظَةً للغيب وَلا تخونه ولا بأي طريقة خيانة، جَسَدِيّاً أو بالنظر أو بالكلام... فإذا بدأت الزوجة تقوم بتصرفات وصار عندكم شعور أكيد بِأَنَّهَا ستصير نَاشِزَةً تَمَاماً فتتغير ولا تتصرف كالزوجة الصالحة، {فَعِظُوهُنَّ}، أَيْ قولوا لهن كَلَاماً يحدد لهن ما يفعلن وما لا يفعلن، يعني وَجِّهُوهُنَّ بالكلام، وَنبّهوهن من تصرفاتهن السيئة، وإذا لم ينفع معهن الكلام {وَاهْجُرُوهُنَّ}، ابتعدوا عنهن، {فِي} {الْمَضَاجِعِ}، في أماكن الاضجاع في أماكن النوم في السرير، فحتى لو ناما على نفس السرير فإنه لا يقربها، وإذا لم ينفع {وَاضْرِبُوهُنَّ}، وممنوع أن يسبب الضرب علامات على الجسد، بل كضرب تنبيه الولد.

{فَإِنْ} {أَطَعْنَكُمْ}، أَيْ أطاعتكم الزوجة، {فَلَا} {تَبْغُوا}، أَيْ لا تتعدوا حدودكم، {عَلَيْهِنَّ}، على الزوجات، {سَبِيلاً}، مَسْلَكاً، فإن صارت الزوجة غير مقصرة في ما هو مطلوب منها كزوجة، فلا يحق للزوج أن يجعل ما فعلته سَابِقاً سَبِيلاً لمعاملتها بطريقة سيّئة أو لطلاقها، لِأَنَّ الوعظ أَوَّلاً ثم الهجران وفي الأخير الضرب، وَهو فقط مسموح به في حالة التصرفات السيئة، وممنوع ذلك إن كانت الزوجة ملتزمة بما هو مطلوب منها كزوجة.

الْكَثِيرُونَ منّا يعاملون الزوجة كخادمة! ولا يقتنعون أن هذا حرام، ونسمع عن بعضهم يهينون بل ويضربون الزوجة بسبب زيادة الملح في الطعام! عِلْماً أنها أَصْلاً غير مَجْبُورَةٍ شَرْعاً على تحضير الطعام! إنما بالتوافق بينها وبين زوجها يتم تقسيم كلّ المهام المنزلية المطلوبة لاستمرار حياتهما مع بعض.

{إِنَّ} {اللَّهَ} {كَانَ} {عَلِيّاً}، فوق كل شيء، إِذْ أنت تشعر بالسلطة والقوة على زوجتك الضعيفة لِذَا خذ عِلْماً أنه تعالى أعلى منك بل وأعلى من كل شيء لِأَنَّ كل شيء تحته سبحانه في القدرة والسلطة... فانتبه ولا يحصل لديك شعور العلو على زوجتك، لأن العلي الحقيقي سيحاسبك.

{وَكَانَ} {اللَّهُ} {كَبِيراً}، أكبر من كل شيء، إِذْ كل شيء أصغر منه في القدرة والسلطة... وَسبحانه أكبر منك قوة وسلطة، فانتبه ولا يحصل لديك شعور الكبر على زوجتك، فسيحاسبك الكبير الحقيقي إن شطحت في تعاملك مع زوجتك.

صِفَتَا العلي والكبير ترى معناهما بشكل واضح فيما يحدث مع العديد من الشباب الذين من بعد الزواج يلمسون كم زوجتهم ضعيفة جَسَدِيّاً وَنَفْسِيّاً وَمَالِيّاً... وَاجْتِمَاعِيّاً لأن المطلقة يعيبها المجتمع... يَسْتَعْلُونَ وَيَتَكَبَّرُونَ على زوجاتهم وهم لا يشعرون بأنهم يفعلون السوء! ولا يشعرون بأنهم ليسوا كذلك مع بقية الناس، إِذْ بكل راحة يهين زوجته بالكلام ويغلظ عليها... لدرجة استعمال لهجة وكلمات ونبرة... لن يستعملها حتى مع خادمة يدفع لها أَجْرَهَا! إِذْ إِنَّ الخادمة تشكرها عَلَى تحضيرها للطعام وبعد وضعه أمامك وبعد رفعه... أمّا الزوجة فتنهال عليها بالملاحظات السيئة التي لن تقولها للخادمة!

انْتَبِهْ وخذ عِلْماً، أن عقوبة الضرب تطال الزوج أَيْضاً، حَيْثُ هنا أجازت الآية أن يضرب الزوج زوجته إن لم تلتزم بواجباتها كزوجة، ولكن، إن لم يلتزم هو بواجباته كزوج، من معاملة حسنة، وتأمين ملبس ومسكن لائق، ومصروف مالي لائق... فللزوجة أن تشتكيه للحاكم الشرعي أو القاضي أو صالح المؤمنين، فَيَعِظُونَهُ، فإن لم ينفع معه أَجْبَرُوهُ، فإن لم ينفع معه ضَرَبُوهُ، وهذا شيء متعارف عليه عند غالبية علماء المسلمين في كتبهم الفقهية.

قَوَامِيَّةُ الزوج على الزوجة لا تجعل الرجل فوق الشريعة، ولا تجعله هو يسنّ الشريعة، بل عليه عقاب مثل عقابها إن لم يلتزم بواجباته كزوج، وإن لم ينفع معه التنبيه والوعظ والضرب حتى يرجع للمعروف بين العقلاء، فإن طلبت المرأة الطلاق، فإن الحاكم أو القاضي وصالح المؤمنين يُجْبِرُونَ الزوج على الطلاق، وإن رفض فيمكنهم تطليقها غَصْباً عنه بالنيابة بإيقاع الطلاق عنه...

بقي شيء، إِذْ إِنَّ الضرب حَصْراً وفقط من خوف النشوز، فقط لا غير، على أساس أن الزوج مستقيم وغير مقصّر في واجباته وخلوق ومهتمّ بزوجته... وهي لديها بوادر نشوز، وَيَضْرِبُهَا كآخر حلّ معها، وكما تلاحظ يُمْكِنُهُ طلاقها قبل الوصول إِلَى ضربها، وإن فهمت معنى الضرب المقصود ستفهم أنه كحلّ مطروح أفضل من الانتقال إلى الطلاق... حَيْثُ إِنَّ الضرب يكون مثل تأديب الطفل بضرب لا يترك أَثَراً على الجسد.

بقي شيء آخر، إِذْ هنا وهناك تجد كَلَاماً عن عيب تشريع القرآن لضرب الزوجة، وتجد من المدافعين عن الدين تَخْرِيجَاتٍ لمعنى الضرب... حتى أن بعضهم حوّل معنى الضرب إلى الْإِضْرَابِ عن الزوجة... ولو اعتمدوا المفاهيم القرآنية لما واجهوا أي مشكلة في موضوع الضرب، لِأَنَّهُمْ قاسوا الكلام القرآني على مفاهيمهم، بمعنى الضرب المبرح، وهذا الضرب حرام أَصْلاً، وها أمامك كل الروايات والتشريعات الْإِسْلَامِيَّةِ التي اعتمدت على المفاهيم القرآنية والتي تحكم بِالدِّيَةِ على الضرب الذي يترك أَثَراً على الجسد، فإن ضربت أي إنسان، ولدك أو زوجتك أو من تخالفت معه... كَائِناً من كان، وتركت ضربتك أَثَراً أَحْمَرَ أو أَزْرَقَ على جسده، فيجب عليك دفع دِيَةً... وغالبية الفقهاء المرموقين يحدّدون ضرب الزوجة بما يشبه تأديب الطفل الصغير.

حَسَناً، ما معنى الاعتراض على ضرب من هذا النوع لزوجة ظهرت عليها بوادر النشوز الزوجي ولم تنفع معها حلول الوعظ ولا الهجران؟ يبدو وَاضِحاً أن الهمجية المستشرية من ضرب يسبّب زرقة محيط العيون وتكسير الأضلاع... هو الفهم السائد للضرب الذي يتصوّره المعترضون على كلام الآية، وحتى لو أخبرتهم بمعنى ما تقصده الآية فإن الصورة الهمجية لضرب الزوجة مترسّخة في ذهنهم، وجعلت كلمة "ضرب" لا تنفكّ عن هذه الصورة، وبذلك يرفضون استعمال كلمة الضرب من أساسه، وللأسف إِذْ إِنَّ الآية تفترض أنوثة في الزوجة ومشاعر حساسة تتأذّى من الضرب الناعم... وكما تلاحظ الفرق الكبير بين ما يأتي على بالنا وبين ما تقوله الآية، لِأَنَّ الآية لم تجعل الضرب كشيء معلّق بحبل على رقبة الزوجة، وَلم تجعله سلطة متاحة للرجل لاستعمالها إذا ما كان الملح زَائِداً في الطعام... إِذْ إِنَّ الزوجة ليست واقعة تحت تهديد الضرب في مفاهيم القرآن، بل هو عقاب تشريعي بسبب نشوزها، وآخر حلّ قبل حصول الطلاق. مثله مثل جلد الزاني وقطع يد السارق وقتل القاتل عن عمد... حَيْثُ إِنَّ الإنسان العادي يسمع بهذه العقوبات، ولا يشعر بأنه يعيش تحت تهديدها إن كان مُقْتَنِعاً بأنها سلوكيات سيّئة ولا علاقة له بها ولن يفعلها، فما معنى حساسية الزوجة من عقوبة ناتجة عن النشوز التي ليست من سلوكياتها!

أُكَرِّرُ لك، حَيْثُ إِنَّ الآية كلامها عن علاقة زوج وزوجة، علاقة رحمة وحميمية... إِذْ إِنَّ هذا هو الأساس المفروض فهمه من هذه العلاقة، وتفترض بنا الرجوع إلى هنا حين تحصل الخلافات، أمّا الأفكار المخزّنة عندنا من الوحشية والعلاقة الزوجية المهترئة والعنف الأسري... فهذه أمور من الأساس بعيدة كلّ البعد عن المفهوم الذي انطلقت منه

الآيات حين تكلّمت عن الزواج، فإن كان العنف بين الزوجين مُتَخَطِّياً لأساس معنى المودّة في العلاقة الزوجية، فَأَصْلاً الآية لا كلام منها مع هذه النوعية ذات المستوى المنخفض من الناس.

كَمُسْلِمٍ مؤمن عليك أن لا تهرب ولا تستحي من كلام القرآن عن ضرب الزوجة، لِأَنَّهُ كلام يفترض الرقي الإنساني بينهما لدرجة تأثير الضربة الخفيفة كضربة لطفل صغير تؤدّبه فيها... إذْ إنَّ هذا ما تقوله الآية وقفزت عنه الناس إلى فهم الضرب لدرجة الأذى والضرر الجسدي، الحرام والممنوع أَصْلاً لأي إنسان كان. لِذَا علينا نحن في سلوكياتنا وثقافاتنا الاجتماعية أن نرتفع لمستوى الكلام القرآني إلى حيث كلمة: أنا زعلان منك. لها أثر كبير بين الزوجين، إلى حيث الضربة التي بالكاد يشعر بها المضروب، يكون لها أثر نفسي... وَأي كلام للتعليق على الضرب الذي ذكره القرآن على أساس تفسيره بالأذى والضرر الجسدي، فهو كلام من مغرضين كارهين لدينه تعالى من أصله، أو كلام نابع من همجية من فسّره أو من همجية من يراهم يعاملون بعضهم بالعنف والبطش... وشرعه تعالى القرآني أرقى من ذلك.

كَلِمَةٌ أَخِيرَةٌ، مَعْلُومٌ عند عموم فقهاء المسلمين تغريم الزوج بِالدِّيَةِ إذا ترك ضربه للزوجة أَثَراً أو ضَرَراً على جسدها، ومعلوم حقّها بطلب الطلاق في هكذا حالة مع استحقاقها لكامل المهر، ومعلوم أن الزواج عقد يحق للطرفين اشتراط أي شيء فيه، وَيُمْكِنُهَا أن تشترط أن لا يضربها إن نشزت وَيُطَلِّقُهَا إن أراد في هذه الحالة، بل حتى أكثر من ذلك يُمْكِنُهَا في عقد الزواج أن تطلب وكالة طلاق لنفسها وَتَسْتَطِيعُ هي إيقاع الطلاق لنفسها بالوكالة عنه... وكل ذلك تجاهلوه وعلّقوا على القرآن وفسّروه أنه آمِرٌ بضرب الزوجة!

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً{35})

{إِنْ خِفْتُمْ}، إن شعرتم بالتأكيد بحصول ضرر ناتج عن، {شِقَاقَ}، فراق وانتفاء توافقهما كما ينبغي، {بَيْنِهِمَا}، بين الزوج والزوجة، فخفتم أن يعيش الزوجان حالة غير الحياة الزوجية العادية لأنهما لا يتفقان فيتشاجران، ولا يعيشان فعلا بما يَحْمِلُهُ معنى كلمة زوج وزوجة، فيضرّان بعضهما البعض... ولم يستطيعا حلّ المشكلة وحدهما من دون تدخل، ووصلت الأمور إلى حد الشقاق الفراق الابتعاد والنفور، {فَابْعَثُوا}، فليقم منكم، {حَكَمًا}، شخصاً فيه قابلية رؤية الأمور بصوابية، وينظر في الأمور "الشقاقية بين الزوجين" بالشرع والعرف العقلائي للمؤمنين، ويكون مؤمناً عارفاً بالشرع ويتمتّع بالعقلانية والصوابية في رؤية الأمور، {مِّنْ أَهْلِهِ}، من الناس الذين ينتمي إليهم الزوج، كـأبيه أو أخيه أو كبير العائلة... فحدّدوا شخصاً ليكون مبعوثاً موافقاً عليه ومحدَّداً كحكم، ويسمع قصة المشكلة من الزوج والزوجة، وفي نفس الوقت ابعثوا، {حَكَمًا} {مِّنْ أَهْلِهَا}، من الذين تنتمي إليهم الزوجة، وليسمع القصة من الزوج والزوجة، {إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا}، إذا كان الزوجان غير مصرّين على الطلاق، ويريدان إصلاحاً، حلّاً لمشاكلهما الزوجية، {يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا}، فسبحانه يجعلهما يتوافقان من جديد، فمن المفروض بالحكمين تنبيه الزوجين على الحدود الشرعية المفروضة على كل منهما، وينبهانهما على الحدود العرفية بينهما، فهذا ما يقدّمه تعالى لهما ليتوافقا، وكما ترى فبدون نيّة لديهما على الصلح فلن تنفع معهما أية حلول عقلانية.

{إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا}، حيث يعلم سبحانه كل شيء ويعلم كيف يكون الحلّ للمشاكل الزوجية "بشرط أن يكون الزوجان يريدان الحل"، فعلى أساس علمه تعالى شرّع ما ذكرته الآيات من تشريع، وإذا التزم به الناس فهذا التشريع كفيل بتأمين حياة زوجية سعيدة.

إنّ الله، {خَبِيرٌ}، حيث لديه أخبار كل ما يحصل، وبشكل خاص ولديه خبر الحوادث التي تحصل مع الزوجين، لأنه سبحانه ليس بعيداً عنّا ولم تصدر تشريعاته تعالى من دون أن يكون لديه خبر بما يجري بيننا، وعلى هذا الأساس فالحدود التي حدّدها سبحانه للواجبات على الزوج والزوجة، كفيلة بحل أي مشكلة زوجية.

الآية لم تتحدث بالتفصيل عن عمل الحكمين لأنه واضح، فوظيفة الحكم أن يحدّد لكل من الزوج والزوجة ما له من حقوق من الآخر وما عليه من واجبات للآخر، وعندما يجتمع الحكمان ليبحثا في الموضوع إنهما ينظران في تصرفات الزوجين، ويحددان التصرف الخارج عن الشرع، ويرجع كل واحد منهما إلى من يخصّه، ويقول له: هذا التصرف منك سيّئٌ ويجب أن تتوقف عنه...

إنْ لم يقبل الزوج أو الزوجة بقرار الحكمين، وبقيا كما هما من دون تغيُّر، فآخر حل يكون بإصدار الحكمين حكماً بالطلاق بموافقة الزوجين...

لاحظ كيف لا تزال السورة تتناول مواضيعَ عن تقواه تعالى في الناس، ولاحظ تركيزها على الزوجة، فهي كانت ولا تزال في الكثير من مجتمعاتنا مهضومة الحق مستعبدةً.

كما ترى فمن الآية تُشْتَقُّ ما يجب أن يكون ثقافتَنا وعاداتِنا، وللأسف وفي أول وأبسط خلاف على شيء تافه ترى أحد الزوجين أو كليهما يطلب الطلاق! فلو كان من ثقافتنا التي يتربّى عليها أولادنا أن الزواج قرار نتحمّل مسؤوليته وليس لعبة، وبالتالي أخذ الذكر والأنثى القرار فيه عن وعي وفهم كامل له، وليس بعد الزواج يصير عنده مطاليبَ جديدة يريدها في ومن زوجه أو زوجته! وبالتالي حين تحصل الخلافات فما تقوله الآية هنا يشير لثقافة توجّه الزوجين نحو الحلّ لمشاكلهما وليس نحو الطلاق.

ترى واضحاً جداً من الآية كفّ الجميع عن التدخّل في حلّ مشكلة الزوجين، إلا لمن فيهم المواصفات اللائقة ليوصفوا بِالْحَكَمِ، لأنهم الناس ذوو الخبرة ورؤية الصوابية في الأمور، وليسوا من الذين يحمّسون الرجل على إذلال وقهر زوجته لتطيعه على ضلاله وسوئه... وإلا فالبنات المتاحاتُ له والأجمل منها بالآلاف... ولا الذين يحمّسون الزوجة على الطلاق لأنها تستحق أفضل من زوجها... فهؤلاء وغيرهم ممن لا خبرة حكيمة لهم بالحياة الزوجية بأمرٍ إلهيّ ممنوع عليهم التدخّل في مشاكل أي زوجين.

(وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً{36})
نكمل مع تقواه تعالى في الناس:

{وَاعْبُدُوا اللَّهَ}، تصرّفوا على أساس أنكم مفروض منكم طاعة صاحب هذا الاسم المحدّد المميز، لأنّ كلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

{وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}، أيُّ شيء يخص الألوهية فلا تجعلوا شريكا مع الله تعالى فيه، ولا تقولوا عن أي شيء آخر إنّه يمكنه فعل شيء ما من مستوى إلهي بشكل منفصل عنه تعالى، لأنّ الكل تحت القدرة الإلهية، ولا تقولوا عن أي شيء إنّ له طبيعة إلهية، ففقط الله سبحانه الإله الواحد لا شريك له بالألوهية، ولا تعتبروا أنفسكم عبيداً لإله غيره تعالى، وإذا تعارض كلامه تعالى مع كلام غيره فأطيعوا كلامه تعالى.

{وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}، ليكن تصرفكم مع الوالدين، الأب والأم، بما هو موصوف بأنه حسن، سواء بمعاملة الكلام أو العشرة أو التعاطي أو تأمين الحاجات... فليكن موصوفاً بأنه حسن جيّد.

من الآية التالية تجد اختيارها لنموذج من الإحسان حيث ستشير إلى الإحسان بالمال، ولكن ضع في بالك أن كلمة "إحسان" هي لعامّة أي شيء موصوف بأنه حسن، ويرتبط بذلك تقديمك للآخرين ما لا يستحقّونه، أو تنازلك عمّا هو لك للآخرين، وهذه أعمال إحسان ولكنها ليست حصراً لمعنى الكلمة، حيث وردت هذه الكلمة في القرآن كانت أعمّ من التنازل عن الحقوق للآخرين، وكما ترى فهنا لا يتماشى هذا المعنى تماماً مع الآية، لأنّ معنى الإحسان هنا واضح أنه على عموميته، فهو أي عمل موصوف بأنه حسن، وكذلك جاءت بقية استعمالات القرآن لهذه الكلمة.

وإحساناً، {بِذِي الْقُرْبَى}، فليكن عندك أعمال حسنة مع أقربائك، إخوتك وأخواتك، أعمامك وأخوالك وعمّاتك وخالاتك وأبنائهم...

{وَالْيَتَامَى}، أحسن إليهم، وطبعاً المقصود الأولاد الذين فقدوا أباهم ولا يزالون بحاجة للرعاية، فليكن عندك أعمال حسنة معهم، وساعدهم بالعناية بهم، بتأمين احتياجاتهم، بإدارة شؤونهم...

{وَالْمَسَاكِينِ}، أحسن إليهم، وهم الأشخاص الذين يمرّون في حالة مالية سيئة، بسبب الظروف السيئة، أو إعاقة جسدية... اعتَنِ بهم، وساعدهم، وصفة المسكين لعامة من أحواله المادية متعثّرة، من الفقير الذي لا يملك وجبة طعام

إلى الذي يملك سيارة ودكّاناً... ولكن ظروفه متعثّرةٌ ويمرّ بأزمة وصار محتاجاً للمساعدة. ومعلوم لك أن عموم كلام القرآن عن نماذج، لأنّ الأطفال المشردين إمّا أيتام أو فقراء، وبذلك يندرجون تحت عنوان اليتيم أو المسكين.

{وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى}، أحسن إليه، وهو جارك الذي مسكنه مجاور لمسكنك، {ذِي الْقُرْبَى} فهو الذي بينك وبينه قربى، أي هو من أقربائك، من عائلتك، فليكن عندك أعمال حسنة معه.

انتبه، لقد أمرتنا الآية بالإحسان إلى أقاربنا قبل قليل، وهنا بشكل خاص تأمرنا بالإحسان إلى جارنا الذي من أقاربنا، لأن الجيرة تفرض علينا إحساناً مختلفاً، من النظافة حول المكان، والمشاركة بالماء والكهرباء، والاحتياج لعدّة ولأغراض منزلية طارئة... للانتباه لمنزله من السرقة أو الحريق... لإيصاله بسيارتك إلى المستشفى...

{وَالْجَارِ الْجُنُبِ}، وجارك الذي بيته قرب بيتك فليكن عملك حسناً معه، {الْجُنُبِ} "بضمة على الجيم والنون" الذي لا يقربك، حتى لو لم يكن جارك من أقربائك، ولا تعرفه، فأحسن إليه.

{وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ}، وصاحبك هو الشخص الذي يصحبك فيكون برفقتك، {بِالْجَنبِ} "بفتحة على الجيم وسكون على النون" فهو بجنبك ومعك وليس بعيداً عنك، أي هو صاحبك الذي بجانبك أثناء السفر أو العمل أو التنقّل... ففي أي حالة صحبة كان بجنبك أحد ما، فأحسن إليه.

يعني فليكن عملك وقولك حسناً جيّداً، ساعد واهتم بكل من تحتكّ بهم، سواء أكانوا من أقاربك "ذي قربى"، أو لا تعرفهم، أو أصحابك. وهناك الكثير من الناس الذين ينعزلون عن الآخرين ولهم أسباب عديدة لذلك، منها تأذيهم من الآخرين، فتراهم منعزلين حتى عن أهلهم، وهذا ليس سلوكاً إيمانياً مقبولاً، حيث إنّ القاعدة الأساسية وردت في الآية 34 من سورة فصلت {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}، فتجنّب شرّ بعض الناس المصرين دائماً على الأذية، وبيّن لهم أنك لست عدوّهم، ولا تفتح لهم مجالاً لأذيتك وعلى الأقل تعامل مع هذه النوعية من الناس على الرسميات، ولكن حين يحتاجون للمساعدة فساعدهم وكن محتاطاً من أذاهم... وهنا تأتي القاعدة الإيمانية الثانية في الآية 9 من سورة الإنسان {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا}. طبعاً عندما أقول القاعدة الأولى والثانية فأنا لا أقصد ترتيباً مطلقاً للأمور بل تنسيق الكلام الإلهي مع سياق الكلام.

{وَابْنِ السَّبِيلِ}، وهو الشخص غير المقيم في بلدك، ولكنه مسافر أو تائه أو سرقوه أو خسرت تجارته... حيث جاء به السبيل المسلك فوصل إلى بلدك وبحاجة لمساعدة، فأحسن إليه، وساعده ولا تتركه ينام في الشارع أو بلا طعام، ولا تتركه عالقاً في بلدك لا يمكنه الرجوع إلى بلده...

{وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}، ملكية اقتدار على الآخر، من العبيد والإماء فأحسنوا إليهم، واهتموا بهم وساعدوهم.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا}، أي كل من كان يعرض نفسه وما لديه على الآخرين على أساس أنه مميّز، {فَخُورًا}، يفتخر بصفاته على الآخرين، وهو الذي يشعر ويتصرّف على أساس أن صفاته وما لديه أعلى وأفضل من صفات الآخرين وهم أقل منه.

تفترض الآية أنك مرتاح مالياً بشكل ما، ومن تحتك بهم وتعلم بظروفهم فهم بحاجة لإحسان، فإن كنت مسروراً بعلوّك عليهم بمالك وحيازتك لما يحتاجونه، فكنت مختالاً تحب أن يروا الراحة التي أنت فيها، ولذلك لا تحسن إليهم حتى يبقوا في نظرك تحتك، وكنت فخوراً وتشعر بأن صفاتك وما تملكه أعلى من الآخرين ولذلك لا تحسن إليهم حتى تبقى منفرداً بالافتخار، فانتبه أنه تعالى لا يحبّ هذه النوعية من الناس.

الاختيال والفخر حالة تصيبنا ولا نشعر بها أحياناً، حيث نظن أننا نتصرف بشكل طبيعي بينما نحن نفتخر ونختال، ونتحدّث عن الطعام اللذيذ والرحلات والثياب المريحة والسيارة المريحة والمنزل المريح... والمدخول الشهري العالي... أمام أناس يفتقدون لهذه الأمور ولا يمكنهم تأمينها لأنفسهم.

أحياناً نمدح جودة وجمال وحسن... ما لدينا من ثياب وأثاث وأدوات منزلية... أمام من ليس قادراً على شرائها.

وأحياناً نتصرّف بشكل يميّز حالتنا عن الآخرين، فلا نأكل من طعامهم مع أنه نظيف، ولا نجلس على كراسيهم مع أنها نظيفة... على أساس أن مستوى حياتنا أعلى من مستواهم، وهذا هو عين الفخر والاختيال.

ضع في بالك في عموم ما ورد في القرآن أنه تعالى لا يحبّه، لأنها وردت حيث لا داعي للكلام القاسي، وخذ مثلاً كلامك معي حيث تريد تحذيري وتنبيهي فتقول: سأكسر عظامك لو فعلت كذا وكذا... فهذه نبرة عالية لا مبرر لها لأنك تعلم أني حالياً لست ناوياً لفعل السوء، والجملة الأنسب: لا أحب أن تفعل كذا وكذا... وعلى هذا المفهوم جاءت الآيات التي وجّهت كلامها إلى المؤمنين مستعملةً عبارة مشابهة لعبارة "الله يحب أو لا يحب".

بقي شيء من الفضول، ألا وهو ما يقولونه عن إعجاز تكرّر بعض كلمات القرآن بعدد ملفتٍ، كقولهم عن تكرار كلمة ليل 12 مرة وكلمة نهار 12 مرة... تتبعتُ غالبية الكلمات التي قالوها ووجدت غالبية كلامهم كذباً إلا في أقل من عشر كلمات، ومما تحققت وتأكدت منه كلمة شهر بالمفرد "شهر، شهراً" حيث تكررت 12 مرة، وتكررت كلمة شهر بالمثنى "شهرين" مرتين فقط. كلمة "رجل" بالمفرد تكررت 24 مرة، وكلمة "امرأة، امرأت" أيضاً تكررت 24 مرة. كلمة "يأمرون" تكررت 7 مرات، وكلمة "ينهون" أيضاً تكررت 7 مرات. كلمة "الخبيث" بالمفرد تكررت 7 مرات، وكلمة "الطيب" بالمفرد تكررت 7 مرات. وهناك كلمات أخرى فيها الكثير من التراخي والاستنسابية بحيث يلغون كلمة أو كلمات لسبب غير وجيه ويدّعون أن الأعداد متساوية كقولهم عن تكرار كلمة ملائكة والشيطان.

الغريب أن الحالة الوحيدة الصادقة بالتمام والوضوح ليست منتشرة في مقالاتهم وكتبهم! ففعلاً تكررت في القرآن جملة "الله يحب" 16 مرة، وجملة "الله لا يحب" 16 مرّة.

لكن، هل هذا يعني أي شيء؟ لا، لأنّ القرآن لا يحتاج لخزعبلات من هذا النوع ليصير له قيمة أو لنؤمن بأنه من مصدر إلهي، فما فيه من حقّ وصلاح هو قيمته.

(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً{37})

{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ}، الذين يملكون المال أو الأشياء التي تساعد غيرهم ولكنهم يفضلون بقاءها معهم، فلا ينفقون من مالهم على الآخرين المحتاجين، {وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ}، وإذا قام أحد ما بمساعدة الآخرين فهم ينهونه عن "رميه لماله" وتفريطه فيما تعب به... ويأمرونه بالاحتفاظ بماله.

البخل وصف لعامّة حبّ اقتناء الأشياء، فلا يتخلّى عنها، سواء لحبّها هي بنفسها، أو للحفاظ على الفخار والاختيال أمام الآخرين المحتاجين.

{وَيَكْتُمُونَ}، ولا يعلنون للآخرين، {مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ}، من الأمور التي منحها لهم من دون أن يكون المنح فرضاً واجباً عليه تعالى، بينما الإنفاق منها واجب عليهم، فلا يخبرون الآخرين بما لديهم من مال حتى لا يضطروا للإنفاق منه، وبعضهم يشكو سوء حالهم وأنهم هم بحاجة للمساعدة حتى لا يطمع الآخرون بهم!

لا تعمّم البخل ليشمل البخل بالعلم، والبخل بـالتحذير من الأخطار، والبخل بالنصيحة... فهذه سيئات، ولكن التزم بما تتحدث عنه الآيات حتى لا نخرج عن الموضوع، لأن تلك الأنواع من السيئات تحدثت عنها آيات أخرى، فلا تتوسع في معاني الكلمات حتى لا تقع في مشكلة ضياع الموضوع الذي تركز عليه الآيات، ونقع في مشكلة اشتقاق معانٍ لم تقصدها الآيات، وهذه مشكلة منتشرة في عموم تفاسير وأبحاث القرآن.

إذن، لقد نبههم القرآن وأنذرهم من البخل: {وَأَعْتَدْنَا}، حضّرنا وجهّزنا، {لِلْكَافِرِينَ}، للمنكرين وغير المعتقدين بدينه تعالى، جهّزنا لهم، {عَذَابًا مُّهِينًا}، ضرراً يسبّب لهم الشعور بالإهانة، حيث يشعرون أثناء تعذيبهم أنهم بلا قيمة.

هؤلاء متعلقون بالمال، ويظنّون أن المال هو كرامة وقيمة، ويعتقدون أنهم إن ساعدوا غيرهم فسيفقدون الشيء الذي يعطيهم الفخر والاختيال! وهؤلاء يستحقون أن يكون لهم في الآخرة عذابٌ يجعلهم يشعرون بأنهم محتقرون تافهون مهانون، بدل الفخر والاختيال الذي جعلهم يحرمون محتاجاً للمساعدة...

نلاحظ أن ما بين أيديهم من مال وأملاك وأدوات... هي من فضله تعالى عليهم، لأنهم لم يخلقوها، ولم يحصلوا عليها بقدرة قاهرة فوق قدرته تعالى، بل هو سبحانه من فضله من دون أن يكون فرضاً واجباً عليه أعطاهم هذه الأشياء، وهو

فرض واجب عليهم مساعدة الآخرين، فبأي حق لا يسمعون كلامه تعالى ويبخلون ولا ينفقون من شيء هم في الحقيقة لا يملكونه!

(وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَـاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاء قِرِيناً{38})
{وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ}، ويَجْعَلُونَ أموالهم عند الآخرين حتى يراهم الناس ينفقون، حتى تصير عند الناس صورة محدّدة عنهم أنهم ينفقون المال، فيقول الناس عنهم إنهم من فاعلي الخير، أو حتى ينتخبوهم نائباً أو رئيساً أو زعيماً... أو حتى يمشوا وراءهم في حزبهم أو في منطقتهم... وهؤلاء المنفقون المراؤون، {لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}، يعني ينفقون ليس لأنه تعالى أمرهم، وليس لأنه تعالى وعدهم بالأجر على الإنفاق، {وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ}، فلا يعتقدون بحساب في الآخرة، فلا يؤمنون أنّ الإنفاق حسنة تنفعهم لدخول جنّة الآخرة. فهؤلاء أيضاً لهم عذاب مهين كما قالت الآية السابقة.

{وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ}، الموصوف بقيامه بأعمال الضلال والعمل على إضلال الآخرين عن الطريق الإلهي، فيكون، {لَهُ قَرِينًا}، مقترناً به مرافقاً ملاصقاً لمدة طويلة، {فَسَاءَ قَرِينًا}، وما أسوأه من قرين من شريك في الزمان والمكان.

هو الشيطان وسوس لهم بالبخل والفخر والاختيال وأعجبتهم وسوسته، فصار مرافقاً لهم يوسوس لهم أموراً تعجبهم، ويا له من رفيق سيئ.

(وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُواْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللّهُ وَكَانَ اللّهُ بِهِم عَلِيماً{39})
هؤلاء الذين أنفقوا رئاء الناس، {وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا}، لو اعتقدوا بالله تعالى! بماذا سيتضررون لو أنهم آمنوا بالله تعالى! {وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، بماذا كانوا سيتضررون لو اعتقدوا بالزمن الذي سيأتي في الآخر بعد الدنيا! ولو على أساس هذين الاعتقادين، {أَنفَقُوا}، صرفوا من مالهم على المحتاجين، {مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ}، من الأشياء التي صارت معهم منه تعالى ليسدّوا بها حاجاتهم ورغباتهم، مما يؤكل أو يمكن أن يشتروا به ما يؤكل، من طعام أو مال.

{وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا}، حيث يعلم حين ينفقون، وعملياً يُسجّل لهم حسنات لأنهم آمنوا وأنفقوا، وفي اليوم الآخر سيجازيهم، أليس هذا أفضل من البخل أو الرياء؟!

ما نفع البخل، وما نفع الرياء؟ أليس من الأفضل لهم لو آمنوا به تعالى مثيباً في الآخرة لمن أنفق بدلاً من بخلهم وبدلاً من إنفاقهم للمال ليراهم الناس وهم لا يرجون ثواباً منه تعالى؟!

من عموم مفاهيم القرآن واستعماله لكلمة رزق، إنّ القرآن يشير بها إلى عموم ما نحتاجه ونسد رغباتنا الإنسانية به، وعادة يرجع القرآن بنا إلى أساس الحاجة الحياتية، إلى الطعام والشراب، ويُركّز عليها حيث لا نقاش في ضرورة مساعدة من سيموت من الجوع، أو من ليس لديه ما يكفيه ليشبع. هذا المفهوم الأساسي أحياناً يبتعد عن ذهننا بسبب رفاهية المجتمعات التي نعيش فيها، ناسين ومتناسين أن مختلف الظروف تمرّ على مختلف المجتمعات لتجعل البعض منهم فعلاً يموت من الجوع إن لم يساعده الآخرون.

لهذا ترى في بعض الروايات والكتب تفاسيرَ لكلمة رزق قفزت عن الطعام إلى مساعدة الآخرين باللباس أو المسكن أو التعليم أو الزواج... لأن مجتمعهم تخطّى الفقر المدقع وليس فيه من يموت من الجوع... لذا انتقلوا بتفسير كلامه تعالى إلى مرحلة ثانية ليبقى لها تطبيق في مجتمعهم، وهذه التعميمات للتوسّع بكلمة "رزق" صحيحة "لغوياً" والعديد من الآيات تتحمّل تفسيرها بها، لأنّ كلمة آتى وأنفق وأعطى وتصدّق ورزق... قصد منها القرآن العمومية المتغيرة مع تغيّر الحالة الاقتصادية للمجتمعات، ولم يستعمل إلا قليلاً كلمات مباشرة تدل على إنفاق الطعام، وبالأكثرية استعمل ما يفيد عموم ما تحتاجه الناس مما يسدّ رغباتهم وحاجاتهم، وأهمّ وأوّل عنوان تطبيقي له: ما يحافظ على حياتنا، الأكل. وما بعده من حاجات متروكٌ لتقدير المجتمعات المختلفة في أوضاعها.

(إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً{40})

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ}، حجم أو وزن، {ذَرَّةٍ}، الشيء الصغير المنفصل لوحده ككيان خاص، وهو الذي تراه بعينك ولكن بصعوبة لأنه صغير جداً، كالنملة الصغيرة، وحبة الخردل، وحبّة رماد... فإن كان لك حقّ فسوف يعطيك تعالى حقّك حتى لو كان بأي حجم أو شكل، حتى لو كنت تراه بصعوبة، حتى لو كان بوزن أو حجم ذرة رمل، أو ذرة رماد، أو بحجم نملة صغيرة، وإن عذّبك تعالى فلن يزيد على ما تستحقه ولو بذرّة.

أصل الكلمة "ذرّ" لأي شيء مفرد منفصل عن غيره، ومنه الذرية للأولاد، وكلمة "ذرّة" بالاستعمال العربي القديم هي لأي شيء صغير جداً يمكن رؤيته بالعين حيث نقول للنمل الصغير جداً الذي يأكل الخشب: ذرّ. ونقول لبذر نبات الخردل الصغير جداً: ذرّ. ونقول للرماد والغبار الناعم جداً: ذرّ... فلا يذهب فكرك لذرة المواد التي تتألف من إلكترون وبروتون ونيوترون، لأنّ هذا اصطلاح جديد لتتوسّع كلمة ذرة للانطباق عليه حيث قديماً لم يكن غالبية عامّة الناس يعلمون بوجود ما هو أصغر مما يرونه بأعينهم... وعلى أي حال فـالآية استعملت التعبير العربي لأقل شيء يمكنك التعامل معه، ولن يظلمك تعالى حتى لو بهذا المقدار القليل جداً.

هؤلاء المراؤون حين ينفقون، لن يحصلوا على أي شيء، والله تعالى لم يظلمهم، لأنه سبحانه لا يظلم ولو بمقدار ذرة، لأنهم لا يستحقون أي شيء، وصار واضحاً من الآيات السابقة، أنهم أطاعوا الشيطان حين راءوا الناس، فليطلبوا أجرهم من الشيطان، أو من الناس، لأنهم فكّروا فيهم حين أنفقوا ولم يفكّروا بالله تعالى.

{وَإِن تَكُ حَسَنَةً}، وهو الشيء الذي ولو بمقدار ذرّة، كان موصوفاً بأنه عمل حسن جيّد قام به أحد ما، فإنه تعالى، {يُضَاعِفْهَا}، يجعلها مضاعفة، يجعلها أكبر على الأقل بمرة، أو يضاعفها مرتين أو عشرة أو بالمئات أو بالملايين...

{وَيُؤْتِ}، ويعطي تعالى، {مِن لَّدُنْهُ}، من عنده شخصياً، {أَجْرًا}، شيئاً حدّده تعالى وجعلهم يستحقّونه، {عَظِيمًا}، ضخماً كبيراً.

ضع في بالك دائماً أنّ ما نفهمه من القرآن عن الأجر مقابل الأعمال الحسنة، لا يعني أن الصدقة بتفاحة يكون أجرها تفاحة في الآخرة أو صندوق تفّاح، أو بستان تفّاح، لا، لأنّ أجر الصدقة بتفاحة "مثلاً" هو قصور وبساتين وحدائق أصلاً، ومن بعد ذلك تأتي مضاعفة الثواب، حيث هي مضاعفة للقصور والبساتين... وبعد ذلك يأتي الفضل من مستوى إلهي لاستمرار السعادة بتجدّد وبلا ملل.

تتذكّر دائماً أنّ الأجر منه تعالى على الإيمان والصالحات هو من فضله، لأنه ليس واجباً عليه تعالى أن يؤجرنا، بل من فضله حدّد شيئاً نستحقّه إن آمنّا وعملنا الصالحات.

قبل ذلك تتذكّر أنه تعالى لم يعرض علينا إلا الإيمان بمعلومات هي فعلاً حقّ، ولم يعرض علينا تشريعاً إلا الصالحات، وبناء عليه نحن حين نؤمن أو نعمل صالحاً فنحن لسنا نفعل شيئاً غريباً عجيباً مميزاً... فهل أطلب من الناس أجراً وتقديراً لأني لست شريراً يؤذيهم!؟ وهل أفرض عليه تعالى أجراً لأني لست مكذباً للحقّ ولست فاعلاً للسيئات؟! وهكذا ترى أنه تعالى من فضله حدّد لنا أجراً في الآخرة...

(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيداً{41})

{فَكَيْفَ}، سيكون الحال، {إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ}، من كل مجموعة من الناس لها امتداد تاريخي وكانت مشتركة على شيء ما، وجئنا عليهم، {بِشَهِيدٍ}، بشخصٍ يؤكد أنه رأى وسمع شيئاً ما، وهنا المقصود أنه شخص يشهد ويؤكد أن الرسالة الإلهية وصلت واضحة لتلك الأمّة. في يوم القيامة، كيف سيكون حال الناس حينما يسحب سبحانه من كل أمة، يسحب شخصاً يكون شهيداً يشهد بأن أوامر ربهم سبحانه وصلتْهم؟ حيث يشهد بأنهم صار عندهم علم بالحرام والحلال وبالتوحيد والآخرة...

{وَجِئْنَا بِكَ}، أيها النبي محمّد (ع)، {عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا}، لتشهد أن القرآن وصلهم وفيه العقيدة الصحيحة والشريعة الصحيحة.

الآيات السابقة فيها أوامره تعالى التي يجب أن نلتزم بها، من ميراث واعتناء بالأيتام والزوجة... والتصدّق على الفقراء... ولكن هناك من لم يلتزم بها، فكيف سيكون الحال حين يحضر إلى يوم القيامة، وسحبنا من زمنه ومحيطه

شخصاً ليشهد أن الأوامر الإلهية وصلتْهم، وهذا سيقف ليتحاسب ولا عذر له ينجيه، ولا يمكنه أن يقول: لم يكن معي خبر. لا، لأنّ هناك شهيداً من الناس الذين عاشوا معك، يشهد بأن الأوامر الإلهية وصلت، وستتحاسب ولا عذر لك لتهرب من الحساب.

تتذكّر من عموم القرآن أن الأنبياء والرسل يشهدون على قومهم لأنهم أبلغوهم كل أوامره سبحانه، ولكن أيضاً العلماء الربانيون، والصالحون من المؤمنين الذين نبهوا الناس إلى الحلال والحرام، هم أيضاً سيكونون شهداء في يوم القيامة.

(يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثاً{42})
{يَوْمَئِذٍ}، في ذلك اليوم الذي يسحب سبحانه فيه الشهداء ليشهدوا على أممهم، وهو يوم القيامة من الموت وما بعده، في وقتها، {يَوَدُّ}، يرغب ويحبّ، {الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا ولم يعتقدوا بدينه تعالى، {وَعَصَوُا الرَّسُولَ}، حيث خالفوا كلامه (ع)، يودّون، {لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ}، لو يتم تسويتهم بالأرض، لو يتم مسحهم ولصقهم بالأرض حتى لا يكون لهم كيان ولا يكون لهم وجود، كمن يتمنى لو تمر عليه شاحنة ثقيلة جداً فتهرسه وتسحقه وتجعله مُسَوًّى: متناسباً مع مستوى الأرض بالتمام، حيث يتمنون هذا المسح، {وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا}، كي يتم مسحهم ولا يضطرون ليكونوا في موقف الاحتفاظ لأنفسهم بحديث من الأحداث العاطلة التي جرت في حياتهم عن أفعالهم السيئة التي علموا أنه تعالى يعاقب عليها، لأنهم لا يمكنهم إخفاء الأجوبة عن أسئلته تعالى، وغصباً عنهم سيقولون الأجوبة عن أعمالهم السيئة وسيسمعها تعالى والملائكة (ع) والمؤمنون، لذا يودّون لو أنهم مطحونون بلا كيان حتى لا يجاوبوه تعالى.

هم في يوم القيامة، سيرون شخصاً يعرفونه وكان يعيش معهم، حيث جعله تعالى واقفاً أمامهم ليشهد أن تعاليمه سبحانه وصلت لهذه الأمة، لأنّ هذا الشهيد كان معهم، ووصلته التعليمات كما وصلت لغيره، ولم يكن هناك أي شيء مخفي، وسيسألهم سبحانه: لماذا لم تؤمنوا؟ لماذا لم تنفّذوا أوامري؟ حيث ينظرون إلى الشهيد، ويعلمون أنهم لا يمكنهم أن يقولوا: لم يكن معنا خبر لذا لا يمكنكم محاسبتنا. في هذه الحالة هم مضطرون لكتم هذا الحديث، هذا الجواب هذا الكلام، الاحتفاظ به عن الله تعالى، ولكن لا يمكنهم كتمه، لأنه واضح، وساعتها لا يوجد في عقولهم أي حل لهذه الورطة إلا أن يودّوا لو ينطحنوا وينمسحوا حتى يصيروا ملتصقين بالأرض. وفي الآية 40 من سورة النبأ تمنى أمثال هذه النوعية من الناس لو أنهم تراب ولا يكونون أحياء واقفين أمام الحساب العسير {إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا}.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىَ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مِّنكُم مِّن الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً{43})
تقواه تعالى بالخصوص في أنفسنا عبر الالتزام بالأوامر المعبرة عن إيماننا.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الناس الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ}، ابتعدوا عن التوجّه له تعالى بحركات وكلمات حين تكونوا فاقدين للتفكير الواعي، {حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ}، يعني صلّوا حين يكون وعيكم الفكري معكم حتى تعلموا ماذا تقولون في صلاتكم.

انتبه جيداً، لأنّ الآية لا تتحدث عن حلية أو حرمة شرب الخمر، فلا تستنبط أن الخمر كان حلالاً والممنوع هو القيام بالصلاة سكراناً، لأنه ليس صحيحاً أن هذه الآية نزلت قبل تحريم الخمر، فحرمة الخمر معلومة في دينه تعالى مثلها مثل بقية السيئات كالزنا والخمر... ويمكنك بكل سهولة النظر في تكملة الآية لترى أنها تتحدث عن الحالات الاضطرارية الاستثنائية، فإذا كنت مضطراً لأن تكون في حالة سكر، فانتبه، وصلي قبل أن تفقد تفكيرك الواعي أو قم بتأجيل الصلاة إلى ما بعد ذهاب حالة السكر عنك، حيث تضطر لأخذ دواء يطيح بعقلك، أو مخدر لأوجاعك... ومن المشهور جداً بين كل الأمم أن الخمر كان قديماً هو الحلّ الوحيد البديل للمخدر، للتخلص من الألم عموماً وأثناء تقطيب الجراح أو سحب السهام من الجسم أو تسوية كسور العظام... ففي تلك الحالات كانوا يشربون فيها الخمر أو أي مسكر آخر كمخدر للآلام، وقد بقيت هذه الحالة حتى تم سحب المواد الفعالة في التخدير من الأفيون والكوكا... وفيما بعد تطورت هذه الأشياء، واستبدال المسكرات بالمواد الطبية المخدرة لم يكن من زمن بعيد عنّا، حيث منذ قرابة المئة عام

فقط بدأ انتشار التخدير الطبّي كبديل لشرب المسكرات، وامتنع المسلمون "الملتزمون" الأوائل عن تناول الخمر كمسكّر، مفضلين تحمّل الألم...

لا تستسخف نفسك بالبحث عن طريق لتحليل تناول ما يسبّب السكر، لأنّ كل ما يسبب السكر فهو حرام حرام، إلا عند الاضطرار، حيث وضّحت الآيات تفصيل حالات الاضطرار، وحذّرت من اختراع الاضطرار، أقول لك هذا لأن المسلمين الأوائل وقعوا في مشكلة الفقاع "منقوع الشعير المخمّر، البيرة" على أساس أنه لا يوجد رواية عن النبي (ع) لتحريمها، متجاهلين ومتناسين أن النبي (ع) لم يحرمها لأنها لم تكن معلومة أو منتشرة في زمنه... ومن بعدهم وقع المسلمون في مشكلة "القات"، وتلاها مشكلة القنّب "الحشيش" ولحقتها المركبات الكيميائية "الأمفيتامينات..." حيث قال البعض عنها أنها حلال! لأن الحرام في رأيهم هو الخمر فقط! وارتكبوا خطأً فظيعاً حينما قالوا إنّ الخمر هو الوحيد الحرام من بين المسكرات! لأنّ المسكرات كلها حرام، وإنما الخمر هو من نماذجها المشهورة، مثل حرمة القمار بالقرعة التي من أبرز مصاديقها "الأزلام"، حيث إنّ الأزلام حرام وغيرها مما يشبهها في المبدأ حرام.

يمكنك تصور حالة السكر في عصرنا عند الأشخاص الذين يخضعون لعمليات جراحية، أو الذين يتناولون أدوية الاكتئاب والصرع... فهؤلاء مضطرون لتناول المسكر، فيجب عليهم الانتباه لتوقيت الصلاة حتى لا يأتي وقت الصلاة وهم في حالة سكر.

أخيراً، إنّ أي كلام عن التدرج في تحريم الخمر، هو غير صحيح، لأنّ الخمر حرام منذ بداية الدعوة، مثله مثل السرقة والزنا والغيبة وشهادة الزور... حيث إنّ السور التي نزلت في بداية الدعوة لم تتحدث عن حرمة الخمر والمسكرات، وأيضاً لم تتحدّث عن حرمة الغيبة والسرقة... ولكنها حرام ويعلم الجميع أن عليها عقاباً في الآخرة حتى من قبل أن يذكرها القرآن، أمّا تكرر الحديث القرآني لثلاث مرات عن الخمر فهو أقل من تكرار النهي عن الشرك والكفر وموالاة الكفار... وأقل من تكرار الأمر بالصلاة والزكاة... فهل في تلك الأمور تدرّج! ولكن الأفكار المتعارف عليها من إمكانية النسخ للأحكام في القرآن، وبالتالي إمكانية التدرج في الحرمة، ولإمكانية سحب آية من سورتها لنفهمها مع دمجها بآيات من سور أخرى "التفسير الموضوعي"، ولوجود روايات لا يمكن تبريرها إلا بالقول بتدرج حرمة الخمر، وإلا فسنتّهم الصحابة المقدسين بشرب الخمر حتى من بعد علمهم بحرمتها... كل ذلك سبّب انتشاراً لفكرة التدرج في التحريم، وكله غير صحيح. فعندما تراجع دراستنا لتفسير هذه الآيات ستفهم ما كانت تريده كل واحدة منها.

قيل إنّ الصلاة هنا اسم مكان كناية عن المسجد بدليل ما ورد في سورة الحج عن هدم الصوامع والبيع وصلوات ومساجد... ولكن في هذه الحالة ما معنى حتى تعلموا ما تقولون؟ لأنّ السكران أصلاً لا يعترف بأنه سكران، ويمكن أن يصلّي ويمكن أن يذهب إلى المسجد وهو سكران! إذاً الآية تتحدّث مع مؤمن اضطر لتناول المسكر وتنبهه من وقت الصلاة أن لا يتداخل مع حالة السكر.

أكرر لك، في حالة السكر لن تعلم ما تقول، ولن تدرك ذلك، وقد تقوم إلى الصلاة إذا حان وقتها وأنت سكران، فهل من المعقول أن الآية تقول: لا تصلّي يا سكران؟ فهل السكران سيكون واعياً للحلال والحرام؟ لا، حيث إنّ الآية تتحدّث مع المضطّر لتناول المسكر فتنبّهه أن يتناوله بعد الصلاة، أو أن لا يكون سكراناً حين يأتي وقت الصلاة.

{وَلَا}، تقربوا الصلاة وأنتم، {جُنُبًا}، مجانبون بعيدون عن الحالة العادية، والمشهور بين المسلمين ويدعمه فحوى تكملة الآية أن الكلام عن حصول شيء "جنسي" كالجماع أو نزول المني، فصرتم بعيدين عن الحالة العادية وفي حالة الحاجة للغسل، ونحن الآن لدينا اصطلاح لذلك فصرنا نستعمل كلمة"جنابة" لهذه الحالة اشتقاقاً مما استعملته الآية، فلا تقربوا الصلاة وأنتم جنبا، {إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ}، إلا إن كنتم عابرين مارين قاطعين للطريق، فلم تكونوا مسافرين بل تمرّون من بلد ليس لكم فيه منزل خاص بكم لتغتسلوا فيه، وأنتم ذاهبون لبلدكم، {حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا}، فطالما تعلم أنك ستصل إلى بلدك لتغتسل فأجّل الصلاة ضمن وقتها إلى أن تغتسل، يعني هو عابر سبيل "جنب" والآن لا يمكنه الاغتسال ولكنه في طريقه للوصول إلى حيث يمكنه الاغتسال ضمن وقت الصلاة.

سننتقل للحالات الاستثنائية للصلاة بدون غسل:

{وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ}، حيث في جسدكم خلل، فلا يمكنكم استعمال الماء بسبب المرض، كالمصاب بمرض جلدي، أو لا يمكنكم القيام من الفراش للاغتسال... {أَوْ}، كنتم، {عَلَىٰ سَفَرٍ}، في حالة سفر على الطريق "حيث عادة يكون الماء قليلاً مع المسافر"، لأنّ عابر السبيل لا يزال يكمل طريقه وسيصل إلى بلده ضمن وقت الصلاة حيث يمكنه الاغتسال، أمّا الوصف بالمسافر فهو لعموم حالة من ليس في وطنه ولن يصل إليه في وقت قريب، سواء كان على الطريق أو مارّاً في مكان ما أو مقيماً بشكل مؤقت في مكان ما... وإن كنت لم تمر في حالة سفر بظروف صعبة، فاعلم أنه لا يزال إلى الان يوجد أناس يسافرون بالطرق البدائية ولا يمكنهم حمل الكثير من الماء... ويمكنك تصور الحالة في الطائرة، حيث التي في زماننا لا مجال فيها للاغتسال.

{أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ}، من مكان خروج فضلات الجسم، من بول أو عذرة أو ريح، {أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ} فحصلت مجامعة جنسية.

في هذه الحالات التي لا يمكنكم استعمال الماء للغسل من الجنابة بسبب المرض، أو لقلة الماء في حالة السفر، وفي حالة عندما يخرج شيء من الغائط "مخرج البول والعذرة"، وبتعبيرنا الدارج: كنت على وضوء وفسخ وضوؤك وليس معك ماء لتتوضّأ، أو لامستم النساء بالمعاشرة التي توجب الغسل، فحتى لو لم تكونوا في حالة السفر أو المرض أو عابري سبيل، فلم تجدوا ماء للغسل، لأن المياه نفدت أو مقطوعة، أو خزان المياه فارغ... أو ليس لكم مكان مستور لخلع الملابس الغسل فيه... {فَتَيَمَّمُوا} فليكن مقصدكم بدل الماء: {صَعِيدًا}، من وجه الأرض الطبيعي، كالحجارة والتراب، {طَيِّبًا}، ليس فيه خباثة فليس فيه رداءة، فلا يكن من النوع المؤذي المهين، كالحجارة المسننة، أو التراب الذي يصبغ الجلد، أو تراب عليه قذارة... فنتيمّم فنقصد الصعيد بدل الماء حتى نقوم بالبديل للغسل في حالة الاحتلام أو ملامسة النساء، أو بدل الوضوء في حالة انفساخ الوضوء بسبب الغائط، وقد درج فيما بعد تسمية ذلك بالتيمّم، وهو كما يلي:

{فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم}، {مِّنْ الصَّعِيدِ}، فنضرب بكفينا على الصعيد على التراب أو الحجر النظيف، ونمسح بوجهنا، أي بقسم من وجوهنا، والمشهور بين الناس أنه مسح الجبهة والجبينين بالكفّين، ثم نمسح ظاهر يدنا من جهة الأظافر من اليد اليمنى ببطن كف اليد اليسرى، ثم نمسح ظاهر اليد اليسرى بباطن الكف اليمنى.

{إِنَّ اللَّهَ كَانَ} {عَفُوًّا}، فالأساس هو أن نغتسل بالماء، ولكن عفا سبحانه عنّا في حالة الاضطرار، فلم يتوقّف عند الأمر الأول باستعمال الماء، بل سمح لنا بتيمّم الصعيد.

إن الله كان، {غَفُورًا}، فيتجاوز عن السيئات، لأنّ ترك الغسل هو ذنب، ومن أوقع نفسه في الظروف التي تجعله يتيمم الصعيد بدل الغسل بالماء فهو في الحقيقة مذنب، ولكنه تعالى يغفر هذا الذنب. فحين تسافر بالطرق البدائية فأنت تعلم بأنك إن أجنبت فلن تجد الماء لتغتسل، فهل السفر حرام؟ لا، فسبحانه يعفو عن ذلك ويغفره لك.

انتبه، فإننا نجد في القرآن غفراناً للذنوب في آيات لا نفهم منها أنه قد حصل ذنب حتى يتم غفرانه! فهذا المعنى للغفران هنا يجعلنا نفهم بسهولة أن أي مخالفة لأوامر الله تعالى فهي ذنب، وحتى لو لم تكن مقصودة، وحتى لو كانت زللا، وحتى لو كانت جهلا، حتى لو كانت لعذر، كمن أكل لحم الخنزير لأنه لا يجد طعاما غيره ويكاد يموت من الجوع، فأكل لحم الخنزير بالأساس هو ذنب، ولكنه مغفور بسبب الاضطرار، فهنا تلاحظ، أن ترك الغسل هو ذنب، ولكنه مغفور بسبب الاضطرار.

هذا مشابه للآيات التي تقول للنبي محمد (ع) أن يستغفر لذنبه، فحين أرسل (ع) فرقة لمقاتلة المشركين وقامت الفرقة بقتل أبرياء... فهذا ذنب، مع أن النبي (ع) ليس موافقا على ما فعلوه، ولكنه القائد والمسؤول، فعليه أن يستغفر لأن ذنبا قد حصل، وإن لم يكن (ع) قاصدا له، وإن لم يكن يحتمل حين بعثهم أن يقوموا بالذنب... فمهما قلنا وبرّرنا، فإنه هو (ع) أرسلهم، والذنب قد وقع، ومن هذا النوع من الحوادث تجد الأوامر القرآنية للنبي (ع) أن يستغفر.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ السَّبِيلَ{44})
{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي (ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت. التفت، {إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا}، والكلام عمّا وصلهم منه سبحانه، {نَصِيبًا}، حصة محدّدة، {مِّنَ الْكِتَابِ}، حيث نزلت كتب إلهية عديدة

وهناك جماعة نالتهم حصّة من تلك الكتب الإلهية التي نزلت وهم، {يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ}، فيبيعون الهدى ويتخلون عمّا في الكتاب ويدلهم على الطريق الصحيح ويشترون بدلاً منه الضلالة، فيشترون ما لا يدلهم على الطريق الصحيح!

{وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ}، وكما هم باعوا كتابهم الذي فيه الهدى واشتروا به الضلال، يريدون منكم أنتم أيضاً أن تبيعوا القرآن لتضلوا عن المسلك الصحيح.

تفهم من الآية أن البعض من أهل الكتاب يعلّق على التشريعات التي يذكرها القرآن عموماً، والتشريعات التقوائية التي وردت في سورتنا هذه ستنالها تعليقات من بعض أهل الكتاب ليقنعوا المؤمنين بأنها تشريعات غير صحيحة، حيث سبق لهم أن فعلوا ذلك بالكتاب الذي نزل عليهم، فتلاعبوا به وحرّفوه.

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شراً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فقد ضلّ عنك صيدها. استعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، حيث لم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء. كما استعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى (ع) عن دين فرعون، لأنه ليس على طريقهم، بل ضالٌّ عن دينهم ومفتخرٌ بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيراً{45})

{وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ}، لأنه يعلم كل شيء عن الذين يقومون بأنشطة لا تتماشى مع مصالحكم والذين لا يريدون لكم الخير، وعندما يقول سبحانه لكم عن هذه النوعية من الناس إنها عدوة لكم لأنها تريد إضلالكم، فسبحانه أعلم منكم، ويعلم سبحانه من هم أعداؤكم وها يخبركم وينبّهكم.

عندما تسمع كلاماً من شخص مؤمن بكتاب نزل من قبلك على أساس أنه تابع للدين الإلهي، ويعلّق على التشريعات التي في كتابك، ويقارنها بتشريعاته التي صارت تعتبر سابقة لتشريعاتك وكأنك أنت وكتابك شيء جديد طارئ متطفّل على دينه تعالى وهم أهل الكتاب الأصل، فخذ علماً بأنه باع الهدى الموجود في الكتاب الذي وصله، وذاك الهدى كان مطابقاً أو متماشياً مع القرآن، ويريدك أن تكون مثله ضالاً، وهو بعكس ما تتصوّر، لأنه لا يريد لك الخير، بل هو عدو والله تعالى أعلم بأعدائك وها يخبرك وينبّهك.

{وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا}، مرجعاً تتبع له، حيث تسمع كلامه تعالى ويكون مرجعك كمسؤولٍ عنك، فمن كان سبحانه وليَّه مرجعَه المسؤولَ عنه، فسبحانه يكفيه ولا يحتاج لولي آخر معه.

{وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا}، مؤيداً يحقّق لك ما تريده ولن تحتاج لأي نصرة من غيره.

سبحانه وليٌّ وناصرٌ للمؤمنين، وهم لا يحتاجون معه أي أحد، وها أخبركم أن الضالين من أهل الكتاب لا يريدون لكم الخير بل يريدون إضلالكم، فلا يكن في تفكيركم أيها المؤمنون أن أهل الكتاب أولياء لكم وناصرون لأنهم مثلكم على الدين الإلهي، لا، لأنهم لا يريدون لكم الخير حين يعلّقون سلباً على تقواه تعالى وتشريعاته القرآنية، وأنتم كمؤمنين اعتمدوا فقط على الله تعالى.

(مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً{46})

{مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا}، قسم من الأشخاص الذين حملوا اسم الذين أعلنوا مع النبي موسى (ع) أنهم "هادوا"، وأنابوا وتابوا إلى الله تعالى، وفيما بعد صار اسمهم عبر التاريخ: يهود. هؤلاء، {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ}، الكلام الإلهي، {عَن مَّوَاضِعِهِ}، عن موضوعه الأساسي، عن دلالته الصحيحة، حيث يأتيهم كلام منه سبحانه عن التقوى في الناس والحلال والحرام

والعقيدة، ولكنهم يحرفون الكلام عن معناه الأساسي، ويقولون إننا نفهم منه شيئاً آخر، ويجعلون للكلام الإلهي معانيَ غير المعاني الأساسية، والحديث هنا عن تحريفهم لعموم ما وصلهم منه تعالى وبالخصوص عن تحريفهم لمعاني القرآن المتوافقة بالأصل مع كتبهم قبل تحريفها، حيث إنّ هذه السورة "وغيرها" طرحت تشريعاتَ عن الأيتام والميراث والزواج... وهذه التشريعات لا تختلف في أساسياتها عن الشريعة التي في التوراة الأصلية، لأنّ البعض من أهل الكتاب يحرفون هذه التشريعات حتى تتناسب وتشابه شريعتهم الملعوب بها!

{وَيَقُولُونَ}: {سَمِعْنَا} وأدركنا معنى كلامك، {وَعَصَيْنَا}، وخالفنا ما سمعناه. وعندما يقول لهم النبي (ع) أو القرآن إنّ هذا التشريع هو الصحيح الأساسي وما بين أيديكم محرّف غير صحيح، بدل أن يسمعوا ويفكّروا، فإنهم يقولون: سمعنا كلامك وخالفناه فلا تتعب نفسك بمناقشتنا لأننا لن نتبع كلامك.

{وَيَقُولُونَ}: {وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ}. مهما تكلّمت فلن يسمعك من لا يسمع، لأنّ الأطرش لا يسمع ونحن طرش فلا تحاول جعلنا نسمع، لأنّ كلامك لن ينفع معنا ولن نسمعه ولن نطيعه ولن نفكّر به، ونحن باقون كما نحن، لن نتغير.

ويقولون {رَاعِنَا}، حيث أحياناً يرفضون وأحياناً يطلبون مراعاة ظروفهم، خفّف عنّا من طلباتك حتى نستطيع إطاعتك، ومعلوم لك أنهم يسخرون، {لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ}، "في الدين"، حيث يلوون أوامر الدين بألسنتهم، لأنّ الدين الإلهي أصلاً لا يكلّفهم بما لا يطيقونه وعندما يقولون: راعنا، هذا يعني أنهم يطلبون تطعيجَ، ليَّ، تغييرَ استقامة أوامر الدين الإلهي، {وَطَعْنًا فِي الدِّينِ}، يطعنون بالدين ولا يؤمنون بصحته وصلاحه، على أساس أنه كما هو لا يمكن تحمّله، كما نقول: قدم المحامي طعناً في الحكم، أو قدم طعناً في القانون. لأنه لا يعتقد بأن الحكم أو القانون صحيح، وهؤلاء يطعنون في صحة الدين ولا يؤمنون به كما هو ويرونه بحاجة لتعديلاتٍ مناسبةٍ تراعي ظروفهم.

{وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا}: {سَمِعْنَا}، دخل إلى فهمنا وقناعتنا ما تقول، {وَأَطَعْنَا}، والتزمنا به، ولو أنهم قالوا: {وَانظُرْنَا}، استمهلنا، أعطنا وقتاً لنفهم الدين، فلو قالوا هذا الكلام، {لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ}، أفضل لهم من كلامهم السيئ، {وَأَقْوَمَ}، حيث يُوصف بأنه على الأحسن ولا انحراف ولا اعوجاج فيه.

{وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ}، أي طردهم من رحمته، {بِكُفْرِهِمْ}، بسبب إنكارهم لدينه، وكنتيجة لكفرهم الذي سبّب لهم الطرد من الرحمة الإلهية، {فَلَا يُؤْمِنُونَ}، لأنهم لا يعتقدون بالدين الصحيح، {إِلَّا قَلِيلًا}، إلا عددٌ قليلٌ منهم يؤمنون، لأنّ الأكثرية لن تتغير وستبقى على الدين المنحرف الملعوب به.

نتذكر ورود نفس لفظ "راعنا" ونهي المؤمنين عن قوله في الآية 104 من سورة البقرة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا...}، وهنا في الآية وهناك، لا يناسب ما قاله بعض المفسرين عن ليّ اللسان أثناء لفظ كلمة راعنا لتصير كلمة لها معنًى سيئٌ في اللغة العبرية، أو معنًى سيئٌ بالعربية على معنى توصيف الرسول براعي المواشي، راعينا الذي يرعى مواشينا. لأنّ سياق الكلام هنا وهناك يشير لمفاهيم وليس للتلاعب بالكلمات الذي ربما يكون حصل ولكن الآيات لا تتحدّث عنه.

بالنسبة لكلمة "هادوا" في القواميس العبرية المرموقة نجد كلمة "يهود" واشتقاقها من هاد هدنا "هداية"، وتطبيقياً فسروها على معنى الإنابة والحمد له تعالى "المنيبين الحامدين"، حيث في اللغتين العربية والعبرية هي في الأساس نفس الكلمة بنفس المعنى من الاهتداء "الهداية"، وعندما تُشتق منها تسمية أو فعلٌ مباشرٌ يصير تصريفها مثل قول النبي موسى (ع) المنقول في الآية 156 من سورة الأعراف {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ...}، وترى ذلك في استعمال اشتقاق فعل منها عدة مرات في القرآن ومنها ما ورد في الآية 62 من سورة البقرة {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ...}، وما ورد في آيتنا هنا.

بقي شيء، حيث إنّ الآية تتحدث عن أناس من الذين هادوا حرّفوا... والآن نحن في حالة الذين أسلموا وحرّفوا. والكلام ليس عن جلد الذات، بل للاعتراف بالواقع المرّ عسى أن نفتح أعيننا، أو على الأقل لِنُرَبِّ الأجيال الجديدة على الصراحة والعقلانية معترفين بسوئنا بدلاً من إقناعهم أنّ مذهبنا على حقّ والبقية ضالّون...

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً {47})
السورة تتحدث عن الأمور التي يأمرنا سبحانه بفعلها حتى نكون متّقين للسوء وبالتالي متقين لعقابه، ولكن كلامه سبحانه غير محصور بالمسلمين، بل هو أمر عام، ويشمل أهل الكتاب السابقين:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، يا أيها الناس الذين صار معهم منه سبحانه كتابٌ إلهيٌّ، كالتوراة والإنجيل: {آمِنُوا}، اعتقدوا، {بِمَا نَزَّلْنَا}، بالذي نزل من عندنا على النبي محمد (ع) وهو القرآن، {مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم}، مؤكداً مؤيداً للذي معكم من كتاب، لأنّ القرآن ليس كتاباً لدين جديد، وليس كتاباً لا علاقة له بكتبكم، بل هو من نفس الإله سبحانه وامتداد لنفس الدين، وعندما تصف الآيات القرآن أنه مصدق للإنجيل والتوراة، فهذا لا يعني أنها كلّها نفس المحتوى، لا، حيث معلوم حصول التحريف في التوراة والإنجيل، ولكن كما هو مشهور الآن بين كل الناس، أن الأديان السماوية ثلاثة: يهودية، مسيحية، وإسلام. وسبب جمع الثلاثة تحت عنوان واحد أن محتوى الكتب الثلاثة يؤكد أنها من مصدر واحد، ولهم جذر عقائدي مشترك، وأساس تشريعي واحد... ونفس الأنبياء... فجمعهم بعنوان واحد هو رأي يتبناه حتى العلمانيون المحايدون في نظرتهم للكتب الثلاثة، حيث إنّ القرآن مصدق للكتب السابقة بهذا المعنى، ولم يتحدث عن إله جديد، ولا عن عقيدة أو شريعة جديدة ولا عن أنبياء مختلفين، بل هي ذاتها الأمور الأساسية.

{مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا}، قبل أن نجعل أعضاء وجوهكم مطموسة فتصير معالمها الأصلية غير واضحة، لأنّ هذا سيحصل في الآخرة مع الذين لا يؤمنون، {فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا}، حيث ترجع تلك الوجوه المطموسة إلى الخلف، إلى حيث كانت، لأنّ بالإيمان تصير الوجوه في الآخرة نضرة بمعالم واضحة، وبالكفر تصير الوجوه مطموسة بالغبرة والقترة والسواد والكلاح... وأنتم موصوفون بأنكم أهل كتاب، فآمنوا بهذا القرآن من قبل أن يأتي يوم القيامة حيث يتم طمس وجوه الذين لم يؤمنوا بهذا القرآن، ويتم ردّ تلك الوجوه إلى حالة الذين لم يؤمنوا بدينه تعالى، ورغم كونكم منسوبين لكتاب إلهي فلن يتم التعامل معكم على هذا الأساس بل سيتمّ التعامل معكم ككفّار بكتاب نازل من عنده تعالى.

تلاحظ أن الطمس عقاب ناتج عن تعاميهم عن الحقّ الذي أمامهم لأنهم "الآن في الدنيا" يتصرفون مع القرآن وكأن وجوههم مطموسة وكأنهم لا يرونه، فعقابهم في الآخرة سيكون بالطمس.

{أَوْ نَلْعَنَهُمْ}، فآمنوا قبل أن يصيبكم مثل الذين طردهم سبحانه من رحمته، {كَمَا لَعَنَّا}، مثلما طردنا، وعملياً هو إبعاد من الرحمة، {أَصْحَابَ السَّبْتِ}، وهم أناس لهم ارتباط ما مع يوم السبت، وهي قصة مشهورة وذكرها القرآن في الآية 163 وما بعدها من سورة الأعراف {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا...}، حيث جرى تحويل شكل اليهود المخالفين لأوامره تعالى إلى قردة.

{وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا}، لأنّ الأمر أي الشيء الذي يأمر به تعالى ويريد حصوله فإنه سيحصل، ولعن أصحاب السبت أمرٌ "شيءٌ" أراده تعالى وتحقّق، لأنّ اللعن بتحويل الخلقة هو أمر حصل وتعرفونه كلكم فانتبهوا.

قبل طمس وجوه من لم يؤمن بهذا القرآن في الآخرة، قد تصيبهم هنا في الدنيا لعنة مثل اللعنة المشهورة لأصحاب السبت، وأنتم تعلمون ماذا فعل تعالى بهم.

(إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً {48})
{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ}، إنّ من جعل معه تعالى شريكاً في الألوهية فهذا حتماً سيعاقبه تعالى، وإذا اعتقد بشكل صريح وعلني أنه يوجد آلهة متعددة، ومات على هذه العقيدة، فهذا لن يغفر تعالى له وحتماً سينال عقابه، ومن سياق الكلام السابق تفهم أن من وصله هذا القرآن ولم يؤمن بمحتواه العقائدي والتشريعي فهذا لم يعتقد به تعالى إلٰهاً، أو اعتبر نفسه بمقام الألوهية حيث يتبع ما يراه هو مناسباً، أو اعتبر شخصاً آخرَ بمقام الألوهية فاتّبع ما يقوله ذلك الشخص وترك ما يقوله تعالى.

{وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ}، لأنّ ما هو أقل من الشرك فإنه تعالى لا يصرّ على تعذيبه بسببه، {لِمَن يَشَاءُ}، حيث أمامه تعالى خيارات عديدة وليس مجبوراً أن يغفر، وعنده سبحانه معايير ومقاييس خاصة وعلى أساسها يغفر ويسامح، حيث أخبرنا تعالى أنه شاء غفران ذنوب المؤمن العامل للصالحات التائب من ذنوبه وغير المصرّ عليها.

{وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ}، حيث إذا شخص ما أشرك بالله تعالى، {فَقَدِ افْتَرَىٰ}، اخترع ولفّق شيئاً لا أساس له وغير صحيح، ويكذب عن قصد ومعرفة مخترعاً شيئاً وينسبه له تعالى، وهذا الشرك المفترى، {إِثْمًا}، ذنباً مقصوداً، لأنه قام به مع معرفته بأنه يرتكب الذنب، وهذا الذنب المقصود، {عَظِيمًا}، ضخماً ليس شيئاً صغيراً. من أوهامه ونزواته وغرائزه وشهواته ورغباته وهواه السيئ... اخترع له تعالى شريكاً في الألوهية، وهذا افتراء يعلم من فعله أنه ممنوع ولن يمرّ هذا الشرك من دون عقاب.

كما ترى إنّ السورة لم تنتقل من كلامها مع المسلمين إلى أهل الكتاب ثم إلى المشركين، لا، بل اعتبرت أعمال بعض أهل الكتاب من مستوى الشرك به تعالى، لأنهم علموا بأن هذا القرآن كتاب إلهي مصدّق لما معهم، فما معنى كفرهم به؟ وما معنى إصرارهم على البقاء على الدين العقائدي الذي تلاعبوا به فصار محرّفاً عن دينه تعالى؟ حيث فيه إله آخر وفيه أرباب من مستوى إلهي غيره تعالى... ومن ناحية التشريع إنّ الإله وحده يحقّ له وضع أساس التشريع، وإذا تركوا تشريعه تعالى واتّبعوا تشريعاً آخرَ فهذا تشريك لألوهية ما مع ألوهيته تعالى.

هذه النظرة الإلهية لهم، ولم يأمرنا تعالى بمعاملتهم على أساسها، ولم يأمرنا بمعاملتهم على أساس أنهم مشركون، وهذه النقطة دائماً فيها لغط في كتب ومقالات المسلمين الذين يخلطون بين نظرته تعالى لبعض أهل الكتاب على أنهم مشركون وبين أمره تعالى لنا بمعاملتهم على أنهم منتمون لدينه، وترى في القرآن نفس الشيء بالنسبة للمنافقين والفاسقين، حيث أمرنا تعالى بمعاملتهم كمسلمين بحقوق كاملة، مع عرض القرآن لنظرته سبحانه إليهم كون بعضهم في باطنه الكفر أو الشرك...

الكلام في الآية حصرا عن الاعتقاد به تعالى، وليس عموميا، لأنه تعالى لا يغفر لمرتكبي الكبائر كقتل الأبرياء، طبعا إذا لم يتوبوا قبل موتهم، مما يعني أن الآية هنا ناظرة إلى اعتقادات باطلة في حقّه تعالى ولكنها ليست بمستوى الشرك، ويغفرها تعالى لمن يشاء، كالذين يعتقدون أنه تعالى فرض علينا طاعته على العمى لنفعل الأمور التي لم نقتنع بحسنها ونراها بوضوح سيئة، أو كالذين يعتقدون أنه تعالى يظلم قليلا، أو فوّض بعض الشؤون الربوبية لبعض عباده المؤمنين "كالرزق وطول العمر..."، هذه أمور قد تصير خطيرة جدا بأثرها النفسي والعملي ويموت الإنسان وهو معتقد بها ولم يستغفر منها، هذه وأشباهها هي التي تتحدّث عنها الآية بأنها أقل من الشرك ويغفرها تعالى لمن يشاء، مما يعني أنه بحسب أثرها فإن كان تأثيرها كبيرا عندها لن يغفرها تعالى، أما إن كان صغيرا فيغفرها تعالى.
بقية الكبائر التي توعّد القرآن عليها بالخلود في النار، بالبداهة ليست مشمولة أبدا بكلام الآية هنا، نرى ذلك بوضوح حين نتذكّر أن أي سوء ومهما كان نوعه، مغفور لمن تاب منه، حتى الشرك، حتى قتل الأبرياء، ولا يوجد في القرآن أنه تعالى يغفر إذا شاء لمن تاب واستغفر، بل يوجد قرار إلهي صريح بالعفو، هكذا نفهم آيتنا هنا تتكلم عن شيء سيّء يعتقده الإنسان ولا يرى ضلاله، بل ربما يظن أنه من الإيمان العالي! مثل اعتقاد بعض المسيحيين بربوبية النبي عيسى(ع)، وأن السيدة مريم(ع) أمّا لله، فهذا شرك لا يغفره تعالى، أمّا مسألة الاعتقاد بتفويض إلهي لبعض القديسين في بعض الأمور التي هي من الشؤون الإلهية، مع الاعتقاد بأن القديسين بشر، فهذا ما تتحدّث عنه الآية هنا.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً{49})
{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي (ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت.
{إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم}، حيث يقولون عن أنفسهم إنهم زاكون، لائقون وفيهم صفات صالحة، ليس فيهم خبث ولا فساد في العقيدة ولا في العمل، ويقولون: نحن المؤمنون الحقيقيون، ونحن فقط سندخل الجنة، ونحن فقط على الدين الصحيح...

حسناً، يمكنهم أن يتكلموا كيفما يشاؤون ولكن كل كلامهم بلا قيمة، ولن يغيّر من الواقع أي شيء ولن يجعلهم كلامهم زاكين.

{بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ}، لأنّ صاحب الاسم "الله" المحدّد المميز له هو المرجعية لتحديد الزاكين، لأنّ ما نسميه نحن بالعقائد أو بالإيمان بصدق شيء ما، ما هو إلا معلومات، والله تعالى العليم حيث يعلم ما هو الحقّ، وهو الحكيم حيث يرى الصوابية في الأمور، وبناء عليه يحدد تعالى من هم الزاكون بالنسبة لإيمانهم بما هو حقّ والتزامهم بما هو صالح، لأنّ الخالي من الخبث والفساد واللائق بوصف الإيمان هو من اتّبع هذا القرآن، وهذا شاء تعالى اعتباره زاكياً.

نفهمها بشكل أبسط عندما نتذكّر قول بعضهم إنّ المنتمي لدينهم أو مذهبهم له قيمة خاصة عنده تعالى ولا يخلد في النار، حيث إنّ هذا نوع من التزكية للمنتمين لدينهم أو مذهبهم، ولكنه تعالى لم يشء ذلك، وشاء تزكية المؤمنين العاملين للصالحات فقط، حتى المنتمون لدينه من أي مذهب أو طائفة كانوا مثلهم مثل بقية الناس سيتحاسبون بلا أي تمييز...

إذا استحضرت ما سبق منذ قليل من آيات ترى أن المؤمنين بالقرآن هم الزاكون، أما المتلاعبون بالكتاب الإلهي والكافرون بالقرآن، وفوق ذلك يقولون عن أنفسهم إنها زاكية! لا، لأنّ قولهم عنها بأنها زاكية لن يجعلها زاكية لأنّ القرار بيده تعالى، وقال تعالى بصراحة إنّ أعمالهم لا قيمة لها، بل ستحبط ولن تسبّب لهم ولا حسنة، ولن ينالوا ولا أي مغفرة.

{وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا}، حيث لن يظلمهم سبحانه ولو بمقدار فتيل، وهو عموم أي شيء مفتول مبروم كخيط، والكلام هنا عن شيء صغير، حيث لو فركت أصابعك ببعضها ونتج من ذلك شيء انفتل بين أصابعك من الجلد الميّت والغبار والوحل فهو فتيل، ويقولونها أيضاً كوصف للخيط الصغير الموجود في شقّ بذرة التمر، "في نواة البلح"، ولو لهم حق بهذا المقدار الصغير، فهم سيأخذونه، ولكن ليس لهم أي شيء.

مسرحية كونهم متدينين تابعين لكتاب إلهي، وتزكيتهم لأنفسهم على أساس كمال عقيدتهم وشريعتهم، هو كلام فارغ، وقراره تعالى بأن لا يزكّيهم هو العدل والإنصاف لهم، لأنهم يصلّون ويصومون ويساعدون المحتاجين... فكيف لا يكونون زاكين! لأنّ توصيف الزكاة الدينية على المقاييس الإلهية هو الالتزام بالتمام بما يقوله تعالى، وأي تلاعب أو تحريف أو ترك لكتاب إلهي مثلما أنكروا هذا القرآن، سيجعلهم غير موصوفين بالزكاة.

(انظُرْ كَيفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْماً مُّبِيناً{50})
{انظُرْ}، وجّه اهتمامك العام، {كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ}، كيف يُلفّقون ويخترعون أشياء كاذبة عليه تعالى، حيث يحرّفون كتبه السابقة ويرفضون قرآنه... ويقولون إنهم زاكون! فماذا عن تحريفهم للكتب الإلهية؟ وعن تركهم للقرآن؟ وعن اختراعهم شريعة من أهوائهم الفاسدة؟ فكيف يكونون زاكين وهم مخالفون لكلامه تعالى؟ لأنّ هذا افتراء عليه تعالى، حيث سبحانه لم يزكّهم وهم على هذه الحالة، لأنهم يكذبون عليه تعالى.

{وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا}، فإن كان هناك شيء يوصف بالتمام أنه "إثم" بأنه عمل معلوم بشكل "مبين" واضح أن عليه عقاباً، فهو هذا الافتراء الكاذب عليه تعالى بأنه يزكّي من حرّف كتبه ورفض الإيمان بهذا القرآن.

لاحظ، حيث أكذب لأن المعلومات التي حصلت عليها كاذبة، وأكذب لأني نسيت الحقيقة، وأكذب لأني اشتبهت... وهذا كله كذب، أما افتراء الكذب، فهو تلفيقه واختراعه عن قصد وعن علم أنه غير صحيح، فإذا قلت لك: أوحى إليّ سبحانه أن الربا حرام. فأنا أفتري لأنه تعالى لم يوح إليّ ولم يقل لي شيئاً، والآن إذا قلت لك: أوحى تعالى إليّ أن الخمر حلال. فهنا أنا أفتري لأنه تعالى لم يوح إليّ، وأنا أكذب لأنّ سبحانه أصلاً لم يقل إنّ الخمر حلال، وهذا هو وصف المفتري كاذباً.

الإثم هو الذنب الذي تقوم به وأنت تعلم أنه ذنب، لأنك لم تقم به زللاً وعن غير قصد أو اشتباه، لا، لأنك تعلم أنه حرام وتفعله، فهذا هو الإثم.

الآن راجع الآيات، حيث هؤلاء يقولون إنهم زاكون، وسبحانه لم يزكّهم بل هدّدهم بالعقاب، وهم يعلمون أنهم يخالفون أوامره تعالى، ورغم ذلك يفترون عليه أنه تعالى زكّاهم! وهذا إثم واضح، فمن الطبيعي أن تحبط وتفقد قيمتها كلُّ أعمالهم الحسنة إن كان لديهم أعمال حسنة.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً{51})
{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي (ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت. {إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ}، حيث أنزل تعالى كتباً في أزمنة مختلفة وكان لهؤلاء حصّة محدّدة من نزول كتاب إلهي عليهم، حيث نزل عليهم التوراة أو الإنجيل أو صحف الأنبياء (ع)... هؤلاء البعض منهم، {يُؤْمِنُونَ

بِالْجِبْتِ}، يعتقدون بالشيء الذي لا خير فيه، بالعقائد والتشريعات التي لا خير فيها لأنها كاذبة وليست منه تعالى، وهذه الكلمة لم ترد في القرآن إلا هنا، {وَيُؤْمِنُونَ}، {بِالطَّاغُوتِ}، بالطغيان بالتعدّي على الحدود، لأنّ حدودهم في تصرفاتهم الالتزام بالخير والصلاح وهم يؤمنون بالتشريعات السيئة التي يعلمون أنهم يجب عليهم أن لا يعتمدوها لأنها سيئة، وهي نفسها ستكون مخالفة لما حدّده تعالى لنا ويطغون فيها بتعديها.

لاحظ أن كلمة طاغوت تبدو غريبة بعض الشيء، لأنها غير منتشرة الاستعمال، ويبدو أنها اشتقاق قرآني "من الطغيان" وربما لم يسبق أن استعمله العرب، أو ربما استعملوه قبل نزول القرآن ولكن لم يصلنا أثر عن ذلك منهم عبر أشعارهم، ومثلها حالة كلمة استبرق، لأنه من البديهي أن أشعارهم قبل الإسلام لم تستعمل كل كلمات اللغة العربية وكل الاشتقاقات من الكلمات.

أشار القرآن بكلمة طاغوت للشخص وللقانون وللشريعة... التي تخالف حدود الحقّ والصلاح وهي نفسها الحدود الإلهية، فأي مخالفة هي طغيان، لأنها خروج عمّا حدّده لنا تعالى، فإن اعتبرت نفسك عبداً لإنسان أو لإله غيره تعالى فقد طغيت وعبدت الطاغوت، وإن اعتقدت بعقيدة تخالف العقيدة الإلهية فقد طغيت وعبدت الطاغوت... وهكذا، لأنّ الطاغوت صفة عامة لكل أنواع وأشكال الطغيان، والقرآن قصد بها الطغيان على الأوامر الإلهية.

هؤلاء الأشخاص من أهل الكتاب، {وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا}، للذين أنكروا الكتب الإلهية من أصلها، حيث يقولون عنهم:

{هَٰؤُلَاءِ} الكفار هم، {أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا}، حيث إذا قارنوا المؤمنين بالقرآن مع الكافرين بدينه تعالى يقولون إنّ الكفّار ضالّون ولكنهم أهدى من الذي آمن بهذا القرآن، لأنّ الذي آمن بهذا القرآن هو على شيء غير صحيح، والكفر بالرغم من ضلاله الكبير هو أفضل من الإيمان بهذا القرآن!

لاحظ، إذا كنت تتحدث عن شخص ما أنه يقول للسيارة "للمركبة": عربة. لاحظ: يقول "لـ" للسيارة، "للمركبة". لأنه فعلياً لا يتحدث مع السيارة، ولكن هذه طريقة تعبيرك أنت عن قوله عن السيارة، عن كلامه عن السيارة، وهنا يقول البعض من أهل الكتاب "لـ" لذين كفروا، حيث فعلياً ليسوا بالضرورة يقولون هذا الكلام مباشرة للكفّار، ولكن يصفونهم بأن سبيلهم أهدى من سبيل المؤمنين بالقرآن، مثلما نسأل: ماذا تقول لـلبيت بالفرنسية؟ لأنّ السؤال ليس عن شيء ستقوله للبيت، بل التعبير سؤال عن كلمة بيت بالفرنسية، وهنا السؤال: ماذا يقولون للذين كفروا وللذين آمنوا؟ حيث إنّ السؤال عمّا يقولونه عن الكفّار وعن المؤمنين؟ هم يقولون بأن الكفّار أهدى من المؤمنين! ووردت نفس الصيغة في الآية 168 من سورة آل عمران وفي الآية 11 من سورة الأحقاف.

للأسف إنّ هذه العقلية المتخلفة الملعونة كما ستقرأ في الآية التالية، انتقلت منهم إلى مسلمين يقولون عن المسلمين الآخرين من غير طائفتهم ومذهبهم إنّ أهل الكتاب أفضل منهم! والبوذيين أفضل منهم!

(أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً{52})
{أُولَٰئِكَ الَّذِينَ}، يؤمنون بالجبت والطاغوت ويفضّلون الكفار على المؤمنين هم، {الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ}، الذين طردهم سبحانه من رحمته، فلا يعتني سبحانه بهم وسيجعل كل ما يحصل معهم سيئاً جداً على آخرتهم.

{مَن يَلْعَنِ اللَّهُ}، مَن يطرده تعالى من الرحمة، {فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا}، فمن يمكنه أن ينصره، ويُحقّق له ما يريده ويؤيده أو يساعده؟ ومن يمكنه منع اللعنة عنه؟ لا أحد، لأنّ اللعنة لصقت به ولا يوجد من يمنعها، ونتيجة اللعنة تبدأ فعلياً من الدنيا، فمن هنا يصير كل شيء سيقوم به الملعون مصيبةً عليه، حيث إنّ كل الأشياء ستسبب له مزيداً من العذاب في جهنم، ولن يحصل معه أي شيء جيّدٍ لآخرته.

(أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً{53})
{أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ}؟ هل لهم حصّةٌ محدّدة لهم في ملكه تعالى؟ إذن على أي أساس يقررون أن الكافر أفضل ممن آمن بهذا القرآن!؟ على أساس رفضهم لنبوّة شخص من العرب!؟ هل هذا القرار بنبوة شخص من العرب بيدهم أم بيد من بيده الملك من مستوى إلهي؟ حيث سترى تكملة آيتنا هنا في الآية التالية، لأنه لو كان لهم حصّةٌ في الملك، لكان لهم حقّ الاعتراض على اختيار النبي محمّد (ع).

لو كان لهم حصّةٌ في الملك الإلهي، {فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا}، فلو كان شيءٌ بمقدار الثقب الصغير جداً كالثقب الذي على ظهر نواة التمر فهم لن يعطوه للناس.

كعادة القرآن تراه يردّك إلى أساس أساس مغزى الكلام، حيث إنّ البعض من أهل الكتاب رفض بشكل قاطع القبول بنبي من العرب، وعموم القرآن وتكملة الكلام في الآية التالية تدلّك على هذا، فهذا الرفض مبني على ماذا؟ هل أرفض أنا ما تفعله أنت بملكك؟ إذ لا معنى لرفضي طالما أنه ملك لك ولا دخل لي به، لأنه لو كان لهم دخل بملكه تعالى، وعلى أساسه يقرّرون من سيكون نبياً، لكان لاعتراضهم معنى، ولكن لو كان لهم فعلاً حصّةٌ من الملك الإلهي، فهؤلاء لن يعطوا الناس أي شيء حتى لو كان بمقدار بالكاد يسدّ ثقب إبرة خياطة.

(أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً{54})
هؤلاء الأشخاص من أهل الكتاب المؤمنون بالجبت والطاغوت، القائلون عن الكفار إنهم أهدى من المؤمنين بالقرآن، الذين يوزعون شهادات إيمان على الناس، وهم الرافضون لنبوة محمّد (ع) وقرآنه:

{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ}؟ أم لديهم شعور سيئ لأنهم لا يتمنّون الخير الذي تفضّل به تعالى على بعض الناس، لأنّ القرآن هو فضل وهو شيء منه تعالى للناس وبالأساس غير واجب عليه تعالى تنزيله لهم، فهل تصرّف أهل الكتاب العدواني مع النبي محمد (ع) ومع المؤمنين نابع من الحسد لأنهم متضايقون منزعجون من نزول الكتاب الإلهي على غيرهم!؟

{فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ}، حيث صار مَنّاً عند المرتبطين بالنبي إبراهيم (ع) بالنسب، لأنّ كل الأنبياء من بعد النبي إبراهيم (ع) كانوا من ذريته، من أولاد وأولاد أولاد... أولاد النبي إبراهيم (ع)، من آله، والكتب الإلهية نزلت فقط عليهم، وَآتَيْنَاهُم سبحانه، {الْحِكْمَةَ}، حيث صاروا حكماء فيرون صوابية الأمور ولم يعد للعبث والعشوائية مكان في أقوالهم وتصرفاتهم وقراراتهم.

{وَآتَيْنَاهُم}، وأعطينا لآل النبي إبراهيم (ع)، {مُّلْكًا عَظِيمًا}، وهنا الكلام عن المنصب القيادي للرسل والأنبياء فهو ملك، لأنه مساحة للسيطرة وإصدار القرارات على الناس.

المالك الحقيقي من مستوى إلهي يؤتي ملكه من يشاء، وليس أنتم أيها المعترضون، لأنكم لا تملكون أي شيء من مستوى إلهي حتى ترفضوا أو تعترضوا على من يؤتيه تعالى النبوة والرسالة اللذين يتضمنان منصب إدارة شؤون الناس، لأنه كان قراراً إلهياً "عن حكمة" بأن يكون الملك "من مستوى النبوّة والرسالة" في آل النبي إبراهيم (ع)، ومن المعلوم المشهور أن محمّدا (ع) من آل إبراهيم (ع)، وشاء تعالى جعله نبياً رسولاً فبأي حقّ تعترضون على هذا؟! والآية السابقة سألت إن كان لهم نصيب في الملك من مستوى إلهي وعلى أساسه اعترضوا على جعل محمّد (ع) نبياً رسولاً ويريدون غيره... وهنا تسألهم على معنى إخبارهم أنهم حسداً للآخرين اعترضوا على شيء لم يحصلوا هم عليه ولا يريدونه أن يكون مع غيرهم.

بقي شيء، حيث يبدو واضحاً من القرآن أن للبشرية فقرات انحصرت فيها النبوة بسلالة من شخص محدّد، البداية مع آدم (ع) حيث كل الأنبياء من ذريته، بعده النبي نوح (ع) حيث كل الأنبياء من بعده كانوا من ذريته، بعده النبي إبراهيم (ع) حيث كل الأنبياء كانوا من ذريته، وهذا يبدو واضحاً من عموم كلام القرآن ومن الآية 33 من سورة آل عمران {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}، ومن عموم ما هو مشهور عن الأنبياء المعروفين أنهم كلّهم من هذه العائلة.

هذا يتطابق مع التاريخ الديني لدينه تعالى الذي حصر الأنبياء في منطقة صغيرة نسمّيها الآن بمنطقة الشرق الأوسط. وهذا يدفعنا للسؤال عن شرق أوسطية هذا الدين الإلهي، لأنه بالمقارنة مع بقية الأديان نرى أن لبدايتها ارتباط بالجغرافيا، مما دفع بالبعض إلى تصنيف دينه تعالى بالتماثل مع بقية الأديان وأنها اختراعٌ لأهل منطقة ما.

حسناً، نحن متأكدون أن بقية الأديان من اختراع البشر، أو هي نسخ محوّرة متلاعب بها عن دينه تعالى، لأنّ ما في تلك الأديان وبشكل ما يشبه دينه تعالى فهم أخذوه من الدين الإلهي وحوّروه...

نحن متأكدون أن أنبياءه تعالى كلّهم من آدم (ع) إلى محمد (ع) كانوا على نفس الخطّ ولم يأتِ ولا واحد منهم بدين جديد، ولكن ما السبب بانحصار الأنبياء في هذه الجغرافيا؟ وكما ترى فسببه هو انحصار النبوة بذرية أشخاص من هذه الجغرافيا "آدم ونوح وإبراهيم عليهم السلام".

يبدو من القرآن أيضاً أن دينه تعالى موجّه للجميع ليلتزموا به وليس حصراً لأولاد "آدم ونوح وإبراهيم عليهم السلام"، فالتساؤل عن انحصار الأنبياء في بقعة جغرافية ضيقة يتضمّن التساؤل عن تكليف الآخرين من البلدان الأخرى بدينه تعالى، وهم لم يحتك بهم ولا نبي، حيث لم يأتِ لهم ولا منهم أي نبي. وهكذا من جديد عاد السؤال ليتوجّه إليه تعالى لمعرفة سبب قراره هذا.

على ما يبدو من كلامه تعالى في القرآن أن الأهلية المطلوبة ليكون الشخص نبياً أو رسولاً، هي أهلية مرتبطة بالشخص، بصفاته وعلى رأسها أن يكون قلبه سليماً من الدرجة العالية. حيث إنّ سبحانه لا ينزّل من عنده أنبياء على المناطق، فإمّا أن يكون بين الناس شخص مؤهل ليكون نبياً، أو لن يكون بينهم نبي. مما يعني أن بقية الأمم لم يمر عليها في تاريخها ولا شخص قلبه سليم من الدرجة الكافية حتى يجعله تعالى نبياً، وهذا يأخذك إلى المستوى العام لقلوب أهل تلك المناطق، وإلى احتمالية تماشيهم مع أوامره تعالى، وبالتالي بالتحليل نقول إنّ حالتهم بمستوى سوء حالة الذين تأهل من بينهم شخص ليكون نبياً ولكن قومه لم يؤمنوا به! وانطلاقاً من هذه الأفكار يمكنك التوسّع في التحليل والافتراض...

كما تعلم من القرآن، أنزل تعالى كتباً لتتداولها الناس وتكون مصدراً لدينهم، وانتشار هذه الكتب وانتشار المؤمنين بها هو مساوٍ معنوياً لانتشار الأنبياء على مختلف المناطق.

(فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً{55})
{فَمِنْهُم}، فمن أهل الكتاب يوجد، {مَّنْ آمَنَ بِهِ}، من أعلن اعتقاده والتزامه بالكتب التي نزلت على الأنبياء من ذرية النبي إبراهيم (ع)، {وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ}، فمنع من يريد الإيمان بالكتب الإلهية من الإيمان بها.

كمثال على ذلك، إنّ النبي عيسى (ع) من اليهود، وقد نزل عليه الإنجيل، حيث البعض من اليهود آمنوا، والبعض الآخر صدّ فمنع الناس عن الإيمان بالإنجيل! يعني، لا معنى لتبرير من لم يؤمن بالقرآن حسداً للنبي محمد (ع)، بحجة أن النبي (ع) ليس من أهل الكتاب وأنه ليس من بني إسرائيل، لأنه نزلت كتب إلهية على أنبياء ورسل من بني إسرائيل، ولكن هذا لم يغير أي شيء! فنفس الحالة، يوجد أناس آمنوا بهم وأناس آخرون لم يؤمنوا بل صدّوا فمنعوا غيرهم أن يؤمن بما نزل وبمن نقله!

{وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ}، لأنّ هناك مكاناً موصوفاً بسوء ما فيه وهو كاف فلا يحتاج لأي شيء ليكون، {سَعِيرًا}، بلوغاً لأشد الحرارة، لأنّ النار المستعرة هي التي اشتعلت تماماً وصار لها ألسنة لهب طويلة، فنقول: استعرت النار، استعرت الحرب. أي صارت في أقصى شدتها.

هؤلاء الذين لم يؤمنوا بكتبه تعالى وصدوا بقية الناس عن الإيمان بها، يستحقون عذاباً شديداً بنار مستعرة، وجهنّم هي المكان المناسب تماماً لهم.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً{56})
{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا فلم يؤمنوا، {بِآيَاتِنَا}، بالأمور المُمَيَّزَةِ المنسوبة له تعالى، وهنا الكلام عن الكتب الإلهية التي أنكرها بعض الناس، وُصُولاً إلى الذين أنكروا هذا القرآن، {سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا}، سوف نجعلهم يقفون أمام النار في الآخرة، {كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ}، كلما انتهت جلودهم من الاحتراق، {بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا}، وتحترق جلودهم وتنبت لهم جلود جديدة مكانها، وتحترق، وتنبت جلود جديدة و... وهكذا...

{لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ}، ليتحسسوا ويشعروا فعلا بالضرر الجسدي، فليس الموضوع لعبة أو تسلية، بل عذاب حقيقي مؤلم جدا جدا، فافهموا أن التهديد بالعقاب ليس مزحة، وعندما تقول الآيات إِنَّهُ عذاب شديد، فهو سيكون شديدا جدا. ولا

راحة بين تبديل الجلود، فمن عموم القرآن نفهم أن العذاب مستمر ولا يوجد أي ثانية راحة، فتبديل الجلود فوري، ويحصل الألم أيضا أثناء حصول التبديل، وبعده الاحتراق ثم تَبْدِيلٌ ... بلا نهاية.

{إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا}، مَنْفِيًّا عنه عموم الذِّلَّةِ بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، وتُقَابِلُهَا صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... وهذا التعذيب قرار منه تعالى وسيتحقّق حتما بفرضه على الآخرين.

{كَانَ اللَّهُ}، {حَكِيمًا}، فلا يتصرف سبحانه عن عبث أو عن غضب، بل بحكمة أي بصوابية صدر قراره بتعذيب هؤلاء بهذا الشكل، فهذا ما يستحقّونه بالضبط.

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِـلاًّ ظَلِيلاً{57})
{وَالَّذِينَ آمَنُوا}، الذين اعتقدوا بالله تعالى رَبًّا وبآياته ورسله وآخرته... {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، وقاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، حَيْثُ خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وَحَسَنَةً جَيّدَةً، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، فعمليا هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى. وبشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموما وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائما أَنَّهُ تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فَيُؤْمِنُونَ به. وهذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مُقْتَنِعًا ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أَنَّهُ في قلبك خَلَلٌ منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت مُحِبًّا لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو سيّء" فهو في الحقيقة اختراع من البشر وليس أمرا إلهيا.

هؤلاء، {سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ}، سَنَجْعَلُهُمْ يدخلون إلى أماكن موصوفة بروعة ما فيها من مناظر طبيعية من حدائق وبساتين وما يسبب السعادة... {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، المتنوعة الطعم واللون والرائحة... وهذا النوع من الوصف لا يشير إلى مستنقعات بل إلى مناظر خلابة لأنهار وجداول وشلالات تتخلّل المناظر الطبيعية...

{خَالِدِينَ فِيهَا}، لا يموتون ولا يفنون في تلك الجنات، {أَبَدًا}، بلا نهاية، فمهما مرّ عليهم من زمن، حتى لو ترليونات ترليونات من السنين، فلن يموتوا ولن يفنوا ولن يصيب الجنّة أي خراب.

{لَهُمْ}، للمؤمنين العاملين للصالحات، {فِيهَا}، في تلك الجنات، {أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ}، قرناء خَالُونَ من العيوب فليس فيهم أي شيء مكروه لا نفسيا ولا جسديا، ومن أمثال الآية 20 من سورة الطور {مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ}، نفهم أن المؤمنين لهم أزواج في الجنّة، ومواصفاتهم الطهارة أي الخلو من الشِّيَةِ، أي الخلو من أي شيء مَنْفُورٍ مِنْهُ وفيهم كل شيء محبوب.

{وَنُدْخِلُهُمْ}، نَجْعَلُ المؤمنين يدخلون، {ظِلًّا}، أماكن يكون فيها ضوء وحرارة ولكن من دون التعرض المباشر لمصدر الضوء أو الحرارة، كما هو تحت الأشجار أو الغيوم أو تحت الأسقف أو الخيمة... وهذا الظل، {ظَلِيلًا}، ففعلا يقوم بما هو مطلوب منه ويُظَلِّلُ بشكل ممتاز، وكما فهمنا أن الجنات رائعة، والزوجات مطهرة، فأماكن التظلل ممتازة، ويمكنك تصوّرها كأماكن خارجية لِلتَّنَزُّهِ وللأكل والتسلية...

هناك تصورات يقولها بعض الناس عن الجنّة بأنها ستكون مملّة، لأن ما تحصل عليه بسهولة لن تكون متحمسا مشتاقا له... وتكرار الأمور حتى لو كانت رائعة فالتكرار سيجعلها مملة... ولكن، خالقنا الذي صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" يقول بأنها روعة مستمرّة بلا ملل، وكما ورد في الآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}، فلن يخطر ببال أحد في الجنّة ولو لرمشة عين أنه يوجد شيء يجعله مسرورا أكثر مما هو فيه... وهناك تجدّد دائم لما في الجنّة... وهناك تتزاور الناس ويتعازمون ويقيمون الحفلات...

بقي شيء، عن الجنّة التي هي بحجم يفوق خيالنا، هي بعرض السماوات والأرض كما ورد في الآية 133 من سورة آل عمران {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}، ومن الواضح من الآية 62 من سورة مريم {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}، أنه على الأقل فِي بعض أماكنها تَمُرُّ فترات ليل ونهار، وَأُرِيدُ لفت انتباهك لواقعية الإحساس بتلك الجنّة، لِأَنَّ الصور التَّخَيُّلِيَّةَ قد تفقدك الأحاسيس بالواقع، وبما تلمسه، وَهُنَا حين تحبّ شخصا ما، وتسعد برؤيته، فهذه الواقعية لمشاعر حقيقية، قد لا تتمكّن من تصوّرها حين تحاول تصوّر الجنّة، حَيْثُ نحن الآن لا نمرّ بفترات سعادة مستمرّة بلا انقطاع، وَهُنَاكَ همّ ما سيقطع سعادتنا، وَحَتَّى في خضم سعادتنا بِمَلَذَّةٍ من مَلَذَّاتِ الدنيا، فهناك ثمن لما بعدها، وَلْنَأْخُذْ شهيّة الأكل كمثال، فهناك حدود لما تتحمّله حاسة الذوق والمعدة، وبعد ذلك تنحدر لذّة الأكل ونصاب بالتخمة والملل... ونخاف من تضرّر الجسد من السكريات والدهنيات... من هذه الحالات تتقيّد تصوراتنا للروعة والسعادة في الجنّة التي كرّر القرآن مرارا وتكرارا أنها سعادة فوق قدرتنا على التصوّر بلا ألم ولا همّ ولا ملل.

(إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً{58})
نرجع إلى موضوع السورة حول تقواه تعالى في الناس عبر ما يلي:

{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ}، أن توصلوا الأشياء التي وضعها الناس عندكم كأمانة، {إِلَى أَهْلِهَا}، إلى من تنتمي إليه الأمانة، إلى صاحبها، والتعبير بالتأدية معناه واسع يشمل مختلف حالات الوفاء بالأمانة، حَيْثُ يشمل إعادتها لصاحبها أو لمن طلب صاحبها تسليمه له... وأيضا تشمل حصول معنى التأدية بإيصالها كما هي وَمُصَانَةً وبالتمام...

عِنْدَمَا تترك بضاعة أو أموالا عند شَخْصٍ ما، وتتفق معه أن يردّها لك حين تطلبها منه أو في موعد محدّد بينك وبينه... أو تدفع ثمن البضاعة وتسافر وتتفق مع البائع أن يرسلها لك عبر الشحن... أو ترى نموذج بضاعة وَتعجبك، وَتطلب أن يصنعوا لك كمية من البضاعة، فالأمانة هي أن يصنعوا لك البضاعة بحسب النموذج الذي عرضوه عليك... فهناك مجالات واسعة لتطبيق كلمة أَمَانَةٍ وَتَأْدِيَةٍ، وتخبرنا الآية أنه لا مجال للتلاعب بالأمانة والتأدية مهما كان نوعها.

يَأْمُرُكُمْ تعالى، {إِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ}، إذا كان يوجد خلاف بين الناس، وكنت حَكَمًا بينهم فاعتمدوا عليك كناظر للأمور بصوابية، لتقرر مع من الحق، وَكنت موظفا كَقَاضٍ أو قاضيا مؤقتا بين الناس، فسبحانه يأمركم {أَنْ تَحْكُمُوا}، {بِالْعَدْلِ}، بالاستقامة بلا ميلان، بالإنصاف والحقّ، فتعطي الحقّ لمن يستحقه، فلا تحكموا برأيكم، ولا بمزاجكم، ولا بعصبيتكم... ولا بما تراه مناسبا لأن الغني يتحمّل أن تجور عليه فتأخذ منه الحق لتعطيه للفقير، وهذا المعنى ورد في الآية 152 من سورة الأنعام {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى}، بل بالعدل بحسب أساسيات الشريعة الإلهية وَتَطْبِيقًا لِلْمُتَعَارَفِ عليه بين الناس المؤمنين العقلاء أنه عدل.

{إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ}، فالوعظ هو الكلام الذي يحدّد لنا ما نفعل وما نترك حتى لا نقع في المشاكل والمتاعب، وما يعظنا به تعالى فهو موصوف بأنه الأحسن، هذا بالعموم وهنا الكلام بالخصوص عن أداء الأمانة والحكم بالعدل بين الناس.

{إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا}، حَيْثُ يسمع كل شيء، وَيسمع حين اتفقتم على الأمانة، ويسمع حين تحكمون بين الناس، فأنتم تحت المراقبة.

{إِنَّ اللَّهَ كَانَ}، {بَصِيرًا}، حَيْثُ يدرك ويعي "بمستوى إلهي" معنى صورة ما يحصل وليس مثل كاميرا التسجيل التي تسجّل الأحداث ولا تعي معناها، وَحين أخذتم الأمانة، وحين حكمتم بين الناس، فأنتم تحت المراقبة، وَإذا تلاعبتم بالأمانة والعدل فهذا يمشي على الناس ولكن لا يمشي على السميع البصير.

لِمَزِيدٍ من التوسّع حول الحكم بالعدل من المفيد مراجعة ما حصل مع النبي داوود(ع) ونقلته الآية 21 وما بعدها من سورة ص {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ}.

الولاية والخلافة والإمامة وحكومة الرسول

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً{59})
نكمل مع السورة بكلامها عن تقواه تعالى في الناس، ففي حالة المنازعات والخصومة والاختلاف حول شيء ما:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أَنَّهُمْ معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{أَطِيعُوا اللَّهَ}، فما وصلكم من أوامر إلهية فلا تخالفوها، وإلا فما معنى إيمانكم؟! {وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}(ع)، لأنه لن يقول لكم شيئا من عنده أو مخالفا لما يقوله تعالى، بل سينقل لكم ما يريده ربكم سبحانه منكم وما يرضى عنه تعالى، وإن لم تطيعوا الرسول الإلهي فما معنى إيمانكم؟!

{وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}، فالذين منكم تولوا أموركم، فأولياء أموركم، فالذي صرتم تابعين له وهو مرجع لكم، رئيسا أو حاكما أو مسؤولا... ومهما علت أو انخفضت مسؤوليته فأطيعوه. طبعا إن كانت أوامره متماشية مع الدين الإلهي، فسبحانه مرارا وتكرارا أمرنا بموالاة المؤمنين فقط، فليس الأمر في الآية عن ولاية حاكمين فاسدين فهؤلاء ممنوع ولايتهم وهذا شيء بديهي.

{فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ}، فحصل بينكم نزاع، كخلاف في الرأي بينكم لوحدكم، أو بينكم وبين ولي الأمر، أو بين أولياء الأمور مع بعضهم... {فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ}، وعمليا تطبيق ذلك أن تنظروا فيما تَنَازَعْتُمْ فيه في كتابه تعالى لتقارنوا الموضوع مع أساسيات الحقّ والباطل المطروحة في القرآن، {وَالرَّسُولِ}، لتسمعوا رأي الرسول أو لتروا كيف تعامل الرسول مع مشكلة مماثلة، فأنتم وأولو الأمر تحت ما يقوله تعالى وتحت ما قاله الرسول(ع) وفعله.

ضِمْنِيًّا هذا يعني إلغاء أي مرجعية ثابتة غير ما قاله تعالى أو قاله أو فعله رسوله(ع)، وأمّا ما يفعله أولياء الأمر فهو قابل للنقاش، بعبارة أصرح فما تعارف عليه بعض المسلمين بعنوان: سيرة الصحابة أو سيرة الخلفاء أو سيرة الأئمة... فهذا اجتهاد من هؤلاء وليس مرجعية ثابتة.

{إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، فهذا ما ستفعلونه من طاعة إن كنتم فعلا تعتقدون بالإله "الله" ففعلا تعتقدون بوعده تعالى بالمجازاة على أعمالنا بالجنّة والنار اللَّتَيْنِ ستكونان في الآخرة بعد انتهاء هذه الدنيا.

صِفَةُ الإيمان ليست شرفية أو حبرا على الورق بل تطبيقها يكون عبر طاعته تعالى وطاعة رسوله(ع) وطاعة أولي الأمر "المؤمنين".

درج بيننا أن لا نستعمل كلمة "مؤمن" إلا لمن كان في نظرنا على درجة عالية من الالتزام والأخلاق الحسنة... وعادة نستعمل كلمة "مسلم" لنصف بها عموم المنتمين بالاسم لهذا الدين، ولكن القرآن استعمل كلمة "مؤمن" ليخاطب من نحن نقول لهم "مُسْلِمُونَ"، على أساس أنهم إمّا معتقدون ملتزمون بهذا الدين أو هم كفّار، فإن كانوا منتمين لهذا الدين فهذا ما يأمر به تعالى ومن المفروض بكم تنفيذه...

لَا يخدعك التهاون الذي ترى المسلمين فيه، فبعضهم إذا قلت له: قال الله تعالى ورسوله(ع) كذا... وهذا حرام وذاك حلال... فإنه لا يهتمّ ولا يرتدع، وهذا الاستهتار لا يمنع من الكلام معه على أساس اعتباره لنفسه "ولو بشكل ما" مؤمنا تابعا للدين الإلهي.

{ذَلِكَ خَيْرٌ}، هذه الطاعة موصوفة بأنها شيء جيّد، {وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}، فهي تنفيذ تحقيقي تفسيري عملي لإيمانكم، فهذه الطاعة هي أفضل طريقة لتتأوّل عليكم صفة الإيمان، لتتحقق فيكم صفة الإيمان.

يكون الدين على الورق، في القرآن، ويكون الإيمان وصفا لنا يصفنا به الناس ونصف به الآخرين، وهذا يبقى لا قيمة له إن لم يتأوّل، إن لم يصر مُنَفَّذًا مُتَحَقِّقًا، فطاعته تعالى وطاعة رسوله(ع) وطاعة أولي الأمر هي التأويل فهي التحقيق والتنفيذ الفعلي العملي لإيماننا، وإن نفّذناه فهو خير لنا لأن نتيجته سعادة في الدنيا ودخول جنّة خالدة في الآخرة.

هَذِهِ هي القاعدة الأساسية للإيمان: اتباع دين الله تعالى من مصدره الأساسي: قُرْآنٍ، نَبِيٍّ. وَأَوْلِيَاءِ الأمر "الخليفة، الوصي، الإمام، الرئيس، القائد، الزعيم..." الذين نعرف صفاتهم من القرآن بأنهم المؤمنون الحقيقيون العارفون بالحلال والحرام، الحكماء... فمن الغباء التفكير بأن القرآن يأمرنا باعتبار فاسق أو منافق وَلِيًّا لأمرنا، لا، فالآية الآتية

تسمّيه بالطاغوت، وَأَكَّدَتْ آيات عديدة أن أولياء الأمر يجب أن يكونوا أفضل الناس دينا، ومن أفقه الناس "في اختصاصهم..." ولا ولاية لفاسق على مؤمن.

المفسرون من "المذاهب والطوائف" الإسلامية تَحَدَّثُوا مطولا حول: من هو المقصود بأولي الأمر هنا في الآية، فلا بد من التنبيه على أول مسألة: الآيات تتحدث عن الطاعة الحقيقية لله تعالى كيف تكون عند حصول خلاف بين المسلمين، فتتحدّث عن أي نوع من الخلاف، سواء أكان خلافا صغيرا بين اثنين، أو بين مجموعات... أو كان موضوعا من الشؤون العامّة ولم يحصل عليه اتفاق بالرأي... وأمرت الآية بردّه إلى الله تعالى وإلى رسوله(ع)، فالخلاف حول تحديد أولي الأمر الذين يجب طاعتهم، نرجع فيه إلى الله تعالى وإلى رسوله(ع)، وإذا تركنا كل الآراء التي لا يتفق عليها المسلمون، والتزمنا بالقرآن، عندها سنجد حلا سهلا لهذه المشكلة، لأن كل القرآن والآية هنا لم تحدّد الأشخاص بالاسم، ولكن آيات القرآن المتعددة تحددهم بالصفة، بل أكثر من ذلك، هي تحدّد الممنوع علينا ولايته، مانعة علينا موالاة الكافرين، الظالمين، المنافقين، الفاسقين... ومنعتنا من ولاية كل من لا يحكم بما أنزل الله تعالى في ثلاث آيات متوالية في سورة المائدة، وَضَرَبَتِ الآيات نماذج أساسية متنوعة من الآية 44 {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}، والآية 45 {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، والآية 47 {وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}.

من الصواب قيامنا بتحديد الصفات القرآنية لمواصفات أولياء الأمر الذين يجب علينا مُوَالَاتُهُمْ وطاعتهم، وهذا سهل جدا، ومن المفروض أن لا نختلف عليه بسبب وضوحه الشديد، ومن الخطأ أن نعلق في التاريخ، ونتناقش حول الشخصيات الإسلامية القديمة، فمن الخطأ نسياننا لتكليفنا الإلهي في عصرنا الحالي، فنحن "أنت وأنا وهو وهي..." مكلّفون مأمورون باتّباع أكثر شخص يحمل الصفات القرآنية الإيمانية "في عصرنا"، فمن أراد حكم الله تعالى في موضوع الولي والولاية، فهو واضح، ومن أراد التمسك بعصبيته ومذهبيته، والنقاش في أمور تاريخية تاركا ما هو واجب عليه الآن، فهذا شأنه وحسابه على الله تعالى.

لَوْ أطلت عليك، ففي غالبية مجتمعاتنا صار وصول الناس إلى الولاية، من نائب أو وزير أو رئيس دولة... رئيس بلدية أو عضو بلدية أو مختار... رئيس حزب أو رئيس عائلة... فَصَارَ "بشكل ما" عبر الانتخاب، وقديما كان الأمر مشابها بالمبايعة... على كل حال، فمن ظنّ أنه لا حساب على صوته الانتخابي إذا لم تَخْتَرْ الشخص الأنسب بحسب صفات الصلاح، واخترت الذي بينك وبينه قرابة، ومن لك عنده واسطة، ومن سيميزّك عن الناس، ومن لك عنده مصلحة شخصية... فمن ظنّ أنه لن يتحاسب على ذلك فهو مُخْطِئٌ، فهذا من تطبيقات الأمر الإلهي بولاية المؤمنين، وإلا فهي ولاية الشياطين كما سنرى من الآية التالية.

بقي شيء، فقديما وحديثا استغلّت بعض المجموعات مسألة تحديد الولي دينيا للتسويق لخلاف سياسي على الحكومة، وانقسم المسلمون لفئتين كبيرتين مما يسمّى حاليا بالسنة والشيعة، وهؤلاء انقسموا ولنفس السبب لفرق متعددة...

عمليا لم يُطَبَّقْ ما نظّره هؤلاء، حَيْثُ حَكَمَ من حكم عبر تاريخ المسلمين بسبب ظروف لعبة الحكم والسيطرة، ونادرا ما صادف التسويق النظري قبل التطبيق، بل عادة يتحضّر أو يتساوق أو يأتي التسويق النظري بعد الوصول للحكم.

مِنْ هذه الدراسة ترى الآيات التي أقحموها في نظرياتهم، تراها بعيدة عن النظرة الضيقة التي حشروا أنفسهم فيها، فلا داعي لذكرها هنا وتكرار تفنيد كلامهم عنها، وَيُمْكِنُكَ مراجعة معاني تلك الآيات التي استعملوها في حججهم لترى معناها الصحيح في دراستنا هذه.

لَسْتُ أتحدّث عن علماء السوء المسوّقين للحكّام المجرمين... بل عن الذين ينظّرون للولاية أو الخلافة أو الإمامة... وهم يظنّون أن المسألة دينية ونتحاسب عليها أمامه تعالى إن لم نلتزم بها بحسب ما نظّروا له.

للأسف بِغَالِبِيَّتِنَا الساحقة نفتقد للعقلانية العملية للتعامل مع هذه المسألة، وَمَعَ وجود هذا الكمّ الهائل من النظريات، والتي كلّها تدّعي أنها دينية، كان العالم الإِسْلَامِيُّ "السني والشيعي" يعاني الويلات من حكّام الجور، ويعاني التناحر الداخلي حتى بين أبناء المذهب الواحد.

النتيجة الحالية مثل النتائج السابقة، حيث هناك علماء التنظير الذين عن قصد أو غير قصد يشحنون عوام الناس بالكره المذهبي والطائفي وترسيخ الانقسامات، ولدينا حكومات فاسدة تحكم! ولهذه الحكومات علماء سوء يؤمّنون لهم الغطاء الشرعي والذي في كثير من الأحيان لا حاجة له، لأن الغالبية الساحقة من الناس لا يريدون دولة تطبّق القرآن!

حين أقول: حكّام سوء. لست أقصد فقط توصيف سلوكهم الإيماني، بل يشمل سلوكهم كفاسدين وفاقدين للكفاءة في الشؤون الإدارية...

ما بال المسلمين المؤمنين الملتزمين المتزمّتين دينيا... يفضلون العيش في ظلّ حكومات "غربية" يحكمها علمانيون بدلا من العيش في ظلّ حكومات المجتمعات المسلمة!

هكذا ترى أن الصلاح في تسيير أمور الناس هو المطلوب من الحكّام، ولو كان الحكّام العلمانيون مُؤْمِنِينَ حقّا على المقياس القرآني، لما رأيت فرقا جوهريا بين الحكومة العلمانية أو الحكومة الدينية "القرآنية".

حريّة المعتقد يضمنها القرآن في ظل الحكومة الإِسْلَامِيَّةِ طالما ليس فيها ممارسات مخالفة للنظام العام للدولة، فحتى الكافر العابد للحجر لا علاقة للدولة الإِسْلَامِيَّةِ معه طالما لا يعادي الآخرين بسبب دينهم، وفي ذلك راجع دراسة الآية الثامنة من سورة الممتحنة.

بهذا المثال ترى، أن الغطاء الديني لتنصيب الحاكم ما هو إلا مهزلة فكريا وعمليا، فهذه وظائف بحاجة للكفاءة في تسيير أمور الناس بما فيه صلاحهم، تماما مثل حالة المؤمن الشيعي أو السنّي المؤمن بالصبغة الدينية للحاكم، ولكنه يعيش بأمان وراحة وبحبوحة تحت حكم شارب للخمر وَمُتَعَاطٍ للمخدرات ومبيح للزنا والشذوذ والربا...

الكثير من المسلمين في بلاد غير مسلمة، لا يزالون على الكثير من ممارسات ثقافتهم الدينية، فلا يشربون الخمر ولا يتعاطون الزنا ولا المخدرات... ومرتاحون بدرجة أكبر من المعيشة في البلدان الإِسْلَامِيَّةِ، والسبب هو صلاح بعض الدول العلمانية فيما يخص الشؤون الحياتية للناس من أمن وبنى تحتية وخدمات وضمان صحي...

لسنا بحاجة لكثير من الكلام لتفهم أني لست أشجع على حكومة علمانية تبيح المحرمات، فهذا أصلا شأن يفرضه الغالبية من الناس، أو تفرضه عصابة قوية تستلم الحكم، ولذلك ينتشر ويصير قانونا في الدولة...

دعك من التنظير للولي أو الإمام أو الخليفة، وانظر للدين المتداول بين علماء الدين والدعاة إن كان متزمّتا مرفوضا من غالبية الناس، ومعهم حقّ برفضه، فهو دين فاسد سيّء على التطبيق وخانق... من اختراع هؤلاء العلماء وليس دينه تعالى، وهذا عادة هو السبب وراء فشل الحكومات الدينية "المتزمّتة" عقائديا وتشريعيا.

في النهاية ومن خلاصة ما نفهمه من القرآن، أن نفس شخص الرسول محمّد(ع)، لو فرضا تواجد في زمانه دولة بموظفين لهم مسميات ومؤسسات، ولها رئيس أو حاكم أو ملك، لما عارضه أو عزله الرسول(ع) ليستلم الحكم بدلا منه، فوظيفته كرسول هي توصيل كلامه تعالى للناس، والعمل على هدايتهم.

أمّا شأن الحكومة، فمحمّد بْنُ عبد الله كشخص استقطب الناس حوله باحثين عن قائد يسيّر أمورهم بالصلاح، حَيْثُ تَصَدَّى جانبيا لشأن الحكومة، فوظيفته الأساسية الإلهية هي نقل الرسالة الإلهية، وواقع حال فقدان مجتمع زمانه للدولة سار بالأمور ليصير الرسول محمّد(ع) متصديا لشؤون الحكومة.

هَكَذَا ترى أن البحث عن الخلافة والإمامة والولاية... من مستند ديني يعطيه الشرعية، فهو "كحكومة" حتى على نفس الرسول محمّد(ع) لم يكن له معنى.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً{60})

{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم يصر لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت. {إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ}، الذين يقولون أشياء لا تستند في صحتها إلا على قولهم، فهم يقولون، {أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ}، فأعلنوا أَنَّهُمْ يعتقدون بأن القرآن كتاب إلهي، {وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ}، وأيضا أعلنوا أنهم يعتقدون بالكتب الإلهية السابقة، وهذا كله زعم، كلّه قول نظري، أَمَّا على أرض الواقع، على التنفيذ:

{يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ}! فإذا حصل بينهم خلاف، فهم لا يرجعون إلى ما أنزل إليك ولا إلى ما أنزل من قبلك، بل إلى الطاغوت، إلى من طغى وَتَعَدَّى بشكل كبير الحدود، والكلام عن تعدّي الحقّ والصلاح وهو نفسه تعدّي الحدود التي وضعها تعالى لنا عبر تشريعاته، وَتَحَاكُمٌ إلى قانون غير إلهي أو شخص لا يحكم بالكتب التي أنزلها تعالى ولا يعتمدها مَرْجِعًا.

{وَقَدْ أُمِرُوا}، في هذا القرآن وفي الكتب الإلهية التي سبق ونزلت وهم أعلنوا أنهم مؤمنون بها، فوصلهم أمر، {أَنْ يَكْفُرُوا} بالطاغوت، أن ينكروه ولا يؤمنوا به دينا، كشريعة وقانون ومنهاج...

{وَيُرِيدُ}، فيقصد ويرغب، {الشَّيْطَانُ}، الموصوف بالقيام بأعمال الضلال وإضلال الآخرين، إبليس وأشباهه من الخبثاء، يريد، {أَنْ يُضِلَّهُمْ}، أن يجعلهم لا يمشون على الطريق الصحيح، {ضَلَالًا بَعِيدًا}، فلن يكتفي بإضلالهم قليلا عن الخطّ الإلهي، بل يسعى لوصولهم إلى أقصى الابتعاد عن الهدى.

هُمْ بتركهم لكتبه تعالى واتباعهم للطاغوت فهم تابعون للشيطان الذي يعمل على ابتعادهم إلى أقصى ما يمكن عن الهدى الإلهي.

مِنْ نظرته تعالى لنا يقول: هناك الكتب الإلهية "والأنبياء" يدعون إلى الدين الإلهي الصحيح من جانب، ومن جانب آخر وَهُنَاكَ الشيطان الذي يدعو إلى الضلال، والمؤمن يختار الكتب الإلهية وتصدق عليه صفة الإيمان، ومن يزعم أنه مؤمن ويتبع الطاغوت فهو ليس مؤمنا بل هو تابع للشيطان.

لَوْ نظرت للكلمات بمعناها اللغوي بدلا من مخزون ثقافتك الدينية لرأيت أنها تشير للفرق بين الحقّ والباطل، وبين الخير والشرّ والصلاح والفساد... فهذا ما تعنيه كلمة شيطان في اللغة لتشير إلى الشرّ والفساد وعموم الضلال عن الهدى... كمقابل لما أنزله تعالى من حقّ وصلاح...

بعبارة أخرى أَنَا لا أصير مؤمنا حقيقيا لمجرد زعمي أني مؤمن، عِنْدَمَا نتحاكم في أمورنا التي نختلف فيها إلى كتاب الله تعالى، وإلى أنبيائه، فنحن مؤمنون، وأمّا من فعل غير ذلك فما وصفه؟ وصفه أنه اتّبع الطاغوت فهو من أتباع الشيطان لأن كل الحقّ والصلاح والخير فيما يأمر به تعالى وأنبياؤه ولا يبقى أي شيء آخر غير الشرّ والفساد.

للأسف هناك حالة الذين يمثّلون لنا دينه تعالى، وهم علماء الدين، حَيْثُ بَعْضُ هؤلاء نعتقد أنهم يعرضون علينا دينه تعالى بينما هم يعرضون علينا دينهم هم المغاير لدينه تعالى، وَيَجْعَلُونَنَا نخاف من كلمة دين والله وشريعة إسلامية... بسبب فَتَاوَاهُمُ الإجرامية، وَفَتَاوَاهُمُ الذكورية الظالمة للأنثى، وَفَتَاوَاهُمُ الموروثة من العادات والتقاليد السيئة... وأحكامهم بقضائهم الفاسد الذي تشتريه بثمن بخس...

ليس كل علماء الدين هكذا، ولكن كما تكونوا يُوَلّ عليكم، حَيْثُ تَرَى علماء السوء لهم جمهور طويل عريض، وعلماء الخير قلّة نادرة غير مسموع صوتها، وفي نفس الوقت ترى غالبية الناس تتأفّف من بعض فتاوى وسلوكيات بعض علماء الدين، وفي نفس الوقت لا تراهم متّبعين لعلماء الصلاح!

كُلُّ الذين في قلبهم مقدار كاف من السلامة فهم يخافون من دين علماء السوء، وللأسف وَهَذَا الدين له جمهور واسع، لِأَنَّ الْغَالِبِيَّةَ منّا أصلا عندهم مشكلة مع الهدى...

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً{61})

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ}، لهذه النوعية من الناس الزاعمة بأنها مؤمنة بكتبه تعالى: {تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ}، فَأَنْزَلَ كتبا فتعالوا لنرى ماذا يقول الكتاب الإلهي في قضيتكم، وفيما تتنازعون فيه... وتعالوا، {إِلَى الرَّسُولِ}، لنرى ماذا يكون حكمه لكم، عندها، {رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ}، فصار عندك صورة محدّدة للأشخاص الذين يظهرون الإيمان ويخفون الكفر، رأيتهم، {يَصُدُّونَ عَنْكَ}، فمن يرد الإيمان بك يمنعونه، وبالتالي ضِمْنِيًّا هم أنفسهم أساسا رافضون لما تقوله، {صُدُودًا}، بأقصى ما يمكن وصفه بالصدّ، بأشدّ وكلّ الطرق التي تمنع الناس عنك. فهم ليسوا فقط لا يلتزمون بالكتاب الإلهي وبما يقوله الرسول(ع) بل أكثر من ذلك هُمْ يمنعون الآخرين من القبول بكتابه تعالى وبما يقوله الرسول(ع).

إذَن، عَلَامَةُ وَأَمَارَةُ المنافق، رفضه للحكم الإلهي إذا قلته له، فهذا الشخص ليس مؤمنا حقيقيا حتى لو زعم بأنه مؤمن.

(فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً{62})
هؤلاء الذين إيمانهم مُزَيَّفٌ، التابعون للطاغوت:

{فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ}، فكيف سيكون حالهم إن حصل معهم شَيْءٌ سَيِّئٌ، {بِمَا}، بسبب الذي، {قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ}، فكما تقدّم لي الطعام، فهم قدّموا لأنفسهم أَعْمَالًا سَيِّئَةً، وَوَضَعُوا أَعْمَالًا سَيِّئَةً في الأمام في المقدمة وَقَامُوا بها بأيديهم بأنفسهم، وأخّروا الأعمال الحسنة فلم يقوموا بها، حَيْثُ قَامُوا وبكامل إرادتهم بعمل سَيِّئٍ سَبَّبَ لهم مصيبة، وَاتَّبَعُوا الطاغوت ونتج عن ذلك مصائب، {ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ}، يُؤَكِّدُونَ لك بعبارات التأكيد: والله تالله بالله وربنا... {إِنْ أَرَدْنَا}، فَقَطْ كان مقصدنا ورغبتنا، {إِلَّا إِحْسَانًا}، إلا عملا مَوْصُوفًا بأنه حسن، {وَتَوْفِيقًا}، وأردنا فقط أن يتوافق الناس وتنتهي النزاعات بينهم، حتى يصيروا متفقين ولا خلاف بينهم.

بعبارة أخرى نَحْنُ عندما تركنا الحكم القرآني الشرعي الإلهي، ولحقنا الحكم الآخر للقضاء بين الناس في نزاعاتهم، فَنَحْنُ لم نقصد إلا الخير والتوفيق بين الناس الذين كانوا مُتَنَازِعِينَ.

يعني تقول الآية أَنَّ الحكم بشريعة الله تعالى لا يحصل بعده مشاكل، فإذا اختلفت معك، واحتكمنا بحسب الشريعة الإلهية، فكل واحد منّا سيأخذ حقه "بالعدل"، ولن يحصل بعدها مشاكل، أما لو احتكمنا إلى طاغوت، فسيظلمني أو يظلمك، وعندها ستكبر المشكلة، ونأتي إلى شرع الله تعالى، ونحن نقول حين تركنا شرع الله تعالى أننا لم نكن نقصد إلا أن نجد حلا لمشكلتنا، فلم نقصد أَنْ تَسُوءَ الأمور.

خذ مثلا: شخص قتل شخصا آخر عمدا، فحكم الشرع فيه القتل للقاتل، أما حكم العصبية والعشائرية فهو: قتل أفضل شخص في عائلة القاتل! وَعِنْدَمَا تقول لهم حكم الشرع، فهم يرفضون، ويقتلون الأبرياء، فتكبر المشكلة، وَيَقْتُلُونَ بعضهم البعض، وفي الأخير يتعبون من الثأر والثأر المتبادل حيث تصير حياتهم في قلق مستمر من خوف القتل... فَيَلْجَؤُونَ إلى الشرع ليحل لهم المشكلة! هؤلاء ليسوا مؤمنين حقيقيين، هؤلاء منافقون.

نَتَنَبَّهُ للفرق بين تراخينا في التعبير وبين التعبير القرآني، فالحلفان تعبير عن تأكيد على شيء مضى وأحيانا له استمرار من الماضي إلى الحاضر، والقسم يكون على شيء حَالِيٍّ أو مستقبلي، وهنا الحلفان لتبرير أشياء فعلوها في السابق.
ضع هذا في بالك كنموذج للدقة القرآنية في استعمال الكلمات، حَيْثُ نَحْنُ نَتَرَاخَى في استعمالها وَنَسْتَعْمِلُ الحلفان بدل القسم واليمين والعهد والميثاق... أمّا القرآن فلا.

(أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً{63})
{أُولَئِكَ}، المنافقون القائلون بأنهم أرادوا إحسانا وتوفيقا بين الناس، عِنْدَمَا احتكموا للطاغوت هم، {الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ}، فيعلم سبحانه ما في أساس تفكيرهم ونفسيتهم، فهم يكذبون حين يحلفون أنهم أرادوا الإحسان والتوفيق، ولا يمكنهم أن يكذبوا على الله تعالى حين يقولون ذلك، فسبحانه يعلم ما في أساس تفكيرهم ونفسيتهم.

هُمْ أصلا كانوا يعلمون أن الحقّ موجود في كتابه تعالى وفي كلام رسوله(ع)، ولكنهم في أساس فكرهم ومشاعرهم يرفضون اتباع كتابه تعالى ويرفضون اتباع رسوله(ع) لأنهم لا يريدون الحقّ، بل يريدون حكما يناسب أهواءهم فهم منافقون لم يؤمنوا.

{فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ}، فلا تعتبرهم مهمّين، لا تعطهم اهتمامك، لا تقبل عذرهم لأنهم في الحقيقة قَصَدُوا الشرّ.

{وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا}، وَقُلْ لهم قولا يَبْلُغُ يصل إلى صميم أنفسهم، ليكن كلاما تأنيبيا قاسيا، حمّلهم مسؤولية ما حدث من الاحتكام للطاغوت، وأخبرهم صراحة أن تصرفاتهم تدل على النفاق...

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً{64})

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ}، فتحديد شخص من الناس ليتلقى الكلام الإلهي وينقله للناس معناه أن الإله سبحانه أرسله ليطيعه الناس، {بِإِذْنِ اللَّهِ}، وَهذا حصل بسماح بموافقة إلهية، فلا معنى للإيمان إن لم يكن مرتبطا ونابعا من طاعة الرسول. وَعِنْدَمَا تختلفون يجب أن تطيعوا ما يقوله الرسول(ع) لأن الله تعالى يريدكم أن تطيعوا رسوله فهو تعالى أَذِنَ وَسَمَحَ بذلك، فالأصل والأساس طاعته تعالى لوحده وبإذن منه تعالى صار وَاجِبًا علينا إطاعة رسوله.

{وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ}، ولو أنهم حين لم يكونوا عادلين منصفين مع أنفسهم، فهم لم يكن معهم حق عندما تركوا الشريعة الإلهية واتبعوا الطاغوت، فهذا ظلم لأنفسهم بجعلها تتبع الطاغوت، ولو أنهم {جَاءُوكَ}... {فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ}، حَيْثُ طلبوا المغفرة عن تركهم للشريعة الإلهية بدلا من كذبهم وقولهم: لم نعلم أنه شرّ، ونحن لم نرد إلا الخير... فلو أنهم اعترفوا بأنهم ارتكبوا السوء، وطلبوا أن يتجاوز سبحانه عن ذنبهم، {وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ}، وَطلب (ع) لهم المغفرة من الله تعالى، فهم لم يطيعوه وهذا ذنب، حَيْثُ يَطْلُبُ الرسول(ع) منه تعالى أن يسامحهم "كشفيع" لأنهم طلبوا المسامحة، وفي هذه الحالة:

{لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا}، يقبل التوبة، حَيْثُ يَفْتَحُ تعالى صفحة جديدة لمن أقلع عن ارتكاب المخالفة بعدما اعترف بها، وعمليا يعتبره تعالى كأنه لم يذنب.

لَوَجَدُوا الله، {رَحِيمًا}، لوجدوه تعالى لديه عناية خاصة لما فيه مصلحة المؤمنين، ونتذكّر دائما أنه تعالى رحمان لكل مخلوقاته حَيْثُ خَلَقَهُمْ ورزقهم وهداهم... ولكن المؤمنين لهم رحمة خاصة ويستعمل القرآن لها كلمة "رحيم"، فالمغفرة ومضاعفة الحسنات ونيل الشفاعة... هي أمور حصرية كتطبيق للعناية الإلهية الخاصّة بما فيه مصلحة المؤمنين، ولا ينالها الآخرون.

بقي شيء له علاقة بمسألة وردت في دراستنا لبعض الآيات، ويمكن تسميتها بمسألة الحظوظ، فهل هؤلاء محظوظون بوجود رسول بينهم ليستغفر لهم الله تعالى ونحن لسنا محظوظين؟ لا، لا يوجد حظوظ في أي مسألة تتعلّق بالهداية والإيمان وما سيؤثّر على الحساب والجزاء في الآخرة، فاستغفار هؤلاء أمام الرسول بدلا من تبريرات كاذبة، هو دليل على توبتهم، وفي حالة التوبة في أي موضوع كان، فسبحانه يقبل التوبة سواء مع شفاعة الرسول أو بدونها، ولكن طلبهم من الرسول الاستغفار يتضمّن أنهم هم أيضا مع الرسول أساؤوا حين قلّلوا من قيمته كرسول إلهي يمثله تعالى ولم يتبعوا كلامه.

لِمَزِيدٍ من التوسّع حول مسألة الحظوظ راجع دراسة الآية 29 من سورة محمد {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ}، والآية 28 من سورة نوح {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا}.

(فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً{65})

{فَلَا}، فما قيل سابقا عن إيمانهم بك منفي "لا" فهو غير صحيح، {وَرَبِّكَ}، تأكيد للنفي بصيغة القسم، تَأْكِيدًا بالمسؤول عنك من مستوى إلهي أنهم، {لَا يُؤْمِنُونَ}، لا يَكُونُونَ فعلا من المعتقدين الملتزمين بالدين الإلهي، {حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ}، فأي شجار أي خلاف مع تراشق بالكلام يحصل بينهم، فيجب أن يطلبوا منك أنت الحكم فيه، وإلا فهم أبدا ليسوا مؤمنين حقيقيين.

{ثُمَّ}، بعد أن تقول الحكم الشرعي لهم، {لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ}، فما قضيت به الكَلَامُ النهائي الذي صدر منك كحكم بينهم، لا يشعرون بأنهم محرجون منه إذا كانوا مؤمنين حقيقيين، حَيْثُ لَا يشعرون أنهم يكادون

يعلنون رفضهم لِلْحُكْمِ أو أنهم يريدون حكما آخر، وَحَتَّى هذا الشعور بالإحراج من الحكم الشرعي، غير سليم، ويكشف عن نفاق أو إيمان ضعيف، وعكسه قبول القضاء الشرعي واعتباره حقا يجب الالتزام به.

{وَيُسَلِّمُوا}، يَنْقَادُونَ، {تَسْلِيمًا}، بشكل تام، بكل ما تحمله كلمة تسليم من معنى، حَيْثُ لَا يُنَاقِشُونَ الحكم ولا يَتَلَاعَبُونَ بالحكم بل يَنْقَادُونَ للحكم فَيُنَفِّذُونَهُ بالتمام سواء كان لصالحهم أو ضدّهم.

ننتبه، إن كان حكما شرعيا واضحا من نص القرآن، فممنوع النقاش فيه بتاتا، وإن كان حكما صادرا عن النبي(ع) فممنوع النقاش فيه بتاتا، نعم، يمكن النقاش في تفاصيل القضية لتبيان حيثياتها ومجرياتها، حَيْثُ رُبَّمَا رأى أحدهم أن الصورة ليست منقولة للرسول(ع) بشكل صحيح... فهذا ليس نقاشا في حكم الرسول(ع) بل توضيحا للمسألة... وأمّا إن كان الحكم من قاض، أو من رئيس أو زعيم، عندها يحق لك أن تسأل عن المستند الشرعي للحكم إن شعرت أنه غير محقّ، وَيَحِقُّ لك التعرّف على ماذا اعتمد على أي آية، أو أي رواية، ومن بعدها التسليم.

تذكّر دائما أن محورية السورة حول موضوع تقواه تعالى، خصوصا في الناس، وهنا الآيات تتناول جانب تقواه تعالى في طاعته وطاعة رسوله(ع) عموما، وخصوصا في النزاعات والشجارات، لتصير عمليا تقواه تعالى في الناس لإعطائهم حقوقهم بحسب ما يَأْمُرُ به تعالى وبحسب ما يأمر به رسوله(ع) استنادا على كلامه تعالى.

(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً{66})

مثال عن حكم إلهي شديد جدا: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ}، حَيْثُ صَدَرَ أمره تعالى على هؤلاء الذين يزعمون أنهم مؤمنون: {أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ}، تحاربوا مع بعضكم البعض حتى تنهوا حياة بعضكم البعض، قاتلوا أبناءكم وإخوانكم وأقرباءكم وعشيرتكم.. {أَوِ}، لو كتبنا عليهم، {اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ}، وَاتْرُكُوا الأماكن التي تدور فِيهَا شؤونكم الحياتية، اتركوا بيوتكم وأرزاقكم... {مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ}، فلو أمرناهم بذلك فالقليل منهم فقط سينفّذ.

نَتَذَكَّرُ من الآيات القرآنية أنه تعالى أَمَرَ المؤمنين من بَنِي إسرائيل أن يهجموا على كل من عبد العجل، ويقتلوه كائنا من كان، حتى لو كان ولده أو والده أو أخاه... وَوَرَدَ ذلك في الآية 54 من سورة البقرة {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ}... ونتذكر أنه تعالى أَمَرَ بني إسرائيل بترك ديارهم في مصر نهائيا، والذهاب إلى بلد بعيد لا يعرفونه! فلا رجعة أبدا إلى مصر، وَالْتَزَمَ المؤمنون بهذين الأمرين الإلهيين الصعبين جدا، فلو أمر تعالى هؤلاء الذين يزعمون أنهم يؤمنون بالقرآن بأمرين كهذين، فهل سَيُنَفِّذُونَهُمَا؟

فِي النزاعات التي بينهم ظهر نفاق بعض الناس ورفضهم للأوامر الإلهية، فما معنى زعمهم أنهم مؤمنون! فماذا لو أمرهم تعالى بأن يقتلوا أنفسهم أو يغادروا ديارهم فهل كانوا سيطيعون؟ فالإيمان الحقيقي هو أن تطيعه تعالى في أي شيء يأمرك به، حتى لو كان بقتل أقاربك، حتى لو كان الهجرة من ديارك، فأين زعمهم بأنهم مؤمنون من الإيمان الحقيقي وهم في النزاعات التي بينهم لم ينفّذوا أوامره تعالى!

{وَلَوْ أَنَّهُمْ}، هؤلاء الذين يزعمون أنهم مؤمنون، لو أنهم {فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ}، ما نقوله لهم على شكل وعظ، وهو الكلام الذي يحدّد لهم ما يفعلون وما يتركون حتى لا يقعوا في المشاكل، {لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ}، ولم يكن شرا، حَيْثُ إِنَّ نُفُورَهُمْ مما يقوله تعالى لهم مبني على أساس أن مصلحتهم والخير لهم في الحكم الطاغوتي في نزاعاتهم، فتخبرهم الآية أن العكس هو الصحيح فالخير في طاعته تعالى، {وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا}، حَيْثُ يَثْبُتُ فلا يتزلزل إيمانهم عندما يطيعون الحكم الإلهي عبر ما يقوله رسوله(ع).

بقي شيء، عَادَةً مَا تَنْفِرُ الناس من التشريع الإلهي لأنهم سلفا يعلمون أن تعاطيهم مع بعض والذي نتج عنه الخلاف، أَصْلًا تعاطيهم مع بعض كان لا يرضى عنه تعالى، ولذلك هم يتجنبون الاحتكام لشريعته تعالى، وعادة كلاهما يريدان ما لا يحقّ لهما، وَيُرِيدَانِ حكما يجور على الآخر ويسلبه حقّه، وهذا لن يحصل في تشريعه تعالى، ولذلك ترى الناس لا ترغب بشرعه تعالى، وأحيانا كثيرة يقولون إِنَّهُ غير عادل! لأن العدل معياره في رأيهم أن يحصلوا هم على ما يريدون! وإلا فالحكم ليس عادلا!

(وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّـا أَجْراً عَظِيماً{67})
ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به، لكان خيرا لهم وتثبيتا لإيمانهم: {وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا}، فعندها لصار معهم من عندنا، {أَجْرًا}، شَيْئًا حَدَّدْنَا أنهم يستحقّونه، {عَظِيمًا}، ضخما.

كلمة أجر مُتَكَرِّرَةٌ كثيرا في القرآن، ضع في بالك أنها تعني: شَيْءٌ تَحَدَّدَ كاستحقاق على شيء آخر. حَيْثُ تَسْتَحِقُّ مئة درهم على بناء هذا الحائط، فهو أجرك أُجَارُكَ. سُبْحَانَهُ حَدَّدَ ما سيعطيه لنا كحسنات على الأعمال التي أمرنا بها، وَحَدَّدَ تعالى ما نستحقّ بحسب ما قرّره هو تعالى "من فضله"، ودائما هذا الاستحقاق من فضله وليس فرضا واجبا عليه تعالى، بل هو سبحانه وتعالى أوجبه على نفسه، فهو فضل التزم تعالى بمنحه لنا.

نَحْنُ حين نؤمن ونلتزم بكلامه تعالى وعلى ذلك ننال الأجر منه سبحانه، فَبِالْأَصْلِ آمنّا بصدق معلومات هي صحيحة عنه تعالى وعن قراراته بما فعله وما سيفعله، فليس إنجازا الإيمان بالحقيقة، وحين نلتزم بكلامه تعالى فَبِالْأَصْلِ سبحانه لا يأمر إلا لِإِصْلَاحٍ، وليس إنجازا التزامنا بالصلاح لأن هذا شيء مفروض منّا فعله، وكما ترى، نحن ولا بأي شكل نقدّم له تعالى أي شيء يستفيد منه ولو حتى معنويا، لأنه لن يتأثر سبحانه متضررا حتى لو كفرت به كل مخلوقاته، ولذلك كان الأجر منه تعالى لنا من فضله، كشيء ليس واجبا عليه تعالى تقديمه لنا.

اَلْأَجْرُ على الإيمان والالتزام بالأوامر الإلهية ليس أجرا عاديا، حَيْثُ لَمْ يوكل به سبحانه أحدا من مخلوقاته، بل هو سبحانه من لدنه من عنده، سوف يعطيهم الأجر، العظيم، ولا يمكنك أبدا أن تتصور أو تتخيّل كيف سيكون الأجر مما يشبع الرغبات ويسبب السعادة... فكلها ستكون فوق تصورنا وفوق تخيلنا، لِأَنَّ الْإِلَهَ العظيم "بذاته" سوف يعطيك إياها.

(وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{68})
{وَلَهَدَيْنَاهُمْ}، لوضعناهم على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، {صِرَاطًا}، طريقا إيمانيا أساسيا، {مُسْتَقِيمًا}، يوصف بأنه على الأحسن فلا اعوجاج ولا انحراف فيه، وهو الذي يوصل لمرضاته تعالى وإلى الجنة.

نَعْلَمُ من القرآن أَنَّ الصراط، الطريق الإلهي، هو في الدنيا النهج، العقيدة والشريعة والسلوك، التي نمشي عليها في حياتنا، وفي الآخرة هناك أيضا صراط "نهج" وهو نفسه الذي مشينا عليه في الدنيا وسيوصلنا إلى الجنة أو إلى النار.

رُبَّمَا نفهم صراط الآخرة على أنه طريق نمشي عليه بأقدامنا في الآخرة، وهذا صحيح بشكل ما، ولكنه بِالدِّقَّةِ هو نفسه الصراط الذي كنت تمشي عليه في الدنيا، فهو ما كسبته من أعمالك، من سلوكك... وهو نفسه ستمشي عليه في الآخرة فَسَتُحَاسَبُ وَتُجَازَى على أساسه، فإن كنت هنا على النهج الصحيح على الصراط الصحيح، فهناك سيهديك ربك سبحانه للطريق الصحيح الذي يوصلك للغاية المطلوبة، إلى الجنّة فلن تقع في جهنم.

لِلْمَزِيدِ من التوسّع حول الصراط راجع دراسة الآية 74 من سورة المؤمنين {وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ}.

(وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقاً{69})
{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}، فهناك أشخاص موصوفون بأنهم في نعمة منه تعالى، في أشياء حميدة جيدة، {مِنَ النَّبِيِّينَ}، وهم الأشخاص الَّذِينَ يصلهم النبأ، فيصلهم الخبر غير المنتشر علمه بين الناس فيصلهم منه تعالى ليوصلوه للناس، فمن الناس يوجد أنبياء وهم موصوفون بأنهم أَنْعَمَ تعالى عليهم بوصفهم صالحين مكرمين عنده، والمطيعون سَيَكُونُونَ مع الأنبياء.

سَيَكُونُ المطيعون مع الذين أنعم تعالى عليهم من، {الصِّدِّيقِينَ}، فمن الناس يوجد أشخاص كان إيمانهم صادقا، فلم يكذبوا في إيمانهم، فلم يزعموا أنهم مؤمنون وفي نفس الوقت اتبعوا الطاغوت كما فعل بعض الناس، لا، والمطيعون سَيَكُونُونَ في نعمة الإيمان وما ينتج عنه مع الصدّيقين من الناس.

يَكُونُونَ مع، {الشُّهَدَاءِ}، وهم الأشخاص الذين كانوا ملتزمين بالدين وكانوا حاضرين يرون ويسمعون ما يفعله الناس، وفي يوم القيامة وما بعده سيجعلهم سبحانه يشهدون على غيرهم من الناس الذين كانوا يعيشون معهم، حَيْثُ يَشْهَدُونَ في يوم القيامة فَيُؤَكِّدُونَ أَنَّ الأوامر الإلهية وصلت إلى قومهم بشكل واضح.

{وَالصَّالِحِينَ}، وهم الأشخاص الذين صلح عملهم وفكرهم.

{وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}، فما أحسنهم من أشخاص تكون موصوفا بأنهم رفقاؤك، بأنك ملازم لهم وباق معهم، والكلام هنا في الدنيا عن وصفك رفيقا لهم في الإيمان، وصحيح أنه يتبع ذلك مرافقتهم في جنّة الآخرة ولكن الآيات هنا تركيزها على نعمة النظرة الإلهية المحترمة لهذه النوعية من الناس.

كلمة رفيق لم ترد إلا مرّة واحدة هنا في القرآن.

القرآن لم يستعمل كلمة شهيد حصرا للشخص المقتول في سبيل الله تعالى، بل استعملها في الشخص الذي كان يعيش بين مجموعة من الناس، ووصلهم الدين الإلهي، فَآمَنَ هذا الشخص بالدين، وبقية الناس "كلهم أو بعضهم" لم يؤمنوا بالدين الإلهي، ففي الآخرة يتم سحب هذا الشخص الذي آمن، ليقف أمام الناس الذين كانوا يعيشون معه، وَ"يَشْهَدَ" عليهم أن الدين الإلهي وَصَلَهُمْ، عندها لا يمكنهم أن يَتَحَجَّجُوا بأن الدين لم يصلهم.

(ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً{70})
{ذَلِكَ}، حال شخص موصوف أنه مع تلك النوعية من الناس هو، {الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ}، فهو شيء جيد يمنحه تعالى لهم من دون أن يكون فرضا واجبا عليه تعالى.

اَلْكَلَامُ هنا حصرا عن النظرة الإلهية للمكانة العالية التي منحها تعالى لهذه النوعية من الناس، فهذا الاحترام والمكانة العالية هو الفضل الإلهي عليهم، حَيْثُ جعل سبحانه فيهم قابلية تمييز الخير من الشر، وهذا ما جعل لهم قيمة لأن خياراتهم كانت باتجاه الخير، وهكذا من فضله تعالى صاروا مُوَقَّرِينَ محترمين.

{وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا}، فيعلم كل شيء، حَيْثُ تَعَالِيمُهُ لنا كانت الأفضل، والالتزام بها سيوصلنا للحال الأفضل، فعن علم فائق صدر منه تعالى ما صدر ووصلنا، ومن ناحية ثانية يَعْلَمُ سبحانه حالي من الداخل إن كنت فعلا مطيعا له تعالى ولرسوله(ع) ويعلم إن كنت أستحقّ نعمة وصفي بالرفيق للنبيين والصديقين والشهداء... حَيْثُ المظاهر الخادعة لا تنطلي عليه تعالى، وَيُمْكِنُنَا التظاهر بالإيمان والطاعة، ولكن الحقيقة التي في داخلنا، والتي يعلمها تعالى، هي التي تحدّد إن كنا رفقاء للأطهار في المكانة المحترمة، فلا يحتاج سبحانه لأي أحد حتى يعلم من نحن.

بقي شيء بالنسبة لفضله تعالى على هؤلاء حتى صاروا مُوَقَّرِينَ محترمين مكرمين، فهو تعالى خالقهم وجاعل فيهم قابلية تمييز الخير من الشَّرِّ، مع حرية الإرادة للاختيار، وهذه نعمة رائعة، وترى روعتها عندما تنتبه لمتعلقاتها من وعي وإدراك ومشاعر حبّ ورغبة وشهوة... وحواس بجسد... وخيال وتصورات... فهذا بمجموعه ما يميّزنا عن الملائكة(ع)، ولهذا وصل بعضنا إلى مراتب القرب منه تعالى متخطيا الملائكة(ع)، وبنفس الفضل الإلهي علينا بهذه الخلقة بما فيها من روائع، يمكننا أن نكون مع الأنبياء والصالحين... والصورة تكتمل بالفضل الإلهي عليهم عندما نتذكّر أن هؤلاء ذاهبون إلى جنّة خالدة رائعة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً{71})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أَنَّهُمْ معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{خُذُوا حِذْرَكُمْ}، كونوا منتبهين من الخطر الذي لم تتوافر كل شروط حصوله بعد، {فَانْفِرُوا}، فغَادِرُوا أماكنكم، {ثُبَاتٍ}، كمجموعات، تَحَرَّكُوا سرايا ومجموعات، إن كانت الحالة العسكرية تستوجب عددا قليلا، {أَوِ انْفِرُوا}، تَحَرَّكُوا، {جَمِيعًا}، كلكم دفعة واحدة، إن كانت الحالة العسكرية تستوجب خروجكم كلكم.

هذا الكلام فيه نَاحِيَتَانِ، من ناحية التنظيم تَعَامَلُوا مع الوضع بما يناسبه، حَيْثُ عدد المطلوب منهم المشاركة يتحدّد بالوضع المناسب، وهذا يعني أن التكليف بالحذر عامّ للجميع، والتكليف "بالنفور" ليس دائما مطلوبا من الجميع، بل

بحسب ما تستدعيه الحاجة، حَيْثُ الحاجة لخروج البعض نصطلح عليها بالواجب الكفائي، فإذا خرج عدد كاف سقط واجب الخروج عن البقية... وإذا دعت الحاجة لخروجكم كُلِّكُمْ للقتال، فواجب على كل من يستطيع الخروج أن يخرج، ونصطلح عليه بالواجب العيني، فأنت بعينك وذاك بعينه... مأمورون بالخروج. هذا بالأصل والأساس، وبعض السور فصّلت في هذا الموضوع... وعلى الأرض تَقْدِيرُ الأمور متروك للقائد، والقرآن أخبرنا عمّا فعله الرسول محمّد(ع) كنموذج لما سيفعله القادة فيما بعده، حَيْثُ أحيانا كان (ع) يترك مقاتلين خلفه في المدينة، وأحيانا يخرج بكل من هو قادر على حمل السلاح، وأحيانا يرسل سرية...

على كلّ حال الآية هنا تتحدّث بالخصوص عن توجيه الأمر بالحذر والنفور على الجميع بدون استثناء، وبعد ذلك تَحْدِيدُ من سيخرج ومتى وإلى أين... متروك لتقدير القائد.

(وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً{72})
{وَإِنَّ مِنْكُمْ}، فدائما يوجد بينكم، {لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ}، من سَيُتَبَاطَأُ حين يحين موعد الخروج للقتال، فلا ينطلق في الوقت المحدّد، لأنه لا رغبة له بالذهاب، ولكنه لم يعلن ذلك، حَيْثُ يَتَبَاطَأُ ليظهر لكم أَنَّهُ يحتاج لمزيد من الوقت ليستعد...

{فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ}، حصلت معكم، فحصل معكم شيء، والكلام هنا عن شيء سيّء حَيْثُ خَسِرْتُمْ في معركة أو حرب، أو مات بعضكم أو جرح بعضكم... {قَالَ} ذلك المتخاذل: {قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ}، فأنا أَصَابَتْنِي نعمة، وَأَصَابَنِي شيء جيد منه تعالى، {إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا}، حَيْثُ إِنِّي لم أكن مع الذين خرجوا للقتال، فلم أكن حاضرا معهم في المصيبة التي أصابتهم.

فأنا في نعمة منه تعالى لأني لم أخرج فلم أشهد المصيبة السيئة مع الذين خرجوا.

انْتَبِهْ، فهذا الشخص لا تحصره بالمنافق، فلا يبدو من الآيات أَنَّهُ المنافق بالتحديد، بل ربما يكون منافقا في الكثير من الأمور، وربما يكون ضعيف الإيمان في هذا الموضوع فقط، وربما يكون مؤمنا جبانا...

لَا تغرق في التاريخ الماضي وتنسى الحاضر، حَيْثُ الآيات تتحدث بالعموم مع كل الذين أعلنوا أَنَّهُمْ مؤمنون، وطالما نرى معنى الآيات واضحا جدا، فلا فائدة من ربطها ببدايات الإسلام حين كان ضعيفا... بل الضرر كل الضرر حين نفهم الآيات كأنها تتحدث بالخصوص عن حادثة تاريخية، فلتبقى الآيات في تفاسيرنا عامة تنطبق على كل مكان وزمان، وليكن البحث التاريخي عن بدايات الإسلام كنموذج تطبيقي قديم كتفسير عملي للآيات. بعبارة أوضح لَا تتعامل مع القرآن على أنه كتاب تاريخ، بل تعامل معه على أنه يتناول نماذج من التاريخ لتكون منهاجا وموعظة لكل من يسمعها، وحتى الرسول(ع) عَرَضَهُ القرآن كنموذج، والتطبيق العملي في عصرنا للتعامل مع ما ذكره القرآن عن الرسول(ع) أن نستمر على نهجه(ع) وعلى ما نحن متأكدون أَنَّهُ وصلنا منه(ع)... وأن يلتزم القادة بالنموذج "الرسول(ع)" فيما ذكره القرآن عنه(ع)...

(وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ الله لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً{73})
{وَلَئِنْ أَصَابَتْكُمْ}، فإذا حصل معكم، {فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ}، شيء من الأمور التي يمنحها تعالى لكم من دون أن يكون المنح فرضا واجبا عليه تعالى، فتفضل عليكم سبحانه بالانتصار أو بالغنيمة، {لَيَقُولَنَّ}، سيقول ذلك المتباطئ عن القتال، فيقول كلاما، {كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ}، مِنَ الْمَفْرُوضِ أَنَّهُ من المؤمنين الذي يهمّه أمركم ويهمّه أن تكون أموركم على الخاطر، ولكنه هنا فكأنكم لا تعنون له أي شيء، فلا يهتم بما يصيبكم من سوء، وتركيزه فقط على ما خسره لأنه لم يرافقكم، فيقول:

{يَا لَيْتَنِي}، أَرْغَبُ بشيء قد فاتني ومن المستبعد حصوله الآن، {كُنْتُ مَعَهُمْ}، كنت مع الذين خرجوا وانتصروا وحصلوا على الغنائم من أراضي ومواشي ومال وسلاح... {فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا}، أَكُونَ فعلا موصوفا بالحصول على شيء قيمته عالية جدا.

هو لا يسأل عنكم إن متم أو انجرحتم أو... فأنتم لا تعنون له أي شيء، وكأنه لم يكن يودّكم، فلا يهمّه إن حصل معكم شيء ليس على خاطركم، إِذْ يهمّه أن يستفيد إن أنتم استفدتم، ولم يفكّر أن يكون معكم ليساعدكم إن وقعتم في مصيبة.

اَلسُّورَةُ تعرض كلامها مع وعن نموذج لشخص منكم وبينكم، ولم يخرج للقتال معكم لأنه يريد السلامة، مع أنكم خرجتم مع احتمال إصابتكم بالقتل والجرح، فلو كان فعلا بينكم وبينه مودّة لخرج معكم ليرتفع احتمال انتصاركم بخسائر أقلّ، فما معنى تمنّيه لو كان معكم حين فزتم؟ فلو خسرتم لفرح بنجاته، ولو فزتم لتحسّر على أنه لم يشارككم بالغنيمة والبطولات!

توقّف قليلا عند الآيات هنا لأنها نموذج واضح عن النظرة الإلهية للأمور، حَيْثُ تَجْعَلُ المتباطىء ينظر لنفسه، فأنا لماذا أتباطأ؟ هل هربا من إصابتي بمكروه؟ فإن أصاب الذين خرجوا مكروه سأفرح لأني لم أكن معهم؟ وهم التزموا بالأمر الإلهي فأصابهم ما أصابهم فهل أفرح لأني لم أكن معهم؟ وهل أنا فعلا في نعمة لأني لم أخرج وسلمت، أم أنا في نقمة لأني لم ألتزم بالأمر الإلهي؟ ومن ناحية ثانية، فماذا لو انتصروا وأنا لم أخرج معهم؟ عندها أتمنّى لو أني خرجت معهم واشتركت بهذا النصر والغنيمة، فهم لا مودّة لهم في قلبي، ولا يهمّني ما يصيبهم إن خسروا ويهمّني فقط أنا أن أكون معهم في حال انتصروا وغنموا!

(فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً{74})
{فَلْيُقَاتِلْ}، فليقم بأعمال تتضمن إنهاء حياة الأعداء، {فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، في مسلك يرضى عنه تعالى، {الَّذِينَ يَشْرُونَ}، يبيعون، {الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ}، فيشترون بدلها الحياة الآخرة التي ستأتي في الآخِرِ بعد هذه الدنيا.

مَنْ يقاتل في سبيل الله، {فَيُقْتَلْ}، "بالضمة على الياء بتصريف الفعل المبني للمجهول" فيقتله الأعداء، فينهي حياته الأعداء، {أَوْ يَغْلِبْ}، يسيطر على الأعداء، {فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}، فسيكون له شيء عظيم حَدَّدْنَا أنه يستحقّه.

الدارج في ثقافة المتدينين أَنَّ المقتول في سبيله تعالى وحده له القيمة العالية عنده تعالى، وهذه ثقافة غير صحيحة، بل المقتول في سبيله تعالى قد انتهت حياته وهو على حالة طاعته تعالى لدرجة تقديم نفسه في سبيله تعالى، ومن بقي حيا من بعد مشاركته في القتال فله نفس الأجر العظيم، حَيْثُ لَمْ يكن يلعب بل كان مشاركا واحتمال قتله وارد مثله مثل من مات قتلا.

أُكَرِّرُ لك، الفرق أَنَّ الذي مات قد انتهت حياته وآخر شيء كان تقديم نفسه في سبيله تعالى، فهذا ضَمِنَ أَنَّ خاتمة حياته في الدنيا كانت في طاعته تعالى، وهذا تَمَيُّزٌ لم يحصل عليه من بقي حيا، أمّا الأجر، فكلاهما لهما أجر عظيم، طبعا من فقد حياته فله أجر إِضَافِيٌّ على فقدانها في طاعته تعالى، وجانب منه ما أخبرنا القرآن عنه أنه يدخل فورا إلى جنّة مؤقتة هنا في الدنيا قبل جنة الآخرة.

بالنسبة لكلمة شرى فهي لعموم مبادلة أي شيء بشيء مع الاهتمام بقيمة ما سيأخذه أَنَّهُ بالنسبة له أهمّ مما قدّمه، ولا تركّز على قيمة ما قدّمه. فهي على معنى أَنَّ أحدا ما أخذ شيئا مقابل شيء للمنفعة. إِذْ يصدق الشراء كوصف لطرفين سواء البائع الذي أخذ المال "شرى منه"، أو الشاري الذي أخذ البضاعة "اشترى منه". واستعمال كلمة "شرى" بهذه الطريقة لم تعد دارجة، فنستبدل شرى بباع، ونقول اشترى فحصل العكس فوقع البيع من غيره عليه، فهو وصف حاله حين حصل الشَّرْوُ. ومثلها في التصريف "شرى هو لغيره، اشترى هو من غيره" ولكن ما تزال مستعملة: عذر هو غيره، اعتذر هو من غيره. عرف هو الشيء، اعترف هو لغيره. وعزل هو الشيء، اعتزل هو عن غيره.

يَبْدُو من استعمال الْعَرَبِ الفرق بين البيع والشراء أَنَّ البيع ناظر لعملية تقديم شيء، والشراء ناظر لعملية أخذ شيء.

(وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً{75})
{وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}! حين يكون هناك عدو يجب قتاله وأنتم لستم المعتدين فأنتم في حالة يرضى سبحانه عنها، فلماذا لا تقاتلون؟ ومن كلمة "في سبيل الله تعالى" تنتبه لأبعاد أخرى لهذا السؤال، فلو كان لكم مصلحة شخصية سيئة لا يرضى عنها تعالى، هل كنتم ستقاتلون؟ أَمَّا في سبيله تعالى، فيما يرضى عنه تعالى لا تقاتلون؟ وستري من تكملة الآية وجود هذا النوع من الفرق، حَيْثُ بِضَبَابِيَّةٍ قد نفكّر أن القتال في سبيله تعالى محصور بأمور لا نفع لنا بها،

فنبحث عن أسباب للقتال تجعلنا خارج الموضوع وأننا لا مصلحة بالقتال بل لأجل دينه تعالى نقاتل ودفاعا عن قرآنه ورسوله... علما أنه تعالى لم يأمرنا بقتال لا مصلحة شخصية لنا فيه، فأصلا لم يأمرنا بقتال إلا الذي ينوي قتالنا أو بدأ فعلا بقتالنا، وفي هذه الحالة إن انتصر العدو فسيفرض علينا عقيدة وشريعة فاسدة، مُضَافًا لذلك سيحكمنا ويتحكم بمقدراتنا ومصادرنا وحياتنا... لمصلحته. وإن كنت في الأمان وبعيدا عن الأعداء الذين لا يفكّرون بمهاجمتك الآن أو بعد سنين... ولكن هناك من يعاني منهم ويحتاج لمساعدتك، فسبحانه يفرض عليك مساعدتهم كما فرض عليهم مساعدتك لو كنت أنت تتعرض للاعتداء، وهذا ما ستراه من تكملة الجملة...

{وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ}، وهم الذين يتم استضعافهم فهم ضعفاء أمام عدوهم، لأنهم بلا قوة قتالية، {مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ}، الذين وقعوا تحت حكم الكفار، {وَالْوِلْدَانِ}، من ذكور وإناث صغار السن، {الَّذِينَ يَقُولُونَ}:

{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا}، ساعدنا لنغادر من تجمّع الناس الذي نحن فيه، فأهلها فَالْمُنْتَسِبُونَ لهذا التجمّع ظالمون، ليسوا عادلين ولا منصفين، هم عقيدتهم وشريعتهم فاسدة، وَيُرِيدُونَنَا أن نكون مثلهم على السوء الذي هم عليه. ويمكنك رؤية نماذج عن هذا الظلم فيما ذكرته السورة من بدايتها عن الأحكام التي تتعارض مع تقواه تعالى في الأيتام والنساء وأكل أموال الناس بالباطل... مضافا لها الشرك به تعالى... والاحتكام للطاغوت...

في عصرنا نقول "قرية" للمكان ذي البيوت القليلة العدد، أما المعنى الأساسي لكلمة قرية تعني أي مكان يجتمع فيه أناس، سواء أكانوا قلة أو كثر، في بيوت أو في خيام...

{وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ}، من عندك، {نَصِيرًا}، ينصرنا، يحقّق لنا ما نريده، فيحقّق لنا الخروج من هنا أو يستلم الحكم في القرية أناس مؤمنون.

القتال الأساسي لمنع الكفار من التحكم بكم، وأيضا يجب أن تنصروا بقية المؤمنين الواقعين تحت حكم الظالمين، بشرط أن يكونوا غير قادرين على القتال أو الهروب. وسوف نرى فيما بعد أَنَّهُمْ إن كانوا قادرين على ترك القرية ولم يتركوها، أو قادرين على القتال والانتصار وتخاذلوا فلا عذر لهم أمام ربهم سبحانه.

اَلسُّورَةُ تركيزها على تقواه تعالى في الناس، فأمرتنا الآيات السابقة بإعطاء الناس حقوقهم، ومعاملتهم بالإحسان، وبالأخص الأيتام والنساء... وهم الضعفاء، وهنا تأمرنا السورة بالقتال للدفاع عن عموم المؤمنين الضعفاء.

لَاحِظِ التطابق بين عصرنا وبين ما تقوله الآية، حيث البلدان العربية في أمان من الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، وأهل فلسطين يعانون الويلات، ومن يقول بوجوب التدخّل لنصرتهم صار منبوذا شاذا... بل الجو السياسي العام للحكّام "المسلمين" هو إقامة أطيب العلاقات مع الإسرائيليين! بل بعضهم يعلنون أَنَّ الإسرائيليين أفضل من المسلمين! بل هم أهل كتاب فضّلهم تعالى والمسلمين من المذاهب الأخرى كفّار! فأين هم من القرآن! وأين شعوبهم المسلمة الموالية لحكّام فاسدين!

(الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً{76})
الَّذِينَ آمَنُوا، الذين أعلنوا أَنَّهُمْ معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، يقومون بأنشطة إنهاء حياة الأعداء في مسلك يرضى عنه تعالى. سِيَاقُ الكلام عن قتال للدفاع عن مستضعفين في بلد آخر.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا}، أَعْلَنُوا أَنَّهُمْ منكرون للدين الإلهي فلا يعتقدون به، هؤلاء، {يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ}، لأجل الطغيان بأشكاله المتنوعة حتى لو كان من العيار الثقيل، في أعمال خارجة عن حدود الحقّ والصلاح وهي نفسها خارج الحدود التي رسمها تعالى لنا، فلأجل التسلّط على الآخرين، ولأجل استعبادهم أو نهب أملاكهم وخيرات بلادهم... لأجل فرض العقيدة والشريعة الفاسدة...

فيا أيها الذين قالوا إنَّهُمْ مؤمنون، {فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ}، فاعملوا على إنهاء حياة الذين مرجعهم ويتبعون الذي يقوم بأعمال الضلال ويعمل على إضلال الناس، {إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}، إنَّ الأمور التي يفعلها لتضليل الناس ولا مصلحة له فيها ولا لهم، فهي أمور ضعيفة مقابل الهدى الإلهي، فلن ينتصر من يواليه على المؤمنين الحقيقيين، حَيْثُ الأمور المباشرة أو بالحيلة التي يستعملها الشيطان ليضلل الناس، وليجعلهم يقاتلون المؤمنين، فهي ليست قوية، إذْ هي واضحة البطلان، وتنهار بسرعة أمام الحق.

من المهم التنبيه إلى أن وصف القرآن للكيد بالضعف هو "مقارنةً" بقوة الله وتأييده للمؤمنين الصادقين، وليس معناه أن الشيطان كائن لا يُخشى بأسه في الدنيا، فالتاريخ والواقع يثبتان أن كيد الشيطان (عبر أوليائه) قد يقيم دولاً ويُضل أمماً لقرون. الضعف هنا هو ضعف "حُجّة" وضعف "في الآخرة" أمام قدرة الله، وليس دعوة للاستهانة بالعدو عسكرياً أو تنظيمياً.

الآيَةُ تحفّز المؤمنين على قتال الأعداء وتنبّههم أنَّ كيدهم ضعيف، فمهما كان يبدو لكم العدو قويا، هو ضعيف أمام المؤمنين.

كَمَا تعلم، الشَّيْطَانُ صفة لأي كائن يقوم بأعمال الضلال "أعمال السوء" لنفسه أو لإضلال الآخرين، وَرَأْسُ الشياطين هو الجني إبليس، وهناك شياطين آخَرُونَ من الجنّ، وهناك شياطين من الناس أيضا، وهنا الكلام عمومي لأي شيطان يقود أو يشارك في الحملة على المؤمنين.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً{77})
فيما سبق قرأنا عن المتباطئ عن القتال، وفيما يلي سوف تذكر لنا الآيات أعذار من امتنع عن القتال، وستردّ على أعذارهم، وستوضح لنا حقيقة نفسيتهم:

{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي (ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت. {إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ}:

{كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ}، لا تمدوا وأبعدوا أيديكم، وسترى من تكملة الجملة أنه قيل لهم لا تستفزوا الكفّار بأعمال عدائية، ولا تتحرشوا بعدوكم لأنه لم يحن الوقت المناسب للقتال، {وَأَقِيمُوا}، فَفَعِّلُوا لا تعطّلوا لا تتركوا أو تهملوا، {الصَّلَاةَ}، التوجّه والإقبال على شيء ما، وهذه الكلمة صارت مصطلحا يشير للتوجّه بالحركات والكلام المعروف بالصلاة الواجبة، وهي الفريضة الدينية التي نقيمها خمس مرات في اليوم وتعبّر عن عبادتنا لله تعالى، علما أن كلمة صلاة عمومية لأي توجّه وإقبال، عبادياً أو غيره.

{وَآتُوا الزَّكَاةَ}، اجعلوها عند من يوزّعها أو وزّعوها أنتم بحسب ما أمر سبحانه.

كلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، حيث تشير لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكية، مال زاكٍ، طعام زاكٍ..."، ومنذ القدم صارت مصطلحاً دينياً يشير إلى دفع نسبة محدّدة من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة "{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ...}"، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، فيدفع منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة "{...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...}"، حيث تكون نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة "{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}".

هذه النوعية من الناس التي كانت تصرّ على التحرش بالأعداء أو تُحَمِّس وتطالب بقتالهم، وقيل لهم أن يهتمّوا بما هو واجب عليهم الآن بالصلاة والزكاة، وأمّا القتال فليس وقته الآن...

{فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ}، وسياق الكلام عن سياق المقادير الإلهية حيث جرت الأمور بحيث صاروا في حالة اضطرارهم للقيام بأنشطة قتالية، لأنهم قادرون على مواجهة العدو الذي لا يريد سلما معهم... {إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ}، قسم من هؤلاء المتحرشين بالأعداء سابقا في الوقت غير المناسب للقتال يصير عندهم شعور توقّع الضرر من الناس، {كَخَشْيَةِ اللَّهِ}! مثلما عندهم شعور توقّع الضرر منه تعالى، {أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً}! بل عندهم شعور توقّع حصول شيء سيئ من الناس أكثر مما يشعرون به من عقابه تعالى على فعل السوء!

{وَقَالُوا}: بعدما حان وقت القتال:

{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ}؟ استفهام اعتراضي، فلماذا فرضت علينا أن نقاتل الآن؟ {لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ}، لو أنك غيّرت مسار مجريات الأحداث جاعلاً القتال في وقت آخر سيأتي، فليكن بعد أسابيع أو أشهر، ونحن لا نقول أن لا تأمرنا بالقتال بل فليكن بعد وقت قريب، أما الآن فنحن لسنا مستعدين عسكرياً وبدنياً... أو لدينا أشغال وأعمال...

{قُلْ}، عبر هذا القرآن لهذه النوعية من الناس:

{مَتَاعُ الدُّنْيَا}، التمتّع والاستفادة بما في هذه الحياة الدنيا، {قَلِيلٌ}، فمن يطلب تأخير القتال فهو متعلق بما يتمتع به في الدنيا، ويخاف فقدانه، وهو متعلق بمتاع قليل، {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ}، والحياة التي ستأتي في الآخرة بعد انتهاء هذه الدنيا شيء حسن، على معنى أنها أفضل، {لِمَنِ اتَّقَى}، للشخص الذي يتجنب غضب وعقاب ربه سبحانه ويطيعه حين يأمره تعالى بالقتال.

نلاحظ أن القرآن يصف ما في الدنيا بالمتاع، ولا يصف ما في الآخرة بأنه متاع، وهذه إشارة للفرق بين ما نجده في الدنيا من استفادة لسدّ حاجاتنا ورغباتنا التي يتعلق بها استمرار حياتنا، أمّا ما في الآخرة فهو ليس لسدّ الحاجة الحياتية بل حصراً للسعادة والفرح، فلا تأكل لتسدّ جوعك بل تأكل مشتهياً ولتستلذّ بالطعم الطيّب، ولن تشعر بأي انزعاج أو ضرر إذا أكلت كميات كبيرة جدا جدا... ولن تشعر بجوع مؤذٍ أو وهن إن لم تأكل...

{وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا}، والفتيل هو عموم أي شيء مفتول مبروم كخيط، والكلام هنا عن شيء صغير، فلو فركت أصابعك ببعضها ونتج من ذلك شيء انفتل بين أصابعك من الجلد الميت والغبار فهو فتيل، ويقولونها أيضاً كوصف للخيط الصغير الموجود في شقّ بذرة التمر، "في نواة البلح"، فلن يظلمكم سبحانه ولو بهذا المقدار البسيط، بل ستأخذون حقكم كاملاً، "وزيادة في الحسنات لمن اتقى".

التقي الحقيقي، الذي لم يتعلق بمتاع الدنيا، وقاتل حين كتب تعالى عليه القتال، وكما ترى فإن سبحانه بقدرته على التدخل في مجريات الأحداث يمكنه تحويل الأمور باتجاه القتال أو باتجاه الهدنة... فمن قاتل في سبيله تعالى سيحصل على الأجر في الآخرة من دون أي نقصان، فمن خاف على المتاع القليل الدنيوي فهو مخطئ، لأن ما له في الآخرة من سعادة مضمون بضمانة إلهية.

كما ترى فإن الكلام عن مجموعة من الناس الذين يستفزون الأعداء في حالة هدوء الأوضاع، حيث لا يوجد استنفار للقتال من الطرفين رغم توافر نية القتال... فلنقل إنهم يترصدون الشارد من الأعداء ليقتلوه أو ليضربوه أو يسلبوه... ويقومون بالعنتريات على أساس أن البقية متقاعسون خاملون وهم يقومون بالواجب، أو أنهم مستهترون لا يرون أبعد من أنفهم... وتقول لهم الآية إن الصلاة والزكاة نموذج عن الواجبات المطلوبة منكم، فقوموا بها، وحين تصير الظروف مناسبة للقتال فماذا ستفعلون؟ وها ترى أنهم حين يجدّ الجدّ يبدأ البعض منهم بالتبريرات المانعة له من المشاركة في قتال، بينما هو من المتعلقين بمتاع الدنيا ويخاف الموت، ويخاف من الأعداء أكثر مما يخافه تعالى...

(أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِ اللّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلًّ مِّنْ عِندِ اللّهِ فَمَالِ هَـؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً{78})
حسناً، أولئك الذين يخشون الموت بسبب تعلّقهم بمتاع الدنيا:

{أَيْنَمَا تَكُونُوا}، في أي مكان كنتم، {يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ}، تصل حالة فقدان الحياة إليكم وتصيرون فيها، ولا يمكنكم الهرب من فقدانكم للحياة، {وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ}، وكلمة برج تقال لعموم ما اتسع في الوصف، الوجه حُسْناً، البناء طُولاً، الحاجبانِ سَعَةً، زيادة زينة "مكياج" المرأة، وَسَعَةُ نجوم السماء كمجموعة... وتقال للأبنية التي وسّعوا بناءها طولا أو عرضا أو سماكة لتكون حصنا من الأعداء، وتلك الحصون {مُشَيَّدَةٍ}، مبنية لتكون منيعة وحصينة وقوية، فحتى لو كنتم في أماكن شيّدتموها وبنيت لتكون حصنا من أشدّ الأماكن أمانا، فسوف يجد الموت طريقه إليكم.

فحين أمركم سبحانه بالقتال، وأنتم لا تريدون الموت لأنكم متعلقون بمتاع الدنيا، فما معنى هروبكم من الموت إن كنتم ستموتون حتما! وأصلا لا يمكنكم الاختباء من الموت! وفي النهاية ستموتون، فَمَوْتُكُمْ أثناء القتال هو أفضل لكم، لأنكم ستنالون أجرا من ربكم سبحانه، وكما قالت الآية السابقة: {لَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا}، فما تعتبرونه خسارة لمتاع الدنيا بالموت فَسَيَتِمُّ تعويضه بأفضل منه... وَسَبَقَ أَنْ ذكرت السورة كلاما عن الجنّات الخالدة...

وهذه النوعية من الناس إذا شاركوا في القتال أو في حياتهم العادية:

{وَإِنْ تُصِبْهُمْ}، يُصِيبُ ويَحْصُل مع هذه النوعية من الناس، {حَسَنَةٌ}، شيء حسن في أي شيء من أمور حياتهم، فنجحت زراعتهم أو ربحت تجارتهم... وهنا سياق الكلام عن القتال فإذا انتصروا في القتال، أو خاف منهم الأعداء... {يَقُولُوا}: {هَذِهِ}، الحسنة، {مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}، فنحن مؤمنون حقيقيون وَاهْتَمَّ بنا سبحانه ويسّر أمورنا أو نصرنا...

{وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ}، شيء سيئ، فمرضوا أو كسدت تجارتهم أو زراعتهم، وهنا الكلام بالخصوص عن القتال، فإذا انهزموا في معركة ما، أو تعرّضوا لضرر الغارات من الأعداء... أو صارت أجواء حرب وتحضير لها ونتج عن ذلك كساد اقتصادي... عندها يقولون: {هَذِهِ}، السيئة، {مِنْ عِنْدِكَ}، بسببك أنت حصل معنا هذا الشيء السيئ.

{قُلْ}، لهذه النوعية من الناس عبر هذا القرآن: {كُلٌّ}، من المصيبتين الحسنة والسيئة، {مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}، فأنا عبد مثلي مثلكم أقوم بتكليفي الشرعي بالقتال، أما عموم الحسنة أو السيئة ومن ضمنها النصر أو الهزيمة، فلا علاقة لي بهما، فسبحانه يقرر إن كنا سننتصر أو سننهزم.

{فَمَالِ هَؤُلَاءِ}، كما استعملت في الآية 7 من سورة الفرقان "{وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ...}" على معنى: غريب أمر هؤلاء {الْقَوْمِ}، الناس المتفاعلين مع موضوع الإيمان والقتال، {لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا}! نتكلم معهم ويسمعون ولكن لولا القليل من الكلام الذي دخل إلى قناعتهم، فعلى شعرة لكانوا نهائيا لا يدخل من الكلام أي شيء إلى قناعتهم! فبأي منطق يرمون السيئة "الخسارة" فقط على القائد؟ أليسوا مشاركين له فيما يحصل؟ أليست الأوضاع عامة عليه وعليهم! والتعرّض للسوء حالة تمرّ بها عموم الناس وإيجاد الحلول لها من مسؤولية الجميع! فكيف يفهمون جانبا من الكلام ولا يفهمون الجانب الآخر؟ فمال هؤلاء؟ مثل التعبير التالي: مالي كلما قلت صلحت سريرتي وقرب من مجالس التوابين مجلسي، عرضت لي بلية أزالت قدمي...

الحالة هنا مثل أي كلام عقلاني منطقي تقوله للناس في أي موضوع وتراهم يديرون الأذن الطرشاء! فتتكلّم وتتكلّم ولكنهم يقولون شيئا يبدو منه كأنك أصلا لم تكن تتكلّم! فأثناء قولك لهم: عامل الطفل باحترام وكأنه كبير... وَفِي نفس هذه اللحظة يَصْرُخُونَ على الطفل بحجّة أنه يزعجه ولا يستطيع التركيز على كلامك!

هنا كمثال عملي ترى من تاريخنا القديم والحديث، ومن تاريخ بقية المجتمعات من مختلف العقائد، أن الذين اتخذوا قرارا بحرب العدو والدفاع عن وطنهم، هؤلاء يتعرضون للمضايقة من البقية الذين لا يفهمون أن العدو ليس مسالما، وأنه بالتفاوض لن يوقف اعتداءه عليهم، وأن الضرر الناتج عن مقاومته ليس سببه المقاومون، ولا قيادتهم، بل العدو.

(مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً{79})
القاعدة العامة: {مَا أَصَابَكَ} من، مصيبة، {حَسَنَةٍ}، فأيُّ شيء يحصل معك ويكون حسناً جيداً، {فَمِنَ اللَّهِ}، فإذا كنت مؤمناً حقيقياً، مطيعاً لأمره سبحانه، فإن سبحانه لن يصيبك إلا بكل خير.

{وَمَا أَصَابَكَ} من {سَيِّئَةٍ}، {فَمِنْ نَفْسِكَ}، وَسَبَبُهَا أنت نفسك، وهنا الكلام عن القتال لأنك قصّرت في الإعداد أو التخطيط والتجهّز للقتال... ستنهزم.

هؤلاء رموا كل السيئة على النبي (ع)، ولكن القاعدة الأصلية رمي كل سيئة على من ارتكبها، حيث كل واحد منكم يتحمل السيئة التي وقعت، ومن ضمنكم الرسول (ع)، ولكنه (ع) لا يتحملها منفرداً، لأنه كقائد يتحمل أخطاء القيادة، وأنتم تتحملون أخطاء المشورة، وأخطاء التنظيم، وأخطاء الالتزام بالخطة، وأخطاء التجابن والفشل والنوم على حرير بدل الاستعداد للأعداء...

{وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا}، فأنت تحمل وظيفة الرسول الإلهي لتبليغ الناس بالأوامر الإلهية، وَلست أكثر من رسول، وَلست تتحكم في شيء، لا بالربح ولا بالخسارة، ولا بالنصر ولا بالهزيمة، وأساساً ليس من المفترض بك أَلَّا تتعرّض للسوء أنت أو الذين آمنوا معك إلا إذا كنتم بغالبيتكم مؤمنين ملتزمين من الدرجة العالية.

هناك عدة آيات توضّح أن السيئة تحصل معنا من أنفسنا، من تصرفاتنا نحن، ومنها الآية 30 من سورة الشورى "{وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}"، وبصراحة تقول الآية هنا إنَّ الرسول (ع) واحد منا، وَلا يتحمل عنا، ولا نتحمل عنه، بل من تصرفاتنا نحن ينتج سوء ونحن سببه، ومن تصرفاته هو (ع) إن نتج سوء فَهُوَ (ع) سببه.

نحن في ضمائرنا كمحبين للرسول الأكرم (ع)، لا نرى أنه ارتكب أي خطأ، وَلا نتقبل أن يكون حصول سيئة شارك فيها الرسول (ع)، لأنه مسدّد مؤيّد كامل الإيمان... وهذا صحيح، ولكن لا علاقة لشدة إيمان الرسول (ع) بالخطأ الذي يقع وينتج عنه شيء سيئ. حيث حصل وقام أشخاص عينهم الرسول (ع) قادةً على حملة عسكرية، وقاموا بقتل أبرياء! وَهذه سيئة حصلت، ويتحملها الجميع، وهذا نوع من الذنوب التي يتحدث عنها القرآن ويأمر النبي محمد (ع) بالاستغفار منها، وتريدنا الآية أن نفهم أنَّ الرسول (ع) واحد منا، وعند وقوع السيئة، نحن وهو مشتركون فيها، وكل واحد له نصيب من السيئة بمقدار مشاركته فيها، فالهارب من الحرب سيخلد في جهنم، والمحارب الجبان سيتحاسب على خوفه من الموت لأنه غير موقن بالآخرة، والمقاتل في سبيل الغنائم لا أجر له عند ربه سبحانه... والقائد يتحمل مسؤولية التخطيط واختيار القادة... حتى لو لم يكن لديه أي احتمال بارتكابهم للأخطاء ولكن بما أنه هو اختارهم للقيادة، فَهُوَ على الأقل يتحمل مسؤولية تعيينهم...

{وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}، حاضراً يشهد كل ما يجري، وَيشهد على ما حصل، ويشهد ما يدور في أنفسنا، وهكذا سيحصل كل واحد على نصيبه من السيئة عندما تقع.

كل ما يحصل معنا فَهُوَ من عنده تعالى، ولكن سببه المباشر نحن، حيث ينصرنا تعالى إن كنّا نحن نستحقّ النصر، فمن عنده تعالى يأتي النصر الموصوف بأنه إلهي، ويتركنا سبحانه ننهزم إن كنّا لا نستحقّ النصر لأننا فاشلون متخاذلون مستهترون... وَمِنْ أنفسنا تأتي السيّئة.

(مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً{80})
{مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ}، الذي لا يخالف أوامره، {فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ}، لأن الرسول محمداً (ع) أبرز نموذج عن قائد يأمر الناس على التمام بما يَرْضَى عنه تعالى، وبالتالي أوامره مشتقة مما يأمر به تعالى.

الكلام هنا عامٌّ ولكن محور الحديث عن القتال، فلو أطاع الجميع الرسول (ع) في كلّ شيء إذن لن تحصل هزيمة، ولو أطاعوه (ع) فقط في الخروج للقتال ولكن لم يطيعوه (ع) في التنظيم والخطة التي اتفقوا عليها ولم يثبتوا... فلا يحق لهم إلقاء اللوم عليه (ع) إن حصلت خسارة، وطاعة الرسول (ع) "كنموذج عن القائد المؤمن" من طاعته تعالى فهل تتجرؤون على لومه تعالى على سيئة حصلت معكم؟

{وَمَنْ تَوَلَّى}، والذي ذهب باتجاه آخر وترك طاعة الرسول (ع)، {فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا}، فلم نوكل إليك مهمة أن يكونوا مؤمنين مطيعين، حيثُ إنَّ مدير المصنع حفيظ على إنتاجية العمال، وَهُوَ مسؤول عن العمال والإنتاج، أمّا الرسول فليس حفيظاً على الناس، وَلَيْسَ من مسؤوليته أن يصيروا مؤمنين مطيعين، فلن يحاسبه سبحانه إن لم يطيعوه.

دائماً تذكّر أن الرسول (ع) يتحدّث عنه القرآن كأفضل نموذج عن القائد المؤمن، حيثُ إنَّ الآيات هنا لم يمت معناها بموت الرسول (ع)، وَهِيَ تنطبق على أي قائد يتولّى شؤون المسلمين، ويكون فعلاً شخصاً مؤمناً تقياً، وإن حصل سوء

ما، فلا يجب تحميل كامل المسؤولية للقائد إن كان لم يقصّر في المشورة أو الإعداد والتخطيط... لأنَّ الأمر الإلهي بإطاعة رسوله يتماشى معه الأمر الإلهي بموالاة المؤمنين، وهكذا يكون كلام الآيات عن طاعة الرسول نموذجاً عن وجوب طاعة القائد المؤمن، وهذا المعنى واضح من الآية 59 التي مرت سابقاً في هذه السورة "{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...}".

(وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً{81})

{وَيَقُولُونَ}، يقول هؤلاء الناس للرسول (ع): {طَاعَةٌ}. نحن مطيعون لك، وَنَمْشِي على ما تقول، لأننا مؤمنون معتقدون بوجوب طاعتك لأنك رسول إلهي وفي منصب القيادة، وسياق الكلام في الآيات عن القتال، فإذا أمرتنا بالقتال فسنقاتل.

{فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ}، فلم يعودوا بارزين لك، وَصَارَ بينك وبينهم بُعْدٌ واستتار، وَخرجوا من عندك، {بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ}، حيثُ احْتَفَظَتْ مجموعة من هؤلاء الناس في أنفسهم بشيء ما سيفعلونه كَرَدِّ فعل حين تأمرهم، وَكَانَتْ هناك نيّة مخبأة عند بعض الناس المنفردين عن المؤمنين الحقيقيين، طائفة "جماعة من جماعة" لها توجّه آخر، بيّتوا {غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ}، حيثُ إنَّ تلك الطائفة كانت تقول: طاعة لتنفيذ ما يقوله الرسول (ع)، ولكنها في داخلها بيّتت غير الذي تقوله، لأنها لن تفعل ما قيل لها، وإنما فقط بلسانها أظهرت الطاعة ولم تظهر المعصية وَبيّتتها وَتركتها غير ظاهرة. فإذا أمرتهم بالقتال سَيَقُولُونَ: طاعة. ولكن من داخلهم عندهم قرار أَلّا يشاركوا في القتال ولن يذهبوا إليه.

{وَاللَّهُ يَكْتُبُ}، أَيْ يسجّل ويثبّت، {مَا يُبَيِّتُونَ}، المعصية للرسول (ع) التي بَيَّتُوهَا وَلم يجعلوها تظهر، فَإِنَّ سبحانه يعلمها وسجّلها، وَهُمْ تحت المراقبة ولن يمر ما فعلوه بدون عقاب.

{فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ}، فلا تهتم بهم، {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}، وَلا تتوكل على طاعتهم حتى يتحقق ما تريد، {وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}، فَإِنْ كَانَ أَحَدٌ ما موصوفاً بأنه يكفيك ولا تحتاج لأحد معه لتسير الأمور على التمام فَهُوَ الله تعالى.

(أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً{82})

هذه النوعية من الناس، المتعلقّة بمتاع الدنيا، المتشائمة من الرسول، العاصية له... {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ}، لماذا لا يقضون بعض الوقت للتفكير بما يقوله القرآن؟ وَلِمَاذَا لا يقرؤون القرآن بفهم ودراسة ووعي؟ لِأَنَّ الدليل على صدق رسالتك الإلهية ووجوب طاعتك ووجود جنّة في الآخرة... هو القرآن.

{وَلَوْ كَانَ}، القرآن، {مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ}، لَوْ كان من تأليف النبي محمد (ع) أو من تأليف غيره من البشر، أو من تأليف أي مخلوق، {لَوَجَدُوا فِيهِ}، في القرآن، {اخْتِلَافًا كَثِيرًا}، حَيْثُ بِشَكْلٍ واضح كانوا وجدوا فِيهِ الكثير من الاختلافات، أما القرآن فليس فيه ولا اختلاف واحد، وَكُلُّهُ نفس الكلام.

القرآن هو دليل النبي محمد (ع) على رسالته الإلهية، وَاقْرَؤُوهُ، وَلَنْ تجدوا فيه أي تغيّر فِيمَا يقوله من أوله لآخره، بل كله متوافق مع بعضه، من الأخبار عنه تعالى وعن قراراته وأفعاله... وعن الأنبياء والتشريع، والآخرة والحساب... وَكُلُّهَا مواضيع متوافقة مع بعضها، بلا اختلاف أو تعارض بينها.

بعبارة أخرى فَقَطْ بالتركيز على محتوى القرآن الذي لا تعارض بين كلامه، سواء في كلامه عنه تعالى وعن صفاته وأفعاله وقراراته... وعن التشريعات، والقصص التي فيه... ستعلم أنه كلام من مستوى إلهي، خُذْ مثلا كتب البشر التشريعية، حَتْماً ستجد فيها قَوَانِينَ تتعارض أو لا تتماشى مع بعضها، وحين بعد حين حَتَّى الأساسيات التشريعية تتعرّض للتعديل بإلغاء شيء أو إضافة شيء، أمّا القرآن فأساسياته وتفاصيلها صلبة من ناحية التوافق مع بعضها.

بِالْإِضَافَةِ للعديد من الأدلة على إلهية مصدر هذا القرآن، ومنها أنه (ع) وطوال عمره قبل بداية نزول الوحي عليه لم يسبق له أن تكلّم بما يشبه القرآن، وهذا ما أشارت له الآية 16 من سورة يونس "{قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}"، ومنها التحدّي بتأليف سورة من مثله كما قالت الآية 23 من

سورة البقرة "{وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}"، وغيرها من الأدلة التي تضيف عليها آيتنا هنا دليلاً بسيطاً سهلاً جدا.

هَكَذَا نفهم أَنَّ الآية هنا ترجع بنا إلى الأساس، حَيْثُ كَلَامُهَا موجّه لِمُنْتَمِينَ لدينه تعالى ولكن لديهم مشكلة في طاعة الرسول (ع) في بعض الأمور، وفي هذا القرآن أمر بطاعة الرسول وَتَسْأَلُهُمُ الآية إن كانوا فِعْلاً مؤمنين بأن هذا القرآن مصدره إلهي، وبالتالي لَا معنى لرفضهم طاعة الرسول، وإلا فليعيدوا نظرتهم للقرآن من جديد ليؤمنوا به ككتاب منه تعالى، وبعدها تتوضّح الأمور أكثر، لِيَعْلَمُوا هم أنفسهم إن كانوا فِعْلاً مؤمنين، وكمساعدة ولفت انتباه لإلهية مصدر هذا القرآن وبطريقة بسيطة وسهلة وسريعة، فليتذكّروا إن سمعوا كلاما قرآنيا متعارضا مع بعضه، لَوْ كان هذا صحيحا لكان القرآن من مصدر غير إلهي ويحق لهم الاعتراض ومخالفة كلامه وبالتالي لا يجب عليهم طاعة الرسول...

اِنْتَبِهْ جَيّداً عزيزي القارئ، وَارْجِعْ إلى دراستنا هذه عند أي آية سمعت أن فيها اختلافا عن الأخرى، ولا تهتم بما فَعَلَتْهُ الغالبية العظمى من المفسرين والعلماء، لِأَنَّهُمْ بتفسيراتهم المتعددة للآية الواحدة فِعْلاً جعلوا في القرآن اختلافا، أمّا بالطريقة التي اعتمدناها هنا في دراستنا هذه، عبر البحث عن المعنى الأصلي الواحد للكلمة الواحدة، وعبر اعتمادنا لوحدة موضوع السورة الواحدة، وعبر اعتمادنا "شبه التام" على القرآن لتفسير معانيه، فَلَفَتْنَا انتباهك للكثير من الآراء المذكورة في الكتب والتي لا علاقة لها بالآيات، أو التي تفسّر الآيات من خلفيات مذهبية وطائفية...

اِنْتَبِهْ مما ألصقوه بالقرآن من ناسخ ومنسوخ على طريقتهم الخاصة، حَيْثُ خَلَقُوا في القرآن اختلافات حقيقية عبر جعلهم آية تعارض في معناها آية أخرى، وَاخْتَرَعُوا أن واحدة من الآيتين نسخت وَأَلْغَتِ الأخرى! وإذا راجعت الآيات التي جعلوها مختلفة متعارضة، ورقعوا لها نسخا، فستجدها في دراستنا هنا مختلفة عمّا فسّروه، بل ستجد أن كلامهم محض افتراء لا أساس له، ولا علاقة له بالقرآن، وَلَنْ أطيل عليك الكلام، وأطلب منك مراجعة دراستنا هذه عند كل آية سمعت أنها نسختها آية أخرى، لِتَرَى العجب من اختراعهم ومخالفتهم الصريحة لما يقوله القرآن.

بِمَا أن الطريقة المعتمدة في دراستنا هذه جديدة "نِسْبِيّاً"، لذلك لا بد أن تَجِدَ عَدَداً من الأخطاء الناتجة عن فقدان الموارد المساعدة، لِأَنَّهُ لَا القواميس "بشكل عام" اعتمدت المعنى الموحّد الأصلي للكلمة، ولا التفاسير "بشكل عام" اعتمدت وحدة موضوع السورة، ولا الرواة "بشكل عامّ" راعوا الدقة في نقلهم للروايات المفسرة...

(وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً{83})
{وَإِذَا جَاءَهُمْ}، لهذه النوعية المتباطئة، الخائفة من الموت، المتهربة من القتال، المخالفة لأوامر الرسول والمبيّتة أمراً آخر غير ما أعلنوا تنفيذه... إذا جاءهم، {أَمْرٌ}، أمر ما، شيء ما كالخبر، {مِنَ الْأَمْنِ}، من حالة استبعاد الخطر من الأعداء، أو جاءهم أمر من، {الْخَوْفِ}، حَيْثُ شعروا بخطر أكيد لا يمكن تجنّبه، وَوَصَلَهُمْ خبر أن الأعداء ينوون الحرب ويتجهزون للهجوم على المسلمين، وَعِنْدَمَا يصلهم أي خبر، {أَذَاعُوا بِهِ}، نَشَرُوهُ وَأَعْلَنُوهُ لكل الناس، من دون أن يتحقّقوا من صحته ومن دون مراجعة المسؤول عن هكذا أخبار الْعَالِمِ بما يجب فعله.

هُمْ من الأصل يريدون التشويش على أوامر الرسول (ع)، ويستغلّون الإشاعات لتضييع وتمييع أوامر الرسول (ع)، وَعَرَضَتِ الآيات السابقة حالتين، حالة أمر الرسول (ع) بكفّ اليد عن الأعداء، وفي زمن آخر حالة أمر الرسول (ع) بالتجهز للقتال، وهم قالوا له: طاعة. ولكن بيّتوا في أنفسهم غير ذلك، وعندما يصلهم أي خبر يتوافق مع ما بيّتوه ويخالف أمر الرسول (ع) فَهُمْ يشيعونه بين الناس.

بعبارة أخرى، فإن أمر الرسول (ع) بكفّ اليد عن الكفّار، ووصل خبر ما أن الكفّار يتجهّزون للقتال، فهؤلاء ينشرون الخبر على أساس أن الرسول (ع) أخطأ حين أمرهم بكفّ اليد عن الكفّار، وبالعكس عِنْدَمَا يأمرهم الرسول (ع) بالتجهّز للقتال، ويصلهم خبر ما عن طرح الكفّار للسلم فَهُمْ ينشرون الخبر على أساس أن الرسول (ع) أخطأ بأمر التجهّز لقتال عدو مستعد للتفاوض أو الاستسلام... وإن أمرهم الرسول (ع) بالتجهّز للقتال ووصل خبر ما عن قوّة شديدة لجيش الكفّار، فهؤلاء ينشرون الخوف بين الناس على أساس أن أمر الرسول (ع) بمحاربة العدو هو انتحار... وَهُمْ مهما حصل يقومون بمخالفة أمر الرسول (ع).

بالمعنى الأوسع الذي تطرحه الآية، هَؤُلَاءِ نوعية من الناس يتلقون الشائعات بسهولة ويقومون بنشرها، ولا يفكرون مرتين لا في دقتها ولا في معناها ولا في أثر نشرها بين عامة الناس...

{وَلَوْ رَدُّوهُ}، ردّوا أمر الأمن أو الخوف، خبر الأمن أو الخوف، {إِلَى الرَّسُولِ}، حَيْثُ لو أخبروا به الرسول (ع) "كنموذج عن القائد" أولا قبل أن ينشروه بين الناس، ولو ردّوه، {إِلَى أُولِي الْأَمْرِ}، المنسوب لهم الأمر، المسؤولين أو العالمين بهكذا أمور، المتولّين لشؤونهم السياسية والأمنية والاجتماعية... {لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ}، حَيْثُ منهم يوجد أشخاص يستنبطون وَيَسْتَخْرِجُونَ خبايا وتحليلات من هذه الأمور، وَهُنَاكَ أشخاص يستخرجون الخبر الصحيح من الكاذب ولديهم خبرة أو دراية بكيفية التعامل مع هكذا أمور، لأنهم متخصصون ولديهم خبرة في مواقع المسؤولية، وَالرَّسُولُ وَأُولُو الْأَمْرِ هم أدرى بما يجب فعله أمام الأخبار التي تأتي، لِأَنَّهُمْ أهل فهم ودراية ويستشيرون أهل الفهم والدراية، وَبِالتَّالِي لا يحقّ لأي شخص عادي أن يتدخل في أمور المسلمين العامّة من دون الرجوع إلى المتولّين للشؤون العامّة، فإذا وصله خبر أن العدو لا يتجهز للقتال، فلا يحقّ له أن يشيع الخبر بين المسلمين ليناموا على حرير، وإذ بالعدو يهجم عليهم لأنه خدعهم بالإشاعات...

مِنَ القرآن نعلم المواصفات لأولي الأمر، وَهُمُ المؤمنون الذين نثق بإيمانهم، وبفقههم وعلمهم ودرايتهم، وهم الذين يجب علينا جعلهم رُؤَسَاءَ علينا، سواء في المناصب الرفيعة العليا، كالرئاسة العامة، أو في المناصب العادية الصغيرة كالنائب والمختار وعضو بلدية...

{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ}، أَيْ لولا حصولكم على الأمور الجيدة التي يمنحها تعالى لكم من دون أن يكون المنح فرضا واجبا عليه تعالى، حَيْثُ لو ترككم من دون تسديد، ومن دون تنبيه، ومن دون أناس واعين، {لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ}، لكنتم على ما يقوله الذي يقوم بأعمال الضلال ويعمل على إضلالكم، وَكُنْتُمْ اتبعتم الإشاعات ووقعتم في المشاكل، {إِلَّا قَلِيلًا}، لِأَنَّ القليل منكم لا يمكن للشيطان إضلالهم، حَيْثُ إِنَّ إذاعة الإشاعات وتصديقها، لا تمشي على المؤمنين الحقيقيين الذين هم قلة قليلة.

لاحظ، ما معنى القائد الرئيس المسؤول إن كان كل واحد منّا سيأخذ القرار بكيفية التعامل مع المعطيات؟ لِذَلِكَ أي خبر يصلني من المفروض أن أوصله إلى المتولّين عن الشؤون العامّة قبل أن أنشره بين الناس، وقبل إبداء رأيي به أمام الناس، ومهما كان نوع الخبر سواء أمن أو خوف، فلا يحقّ لنا كأفراد أن نتعامل معه بحسب ما نراه نحن مناسبا، لِأَنَّ هناك أشخاص متولون للشأن العام وهذه مسؤولياتهم، وَهُمْ من المفروض أنهم لديهم خبرة في هذه المجالات، ولديهم معطيات ومعلومات عن الموضوع ومتعلقاته أكثر مما لدي، وبالتالي يعرفون ما هو الأنسب أكثر منّي.

(فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنكِيلاً{84})

{فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، أَيُّهَا الرسول (ع) "النموذج" قم بواجبك بالقيام بأنشطة تتضمّن إِنْهَاءَكَ لحياة الأعداء وَإِنْهَاءَهُمْ لحياتك حين ترى ذلك مناسبا، وضمن ما يتماشى مع أوامره تعالى فلا تكن معتديا باغيا... ولا تهتم بالمتباطئين والمتخاذلين والمبيّتين لغير ما يقولونه لك علنا... {لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ}، لا نفرض عليك شيئا يجب أن يقوم به غيرك، بل نفرض عليك شيئا يجب أن تقوم به أنت بنفسك، حَيْثُ إِنَّ تكليفك أنت الشخصي أن تقاتل، وَكُنْ أول شخص يلتزم بالتكليف حتى لو لم يلتزم به أي شخص غيرك، لِذَلِكَ قُمْ بتكليفك لأنك ستتحاسب عن نفسك ولن تتحاسب عن غيرك إن تخاذل، {وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ}، أَيْ حُثَّهُمْ وَحَمِّسْهُمْ وادفعهم للقتال.

{عَسَى اللَّهُ}، حَيْثُ مِنَ المحتمل المرجّح غير الأكيد، {أَنْ يَكُفَّ} تعالى، أن يمنع وَيُوقِفَ، {بَأْسَ}، الشيء الشديد المؤذي، الذي يمكن أن يقع عليكم من الحرب مع، {الَّذِينَ كَفَرُوا}.

نتذكّر دائما معركة أحد التي انهزم فِيهَا المؤمنون، حَيْثُ فِي البداية التزموا بالأوامر الإلهية فتحقّق النصر، ولكنهم وقبل انتهاء المعركة خالفوا أوامر الرسول (ع) وتضعضعوا وتخاذلوا وهربوا... فانهزموا، لِأَنَّهُ لَنْ يضمن سبحانه للمؤمنين النصر دائما، لأنهم هم يَقُومُونَ بأمور تستدعي أَلَّا يؤيدهم سبحانه، ولذلك ترى تعبير الآية هنا بِـ "عَسَى"، لِأَنَّهُ من غير الأكيد ولكنه محتمل مرجّح أن يتدخّل سبحانه لصالح المؤمنين ضدّ الكفّار وأن يوقف تعالى بأس الكفّار عن المؤمنين.

{وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا}، لِأَنَّ الشيء الشديد المؤذي الَّذِي يستطيع تعالى فعله، هُوَ أشدّ أقوى مما يمكن أن يفعله الكفار. وَبِمَا أَنَّكَ كمؤمن مقاتل في سبيله تعالى، لَدَيْكَ دعم من مستوى إلهي وبأسه سبحانه أشدّ من بأس الكفار.

{وَاللَّهُ أَشَدُّ}، {تَنْكِيلًا}، لِذَلِكَ فَإِنَّ الخوف من تنكيل الكفار لا معنى له لأنك مدعوم ممن هو أشد تنكيلا، والتنكيل هو إصابتك بشيء ويكون واضحا للآخرين أنك تعرضت للأذية، لِأَنَّ رُؤْيَةَ الآخرين لما حصل معك يسبّب الخوف لهم، فإن كان الكفار يهددون بالتقطيع والتعذيب... فإن تنكيله تعالى أشدّ، ونجد أمثلة عن التنكيل الإلهي بكفّار الأمم السابقة التي جعلها تعالى قردة وخنازير أو التي أغرقها تعالى أو التي تيبّست أجسادهم... ناهيك عن التنكيل المرعب في جهنم.

لاحظ وانتبه، لِأَنَّ الْمُجْرِمِينَ من أي دين كانوا فهم مثل بعضهم، مجرمون متوحشون، يتفننون بالتعذيب والتقطيع... وَتَنْكِيلُ المؤمنين الحقيقيين بأعدائهم هو البأس في قتالهم بلا هوادة، وليس التعذيب والتقطيع... وَوَاقِعاً الاقتتال عمل وحشي ولم يغيّر القرآن وصفه بالسوء حتى عندما أمر المؤمنين بقتال الأعداء، وبرّر سبحانه كثيرا وبالتفاصيل لأوامره لنا بقتال الآخرين بِأَنَّهَا اضطرارية لأنهم هم معادون للمؤمنين... ولم يسمح تعالى لنا بالتمثيل والتنكيل بالأعداء على طريقة المجرمين، وَهَذَا تاريخ الرسول (ع) بكلامه مع أصحابه يريك منعا من تعذيب الأسرى، ومنعا من التمثيل بالجثث...

هنا فحوى كلام الآية يشير إلى ما يصيب المسلمين من رعب من الأعداء الذين يقومون بأعمال إجرامية متوحشة بمن يقع تحت أيديهم، وبذلك يخاف المسلمون من قتالهم، لِأَنَّ الْكُفَّارَ لا ناموس لهم، وَيَفْعَلُونَ أي شيء يخطر على بالهم، أمّا الملتزمون بأوامره تعالى فلديهم حدود لتصرفاتهم، فهل هذا الواقع يرجّح كفّة الكفّار بالانتصار على المؤمنين؟ لا، حَيْثُ تَكَفَّلَ سبحانه بالانتقام من المجرمين بعذاب خالد رهيب في شدّته في الآخرة لهذه النوعية من الناس، فإن كانوا متباهين بالتنكيل الذي يفعلونه بالمؤمنين، فسبحانه أشد تنكيلا منهم.

هكذا نرى، أنه تعالى الإله، وضع لنا حدودا في تعاملنا مع الأعداء، وأخبرنا أنه أعلم منّا بهم، وبالتالي، بحسب حقيقة فكرهم ونفسيتهم ونواياهم أثناء قيامهم بأفعالهم، سيجازيهم تعالى، وسيكون تنكيلا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وسيكون دقيقا بما يستحقونه بالضبط، لأننا أمام إله بعلمه الفائق بكل نواياهم، وبقدرات فائقة لتنفيذ ما يريده بهم.

(مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً{ (85{

{مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً}، الذي يستخدم مكانته المعنوية كوساطة لشخص ما، وهنا الكلام في أجواء القتال لِأَنَّ الشفاعة هنا لشخص كافر وقع تحت قبضة المسلمين بغارة أو أسر من معركة... وتوسّط أحد المسلمين ليتركوا الكافر، فإن كانت شفاعة، {حَسَنَةً}، جيدة لأن الكافر ليس من المحاربين المعادين، وليس من الكارهين للمسلمين، وربما خرج للقتال ضد المسلمين غَصْباً عنه، وأنه إذا تعرف على الإسلام فسيسلم لأنه طيب القلب... فهذه شفاعة حسنة ومن سعى بها، {يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا}، أَيْ لَهُ حصّة محدّدة كأجر منه تعالى على هذه الشفاعة، لأنه مؤمن ويحق له أن يشفع وَهُوَ سينال حصة من عمل الخير الذي فعله لأنه سيتقاسم الخير الذي سينتج عن إيمان المشفوع له، لِأَنَّ كُلَّ بقية المسلمين المؤمنين المشاركين في أعمال أدت إلى أسر الكافر الذي أسلم، كُلُّهُمْ لهم أجر منه تعالى على إسلام الكافر، وبطبيعة الحال وَالشَّافِعُ له أيضا له نصيب من الأجر.

{وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً}، حَيْثُ يعلم أن الكافر الذي وقع بيد المسلمين خبيث ولن يؤمن، ويعلم أنهم إن تركوه فسيرجع كما كان عَدُوّاً للمسلمين... ورغم ذلك طلب له الشفاعة، أَيْ طَلَبَ أن يتركوه، فهذه شفاعة سيئة، وسوف، {يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا}، حصة أكيدة "مكفولة" سيحصل عليها من هذه الشفاعة السيئة، حَيْثُ سيحصل الكافر على الأمان بسبب شفاعته له، وبالتحديد بسبب كفالته له كضمانة على عاتقه أن هذا الكافر مسالم وفيه خير... بينما هو لا يزال عَدُوّاً للمسلمين، وَلِأَنَّ كُلَّ عمل سَيِّئٍ سيقوم به، أَيْضاً بِكَفَالَةٍ وَبِالتَّأْكِيدِ سوف يحصل من شفع له على حصة سيئة مما عمله الكافر، وهذه الحصّة كفل، لِأَنَّهَا مكفولة له أي مضمون حصوله عليها.

{وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا}، عَالِماً حَاسِباً للقوت للحصص وللمقادير، وَيَحْسِبُ نصيبك "قوتك" من حسنات الشفاعة الحسنة بدقة، ويحسب نصيبك من سيئات الشفاعة السيئة بدقة. حَيْثُ إِنَّ كَلِمَةَ "قوت" نستعملها عادة لنعبّر عن الحصة من الطعام، ولكنها عامّة وتعني أي حصة من أي شيء، وهنا تعبّر عن الحصة من الحسنات أو السيئات.

(وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً{86})
يَا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ}، أَيْ قال لكم أحدهم تحية، كلاما لطيفا عند ملاقاتكم له مثل: السلام عليكم. صباح الخير... {فَحَيُّوا}، أَيْ رُدُّوا كلام ملاقاته، {بِأَحْسَنَ مِنْهَا}، فلتكن تحيتكم أحسن من تحيته، مَثَلاً تردّ قائلا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. صبّحكم الله تعالى بالخيرات... {أَوْ رُدُّوهَا}، أَيْ تَرُدُّ على التحية كما قيلت لك.

الكلام هنا عمومي لكلّ من حيّاك، كائنا من كان، وتجد في عدة مواضع من القرآن صدور تحيّة من المؤمنين للكافرين، كما ورد في الآية 55 من سورة القصص "{وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}"، لِأَنَّكَ كَمُؤْمِنٍ بالدين الإلهي لا يحقّ لك أَلَّا تردّ على تحيّة من حيّاك، فإن لم يكن أهلا للتحية بسبب فساد دينه وسلوكه فأنت أهل لأن تردّ التحية لصلاح دينك، وأقل شيء تفعله مع من لا ترغب بتحيّته "السبب إيماني" أن تردّ عليه التحيّة كما حيّاك بالضبط، صباح الخير، حَيْثُ تَرُدُّ بصباح الخير.

{إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا}، وهنا الكلام عن مراقبة تصرفاتنا، حَيْثُ أقول: حسبي الله على ما يحصل معي. وأقصد أن مراقبته لي في حالتي تكفيني لِأَنَّنِي أتوقّع منه تعالى تدخلا مناسبا، وهنا مراقبته تعالى لحالة تصرفنا مع من حيّانا كافية لأنه تعالى سيفعل بنا بعد ذلك ما يراه مناسبا، حَيْثُ أصدر أمره لنا برد التحية، وبناء على تصرفنا سيفعل سبحانه ما يراه مناسبا، وَإِنْ أطعت آجرني وإن عصيت عاقبني. وَاسْتَعْمَلَ القرآن كلمة حسيبا أربع مرات، وفي الْأَرْبَعِ ناسبها قصد: شاهدا مراقبا.

فيما سيلي سترى أن الآية هنا تقصد تعليمنا الأخلاق الإيمانية الراقية، ولا تقصد أن نكون بسطاء ساذجين مع كلّ من ألقى التحيّة علينا على أساس أنه يحبّنا وأنه من المؤمنين... لِيَخْدَعَنَا، لا، وسترى بعد بِضْعِ آيات أن الكلام هنا يقصد أن من حيّاك أَعْلَنَ لك أنه ليس مُعَادِياً لك، فإن كنت متأكّدا من بقائه على عداوته للمؤمنين، فعلى الأقل ردّ عليه التحية كما قالها لك.

ضع في بالك أن الكلام القرآني بشكل عام يعتبر أنك ملتفت لمختلف الظروف، حَيْثُ إِنَّهُ من السخافة أن تتلقّى تحية سلام ودعاء بالخير من العدو أثناء تضاربك معه بالقتال، وَهَذَا واضح جدا، وأضربه لك كنموذج عن عموم خطابات القرآن التي افترضت انتباهك للظروف المتعلّقة بالكلام، لِأَنَّ الكلام هُنَا عن ظروف تلقيت فيها تحيّة من شخص ما، وفي ظروف مناسبة يبدو فيها أن من ألقى التحية ليس مُعَادِياً لك، والكلام هنا ليس عن تحيّة أهل مجتمع مسلم مع بعضهم البعض، بل عن شخص لا تعرفه، أو تعلم أنه كان من المعادين... وهذا ما ستراه من تكملة الآيات.

رَدُّ التحيّة على أهل مجتمعك المسلم لا نقاش في وجوبه، وهنا الكلام عن تحيّة من غير المسلم كتعبير منه على نفيه لمعاداته لك، فعلى الأقل يجب أن تردّ عليه التحيّة بمثلما قال لك إن لم تكن تريدها أن تكون أفضل من تحيّته.

إِنْتَبِهْ لحال المسلمين فيما بينهم من المعاداة، لِأَنَّ الآية "وما سيلي من آيات" تفترض أنك كمؤمن لن تعادي مؤمنا آخر، وكمسلم لَنْ تعادي مسلما آخر، لِأَنَّ هذا هو أساس التديّن، وما يحصل من معاداة بين المسلمين وتحت عنوان التديّن والدين هُوَ نفاق وفسق تناوله القرآن ونبّه منه، وآيتنا هنا ليست بعيدة عن هذه الأجواء.

بقي شيء نفهمه من الآية، حَيْثُ إِنَّهُ سبحانه حين أمرنا بالانتماء لدينه، لم يرد لنا أن نشكّل عصابة خاصة مغلقة تجعل الآخرين خارجها على أساس أنهم أقل منّا، أو من الصعب الانضمام إلينا... وَهُنَا الآية تعطي معنى الانفتاح على الآخرين...

كما ترى مَا زِلْنَا في أجواء موضوع السورة عن تقواه تعالى في الناس.

(اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً{87})
انتبهوا لكل ما تَفْعَلُونَهُ، لأن المحاسب المراقب هو:

{اللَّهُ}، المنسوب له هذا الاسم المحدّد المميز، {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، فلا يوجد كائن آخر موصوف بأي صفة إلهية غيره سبحانه وتعالى، وَوَحْدَهُ لديه القدرات والصفات الفائقة، والكلام هنا عن جميع ما سبق من تقواه تعالى، وَخُصُوصاً عن أمره سبحانه لكم بردّ التحية على كلّ من ألقى عليكم التحية "في الظروف المناسبة"، لِأَنَّ هَذَا أمر صادر ممن لا إله غيره.

{لَيَجْمَعَنَّكُمْ}، حَيْثُ بِالتَّأْكِيدِ سيجعلكم مع بعض أيها الناس، {إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، إلى زمن القيام من الموت، وَلَنْ يفلت ولا واحد منكم من ذلك اليوم، حَيْثُ كُلُّكُمْ من أول بدايتكم إلى آخر لحظة في الحياة الدنيا ما قبل يوم القيامة، حَيْثُ إِنَّ كُلَّكُمْ سيتم جمعكم بدون استثناء، {لَا رَيْبَ فِيهِ}، أَيْ لَا يوجد ولا أي احتمال ضعيف بأنه لن يحصل جمعكم كلّكم حين قيامكم من الموت، حَيْثُ حَتْماً وبالتأكيد سيكون هناك يوم قيامة من الموت وكلّكم مجموعون فيه.

{وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا}؟ لِأَنَّ اللَّهَ الإله الواحد الأحد الذي لا إله غيره، حدّثنا فقال لنا ونحن نسمع كلامه: سوف أجمعكم إلى يوم القيامة. فهل يوجد أحد أصدق منه تعالى، لِأَنَّ رَبَّنَا عز وجل لا يكذب ولا يمزح ولا يغيّر رأيه ولا يملّ ولا ينسى... لِذَلِكَ يَوْمُ القيامة سيحصل يعني سيحصل، فانتبهوا من مخالفة أوامره تعالى.

تذكّر دَائِماً أننا كبشر جَعَلَ سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرّف عليه سبحانه من ملاحظة أفعاله "آياته في خلقه" ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء... وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق بالقوّة الإلهية الفائقة عند الوقوع في الشدائد... لِذَلِكَ وَضَعْنَا كلمة نصف بها الكائن ذَا الصفات والقدرات العالية جدا عن قدراتنا، وهي كلمة "إله" كوصف لِذِي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلّق به عند الوقوع في الورطات...

فِي الحقيقة الْكَائِنُ الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة هو الله سبحانه، وَتَسَاهَلَ الناس في استعمال كلمة إله لتنطبق على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، حَيْثُ يُطْلِقُونَهَا على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أن فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص "{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي...}".

الْقُرْآنُ يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهي، حَيْثُ يُقَوِّمُ اللغة ككلّ، وَيُقَوِّمُ دقة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة "إله"، حَيْثُ يُخْبِرُنَا أنها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرّج في استعمالها.

الْمُشْرِكُونَ الناطقون باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... اسْتَعْمَلُوا كلمة إله بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

قَارِنْهَا مع كلمة "ربّ"، حَيْثُ أَنَا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... لِأَنَّ هَذِهِ كلمة تتحمّل التدرّج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهي، فهي لا تتحمّل التدرّج، وَهِيَ حَصْراً له تعالى ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهي.

كَلِمَةُ إله في حقيقة معناها لا تتحمّل التدرج لِيُوصَفَ بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، حَيْثُ حِينَ يخبرك أنه خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، وسبحانه وظّف الملائكة (ع) التي خلقها لتنفيذ بعض أوامره... وهكذا ترى بوضوح أنه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، فماذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدّد له والمميّز "الله" جلّ جلاله فَعَلَ كل شيء، فما معنى ألوهية غيره! وهذا ملخّص مبسّط للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

أَلْفِتُ انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، حَيْثُ حَصَرُوا استعمال كلمة إله للإله الكبير، واستعملوا للآخرين وصف الربّ، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربّة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون: إله المطر وإله الحرب... وعلى كل حال إِنَّ الْقُرْآنَ رفض توصيف غيره تعالى

بالألوهية والربوبية من مستوى إلهي، لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ يعتقدون بوجود كائن "ربّ" مسيطر على المطر من مستوى إلهي وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم أنه توصيف لألوهية أربابهم.

مِنْ ناحية ثانية لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، حَيْثُ يَصِيرُ الهوى إلها كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان "{أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ...}"، وَهِيَ لا تشير لاعتقاد الشخص بأن هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لدين فيه ما يهواه، أَيْ عَمَلِيّاً هو يعبد هواه.

بِالنِّسْبَةِ لأصل كلمة "الله" فهناك كلام كثير حولها، ويبدو من تتبّع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حاليا بالسامية... أن الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة "إله" ومنها جرى اشتقاق اسْمِ العلم "الله"، وهذا الاسم لم يكن متداولا في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط حَيْثُ لِلْآخَرِينَ نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، لِأَنَّ كَلِمَةَ إله واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات ما يسمّى بأصل اللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة الله من وصف الإله ومتى، فهل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قديما عبر الوحي، فالأرجح عندي "استذواقا" أنه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك "استذواقا" لأن المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين بلا مستند صريح لتأكيد كلام ما، يَصِيرُ بِطَبِيعَتِهِ استذواقياً لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا ذات نفسي فِي سياق كلام آخر قَدْ أَسْتَذْوِقُ أنه تعالى هو سمّى نفسه، لِذَلِكَ لَيْسَ من المعقول ولا من المقبول منك أن تطلب حسما من الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دليلا حاسما، وَلَا مَقْبُولٌ من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنه الصَّحّ إلا اللهم إن قدّم دليلا دامغا، وهذا لا يبدو ممكنا في مسألتنا هذه.

(فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً{ 88})

{فَمَا لَكُمْ}، مَاذَا بكم، {فِي الْمُنَافِقِينَ}، في الأشخاص الذين يقولون لكم شَيْئاً موافقا للدين ولكنهم من داخلهم معارضون له، لِمَاذَا أنتم بالنسبة لهم، {فِئَتَيْنِ}؟ ولستم فئة واحدة، حَيْثُ فِئَةٌ أَيْ مَجْمُوعَةٌ لها رأي في المنافقين، وفئة أخرى لها رأي آخر؟ حَيْثُ قِسْمٌ منكم يريد معاملتهم كأنهم مسلمون رغم ظهور نفاقهم، وقسم منكم يعاملهم على أنهم منافقون؟ لِأَنَّ هُنَاكَ أُنَاساً يقولون لكم إِنَّهُمْ مسلمون، ويتحججون بأنهم تحت الضغوط التي لا تمكّنهم من الالتزام بشكل كامل بالدين الإلهي، وأنتم لا ترون أي علامة صحيحة تدل على إسلامهم! إِذْ من الواضح نفاقهم، فهل لأنهم يقولون لكم إِنَّهُمْ معكم يَعْتَبِرُهُمُ الْبَعْضُ منكم من المسلمين وآخرون يعتبرونهم منافقين، وَلِمَاذَا لستم كلّكم تَعْتَبِرُونَهُمْ منافقين؟

{وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا}، حَيْثُ بِمَا حصلوا عليه مما نتج عن نفاقهم أَرْكَسَهُمْ تعالى وَجَعَلَهُمْ يرجعون مقلوبين على ما كانوا عليه، لِأَنَّهُمْ كانوا على الكفر، ونفاقهم هو نفسه وصف لهم برجوعهم بالمقلوب إلى الكفر، هو الإركاس، وَبِمَا أَنَّكُمْ متأكدون أنهم منافقون فلماذا يَعْتَبِرُهُمُ البعض منكم مؤمنين!

{أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا}، أَيْ هَلْ تريدون أن تضعوا على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ}؟ حَيْثُ لَمْ يهده سبحانه وتركه على الطريق الخطأ الذي اختاره المنافق بإرادته؟ هؤلاء منافقون وَلَنْ يهديهم سبحانه بل سيتركهم يتيهون في الضلالة أكثر فأكثر، لأن الهداية كانت أمامهم، وتركوها، وَهَلْ حَقّاً ترغبون وتقصدون أَنَّ عِنْدَكُمُ القدرة على هداية من أضلّه الله تعالى؟

{وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ}، أَيْ مَنْ لا يضعه تعالى على الطريق الصحيح ويتركه يضلّ، فهذا الشخص، {فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا}، وتكملة الجملة تعرفها لوحدك، حَيْثُ لَنْ تجد له سبيلا لهدايته، إِذْ لَا يوجد أي مسلك تجده له لتضعه على الطريق الصحيح، لأنه هو قرّر أن يضلّ وبسبب قراره هذا فَإِنَّ اللَّهَ تعالى لن يجبره على الإيمان، وَلَنْ يتلاعب بعقله حتى يرغّبه بالإيمان، ولن ينير قلبه الذي صار أَسْوَدَ من قراراته وأفعاله السيئة...

هَؤُلَاءِ المنافقون يقولون لكم: نحن مسلمون ولكننا نخاف من الكفار الذين نعيش بينهم في بلدنا، لِذَلِكَ لَا يمكننا إعلان إسلامنا، لِأَنَّهُمْ سَوْفَ يقتلوننا أو يطردوننا من بيوتنا وأشغالنا... وكما هو واضح، فَإِنَّ هَذِهِ النَّاسَ تَعَرَّفَتْ على الطريق

الإلهي الصحيح، ولكنهم لم يتبعوه، بل بقوا مع الكفار، وكان يمكنهم الهجرة... وكما يوجد قرار عند الكفار بالبقاء كفّارا، فَهَؤُلَاءِ أَيْضاً يوجد لديهم قرار أَلّا يؤمنوا، وَهَلْ يمكنك أنت هدايتهم بمجرد اعتبارهم مؤمنين؟

أَنْتَ تعلم أنه من المستحيل أن يوجد شخص يريد أن يؤمن وسبحانه يقرر إضلاله، لِأَنَّ هَذَا مستحيل، وبما أن هذا واضح جدا، فَإِنَّ الآية تقول إنَّ من يضله ربنا سبحانه لَا يضعه على الطريق الصحيح للإيمان بالحق واتباع التشريعات الصالحة، لِأَنَّ هَذَا الشخص لن يهتدي أبدا، وهذا الشخص من الواضح أنه هو لم يكن يرغب أبدا في أن يكون مؤمنا، ولذلك يَتْرُكُهُ سُبْحَانَهُ يَضِلُّ عن الحقّ.

بعبارة أخرى، الشَّخْصُ الذي قرر أَلّا يؤمن، وقرر أن ينافق، فَإِنَّ سُبْحَانَهُ لن يجبره على الإيمان أبدا، ولذلك فإنه من المستحيل عَلَى هذا الشخص أن يتبع طريق الحق والصلاح.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية تلفت الآية انتباهنا للفئة من المؤمنين التي اعتبرت المنافقين مؤمنين، وَهَلْ مجرد اعتبار المنافقين مؤمنين سيجعلهم مؤمنين حقا! إِذْ بقوا كما هم على عقائد وتشريعات الضلال، فكيف يوصفون بأنهم مؤمنون؟ وانتبه جيّدا لمفهوم قرآني عميق تقصده الآيات المشابهة لآيتنا هنا، حَيْثُ إِنَّ مَا يعرضه الإله الأحد هو فقط الهدى، لأنه الحقّ والصلاح، ومن لم يكن عليه فهو ضالّ عن الهدى. لِأَنَّ اعْتِبَارَكَ لِمُنَافِقٍ أنه مؤمن لن يغيّر أي شيء، فَوَحْدَهَا العقيدة والسلوكيات التي هدانا لها تعالى هي الهدى، فمن يَكُ على ما يقوله تعالى فهو مهتد، ومن يَكُ على غيره فهو ضال.

طبعا ضمنا الْكَلَامُ عن هداه تعالى مبني على أنه تعالى جَعَلَ فينا القدرة على تمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، وسبحانه لا يأمر إلا بالعدل والإحسان وعموم الأفعال الخيّرة... وينهى عن الفحشاء والمنكر وعموم الأفعال السيئة... وأي تصرف غير ذلك فهو ضلال عن الحق وعن الخير...

قَبْلَ أن نكمل مع الآيات لنفهم الكلام أكثر، كَثِيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، لِأَنَّهَا لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيرا أم شرا، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فَضَلَّ عنك صيدها. وَاسْتَعْمَلَ القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، حَيْثُ لَمْ تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، لِذَلِكَ لَنْ يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى (ع) عن دين فرعون إِذْ هُوَ ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{89})
هؤلاء المنافقون:

{وَدُّوا}، سيكون على خاطرهم، {لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا}، لو تنكرون الدين الإلهي مثلما هم أنكروه، {فَتَكُونُونَ}، أنتم وهم، {سَوَاءً}، بلا فرق وَمُتَسَاوِينَ، لِأَنَّهُمْ ينافقون وَيُظْهِرُونَ لكم الإيمان، ولكنهم كفّار وسيكون على خاطرهم لو تَكْفُرُونَ مثلهم وَلَا يَكُونُونَ مَجْبُورِينَ على النفاق وَيَتَصَرَّفُونَ على طبيعتهم كما يحبون وَتَصِيرُونَ أنتم وهم كُفَّاراً مثل بعضكم البعض.

{فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ}، أَيْ لَا تجعلوا وتعتبروا من المنافقين، {أَوْلِيَاءَ}، كمرجع لكم تعتمدون عليهم، وَلَا تسمعوا كلامهم وَتُطِيعُوهُمْ ولو بكلمة واحدة، وَلَا تتبعوا ما يَقُولُونَهُ، {حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، حتى يتركوا العيش مع الكفار نِهَائِيّاً وينتقلوا إلى مكان آخر ويكون سبب هجرتهم يرضى عنه تعالى، حَيْثُ يُهَاجِرُونَ إلى مكان يتمكنون فيه من تطبيق دينه تعالى بشكل كامل وَيُقِيمُونَ الصلاة والصيام والزكاة... ولا يَعُودُونَ مَجْبُورِينَ على القيام بأي عمل سَيِّئٍ. هناك نوعية من الناس يقولون: نحن مؤمنون ولكن لا يمكننا الصلاة ولا الصيام ولا الزكاة ولا ترك شاربي الخمر والحفلات... ولا يمكننا المشاركة في قتال الأعداء... لأننا نعيش في مجتمع الكفّار ومصالحنا معهم... وسيعرفون أَنَّنَا مؤمنون إذا لم

نخالطهم، فسيقتلوننا أو يَطْرُدُونَنَا... لا، هذا ليس عذرا مقبولا، وَطَالَمَا أَنَّكُمْ لستم تقومون بممارسة دينه تعالى فأنتم كفّار تنافقون بقولكم إِنَّكُمْ مؤمنون، فَهَاجِرُوا وَاتْرُكُوا المكان الذي يسيطر عليه الكفار، ليس لأن بينكم وبينهم خلافات شخصية، فَتَكُونُوا أنتم الْمُعْتَدِينَ... لِأَنَّ هذه ليست هجرة في سبيله تعالى بل موضوع شخصي، ولكن هاجروا حتى تمارسوا إيمانكم كاملا، فهذه هجرة في سبيله تعالى.

{فَإِنْ تَوَلَّوْا}، أَيْ تركوا هذا الكلام واتجهوا باتجاه آخر، وَلَمْ يهاجروا، {فَخُذُوهُمْ}، أَيِ التقطوهم، {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ}، لِأَنَّهُمْ في مجتمع مُعَادٍ للمؤمنين ويقتل المؤمنين... وهؤلاء يعيشون بينهم، ويريدون منكم أن تعتبروهم مؤمنين حتى لا تتعرّضوا لهم بالأذى، ولديهم إمكانية الهجرة ليتركوا الكفّار ولكنهم لم يهاجروا، لِذَلِكَ فَهَؤُلَاءِ كاذبون، لِأَنَّهُمْ ينتمون للمجتمع الكافر المعادي المقاتل للمؤمنين لِذَلِكَ لَا تعاملوهم بسلام بل اقتلوهم.

{وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا}، أَيْ لَا تعتبروا أنفسكم تابعين لهم ولا هم مرجعا لكم، وَلَا تسمعوا لكلام أي شخص منهم، ولا تتخذوا منهم، {نَصِيرًا}، أَيْ لَا تطلبوا من أي واحد منهم أن ينصركم أَوْ يساعدكم في تحقيق ما تريدونه، لِأَنَّكَ تَنْخَدِعُ به وتعتبره مؤمنا وتعتمد على مساعدته في نقل أخبار عسكرية عن العدو، أو تعتمد عليه بالانضمام لك ضد العدو...

اَلْوَلِيُّ هو من كان مرجعا لك وكنت تابعا له، لِأَنَّ كُلَّ من سمعت كلامه ونفذته، فهو وليك، حتى لو كانت كلمة واحدة، وَبِمَا أَنَّكَ نفذتها صَارَ من قالها لك، وَلِيّاً لك، طبعا لم يَصِرْ وَلِيّاً لك في كل أمورك، ولكن في تلك الحادثة التي نفذت قوله كَانَ وَلِيّاً لك، لِأَنَّكَ اعتبرته مرجعا لك ولو في موضوع واحد محدّد، وسوف يحاسبك تعالى على أنك اتخذت وَلِيّاً من المنافقين، وتركت ولايته تعالى وولاية المؤمنين.

نَنْتَبِهُ جَيِّداً، حَيْثُ إِنَّ الأساس في كل القرآن أنه تعالى لم يأمر بقتال إلا المعادي، وَلَمْ يأمر تعالى بقتال الكفّار المسالمين، وهذا واضح جدا من عموم سورة الممتحنة وَخُصُوصاً من الآية 8 "{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}"، وسترى نفس المعنى في الآية التالية، لِأَنَّ الكلام هنا في الآية ضمنا يشير إلى منافق يعيش في مجتمع كافر مُعَادٍ يقتل المؤمنين، ويمكنه المهاجرة ولم يهاجر ويريدك أن تعتبره مؤمنا وهو لا يمارس أي شيء من التدين، لِذَلِكَ تَأْمُرُكَ أَلَّا تنخدع به، وَأَلَّا تعتبره مؤمنا، بل لِيَأْخُذَ عِلْماً أنك ستقتله إن استطعت، والحالات الأخرى المشابهة لهذه الناس ستتحدّث عنها الآية التالية.

بِالنِّسْبَةِ لموضوع السورة، فليس من تقواه تعالى معاملة هذه النوعية من المنافقين على أنهم مؤمنون.

(إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَآؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً{90})

اَلْآيَةُ السابقة تحدثت عن الذين ينافقون عليكم ويقولون بأنهم مسلمون، فإن لم يهاجروا من المجتمع المعادي المقاتل لكم فإذا هم كفار، فاقتلوهم:

{إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ}، إلا الذين انتقلوا إِلَى أناس مُتَفَاعِلِينَ معكم، {بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ}، بينكم وبينهم شيء مؤكّد شديد، حَيْثُ يَتْرُكُونَ البلد الكافر الذي هم فيه، وَيَنْتَقِلُونَ إلى بلد أناس كفار أيضا، ولكن بينكم وبين هؤلاء القوم ميثاق، ومن سياق الكلام نفهم أنه اتفاق على السلم أو هدنة... مؤكّد وشديد بين المسلمين وبين هؤلاء الكفّار. فِي هذه الحالة، الَّذِينَ يقولون عن أنفسهم مؤمنين ولكنهم لم يهاجروا ديار الكفر المعادي ليمارسوا تدينهم الذي يدّعونه، ولكنهم انتقلوا للعيش مع كفّار آخرين، وهؤلاء الكفّار بينكم وبينهم اتفاقية سلم أو هدنة، يَصِيرُونَ تحت ميثاق السلام الَّذِي بينكم وبين القوم الذين انتقل إليهم "المنافقون"، وكما لا يحق لكم قتل كافر بينكم وبينه اتفاق سلام أو هدنة، لَا يحقّ لكم قتل أي كافر انتقل للعيش مع الكفّار الذين بينكم وبينهم اتفاق، لِأَنَّ انتقاله للعيش معهم يعني ضمنا أنه موافق على الميثاق معكم، وهكذا لا يحق لكم قتله أو أسره.

{أَوْ}، هؤلاء الناس الذين لم يسلموا علنا، ولم يمارسوا الالتزام بالدين الإلهي، {جَاءُوكُمْ}، جاؤوا إلى المسلمين، {حَصِرَتْ}، ضاقت ومنعت، {صُدُورُهُمْ}، حَيْثُ إِنَّ تَفَاعُلَ أفكارهم ونفسيتهم مع الأمور ضاق عليهم ومنعهم، {أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ}، حَيْثُ إِنَّهُمْ يقولون لكم أنهم يشعرون أنهم لا يتحملون أن يقاتلوكم مع قومهم الكفار، ولا يَتَحَمَّلُونَ أن يقاتلوا ضد قومهم معكم. فَإِذَا وقعت الحرب بين المسلمين وبين الكفار، هَؤُلَاءِ الناس يقولون أنهم يشعرون

بالضيق في صدورهم لأنهم مجبورون أن يكونوا مع قومهم الكفار أو مع المسلمين، وهم لا يريدون أن يقاتلوا لا هؤلاء ولا هؤلاء.

انتبهوا ولا تنخدعوا، لِأَنَّ سلاحهم حاليا غير مسلط غير موجه عليكم، {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ}، حَيْثُ أَمَامَهُ تعالى خيارات عديدة ولو قرّر تعالى، {لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ}، لِأَنَّهُ يُمْكِنُهُ تعالى أن يجعلهم يتوجّهون نحوكم لتسليط وَتَوْجِيهِ أَسْلِحَتِهِمْ عليكم لقتالكم، {فَلَقَاتَلُوكُمْ} لِأَنَّ هُنَاكَ أَسْبَاباً عديدة ممكن أن تحصل ويغيّروا رأيهم ويقاتلوكم... لِذَلِكَ هم ليسوا مسلمين حتى تشعروا بالأمان من قولهم بأنهم يكرهون قتالكم...

خُذْ مثلا لو بدأ القتال بينكم وبين قومهم وأخذتهم الرأفة أو الحمية أو العصبية... ولم يتحملوا رؤية قومهم يموتون بسيوفكم، فتدخّلوا وقاتلوكم، هَذَا احتمال وارد، وَيَسْمَحُ سبحانه بحصوله، بل يَمْتَحِنُهُمْ تعالى بهكذا موقف وهو سبحانه يعلم بأنهم سينقلبون ضدّكم...

{فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ}، أَيْ تَنَحَّوْا جَانِباً، وَتَرَكُوكُمْ وتركوا قومهم، {فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ}، حَيْثُ حِينَ وقعت الحرب بينكم وبين قومهم لم يشاركوا، {وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ}، أَيْ بَادَرُوا لطرح سلمهم إليكم قبل حصول أي نشاط عسكري منكم عليهم، وَأَعْلَنُوا لكم أنهم مسالمون وليسوا محاربين لكم، ففي هذه الحالة: {فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ}، أيها المسلمون على هذه الناس، {سَبِيلًا}، مسلكا، حَيْثُ لَا يوجد لكم أي حجة حتى تقتلوهم، لأنهم فعلا لم يقاتلوكم حين وقعت الحرب، وهم فعلا لا يريدون قتالكم، لِذَلِكَ لَا يحقّ لكم أن تقاتلوهم.

لاحظ وانتبه جيدا لأن غالبية التفاسير رفضت ظاهر ما تقوله الآيات هنا، لأن غالبية المفسرين في قرارة نفسهم وأساس تفكيرهم رافضون لفكرة السلم مع كافر إذا كنت تستطيع قتاله حتى لو كان مسالما، بينما كل القرآن يؤكد على ذلك ومنه صريح الكلام هنا وصريح كلام الآية 8 من سورة الْمُمْتَحِنَةِ "{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}".

(سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيِهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُواْ إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوَاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثِقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَـئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً{91})
أيها المسلمون: {سَتَجِدُونَ}، أناسا، {آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ}، حَيْثُ لا يريدون أن يسلموا ولكن أَيْضاً لا يريدون الحرب أو المشاكل معكم، بل يريدون الأمان لأنفسهم ولقومهم أي لجماعة الناس التي ينتمون إليها وَالْمُتَفَاعِلَةِ معهم بالسلم معكم.

هذه الناس، {كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ}، كلما تعرّضوا لظروف يَتَأَثَّرُونَ بها، حَيْثُ كلما مرّوا بامتحان، {أُرْكِسُوا فِيهَا}، انْقَلَبَ موقفهم بسبب الفتنة ليرجعوا كما كانوا كُفَّاراً معادين لكم، لِأَنَّ أَيَّ مشكلة أو حادثة تحصل فَهُمْ يُغَيِّرُونَ رأيهم، وَيَنْقَلِبُونَ ضدكم! وَيُشَارِكُونَ في المعارك ضدكم!

من فحوى الكلام تفهم أنهم بعد مشاركتهم في عمل عدائي ضد المسلمين يَعُودُونَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ لا يريدون معاداتكم.

{فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ}، أَيْ إِنْ لم يتركوا المشاركة ضدّكم في الحرب، وَإِذَا لم يكونوا على الحياد ولم يقفوا جَانِباً، {وَلَمْ يُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ}، أَيْ لَمْ يطرحوا عليكم سلمهم، وَلَمْ يبادروا ويعلنوا لكم أنهم مسالمون معكم لا يُعَادُونَكُمْ، {وَإِنْ لَمْ يَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ}، أَيْ لَمْ يتوقفوا عن أذية المسلمين، {فَخُذُوهُمْ}، أَيِ الْتَقِطُوهُمْ ولا تتركوهم، {وَاقْتُلُوهُمْ}، أَيْ أَنْهُوا حياتهم، {حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ}، في أي مكان أمكنكم أن تطالوهم، فاقتلوهم.

{وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ}، أيها المسلمون، {عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا}، وَاضِحاً، لِأَنَّكُمْ لستم تقاتلونهم مع الشك في صحة قتالهم، لا، بَلْ لَدَيْكُمْ سلطان بذلك، حَيْثُ إِنَّ هذا الكلام الإلهي يوضّح لكم تبرير ضرورة قتلهم، لِذَلِكَ أَنْتُمْ لستم تقتلون مُسَالِماً بل تقتلون عَدُوّاً كَامِناً.

تصورها مثل حالة قيام جماعة منهم بمهاجمة مسلمين، وبعدها يَقُولُونَ إِنَّهُمْ لم ينتبهوا أنهم مسلمون، وأنت تعلم أنهم كاذبون. أو يهاجم بعضهم المسلمين ويأتي المسؤولون عنهم ليقولوا إِنَّهُمْ شباب طائشون...

لاحظ وانتبه لشيء في غاية الأهمية لتضعه في بالك دَائِماً، حَيْثُ إِنَّهُ سبحانه وتعالى في قرآنه هذا يتحدث معنا بكل شفافية في كل المواضع، وَبِنَاءً على ما جعله فينا من قدرة على تمييز الخير من الشرّ والصلاح من الفساد... كلّفنا باتباع الخير والصلاح الذي نعرفه، ووعدنا بثواب على ذلك، ومدة بعد مدة أوحى لبعض الناس لتصويب ما تشوّه من قدرتنا على تمييز خير الأمور من شرّها بسبب اختيارنا لفعل السوء الذي من تكراره يؤدي إلى تدرجات من فقداننا التمييز بين الخير والشرّ...

زَوَّدَنَا تعالى مدة بعد مدة بكتب تكون لنا مَرْجِعاً لنصوّب فكرنا ونفسيتنا، وفي هذا القرآن ترى أنه تعالى لا يعرض عليك الأمور بجفاف الصلابة في الأوامر، حَيْثُ لَا يقول لك: آمن بهذا وافعل ذاك وإلا عذبتك. وللأسف هَذَا ما يعلق في ذهن الكثيرين من بعد قراءتهم القرآن بدون تأمل ودراسة، بينما كل كلام القرآن في كل المواضيع كان بشفافية عَارِضاً عليك معلومات يمكنك بسهولة أن تراها حَقّاً لتصدّقها، وَعَارِضاً عليك تشريعات وسلوكيات فيك القدرة على رؤيتها خَيْراً لتلتزم بها.

هنا لاحظ كيف يعطينا سبحانه ما يمكن أن تصفه بالتبريرات والتخريجات وأسباب قتل أو ترك كافر، ويصفها بالسلطان، حَيْثُ مِنْ بَعْدِ الشروحات صارت الأمور واضحة بشكل قانوني للتعامل مع الحالات المختلفة للكفّار.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً{92})
{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً}، الْمُؤْمِنُ أَيِ المعتقد الملتزم بالدين الإلهي لا يقتل وَلا ينهي حياة المؤمن الآخر عن قصد، حَيْثُ يحصل أن يقتله بالخطأ عن غير قصد، كما يحصل عند اللعب بالسلاح أو في أخطاء الصيادين أو في المعارك عند الاشتباه به بأنه من الأعداء... ولاحظ تعبير الآية بدقّة: فالمؤمن لا يمكن أن يقتل مؤمنا إلا عن غير قصد وبالخطأ، وإلا فهو فاقد لصفة الإيمان، وسيأتيك وصف حال القاتل المتعمّد في الآية التالية.

{وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً}، أَيْ أنهى حياته عن غير قصد، {فَتَحْرِيرُ}، يَجِبُ عليه أن يخلّص من العبودية، {رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ}، عبد مؤمن يُعْتِقُهُ ليصير حُرّاً.

ومع عتق العبد، يجب أن يدفع، {دِيَةٌ}، وهي المال الذي يدفعه كتعويض بدل القتل بالخطأ، {مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ}، حَيْثُ يجب أن يدفع القاتل "بالخطأ" الديّة إلى الذين كان ينتمي إليهم المؤمن المقتول، وهم ورثة المقتول "أولاده أو أبيه..."، إِذْ يجب عليه تسليمها لهم، وَيُبَادِرُ إلى السؤال عن الفدية المناسبة التي يُوَافِقُونَ عليها... ولم تحدّد الآية مقدار الديّة، لأن القاتل قد يكون هو وأهله فقراء، فلو حدّدت الآية مقدارا عاليا للديّة، لما استطاع كل الناس الالتزام بها، وَلِذَلِكَ تركتها لتقدير الناس بحسب اختلاف الظروف المالية للقاتل ولأهله، ولكن اشترطت الآية موافقة أهل المقتول على قيمة الدية ونوعها بالتعبير عن استلامهم لها.

{إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا}، أَيْ أن يتصدق أهل المقتول على القاتل بالدية، فيسامحوه بالدية ولا يأخذوها، ولا يطلبوا منه أي شيء آخر، ومن عموم القرآن تفهم أن الصدقة تكون على المحتاج، فهنا الكلام يفترض أن القاتل فقير والديّة سترهقه ماليا، فسيبيع بيته أو يستدين... حَيْثُ لَمْ يوجب القرآن على أهل المقتول أخذ الديّة، وأخبرنا أنهم يمكنهم اعتبارها صدقة، أمّا إن كان القاتل غنيا فلم تشر الآية له لأنه لا مشكلة ولا حرج في أخذ المال منه وَلِأَنَّ تركها له لن يكون مَوْصُوفاً بأنه صدقة عليه.

{وَإِنْ كَانَ}، المؤمن المقتول بالخطأ، {مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ}، من أناس تفاعلهم معكم الضرر لكم، وَضِمْنِيّاً الْكَلَامُ عن أعداء كفّار أو من أهل الكتاب على خلفية أن المسلمين لا يتعادون، {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ}، أَيْ يقوم القاتل بإعتاق عبد مؤمن فقط ولا يدفع القاتل بالخطأ الدية لأهل المقتول.

يَبْدُو بالتحليل من ربط منع دفع الفدية بالعداوة، أن سبب هذا التشريع هو حرمان العدو من مال سيتم استخدامه بطريقة أو بأخرى وبشكل مباشر أو غير مباشر للمساهمة في الاعتداء عليكم.

{وَإِنْ كَانَ}، المؤمن المقتول، {مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ}، وأيضا ضمنا كلام الآية عن قوم كفّار أو من أهل الكتاب ولكن بينكم وبينهم شيء مؤكّد بشدّة، وهنا المقصود وجود اتفاق هدنة وسلام مؤكّد مشدّد عليه، {فَدِيَةٌ}، أَيْ يدفع القاتل مال كتعويض، {مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ}، حَيْثُ يتم تسليمها وَتَوْصِيلُهَا لورثة المؤمن المقتول، {وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ}، حَيْثُ مع الديّة يقوم بإعتاق عبد مؤمن، ولم تحدد الآية مقدار الدية، بل اعتمدت أن مقدارها يكون بالاتفاق مع أهل المقتول حتى يقبلوا بكميتها ويقبلوا استلامها.

ولاحظ أنه حتى لو كان أهل المؤمن المقتول كُفَّاراً، ولكن بسبب وجود اتفاق بينهم وبين المسلمين، فيجب دفع الديّة إلى أهله الكفّار.

{فَمَنْ لَمْ يَجِدْ}، أَيْ لم يكن معه ما يدفعه كديّة، أو لم يكن باستطاعته تحرير رقبة مؤمنة، {فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ}، أَيْ يَصُومُ ستين يوما.

{تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ}، لِأَنَّهُ ارتكب جرما، حتى لو بالخطأ، لِأَنَّ هناك مؤمن مقتول، حَيْثُ إِنَّ دَفْعَ الدية وتحرير الرقبة أو صيام شهرين حتى يفتح له تعالى صفحة جديدة ولا يحاسبه على القتل.

اَلِاسْتِهْتَارُ، والتهاون، والتصرف الأهوج... سبب من أسباب وقوع قتيل، لِذَلِكَ يَجِبُ أن يتوب القاتل عبر دفع الدية وتحرير رقبة وإن لم يستطع فيصوم شهرين. وكما ترى أَنَّ هَذَا نموذج بارز عن المفهوم القرآني الذي لا يغيّر وصف العمل السيّء مهما كانت الظروف، حَيْثُ إِنَّ القتل حصل بالخطأ ورغم ذلك، فإن القاتل إن لم يدفع الدية فسيحاسبه تعالى على التمنع عن دفع الدية.

حَتَّى لا يخطر ببال القاتل أنه قتل بالخطأ ولا شيء عليه، تأتي الجملة هنا لتنبهه أن العمل السيّء وقع منه، وعليه حساب، لِأَنَّهُ من الصعب أو شبه المستحيل أخذ كامل الاحتياطات ووقوع قتل بالخطأ، فحتى لو كان المقتول مشاركا في تكوين الظروف التي أدت لقتله، باستهتاره وقلّة حذره... وطبعا لم يقصد الانتحار فعلا ولكن استهتاره أدّى إلى قتله، فلو كان القاتل حذرا محتاطا محترما لنفس الآخرين... فمن الصعب جدا وقوع قتل، ولذلك تُحَمِّلُ الآيات القاتل مسؤولية حصول القتل، ولذلك فرضت عليه الدية وتحرير الرقبة، وإن لم يدفعها مُعْتَبِراً أنها توبة له عن الجزء الذي يتحمل فيه المسؤولية عن وقوع القتل، فسيحاسبه تعالى.

في الروايات نجد تحديد مبالغ كبيرة كديّة، حَيْثُ الْبَعْضُ منها يصل إلى أربعة كيلوات ونصف من الذهب، أو مئة جمل أو ناقة، أو مئتي بقرة... بينما القرآن لم يحدّد مقدار الدية، وَجَمْعاً بين الروايات والآيات نرى أن المسلمين فهموا أن الدية يجب أن تكون عالية إلى أعلى درجة ممكنة، وذلك تماشيا مع ما يظهر من الآيات بالتشديد للانتباه من القتل بالخطأ، وحتى ينتبه الناس "على الأقل" من القيمة العالية للفدية، فَيَحْتَاطُونَ أكثر عندما يَلْعَبُونَ بالسلاح، أو عندما يُسْرِعُونَ بالسيارات... لِأَنَّ القيمة العالية للإنسان المؤمن تَكُونُ مفقودة عند المستهترين والجهلة، ولكن القيمة المالية المرتفعة للفدية تَجْعَلُهُمْ ينتبهون أكثر.

{وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا}، حَيْثُ يعلم كل شيء، وَيَعْلَمُ إن كان القتل مقصودا أو بالخطأ، فإذا كانت الأدلة كلها تشير إلى القتل بالخطأ ولكن عند أهل المقتول يوجد شك، فسبحانه عليم، وسوف يحاسب القاتل في يوم القيامة إن كان متعمدا للقتل، فليلتزم أهل المقتول بما قاله تعالى. هذا من جانب ومن جانب آخر فهذا التشريع عن علم، لِأَنَّ بَعْضَ الناس يأخذهم الغضب أو العصبية وَيُصِرُّونَ على اتهام القاتل بأنه متعمّد، أو لا يهمّهم إن حصل القتل بالخطأ ويريدون قتل القاتل...

{وَكَانَ اللَّهُ}، {حَكِيمًا}، حَيْثُ يَرَى الصوابية في الأمور، وَلَا يَأْمُرُنَا سبحانه بأشياء عبثية بل هذا الحكم في موضوع القتل بالخطأ هو نابع من الحكمة الربانية، من الصوابية في رؤية الأمور.

بقي شيء، وَهُوَ أَنَّ تَرْكَ القرآن لتحديد قيمة الديّة نموذج عن المرونة التشريعية التي تركها تعالى لنا لتتناسب مع مختلف الظروف والأزمنة والمجتمعات، والكثير من العلماء لم يتعاملوا مع الروايات التي تحدّد قيمة الدية من هذا المنطلق، وَاعْتَبَرُوهَا تحدّد الدية لكل زمان ومكان، وهذا غير صحيح. فِي المجتمع الفقير يكون مبلغ العشرة آلاف دينار طَائِلاً يَشْتَرِي عِدَّةَ عَقَارَاتٍ، ويكفي كمصروف سنين لعائلة... وهو نفس المبلغ في مجتمع آخر أو في زمن آخر لا

يشتري متر أرض ولا يكفي مصروف شهر... ولكن على أي حال يَجِبُ أن تكون الديّة عالية بالنسبة للمجتمع الذي حصلت فيه الحادثة حتى تنمو ثقافة احْتِرَامِ الناس لحياة بعضهم البعض.

(وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً{93})
{وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا}، أَيْ يَقْصِدُ إنهاء حياة مؤمن، {فَجَزَاؤُهُ}، أَيِ المقابل على فعلته، {جَهَنَّمُ}، المكان الموصوف بسوء ما فيه، حَيْثُ فِيهِ النار المتأججة الحارقة، وليس فيه ماء للشرب ولا طعام سائغ للأكل... {خَالِدًا فِيهَا}، أَيْ لَا يموت ولا يفنى بل يبقى فيها إلى الأبد.

{وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ}، لِأَنَّهُ لَنْ يُمَرِّرَ تعالى القتل عمدا بدون ردّ قَاسٍ وَلَنْ يسامح القاتل أبدا، ولن يخفّف تعالى عنه أبدا.

{وَلَعَنَهُ}، أَيْ طَرَدَهُ تعالى من رحمته وَلَا يرأف به.

{وَأَعَدَّ لَهُ}، أَيْ جَهَّزَ سبحانه للقاتل، {عَذَابًا عَظِيمًا}، أَيْ ضَرَراً لا يمكن تحمله بسبب شدته، لِأَنَّهُ لَنْ يكون عذابا سهلا، ولن يعتاد القاتل عليه، بل بشكل دائم مستمر سيشعر بالألم والمضايقة الشديدة.

نُلَاحِظُ كَلَاماً كثيرا حول توبة القاتل، حَيْثُ إِنَّ الْبَعْضَ يَقُولُونَ إِنَّهُ بناء على كلام الآية هنا حتى لو تاب فلن يقبل سبحانه توبته، بل سيرميه خالدا في جهنم. والبعض يَقُولُونَ إِنَّهُ هو القاتل نفسه لن يتوب أبدا، لِذَلِكَ بِالتَّأْكِيدِ فَإِنَّ كل قاتل لمؤمن هو خالد في جهنم.

لَكِنَّ القرآن لا يقول كما يقولون، بل الله تعالى أعلم منّا إن كان القاتل المتعمّد تاب توبة حقيقية، ولم يخبرنا أن القاتل لا يمكن أن يتوب، لِأَنَّ بَابَ التوبة مفتوح دائما، وهنا الآية تتحدث عن قاتل لم يتب توبة حقيقية، مثله مثل المشرك، ومثل من أكل مال اليتيم، أو تارك الصلاة، أو مرتكب الزنا... لِأَنَّ هَذِهِ الذنوب وغيرها تسبب الخلود في جهنم لمن لم يتب منها.

نعم، هناك شيء آخر، هناك التوفيق للتوبة، فَمَنِ ارتكب ذنبا عظيما وهو يعلم مدى فظاعة الذنب، فَهَذَا تكون نفسيته عاطلة لأقصى الحدود في ذلك الموضوع، وَحَتَّى لو أتت فكرة التوبة على باله، فَمِنَ الصعب أن يتوب فعلا، لأنه عادة سيتذكّر التبريرات التي اخترعها حين فعل السوء، وسيعيد إقناع نفسه بأنها مبررات صحيحة... ولكننا لا نجزم أن كل هذه النوعية من الناس لن تستطيع التوبة، ولكننا مُتَأَكِّدُونَ أَنَّهَا حالة صعبة، وعلى كل حال، فَإِنَّ الْقَتْلَ جريمة كبيرة جدا، وفاعلها مجرم كبير، وإخوة النبي يوسف (ع) مَرَّ عليهم عشرات السنين ولم يعلنوا التوبة، بالرغم من أنهم قرروا التوبة وأن قتل أخيهم سيكون سيئتهم الوحيدة في حياتهم! وتقرأ ذلك في الآية 9 من سورة يوسف "{اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ}"، ولم يقل لنا القرآن إن كانوا تابوا كلهم أو بعضهم أو لم يتوبوا من أصله في الفترة التي مرّت وصولا إلى اكتشافهم أن أخاهم صار عزيز مصر... وهذه إشارة واضحة أن من يصمّم على ارتكاب الذنب فليتجهز لشبه الاستحالة من التوبة الحقيقية، وخاصة إن كان الذنب عظيما كالقتل، فليتجهز للخلود في جهنم.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً{94})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الناس الذين أعلنوا أَنَّهُمْ معتقدون وملتزمون بهذا الدين الإلهي:

{إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ}، أَيِ انْتَقَلْتُمْ في الأماكن على الأرض، حَيْثُ انْتَقَلْتُمْ من مكان إلى مكان آخر، {فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، أَيْ في مسلك يرضى عنه تعالى، ولا يزال سياق الكلام عن القتال في سبيله تعالى، فإذا سافرتم للقتال إلى منطقة لا تعرفون سكانها، {فَتَبَيَّنُوا}، أَيِ اسْتَوْضِحُوا وَلَا تبدؤوا التصرف بأنشطة قتالية من دون أن تعرفوا إن كانوا معادين أو مسالمين أو مسلمين، {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ}، لمن قال لكم الكلام الذي يعبّر عن أنه ليس مُعَادِياً لكم، حَيْثُ قال لكم أي شيء يعبّر عن أنه ليس مُعَادِياً لكم مَثَلاً قال: السلام عليكم، أو قال: حياكم الله... وهو يعرف أنكم مسلمون، فلا تقولوا له: {لَسْتَ مُؤْمِنًا}، أَيْ لست معتقدا ولا ملتزما بديننا، وَتَعْتَبِرُوهُ عدوا كافرا، وَتَقْتُلُوهُ أو تَأْسِرُوهُ... فلا يحقّ لكم ذلك.

{تَبْتَغُونَ}، تطلبون وتريدون، {عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، ما يُعْرَضُ عليكم من الحياة وترونه مُهِمّاً، لِأَنَّ قبولكم لسلامه يعني أنه ليس من أعدائكم، ورفضكم لسلامه واعتباركم له ليس مؤمنا، يعني الإجازة في قتله وسلبه... فهل هذا ما تبغونه برفضكم لسلامه!

{فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ}، أشياء كثيرة ستغنمونها من القيام بأعمال حربية ضدّ الأعداء حَيْثُ تَأْخُذُونَ أملاكهم من بعد هزيمتهم، فلا تقتلوا شخصا يقول لكم إِنَّهُ مؤمن لكي تغنموا ماله وأملاكه.

لَا يذهب فكرك لمغانم في الآخرة، لِأَنَّهُ لَمْ يستعمل القرآن هذه الكلمة للدلالة على ما في جنة الآخرة، ونجد في سورة الفتح في الآيتين 19، 20 تأكيدا للمعنى الذي ذكرناه هنا، "{وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ...}"، لِأَنَّ تَسَاهُلَ الناس في استعمال كلمة غنيمة لعموم أي مكسب ليس المعنى الأساسي للكلمة التي استعملها العرب قديما لخصوص ما تأخذه من الأعداء.

{كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ}، حَيْثُ كُنْتُمْ تقتلون الآخرين لأجل الغنيمة حتى لو كنتم تعلمون أن الآخرين مسالمون، وَطَالَمَا صار بإمكانكم قتله كنتم تَقْتُلُونَهُ وَتَسْلُبُونَهُ، هكذا كنتم من قبل تقتلون لا في سبيله تعالى، بل بغيا وَعَدْواً، {فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ}، أَيْ أعطاكم سبحانه شيئا يجب عليكم شكره تعالى عليه، حَيْثُ جَعَلَكُمْ سبحانه مؤمنين لديكم ناموس مُخْتَلِفِينَ به عن الآخرين المجرمين، لِذَلِكَ صِرْتُمْ لا تقتلون لأجل المال والغنيمة، بل في سبيل الله تعالى أي فقط وفقط فيما يرضى عنه تعالى وهو قتل المعادي المقاتل.

فإن قتلتم شخصا لأجل الغنيمة، فما الفرق بينكم وبين الكفّار! وما الفرق بين حالكم الآن وحالكم حين كنتم كفّارا! حَيْثُ كُنْتُمْ قبل الْإِسْلَامِ تفعلون هذا، فإن فعلتموه بعد الإسلام فما الذي تغير! لا شيء! فانتبهوا، لِأَنَّكُمْ الآن بفضل الله تعالى عليكم صرتم مسلمين، وَصِرْتُمْ مختلفين، وَصِرْتُمْ لا تفعلون السوء، فلا تقتلوا لأجل المال والغنيمة...

{فَتَبَيَّنُوا}، أَيِ اسْتَوْضِحُوا وَلْتَكُنِ الأمور واضحة قبل أن تحكموا على شخص ما بأنه كافر وَمُعَادٍ، فلا يحق لكم قتل الآخرين على الشبهة، أو على الشك، بل يجب أن تتأكدوا أنه كافر معاد حتى تقتلوه.

نَعْرِفُ من القرآن ومن تاريخ النبي (ع) أن أي إنسان نطق بالشهادتين فهو مسلم، حتى لو قال الشهادة لا عن قناعة، وحتى لو كنت تعلم أنه تشهّد حتى لا تقتله، وَطَالَمَا أَنَّكَ في الأمان منه ولا يشكّل عليك أي خطر، فيجب تركه.

{إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}، أَيْ لَدَيْهِ سبحانه أخبار وتفاصيل كل شيء تفعلونه، وَكُلُّ الأخبار عنده تعالى بتفاصيلها، فانتبهوا، وَلَا تتغابوا على أنفسكم وتقتلوا بريئا وكأنه تعالى لا يعلم ماذا جرى، لا، لِأَنَّكُمْ تحت المراقبة.

(لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُـلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً{95})
{لَا يَسْتَوِي}، لا يتناسب وليسا في نفس المستوى أو المرتبة "لا يتساوى": {الْقَاعِدُونَ}، وسياق الكلام عن الذين لا يقومون للقتال، {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ}، الذين ليس فيهم تغيّر لحالهم بشكل سيئ، وَالْمُؤْمِنُونَ الذين ليس لديهم ضرر جسدي أو نفسي، كالمعاقين والمرضى والذين لديهم أعباء مالية لا يُتَحَمَّلُ تركها... وَهَؤُلَاءِ المؤمنون القاعدون وليس فيهم أي ضرر من القيام للجهاد، إِذْ لَا يستوون مع، {الْمُجَاهِدِينَ}، مع الذين يقومون بعمل فيه جهد، فيه مشقة وصعوبة، {فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، في مسلك متوافق مع أوامره ومرضاته تعالى، {بِأَمْوَالِهِمْ}، حَيْثُ يُجَاهِدُونَ بتقديم أموالهم للحرب أو الدفاع عن المسلمين للسلاح والتحصينات والطعام... {وَأَنْفُسِهِمْ}، حَيْثُ يُجَاهِدُونَ بها وَيَذْهَبُونَ بأنفسهم إلى القتال.

{فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ}، الأشخاص الذين يقومون بعمل فيه جهد، {بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ}، حَيْثُ اعْتَبَرَهُمْ تعالى أعلى قيمة، {عَلَى الْقَاعِدِينَ}، على الذين لم يقوموا للجهاد، حَيْثُ فَضَّلَهُمْ تعالى: {دَرَجَةً}، منزلة مرتبة، حَيْثُ حَصَلَ المجاهدون على درجة لم يحصل عليها القاعدون.

{وَكُلًّا}، وكل واحد، من المؤمنين القاعدين والمجاهدين، {وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى}، حَيْثُ إِنَّ الشيء الحسن سيكون لهم وهو الجنة في الآخرة.

{وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا}، حَيْثُ حَصَلَ المجاهدون على شيء حدّده تعالى أنهم يستحقونه من دون أن يكون واجبا عليه تعالى، ولم يحصل عليه القاعدون، وهذا الأمر عظيم، لِذَلِكَ لَا تَتَصَوَّرْ أن الدرجة هي فرق بسيط، بل فرق عظيم لِأَنَّهَا أمور توصف بأنها على أقصى المواصفات الحسنة.

سَنَرَى من الآية التالية أن فرق الدرجة هو أقل شيء، وَيَصِلُ الفرق إلى درجات، وعلى كل حال، بَيْنَ الدرجة والدرجة يوجد فرق عظيم، لِأَنَّ الناس في يوم القيامة درجات، ودرجة واحدة تجعلك مع الذين يقفون يتحاسبون وَتُجَرْجِرُهُمُ الملائكة (ع) من هنا إلى هناك، ودرجة فوقها تجعلك جالسا مرتاحا يصلك الشراب والطعام... ودرجة في الجنة تجعلك تبتهج وتفرح، ولكن درجة واحدة أعلى منها تجعلك مبتهجا سعيدا بشكل هائل أكثر من الدرجة التي قبلها...

نَنْتَبِهُ أشد الانتباه، حَيْثُ مِنَ القرآن نعلم أن الجهاد واجب على جميع المسلمين القادرين على الجهاد، والآية هنا تتحدث عن حالة لا يجب فيها على الجميع أن يخرجوا للقتال، لِأَنَّهَا حرب أو معركة أو غارة... لا تحتاج لعدد كبير من المقاتلين، لِذَلِكَ يُمْكِنُكَ الذهاب أو البقاء، أما لو كانت الحرب بحاجة لك ولم تذهب، فأنت ملعون هارب من الزحف، وراجع في ذلك ما ورد في سورة التوبة عموما ومنه الآية 118 "{وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ...}"، لِأَنَّ الآية هنا لا تتحدث عن حالة يجب فيها على الجميع القتال ودفع المال، بل عن حالة يحق لك فيها الاختيار بين الذهاب والبقاء، وتختار بين دفع المال أو لا.

أكرر لك، أَنَّ الْقَاعِدِينَ هنا الموعودون بالحسنى والذين فضّل تعالى عليهم المجاهدين، ليسوا قاعدين عن قتال واجب على الجميع، لا، بل قاعدين عن قتال لا يجب على الجميع المشاركة فيه، وللفقهاء مصطلح لذلك يُسَمُّونَهُ بالواجب الكفائي، كعملية صغيرة "يكفيها" بضعة أشخاص، حَيْثُ هُنَاكَ من يتحمّس ويذهب دائما ليشارك في كل عمل، وهناك من يقعد ولا يشارك إلا في الأعمال التي تتطلّب مشاركة الجميع، وَفِي هَذِهِ الحالة تقول الآية إِنَّهُ تعالى فضّل المجاهدين على القاعدين، وَالْحَالَةُ مثل حالة فرق الجيش، الذي يذهب البعض منه في عمليات خاصة والآخرون سيشاركون في عمليات أخرى... والكلّ يشاركون في حرب شاملة...

(دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{96})
مجرد خروج المجاهدين، ومجرد دفع المال للمجاهدين يسبب العلو دَرَجَةً عن القاعدين، ولكن هل الفرق دَائِماً درجة واحدة فقط؟ لا:

{دَرَجَاتٍ مِنْهُ}، لِأَنَّ مَنْ يتعب، ينتصر، يموت، ينجرح، يؤسر... ونيته صافية في سبيله تعالى، فهذا سيكون له درجات وليس درجة واحدة، لِذَلِكَ قِيمَتُهُ فوق قيمة الآخرين بكثير.

وللمجاهدين بأموالهم وأنفسهم، {مَغْفِرَةً}، حَيْثُ يَتَجَاوَزُ سبحانه عن ذنوبهم، لِأَنَّ فِي كل خطوة وحركة... إِنَّ لهم حسنة تَمْحُو سيئة...

وللمجاهدين بأموالهم وأنفسهم، {رَحْمَةً}، عناية إلهية خاصّة لهم لما فيه مصلحتهم.

{وَكَانَ اللّهُ غَفُورًا}، حَيْثُ يَغْفِرُ ذنوب من أطاعه وتقرّب منه، وَبِسَبَبِ انضمامه للجيش المسلم المقاتل في سبيله تعالى، وليس بَاغِياً ولا مُعْتَدِياً... فَهَذَا سَيَنَالُ المغفرة الإلهية عن ذنوبه.

{وَكَانَ اللّهُ رَحِيمًا}، حَيْثُ لَدَيْهِ رحمة خاصة للمؤمنين، عناية خاصّة لهم لما فيه مصلحتهم، ولذلك سامح من لم يجاهد عند انتفاء الحاجة إليه، وزاد في ثواب المجاهد، ويغفر له... أمّا غير المؤمنين من منافقين وفاسقين فلا مغفرة لهم ولا ثواب...

(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً{97})
{إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ}، تَتَوَفَّاهُمْ وَتَأْخُذُهُمْ بالتمام الكائنات الموصوفة بامتلاك شيء ما، وسياق الكلام عن أناس كانوا أحياء والملائكة تَوَفَّتْهُمْ، {ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ}، مَوْصُوفُونَ بأنهم كانوا غير منصفين ولا عادلين مع أنفسهم، لأنهم لم

يختاروا ما يناسب أنفسهم مِمَّا سَبَّبُوا العذاب لأنفسهم، وَعِنْدَمَا ماتوا كانت حالتهم: ظالمين لأنفسهم. ولا تقصد الآية أن تقول بأن الملائكة (ع) حين توفتهم تَحَدَّثَتْ معهم في القبر... بل تقصد أنهم ماتوا وهم في حالة كونهم ظالمين لأنفسهم، وفي يوم القيامة حين يحدث النفخ في الصور وَيَعُودُونَ إلى الحياة، وتسألهم: {فِيمَ كُنْتُمْ}؟ ما قصتكم، لِمَاذَا لم تكونوا مؤمنين؟ وهذا نفس فحوى الآية 93 من سورة الأنعام "{وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ...}".

قال هؤلاء الناس: {كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ}، حَيْثُ فِي الأرض التي كنا نعيش فيها كنّا تحت حكم وسيطرة أشخاص أقوى منا وكنا ضعفاء أمام قوتهم، وهذا هو سبب وصفهم بالظالمين لأنفسهم، لِأَنَّهُمْ كانوا يعرفون الحق والصلاح المتمثّل بهذا الدين الإلهي، ورغم ذلك فضّلوا بقاءهم تحت حكم الكفّار بإرادتهم ولم يمارسوا الإيمان.

قالت الملائكة (ع) لهم:

{أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا}؟ لِأَنَّ الأرض التي تعيشون عليها ليست ضيّقة وليست محصورة حيث كنتم مستضعفين، حَيْثُ هُنَاكَ الكثير من الأماكن على الأرض التي يمكنكم الذهاب إليها والعيش فيها، لِمَاذَا بقيتم تحت حكم الظالمين ولم تهاجروا منها؟

أُولَئِكَ الذين يقولون عن أنفسهم "مستضعفين"، فَلْنَتَمَاشَ مع قولهم ونعتبر أَنَّنَا صدقناهم، ولكن ألم يكن بإمكانهم مغادرة أرض الكفر ليمارسوا تدينهم؟ {فَأُولَئِكَ} مأواهم، حَيْثُ لَهُمْ مكان محدّد لهم ليبقوا فيه وهو، {جَهَنَّمُ}، المكان الموصوف بسوء ما فيه، {وَسَاءَتْ مَصِيرًا}، لِأَنَّ هُنَاكَ عدة أنواع من المصير، وجهنّم أَسْوَأُ مصير، كأتعس نهاية يمكن أن يواجهوها ولن تتغيّر.

هَذِهِ النوعية من الناس التي كانت تعيش تحت حكم كفّار أقوى منهم، ولم تَتَمَكَّنْ من القيام بممارسة دينهم، من صلاة وصيام وزكاة... وكانوا يطبّقون أحكام الكفار الفاسدة السيئة ولا يطبقون أحكامه تعالى في الزواج والطلاق والميراث والعقوبات والخلافات... وكان يمكنهم مغادرة بلاد الكفّار إلى بقع أخرى لا تمنعهم من ممارسة تدينهم، وعلى الأقل بِإِمْكَانِهِمْ إنشاء دولة لهم من الصفر في بقعة ما... ولكنهم لم يهاجروا، حَيْثُ ظلموا أنفسهم وَلَمْ يَكُونُوا منصفين عادلين مع أنفسهم لأنهم سبّبوا لها أن تتحاسب كما يتحاسب الكفّار، وسنرى من الآية التالية أنه يوجد مُسْتَضْعَفُونَ حَقِيقِيُّونَ، وهم الممنوعون بالقوة من مغادرة أرض الكفار.

اِسْتَعْمَلَتِ الآية إخبارنا الآن عن عقاب هَؤُلَاءِ الناس بـ "جهنّم"، وهي كلمة تشير للمكان الموصوف بسوء ما فيه، لِأَنَّهُمْ لم يهاجروا لاعتقادهم بحسن المكان الذي هم فيه، ولاعتقادهم بسوء المكان الذي سيهاجرون إليه تاركين ديارهم... لِذَلِكَ اسْتَعْمَلَتِ الآية التعبير بجهنّم للمقارنة بين المكان الذي يعتقدون أنه سيّء إذا هاجروا هنا في الدنيا، وبين المكان السيّء الذي هم ذاهبون إليه في الآخرة.

بقي شيء، حَيْثُ فَهِمَ البعض من آيتنا هنا أن الملائكة (ع) وأثناء أخذها لحياة الظالمين قالت لهم: {فِيمَ كُنْتُمْ}...، أو بعد توفّيهم وقبل يوم القيامة سألوهم {فِيمَ كُنْتُمْ}، فَيَقُولُونَ إِنَّ هذا الحوار حصل قبل يوم القيامة من الموت فيما يسمونه بعالم البرزخ، ولكن عموم القرآن وآياتنا هنا تتماشى تماما مع التعبير عن موتهم وهم في حالة ظالمين لأنفسهم وَتَكَرَّرَ هذا الوصف مرارا في القرآن، وفي يوم القيامة تسألهم الملائكة (ع)... فلا داعي لتفسير الحديث هنا في القبر أو في عالم البرزخ... لِأَنَّهُ لا يتماشى مع بقية ظاهر القرآن، ولا ضرورة له، وكما ترى فَإِنَّ مَعَانِيَ الآيات مستقيمة وواضحة بدونه...

(إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً{98})
{إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ}، إلا الضعفاء الحقيقيين أمام قوّة الذي تسلّط عليهم من الكفّار، لِأَنَّ هَؤُلَاءِ لا يوصفون بأنهم ظَالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ لِأَنَّهُمْ فعلا لم يستطيعوا المهاجرة لممارسة إيمانهم وماتوا على هذه الحالة، {مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ}، أَيِ الرجال الْقَادِرُونَ على اتخاذ قرار السفر أو تحمّل جهده... والنساء اللَّوَاتِي عِشْنَ غَصْباً عَنْهُنَّ تحت حكم الكفرة، {وَالْوِلْدَانِ}، من إناث وذكور صغار السن، لِذَلِكَ هؤلاء لن يكون مصيرهم جهنم لأنهم، {لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً}، أَيْ لم يجدوا أي طريقة تمكنهم من الهجرة من أرض يحكمها الكفّار، كالممنوعين من السفر وهم تحت المراقبة، والفقراء جدا وَلَيْسَ

معهم تكاليف السفر... {وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا}، أَيْ لا يجدون المسلك الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، والكلام هنا عن الهجرة، لِأَنَّهُمْ يحاولون ولكن لم يتمكنوا من وضع أنفسهم على الطريقة التي تخرجهم من أرض الكفار.

لاحظ الدقة في توصيف حالتهم، لِأَنَّهُمْ لم يقعدوا ويقولوا: ليس بيدنا حيلة، ولا يمكننا فعل شيء. بل شغلهم الدائم هو محاولة إيجاد طريقة للخروج، لِذَلِكَ هؤلاء فقط يقبل القرآن وصفهم بالمستضعفين ويقبل عذر بقائهم تحت حكم الظالمين المانعين لهم من ممارسة تديّنهم.

(فَأُوْلَـئِكَ عَسَى اللّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً{99})
{فَأُولَئِكَ} الأشخاص، {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ}، حَيْثُ هُنَاكَ احتمال مرجّح ولكن غير أكيد، أن يعفو تعالى عنهم وَلَا يَتَوَقَّفَ سبحانه عند ما فعلوه وَيَمُرَّ عنه، وهذا العفو ليس محسوما بل احتمال راجح، فإن اجتمعت كل الظروف التي تؤكد بأنهم مستضعفون ولم يستطيعوا الخروج، وإذا حاولوا بأقصى جهدهم ممارسة تدينهم... فعندها ينالون العفو عن بقائهم تحت حكم الكفار، وينالون العفو عن تركهم ما لم يستطيعوا تنفيذه من حكمه تعالى وشريعته.

اَلْعَفْوُ عنهم ليس محسوما مثلما هو ليس محسوما على أي مؤمن آخر، لِأَنَّهُ طَالَمَا نحن أحياء فنحن معرضون لارتكاب أعمال سيئة، وبعبارة مباشرة وصريحة كمفهوم قرآني عام، لَيْسَ هناك عمل تقوم به أو حالة تعيش فيها، وتضمن لك دخول الجنّة لتفعل بعدها ما تشاء، لا، لِأَنَّ وَحْدَهُ الإيمان والعمل الصالح حتى آخر لحظة من حياتك يضمن لك دخول الجنّة. وَحَتَّى لا يقول هؤلاء إنَّ معهم عذرهم ويوسّعوه ليستهتروا بالعمل الصالح أو يرتكبوا السيئات على أساس أَنَّ معهم عذرهم... تأتي كلمة عسى هنا لتنبههم أَنَّ حالة ضعفهم التي جعلتهم مجبورين للبقاء تحت حكم من يمنعهم من ممارسة تدينهم، لَيْسَتْ كافية لهم ليدخلوا الجنّة.

{وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا}، حَيْثُ إِنَّهُ سبحانه ليس صُلْباً قَاسِياً جَافّاً يأخذ مَوْقِفاً وَاحِداً ولا يغيّره، بل من طلب العفو ولو في أي زمان ومهما صدر منه في السابق، فسبحانه سيمنحه العفو، وَيَمُرُّ عن فعلته ولن يطالبه بما فعل، طبعا إن كانت نيّته صادقة بالندم وترك السيئات، وَاللَّهُ {غَفُورٌ}، حَيْثُ يَتَجَاوَزُ عن ذنوب من طلب منه المسامحة.

نَفْيُ تأكيد حصولهم على العفو حتما، واستعمال تعبير: عسى أن يعفو تعالى عنهم. لأن الاحتمال ليس من الجانب الإلهي، لِأَنَّهُ عفو غفور، وَالِاحْتِمَالُ متعلق بسلوكهم هم إن كانوا يستحقون العفو والمغفرة أم لا.

(وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللّهِ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{100})
{وَمَنْ يُهَاجِرْ}، أَيْ مَنْ يترك تماما مكانا ما، وهنا الكلام عن تركه للمكان الذي يحكم فيه الكفار، {فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، حَيْثُ هَاجَرَ لأجل سبب يرضى عنه تعالى ويأمر به، مَثَلاً لم يَعْتَدِ أو يَبْغِ على الآخرين ويريد الهرب... فإنه، {يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيراً}، حَيْثُ يَجِدُ أماكن كثيرة، وَيَجِدُ، {سَعَةً}، حَيْثُ لَا يجدها ضيقة في المساحة ولا في الموارد، لِأَنَّ فِيهَا فَسَاحَةً وَوَفْرَةً، إِذِ الأرض كبيرة والموارد المائية والزراعية والحيوانية... موزّعة عليها، لِذَلِكَ يُمْكِنُ العيش على البقع المختلفة الكثيرة على الأرض.

{وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا}، تاركا ما كان له ليبيت فيه، {إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ}، حَيْثُ إِنَّ تركه لبيته كان بقصد طاعة الله تعالى ورسوله (ع)، {ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ}، تصل حالة فقدان الحياة إليه ويصير فيها، حَيْثُ يَفْقِدُ حياته على الطريق قبل إدراكه وَقَبْلَ وصوله للمكان الذي كان يقصده، {فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}، لِأَنَّهُ كان مؤمنا مستضعفا بين كفار، ولم يكن يَسْتَطِيعُ القيام بكل واجباته الدينية خوفا من الكفار، وعندما استطاع المهاجرة بادر فورا وغادر بلد الكفار، ولكنه مات على الطريق، ولم يصل إلى حيث يمكنه القيام بواجباته الدينية، حَيْثُ مَاتَ قبل أن يستطيع الصوم والصلاة والزكاة والجهاد وتطبيق شريعته تعالى... فهو لا يزال عمليا غير ممارس لتدينه، ولكن بما أَنَّهُ هاجر قاصدا الله تعالى ورسوله (ع) فعندها وَقَعَ، {أَجْرُهُ}، ما يستحقّه على هجرته، {عَلَى اللَّهِ}، حَيْثُ إِنَّهُ سبحانه سيتكفل بموضوع أجره، وَسَيَكُونُ له حسنات ينالها في الآخرة.

{وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا}، هنا الكلام عمّن آمن ومنعته الظروف من ممارسة تدينه فهاجر ومات قبل إثبات التزامه عمليا، حَيْثُ إِنَّ سبحانه سَيَعْتَبِرُهُ نَجَحَ في الامتحان ولن يحاسبه على سيئاته السابقة.

{وَكَانَ اللَّهُ رَحِيمًا}، حَيْثُ لَدَيْهِ عناية خاصة لما فيه مصلحة المؤمنين، وَيُعَامِلُهُمْ معاملة خاصة.

كما نرى هنا، أَنَّ هذا المؤمن عامله سبحانه برحمته الخاصة، حَيْثُ غفر له ما سبق من واجبات لم يقم بها بسبب كونه تحت حكم الكفار، وحين هاجر ومات في الطريق ولم يستطع الوصول إلى حيث يقوم فعلا بتطبيق التزامه الديني، فَبِالرَّحْمَةِ الإلهية الخاصة بالمؤمنين وقع أجره على الله تعالى، وَصَارَ أجره مُعْتَبَراً أنه عليه تعالى، لِأَنَّ هَذَا كلامه تعالى عن نفسه يعني أنه سبحانه تكفّل بحساب أجر حسن مناسب له ليجازيه به يوم القيامة.

من مات ولم يفعل شيئا من الدين، حَيْثُ لَمْ يُسَجِّلْ له أجر على الصلاة والزكاة والجهاد... وَهُوَ هاجر ليحصل على الأجر الإلهي من الالتزام بالدين الإلهي، ومات قبل ذلك، فهل راحت عليه وَفَاتَهُ القطار، لا، لِأَنَّ هُنَاكَ شَيْئاً يستحقّه وسبحانه سيحسبه له.

(وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوّاً مُّبِيناً{101})
بمناسبة الحديث عن الهجرة والحرب:

{وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ}، اللغويون لديهم فلسفات مختلفة لهذا التعبير، منها أنها من ضرب الأرجل بالأرض حين القيام بالمشي، ونحتمل أن لها مَعْنًى مَعْنَوِيّاً من التجابه مع المسافات، وعلى أي حال هَذَا تعبير عن الانتقال من مكان لآخر قَاصِدِينَ مسافة بعيدة، حَيْثُ خَرَجْتُمْ من بلدكم، {فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ}، أَيْ لَيْسَ عليكم مشكلة، {أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ}، حَيْثُ لَا مشكلة أن تجعلوها أقصر من العادة، فَتَقْصُرُونَ من الصلاة الرباعية "الظهر، العصر، والعشاء" وَتُصَلُّونَهَا ركعتين بدل الأربع، وتبقى صلاة الصبح والمغرب كما هي بناء على ما وردنا من سنّة الرسول (ع)، والحمد لله باتفاق المسلمين أن القصر هكذا، وهذا القصر، {إِنْ خِفْتُمْ}، حَيْثُ شَعَرْتُمْ بِالتَّأْكِيدِ بِخَطَرٍ لا يمكن تجنبّه، إِذْ خِفْتُمْ، {أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا}، حَيْثُ شَعَرْتُمْ بِأَنَّكُمْ حَتْماً سَتَقَعُونَ في الفتنة، لِأَنَّهُ سَيُصِيبُكُمْ شَيْءٌ تَتَغَيَّرُونَ بسببه من الكفار، حَيْثُ يُغِيرُونَ عليكم بالهجوم وَيُؤْذُونَكُمْ، فَتُعْلِنُونَ كفركم...

{إِنَّ الْكَافِرِينَ}، أَيِ المنكرين للدين، {كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا}، حَيْثُ بِشَكْلٍ وَاضِحٍ يريدون لكم الضرر ولا يريدون لكم الخير، فلذلك خفّف تعالى عنكم من الصلاة إن خفتم من وقوعكم بيد الكفار أثناء هجرتكم.

يَبْدُو من الآية أن الإجازة في التقصير من الصلاة في السفر هو في حالة الخوف من الأعداء، سواء أكنت هاربا مهاجرا، أو في حالة الحرب، ولكن انتبه، لِأَنَّ الآية ليست مخصصة لحالة السفر البعيد، فحتى لو كنت لا زلت بالقرب من بلدك، واضطررت للاختباء، وَتَتَحَيَّنُ الفرصة للهجرة، فأنت فعلا في حالة ضارب في الأرض، وإن كنت بالقرب من بلدك في طريقك للابتعاد، ولم تبتعد بعد ولكن صرت في حالة تَتَعَرَّضُ فيها لهجوم من الأعداء، فأنت فعلا ضارب في الأرض، لِأَنَّ الآية لم تتحدّث عن القصر في السفر بالخصوص، بل حالما تحوّلت لحالة الضرب في الأرض مع احتمال الضرر من العدو، فلا جناح عليك أن تقصر من الصلاة استغلالا لوقت تحتاجه للتنقّل أو المراقبة... حتى لو كنت لا زلت بالقرب من بلدك.

أكرر لك، أَنَّ الآية هنا لا تتحدّث عن حكم صلاة المسافر الذي تجاوز حدّ الترخّص في طريقه لقطع مسافة يعتبرها الناس سفرا، بل تشير لحالة استثنائية تجيز فيها لمن تحرّك تاركا بلده مهاجرا وخاف من الأعداء أن يلحظوه... فلا جناح أَيْ لَا مشكلة إِذْ سَمَحَ له تعالى أن يقصّر من الصلاة إن اضطر لذلك حتى لو لم يكن ناويا لقطع مسافة السفر، لِأَنَّهُ رُبَّمَا مُجَرَّدُ بِضْعِ مِئَاتٍ مِنَ الأمتار كافية للانتقال من سلطة الكفّار...

(وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ

فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً{102})
الآيات السابقة تحدّثت عن حالة فرد أو جماعة ليس لديها قوّة قتالية وتنتقل من مكان فيه خطر... وبمناسبة الكلام عن الانتقال في الأرض في ظروف الخطر من العدو:

{وَإِذَا كُنْتَ}، أيها النبي (ع)، {فِيهِمْ}، في المؤمنين، {فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ}، أَيْ فعّلت ولم تهمل ولم تترك التوجّه والإقبال، حَيْثُ حان وقت الصلاة الواجبة، ووقفتم للصلاة، {فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ}، أَيْ لِتَكُنْ مجموعة من المؤمنين معك للصلاة، {وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ}، حَيْثُ يَحْمِلُونَ السلاح معهم أثناء الصلاة، {فَإِذَا سَجَدُوا}، أَيْ سَجَدَ المصلون معك، وَصَارَ اتجاه نظرهم إلى الأرض ولم يعد بإمكانهم الانتباه من العدو، {فَلْيَكُونُوا}، المؤمنون الآخرون الذين لم يشاركوا في الصلاة، فليكونوا، {مِنْ وَرَائِكُمْ} لِيَتَكَفَّلُوا بالمراقبة.

لَا تقصد الآية حَرْفِيّاً أن يكون الحراس واقفين وراءكم، بل تقصد أن يقوموا بإكمال المراقبة من وراء مراقبتكم عندما تصيرون في حالة السجود ويكون وجهكم للأرض.

هُنَاكَ طائفة تصلي مجبورة على التوجّه باتجاه واحد نحو القبلة، لِأَنَّ بقية الجهات مُعَمَّاةٌ عنهم، وهناك طائفة تحرس، وكلهم يحملون السلاح، ونلاحظ التركيز على الانتباه من غفلة العين عن الأعداء ولو للحظة، لِأَنَّهُ عندما يكون المقاتلون في حالة السجود، فَإِنَّهُمْ بحاجة لثانية حتى يقفوا للقتال، لِذَلِكَ حتى هذه الثانية تركّز عليها الآية أَلَّا يكون فيها تهاون وغفلة، وَتُنَبِّهُ بأن المصلين سيفقدون الرؤية لِثَوَانٍ، فلينتبه الحراس جيدا في تلك الثوان.

{وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى}، مجموعة ثانية، {لَمْ يُصَلُّوا}، لِأَنَّهُمْ كَانُوا واقفين للحراسة، {فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ}، حَيْثُ تُعِيدُ أنت صلاتك لتصلّي بهم جماعة من جديد.

{وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ}، أَيْ لِيَنْتَبِهُوا من خطر هجوم الأعداء الذي لم تتوافر كل شروط حصوله بعد ولكن احتمال حصوله وارد، {وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ}، أَيْ لِيَكُونُوا دَائِماً حاملين للسلاح بشكل استعدادي للقتال في حال هجوم الأعداء بشكل مُفَاجِئٍ.

{وَدَّ}، أَيْ لو حصل لكان على خاطرهم، {الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا الدين الإلهي، {لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ}، حَيْثُ لَا تَعُودُونَ مُنْتَبِهِينَ لأسلحتكم، {وَأَمْتِعَتِكُمْ}، وهي الأشياء التي تحملونها معكم كالطعام والثياب والخيام، حَيْثُ إِذَا شاهدوكم غافلين عن سلاحكم ومتاعكم، {فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً}، أَيْ يَتَحَوَّلُونَ للهجوم عليكم هجمة واحدة حتى يستغلوا فرصة ابتعادكم عن أسلحتكم ليقتلوكم أو متاعكم ليسلبوه.

اَلْآيَةُ تنبّه المجاهدين من الاستهتار، لِأَنَّهُ طالما أنك في أرض حربية، في مكان من المتوقع حصول أعمال عسكرية فيه، يَجِبُ أن تكون مستعدا دائما، لِذَلِكَ لَا تَلْبَسِ الثوب والحذاء الْمُرِيحَ، وَتَخْلَعِ البدلة والجعبة والحذاء العسكري، ولا تبتعد عن سلاحك... لِأَنَّ الأعداء ينتظرون الفرصة حتى يهجموا عليكم في لحظات تَكُونُونَ فيها متراخين غافلين متهاونين، وَالْمَوْتُ لحظة، وتلك اللحظة أسرع من ركضك على متاعك العسكري.

كَمَا ترى إِذَا كان تعالى ينبهنا ويحمّلنا مسؤولية الحذر من لحظات السجود أثناء الصلاة، فما معنى الاستهتار بالعدو أثناء الحراسة أو أثناء القتال... أو قبل ذلك بالاستهتار بالاستعداد.

{وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ}، أَيْ لَا مشكلة عليكم، {إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ}، حَيْثُ تَتَضَايَقُونَ من المطر، وَتَضْطَرُّونَ للتعامل مع المطر الغزير وترك السلاح حتى تنصبوا الخيم، أو حتى تحموا الطعام والسلاح من البلل... {أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى}، حَيْثُ طَرَأَ على جسمكم خلل، وَلَا قوة لكم على حمل السلاح، أو يؤذيكم حمل السلاح... {أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ}فِي هذه الحالات الاضطرارية يُمْكِنُكُمْ وضع أسلحتكم عنكم.

عَلَى كل حال، {وَخُذُوا حِذْرَكُمْ}، أَيْ كُونُوا منتبهين للخطر المحتمل حصوله.

{إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ}، جهّز وَحضّر سبحانه للمنكرين لدينه، {عَذَابًا مُهِينًا}، لِأَنَّهُ ليس عذابا عاديا، حَيْثُ نَعْرِفُ أنه مؤلم جدا، ولكنهم أيضا سيشعرون بالإهانة والاحتقار والذلّ...

نلاحظ الآية تأمر النبي (ع) بتكرار الصلاة حتى تصلي كل المجموعات التي معه جماعة، ونلاحظ الآية لم تحدّد العدد لتقسيم المجموعات، حَيْثُ لَمْ تَقُلْ لِيُصَلِّ نصف الجيش، ثم يصلي النصف الآخر، لا، بل قالت لِيَتِمَّ التقسيم لمجموعات صغيرة تصلي، ويبقى عدد مناسب كاف للحراسة.

(فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُواْ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً{103})

{فَإِذَا قَضَيْتُمُ}، أَيِ انْقَضَتْ وَحَدَثَتْ وانتهت، {الصَّلَاةَ}، التَّوَجُّهَ والإقبال، وهنا الكلام عن الصلاة اليومية الواجبة، حَيْثُ إِنَّ هَذَا لا يعني أن تتوقفوا عن ذكر الله تعالى بالتسبيح والتحميد والاستغفار... {فَاذْكُرُوا} الله تعالى {قِيَامًا}، وأنتم مُفَعِّلُونَ تَقُومُونَ بأشغال وأعمال، وَاقِفُونَ، واذكروه تعالى، {قُعُودًا}، وأنتم قاعدون، واذكروه تعالى وأنتم، {عَلَى جُنُوبِكُمْ}، مستلقون على ظهركم أو يمينكم... أو على الأرض...

{فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ}، أَيْ تَوَافَرَتْ لديكم معطيات استبعاد خطر الأعداء، {فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}، أَيْ فَعِّلُوا ولا تتركوا أو تهملوا التوجّه والإقبال، وهنا الكلام عن العودة إلى الصلاة بدون قصرها، لِذَلِكَ لَا تخترعوا من الأوهام ظروف الحذر لِتُصَلُّوهَا قَصْراً، على أساس أنكم مَا زِلْتُمْ مع الجيش وَمَا زِلْتُمْ تلبسون عتاد الحرب...

{إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا}، شيئا مكتوبا مفروضا واجبا، {مَوْقُوتًا}، حَيْثُ إِنَّ لَهَا وَقْتاً زَمَنِيّاً مُحَدَّداً، وَبِالتَّالِي لَا يحقّ لك تأجيلها عن وقتها. سِيَاقُ الكلام هنا عن فكرة التوقّف عن الصلاة في الظروف التي تحتمل فيها خطر العدو، على أساس أن تَقْضِيَهَا في وقت آخر، لا، بَلْ أَقِمْهَا في وقتها مراعيا الظروف المناسبة، ويمكنك أن تصليها قصرا وتحت الحراسة.

إذَا نظرنا للآيات من نظرتين سنفهمها بشكل أوضح، حَيْثُ مَرَّةً أقول: هل حتى أثناء احتمال الخطر من العدو نقيم الصلاة؟ لِنُؤَجِّلْهَا وَنَقْضِهَا في ظروف أفضل. ومن نظرة ثانية أقول: نحن بحاجة للدعم الإلهي لأننا في حالة قتال، لِأَنَّ الصَّلَاةَ ضرورية جدا حتى يعيننا تعالى. وهكذا تفهم أَنَّ الآية هنا تلفت انتباه الجميع لضرورة الحفاظ على الصلاة في كل الأحوال، لِأَنَّ الصَّلَاةَ هي ملخّص الفرق بينك وبين الذين تقاتلهم.

(وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً{104})

{وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ}، الكلام هنا عن التعامل عَسْكَرِيّاً مع الكفّار، فَلَا تتصرّفوا على أساس أن قدرتكم أقل مما هو مطلوب لقتالهم، {إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ}، تَشْعُرُونَ بالألم الجسدي من القتل وَالْجُرُوحَاتِ، {فَإِنَّهُمْ}، أَعْدَاءَكُمْ أَيْضاً، {يَأْلَمُونَ}، حَيْثُ يَتَعَرَّضُونَ للقتل والجرح، ولكن هناك فرق بينكم وبينهم، وَأَنْتُمْ، {تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ}، أَيْ تُرَجِّحُونَ حصول شيء جيد منه تعالى وترغبون في حصول، {مَا لَا يَرْجُونَ}، أَيْ مَا لا يُرَجِّحُ الكفّار حصوله ولا رغبة لهم به أَصْلاً لأنهم لا يؤمنون بشيء كهذا أَصْلاً، لِأَنَّكُمْ تحبّون وتتوقعون منه تعالى أن يغفر لكم وأن يدخلكم الجنة بسبب جهادكم، أمّا هم، {فَلَيْسَ} لديهم رجاء بذلك لأنهم لم يؤمنوا بالآخرة وحسابه تعالى حتى يتوقّعوا ويحبوا أن يُثِيبَهُمْ.

{وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا}، حَيْثُ يَعْلَمُ أنكم تألمون، لِذَلِكَ عِنْدَمَا يأمركم بقتال العدو فَلَا تظنوا أنه تعالى لا يهمه ألمكم، لا، بَلْ هُوَ سبحانه يعلم بألمكم. ومن ناحية ثانية فَإِنَّهُ عَنْ علم بمصلحتكم في الدنيا والآخرة أمركم بالقتال.

{وَكَانَ اللَّهُ}، {حَكِيمًا}، حَيْثُ عَنْ صوابية رؤيته للأمور أمركم بالقتال لِأَنَّهُ لمصلحتكم، حَيْثُ تَسْتَفِيدُونَ في الدنيا من النصر، وتستفيدون من الجهاد والجرح والقتل، لِأَنَّ هُنَاكَ جَزَاءً حَسَناً من ذلك في الآخرة ستحصلون عليه، وَجَزَاءً حَسَناً في الدنيا حيث تنتصرون وتعيشون بحرية ممارسة الإيمان والصلاح.

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً{105})

{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ}، وهو القرآن، {بِالْحَقِّ}، بالصواب، وليس بالكلام الكاذب أو الباطل أو السيّء والظلم... وتكملة الجملة تشير لتنزيله ليس لتتخيّروا بين اتباعه أو تركه لِأَنَّ هذا عبث، بل أنزلناه لتتبعوه وليتحاسب من لم يتّبعه، لِأَنَّ كلامه حقّ واتباعكم له حقّ.

{لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ}، بالصورة المحدّدة التي جعلها تعالى لك في كتابه "الحقّ الصائب" صرت ترى الأمور التي تجري بين الناس بصوابية بسبب المنظور الذي يعتمد على كلامه تعالى.

إن كانت هذه هي الحال، فَبِأَيِّ حُجَّةٍ وَبِأَيِّ مَنْطِقٍ وَبِأَيِّ عَقْلِيَّةٍ، بعضهم يحاربك! بعضهم ينافق! وبعضهم فاسق!

{وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ}، الذين لا يتصرفون كما يجب وكما هو متوقع منهم، لِذَلِكَ لَا تَكُنْ عَنْهُمْ، {خَصِيمًا}، والخصام هو عموم أي خلاف يسبب حالة نفسية بين شخصين من النفور والكره وصولا إلى العداوة، يعني لا تكن مخاصما بدلا عنهم، وَلَا تدافع عنهم أو تبرر لهم... إِذْ لَا يوجد أي عذر مقبول من هذه النوعية من الناس، وأي تصرف منك بتهاون أو بتراخي أو بتبرير للكفار... هُوَ مَمْنُوعٌ، وإذا تصرفت بأي تصرف من هذا النوع سَنَعْتَبِرُكَ تدافع عنهم وتأخذ موقفا مضادا منّا.

اَلْجُمْلَةُ هُنَا مثل جملة: لا تكن للمجرم محاميا، ولا تكن للظالمين مدافعا...

أَبْسَطُ شَيْءٍ يُمْكِنُنَا تصوره أن النبي (ع) يُفَكِّرُ أن هؤلاء الكفار بحاجة لبعض الوقت حتى يقتنعوا بدينه تعالى، ونتذكر أن الآيات السابقة تحدثت عن أناس كانوا يقولون بأنهم يحبّون الاسلام، ولكنهم مستضعفون تحت حكم الكفار ولا يمكنهم المغادرة... وَإِذَا أَخَذْتَ هذه النوعية من الناس كمثال، ونظرت إلى أن النبي (ع) يتوقع منهم أن يؤمنوا ويهاجروا...
عِنْدَهَا سنفهم أنه تعالى يأمر نبيه (ع) أن لا يكون خصيما مدافعا عن هذه النوعية، لِأَنَّهُمْ كُفَّارٌ إلا إذا فعلا أسلموا بشكل تام.

الْآيَةُ هُنَا تأخذنا إلى عمق مفهوم إلهي ينبني عليه كل كلامه تعالى، فَتَصَوَّرْ أننا محكومون بالعقلانية بشكلها المثالي حيث لا نتأثر بأهوائنا ومشتهياتنا ونزواتنا... وَسَنَتْرُكُ كل ما نراه سوءا على المدى القريب والبعيد، والآن أضف إليه إيماننا بواقع وجود إله يقول إِنَّهُ سيعيد إحياءنا ليحاسبنا، لِأَنَّهُ لَوْ كَتَبْنَا دستورا يتماشى مع هذه الأمور، سَيَكُونُ كَلَامَ حقّ، لا باطل ولا فساد ولا ظلم... فيه.

الآن قارن بين ما يمكن للبشر رؤيته من متعلقات الأمور على المدى البعيد والقريب ليروا حسنها من سوئها، وَقَارِنْهَا مع علمه الفائق سبحانه، ومع المنزّه سبحانه من أي صفة سيئة، وهكذا ترى أن كلامه تعالى هو الحقّ بعينه بكل ما تحمله كلمة حقّ من معنى.

هَذَا وَصْفُ كلامه تعالى في قرآنه هذا، كلام حقّ، ومن ناحية ثانية مَا فينا من قدرة على تمييز الحق من الباطل، والخير من الشرّ، والحسن من السوء... مِنَ المفروض أن يدفعنا للتماشي مع الكلام الحقّ، وَهَا قَدْ أرسل تعالى رسولا لنا يتمتّع بأفضل الصفات الإنسانية الراقية بقلب "أساس نفسية وفكر" سليم من الدرجة العالية، لِذَلِكَ مِنْ العادي الطبيعي بالنسبة له التماشي مع كلامه تعالى، ليس لأنه تعيّن كرسول، بل لأن الصفات التي فيه تدفعه للتماشي مع الكلام الحقّ.

جُمْلَةُ "لتحكم بين الناس" لا تشير حصرا للقضاء بينهم في أمور الخصومة، بل هي لعامّة الحكومة، لعموم ضبط الأمور على المطلوب، لعموم تطبيق الصوابية، سواء لنتعلم المعلومات الصحيحة لنؤمن بها أو نتعلّم السلوكيات الفردية الحسنة أو السلوكيات الجماعية الحسنة.

رَبْطاً بالكلام السابق وبموضوع السورة، فَإِنَّ تَقْوَاهُ تعالى وصف عملي للابتعاد عن السوء واتباع الحق، لِأَنَّ التَّقِيَّ في مسيرة حياته، هو المتجنّب للسوء، وبما أنه تعالى توعّد بالعقاب لفاعلي السوء، فَإِنَّ التَّقِيَّ عمليا متجنّب لعقابه تعالى.

ومن ناحية ثانية رَبْطاً مع آخر كلام قبل الآية هنا، مَا مَعْنَى ترك بعض الناس لما نزل عليك من الإله؟ وهو حتما الكلام الحقّ، كلام الخير الذي لا سوء فيه، لأنه صادر من السبّوح الذي صفاته فائقة في العلم الحكمة والبصيرة... هَلْ سيقف أي واحد منهم ليقول: أنا علنا وبصراحة لا أهتم بالحق والباطل، وأريد تطبيق مزاجيتي على نفسي والآخرين، وسأعادي وأقاتل كل من سيطبّق الحقّ حتى لو لم يكن يفرضه عليّ لأطبقه. عَمَلِيّاً هَذَا هو معنى معارضتهم للقرآن.

الْآيَةُ هُنَا مثلها مثل العديد من الآيات القرآنية التي يتحدّث معنا فيها سبحانه بشفافية، لِأَنَّهُ كَإِلَهٍ خالق مالك لنا، نَحْنُ عبيده المفروض منّا طاعته، وله كامل الحقّ بإصدار الأوامر لنا، وليس لدينا حالة إصداره تعالى لأوامر فاسدة سيئة مضرّة... ويجب علينا تنفيذها لأننا عبيده، لِأَنَّ هَذِهِ الحالة ليست موجودة لأن إلهنا رائع الصفات، وبالتعبير الذي يصف هو نفسه به لنتعرّف عليه يقول إِنَّهُ تَبَارَكَ وسبّوح، وترجمتها عمليا أنه حكيم عليم خبير رحيم...

مِنْ جانب نحن عبيد يجب علينا إطاعة مالكنا، ومن جانب آخر مَالِكُنَا لا يقول إلا الحقّ، فهل بقي من معنى لتدافع عن شخص أو أشخاص يعلنون أنهم لن يلتزموا بكلامه تعالى؟ وَهَلْ من معنى لتبرير أو إيجاد أعذار لمن يمنع الآخرين من تطبيق كلامه تعالى؟

ومضافا لكل ما سبق، حَتَّى النَّبِيُّ (ع) ذات نفسه يتعلّم من الحكمة الإلهي الواصلة له عبر هذا القرآن، لِأَنَّهُ رُبَّمَا لم يشعر بأي شفقة نحو بعض المنافقين والكافرين، وربما شعر بالشفقة على منافق أو كافر لأنه يحتمل فيه قابلية الإيمان، وهذا شيء ترى القرآن يشير له مرارا كما في الآية 8 من سورة فاطر "{أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}"، لِأَنَّ آيَتَنَا هنا مثل هذه الآيات التي تعلّم النبي (ع) وتعلّمنا أن كل واحد ذنبه على جنبه، ودخول إلى جهنّم بيده قراره وبإرادته، لِذَلِكَ حَاوِلْ هِدَايَتَهُمْ ولكن تعرّف على حدودك معهم لِأَنَّكَ "{لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ}" كما ورد في الآية 22 من سورة الغاشية.

(وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً{106})
أي نوع من التصرف المتراخي مع أي نوع من الكفار سنعتبره دفاعا عنهم:

{وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ}، فَاطْلُبْ منه تعالى أن يتجاوز عن سيئاتك، {إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا}، فلا يأخذ سبحانه موقفا صلبا واحدا لا يتغيّر، بل يغفر سيئة من طلب منه المغفرة.

{كَانَ اللَّهُ رَحِيمًا}، فلديه عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، ومن هذه الرحمة يغفر تعالى لهم ولا يغفر للآخرين.

انتبه جيدا، لِأَنَّ المعنى الدقيق للكلمات يجعلنا نفهم الدقة في الآيات، حَيْثُ إِنَّ الآيات السابقة كانت تخبرنا عن تعامل النبي(ع) مع نوعية من الكفار يقولون بأنهم يحبون الدين الإلهي، ولكن ظروفهم تمنعهم من التديّن، وَكَانَ النبي(ع) يتعامل معهم على أساس أنهم سيؤمنون بالكامل حين تتحسن الظروف، أما ربنا سبحانه فَحَسَمَ أمرهم، فإن لم يستطيعوا المهاجرة من تحت حكم الكفار، فهم مستضعفون مَعْفُوٌّ عنهم، أمّا إن استطاعوا الهجرة لممارسة تدينهم بشكل كامل ولم يهاجروا فهم ليسوا مؤمنين، وسيكون تصنيفهم أنهم كفّار، فانتبه كيف أمر سبحانه نبيّه(ع) أن يستغفر بسبب موقفه اللّين من هؤلاء، ولم يقل تعالى إِنَّهُ(ع) ارتكب إثما، حَيْثُ من القرآن نعلم أن من ارتكب عملا سيئا حتى لو لم يكن يعلم أنه ممنوع، فَحَصَلَتِ السيئة، أو من ارتكب سيئة من دون قصد، فعلى أرض الواقع فإن السيئة حَصَلَتْ، ولكن المغفرة والرحمة الإلهية تجعل هذا الذنب مَغْفُوراً للمؤمن، وَغَيْرَ مَغْفُورٍ للكافر، وسيئات النبي(ع) التي تحدث عنها القرآن، هِيَ من هذا النوع، لِأَنَّ النبي(ع) لم يقصد أبدا ارتكاب السوء، ولكن صدرت منه(ع) تصرفات هي في تقييمه تعالى غير مقبولة وممنوعة، مثل الليونة مع بعض الكفار والدفاع عنهم على اعتبار أن ظروفهم صعبة وهم يريدون أن يؤمنوا...

انتبه جيدا، حَيْثُ إِنَّ الآيات هنا والقرآن كلّه لم يَقُلْ أبدا إِنَّ النبي محمّد(ع) ارْتَكَبَ أي سوء عن قصد، فهذا مستحيل لأنه (ع) صفاته لا تتماشى مع فعله للسوء عن قصد، لِأَنَّ قلبه السليم يجعله كارها لكل أنواع السوء، ولنفهم ذلك نقيسه على أنفسنا بكرهنا الشديد لبعض السيئات كقتل الأبرياء، وسلب وغصب المال من الضعفاء، والكذب في أمور خطيرة... فهذه أمور نكرهها ونكره فعلها، وللأسف هُنَاكَ أُمُورٌ نعلم بسوئها ولكن نرغب بفعلها، كغيبة الذي نعتبره لا قيمة له عندنا، وكالكذب والمبالغة في أمور نريد من الآخرين أن يرونا مهمّين ولنا قيمة... وهكذا مِنَ السوء الذي نكرهه يمكننا أن نفهم وجود أشخاص يكرهون السوء الذي نفعله وقد نحبّه بالرغم من علمنا في البداية بسوئه.

الكلام يجرّ الكلام، لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لا يختار شخصا كيفما كان ليجعله نبيا أو رسولا، لا، بل يختار الذين فيهم الصفات اللائقة ليكونوا ممثلين له كخليفة...

(وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً{107})
وَلَا تُجَادِلْ}، الجدل هو عموم محاولة إقناع الآخر، وَتَدَرُّجَاتُهُ تتحدّد من سياق الكلام، وتبدأ من التمسّك بالرأي وصولا إلى الليونة، فلا تدافع عن الأشخاص، {الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ}، حَيْثُ تَتَبَرَّعُ بالدفاع عن الذين يعلمون أنهم يتصرفون بنية مُخَالِفَةٍ أَوَامِرَهُ تعالى، فالكتاب الإلهي أمامهم واضح، ولا يوجد لهم أي حجة بتركه، وهذه النوعية من الناس تعلم أنه الدين الحق، ولكنها لا تتبعه! على أساس أنهم معذورون لأنهم في بلد يحكمه الكفّار، وهم يعلمون أن هذا العذر غير مقبول، فما معنى وصفهم بالإيمان وهم لا يمارسونه بل يمارسون سلوكيات وثقافة الكفر! فلا تدافع عنهم ولا تخترع لهم الأعذار ولا بأي طريقة.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا}، فلا يحب من لا يفعل ما هو مطلوب منه، وهنا الكلام عن التاركين لدينه تعالى، فهذه خيانة، ولا يحبّ تعالى من كان {أَثِيمًا}، من يرتكب الذنب وهو يعلم بأنه يخالف أوامر ربه سبحانه.

لاحظ أَنَّ الآيات لم تترك أي مجال لهذه النوعية من الناس، فإما أن تؤمن بشكل صحيح، أو تُعْتَبَرَ كافرا، وكل عمل مخالف للدين الإلهي وتقوم به فهو إثم، لِأَنَّكَ تَفْعَلُهُ مع معرفتك أنه سوء، وعذر تركك لممارسة تدينك بسبب وقوعك تَحْتَ حكم الكافرين، فهذا عذر غير مقبول إن استطعت الهجرة.

ضع في بالك في عموم ما ورد في القرآن أَنَّهُ تعالى لا يُحِبُّهُ، حَيْثُ وَرَدَتْ حيث لا داعي للكلام القاسي، وخذ مثلا كلامك معي حيث تريد تحذيري وتنبيهي وَتَقُولُ: سأكسر عظامك لو فعلت كذا وكذا... فهذه نبرة عالية لا مبرر لها لأنك تعلم أني حاليا لست ناويا لفعل السوء، والجملة الأنسب: لا أحب أن تفعل كذا وكذا... وعلى هذا المفهوم جاءت الآيات التي وجّهت كلامها مع المؤمنين مُسْتَعْمِلَةً عِبَارَةً مشابهة لعبارة "الله يحب أو لا يحب". وهنا يبدو أن الآية تريد ترك خط رجعة لبعض الذين يحبّهم المؤمنون، فتصوّر حالة مؤمن أَبُوهُ لم يهاجر من دار الكفر، حَيْثُ تَكَلَّمَتِ الآيات السابقة بالعموم بالقساوة بقتل الذين لديهم القدرة على الهجرة ولم يهاجروا... وبعدها انتقلت للكلام مع المؤمنين الذين لديهم نوع من العاطفة لبعض الكفّار... ولم ترد البقاء على القساوة في الكلام عن الذين لديهم مشاعر إيجابية اتجاههم وَعَبَّرَتْ بأنه تعالى لا يحب الذين يفعلون كذا وكذا... فالمشكلة فيهم وليست في موقفه تعالى منهم لِأَنَّهُمْ هم سيئون فلينتبهوا لأنفسهم حتى يحبّهم سبحانه.

بقي شيء من الفضول، فما يقولونه عن إعجاز تكرّر بعض كلمات القرآن بعدد ملفت، كقولهم عن تكرار كلمة ليل 12 مرة وكلمة نهار 12 مرة... تَتَبَّعْتُ غالبية الكلمات التي قالوها ووجدت غالبية كلامهم كَذِبًا إلا في أقل من عشر كلمات، ومما تحققت وتأكدت منه كلمة شهر بالمفرد "شهر، شهرا" تَكَرَّرَتْ 12 مرة، وتكررت كلمة شهر بالمثنى "شهرين" مرتين فقط. كلمة "رجل" بالمفرد تكررت 24 مرة، وكلمة "امرأة، امْرَأَتْ" أيضا تكررت 24 مرة. كلمة "يأمرون" تكررت 7 مرات، وكلمة "ينهون" أيضا تكررت 7 مرات. كلمة "الخبيث" بالمفرد تكررت 7 مرات، وكلمة "الطيب" بالمفرد تكررت 7 مرات. وهناك كلمات أخرى فيها الكثير من التراخي والاستنسابية بحيث يلغون كلمة أو كلمات لسبب غير وجيه ويدّعون أن الأعداد متساوية كقولهم عن تكرار كلمة ملائكة والشيطان.

الغَرِيبُ أن الحالة الوحيدة الصادقة بالتمام والوضوح أَنَّهَا لَيْسَتْ مُنْتَشِرَةً في مقالاتهم وكتبهم! حَيْثُ تَكَرَّرَتْ فِعْلًا في القرآن جملة "الله يحب" 16 مَرَّةً، وجملة "الله لا يحب" 16 مرّة.

لكن، هل هذا يعني أي شيء؟ لا، لا يحتاج القرآن لِخُزَعْبَلَاتٍ من هذا النوع ليصير له قيمة أو لنؤمن بأنه من مصدر إلهي، فما فيه من حقّ وصلاح هو قيمته.

(يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً{108})
هذه النوعية من الكفار الذين يختانون أنفسهم، فيقولون: نحن نحب الدين الإلهي، ولكن ظروفنا لا تسمح لنا بالتدين، هم:

{يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ}، فلا يظهرون دينهم أمام الناس، فلا يمارسونه أمام الناس الكفار خوفا منهم، {وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ}! فلا يخفون أعمال الكفر والسوء التي يقومون بها أمامه تعالى! {وَهُوَ مَعَهُمْ}! يعني: كيف يفكرون بإخفاء الإيمان

خوفا من الكفار، ولا يفكرون بالله تعالى عندما يكفرون ويقومون بالسوء والله سبحانه معهم في كل مكان وزمان ويراهم ويراقبهم في كل لحظة وَتَوَعَّدَ بالعقاب الشديد على الكفر وفعل السوء!

{إِذْ يُبَيِّتُونَ}، الْبَيْتُ وصف لعامة ما حوى شيئا ضمنه ومن تبعات الاستعمال إخفاء ما حواه، فيبيت فيستتر في أنفسهم ولا يخرج، {مَا لَا يَرْضَى}، سبحانه أَنْ يُبَيِّتُوهُ، {مِنَ الْقَوْلِ}، فهم يخفون إعلانهم لإيمانهم، وسبحانه لا يرضى هذا التبييت، فلا يقبل هذا الإخفاء للإيمان، بل يجب أن يعلنوا إيمانهم ونكرانهم للكفر.

{وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا}، فلا يخرج أي شيء عن سيطرته، لِأَنَّ كُلَّ الأشياء تحصل في ملكه تعالى وهي تحت سيطرته ومراقبته، فهل الخوف يكون منه تعالى أم من الكفار المخلوقين التافهين!

(هَاأَنتُمْ هَـؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً{109})
{هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ}، ها أنتم أيها المسلمون، {جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ}، حاولتم تبرير ما تفعله هذه النوعية من الكفار {فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، حَيْثُ أَبْدَيْتُمْ رأيا أنتم مقتنعون به، وقلتم بأنهم مؤمنون وظروفهم صعبة ولا يمكنهم الهجرة من بلاد الكفار، ويخافون من أن يقتلهم الكفار إن علموا بإسلامهم... حسن، {فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}؟ فَفِي الزمن الَّذِي يقومون فيه من الموت ويبدأ الحساب مَنْ سيحاول إقناعه تعالى بأنهم مؤمنون؟ عَلَى أي أساس هم مؤمنون إن لم يعلنوا إيمانهم ولم يمارسوه! وعلى أي أساس سيعفو تعالى عنهم ويعاملهم معاملة المؤمنين العاملين للصالحات؟ وَهَذِهِ المسرحية التي تقومون بها هنا في الدنيا للدفاع عن هؤلاء الكفار، هَلْ هي فعلا نافعة ولها قيمة؟ وهل يمكن أن تغير أي شيء؟ لا، وهناك سيبدو واضحا أنهم ماتوا ولم يمارسوا الإيمان، حَيْثُ لَيْسُوا مُوصُوفِينَ بالمؤمن العامل للصالحات، لأنهم بقوا تحت حكم الكفّار وهناك هم ممنوعون من ممارسة الإيمان مع أنهم قَادِرُونَ على الهجرة إلى مكان آخر يستطيعون فيه ممارسة تدينهم، فَفِي يوم القيامة على ماذا سيحاسبهم تعالى برأيك؟ أليس الحساب على الإيمان والعمل الصالح؟ وهم ليسوا كذلك وكان باستطاعتهم أن يَكُونُوا كذلك لو هاجروا...

{أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا}؟ مَنْ يتجرأ منكم أو يكون لديه القدرة أن يكون على هذه النوعية من الكفار وكيلا لتسير أمورهم في الآخرة على ما يريدونه وَيَعْتَمِدُونَ عليه للخلاص من العذاب؟ هَلْ يمكن لأي أحد مِنْكُمْ أن يكون معتمدا وَيُعْطِيَهُمُ الضمان بدخول الجنة رغم حالتهم تلك؟

بِمَا أنه تعالى وَضَّحَ لكم موقفه من هذه النوعية من الكفار، فما معنى كلامكم لتبرير حالتهم؟ وَلْنُسَلِّمْ جدلا أنكم فعلا مقتنعون بأن عذرهم مقبول، ولنقل مثلا إِنَّ أحدهم لو هاجر فسيفقد أرضه التي كان يعيش منها، وسيصير فقيرا في المكان المقترح للهجرة إليه، وقلت له: معك حقّ أن لا تهاجر. هَذَا الكلام منك بماذا سينفع؟ هَلْ سيأتي يوم القيامة وتكون وكيلا له وَتَضْمَنَ له دخول الجنّة؟ حَيْثُ تَقُولُ: أنا اقتنعت بكلامه فَهَيَّا أدخلوه إلى الجنّة. هَلْ هذا شيء يمكن أن يحصل حتى تتفلسف هنا وتبرر له وتقبل عذره؟!

طبعا مرّ معك أنه تعالى يقبل عذر الذي فعلا لم يستطع الهجرة لأسباب تتعلّق بحياته وحياة عائلته... ولم يقبل الأعذار الواهية السخيفة...

(وَمَن يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُوراً رَّحِيماً{110})
على كل حال، هناك قاعدة عامة:

{وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا}، الذي يقوم بعمل سَيِّئٍ مهما كان نوعه، {أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ}، حيثُ لا يَكُونُ مُنْصِفًا مُحِقًّا، ظُلْمًا يترك عملا واجبا عليه وفيه مصلحته، وهو الإيمان والالتزام بالصالحات، ويختار القيام بأعمال فيها الضرر عليه، {ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ}، وبعدها يطلب تجاوزه تعالى عن عمله السَّيِّئِ وعن الظلم، {يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا}، يجده تعالى يسامح عن الذنب، ويجد الله تعالى {رَحِيمًا}، يجد لديه سبحانه عناية خاصة لما فيه مصلحة المؤمنين، وإلا لما غفر لهم ذنوبهم

(وَمَن يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً{111})

{مَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا}، حيثُ يكون ما حصل عليه مما نتج من عمله موصوفًا بأنه إثم، بأنه ذنب وهو يعلم بأنه يرتكب السوء عن قصد، {فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ}، حيثُ فقط وحصرا يحصل على نتاج عمله الآثم، {عَلَى نَفْسِهِ}، ولن يضر أحدا غيره، وهذه قاعدة عامة، تشمل كل من قام بعمل سَيِّئٍ، لأنه وحده سيتحاسب عن عمله السَّيِّئ.

بشكل خاص، الآيةُ هنا تنبه الأشخاص الذين يصرون على الدفاع عن بعض الكفار على أساس أنهم كفّار غصبا عنهم ويحبون الإيمان وسيؤمنون لو كانت ظروفهم مختلفة... فهؤلاء الكفّار "الذين لم يؤمنوا بعد" يرتكبون الإثم، حيثُ كسبوا منه شيئا، فهل سيلغيه تعالى على أساس أنهم يحبّون الإيمان...؟ لا، {فَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ}، وحتما سيتحاسب عليه ولن يعذره تعالى لأنه مجبور على الإثم لأنه تحت حكم الكفّار، طبعا إن كان يستطيع المهاجرة إلى مكان يستطيع فيه ممارسة إيمانه.

{وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا}، حيثُ يعلم كل شيء، ويعلم حين تقومون بالسوء عن قصد.

{كَانَ اللَّهُ} تعالى {حَكِيمًا}، إذْ ليس عن عبث قرّر تعالى أن يكون تصنيف تلك النوعية من الناس أنهم كفار، وليس عن عبث قرر المغفرة للمؤمن المستغفر...

تذكّر دائما أن تشجيعي للآخرين على ارتكاب السوء، إثم، ولي حصّة من السوء الذي يقومون به، لأنهم كسبوا من السوء الذي قاموا به سيئات لأنفسهم، وأنا كسبت من تشجيعي لهم على السوء سيئات، وهي ليست سيئات أحملها عنهم بل هي مما كسبته أنا مما نتج عن تشجيعي لهم ليفعلوا السيئات.

(وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً{112})
هناك قاعدة عامة أخرى: {وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً}، فيكون ما حصل عليه من نتيجة عمل غير صحيح قام به، عملاً خطأً، حيث ربما لم يكن يعلم بأنه خطأ، أو لم يكن مقتنعاً بأنه خطأ، في هذه الحالة، أو في حال {يَكْسِبْ}، {إِثْماً}، ويقوم بعمل ما وهو يعلم بأن ما سينتج عنه سيكون موصوفاً بالإثم لأنه عمل يعلم بسوئه، {ثُمَّ}، على كلا الحالتين بالخطأ أو عن علم بالسوء، {يَرْمِ بِهِ}، يتّهم بالخطيئة أو بالإثم، {بَرِيئاً}، شخصاً لا علاقة له، حيث يسرق أو يقتل أو يكذب... ويتّهم شخصاً آخر بهذه الأعمال، {فَقَدِ احْتَمَلَ}، حمل هذا الشخص الرامي، {بُهْتَاناً}، لأنه من دون أساس رمى التهمة على من لم يفعلها، حيث أصلاً ذاك الشخص لم يفعلها وهو رماها عليه، فهذا نوع من البهتان الذي يُوصَفُ به عَامَّةُ ما لا أساس له، سواء التهمة الباطلة كما في الكلام هنا، أو بعموم تأليف أي كلام لا أساس له من الصحة.

كما يبدو، هذا الذنب "البهتان" باتهام الآخرين بما لم يفعلوه مع العلم بأنهم لم يفعلوه هو أكبر بكثير من الذنب العادي، لأنه يوجد شخص بريء لم يفعل أي سوء، وقلت عنه إنَّهُ فعل السوء الذي أنت قمت به!

مَنْ يفعل ذلك {فَقَدِ احْتَمَلَ} {بُهْتَاناً}، {وَإِثْماً}، حمل ذنباً مقصوداً، {مُبِيناً}، واضحاً لا شك فيه.

لاحظ، فالآيات تتحدث عن القواعد الإلهية العامة التي تشمل كل الحالات الفردية، حيث أنت شخصياً حينما تقوم بعمل سَيِّئٍ فعليك أن تستغفر، ثم عرّجت على حالة ترتكب فيها السوء "عن قصد أو بغير قصد" ثم تتهم به شخصاً آخر! فهذا سيجعلك بريئاً أمام الناس، ولكن مشكلتك ستكون أكبر، لأنك بهتاناً رميت التهمة على بريء.

(وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً{113})
{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ}، فلولا الشيء الذي أعطاه تعالى لك من دون أن يكون واجباً عليه تعالى، {وَرَحْمَتُهُ}، لولا عنايته تعالى بك من مستوى إلهي لما فيه مصلحتك، {لَهَمَّتْ}، لَنَوَتْ بقوّة، {طَائِفَةٌ}، مجموعة من الكفار ومن المسلمين المدافعين عن الكفّار، لهمّوا، {أَن يُضِلُّوكَ}، فيجعلونك على الشيء الخطأ الذي لا يوصل للنتيجة الصحيحة، فلا تكون على الطريق الإلهي الصحيح، ولكن بسبب فضله تعالى عليك ورحمته فبقي "هَمّاً" ولم يتحقّق، فلم يستطيعوا إضلالك.

من الكلام السابق نفهم أنه تعالى لو لم ينبّهك أن أصحاب الأعذار والتبريرات حتى يبقوا كفاراً، فهم في الحقيقة ما زالوا كفاراً حتى يسلموا بالكامل، لهمّوا أن يُقْنِعُوكَ أنهم مسلمون حقيقيون يخفون إيمانهم غَصْباً عنهم بسبب وجودهم في بلد يحكمه الكفّار، علماً أنهم يستطيعون الهجرة إلى مكان آخر... وهكذا تضلّ عن حقيقة أنهم ما زالوا كفّاراً حقيقيين وهو ما وضّحه لك سبحانه.

{وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ}، فأنت لن تتأثر، حيث تتصرف عن نية طيبة، ولا تقصد فعل السوء بالاقتناع بكلامهم، أما هم، فبمحاولتهم إقناعك بأنهم مؤمنون، فهم فقط يضلون أنفسهم، فالطريق الصحيح الذي ينجيهم من العقاب الإلهي هو أن يؤمنوا بشكل حقيقي ويعملوا الصالحات، عندما يتحايلون، فمن المتضرر من الحيلة؟ فهم المتضررون لأنهم سَيَكُونُونَ على الشيء الخطأ الذي لا يوصلهم للشيء الصحيح، فسيدخلون النار مع الكفار، {وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ}، فأنت أيها النبي(ع) لن يتغيّر حالك وما حولك للأسوأ، فلن تتحاسب عنهم أو بسببهم.

{وَأَنزَلَ} عليك {الْكِتَابَ}، وهو هذا القرآن، وأنزل عليك، {الْحِكْمَةَ}، فصرت ترى صوابية الأمور، فصارت أقوالك وقراراتك صائبة على التمام كما هو مطلوب لأنها مبنية على كلامه تعالى، {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ}، حيث علمك الحقّ والباطل والحلال والحرام والصح والخطأ... فمن غير المتوقع منك أبداً أن تقوم بأي عمل سَيِّئٍ.

سياق الكلام هنا عن تعليمه تعالى لك رفض أعذار من استطاع الهجرة من بلاد الكفّار ليمارس تدينه، فهذا نموذج تطبيقي عن الفضل الإلهي والرحمة بالمؤمنين عبر الكلام مع النموذج محمّد(ع)، فهو نفسه الكلام موجّه لنا بفضله تعالى ورحمته علينا بتوضيح عامّة الأمور أمامنا لنراها بوضوح، فالكتاب وصلنا وتعلّمنا منه الحكمة.

{وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً}، فما منحك ويمنحك إياه تعالى من دون أن يكون واجباً عليه سبحانه، فهذا المنح يوصف بأنه عظيم حيث إنَّ مواصفاته من أعلى المواصفات، فأي فضل أعظم من الهداية الإلهية بالكتاب والحكمة والتعليم الإلهي؟ فلا يوجد فضل أعظم منها.

نكرر الكلام، فلا تزال الآيات تتناول الحديث عن كفّار ما زالوا في بلاد الكفّار، ولا يمارسون أي شيء من واجبات الدين الإسلامي، ويقولون بأنهم سَيَكُونُونَ متدينين لو أمكنهم ذلك... فتعاطف النبي(ع) وبعض المؤمنين معهم... وجاءت الآيات هنا لتتحدّث عنهم في سورة تمحورت حول تقواه تعالى، فهل تقواه تعالى تتضمّن اعتبار هؤلاء كمسلمين؟ لا.

ضع في بالك أن الهمّ "هممت" هو: جاءت الفكرة على البال للتنفيذ، فنويت على فعل شيء وباشرت به ولكنه لم يتحقق لسبب ما. وهنا لم يتحقّق إقناعهم للرسول(ع) بإيمان الكافر الذي لم يهاجر من بلاد الكفار بالرغم من قدرته على الهجرة، فهم همّوا بذلك، أي لم يتحقق ذلك.

(لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً{114})
لدينا مسلمون يتحدثون عن بعض الكفار بشكل إيجابي؟: {لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ}، من حديثهم مع بعض بشكل خاص وبحرية الأريحية بين المتوالفين مع بعض، حيث إنَّ الكثير من أحاديث الناس الخاصّة لا خير فيها، لا نفع فيها، إذ ربما تكون عن سوء، أو تضييع الوقت بأمور تافهة جداً، وهنا الآيات تتحدث عن المسلمين الذين يتحدثون عن حسنات بعض الكفار، حيث هناك كلام لا يقولونه علناً أمام الجميع، ويتداولون به بين بعضهم البعض في اجتماعاتهم الخاصة، وغالبيته لا خير فيه.

{إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ}، فكان يتناجى ويتحدث في مجالسه الخاصّة آمِراً الآخرين بالصدقة، ليشجعهم على مساعدة الناس المحتاجين أو تقديم مساعدات لمنافع عامّة للمسلمين.

{أَوْ} تناجى، بـ {مَعْرُوفٍ}، فكان يتحدث عن عمل متعارف عليه بين المؤمنين العقلاء أَنَّهُ جيد، كالقيام بأمور فيها منفعة للنفس وللآخرين...

{أَوْ} تناجى عن، {إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ}، لأنَّ الناس التي بينها فساد بسبب الخلافات، فهو يتحدث حتى يساعدهم على حلّ مشاكلهم... ويشمل ذلك توعية الناس فيما يتخالفون فيه سياسياً أو دينياً أو...

{وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ} "الأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح" {ابْتِغَاءَ}، رغبة في، {مَرْضَاتِ اللَّهِ}، فلا يقصد أن يصير زعيماً ولا يقصد أن يحصل على المال... بل يقصد رضاه تعالى عنه فيقبل عمله بمحبّة، {فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً}، حيث هناك شيء حدّده تعالى كاستحقاق لمن قام بهذه الأعمال ولن يكون عادياً، بل أكثر بكثير مما يمكن تصوّره من قصور وحدائق ومباهج في الآخرة.

في ذيل الآية التالية سنتكلم عن الآية هنا بالنسبة لسياق الكلام.

(وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً {115})
{وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ}، الذي يصير في شِقٍّ مبتعداً عنه(ع)، من نوعية الأشخاص الذين يجتمعون ليتناجوا بالحديث بأمور تخالف الدين الإلهي، {مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ}، من بعد ما توضّح له، {الْهُدَى}، الأشياء العقائدية والتشريعية والسلوكية الصحيحة التي توصله للغاية الصحيحة، {وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ}، حيث يكون على مسلك غير مسلك المعتقدين بالدين الإلهي في حياتهم وَيَتْرُكُ الوحدة مع المؤمنين والمتمثلة بالرسول، فيصير له جماعة خاصة به كالذي يخترع فرقة أو طائفة أو مذهباً خاصاً به...

فهذا المنشقّ، {نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى}، نجعله يذهب بالاتجاه الذي ذهب إليه، كما نقول: أين تُوَلِّ، أين تذهب في أي اتجاه في فكرك أو عملك؟ فهذا ولّى وتَرَكَ الرسول(ع) وترك الطريق الذي يسلكه المؤمنون وذهب في اتجاه آخر، فسوف نُوَلِّهِ ما تولّى، حيث نجعله يذهب في الطريق الذي اختاره، {وَنُصْلِهِ}، حيث نجعله يتعرض ويقف أمام، {جَهَنَّمَ}، المكان الموصوف بِسُوءِ ما فيه، لأنَّ فيه النار المتأججة، {وَسَاءَتْ مَصِيراً}، حيث إنَّ هناك مصير حسن ومصير سيّء، وجهنم هي أسوأ مصير، أتعس نهاية لا تتغيّر، لأنَّ مشاقّة الرسول وتوليه لغير المؤمنين نهايتها جهنّم، ومساره بهذه السلوكيات سيكون إليها، وسيحقق له تعالى وصوله لهذه النهاية.

سياق الكلام لا يزال حول مسألة كفر الذي يستطيع الهجرة ليمارس تدينه، وتبيّن بالشرح القرآني كل شيء، ورغم ذلك بقي أناس يتناجون مُعَارِضِينَ للحقّ في هذه المسألة أو غيرها، وهنا الآية تنبه الجميع أنَّ الرسول يمثّل خط الإيمان لأنه نموذج عن المؤمنين، وأي شقاق عنه فلن يكون موصوفاً بالبقاء على الإيمان، فمن يعتقد أنَّ تَمَيُّزاً برأي يجعله في شقاق عن عامّة المؤمنين، فهو لم يعد منهم.

للأسف، من السخرية أن نعتقد أننا على حقّ والبقية مخطئون فننبذهم ونرفضهم ونعلن أننا غيرهم، وهي نفس هذه النقطة لا يفعلها المؤمنون الحقيقيون، لأنهم لا يؤطرون أنفسهم بشكل يجعل الآخرين خارج جماعتهم، حتى إنَّ تسمية نفسك بجماعة الحقّ، جماعة رسول الله، جماعة أهل البيت... هو تأطير لا يفعله المؤمنون الحقيقيون، وهذا واضح جداً من كلام الآية هنا.

(إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً {116})
{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ}، عندما تجعل أي شريك لله تعالى في الألوهية أو في التشريع، فأنت ترتكب ذنباً لن تتسامح عليه، حيث مهما فعلت من حسنات، فكلها لا تكفي لغفران ذنب الشرك، مثلاً تموت وعليك ذنب الغيبة ولم تستغفر منه، يوم القيامة يتم سحب حسناتك وإعطاؤها للذي استغبته حتى يرضى عنك ويسامحك "مثلاً"... فإذا كان عندك ما يكفي من حسنات، فسوف يغفر تعالى ذنب الغيبة لأنك قمت بأعمال حسنة، ومثلاً تموت ولم تستغفر من ذنب لم تنفعه معادلته بحسناتك ولا بالشفاعة ولكنه لم يكن يستحق الخلود في النار، تقضي فترة في النار تكون للحظة أو تمتدّ لمليارات السنين، ولكن في الأخير تخرج من النار، أمّا الشرك به تعالى، فنتيجته الخلود في النار ولا يوجد أي حلّ معها.

نلاحظ سياق الآيات، حيث كانت تتحدث عن الذين يتركون الرسول(ع) والمؤمنين ثم يخترعون طريقهم الخاص، وهم الكفّار الذين يقولون إنهم يحبون الإيمان ولكنهم مجبرون على الكفر بسبب ظروفهم الصعبة، تكمل الآيات الحديث عنهم بأنهم فعلياً مشركون وسبحانه لديه قرار نهائي حاسم مع هذه النوعية من الناس، فلا مغفرة لهم ولا بأي شكل.

{وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ}، أي شيء غير الشرك، حيث هناك احتمال أن يتم غفرانه ومسحه، سبحانه يغفر، {لِمَنْ يَشَاءُ}، حيث أمامه تعالى خيارات عديدة وأخبرنا تعالى أنه شاء غفران زلّات المؤمنين العاملين للصالحات أو ما تابوا منه، ومن ناحية ثانية لا يمكن لأي أحد أن يطالبه تعالى بأن يغفر له.

انتبه، نحن نلاحظ دائماً في القرآن تعابيرَ مثل هذا التعبير: لمن يشاء. انتبه ولا تفهم منها المزاجية، ولا تفهم منها أنه تعالى هكذا على المزاج يغفر لهذا ويعاقب ذاك، وعلى المزاج يهدي هذا ويُضِلُّ ذاك... لا، لا، لا. كلما ورد شيء يشير إلى تعلق المشيئة بالله تعالى، وأن الأمور تحصل كيفما هو سبحانه يشاء، فهي تعني أنه تعالى أمامه خيارات عديدة وشاء فقرّر واحدة منها.

أخبرنا سبحانه في القرآن عن قراراته، حيث شاء وقرّر أن يغفر للمؤمنين وأن يدخلهم الجنة... وأن يعاقب المجرمين... وهذا القرار الإلهي لن يتغير، وهذا ما شاءه الله تعالى. دائماً ضع في بالك أنه تعالى حكيم عليم... غفور رحيم بالمؤمنين... وشديد العقاب للمسيئين... وعلى هذا يشاء تعالى.

ما يقوله البعض عن أنه تعالى يرمي المجرم في الجنّة والمؤمن في النار إن شاء، فهو كلام فارغ خيالي لا معنى له، حيث أخبرنا تعالى صراحةً مراراً وتكراراً أنه لم يَشَأْ هذا، وصحيح أنه تعالى يفعل ما يريد، ولكنه تعالى أخبرنا ماذا يريد، حيث أخبرنا أن المجرم الكافر الفاسق المنافق... حتماً في النار... فما معنى الكلام الفارغ الخيالي الموجود في بعض الكتب والذي تفهم منه وجود مزاجية عبثية عنده عزّ وجلّ! معناه أنهم تعاملوا من بساطة تفكيرهم مع الكلام القرآني ولم يفهموه لأنهم هم مزاجيون ومستهترون...

الكلام يجرّ الكلام، أساس أساس وأصل تقييم الأمور بالخير أو الشرّ، بالحقّ أو الباطل، بالصلاح أو الفساد... كله يرجع إلى المنشأ، والمنشأ لكل شيء هو تعالى، وكلام البعض على أن ما يفعله تعالى سيكون هو الحقّ والخير دائماً حتى لو فعل تعالى سوءاً، فهو كلام شاطح عن حدّه، لأنَّ الأساس أنه تعالى لا يفعل السوء والشرّ ولا بأي شكل، وما فينا من قدرة على تمييز الخير من الشرّ، والممنوحة لنا منه تعالى، فهي لا تلتغي ولا تتغير إذا فرضاً فرضاً فعل تعالى سوءاً، فلن نرى السوء حسناً.

هذا بالأساس إن كانت الأمور مثالية، وكان قلبنا سليماً، ولكن المشكلة أن أكثر الذين تكلّموا في هذه الأمور لم ينتبهوا لذلك، وقاسوا الأمور على حالتهم هم، فهم في بعض الأمور يفقدون رؤية الحقّ من الباطل، هم في بعض الأمور محتارون... فظنوا أنه لا يوجد معيار مرجعي ثابت للحقّ والباطل، وصار في رأيهم مَطّاطاً يتحمّل التغيّر، وانعكس ذلك منهم على فهمهم لقرآنه تعالى، حتى إنَّ الواضحات القرآنية صارت مشوشة لهم، وتعدّدت التفاسير والاشتقاقات لكلامه تعالى، وتخالفت وتعارضت، وتعاملوا مع واقع الحال هذا على أنه الحال الطبيعي لأن الأمور مطّاطة.

بناءً عليه نبذ كلام سوء من بعضهم عن مشيئته تعالى، ولم يقولوا مباشرة فحواه الذي يعني إمكانية العبثية في قراراته وأفعاله تعالى، وبرّروا لذلك أن التقييم يتغيّر ليصير السوء الذي يفعله تعالى حسناً! وكلام بعضهم يشير لتشويش عندهم يتضمّن أنه تعالى لا يفعل السوء بتاتاً ولكن نحن نرى ما فعله تعالى سيئاً فعلينا تغيير رأينا لتقييم كل ما يفعله تعالى أنه حسن، وصرت تعلم أن هؤلاء لم يراعوا مسألة درجة سلامة القلب التي تجعل البعض منا يفقد تمييز الخير من الشرّ في بعض المسائل، فيستحيل على سليم القلب أن يرى فعلاً إلهياً سيئاً. وكلام الآخرين صريح باعتقادهم بانتفاء مرجعية ثابتة لا تتغيّر لتقييم الأمور، حيث برأيهم يفعل تعالى السوء، ويتغيّر التقييم، ويصير السوء حسناً، فيقولون إنَّهُ تعالى لو فرضاً رمى النبي في النار وأبا جهل في الجنّة فهذا الفعل سيتغيّر تقييمه من السوء إلى الحسن لأنه تعالى فعله! لا، سبحانه يستحيل أن يفعله لأنه حكيم، ولن يتغيّر توصيف تقييم الأمور حتى لو فعلها تعالى، وإلا فلا معنى لأي شيء ولسنا ملزمين بأي شيء إن كانت الأمور مطّاطة قابلة لتغيّر القيمة، ولا معنى لتكليفنا ولا معنى للآخرة بحسابها وجزائها... ولا معنى لأي دين ولا لأي شيء فكري أو نفسي أو تشريعي أو سلوكي...

{وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً}، حيث ابتعد كثيراً عن الصواب وعن الطريق الصحيح ونهايته لن تكون حميدة، وسنرى من الآيات الآتية مدى بعد هؤلاء عن الحقيقة:

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شراً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضلّ عنك صيدها. واستعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، حيث لم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضالٌّ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً{117})

لا زلنا في التوسّع بالكلام من حالة الكفّار الذين يقولون بأنهم مؤمنون ولكن بسبب تواجدهم في بلاد يحكمها الكفّار فهم لن يستطيعوا الالتزام بدينه تعالى، فهل بين الكفّار سيعلنون ويتصرفون على أساس أنهم موحدون؟ أم سيمدحون آلهة الكفّار ويحتفظون بتماثيل لها، ويحتفلون بأعياد تمجدّها...؟ فما معنى هذا حتى يتغاضى عنه تعالى ويعتبرهم من المؤمنين! فأي إيمان هذا! ولو فرضاً كان تصرفهم مبلوعاً لكان سبحانه مرّره، ولكنه اختراع لآلهة من الخيال ومعارضة للإله الحقيقي الذي خلقهم ويجب عليهم طاعته والذي لا يأمرهم إلا بالخير وترك السوء...

{إِنْ يَدْعُونَ}، حيث إنهم يشهرون ويعلنون آلهة لهم، من دون الله، والكلام هنا عن النظر للمجموعة التي يدعونها من دونه تعالى، حيث لم يكن سبحانه من ضمن تلك المجموعة، حيث ستراهم يدعون، {إِلَّا إِنَاثاً}! ومن آيات أخرى نعرف أنه يوجد نوعية من الناس جعلت آلهتها من الملائكة(ع)، وأعطت للملائكة(ع) أسماء الإناث! وهذا موضوع أشار له القرآن في آيات أخرى منها أبرزها ما ورد في سورة النجم ومنه الآية 19 منها {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى}، حيث اخترعوا اعتقاداً يقول: الملائكة إناث "بنات" ونحن نعبدها، والله سبحانه يصف لنا هذه العبادة بأنها كما هي، فهي ليست عبادة حقيقية للإله سبحانه، إنما هي عبادة لإناث! بكل وضوح يمكنك رؤية سخافة هذه العبادة النموذج الواضح وتقيس عليها بقية سخافات المشركين، سواء أكان الذي يعبدونه ذكراً أم أنثى، فهي سخافة واضحة، فأين قيمة هذه المعبودات من مكانة الإله الحقيقي!

ضع في بالك أن الكلام هنا عن نموذج بارز وواضح، لأنَّ سياق الكلام لا يزال في أجواء من برّر كفره بأنه مضطر، حيث تعاطف بعض المسلمين معه على أساس أنهم يتقونه تعالى باعتبار هذه النوعية من الكفار كالمسلمين... حيث تأتي آيتنا هنا لتريك نموذجاً بارزاً عن عبادة سخيفة جداً وتنطلق من هوى ذكوري ميّال للإناث... والبعض من هؤلاء الذين يقولون بأنهم يحبّون الإيمان بالدين الإلهي، فإنهم ما زالوا على هذه العبادة الشركية!

{وَإِنْ يَدْعُونَ}، حيث إنهم في الحقيقة لا يشهرون ولا يعلنون ولا يوجّهون كلامهم لله تعالى ولا للإناث بل هم يدعون فقط، {إِلَّا شَيْطَاناً}، إلَّا من هو موصوف بقيامه بأعمال السوء وإضلال الآخرين، {مَرِيداً}، معتاداً باستمرار على مخالفة أوامر ربه سبحانه.

انتبه جيداً، حيث إنَّ الآية تقول إنَّ أي شرك بالله تعالى فإنه يعود في أصله إلى الشيطان، وهذه الكلمة وصف للذي يعمل على إضلال الناس، حيث يقوم بعمل معاكس مضاد لعمل الأنبياء، وأولهم وأشهرهم هو إبليس الذي تمرّد على طاعة ربنا سبحانه، وهو المصدر الأساسي لكل عمليات الضلال، حتى لو كنا نعلم اسم الإنسان الذي اخترع الأسماء الوهمية للآلهة الوهمية، فهو شيطان، ولكن يد إبليس تكون مشاركة حتماً بهذا العمل... وسترى ذلك وسببه من الآيات التالية.

بقي شيء تلاحظه بسهولة، حيث إنه في نفس الوقت الذي يدّعي فيه المشركون أنهم على الهدى بالدعاء لآلهتهم، فإنهم في نفس الوقت إنما يدعون للذي يعمل على إضلالهم.

لاحظ تعبير الآية بالدعاء لآلهتهم، فضعه في بالك لأننا وبضبابية نظن أن القرآن تكلّم كثيراً عن الدعاء على معنى الطلب منه تعالى لتحقيق مطالب نريدها هنا في الدنيا، كطلب الرزق والنجاح والتوفيق بالتجارة... بينما كلام القرآن بعموميته عندما استعمل كلمة دعاء ومشتقاتها كان يستعملها بمعناها العام عن عموم الإشهار والإعلان، وغالباً

لخصوص الإعلان عن الإيمان بإله، ونادراً عن طلب شيء منه تعالى مُتَضَمِّناً مع إعلان الإيمان به تعالى، وهذا بعكس ما هو منتشر في أدبياتنا لتفسير العديد من الآيات أنها تشير بكلمة دعاء للطلب منه تعالى تحقيق ما نريده، لذا راجع دراستنا هذه لأي آية تظنها عن الدعاء بمعنى الطلب وسترى غالباً أنها لا تشير لذلك.

(لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً{118})
{لَعَنَهُ اللَّهُ}، فطرد سبحانه الشيطان من رحمته، وتعلم من القرآن أن الشيطان صفة يحملها العديدون ولكن هناك كائنٌ موصوف بها بشكل فائق عن الآخرين، وهو إبليس وعلى هذا الأساس نفهم أن الكلام هنا عن شيطان محدّد يشير إليه، فأي شيء يحصل مع أو من إبليس فلن يكون تحت مظلة الرحمة الإلهية، لأنَّ كل شيء سيسبّب له مزيداً من التعذيب في جهنم.

أما سبب اللعنة لإبليس، وسبب رجوع كل الضلال إليه فَأَنَّهُ:

{وَقَالَ}، حيث قديماً قال إبليس لإلهنا سبحانه: {لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ}، حيث سيكون لي من المفروض منهم طاعتك، {نَصِيباً}، حِصَّةً قِسْمَةً محدّدة، {مَفْرُوضاً}، فلن يكونوا كلهم عبيداً حقيقيين لك، بل سيكون لي منهم حصة أكيدة، حيث سَيَعْبُدُونَنِي أنا وَيُطِيعُونَنِي كأنني أنا إلههم المفروض منهم طاعته.

نتذكّر من القرآن أن إبليس قرّر البرهنة له تعالى أنه أفضل من البشر، وأنهم لا يستحقون أن يُسْجَدَ لهم، ولذلك رفض إبليس أن يسجد لآدم(ع)، وسيضلل الناس حتى لا يطيعوا الله تعالى، وحتى يبرهن أنه أفضل منهم وأنه كان معه حق حينما لم يسجد لآدم(ع)...

وقال فيما قال لربنا سبحانه قبل أن يطرده تعالى من السماء العالية: سوف أتخذ من عبادك من الذين خلقتهم وهم بكل وضوح يجب أن يعبدوك أنت، ولكني سأجعلهم يطيعونني أنا، وسيكون لي حصة أكيدة منهم كعبيد لي... حيث عرضت الآية السابقة نموذجاً عن تلاعب إبليس ببعض الناس لدرجة اختراع آلهة أنثوية! وكما ترى فإنَّ سخافة عبادة حَجَرٍ ليست بعيدة عن سخافة عبادة آلهة أنثوية، ولكن تبقى الآلهة الأنثوية أبرز في سخافتها وسخريتها.

(وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً{119})
{وَلَأُضِلَّنَّهُمْ}، سأجعلهم يضلون، ليكونوا على الشيء الخطأ الذي لا يوصلهم لغاية صحيحة، حيث سيفعلون السوء ويكون مصيرهم إلى جهنّم.

{وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ}، سأجعلهم يمنّون أنفسهم، حيث يعيشون في الأماني في أمور يرغبون ويحبون حصولها وهي صعب أو مستحيل حصولها، فما يتمنونه يصير حاكماً على تفكيرهم كأنه حقيقة، فلا يطيعونه سبحانه وهم بأمانيهم يظنون أنهم فائزون! ويعبدون غيره سبحانه وهم يعيشون أمنية السعادة من بركات تلك الآلهة! ولا يستغفرون وهم بأمانيهم الوهمية متعلقون بالمغفرة والرحمة الإلهية!

{وَلَآمُرَنَّهُمْ}، طبعاً بعكس أوامرك، حيث جعلت لهم الأنعام، الحيوانات الموصوفة بأنها نعمة لهم، المواشي الأليفة التي نأكلها كالبقر، الضأن، الماعز، الجمل... حيث جعلتها سبحانك لهم حلالاً ولكني سآمرهم فيجعلونها حراماً، بل سيحرمونها مع طقوس لتحريمها! {فَلَيُبَتِّكُنَّ}، حيث سوف يشقّون يشرمون، {آذَانَ الْأَنْعَامِ}، حيث يشرمون قسماً من أذن الدابة أو يشرمونها كلها، كعلامة على أن الدابّة "البقرة الماعز..." منذورة للآلهة، وكانوا يفعلون ذلك ليعلم الآخرون أنها منذورة ليتركوها على هواها، فلا يركبوا ظهرها، ولا يحرثوا عليها... ولديهم شروط خاصة للأكل منها فيما بعد!

لا نزال نرى ممارسات من هذا النوع في الديانات الأرواحية من تقديس للبقر أو الفيل أو القرد، أو حتى لجرذان المعبد!

{وَلَآمُرَنَّهُمْ} بعكس أوامرك، {فَلَيُغَيِّرُنَّ} {خَلْقَ اللَّهِ}، فالذي ركّبته وألّفته سوف أجعلهم يغيّرونه، لأنك خلقت لهم الأنعام ليأكلوها ولكنهم سوف يقدّسونها ويحرّمون أكل ما حلّلته لهم...

ننتبه، حيث إنَّ هناك كلاماً قديماً وحديثاً كتطبيق لجملة تغيير خلق الله تعالى، وقيل الكثير من النماذج لها... فبعضهم قال إنه حلق اللحية وغيره قال الوشم وغيرهم قال الخصاء... ولكن كلها مجرد تخمينات لتطبيق الآية، وتكون تطبيقات صحيحة طالما أنها مخالفة لأوامره تعالى وشيطانية، لأنَّ الآية عمومية لكل ما يأمر به الشيطان... ولكن يجب أن تكون النماذج متوافقة مع ما يقوله القرآن، فمن حلق لحيته بنيّة التشبّه بالكفّار لأنه معجب بهم ويكره أن يكون شبيهاً بالمؤمنين، فهذا نيّته جعلت حلق اللحية عملاً شيطانياً، ومن أطال لحيته ليتستّر تحتها بأنه من المؤمنين وهو من داخله منافق، فنيّته جعلت إرخاء لحيته عملاً شيطانياً. أقول لك هذا لتنتبه أن النماذج التي يذكرونها كتطبيقات للحرام الموافق لهوى الشيطان، قد تكون غير واضحة أنها مبنية على النوايا وهي بنفسها ليست حراماً، فلا حلق اللحية حرام ومسبب لدخول النار ولا الوشم حرام... إنما حلق اللحية حباً بالتشبّه بالكفّار وكرهاً للتشبّه بالمؤمنين هو الحرام، أمّا إن لم يكن كذلك فلا حرمة فيه.

{وَمَن يَتَّخِذِ} {الشَّيْطَانَ وَلِيّاً} {مِن دُونِ اللَّهِ}، فمن يترك اعتباره تعالى ولياً مرجعاً له، ويتبع الشيطان ليكون الشيطان مرجعاً له، {فَقَدْ خَسِرَ} {خُسْرَاناً مُّبِيناً}، حيث بشكل واضح سيفقد أموراً لها أهمية كبيرة، فلن ينال مغفرته وثوابه تعالى، ونهايته سوف تكون في جهنم.

بقي شيء، حيث إنَّ في مختلف الكتب كلاماً عن طقوس وعادات شرم أذن الدواب كعلامة على تحريمهم لها، ونوع التحريم... ومن الخطأ التعامل مع هكذا شيء تاريخي وكأنه معلومات عن أمور ثابتة لها قانونها الثابت، لأنك في الكتب ستجد كلاماً متنوّعاً مختلفاً متخالفاً عن هذه العادات، بعضه سببه أن الذين نقلوا هذه المعلومات لم يكونوا دقيقين في نقلها، وسببه الآخر والأهم أن ممارسات الناس لهذه العادات لم تكن دقيقة، إذ هي بالأصل مسألة مزاجية عبثية لا معنى عقلانياً لها، وبالتالي طبّقوها على مزاجهم، وبما تعارف عليه مجتمعهم الذي يختلف عمّا تعارف عليه مجتمع آخر...

(يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً{120})
الشيطان إبليس، {يَعِدُهُمْ}، فيقول لهم عن أمور ستحدث، وسياق الكلام عن وعوده بأنهم سَيَكُونُونَ سعداء بالبقاء كفاراً أو بين الكفّار، {وَيُمَنِّيهِمْ}، فيجعلهم يعيشون في الأماني وَيَعْلَقُونَ بحبّ أمور من المستبعد حصولها، وَيَعْمَلُونَ على أساس أنها ستحصل حتماً، ولا يزال سياق الكلام عن الذين يقولون إنهم يرغبون بالإيمان ولكن ظروفهم لا تسمح بذلك، ويعتقدون بأن هذا العذر سيقبله تعالى، وسيغفر لهم ويدخلهم الجنّة بالرغم من أنهم لم يمارسوا الإيمان! ويعيشون هذه الفكرة كأنها حقيقة! فبأمانيهم يظنون أنهم سيدخلون إلى الجنة حتى لو ارتكبوا أكبر المحرمات، لأن الله تعالى غفور رحيم! ويعيشون في الفكرة وكأنها حتماً ستتحقّق! علماً أنَّهُ تعالى بيّن لهم بوضوح أن مرتكبي السيئات سيكون لهم عقاب في جهنم.

{وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً}، فيجعلهم يغترّون حيث يأملون بشيء غير صحيح وغير جيد، والكلام عام ولكن بالخصوص مع المغترين بفكرة أنهم يمارسون الكفر لأنهم مضطرون ويكفيهم حبّ الإيمان حتى يدخلوا الجنّة.

(أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً{121})
{أُولَئِكَ}، الموالون للشيطان، {مَأْوَاهُمْ}، مكانهم المحدّد ليبقوا فيه، مسكنهم، {جَهَنَّمُ}، المكان الموصوف بسوء ما فيه، حيث فيه النار المتأججة، {وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا}، عن جهنم، {مَحِيصاً}، لأنَّ أي حيصة وَأيَّ حركة من ركض أو تسلق أو حفر... فلن تُخْرِجَهُمْ من جهنّم.

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللّهِ حَقّاً وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً{122})
قرأنا عن وعود الشيطان الكاذبة، فَلْنَرَ الوعد الإلهي الصادق:

{وَالَّذِينَ آمَنُوا}، الذين اعتقدوا بالدين الإلهي، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، وقاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، حيث خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، حيث عملياً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى. وبشكل أو بآخر يشيع بين

الناس عموماً وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، حتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائماً أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به. وهذا الكلام له عمق، إذ لا توجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت مُحِبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو سيّء" فهو في الحقيقة اختراع من البشر وليس أمراً إلهياً.

{سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ}، سنجعلهم في أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين وما يسبب السعادة... {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، من تحت تلك الجنات تسير المياه وأنواع مختلفة من السوائل، نهر هنا ونهر هناك... ونعلم من آيات أخرى أن تلك الأنهار متنوعة اللون والطعم كما ورد في الآية 15 من سورة محمد {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى...}، فلا تبالغ في التصور لتتصورها مستنقعات بل جريان الأنهار يشير لروعة منظر المكان، {خَالِدِينَ فِيهَا}، لا يموتون ولا يفنون في تلك الجنات، {أَبَداً}، مهما مرّ عليهم من زمن، لأنَّ أكبر رقم نتصوره بتريليونات السنين فلا مشكلة، وكما أن الله تعالى لا يفنى أبَداً، فسيجعل سبحانه أهل الجنة باقين في النعيم وتجدّد النعيم أبَداً.

{وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً}، فهو كلام قال تعالى إنَّهُ سيفعله وكلامه تعالى صوابٌ وليس باطلاً أو عن كذب، فهذا الخلود المؤبد في جنات رائعة للمؤمنين العاملين للصالحات، هو وعد شخصي من الله تعالى، فليس وعداً ممن نشكّ في قدرته على تحقيق وعوده، بل هو حق هو صحيح أكيد.

{وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً}، فإذا كان الله تعالى يقول بأن المؤمنين العاملين للصالحات هم خالدون في الجنة، أبَداً، فهل يوجد أحد أصدق قولاً من الله تعالى؟ بالطبع لا، لذا بالتأكيد فإن الخلود في الجنة سيحصل، مع أننا الآن لا يتحمل عقلنا هذه الأبدية، ولا نتحمل فكرة التنوع بالمباهج والسعادات المتنوعة المتجددة في تلك الأبدية، فيخطر ببالنا الملل والفراغ والروتين... فنجد تأكيداً في القرآن أن أهل الجنة لا يملّون منها، ولا يمر عليهم ثانية أو لحظة يتمنون فيها شيئاً غير الموجود معهم في الجنة، فلا يخطر ببالهم ولا لثانية أن يخرجوا من الجنة ليفعلوا شيئاً آخر، أو لأنهم ملّوا، وتقرأ ذلك في الآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً}، ونجد صعوبة في تصوّر هذه السعادة التي لا تنتهي، لأننا نقيسها على ما في الدنيا، بينما هو قياس مع الفارق الهائل، وبالتساهل بالتعبير فإنَّ ما في الدنيا نماذج عينات كتقريب لما في جنّة الآخرة... إذ سبحانه لا يوجد أصدق منه، ولا يوجد أقدر منه، وقدرته فوق فوق تصورنا. وألفت انتباهك لما لفت القرآن انتباهنا له مراراً عندما جاء على ذكر السماوات وضخامتها، وكثرة التفاصيل فيهن وفي الأرض وكثرة الظواهر... ليبين لك نماذج عن القدرة الفائقة الهائلة للذي يعدك بجنّة رائعة خالدة.

(لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{123})
{لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ}، فما تحبونه وترغبون به أنتم أيها المسلمون وهو بعيد حصوله فليس به، {وَلَا بِأَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ}، من يهود ونصارى وصابئة وغيرهم... لأنَّ الدخول لتلك الجنة الرائعة الخالدة لا يكون بالتمني:

{مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ}، حيث إنَّ أي شخص يقوم بأي عمل سَيِّئٍ فسيحصل على المقابل عليه، وهو العقاب في النار.

{وَلَا يَجِدْ لَهُ}، حيث إنَّ ذلك الشخص العامل للسيئات لن يجد، {مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً}، حيث لن يجد مرجعاً له يتولى شؤونه حتى لا يُجَازَى بِالسَّيِّئِ الذي فعله، ولن يجد له من دونه تعالى، {نَصِيراً}، لأنه فعل سيئاً عليه عقاب فلن يجد من ينصره، من يحقّق له النجاة من العقاب الإلهي.

قرأنا في الآية 111 من سورة البقرة {وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، وكان الكلام هناك عن الذين سبقونا بنزول كتاب إلهي عليهم، حيث صار عندهم حالة من الوهم بأنهم مميزون! وأنهم لن يدخلوا النار مهما فعلوا! وأنهم هم فقط سيدخلون إلى الجنة! لذا تنبهنا الآية نحن "المسلمين" من هذا التفكير ومن هذه الأماني الفارغة، لأنَّ لدينا من يقول إنَّ المسلم لا يخلد في النار مهما فعل! وأنه يتلقى عناية

إلهية خاصة مختلفة عن بقية الناس لأنه مسلم! حيث إنَّ الآية هنا وبكل وضوح، تنفي أي قيمة لهذا الكلام، لأنَّ القيمة فقط للإيمان الصحيح والعمل الصالح.

(وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً{124})

{وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ}، راجع ما توسعنا به في الآية قبل السابقة عن معنى عمل الصالحات، حيث جعل سبحانه فينا القدرة على تمييز الصالح من الفاسد، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، وبناء عليه سيحاسبنا تعالى، فعملياً الموصوف بالعامل للصالحات هو الملتزم بأوامره تعالى، وبما أننا لسنا كلنا نمر بنفس الظروف التي تجعلنا نقوم بكل الأعمال الصالحة، فالمرأة لا تقاتل، والمعوّق لا يقاتل... فالذي يقوم بما تَيَسَّرَ له من الأعمال الصالحة، {مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى}، فلا فرق بينهما، حيث قيمة الإنسان تتحدد بإيمانه لا بالذكورة ولا بالأنوثة، ولا يوجد مكانة مميزة للرجل على المرأة من الناحية الإيمانية، وأي إنسان قام بالصالحات، {وَهُوَ مُؤْمِنٌ}، وهو معتقد بالدين الإلهي، {فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ}، يدخلون المكان الموصوف بروعة ما فيه، {وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً}، حيث وعدهم سبحانه بالخلود وبالسعادة الدائمة بلا ملل، وبالتجدّد الدائم، في الجنة... فلن يظلمهم تعالى من هذا الوعد ولو بمقدار نَقِيرٍ، وهو الثقب الصغير جداً، وكمثال مشهور عنه الثقب الموجود على بذرة التمر، فلا يوجد أي طريقة تجعل المؤمن العامل للصالحات لا يحصل على ما وعده به تعالى من الحسنات على الإيمان والعمل الصالح، فحسنات المرأة مثل حسنات الرجل ولا يوجد ظلم للمرأة أو الصغير أو أيّاً كان ولو بمقدار شعرة...

الذي عمل صالحاً من الاعتناء بالأيتام والفقراء أو اختراع دواء أو آلة نفعت البشرية... إن لم يكن مؤمناً، فلا قيمة لعمله كما هو واضح من الآية ومن عموم القرآن. إن لم يقم بتلك الأعمال وهو يعتقد بأنه يطيع الله تعالى، فسبحانه لم يقرّر له أجراً؟ هؤلاء ورغم وضوح أفعاله تعالى فيهم وفيما حولهم، وإرساله الرسل وإنزاله الكتب، وهذا القرآن الذي فيه توضيح كل شيء... لم يؤمنوا ولم يعبدوه تعالى، فلماذا سيعطيهم أجراً؟ لو بحثت لهم عن استثناء لأنهم فعلوا خيراً مع ملايين البشر، فأي معيار يبقى للإيمان والعمل الصالح؟ وبعدها سينزل المستوى ليطال الجميع حتى المجرمين، حيث إنهم اهتموا بتربية أولادهم وتوزيع الطعام على الفقراء...!

نعلم من القرآن، أن الشرك أو الإلحاد "الكفر بأي إله"، يسببان حبط الأعمال الحسنة، فلا يعد لها أي قيمة، أما التوحيد لله تعالى، من دون إيمان كامل، مع أشياء أخرى سيئة، فهذه الحالات المختلفة لها أحكام إلهية مختلفة، وهذه النوعية من الناس بِالْغَالِبِيَّةِ مُرَجَّحٌ لها دخول النار لمدة طويلة طالما لم يرتكبوا سيئة كبيرة من العيار الذي يسبب دخول النار خالدين، كالقتل العمد لنفس بريئة، أو الموافقة على قتلها، أو الزنا، أو أكل مال الأيتام... والآية هنا تحدثت بالخصوص عن الضمان والوعد الإلهي بدخول الجنة للمؤمنين العاملين للصالحات.

(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً{125})

{وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ}؟ الأديان التي اخترعها الناس، أو الأديان الناتجة عن تلاعب الناس بدين الله تعالى، بالتأكيد هي ليست أحسن من الشخص الذي أسلم فأعلن انقياده وتبعية وجهه لله تعالى، فوجهته نحو طاعة الله تعالى، حيث إنَّ دينه، وما يعتقد أنه تبعات عليه الالتزام بها، هو إسلام وجهه لله تعالى، وفي عمله، {وَهُوَ مُحْسِنٌ}، فلا يقوم بالأعمال السيئة.

الآية تعبّر بشكل آخر عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، من منظور أن الإيمان بدينه تعالى هو إيمان بصدق معلومات هي أصلاً عاكسة للواقع حيث إنها حقيقية صحيحة، سواء أكانت معلومات عنه تعالى أو عن قراراته وأفعاله، ومن منظور أن المطلوب منهم فعل الأعمال الحسنة فقط وترك الأعمال السيئة.

{وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ}، وكان على عقيدة سلوك "ثقافة" النبي إبراهيم(ع)، {حَنِيفاً}، حيث كان النبي إبراهيم(ع) مائلاً عن كل شيء ومتوجهاً فقط نحو الدين الإلهي، فكان مستقيماً لم يَحِدْ عن الدين الإلهي.

بعبارة أخرى: الدين هو التبعات التي عليّ، حيث أخذت منك المال وعليّ أن أردّه لك، لذا أنا مدين لك، حيث عليّ تبعات ردّ المال لك. الله سبحانه خلقني وأنا عبد له، لذا عليّ تبعات طاعته، حيث أنا مدين له تعالى بالطاعة، لأنَّ ديني

هو طاعة مالكي خالقي. الآن تذكّر عموم سياق السورة التي تمحورت حول تقواه تعالى في الضعفاء من الناس... مروراً بالذين يدّعون بأنهم يحبّون الإيمان ولكنهم مضطرون لإخفائه بسبب ظروفهم القاهرة... وصولاً إلى الآيات هنا... وبالتحديد إلى آيتنا هنا، فتسأل عمّن هو أفضل من الذكر أو الأنثى الذي يعتقد بأن عليه تبعات فقط وفقط ليتوجه لله تعالى فينقاد له تعالى ولا يتّجه باتجاه آخر، وهذا الشخص عامل للحسنات، وتابع لثقافة النبي إبراهيم(ع)، فهل هناك أفضل من هذا النموذج؟

{وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}، لشدة ما كان سلوك النبي إبراهيم(ع) مستقيماً، ولشدة ما كان قلبه طاهراً نقياً، ولشدّة ما كانت ثقافته منحرفة عن كلّ ثقافة إلا التديّن لوجهه تعالى، جعله الله تعالى خليلاً، كمحبوب بدرجة مميزة، ولذلك أمرنا سبحانه باتباعه.

سبحانه يحب المؤمنين بحسب درجات إيمانهم، حيث حصل النبي إبراهيم(ع) على حُبٍّ عَالٍ منه سبحانه بسبب شدة صفاء قلبه وإخلاصه لربه سبحانه، لدرجة أنه تعالى صنّفه في أعلى درجات المخلوقات المُقَرَّبَةِ منه تعالى واصفاً إياه بأعلى وصف بشري يعطي هذا المعنى وهو الخلّة، وهي بالنسبة لنا نحن البشر بين بعضنا تعبّر عن المحبة مع إرادة التواصل على انفراد على نحو الاكتفاء به ومعه، طبعاً عند وصفه تعالى بأي وصف كان نسحب الخصائص البشرية من الوصف ونجعل المعنى مناسباً له تعالى.

بقي شيء من خارج التفسير، حيث أمام هكذا كلام إلهي واضح عن تميّز النبي إبراهيم(ع)، نجد من المسلمين من يجعل من بعض شخصياته الدينية أعلى مقاماً عنده تعالى أو متساوية مع النبي إبراهيم(ع)!

(وَلِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً{126})
{وَلِلَّهِ}، ولصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، له، {مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، حيث منسوب له تعالى تصميمها وخلقها ومتابعة شؤونها... {وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً}، فلا يغيب عنه تعالى أي شيء لأن قدراته تعالى فائقة حيث إنَّ كل الأشياء تحت سيطرته ومراقبته... لذا من كلّ النواحي كل الأشياء له تعالى.

التعبير القرآني "السماوات والأرض" مرادف لكلّ شيء، وبالتساهل مشابه للتعبير بكل الدنيا، حيث لا يوجد ولا أي شيء خارج هذه السماوات والأرض، ولا يوجد ولا حتى حبّة رمل في كل السماوات والأرض وليست له تعالى، لأنَّ ملكه وسيطرته تعالى محيطة بكل بكل بكل شيء، حيث إنَّ ما سبق من وعود بالحساب... وما سبق من كلام عن التدين وتقواه تعالى... وما سبق عن الجنّة والنار... فكلّه مبني صدقه وتحقّقه على أن الله تعالى صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز له، يتبع له كل شيء في الدنيا، حيث لوحده يمكنه سبحانه فعل ما يقوله.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائماً أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...} وهي إشارة إلى وجود سبع أَرَضِينَ مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أَرَاضٍ "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أَرَاضٍ.

عادةً نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير ونستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، حيث نقول: خلق سبحانه الدنيا. لم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيراً صحيحاً دقيقاً بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى}.

(وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء الَّلاتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً{127})

{وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ}، ويطلبون جوابك أيها النبي(ع) في مسألة النساء. من تكملة الكلام سترى أنَّ السؤال عن كيفية التعامل مع النساء، {قُلِ} عبر هذا القرآن: {اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ}، يعطيكم سبحانه جوابه "التشريعي" في النساء، {وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ}، مِمَّا يقرؤه النبي(ع) عليكم عن مستند وهو هذا القرآن، فالتشريع يكون من الله تعالى، وربكم سيجيب عن استفتائكم، حيث ورد في الكتاب "في القرآن" أشياء في أمور، {يَتَامَى النِّسَاءِ}، وهن البنات اللاتي بلا أب، وعادة هنّ نموذج بارز عن الضعفاء في المجتمع.

حسناً، إن كان السؤال عن الإناث فهناك إناث قويات ولهن مكانة واحترام في المجتمع، وهناك إناث عندهن أهل يدافعون عنهن ويطالبون بحقوقهن، إذن الحديث سيكون عن الإناث الضعيفات، والبداية مع النساء "الإناث" الأيتام:

اليتيمات، {اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ}، لا تعطونهن، {مَا كُتِبَ لَهُنَّ}، حيث كتب تعالى حقوقاً لكل النساء في كل المجالات، وهنا الكلام عن حقوق مهر الزواج، {وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ}، بتعبيرنا الدارج تتزوجوهن. يعني، أنتم تتزوجون اليتيمات تحت عنوان أنكم تقومون بعمل خيري! لأنكم تُؤَمِّنُونَ لهنّ المسكن والملبس والمأكل والحماية... ولذلك لا تعطونهن مهراً! مع العلم أنكم ترغبون وعندكم رغبة وتريدون فعلاً أن تتزوجوهن! يعني انسوا قصة العمل الخيري الذي تخترعونه، فأنتم تتزوجون من اليتيمة لأنكم فعلاً ترغبون بالزواج منها، ولذلك، فأعطوها حقوقها كاملة مثل حقوق أي أنثى أخرى، وادفعوا لها المهر "الصداق" كما تدفعون لغيرها، وعاملوها كزوجة حقيقية ولا تعاملوها بالاستعلاء والمنِّيَّة... لأنكم برغبة منكم تزوجتموها ولم يكن فرضاً مفروضاً عليكم، فحتى لو كانت الرغبة الدافعة للزواج من هذه اليتيمة رغبة قليلة، ولنقل إنَّها ليست جميلة، ولكن عن رغبة ولو قليلة حصل الزواج منها، فلماذا مسرحية الشفقة عليها وفي نفس الوقت حرمانها من المهر ومن المعاملة كزوجة كريمة؟!

طرح الآية للموضوع بصيغة الرد على عقلية: من سيتزوج يتيمة ويدفع لها مهراً ويعاملها كزوجة! فهي غير مرغوبة... وأجابت الآية عن هذه العقلية وهذا التفكير الأعوج، فمن منكم أصلاً سيتزوج يتيمة قبيحة؟ أو مريضة أو معاقة؟ إذن، أنتم تتزوجون اليتيمة المرغوبة للزواج، فأين عمل الخير حتى تحرموها من حقوقها؟! وفي كتابه تعالى من الواضح أنه لكل النساء نفس الحقوق وبالتالي لليتيمات نفس الحقوق.

{وَالْمُسْتَضْعَفِينَ}، الذين يستقوي عليهم من هو أقوى منهم، {مِنَ الْوِلْدَانِ}، الصبيان والبنات حديثي السن، لأنَّ الصغار في عمر الضعفاء مالياً أو اجتماعياً أو بدنياً... وهم تحت سلطة وسيطرة من هو أقوى منهم، وهؤلاء أيضاً تبيَّن حكم التعامل معهم في الكتاب، وكما يمنعكم سبحانه من أكل حقوق اليتيمات، يمنعكم بشكل عام من أكل حقوق أي مستضعف، كأبناء الفقراء والمعاقين والبسطاء... وهذه فتاويه تعالى في الضعفاء.

{وَأَن تَقُومُوا}، فَتَتَفَعَّلُوا لا تتركوا ولا تهملوا، {لِلْيَتَامَى}، لمن فقدوا آباءهم، لتقوموا بشؤونهم فيما يحتاجون إليه وفي التعامل معهم، {بِالْقِسْطِ}، بما لهم بالضبط بحقوقهم الكاملة المماثلة لحقوقكم، وخذوا حقوقكم منهم وأعطوهم حقوقهم كاملة، ولا تطغوا ولا تتعدوا عليهم.

نلاحظ الآية تعيد كلاماً قالته السورة سابقاً في بداياتها، ويبدو هنا أنها تردّ على الأفكار الملتوية مع تفصيل، حيث إنَّ تركيزها على اعتراض البعض على التشريع الإلهي، على أساس أنهم أصلاً ما يفعلونه مع الأيتام هو الخير بعينه، حيث يتزوج اليتيمة ويصير لها من يرعاها ويؤمن لها ما تحتاجه... ويدير شؤون الأيتام بدلاً من أن يتسلّط عليهم أحد ما ويسرق مالهم... وحتى لو لم يدفع المهر لليتيمة فهذا مقابل تفضّله عليها بالزواج منها... وحتى لو أخذ أجرة عالية من مال اليتيم لأنه يدير أمواله، فهو يحميه من فقدان كلّ شيء لو تسلّط عليه ظالم ما، وعلى الأقل هو أمّن له مسكناً وطعاماً...

لو أطلت عليك، فالحالة تشبه حالة الزوجة التي تمنّن زوجها بأنها لا تخونه! أو أنها خانته مرةً واحدة فقط! لأنَّه مفروض بها أن تكون زوجة له، فما معنى أن تكون خائنة؟! هنا الكلام مع مَنْ يقول إنَّه يفعل الخير مع الأيتام بينما هو يأخذ أكثر مما يعطي! ومفروض عليه وواجب عليه معاملتهم بالقسط، وإلا فما معنى عمل الخير!

{وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ}، حيث إنَّ أيَّ عمل جيِّدٍ تقومون به من الزواج بيتيمة حبّاً للخير مع إعطائها لكامل حقوقها، أو اعتناءٍ بالمستضعفين والأيتام بالشكل الصحيح، {فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا}، لأنه يعلم به ولن يذهب سُدىً، وعملياً ستنالون عليه حسنات.

(وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاْحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً{128})
استكمالاً للاستفتاء، للسؤال المطلوب جواباً له عن النساء، الآية 34 التي سبق ومرّت في أوائل السورة تناولت مسؤولية الرجل والكيفية الشرعية للتعامل مع حالة نشوز الزوجة، وتحدثت عن تعيين شخص من أهلها وشخص من أهله لينظرا في أسباب الخلافات الزوجية، وإيجاد حل لها عبر معرفة ما هي نقاط الخلاف وتنبيه الزوجين على واجباتهما... وهنا سنرى كيفية تعامل الزوجة مع نشوز زوجها:

{وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ}، شعرت بالضرر الأكيد الذي لا يمكنها تجنُّبه في الحالة الحالية، خافت {مِن بَعْلِهَا}، ممن يوصف بأنه يحقّ له معاشرتها "جنسياً" شرعاً، خافت منه، {نُشُوزًا}، حيث شعرت بالضرر الأكيد عليها من نشوزه في البعولية، وكان أو صار يتعامل معها بشكل خارج عن المألوف والمتعارف عليه كبعل، حيث نشز الزوج عن المعاملة الزوجية الصحيحة وصار يهملها ولا يتماشى معها في حاجاتها المتعارف عليها بين المؤمنين العقلاء... أو خافت وشعرت بالضرر الأكيد من بعلها، {أَوْ إِعْرَاضًا}، أن يعرض عنها فلا يعتبرها مهمّة، فلا يتعامل معها نهائياً على أساس أنه بعلها، وكان أو صار يتركها نهائياً بلا مقاربة، لكرهه لها أو لأنَّه أشبع رغباته مع زوجة أخرى أو علاقة أخرى...

لاحظ، لو استعملت الآية كلمة زوج بدل بعل، لكانت تقصد أن المشكلة في رغبة الزوج بطلاقها أو ببخله عليها... وهذه مشكلة أخرى وهنا المشكلة ليست هكذا، بل هي مشكلة بعولة، مشكلة أن الزوج لا يبدي رغبته في طلاقها ولكنه نشز أو أعرض عنها بالبعولة مما جعله لا يعاشرها مثل أي زوجين متوافقين، أو لا يعاشرها نهائياً. وعندما تخاف المرأة من هذه الأشياء وهي أمور لا يمكنها تجنُّبها أو إصلاحها بنفسها:

{فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا}، أي لا مشكلة على الزوجين، {أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا}، حيث يتفقان على حلّ لهذه المشكلة بالطرق الممكنة بالتوافق، ولدينا هنا حالة زوج لم يعد يعامل زوجته كزوجة، فلا هي يجب عليها أن تصبر، ولا هو يجب عليه أن يطلقها إن هي صارت تشعر بحالة حرجة... ولكن هناك أساسيات الواجبات الزوجية، وهنا يكون الصلح، ولا مشكلة في تنازل أحدهما عن شيء من حقوقه الزوجية إذا كانت هذه الطريقة تحل مشكلة نشوز وإعراض الزوج.

{وَالصُّلْحُ خَيْرٌ}، لأنَّ الاتفاق بين الزوجين على أشياء تجعلهما يبقيان زوجَيْن هو عمل جيد. وكما سترى في الآية الآتية التي ستذكر حالة من حالات شعور الزوجة بأن زوجها نشز أو أعرض عنها، وذلك حين يكون عنده أكثر من زوجة.

{وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ}، وحين يجلس الزوجان ليتفاهما حول وضعهما الزوجي، فهو اجتماع للأنفس الشحّ أي التي لا تريد أن تعطي الكثير، لذلك تُنبِّه الآية أي زوجين يقرران أن يكون بينهما صلح فلينتبها من الشحّ ليتنازلا عن بعض مطالبهما، وتُحذِّرهما من الطبع البشري الغالب، لأنَّ غالبيتنا الساحقة لا نحب التنازل عن حقوقنا.

{وَإِن تُحْسِنُوا}، بأن تقوموا بالعمل الحسن الجيد، {وَتَتَّقُوا}، وتتجنَّبوا الأعمال السيئة وعملياً هذا يؤدي إلى تجنّب غضب وعقاب ربكم سبحانه، {فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}، حيث لديه أخبار كل ما تقومون به من عمل حسن وتقوى، فلا تخافوا فلن يضيع أي شيء عليكم.

بعبارة أخرى، نخاف أن نتنازل ولا نحصل على نتيجة من الطرف الآخر، ونخاف أن نحسن العمل ولكن الزوج يصير أكثر تسلُّطاً وعنفاً وازدراءً وجفاءً... ونخاف أن نتقي الله تعالى في معاملتنا لأزواجنا ولكنهم في المقابل لا يخافون الله تعالى فينا... فكل ذلك يراه سبحانه فلن يذهب سُدىً، وستنالون عليه الأجر، وسيعتني بكم في الدنيا حتى تخرجوا من المحنة إن اتقيتم، وعموماً فإنَّ العناية الإلهية بالأتقياء واضحة جداً في القرآن.

(وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً{129})

{وَلَن تَسْتَطِيعُوا} "كبعول كأزواج" {أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ}، لن تتمكنوا من معاملتهن بطريقة متعادلة متساوية، {وَلَوْ حَرَصْتُمْ}، حتى لو بذلتم كل جهدكم مع رغبتكم بأن تعاملوا كل زوجاتكم مثل بعض فلن تستطيعوا، وهناك أشياء كثيرة تجعل هذا الأمر مستحيلاً، أقلها هو طبيعة الزوجة، لأنَّ اللطيفة المحببة أو الجميلة تفرض على زوجها أن يعاملها أفضل مما يعامل غيرها... وحتى لو كان الزوج مهذباً لطيفاً مع الجميع، ولكنه مع هذه سيكون ألطف وأحنَّ...

{فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ}، "لاحظ المقابلة بين العدل والميل، الاعتدال والميلان"، ولا يكن كل اتجاهكم في ناحية واحدة من الزوجات في المعاملة والمصروف والصحبة والمعاشرة... {فَتَذَرُوهَا}، أي تتركوا التي ملتم عنها ولا يعنيكم أمرها، {كَالْمُعَلَّقَةِ}! فهي من المفروض أن تكون زوجة، ولكنها صارت فقط معلقة مرتبطة بكم بعقد الزواج، وليست زوجة حقيقية بسبب إهمالها وترك الاهتمام بها كزوجة، كما "تذر" الثياب التي لا تريد أن تستعملها "معلّقة" على الحائط أو في الخزانة، لتصير هذه الزوجة متروكة كالمعلقة بعقد زواج بكم وهي غير مستفيدة منه بسبب إهمالها.

{وَإِن تُصْلِحُوا}، بأن يكن عملكم صالحاً غير فاسد، وتعاملوا زوجاتكم بشكل صالح جيد، {وَتَتَّقُوا}، وتتجنبوا فعل السوء، وعملياً نتيجته تجنّب غضب وعقاب الله تعالى لذا لا ترتكبوا السوء بحق زوجاتكم ولا تظلموهن، {فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا}، حيث يسامح عن الميل عن الزوجة الذي قمتم به في السابق إن أصلحتم تعاملكم واتقيتم، {رَّحِيمًا}، حيث لديه تعالى عناية خاصة لما فيه مصلحة المؤمنين.

عوام الناس تفهم من الآية هنا أن تعدد الزوجات حرام بما أن الزوج يستحيل أن يعدل بين الزوجات، وفي بداية السورة قرأنا تنبيهاً لمن لا يستطيع أن يعدل بين الزوجات أن يكتفي بزوجة واحدة، ولكن الآية هنا لا تخالف الآية التي تبيح تعدد الزوجات، بل تركّز على الزوج أن يعامل زوجاته بقدر ما يستطيع من المعاملة الحسنة بشكل متساوٍ مع بقية زوجاته، وأن لا يميل إلى زوجة من الزوجات بشكل يجعل الأخريات كأنهن تكملة عدد، يعني، هناك أمور ظاهرية يجب أن يلتزم بها الزوج بالعدل بين الزوجات في المصروف والمبيت والمعاملة... ولكن هناك أشياء يستحيل أن يعدل بها، حيث سيحبّ واحدة أكثر من الأخرى، ويحبّ التحدّث مع هذه أكثر من تلك... لذا كل ما تريده الآية هنا هو تنبيهه إلى أن لا يتحكم به هذا الميل نحو واحدة منهن إلى درجة إهمال الأخريات.

نعم، نفهم من الآيات أنّ من لم يعدل بين الزوجات لدرجة أن البعض منهن صرن كالمعلقة، فهذا يجب عليه أن يكتفي بواحدة، وإلا فهناك حساب إلهي على ذلك.

(وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعاً حَكِيماً{130})

آخر الحلول الفراق الطلاق:

{وَإِن يَتَفَرَّقَا}، فيذهب كل واحد من الزوجين لوحده، فيتطلقان، {يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا}، كل واحد من الزوجين، يغنيه تعالى فيجعله بالغنى عن الزواج الفاشل، {مِّن سَعَتِهِ}، من عطائه الواسع غير المحدود، فليست كل الدنيا محصورة بهذا الزواج الذي فشل، والحاجات التي كان يؤمنها هذا الزواج ويجعل الزوجين أو أحدهما مستغنياً بهذه التأمينات، وفقدها بعد الفرقة، فهذه ليست الفرصة الأخيرة، وتوجد فرص غيرها لتأمين الحاجات.

{وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا}، غير محدود في عطائه، ففي بعض الأحيان عندما نفقد وظيفتنا، أو تخسر تجارتنا فإننا نشعر وكأننا سنصير فقراء وسنموت من الجوع! وننسى أن عطاءه تعالى وفضله واسع، ومنتشر هنا وهناك، وليس محدوداً في الوظيفة التي كنا فيها، وليس محدوداً بالتجارة التي خسرناها، وليس محدوداً بالزواج الذي فشل.

{وَكَانَ اللَّهُ}، {حَكِيمًا}، فتشريع هذا الدين لقرار الفراق عندما لا يصل الزوجان إلى حلّ، فهو تشريع نابع عن حكمة عن صوابية في رؤية الأمور وليس عن عبث، فالزواج الذي لم يجعل الزوجين غنيين "لم يُتِحْ لهما ما يحتاجانه من الزواج" فعن حكمة شرّع تعالى الطلاق لهما، ومن ناحية ثانية فإنَّ السعة التي تعد بها الآية من بعد الافتراق ستكون عن حكمة إلهية، وهنا الآية مشابهة للآية 2 من سورة الطلاق {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ

بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا}، لذا فإنَّ المطلقة التقية أو طليقها التقي يجب أن يتوكلا على الله تعالى حتى يعتني بهما سبحانه بعد الطلاق.

(وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ غَنِيّاً حَمِيداً{131})

{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، حيث إنَّ كل دنيا المخلوقات محصورة في السماوات السبع وما يقابل كل سماء من أراضٍ مناسبة لها، فكوكب الأرض أرض وسطح القمر أرض وسطح الشمس أرض... بالنسبة لسمائنا، وبقية السماوات لها أرض أو أراضٍ تقابلها وإلا فلا يصح وصف الفضاء بالسماء إن لم يقابله أرض، وكلام القرآن معنا غالباً يشير بالأرض للتي نحن عليها ليكون تصورنا للدنيا من حيث نحن على الأرض وصولاً إلى آخر سماء. وكلهم له تعالى، ولاحظ أن هذه الجملة ستتكرر بعد قليل، وهنا المقصود منها أن تبين أنه سبحانه عندما يأمرنا بتقواه فلأننا له، لأنه صمّمنا وخلقنا ويملكنا ويملك كلّ شيء ويسيطر على كل شيء لذا يحقّ له تعالى أن يأمرنا...

بناءً على تبعية كلّ شيء له تعالى، {وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، حيث تركنا تعليمات وصار تنفيذها على عاتق الذين أعطيناهم كتاباً كالتوراة والإنجيل... {مِن قَبْلِكُمْ}، إذْ نزل عليكم كتاب القرآن وهناك أناس نزل عليهم كتاب إلهي قبلكم، لذا وصيناهم وصار على مسؤوليتهم القيام بأشياء، {وَإِيَّاكُمْ}، حيث إنكم أيضاً وصيناكم وأمرناكم "عبر هذا القرآن" أن:

{اتَّقُوا اللَّهَ}، بأن تتجنَّبوا غضبه وعقابه، ولا تخالفوا أوامره. وتتذكّر أن تقواه تعالى هي محورية سورتنا هنا، وتتذكّر أن عموم تقواه تعالى في العقيدة والتشريع والسلوكيات هي أصلاً محورية الدين الإلهي.

{وَإِن تَكْفُرُوا}، بأن تُنكروا ولا تعتقدوا بطاعة الله تعالى، ولا تنفذوا ما جاءكم في الكتب التي نزلت عليكم، وعملياً إن لم تتقوه تعالى، {فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، لأنه أصلاً هو سبحانه غير محتاج لكم لأن كل شيء منسوب له، ولاحظ حيث تكررت هذه الجملة في نفس الآية، ورغم تكرارها الكثير في القرآن فإنَّ الكثيرين الكثيرين لا يقدِّرون معناها ويكفرون بتقواه تعالى، فإن كفرتم فلن تضروه تعالى، وإذا آمنتم فلن تنفعوه.

{وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا}، مستغنياً ولا يحتاج لأي شيء، ومن مشتقات هذا الكلام أنه تعالى لا يحتاج لإيمانكم ولا يتضرر من كفركم.

{وَكَانَ اللَّهُ حَمِيدًا}، لأنَّ كل أعماله موصوفة بأنها حميدة جيِّدة، لذا لا يفعل سبحانه أي عمل يوصف بأنه سيِّئ، وليس فقط لأنه تعالى المنسوب له كل شيء الغني يجب عليكم أن تطيعوه، بل لأنه تعالى أيضاً حميد، لأنَّ طاعتكم له هي طاعة لمن لا يصدر عنه إلا الخير، لذا يستحق منكم أن تؤمنوا به وأن تطيعوه، لأنه لم يفعل لكم إلا الخير.

بالنسبة لوصفه تعالى بالغني فليس تفسيرها أنه تعالى يملك كل شيء وبالتالي يصير المعنى أنه سبحانه يملك ما يحتاجه، فهذا غير صحيح، لأنَّ كلمة "غني" تفيد معنى الاستغناء، وهو عموم انتفاء عموم الحاجة لعموم أي سبب، إمّا لأنك لا تحتاج أصلاً للشيء، وهذه حالته تعالى "الغني" بالنسبة لكل شيء، وحالة الملائكة بالنسبة لطعامنا... أو غني لأنك لديك ما تحتاجه وهذه حالتنا حين نملك الطعام والشراب... أو غني لأنك تملك ما يمكّنك من الحصول على ما تحتاج، وهذه حالتنا حين نملك المال لنشتري به ما نحتاجه. ونرى هذا المعنى للاستغناء بشكل مباشر وواضح لأصل معنى كلمة "غني" في تعبير {وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} كما ورد في الآية 97 من سورة آل عمران، حيث بوضوح يشير الوصف بالغني للاستغناء، ولا حاجة له تعالى بهم ولا بإيمانهم ولا يتضرّر منهم مهما فعلوا.

(وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً{132})

{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، حيث إنَّ كل شيء منسوب له سبحانه. ونلاحظ أنها تكررت للمرة الثالثة، ورغم ذلك لا تزال الأكثرية بعيدة عن تقوى مَنْ له كل شيء!

{وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}، فإنْ كان أحدٌ ما موصوفاً بأنه يكفيك ولا تحتاج لأحد معه لتسير الأمور على التمام فهو الله تعالى.

ضع في بالك الفرق بين النسبة "المن، له، لي..." وبين الملك، فلو فسّرت الجملة هنا بأنها سؤال عن المالك، لأنقصتَ من السؤال العام الأوسع، وتراه من افتراض أجوبة مختلفة: لمن ما في السماوات والأرض؟ ليست لأحد؟ هكذا من لا شيء أتت؟ لوحدها؟ بالصدفة؟ حيث تراها وتقول هي ليست لأحد؟ ليس لها مَنْ تنتسب له؟ وأنت تعلم بكل بساطة أن السؤال التالي: من أين جاءت إن لم يكن لها مَنْ تنتسب له كمصمِّمٍ وخالق لها؟ وهكذا تنتبه لأي كلام قرآني آخر لم يستعمل كلمة "ملكية" واستعمل تعابير النسبة "لله، له، لمن..." إلى أنَّه أوسع بالمعنى من الملكية ومختلف، إذ إنَّ تعابير النسبة أعم من حصرها بالملكية حيث تشملها وتشمل غيرها من المعاني لتشمل السيطرة والإدارة... وأحياناً ينفصلان بحسب ما تقصده من النسبة، وكمثال، زوجتي منسوبة لي، ولكنها ليست ملكي.

(إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً{133})
{إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ}، أمامه تعالى خيارات عديدة ويمكنه سبحانه أن يقرّر أن لا يترككم أحياء أيها الناس، فإذا أراد جعلكم تموتون فسبحانه قادر على ذلك والخيار متاح له إن قرّر ذلك، {وَيَأْتِ بِآخَرِينَ}، ويخلق تعالى أناساً آخرين، فهو سبحانه غير متعطل عن العمل، وغير متعلق بكم، فأنتم ولا بأي شكل تشكّلون له تعالى أي أهمية كشيء يسدّ له حاجة من أي نوع كان. حيث ورد نفس المعنى في الآية 19 من سورة إبراهيم(ع) {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ}.

هناك بعض الناس الذين يعتقدون أنه تعالى يحتاج إلينا حتى نعبده ليشعر بأنه إله، ويقولون بأننا إن لم نعبده فلن يكون إلهاً حقيقياً لأنه لا يوجد من يعبده ويطيعه، حيث إنَّ الآيات السابقة وضّحت أنه سبحانه ليس عنده هذه المشكلة من الأساس لأنه غني "مُسْتَغْنٍ" عن كل ما نتصوّره، لأنه أصلاً لا يحتاج لأي شيء، كما بيّنت الآيات بأننا شيء صغير من أشياء ضخمة منسوبة له سبحانه، إذ له كل ما في الدنيا، لذا فإنَّ الأهمية التي نعطيها لأنفسنا، بأننا بشر وأننا مخلوقات ذكية مهمّة بالنسبة له تعالى، فهذه أهميّةٌ وهمية، كما أنَّ الفكرة وهمية من أساسها، لأنه تعالى قادر وبكل بساطة على مسحنا وخلق غيرنا، فأين تصير أيها المهم!

{وَكَانَ اللَّهُ} على ذلك، على الذهاب بنا، بإماتتنا وإفنائنا... وخلق غيرنا، {قَدِيرًا}، لديه القدرة على فعل ذلك، بل كما نعرف من آيات أخرى، هذا شيء سهلٌ جداً على الله تعالى كما ورد في الآية 19 من سورة العنكبوت {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}.

واضح أن الخالق الذي خلقنا يمكنه أن يمسحنا ويخلق غيرنا، ولكنه لم يفعل ذلك، مما يعني أن موضوع إيماننا أو كفرنا به، سواءٌ أطعناه أم لم نطعه... فهي أمور لا تؤثر فيه ولا عليه سبحانه وتعالى، لذلك تركنا ولم يهتمّ بكفر من كفر... طبعاً مع العقاب في الآخرة لمن كفر.

(مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً بَصِيراً{134})
{مَن كَانَ}، منكم أيها الناس، {يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا}، يريد هنا في الدنيا أن ترجع عليه أعماله بشيء ما، يريد أن ترجع عليه تقواه بشيء... {فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}، وما يرجع عليكم من أعمالكم سواء في الدنيا أو الآخرة فعند الله تعالى بتحديده وقيمته ومدّته... ولا يتصور أي واحد منكم أنه تعالى حين يعدنا بثواب الآخرة للمتقين، ولا يتصور أن موضوع الثواب في الدنيا مُنفَلِتٌ من يده تعالى، لا، لأنه سبحانه مسيطر على كل شيء.

هناك فكرة عند بعض الناس، بأنَّ من يتقي الله تعالى فإنه غير موعود بالحصول على شيء في الدنيا، وكل الوعود بالثواب للآخرة في جنتها، ولكن هل هذا يعني أنه لا توجد سيطرة إلهية على إعطاء ثواب في الدنيا! لا، لأنَّ كلا الثوابين في الدنيا والآخرة، كلا الأجرين بيده تعالى، لذلك لا تغركم فكرة أنكم ستخسرون ثواب الدنيا إن اتقيتم، لأنَّ هذا غير صحيح.

{وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا}، لأنه يسمع كل شيء، ويسمع كلام هؤلاء بل ويسمع حتى أفكار المعتقدين بأن السيطرة الإلهية مفقودة في الدنيا.

{وَكَانَ اللَّهُ}، {بَصِيرًا}، حيث يدرك "بمستوى إلهي" ويعي معنى صورة ما يحصل، لأنَّ مراقبته تعالى لنا ليست جافة مثل تسجيلات الكاميرا التي لا تفهم ولا تعي معنى ما تسجّله، وليست كما يحصل معنا حين تمر الأشياء من أمامنا فنراها ولكن لا ننتبه لها، لأنه سبحانه بصير ويرى كل شيء وينتبه دائماً لكل شيء، لذلك فإنَّ هؤلاء الظانِّينَ أنه تعالى يده مغلولة لا تعطي شيئاً في الدنيا، فهم تحت المراقبة السمعية والبصرية.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً{135})
نكمل مع تقواه تعالى في الناس، وبالخصوص في الشهادة:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ}، حيث عندما تفعّلون شيئاً ما، وعندما تكونون في مهمّة للقيام بعمل ما فليكن تفعيلكم بالقسط أي بما للآخرين بالضبط، وهذا أمر إلهي عمومي لكل شؤوننا ولكل من أعلن التزامه بهذا الدين، من تنظيم وقتنا إلى التقانة والدقّة والإخلاص في أشغالنا وأعمالنا... للتعامل مع الناس... والتعامل معه تعالى، لأنَّ هذا الكلام العمومي عن القيام بالقسط صحيح ومطلوب منّا، ولكن هنا تؤكد الآية على شيء خاص مهم جداً، فلنكمل:

{شُهَدَاءَ لِلَّهِ}، حيث عندما يطلب منكم القاضي أو الحاكم أو أي أحد أن تشهدوا على حادثة جرت، فكونوا شهداء على الحادثة لله تعالى، لأنكم أعلنتم عن أنفسكم بأنكم مؤمنون ملتزمون بهذا الدين الإلهي، وأنتم مأمورون بالقيام بالقسط، وأبرز مثال على ذلك أن تشهدوا لله تعالى، وتعطوا الشهادة الحقيقية بالقسط بالضبط كما هي بلا زيادة ولا نقصان، {وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ}، حتى لو كان عليك الحق، فمثلاً أنت المخطئ الذي يجب أن يدفع المال... أو أنت الذي كنت مسرعاً وسبَّبتَ الحادث... فلا تتهرب من قول الحقّ.

{أَوِ الْوَالِدَيْنِ}، حتى لو كانت شهادتك بالكلام الصحيح ستكون ضد أمك وأبيك، إن كان الحق عليهما فلا تشهد إلا بالحقيقة.

{وَالْأَقْرَبِينَ}، من إخوة وأبناء عمّ... ولو كان الحقّ عليهم فاشهد بالحقّ، ومهما كانت علاقتك مع المشهود عليه، فقل الحقّ.

نلاحظ أن مجتمعاتنا تعيب على من يشهد بالحق ضدّ أهله أو أقاربه أو عائلته، ويعتبرونه خائناً! بينما الأمر الإلهي واضح بوجوب القيام بالقسط بالشهادة.

{إِن يَكُنْ}، المشهود ضده، {غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا}، فأنت لا علاقة لك، فاشهد بالحقّ، فمثلاً لا تقل إنَّه فقير ولا يمكنه دفع المال... لذا سأشهد لصالحه، ولا تقل عن ذاك إنَّه غني ويمكنه تحمّل دفع المال لذا سأشهد ضدّه، لا، ومثلاً لا تقل ذاك فقير مستضعف ولن يؤذيني لذا سأشهد ضدّه، وذاك غني قد أستفيد منه إذا شهدت معه، لا، لأنَّ هذا ممنوع بل قم بواجبك واشهد بالحقّ.

{فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا}، لأنه سبحانه المرجع للفقير والغني، ولم يتخلّ تعالى عن مسؤولياته ويجعلك مرجعاً مسؤولاً عنهما لتقرر أنت على ذوقك كيف ستشهد بناءً على الأوضاع الاقتصادية للمتخاصمين!

{فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى}، أي لا تتركوا أوامره سبحانه وتكونوا على الهوى، الأهواء، ما تشتهونه وترغبون بفعله من دون أن تتقيدوا بالحقّ والباطل، فلا تتبعوا الهوى {أَن تَعْدِلُوا}، وبدلاً من العدل الاستقامة بلا ميلان تقومون باتباع ما تهوونه.

{وَإِن تَلْوُوا}، كما نقول: على ما تلوي؟ ونقصد ما هي نيتك الذاهبة للتنفيذ. وهنا الكلام عن نيّة الالتزام بالشهادة بالقسط، {أَوْ تُعْرِضُوا}، بأن لا تهتموا بتقديم الشهادة بالقسط، حيث رفضتم أصلاً أن تشهدوا أو شهدتُم بغير القسط بإعراضكم عن أوامره تعالى.

{فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}، حيث لديه أخبار وتفاصيل كل ما تقومون به، فانتبهوا من مراقبته سبحانه، لأنَّ هناك عقاباً على ذلك.

نلاحظ الشبه بين الآية هنا وبين الآية 8 في سورة المائدة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}، وهنا ترى التركيز على الميل العاطفي مع الأقارب الذين تشهد عليهم، وهناك في سورة المائدة كان التركيز على العداوة مع الذي تشهد عليه.

ضع في بالك أنه إلى حين نزول القرآن لم يستعمل العرب كلمة "قيّم قوّام" بالمعنى الدارج المرادف لمسؤول عن شيء، أو المسؤول عن جعل شيء ما مستقيماً، ومن الخطأ تفسيرها في القرآن بهذا المعنى الصريح، لأنَّ تفسير القيّم والقوّام بالمسؤول، هو من مشتقات معاني هذه الكلمة التي في أصلها تشير لحالة التفعيل.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً{136})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، ها نخبركم كيف يكون الإيمان الكامل:

{آمِنُوا بِاللَّهِ}، اعتقدوا بصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، واعتقدوا به إلهاً واحداً أحداً... {وَرَسُولِهِ}، آمنوا به كحامل للرسالة الإلهية الواجب تنفيذها، ولا تكذبوه وأنتم تعلمون أنه رسول إلهي كما فعل اليهود مع النبي عيسى(ع)...
{وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ}، وهو القرآن لذا اعتقدوا به كتاباً إلهياً يجب اتباع ما فيه، {وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ}، من قبل القرآن أيضاً نزلت كتب فآمنوا بها، وآمنوا بنزول كتب سابقة كالإنجيل والتوراة وصحف الأنبياء... على أساس أن هذا الدين من ذاك الامتداد التاريخي لدينه تعالى وليس ديناً جديداً أو خاصاً بكم مختلفاً عن الذين سبق ونزلت عليهم كتب من عنده تعالى.

إذن فليكن إيمانكم بالدين ذي الامتداد التاريخي، وليكن حقيقياً ولا يكن مجرد كلام فارغ، ولا يكن مجرد إيمان على الهوية الشخصية، أو على التذكرة والوثائق الرسمية...

{وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ}، حيث يُنكر ولا يعتقد بألوهيته ووحدانيته تعالى، ويظن أن مخلوقاً آخر عنده قدرات إلهية،
{وَمَلَائِكَتِهِ}، حيث ينكر وجود الملائكة(ع) أو ينكر أنَّ صفاتها عالية إيمانياً... وينكر أنها تعمل بأمره تعالى...
{وَكُتُبِهِ}، التي نزلت على الرسل أيضاً يكفر بها، ولا يؤمن بأنها إلهية ويقول بأنها من تأليف البشر أو الجنّ...
{وَرُسُلِهِ}، حيث يكفر بهم ولا يعتقد بهم كرسل ولا يعتقد بأنه يجب اتّباعهم، ولا يؤمن بأن الوحي نزل عليهم بل يعتبرهم مثل أي مفكّر أو زعيم أو رئيس... {وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، حيث لا يعتقد بوجود يوم في الآخر بعد انتهاء الدنيا، ولا يؤمن بقيامنا من الموت للمحاسبة والمجازاة... فهذا الكافر بكل ما سبق:

{فَقَدْ ضَلَّ}، حيث لم يكن على الشيء الصحيح، {ضَلَالًا بَعِيدًا}، إذ ابتعد كثيراً عن الطريق الصحيح وهو موصوف بتمام صفات الضلال.

لم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإسلام أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب..."، ولم يستعملها القرآن بهذا المعنى، وبمراجعة استعمال كلمة آمن ومؤمنون... في القرآن، تجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، حيث إنَّ "آمن" على أصل معناها اللغوي، و"اعتقد" على معناها الاصطلاحي الدارج، كلتاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شراً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فقد ضلّ عنك صيدها. واستعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، فلم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، لذا لن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية

20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً{137})
{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا}، حيث أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {ثُمَّ كَفَرُوا}، حيث أنكروا اعتقادهم بالدين الإلهي وتراجعوا عنه، {ثُمَّ آمَنُوا}، من جديد، {ثُمَّ كَفَرُوا}، من جديد. {ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا}، حيث غطسوا في إنكار الأمور الدينية التي ذكرتها الآية السابقة من كُفْرٍ به تعالى أو بملائكته أو رسله... وربما أعلن أنه آمن بكل الدين، ثم أنكر الكتاب، وبعد ذلك أنكر الآخرة، وبعد ذلك أنكر الملائكة... لذا صار يزداد كُفْراً..
هذا الشخص: {لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ}، إذ لن يتجاوز سبحانه عن كفره ولن يسامحه. {وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا}، حيث لن يضعهم تعالى على الشيء الصحيح، على الفكر والسلوك الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، ولن يجعلهم غصباً عنهم مؤمنين، بل سيتركهم في ضلالهم، ولا توجد طريقة أخرى ليهتدوا بها غير المعروض عليهم، وقارنها مع الذين لديهم رغبة بدرجة ما للإيمان، لأنَّ هؤلاء يهديهم تعالى عبر كتبه وعبر إنارة قلوبهم... ولكن النموذج الذي تطرحه السورة عمّن آمن ثم كفر ثم آمن ثم كفر... فهذا كيف سيهديه تعالى بعدما كانت الأمور واضحة أمامه وبإرادته كفر بالحق والصلاح، وهل سيجبره تعالى على الإيمان بالتلاعب بعقله؟ لا.
تَصَوَّرِ الحالة وأنت مراقب لها وتسأل لماذا لم يستقر هكذا شخص على الإيمان؟ وهل العطل في الدين الإلهي لأن الأدلة عليه ليست كافية ليبقى هذا الشخص مؤمناً؟ وهل من المفروض منه تعالى فعل شيء في هكذا حالة حتى يبقى هذا الشخص مؤمناً؟ لا، لأنَّ الأدلة أكثر من كافية ولن يَهْدِيَهُ تعالى بطريقة غير المتاحة للجميع.
من ناحية الغفران، فهذا الشخص كان أعلن إيمانه وصلّى لبعض الوقت، وصام أياماً أو أشهراً... ودفع الزكاة... وتصدّق على المحتاجين... ثم كفر، حيث أعلن أنه غير مؤمن بالدين، فإذا مات وهو كافر، فهل يحصل على الحسنات التي قام بها حينما كان مؤمناً؟ لا، ومثله أيضاً الشخص الذي آمن وكفر ثم آمن وكفر، فهذا أيضاً لن يحصل ولا على أيِّ حسنة لتغفر له ولو ذنباً واحداً، لأنَّ كل أعماله الحسنة التي قام بها حين كان مؤمناً فهي ستحبط وستفقد قيمتها، وهذا ما تفهمه من عموم القرآن ولكن تركيز الآية هنا على نموذج قد يعتبر نفسه من المؤمنين سابقاً، على أساس أنه كان مرتين مؤمناً، على أساس أنه شخص له أهمية إيمانية لأنه من المخضرمين في الإيمان بل هو فوق الإيمان والدين، حيث يؤمن ساعة يريد ويكفر ساعة يريد، فالفترات التي كان فيها مؤمناً هل تغفر له كفره؟ لا.

(بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً{138})
أولئك الذين أعلنوا أنهم مؤمنون ثم كفروا، قد يكون إنكارهم علنياً، ويعلنون أنهم كفروا بالدين الإلهي، وقد يكون إنكارهم غير علني، حيث إنَّ ظاهرهم الإيمان ولكن باطنهم الكفر، فهل هؤلاء يعتبرهم تعالى مؤمنين؟

{بَشِّرِ}، لأنهم ينتظرون خبراً ساراً باعتبار قيمة إيمانية لهم فأخبرهم عبر هذا القرآن، {الْمُنَافِقِينَ}، وهم الذين باطنهم غير ظاهرهم، الذين باطنهم الكفر وظاهرهم الإيمان، وأخبرهم بما سيحصل معهم، {بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}، ضرراً لن يكون سهلاً، ولن يكون منتهياً عابراً ويمكن الاعتياد عليه، بل يسبب الألم دائماً وبشكل مستمر وبدون انقطاع...

نلاحظ أن كلمة "بشرى" هي سماعك لخبرٍ جيِّدٍ عن شيء يهمّك، حصل ولم تعلم به أو سيحصل، وأثناء انتظار الخبر تستبشر وتريد أن يكون موافقاً لما تحبّ، وعندما نستعملها لخبر سيِّئٍ نقصد بالتبشير الصدمة بخبر معاكس عمّا نرغب به. وهنا المنافق ظاهره مؤمن ويضحك على نفسه وعلى من حوله بأنه من أهل الجنّة، ويستبشر بالجنّة في الآخرة، لذا تقول الآية: بشّره بالعذاب.

(الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً{139})
{الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ}، الذين يعتبرون أنفسهم تابعين للمنكرين لدينه تعالى، {مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}، حيث يسمعون كلام الكفّار ويطيعونهم ولو حتى بكلمة واحدة ويتركون ما يقوله المؤمنون.

لماذا هؤلاء المنافقون يوالون الكفار؟ {أَيَبْتَغُونَ}، أيطلبون ويريدون، {عِندَهُمُ}، عند غير المؤمنين، {الْعِزَّةَ}، أن يكونوا مستقلين أحراراً لا يكون مفروضاً عليهم ما يريده الآخرون؟ وهم لا يريدون أن يكونوا أذلّاء، ويظنون بأنهم سيحصلون على العزّة من موالاتهم للكفار! من سماعهم وتنفيذهم لكلام الكفار؟ من اعتبارهم الكفّار مرجعاً لهم! هم

مخطئون: {فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}، لأنَّ العزّة كلها لله تعالى، لذا لا أحد عنده قوة أو قهر أو غلبة أو سلطة... لولا أنَّ الله تعالى سمح له أو أعطاه العزة.

لاحظ أن الالتزام الحرفي بمعاني الكلمات يعطيك معنى مميزاً، ففي نفس اللحظة التي والوا فيها الكفّار ليكونوا أعزّاء، حتى لا يكونوا تابعين لأحد، فهم أذلّاء بل الأشدّ ذُلّاً! لأنهم تابعون لمن؟ للكفار الذين يهدونهم للسوء والباطل، وتاركون من لديه العزّة الحقيقية والمانح لها والذي يريد لهم الإيمان بالحق وعمل الصالحات، فهل العزّة في الكفر بالحقّ وفعل السيئات؟!

(وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً{140})

كيف توالون الكفار وأنتم تعلنون بأنكم مؤمنون؟ {وَقَدْ نَزَّلَ}، ربكم سبحانه، {عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ}، فقال لكم في القرآن وفيما سبق من كتب، {أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا}، فسمعتم شخصا ينكر الأمور المميزة المنسوبة لله تعالى، فيكفر بكلامه تعالى "بهذا القرآن بأنه ليس من مصدر إلهي" أو بما يتضمّنه هذا القرآن من أخبار وتشريعات وعقيدة...

{وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا}، فإذا سمعتم شخصا يتعامل مع الآيات من خلفية أنها بلا قيمة ويستهين بها، حيث لا يعتقد بجديّة ما تقوله عن الحياة بعد الموت والآخرة والثواب... {فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ}، فلا تجالسوا هؤلاء الكفار المستهزئين، {حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ}، حتى ينتقلوا بتركيز كلامهم إلى موضوع آخر، ولا تخالطوهم في الحديث حتى يدخلوا في كلام آخر غير الكفر والاستهزاء بآياته تعالى، وربما يكونون من أفراد عائلتك ويسخرون ويكفرون بالدين، وربما بينك وبينهم تجارة، وربما هم زملاء لك في العمل أو الدراسة... فلا تقعد معهم وغادر المكان ولا تسمع كفرهم واستهزاءهم، لأنهم لا يسألون عن الدين الإلهي ليفهموه أو ليقتنعوا به أو ليتعلموه... بل هم مصرّون على الكفر والاستهزاء وجلوسكم معهم لن يهديهم لأنهم يتسلون ويضحكون، فلا تقل إنك لا علاقة لك بما يقولون:

{إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ}، فإذا جلستم معهم وهم يكفرون ويستهزئون فأنتم شبههم كافرون أو ساخرون مثلهم.

{إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ}، سيجمع الذين من داخلهم كفار ومن الخارج يبدون مؤمنين، وسيجمع تعالى، {وَالْكَافِرِينَ}، المنكرين علنا للدين الإلهي، حيث سيجمعهم تعالى، {فِي جَهَنَّمَ}، في المكان الذي يوصف بسوء ما فيه، حيث فيه النار المتأججة، {جَمِيعًا}، من دون أي استثناء سيتم جمعهم كلّهم، ولن ينسى أحدا، ولن يهرب أحد لا من المنافقين ولا من الكافرين.

لاحظ الآية 68 من سورة الأنعام {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}، وهي تخبرنا صراحة بحرمة الجلوس مع الخائضين بالكفر والسخرية في آيات الله تعالى، وهنا تعيد تنبيهنا وتشرح لنا النظرة الإلهية لمن يجلس في هكذا أماكن بأنه لا يختلف عنهم، وهو منافق.

ننتبه، هنا الآية لا تقول لك بأن تهرب من الكلام معهم لأنهم يقولون كلام حقّ ضدّ دينك، لا، فلو كانوا يريدون الحق لكان واجبا عليك كمؤمن أن تقدّم لهم الحقّ إن كنت أنت أساسا مؤمنا عن حقّ يمكنك عرضه عليهم، لأن آياته تعالى دالة عليه وعلى صفاته... وقرآنه يدل على أنه من مصدر إلهي وكل ما فيه حقّ... ورغم ذلك هم مصرّون على الاستهزاء، وهم يشاركون بشكل أساسي في آياته تعالى لا بقصد فهمها أو الاستيضاح، لذلك لا تقعد معهم.

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً{141})

هذه النوعية من المنافقين، {الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ}، حيث ينتظرون حصول شيء متوقّع حصوله معكم، فإن كان لكم، أيها المؤمنون، {فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ}، شيء كان مغلقا عليكم وصار متاحا لكم، وغلبتم أعداءكم وصرتم المسيطرين، عندها، {قَالُوا}، فقال لكم المنافقون: {أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ}؟ صحيح أنّا كنّا نجلس مع الكفار ونتعامل معهم، وها انتصرتم عليهم فلا تحاسبوننا على علاقاتنا القديمة مع الكفار، لأننا في الحقيقة كنا معكم من المسلمين المؤمنين.

{وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ}، حيث كان الفتح من حصّة المنكرين للدين على المؤمنين، وربحوا في معركة ما على المؤمنين... أو سيطروا على إحدى مناطق المسلمين... عندها قال المنافقون للكافرين: {أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ}؟ في السابق كنتم في مجال نَطُولُكُمْ فيه ولكننا لم نفعل لكم أي سوء... تتذكّر الآيات السابقة العديدة التي وردت في هذه السورة عن الذين صاروا يقولون بأن بعض الكفّار مجبورون على الكُفْرِ وهم من داخلهم مؤمنون... هنا من نفس الأجواء تتكلّم الآيات عن المنافقين الذين دافعوا في السابق عن بعض الكافرين... عندما كنتم في مجال يَطُولُكُمْ فيه المؤمنون منعناهم من قتلكم ودافعنا عنكم ونحن أيضا لم نصبكم بسوء.

المنافقون ليس لديهم قضية يؤمنون بها، لأنهم يحافظون على علاقات طيبة مع المؤمنين ومع الكفار المعادين للمؤمنين في نفس الوقت! فإذا انتصر المؤمنون فهم يقفون معهم ويعلنون أنهم كانوا مشاركين في النصر، وإذا انتصر الكافرون وسيطروا فإنهم يقولون بأنهم هم ساعدوهم بطريقة أو بأخرى!

{فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، حيث يصدر تعالى حكمه على المؤمنين والمنافقين في زمن القيام من الموت، لأنهم هنا في الدنيا كانوا سياسيين عقلانيين يحافظون على مصالحهم... أما في الآخرة، فكل تبريراتهم لن تنفع، وسيصدر حكم حاسم قاطع فيهم منه سبحانه أنهم منافقون كفّار.

{وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا}، حيث لن يجعل تعالى للمنكرين لدينه مسلكا على المعتقدين بدينه ليحكموا المؤمنين.

ننتبه، وننتبه جيدا، لأن ما نراه من سيطرة للكافرين على المسلمين لا يتعارض مع ما تقوله الآية، فلو كان المسلمون مؤمنين حقيقيين لما كانوا تحت حكم وسيطرة الكفّار، لأنهم مسلمون ولم يَصِرْ إيمانهم حقيقيا خالصا، وفيهم منافقون كُثُرٌ ولا يستحقون النصر الإلهي، هذا بالرغم من وجود مؤمنين خالصين، ولكنهم قلة قليلة جدا أقل من المطلوب لينصرهم سبحانه...

هنا نتذكر أيضا نموذج الخسارة في معركة أحد، لأنه لا نصر إلهي للفاشلين المتخاذلين...

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً {142})

{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ}، إن الذين ظاهرهم الإيمان ولكن باطنهم فيه كفر، {يُخَادِعُونَ اللَّهَ}، يعتقدون أنَّه تعالى لا يرى حقيقتهم المخفية عندما يمثّلون أنهم مؤمنون، كما يخدعك شخص ما، ويقول لك إنَّهُ يحبك ولكنه في الحقيقة يكرهك، وهم يظهرون التديّن من الخارج ليراهم تعالى كمتدينين ولكنهم من الداخل ليسوا مؤمنين، {وَهُوَ خَادِعُهُمْ}، لأنه سبحانه يعلم ما في قلوبهم من نفاق ورغم ذلك يتركهم تعالى يظنون بأنهم يخدعونه سبحانه، وهي خدعة داخل خدعة.

المنافقون، {إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ}، توجّهوا لتفعيل التوجّه والإقبال، وهنا المقصود بالصلاة "المصطلح الديني" وهي الحركات والكلمات التي تعبّر عن التوجّه والإقبال على الله تعالى والتي نقيمها خمس مرات في اليوم، وهم، {قَامُوا كُسَالَى}، قاموا بلا همّة بلا رغبة، يصلّون غصباً عنهم، {يُرَاءُونَ النَّاسَ}، حيث قاموا للصلاة ليراهم الناس أنهم يصلون، ويريدون أن تكون عند الناس صورة محدّدة عنهم أنهم من المصلين، ولو كانوا وحدهم لما قاموا إلى الصلاة، لتركوها أو أجّلوها.

{وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا}، الكلمات التي يقولونها في الصلاة لا تجعلهم يستحضرونه تعالى في فكرهم وضميرهم، وحركات الصلاة يقومون بها بلا معنى، فالشعور بالقيام بالوقوف بين يديه تعالى، والشعور بالخضوع بالركوع، والشعور بمعنى وضع الجبين على الأرض أمام عظمة الله تعالى... والشعور بمعاني القراءة والتسبيح... هو الصلاة، أمّا هؤلاء فربما يشعرون بشيء بسيط كل مدة، ولكنه قليل نادر.

ننتبه جيداً، لأن النفاق درجات، حيث هناك منافق يبطن كفراً كاملاً في داخله، وآخر في داخله إيمان بشيء ما... ولذلك عبّرت الآية عن بعض المنافقين أنهم في مرّة من المرات يشعرون بمعنى الكلام عنه تعالى وبمعنى الركوع والسجود له سبحانه.

(مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً{143})
المنافقون، {مُذَبْذَبِينَ}، غير ثابتين يتحركون ويميلون، {بَيْنَ ذَٰلِكَ}، {لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ}، ليسوا ميّالين للمؤمنين تماماً، {وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ}، ولا ميّالين إلى الكفار تماماً، بل مرة يميلون إلى المؤمنين ومرة إلى الكافرين.

{وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا}، فالذي لم يهتدِ بالآيات الإلهية ليؤمن فلن تجد مسلكاً تسلكه لتجعله مؤمناً، فلن يهتدي ولا بأي طريقة.

من الواضح أن هؤلاء المنافقين لم يقرروا أن يؤمنوا، فلو كان من داخلهم يوجد قرار بالسير على طريق الهدى، فعندها لكان تعالى ساعدهم، ولكنهم هم قرروا أن يكونوا منافقين، ولذلك لن يهديهم سبحانه غضباً عنهم ولا بطرق أخرى غير المتاحة للجميع.

لاحظ كيف يتغير سلوك الشخص عندما يقرر أن يكون مؤمناً صالحاً، ويترك سوءاً شنيعاً كالسرقة أو الغش أو الغيبة أو الكذب... ويتوب، ويحصل على مساعدة ربانية تجعله يرى المحرمات الأخرى بشكل أوضح أنها سيئة حتى يكرهها ويبتعد عنها، ولكن المنافق لا يريد التوبة، ولا يريد التغيُّر، ويريد البقاء بين الحالتين: جزء منه مؤمن، وجزء منه كافر! على أساس أنه مؤمن وسطي! معتدل! فإن كان عنده رغبة في إكمال إيمانه فمن المستحيل ألا ينالَ مساعدة منه تعالى عبر إنارة قلبه لرؤية الآيات... ولكنه لا رغبة عنده في ذلك، وبتركه للهدى الإلهي لن تجد سبيلاً آخر لهدايته.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً{144})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين: {لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ}، لا تجعلوا المنكرين للدين مرجعاً لكم وأنتم تابعون لهم، وتسمعون كلامهم وتنفذونه، {مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}، ولا تتركوا كلام المؤمنين وتسمعوا كلام الكفار. وتعبير "من دون كذا" كما نقول: ذهبتم من دوني. وحصل الفعل منكم من دون أن تشاركوني فيه.

ضع في بالك وتذكّر دائماً أن القرآن يعتبر الشخص الذي سمع كلمة واحدة من كافر ونفّذها، والى الكافر، حتى لو كانت كلمة صغيرة، وطالما أنها تخالف ما قاله الله تعالى أو ما يقوله المؤمنون، يعتبرها سبحانه موالاة للكفار، وفي كل القرآن ستجد أن الموالاة، التبعية، الإمامة... تنفيذ كلام أحد ما، هي درجات، من الموالاة بكلمة واحدة إلى الطاعة الكاملة، ولكن الكل بنظره تعالى موالاة.

{أَتُرِيدُونَ}، هل تقصدون وترغبون، {أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا}؟! في بعض الأحيان نتصرف بطريقة نشك فيها بأننا سنُحَاسَب عليها، وهنا الآية تسألنا: هل تريدون فعلاً أن تقوموا بتصرف يجعل لله تعالى عليكم سلطاناً ليعاقبكم؟ كما نقول: صاحب الحق سلطان. ويملك شيئاً قوياً جداً ولا يمكننا الوقوف في وجهه، فهل تريدون أن تسجّلوا على أنفسكم معصية لله تعالى بموالاتكم للكفار، وهذه المعصية واضحة وتسبب لكم العقاب الأكيد؟

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً{145})
{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ}، إن الذين يقولون بأنهم مؤمنون ولكنهم من داخلهم كفارٌ، هم، {فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ}، يتبعون بعضهم ليصيروا في المكان الأقرب إلى قعر النار، {وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا}، فلا أحدَ يعينهم ويساعدهم ليخرجهم من النار أو يخفّف عنهم العذاب.

يرد على بال أحد ما أن يقول: المنافق أحياناً يصلي، أحياناً يصوم، أحياناً يتصدق... فلا بد أن تخفّف عنه هذه الأشياء! لا، لن تخفّف عنه بشيء، بل سينال عقاباً شديداً في أعماق جهنم.

بالنسبة لكلمة {دَرْك}، فمنها أدركه، أي لحق به ووصل إليه، ومن تبعات الاستعمال إدراك الأشياء لبعضها في المكان، على معنى عموم أخذ الموضع المحدَّد، وترى هذا المعنى بشكل أوضح في الآية 38 من سورة الأعراف: {... كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا...}.

المعنى الذي ينص على أن الجنة "درجات" (للعلو) والنار "دركات" (للهبوط والطبقات السفلية) هو مصطلح شرعي وتفسيري استُنبط لاحقاً بعد نزول القرآن، وصاغه المفسرون وعلماء اللغة المتأخرون (مثل الراغب الأصفهاني) لشرح بنية جهنم المذكورة في القرآن، فتم جمع "درك" على "دركات" كعكس لـ "درجات". ولكنه لم يكن استعمالاً عربياً قديما للدلالة على "السلالم أو الطبقات النازلة".

(إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً{146})

{إِلَّا}، المنافقين الذين فيما بعد، {تَابُوا}، وأقلعوا عن نفاقهم وفتحوا صفحة إيمانية جديدة، {وَأَصْلَحُوا}، فصارت أعمالهم موصوفة بأنها صالحة غير فاسدة، لأنه سبحانه جعل فينا قدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم صاروا يفعلون فقط ما يرونه صالحاً، وعملياً هذا يتماشى مع كلامه تعالى: {وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ}، حيث التجؤوا إليه تعالى ولم يفارقوه، {وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ}، حيث لم يعد في دينهم، فيما يدينون به، فيما يشعرون بأنه واجب عليهم، فيما هو تبعات عليهم، وصار خالصاً لله تعالى ولم يعد فيهم أي شعور بأنهم يدينون لغيره تعالى، وعملياً أطاعوه تعالى لوحده فقط وهم يشعرون بأنهم ملزمون بطاعته سبحانه لوحده.

{فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ}، حيث وصف تصنيفهم مع المعتقدين الملتزمين بالدين الإلهي، وما مضى من نفاقهم تمَّ مسحه. وهذا المفهوم القرآني متكرر في عدة سور، لأنه لا يوجد شيء اسمه: كافر سابق. منافق سابق. فاسق سابق. فإذا صار الشخص مؤمناً، فما مضى انتهى نهائياً ولم يعد له أثر.

{وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا}، سبحانه حدَّد الأجر، وحدَّد ما يستحقّه من آمن وعمل صالحاً، وها يخبرنا تعالى بأن الأجر سيكون عظيماً، وليس عادياً لأنه الخلود في جنات رائعة.

(مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً{147})

المنافق يفكر ويقول: قمت بأشياء فظيعة، وبالتأكيد سوف أُحاسَب عليها، فما الفائدة من الإيمان؟ وتجيبه الآية:

{مَّا يَفْعَلُ}، ماذا يفعل، {اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ}؟ حيث تحدثت الآية السابقة عن إغلاق صفحة الماضي لمن كان منافقاً ثم صار مؤمناً عاملاً للصالحات، وأفهمتنا أنَّه لا يوجد في نظره تعالى: منافق سابق. ومن آمن صار مؤمناً كاملاً والسجلات القديمة أيام النفاق انمسحت وانتهينا منها. وهنا تؤكّد الآية هذا المفهوم عبر شرح السبب لذلك من نظرته تعالى، فلماذا سيعذّبك سبحانه بعد أن صرت مؤمناً عاملاً للصالحات؟ لأنَّ هذا بلا معنى طالما صرت شاكراً، فأعلنت أنَّك حصلت منه تعالى على أمور جيّدة، وآمنت فصرت معتقداً بدينه تعالى، فلماذا سيعذّبك؟

{وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا}، فيعلن لك أنَّه يقدّر إيمانك وعملك الصالح، وسينظر إليه بقيمة عالية، وعلى هذا الأساس لن يحاسبك على ماضيك لأنَّك تبت.

الشكر بالنسبة لنا نحن البشر فيما بيننا هو تعبير عن حصولك على شيء جيد من أحد ما، وبما أنَّه تعالى لا يحصل ولا على أي شيء منّا، فنسحب الخصائص البشرية من الشكر لتعطي معنى تقديره تعالى للأفعال الجيدة التي قمنا بها، وهي على معنى: شكرنا لك فعلك الجيد حيث أحسنت الفعل.

{وَكَانَ اللَّهُ}، {عَلِيمًا}، يعلم إن كنت تبت فعلاً، فلا تظن أنَّك يمكنك خداعه سبحانه، وتقول إنَّك تبت لتحصل على العفو ولكنَّك من داخلك ما زلت منافقاً، لا، لأنَّ هذه اللعبة تمشي عليك وعلى الناس، ولا تمشي على العليم.

تستنتج أنَّ الآية تقول: الله سبحانه ماذا ينتفع من عذابك؟ هل سيشفي غليله؟ هل سيفرح من الانتقام؟ هل سيأخذ حقه منك؟ هل سيزيد ملكه؟... فانتبه جيداً، لأنَّ الآية لم تقل ولم تقصد أي شيء من هذه التخمينات، بل قالت: بعد أن شكرت وآمنت صرت كما يحبّ فلماذا سيعذبك سبحانه؟

(لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً عَلِيماً{148})

{لَّا يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ}، إظهار علني مباشر، {بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ}، الأقوال السيئة، {إِلَّا مَن ظُلِمَ}، إلا من تعرّض لمعاملة غير منصفة ولا عادلة، فهذا يحق له أن يجهر ويقول علناً بشكل واضح عن الأشياء السيئة التي تعرّض لها ممن ظلمه. ويقول مثلا: فلان نصّاب أخذ حقي، نصب عليّ مالي... فلان مجرم اعتدى عليّ فضربني وآذاني... فهذه أقوال سيئة عن الآخرين ولا يحبّ سبحانه أن نقولها، إلا في حالة شخص مظلوم يريد الحصول على حقّه، وبعد حصوله على حقّه فلا يحقّ له الاستمرار بالتكلم بالكلام السيئ.

هناك منافقون يقومون بأشياء سيئة، ولكنها مخفية وليست علنية، وطالما أنها غير منتشرة، فسبحانه لا يحب أن يسمعكم تتحدثون عنهم بتلك الأشياء السيئة، ولكن في حالة تعرّضك لظلم وتريد المطالبة بحقك، فيمكنك أن تعلن أمام القاضي وأمام الحاكم وأمام المحقق... بأن فلاناً اعتدى عليك فأخذ أرضك أو مالك أو سيارتك...

ننتبه، فالآية لا تقول بأنه يحق لك أن تشتمه وتسبه، لا أبداً، فالكلام السيئ المسموح هو قولك عنه أنه سرقني فهو سارق أو غشّني فهو غشّاش...

{وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً}، يسمع كلّ شيء، ويسمع القول السيئ من دون سبب وجيه، ويسمع قول المظلوم.

{وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً}، يعلم كل شيء، ويعلم إن كان القول السيئ نابعاً من الغيرة أو الحسد أو التسلية بالناس... ويعلم تعالى إن كان القول السيئ يصدر من مظلوم يريد حقه.

من الحكمة فهم الآية هنا بكلامها عن الجهر بالسوء من المظلوم في المكان والزمان المناسبَيْن، فلا يحقّ له التشهير في أي مكان وزمان بالآخرين الذين يعتقد أنهم ظلموه، بل حيث ينتفع ليأخذ حقّه يتكلّم. استثناء "الجهر بالسوء" للمظلوم مقيّد بذكر المظلمة حصراً لمن يملك رفعها (كالقاضي، أو الحاكم، أو الجهة المختصة)، ولا يُباح للمظلوم إطلاق الأوصاف العامة أو التشهير أمام عامة الناس في المجالس (كقول: فلان مجرم، أو نصاب)

(إِن تُبْدُواْ خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً{149})
{إِن تُبْدُوا خَيْراً}، إذا جعلتم الشيء السيئ يظهر على أنه خير جيّد، {أَوْ تُخْفُوهُ}، أو لا تجعلوا الشيء السيئ يظهر للناس، {أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ}، أو تمرّوا عن الشيء السيئ ولا تتوقّفوا عنده، فلا تطالبوا من فعل معكم السوء، تسامحوا من أساء إليكم، {فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً}، يعفو تعالى عمّن أساء، فلا يتوقّف عند السوء بل يمرّ عليه، لا يطالب من أساء بل يسامحه، وكان الله {قَدِيراً}، يقدر أن يفعل أي شيء يريده، فإذا أراد أن يعذّب فلا شيء يمنعه، ورغم ذلك يعفو.

الآيات تتحدث عن مشكلة، عن شيء سيئ قام به أحد الأشخاص ضدك، والآية السابقة سمحت لك أن تقول عمن ظلمك أشياء سيئة: سرقني، غشني، كذب عليّ... وهنا الآية تقول: إن أبديت خيراً، حيث حصلت المشكلة ولكنك لم تقل كلاماً سيئاً، بل ظهر منك كل خير وطالبت بحقك على طريقة أن من ظلمك ربما لم ينتبه أو لم يقصد... أو أخفيت من أصله ما حصل، فلم تخبر أحداً بالمشكلة فتناسيتها، أو علم الناس بالمشكلة ولكنك عفوت عمّن ظلمك، فهذه قمّة الإيمان والتشبّه بأفعال الله تعالى العفو.

ما هي قدرتك أمام قدرة الله تعالى؟ لا شيء، فالله القدير بقدرته العظيمة التي تمكّنه من معاقبة أي مخلوق بأي طريقة يريد، والقدير يعفو، وأنت، فَاعْفُ عمن ظلمك.

ننتبه جيداً، لو كان الناس مؤمنين صالحين، لما حصلت مشاكل، ولكن النفاق بدرجاته المتعددة هو سبب المشاكل، ولذلك تحدثت الآيات هنا عن المشاكل في سياق كلامها عن النفاق، ولكن ننتبه أكثر، لأن الآيات تركّز على كرهه سبحانه لانتشار الكلام السيئ بين المؤمنين، والحديث بالأشياء السيئة التي يقوم بها الناس، والتسلية بأخبارهم، هو عمل لا يحبّه سبحانه، لأنه سوء إلا إذا كان الكلام من مظلوم يريد أخذ حقّه، أو كنت تنبّه شخصاً من شخص سيئ... ولذلك الآية هنا تأمرنا بالعمل على إظهار المجتمع بأنه فاضل، ونلاحظ تكراراً لهذا الشيء في القرآن بطرق عديدة، عند الشهادة على الزنا إمّا أن يكون الشهداء أربعة أشخاص أو أن يسكت من شاهد الزنا وإلا فسيتعرض هو للعقاب إن لم يكن معه ثلاثة آخرون يشهدون... والغيبة من أصلها سوء حرام، وعلى النميمة عقاب شديد، واتهام الناس بدون أن يكون لك علاقة بالموضوع أو من دون أن تكون شاهدت شيئاً فهذا إفك وبهتان وعقابه شديد جداً...

نلاحظ الآيات تتحدث عن أشياء تجعلك أنت تقترب منه تعالى، بالعفو والغضّ والسكوت... والأمر متروك لك، فإن كنت أنت المظلوم ولك حقٌّ تريده، فلك الاختيار بالمطالبة أو العفو، والعفو أفضل، أمّا إن كان حقاً لغيرك، أو حقاً لعامة الناس، أو حقاً إلهياً، فأنت ليس لك الاختيار، وعليك القيام بواجبك والمطالبة بالحقّ لأصحابه إلا إذا عفا أصحاب الحقّ.

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً{150})
{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ}، الذين لا يؤمنون بتوحيد أو بألوهية الله تعالى ولا بالذين أرسلهم سبحانه فيتهمونهم بالكذب، {وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ}، {وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ}. نؤمن بالله تعالى ولكننا لا نؤمن بكل الأشخاص الذين يقولون بأنهم رسل من عنده، ولذا لا نؤمن ببعض رسله، حيث إنَّ عموم اليهود لم يؤمنوا بالنبي يحيى وزكريا وعيسى... عليهم السلام، واليهود والمسيحيون عموماً لم يؤمنوا بالنبي محمد(ع).

{وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً}، حيث يشقون طريقهم الخاص بين الإيمان به تعالى وبين الإيمان برسله تعالى! مرةً يؤمنون بهذا الرسول وتارة يكفرون بذاك! ولكن هذا السبيل الإيماني وهمي غير مقبول، والحقيقة واحدة: كلّ الرسل الإلهية هم رسل يجب الإيمان بهم كلّهم بلا فرق.

كمسلمٍ لا يبدو لهذه القضية أية أهمية عندك، لأنك تؤمن بكل الرسل الإلهية، ولا مشكلة عندك بذلك، حيث آمنت بآخر الرسل محمّد(ع) وآمنت بكل من سبقه من رسلٍ، ولكن أهل الكتاب لديهم مشكلة، حيث إنَّ اليهود لم يؤمنوا بالرسول عيسى(ع)، والمسيحيون واليهود لم يؤمنوا بالرسول محمّد(ع)! وهنا تنبّههم الآية بأن هذه مزاجية غير مقبولة.

الإيمان بالرسل السابقين ليس شيئاً تؤمن به على عماه لمجرد أن القرآن أمرك بذلك، لا، بل قد لا تعرف إلا بعض الرسل السابقين وتبقى موصوفاً بالإيمان بالذين لا تعرفهم ولم تسمع بهم، لأنك تعتقد بالامتداد التاريخي لدينه تعالى، وهذا عمق ما يقصده القرآن حين يتكلم عن الإيمان برسله تعالى الممتدين عبر التاريخ من أول بشري تأهّل ليتكلّف "آدم(ع)"، ومن ناحية ثانية هو إيمان بكلامهم أنه إلهي، فقد يقول أحدهم إنه يؤمن بالله تعالى ولكنه لن يتقيّد بما يقوله الذين يسمونهم رسلاً، وخلفيات أسباب هذه الحالة أشار لها القرآن مراراً، لأن هؤلاء يريدون اتباع الهوى حتى لو كان باطلاً فاسداً، وهذا عملياً سيكون سبب كفرهم بالرسل الذين ينقلون عنه تعالى كلاماً رشيداً صالحاً لا يريدونه...

(أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً{151})
{أُولَئِكَ}، الذين يفرّقون بينه تعالى وبين رسله ويختارون ما يشاؤون من الرسل ليؤمنوا بهم، ويتركون من لا يحبون ومن ليس على خاطرهم... {أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً}، ووصفهم بالكفر بالإنكار، هو وصف صواب صحيح بالتأكيد، وبكل تأكيد أولئك هم المنكرون الحقيقيون للدين، لأنه في دينه تعالى لا يوجد نصف إيمان، ولا ربع إيمان، فإمّا إيمان كامل حقيقي، وإمّا كفر.

{وَأَعْتَدْنَا}، جهّزنا، حضّرنا، {لِلْكَافِرِينَ}، للمنكرين للدين الإلهي، ولو أنكروا واحداً فقط من رسله تعالى، حيث تجهّز لهم، {عَذَاباً مُّهِيناً}، فلن يتألموا فقط، بل سيشعرون بالإهانة، بالاحتقار، وأنهم بلا قيمة.

لاحظ عندما يقول القرآن عن عذاب الكفّار بأنه مهين، فلأنهم لم يكونوا محترمين معه سبحانه وتعالى، أو أهانوا رسوله "أو المؤمنين"، ومما سيأتي من كلام سترى أن الكلام هنا عن الإهانة للرسول محمّد(ع)، فمن أنكر رسالته أهانه، واتهمه بالكذب عليه تعالى... وكذّبه (ع) اليهود والمسيحيون وهؤلاء من أهل الكتاب وكان حَرِيّاً بهم الاستمرار على الإيمان برسله تعالى... ولذلك سيشعرون بالإهانة أثناء التعذيب في جهنم.

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَـئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{152})
{وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ}، اعتقدوا به ربّاً تامّاً كامل الألوهية أحداً واحداً، {وَرُسُلِهِ}، أيضاً آمنوا بهم أنهم مبعوثون من عنده تعالى، {وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ}، فكل الرسل عندهم مثل بعض.

{أُولَئِكَ}، المؤمنون، {سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ}، حيث حدّد تعالى شيئاً يستحقّه من آمن، وسيحصلون عليه، وهو جنات خالدة في الآخرة.

{وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً}، فيتجاوز عن السيئات ولا يأخذ موقفاً صلباً قاسياً لا يتغيّر، ويسامح المؤمنين على ذنوبهم. {وَكَانَ اللّهُ}، {رَحِيماً}، فلديه عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، وبناءً على هذه العناية الخاصّة يحصلون على العفو والمغفرة التي لن يحصل عليها الآخرون.

إذن، لا يخلو المؤمنون من أعمال سيئة، ولو بسيطة، أو بالخطأ، ولكن بسبب الإيمان التام بالله تعالى وبرسله، وبسبب جهادهم في الطاعة، فسيحصلون على المغفرة على أعمالهم السيئة التي تابوا منها.

يمكنك الانتباه للفرق، فالمنافق والكافر لن يحصلوا على المغفرة، حتى لو قام أحدهم بكفالة كل أيتام أهل الأرض، فلن يحصل ولا على أي حسنة، لأن عمل الخير يفقد قيمته مع النفاق أو الكفر، لأنَّ الأجر أصلاً ليس واجباً عليه تعالى بل من فضله، وهم لم يقوموا بعمل الخير قربة له، بل كفروا به وبما نقله رسله من عقيدة وتشريع وسلوكيات. أمّا مع الإيمان فالأمر مختلف، فالحسنات تمحو السيئات، ومن هذا المعنى استعمل القرآن وصفه تعالى بالرحيم لخصوص رحمته تعالى بالمؤمنين، وكما ترى فهناك أمور خاصّة منه تعالى لا ينالها غيرهم، فالمؤمنون وحدهم لهم الثواب منه تعالى، ولهم المغفرة، ولهم الشفاعة ومضاعفة الحسنات... والآخرون لا ينالون أي شيء من هذه الأمور لأنهم هم قرروا الخروج من الرحمة الإلهية...

(يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً{153})
ننتقل إلى نماذج نفاق وكفر أهل الكتاب مع شرح مفصّل لعقليتهم وسلوكهم:

{يَسْأَلُكَ} {أَهْلُ الْكِتَابِ}، الناس المنسوبون إلى كتاب إلهي، فاليهود منتسبون إلى التوراة، والمسيحيون منتسبون إلى الإنجيل... فهؤلاء يسألونك فيعبّرون لك أيها الرسول محمّد(ع) عن إرادتهم لشيء منك وهو، {أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ}، حتى يؤمنوا بأنك فعلاً رسول من عند الله تعالى، فيريدون أن يكون الكتاب مكتوباً على ورق أو جلد أو لوح... وينزل مكتوباً تامّاً كاملاً مطبوعاً من السماء!

{فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ}، فعبّروا له(ع) عن إرادتهم لشيء منه(ع) أكبر من كتاب مكتوب ينزل كما هو من السماء، يعني كما نعبّر نحن بالعامية: طلبوا منك كتاباً مطبوعاً ينزل من السماء ليصدّقوا بأنك رسول إلهي، بسيطةٌ، وحتى يصدّقوا بأن النبي موسى(ع) رسول قالوا شيئاً أكبر من ذلك:

{أَرِنَا اللّهَ}، فلتحصل لدينا صورة محدّدة له تعالى، {جَهْرَةً}، بشكل واضح ومباشر، فنريد أن نراه تعالى شخصياً بنفسه بأعيننا مباشرةً.

يعني بسيطة إذا سألوك عن كتاب مطبوع ينزل من السماء حتى يؤمنوا بك، فمن قبل اشترطوا على النبي موسى(ع) أن يروه تعالى حتى يؤمنوا به كرسول.

{فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ}، وهي الشيء القوي المفاجئ فلم يتركهم، إذ تعرضوا بشكل مفاجئ لشيء شديد جداً على أجسادهم، فماتوا، {بِظُلْمِهِمْ}، بسبب أنهم لم يكن معهم حق في طلب رؤية الله سبحانه فوقعت عليهم الصاعقة وأخذتهم.

ضع في بالك أن كلمة صاعقة هي وصف لعموم أي شيء يأتي فجأة وبقوة، فالحرب والزلزال والطوفان والبرق والموت... كلُّه إن حصل فجأة وبشكل قوي فهو يوصف بأنه صاعقة.

{ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ}، فاعتبروا ذكر البقرة شيئاً، ومعلومٌ مشهورٌ أنهم عبدوا العجل! وتجد في القرآن نفس هذا التعبير خمس مرات عن عبادة العجل "اتخاذهم للعجل" بدون تكملة الجملة "إلهاً عبدوه"، فاعتبروا تمثالاً للعجل "الذكر البقرة، ثور صغير" اعتبروه إلهاً ربّاً، وبما أن ذلك معلوم، وتراه واضحاً من الآية 88 من سورة طه {فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ}، فلم تذكره الآيات لشدة سوء توصيف الساحة الإلهية به.

معلومٌ أنهم عبدوا العجل وبعدها طلبوا رؤيته تعالى جهرة، ولكن التعبير هنا عن سوء طلبهم لرؤيته تعالى جهرة، ثمّ، وأسوأ منه، أنهم عبدوا العجل. فبغض النظر عن تراتبية حصول هذه الأحداث، تشير الآية هنا إلى سوء ما طلبوه ومضافاً له سوء ما فعلوه، ثم هنا لا تقصد ترتيب الأحداث بل ترتيب سوء ما فعلوه من السيء إلى الأسوأ.

فعلوا ذلك، {مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ}، فالأمور الواضحة التي تدل على سخافة عبادة الأصنام أو أي شيء غير الله تعالى وصلتهم، فما يحتاجونه ليؤمنوا كان واضحاً "بيّناً" لهم ورغم ذلك عبدوا صنماً عجلاً!

تلاحظ تركيز الآيات على سخافة تفكير عابدي العجل، فهم لم يؤمنوا برسولية محمّد(ع) ولا بقرآنه، ويريدون نزول كتاب مطبوع جاهز من السماء ليؤمنوا به كرسول إلهي، فلم تتحداهم الآية بالإتيان بمثل القرآن ولم تذكّرهم بأنه موافق لكتابهم... وركّزت الآية بالرد على سخافة عقلياتهم التي بالعموم لم تتغير من جيل لآخر، فمن قبل طلبوا رؤيته تعالى، وقبلها عبدوا العجل.

{فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ}، فلم نتوقّف عنده ومررنا عليه فلم نعد نطالبكم بذنب عبادة العجل، واعتبرناه لم يحصل واعتبرناكم مؤمنين من جديد...

{وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً}، حيث كان معه (ع) الشيء القوي بشكل واضح، وهنا الكلام عن شيء يثبت بأنه (ع) كان رسولاً، فبعض الذين في زمنه أنكروا رسالته... وطلبوا دليلاً سخيفاً نابعاً من أفكارهم السخيفة، ومن مستواهم وهو مستوى عبادة العجل، طلبوا رؤيته تعالى كدليل على صحّة تواصله سبحانه مع الرسول موسى(ع)! بينما كان مع الرسول موسى(ع) الشيء القوي جداً والذي يثبت بأنه رسول، طبعاً لمن كان تفكيره مستقيماً ومحترماً ويقتنع بالكلام المحترم، ويحترم نفسه فيؤمن حين يرى عملاً غير عادي حصل على يدي النبي موسى(ع)... وهذا يأخذنا إلى عمق في حصول انشقاق البحر وخروج الماء من صخرة من بعد ضرب النبي موسى(ع) للبحر وللصخرة بعصاه التي في يده، وذلك حتى لا يحصل أي مجال لتأويل حصول الانشقاق للبحر أو خروج الماء من الصخرة بالصدفة أو من عوامل طبيعية أو من استجابته تعالى لدعاء أحد ما منهم أو كرامة لواحد منهم عليه تعالى... وحتى لا يتصوّر أحد أنه لا دخل للنبي موسى(ع) بما حصل، لا، بل حصل ما حصل من بعدما ضرب النبي موسى(ع) بعصاه، وها صرت ترى سبب إجرائه تعالى للانشقاق وخروج الماء من بعد الضرب بالعصا، فليست العصا سحرية ولا الضربة سببت ما حصل، وكان يكفي إخبار النبي موسى(ع) لهم أنه تعالى شقّ البحر وأخرج الماء من الصخرة، ولكن سبحانه أرادهم أن يربطوا ما حصل حصراً بسبب الرسول موسى(ع) كواسطة.

(وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً{154})

{وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ}، فوق رؤوس بني إسرائيل، {الطُّورَ}، الجبل، حيث ارتفع الجبل عن الأرض وصار فوق رؤوسهم، {بِمِيثَاقِهِمْ}، بالشيء المؤكّد بقوّة الذي التزموا به، وكما يبدو حصل ميثاق، اتفاق مؤكد شديد، بينه سبحانه وبينهم، وكعلامة إلهية على قبول الاتفاق معهم بأنهم سيؤمنون بشكل صحيح تامّ، حيث رفع سبحانه الجبل كدلالة على التأكيد والتشديد على الاتفاق. ودائماً نجد في القرآن حادثة رفع الجبل مرتبطة بتأكيد الاتفاق بينه سبحانه مع بني إسرائيل.

{وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً}، وراجع ما ورد في الآية 58 من سورة البقرة عن هذه الحادثة، حيث كانوا قرب قرية، فسمح لهم سبحانه بدخول القرية من بابها الرئيسي ولكن بشرط أن يقرّبوا جبينهم من الأرض عندما يصلون إلى باب القرية، وأن يقولوا: حطة، على معنى حطّ عنّا ذنوبنا، كطلب للمغفرة منه تعالى. ولكن القليلين منهم التزموا بذلك، فكانت النتيجة أن أهل القرية طردوهم مباشرةً... فهذا نموذج صريح عن مخالفتهم لأوامره تعالى من بعدما أخذ ميثاقهم ورفع فوقهم الطور.

{وَقُلْنَا لَهُمْ}، لهؤلاء، {لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ}، لا تعتدوا على أوامره سبحانه في يوم السبت، وراجع ما ورد في الآية 163 من سورة الأعراف، وهي حادثة مشهورة حيث أمر سبحانه بني إسرائيل أن يجعلوا يوم السبت عطلة، فلا يعملوا فيه، ولكن في قرية يهودية قرب البحر، قام بعض الصيادين منهم بالصيد يوم السبت... وكرّروا ذلك حتى انتشرت هذه العادة بينهم، فمسخهم سبحانه قردة... وهذا نموذج آخر صريح عن مخالفتهم لأوامره تعالى.

{وَأَخَذْنَا مِنْهُم}، من بني إسرائيل، {مِّيثَاقاً}، شيئاً مؤكَّداً بقوَّةٍ، {غَلِيظاً}، لا لين فيه.

تذكّر دائماً أن أخذ الميثاق منّا له تعالى هو عرضه تعالى علينا دينه، فلا تتصوّر دائماً حالة الميثاق والعهد كحالة الجلوس على طاولة وتوقيع الاتفاقيات، أو الوقوف أمام أحد ما وإعلان كلام عن ميثاق وعهد، لأنه معه تعالى ليس هذا ضرورياً، وبما فينا من قدرة لتمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، فهذا يلزمنا بترك الباطل والشرّ، ومجرد وصول كلامه تعالى لنا فإن كفرنا فنحن خارج العهد والميثاق وإلى نهاية حتمية بالعذاب، وإن آمنا فقد صرنا تحت عهد ميثاقي معه تعالى. وهناك حالة مميزة كرّرها القرآن عن رفع جبل فوق بني إسرائيل كعلامة إلهية على إمضاء ميثاق أعلنه بنو إسرائيل حينها بالالتزام بدينه تعالى، وتقرأ ذلك في الآية هنا: {وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ}، وأمّا بقية حالات الميثاق مع بقية الناس، فترجع إلى الأساس، حيث ترجع إلى ما فينا من قدرة على تمييز الخير من الشرّ، وعرضه تعالى لدينه علينا، وهكذا نصير تحت شيء شديد لا يتحمّل التهاون به، ويصير وصف الحالة ميثاقاً لمن تعهد باتباع الحقّ. فأنا وأنت تحت ميثاق معه تعالى، ولدينا تعهد شديد له تعالى بالالتزام بدينه.

كما ترى فهذا لا يعني أن من كفر بدينه تعالى لا التزامات عليه لأنه لم يتعهد ولم يواثق، وبالتالي فلا عقاب له، لا، لأنَّ هذا أساساً حالته سيئة جداً لأنه منكر للحقّ وفاعل للسيئات ورافض للالتزام بكلامه تعالى، وعلى هذا عقاب شديد.

سياق الكلام عن كفرهم به تعالى ونفاقهم وتمييزهم بين الرسل، وبالخصوص إنكارهم للرسول محمّد(ع) وطلبهم منه أن ينزّل عليهم كتاباً "مطبوعاً" من السماء ليؤمنوا به كنموذج عن بقية طلباتهم السخيفة... لذا لفتت السورة انتباهنا لبعض أبرز النماذج عن تاريخ إنكارهم لأمور عظيمة جداً حصلت معهم وكانت بيّنات ليؤمنوا، فرفع الجبل فوقهم كان لوحده من المفروض أن يجعلهم يؤمنون به تعالى، ولكنهم خالفوا الأوامر الإلهية البسيطة العادية ولأتفه الأسباب... فلا تستغرب إن كفروا بالرسول محمّد(ع).

(فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقًّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً{155})

{فَبِمَا}، فبسبب، {نَقْضِهِم}، فسخهم، {مِّيثَاقَهُمْ}، بسبب فسخهم ومخالفتهم الالتزام بالشيء المؤكّد الشديد، وهنا الكلام عن تهاونهم بدينه تعالى وهو شيء لا يتحمّل التهاون أو التراخي فيه.

{وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ}، إنكارهم الأمور المميزة بمستواها الإلهي المنسوبة له تعالى، والتي جرت أمامهم كالحوادث التي جرت في مصر كالبرد والقمل والعصا التي صارت حيَّةً... وما جرى بعدها من فلق البحر... وإنزال المن والسلوى وإخراج المياه من صخرة، ونزول التوراة، ورفع الطور فوقهم...

{وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ}، إنهائهم لحياة الأشخاص الذين يصلهم منه تعالى النبأ وهو الخبر غير المنتشر علمه لهداية الناس، {وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ}، {بِغَيْرِ حَقٍّ}، فلم يقم هؤلاء الأنبياء بأي جريمة تستحق القتل، فلم يقتلِ الأنبياء بريئاً، ولم يفسدوا في الأرض... ورغم ذلك قتلوهم.

حوادث قتل الأنبياء والمؤمنين قليلة عبر التاريخ قياساً مع عدد كل الناس، وقياساً مع الحروب التي خاضها مختلف الناس وقتلت الملايين... وفرضاً لو حدثت مرّة واحدة، حيث قتل قوم ما نبياً واحداً، فهذا يكفي حتى يكون نموذجاً لا يمرّ عليه تعالى بالنظر للعدد "واحد"، لا، فهذا الواحد أهمّ عنده تعالى من المليارات، وسيذكره تعالى في كلامه كنموذج لأبشع ما يمكن أن يفعله الكافرون بآياته تعالى. والمشهور بين الناس أنهم قتلوا النبيين يحيى (ع) وزكريا(ع)، وليس لدينا في القرآن أي تسمية أو ذكر لحادثة جرى فيها فعلاً قتل نبي إلا محاولتهم قتل النبي عيسى(ع)، ولدينا في التاريخ كلام عن محاولات اغتيالهم للنبي محمّد(ع) وقبله محاولة اغتيال للنبي داوود(ع) وللنبي سليمان(ع)، فربما لم يتحقّق فعلاً قتل لأي نبي عبر التاريخ ولكن صار موصوفاً من حاول قتلهم بأنه قاتل للأنبياء بالرغم من منعه تعالى حدوثه، وراجع استعمال العرب والقرآن لكلمة "قتل" ومشتقاتها وسترى أن المباشرة بأي عمل بقصد إنهاء حياة الآخر فهو قتل حتى لو لم يتحقّق القتل، فهنا التعبير بقتلهم النبيين ليس بالضرورة أنه تحقّق وأنهوا حياة نبيين، إذ يكفي قيامهم بعمل يقصدون منه إنهاء حياة نبي ما فهو عمل قتل حتى لو لم يتحقّق.

إن خطر ببالك أن التعبير بقتالهم المؤمنين سيعطي بشكل أصرح المعنى الذي ذكرناه، فكلامك صحيح ولكن من تبعات هذا التعبير أن يكون القتال من الطرفين، وهذا معنى لا تريد الآية قوله.

{وَقَوْلِهِمْ}، وقول هؤلاء الناس: {قُلُوبُنَا غُلْفٌ}، مغلّفة، فأساس تفكيرنا ونفسيتنا عليه غلاف يحجز عنه قبول بعض الأمور الدينية، فنحن لسنا بإرادتنا لا نقبل الدين، بل هي طبيعتنا، فقلوبنا بطبيعتها لا تقبله، لأنها مغلفة فعليها غطاء يمنع من دخول الإيمان عليها. فلا تحاولوا معنا أن نتغير، فالأمر ليس بيدنا فقلوبنا لا تقبل الحقّ وهذا شيء خارج عن إرادتنا.

{بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ}، بسبب إنكارهم للدين الإلهي جعل تعالى على قلوبهم على أساس فكرهم ونفسيتهم، جعل طابعاً، فصار من طبيعتهم فصار مترسّخاً متجذّراً فيهم، وتعلم من الجملة أن قلوبهم صارت طبيعتها مخالفة للإيمان.
ومن المشتقات الدارجة من معنى الطبع أن تطبع يدك على الطين، أو تطبع على الشمع الذائب، أو تطبع الكتب... ولكن أصل المعنى هو الطبيعة وهو ما يصير عليه الشيء مترسّخاً كصفة لا تنفصل عنه.

بسبب الطبع الإلهي على قلوبهم، {فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً}، فالغالب الأعم لا يعتقدون بدينه تعالى والمؤمنون منهم قلة قليلة.

يعني: هم قالوا إنَّ قلوبهم غلف ولذلك قام البعض منهم بنقض الميثاق وآخرون كفروا بالآيات، وأحيانا قتلوا أنبياءَ...
وتبيّن الآية أن قلوبهم فعلاً فيها عطل، ولكنهم هم سبّبوا هذا العطل لأنهم كفروا وتدرّجوا في الكفر حتى وصلوا إلى مراحل سيئة جداً جداً، إلى حيث صارت طبيعتهم مجبولة على الكفر.

نتذكّر أنه سبحانه خلقنا وفينا قابلية الانطباع، فمن كرّر أي شيء، حيث كرّر المبالغة بالكلام، أو كرّر الكذب، أو كرّر إنكار ما هو صحيح لأنه لا يتماشى مع هواه... فمع التكرار سيتغيّر حاله لتصير طبيعته المبالغة دائماً، الكذب دائماً... وهؤلاء كرروا الكفر حتى صارت طبيعتهم، فلا يؤمنون مهما جاءتهم من آيات.

هناك أبحاث عن ترابطات أعصاب الدماغ عبر وصلات، وتلك الوصلات تنبني وتتغير فيما تتغيّر بحسب فكرنا ونفسيتنا بالقرارات التي اتخذناها... وتنبني وتتغير من التمرين وتكرار الأفعال... وهكذا تنبني لكل واحد منّا ترابطات لدماغه مبنية على سلوكياته ونفسيته، وتصير هي طبيعته، وترى ذلك بوضوح فيما تتوقعه من ردّة فعل شخص ما أمام حدث ما، فما تتوقّعه منه مبني على معرفتك بطبيعته.

(وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً{156})
تبدأ الآيات بفقرة تذكر فيها الطبع على قلوب هذه النوعية من الناس:

{وَبِكُفْرِهِمْ}، وهنا سياق الجملة عن إنكارهم لولادة النبي عيسى(ع) من دون أب، {وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً}، كلاماً مفاجئاً من دون أي أساس من الصحة، وكان اتهاماً، {عَظِيماً}، ومعلومٌ أنهم اتهموها بالزنا مع العلم أن النبي عيسى(ع) كان في المهد بعمر أيام، ونطق وتكلم مع الناس بكلام يدل على براءة أمّه من الزنا ويدل على نبوته ورسالته... كما تقرأ في الآيتين 29 و 30 من سورة مريم {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً، قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً}، ورغم الآيات المتعددة التي جرت على يديه(ع) من إحياء للموتى وشفاء للمرضى... والتي تجدها في الآية 49 من سورة آل عمران والآية 110 من سورة المائدة، فرغم ذلك تلاعبوا بحادثة ولادته (ع)، وأصروا على اتهام السيدة مريم(ع) بالزنا.

كما ترى تعرض السورة علينا نماذج عن تصرفات بعض أهل الكتاب الذين رفضوا الإيمان برسولية النبي محمّد(ع)، وهم لا يختلفون عن نوعية سيئة من الناس مرّت عبر التاريخ، لأنهم من نوعية الذين شكّكوا برسولية النبي موسى(ع) مع أنهم اليوم يقولون بأنهم مؤمنون برسولية النبي موسى(ع)! وهذه النوعية من قبل شكّكوا به(ع)، وعبدوا العجل... وقتلوا الأنبياء... وصولاً إلى إنكارهم لرسولية النبي عيسى(ع)، بل قولهم على أمّه الطاهرة بُهْتَاناً...

(وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً{157})

من نماذج الطبع على قلوبهم، {قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ}، فأنهينا حياة، {رَسُولَ اللَّهِ}، فلم نقتل شخصاً عادياً، بل قتلنا الذي قال عن نفسه إنه رسول من عند الله تعالى، حيث قتلوه بنيّة قتل رسول الله تعالى لأنه لم يعجبهم.

{وَمَا قَتَلُوهُ}، فلم يحصل فعلاً إنهاؤهم لحياته (ع)، {وَمَا صَلَبُوهُ}، فلم يثبّتوه على عمود، {وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ}، فتصوروا أنهم قتلوا النبي عيسى(ع)، أما في الحقيقة فقتلوا شخصاً آخر.

{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ}، في النبي عيسى(ع) هل هو الذي قبضوا عليه وقتلوه صلباً أم شخصٌ غيره، {لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ}، فليس لديهم ولا أي مستند يثبت بأن المصلوب هو النبي عيسى(ع).

{مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ}، فليس لديهم علم بحقيقة ما حصل، حيث لا واحد منهم استطاع التأكد من شخصية المصلوب المقتول، {إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ}، فوصلت لهم معلومات اعتمدوا عليها وهي معلومات غير صحيحة.

{وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً}، ففعلياً لم يحصل لديهم علم مطابق فعلاً للواقع والحق حول إنهائهم لحياته.

ننتبه جيداً، فالقصص الموجودة الآن عن درب الجلجلة وصلبه(ع)، وعن تواجد أمّه(ع) وبطرس بقربه حين كان مصلوباً، هي تأليفات واختراعات من الناس، ولدينا نحن أيضاً في تراثنا الإسلامي الكثير من القصص المخترعة عن الرسول(ع) وعن الصحابة والرموز الإسلامية، قِسْ هذه الاختراعات على تلك، وقابلها بما يقوله المصدر الإلهي الموثوق "القرآن"، وستعلم أن الذين يخترعون الكذب في الأديان وفي العلوم والتاريخ... هم أمّة الكذب المنتشرة بكثرة على مرّ التاريخ بلا انقطاع.

تذكّر دائماً تركيز القرآن الكريم على تسمية النبي عيسى(ع) هكذا: "عيسى ابن مريم". فقد ورد في تاريخ اليهود العديد من الشخصيات المهمة التي تحمل اسم عيسى، وستجد أكثر من عشرة شخصيات بارزة جداً، وكلهم يحملون الاسم عيسى ولكن بعدة تصريفات، فهناك عدة تصريفات للاسم عيسى في اللغة العبرية والآرامية، ومنها: عيسو، يسوع، يشوع، جشوا، يشوا... وكلها بالنسبة لليهود "وللعرب" ترجع في اللغة العربية والعبرية والآرامية... إلى اسم عيسى، "مثل أحمد، محمد، محمود، حمود... فكلها من حمد"، ولهذا السبب وحتى يتميز ويتحدد النبي عيسى الحقيقي بالضبط عن هؤلاء، وحتى يتميز عن الأشخاص المزيفين الذين ادعوا أنهم المسيح، يسميه القرآن مع اسم أمه مريم التي ولدته من دون أب، ومضافاً له تكريم السيدة مريم بذكر اسمها مع اسم ولدها المميز لأنها هي كانت مميزة جداً.

أما لقب المسيح، فهو لقب لمن تم مسح رأسه بزيت الزيتون ليكون ملكاً مباركاً بزيت الزيتون... وهذه العادة بقيت رائجة حتى العصور الوسطى عند تنصيب الملوك في فرنسا وغيرها، حيث يقوم رجل دين بمسح بعضٍ من الزيت على رأس من عيّنوه ملكاً، فالنبي عيسى(ع) تم تعيينه من الله تعالى ليكون ملكاً على بني إسرائيل، ولا تخلط بين ملوك الدنيا والملوك الذين يعينهم الله تعالى، فلا داعي لأن يستلم الحكم حتى يكون ملكاً، بل يكفيه المنصب الإلهي، وتكون المشكلة على الناس الذين لم يعتبروه ملكاً ولم يطيعوه، فسواء حكم الناس أم لم يحكمهم، فلا فرق، فهو ملك، وهو المعيّن منه تعالى لأعلى منصب قيادي رئاسي.

بالنسبة لحادثة الصلب التي يرويها الناس أنها حصلت مع النبي عيسى(ع)، فمن تعبير القرآن أنه {شُبِّهَ لَهُمْ}، يبدو أنه حصل صلب وقتل لشخص بحيث ظنّ الناس أن المقتول والمصلوب هو النبي عيسى(ع). ومعلومٌ أن باني العقيدة والشريعة المسيحية الأشد تأثيراً في تاريخها هو بولس، الذي ورث منه المسيحيون غالبية دينهم... وبولس كان معاصراً للنبي عيسى(ع) وحينها كان اسمه شاوول، ولكن لم يكن من تلامذته ولا من حواريه ولا من أتباعه (ع)، بل كان متفرغاً لقتل كل من آمن بالنبي عيسى(ع)... وبحسب زعمه ففي مرّة ظهر له النبي عيسى(ع) من بعد اختفائه... واهتدى... وبعد ذلك نصّب نفسه بانياً للدين المسيحي، وهو وآخرون روّجوا بين الناس مسألة صلب النبي عيسى(ع)... وحالياً ليس لدينا مستند مشهور موثوق عن لسان تلامذة النبي عيسى(ع) حول ما جرى... وبهذا يمكنك بسهولة تصوّر الفرق بين الحقيقة التي يعرضها القرآن وبين ما هو رائج بين المسيحيين... خاصة إذا التفت إلى استهتارهم بالأمور الدينية والتاريخية الدينية، وكمثال عن ذلك راجع تحديد غالبيتهم لميلاد النبي عيسى(ع)، فمشهور جداً أنهم تلاعبوا بالتاريخ ووضعوه مكان عيد للمشركين...

(بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً{158})
{بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ}، بجسده.

{وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً}، مَنفِيٌّ عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، وتقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... فيفرض ما يريده على الآخرين ولا يفرض الآخرون عليه تعالى أي شيء مهما كان نوعه، فرفع النبي عيسى(ع) كان قراره تعالى وحصل.

{وَكَانَ اللَّهُ}، {حَكِيماً}، فعن حكمة وعن صوابية وليس عن عبث قام سبحانه برفع النبي عيسى(ع) إليه.

وقعت حادثة صلب وقتل لرجل ظنّه الناس أنه النبي عيسى(ع)، ويبدو من الآيات أن النبي(ع) كان مطلوباً قتله من رؤساء اليهود، ولم يكن لديه أتباع كافون لحمايته، وألقى الأعداء القبض على رجل يشبهه، فصلبوه...

من الآيات يبدو أنه ولا واحد من الناس كان متأكداً أن المقتول هو النبي عيسى(ع)، بل تصرّح الآيات بأنهم قديماً كان لديهم شك بأن النبي عيسى(ع) قُتِلَ فعلاً.

الرواية المشهورة بين عموم المسيحيين تقول بأن النبي عيسى(ع) صلبوه، ودفنوه ولكنه ارتفع إلى السماء بعد عدة أيام، ورواية القرآن تقول: حصلت عملية قتل وصلب ولكن اشتبه الناس وظنّوا أن المقتول المصلوب هو النبي عيسى(ع)... أمّا النبي عيسى(ع) فقد كان في مكان آخر وتم رفعه إلى السماء كاملاً بجسده.

نلاحظ الآية 57 من سورة مريم {وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً}، ذكرت لنا أن الرفع لم يكن حدثاً مختصاً بالنبي عيسى(ع)، فالنبي إدريس(ع) أيضاً رفعه ربنا سبحانه، فالرفع ليس حجَّةً يمكن استعمالها للدلالة على ترك النبي عيسى(ع) لجسده البشري ورجوعه إلى طبيعته الإلهية كما يقولون، بل وكما عبّرت الآية 55 من سورة آل عمران {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا...} فقد توفّاه تعالى ورفعه كاملاً بجسده من الأرض... بطريقة خاصة ولأسباب خاصة... وحصل ذلك من قبل مع النبي إدريس(ع).

نلاحظ القرآن لم يردّ بشكل مباشر على كلام المسيحيين حول حمل النبي عيسى(ع) بجسده البشري لآلام فظيعة بسبب التعذيب الذي تعرّض له، حتى يكون هذا العذاب فداء لكل المؤمنين به فلا يطالهم العذاب في نار الآخرة! فأصلاً لم يتعذّب النبي عيسى(ع) ولم يجلدوه ولم يصلبوه.

بقي شيء ذكرنا بعضه في دراسة الآية السابقة ونكرره هنا، فالدين المسيحي الذي انتشر بين غالبية الناس كان على يدي بولس... وكان قبل ذلك اسمه شاوول وكان من علماء اليهود ومتخصصاً بقتل المسيحيين... إلى أن تحوّل للمسيحية "بعد وفاة ورفع النبي عيسى(ع) بسنوات" عبر حادثة يرويها هو عن نفسه حين كان مسافراً في الصحراء باحثاً عن واحد من تلامذة النبي عيسى(ع) لقتله... ويقول إنَّ النبي عيسى(ع) ظهر له وكلّمه... وبعدها بدأ بنشر الدين المسيحي... وفاقت رئاسته الدينية رئاسة من كان حيّاً من تلامذة النبي عيسى(ع)... حيث سيطر على مصدرية العقيدة والشريعة... وهو أول من بدأ الاختراع في الدين من منصب عمومي كرئيس للمسيحيين... إلى أن تأسّست الكنيسة الكاثوليكية بناءً على تراثه، وأثبتت الأناجيل الأقرب توافقاً مع عقيدتها... والمكتوبة كلّها بعد وفاة النبي عيسى(ع) من أشخاص لم ينقلوها مباشرة من النبي(ع)... وتلك الأناجيل مثبت فيها عملية الصلب... وهكذا صارت جزءاً من العقيدة المسيحية.

(وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً{159})
{وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}، وبعض الناس من المنتسبين للكتاب الإلهي، {إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ}، حيث يعتقدون بالنبي عيسى(ع) رسولاً من الله تعالى وأنّه لم يُصلب بل تمّ رفعه، حيث يوجد أناس من أهل الكتاب سوف يؤمنون بالمسيح(ع) كرسول إلهي، وأنه لم يُصلب ولم يُقتل، فالمسيح(ع) الآن في مرحلة وفاة، في حالة أخذه وليس في حالة موت.

قبل أن يموت النبي عيسى(ع) نهائياً، سيؤمن البعض من أهل الكتاب "من المسيحيين واليهود" به أولاً كبشرٍ رسول، وأنه لم يمت قتلاً أو صلباً. أمّا ما السبب وما الذي سيحصل حتى يؤمن هذا البعض برسالته(ع) فلا نعلم ولم يذكره

القرآن، ومن المشهور بين غالبية الناس أنه (ع) سيرجع إلى الحياة بيننا، ولكن الروايات التي تتحدّث عن هذا ضعيفةٌ جداً جداً ومصادرها غير موثوقة.

{وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ}، وفي زمن قيام الناس من الموت في عالم الآخرة، {يَكُونُ}، النبي عيسى(ع)، {عَلَيْهِمْ}، على أهل الكتاب، {شَهِيداً}، يشهد عليهم بأن هذا آمن وهذا كفر وهذا اخترع في الدين وهذا قال عنه بأنه إله...

من نماذج الطبع على قلوبهم أنهم لن يؤمنوا به(ع)، ولكن عبر التاريخ القادم البعض منهم سيؤمنون به(ع).

بقي شيء، من كثرة ما تراكم لدينا من ثقافة دينية عبر التاريخ، صرنا لا نميّز بين الصحيح والكاذب منها، ونحن مشحونون بما يكرّره الناس مما أعجبهم وتوافق مع مزاجهم، حتى لو لم يكن صحيحاً فإن كثرة تكراره ترسّخه في ذهننا على أنه معلومة صحيحة، وخاصة بعد دعمه بإيمان من حولنا به، لأنَّ هذه الحالة تدفعنا بشكل أو بآخر لتفسير القرآن بناءً على قناعاتنا التي قد تكون غير صحيحة. ومنها الكلام الكثير المنتشر عمّا سيحصل من نزول النبي عيسى(ع) وظهور المهدي، والدجّال وخسف بالبيداء... وهذا موروث ثقافي لم يرد صراحةً في القرآن حتى نعطيه المصداقية التامّة.

خذ مثلاً آيتنا هنا، لولا الموروث الثقافي عن نزوله(ع) في زمن المهدي، هل يمكنك استخراج هذا المعنى من الآية؟ لا، ستفترض أنه(ع) متوفّى ولكنه لم يمت، فحالته تقريباً كحالة المقتولين في سبيله تعالى، ونهانا تعالى أن نقول عنهم أمواتاً علماً أنهم متوفّون، وأخبرنا تعالى أنهم أحياء عنده يرزقون، راجع الآية 154 من سورة البقرة، وعلى هذا فمن السهل تفسير آيتنا هنا بالتشبيه بهم أنه (ع) مثلهم، حيث سيأتي زمن يموت فيه (ع)، ويموت فيه المقتولون في سبيله تعالى، وذلك حين تبدأ الدنيا بالتبدّل لتأتي الآخرة، وبعدها يقوم الجميع من موتهم... وهكذا يصير معنى الآية أنه (ع) الآن في حالة وفاة، مثله مثل المقتولين في سبيله تعالى، وحين تبدّل الدنيا تجهّزاً للآخرة سيأتي زمن يموت ويموتون فيه، وخلال فترة وفاته برفعه وإلى حين موته، سيؤمن قسمٌ من اليهود به على ما يقوله القرآن عنه.

هذا ما يظهر من الآية لوحدها من دون التأثّر بالروايات، وإلا فإن وجدنا رواية بسند صحيح ومتوافقة مع عموم القرآن وتفسّر آيتنا هنا بغير ما قلناه، فاطرح ما قلناه، وإلى حينه فلا تَرْمِ بالقرآن آخذاً بالروايات المخالفة له أو التي فيها تفسير بالباطن لا يتماشى مع ظاهر القرآن، وراجع دراستنا هذه في أي آية تعتقد أن ظاهرها غير مقبول وتحتّم عليك فهم باطنها حتى تصير مقبولة، وسترى أن هذا غير صحيح.

(فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيراً{160})
نكمل مع الطبع على قلوبهم: {فَبِظُلْمٍ}، فلأنهم لم يكن معهم حقٌّ، {مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا}، من بعض اليهود، حيث قاموا بتصرفات لم يكن معهم حقٌّ بها ولذلك: {حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ}، منعنا عليهم مع عقاب لمن يخالف، {طَيِّبَاتٍ}، أشياء محببة، وأول ما يخطر ببالك أنها من الطعام، {أُحِلَّتْ لَهُمْ}، فهناك أشياء طيبة محببة ليست خبيثة من الطعام، كانت من قبل حلالاً لهم فكان يمكنهم أكلها إذا أرادوا، وحَرَّمَها عليهم سبحانه فهددهم بالعقاب لمن يأكل منها بسبب ظلمهم، {وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}، وبسبب منعهم الذي يُرِيدُ المشي على الطريق الإلهي من المشي عليه، {كَثِيراً}، فلم يمنعوا الناس من الإيمان الصحيح بشكل عابر، لا، بل بكثرة، وكان عملاً للبعض منهم وشغلهم الشاغل منع الآخرين عن سلوك الطريق الإلهي، ومنع انتشار الدين الإلهي الصحيح!

في القواميس العبرية المرموقة نجد كلمة "يهود" واشتقاقها من هاد هدنا "هداية"، وتطبيقياً فسروها على معنى الإنابة والحمد له تعالى "المنيبين الحامدين"، ففي اللغتين العربية والعبرية هي في الأساس نفس الكلمة بنفس المعنى من الاهتداء "الهداية"، وعندما تُشْتَقُّ منها تسمية أو فعل مباشر يصير تصريفها مثل قول النبي موسى(ع) المنقول في الآية 156 من سورة الأعراف {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ...}، وترى ذلك في استعمال اشتقاق فعل منها عدة مرات في القرآن ومنها ما ورد في الآية 62 من سورة البقرة {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى...}.

نتذكر من القرآن أن كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل كما ورد في الآية 93 من سورة آل عمران {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ...}، فبعد نزول التوراة صار هناك طعام

حرامٌ، وبعد ذلك صارت بعض الطيبات حراماً بسبب التصرفات السيئة لبعض اليهود، وترى ذلك صريحاً في الآية 146 من سورة الأنعام {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}.

بالنسبة لصدّهم عن سبيله تعالى ترى في عصرنا نموذجاً بارزاً عن ذلك، عبر وسائل الإعلام والمقالات والكتب وصفحات الانترنت والتواصل الاجتماعي... وعبر المسلمين الذين يشترونهم بالمال أو يغرونهم بالمنصب... حتى يفتروا على القرآن والرسول محمّد(ع) ويشوّهوا صورة الإسلام والمسلمين...

(وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً{161})
نكمل مع أسباب الطبع على قلوبهم: {وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا}، وهي الفائدة والفائض على المال، فتستدين مني مئة دينارٍ، وأشترط عليك ردّها لي بعد شهر: مئة وعشرة دنانير، فالدنانير العشرة هي ربا هي الفائدة الفائض.

{وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ}، حيث أمرهم الأنبياء والكتب التي نزلت بترك الربا بكل أنواعه نهائياً.

{وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ}، فليس بالحق يستهلكون أموال الناس، فيأمرونهم بالزكاة ويأخذونها لأنفسهم ولا يصرفونها كما أمر الله تعالى، ويأخذون أموال النذور والقرابين ولا يصرفونها على الفقراء والمحتاجين، ويتسلطون على أموال وبيوت وأراضي الناس الذين لا يستطيعون دفع الربا... ويضعون أيديهم على الأوقاف... وغيرها من الأمثلة الكثيرة...

{وَأَعْتَدْنَا}، وجهّزنا وحضّرنا، {لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ}، حيث إنَّ من اليهود هناك منكرون للدين الإلهي وجهّز سبحانه لهم، {عَذَاباً أَلِيماً}، ضَرَراً لن يكون سهلاً فلا يمكن تحمّله، ولن يعتادوا عليه، بل سيكون دائماً مؤلماً بشدة.

يبدو واضحاً أن كلامه تعالى ليس تعميماً لكل أهل الكتاب، ففيهم مؤمنون ولو كانوا نادرين، وسترى ذلك في الآية التالية:

(لَّـكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَـئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً{162})
{لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ}، الأشخاص الذين لديهم رسوخ ثبات فهم ووعي للعلم، {مِنْهُمْ}، من أهل الكتاب، أي علماء الدين الحقيقيين منهم، والمتعلمون الفاهمون الحقيقيون للعلم الديني، {وَالْمُؤْمِنُونَ}، الذين لم يتبحروا في العلوم الدينية، ولكنهم مؤمنون حقيقيون، والراسخون والمؤمنون: {يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ}، يعتقدون بالقرآن كتاباً إلهياً، لأنه مطابق متماشٍ لعلمهم ولإيمانهم.

{وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ}، أيضاً يعتقدون بالكتب الإلهية التي نزلت سابقاً فلم ينكروها.

{وَالْمُقِيمِينَ}، غير التاركين ولا المهملين، الفاعلين، {الصَّلَاةَ}، التوجُّهَ والإقبال، وهنا المقصود هو المصطلح الديني للصلاة، وهو التوجّه بالعبادة إليه تعالى عبر حركات وكلمات خاصَّةٍ في أوقات محدَّدةٍ، يعني هم لم يتركوا الصلاة الواجبة.

{وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ}، جعلوها عند من يوزّعها أو وزّعوها هم بحسب ما أمر سبحانه، وكلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، شيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكية، مال زَاكٍ، طعام زَاكٍ..."، ومنذ القدم صارت مصطلحاً دينياً يشير إلى دفع نسبة محدَّدةٍ من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ...}، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، فيدفع منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة {...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...}، وتكون نسبة قليلة مما تملك، ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح

المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

هذا الكلام من القرآن عن الزكاة هو نفسه كان مفروضاً على من سبقنا من مؤمنين بدينه تعالى.

{وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ}، وهكذا تصير الجملة مرادفة لعموم ما يذكره القرآن عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، حيث ذكرت الآية الصلاة والزكاة كأبرز نماذج عن الأعمال الصالحات التي ذكرتها الكتب الإلهية، وأكملت لتذكر أساس الإيمان، وهو الاعتقاد به تعالى، والاعتقاد بالآخرة بعد هذه الدنيا حيث سنتحاسب فيها ونتجازى...
{أُولَئِكَ}، المؤمنون العاملون للصالحات، {سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً}، حيث حدّد تعالى ما يستحقّونه على إيمانهم وعملهم الصالح، وسيكون عظيماً ضخماً ما سينالونه.

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً{163})
كانت بداية الكلام عن إنكار بعض الناس للرسل، بحجّة أنهم مجبورون على الكفر لأن قلوبهم غلف لا تقبل الإيمان... وردّت الآيات عليهم بذكر الأمور السيّئة التي سبَّبتِ الطَّبْعَ بالكفر على قلوبهم، ووصلنا إلى هنا، فما أهمية الإيمان بالرسل إن كان الغالبية سيكفرون بهم؟ والجواب في الآية بعد التالية: حتى لا يكون للناس حجة على الله تعالى بأنهم لم يصلهم إنذار من العقاب في الآخرة وحتى لا يقولوا بأننا لم نعرف الحقّ من الباطل... وأيضاً ترى من الفقرة هنا الامتداد التاريخي لآلاف من السنين لدينه تعالى، وكون النبي محمّد(ع) امتداداً لهذا التاريخ الديني العميق، وعبر هذه السلسلة وصل لعموم الناس تصويب وتوضيح للحقّ والباطل حتى لا يقولوا إنَّ الحقّ التبس عليهم.

{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ}، فأوصلنا إلى فكرك معلومات لتبلّغها للناس، {كَمَا}، مثلما، {أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ}، {وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ}، إلى الأنبياء الذين جاؤوا من بعد النبي نوح(ع) وصولاً إلى... {وَأَوْحَيْنَا} برسالتنا {إِلَى} الأنبياء {إِبْرَاهِيمَ}، وابنيه {إِسْمَاعِيلَ} {وَإِسْحَاقَ}، {وَيَعْقُوبَ} ابن إسحاق(ع). {وَالأَسْبَاطِ}، وهم الأنبياء المتعددون من أبناء أبناء النبي يعقوب(ع) مثل النبي دانيال(ع) والنبي أشعيا(ع) والنبي حزقيل(ع)...

وأوحينا إلى الأنبياء، {وَعِيسَى} و {أَيُّوبَ} و {يُونُسَ} و {هَارُونَ} و {سُلَيْمَانَ}.

{وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً}، فوصله منّا كلام كتبه(ع) وصارت الكلمات مزبورة أي مكتوبة.

لاحظ أن الأنبياء لم يكتبوا كل الوحي الذي كان ينزل عليهم، خذ مثلاً النبي محمداً(ع)، حيث أمر فقط الناس بكتابة وحفظ القرآن من بين كل الوحي الذي نزل عليه (ع)، وتميز بعض الوحي الذي نزل على النبي داوود(ع) بأنه تمت كتابته.

من هذه الآية أطلق المسلمون على كتاب النبي داوود(ع) اسم: زبور. وكما تلاحظ فهي ليست اسماً بل تشير إلى أنَّ النبي داوود(ع) الذي كان يطبّق التوراة، نزل عليه وحي فكتبه النبي(ع) وصار كتاباً منفصلاً عن التوراة، وأمّا اسم الكتاب استناداً للتراث الديني اليهودي فهو المزامير، وألحقوه كفصل مع كتاب التوراة.

تلاحظ فصل الآية بين النبي نوح(ع)... والنبي إبراهيم(ع) فبينهما أنبياء لم يقصصهم علينا القرآن، ومن جهة ثانية وكما تعلم من القرآن فمن بعد النبي نوح(ع) كان كل الأنبياء من ذريته حصراً، وصولاً إلى النبي إبراهيم(ع) حيث انتهت النبوّة المتفرعة من ذرية النبي نوح(ع) وبدأت من جديد فقط من ذرية النبي إبراهيم(ع)، الآية بشكل ما أرادت التذكير بهذا المعنى الذي تجده صريحاً في الآية 34 من سورة آل عمران {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.

(وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً{164})
{وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ}، أوحينا إلى رسل أخبرناك بقصصهم، {مِن قَبْلُ}، قبل أن تنزل هذه السورة عبر هذا القرآن، {وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ}، فلم نخبرك بقصصهم وما جرى معهم، حيث ذكرنا لك أسماءهم فقط أو حتى لم نذكر لك أسماءهم.

{وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً}، نعلم من عموم القرآن أنه سبحانه صنع الصوت في الشجرة أو في الهواء داخل الشجرة...، حيث حصل الكلام مع النبي موسى(ع)، راجع عن ذلك دراسة الآية 30 من سورة القصص {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}.

لمزيدٍ من التوسّع حول معنى كلمة وحي، راجع كمثال دراسة الآية 44 من سورة آل عمران {ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ...}.

(رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً{165})
أوحى تعالى إلى كل هؤلاء وغيرهم:

{رُسُلاً}، ناقلين رسالة منه تعالى، {مُّبَشِّرِينَ}، حاملين الخبر السار، وتعلم أنه الخبر لمن آمن وأطاع بأنه سيدخل إلى الجنة.

{وَمُنذِرِينَ}، وحاملين للخبر السيئ لمن توافرت فيه شروط حصوله، وتعلم أنه الخبر بالعقاب في الآخرة لكل من توافرت لديه شروط ذلك.

والتبشير والإنذار سبب نزول الوحي الإلهي على الرسل: {لِئَلَّا}، حتى لا، {يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}، فإذا لم يصلني خبر منه تعالى فكيف سأعرف ماذا خطّط لي عندما خلقني؟ وكيف سأعرف بالثواب والعقاب؟ فإذا لم يصلني خبر فسوف أحتج في يوم القيامة وأعترض... وسيكون معي حجَّةٌ، وسيكون معي شيء يبرهن أمامه تعالى أنَّني لم تصلني أوامره وبالتالي فلا يحق له تعالى محاسبتي... أما بعد كل هذه الرسل التي بلّغت رسالة ربها سبحانه، فلم يعد لأي واحد حجة على الله تعالى، فكلنا وصلتنا الرسالة.

{وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً}، مَنفِيٌّ عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، وتقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... وهذا الوحي لأنبياء مع تبشير وإنذار كان قراراً منه تعالى يجري علينا غصباً عنّا.

وكان سبحانه، {حَكِيماً}، فيرى الصوابية في الأمور، فلا يتصرف سبحانه بعبثية أو مزاجية، فأصل وجودنا كلّه عن تخطيط حكيم، وإرسال الرسل عن حكمة، والإنذار والتبشير عن حكمة...

الإيمان بالرسل صار شرطاً للإيمان به تعالى انطلاقاً من كون الرسل هم الناقلين للأوامر الإلهية، ولذلك كان العقاب لمن أنكر رسالة أي واحد منهم، فلو آمنت بكل الرسل السابقين ولم تؤمن بآخر رسول فأنت حتماً ستتعرّض للعقاب الإلهي...

بقي شيء، إنَّ هذه الرسل والأنبياء كانوا في منطقة الشرق الأوسط، ويبدو واضحاً من القرآن حصره تعالى للنبوة في ذرية النبي نوح(ع)، وبعده حصرها في ذرية النبي إبراهيم(ع) مما يشير إلى انحصار النبوة في بقعة جغرافية صغيرة على الأرض، وأنت تعلم من عموم القرآن أنه تعالى لا يغيّر أنفس أو عقول الناس، وأي شخص كان يجب أن يتحلّى بصفات تؤهله ليجعله تعالى نبياً أو رسولاً، ويبدو من كلامه تعالى أن الأشخاص الذين تأهلوا بصفاتهم ليكونوا رسلاً وأنبياء، كانوا حصراً من ذرية النبيين نوح(ع) وإبراهيم(ع).

يعني لم يتأهّل ولا واحد من خارج هذه العائلة ليكون نبياً، ولذلك لا تجد أنبياء خارج منطقة تواجد ذرية هذين النبيين.

الآن نسأل: كيف سيصل دينه تعالى إلى بقية الناس النائين عن منطقة الشرق الأوسط؟ وكيف سيصل إلى القارة الأمريكية والأوقيانوسية والأفريقية وشرق آسيا... لئلا يكون للناس حجّة على الله تعالى؟

يبدو من كلام القرآن أن الكتاب الإلهي النازل على الرسل هو الطريقة المعتمدة لنشر دينه تعالى إلى بقية المناطق، وتفهم ذلك من تكرار وصف الرسول بأنه للناس كافة وللعالمين... ولكن هناك شيء آخر ذكره القرآن حين ركّز بشكل ملفت على النموذج إبراهيم(ع) الذي بقلبه السليم فقط وصل إلى إيمان صحيح به تعالى، وكان في محيط مشرك بالكامل، ورغم أنها حالة مشابهة بشكل ما لأنبياء آخرين، ولكن خذ مثلاً النبي محمداً(ع) الذي على الأقل سمع كلاماً

عن دينه تعالى من اليهود والمسيحيين ومن الموحدين الإبراهيميين... على كل حال وبحسب ما جاء في القرآن فالنبي إبراهيم (ع) هو النموذج الأبرز، وبناءً عليه فما يقولونه في الكتب عن الحجّة لله تعالى على الناس أنها أولاً عقولهم، فهذا الكلام له أساس قرآني من تركيزه على النموذج النبي إبراهيم(ع)، وله مستند نفهمه من متفرقات الوصف للمؤمنين بذوي الألباب والذين يعقلون...

يعني، كل شخص كائناً من كان وأينما كان، ففيه قابلية الوصول إلى معرفته تعالى عبر الآيات التي فيه وحوله، وكرّر القرآن مراراً كلامه عن الأنواع الأساسية المختلفة للشرك به تعالى وبيّن سخافة اختراعها، فبقليل من العقل نصل لتوحيده تعالى، ونصل للكثير من تشريعاته التي تحرّم الظلم والفساد، وبتفكير عميق نصل إلى {مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ}... كما ورد في الآية 191 من سورة آل عمران، فسنفترض وجود حساب على عقيدتنا وسلوكياتنا بثواب حسن أو عقاب.

الآن بقيت التفاصيل، فهل وصل دينه تعالى إلى جميع نواحي الأرض عبر كتبه وعبر المؤمنين؟ وهل وصل ذلك لكل شخص في أي مكان وزمان؟ فهذا ما نفهمه من آيتنا أن الناس ليس لهم عليه تعالى حجّة فقد بشّر المؤمنين بالجنّة وأنذر الكافرين من النار. بالتحليل الذي نفترض أنه عقلاني نقول أولاً نقلاً عنه تعالى أنه سبحانه لا يظلم أحداً. وفرضاً لو شخص ما لم يصله بطريقة أو بأخرى أي خبر عن رسل حاملين للبشارة والإنذار، لو فرضاً حصل ذلك، فسيحاسبه تعالى على ما منحه من عقل، فأي اختراع من الهوى سيكون عليه حساب، ولكن هذا لا يتماشى مع صريح آيتنا هنا التي تفترض وصول البشارة والإنذار للجميع! فهل كلامه تعالى عن الناس يشير للمجموع ولا يشير لكل فرد؟ أم أننا نفترض شيئاً لم يحصل، وفعلاً وصل الإنذار والتبشير بطريقة أو بأخرى لكل فرد أينما كان وفي كل زمان.

كما ترى صرنا الآن أمام خبر منه تعالى فهمنا أنه يشير إلى وصول الإنذار والبشارة لكل شخص أينما كان وفي أي زمان كان، ولكن هذا بحث، نحتمل فيه أن نكون مخطئين في تفسير كلامه تعالى، فماذا لو كانت أهلية التكليف ما تزال تحت المستوى المطلوب لوصول كتاب إلهي للآخرين من الأمم البعيدين عن الاحتكاك بالرسل؟ فهؤلاء الآخرون لم يتأهّل منهم أي أحد ليكون نبياً، وهذا يعكس لنا مستوى أهليتهم للتكليف أيضاً، وهذا تحليل لا يبدو بعيداً عن عموم فحوى كلام القرآن وأرض الواقع، وخاصة عندما تتذكّر أن آدم(ع) كان أوّل من تأهل من البشر ليتكلّف بدينه تعالى، والبقية كانوا تحت المستوى المطلوب للتكليف بما فيه عقلانية "حكمة" من مستوى عال.

عندما تسأل عن ساكني الأدغال وأنهم لم يسمعوا أصلاً بأي شيء له علاقة بدينه تعالى، فتذكّر مستوى تأهلهم لاستقبال كلامه تعالى، فيبدو أن هذه النوعية مستثناة من التكليف الذي يقع على الآخرين الأكثر تأهلاً للتكليف، وهكذا يكون الكلام القرآني ضمناً يشير لمن فيهم أهلية الإيمان والالتزام بكلامه تعالى.

(لَّكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً{166})
حسناً، لم يؤمن بعض الناس بالرسول محمّد(ع) رغم أنه من سلسلة من الرسل من قبله على نفس الخط، لا مشكلة:

{لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ}، أنه تعالى، {أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ}، فلم ينزل من اختيار الملائكة(ع)، ولم ينزل من الكتاب الرئيسي من دون علمه تعالى، ولا علاقة للرسول بما نزل... فحتى لو كان المحتوى صحيحاً ومنقولاً عن الكتاب الرئيسي الذي فيه كلّ شيء، فلم ينزل هذا القرآن ولا بحرف من دون علمه تعالى.

{وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ}، بأن ما نزل إليك كلّه كان بموافقة إلهية، {وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً}، لا حاجة لشهادة الملائكة(ع) ولا لشهادة غيرهم بأن القرآن مصدره إلهي.

نلاحظ في القرآن القيمة العالية للملائكة(ع)، حيث ركّز عليها القرآن، واشترط على المؤمنين أن يؤمنوا بالملائكة(ع)، مع أننا لا نراهم، وبشكل أو بآخر، لا نرى أي أثر عملي للإيمان أو الكفر بهم، فنحن وبحسب خبر إلهي نرى ما يقومون به ولا نراهم بشكل مباشر ولا بشكل غير مباشر إلا اعتماداً على خبر منه تعالى أنهم هم الموظفون بتوصيل وحيه تعالى للأنبياء وتنزيل الكتب وتوفِّي الأنفس... ولكن القرآن أكّد على الإيمان بهم واحترامهم كشرط لكمال الإيمان.

يبدو من القرآن أنهم مخلوقات بمواصفات عالية، فكما نرى في القرآن مدحاً للأنبياء، من صالح وخليل ومناجاة ونعم العبد... فنفهم ونتقبل هذا المدح، لأنَّ الملائكة(ع) لها قيمة عالية جداً عنده سبحانه، وهو سبحانه يعلم بهذه القيمة، وينقلها إلينا. وترى هنا كيف أن الملائكة(ع) تشهد بأن القرآن من عند الله تعالى، فهذا الخبر يعني من المنظور الإلهي، أن هذه المخلوقات المحترمة جداً تعلم أن القرآن مصدره إلهي.

ننتبه، ففي القرآن نجد العديد من الأدلة التي تؤكّد على مصدره الإلهي، وأهمّ الأدلة محتواه، فكل ما فيه من أوامر تدل على أنه حكيم وليس شيطانياً، وتدل على ارتباطه بالكتب السابقة وأنه امتداد لها، وأضف إليه التحدي بكتابة كتاب مثله في المحتوى والمعاني والدقة، وأضف إليه أمية النبي محمد(ع) الذي لم يكن يكتب ولا يقرأ ولا يقول الشعر، فمن أين سيتمكن من تأليف كتاب بدقة ومتانة القرآن، ومن أين سيأتي بالمعلومات عنه تعالى وعن أفعاله وقراراته، ومن أين سيأتي بتشريعات متقنة على الحقّ، ومن أين سيأتي بقصص الأنبياء التي صحّحت ما تحرّف في الكتب السابقة... فعندما يشهد الله تعالى بأن هذا القرآن صحيح، فلا تفهم أن الآية تريد إقناعنا أن القرآن صحيح من هذا الخبر فقط، لا، فهي فقط تخبرنا أن الله تعالى يشهد بأنه صحيح، أما الدليل على صحة القرآن فهو من كلام القرآن وتشريعاته وتصديقه للكتب السابقة ودقته...

الجملة التي تخبرك بأنه تعالى يشهد بصحّة هذا القرآن، لها قيمة عند المؤمن أصلاً بإلهية مصدر هذا القرآن، فهي خبر وليست دليلاً ليقنع أحداً ما بصحّة إلهية مصدر هذا القرآن، فافهمها كما هي كخبر يستند في صحّته على الأدلة الأخرى التي تثبت أن القرآن مصدره إلهي، وأيضاً مَن لا يؤمن بإلهية مصدر هذا القرآن فهذه الجملة خبر له لينتبه مع ماذا يتعامل، فهو لا يتعامل مع كلامي أنا، ولا مع كلام "النبي" محمّد(ع)، بل مع كلامه تعالى.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلاَلاً بَعِيداً{167})
{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، فأنكروا أي شيء من أساسيات الدين الإلهي، والكلام هنا بالخصوص عن الذين أنكروا هذا القرآن والرسول الحامل له، {وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، فمن يرد المشي على المسلك الإلهي منعوه من المشي عليه، ولم يتركوهم يؤمنون، ومنعوهم من تطبيق الشريعة الإلهية... وهذا ضمنا يسبقه منعهم أنفسهم من الإيمان، فهؤلاء، {قَدْ ضَلُّوا}، فكانوا على الشيء غير الصحيح والذي لا يوصلهم للغاية الصحيحة، {ضَلَالًا بَعِيدًا}، فكفرهم وصدّهم هو أقصى ما يمكن أن يكون من أمور غير صحيحة، فلا يوجد ضلال أكثر من ذلك وتنطبق صفة الضلال عليهم بالتمام.

كثيرا ما يذهب فكرنا لفهم كلمة {ضَلَّ} كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيرا أم شرا، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فَضَلَّ عنك صيدها. واستعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة {ضَلَّتْ} عنه، فلم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً{168})
{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا الدين الإلهي، ومع الكفر يوصفون بأنهم، {ظَلَمُوا}، فلم يكن معهم حق لأن كفرهم لم يكن عن منطق وحجّة، بل ظلما كفروا، حيث بيّن لهم رسله تعالى العقيدة الحقيقية والشريعة الصالحة ولكنهم تركوا كل هذا وكفروا من دون أن يكون معهم حقّ.

أولئك الأشخاص، {لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ}، لم يكن ليتجاوز عن سيئاتهم فلن يسامحهم على ذنوبهم، فالمؤمنون يرتكبون بعض الذنوب، ولكنهم يتوبون منها، فيغفرها لهم سبحانه ولا يحاسبهم عليها بالتعذيب في جهنم، أما الكفارُ الظالمون فلن يحصلوا على أي مغفرة، لأن كل حسناتهم ستحبط وستفقد قيمتها، ولن يبقى لهم إلا السيئات.

{وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا}، فلن يضعهم سبحانه على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، بل سيتركهم على هواهم يغرقون في الكفر.

ننتبه، ولا يمكن أن تستنبط من الآية احتمال أن يكون كافر ما معه حقّ حين كفر، "ربما" لأن الدين لم يصله بشكل صحيح... وكافر آخر لم يكن معه حقّ فهو "ظالم"، لأن الدين وصله بشكل صحيح، لا، فالآية توصّفهم بالكفر وهو مجرد إنكارهم لدينه تعالى، وتوصّفهم كلّهم بالظلم لأنهم كلّهم لم يكن معهم حقّ بإنكارهم لدينه تعالى.

كما تعلم، سبحانه أمامه خيارات عديدة، وشاء خلقنا مع حرية الفكر والإرادة لنختار نحن الكفر أو الإيمان، وشاء تركنا لنختار ما نريد، ولن يهدينا بالقوّة عبر التلاعب بعقلنا أو بشعورنا بالألم عند ارتكاب سيئة... ولن يضللنا بالقوّة ونحن نريد الإيمان، وعلى هذا نفهم بقية الكلام القرآني المشابه لآياتنا هنا، فلن يهدي تعالى الكافرين بإجبارهم على الإيمان، ولن يهديهم بطرق أخرى غير المتوافرة للجميع والتي هي أكثر من كافية لمن يريد الاهتداء.

(إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً{169})
الطريق الوحيد الذي سيهديهم إليه فسيضعهم تعالى عليه هو: {إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ}، الطريق الذي يوصلهم للمكان الموصوف بأن كل ما فيه سيئ جدا، ففيه النار المتأججة والعذاب، {خَالِدِينَ فِيهَا}، لا يموتون ولا يفنون، {أَبَدًا}، مهما جاء من زمن.

{وَكَانَ ذَلِكَ}، الخلود في العذاب، {عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا}، سهلا، فتمشي الأمور براحة كما يريدها تعالى، فلا يتصور أحد أن شيئا من هذا الكلام سيتغير، حيث ربما يخطر ببال البعض أنه تعالى سيتعب أو سيشعر بالملل أو سينسى أو يغيّر قراره أو لن يتمكن من فعل هذا... لا، لأن كل هذا لن يحصل وسيدخلون إلى جهنم ويخلدون فيها حتما.

تعلم من القرآن أنه تعالى أرسل رسله لكل الناس ليبشروهم بالجنة وينذروهم من النار، فمن قرّر السلوك على خط الهداية فسبحانه سيساعده، ومن قرّر سلوك سبيل الضلال فسبحانه سيجعله يضلّ أكثر فأكثر، وأي آية تفهم منها أنه تعالى يضلل هؤلاء الناس، فعليك أن تفهم منها أنهم هم أولا قرروا الضلال، ولذلك لن يحصلوا على أي مساعدة ليهتدوا، بل سيحصلون على مساعدة ليضلوا أكثر فأكثر (وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)، لأن هذا قرارهم وهذه رغبتهم، وهكذا خلقهم تعالى بخاصية الغرق أكثر فأكثر في الضلال كلما تمرّسوا عليه وكرّروه.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْراً لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً{170})
{يَا أَيُّهَا النَّاسُ}: {قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ}، وهنا الكلام يقصد الناقل للكلام الإلهي محمداً(ع) الذي جاءكم بهذا القرآن، فهو الصواب وليس الكذب أو الفساد وليس من اختراع من عنده(ع) بل {مِنْ رَبِّكُمْ}، من "المدبّر" المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {فَآمِنُوا}، فاعتقدوا بما يقوله الرسول(ع)، {خَيْرًا لَكُمْ}، فإيمانكم به هو شيء جيد لكم، فيه الخير لكم في الدنيا وفي الآخرة.

{وَإِنْ تَكْفُرُوا}، تنكروا أن محمداً(ع) رسولٌ وتنكروا أن القرآن الذي ينقله لكم من مصدر إلهي، {فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، فكل ما في الدنيا من مخلوقات هو منسوب له تعالى، وهذه حقيقة لن تتغيّر بسبب كفركم بها، وعمليا هذا يعني أنه تعالى لا يحتاج لإيمانكم ولن يخسر تعالى أي شيء، ولن يتأثر، لأن ملكه أكبر بكثير مما تتصورون، وأنتم بالنسبة له سبحانه مجرد بشر على الأرض.

{وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا}، يعلم كلّ شيء، ويعلم من سيؤمن منكم ويعلم من سيكفر، وعن علم فائق أنزل كتاباً على الرسول(ع)... {وَكَانَ حَكِيمًا}، يرى الصوابية في الأمور ولم يرسل رسله عن عبث، ولم ينزل عليهم كتباً عبثيةً، ولم يخلقكم عن عبث، وحتى كفركم لن يغير من حكمته، وإن كفرتم فأنتم المعارضون لشيء حكيم.

يفكر البعض بأن المخطط الإلهي لم ينجح، لأن الكفار أكثر من المؤمنين! ولكن العديد من الآيات القرآنية تقول بأن العدد ليس مقياساً لنجاح "التدبير" المخطط الإلهي، ومنها ما ورد في الآية 179 من سورة الأعراف {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ...}، وما قالته الآية 20 من سورة سبأ {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ}، حيث إنَّ سبحانه أساساً يعلم كم سيكون من الناس مؤمنين، ورغم ذلك خلقهم، والعدد القليل الذي آمن هم فائزون ناجحون ويستحقون الجنة الخالدة الرائعة، ومن كفر يستحق النار المرعبة، حتى لو كانوا بالمليارات، فهم الفاشلون.

كما تلاحظ هنا من الآية، فمن يفكّر من الناس بأنه محور الكون، وأن كفره أو إيمانه شيء مهم، فلينتبه إلى أنه مجرد مخلوق صغير في مملكة ضخمة من السماوات والأرض التي يملكها تعالى، ويصير له قيمة حين يؤمن ويعمل الصالحات، لأن إيمانه أو كفره لن يتأثر به إلا هو.

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً{171})

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ}، يا أيها الناس المنتسبون إلى كتاب إلهي، {لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ}، فالأمور التي تدينون بها وتعتقدون بأنها تبعات عليكم ويجب عليكم الالتزام بها، فلا تبالغوا فيها وتزيدوا عليها وتخترعوا فيها أشياء غير صحيحة، وسنرى مبالغتهم بعد قليل.

{وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ}، إلا الصواب، فلا تقولوا كلاماً باطلاً غير صحيح لم يقله تعالى.

{إِنَّمَا}، فقط وحصرا، {الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ}، عليهما السلام، هو، {رَسُولُ اللَّهِ}، والغلو أو المبالغة هو القول بأن المسيح(ع) أكثر من رسول... ووصف عيسى(ع) بالمسيح لتأكيد كونه الرسول الذي أخبرهم الأنبياء السابقون عنه، حيث وصفوه لهم بلقب المسيح الذي يعني أنه سيكون ملكاً معيناً منه تعالى، لأن تراثهم الديني وكما هو مشهور كان يتضمن مسح رأس الذي نصبّوه ملكاً بزيت الزيتون كعلامة على البركة الدينية...

تذكّر دائماً تركيز القرآن الكريم على تسمية النبي عيسى(ع) هكذا: "عيسى ابن مريم". حيث ورد في تاريخ اليهود العديد من الشخصيات المهمة التي تحمل اسم عيسى، وستجد أكثر من عشر شخصيات بارزةً جداً، وكلهم يحملون الاسم عيسى ولكن بعدة تصريفات، فهناك عدة تصريفات للاسم عيسى في اللغة العبرية والآرامية، ومنها: عيسو، يسوع، يشوع، جشوا، يشوا... وكلها بالنسبة لليهود "وللعرب" ترجع في اللغة العربية والعبرية والآرامية... إلى اسم عيسى، "مثل أحمد محمد محمود حمود... فكلها من حمد"، ولهذا السبب وحتى يتميز ويتحدد النبي عيسى الحقيقي بالضبط عن هؤلاء، وحتى يتميز عن الأشخاص المزيفين الذين ادعوا أنهم المسيح، يسميه القرآن مع اسم أمه مريم التي ولدته من دون أب، مضافاً له تكريم السيدة مريم بذكر اسمها مع اسم ولدها المميز لأنها هي كانت مميزةً جداً.

وهو المسيح، {وَكَلِمَتُهُ}، كلمة قالها تعالى، {أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ}، فعندما قرر سبحانه خلق المسيح(ع) قال سبحانه كلمته التي تعبّر عن أمر تكوين المسيح(ع)، والكلمة ألقاها تعالى إلى السيدة مريم(ع) ففي بطنها سيتم تكوين السيد المسيح(ع).

والمسيح(ع)، {وَرُوحٌ مِنْهُ}، فكما وصف القرآن بعض الملائكة بأنها أرواح كما في الآية 102 من سورة النحل {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}، وأن آدم(ع) فيه روح كما ورد في الآية 29 من سورة الحجر {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}، فالنبي عيسى(ع) مثله مثلهم، فيه روح حصل عليها منه تعالى، ففيه شيء صافٍ حصل عليه منه تعالى.

كلمة الروح هي وصف الشيء الصافي الخالي من الشوائب والإضافات، كما تستخرج بالتقطير روح النعناع وروح السعتر... فتحصل على المادة الأساسية من دون الإضافات، فكذلك الروح كوصف استعمله القرآن، فهي وصف لعموم أي شيء صافٍ يتكون منه شيء، ونعلم من القرآن أن الملاك جبريل (ع) روح، ومن المشهور في ثقافتنا الدينية أن الملائكة ميكال وإسرافيل وعزرائيل وغيرهم عليهم السلام... هم ملائكة من الأرواح العالية جداً، ولديهم قدرات عاليةٌ جداً... وبالتالي ليس النبي عيسى (ع) إلهاً، بل حصل على الروح التي فيه منه تعالى، والتعبير بالروح "منه" تعالى مشابه لبقية الأمور التي نسبها تعالى لنفسه، فالرحمة منه تعالى، والحنان والرزق... خذ مثلاً عن ذلك الآية 13 من

سورة مريم {وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا}، فنسبة الأوصاف أو الأشياء له تعالى لا تعني أنها منه كجزء منه أو مشابهة بطبيعتها له كشيء منفصل، فهذا مستحيل لأنه تعالى ليس كمثله شيء.

لا تفهم الروح بتميّز على أنها شيء إلهي مختلف عن بقية الأشياء التي خلقها تعالى، لا، وما هو دارج في عمق ثقافة الكثيرين عن التعبير عنه تعالى بأنه روح، وأن الروح التي فينا منه على معنى الشبه بيننا وبينه تعالى، فهي تصورات غير صحيحة ومبنية على فهم ساذج بسيط لكلامه تعالى، وهذا بعكس ما يتصوّره القائلون لهذا الكلام الذين يظنون أنهم وصلوا لعلم عميق.

يا أهل الكتاب، {فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ}، فلا يحق لكم المغالاة في النبي عيسى(ع) فهو مجرد عبد رسول خلقه الله تعالى بكلمة منه ألقاها على السيدة مريم(ع)، فأين الميزة التي تجعلكم تغالون فيه! فلماذا تبالغون فيه وتقولون عنه أشياءَ غير صحيحة؟

{وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ}، ومن المشهور أنهم يقولون: الآب والابن والروح القدس. {انْتَهُوا}، فتوقفوا ولا تكرروا هذا الكلام، {خَيْرًا لَكُمْ}، فهذا القول سيئ لكم وتوقفكم عنه شيء جيد لكم، {إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ}، فصاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" ليس مقسّماً ولا بأي طريقة إلى ثلاثة آلهة! فلا يوجد طبيعة إلهية في النبي عيسى(ع) ولا في الروح القدس(ع). فالطبيعة الإلهية التي نقصد منها وصف كائن بصفات وقدرات فائقة، فهي منحصرة في الله تعالى وحده فقط، ولا يمكن أن يكون معه الله أو إله آخر، أو الله مع إله صغير، أو نصف الله أو ربع الله أو بنفحة إلهية...

{سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ}، فهو منزّه عن أي صفة معيبة أو ناقصة أو سيئة، فالألوهية الحقيقية لا تتحمّل أن تكون صحيحة وفي نفس الوقت فيها صفات معيبة وناقصة، فمن المعيب ومن النقص أن يكون له تعالى ولد يولد منه، كشيء يخرج منه تعالى أو كجزء منه تعالى... ولا معنى لاعتباره تعالى واحداً من مخلوقاته كولد له، فلم يتّخذ منهم ولداً كما ورد في الآية 116 من سورة البقرة {وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ}، وغالوا في دينهم وقالوا إنّ النبي عيسى(ع) ولد له تعالى وعنده طبيعة إلهية وأنه لا يختلف عنه سبحانه، عزّ وجل عن قولهم.

{لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، وهذه هي الحدود التي تتواجد فيها كل المخلوقات في الدنيا، فهذا التعبير القرآني يشابه قولنا: كل شيء، فكل ما في دنيا المخلوقات منسوب له تعالى، فكل ما يوجد من مخلوقات وظواهر وأشياء في السماوات والأرض فهي له سبحانه، فلا معنى لوجود ولد له في السماوات والأرض، فكلهم مثل بعضهم، فكلهم له تعالى، وكلهم منسوبون له تعالى، وكلهم صمّمهم وخلقهم ويتابع شؤونهم، فهم مخلوقاته وكلهم عبيده.

بعبارة أخرى سبحانه يتحدّث معنا بشفافية، فيرى نفسه سبحانه من جهة، ويرى الدنيا التي فيها كل المخلوقات التي خلقها هو سبحانه بحدودها بالسماوات والأرض، وكلّها له تعالى فهو صمّمها وخلقها ويتابعها، وسبحانه يعرض علينا ما يراه بشفافية وبصدق، فلا يرى إلا نفسه والمخلوقات التي خلقها، ولا يرى في الدنيا إلا السماوات والأرض، وكل المخلوقات التي فيها مثل بعضها بالنسبة له تعالى، والمسيح(ع) والملائكة(ع) من المخلوقات، فمن أين سيكون لهم طبيعة إلهية إن كانوا مثلهم مثل بقية المخلوقات؟!

{وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}، فإن أحداً ما موصوف بأنه يكفيك ولا تحتاج لأحد معه لتسير الأمور على التمام فهو الله تعالى. فما يقولونه عن انقسامه أو احتوائه "عزّ وجلّ" إلى ابن وملاك وإله، أو أي كلام منمّق بمصطلحات كاتحاد الجوهر والتلبس بأعراض، أو الحلول والاتحاد... على أساس أنهم ليسوا منكرين لتوحيده تعالى بالرغم من قولهم عن المسيح(ع) أنه إله كله كلام فارغ متعارض مع جملة "لا إله إلا الله" مهما حاولوا تنميقها وفلسفتها... وسبحانه سيتوكّل بهذا الكلام، وسيتعامل معه بما يناسب.

لو أطلت عليك، فلنتحدّث عن المغالاة الدينية قليلاً، فالمغالاة عموماً من الطبيعة البشرية المنتشرة بكثرة، حيث إن المبالغة بالأمور حتى تصير ميزة عظيمة لك أكثر مما عند الآخرين، طبع بشري للفخر والاختيال والزهو والتكبّر... ففي أمور حياتنا العادية نبالغ فيما نضعه من طعام على الضيافة ليظهر أننا مضيافون... وفي ثيابنا نبالغ... وفي حبّنا

لأهلنا نبالغ... وفي نجاحاتنا نبالغ... وفي ديننا نبالغ ليبدو أعظم من دين الآخرين، وفي مذهبنا نبالغ ليبدو أعظم من مذهب الآخرين... والمغالاة نوع من المبالغة، فهي الحبّ لشيء ما وجعله أضخم مما هو عليه.

المشكلة مع المسيحيين، أنهم آمنوا بالرسول عيسى(ع) وأرادوا وصفه بمبالغة بشكل يجعل أي إنسان آخر يبدو أقل قيمة منه، فأي إنسان يقدّسه أي جماعة من الناس سيبدو تافهاً أمام ابن الله، أمام الله الذي تجسّد في عيسى... وهذه المغالاة ما هي إلا وجه آخر للمبالغة في الأمور التي تخصّنا، ولم يسمح تعالى بالمغالاة في دينه، فنحن نعاني كلّ المعاناة في مجتمعاتنا من المغالاة، فكل طائفة ومذهب منّا لها أشخاصها التي تبالغ وتغلو فيها، وتتعمّق الفرقة بيننا بسبب المغالاة، ولن تستطيع إقناع أي أحد بأن المحبّة أمر شخصي يخصّك وتتحاسب على ما أحببت... فلا معنى للترويج للشخصيات الدينية التي تحبّها حتى يحبّها الآخرون، ولا معنى للترويج لكره الشخصيات الدينية التي يحبّها الآخرون... فليحبّ المسيحيون الرسول عيسى(ع) فهذا شيء يخصّهم كمؤمنين ولكن ما معنى الطيران به(ع) لجعله إلهاً غير التبكيت والعلو على الآخرين للتقليل من قيمة شخصياتهم الدينية! وما علاقة هذا بالإيمان والتديّن!

هذه المعركة ما هو المربح منها؟ هل لإثبات كون شخصيتهم الدينية أعلى من شخصيات الآخرين هو انتصار ديني إلهي! وماذا سيتغيّر في الإيمان والحياة من ذلك! إن لم تَرَ سخافة ما ينقسم الناس عليه لمذاهب وطوائف، فلن تفهم معنى المغالاة التي يرفضها تعالى، ولن ترى سخافتها لأنك واقع فيها.

(لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً{172})

{لَنْ يَسْتَنْكِفَ}، لن يتأنّف ولن يعترض أو يمانع، {الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ}، أن يعتقد ويتصرّف على أساس أنه مفروض عليه طاعة الله تعالى، {وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ}، ولن يستنكفوا ولن يتأنّفوا أو يعترضوا أو يمانعوا أن يكونوا عبيداً لله تعالى، فهم يعلمون تماما أنه تعالى إلههم ومفروض عليهم طاعته وهم راضون بذلك، بل فخورون بانتسابهم كعبيد لإله فائق الصفات والقدرات عليمٍ حكيمٍ... فإن كانوا هم معترفين راضين بعبوديتهم فلماذا أنتم يا أهل الكتاب تعترضون! وتغالون! وتقولون عنهم بأنهم آلهة! أو فيهم شيء إلهي!

ننتبه، الملائكة(ع) كلها لن تعترض على الاعتراف بعبوديتها لله تعالى، وإنما أشارت الآية إلى الملائكة المقربة منه تعالى، حيث لديها قدرات عالية أعلى من بقية الملائكة، ويوظّفها ربنا سبحانه في المهمات العالية، لأن بعض الناس لم يقولوا عن الملائكة(ع) العادية بأنها آلهة، بل قالوا عن تلك الملائكة(ع) العالية بأنها بطبيعة الآلهة، وسياق الكلام بالخصوص مع المسيحيين الذين قالوا عن الملاك جبريل(ع) "الروح القدس" بأنه يتشارك مع الله تعالى ومع النبي عيسى(ع) بالطبيعة الإلهية.

{وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ}، ومن يتأنّف ويعترض ويمانع، {عَنْ عِبَادَتِهِ}، عن الاعتقاد والتصرّف على أنه عبد له تعالى، على أنه مفروض عليه طاعته تعالى {وَيَسْتَكْبِرْ}، فيرى نفسه أكبر من أن يكون عبداً لله تعالى، {فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا}، حيث سيجمعهم تعالى بقرار منه من دون أي استثناء سواء قبلوا أم لم يقبلوا، وكلهم سيحضرون للوقوف بين يديه تعالى، ونكمل لنرى ماذا سيحصل بعد الحشر:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُواْ وَاسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلُيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً{173})

عندما يُحْشَرُونَ إليه تعالى:

{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين اعتقدوا بالمعلومات الحقيقية الصحيحة عنه تعالى وعمّا فعله وسيفعله سبحانه، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، فقاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، حيث خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، فعملياً هو تركُهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى. وبشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموماً وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائماً أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن

القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به. وهذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو سيئ" فهو في الحقيقة اختراع من البشر وليس أمراً إلهياً.

فهؤلاء، {فَيُوَفِّيهِمْ}، يعطيهم بالتمام، {أُجُورَهُمْ}، حيث حدّد تعالى ما يستحقّونه وسيعطيهم إيَّاه بالتمام، {وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ}، فيضيف تعالى أموراً أخرى فوق أجرهم من دون أن يكون فرضاً واجباً عليه تعالى منحها لهم، وعملياً يزيد لهم سبحانه أجورهم أضعافاً مضاعفة.

{وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا}، وتكملة الجملة من الآية السابقة حرفياً تكون أنهم تأنفوا ومانعوا واعترضوا عن عبادته تعالى، وهي مرادفة لامتناعهم عن الإيمان به تعالى وامتناعهم عن الالتزام بدينه تعالى، {وَاسْتَكْبَرُوا}، فرأوا أنفسهم أكبر من أن يكونوا عبيداً مطيعين لله تعالى، فهؤلاء، {فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}، فيصيبهم بضرر لا يمكن الاعتياد عليه أو تحمُّله، وتعلم أنه من العذاب في نار الآخرة.

{وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا}، كما نقول: ذهبتم من دوني. ونقصد أنهم ذهبوا وتركوني، ففي يوم الحساب الله تعالى وحده الولي، وحده الذي يلي الأمور، وحده المرجع في اتخاذ القرارات، فإذا تركوه تعالى وبحثوا عن ولي غيره تعالى فلن يجدوه، فهم بحاجة لمن يفعل شيئاً ما بخصوص حكم تعذيبهم، {وَلَا نَصِيرًا}، فلن يجدوا من ينصرهم، ومن يساندهم أو يساعدهم على تحقيق ما يريدون، وهو النجاة من العذاب.

هذا هو الواقع هكذا، حيث هناك إله أحد واحد، والبقية عبيد، فمن يستنكف عن عبادته تعالى فلن يغيّر أي شيء من الواقع، فسيتحاسب وينزل عليه العقاب ولن يجد من يواليه أو ينصره لأن الإله الأحد أنزل عليه العقاب.

كما ترى فالمستنكف عن عبادته تعالى ماذا فعل؟ حيث كفر بمعلومات صحيحة صادقة وقال إنها كاذبة، وفعل السيئات، فتعذيبه تعالى لهم ليس لأنهم ليسوا من المنتمين لدينه على أساس أن خياراتهم الأخرى جيدة ومحقّة، بل لأن كل الحقّ والصلاح في عبادته تعالى، فتعذيبهم سببه كفرهم بالحقّ وإيمانهم بالباطل، وسببه تركهم لعمل الصالحات وفعلهم السيئات.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً{174})

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ}، جاءكم هذا القرآن وهو برهان فهو دليل يثبت شيئاً ما، {مِنْ رَبِّكُمْ}، من المسؤول عنكم من مستوى إلهي. وكلمة ربّ تقال لعامة من لديه مسؤولية عناية بالآخرين، فربّ البيت كوصف للأب، وربّة المنزل كوصف للأم، وربّ العمل... فعلى مستوى كل واحد ومسؤولياته يكون الوصف، وبالنسبة له تعالى فهو ربّ من مستوى إلهي. وأنت تعلم أن القرآن دليل وإثبات على صحّة دينه تعالى، من الناحيتين: يعرّفك على الدين وفي نفس الوقت هو الدين الصحيح.

{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا}، فالقرآن الذي نزل هو نور وليس ظلاماً، فهو كاشف يضيء طريق الحق، {مُبِينًا} موضّحاً لطريق الهدى.

يعني لستم متروكين بلا دليل يرشدكم للحقّ، فها القرآن كتاب مصدره إلهي، من تأليف إلهي، وبالتالي لن تجدوا فيه إلا المعلومات الصحيحة، ولن تجدوا فيه إلا التشريعات والسلوكيات الصالحة.

للأسف، الطريقة التي تعاملنا بها مع القرآن جعلته فاقداً لقيمة الهداية، حيث صار لدينا قراءات، ولدينا تفاسير متعددة لنفس الكلمة، ولدينا تفاسير متعددة لنفس الجملة، ولدينا تفاسير باطنية، ولدينا تأويلات، واخترعنا ناسخاً ومنسوخاً على معنى إلغاء التشريعات، ولدينا نسخ التلاوة... وخضنا وخضنا في تفسير القرآن بناء على هذه الخزعبلات حتى جعلناه عصياً على الفهم! وانتقل الاعتماد إلى الروايات التي صارت عملياً حاكمة على القرآن، وصار القرآن للتبرّك بتقبيله وقراءته على الأموات...

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{175})
{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ}، فالذين اعتقدوا بالله تعالى إلهاً واحداً أحداً، {وَاعْتَصَمُوا بِهِ}، فاعتقدوا به تعالى مانعاً لهم من الضلال، فلم يتركوا دينه ورسله، وآمنوا بأنه لا يوجد غيره يمكنه أن يساعدهم أن يهتدوا وأن ينجوا من النار حتى يدخلوا الجنة...

{فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ}، فسيجعلهم تعالى في عناية لما فيه مصلحتهم، {وَفَضْلٍ}، فسيحصلون على أمور جيدة يمنحها تعالى لهم من دون أن تكون فرضاً واجباً عليه تعالى.

{وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ}، فيضعهم سبحانه على الشيء الذي يوصلهم إليه تعالى، {صِرَاطًا}، طريقاً إيمانياً أساسياً، {مُسْتَقِيمًا}، الذي يوصف بأنه على الأحسن فلا انحراف ولا اعوجاج فيه، فيصلون به إلى مرضاته سبحانه.

كما ترى، سياق الكلام يستفيد من حالة المغالاة في المسيح(ع) التي لا فائدة منها للمغالين بل فيها كل الضرر لهم، لأنها ومهما نمّقوها وفلسفوها وصوّفوها... فهي شرك به تعالى، والاستفادة كل الاستفادة في اتباع الحقيقة الناصعة الوحيدة أنه تعالى لا إله غيره ولا شريك له، ولا أحد من المخلوقات لديه صفات أو امتيازات أو سلطات من مستوى إلهي، وكما ترى فإن نفس الكلام موجّه لمن من المسلمين يغالي في شخصياته الدينية على أساس أنها ستفيده في الدنيا أو الآخرة بشيء من مستوى إلهي، وينمّق الكلام ويفلسفه مدّعياً أنه لا يُؤَلّه قديسيه، بل يحبّهم وبأمر إلهي، ويعتقد بهم تماماً مثلما يأمره تعالى، وهو ليس مغالياً بل نحن الآخرون جهلة لا نعرف قيمة قديسيه الحقيقية، أو مقصّرون في حقّهم لأننا لم نعطهم قيمتهم الحقيقية الواضحة أمامنا... بل وسنتحاسب لأننا لا نعتقد بهم مثلما هو يعتقد بهم... فهم الباب للتواصل معه تعالى، وهم الوسيلة، وهم الذين أمرنا تعالى بالمرور عبرهم للتواصل معه والطلب منه، أو الطلب منهم وهم يطلبون ما نريده منه تعالى... فننذر لهم ونطلب منهم الشفاء والنجاح والتوفيق... ونتوجّه بهم إليه تعالى حتى يسمعنا ويستجيب لأدعيتنا... وغيره الكثير من الكلام الفارغ المعارض المخالف علناً لكل صريح القرآن الذي مسخوه بالتأويل الباطني وبالروايات الكاذبة ليتوافق مع غلوّهم وهواهم.

إلى هنا انتهت السورة ولكن بقي توضيح يتعلّق بتقسيم الميراث:

(يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{176})
{يَسْتَفْتُونَكَ}، يطلبون جوابك أيها النبي(ع) في مسألة، {الْكَلَالَةِ}، وهي عمليا تعني حالة وصول الميراث إلى الإخوة، وراجع ما قلناه في دراسة الآية 12 من هذه السورة، {قُلِ}، لهم عبر هذا القرآن، {اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ}، يعطيكم الجواب في حالة وصول الميراث إلى الإخوة، {إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ}، شخص انتهت حياته، {لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ}، فلا ذرية له، لا صبي لا بنت ولا أحفاد، {وَلَهُ أُخْتٌ}، {فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ}.

بالاشتقاق مما سبق في الآيات 11 و12 من السورة، نفهم من الكلام هنا أنه يشير لفقدان الأب والأم ومضافاً لها هنا حالة من ليس له ولد لا ذكرٌ ولا أنثى.

فالحالة هنا فيها أخت، وليس فيها أبوان ولا الولد ذكراً أو أنثى، وتحتمل وجود زوجة، فللأخت النصف وللزوجة الربع والباقي يعاد تقسيمه عليهن بنفس نسبتهما لأن القرآن لم يذكر وارثاً آخرَ. ونشتق من الكلام أنه لم يكن له زوجة فبحسب التقسيم الذي حصرته الآيات بالأولاد وبالأبوين وبالزوج أو بالزوجة ولم تذكر أي وريث غيرهم، فللأخت كل التركة.

إذن هنا لدينا مرونة معلومة بامتداد الحصّة، وفي الآية 12 من هذه السورة مرّ معنا فهمنا لمرونة لتقليص حصّة الإخوة إن كانت الأم حيّةً...

{وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ}، وهذه حالة ليس فيها أبوان ولا ولد وتحتمل وجود زوج حيٍّ، فللزوج النصف وللأخ النصف، وفي حال لم يكن للميتة زوج "ولا أبوان ولا ولد" فالأخ يرث كل شيء.

بالاشتقاق فإن كان للميت أخ، وله زوجة حيّةٌ فلها الربع، وللأخ ما بقي.

بالاشتقاق فإن كان للميّتة أخت فلها النصف، ولزوج الميتة النصف، وإن لم يكن لها زوج فلأختها كل التركة.

{فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ}، أختين للميّت، {فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ}، ولا يزال الكلام هنا دائماً عن كلالة فقدان الأبوين والولد ذكراً أو أنثى، مع احتمال وجود زوجة فلها الربع وللأختين الثلثان والباقي يعاد تقسيمه عليهن.

بالاشتقاق فإن كان للميتة أختان، وزوج، فله النصف والباقي للأختين، وهذه مرونة واضحة لتقليص حصّة الأختين من الثلثين إلى النصف.

لا تخلط بين العبارة هنا {كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ} مع عبارة {إِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ} التي وردت في الآية 11 من هذه السورة، فهنا الكلام إن كانتا منفردتين بلا أخ، وهناك الكلام عن أكثر من أنثيين مقابل أخ واحد لهما.

{وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً}، {فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ}، فكل أختين حصّتهما بنفس قيمة الحصة لكل ذكر، وهذا الكلام يؤكد لك مبدأ استيعاب الذكر لما يبقى، فكلام الآية أشار لوراثة الأخ لكل شيء أو لكل ما بقي من بعدما أخذت الزوجة أو أخذ الزوج حصّته، مع أنه تحصيل حاصل فالتقسيم بناء على كلام الآية لوحده يوصلنا لنفس النتيجة، وهنا الكلام عن استيعاب الإخوة لكل ما بقي لأنَّ فيهم ذكراً.

بالاشتقاق، فإن كان الميّت ذكراً وله زوجة وإخوةٌ رجالٌ ونساءٌ، فللزوجة الربع والباقي للإخوة للذكر مثل حظ الأنثيين. فبسبب تواجد ذكر فيهم حصلوا على كل ما بقي واستقرت حصّة الزوجة على الربع. وإن كان الميت أنثى ولها زوج وإخوةٌ رجالٌ ونساءٌ، فللزوج النصف والباقي للإخوة للذكر مثل حظ الأنثيين.

إن كانت حالة ميتة بلا زوج أو ميت بلا زوجة، وله أو ولها إخوةٌ رجالٌ ونساءٌ، فلهم كل التركة وتقسيمها عليهم بنسبة للذكر مثل حظ الأنثيين.

{يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا}، حتى لا تكونوا على الشيء الخطأ الذي يوصلكم للشيء الخطأ حيث جعل تعالى الأمور مبيّنة موضّحة، {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، يعلم بكل شيء فلا يوجد شيء لا يعلم به، حيث بعض الناس يقولون إنّ أمور العبادة والقصص والجنة والنار... هي من اختصاص الله تعالى، أما التشريع والقوانين، فهذه حياتنا نحن، ونحن أدرى بكيفية إدارتها بما يناسبنا! لا، نحن لسنا أدرى منه تعالى، بل هو أعلم منّا بكيفية تقسيم الميراث بشكل مناسب.

سورة المائدة (5) ص 106

تتناول السورة توجيهات متممة لتشريعات سبق ووصلت إلى الناس، وتنبّه على أنَّ الالتزام بها هو الفرق بين الإيمان الصحيح التام وبين الكفر، وأي تلاعب بأي شيء من عقيدة أو تشريع الدين الإلهي يجعلنا نخرج عن وصف المؤمنين وعن الالتزام بالميثاقية معه تعالى، وبالتالي نخرج من العناية الإلهية الخاصة بالمؤمنين، وستذكر السورة نماذج عن العناية الإلهية وعن الخروج من العناية الإلهية، وإن كان الانحراف عن الدين الإلهي كبيراً عندها يكون العقاب أكبر وصولاً إلى ما نسمّيه بالمسخ... وتجد في السورة تحفيزاً وملاطفة مع المؤمنين الجدد لتحفيزهم وتشجيعهم على الالتزام... وفيها أمثلة عن انحراف المؤمنين السابقين "أهل الكتاب" عن الميثاقية، وإنذارهم والتحذير المتكرر للمؤمنين بهذا القرآن من موالاتهم ومن التشبّه بأفعالهم، فهذا خروج عن الميثاقية معه تعالى.

وردت في السورة خمس كلمات من اشتقاق كلمة صاد يصيد ولم يستعملها القرآن في بقية السور.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ{1})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{أَوْفُوا بِالْعُقُودِ}، فأي اتفاق عقدتموه أجريتموه مع أي أحد فعليكم الالتزام به بالتمام، كعقد البيع أو الشراكة أو الزواج... ولا يحق لكم أن تخونوه.

سترى من بقية السورة أنه على رأس تلك العقود: عقد الإيمان مع الله تعالى. فعلينا الوفاء به، الالتزام به، وستتلو علينا السورة لائحة بالسيئات الموصوفة بالمحرمات والواجبات العملية والعقائدية التي يجب الوفاء بها "إتمامها" عبر الالتزام بها.

هذا هو محور السورة: الوفاء بالعقد الإيماني مع الله سبحانه، فلا تخونوا إيمانكم، ولا تتراخوا فِيمَا يقوله سبحانه لكم إنَّهُ واجب أو ممنوع، وسترى في السورة كلاماً عن ميثاق من سبقنا من أهل الكتاب ونماذج عن إخلالهم بالميثاق...

البداية مع نموذج الالتزام بمحرمات ومحللات الطعام:

{أُحِلَّتْ لَكُمْ}، لا عواقب ولا إثم بأكلكم لـ: {بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ}، فالبهيمة هي كل الحيوانات البريّة "الأليفة أو الوحشية"، والأنعام هي الحيوانات الموصوفة بأنها نعمة لنا، فنأكلها، سواء التي نربّيها لنأكلها كالبقر والجمال والضأن والماعز والدجاج... أو وحشية غير أليفة ونأكلها فهي حلال لكم أيضاً، كالغزال البري، والطيور البرية... وهنا تخبرنا الآية أن الحيوانات البهيمة الوحشية أو الأليفة والموصوفة من النوعين بأنها نعمة لأننا نأكلها، فهي حلال في شرعه تعالى.

لنفهم القرآن بدقة، من المفيد أن نضع في بالنا التمييز بين الأكل والطعام، فالأكل وصف يصدق على عموم ما يمكن استهلاكه حتى ورق الدفاتر والكتب... والطعام وصف لخصوص ما تعارف عليه عقلاء الناس أنه للأكل الآدمي، وبذلك نفهم أن الأكل يشمل أكل الديدان وأكل الحيوانات المفترسة وشرب الدم وأكل العذرة... والطعام لخصوص ما تعارف عليه الناس أنه طيّب، ولم يقصد القرآن أن المذاق طيّب بل قصد تعارف الناس عليه أنه ليس خبيثاً، ليس منفوراً منه بسبب مصدره أو نوعه... الناس عادة لا تأكل الحشرات بل تنفر منها، ولا تأكل الحيوانات المفترسة... فهذه أكل ولكنها ليست طعاماً، وإن تعارفت بعض المجتمعات على أنها طعام لهم فهم فقدوا العقلانية وتمييز الخبيث من الطيّب في المأكل، كحالة آكلي الصراصير...

{بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ} حلال لكم للأكل، كلها، {إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ}، إلا ما سنقوله لكم "عن مستند يتم قراءته عليكم" إنَّهُ حرام، فهناك حيوانات أكلها حرام وحيوانات أكلها حلال ويصير أكلها حراماً في بعض الظروف...

{غَيْرَ مُحِلِّي}، غير مُسْتَحِلِّي، غير معتبرين أنه حلال لكم، {الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ}، ففي حالة كنتم محرمين لعمرة أو لحجّ، في الحالة التي يصير فيها ممنوعاً عليكم بعض الأشياء أثناء فترة من تأديتكم للحجّ أو العمرة، فلا يحل لكم اصطياد الحيوانات، وحتى بهيمة الأنعام الحلال... يصير صيدها "الترصد لقتلها" حراماً في حالة الإحرام.

الذاهب إلى الحج أو العمرة عندما يصير قريباً من مكة، ويصل إلى أماكن محددة معروفة، اسمها الميقات، عندها يحرم "يفعل الإحرام"، ويرتدي ثياباً بلا خياطة، ومن بعد ذلك لا يضع العطر، ولا يقص شعره أو أظافره... ولا يقتل الحشرات ولا الحيوانات... ولا يصطاد... حتى يصل إلى مكة ويقوم بالمناسك... وبعدها يَحِلُّ فَيَفُكُّ إحرامه ويرجع كما كان.

{إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ}، حيث حكم تعالى علينا بحرمة الصيد أثناء الإحرام.

سترى في تكملة السورة أن الأوامر الدينية مهما كان نوعها، يجب الالتزام بها، وأي تصرّف غير ذلك فهو ليس دينه تعالى، وعليه عقاب، وحكم تعالى بهذه الأحكام وهو تعالى يفعل ما يريده هو، وأنت عليك أن تفعل ما يريده هو تعالى، وهذا هو الإيمان وهذا هو الميثاق الإيماني الذي ستتمحور حوله السورة.

طبعاً لم يأمرنا تعالى بتشريعات وسلوكيات لنلتزم بها على عماها، لا، بل أخبرنا عن تبريرات تشريعاته عموماً حتى نرى الصلاح فيما أمر به تعالى، مثلما أخبرنا عن الأدلة التي تعرّفنا عليه سبحانه وعلى صفاته، ولم يأمرنا بالإيمان على العمى. هكذا بعض التشريعات وخصوصاً فيما يتعلّق بالمأكولات، ترى الاعتماد على ما جعله تعالى فينا من مزاج وطبع نفور أو رغبة فيما نأكله، مثلما اعتمد تعالى على ما جعله فينا من قدرة على تمييز الحقّ من الباطل لنؤمن به وبصفاته، ولنؤمن بأن قراراته حكيمة... فحرمة أكل لحم الخنزير مثال بارز عن الاعتماد على ما فينا من طبائع

ورغبات للنفور من أكل الخنزير لأنه من الحيوانات الكالشة التي تأكل اللحوم والنباتات معاً، وهو من الحيوانات التي تقتات على القاذورات والقمامة، التي تأكل ما يمكنها بلعه حتى إنَّهَا تأكل أوساخها... ورائحتها نتنة وهي حيّة، وحتى لحمها رائحته كريهة... ومشكلة فهم تحريمه تعالى للخنزير وأشباهه من الخبائث من الحيوانات المفترسة والقوارض والحشرات، هي مشكلة ناتجة عند الذين فسدت قلوبهم بسبب مختلف أنواع ممارساتهم الحياتية، فالذين لا معنى للطيّب والخبيث وللطهارة والنجاسة عندهم بالمعنى القرآني والفقهي، وكمثال: لا مشكلة عندهم من البول أو آثار الغائط ولا المني... على ملابسهم وأيديهم... هؤلاء ينزل بهم المستوى إلى فقدان تمييز بقية الخبائث، وبالتالي يصعب عليهم قبول تحريمه تعالى لبعض الأمور التي لا يرون فيها أي مشكلة، ومثلها حالة شيوع الزنا في بعض المجتمعات حتى بين المتزوجين... بحيث لم يعد لعقد الزواج أي معنى سوى الأمور القانونية التي تلزم الزوجين بمتعلقات مالية وحضانة الأولاد!...

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ{2})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{لَا تُحِلُّوا}، لا تتصرفوا وكأنها حلال ليس عليها عقاب، وتتصوروا أنه يمكن تركها ويمكن فعلها بحسب رغبتكم، فلا تحلوا {شَعَائِرَ اللَّهِ}، وهي الطقوس الدينية التي حدّدها تعالى لكم، كالطواف حول البيت والسعي بين الصفا والمروة والهدي... فلا تتصرفوا معها على أنها أمور حلال مباحة ويمكنكم فعلها أو تركها، بل يجب الالتزام بها كاملة حين تقومون بالحج أو العمرة.

{وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ}، الشهر الذي يحرم فيه شيء ما، ومن المشهور بين الناس ومن القرآن أنها أشهر يحرم فيها القتال، فلا تحلّوه، ولا تتصرفوا على أنكم يمكنكم القتال في الأشهر الحُرُم وهي: محرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة. في هذه الأشهر ممنوع القتال، إلا إذا لم يلتزم الفريق الآخر بحرمة القتال في هذه الأشهر... وأما أنتم فعليكم احترام أوامر ربكم سبحانه ولا تبادروا بقتال في هذه الأشهر...

{وَلَا الْهَدْيَ}، فلا تحلّوه، ولا تعتقدوا أنكم يمكن أن تهدوا أنعاماً إلى الكعبة ثم تغيّروا رأيكم، بل يجب على كل من يذهب إلى الحجّ أن يقدم هدياً، أن يقدّم قربة لله تعالى حيواناً مُحَلَّلَ الأكل، ويذبحه بعد المبيت في المزدلفة ورمي الجمرات "في يوم عيد الأضحى"... فلا تظنوا أنكم يمكنكم التصرف كما تشاؤون، وعلى خاطركم تقدمون الهدي أو لا تقدمونه، لا، بل يجب أن تقدموه.

{وَلَا الْقَلَائِدَ}، وهو الحيوان الذي علّقنا له قلادة على رقبته لنحدّد أنه مخصّص للهدي، حيث إنَّ بعض الناس يختارون جملاً أو بقرة أو شاة... ويعلقون على رقبتها علامة تدل على أنها محددة لتكون هدياً للكعبة، فلا تحلوها وتعتقدوا أنكم يمكن تغيير رأيكم لتستبدلوها بحيوان آخر. طبعاً لا تقصد الآية أنه يجب تعليق قلادة على رقبة الحيوان، ولكنها كانت عادة يقومون بها ليحددوا مسبقا الحيوان الذي خصّصوه ليكون هدياً...

{وَلَا آمِّينَ}، ولا قاصدين، {الْبَيْتَ الْحَرَامَ}، فالبيت الذي ممنوع القيام فيه ببعض الأشياء، الكعبة، فإذا انطلقتم آمّين قاصدين نحو البيت الحرام وأنتم تنوون الحج، فلا تحلّوا هذا الأمّ، وتظنوا أنكم يمكنكم تغيير رأيكم والرجوع ساعة تشاؤون إلى دياركم تاركين الحجّ.

{يَبْتَغُونَ} يطلبون {فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ}، هم بذهابهم للحج سيحصلون على أمور جيدة من "المدبّر" المسؤول عنهم من مستوى إلهي، كالحسنات والمغفرة... وهي فضل منه تعالى، ليست فرضاً واجباً عليه تعالى، وكما ترى فإنَّ الكلام عن فضل إلهي علينا حيث جعل على ذهابنا إلى بيته حسنات نكسبها، ويسبب مغفرة الذنوب مثل الصلاة والصوم...
ويبتغون، {وَرِضْوَانًا}، يطلبون رضاه تعالى، حيث يطلبون قبوله تعالى بمحبّة لإيمانهم وأعمالهم وحجّهم.

في حالة دخولكم في مناسك الحجّ أو العمرة، تكونون في حالة ابتغاء فضل منه تعالى بالأجر والمغفرة وطالبين رضاه، ولا معنى لتركهم لهذا المنسك العبادي قبل إكماله فهل غيّرتم رأيكم عن الحصول على رضاه تعالى وفضله؟

{وَإِذَا حَلَلْتُمْ}، فككتم الإحرام، وأنهيتم حالة الإحرام أثناء مناسك العمرة أو الحج ولم تعودوا محرمين، {فَاصْطَادُوا}، فيمكنكم اصطياد الحيوانات لتأكلوها، سواء أكنتم في مكة أو جوارها أو في طريق الرجعة إلى دياركم.

{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ}، ولا يدفعكم شيء لفعل شيء آخر، {شَنَآنُ}، عموم أي نفور من الآخرين بسبب البغض أو الكره أو المعاداة، {قَوْمٍ}، أناس لها كيان كجماعة متفعلة مع شيء ما وهنا الكلام عن أهل مكّة الكفّار المتفعلين كفراً مع دينه تعالى وعداوة للمؤمنين... {أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، بسبب منعهم لكم عن الذهاب إلى الكعبة وتوابعها، {أَنْ تَعْتَدُوا}، أن تخالفوا كلامه تعالى. فلا تجعلكم معاداتكم لأهل مكّة الذين صدّوكم ومنعوكم في السابق عن الذهاب إلى الحج، أي لا تكن هذه المعاداة والمنع سبباً دافعاً لكم، أن تعتدوا، أن تتخطوا الحدود التي حدّدها تعالى لكم، وأن تفعلوا الأشياء التي حرّمها سبحانه، كالصيد في الإحرام أو إحلال الحج أو العمرة أو القلائد أو الهدي أو القتال في الأشهر الحرم... هذه أوامره تعالى وإن كانت تبدو في ظروف ما أنها في صالح كفّار مكّة أو أعدائكم السابقين من أهل مكّة... فهذا ليس عذراً لكم لتخالفوا أوامره تعالى.

نتذكّر أن المسجد الحرام، حرفياً يعني: مكان للسجود وتحرم فيه بعض الأمور، وهذا الاسم صار مخصصاً لبقعة محدّدة في مكة حيث الكعبة وزمزم والصفا والمروة، حيث هناك يحرم الرفث والفسوق والجدال...

{وَتَعَاوَنُوا}، واجمعوا جهودكم، {عَلَى الْبِرِّ}، على الصلة مع ربكم سبحانه، كما هو محدد في الآية 177 من سورة البقرة، وتعاونوا على {التَّقْوَى}، على تجنّب فعل السوء وهذا عملياً تجنّب لغضب وعقاب ربكم سبحانه، فعندما تتحدثون وتتصرفون مع بعضكم، ليكن بطريقة تجعلكم تتشجعون على البر والتقوى.

{وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ}، لا تتعاونوا على الذنب الذي تعرفون أنه حرام، فلا تشجعوا بعضكم على ارتكاب المحرمات، {وَالْعُدْوَانِ}، ولا على التخطّي والتجاوز للحدود والأوامر التي حدّدها الله تعالى، وأيضاً لا تتعاونوا عليها، بل بالعكس حاولوا منع الآخرين من ارتكاب الإثم والعدوان.

العدوان هو عموم تجاوز الحدود بالاعتداء على الشريعة الإلهية وعلى الناس، فيعارضون تشريعاً إلهياً بتشريع مخالف، ويسلبون الناس حقوقهم... فهجومك على بريء لضربه هو عدوان، وإن كنت عالماً بقيمة سوء فعلتك فأنت آثم، وهكذا كل السيئات وجوه لعملة واحدة يختلف تصنيفها من وجهة نظر ما، فهي ذنب وإثم وجرم وعدوان ومعصية... ولكن تبقى كلها سيئات ولذلك تتداخل في التصنيف من ناحية سوئها، ومن الصعب فصلها عن بعضها، فالجرم هو: ما عليه عقاب. والإثم هو: ما معلوم سوؤه. والذنب هو: مخالفة الأوامر. والعدوان هو: تجاوز الحدود...

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}، وتجنبوا غضبه وعقابه، {إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}، فما يعقب وما يأتي منه تعالى من بعد مخالفة أوامره، ليس سهلاً هيّناً يمكن تحمّله بل قوي جداً.

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{3})
{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ}، فالأشياء التالية ممنوعة وإن فعلتموها فعليها عقاب:

{الْمَيْتَةُ}، الحيوان الذي أساساً أكله حلال فإن وجدتموه ميتاً بسبب المرض أو الشيخوخة... فإن أكله يصير حراماً.

في الآية 173 من سورة البقرة وفي الآية 145 من سورة الأنعام، ورد أن الميتة حرام ولم تفصّل أنواع الميتة، ولكن هنا ستجد تفصيلاً للميتة الحرام، والبداية مع الميتة بشكل عام، من المرض أو الشيخوخة أو من أثر جرح غير جرح الصيد...

{وَالدَّمُ}، حُرِّم أيضاً عليكم، فممنوع تجميع دم الحيوان وشربه حتى لو كان حلالاً أكل لحمه. وانتبه فتجميع الدم لشربه أو الطهي به... هو الحرام، أمّا ما يعلق على الخبز من دم قطعة اللحم... فهذا وأشباهه ليس حراماً، فهذا شيء عادي.

{وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ}، أيضاً حُرِّم عليكم أكله، فالعضلات وبقية الأعضاء حرام، أما العظم والظفر والجلد... فعادة الناس لا تأكلها فلا معنى لأن تقول عنه الآية بأنه حرام أكله.

أما استعمال الخنزير لأشياء أخرى فليس حراماً، يعني لو قالت الآية إنّ الخنزير حرام، ربما كنّا سنستنتج أن استعماله حرام أيضاً، مع أننا يمكننا استعماله لإطعام حيوانات لا نأكلها كإطعام الكلاب منه، ويمكن استعمال جلده وعظمه... مع أنه لا يجوز الصلاة فيه كما هو منتشر بين فقهاء المسلمين... وحالياً يتم استعمال أعضاء من الخنزير لاستبدال أعضاء معطلة لدى البشر، كصمامات القلب والبنكرياس و... فهذا حلال.

{وَمَا أُهِلَّ} به، فقيل عليه كلاماً استهلالياً كمقدمة للذبح، كلاماً يسبق الذبح أو النحر أو الصيد، {لِغَيْرِ اللَّهِ}، كأن يقول الذابح: باسم الصليب.. شكراً للقمر، أو باسم الكواكب... أو لا يقول الذابح أي شيء ولا ينوي أي نية... فمن المفروض أن يستهلّ، فيسبق الذبح أو النحر أو الصيد... بكلام يذكر فيه اسمه تعالى أو صفة من صفاته تعالى، وستجد ذلك صريحاً من كلام الآية التالية وكذلك الآية 118 من سورة الأنعام {فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ}، "وبالتحليل لهذا الكلام تعليلاً" لأنه سبحانه هو الذي خلق هذه الحيوانات لنأكلها، وهو سبحانه سمح لنا بقتلها لنأكلها، فيجب ذكر اسمه تعالى عند القيام بذبح الحيوانات التي سننهي حياتها لنأكلها.

ذكره تعالى أعم من اللفظ باللسان كما هو معلوم من عموم استعمال القرآن لكلمة "ذكر"، فالنية من مصاديق الذكر.

{وَالْمُنْخَنِقَةُ}، حُرّمت عليكم، وهي الحيوان الذي كان أكله حلالاً كالبقر والغنم... ولكنه مات خنقاً، فانحبس عنه الهواء، سواء خنقناه نحن أو اختنق لوحده لأن الحبل المربوط اشتد على رقبته...

{وَالْمَوْقُوذَةُ}، حُرّمت عليكم، وهي الحيوان الذي مات من الضرب، فأصابها قذى، فتعرضت لضربة أو لضربات قوية، مثل الضرب بالعصا.

{وَالْمُتَرَدِّيَةُ}، حُرّمت عليكم، وهي الحيوان الذي تردّى فوقع من مكان عال وأصابه ضرر، فوقع في حفرة أو في وادٍ... ومات بسبب السقطة حالاً أو بعد وقت.

{وَالنَّطِيحَةُ}، حُرّمت عليكم، وهي الحيوان الذي مات بسبب نطحة، بسبب ضربة بالرأس من حيوان آخر، فعندما يتعارك حيوانان بالتناطح يَمُوتُ أحدهما "الناطح أو المنطوح"، فلا يجوز أكله إن مات من النطحة.

{وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ}، فهو حرام عليكم، والسبع هو الحيوان المفترس، كالكلب والذئب والنمر والنسر... فإذا قَتَلَ السبع حيواناً ليأكله فلا يمكننا مشاركته فيها.

كل ما سبق حرام عليكم، {إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ}، فوصلتم إليه قبل أن يموت، وذكرتم اسم الله تعالى عليه وقتلتموه بالطريقة المقبولة، فهذه هي التذكية للحيوان، فبهذا يكون الحيوان زاكياً أي لائقاً لأكله.

لاحظ التعبير في حرمة ما أكل السبع، لأن ما قتله السبع الوحشي فهو حرام وانتهى موضوعه فقد مات الحيوان، أما تعبير ما أكل السبع، فهكذا يبقى مجال لأن نذكي الحيوان، فالسبع يأكل منه وهو لم يمت بعد، فعندما تقول الآية: كل ما سبق حرام إلا ما ذكيتم، فوصلتم إليه ولا يزال حيّاً فذكيتموه فإنه يصير حلالاً أكله، فيمكن أن يشمل ما أكل السبع، ولكن لا يشمل ما قتل السبع.

نفهم أيضاً منها أن ما قتله السبع ليأكله هو، يختلف عن السبع الذي دربناه ليصطاد لنا، وسيأتي الكلام عن ذلك في الآية الرابعة.

{وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ}، حرام أكله، والنصب هو الأماكن المخصصة لشيء له رمزية، كالنصب التذكاري لجلاء المحتل أو للانتصار على العدو أو لقتلانا الأبطال... ولكن هنا المقصود هو النصب الوثنية، والأماكن المحدّدة للتقرب لغير الله تعالى، كالمعابد لبوذا أو للأصنام...

{وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا}، تقسموا حصص الذبيحة، {بِالْأَزْلَامِ}، بسهام القرعة، فتشتركوا في ثمن حيوان، ولنقل بقرة، فتذبحوها بطريقة شرعية، ولكن لا تتقاسموها حصصاً متساوية بحسب ما دفع كلّ واحد منكم، بل تتقاسموها باستعمال الأزلام أي عبر القرعة، وهناك عدة طرق للقرعة والآية ذكرت لك اسم العملية بذكر أبرز نموذج منتشر معلوم لها،

بقرعة الأزلام، ونفس الحكم بالقرعة بالأوراق فهي حرام، والقرعة بالطرة والنقشة حرام... فأي طريقة غير حصول كلّ واحد بالتمام على حصّته بقيمة ما دفع ثمنه فهي حرام، فلنقل إنهم كتبوا على الأوراق كلمات تعبّر عن ربح وعن خسارة، ومن يسحب ورقة رابحة يأخذ كل اللحم أو يأخذ الحصّة الكبيرة أو يأخذ النوعية الأفضل... فكل أنواع القرعة لتقاسم اللحم حرام، {ذَلِكُمْ فِسْقٌ}، فتقاسم اللحم بالقرعة هو مخالفة لشيء صريح قال عنه الدين الإلهي إنَّهُ حرام.

بالنسبة للأزلام، فهي طريقة من طرق القرعة، وهي أسهم بلا ريش ولرؤوسها ألوان مختلفة، يضعونها في علبة أو كيس يخفي رؤوسها، ويسحب المقترعون كل واحد منهم سهماً، وبحسب اللون أو العلامة التي على رأس السهم يكون رابحاً أو خاسراً... فهي نموذج عن أي قرعة، ولا تختلف عن القرعة بالأوراق المرقمة أو القرعة بالأسماء...

فلنرجع للآية: {الْيَوْمَ}، في هذه الفترة الزمنية وما يليها من زمن، {يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ}، فكانوا يتوقعون انتهاء دينكم والآن فقدوا الأمل بانتهاء دينكم أو بتغييركم لدينكم، فقد انتشر الدين الإلهي وصار لديه أتباع كثر وصار قوياً... وصار الفرق واضحاً بين الكفر والإيمان.

{فَلَا تَخْشَوْهُمْ}، فلا يكن عندكم شعور بتوقّع حصول شيء سيئ منهم، فلا تتركوا الالتزام بالدين خشية من الكفار، {وَاخْشَوْنِ}، فاشعروا بضرر عقابه تعالى الذي يمكن تجنُّبه بطاعته تعالى، فلم يعد مسموحاً لكم بمسايرة الكفّار إذ لم تعودوا مضطرين لذلك فقد يئسوا من السيطرة عليكم من بعدما صرتم أقوياء.

{الْيَوْمَ}، في هذه الفترة الزمنية، {أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ}، فمرّت فترات متقطّعة لنزول أحكام دينكم وها قد اكتملت كلّها، وهذا إعلان إلهي بأن الدين اكتمل، فلم يعد هناك أي شيء متعلق بالعقيدة ولا بالشريعة إلا وصار واضحاً، فكل شيء مهم وأساسي ذكره لكم تعالى في القرآن.

{وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي}، فالنعمة الإلهية عليكم، الأمور الجيدة لم تنقطع "بخصوص تعليمكم للشريعة والسلوكيات والعقيدة" وها قد وصلت لنقطة ما بعدها شيء يضاف عليها، فمن نعم الله تعالى علينا نزول كتاب فيه السلوك الإيماني الصحيح، وها قد تمّت فاكتملت حتى النهاية تعاليم الدين، وفي نفس الوقت تمّت النعمة.

نلاحظ أن الإكمال هو وصول الشيء إلى نهايته بعد مروره بمراحل منقطعة عن بعضها، فقد مرّت مراحل لنزول الشريعة حكماً بعد حكم، أمّا النعمة الإلهية فهي لا تنقطع، فلا تمرّ بمراحل، فهي تتم، فتصل إلى نقطة التمام، وهنا كانت نقطة تمام النعمة باكتمال وصول تعاليم الدين الإلهي.

{وَرَضِيتُ} وقبلت لكم بمحبّة، {لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا}، الاستسلام الانقياد كشيء تدينون به، كتبعات عليكم، فبعد كل هذه السور التي نزلت عليكم، أخبركم أنني رضيت، فقبلت بمحبة أن تتبعوا هذه العقيدة والشريعة لأن قيمتها عالية، وهي الموصوفة بالإسلام، فأنا راض عنها فأعتبرها صحيحة محبوبة، وأقبل منكم اعتبارها ديناً لكم، فتعتبرون ما فيها بأنه تبعات عليكم.

فهمنا لرضاه تعالى عن هذا الدين ليس معناه أن في الدين عللاً أو أشياء بحاجة لتصحيح ولكن على كل حال رضي تعالى به، لا، فعليك رؤية الموضوع بشكل مختلف من نظرة إله وعبيده تحته، وقد أمرهم تعالى بهذا وذاك... وهي أشياء يرضى تعالى عنها، ونحن عبيد له ومدينون له بالطاعة ورضي تعالى السلوك الموصوف بأنه إسلام "بأنه استسلام وانقياد" حيث رضيه لنا أن يكون التبعات التي علينا له ويجب أن نلتزم بها.

سترى في بقية السورة كلاماً عمّن سبقنا من أهل الكتاب أنهم "عموماً" تلاعبوا بدينهم، "وعموماً" لم يكونوا موصوفين بالإسلام له تعالى، وهكذا تفهم هنا التحفيز لنا لنكون مؤمنين مسلمين بهذه التعليمات القرآنية.

{فَمَنِ اضْطُرَّ}، فمن كان مضطراً فدفعته الظروف وليس عن رغبة منه، {فِي مَخْمَصَةٍ}، في حالة حرجة من الجوع ولا يوجد شيء آخر ليأكله إلا هذه الأشياء الممنوعة، وهو، {غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ}، فلم يكن ميّالاً لعمل يعلم أنه سيئ وعليه عقاب، مثلاً لم يجبر نفسه على الوقوع في الجوع حتى يأكل من الحرام، ففي حالة الاضطرار بدون جنف لإثم، {فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ}، لا يأخذ موقفاً صلباً لا يتغيّر ممن أخطأ بل في حالة الاضطرار يسامح عن هذا الذنب، والله، {رَحِيمٌ}، فلديه عناية خاصة للمؤمنين لما في مصلحتهم، فالمغفرة من الأمور الخاصّة للمؤمنين ولا ينالها غيرهم، ومثلها الشفاعة وتكفير الذنوب ومضاعفة الحسنات... فكلها أمور تنبع من صفة الرحيمية الخاصة بالمؤمنين، فالكافر

بكفره هو قرر الخروج من تحت المظلة الإلهية وسيتحاسب على أكل المحرمات حتى لو مرّت عليه ظروف اضطر فيها لأكل المحرمات ولن تناله المغفرة.

فإذا تعرّضت لظروف قاهرة، وجعت فيها، وصرت مجبراً على الأكل من هذه الأطعمة الحرام، فيمكنك أن تأكل، أمّا أن تسافر إلى بلد تعلم أنهم يخنقون الحيوان، ولا تحمل معك ما يكفيك من طعام، ثم تقول بأني مضطر! أو تحمل كيساً من الدم ولحم خنزير، وتمشي في الصحراء بلا ماء ولا طعام، وتمشي وتمشي حتى تعطش وتجوع، فتقول: ليس معي إلا كيس الدم ولحم الخنزير وأنا جائع وعطشان فسأضطر لاستعمالهما. فهذا جنف آثم، فهذا انحراف وميل نحو شيء سيئ تعلم أن عليه عقاب، فهو ميل نحو ارتكاب الحرام عن قصد، وهذا عليه عقاب.

انتبه عزيزي القارئ، ففي دراستنا هذه للقرآن لم نعتمد الروايات، وتركناها لمن غاصوا فيها، لإيماننا أن القليل النادر منها صحيح، وتركنا طريقة المفسرين في النقاش، لأنها مبنية على آراء تشريعية مذهبية وطائفية، ولا أنصحك بالغطس معهم، ولكن إن أصررت فاحذر، فكل امرئ بما كسب رهين.

(يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ{4})
{يَسْأَلُونَكَ}، يعبّرون لك أيها النبي(ع) عن إرادتهم للحصول على معلومة منك: {مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ}؟ ما هو الحلال لهم؟ وما هي الأشياء التي سمح تعالى بها لهم؟

{قُلْ}، عبر هذا القرآن:

{أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ}، الأشياء المحبوبة المرغوبة التي لا تنفر منها الناس عادة، فهذه لا عقاب عليها، وهذا الكلام يعني أن المحرمات هي من الأشياء الخبيثة المكروهة عند العقلاء ذوي القلوب من درجة السلامة المقبولة.

أُحِلَّ لكم، {وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ}، من الحيوانات الجارحة، التي تجرح وتفعل أثراً، وهذا الوصف يطلق عادة على الحيوانات التي عادة تصطاد الحيوانات الأخرى، {مُكَلِّبِينَ} تدربون الجوارح على الصيد، وكلمة تكليب متخصصة كوصف لتدريب الحيوانات على الصيد، {تُعَلِّمُونَهُنَّ}، تعلّمون تلك الحيوانات الجارحة المكلبة الصيد، وتتمرن معكم على الذهاب إلى الصيد، وانتظار أوامركم بالانطلاق، والتقاطها للحيوانات بأمر منكم حتى لو لم تكن جائعة... وتعلّمون تلك الحيوانات، {مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ}، حيث جعلكم تعالى مسيطرين على تلك الحيوانات بفكركم وعلمكم وليس "فقط" بقوتكم الجسدية، لأنكم لم تخترعوا فكرة الصيد بالحيوانات الجارحة بل هي قابلية مزروعة فيكم منه تعالى.

{فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ}، من الذي التقطته تلك الحيوانات، {عَلَيْكُمْ}، لأنها جارحة وتصطاد ومكلبة وتمسك الطريدة، فكلوا مما أمسكت عليكم وما اصطادته لأجلكم لأنها مدربة على الصيد لكم كلوه فهو حلال، {وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ}، حيث على الصيد استحضروا في قولكم ذكراً لأسماء الله تعالى وصفاته المخصوصة به "سبحان الله، يا الله، يا رحمن..." وهذا يكفي كإعلان منكم أنكم تقتلون الحيوان وتأكلونه لأنه تعالى سمح لكم بقتله وبأكله.

مما مرّ عن تذكية الحيوان بالتسمية عليه وذبحه قبل موته إن كان أكل منه سبع ما، فلا معنى لذكر الصيد بالحيوانات المدربّة إن كان سيحلّ أكل ما صادته فقط إن بقي حيّاً وذكرت اسمه تعالى عليه وذبحته، وهذه تعرفها مما سبق، ويكون الكلام عن ذكر اسمه تعالى عند إطلاق الحيوان المدرّب لالتقاط الطريدة فإن ماتت من أثر جراح التقاطها... قبل أن تصل إليها، فهي حلال.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}، وتجنبوا غضبه وعقابه، ولا تخالفوا أوامره.

{إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}، حيث يحسب الحسنات والسيئات بدقة وبسرعة، ولا ينسى ولا يخطئ لذا احذروه سبحانه لأنه يراقبكم.

(الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلُّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ{5})
{الْيَوْمَ}، في هذه الفترة الزمنية، {أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ}، فلا يوجد عقاب على الأشياء الطيبة المحبوبة الجيدة، حيث صارت محددة في القرآن.

{وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، الذين صار معهم كتاب منه تعالى من قبلكم كاليهود والمسيحيين، طعامهم، والأكل المتعارف بينهم أنه مقبول مرغوب طعمه، {حِلٌّ لَّكُمْ}، ويمكنكم أن تأكلوا من طعامهم، {وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ}، حيث يمكنكم أن تطعموهم مما تأكلون...

هذا لا يعني أن "أكل" الضفادع أو الخمر أو الخنزير... حلال من أهل الكتاب لا، فهذا ليس ما تقوله الآية، ولا يعني أنه إذا خنق واحد من أهل الكتاب بقرة فيمكنك الأكل منها، لا، فالأكل الحلال الذي يمكن أكله من أهل الكتاب هو ما كان طعاما حلالا بحسب ما سمح به القرآن وهو نفسه ما جاء في كتبهم...

هناك شرط تذكية الأنعام، شرط أن يتم ذكر اسم الله تعالى عليها، وأن يتم قتلها بالذبح "أو النحر للجمل..." إن كانت أليفة، أو بأدوات الصيد إن كانت وحشية، فهنا نفهم طعام أهل الكتاب من لحم الحيوانات إن كان موافقا لهذه الشروط فهو حلال، لأن الآية لم تتحدث عن الخضار والفواكه فهذه حتى من الكافر حلال وسياق الكلام هنا عن لحم الحيوانات.

{الْمُحْصَنَاتُ}، الصائنات الحافظات لأنفسهن من الفاحشة ومن عرض أنفسهن على الآخرين، {مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ}، من اللاتي أعلنّ أنهن معتقدات ملتزمات بهذا الدين الإلهي هنّ اليوم حلال لكم، {وَالْمُحْصَنَاتُ}، الصائنات الحافظات لأنفسهن من الفاحشة ومن عرض أنفسهن على الآخرين، {مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، من نساء الذين صار معهم منه تعالى كتاب إلهي كاليهود والمسيحيين، فهن حلال لكم أيضا، {إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}، حيث وصلهن منكم بدل مالي لأنهن قَبِلْنَ بتقديم أنفسهن لكم، ودفعتم لهن مهرا، صداقا، {مُحْصِنِينَ}، فلا تعرض نفسك على الأخريات من بعد الزواج، وتتصورها بشكل أسهل في حال فكّر أنه غير ملزمة بالبقاء مع زوجته ويعرض نفسه على النساء الأخريات بالحرام. {غَيْرَ مُسَافِحِينَ} فلا يقيم علاقة زواج معها وفي نفس الوقت يقيم علاقات غير شرعية مع آخرين عديدين، {وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ}، فلا يأخذ خِدْناً، صاحبة واحدة غير شرعية "لمدة طويلة".

{مَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ}، وهنا الكلام عن حرمة بعض العلاقات فمن لا يعتقد بها، ولا يلتزم بحرمة العقد على من تخالف هذه الصفات، {فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ}، فهو في الظاهر من المؤمنين المصلين الصائمين الحاجّين... ولكن كل هذا سيحبط، وأعماله الحسنة ستفقد قيمتها.

{وَهُوَ فِي الآخِرَةِ}، في التي ستأتي في الآخر من بعد انتهاء هذه الدنيا، {مِنَ الْخَاسِرِينَ}، من الذين سيفقدون أمورا لها أهمية "كبيرة"، حيث لن ينال المغفرة ولا الثواب وسيدخل إلى النار.

نرى عمومية الكلام في الآية الشامل لكل أنواع العقد، سواء الدائم أو المنقطع، فهي لا تحدّد من هنّ الحلال فقط لك، لأن الإماء حلال "برضاهنّ" ولم تتطرّق لهن الآية، بل تطرّقت لتساوي المؤمنة المحصنة مع المحصنة من أهل الكتاب، لا أكثر ولا أقل.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{6})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بالدين:

{إِذَا قُمْتُمْ}، فصرتم في حالة تفعيل في حالة القيام، {إِلَى الصَّلَاةِ}، إلى التوجّه والإقبال، والمقصود هو التوجّه بالعبادة إلى ربكم سبحانه بالصلاة اليومية الواجبة خمس مرات:

{فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ}، فلا تبللوا يدكم بالماء وتمرروها على وجوهكم، بل اجعلوا الماء يسيل على وجهكم. والوجه كل الناس تعرفه كما تغسل وجهك بعد الاستيقاظ من النوم، هي نفسها المنطقة التي يجب غسلها أثناء الوضوء.

واغسلوا {أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ}، بتعبيرنا الحالي: إلى كوع اليد، فاجعلوا الماء يسيل على أيديكم من أطراف الأصابع إلى الكوع، ونغسلها كما يغسل أي إنسان يديه، حيث إنّ الآية حددت لنا المنطقة التي يجب غسلها، ولم تحدد لنا أن نبدأ من الكوع أو من الأصابع، وهذا كلام لا معنى له، بل نغسل اليدين كما يغسلهما أي إنسان عادي، ولا مشكلة في غسل اليدين من الأصابع إلى المرافق ولا من المرافق إلى الأصابع ولا الخلط بينهما، المشكلة في تعقيده اللامبرر بين المذاهب!

{وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ}، فمن البلل الموجود على أيديكم امسحوا برأسكم، يعني ببعض رأسكم وليس المطلوب مسح كلّ الرأس، حيث تضع يدك على رأسك، كما تضعها بالشكل العادي إذا قال لك أحد ما: ضع يدك على رأسك. والمسح هو أن تجرّ يدك على رأسك حتى آخر أعلى جبينك.

{وَأَرْجُلَكُمْ}، فامسحوها، {إِلَى الْكَعْبَيْنِ}، وهي قبّة القدم من فوق قبل مفصلها عن الساق، لذا ضع يدك على ظاهر قدمك من جهة الأظافر واسحبها حتى تصل إلى الكعب على وجه القدم.

هذه العملية نسميها: الوضوء. وتخبرك الآية أنه يجب أن تكون على وضوء عندما تريد أن تصلي.

كما تعرف، هناك خلاف بين الفقهاء حول الوضوء، وللأسف صار محلا للفرقة والتنازع المذهبي، وهذا الذي ذكرته لك إنما هو ظاهر معنى الآيات التي سيفهمها أي شخص عادي تقول له اغسل وجهك ويديك إلى المرفق... ولن يغسل أذنيه ورقبته وعنقه وجفن عينيه وثقوب أنفه وداخل فمه! ولكن كالعادة إنّ بعض الروايات والتفاسير جعلت البسيط عويصا! وبعض الفقهاء جعلوها أعوص! وكما يبدو من الروايات، إنّ الناس كانوا متفقين على أشياء أساسية في الوضوء، ولكن مختلفين في بعض التفاصيل، وإذا أخذت في عين الاعتبار أن بعض الناس كانت ظروف عملهم تترك على أجسادهم طينا أو عجينا أو دبقا أو بعضا من مخلفات الحيوانات... فهؤلاء كانوا سينظفون أنفسهم في وضوئهم أكثر من صاحب الدكان والتاجر، كيف سيمسح الفلاح على قدمه وهي مغطاة بالوحل! طبعا سيغسلها أثناء الوضوء، وسيستعمل يديه ليمسح قدميه بالماء ليزيل الوحل، ولذا لا يمكنك أن تقول إنّه لم يمسح قدميه، ولكن أيضا، لا يمكن أن تجبر الذي قدماه نظيفتان على أن يغسلهما، أضف إلى ذلك أنّ الفقهاء الذين أوجبوا غسل القدمين كيف يجيزون المسح على الخفين حتى من دون اضطرار! أو على الأقل كيف يناقشون في جواز المسح على الخفّين ولا ينهون النقاش من الأول بالقول إنّه لا يوجد مسح للقدمين ويجب غسلهما! وكمثال آخر كيف سيغسل وجهه الطحان والفلاح والكنّاس؟ طبعا سينظفون آذانهم وعنقهم ويتمضمضون ويستنشقون للتخلّص من الغبار... ولكن هذا ليس واجبا، بل هو نظافة زائدة منهم ولياقة للوقوف بين يدي ربهم سبحانه.

انتبه ولا تنسَ شيئا مهما، لأنّ هذه السورة من الواضح من طريقة كلامها أنّها من أواخر السور التي نزلت على النبي(ع)، يعني يوجد قبلها ممارسات وضوء للمسلمين، وكانت مختلفة، وهذه الآية جاءت لتوحّد الوضوء.

أمّا لماذا اختيار الوضوء لذكره في القرآن الذي لم يذكر تفاصيل عن الصلاة الواجبة، فكما يبدو لك جليا من مختلف كتب مختلف المسلمين من مختلف المذاهب، أنّ أساسيات الصلاة مشتركة بينهم، والخلاف في تفاصيل ليست أساسية وكلهم بشكل عام غالباً يقولون بجواز الاستغناء عن التفاصيل التي عليها خلاف، لأنها مستحبات أو إضافات استنسبوها... وهكذا ترى أن الجيل الأول من المسلمين تعلّم الصلاة من صلاة الجماعة مع النبي(ع)، أمّا الوضوء فليس جماعة ومن المتعذّر رؤية الجميع للنبي (ع) يتوضّأ ولذلك حصلت خلافات، لذا لا داعي لذكر كيفية إقامة الصلاة في القرآن، ولكن توافرت دواعٍ ليذكر سبحانه في القرآن كيفية الوضوء.

{وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا}، في حالة البعد جانبا عن شيء، وهنا الكلام عن الابتعاد عن الحالة العادية بسبب حالة جنسية "جماع أو نزول مني" وصرتم بحاجة للغسل، ونحن الآن نقول لهذه الحالة "جنابة" اشتقاقا من كلمة جنب التي استعملها القرآن هنا، إذا كنتم على جنابة وأردتم القيام للصلاة: {فَاطَّهَّرُوا}، فكونوا خالين من الشيء الذي لا يليق بمن يريد الوقوف بين يدي ربه ليعبده، أي كونوا خالين من حالة الجنابة، كما ورد استعمال الطهارة في القرآن عادة للطهارة المعنوية، وليس

المقصود هنا إزالة المني عن الجسد فقط، بل الاغتسال للانتقال للحالة المعنوية بعد حالة العلاقة الجنسية، وهنا نعرف "والحمد لله" باتفاق المسلمين جميعا، بأن المقصود بالطهارة هنا أن تكون عبر غسل الجسد كاملا بالماء، وورد في الآية 43 من سورة النساء ما يدعم ذلك {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا...}.

كما لاحظت في الوضوء أنّ الفقهاء دققوا في التفاصيل المملة حتى خرج الوضوء عن بساطة ما تقوله الآية، هنا أيضا دققوا في التفاصيل حتى صار الغسل أعقد من بساطة مجرد غسل الرأس والجسد! حيث فصّلوا بوجوب فصل غسل الرأس مع الرقبة لوحده، والقسم اليمين من الجسد لوحده، والقسم الشمال لوحده... مع العلم أن الآية والعديد من الروايات تفهم منها: الاغتسال "الحمام الدوش..." العادي الذي يقوم به الإنسان العادي، مع نية الغسل من الجنابة.

حسناً، علمنا أنّ الوضوء واجب قبل الصلاة، وعلمنا أنّ من كان على جنابة فليغتسل ويصلي، ويمكنك أن تشتق من الكلام أنّ الغسل من الجنابة يغني عن الوضوء، مثلما التيمم بالصعيد في حالة الجنابة يغني عن الوضوء كما يبدو من الجملة التالية ومن الآية 43 من سورة النساء، {... لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى... وَلَا جُنُبًا... فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا...}، لأنّ هناك حالات اضطرارية قد تمنعنا من استعمال الماء:

{وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى}، فعندكم حالة عطل في جسدكم ولم يكن بحالته العادية، كالجرح أو المرض الجلدي أو مع جبيرة "جبصين جبس على محلّ كسور العظام" ...

{أَوْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ}، والإشارة واضحة لحملكم لكمية قليلة من الماء لا يمكنكم استعمالها للوضوء أو الغسل لأنكم تحتاجونها للشرب، لأنّ المسافر الذي مرّ بقرب نهر من البديهي أنّه يتوضّأ، وتكملة الجملة هنا {فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً} التي ستأتي.

{أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ}، جاءكم شيء من مكان خروج فضلات الجسم، من بول أو عذرة أو ريح، حيث كنتم على وضوء أو غسل وحصل شيء من الغائط.

{أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ}، بالمعاشرة الجنسية، أي حصلت معاشرة جنسية تامة بالدخول، حتى لو لم ينزل مني.

في كل تلك الحالات السابقة: {فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً}، للوضوء أو الغسل من الجنابة، في هذه الحالة: {فَتَيَمَّمُوا}، فاقصدوا، {صَعِيدًا}، شيئا من وجه الأرض الطبيعي كالتراب والصخر، {طَيِّبًا}، محببا ولا يكن عليه قاذورات أو وحل وطين...

يعني انتقلوا إلى حالة التطهر بالصعيد، وهو الانتقال من الوضوء والغسل إلى ما نسميه حاليا: تيمماً. اشتقاقا من استعمال القرآن لهذه الكلمة لهذه الحالة. وهو كما يلي:

{فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ}، من الصعيد، وليس من الضروري مسح كل الوجه، بل يكفي ضرب كفيك على الصعيد "التراب أو الصخر" ثم تضع كفيك على جبينك وتمررهما على جبينك مرة واحدة.

{وَأَيْدِيكُمْ}، امسحوها، {مِنْهُ}، من الصعيد، حيث تمرر كف يدك اليمين على ظهر يدك الشمال ثم بالعكس.

كما ترى هذا ليس تنظيفا مثل الوضوء، ولكنه عملية معنوية للتجهّز للصلاة كبديل عن الوضوء في حالة الاضطرار.

{مَا يُرِيدُ اللَّهُ}، لا يقصد ولا يرغب، {لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ}، فعندما أوجب عليكم الوضوء بالماء أو الاغتسال للصلاة هذا لا يعني أنكم يجب أن تتوضؤوا مهما كانت حالتكم، لا، وعندما تكونون في حالة حرج من استعمال الماء ولم تكونوا في الحالة الطبيعية المريحة، يمكنكم الانتقال إلى استعمال الصعيد.

{وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ}، أن تكونوا خالين من الخبث المكروه عبر الوضوء أو التيمم، حيث يريد أن تتهيؤوا للصلاة للوقوف بين يديه تعالى، وتكونوا طاهرين، خاليين من العيوب النفسية والمشاغل غير التوجّه له تعالى.

{وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ}، أي يريد سبحانه إتمام حصول الأمور الجيدة منه عليكم، لأنّ النعمة الإلهية عليكم لم تنقطع وبقيت مستمرة وبهذه التشريعات تتم نعمته تعالى عليكم، حيث لم يجعل الوضوء أو الغسل بشكل صارم، بل بنعمة منه خفّف على المضطر، وسمح له باستعمال الصعيد.

أخيراً بقي شيء لم أستطع تركه في صدري، لأنّ المفسرين للقرآن "من كلّ المذاهب" في كلّ آيات القرآن، وعمليا بما نسبته أكثر من تسعين بالمئة من الآيات، اتفقوا عمليا "في قولهم وكتبهم" على أنّه لا مشكلة في تفسير الكلمة الواحدة بما لا يقل عن عشرين معنى! بل وأكثر! واتفقوا أنّه لا مشكلة على تفسير الآية بمعان متعددة حتى تصل أحيانا إلى الخمسين وجها! بل وأكثر! ولم يتعاركوا ولم يتنابذوا! بل بكل رحابة صدر قبلوا هذه التأويلات! ولكن عندما يصلون إلى بعض الآيات التي لها علاقة بالتفرقة بين المذاهب الإسلامية، كآياتنا هنا، إنّهم لا يقبلون إلا بتفسير يناسب مذهبهم! وينتج عنه الفرقة بين المسلمين! السؤال الكبير: لماذا؟

(وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {7})
{وَاذْكُرُوا}، واستحضروا في فكركم وقولكم، {نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ}، الأمور الموصوفة بأنها نعمة بأنها شيء جيّد لكم، بهدايته تعالى لكم عبر إرسال رسول وعبر هذا القرآن وعبر تأييده تعالى لكم...

{وَاذْكُرُوا}، {مِيثَاقَهُ}، الشيء المؤكّد الشديد، {الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ}، حيث شدّد سبحانه به عليكم، {إِذْ قُلْتُمْ}: {سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا}.

تذكّر دائما أن أخذ الميثاق منّا له تعالى هو عرضه تعالى علينا دينه، لذا لا تتصوّر دائما حالة الميثاق والعهد كحالة الجلوس على طاولة وتوقيع الاتفاقيات، أو الوقوف أمام أحد ما وإعلان كلام عن ميثاق وعهد، لأنه معه تعالى ليس هذا ضروريا، بما فينا من قدرة لتمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، هذا يلزمنا بترك الباطل والشرّ، ومجرد وصول كلامه تعالى لنا وإن كفرنا فنحن خارج العهد والميثاق وإلى نهاية حتمية بالعذاب، وإن آمنا صِرْنَا تحت عهد ميثاقي معه تعالى. وهناك حالة مميزة كرّرها القرآن عن رفع جبل فوق بني إسرائيل كعلامة إلهية على إمضاء ميثاق أعلنه بنو إسرائيل حينها بالالتزام بدينه تعالى، وتقرأ ذلك في الآية 154 من سورة النساء {وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ...}، وأمّا بقية حالات الميثاق مع بقية الناس، فترجع إلى الأساس، أي ترجع إلى عرضه تعالى لدينه علينا المتوافق مع ما فينا من قدرة على تمييز الخير من الشرّ، وهكذا نصير تحت شيء شديد لا يتحمّل التهاون به، ويصير وصف الحالة مِيثَاقاً لمن تعهد باتباع الحقّ. أنا وأنت تحت ميثاق معه تعالى، ولدينا تعهد شديد له تعالى بالالتزام بدينه.

كما ترى هذا لا يعني أن من كفر بدينه تعالى هو لا التزامات عليه لأنه لم يتعهد ولم يواثق، وبالتالي لا عقاب له، لا، لأنّ هذا أساسا حالته سيئة جدا لأنه منكر للحقّ وفاعل للسيئات وهو نفسه رَفْضُهُ للالتزام بكلامه تعالى، وعلى هذا عقاب شديد.

نرجع للآية، بعبارة أخرى دائما استحضروا في أذهانكم وأقوالكم أنه سبحانه أنعم عليكم بإرشادكم لطريق الحقّ والصلاح الذي يرضيه سبحانه عنكم ويوصلكم إلى الجنة ولم يجعل فيه حَرَجاً... واستحضروا في ذهنكم وقولكم أنكم سمعتم كلام ربكم سبحانه وأعلنتم أنكم مطيعون لأوامره ومؤمنون برسله وكتبه...

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}، تجنبوا غضبه وعقابه إن عصيتم وخالفتم أوامره تعالى.

{إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}، لديه علم تام تفصيلي بما تتفاعلون به مع الأمور التي تواجهكم.

من المعلوم أن الأفكار تدور في رأسنا في دماغنا، أمّا القفص الصدري فيوجد فيه الرئة والقلب وأعضاء أخرى، ولكن نحن عندما نتعرض للأمور المختلفة ونتفاعل معها ونتأثّر فإن أعضاءنا تتأثر ببعضها، ونشعر بالضيق في صدرنا أو الانشراح، بالاكتئاب أو السرور، بالخوف أو بالأمان، بالزهو أو التواضع... وكل التعابير القرآنية التي استعملت كلمة "صدر" ومشتقاتها، كانت تشير لما تفاعلنا به مما تعرّضنا له من الأمور، ومختلف لغات البشر تستعمل نفس التعبير فيقولون إنّ السرّ في صدري...

انتبه جيدا، ونكرر الكلام عن الميثاق معه تعالى، ربما يخطر ببالك أن تسأل: متى حصل الميثاق بين هؤلاء وربهم سبحانه؟ ولكن لو فكرت بطريقة أخرى لوجدت أن هذا السؤال لا معنى له! الإنسان إما أن يعلن أنه مؤمن أو يعلن أنه كافر، وربما ينافق أو يفسق، الكافر والفاسق والمنافق لا يوجد ميثاق بينه وبين ربه سبحانه، لأنه لا يلتزم حرفيا بما يأمره به ربه سبحانه، أما من أعلن أنه مؤمن، فهذا صار بينه وبين ربه تعالى ميثاق الإيمان والطاعة، ويجب أن يستمر

على ميثاقه حتى يَفُوزَ بجنة الآخرة، أنا وأنت وأي إنسان أعلن أنه لا يريد أن يكفر أو يفسق أو ينافق، فهذا ميثاق، وهو اتفاق شديد لا يمكن التلاعب به، وإلا فهو في صفّ المغضوب عليهم. وتلاحظ أنه لا يوجد حالة أخرى، إمّا أَنْ تؤمن ويكون بينك وبين ربك ميثاق، وإما أن تكون غير مؤمن، وبذلك تخالف ما يجب عليك، لأنّه أساساً يجب عليك طاعته تعالى، وإهمال ذلك يجعل نهايتك في جهنم لا محالة.

أرجوك يا عزيزي أَلّا يجمد فكرك عند حادثة تاريخية لتفسير هذه الآية وغيرها من الآيات التي تتحدث عن ميثاق المؤمنين مع ربهم سبحانه، لذا لا تجعلها جامدة على إعلان المسلمين الأوائل لمبايعة النبي محمد(ع) في العقبة أو الحديبية... أو فيما يسمّونه بعالم الذر... بل اتركها عامة شاملة لكل إنسان أعلن الإيمان في أي وقت كان، لأنّها هكذا عامّة لا تقيّدها وتحجّمها.

بقي شيء، في عمق كلامه تعالى عن نعمته علينا هناك جانب تقصده الآيات هنا، حيث إنّه سبحانه وبشفافية يخبرنا أن تقييمه للخير والشر، للسوء والصلاح... هو نفس التقييم الذي جعله تعالى فينا، وصرنا نتشارك معه تعالى في نفس تقييم حسن أو سوء الأمور التي نفهم بها وهي من متعلقات حياتنا، وبما أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو حسن، ولدينا إمكانية رؤية حسنه، فهذه نعمة. وتراها بشكل أوضح مما تسمعه عن مزاجية عبثية وصف بها بعض الناس الآلهة التي اخترعوها، وترى نفس الحالة التقييمية له تعالى في اختلاف درجات إيمان الناس بأوصافه تعالى، تجد في المؤمنين به تعالى الملتزمين بتطبيقات الدين أو المستهترين... وتجد من يعتقد دائما أو أحيانا أنه تعالى عبثي أو مهمل أو لا يهتم... خاصة عند وقوعهم في مشاكل عويصة يستصعبون حلّها، وهكذا ترى عمقا قرآنيا في كلامه عن وجوب شكرنا له تعالى لأنه يستحقّ الشكر، لأنّ كلمة شكر لا معنى لُغَوِيّاً لها إن لم تكن لشيء جيد حصلت عليه، والنعمة لا معنى لها إن لم تكن وصفا لشيء تراه أنت حسنا، طبعا إن كان قلبك سَلِيماً، وإلا فمرضى القلوب "الفكر والنفسية" هؤلاء لا يرون بشكل جيد ولا يميزون بين الخير والشر في كلّ الأمور...

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ{8})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ}، أيُّ شيء ستفعّلونه فليكن على الأحسن، وإن كنتم ستنجزونه أو يكون من مسؤوليتكم القيام به، فليكن لله تعالى أي متماشيا مع أوامره تعالى، وليكن على الطريقة التي يأمركم الله تعالى بها.

وكونوا، {شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ}، إذَا شهدتم وكنتم حاضرين على حادثة تسمعونها وترونها، أو شهدتم على اتفاقية أو على دَيْنٍ أو بيع أو... وحصل خلاف بين الناس، فلتكن شهادتكم بالقسط بما هو بالضبط.

{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ}، فلا يدفعكم شيء لفعل شيء، {شَنَآنُ}، عموم أي نفور من الآخر بسبب بغض أو كراهية أو عداوة... {قَوْمٍ}، أناس لهم كيان كجماعة متفعلة بالشنآن معكم، {عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا}، أن لا تكونوا على الاعتدال على العدل، فلا تميلوا عن الحق، يعني مثلا: إن كنت شاهدا حين جرت اتفاقية بين شخصين، ثم حصل خلاف بينهما، وقال واحد: اتفقنا على أن يعطيني ألف دينار ثمن السيارة. والآخر قال: اتفقنا أن أعطيه خمسمئة دينار. وطلبوا منك أن تشهد أمام القاضي لتقول ما حصل حين اتفقوا، وإذا كنت على عداوة "شنآن" ككره أو عداوة لواحد من المتخاصمين، فهذا ليس بعذر لك حتى تشهد ضده، بل يجب أن تشهد بالحق حتى لو كان لصالح الشخص الذي تكرهه أو تعاديه أو لا تحبّه.

{اعْدِلُوا}، كونوا عادلين بلا ميل بالشهادة، فقولوا الحقّ، وهذا العدل، {هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}، هو أقرب لتجنب السوء وبالتالي لتجنّب غضبه تعالى وعقابه، أما الشهادة بالباطل فهي تبعدك عن التقوى وتجعلك مستحقا لغضب وعقاب ربك سبحانه.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}، فتجنبوا غضبه وعقابه تعالى وهنا الكلام عن خصوص الشهادة مع أنه أمر عمومي بتقواه تعالى.

{إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}، فلديه تعالى أخبار تفصيلية عن الحوادث التي تجري معكم، فلا يتصور أحد منكم أنه يمكن أن يشهد زورا وكذبا وأن ينجو من العقاب، لا، لأنه سبحانه حاضر في كل مكان وزمان، ولا ينسى، فانتبه حين تشهد لأن الذي يراقبك لديه أخبار تفصيلية عن كل الحوادث، ويعلم إن كنت تكذب.

نلاحظ الشبه بين الآية هنا وبين الآية 135 من سورة النساء، حيث هناك كان التركيز على الميلان العاطفي مع شخص من الذين تشهد عليهم، وهنا تُركّز على الانتباه من العداوة مع شخص من الذين تشهد عليهم.

(وَعَدَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ{9})
{وَعَدَ اللَّهُ}، فقال تعالى إنّه سيحقّق شيئا ما، لـ {الَّذِينَ آمَنُوا}، للذين اعتقدوا بالمعلومات الصحيحة عنه تعالى واعتقدوا بضرورة الالتزام بكلامه، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، حيث قاموا بالأعمال الموصوفة بأنها صالحة غير فاسدة، وعمليا هذا يتماشى مع أوامره تعالى إذ قاموا بالواجبات التي أمر بها تعالى وتركوا المحرمات، إنّ الوعد الإلهي أنّه {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ}، أي لهم تجاوز عن ذنوبهم، ولن يأخذ سبحانه موقفا صلبا لا يتراجع عنه مع من أساء بل يسامح سبحانه المؤمنين العاملين للصالحات. {وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}، إذ لهم شيء حدّده تعالى أنهم يستحقّونه منه "من فضله" على إيمانهم وعملهم الصالح وسيكون عظيما. وتعلم أنّه تعالى وعدهم بالسعادة التي فوق التصور في جنات خالدة لا يموتون فيها ولا يملّون منها.

بقي شيء، إنّ وصف القرآن للمؤمنين بأنهم عاملون للصالحات يشير إلى رؤيتهم وتصنيفهم للأعمال على أنّها صالحة حسنة ففعلوها، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، وهكذا فإنّ أفعال المؤمنين التي يرونها صالحة تتماشى مع دينه تعالى. ضع هذا المعنى القرآني عن "عملوا الصالحات" في بالك دائما، لأنّه بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموما وحتى بين المؤمنين، أنّ الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، حتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائما أنّه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به فقط ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى.

(وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ{10})
{وَالَّذِينَ كَفَرُوا}، والذين أنكروا فلم يعتقدوا بالدين الإلهي، {وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}، وقالوا عن الأمور المميّزة المنسوبة له تعالى إنّها كاذبة وغير صحيحة، حيث إنّ الآيات الإلهية جعلها تعالى لنا لتدلنا على الدين الإلهي وهم كذّبوا بالآيات، {أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}، حيث سَيَكُونُونَ مع بعض في المكان الذي يوصف بأن كل ما فيه سيّء بضخامة.

من دراسة أشعار العرب قديما قبل الإسلام وجدت فرقا بسيطا بين كلمتي جحيم وجهنّم، حيث إنّ جهنّم باستعمال القرآن هي اسم مكان مشتق من الوصف بجهنم الذي يشير لسوء الحالة أو المكان، واستعمال هذا الوصف لمكان تعذيب في الآخرة هو وصف للأنواع المختلفة المسببة للعذاب مما فيها، إذ فيها النار المحرقة وفيها الضرب وفيها طعام كريه ورائحة كريهة... وتفهم ذلك من فحوى الآية 49 من سورة غافر {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ...}. وفي بيتين من الشعر قبل الإسلام وجدت إشارة بكلمة جحيم لضخامة النار، ويناسبها ذلك في القرآن كما ورد في الآية 97 من سورة الصافات {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ}، لذا فإنّ الجحيم وصف الضخامة في السوء.

يقولون أن كلمة "جهنم" هي كلمة "مُعرّبة" (دخيلة على العربية) وأصلها عبري/آرامي (Gehenna أو Ge-Hinnom)، وهو وادٍ خارج القدس كان يُرمى فيه النفايات وتُوقد فيه النيران باستمرار، فانتقلت التسمية للدلالة على مكان العذاب الأخروي، وانتقلت إلى العربية ليستعملوها بمعنى سوء الحالة أو المكان.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُواْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ{11})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ}، استحضروا في فكركم وقولكم الأشياء الموصوفة بأنّها نعمة بأنها جيدة حسنة وحصلتم عليها منه تعالى، وكنموذج بارز عن ذلك، {إِذْ هَمَّ}، أي نوى بقوّة، {قَوْمٌ}، أناس لهم كيان كمجموعة متفعلة بـ، {أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ}، وسياق الكلام عن نيّتهم على إنهاء حياتكم ونووا فعلا فعل ذلك، {فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ}، حيث لم يجعلها سبحانه تصل إليكم، وعرقلهم تعالى ولم يوفّقهم لقتالكم، فبقيت هذه النيّة "همّا" لم يتنفّذ.

يوجد لكم أعداء لأنكم مؤمنون، وأعداؤكم ينوون قتالكم حتى ينهوكم أو يجعلوكم تحت سيطرتهم، ولكن هناك مرات عديدة انتقل فيها أعداؤكم من النية إلى التنفيذ، وقبل أن يبدؤوا بالتنفيذ عرقلهم سبحانه وثبّطهم وأحبطهم فلم يقاتلوكم، وهكذا يصير وصف حالتهم بكلمة عربية دقيقة: همّوا بقتالكم، لأنّ النية قوية، ولكنها لم تتنفّذ بسبب التدخّل الإلهي، فاذكروا هذه النعمة ولا تنسوها.

هذه الحالة عامّة لكل المؤمنين عبر التاريخ، حيث دائما لديهم أعداء يريدون القضاء عليهم، ويضعون الخطط، ويتجهزون... ولولا التدخّل الإلهي هنا وهناك لكانت الأمور أسوأ بكثير، فها التاريخ أمامك وترى فيه أن المؤمنين دائما قلّة وظروفهم غالبا صعبة، ولكن لولا تدخله تعالى لكانت ظروفهم أصعب بكثير مما مرّوا فيه.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}، فتجنبوا غضبه وعقابه، لأنه أساسا بسبب إيمانكم وتقواكم حماكم من أعدائكم، وبعد أن حماكم المفروض ألّا يتغير سلوككم، فاستمروا على إيمانكم، بل اتقوه أكثر.

{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}، لأنّ الذين حقّا مؤمنون به تعالى هم فعلا يعتقدون أنهم ليسوا بحاجة لغيره حتى يسيّر أمورهم كما يجب فينصرهم ويحميهم، ومعلوم لك أن المؤمنين الحقيقيين يستعدون دائما لمواجهة العدو، حيث إنّ الآية هنا وعموم كلام القرآن عن التوكّل عليه تعالى لا يقصد الاستهتار والإهمال والتخاذل والفشل... من جانب المؤمنين على أنه تعالى سينصرهم لأنهم متوكّلون عليه، كلا، لأنّ الفشل والاستهتار... أصلا ليس من صفات المؤمنين الحقيقيين.

لا تجعل الآية تجمد في زمن النبي محمد(ع)، لأنه في كل زمان ومكان سيكفّ تعالى أيدي أعداء المؤمنين، بشرط أن يكونوا مؤمنين حقيقيين. وكمثال تطبيقي عن هذا الكلام ما جرى في معركة الأحزاب المسماة بمعركة الخندق، حيث شعر الكفّار بالملل من محاصرة مدينة يثرب وانسحبوا مع العلم أن الظروف الميدانية كانت لصالحهم... ولكن الكلام هنا أعمّ من ذلك بكثير وممتد من التاريخ القديم ومستمر...

(وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ{12})
هذا مثال عن أناس قبلكم أعلنوا أنهم مؤمنون:

{وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ}، شيئا شديدا مؤكّدا من، {بَنِي إِسْرَائِيلَ}، من أبناء وأبناء أبناء... النبي يعقوب(ع). إذ طرح تعالى الدين عليهم، ومن يتّصف بأنه تابع لدينه تعالى فدينه تعالى لا يتحمّل التراخي أو التهاون به، ولذلك فهو ميثاق، فإعلانهم بأي شكل كان أنهم على دينه تعالى، يعني أنّهم تحت ميثاق، وأنّهم تحت شيء مؤكّد بشدّة لا يتحمل التهاون به. فلا داعي لأن يقولوا: نحن واثقناه تعالى على الإيمان به وبدينه وبرسله... لأنّ مجرد كونهم "وكوننا" مؤمنين فنحن مأخوذ منّا الميثاق. ومنذ قليل في الآية 7 توسعنا قليلا بالكلام عن الميثاق.

{وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ}، أي أنهضنا وأقمنا منهم، {اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا}، أشخاصا ينقّبون، والكلام هنا عن اهتمامهم بأحوال الناس، كمسؤولين عن إدارة شؤون الناس، فأولاد النبي يعقوب(ع) "إسرائيل(ع)"، كانوا اثني عشر ولدا، وفيما بعد، كبرت العائلة، فصار من كل ولد عائلة كبيرة، فصاروا اثنتي عشرة عائلة، وجرت فيهم عادة تعيين نقيب على رأس كل عائلة، كمسؤول عنها.

{وَقَالَ اللَّهُ}، للنقباء ولمن تحت مسؤولية النقباء: {إِنِّي مَعَكُمْ}، بدعمي لكم من كل النواحي، {لَئِنْ أَقَمْتُمُ}، فعّلتم فلم تهملوا ولم تتركوا، {الصَّلَاةَ}، التوجّة والإقبال، وهي الصلاة "التوجّه" بالعبادة نحوه تعالى، ولها كلمات وحركات وأوقات محدّدة.

وإني معكم، لئن، {وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ}، فجعلتموها عند من يوزعها أو أنتم بيدكم جعلتموها مع الآخرين، وكلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، فتشير لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكية، مال زاكٍ، طعام زاكٍ..."، ومنذ القدم صارت مصطلحا دينيا يشير إلى دفع نسبة محدّدة من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ...}، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، فيدفع منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة {...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...}، فتكون نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

ونفس هذه التفاصيل هي الزكاة التي أمر بها تعالى بني إسرائيل.

وأني معكم لئن، {وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي}، فلم تكونوا مزاجيين مع رسلي، فتؤمنون بهذا وتكفرون بذاك، ولئن، {وَعَزَّرْتُمُوهُمْ}، فدعمتم وأيدتم رسلي.

{وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ}، فقدّمتم له تعالى شيئا يمكنه تعالى ردّه بسهولة لكم، {قَرْضًا حَسَنًا}، فما تقدّموه يكن حسنا جيدا، فتنفقوا من مالكم على المحتاجين وعلى أمور تنفع المؤمنين قربة له تعالى بلا منّة ولا كبرة ولا فوقية... وليس من فضلاتكم وما استغنيتم عنه لعطل فيه... وأيضا من أمثلة إقراضه تعالى إقراض المحتاج للقرض بلا ربا، فالقرض للناس مع الربا هو قرض سيّء.

وقد استظهرت من استعمال القرآن والعرب لكلمة قرض وفرقها عن كلمة دين أو سلفة... أن القرض نوع من الدين بحيث أن من أخذه يكون ميسورا عليه ردّه فيما بعد، ولم يستعمل القرآن وصف ما نقدّمه في سبيله تعالى أنه دين له تعالى، بل قرض، لأنه تعالى يردّه بسهولة.

وتذكّر دائما أن ما هو دارج بين الناس من استعمال جملة "القرض الحسن" كجملة قرآنية في خصوص إقراض الناس، فهو غير صحيح، فأي عمل خير مالي، من صدقة أو مساعدة أو هبة... لمحتاج، أو على أمور لعامة شؤون المسلمين... فسبحانه يعتبره قرضا له وسيردّه لك. علما أن فعل الخير يشمل إقراض المحتاجين.

إني معكم... لئن التزمتم بما سبق ومضافا له، {لَأُكَفِّرَنَّ}، لسوف أستر وأغطّي، {عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ}، فسأغطيها ولن أجعلها تظهر عليكم ولا على الآخرين، ففي يوم القيامة سأسامحكم عليها ولن أحاسبكم بها ومضافا لذلك تكفيرها فلن تظهر في كتاب الأعمال لأنها مغطاة، ولن يراها الآخرون. ولا ننسى ما ورد صراحة في الآية 31 من سورة النساء أن تكفير السيئات مشروط بالابتعاد عن الكبائر، ومن آيات عديدة من القرآن نعلم أن التوبة الحقيقية من أي ذنب كان تجعل المؤمن يستحق المغفرة، والتكفير عن ذنوبه التي يمكن تكفيرها، فبالتعمّق سترى أن بعض الذنوب عمل سيّء أصاب الآخرين، فهؤلاء سيطالبون بحقوقهم وسيعلمون بالسيئة التي ارتكبها الذي قرر تعالى تكفير ذنوبه، ومن فحوى الكلام القرآني نحتمل أنه تعالى وبطريقة ما سيأخذ الحقّ لصاحبه من دون فضح المؤمن الذي قرر تعالى تكفير ذنوبه... وفي الروايات كلام لطيف عن ذلك فيقولون إنّه تعالى يغري من له الحقّ بمسح بعض السيئات عنه حتى يتنازل عن حقّه ولا يطالب المؤمن بها...

{وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ}، فستدخلون إلى أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين وما يسرّهم، {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، فمن تحت أشجارها وعلى جنباتها تسير الأنهار المختلفة الألوان والنكهات. ولا تبالغ لتتصورها كمستنقعات، بل هي منظر جميل لجداول وأنهار وشلالات من مختلف الألوان والأطعمة... كما ورد في الآية 15 من سورة محمد {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى...}.

حسناً، هذا هو الميثاق الذي وصل إلى بني إسرائيل، والذين من المفروض أن يحرص كل نقيب على متابعة تنفيذ هذا الاتفاق مع عائلته.

{فَمَنْ كَفَرَ}، فمن أنكر ولم يعتقد بما سبق، {بَعْدَ ذَلِكَ}، بعد الميثاق بعد الاتفاق الشديد فلم يلتزم به، {مِنْكُمْ}، {فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}، فمسلكه "عقائده وسلوكه" لم يكن مستقيما متناسبا "سويا" على المسلك الإلهي، فاتبع مسلكا غير صحيح ولا يوصل للغاية الصحيحة، ونهايته العقاب.

وعندما نمرّ على آيات فيها كلام عن الإنفاق والصدقة والزكاة... نجد في كتب التفاسير كلاما عن بداية وجوب الزكاة على المسلمين بعد الهجرة في المدينة، وتحديد مقدارها في المدينة... على أساس أنها لم تكن واجبة في بداية الدعوة حين كان النبي محمّد(ع) في مكّة، وبناء عليه قالوا إنّ كل ما نزل من القرآن في مكّة وتحدّث عن الإنفاق المالي، حتى لو ذكر كلمة زكاة، فهو لا يتحدّث عن الزكاة الواجبة لأن التاريخ يقول عن النبي(ع) أنه أخبر الناس عن وجوب دفع مقدار محدّد من أموالهم في سبيله تعالى، وحدّد مقدار ما يجب دفعه، في المدينة أي بعد هجرته(ع) من مكّة.

بينما الزكاة ليست شيئا جديدا طرحه هذا القرآن، فهي من أساس الدين الإلهي، ومأمور بها في الكتب الإلهية السابقة... وقد جدّد القرآن طرحها، فلا يوجد شيء اسمه: تشريع الزكاة في المدينة بعد الهجرة. بل الحالة في حينها أن المسلمين من بعد الهجرة إلى المدينة صار لهم حكومة يمكنها التعامل مع الزكاة، فتشريع الزكاة مثل تشريع الصلاة، فهو قديم في دينه تعالى، ومثل تشريع حرمة الزنا وشرب الخمر والسرقة... فهذه العناوين أيضا لا تجدها مطروحة في السور التي نزلت قبل الهجرة، فهل تقول بأنه تعالى شرّعها بعد الهجرة ومن قبل ذلك لم تكن حراما؟

للأسف درجت هذه الخلفية في عقلية الكثير من متعاطي الثقافة الدينية تفسيرا وتشريعا، فقال الكثيرون كلاما حول تشريع حرمة الخمر في المدينة، وبتدرّج... وهذا غير صحيح، فلا الزنا ولا السرقة ولا النصب والاحتيال ولا... ولا أي عنوان من عناوين الأعمال المعلوم سوءها تشرّع في المدينة أو في هذا القرآن بشكل جديد عن الكتب الإلهية السابقة، بل أعاد سبحانه طرحها في هذا القرآن، وبعض التشريعات كانت جديدة على النبي محمّد(ع) وعلى الذين حوله لأنهم لم يطّلعوا على الكتب الإلهية السابقة "كأحكام الميراث والظهار والتبّني..."، وأصلا من أسباب إرساله تعالى للرسول محمّد(ع) بكتاب جديد أن الكتب السابقة تحرّفت فيها التشريعات ولم يعد هناك بين الناس مزاج عام لتطبيقها...

نرى في آيتنا هنا أن الصلاة والزكاة كانت واجبة في دينه تعالى منذ آلاف السنين قبل النبي محمّد(ع)، فلا معنى لتفسيرهم للآيات التي نزلت في مكّة قبل الهجرة وذكرت الزكاة على أنها لم تقصد الزكاة الواجبة.

(فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ{13})

{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ}، فبسبب فسخهم وتركهم الالتزام بالشيء المؤكّد بشدّة، وهو تركهم الالتزام بدينه تعالى الذي لا يتحمل التراخي ولا التهاون به، لأنّ دينه تعالى ميثاق، ومن أعلن بأي طريقة كانت أنه متدين فهو تحت شيء مشدّد مؤكّد عليه، وهؤلاء لم يلتزموا بدينه تعالى تماما ولذلك، {لَعَنَّاهُمْ}، طردناهم من رحمتنا فلم يعودوا تحت مظلة الرحمة والعناية الإلهية المخصصة للمؤمنين. وكما ترى فإنّهم بتركهم الميثاق قرروا الخروج من تحت مظلة الرحمة الإلهية.

{وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً}، أي جعلنا مركز فكرهم ونفسيتهم لا يلين ولا يقبل الإيمان، لأنهم هم قرروا ترك الإيمان لذلك لن يساعدهم سبحانه على الاهتداء لا بالقوّة عبر إجبارهم ولا عبر التلاعب بعقولهم ولا عبر أمور أخرى غير المتاحة من الآيات وهي أكثر من كافية لمن يريد الحقّ والصلاح. ومن شدة قساوة قلوبهم صاروا: {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ}، حيث يجعلون الكلام غير مستقيم ومنحرفاً عن معانيه ومضامينه الأصلية، وتعلم أن المقصود أنهم حرّفوا وتلاعبوا بكلمات الكتاب الإلهي وبمعانيه.

{وَنَسُوا}، حيث نسي بنو إسرائيل، {حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ}، إذ جاءهم أنبياء وعلماء بشيء حدّده تعالى لهم كمؤمنين ليلتزموا به ولكنه لم يصر ضمن أولويات اهتماماتهم وتركوه مهملا، واستمروا على العقيدة والشريعة المحرّفة.

{وَلَا تَزَالُ}، إلى حين عصرك أيها الرسول محمّد(ع) وإلى "عصرنا"، {تَطَّلِعُ}، حيث ترى وتسمع أشياء كانت مخفية مستورة عنك، {عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ}، على أعمال الخيانة للميثاق الإلهي من بني إسرائيل، إذ لا تزال تراهم يحرّفون الكلام الإلهي ويتعاملون بالربا... ولا يؤمنون بكل رسله...

{إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ}، حيث إنّ القليل من بني إسرائيل هم مؤمنون حقا ويحاولون السير على الطريق الصحيح، ولكنهم قلّة قليلة.

{فَاعْفُ عَنْهُمْ}، أي لا تتوقّف عند ما فعلوه من تحريف بل مرّ عليه، ولا تطالب بني إسرائيل بما فعلوه، ولا تعتبرهم ليسوا من المنتمين لدينه تعالى بسبب التحريف وإنكار نبوّتك ورسالتك، {وَاصْفَحْ}، أي لا تهتم بخيانتهم، {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}، لأنّ العفو والصفح هما عمل حسن، وسبحانه يحبّ من يقوم بأعمال حسنة، حيث أحسن تعالى إليهم واعتبرهم أهل كتاب ولم يعتبرهم كالكفار رغم خيانتهم، لذا أنت أيضا أيها النبي(ع) لا تعتبرهم كفارا، أو تهين دينهم ولا تحترمه... أو تعتبرهم مختلفين عن الخطّ الديني الذي أنت عليه... بل عاملهم على أنهم أهل كتاب، وغضّ النظر عن تحريفهم وخيانتهم.

انتبه عزيزي، لأنّ الآيات تحذّرنا نحن من الوقوع فيما وقع فيه بنو إسرائيل، من نقض للميثاق وتحريف الكلام... وللأسف وقعنا، فماذا تقول عن تفاسير القرآن المختلفة المتخالفة! وماذا تقول عن الفقه المتناقض! وإن كانت الآية تأمرنا بالعفو والصفح عن تحريف بني إسرائيل ونقضهم ميثاقهم... وأن نعتبرهم أهل كتاب رغم كل ما فعلوه وما هم عليه، فما بالنا لا نعتبر بعضنا البعض مسلمين!

(وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ{14})
هذا مثال عن أناس قبلكم أعلنوا أنهم مؤمنون:

{وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى}، الذين قالوا نحن مناصرون مؤيدون للنبي عيسى(ع)، {أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ}، سجّل تعالى عليهم أنهم أعلنوا التزامهم بدينه الذي لا يتحمّل التراخي أو التهاون به، لأنّه ميثاق، حيث من قبل تحدثت السورة عن أخذه تعالى الميثاق من بني إسرائيل والآن الكلام عن النصارى "عن المسيحيين".

{فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ}، حيث إنّ النواة الأولى للنصارى كانوا أساسا من اليهود وعندهم كتاب ولكنهم حرّفوه، وجاء النبي عيسى(ع) وذكّرهم من جديد بالدين الصحيح، فاتبعوه وهكذا حصل إعلان منهم لله تعالى بأنهم مؤمنون، ويعتبره سبحانه ميثاقا، اتفاقا شديدا، ولا يسمح سبحانه بالتلاعب به وبتغيير رأيكم، ورغم ذلك نسوا ولم يكن من أولويات اهتماماتهم، {حَظًّا}، شيئا حدّده تعالى لهم، {مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ}، مما ذكره تعالى لهم عبر رسوله عيسى(ع). لذا فهم بدورهم النصارى حرّفوا الكلام الإلهي عن مواضعه!

{فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ}، أي جعلناهم مغترّين فيفعلون شيئا يظنونه جيدا حسنا بينما هو سيّئ، حيث اغتروا، {الْعَدَاوَةَ}، باعتبار بعضهم البعض أعداء يريدون الشر لبعضهم، وأغرينا بينهم، {وَالْبَغْضَاءَ}، الكره لدرجة النفور من التعاطي مع بعض، حيث جعلناهم يظنون أن العداوة والبغضاء شيء جيد فاغتروا بها، وصاروا يعادون بعضهم كما نفعل نحن الآن حيث انقسمنا لمذاهب وطوائف تكره وتبغض بعضها وكل واحدة تعتبر هذه البغضة والكره واجبا دينيا! كما تعلم إنّ سبحانه لم يجبرك على التفكير بطريقة طائفية ومذهبية ولكننا لم نلتزم بأوامره سبحانه بالتمسك بحبله، وأهملنا أوامر النهي القرآنية عن التفرقة والنهي عن التلاعب بالدين... وكلّ ذلك حبّب لنا التفرقة والعداوة واغتررنا بها لدرجة أننا لا نرى أنفسنا نفعل سوءاً، بل مغترّون بها ونرى أننا نفعل صوابا! ونرى غيرنا خرج عن الدين ولم يعد مسلماً ويجب معاداته وبغضه! وهو هذا نفسه الذي تقوله الآية إنّه حصل بين المسيحيين وبني إسرائيل وبين المسيحيين مع بعضهم البعض... كما ترى ذكره تعالى لنا لننتبه منه، وذكره تعالى للذين سبقونا وللمسيحيين ولليهود... لينتبهوا منه! ولم يهتم أي أحد به!

هذه المعاداة والبغضاء بين المسيحيين واليهود، والمسيحيين بين بعضهم واليهود بين بعضهم مستمرة، {إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، لذا لا يوجد أي حلّ لهذه النوعية من الناس، لأنّ عقليتهم التي سببها ترك الميثاق الإلهي حتما ستسبب لهم العداوة والبغضاء فيما بينهم.

{وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ}، حيث يخبرهم تعالى بشيء علمه غير منتشر بينهم، {بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}، لأنّ الأمور التي صنعوها والتي نتجت عن العداوة والبغضاء كالحرب والقتل والإيذاء... سوف يخبرهم تعالى عنها حين يحاسبهم في الآخرة، لأنّهم تحت المراقبة وسوف يتحاسبون على أعمالهم التي قاموا بها ونسوها ولم يعلم بها الآخرون...

نحن المسلمون وكما يبدو لك، سنستمر بالعداوة والبغضاء فيما بيننا إلى يوم القيامة إن لم نرجع إلى التمسك بحبل الله تعالى.

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ{15})
{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ}، يا أيها المنتسبون المنتمون إلى كتاب إلهي، كاليهود والمسيحيين:

{قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا}، والمقصود به محمد(ع)، {يُبَيِّنُ لَكُمْ}، يوضّح لكم، {كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ}، حيث إنّ هناك أموراً مذكورة في الكتاب الذي تنتسبون له وجعلتموها مخفية مستورة، وهذا الرسول (ع) بيّنها لكم، كحرمة الربا ووجوب الصوم والصلاة وحرمة موالاة الكفار ووجوب الزكاة ووجوب مساعدة الفقراء... وهي أمور موجودة في الكتب التي نزلت عليكم ولكنها صارت مخفية لأنكم تلاعبتم بالكتب وبمعانيها، وصار عند البعض الصوم نصف نهار عن مشتقات الحيوانات، بينما كان صوما تاما عن الطعام والشراب مثل صومنا، وصارت الصلاة جملة قصيرة بينما كان فيها ركوع وسجود وكانت عدة مرات في اليوم... وصار الربا حلالا مشرعا...

{وَيَعْفُو}، هذا الرسول الذي أرسلناه، {عَنْ كَثِيرٍ}، حيث إنّ الكثير من تصرفاتكم سيمرّ عليها ولن يتوقّف عندها، ومع أن الخمر حرام والربا حرام والصوم والصلاة والزكاة ومساعدة الفقراء... واجبة، إلّا أن الرسول(ع) مرّ عن تلك الأشياء فلم يطالبكم بفعلها ولم يجبركم عليها، حيث أمره تعالى بتحذيركم وإنذاركم عبر تنبيهكم فقط، ولم يأمره أن يعتبركم مثل الكفّار ويجبركم على ترك دينكم "المحرّف"، لأنه سبحانه لا يريد أن يساويكم مع الكفار، ولا يزال يعتبركم أهل كتاب إلهي.

{قَدْ جَاءَكُمْ}، يا أهل الكتاب، {مِنَ اللَّهِ نُورٌ}، شيء يضيء لكم طريق الحق وهو هذا القرآن، {وَكِتَابٌ مُبِينٌ}، أي كتاب واضح.

ننتبه جيدا، وضع في بالك دائما أن وصف الكتاب الإلهي بالمبين، ونفسّرها في دراستنا بكلمة واضح، هذا لا يعني أن القرآن يمكن فهمه بدون دراسة وتمعّن، ولا يعني أن آياته لا تحتاج لتعمّق وتفكير، وأنها بسيطة سهلة، لا، لأنّ هناك معانيَ سهلة بسيطة وهناك ما هو أعقد وهناك ما هو بحاجة لتعمّق، حيث إنّ القرآن تحدّث في كل الأساسيات العقائدية والتشريعية والسلوكية، ومعلوم أنه ليس كلّ الناس تفهم في كل الأمور... ولم يستعمل القرآن كلمة "واضح" ولا أي من مشتقاتها، وفي كلام العرب القديم لم تكن كلمة "واضح" تعني المعنى الذي نفهمه الآن، وكلمة مبين حرفيا لا تعني أن الشيء واضح وبسيط فهمه، لا، بل تعني أنه واضح بلا خلل ولا خطأ، فيمكن فهمه، سواء من القراءة البسيطة أو من بعد التأمّل والدراسة، وهذا المعنى واضح من عدة آيات منها الآية 79 من سورة آل عمران {... وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ}.

الآيات هنا تتحدث مع أهل الكتاب في كل الأزمنة، ويريد سبحانه للطاهرين منهم أن يهتدوا إلى الحق، لذا لم يجعل النبي محمد(ع) ينظر إليهم بنظرة ومعاملة العداوة، لأنه سبحانه يريدهم أن ينظروا إلى الدين الإسلامي على أنه على نفس خط دينهم وأنه من نفس المنبع الإلهي وليس دينا جديدا...

(يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{16})
القرآن النور الكتاب المبين:

{يَهْدِي بِهِ اللَّهُ}، بالقرآن يضع سبحانه على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ}، مَنْ كان همّه أن يكون تعالى راضيا عنه، وأن يكون سبحانه محبّا له ولعمله وقوله، وَاتَّبَعَ وَكَانَ على طريق الرضا الإلهي،

فإن القرآن سيكون هاديا له إلى، {سُبُلَ السَّلَامِ}، إلى مسلك خال من الآفات والخلل، لأنّ بقية المسالك خراب ودمار وخسران وتوصل إلى جهنم.

القرآن، {يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ}، من العتمة المنتشرة من كل الجهات، التي هم فيها من عقيدة وشريعة وسلوكيات مظلمة معتمة منحرفة، {إِلَى النُّورِ}، إلى انكشاف الأشياء وذهاب الظلام، {بِإِذْنِهِ}، بسماح منه سبحانه تتم الهداية بالقرآن، لأنّ هذا شيء جرى تحت المراقبة الإلهية وحصل بإذن إلهي، ولم يكن متروكا لأحد غيره تعالى لتحديده.

تلاحظ استعمال القرآن للظلمات بالجمع مقابل النور بالمفرد، لأن المعلومات الصحيحة عنه تعالى وعن صفاته وما فعله وسيفعله والتي نسميها بالعقيدة نؤمن بها لأنها صحيحة ولا معنى لمعلومات أخرى غير الصحيحة إلا وصفها بالباطل، حيث إنّ المعلومات الصحيحة عنه تعالى واحدة، والمعلومات الكاذبة متنوّعة وكثيرة، والقرآن يهدينا لِنُورٍ، لنرى المعلومات الصحيحة، بينما كثرة المعلومات غير الصحيحة عنه تعالى والمختلفة، كالذين جعلوا معه تعالى الأصنام شركاء في الألوهية أو الملائكة شركاء أو الكواكب... تُعَدّ ظلمات. ونفس الكلام عن الشريعة والسلوكيات الصالحة حيث إنّها واحدة بينما السوء في نفس الموضوع يكون متنوّعا، لذا يوصف طريقه بالظلمات.

{وَيَهْدِيهِمْ}، يضعهم على الشيء الصحيح، {إِلَى صِرَاطٍ}، ويدلّهم على الطريق الإيماني الأساسي، {مُسْتَقِيمٍ}، طريق يوصف بأنه على الأحسن فلا اعوجاج ولا انحراف فيه.

لاحظ، أنّ هناك أناس نسمع عنهم أو نراهم أنهم طيبون يحبون الخير، من البوذيين أو الهندوس أو الطاويين أو العلمانيين أو المسيحيين أو اليهود... ولكن مهما حاولوا أن يكونوا مستقيمين لن ينجحوا من دون مساعدة إلهية، لأنه من دون كتاب إلهي فيه تعاليم عن العقيدة والشريعة والسلوكيات... لن يكون هداهم للحقّ كاملا، وسبب ذلك نشترك فيه نحن المسلمون معهم أيضا، حيث إنّ مستوى سلامة القلب "سلامة الفكر والنفسية" المطلوبة لاستخدام وتفعيل ما جعله تعالى فينا من القدرة على تمييز الخير من الشرّ والسوء من الصلاح، توافرت في قلّة قليلة من الناس، وأبرزهم قرآنيا هو النبي إبراهيم (ع)، والذي دائما كرّر القرآن الكلام عنه كأبرز نموذج عن بشري توصّل إلى رؤية كل الأمور التي للبشرية علاقة بها مميزا بين خيرها وشرّها وبين حقّها وباطلها، حتى إنّ فحوى كلام القرآن المنقول عن النبي إبراهيم(ع) والواصف لحاله(ع)، يشير إلى توصله (ع) وبدون وحي إلهي إلى حتمية وجود آخرة نتحاسب فيها على ما عملناه، وراجع في ذلك دراسة الآية 81 من سورة الشعراء {وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ}.

أقول لك هذا لأن الآية هنا تشير إلى من لا يستطيع بقلبه "بفكره ونفسيته" تمييز الكثير أو البعض من خير الأمور وشرّها، لِيَكُونَ القرآن له هاديا.

(لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{17})
{لَّقَدْ كَفَرَ}، أنكر "شيئا" من الدين الإلهي، {الَّذِينَ قَالُوا}:

{إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ}، ولديهم طرق عديدة للتعبير عن هذا، يقولون هو بذاته الله سبحانه تجسد في المسيح(ع)، ويقولون إنّ المسيح(ع) بشري بطبيعة إلهية، أو إنّه انعكاس للإله على شكل بشر... وكما ترى معلومٌ أنه ليس كل المسيحيين ألّهوا النبي عيسى(ع)، ولذلك عَبَّرَتِ الآية عن المسيحيين الذين ألّهوه بأنهم كفروا، وغالبية المؤلّهين له (ع) يقولون بأنه لا فرق بينه تعالى وبين النبي عيسى(ع) فكلاهما واحد، بل كلاهما الله "عزّ وجلّ".

وصف المسيح للنبي عيسى(ع) هو جَرْيٌ على عادة اليهود بمسح رأس من ينصبونه ملكا بزيت الزيتون، وبقيت هذه العادة عند المسيحيين، وهم كانوا موعودين برسول ملك معيّن منه تعالى، فوصفه المسيح، وبقي النبي عيسى(ع) حاملا لهذا الوصف لأنه معيّن منه تعالى كملك. وعادة يذكر القرآن والدته السيدة مريم(ع) لأنه قبله (ع) وبعده ادّعى العديدون أنهم المسيح، وسبحانه حسم هذا الموضوع بِوِلَادَةِ النبي عيسى(ع) بدون أب بدليل كلامه في المهد والآيات الأخرى غير العادية التي جرت عَلَى يديه(ع) كشفاء المرضى وإحياء الموتى... ورغم ذلك عقلية الباطون المسلّح تفوّقت على ذلك، حيث تجد مدّعين أنهم المسيح وتجد لهم أتباعا!

{قُلْ}، لهؤلاء عبر هذا القرآن: {فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}، مَنْ يمكنه أن يفعل أي شيء، {إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ}، إنْ قَرَّرَ تعالى أن يَسْتَنْفِدَ حياة فيميت، {الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ}؟ مَنْ يستطيع أن يفعل أي شيء ليمنعه تعالى من إنهاء حياة المسيح(ع) وأمّه(ع)؟ {وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}، من دون أي استثناء، مَنْ يمكنه منعه تعالى أو الوقوف في وجهه إن أراد إماتة كل أهل الأرض؟

الفكرة واضحة، لأنه سبحانه خالق ومسيطر على كل شيء، والمسيحيون يعلمون أنه تعالى في فترة زَمَنِيَّةٍ خلق السيدة مريم(ع) وخلق ابنها النبي عيسى(ع) وقبلهما خلق كل من في الأرض، لذا المنطق يقول: من يستطيع من هؤلاء المخلوقات الوقوف في وجه خالقه إن أراد خالقه سحب الحياة منه؟ فهو الله سبحانه وتعالى أعطاهم الحياة، وكما ترى المسيح(ع) وأمه(ع) مثلهم مثل غيرهم، ماتوا! بأي منطق تجعلونهما آلهة! حيث قالوا إنّ الله تعالى هو المسيح(ع) وبعضهم قالوا إنّ أمّه السيدة مريم(ع) هي أمّ الله، وإنّ لها طبيعة إلهية أيضا...

الكائن الواحد له وعي واحد، وكيان واحد، ومن الواضح أنّ للمسيح(ع) كياناً ووعياً خاصاً به، وأمّه (ع) لها كيان ووعي خاص بها، وفقدا وعييهما بالموت، فأهلكهما تعالى واستنفد وأنهى حياتهما، فكيف يَكُونَانِ آلهة! أو بالتحديد وردا على ما يقولونه: كيف يكون المسيح (ع) الله شخصيا وهَلَكَ! ومن ناحية ثانية كل من في الأرض من البشر، كلّهم من نفس الطبيعة بالضبط بلا فرق، والمسيح (ع) منهم، ولنقل إنّه تعالى قرر إِنْهَاءَ حياة كل البشر فسيكون من ضمنهم إنهاء حياة المسيح(ع) وأمّه(ع)، فكيف يكونان آلهة! كيف يفقدان حياتهما ووعيهما إن كانا آلهة! أين الألوهية إن كان لا يستطيع الحفاظ على حياته ووعيه وكيانه!

الكلام ضمنا يشير إلى وضوح كونهما (ع) بشريين، وأن وصفهما بالألوهية بأي طريقة كانت هو اختراع غير صحيح، فلا من قبلهما ولا من بَعْدِهِمَا يوجد بشري بطبيعة غير بشرية، حيث إنّ الملائكة (ع) تتمثّل بشكل بشر مؤقتا لتنفيذ وظائف أمرهم بها تعالى، ولكن مسألة تمثّل أو حلول أو اتحاد جوهر... الإله سبحانه مع بشري، هي اختراع واضح.

نفس العقلية الصعبة لهؤلاء والمانعة لهم من قبول هذه الحقيقة الواضحة البسيطة، للأسف هي نفسها عند بقية المغالين بشخصياتهم الدينية من المسلمين، الذين أدلّتهم كلّها ليست من ظاهر الكلام القرآني، بل من تفسيرات غير ظاهرة من الكلام ويسمونها بالتأويل والباطن والحقائق التي لا يراها إلا هم لأنهم هم لوحدهم فقط مؤمنون من الدرجة العالية! ولذلك يستطيعون رؤية وفهم ما لا يراه وما لا يفهمه الآخرون من كلامه تعالى!

هي هذه نفس العقلية للمؤلّهين للنبي عيسى(ع)، فمهما واجهتهم بحقائق فإنّ الأساس عندهم عقيدتهم تلك، وليسوا مستعدين للتراجع عنها ولا بأي شكل!

{وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، مَنْسُوبٌ له تعالى مُلْكُهُمَا مُلْكاً حقيقيا، فأنت تملك سيارتك وبيتك، وتستطيع أن تفعل بهما ما تشاء، ولكن إن غبت عنهما وتركتهما فلن يحصل لهما شيء، أما السماوات والأرض، فإن تركهما سبحانه للمحة فإنهما سيزولان، وتقرأ ذلك صراحة في الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ...}، ويمكنه سبحانه أن يفعل أي شيء بهما، ويملك أيضا، {وَمَا بَيْنَهُمَا}، من مخلوقات ومادة ومساحة... فكيف سنتصور مخلوقا من أي نوع أو شكل كان هو إِلَهٌ! تعبير القرآن بالسماوات والأرض مرادف للتعبير بكل شيء في دنيا المخلوقات، وبشفافية يخبرنا تعالى بأنه هو الإله من جهة وهناك السماوات والأرض وما بينهما ولا شيء آخر، والسماوات والأرض وما بينهما "كل شيء" خلقهم هو تعالى وهم له وهو يملكهم، فما معنى أن يكون وَاحِدٌ منها إلها! الإله الحقيقي لا يكون مملوكا لإله آخر، ولا يكون تحت سيطرة إله آخر، فما معنى كلامكم أن النبي عيسى(ع) إله! فهو مخلوق مملوك وتحت السيطرة مثله مثل بقية المخلوقات.

{يَخْلُقُ}، يركّب ويُؤلّف سبحانه من المواد المختلفة، فنحن مادتنا التراب والجنّ مادتهم النار...، {مَا يَشَاءُ}، أمامه تعالى خيارات عديدة وهو يقرر أي كائن سيركّب ومن أي مادة، وتكملة للكلام، هناك سبحانه من جهة، إله لوحده، ليس كمثله شيء، وليس مخلوقا أو مركبا... وباقي كلّ شيء في السماوات والأرض وما بينهما من جهة ثانية كلّهم مخلوقات، مُرَكَّبُونَ مُؤَلَّفُونَ، تَرَكَّبُوا بقرار وفعل منه تعالى، فلا معنى أن يكون أحد الْمَخْلُوقَاتِ الْمُرَكَّبَةِ هو الله بذات نفسه!

{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ، لديه القدرة على فعل أي شيء يريده بأي شيء، وعندما يقرر خلق شيء ما فهو يقدر ويستطيع أن يفعله، والكلام هنا عن نموذج خلق النبي عيسى(ع) بلا أب، فهذا شيء اختاره تعالى كطريقة لِخَلْقِ النبي عيسى(ع)، ولا معنى للاعتقاد بألوهيته لأنه مخلوق من دون أب.

إِذَنْ تُنَبِّهُ الآيات المسيحيين من هذا الكلام الكفري السخيف عن النبي عيسى(ع)، فلا يوجد إلا حَالَتَان: خالق واحد، ومخلوقات. لا يوجد خَالِقَانِ ولا ثلاثة... بل فقط واحد وهو الله تعالى، والنبي عيسى(ع) مخلوق مملوك وتحت السيطرة مثل بقية المخلوقات، فما معنى القول عنه بأنه إله بينما هو مخلوق مركب مولود من امرأة، وَهَلَكَ وَفَقَدَ حياته ووعيه! وقبل ذلك لم يكن أصلا له حياة ووعي، فإن تفلسفتم وقلتم إنّ الله تعالى في زمن ما تجسّد في جسد النبي عيسى(ع)، فما معنى وجود وعي منفصل وكيان منفصل اسمه عيسى(ع) وهو مولود من امرأة وخلقه الله تعالى، فكيف ذلك! وكيف لِمَنْ له طبيعة إلهية أَنْ يفقد حياته ويموت!

نَنْتَبِهُ لمعنى دقيق أوردته الآية، سائلين أين كان النبي عيسى(ع) قبل أن تلده أمّه؟ وأين هو الآن؟ وهل له كيان خاص به! فعلى الأرض هو غير موجود فإن كان في السماء فهل له كيانه الخاص أم أنه الله! في نفس الوقت تقولون إنّه الله شخصيا بنفسه وتقولون إنّ له كِيَاناً لوحده! فلم يعد يوجد كيان إنسان بيننا واسمه المسيح ابن مريم فهل له كيان منفصل عنه تعالى! فكيف يكون هو الله؟! هناك كيانان ووعيان، الله الذي كان ولا يزال، وفي وقت ما خُلِقَ المسيح(ع) وهلك، وهذا مشابه لما يحصل مع بقية الناس، فما معنى القول عنه إنّه الله شخصيا!

للأسف، بعض المسيحيين يقولون إنّ النبي عيسى(ع) هو الله تعالى، وأمّا كلامنا النافي لذلك فهو من مستوى قدرتنا نحن على التفكير، وتلك هي الحقيقة ونحن بفكرنا لسنا قادرين على فهمها، ولذلك تبدو الأدلة على بطلان عقيدتهم قوية لأنها على مستوى فهمنا للأمور... بعبارة أخرى هم للأسف مثلهم مثل العديد من اليهود والمسلمين الذين طرحوا عقائد وتشريعات لا يقبلها العقل السليم وبدون أدلة وتبريرات عقلانية، وفي الأخير يقولون لك إنّ دين الله تعالى لا يقاس بالعقول. هذا نسبيا صحيح وليست كل العقول متمرسة على فهم كل المواضيع، ولكنهم يقصدون أنه حتى أصحاب القلوب السليمة هُمْ بأساس وفكر من الدرجة المقبولة، حتى هؤلاء هناك أمور لا يَفْهَمُونَهَا ويجب الإيمان بها على عَمَاهَا!

القرآن يعرض عليك العقيدة والشريعة والسلوكيات مع تبريراتها وشروحاتها، لتقتنع بها بناء على القدرة المجعولة فيك لتمييز العقلانية من الأوهام، والحقّ من الباطل والخير من الشرّ، ومن يقل إنّ الدين يتضمن ما لا نعقله، ولن نعقله، أو من يعرض علينا شيئا على أنه دين ويخبرنا بأننا لن نفهمه ولن نعقله، فهذا الكلام وأشباهه لا علاقة له بدينه تعالى، وحتى إنّه تعالى لم يترك الأمور كأفكار غير ملموسة، فتدخّل سبحانه بطرق فجّة بوضوحها، لنرى تدخله بشكل لا يحتمل التأويل، وحتى إنّ الْعَدِيدِينَ من العلمانيين لديهم تعليقات ساخرة على بعض الحوادث التي تدخّل فيها سبحانه، مقترحين تدخلات أخرى... كمسألة إصابة قوم فرعون بالمآسي وفلق البحر... معتبرينها كأساطير بسبب تقصده تعالى أن تكون فجّة قوية في ظهور تدخله المباشر لفعلها! وكما ترى من ناحية لدينا تدخّل إلهي واضح جدا، كآيات دالة على كون موسى(ع) رَسُولاً إِلَهِيّاً، ولدينا من ينكره لأنه واضح جدا!

كمثال آخر كلام القرآن عن أدلة ملموسة لعودة بعض الناس إلى الحياة هنا في الدنيا، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 259 من سورة البقرة {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ ... فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ...} ، أو ما فعله النبي عيسى(ع) من إحياء للموتى...

الخلاصة أن عقيدة التثليث "الله وعيسى والروح القدس ثلاثة في واحد" والدارجة كعقيدة رسمية للكثير من المسيحيين حاليا، كانت ولا تزال بلا أي دعم عقلاني لإقناعنا بها، وبعد أكثر من ألف سنة على نشأة عقيدة التثليث اشتهر توما الأكويني كمحاول لوضع فلسفة تعقلن وتمنطق هذه العقيدة، ولم تلق محاولته رواجا ولم تشع بين صفوف المسيحيين لأنها بعيدة جدا عمّا يمكنهم الاعتماد عليه كأساس عقلاني لعقيدتهم، وانحصرت فلسفة التثليث في العلماء المسيحيين كمحاولة يائسة منهم لتبرير عقيدتهم عقلانيا، والتي خلاصتها أن العقل غير قادر على فهم الدين!

للصراحة واجه مختلف علماء المسلمين مسائل مختلفة لم يستطيعوا رؤيتها بالعقلانية، مستعينين بالسلاح المتداول في هذه الحالة لإسكات وَتَكْبِيتِ من يسأل عن الإقناع بالعقلانية، فقالوا إنّ دينه تعالى لا يقاس بالعقول!

اعتماد ذلك كقاعدة هو الدمار الشامل، فلماذا سأعتنق هذا الدين أو ذاك إذا كنت غير مقتنع به؟ كيف سأقتنع به لأعتنقه إن كان فيه شيء يقولون إنّني لا يمكنني أن أعقله!

نعم، ليس كل إنسان مُؤَهَّلاً ليعقل كل الأمور، بل هناك تفاوت في القدرات، وفي التجارب والمهارات، وفي الدراسة والاختصاصات... ما لا أعقله أنا قد يعقله غيري، وأسمع كلامه فأفهمه، أو يكون فوق مستوى قدراتي أو ليس من اختصاصي... ولا أفهمه، ولكن ماذا لو كان لدينا جماعة من العاقلين أمام نفس المسألة ولم يعقلوها؟

هنا ترى الفرق بين ما يعرضه تعالى علينا عبر هذا القرآن وبين أي عقيدة اخترعها البشر، فكلامه تعالى أخبار عن حقائق، فهو عقيدة لنا بصحة تلك الأخبار عن صفاته وقدراته وما فعله سبحانه، ويجب أن تتماشى تلك الأخبار مع ما يمكننا لمسه وتجربته... وهذا معنى كلامه تعالى عن تصميمه وخلقه لظواهر الليل والنهار والمطر... وخلقنا وخلق بيئتنا... ومضافا لذلك برهن سبحانه عن صحة تلك الأخبار بوصفها نابعة منه لوحده كإله واحد أحد، ككائن بطبيعة مختلفة تماما عن طبيعة المخلوقات وفريدة في كيانها، فلا يصح وصفه بأنه مركب مخلوق... وبالتالي لا يصح السؤال عمّن خلقه...

وبالنسبة لبقية الأخبار الإلهية عنه سبحانه فهي منتشرة في هذا القرآن مع براهينها، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 22 من سورة الأنبياء {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}، وما ورد مطولا في سورة النمل بداية من الآية 60 وما يليها {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ}، ويكفينا هذا المقدار حيث إنّ هناك جوانب أخرى تحتاج لصفحات لذكرها...

وبالنسبة للسلوكيات المختلطة المتداخلة مع الشريعة، عِنْوَانُهَا سهل، وهو تمييز الخير من الشرّ كقابلية جعلها تعالى فينا وعلى أساسها سنتحاسب، فما نراه شرا يجب تركه، وما نراه خيرا يجب فعله، وهكذا اعتبر سبحانه أننا بسهولة سنتماشى مع أوامره التي من المستحيل أن نرى فيها سوءا، ومضافا لذلك ترى في القرآن عادة تبريرات للسلوكيات والشريعة التي أمرنا بها تعالى، فقتال المشركين مسموح بل واجب لأنهم هم قاتلوا المؤمنين، وحقوق المرأة ككائن لا يختلف عن الرجل في الإنسانية...

في دراستنا هذه للقرآن، والتي خالفنا فيها الكثير من المفسرين، تبين أن مخزوننا الثقافي كتراث ديني نعتبره من المسلمات التي لا نقاش فيها، هو السبب الواضح جدا خلف الاختلافات في تفسير كلامه تعالى، وبالتالي الوصول إلى حالة فقدان العقلانية في ما يقولونه وبالتالي فرضهم على الآخرين قبول ما يقولونه هم والإيمان به على عَمَاهُ متحججين أَنَّ دينه تعالى لا يقاس بالعقول!

هل أدّعي أني أسلم قلبا "فكريا ونفسيا" ممن سبقني ولذلك رأيت ما لم يره غيري، وفسّرت كلامه تعالى كما هو؟ لا، إنما أدّعي أني استطعت في هذا الكتاب أن أريك الفرق بين دراسة القرآن للتعلّم من كلام الإله سبحانه، وبين قراءته لإسقاط مخزوني الثقافي على كلامه تعالى. ولست أدّعي النجاح في كل شيء، لأنني جهدت على الخروج من مخزوني الثقافي ولكنه قوي جدا جدا في التحكّم لدرجة أنك لن ترى فيها أنه متحكّم بك، وتظن نفسك باحثا دارسا محايدا خاليا من أية أفكار سابقة... ليتبين لك فيما بعد أنك لم تدرس القرآن، وإنما أَسْقَطْتَ أفكارك عليه ليتفسّر بما يناسبك...

أقول لك هذا لأن الآيات هنا بتصحيحها لعقيدة بعض المسيحيين، اعتمدت العقلانية الواضحة، حتى يفكروا ويروا الصحّة من الفساد، ولم يُجَابِهِهَا القرآن بجفاف: بلا فلسفة فأنا إلهكم وكلامكم خطأ فاسكتوا. بل بالتنبيه والتذكير بما يبيّن لهم أن عقيدتهم غير صحيحة. وبناء عليه ماذا لو نبش المسيحيون لك من كتبك ومن تفاسيرك للقرآن، نبشوا كلاما تقول فيه بأن القرآن يعرض علينا شيئا لا يمكننا أن نعقله، ويجب علينا أن نؤمن به كما هو. فيقولون لك إِنَّكُمَا سواسية وما يحقّ لك يحقّ لهم، فهم يؤمنون بعقيدة تفوق قدرة العقل على فهمها...

هذا هو الدمار الذي انتشر في كتب علماء الدين حين واجهوا ما فاق قدرتهم على فهمه، لأن مخزونهم الثقافي تحكّم فيهم، وعلى أساسه فسروا كلامه تعالى، وآخرون تحكّمت فيهم عصبيتهم المذهبية، وغيرهم من فساد فكرهم ونفسيتهم

فسّروا كلامه تعالى ليتماشى مع ما يبرر فسادهم، فصار تعالى حرا يقرر إدخال كافر إلى الجنّة، ورمي مؤمن في النار، فما يفعله تعالى يصير هو الصواب والعقلانية...

في هذه الدراسة، ستجد أن قاعدة بسيطة جدا ساهمت بشكل كبير في عرض كلامه تعالى كما هو، وهي قاعدة فهم الكلمات القرآنية لغويا بعيدا عن تراث استعمالها دينيا، والالتصاق بمعانيها اللغوية الْأَصِيلَةِ، وقبول ما يظهر من معنى الجملة القرآنية كما هو.

من مقابلة هذه الدراسة مع بقية التفاسير سترى الفرق بشكل واضح بين إقحامهم لمخزونهم الثقافي في تفسير كلامه تعالى والذي نتج عنه تفاسير مختلفة لنفس الكلمة ولنفس الآية، وبين ما تعرضه هذه الدراسة من معنى واحد... وأكرر لك، لست أدعي النجاح في كل ما درست، ولكن أدّعي أني استطعت دفعك ميلا للاتجاه الصحيح، فالمبدأ للتفسير صحيح، وبشهادة كبار العلماء ومن ضمنهم الذين فسّروا القرآن، فِي فلتات كلامهم هنا وهناك، تراهم ينصحونك بالالتزام بمعاني الكلمات وإهمال التفاسير! لأنها وبكل وضوح لن تعرض لك معنى واحدا صريحا من الآية!

ختاما، راجع في دراستنا هذه ما قد لا تراه عقلانيا من الدين الإلهي أو آية رأيت أنها تجبرك على تعطيل عقلك، وسترى أن ذلك غير صحيح.

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ {18})
تبيّن بوضوح أن النبي عيسى(ع) مخلوق بشري، ومنه تنتقل السورة إلى الإشارة إلى نفي تميّز غيره من الناس أيضا، وفي ضمن الكلام تفهم أن المبالغة بشيء يبدو بسيطا سيؤدّي إلى المبالغة بأمور أخرى وصولا إلى المبالغة بقولهم عن الرسول إنّه إله:

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى}:

{نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ}، نحن من بين مخلوقاته كلها مُيِّزْنَا، ونحن من مخلوقاته ولكننا مخلوقاته المحبوبون لدرجة أننا لوحدنا يعتبرنا مثل أبنائه ويحبنا نحن فقط، والبقية لا يحبهم، لذا نحن المميزون.

نلاحظ وجود تعابير في التوراة والإنجيل تقول إنهم أبناء الله تعالى، ومن الواضح أنهم لا يقصدون بها أنهم أبناء توالدوا من ولادة، ولكن يقصدون أنهم المدللون المميزون والأفضل من بقية البشر.

{قُلْ}، لهم عبر هذا القرآن، إن كان كلامكم صحيحا وكنتم أبناء مميزين محبوبين مدللين:

{فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ}؟ أي عندما ترتكبون ذنبا تتعرضون للضرر؟ نتذكر مثالا عن هذا التعذيب عندما حول سبحانه اليهود لقردة عندما أذنبوا، وراجع في ذلك الآية 65 من سورة البقرة {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}.

{بَلْ أَنْتُمْ}، أيها اليهود والمسيحيون مجرد، {بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ}، لا تختلفون عن بقية البشر بأي شيء، فلستم أبناءه تعالى ولا أحباءه بشكل مميز، إذ مثلكم مثل غيركم سيحبّكم تعالى إن آمنتم وعملتم الصالحات.

{يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ}، إذ أمامه سبحانه خيارات عديدة حيث أخبرنا تعالى أنه يسامح المؤمنين إذا أذنبوا وتابوا، {وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ}، إذ أمامه سبحانه خيارات عديدة وأخبرنا أنه سيعذّب من يكفر ويشرك ويرتكب السوء...

من الواضح أنكم لستم مميزين مثلما يعامل الوالد ابنه المحبوب، وأنتم لا يمكنكم أن تفعلوا ما تشاؤون لأنكم مدللون، لا، بل الله تعالى قرّر أن المؤمن العامل للصالحات من أي ملّة أو عرق أو عشيرة أو بلد... فهذا المؤمن سينال حبّ الله تعالى ومغفرته، والعاصي كائنا من كان، فسينال العقاب ويتعذّب.

الكلام موجّه لنا أيضا نحن المسلمين، حيث إننا ننظر إلى بقية البشر أنهم تحتنا وأننا أفضل منهم لأننا مسلمون! لذا الآية تقول بأنه لا يوجد أحد من البشر أفضل من الآخر لمجرد أنه يقول عن نفسه يهودي، أو مسيحي، أو مسلم.

نعم مرّت فترات في التاريخ كان فيها جماعات فضّلها سبحانه على العالمين بما منحها من نعم وعناية، لا أكثر ولا أقل، حيث لم تتكسر القواعد الإلهية لأجل بني إسرائيل، ولا من أجل المسيحيين، والتفضيل الإلهي لهم كان متماشيا مع قراره تعالى مع كل الناس، فمن كان مؤمنا سينال العناية الإلهية الخاصّة... ومن أذنب وكثرت ذنوبه وكبرت فسينال العقاب، والكل يعلمون أن نار الآخرة في انتظار كل من خالف أوامره تعالى، فكيف تكونون في مقام أبنائه تعالى ومميزين عن البقية إن كنتم مثل البقية ستتعرضون للعذاب!

{وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}، وهذا تعبير عن نسبة ملك كل دنيا المخلوقات له تعالى، حيث إنّ كل المساحة والمخلوقات بين تلك المناطق، كلّهم يملكهم سبحانه ملكا حقيقيا لذا لماذا تتصورون أنكم بمجرد إطلاقكم اسما على أنفسكم "أنا مسلم، أنا يهودي، أنا مسيحي..." ستصيرون أبناء وأحباء لله تعالى! ومهما حاولتم أن تبرروا استعمال كلمة ابن لله تعالى فهي لن تكون أبدا مقبولة، لأنّ كلكم مخلوقات مملوكة لله تعالى، وأنتم وكل ما في السماوات والأرض وما بين السماوات والأرض يملككم سبحانه.

{وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}، أي مصيرنا، وهو الشيء النهائي الذي لن يتغيّر هو وقوفنا بين يديه تعالى، لذا أنتم مخلوقات مملوكة له سبحانه، ونهايتكم أيضاً إليه سبحانه، فلن تذهبوا من تحت ملكه وسيطرته، ولن تنتقلوا إلى أي ملك آخر، لأنه لا يوجد إله غيره سبحانه، إذ مصيرنا كلّنا الوقوف بين يديه تعالى ليحاسبنا ولن يكون اليهود والمسيحيون مميزين عن الآخرين بأي شيء.

لو أطلت عليك، فانتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من التراخي في الكلام الديني الذي ينتج عنه تراخ في الإيمان، حيث لا تجد في تعابير القرآن ما يسمح لنا بالقول: أبناء الله سبحانه. حتى لو كنّا نقصد البنوّة المعنوية، فهذا التعبير غير مسموح، وكما ترى تراخى اليهود والمسيحيون في تعابيرهم الدينية حتى صاروا يقولون إنهم أبناء لله سبحانه على أساس استعارة تعبير البنوّة للدلالة على تميّزهم عنده سبحانه... ومع التكرار ومرور الزمن خرجت كلمة أبناء الله تعالى عن الاستعارة والمجاز والكناية لتترسّخ في أذهانهم على أنها حقيقة... والاعتياد على هذه التعابير وأمثالها أوصلهم لقبول فكرة كون المسيح(ع) حقا ابناً حقيقيا له تعالى! مثلما بدأ المدح لعلي ابن أبي طالب بصفاته وخصائله الرائعة التي ميّزته بشكل مميز عمّن حوله من الصحابة، وبعد وفاة الرسول(ع) لم يستطع بعض الناس مقارنته مع بقية الصحابة بسبب تميّزه عنهم... وبدؤوا بالحديث عن تميّزه... وتميزّه... فغالوا في حبّه... حتى قال بعضهم إنّه هو الله عزّ وجلّ شخصيا تجسد في رجل! وهو نفس الكلام الذي قاله المسيحيون عن المسيح(ع)! وكل ردّ قرآني على المسيحيين فهو نفسه ردّ على من قال بألوهية الإمام علي، وهذا التأليه الذي بدأ من الحبّ العادي إلى الحبّ الزائد إلى المغالاة إلى الجنون، مثله مثل قول من قالوا بأنهم أبناء الله تعالى وأحباؤه.

بقي شيء، حيث مرّ في دراستنا هذه أنّ آدم(ع) أول من تأهل من البشر ليتكلّف بدينه تعالى، وأن القرآن يشير لانحصار النبوة في ذرية آدم(ع) ومن بعده في ذرية النبي نوح(ع) ومن بعده في ذرية النبي إبراهيم(ع) وانتهت بخاتم النبيين محمد(ع) فلا نبي بعده. وقلنا إنّ بقية الأمم لم يتأهل منها أشخاص بالصفات المناسبة ليكونوا أنبياء ورسلاً، ومن المفيد هنا الانتباه، إذ إنّ قابلية تمييز الخير من الشر والحقّ من الباطل واحدة عند البشر، فحين نقول إنّه من بقية الأمم لم يتأهّل منهم أحد للنبوّة فلم نقصد نقصا في الخلقة، وسبب قولي لك هذا هنا، لأن الآية هنا تشير لذلك، لأنّ كل البشر فيهم الحدّ المقبول في الخلقة لتمييز الحقّ من الباطل، ولكن لسبب أو لآخر لم يحافظ على سلامة قلبه منهم إلا قلّة نادرة جدا من ذرية آدم(ع)، ومن بعد النبي محمّد(ع) ومن علمه تعالى بالغيب أنه لن يتأهل من البشر ولا واحد ليكون نبيا، أخبرنا تعالى أنّ النبي محمداً خاتم النبيين كما تقرأ في الآية 40 من سورة الأحزاب {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}.

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {19})
{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ}، يا أيها المنتسبون لكتاب إلهي، يا أيها اليهود والمسيحيون والصابئة والمندائيون...:

{قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا}، محمد(ع)، {يُبَيِّنُ لَكُمْ}، يوضّح لكم الدين الإلهي، {عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ}، على مرحلة من الزمن لم يحصل فيها شيء، حيث مرّ زمن لم يأتكم رسول، وها جاءكم النبي محمد(ع) بعد فترة، بعد وقت هامد ليس فيه رسل.

{أَنْ تَقُولُوا}: {مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ}. حيث أرسلناه لكم حتى لا تقولوا إنّنا لم يصلنا خبر من الإله يحمل البشرى ويحمل الخبر الجيد لمن أطاع الله تعالى لأنه سيدخل الجنة، ويحمل الإنذار ويحمل الخبر السيّء للعقاب بنار الآخرة لمن تحقّقت فيه شروط العقاب. {فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ}، فلا حجّة لكم على ربكم سبحانه إذا عاقبكم لأنه سبحانه أرسل لكم الرسول محمّد(ع) لينذركم ويبشركم وها تسمعون ذلك عبر هذا القرآن.

{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، فلديه القدرة على فعل أي شيء يريده بأي شيء، فهو سبحانه قرّر هذه النهاية للبشر، وَقَرَّرَ الجنة والنار، وسبحانه قادر على تنفيذ هذا القرار حتما ولا يمكن أن يمنعه أي شيء.

انتبهوا، ولا تقولوا أي كلام من اختراع رؤوسكم، وها جاءكم رسول يحمل كتابا إلهيا فيه شرح لأوامر وقرارات ربكم سبحانه، فلا يمكنكم أن تقولوا: لم يكن معنا خبر ولم نعرف. فلا النبي عيسى(ع) إله ولا بعض الناس أبناء مُدَلَّلُونَ له تعالى.

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّن الْعَالَمِينَ{20})

تكمل السورة كلامها ليأخذ المؤمنون بهذا الدين عبرة من الذين سبقوهم من أهل الكتاب، حتى لا يقعوا فيما وقع به من سبقهم:

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ}، للناس الذين لهم كيان كجماعة وهو (ع) ينتمي لهم ومتفاعلون معه.

{يَا قَوْمِ}، يا أيّها الناس التي أنتمي لجماعتها وتتفاعل معي، {اذْكُرُوا}، استحضروا في أذهانكم وكلامكم وعملكم، {نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ}، لأنّ هناك أُموراً موصوفة بأنّها نعمة جيّدة حسنة حصلتم عليها منه تعالى لذا استحضروها في بالكم وقولكم، {إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ}، حيث جعل سبحانه بينكم أشخاصا يصلهم منه تعالى النبأ وهو الخبر غير المنتشر علمه بينهم ليهدوكم إلى الطريق الصحيح، وعادة يحصل ذلك بنزول الوحي منه تعالى عليهم، من جدّكم المباشر النبي إبراهيم(ع) مرورا بالأنبياء إسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، وصولا إلى النَّبِيَّيْنِ موسى وهارون عليهما السلام وما بعدهم، فلا تنسوا هذه النعمة الإلهية عليكم.

{وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا}، حيث جعلكم سبحانه حاكمين على أنفسكم، إذ من قبل مجيء أجدادكم إلى مصر لم تكونوا تحت حكم أحد، وها لم تعودوا محكومين لحكم فرعون، مما جعلكم سبحانه تقررون شؤونكم ومصالحكم وتعيشون بحريتكم.

{وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ}، حيث من بين كل الناس أعطاكم سبحانه من فضله أمورا كثيرة منها إخراجكم من تحت حكم واستعباد فرعون الذي هو أقوى قوة عسكرية كانت على الأرض... ومنها التوراة وهي الكتاب الإلهي التشريعي العقائدي، ومنها نزول المنّ والسلوى عليكم... وهذه من أبرز نماذج نعمته تعالى على قوم النبي موسى (ع) الذين كان يخاطبهم بهذا الكلام.

جملة {وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} مرادفة في معناها لما ورد في الآيتين 47 و 122 من سورة البقرة {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}، لأنّ التفضيل كان بإيتائهم نعما لم يحصل عليها غيرهم من الناس، ولم يكن يعني أنهم الأفضل على العالمين، ولمزيد من التفاصيل راجع دراسة الآية 47 من سورة البقرة.

(يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ{21})

هذه الحادثة جرت بعد خروج بني إسرائيل من مصر... وبعد غرق فرعون وجنوده، وبعد صعود النبي موسى(ع) إلى الجبل لتنزل عليه التوراة... فنزل (ع) ووجدهم يعبدون العجل... وبعدها ساروا حتى وصلوا إلى الأرض التي كانوا

موعودين بالعيش فيها... وعلى كل حال التفاصيل التاريخية غير مهمة لأن تركيز الفقرة هو على نقضهم للميثاق الإلهي رغم فضائله غير العادية سبحانه عليهم، ونيلهم للعقاب، وهذا يناقض قولهم فيما بعد إنهم أبناءه تعالى وأحباؤه فلنتابع:

يا قوم، ادخلوا {الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ}، الأرض التي لها مكانة واعتبار عال "بسبب شيء مهم جدا حصل فيها أو سيحصل"، تلك الأرض، {الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ}، حيث حدّدها سبحانه لكم لتعيشوا فيها.

نتذكر أن كل ما طلبه النبي موسى(ع) من فرعون هو تركه يخرج مع بني إسرائيل من مصر، وهنا تقرأ أنه تعالى وعدهم أن يعطيهم أرضا مباركة ليسكنوا فيها... وعندما وصلوا إلى تلك الأرض حدثت هذه الحادثة التي تتحدّث عنها الفقرة الآن...

وقال لهم النبي موسى(ع)...: {وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ}، أي لا ترجعوا إلى الخلف، فانطلقوا إلى تلك الأرض لتدخلوها ولا تتراجعوا، فإذا ارتديتم على أدباركم، {فَتَنْقَلِبُوا}، تنقلب حالكم وتتغير حالتكم من النعمة لتصيروا، {خَاسِرِينَ}، فاقدين لأمور لها أهمية، حيث ستفقدون نعمة ربكم سبحانه. فأنتم الآن في نعمة، وقد أمركم سبحانه بخوض حرب "ضد كفّار معادين لدينه تعالى" لتأخذوا هذه الأرض، فلا تتراجعوا، فتنقلب حالتكم وتفقدوا النعمة الإلهية، وسترى بعد قليل أنهم عقابا لهم تاهوا في الأرض...

نعلم أن بني إسرائيل خرجوا من مصر، وقد وعدهم سبحانه بجعلهم حاكمين على أنفسهم حتى لا يجبرهم أحد على الكفر وارتكاب السوء، كما كان يفعل فرعون، والمشهور تاريخيا أنهم انطلقوا باتجاه أرض الكنعانيين، وهي منطقة واسعة جدا، تشمل فلسطين وسيناء وقسم كبير من الأردن وقسم من السعودية وقسم من سوريا ولبنان... وعبر التاريخ القريب من عهد النبي محمّد(ع) وما بعده قسم كبير من هذه الأراضي كان اسمها بلاد الشام، ولكن المشهور بين اليهود أن تلك القرية التي تتحدّث عنها الفقرة هنا، كانت في منطقة فلسطين وبالتحديد في المنطقة التي فيها بيت المقدس الآن، وهذا الكلام على ذمّة التاريخ اليهودي، ولكنه مدعوم مما تستوحيه من القرآن عن تسمية تلك البقعة بأنها مباركة كما ورد في الآية الأولى من سورة الإسراء {... إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ...}، والمشهور أنها كانت من قبل موطن النبي إبراهيم(ع) ومدفنه فيها.

لاحظ بعد احتلال اليهود لفلسطين صرنا نرفض تفسير الآيات بشكل يدل على أن بيت المقدس أو فلسطين هي الأرض الموعودة لليهود، ولكن لا علاقة لهذا بذاك! فقد وعدهم سبحانه بها وهو راض عنهم حين كان فيهم مؤمنون، أمّا وقد احتلوها بعد إسلام أهلها، فلا علاقة بين الوعد الإلهي وبين ما فعلوه، فهم كانوا في ذلك الزمن القديم على الدين الصحيح، وكان فيهم مؤمنون... وكانت بعض قرى فلسطين في ذلك الزمان يسكنها كافرون معادون للمؤمنين، وبعضها يسكنها مسالمون "ليس معلوما إن كانوا كفّارا أو موحدين" لم يسمح سبحانه لبني إسرائيل بالاعتداء عليهم وكمثال عن ذلك القرية التي أمر سبحانه بني إسرائيل دخولها بعد قولهم عند بابها "حطّة"، وراجع في ذلك دراسة الآية 58 من سورة البقرة {وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ}، أما بعد إسلام أرض كنعان فلا يوجد دين يقبله الله تعالى غير الإسلام المتضمّن الإيمان بالرسول محمّد(ع) والقرآن، فاحتلالهم لفلسطين ليس بمباركة إلهية ولا تحقيقا للوعد الإلهي لهم، بل هو اعتداء على المسلمين، وقد نجحوا في ذلك ليس لأنهم مدعومون من الله تعالى بل لأنهم استعدّوا جيدا... هذا من جهة، ومن الجهة الثانية كان الفلسطينيون بغالبيتهم فلاحين بسطاء، ومنهم من باع أرضه طمعا بالمال ومنهم من تخاذل... والقلة القليلة قاتلت بأسلحة بدائية ومن دون تدريب... والأكثرية انتظرت من العرب أن ينقذوهم! وبين ذا وذاك ضاعت بلدهم...

ورغم تلك المصيبة الكبرى، فلا يحق لنا رفض تفسير الآيات بأنها تقصد فلسطين، فصحيح أن القرآن لم يحدّدها، ولكن التاريخ يشهد أن اليهود كانوا منتشرين على الأراضي الكنعانية، وأن منطقة القدس بالتحديد كانت مدينة مهمة جدا لهم، ونتذكّر أن هذا الكلام لا يعطيهم أي حق إلهي باحتلال فلسطين، أما نحن فمأمورون بأمر إلهي بطرد المحتلين من أرض المسلمين.

أكرّر لك، هناك من المسلمين من يدافع عن حقوق الإسرائيليين بأن فلسطين لهم بقرار إلهي، وهؤلاء عادة من المستفيدين ماليا وبمراكز السلطة بدعم ممن يدعم الإسرائيليين... فضميرهم ميّت وكلامهم كلام كراسيهم وجيوبهم ومصالحهم... ويفسّرون آياتنا هنا بهذا المعنى، وهو كلام حقّ يراد به باطل لتاريخ قديم حين كان في الفلسطينيين

مشركون معادون للمؤمنين، أمّا وقد تغيّر التاريخ الديني وصار تكليف الجميع باتباع الرسول محمّد(ع) وقرآنه، فأي حق بعد ذلك للإسرائيليين في أرض للفلسطينيين المسلمين أتباع آخر رسول وكتاب؟

نرجع للآية، فعندما وصل بنو إسرائيل إلى المكان المقصود، تفاجؤوا أنهم سيأخذونها بالحرب! وهم كانوا يتوقعون أن تكون البيوت والبساتين جاهزة بانتظارهم! فنبههم النبي موسى(ع) أن الأمر صادر من ربهم سبحانه، وأنهم إذا لم يقاتلوا فإنهم سيخرجون من العناية الإلهية المميزة... فلنتابع:

(قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ{22})
{قَالُوا يَا مُوسَى}، {إِنَّ فِيهَا}، في تلك القرية، {قَوْمًا}، أناساً مجموعين هناك ويتفاعلون مع الآخرين، {جَبَّارِينَ}، نراهم نحن كقاهرين فارضين لقوتهم وإرادتهم على غيرهم، وقوتهم شديدة وهم مسلحون وأقوياء، لذا فالمعركة معهم لن تكون سهلة وتبدو الخسارة حتمية إن قاتلناهم.

{وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا}، قريتهم، {حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا}، دبّر أنت أي طريقة حتى يخرجوا من القرية أما نحن فلن نذهب إليهم لنقاتلهم.

{فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا}، إذا خرج المقاتلون من القرية "فلتكرم عينك"، {فَإِنَّا دَاخِلُونَ}، سنسمع كلامك ونطيعك وندخل إلى القرية.

نتساءل عن سبب أمره تعالى لقوم النبي موسى(ع) بقتال هذه القرية بالتحديد! ونفترض واستنادا إلى المشهور في التاريخ أنها أرض الكنعانيين التي كان يعيش فيها النبي إبراهيم(ع)، وأن مشركين معادين للمؤمنين يسكنونها أو ربما استولوا عليها وطردوا أهلها الموحدين، وهذا الذي نفترضه تحليلٌ مبني على مفاهيم القرآن التي بوضوح يمنع فيها سبحانه الاعتداء على المسالمين مهما كان دينهم.

انتبه عزيزي القارئ، ستجد روايات عن هؤلاء الجبارين حيث يسمّيهم البعض بالعماليق، ويقولون إنّ طول الواحد منهم يصل للمئة متر! وهذا أدل دليل على هذيان بعض الرواة، وإن قلنا بأنها روايات من تأليف المنافقين والفاسقين والهاذين، فما معنى إيرادها في أمهات كتبنا! وما معنى صراحة أو إيحاء كلام علماء كبار من المسلمين بقبول هذا النوع من الكلام!

لو بحثت في هذا النوع من الروايات سترى أن الكلام عن العماليق موروث من ثقافة اليهود لتبرير تخاذلهم وجبنهم عن طاعة الأمر الإلهي بالقتال، لأن العدو كانوا عماليق والواحد منهم طوله يقارب المئة متر!

(قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{23})
{قَالَ رَجُلَانِ}، من قوم النبي موسى(ع)، {مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ}، وسياق الكلام عن الذين يشعرون بالضرر الأكيد من العقوبة الإلهية إن لم يطيعوا أمره تعالى بالدخول إلى القرية لقتال أهلها، وهما رجلان: {أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا}، وسترى أنه تعالى أعطاهما نعمة الإيمان والطاعة له سبحانه ولرسوله(ع)، فقالا:

{ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ}، فاهجموا عليهم مباشرة وهم في قريتهم، {فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ}، فاجتزتم باب القرية وصرتم داخلها، {فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ}، فسيتحقّق لكم النصر.

هُمَا شخصان مؤمنان حقيقيان، دَرَسَا الوضع العسكري جيدا، وَانْتَبَهَا لنقطة الضعف عند العدو، لأنّ القرية من الداخل غير مجهّزة للدفاع، فإن دخلوا عليهم فجأة من الباب الرئيسي، فإن العدو سيكون ضعيفا جدا لأنه مشتت وغير مُتَهَيِّئ للقتال، ومحصور في القرية، فسيخسر...

{وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا}، فاعتمدوا أنه تعالى سييسّر أموركم كما يجب فسينصركم، {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، إن كنتم حقا معتقدين به أنه ربكم القادر القوي المعتني بكم.

هنا ستسأل: من هما هذان الشابان؟ ولكن انتبه، حيث إنّ اسمهما غير مهم، ولكن المهم أننا عرفنا أن كلام قوم النبي موسى(ع) لم يكن صحيحا، قالوا إنّه من الصعب بل من المستحيل الانتصار على هؤلاء الجبارين، أما هذان الشابان بَيَّنَا أن النصر ممكن وبسهولة عبر المباغتة ومفاجأة العدو في داخل القرية.

من الروايات التي ترجع إلى التوراة نسمع أن الشخصين كانا شابين، أحدهما يوشع بن نون الذي فيما بعد صار وصيا للنبي موسى(ع)، والآخر اختلفوا في اسمه والأكثرية يقولون إنّ اسمه كالب.

نلاحظ طريقة تعبير الآية عندما توقفت عند يخافان، وقطعت الكلام وأقحمت جملة أنعم الله عليهما، حيث بعد قليل سترى الآية تؤكد استحقاقهما للمدح لأن من حولهم في حينها لم يعلموا قيمتهما، حتى النبي موسى(ع) كما سترى في الآية بعد التالية، فإنه لم يشمل هَذَيْنِ الشابين معه ومع أخيه لأنه لم يقدّر فعلا ما قاله الشابان، ولذلك مدحتهما الآية هنا.

في التراث التاريخي اليهودي ستجد أن كل من كان من بني إِسْرَائِيلَ قادرا على القتال في وقت هذه الحادثة، مات خلال الأربعين سنة في التيه ولم يدخل القرية، إلا هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ فَقَدْ بَقِيَا حَيَّيْنِ وبعد انتهاء عقاب التيه في الصحراء دخلا القرية مع جيل جديد من المؤمنين، وهذا يمكن أن تستوحيه بسهولة من جعلهم يتيهون أربعين سنة كما سيرد بعد آيتين، لأنّها مدة حصل فيها موت لكل من كان قادرا على القتال ورفض.

بقي شيء، ما معنى قبول غالبية المفسرين لروايات وصفت أهل القرية بالعماليق لدرجة وصول طولهم كلهم أو بعضهم للمئة متر، وما معنى هذا مع ما اقترحه اللذان أنعم الله تعالى عَلَيْهِمَا بدخول القرية بغتة للمفاجأة وتحقيق النصر! وأي سلاح في حينها متاح لقتل شخص طوله مئة متر! وأي مفاجأة للدخول من الباب لأشخاص أطول من برج المراقبة!

لو أطلت عليك فمن بديهيات المعارف، ومن كثير ما وصفنا به القرآن كبشر، ومن الدراسات العديدة تعلم أننا نتأثر بالعادة، حيث يَتَأَثَّرُ فكرنا ونفسيتنا بكثرة تكرار ما نفعله فنعتاد عليه، ويصير مطبوعا فينا، وهنا كلامي عن تمرير السخافات والهذيان من هذا النوع من الكلام عن العماليق في ثقافتنا الدينية، والذي طبعنا على إغلاق قسم كبير من العقلانية لتتحكّم فينا الأفكار الصبيانية الْخَرِفَةِ، وللأسف تسمع من غير المتدينين تعليقات عقلانية على الكثير من تراثنا الهذياني، وفي خضم ذلك لا نميّز بين الخبر من الإله سبحانه عن فلق البحر لبني إسرائيل ورفع الجبل فوقهم... وهي أمور يجب أن نرفض تصديقها لولا أنها مدعومة بصدق كلامه تعالى في قرآن مشحون بالأدلة على كونه من مصدر إلهي، أمّا كلام الروايات فبماذا مدعوم حتى نصدّقه؟ لا تفهم أني أتّهم الرسول(ع) أو الصالحين من الصحابة بالكذب، لا، إنما أتهم الكذّابين المبالغين والذين لم يعوا خطورة الكلام... وَعَفَا تعالى عن الخرفين منهم، وَنَدْعُو لمغفرة ذنوب المؤمنين البسطاء... ونهاية الكلام هنا عن المصيبة التي لا نراها فينا من تأثير هذه السخافات علينا في تفسيرنا للقرآن، ما أسهل التعرّف على سخافة قصّة العماليق هنا، وما أصعبها في غيرها ونحن واقعون فيها ولا ندري.

حَصَلَ نقاش مع العديد من جماعات من المتدينين حول العماليق، وطول الأنبياء الأقدمين... وتمسّك الكثيرون برأيهم معتمدين فقط وفقط على روايات أقل ما يمكن أن نقول عن رواتها أنهم مصدر رئيسي للكثير من الخرافات، وفي عصرنا جاءهم دعم من أنجاس تلاعبوا بصور تمّت معالجتها على الكومبيوتر لِتَبْدُوَ فيها هياكل عظمية آدمية تناهز العشرين مترا طولا، وقالوا إنّها آثار حقيقية...!

هؤلاء نوعان لا ثالث لهما، هُمْ سخفاء تشرّبوا الهذيان من بعض الروايات ومن تقديسهم لها دعموها بأدلة كاذبة وهم يعلمون أنها كاذبة، والنوع الآخر هم منافقون فاسقون يعملون عن قصد لتهديم التديّن عبر تربيتنا على السخافات. وما بين السخفاء والمنافقين والفاسقين يوجد تدرجات من حسن النيّة التي أَعْمَى بصيرتها تراث مشحون بالهذيان... وصولا إلى عمل منظّم مقصود منه تسخيف فكرنا الديني.

على أي حال إنّ عُمُومَ الناس قديما في منطقتنا كان لديهم قناعة بوجود أناس ضخام الجثّة أكثر بكثير مما هو معقول، وتجد في التوراة والتلمود والتراث الديني للمسيحيين، والتراث الصيني والهندي... تجد كلاما مشابها عن عمالقة من البشر يفوق طولهم الْخَمْسِينَ مترا... وهي خرافات أكدّت بعضها عند من يراها تأتي من مصادر مختلفة ليس بينها تواصل حتى نقول بتواطئهم على الكذب! وكأنها صحيحة بسبب انتشارها بين الناس! وما يقولونه عن قبور طويلة لبعض الأشخاص، كقبر النبي شيث(ع) الموجود في لبنان، أخبركم بأن المقبرة كان فيها العديد من شواهد القبور

المتناثرة وعندما قرر أحد ما من العثمانيين أو الفاطميين أو... والترديد بسبب وجود كتابات قديمة من جهات متعددة وغير واضحة التواريخ عن بناء وتجديد بناء القبر ليصير مسجدا ومقاما، على كلّ حال، عِنْدَمَا قرروا تمييز قبر النبي شيث(ع) عن بقية القبور، ليكون في وسط غرفة سيبنوها على القبر، احتاروا في مكان قبره (ع) بسبب البعثرة في شواهد القبور، وَعَمِلُوا على اختيار شاهدين بعيدين عن بعضهم ويظنون بأن النبي شيث(ع) مدفون بينهما، وهكذا صار القبر بقرابة الْعَشَرَةِ أمتار طولا.

(قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ{24})
{قَالُوا}، قال القوم ردا على اقتراح الشابين:

{يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا}، مَهْمَا انتظرتنا ومهما مرّ من زمن فلن ندخل إلى القرية، {مَا دَامُوا} "أهل القرية الْجَبَّارُونَ" {فِيهَا}، في القرية، لِذَا لَا تحلم بأن نذهب ونقاتل مهما اقترحت علينا من خطط، ولا تحلم بأننا فيما بعد نُغَيِّرُ رأينا ونطيعك، لا، وَلَا تفكّر بالموضوع.

{فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا}، قُمْ أنت والمسؤول عنك من مستوى إلهي بالدخول في معركة إنهاء حياة أهل القرية حتى يستسلموا، أمّا نحن، {إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}، فَلَنْ نتحرك من مكاننا.

كما ترى، سوء الأدب عليه تعالى وعلى رسوله هنا فجّا صريحا، وموجود عند الكثير من الناس التي تنسى أنها هي العبيد وتحت التكليف الإلهي وليس العكس، حيث تسمع بعض الناس يطالبونه تعالى بالتدخّل في الحروب لإنقاذ الأبرياء، بينما هم المكلفون بهذا الشيء منه تعالى، مكلفون بالتحرك والجهاد للدفاع عن الأبرياء.

(قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ{25})
النبي موسى(ع) وصله أمر منه تعالى بقيادة قومه للهجوم على القرية، ولكنهم وكما ترى رفضوا، ولم يعد يستطع تنفيذ أمره سبحانه، فقال النبي موسى(ع):

{رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي}، فعندما تأمرنا بالقيام بأي شيء، فأنا كما ترى لا يمكنني أن أضمن لك الطاعة إلا مني ومن أخي هارون(ع)، أما بقية الناس فكما ترى، فهم لا يطيعونني.

{فَافْرُقْ}، اجعل في نظرتك فرقا، {بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ}، بين الناس الذين لهم كيان كجماعة متفاعلة "بشكل سيء" مع دينك، {الْفَاسِقِينَ}، الخارجين عن أوامرك الصريحة، فلا تشملنا معهم حين تغضب عليهم.

حتى الرجلان اللذان قالا إنهما سيقاتلان، فالنبي موسى(ع) لا يستطيع ضمانهما ليقاتلا، لأنه(ع) متأكد فقط من نفسه ومن أخيه النبي هارون(ع) أنهما بالتأكيد سينفذان أمره تعالى، ولذلك مدحت الآية قبل السابقة الشابين حتى تُنَبِّهَ أَنَّ النبي موسى(ع) لم يعلم أنهما مخلصان، وأنهما سيقاتلان فعلا.

(قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ{26})
الردّ الإلهي، قال الله تعالى:

{فَإِنَّهَا}، تلك القرية، {مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ}، ممنوعة على قومك، فسأحرمهم منها لمدة، {أَرْبَعِينَ سَنَةً}، {يَتِيهُونَ}، سيضيعون، {فِي الْأَرْضِ}، فيمشون ويمشون ولكن لن يصلوا إلى أي مكان يقصدونه.

{فَلَا تَأْسَ}، فلا تشعر بالأسى، بالشعور المزعج على عقابهم وكان يمكنهم تجنّبه والعيش بحياة أفضل، {عَلَى الْقَوْمِ}، على الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة بالرفض لأمره تعالى والكلام هنا عن بني إسرائيل، {الْفَاسِقِينَ}، المخالفين للأوامر الإلهية الواضحة.

لاحظ الآياتِ تتحدث عن قوم كان بينهم وبينه سبحانه ميثاق، حيث أعلنوا إيمانهم وطاعتهم، ولكن حين أمرهم سبحانه بالقتال الذي فيه مصلحتهم، عصوه تعالى! لذلك عاقبهم سبحانه بالتيه.

لاحظ أنهم كانوا "وما زالوا" يظنون أنهم شعب الله المختار، وأبناؤه المدللون وأحباؤه تعالى، ولكن كما يبدو هنا واضحا، هذا غير صحيح، لأنهم خالفوا أمره سبحانه فعاقبهم بالضياع لأربعين سنة في الصحراء، يمشون ويمشون ولكنهم لا يصلون إلى أي مكان، كأنهم يدورون ويرجعون إلى حيث كانوا.

ربما لا تعرف حياة البداوة، حيث يقوم الناس بنصب الخِيَمِ ليناموا فيها، ثم يقومون بجمعها والانطلاق باتجاه المكان الذي يقصدونه، فيمشون عادة من الصباح الباكر حتى مغيب الشمس، فيرتاحون ثم ينطلقون في اليوم الثاني... وهكذا حتى يتعبوا فيركّبوا خيامهم ويرتاحوا ليوم أو أكثر ثم ينطلقوا من جديد... فتصور أن تكون هذه حالتك لمدة أربعين سنة لا تصل فيها إلى أي مكان! وتمشي وتمشي لأيام ثم تجد نفسك ضائعا لم تصل إلى قرية أو مدينة ولم تصادف أحدا على الطريق...

لدينا روايات فيها أشياء كثيرة عن هذه القصة، ولكنها ترجع إلى النقل عن التوراة وعن التراث الشعبي لأهل الكتاب مع التلاعب والنسيان والخلط، ويسمي العلماء تلك الروايات: الإسرائيليات. ويقصدون بهذا التوصيف أنها روايات ليست من مصدر إسلامي "ليست عن النبي محمّد(ع)" بل منقولة من أناس كانوا يهوداً "ومسيحيين" وأسلموا... أو نقلها الجيل الأول والثاني من المسلمين من كتب اليهود "والمسيحيين" وتراثهم ولم يشيروا بكلامهم إلى أنهم ينقلون عن تلك المصادر.

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ{27})
تبدأ السورة بفقرة تريد منها الوصول إلى الحكمة من اعتبار التشريع الإلهي قتل النفس الواحدة كقتل لجميع الناس:

{وَاتْلُ}، واقرأ على الناس عن مستند وهو هذا القرآن، {نَبَأَ}، خبرا غير منتشر علمه بينهم، {نَبَأَ ابْنَيْ}، ولدي، {آدَمَ بِالْحَقِّ}، بالصواب، بطريقة ليس فيها تحريف أو تشويش، فقل قصتهم الحقيقية للناس عبر هذا القرآن لأنَّ ما هو متداول بين الناس عنهما فيه كلام غير صحيح.

بعد أن استقر آدم(ع) وزوجته في مكان ما غير الجنّة التي أكلا من شجرتها المحرّمة... أنجبا أولادا، ومن المشهور في التراث الديني أن أول ولدين كان اسمهما: "قابيل وهابيل". وتوجد ألفاظ مختلفة لهذين الاسمين في الروايات وفي تعريبات التوراة، "قايين وهايين، قابل وهابل..." وتذكّر دائما أن القرآن لم يذكر اسمهما.

الفقرة هنا هي قصة جرت مع هذين الرجلين:

{إِذْ}، حيث، {قَرَّبَا}، قدّما، {قُرْبَانًا}، شيئا ليتقربا به إلى الله تعالى، لسبب لم تذكره الآيات، قررا أن يُحَضِّرَ كل واحد منهما شيئا ليقدمه لله تعالى، ويقول الناس إنَّ أحدهما قدَّمَ حيوانا أليفا كالغنم والآخر قدّم منتوجات زراعية.

انتبه لأنَّ الآية افتتحت الكلام بأن القصة الحقيقية لما حصل بين ابني آدم(ع) هي كالتالي: ... مما يعني أن القصص التي يقولها الناس فيها أمور غير صحيحة، ونحن بالفضول سنتساءل عن سبب تقديمهما للقرابين، وبمراجعة التوراة وتراث أهل الكتاب سنجد أسبابا عديدة، وانتقلت تلك الأخبار ودخلت على شكل روايات لتصل إلينا ونظن أنها من مصدر إسلامي! وإذا دقّقت فيها فستجد أن القصة هنا فيها أشياء ناقصة عن قصصهم، لأنَّ كل ما ذكرته الآيات هنا ستجده في تلك الروايات مع إضافات في تلك الروايات، فإن كان القرآن يقول: هذه هي القصة الصحيحة... وحذف كل الإضافات الموجودة في التوراة وتراث أهل الكتاب، فماذا يعني هذا الكلام؟ هذا يعني أن الإضافات بالعموم غير صحيحة، فاتركها من فكرك يا عزيزي القارئ، وللفضول سنتحدث عنها بشكل مختصر بعد نهاية القصة والعبرة.

إذن قدّما القرابين، ومن قبول أو رفض القرابين يتبين من منهما إيمانه وسلوكه مقبول عنده سبحانه، ومن منهما عمل بجدّ حتى يكون خليفة لله تعالى على الأرض، فأبوهما آدم(ع) أوّل من تكلّف من البشر، فهو كان محور بداية القصة الدينية الإلهية، ويعلم (ع) أنه تعالى سيكون له من ذريته (ع) خلفاء مُمَثِّلينَ له تعالى، والولدان بالتأكيد سمعا القصة من أبيهما(ع)، وتقديم القرابين لا بد أنه نابع من شيء له علاقة بالتقوى التي ستؤكد لهما حسن سلوكهما أو سوئه، فهي حالة كان من الممكن فيها قبول كلا القربانين، ولكن لم يحصل هذا...

{فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا}، حيث حصلت إشارة إلهية بأنه تعالى قبل واحدا من القرابين ورفض الآخر. ونستنتج أن أحدهما كان مؤمنا حقيقيا وقبل تعالى قربانه، وأمّا الآخر فلم يكن مؤمنا حقيقيا لذلك تمّ رفض قربانه. وأيضا لا يهم معرفة كيف جرى تقديم القرابين وكيف علما بقبول أحدهما ورفض الآخر، بل المهم أن عملية تقديم القرابين ستكشف المؤمن الحقيقي والمزيّف كما سترى، وقيل إنَّ نارا من السماء نزلت وأحرقت واحدا من القرابين كإشارة على قبوله تعالى له، ولكنه كلام من الروايات وغير موجود في القرآن.

{قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ}. من الواضح أن الولد المرفوض قربانه غضب، وقال إنَّه سينهي حياة أخيه.

كما تلاحظ، الولد المؤمن لا علاقة له برفض قربان أخيه، لأنه سبحانه تقبّل القربان وأخوه ليس له أي علاقة بذلك فلم يتّفق معه تعالى على ألا يقبل قربان أخيه... وكما ترى فإنَّ من يقول إنَّه سيقتل أخاه، فمن الواضح أنه ليس مؤمنا حقيقيا، وهذا الإجرام كان كامنا في داخله ويعلم به تعالى، ولكن نفسيته الرديئة ظهرت وصارت مكشوفة حين قدّم قربانا ورفضه سبحانه...

هل سيقتله لأنه غار منه؟ أو انتقاما منه تعالى؟ أو ليزيحه عن طريقه حتى يكون خليفة لأبيه؟ فهذه احتمالات تتماشى مع عنوان القربان لله تعالى، أمّا ما قيل عن تنافسهما على الزواج من فتاة، فهو كلام طفولي ساذج وخرافات لا تتحمّل وصف القرابين لله تعالى لأجل هكذا مسألة، وأصلا مسألة الزواج تلك رواياتها مبنية على فكرة كون آدم(ع) وزوجته أوّل بشريين، وأنهما مع أولادهما فقط البشر في حينها... ومن هكذا كلام خمّن المنتمون لدينه تعالى سيناريوهات لتأمين زوجات لأولاد آدم(ع) فقال بعضهم إنهم تزوّجوا من أخواتهم، وآخرون قالوا من الجنيّات، وآخرون قالوا من الحور العين التي في الجنّة... كلُّه كلام تخميني مبني على افتراض أنه لم يكن معهم أحد غيرهم من البشر، وهذا غير صحيح.

لا أشجعك على الدخول في متاهة البحث عن حقيقة الخلاف، فهي متاهة لا نهاية لها، والقرآن لم يذكرها لأنها ليست من جوهر الموضوع، وأما ما تجده في المصادر الأخرى فلن تدري أي منها الصحيح، لأنَّ المهم هنا أن الولد أعلن أنه سيرتكب جريمة قتل أخيه.

قال الأخ الذي قبل الله تعالى قربانه: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}، من الذين يتجنبون غضبه وعقابه.

من الواضح أن أخاه لم يكن مؤمنا تقيا، وتصرفاته قبل تقديم القرابين لم تكن إيمانية، وكما ترى استسهل الإعلان بأنه سيقتل أخاه! والتقي يقول إنَّه لا علاقة له برفض قربان أخيه، فأنت يا أخي لو كنت تقيا لكان قربانك مقبولا، لماذا تجعل مشكلتك معي بينما مشكلتك مع نفسك!

(لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ{28})
نكمل مع كلام الأخ المؤمن:

{لَئِنْ}، إذا حصل، {وَبَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي}، فمددت يدك وهاجمتني بحجر أو عصا أو... لتنهي حياتي، {فَمَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ}، فأنا سأدافع عن نفسي ولكني لن أمدّ يدي لأقتلك، حتى لو بقيت تقول إنك ستحاول قتلي مرة ثانية وثالثة... فلن أقوم بأي عمل لإنهاء حياتك، {إِنِّي أَخَافُ}، فأشعر بضرر أكيد لا يمكن تجنُّبُهُ، {اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ}، من صاحب الاسم المحدد المميز الله المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس، فإن قتلتك فالضرر من العقاب الإلهي أكيد ولا يمكن تجنُّبُهُ.

انتبه وَلْيَبْقَ في ذهنك إلى نهاية الفقرة، أنه قال: رب العالمين "كل الناس"، والذي سيحاسبهم في الآخرة، فهذا يشير ضمنا إلى أناس من حوله غيرِ أخيه وأبويه.

انتبه، فهو لا يقول: إن هجمت عليّ فسأدعك تقتلني ولن أدافع عن نفسي. لا، بل يقول: لن أقتلك بل سأدافع عن نفسي، وإن ابتعدت عنك وما زلت تقول إنك ستقتلني، فإن سنحت لي الفرصة لقتلك فلن أقتلك بل سأدافع عن نفسي فقط.

(إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ{29})

{إِنِّي أُرِيدُ}، أقصد من امتناعي عن قتلك، {أَنْ تَبُوءَ}، أن تصير مكانتك، أنك تحصل على، {إِثْمِي}، لأنَّ قتلي عن قصد هو إثم، وهو عمل تعلم أنه سيئ، وتبوء {بِإِثْمِكَ}، بفعلك لقتلي وأنت تعلم أنه سيئ، {فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}، من الذين مع بعض في النار. {وَذَلِكَ} الدخول إلى النار هو، {جَزَاءُ الظَّالِمِينَ}، الذين لم يكونوا منصفين ولا عادلين ولم يكن معهم حق، كحالتك إذا قتلتني، حيث ليس معك حقٌّ بذلك بل ظلما تريد إنهاء حياتي لأني لم أفعل ما يجعلك مُحِقًّا في قتلي، والمقابل الذي تستحقه هذه النوعية من الناس هو النار التي في الآخرة.

لن أقتلك بالحيلة أو غدرا عن تخطيط حين تسنح لي الفرصة لأتخلّص من تهديدك لي بالقتل، لأنَّ هذا إثم لن أفعله، وإذا قتلتني أنت فستأخذ الإثم الذي كنت سأحصل عليه من قتلك، لأنَّ مجرد إعلانك عن نيتك لقتلي ليس عذرا لي لأقتلك.

إن قتلتني فستحصل على إثم قتلك لي وحتما ستدخل النار، فانتبه من ذلك.

كما ترى إنها حالة إعلان قتل أخيه عن غضب، ولم يحصل فعلا أي تنفيذ للقتل ولم يهجم... والأخ الآخر يردّ عليه بالكلام قائلا إنه لن يتصرّف بناء على هذا التهديد، وَلَنْ يحاول قتل أخيه...

(فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ{30})
كان التهديد بالقتل في البداية نابعاً عن الغضب في لحظتها، ولكن الفكرة بقيت تدور في رأسه حتى:

{فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ}، والكلام عن إطاعة نفسه الأمارة بالسوء بقتل أخيه، ولم يمنع نفسه من العمل على إنهاء حياة أخيه، بل سار وانقاد بحسب رغبته النفسية لقتله، بتعبيرنا الحالي: أقنع نفسه بقتل أخيه. وفيما بعد حادثة تقديم القرابين وتهديده لأخيه، مرّت مدّة من الزمن... {فَقَتَلَهُ}، حيث سنحت له فرصة وفعلا أنهى حياة أخيه.

بعد أن قتل أخاه، {فَأَصْبَحَ}، وهو أول ما صار من بعدها، {مِنَ الْخَاسِرِينَ}، من الذين فقدوا شيئا له أهمية كبيرة، لأنه قتل نفسا وفقد الرحمة الإلهية عليه، حيث ارتكب جريمة قتل ستجعله يدخل إلى جهنم.

بالنسبة للتعبير بأصبح فالكلمة في أصل اللغة مجعولة لتوصيف الصيرورة لأول حالة بعد حدث، مُشَابِهَةً بذلك الإصباح لأول ما يستقبلك من النهار من بعد الليل. فهي أوّل حالة من بعد حالة سابقة، وخذ مثلا حالة أم النبي موسى(ع) التي أصبح فؤادها فارغا كما ورد في الآية 10 من سورة القصص {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا}، لأنَّ الذهول بتوقّف وجمود فكرها ومشاعرها هو أول حالة أصابتها بعد إلقائه (ع) في النهر. وترى هذا المعنى بوضوح في الآية 103 من سورة آل عمران {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا}. لذلك كلمة أصبح ليست مخصّصة لزمن أول طلوع الشمس بل لعامّة أول حالة من بعد حدث ما، وهي ليست مقابل أمسى على معنى ربطها دائما في أي جملة بزمن أوّل النهار، وهي أيضا ليست مرادفة لكلمة صار.

(فَبَعَثَ اللّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ{31})
يبدو أنه بعد أن قتل أخاه انتبه أنه لم يكسب أي شيء! ولم يتغيّر أي شيء! سوى أنه خسر آخرته، وطبعا خسر أيضا أخاه الطيب... فها هو ملقى على الأرض ميّتا، فما الفائدة من قتله! ولماذا قتله أصلا!

وبينما هو على هذه الحالة:

{فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا}، وهو طير بحجم الحمامة ومشهور بذكائه، وهبط قريبا من الأخ القاتل، وأخذ الغراب، {يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ}، وينبش فيها مُبْعِدًا التراب، واستعمال العرب لكلمة بحث التي لم ترد في القرآن إلا هنا حيث إنها ليست لخصوص إيجاد شيء، لأنَّ البحث في الأرض وصف لإبعاد التراب وتشكيل حفرة ولو صغيرة جدا حتى لو لم تكن تَطْلُبُ شيئا منها، والكلام هنا وصف عمومي لغراب ينبش حفرة ليجد فيها شيئا طمره فيها سابقا، أو ينبش حفرة ليضع فيها شيئا، والغربان عَامَّةً مشهورة بطمرها للطعام تحت التراب لتستخرجه في وقت لاحق.

بعث سبحانه هذا الغراب، {لِيُرِيَهُ}، حتى يجعل عند القاتل صورة محدّدة عن، {كَيْفَ يُوَارِي}، كيفية مواراة تغطية وستر، {سَوْءَةَ أَخِيهِ}، لأنَّ السَّوْءَةَ هِيَ الشيء الذي لا تريد إظهاره، وعندما شاهد القاتل كيف يخفي الغراب طعاما في حفرة في الأرض حتى لا تأكله الحيوانات الأخرى، تنبّه أنَّ أخاه إن بقي على وجه الأرض فستأكله الحيوانات.

{قَالَ}، القاتل: {يَا وَيْلَتَا}، يا للشيء العظيم الذي أصابني، {أَعَجَزْتُ}، حيث لم أقدر، {أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ}، {فَأُوَارِيَ}، أُغَطِّيَ وَأَسْتُرَ، {سَوْءَةَ أَخِي}! جثة أخي التي يَسُوءُنِي أن تأكلها الوحوش... هل وصلت إلى هذه المرحلة العظيمة من القسوة حتى تركت أخي على وجه الأرض ولم أدفنه وهذا الغراب الحيوان البهيم لديه فكر أكثر مني!

بالنسبة لرسم كلمة "ويلتا" بالألف فراجع دراسة الآية 56 من سورة الزمر.

{فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}، حيث إنَّ أول شعور كان الندم، كان الشعور بالمضايقة لأنه قام بعمل سيئ، وشعر بخطئه لأنه قتله، وتمنى لو أنه لم يقتله.

تَصَوَّرْ حاله وهو يحفر ليدفن أخاه الذي لم يفعل له أي شيء، أخاه الطيب التقي، الذي قال له لن أقتلك لمجرد أنك هَدَّدْتَنِي بالقتل وإنما سأدافع عن نفسي... وأثناء الحفر ورميه في الحفرة ندم على قتله.

تلاحظ أنَّهُ سبحانه أراد أن يتم دفن جثة المقتول، ولم يرد بقاءها على وجه الأرض، ولذلك بعث غرابا ليلفت انتباه القاتل للدفن...

بقي شيء، ففي تراثنا التاريخي الديني أن الأخوين وأبويهما كَانُوا الوحيدين على الأرض ولا بشر مَعَهُمْ، وتبيّن من معطياتنا الحديثة أن هذا الموروث انبنى على معطيات قديمة بدت منطقية وكتفسير إجباري لتفسير كلامه تعالى عنهم... وبمعطياتنا الحديثة صرنا نرى بسهولة أن كلامه تعالى لا يشير إلا إلى كون آدم(ع) أَوَّلَ من تأهّل من البشر لِيَتَكَلَّفَ بدينه تعالى، وراجع عن ذلك ما ورد في الآية 30 من سورة البقرة "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ...". وما أريد الإشارة إِلَيْهِ هنا هو مسألة دفن الميّت، حيث من دراسة تاريخ البشر رأوا أن دفن الموتى عادة غير منتشرة في عالم الحيوان، وفي فترة من تاريخ الإنسان القديم بدأ بدفن الموتى، وهنا الكلام عن جهل الأخ لطريقة دفن الميّت يوحي بِأَنَّهُ لم يعايش هذه العادة من قبل، أو أنه هو لم ير ذلك من قبل، وإن صدق هذا التحليل عندها يمكن الاستعانة به لتحديد حقبة الزمن التي كان فيها آدم(ع)، والموضوع شائك ولكن قد يتمكن أحد ما من جمع نثرات المعطيات الموثوقة من هنا وهناك لتحديد بعدنا الزمني عن آدم(ع).

انْتَهَتِ القصة المؤثّرة التي قتل فيها الأخ أخاه ظلما بلا وجه حق، وانتهت حياة القتيل وصار تحت الأرض والآن جاءت العبرة من القصة:

(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ{32})
{مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ}، الذي ذكرناه من هذه القصّة، لهذا السبب، {كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ}، حكمنا لهم في التوراة {أَنَّهُ}:

{مَنْ قَتَلَ نَفْسًا}، من قام بإنهاء حياة إنسان، {بِغَيْرِ نَفْسٍ}، من دون أن يكون القتل مقابل قتل نفس، من دون أن يكون القتل عقابا له لأنه قتل نفسا بريئة، {أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ}، حيث إنَّ قتله لم يكن بسبب إفساده في الأرض، ولم يكن من الذين يخرّبون حياة الناس ومعيشتهم بفساد كبير، مثل المدّعين للنبوة، والحكّام الظالمين...

إذن، القاتل لنفس بريئة، أو المفسد في الأرض من العيار الثقيل، يحق لنا قتله، ولكن من قتل شخصا بريئا لم يرتكب جريمة القتل أو الإفساد في الأرض:

{فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا}، فكأنه أنهى حياة كل الناس، كما ترى من قصة الأخوين ابني آدم(ع) أنهما كانا في بداية البشرية، ولو بقي الأخ حيا، لكان أولاده اليوم على الأقل بالملايين، لأنَّ قتله أدّى إلى إنهاء وجود الملايين من نسله، لذلك حكم سبحانه في الشريعة التي نزلت على بني إسرائيل أنه تعالى يرى جريمة قتل شخص واحد بريء مساوية لقتل كل البشرية.

{وَمَنْ أَحْيَاهَا}، من ساعد شخصا "نفسا" على أن تكون حيّة، ساعدها ماليا أو صحيا أو أنقذها من الغرق أو الحريق... {فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}، حيث فِي النظرة الإلهية، يكون أحيا المليارات من البشر.

عندما تقول الآيات إنَّ العقاب على القتل هو الخلود في جهنم بعذاب شديد دائم، من الآية هنا نفهم، أن الجريمة الواحدة مساوية لقتل المليارات من البشر، ضع ذلك في بالك كنموذج عن التبريرات لأحكامه تعالى التي تقصّد سبحانه بيانها مع تبريراتها حتى نفهم معنى أحكامه، ولا يكون تديننا بالتزامنا بكلامه تعالى بَبْغَائِيًّا سَاذَجًا، أو ننكره لأننا لم نفهم تبريراته.

{وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ}، لبني إسرائيل، {رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ}، بالأمور الواضحة، حيث إنَّ هذه القصة وغيرها من القصص شرحها الرسل بوضوح لبني إسرائيل: لأبناء أبناء... النبي يعقوب(ع)، ورغم ذلك التوضيح، قام الكثيرون منهم بقتل أناس أبرياء.

هنا يقول لنا القرآن نفس الكلام بشكل واضح: لا عذر مقبول في قتل إنسان بريء.

{ثُمَّ} بعد {ذَلِكَ}، بعد هذا التوضيح كله، {إِنَّ كَثِيرًا}، من بني إسرائيل، {فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ}، يبالغون في تصرفاتهم في الأرض، في مواردها البشرية والمالية... لا يقفون عند الحدّ المعقول المسموح، بل يتجاوزونه، والإسراف الذي تقصده الآية هو الإسراف في التصرّف عبر قتل الأبرياء، لأن حياة الناس ليست لعبة، ويحق لنا قتل المجرمين القتلة المفسدين فقط، وأما قتل غيرهم فيكون إسرافا، مبالغة وفوق ما هو مسموح، ومثله الإسراف في المال بسحبه من الناس بالربا... ومثله الإسراف بالسلطة لتسبيب الحروب وتنزيل أسعار العقارات لشرائها بسعر بخس... وتسويق السلاح لتأجيج النزاعات والحروب...

نتذكّر أن محورية السورة حول الميثاق معه تعالى، وحرمة قتل النفس البريئة هي أيضا من المواثيق المهمة.

هكذا انتهت القصة والعبرة، لنتحدث بشكل مختصر عن بعض ما قالوه زيادة عن الذي ذكره القرآن بموضوع القاتل والمقتول من ابني آدم(ع)، ونتذكر أن الآيات قالت إنَّ القصة الحقيقية هي كما يلي:... لنستنتج منها أن الروايات المنتشرة بين الناس فيها إضافات غير صحيحة، ولا يمكننا أن نعرف إن كان يوجد فيها شيء صحيح، إلا ما يوافق القرآن، وأسخف تفسير ما قاله البعض ومن دون أي مستند ولا دليل ولا إشارة في الآيات له، أن آدم(ع) المذكور في القصة هو شخص من بني إسرائيل!

وقيل أيضا، إنَّ الأخوين كان لهما أختان، واحدة جميلة والأخرى قبيحة، والولدان قدما قربانا له تعالى، ووضعاه على الأرض، حيث نزلت نار من السماء أحرقت واحداً من القرابين، مما يعني أن الذي أكلت النار قربانه سيتزوج بالفتاة الجميلة!

تجعلك الروايات تطيش وتذهل من شدة اختلافها حول مسألة زواج الولدين من أختيهما، حيث يقول البعض إنَّهُ كان حلالا مؤقتا لأنه لم يكن يوجد نساء غيرهن على الأرض، على أساس أن آدم(ع) وزوجته أول البشرية ولم يكن يوجد غيرهم، وقال آخرون إنَّهُ تعالى أنزل حوريات من الجنة ليتزوج بهن أولاد آدم(ع)، وقال آخرون إنَّ الزوجات كنّ من الجنّ... كل هذه الأقوال هي تحليلات أو اختراعات لم يؤكدها ولم ينفها القرآن. وكما ترى كل الاحتمالات في بالهم حين اخترعوا قصصهم أن آدم(ع) هو الإنسان الأول، ولم يخطر ببالهم أنه أوّل بشري من بين بقية البشر الذي تأهّل ليتكلّف بدينه تعالى، وهم بشكل ما معذورون لأن المعطيات المتوافرة حينها لم تشر إلّا إلى احتمال أنه أول بشري، لذلك سمحوا لأنفسهم باختراع قصة الزواج من الأخت لأنهم لم يخطر ببالهم حل آخر، والذين لم يستحسنوا فكرة زواج أولاد آدم(ع) من أخواتهم لم يجدوا حلا منطقيا غير الزواج من حوريات أو جنيات!

قيل وقيل... حتى وصل التناقض بين تلك الروايات إلى أشياء خرافية لا مستند لها... نصحتك من قبل ولا أزال أنصحك بترك الجري وراء غير ما قاله القرآن، حيث لا فائدة منه سوى الجدل والآراء التي لن تزيدك استفادة، لأنه ذكر لك القرآن ما تحتاجه لتفهم الحكم الإلهي الشديد على القاتل، بناء عليه لِيَكُنْ توسعك بالاطلاع على ما قيل من خارج القرآن من باب الفضول وأن تضعه تحت المجهر، ولا تقدسه، لأنَّ قراءة ما قالوه لدراسته، لَهَا أهمية كبحث في التراث الديني الشعبي، ولا أهمية لَهَا في دراسة دينه تعالى، لأن ما في القرآن يكفيك.

(إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ{33})
تعقيبا على إعطاء الحقّ بقتل من قتل نفسا، أو أفسد في الأرض:

{إِنَّمَا جَزَاءُ}، المقابل المساوي على أفعال، {الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، فيقومون بأعمال حربية كتنفيذ للعداوة ضد الدين الإلهي حتى لا تطيع الناس ربها سبحانه ورسوله(ع)، من ترهيب ودعاية معادية واغتيال وقتل وتعذيب...
{وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ}، فيتحركون وهم يقصدون في الأرض، {فَسَادًا}، فيقصدون خرابها من تَحَرُّكِهِمْ وأفعالهم وأقوالهم، لأنهم يتصرفون فيها بعكس أوامره تعالى الذي لا يأمر إلا بما هو صالح وهم يفعلون السوء، فجزاؤهم:

{أَنْ يُقَتَّلُوا}، أن يتم إنهاء حياتهم بالضرب بآلة قاتلة. {أَوْ يُصَلَّبُوا}، فيتم ربطهم على عَمُودٍ أو شجرة وَيُتْرَكُونَ حتى يموتوا مربوطين. {أَوْ تُقْطَعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ}، فيتم قطع اليد الْيُمْنَى من الكتف والرجل الْيُسْرَى من تحت الورك، أو بالعكس فيتم قطع اليد الْيُسْرَى والرجل الْيُمْنَى، فبخلاف الجهة يتم القطع، يد يُمْنَى خلاف الرجل الْيُسْرَى، أو يد يُسْرَى خلاف الرجل الْيُمْنَى.

{أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ}، فيتم نفيهم وَإِبْعَادُهُمْ عن وطنهم إلى مكان لا يعرفون فيه أحدا، وليس لهم فيه أتباع، فلا يَعُودُ بإمكانهم الْإِفْسَادُ في الأرض.

{ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا}، القتل أو الصلب أو القطع أو النفي هو إهانة في الدنيا للمفسدين بسبب قبيح ما فعلوه، {وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}، ففي الحياة التي ستأتي في الْآخِرَةِ بعد انتهاء الدنيا سيكون لهم ضرر أعظم بكثير من عذاب الدنيا، حيث هُنَاكَ ألم قوي مستمر لا ينقطع ولا يخفّ.

(إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{34})
{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا}، ففتحوا صفحة جديدة عبر إقلاعهم عن أعمالهم السابقة، {مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ}، من قبل أن تستطيعوا الإمساك بهم ويقعوا في أيديكم، عِنْدَمَا أمسكتموهم كَانَ سَبَقَ لهم أن توقفوا عن الفساد، فهؤلاء لا يحق لكم إنزال العقاب بهم.

نستنتج أن من يتم إلقاء القبض عليه وهو لا يزال محارباً مفسداً، فيجب أن ينال العقاب، ولا نقبل توبته بعد وقوعه في أيدينا.

عندما تلتقطون شخصا تائبا، {فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ}، حَيْثُ يَغْفِرُ وَيُسَامِحُ من طلب منه المسامحة، ولا يجمد سبحانه على موقف واحد ولا يتراجع عنه سبحانه، فإن تاب المفسد فسبحانه يقبل توبته، والله، {رَحِيمٌ}، حَيْثُ لديه عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، لِأَنَّ المغفرة وتكفير الذنوب ومضاعفة الحسنات والشفاعة... كلّها أمور مخصّصة للمؤمنين أما غيرهم فلا ينالون منها ولا أيَّ شيء، وهنا الكلام عن مفسد تاب وصار مؤمنا، وَشَمِلَتْهُ العناية الإلهية الخاصّة، لِيَغْفِرَ تعالى له، وتأمرنا الآية بتركه وَأَلَّا نحاسبه كما تتم محاسبة المفسدين، لِأَنَّهُ تاب وآمن حين كان بإمكانه الاستمرار بفساده وقبل أن يقع تحت سلطة المؤمنين...

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ{35})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{اتَّقُوا اللَّهَ}، فتجنبوا غضبه وعقابه، واتركوا ما أمركم بتركه، وافعلوا ما أمركم بفعله، فلا معنى لإعلانكم الإيمان وفي نفس الوقت أنتم لا تتقونه تعالى.

{وَابْتَغُوا}، واطلبوا وارغبوا، {إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ}، فابحثوا عن الوسائل عن الطرق التي تجعل علاقتكم أفضل معه سبحانه، من الجدّ والاجتهاد في التفقّه بالدين والتفكّر والعبادة وأعمال الخير...

{وَجَاهِدُوا}، فابذلوا جهدكم وقوموا بالعمل الشاق الصعب حتى النهاية، وقدموا أنفسكم وأموالكم، {فِي سَبِيلِهِ}، في مسلك يرضى عنه سبحانه، فلا تعتدوا ولا تبغوا...

{لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، فإن اتقيتم وجاهدتم فمن المتوقع ومن المفروض أن تكونوا من الذين قاموا بعمل فالِحٍ، فأجادوا فيما عملوا لأنهم عملوا الصحيح.

نلاحظ أن كلمة "جهاد" معناها العام هو القيام بالعمل الذي نوعيته شاقة متعبة حتى تحقيق الهدف، وعندما أمر القرآن المؤمنين بالجهاد غالبا كان سياق الكلام عن بذل النفس والمال لأجل الحرب، وهذا لا يعني جعلها مصطلحا قرآنيا مخصصا للحرب والقتال، لأنَّ هناك آيات استعملت كلمة جهاد ولم تقصد حصرها للقتال كما ترى من الآية 6 من سورة العنكبوت "{وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}"، فإن لم يكن سياق الكلام يشير لقتال فالمعنى لكلمة جهاد يكون عامّا شاملا للقتال وغيره من الاجتهادات.

بالنسبة للتعبير بـ "العلّ" في القرآن بشكل عام، مثل التعبير هنا {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، فالفلاح هو توصيفه تعالى لأعمالهم بأنها فالِحَةٌ جيّدة صحيحة ناجحة، ومثله تعبير: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}. ليست المشكلة ثبات الوصف من ناحيته تعالى، بل المشكلة هي ثباتنا نحن على الوصف، فإذا اتقيناه تعالى واستمررنا على التقوى، وابتغينا إليه سبحانه الوسيلة واستمررنا عليها، وجاهدنا واستمررنا، فحتما نحن فالحون، ولكن لو توقّف كل ذلك بعد فترة فهل يستمر وصفنا بالفلاح؟ لا، وهكذا تفهم التعبير بـ "لَعَلَّ" الذي يعني: من المفروض ومن المتوقّع أن تفلحوا. مثل قولك: ادرس لعلك تنجح. فإذا لم تدرس فليس من المتوقّع ولا من المفروض أن تنجح، وإذا درست بالشكل المطلوب وكنت فاهما لدروسك فمن المفروض والمتوقّع أن تنجح. فسبحانه جاهز دائما لإثابة التقي كتطبيق عملي لفلاحه بنتيجة الخلود في جنّة خالدة، ولكن هل سيبقى التقي تقيا ولا يقوم بعمل يدمّر فلاحه؟ هنا يأتي التعبير بـ "لَعَلَّ" الناظر إلى ما يمكننا نحن فعله لِيَصِيرَ الْفَلَاحُ غَيْرَ مَحْسُومٍ لَنَا.

بقي شيء، في بعض ثقافتنا الدينية تجد من يقول عن الوسيلة هنا إنها أشخاص يجب التقرّب منهم فيكونون وسيلة لك إليه تعالى، وهذا معنى يرفضه القرآن بل ويحاربه، ويأمرنا من أوّله إلى آخره أن نعمل على التقرّب منه تعالى لوحده، مع التأكيد على حبّ وولاية المؤمنين، ولكنهم ليسوا وسيلة إليه تعالى على معنى كون التقرّب منهم شرطاً للتقرب منه تعالى.

لا من ظاهر القرآن ولا من وحيه يمكن أن تفهم منه ما يقولونه عن التقرّب إليه تعالى عبر أشخاص، بل من الواضح جدا جدا تنبيهه تعالى وتحذيره وإنذاره من هذه السلوكيات.

هل هذا يعني أن زيارة قبور الصالحين ممنوعة؟ لا، فزيارة القبور مستحبة وهناك أدعية مأثورة واستحباب لقراءة القرآن عند القبور... والممنوع اتخاذهم أربابا، أو شرطا كأبواب وممرات إجبارية للوصول إليه تعالى، أو التوجّه إليهم بأي شكل من أشكال الدعاء الذي حصره القرآن بالتوجّه إليه تعالى... من شفاء وطلب للرزق...

تلاحظ أشهر الأدعية الْمَوْثُوقِ صُدُورُهَا عن النبي (ع) كالجوشن، وعن العليين ابن أبي طالب وحفيده السجّاد، بالدعاء المسمّى باسم ناقله كميل، وبصحيفة أدعية تسمى بالسجادية، تلاحظ أنها بعيدة كل البعد عمّا تراكم من ثقافة الكثير من المؤمنين من التعامل مع الصالحين بالتقديس كوسائل إليه تعالى لدرجة لا ترى فيها فرقا عن ممارسات المسيحيين مع قِدّيسِيهِمْ... ولبعض المسلمين قِدّيسُونَ من الصوفيين والعرفاء والدراويش... ولديهم ثقافة من الأدعية والحركات والأفعال... التي ليست مشهورة كدين سلوكيات للأنبياء، فالقليل النادر مما يفعلونه قد تجد له مصدرا ما ينسبه لنبي ما، ولكن تلك السلوكيات كما جمعوها لتصير مذهبا، فلن تجد نبيا فعلها والتزم بها كما يفعلون هم!

هكذا تلتفت للفرق بين موروثك الثقافي الديني وبين القرآن، وتلتفت لمصيبة التفسير بغير الظاهر البسيط من الكلام والذي يجعل أي جملة تشير لأي معنى تريده، مدّعيا أنك تأوّل أو تفسّر بالباطن... فما معنى تلك التفاسير إن لم ترد صراحة في قرابة الستة آلاف آية! وما يقولونه عن أمثال دراستنا هذه إنها قشرية وبسيطة وبعيدة عن المعنى الحقيقي للقرآن لأنها لا تفسّر بالباطن الذي لا يستطيع رؤيته إلا العلماء المؤمنون من الدرجة العالية، فحسبنا الله فيهم بما فعلوه من تحريف للقرآن عبر تضييعهم لمعانيه وتفريقهم بين المسلمين بتفاسيرهم المذهبية...

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{36})

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، إنَّ الذين أنكروا هذا الدين ولم يعلنوا أنهم معتقدون به، {لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}، لو أنهم يملكون كل ما في الأرض من بشر وحيوانات وأملاك وَأَرَاضٍ ونفط ومعادن... {وَمِثْلَهُ مَعَهُ}، وَيَمْلِكُونَ مع هذا مقدارا آخر إضافيا مماثلا، فيكون ملكهم يساوي ملك الأرض مرتين، {لِيَفْتَدُوا بِهِ}، ليقدموا هذا الملك الكبير كله بدلا عنهم لينقذهم، {مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، من التعرّض لما يؤذيهم في الزمن الذي يقومون فيه من الموت.

لاحظ، فرضا لو أنه يملك كل هذا، فسيقدمه ويقول: خذوه ولا تعذبوني. لاحظ أن الآية تتحدث عن أول استقبال للكفار في يوم القيامة، لأنهم لم يدخلوا إلى النار بعد، وَلم يتحملوا الأهوال العظيمة ليوم القيامة الذي هو لا شيء أمام عذاب جهنم! على كل حال، لو فرضا كان الكافر يملك كل ما في الأرض و... وَقَدَّمَهُ ليفتدي به... {مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ}، لن يقبله تعالى منهم، فلا مجال لقبول الفدية بدل التعذيب، {وَلَهُمْ}، للكافرين، {عَذَابٌ أَلِيمٌ}، حيثُ حتما سيتعرضون لشيء سَيِّئٍ يسبب لهم الشعور بالألم.

هنا في الدنيا لدينا تشريعات يمكننا فيها تقديم فدية لنفتدي بها من عواقب شيء ما، حيث ندفع مبلغا من المال حتى لا يعد علينا حق، مثلما يدفع القاتل فدية المقتول، أو الأسير يدفع مالا لفكّ أسره، أو كبير السن الذي يستصعب الصوم يَدْفَعُ فدية، أو المرأة التي تدفع لزوجها حتى تتخلص من الزواج... ونجد في تشريعات أخرى أنواعا أخرى من الفدية... يعني بما أن فكرة الفدية موجودة هنا ضمن حياتنا، فَيُفَكِّرُ الكفار أنها أيضا موجودة في الآخرة، لِذَلِكَ تقول له الآية أولا: لا يمكن أن تفتدي من العذاب في الآخرة. والأهم من ذلك تريد الآية أن تقول: لو كنت تملك الأرض كلها وما عليها، بل وكنت تملك كمية مضاعفة لما على الأرض، وَقَدَّمْتَهُمَا في يوم الحساب حتى لا تتعذب، فرضا لو كان معك هكذا ملك ضخم فلن يقبله تعالى منك كفدية.

لَوْ أطلت عليك، فأصلا لا أحد يملك أي شيء في يوم القيامة إلا ما عمله من حسنات أو سيئات ولا يملك أي شيء آخر، والآية هنا وأشباهها التي وردت في القرآن، تريد تنبيهنا جميعا من الآن أن أي فكرة عن الافتداء من العذاب بالمال والأملاك، فانفوها وارموها من رأسكم، فرضا لو وصل ملك شخص ما إِلَى أَنْ يملك كوكبا وما عليه، فهذا لن ينفعه كَفِدْيَةٍ عنه من العذاب في يوم القيامة.

(يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ{37})
{يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ}، ولو بأي طريقة، ومستعدون لفعل أي شيء، ويحاولون الخروج في كل لحظة، ولا يتحملون أَبَدًا البقاء فيها، ولا يغيب عن بالهم ولو للحظة أنهم يتألمون ومنزعجون... ولكن:

{وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا}، فإلى أين سيذهبون؟ للتقريب تَصَوَّرْهُمْ أن يكونوا على كوكب مشتعل كله! أين سيهربون!

{وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ}، ضرر يقيم معهم لا يفارقهم. بعبارة أبسط: يسكن معهم، ملازم لهم فلا ينقطع ولا يفارقهم ولو للحظة.

(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{38})
تعقيبا على المفسدين الكافرين، هناك مفسدون ليسوا من الكافرين بدينه تعالى، وهم مخلّون بالميثاق الإلهي:

{وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ}، هم الآخذون لأغراض الناس وأموالهم خلسة وبالخفاء عنهم ومن دون أن يسمح لهم الناس، {فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا}، فالسارق اقطعوا يده والسارقة اقطعوا يدها، {جَزَاءً}، مُقَابِلًا مُعَادِلًا، {بِمَا كَسَبَا}، بسبب ما حصلا عليه من نتاج عَمَلِهِمَا، حيثُ نتج عن عَمَلِهِمَا جريمة السرقة، وجريمة السرقة أكسبتهما قطع اليد.

وقطع اليد، {نَكَالًا مِنَ اللَّهِ}، عِقَابًا ظَاهِرًا لأنَّ مَنْ يرى يدهم مقطوعة يعلم أنهم سرقوا وَجُوزُوا بقطع اليد، وَسَيَخَافُ من العقاب على السرقة، لأنه عقاب يظهر للناس أنه بسبب السرقة حتى يخافوا منه أَلَّا يصيبهم وبالتالي لا يَسْرِقُونَ.

{وَاللَّهُ عَزِيزٌ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... لأنه فوق الجميع، وتقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... وَمَنْ يملك هذه العزّة المطلقة، فإنه يحكم بقطع اليد ويجب علينا التنفيذ.

{حَكِيمٌ}، لأنَّ قراره تعالى بقطع يد السارق ليس عبثيا بل عن صوابية في رؤية الأمور، حيثُ مِنْ حكمته تعالى أن ترى الناس يد السارق مقطوعة حتى يخافوا من عقاب السرقة وبالتالي لا يَسْرِقُونَ.

لاحظ أَنَّنَا لم نبتعد عن موضوع السورة بل نحن في عمق محورها، لأنَّ السورة تنبّه المؤمنين من خيانة الميثاق الإلهي، وفهمنا أن الكفّار أخرجوا أنفسهم من الميثاق الإلهي، ولكن هذا لا يعني أنهم لا علاقة لهم بالدين ولن يُحَاسَبُوا عليه، ولا يعني أنهم لا علاقة لهم بالآخرة فلن يتعذّبوا فيها لأنهم لم يُمْضُوا ميثاق الإيمان، بل حالتهم سيئة جدا لدرجة أن دخولهم إلى جهنم محسوم. تحدثت الآيات عنهم بأنهم مفسدون... ولكن هناك مفسدون من الذين يقولون إنهم مؤمنون! كالمسلم السارق، فهذا يجب أن تعاقبوه في الدنيا بشكل واضح تراه الناس.

تطبيق حدّ قطع اليد على السارق له شروط، أولها أَلّا يكون فقيرا جائعا، لأنَّ كل المجتمع سَيُحَاسَبُ عنده تعالى إن كان فيهم شخص فقير جائع، حيث كلّهم يجب عليهم مساعدته وهذا ما تفهمه من التهديد المتكرّر في القرآن للذين لا ينفقون... ومن الشروط أَلّا يسامحه مالك الغرض المسروق وأن يدّعي عليه... وأن يكون للسرقة قيمة لا تقل عن مصروف يوم أو أكثر...

كلمة يد تعني كل اليد، من الكتف حتى الأصابع، وفي الآيات السابقة التي تحدثت عن قطع اليد والرجل للمفسد من خلاف، فَمِنَ المعروف بين الناس أَنَّهُ قطع كامل لليد من الكتف، وأيضا في الآية 6 من هذه السورة بكلامها عن الوضوء جرى تحديد المطلوب غسله من اليد إلى المرفق {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ...}، وتكملة الآية عن التيمم {فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ...}، ومعلوم أنه مسح ظاهر الكفّ، وفي الآية 31 من سورة يوسف قَطَّعَتِ النسوة أيديهن بقطع لحم كفّ وأصابع أيديهن من دون أن تنفصل عن أَيْدِيهِنَّ أجزاء {... فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ...}.

بِنَاءً عليه إنَّ الكلام هنا عن قطع يد السارق فيه هامش مرونة متروك لحكم القاضي الذي ينظر لحالة السارق ولظروفه التخفيفية إن لم يكن ممتهنا للسرقة وموصوفا بشكل ما بالمفسد في الأرض... حيث يحكم عليه القاضي بما يراه مناسبا ابْتِدَاءً من جرح يده... إلى قطع القليل من أطراف الأصابع، أو قطع أكثر بقليل من الأصابع إِلَى حَدِّ أول عقدة... وصولا إلى قطع الأصابع بدون قطع الكفّ ولا الإبهام... وهذا ما تفهمه من استعمال القرآن لتعبير "قطع اليد" دَمْجًا بين ما ورد في الآية هنا مع ما ورد في الآية 31 من سورة يوسف {... فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ...}.

بَعْضُ القضاة قديما حكموا بقطع اليد من الرُسْغ، يعني قطع الأصابع مع الكفّ من أول سرقة... حيث اعتبروا كل سرقة ومهما كانت الظروف فهي تستوجب العقاب الأقصى، ولم يلتفتوا إِلَى أَنَّ شدّة العقوبة مرتبطة بوصف الفاعل بالسارق على أساس شدة سوء فعلته، لأننا لسنا نتعاطف مع سارق يمتهن السرقة ولا رحمة في قلبه وينتهك حرمة بيوت الناس ويروّعهم ويفسد حياتهم، أو يسرقهم وهو مسلّح... فهذا من المفسدين في الأرض "بحسب حجم أفعاله"، ويستطيع القاضي الحكم عليه بعقوبة الإفساد بالقتل والصلب... إذا كانت أفعاله ضخمة كأفعال اللصوص القاطعين للطرقات بالسلاح... وصولا إلى قطع اليد، ومع قطع اليد يوجد مساحة عقوبات أخرى يمكن للقاضي تنفيذها عليه... نَحْنُ لسنا نتعاطف مع السارق بل نلفت النظر إلى سارق لا يمتهن السرقة وسوّلت له نفسه... فهل هذا عقابه يكون كما حكموا بقطع كفّ اليدّ مثل من يمتهن السرقة ويرعب الناس ويفسد أمنهم وحياتهم! لا، وهذا ما نفهمه من عموم القرآن، لأنَّ على السارق عِقَابًا وشدّة عقابه مرتبطة بشدّة وصفه بالفساد، وتعبير القرآن بقطع يده يترك هامش مرونة للقاضي للحكم بما يراه مناسبا من جرح يد السارق وصولا إلى بترها.

(فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{39})
{فَمَن تَابَ}، من اعترف بأنه ارتكب حراما وأعلن أنه لن يكرره، {مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ}، من بعد ارتكابه لشيء لم يكن معه حق فيه حيث أخذ شيئا ليس له، {وَأَصْلَحَ}، وَتَحَسَّنَتْ تصرفاته وصارت صالحة فصار أمينا لا يسرق، أو ردّ المال الذي سرقه، {فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ}، فيفتح له تعالى صفحة جديدة فيعتبره كأنه لم يرتكب السرقة، فلا يحاسبه عليها.

إذن قطع اليد لن يمنع عنه العقاب في الآخرة إن لم يتب ويتحسّن سلوكه هنا في الدنيا.

{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ}، حيث يسامح من طلب المسامحة ولا يجمد على موقف صلب، {رَّحِيمٌ}، حيث لديه عناية خاصة لما فيه مصلحة المؤمنين، فهم وحدهم ينالون المغفرة إذا استغفروا... أما الكافر السارق فحتى لو تحسّن سلوكه وتاب عن السرقة فإن لم يؤمن فسيتحاسب في الآخرة على السرقة لأنه ليس مؤمنا.

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {40})
هذا الكلام عن العقاب للمفسدين والكافرين والسارقين والخائنين للميثاق الإلهي...:

{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، حيثُ أنت تملك أرضك فتزرعها أو تتركها أو تبيعها... وتملك سيارتك فتفككها أو تقودها أو تتركها... فتفعل في ملكك ما تشاء، ولكن صاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى منسوب له ملك كل شيء ملكا حقيقيا، ونتذكّر دائما أن التعبير القرآني بالسماوات والأرض يشير لكل ما في دنيا المخلوقات، فكلّه ملك له تعالى، وعلى هذا الأساس: {يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ}، حيثُ أمامه تعالى خيارات عديدة وَأَخْبَرَنَا سبحانه وتعالى أنه شاء وقرّر تعذيب الكافرين والمفسدين... {وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ}، حيثُ أمامه سبحانه خيارات عديدة وَأَخْبَرَنَا أنه شاء وَقَرَّرَ مسامحة المؤمنين عن ذنوبهم.

{وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، حيثُ يمكنه سبحانه فعل أي شيء يريده بأي شيء، وَلَنْ يمنعه أحد من تعذيب الكفار، ولا يمكن أن يمنعه أحد من المغفرة للمؤمنين.

الله سبحانه يملك كل شيء، لِذَلِكَ يحق له أن يفعل بهم أي شيء، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لَا أحد يمكنه منعه سبحانه من التصرف كما يشاء في مخلوقاته.

ننتبه ولا ننسى، أَنَّ ما قالته الآية كونه تعالى يفعل ما يشاء وكونه تعالى على كل شيء قَدِيرًا، هو القاعدة الأولى، أمّا القواعد الأخرى فنعرفها جيدا من القرآن، لِأَنَّ الله سبحانه حكيم لا يعبث ولا يظلم... وهو الحقّ وكلامه الحقّ، فلا تَنْسَ كل القرآن وتفهم من الآية أنه سبحانه قد يرمي المؤمن في النار لأنه يفعل ما يشاء! صَحِيحٌ أنه سبحانه يقدر على فعل أي شيء، ولكن هذا لا يعني أنه سيتسلى ويلعب بنا! كَيْفَ يقول لي: آمن وأحسن سلوكك وسأجعلك في الجنة... ثم نقول: هو سبحانه حرّ، قد يرميني في النار حتى لو أطعته، لأنه يفعل ما يريد ويقدر أن يفعل أي شيء! كل تبريرات هذا الكلام على "الجواز العقلي المطلق" غير صحيح لأنه سبحانه أخبرنا وبشكل واضح جدا جدا ومرارا وتكرارا أنه الحقّ وقد شاء تعذيب الكافرين والمنافقين والفاسقين، ولم يقل سبحانه أبدا بتاتا أنه سيعذب المؤمنين العاملين للصالحات بل أخبرنا مرارا وتكرارا أنهم سينالون المغفرة ومضاعفة الحسنات وسيدخلون إلى الجنّة... بعد هذا الوضوح هَلْ هناك شيء عجيب أكثر من قول البعض أنه تعالى يمكن فعليا وعمليا أن يجعل فرعون في الجنّة، ويرمي مُؤْمِنًا ما في النار!

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ {41})
{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ}، محمد(ع)، {لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ}، فلا تشعر بالانزعاج من الذين لا يتباطؤون ولا يتمهلون، {فِي الْكُفْرِ}، في إنكار الدين الإلهي، فبدل مسارعتهم للإيمان بالدين الإلهي المعروض عليهم فهم بالعكس يسارعون بالكفر، حيثُ أوّل ما يتعرّضون لشيء ما فهم يَتَصَرَّفُونَ بطريقة المنكر للدين، {مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ}، فهناك أناس حولك قالوا إِنَّهُمْ اعتقدوا والتزموا بهذا الدين، ولكنه فقط مجرد كلام خرج من حيث يتفوّهون من فمهم، فهم لم يؤمنوا فعلا، فهؤلاء يسارعون في الكفر فلا تحزن عليهم معتقدا أنهم كانوا مؤمنين وتراجعوا عن الإيمان، فهم من الأساس {لَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ}.

والنوع الثاني الذي ننبّهك أَلّا تحزن عليهم: {وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا}، من اليهود، وَصَارَ اسمهم "يهود" اشتقاقا من كلمة هدنا التي تعني في العربية والعبرية: أنبنا، ودينيا فالمقصود منها رجوعنا إليك يا ربّ في كل أمورنا. وهؤلاء {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ}، فليسوا سَمَّاعِينَ للحق الذي تقوله بل سَمَّاعُونَ للكلام الكذب الذي يقولونه في تراثهم الديني المحرّف، {سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ}، لأناس لهم كيان كجماعة ومتفاعلون مع دينه تعالى وهم غير القوم المؤمنين، {لَمْ يَأْتُوكَ}،

فاليهود يسمعون كلامك ثم ينقلونه لقوم آخرين، ليهود آخرين في منطقة أخرى، وهم بدورهم يرسلون الجواب إلى الذين بقربك من اليهود... هؤلاء البعيدون عنك الذين لم يأتوك، {يُحَرِّفُونَ}، يغيّرون، {الْكَلِمَ}، الكلام، {مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ}، وليس عن كل مواضعه، مثلا يقولون: لا نؤمن لرسول إلا إن كان من بني إسرائيل. حيثُ إنَّ الكلام الصحيح الذي في موضعه الصحيح أَنَّهُمْ يعلنون عن استعدادهم للإيمان بالرسول الإلهي، والكلام المحرّف عن موضعه هو أنهم لا يؤمنون بالرسول إلا إن كان من بني إسرائيل، وسترى هذا المعنى من تكملة الكلام:

وهؤلاء البعيدون {يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا} "كذا وكذا..." {فَخُذُوهُ}، فإن أعطاكم وقدّم لكم النبي محمد(ع) هذه الأشياء... فاقبلوا نبوته، {وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ}، فلم يعطكم ولم يقدّم لكم ما قلناه لكم، {فَاحْذَرُوا}، فانتبهوا منه فهناك احتمال أن يكون كاذبا. ونعرف من آيات عديدة من القرآن أنهم طلبوا منه (ع) القيام بالأشياء التي قام بها النبي موسى(ع) وأشياء أخرى وكمثال عن ذلك ما تجده في الآية 48 من سورة القصص {فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى...}، فإن لم يقم بها فهي دليل غير كامل على كونه كَذَّابًا ولكن الاحتمال كبير بأنه ليس رسولا. وسور أخرى أجابت عن مطالبهم وشرحت كل شيء، أمّا هنا فالتركيز على إعلان الإيمان وإعلان الكفر، عن إعلان الميثاق مع الله تعالى الذي يتضمّن الإيمان برسله.

هُنَاكَ من بلسانه قال إِنَّهُ مؤمن ولكن عند أول فرصة يتصرّف وكأنه كافر! وهناك من اليهود من يقول لك بأنه مهتمّ بالإيمان وباحث عن الحقيقة، فتتكلّم معه ولكن بلا فائدة فهو يتواصل مستعينا بيهود آخرين فينقل لهم كلامك وينقل كلامهم لك وكأنه بلا شخصية فلا يعتمد على قناعته الشخصية، وكأنه يبحث عمّا يثبت به أنك لست رسولا منه تعالى، فهو على قناعة أناس لم يتواجهوا معك! فلا تحزن عليه.

شبّهها بحالة عوام الناس ومعهم العلماء الَّذِينَ إذا حاججتهم في مسألة ما يُجَابِهُونَكَ بما قاله كبار العلماء في عصرهم أو الأقدمين، وأنهم لديهم أدلة أكيدة وإلا فما كانوا قالوا ما قالوه... وبذلك يَجْعَلُونَكَ صغيرا مهما كانت حجّتك قوية، ولا يرون أنفسهم مضطرين للردّ عليك فهم لديهم علماء كبار يقولون كلاما معارضا لكلامك، فمن أنت وما حجمك أمام علمائهم!

هنا الحالة مشابهة ولكن فيها بعض العقلانية، فهناك يهود يسمعون كلام النبي محمّد(ع) ويجدونه عقلانيا محقّا، ولكنهم لا يريدون الإيمان به، فيحيلون ما قاله لهم (ع) طالبين المساعدة من يهود آخرين ليبحثوا عن ردود تبقيهم على دينهم ورفضهم للرسول محمّد(ع)...

{وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ}، من يقصد تعالى أن يعرّضه لشيء يفتتن به فيعجبه أو يميل إليه ليتغيّر، فالشخص الذي يقرر سبحانه امتحانه حتى يظهر على حقيقته، {فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}، فلا تستطيع فعل أي شيء له، فسيظهر على حقيقته ولن تستطيع تغييره بكلامك إن كان كافرا من داخله، فلا تحزن عليهم.

{أُولَئِكَ}، النوعية من الأشخاص الْمُؤْمِنِينَ بلسانهم والذين لا يعتبرون لأنفسهم قيمة ويعتمدون على قناعة غيرهم، {الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ}، فلم يرد سبحانه أن يجعل مركز فكرهم ونفسيتهم نقيا خاليا من العيوب، طبعا لأنهم هم قرروا أن يكفروا ويثبتوا على الكفر، أمّا الذي قرّر أن يؤمن فسبحانه يساعده حتى يُطَهِّرَ قلبه.

{لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ}، لهم إهانة في الدنيا بسبب قبيح ما فعلوه، فهم استهانوا بالدين الإلهي ولهذا فسبحانه لن يحترمهم هنا في الدنيا، ونتيجة لتصرفاتهم سَتَسِيرُ الأمور بشكل يجعل عموم الناس لا تحترمهم... {وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}، فلن يكون سهلا عاديا ما سيتعرضون له من أمور سيّئة في الزمن الذي سيأتي في الْآخِرَةِ بعد انتهاء الدنيا.

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآؤُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ{42})
انتقلت الآية للحديث عن اليهود الذين كانوا من بعيد يرسلون أسئلتهم والشروط لإيمانهم بالرسول(ع)... {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ}، وسترى أن المقصود أنهم يتركون كلام الرسول(ع) وكلام القرآن وكلام التوراة ويلحقون الكلام الكذب غير الصحيح.

{أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ}، المال الذي يعرفون أنه يُسْحِتُ يَسْحَقُ يَمْسَحُ دينهم لأنه سوء، كالربا والغصب والنهب والتسلط والاحتكار... فإنهم يستهلكون المال الناتج عن ذلك ولا مشكلة عندهم!

{فَإِنْ جَاءُوكَ}، فهم يعيشون ضمن سلطتك أو في محيطك وفي مسألة ما يريدون قاضيا محايدا... وتحصل بينهم خلافات، {فَإِنْ جَاءُوكَ} ليتحاكموا عندك، {فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ}، فلك الخيار بقول الحكم في مسألتهم التي تخالفوا فيها أو ألا تهتم بهم، فلست مجبرا على الحكم بينهم، لأنهم يُحَكِّمُونَكَ ولن يلتزموا بحكمك إلا إذا كان الحكم على مزاجهم، فسواء حكمت لهم أم لم تحكم فهم مسبقا لديهم قرار وسينفذونه.

{وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ}، فإن لم تهتم بهم ولم تحكم بينهم، {فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا}، سيقولون إنك لم تحكم بينهم ولم تهتم بهم وإن الرسول لا يفعل ذلك... لأنهم أصلا ليسوا من المؤمنين بك بل معادون لك، فأي ضرر سيأتي منهم بعد إعراضك عنهم! لا شيء، فالوضع هو نفسه من قبل طلبهم لتحكيمك ومن بعده، لأنهم ضدّك ولم يؤمنوا بك من قبل ومن بعد.

{وَإِنْ حَكَمْتَ}، وقلت الحقّ والعدل فيما يسألونك عنه، وصدر منك البتّ في خلافاتهم، {فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ}، بما لهم بالضبط، فلا تفكّر أنهم يهود ولم يؤمنوا بك ويمكنك أن تحكم كيف تشاء على مزاجك طالما هم على مزاجهم سيقبلون أو يرفضون حكمك، لا، فإن قررت أن تحكم بين المتخاصمين اليهود فاحكم بالقسط، بما لكل واحد منهم بالضبط.

{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، لأن من يعطي الآخرين بالضبط ما هو لهم فسبحانه يقيّمه بنظرة جيدة.

كما ترى بشكل واضح من آيتنا هنا أنه لا يحق للمؤمنين إجبار أهل الكتاب على اتباع ما يقوله القرآن أو ما استنبطه علماء المسلمين من القرآن والسنّة من تشريعات في خصوص النزاعات والخلافات بين أهل الكتاب، أمّا إذا كان أمرا عامّا يمسّ المسلمين أو في أحد طرفيه مسلم، فيجب إجبارهم على حكم قرآني...

هناك روايات منتشرة في كتب التفاسير حول قضية طلب اليهود فيها حكم الرسول(ع)، والقصة حول رجل وامرأة من اليهود ثبت عليهما أنهما زنيا... وأن الرسول(ع) حكم عليهما بالرجم... وأن حكم الرجم مذكور في التوراة... وهنا ترى المشكلة في أمثال هذه الروايات، لأن الآيات هنا تخبرنا أنها تأمر الرسول(ع) بالحكم بما في القرآن، وليس في القرآن رجم للزناة؟ برّر ناقلو هذه الروايات بتبرير آخر أن الرجم للزاني والزانية إن كانا شيخين كبيرين في السنّ، وأيضا هذا التبرير في الهواء إذ ليس في القرآن حكم بالرجم للشيخ والشيخة إلا فيما يرويه أهل تقديس الروايات عن الخليفة الثاني عمر فيما نقلوه عنه أن الآيات كانت موجودة في القرآن واختفت! وهكذا صار لدينا علم جديد، وهو علم نسخ التلاوة! وإن لم تكن هذه هي الترهات فماذا تكون؟

بقي شيء من الفضول حول ما يقولونه عن إعجاز تكرّر بعض كلمات القرآن بعدد ملفت، كقولهم عن تكرار كلمة ليل 12 مرة وكلمة نهار 12 مرة... تتبعت غالبية الكلمات التي قالوها ووجدت غالبية كلامهم كذبا إلا في أقل من عشر كلمات، ومما تحققت وتأكدت منه كلمة شهر بالمفرد "شهر، شهرا" حيث تكررت 12 مرة، وتكررت كلمة شهر بالمثنى "شهرين" مرتين فقط. كلمة "رجل" بالمفرد تكررت 24 مرة، وكلمة "امرأة، امرأت" أيضا تكررت 24 مرة. كلمة "يأمرون" تكررت 7 مرات، وكلمة "ينهون" أيضا تكررت 7 مرات. كلمة "الخبيث" بالمفرد تكررت 7 مرات، وكلمة "الطيب" بالمفرد تكررت 7 مرات. وهناك كلمات أخرى فيها الكثير من التراخي والاستنسابية بحيث يلغون كلمة أو كلمات لسبب غير وجيه ويدّعون أن الأعداد متساوية كقولهم عن تكرار كلمتي الملائكة والشيطان.

الغريب أن الحالة الوحيدة الصادقة بالتمام والوضوح ليست منتشرة في مقالاتهم وكتبهم! إذ تكررت فعلا في القرآن جملة "الله يحب" 16 مرة، وجملة "الله لا يحب" 16 مرّة.

لكن، هل هذا يعني أي شيء؟ لا، إذ لا يحتاج القرآن لخزعبلات من هذا النوع لتصير له قيمة أو لنؤمن بأنه من مصدر إلهي، لأن ما فيه من حقّ وصلاح هو قيمته.

(وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَـئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ{43})
{وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ}، وكيف يطلبون منك البتّ في خلافاتهم، {وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ}!؟ إن كانوا مؤمنين حقيقيين بدينهم فكيف يتركون حكما مكتوبا في كتاب يقولون بأنهم يعتقدون بأنه من الإله! ما السبب الذي يدفعهم لترك

حكم مكتوب في كتابهم ليسألوك عن الحكم في دينك؟! أليسوا مؤمنين بدينهم؟! {ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}، من بعد سماعهم لحكمك يتركونه ويتّجهون باتجاه آخر، {وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ}، هم لا يعتقدون بكتابهم ولا بك كرسول إلهي، فلا رجعوا إلى كتابهم ليجدوا الحكم في مسألتهم ولن يقبلوا بحكمك، فلا بك يؤمنون ولا بكتابهم.

من البديهي أن يكون الحكم الذي في التوراة متوافقا مع الحكم الذي سيقوله الرسول(ع)، لأن القرآن والتوراة كلاهما متماشيان لأنهما من نفس المصدر، وعلى ما يبدو من الآيات أنها تشير إلى نموذج عن حادثة حصلت بين اليهود ولم يعجبهم حكم التوراة فيها فأرادوا "فتوى" من أي مصدر كان... عندها سألوا الرسول محمّد(ع) عن حكمه في المسألة... هنا تنبّهنا الآيات إلى أن هذا السؤال لا يعني أنهم مؤمنين (الصحيح إعرابياً: مؤمنون) بالرسول محمّد(ع) وقرآنه، لا، لأنهم أساسا تركوا كتابهم الإلهي الذي ينتسبون له!

لننظر لما تقوله الآيات تطبيقا على حالتنا كمسلمين، حيث بضبابية يرى عوام الناس أن مذهبهم كامل فيه كل شيء بالضبط، وبخلفية عصبية عمياء يرى علماء كل مذهب أن مذهبهم كامل... علماً بأن العلل في العقائد والأحكام منتشرة عند الجميع، وبالنسبة لغالبيتهم لو لَفَتَّ نظرهم لمصيبة تفاسيرهم المختلفة المتخالفة للقرآن، لما وجدت أي تأثّر منهم، فأصلا غالبيتهم الساحقة لا تعتمد القرآن كمصدر أساسي للتشريع، بل الموروث الروائي والفقهي، ولديهم تبريرات جمّة لذلك، وكلّها أوهن من بيت العنكبوت...

ماذا لو جاء أحدهم يقول بأنه عالم بكتابنا ويمكنه استخراج مختلف الأحكام منه؟ نظرياً من المفروض جذبه لاهتمام العلماء ليروا إمكاناته... وهنا الآيات تتحدّث عن أجواء مشابهة، فالرسول محمّد(ع) عرض القرآن على عموم الناس وضمنهم اليهود، وحالة اليهود حينها كانت كحالتنا حاليا، طوائف ومدارس وجماعات... لكل واحدة منها مذهب... ولديهم اختلافات في التشريعات، فخطر ببالهم عرض شيء من تلك الخلافات على الرسول محمّد(ع) ليروا حكمه فيها...

بشكل أوضح، قارنها مع حالة المؤمنين بأن الفاطمي أو الإمام المهدي سيأتي بدين جديد، وحين يظهر سيعرض التشريعات الإلهية الأصيلة، ولشدة ابتعاد المسلمين عنها سيرونها كأنها جديدة، فهؤلاء معترفون بوجود مشكلة عامّة عندهم وعند الآخرين، ويريدون مصدرا مقوّما للتشريعات... وهي نفس الحالة التي تعرضها الآيات هنا وحصلت بشكل ما مع اليهود، مع تنبيه الآيات على أساس نشوء المشكلة وأنها باقية ما دام العطل الأساسي باقياً، فهم لن يقبلوا بحكم الرسول محمد(ع) إلا إن وافق ما يريدونه هم، وأصلا هذا هو سبب انحرافهم عن تشريعاته تعالى لأن ظاهر الكتاب الإلهي لا يتوافق مع ما يريدونه فغيّروه...

(إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ{44})

تعقيباً على طلب اليهود حكمك في بعض خلافاتهم، فهمنا من الآيات أنهم يريدون شخصاً ليلصقوا به حكماً يكون على مزاجهم، إذ يعرفون حكم التوراة، ولا يريدون تطبيقه، أو من الأساس لا يهمهم حكم التوراة فتلاعبوا به ليصير على مزاجهم... فطلبوا تحكيمك فربما يكون حكمك موافقاً لهواهم حالياً. ولكن التوراة:

{إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ}، وهي الكتاب الذي نزل على النبي موسى(ع)، {فِيهَا هُدًى}، في التوراة ما يدلّ على الشيء الصحيح الذي يوصل الناس للغاية الصحيحة، {وَنُورٌ}، ففيها ما يكشف الظلام ويريكم الطريق الصحيح.

{يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ}، وهم الأشخاص الذين يصلهم نبأ منه تعالى، حيث يصلهم الوحي بخبر علمه غير منتشر بين الناس، فيبتّون ويحسمون الخلافات بين الناس اعتماداً على ما في التوراة، {الَّذِينَ أَسْلَمُوا}، الذين انقادوا لله تعالى، مرّت فترات كان الأنبياء يحكمون بين الناس على أساس التوراة، وهؤلاء الأنبياء بالتأكيد لم ولن يتلاعبوا بكلمات ولا بمعاني التوراة، بل أسلموا فأعلنوا انقيادهم واتّباعهم لله تعالى، فلم يكونوا يقيسون الأحكام على هواهم ومشتهاهم، فإن لم تعجبهم حرّفوها، لا، بل أسلموا فانقادوا بالكامل له تعالى مثلما كان النبي إبراهيم(ع) مسلما، وهذا شيء محسوم نتوقعه من الأنبياء. قارن التزام الأنبياء بالتوراة مع تلاعب بعض علماء بني إسرائيل به.

التوراة هدى ونور يحكم بها النبيون {لِلَّذِينَ هَادُوا}، للموصوفين بأنهم أنابوا فرجعوا لله تعالى، وكلمة يهود مشتقة من "هدنا" التي تعني في العربية والعبرية "أنبنا رجعنا إليك، وراجع في ذلك الآية 156 من سورة الأعراف "وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ..."، وصارت اسماً لأتباع النبي موسى(ع)، يهود، وهنا تقصد الآية بالخصوص الذين أعلنوا أنهم تابعون للتوراة ويرونها هدىً ونوراً، فهم المؤمنون من اليهود الذين يقبلون بحكم الأنبياء.

التوراة يحكم بها {بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ}، {وَالرَّبَّانِيُّونَ}، التابعون للربّ، المعلنون بقولهم وعملهم بأنهم أتباع للمسؤول عنهم من مستوى إلهي سبحانه، ومن استعمال كلمة حبر في مقابل الربّاني نفهم أن الربّاني هو المؤمن ذو الثقافة الدينية، يعني مثل المشايخ في عصرنا، فليس كل واحد منهم لديه الفقاهة ولكن يمكنه الرجوع إلى الكتب ليفتي بما يجده فيها، وأيضاً لهؤلاء أنزلنا التوراة ليحكموا بها، وفي العبرية يستعملون كلمة "رباي" المماثلة للرباني وكلاهما مشتقان من المنسوب للربّ، وفي كلامنا الدارج نسمّي عموم علماء اليهود بالأحبار، مثلما نسمّي كل علماء الدين المسلمين بالمشايخ، علماً بأنهم درجات من الأقل الذي يستطيع الإفتاء استناداً لكتب فتاوى الآخرين، مروراً بمن لديه اطلاع على كيفية استخراج الفتوى، وصولاً إلى الفقيه القادر على استخراج الفتوى.

التوراة يحكم بها {بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ}، {وَالْأَحْبَارُ}، والحبر جمعها أحبار هي صفة عربية لعالم الدين عند اليهود، واليهود لا يصفون عالم الدين عندهم بلغتهم العبرية بالحبر بل يقولون: رباي. ويبدو أن هذا التصريف لهذه الكلمة من الربّاني. وصفة "رباي" كانت مستعملة عند الأجيال الأولى من المسيحيين لوصف علماء الدين عندهم تقليداً بذلك لليهود... والحبر في العربية تعني: من تعتبره وتعامله على ما تعطيه من قيمة عالية، كوصفهم عبد الله بن عباس بالحبر. والحبر يرادف في ثقافتنا الفقيه "المجتهد، المرجع، إمام بالفقه..." وهو الشخص القادر على استنباط الأحكام الشرعية. أيضاً أنزلنا التوراة ليحكم بها الأحبار بين اليهود.

الربانيون والأحبار يحكمون بالتوراة، بما استحفظوا "فعل مبني للمجهول، لأن أحداً ما حفّظهم" من كتاب الله، مما حفّظه لهم غيرهم، اعتماداً على ما حفظوه من تطبيق الأنبياء لكتاب الله تعالى، وبما، {وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ}، فإن كان ربّاني أو حبر شاهداً على تطبيق لنبي ما، أو كان شاهداً على تطبيق عالم ما عن نبي ما... لحكم توراتي بين الناس فأيضاً يعمل على أساسه.

{فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ}، فلا تتركوا حكم الله تعالى بسبب شعوركم أن الناس سيقومون بشيء سيئ ضدكم، فتتجنبوا الضرر منهم بترككم لحكمه تعالى، والكلام موجّه لكل من يعرف الحكم الإلهي حتى لا يكتمه خشيةً من الناس.

{وَاخْشَوْنِ}، لأن عقابه تعالى في الآخرة أشدّ بكثير من أي شيء تتوقعونه من الناس ولا يمكنكم تجنّب العقاب الإلهي إلا بطاعته تعالى.

{وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا}، فلا تبيعوا الأمور المميزة المنسوبة له تعالى بشيء قليل، فتتركوا كلامه تعالى وتأخذوا شيئاً من مكاسب الدنيا، فتحكموا بما يريده الناس حتى يرضوا عنكم فيعطوكم الزعامة والمال والجاه... وهذا ثمن قليل جداً لا يساوي ثمن ما ستحصلون عليه من المحافظة على اتباع شريعته تعالى، فهذا سيجعلكم تدخلون إلى الجنّة، أمّا بيع الآيات فسيجعلكم تدخلون إلى جهنم.

{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ}، أي لم يعتمد الكتب الإلهية للحكم، {فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}، لأن إنكار الدين الإلهي هو هذا الترك لحكم كتبه تعالى، فلا يهم لباسه الديني ولا لحيته الطويلة ولا صلاته ولا صيامه... ولا منصبه ولا توصيفه... فطالما لم يقبل بالحكم الإلهي ولو لمرة فهو في صميمه كافر منكر للدين.

ننتبه دائماً، إذ هناك من كرّر الآيات الشبيهة بآياتنا هنا والتي توصّف أهل الكتاب بالكفر، ليستنبط منها أنه يجري عليهم حكم الكفّار ويجعلهم بلا حرمة، وهذا إجرام لمجرمين يبحثون بين السطور عن فتاوى إجرامية، فالكفر هو الإنكار لشيء، فنحن نكفر بالعلمانية والإلحاد، ونكفر بدين الأرواحيين... وأهل الكتاب كفروا بالرسول محمّد(ع) وبالقرآن... وأصلاً عندما أسقط القرآن حرمة أناس موصوفين بالكفر حدّد منهم المقاتلين فقط، ومنع من التعرّض بأي سوء لأي إنسان كان ومهما كان دينه طالما هو مسالم، وهذا شيء منتشر في القرآن وصريح في الآية 8 من سورة الممتحنة "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ"،

ولكن هناك بعض من يسمّونهم بالعلماء، وهؤلاء لديهم نفسية الإجرام، ووصفوا بالكفر بحيث يُهْدَر دم ومال وعرض كل من خالف آراءهم المذهبية، وطال ذلك التوصيف أهل الكتاب والمسلمين الآخرين من غير مذهبهم!

الكلام في الآية موجّه لنا أيضاً، فها القرآن ليس دستوراً معمولاً به في بلاد المسلمين! إذ الربا مستشرية، وشرب الخمر مباح، ودور الخلاعة عمرانة، والفقراء يجولون في الشوارع بلا مأوى... وحُكّامنا فاسدون والموظفون مرتشون... فهل نحن نحكم بما أنزل الله تعالى؟

(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{45})

{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا}، فسجّلنا على اليهود في التوراة، وهنا الكلام عن الأحكام المسجلة في التوراة: {أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ}، فمن قتل نفساً بريئة قصدا، فيحق لكم قتله، وولي المقتول، المسؤول عن المطالبة بمحاسبة القاتل، يحق له المطالبة بقتل القاتل أو العفو عنه، وإن لم يكن للمقتول ولي فأي صالح من المؤمنين يمثّل ولاية المقتول... على أي حال فالحكم بحدّه الأقصى: نفس بنفس القاتل.

وما تراه منتشرا في بعض ما يسمّى بالمجتمعات المسلمة من الأخذ بالثأر بقتل أقارب القاتل، فكما ترى هنا الذمّ لليهود بفعلهم ذلك، وتصنيفهم بأنهم كافرون بكتابهم، فنفس الوصف للمسلمين التاركين لصريح كتابه تعالى عندما يقتلون الأبرياء.

وكتبنا فيها أنَّ: {وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ}، فمن آذى أو فقأ عين شخص آخر، فيحق للمتأذّي أن يؤذي عين من آذاه أو يفقأ عين من فقأ له عينه. فهذا الحدّ الأقصى ويمكن للمتأذّي أن يسامح عن أذية العين وأن يكتفي بالدية أو يسامح بالدِّيَّة أيضاً...

وحكمنا فيها أنَّ: {وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ}، فمن جدع "قطع" أو آذى أنف شخص آخر، فيحق للمتأذّي أن يؤذي من آذاه بأنفه، فهذا الحدّ الأقصى، والأقل منه يكون أخذ الدِّيَّة أو المسامحة بكل شيء.

{وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ}، فمن قطع أو آذى أذن شخص آخر فيحق للمتأذي أن يقطع أو يؤذي أذن من اعتدى عليه أو يأخذ الدية أو يسامحه.

{وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ}، فمن قلع أو خلخل سِنّاً أو أسنان شخص آخر فيحق للمتأذي أن يفعل بمن آذاه مثلما فعل به، أو يأخذ الدية أو يعفو عنه.

{وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ}، فكل من جرح شخصاً آخر، فيحق للمجروح أن يقتص فيأخذ حقّه بجرح من جرحه في نفس مكان الجرح وبنفس عمق ومسافة الجرح.

{فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ}، فلم يأخذ حقه وتركها كمساعدة لغيره، فلم يقتل القاتل ولم يقلع عين القالع... فاعتبر ما تركه صدقة قربة إلى الله تعالى، فسامح وترك حقه قربة لوجه الله تعالى، {فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ}، فهو ستر لذنوب المسامح، فسينال من الله تعالى سترا على ذنوبه في يوم القيامة، فلن تظهر ولن يتحاسب عليها.

وإذا لم يتصدّق لم يعف صاحب الحق، فيجب الحكم بحكم الله تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ}، ومن لم يقل الحقّ والصواب فيبتّ ويحسم أمور القتل والقصاص، {بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ}، كما كان مكتوبا في التوراة وينقله هو نفسه هذا القرآن، {فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، فليس معهم حقّ بذلك فتصرفهم ليس عادلا ولا منصفا، فهم منتمون لدينه تعالى ويجب عليهم طاعته تعالى، وإلا فهم خارجون عن دينه.

بعض الناس يقولون عن هذه الأحكام أنها ظالمة، وأنها قاسية، ولكنه تعالى يقول: لا، فهي عادلة ومنصفة ومن لم يحكم بها فهو ظالم، لأن الحقّ فيها للمظلوم.

وتلاحظ عزيزي القارئ أننا لا نزال في أجواء الميثاق الإلهي مع المؤمنين، وقيام هذه النوعية من الناس بخيانته حيث يحكمون بغير ما أنزل تعالى.

وفي أشدّ العقوبات التي ذكرها القرآن تجد مقابلها تحفيزا على العفو، فلا تفهم منها التراخي مع المجرمين والإصرار على جعل المظلوم يعفو، ولا تنساها وتفهم منها الشدّة بلا رحمة، فسبحانه ترك هامشا واسعا في الحكم، من العفو التام إلى أخذ الدِّيَّة إلى الاقتصاص بالقتل... وكما ترى فهذه المساحة متروكة لنا كهامش لما نراه مناسبا في الحالات المختلفة، فها المجتمعات أمامك بمختلف أديانها ومشاربها الفكرية وقوانينها، ترى بينها فروقا هائلة في مستويات الإجرام، وترى بوضوح أن الأجواء العامّة التي يتربّى فيها الناس لها أثر كبير على تصرفات أجيالها، وبهذا المختصر يمكنك فهم المرونة في الأحكام بما يناسب مختلف الحالات.

شريعة حمورابي والتشابه مع القرآن

بالنسبة لما يقولونه عن شبه آياتنا هنا "النفس بالنفس والعين بالعين..." مع شريعة حمورابي، فقد ذكروا في كتب التاريخ أنه في أجواء العام 1700 قبل الميلاد قد حكم حمورابي في منطقة بلاد ما بين النهرين وكتب شريعة، واشتهرت شريعته حديثا من بعد اكتشافها وترجمتها في أوائل العام 1900 ميلادي، فذاع صيتها على أنها أوّل شريعة بشرية مدوّنة، ومعلوم أن الدعاية لها كانت في مقابل شهرة التوراة كأقدم تشريع مكتوب، ولكن العلمانيين يعتبرون التوراة للمنتمين لدينه تعالى ولا مصلحة لهم في إعلاء شأنها، فضخّموا الدعاية لشريعة حمورابي على أنها سابقة على التوراة، وبعضهم وبكل سذاجة وبدون دليل يقول بأن النبي موسى(ع) استنسخ من شريعة حمورابي وحوّرها... حتى أن بعضهم يبالغون أكثر فيقولون أن شريعة حمورابي عادلة وشوّهها النبي موسى(ع) ناقلا منها بالحرف بعضاً من كلامها...! وكأن شريعة حمورابي كانت مطبوعة على الأوراق ومنتشرة بين الناس في مختلف المناطق؟

المشكلة الأساسية أن اليهود فعلا لم يحافظوا على التوارة فحرّفوها وصار فيها تشريعات مضافة على تشريعاته تعالى، فصرت ترى أحكاما جائرة، وترى أحكاما لا معنى لها... وبمقارنتها مع القرآن سترى التحريف واضحا، ولكنه ليس تحريفا ضخما شاملا لكل الأساسيات، فخذ ما في القرآن من أساسيات التشريعات واعتمده أنه هو نفسه كان في التوراة قبل تحريفها، وبعد ذلك قارن بينها وبين أي شريعة "بشرية" أخرى لترى الفرق إلا إذا كانت الشريعة البشرية مستوحاة بطريقة أو بأخرى من شرعه تعالى.

والمشكلة أن العلمانيين يتهمون القرآن أيضا بنسخ ما في شريعة حمورابي! فيتعامون عن أبسط الحقائق متهمين النبي محمّد(ع) بالنسخ عنها بينما هي كانت مطموسة منسي أمرها بل مجهولة بين الناس ومدفونة تحت التراب في العراق إلى حين استخراجها أوائل عام 1900! فهؤلاء وبالرغم من العناوين الرنانة لشهاداتهم الجامعية من ماجستير ودكتوراة وبروفسور وباحث وخبير... فهم فيما يتعلق بدينه تعالى مستعدون للكذب وتشويه الحقائق، ورمي الافتراضات السخيفة ليكفروا بدينه تعالى وليجعلوه نسخة غير معتبرة من ضمن الأديان التي اخترعها الناس!

وهناك مشكلة منتشرة في مختلف المجالات، فقد حصر الأوروبيون الغربيون نشاطهم في منطقتهم ومنطقة الشرق الأوسط متجاهلين الحضارات البعيدة التي فقدت قيمتها التاريخية لأنها لا دعاية لها، فغير معلوم لنا أسبقية وضع التشريعات "العلمانية" بين المناطق من الشرق الأقصى للأدنى للأوسط وطرفي أوروربا وأفريقيا والأمريكتين، فبدلا من طرح الكلام بشكل علمي عن اكتشاف مخطوطة أو نقش أثري، ترى البعض يبدؤون بالتحليل من هواهم وعلى مزاجهم! وكأنهم يحوزون كل المعلومات التاريخية من كل بقاع الأرض!

وكمثال عن ذلك تسميتهم شريعة حمورابي بأوّل شريعة! فما أدراهم؟ وهل نقّبوا آثار كل حضارات الأرض؟! وها قد تبيّن شريعة مكتوبة قبلها بثلاث مئة عام ويسمّونها قانون أورنمو، ويمكنك مراجعة ذلك على الويكيبيديا.

وقبل ذلك نسأل إن كان التنقيب عن الآثار كاشفا عن حقيقة دامغة، أم مجرد مساعد على تقريب معرفة التاريخ؟ فما أدرانا أن كل شيء مهم له أثر؟ وكمثال، فما أدرانا أنه لم توجد شريعة منقوشة على حجر في حضارة ما، وعمرها خمسة آلاف سنة، وتلك الحجرة تفتّت؟

ويكفي هذا المقدار لتنتبه أن الذين يسمّون أنفسهم بالباحثين الأكاديميين العلميين فما هم إلا مثل البقية في أهوائهم السيئة وتلاعبهم بالحقائق.

وفي دراستنا هذه تبيّن أن النبي موسى(ع) قد عاصره الفرعون خوفو، وهذا تاريخ يرجع إلى قرابة 2500 سنة قبل الميلاد، بينما الآثار المنسوبة لحمورابي فتاريخها يرجع إلى قرابة 1800 قبل الميلاد، فشريعة التوراة قبله ببضعة مئات من السنين، هذا طبعا إذا صدقت دراستي عن خوفو والتي يمكنك قراءتها تحت دراسة أي آية ورد فيها اسم هامان.

ولست بذلك أنفي وجود شريعة مكتوبة قبل التوراة، فهذا شيء لا أهمية له بالنسبة لي، فالأهمية في نوعية التشريعات إن كانت عقلانية وصالحة، ولمحاسبتنا على ذلك كمنتمين لدينه تعالى ومعتقدين بأنها تشريعات إلهية فيها الحقّ والصلاح، فعليك باعتماد ما ورد في القرآن بنصّ كلامه بعيدا عن تفاسيره التي اسقطت عليه آراء الناس، فراجع دراستنا هذه التي اعتمدت فقط وفقط على معاني الكلمات، وسترى كلامه تعالى كما هو حقًّا وصلاحا...

وبمراجعتي لترجمات شريعة حمورابي سجّلت النقاط التالية:

في أولها أحكام قاسية غير عادية بأحكام عديدة بالإعدام "على ذمّة المترجمين" لأمور فيها خلافات مالية من الواضح أنها لا تستحقّ هذه القسوة... وبالتحليل يبدو أن سببها فساد مستشر بين الناس من حكومات سابقة فاسدة فيها محسوبيات وعصابات... أقوى من القانون.

بعدها أحكام بعقوبات قاسية جدا للمعاملات بمختلف انواعها والتجارة... وبالتحليل يبدو منها أيضا استهتار الناس بحقوق الآخرين وبالقانون، مما دفع بالمشرّع "حمورابي" فرض أحكام قاسية جدا جدا حتى ينضبط الاستهتار بحقوق الآخرين وينضبط فلتان الناس من القانون.

وغير الأحكام القاسية اللاعقلانية بالإعدام ستجد سلبيات وإيجابيات منها تشريع للربا "الفايض" تحت عنوان ما يمكن أن ينتج عادة عن رأس المال، وفيها أحكام بالتعويض الجائر حتى لو أدى إلى إفلاس المحقوق، وفيها أخذ الحقّ بقتل الأبرياء من أقارب المحقوق، وملكية الرجل لزوجته وأولاده فيحق له بيعهم "إلا إذا كانت الترجمة غير دقيقة والنص الأصلي يقصد العبيد".

وفيها إيجابيات كاعتماد الإيصالات والعقود المكتوبة في مختلف المعاملات، واعتماد الشهود...

وستجد حقوقا جيدة للمرأة من مهر عند الطلاق، وحقّها بطلب الطلاق وأخذ المهر من الزوج السيّء، وفي تقسيم المواريث تجد نظرا لحالات خاصة كحقوق لأحد ما ويتم أخذها من التركة قبل التقسيم بين الورثة.

أمّا فيما يخص ما شابه كلام القرآن عن العين بالعين والسن بالسنّ... فالفرق هائل بالتعبير والحكم بين القرآن وبين شريعة حمورابي، ففي تلك الشريعة طبقية بين الناس من عبيد، وعمّال وصنّاع وحرفيين وفي الترجمة تجد تسميتهم بعامة الناس وأسياد، وفي مواضع أخرى تسميتهم بسيّد عادي وأشراف. فالأشراف يدفعون المال مقابل أذيتهم للذين أقل منهم مرتبة، وكذلك الأسياد يدفعون لمن هم أقل منهم بالرتبة... ويتم القصاص الجسدي فقط بالذي ألحق ضررا للمساوي له في طبقته وما فوق. فما هو دارج بين الناس أن شريعة حمورابي سبقت القرآن والتوراة بتعبير "العين بالعين والسنّ بالسنّ..." فهو غير صحيح لا من حيث العبارة ولا من حيث مضمون الحكم.

وفي شريعة حمورابي أحكام عن ممارسات الطبّ ويبدو منها الشدّة القاسية جدا على الأخطاء الطبية، وبالتحليل يبدو أن الاستهتار بادّعاء معرفة الطبّ كان منتشرا، ويسبّب موتا وعاهات جسدية للناس، وهذه مسألة عانت منها العديد من الأمم الناشئة.

ومثله كلام عن باني البيوت التي تقع على ساكنيها، فعليها عقوبات قاسية جدا جدا لدرجة قتل ابن البنّاء إذا مات ابن صاحب البيت من أثر سقوط البيت عليه.

الخلاصة أنها شريعة لم تراع الامتداد الزمني واختلاف الظروف، فهي غير صالحة للتطبيق على مختلف الأزمنة والأمكنة، ولم تعتمد على معايير محددة... ولم تراع العقلانية والصلاح بل اعتمدت القسوة المفرطة لتربية الناس بالقوة ليخافوا من جور القانون عليهم إن أساؤوا.

وهي لا تخلو من إيجابيات، وسلبياتها ليست أكثر من سلبيات قوانين أجدد منها بكثير، وخذ مثلا من زمن غير بعيد، فمنذ قرابة المئة عام كان فيما يسمّى ببعض مناطق بريطانيا وبين الفقراء قانون عرفي يجيز للزوج بيع زوجته...! "راجع ويكيبيديا".

(وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ{46})
تحدثت الآيات السابقة عن أهل التوراة، وأنّ في التوراة أحكاماً إلهيةً... والآن تتحدث الآيات عن أهل الإنجيل.

{وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ}، حيث ألحقنا على الأثر على الأشياء التي تركها الأنبياء، لأن هؤلاء الأنبياء حكموا بالتوراة وبما استجدّ من أمور وضّحها الأنبياء، فهذه الآثار التي بقيت منهم، وقفينا "مثل القافية" فَتَبِعْنَا على آثارهم، {بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}، لأنه لم يَأْتِ(ع) بدين جديد بل مشى على نفس أثر الأنبياء السابقين.

{مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ}، حيث لم يقل إنها كاذبة وليست إلهية، بل قال إنه على خطّها ودينه امتداد لها.

{وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ}، وهو اسم الكتاب الذي نزل على النبي عيسى(ع)، {فِيهِ هُدًى}، في الإنجيل ما يضع الناس على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، {وَنُورٌ}، لأن في الإنجيل ما يكشف الظلام ويضيء الطريق، {وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ}، لأن الإنجيل يقول إن التوراة كتاب إلهي، فهو يصدّقها كونها إلهية المصدر، ويتماشى معها كونه امتداداً لها، ولم يقل إنه دين جديد غيرها.

والإنجيل {وَهُدًى}، لأنه يضع على الشيء الصحيح، {وَمَوْعِظَةً}، إذ فيه كلام يحدّد ماذا نفعل وماذا نترك حتى لا نقع في مشاكل إيمانية، {لِلْمُتَّقِينَ}، للذين يتجنبون، وسياق الكلام عن تجنّب السوء المؤدّي إلى غضب وعقاب ربهم سبحانه.

كما تلاحظ فصلت الآية بين التوراة وعموم الناس من جهة وبين التوراة والمتقين من جهة أخرى، وإذا استحضرت في بالك المفهوم القرآني عن النظرة الإلهية للناس، ستتذكّر أنّ التُّقَى صفة تكون في الشخص بمعزل عن تعرّفه على الكتاب الإلهي، إذ يتقي السيئات ومؤمن بالفطرة لأنه ذو قلب سليم، هنا تحدثت الآية عن الإنجيل وغيرها من الآيات القرآنية تحدّثت عن التوراة ولدينا الكثير من الآيات التي تحدّثت عن القرآن، وهذه الكتب الثلاثة لعموم الناس فيها الهداية والنور، ولكنها للمتقين بشكل خاص هدى بشكل مختلف، مثل كتاب رياضيات عالية فهو متاح لكل الناس لتعلّمه وليكون مرجعاً لهم ولكنه للمتخصصين في الرياضيات مرجع استفادة حقيقية، وتعاملهم معه له معنى أعمق من تعامل الناس العاديين غير المتخصصين، ولا تفهم أن القرآن للمتخصصين بمعنى الحاجة للتفرّغ لدراسته، لا، بل الكلام عن التقى، فالمتمرّس على التقى في حياته العادية سيجد في القرآن ما يعينه على تقويم نظرته للأمور، لأن القرآن يطرح الحقّ والصلاح، فيستفيد من ذلك مُتَّبِعاً القرآن كمرجع للحق والصلاح.

وكلمة إنجيل أصلها يوناني وتعني الخبر السار، البشارة، وهي الكلمة التي درجت بين مسيحيي العرب لتسمية الكتاب النازل على النبي عيسى(ع)، والتوراة هي الاسم الدارج بين اليهود لتسمية كتابهم وتعني التعاليم.

(وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ{47})
{وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ}، المنتمون للإنجيل لِيَبُتُّوا ولْيَحْسِمُوا القضايا والنزاعات بين الناس، {بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ}، في الإنجيل من أحكام حلال وحرام وقصاص...

{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ}، أي لم يَبُتَّ في الأمور بحسب ما أنزله تعالى في كتبه، {فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}، لأنهم الخارجون عن شيء صريح يقوله الدين الإلهي، حتى لو قالوا إنهم متدينون كلامهم لا يعني شيئاً، لأنه طالما لم يحكموا بالحكم الإلهي فهم في الحقيقة ليسوا من المتدينين.

كلمة حكمة ومشتقاتها تشير إلى عموم ضبط الشيء على المطلوب: على الصوابية، على الحقّ... وعلى نفس المعنى الأساسي نقول: أحكم الوثاق، حكم بالعدل، حكومة على الناس... وتفسير الحكمة بالأهداف والغايات السامية هو من

تبعات تطبيق صوابية الحقّ، ولا يصح وليس دقيقاً وصف حكمته تعالى بأنها أفعال لها أهداف وغايات سامية، لأنه لا معنى للأهداف له تعالى. ومن تطبيقات الحكمة أن تكون بَتّاً حَسْماً في الأمور، ولهذا المعنى نستعمل كلمة حكومة، وكما ترى أنهم حكموا بالظلم، ولم ينطبق المعنى الصحيح للحكم على ما قالوه.

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ{48})
بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن الكتابين الإلهيين "التوراة والإنجيل" جاء دور القرآن:

{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ}، أيها الرسول محمد(ع)، الكتاب "القرآن"، {بِالْحَقِّ}، بالصواب، فليس فيه باطل أو عبث أو كذب، فهو كتاب إلهي وما فيه من كلام نابع من مصدر إلهي بمواصفات تأليف إلهي، وليس بمواصفات تأليف الملائكة(ع) أو الجن أو البشر... وهذا الكتاب يجب اتباعه وهناك حساب على مخالفته وإلا لكان تنزيله باطلاً عبثاً، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية للإله سبحانه الحقّ بتنزيل كتاب على مخلوقاته ليكلّفها بما تفعل وما تترك.

والقرآن، {مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ}، فلا ينكر بل يؤكّد أن الإنجيل أيضا كتاب إلهي، والآية السابقة قالت إن الإنجيل مصدق للتوراة وبالتالي فالقرآن مصدّق للتوراة، {وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ}، فإذا وجدنا في الإنجيل شيئا ووجدنا شيئا مختلفا في القرآن، فما في القرآن مُهَيْمِنٌ مسيطر على ما في الإنجيل لأنه تحرّف، فيجب أن نَتَّبِعَ ما نجده في القرآن، وكما تعلم لو فرضنا أننا وصلتنا نسخة غير محرفة من الإنجيل، فسيكون الكلام عن الهيمنة مشيرا إلى تحديث في بعض الأحكام الشرعية، وسترى ذلك من تكملة الجملة، وليست الهيمنة في العقيدة والتاريخ الديني، فهما متوافقان حتما لو كان الإنجيل سليما من التحريف. وضمناً من سياق الكلام السابق فالقرآنُ مُهَيْمِنٌ على التوراة لنفس السبب.

{فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ}، بُتَّ وَاحْسِمْ أيها الرسول محمد(ع) بين الناس، {بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ}، فليكن حكمك في أي قضية مبنيا على ما يقوله القرآن.

{وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ}، ولا تكن على رغباتهم وميولهم، {عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ}، عن الذي جاءك من الحق، إذ جاءك القرآن الموصوف بأنه حقّ فمصدره إلهي ولا باطل فيه، فلا تَمْشِ خلف أهواء الناس تاركا ما جاءك من الحق، بَلِ التزم بما تجده في القرآن.

{لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً}، لكل أمّة منكم جعلنا تشريعا ليسير عليه كافّة الناس بالتساوي، جعلنا شيئا معلنا ليكون قانونا عاما لكل أمّة، ففيها الحلال والحرام والواجب والقصاص...... وجعلنا، {وَمِنْهَاجًا}، طريقة محددة في التصرف. وكلا الكلمتين "شرعة ومنهاجا" هما وصف لنفس الأوامر الإلهية وللمشي عليها، كما نقول: هذا مسلكك وطريقك. فهذه هي الأوامر "الشريعة" وهي نفسها يجب أن تتبعها فتكون "نهجك". فتصير العبارة: لكل منكم جعلنا شرعة ومنهاجا، ولكن كلّكم على نفس العقيدة وأساسيات الدين.

تلاحظ من القرآن ومما نعرفه من التاريخ، وجود تشريعات إلهية مشتركة عبر التاريخ، كالصلاة والزكاة وبرّ الوالدين والعدل والإحسان وحرمة الزنا والسرقة والغيبة والكذب... وهناك تشريعات خاصة لبعض الأمم، كحرمة العمل في يوم السبت وحرمة بعض الشحوم لليهود، وحرمة البيع في وقت صلاة الجمعة للمسلمين... تقول الآية هنا، لا تهتم بما يقوله أهل الكتاب عن الاختلاف بين شرعتك ومنهاجك وشرعتهم ومنهاجهم، لأن هذا الاختلاف حصل بأمر منه تعالى، وما هم عليه من تشريعات ففيها تشريعات من أهوائهم أيضا مما سبّب اختلافا أكبر بين شريعتك وشريعتهم.

{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً}، فأمامه سبحانه خيارات عديدة ومن بينها أن يجعلكم كلّكم على امتداد تاريخي واحد في الشرعة والمنهاج، ولكنه سبحانه قرّر جعل اختلافات بسيطة بين الشرائع والمناهج، ومن وحي القرآن تفهم أن ذلك حصل لملاءمتها للظروف... {وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ}، فقد آتاكم شرعة ومنهاجا مختلفين وهذا شيء أصابكم به سبحانه ليرى تعالى ردّ فعلكم عليه، {فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}، فليكن هدفكم السبق، فليكن هدفكم المبادرة والمسارعة في الحصول على الخيرات، على الأمور الموصوفة بأنها خَيِّرَةٌ جيدة، وهي التي تنتج من النجاح في الامتحان.

{إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا}، فكلّكم من دون أي استثناء سترجعون إليه تعالى من بعد ترككم لهذه الدنيا، فلن تنتهوا وتختفوا، ولن تنتقلوا إلى عالم ليس تحت سيطرته تعالى... وبعد رجوعكم إليه تعالى، {فَيُنَبِّئُكُمْ}، يخبركم بشيء علمه غير منتشر، {بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}، إذ يمكنكم أن تختلفوا بحيث كل واحد منكم يطرح رأيه... وتعترضوا على الكتب الإلهية وتخالفوا تعاليمها... أمّا في الآخرة فَسَتَكُونُونَ كلكم أمام جبار يرعب الكفار والمنافقين والفاسقين، وهناك سيخبركم سبحانه بالخلافات التي كنتم تقومون بها، وستتحاسبون عليها حسابا شديدا.

هناك الكثير من الأشياء التي طرحتها الآية، أولا: تصديق القرآن للإنجيل، وهذا لا يعني أن الإنجيل غير محرّف، ولكن يعني تأكيد القرآن على أن الإنجيل كتاب إلهي، وأن القرآن امتداد لنفس الدين، وتلاحظ الآن تصنيفا للديانات على وجه الأرض، فتجد أن "اليهودية والمسيحية والإسلام" يُسَمُّونَهَا: الديانات السماوية، الديانات الإبراهيمية، الديانات التوحيدية. شَمَلُوهَا بتصنيف واحد، وهذا هو نفس المعنى الذي يقوله القرآن عن الكتب الثلاثة بأنها متشابهة ومن مصدر واحد، ولولا التحريف لكانت متطابقة في العقيدة والتاريخ وأساسيات الشريعة.

ثانياً استعملت الآية تعبير هيمنة القرآن على الإنجيل، وتقصد أن القرآن هو آخر شريعة يجب اتباعها، فلا يحق لأحد ما أن يقول: الإنجيل أيضا كتاب إلهي ويحق لي الاختيار بين اتّباع الإنجيل أو اتّباع القرآن، لا، بل يجب اتّباع القرآن لأنه مُهَيْمِنٌ على الإنجيل وعلى التوراة.

ثالثاً تحدثت الآية عن وجود شرعة ومنهاج مختلف لكل أمّة، فأقدم أمة متدينة اليهود ولهم شرعة ومنهاج مختلف عن الأمّة المتدينة التالية المسيحية، والأمة المتدينة التالية الإسلام لها شرعة ومنهج مختلف عنهما، فلا تتصور أن الآية تتحدث عن اختلاف جذري شديد بينهم، لا، إنما هو اختلاف من نوع التعديلات الملائمة للزمن كتحديثات، إذ حرّم تعالى على اليهود بعض الأطعمة لأسباب كانت مناسبة لزمنهم، وفي عهد النبي عيسى(ع) تغيّرت الظروف فحللها سبحانه... وهذه كما ترى أشياء ليست جوهرية، فلا تغيير في العقيدة التي هي أساس الدين، بل حصل بعض التغير في بعض تفاصيل الشريعة والمنهج، وبسبب فقداننا لنسخ أصلية من التوراة والإنجيل لنقارن بين شريعتها وشريعة القرآن، نستصعب ضرب أمثلة عن الاختلافات، لأن تشريعات اليهود والنصارى صار فيها الكثير من إقحاماتٍ وتغييرات أجراها علماؤهم "مثلما فعل علماؤنا بفتاويهم المتعارضة" فلا ندري أي منها إلهي حتى نقارنه مع القرآن.

رابعاً وهو الأهم: ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم، فسبحانه ليس عاجزا عن إجبارنا على اتباع شريعة واحدة، فيمكنه سبحانه بطريقة أو بأخرى منع تحريف أول كتاب نزل، ويأمرنا باتباعه ولا ينزل كتاب غيره، ولكن من ضمن مخطّطه سبحانه لخلقنا وتكليفنا، أننا نحن سنتخالف بسبب تمتّعنا بحرية الإرادة والتي هي سبب تكليفنا، وبعضنا سيقوم بتحريف الكتاب الإلهي... فتركهم سبحانه... وهذه بلوى يمتحننا سبحانه بها، وأصلا هذه هي الحياة التي صَمَّمَنَا لنمرّ بها ونتحاسب على ما فعلناه أثناءها.

(وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ{49})
{وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ}، بُتَّ وَاحْسِمْ في قضايا أهل الكتاب، {بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ}، بما نزل عليك منه تعالى وهو هذا القرآن، {وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ}، ولا تكن على مشتهياتهم ورغباتهم، {وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ}، فإذا اتّبعت ما يَعْرِضُونَهُ عليك فستقع في الخطر، لأن الفتنة هي عموم التعرّض لشيء ما والتغير بسببه، فاحذر أن تتغير، {عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ}، إذ سيتلاعبون عليك بالكلام والحيل، فَانْتَبِهْ أن ينجحوا فيفتنوك لتميل إلى ترك بعض الأحكام الإلهية.

{فَإِنْ تَوَلَّوْا}، أي تركوك وتركوا حكمك وتوجّهوا باتجاه آخر فلم يعتبروك مرجعاً، والسبب معلوم لأنك لم تحكم كما يحبون، {فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ}، لأنهم خالفوا كلامه تعالى ويريدون البقاء على هذه الحالة، وسيحاولون التلاعب بالدين حتى يكون الدين على هواهم، وسبحانه فقط يترك لهم المجال حتى يصيبهم بهذه الذنوب، بهذه المخالفات لأوامره تعالى، {وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ}، إذ إن الكثيرين منهم خارجون عن الواضح الذي يقوله الدين الإلهي، مع أنهم في الظاهر لا يقولون إنهم ضد الدين أو خارجون منه، بل يقولون إنهم متدينون!

هذا التنبيه للنبي(ع) من الرافضين للحكم الإلهي حتى لا يجعلوه يلين أو يحرّف الدين... فهذا التنبيه حقيقي، علماً بأننا لم نسمع عن نبي تلاعب بالشريعة، ولم يقل القرآن أبداً إنّ النبي محمد(ع) حرّف أو تلاعب بالدين، فإذا كانت الآيات تنبّه شخصاً لن ينحرف، عَمَلِيّاً يكون التحذير لنا نحن ألا ننحرف ولا نتلاعب بالدين ولا نتبع أهواءنا، فإن حكمنا فلنحكم بالحق، وإن حكم لنا الدين فنقبل الحكم. وهذا المعنى ستراه بشكل أوضح من معنى كلمة حَذَر، إذ تشير إلى حالة لم تتوافر فيها كامل الشروط لوقوع الشيء السيئ، فأحذرك من سلوك طريق عليه لصوص، أمّا إن سلكت الطريق فَأُنْذِرُكَ، إذ توافرت شروط حصول المشكلة معك إن لم تتوقف عن الحالة التي أنت عليها، والآية هنا تحذّره (ع) ولا تنذره لأنه أصلا ليس على طريق وقوعه في الميل لهم.

لاحظ، أكثر الناس فاسقون خارجون عن الأمور الواضحة من دينه تعالى، وبعض الفاسقين شكلهم متدينٌ، والآيات تتحدّث عن متدينين لا يبدو عليهم الفسق، ويبدو في الظاهر أنهم يريدون الحكم الإلهي، ولكنهم يريدونه على هواهم! فهم أناس أصلاً عليهم ذنوب، لأنهم أصلاً فاسقون، وحين يَأْتُونَكَ أيها الرسول(ع) لِيَسْأَلُوا عن الحكم الشرعي، ثم يُحَاوِلُونَ فِتْنَتَكَ... فقط وفقط يريد تعالى إصابتهم ببعض ذنوبهم، لأن هذه بلوى تصيبهم فتلتصق بهم ذنوبهم وَيَتَحَاسَبُونَ عليها بخزي في الدنيا وبعقاب شديد في الآخرة. بعبارة أخرى فَلَدَيْهِمْ كتاب إلهي يمكنهم الرجوع إليه والبحث عن الحكم الذي يحتاجونه، ولكنهم لا يريدون الحكم الإلهي لأنه لم يعجبهم، وهذا أول افتتان لهم، لذا ذهبوا للنبي محمّد(ع) يحاولون معه أن يحكم لهم بما هم يهوونه، وعندما حكمت لهم بِحُكْمِهِ تعالى تولّوا، وهكذا تصيبهم بعض ذنوبهم بمصيبة وصفهم بالفسق عن دينه تعالى بشكل دامغ.

(أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ{50})
هؤلاء الذين يحاولون التلاعب عليك لتحكم لهم بحكم يوافق أهواءهم، ماذا يريدون؟

{أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ}؟ الحكم الذي تقوله أيها النبي(ع) هو رباني، عن علم وحكمة إلهية، والحكم المخالف للحكم الإلهي سيكون عن جهل، عن طيش، لا عن دراسة وفهم، عن هوى... فهل تريدون هذا الحكم الجاهلي وتتركون الحكم الإلهي!

{وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا}؟ فالأحكام، أي البتّ بالأمور بصوابية لتكون على المطلوب والذي صدر عنه تعالى، فهل يمكن أن يوجد أحسن، أفضل منه!

والله تعالى أحسن حُكْماً ليس بنظر كل الناس، بل {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان كجماعة متفاعلة مع دينه، {يُوقِنُونَ}، إذ لديهم اعتقاد صحيح مطابق للواقع به تعالى أنه حكيم بل الأحسن حُكْماً.

هذا الكلام نرى مثله عندما تتحدث آيات القرآن عن التفكّر في خلق السماوات والأرض، والليل والنهار والحياة والجماد على الأرض... لأنها كلها آيات كدلائل وبراهين... ولكن لا يراها كل الناس هكذا، بل هي آيات للمتقين وأولي الألباب وللموقنين... لذا فالقوم الموقنون المتأكدون من حكمة ربهم سبحانه فقط سيرون أن حكمه أحسن الأحكام، أمّا غير المتقين فلن يعجبهم الحكم الإلهي، وهذا نراه في كل الأزمنة، حيث نرى اختراع الناس للقوانين والتشريعات وتركهم لحكم الله تعالى.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{51})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ}، لا تجعلوا أنفسكم تابعين لهم وهم مرجعٌ لكم كمسؤولين عنكم، وحين تسمعون كلامهم "ولو لمرة واحدة" وتنفذونه وتتركون كلامه تعالى وكلام رسوله(ع) فقد واليتموهم وصاروا أولياءكم، ونلاحظ من القرآن أنك حتى لو سمعت منهم كلمة واحدة تخالف القرآن وما قاله الرسول(ع) ونفّذتها، يعتبرك القرآن أنك اتخذتهم أولياء، ولو بكلمة واحدة.

{بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}، اليهود والنصارى ليس من المفروض أن يكونوا أولياء للمؤمنين، لأن اليهود يسمعون كلام اليهود وينفذونه، والنصارى يسمعون كلام النصارى وينفذونه، أما أنت كمؤمن أعلنت أنك مؤمن بالرسول محمد(ع) والقرآن، فلا يحقّ لك موالاتهم، وكل ما سبق من كلام عن تلاعبهم بدينه تعالى هو السبب الرئيسي حتى لا يكونوا أولياء للمؤمنين.

{وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ}، حيث يجعلهم مرجعاً له ويكون تابعا لهم ويسمع ولو كلمة واحدة من كلامهم وينفذها، {فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}، ولن يكون مؤمنا.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي}، لا يضع على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {الْقَوْمَ}، الناس الذين لهم كيان كجماعة متفاعلة مع دينه، {الظَّالِمِينَ}، الذين تركوا ولاية الرسول المعتمدة على ما في القرآن، إذ ليس معهم حقّ بفعل ذلك.

لاحظ الآية هنا تريك بوضوح أنه ورغم كون الرسول محمّد(ع) والقرآن كلاهما امتداد لدينه تعالى، فهذا لا يجيز لك اتّباع ما يقوله أهل الكتاب السابقين، والسبب أنهم حرّفوا كلامه تعالى وصار لديهم عقائد وتشريعات تناسب أهواءهم الفاسدة، وأنه تعالى لم يجعل الناس على شرعة ومنهاج واحد، إذ ما سبق كان لمن سبقنا وما في القرآن مُهَيْمِنٌ على الكتب السابقة، وإذا واليت أهل الكتاب ولو بكلمة واحدة مخالفة للقرآن فأنت ظالم، إذ لم يكن معك حقّ بذلك، ولست على الهدى ولن يهديك تعالى لأنك وبإرادتك اخترت مخالفة كلامه، هل هناك طريق للهداية وسبحانه لم يؤمّنه لهم؟ لا، لأن الكلام القرآني واضح جدا أنه حقّ، هل سيتلاعب سبحانه بعقولهم وضمائرهم حتى يؤمنوا! أو سينير قلوبهم بينما هم عن قصد عموا عن كتبه وآياته وأحكامه؟ لا، إذ سبحانه يهدي المتقين فينير قلوبهم ويتحدّث معهم عبر هذا القرآن وعبر الوحي لرسوله.

(فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ{52})

{فَتَرَى}، يصير عندك صورة محدّدة عن، {الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}، الذين قلوبهم أساس فكرهم ونفسيتهم مريض وليس سليماً، لأنهم تعرّفوا على الآيات الإلهية الواضحة، تعرّفوا على الدليل والعقلانية والحجّة... ورغم ذلك لم يؤمنوا! فهذا مرض. تراهم، {يُسَارِعُونَ فِيهِمْ}، في اليهود والنصارى! لا يهملون ولا يتمهلون بل عند أول فرصة يوالون اليهود والنصارى! لأن القرآن يخبرنا عمّن سمع كلمة واحدة فقط من اليهود أو النصارى أنه تعالى يعتبرهم والوهم، هنا تلفت الآية انتباهنا لأبرز نموذج ممن يمشي بسرعة لترك الدين الصحيح، كما نقول بالعامية: يبيعك على أول مفترق طرق. إذ إنهم مسلمون ولكن لأهون سبب تراهم يتركون هذا القرآن ويتبعون المخالفين له! ومن أسباب المسارعة في موالاة هؤلاء، يقول المسارعون:

{نَخْشَى}، عندنا شعور حصول الضرر الذي يمكن تجنبّه، نتوقّع، {أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ}، تدور الأمور علينا، وتنقلب الأمور ضدنا، فإذا لم نكن أصحاباً مع اليهود والنصارى، وحصل شيء سبّب ضعفنا، نشعر أننا سنقع في مشكلة وتدور وتنقلب الأمور في غير مصلحتنا، لهذا السبب نتجنّب الضرر ونبيّن لليهود والنصارى أننا أصحابٌ معهم حتى إذا وقعت المشاكل أنقذونا وساعدونا...

حسن، هذه فكرتهم، {فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ}، بفتح ما هو مغلق أمام المسلمين، لأن الكلام هنا عن حالة ليست السيطرة والحكم والقوة للمسلمين، ومن المحتمل المرجّح غير الأكيد أن يفتح تعالى كل ذلك عليهم ويجعلهم مسيطرين على من حولهم من كفار وأهل كتاب بالتمام، أو عسى أن يأتي الله بـ، {أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ}، يقرر سبحانه حصول شيء ما من عنده، وَيُبِيدُ الكفّار بتدخّل منه تعالى، أو أي شيء يكسر سلطتهم... في وجود هذين الاحتمالين المرجّحين غير الأكيدين "عسى" لأنهما مرتبطان بأمور يجب أن تتحقّق قبل حصولهما، وهما مرتبطان بوجود مؤمنين صالحين حتى يتدخّل تعالى وينصرهم... وعلى كلّ حال فإن حصل واحد منهما "الفتح أو أمر ما من عنده تعالى"، فماذا سيكون موقف المداهنين المسايرين الموالين لليهود والنصارى!

{فَيُصْبِحُوا}، أول ما سيصير مع الموالين لليهود والنصارى، {عَلَى مَا أَسَرُّوا}، على الذي أخفوه في أنفسهم من مخالفة لولاية الله تعالى ورسوله(ع)، أول شعور سيصير لديهم: {نَادِمِينَ}، يشعرون بالضيق من قرارهم وفعلهم الخاطئ، لا

هم استفادوا من هذه الموالاة للكفّار لأن الكفّار انهزموا، ولا هم من المؤمنين الحقيقيين! ولم يستفيدوا في الدنيا ولا في الآخرة، وَسَيَنْدَمُونَ على تلك الموالاة.

بعبارة أخرى هم يحسبون حساباً لمصالحهم المالية والتجارية والسلطوية... ويرون أن موالاة اليهود والنصارى تساعدهم على الحفاظ على مصالحهم، ويسألهم سبحانه عن موقفهم إذا تبدّلت الظروف وصار المؤمنون مُسَيْطِرِينَ؟ هل تغامرون حالياً بعلاقة طيبة مع الآخرين وعلاقة سيئة مع المؤمنين لأنهم حالياً ضعفاء، وتنسون أن الأمور تتغيّر، عندها ستتركون موالاة الآخرين أليس كذلك؟ فاتركوها من الآن وإلا فَسَيُصِيبُكُمْ منه تعالى حتما عذاب في الآخرة، والمؤمنون إن حكموا وكنتم في نظرهم من المفسدين عندها سَيُحَاكِمُونَكُمْ كخونة...

(وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَـؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ{53})
عندما يسيطر المؤمنون، {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا}، يقول الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بالدين الإلهي، يقولون للذين والوا اليهود أو النصارى:

{أَهَؤُلَاءِ}، هل هم هؤلاء الأشخاص من اليهود والنصارى، {الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ}، الذين أكّدوا لكم، به تعالى، {جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ}، بأقصى ما يمكنهم من يمين من قسم قوي، إذ أقسموا لكم، {إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ}؟ أنهم سَيَنْفَعُونَكُمْ مهما كانت الظروف وحتى لو سيطرنا نحن؟ فهل سيتدخلون الآن ويتكلّفون عليكم مالياً أو بتدخّل عسكري لحمايتكم أو حماية مصالحكم؟

{حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ}، لأنَّ من والى اليهود أو النصارى حبطت أعمالهم الحسنة وفقدت قيمتها ولا أجر عليها، {فَأَصْبَحُوا}، إذ أول ما صاروا من بعد هذه الموالاة وحبط الأعمال بسببها، {خَاسِرِينَ}، فاقدين لشيء له أهمية، فاقدين لوصفهم بالمؤمنين وبالتالي لن ينالوا الأجر على الحسنات ولا المغفرة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ{54})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الأشخاص الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{مَنْ يَرْتَدَّ}، من يرجع، {مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ}، إذ هُوَ الآن في حالة انتماء لهذا القرآن وللرسول محمّد(ع)، ودينه أي التبعات التي عليه الالتزام بها هي الالتزام بالقرآن وبما يقوله الرسول(ع)، فهذا دينه وإن ارتدّ عنه فتركه ورجع إلى الكفر، {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ}، بأناس لهم كيان كجماعة متفاعلة مع دينه، {يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}، ونعرف من القرآن أن من يحبه تعالى يَكُونُ مؤمنا برّا تقيا متوكلا مجاهدا متطهرا...

{أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}، بخاطرهم ينقادون للمؤمنين فلا يتكبرون عليهم، ولا يأنفون منهم، ولا يستعلون عليهم... بل يتبعونهم بالقول والعمل والمعيشة والمسايرة...

{أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ}، فلا ينقادون لهم ولا يتبعون أوامرهم... بل يعملون على جعل المنكرين لدينه تعالى تحت أمرهم.

{يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، فالعمل الذي فيه جهد فِيهِ تعب ومشقّة في مسلك يرضى عنه تعالى لِذَا لا يتركونه بل يقومون به ولا تردّهم عنه المشقة ولا التعب، وسياق الكلام هنا يشير بالجهاد إلى قتال المعادين بدل موالاتهم خشية منهم، فهم لا يقاتلون للحصول على الشهرة أو المال أو المنصب... أو بهدف احتلال أَرَاضِي الآخرين... بل يَقُومُونَ بالعمل المجهد المتعب بالقتال فقط وفقط فيما يرضى عنه تعالى.

{وَلَا يَخَافُونَ}، ولا يشعرون بالضرر الأكيد الذي لا يمكن تجنّبه من، {لَوْمَةَ لَائِمٍ}، من اعتراض أي شخص عليهم على أساس أنهم ليس من المفروض بهم ولا من عادتهم فعل ما فعلوه، وهنا الكلام عن قتالهم للمعادين في مقابل الذين في قلوبهم مرض الذين تحدثت عنهم الآية ما قبل السابقة بوصفهم يخشون الأعداء فيوالونهم، أمّا المؤمنون الحقيقيون فلا يخشون لومة لائم وَيَلْتَزِمُونَ بتنفيذ أوامره تعالى مهما كان نوعها.

فَرَضاً لَوْ كان لمؤمن منهم تجارة أو قرابة مع كافر بهذا الدين وَمُعَادٍ، فيقاتله ولا يخشى لومه. المسلمون الذين من قبل والوا أهل الكتاب فهؤلاء أيضا سيلومون المؤمنين الحقيقيين عندما يَنْهَضُونَ ليحكموا أنفسهم، لأنهم بنهضتهم هذه سيقومون بأعمال عدائية ضد الظالمين الفارضين سلطتهم المالية أو العسكرية على المسلمين...

{ذَلِكَ}، السلوك الإيماني هو، {فَضْلُ اللَّهِ}، هو شيء جيد يعطيه تعالى من دون أن يكون فرضا واجبا عليه تعالى، {يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة ونعرف من القرآن أنه سبحانه شاء جعل هذا الإيمان الصافي للشخص الذي قرّر أن يكون مؤمنا صافيا، فيساعده سبحانه حتى يصير إيمانه عَالِياً جدا.

{وَاللَّهُ وَاسِعٌ}، غير محدود في سَعَةِ سلطته على كل شيء، وفي وفرة العطاء الذي يمنحه.

{عَلِيمٌ}، فيعلم كل شيء، وَيَعْلَمُ من يستحق نيل هذا الفضل، وعن علم يؤتي الفضل لا عن استهتار أو بلا دراسة.

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ{55})
تحدثت الآيات السابقة مطولاً عن حرمة ولاية الكفار وأهل الكتاب... وتحدثت عن بعض الحالات التي تجعل بعض المؤمنين يتركون ولاية الله تعالى... وهنا تعرّفنا السورة على من يجب موالاته:

{إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ}، فقط مرجعكم الذي تعودون إليه في أموركم وأنتم تابعون له، الذي يجب أن تطيعوه في كل شيء هو: {اَللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {وَرَسُولُهُ}، {وَالَّذِينَ آمَنُوا}، طبعاً تقصد الذين عن حق هم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، ولذلك ذكرت لهم الصفات التالية:

{الَّذِينَ يُقِيمُونَ}، يفعلون لا يهملون ولا يتركون، {الصَّلَاةَ}، التوجُّه والإقبال، يتوجهون لربهم سبحانه بالحركات والكلام الذي يعبّر عن العبادة لله تعالى، وكلمة صلاة صارت مصطلحاً دينياً يعبّر عن الصلوات الواجبة التي نقوم بها خمس مرات في اليوم.

{وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ}، يجعلونها عند من يوزّعها أو يوزّعونها هم بحسب ما أمر سبحانه، وكلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، وهي تشير لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكيةٌ، مالٌ زاكٍ، طعامٌ زاكٍ..."، ومنذ القدم صارت مصطلحاً دينياً يشير إلى دفع نسبةٍ محدّدةٍ من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ}...، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، فيدفع منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة {...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ}...، فتكون نسبةً قليلةً مما تملك بقدر لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

{وَهُمْ رَاكِعُونَ}، وهم حانُونَ لظهورهم كتعبير عن خضوعهم للأمر الإلهي.

هناك نقاش بين المسلمين حول هذه الآية، وهو نقاش روائي طائفي مذهبي بامتياز، حيث يستخدم بعض المسلمين الآية هنا للترويج لولاية الخليفة الرابع الإمام علي وأنه كان يجب أن يكون الأول، على أساس أنه الوحيد الذي تصدّق بالخاتم وهو راكع، لتكون الآية هنا تشير إليه تلميحاً أشبه بالتصريح... والفريق الآخر بعضهم أقرّ بصحّة الرواية وأنكر ربطها بالآية، والقليل منهم وفّر على نفسه مجهود النقاش واخترع رواية للخليفة الأول والثاني أنهما تصدقا بخاتم وهما راكعان... وهذا النقاش وأمثاله لا يوصلنا إلّا إلى مزيد من الفرقة بيننا.

معرفة الحقّ والدفاع عنه، وفرض معرفة الحقّ على الآخرين... هي نفسها العناوين التي يتعلّق بها أبناء كل مذهب للهجوم على أبناء المذهب الآخر! بالتالي لم يعد لجملة الانتباه من الفرقة بين المسلمين أي معنى! ولا لولايتهم لبعضهم البعض أي معنى! وأمر الاعتصام بحبله تعالى جميعاً، صار لكل فريق شروطه الخاصة به وعلى الآخرين أن يكونوا مثله ليعتصموا معه كما هو في مذهبه! وأيضاً هناك من وفّر على نفسه كل هذا النقاش ولم يعتبر الآخرين من المذاهب

الأخرى مسلمين من أصله، ومهاجمتهم لا علاقة لها بالفرقة بين المسلمين بل مهاجمتهم هي الدفاع عن الإسلام المحمدي الأصيل، وعن السنّة الأصيلة!

لا أقصد هنا تمييع أصل الموضوع، لأن أصل ما تقوله الآية هنا هو وجوب ولاية المؤمنين بل وجوب ولاية أفضل المؤمنين بتمام مواصفات الإيمان إن توافرت في أحدهم، وما قام ويقوم به المسلمون على مرِّ التاريخ من ولاية فاسقين ومنافقين، سواء الولاية لرئيس بلد أو لانتخاب نائب أو انتخاب عمدة أو مختار... أو دعم وزير أو دعم زعيم أو رئيس عائلة أو رئيس حزب... ومن دون الالتفات للأمر الإلهي بوجوب ولاية المؤمنين، علماً أن النيابة والمخترة... كلّها نماذج عن الولاية، فالولاية ليست محصورة فِيمَن لقبه: خليفة رسول الله. بل هي لعامّة أي شخص له صفة مسؤولية حتى لو كانت على مقياس مختار محلّة أو موظّف عادي له تأثير على معاملات الناس... فكل ذلك الولاية فيه لغير المؤمنين هو الخروج عمّا تقوله آيتنا هنا وعمّا تقوله العديد من آيات القرآن.

بناءً عليه دعنا نحصر الكلام في واقعنا الحالي، في زمننا، فيمن نوالي حالياً، وسترى أنها لغة لا سوق لها بين المتدينين المتمرسين في النقاشات التاريخية المذهبية الفارغة، وستجد أنه يوجد نقاش في عصرنا بين الأحزاب والجمعيات حول الرئاسة والتخطيط... وهو نفس النقاش الديني التاريخي ولكن بنسخة جديدة، فهو بين السياسيين وبدون التلفّظ بأي آية قرآنية! وبدون أي استرجاع لتاريخ أحقية الخلافة بعد الرسول (ع)!

لو فكّرت قليلاً لوجدت أنَّ تكليفنا اليوم وما سنتحاسب عليه أمامه تعالى ليس ولاية علي ولا ولاية أبي بكر أو عمر أو عثمان، بل سنتحاسب على من جعلناهم أولياء لنا في عصرنا، على المختار الذي اخترناه، على النائب الذي انتخبناه، على عضو البلدية... على رئيس الحزب... على الناطق باسم العائلة... فهذه هي الأمور التي سنتحاسب عليها يوم الموقف العظيم بين يديه تعالى.

لن أنزل إلى المستوى المتدنّي الشائع بين بعض المفسرين لأناقش فيمن نزلت الآية وما قُصِدَ منه... ففي يوم القيامة لن يكون حسابي على معلوماتي التاريخية، ونسأل: هل تعلمون من هو الأحق بالوصاية بعد موسى (ع)؟ أو من بعد عيسى (ع)؟ أو من بعد نوح (ع)... وما الفرق إن علمتم به أم لم تعلموا به؟! لماذا علقتم على نقاش تاريخي وتركتم ما ستتحاسبون عليه فعلاً؟! في يوم القيامة لن أقف وأتحاسب ليسألني تعالى: من كان يجب موالاته في العام 680 بعد الميلاد؟ ومن كان يجب موالاته في العام 200 قبل الميلاد؟ بل سأتحاسب وبشدة على من واليته في عصري، سأتحاسب على من بسببي وبدعمي وبتصويتي أو بسكوتي... صار مختارَ محلّة، أو عضوَ بلدية، أو عمدةً أو نائباً أو وزيراً أو رئيساً... فهل هو مؤمن ملتزم بما أمر تعالى أم هو أفضل المتوفرين إيماناً وأهليةً للمنصب... هذا ما سأتحاسب عليه، وهذا ما يقوله كل القرآن.

(وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ{56})
{وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ}، والذي يعتبرهم مرجعاً له وهو تابع لهم، سامعاً ومنفّذاً لما يصله منهم فقط، {فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ}، إنَّ المجتمعين المرتبطين مع بعضهم تحت عنوان اسمه تعالى، إن الذين يعتبرون أنفسهم جماعة واحدة موالية له تعالى، {هُمُ ٱلْغَالِبُونَ}، حيث ستكون الكفّة راجحة لمصلحتهم، وعملياً سيتحقّق ما يريدونه على الآخرين ولن يتحقّق ما يريده الآخرون، وهذا خبر إلهي عن التأييد الإلهي الملازم لهم ولن يجعلهم تعالى منهزمين أو تحت حكم الكافرين.

نتذكّر حديث الآيات السابقة عن أناس يقيمون علاقاتٍ وأحلافاً وتواصلاً مع غير المؤمنين، بل ومع المعادين للمؤمنين حتى يستفيدوا من تلك العلاقات إذا كان المؤمنون ضعفاءَ، هنا الآيات تؤكد لهم أن تصرفهم غير مقبول وعليه عقاب شديد، وهو خروج من ولاية الله تعالى... وتؤكد لنا جميعاً أن الثبات على ولاية الله تعالى ورسوله (ع) والمؤمنين هو مكسبٌ دنيويٌ وأخرويٌ معاً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{57})

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{لَا تَتَّخِذُوا}، لا تجعلوا أولياء عليكم من، {الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا}، ما تعتقدون به كتبعات عليكم لإلهكم ويجب أن تلتزموا بها (ما تدينون به، دينكم) فهم يتعاملون معه من خلفية أنه بلا قيمة ويستهينون به، ويستهينون بالآخرة والجنة والنار والتشريع... {وَلَعِبًا}، حيث يتسلون بدينكم ويجعلونه شيئاً للمرح والتسلية في سهراتهم وأحاديثهم لتمضية الوقت، ويتعاطون مع الدين كأنه ميثولوجيا أو أساطير أو أقاصيص للتسلية.

هؤلاء الساخرون اللاعبون، {مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ}، كاليهود والنصارى، {وَالْكُفَّارَ}، من الناكرين أصلاً للدين الإلهي، لا تتخذوا منهم {أَوْلِيَاءَ}، لا تتبعوهم ولا تعتبروهم مرجعاً لكم في أموركم، ولا تجعلوهم مسؤولين عنكم تسمعون وتنفذون كلامهم، ولو كلمة واحدة.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}، وتجنبوا مخالفة أوامره وبالتالي لتتجنبوا غضبه وعقابه إن واليتم هؤلاء.

{إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}، إن كنتم فعلاً معتقدين بدينه تعالى، فمن كان مؤمناً حقيقياً فيجب أن يتقيه تعالى ولا يوالي هؤلاء.

لاحظ أن واقع حال غير المؤمنين استهزاؤُهم بدينه تعالى عملياً، فلو اعتبروا له قيمة لوقّروه واتّبعوه، حتى لو أنَّ بعضهم على المستوى النظري وفي بعض الأمور الدينية عبّر عن احترام ما يقوله هذا الدين الإلهي، لكن هذا لا يعني أي شيء طالما لم يعتمده ديناً، لأنه حتماً لديه أمور من ديننا لا تعجبه، وهو عملياً مستهزئٌ بها.

الآن يأتي السؤال: على أي دين أنت؟ هل أنت مقتنع بهذا الدين الإلهي؟ وإن كنت كذلك فما معنى موالاتك للآخرين بما يخالف دينك؟ وهم عملياً هازئون بدينك؟

تَرَى هذه الحالة في التشريعات والقوانين المعتمدة فيما يسمّى بالدول الإسلامية، كمثالٍ اعتمدوا الربا في المعاملات البنكية على أساس أن تحريم الربا في دينه تعالى مضرّ بالاقتصاد، في هذه المسألة والوا الآخرين من الكافرين وأهل الكتاب. وخذ مثلاً الحرية الشخصية لاغين بذلك الأخلاقيات التي يشدّد عليها سبحانه، ليصير الزنا خيار شخصي، والشذوذ مثله، والعري...

للأسف لدينا نظرة حادّة للأمور بين حالتين، التزمّت الديني بالدرجة التي لم يأمر بها تعالى، وبأمور لم يقيّدنا بها سبحانه، وصولاً إلى فرض إرخاء اللحية والجلد على حلقها! ولدينا التديّن على الموضة حيث تبقى مسلماً حتى لو لم يبق من إسلامك سوى صورة الكعبة معلقة على حائط بيتك ونسخة قرآن تنفض عنها الغبار مدةً بعد مدةٍ، وقراءة القرآن من التسجيلات في الجنازات.

(وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ{58})

{وَإِذَا نَادَيْتُمْ}، إذا توجّهتم بالكلام إلى الناس، عبر الأذان، {إِلَى الصَّلَاةِ}، إلى التوجّه والإقبال، والمقصود هو التوجّه نحو الله تعالى بالعبادة الواجبة التي نكررها خمس مرات يومياً، فهذه النوعية من الناس، {اتَّخَذُوهَا}، فجعلوا من حالة النداء للصلاة، {هُزُوًا}، فمن خلفية الاستخفاف والهوان يتعاملون مع النداء للصلاة لأنهم لا يعتقدون بقيمتها بل يستهينون بها، ويتخذون من النداء إلى الصلاة، {وَلَعِبًا}، تسلية لتمضية الوقت، هم فيما بينهم يعتبرون النداء للصلاة شيئاً يسلّيهم ليبدؤوا بالتسلية بالمؤمنين وبالاستهزاء من حركات المؤمنين في الصلاة... وكيف يفعل هذا أثناء صلاته وكيف يصلي ذاك... ويسخرون من المؤمن المسارع إلى الصلاة فيقولون: أسرع قبل أن تهرب الصلاة... ذلك الفعل منهم بالاستهزاء واللعب سببه، {أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ}، فهم أناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع دينه تعالى وهم لا يفهمون حقيقة معنى الصلاة وأهميتها.

نلاحظ من القرآن كثرة تركيزه على الصلاة، وأنها من أهم علامات الإيمان العملي، واستعمل القرآن كلمة "صلاة" للتعبير عن إقبال، عن توجّه العبد إلى ربه سبحانه بالذكر، وهذا شيء مهم جداً، وبنفس اللحظة التي يحصل فيها النداء للصلاة، فيحين وقت الصلاة، ويستنفر المؤمن ليتوجّه ليقبل على ربه سبحانه بالذكر، فإن هذه النوعية من الناس تستهزئ وتتسلى بنداء الصلاة وبالمصلين! فيقولون عنها مثلاً بأنها ليست أكثر من رياضة ولياقة بدنية من وقوف وركوع وسجود... وأنها طقوس خرافية لا معنى لها... وأنها مضيعة للوقت ولا فائدة منها... فهم لا يعقلون فلا يفهمون

معنى الذكر، ومدى أهميته... فهل ستتخذ أيها المؤمن من هؤلاء أولياء وهم يسخرون من أهم نموذج عن ذكرك له تعالى؟

لاحظ الدارج في ثقافتنا تسمية الصلاة بالعبادة، وترسّخ ذلك حتى صارت كلمة عبادة تعني القيام بأعمال وحركات التقرّب منه تعالى، ولكن أصل معنى كلمة عبادة يشير لمن مفروض عليه الطاعة، وعلى هذا المعنى فقط استعمل القرآن هذه الكلمة ومشتقاتها، وإذا استعملناه على أصل معناها فيما يخص الصلاة، فهي من ناحية أنه تعالى أمرنا بالصلاة ومفروضٌ علينا طاعته بتأديتها، ففعلنا لها لأنه تعالى أمر بها هو العبادة.

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ{59})
{قُلْ} عبر هذا القرآن: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ}، يا أيها المنتسبون لكتاب إلهي، كاليهود والنصارى، {هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا}، حيث تشعرون بالنقمة علينا، وتحملون نيّة الضرر لنا، {إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ}! بسبب إيماننا، وبسبب صَيْرُورَتِنَا في حالة اعتقاد به تعالى صار لديكم شعور تنوون به الضرر لنا! {وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا}، وبسبب أننا آمنا بما أنزل تعالى إلينا من كتاب "قرآن" لذلك نقمتم منّا! {وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ}، وتنقمون منا بسبب إيماننا بما أنزل تعالى من كتب من قبل هذا القرآن "توراة وإنجيل..."، أهذه هي الأمور التي قمنا بها وكرهتموها حتى نقمتم منّا ونويتم الضرر لنا!

نحن مثلكم يا أهل الكتاب نؤمن بنفس إلهكم وليس لدينا إله آخر، نزل علينا كتاب من الإله سبحانه واتّبعناه، وآمنّا بما نزل منه تعالى من قبل عليكم، فلماذا تنقمون منّا؟ الآية السابقة اختارت نموذجاً وتحدّثت عن سخرية الكفّار وأهل الكتاب من نداء الصلاة، فيمكن أن نفهم أن الكفّار غريبون عن هذه الأمور العبادية لله تعالى، أمّا أنتم يا أهل الكتاب فلستم غريبين عنها، لوجود مثلها في دينكم، فما معنى نقمتكم على المؤمنين وصولاً للسخرية من صلاتهم لنفس الإله الذي أنتم مؤمنون به ومنتسبون لكتابه!

{وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ}، حيث إنَّ الأكثرية منكم يا أهل الكتاب خارجون عن أمور بوضوح قالها الدين الإلهي، لا علاقة لكم بها إلا بالظاهر، وهي مثل حالة غالبية المسلمين الذين يصرّون على أنهم منتمون لدينه تعالى ولكن يلتزمون بالقليل جداً جداً من أوامره تعالى، ويسخرون من المؤمنين الحقيقيين من المصلّين المزكّين الصائمين المتعففين عن أفعال السوء...

(قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَـئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ{60})
{قُلْ} عبر هذا القرآن: {هَلْ أُنَبِّئُكُم}، هل أخبركم بشيء خبره غير منتشر، {بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ}، بشيء أكثر شراً عليكم، بشيء لا خير فيه لكم، {مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ}، شيء يرجع لكم من عند الله تعالى، من سخريتكم ولعبكم بدينكم، فهل أخبركم بشيء أشد من ذلك:

{مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ}، فطرده وأبعده تعالى من رحمته، {وَغَضِبَ عَلَيْهِ}، فلن يمرّر تعالى له ما فعله بدون ردٍّ قاسٍ، {وَجَعَلَ مِنْهُمُ}، من هؤلاء الملعونين المغضوب عليهم، {الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ}، حيث غيّر سبحانه أشكال أجسادهم، فتحولوا إلى قرود وخنازير بسبب استهزائهم ولعبهم بأوامر ربهم سبحانه.

نعلم من القرآن قصة تحويل لأناس من بني إسرائيل إلى قردة، وهم كانوا تلاعبوا بعطلة يوم السبت واصطادوا فيه، ورد ذلك في الآية 166 من سورة الأعراف {فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}، وكانوا يعلمون أن العمل لإنتاج المال ممنوع يوم السبت، وكان هذا العمل نموذجاً عن بقية تلاعبهم واستهتارهم بدينه تعالى، حوّلهم سبحانه مغيّراً أشكال أجسادهم فصارت على شكل القردة، وأما التحويل لشكل الخنزير فاستنتجوا أنه حصل مع بني إسرائيل في عهد النبي عيسى (ع) لأنه ورد في سورة المائدة في الآية 78 أن بني إسرائيل لعنهم النبيان داوود (ع) وعيسى (ع) ويقولون إنَّ أصحاب السبت لعنهم النبي داوود (ع) فصاروا قردة، ويقولون إنَّ النبي عيسى (ع) لعن من كفر من بعدما نزلت المائدة من السماء فصاروا خنازيرَ، ولكن لا نعلم إن كان هذا الكلام عليه دليل، ونحن متأكدون فقط من الحادثة التي ذكرها القرآن عن أصحاب السبت الذين حوّلهم تعالى قردة، وليس لدينا تفاصيل عن المتحوّلين خنازير.

عادةً نحن نستعمل كلمة مسخ لهذه الحالة، وهذا التوصيف لم يستعمله القرآن، فالأفضل البقاء على فحوى الكلام القرآني بأنهم صاروا قردة وخنازير من بعدما كانوا بشراً، إذ ربما كلمة مسخ تحمل في طياتها معنًى غير صحيح.

ومن لعنه الله تعالى وغضب عليه جعله من: {عَبَدَ الطَّاغُوتَ}، يعبد الطاغوت فيتصرّف على أساس أنه مفروض عليه طاعة الطاغوت، فيترك حكم الله تعالى ويلحق بأي حكم آخر يعجبه، وأي حكم غير حكم الله تعالى فهو طاغوت فهو طغيان، تجاوز للحدود.

{أُولَئِكَ}، الملعونون المغضوب عليهم، {شَرٌّ مَّكَانًا}، حيث هم "معنويا في ناحية الكفر" يوصفون بأنهم في ما هو أشدّ شراً، في أبعد ما يكون عن الخير، في أكثر ما يصدر منه أمور مضرّة مكروهة، وأولئك {أَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ}، فسلوكهم ليس مستقيماً متناسباً "سوياً" مع المسلك الإلهي، فإن كان أحد ما ضالاً فيمشي على الشيء الخطأ الذي لا يوصله للغاية الصحيحة، فأولئك هم أشدّ من مشى على الشيء الخطأ البعيد جداً عن الاقتراب من المسلك الصحيح.

بعبارة أخرى فلنترك الآن الكفار المستهزئين جانباً، واسمعوا يا أهل الكتاب، فأنتم الآن تستهزئون من المتدينين ومن الدين الإلهي، وتعرفون جيداً أنه تمّ جعل أناس منكم قردة وخنازير لأنهم استهزؤوا من الدين الإلهي، فهل تتذكرون ذلك؟ فانتبهوا وتوقفوا عن الاستهزاء والسخرية.

بقي شيء نستفيد منه لمعنى كلمة نبأ، فهي خبر غير منتشر علمه، لأننا نسيناه، أو لم نسمعه كاملاً، أو يعرفه البعض ولا يعرفه الآخرون، أو لم نعرف به أصلاً... وهنا ترى أن خبر جعل أناس قردة وخنازير لم يكن حاضراً في بال أهل الكتاب الساخرين من المؤمنين، وإخبارهم به الآن هو نبأ. وهكذا نفهم أنه تعالى في يوم القيامة ينبئنا عمّا قمنا به، فبعض ما قمنا به نسيناه، وبعضه أصلاً لم نعرف به، فنحن بعد موتنا لا نعلم بالآثار التي نتجت عن تشجيعنا للآخرين لارتكاب السوء، ولنا حصّة من ذلك...

لاحظ أن كلمة طاغوت تبدو غريبة بعض الشيء، فهي غير منتشرة الاستعمال، ويبدو أنها اشتقاق قرآني "من الطغيان" وربما لم يسبق أن استعمله العرب، أو ربما استعملوه قبل نزول القرآن ولكن لم يصلنا أثر عن ذلك منهم عبر أشعارهم، ومثلها حالة كلمة إستبرق، فمن البديهي أن أشعارهم قبل الإسلام لم تستعمل كل كلمات اللغة العربية وكل الاشتقاقات من الكلمات.

أشار القرآن بكلمة طاغوت للشخص وللقانون وللشريعة... التي تخالف حدود الحقّ والصلاح وهي نفسها الحدود الإلهية، فأي مخالفة هي طغيان، فهي خروج عمّا حدّده لنا تعالى، فإن اعتبرت نفسك عبداً لإنسان أو لإله غيره تعالى فقد طغيت وعبدت الطاغوت، وإن اعتقدت بعقيدة تخالف العقيدة الإلهية فقد طغيت وعبدت الطاغوت... وهكذا، فالطاغوت صفة عامة لكل أنواع وأشكال الطغيان، والقرآن قصد بها الطغيان على الأوامر الإلهية.

(وَإِذَا جَآؤُوكُمْ قَالُوَاْ آمَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ{61})

{وَإِذَا جَاءُوكُمْ}، فجاء إليكم أهل الكتاب، {قَالُوا آمَنَّا}، اعتقدنا بأن دينكم صحيح. {وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ}، فهم حين جاؤوكم دخلوا عليكم بحالة الكفر بحالة إنكار صحّة دينكم، {وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ}، فعندما خرجوا من عندكم خرجوا أيضاً وهم منكرون لدينكم ولا يؤمنون به.

فقط يقولون بألسنتهم بأنهم آمنوا بدينكم ولكن عملياً هم دخلوا لعندكم كافرين بدينكم، وقالوا كلاماً... ثم خرجوا كما دخلوا كفّاراً من دون أي تغيُّرٍ.

{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ}، يعلم تعالى ما احتفظوا به من كفر ولم يعلنوه، فهم يضحكون فقط على أنفسهم عندما يكتمون كفرهم ويظهرون إيمانهم.

(وَتَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{62})

{وَتَرَى}، ويحصل عندك صورة محدّدة لـ، {كَثِيرًا مِّنْهُمْ}، الكثير من أهل الكتاب، {يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ}، يرتكبون الذنب وهم يعرفون أنهم يفعلون السوء، عندما يتاح لهم سوء ما فهم لا يفكّرون بالموضوع، بل يسارعون إليه ويفعلونه أول ما تتاح لهم الفرصة بالرغم من علمهم بأنه معصية.

ويسارعون في، {الْعُدْوَانِ}، في تجاوز حدودهم بالاعتداء على الشريعة الإلهية وعلى الناس، يعارضون تشريعاً إلهياً بتشريع مخالف، ويسلبون الناس حقوقهم... هجومك على بريء لضربه هو عدوان، وإن كنت عالماً بقيمة سوء فعلتك فأنت آثم، وهكذا فكل السيئات وجوه لعملة واحدة يختلف تصنيفها من وجهة نظر ما، فهي ذنب وإثم وجرم وعدوان ومعصية... ولكن تبقى كلها سيئات ولذلك تتداخل في التصنيف من ناحية سوئها، ومن الصعب فصلها عن بعضها، فالجرم ما عليه عقاب، والإثم ما معلوم سوؤه، والذنب مخالفة الأوامر، والعدوان تجاوز الحدود...

ويسارعون في، {وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ}، استهلاك المال الحرام الذي يسحت يطحن يمسح الدين، مثل المال الذي يحصلون عليه من الرشوة والخمر والربا والغش... فهذا المال سحت للدين، لأنَّ الدين يحرّم هذا المال، ولكنهم يأكلونه، ومن يأخذه ويستعمله فدينه مسحوت مطحون ممسوح، ليس متديناً من يستعمل هذا المال.

{لَبِئْسَ}، يا لسوء، {مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، تَعرَّفْ على أعمال أكثر أهل الكتاب، فهم يستهزئون منكم ومن دينكم، واعرف حقيقتهم، فهم يسارعون في الإثم والعدوان... فأيها النبي (ع) وأيها المؤمن هل هذه النوعية من الناس تستحق أن تواليهم وتترك ولاية الله تعالى والرسول (ع) والمؤمنين! أم يستحقون أن تحزن وتتضايق من استهزائهم!

ننتبه جيداً، بضبابيةٍ نتعامل مع أمثال آيتنا هنا بأنها مهانةٌ لأهل الكتاب وبالتالي نشعر بأننا أفضل منهم، بينما الآيات هنا موجهةٌ لهم، وعنهم لنا، فانظر في مجتمعاتنا المسمّاة بالمسلمة وأخبرني ماذا ترى؟ ألسنا نسارع في الإثم بتعاطي المخدرات والخمور والزنا... ألسنا عصابات عائلية وحزبية ولصوصاً وحكاماً فاسدين... نعتدي على بعضنا البعض... ألسنا نتعاطى الربا ونتاجر بالمحرمات...؟

(لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ{63})
{لَوْلَا يَنْهَاهُمُ}، لولا يأمرونهم بأن يتركوا ولا يكرروا، {لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ}، الأشخاص التابعون للربّ، المنتسبون للمسؤول عنهم من مستوى إلهي، وهم كالمشايخ عند المسلمين، هؤلاء من المفروض أنهم يعلمون الحلال من الحرام فلو أنهم يقومون بواجبهم وينهون أهل الكتاب...

ولولا ينهاهم، {الْأَحْبَارُ}، والحبر جمعها أحبار هي صفة لعالم الدين عند اليهود، في العربية تعني: من تعطيه قيمة عالية. وهنا تشير للعلماء المتخصصين برتبة من نقول عنه فقيه "مجتهد" في ثقافتنا، لو أنهم قاموا بواجبهم بنهي أهل الكتاب...

لو يقوم الربانيون والأحبار بواجبهم الديني وينهون أهل الكتاب، {عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ}، عن الكلام السوء الذي يعرفون أنه حرام، وهو كلام السخرية من الدين الإلهي والتعامل معه كأنه لعبة للتسلية.

ولولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن، {أَكْلِهِمُ السُّحْتَ}، عن استهلاك المال الذي يَسْحَتُ يطحن الدين، وهو أي مال ينتج عن عمل سوء، كالربا والزنا... لولا يفعل الربانيون والأحبار ذلك بدل السكوت.

{لَبِئْسَ مَا}، يا لسوء الذي، {كَانُوا}، كان أهل الكتاب، {يَصْنَعُونَ}، هناك أشياء سيئة نتجت عن قول الإثم وأكل السحت وترك النهي عن المنكر، ما أسوأ ما صدر عنهم.

مجتمع أهل الكتاب كان يرتكب الإثم وأكل السحت، ومن واجب الربانيين والأحبار نهي أهل الكتاب عن المنكر، لو كانوا يقومون بواجبهم لما وصلت الأمور إلى هذا الحدّ.

نفس الكلام موجّه لأمتنا بمشايخها وفقهائها الذين بغالبيتهم كان اختصاصهم التفرقة بين المسلمين ودعم الحكام الفاسدين، وكان اختصاصهم التخالف بالتشريعات الفاسدة، والقلّة القليلة النادرة منهم لم يجدوا جمهوراً راغباً باتباع الحق ليؤيّدهم... ولهذا ترى انتشار الفساد الديني بين الناس.

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ{64})
قالت اليهود: {يَدُ اللَّهِ}، القدرة والقوّة والوسيلة التي يفعل بها تعالى شيئا ما، والتي في المخلوقات هي اليد كأداة لفعل الأشياء، قال اليهود إنها {مَغْلُولَةٌ}، فعليها شيء ثقيل يقيّد فعاليتها، وسياق الكلام يدلّ على أنهم يقصدون أنه تعالى يمكنه إعطاء الفقراء ولكنه قرّر أن يَغُلَّ يده ولا يبسطها للفقراء، فمن المشهور بين الناس "حتى الآن"، أن اليهود "بشكل عام" طمّاعون بخلاء، متعلقون بالمال، ونرى في الرسالة الإلهية "القرآن" تكرار أمره تعالى للمؤمنين بالإنفاق والصدقة والزكاة... ومن الواضح من مختلف الآيات أن شريعة اليهود كانت أيضا تأمرهم بالزكاة والإنفاق على الفقراء والمحتاجين... وكمثال عن ذلك ما سبق وذكرته السورة هنا في الآية 12 "وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ... وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ..."، وعندما جاء القرآن ليأمر الناس بالصدقة والزكاة، ويذكّر اليهود بها، عندها اعترضوا بهذا الكلام الذي تنقله الآية هنا، لأنهم حرّفوا دينهم لدرجة اختفاء أمر الزكاة منه أو تشويهه وهو نفس ما تلاحظه في غالبية مجتمعاتنا الإسلامية حيث لا يهتمّ الناس بدفع الزكاة، ولا بمساعدة المحتاجين...

أقول لك هذا لأن كلام القرآن عن التصرفات السيئة لليهود كان يقصد منه تصحيح وتصويب الدين الإلهي لهم، وللأسف نفهم نحن منه قَصْدَهُ إهانتهم وتعريتهم من الإيمان وكأنه فقط موجّه إليهم، ولا نفهم منه أن من يفعل مثلهم منّا فالإهانة لاحقة به معهم، فنتعامى عمّا نفعله نحن من سوء، وهو نفسه ما ذكره تعالى من سوء أفعال اليهود وتوعّدهم عليه بالعقاب الشديد.

يقول اليهود: لماذا يأمرنا الله تعالى بالإنفاق من مالنا على المحتاجين؟ فإن كان يملك كل شيء فلماذا هو لا يعطي المحتاجين! إذن "ولسبب من الأسباب" يده مغلولة مقيّدة بثقل ما، فإما لم يتمكّن من الإنفاق أو قرّر أن يحتفظ بما لديه ويريدنا نحن أن نخسر مالنا بإنفاقه على المحتاجين...

ردّه تعالى على كلامهم: {غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ}، هم أيديهم التي عليها ثقل قيّدها من الإنفاق على المحتاجين، لأن حبّهم للمال وللاستعلاء على الآخرين... وبخلهم هو ما جعل أيديهم لا تنفق على المحتاجين، وهذه هي الحقيقة.

قبل كلامهم عنه تعالى عن سبب قبض يده عن بعض الناس، ليسألوا أنفسهم هم لماذا يدهم مقبوضة ولا تنفق؟ أيتحدثون عن غلّ يده سبحانه فهم أيديهم ما بها؟

{وَلُعِنُوا}، فلعنهم فطردهم الله سبحانه من رحمته، {بِمَا قَالُوا}، بسبب قولهم عنه تعالى بأن يده مغلولة.

علينا رؤية الأمور من منظوره تعالى، حيث مساعدة المحتاجين أمر إلهي، وتنفيذه واجب كالتزام وطاعة للأمر الإلهي، ومن جانب آخر ومساعدة الآخرين عمل خير تدفعنا إليه إنسانيتنا، لأنه سبحانه جعلنا هكذا، وعندما يأمرنا بالإنفاق لا يأمرنا سبحانه بأمر غريب علينا، بل يتماشى مع فكرنا ونفسيتنا اللذين نرى منهما ضرورة مساعدة المحتاجين.
واعترض من اعترض على الأمر الإلهي سائلا عن سبب تركه تعالى لمساعدة المحتاجين وأمره تعالى له بأن يقدم هو الشخص من ماله للآخرين، فلماذا؟ هل يده تعالى مغلولة ويأمرني أنا أن أنفق بدلا منه؟ لذلك ردّ سبحانه بوصف واقع حال السائل، فأنت الغني الميسور الذي لا ينفق، أنت يدك المغلولة.

الكلام يجرّ الكلام، فالشؤون الإلهية لم تعتمد طريقة إنزال المال من السماء على الناس فردا فردا، بل اعتمدت إتاحة الموارد للجميع، ولسبب أو لآخر "فساد الشخص أو فساد الناس" وبعضهم لا يحصل على ما يكفيه، وآخرون يحصلون على ما زاد عمّا يحتاجونه، لذلك أمر سبحانه الأغنياء بمساعدة المحتاجين، ومن لم ينفق فيده مغلولة.

{بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ}، بل سبحانه يداه مفتوحتان مطلقتان وليستَا مَغْلُولَتَيْنِ، {يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة للإنفاق ويقرّر كيفما يريد ويعطي من يشاء، ويعطيه من أي شيء يقرّره، فهو سبحانه يقرّر لمن سيعطي، ويقرر ماذا سيعطي. وما معكم وما مع غيركم من مال وأملاك أراضٍ أو مواشٍ... من أين وصلكم؟ ومن أين حصلتم عليه؟ هل جاءكم من عالم ليس تابعا لله تعالى! أم من الموارد التي أتاحها تعالى لكم حصلتم على ما معكم؟ أليس من ذلك ومن تقديره تعالى لكم صرتم أغنياء؟ فهذا محنّك وذاك يغتنم الفرص وآخر عامل مجدّ... وغيرهم بسيط وخمول... وذا ورث

مالا وآخر اجتمعت ظروف لنجاح باهر لتجارته... كل هذا من تقديره تعالى لمختلف الصفات التي ستكون عليها البشرية... ولو كانت يده تعالى مغلولة فمن أين حصلتم على ما معكم!

هكذا ترى أن الآية اختارت نموذجا من أبرز الأسباب التي تجعل اليهود ينفرون من الإسلام: إنفاق المال.

عن نسبة يد له تعالى، تعلم صراحة وبوضوح من الآية 11 من سورة الشورى أنه تعالى "... {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}..."، فكل ما نتصوره في عقولنا وخيالنا عنه تعالى فهو غير صحيح، فإذا كنّا لا نستطيع تصوّر شكل الملائكة(ع)، لأنها ليست من نفس المادة التي نتكون منها نحن، فلا يمكننا تصوّر أجسام لها، فبالتأكيد لا نستطيع تصوره تعالى لأنه لا يشبه أي شيء، والصورة التي ترسمها للملائكة(ع) في بالك على شكل ولد أو رجل أو أنثى أو... فهي خيالات تتوهّمها ولا تعبّر عن أي شيء حقيقي، وحتى فكرة وجود الجسم للملائكة(ع) هي فكرة افتراضية تخيّلية، فنحن وبسبب اعتيادنا على وجود جسم لكل كائن من حولنا، وما حولنا كائنات مؤلّفة من طين "من كربون وكالسيوم وحديد..."، نفترض أن أي كائن ومهما كانت مادّة تكوينه فنفترض أن له جسما، وهذا افتراض ربما يكون غير صحيح، وربما يكون لا معنى له في عالم مختلف عن عالمنا.

على كلّ حال فعندما تقول الآية: {يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ}. فكلمة يد معناها أن القدرة الوسيلة "الأداة" التي يستعملها تعالى حتى ينفق ليست مغلولة، ولا يذهب فكرك عزيزي بأنه تعالى لديه يد بخمس أصابع مثل يدنا أو بمليون إصبع، لا، ولا بأي شكل يمكن أن يكون له تعالى أعضاء، هذا مستحيل لأنه تعالى ليس مخلوقا فليس مركّبا ولا مؤلّفا من أي شيء.

نفس الكلام عن وجهه تعالى، فسبحانه يرى كل شيء، ولكن في حالة وصف توجهه تعالى بالعناية لشخص ما، أو وصف توجهنا نحن نحوه تعالى بلغتنا، نقول إنَّه تعالى بوجهه توجه، بما يتوجّه به توجّه، برحمته برأفته بمغفرته... توجّه إلى عبده...

بغضّ النظر عن أصل نشأة كلمة يد كوصف لحالة المساندة والدعم أو الفعل "تأييد"، أو كاسم لأداة "يدّ"، ففي مختلف اللغات البشرية انتقلت غالبية الكلمات من الاسمية للوصفية، وهكذا تصير دلالتها أوسع وصولا إلى صيرانها أفعالا، وترى ذلك بسهولة من كلمة وجه، فمنها فعل التوجيه، ويبدو من كلمة يد أن منها فعل التأييد، وانتشار الوصفية لكلمات اللغة العربية ولغيرها من اللغات طاغٍ، فاستعمال كلمة يد ووجه وعين... له تعالى حقيقي وليس مجازا ولا استعارة ولا كناية... ولكنه ليس إشارة لعضو، بل وصف الحال.

لتقريب الفكرة أكثر ننظر لكلمة "ذراع وساق" فأي حديدة أو عصا تستعملها لرفع أو قرص أو لي... شيء ما، ففي مختلف اللغات تسميها على الوصفية بالذراع، ونفس الشيء لكلمة ساق لعموم ما قام عليه الشيء، فأنا لي ساق، وللنبتة ساق، ورجل الكرسي، ورجل الطاولة...

نفس الشيء لكلمة جناح، فهي للطائر الذي ذراعه مغطىً بالريش المتيح له الطيران، والجناح للملائكة هو القدرة على فعل الأشياء، وللجيش هي الفرقة العسكرية القتالية...

نرجع للآية، {وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}، من المسؤول عنك من مستوى إلهي، والكلام هنا عن التشريع القرآني بوجوب الإنفاق على المحتاجين فهذا سوف يزيد الكثيرين من أهل الكتاب، {طُغْيَانًا}، تعدّيا تجاوزا للحدود الإلهية، وسيزيدهم، {كُفْرًا}، إنكارا للدين الإلهي.

هم أصلا طغاة كفّار، وأنت أيها النبي(ع) ينزل عليك تشريع يأمرهم بصرف القليل من مالهم على المحتاجين، وهذا سوف يزيد من طغيانهم وكفرهم، ولنقل إنهم لكثرة ما تلاعبوا بدينهم حيث صار عندهم قناعة "باطلة" بأن الإنفاق على المحتاجين ليس واجبا، بل هو هدر للمال! متجاهلين متعامين عن ظروف صعبة تمرّ على الناس وتجعلهم فقراء أو مساكين، فليس كل الناس خمولين كسولين حتى صاروا فقراء... وها قد نزلت من السماء أوامر إلهية واضحة تأمر بالإنفاق، وهذا شيء لا يحبّه بعض أهل الكتاب، فازدادوا طغيانا وتعديا على الشريعة، فلم يلتزموا بالأوامر الواضحة بل تعدّوها ولم ينفذوها، وزاد إنكارهم للدين الإلهي! فقالوا إن يد الله مغلولة، ولذلك يأمرنا أن ننفق، فلن ننفق، لأنه مالنا، ونحن تعبنا في تحصيله، ونحن أحرار فيه، ولا دخل لله تعالى به، فلينفق هو تعالى من ماله...

{وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ}، فرمى سبحانه مشاعر كره الخير للآخرين وتلقاها اليهود فصاروا يكرهون الخير لبعضهم البعض، ومعلوم أنهم صاروا مذاهب وطوائف وأحزاباً يعادون بعضهم البعض، وألقينا بينهم، {الْبَغْضَاءَ}، الكره من درجة النفور من التعاطي نهائيا مع الآخر، {إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، فحتى يأتي زمن القيام من الموت لن تتوقف عداوتهم وكرههم لبعضهم البعض.

لاحظْ حالة العداوة والبغضاء بين المسلمين الآن! فرغم تنبيه القرآن لنا بضرب الأمثلة عن اليهود، ترانا لم ننتفع من الكلام! واعتبرناه إهانة إلهية ونشر الغسيل الوسخ لليهود، على أساس أن غسيلنا ناصح البياض... أصلا تلاحظ سورتنا هنا بالتحديد تتحدّث معنا للانتباه مما وصل إليه عموم أهل الكتاب من انحراف وسوء... لننتبه، ولكننا لم ننتبه! ووصلنا لما وصلوا إليه، وإن كنت تراهم متفقين ولا ترى بينهم العداوة والبغضاء، فأنت لم تر جيدا، وانظر لحالنا نحن المسلمين نتقاتل على مستوى الدول، ونتقاتل على مستوى الطوائف والمذاهب، وعلى مستوى البلدات والقرى... ونتقاتل على مستوى العائلة فهذه العائلة المسلمة متعادية ومبغضة للعائلة المسلمة الأخرى! وحتى العوائل من نفس المذهب تتقاتل! وحتى في بيوتنا بين الأهل والأقارب تجد عداوة وبغضاء! والسبب هو نفسه ما تحذّرنا السورة منه: موالاة غيره تعالى، موالاة غير المؤمنين... السخرية والاستهزاء بالشرع الإلهي...

{كُلَّمَا أَوْقَدُوا}، كلما أشعل اليهود، {نَارًا لِّلْحَرْبِ}، {أَطْفَأَهَا اللَّهُ}، أخمدها تعالى وأنهى اشتعالها، فلولا التدخل الإلهي لكانوا قضوا على بعضهم، ولتحوّلت العداوة إلى التنفيذ والحرب، ونرى من تاريخهم كثرة الحروب فيما بينهم.

للأسف نلاحظ من تاريخنا كثرة الحروب فيما بيننا، ولا أحد يهتم! ونقرأ آيات القرآن وكأنها تتحدث للتسلية عن قصص اليهود بدل أن ننتبه ونتعلّم منها! وكأن القرآن كتاب حكايا!

{وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا}، فيتحرك اليهود وهم يقصدون حصول فساد وخراب في الأرض، فيعملون على تخريب حياة الناس ومواردهم ومصادرهم ومستقبلهم... فلا يراعون الأوامر الإلهية التي فيها حلال وحرام وواجب... فهذه الأوامر إذا التزمنا بها فإنها تضمن حياة صالحة لكل الناس، ولكنهم تركوها ويتصرفون فقط بحسب ما يرونه هم مناسبا لهم على أساس أن دمار الآخرين وفساد حياتهم لا مشكلة فيه!

{وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}، فتقييمه سبحانه سلبي للذين يخرّبون الأرض وحياة الناس، فتعاطيه تعالى معهم يكون بما هو ضروري فقط بدون أي رغبة بالتعاطي معهم.

ضع في بالك في عموم ما ورد في القرآن أنه تعالى لا يُحِبُّ، حيث وردت حيث لا داعي للكلام القاسي، وخذ مثلا كلامك معي حيث تريد تحذيري وتنبيهي فتقول: سأكسر عظامك لو فعلت كذا وكذا... فهذه نبرة عالية لا مبرر لها لأنك تعلم أني حاليا لست ناوياً لفعل السوء، والجملة الأنسب: لا أحب أن تفعل كذا وكذا... وعلى هذا المفهوم جاءت الآيات التي وجّهت كلامها مع المؤمنين مستعملة عبارة مشابهة لعبارة "الله يحب أو لا يحب".

هنا سترى في الآية التالية كلامٌ ليّنٌ مع أهل الكتاب، ومن الضروري أن تتذكّر أن الكلام القرآني عنهم لهم، وعنهم لنا، لأننا من بعدهم فنحن أهل كتاب أيضا، فنفس الكلام موجّه لنا، فمعلوم لك أنه تعالى توعّد المفسدين من العيار الثقيل بالخلود في جهنّم، فتلطيف العبارة هنا بأنه تعالى لا يحبّ المفسدين فهو ليس تلطيفاً للفساد ليبدو قليل الخطورة، بل كلام ملاطفة مع الذين فيهم أمل أن يتركوا الفساد أو أن لا يفعلوه تقليدا للذين من حولهم.

بقي شيء من الفضول، فما يقولونه عن إعجاز تكرّر بعض كلمات القرآن بعدد ملفت، كقولهم عن تكرار كلمة ليل 12 مرة وكلمة نهار 12 مرة... حيث تتبعت غالبية الكلمات التي قالوها ووجدت غالبية كلامهم كذباً إلا في أقل من عشر كلمات، ومما تحققت وتأكدت منه كلمة شهر بالمفرد "شهر، شهرا" حيث تكررت 12 مرة، وتكررت كلمة شهر بالمثنى "شهرين" مرتين فقط. كلمة "رجل" بالمفرد تكررت 24 مرة، وكلمة "امرأة، امرأت" أيضا تكررت 24 مرة. كلمة "يأمرون" تكررت 7 مرات، وكلمة "ينهون" أيضا تكررت 7 مرات. كلمة "الخبيث" بالمفرد تكررت 7 مرات، وكلمة "الطيب" بالمفرد تكررت 7 مرات. وهناك كلمات أخرى فيها الكثير من التراخي والاستنسابية بحيث يلغون كلمة أو كلمات لسبب غير وجيه ويدّعون أن الأعداد متساوية كقولهم عن تكرار كلمة ملائكة والشيطان.

الغريب أن الحالة الوحيدة الصادقة بالتمام والوضوح، ليست منتشرة في مقالاتهم وكتبهم! حيث فعلا تكررت في القرآن جملة "الله يحب" 16 مرة، وجملة "الله لا يحب" 16 مرّة.

لكن، هل هذا يعني أي شيء؟ لا، لا يحتاج القرآن لخزعبلات من هذا النوع ليصير له قيمة أو لنؤمن بأنه من مصدر إلهي، لأن ما فيه من حقّ وصلاح هو قيمته.

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ{65})
{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ}، لو أن الناس المنتمين لكتاب إلهي كاليهود والنصارى، لو أنهم، {آمَنُوا}، اعتقدوا فعلا بالدين الإلهي عن حقّ، {وَاتَّقَوْا}، فتجنبوا، فتحاشوا السيئات وبالتالي تجنبوا غضب وعقاب ربهم سبحانه، وهذا تعبير آخر عن أنهم لو آمنوا وعملوا الصالحات، عندها، {لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ}، لغطيناها وسترناها ولم نجعلها تظهر في يوم القيامة، فغفرناها لهم بل ولم يعلم بها أحد.

ورد صراحة في الآية 31 من سورة النساء أن تكفير السيئات مشروط بالابتعاد عن الكبائر {إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا}، ومن آيات عديدة في القرآن نعلم أن التوبة من أي ذنب كان مهما كان كبيرا فالتوبة الحقيقية تجعل المؤمن مستحقا للتكفير عن ذنوبه.

ولو أنهم آمنوا واتقوا، {لَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ}، لجعلناهم يدخلون إلى الأماكن التي توصف بروعة ما فيها من مناظر خلابة من حدائق وبساتين... وطبعا المقصود هو الجنّات التي في الآخرة، {النَّعِيمِ}، وهي التي كل ما فيها يوصف بأنه جيد محبوب، نِعْمَ ما هو.

كما ترى فالآية تتحدث عنهم قبل نزول القرآن وبعد نزوله، فقبله لو آمنوا وعملوا الصالحات لَغُفِرَتْ ذنوبهم ودخلوا الجنة، وبعده لو آمنوا به وعملوا الصالحات أيضا لَغُفِرَتْ لهم ذنوبهم ولدخلوا الجنة.

عادة عندما نقول: أهل الكتاب، يذهب فكرنا لليهود والنصارى، ولكن هناك طوائف غيرهم كالمندائيين والصابئة والإيزيديين... علماً أن القرآن فصل في التسمية بين المسلمين وبين من سبقنا من المنتمين لدينه تعالى بوصفهم أهل الكتاب، فالكلام الموجّه لهم هو موجّه لنا لأننا نحن أيضا أهل كتاب.

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ{66})
{وَلَوْ أَنَّهُمْ}، أهل الكتاب، {أَقَامُوا}، فعّلوا ولم يهملوا ولم يتركوا، {التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ}، ولم يعطّلوها ولم يتركوا العقيدة والتشريعات والسلوكيات التي فيها، ولو أنهم أقاموا، {وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ}، أي فعّلوا ما وصلهم من المسؤول عنهم من مستوى إلهي، كالقرآن والصحف والوحي الذي نزل على الأنبياء... عندها، {لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم}، لكانت الخيرات والأرزاق تحيط بهم من كل جانب، لو فهمت أن المقصود أن السماء ترزقهم مطرا مناسبا، والأرض ترزقهم نباتا مناسبا، فنفس الشيء، لأن السماء من فوق والأرض من تحت وهي كل الجوانب التي نتوقع منها رزقه تعالى.

{مِّنْهُمْ}، من أهل الكتاب يوجد، {أُمَّةٌ}، أناس لهم امتداد تاريخي وعندهم رأي مشترك يعتمدونه، أناس موصوفون بأنهم أمّة: {مُّقْتَصِدَةٌ}، حيث لا تمارس كلّ دينها، كما تكون مقتصدا في مصروفك وتصرف بمقدار الحاجة فقط ولا تشتري أشياء زائدة عن حاجتك، هناك أناس متدينون ولكن على الحدّ الأدنى من التدين، لا يبحثون عن الحلال والحرام والواجب والمباح... ولا يتفقهون في الدين حتى يمارسوه كاملا وبشكل صحيح وبدقة، لأنهم مقتصدون ويكتفون بما يعرفونه وبما هم مقتنعون به "حتى لو كان خطأ".

{وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ}، الكثيرون من أهل الكتاب، {سَاءَ}، أي لم يكن خيرا، {مَا يَعْمَلُونَ}، لأن أعمالهم كانت سيئة.

تريد هذه الآية والتي سبقتها إفهامنا أن تطبيق الشريعة كما هي لا يسبب إلا الخير العميم في الآخرة وفي الدنيا، ولكنَّ الناسَ حرمت نفسها من هذا الخير واقتصدت في دينها وهذا سينتج عنه فعلها للسيئات بدرجات متفاوتة في خطورتها، ولكن الكثير من أهل الكتاب أعمالهم سيئة لذلك حتى إن وصف المقتصدين دينيا من الصعب أن نصفهم به.

ننتبه جيدا لهذه الآية، حيث هناك آيات مشابهة لها في القرآن كالذي ورد في الآية 96 من سورة الأعراف "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"، حيث تؤكد أن المجتمع المؤمن سيعيش في رغد وبحبوحة تحت رضا إلهي، طالما هو مؤمن بالمجمل وبدرجة مقبولة فإنه سيتدخّل سبحانه ليسيّر الأمور بما فيه سعادتهم بالقدر الذي تتحمّله السعادة في الدنيا، وإذا كانت غالبية المجتمع لم تكن على الدرجة المقبولة إيمانيا فربما يعيش في فقر أو في بحبوحة ولكنه سيكون محروما من الرضا الإلهي، والعقاب سينزل حتما حين ينقطع الأمل من إيمانهم أو إيمان ذريتهم... وهذا نفهمه بشكل واضح من قصص ثمود وعاد وفرعون الذين كانوا يملكون قوة اقتصادية ضخمة وعاشوا في هناء قبل نزول العذاب الإلهي عليهم... ونفهمه من قصص مدين وأصحاب الأيكة وقوم النبي نوح(ع) وقوم النبي لوط(ع) الذين لم تكن ظروفهم سيئة وكانت حياتهم عادية ولكنهم ارتكبوا ذنوبا وانقطع الأمل من إيمانهم لذلك أصابهم العذاب...

نلاحظ شيئا آخر مهما جدا، حيث كثيراً ما تساءلنا عن المؤمن الذي يتعرض للابتلاءات، واستغربنا كيف لا يكون تحت رعاية الله تعالى! لأن الفرد الواحد المؤمن بين فاسقين أو منافقين أو كفار، سيعاني بالتأكيد، حيث لا يوجد تأكيد إلهي له بأنه تعالى سيتدخل ليعيش المؤمن مرتاحا، ويجب عليه أن يهاجر إن ضغطوا عليه لفعل السوء... إلا إذا كان مؤمنا من الدرجة العالية جدا كحالة النبي إبراهيم(ع) الذي أنجاه تعالى من الحريق... وكحالة بقية المؤمنين من الدرجة العالية أو المقبولة الذين نجّاهم تعالى من العذاب الذي نزل على أقوامهم، كنجاة الأنبياء نوح وشعيب وصالح وهود... ومن معهم من المؤمنين في النجاة من العذاب الذي نزل على أقوامهم...

يوجد تأكيد قرآني أن "التقي" سيرزقه تعالى من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب، كما ورد في الآيات 2 و 3 من سورة الطلاق "... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ..."، والكلام عن التقي في مجتمع مؤمن، وليس عن التقي في مجتمع من الكفّار المعادين للمؤمن، حيث سيعاني المؤمن بينهم... وتكمن المشكلة في تحديدنا للتقي كتطبيق عملي للآية، حيث نظن فلانا تقيا ونرى أموره متعثرة! وهذا يتعارض مع ما تقوله الآية! أو نظن أنفسنا أتقياء ونرى أمورنا متعسّرة!... ولكن لو راجعنا أنفسنا بدقة، وحكمنا على تصرفات أنفسنا "لأكثر من ساعة" لوجدنا أننا نرتكب المحرمات عن قصد، لأن الكثير من الناس حين يتعرضون للمشاكل ويتوجّهون له تعالى بالدعاء، حيث إنه لمدة دقيقة أو دقيقتين قبل الدعاء فقط لم يقوموا بعمل سوء، وبالنظر لهذه الدقيقة فقط هم أتقياء ممتنعون عن السوء، وعلى أساسها يعتبرون أنفسهم أتقياء ويجب أن يستجيب سبحانه دعاءهم ويرزقهم! أو يشفيهم... علما أنه ولو سوءاً واحداً نفعله عن قصد فهو كفيل بإخراجنا من صفة "التقي"، ونحتاج بعدها لقبوله تعالى لتوبتنا...

كما ترى إن الآية هنا تقول إن إقامة التوراة والإنجيل كدستور هو كفيل بجعل حياة الناس سعيدة والخيرات تأتيهم من كل الجوانب، وعمليا حيث فيهما شرائع كفيلة بجعل حياة الناس سعيدة، ومن يعتمد أساسيات تلك الشرائع وأهمها موالاة الأفضل والأجدر للحكم، وأن يكون الجميع سواسية تحت نفس القانون، ومحاسبة الفاسدين وإيقافهم عن أنشطتهم الفاسدة... ونظم التكافل الاجتماعي لمساعدة المحتاجين... وهذا ما أمر تعالى به والمجتمع الملتزم بها سيكون سعيدا حتى لو كان كافرا به تعالى وبكتبه.

بعد ذلك تأتي التفاصيل عن تدخّله تعالى لمنع الكوارث الطبيعية أو إحداثها، لأن هذا مرتبط بدرجة إيمان المجتمع، فإن ساد فيهم سوء من العيار الثقيل فسيأتي عليهم زمن ينهارون فيه لسبب أو لآخر، وخذ مثلا انتشار الربا الذي في النهاية يوصل المجتمعات إلى طبقة ضعيفة كل أمورها المالية متعلقة بيد طبقة أقوى منها ماليا يمكنها التلاعب بأسعار العقارات وقيمة العملات وأسهم الشركات... وخذ مثلا تشريع الزنا أو غض النظر عنه، ومعه امتصاص راحة الناس بساعات عمل تستهلك قواهم لتأمين حياة متوسطة... ومع عوامل أخرى منها الدعاية لحياة الرفاهية والوصول لأقصى السعادة... مما نتج عنه ابتعاد الكثيرين عن تأسيس عائلة وإنجاب أولاد... وهذه الدودة ستأكل هذه المجتمعات وتجعلهم في تناقص...

هكذا صرنا نرى الفرق بين تطبيق تشريعاته تعالى وآثارها على رفاهية المجتمعات، حتى لو كانوا كفاراً وطبّقوا بعضا من أساسيات التشريعات الصالحة فهم سينعمون بنتائج تلك القوانين، حتى لو لم يقولوا إنهم استفادوها من كتبه تعالى، لأن ما جعله تعالى فينا من قدرة على تمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، فإذا فعّلناه فهو كفيل بجعلنا نرى الخير من الشرّ في الذي ندرسه لنعرف خيره من شرّه...

أما لو كانوا مسلمين كلّهم وينتشر فيهم الظلم، فهم سيتعسون بنتائج ممارساتهم، ولا معنى لتدخله تعالى لإنقاذهم من سوء حالتهم لمجرد أنهم مسلمون، لأنهم بإرادتهم وصلوا إلى سوء الحال وما زالوا مستمرين على ممارسة السوء.

صرنا أيضا نرى معنى الكلام القرآني عن تدخلاته تعالى أحيانا لإحداث كوارث أو تركها تحصل أو منعها، حيث إنها متعلقة بدرجة الفساد المنتشر في مجتمع ما، وهذا بغض النظر عن وصفهم الديني، لأن كل الحالات التي تحدّث عنها القرآن وأنه تعالى أحدث كوارثَ لإهلاك قوم ما، فإن كفرهم به تعالى لم يكن السبب الوحيد ولا الرئيسي لإهلاكهم، بل تجد دائما سببا آخر يكون فعل سوء من العيار الثقيل الذي لم يعد الوضع يتحمّل تركه، لذلك يتدخل سبحانه.

لا تنسَ ما ورد منذ قليل في هذه السورة عن عقاب ليس له مثيل فعله تعالى بالمنتمين لدينه من يهود ونصارى بسبب سوء ضخم فعلوه، حيث جعلهم تعالى قردة وخنازير، إن ما تراه من سوء حالة المسلمين والكوارث التي تصيبهم، فلو كان في مجموعهم خيرٌ لكانت حالتهم الاقتصادية جيدة لأنهم سيطبقون تشريعات عادلة... ولتدخّل سبحانه لمساعدتهم بمنع الكوارث عنهم...

لذا لا تنظر لمجتمعاتنا بضبابية وصفها بالمسلمين وأنه تعالى يجب أن يعتني بهم... لا، لأننا بغالبيتنا الساحقة مسلمون بالاسم مثلما تصف الآية الذين سبقونا من أهل الكتاب، حيث إن البعض منّا أمة مقتصدة، كمجتمعات صغيرة منتشرة هنا وهناك وهي محافظة على بعض ممارسات التدين ومن حولهم غالبية ساحقة {سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ}.

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ{67})

{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ}، يا محمد(ع) الناقل لكلام الإله سبحانه إلى الناس، {بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}، لأنَّ هذا القرآن وصلك من المسؤول عنك من مستوى إلهي ويأمرك بتوصيله للناس كما هو كتبليغ كتوصيل تامّ، {وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ}، وإن لم تبلّغ ما نزل إليك، {فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ}، لأنَّ أيَّ تقصير يجعلك غير موصوف بتبليغ الرسالة الإلهية بالتمام فسيعتبره تعالى كأنك أصلا لم تقم بوظيفة التبليغ، لأنها وظيفة لا تتحمل أن تنقص منها أي شيء.

{وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}، حيث لا يجعلهم يصلون إليك، فإن كنت تحتمل قيامهم بردة فعل على تبليغك الرسالة بالتمام فسبحانه كفل لك أنهم لن يقدروا على فعل أي شيء ضدّك ولا ضد رسالتك.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي}، لا يضع على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {الْقَوْمَ}، الناس الذين لهم كيان كجماعة ومتفاعلون مع ما تبلّغه لهم، {الْكَافِرِينَ}، المنكرين للدين، لذلك لا يجبرهم على الإيمان ولا ينير قلوبهم بل يتركهم لشهواتهم وللشياطين، وما نزل عليك ففيه هداية لمن أراد أن يؤمن، فلا تهتم بمن لم يؤمن، لأننا نعصمك.

سياق الكلام السابق والتالي عن المقارنة بين ما عليه أهل الكتاب من تحريف، وبين ما يعرضه تعالى علينا في قرآنه عبر رسوله(ع)، وسبق أن أشرنا في دراستنا هذه مرارا لحالة النبي محمّد(ع) والمؤمنين به على أنهم على دينه تعالى الممتد من آدم(ع) مرورا بموسى(ع) وعيسى(ع)، وهكذا نظر إليهم اليهود والنصارى كدخلاء متطفلين على دينهم، ومن هذه الأجواء هم يقارنون ما لديهم مع ما يعرضه النبي محمّد(ع)، وهكذا يصير النبي محمّد(ع) كالمحرج أمامهم إن نقل لهم منه تعالى عقيدة أو تشريعا لا يتماشى مع عقائدهم وتشريعاتهم.

نفهم الآية هنا بوضوح أكثر عندما نستذكر الآيات الأخرى الواصفة لعموم حالة الرسول محمّد(ع) في مختلف الظروف كالآية 147 من سورة البقرة {الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}، وكالآية 74 من سورة الإسراء {وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا}، والتثبيت بأمثال ما تقوله الآية هنا.

حول آيتنا هذه كلام تفسيري مذهبي طائفي كثير، وكلامنا هنا جريا على ما تبيّن لنا من دراستنا هذه للقرآن من فصل للآيات عن الحوادث التاريخية إن لم تشر لها الآيات بشكل صريح، لأنَّ تأويل الآيات لشيء لم تقله علنا وصراحة هو باب سبّب ضياع فهمنا للقرآن، وسبّب نزولا في مستوى تفاسيره، وسبّب مزيدا من الفرقة بين المسلمين... وآيتنا هنا واحدة من نماذج التفسير المذهبي المنتشر بين المسلمين، على خلفية أحقيّة الولاية من بعد الرسول(ع) لأي واحد من الصحابة... ولن أطيل عليك الكلام فيما تعلمه.

اسمح لي يا عزيزي ويا عزيزتي أن أتناول موضوع الولاية على المسلمين من بعد الرسول(ع) من زوايا أخرى، حيث إنَّ مُشَجِّعِي كرة القدم غالبا وعادة يشجعون فريق بلدتهم، سواء لعب بشكل جيّد أو سيّء، فاز أو خسر، لأنه من المعيب تشجيعهم فريق البلدة الأخرى وترك فريق بلدتهم... وهذه هي نفسها نفسية الدفاع عن الشخصيات التي تعتبرها خاصة بمذهبك وطائفتك، لذلك ترى نفسك مدفوعا بتنزيل مستوى الآخرين ورفع مستوى شخصياتك. وحتى ترى بسهولة معنى ما أقول تصوَّرْ نفسك مولودا في بيئة المذهب الآخر، أو تصوّر الآخر مولودا في بيئة مذهبك، والنتيجة معلومة، حيث سيشجّع الشخصيات التي تشجعها بيئته! وكأنه لا حقّ ولا باطل في الموضوع! وكأن المسألة مسألة وراثة!

ثانيا، إنَّ رَفْعَ مستوى الشخصيات التي تخصّك والاستهانة بشخصيات الآخرين يعطيك شعورا بالفوقية وأنك أنت مستواك أرفع من مستوى الآخرين، حيث كَمْ من متجاهر بالذوبان بحبّ علي بن أبي طالب وهو لا يصلّي ولا يصوم ويرتكب الفجور علنا! وكم من محبّ لعمر وهو لا يشبه عُمَرَ في نظافة كفّه وزهده ورفضه لتوظيف أقاربه وقساوته فيما يعلم أنه حقّ... لأنَّ هؤلاء بمستواهم المنخفض يشعرون بالارتفاع من الانتماء لأشخاصهم الدينية!

ثالثا وبالعكس، كَمْ من مهاجم لعمر وهو غني بفحش من مال المسلمين الذي لم يمسسه عمر! لأنَّ عمر مات مديونا! وعمر قصّ عباءته حتى لا يستحي الفقراء من عباءاتهم القصيرة! وكم من معاد لعمر وأبناؤه وأقاربه فوق القانون ويتقاسمون مواقع السلطة وعمر رفض إعطاء أصغر وظيفة لابنه الذي لا يختلف عن بقية من وظّفهم عمر! وكم من منظّر للولاية خرج بنتيجة أن هدم الاسلام حصل حين لم يتعين عليٌّ كأول خليفة، وهو في الانتخابات يوالي أقاربه ومن له معهم مصلحة ولا يفكّر ولو للمحة بانتخاب وتأييد من يرضيه تعالى!

الجدل بهذا النقاش العقيم الذي لم ينتج عنه إلا الفرقة واستمرارها بين المسلمين واجب الخوض فيه حتى إظهار الحق، أليس كذلك؟ أيُّ حقّ سيظهر؟ وستثبته لمن؟ وبعد ذلك ماذا سيحصل؟ بَدَأَ الغباء منّا وأضاف عليه أعداء الأمة وقودهم ومشينا فيه كالأنعام، وصار كلام ككلامنا هنا شاذاً مرفوضا من الجميع! لأنَّ الجميع مصرّون على التمذهب ولا يريدون الاكتفاء بوصف المسلم! علما أن النبي إبراهيم(ع) كان أول المسلمين بالتسمية، وكان ذلك المطلوب منه فقط ليكون خليلا له تعالى، والاسلام كاف لأي كان ليكون على الخط الإلهي، ولكن هؤلاء يرفضونه ولا يقبلونه إلا مع كلمة مذهبية أو طائفيةٍ تميّزهم عن الآخرين!

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ{68})
{قُلْ}، أيها النبي(ع) عبر هذا القرآن: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ}، يا أيها المنتسبون لكتاب إلهي "كالتوراة والإنجيل..."، {لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ}، أي لستم مؤمنين في اعتباره تعالى، ولا قيمة إيمانية لمنظركم المتدين، {حَتَّىٰ تُقِيمُوا}، حتى تفعّلوا ولا تتركوا أو تهملوا، {التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ}، ولا تتركوا هذه الكتب معطلة بترك ما فيها، بل أقيموها وفعّلوها واجعلوها عقيدة وشريعة لكم، ولستم على شيء حتى تقيموا، {وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ}، لأنَّ هذا القرآن هو آخر ما نزل من المسؤول عنكم من مستوى إلهي ويجب أن تلتزموا به أيضا، والقرآن كما علمنا من الآية 48 السابقة هو مهيمن على الكتب السابقة، لذا حاليا يجب تنفيذ ما فيه، وترك ما قبله.

الآية السابقة أكّدت لنا أن ناقل القرآن قام بوظيفته على أكمل وجه حيث بلّغ ما أنزل إليه من ربّه سبحانه، لذلك نحن أمام كتاب فيه كل ما أراد سبحانه توصيله لنا.

فحوى الكلام يعني أنهم لو أقاموا التوراة والإنجيل لما وجدوا فرقا جوهريا ولا كثيرا بين كتبهم وبين ما يبلّغه لهم الرسول محمد(ع)، لأنَّ الفروقات بين التوراة والإنجيل قبل تحريفهما بالمقارنة مع ما في القرآن على مستوى العقيدة

بالأخبار عنه تعالى وعن أفعاله هي صفر، وبالنسبة للتشريعات فالأساسيات كلّها واحدة، وهناك فروقات نادرة جدا في بعض التشريعات، وأمّا بقية الفروقات بين ما عليه "في زمن نزول هذه الآيات وحاليا" أهل الكتاب وبين القرآن فهي ناتجة عن تحريفهم لكلامه تعالى واختراعهم لعقائد وتشريعات من هواهم الفاسد.

{وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم}، حيث إنَّ الكثيرين من أهل الكتاب سيزيدهم، {طُغْيَانًا وَكُفْرًا}، {مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}، لأنَّ الكتب الإلهية من مصدر واحد، ونحن نتوقع والنبي محمد(ع) أيضا كان يتوقّع أن يزداد إيمان أهل الكتاب عندما يجدون كتابا جديدا صافيا نازلا من المسؤول عن كل الناس من مستوى إلهي، وهو هذا القرآن، ولكن الكثيرين منهم سيزيد طغيانهم تعديهم وتجاوزهم للحدود، ويكبر ويكثر تخطيّهم لحدود الشريعة الإلهية، لأنهم مسبقا طغوا بترك ما في كتبهم وزاد طغيانهم بترك ما في القرآن، وسيزيد كفرا حيث سيزيد إنكارهم للدين الإلهي بسبب إنكار هذا الكتاب "القرآن" ومن قبله أنكروا ما في كتبهم...

{فَلَا تَأْسَ}، أي لا تشعر بالأسى، ولا تنزعج من شيء حصل وكنت تتوقّع حصول ما هو أفضل منه، حيث كنت تتوقّع فرحهم بالكتاب الإلهي الجديد، ولكنهم كفروا به! وهم سيبقون على ما هم عليه من الطغيان والكفر، {فَلَا تَأْسَ}، {عَلَى الْقَوْمِ}، على الناس الذين لهم كيان كجماعة متفاعلة مع دينك، {الْكَافِرِينَ}، الناكرين للدين الإلهي، لأنهم لو كانوا فعلا منتمين لكتاب إلهي لكانوا تلهّفوا للإيمان بالكتاب الجديد، ولكنهم لم يقيموا كتبهم لذلك هم ليسوا على شيء وهم: كافرون.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{69})
{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين اعتقدوا والتزموا بدينه تعالى، حتى لو لم يكن لدينهم اسم مشهور.

{وَالَّذِينَ هَادُوا}، وهذا وصف صار اسما دينيا لبني إسرائيل مع الذين انتسبوا لدينه تعالى من الأمم الأخرى، وأصل الكلمة وصف للذين أنابوا ورجعوا إلى الله تعالى في أمورهم وشؤونهم، {وَالصَّابِئُونَ}، الأشخاص الذين صبؤوا وخرجوا عن دين الكافرين من حولهم، وأيضا هذا الوصف صار اسما دينيا اشتهر به المؤمنون بالنبي يحيى (ع)، {وَالنَّصَارَىٰ}، الجماعة الذين قالوا إنهم سينصرون وسيعملون على تحقيق ما يريده أحدهم، وهذا الوصف صار اسما دينيا لمناصري النبي عيسى(ع).

هذه الأصناف الثلاثة من الناس: {مَنْ آمَنَ} منهم {بِاللَّهِ}، فاعتقدوا أن صاحب الاسم المحدد المميّز الله ربّهم وإلهم الواحد الأحد، {وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، أيضاً آمن واعتقد بحياة ستأتي في الآخر بعد الموت في الدنيا، وأنَّ فيها حساباً على ما عملناه في الدنيا، {وَعَمِلَ صَالِحًا}، فقام بالأعمال التي توصف بأنها صالحة جيّدة وبما أنه سبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح فالمؤمن عمليا قام بالواجبات وترك المحرمات التي يأمر بها تعالى، فهؤلاء ضمن هذه الشروط، {فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} حيث من الناحية الإلهية لن يشعروا بحصول ضرر أو خطر عقاب، بل سيشعرون بالأمان، {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}، إذ لن يصيبهم أي شعور مزعج ولا لأي سبب، سواء من المكان أو من الذين في المكان... أو بسبب فقدانهم لأي شيء، فهنا سيتركون بعض الأمور لأنها سيئة يحرمها تعالى، ولكن ما سيجدونه في الآخرة سيجعلهم لا يحزنون أبدا على أي شيء فاتهم من الدنيا، لأن ما سيجدونه في الآخرة أروع بكثير مما تركوه في الدنيا.

الحزن عموما هو الشعور مجردا عن أي تعبير، فهو شعور داخلي بالانزعاج وإن ارتفعت درجة التأثر سَبَّبَتِ البكاء، وسببه التعامل مع ما هو ليس على التمام بالنسبة لك، ويقابله السرور. وهي ليست محصورة بالحزن على فقدان شيء ما، بل عمومية لكل ما ليس على الخاطر.

نلاحظ أنَّ الآية تحدثت عن أربعة أقوام بالصفة: حيث راج في القرآن استعمال وصف "الذين آمنوا" للمؤمنين بالإسلام، ونعرف أن الإسلام صفة عامة تشمل كل مؤمن حقيقي عبر التاريخ. وثانيا، وصف "الذين هادوا" لليهود، كما ورد في الآية 156 من سورة الأعراف حين نقلت عن النبي موسى(ع) قوله: {هُدْنَا إِلَيْكَ}. ومعناها رجعنا وأنبنا إليك، ومن هذا الدعاء جرى اشتقاق صفة لقومه فصار اسمهم "يهوداً"، ونجد في اللغة العبرية أن كلمة يهود مشتقة من الفعل هاد، ومعناها أنبنا ورجعنا، ودينيا فهي الإنابة والرجوع إليه تعالى. وثالثا وصف الصابئين، حيث إنَّ كلمة "صبأ" دينيا تعني

أنه خرج وتميّز عن دين الناس الذين حوله، وهذا الوصف اشتهر به الكثير من المؤمنين الذين صبؤوا وخرجوا عن دين الكفر عبر التاريخ وأشهرهم أتباع النبي يحيى (ع). ورابعا النصارى وهي صفة العاملين على تحقيق شيء ما، وصارت مصطلحا وصفيا يشير للمنتمين لدينه تعالى المؤمنين بالنبي عيسى(ع).

كما تعلم دائماً يركّز القرآن على الإيمان والعمل الصالح معا، لأنَّ كِلَيْهِمَا يُوصِلَانِ إلى الجنة حتما، أما واحدة منهما دون الأخرى فلا توصل إلى الجنة.

نلاحظ أن معاني الآية هنا وردت باختلاف بسيط في سورة البقرة الآية 62 {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}، هناك كانت كلمة الصابئون معطوفة على إسم إن منصوبة، وهنا مستأنفة مرفوعة.

(لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ{70})

{لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}، فسجّلنا على ذرية النبي يعقوب(ع) أنهم أعلنوا التزامهم بالشيء المؤكّد بقوّة، لأنَّ دينه تعالى ميثاق، لذلك لا يتحمّل دينه تعالى التراخي أو التهاون به، فمن أعلن وبأي طريقة كانت أنه متدين بدينه تعالى صار تحت ميثاق، تحت شيء لا يتحمّل التراخي أو التهاون به، ولو تراجع "فسقا أو نفاقا أو كفرا" فمثله مثل بقية الكفار.

{وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ}، إلى الناس المنتسبين للنبي يعقوب "إسرائيل(ع)"، أرسلنا، {رُسُلًا}، أشخاصا ينقلون رسالة من الله تعالى، ينقلون الإرشادات والأوامر الإلهية.

يعني هذا أنَّ الرسول محمّد(ع) ليس بدعة، حيث من المعلوم أنه تعالى مُدَّةً بَعْدَ مُدَّةٍ أرسل في السابق رسلا منه، ومن المعلوم أن الرسول يكون ناقلا لكلامه تعالى، وعندما يوظّف سبحانه أحداً ما كرسول فهذا يعني أنه يوجد حالة تستدعي نقل كلام منه تعالى للناس، ومن المعلوم أن سبب هذه الحالة هو فساد أو انحراف الناس عن دينه تعالى، وهي الحالة التي استدعت إرسال محمد(ع)، وسترى هذا المعنى واضحا في تكملة الجملة:

{كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ}، بشيء لا تحبه ولا تستهويه، {أَنفُسُهُمْ}، كأن يأمرهم بترك الربا والتوقف عن أكل مال الأيتام، وإقامة الحدود... {فَرِيقًا}، قسما من الرسل، {كَذَّبُوا}، حيث قالوا عنهم إنهم ليسوا صادقين في كونهم رسلاً منه تعالى، فلم يؤمنوا بهم، {وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ}، وقسم آخر من الرسل قاموا بالاعتداء عليهم لإنهاء حياتهم!

لذا ما يحصل معك أيها النبي محمد(ع) من بني إسرائيل ليس جديدا، فهم في السابق كذبوا الرسل، بل قتلوهم أيضا، ولنفس السبب، وكما أنت الآن لا تعجبهم فيما تبلّغه لهم منه تعالى، فإنَّ نفسَ الشيء حصل سابقا مع رسله تعالى إليهم.

نجد في التوراة قصصا كثيرة عن تكذيب الناس للرسل، حيث كذّبوا النبي داوود(ع) وابنه سليمان(ع)، وأشهر من كذّبوه من حملة الرسالة كان النبي عيسى(ع)...

حوادث قتل الأنبياء والمؤمنين قليلة عبر التاريخ قياسا مع عدد كل الناس، وقياسا مع الحروب التي خاضها مختلف الناس وقتلت الملايين... وفرضا لو حدثت مرّة واحدة، وقتل قوم ما نبيا واحدا، فهذا يكفي حتى يكون نموذجا لا يمرّ عليه تعالى بالنظر للعدد "واحد"، لا، بل هذا الواحد أهمّ عنده تعالى من المليارات، وسيذكره تعالى في كلامه كنموذج لأبشع ما يمكن أن يفعله الكافرون بآياته تعالى. والمشهور بين الناس أنهم قتلوا النبيين يحيى (ع) وزكريا(ع)، وليس لدينا في القرآن أي تسمية أو ذكر لحادثة جرى فيها فعلا قتل نبي إلا محاولتهم قتل النبي عيسى(ع) وظن البعض أنهم صلبوه، ولدينا في التاريخ كلام عن محاولات اغتيالهم للنبي محمّد(ع) وقبله محاولة اغتيال للنبي داوود(ع) وللنبي سليمان(ع)، وربما لم يتحقّق فعلا قتل لأي نبي عبر التاريخ ولكن صار موصوفا من حاول قتلهم بأنه قاتل للأنبياء بالرغم من منعه تعالى من حدوثه، وراجع استعمال العرب والقرآن لكلمة "قتل" ومشتقاتها وسترى أن المباشرة بأي عمل بقصد إنهاء حياة الآخر هي قتل، حتى لو لم يتحقّق القتل، لذلك فإنَّ التعبير بقتلهم النبيين ليس بالضرورة أنه تحقّق وأنهم فعلا أنهوا حياة نبيين، بل يكفي قيامهم بعمل يقصدون منه إنهاء حياة نبي ما، ليكون عمل قتل حتى لو لم يتحقّق.

إن خطر ببالك أن التعبير بقتالهم المؤمنين سيعطي بشكل أصرح المعنى الذي ذكرناه، عندها يكون كلامك صحيحا ولكن من تبعات هذا التعبير أن يكون القتال من الطرفين، وهذا معنى لا تريد الآية قوله.

(وَحَسِبُواْ أَلاَّ تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ{71})
{وَحَسِبُوا}، حيث خطر في بال بني إسرائيل ومن دون أي تفكير أو دليل، {أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ}، حيث خطر في بالهم أنهم أعلنوا تديّنهم، وهم أهل كتاب، لذا فإنَّ وضعهم تمام، ولن يفتنهم أي لن يعرّضهم سبحانه لشيء يؤثّر بهم، ولن يمتحنهم سبحانه برسول يحمل دينا صحيحا ليرى موقفهم منه.

{فَعَمُوا}، حيث لم يعودوا يَرَوْا، ولم يبصروا ما تأتيهم به الرسل! {وَصَمُّوا}، حيث أصابهم الصمم ولم يسمعوا ما يقوله الرسل! {ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}، حيث لم يعاقبهم كلهم على مخالفة الرسول، ونتذكّر القصص التي حصلت مع بني إسرائيل حين كانوا يخالفون الرسل ويقومون بالسيئات... وينزل عليهم العقاب... ويتوب سبحانه على من بقي منهم... وكمثال عن ذلك حادثة عبادتهم للعجل كما ورد في الآية 54 من سورة البقرة "{وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ}..."، ولكن مع مرور الزمن كانت حالتهم تتكرر! {ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا}، حيث لم يبصر ولم يسمع، {كَثِيرٌ مِّنْهُمْ}، لأنَّ الكثيرين من بني إسرائيل انحرفوا عن الدين الإلهي... وعادوا لارتكاب السيئات جيلا بعد جيل.

أكرر لك، للأسف نحن نقرأ هذه الآيات كإهانات لبني إسرائيل علما أنها هي حالتنا نحن المسلمين!

{وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}، إذ إنَّ صورة أعمالهم يدركها تعالى ويعي معناها، وهو ليس مثل كاميرا المراقبة التي تسجّل ولا تفهم ما يجري، حيث يراقب سبحانه ما يعملون من قتل وتكذيب وتعطيل لبصرهم ولسمعهم.

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ{72})
ننتقل إلى حالة الابتعاد الشديد عن الميثاق الإلهي، وهي حالة تتعارض مع أصل الإيمان:

{لَّقَدْ كَفَرَ}، أي أنكر ولم يعتقد، {الَّذِينَ قَالُوا}:

{إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ}، فمن قال هذا الكلام فهو كافر لأنه لم يعتقد بألوهيته تعالى بشكل صحيح. وانتبه جيدا، لأنَّ كلمة كفر في القرآن معناها: أنكر، لم يعتقد. وَأطلقها القرآن على كل من أنكر شيئا ما، إذْ إنَّ النبي إبراهيم(ع) ومن معه كفروا بدين قومهم كما ورد في الآية 4 من سورة الممتحنة "{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ ... كَفَرْنَا بِكُمْ}..."، ويعتبر القرآن أي إنكار لأي شيء يقوله ربنا سبحانه، هو كفر، ولو بشيء واحد تعلن فيه إنكارك له، وَخاطب القرآن بني إسرائيل والمسيحيين ووصفهم مرارا بالكفّار لأنهم أنكروا أشياء من الدين أو أنكروا القرآن والرسول الحامل له وراجع كمثال مَا ورد في الآية 70 من سورة آل عمران "{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ}"، ووصف القرآن كثيرا مِنْ عبدة الأصنام والملحدين بالكفّار، ووصف الذين أعلنوا بأنهم مسلمون بالكفر حين أنكروا أو خالفوا شيئا من الدين راجع كمثال الآية 177 من سورة آل عمران "{إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}"، والآية 66 من سورة التوبة "{لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}...".

إذَنْ لا يحق لنا نفي صفة أهل الكتاب ولا صفة الإسلام عن شخص أنكر شيئا من الدين، فهو مسلم بأشياء وكافر بأشياء أخرى. وَأطلت عليك الكلام بسبب ما نجده في كتب الفقه لعموم المسلمين من أحكام تخصّ الكفّار، كنجاستهم وحرمة الزواج منهم وحرمة توريثهم... وإباحة دمهم ومالهم وعرضهم... لذلك أطلت عليك الكلام لتنتبه أن بعض تعميمات تلك الكتب لأحكام الكفّار كَيْ تجري على أهل الكتاب وعلى من نطق بالشهادتين هُوَ كلام فارغ نابع من نفسية إجرامية تفتي في الدين الإلهي من نفسية مجرمة مستهترة بأكبر المحرمات، لأنَّ الذي تسقط حقوقه هو فقط وفقط الكافر المعادي المحارب، وراجع في ذلك دراسة سورة الممتحنة، والذي يجيز تعالى قتاله أيضا المسلم الباغي حربا على مسلمين، ولكن هذا ولا بأي شكل تعامله كالكافر، حيث إنَّ قتاله حتى يرتدع عن ظلمه مسموح فقط، أمّا عرضه وماله ودمه فحرام، وراجع في ذلك الآية 9 من سورة الحجرات "{وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ

إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}".

نلاحظ أن النبي عيسى(ع) سمّاه القرآن أحيانا بالمسيح، لأن بني إسرائيل كَانُوا ينتظرون قدوم نبي ليكون ملكا عليهم، وفي تراثهم يوجد مراسم مسح رأس من سيصير ملكا بزيت الزيتون، وَأَطْلَقُوا اسم المسيح على النبي الذي سيأتي والذي وعدهم به الأنبياء السابقون... وإلى الآن فَإِنَّ اليهود لا يزالون ينتظرون المسيح، ولكن القرآن يؤكد لهم بأنه جاء فعلا وهو عيسى ابن مريم عليهما السلام حيث إِنَّهُ ملك معيّن منه تعالى للناس، وصفة الملك بالتعيين منه تعالى لا تتأثر بكون الناس لم يتّبعوه.

حَسَناً، قال بعض الناس إِنَّ المسيح هو الله عزّ وجلّ، ولكن هل قال لهم النبي عيسى(ع) ذلك؟ وَلْنَرَ ماذا قال:

{وَقَالَ الْمَسِيحُ}(ع):

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}، يا ذرية النبي يعقوب(ع)، {اعْبُدُوا اللَّهَ}، أي تصرّفوا على أساس أنكم مفروض منكم طاعته تعالى، {رَبِّي وَرَبَّكُمْ}، المسؤول عني وعنكم من مستوى إلهي، فأنا مثلي مثلكم عبد مربوب وربي هو ربّكم الله تعالى.

كَلِمَةُ عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة وَهِيَ مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

كَلِمَةُ ربّ تقال لعامة من لديه مسؤولية عناية بالآخرين، كَـرَبِّ البيت كوصف للأب، وربّة المنزل كوصف للأم، وربّ العمل... لِذَا على مستوى كل واحد ومَسْؤُولِيَّاتِهِ يكون الوصف، وبالنسبة له تعالى فهو ربّ من مستوى إلهي.

{إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ}، أي من يجعل له تعالى شريكا في الربوبية والألوهية، {فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ}، حيث سيمنعه تعالى نهائيا من دخول المكان الذي في الآخرة والموصوف بالروعة.

{وَمَأْوَاهُ}، أي مسكن ومكان إقامة المشرك بالله تعالى، {النَّارُ}، وهي المكان المشتعل الذي في الآخرة.

{وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ}، حيث لن يجد الأشخاص الذين لم يكونوا منصفين عادلين حين أشركوا، وَلم يكن معهم حقّ حين أشركوا لأن التوحيد واضح جدا أمامهم، لن يجدوا أَحَداً ينصرهم وَيعمل لتحقيق النجاة لهم من عذاب النار، لِذَا لا حلّ لهذه المشكلة.

لِذَلِكَ لا النبي عيسى(ع) ولا الروح القدس(ع) ولا السيدة مريم(ع) ولا غيرهم لَدَيْهِمُ القدرة على تخليصكم من النار إن أشركتم، فانتبهوا.

تَعْلَمُ من المشهور جدا جدا في التاريخ أن النبي عيسى(ع) في حياته لم يقم تلامذته "حَوَارِيُّوهُ" بتربيبه أو تأليهه، وحتى في الأناجيل المحرّفة المنتشرة في عصرنا لَنْ تجد تصريحا بألوهية النبي عيسى(ع)! وها تنقل الآية لك ملخصا عن كلامه (ع) في حياته، وأنه كان يدعو لتوحيده تعالى.

بِالنِّسْبَةِ لبعض الألفاظ الواردة في بعض الأناجيل والتي يصف فيها النبي عيسى(ع) الله تعالى بوصف "أبي"، راجع التراجم المختلفة للأناجيل وستجد أن البعض منها فقط استعمل كلمة "أبي" والآخرون استعملوا كلمة ربي أو سيدي أو ما يشابهها من أوصاف، بل وحتى في تلك الأناجيل التي استعمل الناس فيها كلمة "أبي" لوصفه تعالى، سَتَجِدُ فيها وصف الأبوة لكل الناس، "أبيكم". هَذَا النوع من التراخي والتساهل في العبارات لدرجة وصف الأبوة له تعالى لبشري أو لبقية البشر، هُوَ من أسباب فساد عقائد الناس الذين في قلوبهم مرض وَيَتَعَلَّقُونَ بمثل هكذا أمور ليثبتوا للآخرين أن عقيدتهم صحيحة، بينما أدلتهم ما هي إلا خرافات وإضافات وتساهل وَتَرَاخٍ في ترجمة كتابه تعالى إلى لغة غير الآرامية.

أَنْتَ تعلم أن دينه تعالى ممتدّ من آدم(ع) مرورا بالنبي عيسى(ع) وصولا للنبي محمّد(ع) خاتم الأنبياء، فما معنى أن يأتي رسول ليقول للناس إِنَّهُ الله شخصيا متمثّل على شكل بشر! هَذَا أصلا مستحيل وَغير ممكن. وكما ترى إِذْ إِنَّ كُلَّ القرآن يؤكّد أن كل الرسل ينقلون نفس الكلام عنه تعالى، لِذَا مِنَ الواضح شُذُوذُ بعض المسيحيين بادّعائهم أن الرسول عيسى(ع) ادّعى الألوهية.

هَذَا نوع ونموذج من الناس الذين كفروا حينما جعلوا النبي عيسى(ع) هو الله شخصيا، وهناك تطوّر ونوع آخر من الشرك:

(لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{73})

{لَّقَدْ كَفَرَ}، لقد أنكر ولم يعتقد بشكل صحيح، {الَّذِينَ قَالُوا}:

{إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ}، حيث قالوا إنَّ هناك آلهة ثلاثة، والله تعالى واحد منهم، والمشهور بين بعض الناس قولهم إنهم: الله عزّ وجلّ، النبي عيسى(ع)، والملاك جبريل(ع) الروح القدس.

{وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ}، أي لا يوجد أحد موصوف بالصفات والقدرات الفائقة ليكون إلها حقيقيا، {إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ}، وكما تعلم من عموم مفاهيم القرآن، فهو الله سبحانه وتعالى يخبرنا أن وصفه بالألوهية لا يتحمّل وجود إله آخر، لأنَّ صفة الألوهية والطبيعة الإلهية لا تتحمّل وجود اثنين منها، فهي لواحد فقط ومستحيل أن يكون منها اثنان. وكثيرا ما كرّر القرآن وبشفافية أنه تعالى لا يرى إلّا نفسه وأمامه السماوات والأرض التي خلقها، وبشفافية يخبرنا تعالى أنه لم يلمس أي أثر لأي كائن إلا للمخلوقات التي هو سبحانه خلقها، ومن هذه النظرة كثيرا ما كرّر لنا أنه تعالى وحده الإله الخالق بالصفات والقدرات الفائقة والبقية مخلوقات... وراجع كمثال عن ذلك الآية 18 من سورة يونس "{وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ}".

وها أمامك التاريخ والأناجيل "رغم تحريفها"، حيث لا شيء فيها عن ألوهية الملاك جبريل(ع) "الروح القدس"! ولكن فلسفتهم للأمور لتبرير قولهم عن خلق النبي عيسى(ع) بطبيعة إلهية، جعلتهم يقحمون الروح القدس الذي بواسطته تشكّل النبي عيسى(ع) في بطن السيدة مريم(ع)، فجعلوه إلها، وبعضهم ذهب أكثر من ذلك، فألّه السيدة مريم(ع)!

{وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا}، إن لم يتوقفوا عن شركهم بلا عودة إليه، {لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، ليمسّنّهم أي سيشعرون شعورا حقيقيا بضرر يؤذيهم، {عَذَابٌ أَلِيمٌ}، حيث لن يكون سهلا ولا عاديا ولن يمكنهم تحملّه، وقد يتصور البعض أن التعذيب سيكون مثلما ترى كابوسا في المنام وجسدك بحالة سليمة، لا، لأنَّ العقاب في النار حقيقي ومرعب ومؤلم جدا ولا يخفّ أبدا.

نَنْتَبِهُ أَنَّ أي شكل من أشكال الفلسفة والكلام المنمّق والمزخرف والمتلاعب به... لا يفيد، لأنَّ الله تعالى هو الإله الواحد، فمن يقول بأنه يعترف بالله تعالى أحدا واحدا لا شريك له، ولكن النبي عيسى(ع) منشق منه، أو تجسّد للإله، أو صورة للإله... أو فيه نفحة إلهية... فكل هذا كلام فارغ، وشرك، وحسابه عسير جدا جدا...

لاحظ عزيزي القارئ أن بعض المفسرين علّق على كلمة "ما" في جملة "وما من إله إلا..."، واعتبرها مثل كلمة: ما هذا؟ عندما تسأل عن شيء، في مقابل: من هذا؟ عندما تسأل عن إنسان. ولكنها "ما" النافية، ولا علاقة لها بما تحدثوا عنه، وقارنها مع نفس "ما" التي وردت في الآية السابقة: {وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ}. فهي نفسها "ما" التي نستعملها للنفي. وأما ما قالوه فهو اصطلاح منطقي فلسفي ولا تعنيه كلمات القرآن.

تذكّر دائما أننا كبشر جعل سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرّف عليه سبحانه من ملاحظة أفعاله "آياته في خلقه" ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء... وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق بالقوّة الإلهية الفائقة عند الوقوع في الشدائد... لذلك وضعنا كلمة نصف بها الكائن ذي الصفات والقدرات العالية جدا عن قدراتنا، وهي كلمة "إله" كوصف لذي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلّق به عند الوقوع في الورطات...

وفي الحقيقة إنَّ الكائن الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة هو الله سبحانه، وقد تساهل الناس في استعمال كلمة إله لتنطبق على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، فيطلقونها على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أن فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص "{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي}...".

والقرآن يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهي، فيقوّم اللغة ككلّ، ويقوم دقة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة "إله"، فيخبرنا أنها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرّج في استعمالها.

المشركون الناطقون باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... استعملوا كلمة إله بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

قارنها مع كلمة "ربّ"، فأنا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... فهذه كلمة تتحمّل التدرّج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهي، فهي لا تتحمّل التدرّج، فهي حصرا له تعالى ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهي.

كلمة إله في حقيقة معناها لا تتحمّل التدرج لِيُوصَفَ بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، فحين يخبرك أنه خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، وسبحانه وظّف الملائكة(ع) التي خلقها لتنفيذ بعض أوامره... وهكذا ترى بوضوح أنه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، لأنَّهُ ماذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدّد له والمميّز "الله" جلّ جلاله قد فعل كل شيء، لذا ما معنى ألوهية غيره! وهذا ملخّص مبسّط للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

أَلْفِتُ انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، فحصروا استعمال كلمة إله للإله الكبير، واستعملوا للآخرين وصف الربّ، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربّة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون: إله المطر وإله الحرب... وعلى كل حال فإنَّ القرآن رفض توصيف غيره تعالى بالألوهية والربوبية من مستوى إلهي، حيث إنَّ المشركين يعتقدون بوجود كائن "ربّ" مسيطر على المطر من مستوى إلهي وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم أنه توصيف لألوهية أربابهم.

ومن ناحية ثانية لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، فيصير الهوى إلها كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان "{أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ}..."، فهي لا تشير لاعتقاد الشخص بأن هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لدين فيه ما يهواه، فعمليا هو يعبد هواه.

وبالنسبة لأصل كلمة "الله" فهناك كلام كثير حولها، ويبدو من تتبّع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حاليا بالسامية... أن الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة "إله" ومنها جرى اشتقاق إسم العلم "الله"، وهذا الاسم لم يكن متداولا في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط فللآخرين نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، لأنَّ كلمة إله واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات ما يسمّى بأصل اللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة الله من وصف الإله ومتى، فهل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قديما عبر الوحي، فالأرجح عندي "استذوقا" أنه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك "استذواقا" لأن المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين بلا مستند صريح لتأكيد كلام ما، فإنها بطبيعتها تصير استذواقية لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا بذاتي ففي سياق كلام آخر قد أستذوق أنه تعالى هو سمّى نفسه، فليس من المعقول ولا من المقبول منك أن تطلب حسما من الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دليلا حاسما، ولا مقبول من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنه الصحّ إلا اللهم إن قدّم دليلا دامغا، وهذا لا يبدو ممكنا في مسألتنا هذه.

(أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{74})
{أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ}، أي لماذا لا يفتحون صفحة جديدة بإغلاق صفحة الشرك، {وَيَسْتَغْفِرُونَهُ}، أي يطلبون منه تعالى أن يغفر لهم شركهم فيتجاوز عنه من بعدما تابوا منه، فلماذا لا يكن هذا همّهم!

أين هم ذاهبون بهذا الكلام عن الألوهية للسيد المسيح(ع) وللروح القدس(ع)؟ فهم ذاهبون حتما إلى النار، ولن يخلّصهم منها أحد، أفلا ينفعهم هذا الإنذار ليتركوا الشرك ويطلبوا المغفرة عن ذنوبهم قبل أن يتخلّدوا في النار؟

{وَاللَّهُ غَفُورٌ}، حيث يغفر ذنب من طلب المغفرة فيسامحه، فلا ينقطع أملكم من التوبة، ولا تفكّروا أنكم لن ينفعكم التراجع لا، لأنَّ باب المغفرة الإلهية مفتوح دائما، إذْ إنَّهُ سبحانه ليس صلبا قاسيا جافّا يجمد على موقف واحد، لا، بل يغفر لمن استغفر مهما كانت السيئة.

{رَّحِيمٌ}، حيث إنَّ من آمن سينال العناية الإلهية الخاصة بما فيه مصلحة المؤمنين، وهي أمور لا ينالها غيرهم، كغفران الذنوب وزيادة الحسنات...

اسْتَغِلُّوا هذا العرض الإلهي المغري ولا يفوتكم، لأنكم إن بقيتم على شرككم ومتّم فمصيركم الخلود في جهنم حتما.

قد تستسهل فكرة ترك مشركي المسيحيين لما هم عليه للرجوع إلى التوحيد، متجاهلا متناسيا أنك أنت نفسك من شبه المستحيل تركك لما يتميّز به مذهبك من عقائد وتشريعات تختلف عن عقائد وتشريعات بقية المسلمين، علما أن تلك الاختلافات ليست بخطورة ادّعاء شريك له تعالى في الألوهية، لذلك من المفروض أن تكون مراجعتك لما أنت عليه لتقويمه أسهل من مراجعة مشركي النصارى لدينهم، فهل هذا سهل عليك؟

(مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ{75})
{مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ}، ليس الموصوف بأنه المسيح وهو بالتحديد ابن مريم، لأنَّهُ مرّ في التاريخ عديدون ادّعوا أنهم المسيح ولذلك يحدّده تعالى باسم أمه التي ولدته من دون أب. لِذَا هُوَ شخص موظّف لنقل شيء، وإنسان ابن امرأة توظّف لنقل الكلام الإلهي للناس، لا أكثر ولا أقل، {قَدْ خَلَتْ}، أي كانت موجودة وذهبت تاركة مكانها، {مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ}، فمثله مثل بقية الرسل الذين جاؤوا قبله وغادروا وجاء هو كرسول... لا يختلف عنهم بشيء.

الإِدِّعَاءُ بكونه إلها علما أنه سبقه أشخاص مثله في نفس الوظيفة، ما معناه؟! وَما معنى ألوهيته وَأَنْ يرسل نفسه رسولا! وَما الفرق بينه كرسول وبين من سبقه! لأَنَّهُمْ كلّهم رسل لِذَا ما معنى الفلسفة واختراع طبيعية إلهية لواحد منهم! ومعلوم للجميع ولكم أنه ابن امرأة!

تَتَذَكَّرُ أَنَّ وصف النبي عيسى(ع) بالمسيح يشير إلى عادة كانت دارجة عندهم بمسح رأس من سيصير ملكا بزيت الزيتون، وهم كانوا موعودين بِنَبِيٍّ يكون ملكا...

{وَأُمُّهُ}، السيدة مريم(ع) أمّ النبي عيسى(ع) الملقّب بالمسيح، {صِدِّيقَةٌ}، كانت لا تكذب، ونفس الصفة وردت في القرآن للنبي يوسف(ع) في الآية 46 من سورة يوسف "{يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ}..."، ووردت كوصف لعموم المؤمنين من الدرجة العالية من غير الأنبياء كما تجد في الآية 69 من سورة النساء "{وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ}"، فهي(ع) كانت صادقة في قولها وفعلها، وبالتالي كان إيمانها صادقا صحيحا، وَكانت مؤمنة حقيقية.

{كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ}، النبي عيسى(ع) وأمه السيدة مريم(ع)، حيث من ناحيتين، أولا كانا يستهلكانه وإذا لم يأكلا لماتا، وثانيا كَانَا يَشْعُرَانِ بطعم الأكل، لِذَا ما هذه الألوهية التي تلتذّ بالأكل! وتموت إن لم تأكل! وعليك أن تستحضر في بالك المعاني الحقيقية التي ذكرها الإله عن نفسه لكونه إلها، لأَنَّهُ سبحانه الغني لِذَا لا يأكل ولا يعني له الطعام أي شيء، لأَنَّ هذه أمور هو تعالى صمّمها لنا لنستلذّ نحن بها، لِذَا مستوى الجوع والأكل والطعم... هو مستوى لمخلوق ولا معنى له بالنسبة للإله سبحانه.

{انظُرْ}، أي وجّه اهتمامك العام أيها النبي محمد(ع) وأيها القارئ للقرآن، {كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ}، كيف نوضّح لهم، {الْآيَاتِ}، الأمور المميزة، إذْ إنَّ هذا التوضيح ولفت انتباههم المميّز بمستواه الإلهي إلى استهلاك الطعام الذي كانا يحتاجانه، حيث من الإله جاء الردّ المميّز على كلامهم مما يبيّن أَنَّ المسيح وأمه بعيدان أشد البعد عن أي صفة إلهية! لِذَا انظر كيف نوضّح للمسيحيين المشركين الأمور المميزة، التي تدل على بطلان ألوهية أي بشري، {ثُمَّ انظُرْ}، وجّه

اهتمامك العام، {أَنَّىٰ}، كيف وبأي طريقة، {يُؤْفَكُونَ}، ينقلبون في أفكارهم وعقيدتهم! إِذْ إِنَّ الكلام يدل على الاتجاه إلى الأمام، وقد صار واضحا جدا أنهما ليسا آلهة ولا بأي شكل، ولكن انظر إلى المصرّين على ألوهية السيد المسيح(ع)، كيف وبأي حجة وبأي سبب وبأي فلسفة يقلبون هذه الحقيقة البسيطة أنه مولود من امرأة وكلاهما يأكلان الطعام وإلّا ماتا... فعلى أي أساس يُصِرُّونَ على ألوهية السيد المسيح(ع)!

لَاحِظْ عزيزي أن الإفك هو قلب الكلام، بتحويله من الحقيقة للكذب، لِذَا هو ليس اختراع كلام من الحائط، بل تحوير لكلام موجود، وهذا المعنى أدق للتعبير عن حالة هؤلاء، لأنك ستجد أشخاصا منهم يقولون لك: لا، لن يموتا إن لم يأكلا! أو سيقولون: هما لم يكونا يأكلان أصلا. أو ستجد من يقول: هما يغذيان جسدهما البشري أما في الحقيقة فهما لا يموتان وإنما يموت جسدهما البشري... هذا هو الإفك، لأَنَّ الحقيقة أنهما بشريان، يموتان إن لم يأكلا، والإفك هو التلاعب بهذه الحقيقة لتصير كذبا، إِذْ إِنَّ كل بشري يجب أن يأكل "يتغذى" وإلا سيموت، وهذه حقيقة لا شك فيها، واختراع طبيعة إلهية لهما هو الوهم، فهما في الدنيا مثلهم مثل بقية المخلوقات البشرية، يموتون إن مات الجسد.

(قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{76})
{قُلْ}، للذين يألّهون المسيح(ع) وأمّه(ع) والروح القدس(ع) عبر هذا القرآن:

{أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا}! فقط الله سبحانه هو الإله، فإذا كنتم تريدون أن تتخلصوا من ضرر جسدي صحي أمني أو مالي... أو تريدون نفعا انتفاعا ماليا صحيا دراسيا... والأهم من ذلك كلّه إذا كنتم تريدون التخلّص من عذاب الآخرة وهو من المفروض أن يكون هدفكم الأساسي، أَتَتَوَجَّهُونَ بتصرفات العبد المفروض منه الطاعة لغير الله تعالى حتى تنتفعوا ولا تتضرروا من شيء من مستوى إلهي! حَيْثُ لَا يوجد أحد منهم يملك القرار، ولا يملك القدرات الفائقة الذاتية من مستوى إلهي حتى يضركم أو ينفعكم لا في الدنيا ولا في الآخرة.

أَنْتَ تملك لي نفعا وضرا، حَيْثُ تعطيني مالا، أَوْ تسرقني، ولكن أنت تملك هذه القدرة لأنه تعالى منح لك ولي حرية الإرادة، لِذَا أنت لست إلها، وَلَوْ أنه تعالى سحب منك قدرتك، لَمَا أَمْكَنَكَ فعل أي شيء، ولو شاء تعالى بعكس ما تشاء أنت فَإِنَّ ما شاءه تعالى حتما سيحدث... وعندما نعبد أحدا ما، نَتَصَرَّفُ على أساس أننا مفروض منّا طاعته، وَنَعْتَبِرُهُ إلها "يملك" قدرات ذاتية لتحقيق ما نريده، وهذا ما تتحدّث عنه الآية وهذا ما تلفت انتباهنا له أنه غير صحيح، لِأَنَّهُ لا إله إلا الله تعالى.

لاحظ تعبير "من دون الله" إِذْ هُوَ مثل قولنا: ذهبتم من دوني. يعني تركتموني وذهبتم، والله سبحانه يقول: تركتم توحيدي وعبدتم غيري.

بعبارة أبسط، أَصْلُ موضوع العبادة لإله، أي التصرّف على أساس أننا مفروض منّا طاعته، هُوَ النجاة من عقابه إن عصيناه والحصول على المنفعة منه لأننا أطعناه، فما معنى دخولكم في مشروع تأليه غيره تعالى إن كان المشروع فَاشِلًا ولا يحقّق لكم ما هو متوافر من عبادته تعالى!

قارنها مع الذي تشرّب في ثقافته التقرّب من القديسين بالنذر لهم وزيارة قبورهم... إِنْ كان الهدف النفع وإبعاد الضرر والتقرّب منه تعالى، فهذا القرآن أمامك يخبرك أنه تعالى سميع بصير ولا تحتاج أي واسطة للكلام معه، والنفع والضرّ بيده تعالى، فما معنى إقحامك للقديسين بينك وبينه تعالى؟! وماذا سَتَسْتَفِيدُ من ذلك طالما الاستفادة واضحة من دونهم؟!

بل اختراع قدسية تصل إلى مستوى إلهي لأي كَائِنٍ غيره تعالى، ما الفائدة منه؟!

{وَهُوَ السَّمِيعُ}، يَسْمَعُ كل شيء، أما غيره تعالى فإن كانوا يسمعون "ولم يكونوا أمواتا" فهم يسمعون ما يحيط بهم وما هو قريب منهم ولا يسمعون كل شيء، ولا يسمعون أي شيء إن كانوا أَمْوَاتًا، فما معنى تعابير العبادة من الدعاء والصلاة... لمن لا يسمعك! أَيُّ كائن "غير الله تعالى" تتوجّه إليه بالعبادة فلن يسمعك، لِذَا مَا معنى عبادته!

{وَاللَّهُ}، {الْعَلِيمُ}، الذي يعلم كل شيء، لِذَا مَا معنى عبادة غيره الذي لا يعلم أنك تعبده! وإن كان تعالى وحده الإله بالقدرة الفائقة ليعلم كلّ شيء يحصل، والكائنات الباقية كلّها محدودة ولا تعلم إلا ما يحيط بها إن كان معها وعيها وكانت حيّة، لِذَا مَا معنى عبادة غيره تعالى!

الكلام يجرّ الكلام، حَيْثُ إِنَّهُ سبحانه وتعالى وبسبب قدراته الفائقة يَسْتَحِيلُ أن لا يسمع شيئا ما، ويستحيل أن لا يعلم بحالة ما، لِذَا أنت لست بحاجة لواسطة حتى ينقل كلامك له تعالى، ولست بحاجة لواسطة حتى يدير سمعه تعالى باتجاهك، لِأَنَّ هذا أصلا كلام لا معنى له أمام الإله السميع العليم.

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ{77})

{قُلْ}، عبر هذا القرآن: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ}، يا أيها المنتسبون لكتاب إلهي "الإنجيل والتوراة..."، {لَا تَغْلُوا}، لا تزيدوا ولا تبالغوا، {فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ}، لِذَا لَا تبالغوا والتزموا بما هو صحيح ولا تزيدوا أشياء مبالغ فيها وهي لا تصح للمبالغة، حَيْثُ إِنَّ هناك شَيْئًا حَقًّا عنه تعالى وحده، ومن تبعات كونكم عَبِيدًا للإله أن تدينوا بالحقّ وما يصلكم منه تعالى، لِذَا لَا تغلوا وَتَجْعَلُوا الصفات الخاصة بالله تعالى لشخصياتكم الدينية، وَلَا تقولوا عن شخصياتكم الدينية بأنها تملك قدرات إلهية أو أنها بطبيعة إلهية.

الدِّينُ عند الله تعالى واحد، لكل الناس، إِذْ إِنَّ العقيدة لا تتغير أبدا، ولا بحرف واحد، منذ آدم(ع) حتى يوم الدين، والشريعة فيها تغيرات بسيطة كتحديثات ناتجة عَنْ مستجدات وعن سلوكيات الناس... وتلك التغيرات الطفيفة جدا لا تمسّ الأساسيات... لِأَنَّ الدين هو ما ندين به لله تعالى، وَهُوَ ما علينا كتبعات كوننا عَبِيدًا له تعالى، حيث نحن ندين له تعالى بالطاعة، وهذا المفهوم هو نفسه لم يتغير من أوّل بشري تكلّف بدينه تعالى، لِذَا لَا تغالوا فيه بشكل يغيّره.

وعندما تخاطب الآية أهل الكتاب بترك الغلو في دينهم، فهي تخاطب كل متدين بِأَلَّا يغالي في دينه، لِأَنَّنَا مشمولون بالخطاب.

نَتَذَكَّرُ ما ورد في سورة النساء الآية 171 "{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا}..."، حيث أعطتنا نموذجا عن الغلو بغير الحق، وَفَهِمْنَا أن الحق الصواب هو الصفات الإلهية حصرا لله تعالى، وأي كلام غير ذلك هو غلو، والحق كله نزل عبر الرسل، ولا يحتاج الدين الإلهي لأي زيادة عقائدية.

{وَلَا تَتَّبِعُوا}، أَيْ لَا تكونوا على، {أَهْوَاءَ}، مشتهيات وأشياء يهواها، {قَوْمٍ}، أناس لهم كيان كجماعة مُتَفَاعِلَةٍ مع دينه تعالى، {قَدْ ضَلُّوا}، حيث مشوا على الطريق غير الصحيح، {مِن قَبْلُ}، لِأَنَّ هذا الغلو وهذه المبالغة وصلتكم من أناس كانوا قبلكم اتَّبَعُوا الهوى ولم يتبعوا الدين الإلهي الصحيح، حيث اسْتَحَبُّوا أن تكون شخصياتهم الدينية مميزة جدا، وَجَعَلُوهَا آلهة! وهؤلاء الذين افتتحوا وابتدؤوا بالمغالاة، ضلوا من قبل، {وَأَضَلُّوا كَثِيرًا}، حيث جعلوا الكثيرين من الناس على الطريق غير الصحيح، وهم أنفسهم، {وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ}، لِأَنَّ مسلكهم لم يكن مستقيما متناسبا "سويا" مع المسلك الإلهي، وَاتَّبَعُوا مسالك ملتوية لا توصلهم إلى مرضاته تعالى.

بعبارة أخرى، إِنَّ مَا وصلكم من تراث تأليهي للنبي عيسى(ع) أو أمّه(ع) أو الملاك جبريل(ع)، وصلكم من أشخاص ضلّوا، وأضلوا، لِأَنَّ الضلال وارد وَحَصَلَ فكيف لا ترونه بعد أن نبهناكم عليه؟! وهذه من أعوص المشاكل التي تواجهنا، حيث إِنَّ مَا وصلنا ممن سبقنا يأخذ شكل القداسة، وَنَرِثُهُ على عماه، وكأن الضلال محتمل لنا نحن فقط وأمّا من سبقنا فمستحيل عليه الضلال! لِذَا تُنَبِّهُ الآية أنه وصلكم يا أهل الكتاب ضلال من أناس ضلّوا وأضلّوا غيركم عبر التاريخ، فكيف لا تَنْظُرُونَ لموضوع اختراع الألوهية لشخصياتكم الدينية من هذا المنظار! من منظار المغالاة التي وقع فيها الذين سبقوكم!

كما ترى مِنَ الواضح أن عقيدة تأليه النبي عيسى(ع) لها بداية حديثة مستجدة على خط دينه تعالى، حيث فِي تاريخ حديث أقحموها على دينه تعالى، ومن قبل لم تكن موجودة، وَمِنَ الواضح أن الذي اخترعها كان ضالا عن خط الهدى الإلهي الممتد من أول تكليف البشرية من آدم(ع) مُرُورًا بالنبي نوح(ع) والنبي إبراهيم(ع) والنبي موسى(ع)، فكيف لا ترون ذلك وَتَرِثُونَهَا وَتَعْتَمِدُونَهَا رغم وضوح ضلالها!

(لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ{78})

هل الذين ورثتم منهم عقيدة تأليه النبي عيسى(ع) كانت ثقافتهم وسلوكياتهم الدينية على الصراط المستقيم حتى ورثتم ما قالوه على عَمَاهُ؟!

{لُعِنَ}، طرد من الرحمة الإلهية، {الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين لم يعتقدوا وَأَنْكَرُوا، {مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ}، وكما ترى مما سبق ومما سيأتي أن البعض من بني إسرائيل "من ذرية النبي يعقوب(ع)" كَفَرُوا بالولاية لله تعالى ولرسوله "وللمؤمنين"، وهؤلاء لعنهم سبحانه، {عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ}، حَيْثُ أَبْلَغَا الناس الذين كفروا في عصرهم من بني إسرائيل بأنهم ملعونون مطرودون من رحمته تعالى.

{ذَٰلِكَ}، اللعن، {بِمَا عَصَوا}، بسبب عصيانهم، حَيْثُ فَعَلُوا بعكس أوامر ربهم سبحانه وبعكس أوامر الرسول الإلهي، وبسبب ما، {وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ}، لِأَنَّهُمْ كانوا لا يلتزمون بالحدود والأوامر الإلهية وَيَتَعَدَّوْنَهَا وَيَتَخَطَّوْنَهَا.

لَاحِظْ أن اختيار هذين النبيين من بين كل الأنبياء، والنقل عنهما أنهما لعنا الذين كفروا من بني إسرائيل، "علما أن كل الأنبياء تلعن من كفر"، ولكن في حياة هذين النبيين صَدَرَ من بني إسرائيل عصيان واعتداء أشد ممن سبقهم، وهذا ما تريد الآية إخبارنا به، أما التفصيل فلم تخبرنا به الآية، ولا نجده في بقية القرآن لأنه غير مهم، لِأَنَّهُ خبر معلوم مشهور، حَيْثُ فِي عهد النبي داوود(ع) كانت العائلات اليهودية مشتتة متناحرة وبينها قتل وسبي، والبعض مِنْهَا يتعاون مع المؤابيين والكنعانيين ضد العائلات الأخرى... إلى أن وحّد النبي داوود(ع) بني إسرائيل بالقوّة... وأمّا النبي عيسى(ع) فَرَفَضَتْهُ العائلات اليهودية إلّا ما ندر من بعض الأشخاص، حَيْثُ كان من المفروض ومن المتوقّع أن يكون أكثر المؤمنين به من بني إسرائيل كونه منهم، وهم ينتظرونه... ولكنهم أشدّ من عَارَضَهُ وَحَارَبَهُ... لِأَنَّ معاداة ومحاربة عموم بني إسرائيل لهذين الرسولين مشهورة جدا ولذلك ضربها القرآن كنموذج.

نَعْلَمُ من القرآن قصة جماعة من بني إسرائيل كانوا تَلَاعَبُوا بعطلة يوم السبت "كنموذج عن بقية فسقهم عن دينه تعالى" واصطادوا فيه حَيْثُ وَرَدَ ذلك في الآية 166 من سورة الأعراف "{فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}"، وكانوا يعلمون أن العمل لإنتاج المال ممنوع يوم السبت، وكان هذا العمل نموذجا عن بقية تلاعبهم واستهتارهم بدينه تعالى، حَيْثُ جَعَلَ سبحانه أشكال أجسادهم على شكل القردة، وأما التحويل لشكل الخنزير فَاسْتَنْتَجُوا أنه حصل مع بني إسرائيل في عهد النبي عيسى(ع) لأنه ورد في الآية هنا أن بني إسرائيل لعنهم النبيان داوود(ع) وعيسى(ع) ويقولون إنَّ أصحاب السبت لَعَنَهُمُ النبي داوود(ع) فصاروا قردة، ويقولون إنَّ النبي عيسى(ع) لعن من كفر من بعدما نزلت المائدة من السماء فَصَارُوا خَنَازِيرَ، ولكن لا نعلم إن كان هذا التفصيل عليه دليل، ونحن متأكدون فقط من الحادثة التي ذكرها القرآن عن أصحاب السبت الذين مسخهم تعالى قردة، ولا معلومات لدينا إن كانوا معاصرين للنبي داوود(ع)، وليس لدينا تفاصيل عن الممسوخين خنازير.

(كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ{79})
{كَانُوا}، بنو إسرائيل، {لَا يَتَنَاهَوْنَ}، لا ينهي أحدهم الآخر، ولا ينبّه أحدهم الآخر بالتوقف بلا عودة، {عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ}، عن عمل قاموا به وينكره أي لا يعرفه فيرفضه ولا يؤيده الدين ولا المؤمنين العقلاء، حيث يقوم أحدهم بالتعامل بالربا أو بشهادة الزور أو بالغش... فلا يَنْهَوْنَهُ ولا يقولون له أن يتوقف نهائيا عن فعل السيئة.

{لَبِئْسَ}، يا لسوء، {مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}، من تركهم للنهي عن المنكر، لأنَّ هذا سبب انتشار الابتعاد عن الدين الإلهي، وسبب انتشار المنكرات، حيث تبدأ بشخص واحد فعل منكرا بالعلن، وتنتهي بمجتمع غالبيته يفعل المنكر بالعلن، وتبدأ بشخص واحد يتعامل بالربا، وتنتهي بأشخاص كثيرين يتعاملون بالربا...

إِذَنْ، لدينا عصيان واعتداء وانتشار للمنكر بينهم، ولذلك لعنهم الرسولان (ع)، فما معنى تقديس ما يصلكم من موروث ديني ممن سبقكم من دون التفكير به إن كان ضلالا؟! لأَنَّهُ بين الكثيرين منهم أصلا كان الضلال دارجا!

(تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ{80})

{تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ}، حَيْثُ يحصل لديك صورة محدّدة للكثيرين من أهل الكتاب أنهم، {يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، يعتبرون المنكرين للدين الإلهي مرجعا لهم وَيسمعون كلامهم ويطيعونهم، لِأَنَّهُمْ تركوا ولاية ربهم سبحانه وولاية رسله وأنبيائه وولاية المؤمنين واتّبعوا كلام الكفّار.

الْقُرْآنُ أخبرنا مرارا وتكرارا أن من سمع ولو كلمة واحدة مخالفة للدين الإلهي، ونفّذها، فقد والى الذي قالها له، حَيْثُ صار وليّه من قالها له، ولو كانت كلمة واحدة فقط مخالفة لدينه تعالى، فإذا مات ولم يتراجع عنها ولم يعتقد بأنه ارتكب سيئة فسيعتبره تعالى مواليا للكفّار.

{لَبِئْسَ}، يا لسوء، {مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ}، كَمَا أقدم لك الطعام وَأجعله أمامك، فَإِنَّ موالاة الكفار هي عمل سيّء قدّموه لأنفسهم وأخّروا موالاته تعالى وهي العمل الجيّد وَلم يقوموا به، بتعبير آخر: يا لسوء ما نفّذوه ما فعلوه... {أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}، أَيْ رفضهم سبحانه مع كره، حَيْثُ رفض أعمالهم وسلوكهم وكرهها تعالى وَغضب عليهم بسبب سوء ما قدّمت أنفسهم.

{وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ}، في التعرّض لما يؤذيهم باقون بلا نهاية لا يموتون ولا يفنون، حَتَّى لو كانوا من أهل الكتاب، فمن عصى واعتدى وفعل المنكر ووالى الكفار، كائنا من كان، فسيخلد في جهنم.

هَؤُلَاءِ هم الذين ورثتم عنهم عقيدة مغالاة مخالفة لدينه تعالى.

(وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَـكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ{81})
بدلا من موالاة الكفار، {لَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}، لو كانوا يعتقدون به تعالى ربا إلها أحدا، ويؤمنون بـ {النَّبِيِّ}، بالشخص الذي يصله النبأ، حيث يصله منه تعالى خبر غير منتشر علمه بين الناس لهدايتهم، وكما ترى أنَّ الكلام عن نماذج من عهد النبي داوود(ع) مرورا بالنبي عيسى(ع) وصولا إلى النبي محمد(ع)، فلو كانوا يؤمنون بالنبي، أي نبي، {مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ}، فلو فعلا آمنوا بالله تعالى إلها وبأن الأنبياء يتواصلون معه تعالى فعندها لَمَا اعتبروا أنفسهم تابعين للكفّار.

عليك التوقف هنا قليلا لترى عمق الكلام، فلو كانوا يؤمنون بأن ما يقوله النبي مَنْقُولٌ عنه سبحانه، فهل من المعقول أن يتركوه ويخالفوه ويفعلوا ما يقوله الكفّار!

لَاحِظْ، إنَّ الآيات تتحدث مع أهل الكتاب عن موضوع ولاية الكفّار كما لو أنها تتحدث معنا نحن الْمُسْلِمِينَ، فنحن لو كنا فعلا نؤمن بالله تعالى وبرسوله وبكتابه، لَمَا كُنَّا لِنُوَالِيَ الكفار، وتقول الآية عن أهل الكتاب نفس الشيء، لأن أصل الدين الذي معهم هو نفس الدين الذي معنا، وكلاهما يمنعان عن موالاة الكفّار.

{وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ}، الكثيرون من أهل الكتاب، {فَاسِقُونَ}، خارجون عن أمور علنا قالها سبحانه، حيث إنَّ اسمهم أهل كتاب ومنظرهم متدين... ولكن في الحقيقة، فإن سلوك وتصرفات الكثيرين منهم هي تصرفات وأفعال مخالفة لأمور قالها الدين بصراحة ووضوح.

بَقِيَ شيء من التاريخ، حيث من المعلوم أنه بعد وفاة النبي عيسى(ع) انتشر تلاميذه في مناطق بعيدة عن القدس ومحيطها بسبب شدّة قَسْوَةِ اليهود عَلَى أتباع النبي عيسى(ع)، والمشهور في التاريخ أنهم كانوا يقتلونهم... وَبَرَزَ شاوول الذي كان من علماء اليهود ومن أشدّ القساة مع النصارى، ولكنه وبحسب كلامه هو عن نفسه فَإِنَّ النبي عيسى ظهر له وعاتبه... لِذَا غيّر شاوول اسمه ليصير بولس، وصار من أشدّ الدعاة للنصرانية... وتجد في التاريخ أن بولس واجه معارضة من بعض تلامذة النبي عيسى(ع)، وبينه وبينهم رسائل، وخصوصا برنابا... وترى في تلك الرسائل اعتراض التلامذة على العقيدة والطقوس التي اخترعها بولس...

فِيمَا بعد قرابة مِئَتَيْ سنة، استحكم الحكم لأتباع بولس، فأسسوا مجمعا كنسيا، وَبَدَأُوا بإصدار تعاميمهم الدينية من عقيدة وشريعة وطقوس... ولم يعتمدوا على أي من كلام تلامذة النبي عيسى(ع)! واعتمدوا بدلا من ذلك أربعة أناجيل جرى تأليفها من أربعة أشخاص، وواحد منهم كان صغيرا أثناء حياة النبي عيسى(ع) والثلاثة البقية أصلا لم يَرَوْهُ (ع)!

فِي تعاميمهم الدينية تلك شبه توقيف لكل ما ورد في التوراة من عقيدة وشريعة وسلوكيات وطقوس دينية... لمراجعته من جديد بنسخة معدّلة أَسْوَأ من تعديلات اليهود...

هَذِهِ النبذة المختصرة تعطيك فكرة تطبيقية عمّا تقوله الآيات هنا، حيث من أمثال هؤلاء أتت عقيدة اعتبار النبي عيسى(ع) إلها، واعتبار أمّه بطبيعة إلهية، وأتت عقيدة التثليث...

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ{82})
{لَتَجِدَنَّ}، لو بحثت أو تعاطيت مع الناس فسوف ترى أَنَّ، {أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا}، أعنف من لا يريد الخير للمعتقدين بالدين الإلهي هم، {الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا}، إِذْ إِنَّ الآية لا تتحدّث عن الأكثر عددا كَمُعَادٍ للمسلمين بل عن الأشدّ معاداة، لِأَنَّهُمْ من عامّة المنتسبين للدين اليهودي ومن عامّة الذين قالوا بِأَنَّهُ تعالى له شركاء في الألوهية، فإذا نظرت في أعداء المؤمنين فستجد هذين الصنفين هم من أشد الناس عَدَاوَةً، حَيْثُ إِنَّهُمُ الأكثر كرها مع إرادة السوء للمؤمنين.

{وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم}، أقرب الناس، {مَّوَدَّةً}، حَيْثُ من بين الآخرين هم الأقرب للوصف بالمودة للمؤمنين، إِذْ إِنَّ البعض منهم يريدون حصول أمور جيدة للمؤمنين وعلى خاطر المؤمنين، {لِّلَّذِينَ آمَنُوا}، للمعتقدين بالدين الإلهي والكلام عن المعتقدين بهذا القرآن، {الَّذِينَ قَالُوا}: {إِنَّا نَصَارَىٰ}، نحن أنصار لِذَا نحن عاملون على تحقيق شيء ما، وهذه التسمية قديمة قالها أول جيل أعلن للنبي عيسى(ع) أنه ناصر له، لِذَا حملوا تسمية النصارى، وانتقلت التسمية منهم لبقية الأجيال التي انتمت للإيمان بالنبي عيسى(ع)، وأيضا لا تقصد الآية أن أكثرية النصارى يودّون المؤمنين بهذا القرآن، لا، بل إن وجدت ودّا من أحد ما للمؤمنين يُعَامِلُهُمْ بلطف وعناية، فستجده بشكل أقوى في أشخاص من النصارى.

{ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ}، وَسَبَبُ وجود مودّة عند بعض النصارى للمؤمنين هُوَ أَنَّ من النصارى، {قِسِّيسِينَ}، وَالقسّ هي صفة لمن يهتم بتعليم الدين للناس، وَمِنْهُمْ، {رُهْبَانًا}، موصوفون بالرهبة منه تعالى، حَيْثُ يُمَارِسُونَ عَمَلِيًّا الزهد بالابتعاد عن التعلق بالدنيا رهبة منه تعالى، وهو شعور العجز أمام عقابه تعالى إن أساؤوا، ومدح رهبنتهم هنا هو بغض النظر عن التطرف بالرهبنة، وَراجع ما ورد في الآية 27 من سورة الحديد عن الرهبنة المتطرفة "{ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}".

نرجع للآية، {وَأَنَّهُمْ}، القِسِّيسِينَ وَالرُّهْبَانَ، {لَا يَسْتَكْبِرُونَ}، وسياق الكلام هنا أنهم لا يرون أنفسهم أكبر أو أعلى من عبادته تعالى، وسترى بعد قليل أن التواضع سيسبّب أن يؤمنوا "بشكل ما " بهذا القرآن...

هَذِهِ هِيَ النظرة لمن هو أكثر من يكره ويعادي المسلمين، وأقرب من يودّهم، حَيْثُ لَيْسَ الكلام عن الأعداد بل عن النوعية.

(وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ{83})
{وَإِذَا} "هؤلاء الذين قالوا إنهم نصارى، البعض من النصارى"، {سَمِعُوا مَا أُنزِلَ}، ما نزل منه تعالى، {إِلَى الرَّسُولِ}، وهنا الكلام عن الرسول محمد(ع) الذي نزل عليه القرآن، {تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ}، حيث يحصل لديك صورة محدّدة عن تجمّع الدمع في أعينهم حتى يفيض من كثرته وينحدر الدمع من العين، لأنه عندما يسمعون القرآن تدمع أعينهم تأثرا ورهافة في الإحساس، {مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ}، لأنَّ الآيات القرآنية بمواضيعها ومعانيها وقيمتها... تدل على نفسها أنها نازلة منه تعالى، ويشعر هؤلاء بالتأثر من سماع كلام إلهي حقيقي ليس فيه تحوير ولا تحريف ولا كذب.

يقول هؤلاء النصارى: {يَقُولُونَ رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {آمَنَّا}، اعتقدنا بالرسول محمّد(ع) وبالقرآن الذي نزل عليه، {فَاكْتُبْنَا}، أَيْ سجّلنا، {مَعَ الشَّاهِدِينَ}، مع الذين يؤكّدون صحة الإيمان الذي عُرِضَ عليهم، لأنَّ هناك

أناساً من حولنا يقولون إنَّ القرآن ليس منك سبحانك، أمّا نحن فنشهد بأنه من عندك، لِذَا اكتب أسماءنا يا رب من الآن مع الذين سيقفون في يوم القيامة ليشهدوا على بقية الناس التي لم تؤمن بالقرآن، لأنهم عمليا صاروا يؤمنون بالقرآن ويلتزمون بتعاليمه.

نلاحظ معنى الشهادة هذا منتشرا في آيات عديدة من القرآن، حيث فِي يوم القيامة سيقف الذي لم يؤمن بالقرآن بأنه كتاب إلهي ويكذب وَيقول: لم أؤمن بالقرآن لأنه كان غير مقنعٍ، وشعرت أنه من تأليف البشر، وأن فيه خرافات وأساطير... عندها يأمر سبحانه شخصا كان يعيش معه في نفس الزمان والمكان، وعقله موزون... ويسأله: لماذا آمنت بالقرآن؟ "فَيَشْهَدُ" بأنه كان من الواضح أن القرآن كتاب إلهي، بسبب تعاليمه الحسنة الراقية، وعقيدته الحقّة، وأخباره التي تتوافق مع الكتب الإلهية السابقة التي نزلت قبله...

نلاحظ من الآيات هنا ومن آيات أخرى من القرآن مدحا للمسيحيين بشكل عام، طبعا لا ننسى الذمّ للمشركين منهم، حيث ربما نشعر من الآيات أنها تشجعهم على البقاء على دينهم وَأَلَّا يعتنقوا الإسلام، وأنه لا مشكلة في ذلك، ولكن ننتبه، لأنَّ هذا غير صحيح، إذْ إنَّ هذا لم تقله الآيات هنا والآيات السابقة من هذه السورة نبّهت من ذلك، ولكنها مدحت الموّحدين من المسيحيين، والملتزمين حقّا بالدين الإلهي، التاركين للسوء الذي يعرفون أنه حرام، الملتزمين بالصالحات التي يعرفون أنها واجبة... وَ هؤلاء بين وفاة السيد المسيح(ع) وقبل نزول القرآن على النبي محمد(ع) هم وبحسب توصيف القرآن: مسلمون لله تعالى. أما بعد نزول القرآن، فمن آمن منهم به، والتزم بشريعته وعقيدته، فهذا تمدحه الآيات، وأما من آمن به ككتاب إلهي، ولم يلتزم بشكل كامل بتعاليمه، فمثله مثل أي مسلم ضعيف الإيمان، إن فعل الكبائر سيخلد في جهنم، وإن ابتعد عن الكبائر سَيُحَاسَبُ بقدر ذنوبه التي قد تجعله يقبع لمليارات السنين في جهنم...

أقول لك هذا حتى لا تحصر معاني الآيات بحوادث تاريخية وبأشخاص عاصروا النبي محمّد(ع)، لأنه إلى يوم القيامة ستجد من بين المسيحيين من يودّ المؤمنين، بغض النظر عن المجرمين منهم، وستجد من يؤمن بالقرآن ككتاب إلهي، حتى لو لم يعلن إسلامه، وَهَذَا يصير حاله مثل غالبية المسلمين فيما يفعلونه من خلط عمل صالح بسيّء، حيث بعضهم لا يصلّي ولا يصوم ولا يزكّي... ولكنهم ليسوا كافرين به تعالى ولا مشركين ولا منكرين لأساسيات العقيدة، وبدرجة ما يؤمنون بالآخرة... ونفس الحالة تنطبق على أي مسيحي أو يهودي أو صابئي أو... لم يعلن إسلامه ولكنه موحّد معترف بأساسيات دينه تعالى، وهؤلاء جميعا لهم أوصاف واحدة مشتركة، إذْ إِنَّهُمْ كافرون بشيء ما من دينه تعالى، وفسقة ومنافقون في أشياء، ومؤمنون في أشياء.

(وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ{84})

ويقول هؤلاء النصارى: {وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ} تعالى؟ كَيْفَ وما السبب حتى لا نعتقد بالله تعالى إلها واحدا أحدا؟ {وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ}، أَيْ ما لنا لا نؤمن به؟ كَيْفَ لا نعتقد بالقرآن أنه كتاب إلهي ونحن نراه حقّا صوابا صحيحا؟

{وَنَطْمَعُ}، أَيْ ما لنا لا نرغب بحصول شيء لنا مصلحة فيه ويمكن أن يتحقّق، {أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا}، أن يجعلنا المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {مَعَ الْقَوْمِ}، مع الناس الذين لهم كيان كجماعة متفاعلة مع دينه تعالى، {الصَّالِحِينَ}، الذين صلحت وَحسنت أعمالهم فلم يقوموا بالسيئات، وعمليا هُمْ لم يقوموا بما حرّمه تعالى ولم يتركوا ما أوجبه تعالى.

نُلَاحِظُ التعبير بالطمع في الدخول مع مجموعة الصالحين، حَيْثُ إِنَّنَا عَادَةً نعتبر الطمع شيئا سيئا، لأننا نقول إنَّ الطمع هو حرمان الآخرين من شيء أرغب بشدة في الحصول عليه لوحدي، أما في الحقيقة فَإِنَّ الطمع هو مجرد الرغبة الشديدة في حصول شيء أو الرغبة في الحصول على شيء مع أمل بحصوله، وللطمع تفريعان، واحد يريد حرمان الآخرين من شيء ما للحصول عليه، وواحد لا يريد حرمان الآخرين بل يصبّ اهتمامه فقط بالحصول على ما يريد لنفسه ولا يهمه إن حصل عليه الآخرون أيضا. ولكلا النَّوْعَيْنِ تفريعان أيضا، حَيْثُ هناك الطمع بالحصول على شيء حرام ومقابله الطمع بالحصول على شيء حلال...

نرجع للآية ومعنى الطمع فيها، فأنت عندما تطمع بدخول الجنة، تَرْغَبُ بالحصول عليها بشدة، مع أمل بذلك إذا عملت جاهدا للحصول عليها، ولكن لا يمكنك منع غيرك من دخولها، وَأَنْتَ أصلا لا تستطيع أن تعمل وتجتهد عن غيرك حتى تجعله يدخل إلى الجنة، وهكذا ترى المعنى الدقيق لما ذكرناه لكلمة طمع.

إِذَنْ هَؤُلَاءِ نموذج عن نصارى انتقلوا نحو تطبيق تعاليم القرآن، سَوَاءٌ كانوا واحدا أو أكثر، لا يهمّ، ولا يهمّك معرفة الذي أو الذين أسلموا في عهد النبي محمّد(ع) إلا فضولا...

(فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ{85})
{فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ}، أَيْ أرجع عليهم تعالى، {بِمَا قَالُوا}، من اعترافهم بالنبي محمد(ع) وبالقرآن، حَيْثُ مَا رجع عليهم منه تعالى على ذلك، {جَنَّاتٍ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين وروائع المشتهيات، {تَجْرِي}، تنتقل بالتحرك المتتابع، {مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، من تحت أشجار تلك الجنات يسير نهر هنا ونهر هناك، وَنَعْلَمُ من القرآن أنها أنهار من مختلف أنواع المشروبات والألوان كما ورد في الآية 15 من سورة محمّد "{مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى}..."، لِذَا لَا تبالغ وتتصوّر المكان كمستنقعات، لا، بل هو وصف لروعة المياه الجارية بين الأشجار... {خَالِدِينَ فِيهَا}، لا يموتون ولا يفنون في تلك الجنات وهي أيضا لن تخرب...

{وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ}، حَيْثُ إِنَّ الذين قاموا بالأعمال الحسنة يكون الجزاء على إحسانهم، يكون المقابل المعادل على أعمالهم الحسنة هو الخلود في الجنّات لِأَنَّ هذا ما قرّره تعالى.

رُبَّمَا تفكّر بأن هؤلاء النصارى لم يلتزموا بتعاليم القرآن، وفقط اعترفوا به ككتاب إلهي، وربما تظن أن هذا كان كافيا لهم حتى يدخلهم ربهم سبحانه إلى جنة الآخرة، لا، لِأَنَّ هذا مخالف لكل ما يقوله القرآن، إِذْ يَجِبُ تطبيق تعاليم القرآن وإلا لن ينالوا الجنة، وَسَيَكُونُونَ مثلهم مثل بقية المسلمين المعترفين بالقرآن ككتاب إلهي ولكنهم لا يطبقون كل تعاليمه، حَيْثُ إِنَّ هَؤُلَاءِ لا يعطيهم القرآن أي ضمانة لدخول الجنة، لِأَنَّ القرآن فقط يعطي المؤمن العامل للصالحات والمؤمن بهذا القرآن ضمانة دخول الجنة.

إِذَنْ هَؤُلَاءِ نصارى آمنوا بالقرآن وعملوا به، وهم محسنون حَيْثُ كانت حسنة جيدة عقيدتهم وعملهم، وسترى سياق الكلام الإلهي هنا عن إيمانهم، وستراه بشكل أوضح إن لم تعتبر دينهم السابق مُخْتَلِفًا عن دين القرآن، لِأَنَّهُ سَيَخْطُرُ ببالك أنهم تركوا دينهم وأسلموا، بينما معاني الآيات تُشِيرُ لاستمرارهم على دينهم لأنه هو نفسه دِينُهُمُ الدين الذي يطرحه هذا القرآن خاليا من أي تحريفات.

(وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ{86})
{وَالَّذِينَ كَفَرُوا}، أنكروا الرسول (ع) والقرآن، {وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}، حَيْثُ قَالُوا عن الأمور المميّزة المنسوبة له تعالى بأنها ليست صادقة، وهنا الكلام عن القرآن إِذْ قَالُوا إِنَّهُ ليس من عنده تعالى، وما ورد فيه من أمور مميزة كالآيات التي تنهى عن الشرك بالله تعالى... وتنهى عن موالاة الكافرين... وجملتنا هذه تنطبق على كلّ من كفر، ولكن الكلام عن أهل الكتاب وبالخصوص عن المسيحيين الذين كفروا بالرسول محمد(ع) والقرآن.

{أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}، فهم مع بعض في الجحيم في المكان الذي يوصف بضخامة سوء ما فيه، حَيْثُ فِيهِ النار المتأججة بشدّة والعذاب الشديد.

لَدَيْنَا نصارى أمنوا بأن هذا القرآن منه تعالى وتماشوا معه باقين على دينه تعالى... واختارت الآيات الكلام عن أبرز نموذج منهم من آمن والتزم، غَاضَّةً النَّظَرَ عمّن آمن بالقرآن ككتاب إلهي ولم يلتزم به، فهذا كالمسلم غير الملتزم، حيث لا ضمان إلهي له بدخول الجنّة، وبما أن سياق الكلام هنا عن شيء آخر فلم تشر الآيات لهذه الحالة، وأخيرا لدينا نصارى كفروا وكذّبوا القرآن، وهذا عمل ضخم في سوئه لأنهم يكذبون ما يعلمون أنه حقّ ويكذبون كلام الإله الذي نزّل كُتُبَهُمْ.. لِذَا هَؤُلَاءِ لهم عذاب ضخم في سوئه، لِأَنَّ جهنم وصف للمكان الذي كل ما فيه سيّء، والجحيم وصف لما هو ضخم في سوئه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ{87})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{لَا تُحَرِّمُوا}، لا تمنعوا على أنفسكم، {طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ}، لِأَنَّ الأشياء الطيبة الجيدة المحببة التي ليست خبيثة، والتي جعلها تعالى حلالا، لِذَا لَا تمنعوها وَتَقُولُوا عنها ممنوعة وعليها عقاب، والطيبات كلمة شاملة لكل شيء ليس خبيثا، وليست محصورة بالأكل والشرب، حَيْثُ استعملها القرآن لتشمل "الزوج والزوجة" أيضا كما ورد في الآية 26 من سورة النور "{الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ}..."، ولكن هنا سياق ما سيأتي من كلام يشير لطيبات الطعام.

{وَلَا تَعْتَدُوا}، ولا تتخطوا حدود الشريعة، لِأَنَّ الشريعة الإلهية حدّدت الحلال والحرام لِذَا لَا تعتدوا عليها بشكل مباشر كأن تقولوا عن شيء حلال إِنَّهُ حرام، ولا تتحايلوا على الشريعة وَتَبْحَثُوا عن مخارج وألاعيب حتى يصير الحلال حراما والحرام حلالا...

{إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}، لا يحب سبحانه الذين لا يقفون عند حدودهم، وَيَتَعَدَّوْنَ على الشريعة ولا يلتزمون بها.

سَوْفَ تلاحظ في الآية بعد التالية أنها ستتحدث عن قسم اليمين، لِأَنَّهُ عندما تقول الآية هنا إِنَّ الطيبات حلال، فهذا لا يعني أنك يجب أن تأكل منها كلها! وفي نفس الوقت لا يحق لك أن تحرّمها على نفسك، وإن حرّمت منها شيئا ما على نفسك وأقسمت عليه، فهذه يمين يجب الالتزام بها، وإذا أردت التراجع عنها فيجب التكفير عن اليمين، وَلْنَقُلْ إِنَّ شَخْصًا عَزِيزًا على قلبك مات، وكان يحبّ العنب، فتقول: والله لا آكل العنب بعد اليوم. ويكون يمينك جِدِّيًّا، وَهَكَذَا تكون حرّمت شيئا حلالا، وللخروج من قسمك لتأكل العنب من جديد عليك أن تكفّر بالطريقة التي ستذكرها الآية ما بعد التالية.

ضَعْ في بالك في عموم ما ورد في القرآن أنه تعالى لا يُحِبُّ، حَيْثُ وردت حيث لا داعي للكلام القاسي، وخذ مثلا كلامك معي حيث تريد تحذيري وتنبيهي فتقول: سأكسر عظامك لو فعلت كذا وكذا... لِأَنَّ هَذِهِ نبرة عالية لا مبرر لها لأنك تعلم أني حاليا لست نَاوِيًا لفعل السوء، والجملة الأنسب: لا أحب أن تفعل كذا وكذا... وعلى هذا المفهوم جاءت الآيات التي وجّهت كلامها مع المؤمنين مستعملة عبارة مشابهة لعبارة "الله يحب أو لا يحب".

بَقِيَ شيء من الفضول، فما يقولونه عن إعجاز تكرّر بعض كلمات القرآن بعدد ملفت، كقولهم عن تكرار كلمة ليل 12 مرة وكلمة نهار 12 مرة... حَيْثُ تتبعت غالبية الكلمات التي قالوها ووجدت غالبية كلامهم كَذِبًا إلا في أقل من عشر كلمات، ومما تحققت وتأكدت منه كلمة شهر بالمفرد "شهر، شهرا" حَيْثُ تكررت 12 مرة، وتكررت كلمة شهر بالمثنى "شهرين" مرتين فقط. كلمة "رجل" بالمفرد تكررت 24 مرة، وكلمة "امرأة، امرأت" أيضا تكررت 24 مرة. كلمة "يأمرون" تكررت 7 مرات، وكلمة "ينهون" أيضا تكررت 7 مرات. كلمة "الخبيث" بالمفرد تكررت 7 مرات، وكلمة "الطيب" بالمفرد تكررت 7 مرات. وهناك كلمات أخرى فيها الكثير من التراخي والاستنسابية بحيث يلغون كلمة أو كلمات لسبب غير وجيه ويدّعون أن الأعداد متساوية كقولهم عن تكرار كلمة ملائكة والشيطان.

الْغَرِيبُ أن الحالة الوحيدة الصادقة بالتمام والوضوح هي ليست منتشرة في مقالاتهم وكتبهم! ففعلا تكررت في القرآن جملة "الله يحب" 16 مرة، وجملة "الله لا يحب" 16 مرّة.

لكن، هل هذا يعني أي شيء؟ لا، فلا يحتاج القرآن لِخُزَعْبَلَاتٍ من هذا النوع ليصير له قيمة أو لنؤمن بأنه من مصدر إلهي، فما فيه من حقّ وصلاح هو قيمته.

(وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ{88})

{وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ}، أَيْ استهلكوا من الأشياء التي صارت معكم منه تعالى لتسدّوا بها حاجتكم وما ترغبونه، {حَلَالًا}، ليس عليها عقاب، {طَيِّبًا}، ليس فيها خبث، لِذَا لَا يكن مما حرّمه تعالى من المأكولات الخبيثة كالميتة والكلب والخنزير... وهي نفسها يراها أصحاب القلوب السليمة خبيثة فلا يرغبونها، حَيْثُ إِنَّ الرزق الحلال الطيّب متوافر لكم، فلا تأكلوا الحرام والخبيث.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}، فتجنبوا غضبه وعقابه تعالى، لأَنَّ أكل الحرام الخبيث عليه عقاب، فاتقوا الله تعالى، {الَّذِي أَنْتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ}، إِذْ تُذَكِّرُ الآية بِمَا ورد منذ قليل عن أهل الكتاب بِأَنَّهُمْ لو كَانُوا فِعْلًا مؤمنين لما والوا الكفار، لِذَا هنا نفس طريقة الكلام، فإن كنتم فعلا معتقدين بأنه تعالى إلهكم فلا تأكلوا الحرام الخبيث.

بِالنِّسْبَةِ لمحور السورة، كَمَا ترى فَإِنَّهُ من تفاصيل تطبيقات الميثاق الإيماني الالتزام بما حرّمه وحلّله تعالى من الرزق، ومعلوم لك استهتار الناس بهكذا أمور على أساس أن الأهمية للعقيدة وللأمور الخطيرة، بينما المأكولات ليس من المفروض أن يكون للدين دخل فيها، على أساس أنه ليس من المعقول أن أدخل النار لأني أكلت قطعة من لحم الخنزير المشوي... وَمِنْ هَذِهِ العقلية يبدأ الناس بالاستهتار بالشريعة والعقيدة، بالاستخفاف والاستهتار بأمور يرونها غير خطيرة، وبعدها يَنْتَقِلُونَ للمخالفة بأمور أخرى أشد خطورة...

إنَّ واقع الحال يفرض تدرجات في سوء الأمور، فليست كل السيئات من عيار الشرك به تعالى وقتل النفس البريئة، لِذَا قَايِسْ هَذِهِ مع توزيع الإهانات والشتائم على الناس، أو مع بائع يكذب بالكلام عن جودة بضائعه... فَهَذِهِ سيئات ولكن ضررها خفيف جدا بالمقارنة مع قتل الأبرياء. والذين يسخرون من تحريمه تعالى لأمور يعتبرونها لا تستحق العقاب عليها، مثلما يسخر بعضهم من الكلام الديني عن العقاب بالنار الخالدة على شَطِيرَةٍ من مطعم لحمه غير مذكّى... إِذْ إِنَّ هَؤُلَاءِ يتجاهلون واقع حال تدرجات السيئات من الضخامة في السوء إلى الأقل سوءا ثم الأقل... لِأَنَّ كَوْنَهَا سوءا من العيار الخفيف لا يلغي كونها سيئة.

تُلَاحِظُ أَنَّ القرآن لم يتوعّد بالنار الخالدة إلا على السوء من العيار الثقيل، كالشرك به تعالى وقتل النفس البريئة والزنا والهروب من المعركة... والكفر بأساسيات الدين الإلهي، كالذين يرفضون تطبيق أي كلام صادر منه تعالى حتى لو رأوه حقا وصلاحا لِأَنَّهُمْ يفعلون فقط ما يناسب أهواءهم، فحتى لو كانوا على المستوى النظري يقولون إِنَّ دينه تعالى مثالي رَاقٍ وفيه الصلاح... فطالما على المستوى العملي ليس لديهم نية تطبيق إلا ما يهوونه، ومنه تحليلهم ما يعلمون بحرمته كتحليلهم للمخدرات والربا والزنا... واستهتارهم بأكلهم الخبيث من الطعام... فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يعتبرهم تعالى كَافِرِينَ من العيار الثقيل، ومجموع سيئاتهم يصير خطيرا وكفيلا بالحكم عليهم بالخلود في النار.

مِنْ ناحية ثانية فَإِنَّ تحليله تعالى وتحريمه لبعض الأطعمة سَبَبُهُ خبثها وطيبها، على أساس ما جعله تعالى فينا من تقييم خبث وطيب الطعام، لِذَا راجع ما ذكرناه في دراسة الآية الأولى من هذه السورة عن الأكل والطعام والخبيث والطيب.

(لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{89})
يا أيها المؤمنون: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ}، لا يسجّل عليكم سبحانه مأخذا، لا يسجّل عليكم ما سيحاسبكم به، {بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ}، فعندما تقسمون أو تعهدون يمينا بالله تعالى بشكل قوي، لغوا، وأنتم لا تقصدون أن يكون يمينكم مؤكدا، فهذا لا يحاسبكم سبحانه عليه، {وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم}، لكن يسجّل عليكم مأخذا، شيئا سيطالبكم به، {بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ}، أي عندما يكون يمينكم معقودا لا يمكن التفلت منه، إذ لم تقولوه عرضة "لغوا أو مزاحا"، بل كان يمينا بشكل جدي، وله آثار جديّة وليست مزحة، فهذا يتسجّل عليكم وتتحاسبون عليه إن لم تلتزموا بما أقسمتم عليه.

يمين "اللغو" الذي تتحدث عنه الآية هو من نوع ما يجري على اللسان دون قصد العقد (مثل: لا والله، بلى والله في عرض الكلام، "هل أنت جائع؟ لا والله". والله سأترك التدخين. والله لن آكل الحلويات بعد اليوم) هذا إن كان هكذا كلاما عاديا فهو لغو ولا عقاب عليه ولا أثر له... أمّا إن كان جديا عن تصميم بترك التدخين أو الحلويات فعليه كفارة للتخلّص منه. ويمين اللغو ليس من نوع اليمين الذي نقوله في المحكمة أو في القضايا، لأنَّ تلك اليمين إن كانت كاذبة فهي شهادة زور وعقابها شديد جدا جدا، ويسمونها: يميناً غموساً. ولو كذبت فيجب الاعتراف بأن يمينك كانت كاذبة أمام القاضي، ويجب أن تشهد بالحقيقة...

اليمين المعفو عنه ليس يمين الغشّ في نوع البضاعة، مثلما يحلف الباعة أن بضاعتهم جيدة وجديدة... فهذا يمين حرام، فإن كان عن زلة لسان فهو لغو ولا كفارة عليه، أمّا إن كان معقودا بحيث يؤكد للمشتري جودة البضاعة بينما هي رديئة، فهذا الغشّ وهو ذنب آخر مضافا لليمين الكاذبة، ويجب الاستغفار منه وطلب المسامحة من الشخص الذي غششته، وتعويضه...

قالوا إنَّ اليمين ثلاثة أنواع: لغو: أي بلا قصد. منعقد: أي بقصد. غموس: عن تعمّد الكذب. تحدثت الآية 225 في سورة البقرة عن نفس المفهوم "{لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ}"، وهنا ستتحدث الآية عن كفارة اليمين المعقود.

{فَكَفَّارَتُهُ}، حتى تستروا وتغطّوا على الذنب الذي نتج عن اليمين المعقود، يمكنكم الاختيار من الأمور التالية، ولكن بحسب خطورة اليمين الذي حلفتموه:

لليمين البسيط، كالقسم على ترك التدخين: {إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ}، فتعطي عشر وجبات أكل لعشرة أشخاص مساكين وهم الذين حالتهم المادية متعثّرة من الفقر المدقع وصولا إلى الذي لديه بيت ودكان ولكن تعثّرت ظروفه المالية وصار بحاجة للمساعدة، ويجب أن تكون وجبة الطعام أساسية كوجبة الغداء، وأن يكون الطعام، {مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ}، فلا تكون بالنسبة لك غالية ولا رخيصة، بل في الوسط، فأنت في بيتك ماذا تأكل عادة أنت وأهلك "زوجتك أولادك..."، فيكون الطعام للمساكين من هذا المستوى.

{أَوْ كِسْوَتُهُمْ}، للتكفير عن ذنب اليمين على شيء خطره متوسط: يمكنكم كسوة عشرة مساكين، فتشتروا لهم ثيابا من النوع الوسط مثل الذي تشترونه لأهلكم لأولادكم لزوجتكم... وهذا كما ترى مكلف أكثر من إطعامهم، ويمكنك أن تختاره إذا أحسست أن يمينك كانت تستحق منك أن تكفّر عنها بالكثير.

{أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ}، تحرير عبد "مؤمن" أو أمة "مؤمنة"، فتشتروه وتعتقوه فيصير حرا. ونلاحظ أن تحرير الرقبة ورد في حالة قتل مؤمن بالخطأ، فنستنتج أَنَّ الكفارة على يمين خطير تستوجب تحرير رقبة وأن تكون مؤمنة كما حدّدت الآية 92 من سورة النساء. وكما ترى ترك سبحانه تقدير ما تختاره للكفارة عن يمينك ضمن ثلاثة أمور، فبحسب قدرتك المالية كفّر عن يمينك، وبحسب تقديرك لخطورة يمينك عليك اختيار ما يناسبها.

{فَمَن لَّمْ يَجِدْ}، فلم يستطع على أي شيء مما سبق، إذ لا يملك المال للإطعام أو الكسوة أو التحرير، {فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ}، مثل صيام أيام شهر رمضان فيمتنع عن الطعام والشراب و... من الفجر إلى المغرب لمدة ثلاثة أيام.

{ذَٰلِكَ}، الحكم السابق من إطعام أو كسوة أو تحرير، أو صيام لمن لم يستطع الإطعام أو الكسوة أو التحرير، {كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ}، فهو ستار وغطاء للسيئة الناتجة عن تركِكم التزامكم باليمين التي أكدّتموها، إذا صدر منكم كلام لتأكيد صدق ما قمتم به سابقا، مثلا: والله لن أرجع إلى الدخان. سأستمر على التوقف عن الأكل قبل النوم... وبالتعبيرات العامية يبدو "قسم الحلفان" أوضح: خلص والله لن آكل الحلويات... فهذه يمين حلفان لأنها جاءت تأكيدا على نحو الخبر لشيء حصل سابقا، فعندما تخبر عن شيء مضى وتؤكّده فهذا حلفان.

{وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ}، حافظوا على الأمور التي تؤكدونها بقوّة، صونوها واعتنوا بها. حيث الكفارة هي باب لتصحيح الأخطاء، ولكنها ليست بابا مفتوحا لارتكاب الأخطاء والتكفير عنها، فلا تقل يمينا أو تحلف وأنت غير مهتم لأنك ستطعم عشرة مساكين وكأن شيئا لم يكن! لا، بل حافظوا على أيمانكم، فإن حلفتم أو قسمتم أو عاهدتم، التزموا بتنفيذ ما أكدتموه، أو أن يكون حلفانكم من الأساس على شيء يمكنكم المحافظة عليه.

{كَذَٰلِكَ}، كما ورد في الآية من أحكام للتكفير عن اليمين، {يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، من المفروض ومن المتوقّع أن تعبّروا له تعالى عن حصولكم على شيء جيّد منه، لأنَّ هذا التشريع الإلهي بالتشديد للمحافظة على اليمين، يجعل لكم قيمة كمؤمنين صادقين محترمين وموقرين في كلامكم وتعاملكم مع الأمور، ومن ناحية ثانية فمن لم يتحكّم بنفسه وأقسم يمينا على شيء حلال وحرّمه على نفسه، جعل سبحانه له مخرجا من هذه الورطة، ولم يجبره بالالتزام بيمينه طوال حياته، ولم يتوعدّه سبحانه بالعقاب عليه إن خالفه وبدون وجود حلّ... لا، فسيئة مخالفة ما أقسمت عليه تنتهي بالكفارة عنها، وهذا شيء ديني يستوجب منّا شكره تعالى عليه.

بقي شيء عن "اليمين" فكما تعرف ممن حولك، فهم يقسمون اليمين وفيما بعد يريدون التحلل للخروج منه، وعلى ما يبدو من الآية، أَنَّ الكفارة هي حلّ لمن يريد التحلّل من يمينه، فلا ذنب على اليمين من بعد الكفارة بشرط أن لا يكون غشا أو شهادة... بل يمين من نوع ترك التدخين، وترك أكل الحلويات، والدهنيات، وترك مشاهدة مباريات كرة القدم...

بالنسبة للأهمية التي أعطاها تعالى لليمين هنا لدرجة الكفارة عنها، فطالما هي أمور غير خطيرة وشخصية، عندها لماذا لم يتغاضَ تعالى عنها وأوجب علينا الالتزام بها والتكفير للخروج منها؟ بالتحليل ترى أن أهميته من آثار وتبعات أهمية وقيمة كلام المؤمن وبخاصة إن لم تكن يمين لغو، ففرضا لو عايشت من يقسم يمينا على العَمَّالِ والبطّال على كثير مما يتعاطى معه يوميا، يقسم على ترك التدخين وبعد ساعة أو أكثر يرجع له، أو يقسم على مساعدتك في عمل ما ثم يخذلك... هذا لن تحترم كلامه، ولن تعتبر أي قيمة لأي يمين يقسم بها، لأن تاريخه السابق مشحون بالأقسام التي لم يلتزم بها. هكذا ترى أنه تعالى أتاح له أداة ليستعملها في الأمور المهمّة، وهو استسخفها في الاستهتار بأهميتها، حتى أفقدها من قيمتها، وللمحافظة على قيمة أداة نستعملها بيننا لتأكيد التزاماتنا، شرّع تعالى كفّارة على الإخلال باليمين التي نحرّم بها حلالا على أنفسنا... وهذا تحليلي الذي قد يبدو لك ما هو أفضل منه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ{90})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{إِنَّمَا الْخَمْرُ}، كنموذج عن المسكر الذي يجعلكم تفقدون فكركم الواعي، ويشمل كل أنواعه من المخدرات بالشم أو بالتنشّق أو بالحقن أو بالشرب... ومن أي مادة صنعوه سواء من الذرة أو الشعير... إذ من البديهي الواضح أن تحريم الخمر لأنها مسكر كنموذج عن بقية ما يجعل الإنسان يفقد فكره الواعي.

{وَالْمَيْسِرُ}، أي القمار بكل أنواعه، من المراهنة "سباقات الخيل والسيارات..."، والقرعة "اللوتو وأشباهها...".

{وَالْأَنصَابُ}، الأشياء التي يبنيها الناس لترمز لشيء ما، وهنا الكلام عن التي ترمز للشرك، حيث ترمز لآلهة الشرك بالله تعالى والتي يبنيها الناس كرمز للصنم أو للكوكب أو لشخصية تتم عبادتها ويزورها الناس للدعاء ولذبح الأضاحي... كالمسلات والنصب الوثنية والتماثيل الصخرية...

{وَالْأَزْلَامُ}، وهي القمار بالقرعة، كاليانصيب واللوتو... في عصرنا، وقديما كان هناك أشكال عديدة من القمار بالقرعة، أشهرها كان وضع عيدان لها رؤوس مختلفة الألوان في كيس يخفي رؤوسها، ويسحب المقامرون كل واحد منهم عودا، والرابح هو من يسحب السهم الذي رأسه أحمر "مثلا".

كل هذه الأمور هي، {رِجْسٌ}، مؤذية ومضرّة وإن بوجه من الوجوه كان فيها منفعة فإنَّ المنفعة قليلة جدا بالمقارنة مع ضررها، وهي {مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ}، الكائن الذي يعمل على إضلال الناس عمّا فيه مصلحتهم.

{فَاجْتَنِبُوهُ}، فلا تقربوا من الرجس نهائيا، بل ابتعدوا عنه، {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، إذ من المتوقع ومن المفروض إذا اجتنبتم هذه الأمور الشيطانية أن تكونوا من الذين قاموا بعمل فالح، حيث أجادوا فيما عملوا لأنهم عملوا الصحيح.

لاحظ هذه المحرمات التي جمعتها آية واحدة: الخمر وعموم القمار، إقامة نصب الشرك والتعبّد والتضحية عندها، والقمار بالقرعة، ولاحظ دخول {الْأَنصَابُ} مع الخمر والقمار، لأنَّها عمل شيطاني بشكل واضح، حيث إنَّ أول ما أعلنه إبليس عندما خالف أوامره سبحانه عندما أمره بالسجود لآدم(ع) ورفض إبليس، كان أول إعلان من إبليس ضدنا هو أنه سيجعلنا نترك عبادة الله تعالى، والأنصاب من أبرز مظاهر ترك الناس لعبادته تعالى، لأنها رموز لعبادة الوثن والأرواح والجن والكواكب والملائكة... واختيار عمل الأنصاب أو التعامل مع الأنصاب، لجمعه مع المسكرات والقمار، يدلنا على خطورتها، فإن كانت الأنصاب شكلاً صريحاً من أشكال ترك ذكره تعالى، وبشكل صريح تدل على سخافة عبادة حجر أو تمثال، فلنرَ على ماذا يدل المسكر والقمار.

بقي شيء قبل ذلك، إذ إنَّ الميسر عموم أنواع القمار والتي منها ألعاب نتيجتها الفوز بمال الآخرين المشاركين في اللعبة أو الفوز بأموال المراهنين، كمباريات لعب الورق أو الداما أو الملاكمة أو سباق الخيل... والأزلام كقرعة حيث من تطبيقاتها أيضا مساهمة بضعة أشخاص بالمال لشراء سيارة أو بيت... والقرعة بينهم على الفوز بها، أو على الفوز بقسم منها كما لو اشتروا بقرة أو شاة وذبحوها والفائز بالقرعة يأخذ حصة كبيرة من اللحم الجيد... والأنصاب هو ما يقدّمه الناس من طعام على نصب ما، فعادة يتوزّع كلّه أو قسم منه على الفقراء، لذا فإنَّ توزيعها على الفقراء عمل حسن، ولكن التحريم ليس لهذا بل لعنوان تقديم الطعام للفقراء لغير اسمه تعالى، أو لقتل الأنعام على الأنصاب

بالاستهلال عليها "بالتسمية عند ذبحها" بغير اسمه تعالى. وكما ترى فإنَّ هناك استفادة من بعض زوايا هذه الأمور ولكن الضرر منها أكبر، وستتحدّث الآية التالية عن بعض ذلك، وراجع في ذلك دراسة الآية 219 من سورة البقرة "{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا}...".

(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ{91})

{إِنَّمَا}، فقط وحصرا، {يُرِيدُ}، يقصد ويرغب، {الشَّيْطَانُ}، الذي يقوم بأعمال الضلال ويضلّ الآخرين، وعلى رأس الشياطين يقف إبليس عليه اللعنة، وهو إنما يريد، {أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ}، أن تصير حالتكم الفعلية، {الْعَدَاوَةَ}، وَيَصِير عندكم شعور العداوة وهو شعور حبّ الشرّ وحصول الأشياء السيئة لبعضكم لبعض، ويريد أن يوقع بينكم، {الْبَغْضَاءَ}، الكره وَالنفور.

هذان الضرران يحصلان لكم، {فِي الْخَمْرِ}، في المسكرات بكل أنواعها، {وَالْمَيْسِرِ}، والقمار بكل أنواعه، فالشيطان يوسوس لكم وَيُشَجِّعكُم ويغريكم حتى تتناولوا المسكرات وتلعبوا القمار وهو يعلم أنكم في النهاية ستتعادون وتبغضون بعضكم البعض.

مَعْلُوم للجميع كثرة المشاكل بالعراك بالأيدي وبالأسلحة النَّاتِجَة عن شرب الخمر وتعاطي المخدرات، ومعلوم فلتات لسان المخمور بالكلام السيّء عن الآخرين حيث يصفهم بالسوء الذي لن يقوله وهو صَاحٍ... ومعلوم للجميع المشاكل الناتجة عن لعب القمار من تخالف وتعارك، ومن خسائر يفقدون بها بيوتهم وما يَمْلِكُون... ومعلومة تصرفات العصابات التي تدير القمار والتي تحصّل الديون بالقوّة وصولا إلى القتل...

ننتقل الآن إلى الضرر الإيماني الناتج عن الخمر والميسر: يُرِيدُ الشيطان عبر الخمر والميسر {أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ}، يَمْنَعكُم "حتى لو كان عندكم رغبة" عن استحضار ربكم سبحانه بفكركم وسلوككم ولسانكم... تَنْسَوْن ربكم سبحانه بفقدان الفكر الواعي بسبب المسكرات، وبسبب الانفعالات من القمار، تَشْتُمُون بعضكم البعض، وتسبون بعضكم البعض، وتلفظون ألفاظ الكفر، وَتَتَعَلَّقُون بالحظ وبالربح وبالجائزة والفوز... ناسين التعلق به تعالى كرازق ميسّر للأمور، وكل ذلك مخالف لذكر الله تعالى، والآية لا تفترض أن المؤمن في حالة ذكر دائم باللسان لربه تعالى، بل المؤمن في حالة طاعة دائمة لربه تعالى، وحالة الطاعة بتركه للسوء هي حالة ذكر لله تعالى، فالمؤمن أثناء انشغاله في عمل الحلال هو في حالة ذكر لله تعالى، لأنه تعالى في قلبه.

يُرِيدُ الشيطان أن، {يَصُدَّكُمْ}، يَمْنَعكُم "حتى لو كانت عندكم رغبة" {عَنِ الصَّلَاةِ}، عن التوجّه إلى ربكم سبحانه بالعبادة، وبالتحليل لِأَنَّ المسكرات تأخذ من الإنسان فكره وعقله، وتصير الصلاة بلا معنى، أو يتركها أو يؤجلها أو ينساها بسبب سكره، ولاعب القمار ينشغل فكره بالقمار وتصير صلاته فارغة، أو يتركها أو يؤجلها أو ينساهابسبب تعلقه بلعب القمار، بِالتَّحْلِيلِ أيضا، مِنْ جانب آخر أَنَّ الفكر والنفسية الدافعة لتعاطي المسكرات، لنسيان الهموم أو للحصول على النشوة أو... وتعاطي القمار للحصول على المال بكميات كبيرة، أو لمجرد الشعور بالربح... هُوَ بديل زائف للسعادة التي وعدنا تعالى بها في جنّة الآخرة، وبالتالي تَرَاكُم هذه النفسية والأفكار سيؤدّي إلى فقدان الصلاة له تعالى من المعنى، وسيصير التعلق بالمسكرات والقمار بديلا عن التعلّق بما وعدنا به تعالى في جنّة الآخرة.

نتذكّر من الآية السابقة إدخالها الأنصاب مع المسكرات والقمار، ولاحظنا أن الأنصاب هي شكل صريح من أشكال ترك ذكره تعالى، لِأَنَّهَا رموز لعبادات الشرك به تعالى، وهنا أفهمتنا الآية أن المسكرات والقمار مساوية في الأثر للأنصاب، حَيْثُ تجعلنا ننساه سبحانه ونترك الصلاة.

{فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ}، هَلْ ستتوقفون نهائيا بلا عودة ولا تكرار عن هذه الأعمال الشيطانية؟

نَنْتَبِه جيدا يا عزيزي، إِنَّ تكرار الحديث عن حرمة الخمر في القرآن، في الآية 219 من سورة البقرة، وفي الآيتين هنا والتي سبقتها، وفي الآية 43 من سورة النساء {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ}...، هَذَا التكرار جعل الكثيرين يستنتجون أن الخمر تمّ تحريمه بالتدريج، بداية من التشجيع على التوقّف عن شربه لأن إثمه أكبر من نفعه كما ورد في الآية 219 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا}...، ثم بتركه قبل وقت الصلاة كما ورد في الآية 43 من سورة النساء، ثم هنا في الآية بالأمر بتركه نهائيا، وهذا مجرد تحليل "لطيف" ولكنه غير صحيح، لِأَنَّ المسكرات حرام من بداية إعلان دعوة النبي محمد(ع) للناس إلى الدين الإلهي، مِثْلُهَا مثل الزنا والسرقة والكفر والشرك...

وستلاحظ أننا إذا اتبعنا تحليلهم عن الخمر، وطبقناه على شيء آخر، فسنصل إلى نتائج غير صحيحة! أَوَائِل السور التي نزلت في بدايات الدعوة لم تتحدث عن المسكرات، ولكنها أيضا لم تتحدث عن السرقة والربا والزنا... هل هذا يعني أن الدين الإلهي لم يحرم هذه الأشياء في البداية، وحرّمها فيما بعد!

لَاحِظ في آيتين من الآيات التي تحدثت عن الخمر، لاحظ أنها تحدّثت عن الميسر أيضا، لِمَاذَا لم يقولوا أن التدرج في التحريم كان للميسر أيضا! وكل ذلك الكلام الذي قالوه عن شدة تعلّق العرب بشكل عام بالخمرة، وتحليلاتهم عن أسباب التدرج في التحريم.. مِنَ الواضح أنهم لم يذكروا أي شيء منه عن القمار! علما أن القمار مُلْتَصِقٌ بالخمرة في الآيتين! مُضَافاً لذلك، فهَذَا الدين الإلهي القرآني ليس بدعة، بل هو امتداد لدينه تعالى منذ آلاف السنين، وَالمحرمات من الأمور الأساسية لا تزال هي نفسها في دينه تعالى، لَمْ يكن الخمر والقمار في الشرائع السابقة حلالا وحرّمه القرآن، لا.
لِذَلِكَ نستنتج أنه لا يوجد تدريج في التحريم، أما الروايات التي تحدثت عن هذا الموضوع فيجب النظر مليا في صحتها... ويبدو أنها مثلها مثل الكثير من الروايات، إمّا اخترعها أحدهم، أو تعبّر عن رأي لأحدهم، أو تلصق الآيات بأحداث حصلت فعلا، حَيْثُ هناك مسلمون استمروا على تعاطي الخمر رغم معرفتهم بحرمتها... ولا علاقة للأحداث التي جرت من سكرهم بالآيات لتكون تفسيرا لها بالتدرج في الحرمة كتبرير لتعاطي هذا وذاك "من الصحابة" للخمر على أساس أنه لم يكن حراما...
أكرر لك، إنَّ الدين "الإسلامي" ليس دينا جديدا، بَلْ هو امتداد لدين الأنبياء والرسل، وبخاصة لدين "الملّة" النبي إبراهيم(ع) التي تنهى عن الشرك والكفر وتأمر بالبرّ والزكاة وترك المنكرات والفواحش... والإسلام هو إحياء لذلك الدين، لِذَا لَا معنى للتدرج بحرمة الخمر "والميسر" لأنه حرام من أول تكليفه تعالى للبشرية، ونَفْس الكلام عن قولهم المنتشر في كتب التفاسير عن الزكاة التي ورد الكلام عنها في سور نزلت قبل الهجرة، حَيْثُ فسروها بشيء آخر غير الزكاة الواجبة على اعتبار أن الزكاة الواجبة تشرّعت من بعد هجرة الرسول(ع) إلى مدينة يثرب، وَكلامهم يوحي لك بأن الزكاة تشريع إلهي جديد! علما أنها بوضوح من أساسيات دينه تعالى كما ترى كمثال من الآية 83 التي تعيد تذكير بني إسرائيل بها {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ... وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ}...
نَتَذَكَّر دائما أن الخمر هو نموذج عن المسكرات، التي كلها حرام، مثلما نرى هنا أن الأزلام حرام وهي مجرد نموذج عن القمار بالقرعة، وَأي شكل من أشكال التعاطي "حقن، لصق، شرب، تدخين..." لأي نوع من المواد التي تسبب السكر، فهو حرام ومن دون أي نقاش، وحتى القليل القليل منه فهو حرام.

(وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ{92})
أَيُّهَا الذين أعلنوا أَنَّهُمْ معتقدون وملتزمون بهذا الدين: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}، ما تَسْمَعُونَهُ منه تعالى أو من الرسول(ع) فَنَفِّذُوهُ. {وَاحْذَرُوا}، انْتَبِهُوا، وَإِذَا لم تطيعوا ستكتمل شروط معاقبتكم، لِأَنَّ هناك عِقَاباً لمن لم يطعه تعالى ولم يطع رسوله(ع)، لِذَلِكَ انتبهوا حتى لا تقعوا فيه، حَيْثُ إِنَّ حصول العقاب أكيد إذا اكتملت شروط حصوله فيكم.
{فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ}، إِنْ وجّهتم سلوككم باتجاه آخر غير اتجاه طاعته تعالى وطاعة رسوله(ع)، {فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}، حَيْثُ الْمَطْلُوبُ منه فقط إيصال الرسالة الإلهية من أولها لآخرها بالشكل الواضح. لَيْسَتْ وظيفة الرسول الذي حمل رسالة ربكم سبحانه لكم، إلا التبليغ عبر توصيل الرسالة على التمام، وبشكل واضح، ومن بعدها تَصِيرُ الْمُشْكِلَةُ عند من لم يطعه تعالى وَلم يلتزم بما تقوله الرسالة، والمشكلة عند من لم يطع الرسول الحامل للرسالة الإلهية.
بعبارة أخرى، كُلُّ ما سبق وسيأتي في السورة من أوامر نازلة منه تعالى على الرسول(ع)، يَجِبُ عليكم طاعتها، وإن لم تطيعوا فهناك عقاب، ولا تتوقعوا حصول شيء آخر، لِذَا لَا تتعاملوا مع كلامه تعالى باستهتار، والكلام عمومي وسياقه هنا عن تحريم بعض الأطعمة وتحريم الخمر والميسر... فَصْلُ طاعته تعالى عن طاعة رسوله نَاتِجٌ عن أنه تعالى في القرآن ترك الكثير من التفاصيل وذكر كل الأساسيات، وعند التطبيق يأتي دور الرسول كنموذج مثالي عن شخص سيفتي بما يتماشى تماما مَعَ كلامه تعالى. نَقُولُ دائما إِنَّ القرآن ذكر الرسول مُحَمَّداً(ع) كنموذج لمؤمن يجب طاعته فيما يُفْتِي بِهِ بِمَا لَدَيْهِ من قدرة على استنباط الأحكام من أساسيات كلامه تعالى في القرآن، لأن المنتشر في ثقافتنا أن أمثال آيتنا هنا تأمرنا بالعمل على ما وردنا من روايات عنه (ع)، وهذا صحيح إن كانت تلك الروايات صحيحة وكاملة ولا تتناول فتاوى فيما ترك سبحانه لنا هامش مرونة فيها... كنوعية ونسبة تحديد الزكاة... خُذْ مثلا حالة الفقاع "منقوع الشعير، البيرة" والتي انتشر شربها بين المسلمين من بعد وفاة الرسول(ع) وواجه المؤمنون الْحَقِيقِيُّونَ مشكلة أن الفقاع لم يكن معلوما في زمن الرسول(ع)، ولم يصدر منه (ع) رواية بتحريمه، حَيْثُ تَحَجَّجَ الناس بأن الفقاع ليس خمرا ولا يوجد رواية تحرّمه، وَشَرِبُوهُ! علما أن منقوع الشعير يختمر حتى ينتج عنه الكحول، وعلما أن الخمر ذكره القرآن كنموذج عن أي شيء آخر يسبب فقدان الوعي، وعلما أن القليل من الخمر لا يسبب فقدانا عاليا للوعي ورغم ذلك هُوَ حرام، لِذَا لَا عذر لتحليلهم للفقاع سوى أنهم حَاوَلُوا التحايل على شيء مَعْلُومَةٍ حُرْمَتُهُ. مَعْلُومٌ وَمَشْهُورٌ أن المؤمنين من الدرجة العالية من الصحابة والتابعين، والعلماء المحترمين، أَفْتَوْا بحرمة الفقاع وكل ما يسبب كثيره السكر، فَقَلِيلُهُ حرام. هَكَذَا ترى أنه لا معنى لتقييد كلام القرآن عن طاعة الرسول محمّد(ع) بشخصه، فهو نموذج كَمُفْتٍ وقائد وَقَاضٍ... وكرجل له موقعه الديني والاجتماعي... وهذا شيء تراه بوضوح في أمثال الآيات التي علمتنا كيفية التعامل الراقي مع شخصية ذات موقع، وتجد ذلك واضحا في الآية 12 من سورة المجادلة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً}...، وفي الآية 53 من سورة الأحزاب {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ

لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ}...

(لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ{93})
{لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا}، ليس على الذين أَعْلَنُوا اعتقادهم والتزامهم بالدين الإلهي، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قَامُوا بالأعمال الصالحة الجيدة، لِأَنَّهُ خَلَقَنَا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وَهُمْ باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، عَمَلِيّاً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى. وبشكل أو بآخر يشيع بين الناس عُمُوماً وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، حَتَّى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائما أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فَيُؤْمِنُونَ به. وهذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعا ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّا لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو سيّء" فهو في الحقيقة اختراع من البشر وليس أمرا إلهيا. هَؤُلَاءِ، {لَيْسَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ}، لَا يوجد أي مشكلة، {فِيمَا طَعِمُوا}، فيما تناولوه من قبل، والحديث السابق كان عن الخمر والميسر والأزلام ويشمل أَيْضاً ذبائح الأنصاب، مَنْ طعم، "أكل ولو قليلا أو كثيرا فشبع أو ذاق طعم سائل أو مائع أو صلب من الأكل"، أكل أو شرب بكمية قليلة أو كثيرة، مسكرا أو من نتاج مكسب القمار أو من ذبائح الأنصاب... من قبل أن يؤمن ويعمل الصالحات، فلا جناح عليه وَلَا مشكلة عليه وَلَنْ يتحاسب عليها لأنه فعلها قبل التزامه بدينه تعالى. لَكِنْ بشرط، {إِذَا مَا اتَّقَوْا}، تَجَنَّبُوا، وسياق الكلام عن تجنّب غضب وعقاب ربهم سبحانه، {وَآمَنُوا}، حَيْثُ اعتقدوا فعلا ولم تكن حياتهم تمثيلية، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، نَحْنُ نعرف من آيات القرآن، أن الكافر سيتحاسب عن كل سوء قام به ولن ينال أي نوع من المغفرة، فإذا اتَّقَى وآمن وعمل الصالحات، فكل ما قام به من أعمال في السابق ستتم مغفرتها. إِذَا أعلن إسلامه وبدأ بممارسة الدين بالعقيدة والعمل، فلا جناح عليه فيما أكله في السابق من خمر ومال القمار... وَانْتَبِهْ جيدا، لِأَنَّ لديه سوابق مع هذه الأمور، حَيْثُ يُمْكِنُ أن يؤمن ويعمل الصالحات وبين الحين والآخر يقوم بشيء من تلك المحرمات، أو يبقى عليها "مع إيمانه المتذبذب وعمله الصالح"، يعني أَنْ يصير مسلما فاسقا، والآية هنا تتكلم عن مغفرة ما سبق بعد أن آمن ولذلك أكّدت وجوب "تَقْوَاهُ" توقّفه عن تلك الأعمال بعد إيمانه وحينها لا مشكلة فيما سبق، أمّا لو آمن واستمر على القيام بها فسيتحاسب عليها. {ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا}، انْتَقَلُوا إلى مرحلة متقدمة من التقوى والإيمان، وهنا سيحصل على أجر أعلى مختلف عن الأجر السابق. {ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا}، حَيْثُ كَانَتْ أعمالهم حسنة جيدة، وهكذا يَصِلُ إلى درجة عالية جدا من الإيمان، فينال أجرا ضخما على ترك السوء. إِذَا تذكّرنا الآيات القرآنية التي تتحدث عن غفران الذنوب، والتي تتحدث عن الحسنة بحسنة، وعن الحسنة بعشرة... وعن الحسنة بسبعمائة... وعن الحسنة بأضعاف مضاعفة... وعن الحسنة بزيادة إلهية غير متناهية... فيمكننا تطبيق تكرار التقوى هنا على تلك المعاني، لنفهم أنه يوجد درجات في الإيمان، ويوجد درجات في الحساب، وَكُلَّمَا تحسّن وتعمّق الإيمان كَثُرَ الثواب. لَكِنَّ هذا الكلام هو تحليل وليس صريحا في الآية هنا، ولكنه أنسب شيء وجدته لتفسيرها من القرآن. فِي عادتنا الحالية لاستعمال كلمة "طعام" نقصد بها الأكل ولا نقصد بها الشرب، أما في الأصل، فالأكل والشرب كلاهما طعام، لَاحِظْ استعمال كلمة طعام في سورة البقرة 249 {إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي}...، لِذَا كَلَامُ الآية هنا عن الطعام يشمل شرب الخمر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ{94})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين: {لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ}، سوف يعرّضكم سبحانه لشيء ممكن أن يغيّركم، {بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ}، وكلمة صيد من استعمالها تشير للحيوانات الوحشية البرية أو البحرية لحيازتها باليد أو بِأَدَاةٍ، وحيّة أو بعد قتلها، لأكلها أو الاحتفاظ بها أو الاستفادة من جلدها أو للتخلّص من ضررها... حَيْثُ إِنَّ سياق الكلام يحدّد المقصود منها. هنا سترى أن سياق الكلام عمومي لأي حيوان سواء كان مُحَلَّلَ الأكل أم لا، وبعد الآية التالية سترى استثناء الصيد البحري من المنع.
سَيَبْلُوكُمْ تعالى بصيد، {تَنَالُهُ}، تطاله وَتَصِلُ إليه، {أَيْدِيكُمْ}، حَيْثُ يمكنكم التقاطها باليدّ "أو بشبكة أو مصيدة..."، وَتَنَالُهُ فَتَصِلُ إليه، {وَرِمَاحُكُمْ}، وهي أداة للصيد متكونة من عصا بطول الإنسان تقريبا وعلى رأسها معدن له رأس مسنّن... ويتم قذفها باليد على الحيوان لينغرس الرأس المعدني فيه... والمقصود أنه تَمُرُّ بقربكم حيوانات يمكنكم اصطيادها بأدوات الصيد وعادة يحصل ذلك بالالتقاط باليد أو الرمي عليها من مسافة بعيدة.

مِنَ الآية التالية ومن آيات أخرى من القرآن، نعلم أن آيتنا هنا تتحدث عن المحرم، وهو الشخص الذاهب إلى الحج أو العمرة، حَيْثُ في مرحلة من أَدَاءِ الطقوس يحرم عليه بعض الأشياء ومنها الصيد، وهنا تنبهه الآية، فِي حالة كنت محرما، فلا تستخفّ بحرمة الصيد، سواء أكان قريبا بمتناول يدك أو بشبك أو مصيدة... أو كان في مجال أَدَاةٍ رامية كرمح أو سهم أو بندقية... فلا تقع في البلوى وتصطاد.

إنما البلوى بالصيد، {لِيَعْلَمَ اللّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ}، إِذَا كنت لوحدك وليس معك أحد، فأنت في غيب عن أعين الناس، غائب عن أعين الناس، فهل ستخافه سبحانه وَتَشْعُرُ بالخطر من عقابه الأكيد ولا تصطاد؟ أم أنك ستسقط في البلوى وتخالف أوامر ربك سبحانه وَتَصْطَادُ؟ وإذا كنت مع جماعة مستهترة بحرمة الصيد على المحرم، فهل تشارك معهم وتصطاد؟

{فَمَنِ اعْتَدَى}، مَنْ تجاوز أوامره سبحانه واصطاد وهو محرم، {فَلَهُ عَذَابٌ}، سَيَتَعَرَّضُ لما يؤذيه وسيكون، {أَلِيمٌ}، فلا يمكن تحمّله ولا الاعتياد عليه.

بِالنِّسْبَةِ للجملة التي قالت: {لِيَعْلَمَ اللّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ}. هُنَاكَ آيات أخرى من القرآن تعطي نفس المعنى، ونفهم منها أنه سبحانه يريد أن يعلم من هو المؤمن الحقيقي من المؤمن المزيف، مما يوحي لنا بأنه تعالى لم يكن يعلم من هو المؤمن ومن هو المزيف، ويريد أن يعلم! وهذا يخالف الكثير من الآيات التي تقول بأنه تعالى يعلم كل شيء، إِذَنْ اَلْآيَةُ تقصد أنه تعالى يريد أن يظهر الشخص على حقيقته بالامتحان. بعبارة أخرى، فِي المدرسة نحن لا نحرم التلامذة الكسالى من الامتحان، بالرغم من علمنا من علاماتهم الراسبة خلال السنة الدراسية، نَعْلَمُ "بشكل عام" أنهم لن ينجحوا في الامتحان النهائي، ولكن أحيانا نَتَفَاجَأُ بنجاح أحدهم! لأنه في الأيام الأخيرة بذل جهدا لينجح، ونتفاجأ بتلميذ مجتهد رَسَبَ!

إِذَنْ، الامتحان ضروري جدا، والامتحان الإلهي للبشر لا علاقة له بالعلم الإلهي المطلق العام الشامل، الذي يجعله سبحانه يعلم بدقة كيف ستكون نتيجة الامتحان، فلو عاملنا سبحانه على أساس علمه المطلق، لما كان لخلقنا في الحياة الدنيا أي معنى، لكَانَ خَلَقَنَا تعالى ورمى في جهنّم مباشرة من يعلم أنه سيكفر، ولأدخل من يعلم بأنه سيؤمن إلى الجنة بمجرد أن يفتح عينيه على الحياة، فهل لهذا الكلام معنى؟ لا، لِأَنَّ الاعتراض سيكون من الشخص الذي دخل إلى النار وهو لم يمرّ بالامتحان.

إن عِلْمُ الله سبحانه بشيء لم يحصل بعد، هو علم صحيح ولا خطأ فيه، ولكن لا معنى له لو كان في الفراغ، وَلا معنى له إذا لم نخرج إلى الحياة، ولم نمر بامتحانات نمارس فيها حرية الإرادة والاختيار حتى يصير هذا العلم حقيقيا "متنفذا حاصلا واقعا" لأنه مرتبط بنا، لِذَا لا بد من مرورنا بامتحانات حتى يعلم تعالى فعلا وفي الحقيقة من منّا سيؤمن ومن منّا سيكفر.

نَنْتَبِهُ لشيء آخر مهم جدا، لَا تفهم أنه تعالى ينتظرك حتى تحرم، ثم ينتظرك حتى تكون لوحدك، ثم يأمر دجاجة أن تمر بقرب قدميك حتى يمتحنك! لا. ولا تفهم منها أن المحرم هو شخص مؤمن انْطَلَقَ للعبادة، وَحَضَّرَ الله تعالى له فخا! لا. عَلَيْنَا أن نفهم البلوى الإلهية أنها هي نفس وجودنا وحياتنا على الأرض، بجسدنا وغرائزه وشهواته... بالمشتهيات من حولنا... كُلُّ ذلك هو عالم الدنيا، وَكُلُّهُ امتحان، وكلنا بشكل طبيعي نعيش في هذه البيئة التي في كل لحظة منها امتحان، عِنْدَمَا خرجنا إلى الحياة، نَحْنُ خرجنا إلى قاعة الامتحانات، وَسبحانه لا يتقصّد شخصا بعينه وينصب له فخا، لا، فنحن كلّنا نعيش في عالم الامتحان.

لَوْ أطلت عليك سَنُعِيدُ التركيز على النقطة الثانية، هَلْ يكون الشخص صافي النية، طاهر القلب، وَيَقُومُ ربنا سبحانه بِامْتِحَانِهِ حتى يسقط! لا، هَذَا مستحيل، وهذا عمل الشيطان، أما ربنا سبحانه فيساعد من يريد أن يؤمن وَيَهْدِيهِ وَيُرِيهِ الطريق ولا يوقّفه لارتكاب السوء... وهذا ما تقوله عشرات الآيات.

أمّا بِالنِّسْبَةِ للروايات فإن أصررت على التعلق بها، لتفهم منها أن المحرم يتعرض للامتحانات المقصودة، حَيْثُ تَمُرُّ الحيوانات بقربه "وتكاد تحتك به" لتمتحنه! هَذَا شيء لا نعرفه من تاريخ ملايين الناس التي كانت تحرم! وموجود فقط في بعض الروايات! أما أقرب شيء لهذه المعاني فهو ما حصل مع الصيادين اليهود حين كانت الأسماك تأتي في يوم السبت، وتغيب في بقية الأيام، ولكن تلك حادثة هي مثل الحوادث الفريدة الكثيرة التي خصصها ربنا سبحانه لبني إسرائيل، وهذه الحادثة بالذات حصلت بصراحة من تدخّل إلهي حتى يظهر النفاق المستتر... ولا يحقّ لنا تعميمها على كلام الآية هنا ليصير معناها تقصّده تعالى تمرير الحيوانات بقرب كل المحرمين.

لِنَعُدْ للآيات التي تحدثت عن حرمة الصيد للمحرم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللّهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللّهُ مِنْهُ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ{95})

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين: {لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ}، لا تقوموا بإنهاء حياة الحيوانات التي تُصَنِّفُونَهَا بأنها للصيد، فهناك حيوانات تمر بقربنا ولا نعتبرها صَيْدًا كالكلب والهرّ... عَادَةً لا نقتلها ولذلك لم تهتم الآية بذكرها، فلا تصطادوا ما اعتدتم على صيده، {وَأَنْتُمْ حُرُمٌ}، وأنتم في حالة يكون هناك أمور حَرَامٌ ممنوع عليكم فعلها، وهذه الحالة من المعلوم أننا نكون فيها أثناء بداية القيام بالعمرة أو الحجّ.

سَتُلاحِظُ من الآية التالية أن صيد البحر مُطْلَقًا حَلَالٌ على المحرم، وهكذا نفهم سبب التعبير هنا عن صيد البرّ بأنه: قتل الصيد. حَيْثُ عَادَةً في البحر لا تقتل ما تصطاده، بل فقط تسحبه من الماء، وهو يموت لوحده اختناقا بالهواء، أما في البرّ فتقتل الصيد بالسكين أو الرمح... حتى يموت لتأكله.

نُلَاحِظُ أَيْضًا أن كل أنواع الصيد سواء كانت بصيد الحيوانات للأكل، أو بصيد الحيوانات للتسلية أو للاستفادة من جلدها مثل صيد الأسود والثعالب... فكله حرام أثناء الإحرام، طَبْعًا إذا هجم عليك حيوان ليؤذيك أو ليؤذي غيرك، فيجب قتله مهما كان نوعه، حتى لو كنت محرما، وهذا تفصيل له عنوان آخر، والكلام هنا حَصْرًا عن حرمة صيد البرّ للمحرم.

يَكُونُ الإنسان محرما حين يكون ذاهبا إلى الحج أو العمرة، وَفِي طريقه قبل أن يصل إلى ما قبل مكة بعدة كيلومترات، يوجد أماكن اسمها: مواقيت الإحرام. وَيُعْلِنُ من تلك النقطة أنه محرم. ويرتدي ثوبا ليس فيه تفصيل وخياطة، ويمتنع عن العطور وقتل الحيوانات والحشرات ومقاربة النساء... وينطلق إلى مكة، وَيَطُوفُ حول البيت... ويسعى وَيَمْشِي بين الصفا والمروة... ويقصّر من شعره أو يقص أظافره... وعندها يفك إحرامه، وهكذا ينهي المعتمر إحرامه الذي يمكنه فعله في أي شهر من السنة، أما الحاج، ففي أشهر محددة من السنة يفعل ما سبق من أعمال العمرة، ويحرم في مكة من جديد ويقوم بالمناسك: من طواف ووقوف بعرفة والمزدلفة ورمي الجمرات والهدي... وَبَعْدَهَا يقص شعره أو من شعره... ليفك إحرامه.

{وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ}، أَيْ قَتَلَ الصيد وهو في حالة إحرام، {فَجَزَاءٌ}، فَالْمُقَابِلُ المعادل لما قتله يكون، {مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ}، مثلها من الحيوانات الأليفة التي نربيها، {يَحْكُمُ بِهِ}، يقول بالمثلية بالمساواة، {ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ}، شخصان عادلان، لا يجوران ولا يظلمان لأنهما يعرفان الحلال من الحرام ويفهمان في تقدير الأمور.

فإذا قام المحرم بقتل حيوان برّي، فيجب أن يقدّم، {هَدْيًا}، هديّة "فيذبح حيوانا أليفا"، {بَالِغَ الْكَعْبَةِ}، يصل إلى الكعبة، فيذبحه على الطريق خارج منطقة الكعبة أو يذبحه في منطقة الكعبة ولكن على كلا الحالتين بشرط أن يوزع لحم الهدي على المساكين في منطقة الكعبة، وهي البناء المكعّب الذي في المسجد الحرام، والمسمّى بالبيت الحرام.

لَاحِظِ التعبير بالهدي والجزاء، فهما يتضمنان معنى أن المحرم لا يحقّ له تقديم ما اصطاده للمساكين وينتهي الموضوع، أو الاحتفاظ به لتقديمه للمساكين حين يصل من سفره إلى الكعبة، لا، بل مفروض عليه تقديم هدي من أملاكه.

حَجْمُ ونوع الذبيحة التي بدل الصيد، يُحَدِّدُهُمَا شخصان من أهل العدل، بتعبيرنا الحالي: من أهل الخبرة. فإذا اصطاد المحرم حمامة برية، يَقُومُ شخصان عادلان بتحديد البدل الذي يجب أن يقدمه المحرم بدل الحمامة البرية، فلنقل أَنَّهُمَا حكما بأن يذبح دجاجة حجمها وسط أو كبيرة...

{أَوْ كَفَّارَةٌ}، غطاء ساتر، للذنب على صيده، {طَعَامُ مَسَاكِينَ}، وجبات أكل يتم تقديمها لأشخاص حالتهم المادية متعثرة، فَقَدْ يَكُونُونَ فقراء معدمين لا يملكون ثمن وجبة الطعام وَقَدْ يَكُونُونَ يملكون منزلا ودكانا ولكن أمورهم المالية متعثرة، وَتَقُومُ بإطعامهم بقيمة الحيوان الذي حكم به العدلان، حَيْثُ يَشْتَرِي وجبات طعام أو يصنع طعاما وتكون تكلفته مساوية لثمن الهدي الذي كان يجب أن يقدّمه، وهو نفسه يكون مساويا لما نتج عن وجبات طعام مما اصطاده.

{أَوْ عَدْلُ}، المعادل المساوي للكفارة بالوجبات على المساكين، {صِيَامًا}، فيصوم بدل تقديم وجبات طَعَامٍ للمساكين، وَعَرَفْنَا من الآيات التي تحدّثت عن كفارة اليمين، أن كل إطعام لعشرة مساكين يقابله صيام ثلاثة أيام، فبحسب ما كان يجب عليه من إطعام مساكين بحسب حجم الصيد، يَجِبُ عليه معادلة ذلك على قاعدة صيام ثلاثة أيام مقابل إطعام عشرة مساكين.

هذا الأمر بتقديم ذبيحة أو إطعام مساكين أو الصيام، {لِيَذُوقَ}، ليشعر ويحسّ المحرم، {وَبَالَ}، ثقل النتيجة السيئة، {أَمْرِهِ}، فالأمر الذي حصل، الشيء الذي حصل وهو قتله لحيوان وهو محرم، فحتى يشعر بثقل تكفير ذنب الصيد أثناء الإحرام لِذَلِكَ عَنْ قَصْدٍ لم يكن حكما مخففا، بل ثقيلا مكلفا.

{عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ}، مرّ سبحانه عن الذي حصل في الماضي، عمّا حصل من قبل، ولم يتوقّف سبحانه عنده، حَيْثُ مِنْ قَبْلُ كان البعض منكم يقوم بالصيد وهو محرم، فلا يوجد مفعول رجعي للحكم، فلن يتوقّف سبحانه على هذا بل سيمرّ عنه، فلن يطالبكم بما فعلتم من قبل فلا يجب عليكم الآن تقديم هدي أو... عن صيد ارتكبتموه في السابق. ولا يجب عليكم إعادة حجّكم إن كَانَ حَصَلَ أثناء إحرامكم صيد وأنتم لا تعلمون أنه ممنوع...

{وَمَنْ عَادَ}، فقام بالصيد وهو محرم كما كان يفعل من قبل، {فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ}، فيقوم تعالى بمعاقبة المحرم بسبب مخالفته لإحرامه، ولا يذهب فكرك لضخامة كلمة "انتقام" فهي لا تعني الضخامة في ردّ الفعل على شيء، بل تعني أنه لا تمرير للشيء من دون ردّ.

عندما تقارن هذه الآية على ما نسمعه من بعض الناس عندما يقولون عن حرام يَفْعَلُونَهُ: كل عمرنا نقوم بهذا الشيء، والآن تقولون إنه حرام! لا لن نتوقف عن فعله... هنا الحالة مشابهة، هناك أناس كانوا في حالة الإحرام يصطادون، ويعرفون أَنَّ كل الناس أو غالبيتها كانت تصطاد أثناء الإحرام، والآن يقول لهم القرآن إِنَّهُ حرام.

هذه النوعية من الناس سينتقم تعالى منها، لأنها لم تحترم أوامره، حَيْثُ مَرَّرَ سبحانه لهم الصيد الذي قَامُوا بِهِ سَابِقًا ولن يمرّر من الآن وصاعدا أي مخالفة من هذا النوع.

{وَاللَّهُ عَزِيزٌ}، منفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... وهنا الكلام عن فرضه تعالى ما يريده على الآخرين ولا يفرض الآخرون عليه أي شيء، وَبِنَاءً عَلَيْهِ فرض عليكم حرمة الصيد أثناء إحرامكم.

والله، {ذُو انْتِقَامٍ}، منسوب له تعالى صفة الانتقام، فلا يترك من خالف أوامره من دون عقاب، بل يأخذ الحق الإلهي منه ويعاقبه.

من الآية التالية سنلاحظ أن الاصطياد من البحر حلال أثناء الإحرام، وَأَيْضًا يمكنك الأكل مما اصطدته من البحر وأنت محرم، ونلاحظ الآيات هنا تحدثت فقط عن حرمة الصيد، وذلك حتى لا يخطر ببال أحدنا أنه يمكن للمحرم الصيد على أساس أن يأكل ما اصطاده بعد أن يحلّ إحرامه، لا.

بقي شيء، فالآيات السابقة تحدّثت عن يمين حرّمنا به حلالا، وهنا تتحدّث عن حرمة الصيد أثناء الإحرام، وهما موضوعان يبدوان مُنْخَفِضَيِ الأهمية، وَحَلَّلْنَا في الآيات السابقة سبب الكفارة على اليمين... وهنا نجد في التفاسير والروايات تحليلا تبريريا لتحريم الصيد في الإحرام لمنع وقوع حوادث قتل للناس، أو انْقِرَاضِ للحيوانات البرية في منطقة مكّة بسبب الأعداد الكبيرة للحجّاج إذا قاموا بالصيد، أو حتى يبقى الحاجّ في حالة العبادة ولا ينشغل بالصيد... فعلى أي حال، طالما دخلنا في مسألة تحريم الأشياء والأمور، فستفرض نفسها اختلافات خطورة الأشياء والأمور، ولذلك ترى اختلافا في شدة العقاب الإلهي على الأمور المختلفة، فمن البديهي الطبيعي أن تختلف خطورة المحرمات عن بعضها، وصولا إلى ما قد لا نراه نحن يستحقّ العقاب عليه، أو قد نضخّم أمرا ما ونرى ضرورة شدّة العقاب عليه بينما سبحانه لم يعظمه...

هَكَذَا نرى بوضوح معنى كلامه تعالى عن اليمين والصيد، وبمقارنته بتفاصيل من قَوَانِينِنَا التنظيمية نرى أن الأمور طبيعتها هكذا في اختلاف الأهمية، فما معنى غرامة عالية على ركن السيارة في مكان ممنوع فيه الوقوف؟ وما معنى الغرامة على أهل الميّت إن لم يهتموا بوثائق وفاته وتسجيلها في الدوائر الرسمية للنفوس؟ طَبْعًا فهمت أني لا أسخّف هذه المواضيع وإنما ألفت انتباهك لتشريعاته تعالى حتى لا نسخّف منها ما لا نراه مهمّا، فحتما هناك سبب حكيم حتى حرّمها تعالى، وحتما ستختلف خطورة نتائج وآثار ما حرّمه تعالى، وهذا ليس عذرا للاستهتار بما لا نراه نحن مهمّا وَحَرَّمَهُ تعالى.

بِالنِّسْبَةِ لمحور السورة عن الميثاقية له تعالى بالالتزام بدينه، هنا ترى الكلام يدخل في التفاصيل كتهذيب وتشذيب ليكون الالتزام تاما بكل تفاصيله، حتى بما قد لا تراه مهما وقد تَسْتَهْتِرُ به، وسيأتيك كلام عن الهدي والقلائد والأشهر الحرام... وهي من نفس الأجواء.

(أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ{96})

{أُحِلَّ لَكُمْ}، حلال ليس عليه عقاب، {صَيْدُ الْبَحْرِ}، وكلمة بحر معناها التجمع الكثير للماء "للسائل والمائع عموما، وهنا من الواضح أنه الماء"، وَتَشْمَلُ النهر أيضا، حَيْثُ كُلُّ أنواع الصيد حتى الذي تستفيد منه للحلي والزينة والحبر... ومن تكملة الجملة عن حرمة صيد البر تَعْلَمُ أن الحلية لصيد البحر أثناء الإحرام والحرمة لصيد البر أثناء الإحرام، والكلام هنا ليس عَمَّا يجوز أو لا يجوز أكله بل حَصْرًا عن عموم حرمة صيد البرّ بكل أنواعه أثناء الإحرام، وحلية صيد البحر بكل أنواعه أثناء الإحرام.

صَيْدُ السمك وغيره من البحر حَلَالٌ لكم أثناء الإحرام، وحلال لكم {طَعَامُهُ}، وَالْحَيَوَانَاتُ البرّية يحرم صيدها سواء أردت أكلها أثناء الإحرام أو بعد فك الإحرام، وسواء اصْطَدْتَ ما لا يؤكل منها... أمّا الحيوانات البحرية فصيدها حلال أثناء الإحرام وَأَيْضًا حلال أكلها أثناء الإحرام، لِذَلِكَ لَا تفهم أنه يحل صيد البحر لتأكله بعد فكّ الإحرام.

إِذَا قارنت بين الحرمة العامة لصيد البرّ أثناء الإحرام لكل أنواع الحيوانات سواء التي يجوز أكلها والتي لا يجوز أكلها، والتي تصطادها لتأكلها أو لتأخذ فروها... وقارنتها هنا مع حليّة صيد كل حيوانات البحر سواء التي يجوز أكلها أَوْ التي تستخدمها للحبر أو اللؤلؤ أو لاستعمال عظامها... فتحليل صيد البحر بهذا العموم ليكون، {مَتَاعًا لَكُمْ}، شَيْئًا تستفيدون منه وتنتفعون به، وَتَأْكُلُونَ منه أو تَتَزَيَّنُونَ به... أو تَبِيعُونَهُ.

صَيْدُ البحر حلال لكم، {وَلِلسَّيَّارَةِ}، حَيْثُ إِنَّ الآية تفترض أنكم تسافرون في البحر في سفينة أثناء الإحرام، وحلال للسيارة أَيْضًا للسائرين على البرّ، وَيُمْكِنُ للمحرمين الاصطياد عن الشَّاطِئِ أو النزول في زورق للصيد...

لَا نجد في القرآن تَفْصِيلًا للحيوانات البحرية المحرمة مثلما نجد تَفْصِيلًا للحيوانات البريّة الْمُحَرَّمَةِ بوصفها "بهيمة الأنعام" فَتَخْرُجُ القوارض والسباع... من الحلال، مما يوحي بأن كل صيد البحر حلال، ولكن في عرف الصيادين إِنَّ السمك الذي له فلس "برش" هُوَ مضمون بأنه غير سام، ولذلك نجد روايات تحرّم السمك الذي لا فلس له، إِلَّا الروبيان "القريدس الذي بأحجامه المتعددة تختلف أَسْمَاؤُهُ" وَهَذَا ما يسمونه في الروايات مرّة بجراد البحر، ومرة بالجراد، وهذا ما سبّب لَغَطًا وَتَحْلِيلَ بعض الفقهاء لأكل جراد البرّ.

{وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ}، اصطياد الحيوانات البرية التي لا تعيش في الماء، وَتَعِيشُ على الأرض، وَطَبْعًا تشمل الطيور لأنها تطير في الفضاء ولكنها لا تعيش فيه، بل تعيش على البر. لِذَلِكَ صيد البر حرام، {مَا دُمْتُمْ حُرُمًا}، طالما أنتم في حالة إحرام للحج أو العمرة يُمْنَعُ عليكم صيد الحيوانات التي على البرّ على اليابسة "على الأرض"، فإذا فككتم الإحرام عبر إكمال المناسك بشكل طبيعي، فيمكنكم الاصطياد من البر، أو إذا فككتم الإحرام بشكل اضْطِرَارِيٍّ، فيمكنكم الاصطياد.

اَلْآيَةُ بتكرارها لحرمة صيد البرّ تشير ضِمْنًا لمن كان مُحْرِمًا مُسَافِرًا في البحر وكان يصطاد من البحر وانتقل مسيره إلى البرّ بَعِيدًا عن البحر، وَحَتَّى لا يظن أن حليّة الصيد لا زالت مستمرة لأنه كان في البحر، أَعَادَتْ له الآية تكرار حرمة صيد البرّ.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}، وَتَجَنَّبُوا غضبه وعقابه تعالى، {الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}، حَيْثُ سَيَتِمُّ حَشْرُكُمْ جَمْعُكُمْ بقرار منه تعالى سواء قبلتم أم لم تقبلوا وَفِي النهاية سَتَقِفُونَ بين يدي ربكم سبحانه، وَلَنْ تختفوا إن متّم، بل سيأتي عالم الآخرة بعد انتهاء الدنيا، وهناك سترجع كل الناس إلى الحياة، وسيتم جمعها كلها لتتحاسب.

عِنْدَمَا يصلكم أي أمر من ربكم سبحانه فلا تستهينوا به، ولا تخالفوا أوامره، بل تجنبوا غضب ربكم وعقابه لأنكم في الأخير سوف تقفون بين يديه سبحانه لتتحاسبوا.

(جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{97})
تَعْقِيبًا على الحديث عن منع الصيد على المحرم، فالمحرم هو الشخص القاصد للكعبة:

{جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ}، البناء المكعّب "على شكل صندوق"، {الْبَيْتَ الْحَرَامَ}، فالكعبة جعلها سبحانه البيت الذي يحرم فيه عدة أمور، حَيْثُ يَحْرُمُ فيه القتال والجدال... جعلها سبحانه: {قِيَامًا لِلنَّاسِ}، مكانا يصيرون فيه لتفعيل شيء ما، فيقومون فيه بالصلاة والأذكار والدعاء وإقامة الشعائر الدينية...

{وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ}، حَيْثُ جَعَلَ تعالى وَحَدَّدَ أربعة أشهر خلال السنة لتكون حراما، مَمْنُوعًا فيها القتال، فهي ليست من تراث العرب بل بجعل إلهي، بأمر بتحديد إلهي، وهي مشهورة كونها أربعة أشهر من السنة القمرية: محرم، رجب، ذو الْقَعْدَةِ وذو الحجة. والأشهر التي يمكن إجراء مراسم الحج فيها هي: شوال، ذو القعدة وذو الحجة. فكما تلاحظ يوجد منها اثنان حرم.

جَعَلَ تعالى، {الْهَدْيَ}، فهو سبحانه من أمر بتقديم حيوان محلّل الأكل للمساكين كواجب على كل من حجّ البيت، فيجب على الحاج أن يهدي وَيُقَدِّمَ حيوانا هدية كجزء من شعائر الحج، ويمكنه أن يحضره معه من بلده أو يشتريه على الطريق أو من مكة...

وَجَعَلَ الله تعالى، {الْقَلَائِدَ}، وهي نفسها الهدي ولكن يتم تحديد الحيوان عبر وضع قلادة "عقد فيه شيء" على رقبته كعلامة يضعها عليه صاحبه لتدل أنه مخصّص للهدي عندما يحجّ صاحبه. حَيْثُ يُقَرِّرُ شخص ما الذهاب إلى الحج، ويختار حيوانا ليقدمه هديا، ثم يقوم بوضع حبل حول رقبة الحيوان، ويعلق أي شيء على الحبل، وهكذا يعرف الآخرون أن هذا الحيوان هَدْيٌ، فلا يذبحوه أو يبيعوه، ولا يستعملوه حتى لا يتأذّى...

حَسَنًا، تحديد الكعبة التي في مكة كبيت "رمزي" لله تعالى، وتحديد الشهر الحرام، والهدي والقلائد، فهل هذه الأشياء من تراث العرب؟ وَهَلْ هي من اختراعاتهم؟ لا، فهنا تقول الآية إنَّ كل هذه الأشياء جعلها الله تعالى هكذا.

يخبركم سبحانه عبر هذا القرآن أنه هو سبحانه جعل هذه الأشياء هكذا فهي ليست من اختراع العرب، {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، فإذا ظن أحدكم أن المنافع العظيمة الناتجة عن هذه الأشياء التي هي ذات طابع ديني، وَإِنْ ظنّ أحد ما أنها من اختراع العرب وتبنّاها الإسلام، فهو مخطئ، فالمنفعة من الحجّ عظيمة جدا، سواء على الصعيد الإيماني الشخصي، "قارنها مع التأمل، وأماكن التأمل، والرياضات الروحية..."، وعلى صعيد اجتماع عدد كبير من المسلمين سنويا للتعارف والتباحث في الدين والشؤون الحياتية... والمنفعة من الهدي حيث يستفيد المساكين، والمنفعة من القلائد حيث تتشجع الناس على عمل الخير حين ترى شخصا اختار حيوانا سليما ممتازا ليقدمه للفقراء هديا قربة إليه تعالى... والمنفعة العظيمة من الأشهر الحرم، حيث فرض الأمان واجبا على الجميع، حتى تكون هدنة من الحروب، وفرصة لحل الخلافات بالطرق الدبلوماسية...

ضع هذا الكلام في بالك وسترى بعد قليل في الآيات كَلَامًا عن اختراع الناس لتشريعات لا معنى لها ومقارنتها بتشريعاته تعالى، حَيْثُ سَتَرَى الكلام عن السائبة والوصيلة...

ورد في الآية 96 من سورة آل عمران أن أول بيت وضع للناس هو الكعبة {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ} فهو بيت له تعالى من قبل تواجد قبيلة قريش في مكة. وورد في الآية 36 من سورة التوبة أن الأشهر الحرم كانت من ضمن التخطيط الأساسي لخلق الدنيا حين جعل سبحانه الأشهر 12 شهرا {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ...}، ونقرأ في الآية 34 من سورة الحج أنه تعالى جعل منسكا لكل أمة من الأمم التي أرسل إليها أَنْبِيَاءَ ليشكروه على بهيمة الأنعام {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا...}، فتقديم الذبيحة في الحجّ ليس من اختراع العرب بل مَنْسَكٌ إِلَهِيٌّ نشره كل الرسل في مجتمعاتهم، وحجّ البيت ليس من اختراع العرب والأشهر الحرم ليست من اختراع العرب.

{وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، فها أنتم ترون المنافع التي كانت مخفية في تلك الأشياء، وَظَهَرَتْ لكم منافعها عند تطبيقها بشكل صحيح، وبذلك تَلْتَفِتُونَ إلى الذي جعلها هكذا، فتعلموا أنه سبحانه يعلم كل شيء كان وسيكون، ويعلم منفعة تلك الأمور، ولذلك جعلها جزءا من دينه.

(اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{98})
{اعْلَمُوا} خذوا علما أيها الناس: {أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}، فهناك شيء سَيِّئٌ مخصّص لمن ارتكب السيئات ولن يكون سهلا بل سيكون شديدا.

اَلْأُمُورُ التي ذكرتها الآيات السابقة بأمر إلهي صارت هكذا، فلا تخالفوا الأمر الإلهي، ولا تَسْتَهْتِرُوا بِمَا لَا تعلمون أهميته أو لا ترون له أهمية... لأن العقاب شديد ولا يمكن تحمّله أو الاعتياد عليه...

فِي نفس الوقت اعلموا:

{وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ}، حَيْثُ يَغْفِرُ لمن عصى وطلب الغفران، وَيَتَجَاوَزُ عن السيئات، وليس صلبا جَافًّا فلا يجمد سبحانه على قراره بالعقاب.

والله، {رَحِيمٌ}، فلديه عناية خَاصَّةٌ للمؤمنين لما فيه مصلحتهم، ولذلك يغفر لهم إن ارتكبوا سيئة ثم استغفروا منها.

نَتَذَكَّرُ دَائِمًا، أن الرحمة الإلهية العامة تشمل كل المخلوقات، وَاسْتَعْمَلَ لها القرآن تَوْصِيفَهُ تعالى بِالرَّحْمَنِ، ولكن المؤمنين يحصلون على رحمة خاصة، فهم لوحدهم ينالون المغفرة والشفاعة ومضاعفة الحسنات... واستعمل لها القرآن وصفه تعالى بالرحيم، أمّا غير المؤمنين فهم بقرارهم خرجوا من تحت رحمته تعالى حين كفروا وعصوا... ولذلك لن تشملهم العناية الإلهية الخاصة بالمؤمنين فلا مغفرة لهم عن أي سوء ارتكبوه.

(مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ{99})
{مَا عَلَى الرَّسُولِ}، ليس على الشخص الذي نرسله للناس، فلا يجب عليه وَلَا مَطْلُوبٌ منه، {إِلَّا الْبَلَاغُ}، إلا العمل على تبليغ كلامه تعالى إلى الناس، حَيْثُ يَنْقُلُ لهم ما يصله منه تعالى من أوله لآخره، وَلَيْسَ مَطْلُوبًا منه أي شيء آخر، وَالرَّسُولُ لا يبدي رأيه ولا علاقة له بما ينزل عليه... وَهَذِهِ الأحكام التي يقولها لكم هُوَ لم يتدخل فيها، وَلَيْسَتْ من تراث قريش أو من عادات العرب وأدخلها محمّد (ع) إلى الدين الإلهي، لا، حَيْثُ نزلت هكذا من ربه تعالى وهو (ع) مجرد رسول.

{اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ}، مَا في داخلكم وقرّرتم إظهاره من قولكم ورأيكم حول هذه الأمور "الكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد..." يَعْلَمُهُ تعالى، ويعلم سبحانه، {مَا تَكْتُمُونَ}، ما تتركونه مخفيا في بالكم ومشاعركم عن هذه الأمور، وَلَا تُعْلِنُونَ عنه.

اَلْبَعْضُ منكم علنا يقول بأن هذه الأمور هي من اختراع العرب، وَجَعَلَهَا محمد جزءا من دينه، وآخرون يعتقدون بذلك ولكن لا يقولونه، بينما هذه الأخبار هي منه تعالى عبر الرسول محمّد (ع)، لِأَنَّهَا تشريعات إلهية، وَإِنْ كانوا مستهترين مستخفّين بها فَهُمْ تحت المراقبة الإلهية حَيْثُ سبحانه يعلم ما أظهروه وما أخفوه.

لِنَتَوَسَّعْ قليلا هنا، مَا معنى ما نفعله من إنكار للحقائق؟ وما سببه؟ وَهَذَا شيء لا يحصل مع الناس في الأمور الدينية فقط، بل هي حالة إنسانية واسعة لكل ما نتعرض له، وخذ مثلا بسيطا عن حالة توقفي عن تناول المنبهات "فيتامينات وكافيين..." من العصر حتى أستطيع النوم ليلا، حَيْثُ أَمْتَنِعُ عن تناول غالبية الفاكهة والعصائر والشاي والقهوة...
وأسمع من مختلف الناس آرَاءً مُعْتَرِضَةً ومتنوعة عن حالتي، ويستعملون مصطلحات لا يدرون بمعناها، حَيْثُ بَعْضُهُمْ يقول أَنَّ حَالَتِي نفسية لِأَنَّنِي أقنعت نفسي بِأَنِّي لن أنام إذا تناولت من هذه الأشياء! ولو أقنعت نفسي بأنها لن تؤثّر عليّ فَسَأَتَنَاوَلُهَا وَأَنَامُ... وبعد دقائق من الخوض في موضوع المواد المنبهة تراهم يحكون عن ليال أصابهم فيها القلق من شرب الشاي مع القهوة ليلا! وبعدها مباشرة يعيدون عليّ رأيهم الأول بِأَنَّ حَالَتِي نفسية!

وسّع نظرك لعموم سلوكياتنا التي لو درستها لرأيت أن لها خطّا يمشي باتجاه معلوم نتيجته بالعقل والتحليل بناء على المعطيات، حَيْثُ فِي بلد لا مستقبل لحملة الشهادات الجامعية فيه إلا فُرَصٌ قَلِيلَةٌ نَادِرَةٌ، بسبب ندرة الشركات الكبيرة والمتوسطة، مَا معنى دفع الغالبية لأولادهم باتجاه الدراسة للحصول على الشهادات الجامعية!

بهذا المقدار من لفت النظر لأمثلة متنوعة، ترى بوضوح أن آيتنا هنا وأمثالها تشير لهذا الطبع البشري اللاعقلاني، فهل هذا يعني أن المؤمنين بكلامه تعالى عَقْلَانِيُّونَ في كل شيء؟ لا، لِأَنَّ المسألة لها جانبان، مِنْ ناحية الشخص لدينا تمرّسه على العقلانية لبناء فكر ونفسية سليمة تكون قاعدة تؤمّن العقلانية والحكمة بالتعاطي مع الأمور، ومن ناحية ثانية لدينا المعطيات المتوافرة التي على أساسها سيتخذ العقل موقفا من الأمور.

اَلشَّخْصُ المؤهّل ليكون نبيا عَقْلَانِيَّتُهُ وسلامة نفسيته أهلته لذلك، وبالتعبير القرآني قَلْبُهُ السليم أهّله ليجعله تعالى نبيا، حَيْثُ هُوَ لديه الأساس الفكري والنفسي السليم للتعاطي مع الأمور، ولهذا السبب سيتماشى مع أوامره تعالى لأنها كلّها حكيمة وحقّ... وسيكون مؤهلا لتمثيله تعالى كشخص محترم لن يتهمه الناس بالكذب أو المبالغة أو التحايل أو حبّ الجاه والمنصب... وَصِفَاتُهُ الشخصية تعطيه الموثوقية حين ينقل كلامه تعالى للناس.

هَذِهِ حدود الصفات الشخصية التي لا تعني أبدا أن النبي سيكون الأعلم والأفهم والأدرى... بكل شيء، لا، وترى ذلك جليا في المثال المذكور في الآية 246 وما بعدها من سورة البقرة {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا...}، لِمَاذَا لم يكن النبي ملكا عليهم ليقودهم في الحرب؟ السبب أن طالوت أعلم منه بالحرب وجسديا أقوى منه...

أقول لك هذا لترى أن العقلانية كأساس هِيَ تؤمن قابلية التعاطي العقلاني مع الأمور المختلفة، وَالَّتِي بعضها يحتاج لتمرّس وتمرين أو دراسة... وإن كانت خارج مجال تعاطي الشخص العقلاني معها سابقا، وَلَمْ يَخُضْ تجربة سابقة معها، حَتَّى إِنَّ العقلاني من الدرجة العالية يَقَعُ في الأخطاء...

لِنَرْجِعْ للآية هنا والتي تشير لما سبق من تشريعات إلهية وصلتنا عبر رسول، مَا معنى إبداء الرأي فيها بالاعتراض عليها؟ مَرَّةً لنا رأي في كفارة قسم اليمين أنها موضوع تافه لا يستحقّ التضخيم ليكون عليه كفّارة، ومرة عن حرمة الصيد أثناء الإحرام والذي سيعترض عليه من لا يتطاوع مع القواعد والقوانين، والمستهتر وَلَا يَلْتَزِمُ إلا بما يراه هو مناسبا، ولا يدرس الأبعاد الأخرى للموضوع، أَيْنَ الضرر على البشر وعلى الإله وعلى الإحرام من صيد عصفور؟ وصولا إلى المستهتر بالأشهر الحرام والقلائد... حَالَتُهُ مثل حالة الكثيرين من مُنْخَفِضِي الثقافة الطبية والعناية بالجسد، والذين يتناولون السكريات والدهون بالرغم من إنذار الأطباء لهم من الموت بسببها!

بشكل أو بآخر كُلُّنَا لدينا هفوات استهتارية في موضوع ما بالرغم من العقلانية في مواضيع أخرى، والسبب قلة التمرس والدراسة والمعطيات... وغلبة الأهواء والخلفيات السيئة...

من هذه النظرة سنفهم الكثير من كلام القرآن عن الذين ينكرون أو يكذّبون أو يعارضون كلام من؟ كلام الإله.

سَنَفْهَمُ الكثير من كلام القرآن عن صلابة قلوب هذه النوعية السيئة، طَالَمَا لم يطوّروا عقليتهم ونفسيتهم نحو الأحسن، سَتَتَرَسَّخُ فيهم العقلية والنفسية الفاسدة، وبتعبير القرآن ستنطبع وتندمغ وتتغلّف وتعمى... قلوبهم "فكرهم ونفسيتهم".

سَنَفْهَمُ معنى قراره تعالى بالمغفرة للمؤمنين، مِنْ تبعات جعله تعالى لنا بحرية إرادة واختيار، مع كيان مشحون بالرغبات والغرائز، اَلنَّتِيجَةُ واضحة ومحسومة: سيقع الكثيرون منّا في الأخطاء عن قصد أو زلل أو بغير قصد.

مَنْ منّا بنى أساسا عقلانيا للتعامل مع "كل" الأمور، فَهَذَا البناء سيؤهله للتماشي مع الأوامر الإلهية لأنه سيرى الصلاح فيها، وإن لم يره، توقّف أمام كلام الإله سبحانه عند حدّه كعبد، واعتمد على أساس إيماني صلب بهذا القرآن أنه من مصدر إلهي. كحالتنا أمام كلام الطبيب الذي نعلم بتخصصه الدراسي المجهد لسنوات، والذي يخبرنا أن الإكثار من الدهنيات سيقتلنا إن لم نحرقها بجهد جسدي بالرياضة...

هَكَذَا ترى أن تبعات ما تمرّسنا عليه في حياتنا تنعكس على إيماننا بدينه تعالى، حَيْثُ نَقْبَلُ أشياء ونرفض أخرى ونناقش في غيرها... وصار واضحا أمامك أنه تعالى أَتَاحَ لنا كل ما يلزم لنكون عقلانيين، وأتاح ما يفيض عن الحاجة من

الأمور التي تدلّنا على الإيمان، والتي يسميها القرآن بالآيات، وبالتالي اَلَّذِي طبعه في أمور حياته العادية الاستهتار والإنكار والتحايل والكذب... فَهَذَا لم يخلقه سبحانه هكذا، بل هو أوصل نفسه إلى هناك، وحين ينكر أو يكفر أو يستهتر بكلامه تعالى سَيَتَحَمَّلُ نتيجة ذلك بالعقاب.

(قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُواْ اللهَ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ{100})
قل للناس عبر هذا القرآن: {لَا يَسْتَوِي}، لا يتناسب وليسا في نفس المستوى أو المرتبة "فلا يَتَسَاوَيَانِ": {الْخَبِيثُ}، الرديء العاطل الفاسد المكروه... ليس في نفس المستوى والقيمة مع، {الطَّيِّبُ}، الجيد الصالح المحبوب...

{وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ}، حتى لو كان تقييمك للعدد الكبير للخبثاء أنه جيّد كعدد، وَتَرْغَبُ بعدد كبير من الطيبين، وَتَتَمَنَّى لو أن هذه الكثرة هي للطيبين، ولكن هذا لا شيء، ولا قيمة له، حَتَّى لو كان كل أهل الأرض خبثاء، والطيب واحد، بِالطَّبْعِ سيعجبك "كثرة العدد" ولكن يبقى الأصل ثَابِتًا: الطيب الواحد أفضل من مليارات الخبيثين.

لاحظ كرهك لجيش العدو، ولكنك معجب بالتنظيم والتجهيز، وَهَذَا ليس إعجابا حبا بالعدو، بل إعجاب حبّ بالتنظيم والتجهيزات.

يعني، الخبثاء الذين يظهرون أو يخفون تعليقاتهم على الدين هم كثر، فلا تشعر أبدا ولا بأي شكل أن الخبيث يساوي الطيب، لأن القليل من الطيبين من حولك قيمتهم أعلى بكثير من مليارات الخبثاء، ويكفيك أن يؤمن بك ولو شخص واحد طيّب، وقيمته هي الأعلى ولو على مليارات الخبثاء.

لا تظن أن النبي(ع) كان يساوي بين الخبيث والطيب، بل الآية تنبهنا كلنا إِلَى أن العدد القليل للطيبين له قيمة حقيقية عالية على مليارات الخبيثين، والخبيث عندما يقرأ هذا الكلام، سيعرف مكانه بالتحديد، لأنه خبيث حتى لو كان من الجماعة التي عددها أكبر بكثير من الطيبين.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ}، فتجنبوا غضبه وعقابه، وَلَا تخالفوا أوامره، {يَا أُولِي الْأَلْبَابِ}، يا أيها المنسوب لهم اللب، يا أيها الذين عندهم شيء له قيمة في داخلهم، يُفَكِّرُونَ وَيَفْهَمُونَ الأمور بطريقة صحيحة، وَلَا تنخدعوا من كثرة الخبثاء وتتركوا الطيبين القلائل.

{لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، إِذَا اتقيتم ربكم سبحانه ولم تساووا بين الطيب والخبيث فمن المتوقع ومن المفترض أن تكونوا من الذين قاموا بعمل يوصف بالفلاح، أي أَجَادُوا فيما عملوا لأنهم عملوا الصحيح.

نلاحظ تحدّث الآية 26 من سورة النور عن الأشخاص الطيبين والخبيثين، لِذَلِكَ لَيْسَ مستغربا تفسير آيتنا هنا بأنها تتحدث عن الأشخاص، وما ستجده في بعض التفاسير عن تفسيرها على المأكولات الخبيثة بِأَنَّهَا أكثر من الطيبة فهو الغريب، فما معنى الإعجاب بكثرة الطعام الخبيث؟.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ{101})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الناس الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ}، لا تعبّروا عن إِرَادَتِكُمْ لأمور "ليست معلنة"، {إِنْ تُبْدَ لَكُمْ}، إن يظهرها تعالى لكم فإنها، {تَسُؤْكُمْ}، فستشعرون بالسوء منها، فتزعجكم وتضايقكم...

{وَإِنْ تَسْأَلُوا}، أَيْ تُعَبِّرُونَ عن إِرَادَتِكُمْ لمعرفة تلك الأشياء، {حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ}، حين تنزل آيات تتحدّث عن تلك الأشياء التي تريدون معرفتها، فعندها، {تُبْدَ لَكُمْ}، يظهرها تعالى لكم فتصير أمامكم، فتعرفونها. وَهُنَاكَ ممارسات وأفعال وأمور كثيرة في الحياة، فإذا لم يذكرها القرآن، فلا تسألوا عنها لتدققوا فيها وفي تفاصيلها إن كانت حلالا أو حراما أو... وإذا احتفظتم بما يدور في بالكم إلى حين ينزل القرآن ويتحدث عما في بالكم، فهذا أفضل، وإن لم يتحدث عنها القرآن فلا تسألوا عنها.

{عَفَا اللَّهُ عَنْهَا}، تلك الأمور مرّ عليها ولم يتوقّف عندها سبحانه.

تُلَاحِظُ أنه ليس كل الأشياء تسوءنا إن بدت لنا، ولكن الآية من الطبيعي أن تحذّرنا من الأشياء التي تخطر في بالنا والتي إن سألنا عنها وَدَقَّقْنَا فيها وظهرت حقيقتها، فإنها ستزعجنا.

بعبارة أخرى هُنَاكَ أشياء تخطر في بالكم، بسبب الفضول أو الحشرية أو... "بالعامية نقول: كثرة غلبة"، بعضها لا يزعجكم معرفته، وبعضها الآخر سَيُسَبِّبُ لكم إزعاجا، فلماذا تسألون عن أشياء عفا الله تعالى عنها؟ وَتَرَكَهَا ولم يتحدّث عنها؟

{وَاللَّهُ غَفُورٌ}، حَيْثُ يَغْفِرُ وَيَتَجَاوَزُ عن السيئات، وهنا المغفرة تعطي معنى أوسع من ذلك، حَيْثُ تَقُولُ إِنَّ التدقيق في الأمور سيجعلها معقدة أكثر، وستصير مخالفتها ذنوبا وبالتالي ستصير ذنوبنا أكثر، ولكن الله تعالى غفور، لِذَلِكَ تَرَكَ تفاصيل الأشياء حتى لا يرهقنا بالذنوب. كُلَّمَا كثرت الممنوعات وتفاصيلها كَثُرَتْ أخطاؤنا وذنوبنا، وَهُنَاكَ أمور تستحق المنع عنها ولكنه تعالى لم يقلها لنا، حتى لا تسوء حالتنا.

{وَاللَّهُ حَلِيمٌ}، بتعبيرنا الدارج: طويل البال، فلا يمكن استفزازه عبر مخالفة أوامره، فلا يغضب بسرعة من أسئلتكم السخيفة أو الفضولية، بل يتلقاها بحلمه وَيَصْبِرُ عليكم وينبّهكم ويشرح لكم كيف يجب أن تتصرفوا، ومن ناحية ثانية سِيَاقُ الكلام عن أمور كان مِنَ الْمُمْكِنِ إضافتها للتشريعات الحلال والحرام والواجب ولكنه تعالى حليم لِذَلِكَ تَرَكَنَا نفعلها ولم يقيّدنا بها.

إِذَا أحسست أن الكلام غير واضح، ففكّر في الشخص الذي يريد أن يكون تقيا جدا، ولكن على طريقته، حَيْثُ سُبْحَانَهُ حلّل لنا الأكل من ذبيحة المسلم، ولم يطلب منا الوقوف قرب الذابح حتى نتأكد أنه التزم بقواعد الذبح الشرعية، ولكن هناك أناس يريدون التأكد أنه يلتزم حرفيا بالقواعد والاحتياطات والمستحبات...! وخذ مثالا آخر عن الأشخاص الذين يعتبرون كل شيء في البيت الذي فيه أطفال صغار، يعتبرونه متنجّسا "بالمعنى الفقهي للنجاسة"، لأنه يوجد احْتِمَالٌ أن تنفذ النجاسة من حفاضات الأطفال لتلامس الكنبات والكراسي...

لِنَفْهَمَ الآية أكثر، يمكنك ملاحظة الفرق الشاسع بين كتب الأحكام الفقهية وبين القرآن، حَيْثُ إِنَّ الكثير من التفاصيل التي في تلك الكتب ما هي إلا أوضح مثال عن الأشياء التي لم يتحدث عنها القرآن، وبعضها تَسُوءُنَا معرفتها لأنها ستجعل حياتنا معقدة أكثر، وخذ مثالا عن ذلك: الإحرام. الحج واجب لمرة واحدة في العمر، أما التفاصيل عن واجبات وممنوعات المحرم، فهي تفاصيل بالعشرات من الأحكام! فهل هذا منطقي! حَيْثُ تَحَدَّثَ القرآن عن حرمة صيد البرّ... ولم يتحدّث عن قتل الحشرات، فلماذا تسأل الناس عن حرمة أو حليّة قتل الحشرات أثناء الإحرام؟!

هِيَ عقلية التدقيق في ما لا يهمّ، ونجعله مهمّا على أساس أن التفاصيل يجب أن يذكرها تعالى في قرآنه وإلا لضعنا عن الحقّ! وهذه العقلية يقابلها العقلية الرافضة لأحكامه تعالى في أمور لا يراها البعض مهمّة! والتي سبق أَنْ ذَكَرَتْهَا السورة كالكفارة على يمين تحريم ما هو حلال، أو حرمة الصيد للمحرم أو الأشهر الحرام أو الهدي وقلائدها... حَيْثُ تحدّثت الآية مع من اعتبر هذه الأمور غير مهمّة ولن يلتزم بها ويعلّق على هكذا نوع من التشريعات التي تدخل في عمق أمور ليست مهمّة في نظره... وهنا الآية انتقلت من هذه العقلية المستهترة إلى عقلية المتزمّت الذي يريد التفاصيل وتفاصيل التفاصيل وصولا إلى غسل الجسم بعد التبوّل لأن رذاذا من البول لا يُرَى بالعين المجردة سيتطاير وينجّس الثوب والساقين!

(قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَافِرِينَ{102})
{قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ}، هذه التعابير عن إِرَادَتِكُمْ للحصول على معلومات والنابعة من التدقيق الفضولي، سَأَلَهَا أناس لهم كيان كجماعة وَمُتَفَاعِلُونَ مع دينه تعالى من قبلكم لأنبيائهم ورسلهم، فأجابوهم عنها.

ضع في بالك عزيزي المثال الذي ضربناه عن الذي يريد أن يكون تقيا دقيقا في تصرفاته، فلا يأكل هذا لأنه يشك في حِلِّيَّتِهِ، ولا يشرب ذاك لأنه يشك بنجاسته، ولا يلمس تلك لأنه يحتمل نجاستها... حَيْثُ مَرَّ أناس بهذه العقلية من قبل، وسألوا عن التفاصيل ولكن هل التزموا بها؟

{ثُمَّ} بعد سماعهم الأجوبة عن تلك التفاصيل، {أَصْبَحُوا}، أَوَّلُ ما صار معهم، {بِهَا}، بالأجوبة، {كَافِرِينَ}! ناكرين لها! فلم يتحمّلوا تطبيقها فتخلوا عنها! لأنها عقّدت حياتهم وجعلتها صعبة، "فساءت" حياتهم.

إذًا اَلْآيَتَانِ تَقُولَانِ إنَّ ما جاءكم من أحكام في القرآن وأبداها وَشَرَحَهَا لكم الرسول(ع) فهي كافية لكم، وهذه قاعدة عامة تشمل كل شيء.

مَا تجده في بعض التفاسير والروايات عن تفسير الآية السابقة بحوادث عن أشخاص سألوا عن أشياء خاصة بهم، وكمثال عن الذي سأل إن كان أبوه في الجنّة أو النار... فَالْآيَتَانِ السابقة وَالْحَالِيَّةُ وسياق الكلام لا تَتَوَافَقُ أَبَدًا مع تلك التفاسير كما هو واضح أمامك، لِأَنَّهُمَا آيتان موجهتان لمن يريد دفع الأمور التشريعية نحو التزمّت والتضييق بكثرة التفاصيل في أمور ترك سبحانه التفصيل بها عن قصد حتى لا يصير التديّن يحتاج لتخصّص.

اَلْكَلَامُ يجر الكلام، حَيْثُ إِنَّ الْفَرْقَ الهائل بين عدد الأساسيات والتفاصيل التشريعية التي في القرآن، وبين ما في كتب الفقه، ما هو إلا نموذج تطبيقي لما تقوله الآيات هنا، وهذا بالعقلانية يعني أن نعيش حياتنا العادية متفقهين بالأساسيات وأمّا التفاصيل والتفاصيل مما لم يذكره القرآن صراحة أو بالتبعية، فهو وحتى إن كان معرفته والالتزام به أفضل، لَكِنَّهُ تعالى لم يرد ذلك لنا، لأن النتيجة هي كره غالبية الناس للدين بسبب كثرة التفاصيل التي يرون التقيّد بها إرهاقا، وخذ عن ذلك مثال بحثهم في النيّة للصلاة أو الوضوء أو الغسل... وخذ مثالا عن ذلك الغسل من الجنابة الذي هو نفسه أي "حمّام" اغتسال عادي، ولكن هناك من يسأل عن الترتيب من الرأس أولا ثُمَّ الجانب اليمين وبعده الشمال... وفيما بين الرجلين يتم غسله مرة مع اليمين ومرة مع الشمال! فلاحظ الفرق بين تعليمك لأحدهم الغسل من الجنابة أنه الاستحمام الكامل بالماء، وبين تعليمك له شروط النية واستحضارها في الذهن، وتلفظها بالقول احتياطا... وغسل الرأس أولا مع الرقبة وشيء من مقدم الجسد، ثم غسل الجهة اليمين من الجسد مع شيء من الرقبة... هَكَذَا ترى معنى الآية هنا المانعة من تعقيد حياة الناس بتفاصيل ستجعلهم يكفرون بها ويملّون من تطبيقها.

(مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ{ 103})
قرأنا في الآيات السابقة أنه تعالى هو جعل كَفَّارَةَ اليمين وحرمة صيد البرّ للمحرم... وصولا إلى الهدي والقلائد، ثم قرأنا عن الذين يسألون عن أشياء تركها سبحانه وَعَفَا عنها عن قصد، وهنا مثال عن اختراع الناس لِلتشريعاتِ التي لا معنى لها ولا قيمة:

{مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ}، وهي كلمة مشتقة من البحر لأنه واسع، وهي صفة أطلقوها على الناقة "أُنْثَى الجمل" التي أخرجوها من الاحتجاز لتذهب أينما تشاء على راحتها، "تَبْحَرُ حيث تشاء" لأنها أَنْجَبَتْ عدة مرات... سُبْحَانَهُ لم يأمرهم بفعل هذا.

{وَلَا سَائِبَةٍ}، وهي صفة معناها أن تُسَيَّبَ وَتَسْرَحَ الناقة أينما تشاء لأنها أنجبت عدة مرات... فلم يجعل تعالى هذا الحكم.

{وَلَا وَصِيلَةٍ}، وهي صفة أطلقوها على الحيوانات الأليفة التي أنجبت تَوَائِمَ ثلاث أو أربع مرات أو أكثر بشكل "وصيلة" متواصل غير منقطع... أَيْضاً يَتْرُكُونَهَا ولا يَذْبَحُونَهَا... وَأَيْضاً لم يشرّع سبحانه شَيْئاً كهذا.

{وَلَا حَامٍ}، وهي صفة يطلقونها على الحيوان ويقصدون أنه لسبب أو لآخر صار في حماية من الذبح وصار حُرّاً طَلِيقاً، أَيْضاً لم يشرّع سبحانه هذا.

إنْ راجعت الكتب المتنوعة لتحدّد بالضبط ماذا كانوا يقصدون من كل صفة من هذه الصفات "بحيرة وسائبة ووصيلة وحام" فلن تصل إلى أي نتيجة، حَيْثُ مرة يقولون إنَّ البحيرة هي الناقة التي أنجبت خمسة بطون، ومرة يقولون هي التي أولدت عشرة... وهكذا أيضا سترى الخلاف في بقية الصفات، وهذا طبيعي، لِأَنَّ هذه العادة كانت منتشرة بين الناس بشكل واسع ولم تكن محصورة في منطقة واحدة حتى نجد اتِّفَاقاً بين الناس على معانيها، رُبَّمَا في اليمن أطلقوا صفة البحيرة على الناقة التي تنجب خمسة أولاد، وفي نفس الوقت في الطائف أطلقوا عَلَيْهَا صفة السائبة... رُبَّمَا في

مكة سمّوا الناقة التي تلد خمسة أولاد بشكل مُتَتَالٍ وصيلة، رُبَّمَا في يثرب أطلقوا صفة الوصيلة على الشاة... فلا تتعب نفسك لتجد استعمالا دقيقا لهذه الصفات، لأنك لن تجدها، لأنها أصلا لم يكن لها استعمال دقيق، وَهِيَ ليست محددة في كتاب وليست دستورا ولا يوجد معنى عربي لغوي محدّد للكلمات... بل هِيَ مصطلحات مَطَّاطَةٌ، فلا تَنْسَ أنهم كانوا أُمَماً مُتَفَرِّقَةً مُتَبَاعِدَةً وَمَزَاجِيّينَ في التشريع، وحتى آلهتهم كانت مختلفة الأسماء والصفات مع أنهم أعطوها وظائف متشابهة!

ذَكَرَتِ الآية نَمُوذَجاً عن الصفات التي استعملوها لتحريم بعض الحيوانات لأسباب مختلفة، فلا الأسباب مُهِمَّةٌ، ولا معاني الصفات مُهِمَّةٌ، إنما المهم أن تفهم أنها أشياء اخترعوها ولا قيمة لها ولم يأمر بها تعالى.

تذكّر أَنَّ الهدي صفة للحيوان الذي يقدّمه الحاجّ، وَالْمُقَلَّدَ "مفرد قلائد" هي صفة للحيوان الذي جعل عليه صاحبه علامة تدل على أنه مخصص للتضحية في الحجّ... وَهَاتَانِ الصفتان أمرنا تعالى بِإِطْلَاقِهِمَا على الحيوانات، لنحدّدها سَلَفاً ونحجزها ونعتني بها كَشَيْءٍ سنتمّم به مناسك الحجّ، مثل تجميع المال المخصّص للحجّ وفصله عن مال التجارة ومصروف البيت... أما البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فهي صفات لم يجعلها تعالى، وَاخْتَرَعُوهَا وَشَرَّعُوا لها طُقُوساً وَتشريعاتَ، وهذا عمل ممنوع.

هَذِهِ الصفات لم تكن بأمر إلهي، {وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا وَلَمْ يعتقدوا بالدين الإلهي، {يَفْتَرُونَ}، يخترعون وَيُلَفِّقُونَ هذا الشَّيْءَ عن قصد وعن معرفة، {عَلَى اللَّهِ}، يَقُولُونَ بأن هذه الصفات التي نطلقها على الحيوانات هي شَيْءٌ دِينِيٌّ وصلنا منه تعالى أو يأمر به تعالى أو يرضى عنه تعالى... وهذا غير صحيح.

{وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}، أكثرهم لا عقل لهم وَلَا يفهمون الأمور، وَهَلْ هذه الاختراعات تدل على عقل وفهم! بالطبع لا، لِأَنَّ الهدي والقلائد سيتم ذبحها وتوزيع لحمها على المساكين، أما البحيرة والسائبة و... فما الاستفادة من تركها تسرح ولا يَحْلِبُونَهَا! وَمَا الفائدة مما كان يفعله البعض من انتظارها حتى تموت من المرض أو الشيخوخة ليأكلوها! أو يَتْرُكُوهَا لتموت ولا يَأْكُلُوهَا! أو إذا أكلوها أجازوا أكلها فقط للذكور وحرّموها على الإناث! هَذِهِ تصرفات أناس لا يعقلون وبلا فهم.

اعْذِرْنِي لو أطلت عليك، مَا المشكلة إن تركت نعجتك تعيش حياتها على راحتها "سائبة" ولم تذبحها؟ لا مشكلة لِأَنَّ سُبْحَانَهُ لا يأمر ولا يجبرك على ذبحها، حَسَناً الآن، مَا المشكلة إن قلت إِنَّ هذه النعجة أَنْجَبَتْ عشر نعجات وأسعدتني ولذلك لن أذبحها؟ أيضا في أساس أساس التشريع أنت حرّ في ذلك ولا مشكلة عليك، وَإِنْ لم تسأل عن حرمة أو حِلِّيَّةِ ذلك بناء على المعلومات العامّة التي تعرفها عن حريّتك في أملاكك، فلا عقاب عليك في ترك النعجة "سائبة" تعيش حياتها إلى أن تنتهي حياتها بالمرض... ولكن حين تقول بأنه حرام عليك ذبحها لأنك أعلنتها سائبة فقد افتريت عليه تعالى لأنه لم يحرم هكذا شَيْئاً، وَإِنْ سألت إذا كان هذا العمل حراما، فأنت ضَيَّقْتَ على نفسك بلا سبب، لِأَنَّ سُبْحَانَهُ لم ينزّل على الناس تَشْرِيعاً يجبرهم بترك النعجة تعيش حياتها كمكافأة إن أنجبت عشر نعجات، وما تداوله الناس بينهم وأجبروا بعضهم البعض به، حَيْثُ صار من المعيب ذبح النعجة التي أنجبت عشر نعجات... هَذَا تشريع من اختراعهم، وهو في الأصل لا يتعارض مع تشريعه تعالى، ولكن لا يحقّ للناس اختراع شيء ما وفرضه على الآخرين كتشريع، ووصفه بالحرمة، حَيْثُ سيعيب عليك الآخرون إن ذبحت نعجة أنجبت عشر نعجات! والآن صَارَتْ هُنَاكَ مُشْكِلَةٌ.

لَدَيْنَا الكثير الكثير من هذه الأمور السخيفة المنتشرة في مجتمعاتنا، والتي يتعامل معها الناس كأنها تشريعات، ومن يخالفها يعيبون عليه، كَبْرُوتُوكُولَاتِ الأفراح بضيافة من نوع خاص وذبيحة على الغداء وسهرة... وتكاليف مالية وجسدية ونفسية مرهقة لأهل العريس والعروس...، ومراسم العزاء بترك الأشغال لاستقبال التعازي لأربعين يوما... من الإعلان عن اجتماع للناس لختم القرآن أو التسبيح أو قراءة العزاء... لراحة نفس الميّت...، وقراءة مولد عند الانتقال لبيت جديد... وعند ولادة طفل جديد تحضير نوع محدّد من الضيافة والحلوى... هي هذه الأمور نفسها التي كان بين الناس نبي(ع) وكانوا يسألونه عنها، طَالَمَا لم يذكرها القرآن فلماذا تسألون عنها! ولماذا تُعْطُونَهَا قيمة التشريعات بينما هي مجرد عادات!؟ وبأي حقّ تعيبون على من خالفها وكأنها مشرّعة بأمر إلهي وَتُجْبِرُونَ الآخرين على أمور ليس بمقدورهم الالتزام بها.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ{104})
{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ}، قَالَ أحد ما للمقتنعين بالسائبة والبحيرة و... إذا قال لهم المؤمنون:

{تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ}، وتعالوا إلى ما يقوله، {الرَّسُولِ}، لنرى إن كان تعالى أَمَرَنَا بهذا أو حفّزنا أو شجّعنا على تشريعاتكم للبحيرة والسائبة... {قَالُوا}، هؤلاء الناس:

{حَسْبُنَا}، لا نحتاج لشيء آخر يَكْفِينَا، {مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا}، نَحْنُ فتحنا أعيننا على هذه الحياة، ووجدنا آباءنا يقومون بتسمية بعض الحيوانات بوصيلة وسائبة و... وهذا يكفينا حتى نعرف أنه تصرّف صحيح، ولا يهمنا ما يقوله القرآن ولا الرسول(ع).

{أَوَلَوْ}، حَتَّى لو، {كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً}! وَكَانَ علمهم بشكل عام مَعْدُوماً وَكَانُوا لا يعقلون، بعبارة شعبية: هَلْ تطيع عادات أجدادك حتى لو كانوا هم أصلا بلا فهم؟!

وحتى لو كان آباؤهم، {لَا يَهْتَدُونَ}، لا يضعون أَنْفُسَهُمْ على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة! فهل هذا التحريم لأكل النعجة لأنها أنجبت عشر نعجات هو تشريع هداية! وما الهداية التي فيه!

انتبه جيدا يا عزيزي ويا عزيزتي، لِأَنَّ التَّشْرِيعَاتِ التي ذكرها القرآن بَرَّرَهَا سبحانه وتعالى وشرح مقاصدها ومعانيها، وأما التفريعات الهائلة التي تجدها في كتب الفتاوى، فالكثير منها على قياس الوصيلة والسائبة والحام، وَهِيَ دخول في تفاصيل عفا تعالى عنها، ففي زمن اختلط فيه تربية اللحية مع حلقها في مجتمع المسلمين وأهل الكتاب والمشركين، حَيْثُ لَمْ يكن حلقها دارجا بين أهل الكتاب والمشركين ليكون تشبّها بهم، فما معنى الحكم بحرمة حلق اللحية مطلقا! مَنْ حلق لحيته في مختلف الظروف والأزمنة والبيئات حتى لو لم يكن تشبها بالكفار، فهل سيدخل إلى النار فقط وفقط بسبب حلق اللحية! بعبارة أصرح عن مثال حلق اللحية، إِنَّ الْحُكْمَ بحرمة حلقها على الشفرة مطلقا في كل الأحوال ما هو إلا تزمّت وتضييق وتشريع لم يقله تعالى، بل هو تشريع في هامش المرونة المتروك لنا لتقدير الأنسب، وَهَذَا التحريم مطلقا لحلق اللحية هُوَ بشكل ما من حيث المبدأ من نوع تشريعات الوصيلة والسائبة... ومثله التضييق على الناس بتحديد نوع ولون الثياب، وقصّة الشعر...

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{105})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ}، عليكم بالاهتمام بأنفسكم، عليكم أن تهتموا بالقيام بالواجبات وترك المحرمات لِأَنَّهُ {لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ}، فالشخص الذي ليس على الشيء الصحيح ونهايته غير مرغوبة وَلَنْ يسبب لكم أمورا غير جيدة وَلَنْ يتغيّر حالكم إلى الْأَسْوَأِ بسبب ضلاله، وَلَنْ تتحاسبوا ولن تتعذّبوا عنه، {إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}، إذا صرتم أنتم على الشيء الصحيح الذي يوصلكم للغاية الصحيحة. فِي زمانكم تقومون بتبليغ الناس بالحلال والحرام، وتأمرونهم بالمعروف وتنهونهم عن المنكر... ولكن إن لم يلتزموا، فالضرر يقع عليهم، وَالذَّنْبُ والعقاب الإلهي لن يطالك أنت إن كنت مهتديا لا تفعل السوء ولا تترك الصالحات. وفي الزمن السابق آبَاؤُكُمْ إن كانوا ضالين فلن يضروكم إن لم تبقوا على عاداتهم السيئة.

{إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ}، وَلَنْ تختفوا حين تَمُوتُونَ، ولن تذهبوا إلى أي مكان آخر لا يملكه تعالى... بل سترجعون إليه تعالى لتقفوا بين يديه في عالم الآخرة لتتحاسبوا، وهذا الرجوع {جَمِيعاً} لجميع الناس بدون أي استثناء، وَلَنْ ينسى تعالى أي واحد منكم، ولن يهرب أي واحد منكم... بل الكل سيرجعون إلى الحياة مرة ثانية ليتحاسبوا، فمن آمن بيوم القيامة سيرجع، ومن لم يؤمن بها فسيرجع أيضا.

بَعْدَ أن ترجعوا إليه تعالى، {فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، سَيُخْبِرُكُمْ سبحانه بكل ما قمتم به في الدنيا، سواء نسيتموه أو لم تعلموا به من آثار أعمالكم... يعني سيحاسبكم.

يمكنك أن تفهم الآية بهذا المثال: عِنْدَمَا تفكّر بأن تهدي شخصا ما، وأنت بالكاد ملتزم بكل الواجبات، وبالكاد تارك لكل المحرمات، فأنت مطلوب منك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، لتهدي غيرك إلى الإيمان... ولكن لا تَنْسَ أهم

شيء، وهو: أن تنجو أنت بنفسك من النار، لأنك لن تتضرر بذنوب غيرك، فكيف تنسى نفسك وتلاحق غيرك حتى يهتدي!

كَمِثَالٍ آخر من سياق الآية السابقة، عِنْدَمَا تفكّر في العادات الموروثة والمنتشرة في مجتمعك، وتراها سيئة، فاتركها ولا تفكّر مرتين بالموضوع، لأنك في النهاية ستقف بين يديه تعالى لتتحاسب ولن ينفعك أن تقول له تعالى: هكذا وصلتني العادات وَأَنْ لا دخل لي بِاخْتِرَاعِهَا فهي منتشرة في مجتمعي وَإِنْ كنت فقط مُشَارِكاً أو مُؤَيِّداً أو سَاكِتاً. لا، فهذا الجواب لن ينفع وستتحاسب.

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلاَةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللّهِ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الآثِمِينَ{106})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أَنَّهُمْ معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ}، الشهادة بينكم، التأكيد لما تفعلونه عبر حضور أشخاص يحضرون ما تقولونه فله أصول، {إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ}، فكان مَرِيضاً جداً، أو مَجْرُوحاً جُرْحاً مُمِيتاً... فلسبب أو لآخر شعر بأنه حتما سيموت، وَالشَّهَادَةُ الصحيحة، حين الوصية، حين تتركون للناس تعليمات وَيَصِيرُونَ مسؤولين عن تنفيذها، بعد موتكم، {اثْنَانِ}، شخصان، فيجب أن يكون الشهود على الوصية شَخْصَيْنِ، {ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ}، فلا يجوران ولا يظلمان، بل يقولان الحق، ويكونان من مجتمعكم ومعارفكم من المسلمين، {أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ}، شخصان عادلان، من مجتمعكم أو من غير المسلمين، {إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ}، واللغويون لديهم فلسفات مختلفة لهذا التعبير، منها أنه من ضرب الأرجل بالأرض حين القيام بالمشي، ونحتمل أن له مَعْنًى مَعْنَوِيّاً من التجابه مع المسافات، على أي حال فهذا تعبير عن الانتقال من مكان لآخر قاصدا مسافة بعيدة، عِنْدَمَا تَكُونُونَ مُسَافِرِينَ بَعِيدِينَ عن وطنكم، وَفِي هذه الحالة يمكن الاستعانة بشاهدين من غير المسلمين طبعاً إن لم تَجِدُوا مسلمين حيث أنتم مُسَافِرُونَ.

مَا ستقوله الآيات يشمل الحديث عن شخص يشعر بأنه سيموت وهو في وطنه، حَيْثُ يَطْلُبُ من شخصين عادلين أَنْ يشهدا على وصيته، سواء كتبها وَمَضَيَا عليها، أو قالها لهما وهما سينقلانها للورثة، وأيضا إن كان مسافرا في بلد غريب أو على الطريق، وشعر بِأَنَّهُ سيموت، وَيَطْلُبُ من شخصين عادلين أن يشهدا على وصيته، ولكن بعدما يرجع الشهود من السفر، ومعهم وصية الميت، يَجِبُ اتخاذ الْإِجْرَاءَاتِ التالية "في حالة الارتياب":

{تَحْبِسُونَهُمَا}، تقيّدون حريّة الشاهدين، {مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ}، والكلام يشير لتجمع الناس حَيْثُ يُصَلُّونَ معا في مكان جامع، وَيَصِيرُ هناك أناس ليشهدوا على الحادثة، وَتَحْبِسُونَ وَتَمْنَعُونَ الشاهدين من الانصراف حتى لا يهربا أو يخبئا أشياء سرقاها من الميت أو يتفقا مع أحد ما على شيء له علاقة بشهادتهما... {فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ}، وَيُؤَكِّدَانِ بالله تعالى، وهذا الحبس والقسم في حالة: {إِنِ ارْتَبْتُمْ}، إن كان لديكم شعور بأنهما قد يكذبان، أو لديكم ريب في عدالتهما. وَفِي حالة حصل عندكم شعور بأن الشاهدين قد يكذبان تَحْبِسُونَهُمَا وَتَنْتَظِرُونَ حصول صلاة جماعة ليجتمع الناس ويحضروا على التحقّق من الشاهدين على الوصية، وَتَأْمُرُونَ الشاهدين أن يقسما ويقولا: {لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً}، لا نبيع شهادتنا على الوصية بأي ثمن، فلا نبيعها بشيء سنحصل عليه في الدنيا من مال.

{وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى}، حتى لو كان من قرابتنا "أَخِي ابْنِي أَبِي ابْنِ عمي..." الذي سيتضرر من شهادتنا الصادقة أو سيستفيد من شهادتنا الكاذبة، فلن نتلاعب بها أو نغيّرها.

{وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ}، هَذِهِ الشهادة أَمَرَ تعالى بتوصيلها كما هي من دون زيادة أو نقصان، وأمرنا بقولها حين يطلبها منا القاضي أو أقارب الميت، ونحن لن نحتفظ بها بل سنقولها كما هي.

{إِنَّا إِذاً}، نَحْنُ في حال بعنا الشهادة، أو تعاطفنا مع قرابتنا وَتَلَاعَبْنَا بالشهادة، أو كتمناها وَلَمْ نقلها عِنْدَهَا نكون، {لَمِنَ الْآثِمِينَ}، فبالتأكيد وبكل وضوح نحن من الذين ارتكبوا ذنبا عن قصد، وَنَكُونُ أَذْنَبْنَا ونحن نعلم أننا نرتكب سوءا. يعني في حال فيما بعد تبيّن أنهما كلاهما أو أحدهما كَذَّبَ، فَهَذَا إقرار منه مسبق يفيد بأنه يعلم أن الكذب ممنوع لأي سبب كان فهو إثم وعليه عقاب.

ضع في بالك دائما أَنَّ الريب هو أَوَّلُ وهلة تصيبك من سماع الشيء، حَيْثُ تُنْكِرُهُ أو تُصَدِّقُ به لمجرد سماعك له وبدون أي تفكير، وَمِنْ هُنَا إن كنت تعلم بالتجربة بعدالة الشهود ومتانة ذاكرتهم بشكل كاف... فلا داعي للتحقيق معهم... أمّا إن لسبب أو لآخر لم يصر عندك إيمان بصدقهما، وحتى لو لم يكن عندك دليل على ذلك، فمجرد الريب كاف للمطالبة بجعلهما يقسمان.

هَذِهِ هي الطريقة التي يتم التعامل بها مع الشاهدين على الوصية في حالة الريب بصدقهما. وهناك حالة أخرى:

(فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يِقُومَانُ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ{107})

{فَإِنْ عُثِرَ}، عَثَرْتُمْ فَوَجَدْتُمْ ما كنتم تبحثون عنه، حَيْثُ كُنْتُمْ تَتَحَرَّوْنَ إِنْ كانا كاذبين وحصلتم على أدلة تُبَيِّنُ بشكل أكيد، {عَلَى أَنَّهُمَا}، الشَّاهِدَانِ، {اسْتَحَقَّا}، حَيْثُ صَارَ عليهما، {إِثْماً}، ذَنْباً عن عمد، فَيَرْتَكِبَانِ عن عمد وقصد حَرَاماً في شهادتهما، لِأَنَّنَا عندما سألنا كل واحد منهما لِوَحْدِهِ عن الوصية أجاب بشكل يختلف عن إجابة الشاهد الآخر، أو لأنهما قالا شيئا غير منطقي...

فِي حَالِ تَبَيَّنَ "بشكل أكيد" أن الشاهدين كَاذِبَانِ، {فَآخَرَانِ}، شخصان غيرهما على الأقل، حَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونُوا أكثر من شخصين وَلَكِنَّ شَخْصَيْنِ يَكْفِيَانِ، وَيَكُونَانِ طَبْعاً عَادِلَيْنِ، {يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا}، فَيَصِيرَانِ لتفعيل الشهادة في مكان الشاهدين الكاذبين ليشهدا على وصية الميت الصحيحة، وهذا يعني أنه يوجد شخصان "أو أكثر" كانا سابقا شهدا على وصية الميت، ويقولان إِنَّ الميت جَعَلَهُمَا شاهدين على وصيته قبل أن يسافر، والوصية التي قالها لهما تختلف عَمَّا نقله الشاهدان اللذان كانا معه في السفر.

يَقُومُ هذان الشاهدان مقام الشاهدين اللَّذَيْنِ كَانَا مع الميت في السفر، {مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ}، فَالشَّاهِدَانِ الْأَوَّلَانِ اللَّذَانِ كَانَا في السفر اسْتَحَقَّا على الشاهدين اللَّذَيْنِ في بلد الميت أَنَّ الوصية تغيّرت، وَنَفْهَمُ من كلمة "استحقا" أَنَّ الشاهدين القديمين قَالَا شيئا يعلنان أَنَّهُ الْحَقُّ، وَلَكِنِ اسْتُحِقَّ على كلامهما، فَجَاءَ "حَقٌّ" جَدِيدٌ على الحق الذي قَالَاهُ عبر الشاهدين الجديدين. فلو كانت شهادة الشاهدين في السفر مطابقة لشهادة من كان في بلد الميت، عندها لن يحصل استحقاق على الشهادة القديمة، أَمَّا في حالتنا هنا فتتحدث الآية عن اختلاف في كلام الشهود، مما يجعل شهادة مستحقة عن شهادة قديمة أدلى بها الشَّاهِدَانِ اللَّذَانِ كَانَا مع الموصي في سفره.

نَنْتَبِهُ، مَا قَالُوهُ كتفسير لجملة {اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ} بمعنى أَنَّ الشاهدين الْأَوَّلَيْنِ اسْتَحَقَّا إثما ولذلك نأخذ بشهادة غيرهما، فهذا الكلام صحيح في ذاته ولكن لا معنى له هنا لِأَنَّ الآية قالته عندما قالت: {فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً}. فلماذا ستكرر نفس المعنى مرة ثانية؟ وستلاحظ أن الآية تتحدث عن حالة ريب في صحة الشهادة، وستلاحظ أن الآيات ستأمرنا أَلَّا نَعْتَمِدَ على الريب لتكذيب شخص يحلف أو يقسم، ولذلك تقول: إِنْ لم يتبين لكم صدق الشاهدين {عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً} عندها نستمع لشهادة أناس آخرين تكون شهادة الأولين اسْتَحَقَّتْ عليها شهادة مختلفة، فخالفت شهادتهما.

يَقُومُ الشاهدان على وصية الميت قبل السفر، {فَيُقْسِمَانِ} فَيُؤَكِّدَانِ بالله تعالى: {لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ}، هي الحقّ فهي المطابقة للواقع، من شهادة هؤلاء الذين كانوا مع الميت في السفر.

{وَمَا اعْتَدَيْنَا}، لم نتجاوز حدودنا الشرعية، وبالتحديد فنحن ننقل شهادة تخالف شهادة هؤلاء ولسنا نعتدي عليهم بِاتِّهَامِهِمْ بالكذب، وإذا اعتدينا، فَـ{إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ}، لن يكون معنا حقّ في ذلك. لا يوجد أي عذر يبرّر تلاعبنا بالشهادة فنحن نؤمن بذلك وستكون شهادتنا بالضبط كما سمعنا، فلسنا تحت ضغط من أحد ولسنا نكذب لنحقّق مصلحة لنا أو لمن يهمّنا أمره...

الآية تتحدث عن حالة من أساسها فيها ريب، حيث أننا عادة نوصي أشخاصا من جيراننا أو أقاربنا أو من المشهود لهم بالصلاح والعدالة في بلدتنا... وليس من التصرفات العادية أن يغيّر المرء وصيته وهو مسافر، لِيَشْهَدَ عليها شخصان غريبان، أو قَدْ لَا يَكُونَانِ غَرِيبَيْنِ ولكن يوجد ريب أو شك في استغلالهما للظروف، فهما كانا لوحدهما مع الميت، فربما قررا اختراع وصيّة للميت تَجْعَلُهُمَا يَحْصُلَانِ على حصة من ميراثه... فتلفت الآية نظرنا أَنَّهُ يُمْكِنُ اكتشاف كذبهما أو

صدقهما بحبسهما عند أول وصولهما من السفر حتى لا يتحدثا مع أي شخص ليحصلا منه على معلومات تفيدهما في حياكة الشهادة الكاذبة، أو يَعْرِضَانِ على أحد ما خدماتهما بشهادة كاذبة يصير له منها استفادة... ثم يحصل تحقيق معهما، فلنقل تحقيق في تفاصيل لا يعرفها إلّا أقارب الميت، فطالما أنهما يدعيان أن الميت قَالَ لهما وصيته، فمن المفروض أن يخبرهما بتفاصيل عن أملاكه لَا يَعْرِفُهَا إلا هو وأقاربه... ويحق للورثة أو لشاهدين قديمين، فيحق لهم الشك بشهادة هذين الرجلين، وتلاحظ أن التعبير في قسم الشاهدين القديمين لا يؤكد كذب الشاهدين الجديدين، بل يؤكد أن شهادتهما أحقّ من شهادة الجديدين لأنها موثوقة وبلا شك صدرت عن الميت.

(ذَلِكَ أَدْنَى أَن يَأْتُواْ بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُواْ أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاسْمَعُواْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ{108})

{ذَلِكَ}، القسم من الشاهدين القديمين، هو {أَدْنَى}، هو أقل شيء بُعْداً، {أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا}، فهو أقرب طريقة يمكن أن يتحقق به الإدلاء بالشهادة، كأفضل طريقة لتأكيد ما صدر من وصية بالطريقة الصحيحة، وحتى نفهم هذا الكلام نتذكّر أنه يوجد حالات أخرى في مواضيع أخرى يحصل فيها اختلاف في الشهادة، حَيْثُ يَقُومُ الشُّهُودُ بتكذيب بعضهم البعض، حَيْثُ يَجِبُ عَلَى هَذَا أَنْ يقسم أنه لا يكذب وأن الآخر يكذب... والآخر يقسم بأنه لا يكذب وأن الشاهد الأول كذّاب... أما هنا، فتلاحظ أن الآية لم تطلب من الشاهدين الجديدين أن يقسما بأن الشاهدين القديمين كَاذِبَانِ، وَطَلَبَتْ فَقَطْ أَنْ يقسما أن شهادتهما موثوقة، وهذا هو الحدّ الأدنى من الشهادة.

{أَوْ يَخَافُوا}، أو يشعروا بالضرر الأكيد، {أَنْ تُرَدَّ}، فيتم رفض، {أَيْمَانٌ}، أقسام مؤكّدة بقوّة، {بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ}، بعد قسمهم القوي، فإن أقسما أنهما صادقان فهذا لا يعني أن الشاهدين القديمين كاذبان، لِأَنَّ الشَّاهِدَيْنِ الْقَدِيمَيْنِ لم يكذّبا يمين الشاهدين الجديدين، ولكن إن لم نستطع حسم الموضوع فنهدّد الشاهدين الْجَدِيدَيْنِ بأن الشاهدين القديمين الموثوقين سيقسمان أن الشاهدين الجديدين كاذبان، وبعدها إن تجمّعت قرائن ومعطيات تقوّي الشهادة القديمة فعندها يصير الشاهدان الجديدان مَوْصُوفَيْنِ بالكذب، وهذا يعني سقوط عدالتهما ورفض شهادتهما في أي موضوع آخر، وهذا ما تشير إليه الآية بخوفهما منه، فيخافان أن يصيرا مَوْصُوفَيْنِ بالكذب، وبالتالي سيفقدان ثقة المجتمع بهما...

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}، فتجنبوا غضبه وعقابه، فلا تشهدوا كذبا ولا تتلاعبوا بالشهادة، ومن ناحية ثانية فلا تتهموا الشاهدين بالكذب لأنكم لا تملكون دليلا، ولا تذهبوا فورا باتجاه جعل الشهود يقسمون ضد بعضهم بتكذيب بعضهم، فهذا له تبعات سحب ثقة المجتمع من هؤلاء الشهود، فليكن هذا آخر حلّ، رُبَّمَا لسبب أو لآخر بدا لكم كذب الشاهدين بينما هما صادقان وفعلا الميّت غيّر وصيته...

{وَاسْمَعُوا}، طبعا الكلام هنا عن السماع لأوامره تعالى، فلا تجعلوا الشهود يكذّبون بعضهم البعض من أوّل التحقيق، فعندها سيخاف الناس من الإدلاء بشهادتهم في مثل هذه الحالات، فيقولون: من سيصدقنا أن الميت غَيَّرَ وصيته بينما لديه شهود معروفون موثوقون على وصية سابقة له؟

{وَاللَّهُ لَا يَهْدِي}، لا يضع على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {الْقَوْمَ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة الْمُتَفَاعِلِينَ مع دينه والشهادة، {الْفَاسِقِينَ}، الخارجين عن أمور واضحة قالها الدين، فهذه الأحكام ينفذّها المؤمنون أمّا الفاسقون فيقومون بتكذيب الشهود الجدد وردّ أيمانهم حتى لو لم يكونوا متأكدين من كذبهم، وهذا تصرّف الفاسقين الذين يخالفون أوامر الله تعالى العلنية.

كما ترى اخْتَارَ تعالى في سورة تتمحور حول الميثاقية معه أن يذكر لنا حالة قد نتعامل بها بشكل نفترض أنه بديهي، حَيْثُ نَتَّهِمُ فَوْراً الشهود الجدد بالكذب بسبب معارضة شهادتهما لِشُهُودٍ قَدِيمِينَ مَوْثُوقٍ بهم، وسمح لنا بالتحقيق مع الشهود الجدد باحترام حتى لو حصل لدينا أقل درجات احتمال كذبهما وَهُوَ حالة الريب، فلم يرد تعالى لنا أن نكون بسطاء نبلع أي كلام، وفي نفس الوقت لم يرد تعالى لنا الاستهتار بقيمة الناس لاتهامهم فورا بلا تحقيق.

من ناحية ثانية هَذَا المثال نموذج عن حالة حقّ، فيها شهادة قديمة موثوقة مقابل شهادة جديدة مغايرة، فلو تعاملنا مع الحالة مفترضين البداهة بتكذيب أي شهادة جديدة، فعندها لامتنع الصادقون من الإدلاء بشهادتهم في مثل هذه الحالات قائلين: سنتعرّض للتكذيب ولن يصدقنا أحد لِأَنَّ لَدَيْهِمْ شُهُوداً مَوْثُوقِينَ على شيء مخالف عمّا شهدناه.

(يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ{109})
من هنا تدخل السورة إلى كيفية تعامله تعالى مع مواضيع فيها شهود، كتعقيب على ما تعلمناه منه تعالى بكيفية تعاملنا نحن مع الشهود في الآيات السابقة... بِالْعَوْدَةِ لموضوع النبي عيسى(ع) الذي سبق وتحدّثت عنه السورة وَيُوجَدُ بَعْدُ أُمُورٌ بحاجة للإضاءة عليها:

{يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ}، ومعلوم أن هذا سيحدث في زمن قيامتنا من الموت، حيث سيجمع تعالى الأشخاص الذين أرسلهم لتبليغ رسالته إلى الناس، فَيَجْمَعُ الرُّسُلَ نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَيُونُسَ وَشُعَيْبَ وَعِيسَى وَمُحَمَّداً... عليهم صلوات الله تعالى، فيقول سبحانه للرسل:

{مَاذَا أُجِبْتُمْ}، سِيَاقُ الكلام عن الناس الذين وصلهم البلاغ من الرسل، حَيْثُ عَبَّرْتُمْ أيها الرسل للناس عن إرادتكم لهم أن يؤمنوا بما تَنْقُلُونَهُ لهم منه تعالى، بِمَاذَا أَجَابُوكُمْ، وَمَا كان ردّهم على نقلكم لكلامي لهم؟ هَلْ كفروا أم آمنوا؟

قال الرسل: {لَا عِلْمَ لَنَا}، نحن نعلم ما جرى أمامنا فقط، أَوْصَلْنَا رسالتك للناس، ونعلم بالذين أطاعونا وعارضونا أثناء حياتنا، أمّا غير ذلك فلا علم لنا، {إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}، فَأَنْتَ سُبْحَانَكَ علمك واسع جدا وتعلم كل ما غاب عن غيرك.

إِنَّ الرَّسُولَ لا يمكنه معرفة إذا كان الذين من حوله آمَنُوا فعلا، فهذا غيب، شيء غائب عنه، لأنه شيء في داخل الناس، وأيضا الرَّسُولُ لا يمكنه معرفة ماذا فعل الناس بعد موته، لِأَنَّهُ كان غائبا، أما سبحانه فكل شيء بالنسبة له حاضر ولا شيء يغيب عنه. والنتيجة أنك أنت يا رب تعلم ماذا أجابنا الناس على رسالتك.

حَسَناً، هذه الآية هي مدخل للموضوع التالي عن النبي عيسى(ع)، وهي نموذج عما يحصل من مخالفة الناس للرسل، ولكن في حالة النبي عيسى(ع) كَمَا تعلم فإن بعض الناس جَعَلُوهُ إلها رسميا صريحا! والحديث الذي تنقله الآيات هنا سيحصل في يوم القيامة، ويتم إخبارنا به الآن، فلنتابع:

(إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ{110})
{إِذْ قَالَ اللَّهُ}، سبحانه وتعالى:

{يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ}، استحضر في بالك الأشياء الموصوفة بأنها نعمة بأنه حسنة جيدة والتي منحتك إياها ومنحتها لوالدتك، لأمّك.

وقبل أن نكمل ألفت انتباهك أن هذا الحديث مع النبي عيسى(ع) سيحصل في يوم القيامة، يوم يجمع الله تعالى الرسل ويسألهم ماذا أجابكم الناس... فنتصور المشهد كما تصوّره الآيات، فالرسل مجموعون لوحد، والناس مجموعون لوحد، وقد أوقف تعالى رسوله عيسى(ع) أمام الذين قالوا عنه بأنه إله، وبدأ سبحانه بمساءلته (ع) أمامهم...

وستلاحظ أن الآية لم تذكر النعم التي أنعم بها سبحانه على السيدة مريم(ع) والتي نعرفها من بقية القرآن، حيث وهبها ولدا رسولا، والرزق كان ينزل عليها، والملائكة(ع) تحدّثت معها... فالتركيز هنا على النبي عيسى(ع)، فالإنعام على والدته أيضا شيء يستوجب منه أن لا ينساه.

ومن نعمي عليك، {إِذْ أَيَّدْتُكَ}، آزرتك دعمتك، {بِرُوحِ الْقُدُسِ}، بكائن "روح" فيوصف بأنه صاف بلا إضافات في كيانه، ويوصف بالقدس فله مكانة واعتبار ومكانة حقيقية عالية جدا، والمشهور في تراثنا الديني أنه الملاك جبريل "جبرائيل"(ع)، ومن فحوى القرآن بضمّ آيات لبعضها ترى أن روح القدس وصف للملاك جبريل(ع)، فالآية 102 من سورة النحل تشير لمن نزل بهذا القرآن بوصفه بالروح القدس "قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ..."، والآية 97 من هذه السورة تشير للملاك جبريل(ع) بأنه نزل بهذا القرآن "قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ..."، فجبريل هو الروح القدس، ولو فرضا كان هناك ملائكة آخرون مثله يوصفون بالروح، وبالقداسة، فعادة لن يستعمل

القرآن وصفا واحدا يشير لشخصين من دون التمييز بينهما، ولا يبدو من الآيات أي تمييز بين الشخصيات الموصوفة بالروح في القرآن، ولذلك نفترض أنها تشير لنفس الملاك وهو جبريل(ع) "جبرائيل".

ونكمل مع كلامه تعالى مع رسوله عيسى(ع): {تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ}، في أرضية مهيئة للنوم أو البقاء فيها، وهنا المقصود في أصغر سرير يوضع فيه الرضيع في فترة الطفولة المبكرة جدا وقبل أن يكون هناك احتمال لنطقه بشكل طبيعي، ففي أيامه الأولى نطق بالكلام المفهوم.

فكنت في أوائل أيامك وأسابيعك في الحياة، وقد نطقت وتكلمت وقلت للناس أنك رسول وعبد لله تعالى... وهذا شيء غير عادي، حتى تعطيهم الدليل بكلامك أن أمك(ع) لم تقم بفعل الزنا، وأنك ولدت فعلا من دون أب، وراجع في ذلك الآية 30 من سورة مريم "قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا". وأيضا تكلّم الناس وأنت، {وَكَهْلاً}، وهذا وصف لمن تجاوز الثلاثين من عمره وقبل الخمسين تقريبا، ومن هذا نستوحي أنه تعالى قد أمر نبيّه عيسى(ع) بالابتداء بعمله كرسول في سن الكهولة، فقد تكلم في المهد وقال بأنه رسول... ثم سكت بعد ذلك، وعاش كطفل طبيعي حتى صار شابا، وعندما وصل لقرابة الثلاثين من عمره عاد وقال أنه رسول لله تعالى...

{وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ}، فحصلت على معلومات من الكتاب الإلهي الرئيسي الذي فيه كلّ المعلومات عن الدنيا والآخرة، وعلمتك، {وَالْحِكْمَةَ}، فصرت ترى الأمور بصوابية وصارت أقوالك وأفعالك حكيمة لا عبث فيها. فالكتاب حكيم ولكنه نصّ، أمّا الحكمة فهي عموم ضبط الأمور على ما هو مطلوب فهي التطبيق للنص والذي يحتاج لرؤية الصوابية في الأمور لتطبيقه.

وعلمتك، {وَالتَّوْرَاةَ}، وهي الكتاب الذي نزل على النبي موسى(ع) قبل مئات السنين، "وقد أضافوا إليها كتبا لأنبياء آخرين، وصارت الآن كبيرة، وفي الأساس هي كتاب واحد صغير نزل على النبي موسى(ع)"، فقد صار النبي عيسى(ع) يفهمها ويعرفها، وعلمتك، {وَالْإِنْجِيلَ}، وهو كتاب نزل عليك خصيصا.

فهناك كتاب إلهي فيه كل شيء، وهو ليس من ورق ولا مثل ذاكرة الكومبيوتر ولا مثل أي شيء نعرفه، وفيه تفاصيل كل ما حدث وسيحدث في الدنيا والآخرة، وفيه القوانين والأوامر والتشريعات الإلهية... والملائكة(ع) بأصنافها المتعددة تتصل "بطريقة ما" بذلك الكتاب، وتقوم بتنفيذ ما فيه، وكتب الأنبياء كلها من ذلك الكتاب، فمرة يتم تنزيل قسم من الكتاب الرئيسي ويصير اسمه توراة أو زبور ومرة أخرى ينزل غيرهم ويصير اسم ما نزل: إنجيل أو قرآن. وتلاحظ في عدة آيات من القرآن قولها بأن بعض الأنبياء "والأشخاص" يحصلون على معلومات خاصة من ذلك الكتاب.

وانتبه عزيزي، فلا تحاول أن تتصور أي شيء عن ذلك الكتاب، فتصوره مستحيل مثل استحالة تصوّرنا حاليا في الدنيا للملائكة(ع)، وإذا نظرت إلى الذين يتصلون بذلك الكتاب فستعرف كم أنا وأنت بعيدون عنه، فهو لا يمسه إلا المطهرون كما ورد في الآية 79 من سورة الواقعة.

{وَإِذْ تَخْلُقُ}، تركّب وتؤلّف، {مِنَ الطِّينِ}، من التراب المعجون بالماء، وهذا التعبير القرآني يشير إلى المواد المنتشرة في عالمنا كالكالسيوم والكربون والنحاس... فتركّب منها، {كَهَيْئَةِ}، كشكل، {الطَّيْرِ}، تمثال على شكل حيوان له ريش، {فَتَنْفُخُ فِيهَا}، فتجعل شيئا في داخل التمثال الطيني، وهنا الكلام عن نفخه(ع) الهواء بالظاهر، {فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي}، بسماح منه تعالى، فتصير حيوانا حقيقيا فيه حياة على يديك، ولكن هذا كان يحدث بإذن من الله تعالى، فأنت لم تكن تملك قدرة ذاتية منفصلة قاهرة فوق القدرة الإلهية لتهب الحياة لتمثال من الطين.

والنفخ في شيء هو عموم جعل شيء في داخله، والنفخ على شيء هو إمرار شيء على خارجه... أما النفخة التي صدرت من النبي عيسى(ع) فهي إعطاء الحياة للتمثال الطيني عبر نفخ شيء في داخله، يعني لو كنا نشاهده(ع) وهو ينفخ فسنرى الهواء يخرج من فمه(ع) باتجاه التمثال، أما في الحقيقة فالهواء لن يسبب أي شيء، بل بسبب أن النبي عيسى(ع) مؤيد بروح القدس(ع)، ولأن الله تعالى قد سمح، فهذه النفخة تتضمن لمسة الحياة للتمثال، فيتحول من طين إلى جسد حيوان يعمل بشكل طبيعي.

{وَتُبْرِئُ}، فتشفي من العلة، {الْأَكْمَهَ}، وهو الشخص الأعمى الذي تغيّر لون عينه ولا يرى نهائيا، فعدسة عينه معطوبة.

وتبرئ فتشفي، {وَالْأَبْرَصَ}، وهو الشخص الذي لديه مرض جلدي، فعنده بقع شديدة البياض على جلده، وهذا المرض يسبّب تساقط الجلد وبعده تساقط اللحم، وقديما كانوا يخافون منه كثيرا لأنه لا علاج له ويسبب الألم الشديد ومنظرا قبيحا ورائحة منتنة... وتطول مدّته قبل أن يقتل. وتلاحظ ورود كلمة الأبرص مرتين في القرآن فقط في هذه السورة هنا وفي الآية 49 من سورة آل عمران.

وكل هذه الأشياء تحصل، {بِإِذْنِي}، بسماح منه تعالى وليس بقدرتك الذاتية المنفصلة عن الله تعالى.

{وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى}، فيقوم الأشخاص من موتهم فيرجعون إلى الحياة، {بِإِذْنِي}، فقد قام النبي عيسى(ع) بإعادة الحياة إلى بعض الأشخاص، وليس بقدرته الذاتية بل بسماح منه تعالى.

لاحظ تكرار كلمة "بإذني"، فهي تعني انك لم تملك قدرة ذاتية على فعل هذه الأشياء، ففقط الإله لديه قدرة ذاتية منفصلة عن كل شيء، وفقط الإله يمكنه أن يفعل ما يشاء حتى لو اعترض ومانع كل المخلوقات، فعندما قام النبي عيسى(ع) بهذه الأشياء غير العادية، فهذا لا يعني أبدا أنه إله.

{وَإِذْ كَفَفْتُ}، أوقفت، منعت صددت، {بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ}، فكانوا يريدون إهانتك بتعذيبك وصلبك وقتلك، ولكني أوقفتهم عن ذلك.

{إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ}، فأحضرت لهم الأمور الواضحة، وهي أمور تدل فعلا على أنك رسول إلهي، فهل يوجد بيّنات أوضح من هذه لتدل على أنك رسول منه تعالى؟ فأنت قمت بنفخ الحياة في التماثيل الطينية وقمت بشفاء المرضى وإحياء الموتى فهل يوجد أبين أوضح من هذه الأمور لتدل على أنك مدعوم من الله تعالى وأنك رسوله؟

{فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ}، الذين أنكروا ولم يعتقدوا بتلك الأمور الواضحة التي تدل على أنك رسول:

{إِنْ هَذَا}، ففقط هذا الذي تقوم به، {إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}، فهو بشكل واضح شيء غير حقيقي تخدعنا به ليبدو حقيقيا.

فلم يجدوا أي شيء آخر ليقوله لك، إلا أنك ساحر تخدعهم.

ضع في بالك دائما أن السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شيئا غير حقيقي أنه حقيقي. فالساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد بأنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع أنها لم تختف، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر والذي تراه صريحا في الآية 66 من سورة طه "قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى". وما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، فهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية أنها سحر، فهذا كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

أين السحر في شفاء من كان أعمى! لقد صار الشخص يبصر فأين هي الخدعة! وهناك أشخاص أقامهم النبي عيسى(ع) من الموت، وعاشوا، وصاروا يتنقلون بين الناس، فأين هي الخدعة! كما ترى، هناك أناس سخيفة بلا منطق ولا فهم، ولا يريدون أن يؤمنوا، ولا يوجد لديهم دليل ولا حجّة فيقولوا عن الآيات بأنها سحر، وهكذا ينتهي الموضوع بالنسبة لهم! فهم ليسوا بحاجة ليؤمنوا لأن ما جرى هو خدعة وليس دليلا!

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ{111})
تَدْخُلُ السورة في استطراد له علاقة أساسية بموضوع إدلاء النبي عيسى(ع) بشهادته في يوم القيامة على الذين ألّهوه، حَيْثُ هُنَاكَ حادثة مشهورة تُبَيِّنُ أَنَّ أقرب الناس له (ع) لم يعتقدوا به إِلَهاً حين كان حَيّاً، بل بشكل عامّ لم يكن لديهم إيمان قوي جدا به (ع) كرسول! فَأَرَادُوا آية خاصة بهم ومن طلبهم هم لِيَتَأَكَّدُوا أَنَّهُ(ع) رسول. فَحْوَى هذا الكلام موجّه للمسيحيين الذين أَلَّهُوهُ(ع)، فَإِنْ كان أقرب الناس له (ع) في زمنه لم يُؤَلِّهُوهُ بل وكانوا يشعرون بالحاجة لآية مميزة لتطمئن قلوبهم بأنه رسول، فكيف أَلَّهْتُمُوهُ أنتم الذين لم تحتكوا به أصلا!

{وَإِذْ أَوْحَيْتُ}، فكل تعامله تعالى مع كل مخلوقاته يكون وَحْياً لِأَنَّهُ يستحيل التواصل المباشر معه تعالى، حَيْثُ أَوْصَلَ تعالى معلومات {إِلَى الْحَوَارِيِّينَ}، إلى الأشخاص الذين عادة يرافقون أحدا ما ونعتبرهم تابعين له، وهنا الكلام عن المرافقين للنبي عيسى(ع) بشكل شبه دائم أثناء تنقلاته لتبليغ الرسالة، لدرجة أَنْ نقول عنهم إِنَّهُمْ خَاصَّةُ أصحابه، فهم أصحابه المقرّبون منه، الْحَوَارِيُّونَ:

{أَنْ آمِنُوا بِي}، أَنِ اعتقدوا بي، {وَبِرَسُولِي}، وهذا مشابه لما يأمرنا به القرآن من الاعتقاد بالله تعالى وبرسله.

قَالَ الحواريون: {آمَنَّا}، اعتقدنا وَصَدَّقْنَا بالله تعالى رَبّاً إِلَهاً أَحَداً... وبعيسى(ع) رَسُولاً منك، {وَاشْهَدْ}، فها نحن أمامك سبحانك نقرّ، {بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ}، فقد أسلمنا أمرنا لك سبحانك، فنحن منقادون مطيعون لك سبحانك.

الْوَحْيُ هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خيرا أم شرّا، وَبِنَاءً عليه فَإِنَّ كُلَّ أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تَكُونُ وَحْياً لِأَنَّ التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وَتَرَى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ"، حَتَّى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال "إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...".

يَنْطَبِقُ فعل الوحي على أي كائن كان "إِنْسَاناً حَيَوَاناً مَلَكاً أو جِنّاً" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم، وَطُرُقُ فعل الوحي وَأَنْوَاعُهُ مُتَعَدِّدَةٌ، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم "فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا". وَوَحْيُ وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا"، وما ورد في الآية 193 و 194 من سورة الشعراء "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ". أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات "فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ..."، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل. وَوَحْيٌ عبر إصداره تعالى صوتا في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص "فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ"، مُضَافاً لها الآية 13 من سورة طه "وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى"، فكلامه تعالى معه(ع) وحي لأن الكلام ليس صادرا مباشرة منه تعالى فهذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، فَيَصِيرُ وصف الحالة أَنَّ كلامي يصلك وَحْياً.

هُنَاكَ وَحْيٌ نَاتِجٌ عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كَتَعْلِيمَاتٍ مَزْرُوعَةٍ، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ" ففي النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

الْوَحْيُ يَصْدُقُ على وحي الخير والشر، فالشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا..." وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ يوحون بالشرّ... فالوسوسة في الفكر... وَالْإِلْقَاءُ في الرَّوْعِ "في الوعي"... مهما كان نوعه خَيْراً أو شَرّاً فَهُوَ وَحْيٌ.

نَحْتَمِلُ حصول وحي مباشر منه تعالى "ربما من نوع الإلهام" للحواريين، حيث لا مانع من ذلك وَوَرَدَ هذا في الآية 7 من سورة القصص "وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ". ولكن تكملة الكلام من الحواريين مع النبي عيسى(ع) ليطلب منه تعالى تنزيل مائدة من السماء، مِمَّا يُشِيرُ إلى أنهم لم يحصل معهم تواصل مباشر معه تعالى ليعتمدوه كطريقة لتوجيه الطلب إليه تعالى مباشرة منهم، وَبِالتَّالِي يبدو حصول الوحي للنبي عيسى(ع) بما يريد تعالى توصيله للحواريين وهو (ع) أوصل كلامه تعالى إلى الحواريين، فلم يحصل وحي مباشر منه تعالى للحواريين.

(إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{112})

{إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ}، إذ قال الأشخاص الْمُرَافِقُونَ الْمُقَرَّبُونَ من النبي عيسى(ع):

{يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ}، {هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ}، هل يمكن للمسؤول عنك من مستوى إلهي، {أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ}؟ هل يمكنه أن ينزل علينا طاولة طعام متنوعة الأنواع جاهزة للأكل؟

{قَالَ}، النبي عيسى(ع):

{اتَّقُوا اللَّهَ}، تجنبوا غضبه وعقابه، لِأَنَّكُمْ تطلبون منه سبحانه شيئا يُسَبِّبُ لكم غضبه وعقابه، فاتقوه {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، إن كنتم فعلا معتقدين به ربا إلها.

هَا أُوحِيَ سبحانه إليكم، وقلتم بأنكم منقادون مطيعون له تعالى، فهل تقولون هذا بأفواهكم، ولكن من داخلكم لستم كذلك؟ مَا معنى هذا الطلب إن كنتم فعلا مؤمنين؟ هَلْ تَمْتَحِنُونَنِي لِتَتَأَكَّدُوا أَنِّي رسول؟ أو هل تمتحنون ربكم سبحانه؟

تَسْتَحْضِرُ في بالك أنه(ع) أحيا الموتى وَشَفَى المرضى... وهي آيات أكثر من كافية ليؤمنوا به كرسول إلهي، مَا معنى طلبهم نزول مائدة؟!

(قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ{113})
{قَالُوا}، قال الحواريون:

{نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا}، أن نستهلك الطعام من تلك المائدة، أن نلمس بِأَيْدِينَا وأحاسيسنا أنها حقيقية.

{وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا}، ونريد معطيات لفكرنا ونفسيتنا حتى نستبعد أي شكّ، فإذا نزلت المائدة ستستقر قلوبنا على فكرة الإيمان بك وبربّك.

{وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا}، ونتأكّد بأنك لم تكذب بأنك رسول، فإذا نزلت المائدة نتأكّد أنك طلبت منه تعالى واستجاب لك، وَتُثْبِتَ لنا أنك فعلا رسوله.

{وَنَكُونَ عَلَيْهَا}، على تلك المائدة، {مِنَ الشَّاهِدِينَ}، حَيْثُ نُخْبِرُ الناس بأننا نحن عدة أشخاص طَلَبْنَا منك مائدة من السماء بشكل مُفَاجِئٍ، وَنَزَلَتْ وأكلنا منها، وَنَشْهَدُ وَنُؤَكِّدُ أن هذا حصل فعلا.

يمكنك أن تفهمها أنهم سيقولون للذين اتهموا النبي عيسى(ع) بأنه ساحر أنهم طلبوا منه فجأة هذه المائدة، ومن المستحيل أن يكون (ع) تَجَهَّزَ لهذا السحر ليخدعهم.

ربما هناك في ذهننا صورة "قداسة" عن الحواريين، ولكن الآيات هنا تنقل عنهم كلاما غير ذلك، وَهِيَ ليست تهينهم، ولكن تنزلهم من مرتبة القداسة العالية، لأنهم ورغم وجود النبي عيسى(ع) بينهم، ورغم كل ما فعله(ع) أمامهم من آيات، ورغم قولهم عن إسلامهم كجواب للوحي الإلهي الذي ذكرته الآيات السابقة... رَغْمَ ذلك أرادوا نزول مائدة من السماء ليتأكّدوا من صدقه(ع)!

هَذِهِ حالة تشبه حالة طلب النبي إبراهيم(ع) لمعاينة إحياء الموتى، ولكنها ليست مثلها لأنه (ع) مؤمن ولكن يريد لمس واختبار كيفية حصول ذلك ليطمئن قلبه، كما ورد في الآية 260 من سورة البقرة "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ".

أمّا هنا فالحواريون يريدون أن يعلموا أنه (ع) صَدَقَهُمُ القول، بماذا؟ بأنه رسول إلهي، ولم أر أي احتمال آخر لكلامهم إلا احْتِمَالاً بَعِيداً لا يظهر من الآيات هنا، فَرَضاً لَوْ أخبرهم (ع) عن نزول الرزق على أمّه منه تعالى، وهم أرادوا التأكّد من اهتمامه تعالى بعبيده بشكل استثنائي لدرجة تنزيل الرزق عليهم، ولكن هذا الاحتمال لا يبدو من سياق كلام الآيات هنا.

هل يطلب المؤمن آية "معجزة" ليزداد إيمانا؟

قرآنيا نحن أمام حالتين لطلب آية إلهية لحصول اطمئنان قلبي، لَدَيْنَا طلب النبي إبراهيم(ع) رؤية إحياء الموتى، كما ورد في الآية 260 من سورة البقرة "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي..."، ولدينا طلب الحواريين نزول مائدة "... وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا...".

الحواريون مؤمنون ولكنهم يريدون معطيات حسية لفكرهم ونفسيتهم حتى يستبعدوا أي شكّ، فإذا نزلت المائدة وأكلوا منها لمسا بالحسّ... ستستقر قلوبهم على فكرة الإيمان، وأما النبي إبراهيم(ع) فهو مؤمن بالحياة بعد الموت، بل وصل إلى هذا الاعتقاد لوحده وبدون نزول وحي إلهي عليه كما فهمنا من دراستنا لسيرة حياته التي نقلها القرآن، وتقرأ ذلك في دراسة الآية 81 من سورة الشعراء "وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ"، وَطَلَبَ رؤية إحياء الموتى ليصير عنده معطيات حسّية لكيفية حصول ذلك، لتستقر نفسيته وفكره بلمس اليد ورؤية العين لفعل إحيائه تعالى للموتى.

قبل أن نكمل في الموضوع نتذكّر أنه قرآنيا، مَا يسمّيه الناس بالمعجزة، وهي الآية غير العادية المحتاجة لقدرة فائقة لفعلها، كخروج ناقة من صخرة، وفلق البحر، وتحويل العصا لحيّة... هَذِهِ الآيات وأي آية تَخْطُرُ ببال البشر، لن تجعل الكافر مؤمنا لأن المشكلة هي مع كره الكافر للحقّ والصلاح وحبّه للسوء، وتفهم ذلك جليا من عموم كلام القرآن ومنه الآية 59 من سورة الإسراء "وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا"، وراجع دراستها لمزيد من التفاصيل.

لدينا حالة السحرة الذين آمنوا من بعدما رأوا آية تحوّل العصا لحيّة، وهم كانوا بالأساس مؤمنين بالله تعالى وبدينه، ولكنهم وبسبب الدعاية الفرعونية عن دجل النبي موسى(ع) وادعائه النبوة بسحر تحويل العصا لحيّة... كفروا به كرسول إلهي قبلما يروا آية تحوّل العصا، وبعدما رأوها استيقنوا أنها ليست سحرا، وأعلنوا إيمانهم بموسى كرسول، وقالوا ما قالوه لفرعون والذي يريك مدى فهمهم لدينه تعالى، ومنه قولهم في الآية 72 من سورة طه من بعدما هدّدهم فرعون بالعذاب والقتل إن لم يكفروا بموسى "قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا".

نرجع لموضوعنا، اَلْكَافِرُ يطلب آية "معجزة" ليؤمن، ولن يؤمن ولو جاءته كل الآيات التي تخطر على باله، وتفهم ذلك من كل كلام القرآن الكثير حول هذه النقطة ومنه الفقرة التالية من سورة الإسراء "وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (94)".

أمّا المؤمن من الدرجة العالية كالأنبياء، والمؤمن من الدرجة المقبولة كالحواريين، والمؤمن الأقل من ذلك كحالتنا نحن، فهؤلاء يطلبون آيات لتطمئن قلوبهم، وتختلف أفكارهم حول الآية بسبب اختلاف درجة إيمانهم، حيث الأضعف إيمانيا يقول بينه وبين نفسه أنه مؤمن بالله تعالى ولكن لو حصلت أمامه آية "معجزة" لكان إيمانه أقوى. بينما هذا النوع من الإيمان لن يتحسن كثيرا بسبب آية "معجزة"، لأن الآيات في خلق السماوات والأرض أكثر من كافية، بل يتحسّن بإصلاح الفكر والنفسية والعمل، معتمدا على ما تعرفه من حق وإعلان إيمانك به، وما تعرفه من خير تفعله... بعد ذلك ترى أن أفكار الشكوك حول الإيمان به تعالى تختفي ويبقى الإيمان به تعالى رَاسِخاً، وهذا هو كل كلام القرآن عن آياته تعالى في خلق ما في السماوات والأرض، وكلامه سبحانه عن الحقّ والصلاح.

الأعلى إيمانا رُبَّمَا يخطر بباله رؤية دليل ملموس على الآخرة مع أنه ضمنيا يؤمن بحتمية وضرورة محاسبة المجرمين في الآخرة، وضرورة مجازاة الصالحين بالثواب بسبب إيمانهم وتركهم السوء...

هؤلاء إذا رأوا آية "معجزة"، فستزيدهم إيمانا، وإن زادت نقاوة قلوبهم بفعل الخير والابتعاد عن السوء، عندها يكفيهم كلامه تعالى عن الآخرة ليؤمنوا... ومع ذلك رُؤْيَةُ الآية "المعجزة" ستزيدهم إيمانا.

أمّا حالة النبي إبراهيم(ع) فلم تكن ليؤمن بالآخرة، ولا ليؤمن بقدرته تعالى على إحياء الموتى، بل ليرى ويلمس كيف يفعل سبحانه ذلك، وهو أمام يقين نفسي بحصول الآخرة ورجوع الموتى، ولكنه محتار في فهم كيفية حصول ذلك، لأن

المسألة في نهاية الأمر هي مجرد خبر، مثلما تخبرني عن طعام لذيذ لم أذق مثله في حياتي، فأنا أصدقّك، ولكن كلامك مجرد خبر بالنسبة لي لأني لم أختبره، وسأحتار في معنى الطعم اللذيذ للطعام الذي لن أعرف طعمه إلا إذا ذقته.

هذه هي حالة النبي إبراهيم(ع) المؤمن بالآخرة وبرجوع الموتى، ولكنه محتار في فهم كيفية حصول ذلك، ويرغب برؤيته لتستقر نفسيته وفكره ويتوقف عن التفكير بهذا الموضوع.

الكلام يجر الكلام لنسأل: هل يجب عليه تعالى فعل آية "معجزة" أمامي حتى أزداد إيمانا؟ حيث أتجاهل وأتعامى عن آيات خلق ما في الدنيا طالبا فعل آية "معجزة" ليزيد إيماني به، وآية "معجزة" أخرى ليزيد إيماني بالآخرة، وآية "معجزة" ليزيد إيماني بالرسل، وآية "معجزة" ليزيد إيماني بالقرآن ككتاب إلهي... وآية "معجزة" ليزيد إيماني بـ...

هل يجب عليه تعالى فعل كل ذلك معي ومع كل بقية ضعاف الإيمان لنزداد إيمانا؟ في هذه الحالة ستكون حياتنا مسلسلا من مسلسلات الخيال، ولن نكتفي بذلك بَلْ سَنَطْلُبُ تدخله تعالى في الكبيرة والصغيرة من حياتنا ليحلّها كما حصل مع بني إسرائيل الذين دلّلهم سبحانه ليكونوا عبرة لنا لنرى النتيجة السيئة الناتجة عن ذلك، وتفهم ذلك من عموم كلامه تعالى عنهم وكمثال واضح ما ورد في الآية 24 من سورة المائدة "قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ".

نعم، يطلب المؤمن آية "معجزة" ليزداد إيمانا، ولكن إذا اشترط حصول الآية "المعجزة" ليؤمن بشيء أساسي من دينه تعالى، فهو لا يطلب الآية ليزداد إيمانا بل لا يزال في مرحلة الكفر في تلك المسألة التي لم يؤمن بها، ويحتاج لمراجعة كاملة لفكره ونفسيته وعمله، لأن كل الضعف الإيماني سببه الضعف في حب الصلاح والخير والحقّ.

للأسف، غالبية الناس على دين من اختراعهم وليسوا على دينه تعالى، حيث نظن بأنفسنا متدينين ملتزمين صالحين، وبالتالي يجب أن يزيد إيماننا... أمّا في الحقيقة فنحن متدينون بدين من اختراعنا، ولدينا الكثير من السوء الفكري بالاعتقاد بالمذهبية والعصبية وعبادة الهوى بتشريعات ذكورية وإجرامية وعنصرية... ولدينا الكثير من السوء العملي بالغيبة والسخرية والغشّ والإهمال... وَتَرَكْنَا ظاهر معنى كتابه تعالى لنحوّره بما تشتهي رغباتنا السيئة، ونتج عن ذلك عقائد فاسدة تشرّع لطاعة الحاكم الظالم، وتشرّع لقتل الأبرياء، وتشرّع لكره بقية المسلمين والناس المسالمين...

كلما ازداد التزامنا بالدين الذي من اختراعنا، ازْدَادَ ابتعادنا عن الإيمان والصلاح، وصرنا نطلب آيات "معجزات" كي نؤمن بأمور من أساسيات دينه تعالى، وصرنا فعلا بحاجة لمعجزة بتدخّل إلهي لإعادة برمجة أدمغتنا لنؤمن بدينه سبحانه.

(قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ{114})
{قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ}:

{اللَّهُمَّ}، يا من أعتبره إلهي، {رَبَّنَا}، "المدبّر" المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً}، طعاما جاهزا للأكل مَوْضُوعاً على طاولة، {مِنَ السَّمَاءِ}، {تَكُونُ}، هذه الحادثة، {لَنَا عِيداً}، ذكرى نحتفل بها عندما يعود ويتكرر اليوم الذي نزلت فيه المائدة خلال السنة القادمة، {لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا}، فنحتفل بها الآن ويحتفل بها الناس الَّذِينَ سيأتون من بعدنا كلما تكرر وجاء اليوم الذي نزلت فيه المائدة، وتكون المائدة، {وَآيَةً مِنْكَ}، شَيْئاً مُمَيَّزاً منك سبحانك، مثلها مثل الآيات الأخرى، مثل آية إحياء الموتى وخلق الطير وشفاء المرضى... {وَارْزُقْنَا}، لِأَنَّ هذه المائدة هي في الأخير رزق وَهِيَ شيء نسدّ به حاجة الجوع، {وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}، فَالْأَبُ يرزق أولاده والغني يرزق الفقراء... ولكنك أنت سبحانك خير منهم أحسن منهم، حَيْثُ إِنَّ قُدُرَاتِكَ أعلى من قدراتهم وَيُمْكِنُكَ أَنْ تَرْزُقَ فَتُعْطِيَنَا ما نأكله بما لا قدرة للآخرين عليه، وهم ربما يعطون مع منّة، وربما مع توقّع مقابل، وربما يحتفظون بالأرزاق الجيّدة لأنفسهم... أمّا أنت فَإِلَهٌ فَقُدُرَاتُكَ أعلى، ولا أتوقّع منك أبدا ما أتوقعه من نفسيات بقية الرازقين من المخلوقين، فأنت سبحانك خير منهم على كل الأحوال، لِأَنَّ قُدُرَاتِكَ أعلى بالنوعية والكمية، ومعاملتك أحسن...

لاحظ، لَطِّفَ النبي عيسى(ع) طلب الحواريين، فلم يكرره لربنا سبحانه كما قالوه، بل عَدَّلَهُ بطريقة مهذّبة، فهم قالوا إِنَّهُمْ يريدون أن يأكلوا منها ليتحسسوها بأنها ليست وهما أو سحرا، والنبي(ع) قال إِنَّهَا ستكون رزقا من خير الرازقين، وقالوا بأن قلوبهم ستطمئن إن شاهدوا المائدة تنزل من السماء، وهو(ع) قال إِنَّهَا ستكون آية كعلامة إلهية، وهم قالوا إِنَّهُ بنزول المائدة سيعلمون أن النبي عيسى(ع) لم يكن يكذب عندما قال بأنه رسول، وهو(ع) قال إِنَّهَا ستكون علامة إلهية، وهم قالوا بأنهم سَيَكُونُونَ شهودا على الحادثة، وهو(ع) قال إِنَّ الحادثة ستكون عيدا للمؤمنين.

بهذا التحليل يبدو أن الحواريين لم يكونوا كلهم مؤمنين من الدرجة العالية جدا، ولا تتصور أن الآية عندما تنقل كلامهم بالجمع يعني أنهم كانوا يقولون هذه الكلمات كلهم مع بعض في نفس الوقت، بالطبع لا، إذَا قال كل هذا الكلام شخص واحد، ووافق البقية على كلامه، وشاركوا في التفاصيل... فسينقل القرآن الحادثة على طريقة أنهم كلهم كانوا يقولون: هل يستطيع ربك... وربما هذا يقول جملة والآخر يقول جملة غيرها... ولكن كلهم موافقون على مجمل الكلام.

الكلام يجرّ الكلام، حَيْثُ إِنَّ أدب الكلام معه تعالى بعضنا لا يراعيه ويتخطّى حدوده فيه كعبد، وآخرون تنعكس صفاتهم الراقية على كلامهم فيتكلمون معه تعالى بتبجيل واحترام ولياقة، وليس على طريقة الكلام مع جني الفانوس السحري "الخرافي"، وألفت انتباهك للفرق الهائل بين الأدعية التي يخترعها عامّة الناس، وبين أدعية المؤمنين من الدرجة العالية، وبين أدعية المؤمنين من الدرجة الأعلى، خُذْ مثلا الكتيب المسمّى بالصحيفة السجادية والمنسوب لزين العابدين، ففيه أدعية من مستوى راق جدا جدا محلّاة بأدب رفيع للكلام مع عزّة الإله سبحانه، ومثله في الكمال الدعاء المنسوب للإمام علي والمسمّى بدعاء كميل، فهو القمّة في أدب الدعاء... وهنا ترى الأدب الرفيع للنبي عيسى(ع) في إعادة صياغة ما طلبه الْحَوَارِيُّونَ ليطلبه هو (ع) منه سبحانه بأدب المؤمنين من الدرجة الراقية جدا.

(قَالَ اللّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ{115})
قال الله سبحانه، استجابة لطلب نبيه عيسى(ع): {إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ}، سَتَنْزِلُ عليكم المائدة التي طلبتموها، {فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ}، فبعد نزولها كما طلبتم مَنْ ينكر أي شيء مما قلتم، وَمَنْ ينكر الإيمان به تعالى أو الإيمان برسوله(ع)، {فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً}، فسيتعرّض لما يؤذيه بشدّة، {لَا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ}، فسيكون ضررا مؤذيا مخصّصا لهم ولا أحد من كل الناس الذين خلقتهم سيتعرّض له.

بِالنِّسْبَةِ لهذا العذاب يَخْطُرُ ببالنا إمّا الإشارة لشدة العذاب كالضرب بقوّة أكبر... أو لنوعية العذاب كالفرق بين الضرب بالعصا والسوط، وبالتالي سيرجع الكلام عن شدّته ولكن عبر اختلاف نوعيّته، وربما هناك أمور أخرى فوق قدرتنا على التصوّر لأنها ستحصل في عالم مختلف جدا عن عالمنا، حيث أهل الجنّة خالدون لا يتضررون ولا يتأذّون... وأهل النار خالدون يحترقون بالكامل ولا يموتون... ويمكن تصوّر ذلك بالتقريب مع الأنواع المختلفة للآلام التي نشعر بها هنا في الدنيا، لِأَنَّ أَلَمَ الرأس أسبابه مختلفة والشعور بألم الرأس أنواعه مختلفة، حَيْثُ إِنَّ أَلَمَ الرأس من سبب الأضراس نوعه مختلف عن ألم من سبب ضعف النظر، ومختلف عن ألم بسبب الأذنين أو جرح في غشاء حاسة الشمّ أو من أعصاب الرقبة أو من قلّة النوم أو من الجوع...

هَلِ التهديد هنا بشعورهم بألم أشدّ من آلام الآخرين؟ لا، لِأَنَّ الْوَاضِحَ من الكلام أن نوعية الشدّة متشابهة ولكن نوعية العذاب مختلفة ومسبّبة لنوع شديد من العذاب ولكنه مختلف عن نوعية عذاب الآخرين.

انتهت الفقرة التي تحدّثت عن نعمة إلهية للنبي عيسى(ع) حيث أنزل تعالى عليه "وبناء على طلبه" مائدة من السماء، أما ماذا حصل بعد نزولها، وهل كفروا، وهل صارت عيدا... فهذه أشياء لم تذكرها الآيات لأن تركيزها كان على النعمة الإلهية على نبيه عيسى(ع) الذي طلب المائدة، ونزلت، وضمنا إِنَّ هَذِهِ الآيات تشير إلى كون النبي عيسى(ع) لو كان إلها لما طلب نزول المائدة ولأنزلها هو بنفسه، وَرَغْمَ سماحه تعالى له بشفاء المرضى وإعادة الموتى للحياة... تَرَى أنه وبوضوح ليس قادرا على إنزال مائدة من السماء... وبالنسبة لمحورية السورة عن الميثاقية فَإِنَّ طَلَبَ المائدة ونزولها تأكيد من الحواريين على الميثاقية وردّ إلهي على تأكيدهم، لِأَنَّ بَقِيَّةَ الناس يعايشون ما اختاره تعالى من آيات أمّا الحواريون فهم حدّدوا نوع الآية، وبسبب استثنائية هذه الحالة كانت استثنائية حالة اختلاف نوعية التعذيب عن الآخرين لمن كفر منهم...

تَحْصُلُ معك نفس المشكلة التي حصلت مع بعض المفسرين، فيكون في ذهنك أن صفة "الحواريين" تعني أنهم أشخاص مؤمنون جدا ومميزون، وهذا سيمنعك من فهم الآيات بشكل صحيح، لِأَنَّ الْحَوَارِيَّ هو الشخص الذي يلازم وَيُرَافِقُ بكثرة شخصا آخر، وَيَقْضِي معه الكثير من الوقت، وهذا لا يعني أي خاصية مميزة له أكثر من إمضاء الكثير من الوقت، والحواريون المرافقون للمسيح(ع) هم كذلك، فهم مجرد أشخاص رافقوه، حَيْثُ نَصِفُهُمْ بأنهم أكثر الناس قربا منه كأصحاب، وعندما طلبوا نزول المائدة، وقال لهم النبي عيسى(ع): اتَّقُوا اللَّهَ إن كنتم مؤمنين. فهذا يدل على أن طلبهم ليس في محلّه ولا يدل على تقوى وإيمان عميق، بعكس ما هو عالق في ذهننا عن "قداسة" حوارييه (ع).

نَجِدُ في أقوال المفسرين كلاما لا معنى له، حيث قال بعضهم إنَّ المائدة لم تنزل لأن الحواريين خافوا من التهديد! وهؤلاء عندما قالوا هذا الكلام ألم يكن القرآن أمامهم! بل كانوا هكذا يتحدثون من بنات أفكارهم، لأن الآية تقول: {إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ}... يعني صدر القرار الإلهي بنزولها! ولاحظ يا عزيزي وجود الكثير من هذه التفسيرات التي لم تنطلق من دراسة كاملة وانتباه، وهذا لا يعني أني لم أسقط أثناء دراستي هذه في بعض الأشياء مثلهم، ولكني عملت جاهدا أن لا أزيغ عن القرآن، وتخطيت الكثير الكثير مما سقطوا فيه، وإن شاء تعالى لك الانتباه لأخطائي فتصلحها ويتحسّن فهمنا للقرآن، مثلما انتبهنا لأخطاء من سبقنا وتجنبناها.

(وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ{116})
بعدما تبيّن من حادثة نزول المائدة أن أقرب الناس للمسيح(ع) لم يُؤَلِّهُوهُ بل طلبوا آية لتطمئن قلوبهم أنه رسول إلهي... نرجع إلى الحديث بينه سبحانه وبين نبيه عيسى(ع) الذي سيحصل في يوم القيامة كما فهمنا من الآية 109: يوم يجمع الله تعالى الرسل فيقول ماذا أُجِبْتُمْ؟...:

{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ}: {يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ}، {أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ}، هل أنت قلت للناس اجعلوني أنا وأمي، {إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ}؟ فاتركوا توحيد الله تعالى واجعلوني أنا وأمي مَوْصُوفَيْنِ بالصفات والقدرات الفائقة؟ كما نقول نحن: ذهبتم من دوني. ونقصد ذهبتم وتركتموني. فهل أمرتهم بترك التَّوْحِيدِ وَبِاعْتِبَارِكَ أنت وأمك إلهين؟

انتبه جيدا عزيزي، لِأَنَّ التعبير القرآني "من دون الله" تفهمه بسهولة إذا تخيّلت أنه سبحانه في جهة، وأن أَحَداً ما توجّه نحو النبي عيسى(ع) على أساس أنه توجّه نحو إله، فهذا يعني أنه توجّه نحو الإله من دون أن يتوجّه نحو الله تعالى، وهذا ما تقصده الجملة.

كما ترى أَيُّ تبريرات يقولها الناس عن تجسّده تعالى في شخص النبي عيسى(ع) وأنهم في نفس الوقت يعتبرون النبي عيسى(ع) إلها، والله تعالى إلها، وأنهما واحد... فهذه فزلكة وسفسطة كلام سخيف مثل تربيع الدائرة، فمن أين جاؤوا بهذا الكلام؟ وهل له مستند؟ هَا يسأل تعالى نبيّه عيسى(ع) في يوم القيامة وأمام الناس إن كان هو (ع) من أمرهم بهذا، وقبلها مرّ معك أن الحواريين وهم أقرب الناس للنبي عيسى(ع) لم يقولوا عنه إِلَهاً.

{قَالَ} النبي عيسى(ع):

{سُبْحَانَكَ}، أنزّهك عن كل شيء عاطل، أَعْتَرِفُ بأنك لا يوجد لك أي صفة سيئة أو ناقصة، فأنت سبّوح منزّه عن كل النواقص، وأنت متفرّد لوحدك بصفة الألوهية من كمال وقدرات فائقة، فلا أحد مثلك، لَوْ كان يوجد أحد مثلك لكان هذا نَقْصاً وَعَيْباً في كمال صفاتك وقدراتك الفائقة، فكيف يمكن أن أقول للناس أن يألّهوني أنا أو أمي بينما أنا أعلم أني عبد وأنك أصلا منزّه أن يكون لك شريك! مُسْتَحِيلٌ ولا معنى لحالة أن يكون لك شريك في الألوهية.

تذكّر دائما أنه عزّ وجلّ عندما يتحدّث عن نفسه ويصف نفسه بأنه إله، أَخْبَرَنَا سبحانه في القرآن أنه أعلم بصفاته منّا، وسبحانه لا يجد أمامه إلا المخلوقات التي خلقها هو، فما معنى القول عن غيره تعالى أنهم آلهة! هذا من ناحية ومن ناحية ثانية، نفهم من كلامه تعالى لنا في القرآن أنه لو كان في صفاته تعالى أي نقص، لما صحّ أن يكون هو إِلَهاً، لِأَنَّ صفة الألوهية لا تتحمّل أن يكون فيها نقص أو عيب ولا بأي شكل، أَصْلاً لو فيها هذا الخلل فلن يكون هناك إله، ويعبّر سبحانه عن ذلك في القرآن بالتسبيح، ويعتبر أن ادّعاء شريك له تعالى في الألوهية معناه أن صفاته تعالى فيها خلل.

بعبارة أخرى، لو كان هناك أكثر من إله لكان هذا نَقْصاً وَعَيْباً في إلوهيته تعالى، فلن يكون فريدا وحيدا أحدا في صفة الألوهية، وهذا لا يمكن أن يحصل، وكأنك تقول: هذه بناية ولكن من دون مواد. فهذا مستحيل، لِأَنَّ البناء مبني من مواد فكيف تصحّ الجملة أصلا وهل يمكن أن يحصل هذا؟ وكأنك تقول: أنا أنت وأنت أنا في كلّ شيء. هذا مستحيل ولا يصحّ، فإمّا أنه يوجد كائن واحد أو لا يصحّ أصلا هذا الكلام. ونفس الشيء بالنسبة للألوهية، فهو الله الإله يخبرنا أنه وبكل صراحة وفيما يراه ويتعامل معه سبحانه في السماوات والأرض، لَمْ يَرَ أَيَّ كائن آخر غير المخلوقات التي خلقها هو سبحانه، وكل نقطة في كل السماوات والأرض فهو الله تعالى يعلم بها ويتابعها، ولم ير أي قوّة أو تدخّل لِأَيِّ أَحَدٍ فوق قدرته هو سبحانه في أي نقطة.

يعني بكل صراحة وشفافية يخبرنا الله عزّ وجلّ أنه وبحسب معلوماته هو، والتي تمتدّ إلى كل ما في الدنيا، إنَّهُ سبحانه لم ير ولم يسمع ولم يلاحظ بتاتا أبدا وجود أي كِيَانٍ إلهي غيره هو، وغير سلطته هو، وكل من أمامه هم كائنات خلقها هو تعالى... ولو أطلت عليك ولكن هذا شيء كرّره القرآن كثيرا بتعابير مختلفة، طبعا هي تعابير لائقة ودقيقة غير تعابيري البسيطة.

من ناحية ثانية سبحانه أدرى بصفاته وطبيعته، ويخبرنا وبشفافية أنه من المستحيل أن يوجد كائن آخر مثله، فطبيعته تعالى والتي هو أدرى بها "استنتج" منها سبحانه استحالة وجود وعيين أو أكثر فيها، لِنَتَصَوَّرَهَا بالتقريب التشبيهي البعيد جدا عن الواقع ولكنه رُبَّمَا يَكُونُ مُفِيداً لتبسيط الفكرة، لِنَتَصَوَّرْ له تعالى مادة يتكوّن منها، ولتكن صورة ضبابية لِنَقُلْ إِنَّهَا نوع من الطاقة، علما أن هذا غير صحيح بتاتا فسبحانه ليس كمثله شيء، ولكن لنتماشى مع التصوّر الضبابي، وَلِنَقُلْ إِنَّ خاصية تكوينه تمنحه تعالى وعيا وقدرات فائقة منتشرة بالتساوي في كل نقطة من الطاقة، علما أنه تعالى لا حدود له، ولنتصور الطاقة كشيء كغمامة خيالية لها حدود، على أي حال لِنُكْمِلْ، فإذا كان تعالى مُنْتَشِراً وَاسِعاً مُحِيطاً في كل الدنيا من سماء الملائكة بتكوينها المختلف عن تكويننا وصولا إلى سمائنا، وفي كل نقطة منها وَعْيُهُ تعالى وقدراته متساوية، فأين سيكون الإله الآخر؟ ولو افترضت من الخيال وجود إله آخر بطبيعة تفوق طبيعة "الله" عزّ وجل، فقد تماشى "الله" عزّ وجل مع هذا الافتراض وأخبرك بكل شفافية أنه لم يلمس ولا أي أثر لذلك، فهل أنت الإنسان سيكون لديك القدرة على معرفة الإله الآخر، والله خالقك الفائق القدرات والصفات لم يعلم به؟ وترى هذا الكلام جليا في عدّة آيات منها الآية 18 من سورة يونس "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ"، وما ورد في الآية 33 من سورة الرعد "أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ".

نرجع لجواب النبي عيسى(ع): {مَا يَكُونُ لِي أَنْ}، ليس عملا من شؤوني حتى، {أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ}، فأنا لا حق لي في الألوهية فكيف سأقول للناس: من حقّي أن تجعلوني إلها!

تذكّر أن هذا السؤال مطروح في يوم القيامة وأمام الناس الذين ألّهوا السيد المسيح(ع)، وتذكّر من القرآن أن المؤمنين يكونون في حالة اطمئنان كامل وراحة تامة ولا ينزعجون من أي شيء في يوم القيامة، فهنا عندما يجيب النبي عيسى(ع) عن هذا السؤال، فهو غير خائف لأنه يعلم أنه لم يرتكب أي خطأ، فعندما يقول: ليس من الممكن أن أغلط وأقول عن نفسي أني إله، وأنا أعلم أني لست إِلَهاً، وأنك سبّوح فلوحدك إله... فعليك أن تتصور أنه (ع) غير منزعج ولا خائف، بل يجيب بكل راحة، ويجيب باستغراب وتعجّب ولكن بطريقة محترمة، لأنه يعلم أنه بريء وأنه تعالى لن يتهمه ظلما، ولكن يسأله تعالى أمام الذين عبدوه حتى يسمعوا، وحتى لا يبقى لديهم أي عذر، والأهم من ذلك هو إخبارنا سلفا عما سيحدث عبر نقل الآيات هنا لحدث من المستقبل من يوم القيامة وما بعده، وَهِيَ تنبيه للمسيحيين الآن حتى يتوقفوا عن تأليه السيد المسيح وأمه عليهما السلام.

نرجع لكلام النبي عيسى(ع): {إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ}، فلو قلت هذا الكلام وأنا في الدنيا، {فَقَدْ عَلِمْتَهُ}، لكان لديك سبحانك علم به.

{تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ}، فأنت يا ربي تعلم كل شيء، فلن يخفى عليك إن كنت ادّعيت الألوهية، وتعلم كل شيء لدرجة أنك تعلم حتى ما في نفسي ما في داخلي من أفكاري وأحاسيسي ومشاعري، أمّا أنا فلا أعلم أي شيء عنك إلا ما تخبرني به.

{إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}، فكل الأمور الغائبة أنت فقط تعلمها. وكلمة علاّم يسمونها في تصنيف اللغة العربية: صيغة مبالغة. فعندما تريد المبالغة في وصف شخص ما بأنه كثير العلم، تَقُولُ: علاّمة. وهنا النبي عيسى(ع) يستعمل تعبيرا يدل على أنه تعالى لا يعلم فقط ما في نفسه (ع) بل عَلَّامٌ فيعلم كل الأشياء أينما كانت وفي أي زمان كَانَتْ.

(مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ{117})
نُكْمِلُ مع جواب النبي عيسى(ع):

{مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ}، هَؤُلَاءِ الذين ألّهوني أَنَا قلت لهم: {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ}، تَصَرَّفُوا على أساس أَنَّهُ مَفْرُوضٌ عَلَيْكُمْ طاعة صاحب هذا الاسم المحدّد المميز، {رَبِّي وَرَبَّكُمْ}، المسؤول عنّي وعنكم من مستوى إلهي، وَأَبَداً لم أقل لهم أن يُؤَلِّهُوا غيرك.

تَذَكَّرْ أَنَّ النبي عيسى(ع) غير خائف ولا منزعج أَبَداً.

{وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً}، كنت أنا أشهد ما يَفْعَلُونَهُ، {مَا دُمْتُ فِيهِمْ}، فأنا في حياتي لم آمرهم بعبادتي وَتَرَكْتُهُمْ وهم لم يعبدوني.

{فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي}، أَخَذْتَ نفسي تماما من الحياة، وفارقت حياتي جسدي بالكامل، {كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ}، فأنت سبحانك كنت المراقب لهم، وَلَمْ تغفل عن أفعالهم وأقوالهم، حَيْثُ كُنْتَ ترى ما يفعلونه وأنا لا أرى شيئا لأني غادرت عالمهم.

{وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}، لِأَنَّكَ تشهد بالرؤية والسمع والانتباه لكل شيء، وَلَا يحصل شيء من دون أن تعلم به، وعلى هذا الأساس تعلم أني لم أقل لهم أَنْ يُؤَلِّهُونِي أو أَنْ يُؤَلِّهُوا أمي.

لاحظ وانتبه من أول الكلام مع النبي عيسى(ع) إلى هنا، حَيْثُ تعطي معنى أنه (ع) حين تُوُفِّيَ تَوَقَّفَتْ معلوماته عن الناس، وَلَا يَعْلَمُ ماذا فعلوا أثناء موته. وهذا الكلام يأخذنا للسؤال عن عقيدة المسيحيين الذين يدعون النبي عيسى(ع) وأمّه (ع) كأنهما يسمعان الدعاء، ومن هنا نذهب إلى المسلمين الذين يتوجهون بالدعاء والطلب... لأشخاص ماتوا ويعتبرونهم قديسين. إنْ كان الرسول عيسى روح الله المسيح توقّف عن تلقّي المعلومات عن الناس بعد وفاته، فما معنى اعتقادنا بقديسين آخرين لا يزالون يتلقون المعلومات؟ وهنا الكلام واضح لِأَنَّهُ ليس عن نفي الصفة الإلهية عنه(ع) باستقبال المعلومات بقدرة من مستوى إلهي بل عن عموم نفي صفة استقبال المعلومات بعد مماته.

أرجو أَلَّا تستحضر بقاء المقتولين في سبيله تعالى أحياء لتقول إنَّ الرسل يبقون أحياء بعد مماتهم وينتقلون إلى ما يسمّيه الناس بعالم البرزخ في الدنيا... لِأَنَّ هَذَا لا علاقة له بما نسأل عنه هنا، حَيْثُ إِنَّ الكلام عن متابعة الأموات لأحوال الأحياء، وكما ترى بِكُلِّ وضوح لم يتابع النبي عيسى(ع) أحوال المنتسبين لدينه، ولا قدرة له على ذلك.

مِنْ هذا الكلام سأتعرّض لهجمة شرسة من مقدسي الأموات، وهي نفس العقلية والنفسية كردّة فعل من المسيحيين الَّذِينَ سيرفضون ما تقوله الآيات القرآنية عن المسيح إلههم الذي يعبدونه ويستجيب لهم... ولديهم أطنان من الأدلة على ذلك من نُذُورٍ تحققت، وأدعية استجيبت، وشفاء للمرضى... ورؤيته (ع) في المنام... وكل ذلك لا مستند قرآني له، بل معارض لما تقوله آيتنا هنا صراحة، بل معارض لعشرات الآيات التي حصرت علاقة الدعاء والنذر والطلب... له تعالى، لِأَنَّ التَّوَجُّهَ للقديسين تراث شعبي ديني أقحمه الناس في دينه تعالى ليصير هو الدين... وكذلك نحن المسلمون تُرَاثُنَا الشعبي الديني مشحون بما لا يمكن معارضته بسبب تشرّب ثقافتنا الدينية به، وبسبب التأويلات الباطنية لكلام القرآن حتى يدل على مَعَانٍ اخترعوها وتناسب هواهم المخالف لظاهر ما يقوله القرآن.

(إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{118})
{إِنْ تُعَذِّبْهُمْ}، إن تجعل الذين ألّهوني وألّهوا أمي يتعرضون لضرر وسوء، {فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ}، هُمْ عبيدك لِأَنَّهُ مَفْرُوضٌ منهم طاعتك وَعَصَوْكَ فَيَسْتَحِقُّونَ تعذيبك لهم، وَهُمْ ليسوا عبيدي ولا أنا إله وبالتالي أنا لست إلههم حتى أقرّر مصيرهم.

{وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ}، إنْ تتجاوز عمّا فعلوه فَهُمْ عبيدك أيضا والقرار بيدك لا بيدهم ولا بيدي ولا بيد غيري، {فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ}، أنت الموصوف بكل ما تحمله كلمة عزّة من معنى، لِأَنَّكَ تفرض ما تريده على الآخرين ولا يفرض عليك الآخرون أي شيء، ومن هذه العزّة التي لديك أَنْتَ سبحانك تأمر بما تشاء، غُفْرَاناً أو تَعْذِيباً.

{الْحَكِيمُ}، رَغْمَ قدراتك الفائقة التي لا يمكن لأي أحد معارضتها حتى لو كانت ظالمة، لن يكون قرارك ظالما أو عبثيا أو عن تسلية، فإذا غفرت فعن حكمة، وإذا عذّبت فعن حكمة أيضا. وكلمة حكمة ومشتقاتها تشير لعموم ضبط الشيء على المطلوب: على الصوابية على الحقّ... ووصفه تعالى بالحكيم يشير لرؤيته تعالى الصوابية في الأمور وأن قراراته وأفعاله كلها على الصوابية، لَا يعبث ولا يلعب لِأَنَّ قَرَارَاتِهِ وَأَفْعَالَهُ كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول إنَّ أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، لَا يفعل لغاية له سبحانه، وكمثال عن ذلك السؤال عن سبب خلقه تعالى لنا، من ناحيته تعالى لماذا خلقنا. لا جواب على هذا السؤال في القرآن لأنه تعالى لا يفعل لغاية بل لحكمة ورحمة...

كما لاحظت أَنَّ النبي عيسى(ع) لا يطلب منه تعالى تخفيف العذاب عن الذين ألّهوه وألّهوا أمّه، بل ينقل سبحانه لنا كلام نبيه حتى نعلم أن النبي لا قرار له، وَلَا يمكنه مساعدة الذين أشركوا، وأيضا حتى نعلم أنه أصلا لن يطلب الشفاعة لهم، لأنهم ارتكبوا أكبر جريمة، وهي الشرك بالله تعالى.

بعبارة أخرى، هناك من بضبابية يتصوّر أن تقرّبه من قدّيس ما حتى لو كان بشكل مبالغ فيه فوق الحدّ المقبول، حَتْماً سَيَنْتُجُ عن هذا التقرّب فائدة ما، حَيْثُ سَيَأْخُذُ القدّيس بعين الاعتبار هذه المحبة الفائضة الضخمة ويتغاضى عن المغالاة فيها... ويتدخل لمصلحة المغالين... لا. وبضبابية بعضهم يتصوّر أنه تعالى ولشدّة محبّته للقديس، سَيَغْفِرُ للمغالين بل سَيَعْتَبِرُ مغالاتهم شيئا جيدا! لا.

(قَالَ اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{119})
قال الله تعالى: {هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ}، ففي زمن يوم القيامة وما بعده "الذي تحدث فيه هذه المحاورة" هُوَ الزمن الذي ينتفع فيه الصادقون الذين لم يكذبوا على الله تعالى، حَيْثُ سَيَنَالُونَ ثوابا لأنهم لم يكذبوا عليه تعالى، مثل حالة النبي عيسى(ع) الذي لم يكذب وقال كل الصدق حين كان في الدنيا، ومثل حالة المؤمنين الذين لم يكذبوا عليه تعالى فلم يجعلوا له شركاء، ولم يقولوا إِنَّهُ سبحانه قال لهم أن يأمروا الناس بتأليه غيره... يعني سيتعذّب الذين "كذبوا" حين جعلوا لله تعالى شركاء، وسيفوز الذين صدقوا.

{لَهُمْ}، للصادقين، {جَنَّاتٌ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها بمناظرها الطبيعية الخضراء، ففيها بساتين وحدائق وما يسبّب البهجة، {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، نَهْرٌ هنا ونهر هناك من مختلف الأنواع والألوان وَالطُّعُومِ، فهي منتشرة ومتوافرة أينما ذهبت، {خَالِدِينَ فِيهَا}، لا يموتون ولا يفنون في تلك الجنات الرائعة، ولا هي تخرب... {أَبَداً}، مهما طال الزمن.

تَذَكَّرْ دائما أن التوصيف بجريان الأنهار من تحت الجنّات لا يشير لكونها منطقة مستنقعات، لا، بل يشير لروعة مناظر المياه الجارية من هنا وهناك وفوقها وعلى جنباتها الخضرة...

كما تشعر الآن بأنك ضعيف أمام الحوادث والأمراض، وَتَشْعُرُ بأنك ستموت يوما ما، فهناك سيشعر أهل الآخرة بأنهم لن يموتوا، حَيْثُ سَيَشْعُرُونَ بالخلود بجسد لا يصيبه ضرر ولا أذى ويشعر بالسعادة مهما حصل به... وهذا الشعور لوحده رائع وبخاصة عندما يعلمون أن الأشياء التي تفرحهم في الجنة هي دائمة ومتجددة...

{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ}، لِأَنَّ أعمالهم أصلا التي قاموا بها في الدنيا كانت مقبولة عنده تعالى ومحبوبة ونفس الرضا سينتقل للآخرة، ففي الجنة لن يراقبهم ليحاسبهم سبحانه، ولا يوجد أصلا في الجنّة محرمات أو ممنوعات، فمهما فعلوا في الجنّة فسبحانه دائما راض عنهم.

{وَرَضُوا عَنْهُ}، فالمؤمنون راضون وَيَقْبَلُونَ بمحبّة ما فعله تعالى لهم، فلا يعترضون على ما يجدونه في الجنّة ولا يوجد ما يزعجهم، لأنها أكثر مما يتوقعون بكثير، وأكثر مما يستحقون بكثير، ولأن من يدخل الجنة لن يفكّر ولو للمحة بالخروج منها للحصول على شيء آخر من خارجها، كَمَا ورد ذلك في الآية 108 من سورة الكهف "خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا"، لأنه لن يشعر فيها بالملل ولا بالضجر ولا بالتكرار... بل سيشعر دائما أبدا بالرضا عنه تعالى الذي منحه الخلود في الجنة الرائعة.

{ذَلِكَ}، الدخول للجنة والرضا الإلهي ورضا المؤمنين بما حصلوا عليه، هو {الْفَوْزُ}، هو الحصول على شيء له قيمة، {الْعَظِيمُ}، الكبير الضخم، فلا يوجد أضخم ولا أروع منه.

ما معنى الرضا على المكروه؟

نتذكّر دائما أن كلمة رضا ومشتقاتها، معناها في كلام العرب وفي القرآن: وصف شعور كتعبير عن القبول وانتفاء الاعتراض بل بالعكس فهو الموافقة المتدرجة من السرور إلى الحبّ عن فعال أحد ما، والوصف يشمل شعورك على العمل أو على صاحب العمل. وَهِيَ ليست وصفا لقبول شيء مكروه، لِأَنَّ هَذَا وصفه الصبر، حَيْثُ في أدبياتنا نجد كلاما عن الصبر على المكروه، وأن الرضا بالمكروه أعلى من الصبر، وهذا معنى لم يستعمله القرآن في كلامه، ومخالف للمعنى اللغوي لكلمة رضا، ويحمل في طياته معاني أخرى مرفوضة إذا قارنتها مع مفاهيم القرآن، إِذْ سُبْحَانَهُ لا يخصّص "من عنده" مكروها لمؤمن حتى يكون إيمانه عاليا بالرضا عليه، لِأَنَّ أَيَّ مكروه غير محبوب يحصل مع المؤمن فهو بسبب ذنب ارتكبه المؤمن أو ذنب ارتكبه غيره، وليس منه تعالى أبدا بَتَاتاً وَهَذَا واضح من عموم كلام القرآن ومنه الآية 30 من سورة الشورى "وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ".

نعم لا مشكلة بالتهاون في معاني الكلمات في الأدبيات التي بيننا إلا إذا كانت تعبّر عن شيء ديني منسوب له تعالى، فالقرآن دقيق في تعابيره ولا يتهاون أو يتساهل في معاني الكلمات التي يستعملها، وعندما نتهاون نحن ويصير للكلمات معان نظنها من مفاهيم قرآنية، وعندما تترسخ هذه المعاني المتراخية للكلمات في ذهننا، فعندها سنقع في مشكلة تفسير كلام القرآن على أساس المعنى والمفهوم الذي أصلا تراخينا فيه. ولدينا كم هائل من الآيات التي تصف روعة الجنّة وأن من يدخلها سيبقى مذهولا بروعة ما فيها أبدا، بلا ملل ولا أي رغبة في شيء آخر، فكل ما يرغب به يجده في الجنّة، بل يجد فيها ما لا يخطر على باله... وكمثال جامع لذلك ما ورد في الآية 108 من سورة الكهف "خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا" فهو راض بها، وراض عنه تعالى، وهذا هو معنى كلمة الرضا لغويا وهكذا استعملها القرآن، وهي لا تتحمّل ولا تتوافق مع ما درج في أدبياتنا عن الرضا على شيء مكروه، والذي سيعني ضمنا احتمال حصول شيء مكروه في الجنّة، ورغم ذلك سيرضى عنه المؤمن، لا، فانتبه دائما من ذلك.

(لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {120})

{لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وكما تملك أنت سيارتك وبيتك وهاتفك... ويمكنك أن تفعل بها ما تشاء، ومع الفارق الهائل، صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" سبحانه منسوب له ملك السماوات والأرض، وهذه هي كل دنيا المخلوقات، وما سبق من كلام عن قراراته تعالى بتخليد الكافرين في النار وبتخليد المؤمنين في جنّة رائعة، يمكنه تعالى تنفيذ قراره وتحقيقه بدليل هذه الضخامة الهائلة لملك الدنيا المنسوب له، لأنها انعكاس لقدراته، وبالتالي سهل عليه تعالى فعل ما يقوله عن الآخرة والجنّة والنار.

{وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، حيث يمكنه أن يفعل أي شيء يريده بأي شيء، وأخبرنا أنه سبحانه أراد جعل الصادقين خالدين في جنات رائعة، مما يعني أن هذه الأمور ستحصل حتما، ولن يعجز سبحانه عن تحقيق كلامه، وتلمس دليل ذلك في خلقه تعالى لهذه الدنيا الهائلة الضخامة والتقانة والتفاصيل.

نحن البشر نطلق اسم {السماء} على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضا على قبّة النجوم التي نراها ليلا، ونطلقه أيضا على عالم الملائكة (عليهم السلام)، ونطلقه معنويا على {الجنّة}... لذلك ضع في بالك دائما أن التعبير بـ {السماء} يشير لعموم ما علا "معنويا" أو من فضاء أو غيره، ويقابله {أرض} لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول {سماء} لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها {أرض}، وهذا لا يعني أن {الأرض} ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي {أرض}، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...} وهي إشارة إلى وجود سبع أَرَضينَ مقابل سبع سماوات، ولم تقصد وجود {أرض} "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كل {سماء}، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع، ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو {أرض}، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضا بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر وهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراض.

عادة نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير ونستبدل تعبير {السماوات والأرض} بـ {الدنيا}، ونقول: خلق سبحانه {الدنيا}. ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيرا صحيحا دقيقا بالنظر إلى معنى كلمة {دنيا} التي تُوَصِّف الدُّنُوَّ بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل {الآخرة}، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى}.

سورة الأنعام (6) ص 128

ترينا السورة وقوعنا تحت قدرته تعالى في تصميمنا وتصميم بيئتنا وخِلْقَتِنَا وخِلْقَةِ بيئتنا كآية واضحة جدا ولها تفاصيل متنوعة كثيرة، وهي آية من آياته المتنوعة تعالى لهدايتنا للوصول إلى نتيجة الإيمان به وبرسله وكتبه... وفي مقابلها هناك من يكفر بدلالة أوضح آية، وهي وقوعه بشخصه تحت تصميم وخِلْقَةٍ قرّرها تعالى، ويكفر بمختلف الآيات الأخرى، مقترحا آيات أخرى يراها أنسب، ويقول إنها لو حصلت لآمن، وتصفه بداية السورة بـ {الممتري} {العادل} عن الكلام الحقّ {المعرض} عنه {المستهزئ}... بالآيات.

تتناول السورة نماذج من مختلف أصناف وأنواع الآيات الإلهية، وبالخصوص التي تشير لفرض قدرته تعالى علينا، مع التصريح بوصفه تعالى بـ {القاهر}... وتريك في مقابلها نماذج عن الآيات التي اقترحها الكافرون لترى أنها في أساسها اقتراح على الإله عزّ وجلّ وكأنهم أذكى وأعلم منه سبحانه! وتبين لنا السورة فساد اقتراحاتهم، وتعرض آياته تعالى ذات الدلالة الأكثر من كافية لنؤمن، بل بالتحديد هي أكثر من كافية لمن يريد أن يؤمن، وترى ذلك صراحة في نقل كلام الكافرين من عالم الآخرة في محاولة تبريرهم لأنفسهم أنهم لم يقصدوا الكفر... وتنقل لك طلبهم لفرصة ثانية ليؤمنوا ويعملوا الصالحات...

خلال ذلك تركّز السورة على الخطر الحقيقي الذي ينتظر هؤلاء الناس بمصير سيئ جدا في الآخرة، بينما هم سارحون بتعليقاتهم واعتراضاتهم وأفكارهم واقتراحاتهم...

تركز السورة على النموذج "إبراهيم" الفتى اليانع في مقابل الكبير في السنّ "أبيه" العابد للأصنام بلا أي دليل يقبله العقل، لتعرضه (عليه السلام) كنموذج عن أرقى ما يمكن لبشري الوصول إليه إيمانيا من مجرد اتباع الفكر والنفسية السليمة، وأنه سيرى العقيدة الصحيحة لوحده، فسيؤمن بإله واحد أحد، وسيرى الكثير من صفات الإله عبر الآيات التي فيه وفي بيئته... وكل هذا سيحصل بدون أي وحي ولا أي شيء آخر استثنائي كآية "مما نسميه بالمعجزة"، لأنه أصلا يرى كل شيء فعله تعالى كآية استثنائية...

تعرّج من بعد إبراهيم (عليه السلام) إلى ذريته التي مرّ فيها راقون إيمانيا من الدرجة العالية جدا، بل من بين كل البشرية انحصرت هذه النوعية العالية في ذريته (عليهم السلام)...

خلال ما سبق تعرض السورة إشارات للكتب التي أنزلها تعالى كآية استثنائية مميزة جدا جدا، ودلالتها بكلام واضح على دينه تعالى كطريق مساعد مقوّم لفكرنا ولنفسيتنا حتى نتجّه باتجاه الحقّ...

من بعدها تتناول السورة نُتَفًا من متفرقات عن نفسية وفكر الكافرين في مقابل آيات إلهية متنوعة تدفعهم باتجاه الإيمان بينما هم مصرّون على الكفر.

بعدها تنتقل السورة مما نسميه بالعقيدة إلى الشريعة والسلوكيات، عارضة نموذجا بارزا واضحا عن الفرق بين تشريعه تعالى المبني على الإيمان به وبين نماذج عن تشريعات وسلوكيات اخترعها الناس من دون مستند إلهي، وهي تشريعات وسلوكيات فاسدة ولا عقلانية فيها، كمحاصصة آلهتهم لله تعالى في نذور وقرابين الذبائح... وكتحريمهم على النساء الأكل من بعض الذبائح... وفي قتلهم لأولادهم...

بعدها تعرض السورة دفعة من أمهات عناوين التشريعات التي يأمرنا تعالى بالالتزام بها، لنرى حُسْنَ وعقلانية ما يأمر به تعالى.

بعدها تعيد التركيز على أهمية الكتب الإلهية، وأن فيها ما نحتاجه لنؤمن... طبعا هذا الكلام موجه بالخصوص للذين يقترحون عليه تعالى ليؤمنوا، فهم يريدون آيات غير التي أتاحها تعالى لهم فيما خلقه فيهم ومن حولهم، وغير كتبه ورسله، وغير وضوح عرضه تعالى علينا الحقّ والصلاح والتهديد بالعقاب على الكذب والسوء... فهذا لوحده أكثر من كافٍ لنا للإيمان بكلام الصدق الصادر عنه تعالى، والتزامنا بشريعة وسلوكيات الصلاح التي يأمرنا بها تعالى.

تلاحظ أن السورة قفزت عن الذي لا يؤمن بأي إله وهذا نسميه اصطلاحا بـ {الملحد}، حيث اعتبرت دلالة الآيات الإلهية حتمية للانتباه للإله، فهذه قابلية زرعها تعالى فينا ليسهل تعرّفنا عليه سبحانه، وبالتالي فإن القرآن عموما يعتبر "الملحد" كاذبًا وكاذبًا حتى تمرّس على إنكار الإله فانطبع فكره ونفسيته على ذلك وصار يراها حقيقة، فقفزت عنه وركّزت على مشكلة الذين لسبب أو لآخر أفسدوا فكرهم ونفسيتهم ليؤمنوا بآلهة متعددة. أما بالنسبة للكلام من الصفر مع ملحد، فعموم السور التي قفزت عنه ووجهت كلامها للمشرك، فهي ضمنيا بردّها على عقيدة وشريعة وسلوكيات المشرك، تردّ على الملحد، ولكن هناك سور فعلا بدأت من الصفر مع الملحد، كسورتي الجاثية والواقعة، ومعها سورة الرعد، فهذه السور كلامها مناسب للمشرك وللملحد.

نلاحظ في السورة هنا ورود كلمة {صَدَفَ} ومشتقاتها أربع مرات ولم ترد في بقية القرآن إلا {صَدَفَيْنِ} في الكهف لتوصيف ردم يأجوج ومأجوج.

أما بالنسبة لدراستنا هذه التي حاولت فيها إظهار موضوع كل سورة ومحورية كلامها، فهذا باب طرقه الكثيرون من قبلي، وكانت نسبة النجاح عالية لبعضهم في السور القصار، وتقل نسبة النجاح كلما طالت السورة، وتميّزت دراستي هذه بنسبة نجاح أعلى، والحكم لك بذلك، ولكني أعترف لك بشيء ليكون تقويما للمنهاج الرصين لدراسة القرآن لك ولمن سيأتي بعدنا، حيث في بداية دراسة كل سورة كنت ألتقط بعضا من محورية كلامها، وأسجله، وبعد تراكم معلومات عن بقية محاور السور، فإن هذا يفتح لك آفاقا جديدة عن مواضيع لم تكن ملتفتا لها، وعند مراجعة الدراسة من أولها تصير النظرة لمحورية كل سورة أدق، وهكذا كلما تكررت المراجعة كلما تركّزت النظرة أكثر... حتى إن العديد من النتائج النهائية وبسبب دقّتها صارت بعيدة عن أول ما سجّلته من ملاحظات عن محورية كلام السورة.

أمّا أسباب وضوح مواضيع بعض السور، وغموض الأخريات، فأسبابه عديدة، منها أن السور القصار غالبا أسهل في حصر موضوعها على الذهن، فتقرأها وبثوانٍ تستحضر معانيها... أمّا الأطول فتشعبات متعلقات موضوعها تجعلك أحيانا تفقد البوصلة.

من ناحية ثانية، مواضيع السور الطويلة والتي قد تبدو كلها متشابهة لأول وهلة، ثم بعد دراستها تبدأ برؤية فروقات ولو بسيطة بينها، ولكنها تبقى متقاربة، والسبب أن بعض المواضيع لا ترى لها أهمية لأنك أصلا تعتقد نفسك مؤمنا بها، فلن تراها، ولن تنتبه لها.

بعض المواضيع خارج نطاق معرفتك، فهي تتحدّث مع نوع من المشركين، أو في موضوع ما مع المشركين، وهذا لا يعني إلغاء أهمية السورة لك لأنك مؤمن، لا، فما يقوله المشرك قد يخطر ببالنا هو نفسه أو شيء قريب منه، ونسمعه

من الآخرين ونريد جوابا عليه، لا لِنُقْنِعَهُم بدينه تعالى، فهذا يجب أن يكون ثاني همومنا، بل لتنزاح عن أفكارنا ونفسيتنا أي لطخة سواد تفسد إيماننا.

هناك كلام كثير حول هذا الموضوع وأطلت عليك، وأهم ما أريد قوله إن هذه الدراسة ستتعرّض لانتقادات، بعضها حتما محقّ وبعضها سيكون ظالما... والظلم أنواع، فربما خانني التعبير ولم يفهمني، وربما فهمني ولكنه متعلق بتراث ديني أو بأفكار خاصة به، فرفض صريح القرآن وتعلّق بتراثه... وربما لم يقدّر المجهود الذي أقدمه للجميع كبذرة لتحسين دراسة القرآن، فظنّ أني أطرح دراستي مُقَدّسًا لكلامي، فما قد يبدو لك صلبا من كلامي بثقة عالية على صحّته، فهذا مجرد وهم، لأننا أمام كلام الإله عزّ وجلّ، ونستكشف كلامه كما نستكشف أي آية أخرى، ونتعمّق ونتعمّق... وكلما زادت المعطيات وتهذيب الدراسات وكلما زاد هدانا فالنتيجة زيادة في وضوح الرؤية... فما تراه هنا هو مستواي الفكري والنفسي المنعكس على مستواي الإيماني، وسيأتي من هو أفضل مني، ليقدم دراسة أفضل، وأرجو أن أكون بدراستي هذه قدّمت له مهادا متقدّما متطوّرا عن الدراسات السابقة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ{1})
{الْحَمْدُ لِلّهِ}، أعمال صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" سبحانه كلها موصوفة بأنها حميدة، كلها جيدة، {الَّذِي خَلَقَ}، الذي ركّب وألّف، {السَّمَاوَاتِ}، وهنّ سبع سماوات، و{الَّذِي} خلق، {الأَرْضَ}، التي نعيش عليها كآخر أرض بالنسبة للسماوات وبالنسبة لمن تتحدّث معه الآية "للإنسان" وتشير لما يقف عليه.

التعبير بـ {السماء} يشير لعموم ما علا "معنويا" أو من فضاء أو غيره، ويقابله {أرض} لعموم ما كان تحت، ولا يصحّ أن تقول {سماء} لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها {أرض}، وهذا لا يعني أن {الأرض} ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي {أرض}، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...} وهي إشارة إلى وجود سبع أَرَضينَ مقابل سبع سماوات، ولم تقصد وجود {أرض} "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كل {سماء}، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو {أرض}، وكوكبنا الترابي أرض بالنسبة لسمائنا، ومثله سطح القمر فهو أرض لسمائنا، وسطح المشتري الغازي أرض لسمائنا... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراض.

التعبير بـ {السماوات والأرض} يشابه قولنا: كل شيء، كل ما في الدنيا. وهو تعبير آخر عن خلقه تعالى لكل شيء، وهذا عمل حميد لذا يوصف بالحمد من فعله.

و{الْحَمْدُ لِلّهِ} تعالى {الَّذِي}، {جَعَلَ الظُّلُمَاتِ}، العتمات، وجعل، {النُّورَ}، الانكشاف والوضوح، والنور هو أي انكشاف أي وضوح صحيح، وكُلُّهُ يكون واحداً، ولا يوجد نور من أنواع مختلفة، وبالنظرة القرآنية المعنوية لنور الشمس، نور النهار، نور الإيمان ونور البصيرة... كُلُّهُ انكشاف لما أمامك، حيث يوجد نور قوي ونور خفيف ولكن كُلُّهُ نور، وهذا ما نستنبطه من استعمال القرآن لكلمة {نور} بالمفرد، لأن الحقّ واحد، والمعلومات الصحيحة عنه تعالى وعمّا فعله وسيفعله، والتي نسميها بالعقيدة، فإن المعلومة الواحدة منها في مسألة ما هي معلومة واحدة، والتشريع الصالح أيضا هو الصلاح في كل موضوع لوحده، وهكذا يكون وصف {النور} "الحقّ، الصلاح، الهداية..." واحداً. ومن استعمال القرآن لكلمة {ظلمات} بالجمع، نرى أن الليل عتمة وظلام، وعمى العينين وعمى القلب وعمى الضلال... كُلُّهُ يعني غياب انكشاف الأمور، وعبّر القرآن عنها بأنها أنواع كثيرة لها مصادر مختلفة ومتشعّبة بشكل مختلف، ففي مسألة الإيمان به تعالى فإن توحيده مسألة حق وواحدة، بينما الشرك متنوّع من تأليه الأصنام لتأليه الملائكة... لذلك هي {ظلمات}.

سنرى في بقية السورة بِضْعَ وقفات مع {الظلمات والنور}، وسنلاحظ تَضَمُّنَهَا معنى حرية الإرادة التي منحها تعالى لنا، وتنوّع مفاهيم الأمور، الإيمان والكفر، البصيرة والعمى... وهكذا ترى آيتنا هنا تشير إلى المكان والفضاء وما فيه من كائنات بتعبير {السماوات والأرض}، وتشير لمعنى هذه الدنيا بتعبير {الظلمات والنور}، فلو كانت كل الكائنات بلا قدرة على تمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، ولو كانت كلها فاقدة للإرادة ولحريّة الاختيار، لما كان هناك أي معنى من خلق أي شيء، وستتحرّك الكائنات كالآلات بلا أي معنى... وحتى قراءتك لهذه الأسطر ستكون بلا معنى،

وأصلا أنا لن أكتبها وأنت لن تقرأها إلا إذا تبرمجنا على فعل هذا الشيء من دون أن يكون لنا أي إرادة في فعل أي شيء، ولكن إدخال مفهوم {الظلمات والنور} يشير إلى الصالح والفاسد، الصحّ والخطأ، العدل والظلم، الحكمة والعبثية... وترجمة ذلك من الوعي والفكر المدعوم بحرية الإرادة التي جعلها تعالى فينا لنتعامل مع الأمور من نظرة {الظلمات والنور}، الخير والشرّ، وهكذا يصير الحمد له تعالى مُتَرْجَمًا عبر الكائنات التي تميّز الخير من الشرّ ولديها حرية إرادة لتحمده عن قناعة.

بالنسبة لموضوع السورة فالكلام عن نور الآيات الإلهية الهادية، وعن ظلمات الكفر بها بسبب العمى الذي نشأ من قرار التعامي عنها...

{ثُمَّ}، بعد هذا الخلق والجعل الذي بكل وضوح يشير لحمده تعالى، {الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}، {الَّذِينَ} أنكروا فلم يؤمنوا بالمسؤول عنهم من مستوى إلهي {يَعْدِلُونَ} "كما نقول عدل عن الطريق، عدل عن رأيه..." ويميلون عن شيء بربهم سبحانه ولا يبقون عليه، وهنا الكلام عن عدلهم عن ميلهم عن حمده تعالى، فَبَدَلَ حمده تعالى على خلقه لكل شيء وبدل حمده تعالى على جعله {الظلمات والنور}، فهم كفروا وأنكروا حمده تعالى ويميلون إلى أمور أخرى، ويذهبون إلى الكفر بالشرك به وإنكار فضله...

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ{2})
{هُوَ}، الله سبحانه، {الَّذِي خَلَقَكُمْ}، ركّبكم وألّفكم، {مِنْ طِينٍ} من تراب معجون بالماء، وهو التعبير القرآني عن خلقنا من المواد التي على الأرض، من كربون وكالسيوم وماء... {ثُمَّ قَضَى}، ثم سبحانه قرّر وحتم، {أَجَلًا}، وقتا محددا، {وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ}، وقتا محددا مُسَمًّى سلفا وبدقة عنده تعالى، فلا أحد غيره سبحانه يعلمه أو يتدخّل به، فهو فقط عنده تعالى مُسَمًّى، وفقط بالنسبة له تعالى معلوم بدقة. حيث سبحانه قرّر فيما قرّر تحديد موعدين، فللناس موعد أوّل لموتهم في الحياة الدنيا وهذا أول أجل، وموعد آخر لخروجهم إلى الحياة في عالم الآخرة وهذا هو الأجل المسمّى عنده تعالى والذي لا يعلمه غيره.

نحن أحيانا نعرف متى سيموت فلان بسبب المرض، أو لأنه محكوم بالإعدام... وهذا الأجل لموته محدد سلفا عند الله تعالى، ولكن "أحيانا" يمكننا معرفته نحن أيضا، ولكن الأجل الثاني مِنَ الطبيعي أن يكون الله تعالى وحده فقط يعلم متى سيحصل يوم القيامة، لأن الدنيا ستتبدّل وبعدها تأتي الآخرة، فحتى الملائكة (عليهم السلام) ليس لديهم القدرة على استيعاب التبدّل الذي سيحصل لمعرفة توقيته... ولديهم (عليهم السلام) "ولدينا بشكل مختلف" تقدير لذلك ولكن ليس لديهم تفصيل حقيقي عنه، وراجع في ذلك الآية 15 من سورة طه {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى}.

{ثُمَّ أَنْتُمْ}، أيها المخلوقون من طين، والمحكومون بخلقتكم وبهذين الموعدين، ثم أنتم {تَمْتَرُونَ}، حيث أمام حقائق ناصعة واضحة تقولون كلاما تافها سخيفا.

بعد الدخول في السورة سترى أن الآية هنا تطرح سؤالا: كيف خُلِقْتَ أيها الإنسان؟ ألست مركبا من طين، فكيف صرت هكذا؟ وهل لوحدك أو بالصدفة أو من لا شيء أو من الحائط خرجت... مِنَ الواضح البديهي جدا جدا أن أحدا ما صمّمك وخلقك، وهو إلهك، وها ترى بقيّة أفعاله بخلق الدنيا بكائناتها وظواهرها. فما معنى كفرك به؟ وشركك به؟ ورفضك الإيمان بآياته...!

ألست تموت؟ فمن حدّد موعد موتك؟ إن أي شيء يحصل له سبب، وبالنظرة البسيطة لمسار أي شيء، سترى له مصيرا، ودائما هناك من قرّر المصير فحرّك الأشياء... ونحن لسنا مختلفين عن بقية الأشياء، وها نحن مصيرنا الموت، فمن قرّره لنا؟ إن الكلام هنا ليس عن تفاصيل كيفية حدوث الموت لكل واحد منّا، بل عن حتمية حصوله مع كلّ واحد منّا، ومن الواضح أن هذا القرار مأخوذ من فوق، من الإله، وهكذا ترى نفسك مَحْكُومًا له تعالى فكيف تنكره أو تنكر آياته ولا توحده؟

ما معنى خلق ما في الدنيا وخلقك فيها بحرية إرادة واختيار ومشحونا بغرائز وشهوات وأحاسيس... وقدرة على تمييز الظلمات من النور، وتوافر اختيارك للخير والشرّ، فما معنى ذلك لولا وجود حساب عليه؟

أيضا ترى عمق الكلام بنظرتك إلى أي حركة أو مسار أو أحداث... لها مصير، ولها سبب لحصولها، فترى السيارة وتعلم أنها مصنوعة للنقل، وبعد تعطّلها ندوّرها لاسترجاع المواد الأولية منها... وأنت كائن مخلوق بإرادة وترى الخير والشرّ... فلماذا أنت مصنوع بهذه الصفات وفي هذه البيئة؟ مِنَ الواضح أن على ما ستفعله حِسَابًا، وها يخبرك إلهك منذ آلاف السنين عبر رسله أنه قرّر لك عودة ثانية إلى الحياة ليحاسبك، فإن أنكرتها فأنت تنكر ما هو واضح من كيانك وصفاتك التي لها مصير من الواضح أن إلهك قرّره...

(وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ{3})
{وَهُوَ اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز له عزّ وجلّ، {فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ}، وهذا التعبير يشابه قولنا: في كلّ الدنيا. وراجع الآية ما قبل السابقة لمزيد من الشرح عن التعبير بـ {السماوات والأرض}، فهو سبحانه الإله الواحد الأحد، لا يتغيّر، ولا يَتَجَزَّأ، وبتعبير نتساهل فيه نقول أنه تعالى في كل مكان، علما أن هذا التعبير غير دقيق لأنه تعالى ليس له جسم ولا مادة حتى نقول أنه هنا أو هناك.

{يَعْلَمُ سِرَّكُمْ}، يعلم أسراركم التي تخفونها عن غيركم، ويعلم أفكاركم ومشاعركم...

{وَيَعْلَمُ جَهْرَكُمْ}، حيث يعلم تعالى الأشياء التي تجهرون بها، وتفعلونها أمام الناس أو تقولونها عَلَنًا.

{وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ}، حيث يعلم تعالى ما تحصلون عليه مما نتج عن أعمالكم، وطبعا الكلام هنا ليس عن العمل لكسب المال بل عن الحسنات أو السيئات، فأنتم تحت المراقبة بشكل طبيعي لأنه تعالى هو هكذا يعلم كلّ شيء.

كما تلاحظ، فإن افتتاحية السورة تتضمّن التنبيه عَلَى تحكّم الخالق بنا، وأننا تحت المراقبة، وأننا سَنُحَاسَب.

ضع في بالك الفرق بيننا نحن حين نهتم بشيء ما ونراقبه موجهين بصرنا وسمعنا وتركيزنا عليه، وبينه تعالى الذي من طبيعته العلم بكل شيء، وسماع ورؤية كل شيء دائما هي الحالة العادية الطبيعية له تعالى.

(وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ{4})
الكافرون العادلون الممترون... {وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ}، حيث إن أي شيء مميّز يصلهم من المسؤول عنهم من مستوى إلهي، {إِلَّا كَانُوا عَنْهَا}، ودائما هم عن الآيات، {مُعْرِضِينَ}، إذ إن كل الآيات الإلهية لا تعنيهم حتى يهتمّوا بها فيتركوها. ومهما كان نوع الآية التي تأتيهم، فلا فرق، فهم معرضون عنها ولا يهتمون بها، ولا تؤثّر فيهم حتى يهتدوا!

ستلاحظ شرحا مفصلا أكثر لهذه النقطة في خلال السورة، وستلاحظ أن بداية السورة تحدثت عمّا نسميه "فطرة" الإنسان بشكل غير مباشر على أساس أن هذه "الفطرة" توصل لمعرفته تعالى، وهنا تتحدث السورة عن الأدلة الموصلة لمعرفته تعالى، حيث ستجد في السورة حديثا عن طريقين للإيمان، طريق النموذج النبي إبراهيم (عليه السلام) الذي بقلبه السليم آمن ووصل لأعلى درجات الإيمان بمجرد النظر في الآيات من أفعاله تعالى بخلقنا وخلق بيئتنا... وهذا الطريق يتفرع للفكر والنفسية كطريقين جعلهما تعالى فينا للتعرّف عليه، حيث نتفكّر في آيات أفعاله وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق بقدرة فائقة... وطريق الإيمان عبر الدلائل الإلهية كالرسل والكتب والأشياء غير العادية التي قام بها الأنبياء... ومقابلهما طريق الكفر والشرك الرافض للآيات الإلهية المتنوّعة والأكثر من كافية، وفي نفس الوقت يَقْتَرِحُ عليه تعالى آيات من رأيه ليؤمن به!

كلمة {رَبّ} تقال لعامة من لديه مسؤولية عناية بالآخرين، فربّ البيت كوصف للأب، وربّة المنزل كوصف للأم، وربّ العمل... وعلى مستوى كل واحد ومسؤولياته يكون الوصف، وبالنسبة له تعالى فهو ربّ من مستوى إلهي، أمّا كلمة {إله} فلا تتحمّل التدرّج في معناها، لأن الموصوف بها فقط الله تعالى.

(فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{5})

{فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ}، حِينَ جاءهم الصواب الحقيقي الصحيح لم يصدقوه وقالوا إِنَّهُ كذب، {فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ}، أخبار غير منتشر علمها لأنهم نسوها أو غابوا عنها... {مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، حَيْثُ تعاملوا مع الكلام عن الآخرة وحسابها من خلفية اعتباره بلا قيمة واستهانوا به، وهذا هو نفسه سيخبرهم به تعالى في يوم القيامة، وهم نسوه أو غابوا عمّا نتج من استهزائهم بالآيات والذي تداوله الناس وكرروه وتشجعوا عليه... وَكان للمستهزئين الأوائل نصيب من سيئات ذلك وهم لا يدرون به. والآية تعطي معنى: أَنْبَأَكَ عن حرب قادمة حتما. فَتَسْتَهْزِئُ، وحين تأتي الحرب يكون نَبَؤُهَا وصلك لأنك صرت فيها. لِأَنَّهُمْ سيأتي عليهم زمن يَكُونُونَ فيه فيما اسْتَهْزَأُوا به، حَيْثُ هزئوا من يوم القيامة والحساب والعقاب، وسَيَكُونُونَ فيه.

لاحظ وانتبه، عَادَةً نحن ننسى الأساس، ونتعامل مع الأمور من الآخر، وَننظر للإيمان بالعقيدة على أنه شيء معروض علينا لنقنع أنفسنا به، وَيصير الإيمان بدينه تعالى كخيار أمامنا مثل خيار الإيمان بأي عقيدة أخرى، بينما كلام القرآن مختلف، لِأَنَّهُ يعرض "معلومات" عنه تعالى وعمّا فعله وسيفعله، ويريك الأدلة على أنه تعالى الإله الواحد الأحد الخالق لكل شيء، ويخبرك بما سيفعله مع تبريراته الحكيمة، فليس المعروض علينا في هذا القرآن عقيدة لنؤمن بها على عماها، أو لنقنع أنفسنا بها، لا، بل معروض علينا المعلومات الحقّ، الصحيحة.

مَا هو دارج من تسمية "العقيدة" يصير بَعِيدًا نِسْبِيًّا عما يطرحه القرآن، لِأَنَّهُ يطرح معلومات، وعليها أدلة ولها تبريرات، ويسمّي القرآن ذلك بالآيات، فالإيمان بها ما هو إلا قبول طبيعي لها، والكفر بها ما هو إلا تكذيب للحقّ.

هكذا نفهم أمثال آيتنا هذه، الَّتِي كرّر منطوقها القرآن مِرَارًا، فالكفر بما يقوله تعالى هو كفر بالحق الذي عليه آيات بيّنات.

(أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ{6})
{أَلَمْ يَرَوْا}، أَلَمْ تَصِرْ لديهم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شافوا، ما التفتوا. {كَمْ أَهْلَكْنَا}، كم استنفدنا "أنهينا" حياة وَأَمَتْنَا، {مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ}، من أناس كانوا مقرونين مجموعين مع بَعْضٍ لمدة طويلة، وَاسْتُنْفِدَتْ حياتهم ولم يعودوا موجودين، وهؤلاء الذين أهلكناهم كثّا، {مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ}، حَيْثُ كانوا متمكنين مسيطرين وَلَدَيْهِمْ سيطرة وثبات، عبر قوة عسكرية واقتصادية في الأرض التي كانوا فيها، {مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ}، حَيْثُ أَنْتُمْ الآن متمكنون، وَلَدَيْكُمْ قوّة مالية وعسكرية واجتماعية... ولكن هؤلاء كانوا متمكنين أكثر منكم، فأين هم الآن؟ ألم تنتبهوا أنهم تحت قوة قاهرة قرّرت هلاكهم! وأن السيطرة والقوة البشرية لا تدوم لأن الذي منحها لكم لم يقرّر تركها لكم بلا نهاية.

الكلام هنا مع الناس الذين نزل القرآن في زمانهم كنموذج، حَيْثُ كان أهل مكّة وأهل الطائف وأهل هَوَازِنَ... وفرع "ربيعة" من العرب بمدنهم... يرون أنفسهم أقوياء اقتصاديا وعسكريا... ولكن هذا مهما بلغوا فيه من القوّة فلن يغيّر أي شيء من مصير قرّره تعالى، فَسَتَأْتِي الآخرة لِيُحَاسَبُوا مهما بلغت قوّتهم...

كما تلاحظ فَإِنَّ نَفْسَ المفهوم ورد منذ قليل في الآية الثانية من هذه السورة، حيث تلفت انتباهنا للمشابهة بين حياتنا بمفاصلها الإجبارية، وبين أي مسار أو مصير لأي حدث أو حالة أو شيء... إِذْ دَائِمًا هناك سبب، وهناك من أحدث الأمور لتصل إلى مصير حتمي، حَيْثُ إِنَّ الْمِيَاهَ تجري وتصب في البحار لتتبخر وتعود لتسيل... وَهُنَاكَ تصميم تجري عليه الأمور، حَتَّى لو قلت إِنَّ شيئا ما عَبَثِيٌّ أو مَتْرُوكٌ، ففي عمقه مصير، كالسيارة التي خربت وتركوها لتصدأ، وَهَذَا مصير، ومن نفس النظرة فلا اختلاف بيننا وبين أي شيء آخر بالنظر لسيران الأحداث باتجاه مصير.

هنا الجملة تلفت انتباهنا لمصير الهلاك الحتمي لأي جماعة من الناس مرّت في أي زمن كان، فمهما بلغت قوّتها المالية أو العسكرية... فستهلك، وهذا بوضوح يريك الإله الذي قرّر هذا المصير.

{وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا}، بلا انقطاع حَيْثُ لَا تمر أشهر جفاف بل ينزل الماء بين وقت وآخر، والكلام عن المطر الذي ينزل بما يناسبهم للشرب وري المزروعات وسقاية المواشي، وهذا يدل على وفرة الخير وبحبوحة العيش والقوة الاقتصادية، يعني كانوا مرتاحين ماديا.

لا يزال الكلام متضمنا الشقين، شِقَّ وضوح تصميمه وخلقه تعالى للأمور المتعلقة بنا، وشقّ وقوعنا مع كل ما حولنا تحت ما قرّره تعالى. وهذا بغض النظر هنا عن كيفية حصول الأمور بترابطها وبأسبابها الطبيعية أو حصول الأشياء بأمر مباشر منه تعالى متخطيا الأسباب التي نعرفها... لِأَنَّ السورة ليست مهتمة بهذه الناحية.

{وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ}، والأنهار كما تعرف هِيَ بالنسبة لنا أينما كانت إِذَا وقفنا بقربها فهي تجري من تحتنا، لِذَلِكَ لَا تقصد الآية أنهم كانوا يعيشون في مكان كالمستنقعات... ولكن الآية تقصد أنهم كانوا في أماكن تتوافر فيها المياه في مختلف المناطق، وَهُمْ لَيْسُوا مضطرين للتنقل للحصول على الماء، ولا إِلَى جرّها بالسواقي من أَمَاكِنَ بعيدة... لأن الأنهار بقربهم.

كُلُّ هذه الظروف المناسبة لحياة رغيدة لأقوام كانوا قبلكم، لم تدم، {فَأَهْلَكْنَاهُمْ}، وَاسْتَنْفَدْنَا حياتهم وَمَاتُوا، ولم يبقوا متمكنين في الأرض، {بِذُنُوبِهِمْ}، بسبب الأعمال المخالفة لأوامره تعالى والتي يستحقون عليها العقاب، {وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ}، كوّنا من شيء سابق، وَجَاءَ من ذريّتهم أو مما له ارتباط بهم، {قَرْنًا}، أناسا مقرونين مجموعين في زمان ومكان واحد، {آخَرِينَ}، غيرهم، يعني نشأت بعدهم جماعة أخرى قوية.

إِذَا كان هناك أناس يشعرون بالتمكن في الأرض، بالسيطرة والقوة والمدنية والحداثة والتكنولوجيا... فهذا لم يحصلوا عليه إلا لأنه تعالى سمح به، وهناك أناس قبلكم حصلوا عليها من قبل، وبعضهم كان أقوى منكم، ولكن أين هم الآن؟ هم هلكوا ولم يبقوا بسبب ذنوبهم، مثل فرعون وثمود... لِذَلِكَ انْتَبِهُوا لوضوح وقوعكم تحت تصميم إله، وأن القوة والسيطرة لن تغيّر من مصير وقوفكم بين يديه تعالى ليحاسبكم.

بعبارة أخرى لَوْ كانوا بلا ذنوب لاستمرّت حضارتهم، ولكن مرّ على حياة البشرية العديد من الحضارات، من جماعات ملكت قوّة عسكرية واقتصادية وعلمية...، ولم تستمر ولا حضارة منها، وَكُلُّهَا هلكت وَأَتَى غيرها، وهلكت وأتى غيرها... علما أن أسباب الاستمرار تبدو متوافرة، فلماذا لم تستمر ولا واحدة منها؟ السبب أن تلك القرون لم تكن على الحقّ، بل أذنبوا، وَفَعَلُوا ما يخالف أوامره تعالى، فَإِمَّا تدخّل سبحانه وَأَهْلَكَهُمْ إن كان ذنبهم من العيار الثقيل وَمُنْتَشِرًا بينهم ولا أمل بتغيّرهم ولا بتغيّر ذريّتهم، وإمّا تركهم سبحانه للكوارث التي سبّبوها بأيديهم، أو تركهم للكوارث الطبيعية وَلَمْ يتدخل سبحانه لمنعها، وَهَذَا شيء يفعله تعالى لو كان المجتمع بغالبيته مَقْبُولًا إيمانهم وصلاحهم، ولمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

(وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ{7})

{وَلَوْ نَزَّلْنَا}، من عندنا عليك أيها الرسول محمد (عليه السلام)، {كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ}، كتابا مسجّلا على عموم أي شيء مخصص للكتابة عليه، على رق جلد أو على قماش أو على ورق حصير نبات "كورق البردي"... {فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ}، وَتحسّسوه بأنفسهم ليتأكدوا أَنَّهُ فعلا قرطاس، وأنك لم تكتبه، بل نزل مكتوبا عليك من السماء... رَغْمَ ذلك، {لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا الآيات المتوافرة لهم في خلقهم وخلق بيئتهم وبالتالي لم يعتقدوا بالدين الإلهي:

{إِنْ هَذَا}، أَيْ فقط هذا الكتاب الذي نلمسه، {إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}، لِأَنَّهُ خدعة واضحة وليس حقيقيا.

أي آية مهما كان نوعها فهم لن يؤمنوا، وكنموذج عن ذلك سَوَاءٌ هم اقترحوا نزول قرطاس... أو سبحانه يضربه كنموذج، فمن الواضح جدا أن الآيات الإلهية أصلا أكثر من كافية ليؤمنوا، وها يخبرك سبحانه الذي خلقهم بأنهم لن يؤمنوا حتى ولو لمسوا قرطاسا نازلا مباشرة من السماء عليهم، حَيْثُ يَقُولُ بعضهم هذا الاقتراح ولكنه مجرد كلام فارغ لم يقولوه عن قناعة ولن يؤمنوا إن حصل، وسيقولون عنه إِنَّهُ سحر.

ضع في بالك دائما أن السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شيئا غير حقيقي أَنَّهُ حقيقي. حَيْثُ إِنَّ الساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد أَنَّهُ أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع أنها لم تَخْتَفِ، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة {سِحْر} والذي تراه صريحا في الآية 66 من سورة طه {قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}. وما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه

بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وَفَقَطْ من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، فهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية إِنَّها سحر، فهذا كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة {سِحْر}.

(وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ{8})
{وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ}، فَيَنْزِلُ على الرسول محمد (عليه السلام) واحد من الكائنات الموصوفة بأنها تملك صفات وقدرات عالية، واحد من الملائكة (عليهم السلام) ينزل ويخبرنا أَنَّ محمّدا رسول، فعندها نتأكد أنه رسول من الإله.

{وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا}، من السماء ليراه الناس، {لَقُضِيَ الْأَمْرُ}، لانتهى الموضوع من أصله، {ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ}، فلا يتم انتظارهم وَلَا يمرّ زمن حتى يتحاسبوا على كفرهم بالآيات.

لِنَصُغِ الآية بعبارات تنظر لكل موقفهم، حَيْثُ إِنَّهُمْ أمام رجل يقول إِنَّهُ رسول من الإله، وبما أن الإله يريدنا أن نصدّق أَنَّ هذا الرجل رسوله، فهناك طريقة سهلة لذلك، وكان سيعتمدها الإله، وَكَانَ سينزّل ملاكا من عنده، نراه، ويخبرنا أَنَّ هذا الرجل رسول من الإله، وهكذا سنؤمن برسول الإله مع دليل وشاهد قوي وهو الملاك.

بضبابية يبدو للوهلة الأولى هذا الاقتراح عَقْلَانِيًّا، ولكن بالتدقيق فما هو إلا كلام فارغ، وسترى ذلك من الآية التالية، وقبل ذلك يخبرنا تعالى أنه لو استجاب لهم ليجعلهم يرون الملائكة، فسبحانه لا ينزل الملائكة لِيَكُونُوا شهودا للناس على رسله ليؤكدوا لهم أنهم رسل إِلَهِيُّونَ، فهذا شيء لا معنى له وستراه من الآية التالية، بل يرسلهم تعالى لتنفيذ مهمّات أخرى، وفي حالة تعامله تعالى مع الكافرين فسيرسل الملائكة للقضاء عليهم، ومن ناحية ثانية فَإِنَّ كلام الآية التالية يشير إلى أن كلام الآية هنا يتحدّث عن رؤيتنا للملائكة كما هي على طبيعتها، فالملائكة لها طبيعة مختلفة وهنا في الدنيا يستحيل علينا رؤيتها بالعين، فإن رأيناها فهذا يعني أن تكويننا نحن تغيّر، وهذا التغير سيحصل في الآخرة، حَيْثُ سيصير الجميع خالدين، وأهل النار أجسادهم تتجدّد ويشعرون بالألم الشديد من أقل لمسة... وبعكسهم أهل الجنة الذين لا تتضرّر أجسادهم أبدا... حَيْثُ سنرى الملائكة لأننا نحن ستتغيّر طبيعة أجسادنا، وحتى النبي محمّد (عليه السلام) عندما رأى الملاك جبريل (عليه السلام) فهو لم يره بعينيه، لِأَنَّ هَذَا مستحيل حاليا بل رآه بفؤاده كما ورد في الآية 11 من سورة النجم {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى}. فالكلام في الآية هنا عن بقاء الملائكة كما هي وَنُزُولِهَا ورؤيتنا لها، فهذا سيعني تغيّرا جذريا في تكويننا لنراها، وقراره تعالى أن يحدث هذا التغيّر لنا حين يأتي زمن محاسبتنا ومجازاتنا، يعني لو حصل فأنتم في حالة المحاسبة والمجازاة ولا انتظار لكم حتى تؤمنوا.

اَلْآيَةُ هنا على معنى الآية 22 من سورة الفرقان {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا} فراجع دراستها لمزيد من التفاصيل.

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ{9})
تقترحون نزول ملاك يؤكد لكم أَنَّ محمدا رسول، وهذا الاقتراح يؤدّي إلى اقتراح آخر، فما رأيكم لو جعلنا الملاك رسولا؟ أليس أفضل؟ فَلْنَرَ معنى الاقتراحين:

{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا}، فلو جعلنا الرسول الذي نرسله للناس من الملائكة (عليهم السلام)، وَلم نرسل رجلا من البشر وأرسلنا لهم ملاكا، {لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا}، لأن الناس لا يمكنها رؤية الملاك كما هو، لِذَا يجب تلبيسه بمادة لتستطيع البشر التعامل معها، وَيتمثّل، وسنعطيه شكل رجل عادي مركّب من المواد التي نستطيع نحن رؤيتها، أو يحصل تلاعب بمادة ما وتتمثّل بها الملائكة حتى نستطيع رؤيتها.

عندها، {وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ}، مثلما ورد وصف حالة الجوع باللباس في الآية 112 من سورة النحل، حَيْثُ لو أنزلنا ملكا فستكون حالتهم لَبْسًا، وَسيحل عليهم، {مَا يَلْبِسُونَ}، ما كان ملتبسا ممتزجا غير متميّز، وَعندها ستلبسهم حالة الالتباس، لِأَنَّهُ لو نزل ملاك لكان لا يتميّز عن أي رجل عادي، وهم طلبوه حتى يتميّز عن الرجل العادي ليكون ملكا رسولا، أو شاهدا على أَنَّ محمّدا رسول، فهم من الأول لم يقنعهم رجل يقول لهم إِنَّهُ رسول إلهي، إِذْ من الأساس الحقيقة ممتزجة

مشوشة بالنسبة لهم وَلم يؤمنوا برجل عادي كرسول إلهي، وبنزول ملاك على شكل رجل عادي لَنْ يتغيّر أي شيء، فلو شهد لهم أَنَّ محمدا رسول، أو هو الملاك بنفسه توظّف كرسول، فما كان ملتبسا عليهم لبقي كما هو، وَلَلَبَسْتُهُمُ نفس الحالة، حَيْثُ سيقولون إِنَّ الملاك الذي على شكل رجل إِنَّهُ فعلا رجل عادي وليس ملاكا وبالتالي هُوَ ليس رسولا.

في كل استعمالات القرآن فُصِلَ بين وصف حلول شيء على شيء الدالة عليه كلمة "لبس" بالكسرة على الباء، ومنه اللباس "الثياب"، وبين كلمة "لبس" بالفتحة على الباء لوصف حالة امتزاج شيئين بشكل لا يتميزان عن بعضهما، وَيحصل اشتباه وتشويش أثناء التمييز بينهما. وكما ترى فَإِنَّ النَّتِيجَةَ من المعنيين متشابهة، حَيْثُ لَنْ يميّز الناس الملاك عن الرجل العادي، سواء فهمنا من الجملة اللبس على معنى التلبّس بجسد طيني، أو فهمنا اللبس على معنى الاشتباه.

وَفَرْضًا فَعَلَ الملاك الذي على شكل رجل شيئا نابعا من قدراته كملاك، فسيقولون إِنَّهُ ليس ملاكا بل ساحر، وهذا ما قالوه عن الرسل حين جاؤوهم بالآيات... وَفَرْضًا جاءنا الملاك وشكله غريب غير شكلنا، برأسين أو أَرْبَعِ أَيْدٍ، أو خَلِيطًا من إنسان وحيوان... فهل هذا الشكل الغريب سيكون سببا لنا للإيمان بالدين الإلهي!

لا، لِأَنَّ هذا سيفتح الكلام على سجالات أخرى، حَيْثُ في السابق ولآلاف من السنين التي مرّ فيها العديد من الرسل لم يحصل هذا، وَلَنْ نرى الرابط بين هذا الرسول وبين الرسل السابقين، وسنعتقد أن هذا الملاك الرسول هو مجرد مخلوق فضائي، أو جنّي يتلاعب بنا، أو إنسان متحوّل أو ممسوخ... لِذَا فَإِنَّ الحلّ العقلاني الوحيد أن يكون شكل الملاك على شكل رجل عادي، وعندها ما الفرق إذًا بين الملاك الرجل والرسول الإنساني الرجل؟! وَكيف سيقنعكم ملاك على شكل رجل عادي أَنَّهُ ملاك ورسول منه تعالى؟ وكيف سينفعكم إن شهد لكم أَنَّ محمّدا رسول إلهي؟ إِنَّهُ نفس الشيء، وَعندها سيحصل لكم التباسات مختلفة حول هويّة المخلوق أو الرجل، ولا يوجد شيء سيقنعكم أَنَّهُ ملاك.

نتذكّر دائما أن تكويننا هنا في الدنيا لا يسمح لنا برؤية الملائكة (عليهم السلام) كما هي بدون أن تتمثّل بشكل من المادة التي يمكننا التعامل معها بحواسّنا، وهي المادة التي خُلِقْنَا نحن منها، من طين، من كربون وكالسيوم وهيدروجين... وفي الآخرة سنرى الملائكة على طبيعتها لأن تكويننا نحن سيتغيّر. وَتَحَدَّثَ البعض عن إمكانية أن يجعلنا سبحانه هنا في الدنيا نرى الملائكة (عليهم السلام) على طبيعتها كما هي ومن دون أن يتغيّر تكويننا نحن، وقالوا إِنَّ النبي محمد (عليه السلام) اسْتَطَاعَ رؤية الملاك جبريل (عليه السلام) كما هو من دون أن يتغير، وَفَرْضًا لو كان هذا الكلام دقيقا "مع أنه ليس كذلك"، فماذا سيحصل لو استطاع الكفار رؤية الملائكة (عليهم السلام) كما هي! لا شيء، لِأَنَّ التحويل المؤقت لتكويننا حتى نرى الملائكة (عليهم السلام) لن يقدم ولن يؤخّر، فماذا سنرى؟ خيالات أو شيء كالضباب أو تموجات ألوان كالشفق... حَيْثُ سيقول الكفار إِنَّ أعينهم سُحِرَتْ، وأنهم يرون هلوسات... وَتَحَدَّثَتْ آيات أخرى عن هذا، منها الآية 14 و 15 في سورة الحجر {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ}، حَيْثُ إِنَّ مَا سيرونه في السماوات الأخرى سيقولون إِنَّهُ ليس حقيقة وأنهم واقعون تحت تأثير السحر... أما هنا فالآية تقول إِنَّ أصل الاقتراح لن يغير أي شيء، لِأَنَّهُ حتى يتعامل الملاك مع البشر يَجِبُ أن يتمثّل، وأي تمثّل على شكل غير شكلنا البشري لَنْ يزيد الموضوع إلا تعقيدا حَيْثُ سيقولون مثلا إِنَّهُ مسخ، وإذا تمثّل أو تحوّل على شكل بشري، فلن يتغير أي شيء على الكفّار لأنهم لن يقتنعوا أَنَّهُ ملاك بعد أن صار على شكل البشر.

أطلت عليك، لِذَا دعنا نتذكّر أن الأنبياء لم يؤمنوا لأنهم رأوا الملائكة (عليهم السلام)، ولا لأن الوحي نزل عليهم، فهم آمنوا بما نزل عليهم لأنه يتماشى مع قلبهم السليم، ولم يؤمنوا لأنه نزل عليهم، وهذا موضوع تحدّث عنه القرآن مِرَارًا وتكرارا، ومنه كمثال الآية الثانية من سورة البقرة {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}، ضَعْهُ في بالك وتصوّر أبا جهل يصل إلى وعيه هذا القرآن بعقيدة التوحيد وبشريعته تعالى التي تحرّم الخمر والزنا... فهل تتوقّع أنه سيؤمن؟ لا، بل سيجن جنونه مما يصل إلى وعيه، وسيرفضه، ويعتبره مشكلة في عقله... وحتى لو نزل الوحي عليّ وعليك فَهُوَ نفس الشيء كما لو قرأناه في القرآن أو سمعناه في آذَانِنَا من النبي أو من المؤمنين، حَيْثُ سنرفض ما يرفضه فكرنا ونفسيتنا ونقبل ما يقبله فكرنا ونفسيتنا ولن يزيد أو ينقص إيماننا، لِأَنَّنَا كل واحد منا له فكر ونفسية مُتَكَوِّنَةٌ من خياراته في الحياة، وبناء عليها سيقبل أو يرفض ما يُعْرَضُ عليه من حقّ وباطل وخير وشرّ.

سيأتيك في الآية 19 كلام عن شهادته تعالى على أَنَّ محمدا رسول، وقبل ذلك سنقرأ آيات تنبيهية للذين يتعاملون مع الإيمان بدينه تعالى على طريقة: عندي أفكار وأسئلة واقتراحات كثيرة تؤكد أن هذا الرسول وقرآنه ليسا من الإله. حَيْثُ

من ضبابية ومن خيالات وأوهام لا يرى نفسه مضطرا ليؤمن، ويعتقد أنه لو فرّغ من وقته دقيقتين فقط لدمّر عقيدة القرآن بسؤال واحد. وَإِنَّ ما سبق من اقتراح نزول القرآن في قرطاس واقتراح نزول ملاك، هما نموذجان عن الأفكار النيّرة التي يعتمد عليها الذي ترك الآيات الإلهية الأكثر من كافية ليؤمن، وأصرّ أَنَّهُ فهيم...

(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{10})
{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ}، من قبلك جاء من ينقل كلامه تعالى للناس وانتقدهم بعض الناس بازدراء ونظرة دونية معتبرين كلام الرسل غير مقبول وغير عقلاني، فلم يعطوهم أي قيمة "كرسل منه تعالى"، {فَحَاقَ}، وَدار حول، وَالتفّ، {بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ}، بالذين عبّروا عن الرسل أنهم فاقدون لما هو طبيعي ومقبول وأن الرسل مخالفون للعقلانية، {مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، حَيْثُ تعاملوا مع الكلام عن الآخرة وحسابها من خلفية الاستخفاف والهوان، مُعْتَبِرِينَ إياه بلا قيمة، وهو نفسه الذي اسْتَهْزَأُوا به وَسيدور ويلف عليهم.

الكلام هنا خبر للرسول وللمؤمنين وللكافرين، حَيْثُ إِنَّ الذي تتعرّض له أيها الرسول محمّد (عليه السلام) إنما هو حالة عادية لأي رسول أرسلناه قبلك، ولا تظن أنك وحدك تتعرض لسخرية واستهزاء هذه النوعية من الناس، والساخرون أيضا ليعلموا أنهم ليسوا مميزين بسخريتهم واستهزائهم حَيْثُ مرّ عبر التاريخ أمثالهم، ليعلموا أن هذا لن يغيّر أي شيء من مصيرهم، والكلام عن الآخرة والحساب الذي سخروا منه، سيصيرون فيه ولا مهرب لهم منه.

(قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ{11})
{قُلْ}، لهذه النوعية من الناس "الكافرين الممترين..." عبر هذا القرآن: {سِيرُوا فِي الْأَرْضِ}، انتقلوا في مسارات الأرض، تنقلوا فيها، {ثُمَّ انْظُرُوا}، بعد ذلك وجّهوا اهتمامكم العام، {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ}، ما عقب وَما أتى بعد، كيف كانت نتيجة، {الْمُكَذِّبِينَ}، الَّذِينَ لم يصدّقوا بالدين الإلهي وقالوا إِنَّهُ كذب، فهل بقوا أحياء؟ هل خلّدوا في الأرض؟ هل نفعهم تكذيبهم بالدين وبالآخرة؟ أين هم الآن؟ ألم يموتوا ويصيروا بانتظار قدوم الآخرة ليتحاسبوا؟ فهل تجهزوا لذلك؟ ما الذي عقب وَأَتَى بعد تكذيبهم للدين الإلهي؟ ألم يعقبه موتهم وبعدها حسابهم؟ فهل ستفعلون مثلهم!؟

(قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ{12})
{قُلْ}، لتلك النوعية من الناس عبر هذا القرآن: {لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}؟ والتعبير القرآني بـ {السماوات والأرض} يشير لكل ما في دنيا المخلوقات، فيشير لكل شيء. فلمن كل شيء؟ فمن المنسوب له كل شيء؟ إِنَّ السؤال البديهي الفطري عندما ترى شيئا "أرضا مزروعة، سيارة**،** هاتفا أو بيتا..." من البديهي أن يكون لها من تنسبها له، وَتَسْأَلَ عن صانعها عن صاحبها عمّن قرارها بيده عمّن يزرعها عمّن يملكها... والآية تسأل عمّا في السماوات والأرض، لمن؟

{قُلْ لِلَّهِ}، فكل شيء لصاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" سبحانه.

{كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}، فقرّر سبحانه على نفسه أن يعامل مخلوقاته لما فيه مصلحتهم، إِذْ لَا يوجد سبب آخر يجعله تعالى يخلق كل هذه الضخامة من السماوات والأرض سوى أنه هو سبحانه وتعالى قرّر أن يكون رَحْمَانًا، وَوهب الوجود والحياة للمخلوقات، ولم يفرض عليه أحد هذا، بل هو سبحانه {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}، فقرّر ذلك على نفسه.

في هذا الوصف عمق يشير إلى أنه تعالى ليس مَجْبُورًا على الرحمة بل هي قرار اتخذه، حَيْثُ إِنَّ خيار الظلم والقسوة والفساد... مُتَوَافِرٌ ولكنه تعالى اختار الرحمة، وما يقوله المتعمقون في بحوث الإلهيات عن انعكاس صفاته تعالى في المخلوقات، فَإِنَّ كلامهم تراه في عمق كلام آيتنا هنا، حَيْثُ إِنَّ الكلام عن حرية الْإِرَادَةِ والاختيار، وبالأخص عن تمييز الخير من الشر، فهذه صفة له تعالى وَزَرَعَهَا فينا.

{لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، حَيْثُ لَنْ يهرب منكم أحد، ولن ينسى سبحانه منكم أَحَدًا، بل كلكم سيجمعكم إلى زمن القيامة من الموت في عالم الآخرة.

{لَا رَيْبَ فِيهِ} ، حَيْثُ لَا يوجد ولا احتمال ضعيف بأن يوم القيامة لن يحصل لأنه تعالى قرّر حصوله، وهو المالك لكل شيء، فهو يقدر على فعل أي شيء، وَقَرَّرَ أن يجمعنا إلى يوم القيامة، وها أَخْبَرَنَا بذلك، فحتما سيحصل يوم القيامة من الموت.

تكذيبكم للرسول والكتاب الإلهي والآيات سَيَصْطَدِمُ وينهار أمام قراره تعالى بجمعكم يوم القيامة ليحاسبكم.

ضع في بالك دائما أن {الرَّيْبَ} هو أوّل وهلة تصيبك من سماع الشيء، وَتُنْكِرُهُ أو تصدّق به لمجرد سماعك له وبدون أي تفكير. والشكّ هو اختيارك للتصديق أو الإنكار مع إعلانك أنك لم تستند لدراسة أو تفكير. والظن هو تصديقك أو إنكارك لشيء وأنت مستند إلى معلومات أو تفكير به، طبعا هذا وصف لك بغضّ النظر عن صحّة ما استندت إليه وبغضّ النظر عن صحّة أو فساد النتيجة التي وصلت إليها، وَقَدْ تكون غير مطابقة للواقع فيصير ظنّك غير صحيح. واليقين هو تطابق اعتقادك مع الحقيقة، من تعاملك مع الشيء مباشرة أو من خبر ممن تثق به... أطلت عليك حتى تنتبه للفرق بين ما اصطلحوا عليه في كتب المنطق عن هذه الكلمات وبين معناها اللغوي العربي الأساسي الأصلي الذي استعمله القرآن.

{الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ} ، الذين فقدت أنفسهم قيمتها، فأنفسهم التي صارت مهانة بلا قيمة، وعمليا فهي ستتعرض للتعذيب الشديد الدائم، {فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} ، الذين لا يعتقدون بدينه تعالى، حَيْثُ بعد الجمع ليوم القيامة فهناك الذين خسروا أنفسهم هم الذين لا يؤمنون بدينه تعالى، وَسَيَتَعَرَّضُونَ لعذاب شديد.

لاحظ أَنَّ الآية طَرَحَتْ سؤالا بسيطا جدا جدا، {لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} ؟ أليست لأحد؟ أَهَكَذَا من لا شيء أتت؟ لوحدها صارت؟ بالصدفة؟ بقوانين الطبيعة؟... وَتراها وتقول هي ليست لأحد؟ ليس لها من تنتسب له؟ وأنت تعلم بكل بساطة أن السؤال التالي: من أين جاءت إن لم يكن لها من تنتسب له كمصمّم وخالق لها؟

ننتبه جيدا، إِذْ إِنَّ الطاولة والكومبيوتر والهاتف والبيت والشارع... بالنسبة لك هي أشياء صَمَّمَهَا المهندسون ونفذّوها... وباعوها... وصارت لي. أمّا كوكب الأرض، والنبات والحيوان، ونحن البشر، وبقية الكواكب، والمجرات... فبعض الناس يعتبرونها هكذا لا شيء مثل المواد الأولية الخام غير المشغولة، وكأن المواد الخامّ التي تشكلت منها الدنيا لا تحتاج للسؤال عنها أنها كيف صارت وهي لمن...؟ وكأنها شيء لا يصحّ أن تسأل عنها من أين أتت وكيف صارت، فهي موجودة وَاعْتَدْنَا عليها ونراها منتشرة هنا وهناك... وهذه نظرة سطحية ساذجة، والقرآن نبّهنا من هذه النظرة السطحية للأمور وكأنها بلا قيمة، وهنا اختصرت الآية كل الكلام بالسؤال عمّا في {السماوات والأرض} ، لمن؟ حَيْثُ إِنَّ الشجرة بنموّها وتصميمها وغذائها ونتاجها وعلاقتها ببيئتها... وتريليونات التفاصيل... هندسة رائعة التصميم... ومثلها بقية ما هو موجود في {السماوات والأرض} ، فلمن هذه؟ فهي منسوبة لمن؟ وَمَنِ الذي فعلها وَصَمَّمَهَا وخلقها؟

بعبارة أخرى قَدْ يخطر ببال أحد ما أن الطاقة شيء أزلي أبدي وفيها خصائص خُلِقَ منها كوننا، فالطاقة منسوبة لمن؟ أهكذا من لا شيء كانت أو صارت؟ وَبِبَعْضِ التعديلات على هذه الفكرة ترى أنها تشير إليه تعالى كما وصف نفسه بأن طبيعته لا يصحّ أن تسأل عنه من أين أتى وكيف ومن خلقه... أمّا بالنسبة للدنيا ككيان ليس حيّا ولا قيوما ولا واعيا... فمن البديهي أن تسأل عنها لمن هي؟ وَمَنْ صممها وخلقها؟

بالنسبة لمنكري الآيات الْإِلَهِيَّةِ، وبالتالي حَيْثُ إِنَّ بعضهم لا يؤمن بأي إله، وبعضهم لا يؤمنون بالله تعالى كإله واحد أحد، فالسؤال عمّن له هذه الدنيا هو أعمق سؤال موجّه للجميع.

ضع في بالك أن توسيع أفق الكلام الإلهي بالإشارة إلى {السماوات والأرض} فِيهِ جوانب عديدة، منها توجيه السؤال لذوي العقول الضيقة المخترعين لإله للمطر وللرعد... والجاعلين النار أو الشمس أو كوكب الزهرة... إلها... أو العابدين لكائنات واعية كعابدي الملائكة والجن والأرواح والقديسين... حَيْثُ أَمَامَ ضخامة {السماوات والأرض} كان من المفروض منهم الِالْتِفَاتُ لإله واسع محيط بدلا من الأفق الضيّق المحصور بما حولهم.

(وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{13})

{وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}، حَتَّى المخلوقات أو الأشياء الساكنة التي لا تتحرك ولا تقوم بأي نشاط، التي تبيت، سواء أكانت تسكن في الليل أو في النهار فهي منسوبة لصاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" سبحانه.

{وَهُوَ السَّمِيعُ}، الذي يسمع كل شيء، حَتَّى هذا المخلوق الذي تتصورونه ساكنا لا يتحرك ولا يعلم أحد بوجوده، إِنَّ الله سبحانه يسمعه وَلا يغيب عنه. {الْعَلِيمُ}، الذي يعلم كل شيء، ولا يغيب عن علمه أي شيء مهما كان نوعه وأينما كان. وَهذه طبيعته تعالى دائما سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

هكذا نتعرّف على صفاته تعالى الذي ينتسب له كل ما في الدُّنْيَا ومهما كان نوعه أو حالته، حَيْثُ إِنَّ سَمْعَهُ تعالى كنموذج عن بقية قدراته تعالى، فهو منتشر يطال كل شيء، وكنموذج عمّا ضمن قدراته تعالى، ما نعرفه نحن من حولنا من كائنات تسكن ليلا وَلا نراها لأننا كائنات تنشط نهارا، أو كائنات تنشط نهارا ولا تراها الكائنات الناشطة ليلا... حَيْثُ إِنَّ الكلام هنا نموذج ليكون التصوّر سهلا قياسا مع حالة تعاملنا نحن ليلا أو نهارا مع الأشياء.

من اخترع إلها غيره تعالى، فليسأل نفسه عن سَعَةِ وإحاطة قدرات إلهه الذي اخترعه، إِلَى أي مدى تصل قدرات إلهه؟ ومن ناحية ثانية إِنَّ نفس المفهوم الذي ورد في الآيات السابقة يُعَادُ طرحه، حَيْثُ إِنَّ أَيَّ شيء، أي كائن، أي ظاهرة، أينما كان، وفي أي زمان، مَنْ سبّب حصوله؟ من صمّمه من خلقه من خلق بيئته من أعطاه صفاته... من يدبّر أُمُورَهُ "من يدير شؤونه"، وإلى أين مصيره...؟ إِذْ لكل الْأَشْيَاءِ مصير، وقدرة خالق الدنيا من الواضح كم هي عظيمة فائقة، وَمِنَ الواضح مما حولنا أننا كبشر لسنا مختلفين عن أي شيء آخر في الدنيا، لِأَنَّ هناك فوقنا إِلَهًا صَمَّمَنَا وخلقنا ومصيرنا محدّد بيده.

(قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَينَ{14})
{قُلْ} عبر هذا القرآن: {أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا}! هل أعتبر غير صاحب هذا الاسم المحدّد الذي لا يشاركه به غيره تعالى، وَلِيًّا، مرجعا لي وأنا تابع له، فأسمع وأنفّذ كلام أحد غيره تعالى!

{فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، حَيْثُ لم يكن هناك شيء وأخرج سبحانه {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} من لا شيء، وهذا التعبير القرآني يشابه قولنا: أخرج كلّ شيء إلى الوجود من العدم. شقّ العدم وأخرجهم للوجود. ولكن تبقى الدقّة بالتعبير القرآني الذي لم يستعمل كلمة وجود ولا كلمة عدم، واستعمل كلمة فطر بدع ذرأ أنشأ خلق... مع الفارق الكبير بين تعابيرنا وتعابير القرآن، لِأَنَّ العدم مفهوم تخيّلي لا حقيقة له، والوجود مفهوم تصوّري لما يمكننا التعامل معه بشكل مباشر كالمادة التي نتكوّن منها والتي حولنا، ولكن أي شيء آخر فَإِنَّ انطباق مفهوم الوجود عليه سيكون تصوريا لأننا لا نملك عنه أي معلومات مباشرة... وهكذا ترى أن شقّ العدم وخروج الموجودات، هو تعبير فلسفي ديني تخيّلي تقريبي، وأمّا المرادف لـ "فَطَرَ" بالتعبير القرآني الدقيق فهو: كوّنها وهي لم تكن من قبل. فهو صيران كيان للكائنات بطريقة لا نفهمها نحن، لِأَنَّ هذا شيء من مستوى إلهي يفوق قدرتنا على الفهم والتصوّر والتخيّل وحتى لو على التقريب.

خلق طاقة أو مادة أو نور أو... في الفراغ، هو شيء يفوق قدرتنا على التصوّر، والتعمّق في ذلك أدّى إلى أفكار عجيبة غريبة، والمشهور منها ما قيل عن أننا في خياله تعالى كما نحن نرى المنامات، فنلمس الأشياء ونشعر بها بينما هي في خيالنا... ومنها أنه تعالى من نوره خلقنا فالنور مادّة الطبيعة الإلهية وقد نتج عنها كثافات مختلفة أكثرها كثافة نورانية الملائكة وآخرها أقل كثافة نُورَانِيَّةً نحن البشر... ومنها أننا خيالات وظلال كانعكاس لشيء إلهي بعيد كل البعد في طبيعته عنّا... وغيرها من الأفكار التي تمسّ أمورا لا قدرة لنا على غورها، وَبَدَلَ التوقّف عند حدود قدرتنا ومعرفتنا غاصوا في المجهول وخرجوا بنظريات فكرية تبدو جميلة، ولكنها هواء.

نرجع للآية، إِذْ إِنَّ الصفات التالية التي له تعالى تجعلني نهائيا لا أفكر في اتخاذ ولي غيره: {وَهُوَ يُطْعِمُ}، فسبحانه يتيح للآخرين ما فيه صفة الطعام، ليتغذّوا ويبقوا أحياء ويلتذّوا بطعمه... {وَلَا يُطْعَمُ}، فلا يمكن إطعامه لأنه سبحانه أصلا لا يأكل، وبالتالي فلا حاجة له بالطعام ولن يستهلكه حتى لو قدّمته له. وَخُذْ مثالا نحن البشر، حَيْثُ نحتاج لمن يؤمّن لنا

الماء والخضروات واللحوم... وقد أمّنها لنا سبحانه وتعالى فهي متوافرة، وقد جعل سبحانه فينا حاسة الطعم "الذوق" ورغبة الأكل والشعور بالجوع... وكل هذا مشمول بتعبير: هو تعالى أطعمنا.

هناك أفكار عند المشركين بأن الذبائح تأكلها الآلهة، أو الآلهة تأكل الدم، أو تأكل البخور... أو تتغذّي من الأدعية والصلوات... لِذَلِكَ تُنَبِّهُهُمُ الآية بأنه سبحانه أصلا لا يأكل، ولا أحد ولا بأي طريقة يمكنه أن يقدم له سبحانه طعاما، وإلا لما كان إلها، ففكروا مرتين بصفات الآلهة التي اخْتَرَعْتُمُوهَا، لِأَنَّكُمْ جعلتم فيها صفات المخلوقين حين قلتم بأنها بشكل ما تأكل، وهذا نموذج عن بقية الصفات التي جعلتموها في الآلهة التي اخترعتموها، فانتبهوا للفرق الهائل بين الصفات الحقيقية لله الإله سبحانه، وبين إله تَخْتَرِعُونَهُ.

{قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ}، فأمرني وليّ، {أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ}، أول من انقاد وأطاع وأعلن استسلامه بالكامل لله تعالى فلا يخالف أي أمر، فعمليا أنا "النبي محمّد" أوّل واحد بينكم قد وصلني الأمر بالإسلام "عبر الوحي"، فأنا أول من يجب أن يسلم. حَيْثُ إِنَّ الإسلام لله تعالى واجب على كل من يصله الخبر، وأنا أوّل من وصله الخبر من بينكم وأنا أوّل من أسلم.

{وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، أيضا أنت أيها الرسول محمّد (عليه السلام) مأمور أن لا تجعل شريكا لله تعالى في الولاية أو الربوبية أو الألوهية أو الخلق أو التدبير...

النبي محمد (عليه السلام) ليس أول من أسلم من العالمين، بل سبقه الأنبياء والمؤمنون من قبله، ولكن في زمنه هو، حَيْثُ نزلت عليه الأوامر الإلهية، وهو مثله مثل البقية مأمور بأن يكون أول من ينقاد لربه تعالى حين يصير عنده معطيات تشير له بذلك، وهذا طبيعي، لأنه أول من تلقى الأوامر الإلهية وبالتالي عَمَلِيًّا من المفروض أن يكون أوّل من أسلم مؤمنا بها.

من ناحية ثانية، هَذَا يعني أنه (عليه السلام) تحت السقف الإلهي وليس فوقه، فهو مأمور مثلنا بإطاعة الأوامر التي ينقلها لنا عن إلهنا، وليس فوقها، ولا يحق له مخالفتها... ويمكن أن تقارن هذا الكلام مع ما تسمع عنه من الملوك والرؤساء الَّذِينَ هم فوق القانون والدين!

هناك مفهوم قرآني لحالة وصفه تعالى بأنه يرزقنا ويطعمنا ويسقينا... نفهمه إذا تصوّرت نفسك صمّمت كائنات وجعلت فيها صفة الجوع لتأكل وتنمو... وخلقتها في بيئة ما، فهل ستخلق لها الطعام جاهزا ساخنا تنزله عليها من السماء في أطباق؟ أم كلما جاعوا ينبثق الطعام فجأة أمامهم؟ أم ستجعله متاحا في البيئة التي خلقتهم فيها؟ وإذا أتحته في بيئتهم ألست أنت الذي أطعمهم أم لن يؤمنوا بك كرازق لهم إلا حين ينبثق الطعام أمامهم من الفراغ فجأة وجاهزا للأكل؟ وفرضا لو حصل هذا وانبثق الطَّعَامُ أَمَامَهُمْ من الفراغ كلما جاعوا، فستجد من يقول بأن الطبيعة فيها خاصية انبثاق الأكل منها، وهذا هو نفس الأساس الفكري الفاسد للذين يقولون إِنَّ الكون مخلوق هكذا لوحده... بلا إله صمّم وخلق.

من هذا المثال تفهم كل كلام القرآن عن صفات أفعاله تعالى معنا، فهو أحياني، مع أني مولود من أبوين، وهو ربّاني، مع أني تربيّت على يدي أهلي، وهو كساني وأطعمني ورزقني... لأنه تعالى صمّم كل ذلك عالما بأدق التفاصيل وما سينتج عنها.

الكلام يجرّ الكلام، فالذين أنكروه تعالى بناء على ما تداوله المؤمنون من أفكار ساذجة وبسيطة، فهم ليسوا معذورين لأن كلام المؤمنين ليس كلامه تعالى، فسبحانه زرع فينا كلّنا بذرة الإيمان البدائي "الفطري" كممهد وطريق للإيمان الراقي من بعد التفكّر بآياته، وقد ذهب الناس في هذا نحو السذاجة بشقيها، من شرك به تعالى بالإيمان بإله للمطر وآخر للريح... وبالنار كإله بسبب التقدير والمهابة من إحراقها... ومن توحيد له تعالى مع سذاجة وطفولية بجعله تعالى خلف عموم ما لا نعلم سبب حصوله، وخلف عموم ما نفقد القدرة على التحكّم به... فسبحانه ينزل الماء على معنى الفعل المباشر وبدون أسباب ومسببات لحصول المطر، كأمر يصدر منه تعالى وينزل الماء، فهذا إيمان طفولي ساذج "أولي بدائي" سببه المعطيات الناقصة التي اعتمدها الكثير من المنتمين لدينه تعالى، وبها فسّروا كلامه تعالى متعلقين بمعلوماتهم تاركين الالتزام بحرفية كلامه تعالى، فتجد فرقا هائلا بين كلامه تعالى وكلام أنبيائه، وبين كلام غالبية المؤمنين التفسيري الاشتقاقي لكلامه تعالى وكلام أنبيائه.

بناء عليه، حِينَ نكتشف سبب حصول ظاهرة ما، أو سبب تركّب مخلوق ما، فَإِنَّ غالبية الناس يستحضرون كلام المتدينين لينتقدوه، فما يقول المتدينون عنه أن الإله يفعله، فله سبب واضح ولسنا نرى الإله يفعله...

هكذا تصير أمام كفر به تعالى بناء على سذاجة ما يقوله المنتمون لدينه تعالى، بينما هم كلاهما تاركون لكلامه تعالى، فالمؤمنون بغالبيتهم عبر التاريخ أصروا على السذاجة والطفولية إلا ما ندر منهم، والنتيجة طرحهم لدينه تعالى كدين للمتخلّفين والجهلة والبسطاء... والكافرون بدينه تعالى يتحججون بترهات المؤمنين كعذر لهم ليكفروا، بينما كلامه تعالى أمامهم، وللأسف لديهم غنيّة أخرى، فيقولون إنَّ المؤمنين لا يقبلون تفسير كلامه تعالى إلا من المؤمنين، فهم يمنعون الآخرين من تفسير كلامه تعالى ويعتبرون النتائج كفر، وبالتالي فلو كافر فهم كلامه تعالى بشكل صحيح، فهو سيبقى كافرا لأنه لم يَتَمَاشَ مع كلام المنتمين لدينه تعالى، لا، فإن كان لديه في مسألة ما فهم ووعي يفوق ما لدى المؤمنين، فهو المؤمن بهذه المسألة، وهم ضالّون بسبب سذاجتهم وطفوليتهم، وغالبا بسبب فساد في قلوبهم، فقد وصف القرآن قلوب بعض بني إسرائيل بأنها أقسى من الحجارة كما ورد في الآية 74 من سورة البقرة {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً...}، وهذا ليس خاصا بهم فالمسيحيون فيهم البركة فيما فعلوه حين حكمت الكنيسة، والمسلمون فيهم البركة أيضا حين انقسموا لعلماء وعاظ السلاطين، وهذه التسمية تعني أنهم يفتون بما يهواه الْحَاكِمُونَ، وبين ساذجين صلبيين لا يقبلون الحق حتى لو كان عليه مليون دليل فيبقون مدافعين بشراسة عن عقيدة مذهبية أو طائفية... ومعلوم لك أن الكلام بالعموم وليس عموميا، ففي المنتمين لدينه تعالى عبر التاريخ روائع من الفكر والحكمة... ولكن للأسف فواقع الحال أنهم نادرون.

بالنسبة للتوسّع في الفرق بين دينه تعالى وكلامه، وبين دين المنتمين لدينه تعالى وكلامهم، فراجع كمثال دراستنا للآية 6 من سورة الزمر.

(قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ{15})
{قُلْ} عبر هذا القرآن: {إِنِّي أَخَافُ}، فَأَشْعَرُ بوقوع خطر أكيد لا يمكنني تَجَنُّبُهُ، {إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي}، إن خالفت كلام المسؤول عني من مستوى إلهي، فأخاف من {عَذَابِ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، حيثُ هناك يوم، زمن، سيحصل فيه عذاب، فسيتم تعريض البعض لما يؤذيهم، عظيم، ولن يكون سهلاً عادياً، وأنا أشعر بالخطر من هذا العذاب والذي لا يمكن تَجَنُّبُهُ إن خالفت أوامره تعالى.

لا تَنْسَ أن هذا الإعلان موجّه للمكذبين الممترين العادلين عن الآيات... المتذاكين أصحاب الاقتراحات التي يُمْلُونَهَا على الإله سبحانه... فهم مستهترون بمصيرهم الواضح من وجود قدرة فائقة متحكمة بمصير كل شيء في الدنيا، بينما النبي محمّدٌ (ع) نموذج يوجّه القرآن كلامه لنا عبره، لأنه إن قال هذه الجملة {إِنِّي أَخَافُ}... فمحمّد (ع) فعلا يخاف إن عصاه تعالى، وأنا كمؤمنٍ بدينه تعالى أرى نموذجاً بشرياً راقياً لأكون مثله، والكافرون لا يعرض عليهم سبحانه حضرتي أنا كنموذج، ولا أي مؤمن عادي كنموذج، وهكذا نرى معنى أمره تعالى لنبيّه محمّدٍ (ع) في العديد من السور ليقول شيئاً ما، لأنه نموذج فيه لياقة ومؤهلات توجيه الأوامر الإلهية ليلتزم بها.

الخطأ الذي نقع فيه عادة من تقديس المؤمنين من غير الأنبياء، كتقديس كلام العلماء، فَيَصِيرُ كلامهم وسلوكهم هو الدين، ونصير أمام تراكم ثقافي ديني كتراث لا يمكننا مخالفته حتى لو رأينا أنه مخالف لكلامه تعالى! وهم كمؤمنين على الرأس والعين، فنحترمهم ونجلّهم ونقدّر أفعالهم... ولكنهم ليسوا نموذجاً مثالياً من المستوى المطلوب إذا قسناهم إلى نموذج محمّد بن عبد الله الذي نزل عليه هذا القرآن وَوُجِّهَ له الكلام كما في آيتنا هذه وغيرها العديد من الآيات، ومن هنا يمكننا الانطلاق لتصحيح عموم ثقافتنا وتقويمها معتمدين الطريقة الإلهية، حيثُ تجد عرضاً لنماذج فريدة من تاريخ البشرية ليكون مثالاً نقتدي به، وها أنت أمام النموذج محمّد، وسيأتيك في السورة كلام رائع عن الفتى إبراهيم، وعن قصد لم أَرْسُمْ (ع) التي تَخْتَصِرُ "عليه السلام" لتنتبه أنه مثلي ومثلك إنسان، ولكنه اختار الزكاة في فكره وعمله، فَارْتَقَى عنّا بشكل هائل...

بقي شيء ضعه في بالك دائما، فَالخَشْيَةُ ليست مرادفة للخوف، فَالخَوْفُ شعور سببه تصوّر التلبّس بحصول الضرر المعنوي أو المادي من شيء تشعر بفقدان إمكانية تجنب ضرره، والحلّ باقتحامه لتحمّل نتائجه أو الفرار منه إن

استطعت. أمّا الخشية فشعور سببه تصوّر التلبّس بحصول الضرر المعنوي أو المادي، ولكن مع الشعور بضرورة تجنّب الشيء غير المرغوب والذي تتوقّع حصوله، فتشعر بإمكانية تَجَنُّبِهِ، ولا تريد اقتحامه. كمثال، المؤمن يخاف من عقابه تعالى إن عصاه لأنه يعلم أن العقاب لا يمكن تَجَنُّبُهُ، والمؤمن يخشاه تعالى فلا يرتكب الذنب لأنه يتوقّع العقاب. في حالة الخوف تصير المواجهة مع الخطر حتمية، أمّا في حالة إمكانية تجنّب الخطر فهي الخشية. ضع هذا المعنى في بالك وسترى روعةً في الدقّة القرآنية عند استعمال هذه التعابير.

(مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ{16})
{مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ}، فالشخص الذي يتم صرف العذاب عنه، حيثُ يتم تحويل العذاب باتجاه آخر عنه، {يَوْمَئِذٍ}، يوم القيامة من الموت، {فَقَدْ رَحِمَهُ}، لأنه نال العناية الإلهية لما فيه مصلحته، وذلك الانصراف للعذاب عنه، هو {الْفَوْزُ الْمُبِينُ}، وبشكلٍ واضح هو الحصول على شيء له قيمة عالية ومرغوبة.

نُلاحِظُ من القرآن تعابيرَ مشابهةً، تتحدث عن الفوز من ناحيتين، الأولى وهي الأهم، وهي الفوز بالنجاة من النار، كما تقول الآية هنا وكما ورد في الآية 185 من سورة آل عمران ...{فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}، والفوز الثاني بدخول الجنة ووَرَدَ مراراً.

(وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ{17})
{وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ}، فيصيبك ضرر من أي نوع، حيثُ يَتَغَيَّرُ حالك أو ما حولك إلى الأسوأ، جسدياً، أو مالياً، أو نفسياً، أو أمنياً... {فَلَا كَاشِفَ لَهُ}، وَلَنْ يُبْعِدَ الضرر، {إِلَّا هُوَ}، الله تعالى، فإذا دعوت غيره ليكشف الضرّ فلن يستجيب لك، ولن يقدر غيره تعالى على فعل أي شيء.

{وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ}، فيصيبك تعالى بخير من أي نوع كان، من صحّة أو مال... {فَهُوَ}، سبحانه، {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، حيثُ يَقْدِرُ على فعل أي شيء يريده بأي شيء، وَلَا يمكن لأي أحد منعه تعالى من تقديم الخير لك ولغيرك.

الآياتُ هنا خبر لنا منه تعالى لتوضيح حقيقة الأوضاع التي نحن فيها، فَنَحْنُ تحت سيطرته هو تعالى وَحْدَهُ، وَيُمْكِنُهُ تعالى أن يصيبنا بالخير أو بالضرر ولا يمكننا ولا يمكن لغيرنا منع حصول ذلك.

هذا الكلام الإلهي وصف لحالتنا التي خَلَقَنَا تعالى عليها، حتى نؤمن بسهولة بقدرة فائقة تسيّر الأمور، بقدرة لها التحكّم فيما لا تحكّم لنا به، فهذا هو منشأ الإيمانِ البدائي به تعالى، والذي من المفروض أن يتطوّر مدعوما بالتفكّر في بقية الآيات الدالّة على وحدانيته تعالى وعلى صفاته الحسنة.

من ناحية ثانية فمهما علت قدراتنا الفكرية والمعرفية والعضلية... فلسنا كلنا نحقّق ما نريد، وَلَسْنَا كلنا أغنياءَ ولا أصحاءَ ولا في أمان... وهذا ما يشير إليه حديث منسوب للإمام علي بعبارة ترى الأمور من منظورنا نحن: عرفت الله بفسخ العزائم ونقض الهمم.

سياقُ الكلام هنا عن وضوح وقوعنا تحت حكمه وقراراته تعالى في الدنيا، كآية لنؤمن به تعالى ونوحّده، ولنفهم أن كلامه تعالى عن الآخرة والحساب هو مصيرنا الحتمي.

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ{18})
{وَهُوَ}، الله سبحانه، {الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}، فَقُوَّتُهُ وإرادته تقهر أي قوّة أو إرادة، وَسَوَاءٌ أعجبهم أم لم يعجبهم فما قرّره تعالى سيحصل، فَقُدْرَتُهُ فوق قدرة عبيده الذين خلقهم وهو مالك لهم، وَأَيُّ قدرة أو قوة أو سيطرة... عند عباده، فلديه سبحانه قوة قاهرة غالبة فوقها، وَمَا يقرّره تعالى يمشي حتى لو لم يوافق عباده عليه...

{وَهُوَ الْحَكِيمُ}، الذي يرى الصوابية في الأمور، فلا يتصرف عن عبث أو عن تسلية، وَيَفْرِضُ إرادته على عبيده ولكن بصوابية ضبط الأمور على المطلوب.

{وَهُوَ الْخَبِيرُ}، فلديه العلم بالحوادث والأخبار، وبالتالي عِنْدَمَا يقرر شيئاً ما ويفرضه على عباده، فهو خبير يَعْلَمُ ماذا سينتج عن قراره.

فَهِمْنَا من الآيات السابقة أنه سبحانه خلقنا ولم يستشرنا حين خلقنا، وَمِنْ رحمته قرّر خلقنا، وجعلنا نعيش في عالم الامتحانات، وأمرنا باتباع رسله، وجعل لنا آخرة فيها جنة ونار. وكل هذه الأشياء مفروضة علينا، حيثُ قَهَرَنَا سبحانه بها، فتأتي الآية هنا لتؤكد أنه سبحانه قهرنا ولكن بحكمة وخبرة.

لَاحِظْ أننا بعض الأحيان لا ننتبه لمعاني صفاته تعالى، {فَالْحَكِيمُ} تعني أنه لا عبث ولا تصرّف إلا عن صوابية، وعن أي مستوى نتكلّم؟ عن مستوى إلهي، فأنا بدماغ محدود في جمجمة أَتَفَلْسَفُ على ربّي سبحانه وأسأل عن أشياء لم تعجبني! لماذا مات ذاك الطفل؟! ولماذا هذا ولد معاقاً؟ لماذا لم يحصل ما أرغب به في حياتي؟... هذه الأسئلة وغيرها الكثير فإن كانت اعتراضيةً فهذه مشكلة إيمانية عميقة، وإن كانت طلباً لفهم سببها، فهي أسئلة عادية أجاب عنها القرآن، لأننا في دنيا البلاء... وإن كانت نابعة من الشكّ في حكمته تعالى، وكأنه سبحانه يترك الأمور تجري بدون أن يحسب لها حساباً له معنى وقيمة، فهذه مشكلة فهمنا لصفاته تعالى، لَوْ جمعت قوّة دماغ أعظم ألف مفكّر في دماغ واحد، فهل تعتقد أنك بدماغك يمكنك أن تحلّل قرارات اتخذها دماغ بقوّة ألف دماغ؟ وهل يمكنك فهم أبعاد قراراتهم؟ رُبَّمَا تدرسها لتفهمها، ولكن السؤال هو: هل يمكنك اقتراح شيء كتعديل على قرارات لم تخطر ببال دماغ بقوّة ألف دماغ؟ الآن ما قيمة الدماغ بقوة ألف دماغ أمام العليم الخبير الله عزّ وجلّ؟ نَحْنُ وكل الكائنات من بشر وجنّ وملائكة (ع)، لو اجتمعت قدراتنا كلّها في كائن واحد، فمقدارها أمامه تعالى كمقدار حبة رمل أمام السماوات والأرض.

تُلَاحِظُ كثيراً في القرآن وصفه تعالى لنفسه بالحكيم من بعد وصفه بالعزيز، وهنا جاءت من بعد وصفه بالقدير والقاهر، لترى أنه تعالى ورغم عزّته وقدرته لَمْ يتصرّف إلا بحكمة، وَبِالرَّغْمِ من أنه ولا أي شيء يمكنه التأثير سلباً عليه تعالى، حتى لو لعب أو تسلّى أو عبث... سبحانه، ولكنه تعالى صادق شفّاف ويعاملنا باحترام ليس لأننا لنا قيمة، بل لأنه تعالى هو أعطانا القيمة بمعاملتنا باحترام، لأنه رَحْمَنٌ حكيم.

(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ{19})

{قُلْ} أيها الرسول محمّد عبر هذا القرآن: {أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً}؟ فها أنا أيها الناس قمت بواجبي وأبلغتكم رسالة ربكم سبحانه، فهل تبليغي لكم يحصل من دون رقابة؟ فأي شيء هو أكبر شهادة؟ أي شيء يكون شاهداً مؤكّداً على تبليغي للرسالة لكم بشكل كامل؟ فهل تريدون ملاكاً أو جناً أو واحداً من الناس ليشهد على تبليغي لكم كما اقترح البعض ونقلت اقتراحه الآية 8 من هذه السورة.

{قُلْ} لهم عبر هذا القرآن: {اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ}، لأنه أرسلني، وهو يراقبني، ويشهد على أعمالي، فيعلم ويؤكّد أني أبلغتكم رسالته.

هذا ضمناً يعتمد على وضوح قراره تعالى بإرسال رسل لنقل كلامه للناس لهدايتهم، حيثُ مدة بعد مدة سيأتي رسول منه، وفرضاً لو ادّعى أحد ما أنه رسول، وكان كاذباً، فسيبدو كذبه بأدنى تأمّل بسبب الفرق الهائل بين شخصية الكذّاب وبين الذين يختارهم تعالى كرسل، فهم من أرقى الناس أخلاقاً، وسيظهر كذبه في عرضه على الناس حتماً شيئاً فاسداً من العقيدة أو التشريع أو السلوكيات، فمهما حاول ليمثّل ويقلّد رسله تعالى فحتما سيسقط... هذا من جانب، ومن جانب آخر حيثُ سبحانه أيّد رسوله محمد (ع) بهذا القرآن كآية، وبالنسبة لنا لدينا شخص الرسول محمد بصفاته وتصرفاته لنرى إن كانت متماشية مع صفات وتصرفات رسول إلهي، ولدينا ما يدّعي أنه يصله من الإله، فهل مضمونه حق وصلاح كما ينبغي بالكلام الإلهي أن يكون... أمّا من ناحيته تعالى فهو يراقب كل شيء، ويخبرنا بأنه يشهد على صدق محمد بأنه رسوله، فهذا الخبر ليس المقصود منه أن يكون دليلاً من محمّد على صدق رسوليته، لا، بل هو خبر يتضمن تَأَكُّدَ واطمئنان محمد بأنه رسول حين ينقل شهادته تعالى على ذلك، ومن ناحية ثانية هو خبر منه تعالى كمراقبٍ لكل شيء، وتصديق هذا الخبر المنقول عبر القرآن يعتمد بالأساس على تصديق محمد "ذي الصفات والتصرفات اللائقة برسول"، ويعتمد على تصديقنا لإلهية مصدر القرآن "ذي الكلام الحق والصلاح اللائقة بكتاب إلهي".

مضافاً لما سبق لدينا شيء في كلام القرآن يرينا دائماً النظرة الإلهية للأمور، حيثُ دائماً ترى أن المتكلّم أو الناقل لكلام الآخرين هو الله سبحانه، فلو كان القرآن من تأليف أي أحد غيره تعالى لوجدت فيه ولو لمرة واحدة بالصراحة أو بالفحوى، كلاماً يبدو منه أن المتكلّم أو الناقل للكلام ليس الله تعالى.

خذ مثلاً عن ذلك نقله تعالى لكلام زوجة عمران (ع)، حيثُ قاطع تعالى نقل كلامها ليقحم جملة ضرورية متعلقة به سبحانه كما ورد في الآية 36 من سورة آل عمران {فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ}...، وهذا نموذج رؤيته سهلة جداً، ولكن كل كلام القرآن على هذا النمط، وآيتنا هنا مثله، فلا تفكّر فيها لوحدها وكأنها خبر عن شهادته تعالى على صدق محمد لتؤمن به، وكأنها الدليل الوحيد على ذلك، لا، لأنها معتمدة على كمّ هائل من الأدلة، ومن بعد ذلك فهي كخبر قرآني تصير دليلاً مضافاً لطريقة كلام القرآن معنا دائماً من النظرة الإلهية.

{وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ}، حيثُ نزل القرآن على وعيي بلا كلام، عبر ملائكته تعالى، وهذا اسمه وحي، حيثُ تحولت الكلمات الإلهية إلى كلمات باللغة العربية ووصلت إلى ذهني وأنا قرأتها، فصار اسمها قرآناً، فصرنا نستطيع نحن البشر قراءتها. الكلمة الواحدة منه وصفها قرآن، والجملة الواحدة قرآن، والسور قرآن، وكلّه قرآن، وكلمة قرآن وصف لما تحوّل من معلومات من الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية وصار بإمكان البشر قراءتها فهي قرآن.

هذا القرآن نزل عليّ، {لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ}، لأنقل لكم الخبر عن شيء سيئ سيحصل معكم لأنكم لم تؤمنوا، فأنتم الآن في حالة استحقاق للعقاب الإلهي.

ولأنذر بالقرآن، {وَمَنْ بَلَغَ}، من بلغه من وصل إليه هذا الكلام الإلهي القابل للقراءة "القرآن" بالتمام فهو تمّ إنذاره، وعبر التاريخ بعد أن يموت الرسول (ع) سيكون القرآن هو الإنذار الإلهي لكل الذي على حالة نتيجتها العقاب. والكلام هنا ضِمْنياً يشير إلى أن محتوى القرآن يؤكد على إلهية مصدره.

{قُلْ} لهم أيها الرسول: {أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ}، فأنتم تؤكدون صحة مقولة، {أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى}! فهل أنتم تقولون بأنكم متأكدون بأنه تعالى ليس وَحْدَهُ الإله، وتقولون بأن معه آلهة أخرى!؟ فهناك كائنات أخرى لديها صفات وقدرات إلهية، فقدراتها فائقة وتخلق من لا شيء ومحيطة بكل شيء...

{قُلْ لَا أَشْهَدُ}. لا أقول أن هذا صحيح، {إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ}، فقط كائن واحد له الصفات والقدرات الفائقة فوق صفات وقدرات المخلوقين.

{وَإِنَّنِي بَرِيءٌ}، فلا ارتباط لي ولا علاقة لي، {مِمَّا تُشْرِكُونَ}، بما تقولونه عن شركاء في الألوهية له تعالى.

كما تلاحظ حيثُ قفزت الآيات عمّن أنكر وجود إله من أصله، والذي نُسَمّيهِ بالملحد، وانتقلت إلى من أشرك، معتمدة على علمه تعالى بما جعله فينا من خاصية تدفعنا غصباً عنَّا للإيمان به بسبب صفة الملاحظة والفكر التي فينا، وبسبب كثرة آياته تعالى وتنوّعها. والمُلحد لن يتحفنا بجواب عقلاني ليقنعنا عبره أنه لا يوجد إله، ولذلك تجد عموم القرآن يلفت انتباهنا للآيات الدالة عليه تعالى وعلى توحيده وبعدها يقفز عن الذي أنكر دلالتها على وجود إله، معتبراً أنه كاذب جاحد... وتميّزت سورة الرعد والجاثية والواقعة بأنها مناسبة لاعتبارها موجهة لمن أنكر الإله، ففيها كلام يبدأ من الصفر عن الإيمان به تعالى.

تذكّر دائماً أننا كبشر جعل سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرّف عليه سبحانه من ملاحظة أفعاله "آياته في خلقه" ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء... وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق بالقوّة الإلهية الفائقة عند الوقوع في الشدائد... فوضعنا كلمة نصف بها الكائن ذَا الصفات والقدرات العالية جداً عن قدراتنا، وهي كلمة "إله" كوصف لِذِي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلّق به عند الوقوع في الورطات...

في الحقيقة الكائن الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة هو الله سبحانه، حيثُ تساهل الناس في استعمال كلمة إله لتنطبق على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، فيطلقونها على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أن فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}...

القرآنُ يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهي، فيقوّم اللغة ككلّ، ويُقَوِّمُ دقة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة "إله"، فيخبرنا أنها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرّج في استعمالها.

المشركون الناطقون باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... استعملوا كلمة إله بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

قَارِنْهَا مع كلمة "ربّ"، فأنا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... فهذه كلمة تتحمّل التدرّج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهي، فهي لا تتحمّل التدرّج، فهي حصراً له تعالى ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهي.

كلمةُ إله في حقيقة معناها لا تتحمّل التدرج لِيُوصَفَ بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، فحين يخبرك أنه خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، وسبحانه وظّف الملائكة (ع) التي خلقها لتنفيذ بعض أوامره... وهكذا ترى بوضوح أنه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، فماذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدّد له والمميّز "الله" جلّ جلاله قد فعل كل شيء، فما معنى ألوهية غيره! وهذا ملخّص مُبَسَّطٌ للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

أَلْفِتُ انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، فحصروا استعمال كلمة إله للإله الكبير، واستعملوا للآخرين وصف الربّ، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربّة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون: إله المطر وإله الحرب... وعلى كل حال فالقرآن رفض توصيف غيره تعالى بالألوهية والربوبية من مستوى إلهي، فالمشركون يعتقدون بوجود كائن "ربّ" مسيطر على المطر من مستوى إلهي وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم أنه توصيف لألوهية أربابهم.

من ناحية ثانية لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، فيصير الهوى إلهاً كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}...، فهي لا تشير لاعتقاد الشخص بأن هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لدين فيه ما يهواه، عملياً هو يعبد هواه.

بالنسبة لأصل كلمة "الله" فهناك كلام كثير حولها، ويبدو من تتبّع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حالياً بالسامية... أن الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة "إله" ومنها جرى اشتقاق اسم العلم "الله"، وهذا الاسم لم يكن متداولاً في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط فللآخرين نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، فكلمة إله واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات ما يسمّى بأصل اللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة الله من وصف الإله ومتى، فهل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قديماً عبر الوحي، فالأرجح عندي "استذواقاً" أنه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك "استذواقاً" لأن المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين بلا مستند صريح لتأكيد كلام ما، فهو بطبيعته يصير "استذواقياً" لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا ذات نفسي ففي سياق كلام آخر قد أَسْتَذْوِقُ أنه تعالى هو سمّى نفسه، فليس من المعقول ولا من المقبول منك أن تطلب حسماً من الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دليلاً حاسماً، ولا مقبولٌ من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنه الصحّ إلا اللهم إن قدّم دليلاً دامغاً، وهذا لا يبدو ممكناً في مسألتنا هذه.

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ{20})
الآية السابقة ذكرت نموذجاً عن اقتراحات الكفّار عن الملاك الشاهد الذي يريدونه كدليل على صحّة رسالة النبي (ع) والكتاب الذي معه، والله سبحانه أكبر شهادة من أي كان، وَشَهِدَ سبحانه بصحّة رسالة النبي محمد (ع) عبر هذا القرآن... ولكن هناك من الناس من يعرف يقيناً بصحة هذه الرسالة، ولكنه يخفي شهادته!:

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ}، الذين وصلهم منّا كتاب كالإنجيل والتوراة، {يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ}، فهل يخطر ببالك أن إنساناً طبيعياً لا يعرف ابنه الذي ربّاه! فأهل الكتاب يعرفون الكتاب عندما يكون إلهياً، ومن محتواه يميزونه عن تأليف البشر، وبكل سهولة مثل سهولة معرفتهم لأبنائهم.

لَكِنْ هل نفعتهم هذه المعرفة؟ لا، فهم، {الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ}، حيثُ فَقَدَتْ أنفسهم قيمتها، وَصَارَتْ مُهَانَةً مُحَقَّرَةً وستتعذّب، {فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}، لا يعتقدون، والكلام هنا عن القرآن الذي يعرفون أنه منه تعالى ولم يؤمنوا به فخسروا أنفسهم.

تُلَاحِظُ في سورتنا هذه تكرار هذه الطريقة في التعبير من قبل في الآية 12، فهنا اعتمدت الوصل بين الجملتين بـ "الذين" لتريك أنهم في نفس الوقت مَوْصُوفُونَ بمعرفة القرآن أنه من مصدر إلهي، وهم موصوفون بأنهم خسروا أنفسهم بسبب إعلانهم الكفر به.

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ{21})

{وَمَنْ أَظْلَمُ}، فمن هو الشخص الموصوف أنه الأشد ظلماً، أشدّ ابتعاداً عن العدل والإنصاف، {مِمَّنِ افْتَرَى}، من الذي اخترع، {عَلَى اللَّهِ كَذِباً}، فقال شيئاً غير صحيح على الله تعالى وهو اخترعه ويعلم بأنه يكذب، فهل يوجد ظلم أكثر من هذا؟

الكلامُ عمومي ولكن سياقه عن الذين يعرفون الكتاب الإلهي ويفترون كذباً عليه تعالى كلاماً غيره، وبذلك يعارضون هذا القرآن، فهم يعرفون أن القرآن منه تعالى، ولكنهم يفترون عليه تعالى كلاماً كَاذِباً مُعَارِضاً لما في هذا القرآن، حتى يكفروا بالقرآن ويكفر الآخرون به.

{أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ}، فمن أظلم ممن لم يصدّق الأمور المميّزة المنسوبة له تعالى؟ حيثُ هناك أمور فعلها الإله العظيم وهناك من يقول بأنها كاذبة ليست إلهية؟ والآيات السابقة تحدّثت عن نموذج اقتراحهم نزول ملاك ليؤمنوا لأن كل آياته تعالى لم تَكُنْ كافية لهم ليؤمنوا!؟ فهناك المفتري عليه تعالى كذباً وهناك المكذبون لكلامه تعالى وهم لم يفتروا الكذب عليه تعالى بل فقط قالوا بأن الآيات لم تقنعهم، وَطَبْعاً يوجد خليط ما بينهما، فهل يوجد أحد يوصف بأنه ليس معه حق فيما فعله، فهو ظالم، فهل هناك أظلم ممن افترى وممن كذّب بأمور مميزة منسوبة له تعالى!؟

{إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ}، لا يوصف بأنه فالح، فلم يكن مُجِيداً في عمله، {الظَّالِمُونَ}، التاركون للعدل والإنصاف، فَالظُّلْمُ أنواع كثيرة، وَالتَّصَرُّفُ الذي ليس معنا حق في فعله أنواع كثيرة، ولكن من أشد أنواع الظلم هو الافتراء على الله تعالى، وسياق الكلام هنا عن المشركين المفترين له تعالى شركاء، وعن أهل الكتاب الذين أنكروا كون هذا القرآن كِتَاباً إِلَهِيّاً.

خذ مثلاً قولي عنك أنك قلت "لي" عن اكتشافك لدواء ما. فإن لم تكن قلت "لي" ذلك، فأنا أفتري عليك، وإن كنت لم تكتشف الدواء، فأنا أفتري عليك كاذباً، فأنا ألصق بك "أفتري" شيئاً غير صحيح "كاذباً". ولو كنت اكتشفت الدواء فعلاً فعندها أَكُونُ مفتريا عليك لأنك لم تقل ذلك لي، ويكون افترائي غير كاذب عند مقارنته مع الواقع.

لَاحِظْ تقسيم الآية لمن افترى ولمن كذب بالآيات، فلا تفهمه كتقسيم حدّي صلب، لأنَّ الطبيعة البشرية التي تفرض تفاصيل كثيرة في الأمور، تجعل الكلام عنها بالعمومية كَلَاماً عن نماذج، ولهذا السبب غَالِباً كلام القرآن عن نماذج، ومعلوم لك أن البعض افترى، وآخرون افتروا كذباً، وآخرون افتروا وكذّبوا بالآيات، وآخرون افتروا كذباً وكذّبوا بالآيات... ومعلوم لك أن ملحداً كافراً به تعالى ولديهم كتب ومحاضرات في ذلك، ولسبب ما قد تمرّ عليه أيام يشعر فيها بالإيمان به تعالى، وبالعكس فَمُؤْمِنٌ من الدرجة المنخفضة لسبب ما يمر في فترة يكفر فيها به تعالى... وَتَقْرِيباً كل المواضيع المتعلقة بالناس مطّاطة وكثيرة التفاصيل، وَنَضَعُ هذا دائماً في بالنا ومنه نفهم أن كلام القرآن عن حالنا في الدنيا أو نقلاً عن الآخرة فهو غالباً عن نماذج.

(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ{22})

{وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ}، ففي الزمن الذي يجمع سبحانه الناس بقرار منه سواء قبلوا أم لم يقبلوا، {جَمِيعاً}، بدون أي استثناء، وَلَنْ ينسى سبحانه أي واحد منهم، {ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا}، للذين قالوا إِنَّهُ سبحانه لديه شركاء في الألوهية، فيقول سبحانه لهم في يوم القيامة:

{أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}؟ حيثُ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ يوجد آلهة غير الله تعالى، وَفِعْلِيّاً أَنْتُمْ بينكم وبينهم شراكة عبد وإله، على أساس أنكم تعبدونها وتدعونها فتستجيب لكم، حيثُ تُقَدِّمُونَ لها العبادة والدعاء والنذور... وَتُقَدِّمُ لكم الرزق وَالصِّحَّةَ... فأنتم وهم شركاء بحسب اعتقادكم، وَقُلْتُمْ هذا الكلام وهو "زعم" لِأَنَّهُ كلام لا يستند في صحته على أي دليل سوى قولكم، وفي الحقيقة والواقع لا يوجد شركاء لله تعالى، وَحِينَ يحشركم سبحانه فأين هم حتى ينفعوكم في هذا اليوم الذي تتحاسبون فيه وستنالون العقاب؟

الجملةُ هنا على معنى: ما معنى وما نفع كل فلسفتكم وأفكاركم... التي تبررون بها شرككم، وَمَا معناها حين ستتواجهون مع من سيحاسبكم عليها؟

(ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ{23})
بعد هذا السؤال لهم في يوم القيامة، {لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ}، فَمَا تعرّضوا له في الدنيا وتأثّروا به وَتَغَيَّرُوا به وجعلهم مشركين، فَفِي يوم القيامة يتكلمون وكأنهم لم يفتتنوا بالشرك! {إِلَّا أَنْ قَالُوا}:

{وَاللَّهِ}، نؤكّد بصاحب الاسم المحدّد المميّز الله، {رَبِّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}، لم نكن نقول بأنه تعالى معه شركاء في الألوهية، وَمَا كان يبدو منّا أننا قصدنا الشرك به تعالى لِأَنَّنَا لم نكن نقصد الشرك، وَلَمْ نكن نعرف أن الدعاء لغير الله تعالى هو شرك، ولم نكن نقصد اعتبارهم آلهة كَامِلَةَ الألوهية، بل اعتبرناهم آلِهَةً صِغَاراً ولم نقصد أن نشركهم في الألوهية الحقيقية... أو اعتبرناهم مميزين عنده تعالى وأنه سيسعد بتأليههم... أو اعتبرنا الشرك شَيْئاً لا يهمّه تعالى...

نفهمها مثل حالة الذي هنا في الدنيا يعلم أنه ذاهب إلى عقاب شديد بسبب جريمة ارتكبها، وَيَبْدَأُ بالتبرير بأنه لم يقصد ولم يعلم ولم ينتبه.... ولا يعترف بجريمته لأنه مرعوب من العذاب.

الفتنة هي التأثّر وتغيّر الحال "مَعْنَوِيّاً أو مَادِيّاً" بعد التعرّض لشيء ما، وتتدرج من أعجبه وَتَعَلَّقَ به وتغيّر بسببه، إلى أجبروه عليه وتماشى معه وَتَغَيَّرَ بسببه، أو تعرّض للشيء ولم يتغيّر، حيثُ افتتن ولم يتغيّر.

كُلُّ هذه الفتنة "الامتحانات" التي تعرّضوا لها في الدنيا، بين الإيمان به تعالى وبرسله، وبين مزاجيتهم والثبات على موروث عقائدهم وبين التفلّت من التقيّد بدينه تعالى وبين تصرفهم على هواهم وما يشتهونه... حيثُ إِنَّهُمْ من هذه الفتنة اختاروا الشرك به تعالى، وَكُلَّ هذا تناسوه، وبرّروا بأنهم لم يكونوا مشركين!

قبل ذلك خذ مَثَلاً عن المسيحيين الذين ألّهوا النبي عيسى (ع)، حيثُ في يوم القيامة سيقولون: لقد قلنا إِنَّ الإله واحد وَنَحْنُ لم نشرك حين قلنا إِنَّ الله تعالى ثالث ثلاثة، حيثُ كُنَّا نقصد أنهم ثلاثة في واحد... وَتَبَيَّنَ أن كلامنا غير صحيح وعليه حساب ولكنها مجرد كلمات قلناها ونحن نقصد توحيده تعالى... وآخرون يقولون: لم نقصد الشرك به تعالى لأننا قلنا إِنَّهُ تعالى حلّ في جسد وصار له اسم عيسى، وَلَمْ نكن نقصد أن عيسى شيء والله تعالى شيء آخر، لا، بل كلاهما واحد... وهي مجرد كلمات تَبَيَّنَ أن عليها حساب ولكننا لم نقصد الشرك.... وهكذا من التبريرات والأعذار... ولكن لن يقبل سبحانه أعذارهم وتبريراتهم، ومن الآن يخبرهم سبحانه بذلك.

(انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ{24})
{انظُرْ}، وجّه اهتمامك العام، لاحظ أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، {كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ}! ها هنا في الدنيا ننذرهم عبر هذا القرآن أنه تعالى واحد لا شريك له وأن الشرك عليه عقاب، ونخبرهم أنهم في يوم القيامة سيقومون بالتبرير للتملّص من شركهم، فانظر لحالتهم في الآخرة كيف كذبوا على أنفسهم! حيث في الدنيا اخترعوا شركاء وهميين لله تعالى وفي الآخرة يقولون إنهم لم يشركوا! {وَضَلَّ عَنْهُمْ}، ولم يكن على الطريق الصحيح، {مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ}، ما اخترعوه ولفقّوه له تعالى حين جعلوا له شركاء في الألوهية، ومن لا شيء افتروا فاخترعوا شركاء لله

تعالى، ولاحظ كيف {ضَلَّ} حيث لم يحصل أي تواصل "إلهي" بينهم وبين الشركاء التي اخترعوها، ولم تأت تلك الآلهة لتنجيهم من العذاب.

كثيرا ما يذهب فكرنا لفهم كلمة {ضَلَّ} كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيرا أم شرا، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فَضَلَّ عنك صيدها. واستعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، حيث لم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهةً، فلن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون لأنه ليس على طريقهم، بل ضالٌّ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ{25})

{وَمِنْهُم}، من هذه النوعية من الناس الذين في يوم القيامة سينكرون أنهم كانوا مشركين، {مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ}، فيعطيك أذنه ليسمع كلامك، {وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ}، على أساس تفكيرهم ونفسيتهم، {أَكِنَّةً}، حيث صار قلبهم مكنوناً، وصار داخل شيء ما، مثل حبة الصوص في البيضة لأنه مكنون فيها، وقلبهم ضمن شيء يمنع دخول القرآن، فلا يعجبهم ولا يقتنعون به، لأنه لا يتماشى مع أفكارهم ونفسيتهم، وعبّرت الآيات العديدة عن هذه الحالة بأن قلوبهم مطبوعة وعليها رين وغلاف وحجاب...

{وَجَعَلْنَا}، {فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا}، ثقلاً في السمع، صعوبةً في السمع، فيسمعون ولكنهم لا يفهمون ما يسمعون، وبتعبيرنا الدارج نقول: سمعُه ثقيل.

{وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ}، فأي شيء مميز من مستوى إلهي تَحْصُلُ لديهم صورة محدّدة عنه، {لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا}، فلا يصيرون في حالة اعتقاد بأنها آية بل يكذبون بها فلا تكون برهاناً لهم على توحيده تعالى ولا على صدق رسله...

{حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ}، فحتى لو أتوا إليك فلا تعتقد أنهم أتوا باحثين عن الحقّ، لا، فهم يأتون إليك لا ليؤمنوا بل فقط ليجادلوك، والجدل هو عموم محاولة إقناع الآخر، وتدرجاته تتحدّد من السياق، وتبدأ من التمسّك بالرأي إلى الليونة، وسياق الكلام عن مجادلتهم لك وهم متمسكون برأيهم لأنهم أصلاً غير مقتنعين بالدين الإلهي، ولا يريدون معرفة الحقيقة بل فقط يتحدثون معك لطرح ما لديهم من قناعة، وليس للوصول إلى نتيجة منطقية عقلانية حقّة.

في جدالهم لك، {يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا الدين الإلهي: {إِنْ هَٰذَا إِلَّا}، فالقرآن والدين الذي تحدثنا عنه، ما هو، إلا {أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}، وهو فقط كلام قديم سطّره وكتبه سطراً بعد سطر الناس الذين كانوا أولاً قبلنا، وهو فقط قصص خرافية وهمية اخترعها الناس قديماً، وليس لهذا الكلام أي ارتباط بمصدر إلهي، وتسطيرها لتصير مكتوبة منذ زمن قديم لا يعني أنها صارت صحيحة.

نتذكّر دائماً أنه تعالى خلقنا وفينا خاصيّات تتحوّل وتتبدّل، مثل إشعال النار قرب الحائط، حيث سيصير لون الحائط أسودَ، ومن يأخذ قراراً بترك الهدى الإلهي، فهذا سيصيبه شيء، وسيصير قلبه "أساس فكره ونفسيته" رافضاً لأي هدى، وبما أنه تعالى خلقنا هكذا بهذه الخاصيّة فينسب سبحانه إلى نفسه إكنان قلوبهم.

لو أطلت عليك، ففي أي شيء من أمور الحياة، فإننا نأخذ فيه قراراً للتصرّف بطريقة ما، وهذا القرار إن لم نتراجع عنه، ففكرنا ونفسيتنا ستتأثّر به، ومع التكرار يصير التأثّر دائماً. ومن بالغ في الكلام ليشارك في الأحاديث ويلفت الأنظار، فبعدها سيبالغ أكثر، وبعدها سيكذب، وبعدها سيصير الكذب متأصّلاً في تفكيره... وسيستصعب رؤية سوء ما يفعله. ومن انحاز للباطل ولو لمرة، وساند أخاه الظالم ضد الغريب المظلوم، مع علمه بذلك، ولم يراجع نفسه ولم يندم... فهذه لن تكون حادثة عابرة بلا أثر، بل سيرتسم لها خط ينحفر في فكره ونفسيته، وأي حادثة مشابهة أخرى بين الحق والباطل، وإن ولسبب ما وقف مرة ثانية مع الباطل، فهذا الأثر سيكبر في قلبه، وإن بينه وبين نفسه لم يندم عليه ولم

يتراجع عنه، فسيصير الوقوف مع الباطل جزءاً من حياته، وهذا هو ما يقوله لنا القرآن عندما ينسب له تعالى أنّه ران على قلوبهم، وجعل عليها أكنّة، وطبع قلوبهم... لأنه خلقنا سبحانه بهذه الخاصية.

تصوّر لو أن ما نفعله لا يؤثّر فينا، ففكّر فيها جيداً وسترى أنه لن يكون لنا شخصية، ولن يكون لنا ميزة لكل واحد منّا عن الآخر، فنحن بين هذا الشخص المنطقي العقلاني الهادئ، وذاك العصبي المزاجي... وهذا هو نفس الشيء الطبع على القلوب والرين والأكنة والغلف... فهو خلقته تعالى لنا بهذه الخاصيّة.

(وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ{26})
{وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ}، فهؤلاء يمنعون الناس بشكل حاسم من التصديق بالقرآن، وذلك عبر قولهم عنه بأنه كتاب قصص خرافات قديمة، {وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ}، حيث يبقون على مسافة بعيدة منه، ويبتعدون عن القرآن.

{وَإِن يُهْلِكُونَ}، فقط يستنفِدون، {إِلَّا أَنفُسَهُمْ}، حيث بابتعادهم ونهيهم عن القرآن فهم إنما يستنفِدون أنفسهم من الخير والصحة والنعيم، لأنهم يقودونها إلى العذاب في جهنم، {وَمَا يَشْعُرُونَ}، حيث لا يتفاعلون مع ما يحصل مع أنفسهم وكأنه لا يحصل، لا يدرون بأنهم يسببون لأنفسهم الهلاك في جهنم، لأنهم كانوا يعتقدون بأنهم يهلكون القرآن بالابتعاد عنه وبإبعاد الناس عنه، ولكن لن يهلك القرآن، بل هم الهالكون.

بالنسبة للتعبير بهلاك أنفسهم، فهو مثل التعبير بهلاك مالٍ، أي استنفاده حتى انتهى، حيث هناك أمور تتعلّق بأنفسهم ستنفَد حتى النهاية، كالسلامة والراحة والصحة... وهذه الأمور سيفقدونها بسبب كفرهم بالقرآن وهم لا يدرون بذلك، حتى لو أخبرتهم به فهم لا يؤمنون بحدوثه، والذي يخبرنا بما سيحدث لهم فهو نفسه سبحانه الذي قرّر حدوث ذلك لهم، فهم الآن لن يشعروا بما سيحدث معهم في الآخرة لأنهم أصلا لم يؤمنوا بها.

مثل الشابّ المتهور الذي تنصحه بقيادة السيارة على مهل وأنت متأكّد أن هذه السرعات العالية التي يقود بها حتماً ستسبّب له أو لغيره الأذى، ويسمع كلامك ولكنه لا يؤمن به، وهو لا يشعر بأن الأذى حتما سيصيبه، ونفس الشيء هنا، فسبحانه يراهم ذاهبين على الخط الذي يوصلهم إلى جهنّم، وأخبرهم سبحانه بذلك، ولكنهم لا يشعرون لأنهم لا يؤمنون بالنار والحساب والحياة بعد الموت.

(وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{27})
{وَلَوْ تَرَىٰ}، ولو صار لديك صورة محدّدة، والكلام عن لو أنك الآن تشاهد شيئاً ستراه في المستقبل، {إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ}، حين يتم إيقاف هؤلاء الكفار على النار، وسياق الكلام عمّا قبل رميهم فيها، {فَقَالُوا}:

{يَا لَيْتَنَا}، حيث نرغب بشيء فاتنا ومن المستبعد حصوله الآن، {نُرَدُّ}، لو يَرُدُّونَنَا إلى الحياة التي فيها تكليف كما كنا في الحياة الدنيا، {وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا}، لأنَّ الأمور المميزة المنسوبة للمسؤول عنّا من مستوى إلهي لا ننكر صدقها، {وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، من المعتقدين بصحّة آياته. يا ليتهم يُرْجِعُونَنَا إلى حياة فيها تكليف، وحين نرجع سنؤمن ولا نكذّب بالآيات الربانية. وهذا لن يحصل أبداً، ولن يردّهم سبحانه إلى حياة كحالة الدنيا، وسترى السبب في الآية التالية.

هم هنا في الدنيا وبكل وقاحة وصراحة وراحة، يكذّبون القرآن والآيات الأخرى ويقولون بأنها أساطير، أما في الآخرة فالندم الشديد، والتمنيات بالعودة إلى حالة الحياة الدنيا حتى يؤمنوا بالآيات ليتخلصوا من العذاب في جهنم، ولكن لا مجال للعودة، إنما هي أمنيات تزيد من تعاستهم وتعذيبهم النفسي.

ننتبه جيداً، نحن الآن فيما يسمّى بالدنيا، وبعدها ستتبدّل الدنيا وتصير الآخرة، وفي تراخينا بالكلام سنقول عن الذين تصفهم الآية هنا بأنهم يتمنّون لو يردّهم تعالى إلى الدنيا، وكما ترى فهذا غير ممكن، ولم يقله القرآن، بل قال عن تمنّيهم لو يردّهم تعالى إلى حالة تكليف، حالة كحالتهم حين كانوا في الدنيا، وبالدقة التعبيرية لو فرضاً ردّهم سبحانه عن الحساب إلى عالم يتكلفون فيه من جديد ليحاسبهم على ما يعملون... فهذا العالم ليس اسمه الدنيا، بل هو عالم ثالث بعد الدنيا والآخرة.

(بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ{28})
{بَلْ بَدَا}، ظهر وصار واضحاً لهم، {مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ}، حيث أخفوا وضوح صدق الآيات وأعلنوا الكفر، لو كانت الآيات التي رأوها في الدنيا غير مقنعة لهم، لاعترضوا في يوم القيامة، ولقالوا: لو كانت الآيات الإلهية مقنعة لكنا آمنا. ولكنها كانت مقنعة وأكثر من كافية ولذلك يتمنون لو أنهم آمنوا بها، هنا في الدنيا يخفون أنها صحيحة وواضحة، وظهر ذلك في الآخرة عندما تمنّوا لو أنهم لم يعاندوها.

{وَلَوْ رُدُّوا}، بدل التقدم في الحساب وصولاً للعقاب لو أرجعهم تعالى إلى حياة كالحياة الدنيا ليعودوا إلى التكليف كما يتمنون، {لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ}، حيث كرّروا الذي نهاهم ربهم سبحانه عنه، وبتعبيرنا المتساهل به نقول: لرجعوا لفعل ما منعهم سبحانه من القيام به. حتى لو ردّهم سبحانه وأعطاهم فرصة ثانية حتى يؤمنوا بالآيات، لكانوا عادوا وكذّبوها وخالفوا دينه.

{وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}، حيث قالوا بأنهم سيؤمنون لو أتيحت لهم فرصة ثانية وهذا غير صحيح.

بعبارة أخرى، هؤلاء الكفار، هناك في الآخرة اعترفوا بأن الآيات الإلهية كانت كافية حتى يؤمنوا، بل أكثر من كافية، ولو عادوا إلى الدنيا لآمنوا بها! ولكن ما الذي سيتغير إن عادوا؟ لا شيء، لأنها الآيات نفسها "الواضحة الأكثر من كافية" لم يؤمنوا بها أول مرة، على أي أساس الافتراض أنهم سيؤمنون بها في محاولة ثانية! هل تتصور لأنهم رأوا العذاب سيبقون متذكرين له، ولذلك سيؤمنون لو عادوا إلى حالة كحالة التكليف في الدنيا؟ لا، لأنَّ الآيات العديدة كآياتنا هنا تقول: أيضاً لن يؤمنوا!

ستستغرب وتقول: منطقياً يجب أن يؤمنوا، حيث رأوا جهنم أمام أعينهم! ولكن عندما تتذكّر مثالاً عن هذه النوعية من الناس، مثل نموذج فرعون وملئه بتسع آيات آخرها آية فلق البحر، بدل الوقوف أمام الممر البحري اقتحموه! ما يبدو ليس منطقياً لك لأنك مؤمن أو عندك بذرة إيمان، ولكن هذا المنطق السليم لا يسري على أناس كهؤلاء، سيرون جهنّم ويتحسّسون العذاب، وإن عادوا إلى الدنيا فَسَيَعُودُونَ مشركين مكذّبين مفترين عليه تعالى، وسيخترعون أن ما حصل معهم من ألم النار ما هو إلا خيال وأوهام ومنامات، وفرضاً لو كان صحيحاً فلا مشكلة، وكما طلبوا هذه الفرصة فسيطلبون فرصة ثانية.

ننتبه جيداً، لأنَّ الإله الخالق العظيم يخبرك أنهم لو عادوا بفرصة ثانية إلى الدنيا فهم لن يتغيّروا، وهذا سبب خلودهم في النار، لأنهم لا يتحاسبون فقط على خمسين أو ثمانين أو مئة سنة من الكفر قضوها هنا في الدنيا، بل يتحاسبون على عقلية الكفر المندمغة المنطبعة في فكرهم ومشاعرهم، وبكامل إرادتهم طبعوها ولن تتغيّر، وهذا من أسباب خلودهم في النار، وهم لو حصلوا على فرصة ثانية فلن يتغيروا وسيطلبون فرصة ثالثة وبعدها رابعة...

بالاشتقاق التحليلي من هذا الكلام هنا ومن عموم كلام القرآن نعتقد أن كل نفس لن تخرج من الحياة إلا بعدما تستقر على شيء، لو كان هناك فرصة لأي إنسان ليتحسّن إيمانه إن بقي حيّاً، فسبحانه لن يحرمه الفرصة بل بالعكس سيسهلها له، وهكذا ترى أننا كلنا نموت من بعدما نصل إلى كامل إمكانياتنا الإيمانية، فلا المؤمن سيصير مؤمناً أكثر لو بقي حيّاً، ولن يكفر مهما بقي حيّاً، ولا الكافر سيؤمن مهما بقي حيّاً.

(وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ{29})
{وَقَالُوا}، الكافرون المنكرون للآيات: {إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا}، فهي فقط حياة واحدة وهي التي نحن فيها الآن، {وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ}، فلن يقوم أحد بإنهاضنا من همودنا، ولسنا بمُقَامِينَ من الموت، وبعد انتهاء حياتنا في الدنيا وموتنا، لن نقوم من الموت إلى الحياة مرة ثانية.

(وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{30})
{وَلَوْ تَرَىٰ}، ولو صار لديك صورة محدّدة، والكلام هنا عن: لو أنك الآن تشاهد شيئاً سيحصل في المستقبل، {إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ} سبحانه، حيث سيتم إيقاف هؤلاء ليتم عرضهم أمام ربهم سبحانه، "لاحظ نفس المشهد في الآية 27"، فيقول لهم سبحانه أو تقول الملائكة(ع) أو المؤمنون: {أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ}؟ حيث كنتم تقولون بأنه كذب وليس صواباً ولن يحصل، فهل حصل!

{قَالُوا}، الذين كانوا ينكرون البعث من الموت: {بَلَىٰ}، نفي لكونه ليس بالحقّ، بل بالتأكيد هو حقّ فهو صواب صحيح، {وَرَبِّنَا}، نقسم تأكيداً بالمسؤول عنّا من مستوى إلهي أنه حقّ، ونحن الآن فعلاً في الحياة الثانية.

{قَالَ}، الله تعالى لهم: {فَذُوقُوا}، فاشعروا وتحسّسوا، {الْعَذَابَ}، الشيء المضرّ المؤذي، {بِمَا}، بسبب ما، {كُنتُمْ تَكْفُرُونَ}، حيث كفرتم وأنكرتم التوحيد والرسل والآيات والآخرة، وكنتم تسمعون بالعذاب على ذلك والآن صرتم فيه فذوقوه فتحسّسوه.

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ{31})
{قَدْ خَسِرَ}، قد شيئاً له أهمية "كبيرة"، {الَّذِينَ كَذَّبُوا}، الذين لم يصدّقوا، {بِلِقَاءِ اللَّهِ}، حيث قالوا عن الوقوف والمواجهة أمامه تعالى في الآخرة للمحاسبة إنه كذب ولن يحصل، والخسارة أنهم لن ينالوا المغفرة ولا الثواب.

كذّبوا طالما هم في الدنيا، {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ}، حيث جاءهم الوقت المحدّد لرجوعهم إلى الحياة مرة ثانية في الآخرة، {بَغْتَةً}، فجأةً من دون أن يتوقعوها، {قَالُوا}:

{يَا حَسْرَتَنَا}، حيث هناك شيء مهمّ مرّ علينا ولم نستفد منه، {عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا}، في الدنيا كانت الاستفادة منها بين أيدينا ففرطّنا بها وضيّعناها ولم نهتمّ بها، حيث سنحت لنا الفرصة لنؤمن ونعمل الصالحات ولكننا لم نستفد من تلك الفرصة ولم نحافظ عليها بل فرّطنا بها وأهملناها وضيعناها، وهذا هو التحسّر والتفريط.

{وَهُمْ}، في تلك الساعة، {يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ}، يحملون الأشياء القابلة للحمل ولكنها ثقيلة وحملها غير مريح، وهي أعمالهم السيئة الثقيلة المؤلمة، {عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ}، فعادة عندما نحمل الأشياء فإن ظهرنا يتحمّل الوزن مع أقدامنا، ونعبّر عن تضايقنا من الوزن بأنه على ظهرنا كأبرز جهة تجعلنا نشعر بالألم والتعب، وضمناً فهذا التعبير يشير لكون أعمالهم ملتصقة بهم.

{أَلَا سَاءَ}، فما أسوأ، {مَا يَزِرُونَ}، ما يحملون من أشياء ثقيلة وحملها غير مريح، لأنها سيئات ستسبب لهم العذاب، فلا يوجد أسوأ منها.

ضع في بالك دائماً أن كلمة يوم ليست حصراً للأربع وعشرين ساعة التي تعرفها على الأرض، فهي كلمة عامّة لأي زمن يحصل فيه حدث أساسي، وعند انتهاء الأحداث الأخرى التفصيلية مع الحدث الأساسي، ينتهي اليوم، فأي أحداث أخرى تحصل خلال اليوم فهي تحصل في ساعات ذلك اليوم... وهكذا تفهم أن يوم القيامة تراه من نظرة الزمن المحدّد الذي نقوم فيه من الموت، وتراه من نظرة كونه اليوم الذي من بعده يبدأ حسابنا، وعادة هكذا يشير إليه القرآن، فهو زمن محدد من بداية إعادة الخلق إلى الحياة إلى حين محاسبتهم، وفي ذلك اليوم عدّة ساعات، أولها بالنسبة لنا هو ساعة بعثنا من الموت، وبعدها أيام فيها ساعات الحشر والفرز... ووقوف الأشهاد... وعادة يقصد القرآن بالساعة أول ساعة من يوم القيامة، وهي ساعة قيامنا من الموت، فالتركيز عليها لأن الكافرين ينكرونها وينكرون ما سيحصل بعدها.

وهذا التعبير باليوم مشابه بشكل ما لتعبير القرآن عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام، حيث المقصود بها ست مراحل زمنية، كل مرحلة تبدأ بحدث أساسي وتَمُرُّ خلالها أحداث فرعية يصير توصيف زمنها بأنه ساعات... ولمزيد من التوسع راجع الآيات 9 و 10 من سورة فصلت {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ}، وأنت تعلم أن تقديراتنا الحالية لخلق كوننا "سمائنا" بمليارات السنين، وهكذا ترى أن اليوم مرحلة قد تكون قصيرة أو طويلة بمليارات السنين.

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ{32})
{وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}، حيث ليست الحياة الأدنى، القريبة، وهي التي تعيشون فيها الآن، {إِلَّا لَعِبٌ}، شيءٌ للتسلية وللمرح وتمضية الوقت وليست شيئاً جدياً، {وَلَهْوٌ}، للتلهّي عن شيء آخر أهم، لأنَّ العمل على الحصول على ما في الآخرة أهمّ، حيث كل ما نراه من متعة وشهوات في الدنيا إنما هو بلا قيمة حقيقية عندما يتم مقارنته مع جنّة الآخرة.

{وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ}، فالمكان الذي ستدور فيه أحداث حياتنا في عالم الآخرة الذي سيأتي في الآخر بعد انتهاء الدنيا، والكلام يقصد جنّة الآخرة، هو، {خَيْرٌ}، حسنٌ جيّدٌ، {لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ}، للذين يتجنبون، وسياق الكلام عن تجنّبهم للسيئات وبالتالي تجنّبهم لغضب وعقاب ربهم سبحانه لأنَّ الدار الآخرة خير لهم من دار الدنيا لأنهم سيدخلون إلى جنة رائعة خالدة.

{أَفَلَا تَعْقِلُونَ}؟ فلماذا لا تفهمون ولا تستوعبون ما نقوله لكم؟ أليس لديكم عقل يستوعب ما نقوله لكم؟

ربكم سبحانه الذي خلقكم في هذه الدنيا، وجعل لكم فيها هذه المتعة والشهوات الجسدية والفكرية والنفسية، هو ربكم سبحانه يخبركم أنه جعل للمتقين في الآخرة متعة وملذات تفوق بكثير ما ترونه في الدنيا، لدرجة أن كل ما في الدنيا من سعادة هو مضيعة وقت أمام سعادة الآخرة، هو ليس سعادة حقيقية أمام السعادة الحقيقية في الآخرة، والدنيا تلهيكم عن القيام بالأعمال المهمة التي ستنفعكم في الآخرة، لماذا لا تفهمون ما نقوله لكم! ولماذا لا تستعملون عقولكم!

بالنسبة لكلمة "خير" في استعمال القرآن فكثيراً ما نستنسب تفسيرها على معنى "أفضل"، وأحياناً يصدق هذا المعنى بالتبعية من فحوى الكلام، ولكن بعض الاستعمالات القرآنية لنفس الصياغة تريك أنه لم يُقصد بكلمة خير أن تكون رديفاً لكلمة أفضل، وكمثالٍ واضح عن ذلك ما ورد في الآية 16 من سورة العنكبوت {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}، لأنَّ مرادفتها بأفضل في أمثال هذه الآية سيعطيك معانيَ غير دقيقة بل وغير مقبولة إلا إذا حملت معنى الأفضل على عموم المقابلة بين الأسوأ والأحسن، ولكن هذا ليس معناها بل هذا معنى كلمة خير، وكلمة "أفضل" في أشعار العرب قبل الإسلام محصورةٌ بين الحسن والأحسن، لو قلت إنَّ الإيمان أفضل لكم فهذا يعني أن الكفر حسن والإيمان أحسن، لا، لأنَّ الإيمان خير لكم مما يعني ضمناً أن الكفر سوءٌ لكم.

لم يستعمل القرآن كلمة أفضل بتاتاً، واستعمل التعبير بالخير وهو أوسع بالمعنى، حيث يقابل الشرّ كما في الآية 11 من سورة النور {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ...}، واستعملها بمعنى ما يقابل الحسن حيث إنَّ الآخر أحسن وليس شراً، كما ورد في الآية 271 من سورة البقرة {إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ...}، لأنَّ إبداء الصدقة ليس سوءاً وإنما إخفاؤها أحسن، وهنا يمكن استعمال كلمة أفضل.

يعني لا ترادف "خير" بـ "أفضل"، لأنهما في بعض سياق الكلام يتقاطعان تطبيقياً حيث يكون اللذان تقارن بينهما كلاهما جيدين، عندها يصدق قول خير أو أفضل، ولكن حين يكون الكلام عمومياً يشمل ما كلاهما جيدان ويشمل أيضاً ما أحدهما جيد والآخر سيئٌ، ويشمل الوصف مطلقاً بمقارنة الحسن مع مطلق الوصف بالحسن، حتى لو لم يكن هناك طرف آخر للمقارنة والمقارنة مع مطلق الوصف، كوصفه تعالى بخير الرازقين وخير الحاكمين... وهو تعالى بالمقارنة مع وصف الحسن مطلقاً كرازق وحاكم فهو خير موصوف بذلك، لذلك فإنَّ كلمة أفضل ليست وصفاً صحيحاً لهذه الحالات وكلمة خير صحيحة.

(قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ{33})

{قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ}، حيث تحقق علمنا أنك تشعر بالحزن من تكذيبهم لك، لأنك متأكد بأنك رسول، ومتأكد من العذاب في الآخرة لهم، ولكنهم يُكَذِّبُونَكَ ويستهزئون ولذلك تشعر بالانزعاج، ونعلم بذلك حيث حصل لدينا العلم بذلك، فلا تتصور أننا لم نعلم.

{فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ}، حيث في الحقيقة نحن إلهك لا ننظر لتكذيبهم لك بهذا الشكل، {وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ}، غير العادلين ولا المنصفين الذين لم يكن معهم حقّ، {بِآيَاتِ اللَّهِ}، بالأمور المميّزة المنسوبة لصاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى، لأنه لم يكن معهم حقّ بتكذيبها لأنها واضحة الصدق، فهم، {يَجْحَدُونَ}، ينكرون صحّتها وهي من الواضح بأنها صادقة، فإنكار الأمور الواضحة الصدق هو جحد ومن تبعات المعنى أنه معتقد بصحّة إنكاره فهو مقتنع بكفره.

أنت أيها الرسول إنما تنقل آياتنا لهم، وتكذيبهم لك ليس تكذيباً لك بشخصك، إنما هو تكذيب لآياتنا نحن الإله، وسترى من تكملة الآيات أنها تلفت انتباه الرسول حتى لا يأخذ الأمور الدينية بشكل شخصي، وكأنها شيء خاص به، لأنَّ الله سبحانه هو الآمر بهذا الدين وأنت رسول فقط، وتكذيبهم لك هو تكذيب لآياتنا.

تذكّر الآيات السابقة التي تحدثت عن اعتراف الكفار في الآخرة بأن الآيات الإلهية كانت كافية ليؤمنوا، وتمنّوا لو يردّهم تعالى إلى عالم يتكلفون فيه من جديد حتى يغيّروا كفرهم إلى إيمان، وهنا تؤكد الآية للنبي محمد(ع) بأنهم في الحقيقة لا يُكَذِّبُونَكَ لأنهم من الداخل مقتنعون بأن الآيات صحيحة، حيث يجحدون فيقولون عنها كاذبة مع علمهم بأنها صادقة.

ننتبه جيداً، حيث ربما غفلنا عن هذه الحقيقة القرآنية البالغة الأهمية، لأنَّ الآيات الإلهية كافية حتى تقنع أي شخص ليؤمن، ولو لم تكن كافية لكان الكفّار اعترضوا في يوم القيامة بأنهم لم يقتنعوا بالدين لأنه لم يكن مقنعاً، ولكن الله سبحانه وتعالى يؤكد لنا أن آياته أكثر من كافية، ويؤكد لنا "من علمه بالغيب" بأنهم لن يعترضوا عليها في يوم القيامة ولن يقولوا إنَّ الآيات لم تكن كافية، وهكذا نفهم كل الآيات التي تتحدث عن الكفّار الذين لم يصدّقوا الرسل ولم يؤمنوا بالآيات، نفهم بأنهم يجحدون، لأنَّ الجحد هو إنكار الأمور التي من الواضح صحّتها.

{قَدْ}، استعملها القرآن حصراً لتفيد التحقيق، حيث استعملها قرابة 400 مرة عن تحقق "الفعل الشيء الحالة" في الماضي البعيد أو القريب أو القريب جداً للحظة الحال، إما لعلاقة سببية أو المقارنة أو لمجرد الإخبار. ولم يستعملها القرآن للترديد بين شيئين: قد تأكلون وقد تصومون. ولم يستعملها للتوقع مثل جملة: انتبه قد تموت.

نلاحظ استعمال {قَدْ} مع الفعل الماضي كما ورد في الآية 4 من سورة ق {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} ونفهمه بسهولة على معنى أنه تعالى فعلاً علم بهم من الماضي، ولكن يجد البعض مشكلة في فهم استعمال {قَدْ} مع فعل المضارع كما ورد في الآية 18 من سورة الأحزاب {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ...} حيث يُفهم منها أنه تعالى الآن لا يعلم، وربما يحصل لديه علم فيما بعد، وربما لا يحصل لديه علم، لتصير الجملة مرادفة لـ: يمكن أن يحصل علم لله بـ... ولكن القرآن استعمل {قَدْ} مع الفعل المضارع عند كلامه تعالى عن نفسه حتى يشير إلى نفس ما تشير إليه {قَدْ} مع استعمالها في الفعل الماضي، حيث كما تقول: حصل لديه تعالى العلم بشيء وقع في الماضي، تقول: حصل لديه تعالى العلم بشيء يقع الآن أو سيقع في المستقبل.

نحن البشر لا يمكننا وصف أنفسنا بهذه الطريقة لأننا لا يحصل لدينا علم بما سيقع، بل يحصل لدينا العلم فقط بما وقع في الماضي أو يقع أمامنا الآن، أمّا تعالى فهو عالم الغيب، فيعلم ما سيحصل في المستقبل، ولذلك يمكنه تعالى أن يعبّر عن علمه بالمستقبل بـ {قَدْ يَعْلَمُ}، أمّا نحن البشر فلا يمكننا التعبير بهذه الطريقة عن أنفسنا إلا بخبر علمناه من الإله عالم الغيب، أو بالتقدير والاحتمال القوي من التحليل والتوقّع.

(وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ{34})
{وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ}، فأنت لست أوّل رسول يتم تكذيبه، {فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا}، حيث بقوا يتصرفون بشكل واعٍ ومدروس ولم تفلت أعصابهم، فلم يتركوا تبليغ الرسالة، ولم يتراجعوا عن الحديث مع الناس في الدين رغم تكذيب الناس لهم، وصبروا على ما، {أُوذُوا}، حيث تعرضوا للأذية من الشتم والإهانة والسباب والتكذيب... ولم تفلت أعصابهم، {حَتَّىٰ أَتَاهُمْ}، حتى جاءهم، {نَصْرُنَا}، تأييدنا لتحقيق ما يريدون، عبر الانتصار الفكري أو العسكري أو بنزول عذاب على الكفّار...

{وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ}، فلا أحد يمكنه تغيير ما يقوله تعالى، ونعرف من القرآن أنه تعالى قال إنه ينصر رسله، وهنا تقول الآية للرسول محمد(ع) إنَّ الرسل السابقين قد صبروا حتى جاء النصر الإلهي وهذا لن يتغير فأنت سيأتيك النصر الإلهي، فاصبر.

{وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ}، من أخبار غير منتشر علمها عن المرسلين، فقد جاءك الخبر عن الرسول إبراهيم(ع) الذي نصره تعالى ضد الذين حاولوا إحراقه... وجاءك خبر عن الرسول موسى(ع) الذي انتصر على فرعون... وخبر الرسل نوح ولوط وصالح... عليهم السلام، فهذا يؤكد لك بأن النصر الإلهي إلى جانب المرسلين.

لاحظ أن رسم كلمة {نَّبَإِ} هنا مختلفٌ عن رسمها في ما يسمّى بالمصحف بالرسم العثماني، حيث رسمت هكذا "نبإى"، فلنأخذها كنموذج عن اختلاف كتابة بعض كلمات القرآن عن كتابتنا الدارجة حاليا، فتلك الكتابة القديمة كانت قبل وضع قواعد "موحّدة" لأصول الكتابة على أساس القواعد، فقد كان لها أسس تعتمد على الرسم الأنسب لإمكانية قراءة الكلمة

بشكل صحيح، فقواعد أي شيء هي أن تكرر فعل نفس الشيء كلما تكرّرت شروطه، فالهمزة في آخر الكلمة ترسمها على حركة ما قبلها، فإن كان الحرف المتحرك مفتوحا تكتب الهمزة على الألف، وكلما تكرّرت هذه الحالة في أي كلمة كانت فالقاعدة أن ترسم الهمزة على الألف، وكما تعلم فحاليا لدينا استثناءاتٌ للقواعد، ولأسباب عديدة لدينا العديد من الاستثناءات، فنخالف القواعد في الرسم، ولدينا مع ذلك الاستذواق في الرسم، فالهمزة المضمومة والتي ما قبلها مضموم، بعضهم يكتبون الهمزة على واو واحدة وبعضهم على واوين "رؤوس، رؤس"، فكما ترى فإن أساس رسم الكلمات حصل لتثبيتها للتمكّن من إعادة قراءتها للحصول على المعلومات منها، فهي مثل حالة تسجيل الصوت على المسجلة... وكانت الفكرة في الأساس رسم الكلمات بأي طريقة كانت تمكن الآخرين من قراءتها بشكل صحيح، فقد حصل المطلوب.

أمّا التحسينات على قواعد ضبط الرسم فهي عمل جيّد، ولكنه لا يعني أن القدماء كانوا يكتبون بطريقة غير صحيحة، ومن السخافة والسذاجة أن يقول أحدهم عن القرآن إنَّ فيه أخطاء إملائية، فحين كتبه المسلمون الأوائل فقد كتبوه على ما هو معلوم من فنّ رسم الكلمات في زمنهم، وبذلوا جهدا جبارا في حينها بالمعطيات القليلة التي عندهم ليرسموا كلمات القرآن بأفضل طريقة، ومن بعدهم طوّر المسلمون فن الرسم ولكنهم "ولسبب وجيه جدا" حاولوا ما استطاعوا ترك القرآن على الرسم القديم الأساسي من زمن النبي محمّد(ع)... لأنهم يعلمون أن تغيرات كثيرة عبر الزمن ستطرأ على فن رسم الكلمات، ولا زلنا إلى الآن نغيّر مدة بعد مدة في رسم الكلمات، وإن كنت تظنّ بأن رسمنا الحالي ممتاز، على أساس أنه على القواعد، فخذ علما أن العديد من الكلمات المنتشرة ليست على القواعد التابعة للّفظ الصحيح، "هذا:هاذا، وبقية ما سبقه هاء تنبيه، اللذين للمثنى...".

ونرجع لكلمتنا هنا، فهناك من استنسب كتابتها تحت المدّة "الألف" وغيرهم استنسبها على كرسي الياء المقصورة... وقديما كما ترى فقد رسموها على المدّة ووضعوا بعدها ياء لتدل على حركتها.

بقي شيء، فأسخف ما قرأت من تعليقات على القرآن أنه محرّف، قولهم عن الأخطاء الإملائية مقارنين لها مع طريقتنا الحالية بالكتابة، وخرجوا بنتيجة تحريف القرآن. وما أسخفهم وهم يعلمون أن المسلمين اعتمدوا لنقل القرآن توارث اللفظ بالسمع من جيل لآخر، والكتابة معينة على استذكار طريقة اللفظ، ومن المعلوم بين الأكاديميين والباحثين أن اختلاف رسم الكلمات عبر التاريخ شيء منتشر في كلّ اللغات، وخذ مثلا الكلمات من أصل ألماني التي بقيت كتابتها كما هي في اللغة الإنجليزية، ككلمة ليل وفارس... فكتابة ما يشابه حرف "الخاء" ما زال فيها، رغم أن الناطقين باللغة الانجليزية أصلا ليس لديهم حرف "الخاء". فهل تقول إنها خطأ إملائي وتحريف؟

بعض الناس من سخافتهم وسذاجتهم يحاسبون القرآن وكأنه نزل من عنده تعالى مكتوبا وجرى تحريف كتابته، علما أنه نزل ملفوظا سماعا، وقد اجتهد الجيل الأول في محاولة رسم الألفاظ بما وجدوه مناسبا ومعينا على تذكّر ما سمعوه.

نعم، لدينا مشكلة نحن المسلمون اخترعناها، وهي مشكلة تعدّد القراءات، فبدل نبذ الشواذ منها قام البعض بتقديس الشواذ لأنه ورد عن صحابي أو عالم جليل! وبدل الانتباه لضعف الذاكرة والاشتباه والخطأ... ونقص الإيمان والاستهتار... والفسق وحبّ الظهور والتميّز... أثبتوا تلك القراءات كلّها وقالوا إنها لا بد مروية عن النبي محمّد(ع)! وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون، فبأدنى تأمل فيما قالوه سترى أن القراءة المنسوبة لحفص عن عاصم، هي قراءة جمهور المسلمين في مكّة والمدينة والكوفة والشام... فحفص لم يكن القارئ المشابه لبقية القرّاء المختلفين عنه باللفظ، بل هو نموذج لقراءة الجمهور، والقرّاء الآخرون هم الشواذ عن قراءة جمهور المسلمين، وأي قراءة أخرى غير قراءة حفص فهي شواذ وليست قراءة مروية عنه (ع).

وألفت انتباهك لبعض علماء اللغة العربية والمنسوب لهم قراءات، فمن الواضح أنهم غيّروا فيما سمعوه من القرآن لأنهم وجدوه غير متوافق مع قواعد اللغة العربية والمعنى الذي فهموه هم من الآية، وكأنهم هم كاملون ومن مستوى إلهي يفهمون القرآن بدون أي اشتباه أو خطأ أو نقص في القدرات والمعلومات...! ويكفيك هذا القدر لتعلم أساسيات هذا الموضوع ولن أطيل عليك هنا بأكثر من ذلك، ولمزيد من التفاصيل راجع دراسة الآية 6 من سورة الأعلى.

(وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ{35})
{وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ}، ورأيته كبيراً، فاستصعبت ولم تتحمّل، {إِعْرَاضُهُمْ}، حيث عرضت عليهم دينه تعالى ولكنهم تركوه لأنهم لم يروه مهماً، وكان ذلك بالنسبة لك شيئاً كبيراً لم تتحمله، وتريدهم بإصرار أن يهتدوا، {فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ}، تفعل شيئاً قاصداً منه، {نَفَقًا}، ممراً، {فِي الْأَرْضِ}، حيث تبحث عن نفق أو تحفر نفقاً ممراً تحت الأرض، {أَوْ}، تبتغي، {سُلَّمًا}، شيئاً له درجات حتى ترتفع، {فِي السَّمَاءِ}، {فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ}، حيث تجلب للكفار شيئاً مميزاً من تحت الأرض أو من السماء حتى يؤمنوا.

لكن هذا الشعور وهذا التفكير غير سليم، {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ}، حيث أمامه تعالى خيارات عديدة ولو قرّر سبحانه، {لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ}، لوضعهم كلّهم بطريقة أو بأخرى على الشيء الصحيح، ولكان أجبرهم غصباً عنهم على الإيمان، حيث يمكن أن يغيّر سبحانه عقولهم، فيصيرون كلهم كالآلات مبرمجين على الإيمان، أو كلما ارتكب أحدهم ذنباً شعر بألم شديد وتركه ولم يكرّره...

{فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ}، فلا تفكّر بالطريقة التي يفكّر بها الجاهلون الذين يتصرفون عن طيش لا عن دراسة وفكر، لأنك تعلم بأنه سبحانه قادر على هداية الناس بالقوة وبعدة طرق، ولكن هذا سيلغي حرية إرادتهم إن هداهم سبحانه بالقوة، لأن عقولهم ستصير مبرمجة على الهدى كالآلات، وسبحانه لن يفعل هذا.

استغراقك في التفكير بالطرق لهدايتهم، وبالبحث عن آية تقنعهم، كما نقول بالعامية: تنتّف حالك ليؤمنوا. هذا تفكير غير سليم، لأنَّ ما وصلهم من آيات هو أكثر من كافٍ لمن يريد منهم أن يؤمن، لأنَّ سبحانه أمَّنَ لهم كل ما يلزم ليهتدوا ولم يَبْقَ أي شيء لتبحث عنه أنت أو تفكّر به، ولنتخطَّ هذه النقطة، حيث سبحانه لو شاء لجعلهم وبعدة طرق غصباً عنهم مؤمنين، بماذا تفكّر أنت أيها الرسول؟ لأنَّ المطلوب منك فقط وفقط تبليغهم كلامه تعالى، ومن بعد ذلك لا علاقة لك بالموضوع ولا تتعب نفسك بأمور لا تقدّم ولا تؤخّر.

خذ مثلاً شخصاً تحبّه ولكنه يقول: لا أحد ذهب إلى الآخرة ورجع لنؤمن أنه يوجد آخرة. وهذه الجملة نسمعها كثيراً علماً أنها أصلاً غير صحيحة، لأنَّ الآخرة تأتي في الآخر، ونحن الآن في الدنيا، وبعد انتهاء الدنيا تأتي الآخرة، وهي ليست موجودة الآن أصلاً، كيف سيذهب إليها أحد ما ويرجع إن كانت أصلاً غير موجودة الآن! وفوق ذلك فإنَّ القرآن ضرب لنا أمثلة عديدة عن نماذج جرى فيها إعادة الحياة للموتى كنماذج "دليل" على إمكانية حصول ذلك، منها ما فعله النبي عيسى(ع) من إحياء للموتى، ومنها خبر الذي مرّ على قرية... راجع الآية 259 من سورة البقرة... فهل ستفكّر لو أن ميتاً يقوم من قبره ليؤمن الشخص الذي تحبّه؟ هذا ما تشير له الآية هنا عن اجتهاد النبي محمّد(ع) بالبحث عن آية تجعل الناس يؤمنون، حيث يجيبه تعالى بأنَّ أقصى شيء هو إجبار الناس على الإيمان وهذا شيء لم ولن يفعله تعالى.

ننتبه جيداً، لأنَّ الآية لا تقول بأن النبي(ع) جاهل، بل تنبهه أن لا يكون منهم، وهو (ع) لم يحفر نفقاً في الأرض ولم يصنع سلماً ليصعد إلى السماء، ولكنه عصر تفكيره واجتهد حتى يجد طريقة يهدي بها الناس، حيث تذهب به الآية إلى الحدّ الأقصى في سعيه ومبتغاه لهداية الناس لتنبهه أن لا ينسى أنه فقط رسول، وأنه تعالى يمكنه أن يهدي الناس بالقوّة وغصباً عنهم لو شاء ولكنه تعالى لم يفعل ولن يفعل ذلك، لأنه لا معنى للحساب والعقاب إن صرنا غصباً عنَّا مؤمنين.

يقول أحدهم: أنا أقبل أن يهديني سبحانه بالقوّة. ولكن هذا شيء لا معنى له، لأنَّ الإيمان هو الاعتقاد هو القناعة، هو رغبتك بالشيء، فإن بقيت إنساناً كما أنت بفكرك ونفسيتك، فلا معنى لزرع الإيمان فيك بالقوّة إلّا أن تتغيّر وتصير مبرمجاً غصباً عنك وبلا إرادة. وهكذا ترى أنه لا معنى لإجبارك على الإيمان وفي نفس الوقت بقائك إنساناً كما أنت.

انتبه جيداً، هذا لا يعني أني أنا أفهم أكثر من الرسول(ع) وأني انتبهت ولست جاهلاً، وكاد الرسول(ع) أن يكون جاهلاً، لا، لأنَّ الرسول(ع) يحاول القيام بوظيفته على أكمل وجه، ويريد أن تهتدي كل الناس، ويستغرق في التفكير بالطرق لهدايتهم، حيث تنبهه الآية من الاستغراق خروجا عن الواقعية، وتنبهنا أيضاً، لأنَّ الكثير من المؤمنين يفكرون بالطرق التي يمكنها أن تهدي الناس للإيمان، وترى البعض منهم وبكل أسف يخترع أشياء غير صحيحة حتى يهدي الناس! حيث يخترع إعجازاً عددياً للقرآن! ويخترع إعجازات علمية للقرآن! وإعجازات طبية! ويحشو كلامه بالكذب

والمبالغات! وهذا هو الجهل بعينه، لأنهم يبحثون عن آيات لتهدي الناس ولو بقوة الكذب! وهذا وأمثاله ما نهتنا الآية عنه بصراحة ووضوح.

من ناحية ثانية علينا الانتباه لشخصية الرسول محمّد(ع)، حيث قرأنا كثيراً في القرآن كلاماً معه(ع) أن لا يتعب نفسه مع الكفّار بأكثر من توصيل الكلام الإلهي لهم، وأن هذه هي وظيفته فقط، وسواء آمنوا كلّهم أم كفروا كلّهم فهو (ع) لن يتحاسب عنهم، وهو (ع) يعلم ذلك، ولكنه محمّد الذي لديه قلب يختلف عنّي كثيراً جداً جداً، لأنَّ قلبه طيّبٌ سليمٌ ويحبّ الخير حتى للذين آذوه وكذّبوه وسخروا منه... ولو آمن أبو جهل لاحتضنه الرسول(ع) مثلما احتضن وتحمّل أبا سفيان بعد إسلامه... من هذه العيون الطاهرة والقلب النقي علينا أن نفهم كلام القرآن مع الرسول(ع).

(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ{36})
{إِنَّمَا}، فقط، {يَسْتَجِيبُ}، لدعوتك ويلبّيها الأشخاص، {الَّذِينَ يَسْمَعُونَ}، الذين لديهم وعي وفهم لما يسمعونه، الذين يفهمون الكلام الصحيح، {وَالْمَوْتَىٰ}، الذين لا حياة في سمعهم ولا في تفكيرهم، "وهم الذين لا يستجيبون لك"، {يَبْعَثُهُمُ}، يُنهضهم تعالى من الموت، هم لن يستجيبوا لك ولن يؤمنوا حتى يغادروا الدنيا ويقوموا في الآخرة، وهناك كما تعلم ومرّ عليك في الآيات السابقة، إنهم عندها سيعلنون إيمانهم.

{ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}، حيث يَعُودُونَ إلى الحياة "بعثاً" حيث يتم إرجاعهم ليقفوا بين يدي ربهم سبحانه ليحاسبهم، لأنهم لن يعودوا إلى الحياة ليرجعوا إلى إله آخر، أو حالة حياة في عالم آخر ليس تابعاً له تعالى... ومضافاً لذلك لن يفلت منهم أي أحد.

من يسمع فعلياً لدعوتك ويؤمن، فالحياة موجودة فعلياً في سمعه لأنه يعي ويفهم، أما الميّت فلا يسمعك ولا يعي ما تقول، لأنَّ الكافر فعلياً كالميّت، والأموات الفاقدون للحياة فعلاً أو الأحياء الفاقدون لمعنى الحياة يسمعون الكلام الحقّ ولا يعنيهم ويتصرفون كأنهم لم يسمعوه، وهذه هي نفس حالة الميّت الفاقد للحياة، لأنَّ الميّت لا يسمع، وهؤلاء لن يتركهم تعالى، بل سيبعثهم للحياة في الآخرة، وهناك سيسمعون وسيعلمون أن كلامك كان حقاً، ويمكنك مراجعة الآيتين 23 و33 من هذه السورة لتقارن بين حالتهم هناك وحالتهم هنا حين عموا وصمّوا عن آياته تعالى.

هذه الآية والتي تسبقها رائعتان في التعبير، حيث تلاحظ وصف من يحاول النبي(ع) هدايته ولا يهتدي بأنه ميّت، لأنه لا يعي ما يقوله النبي، وهذا الميّت سوف يأتي يوم يصير فيه حيّاً حقيقياً بكل ما تعنيه كلمة حيٍّ، وذلك في الآخرة، حيث سيرى كل شيء أمامه، وسيرى الحساب والنار... وهناك لن ينكر الآيات التي كان في الدنيا لا يهتم بها معرضاً متعامياً عنها لا يبصرها...

تكملةً للآية السابقة، لا من تحت الأرض ولا من فوق السماء ستجد آية تقنع ميّتاً لا يسمع الكلام، وهؤلاء الذين كفروا مثل الميّت، وسبق وأخبرتنا السورة أنهم في يوم القيامة سيتم بعثهم وسيعترفون بالإيمان، طبعاً بعد أن فات الأوان.

(وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{37})
نعود مباشرة لمحور كلام السورة. {وَقَالُوا}، الكفّار: {لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ}، على الرسول محمد(ع)، {آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ} سبحانه، شيءٌ مميّزٌ من المسؤول عنه(ع) من مستوى إلهي، حيث نريد شيئاً مميزاً ليقنعنا حتى نؤمن برسالته. لاحظ، هنا أن الآية تختصر كل ما يمكن أن يطلبوه كآية، حيث تنقل لنا كلامهم على نحو: لِتَنْزِلَ على محمد آية ما وتكون من النوع الذي يقنعنا بأنه رسول. ما ورد سابقاً في السورة من طلباتهم لآية محدّدة، كشهادة مَلَكٍ ونزول كتاب في قرطاس، صاغته السورة على شكل: لو أن الله تعالى يريد هدايتنا لفعل كذا وكذا... ولكنّا آمنّا. {قُلْ}، لهؤلاء الذين يفكرون بهذه الطريقة عبر هذا القرآن: {إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ}، حيث لديه القدرة وليس عاجزاً، {عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً}، شيئاً مميزاً يجعلهم يؤمنون غصباً عنهم، {وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ} الكفّار {لَا يَعْلَمُونَ}، بأن الله تعالى قادر على كل شيء. نتذكّر من العديد من السور التي ذكرت لنا أنه سابقاً نزلت آيات قرّرها سبحانه "كتحويل العصا لحيّة..." ونزلت آيات طلبها الناس "كخروج ناقة من الصخرة كما هو مشهور عن قوم ثمود"، ولكن دائماً يقول القرآن بأن من لديه قرار بالكفر فهذا لن يؤمن ولو نزلت أي آية مهما كان نوعها، تذكّر هذا دائماً. ومن ناحية ثانية عندما تنزل آية من مستوى إلهي ولا يؤمن بها الناس ما معنى نزول آية أخرى؟ وبعدها آية أخرى؟ وهكذا لتصير الآيات كشيء لا قيمة له! هل سبحانه وتعالى سيمشي على مزاجكم حين تطلبون آية على مزاجكم وبعدها تغيّرون رأيكم وتطلبون آية أخرى... وهذا الكلام اشتقاقي من آيتنا هنا ولكنه

واضح في العديد من السور الأخرى، وهنا اكتفت السورة فقط بالردّ على نقطة القدرة الإلهية على إنزال آيات، فلا تتعب نفسك أيها الرسول(ع) في البحث عن آيات وطرق لهدايتهم. انتبه جيداً، لن نفهم الآية هنا إلا حين ننتبه بأنه تعالى الذي يتكلّم، ونراها من منظوره هو سبحانه، وأصلاً هذا من أظهر الأدلة على كون هذا القرآن كلامه تعالى، لأنَّ كلّه ينطلق من نظرته تعالى للأمور، وكمثال لنقل إنك بطل رفع أثقال وصرت في مستوى رفع 200 كيلو، ولنقل إنك تعرّضت للتحدّي ممن لا يعرفك، فقيل لك: هل تستطيع رفع 50 كيلو؟ هنا الآية نفس الشيء، لأنَّ طلبهم لآية موجّه له تعالى، وهو خلق السماوات والأرض وما مسّه من لغوب، كما ورد في الآية 38 من سورة ق، وسترى هنا في الآية التالية وفيما سيأتي من السورة، سترى الجواب بالإشارة إلى ما خلقه تعالى كدلالة على عظيم قدرته، والمقصود هو لفت انتباه من يطلب الآية أنه تعالى مسبقاً آياته ظاهرة منتشرة، وسترى في الآية التالية جواباً آخر من نظرة إلهية... أيضاً وأيضاً يذهب بنا الكلام إلى العمق الذي تراه منتشراً في القرآن، مَن يكفر بهذا الدين الإلهي، بماذا يكفر؟ وحين يطلب آية ما لماذا يطلبها ليؤمن بماذا؟ أيطلبها ليؤمن به تعالى بينما هذا الإيمان مزروع فيه ولا يمكن محوه إلا بالتمرّس على الإنكار؟ حيث إنَّ خلقته وخلقة بيئته فيها دوافع بدائية طفولية للإيمان بقدرة فائقة... وأيضاً فيها عمق فكري ونفسي يعرّف بالإله... ومن جانب آخر، هل يريد آية حتى يعمل الصالحات؟ لأنَّ سبحانه في قرآنه هذا ككتاب لا زال سليماً من التحريف، هو يعرض علينا أوامره تعالى، ومعها تبريراتها، ومعها إظهار سوء ما يخالف أوامره تعالى، ما معنى طلبهم لآية حتى يؤمنوا بترك ما من المفروض أن يروه سيئاً ويتركوه؟ إن لم نضع هذا المفهوم القرآني العميق في بالنا فَلَنْ نرى الكثير الكثير من معاني كلامه تعالى.

(وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ{38})

{وَمَا مِن دَابَّةٍ}، كل ما تحرك وفيه حياة، فلا يوجد أي حيوان أو حشرة يتحرك على الأرض، {وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ}، أو كائن موصوف بالارتفاع في الجو باستخدام جناحيه، {إِلَّا أُمَمٌ}، فهم فقط مجموعات لها امتداد تاريخي، {أَمْثَالُكُم}، يشابهونكم، فأنتم البشر تملكون عقلاً وتفكيراً أرقى منهم، ولكن ذلك المقدار القليل "بنظرنا" من التفكير والوعي لدى الحيوانات، فهي ستتحاسب عليه بشكل مناسب.

{مَّا فَرَّطْنَا}، ما بين أيدينا لم نهمله أو نعامله بسوء، {فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ}، لا شيء في الكتاب الأساسي فرَّطنا به، فأنتم والأمم من الحيوانات مسجلون في كتاب أساسي عنده تعالى ككائنات وكلكم تحت المتابعة والاهتمام، وليس البشر وحدهم محطّ الاهتمام الإلهي، بل غيركم من الأمم مسجّلة في الكتاب الرئيسي، مثلما أنتم مسجّلون، وتتم متابعتكم كلكم.

{ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، كل الأمم " من بشر وحيوانات" سيتم حشرها، جمعها بقرار من المسؤول عنها من مستوى إلهي سواء قبلوا أم لم يقبلوا، ليقفوا بين يديه تعالى.

فمستوى الفكر والوعي ليس محصوراً في البشر، وإنما مستواه أو نوعه مختلف في البشر عن بقية الحيوانات، فإن كنتم تختصرون اهتمامه تعالى بكم حين تطلبون منه تعالى الآيات كأفعال مباشرة فورية غير عادية لتؤمنوا، فخذوا علماً أن اهتماماته تعالى أوسع من نظرتكم، وهناك أمم من الحيوانات كلّها مسجلة عنده تعالى، ويتابع شؤونها سبحانه مثلما يتابع شؤونكم، والاهتمام الذي أبداه تعالى لكم أكثر من كافٍ لتؤمنوا.

بعبارة مباشرة، أنتم لستم مصبّ اهتمامه تعالى وكأنكم مميّزون كشيء له أهمية عالية جداً عنده تعالى لدرجة أنه لا يوجد شيء آخر في الدنيا يستحقّ اهتمامه تعالى، وبالتالي بالنسبة لكم استجابتُه تعالى لطلبكم للآية هو شيء يجب حصوله فوراً، ولكن بالنسبة له تعالى أنتم مجرد مخلوقات من شؤونه تعالى وهناك آخرون غيركم وكمثال عن ذلك ما تنظرون له بدونية، وهم بقية الحيوانات في بيئتكم، هم أمم أمثالكم، ويهتم سبحانه بهم، وطلبُكم للآية منه تعالى من خلفية أنه تعالى متفرّغ لكم بالكامل ويصب كل اهتمامه عليكم، هو شيء غير صحيح، فخذوا حجمكم الطبيعي.

هناك من يطلب آية غير الآيات المنتشرة فيه وحوله وأمامه ليؤمن، أجابته الآية السابقة أنه تعالى قادر على فعل أي شيء، ولكن لن يقوم سبحانه بالأمور على مزاج الناس، وتأتي آيتنا هنا لتشير إلى أننا لسنا وحدنا تحت المتابعة الإلهية، مما يعني أن لا نعطي لأنفسنا أهمية أكبر من اللازم، حيث هناك كائنات أقل منّا وعياً وفكراً، ولكنها أيضاً محطّ الاهتمام الإلهي...

تلاحظ أنَّ القرآن يلمّح إلى هذا الموضوع ولا يدخل في تفاصيله، حيث إنَّ الآيتين 4 و 5 من سورة التكوير تحدثنا صراحةً عن حشر للحيوانات في الآخرة مثلما ذكرت آيتنا هنا، ولكن لن تجد في القرآن أي كلام آخر عن هذا الموضوع، لا ندري إن كانوا يحشرون ليتحاسبوا بالمعنى الذي نفهمه للمحاسبة، لأنَّ القرآن لم يذكر ذلك، ولم يذكر سبب حشرهم ولو تلميحاً، كل ما نعرفه من القرآن أنهم يعودون للحياة مرة ثانية فقط لا غير.

الآن إذا أردنا استنطاق القرآن من الآيات في سورة النمل قرأنا عن نملة وهدهد يتحدثان بمواضيع نعتبرها نحن "معقّدة" وراقية فكرياً، مما يدل على أن نظرتنا الدونية "السحيقة" للحيوانات هي نظرة غير صحيحة، وأن لديهم وعياً وفكراً مختلفاً عنّا، وتقييمنا نحن لفكرها ووعيها بالنسبة لنا سيكون محكوماً بأننا نحن نفهم أكثر منها حتماً، وعلى مقياس من يسيطر على الآخر وعلى البيئة أكثر، وعلى مقياس من اخترع ونقل العلوم وطوّرها... ولكن هل ما نحدّده نحن سيكون المقاييس الصحيحة للمقارنة؟! أليس هناك مقاييس أخرى للحياة والفكر والوعي...؟ لن أدخل كثيراً في هذا الموضوع وأحيلك إلى المقارنة بين حياتنا الاجتماعية والدراسات عن حياة النحل والنمل والغربان كنماذج عن حيوانات لديها أسلوب حياة مميّز. قارن بين دراستنا لها ونتائج ذلك وبين مراقبتها هي لنا، فإذا وصفتها باختصار ستقول بأنها تقضي حياتها في بناء بيتها والتقاط طعامها وتربية أولادها... وهي نفس سلوكياتنا والتي نضيف عليها تسالينا وضحكنا ومزاجنا وألعابنا وثقافتنا... هل سترى الحيوانات ذلك فينا؟ وهل سنرى نحن ذلك فيها؟...

نلاحظ أنَّ القرآن يشير بكلمة الدابة إلى كل الحيوانات والحشرات، لأنها كلها فيها حياة وتتحرك على الأرض، في الماء أو على اليابسة، من البشر والأسماك والأنعام والنمل والطيور... وهنا في الآية خصّصت ذكر الطيور من بين كل الدواب لمجرد لفت الانتباه إليها لأنها مميزة عن بقية الدواب بقدرة الارتفاع عن الأرض، فالطيور من الدواب، حيث تتحرك على الأرض، وتطير أيضاً، ونجد في سورة فاطر الآية 28 فصلاً للأنعام عن الدواب {وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ...}، هناك حتماً لن تناقش إن كانت الأنعام من الدواب، ولكن أيضاً فصلتها الآية هناك لتميّزها عن بقية الدواب بشيء خاص كانت تشير إليه الآية هناك.

(وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{39})
{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}، فقالوا عن الأمور المميزة المنسوبة له تعالى بأنها كاذبة غير صحيحة، هم، {صُمٌّ}، طُرْشٌ لا يسمعون، {وَبُكْمٌ}، خُرْسٌ لا يتكلمون، {فِي الظُّلُمَاتِ}، في العتمات، وهم عميان لا يرون النور ويمشون على طرقات غير مكشوفة أمامهم. ما نفع السمع إن لم تسمع كلام الحق كلامه تعالى؟ وما نفع الكلام إن لم تقل كلاماً صحيحاً؟ وما نفع الرؤية إن كنت لا ترى الطريق الصحيح؟ آياته تعالى منتشرة وهؤلاء يقولون بأنها غير صحيحة! هل هم فعلاً يرون! فعلاً يسمعون! فعلاً يتكلمون حين يجادلون بها ويستهزئون...!

{مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ}، حيث أمامه تعالى خيارات عديدة وإذا قرّر سبحانه أن يضلك فيجعلك على الطريق غير الصحيح، ولن تهتدي أبداً.

{وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ}، على طريق إيماني أساسي، {مُّسْتَقِيمٍ}، يوصف بأنه على الأحسن فلا انحراف ولا اعوجاج فيه.

نعلم بشكل واضح من القرآن، أنه تعالى من بين الخيارات شاء "واختار" هداية الشخص الذي يريد أن يهتدي، وسبحانه يضل الشخص الذي هو قرّر أن يضل، ولا ننسى أن الآيات كانت تتحدث مع الكفار المزاجيين الذين يريدون آيات ربانية على خاطرهم، حيث تقول الآية هنا لهم، إنَّ الآيات الإلهية كافية ولكن الذين كذّبوها هم مثل الطُّرْشِ والخُرْسِ والعميان، لا يتفاعلون معها ولا تعنيهم، لأنَّ هؤلاء لم يَشَأْ سبحانه هدايتهم لأنهم هم قرروا الإعراض عن الهدى.

كما ترى فإنَّ العيب في هؤلاء الناس أنهم لا يتفاعلون مع الآيات، والأبكم أو الأطرش أو الأعمى المؤمن، فهذا فقد حاسّةً من الحواس وصار عنده نقص، ولكن قيمته عالية بقيمة إيمانه، ومقدمة سورة عبس واضحة لهذا المعنى، وأمّا أصحاب الجسد السليم من الآفات فإن كانوا لا يؤمنون بالآيات فلا قيمة لهم، لأنَّ الكلام في كل القرآن لم يقصد إهانة أصحاب العاهات أو الإعاقات الجسدية، بل أهان منكري الآيات.

(قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{40})
قل للكفار بالآيات عبر هذا القرآن: {أَرَأَيْتَكُمْ}، لو حصلت لديكم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: لو شفتوا. {إِنْ أَتَاكُمْ}، إذا صار عندكم، {عَذَابُ اللَّهِ}، تعرّضكم منه تعالى لما يؤذيكم، إذا هنا في الدنيا نزل عليكم عذاب كزلزال أو خسف أو إعصار... {أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ}، أو جاءكم الوقت المحدّد للقيام من الموت، حيث العذاب الأكيد، ففي كلا الحالتين أخبروني: {أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ}؟ هل تشهرون وتعلنون لأحد غيره تعالى، وسياق الكلام عن طلب المساعدة حيث تدعون من ينجيكم أو يساعدكم؟ {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}؟ إن كانت دعوتكم صادقة للذي يمكنه أن ينجيكم، لآلهتكم التي اخترعتموها هل تتوجّهون بالدعاء إليها لتساعدكم وتنجيكم من عذابه تعالى؟

من النظرة الإلهية لا يوجد غيره تعالى قادراً على التدخّل لمنع حصول العذاب الذي قرّره هو نفسه سبحانه، سواء في الدنيا أو الآخرة، والدعوة الصادقة لطلب تدخّل من مستوى إلهي لردّ عذاب قراره صادر من مستوى إلهي، والدعوة تكون صادقة إن كانت موجّهةً لله سبحانه وتعالى فقط وفقط لا غير، ومن يقع في الورطة ويكون صادقاً في دعائه فسيدعوه تعالى حصراً، وهذا من نظرته تعالى، ومن نظرتنا نحن، وأي آلهة أو كائن بقدرات إلهية اخترعناه من أوهامنا فنحن نعلم من صميمنا أن الدعاء له شرك، وحين نقع في الورطة، فإن كنّا نحن صادقين مع أنفسنا فلن ندعوَ الآلهة التي اخترعناها وسندعوَ الله سبحانه.

القرآن يؤكد لنا أن كل الناس لديها إيمان بالله تعالى، ولكن الكثير منهم يقاومون هذا الإيمان! لأنهم لا يريدون أن يلتزموا بالدين الإلهي الحقّ الصالح، ويؤكد القرآن أن "المؤمنين والكفار" في لحظة الوقوع في ورطة، إنهم كلهم يتوجّهون بالدعاء إلى الله تعالى حتى ينجيهم، هذا إن بقي فينا بذرةُ صدق، وإلا فهناك من سيكذب على نفسه ويدعو غيره تعالى، ولكن هل دعاؤه صادق وله معنى فعلي وسينفعه؟ وهذا ما تسأل عنه الآية.

تذكّر أن يوم القيامة هو زمن محدد من بداية إعادة الخلق إلى حين بداية محاسبتهم، وبعده أيام الحساب وصولاً إلى دخولهم إلى النار أو الجنة، وفي تلك الأيام ساعات، وأول ساعة في يوم القيامة بالنسبة لنا هي ساعة إعادة إحيائنا، وكثيراً ما أشار القرآن إلى هذه الساعة بالتحديد، حيث هناك غيرها ساعات أخرى من أيام أخرى، كساعة حشرنا زمراً، وساعة محاسبتنا، وساعة عرض الأشهاد...

(بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ{41})
{بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ}، وتشهرون وتعلنون وتتوجّهون بالكلام فقط لله تعالى، لأنَّ هذا هو الدعاء الوحيد الصادق، {فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ}، حيث يكشف العذاب ولا يبقيه يغطيكم، {إِنْ شَاءَ}، حيث أمامه تعالى خيارات عديدة وليس مجبوراً على كشف العذاب إن دعوناه، فإن أراد تعالى إزاحة العذاب عنكم أزاحه، ونعرف من القرآن أن بعض الناس يستحقون العذاب ولن يكشفه سبحانه عنهم، وبعض الناس يكشفه تعالى عنهم كما في حالة قوم النبي يونس(ع) كما ورد في الآية 98 من سورة يونس {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}، لأنَّ هذا قرار إلهي متعلقٌ بمدى كفرهم ومدى إجرامهم وإمكانية تغيّرهم أو خروج مؤمنين من ذريتهم.

{وَتَنْسَوْنَ}، حيث يذهب من فكركم ولا يخطر ببالكم في تلك الأوقات الصعبة، {مَا تُشْرِكُونَ}، الأشياء التي جعلتموها شريكة لله تعالى في الألوهية، وتنسونها، لأنها وهمية ومن اختراعكم ولا قيمة إلهية لها.

لاحظ إضافة القرآن للمشاعر كطريق للتعرّف عليه تعالى، حيث البداية مع ملاحظتنا بفكرنا للآيات فيما خلقه تعالى من كائنات وظواهر، وتتكوّن لدينا صورة عن ضخامة قدرات الإله الخالق، ونختزن هذه الصورة ليصير لدينا مشاعر تجاهها، مشاعر الحبّ بسبب ما أنعم به علينا سبحانه... ومشاعر التعلّق به عند التعرّض لما لا يمكننا مواجهته.

قابلية تفعيل المشاعر للتعرّف عليه تعالى، والتعلّق به، أيضاً من الطرق التي جعلها تعالى فينا للإيمان به، ومضافاً لذلك رسله وكتبه والآيات التي جرت على يدي رسله...

هنا الآية تركّز على حالة المشاعر عند الوقوع في ورطة لا نرى خلاصاً منها بالطرق العادية وتستدعي تدخلاً إلهياً، فإن أعلنوا لغيره تعالى طالبين العون، فدعاؤهم لا قيمة له ولا نفع منه، والآيات هنا تنبههم أنهم في الورطات التي

تحصل في الدنيا أو في الآخرة، وأنَّ المنفعة الوحيدة هي التوجه نحوه تعالى بالدعاء، وسواء سبحانه شاء الاستجابة أو لم يستجب، وعلى أي حال لا يوجد ولا أي منفعة من الدعاء لغيره.

(وَلَقَدْ أَرْسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ{42})
{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ}، إلى مجموعات من الناس لهم امتداد تاريخي ولديهم عقلية مشتركة، {مِنْ قَبْلِكَ}، {فَأَخَذْنَاهُمْ}، حيث لم نتركهم وأصبناهم، {بِالْبَأْسَاءِ}، بأشياء تجعلهم يشعرون بالسوء الكبير، كالحرب والزلزال والطوفان والجفاف... و{الضَّرَّاءِ}، حيث أصبناهم بتغيّر أحوالهم وما حولهم نحو الأسوأ، كمطر غزير أو برد قارس يُتلف المزروعات الموسمية، أو أمراض موسمية معدية...

هذه الإصابة بالبأساء والضراء، {لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ}، حيث من المفروض ومن المتوقع منهم أن يتضرعوا أن يدعوا ويبتهلوا مع تذلل لربهم سبحانه حتى يكشف عنهم العذاب، حيث يصيبهم تعالى بالسوء حتى يتركوا آلهتهم الوهمية التي اخترعوها ويرجعوا إلى الإله الواحد الحقيقي.

ننتبه جيداً، لأنَّ سلخ هذه الآية من سياقها سيجعلها تعطي معنىً غير صحيح، لو قرأتها لوحدها لفهمت منها أنه تعالى يصيب الناس في الدنيا بالأشياء السيئة حتى يتضرعوا له، ولكن لو قرأناها بحسب تسلسلها مع الآيات السابقة لفهمنا أنها لأناس كافرين لم يتركهم تعالى على راحتهم، بل زلزل حياتهم حتى يتركوا اختراع الآلهة الوهمية، لأنَّ تركهم لعبادة الآلهة التي اخترعوها هو الهدف من أخذهم بالبأساء والضراء وليس الهدف تضرُّعهم لله تعالى.

ننتبه للفرق بين العذاب وبين البأساء والضراء، حيث نحن ربما نفهمهما أنهما شيء واحد، ولكن الفرق يبدو واضحاً هنا، فالعذاب هو محاسبتهم على أعمالهم السيئة في الدنيا مثلما حصل مع أقوام الأنبياء نوح وهود وصالح ولوط... عليهم السلام، أما البأساء والضراء فمثلما حصل مع قوم النبي محمد(ع) ومثلما يحصل معنا الآن.

بعبارة أخرى، لو أن الناس آمنوا وأصلحوا واستغفروا، لنزلت عليهم بركات من السماء، كما ورد في الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، ولما حصلت معهم حالات سوء وضرر ليتضرعوا لله تعالى لكشفها، وهذا ما نفهمه من القرآن، وأمّا السوء والضرر فينزلان على الناس الذين عندهم مشاكل إيمانية بالعقيدة والسلوك، ويريد سبحانه إعطاءهم فرصة ليصلحوا دينهم قبل انتقالهم إلى عالم الآخرة.

(فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَـكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{43})
{فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا}، حيث نزلت عليهم الأشياء القاسية التي تجعلهم يشعرون بالسوء كالحرب والأمراض والزلازل... {فَلَوْلَا}، {تَضَرَّعُوا}، لكان خيراً لهم لو تضرعوا لله تعالى. ومن المفروض ومن المتوقّع أن يعلنوا لله تعالى أنهم يفقدون مساعدته حين يصيبهم الضرر، فلو حصل هذا فعلاً وتضرّعوا، وتكملة الجملة تعرفها لوحدك، فهذا شيء جيد لهم.

{وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ}، حيث كان أساس فكرهم ونفسيتهم لا يلين أمام البأساء والضراء، فلم يتضرّعوا! وكما نقول بتعبيراتنا: عقله كالتيس، ومخّه جامد، وفكره متحجّر... فهؤلاء قلبهم: فكرهم وشعورهم وأحاسيسهم تتصلّب ولا تلين ويصرّون على الكفر والشرك والسوء...

{وَزَيَّنَ}، جمّل وحسّن، {لَهُمُ الشَّيْطَانُ}، وهو إبليس وعموم أشباهه الموصوفون بالقيام بأعمال الضلال لأنفسهم وللآخرين، {مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}، حيث صوّر لهم أن ما كانوا يعملون من كفر وشرك ومعاصٍ أنه جميل، مع أنه في الحقيقة قبيح مكروه ومضرّ.

لاحظ أن بعض السور تتوسّع في موضوع عمل الشيطان إبليس على إضلالنا، وبعضها تتجاهله وأخرى تكتفي بالإشارة إليه، وبحسب محور كلام السورة ومع من تتحدّث وعلى ما دخلت فيه من مواضيع متفرعة عن لبّها، ترى الأساليب المختلفة بالتعبير عن إبليس، فمرة تذكره سورة ما لتريك أنه كائن عاش بين الملائكة وكلّمه تعالى ورغم ذلك كفر، لأنَّ رؤية الملائكة والكلام معه تعالى لن يسببا الإيمان... ومرة تذكره لتريك أنه عدو خفي لديه القدرة على الوسوسة في

فكرك ونفسيتك لتنتبه منه، ومرة تعتمد السورة على خلفية عند القارئ عن موضوع إبليس فتتخطّى التفاصيل وتخبرنا بأفعاله، وهذا تراه في الآيات التي توجّه كلامها للمسلمين... ومرة تشير إليه كخبر استطرادي كما ورد هنا، ومرات تتخطاه السور العديدة حتى تختصر النقاش مع من لا يؤمن أصلاً بهذا الموضوع من أصله، فلا يؤمن بما يسمّى بالتراث الديني الإبراهيمي...

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ{44})
تحدثت الحالات السابقة عن القاسية قلوبهم الذين لم يلينوا أمام البأس، ولدينا حالة أخرى: {فَلَمَّا نَسُوا}، عندما راح عن بال الكفار والمشركين، {مَا ذُكِّرُوا بِهِ}، لأنَّ البأس الإلهي نزل عليهم ليذكّرهم بربهم سبحانه، وهنا الآية تتحدث عن حالة بأس أصابت الناس، وفيها تذكَّرَ "بعض أو عامّة" الناس ربهم سبحانه، وتضرّعوا، ولكن بعدما انتعشت حالتهم، نسوا! عندها، {فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ}، حيث كل الأبواب والوسائط والوسائل، للوصول إلى الرفاهية التي كانت مغلقة عليهم، فتحها سبحانه لهم، وعاشوا في الأمان من الحروب، والأمراض والكوارث... وتنعموا بالخيرات والصحّة... {حَتَّى إِذَا فَرِحُوا}، حيث شعروا براحة، {بِمَا}، بسبب ما، {أُوتُوا}، بما حصلوا عليه من الخير، عندها، {أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً}، أصبناهم بالعذاب فجأة ومن دون أن يتوقعوا، {فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ}، لا خلاص لهم من الحالة السيئة التي وقعوا فيها.

هنا نستذكر الآيات القرآنية التي تحدّثت عن فتنة الكفّار بزينة الدنيا حتى يتعلقوا بها ويصير عذابهم أكبر... على قاعدة: نملي لهم... ولكن سنفقد التركيز عن الموضوع الذي أرادت الآية أن تبيّنه، وهو البغتة أو الفجأة بالعذاب بعد الفرحة في العيش برفاهية مع كفر وشرك، طبعاً بعد أن أخذوا فرصة للرجوع إليه تعالى حين عرّضهم لبأساءَ...

لا تنسَ أبداً أن كلام القرآن عادة عن نماذج، حيث هناك قرارات إلهية عديدة متكررة، وسبحانه مع الحالات المختلفة يتعامل بطرق مختلفة، ولكنها متكررة، لأنها سنّة إلهية للتعامل هكذا مع هذه الحالة، وبشكل مختلف مع حالة مختلفة أخرى... وهناك الكلام عن سنّة إلهية كعادة لتصرفه تعالى مع هذه النوعية من الناس، حيث يصيبهم بالضر كفرصة لهم ليتراجعوا عن كفرهم، وبحسب حالتهم سيكون قراره تعالى فيهم بتركهم في راحة لأن موضوعهم انتهى وحصلوا على فرصتهم ولم يؤمنوا ولن يطالبوه تعالى في الآخرة بأنه لم يبتلهم بسوء يوقظهم من غفلتهم، ولم يهزّ لهم العصا، حتى لا يستعملوا ذلك كحجّة لهم عليه تعالى، حتى لا يقولوا أنهم لو حصل معهم ذلك لكانوا آمنوا... وبما أنهم لن يؤمنوا فإن كان من ذريتهم لن يخرج مؤمنون، كالحالة الصريحة لقوم النبي نوح(ع) كما تقرأ في الآية 27 من سورة نوح {إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا}، عندها سيبيدهم تعالى كلهم، وإن كان سيخرج منهم مؤمنون أو لم يكونوا كلّهم مشاركين بفاعلية وقوة بالسوء، عندها يصيبهم عذاب لا يبيدهم وهذه كحالة قوم النبي شعيب(ع) وصالح(ع).

هكذا ترى بوضوح أن كلام القرآن عادة عن نماذج، حيث هنا لا تقصد الآية أنه تعالى سيفعل هذا مع كل الأمم، لا، بل بحسب حالتهم سيكون التعامل معهم، وهذا نموذج عن تعامله تعالى مع بعض الأمم.

(فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{45})
بعد أخذهم فجأة بالعذاب بحرب مدمّرة أو بزلزال أو ببركان أو وباء... {فَقُطِعَ}، حيث جرى فصل، {دَابِرُ}، ما يستدبرونه وما سيأتي خلفَ، {الْقَوْمِ}، الناس الذين لهم كيان كجماعة تفاعلت مع دينه تعالى، {الَّذِينَ ظَلَمُوا}، الذين لم يكن معهم حقّ ولم يكونوا منصفين عادلين حين كفروا، ولم يكن معهم حق حين اخترعوا آلهة، حيث هناك حالات لم يترك سبحانه أي واحد منهم حيّاً، ولم يَبْقَ لهم دابر ولم يَبْقَ منهم أحدٌ حيّاً حتى ينجبَ أولاداً، وإذا هم أدبروا ذهبوا ماتوا، فلم يَبْقَ خلفهم شيء.

بعبارة أخرى قطعه سبحانه دابر القوم، حرفياً معناه أنه سبحانه قطع ولم يترك أي اتصال بالحياة لأحد خلفهم من أولادهم، لأنَّ دابر هؤلاء القوم هو أن يبقى أحد خلفهم، أحد منهم لينجب أولاداً، وهذا لم يحصل.

نعلم من القرآن أن هذا حصل مع أقوام الأنبياء: لوط ونوح عليهما السلام، حيث مات كل قومهم الكفار، ولم يحصل قطع دابر لقوم النبيَّيْنِ صالح وشعيب عليهما السلام، حيث بقي من بعد العذاب بعضٌ من قومهم على قيد الحياة. ولذلك نفهم أن الآية تريد لفت انتباهنا لإمكانية حصول أقصى حالة تعذيب، وهي الاستئصال التام للكفّار.

{وَالْحَمْدُ لِلَّهِ}، لأنَّ أعماله تعالى كلّها محمودة، وهذه الإبادة للكفّار محمودة جيدة، {رَبِّ الْعَالَمِينَ}، المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس من أولهم لآخرهم.

كما ترى إنَّ جملة وصفه تعالى بالحمد تتضمّن الإشارةَ لانتهاء الموضوع، مثلما تقول شيئاً ما وفي الآخر تقول: والسلام. وتقصد أن الموضوع انتهى. طبعاً مع الفارق بين التعبير الإلهي بالحمد على إبادة الكافرين، حيث انتهى موضوعهم وفي نفس الوقت لا يوصف سبحانه بأي صفة غير حميدة لأنه أبادهم، بل عمله موصوف بأنه حميد حتى عندما أبادهم لأنهم ظالمون مصرون على الكفر... لأنَّ الحقّ أن يبيدهم تعالى.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ{46})

قل، لهذه النوعية من الناس عبر هذا القرآن: {أَرَأَيْتُمْ}، إن حصل عندكم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: لو شفتوا. وهي الصورة التالية: {إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ}، وحرمكم من السمع وجعلكم طُرْشاً، {وَأَبْصَارَكُمْ}، ولم يترك فيكم القدرة على إدراك معاني الصور، وجعلكم عُمْياً، {وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ}، حيث جعل تعالى شيئاً ما فوق نهاية أساس فكركم ومشاعركم وأحاسيسكم... فتعطل فكركم ونفسيتكم. {مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ}؟ مَنْ هو الكائن الذي لديه صفات وقدرات فائقة تمكّنه من فعل شيء كهذا من مستوىً إلهي غير صاحب الاسم المحدّد المميّز الله عزّ وجلّ يمكنه أن يمنحكم السمع والبصر والفكر والمشاعر؟

هنا الكلام يعود على بداية السورة، حيث هناك افتتحت كلامها عن إجبارية مصير الأمور والأشياء والأحداث، من أين حصلتم على السمع والبصر والفكر والشعور؟ حصلتم عليها من إله، من كائن لديه الصفات والقدرات الفائقة التي تفوق صفات المخلوقين، وتلك الآلهة الوهمية التي تعبدونها لا علاقة لها بأي شيء، وإذا قرّر تعالى حرمانكم من فكركم وحواسّكم فمن يمكنه إرجاعها لكم؟

{انْظُرْ}، وجّه اهتمامك العام، {كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ}، كيف نوزّع الأمور المميّزة كعلامات ودلائل على وحدانية الألوهية لله تعالى، أعطيناكم البصر والسمع والعقل... وهذا يدل بشكل واضح على أنكم تحت سيطرة أكبر منكم، والمسيطر هو الإله الواحد...

{ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ}، وبدل أن تكون محطّ اهتمامهم ووجهتهم، فإنهم يتجنبونها ولا يلتفتون لها! ويتركون الآيات الموزّعة هنا وهناك، والتي كلّها تدل على وحدانية الله تعالى، ويذهبون إلى الشرك!

أساساً لا يوجد أي معنى لآلهتهم الوهمية، فإن كان الإله من البداية خلق البشر ومنحهم هذه الصفات، فآلهتهم الوهمية أين هي؟ وماذا تفعل؟ إذا كان لكل قبيلة آلهتها الخاصة بها، ولكل بلد آلهة خاصة به وتختلف عن آلهة الآخرين، وعبر الزمن كان يوجد آلهة أخرى قبل آلهتهم، فأي آلهة من تلك الآلهة أعطت البشر البصر والسمع والفكر والشعور؟ حيث تارة تتم عبادتها وتارة تختفي! وتارة يعبدها شخص واحد، وفي نفس الوقت هناك أشخاص آخرون يعبدون آلهة أخرى، وفي نفس الوقت هناك جماعات تعبد آلهة مختلفة! وبعد مرور مدة من الزمن تتغير تلك الآلهة ويصير لدى المشركين آلهة جديدة!

إذن من الواضح أن إلهاً واحداً أعطى السمع والبصر والفكر والشعور لكل البشر، وهو نفسه يمكنه أخذها منهم ولا يوجد أي أحد يمكنه معارضته، أليس هذا دليلاً على وحدانية الله تعالى؟

ننتبه، لأنَّ الآية لا تقول بأن الله تعالى اختار هذا ليجعله أعمى أو اختار ذاك ليجعله أخرس، أو جعل هذا مجنوناً، لا، بل تقول بأنه سبحانه هو المانح لهذه الموهبة العظيمة، وهو وحده الذي أعطى البشر هذه النعمة، ووحده يمكنه سحبها، فماذا لو قرّر سحبها؟ هل يوجد إله آخر يمكنه إرجاعها لكم؟ لا، لا يوجد أي إله آخر يمكنه ذلك.

أما بالنسبة للأعمى والأطرش والمجنون، المصابين بخلل وظائفي حيوي، فهذا الخلل كان يعلم سبحانه أنه سيحصل مع النادر من البشر، مثلما كان يعلم أن إعطاءنا لحرية الإرادة والاختيار سيجعل البعض منّا يقتلون الأطفال الأبرياء، فلا الخلل كان هدفاً، ولا قتل الأطفال كان هدفاً، إنما هي حوادث سببتها الظروف المجتمعة... وبالطبع إنها تحصل لأنه سبحانه يسمح بحصولها، ويتركها تحدث، وأما المسؤول عن تنفيذها فهو البشر، ولذلك سنتحاسب على أعمالنا.

نعيد ونكرر بأن الآية لا تقصد بأنه تعالى اختار أشخاصاً ليسلبهم حواسهم وفكرهم، لا، بل تلفت انتباهنا أنه هو سبحانه الذي أعطى الحواس والفكر والشعور للبشر، وإن أخذها منهم فمن يمكنه إرجاعها لهم؟ فإن جعلنا كلنا لا نرى ولا نسمع ولا نفكّر، فمن يمكنه تغيير ذلك؟ وأي إله يمكنه أن يتدخل؟ ومن يملك القدرة على منح البشر حواساً وفكراً؟

أخيراً، نضع في بالنا دائماً أن القلب الذي تذكره الآيات ليس العضلة التي تضخ الدم، بل اللب والشيء الأساسي الذي فينا، فكرنا ونفسيتنا، حيث في كل اللغات المشهورة نجدهم يستعملون كلمة قلب للدلالة على لبّ أساس الشيء، ففي الإنسان لجسده قلب وهي العضلة المضخة للدم، ولكيان إنسانيته قلب وهو أساس شعوره وأحاسيسه وتفكيره، وللآلات نقول قلب للقطعة التي نحدّد أنها أساسية لتعمل الآلة...

نلاحظ أن كلمة صدف ومشتقاتها وردت في القرآن خمس مرّات، أربعٌ منها في هذه السورة بمعنى إعطاء الجنب والإعراض، ومرّة في سورة الكهف لتوصيف عمل الردم على صدف الجبل.

بقي شيء، حيث نصل في علومنا إلى مرحلة إعادة البصر للأعمى، أو حتى نتمكّن من إضافة حاسة جديدة ليست موجودة أصلاً عند البشر، بل نتمكّن من إعادة الأموات دماغياً إلى الحياة... وهذه أمور حصلت فعلاً لأنَّ النبي عيسى (ع) أعاد البصر لبعض العُمْيِ، وأعاد إحياء موتى، والنبي داوود(ع) تمتع بقدرة ليّ المعدن، وتجاوب الجبال والطيور معه، والنبي سليمان(ع) تمتع بقدرة التعامل مع الحيوانات والجنّ... وسيكون رائعاً لو تمكّنا نحن من فعل هذه الأمور.

ولكن وكما ورد في وصفه تعالى لما قام به النبي عيسى(ع) أنها لم تكن أعمالاً بقدرة من مستوى إلهي، حيث بإذنه تعالى جرت، وكذلك الكلام هنا عن قدرة إلهية، لأنَّ الكلام عن آلهة اخترعها بعض الناس، فهل يمكننا فعل شيء ما بقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، بحيث لا يكون تعالى هو الذي زودها بتلك القدرة؟

نحن نعلم من أنفسنا أن قدراتنا ممنوحة منه تعالى وليست إلهية، وإذا تمكّنا من إعادة الحياة لميّت أو من التواصل مع الحيوانات... فهذه قدرات ممنوحة لنا منه تعالى وليست قدرات إلهية فينا.

(قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ{47})
قل، لهذه النوعية من الناس عبر هذا القرآن: {أَرَأَيْتَكُمْ}، إن حصل عندكم صورة محدّدة وهي الصورة التالية: {إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً}، فجأة ومن دون أن تتوقعوه! كزلزال أو خسفة فجائية في الأرض تدمر قراكم أو وباء فتّاك... {أَوْ}، جاءكم العذاب، {جَهْرَةً} واضحاً أمامكم بشكل مباشر، حيث تعلمون أن إعصاراً أو فيضاناً قادمٌ باتجاهكم. {هَلْ يُهْلَكُ}، هل يتم استنفادُ إنهاء حياة الناس، بعذاب يأتيهم بغتة بشكل وبزمن لم يتوقّعوه، أو جهرة بشكل علني ومباشر فيرَوْنَهُ قادماً، {إِلَّا الْقَوْمُ}، إلّا الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة، {الظَّالِمُونَ}، الَّذِينَ لم يكن معهم حقّ، ولم يكونوا منصفين عادلين، لأنَّ الشرك بالله تعالى ليس إلا ظلماً والعدل والإنصاف أن يؤمنوا بسبب وضوح وكثرة الآيات على ذلك، هل العذاب الإلهي يطال إلا الذين لم يكن معهم حقّ، بعبارة أخرى إنَّ العذاب الإلهي لا يحصل إلا مع الذين ليس معهم حقّ بكفرهم بآيات واضحة الدلالة "الظالمين".

نكرر الحديث عن موضوع الكوارث لنتذكَّرَ مع القارئ بأن المجتمع المؤمن المستغفر "الحقيقي" لن تحصلَ معه كوارث، بل ستنزل عليه بركات من السماء، راجع الآيةَ 96 من سورة الأعراف، {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، أما بقية المجتمعات فهي في حالات مختلفة، فهناك أنواع من السيئات تسبّب نزول العذاب، وهناك أنواع لا تسبب العذاب الجماعي، ولا تسبب الكوارث الكبيرة، وهناك أقوام مقطوع الأمل بإيمانهم حيث يمدهم سبحانه بالنعم حتى يعمّق لهم بذنوبهم وكفرهم...

هنا الآية تؤكد بأن الكارثة إنما تنزل على قوم ظالمين، وأمّا عن مدى ظلمهم، وهل يوجد أظلم منهم على لائحة التعذيب... فهذه نقاط خارجة عن الموضوع ولكننا سنتكلم عنها باختصار، ربما ترى بلداً أو بلداناً من دين غير دينك ويرتكبون السيئات علناً... ولكنهم يعيشون في أمان ورفاهية! تتساءل: لماذا لا يصيبهم العذاب؟ حسناً، إن كان صحيحاً أنهم كلهم موافقون على السوء الذي يسبب العذاب الجماعي، ولا يوجد بينهم أناس معارضون للسوء، فسينزل العذاب في الوقت المناسب، حيث ورد ذلك مع بعض التفاصيل في الآية 44 السابقة وما قبلها.

تتساءل عن كوارث تحدث لبلدان فقيرة، أو لبلدان يسكنها أناس من دينك، انتبه، لأنَّ هذا بالنسبة لك ربما يبدو غير منطقي! حيث إنَّ الكوارث إن كانت تحصل بأمر إلهي، فلا يجب أن تحصل لهؤلاء، ولكن هذا رأيك أنت، وأنت لا تعلم ماذا يفعل هؤلاء، وما هي ذنوبهم، أو تتعامى عن سيئاتهم... لأنَّ المجتمعات الفقيرة يسود فيها الفساد مثلها مثل الغنية، بل الفساد الاجتماعي والتسلط والاستعباد نجده منتشراً بشكل أكبر في المجتمعات الفقيرة! ولا تخلط بين حسدك للنعمة والرفاهية التي في بعض البلدان من غير مِلَّتِكَ أو مذهبك، وبين استحقاق نزول العذاب عليها في رأيك، أخيراً لا تقس الأمور على نظرتك ولا على زمنك، حيث قبلك حدثت لهؤلاء حروب وكوارث، وبعدك ستحدث، وربما تحدث في زمنك وربما لا تحدث، لأنَّ الزمن أكبر من عمرك، وقرارات ربنا سبحانه ليست ضيقة النظر على قدر مدّة حياتك أنت لترى وتعايش قراراته تعالى... التي أصلاً لا علاقة لك بها ولا تفهم خفاياها، فاهتم بشؤونك وبما يعنيك من إيمانك واترك العمل الإلهي له تعالى، لأنَّ رحمته وحكمته وبصيرته... تعالى ظاهرة واضحة وَ أخبرنا مراراً وتكراراً أنه تعالى ورغم عزّته وقدرته وقهّاريته التي ورد الكلام عنها في بداية السورة فقد كتب على نفسه الرحمة، فراجع الآية 12 من هذه السورة وسيأتيك نفس الكلام في الآية 54.

(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{48})
{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ}، حيث لسنا ننهض بعض الأشخاص بما نريد توصيله للناس، {إِلَّا مُبَشِّرِينَ}، فقط حاملين للخبر السار المفرح، وتعلم أنه إخبار المؤمنين بدخول الجنة، {وَمُنْذِرِينَ}، حاملين خبراً عن قدوم شيء سيِّئٍ لمن توافرت فيه شروط حصوله، وتعلم أنه العذاب للكافرين.

المرسلون هذه وظيفتهم، وليست وظيفتهم القيام بالآيات والخوارق والعجائب.

{فَمَنْ آمَنَ}، حيث اعتقد بما قاله المرسلون، {وَأَصْلَحَ}، وعمل الأمور الموصوفة بأنها صالحة حسنة، لأنَّ سبحانه جعل فينا قدرة تمييز الخير من الشرّ، وهو سبحانه لا يأمر إلا بالخير، وعملياً العامل للصالحات ترك ما حرّمه تعالى وفعل ما أوجبه تعالى، وبالتالي فأيُّ شيء ديني تراه سيِّئاً، فإما لأن قلبك مطبوع بالسواد حتى رأيته سيِّئاً، أو لأنه ليس أمراً منه تعالى بل من اختراع الناس.

هؤلاء، {فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ}، حيث من الناحية الإلهية لن يشعروا بالخطر من العقوبة، لأنهم في الأمان من عذاب الآخرة، {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}، حيث لا يصيبهم أي شعور سيِّئٍ، سواء على شيء فاتهم من الدنيا، لأنهم تركوا الشهوات الحرام، والأعمال الحرام، ولكنهم لن يندموا على تركهم لها، لأنهم في الآخرة سيجدون أفضل منها بكثير، وسواء عن وصف حالتهم حين محاسبتهم فسيكونون سعداء مرتاحين في أمانه تعالى.

(وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ{49})
{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}، فقالوا عن الأمور المميّزة المنسوبة له تعالى إنها كاذبة غير صحيحة، وعملياً لم يؤمنوا بها ولا بالدين الإلهي، فهؤلاء، {يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ}، حيث سيشعرون بالضرر والسوء، ولن يروه من بعيد أو يحلموا به، لا، بل سيمسّهم حيث يشعرون به شعوراً حقيقياً قوياً، {بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}، بسبب قيامهم بأمور من الواضح مخالفتها للدين الإلهي، بسبب تركهم لأوامره تعالى الواضحة وبشكل صريح.

الآيات التي تؤكد بأنهم يجب أن يؤمنوا ويطيعوا ربهم سبحانه، فإنهم يقولون عنها بأنها سحر أو خرافات، وهذا فسق لأنَّ هذا خروج عن الإيمان والعمل الصالح، باتجاه الكفر والسوء، ولذلك سيتعذبون في الآخرة.

(قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ{50})

قل، عبر هذا القرآن لهذه النوعية من الناس: {لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ}، فما يملكه سبحانه فأنا كرسول لا أملكه، حيث إنَّ خزائن الرحمة وخزائن المطر والرزق... ليست عندي أنا الرسول محمد، فلا تتوقعوا مني أن يكون المطر أو الرزق أو الريح... تحت أمري، لا.

{وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ}، لأنَّ ما غاب عني وعنكم، ولم أشهده، حيث مثلي مثلكم لا أعرف عنه شيئاً، فلا أعرف ماذا سيحصل غداً ولا بعده، ولا أعرف ما حصل في الماضي، لأنَّ المعلومات التي عندي هي معلومات أي شخص عادي مثلكم.

نعلم من بقية القرآن، أن النبي محمد(ع) حصل على معلومات غيبية في بعض الأحيان، حيث نزل عليه القرآن وفيه بعضٌ من أخبار الماضي والمستقبل، لأنَّ الغيب هو كل ما غاب عنا ولم نكن حاضرين حين حصوله، سواء حصل في الزمن الماضي أو الزمن الحاضر أو سيحصل في المستقبل، والقرآن حدثنا عن مغيبات من الماضي كقصص الأنبياء، وحدثنا عن المستقبل وما سيحدث في عالم الآخرة... أما النبي محمد(ع) فلا يملك قدرة ذاتية على معرفة الغيب، لا هو ولا غيره من المخلوقات، وفقط الله سبحانه وتعالى يملك قدرة ذاتية لمعرفة الغيب، ووحده سبحانه محيط بكل الغيب، وبخصوص الآية فإنَّ النبي(ع) لا يملك قدرة ذاتية لمعرفة الغيب، فلا يعرف إن كانت أشجار النخيل ستحمل موسماً جيداً من التمر، ولا يعرف إن كان فلان سيؤمن أو سيبقى كافراً، ولا يعرف إن كان ثمن القماش سيرتفع أم سينخفض...

{وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ}، لأنني واحد من البشر مثلكم ولست من طبيعة أخرى، وبالتحديد لست من الملائكة(ع) التي يعتبر لها الناس قيمة كبيرة بسبب صفاتها وقدراتها العالية.

{إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ}، فأنا فقط على ما يصلني في فكري بلا كلام مسموع، عبر الملائكة(ع) التي توصل رسالة ربي سبحانه إليّ، وأنا لا أخترع أي شيء من عندي، بل مثلي مثلكم أتّبعُ فأسمع وأنفّذ الأوامر التي تصلني من ربي سبحانه.

قل، عبر هذا القرآن: {هَلْ يَسْتَوِي}، هل يتناسب وهما في نفس المستوى أو المرتبة "هل يتساوى": {الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ}؟ هل هما في نفس المستوى والاعتبار، لأنَّ الذي لا يدرك معاني الصور هو أعمى الفكر، فهل يتساوى مع الذي يرى بفكره؟ لقد أخبرتكم أني رجل عادي، ولكن ينزل عليّ الوحي، لذا أنا "بصير" وأنقل لكم كلاماً صحيحاً واضحاً، {أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ}، حيث من المفروض ومن المتوقّع أن تجول هذه المعلومات في فكركم لتصلوا منها إلى نتيجة، فلماذا لا يحدث ذلك معكم؟!

ونلاحظ أنَّ الآية هنا مشابهة للآية 31 في سورة هود.

وبالنسبة لخزائنه تعالى، فهي الأشياء التي يمكن خلقها ولم يخلقها سبحانه، أو الموجودة ولكنها بحاجة لأمر إلهي لتصير معنا، لذا يعبّر عنها القرآن بأنها في الخزائن. إنَّه سبحانه ليس عنده خزائن من حديد أو غرف أو مستودعات، بل قدرته على فعل أي شيء يريده هي الخزائن بالنسبة له، حيث أنا أسحب الماء من خزان المياه، وأسحب الطعام من خزانة الطعام، وأسحب المال من الخزنة الحديدية... أما سبحانه فيأمر أن ينزل الماء فينزل "بعد اكتمال أسباب نزوله"، ويأمر أن تخرج المخلوقات إلى الحياة فتخرج "بعد اكتمال أسباب خلقها"، ويأمر أن تَمْحُوَ الملائكة(ع) سيئاتي فتَمْحُوهَا... وعادة نربط خزائنه سبحانه برحمته، حيث من رحمته حصلنا على أشياء من خزائنه. بعبارة أخرى إنَّه سبحانه وتعالى يأمر فتحصل الأشياء، حيث لا يوجد علب أو صناديق أو غرف تخرج منها الأشياء، وخزائنه عملياً هي أوامره سبحانه وتعالى، وبما أنها جاهزة لتصير فور صدور الأمر الإلهي، مثلما الأشياء في الخزائن جاهزة لإخراجها، لذا وصّف تعالى ما يمكن خلقه وإتاحته بأنه في الخزائن.

طبعاً كلام الآية هنا مرتبط بمحور السورة في كلامها مع الطالبين لآية ليؤمنوا، حيث تخبرهم السورة أن الرسول الإلهي نفسه ليس من الضروري ولا من المفروض أن يكون غير عادي في قدراته، إذ المطلوب منه فقط التبشير لمن آمن وعمل الصالحات، والإنذار لمن كفر وعمل السيئات، وبديهي أن ناقل هكذا أخبار سيختاره تعالى لائقاً بنقلها،

وسيختار شخصاً فيه الصفات اللائقة حتى يصدّقه الناس ويحترموا كلامه، وهذا لا نقاش فيه في شخصية الرسل الذين يكلّفهم سبحانه بنقل كلامه، أمّا ضرورة تمتّع الرسول الإلهي بالقدرات الخارقة فهذا كلام غير صحيح.

لاحظ أن ما تقوله الآية هنا للكافرين سببه أن في بالهم فكرة ضرورة تميّز الرسول الإلهي، لأنه يتواصل مع الإله وبالتالي فلا بد من حصوله على امتيازات بالتمتع ببعض القدرات الخارقة، ومن ناحية ثانية مِنَ الأسهل علينا تصديقه بأنه رسول إلهي إن تمتّع بقدرات خارقة.

للأسف هذه العقلية ليست محصورة بالكافرين، حيث جذورها تراها في بعض المؤمنين! وتراهم يبجلون ويقدسون شخصيات تاريخية أو علماء أو أتقياء... وينسبون لهم الخوارق، وبوضوح لا لبس فيه فإنَّ هؤلاء لصق في ذهنهم أن درجة الإيمان العالية تستوجب حتماً الحصول على قدرات خارقة، وهي نفسها الفكرة التي نفاها القرآن مراراً وتنفيها الآية هنا.

وللأسف فإنَّ هؤلاء لم يعد المؤمن العامل للصالحات ذا قيمة عندهم، فإذا لم يكن يتمتع بقدرة خارقة فهم لا يحترمونه! ولديهم كمّ هائل من القصص الكاذبة والمبالغات عن خوارق مرتبطة بدرجة إيمان بعض الأشخاص، وبالتالي مَنْ لم يتمتع بقدرات خارقة ولم تُطْوَ له الأرض ولم يَرَ منامات تتحدث عن المستقبل ولم يأخذ خيرة تخرق الحائط ولم يكن دعاؤه مستجاباً... فهو في نظرهم ليس مؤمناً من الدرجة العالية!

للأسف هم يظنون أنفسهم من أصحاب المعارف والأسرار التي لا يعرفها الجهلة أمثالي الذين لا يفهمون من القرآن إلا القشور من ظاهر الكلام، لأنهم أسياد البواطن والتأويل، ويعرفون أسراراً يجهلها الآخرون أمثالي. ولنقل لهم إنهم محقّون، فلْنَرَ من قصصهم شيئاً ما نلمسه طالما يدّعون ارتباط الخوارق بالإيمان؟ بما أنه صاحب الأسرار الأرقى إيماناً منّا فَلْيُرِنَا ماذا يمكنه أن يفعل؟ لأننا نحن نقول بأننا بسطاء مؤمنون بقدر ما نفهم وبالكاد نحافظ على حسن سلوكنا، بينما هم يدّعون أن معارفهم هي الإيمان الكامل، وتوصلهم لفعل العجائب، فَلْيُرُونَا بعضاً من عجائبهم بدلاً من رواياتها! أم هم لم يصلوا لمرحلة فعل الخوارق؟ إذنْ لماذا يدّعون أنهم أشدّ إيماناً منّا طالما لا يملكون دليلاً على ذلك؟

(وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ{51})
{وَأَنْذِرْ بِهِ}، وانقل الخبر السيّئَ لمن توافرت فيه شروط العقاب، وهو الخبر الذي نزل إليك بالوحي، أنذر به، {الَّذِينَ يَخَافُونَ}، يشعرون بخطر أكيد لا يمكنهم تجنبه، {أَنْ يُحْشَرُوا}، أن يتم جمعهم بقرار منه تعالى سواء قبلوا أم لم يقبلوا، {إِلَى رَبِّهِمْ}، إلى المسؤول عنهم من مستوى إلهي، لأنَّ بعض الأشخاص مقتنعون ومتأكدون بأنه يوجد حشر، حيث سيحصل جمع للناس مرة ثانية بعد الموت، فأنذرهم من العذاب حتى يتوقّفوا عن الأعمال السيئة التي هم عليها والذاهبة بهم إلى العذاب حتماً.

{لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ}، حيث لا يوجد ولي يلي أمورهم ليكون مرجعاً لهم وهم تابعون له غير الله تعالى.

{وَلَا شَفِيعٌ}، وليس لهم من دون الله من شفيع، والشفاعة استعمالها عادة لوصف عموم استخدام القيمة المعنوية أو السلطوية لتغيير الظروف نحو الأحسن، لدفع ضرر تستحقُّهُ أو وقعت فيه بإرادتك، ويبدو في الاستعمال العامّي تساهلٌ ليشمل الظروف القاهرة التي توقعنا في ضرر حتى لو لم يكن لنا إرادة أو علاقة بحصوله، وليس من الواضح في كلام العرب قديماً إنْ كان هذا الحال يندرج تحت أصل المعنى للشفاعة لإتاحة منفعة. والكلام هنا عن أنه لا أحد يمكنه فرض شفاعته لأي أحد على ربنا سبحانه، لأنَّ العفو عن الذنوب والمسامحة عليها فقط بيده تعالى، وآلهتهم الوهمية لا قيمة لها.

نعلم من بقية آيات القرآن أن الملائكة(ع) والمؤمنين يشفعون، ولكن ليس لديهم حق الشفاعة كفرض واجب على ربنا سبحانه، كحق النقض "الفيتو"، لذا لا يمكنهم أن يفرضوا عليه تعالى شفاعتهم لكافر أو مجرم أو قاتل... حيث يقول أحدهم: معي حق الشفاعة وأريد أن أشفع لهذا ولا يحقّ أن ترفضوا طلبي. لا، وهذا ما تقصده الآيات حين تقول إنَّ الشفاعة بيده تعالى فقط، ونعلم أنه تعالى يسمح لبعض المؤمنين أن يشفعوا أو لا يسمح، ونعلم من القرآن من هذه الآية وأمثالها أنه تعالى بنفسه يتدخّل ويشفع لعبدٍ ما لإلغاء ذنوبه، لتكفيرها، لتخفيض العقوبة... حيث يشفع تعالى لأحد ما من بعد انتهاء حسابه...

أنذرهم، {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}، حيث من المتوقع ومن المفروض منهم أن يتجنبوا غضب وعقاب ربهم سبحانه بعدما تنذرهم إن خافوا من الحشر وما يليه من انحصار السلطة المطلقة به تعالى، وَإن كانوا من الكافرين به فهم ذاهبون حتماً إلى العذاب ولا حل لذلك حيث لا شفاعة لهم.

كما ترى إنَّ آيتنا هنا تقول لبعض أنواع المشركين "الذين لم يحسموا مسألة إيمانهم بعد" إنَّ باب الرجوع عن الكفر والسيئات مفتوح، حيث أخذتم علماً بالحشر وما بعده من عذاب، وهذا الكلام التخويفي حقيقي، ولا منجى لكم منه تعالى... لذا يجب أن يكون الخوف كافياً لكم لتؤمنوا وتعملوا الصالحات.

تعقيباً على محور السورة، يا من أنت في حالة ستؤدي بك إلى عذاب الآخرة حتماً، وَإن خفت من خبرها، فاستفد من الفرصة وآمن واعمل صالحاً، لأنَّهُ سبحانه لا يأمرك بالفساد بل ينهاك عنه فأين مشكلتك في ذلك... ودعك من خزعبلات طلب آية لتؤمن، حيث تبيّنت لك الآيات الإلهية في سيطرته تعالى عليك شخصياً بخلقك وببيئتك...

(وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ{52})
يا أيها النبي كنموذج ويا أيها المؤمن، {لَا تَطْرُدِ}، حيث لا تأمر بالزجر والعنف أن ينصرفوا عنك، {الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ}، الذين يشهرون ويعلنون ويتوجهون بالكلام إلى المسؤول عنهم من مستوى إلهي، حيث يعلنون أنه تعالى إلههم الواحد الأحد، {بِالْغَدَاةِ}، من بعد الفجر إلى العصر، ويدعونه، {وَالْعَشِيِّ}، من قبيل المغرب إلى أول الليل، يدعونه سبحانه، {يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}، حيث يطلبون التوجّه إليه سبحانه فقط ويريدون أن يتوجّه سبحانه إليهم، حيث يطلبون أن يعاملهم برحمته ويرضى عنهم ويهتمّ بهم، وبمقارنتها مع إعراضه تعالى عن العاصين تنتبه لمعنى طلب وجهه تعالى، وعملياً فهم يقصدون رضاه سبحانه وحده.

طالما هم في الظاهر يألهونه وحده تعالى، وتراهم بسلوكهم خلال تعاملك العادي معهم في النهار، من الغداة حتى العشي، تراهم يتصرفون كمؤمنين ولا يظهر منهم نفاق... فلا يحق لك أن تقول عنهم بأنهم ليسوا أتباعاً لدينك، حتى لو كانوا من الفقراء، أو البسطاء، أو أصحاب سوابق سيئة، وحتى لو كانوا من الكفرة والقتلة واللصوص قبل أن يؤمنوا...

مَنْ ظهر عليه أنه ملتزم بالدين الإلهي لأنه مثلاً يُصَلِّي، ولم يظهر عليه أي فسق أو نفاق، فلا يحق لك طرده من حولك.

{مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ}، لأنه عندما سيحضرون للحساب في يوم القيامة فلن تتحاسب عن أي شيء هم فعلوه في السابق أو سيفعلونه، لأنَّ ذنوبهم عليهم وليست عليك.

{وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ}، وحتى أنت نفسك عندما تحضر للحساب في يوم القيامة فهم لا علاقة لهم بذنوبك "إن كان عندك ذنوب"، ولن يأخذوا من حسناتك.

{فَتَطْرُدَهُمْ}، حيث إذا طردتهم وَأمرتهم بالقوة والعنف بالابتعاد عنك لسبب أو لآخر، {فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ}، من الذين تصرفوا بشكل ليس معهم حقّ فيه، فإن كانوا سيؤثرون على حسابك في الآخرة فسيكون معك حق أن تبعدهم عنك، وإن كان بدا عليهم تصرفات غير لائقة دينياً، حيث كانوا غشّاشين أو كذّابين... فهذه أسباب وجيهةٌ حتى تطردهم، ولكنهم لن يؤثروا عليك في حسابك ولا يبدو عليهم إلا الإيمان وبغية وجهه تعالى، فإذا طردتهم فأنت ظالم غير منصف ولا عادل، لأنه ليس معك حقّ بطردهم.

الآيات هنا ليست قصصاً حصلت مع النبي محمد(ع) وماتت! لا، بل هي لكل عصر تتكرر فيه هذه الحالة، حيث إذا آمن الفقراء والمساكين والضعفاء... فهذا سيجعل بعض المتكبرين يرفضون التدين حتى لا يتم اعتبارهم مجموعة واحدة مع الفقراء! وسنرى من الآية الآتية تكملة لهذا المعنى.

النبي(ع) لم يخطر بباله طرد المؤمنين الذين ليسوا على خاطر الكفار، ولكنه خبر إلهي للذين يشترطون قبل أن يؤمنوا أن يطرد النبي (ع) من حوله الذين يعتبرونهم أقل منهم مالياً أو اجتماعياً أو... وسترى ذلك في الآية التالية.

نتذكر دائماً أنه تعالى ليس كمثله شيء، حيث لا يشبهه شيء ولا بأي شكل، لأننا نحن عندنا وجه وربنا سبحانه يقول إنَّ له وجهاً، لذا لا تتصور أبداً وجهاً من فم وعينين وأذنين وأنف لله تعالى، لا، لأنَّهُ سبحانه لا يشبه أي شيء، ولكن كما

نحن نستقبل الكلام والرؤية والسمع بوجهنا، فإنَّ سبحانه يستقبل أدعيتنا وصلواتنا وأفعالنا الحسنة، حيث يسمع ويرى من كل الاتجاهات، وفي كل الأماكن، ووصف هذه الحالة بلغة البشر أنه تعالى في كل الاتجاهات وجهه. ونفهمها بشكل أبسط إذا سمعنا أحداً ما يقول بأنه يدعو ولكنه تعالى لا يسمعه، أو يقول بأنه سبحانه لا يرى المجازر التي تحصل للأبرياء... أو إذا صليت باتجاه ما فهو اتجاه لن يستقبل سبحانه فيه دعائي أو صلاتي... وهكذا نفهم أن وجهه تعالى يشير إلى توجهه تعالى، حيث يشير لاستقباله لكلامنا وتوجُّهه على ما نفعله، ووصف حالته تعالى بلغتنا: وجهه تعالى علينا، توجّهه تعالى. وعملياً كمثال نحن "نتوجّه" بالدعاء له تعالى، وسبحانه يتوجّه نحونا برحمته، فنحن نريد وجهه تعالى، ونريد أن يتوجّه إلينا، وبما أنه تعالى دائما بصير سميع عليم... بكل شيء، فنحن نريد أن يتوجّه علينا برحمته وباستجابة دعائنا. وهذا ليس تبريراً وفذلكةً لمعنى وجهه تعالى، بل هي حقيقة معاني الكلمات هكذا، حيث أنا أتوجّه بالعضو الذي فيه حواس البصر والسمع والشمّ، لأنه وجهي الذي أتوجّه به، وسبحانه يتوجّه إلينا ولكن طبيعته تعالى ليس فيها عضو أو جزء أو شيء منفصل... لذا فإنَّ معنى توجّهه تعالى هو نوع الاهتمام والتصرف مع شيء ما، حيث يتوجّه بالغضب على ذاك وبالرحمة على هذا...

(وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَـؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ{53})
{وَكَذَلِكَ}، وبهذه الحالة التي آمن فيها بعض الناس من المعتبرين من الدرجة الثانية والثالثة اجتماعياً ومالياً وثقافياً...
{فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ}، حيث تعرّض بعضهم لشيء من الآخرين وتغيّر بسببه، لأنَّ الفتنة هي عموم التأثّر وتغيّر الحال "معنويا أو ماديا" بعد التعرّض لشيء ما، وتتدرج من أعجبه وتعلق به وتغيّر بسببه، إلى أجبروه عليه وتماشى معه وتغيّر بسببه، أو تعرّض للشيء ولم يتغيّر، حيث افتتن ولم يتغيّر. حيث هناك أناسٌ يعتبرون أنفسهم أعلى من بقية الآخرين، لأنهم أغنياء، وجهاء، زعماء، مثقفون... وعندما يرون الفقراء المستضعفين البسطاء... آمنوا بالنبي محمد(ع) فلن يقبلوا أن يكونوا مثلهم في نفس الدين، وبعدها، {لِيَقُولُوا}:

{أَهَؤُلَاءِ} "الفقراء البسطاء..." {مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا}؟ فإذا كان الإيمان شيئاً جيّداً يمنّ به تعالى على الناس فيجب عليهم شكره عليه، فهل اختار تعالى هذه النوعية من بيننا حتى يمنحها الإيمان! كما نقول بالعامية: ما شاف غيرهم! ما لاقى غير هذه النوعية!

ما قيمة هذا الإيمان إن كانت حصلت عليه هذه النوعية ذات المستوى المنخفض من الناس؟ لا قيمة له، بدليل أنهم هم المتدينون لا قيمة لهم، والقيمة العالية لنا نحن الأغنياءَ الزعماءَ المثقفينَ... لأنَّ الكلام عن أهمية الإيمان وأنه منّة ومنحة عظيمة منه تعالى هو كلام غير صحيح.

الجواب على شكل سؤال:

{أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ}؟ أنتم ماذا تعرفون عنه تعالى ومن أنتم حتى تحدّدوا ما هو الأنسب ليفعله تعالى؟ أليس الإيمان فعلاً منّة، لأنه عطاء يجب أن تشكره تعالى عليه، حيث تعلن أنك حصلت على شيء جيّدٍ منه تعالى، وها ترون أن من رأى الإيمان نعمة، وآمن، هداه تعالى، وأنتم لم تروه نعمة ولم تدخلوا فيه ولن تدخلوا فيه ما دمتم لا ترونه منّة، حيث لا ترونه كشيء جيدٍ يستوجب منكم شكره تعالى عليه أن هداكم.

إذنْ نحن أمام نموذج لم يؤمن لأنه يتحجّج بنوعية المؤمنين أن مستواهم أقل من مستواه، وبغض النظر عن الآيات الدالة على الإيمان، فإنَّ هؤلاء يريدون الانضمام إلى شيء خاص مميز بهم كطبقة راقية لا يشاركهم فيه الفقراء والمستضعفون...

كما تعلم فإنهم بالأساس كمجتمع من فقراء وأغنياء كانوا على دين الكفر والشرك، ويتعاملون مع الرسول ودينه تعالى كحزب جديد، ومن هذه النظرة ترى أنهم رأوا بعض الضعفاء والفقراء والبسطاء... ينضمّون للدين الجديد، وهم كانوا من الوجهاء في الدين القديم، وإذا انضمّوا للدين الجديد فسيفقدون ميزتهم القديمة ويصيرون مثلهم مثل من يرونهم أقل منهم، حيث كلهم في "الحزب" الجديد من المؤمنين ومثل بعض، علماً أن القلّة القليلة من الأغنياء والوجهاء انضموا لدينه تعالى، ولكنهم قلّة، وفي الدين الجديد فقدوا امتيازاتهم كوجهاء ونافذين لأنهم صاروا تحت قانون دينه تعالى متساويين مع المؤمنين الآخرين.

مشكلة عقلية "النخبة" مرض بشري تراه في مختلف جوانب الحياة، حتى نحن المسلمين ننقسم بين بعضنا وننشئ أحزاباً وجمعيات للنخب. بل وفي الإيمان لدينا نخب يؤمنون بأمور لا يستوعبها الآخرون من درجة الإيمان والثقافة المنخفضة! وهذه العقلية ما هي إلا نسخة محدّثة عن عقلية من رفض الإيمان لأنه لم ير موقعاً له فيه كواحد من النخبة، ومشكلة عقلية النخب تناولتها سور عديدة عارضة مشكلة المصابين بها من الكافرين، وكمثال عن ذلك راجع دراسة الآية 29 من سورة هود {وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ}، وتناولت مشكلة المسلمين المصابين بها وراجع في ذلك دراسة الآية 13 من سورة البقرة {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ}، ونبّهتنا عبر تنبيه الرسول محمّد(ع) من الوقوع في هكذا عقلية كما ورد في الآية 28 من سورة الكهف {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}...

(وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{54})

{وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا}، حيث إنَّ الذين يعتقدون بالأمور المميّزة المنسوبة له تعالى أرادوا التواصل معك، {فَقُلْ}، لهم أيها الرسول(ع) "وأيها المؤمن":

{سَلَامٌ عَلَيْكُمْ}، حيث لن يصيبكم منه تعالى ولا منّا أي سوء، لأنَّ لكم الأمان منه تعالى وأنا لست أعاديكم، {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}، حيث لا أحد يفرض على المسؤول عنكم من مستوى إلهي أن يعتني بمخلوقاته بما فيه مصلحتهم، بل هو سبحانه كتب "فرض" على نفسه أن يكون رحمانَ على الشكل التالي، {أَنَّهُ}:

{مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا}، عملاً سيّئاً، {بِجَهَالَةٍ}، عن طيش وليس عن دراسة وفكر، كما نقول بالعامية عن الشاب الطائش: جهلان. ونقصد أنه لا يتصرف عن فهم وعلم. {ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ}، حيث لم يستمر بتكرار السوء، وفتح صفحة جديدة ولن يكرّر العمل السيّئ وتوقف عنه فعلاً، {وَأَصْلَحَ}، حيث كان عمله موصوفاً بأنه صالحٌ جيّدٌ حسنٌ، حيث فعل ما يراه صالحاً بما منحنا تعالى من قدرة على تمييز الخير من الشرّ، وسبحانه لا يأمر إلَّا بما هو صالح، وعملياً توقف عمّا منعه تعالى وفعل ما أوجبه تعالى.

{فَأَنَّهُ غَفُورٌ}، يتجاوز عن السيئات ولا يتمسك أو يجمد سبحانه على موقف واحد، لأنَّ المستبد الصلب اللئيم... لن يغيّر حكمه فيك مهما فعلت، وحتى لو ندمت وتبت وأصلحت عملك... أما ربنا سبحانه فيغفر لمن تاب.

{رَحِيمٌ}، حيث لديه سبحانه عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، حيث إنَّ المؤمنين لوحدهم يحصلون على المغفرة ومضاعفة الحسنات والشفاعة... أمّا غيرهم فلا يحصل على هذه الأمور لأنهم هم بإرادتهم كفروا وأشركوا ولم يتوبوا وخرجوا من تحت مظلة الرحمة الإلهية.

نرجع للآية، حيث إنَّ الذين أعلنوا إيمانهم، ربما يكون بينهم أصحاب سوابق، حيث كانوا لصوصاً أو قتلة أو نصَّابين... لذا تقول لهم الآية على لسان الرسول(ع): لا تهتموا لتعليقات الكفار عليكم، فإن توقفتم عن أعمالكم السيئة وتبتم فسبحانه سيغفر لكم... وستدخلون إلى الجنة...

ضع في بالك دائماً أن الرسول محمداً(ع) وما جرى معه مع الذين حوله من الناس، إنهم نماذج ذكرها القرآن لنتعلّم منها، حيث كم تكرّر في تاريخ المسلمين موجات تدين وبعدها موجات انحسار التديّن حيث ابتعد الأغنياء عن التديّن، واقترب منه الفقراء، وكم استهان النافذون والرؤساء والأغنياء بالتدين حتى انتشرت موجة التدين من جديد وظهرت طبعات السجود على جباه الجميع... وبعدها استغنى الفقراء عن التدين ولحق بهم الأغنياء... ومن جديد جاءت موجة التدين ودخلها الفقراء...

واقع الحال البشري أننا أمام حالات تتغيّر، وينبثق عنها متسلقون للسلطة والثروة والنفوذ وحبّ الشهرة... وهؤلاء عادة وغالباً يفقدون الرحمة بالآخرين ويصيرون فوق القانون، وعندها يقبل المنسحقون بأي شيء ينجيهم من فقرهم وقهرهم واستضعافهم...

إذا تذاكى أحد ما ليخصّص هذه الحالة كفلسفة وسبب لانتماء الناس لدينه تعالى، وكأنها حصرية له، فهذا يتعامى عن حالة بشرية عامّة، وسبحانه مراراً وتكراراً عرضها كما هي، لأنَّ العيب من جانب الذين ظلموا وقهروا وتسلّطوا... وليس من جانب ما يطرحه تعالى وقبول المستضعفين به، بل هذا دليل على فساد الأديان التي اخترعها الناس لأنها لم تُؤَمِّنِ السعادة إلا للقلة القليلة منهم. أنت تعلم الفرق الهائل بين دينه تعالى وبين الأديان التي اخترعها الناس، حيث حتى المنتمون لدينه تعالى شوّهوا دينه تعالى جاعلين منه نسخةً معدّلة عن الأديان والشرائع الفاسدة، وسلبوا الناس أموالهم وتسلطوا عليهم وغذّوهم بالنعرات الطائفية والمذهبية والعصبية... عاكسين نفسياتهم المريضة والإجرامية والنخبوية... على خطاباتهم الدينية... حتى يشكّلوا جماعات ليترأسوها ويحلبوا خيرات الناس والبلاد، وتُنَفَّذَ إرادتهم الإجرامية المريضة... وباسم الدين الإلهي!

(وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ{55})
{وَكَذَلِكَ}، وبهذا الذي ذكرناه في الآيات السابقة من توضيح ولفت انتباه لعقلية ونفسية وكلام... الكافرين بالآيات، {نُفَصِّلُ الْآيَاتِ}، لأنَّ هذا الكلام من الأمور المميزة من مستوىً إلهي والتي تهدي الناس ولم تأتهم مجملةً مختلطةً مع أشياء أخرى تسبّب التشوش، بل جاءت مفصّلةً، {وَلِتَسْتَبِينَ}، لتصير واضحةً، {سَبِيلُ}، مسالك، {الْمُجْرِمِينَ}، مرتكبي الجرائم، فاعلي الأعمال التي تستحق العقاب عليها.

السبيل الصحيح هو: الإيمان بما جاء به النبي محمد(ع). والسبيل الخطأ هو سبيل المجرمين وهو الكفر والشرك والتشريعات الجائرة والسلوكيات السيئة الفاسدة... مَنْ آمن وتاب وحَسُنَ عمله فهو من المؤمنين، ومن كفر ولم يتب من أعماله السيئة فهو مجرم ويستحق العقاب، وهذا في كلامه تعالى ليس مجملاً بل مفصّلاً واضحاً.

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ{56})
قل، أيها الرسول(ع) وأيها المؤمن، عبر هذا القرآن للناس: {إِنِّي}، أنا شخصياً، {نُهِيتُ}، حيث نهاني ومنعني ربي نهائياً تماماً بشكل حاسم، {أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، حيث أنا لا أتصرّف على أساس أنَّهُ مفروض مني طاعة آلهتكم، ولا أعتبرها كائنات فائقة القدرة ومؤثّرة عليَّ... ولا أطيعها، لأنَّ صاحب الاسم المحدّد المميز الله سبحانه هو الإله الحقيقي الواحد الأحد وبالتالي فإنَّ تصرفي كعبد يجب أن يكون فقط معه، وفي نفس الوقت منعني سبحانه من عبادة غيره. لنفترضْ أنه تعالى ليس عنده مشكلة في اختراع الناس للآلهة، ولنفرض بأنه سبحانه يسمح للناس باختراع آلهة وعبادتها، لأننا حتى لو كفرنا كلنا فلن نسبب أي مشكلة لربنا سبحانه وتعالى. حسناً، لو سمح سبحانه بعبادة غيرِهِ، "لو"، لربما كنت فعلت مثلكم وعبدت آلهتكم الوهمية، أو اخترعت إلهاً خاصاً بي، ولكنه عزّ وجلّ لم يسمح بذلك، حيث نهاني عن ذلك.

بعض الناس يقولون: حسناً لِنَقُلْ معك حقٌّ وإلهك الله هو الإله الواحد الأحد، ولكن أين المشكلة في اختراعي لإله وعبادته؟ حيث يأتي الجواب منه تعالى مباشرة أنه لا يقبل بذلك ولن يمرّر ذلك ليتغاضى عنه. وأنت تعلم أن هذه المسألة ليست بهذه البساطة، لأنه من ناحيته تعالى جعل فينا فكراً ونفسية وقابليات... تؤهلنا بسهولة للتعرّف عليه، ومعاندة ذلك ومخالفته واختراع آلهة وهمية هو تصرّف سيّئٌ، وظلم، وإجرام، لأنه ترك لتوقير واحترام وتقدير الذي منحك الحياة وما تتمتّع به من صفات، وَتوجُّهٌ بالشكر والاحترام والتقدير والعبادة نحو إله وهمي؟ فما معنى هذا؟

{قُلْ}: {لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ}، لأنَّ هذه الآلهة التي تدعونها هي من هواكم من اختراعاتكم، من صنع خيالاتكم، وليس لها قيمة إلهية حقيقية، فكيف أعبدها! أأترك عبادة الذي خلقني وأتغاضى عن منعه لي من عبادة غيره وأتبع أهواءكم! فأترك الحقيقة الناصعة وأمشي على هواكم وخيالكم؟!

لو اتبعت أهواءكم وعبدت آلهة من دون الله تعالى أكون، {قَدْ ضَلَلْتُ}، صرت على الطريق الخطأ، {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}، فإذا تركت عبادته تعالى ونهيه عن عبادة غيره واتبعت أهواءكم فلن أكون على الشيء الصحيح الذي يوصلني للغاية الصحيحة.

انتبه لهذه المعاني جيداً عزيزي، فما الدليل على ألوهية الأصنام والجن والأرواح والملائكة(ع) والبشر... كما ترى عبر هذا القرآن، إنَّ الله سبحانه وتعالى يتحدث معنا بطريقة منطقية عقلانية وبشفافية مع الشرح حتى ينبهنا، وسترى ذلك بعد قليل في الآيات التالية، حيث يقول سبحانه لنا إنَّه لا يعلم بوجود آلهة غيره، حيث سبحانه وبكل شفافية يقول لنا إنَّه هو سبحانه متأكد بأنه هو لوحده خلق كل شيئ، ولم يجد سبحانه أي أثر لأي موجود آخر إلا مخلوقاته، ولم يلمس أي أثر في كل السماوات والأرض لأي كائن غير نفسه والكائنات التي خلقها هو تعالى... ويقول سبحانه لنا إنَّه متأكد بأن الذين تعبدونهم ليسوا آلهة، لا من قريب ولا من بعيد، ولا بأي شكل، وَأرسل لنا رسله لينبهونا، لأنه لا يسمح بعبادة غيره، ويعاقب من يعبد غيره، وبالتالي أنت مأمور أن لا تعبد الآلهة التي اخترعها الناس من أهوائهم، وهم سيتحاسبون على هذه العبادة.

(قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ{57})
{قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي}، حيث وصلني شيء واضح من المسؤول عنّي من مستوى إلهي، معلومات عنه تعالى وعن أفعاله وقراراته وتشريعاته... {وَكَذَّبْتُمْ بِهِ}، حيث قلتم عن الشيء الواضح الذي جاءني منه سبحانه إنه كذب وليس صحيحاً، ولم تصدّقوا به، ولم تؤمنوا بي رسولاً ولا بتوحيده سبحانه ولا بدينه.

{مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ}، ليس بيدي وبقرار مني يحصل العذاب لكم قبل أوانه، حيث نقلتُ لكم من ربي أنه سيعذبكم في الآخرة لأنكم ألّهتم غيره، وها أنتم تقولون: لا داعي لانتظار الآخرة فليعذبنا الآن. ولكن "أنا الرسول" ليس عندي ما تستعجلون به، لأنَّ قراره ليس بيدي حتى أقرر أن تتعذبوا الآن قبل وقته المحدّد.

{إِنِ الْحُكْمُ}، وهو فقط ضبط الأمور على المطلوب، القول الصواب بالقرار النهائي بتعذيبكم، {إِلَّا لِلَّهِ}، وليس بيدي ولا بيد غيري.

{يَقُصُّ الْحَقَّ}، حيث يقول تعالى تفاصيل أحداث ما حصل معي ومعكم بلا زيادة ولا نقصان ولا مبالغة عندما سيحكم بيننا في الآخرة، فما قلته لكم لن يزيد عليه تعالى ولن ينقص منه لأبدو غالباً لكم ومعي حقٌّ، وما قلتموه لي لن يزيده ولن ينقصه تعالى حتى تظهروا كخاسرين وعليكم الحقُّ، بل سيحكم علينا كِلَيْنَا بالحق، {وَهُوَ}، سبحانه، {خَيْرُ الْفَاصِلِينَ}، حيث إن كان الباطل الذي أنتم عليه يبدو مختلطا مع الحق، فهناك في الآخرة سيتميّز الحق لأنه تعالى موصوف بأنه إن فصل بين المتخاصمين فسيكون فصله حَسَناً جيّداً صالحاً...

أنا وأنتم الآن متخالفون، ونحتاج لمن يفصل بيننا، حيث أنا أقول الحق معي وأنتم ضالون... وأنتم تقولون الحق معكم وأنا ضالٌّ... حيث تخالط كلامي وكلامكم وتخالفنا... لذا فإنَّ الفصل بيني وبينكم، بين الحق والباطل، سيكون في الآخرة بيد الله تعالى، وهو سبحانه موصوف بأنه خير من فصل، وقياساً معنا نحن البشر لدينا قضاة تفصل بين الناس، حيث إنهم يفصلون والله سبحانه يفصل، وسبحانه بقدراته وصفاته الإلهية الفائقة هو خير من فصل، لأنه عادلٌ عليمٌ حكيمٌ بصيرٌ سميعٌ...

مرَّ معك في ذيل الآية 32 من هذه السورة كلامٌ عن كلمة "خير" فراجعه.

(قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ{58})
{قُلْ}، لهم عبر هذا القرآن: {لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ}، لو كان تقريب موعد محاسبتكم وتعذيبكم بيدي ويمكنني إجراؤه الآن قبل وقته، {لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ}، لأنَّ الموضوع الذي كان مطلوباً حصوله لكان حصل، والآن لكان انتهى كل شيء، لعذّبتكم الآن كما تطلبون أو لانتقلنا إلى عالم الآخرة الآن وحكمت عليكم بالعذاب.

{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ}، حيث لا أحد غيره سبحانه لديه علم تام بالأشخاص الذين لم يكن معهم حقّ فيما فعلوه، غير المنصفين وغير العادلين لأنهم تركوا ما هو بيّن الصدق وكذّبوا به.

من ناحية أنا حتى لو كان قرار تعذيبكم بيدي فهذا ليس بمصلحتكم، لأنه يوجد بينكم أشخاص ليسوا ظالمين مع أنهم يبدون لي من الظلمة! لذا أنتم تطلبون أن يكون لي قرار في تعذيبكم، مع العلم أنه ليس في مصلحتكم أن يكون القرار بيدي، لأنَّ الله سبحانه وتعالى وحده يعلم بشكل أكيد وتفصيلي بالظالمين الَّذِينَ لم يكونوا محقّين عادلين منصفين فيما

فعلوه. ومن ناحية ثانية إنَّ سبحانه أعلم بما هو المناسب ليفعله بالظالمين، حيث يعذبهم في الدنيا في حياتهم العادية بمشاكلها أو يصيبهم بكارثة أو يتركهم على راحتهم هنا ويؤجل تعذيبهم للآخرة، حيث إنَّ الظالمين أنواع وكل واحد منهم سيتعامل معه تعالى بما يناسب وضعه وحالته.

لاحظ المعنى الذي تلفت الآية انتباهنا له، حيث نستنتج أن ربنا سبحانه وتعالى لأنه الأعلم ولا يوجد غيره محيط بكل شيء، لذلك لم يترك لأحد غيره قرار الحساب والتعذيب، وإلا لكنا ظلمنا الأبرياء لأننا لا نملك كل المعلومات، حيث ربما كان بين الكفّار شخص هددوه بقتل عائلته إن لم يعلن كفره بالنبي ودينه! وربما أجبروه على اختراع إشكالات على الدين حتى يثبت لهم أنه لم يؤمن، واخترع الإشكالات حتى لا يقتلوا عائلته... وربما يحتاج لدفعة ما حتى يؤمن وهو عالق على شيء سخيف... في هذه الحالة أنا وأنت لن نعرف أنه مجبور ولن نعلم أنه عالق في مكان ما ويحتاج لفرصة... وسنحكم عليه بالعذاب مع أنه ليس من الظالمين. ولذلك لم يعط الله تعالى لأي أحد غيره السلطة على الحكم على الناس في الآخرة، وتلاحظ دائماً في القرآن أنه هو سبحانه بنفسه يحكم على كل شخص.

إذنْ، قرّر سبحانه أن يكون الحساب في الآخرة، وأن يحاسب الناس بنفسه، ولا معنى لكلامكم حين تطلبون مني كرسول أن يأتي العذاب الآن، لأن قراره ليس بيدي، ولو كان بيدي لحصلت أخطاء، لأن الله تعالى وحده أعلم بالتعامل المناسب مع الظالمين.

لاحظ وانتبه أن القرآن لم يستعمل ولا مرّة في حقّه تعالى كلمة "عرف" أو أي من مشتقاتها، لأنَّ المعرفة من التعرّف وهي العلم بالاعتماد على الأمارات بطريقة غير مباشرة، عبر مقارنة ما دخل حواسك وتصوراتك ومفاهيمك مع ما في ذاكرتك، لأنَّ العلم حديثاً بشيء لم تكن تعلمه أو العلم بالتلقين من آخرين لشيء لا تعلمه... هو التعرّف، ولذلك لا يوصف تعالى بالمعرفة ويوصف فقط بالعلم، حيث إنَّ سبحانه لا تغيب عنه أي معلومة حتى يتعرّف عليها أو حتى يقارن بينها وبين ما يعلمه، لأنَّ علمه فائق.

هنا بعبارة "أعلم بالظالمين" ربما نتساهل بالتعبير ونقول إنَّه تعالى يعرفهم ويعرف التعامل المناسب معهم، ولكن هذا ليس التعبير الدقيق، بل خطأ، ولن تجده تعالى استعمل الفعل "عرف" بحقّ نفسه بينما استعمله سبحانه في توصيفنا نحن.

(وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ{59})
تعقيباً على عموم ما ورد في الآيات السابقة، ولفتَ انتباه على أنه سبحانه وحده عالم الغيب، وعنده خزائن الرحمة، والعالم بما يدور بين الناس، والعالم بالظالمين... فلا إله غيره لأن هذه هي صفة الإله وليست موجودة إلا فيه سبحانه:

{وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ}، حيث الغيب هو كل شيء غاب عنّا ولم نعلم به، ولم نكن حاضرين حين حصل، سواء حصل في الماضي أو في زماننا ولكن ليس أمامنا، أو في المستقبل، فكل ذلك اسمه غيب، وللغيب مفاتح، مفاتيح، وسائل لفتحها لمعرفة ما فيها، لأنَّ الغرفة لها باب تفتحه بالمفتاح فترى ما في داخل الغرفة، والغيب له مفاتيح، {لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ}، الله سبحانه، حيث الغيب مغلق عليَّ، وأنا لا أعرف كيف أفتح الغيب لأرى ماذا جرى، أو ماذا حصل وسيحصل، وفقط الله سبحانه لديه القدرة على فتح الغيب، ونعلم أنه سبحانه يخبر أنبياءه أحياناً بأمور غيبية، ولكن ولا واحد من المخلوقات لديه القدرة المساوية أو حتى القريبة من قدرة الله تعالى على علم الغيب بشكله المطلق.

{وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ}، حيث يعلم ما يوجد على الأرض اليابسة ويعلم ما يحصل عليها من حوادث، ويعلم ما هو موجود وما يجري في {الْبَحْرِ}، بمختلف أنواع وأحجام تجمعات المياه، حيث يعلم ما يجري في الأنهار والمحيطات، يعني: يعلم بكل شيء على كوكب الأرض.

{وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ}، حيث يذهب فكرنا فوراً إلى ورقة الشجر لأن سياق الكلام لا يشير إلى شيء آخر وتكملة الجملة عن النباتات، وكنموذجٍ عن علمه الفائق سبحانه فإنَّ أي ورقة شجر تفلت من ارتباطها بغصنها وتقع على الأرض، {إِلَّا يَعْلَمُهَا}، لأنه من المستحيل ألّا يعلم سبحانه بكل ورقة شجر على كل أشجار الأرض إن سقطت عن شجرتها.

لاحظ، تريدك الآية أن تسرح بخيالك حول ضخامة علمه سبحانه وتعالى، وعندما تقول الآيات الكثيرة إنه تعالى يعلم كل شيء، فهنا تلفت انتباهك لأشياء من حولك، كم يوجد من أشجار على الأرض حالياً وسابقاً وفيما سيأتي؟ وكم يوجد من أوراق على تلك الأشجار؟ فكل ورقة يعلم سبحانه متى سقطت وأين سقطت...

{وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ}، حيث إنَّ كلمة حبة نستعملها الآن تقريباً كمرادف لكلمة واحدة حتى لو كان الشيء كبير الحجم، فنقول: حبّة بطيخ، وبعته حبتين، ونقصد أننا بعناه قفصين من الليمون... ولكن معناها الأساسي ليس واسعاً لهذه الدرجة فهي لخصوص ما كان صغيراً منفرداً، كحبّة لؤلؤ وحبّة رمان... ومن سياق الكلام يتخصّص معناها لتشير لحبوب النبات، وبالخصوص للكيان النباتي شبه الكروي الذي يتم أكله كما هو بلا غلاف عليه، كالقمح والشعير والفول... فلو كانت تلك الحبّة، في ظلمات الأرض، في مكان معتم من كل الجهات تحت الأرض، لَتَكُونُ مغطاة وتحت الأرض ولا ترى النور، مدفونة تحت التراب. وكما ترى فإنَّ الصورة هنا عن حبة نبات تحت الأرض ربما تنمو إذا اجتمعت الظروف المناسبة...

{وَلَا رَطْبٍ}، ولا عموم أي شيء مبلول بالماء فيه رطوبة، حيث إنَّ أي حبة "بذرة" نبات مبلولة بالماء وجاهزة للنمو، وأي غصن، وأي فسلة وأي جذر... {وَلَا يَابِسٍ}، ولا عموم أي شيء ناشف من الماء، حيث إنَّ أي حبة تحت الأرض لم يصلها ماء، ولم يحن وقت نموها، أو يبست ولن تنمو. أو أي عود أو أي شتلة... ناشفة من الماء.

{إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، مكتوبة مسجّلة بشكل واضح، لأنها كلها تحت المتابعة والمراقبة، حيث سبحانه خلق شيئاً يتم تسجيل كل شيء فيه، يمكنك أن تسميه: كتاباً سماوياً أساسياً. وهو ليس من ورق ولا مثل ذاكرة الكومبيوتر، ولا يمكننا أن نتصوره، حيث مرّ على ذكره القرآن عدة مرات، وفهمنا أن في ذلك الكتاب كل شيء سيحصل، وكل شيء يحصل أيضاً يتسجّل فيه، المهم أنه كتاب مبين، واضح، ليس فيه اختلاط بالمعلومات ولا تشابه، ولا تسجيل بالخطأ... بل واضح جداً لأن المعلومات التي فيه دقيقة جداً.

إذنْ هناك كتاب فيه كل شيء، ووحده ربنا سبحانه لديه القدرة على علم "استيعاب" كل ما في هذا الكتاب، لأنَّ وحده عنده مفاتح الغيب كلها، وفي بعض الأمور يمنح سبحانه الملائكة(ع) أو الأنبياء القليل من الاطلاع على بعض أمور الغيب، ويبقى الكثير الكثير من الأمور التي لا يعرفونها وَأصلاً لا قدرة لهم على معرفتها وَأصلاً لا يستطيعون تحمّل معرفتها من شدّة كثرتها الهائلة.

لو أطلت عليك، فإنَّ سقوط ورقة الشجر على الأرض ليست معلومة مهمّة لنعلمها أو نجهلها، والآية لم تذكرها لأهميّتها، بل سقوط الورقة نموذج عن حدث حصل، نموذج عن أي حدث يحصل في الدنيا، حيث أنا وأنت وبسبب قدراتنا المحدودة جداً جداً على التذكّر والانتباه، فإنَّ ما نراه الآن في المشهد أمامنا من عشرات الأشياء، لا يعلق في ذاكرتنا منه إلا القليل القليل، ويطير الكثير ويبقى في ذاكرتنا صورة ضبابية عنه، وتقول الدراسات إنَّ الدماغ يعتمد تخزين نسخ نمطية كصور أو شمّ أو شعور... نمطيّ، فلا يحتفظ بصورة طبق الأصل بل بمزايا وخواص الصورة التي يقولبها مع بقية الصور بقاسم مشترك بينها أساسي، وهذا القاسم المشترك هو النمط...، لذا يبقى في ذاكرتنا القليل وننسى مليارات المشاهد التي مرّت علينا في حياتنا إذا اعتبرنا كل ثانية مشهداً... وبسبب قدراتنا المحدودة نصبّ اهتمامنا على أمور نعتبرها مهمّة... حيث من بين كل الأمور التي تحصل في زماننا يكون اهتمامي مصبوباً على ما له علاقة بحياتي أنا، حيث لا أهتمّ إن سقطت ورقة شجر، ولكن سقوط الورقة حدث مثله مثل أي حدث آخر له أهمية بالنسبة لي، كحصول زلزال على كوكب في مجرة المرأة المسلسلة "اندروميدا"، فهي أحداث حصلت بغضّ النظر عن أهميّتها لك، لأنك تهتم بالأحداث التي تهمّك، أمّا الإله سبحانه وتعالى فكل ما يحدث، ومهما كان نوعه، وأينما كان، وفي أي زمان، هو حتماً وبشكل عادي طبيعي يعلمه سبحانه وتعالى، ومسجّل في كتاب قبل أن يحصل وبعد أن حصل.

بقي شيء صرنا نراه بسهولة من كلام الآية، حيث إذا خطر ببالك أن كائناً ما غيره تعالى يعلم الغيب، فانتبه إلى أن الغيب كمّ هائل جداً جداً من المعلومات، خذ مثلاً إلكتروناً التقطه بروتون في مجرة بعيدة عنّا مليارات السنين الضوئية، فهو معلومة، والآية هنا استعملت تعابير مناسبة وبسيطة، مشيرة لوقوع ورقة شجرة، لنفهم منها هذا العمق في الضخامة الهائلة لكمية المعلومات التي تتدفّق من أحداث دنيا هائلة الوساعة.

هكذا يتوسّع أفقك لتنتبه إلى أن المعلومات ليست فقط ما يهمّك، وأنك لو أتيحت لك قدرة معرفة الغيب، فهل لديك القدرة على التعامل مع هذا الكم الهائل من المعلومات؟ بل أي كائن مخلوق سيكون لديه هذه القدرة؟ الكتاب الذي تسجلت فيه هذه المعلومات هو شيء، ولنقل فرضاً فرضاً أنه مخلوق له وعي وَحوى كل المعلومات، فهل يعيها كلها؟ ويفهمها؟ ويستحضرها كلها معاً في نفس اللحظة؟ أصلاً الخبر عن الكتاب جاءنا منه تعالى، ولا يبدو أصلاً أن الكتاب كائن له وعي، ولو افترضنا له وعياً ما، فمن أين سنفترض أنه يستحضر كل المعلومات معاً في وعيه في كل لحظة؟ هكذا فهمنا من الآية أنه تعالى يتمتع بهذه القدرة الفائقة، وهكذا يكون الإله الحقيقي...

حسناً، هذا كان لفت انتباه لنماذج عن السيطرة الإلهية "بالعلم" بكل شيء "بشكل عام شامل"، أما بالنسبة لكم أيها الناس:

(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{60})

{وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ}، يأخذكم، {بِاللَّيْلِ}، حيث غالباً تنامون في فترة العتمة من اليوم وتصيرون جسداً بلا وعي ولا تفكير ولا إحساس بالحياة بما حولكم... لأنَّ الوفاة والوفاء ومختلف الاشتقاقات منهما هي عموم بلوغ التمام للشيء بما له من حقّ أو تناسب، حيث إنَّ الوفاء بالعهد هو إعطاؤه حقّه عبر الالتزام به، واستيفاء الكيل هو تعبئته إلى حافتّه... وليس دارجاً في كلام العرب قديماً توصيف النائم بالوفاة، ولا حديثاً درج هذا الكلام إلا في الأدبيات الإسلامية، فهذا وصف منه تعالى لحالة نومنا باستعمال ما يناسبه من لغتنا، حيث حين ننام يذهب منّا الوعي والإحساس بالمحيط، وسبحانه هو صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا هكذا، لذا ينسب سبحانه لنفسه وفاتنا، حيث إنَّ جملة "وفّى بعهده" ليست توصيفاً لأخذ وإعطاء لشيء ملموس أو له كيان، بل هي فقط توصيف حالة، والكلام عن وفاتنا كذلك ليس بالضرورة توصيفاً لأخذ شيء ملموس أو له كيان، حيث نفهمه بشكل أوضح كتوصيف حالة.

الكلام في السورة من بدايتها يشير إلى وقوعنا تحت تصميمه تعالى لنا، وهنا نفس المفهوم ينطرح في حالة نومنا واستيقاظنا وموتنا، وبالتالي يكمل تعالى مع تصميمه لنا بإخبارنا عن رجوعنا إلى الحياة في الآخرة.

{وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ}، حيث يعلم تعالى ما فعلتم من أمور لها أثر، حيث يعلم ما قامت به جوارحكم وأعضاؤكم وأطرافكم "أيديكم أعينكم..." من أعمال تركت أثراً، {بِالنَّهَارِ}، حيث عادةً تقوم الناس بأعمالها في فترة الضوء من اليوم، وتخبرنا الآية أنهم تحت المراقبة الإلهية، فلا تستسخف نفسك وتقول بأن بعض الناس ينامون في النهار ويعملون في الليل، وهذا بعكس الآية، فهذه سخافة، لأن أي إنسان يعرف هذا، ولكن الآية تريد أن تقول: في الليل عادة ننام ونصير بيده سبحانه فيرجعنا أو نبقى متوفّين، وفي النهار عادة نتحرّك ونعمل فنحن تحت المراقبة. والدقّة بالكلام للتفصيل بأكثر من ذلك لتشمل مراقبة المصابين بالأرق... فهي تفاصيل بعيدة عن النموذج العادي، والقرآن عادة يتحدّث عن نماذج عمومية... وعلى كل حال ومن دون تفاصيل ستفهم من الآية أننا كلنا تحت المراقبة والمتابعة الإلهية.

{ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ}، ينهضكم من همود في النهار، حيث يعيد إليكم أنفسكم حين تستيقظون.

{لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى}، حتى يحصل ما كان مقرراً، حيث لكل واحد منّا يوجد "أجل" كموعد محدد لموته، فكلما نمنا توفانا تعالى، وكلما استيقظنا بعثنا تعالى، ونستمر على هذه الحالة حتى يأتي قضاؤنا، وحتى يحين وقت حصول أمره تعالى فينا، وأمره تعالى بموتنا له أجل مسمّى: وقت محدد، فحينها يتوفّانا سبحانه فنموت.

{ثُمَّ}، بعد الانفصال التام عن جسدنا، {إِلَيْهِ} سبحانه {مَرْجِعُكُمْ}، حيث لستم تختفون أو تندثرون أو تنتهون أو تضيعون... بل ترجعون إلى ربكم سبحانه في عالم الآخرة حين يعيد لكم الحياة مرة ثانية.

{ثُمَّ}، بعد أن ترجعوا إلى الحياة في الآخرة، {يُنَبِّئُكُمْ}، حيث يخبركم بشيء علمه غير منتشر، {بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} في الدنيا، فيقول لكم: فعلتم كذا وكذا... وأنتم نسيتموه أو لم تعلموا بأنه من آثار أفعالكم... يعني يحاسبكم تعالى على أعمالكم.

عطفاً على ما جاء في الآية 42 من سورة الزمر {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}...، فترى في هذه الآية وفي آيتنا هنا أنه تعالى يوصّف حالة نومنا

بالوفاة، وهي حالة فقداننا للفعل والتفاعل الواعي، ولم يذكر القرآن ولا مرة أي شيء عن الروح حين يتحدث عن الوفاة والبعث، لأنَّ ما هو دارج في أدبياتنا الدينية عن خروج الروح من الجسد حين نموت وانتقالها لعالم... فهو أدبيات لا مستند قرآنيٌّ صريحٌ لها، وما تجده في الكتب عن النفس وتعريفها الفلسفي... فأيضاً لا مستند قرآنيٌّ مباشرٌ وصريحٌ له. باختصار إنَّ ما يقولونه في كتب الفلسفة والتصوّف والعرفان... عن الروح والنفس الإنسانية فلا يمكن اشتقاقه من القرآن، لأنَّ كلمة نفس استعملها القرآن مثلما يستعملها الناس في حياتهم العادية، كتعبير عن الشخص عن الذات عن الفرد عن الواحد منّا... وليس كتعبير عن شيء له كيان خاص منفصل عن الجسد.

لن أطيل عليك كثيراً بالتفاصيل وأكتفي بلفت انتباهك إلى أن ما يقوله القرآن هنا عن نومنا فهو خبر عن حالة فقداننا الفعل والتفاعل الواعي بجسدنا وما حولنا، لا أكثر ولا أقل، والبحث عن آليات النوم وعن المعنى التفصيلي لمعنى الحياة... فجوابه ليس دينياً، وليس من المفروض على القرآن الإجابة عن هذه الأسئلة، فهي لا علاقة لها بالهداية وإنما تفاصيل "علمية" للتعرف على خصائص الحياة البشرية، والبحث في الآليات والتفاصيل متروك لكل من يرغب.

حسناً سأطيل عليك، حيث سبحانه حين صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وصمّم بيئتنا قرّر أن نعطش وأن ينتج الماء عن بيئتنا، فجعل ظاهرة المطر لنحصل على الماء، فهو تعالى أنزل الماء لأنه هو صمّمها وجعلها تحدث، ونفهم ذلك بسهولة حين تتصوّر نفسك أنك قرّرت خلق كائنات، واخترت جعلها تجوع، ولنقلْ إنك بطريقة ما خلقت أسماكاً مع حوض فيه ماء، فإمّا أن ترشّ لها الطعام أو تخلقه في بيئتها انبثاقاً من الفراغ، أو تجعله ينتج عن بيئتها أو... فهل من المقبول أن تكفر بك مخلوقاتك ولا تعتقد بك كرازق لها لأنها وجدت الطعام متوافراً في بيئتها ولم تَرَكَ ترشّه بيدك على سطح الماء؟ فكّر في هذا وسترى أنه مفتاح لفهم الكثير من الآيات...

الآن يأتي السؤال: هل الجواب عن آليات كيفية حصول نزول الماء، يجب أن نجده في القرآن؟ وهل يجب أن يخبرنا القرآن كيف يحدث التبخّر وارتفاع البخار والتكاثف ووصول الكثافة إلى درجة حرجة وتعلقها بالغبار أو تصادمها مع كثافة غيم لها شحنة مختلفة... وبعدها يقول: هكذا أنزل الله تعالى المطر. فهل هذا ما تتوقع أن يذكره كتاب الهداية؟

إذنْ لماذا تتوقّع أن تجد التفاصيل عن آليات موتنا وإعادة حياتنا في القرآن؟ ولماذا قبل ذلك تتوقّع أن تجد تفاصيل آليات ظهور الحياة على الأرض من القرآن؟ نعم في القرآن إشارات، فهي خبر ممن خلقنا ولم يقصد منه أن يخبرنا كيف هو سبحانه يفعل الأشياء، فهذا مستحيل لأنه فوق قدرتنا على الفهم، واكتفى سبحانه أحياناً بذكر بعض المراحل عن حدوث بعض الأمور، حيث عن خلقتنا ذكر لنا الطين وبعده السلالة عبر النطف... راجع الآية 8 من سورة السجدة، وفي خلق السماوات والأرض أخبرنا عن مرحلة صار فيها على الأرض قوت، أي صار عليها ما يمكن أن نسدّ به حاجة الأكل... راجع الآية 10 من سورة فصلت...

إذنْ، لا يوجد شيء اسمه نظرية علمية قرآنية، في أي موضوع كان، لأنَّ كل المواضيع التي تريد معرفة آليات حدوثها فهي مفتوحة أمامك للبحث فيها، حيث يمكنك البحث في التعرّف على آليات حدوث أصل نشأة كوننا، بل وبقية السماوات، وعن أصل نشأة الحياة، وأصل نشأة الحياة على الأرض... ومعنى الحياة والوعي والإدراك... وما هو الموت... بل أكثر من ذلك، يمكنك "ولا مانع دينيٌّ" أن تحاول إرجاع الحياة إلى جسد الميّت، فها أمامك في القرآن استفزاز لنا لمحاولة فعل ذلك، ومذكور بكل صراحة في الآية 260 من سورة البقرة، حيث طلب النبي إبراهيم(ع) أن يرى آلية حصول ذلك، وقبلها الآية 259 من نفس السورة عن الذي أماته تعالى مئة عام... وغيرها في الآية 49 من سورة آل عمران حيث أحيا النبي عيسى(ع) الموتى... وغيرها عن أصحاب الكهف... وكما تمكّنا من إعادة الحياة للذي مات قلبه، فسيكون شيئاً رائعاً لو تمكّنا من إعادة الحياة لمن مات دماغه، والأروع لو تمكّنا من إعادة معارفه له...

أصلاً ما معنى المانع الديني عن البحث في أي موضوع كان؟ أساساً ها القرآن أمامك مشحون بالمحفزات للبحث والمعرفة في أمور متقدمة كثيراً علينا، فما معنى طرح فكرة النفوذ من أقطار السماوات والأرض في الآيتين 33 و 35 من سورة الرحمن {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ... يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ}، حيث تخبرنا أيضاً بما سنتعرّض له من شواظ... حيث نزلت في زمن كان الحصان فيه أسرع وسيلة نقل؟ وما معنى الكلام عن نقل عرش من سبأ إلى أرض كنعان بأسرع من رمشة عين في زمن النبي سليمان(ع) كما ورد في الآية 40 من سورة النمل {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا

آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ...} ؟ وما معنى الكلام القرآني عن كلام النبي سليمان(ع) مع الحيوانات والحشرات... والتواصل مع الجنّ... لأنها كلّها أخبار استفزازية لنا لنستكشف آليات فعلها ونحاول فعلها أو تقليدها أو محاكاتها...

ما معنى الثقافة الدينية المنتشرة بين المتدينين عن حصرية البحث في بعض الأمور انطلاقاً من التراث الديني؟ علماً بأن الكلام الإلهي كان عن الهداية إلى العقيدة والشريعة الصحيحة فقط لا غير، ولن تجد ولا نصّاً قرآنياً صريحاً أو بالتلميح يمنعك عن البحث في أي موضوع كان.

للأسف كان في الأجيال الأولى بين علماء المسلمين تنوّر فُقِدَ بشكل كبير مع مرور الزمن، حيث إنَّ تلك الأجيال "أكثرها" فهمت دينه تعالى كتحفيز على المعرفة في مختلف المجالات، وعندما صار تخصُّصُ العلوم الدينية منفصلاً عن العلوم التجريبية والنظرية... بدأنا نرى بداية التحجّر عند أغلبيتهم لربط كل شيء بالنصوص الدينية، حتى صارت النصائح الصحية تعاليم دينية! بل ومن المعيب على المؤمنين مخالفتها!

حسناً لِنَرْجِعْ للآيات، فهل يمكننا أن نغيّر حالة النوم والاستيقاظ والوفاة والبعث؟

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ{61})

{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}، حيث وردت هذه الجملة بالحرف في الآية 18 من هذه السورة، ووردت بالمعنى في غالبية ما سبق من كلامها عن الآيات التي ترينا وقوعنا تحت تصميم قرّره تعالى. لأنه تعالى يفرض ما يريده على الذين خلقهم ويملكهم، ويحصل ما يريده سواء قبلوا ووافقوا أم لم يقبلوا ولم يوافقوا، فلا يمكنهم أن يفعلوا شيئاً إذا أراد هو سبحانه شيئاً آخر، كما ترى من حياتنا اليومية، إننا ننام ونستيقظ، وفي الأخير نموت، هل يمكننا البقاء أحياء لا نموت؟ لا. حسناً، هل يمكننا أن نموت ولا نرجع إلى ربنا سبحانه؟ لا. لأنَّ ربنا قاهر فوقنا، وما يقرره سبحانه يحصل ولا يمكننا تغييره.

{وَيُرْسِلُ} سبحانه {عَلَيْكُمْ حَفَظَةً}، ومن عموم كلام القرآن عن توظيفه تعالى لكائنات لفعل شيء بنا، ترى أنهم الملائكة(ع)، حيث يرسل علينا ملائكة(ع) حفظة لرعاية حياتنا والحفاظ عليها، فتتعلق حياتنا بجسدنا لأن هذه الملائكة(ع) تعمل على إبقاء حياتنا في جسدنا.

{حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ}، حيث حان وقت انتهاء تفاعله وانفعاله الواعي مع محيطه، ومات بأي سبب كان، بمرض أو شيخوخة أو قَتْلاً أو بحادث... عندها، {تَوَفَّتْهُ}، أخذت حياته بالتمام، {رُسُلُنَا}، ملائكتنا(ع) التي أرسلناها لتتوفّاه، حيث تأتي ملائكة(ع) أخرى وظيفتها: استيفاءنا، أخذ حياتنا منّا تماماً.

{وَهُمْ}، رسلنا للوفاة، {لَا يُفَرِّطُونَ}، حيث ما بين أيديهم لا يهملونه ولا يضيّعونه، عندما يموت أي إنسان فإنَّ الملائكة التي تعمل على أخذ حياتنا، لا تنساه، ولا تتكاسل، ولا تهمل، بل بكل دقة وبدون أي خطأ يتوفون من انتهت حياته.

راجع ما قلناه مطوّلاً في ذيل الآية السابقة وأضف عليه أن كلامه تعالى معنا عن حدوث الأمور، لأنه كلام من نظرته تعالى للأمور، حيث أنا أمرض وأموت، وأنت بقربي لا ترى ملاكاً يَتَوَفَّانِي، وهذا معلوم، ولكنك ترى العطل الجسدي الذي جعلني أفقد الحياة، لأنَّ هذا سبب موتي من ناحيتك أنت، أمّا من ناحيته تعالى فموت جسدك ليس نهايتك واختفاءَكَ، حيث إنَّ الملائكة تأخذك كلّك تاركةً جسدك.

ما الذي تتوفاه "تأخذه تماماً" الملائكة (ع) من الميّت؟ الجواب القرآني أنها تأخذ الفرد، وأمّا ما في تراثنا الديني عن أخذ روحه "أو نفسه" فلا مستند قرآنيَّ له، والتعبير القرآني عن استيفاء النفس لا يشير إلى كون النفس شيئاً يتم أخذه، بل يشير لأخذ الشخص، أخذه هو... لأنَّ الوفاة وصف حالة فقداننا للوعي والفعل والانفعال بجسدنا.

الآن لِنَبْحَثْ عن آلية وتفاصيل ذلك، فهذا مفتوح لنا للبحث فيه، والبحث في إمكانية عكسه أيضاً مفتوحٌ... فهل هناك شيء آخر غير جسدي الملموس فيه وعيي وذاكرتي وأفكاري ونفسيتي؟ نعم، بدليل أن المقتولين في سبيله تعالى يبقون هنا في الدنيا أحياء من بعد موت جسدهم حيث ورد ذلك صراحةً في الآية 169 ومن بعدها في سورة آل عمران {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}، وبدليل رجوع بعض الأموات إلى الحياة هنا مرّة

ثانية بعد أن بَلِيَ جسدهم وهذا ما حصل على يد النبي عيسى(ع) كما ورد صراحةً في الآية 49 من سورة آل عمران {أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ.. وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ}، وبدليل أنه تعالى سيرجعنا كلّنا إلى الحياة... فهل تستنسب أن تُسَمِّيَ ذلك روحاً أو نفساً؟ لا مانع من هذه التسمية على أساس الاصطلاح العلمي، ولكن لا مستند قرآنيَّ لها.

وهل أصلاً هناك شيء له كيان، أم حالة؟ أو معلومات مسجَّلةٌ؟ أم... لأنَّ المجال واسع ومفتوح أمامنا للبحث فيه ولا مقيدات دينيَّةً عليه ولا بأي شكل، حتى لو بحثنا في إمكانية إعادة الأموات إلى الحياة، بل سيكون ذلك رائعاً لو حصل.

باختصار، إنَّ المجال مفتوح للجميع للبحث في هذا الموضوع وليس حِكْراً على المتدينين وعلماء الدين...

(ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ{62})
ثم بعد أن يموت الناس، {رُدُّوا}، حيث يتم إرجاعهم، {إِلَى اللَّهِ}، فلا يبقون أمواتاً أو يندثرون أو يجمدون، بل يرجعون كلهم بدون استثناء إلى الله تعالى، {مَوْلَاهُمُ}، مرجعهم الذي ترجع إليه أمورهم ذات المستوى الإلهي، {الْحَقِّ}، الحقيقي الصحيح، حيث كان بعض الناس يعتقدون أنه تعالى ليس مولاهم فليس مرجعاً لهم ولا هم تابعون له، ولكن الحقّ الصواب أنه تعالى مولاهم لأنه وحده الإله وقرّر أن نرجع إليه، وسنرجع إليه.

{أَلَا لَهُ الْحُكْمُ}، فقط لله تعالى الحكم، لأنَّ إصدار الأحكام، وَالقرارات الصواب والأوامر الحقّة فقط له سبحانه، وهذا سنراه جليّاً في يوم القيامة، حيث هناك سنرى أن الحساب وتقرير مصيرنا فقط بيده تعالى.

{وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ}، حيث لا يحصل معه تعالى خطأ في إجراء حسابات الحسنات والسيئات، بل يحسبها بسرعة وبدون أي خطأ، وإذا فهمت من الآية ما يلي: سنرجع إليه تعالى، وسيحاكمنا، حيث سيحسب حسناتنا وسيئاتنا. فأضف على هذا الكلام أنه تعالى لا يحتاج إلى وقت حتى يحسب لنا أعمالنا، بل هو تعالى سريع في الحساب بل أسرع الحاسبين، فإذا خطر ببالنا أن حياة كل واحد منّا فيها تفاصيل كثيرة، وهناك مليارات البشر... ولا مشكلة لأنها كلها يحسب لها ربنا سبحانه أعمالها بسرعة.

نعرف أنه تعالى أوامره لا تستغرق وقتاً بالنسبة له، وكذلك علمه لحساب كل الناس لا يستغرق وقتاً بالنسبة له تعالى، ولكن هناك تفاصيل في يوم القيامة، لِنَقُلْ إنَّ أعمالي حُسِبَتْ، وأنت سامحتني على سخريتي منك، حيث سيتم إجراء حساب جديد لأعمالي، حيث يتم حسم كل ما نتج من سيئات عن سخريتي منك، والناس الذين شجعتهم على السخرية منك حصلتُ أنا على حصتي من سيئاتهم، والعقد النفسية التي نتجت لديك بسبب سخريتي منك سَبَّبَتْ لي مشاركتك في الذنوب التي ارتكبتها أنت وكانت سخريتي منك سبباً فيها... وهكذا، يحسب سبحانه كل ذلك بسرعة.

تبين لك معنى سرعة ربنا سبحانه في الحساب، وهذا لا علاقة له بطول يوم القيامة، لأن كل عمل قمنا به وللآخرين علاقة به، فسيحضر هذا الذي شاركني في الاستغابة، وسألومه ويلومني... وأضع الحقّ عليه ويناقشني... وأخيراً سأنال حصتي من الذنب، ويذهب ويأتي الذي غششته في البضاعة وأتحاسب على غشي له، وكم الخسارة التي سبّبتها له... ويذهب، ويأتي الذي سرق مني... وهكذا... هذه هي أسباب طول أيام الآخرة التالية ليوم القيامة، حيث لكلِّ واحد منّا ولكل عمل قام به في حياته يوجد حساب تفصيلي، وأما من ناحية ربنا سبحانه وتعالى، كل هذا محسوب سلفاً ولا يستغرقه تعالى وقتٌ طويلٌ لحسابه.

(قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ{63})
قل، عبر هذا القرآن: {مَنْ يُنَجِّيكُمْ}، من يخلصكم من شيء قبل حصوله فعلاً، {مِنْ ظُلُمَاتِ}، من عتمات، {الْبَرِّ}، اليابسة، {وَالْبَحْرِ}، والمكان الكبير لتجمّع المياه، لأنَّ أشد حالات الخوف من تلاطم أمواج البحر أو التعرّض لخطر في البرّ تكتمل مع الظلمة "العتمة"، سواء من عتمة الليل أو العتمة الناتجة عن الغيوم الكثيفة نهاراً، فإذا حصل معك شيء مخيف، وفي ظلام يحيط بك من كل الجهات، فإنك ستكون في أشد حالات الخوف، فمن ينجيك مما تخاف منه؟

بعبارة أخرى: إنَّ الخوف من شيء مضافاً له العتمة هو أبرز نموذج عن الرعب لنا، لأننا في تلك الحالة نصير أضعف ما يكون، وهناك نفقد كل جبروتنا وعنفواننا ونرجع لحالتنا الأصلية كوننا عبيداً ضِعَافاً تحت قدرة إله قاهر يملكنا وحياتنا بيده... بل حتى مرورنا بظرف مرعب كهذا هو نتاج تصميمه تعالى لنا ولبيئتنا، فهل يمكننا فعل شيء لتخطّي

الوقوع في ظروف مرعبة طبيعية أو من أفعال البشر؟ وهكذا ترى أن الكلام هنا عن الخوف من كارثة بحرية أو بريّة إنما هو مجرد نموذج واضح سهل الفهم سواء وقعت فيه وحصل معك أو تصوّرته في خيالك.

{تَدْعُونَهُ}، تشهرون وتعلنون فتتوجّهون بالكلام فتطلبون من ربكم سبحانه حين تجدون أنكم لوحدكم ولا أمل لكم بتدخل أي مخلوق لتخليصكم ولا بقدرتكم يمكنكم الخلاص، تدعونه {تَضَرُّعًا}، فتعلنون عن فقدانكم لما تحتاجونه بشدّة، فتطلبون منه تعالى النجاة.

وتدعونه سبحانه، {وَخُفْيَةً}، بالخفاء بصوت خفيف أو في قلوبكم، لأنَّ هناك حالات خوف مع التزام الصمت خوفاً من الخطر الذي تتعرّض له، وهناك حالات يخرس فيها اللسان... فلا تفهم منها مقابلة التضرع مع الخفية على أساس أن التضرّع يكون جهراً، لا، بل منطوق الكلام عن التضرّع في الحالتين جهراً وخفية.

تدعونه: {لَئِنْ أَنْجَانَا}، إنْ خلّصنا من هذه الورطة ومن هذه المشكلة، {لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}، لأننا حتماً سنعبّر له تعالى عن شكرنا ونعترف له بجميل ما فعله معنا.

إذنْ نحن أمام نموذج بارز تذكره الآية عن حالة نفقد فيها أي أمل بقدراتنا وبوقتنا وبذكائنا... وبالآخرين، ونتعلّق به تعالى فقط وفقط ليخلصنا من الخطر.

كما ترى تلفت السورة انتباهنا لما جعله تعالى فينا للتعرّف عليه، عبر التعلّق به كقدرة فائقة قادرة على فعل أي شيء لتخليصنا من الورطة التي نحن فيها. والدراسات التي تحليل نتائجها علماني "لا يؤمن بالدين الإلهي" والتي تشير لاختراع الإنسان للإله عند تعرّضه لما يخافه ولا يستطيع التعامل معه، لأنَّ الملاحظة صحيحة وهي نفسها التي كرّرها القرآن كما تقرأ في آيتنا هنا عن الخوف... حيث إنَّ هذا شيء جعله تعالى فينا من طرق الإيمان به كما هو واضح لك من كلامه تعالى، وأمّا التحليل أن الإنسان البدائي اخترع الإله فهو غير صحيح تماماً، والصحيح أن الإنسان البدائي وما تلاه من أناس تشاركوا معه في خلل ما في قلوبهم "أساس فكرهم ونفسيتهم" بَدَلاً من الاكتفاء بالصحيح السليم الواضح بالإيمان بإله واحد أحد، قاموا باختراع إله للمطر وآخر للرعد وغيره للبرق وللنار...

والكلام يجر الكلام، ولنستعمل تعبير الإنسان القديم، واصفين آدَمَ(ع) بذلك، فقد تميّز عن أقرانه بدرجة أعلى من سلامة القلب والتي أهلته ليتكلف بدينه تعالى، فنعتبره أول إنسان قديم حافظ على سلامة قلبه بالدرجة الكافية لتتفعّل فيها القدرات التي جعلها تعالى فيه للتعرّف عليه سبحانه، ولم يشطح آدَمُ(ع) سوءاً بفكره ونفسيته كما فعل البقية الذين اخترعوا آلهة متعددة.

هكذا ترى أن الدراسات عن دين الإنسان القديم جاءت بملاحظات جديرة بالاهتمام، وكما ترى فهي كدراسات تتماشى مع ما طرحه القرآن عن التعلّق بالإله في الورطات، والخلاف يأتي في التحليل، لأنَّ القرآن يخبرك أنه تعالى خلقنا هكذا حتى نتعرّف عليه، وبعض المحللين لتلك الدراسات يقولون إننا نحن من أوهامنا اخترعنا الإله عند الوقوع في الورطة.

لن أفرض رأيي عليك في مسألة التعرّف عليه تعالى من الشعور، ولذلك سأخبرك أنه تحليلي للأمور، حيث إنَّ بعض علماء المسلمين يصرون أن المشاعر وخصوصاً "الحبّ" لله تعالى هو الطريق الأول المزروع فينا للتعرف عليه سبحانه، ولتفهم قصدهم قارنه مع التعلّق به تعالى عندما تخاف وتريد قوّة فائقة أن تتدخّل لتنجيك، لأنهم يقولون إنَّ تذكّرك للذي خلقك يجعلك تتعلّق به حباً بسبب صفاته الحسنى المنعكسة فيما خلقه... ويقولون إنَّه بعد مشاعر الحبّ يأتي التفكّر بالآيات مما خلقه تعالى ليكون الطريق الثاني للتعرّف عليه سبحانه.

ربما هم لا يقصدون أن المشاعر سابقة على الفكر، لأنَّ من كلام غالبيتهم تفهم قصدهم أن المشاعر طريق أقوى من الفكر للتعرّف عليه سبحانه، وخصوصاً شعور الحبّ له تعالى.

من هنا تصير الأمور مزاجية استذواقية، ونوع من الترف الفكري، لأننا كبشر في مسائلنا تفاصيل كثيرة شائكة متداخلة ومختلفة، فبعضنا المشاعر تتحكم فيه أكثر من العقلانية وآخرون بالعكس، وبعضنا عملانيُّونَ "براغماتيون" يفهمون دينه تعالى على أنه دستور يعرض الحقّ والصلاح ومن المفروض بنا اعتماده لأنه يؤمن لنا جميعاً مع بعض سعادة في الدنيا، والآخرة. ومن هذا التفصيل الصغير ترى أننا لا يمكننا أن ندري بأقوى طريق للتعرف عليه تعالى، إلا إذا كان هناك طرف ثالث يحكم بالمسألة، لأنَّ المدّعين للحبّ كأقوى طريق لا يمكنهم فرض هذه المعلومة عليَّ طالما أنا لم

أعش الحالة التي يدّعونها، وأنا لا يمكنني أن أفرض عليهم قوّة الإيمان بالتفكّر بالآيات لأنهم لم يعيشوا حالتي، وكلانا لا مستند قرآنيَّ صريحاً لنا يدعم موقفنا.

إنهم يستعملون بعض الآيات على طريقتهم لترى منها حبّه تعالى كطريق أساسي أقوى بكثير من طريق الفكر، وأنا وأمثالي بفهمنا للقرآن متعلقين بظاهر كلامه الواضح، نرى أن التفكّر بالآيات هو الطريق الأول، ومنه تنشأ المشاعر للتعلّق بالقدرة الفائقة التي تعرّف فكرنا عليها، فنتعلّق بها حباً وخوفاً وطلباً للنجدة... وبعد ذلك تختلف حالات الناس من خليط بين الفكر في القوّة وبين المشاعر في القوّة.

عادة في حياتنا العادية تصير الأفكار في الخلف، وتصير النواتج عنها في الأمام، حيث إنَّ تذكّره تعالى خلال يومي أثناء نشاطي وما أتعرض له وفي صلاتي... فلن استحضر فيه في كل لحظة الفكر بطريقة الأدلة الفكرية لأسبحه تعالى وأحمده... بل تصير مشاعري ونفسيتي هي التي تسيّرني، فأحمده تعالى وأشكره...

لذلك ترى الفرق بين تعابيره تعالى عن تعرّفنا عليه عبر الآيات، وبين تعابيرنا نحن معتبرين الآيات براهين ودلائل وحجج، فهي كذلك فعلاً، ولكنها بالأساس الأساس "آيات"، أي أمور مميزة، فترى ما فعله تعالى في تصميمنا وخلقنا والصفات التي فينا والظواهر... تراها آيات، والمعنى الحرفي للوصف أنك تراها أموراً مميزة.

هكذا نفهم أن رؤية الأمور المميزة، والتي لا يمكننا إلا أن نراها طالما نحن واعُونَ مدركين، لأنها منتشرة في أنفسهم وفي كل ما حولنا، ورؤيتها دائماً دلالة على العظيم الذي فعلها. وقارنها مع قصر بحديقة في غاية الجمال في الهندسة والتقانة في البناء، الذي دائما سيبقى حاضراً في بالك روعة التصميم والإنجاز. وبنفس المفهوم يبقى في ذهن المؤمن روعة أفعاله تعالى في كل ما يطاله وعيه. وهذا ما ركّز عليه القرآن مراراً عندما لفت انتباهنا لنماذج مما فعله تعالى من ظواهر الليل والنهار والحيوانات والأشياء...

(قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ{64})
قل، لهذه النوعية من الناس التي لا تتذكّر ربها سبحانه إلا في حالة الوقوع في ورطة:

{اللّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا}، يُخَلِّصُكُمْ من ورطتكم ومشكلتكم، وهو تعالى يُخَلِّصُكُمْ، {وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ}، من كل ما يَتَعَثَّرُ عليكم الخلاص منه ويسبب لكم حالة نفسية تعيسة.

{ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ}! وبعدها تجعلون لله تعالى شركاء في الألوهية بعد أن خَلَّصَكُمْ! لا تعترفون أنَّهُ تعالى هو الذي أسكت الحرب، وأسكن العواصف، وأبعد المرض... وتقولون إنَّهُ لا دخل له، أو انزاحت عَنَّا مشكلتنا بسبب الظروف! أو لأن القديس تدخل، أو لأن شفيعي تدخل، أو بذكائي وحنكتي تَخَلَّصْتُ من الخطر...

ننتبه، كيف ستتصور تخليصه تعالى لك من مشكلتك؟ هل سيرسل لك مَلَكاً تراه يُخَلِّصُكَ! وهل ستحصل معجزة! وهل ستتغير قوانين الكون لأجلك! لا، كل هذا لن يحصل، بل سترى الظروف من حولك تغيَّرَتْ، وهنا يقع ويسقط الذين إيمانهم ضعيف، حيث لا يفهمون السيطرة الإلهية التي غيّرت الأحداث، لأنهم لم يروه سبحانه ولم يروا ملائكته(ع)! أمّا المؤمن فيعتقد بما يقوله القرآن، وقال لنا ربنا سبحانه عبر هذا القرآن إنَّ الأمور كلها بيده تعالى، سواء انتبهنا لها أم لم ننتبه، فهمناها أم لم نفهمها، عرفنا كيف تَدَخَّلَ تعالى أم لم نعرف، ذهب الشر عنّا أم لم يذهب... فكل الأمور بيده تعالى.

ضع في بالك أنَّ الآية تذكر لك نَمُوذَجاً، فهي لا تقول بأنَّكَ حتما ستنجو من الخطر إن دعوته تعالى، فسبحانه ليس جنّي الفانوس السحري "الخرافي" حتى يستجيب لكل أنواع طلباتك، بل بحكمته تعالى ينظر إلى حالك، وبناء عليه يقرّر سبحانه تركك في الخطر أو يُنَجِّيكَ... فإذا حصل ونجوت، يسألك سبحانه عن كفرك به ومنذ قليل كنت من أشدّ المؤمنين؟ فما الذي تغيّر!

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ{65})
{قُلْ}، عبر هذا القرآن:

{هُوَ الْقَادِرُ}، يُمكنُه وباستطاعته، {عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً}، فما يسبب لكم العذاب متوافر ولكنه كامن، ويمكنه تعالى إنهاضه فَيَضُرُّكُمْ، {مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ}، مِنْ أي جهة تتوقعونها أو لا تتوقعونها، يُمكنُه تعالى جعل العذاب يصيبكم منها، بمطر غزير أو بطوفان أو بزلزال أو بركان أو وباء... فالسيطرة بيده تعالى وليست بيد الظروف، وإنما الظروف هي ما نراه من ناحيتنا، وأما السيطرة الحقيقية فله تعالى، وهذا خبر نؤمن به بعدما تبيّن لنا سيطرته ومتابعته تعالى لما خلقه، وبعدما انتبهنا أصلاً أننا واقعون في تصميمنا وخِلْقَتِنَا تحت قدرة قاهر.

{أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً}، أو يجعل بينكم اللبس، الاشتباه فَتَخْتَلِطُ عليكم الأمور ولا تتميّز، لتصيروا فَرِيقاً كمجموعة متضامنة مع بعضها يلتبس عليها ما تَعْتَقِدُهُ الشيع الأخرى، والأخرى يلتبس عليها ما تعتقده الأولى، وَتَصِيرُوا فِرَقاً كل واحدة متضامنة مع بعضها على رأي ولا تتفق به مع الآخرين، {وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ}، وتشعرون بالشدة والألم والانزعاج الشديد من بعضكم البعض، عبر الحرب بأنواعها المتعددة، عسكرياً أو اقتصادياً... بين بعضكم البعض كشيع ضدّ بعضها.

ما ترونه من كَوَارِثَ طبيعية لها ظروف طبيعية فهي تحت السيطرة الإلهية، لأنه سبحانه من أساس تصميمه للسماوات والأرض قَدَّرَ فيها الحوادث، ويتركها تحدث، أو يتدخل لمنع حدوث بعضها، أو يتدخّل وَيُحْدِثُ فَاعِلاً بعضها... وما ترونه تحت سيطرتكم من قرارات لتصرفاتكم فهو أيضاً في الحقيقة تحت السيطرة الإلهية، فأنتم تشعرون أنكم أنتُم اتخذتم قرار الحرب، ولكن في الحقيقة حَصَلَتْ لأنه تعالى سمح لها أن تحصل...

هذا خبر إلهي، نتعامل معه كمؤمنين بالإيمان به بعدما آمنّا أنَّ القرآن مصدره إلهي، ولكن الأساس أننا لم نؤمن بأخبار القرآن عنه تعالى بلا دليل، لا، فكل الأخبار القرآنية أدلتها معها، ومثلما في كل المواضيع المتعلقة بالهداية للحقّ والصلاح، نحتاج لتقويم نظرتنا لها لأننا بالغالبية الساحقة لم نحافظ على سلامة قلوبنا فأصابنا ما يسبب فَسَاداً في رؤيتنا وفهمنا للأمور، ويأتي كلامه تعالى عبر هذا القرآن مُقَوِّماً لنا النظرة، فهذا الخبر عن متابعته وسيطرته وإدارته تعالى لكل شيء، يُمكننا التعرّف على هذه المعلومة من التفكّر في آيات آثار أفعاله تعالى، وهذا ما وصل إليه النماذج الراقية، الذين بِسَبَبِ الدرجة العالية من سلامة قلوبهم جعلهم تعالى أنبياء، أمّا نحن ضعاف المؤمنين فالخبر القرآني لنا عنه تعالى نؤمن به بدرجة أقل مما يؤمن به الأنبياء، حيثُ بعضنا لا يفهمه ويؤمن به لأن القرآن قاله، ولا بأس بهذا الإيمان المبني على الإيمان المسبق بأن هذا القرآن مصدره إلهي وبالتالي كل كلامه صادق، ولكن الإيمان الأصدق والأقوى هو الانتباه للأدلة التي يطرحها القرآن مع كلامه.

على أي حال لنتعامل مع آيتنا هنا من نظرتنا الإيمانية الضعيفة، لأَنَّنَا لم نكن نعلم كل هذه الأمور عن متابعته وسيطرته وتدخله تعالى لولا القرآن، ولا يمكننا بالوسائل التي بين أيدينا إلا أن نردّ أسباب هذه الحوادث للظروف التي نعرفها ونراها، حيثُ نقول: التقى منخفض جوي مع مرتفع جوي وحصل إعصار... تخالف أهل البلد على الحكم فتحاربوا... وهذا كله من ناحيتنا، ولكن القرآن يخبرنا أنَّ هناك ناحية أخرى لا نراها، ولكنها هي الحقيقية، فالله تعالى هو المسيطر على كل شيء، وكل شيء يحصل لأنه تعالى قرّر حصوله وتركه يحصل.

أمّا الدليل على هذا الخبر فهو ما سبق وقالته السورة من أولها عن وقوعنا بتصميمنا وخِلْقَتِنَا ومصيرنا تحت ما قرّره تعالى، ولمزيد من التفاصيل عن حالة تدخله تعالى في شؤوننا الحياتية بحيث لا نرى يده تعالى تفعل، فراجع سورة يوسف التي أسهبت في ذكر أحداث نراها نحن أنّها مجريات عادية ولا نرى تدخله تعالى فيها، ولكنه تعالى يقول صراحة إنّها جرت بتدخله كما ترى من الآية 21 من سورة يوسف {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ... وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.

نرجع للآية، {انْظُرْ}، وجّه اهتمامك العام، {كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ}، كيف نوزّع هنا وهناك الأمور المميزة بمستواها الإلهي، {لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ}، فمن المتوقع ومن المفروض منهم أن يحصل عندهم فقه وهو تربيط المعلومات بشكل سليم للوصول إلى نتيجة، وهنا الكلام عن فهم ما حصل معهم ونجاتهم منه ومن قبل كانوا فاقدين للأمل بالنجاة إذا لم يحصل تدخّل من مستوى إلهي...

يكفينا الشعور القوي حين نقع في ورطة شديدة، ونرى أنه لا نجاة لنا، وبعدها ننجو، فالشعور القوي بأنه تعالى هو وحده القادر على تخليصنا هُوَ أكثر من كَافٍ حتى نؤمن بأنه المسيطر على كل شيء، لِمَاذَا تشعرون في الشدائد

الصعبة، مهما كان نوعها، بِأَنَّهُ هو المسيطر، وبعدما تنجلي المشكلة تشعرون بأنه تعالى لا علاقة له!؟ وها سبحانه يخبركم أنَّ شعوركم صحيح، وكل شيء تحت سيطرته سبحانه.

بقي شيء، نرى هنا وفي العديد من الآيات المشابهة والتي عرضت حالة الخوف كدافع للتعلّق بقدرة فائقة "إله"، فهي تؤكّد وبصراحة أنَّهُ تعالى جعل فينا هذه القابلية البدائية للتعرّف عليه، والتحليل العلمي عن مسألة عبادة الناس لإله، والذي ينطلق من البحث عن سبب "اختراع" الناس للإله، على أساس أنَّهم كانوا بدائيين وعبدوا ما خافوا منه وما جهلوه وما يعتقدون فيه قدرة خارقة... فهذا التحليل أصلاً عرضه القرآن كما تقرأ في آيتنا هنا، وبيّن أنَّهُ شعور مزروع فينا، ومزروع عن قصد منه تعالى لنتعرّف عليه بسهولة، وَأَنَّ سلامة الفكر والنفسية ستؤدي بنا إلى التعرّف على إله واحد أحد، وإلى التعرّف على الكثير من صفاته المنعكسة فيما فعله، وسيأتيك بعد قليل في السورة الكلام عن النموذج إبراهيم الذي وصل لأقصى ما يمكن لبشري الوصول إليه من معلومات عبر التعرّف عليها من الآيات فيما خلقه تعالى وبدون أي وحي... وكما رأيت وسترى فالمشكلة هي اختراع آلهة شريكة له تعالى، فهي الوهمية الخيالية، فالواقع يدفعك لرؤية إله صمّم وخلق، ولكن من أين اخترعت آلهة؟ وماذا فعلت وكيف تعرّفت عليها؟ ومضافاً لكفاية ما زرعه تعالى فينا للتعرّف عليه من أفعاله، فقد أرسل لنا رسله وكتبه...

(وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ{66})
{وَكَذَّبَ بِهِ}، بما سبق من كلام عن واقع حال وقوعهم تحت سيطرته تعالى، {قَوْمُكَ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلون معك كرسول ناقل لكلامه تعالى، {وَهُوَ الْحَقُّ}، وهذا الكلام بوصفه للواقع وبمداليله هو الصواب، وليس كَذِباً أو تَخْرِيفاً أو ضَلَالاً، وهو واقع الحال وَمُؤَكَّدٌ بكلامه تعالى أنكم تحت سيطرته ومتابعته تعالى.

{قُلْ}، لهم: {لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ}، وسياق الكلام عن أنهم لم يؤمنوا، فَتَسْيِيرُ أموركم لتكونوا مؤمنين ليس من واجباتي، سَوَاءٌ آمنتم أم كفرتم فأنا لا مسؤولية لي، فلست وَكِيلاً مثل مدير المصنع المسؤول عن الإنتاج، فكل ما عليّ فعله هو تبليغكم القرآن، وبعد ذلك لا علاقة لي ولا مسؤولية عليّ.

لاحظ، ربما نعبّر أحياناً عن نجاح النبي محمد(ع) في دعوته لأنه بنى نواة دولة، ونعبّر عن فشل النبي عيسى(ع) لأنه لم يَبْنِ بنفسه مُجْتَمَعاً مُؤْمِناً يحكم نفسه... وهذه التعابير يرفضها القرآن، فمهمة الرسول هي تبليغ الرسالة، وهذا هو النجاح في مهمته، أمّا إن آمن الناس أو كفروا، فلا علاقة للرسول، ولا يتحمّل أي مسؤولية.

خذها من نظرة أخرى، وبعض الناس سينظرون للرسول ويقولون: لو كنت فِعْلاً رَسُولاً ولست تكذب فأنت فاشل لأنك لم تجعلنا نقتنع بدينك. وَتَأْتِي أمثال آيتنا هذه لتقول لهم: الرسول أوصل إليكم كلامه تعالى، فهل تتهمونه تعالى بالفشل في إقناعكم بدينه؟! وإن تفلسف أَحَدٌ ما بذلك فالسورة في بدايتها بيّنت بطرحها لنماذج، أن ما يطلبه الناس من آيات ليؤمنوا وتكون غير التي أتاحها تعالى، فهم لا يطلبون شيئا له قيمة فعلية، وفي يوم القيامة سيعترفون أن الآيات الإلهية كانت أكثر من كافية ليؤمنوا، وراجع في ذلك الآية 27 من هذه السورة.

(لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ{67})
{لِكُلِّ نَبَإٍ}، لكل خبر غير منتشر علمه، {مُسْتَقَرٌّ}، وَهُوَ سيكون مُثْبَتاً، وَلَنْ يذهب أي خبر عن شيء حصل من دون تثبيته، من دون معرفته تعالى به، من دون كتابته فِي كتاب، بل له مكان يستقر فيه ولا يغادره، وَكُلُّ أنباء "أخبار" ما حصل في الدنيا لن تذهب إلى الفراغ، لا، وَسَتَسْتَقِرُّ كلها وَتُسَجَّلُ في كتاب نراه في يوم القيامة ليتحاسب الناس على أساسه، وكمثال هَا أنتم تقولون إنَّ القرآن كذب، وكأن كلامكم ليس عليه رقابة، وكأنه هكذا خرج من فمكم واختفى فيما بعد، لا، وَكُلُّ الأخبار مُثْبَتَةٌ، فانتبهوا لكلامكم.

{وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}، وَالْآنَ أنتم لا تعتقدون بمراقبته تعالى لكم وتسجيل ما تقولونه، ولكن سيأتي زمن ترون فيه أن كل شيء قمتم به مسجّل بدقة ولم يذهب سُدًى، وَطَبْعاً ستتحاسبون عليه.

مِثْلَمَا نقول: نشرة الأنباء، نشرة الأخبار، وَكِلْتَاهُمَا تُعَبِّرَانِ عن سماعنا لأحداث نريد أن نعلمها، وَهِيَ خبر، إِذْ إِنَّ أحدهم يخبرنا بشيء، وَرُبَّمَا نعلم مُسْبَقاً كل التفاصيل لأننا كنّا شاهدين، وَنَسْمَعُ الخبر عن شيء نعلمه، وَرُبَّمَا نعلم بأنه حدث شيء ما ولسنا نعلم التفاصيل، أو لَا نعلم بأي شيء، وفي هاتين الحالتين يصير الوصف بالنبأ، وهذا توصيف يشمل حتى ما كنّا نعلمه ونسيناه، فإن أخبرنا أَحَدٌ ما عنه فهو نبأ بالنسبة لنا، وهكذا نفهم وصف القرآن لمحاسبتنا في الآخرة عبر الأنباء، لِأَنَّنَا لا قدرة لنا على تذكّر كل تفاصيل حياتنا، وبما أن الحساب سيشمل ما نَعْلَمُهُ ونتذكره، وما نسيناه، فيناسب وصف ذلك بالنبأ، ومضافا إِلَيْهِ متعلقات أفعالنا وأقوالنا التي لم نعلم بها أصلا، إِذْ فَعَلْتُ معك خيرا، وأنت بسبب ذلك انتعشت ظروفك المالية وفعلت خيرا مع الآخرين، فأنا لي حصّة من هذا، وَلَسْتُ آخذ من حصّة حسناتك بل لي حصّة أخرى لأني مساهم في هذا الخير، وهذا النوع من الأمور سواء الحسنة أَمِ السيئة، عِنْدَمَا يُخْبِرُونَنِي به في الآخرة فهو نبأ. الآن اقرأ الآية من جديد وسترى معناها بشكل أوضح.

(وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{68})
{وَإِذَا رَأَيْتَ}، إذا حصلت عندك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: إذا شفت. أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، إذا رأيت، {الَّذِينَ يَخُوضُونَ}، يدخلون بشكل أساسي، {فِي آيَاتِنَا}، في الأمور المميزة المنسوبة له سبحانه، {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ}، فاعتبرهم غير مهمّين، {حَتَّى يَخُوضُوا}، إلى أن يدخلوا، {فِي حَدِيثٍ}، في كلام يقولونه لبعضهم البعض، {غَيْرِهِ}، غير الحديث عن الآيات الإلهية، فعندها يمكنك أن تجلس وتتحدث معهم.

الآية تتحدث عن جماعة من الناس لا يريدون الاهتداء، بل يريدون الحديث عن الدين من وجهة نظر نقدية! ولتمضية الوقت بحديث ثقافي ديني فلسفي جدلي! أو للسخرية من الدين ومن آياته! وَالرَّسُولُ(ع) نقل لهم القرآن الذي يتضمن لفت الانتباه لآيات من حولنا تدل على الإيمان، مثل الكون من حولنا بضخامته وكثرة الأشياء المتنوعة فيه، والمخلوقات التي حولنا والليل والنهار... ووضوح وقوعنا تحت قدرة فائقة صمّمتنا وخلقتنا... وشعورنا الداخلي بوجود إله قادر على أن ينجينا في الظروف الصعبة... ولكن بعض الناس يتحدثون عن هذه الآيات لمجرد الحديث، فحتى لو ثبت لهم بأنها صحيحة، فلا يهمهم أن يتدينوا أو يؤمنوا بها! وَسَيَسْتَمِرُّونَ يناقشون ويفترضون ويخترعون... كأنهم يتحدثون عن أشياء لا تمسّهم، مثلما يتحدث الناس العاديون عن السياسة العالمية، وسياسات الدول والمخططات الاقتصادية...
فيتحدثون بكل راحة ويبدون آراءهم "غير المدروسة" لأنهم يتسلون فقط ولن تؤثر آرَاؤُهُمْ ومجادلاتهم على حياتهم.
وكلمة خوض تشير لاقتحامهم الموضوع وكون الكلام الأساسي عن الآيات الإِلَهِيَّةِ، فلو كان حديثا جانبيا ومرّ ولم يَكُنْ أساسيا فلا مشكلة في التحدّث مع هؤلاء، أمّا إن كنت تعلم يقينا أنهم لا يريدون أن يهتدوا لأنك في السابق تحدّثت معهم وبيّنت لهم ورغم ذلك لم يؤمنوا، فلا تقعد مع الناس الذين يتحدثون بهذا النوع من الحديث عن آيات الله تعالى، فاتركهم، وعندما يتحدثون في موضوع آخر فلا مشكلة أن تجلس معهم.

ننتبه مرة ثانية، أَنَّ النبي محمد(ع) مثلي ومثلك لديه حياته العادية إلى جانب حياته كرسول، فليست كل مجالسه مع الناس عن الدين، وَهُنَاكَ أحاديث عائلية وعن الطقس والتجارة والزراعة والماشية ومشاكل الناس... والآية هنا تقول له(ع) أن يترك المجلس حين لا يقصد الناس أن يهتدوا بالحديث عن الآيات، وإذا تركوا التسلية بالآيات الإلهية، فيمكنك أن تجلس وتتحدث معهم في أمور أخرى...

{وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ}، فإذا ذهب عن بالك بسبب، {الشَّيْطَانُ}، الموصوف بالقيام بأعمال الضلال لنفسه وللآخرين، وَتَكُونُ قاعدا معهم ويبدأ الشيطان بالوسوسة لهم وينطق على لسانهم، أو هم أنفسهم يتخابثون في الحديث فَيَصِيرُونَ شياطين، وَيَبْدَءُونَ بالحديث عن الآيات الإلهية كفرا بها وأنت لم تنتبه، وتنسى أنهم يخوضون ولا يريدون الهداية، وَتَدْخُلُ بالحديث وأنت تظن أَنَّكَ تقوم بوظيفتك كرسول...

{فَلَا تَقْعُدْ}، فَلَا تَبْقَ معهم عندما يَخُوضُونَ في الآيات، {بَعْدَ الذِّكْرَى}، بعد أن تتذكّر بعد أن تستحضر في بالك أن ربك سبحانه أمرك بترك الخائضين في الآيات فلا تقعد، {مَعَ الْقَوْمِ}، مع الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلين مع الآيات، {الظَّالِمِينَ}، الذين ليس معهم حق فيما يقولونه، فليس من حقّهم الخوض في آيات الله تعالى لنقدها أو التسلية بها.

أظن أننا كمتدينين حصلت معنا كلنا هذه الجلسات، فَنُحِبُّ أن يهتدي الناس، وَيَتَحَدَّثُونَ ونتحدّث معهم عن الدين، ولكننا رُبَّمَا لا نميز أنهم لن يؤمنوا وأن كلامهم عن آياته تعالى مجرد جدال ونقاش يساوي في قيمته أحاديثنا عن المطاعم ونوعية الطعام فيها، وعن التسلية بحديث الناس العادية عن السياسة العالمية والاقتصاد... وهذا ما تنبهنا الآية منه.

نلاحظ أن الخوض كفرا بأنواعه بآياته تعالى هو عمل شيطاني، والشيطان لا يمكنه التأثير على النبي(ع) ولا على أي مؤمن من الدرجة العالية، ولكن الشيطان يؤثر على الكفار، فيجعلهم يتسلون بالآيات، وَرُبَّمَا يجعلون النبي(ع) ينجرّ للحديث معهم وَهُوَ يريد تصحيح أفكارهم ليهديهم، ولا ينتبه أنهم لا يريدون أن يهتدوا! فعلينا الانتباه من هذه النوعية من الناس حتى لا نشاركهم في الخوض بالآيات، وننزل لمستواهم، ونقلل من قيمة الدين ليصير مادة للجدل والتسلية.

أكرر لك، مِنْ عموم القرآن نفهم أن الآية هنا لا تقول أَلَّا نذكّر الناس بآياته تعالى ليؤمنوا، بل تنبّه من مشاركتنا في أحاديث تجعل الكلام عن آياته تعالى مجرد كلام لا للهداية منه، فلنقل مثلا مثل تحدّ بين مؤمن وملحد، فإن كان التحدّي لمجرد التحدّي، فسبحانه لا يقبل بذلك، فإمّا أن يعلن الطرفان أنهما مستعدان لتغيير دينهما من بعد نتيجة الكلام، أو من غير المقبول دخول المؤمن في هكذا جدالات لمجرد التحدّي.

(وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَـكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ{69})
{وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ}، فليس على الأشخاص الذين يتجنبون، وهنا الكلام عمومي عن الذين يتجنبون السيئات ومنها الكفر بآياته تعالى وبالتالي هُمْ يتجنبون غضب وعقاب ربهم سبحانه، فليس عليهم، {مِنْ حِسَابِهِمْ}، من حساب الخائضين بالآيات، {مِنْ شَيْءٍ}، فإذا كنت أنت تقيا فلن تُؤَثِّرَ عليك ذنوب هؤلاء الخائضين، يعني اتركهم ولا تهتم، فحسابهم لا علاقة له بحسابك، لِأَنَّهُمْ سيدخلون إلى جهنم بسبب خوضهم بالآيات الإلهية لَعِباً وَلَهْواً وَاسْتِهْزَاءً... فلا تحمل همّهم وكن أنت تقيا.

تُنَبِّهُنَا الآية أن نهتم أولا بشؤوننا الدينية الشخصية، أَمَّا الإصرار على الدفاع عن الدين والحديث مع الخائضين، فبماذا ينفع؟ وبماذا سيضرنا إن تركناه؟ وَهُوَ لا ينفع لأنهم لا يريدون الاهتداء، ولا يضرّ لأن حسابهم عليهم، وإن دخلنا معهم في الحديث فسنشارك في تقليل قيمة الدين الإلهي لأننا سنجعله كمادة لمجرد الجدل والنقاش والتسلية... وسنتحاسب عن ذلك.

{وَلَكِنْ}، الحديث مع الناس عن آياته تعالى هو، {ذِكْرَى}، لتذكيرهم ليستحضروا الإيمان في فكرهم وليس للتسلية، {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}، حَيْثُ مِنَ المتوقّع ومن المفروض من الناس أن الذكرى الدينية تجعلهم يتقون وَتَجْعَلُهُمْ يتجنبون فعل السوء وعمليا يتجنبون غضب وعقاب ربهم سبحانه.

(وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ{70})
{وَذَرِ}، وانفصل واترك، ولا يعنيك أمر، {الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ}، فلا تهتمّ بالأشخاص الذين جعلوا الشيء الذي يدينون به، الأمور التي يدينون بالالتزام بها لإلههم، {لَعِبًا}، لتمضية الوقت بالتسلية، {وَلَهْوًا}، اشتغالا بأمور غير مهمة مع وجود أمور مهمة للانشغال بها، وَالتَّبِعَاتُ التي عليهم كونهم مخلوقين وَعَبِيداً له تعالى، بَدَلاً من التعامل مع هذا الموضوع باهتمام اعتبروه لعبا ولهوا.

{وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}، فطمعوا بها وتعلّقوا بها على أساس أن الدنيا جيدة ولكنها في الحقيقة لا قيمة لها أمام الآخرة. فاللاعبون اللاهون بالدين المغترون بالدنيا فذرهم وَاتْرُكْهُمْ وانفصل عنهم.

{وَذَكِّرْ بِهِ}، فَاقْرَأِ القرآن على الناس حتى يتذكّروا وَيَسْتَحْضِرُوا ربهم سبحانه ويتذكّروا دينه وآخرته، فذكّر بالقرآن: {أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ}، أن تصيب النفس شدة وقسوة، {بِمَا كَسَبَتْ}، بسبب ما حصلت عليه مما نتج من أعمالها السيئة.

{لَيْسَ لَهَا}، ليس للنفس، {مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ}، فلن تجد من يتولّى أمورها ليكون مرجعا لها من مستوى إلهي، {وَلَا}، للنفس من دونه تعالى من، {شَفِيعٌ}، فلا أحد يمكنه أن يشفع كوساطة لها وَيَتَدَخَّلَ بقيمته المعنوية أو بسلطته حتى يحميها من العذاب.

إنْ كنتم ملحدين لا تؤمنون بأي إله أو كنتم مشركين فخذوا علما عبر هذا القرآن بأنكم في يوم القيامة ستعانون من القسوة بسبب أعمالكم السيئة، ولن تجدوا أحدا ليكون لكم وليا نافعا غير الله تعالى، ولن تجدوا أحدا لديه القدرة على التدخل حتى يحميكم من العذاب غير الله تعالى، فمن هنا من الدنيا انتبهوا لما سيكون عليه الوضع في الآخرة.

{وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ}، فأي شيء تقدمه كعدل كبدل يعادل جريمتها، كشيء تفتدي به، {لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا}، وَهُنَا في الدنيا لدينا قوانين وتشريعات تسمح لنا بتقديم "عدل" عن شيء، مثلا ندفع تعويضا ماليا للشخص الذي صدمناه بالسيارة "عدل: بدل مُسَاوٍ" للإعاقة التي سبّبناها له. أما في الآخرة، فَفَرْضاً لَوْ عرض الكافر تقديم شيء مادي أو معنوي لينجو من العذاب فلن يؤخذ منه، ونعرف أنه يودّ لو يفتدي من العذاب بأحبّ أحبائه! بل بكل أهل الأرض حتى لو كانوا طاهرين مؤمنين، وَيَتَمَنَّى لو يَدْخُلُونَ كلّهم إلى النار بدلا منه! راجع كمثال ما ورد في الآية 11 من سورة المعارج "يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ".

{أُولَئِكَ}، الذين جعلوا الدين لعبا ولهوا واغتروا بالدنيا هم، {الَّذِينَ أُبْسِلُوا}، فأصابتهم الشدة والقسوة التي لا يمكن الخروج منها، {بِمَا كَسَبُوا}، بسبب ما حصلوا عليه مما نتج من أعمالهم السيئة.

{لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ}، فهم في حالة عطش دائم ولا يوجد شيء ليشربوه إلا الحميم وهو السائل الساخن الذي يغلي لأقصى درجة، سواء كان في الأصل سائلا أو معدنا سال من شدة الحرارة.

{وَ}، لهم، {عَذَابٌ أَلِيمٌ}، وسيتعرضون لما يؤذيهم ولن يكون عاديا أو يمكن الاعتياد عليه، بل دائما مُؤْلِماً.

هَذَا العذاب الأليم وشراب الحميم، {بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ}، بسبب إنكارهم، وكما تعلم وَهُوَ إنكارهم لوحدانيته تعالى وإنكارهم لآياته ورسوله وشريعته...

(قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ{71})
{قُلْ}، للناس عبر هذا القرآن: {أَنَدْعُو}، هل نشهر ونعلن، {مِنْ دُونِ اللَّهِ}، فنتركه تعالى ونشهر وَنُعْلِنَ أن غيره إِلَهٌ، {مَا لَا يَنْفَعُنَا}، فلا نحصل منه على أمور نافعة نستفيد منها، {وَلَا يَضُرُّنَا}، فلا يغيّر حالنا أو ما حولنا لِلْأَسْوَإِ؟!
أخبرونا عن السبب الذي يدفعنا حتى نتوجّه بالدعاء معلنين أنه إله إلى الذي لا يمكنه أن ينفعنا أو يضرنا، ونترك الدعاء الإعلان لله تعالى أنه إلهنا وهو فقط الذي يمكنه أن ينفعنا وأن يضرّنا من مستوى إلهي!؟

{وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا}، فيتم إرجاعنا إلى الوراء إلى الخلف، بسبب هذه الدعوة لغير الله تعالى، {بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ}! حَيْثُ وضعنا تعالى على الشيء الصحيح الذي يوصلنا للغاية الصحيحة، فآمنّا أنه تعالى هو الإله الواحد القادر... وإليه فقط يحقّ لنا أن نتوجّه بهذا الدعاء، فكيف نترك ذلك ونرجع إلى الخلف إلى طريق الضلال ونقوم بالدعاء لغيره!

ضع في بالك أن الآية هنا من الحالات القليلة جدا في القرآن التي يمكن أن تشمل فيها كلمة "دعاء" المعنى الدارج بيننا على أنها طلب لتحقيق شيء ما، وَبِصَبَابِيَّةٍ نظن أن القرآن فيه الكثير من الكلام عن الدعاء على معنى الطلب منه تعالى لتحقيق أمور نريدها، وهذا غير صحيح، لِأَنَّ النَّادِرَ من كلام القرآن يتحمّل هذا المعنى، وَأَصْلُ معنى كلمة دعاء ومشتقاتها يشير لعموم الإعلان والإشهار، ويشمل ذلك الإعلان والإشهار لله تعالى عن شيء تريده، ولكن سياق الغالبية الساحقة من الكلام الْقُرْآنِيِّ الذي استعمل كلمة دعاء، كان يشير لخصوص الإعلان والإشهار أنه تعالى الإله الواحد الأحد، أو بالعكس إعلان الآخرين أَنَّ لهم آلهة غيره تعالى، وترى أهمية هذه النقطة عندما تنتبه للكمّ الهائل من الآيات التي يستعملها الناس في كلامهم ويفهمون منها أنها تتحدّث عن الدعاء بمعنى الطلب منه تعالى، فَتَكَوَّنَتْ لدينا من ذلك ثقافة وصلت في تطرفها لدرجة تعامل الناس معه تعالى بالأدعية على معنى الطلبات وكأنهم يتعاملون مع جني الفانوس السحري الخرافي الذي يجب أن يحقق لك ما تطلبه، وألصقنا هذه الحالة بلبّ دينه تعالى على أساس أن الإيمان بديننا

سيؤمّن لك استجابة لطلباتك من الله تعالى، وللأسف وَهَذِهِ العقلية منتشرة في عموم المنتمين لدينه تعالى وفي عموم الأديان الأخرى ويعتبرونها من أهم الدلائل على صحّة دينهم!

نرجع للآية، وَالْجُمْلَةُ بكلماتها تريد أن تعطيك معنى يشمل من كان مشركا وآمن ومن لم يكن مشركا وصار إيمانه أصوب، لِأَنَّ الرَّدَّ على العقب لا يعني ردّه إلى حيث كان، فلا يعني رجوعهم إلى حالة كانوا فيها، بل مثل حالة التقدّم على العدو وردّه على أعقابه، حَيْثُ إِنَّ العدو لم يكن مهزوما من قبل أن تبدأ المعركة، فَرَدُّهُ على عقبيه ليس إرجاعا له لحالة الهزيمة، وهنا نفس الشيء، وَيَقُولُ المؤمنون إِنَّهُمْ في حالة تقدّم في فكرهم ونفسيتهم وسلوكهم في حياتهم على طريق الهدى، فهل يَتْرُكُونَهَا ليسلكوا طريقا إلى الخلف وهو طريق الضلال؟

{كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ}، فتكون حالنا كحال الشخص الذي في الأرض يهوى فيحبّ أفكار وأعمال الشياطين وهم الْعَامِلُونَ على تضليل الآخرين، هذا من جهة، ومن جهة أخرى وَهُوَ {حَيْرَانَ}، محتار لا يعرف ماذا يختار لأنه، {لَهُ أَصْحَابٌ}، عنده أناس يكون معهم، {يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى}، يوجّهون له الكلام ليصير على الشيء الصحيح: {ائْتِنَا}، تعال إلينا حيث نحن على الطريق الصحيح، واترك أفكار وأعمال الشياطين.

بعبارة أخرى نَحْنُ اهتدينا إلى الدعاء لله تعالى وحده أنه إلهنا، فكيف نترك ذلك متقهقرين إلى حالة الضلال ونقوم بالدعاء بالإعلان عن إيماننا بإله غير الله تعالى! فستكون حالتنا مثل حالة الحيران بين ما استهوته به الشياطين وبين ما يقوله له المؤمنون. وَالشَّيْطَانُ يقول له: أشرك. المؤمنون يقولون له: آمن واترك الشيطان. فهل نردّ على الشيطان!

وَالْآيَةُ تعرض الكلام لمن به عقل وفهم، فهل يتبع من هو موصوف بالخبث والعمل على إضلال الآخرين! أم يتبع من يمشي على الطريق الصحيح؟ وهذا الكلام مبني على مقابلة كلامه تعالى مع عقلنا وفكرنا في مقابل أي كلام آخر، وسيأتيك في السورة بماذا يأمرنا سبحانه كسلوكيات لنا وَكُلُّهَا صلاح، وسبق كلام السورة عن عرض العقيدة الصحيحة العقلانية الواضحة من آياته تعالى ومدعومة برسله وكتبه، وَالْكَلَامُ عن الهدى والضلال ليس رأيا في مقابل رأي آخر حول مسألة استذواقية لنختار ما يعجبنا وعلى مزاجنا، لا، بل هناك حقّ وباطل، خير وشرّ، صلاح وفساد... وواضح ذلك لنا من القدرة التي منحها تعالى لنا لتمييز هذه الأمور من بعضها، وَتَصِيرُ الجملة هنا بتعابير أُخْرَى: نحن على الطريق الصحيح بالعقيدة والشريعة والسلوكيات، ونحن نعتقد بما هو عقلاني منطقي وواضح أنه صحيح، وغير ذلك ماذا سَيَكُونُ غير الموصوف بالشيطنة؟ فهل نترك ذلك لنتبع ماذا؟ أليس واضحا أن الطريق الآخر هو طريق الشياطين؟ وَالشَّيْطَانُ صفة غير مخصصة لإبليس، وَهُوَ رأس الشياطين ولكنه واحد منهم، وبقية الشياطين من الجنّ والإنس كلّهم مثل بعض، والكلام هنا عن عموم أي شيء شيطاني، سواء أكان وسوسة من إبليس شخصيا، أو من جنّي آخر أو من واحد من البشر يتكلّم معنا فَيُشَجِّعُنَا ويرغّبنا بفعل السوء...

{قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ}، فما يقول عنه تعالى إِنَّهُ الشيء الصحيح، فهو الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة... وأما كل ما غير ذلك فلن يكون هدى، وسيكون ما يدلّ عليه الشيطان. وإذا انتبهت لمعنى الهدى جيدا ستفهم ما تقوله آيات القرآن التي تتحدّث عن الهدى، فإذا كنت تائها على الطرقات، وسألت أحدهم ليرشدك، فهداك على الطريق الذي يوصلك إلى بيتك، أو هداك على الطريق الخطأ، فَفِي كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ فأنت ستسير على الطريق الذي هداك إليه ولست تدري إن كان هدى أو ضلال! ولكنه عندما سألته عن الطريق: هداك. وبالنسبة للإيمان نَفْسُ الشيء يحصل معنا، يَدُلُّنَا وَيَهْدِينَا الشيطان على طريق، ويهدينا ربنا سبحانه إلى طريق آخر، وكلاهما يَهْدِيَانِنَا، ولكن طريق الشيطان مسلك السوء ولا يوصل إلى آخرة جيدة، فهو هداية إلى الهاوية، وأما هداية الله تعالى فهو مسلك الحق والصلاح ويوصل لنهاية رائعة.

ومن ناحية ثانية، أيضا علينا دائما الانتباه أَنَّهُ سبحانه وتعالى ما يقوله لنا هو فقط الحقّ والصواب، في مقابل كذب الآخرين المخترعين للدين من أوهامهم، وَاللَّهُ أحد، وهذه حَقِيقَةٌ ومن يقولها يكون مهتديا، هذا من جانب ومن جانب آخر، وَاللَّهُ تعالى أخبرنا أنه جعل عقابا وثوابا على الأمور، ولو أنا اخترعت من رأسي دينا آخر، فمهما كانت فلسفته ومهما كانت شريعته فهو لن يوصل لأي مكان غير الذي يقرّره تعالى، فلن يجعل سبحانه وتعالى الأمور تجري على ما قلته أنا.

بشكل أبسط وَكَثِيراً ما أشار القرآن بكلامه عن الهداية إلى أن قراراته تعالى هي الهداية، حَيْثُ أخبرنا تعالى أن المؤمن بكذا وكذا... العامل للصالحات كذا وكذا سيدخل الجنّة، والكافر سيدخل النار، وهذا شيء من الأساس حقّ لأنه مبني على مشيئة إلهية حكيمة خبيرة عليمة بصيرة، وما شاءه تعالى لن يتغيّر، فلو قلنا نحن إِنَّهُ تعالى في الآخرة سيرى مؤمنا ثقيل الدم سخيفا لا يهتمّ بنظافته... فسيرميه في النار... وسيرى كافرا مرتبا مهذبا لبقا نظيفا... وسيدخله الجنّة...
وَالتَّصَرُّفُ على أساس هذه الأفكار التي اخترعناها نحن ولم يقلها تعالى، فهذا لن يغيّر أي شيء من الواقع والحقيقة، فلن نكون مهتدين، فلن نكون على الشيء الصحيح إلا إذا مشينا على دينه تعالى بالضبط، فلن يدخل الجنّة إلا المؤمن العامل للصالحات، وهذا المعنى العملي لكلام القرآن عن هداه تعالى.

نرجع لأمر الآية للنبي والمؤمنين أن: {وَأُمِرْنَا}، ووصلنا أمر، {لِنُسْلِمَ}، أن ننقاد أن نسمع ونطيع ونخلص، {لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}، للمسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس من أولهم لآخرهم، فهو ربّ واحد لكل الناس، ولا ربّ سواه.

(وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ{72})
وَصَلَنَا أمر: {أَنْ أَقِيمُوا}، فعّلوا لا تهملوا ولا تتركوا، {الصَّلَاةَ}، التوجّه والإقبال، فقوموا بالتوجّه والإقبال على ربكم سبحانه، والمقصود بهذا التوجّه العبادة التي على شكل قيام وركوع وسجود وقراءة... وكلمة صلاة هي مصطلح ديني لما نسمّيه بالصلوات الواجبة خمس مرات في اليوم...

{وَاتَّقُوهُ}، فتجنبوا غضب وعقاب ربكم سبحانه، فلا تعصوا أوامره حتى لا يطالكم عذابه.

{وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}، فسيتم حشركم جمعكم بقرار منه تعالى "ليحاسبكم" سواء قبلتم أَمْ رفضتم، وبما أن الكلام عن جمع كلّ الناس فنفهم أنه يشير إلى ما سيحصل في يوم القيامة من إعادته تعالى الحياة للجميع.

إِذَنْ فالأوامر بِالْإِسْلَامِ له تعالى وحده، والصلاة له، وتقواه، يجب أن نلتزم بها لأنها الحقّ والصلاح من جهة ومن جهة ثانية لأننا في الأخير سنتحاسب عليها...

نُلَاحِظُ العديد من الآيات عندما تحدثت عن أشخاص تركوا الجهاد والزكاة والصلاة... وعن الذين أشركوا واخترعوا عقائد وتشريعات منحرفة... نلاحظها نبّهت أن هذه النوعية من الناس لا تؤمن بالآخرة، لأنها لو آمنت بأنه يوجد آخرة وحساب، لما تجرأت على هذه الأعمال، وعلى كل حال فسواء آمنوا بالآخرة أم لم يؤمنوا، فالآخرة ستأتي بالتأكيد وسيتحاسبون وَيُجَازَوْنَ، وهذه الحتمية بحشرنا وحسابنا متكررة بِعِبَارَاتٍ مختلفة ومنتشرة في العديد من فقرات السور التي تشير في نهايتها إلى حتمية حشرنا جمعنا رُجُوعِنَا... إليه تعالى، فإن لم يتفعّل فينا جانب حب الحقّ والخير فعلى الأقل يتفعّل فينا الخوف من محاسبتنا على تكذيب الحق وفعل السوء كسبب لنا حتى نتقيه تعالى.

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ{73})
{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ}، ألّف ركّب من المواد المختلفة، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وهذا التعبير القرآني يشابه قولنا: خلق كل شيء، فهذا كل ما في دنيا المخلوقات وقد خلقهم، {بِالْحَقِّ}، بالصواب، فقراره تعالى كان صائبا، إِذْ من الأساس عندما خلقهم سبحانه كان لديه بما نسميه مخطّط، فلم يخلقهم بالباطل بل عن حكمة، فخلق السماوات وجعلنا فيهم ليمتحننا ويحاسبنا، بعبارة أخرى لَوْ أحد ما قال: لو سألني تعالى لما طلبت منه أن يخلقني، فخلقه لي أراه قرارا غير سليم. فتأتي أمثال آيتنا هنا لتردّ على ذلك بأنه تعالى خلق السماوات والأرض بالحقّ، وبتعبير شعبي نتساهل فِيهِ: معه حقّ تعالى حين خلقنا. وهذا واضح لأن قيمة الحياة أعلى من لا شيء، وأصلا لا مجال لسؤالنا إن كنا نريد أن نصير أحياء لأننا لم نَكُ شيئا. ومن ناحية ثانية فمستوى صفاته تعالى فَائِقٌ، فحكمته فائقة، وعلمه فائق، وبصيرته فائقة... فقرار خلقه للسماوات والأرض قرار حقّ بالنظر إلى صفاته الفائقة سبحانه.

{وَيَوْمَ يَقُولُ}، سبحانه وتعالى: {كُنْ}. وسياق الكلام عن يوم القيامة فعندما يأمر تعالى مخلوقاته أن ترجع إلى الحياة فيقول: كن. صيروا أحياء ولكم كيان. {فَيَكُونُ}، فيتحقق ويتنفّذ. {قَوْلُهُ الْحَقُّ}، الصائب الصحيح، فما يقوله تعالى ليس فيه كذب فوعده صدق ولا فيه مبالغة أو تضخيم، فأنا قد أقول أني سأفعل شيئا ما ويكون فوق قدرتي على التنفيذ، فأبالغ

في قدراتي فوق ما أستطيع، وقد أقول أني سأفعل شيئا ما وأنا لن أفعله فأكون كاذبا، وقد أنساه أو تصيبني ظروف تمنعني من فعله... وقد... أمّا سبحانه فحين يقول أنه سيفعل شيئا ما، فقوله الحقّ، فحتما سيتنفّذ ما قاله، لِأَنَّ قُدُرَاتِهِ فائقة، ومن ناحية ثانية فبسبب حكمته الفائقة فقوله سيكون صائبا دائما، ولن يغيّر سبحانه قراره ولن يطرأ شيء خارجي أو داخلي يجعله تعالى يتراجع عن أقواله...

هو سبحانه خلق كل شيء أول مرة، وبعدما يموتون، وبعدما يتغير كل شيء، ننتقل للمرحلة الثانية، ويأمر سبحانه مرة ثانية ليرجع الجميع إلى الحياة، وسيحصل هذا بالتأكيد.

بسبب طول دراسة هذه الآية سأشير لك إلى شيء مهم، وَمَرْجَعِيَّةُ الحقّ والباطل والخير والشرّ، ترجع إلى صفاته تعالى، نحن بعض الأمور بالنسبة لنا نرى أوجها مختلفة لها، فمن زاوية ما نراها خيرا، ومن زواية ثانية نراها هي نفسها شرّا، وبناء عليه فعلى الأقل هناك بعض الأمور التي فيها الحقّ والباطل مطّاطا، وبعضهم يضخّم ذلك ليبدو أنه لا يوجد معيار مرجعي ثابت للخير والشرّ، بينما كلام القرآن المماثل لكلام آيتنا هنا، وعموم تحليل كل كلامه يشير إلى أصل مرجعية تمييزنا للخير من الشرّ من صفاته الفائقة تعالى، وأن الأمور أبدا ليست مطّاطة، فبعض الشؤون البشرية تصير متدرجة في السوء والخير حتى يقتربا من بعضهما، وعندما يتساويا تصير الحالة فاقدة للوصف، وليست موصوفة في نفس الوقت بالخير والشرّ معا... ويكفي هذا المقدار هنا ولمزيد من التوسّع راجع دراسة الآية 27 من سورة ص "وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ".

ونلاحظ التركيز القرآني على مدى سهولة خلقنا وإعادة خلقنا، فبمجرد أمر بسيط منه تعالى نخرج إلى الحياة، وتجد هذا المعنى بشكل مباشر وصريح في الآية 38 من سورة ق "وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ".

ونتذكّر دائما أنه سبحانه ليس له حنجرة وفم وقصبة هوائية... فلا يقول مثلما نحن نقول، فلا تخرج منه الكلمات سبحانه وتعالى مثلما تخرج منّا، لا. فتصور أن جهاز التلفاز يشتغل حين تقول له: اشتغل. فلا تتوقع أبدا أن لا يشتغل إن كان متطورا في صناعته وبرمجته، الآن تصور أنك تعطي التلفاز أمرا ذهنيا بأن يشتغل، فأنت تأمره ولكن من دون أن تخرج الكلمات من فمك، الآن توقف عن التصور لأنك لا تستطيع أن تتصور كيف يخرج الأمر من ربنا سبحانه، ولكن إفهم بأنه سبحانه وتعالى وبطريقة يستحيل أن نفهمها لأن مستواها إلهي، يصدر منه أمر، ويتنفّذ، يطيعه كل شيء من دون تردد.

طبعا عليك برمي الأفكار الطفولية الساذجة المبنية على فكرة السحر الخرافية، والتي تشير إلى حصول الأمور بمجرد التلفّظ بكلمة سحرية، فهذا المفهوم خرافي.

ولا تفهم من الآيات التي تقول بأن ربك سبحانه يقول كن، فيكون، لتتحقق الأشياء فورا، بل حتما ستحصل، وأمّا حصولها فورا أو بعد حين فهذا شيء متعلق بما أمر به تعالى أن يحصل، حيث بعض الأمور لا معنى للفورية فيها وبعضها للسرعة العالية في حصولها معنى، فعندما أراد سبحانه أن يخلقنا لنعيش في الدنيا ونعمل ونموت ويحاسبنا في الآخرة، لَا يوجد معنى لحصول هذه الأمور فورا! لأنها لو حصلت فورا لكنا الآن إمّا في الجنة أو في النار، ولا ندري لماذا نحن هناك، لأن كل الأمور حصلت على الفور! فخلقني سبحانه ويعلم بأني سأكفر ولذلك رماني فورا في النار من دون المرور بالحياة الدنيا! كن فيكون. هل انتبهت؟ هناك أمور هي بحاجة لأن تأخذ وقتها، وهذه الأمور وغيرها بالنسبة لله تعالى تحصل بمجرد أن يأمر سبحانه، وتأخذ الوقت الذي حدّده لها ربها سبحانه، ولكنها حتما ستكون فستحصل.

نرجع للآية، {وَلَهُ الْمُلْكُ}، منسوب له صفة تبعية الأشياء والسيطرة والتحكّم، ففي يوم القيامة يتبين للجميع أنه تعالى لوحده له السيطرة وتبعية كل شيء فهناك لوحده يأمر وينهى ساحبا منّا ما منحه لنا في الدنيا من حرية أخذ القرارات...

{يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ}، وهذا جانب من آلية تنفيذ أمره تعالى بقيامنا من الموت فهي تحصل عبر النفخ بالصور، والمشهور في ثقافتنا الدينية أن ملاكا اسمه إسرافيل(ع) هو النافخ في الصور، وعموما فمن القرآن نفهم أنه تعالى يوظّف الملائكة بهكذا أعمال ولذلك سنقول بأن النافخ ملاك، وأمّا بالنسبة لاسمه فلم يذكره القرآن.

وذاك الصور شيء لا نعرفه ولكننا نعرف ماذا يفعل، فالصور في اللغة هو: الشيء الذي نستعمله ليصدر منه صوتا قويا، فيسمعه عدد كبير من الناس، كالبوق قديما، وكمكبر الصوت حاليا. وطبعا ليس الصور هنا بوقا مصنوعا من خشب أو من معدن، وليس مكبرا للصوت، ولكنه شيء يستعمله الملاك فينفخ فيه، فيجعل في داخله "شيئا لا نعرفه"، مثلما نجعل نحن الهواء داخل البوق، فيصدر من الصور "شيء" يسبب قيام كل الناس من موتهم، دفعة واحدة.
فالوصف مثل الوصف بالصيحة، فأمام عدد هائل من المخلوقات الميتة، سيصدر أمر بإعادة هذا العدد الهائل إلى الحياة بالنفخ في شيء ينشر الأمر بالقيام من الموت على عدد كبير، والكلمات العربية التي تناسب وصف حالة انتشار الأمر على عدد كبير، هي النفخ في الصور والصيحة.

{عَالِمُ الْغَيْبِ}، فيعلم تعالى كل ما غاب عن مخلوقاته، سواء قبل وجودهم وفي وجودهم وفي المستقبل. {وَالشَّهَادَةِ}، فيعلم ما شهدته ما رأته وسمعته وأحسّت به مخلوقاته أيضا، فأي حادثة مهما كان نوعها، فلا يوجد أحد شهدها وكان تعالى غائبا عنها، لا، فكما يعلم سبحانه كل ما غاب عن مخلوقاته، فيعلم أيضا كل ما شهدته مخلوقاته.

{وَهُوَ الْحَكِيمُ}، وكلمة حكمة ومشتقاتها تشير لعموم ضبط الشيء على المطلوب: على الصوابية على الحقّ... ووصفه تعالى بالحكيم يشير لرؤيته تعالى الصوابية في الأمور وأن قراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب فقراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول بأن أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فلا يفعل لغاية له سبحانه. فهذا التخطيط لخلقنا... وبعثنا... كله عن حكمة.

{الْخَبِيرُ}، الذي لديه أخبار وتفاصيل كل شيء، فكل المعلومات عنده حتى يحاسبنا على أساسها في يوم القيامة.

هنا بسهولة يمكننا التوقف عند الصفات الإلهية المذكورة لنربطها بالأحداث، وللموضوع جوانب عديدة أهمها تراه إذا تصوّرت إنسانا يقوم بعمل ما، فإن كان لديه معلومات عالية عمّا يفعله، فكان مهندسا حاذقا مَاهِراً مُتْقِناً لعلومه... فتتوقّع عملا هندسيا متقنا، وهنا سبحانه ينبّهنا لذلك، فخلق السماوات والأرض... وإعادة خلقنا، مشروع ضخم هائل جدا جدا، وفاعله عالم للغيب، فأي قرار اختاره تعالى فهو يعلم مفاعيله إلى ما لا نهاية، وهذا شيء يفوق قدرتنا على التصوّر والفهم، وليس هذا فقط فهو حكيم، فقدراته الفائقة لا تدفعه تعالى للاستهتار، بل دائما يتصرف عن حكمة بالرغم من قدرته على فعل أي شيء يريده، وَأَخِيراً يأتي وصفه تعالى بالخبير التي تشير لعلمه تعالى بالأخبار، وبشكل أدق فهي تشير لعلمه تعالى بالمجاهيل، كما نصف شخصا بأنه خبير على أساس أنه يعلم ماذا يفعل إمّا لأنه فعلها من قبل "لديه خبرة"، أو رآها تحصل أمامه ويعلم التفاصيل "لديه خبرة"، وبالنسبة له تعالى بقدراته الفائقة فنحتار في تدقيق معنى كلمة خبير، فلديه تعالى أخبار كل شيء، وبعمله الفائق فأي شيء سيفعله فسلفا يعلم تعالى بما سيحصل، فحتى لو كان للكلام معنى وقلنا أنه تعالى فعل شيئا لم يفعله سابقا، فمن قدراته الفائقة وعلمه بالغيب فلا يوجد شيء جديد عليه تعالى، فخلق السماوات والأرض ليس شيئا جديدا له تعالى كحدث، فعلمه تعالى بكل تفاصيل تفاصيل تفاصيل... ما سيجري إلى ما لا نهاية، يجعلك ترى معنى لكلمة خبير فوق قدرتك على التصوّر.

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{74})
من هنا تبدأ السورة بالحديث عن شخص عادي، مثلنا من البشر، لم ينزل عليه وحي، ولو تتبعت كلام القرآن عنه إلى ما بعد حصول حادثة محاولة إحراقه وخروجه من المدينة، فلن تجد وَلَا تَصْرِيحاً عن تلقيه لوحي إلهي، وتجد إشارة لذلك في الآية التالية بعد آيتنا هنا "وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ" وسترى أنها لا تشير إلى تلقيه وَحْياً... ففقط بسبب ما رآه في خلقته وبيئته، وبقلبه السليم، توصّل للدين الحقّ، فهي على معنى الآية 191 من سورة آل عمران "الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ". وهذا الشخص إبراهيم أبرز نموذج تعرضه لنا السورة "وعموم القرآن" في مقابل الناس الذين كفروا بآيات الله تعالى واخترعوا آلهة وَدِيناً من هواهم الفاسد.

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ} "آزر":

{أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً}! هل جعلت المنحوتات الصخرية والخشبية... وَهِيَ صَنَمٌ وَهِيَ جامدة لا تفعل ولا تتفاعل، وَاعْتَبَرْتَهَا كائنات لها صفات وقدرات فائقة كآلهة! بتعبيرنا العامي: هل من المعقول أن تقول عن منحوتة من الحجر أو الخشب أنها إلهك!

{إِنِّي أَرَاكَ}، فصار لدي صورة محدّدة لك، {وَقَوْمَكَ}، والناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلين مثلك مع عبادة الأصنام والشرك عموما، أراكم، {فِي ضَلَالٍ}، في شيء غير صحيح ولا يوصل للغاية الصحيحة، {مُبِينٍ}، بشكل واضح لستم على الصحّ، بل على الخطأ بشكل واضح. وكما ترى فهل هناك أسخف من القول عن قطعة خشب أو صخر منحوتة وأنت تعلم بأنها صنم، بأنها جامدة، وتقول عنها بأنها إلهك!

هناك خلاف في الروايات والتفاسير حول هذا الشخص الذي يناديه النبي إِبْرَاهِيمُ(ع) في القرآن: أبي. فبعضهم قالوا: هو أبوه الحقيقي "والده الذي أولده". وآخرون قالوا: لم يكن والده بل عمّه، وَرَبَّاهُ منذ طفولته، وَاعْتَادَ النبي إبراهيم(ع) أن يسميه أبي.

وَرَدَ في التوراة أن اسم والد النبي إِبْرَاهِيمَ(ع): تارخ "تارح". بينما الشخص الذي يتحدث عنه القرآن اسمه: آزر. وَوَرَدَ ذلك هنا في الآية 74 من سورة الأنعام "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ..."، فيمكن الاستنتاج أن الذي ربّاه اسمه آزر، ووالده تارخ، وهذا على ذمّة من كتب التوراة...

لَا تَنْسَ أن العرب ينادون العم بكلمة: أبي. وَالْقُرْآنُ استعمل نفس التعبير وكمثال على ذلك حين تحدّث أولاد النبي يعقوب(ع) عن آباء أبيهم وذكروا من ضمنهم عمّه النبي إسماعيل(ع) كما ورد في الآية 133 من سورة البقرة "أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...".

على كل حال فالآية 41 من سورة إِبْرَاهِيمَ(ع) نقلت عن النبي إبراهيم(ع) دعاءه بالاستغفار لوالديه "وليس لأبويه" حين كان شيخا كبيرا "رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ"، ونعلم أن النبي إبراهيم(ع) اسْتَغْفَرَ فعلا لأبيه "آزر"، وكان النبي إبراهيم(ع) حينها شَابّاً، ولكن بعدما تبيّن للشابّ إبراهيم(ع) أن آزر عدو لله تعالى تَبَرَّأَ منه كما تقرأ في الآية 114 من سورة التوبة "وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ..."، إِذَنْ كما هو واضح، فلدينا استغفار حين كان (ع) شابا "لأبيه" لآزر، وبعدها تبرّأ منه، ولدينا استغفار "لوالديه" وَكَانَ كبيرا في السنّ. مما يعني أنه (ع) حين صار شيخا كان يستغفر لوالديه اللذين "ولداه"، فآزر لم يكن "والده" بل عمّه أو أحد أقاربه أو شخص تولّى العناية به وتربيته... ولذلك كان يناديه أبي.

حَسَناً، هذا الكلام من هذا الشاب كان بداية إعلانه أنه يرى سخافة عبادة الأصنام، فلنكمل، ولكن قبل ذلك ضع في بالك دائما أن إِبْرَاهِيمَ حين حصلت هذه الحوادث لم يكن نَبِيّاً، فلم ينزل عليه الوحي... ولهذه الأسباب كرّر القرآن الكلام عن "إبراهيم" كلما أراد أن يضرب لنا مثلا كنموذج عن شخص آمن به تعالى، مع أنه لم يسمع من الناس أي كلام نقلا عنه تعالى، بل بقلبه السليم وبكل سهولة لم يشرك به تعالى...

(وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ{75})
{وَكَذَٰلِكَ}، وبهذه الطريقة، {نُرِي إِبْرَاهِيمَ}، فنجعل عنده صورة محدّدة لـ، {مَلَكُوتَ}، "أملاكنا المتعددة الكثيرة" المنتشرة في، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، فسينتبه أن لهذه السماوات الواسعة ولهذه الأرض يوجد مالك لها، فعندما تنتشر البلدان التي يملكها ملك واحد، ويملك أكثر من مملكة، فنقول عن الجميع إنه ملكوت، أي الكثير من الممالك، وإبراهيم(ع) حين كان شابا، الْتَفَتَ إلى الممالك الكثيرة من حوله، ورأى أن الأصنام والكواكب و... لا علاقة لها بتلك الممالك...

{وَلِيَكُونَ}، إبراهيم(ع)، {مِنَ الْمُوقِنِينَ}، من الذين لديهم اعتقاد بشيء مطابق للواقع، من المتأكدين بشيء صحيح، بالطبع تقصد الآية أن يتيقن أن يتأكد إبراهيم(ع) من الربّ الحقيقي المالك الحقيقي لهذا الملكوت، وسنرى في الآيات التالية كيف رأى الملكوت وماذا حصل.

وقبل أن نتابع، نتوقّف عند كلمة "ملكوت"، إذْ تبحّروا في معناها ومقصدها... وصار لديهم اصطلاح عن عالم الملك ويقصدون بذلك عالمنا، وعالم الملكوت ويقصدون بذلك عالم الملائكة العالية... ولكنها مجرد كلمة معناها: ممالك متعددة تضم أملاكا متعددة. وما يقولونه من معاني فلا هي من المعنى اللغوي للكلمات العربية التي استعملها القرآن ولا سياق الكلام القرآني يشير لما قالوه، وهذا لا يعني منع الآخرين من وضع مصطلحات ولكن علينا الانتباه من تفسير القرآن بتلك المصطلحات.

فعبدة الأصنام كان عندهم صنم إله للأرض، وصنم إله للشمس، وصنم إله للقمر... فالأرض مملكة، والشمس مملكة، والقمر مملكة، والسماوات مملكة... ولكن كل هذا الملكوت له إله واحد لأنه مترابط، ومن السخافة نحتهم بأيديهم للأصنام واعتبارها آلهة واختراع أسماء لتلك الآلهة، واختراع قدرات ووظائف إلهية لها... ومن ثمّ عبادتها!

وَمَا يقوله البعض عن رؤيته(ع) الملكوت الذي تذكره الآية هنا، وتفسيره كشيء يشبه بشكل ما ما رآه النبي محمّد(ع) عندما رأى الملاك جبريل(ع) عند سدرة المنتهى، كما ورد في الآية 14 من سورة النجم "عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى"، وبالتالي تفسير آيتنا هنا بأن تواصلا حصل بينه تعالى وبين إبراهيم(ع) من نوع التواصل الذي يحصل مع الأنبياء، فما تفسيرهم للآية 185 من سورة الأعراف "أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ"، فهل يسأل سبحانه الكافرين عمّا رأوه من ملكوت فيما يراه أي إنسان عادي، أن يسألهم عن رؤيتهم لشيء كالذي رآه النبي محمّد(ع) حين رأى الملاك جبريل(ع)؟

يعني الكلام هنا في الآية هو نفس الكلام القرآني عن المؤمنين الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض، فهذه هي ملكوت السماوات والأرض، فهم يرونها بأعينهم وبفكرهم، ويخرجون منها بنتيجة التعرّف على إلههم الواحد الأحد...

فالآية هنا ليست تصريحا عن تواصل إلهي مباشر مع إبراهيم(ع)، حَيْثُ خلال الأحداث التي جرت في هذه الأثناء لم يكن هناك أي تواصل غير عادي بينه تعالى وبين عبده إبراهيم(ع) فلم يكن نبيا ولا رسولا كموظّف رسمي منه تعالى.

والآية القرآنية الثانية التي رُبَّمَا نحتمل منها حصول تواصل إلهي مع الشاب إبراهيم هي الآية 18 من سورة العنكبوت "وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ"، وَلِأَنَّ المجموع العام لكلام القرآن ليس فيه تصريح بأي نوع من التواصل الإلهي مع الشاب إبراهيم(ع)، بل فيه تركيز على كونه شابا عاديا مثلنا مثله ومثل كل بقية قومه... أَمَنَ ولم يشرك... لِذَلِكَ ننحو لتفسير الآية بشكل لا يشير لكونها تَوَاصُلاً إلهيا من نوع تواصله تعالى مع رسله الموظفين رسميا منه، فنحن نقول لبعضنا البعض "وما على الرسول إلا البلاغ" على نحو التمثيل والتشبيه مع أننا حتما لسنا رسلا موظفين رسميا منه تعالى لتبليغ الناس كلامه سبحانه. وينطبق هذا الكلام أيضا على الشاب موسى(ع) حين كان ثاويا في مدين، فحينها لم يكن رسولا موظفا رسميا منه تعالى، ورغم ذلك وصفته الآية 45 من سورة القصص بأنه رسول لمدين "وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ".

نرجع للآيات لنتابع كيف رأى إبراهيم(ع) ملكوت السماوات والأرض:

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ{76})
{فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ}، فترة العتمة من اليوم عندما صارت ساترة عليه، وهذا التعبير يشير إلى انتشار العتمة وظهرت الكواكب في سماء الليل، {رَأَىٰ}، إبراهيم(ع)، {كَوْكَبًا}، صارَتْ لديه صورة محدّدة لواحدة من النقاط المضيئة التي نراها في السماء ليلًا، وكما قرأنا في الآية ما قبل السابقة أن الشاب إبراهيم(ع) تعرّف على الأصنام ورأى الناس يربّبونها ويعتبرونها آلهتهم، واستسخفها واستغرب من سخافة ذلك، وعلى ما يبدو أنه في إحدى الليالي قرّر التعرّف على كوكب يعبده الناس، فالآية تشير لكوكب محدّد كان مجموعة من الناس يعلنون تأليهه، واشترك معهم "إبراهيم" في انتظار الليل ليتعرّف عليه، ولَمّا رآه استخبر وقال: {هَٰذَا رَبِّي}؟ هل هذا المسؤول عني من مستوى إلهي؟ أهذا الذي خلقني ويرعاني؟ حسناً، فلنتعرّف عليه...

الكوكب بحسب استعمال القرآن وعموم استعمال العرب لهُ في أشعارهم قبل الإسْلام يَعني: أي نقطة في السماء لها ضوء، بغضّ النظر عن كون الضوء يصدر منها أو تعكسه، وبغض النظر عن كون الكوكب صُلْباً أو غازِيّاً...

{فَلَمَّا أَفَلَ}، وكلمة أَفَلَ لم ترد في القرآن إلا في هذه السورة، ويبدو من استعمال العرب لها أنها وصف لما ذهب واختفى ولم يَعُدْ يُرى، وقيلت كوصف لجفاف حليب المرضعة. ولَمّا ذهب الكوكب، وصار خارج مجال الرؤية، ولم يَعُدْ يظهر في السماء لأنه نزل تحت الأفق، أو انتهى موسم ظهوره في السماء، أو لأن الشمس أشرقت وأخفت ضياء كل النقاط البيضاء التي في السماء... ولأيّ سبب من تلك الأسباب، قال، إبراهيم(ع): {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}، لا أحب الذين يذهبون ولا يَعُودُ لهم أثر. والسؤال البَديهي البسيط: إذا كان هذا الكوكب إلهاً حقيقيّاً، فأين يذهب ويترك مخلوقاته؟ ومن يراهم الآن؟ ومن يدير شؤونهم؟ ومن يهتم بهم؟... أنا لا أحب الذين يذهبون، لأنَّ هذه ليست صفة إلهية، فكيف يكون ربي وذهب وتركني؟ ولا أفهم كيف يذهب الرب ويترك مربوبيه!... أنا لا أحب هذا.

لا يَهُمُّنا معرفة اسم الكوكب الذي كانوا يعبدونه، هل هو المُشْتَرِي أم الزهرة أم شيء آخر... المهم أَنَّهُم كانوا يعبدون كوكباً، ومعلومٌ أفول الكواكب بعد شروق الشمس أو بنزولها تحت الأفق أو بتغيّر موسم ظهورها...

لا تفهم من الآيات أن هذه هي أوَّلَ مرة يرى إبراهيم(ع) فيها الكواكب في الليل، أو أول مرة يرى القمر والشمس، وكأنه كان يعيش في مغارة عميقة ولم يخرج منها لا في الليل ولا في النهار! بل نفهم من الآيات أنها تتحدث عن مراحل احتكاكه(ع) بأديان الناس، وبما أنه كان يرى الشمس يوميّاً ولم يبدأ بالاعتراض على عبادتها، يَبْدو أنه (ع) خَطَّطَ للدخول بين الجماعات التي تعبد الكوكب ثم القمر ثم الشمس حتى يُبَيِّنَ لهم خطأ فعلتهم... وما قيل عن تمضيته لطفولته وشبابه في مغارة، ولذلك لم يَرَ الشمس ولا القمر ولا الكواكب، يَبْدو محاولةً منهم لتفسير ما اعتبروه مفاجأة بدت لهم من كلام الآيات حين رأى "الأوّل" مرة الكواكب والقمر والشمس، وهذا افتراضٌ لا داعي له، ولا معنى واقِعِيّاً له، فما معنى بقائه في كهف مدة طويلة من وعيه إلى حين صار فتى! وهذه فترة بالسنين، فهل قضاها ولم يَرَ الشمس فيها؟!

نفس هذه المشكلة نراها في كلامهم عن النبي محمّد(ع)، وكأنه أمضى حياته بشكل عادي بين الناس، ولم يعترض على شركهم إلى أن صار في سنّ الأربعين ونزل عليه الوحي وصار فجأة شخصاً مختلفاً، لأنَّ هذا النوع من التعامل الصلب مع الأمور وكأنها تحصل فجأة وبقفزات، متجاهلين المسار الطبيعي للأمور، سيؤدّي بنا إلى افتراضات غير واقعيّةٍ، ولِنَقُلْ إنَّكَ سمعت عن محاورة بين مؤمن وملحد، فلن تفترض أن المؤمن فجأة صار مؤمناً وفجأة التقى بملحد وفجأة... بل تفهم أن للمؤمن تاريخاً مرّ فيه... ومرّة من المرات جرت محاورته لملحد. وهنا كلام الآيات نفس الشيء، حيثُ إنَّها فقط تنقل لك حين حصلت المحاورة، لأنَّ هذا ما يهمّنا من الموضوع، وتجاهلت المحاورات والأحداث السابقة التي لم تكن بأهمية ما تنقله الآيات هنا.

(فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ{77})
ننتقل لربّ آخر كان الناس يعبدونه، وربما حصلت الحادثة في الليلة التالية، ولكن يبدو أنها أمور حدثت في مدة طويلة... حيثُ أكمل إبراهيم(ع) دراسته في التعرف على الأرباب التي يعبدُها الناس، وفي مرة منها جالس عُبَّادَ القمر...

{فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا}، عندما صارت لديه صورة محدّدة للقمر يظهر بوضوح في السماء، قال إبراهيم(ع) مستخبرا: {هَٰذَا رَبِّي}؟ هل هذا هو المسؤول عنّي من مستوى إلهي؟ لأنَّ ذاك الكوكب الذي عبده الآخرون كان صغيراً وَضَوْؤُهُ خافتٌ، أما هذا القمر فكبير وضوؤه قوي، فلنتعرّف عليه... وواضح من سياق الكلام أن السؤال موجّه لِمُرَبِّبِي القمر، أو موجّه لمن يسمع من الناس في تلك الليلة، وفي نفس الوقت هو سؤال حقيقي، لأنَّ هناك فِعْلاً من يقول بأن القمر ربّه، فهل هذا فِعْلاً ربّي؟

{فَلَمَّا أَفَلَ}، عندما ذهب القمر، وَنزل خلف الأفق، أو لأنه بعد عدة أيام دخل في المحاق وصار أقل من هلال، أو لأن ضوء الشمس أخفاه... قال إبراهيم(ع):

{لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي}، إذا لم يضعني المسؤول عنّي من مستوى إلهي على الشيء الصحيح، عندها، {لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ}، من الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفعلّة مع العقيدة، {الضَّالِّينَ}، الذين على الشيء الخطأ الذي يوصل للغاية الخطأ، لأنَّني متأكِّدٌ من وجود إله، لأن خلقتي وما حولي كلّه يدل بسهولة على ذلك، وهؤلاءِ الناس من حولي يقولونَ عن القمر إنَّهُ ربّي، ولكني لا أرى فيه صفات الربوبية، لأنَّهُ يأفل، وَيذهب ولا يَعُودُ له أثر، فمن هو ربّي في غيابه؟

ومن يدير الشؤون في غيابه؟ والناس مصرّون على حصر الإله في شيء، في صنم أو في كوكب أو في القمر... فإن لم يضعني ربي الحقيقي على الشيء الصحيح لأعرفه، فسأرتكب الخطأ بعبادة غيره، فأي شيء هو من الأشياء التي يقول عنها الناس؟ وَلحدّ الآن يبدو أن هؤلاءِ الناس تعبد آلهتها من دون مستند عقلي أو نقلي؟

تذكّر دائماً انطلاق الكلام من وضوح سخافة نحت صنم وعبادته، وانتقال الكلام إلى عبادة الكواكب التي لم نصنعها... ولكنها تأفل، وَتذهب وتغيب، لأنَّها ليست واسعة باتساع الإحاطة بالسماوات والأرض حتى تكون رَبّاً لها وَمَسؤولةً عن تسيير أمورها...

(فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي هَـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ{78})
انتقل من بين جماعة عبّاد القمر بعدما تبيّن له سخافة عبادتهم لشيء يتغيّر ويأفل، وانتقل لجماعة عبّاد الشمس، فكل مجموعة كانت تعتبر أن إلهها أقوى... فلنتابع:
{فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً}، عندما حصلت لديه صورة محدّدة عن الشمس وهي ظاهرة بوضوح، قال إبراهيم(ع) مستخبرا:

{هَٰذَا رَبِّي}؟! {هَٰذَا أَكْبَرُ}، حجمه أكبر من الكوكب وأكبر من القمر، لأنَّ القمر يكون هلالاً صغيراً ويكبر، أما الشمس فهي كبيرة ولا يصغر حجمها، فلنتعرّف عليها من نظرة من يعتبرها ربّاً له.

تُلاحِظُ أن لفظ الشمس مؤنّثٌ في اللغة العربية، فقط اللفظ مؤنّث، ونسميها مؤنّثاً "لفظيّاً" غير حقيقي، وَعندما وصفتها الآية أنّثت الصفة "بازغة ولم تقل بازغ"، وعندما نسبتها للألوهية صار الحديث بالمذكّر "هذا ربي ولم تقل هذه ربتي"، لأنَّ الألوهية والربوبية مذكّر لفظي أيضاً وليس حقيقيّاً، فلا الإله الربّ ذكر ولا الشمس أنثى، وأنت كناطق باللغة العربية لو قلت هذه الجملة لوحدك، لاستعملت نفس الطريقة من التأنيث والتذكير، لأنَّ هذه هي الطريقة العربية في التعبير، وما قاله البعض عن أن سبب خلط الآيات بين المذكر والمؤنث لأنها تنقل لنا ترجمة للعربية من اللغة التي كان يتحدّث بها إبراهيم(ع) غيرُ صحيح، لأن العربي أصلاً يتحدّث بهذه الطريقة عن المؤّنث اللفظي.

{فَلَمَّا أَفَلَتْ}، عندما ذهبت ولم تعد الشمس تظهر، وَغابت تحت الأفق في وقت الغروب، قال إبراهيم(ع):

{يَا قَوْمِ}، يا أيها الناس الَّذينَ لَهُمْ كيان الجماعة المتفاعلة مع العقيدة وأنا من جمعتهم، {إِنِّي بَرِيءٌ}، فلا ارتباط ولا علاقة لي، {مِمَّا تُشْرِكُونَ}، لأنَّكُمْ بِهَذِهِ العبادة جعلتم للإله الحقيقي شركاء في الربوبية، حيثُ قلتم بأنها خلقتكم، ورزقتكم، وأمطرت عليكم... فجعلتموها تشارك الإله في ألوهيته، وأنا بريء من هذا، فلا أقبله ولا أؤمن به ولا علاقة لي به.

صار واضحاً لماذا لم يؤمن بتلك الآلهة، لأنَّ الصنم من صنع أيديهم! والكواكب والقمر والشمس وإن كان يوجد اختلاف بينها في الحجم وقوة النور... ولكنها كلها تأفل! وَتذهب ولا تَعُودُ تظهر، فكيف تكون آلهة!

القلبُ السليم الذي جعله سبحانه فينا للتعرّف عليه، هو ما نقرؤه هنا من كلام إبراهيم(ع) الذي لحدّ هذه الحوادث لم ينزل عليه وحي، لأنَّ الإله لا يأفل، وَلا يذهب، وَغيابه وخلو أي مكان منه تعالى لا يقبله العقل، فَأَيُّ صفة تجعل الإله محصوراً في مكان، ويخلو منه مكان آخر، فهي صفة غير صحيحة، وأي تصوّر عن الإله يجعله يتنقّل من مكان لآخر هُوَ أَيضاً خَطَأٌ.

سَبَقَ وتحدّثنا في السورة عند الكلام عن الدعاء له تعالى خوفاً من الغرق... وتحدّثنا عن الإيمان البدائي من الفكر والشعور الذي زرعه تعالى فينا ليكون مُعَرِّفاً له تعالى لنا، وهنا الكلام يشير لهذه النقطة، فَإبراهيمُ متأكد من إله صمّم وخلق، حيثُ إنَّ فكره يدلّه عليه ونتج عن ذلك مشاعر نحو الإله... ورأى الناس يربون الصنم والكوكب... ففكّر فيها، ورأى أنها لا تناسب وصفها بالربوبية، وَبلا دليل سمّاها الناس أرباباً، وَالدافع البدائي الذي فيهم نحو الاعتقاد بإله، هو دافع صحيح، ولو تركوه على حاله وتعاملوا معه بصدق، ولم يقحموا خيالهم وأوهامهم بالموضوع، فلولا ذلك لما اخترعوا آلهة ملموسة باليد أو العين... ولتركوا الأمور على طبيعتها، وسترى ذلك بوضوح في الآية التالية.

(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{79})

{إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ}، إني اتجهت بما أتّجه به، {لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، بتعبيرنا الدارج: للذي أخرج كل شيء من لا شيء. وبتعبير فلسفي بكلمات اصطلاحية عند الفلاسفة: شقّ العدم وأخرج كل شيء إلى الوجود. طَبْعاً هذا التعبير اصطلاحي والتعبير القرآني أدقّ لُغَوِيّاً، ولو صغنا تعبيرا أقرب إلى التعبير القرآني لَقُلْنا إنَّ فطر السماوات والأرض هو صَيْرُورَةُ كيان للكائنات.

لَوْ أطلت عليك، فَإِنَّ البحث في مسألة خلقنا من الصفر، من لا شيء، هو كلام لا يستند إِلَى معلومات نفهمها، نَتَصَوَّرُ أنه تعالى كان ولا شيء معه، وخلق السماوات والأرض، وَنَسْأَلُ عن الشيء الذي استعمله تعالى ليخلق ما في الدنيا. وَكَمَا ترى إنَّ معلوماتنا الحالية عن مادة كوننا نحن، لا تزال طفولية، لَوْ تعمّقت في الفيزياء النووية والجزيئية "وَالْأَقَلِّ من جُزَيْئِيَّةٍ"، وهذا فرع جديد انفتح من بعد بنائنا للمصادمات السريعة العالية الطاقة... لعلمت أن المادة في العمق مُخْتَلِفَةٌ كَثِيراً عمّا تراه وتتعامل معه في حياتك العادية... هَذَا كلّه كلام عن المادة التي في سمائنا ولم نتلمّس بعد السماوات الأخرى التي خارج كوننا... وبناء عليه نقول إنَّ البحث فيما هو أعمق من كوننا وُصُولاً إلى "مادّة" أصل السماوات والأرض، لا يزال بعيد المنال جِدّاً على علومنا الحالية. لَيْسَ من المستحبّ الدخول في افتراضات عن أصل نشأة دنيا المخلوقات وهي نابعة من تصورات وتخيلات وتقديرات... فاقدة لأساس معلوماتي صلب، لِأَنَّ نتائج الكلام ستكون بعيدة كل البعد عن الحقيقة... وَسَنَتَفَلْسَفُ بما لا نفهم من الحلول والاتحاد بيننا وبينه تعالى... وَتَشَكُّكِ أو تواطؤ الوجود بيننا وبينه تعالى... أو أننا مجرد فكرة في باله تعالى... أو أننا صور انعكاسية لعالم المثال الحقيقي... هَذَا كلام وأمثاله من الافتراضات البعيدة كل البعد عن الحقيقة يُؤَدِّي بنا إلى كلام لا يقبله تعالى...

نَرْجِعُ إِلَى الآية، حَيْثُ إِنَّ الأصنام من المواد التي على الأرض، والكواكب والقمر والشمس من السماء، وهي تأفل فهي ليست آلهة، وأنا "إبراهيم" لن أتوجّه نحوها بالعبادة، بل سأتوجّه نحو الذي فطرها، نحو الذي كوّنها وهي لم تكن من قبل.

من الواضح بالنسبة لي أنه يوجد خالق لديه صفات وقدرات أعلى بكثير مما تصفون به آلهتكم، حَيْثُ هناك إله فطر، أوجد هذه السماوات والأرض من لا شيء وأوجد كل ما فيها ومن ضمنها الأشياء التي تقولون إنها أرباب وآلهة.

نلاحظ أن ما يسمّونه "الفِطْرَةَ" الموجودة فينا، وتعابير القرآن استعملت كلمة قلب مشيرة إِلَى أساس فكرنا ونفسيتنا، وهي "الفطرة" الَّتِي توصلنا إِلَى الكثير من الصفات الإلهية الصحيحة، وهنا نجد أن صاحب القلب السليم يميّز بين "كون" جاء لوحده أو بالصدفة أو من الحائط، أو فطره إله.

{حَنِيفًا}، مَائِلاً عن كلّ شيء وَمُتَوَجِّهاً فقط للذي فطر السماوات والأرض.

{وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، من الواضح أن لهذا "الملكوت" إِلَهاً، ومن الواضح أن الذين تعبدونهم لا علاقة لهم بالموضوع، وَمِنْ ضخامة ما أراه في السماوات والأرض "الملكوت"، أعلم مواصفات الإله الذي فطرها، وأنا سأتوجّه نحوه فقط ولن أحيد عنه.

إلى هنا نتذكّر دَائِماً أَنَّ إبراهيم(ع) لم يكن ينزل عليه الوحي، بل كان مثل أي إنسان آخر، ولكنه رفض تقليد من حوله، وبكل بساطة ومن دون أي نقاش، اخترعوا هذه الآلهة من خيالهم وافتراضاتهم وتصوّراتهم... حيث لا الصنم صنع نفسه، ولا القمر قال لهم بأنه إله! ومن الواضح أن هذا الملكوت له إله، وهكذا وصل إبراهيم وبكل سهولة للتوجّه نحو الإله الواحد الحقيقي، وهذا هو الهدف من ذكر قصته هنا، حَيْثُ إِنَّ هذه السورة تتحدث عن الذين يجادلون في آيات الله تعالى، ولا تعجبهم الآيات المنتشرة فيهم وفيما حولهم، ولا تعجبهم الآيات التي جاء بها الرسل... "عِلْماً أَنَّهُمْ في يوم القيامة سيعترفون بأنها كانت كافية"، ويتعامون عن حقيقة وقوعهم تحت قدرة صمّمتهم وخلقتهم وحكمت مصيرهم... لذلك ضربت السورة للجميع مَثَلاً عن النموذج إبراهيم، وكيف توصّل لوحده إلى الإله الواحد.

قارن حالة إبراهيم مع حالة محمّد، وَأَذْكُرُهُمَا لك بدون لقب النبوة ولا السلام عليهما حتى تنتبه وتترك موروثك الثقافي الديني قَلِيلاً لترى ما تقوله السورة، حَيْثُ إِنَّ مُحَمَّداً كان في مجتمع من المشركين، ولكن كان فيهم مُوَحِّدُونَ على دين النبي إبراهيم(ع)، وكان فيهم يهود ونصارى... يعني سمع محمّد عن توحيده تعالى... أمّا إبراهيم، فَيَبْدو وَاضِحاً من كلام القرآن عنه أنه لم يسمع بالتوحيد من أي أحد، ولم ينزل عليه وحي، وبقلبه السليم وصل إلى التوحيد، ولذلك اعتمده

القرآن دَائِماً كَأَبْرَزِ نموذج رَاقٍ من البشرية، وَمِنْ دون أي إمكانية لأي افتراض لحصول إبراهيم على معلومات منه تعالى مباشرة أو من الناس أو من كتب... لِوَحْدِهِ وبما زرعه تعالى فيه، وصل للتعرّف عليه تعالى بشكل صحيح، والأهم في هذه المسألة أننا كلّنا مزروع فينا نفس القابلية للتعرّف عليه تعالى، والمشكلة فينا قلبنا المريض، وهو فكرنا ونفسيتنا التي أمرضناها بفعلنا للسوء قَوْلاً وَعَمَلاً وَفِكْراً، وينعكس أثر ذلك على عقيدتنا التي نقبل أن تكون لا عقلانية، وُصُولاً إلى درجة سخافة صنع صنم بأيدينا وعبادته!

(وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ{80})

سَنُكْمِلُ الكلام ولا نُوَصِّفُ إِبْراهِيمَ(ع) بالنبوة حتى يترسّخ في ذهننا أنه قبل نُزُولِ الْوَحْيِ عليه كان هكذا ذَا قلب سليم.

{وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ}، حاجَجُوهُ، وَقال له الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع مسألة الإله وهو من جمعتهم، قالوا له الحجج وَالبراهين التي يعتقدون بصحّتها ودلالتها على صحّة كلامهم وفساد كلامه التوحيدي، حَيْثُ تعرّفنا على التعدد في آلهتهم المتنوعة، وتعرّفنا على تعليقات إبراهيم(ع) على تلك الآلهة، وَناقشوه بالحجج التي تؤيّد صحّة آلهتهم، عبر تفسيرات مختلفة نخمّن منها ما نعرفه من كلامهم: فَالأَصْنامُ تسكنها روح الآلهة، وهي تمثّل الإله لأننا لا يمكن أن نتعامل معه مباشرة، لِذَلِكَ نَجْعَلُ له صَنَماً حتى نستطيع رؤيته... ولا يمكن لإله واحد متابعة كل الشؤون التي تحتاجها الناس، حَيْثُ هناك آلهة متعددة للوظائف المتعددة، وَمِنَ الضروري أَنْ يكون إله المطر مُتَخَصِّصاً بإنزال المطر ويسيطر عليه ولا علاقة لإله الحرب به... ونتوقّع مُضافاً لذلك أنهم حاججوه بمخزون ثقافتهم التراثي الديني، حين دعا فلان للإله الفلاني وتحقّق طلبه، وَرَأى فلان الإله الفلاني في منامه أو في الحقيقة... وَقال لهم(ع):

{أَتُحَاجُّونِّي}، فَتَقُولُونَ لي البراهين التي تثبت صحّة عقيدتكم وفساد عقيدتي، {فِي اللَّهِ}، في صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز له كإله، {وَقَدْ هَدَانِ}؟ حَيْثُ وضعني على الشيء الصحيح الذي يوصلني للغاية الصحيحة؟ لِأَنَّنِي أعلنت إيماني بالله تعالى وحده بعد أن اهتديت إليه، وأنتم تُناقِشُونَنِي فيه، وتقولون لي البراهين على خطأ اعتقادي! حَيْثُ إِنَّ المناقشة تكون في آلهتكم المتعددة الوهمية التي اخترعتموها بأنفسكم، ولا تكون المناقشة في الخالق الواحد الحقيقي.

{وَلَا أَخَافُ}، ولا أشعر بأي خطر أكيد من {مَا تُشْرِكُونَ بِهِ}، لِأَنَّ آلهتكم لا قيمة لها وهي وهمية ولست أخاف من عقابها لي إذا لم أعتبرها آلهة أو إن اعتبرتها بلا قيمة، {إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا}، وَكما نعرف إِنَّ عُبَّادَ الأصنام يحذّرون من لا يحترم آلهتهم بأنها ستعاقبه فَتَحْرِمُهُ من الرزق وستجعله مَرِيضاً و... ولكنه (ع) لا يخاف من آلهتهم، فَمَا سيصيبه إنما سيكون من مشيئة الله تعالى. بعبارة أخرى أَخافُ أن يصيبني مكروه إن شاء المسؤول عني من مستوى إلهي أن يصيبني مكروه، ولا أخاف من آلهتكم الوهمية.

{وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا}، إِذْ إِنَّ علم المسؤول عني من مستوى إلهي واسع غير محدود لأنه غير محدود مثل أصنامكم وكواكبكم و... حَيْثُ أنا وأنتم وكل شيء تحت مراقبته الدائمة، وهكذا يكون الإله الحقيقي، {أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ}، وَلِماذا لا تستحضرون هذه الأمور في ذهنكم! وَبَدَلَ محاججتي ومحاولة إقناعي بترك الرب الحقيقي، {أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} فَتَسْتَحْضِرُونَ في ذهنكم أن آلهتكم وهمية غير حقيقية ومن اختراعكم... ومحدودة... ويجب تركها، وَعلى الأقل تذكّروا أن الأصنام جامدة لا يمكنها التحرّك من مكانها، فَلا يمكنها أذيتي، والكواكب تذهب وتأتي! وَلو كان لديها قدرة على أذيتي لأنها آلهة، فَعَلَى الأقل كانت تبقى لتراقبنا ولترعى شؤوننا لو كانت آلهة! أو يمكنني أن أفعل ما أشاء حين تكون غائبة! {أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} كل هذه الأشياء قبل أن تهددوني بها؟!

نُلاحِظُ أَنَّ الآيات تنقل لنا أجواء مناقشات جرت بين المجموعات المختلفة وبين إبراهيم(ع)، مما يؤكد لنا مرور وقت طويل بينه(ع) وبينهم في المحاججة، لِذَلِكَ عليك أن تتصور أن عبّاد الكوكب ناقشوه وبيّنوا له صحّة عقيدتهم وأنها أفضل من عبادة الأصنام والقمر والشمس، وذلك طوال المدة التي قضاها معهم في الليلة أو الليالي التي كانوا يعبدون فيها الكوكب... وعبّاد القمر حاولوا إقناعه بالانضمام إليهم لأن إلههم أقوى من بقية الآلهة... وكذلك الأمر بالنسبة لعبّاد الشمس...

هُناكَ شيء سنقوله عن الخوف في الآية التالية.

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{81})

{وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ}، فأنتم تُهَدِّدُونَنِي من غضب آلهتكم التي جعلتموها شريكة لله تعالى، لأني أقول عنها بأنها لا قيمة لها، ولكن كيف أخافها، {وَلَا تَخَافُونَ}، فلا تشعرون بالخطر الأكيد، {أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا}! وَبِأَيِّ سلطان، بأي قوة، بأي حجة قوية تعتقدون بآلهتكم! هَلْ أرسلت لكم رسلا؟ هل تحدّثت معكم؟ هل برهنت لكم أنها آلهة؟ هل أصلا لديها مواصفات الإله؟...

أنا وأنتم مُتَّفِقُونَ عَلَى أنه يوجد إله، فهل قال لكم الإله إنَّ لديه شركاء؟ وَبِأَيِّ سلطان، بأي حجّة قوية تقولون بأنها آلهة إن لم يعترف بها الإله "الله تعالى" بأنها آلهة؟ فمن سمح لكم أصلا بالقول عنها بِأَنَّهَا آلهة؟

{فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ}، فريقي أنا بشخصي كَمُنْتَمٍ للتوحيد، أم فريقكم مجموعة الشرك، {أَحَقُّ}، لها الأفضلية، بالشعور، {بِالْأَمْنِ}؟ لَهَا الحق أن تشعر باستبعاد حصول الخطر عليها، {إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}؟ إن كنتم درستم الموضوع بشكل جيد وفهمتموه! لِأَنَّكُمْ تتحدثون على أساس أنكم تعلمون أنه يوجد عقاب من الإله، فإن كنتم فعلا تعلمون بأن من خالف الإله يستحق العقاب، ففي هذه الحالة أي الفريقين يحقّ له الشعور بالأمن ولا يخاف من عقاب الإله؟ وَهَلْ فريق الموحّدين من المفروض أن يخاف من آلهتكم الوهمية، أم أنتم من المفروض أن تخافوا من الإله الحقيقي؟

كما ترى في الآية هنا والتي سبقتها، إِنَّهَا على نسيج الآية 63 التي مرّت وتحدّثت عن التعلّق به تعالى عند الخوف الشديد وفقدان القدرة على التعامل مع الأمور، حَيْثُ إِنَّ الخوف من عقاب الإله دافع بدائي زرعه تعالى فينا للتعرّف عليه بسهولة، وكما ترى حَوَّرَهُ بعض الناس ووجهوه باتجاه الآلهة الوهمية التي اخترعوها، وَمَا يصفونه في علم النفس بـ "التابو"، هُوَ محور الكلام هنا بالتخويف المتبادل بين إبراهيم والمشركين، لِأَنَّ الخوف من الإله مشترك بينهم، بل هو شعور مزروع في جميع البشر، وَزَرَعَهُ تعالى فينا كقابلية لنتعرّف عليه، وذلك واضح من كلامه تعالى المتكرر في القرآن عن حالة الخوف الشديد في نموذج الخوف من الغرق في البحر المتلاطم...

إِنَّ التحليل النفسي للمؤمنين بالإله، على أن هذا الإيمان أصله من نتاج الخوف، أو يتم الترويج له بالتخويف من عقاب الإله، هُوَ في هذا الجانب عَرَضَهُ القرآن وأكد على صحّته ونسبه لتصميمه تعالى لنا بهذه الخاصية، وإلا، فكيف سنتعرّف عليه تعالى إن لم يُلْفَتْ انتباهنا لوقوعنا تحت قدرة قاهرة؟ وبالتالي كيف لن نخاف من صاحب هذه القدرة الفائقة إن فعلنا السوء؟ وراجع دراسة الآية 63 من هذه السورة لمزيد من التوسّع.

لماذا سَنَلْتَزِمُ بفعل الصالح إن لم نخف من العقاب؟ وهذه النقطة "الخوف من العقاب" جدلية فيها الكثير من الاستذواق، قَدْ نتكلّم بمثالية متناسين الواقع ونتحدّث عن الإنسان الكامل الفاضل وأنه لا يفعل السوء، لأنه يكرهه أو يفكّر في تكوين مجتمع يضمن له السعادة عبر التزام الجميع بالفضيلة... وَنَسْأَلُ أنه حتى لو تمتّع بقدرات خارقة تحميه حتما من أي تبعات ستنتج عن قيامه بالأعمال السيئة، هَلْ هو لن يفعل السوء...؟ وحتى لو تأكّد بأنه سيفلت من العقاب هَلْ لن يفعل السوء؟ أرجوك أَلَّا تُجِيبَ عن هذه الأسئلة من تصورات خيالية مثالية وانظر لواقع حالنا...

إِنَّ القرآن يعرض مسألة التقوى والخوف معا، وَمَرَّاتٍ عديدة كان سياق كلامه عن تجنّب السيئات كتقوى نابعة مما زرعه تعالى فينا من كره للسوء والفساد، وتحدّث صراحة عن وجود قابلية فينا كلّنا وبشكل مُتَسَاوٍ متماثل حتى نكون مثاليين إن أردنا، ولكن واقع الحال ليس كذلك ولذلك تقرأ عن الاستغفار والتوبة...

عرض القرآن مسألة الخوف من العقاب الإلهي كدافع يجب أخذه في عين الاعتبار قبل فعلنا لأي شيء، وأخبرنا أن العقاب واقع لا محالة، مُسْتَنِداً بإقناعنا في ذلك على الآيات والرسل وكلامه تعالى في كتبه كأخبار ممن تبيّن لنا بكل وضوح أنه كلام الإله...

حين تقرأ عن "التابو" كسبب دافع للناس للإيمان بالإله، فهذا فعلا في جانب كبير منه صحيح، وَهَا صَرَاحَةُ ذلك مُنْتَشِرَةٌ في كلام الذي خلقنا بهكذا مشاعر.

أعود وأسألك: إن لم تكن الآيات الدالة على وقوعنا تحت قدرة قاهرة، والتي ركّزت عليها سورتنا هنا، وإن لم ينتج عنها تعلّق بقدرة فائقة يمكنها تغيير الظروف لمصلحتنا في حالة خوفنا من شيء ما، وإن لم يكن هذا دافعا للخوف من عقاب الإله، فما الذي سيجعله تعالى فينا بدلا من ذلك حتى نؤمن به نحن البشر ونطيعه؟ أخبرني قبل أن تخبرني بتحليلاتك عن عمق أسباب الإيمان عند البشر، مدّعيا أنه شعور الإنسان البدائي وأننا تطوّرنا وتحضّرنا ويجب أن نتخلّص من التبعية لهذا الشعور، وبالتالي يَجِبُ التخلص من الإيمان بإله، وَهَا هُوَ كلامه تعالى عن تصميمنا بهذه الخاصية كوسيلة لنتعرف عليه، فإن لم يكن الإله حقيقيا فَأَجِبْنَا عن خلق السماوات والأرض من صمّمها ومن خلقها ومن خلق مادة تكوينها ومن قرّر مصيرها... وكيف سيجعلنا نتعرّف عليه؟ وانتبه لأي اقتراح تقترحه حَيْثُ سَبَقَ واختارت السورة نماذج عن تلك الاقتراحات، فراجعها لترى كم هي سخيفة، وأنه تعالى لم يترك أَيَّ شيء معقول مقبول إلا وأمّنه لنا لنؤمن.

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ{82})
{الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين هم في حالة اعتقاد، والكلام عن الاعتقاد بهذا الدين الإلهي، {وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}، حَيْثُ لم يخلطوا إيمانهم بشيء لا حقّ فيه لدرجة يصير فيها الإيمان الحقيقي لا يتميّز عن بقية الاعتقادات الظالمة التي لا حق لنا بها، وَيَلْتَبِسُ بها، وَظُلْماً نعتقد بها، لِأَنَّ الإيمان واضح وصريح ومحبّب ومن الظلم أن تؤمن بشيء آخر، حَيْثُ ليس معك حقّ، {أُولَئِكَ}، المؤمنون بطريقة صحيحة، {لَهُمُ الْأَمْنُ}، حَيْثُ إِنَّهُ من ربهم سبحانه مستبعد أن يصيبهم ضرر، وَلن يصيبهم أي شيء مخيف أو سَيِّئٍ، {وَهُم مُّهْتَدُونَ}، هم على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، لِأَنَّ إيمانهم بإله واحد للجميع، أحد لا إله غيره أَصْلاً، هو إيمان صحيح، وَعَمَلِيّاً سيوصلهم إلى مرضاته تعالى والجنّة.

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ{83})
{وَتِلْكَ حُجَّتُنَا}، تلك الأمور التي تبرهن صحّة العقيدة التوحيدية، فهذا الكلام الذي يبيّن سخافة اختراع الآلهة المتعددة، ويبيّن أن الكوكب أو الصنم لَيْسَتْ آلهة، وأن التخويف من عقاب تلك الآلهة وهمي، بل معكوس، فالمشركون المخترعون للآلهة هم من يجب أن يَخَافُوا، وَهَذِهِ الحجج هذه الأدلة والبراهين والأجوبة، {آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ}، على الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع العقيدة وهو(ع) من جمعتهم، يعني حصل إبراهيم(ع) على هذه الحجج، وَالْبَرَاهِينِ، وَالْأَدِلَّةِ، ليقولها على قومه، حتى يُبَيِّنَ لهم أخطاءهم.

ربما تشعر من هذا الكلام أن وَحْياً نزل على إبراهيم(ع) وعلّمه هذه الأشياء، ولكن لا، فكما ترى من الآيات السابقة أَنَّهَا كُلَّهَا تتحدث عن حياة إنسان عادي، تَعَرَّفَ على ما يعبده الناس، ولكنه لم يَعْمَ قلبه، بل فكّر وحصلت لديه الحجج بأن هذه العبادة خطأ، وهذه هبة من الله تعالى موجودة مع إبراهيم(ع) ومعي ومعك ومع غيرنا، فهي نابعة من القلب السليم الذي جعله تعالى فينا سليما ينتج عنه حجج تدمّر الشرك، ويبقى سليما إلى أن نقرر نحن تسويده وَتَغْلِيفَهُ وطبعه بالشرك...

وَإِلَّا فما معنى إتيان إبراهيم من عنده تعالى شيئا لم يَأْتِ لقومه ليهتدوا؟ فلو كان الكلام على معنى أن إبراهيم صار مؤمنا ومقتنعا بالأدلة التي تزوّد بها لوحده من ربّه، فهذا ظلم لقومه الَّذِينَ سَيُطَالِبُونَهُ تعالى في يوم القيامة لأنه لم يتح لهم ما أتاحه لإبراهيم حتى يؤمنوا.

هَكَذَا ترى هذا المفهوم القرآني الراسخ كسنّة إلهية لا يميّز فيها تعالى بين عبيده من ناحية ما يستحقونه من معاملة بالتساوي لأنه تعالى اختار أَلَّا يكون ظالما معهم. وإن خطر ببالك تحديده تعالى سلفا لعيسى قبل أن يخلقه ليكون رسولا، وجعله يتكلم في المهد... فهذا واضح أنه من علمه تعالى بالغيب لما سيكون عليه عيسى من طهارة، فسواء نال عيسى العناية المميزة أم لم ينلها، فهو سيكون سليم القلب، وهذا من علمه تعالى بالغيب، فهل لو أنت وأنا وَلَدَتْنَا أمّنا بلا أب لكنّا أشدّ إيمانا؟ أو لو نطقنا في المهد لكنّا أشدّ إيمانا؟ خذ علما لو أني أنا تَأَيَّدْتُ بروح القدس لأتمكن من فعل أمور غير عادية، لما استطعت السيطرة على نفسي، فمن المحتمل أنه بدل أن يزيد إيماني كُنْتُ سأستغل القدرات لأمور فيها سوء، وهذا تراه جَلِيّاً في الكلام الشفّاف للنبي سليمان(ع) واصفا نفسه بالوقوع في بلوى امتلاك القدرات الخارقة وسيطرته على كائنات لديها قدرات خارقة، وتقرأ ذلك في الآية 40 من سورة النمل: {قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ

قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}.

نرجع للآية، {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ}، فمن بين الخيارات العديدة أمامه تعالى يقرر رفع هذا الإنسان أو ذاك، ومعلوم أنه تعالى قرّر رفع من اتّبع النور الذي جعله تعالى فينا.

لا تقصد الآيات أبدا أَنْ تَقُولَ إِنَّ إبراهيم(ع) اخْتَصَّهُ الله تعالى بالهداية وترك بقية الناس ضَالِّينَ، لِذَلِكَ تلاحظ طوال دراستنا للآيات هنا لم نقل: النبي إبراهيم(ع)، حتى تنتبه أنه لم يكن نبيا حين حصلت معه هذه الأمور، حَيْثُ لَمْ يَكُنِ الوحي ينزل عليه، بل كان مثلنا، ولكنه (ع) بسبب اتباعه لفكر ونفسية سليمة وصل إلى معرفة ربه سبحانه عبر النظر في الآيات من حوله، وسبحانه اختار رفع هذه النوعية من الناس، وَصَمَّمَنَا تعالى بحيث نزداد حكمة كلما ازددنا تمرسا على الفكر والنفسية السليمة، وهذه الحالة معاكسة لمن رأى الحق فخالفه، وتمرّس على ذلك حتى انطبع قلبه على الفساد فصار لا يقبل غيره.

{إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ}، إن المسؤول عنك من مستوى إلهي لا يعبث ولا يتسلّى وقراراته على الصوابية، فما تزوّدنا به كلنا من قابلية لنرتفع إيمانيا وتترجم عمليا بشكله المثالي في حالة إبراهيم، فهذا عمل صائب ومن الواضح أن من فعله لم يكن يعبث أو يلهو حين خلقنا وقرّر محاسبتنا...

وربك {عَلِيمٌ}، فيعلم كل شيء، فعن علم خلقنا هكذا بهذه الخاصيات والقابليات، مثلما نقول واصفين لعمل هندسي رائع أن الذي بناه عليم، فما نراه مما صمّمه وخلقه تعالى يدل على علمه الفائق سبحانه.

إذاً، لدينا إنسان رأى الآيات الإلهية، وبالخصوص منها ما يدل على أننا محكومون بقدرة قاهرة في تصميمنا وخلقتنا ومصير حياتنا... وَاتَّبَعَ فكره السليم، ووصل للدين الصحيح، وَارْتَفَعَ لدرجة عالية في الإيمان، وصار إبراهيم(ع) فيما بعد نبيا رسولا.

نَتَذَكَّرُ أَنَّ من محاور السورة حول الآيات الإلهية وأنها كافية لتوصل أي إنسان للإيمان الصحيح، وَهَا هِيَ ضربت لنا مثلا عن النبي إبراهيم(ع) الذي مما حوله ومما هو متاح لنا كلّنا وصل لأعلى الدرجات الإيمانية، بينما الآخرون بَعْضُهُمْ مهما جاءه من آيات ومهما كان نوعها فلن يؤمن! وأعود بك لبداية السورة في الآية 4 وما بعدها خلال السورة عن إنكار الآيات لتقارنها مع النموذج إبراهيم(ع) الذي آمن كنتيجة لما نسمّيه: اتّباع فطرته السليمة.

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{84})

{وَوَهَبْنَا لَهُ}، وأعطينا من دون أي مقابل للنبي إبراهيم(ع)، {إِسْحَاقَ}، ومن تكملة الجملة سترى أن الكلام هنا يشير إلى وَهْبِهِ وَلَداً صَالِحاً من الدرجة العالية، {وَيَعْقُوبَ}، ابْنَ إسحاق(ع) وأيضا كان حَفِيداً صَالِحاً من الدرجة العالية، {كُلًّا هَدَيْنَا}، حَيْثُ كُلَّ واحد منهما "إسحاق(ع) ويعقوب(ع)" وَضَعْنَاهُ على الشيء الصحيح الذي يوصله للغاية الصحيحة.

نَنْتَبِهُ للتركيز على تكرار كلمة الهداية في الآية، فهي تبيّن لنا أن نموذج اهتداء النبي إبراهيم(ع) عبر الآيات المنتشرة من حولنا، لم يكن حالة فريدة لواحد من البشر، لِأَنَّ هُنَاكَ غيره اهْتَدَى أَيْضاً، مع أن ظروف اهتدائهم كانت أفضل من الظروف التي اهتدى فيها النبي إبراهيم(ع)، حَيْثُ أَسَّسَ النبي إبراهيم(ع) عقيدة صحيحة وانتشرت ووصلت للناس وتعلّموها، لِذَلِكَ اهْتَدَى أبناؤه (ع) بشكل عام في محيط مُوَحِّدٍ...

{وَنُوحًا هَدَيْنَا}، وضعنا على الشيء الصحيح، {مِن قَبْلُ}، قبل النبي إبراهيم(ع) وذريته، ولا نعرف عن ظروف اهتداء النبي نوح (ع) إن كانت من الصفر كحالة النبي إبراهيم(ع) أم أن النبي نوح(ع) كان وَصَلَتْهُ العقيدة الصحيحة من نبي كان قبله، حَيْثُ مِنَ المشهور في التراث الديني التوراتي أن أباه وجدّه كانا من الأنبياء وَعَاصَرَهُمَا ... على كل حال، تريد الآية أن تبين أن النبي إبراهيم(ع) لم يكن الحالة الأولى من الاهتداء، حَيْثُ سَبَقَهُ النبي نوح(ع) إلى نفس المرتبة العالية جِدّاً ولذلك اختارته الآية عن بقية الأنبياء قبله وعن الأنبياء الذين بينه وبين النبي إبراهيم(ع).

{وَمِن ذُرِّيَّتِهِ}، وممن انفصل عن النبي نوح(ع) "بالولادة"، من أبناء النبي نوح(ع)، هدينا الأشخاص التالية أسماؤهم، وهم الأنبياء: داوود وابنه سليمان، وأيوب، ويوسف، وَالْأَخَوَيْنِ موسى وهارون عليهم السلام.

فلو لم يكن في الآية بعد التالية تسمية للنبي لوط(ع) لاحتملنا أن يكون المقصود ذرية النبي إبراهيم(ع) ولكن النبي لوط(ع) ليس من ذرية النبي إبراهيم(ع) بل من ذرية النبي نوح(ع)، وانتبه للخطأ الجسيم الذي وقع الكثيرون فيه عندما قالوا إنَّ النبي إبراهيم(ع) بالنسبة للنبي لوط(ع) كالأب لأنه ابن أخيه أو ابن أخته، ولذلك يمكن للآية أن تنسبه له، ولكنهم لم ينتبهوا أَنَّ كلمة ذرية ليست ككلمة أب، فيمكن أن تقول للعمّ أب، ولكنك لست من ذريته، وهنا الكلام عن ذُرِّيَّةٍ.

{وَكَذَٰلِكَ}، فهكذا بهدايتنا لهذه النماذج، فبهذه الطريقة، {نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}، حَيْثُ الَّذِينَ كان عملهم حَسَناً نجازيهم وَنُعْطِيهِمُ المقابل المعادل لإحسانهم، والكلام هنا عن هدايته تعالى لهم، وأنت تعلم أنه تعالى لم يَخْتَرْهُمْ عَشْوَائِيّاً من بيننا ليهديهم، بل بما جعله تعالى فيهم من قابلية للاهتداء، وبما اختاروه هم من اتباع الهدى، فهكذا جازاهم تعالى بوصولهم إلى الهدى من الدرجة العالية.

نفهمها بشكل أبسط إذا قارنّاها مع كلام عن قابلية في شيء، وغير متاح لها أن تتحقّق، وَلْنَقُلْ إِنَّهُ تعالى زرع فينا الفكر الذي يؤهلنا للتعرّف على الهداية عبر الآيات، ولكن الآيات كانت ناقصة ومنعت القابلية التي في فكرنا من الوصول إلى التعرّف عليه تعالى، أو الآيات كافية وممتازة في دلالتها ولكن القابلية الفكرية التي فينا غير قادرة على التعامل مع الآيات، وهكذا ترى العمق في وصف اهتداء هؤلاء بأنه مجازاة منه تعالى لهم على قرارهم باتباع فكرهم ونفسيتهم السليمة، لِأَنَّ الْأُمُورَ متعلقة بِبَعْضِهَا، فَمِنْ نَاحِيَةٍ هناك فكر فيه قابلية التعرف عليه تعالى إذا أتيحت له الآيات المناسبة، ومن ناحية ثانية الآيات المناسبة والكافية ليتعامل معها الفكر للتعرّف عليه تعالى.

لَاحِظْ أن الآيات لحد الآن لم تقل عن أي واحد منهم إِنَّهُ نبي، بل تحدّثت عن هدايته تعالى لهم، مع أنهم أنبياء كما سيأتي في الآيات، ولكن التركيز هو على اهْتِدَائِهِمْ بسبب فقههم للآيات التي جعلتهم يصلون لدرجة عالية من الإيمان وفيما بعد وصلهم نبأ منه تعالى، فنزل عليهم الوحي وصاروا يُوصَفُونَ بأنهم أنبياء.

لَاحَظْنَا ولاحظ غيرنا، أَنَّهُ ربما يوجد سبب لتقسيم الأنبياء في الآيات هنا، حَيْثُ لَمْ تَذْكُرْهُمُ الآيات بحسب ترتيبهم الزمني، ويصرّ عقلنا على البحث عن شيء مميز في تقسيم الآيات الثلاث للأنبياء، ولاحظنا ولاحظ غيرنا أَيْضاً أن هذه المجموعة ربما يجمع بينها أنها كانت تتمتع بملك مالي أو معنوي، حَيْثُ إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ داوود وسليمان ويوسف وموسى وهارون عليهم السلام كانوا حُكَّاماً، والنبي أيوب(ع) كان غَنِيّاً جِدّاً ولديه أملاك كثيرة، ولا ندري إن كان حَاكِماً... وسأذكر لك أنسب تصنيف للمجموعتين التاليتين، وَلَكِنِ اعْلَمْ أَنَّهُ كلام غير مُهِمٍّ، لأن الموضوع عن الهداية الإلهية عبر الآيات، وكل التصنيفات الْمُتَنَوِّعَةِ التي اقترحوها للآيات لم تذكر شَيْئاً له علاقة بموضوع السورة ولا بسياق الآيات، ولا حتى كانت التصنيفات مؤكدة، بل بقي فيها احتمالات... فأنت وشأنك إن أحببت أن تجد معنى لتقسيمهم عليهم السلام، ولكن يجب أن تجد التقسيم الذي له ارتباط بموضوع السورة بشكل عام، أَوْ مُرْتَبِطاً بالفقرة هنا.

بَقِيَ شيء، حَيْثُ عَادَةً نفهم كلام القرآن عن ذكر الأنبياء السابقين يشير إلى امتداد دينه تعالى تَارِيخِيّاً إلى الخلف، وهذا شيء تفتقده كل بقية الديانات التي ولا واحدة منها تملك هذا الامتداد السحيق لآلاف من السنين على نفس العقيدة بالضبط. أمّا هنا فالكلام عن الامتداد التاريخي من منظور آخر، لِأَنَّ الْكَلَامَ عن نماذج من البشر عبر التاريخ وصلوا للتعرّف عليه تعالى عبر الآيات، وهكذا ترى أن ما نسمّيه بدينه تعالى الممتد عبر التاريخ ما هو إلا وجه آخر للحالة الطبيعية البشرية لو حافظوا على سلامة قلوبهم، فكلهم من أول ما وصلت فيهم قابلية تمييز الخير من الشرّ إلى الحدّ الراقي الذي يميّزنا كبشر عن بقية الحيوانات، فلو اعتنوا بفعل ما يرونه حَسَناً وترك ما يرونه سَيِّئاً فهم على دينه تعالى من دون أي نزول لأي وحي على أي أحد.

هذا الكلام في غاية الأهمية، لأنه تعالى عبر قرآنه يلفت انتباهنا لذلك بتعابير متنوّعة، وَمَا يَبْدُو من القرآن كعرض علينا لدينه تعالى لنؤمن به، لَيْسَ الحالة الأصيلة، بل هو آخر الكلام معنا، والأساس القرآني دَائِماً هو عرض المعلومات التي يمكننا رؤيتها صحيحة بسبب أدلتها وحججها... لنؤمن بها، وعرض الأفعال الحسنة لنفعلها ولنترك السوء، فهذا هو دينه تعالى.

دَمْجاً لهذه المعلومات مع فحوى كلام الآيات هنا، يصير الكلام القرآني بالعمق عن تصميمه تعالى لنا وفينا ما يجعلنا نتعرّف على المعلومات الصحيحة عنه تعالى من دون أي وحي، وفينا ما يجعلنا نفعل الصالحات التي سنعرفها كلّها لوحدنا، وهو هذا نفسه ما يسمّى دينه تعالى، وهذا له امتداد تاريخي لآلاف من السنين بنماذج فريدة من البشر حافظوا على سلامة ما جعله تعالى فينا من فكر ونفسية، ووصلوا لأرقى الإيمان والعمل الصالح، وَهَا هِيَ تذكر لك الآيات هنا نماذج مشهورة منهم.

(وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ{85})
{وَزَكَرِيَّا} وابنه {يَحْيَى} عليهما السلام، {وَعِيسَى}(ع)، ولم يذكر القرآن إلا عيسى ابن مريم فالكلام هنا حَتْماً عنه، {وَإِلْيَاسَ} عليه السلام المدفون في لبنان في قرية النبي أيلا كما هو مشهور بين الناس، {كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ}، فَكُلُّ واحد منهم كان مَوْصُوفاً بالصلاح فِكْرِيّاً وَنَفْسِيّاً وَسُلُوكِيّاً.

لَاحَظَ غيرنا أن هذه المجموعة امتازت بالزهد، حَيْثُ لم تملك الثروات مثل مجموعة الأنبياء التي سبق ذكرها، ونلاحظ أن هذه المجموعة عاشت وتنقّلت في المنطقة الممتدة بين سوريا وَلُبْنَانَ وَفِلَسْطِينَ والأردن.

مِنَ المشهور عند أهل الكتاب أن لِاسْمِ النبي إلياس(ع) تصريفات أخرى كلّها تشير له: إيلي، إليا، إليجا، إلياس، أيلا. وفي سورة الصافات نجد اسمين له بالعربية: إلياس، إِلْ يَاسِينَ. وهذا النبي من المشهور بين الناس أن رسالته كانت في منطقة بعلبك التي في حينها كان الناس يعبدون الصنم بَعْلاً، وراجع في ذلك الآية 125 من سورة الصافات الناقلة لكلام النبي إلياس(ع): {أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ}.

(وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ{86})
{وَإِسْمَاعِيلَ}، ولم يذكر القرآن إلا إسماعيل ابْنَ النبي إبراهيم فهو حتما المقصود هنا، {وَالْيَسَعَ}، {وَيُونُسَ} المشهور بحادثة الحوت، {وَلُوطًا} المشهور بإبادة قومه، {وَكُلًّا}، وكل واحد منهم، {فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ}، حَيْثُ حَصَلُوا منه سبحانه على أمور جيدة وليست فَرْضاً وَاجِباً عليه تعالى أن يمنحها لهم، ولم يحصل عليها بقية الناس، وَيُمْكِنُكَ اختصار ما تفضّل به تعالى عليهم بأنه النبوة، ولكن سياق الكلام يشير لفضله تعالى عليهم بما أتاحه لهم من قابلية للإيمان عبر الآيات، وراجع في ذلك دراسة جملة {نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} في الآية ما قبل السابقة.

نُلَاحِظُ في محاولتنا لإيجاد شيء مشترك بين مجموعة الأنبياء هنا، نُلَاحِظُ معرفتنا أن النبي إسماعيل وَلُوطاً عليهما السلام كانا في بلد غريب، وقيل هذا عن النبي يونس(ع) وأما اليسع فلا نعرف عنه شَيْئاً في القرآن أو تراثنا الإسلامي سوى ما نقلوه عن التراث اليهودي، وأرجح الاحتمالات وأقواها بما لدي من مصادر يهودية أن يكون النبي الْيَسَعَ(ع) هو نفسه النبي إليشع(ع) المعاصر للنبي إلياس(ع).

لَاحَظَ الآخرون أن المشترك بين الأنبياء المذكورين في الآية هنا هو المحن الشديدة التي مروا بها... وعلى كل حال، لَا ما لاحظناه ولا ما لاحظه الآخرون له أي قيمة لتفسير الآيات، لأنها استخراجات لا تشير لها الآيات، ولا علاقة لها بموضوع السورة ولا بالفقرة، وإن كان هناك شيء للتقسيم فَلَا بد أَنْ يكون له علاقة بطريقة الاهتداء، عَبْرَ أيِّ آيات وبأي طريقة اهتدوا؟ ومع من تواجهوا حين اهتدوا...؟ لِأَنَّ هذا لبّ السورة وموضوع هذه الفقرة.

(وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{87})
هَدَيْنَا، {مِنْ آبَائِهِمْ}، من آباء هؤلاء الأنبياء، وَهَدَيْنَا مِنْ، {ذُرِّيَّاتِهِمْ}، من الذين انفصلوا عنهم "بالولادة أو بغيرها" وهم أَبْنَاؤُهُمْ، وَهَدَيْنَا مِنْ، {إِخْوَانِهِمْ}، حَيْثُ إِنَّ بعض إخوان الأنبياء كانوا من المهتدين.

{وَاجْتَبَيْنَاهُمْ}، فَاخْتَرْنَاهُمْ وجعلناهم مجموعة خاصة، فَهُمْ مجموعة أفضل المؤمنين.

{وَهَدَيْنَاهُمْ}، فَوَضَعْنَاهُمْ على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، {إِلَىٰ صِرَاطٍ}، إلى طريق إيماني أساسي، {مُّسْتَقِيمٍ}، يوصف بأنه على الأحسن فلا الْتِوَاءَ فيه ولا انحراف، حَيْثُ إِنَّ العقيدة سليمة، والشريعة سليمة...

(ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{88})
{ذَلِكَ}، الذي عليه الأشخاص الَّذِينَ ذكرتهم الآيات السابقة، هو، {هُدَى اللَّهِ}، هو الشيء الصحيح منه تعالى الذي يضع سبحانه الناس عليه ليصلوا إِلَى غاية صحيحة، وما يخالف ما عليه هؤلاء الأشخاص فليس هداه تعالى، وَليس من الله تعالى، بل حَتْماً ضلال. وَهَذِهِ النوعية تمثّل الهدى وَتمثّل الطريق الإلهي الصحيح.

التَّعْبِيرُ هنا بشكل واضح يعطيك معنى: هذا ما جعله تعالى فيكم من قابلية للوصول إلى المعرفة الصحيحة عبر الآيات التي أتاحها تعالى لكم، وَذلك هدى الله، المتمثل عَمَلِيّاً بالنماذج التي ذكرت لنا الآيات السابقة أسماءها.

الْكَلَامُ أَيْضاً يتضمن حصرية التعرّف عليه تعالى كإله واحد أحد كهدى صحيح، حَيْثُ تضيع عن الطريق، وتسأل لِيَدُلُّوكَ، حَيْثُ واحد يهديك أن تذهب على اليمين، والآخر يهديك أن تذهب إلى الشمال، ولست تعرف أي الطريقين يوصلك لهدفك، ولكن كلا الدلالتين هما هدى، مع العلم أن واحدة منها هي هداية للطريق الخطأ، لِأَنَّ هداية الله تعالى يوجد في مقابلها هداية الشيطان وهي نفسها هداية الشهوات والرغبات السيئة... ولكن الهداية التي تجعلنا على الطريق المستقيم "الحقّ والصلاح" هي هداية الله تعالى فقط.

{يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}، حَيْثُ إِنَّ أمامه تعالى خيارات عديدة ويقرّر سبحانه أَيّاً من عبيده، من الذين مفروض منهم طاعته، لِأَنَّهُ لَا أَحَدَ لديه قدرة ذاتية مستقلة عن قدرة الله تعالى، وَلَا أحد يصل إلى الاهتداء من دون أن يسمح له سبحانه بذلك، وَربما يتصور أحد ما أنه اهتدى لوحده، وأنه هو مميز لأنه بدون أي مساعدة اهتدى، لا، لِأَنَّ القدرة على التفكير التي هدتك، هي منه تعالى، والآيات التي اهتديت بسببها، أَيْضاً منه تعالى، وخلال ذلك أنت موصوف بأنك عبد التي على أَصْلِ معناها تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة وَهِيَ مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

بعبارة أبسط، بَعْضُ الناس يعتزّون بفكرهم الثاقب، ويعتبرون النتائج التي وصلوا إليها من تميّزهم الشخصي وكأنهم هم وهبوا لأنفسهم الفكر المتميّز، نعم هم فعّلوا وَنَشَّطُوا ما أتاحه تعالى لهم من فكر بشكل متميز عمّا فعّله وَنَشَّطَهُ
الآخرون، وهذا هو حجمهم الطبيعي، فمن آمن فعّل ونشّط قابلية الاستفادة من الآيات، وهذا شيء مميز ويمدحه تعالى، ولكن هذا هو الحجم الطبيعي، لِأَنَّ الكرسي لم يخلق تعالى فيه القابليات التي فينا، ولن تتوقع ولا بأي شكل أن تفاجئك الطاولة بتأليف كتاب، وهكذا تفهم أنه تعالى منحك ما يهديك، فهو الذي هداك إن أنت فعّلت ونشّطت ما يهديك، وهو تعالى أضلّك إن أنت اخترت تفعيل خاصية الإنكار المتوافرة فيك...

{وَلَوْ أَشْرَكُوا}، فهؤلاء الأشخاص لو قالوا إِنَّهُ يوجد آلهة متعددة، {لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، لِأَنَّهُمْ عملوا من الصالحات، وهذه أشياء لها قيمة وسبحانه يجازي عليها بالأجر، ولكن لو أشركوا به تعالى، لكانت أعمالهم حابطة أي تفقد قيمتها. فهم ليسوا استثناء عن غيرهم، كما نقول بالدارج: ليس عليهم خيمة زرقاء، لِأَنَّ مثلنا مثلهم وَلو أشركوا لذهب التميّز عنهم ولتبخّر كل عمل حسن قاموا به وَلن ينالوا عليه ولا حسنة منه تعالى.

(أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ{89})
{أُولَئِكَ}، الأشخاص الذين ذكرناهم وذكرنا أقرباءهم، هم، {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ}، فَصَارَ عندهم كِتَابٌ منه تعالى، كالتوراة والإنجيل والصحف... ويمكن أن يكون الكلام بالمجمل حَيْثُ إِنَّ بَعْضَهُمْ نزل عليه كتاب، وربما يكون بالمفصّل حَيْثُ نَزَلَ فِعْلًا على كل واحد منهم كتاب، وليس بالضرورة أن يكون كالتوراة والإنجيل والقرآن، وعادة في هذه الحالة نسميها: صحف الأنبياء. كما ورد توصيف كهذا في الآية 19 من سورة الأعلى: {صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ}...

وَآتَيْنَاهُمْ، {الْحُكْمَ}، حَيْثُ كانوا يرون الأمور بصوابية، وَصَارَتْ قراراتهم وأفعالهم وأقوالهم حكيمة لا عبث ولا عشوائية فيها.

وَآتَيْنَاهُمْ، {النُّبُوَّةَ}، حَيْثُ صار يصلهم النبأ منه تعالى، وَيَنْزِلُ عليهم الوحي بأخبار عن أمور عِلْمُهَا غير منتشر بين الناس. وكما تعلم إِنَّ النبوة وظيفة إلهية وفي نفس الوقت تصير عُنْوَاناً يدل على رقي إيمان من توظّف بها.

{فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ}، حَيْثُ عاد الكلام للذين أنكروا ما يقوله لهم الرسول محمّد(ع) عبر هذا القرآن، وبالخصوص كان الكلام مع المشركين الذين لم يؤمنوا بالآيات الإلهية وبالتالي لم يؤمنوا بالتوحيد ولا بالرسول(ع)... أَمَّا أُولَئِكَ النماذج آمنوا... وهؤلاء إن أنكروا الآيات والكتب والحكمة والنبوة لِهَؤُلَاءِ الأشخاص، {فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا}، حَيْثُ جعلنا الإيمان بهذه الأمور على عاتق، {قَوْمًا}، أناس لهم كِيَانُ الجماعة المتفاعلة مع الآيات، {لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ}، وَلَنْ ينكروها.

بعبارة أخرى، إذا قال أحدهم: هذا المخطط الإلهي لنؤمن بالآيات وبأشخاص مهتدين حملوا رسالة الإله إلينا، إِنَّهُ مخطط غير ناجح، لأن غالبية الناس كفروا بها. فتجيبه الآية بأنه لا مشكلة إن كفر بها هؤلاء القوم الذين يفكّرون بهذه الطريقة، لأنه يوجد أقوام آخرون عقليتهم سليمة، وسيؤمنون بهؤلاء الأشخاص، وسيهتدون بهداهم.

من القرآن نفهم أنه حتى لو كان شخص واحد سيهتدي، وسيكفر المليارات من الناس، لا مشكلة، لأن النجاح والفشل ليس في المخطط الإلهي، بل النجاح لمن آمن ولو كان وَاحِداً، والفشل لمن كفر ولو كانوا كل الناس، النجاح في المخطط الإلهي هو أن يخلقنا ويهدينا الطريقين، مُبَيِّناً لنا طريق الهدى وطريق الضلال، فقط، وهذا حَصَلَ ولا مشكلة فيه، وَهَا هُمْ أمامك نماذج نجحت نَجَاحاً بَاهِراً في الإيمان العالي، وسيأتي آخرون مؤمنون أيضا...

(أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ{90})

{أُولَٰئِكَ}، المهتدون "الأنبياء"، {الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ}، حَيْثُ وَضَعَهُمْ تعالى على الشيء الصحيح، وَلم يهدهم الشيطان ولا ضللتهم الشهوات... {فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ}، لِيَكُنِ الهدى الذي مشوا عليه قدوة لك، وَقَلِّدْهُمْ فيما هم عليه.

لَا تقصد الآية أن يقوم النبي(ع) بتقليد هؤلاء الأنبياء في أفعالهم، بل أن يكون الهدى الذي مشوا عليه قدوة له، وَلَا يختار هدى آخر، بل على نفس الطريق الذي يصله عبر الوحي كما وصل لهم.

{قُلْ}، للناس عبر هذا القرآن، متّبعا هدى من سبقك من الأنبياء:

{لَا أَسْأَلُكُمْ}، لا أعبّر لكم عن إِرَادَتِي لشيء منكم، {عَلَيْهِ}، على تبليغي الرسالة لكم، {أَجْرًا}، وَلَا أطلب مِنْكُمْ أن تعطوني ما تُحَدِّدُونَهُ أو أُحَدِّدُهُ أنا كقيمة بدل قيامي بتبليغ الرسالة... لِأَنَّ الأنبياء من قبلي لم يطلبوا أَجْراً، وها أنا على هداهم ولا أطلب أَجْراً على تبليغي للرسالة الإلهية لكم.

{إِنْ هُوَ}، حَيْثُ إِنَّ الرسالة التي أحملها لكم ما هي، {إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ}، لِأَنَّهَا شيء يجعل كل الناس يتذكّرون وَيَسْتَحْضِرُونَ ربهم سبحانه وأوامره وآخرته، وهذا شيء من غير المفروض أن يكون عليه أَجْرٌ مَالِيٌّ منكم.

النَّبِيُّ(ع) حامل للرسالة من جانب، وقائد من جانب آخر، وَلَا يأخذ أجرة على تبليغ الرسالة، ولكن كقائد يصرف كل وقته في إدارة شؤون الناس، يَأْخُذُ من بيت مال المسلمين مثلما يأخذ أي موظّف آخر، حَيْثُ مَاتَ(ع) ولم يترك خلفه مَالاً كَثِيراً ولا كَنْزاً، ولا أَمْلَاكاً شاسعة ولا قصورا، بل ترك بيوتا عادية جدا جدا، وماشية "حيوانات أليفة" مثل أوسط الناس معيشة. وَبِمُقَارَنَةٍ بين ما يفعله الملوك والرؤساء ستعرف الفرق بين ما حصل عليه النبي(ع) وبينهم، عِلْماً أَنَّ الأموال الطائلة كانت بمتناول يده(ع) ولكنه أخذ قسمته فقط كبقية المسلمين.

بِمُرَاجَعَةِ التاريخ "روايات ضعيفة لأنها تحليلية أكثر من كونها ناقلة للواقع كما يقولون"، سترى أن الخليفة الأول أَبَا بَكْرٍ التزم بما كان يتقاضاه الرسول(ع) كَأَجْرٍ على تفرّغه للشؤون العامّة للناس، وخلافته لم تصل لثلاث سنوات وخلالها عانى من الْأَجْرِ القليل! وبضغط من الصحابة رفع الْأَجْرَ لنفسه من سبعة التي كان يتقاضاها الرسول(ع) إلى ثمانية، سواء صدقت هذه الروايات أم لا، وسواء كان الرسول يصرف من الخمس والفيء، فَيُمْكِنُكَ من هذا النموذج "أجر الخليفة الأول" أن ترى أنه (ع) لَمْ يُخَصِّصْ نفسه إلا بأجرة "أو من الفيء" إلا لتوليه شؤون المسلمين، وليس على تبليغ الرسالة.

{وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ {91}

نكمل مع الذين كفروا ولم يقتدوا بالأنبياء والرسل: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ}، حَيْثُ لَمْ يُعْطُوا القيمة والمكانة لله تعالى، {حَقَّ قَدْرِهِ}، بالشكل الموافق لقدره "لِقِيمَتِهِ لِمَكَانَتِهِ" عزّ وجلّ، بل أعطوه عزّ وجلّ "قيمة ومكانة" أقل من حقيقتها، {إِذْ قَالُوا}، حين قالوا: {مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ}، حَيْثُ لَمْ يُنَزِّلْ أَيَّ شيء نهائيا من عند الله تعالى على أيِّ بَشَرِيٍّ، فالذين يقولون إِنَّهُمْ أنبياء ورسل هم كاذبون.

لَيْسَ من الأدب القول عنه تعالى إنه خلق البشر وتركهم ولم ينزل عليهم كتابا لهدايتهم وَيُوَضِّحَ لهم لماذا هم مخلوقون، وما هي واجباتهم، وأين سيذهبون؟ ويقوّم لهم ويصوّب لهم النظرة للأمور ليروا الهدى للحق والصلاح... فهذا القول قلّة أدب وقلة احترام للعظمة والحكمة الإلهية.

بعبارة أخرى، إن كانت الآلهة التي اخترعتموها لم تنزل لكم كتبا، فهل تساوون الله تعالى بآلهتكم الوهمية! لِأَنَّ الإله العظيم يهتم بهداية مخلوقاته للحقّ والصلاح...

عَطْفاً على بداية السورة التي نقلت اقتراح البعض منهم أن ينزل ملك يؤكّد أَنَّ مُحَمَّداً رسول إلهي، ترى هنا جانبا آخر لتوضيح المسألة، وجاء بعد مقدمة أضاءت على وصول بعض الناس إلى مرتبة عالية من الإيمان، وأبرزهم النموذج إبراهيم، وصاروا مؤهلين لتلقّي الوحي الإلهي ولنزول كتب إلهية عليهم، وليكونوا رسله تعالى للناس، فهذا ما شاءه "مخططه" تعالى لهدايتنا، أمّا ترك الناس بلا رسول فسيكون استهتارا منه تعالى بعبيده، وهذا ليس من أوصافه تعالى...

{قُلْ}، لهؤلاء المنكرين للآيات ولهذا القرآن والمنكرين للكتب التي قبله: {مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ} "التوراة" {الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ}(ع)؟ {نُورًا}، ليس ظُلُمَاتٍ وعَمْيَاءَ بل يضيء، والكتاب، {وَهُدًى لِّلنَّاسِ}، ويضعهم على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة. حَيْثُ إِنَّ هُنَاكَ كِتَاباً مشهورا جدا بين الناس نَزَلَ على النبي موسى(ع)، وحصل ذلك من آلاف السنين، ولذلك الكتاب صفات النور والهداية فمن أنزله في حينها؟ هل آلهتكم أنزلته أم اخترعه النبي موسى(ع)... أم... ماذا تجيبون أيها القائلون إنه تعالى لم ينزل أي شيء؟

{تَجْعَلُونَهُ}، الكتاب الذي نزل على النبي موسى(ع)، {قَرَاطِيسَ}، وتكتبونه على أوراق أو جلود متعددة، {تُبْدُونَهَا}، تظهرون، بعض تلك القراطيس، {وَتُخْفُونَ}، تسترون عن الناس، {كَثِيرًا}، من تلك القراطيس... حَيْثُ نجد الآن في التوراة قصصا عن تاريخ بني إسرائيل أكثر بكثير مما نجد من مواعظ إيمانية وترغيب بالجنة أو ترهيب من النار!
حتى تكاد لا تلاحظ فيها أي حديث عن الجنة والنار ويوم القيامة! لِأَنَّهَا نوادر! بعكس ما نجده منتشرا بكثرة في القرآن، ومن الأكيد أن هذه أمور نماذج عمّا لم يعجبهم من التَّوْرَاةِ فأخفوها.

لَاحِظْ أَنَّهُ من بين الكتب العديدة التي نزلت اخْتَارَ سبحانه لفت انتباهنا للتوراة لأنها مثل القرآن كتاب شامل فيه التشريع والعقيدة والسلوكيات والنظرة الإلهية للدنيا والآخرة.

حَسَناً، حين تحدّثت الآيات السابقة عن المنكرين للآيات للأنبياء للرسل للحكمة للكتاب والاقتداء بهم... ذهب فكرنا إلى المشركين فقط، ولكن هنا الآية تبين أن الحديث أعمّ من ذلك، فالحديث مع الجميع، عن المشركين وعن الأشخاص الذين ظاهرهم متدين، ولكن في الحقيقة هم مثل المشركين لم يؤمنوا بالتوراة ككتاب نازل من عنده تعالى فتلاعبوا به.
وكلاهما نفس الشيء، حَيْثُ إِنَّ قِسْماً أنكروا الكتاب علنا فهم مشركون علنا، وقسم أنكره سرا فهم ظاهرهم مؤمن وباطنهم كافر، حَيْثُ وصل إليهم الكتاب الذي نزل على النبي موسى(ع)، ولكنهم ولأسباب عديدة، جَعَلُوا الكتاب مقسما على قراطيس، وأخفوا القراطيس التي فيها المعلومات التي أنكروها! فالذي لم يعجبهم أخفوه عن الناس! وهنا الآية تقول عنهم إنهم لم يؤمنوا بأن الكتاب نازل من عند الله تعالى، وإلا لتركوه كما هو ولم يخفوا منه أي شيء.

{وَعُلِّمْتُم}، وعلمّكم تعالى عبر ذلك الكتاب "التوراة"، {مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ}، لِأَنَّ الكتاب كان يدل على نفسه بأنه من الله تعالى، حَيْثُ فيه أشياء لم يكن يعلمها النبي موسى(ع) ولا أنتم ولا آباؤكم يا عامّة الناس، ولا أنتم ولا آباؤكم أيها المنكرون للكتاب الإلهي، فإن لم تكونوا تعلمونها، فمن أين جاءت؟ وبالتأكيد نزلت من الله تعالى، فلماذا جماعة منكم كفرت بها علنا، وجماعة أخرى كفرت بها فأخفت قسما منها؟ فبأي حجّة أنكرتم أنها كتاب إلهي نزل على النبي

موسى(ع)؟ وبأي جرأة تقولون إنه تعالى ترك عباده ولم ينزّل عليهم كتاب هداية؟ هذه قلة أدب وقلة تقدير لربكم سبحانه.

الآية تقول: أنتم تقولون لم ينزل منه تعالى أي شيء. والردّ عليكم أنكم أنتم بعقلية الكفر هذه لكم امتداد تاريخي، لقد نزل كتاب في السابق من آلاف السنين، وهو مشهور جدا، وأناس من عقليتكم "لا يريدون أن يؤمنوا" عَمِلُوا على إخفاء معلومات مهمّة من الكتاب الإلهي، علما أنه كان مصدرا مهمّا جدا جدا لأمور تجهلونها في التشريع وقوانين الحياة واستفاد الناس منها كثيرا...

{قُلِ اللَّهُ}، لِأَنَّهُ أنزل الكتاب وعلّمكم، {ثُمَّ ذَرْهُمْ}، انفصل واترك هذه النوعية من الناس ولا تهتمّ بهم، واتركهم، {فِي خَوْضِهِمْ}، في دخولهم بالأمور الدينية، واتركهم، {يَلْعَبُونَ}، يتسلون لتمضية وقتهم، وحين يبدو لك أنهم مهتمون بدخولهم بالكلام عن الدين خذ علما أنهم يلعبون والحقّ والصواب ليس من اهتماماتهم.

حَسَناً، لقد قرأنا كيف شملت الآية المشركين المنكرين للكتب الإلهية علنا، مع المتدينين الَّذِينَ في الحقيقة هم منكرون للكتاب الإلهي، وفهمنا أن هذه النوعية من الناس أخطؤوا في تقدير الله تعالى، لِأَنَّ الكتاب الذي أنكروه هو منه تعالى، وهم أنكروا قيمة الكتاب وبذلك أخطؤوا في تقدير قيمة الذي نزّل الكتاب.

بعبارة أخرى، سبحانه نزّل كتابا فيه معلومات لا يعرفها الناس، وفيه عقائد وتشريعات ربانية، والكتاب يحمل قيمة الذي انزله، وعندما أنكر هؤلاء قيمة الكتاب أَنْكَرُوا قيمة من أنزله، وبعبارة مبسطّة: الله تعالى ألّف التوراة، ومن قرأها واستسخفها ولم يحترمها قَلَّلَ من قيمة الذي كتبها، وهذا شيء لن يمر من دون عقاب، ونفس الكلام يقال عمّن لم يؤمن بهذا القرآن أنه من مصدر إلهي، فمن ناحيتك قل: الله. ومن ناحيتك اكتفِ بالله تعالى واعلم أنه معك ويراقب وسيعاقب... واتركهم فيما دخلوا فيه من الإنكار للقيمة الإلهية.

لَاحِظْ أن الآيات الثلاث التالية ستكمل الحديث عن الكتاب والوحي... وبعدها سترجع لمن لم يقدّر الله تعالى حق قدره، ولمن قدّره تعالى، لتبين له الآيات التي من حولنا، فيصير الكتاب "التوراة، والقرآن..." مساويا في قيمته للآيات التي فينا وحولنا... وستلاحظ ذلك بعد بِضْعِ آيات.

الآية ضمنا تريد لفت انتباهنا إلى أن محتوى التوراة والقرآن يدل على أنهما إلهيان، والقرآن أشار كثيرا لهذه النقطة، لِأَنَّ المحتوى هو الدليل على إلهية مصدرهما، أما البلاغة والنظم والنسق... إنما هي أمور ثانوية ناتجة عن القدرة العالية للإله عندما استعمل لغة البشر لتأليف كتاب.

لا تقارن بين تحريف التوراة وبين القرآن، لأن تحريف التوراة وصل إلى حد إعادة صياغة الكلام الإلهي بكلام بشر وشبه فقدان للنص الإلهي الأصلي، أمّا الخزعبلات التي جرت حول القرآن، من قول البعض عن أخطاء إملائية أو قِرَاءَاتٍ مختلفة... إنما هي زوبعة في فنجان، إِذْ إِنَّ قراءة حفص عن عاصم لم تكن قراءة لحفص في مقابل بقية القرّاء، بل كانت قراءة جمهور المسلمين وبقية الْقِرَاءَاتِ هي الشواذ الَّتِي لم يكن معتمدا في المدن الإسلامية الرئيسية، لقد وصلنا القرآن سماعا من جيل لجيل كما هو وكان اختيار مؤلفي الكتب لحفص الناقل للقراءة من الفم للأذن، كان كممثّل عن قراءة جمهور المسلمين، ولكن للأسف انطمس ذلك بسبب سذاجة الكثيرين الذين غرقوا فيما يسمونه بعلم الْقِرَاءَاتِ غافلين عن سوء ما يفعلونه.

بَقِيَ شيء ننتبه له لتكرره في القرآن، حَيْثُ كثيرا ما نشعر وكأن السورة قفزت من موضوع لآخر، حيث هنا كان الكلام السابق عن المشركين، وقفزت السورة لتتحدّث عن النبي إبراهيم(ع) ورأيت أنها لم تقفز بل انتقلت لتذكر نموذجا بارزا عن القلب السليم الواصل لتوحيده تعالى... وبعدها اختياره ليكون نبيا... وهنا ربما تراها قفزت عن المشركين للكلام عن محرفي التوراة، لا، هذا ليس قفزا بل تكرّر في القرآن كلما كان هناك شبه في شيء ما بين سلوك المشركين والكفار مع أهل الكتاب، وترى ذلك في مختلف السور حين يكون الكلام عن اختراع المشركين لتشريع ما وتقارنه السورة بالشبه مع أهل الكتاب حين اخترعوا تشريعا ما مخالفا لتشريعاته تعالى... أو حين اتخذ المشركون من دونه تعالى أربابا واتخذ أهل الكتاب قدّيسهم أربابا...

يعني سبحانه يطرح الأمور بشفافية كما هي، فإن كان الكلام عن سوء فعله الكافرون، والمنتمون لدينه تعالى لديهم نفس المشكلة، فسترى القرآن يذكر أهل الكتاب ويذكر مشكلتهم المشابهة لمشكلة الكافرين، مثلما هنا سياق الكلام عن الكفر بالآيات وصولا إلى إنكار الكافرين للكتاب الإلهي، حَيْثُ إِنَّ نفس المشكلة عند بعض أهل الكتاب الذين لم يقدروا كلامه تعالى حقّ قدره فتلاعبوا به وحرّفوه وأخفوا أشياء منه.

بَقِيَ شيء تشير إليه الآية، بمقارنة سريعة بين ما قدّمته التوراة للبشرية منذ آلاف السنين من عقيدة وشريعة وسلوكيات، وهي نفسها التي يقدمها هذا القرآن، قارن ذلك مع شرائع الناس قديما، وسترى الفرق الهائل بين صلاح وعقلانية واضحة في كلامه تعالى وبين فساد عموم تشريعات الناس فيما بينهم وفي دولتهم.

في عصرنا صار للتشريعات مدارس، وعلى المستوى النظري يمكن البحث عن التشريعات المثالية، وبدراسة تاريخية سريعة سترى القيمة غير العادية التي قدمتها التوراة للبشرية كدافع نحو توجيه سنّ القوانين على قواعد الخير والصلاح.

الكلام عن قدره تعالى هنا في الآية وَالْإِشَارَةِ للتوراة، يشير ضمنا للقيمة العالية جدا لكلامه تعالى الصافي حقا وصلاحا، ولولا ما فعله الناس من تلاعب بِـالتَّوْرَاةِ لكان ذلك أوضح للجميع مثلما هو واضح في هذا القرآن.

(وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ{92})
تَعْقِيباً على الحديث عن الكتاب "الإلهي" الذي نزل على النبي موسى(ع) منذ آلاف السنين كدليل ملموس على تأمينه تعالى وسيلة للهداية...:

{وَهَذَا كِتَابٌ}، القرآن، {أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ}، فكل ما فيه هو خير وموافقون وراضون عن محتواه، حَيْثُ نال المباركة الإلهية التي تدل على أنه تعالى رَاضٍ عن محتواه ففيه الخير. وهذا شيء بديهي لأن القرآن من تأليف إلهي، وسبحانه صفاته حسنى فسيصدر عنه ما هو مبارك.

وهذا الكتاب، {مُصَدِّقُ}، يؤكّد ولا يكذّب، {الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ}، حَيْثُ إِنَّ ما أمامه من الكتب التي سبق ونزلت فهو يؤكّد أنها مثله من نفس المصدر وَلا ينفيها، وَلا يقول عن التوراة والإنجيل أَنَّهُمَا لَمْ تَنْزِلَا من عند الله تعالى، ولا يقول إِنَّهُ دين جديد ولا يقول إِنَّهُ من مصدر غير مصدرهما... بل يؤكد أَنَّهُمَا وهو من نفس المصدر وأنه امتداد لهما.

وَرَدَ في القرآن عدة مرات أنه مُصَدِّقٌ للكتب التي سبقته، وهذا لا يعني أبدا أنه يعترف بصحة كل محتواها، لا، إنما يشير فقط لموضوع أصل نزولها منه تعالى، إِذْ إِنَّ القرآن يؤكد أَنَّهَا "قبل التحريف والتلاعب" كانت كتبا نزلت منه تعالى ويؤكد أَنَّهُ امتداد لها.

وهذا الكتاب، {وَلِتُنْذِرَ}، لتنقل الخبر السَّيِّئَ لمن توافرت فيه شروط حصول عقاب إلهي له، {أُمَّ الْقُرَى}، القرية الأم، ومعلوم من التاريخ المشهور جدا أن سياق الكلام عن مكّة، حَيْثُ إِنَّ القرية هي أي مجتمع من الناس، ومكة مكان أساسي لاجتماع الناس، ولأن فيها الكعبة التي يَقْصِدُهَا الناس بأعداد كبيرة للحجّ وأنت تعلم أن العرب وحتى المشركين منهم كانوا يحجّون إليها، فصارت قرية أساسية ويتبع لها قرى أخرى، وَلتنذر، {مَنْ حَوْلَهَا}، حول مكّة من القرى، فتنذرهم من العقاب الإلهي على مخالفة أوامره تعالى.

أَنْتَ تعلم أن النبي مُحَمَّداً(ع) كشخص، لا يمكنه إنذار كل العالم، فحياته محدودة والمهمّة تحتاج وقتا طويلا لشخص واحد، فلا تسعه حياته للتنقّل بين كل مجتمعات الأرض لإنذارهم، فمن الطبيعي أن يكون تكليفه بإنذار القرية الرئيسية مكّة، والقرى التي تجاورها، أمّا الرسالة التي حملها (ع) وهي القرآن فهو كتاب إلهي، ينذر كل البشر على كل الأرض، وَالرسالة لكل الناس، والرسول(ع) لكل الناس، ولكن كونه رَسُولاً من البشر فإمكانياته محدودة بإنذار من حوله، وهذا بديهي لم تتخطاه الآية بل ذكرته كما هو، وكمثال عَلَى أنه (ع) رسول إلهي لكل الناس ما ورد صراحة في الآية 28 من سورة سبأ {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}. وغيرها العديد من الآيات التي قالت إِنَّهُ رسول للعالمين...

{وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ}، الذين لديهم اعتقاد بأنه تُوجَدُ حياة ستأتي في الْآخِرَةِ بعد انتهاء الحياة الأولى، {يُؤْمِنُونَ بِهِ}، يعتقدون بأن هذا القرآن كتاب إلهي، إِذْ إِنَّ كل من أنكر الكتب الإلهية فهو منكر للآخرة، وَلو آمن بالآخرة لخاف من العقاب، وبما أنه غير خائف من العقاب فلا مشكلة عنده من إنكار الكتب الإلهية، فهو لا يجد دافعا للإيمان بها حتى لا يلتزم بها.

{وَهُمْ}، المؤمنون بالآخرة، {عَلَى صَلَاتِهِمْ}، على التوجّه، وطبعا المقصود التوجّه إلى الله تعالى بالذكر، {يُحَافِظُونَ}، وَلا يفرّطون بها، ولا يغفلون عنها، وَيقيمونها في أوقاتها وعلى الشكل المناسب الصحيح.

عِنْدَ الحديث عن الصلاة يذهب فكرنا للكلمات والحركات والْأَذَانِ والوضوء... صَحِيحٌ أن هذه هي الصلاة الواجبة، ولكن التعابير القرآنية عن الصلاة تقصد شيئا أعم، حَيْثُ إِنَّهَا تقصد التوجّه إليه تعالى، وَالمعنى الفارغ الظاهري المجرّد عن الخشوع لكلمة صلاة الذي اعتدنا عليه، لأنها صارت تعني مجرد كلمات وحركات، هُوَ غير صحيح، فمن آمن بالآخرة وآمن بالكتاب يحافظ على التَّوَجُّهِ لله تعالى بالشكل الصحيح من التوجّه نحو القبلة والتوقيت والوضوء والقراءة... حَيْثُ إِنَّ الصلاة تتضمّن التوجّه نحو القبلة وليس هذا هو معنى التوجّه الذي يقصده القرآن، بل الأصل في الكلام هو التوجّه نحوه تعالى، بذكره والتعبير عن حمده وتقديره عبر كلام وحركات. وَليس الهدف منها القيام بالكلام والحركات، بل الهدف الِاتِّصَافُ بالصلاة، أي التوجّه إليه تعالى.

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ{93})
نكمل الحديث عن الكتاب الإلهي الذي هو آية لم يؤمن بها بعض الناس:

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}؟ إِنْ كان هناك أَحَدٌ مَا فعل شيئاً لم يكن معه حقّ بفعله، ظُلْماً فعله، هَلْ يوجد ظلم أكبر من اختراع شيء غير صحيح والقول بأنه إلهي؟ وتكملة الجملة عن قولهم إِنَّ مُحَمَّداً ألّف القرآن ونسبه لله تعالى، ويقصدون أَنَّهُ سبحانه أصلا لم يقل هذا الكلام المذكور في القرآن. خذ مثلا قولي عنك أنك قلت "لي" عن اكتشافك لدواء ما. إِنْ لم تكن قلت "لي" ذلك، فأنا أفتري عليك، وإن كنت لم تكتشف الدواء، فأنا أفتري عليك كاذبا، حَيْثُ ألصق بك "أفتري" شيئا غير صحيح "كاذبا". لَوْ كنت اكتشفت الدواء فعلا عندها أَكُونُ مفتريا عليك فقط ولست كاذبا، لأنك فِعْلاً اكتشفت الدواء ولكنك لم تقل ذلك لي، حَيْثُ إِنَّ افترائي عليك غير كاذب عند مقارنته مع الواقع. هنا هم يقولون إِنَّ محمّدا(ع) يفتري الكذب، يَقْصِدُونَ أَنَّ ما في القرآن من أقوال أصلا لم يقلها سبحانه حَيْثُ إِنَّهَا منسوبة له "مفتراة عليه" تعالى كذبا.

{أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ}، من أظلم ممن قال: {أُوحِيَ إِلَيَّ}، نَزَلَ عليّ وحي إلهي، نزلت المعلومات إلى فكري من الإله، {وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ}، حَيْثُ في الحقيقة لم ينزل على فكره من الإله سبحانه أي معلومات، فهل يوجد أحد يوصف بأنه ليس معه حق ولا منصف ولا عادل أكثر ممن ادَّعَى أَنَّ الوحي يصله منه تعالى؟

{وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ}، مِثْلَمَا يقول الأنبياء إِنَّ كَلَاماً من الله تعالى ينزل عليهم، مِنْ آلهتي سأقوم بإنزال كتاب مثلما يقول محمّد إِنَّ إلهه أنزل عليه كِتَاباً.

نحن كمؤمنين نعرف أنه لن ينزل أي شيء من إله ما من غير الله تعالى لأنه لا إله إلا الله، ولكن هناك نوعية خَرِفَةٌ خرقاء حمقاء من الناس، تؤمن بآلهة من أوهامها، وتؤمن أَنَّ آلهتها ستنزّل عليهم كتابا لتثبت أنها آلهة كردّ على كتاب نزل من إله محمّد، وهذا لن يحصل، ولم يحصل.

نحن الْمُؤْمِنِينَ العاديين يمر على بالنا خطرات شيطانية تجعلنا نظن أننا مؤمنون كاملون وَوصلنا لدرجة عالية مساوية لدرجة الأنبياء! في لحظة ما نشعر بأننا وصلنا لدرجة تجعلنا مؤهلين للتواصل مع الملائكة(ع) مثلما كان الأنبياء يتواصلون! صحيح أن القرآن يخبرنا عن تواصل بين الملائكة(ع) والمؤمنين بشكل من الأشكال، ولكنه لا يصل ولن يصل إلى درجة الوحي النبوي، وبهذا ألفت انتباهك إلى غير المؤمنين والذين يَخْطُرُ ببالهم ما لا يمكن أن تصدقه، فهنا

الآية تشير إلى نوعية منهم يعتقدون بأنه إن كان فعلا يوجد وحي وكتب تنزل منه تعالى، فأنا يمكنني أن أجد الطريقة لأجعل كتابا ينزل عليّ من السماء، فهذا ما يَقُولُهُ البعض منهم وتنقله الآية.

بِكَلَامِ السورة عن النماذج التي جعلها تعالى أنبياء، صرت تعلم بالمواصفات العالية المطلوبة ليتأهل إنسان ما لتلقّي الوحي الإلهي، ومن الواضح أن المشركين فقدوا أبسط تلك المؤهلات، لِأَنَّهُمْ يؤمنون بآلهة هم اخترعوها!

{وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ}، ولو حصلت لديك صورة محدّدة عن الذين لم يكن معهم حقّ، وَلم يكونوا عادلين ولا منصفين حين افتروا وأَنْكَرُوا ولم يقدروه تعالى حقّ قدره، فأنت الآن تراهم أمامك في الحياة، لَوْ أنك تراهم، {فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ}، يغمرهم يغطيهم الموت، لَوْ تراهم حين يَكُونُونَ أمواتا مُتَلَبِّسِينَ بحالة فقدان الحياة وبدؤوا باستعادة وعيهم، {وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ}، مادّون أيديهم إلى الظالمين ليتناولوهم حين يعودون تماما إلى الحياة، وتقول الملائكة(ع):

{أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ}، كُنْتُمْ في غمرات الموت، والآن حان وقت رجوعكم إلى الحياة الآخرة، أخرجوا أنفسكم، هيا انهضوا من حالة الموت. بعبارة بسيطة: هيا استيقظوا. هيا قوموا.

إِذَا تذكّرنا الصيحة التي تصدر من الصور، وجمعناها مع الآية هنا، سنفهم أن الصيحة هي هذا الأمر الذي تنفذّه الملائكة(ع) عندما تبسط أيديها للميت وتقول له: قم من موتك. طبعا ليس كلاما مثل كلامنا العادي، بل أشبه ما يكون بإصدار أمر "للمواد" ليتشكّل منها جسد فيه وعي وفكر وذكريات وأحاسيس كل واحد منّا، وَنَرْجِعُ إلى الحياة، والتعبير عن هذه الحادثة مَرَّةً من جهة ربنا سبحانه بأمره أَنْ يَرْجِعَ البشر إلى الحياة، بأبسط إشارة بقوله تعالى: {كُنْ}. كما ورد في الآية 73 من هذه السورة {... وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ...}، وَمَرَّةً من ناحية النفخ في الصور والمشهور في تراثنا الديني أَنَّ مَلَكاً يفعله، وَمَرَّةً من ناحية الملائكة(ع) التي تنفّذ نفخة الصور، حَيْثُ رُبَّمَا لها عمل ما بتركيب الجسد وإعادة نفس كل واحد، وأخيرا من ناحيتنا، سنستعيد وعينا مثلما "تقريبا" نستيقظ من النوم إذا نادانا أحد ما.

{الْيَوْمَ}، في هذا الزمن، يوم القيامة من الموت، {تُجْزَوْنَ}، تحصلون على المقابل المعادل بشكل تام، تنالون ما تَسْتَحِقُّونَهُ على أعمالكم التي قمتم بها، {عَذَابَ الْهُونِ}، ضرر وأذية تصيبكم وفيها المهانة، وَهُوَ عذاب تشعرون فيه أنكم بلا قيمة، لِأَنَّكُمْ استهترتم وأهنتم... الآيات والحضرة الإلهية... واليوم ستنالون عذابا تشعرون فيه أَنَّكُمْ مُهَانُونَ، عبر جرجرتكم على وجوهكم، والسخرية منكم، وتسميعكم الكلام القاسي والإهانات... وكل ذلك، {بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ}، حَيْثُ كنتم تقولون الكذب على الله تعالى، وَقلتم إِنَّهُ تعالى له شركاء وقلتم لم يبعث أنبياء، وقلتم إِنَّ كتبه بلا قيمة.

اَلْعَذَابُ المهين أيضا بسبب أنكم، {وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ}، عن الأمور المميزة المنسوبة له تعالى، كملكوت السماوات والأرض وخلقكم... وكهذا القرآن، {تَسْتَكْبِرُونَ}، حَيْثُ ترون أنفسكم أكبر من الإيمان بها وأكبر من الخضوع لها والاعتراف بألوهيتها، وَترونها أمورا أصغر من أن تؤمنوا بها، لِأَنَّكُمْ كبار، ولذلك ستتعذّبون مع الإهانة.

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ{94})
هناك حين تأمركم الملائكة(ع) بالقيام من الموت إلى الحياة في الآخرة:

{وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا}، لَقَدْ حضرتم إلينا، {فُرَادَىٰ}، كل واحد لوحده وليس معكم أي شيء، فلا قوّة لكم ولا عصابة ولا مال ولا سلطة... {كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ}، مثلما ركّبناكم أول مرة، حَيْثُ إِنَّهُ في الآخرة خلقكم سبحانه مرّة ثانية ومن قبل في الدنيا خلقكم أول مرة، ونفس المعنى تَقْرَأُهُ في الآية 48 من سورة الكهف {وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا}. وهنا سياق الكلام عن المجيء فرادى وترك ما كان معهم حَيْثُ يَتَوَسَّطُهُ وصف خلقهم مثل أول مرة، فهذا يوحي بالتشبيه للفردية في خلقهم أول مرة وفي الثانية، حَيْثُ إِنَّهُمْ أول مرة في الدنيا خُلِقُوا فرادى وفي الآخرة خُلِقُوا فرادى، ولكن ورود نفس التعبير "خلقناكم أول مرّة" في بِضْعِ آيات أخرى، ومنها الآية 79 من سورة يس {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}، يجعلنا نفصل التشبيه عن

المجيء فرادى ليكون التشبيه فقط بالخلق أول مرّة، لِيَصِيرَ فهمنا للجملة هكذا: ولقد جئتمونا فخلقناكم مرة ثانية مثلما خلقناكم أول مرّة، وجئتم فرادى تاركين ما كان معكم في الدنيا...

{وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ}، ما جعلناه متاحا لكم، من مال وسلطة وقوة... فكل ذلك تركتموه، {وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ}، في الدنيا، كما نقول نحن: ارْمِ المشاكل وراء ظهرك. قَاصِدِينَ أن تتركها، فهنا تقول الآية إِنَّنَا في الدنيا كان متاحا لنا فعل أشياء كثيرة، وكان متاحا لنا تملّك الثروات والسلطة والقوة والعصابة... وفي يوم القيامة نترك كل ما كان متاحا لنا وراء ظهرنا، وَلا يَعُودُ معنا أي شيء منه.

في يوم القيامة من الموت في الآخرة، {وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ}! وَلا تحصل لنا صورة محددّة للأشخاص أو الآلهة التي قلتم إِنَّهَا مهتمّة بكم وستتدخّل لمساعدتكم مستعملة قيمتها المعنوية أو سلطتها، بالعامية نقول: "مَا بِنْشُوفْهُمْ". فهي لو كانت آلهة بِقيمتها المعنوية أو بسلطتها تتدخّل لصالحكم وتساعدكم وَتشفع لكم عن ذنوبكم وتمسحها، أو تفرض إرادتها على الله تعالى وتجبره أن يقبل شفاعتها ويسامحكم، {الَّذِينَ زَعَمْتُمْ}، الذين قلتم عنهم بدون دليل إلا قولكم أنتم، {أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ}، أَنَّهُمْ وأنتم مشتركون على شيء، حَيْثُ قلتم إِنَّهَا آلهة وأنتم تابعون لها، قلتم بأنكم تدعونها وهي تستجيب... حَيْثُ كنتم تزعمون أَنَّ بينكم وبينهم مشاركة بين عبد وإله، فيأتي لكم شيء منها، ويصلها شيء منكم.

{لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ}، حَيْثُ صِرْتُمْ كل واحد لِوَحْدِهِ، وَلا علاقة الآن بينكم وبين شُرَكَائِكُمْ.

{وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}، حَيْثُ زعمتم وَقلتم شيئا تعطونه الصحّة من قولكم واستنادا على نطقكم به، وَقُلْتُمْ إِنَّ شركاءكم "آلهتكم" ستتدخل لمساعدتكم، ولكن هذا الذي زَعَمْتُمُوهُ لا يصل إليكم منهم شيء!

كثيرا ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيرا أم شرا، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فَضَلَّ عنك صيدها. اسْتَعْمَلَ القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، فلم تقصد الآيات أَنَّ آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ{95})

{إِنَّ اللَّهَ}، إن صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {فَالِقُ الْحَبِّ}، وَالكلام عن حبة من النبات حيث يبتعد شِقَّانِ منها عن بعضهما ويصير بينهما فراغ فيه برعم. كلمة حبة نستعملها الآن تقريبا كمرادف لكلمة "واحدة" كشيء واحد منفرد حتى لو كان كبير الحجم، ولكن معناها الأساسي ليس واسعا لهذه الدرجة حَيْثُ إِنَّهَا لخصوص ما كان صغيرا منفردا، كحبّة لؤلؤ أو حبة رمان... ومن سياق الكلام يتخصّص معناها لتشير لحبوب النبات، وبالخصوص للكيان النباتي شبه الكروي الذي يتم أكله كما هو بلا غلاف عليه، كالقمح والشعير والفول...

{وَفَالِقُ}، {النَّوَىٰ}، حَيْثُ إِنَّ لِبَعْضِ ثمار النباتات: نَوًى، لُبٌّ. كالبلح والْمَنْغَا والعنب... والنوى هو الذي ينبت. ومن يعرف قليلا عن الزراعة يعرف الفرق بين النوعين "الحبوب، والنباتات ذات النوى".

إِذاً، الله تعالى هو يشقّ البذور والحبوب فيفلقها لِيَخْرُجَ منها أَوْرَاقٌ وَجُذُورٌ، فتنبت.

{يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ}، حَيْثُ يكون هناك شيء ميّت لا يفعل ولا ينفعل، وسبحانه يجعل الحياة تخرج منه، فيجعله يفعل وينفعل، مثلما جعل سبحانه الحبّ والنوى الْمَيِّتَيْنِ تخرج منهما الحياة النباتية.

{وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ}، ويجعل الموت يخرج من الأشياء الحيّة، فيجعل النباتات تموت.

عندما يَقول لكم سبحانه إِنَّهُ سيجعلكم ترجعون إلى الحياة بعد الموت، فالآية الملموسة على ذلك هِيَ ما ترونه من حياة وموت مُتَكَرِّرٍ مُنْتَشِرٍ من حولكم، ومن ناحية ثانية، الحياة "الانفعال والفعل بتدرجات متفاوتة ومختلفة" من أين تأتي؟ وَما فينا وحولنا ويوصف بأنه حياة فما مصدره؟ إِذْ إِنَّ تركيب المواد لتصير شكلا ما لن يعني أي شيء، ولكن أن تصير

الأشكال تنفعل وتتفاعل، وَتتأثّر بالآخرين وتؤثّر على الآخرين، فهذا شيء إضافي على تَرَكُّبِ المواد، فهذا حياة، فمن سبّبه؟ من صمّمه؟ من أعطاه؟ من أخذه؟...

{ذَٰلِكُمُ اللَّهُ}، صاحب الاسم المحدّد المميّز الله هو سبحانه فالق الحب والنوى المحيي والمميت، وَهذه أفعاله الفائقة من مستوى إلهي، وهذه قدرته وهذا تخطيطه وهذه سيطرته... التي ترونها من حولكم منتشرة بكثرة وفي كل لحظة، {فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ}؟ وَكيف وبأي طريقة ولأي سبب تنقلبون وتسلكون طريقا آخر؟ إِذْ إِنَّ أفعاله تعالى واضحة أمامكم فبأي سبب تَتْرُكُونَهُ تعالى وَتَخْتَرِعُونَ آلهة وهمية؟ أو بأي حجّة تقولون إِنَّ الطبيعة خلقت نفسها؟ فمن الذي يهب الحياة ويسحبها؟ وبأي حجة لا تؤمنون برجوعكم للحياة من الموت مرة ثانية؟

بعض الناس وبكل سهولة يخترعون أسماء، ويقولون بأنها آلهة ترزق وتمطر وتشفي...! وبعض الناس وبكل سهولة يقولون بأن الحياة حدثت بالصدفة! وأن احتمال حصول الحياة ليس صدفة صعبة الحصول، بل بسبب كثرة المجرات وَتِرِيلْيُونَاتِ تريليونات الكواكب المنتشرة فيها، فمن المؤكد أن الحياة ستنشأ على الأقل على واحد من الكواكب، وَاجتمعت الظروف المناسبة على كوكب الأرض ونشأت الحياة... هذه سخافة ما بعدها سخافة، أَمِنَ الصدفة نشأ كل هذا الذي نراه! ودورة الحياة والموت النباتية، بِتَنَوُّعِهَا الضخم، واستمرارها، وتأقلمها مع بيئتها، وانتقالها وانتشارها... كل هذا صدفة بدون تصميم من إله! أليس من الواضح أن إلها قادرا هو الذي خطّط لهذا!

المروحة للتبريد والتي تدور أمامي الآن، لن أقتنع ولا بأي طريقة أنها هكذا لوحدها بالصدفة تكوّنت وتشكّلت، وهي في تعقيدها أقل بكثير جدا جدا من تعقيد حياة حبة عدس، تنمو، وتزهر، وتنتج حبوبا من عدس قادرة على النمو وإنتاج المزيد من الحبوب... وَما نعلمه من جينات "الدنا والرنا" للخلايا وحملها لخريطة تكوينها ونموها، مثل معرفتي بالمروحة والمحرّك الذي بداخلها، حَيْثُ إِنَّ معرفتي بتكوينها وكيفية عملها لا تَعْنِي أنها لوحدها تشكّلت، وَتلك الجينات المؤلفة من المواد والمبنية على أساس خصائص أولية فيزيائية وكيميائية للمواد، هَلْ بالصدفة ولوحدها صارت وهكذا نتج عنها حياة!؟ لِتُنْتِجَ حياة وليس شكلا جامدا، إِذْ إِنَّ الآية تسألك عن الحياة، وفقدان الحياة، فأي غباء إنكار الإله الله المحيي والمميت!

سيأتيك توسّع قليل عن الموضوع في ذيل الآية 99 بعد قليل.

(فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{96})
نكمل مع الآيات التي تدل على الله تعالى وعلى قدراته وعلى تحكّمه وسهولة إعادة خلقه لنا في الآخرة:

الله سبحانه، {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ}، حَيْثُ يجعل نور الشمس يشقّ العتمة حين ينتشر في الصباح، فَتَنْفَلِقُ وَتَنْفَرِجُ الظلمة ويخرج الصباح منها.

سُبْحَانَهُ جعل الليل {سَكَنًا}، تسكن وَتَهْدَأُ الحيوانات فيه، فتبدأ غالبية الحيوانات بنشاطها من الصباح وتسكن عن النشاط في الليل.

جَعَلَ سبحانه الشمس والقمر {حُسْبَانًا}، حَيْثُ إِنَّ حَرَكَتَهُمَا مقدّرة بحساب وليست عشوائية غير محسوبة، وهنا معنى الحسبان مشابه لمعنى أجل مسمّى.

أَشَارَ القرآن عدة مرات لهذه الرزنامة الضخمة، فمن ميلان مسار الشمس في سمائنا "بين مداري الجدي والسرطان" نعرف بداية ونهاية الفصول الأربعة من السنة، ومن أطوار القمر "مُحَاق، هِلَال، رُبْع، بَدْر..." نعرف اليوم من الشهر، وإذا كنت الآن تعتمد على البرامج أو الرزنامات لتحديد اليوم والسنة، فاعلم أن أصلها معتمد على مسار الشمس والقمر في سمائنا، وهذه رزنامة ميقاتية ضخمة فوق رؤوسنا جَعَلَهَا الله تعالى بهذا الشكل.

مَا نَرَاهُ روتينيا متكررا، ويشعرنا بسهولة حصوله، وعند بعض الناس يفقد قيمته، حَيْثُ إِنَّ الآيات الطبيعية التي تتحدث عنها الفقرة هنا كلها روتينية تتكرر كل يوم، وتكرارها هو أكبر دليل على وجود خالق خطّط لها ونظّمها وجعلها تعمل بهذا الشكل، ولكن هناك من يتجاهلها ويتعامى عنها، وَيُنْكِرُ أَنَّهَا آيات إلهية، ولكنه وكما قالت آية سابقة في هذه السورة فِي يوم القيامة سيعترف الكافر بالآيات وَأَنَّهَا كانت كافية بل أكثر من كافية لتدل على الله تعالى.

{ذَٰلِكَ}، الصباح وسكن الليل ومسار الشمس والقمر هو، {تَقْدِيرُ}، فهذه أمور لها مقادير، وَلها قيمة يجب حسابها، فهي شيء له مخطط وله حساب ومسار من، {الْعَزِيزِ}، الذي يفرض ما يريده ولا يفرض عليه الآخرون أي شيء، حَيْثُ صمّمها هكذا ولن يستطيع تغييرها أحد.

وَتَقْدِيرُ، {الْعَلِيمِ}، الذي يعلم كل شيء، حَيْثُ عَنْ علم خطّط سبحانه وصمّم وخلق هذه الظواهر بهذا الشكل الذي نراه. قَابِلْهَا مع مهندس درس وصار عليما بتصميم وإنشاء المباني، فهذا عليم، وعن علم يصمّم ويبني. قَابِلْهَا معي أنا الذي بلا علم في البناء وَبَنَيْتُ جسرا، فحتما سأقع في أخطاء كبيرة، وهكذا نفهم حين يصف سبحانه نفسه بالعليم من بعد كلامه عن تصميم وخلق السماوات والأرض وما فيهن.

سَيَأْتِيكَ توسّع قليل عن الموضوع في ذيل الآية 99 بعد قليل.

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ{97})
نكمل مع الآيات التي تدل عليه تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ}، أتاح لكم، {النُّجُومَ}، وبحسب استعمال القرآن واستعمال العرب لكلمة نجم في أشعارهم قبل الْإِسْلَامِ، فهي أي شيء له "مكان" في السماء، سواء أكان منيرا بذاته مشتعلا كالشمس أو غَازِيّاً سَاخِناً، أو كان صلبا يعكس ضوء غيره كالأرض والمشتري... والكوكب هو أي شيء له "نور" في السماء سواء عكس النور أو أصدره... حَيْثُ جعل سبحانه لكم النجوم، {لِتَهْتَدُوا بِهَا}، لتكونوا على الشيء الصحيح الذي يوصلكم لغايتكم، حَيْثُ بِالنُّجُومِ تَكُونُونَ على الطرقات التي توصلكم لهدفكم، {فِي ظُلُمَاتِ}، في العتمات التي تحيط بكم من كل الجوانب، {الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}، حَيْثُ مَثَلاً نجم الدب الأصغر بالنسبة لنا ثَابِتٌ فوق القطب الشمالي، وبشكل عام حَيْثُ إِنَّ كُلَّ النجوم البعيدة والمجرات ثابتة بالنسبة لنا، وَنَتَحَرَّكُ ونراها كلها كصورة ثابتة تنتقل فوق رؤوسنا في قبّة سماء الليل، فأينما كنت في البرّ على اليابسة على الأرض، أو في البحر، فإذا نظرت في النجوم فيمكنك معرفة الاتجاهات بالاستعانة بمواقعها، وَتَهْتَدِي للطريق الذي تريد الذهاب إليه.

{قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ}، حَيْثُ إِنَّ الْأُمُورَ المميزة من مستوى إلهي لم تصلكم منّا مجملة مَخْلُوطاً فيها الحقّ والباطل لتشوّشكم بل وصلتكم مفصّلة، {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الآيات، {يَعْلَمُونَ}، حَيْثُ هُنَاكَ مَنْ يرى الآية الإلهية وَيَعْلَمُ ما تدل عليه، وهناك من يرى الآية ولا يستعمل عقله، فلا يرى أنها آية إلهية، وَيَرَاهَا روتينية عادية حدثت لوحدها أو حدثت بالصدفة!

نَجِدُ تصريحات قرآنية عديدة تقول بأننا نحن لم نخترع الاستفادة من النجوم لمعرفة الاتجاهات، ونحن لم نخترع الاستفادة من حركة الشمس والقمر لمعرفة الفصول والشهور والأيام... حَيْثُ إِنَّنَا لم نفاجئه تعالى حين اخترعنا السفن... لِأَنَّ كُلَّهُ كان ضمن المخطط الإلهي، حَيْثُ أتاح سبحانه لنا ما يمكّننا من التعرّف على هذه الأمور، وسبحانه سلفا يعلم متى سنصل إلى التعرّف عليها... واكتشافها... ولمزيد من التوسّع راجع دراسة الآية 32 من سورة إِبْرَاهِيمَ {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ}.

(وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ{98})
{وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ}، كوّنكم من شيء سابق، {مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}، من كائن واحد له حياة، {فَمُسْتَقَرٌّ}، فمنكم من استقر وَخرج إلى الحياة واستقرّ وَثبت فيها ككائن حيّ، حَيْثُ صار للنفس للواحد للشخص كيان ثابت، وَمنكم، {مُسْتَوْدَعٌ}، لا يزال وديعة، لا يزال مُودَعاً مَتْرُوكاً في مكان أو حالة ولم يخرج إلى الحياة بعد.

انتبه جيدا لهذه النظرة الإلهية التي يلفت سبحانه انتباهنا لها، حَيْثُ ها أنا وأنت وغيرنا خَرَجْنَا إلى الحياة، ونعرف أنه سيأتي آخرون إلى الحياة أيضا، وَمن أين خرجنا؟ حَيْثُ تلفت الآية انتباهنا إِلَى أَنَّنَا نشأنا كلنا من نفس واحدة، من كائن واحد.

انتبه دوما إِلَى أَنَّ القرآن وصف آدم(ع) بالأبوّة لنا وهذا تعبير تستشفّ منه أن كلّ البشر من ذريّته (ع)، ولكنه ليس صراحة بل اشتقاقا، فلو كان التعبير بالوالد لكان صريحا في كون آدم(ع) وَالِداً للجميع... وفي آيتنا هنا وفي غيرها من

القرآن لا تجد ربطا صريحا بين النفس الواحدة التي خلقنا منها تعالى وبين آدم(ع)، مما يشير بقوّة إِلَى أَنَّهَا لا تتحدّث عن آدم(ع)، وَتذكّر دائما من القرآن أَنَّ آدم(ع) كان انطلاقة البشرية الواعية المكلّفة، فهو أوّل من تأهل من البشر ليتكلّف بالدين الإلهي، وأمّا قبل ذلك فَتَحَدَّثَ القرآن عن مراحل سابقة "بين الطين والبشرية". وَالآية هنا على معنى الآية 1 من سورة النساء، والآية 189 من سورة الأعراف، والآية 6 من سورة الزمر، حيث الكلام صريح عن خلقنا من نفس واحدة وجعل زوجها منها، حَيْثُ على ما يبدو أنها مرحلة من خلقنا قبل تشكّل ذكر وأنثى، وَراجع دراسة الآية الأولى من سورة النساء {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...} حَيْثُ توسّعنا في هذا الموضوع، وبالمختصر أَقْرَبُ ما نفهمه أنه في مرحلة ما من تشكّلنا من طين، لم يكن الحيوان مميزا ذكرا وأنثى، وبعدها تميّز...

{قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ}، فالأمور المميزة من مستوى إلهي لم تصلكم منّا مجملة مَخْلُوطاً فيها الحق والباطل ومشوّشة بل مُفَصَّلَةً غير مبهمة، {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الآيات، {يَفْقَهُونَ}، يربطون المعلومات بشكل سليم للخروج بنتيجة صحيحة، وهنا اَلْكَلَامُ عن الذين يفهمون من الآيات المنتشرة فيهم وحولهم على شكل حياة، وَيُؤْمِنُونَ بإله صمّم وخلق ويؤمنون بخروجهم إلى الحياة مرة ثانية في الآخرة.

(وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{99})
نكمل مع الآيات التي تدل عليه سبحانه:

{وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}، عبر المطر أو الندى، فنحن من ناحيتنا نفسّر تشكّل الغيوم من بخار الماء الذي على الأرض ومن البحار، ثم تتكاثف الغيوم وينزل الماء... أمّا من ناحية ربنا سبحانه فهو الذي يجعل هذه العملية تحصل، فهو تعالى صمّمها وخلقها وجعلها تعمل.

{فَأَخْرَجْنَا بِهِ}، بالماء، {نَبَاتَ}، ما يوصف بالنمو، {كُلِّ شَيْءٍ}، حَيْثُ أخبرنا القرآن عدة مرات أن كل الأحياء على الأرض من نبات أو حيوان، فهم بسبب الماء أحياء وينمون، وبالتعبير القرآني فحتى نحن البشر أَنْبَتَنَا سبحانه من الأرض بسبب نزول الماء، أي جعلنا ننمو ونكبر من التراب والماء، وتقرأ ذلك في الآية 17 من سورة نوح {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}.

{فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ}، من النبات، {خَضِرًا}، شَيْئاً لونه أخضر، وهو النبات، وهذا يشبه ما ورد في الآية 63 من سورة الحج {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}. ومن هذه النبتة الصغيرة الطرية، {نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا}، فوق بعضه البعض. كحبّ القمح في السنبلة، وحبّ الْفَاصُولْيَاءِ في غلافها... فمثل وصف القرآن لخلقتنا نحن: من تراب ثم من نطفة ثم علقة ثم مضغة... أخيرا إنسان. فهنا الوصف للنبات: ماء وأرض، حبّة أو نوى... فنبتة طريّة، فنبتة كاملة، فثمار للنبتة. وأيضا من ناحيتنا نرى الأسباب "الطبيعية" لنمو النبات عبر نمو خلاياها، وامتداد جذورها... أما من ناحية ربنا سبحانه فهو الذي يجعلها تنمو بهذه الطريقة.

كُلُّ ما نراه من حولنا من أمور طبيعية، هِيَ لا تعمل لوحدها ومن دون عناية إلهية، حَيْثُ إِنَّنَا نصنع الماكينات التي تعمل لوحدها، وَنَصْنَعُ التلفاز، ونشغّله، وَيَعْمَلُ لوحده... أمّا الطبيعة التي نعيش فيها فمن ناحيتنا نراها تعمل لوحدها، حَيْثُ نَرَى بخار الماء يتصاعد ويتجمّع ليصير غيوما... أمّا في الحقيقة فهذا لم يكن ليحصل لولا تصميمه تعالى لها بهذا الشكل، ولن يحصل إن لم يتابع سبحانه كل تفاصيل هذه العملية، لِأَنَّهُ سبحانه خلق كل شيء من كائنات وظواهر، ويحافظ على بقائه، وَلَوْ غفل عنّا سبحانه للمحة، لزال كل شيء وانمحى، لِأَنَّ بَقَاءَ كل شيء متعلق به سبحانه، ومستحيل أن يبقى أي شيء إن تركه سبحانه للمحة، بل مباشرة سيزول، وتقرأ ذلك في الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}، وربما يتصور البعض بأننا سنستمر بشكل طبيعي إذا تركنا تعالى، ربما يتصور البعض أن الخراب سيحصل تدريجيا، ولكن ما سيحصل فعلا هو زوال كامل بلمحة.

نرجع للآية وَبعدما صار نوع من النباتات شجرة: {وَمِنَ النَّخْلِ}، من شجرة البلح والتمر والرطب، أخرجنا، {مِنْ طَلْعِهَا}، مما يطلع منها "مثل التعبير بـ: طلع البدر علينا"، من حاوية ثمارها، وطلع النخلة هو الحاوية الخشبية التي على شكل الموزة، وبقية الأشجار لها طلع مختلف، أخرج سبحانه من طلع النخلة: {قِنْوَانٌ}، وهي العذق مجموعة من العيدان التي تشكّل عنقود البلح، {دَانِيَةٌ}، قريبة من الأرض، فهنا الإشارة لنموذج من نوع شجر البلح القزم الذي يمكن قطف ثماره وَأَنْتَ واقف على الأرض، ولدينا الآية 10 من سورة ق {وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ} التي أشارت للنخيل الباسقات الطويلة.

{وَجَنَّاتٍ}، أماكن توصف بروعة ما فيها، بمناظرها الطبيعية الخضراء، {مِنْ أَعْنَابٍ}، من العنب بأنواعه، وجنّات، {وَالزَّيْتُونَ}، وجنّات، {وَالرُّمَّانَ}، {مُشْتَبِهًا}، متشاكلا، حَيْثُ يشبه بعضه البعض في الشكل والحجم واللون والطعم، {وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ}، حَيْثُ يختلف عن بعضه البعض في الشكل والحجم واللون والطعم، فهناك أشجار تشبه بعضها فتحمل نفس نوع الثمار، كبستان عنب حبّته بيضاء طويلة، فيكون ثمر كل البستان مُشْتَبِهاً مُتَشَاكِلاً مُمَاثِلاً لبعضه البعض في اللون والحجم والطعم... وهناك أشجار ثمارها متشابهة فكلها عنب ولكنها مختلفة، فمنها الأحمر والأسود والدائري والطويل... فلو كان كل العنب في منطقتك من نوع مريمي أسود، ولم تر أي عنب آخر في حياتك، ثم رأيت عنقود عنب من نوع بيتموني، فستعرف أنه يشبه العنب المريمي وستقول بأنهما كلاهما عنب، لأنهما متشابهان، وإذا قارنت بين العنب والزيتون فستقول بأنهما غير مُتَشَابِهَيْنِ.

اَلْآيَةُ تلفت انتباهنا للتنوّع في النبات، فلو لم يكن هناك من صمّمها لتصير متنوعة، فمن أي أساس وبأي معنى هي هكذا متنوعة مختلفة بالشكل والطعم واللون؟ وانتبه للفرق بين معرفتك لآلية حصول التنوّع وبين السؤال عن أصل من صمّم هذه الآلية لينتج عنها تنوّع. إِذْ إِنَّ معرفتي بآلية نزول الماء من بدايتها من تصاعد البخار وتكاثفه... فهذا لا يعني أنها حصلت من دون تصميم...

{انْظُرُوا}، وجّهوا اهتمامكم العام، {إِلَىٰ ثَمَرِهِ}، إلى ما نتج عن النبات، إلى نتاج النبات، {إِذَا أَثْمَرَ}، إذا أكتمل نمو الثمرة، وانظروا، {وَيَنْعِهِ}، إلى نضوج الثمرة. حَيْثُ مَثَلاً انظر للمشمش حين ينعقد بعد أن يكون زهرة ثمّ أثمرت، فتكون خضراء صغيرة وتكبر، فانظر إلى ينعها حين يبدأ لونها بالتحول إلى أصفر برتقالي...

{إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ}، الإثمار والنضوج، {لَآيَاتٍ}، فهو أمور مميزة من مستوى إلهي، علامات ودلائل على وجود إله قادر صمّم وخلق... {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الآيات، {يُؤْمِنُونَ}، يعتقدون بوجود إله فائق الصفات، أما الناكرون فقد عميت أفكارهم عن رؤية الآيات.

بعد الانتهاء مما لفتت السورة انتباهنا له، فلنضرب مثلا يجعلنا نرى الأمور من نظرته تعالى، حَيْثُ إِنَّ هذا ما كانت الآيات تلفت انتباهنا له، فتصوّر نفسك أنت قرّرت خلق كائنات في بيئة، فستنعكس صفاتك وقدراتك على ما خلقت، فكلما علت قدراتك كلما أتقنت وزادت التفاصيل في مخلوقاتك، ولنقل أنك خلقت أسماكا في حوض ماء، وصمّمتها بحيث تنمو وتتكاثر، فتجوع وتأكل... الآن السؤال: هل سترشّ لها الطعام على سطح الحوض أم ستجعل البيئة ينتج عنها الطعام؟ وكما ترى فإن كانت قدراتك عالية فستصمّم بيئة ينتج عنها الطعام لمخلوقاتك. والآن سؤال: من أطعم الأسماك؟ من رزقها؟ فمن إتاحة الرزق لها في البيئة أنت رزقتها وأنت أطعمتها، وهكذا ترى نظرته تعالى لنا ولكل الكائنات والظواهر، فهو تعالى أنزل الماء وأنبت النبات وجعل الشمس والقمر بحسبان...

هُنَاكَ تفاصيل كثيرة تشير لها الآيات هنا، وسنختار منها الثمر، فما معنى أن تأكله أنت وترغب بطعم الثمر ولونه؟ وما معنى أن تتغذّى منه لينمو جسدك ويحافظ على طاقته ونشاطه؟ وما علاقتك به حتى صار طعاما مغذيا لك؟ وما علاقتك بالشمس والقمر حتى صارا مناسبين للدلالة على فصول السنة؟ وما علاقتك بالنجوم التي تدلك على الاتجاهات؟ وما علاقتك بنفس خلقتك؟ فهل صمّمت نفسك أو خلقتها؟ وأصلا ما علاقتك بالحياة لك ولمن حولك؟ والحياة من أبرز ما يشير له القرآن عادة للسؤال عنها بسبب وضوح معناها وفرقها عن مادّة متراكمة لا فعل لها ولا انفعال.

بقي شيء، حَيْثُ قَدِيماً في منطقة نزول القرآن كان لهم تسميات للفاكهة بعضها مختلف عن التسميات الحالية، ولم يجدوا أي داع لتعريفها، فلم يذكروها في القواميس، ونفس الشيء حصل مع العديد من أسماء الأشياء والمطهيات "الطبيخ"... حَيْثُ اعتبروها بديهية جدا ولا داعي لوصفها، فهنا الكلام عن العنب والنخل والرمان، وهذه الأسماء لا زالت متداولة

ولنفس الفاكهة، ولكن هناك خضار وفواكه عديدة تغيّرت أسماؤها، وصرنا نجهل الاسم القديم لها، وأصحاب القواميس لم يذكروها معتبرين أنها بديهية، كالإجاص والأفندي والكزبرة... إِذْ إِنَّ أَسْمَاءَهَا القديمة مختلفة عمّا هو متداول في بعض المناطق العربية.

(وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ{100})
{وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ} ! حَيْثُ جَعَلَ بعض الناس الجنّ يشاركونه تعالى في الألوهية! فَمَثَلاً هناك من يقول إِنَّ إبليس من الجنّ وهو إله الشر.

{وَخَلَقَهُمْ} ! حَيْثُ خلقهم سبحانه فكيف يَكُونُونَ شركاء له! يعني هم في نفس الوقت يقولون إِنَّهُ تعالى خلق الجنّ وجعلوهم شركاء لله تعالى في الألوهية، فما معنى ألوهيتهم وهم مخلوقات خلقها الله سبحانه! إِذْ إِنَّ الْمَخْلُوقَ مخلوق، والإله إله! وَالإله يخلق ولا يخلقه أحد.

إِذاً نحن أمام نموذج واضح في سخافة من جعل معه تعالى آلهة، حَيْثُ جَعَلُوا المخلوق إلها، وَسَبَقَ أَنْ تناولت السورة سخافات أخرى حين نقلت تعليقات "إبراهيم" (ع) على عبادة الأصنام والكواكب.

{وَخَرَقُوا}، واخترعوا من لا شيء، هكذا من دون أي دليل، كما نقول من الحائط اخترعوا له، لله تعالى، {بَنِينَ وَبَنَاتٍ} ! أولاد صبيان وبنات إناث! {بِغَيْرِ عِلْمٍ}، هكذا أقوال جهّال، من دون دليل.

{سُبْحَانَهُ}، حَيْثُ إِنَّهُ منزّه، {وَتَعَالَىٰ}، حَيْثُ إِنَّهُ أعلى، {عَمَّا يَصِفُونَ}، حَيْثُ إِنَّ وصفهم للجنّ بأنهم آلهة شريكة له، سبحانه، ووصفهم لله تعالى بِأَنَّ عنده أولاد، فهو سُبْحَانَهُ منزّه عن هذا الوصف، وَلا يوصف بهذا الوصف، وتعالى فهو أعلى، لِأَنَّ هذا وصف منخفض لا يوصف به سبحانه.

تَعْلَمُ من كلامه سبحانه عن نفسه، من علمه بنفسه أَنَّهُ من المستحيل أن يكون له شركاء أو أولاد.

هكذا انتقلت السورة من نموذج واضح السخافة والبلاهة، من الذين نحتوا التماثيل بأيديهم وقالوا إِنَّهَا آلهة، إلى تأليه الأجرام السماوية من كواكب وشمس وقمر، وصولا إلى تأليه الجنّ، وهم كائنات مخلوقة من نار، وحين وصفنا القرآن بخلقنا نحن البشر من طين وتعلم أَنَّهُ اختصار للمواد الموجودة على الأرض من كالسيوم وكربون وأوكسجين... نفهم أَنَّ خلقة الجنّ من نار تشير للمادة الموجودة في عالمهم...

أمّا السؤال عن تفاصيل تأليه بعض الناس للجنّ، وكيف تعرّفوا عليهم، وكيف تواصلوا معهم... فلا تستغرق في تصورات عقلانية لأن هذه النوعية من الناس بلا عقل، قَرَأْنَا وشاهدنا وثائقيات عن عبّاد الشيطان، وعبّاد الجنّ، وهؤلاء بلهاء مجانين يهلوسون ويعيشون في الخيال... ويحلمون بالحصول على قدرات خارقة من الجنّ، ويحلمون بتسخيرهم... وَها تاريخ المشعوذين والمؤمنين بهم أمامك ولن تجد فيه أي أثر ملموس لتحقّق ما يؤمنون به.

أمّا الاعتماد على ما ذكره القرآن من تسخير للجنّ للنبي سليمان(ع) كتأكيد على ما يقوله الناس عن أمور حصلت معهم بتدخل من الجنّ، فهذا هراء، إِذْ إِنَّ مَا جرى مع النبي سليمان(ع) وثّقه مصدر إلهي وهو القرآن، أمّا ما يقوله الناس فهو خرافات لا دليل عليها إلا رواياتهم التي لو نظرت إليها بحكمة لمعرفة مدى وثوقيتها، لرفضتها. وَإلى حين لمسنا لدليل عمّا يقوله الناس عَمَّا هُوَ خارج الأحداث التي يذكرها القرآن، فكل قصصهم وَادِّعَاءَاتِهِمْ لا قيمة لها.

(بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{101})
{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، ابتدعها وَجعل السماوات السبع والأرض موجودة من لا أساس، لِنَقُلْ إِنِّي جعلت الهاتف المحمول يعرض قنوات التلفاز، وهذه ليست بدعة لأن لها أَسَاساً، حَيْثُ هُنَاكَ ما يشبهها، لِأَنَّ الهاتف موجود والتلفاز موجود. أمّا خلقه تعالى للسماوات والأرض، وهذا كل شيء في دنيا المخلوقات، فبدعة خلقه تعالى، من لا أساس، من لا شيء يشبهه أو سابق له يشبهه.

نتذكّر دائما أَنَّهُ تعالى يتحدّث معنا بشفافية، حَيْثُ يَقُولُ لنا إِنَّ كل ما هو موجود في الدنيا أمامه هُوَ محصور في السماوات السبع وما يقابل كل سماء من أرض وصولا لأرضنا، وهي ليست الأرض الوحيدة لسمائنا إِذْ إِنَّ سطح القمر

أيضا أرض وسطح الشمس أرض... ولكن عامّة كلام القرآن يشير بالأرض لما نقف عليه نحن الذين يخاطبنا القرآن، حَيْثُ إِنَّ كلمة سماء لا تقال إلا لما يقابله أرض، وَبقية السماوات لها ما يناسب تكوينها من أرض أو أراض أَشَارَتْ لذلك الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...}، وكلّها خلقها هو تعالى، ابتدعها، ولم يلمس سبحانه ولا أي أثر لأي كائن غيره وغير ما في السماوات والأرض، فكيف أنتم تعلمون بوجود إله آخر غيره وهو تعالى لن يعلم به!؟ وتقرأ هذا المعنى في العديد من الآيات منها ما ورد في الآية 33 من سورة الرعد {... وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ...}.

{أَنَّىٰ}، كيف وبأي طريقة، {يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ}! على الأقل إن قلتم عن الله تعالى أَنَّ لديه وَلَداً، فمن هي صاحبته؟ وَمن هي الأنثى التي أنجبت له ولدا؟ يعني تماشيا مع سخافة كلامكم فمن هي صاحبته تعالى التي أنجبت له الأولاد الآلهة التي اخترعتموها! هَلْ سبحانه ذكر وهناك إله أنثى صاحبها تعالى وأنجبت ولدا! أم ستقولون إنه عزّ وجلّ أنجبهم؟! ما هذه الترهات! وكما ترى، كلامهم كلام سخافات ولولا حلمه تعالى لما ردّ عليهم ليكون هذا الكلام حجّة عليهم حين يحاسبهم ويجازيهم على خرافاتهم.

{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ}، حيث لا يوجد أي أثر إلا له تعالى وللمخلوقات التي خلقها هو تعالى، فأين الصاحبة الإلهة وأين الولد الإله! وَمَا مَعْنَى ألوهية غيره تعالى إن كان كل شيء بدون أي استثناء خَلَقَهُ هو سبحانه؟

{وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، ويعلم كل شيء، وعلى هذا الأساس يقول لنا إِنَّ كل شيء وهو تعالى خَلَقَهُ ولا أثر ولا بأي شكل لأي إله غيره تعالى.

نلاحظ ما ورد في سورة الجنّ عن الجنّ أنهم سمعوا قرآنا يقول إِنَّ ربنا سبحانه لم يتخذ ولدا ولا صاحبة، وفي القرآن لم يرد هذا الكلام إلّا في هذه السورة، وفي هذه الآية بالتحديد، وعليه نفترض أن تكون سورة الأنعام نَزَلَتْ قبل سورة الجنّ.

كما ترى مِنْ شفافيته تعالى حَصَرَ الكلام عمّا أمامه سبحانه وتعالى، عن السماوات والأرض التي لم تكن وخلقها سبحانه، وهكذا صار ما يسمّى بالدنيا في مقابل تغيّرها لتأتي الآخرة، ولن تجد تعبيرا قرآنيا يعمّم بتعبير قد يطال ما قد لا يعلمه تعالى، وَلَنْ تجد تعبيرا مثل: كل الدنيا، كل ما في الدنيا. إِذْ إِنَّ الدنيا وصف زمن قريب "دَانٍ"، وهو الذي نحن فيه، حَيْثُ إِنَّهُ سبحانه يتكلّم بالحقّ فقط وبشفافية، وَلَنْ يستعمل تَعَابِيرَ عمومية فيها مبالغة لدرجة شمولها لكل شيء حتى لو بالتخمين، لا، لِأَنَّهُ سبحانه وتعالى من صفاته الحسنى وقدراته الفائقة ليس مضطرا للمبالغة، حَيْثُ يُخْبِرُنَا بالضبط وبالدقة بما يعلمه ويراه، وَيُخْبِرُنَا بأنه لم يلمس ولا أي نوع من الأثر لأي كائن إلا نفسه والكائنات التي خلقها هو سبحانه، ولكنه سبحانه لا يستعمل تعابير غير دقيقة، عِنْدَمَا يقول بأنه خالق كل شيء، يقول ذلك لأن كل شيء ملموس له بعلمه، ويعلم سبحانه أنه هو خلقه، وهكذا ترى في كلامه تعالى الشفافية حيث لا ينفي سبحانه وجود آلهة غيره أو أي شيء غيره وغير مخلوقاته إلا عبر ما يعلمه ويلمسه.

(ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ{102})
{ذَٰلِكُمُ}، الذي فلق الحبّ والنوى... من بداية الصفات الإلهية من الآية 95 وصولا إِلَى الآية 101، {ذَٰلِكُمُ اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {رَبُّكُمْ}، المسؤول عنكم من مستوى إلهي.

{لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ}، وبقية الموجودات كلها مخلوقات، حَيْثُ إِنَّ لِوَحْدِهِ اللَّهَ عنده صفات حسنى وقدرات فائقة فوق صفات وقدرات المخلوقين، وهذا هو معنى الألوهية الحقيقية، أمّا الكلام الفارغ عن تسمية شيء ما بأنه إله هكذا فقط إطلاقا للتسمية، فهذا لن يغيّر أي شيء من حقيقة أَنَّ اللَّهَ سبحانه لوحده فقط وفقط لديه صفات وقدرات فائقة مختلفة وأكبر وأعلى من صفات كل الذين خلقهم.

{خَالِقُ}، مؤلّف مركّب، {كُلِّ شَيْءٍ}، يعني من جهة هو الله الإله وحده، ومن جهة ثانية الْبَقِيَّةُ كلّهم مخلوقات، كلّهم مُرَكَّبُونَ مُؤَلَّفُونَ من شيء ما.

{فَاعْبُدُوهُ}، تَصَرَّفُوا على أساس أنكم عبيده المفروض منكم طاعة إلهكم ربّكم، إذْ إنَّ كلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة وَهِيَ مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك. وما تعارفنا عليه بتسمية العبادة من صلاة ومناجاة... فهي من تطبيقات العبادة وليست مَحْصُورَةً فيها لأنها شاملة لكل ما تطيعه به تعالى.

{وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}، حَيْثُ إِنَّ تَسْيِيرَ أمور كل شيء راجع له تعالى، وَتَعْتَمِدُ عليه كل الأشياء، وكمثال عَلَى ذلك زوال الأشياء إن لم يستمر سبحانه بإمساكها لتبقى، وهذا ما تقوله الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ...}.

نلاحظ أننا من تعريفنا لكلمة "خالق، خلق"، يصير سؤال البعض عن خلقه تعالى حتى للشرّ، يصير سؤالا بلا معنى، إذْ إِنَّهُ سبحانه خالق المخلوقات، والمخلوقات يصدر عنها شرّ، وَنُوَصِّفُ بعض أفعالها بأنه شرّ، لِأَنَّ الشَّرَّ ليس مخلوقا ولا كائنا، بل وصف لأفعال وأفكار تصدر عن المخلوقات.

ما تَجِدُهُ هنا وهناك في الكتب من كلام عن خلقه تعالى لكل شيء، وبالتالي يعني خلقه تعالى للشرّ، فهو كلام فارغ وسفسطة بلا معنى. حَيْثُ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَنِي مع قابليتي على فعل الشر والخير، فإن فعلت الشرّ فهذا قراري أنا وسأتحاسب عليه، إذْ إِنَّهُ سبحانه أصلا خلقني بهذه القابلية ليحاسبني على كيفية استخدامها، وهذا هو معنى الحياة الدنيا لنا نحن البشر. وإن كنت تفكّر في إبليس ككائن لا يصدر عنه إلا الشرّ، وبالتالي سبحانه خلق كائنا شريرا فقط، فهذا غير صحيح، لِأَنَّ إبليس مثلنا فيه قابلية الخير والشر، وَاخْتَارَ الشرّ، وسيتحاسب على ذلك.

هناك سؤال: من خلق الله عزّ وجلّ؟ ضع في بالك دائما أننا نحن مخلوقون، حَيْثُ إِنَّنَا مركّبون مُؤَلَّفُونَ من شيء، وسبحانه وتعالى ليس مثلنا، وَهُوَ لَيْسَ مُؤَلَّفاً ولا مركّبا، وهو سبحانه أخبر بنفسه، وَأَخْبَرَنَا أنه لوحده ليس كمثله شيء، حَيْثُ لَا شَيْءَ يشبهه ولا بأي شكل، وَهُوَ سبحانه لوحده من جهة، والبقية خلقهم ركّبهم ألّفهم سبحانه.

يعني لا معنى للسؤال عمّن خلقه تعالى لأنه أصلا ليس مخلوقا، وَليس مركّبا ولا مؤلّفا.

كل شيء تسأل عمّن صمّمه وصنعه أو خلقه... إلا الله سبحانه وتعالى لأنه مختلف، وعقلي الصغير لا يستوعب بعض مفاهيم الفيزياء والرياضيات، وعقولنا لم تستوعب إلى الآن ما نلمسه ويمكننا التعامل معه مما يتشكّل منه كوننا، وهو سماء من سبع سماوات مختلفة عن بعضها في التكوين، وصولا إلى سماء الملائكة العالية(ع) وما بعدها... ما أريد قوله إنَّ معرفتنا لحدودنا أمامه تعالى من أساسيات الرقي في التفكير والعقلانية، إذْ إِنَّ الْإِصْرَارَ على معرفة كنهه تعالى، لمعرفة كيانه وما هو، طبيعته، جوهره... مستحيل حتى على الملائكة العالية المطلعة عن قرب أكثر منّا بكثير على أفعاله تعالى، حَيْثُ إِنَّ حَتَّى الْمَلَائِكَةَ العالية(ع) لا يمكنها أن تتواصل مباشرة معه سبحانه، وَيَسْتَحِيلُ ذلك عليها بسبب الفرق الهائل بينها وبينه تعالى، وتقرؤه صراحة في الآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا...}، وبقية الآيات التي تفهم منها أنه تعالى يقول شيئا ما مباشرة بالتواصل المباشر بينه وبين الملائكة، فهو اختصار لحالة الوحي إليهم أو الكلام معهم من وراء حجاب، لا لأنه تعالى وضع حاجزا بينه وبينهم، بل لأن طبيعته تعالى تجعل التواصل المباشر معه مُسْتَحِيلاً على أي مخلوق.

هذا كلام القرآن، وَهُوَ كلامه تعالى عن نفسه، وما يقولونه في الكتب من براهين عقلية عن العلة والمعلول ولزوم الدور أو التسلسل للبرهنة على أنه تعالى الأول، الْعِلَّةُ الْأُولَى، المحرّك الأول، العقل الأول... فهو كلام يبدو عميقا معقدا أحيانا ولكنه مجرد كلام لطيف وليس أكثر من محاولة طفولية أمام حقيقة قالها تعالى عن نفسه أنه ليس كمثله شيء كما ورد في الآية 11 من سورة الشورى، وأنه يخلق ولا يخلق كما نرى من الآية 17 من سورة النحل {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}.

بالنسبة لكلمة إله تَوَسَّعْنَا فيها في دراسة الآية 19 من هذه السورة فَرَاجِعْهُ.

(لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ{103})

{لَا تُدْرِكُهُ}، لا تصل إليه ولا تتواصل معه، {الْأَبْصَارُ}، حَيْثُ إِنَّ القدرة على إدراك ووعي الصورة غير ممكنة له عزّ وجلّ، ولا بأي شكل، ولا حتى رؤية ناحية أو جهة... إِذْ إِنَّ طبيعته سبحانه لا تسمح بإدراكه بالبصر من أي نوع كانت لا بالعين ولا بالأدوات... ولا بعيني ولا بعين الملائكة(ع) ولا بآلة أو أداة مع أي مخلوق...

{وَهُوَ يُدْرِكُ}، يصل إلى، {الْأَبْصَارَ}، فما تدركه المخلوقات وتعيه من صور فهو تعالى يدرك نفس تلك المعلومات التي تدركها المخلوقات، حَيْثُ إِنَّنَا المخلوقات لا يمكننا أن نبصره سبحانه ولا بأي شكل، ولكن الآية لم تقل إِنَّهُ تعالى يمكنه أن يبصرنا، بل قالت أكثر من ذلك، فهو سبحانه يرى ما نراه نحن، فيدرك ما نحن نبصر، وَالصورة التي نعيها يدركها عزّ وجلّ، فما في ذهني من صورة أعيها فهو تعالى يعلم بالصور التي في ذهني، بل وتعطي الجملة معنى إدراكه تعالى لما يقع عليه بصري ولم يتفاعل وعيي معه.

انتبه وميّز بين "أدري" و "أدرك"، فنحن في كلامنا الدارج نستعمل كلمة الإدراك لمعنى قريب من الوعي والمعرفة والدراية، وهذا من تبعات معنى الكلمة لأنه الوصول والتواصل مع عموم أي شيء، وبهذا المعنى فقط استعملها القرآن بدون التوسّع لشمول التبعات من المعنى، وَهذه عادة استعمال القرآن للكلمات على أصل وأساس معناها بعيدا عن التبعات والاشتقاقات.

{وَهُوَ اللَّطِيفُ}، واللطافة هي عامّة الرقة في أي شيء، في التعامل أو الكيان أو الشكل أو التكوين... وهنا الكلام عن طبيعته تعالى فلا جسم له، ولا تكوين مادي له، حَيْثُ إِنَّ الهواء لطيف لأننا لا نراه، ولكن نرى الأشياء من حولنا رغم أن بيننا وبينها الهواء، والزجاج لطيف لأننا نرى الأشياء من خلاله ولا يشكّل ستارا للرؤية، والله سبحانه في كل مكان ولكن لا نراه ببصرنا لأنه لطيف، وهذا ليس توصيفا لجسم أو لمادة بل توصيف لحالة ليس كمثله شيء.

وهو، {الْخَبِيرُ}، الذي لديه تفاصيل أخبار كل شيء، حَيْثُ إِنَّ إِدْرَاكَهُ تعالى حتى لما نبصره نحن ولطافته التي تعني تواجده تعالى في كل مكان، فهي تعني وجود كمية هائلة من المعلومات، ووصفه تعالى هنا بالخبير يشير لما يدركه، حَيْثُ إِنَّنَا ننسى أو نسهى، أو ما يصلنا من حواسّنا يفوق قدرتنا على استيعابه، لأن قدرتنا على التركيز محدودة، فأعيننا تنقل كل الصورة إلى دماغنا ولكننا نحتاج لوقت طويل من التأمل لاستيعاب تفاصيل صورة واحدة أمامنا، وأضف إليه أن طبلات أذننا تتحرّك استجابة لأي نوع من اهتزازات الهواء، ولكننا لا نعيها كلّها فلا نستطيع أن نفهم كلام كل الذين يتحدثون مع بعض في نفس الوقت، فنركّز على صوت واحد لنعي كلامه... أمّا سبحانه فخبير، وَلديه تفاصيل كلّ شيء ولا يغيب عنه أي خبر مهما كان نوعه.

(قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ{104})
عبر هذا القرآن قل للناس: {قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ}، حَيْثُ إِنَّكُمْ تحتاجون لما يجعلكم تفقهون الصورة، وَصار عندكم ذلك من المسؤول عنكم من مستوى إلهي، إِذْ إِنَّ الآيات هنا لفتت انتباهنا وأعطتنا معلومات، وهي بصائر وَتجعلنا نبصر الحقيقة، وَتجعلنا ندرك الصورة الْحَقِيقِيَّةَ ونعيها.

{فَمَنْ أَبْصَرَ}، مَنْ صار مدركا واعيا للصورة التي جاءته من ربّه سبحانه، وَلم يزغ ولم يتشوّش فكره، {فَلِنَفْسِهِ}، حَيْثُ إِنَّ الاستفادة له، وَهو المستفيد لأنه سيدخل إلى الجنة، ولا يستفيد تعالى من ذلك.

{وَمَنْ عَمِيَ}، وَلم يبصر الحقيقة رغم وضوحها أمامه، لأنه هو لم يرد أن يراها حَيْثُ ألحد أو أشرك أو لم يعبد الله تعالى، {فَعَلَيْهَا}، حَيْثُ إِنَّهُ على نفسه يقع الضرر.

{وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ}، وَأنا كرسول لَسْتُ مسؤولا عن بصيرتكم أو عماكم، إِذْ إِنَّ الحفيظ هو المسؤول عن رعاية وصون شيء، أما الرسول فمسؤول فقط عن توصيل الرسالة، فإن أبصرتم أو عميتم فَلِأَنْفُسِكُمْ أو عَلَيْهَا ولا علاقة لي بكم، وَلن أتحاسب عنكم، حَيْثُ إِنِّي لست مثل مدير المدرسة المسؤول عن التلاميذ حتى ينجحوا، ولست مديرا لمصنع حتى أتحمّل مسؤولية الْإِنْتَاجِ، لِأَنَّكُمْ تتحملون مسؤولية إيمانكم أو كفركم وليس أنا.

تَصَوَّرْ نبيا لم يؤمن معه أي شخص، هَلْ يقف في يوم القيامة ليتحاسب؟ لا، لِأَنَّ مهمّته هي توصيل الرسالة فقط، فإن أوصلها، فبعد ذلك لا علاقة له بما يحصل، فإن آمن الناس أو كفروا كلّهم فلا علاقة له.

مِنْ ناحية ثانية تَصَوَّرِ الكافرين يقولون: هذا الرسول فاشل لم يتمكّن من جعلنا مؤمنين. لا، لِأَنَّ مهمّته توصيل البصائر لكم، ومن بعد ذلك عَلَيْكُمْ كفركم أو لكم إيمَانُكُمْ.

ضِمْناً عطفا على ما سبق، لَا المشروع الإلهي فاشل ولا الرسول بعد توصيل الرسالة فاشل إن لم تؤمنوا، وَانْظُرُوا للنتيجة لأن إيمانكم نفعه لكم وكفركم ضرره عليكم، حَيْثُ إِنَّ الفشل فيكم لرفضكم ما يوصف بأنه بصائر، لِأَنَّكُمْ استحببتم بدلا منها العمى عن الحقّ والصلاح.

(وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ{105})
{وَكَذَٰلِكَ}، وهكذا كما ذكرنا في الجمل السابقة، {نُصَرِّفُ الْآيَاتِ}، بقرار منّا نوزّع الأمور المميّزة، بعلاماتها ودلائلها على الدين الإلهي، ومرة نلفت الانتباه لاستحالة تشكّل الإله بصنم أو كوكب... ومرة نلفت الانتباه لمحتوى الكتب التي ننزلها، ومرة نلفت الانتباه للمخلوقات... ولحياة النبات... فكل هذه الأمور المتنوعة، التي لا بد أن يلفتك فيها شيء، هي آيات، وهي دلائل مميزة على وجود خالق واحد صمّم ونفّذ ولا شريك له...

{وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ}، ليقولوا انتهيت وانمحيت، وليقولوا بأنك أيها النبي محمد(ع) حالة مؤقتة ستنتهي وبعدها تموت، حيث إن بعض الناس يرون الآيات التي يلفتهم إليها القرآن، ولكن لا يريدون أن يؤمنوا، ولا يجدون شيئاً يقولونه إلّا: أنت يا محمّد تقول لنا كلاماً اندرس، كلاماً عفا عليه الزمان، وعليه الغبار، ولا أحد يؤمن به، وأنت سيصيبك مثل الذين سبقوك، ستندرس، ومع مرور الزمن سينتهي كلامك ولن يكون لك أتباع، ولن يستمر دينك. ونفس المعنى تقريباً ورد في الآية 30 من سورة الطور {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ}، ويردّ عليهم ربنا سبحانه أنكم وصلتكم الآيات، وتنتظرون اندراس الإيمان بها! حسناً، فليقولوا هذا الكلام، لا يهم.

{وَلِنُبَيِّنَهُ}، سوف نوضّحه، ونجعل القرآن بآياته واضحاً، {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع دينه تعالى، {يَعْلَمُونَ}، لديهم علم له قيمة، وفعلاً لديهم علم، وما نفع الدرجات العلمية من شهادات جامعية إن كانت مبنية على عقل يرفض شيئاً ما حقيقياً عقلانياً صحيحاً! فالعالم بنظر القرآن هو صاحب الفكر السليم، لأن موضوع القرآن عن الدين وليس عن الرياضيات والبيولوجيا، فالإنسان العادي الذي لم يتعلّم في أي فروع مدرسية أو جامعية، ولكن قلبه سليم، ويفهم الكلام الإلهي ويؤمن به، فهذا عالم ذو قيمة عالية عنده تعالى.

أنتم لا نعتبر لكم قيمة حتى نتوقّع منكم حمل علوم هذه الآيات ونقلها للآخرين كي لا تندرس، وأصلاً ننذركم بالآيات ولا يهمّنا إن كفرتم بها، وهناك عالمون لهم قيمة عنده تعالى وستكون الآيات واضحة لهم، وهم الذين لهم قيمة ولذلك هذا الدين لن يندرس.

(اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ{106})
{اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ}، كن على، واسمع ونفّذ ما وصل إلى وعيك من المسؤول عنك من مستوى إلهي، {لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ}، فلا يوجد ولا كائن غيره موصوف بصفات وقدرات فائقة.

{وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}، فلا تهتم بالذين جعلوا لله تعالى شركاء في الألوهية لأن ألوهية آلهتهم وهمية وغير حقيقية.

هناك أناس يقولون بأنه يوجد عدة آلهة، ويجب أن نتقرّب إليها ونعبدها... ولها طقوس، وهناك أشياء تحبها وأشياء تكرهها تلك الآلهة... حيث تقول الآية إنَّ كل هذا كلام فارغ، فلا إله إلا الله تعالى، وهو سبحانه الوحيد الذي يجب اتباع أوامره التي تنزل وحياً على أنبيائه ورسله.

بقي شيء، حيث إنَّ العديد من الدارسين للقرآن يتعاملون بجمودية مع النصوص، وما مرّ معك من توجيهاته تعالى للمؤمنين عن تعاملهم وموقفهم من المشركين، فهو ليس عن ظروف فيها معاداة وقتال بين المؤمنين والمشركين، إذ إنَّ أمره تعالى للمؤمنين بالإعراض عن المشركين لم يفهمه العديد من الدارسين الذين تصوّروا عداوة وحرباً دائمة بين المؤمنين والمشركين، وبالتالي قال العديد منهم عن آيات مثل آيات سورتنا هنا إنها منسوخة، أي ملغاة! وترى العديدين منهم يقولون عن آيات إنها منسوخة لأنهم لم يفهموا إلّا التعارض بين الآيات بسبب جمودهم على حالة المعاداة والقتال بين المؤمنين والمشركين...

بالنسبة لكلمة إله توسّعنا فيها في دراسة الآية 19 من هذه السورة فراجعه.

الوحي هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خيراً أم شرّاً، وبناء عليه فكل أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وحياً لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وترى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}، وحتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...}.

ينطبق فعل الوحي على أي كائن كان "إنساناً حيواناً مَلَكاً أو جنّاً" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم، وطرق فعل الوحي أنواعه متعددة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}. ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}، وما ورد في الآية 193 و 194 من سورة الشعراء {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ}. أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ...}، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل. ووحي عبر إصداره تعالى صوتاً في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، مضافاً لها الآية 13 من سورة طه {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}، فكلامه تعالى معه(ع) وحي لأن الكلام ليس صادراً مباشرة منه تعالى فهذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، فيصير وصف الحالة أن كلامي يصلك وحياً.

هناك وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} ففي النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

الوحي يصدق على وحي الخير والشر، فالشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا...} ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... فالوسوسة في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيراً أو شرّاً فهو وحي.

(وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ{107})

{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ}، فأمامه سبحانه خيارات عديدة ولو قرّر، {مَا أَشْرَكُوا}، فيمكنه تعالى إجبارهم على الإيمان عبر السيطرة على تفكيرهم أو بجعلهم بلا شهوات ولا غرائز... وبعض الناس يقولون: لو كان سبحانه يريد هدايتنا، فبدل أن يرسل نبياً أو رسولاً، وبما أنه خلقنا، فبإمكانه جعلنا نحن في تفكيرنا ونفسيتنا مؤمنين. ولكن وكما تعرف من القرآن، فهذا الكلام لا معنى له، وغير منطقي، فصحيح أنه تعالى يمكنه إجبارنا على الإيمان، ولكننا سنصير من دون إرادة، فلا يمكننا اختيار الكفر أو الإيمان، أو سنصير بلا شهوات ولا نزعات نفسية، كالحجارة، أو سنكون كالآلات التي تعمل بشكل مبرمج، فحاول أن تتصور بقاءك كما أنت ولكنك من داخلك مؤمن غصباً عنك! حيث تريد أن تملك الكثير من المال، والطريق إليه عبر العمل والتجارة الحلال أو عبر النصب والاحتيال والتجارة الحرام، ولكنك غصباً عنك لا تختار الحرام! لأنك مبرمج على رفضه، فستكون بلا رغبات ولا نزعات ولا شهوات، وأصلاً لن يعني لك الحصول على المال أي شيء مثلما الملائكة(ع) لا يعني لها المال أي شيء، ولن يكون لمحاسبتك معنى لأنك لن ترتكب الخطأ، ولكن لن يكون للجنّة والنار معنى، فأنت مبرمج ولن تشعر بهما فعلاً، ولن تعنيا لك شيئاً لأنك بلا شهوة ولا رغبة... وهذا جانب أشار له القرآن للردّ على الذين يقولون إنه تعالى لو فعلاً أرادنا أن نؤمن لآمنّا.

نتذكّر ما أخبرنا به القرآن أننا نحن اخترنا حمل الأمانة الإلهية، وفهمنا أننا نحن اخترنا التمتع بالشهوات والغرائز، ونتعرّض للتكليف لنفوز بالجنّة ونصير خالدين... راجع الآية 72 من سورة الأحزاب {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}، فحملنا للأمانة هو وصف واقع حال كوننا إنساناً...

{وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا}، فلست أيها النبي(ع) مسؤولاً عن صيانة ورعاية إيمانهم، فبلّغ الرسالة واتركهم.

{وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ}، على الناس، {بِوَكِيلٍ}، فلم نوكلهم إليك، فتسيير أمورهم ليؤمنوا ليس من مسؤوليتك، فلم نحمّلك مسؤولية إيمانهم، ولست مثل مدير مدرسة مسؤولٍ عن التلامذة، أو مدير مصنع مسؤولٍ عن العمال والإنتاج، لا، لست كذلك.

هذا التنبيه مهم جداً، ويتكرر كثيراً في القرآن، فلا النبي حفيظ ولا وكيل، ولا أنا وأنت حفظاء أو وكلاء، ولذلك لا يحق له (ع) ولا يحق لنا كمتدينين الشعور بواجب "جعل" الناس مؤمنين، فقط يجب علينا توصيل الإنذار والبشرى، ولفت الآخرين للآيات.

رغم كثرة هذه الآيات في القرآن، إلّا أننا نجد أناساً يريدون نشر الدين وجعل الآخرين متدينين ولو بأي طريقة! ولو بالكذب! وكأنهم موكّلون وحفظاء! ويخترعون أشياء طفولية سخيفة بل وكاذبة... وينسبونها للدين! كالإعجاز العلمي والعددي للقرآن، كالشجرة والبندورة وشرايين القلب... التي على شكل جملة "لا إله إلا الله محمد رسول الله"! وكالتداوي من الأمراض الجسدية بقراءة القرآن! وكوجود الكعبة في وسط المربّع الذهبي لخريطة الأرض! وغيرها من فنون الكذب التي يأثمون عليها، لأنه تعالى لا يسمح بالكذب أصلاً، فكيف سيسمح به لترويج دينه! ومن أصله لم يلق سبحانه على عاتق رسله وأنبيائه وكالة إيمان الناس، فمن أوكلها إليكم!

الأنكى من ذلك استغلال حاجات الناس لجعلهم مؤمنين بدينه تعالى! كإجبار الفقراء على الانتماء لدينه تعالى ولو بالاسم، للحصول على وجبة طعام كما تفعل الإرساليات التبشرية للدين المسيحي، وتأثّر بعض المسلمين بذلك معتقدين أننا مقصرّون في التبشير لدين الإسلام، بينما الآخرون "المسيحيون" يستفيدون من ضمّ أهالي البلدان الفقيرة إلى دينهم، ومعلوم للجميع أن المسألة محض سياسية وأبعد ما تكون عن شيء إيمانيٍّ فعلاً، فالعنصرية البيضاء، وضمنها العنصرية الأوروبية البيضاء، وضمنها العنصرية الأوروبية البيضاء في جغرافيا لا تشمل ما كان يسمى بالاتحاد السوفياتي... فهؤلاء لا يهمّهم أن يصير الآخرون منهم على دينهم، بل يهمّهم أن يكون الآخرون معهم، فصيران الآخرين مسيحيين له منفعة سياسية، وإلا فمعلوم للجميع أنه لم يبق أي شيء له معنى ديني إيماني فيما ينشرونه من دين مسيحي، فقط آمن بأن الإله المسيح(ع) انصلب لتنغفر ذنوبك، وانتهى الموضوع فليس مطلوباً منك أي شيء.

للأسف نفس الفكرة السياسية "وإن كان بسوء أقل" درجت قديماً منذ الفتوحات الإسلامية الأولى بعد وفاة الرسول محمّد(ع)، فالحاكمون المسلمون كانوا يتعاملون مع الأمر الواقع على أساس أن تحتل الآخرين أو هم سيحتلونك... ولن أتوسع في ذلك مع أنه من ضمن كلام الآية هنا وعموم القرآن، فأعتبر أن الفكرة وصلتك.

(وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{108})

{وَلَا تَسُبُّوا}، لا تشتموا ولا تهينوا، {الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، فالمشركون يدعون فيشهرون ويعلنون عن غيره تعالى أنهم آلهة، فلا تسبّوا آلهتهم، فلا تقولوا عنها أشياء قبيحة مهينة، {فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا}، اعتداءً عليه تعالى، {بِغَيْرِ عِلْمٍ}، عن جهل، فمن لديه علم حقيقي له معنى فلن يتجرّأ ويسبّ الله تعالى، وأمّا الأحمق الجاهل، الذي تستفزّه بسبّ آلهته، فيسبّ لك الله تعالى، عَدْواً اعتداءً على مقام الألوهية، فآلهتهم وهمية وإلهك حقيقي ومن الجهل السباب للإله الحقيقي.

السباب يشمل الكلام السيئ البذيء والقبيح، أمّا ما ذكره القرآن عن آلهتهم فليس سباباً، فأنت تميّز بين الشتم والسبّ، وبين الإهانة، والقرآن سفّه عبادة "أهان واستسخف" آلهتهم، وبيّن أنهم ليسوا آلهة، ولكنه لم يسبّ.

{كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا}، وهكذا حسَّنَّا جمَّلْنَا، {لِكُلِّ أُمَّةٍ}، لكل جماعة من الناس لها امتداد تاريخي، وهنا الكلام عن المشتركين في الشرك، زيَّنَّا {عَمَلَهُمْ}، وكما ترى فهم مشركون، ويرون شركهم حسناً جيداً جميلاً، ويدافعون عنه لدرجة أنهم سيسبُّون الله تعالى إن سببتَ آلهتهم الوهمية!

{ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ}، ما تزيّن لهم من شرك لن يمر من دون حساب، فسيرجعون في الأخير إلى المسؤول عنهم من مستوى إلهي، {فَيُنَبِّئُهُمْ}، فيخبرهم بشيء علمه غير منتشر، {بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

إن كنت "كمسلم متدين" تشعر بالاشمئزاز من آلهتهم الوهمية، وتكرهها، وتشعر بدافع لسبّها، فلا تسبّها حتى لا يسبوا الله تعالى، ولا تنسَ أن عبادتهم لها لن تمر بدون عقاب، فسيرجعون لله تعالى، وسيقفون بين يديه، وسيخبرهم بكل ما فعلوه، فكل شيء كانوا يعملونه كان يتم تسجيله، ولم يكن خافياً عليه تعالى، وسيتحاسبون عليه.

بعبارة أخرى لا تأخذ الأمور على محمل شخصي، لأنَّ مشكلة شركهم بالله تعالى ليست مشكلة معك بل معه تعالى، وأنت التزم بما يأمرك به تعالى وبالنسبة لهم فهم سيحاسبهم تعالى على أعمالهم.

ضمّاً مع عموم مفاهيم القرآن عن مسألة شخصنة دينه تعالى، طالما أنَّ الآخرين ومهما كانت عقيدتهم وشريعتهم، طالما هم مسالمون معك، أنت مجبور على معاملتهم بالصلاح، بل والاعتناء بهم لدرجة الصدقة عليهم إن كانوا محتاجين للمساعدة، بل ولدرجة أن تودّهم إن كانوا ودودين معك، ولا يحق لك ولا بأي شكل إجبارهم على ترك دينهم، وهذا واضح جداً جداً من عموم كلام القرآن ومنه الآية 8 من سورة الممتحنة {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

بناءً عليه هنا الآية تعالج أساساً فيك أنت كمؤمن حتى لا تعتبر مسألة الإيمان به تعالى كمسألة شخصية كما هو دارج بين الناس المحازبين الذين تصل بهم الأمور إلى درجة حصول نزاعات بالسباب والقتال بينهم وبين الآخرين على خلفية الخلاف السياسي والديني... لا، لأنَّ هذا مستوى منخفض وأنت كمنتمٍ لدينه تعالى من المفروض بك أن تكون هكذا حتى في مسألة السباب لآلهتهم، فلا تفعلها، ومعلوم لك أنه تعالى يراقب وسيحاسب ويجازي، وأنت لا دخل لك بمعتقداتهم إلا بالحسنى، حيث إنَّ حدّك الأقصى مع المسالمين أن تنذر وتبشّر فقط لا غير.

نلاحظ القرآن تحدّث عن تزيين الأعمال بطريقتين، ومرة قال إنَّ الشيطان يزين الأعمال الشريرة، ومرة قال إنَّ الله تعالى يزين للناس أعمالهم الحسنة والشريرة، ونفهم بسهولة أن الشياطين تريد إضلال الناس فتزيّن لهم الشرك والفواحش... حتى تقنعهم به، أما تزيينه تعالى الشرك للمشركين وقبائح الأعمال... فهو مثل الطبع على القلوب، لأنه تحصيل حاصل، حيث إنَّه سبحانه وتعالى لا يجعل الناس تقع في الفخ، بل يغربل الناس، ومَن عنده رغبة في الإيمان سيحصل على المساعدة حتى يؤمن أكثر، ومن عنده رغبة في الكفر سينال ختماً على قلبه، وهكذا خلقنا تعالى، وسيرى الشرك مزيَّناً جميلاً حسناً، لأنه هو قرّر أن يشرك، وسبحانه زيّن له الشرك حتى يغرق أكثر فأكثر في انحرافه، لأنه هو قرّر الانحراف.

(وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ{109})

{وَأَقْسَمُوا}، فأكّدوا لكم، {بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ}، بأقصى وأقوى ما يمكنهم من قسم، وأقسموا وأكّدوا لكم بالله تعالى، {لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ}، إذا أتاهم شيء مميّز، كعلامة أو دليل من الله تعالى، {لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا}، وأكّدوا بأنهم مستعدون للاعتقاد بها، حيث يريدون شيئاً يقنعهم، ويكون غير عادي. ولكن هل هم فِعْلاً صادقون في قسمهم وكلامهم صحيح؟

{قُلْ}: {إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ}، وليست عندي، فقرار حصول شيء مميّز غير عادي ليكون دليلاً على صدق رسالتي ليس بيدي، بل عند الله تعالى، حيث اقترحوا على النبي(ع) أشياء كثيرة غير عادية، واقترحوا أن يَنْزِلَ عليه مَلَكٌ يرونه بأعينهم أو تنزل الكتب عليهم من السماء، وحيث مرّ ذلك هنا في السورة، أو تنفتح السماء ويروا الملائكة(ع) والله تعالى...

الآيات السابقة أخبرتنا أن النبي(ع) ليس حفيظاً ولا وكيلاً على إيمان الناس، وهنا تتحدث عن أنهم يطلبون منه آية تدل على نبوته ورسالته، وكأنه (ع) مضطر ومجبور لتأمين طلباتهم حتى يؤمنوا به وكأنه حفيظ أو وكيل عليهم... وإلا فمصير دعوته لهم الفشل... فيأمره سبحانه أن يخبرهم بأنه مجرد رسول ولا علاقة له بالآيات، فقرار حصولها ليس بيده.

حسناً، هذا قول أناس لم يؤمنوا، ولكن إذا سمعهم المؤمنون فربما يميلون لكلامهم، حيث ربما نقول بأنه لو نزلت عليهم آية لآمنوا، فَلْنَرَ:

{وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا}، الآية، {إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ}! فماذا لو نزلت الآية ولم يؤمنوا! فهل تشعرون بهذا أيها المؤمنون؟ فهناك احتمالان، إمّا أن يؤمنوا إن نزلت آية، أو يبقوا كفّاراً، والمؤمنون ربما يميلون إلى أن الكفّار سيؤمنون إن رأوا آية، فيسألهم سبحانه: هل لديكم تفاعل مسبق مع نزول آية عليهم لتعلموا إن كانوا سيؤمنون!؟ فما أدراكم أنهم لن يؤمنوا مع أنه الأرجح؟ فهذا الاحتمال موجود، بل كما نعرف من القرآن أن الآيات أصلاً لهذه النوعية من الناس لا تسبّب الإيمان، وسنرى ذلك بعد قليل.

طبعاً الكلام هنا عن الآية التي يطلبونها كشيء مميّز غير الموجود في خلقتنا وما حولنا، فهم يطلبون ما دَرَجَ بين الناس بتسميته بالمعجزة، كخروج ناقة من صخرة أو نزول كتب من السماء في قراطيس أو تمطر السماء ذهباً...

(وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{110})
إذا جاءت الآية:

{وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ}، وما في وعيهم مما تلتقطه حواسّهم لا نتركه يثبت، والفؤاد بتعبيرنا الدارج يعني: الوعي الإدراكي الناشئ عن الوعي للذات، فهو قابلية وعي النفس ووعي ما يصل من الحواس.

{وَأَبْصَارَهُمْ}، ونقلّب قدرتهم على إدراك ووعي الصور، فنجعلهم لا يفهمون الصورة الحقيقية، فلا تثبت أفكارهم ولا الصورة في أذهانهم على الإيمان، {كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ}، مثلما لم يصيروا في حالة الإيمان بهذا الدين بشكل عام من توحيد ونبوة وكتاب... {أَوَّلَ مَرَّةٍ}، حيث إنهم أول مرة هم أصلاً يعيشون في بيئة مشحونة بالآيات الدالة عليه تعالى، ووصلهم الدين الإلهي الذي تدل عليه تلك الآيات، والذي مضمونه الحقّ والصلاح، ولم يؤمنوا، فلم يصيروا في حالة اعتقاد والتزام به، وبعدما تأتي الآية التي يقترحونها، ستتقلب أفئدتهم وأبصارهم ولن تثبت على الإيمان مثلما حصل معهم أول مرة ولنفس الأسباب السابقة.

{وَنَذَرُهُمْ}، نتركهم ولا نهتم بهم، {فِي طُغْيَانِهِمْ}، في خروجهم عن حدودهم، من إنكار للحق بالكفر والشرك وكره للصلاح... {يَعْمَهُونَ}، لا يثبتون على فكرة واضحة.

بعبارة أبسط: ما أدراكم أيها المؤمنون أنهم سيؤمنون إن جاءتهم آية؟ ففي أول مرة جاءهم الدين الإلهي تذبذبت أفئدتهم وأبصارهم، فكانت الأمور تحصل أمامهم ويرونها ولكنهم رافضون للحق ولا يريدون رؤيته ورافضون للصلاح ولا يريدون الالتزام به، ووعيهم أصلاً لم يثبت على الإيمان بالحقّ والصلاح فهم يعمهون قبل الآية التي يطلبونها ونفس الشيء سيبقون يعمهون بعد حدوث آية يطلبونها.

الآية هنا تعتمد على فهمك لعموم كلامه تعالى عمّا يُعرض عليهم ويكفرون به، فكلمات الآية بدون مخزونك الثقافي الديني المتحكّم بك، ستعطي معانيها اللغوية الأساسية المعنى التالي: الفؤاد "إدراك عموم ما تلتقطه الحواس"، والبصر بالمعنى العام لوعي ما هو أمامك، وهما قابليتان تجعلاننا نميّز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، وهؤلاء الطالبون لآية "معجزة" حتى يؤمنوا، كانت أفئدتهم وأبصارهم من قبل عامهة، لا تستقر على الحقّ والصلاح لأنهم لا رغبة لهم به، فهذا هو الدين الإلهي المعروض عليهم، وحتى بدون أي آية ولا من أي نوع كانت، فمجرد عقلانية وصلاح المعلومات التي ينقلها لهم الرسول محمّد(ع)، والتي من المفروض أن يروها حقّاً وصالحةً، مِن المفروض أن يؤمنوا بها، ومسألة الآية "المعجزة**" ليؤمنوا ما هي إلا عذر أقبح من ذنب.

لِنُعِدْ صياغة هذا المفهوم القرآني بعبارات أخرى لأنه من المفاهيم الأساسية المتكررة في القرآن، فماذا لو جاء شخص ما وفعل أشياء غريبة عجيبة لا يمكننا فعلها ولا تخطر بالبال مثل الذي نراه في الأفلام الخرافية؟ لِنَقُلْ إنه نسخ نفسه لعشرين نسخة فوراً وأمامنا، أو انتقل بلمحة من مكان لآخر، أو بكلمة منه تصير الأشياء الغريبة العجيبة، فيخلق قصراً وحدائق بلمحة... فهل في هذه الحالة نكون مجبرين على الإيمان بالعقيدة والالتزام بالشريعة التي يقولها؟

بالطبع لا، لأن قيامه بالمعاجز لا يلغي معايير الحقّ والباطل والخير والصلاح، ومن المستوى المتدنّي جداً الفهم الدارج للآيات التي جرت على أيدي الأنبياء على أنها من هذا المنطلق، بالرغم من تكراره تعالى الكلام مراراً عن أن الآيات من نوع "المعجزات" ليست وسيلة صحيحة ليؤمن الناس بدينه تعالى، وليست أصلاً وسيلة معتمدة منه تعالى، بل سبحانه أجرى بعض الآيات من هذا النوع حتى يعلم الناس جميعاً أنها ليست نافعة، كما فعل في الحالة الاستثنائية جداً جداً لفرعون وقومه.

ضع هذا المفهوم في بالك وأعد قراءة الآية هنا وما حولها، وسترى معنىً مختلفاً عمّا هو متداول في الكتب.

(وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ{111})
حسناً، هم يطلبون آية حتى يؤمنوا: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ}، إلى الذين يطلبون آية "معجزة"، لو نزلنا إليهم، {الْمَلَائِكَةَ}، ليروا هذه الكائنات بأعينهم، {وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ}، فقام أشخاص ميتون منذ زمن بعيد من قبورهم، وعادت إليهم الحياة بشكل كامل، وعاد وعيهم وفكرهم وذاكرتهم وتكلموا مع الكفار.

{وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ}، لو جمعنا على الكفّار بقرار منّا يتنفّذ سواء قبل أو رفض من سَيُنْجَمَعُ، {كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا}، قبالتهم أمامهم، وبتعبيرنا البسيط: لو جلبت لهم أي واحد يخطر على بالك من أي نوع من المخلوقات حتى يؤمنوا، {مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا}، فلم ولن تجعلهم تلك الأشياء يعتقدون بالدين الإلهي.

هل لديهم قدرة قاهرة فوق قدرة الله تعالى؟ وهل يمكنهم أن يقفوا أمام إرادة الله تعالى إن أراد تعالى جعلهم مؤمنين غصباً عنهم؟ لا، فلن يؤمنوا {إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة غير هذا النوع من الآيات، فلو شاء تعالى لجعلهم مؤمنين غصباً عنهم، وسحب منهم الإرادة وحرية الاختيار، ولجعلهم مبرمجين مؤمنين غصباً عنهم، أو جعلهم يشعرون بالألم الشديد أو يصيبهم الشلل كلما فعلوا شيئاً مخالفاً لكلامه تعالى.

نلاحظ تنبيهات متكررة من هذا النوع في القرآن، حتى لا نفهم أننا نملك إرادة وقدرة أقوى من إرادة وقدرة ربنا تعالى، وحتى لا نفهم أننا عندما نشاء أن نؤمن فنحن بقدرتنا القوية آمنا ولا يمكن لله تعالى أن يغيّرنا، وحتى لا نفهم أن من كفر لديه قدرة على معارضة قدرة الله تعالى، لا، فنحن لدينا قدرة على الاختيار ولكنها ليست قدرة نابعة من ذاتنا، بل منحها الله سبحانه لنا، ويمكنه سبحانه أن يسحبها منّا ساعة يشاء.

الفكرة الساذجة التي يقولها البعض: يريدني الله أن أؤمن وأنا لا أريد أن أؤمن. يشاء الله أن أؤمن وأنا أشاء أن أكفر... فهذه الجمل غير صحيحة، فهي توحي بأن لديه قدرة تتنفّذ وتقهر ما يريده تعالى، بينما أصلاً لم يقل سبحانه هذه المعاني، فلو أراد تعالى شيئاً ما، لحصل حتماً، وإتاحته تعالى لنا الآيات المتنوّعة لنهتدي بها هي الامتحان الذي نتعرّض له ليرى تعالى كيف سنستخدم حرية الإرادة التي منحها لنا، وكثيراً ما وقع الناس وحتى الدارسون في معنى كلامه تعالى عن مشيئته، ففهموا منها أنه تعالى يريد شيئاً ما، بينما المشيئة مجرد خبر عن خيارات متاحة أمامه تعالى واختار منها شيئاً ما، فشاء لنا تركنا مع حرية الإرادة والاختيار لنؤمن أو نكفر.

بالنسبة للآية هنا بعبارة أخرى، فلو نزلت الملائكة(ع) و... و... ما كانوا ليؤمنوا لأنهم لا يريدون أن يؤمنوا مهما جرى. انتهت الجملة، ويخطر ببالنا من هذا الكلام أن لديهم القدرة الذاتية القاهرة فوق قدرة الإله، فالإله يريدهم أن يؤمنوا، وهم يعارضون مشيئته، فحتى لا نفهم هذا المعنى، نجد القرآن دائماً ينبهنا أن قدرته تعالى فوق قدرتهم، فهو سبحانه ترك لهم حريّة الاختيار، ولكنه سبحانه لو شاء لجعلهم يؤمنون غصباً عنهم وبطرق متعددة.

{وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ}، يفكرون ويتصرفون بطيش وليس عن دراسة وفكر، فالآيات مهما كان نوعها لن تنفع مع الكفار لأنهم هم قرروا أن يكونوا جهلة طائشين، وليسوا مستعدين للتصرف والتفكير عن وعي ودراسة وفكر.

بقي شيء، في كلّ القرآن لن تجد أن شخصاً ما آمن لأن آية غير عادية حصلت أمامه، طبعاً الآية التي نتكلّم عنها هي غير الآيات التي من الأصل أتاحها تعالى لنا، والمنتشرة في خلقتنا وخلقة بيئتنا، فنحن نتحدّث عن آية من نوع الآية التي تتحدّث عنها الجملة هنا والتي يسميها الناس بالمعجزة، كفلق البحر وتحويل العصا لحيّة أو إرجاع الأموات إلى الحياة أو إظهار الملائكة... فمن لم يؤمن بالآيات كما آمن النموذج إبراهيم وبقية النماذج التي ذكرها تعالى لنا في القرآن، وأراد شيئاً خارقاً للعادة، وغير مألوف حتى يؤمن، فهذا لن يؤمن حتى لو جلبت له كل شيء أمامه وبين يديه.

لدينا حالة كنت أظن أنها تكسر هذه القاعدة، وهي حالة إيمان السحرة الذين جلبهم فرعون لتحدّي النبي موسى(ع)، ولكن هذا حدس ضبابي غير صحيح، فكلام السحرة حين "أعلنوا" إيمانهم برب موسى وهارون، يريك أنهم "أعلنوا" أشهروا أفصحوا عن إيمانهم، ومن الواضح من كلامهم أنهم من قبل كانوا مؤمنين، وعاندوا إيمانهم بسبب إغراءات وتهديدات فرعون لهم ليغلبوا النبي موسى(ع)، وتقرأ ذلك صراحة في الآية 73 من سورة طه {إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ}، ولكن طفح الكيل حين رأوا آية تأكّدوا أنها إلهية وتثبت أن موسى رسول(ع)، وأنهم إن أنكروا صِحَّتَهَا الواضحة أمامهم فهم سيتحملون مسؤولية تكذيب آية إلهية، والناس سيقولون إن أهل الاختصاص بالسحر فضحوا سحر موسى فهو ليس رسولاً... ولهذا فلم يعد الوضع يتحمّل المعاندة فأشهروا إيمانهم، فهم سابقاً كانوا مؤمنين به تعالى، وفي تلك الحادثة أعلنوا ما كانوا يخفونه.

أكرر لك، أنهم لم يؤمنوا بسبب تلقّف حيّة النبي موسى(ع) لسحرهم، بل تأكدوا أنها ليست سحراً ولا مجال أمامهم بعد لإنكار كون موسى رسولاً إلهياً، فهم بالأصل منكرون لألوهية فرعون ومؤمنون بفساد دينه، ولكنهم لا يتجرؤون على إعلان ذلك...

هذا مفهوم قرآني يجعلنا نفهم عمق كلامه تعالى عن الآيات التي يطلبها الناس معترضين أو رافضين للإيمان عبر الآيات التي أتاحها تعالى فيما خلقه من كائنات وظواهر، فهؤلاء هذا مستواهم، ولن يتغيّروا، ولن يؤمنوا ولن يتغيّروا مهما حصل، وهذا التاريخ حول آياته تعالى وإيمان الناس، فلن تجد فيه ولا شخصاً آمن لأن "معجزة" أو شيئاً غير عادي حصل أمامه أو سمع به، فمن الأصل يكون لديه إيمان، أو ميول للإيمان، أو بذرة بياض إيمانية في قلبه... فهذا ستساعده الآية على تنمية إيمانه، أمّا الآخرون مرضى القلوب، فلم ولن تجعلهم الآيات يؤمنون لأنهم لديهم قرار عميق صلب بأن لا يؤمنوا، وأن يتعاموا ويصمّوا عن الآيات مهما كان نوعها. وتقصّد سبحانه وتعالى جعل فرعون وقومه نموذجاً بارزاً عن هذه الحالة بتسع آيات مختلفة بالنوع والأثر، حتى إن فيها آيات تمسّهم وتمس حياتهم... ولم يؤمنوا، وبذلك تعلم أن المشكلة ليست في الآيات بل في القرار عند بعضهم بألا يؤمنوا لأنهم لا يريدون أن يتغيّروا عن طغيانهم.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ{112})
{وَكَذَٰلِكَ}، وبهذا الشكل الذي قرأته عن هذه النوعية من الناس التي لا تؤمن بدينه تعالى وتشترط حصول آيات غير التي أتاحها تعالى، هكذا {جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ}، لكل شخص يصله نبأ، والكلام عمّن يصله خبر غير منتشر علمه منه تعالى لهداية الناس، جعلنا له {عَدُوًّا}، مضاداً معانداً كارهاً، وأعداء النبي هم: {شَيَاطِينَ}، الموصوفون بقيامهم بأعمال الضلال لأنفسهم وللآخرين، شياطين {الْإِنْسِ}، الناس المخلوقين من تراب، وأعداء من شياطين {وَالْجِنِّ}، المخلوقات من النار، ودائماً كلما جاء نبي، جاء من يعاديه، جاء من يقوم بعمل مضاد لعمله، حيث إنَّ النبي يدعو للهداية للحق والصلاح وهناك دائماً من يدعو إلى الضلال، فيكون وصفه أنه شيطان سواء أكان من الجنّ أو من الناس.

{يُوحِي}، يوصل المعلومات إلى فكر، {بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ}، حيث إنَّ بعض شياطين الجنّ يوحون لبعض شياطين الجنّ والإنس، ويوحون ويوصلون بطريقة أو بأخرى إلى فكرهم، {زُخْرُفَ الْقَوْلِ}، الكلام المزخرف المنمّق المحبب، {غُرُورًا}، ووحيُهم لبعض في حقيقته ليس محبباً وليس جيداً ولكنهم يغترّون فينخدعون بشيء يظنونه جيداً ولكنه في الحقيقة شيء سيئ.

{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ}، فأمام المسؤول عنك من مستوى إلهي خيارات عديدة ولو قرّر، {مَا فَعَلُوهُ}، حيث يمكنه سبحانه قطع طريق الوحي بين بعضهم البعض، فيمنع الشياطين من التواصل مع بعضها ومع الآخرين، وتواصلهم مع بعض لمعاداة الأنبياء لا يحصل بقدرة فوق قدرة الله تعالى، بل هو سبحانه تركهم يتواصلون مع بعض حتى يحاسبهم ويجازيهم على هذا العمل.

هم لا يخرّبون المشروع الإلهي، فسبحانه ليس لديه مشروع جعل الناس والجن مؤمنين بينما الشياطين يفسدون مشروعه تعالى، لا، لأنَّ المشروع الإلهي يتضمّن خلقة الجن والإنس مع حرية الإرادة والاختيار، والناجح منهم الذي آمن وعمل الصالحات، ونجاحه نتيجته لنفسه، فسيدخل جنّةً خالدة، وفشله عليها فسيتعذّب.

{فَذَرْهُمْ}، فانفصل عنهم ولا تهتمّ بهم فاتركهم، {وَمَا يَفْتَرُونَ}، فهم يخترعون أشياء كاذبة لا أساس لها من الصحة، فلا تهتم، واتركهم.

طبعاً لا تقصد الآية القول للنبي(ع) ألّا يوصل الإنذار الإلهي لهؤلاء، بل تقول له إنك بعد توصيل الإنذار الإلهي لهم، فاتركهم ولا تهتم بهم ولا بافتراءاتهم، فهم شياطين ولهم حساب...

لمزيد من التوسّع حول كلمة وحي، راجع ما مرّ في دراسة الآية 106 من هذه السورة.

(وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ{113})
اتركهم مع الوحي الشيطاني بزخرف القول:

{وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ}، لِتَمِلَ وَتَتَّجِهَ إلى زخرف القول، {أَفْئِدَةُ}، ما يستقبله وعيهم من أفكار ومشاعر، وبتعبيرنا الدارج فإنَّ الفؤاد هو الوعي الإدراكي الناشئ عن الوعي للذات، فهو قابلية وعي النفس ووعي ما يصل من الحواس. وما يصلهم من الصوت والصورة وبقية الحواس من الشمّ واللمس ومعرفة الاتجاه "من السائل في الأذن..." و... والناتج عن الوحي الشيطاني، لِيَمِيلُوا إليه تاركين كلامه تعالى.

{الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ}، لَوْ آمنوا وَاعْتَقَدُوا بوجود حياة بعد الموت ستأتي في الآخرة، ولو اعتقدوا بالحساب والجزاء فيها، لكانوا اتبعوا الأنبياء لا الشياطين، ولكان وعيهم لا يميل إلى زخرف القول.

{وَلِيَرْضَوْهُ}، لِيَقْبَلُوا بالكلام المزخرف وليحبّوه وليشعروا بالاكتفاء به.

{وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ}، حيثُ إنَّ العنوان الكبير هو كفرهم وشركهم ومخالفة كلامه تعالى، وهؤلاء عبر التاريخ يمرون ويكون لهم "قرفة" كحصّة لهم من المشاركة في "عمل" الكفر، لِيَقُومُوا بحصّتهم في أعمال المشاركة في الكفر، فاتركهم ولا تهتم.

بعبارة أخرى، على راحتهم وكما يحلو لهم، لِيَفْعَلُوا ما يَحْلُو لهم على طريق الضلال، ومعلوم لك من الكلام أنه تعالى يريدك ويريدهم أن يسمعوا أنه تعالى لا يضرّه ما يفعلونه، وهم المتضررون بسوء المصير...

(أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ{114})
تحدّثت الآيات السابقة عن الذين ينكرون الآيات فيشركون ويتركون دينه تعالى، ويخترعون عقيدة على مزاجهم، وما يلي هو ما يعرضونه على المؤمنين به تعالى:

{أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا}؟ أتركه تعالى طالباً غيره كحاكم عليّ وأعتبر وأعتقد أن ما يقوله هو الصواب، {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ} "القرآن" {مُفَصَّلًا}، غير مجمل، فلا اختلاط في محتواه مع أمور باطلة أو تسبّب التشويش. وبعد نزول كتاب من الله تعالى كيف أنا وأنتم، وبأي حجّة نترك كتابه! أأترك كتابه وأجعل شيئاً آخر حكماً عليّ فيحكمني في عقيدته وتشريعاته! فما هو هذا الشيء الآخر وما قيمته أمام كتاب نازل من الإله سبحانه وتعالى! وفرضاً فرضاً كان الكتاب الإلهي غير واضح لقلنا إنَّ معي عذراً بتركه لأنه لم يكن واضحاً فلم أعلم منه الخير من الشرّ والحقّ من الباطل... ولكنه مفصّل.

{وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ}، حيث وصلهم منه تعالى الكتاب الإلهي "التوراة والإنجيل وصحف الأنبياء..." {يَعْلَمُونَ أَنَّهُ}، القرآن، {مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ}، نازل من المسؤول عنك من مستوى إلهي، {بِالْحَقِّ}، بالصواب، وليس بالباطل، ومن محتواه يعلمون حقاً أنه منه تعالى وليس ادعاءً باطلاً، فليس شيطانياً ولا من الجنّ ولا من تأليف البشر، ولم ينزله عبثاً وباطلاً بل يجب اتباعه، ومخالفته عليها حساب.

{فَلَا تَكُونَنَّ}، أيها النبي(ع)، {مِنَ الْمُمْتَرِينَ}، فالكتاب الذي معك هو كتاب إلهي بالتأكيد، ويجب عليك أن تجعله حاكماً عليك، ومن يجادلك في ذلك فهو يماري، لأنك بالتأكيد معك حق وهو فقط يناقش به، والذين نزل عليهم كتابا التوراة والإنجيل وغيرها، عندما يقرؤون القرآن سيعلمون أنه مشابه لكتبهم وأن محتواه يدل على أنه إلهي وامتداد لدينهم، فهذا الذي يجادلك إنما يماري، ويقول كلاماً تافهاً سخيفاً أمام حقيقة ناصعة فلا تتماشى معه.

بعبارة أخرى مباشرة أنت بين يديك مستند من مصدر إلهي، فهل تتركه؟ فما هو المعروض عليك لتتبعه وسيكون له أهمية بأهمية الكتاب الإلهي؟!

(وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{115})
{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ}، هناك كلمة قالها المسؤول عنك من مستوى إلهي تحققت بالتمام ولم يمرّ عليها فترات انقطاع، {صِدْقًا}، عن حقّ تحققت، {وَعَدْلًا}، حيثُ إنها لم تكن كلمة ظالمة، {لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ}، إذا قال سبحانه شيئاً فإنه سيحصل ولا يستطيع أحد تبديله بكلام آخر.

عطفاً على الآية السابقة، حسم تعالى موضوع الحاكمية له وحده تعالى، ولم يسمح لأحد غيره أن يشرّع ويسنّ القوانين، ولم يسمح سبحانه لنا بترك كتابه واختراع قانون من تلقاء أنفسنا، وحكمنا تعالى وأنزل كتاباً، وهذا كلام صدق ولم يخترعه النبي محمد(ع)، وهذا كلام عدل فليس فيه ظلم لأن إلهنا ذو الصفات الحسنى والقدرات الفائقة له الحقّ أن يحكمنا بكلامه، ولن يكون ظالماً إن حكمنا، ومن حكمته وعلمه شرّع لنا الدين... وبما نتحمّله ونقدر عليه... وبما فيه سعادتنا... حيث ربما يخطر ببال أحد ما أنه تعالى خلقنا ولكن تركنا من دون أي تعليمات منه، وهذا غير صحيح لأنَّهُ سبحانه قرّر أن يحكمنا وهذا حقّه وليس ظلماً، ومن ناحية ثانية أيُّ مصدر آخر سيكون أليق وأنسب من الإله لنتبع كلامه؟

{وَهُوَ السَّمِيعُ}، الذي يسمع كل شيء، ويسمع الذين يمارونك.

وهو، {الْعَلِيمُ}، يعلم كل شيء بالتفصيل، ويعلم كل ما يفعله ويقوله الذين لا يتخذون الله تعالى وكتابه حكماً عليهم، ومن ناحية ثانية عن علم حكمنا سبحانه وليس عن نقص في المعلومات...

سنرى من الآيات الآتية مزيداً عن هذا الكلام:

(وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ{116})
{وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ}، فتسمع كلامهم وتنفّذه فإنهم {يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، فيجعلوك على مسلك غير المسلك الذي يرضاه تعالى، فقط عندما تجعل الله تعالى وكتابه حاكماً عليك تكون ماشياً على المسلك الصحيح، مسلك الحق والصلاح المؤدي إلى رضاه تعالى، وبقية المسالك التي يقترحها أكثر أهل الأرض، هي طرق ضلال.

نلاحظ الآية تشير إلى أن بعض الناس يصلون إلى تشريع قانون جيّد من دون الاعتماد على الكتب الإلهية، ولكنهم أبداً لن ينجحوا في قانون كامل جيد من دون مساعدة القرآن، حيث إنَّ أكثر أهل الأرض مسالكهم ضلال، وبعضهم في بعض الأمور مسالكهم صحيحة حتى لو لم يكونوا من المنتمين للدين الإلهي.

{إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ}، فهم يعتقدون أنهم على المسلك الصحيح، ولكن ظنّهم غير مستند على شيء صحيح، حيث إنَّ أكثر أهل الأرض يعتقدون بأشياء، ولكنها غير مستندة إلى علم صحيح، وهناك ظن صحيح لأنه يستند على شيء صحيح، وهناك ظن خطأ لأنه يستند على شيء غير صحيح، وحتى نحن نظن أن القرآن صحيح ومصدره إلهي، وظننا

هذا في محلّه لأن القرآن فعلاً صحيح، أمّا أكثر أهل الأرض، فيظنون تشريعاتهم صحيحة، وهذا خطأ لأن تشريعاتهم في الحقيقة ليست صحيحة.

{وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ}، فيقولون أشياء عن حدس عن تخمين وافتراض وليس عن علم.

كما ترى سياق الكلام السابق كان عن اختراع الناس لعقيدة من خيالاتهم وأوهامهم، فأشركوا وكفروا... وهنا الكلام أعمّ من ذلك، فترى دولاً تعتنق العلمانية، ورافضة لأي عقيدة دينية كأساس لتشريعاتها، والغالبية من العلمانيين يعتبرون الدين تراثهم الذي ينتمون له، وعلى المستوى "التراثي" يحاربون بقية الأديان، لأن دينهم انمسخ وصار بشكل ما مناسباً لهم لأنهم فصلوه عن الدولة... وهنا الكلام عن مثل هذه الأمور، فلا يرى تعالى هؤلاء إلا ضالين، في عقيدتهم وتشريعاتهم.

كما تلاحظ في تشريعات غالبية الدول، هناك ما يوافق تشريعاته تعالى، من المساواة في الحقوق والواجبات بين كل المواطنين، واحترام ملكية وحرية الآخرين، وتحريم الغش والنصب والاحتيال والسرقة... وتقديم المساعدات للمحتاجين... وتوزيع ثروات الدولة بشكل عادل... وغيرها من الأمور التي يطبّقها البعض ويتحايل عليها آخرون أو يفرضون القانون فقط على المستضعفين... ومن جانب آخر ترى تشريعات مخالفة لدينه تعالى، كتشريع المخدرات والمسكرات والزنا والربا والقمار... ومن المعلوم بين العقلاء أن هذه التشريعات هي هوى العامّة، حيث إنَّ غالبية الناس موافقون عليها، وحكّامهم على هواهم وهوى غالبية الناس يشرّعون هذه الأمور... وكتشريع الربا المعلوم منفعته لوحوش المال مع استفادة ظاهرية للفقراء ومتوسطي الدخل... وكتشريع القمار الذي ولا عاقل إلا ويراه فساداً، ولكن تتماشى الدولة مع رغبة لا يمكن إيقافها لبعض مواطنيها فتشرّع القمار وتديره حتى تسحبه من أيدي العصابات... وكتشريع المخدرات المعلوم تسبّبه بحوادث كارثية بلا ضوابط ممكنة لمعرفة حالة العمّال الموظفين فيما يمكن أن يسبب ضرراً أو حتى كوارث إن لم يكونوا بكامل وعيهم...

هذا على مستوى الورقة والقلم من التشريعات العلنية المكتوبة، أمّا عملياً فلديهم عناوين يعملون على أساسها ولا يرون فيها إلا مصلحة ضيقة لعصابة كحزب حاكم، أو مصلحة لبلدهم حتى على حساب دمار الآخرين.

دينه تعالى ليس على هوانا السيئ، بل دقيق في الحقّ والصلاح، ما يرضاه تعالى ويسمّيه بـ: سبيله، هو الحق والصلاح وعملياً هو ما فيه مصلحتنا نحن البشر جميعاً بلا استثناء، طبعاً إذا التزم الجميع به، أو التزم به الغالبية...

بالنسبة لمعنى كلمة "ظنّ"، هو اعتقادك بشيء ما مستنداً إلى شيء ما، فإن كان ما تستند عليه صحيحاً كان ظنّك صحيحاً، وهذه حالة المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم سبحانه كما ورد في الآية 46 من سورة البقرة {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، فهم مستندون في ظنّهم على آياته وكلامه تعالى. وإن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران {... وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ...}، واستناداً للحالة الحرجة التي كانوا فيها ظنّوا أنه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء. وبين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند عليها ولكنه ليس مقتنعاً بها، فلا تزال الأمور عنده مرجّحة لاحتمالات أخرى، فهذا ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}، لأنهم يريدون أن يلمسوا مباشرة حصول ساعة قيامهم من الموت حتى يعتقدوا بها ولا يكفيهم الاستناد إلى معلومات تدلّ عليها، هم يريدون اليقين بها عياناً حتى يؤمنوا. وهذه الحالة قريبة جداً من الاصطلاح "في علم المنطق" والدارج لمعنى كلمة ظنّ على معنى وجود عدة احتمالات. وها صرت تعلم المعنى اللغوي الأساسي لكلمة "ظنّ" فانتبه للفرق بينه وبين المعنى الاصطلاحي حتى لا تفسّر القرآن على أساس المعنى الاصطلاحي.

في عموم كتب التفاسير ستجد كلاماً آخر عن الظنّ، ولا ينطبق معناه على كلّ آيات القرآن، ستجدهم لا يثبتون على معنى واحد للظنّ، حيث مرة يرادفونه باليقين، ومرّة بالشك، ومرة بالحسبان... وهي معانٍ غالباً ستجدها صحيحة لأن الآيات واضحة وتدل على المعنى الذي ذكروه بالشكل العمومي الذي يتحمله الاشتقاق والتدرّج من أصل معنى كلمة ظنّ، ولكنها ليست المعنى الدقيق لكلمة ظنّ، بل كلامهم توصيف لحالة العلم الذي استند إليه الظنّ، وها صرت تعلم

معنى الكلمة العام، وأن القرآن دائماً يوضّح لك نوع العلم الذي يستند الظنّ له إن كان صحيحاً أو فاسداً، فلن تضيع في معرفة الظنّ الصحيح من الظنّ الخطأ.

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ{117})
{إِنَّ رَبَّكَ}، إن المسؤول عنك من مستوى إلهي، {هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ}، فيعلم سبحانه من الذي لا يسلك المسلك الإلهي، {وَهُوَ}، ربّك سبحانه، {أَعْلَمُ}، وبتعبير متساهل فيه فهو سبحانه أكثر من يعلم، {بِالْمُهْتَدِينَ}، بالذين هم على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة.

كما ترى فسبحانه "أعلم" مطلقاً، وبالتساهل نقول بالمقارنة إنه تعالى أعلم من الآخرين، بينما التعبير يشير لعلمه الفائق بكل شيء سبحانه من دون مقارنته مع أي أحد آخر يعلم.

على مستوى العقيدة هل هم يعلمون عن الإله أكثر من الإله ذات نفسه؟ وهل يعلمون بما شاءه "قرّره" الإله لهم؟ وهل سمح لهم الإله أن يخترعوا ديناً ولن يحاسبهم على ترك دينه؟ كما ترى هناك جوانب عديدة لمعنى علمه تعالى بالضالّ والمهتدي.

هناك نوعيات من الناس تحدّث عنها القرآن، حيث تجد شخصاً يقول: أنتم تقولون إني ضالٌّ لا أريد الحق ولا الصلاح ونهايتي إلى جهنّم، فأقول لكم إني أعلم أن هذه نهايتي وأنا أقصدها وأنا لست ضالاً، بل دلّوني على ما ترونه ضلالاً لأفعله لأنَّ هذا ما أريده... سبق ومرّ معك مراراً وتكراراً في هذه السورة أن تعرض ولا تهتم بهذه النوعية من الناس وأن حسابهم عليه تعالى، فإن كان شخص ما لا يهتم بالحق والصلاح ويعتبر الوصول إلى جهنّم هداية صحيحة ويطلبها، فاتركه وشأنه.

لكنْ هناك شيء آخر تعرضه السورة، إذ إنَّ مَن يعتبر نفسه مهتدياً عن حقّ وعلى الطريق الصحيح رغم مخالفته لدينه تعالى، يقول له تعالى: هل تعلم عن الشؤون الإلهية أكثر منه تعالى لتكون فعلاً مهتدياً مع مخالفتك لكلام الإله؟! وهل فعلاً تعتقد أن الإله خلقك وسيتركك أنت لتخترع دينك ولن ينزّل عليك ديناً من عنده؟ وهل أنت تقرّر دينك بشكل أفضل مما يقرره الإله؟ وهل أنت تحدّد مصيرك وتقرر أنه لا حياة بعد الموت ولا حساب ولا جزاء وعلى هذا الأساس تفلت على هواك... أم حدّد مصيرك الإله الذي أخبرك بقراره لمحاسبتك في الآخرة على ما فعلته في الدنيا من سوء؟

بهذا العمق تتحدّث آيتنا هنا عن الضلال والهدى.

(فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ{118})
نأتي لمثال عن حكم إلهي تشريعي، وهناك رأي مخالف لبعض الناس فيه:

{فَكُلُوا}، فاستهلكوا أيها الناس، {مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ}، فما ذبحتموه أو نحرتموه أو اصطدتموه... من الحيوانات وذكرتم اسم الله تعالى أثناء ذبحه أو نحره أو صيده، كإعلان منكم أنه هو تعالى الذي وهبكم هذه النعمة، وهو سبحانه سمح لكم بقتلها وإنهاء حياتها لأكلها، بدلاً من أكلها وأنتم منكرون لفضله سبحانه أو تأكلونها وأنتم تشكرون غيره، فأي ذبيحة أو صيد أو نحر لم يتم ذكر اسمه تعالى عليها أثناء إنهاء حياتها فلا تأكلوا منها.

{إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ}، بالأمور المميزّة من المستوى الإلهي، {مُؤْمِنِينَ}، معتقدين، وأبسط معنى لهذا الكلام هو النظر إلى جمل القرآن على أنها آياته تعالى، وهي تقول بوجوب ذكر اسمه تعالى قبل ذبح الحيوان المحلّل للأكل، فمن آمن بهذه الآيات، بهذه الجمل القرآنية فلن يأكل من ذبيحة لم يذكر اسمه تعالى عليها. ومن ناحية ثانية إنَّ عموم آياته تعالى سواء القرآن أو الظواهر الطبيعية وأنفسنا... فهي آيات تدل على وجوب طاعة الإله سبحانه، ومن يؤمن بها فسيطيعه تعالى، ومن ناحية ثالثة وهي الأهم هنا في سياق الكلام، مثلما أنَّ اختراع الآلهة وعبادتها هو ضلال، فكذلك إنهاء حياة حيوان لأكله من دون شكره تعالى لوحده على هذه النعمة فهو ضلال، وأكثر منه ضلالاً هو ذكر اسم آلهة من آلهتهم الوهمية على الذبيحة.

بعبارة أبسط إنَّ سياق الكلام عن الهدى والضلال، فالهدى هو الإيمان به تعالى، وهناك أمور حياتية كإتاحته تعالى للطعام لنا في بيئتنا، ومنه أكلنا للحم الحيوانات، وهي كائنات حيّة، فإن لم تؤمن به تعالى خالقاً لها ومتيحاً لك أكلها، ولم تعبّر عن ذلك بذكر اسمه قبل قتلها، فماذا أنت فاعل حين تقتلها وتأكلها ولم تشكر الذي أتاحها لك عبر ذكر اسمه قبل قتلها؟

يعني هي مثل حالة الذي يعيش في بيتك ولا مورد له للطعام سوى ما تتيحه أنت له، بينما هو يستهلك طعامك بلا منيّة ولا جميل! بل بالعكس لا يعترف لك بجميلك معه! وهكذا ينظر تعالى لمسألة قتلنا للحيوان لأكله إذا لم نذكر اسمه تعالى عليه قبل قتله.

نلاحظ ابتلاء المسلمين الذين يعيشون في بلدان غير إسلامية بمسألة أكل لحم مذكّى، حيث إنَّ اللحوم الحلال "المذكور اسمه تعالى عليها قبل قتلها" لا تكون متوافرة، أو يكون سعرها مرتفعاً... فيصيبهم الاستهتار، ويأكلون من لحوم جرى ذبحها من دون ذكر اسمه تعالى عليها، والبعض يضحكون على أنفسهم عندما يسمّون على اللحوم بعد ذبحها! ويقولون وأمامهم قطعة اللحم في الصحن: سبحان من حللك للذبح. ويقولون ها قد سميّنا عليها وصارت حلالاً، لا، فإنهاء حياة الحيوان لأكله يجب أن يحصل قبله ذكر له تعالى الذي حلّل لنا ذلك.

ذكر اسمه تعالى قبل إنهاء حياة الحيوان لأكله هو عموم استحضاره تعالى، سواء استحضرته في فكرك أو بقولك، إذ إنَّ الذابح لا يجب عليه التلفّظ بكلام يذكر فيه اسمه تعالى، بل يكفي نيّته، وهو ما استحضره في باله من تحليل إلهي لإنهاء حياة الحيوان وأكله.

في الأدبيات العادية يستحضر الإنسان في باله من أنعم عليه وقدّم له الطعام، وفي أدبيات المؤمنين يستحضرون في بالهم إلههم الذي رزقهم متيحاً لهم الطعام، وفي مسألة قتل الحيوان لأكله، فهو إنهاء لحياة، ولذلك ترى تأكيده تعالى على ذكر اسمه سبحانه قبل قتل الحيوان لأكله، ولا يختلف هذا الذكر عن ذكره تعالى عموماً في أي مسألة، كعند تناول الطعام مثلاً، فليس للذكر على الحيوان كلام مخصّص يجب قوله، ولا طقوس... فمجرد إيمان الذي سينهي حياة الحيوان لأكله بأنه تعالى الإله الذي أتاحه لنا وسمح لنا بقتله وأكله، فإيمانه بذلك هو ذكر اسمه تعالى عليها.

(وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ{119})

{وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ} ! فما السبب حتى لا تلتزموا باستهلاك فقط ما ذكر اسم الله تعالى عليه! {وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ}، حيث وضّح سبحانه لكم بالتفصيل، {مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ}، إذ قال سبحانه ممنوع وعليه عقاب أن تأكلوا من ذبيحة لم يذكر الذابح اسم الله تعالى عليها، فكيف تخالفون ما هو واضح!

{إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ}، إلا ما ألجئتم إليه، إلا ما اندفعتم غصباً عنكم عليه ولا رغبة أصلاً لكم فيه، فإذا كدت تموت من الجوع ولا تجد إلا لحماً غير مذكى فكل منه.

هذا التحريم لم يضيّق عليكم حياتكم لتقعوا في الحرج ويصير لديكم حجّة لترفضوا الالتزام به، ففي الحالات العادية كلوا فقط مما ذكر اسمه تعالى عليه، وفي حال الاضطرار الشديد فإنَّهُ سبحانه لم يضيّق عليكم لتموتوا من الجوع مع توافر لحم لم يذكر اسمه تعالى عليه.

في هذا الكلام عمق، تراه في المفهوم العام الأساسي الذي طرحته الآية 78 من سورة الحج بشكل واضح وصريح {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}، وتراه منتشراً في كل تشريعاته تعالى لنا، حيث ترى تحديد ما يجب علينا القيام به بالاستطاعة، فالحج لمن استطاع، والصوم يسقط حتى عمّن يطيقه وهو الذي يستطيع الصوم ولكن بمشقة وجهد كبير، والوضوء والغسل بالماء لمن استطاع وإلا فالتيمم بالصعيد الذي لا يكلّف شيئاً، وهكذا في الكفّارات بدائل من عتق أو صوم أو صدقة، وكذلك في الجهاد قتالاً الذي يسقط عن المريض و... وهذا المعنى العام تطرحه الآية 7 من سورة الطلاق من زاوية أخرى {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا...}، وهذا ينضوي تحت المفهوم الواسع الوارد في الآية 286 من سورة البقرة {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...}.

{وَإِنَّ كَثِيرًا}، من الناس، {لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ}، حيث يجعلون غيرهم يبتعد عن الحقّ والصلاح بسبب ما يهوونه هم من سوء، إذ عندهم هوى سيئ وعندهم ميل ورغبة سيئة وبالتالي فهي مخالفة لما يرضاه تعالى، ويقولون لغيرهم: كلوا، فما الفرق بين قطعة اللحم هذه وتلك؟ يقولون هذا الكلام المضلل النابع عن الهوى، {بِغَيْرِ عِلْمٍ}، بتعبيرنا الحالي: عن جهل. فلو علموا أنه حكم إلهي يجب طاعته لما خالفوه، ولو علموا أنه سبحانه الخالق الذي يحقّ له أن يأمرنا بما يريد، لما خالفوه، ولو علموا أنهم بحاجة لإذنه تعالى حتى يقتلوا حيواناً ويأكلوه، لما خالفوه تعالى...

{إِنَّ رَبَّكَ}، إن المسؤول عنك من مستوى إلهي، {هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعتَدِينَ}، فهؤلاء يتخطون حدودهم عندما يشرّعون ضلالا لغيرهم، وسبحانه يعلمهم ويدلكم عليهم.

سيأتيك في الآيات 136 وما يليها شرحٌ مفصّلٌ عن عقلية الساخرين من ذكر اسمه تعالى على الذبيحة، وستتعرف على أفكارهم...

الآية هنا لا تحيلك على الآية 115 من سورة النحل ولا على الآية 173 من سورة البقرة أو الآية 3 من سورة المائدة لتعرف ما تفصّل من حلال وحرام من أكل الحيوان، صحيح أنه في هذه السور الثلاث تَفَصَّلَ الكلام حول الحلال والحرام من الحيوانات {حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ...} ولكن هنا التركيز فقط على توضيح تفصيل مسألة "ذكر اسم الله تعالى على الحيوان قبل قتله لأكله".

(وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ{120})
{وَذَرُوا}، واتركوا ولا تَعُدْ لكم علاقة بـ، {ظَاهِرَ الْإِثْمِ}، ما كان ظَاهِراً واضحا أنه سوء وتعرفون أن عليه عِقَاباً، {وَذَرُوا}، {بَاطِنَهُ}، فاتركوا باطن الإثم، وما كان غير ظاهر وتعلمون أنه ممنوع وعليه عِقَابٌ فاتركوه أيضا.
والاختلاف بين ما يَحِلُّ لكم أكله من الحيوان وما يَحْرُمُ فهو مبني على النيّة، فظاهر الشرك به تعالى مما كان واضحا من أقوال عن الاعتقاد بآلهة غيره تعالى، وباطنه في مسألة قتل الحيوان لأكله أن لا تستحضره تعالى حين إنهاء حياة الحيوان، وتقتله وأنت لا تعتقد به تعالى الإلهَ الذي أتاح لك الحيوان لأكل لحمه.

بعبارة أخرى، هناك إثم ظاهر، يبدو واضحا من الكلام ككلام الذين يقولون بأنهم يعتقدون بآلهة غيره تعالى، وهناك إثم باطن لا يظهر، وكلاهما الذابح للحيوان لأكله المعتقد بالتوحيد، والذابح المشرك، لا فرق بينهما من حيث الظاهر ولكن في الباطن هذا أنهى حياة الحيوان معتقدا بالتوحيد، معتقدا بالله تعالى واحدا أحدا خالقا رازقا متيحا لنا وسامحا بقتل الحيوان لأكله، وذاك مشرك وينهي حياة الحيوان وهو لا يعتقد بالله تعالى رازقا سامحا بقتل الحيوان لأكله.

إذا عمّمت هذه القاعدة ستجدها تنطبق على الكثير من المحرمات، فما الفرق بين الزواج الشرعي والزنا؟ لا شيء من حيث الظاهر بالعلاقة الجسدية، سوى كلمات يقولها الزوجان، عمليا "الزواج والزنا" كلاهما علاقة جسدية، وظاهر الإثم هو العلاقة بدون عقد زواج "الذي يتضمّن شرعا حقوقا وواجبات"، وباطنه هو نفس العلاقة الجسدية التي لا يبدو بينها وبين عقد الزواج أي فرق ولكنها إثم.

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ}، فيكون ما حصلوا عليه مما نتج من أعمالهم مَوْصُوفاً بأنه إثم، مَوْصُوفاً بأنه العمل الذي يعلمون أنه سوء ويعلمون أن عليه عِقَاباً، {سَيُجْزَوْنَ}، سينالون مقابلا معادلا مساويا، {بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ}، بسبب الأعمال التي كان لهم حصّة منها لأنهم شاركوا فيها.

(وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ{121})
{وَلَا تَأْكُلُوا}، ولا تستهلكوا طَعَاماً، {مِمَّا}، من الذي، {لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ}، فالحيوان الذي يجوز أكله إذا ذبحوه أو نحروه ولم يذكروا اسم الله تعالى عليه، بالنيّة أو بالقول بالتلفّظ، فلا تأكلوا منه.

{وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ}، فهذا خروج ومخالفة لشيء قاله الدين الإلهي علنا وبوضوح.

{وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ}، وإن الذين يقومون بأعمال الضلال لأنفسهم والآخرين، {لَيُوحُونَ}، يُوصِلُونَ المعلومات، {إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ}، إلى الذين يعتبرون أنفسهم تابعين للشياطين كمرجع لهم، ويوحون إليهم، {لِيُجَادِلُوكُمْ}، والجدل هو عموم محاولة كل طرف إقناع الآخر، وتدرجاته تتحدّد من السياق، من التمسّك بالرأي إلى الليونة. وسياق الكلام هنا عن وحي الشياطين للكافرين ليتحدثوا معكم ويقصدوا إقناعكم وهم لا يريدون الاقتناع بما تقولونه حول الحرام والحلال حتى لو كان معكم حَقٌّ، مثلا يقولون: ما الفرق بين ذكر اسم الله تعالى عند الذبح أو ترك ذكره؟ فهل ستتغير نكهة أو طَعْمُ الذبيحة؟ وهل تصير مضرّة؟...

{وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ}، فأكلتم من ذبيحة بدون تسمية عليها، {إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}، لأنكم أشركتم بالله تعالى، حيث قال لكم سبحانه: هذا ممنوع. ولكنكم أطعتم الشياطين، فجعلتم الشياطين شريكة لله تعالى في التشريع والطاعة.

نتذكّر من القرآن أن صفة الشيطان وصف لعموم من يقوم بأعمال الضلال وخصوصا العامل على إضلال الآخرين. يُطْلِقُهَا القرآن على كل شخص يقوم بعمل مضاد لعمل الأنبياء، فلا تفهم هنا من الآية أن شياطين الجنّ فقط هم المقصودون لأنهم يوحون للناس، لا، لأنَّ الوحي هو إيصال المعلومة عبر الوسائل المتعددة بغير كلام في الأذن، ويكفي أن يأكل الناس "الشياطين" من الذبيحة الحرام، ويقولوا إنَّ طعمها لذيذ، فهذا إيحاء منهم للآخرين حتى يشجعوهم على أكل ذبيحة حرام.

ننتبه، هناك من اخترع إعجازا، وجعل اللحم المذكى نَظِيفاً وَصِحِّيّاً أكثر من اللحم غير المذكى! وجعل طريقة الذبح أو النحر الشرعية، جعلها صحيّة واخترع إثباتات علمية لها... وكل هذا هو كلام فارغ، لأنَّ الهدف من ذكر الله تعالى على الذبيحة أن نعترف له سبحانه بهذه النعمة، وأن نشكره سبحانه أنه سمح لنا بقتلها وأكلها، وأمّا مسألة الأكل الصحي فلا علاقة لَهَا بتاتا، وأبسط مثال على ذلك عندما نتذكّر أننا نصطاد بالبندقية الحيوان الوحشي الذي يعيش في البرية، ويموت، من الطلقة، ونمشي ساعة أو نصف ساعة لنصل إليه، ولا يجب علينا ذبحه إذا وجدناه ميّتا من الطلقة، فلو كان للذبح الشرعي سرّ صحي، فأين هو في حالة الصيد بالبندقية؟

سترى فيما بعد في السورة من الآية 136 أنهم هم المجادلون في موضوع التسمية على الذبيحة كيف حللوا وحرموا بعضا من النبات والحيوان! فهم رافضون لحلال وحرام يقوله إلههم ويخترعون حلالا وحراما!

(أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{122})

{أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا}، كان فاقدا للفعل والانفعال الواعي، {فَأَحْيَيْنَاهُ}، فصار واعيا يفعل ويتفاعل ويفكّر ويسمع ويرى... {وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا}، حَيْثُ جعلنا له ما يكشف له الطريق، {يَمْشِي بِهِ}، ويتنقّل بالنور الكاشف، {فِي النَّاسِ}، فَالشَّخْصُ الذي كانت حياته بلا معنى حقيقي، يُفَكِّرُ ويتحرّك ويفعل ويتفاعل ولكن بلا معنى بسبب الفراغ العقائدي والتشريعي لمعنى الحياة الإنسانية فيه، كسيارة مشغلّة وتسير لوحدها في الصحراء بلا هدف ولا غاية... مقابل سيّارة تنقل ركّابا إلى وجهة يقصدونها، فَكِلْتَا السَّيَّارَتَيْنِ تَسِيرَانِ، ولكن واحدة تسير بلا معنى ولا هدف ولا قيمة لسيرها، والأخرى لسيرها معنى وهدف، فَالْإِنْسَانُ الذي زوّده تعالى بتعليمات ليسير عليها في حياته، وصار يمشي على أساسها في الناس، في حياته معهم، فهل هذا الشخص، {كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ}، هَلْ هو مثل الذي في العتمات من كل الجوانب، لَا يرى أمامه ولا يرى طريقه ولا يعرف إلى أين هو ذاهب؟ {لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا}، لِأَنَّهُ عالق في الظلمات، رُبَّمَا نجد شخصا كان في الظلمات ولكنه اهتدى بعد ذلك وصار موصوفا بمعنى الحياة الحقيقية التي لها معنى، هُنَا تسأل الآية عن الشَّبَهِ بين الذي لن يخرج من الظلمات لأنه لا يريد، وبين الذي يمشي على نور، هَلْ يوجد تشابه بينهما؟

طبعا لا يوجد تشابه، فمن تمسّك بالعقيدة والتشريع الإلهي وترك الحرام، "وترك أكل اللحم الحرام كمثال" فهو ليس مثل الذي ارتكب الحرام، لِأَنَّهُمَا مثل الذي يمشي ولديه نور يبيّن له الطريق لِيَعْرِفَ أنه على طريق الحقّ وهو نفسه سبيل الله تعالى الموصل إلى الجنّة، ومثل الذي يمشي في الظلمات وَلَا يعرف أن نهاية طريقه إلى جهنّم.

مَسْأَلَةُ ترك الأكل من الذبيحة الحرام، كنموذج طرحته السورة عن ترك غيرها من المحرمات، لَيْسَتْ لعبة، بَلْ هي أوامر إلهية، واتباعها نور، وتركها ضلال.

لَا يذهب تصورنا للنور أنه الضوء كضوء المصباح "اللمبة"، لا، لِأَنَّ النور هو انكشاف الأشياء لتصير واضحة، والعقيدة والتشريع والسلوكيات يمكن أن تَكُونَ مُظْلِمَةً إذا كَانَتْ من مصدر غير إلهي، وَتَكُونَ وَاضِحَةً كَاشِفَةً إذا كَانَتْ من مصدر إلهي، والمؤمن يرى العمل السيّء الحرام واضحا فلا يفعله، والذي في الظلمات لا يراه سوءا ولا يؤمن أن عليه عِقَاباً، وَيَفْعَلُهُ.

نُلَاحِظُ أن النور واحد ولا يوجد أنوار، لِأَنَّ طريق الهداية واحد لا ثاني له، أما الظلمات فكثيرة، من إلحاد، كفر، شرك، إنكار، فسق، نفاق... وحتى في نفس المسألة التشريعية والسلوكية هُنَاكَ حق واحد كطريقة للتصرف، وهناك طرق عديدة لفعل نفس الشيء بشكل سيّء.

كذلك، بهذه الطريقة التي شرحتها الآيات عن الذين يجادلون في الذبيحة الحلال والحرام، {زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ}، حَيْثُ تجمّل للمنكرين للدين، {مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، من أكل للذبيحة الحرام "كنموذج عن بقية المحرمات التي يفعلونها"، رَأَوْا مخالفتهم لأوامر الله تعالى مزيّنة حسنة جميلة لا قبح فيها، مع أنها مخالفة صريحة لأمر إلهي! ولكنهم في الظلمات وَلَنْ يَرَوْهَا على حقيقتها البشعة.

نَحْنُ أمام طرح فيه مثال عملي عن جانب من معنى تكليفه تعالى لنا، بَيْنَ الاستغراق العميق في تفسير وتعليق كل شيء به تعالى، لدرجة التطرّف بالتفرّغ للصلاة والدعاء... والابتعاد عن الناس وسحق الشهوات والرغبات حتى الحلال منها... مخالفين بذلك صريح كلامه تعالى في العديد من الآيات ومنها الآية 32 من سورة الأعراف "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ..."، وبين التفلّت من كل شيء ديني معتقدين بالصدفة أو بالطبيعة أو بآلهة خيالية... رافضين توحيده تعالى وبالتالي رافضين لتشريعاته التي لا تتماشى مع ما نراه مناسبا لنا نَهْوَاهُ ويعجبنا، وهذا ما تصفه الآية هنا بالموت، ووصفته آيات عديدة بالموت، إِذْ إِنَّ هذا فقدان للمعنى الحقيقي للحياة، مثله مثل من وصفهم القرآن بالعمى، فهم لهم عُيُونٌ يرون بها الأشياء، ولكن لا معنى لرؤيتهم للأشياء إن لم يروا الحقيقة.

هَذَا المعنى للحياة مغروس فينا، وَمَا تقوله الآية هنا خبر نفهمه إذا انتبهنا لمعناه في أنفسنا، حَيْثُ رَأَيْتَ نفسك حيّا لأنك على سبيله تعالى، أو رأيت نفسك ميتا لأنك على هواك السيّء، وترى ذلك بوضوح في الحالات غير العادية لتحوّل الكثيرين من الكفر به تعالى وبالدين يَتَحَوَّلُونَ إلى الإيمان حين يتقدمون في العمر، أو حين يستشعرون باقتراب موتهم. هَلْ هذا الشعور كاذب ولا يعبّر عن حقيقة أَنَّهُ تعالى الإله وسيعيد إحياءنا ومحاسبتنا... وناتج عن الخوف من الموت والانتهاء مع رغبة بالبقاء صارت مستحيلة وَنَسْتَبْدِلُهَا بفكرة وهمية عن العودة إلى الحياة في الآخرة؟

لا، لِأَنَّ هذا الشعور زرعه تعالى فينا للتعرّف عليه، وصراحة أخبرنا بزرعه فينا في كلامه عن الخوف من الموت في حالة نرى فيه استحالة النجاة من الموت غرقا، وَرَدَ مثال عن ذلك في الآية 63 من هذه السورة، وإلا فكيف سنتعرف عليه تعالى لو لم يزرع هذا الشعور وغيره فينا؟

نَسْأَلُ الآن: ما الفرق بين التزامك بدينه تعالى وبين تركك له؟ حَيْثُ إِنَّ تَرْكَكَ له يعني التفلت من أي قيود لتفعل ما تراه أنت مناسبا، مَا الذي تراه مناسبا ومنعه تعالى حتى صار لديك رغبة بترك دينه تعالى لتفعله؟ هَلْ هو شرب الخمر وتعاطي المخدرات والقمار والزنا والربا... السرقة، وَالغش وقتل الأبرياء وتعذيبهم... غيبة الناس والسخرية منهم... عقوق الوالدين والأقربين... أذية الجيران...

أم مشكلتك في الصلاة؟ أو الصوم؟ أو الحجّ؟ فَرَضَهَا تعالى عليك كلّها مع ما سبق ليكون لحياتك معنى "وكفرصة لكسب حسنات تمحي السيئات"، وستفسّر هذه الأفعال بشكل صحيح حين يكون قلبك سَلِيماً وَيُصِيبُكَ ما أصاب النموذج إبراهيم(ع) من التسليم لله تعالى، أو يصيبك ما أصاب الخالطين لعمل صالح بآخر سيّء، وصولا إلى درجة اختراع دين تنتمي وتركن إليه مفسدا بذلك ما زرعه تعالى فيك لتتعرّف عليه مخترعا دينا من هواك الفاسد ليكون لحياتك معنى "فاسد".

هذا الكلام عن معنى الحياة تسمعه بكثرة من المتعاطين بالعلوم، إِذْ إِنَّ هَذَا مفهوم سيواجهونه حين يدخلون في عمق تفسير الأحداث التي يدرسونها، مَا معنى ولادة طفل؟ وما معنى الحياة؟ وما معنى تشكّل الكون؟ وما معنى المرض؟

والموت؟... وهم يرون أن الجواب متوجّه نحو اتجاه واحد، نحو إله قرّر فصمّم وخلق، وهذا الإيمان يستدعي الالتزام بأوامر الإله طالما هناك كتب منسوبة له، وهنا تحصل المشكلة، وَهُمْ لسبب أو لآخر يريدون التفلت من ذلك، يَبْقَى لديهم حل التصريح بفقدان كل شيء لأي معنى، هَكَذَا نشأ الكون وصارت الحياة لوحدها، أو بأي سبب إلّا الإيمان بإله، وَلْنَسْتَمْتِعْ بحياتنا بالفرصة القصيرة قبل أن نموت، مُتَفَلِّتِينَ من أية قيود.

خطورة هذا الكلام معلومة وهم يتجاهلونها عن قصد، هَلْ يقولون بأن الإنسانية فاقدة لمعناها؟ هَاتِ أقنعني لماذا أنا مجبور على احترامك واحترام حقوقك؟ فإن سنحت لي فرصة التفرعن على الجميع لما فيه أقصى الاستفادة لأسعد في حياتي القصيرة، فلماذا لن أفعلها؟ ومهما بحثت في العمق لتجد جوابا فلا جواب سوى الارتباط بمرجعية من مستوى إلهي للحقّ والباطل، مِنْ صفاته الحسنى وقدراته الفائقة حصلنا على قدرة تمييز الخير من الشرّ، وَلَنَا في ذلك مرجعية من مستوى إلهي، وتعريف كلمة خير وَحْدَهُ يتضمن الرغبة فيه، وما تفهمه من كلمة شرّ وَحْدَهُ يتضمّن نفورك منه، هذا إن حافظت على سلامة قلبك "أساس فكرك ونفسيتك"، وبناء عليه تجد قاعدة لتقنعني منها أن لا أتعرّض لك بالسوء... وهذا هو معنى الناموس والذي ضمنيا تشير له الآية هنا بتوصيف الفاقدين للناموس بالأموات، وَالَّذِينَ لا ضوابط لهم نصفهم بِأَنَّهُمْ بلا ناموس، لِأَنَّهُمْ فاقدون لمعنى الإنسانية، ولا يمكننا التعامل معهم لأننا لن نأمن شرّهم، ومثال حرمة الأكل مما لم يذكر اسمه تعالى عليه، هو مثال عن ناموس، عن إنسان يحترم ما أتاحه له إلهه لأكله وَيُعَبِّرُ عن شكره له بذكر اسمه تعالى قبل إنهاء حياة الحيوان...

وما تقوله الآية عن حرمة لحم ما وحلية آخر، فهو أمر بسيط متعلق بما يعتقده الذابح، لَيْسَ مطلوبا منه فعل أي شيء غير عادي إلا إنهاء حياة الحيوان بأسرع طريقة ممكنة... وأن يكون معتقدا بالله تعالى كرازق أتاح وسمح له بإنهاء حياة الحيوان لأكله، وهذا من تطبيقات معنى الحياة، معنى التقيّد بمسموح وممنوع يجعل لحياتنا معنى، وَيَصِيرُ لدينا ناموس.

طبعا، سبق أَنْ لفتّ انتباهك للغرق والمبالغة في التديّن لدرجة تعقيد الحياة وصولا إلى حرمان النفس من ملذاتها الحلال، سواء تعقيدات تحريم اللحم أو تحريم عموم الأكل اللذيذ، أو تعقيدات طريقة الذبح... وَهَا أَنْتَ ترى في قرآنه تعالى تشريعاته التي لا تعقيدات فيها، وَسَهْلٌ الالتزام بها...

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ{123})
كذلك، وبهذه الطريقة بالتزيين للكافرين ما كانوا يعملون وفقدانهم للمعنى الحقيقي للحياة، {جَعَلْنَا}، أتحنا سمحنا بحصول، {فِي كُلِّ قَرْيَةٍ}، في كل مجتمع للناس، {أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا}، الزعماء الرُّؤَسَاءَ في الإجرام، وهم الذين يقومون بالأعمال التي يستحقون العقاب عليها، حَيْثُ تَرَكْنَا لهم المجال، {لِيَمْكُرُوا فِيهَا}، ليخطّطوا في القرية طَبْعاً للقيام بأعمال سيئة، لِأَنَّهُمْ مجرمون ولم يؤمنوا وَتَزَيَّنَ لهم وللناس الكفر، وتشكّل عن ذلك مجتمع يقوده كبار المجرمين، وَصَارُوا زعماء على الناس في قيادة راية الكفر، ومخططاتهم متماشية مع كفرهم، {وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ}، لِأَنَّ الْمُخَطَّطَاتِ السيئة نتيجتها عليهم، {وَمَا يَشْعُرُونَ}، لَا يتفاعلون مع حقيقة الشرّ الكبير الذي يسببونه لأنفسهم، وَلَا يدرون أنهم هنا في الدنيا هم سَيَتَأَذَّوْنَ منها وفي الآخرة لهم عذاب شديد.

بعبارة أبسط، كَذَلِكَ، مِثْلَمَا هناك من يمشي على نور، هُنَاكَ من يمشي في الظلمات، وَهَذَا يحصل دَائِماً مع البشر، حَيْثُ فِي كل مجتمع، يخرج المجرمون ليأمروا الناس بارتكاب السوء وترك الصالحات، وهم لا يشعرون بأنهم يسببون الضرر لأنفسهم.

نَنْتَبِهُ، لِأَنَّ التَّعْبِيرَ بِـ {أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا} يشير إلى انتشار الإجرام بين مجموعة الناس هذه، وإن لم يوافق أهل القرية بشكل عام على التَّشْرِيعَاتِ والعقائد والسلوكيات التي ينشرها قادتهم فكيف سيحكمونهم؟ وَالْآيَةُ هنا لا تتحدّث عن حالة نادرة لأناس مسالمين تحكّم بهم مجرمون، عِلْماً أنه لا براءة للناس من هذه الحالة لِأَنَّهُ وَاجِبٌ عليهم تولية الصالحين، وواجب عليهم مقاومة الظالمين إن استطاعوا... وإلا فعليهم بالهجرة، وهذا بحث آخر تناولته سور عديدة عند كلامها عن المستضعفين في الأرض، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 97 من سورة النساء {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا...}، لِيَبْقَ هنا تركيزنا على {أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا} حيث الكل أو الغالبية موافقون بشكل أو بآخر على الإجرام، وَيَفْعَلُونَ ما يستحقون عليه

العقاب الإلهي، وسارت الأمور على هذا النحو حتى وصل الإجرام إلى حدّه الأقصى باستلام المجرمين لحكومة المجتمع.

لَا تتصور أن المجرم هو القاتل والسارق... بل في الشريعة الإلهية، كُلُّ من قام بعمل يستحق عليه العقاب فهو مجرم، مَنْ ترك الصلاة مجرم، ومن منع غيره من الصلاة هو مجرم... وَالْمُجْرِمُونَ الذين تتحدث عنهم الآية هنا هم رؤساء العصابات والقتلة... وهم أيضا الأشخاص الذين رُبَّمَا يَكُونُونَ مُحْتَرَمِينَ في مجتمعهم، كالوزير والنائب ورئيس الوزراء ورئيس القضاة والمحامي وعضو البلدية والمختار... كُلُّ من قام بعمل سوء أو ترك وَاجِباً صَالِحاً فهو مجرم، وأكابر القوم عَادَةً هم الحاكمون والمخططون لحياة الناس، وَيَضَعُونَ القوانين وَالتَّشْرِيعَاتِ ويعملون على تنفيذها، وهؤلاء يرفضون الحق والصلاح المعروض عليهم في دينه تعالى ويحكمون بالهوى الفاسد، وهم لا يشعرون أن هذه الأعمال نتيجتها تخطيط لنهاية سيئة لهم.

لَا تفهم من الآية أنه تعالى يختار كبار المجرمين ليحكموا مجتمعاتهم، لا، بل هذا نتيجة خلقه تعالى لنا بحرية الإرادة، وأن هوى غالبية الناس بالكفر والسوء سينتج عنه وصول أكابر المجرمين إلى مراكز الحكم، وهذا ما تراه بوضوح في رؤساء غالبية الدول، وَالَّذِي يراه الناس سيشرّع لهم ما على هواهم عندها يُؤَيِّدُونَهُ وَيَجْعَلُونَهُ رَئِيساً حَاكِماً، وسبحانه جعل هذا يحصل عندما صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا متمتعين بحرية الإرادة...

(وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ{124})
تذكّر أن محور السورة عن إنكار الآيات مهما كانت...

{وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ}، صَارَ عندهم شيء مميّز، كعلامة ودليل على صحّة ما يقوله الرسول، {قَالُوا}:

{لَنْ نُؤْمِنَ}، لن نعتقد بصحّة ما يقوله الرسول، {حَتَّى نُؤْتَى}، حتى نحصل على، {مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ}، ومن تكملة الجملة تعلم أنهم يقولون: كما ينزل الوحي على الرسل فلينزل علينا، وعندها سنؤمن.

حَتَّى لو حصل شيء غير عادي "معجزة"، كما تحوّلت العصا لحيّة وانفلق البحر، وما هو مشهور حصوله مع ثمود حين طلبوا خروج ناقة من صخرة، فهم لن يؤمنوا، بل يريدون أن ينزل الوحي عليهم شخصيا!

الجواب: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}، لِأَنَّهُ يعلم جيدا مع أي شخص سيجعل رسالته التي يريد توصيلها للناس، فهل من المنطقي أن تنزل الرسالة على صاحب سوابق في الكفر! أو في الفواحش! أو في الإجرام! في الكذب والدجل! فَالنَّبِيُّ محمد(ع) المشهور عنه أخلاقه الحميدة قبل نزول الوحي عليه وصيرانه نبيا رسولا، ورغم ذلك اتَّهَمُوهُ بأشكال وَأَنْوَاعِ الاتهامات، من الجنون، وأخذ المعلومات من اليهود لصياغة دينه، والسحر... ولكن أخلاقه الحميدة المعروفة منعتهم من اتهامه بالكثير من الأشياء، تَصَوَّرْ لو أن الرسول(ع) من أصحاب سوابق، مَنْ سيصدقه أنه يحمل رسالة من الإله!

هذا من ناحية الذي نزل عليه الوحي ليبلّغه للآخرين، أمّا من ناحية إيمان الذي نزل عليه الوحي، من ناحية إيمانه بسبب نزول الوحي عليه، فهل فعلا سيحصل إيمان لشخص تمرّس في اختراع العقيدة والشريعة من هواه إن نزل عليه الوحي؟ وبشكل أدق، هَلْ سيؤمن شخص تعلّق بالشهوات والغرائز الْفَاسِدَةِ وعموم الهوى السيّء لمجرد وصول معلومات من الإله سبحانه إِلَى فكره وحيا؟ لَقَدْ وصلته نفس المعلومات عبر أذنيه ولم يؤمن، فما الفرق إن وصلته مباشرة إلى وعيه ككلام في ذهنه؟ لا فرق، وَلَنْ يؤمن، وسينزعج مما وصله، ويرفضه، وإن استمرّ الكلام الإلهي في ذهنه فسيجنّ جنونه من نفوره مما يسمعه...

تصوّر أبا جهل وقد نزل عليه الوحي بكلام في ذهنه كجمل هذا القرآن، مَاذَا سيتغيّر؟ هل سيؤمن؟ لا لن يتغيّر أي شيء فيه، لِأَنَّ هذه الجمل ستزعجه ولن تقنعه ولن يؤمن بها مثلما لم تقنعه ليؤمن بها عندما سمعها عبر أذنيه. وهذا ما تفهمه من الجواب: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}. حَيْثُ سيجعلها عند ذي قلب سليم يؤمن بها حالما يسمعها، وَيَتَمَاشَى معها لأنها أصلا متماشية مع فكره ونفسيته، وسيؤمن بها حتى لو سمعها عبر أذنيه وليس مباشرة في ذهنه وحيا، ومن ناحية

ثانية هَذَا الشخص سيمثّل الإله سبحانه على الأرض كرسول إلهي، كخليفة، فهل سيجعل تعالى من مجرم منغمس في السيئات رسولا ناقلا لرسالته تعالى إلى الناس؟!

{سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا}، الذين ارتكبوا الأعمال التي تستحق العقاب، سيصيبهم، {صَغَارٌ}، وَلَنْ يكونوا كبارا، وَسَيَكُونُونَ على حجمهم بلا قدر ولا قيمة، {عِنْدَ اللَّهِ}، لِأَنَّهُمْ يشترطون نزول الرسالة عليهم حتى يؤمنوا، مع أَنَّهُمْ مجرمون! ونزول الرسالة على شخص ما، هُوَ شيء كبير، إِذْ إِنَّهُ كرامة وفخر وقيمة ومكانة، حسن، سيأتي شيء وهدفه الْمُجْرِمُونَ ولن يُخْطِئَ هدفه، وسيجعلهم يظهرون على قيمتهم الصغيرة الحقيقية.

الوحي وحمل الرسالة هو قيمة كبيرة جدا، وهؤلاء المجرمون يطلبون نزول شيء له قيمة كبيرة عليهم! لِذَلِكَ تُخْبِرُهُمُ الآية أن شيئا سيأتي لهم ولكن لن يكون شيئا يعطيهم قيمة، بل سيكون شيئا يصغّرهم عنده تعالى، شَيْئاً يضعهم في حجمهم الطبيعي الصغير.

وَسيصيبهم، {عَذَابٌ شَدِيدٌ}، ضرر لا يمكنهم تحمّله أو الاعتياد عليه، {بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ}، بسبب تخطيطاتهم المعادية لدينه تعالى.

بقي شيء ورد في سور أخرى ومشابه لما يُطْرَحُ هنا، الْآيَةُ 7 من سورة الحجر {لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} تبعها في تلك السورة فقرة تبدأ من الآية 28 تضرب مثلا عن إبليس الذي كفر بالرغم من رؤيته للملائكة بل وبالرغم من كلامه تعالى "وحيا أو من وراء حجاب" معه، أمّا هنا فالمقاربة من وجهة نظر مختلفة، مَا قيمتكم أيها المشركون حتى تطلبوا تواصله تعالى معكم وحيا؟ لِأَنَّ المشكلة في شرككم من الواضح أنها نتاج تصغيركم لأنفسكم بكفركم بآياته تعالى الواضحة الكثيرة، واختراعكم لتشريعات من هواكم ولآلهة من خيالكم...

(فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ{125})
ليس نزول الوحي على الشخص هو السبب في إيمانه:

{فَمَنْ يُرِدِ}، مَنْ يقرّر ويقصد، {اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ}، أن يضعه على الشيء الصحيح الذي يوصله للغاية الصحيحة عِنْدَهَا، {يَشْرَحْ صَدْرَهُ}، يجعل سبحانه التفاعل الداخلي مع ما يدركه ذاك الشخص، يجعله منشرحا مرتاحا متآلفا منفتحا، {لِلْإِسْلَامِ}، لِلِانْقِيَادِ لله تعالى، فيشعر بالارتياح وَالْمُلَاءَمَةِ من التبعية الكاملة لله تعالى، وَلَا يجعله تعالى مؤمنا بتنزيل الوحي بالرسالة عليه، بل السبب الحقيقي للإيمان هو انشراح الصدر للتبعية الكاملة لله تعالى الناتج عن قلب سليم.

بعبارة أخرى، الشَّخْصُ يَتَمَاشَى مع ما يسمعه من كلام إلهي، فينشرح صدره له لأنه موافق لفكره ونفسيته، فيعجبه ويتماشى معه.

{وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ}، لَا يقرّر سبحانه جعله على الطريق الصحيح، عندها، {يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا}، فلا يسع لدخول الإيمان، فيشعر بالضيق ولا يتحمّل الانقياد له تعالى، وَيَجْعَلْ صَدْرَهُ، {حَرَجًا}، يكاد يصل إلى المرحلة القصوى من الانزعاج من مجرد محاولة الْإِسْلَامِ له تعالى، فيشعرون بصعوبة بالغة في التغيّر للإيمان، {كَأَنَّمَا}، كأن هذا الشخص، {يَصَّعَّدُ}، يتم دفعه للصعود، {فِي السَّمَاءِ}، مَنْ تجبره على الصعود على درج طويل أو على صعود جبل، فسيصل في النهاية إلى شعور بضيق صدره بسبب التعب الشديد، وسيشعر بالحرج وَبالصعوبة في الاستمرار، كأنه سيموت من الجهد وانقطاع النفس.

هَذِهِ النوعية لا تتقبّل الحقّ والصلاح الذي يأمر به تعالى، فلا يَقْبَلُونَ الإسلام له تعالى للتقيّد بالحق والصلاح، حَتَّى لو نزل عليهم الوحي، فسيشعرون بأن كلامه تعالى يخنقهم ويضغط على صدرهم.

{كَذَلِكَ}، بهذه الطريقة من الشعور بالمضايقة الشديدة، {يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ}، الأشياء التي أكثريتها مكروهة، يجعلها سبحانه {عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}، على الذين لا يعتقدون بالدين الإلهي، هَؤُلَاءِ لن تنفعهم أَيُّ آية مهما كان نوعها ولن ينفعهم حتى نزول الوحي عليهم.

التعبير عن انشراح أو ضيق في صدرنا، لا تقصد منه الآية أن هناك أعضاء مسؤولة عن الشعور أو الفكر في صدرنا، بل نحن البشر نشعر بالضيق في صدرنا عند المصائب، أو نشعر بالانشراح عند السعادة في صدرنا، واستمرّت الآية في التوضيح حتى انتقلت للتشبيه بالشعور الناتج عن ضيق الصدر والانزعاج عند الاستمرار في الصعود حتى بعد التعب. التعبير بالصدر كمحلّ للشعور الناتج عن تفاعلنا مع الأمور، هو تعبير شائع في عموم اللغات البشرية، وَاسْتَعْمَلَهُ القرآن وحدّد لَهُ معنى دقيقا يصير بتعابيرنا الحالية: مركز التفاعل الداخلي مع ما تدركه. إِنَّ التَّعْبِيرَ بالصدر إن لم يكن يشير للقفص الصدري في جسم الإنسان فهو يشير لتفاعلك مع ما وصلك من سمعك وبصرك وبقية حواسك، أيْ تفاعلك فكريا ونفسيا مع الأمور.

نفهم الآية هنا بتعبير "ضيق الصدر"، والآية 106 من سورة النحل بانشراح الصدر {... وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}، نفهمه بمثال بسيط، شَخْصٌ تحدّثه عن كسب المال السريع بالسوء من الغش أو النصب والاحتيال أو الربا... أو تحدثه عن الزنا والحفلات وشرب الخمر والمخدرات... فينشرح صدره لهذه الأحاديث، وهو نفسه تحدثه عن تقواه تعالى بترك السوء خوفا من العقاب في الآخرة، فينقبض صدره من هذا الحديث.

نتذكّر دائما أنه تعالى لا يتعدّى على الناس، فهم يُقَرِّرُونَ أن يكفروا، فَيَحْصُلُونَ بشكل طبيعي على المضايقة من الأوامر الإلهية، حَيْثُ صمّمنا تعالى بهذه الطريقة الناتجة عن حرية الإرادة والاختيار التي منحها لنا، فمن كفر به تعالى وأحبّ وتعلّق واشتهى وهوى السوء والإجرام... فسيضيق صدره عندما يسمع بالخير والصلاح من الواجب والحلال والحرام المخالف لهواه السيّء، وَلَنْ يتماشى معه بل سيرفضه، وهذا بعكس الذي قلبه سليم، لِأَنَّ هَذَا سيتماشى مع الوحي الإلهي الذي يتناغم أصلا مع فكره ونفسيته.

من أمثلة الإعجاز العلمي في القرآن، تحدّثوا عن الإصعاد في السماء، لأن الأوكسجين والضغط الجوّي يقلان كلما ارتفعنا، ففسروا الآية هنا بطريقة حَدِيثَةٍ! وَصَارَ معناها: كمن يطير باتجاه السماء، فسيخفّ الأوكسجين وسيشعر بضيق في صدره! وقالوا إِنَّهُ لا أحد من القدماء كان يعرف هذا، ومنذ سنوات قليلة صرنا نعرف هذه الحقيقة العلمية التي سبقنا القرآن إليها بمئات السنين، وَهَذِهِ معجزة علمية للقرآن. مع العلم أننا لسنا بحاجة لهذه المعجزة التي اقترحوها من أَسَاسِهَا، لِأَنَّ الجملة تعطي معنى واضحا، فَالَّذِي يصعد إلى الجبل أو الذي يطير، كلاهما يقصد الابتعاد عن الأرض عبر الاقتراب من السماء، والآية لم تتحدث عن الطيران! مَا المشكلة إن فهمناها بكل بساطة وبدون تعقيد أنها تتحدث عن صعود الجبل مشيا أو هرولة أو ركضا! إِذْ إِنَّ هذا يسبب الإرهاق وضيق التنفس والصدر أيضا! فلماذا اختراع تفسير بعيد عن أول ما يتبادر إلى الذهن من الآية! ولماذا اختراع تفسير من المستحيل أن يفهمه من كان في عهد الرسول(ع)! فكيف ستكون الآية جوابا لاقتراح المشركين عن نزول الوحي عليهم أنه سيسبب لهم الشعور بضيق الصدر كما لو أنهم مدفوعون للصعود على جبل.

من أمثال هذا الكلام عن الإعجاز العلمي في القرآن، المبني على تفسير كلامه تعالى بناء على معطياتنا الحالية، لِنُؤَسِّسَ لمنهاج تفسير سليم للقرآن، حَيْثُ تبيّن من هذه الدراسة أن أكبر الأخطاء في فهم كلامه تعالى هو تَفْسِيرُهُ بناء على معطيات قابلة للتغيّر، وهذا بعكس الدارج بين الناس، إِذْ إِنَّ غَالِبِيَّتَنَا الساحقة نعتقد أنه كلما تطوّرت علومنا وتحسّنت معطياتنا من المعلومات، كلما فهمنا القرآن أكثر، وهذا خطأ جسيم، لأن معطياتنا العلمية الحالية قابلة للتغيّر بل حتما ستتغيّر، أو على الأقل ستتبلور لتكون أدق...

على أي حال، هذه الفكرة صريحة في أن الذين نزل في زمانهم القرآن، مرّ عليهم آيات لم يفهموها، وأننا نحن بسبب تطوّر علومنا فهمناها، وهذا ينطبق على كل آية قالوا إِنَّهَا إعجاز علمي، بِحَسَبِ زعمهم هي آيات فيها معلومات تسبق عصر نزولها، ولم يفهموها قديما على حقيقتها، وفهمناها نحن من بعدما تطوّرت علومنا الطبية وَالْفِيزْيَائِيَّةِ والفلكية... وهذا كلام فارغ له مفاعيل سيئة جدا جدا.

كيف تكون تلك الآيات موجّهة لعموم الكفّار منذ زمن نزولها إلى زماننا، ولم ولن يفهمها إلا حضرة الذي اكتشف الإعجاز العلمي فيها؟ وهكذا صار لزاما علينا جميعا قراءة كتاب المكتشف للإعجاز، وقبله قراءة الكتب التخصصية في المجال العلمي للإعجاز، إِنْ كانت الآية في زعمه تتحدّث عن معجزة علمية فيزيائية، وَتشير للنسبية الخاصة أو العامّة،

أو لثبات سرعة الضوء... حَتَّى نفهم الآية علينا بتمضية وقت وجهد ليس بالقليل في تعلّم بعض الفيزياء لنفهم حقيقة ما تقوله الآية. فهل هذا معقول؟!

هل الآية القرآنية الآن في عصرنا صارت آية للهداية، وفقط للمهتمين وللقادرين على تفريغ وقت وجهد للدراسات العلمية الْأَكَادِيمِيَّةِ! ومن قبل ماذا كانت؟ ومع من كانت تتحدّث؟ وما قيمتها؟ وكيف صاغها القرآن موجّها بها الكلام للكافرين حتى يهتدوا أو حتى يحاججهم سبحانه بأنه ردّ على أسئلتهم وأنه بيّن لهم...؟!

قديما جدا عندما بدأت بهذه الدراسة كنت شغوفا بهكذا نوع من التفاسير، وكتبت الصفحات والصفحات كتفاسير للآيات مبنية على معطياتنا الحالية من علم الفلك والطب والفيزياء... إلى أن تبيّن لي ما ذكرته لك، فنظرت في أساس المشكلة، ورأيت أنها تشير بِالْإِصْبَعِ لخطأ تفسير القرآن بناء على المعطيات من خارج المعنى العربي الأساسي للكلمات.

الأساس هو فهم الكلام القرآني على معنى كلماته الظاهرة التي يفهمها عموم الناس، وأي معنى للكلمة يحتاج لتخصص في مجال علمي لفهمه، فهو حتما ليس المعنى الذي قصده تعالى في كلامه، وراجع دراستنا هذه لترى أن كل كلام القرآن عن أمور يمكن فهمها بسهولة من دون تخصص علمي أَكَادِيمِيٍّ، وأنها توجّه كلامها لكل الناس ليهتدوا، ومعلوم أن غالبية الناس ليسوا متخصصين في كل المجالات الْأَكَادِيمِيَّةِ حتى يفهموا القرآن كما يطرحه المتبجحون بالإعجاز القرآني العلمي.

هذا لا يعني إلغاء ضرورة دراسة بعض مواضيع القرآن لفهمها، لا، لِأَنَّ هُنَاكَ مواضيع قرآنية لسنا نتعاطى معها كلنا في شؤون القضاء والإدارة والقيادة... وَالْمُهْتَمُّونَ بهكذا مواضيع سيفهمون الآيات التي ذكرتها أكثر مما أنا أفهمها، ولكن الكلام عن الآيات التي من المفروض أنها توجّه كلامها لي لأهتدي، هَذِهِ من المفروض أن تكون سهلة على فهم أكبر عدد ممكن من الناس، وهذه هي الآيات التي يدّعون لها إعجازا علميا يجعل المفهوم من كلامها العادي غير صحيح، ويحتاج لتدقيق للبحث عن معنى خفي للكلمات لتتماشى الآية مع نظرية علمية! وهذه ترهات، ويمكنك في هذه الدراسة مراجعة أي آية ادّعوا لها إعجازا علميا لترى أن المعنى الظاهر البسيط من كلماتها رائع وأكثر من كَافٍ للهداية وأنها لا علاقة لها بما يقولونه.

أَخِيراً كلمة لهؤلاء أن يتّقوا الله تعالى فيما يفعلونه، وليراجعوا أنفسهم إن كانوا مؤمنين، هَا هُوَ القرآن من أَوَّلِهِ لآخره، وخصوصا سورتنا هذه، تؤكّد لنا أن ما يطرحه تعالى من كلام حق وصلاح فهو أهم وأوّل دليل على إلهية مصدر هذا القرآن، والذي لم يؤمن به فمشكلته الأساسية مع كرهه للحقّ والصلاح، وليست مشكلته مع الآيات أنها ليست كافية له ليؤمن، أَنْتُمْ أيها الباحثون عن الإعجاز العلمي في القرآن ما مشكلتكم؟ وماذا تحاولون أن تفعلوا؟ ولماذا لا تعترفون بسوء منهاجكم حيث كتب المسلمين القديمة فيها تفاسير علمية للقرآن مبنية على معطياتهم القديمة التي كانوا متأكدين جدا أنها صحيحة، تماما مثلما أنتم متأكدون أن تفاسيركم مبنية على معطيات صحيحة، فهل الأفلاك التسعة والعقول العشرة... ومركزية الأرض في المجموعة الشمسية... وحرارة الجسد الناتجة عن جوهر الروح التي تخرج من الفم بالنفس عندما نموت... وخروج شعاع من البصر للرؤية... وغيرها الكثير من المعطيات التي ذكروها صراحة في تفاسيرهم قديما، أو كانت في خلفيتهم ومنها فسّروا القرآن... هل هذا مقبول؟

خذوا علما أن ما نحن عليه من علوم نتبجّح بتطوّرها، ستكون أضحوكة بعد ألف سنة، ولن يبقى منها شيء بعد عشرة آلاف سنة، تماما مثلما كان قوم النبي نوح(ع) يفتخرون بتقدمهم العلمي... وفرعون... وأهل مكّة الذين احترفوا استخدام مواقع النجوم لمعرفة فصول السنة والاتجاهات، وهذا ما ساعدهم في بناء منظومة سفر تجارية شمالا وجنوبا... أَهْلُ كل عصر يرون علومهم متطورة جدا وأنها النهائية، بينما العاقلون يعلمون أننا وبعد مليون سنة من التقدم العلمي سنبقى أطفالا تستكشف ما حولها من قابليات وإمكانيات هائلة مخفية فيما يمكن أن نفعله ونستخدمه في البيئة التي خلقها إله فائق القدرات، فكن من العاقلين ولا تَكُ من الجاهلين وَاتَّقِ الله تعالى.

(وَهَـذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ{126})

{وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ}، طريق إيماني أساسي منسوب للمدبّر "للمسؤول عنك" من مستوى إلهي، {مُسْتَقِيماً}، يوصف بأنه على الأحسن فلا التواء فيه ولا اعوجاج، عن الحقّ والصلاح، حَيْثُ في هذا القرآن يوجد كُلُّ التعليمات اللازمة

للسير على الطريق المستقيم "على الحقّ والصلاح" المنسوب للمسؤول عنك من مستوى إلهي والذي أمرنا به تعالى لنكون عليه.

{قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ}، حَيْثُ لَيْسَتْ مُجْمَلَةً الْأُمُورُ الْمُمَيِّزَةُ من مستوى إلهي، وَهِي ليست مشوشة ولا مختلطة بشيء غير صحيح، فصلناها، {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الآيات، {يَذَّكَّرُونَ}، يستحضرونها في فكرهم ومشاعرهم وعملهم...

الْآيَاتُ التي فينا وفي الطَّبِيعَةِ من حولنا، وآيات القرآن، كُلُّهَا تدل على طريق الحق المستقيم لمن يَسْتَحْضِرُهَا في عقله وتصرفاته... أما الذين لا يتذكرونها وَلا يستحضرونها في فكرهم ونفسيتهم فالطريق مائل أمامهم عن الحق، وبالتالي هُوَ ليس ما يرضاه تعالى وسيوصلهم إلى جهنّم.

(لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{127})
{لَهُمْ}، للقوم المتذكّرين للآيات، {دَارُ السَّلَامِ}، وهو المكان الذي ستدور وَتَحْصُلُ فيه أنشطتهم حَيْثُ لَا يوجد فيه أي شيء يسوؤهم أو يزعجهم، لَا خوف ولا قلق ولا انزعاج... وهو الجنة، {عِنْدَ رَبِّهِمْ}، عند المدبّر "المسؤول عنهم" من مستوى إلهي، حَيْثُ لَمْ يترك سبحانه لغيره مسألة مجازاة المتذكّرين لآياته بل عنده هو سبحانه بنفسه مجازاتهم بدار توصف بالسلام.

{وَهُوَ وَلِيُّهُمْ}، حَيْثُ إِنَّهُمْ تابعون له تعالى وهو المرجع لهم، لِأَنَّهُمْ أطاعوه واعتبروه مرجعا لهم وسيكون سبحانه كذلك مرجعا لهم، والكلام عن خلقه تعالى لدار السلام للذين صاروا تابعين له، {بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، بسبب ما صدر عنهم من أعمال، طبعا هي أعمال صالحة مبنية على الإيمان.

(وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ{128})
{وَيَوْمَ}، وفي الزمن الذي، {يَحْشُرُهُمْ}، يجمع سبحانه الإنس والجن بقرار منه سواء قبلوا أو رفضوا، {جَمِيعاً}، من دون أي استثناء، وَلَنْ ينسى أي واحد منهم ولن يهرب أي واحد منهم... وهذا سيحصل في يوم القيامة، وحينها:

{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ}، يا جماعة بينها تعامل ومعاطاة من المخلوقات التي مادة تكوينها النار، {قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ}، فجعلتم لكم أَتْبَاعاً كَثِيرِينَ من الناس من المخلوقات التي مادة تكوينها الطين. فَالْجِنُّ يوجد قسم منهم قرّر الانضمام إلى إبليس في إغواء الناس، وقسم منهم "مثلنا" هو قرّر أن يكون شيطانا يوحي للناس ليضلّوا، فيوسوس في عقول الناس الذين فتحوا له باب عقولهم ومشاعرهم لأنهم راغبون بالسوء.

يبدو من الآية، أن الناس حين يُجْمَعُونَ في يوم القيامة فإن أكثريتهم سيقفون في جانب العاطلين السيئين، وَالْقَلِيلُونَ في جانب الصالحين، فيتوجّه سبحانه لشياطين الجنّ، ويقول لهم: لقد استطعتم جعل أكثر الناس من أتباعكم.

نَنْتَبِهُ، لَا يمكن لأحد من الجنّ الدخول على فكرك ومشاعرك إن لم تسمح له، ويحصل هذا الإذن حين تقوم بعمل سيّء، فينفتح الباب أمامه ليوسوس لك أكثر فأكثر حتى تصير من الأتباع المخلصين للجنّ الشياطين.

{وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ}، قال الناس الذين اتّبعوا الجنّ واعتبروهم مرجعا لهم، وَكَانُوا يطيعونهم حين وسوسوا لهم:

{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {اسْتَمْتَعَ}، انتفع، {بَعْضُنَا بِبَعْضٍ}، فهم كانوا يتسلون ويمرحون حين وسوسوا لنا، ونحن انتفعنا بالشهوات السيئة حين أطعناهم، {وَبَلَغْنَا}، ووصلنا إلى، {أَجَلَنَا}، إلى موعدنا المؤخّر، {الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا}، فانتهى وقت حياتنا ومتنا، وانتهى الموضوع.

يعني هو تبرير لسوئهم عبر تلطيف وتخفيف صورة ما حصل، وَمَا صدر منهم في الدنيا من سوء فهو مجرد أمور تافهة كاستمتاع جرى في مدة قصيرة كغلطة، فحجمها بهذا القدر الصغير...

لاحظ، لم تذكر الآية جواب الجنّ، بل ذكرت جواب الإنس، لِأَنَّ هَذَا القرآن عموما موجّه للإنس، ويخبرهم بما سيجري معهم في الآخرة، وينقل لنا الموقف المحرج الذي سَيَكُونُونَ فيه، فقد تركوا طاعته تعالى، ورأوا في يوم القيامة أنهم

كانوا يطيعون الجنّ الذين وسوسوا لهم، هُنَا في الدنيا لا نرى الجنّ، والمؤمنون المتدينون يميزون وسوسة الجنّ وينتبهون لها، ولكن الكفّار لا يميزونها، لِأَنَّهَا مختلطة مع أفكارهم الشخصية، أمّا في يوم القيامة فسيرون الجنّ الذين وسوسوا لهم، وَيُجِيبُونَ بطريقة تدل على أنهم لم يكونوا يقصدون موالاة الجنّ، بل هكذا فقط استمتع بعضنا ببعض، ومتنا، وَلَمْ يحصل شيء سيّء كبير... لَمْ نقصد أن نواليهم ونتركك يا ربنا، فقد كان مجرد استمتاع فقط، ولمدة قليلة وانتهى...

لدينا حالة تحصل معنا هنا في الدنيا عن شيء سيّء فعلناه ونريد تهوينه وتنزيل مستوى أهميته، حَيْثُ يُطَالِبُنَا أحد ما بشيء كان من المفروض بنا الالتزام به أو إنجازه فنقول: شو خربت الدنيا. شغلة صغيرة ما تستاهل التضخيم ويمكن تصليحها أو التجاوز عنها... هنا هم يقولون هذا المعنى ليتغاضى تعالى عن سوئهم.

نعرف من آيات أخرى أنهم لا ينكرون أن أعمالهم كانت سيّئة، ولكن يحاولون أن يبينوا أنه يمكنه سبحانه جعلها أصغر مما هي عليه، فَلْيُسَامِحْهُمْ، لِأَنَّهَا كانت مجرّد أشياء استمتعوا بها ولمدة قصيرة.

نسمع حتى من بعض المؤمنين كلاما ساذجا عندما يرون أنهم لا يريدون ترك سوء ما، ويعلمون أن عليه عِقَاباً، وَيَخْتَرِعُونَ احتمال أن يصدر في الآخرة عفو إلهي عام عن الجميع حتى عن الكافرين! أو فقط عفو عن أمثالهم، على أساس أن سيئاتهم أقل من سيئات كبار المجرمين. وهذه هي نفس الفكرة التي تنقلها الآية هنا من المستقبل من الآخرة حتى نأخذ جميعا علما بأنه لا تصغير ولا تقليل من قيمة السوء الذي فعلناه، وبالنسبة لحالة ضعاف الإيمان أمثالنا، فنحن نأمل بعفوه تعالى إذا كنّا مبتعدين عن كبائر ما نهانا عنه سبحانه من قتل للأبرياء والزنا والفساد من العيار الثقيل... أمّا الآخرون فلا أمل لهم نهائيا بالنجاة، وهذه هي بالضبط النقطة التي تَعْرِضُهَا الآية.

{قَالَ} الله تعالى لهم:

{النَّارُ مَثْوَاكُمْ}، النار مكان إقامتكم الطويلة، {خَالِدِينَ فِيهَا}، فلا تموتون ولا تفنون، {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ}، وَلَنْ يكون لديكم قدرة ذاتية على الخلود، بل بمشيئة إلهية تصيرون خالدين.

عَبْرَ هذا الخبر خذوا علما هنا في الدنيا أن المسألة ليست لعبة، لِأَنَّ هُنَاكَ عِقَاباً أَكِيداً في الآخرة على المخالفة.

{إِنَّ رَبَّكَ}، إن المدبّر "المسؤول عنك" من مستوى إلهي، {حَكِيمٌ}، يرى الصوابية في الأمور ولا يتصرف عن عبث، وَحِينَ أخرجكم إلى الحياة الدنيا فَعَنْ حكمة جعل الثواب والعقاب، وحين جئتم في يوم القيامة، فَعَنْ حكمة ستتم معاقبتكم، وإلا فستكون حياتكم ومماتكم وبعثكم كله عَبَثاً إن لم تتحاسبوا على سيئاتكم وتدخلوا إلى النار.

وربّك، {عَلِيمٌ}، يَعْلَمُ كل شيء، وَيَعْلَمُ بالتفصيل ما فعلتم وعلى أساسه سيحاسبكم ويجازيكم. لِأَنَّ الْحَكِيمَ إن كانت معلوماته ناقصة فَبِالْخَطَأِ سيفعل شيئا غير حكيم، أما سبحانه فلديه علم بتفاصيل كل شيء، وحكيم، وَلَنْ يُخْطِئَ أبدا ولن يقوم بعمل عبثي أو سيّء أبدا.

بالنسبة لكلمة "ثوي، مثوى" دَرَجَ في أدبياتنا أن نقول: جعل تعالى مثواك الجنّة. ولكن من استعمال القرآن لهذه الكلمة نعلم أن معناها: إقامة شخص في مكان لا يملكه وليس له، كالضيف والسجين والعبد... وهي حالة النبي يوسف(ع) في قصر العزيز كما ورد في الآية 21 من سورة يوسف {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ...}، وكحالة النبي موسى(ع) في مدين كما ورد في الآية 45 من سورة القصص {... وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا...}، وكحالة أهل النار في النار كما ورد مرارا ومنه ما ورد في الآية 12 من سورة محمّد {... وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ}.

أهل الجنّة يرثون الجنّة فيملكونها وهي لهم... كما ورد مِرَاراً ومنه الآية 11 من سورة الْمُؤْمِنُونَ {الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، لُغَوِيّاً لا يصحّ وصف من في الجنّة بأنه ثَاوٍ فيها، ولم يرد وصف كهذا أبدا في القرآن، وأمّا أهل النار فَثَاوُونَ فيها لأنها ليست ملكا لهم، فهم مسجونون فيها مُؤَبَّداً، لِأَنَّ السَّجِينَ لا يملك السجن وليس وارثا له بل ثَاوٍ فيه.

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{129})
{وَكَذَلِكَ}، وبهذا الشكل الذي ذكرناه لكم، {نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا}، لِأَنَّ الَّذِي لم يؤمن بآياته تعالى وَلم يتّبع دينه تعالى الواضح أنه حقّ وخير فهذا ظالم، إِذْ لم يكن معه حَقٌّ بذلك، وسبحانه يجعلهم تابعين لبعضهم البعض، {بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، بسبب ما حصلوا عليه من نتيجة لأعمالهم السيئة، حَيْثُ إِنَّهُمْ والوا الجنّ الكافرين وتركوا ولايته تعالى ونتج عن ذلك أن تركهم تعالى في يوم القيامة على موالاتهم لبعضهم البعض والتي لن ينتج عنها إلا مشاركتهم في العقاب... قَارِنْهَا مع ولايته تعالى للذين آمنوا، حَيْثُ على أساسها سيغفر تعالى لهم ويكفّر عن سيئاتهم... وَقارنها مع ولاية المؤمنين مع بعضهم البعض إِذْ على أساسها يشفعون لبعضهم البعض...

تَتَذَكَّرُ دائما، أن القرآن يعتبرك مواليا لجنّ أو لإنس حتى لو سمعت منه كلمة واحدة ونفّذتها وأنت تعرف أنها مخالفة لكلامه تعالى، إِذْ لَيْسَ بالضرورة أن تكون في كل أعمالك تابعا له، بل يكفيك ولو مرة واحدة أن تتبعه وتترك ولاية الله تعالى، فَيَعْتَبِرَكَ تعالى واليت غيره، وإذا أنت أمرت غيرك بترك واجب أو بفعل سوء، فَأَنْتَ تصير شيطانا ووليا لمن اتبعك، ولو لمرة واحدة أطاعك.

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَـذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ{130})
نرجع لتنبيه الآيات لنا مما سيحصل معنا في يوم القيامة:

{يَا مَعْشَرَ}، يا أيها الجماعة التي بينها عِشْرَةٌ، حَيْثُ بينها تَعَاطٍ وَتَعَامُلٌ، {الْجِنِّ}، المخلوقين من نار، {وَ}يا {مَعْشَرَ}، {الْإِنْسِ}، المخلوقين من طين، {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ}، ألم يَصِرْ معكم من ينقل لكم كلامه تعالى، {يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي}، حَيْثُ يَقُولُونَ لكم عن الأمور المميزة المنسوبة لي، والتي من المفروض حين تَسْمَعُونَهَا أن تؤمنوا.

{وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا}؟ ألم ينقلوا لكم الخبر السَّيِّئَ لمن توافرت فيه شروط الحصول على العقاب في لقائكم مع ربّكم في زمنكم هذا الذي قمتم فيه من الموت وتتحاسبون فيه؟

{قَالُوا}، الجنّ والإنس:

{شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا}، لَا حاجة لأن يقول الآخرون عنّا ذلك لِأَنَّ هذا حَصَلَ معنا وَكُنَّا شاهدين على حصوله، وَنَعْتَرِفُ أن هذا حصل معنا مع أنفسنا، لِأَنَّ الرُّسُلَ أخبرونا بالآيات، والإنذار وَصَلَنَا.

طالما وَصَلَتْهُمُ الآيات والإنذار، فلماذا لم يكن سلوكهم حسنا؟

{وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}، حَيْثُ خَدَعَتْهُمْ وَجَعَلَتْهُمُ الحياة الدنيا يطمعون بشيء غير جيد، إِذْ أَحَبُّوا مشتهيات الدنيا السيئة وهم يظنون أنها شيء جيد، ولم يهتموا بالآخرة التي هي أفضل، والتي فيها عقاب لمن لم يؤمن ويعمل صالحا.

{وَشَهِدُوا}، الجنّ والإنس، {عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ}، لِأَنَّهُمْ كانوا منكرين للدين الإلهي وللآيات وللرسل... ولا حاجة لإحضار آخرين ليقولوا عنهم أنهم كفروا، بل هم سيقولون ذلك عن أنفسهم، حَيْثُ أقروا واعترفوا على أنفسهم أنهم كانوا منكرين للرسل والآيات والإنذار.

لا تَنْسَ أن أيام الحساب طويلة جدا جدا، وَفِيهَا عدّة مواقف، مَرَّةً يقف الرسول أمام الناس ويشهد عليهم بأنه قال لهم كذا وكذا... ومرة يقف مؤمن أمام قومه ويشهد بأنه قال لهم كذا وكذا... ومرّة هم الكافرون تتم مساءلتهم فَيُنْكِرُونَ، فتشهد أعضاء جسدهم عليهم وتشهد الملائكة عليهم... ولكن في النهاية سيشهدون على أنفسهم مقرّين بما فعلوه، وبعدها يبررون ويعتذرون... ولكن في الأخير يعترفون بكل شيء... وَيَشْهَدُونَ على أنفسهم...

لاحظ تعبير الآية بالمعشر، لِأَنَّ هناك جماعات لم تتعاط مباشرة مع رسل منه تعالى، ولكن عموم البشرية وصلها خبر منه تعالى عبر رسل وعبر ما تناقله الناس عن الرسل، وَبِمَا بين الناس من معاطاة انتقل كلامه تعالى بينهم، إِذْ لَيْسَ في كل زمان ومكان رسول، ولكن خبره ينتقل بين معاشر الناس.

بالنسبة للسبب حتى لم يرسل تعالى رسلا إلى كل بقاع الأرض وفي كل الأزمنة، رَاجِعْ دراسة الآية 47 من سورة يونس {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}.

لاحظ أن الآية هنا هي الوحيدة في القرآن التي فيها إشارة لوجود رسل من الجنّ للجنّ، وَشَاعَ في ثقافتنا أن الأنبياء والرسل فقط في الإنس، وهذا الموضوع بحاجة للتدقيق مع أنه لا أهمية له بالنسبة لنا، وللفضول وبالتحليل نجد في القرآن نوعين من الوصف بالرسول بما له ارتباط به تعالى، هُنَاكَ شخص معيّن موظّف رسميا منه تعالى كرسول، حَيْثُ يُخْبِرُهُ تعالى أنه رسول مكلّف بنقل الكلام الإلهي للناس، كحالة النبي محمّد(ع) والنبي موسى(ع) والنبي عيسى(ع)... وَفِي القرآن تجد تصريحا إلهيا موجها لهم بأنهم توظّفوا كرسل. والنوع الثاني هو تسييره تعالى للأمور حتى يصل شخص مؤمن لقوم ما وينقل لهم كلامه تعالى بدون توظيف رسمي له، خُذْ مثلا حالة موسى(ع) في مدين التي لم يكن فيها نبيا ولا رسولا كموظّف رسمي بذلك، وَوَصَفَتْهُ الآية 45 من سورة القصص بأنه كان رسولا في مدين يتلو عليهم الآيات الإلهية {... وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ}، ومعلوم أنه توظّف رسميا منه تعالى كرسول من بعدما غادر مدين، وَمِنَ الواضح أن الآية وصفته بالرسول على المعنى العمومي لكلمة رسول، حَيْثُ قَرَّرَ تعالى إرسال مؤمن لمدين، وَسَيَّرَ الأمور حتى ذهب إليها موسى(ع)، وَسبحانه أرسله لينقل الكلام الإلهي لهم ولكن من دون توظيف رسمي.

الآية 29 من سورة الأحقاف {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ} وصفت من ليس نبيا ولا رسولا بأنه منذر، ونفس الوصف ورد لمن تفقّه من البشر في الآية 122 من سورة التوبة {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}.

بناء عليه نفهم الآية 24 من سورة فاطر {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}، حَتْماً لكل أمّة رسول نذير، كحالة النبي محمّد(ع) الذي من بعد بعثته فهو رسول نذير لكل الناس على كل الأرض من زمنه مرورا بزماننا وإلى يوم الدين، وهذا شيء درسناه في الآية 47 من سورة يونس فَرَاجِعْهُ. ومضافا للرسول النذير، هُنَاكَ مُنْذِرُونَ آخَرُونَ، إِذْ لَيْسَ بالضرورة أن يكون كل نذير نبيا أو موظّفا كرسول منه تعالى، بَلْ يمكن أن يكون مؤمنا من درجة مقبولة...

لدينا الْآيَتَانِ 30 و 31 من سورة الأحقاف {قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ، يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ...}، اللَّتَانِ نفهم مِنْهُمَا أن الجنّ قبل كتاب النبي موسى(ع) لم يكن عندهم كتاب لِيُشِيرُوا إليه كمرجع لكتاب إلهي، فَأَشَارُوا إلى كتاب نازل على البشر، ومن حين نزول ذلك الكتاب إلى حين نزول القرآن لا يبدو نزول أي كتاب على الجنّ ليشيروا إليه كمرجع ديني إلهي، والقفز عن ذكرهم للإنجيل له أسبابه ويبدو لنفس السبب الذي تجده في القرآن حين يريد الإشارة للامتداد التاريخي الطويل جدا لدينه تعالى فَيُشِيرُ للكتاب القديم، للتوراة، والأرجح أنه بسبب مشكلة التحريف القوي التي حدثت في الْإِنْجِيلِ لأنهم لم يكتبوه في عصر نزوله...

نفهم من الآيتين 30 و 31 من سورة الأحقاف أن الجنّ مأمورون باتباع داعي الله تعالى، وهو محمّد(ع).

إذاً من مجمل هذا الكلام ومن منطوق الآيات نفهم أن الرسل الموحى إليهم منه تعالى والموظّفون بشكل رسمي هم شيء، والرسل الذين قرّر تعالى تسيير الأمور حتى ينقلوا كلامه للناس من دون نزول وحي عليهم هُمْ شيء آخر، وكلاهما لغويا يوصفون بالرسل، وبأدنى تأمّل ترى أن القرآن لم يحصر استعماله لكلمة رسل على المعنى الاصطلاحي الذي وضعه الناس، بل استعملها بمعناها اللغوي العمومي، وَخُذْ مثالا سريعا على ذلك الآية 35 من سورة النمل {وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ}، لِذَا لَا تفهم بجمود كلمة "رسول" ومشتقاتها بل اتركها على معناها العمومي.

الخلاصة، ربما يوجد رسل يوحي تعالى إليهم من الجنّ، ولكن حتما يوجد منهم رسل كناقلين لكلامه تعالى الذي نزل كتابا على أحد من البشر. ويبدو واضحا جدا من الآيات هنا ومن سورة الجنّ أن الجنّ مكلّفون باتباع الرسول الإلهي البشري.

إن صدق هذا الكلام فله عمق يتماشى مع ما تراه في مشكلة إبليس مع مسألة الخليفة لله تعالى، حيث جعل تعالى من ذرية آدم(ع) خلفاء له سبحانه، فرفض إبليس هذا القرار معتبرا أنه الأجدر بهذا المقام... وَيَبْدُو أن الجنّ لم ولن يتأهّل ولا واحد منهم ليكون لائقا بوصف الخليفة لله تعالى، وهذا يعني ضمنا أنه لن يتأهل منهم من يوحي تعالى إليه ليوظّفه رسميا كرسول، ويمثله كخليفة.

أكرّر لك، هَذَا تحليل فضولي والنتيجة فيه مَهْمَا كانت، سَوَاءٌ أكان من الجنّ رسل موظّفون رسميا منه تعالى، أو فقط هم ناقلون لما نزل على البشر... فلا تأثير لأي نتيجة علينا نحن البشر.

(ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ{31})
{ذَلِكَ}، الذي ذكرناه عن الرسل من الجنّ والإنس للإنذار، فهذا يدلك ويخبرك، {أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ}، بِأَنْ لم يكن المسؤول عنك من مستوى إلهي، {مُهْلِكَ}، مُسْتَنْفِدَ حياة، مميت، {الْقُرَى}، المجتمعات البشرية "ومجتمعات الجنّ"، فلم يكن سبحانه لينهي حياتهم، {بِظُلْمٍ}، بحيث يظلمهم بموتهم كافرين ويعاقبهم، {وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ}، والمنتسبون لتلك القرى غير منتبهين لشيء يجري أو سيجري، لا، بل ينذرهم تعالى بعقابه على مخالفتهم لأوامره قبل إهلاكهم.

مَسْأَلَةُ إهلاكه تعالى للقرى التي ارتكبت سُوءاً وَاسْتَحَقُّوا عليه العقاب هنا في الدنيا، هَذَا يَتَدَاخَلُ مع ما في الآية 41 من سورة الروم {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، ومع ما جاء في الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، لِأَنَّ مَسْأَلَةَ إهلاك الأقوام بتدخّل إلهي مباشر عبر إحداث كارثة فورية هِيَ حالة استثنائية من العقاب الإلهي، وقبل ذلك هُنَاكَ تدرجات من سوء الأحوال كعقاب غير حالة الإهلاك، والتي تنتج بشكل طبيعي من فساد الناس من حكّامهم الفاسدين ومما يفعلونه هم ببعضهم البعض وبما يفعلونه في أمور حياتهم من غشّ... وما يفعلونه في بيئتهم بتخريبها...

ضِمْناً في بحثك خذ بعين الاعتبار أن الكفر والشرك به تعالى لَيْسَا سَبَباً لإهلاك الأقوام كقاعدة، بل هناك دَائِماً سبب آخر، فَالشُّذُوذُ والاعتداء جِنْسِيّاً على الآخرين سبب هلاك قوم النبي لوط(ع)، والغشّ سبب هلاك قوم النبي شعيب(ع)، ولن يولد إلا كافر فاسد من قوم النبي نوح(ع) ولذلك أبادهم تعالى كلهم...

إذًا هُنَاكَ حالة قوم يرتكبون سُوءاً من العيار الثقيل الذي يستحقون الهلاك بسببه، فإن تأهل شخص منهم ليكون رَسُولاً لِيُنْذِرَهُمْ، ولم يرتدعوا، فسبحانه يهلكهم، أو يرسل تعالى لهم رَسُولاً من قرية أخرى كما في حالة إرسال النبي لوط(ع)، وإن لم يكن متاحا رسول ما لهم، سواء أَكَانَ رَسُولاً يُوحَى إليه أو رَسُولاً يَنْقُلُ عن رسول بشري، كما في حالة موسى(ع) في مدين كما ورد في الآية 45 من سورة القصص {وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ}، أو حالة رسل الجنّ كما ورد في الآية 130 من السورة هنا منذ قليل {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي...}، فالفاعلون للسوء من العيار الثقيل وليس لهم رسول فهؤلاء إِمَّا يُهْلِكُونَ أنفسهم بما نتج من سيئاتهم بالحروب والأوبئة... أَوْ يَرْفَعُ تعالى عنهم رحمته لتصيبهم الكوارث الطبيعية...

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ{132})
{وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ}، لكل قرية ترتيب مختلف بالتصنيف، حَيْثُ لَهُمْ تصنيف أحسن أو أَسْوَأ، {مِمَّا عَمِلُوا}، من ناتج أعمالهم التي قاموا بها، وسياق الكلام عن تقييمه تعالى للقرى التي ارتكبت السوء هنا في الدنيا، فالعقاب الإلهي يكون على مقياس درجة ما نتج عن أعمالهم السيئة.

{وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}، إِذْ إِنَّ عموم ما تقومون به لا يجري من دون انتباهه تعالى له، بل سبحانه متابع بدقة ولكل التفاصيل، وعلى هذا الأساس سيعاقبهم سبحانه بدقة بحسب ما نتج من أعمالهم السيئة.

(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ{133})

{وَرَبُّكَ}، والمسؤول عنك من مستوى إلهي، {الْغَنِيُّ}، المنفي عنه عموم الحاجة لأي شيء، فلا يحتاج لأي شيء لا منكم ولا من غيركم، فلا يحتاج لإيمانكم، ولا يتضرر من كفركم، ولا يحتاج لتعذيبكم ولا يستفيد من إسعادكم.

{وَرَبُّكَ}، {ذُو الرَّحْمَةِ}، منسوبة له الرحمة، موصوف بالعناية بمخلوقاته لما فيه مصلحتهم، فَالْغَنِيُّ "المستغني" عن كل شيء نَتَصَوَّرُهُ مُتَعَجْرِفاً قَاسِياً مِزَاجِيّاً لا يهتم بغيره طالما لن يخسر ولن يربح أي شيء مهما فعل... أمّا ربنا سبحانه وتعالى فعنده رحمة على مخلوقاته، حَيْثُ خَلَقَهُمْ، وهداهم، وأثاب الصالحين...

{إِنْ يَشَأْ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة، فإن قرّر، {يُذْهِبْكُمْ}، ينهيكم فيجعلكم تموتون، {وَيَسْتَخْلِفْ}، ويجعل خلفكم، مكانكم، فيأتي من بعد ذهابكم من الحياة، {مَا يَشَاءُ}، من الناس، يَأْتِي مؤمنون أو كفّار، {كَمَا أَنْشَأَكُمْ}، مثلما بناكم وَأحدثكم وَصنعكم، {مِنْ ذُرِّيَّةِ}، من انفصال بالولادة "أو بغيرها"، من خليفة، {قَوْمٍ}، أناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع حالة التوالد، {آخَرِينَ}، حَيْثُ سبقكم أناس وماتوا، وكنتم أنتم الجيل الجديد فكنتم أولادهم...

أَنْتُمْ وصلتكم هذه الرسالة الإلهية، وربكم غني غير محتاج لكم ولا لأي شيء آخر أصلا، ورغم ذلك فهو رحمان بكم، وأمامه خيار تركُكم تكملون حياتكم، ثم تَمُوتُونَ، ويأتي بعدكم من أولادكم، مجتمع جديد، وهذا تعرفون أنه يحصل دائما، أَنْتُمْ أَنْفُسُكُمْ مَاتَ من كان قبلكم وجئتم أنتم، ويمكنه تعالى أن ينهيكم أنتم لتستمر الحياة بأولادكم مثلما انتهى من كان قبلكم وجئتم أنتم.

بعبارة بسيطة: لا تعتقدوا أنكم محور الدنيا وَمَصَبُّ اهتمامه لأنه تعالى بشكل ما مستفيد منكم، لا، لأن الذين نزل في عهدهم القرآن، هم مثل الناس الذين كانوا قبلهم وبعدهم، وكما شعر بعض الناس بأهميتهم في وقت نزول القرآن، لأنهم وصلتهم رسالة ربهم سبحانه، وهم يتمتعون بحرية الإرادة، ويمكنهم أن يختاروا اتباعها أو تركها، شعروا بأنهم شيء مهم في التاريخ، أو شيء مؤثّر ومهم بالنسبة لربنا سبحانه، لأنه تعالى ينتظرهم ويهتمّ أن يؤمنوا به وبرسله... وَفِي أي عصر يوجد هذا الشعور لدى بعض الناس، والآن في عصرنا، الذي يشعر بأنه شيء مهم، ويبدي رأيه في الإيمان والقرآن، فَلْيَتَذَكَّرْ أنه لم يكن من قبل، وأنه سيذهب وسيأتي أُنَاسٌ غَيْرُهُ، فأين هي أهميّته!

الآية تنبهنا أننا مجرد مخلوقات لها فترة صغيرة تخرج فيها إلى الحياة، ولا يحق لنا أصلا أن نشعر بأهميتنا، لأننا محكومون بفترة حياة صغيرة، فلننتبه ولنستغلّها بشكل صحيح.

بالنسبة لوصفه تعالى بالغني، ليس تَفْسِيرُهُ أنه تعالى يملك كل شيء وبالتالي يصير المعنى أنه سبحانه يملك ما يحتاجه، هذا غير صحيح، لأن كلمة "غني" تفيد معنى الاستغناء، وهو عموم انتفاء عموم الحاجة لعموم أي سبب، إمّا لأنك لا تحتاج أصلا للشيء، وهذه حالته تعالى "الغني" بالنسبة لكل شيء، وحالة الملائكة بالنسبة لطعامنا... أو غني لِأَنَّ لَدَيْكَ ما تحتاجه وهذه حالتنا حين نملك الطعام والشراب... أو غني لأنك تملك ما يمكّنك من الحصول على ما تحتاج، وهذه حالتنا حين نملك المال لنشتري به ما نحتاجه. وترى هذا المعنى للاستغناء بشكل مباشر وواضح لأصل معنى كلمة "غني" في تعبير {... وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} كما ورد في الآية 97 من سورة آل عمران، الذي بوضوح يشير الوصف بالغني للاستغناء، حيث لا حاجة له تعالى بهم ولا بإيمانهم ولا يتضرّر منهم مهما فعلوا.

(إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ{134})
{إِنَّ مَا تُوعَدُونَ}، ما قال تعالى إنّه سيفعله، وهو الرجوع إلى الحياة بعد الموت والحساب، حيث وعدكم تعالى عبر الأنبياء والرسل والكتب... بيوم القيامة، وهو {لَآتٍ}، ستصيرون فيه.

{وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ}، مثلما تقول: أعجز عن حمل مئة كيلو فلا أستطيع حمله. وكما تقول: أعجزني عندما حمّلني مئة كيلو، وصرت لا أقدر على الحمل. الآية تقول لهم إنّ يوم القيامة قادم حتماً ولا يمكنكم أن تعجزوه تعالى عن إتمام وعده، ولستم قادرين ولا بأي طريقة على منع حصول يوم القيامة، ولا قدرة لكم "ولا لغيركم" على إعجازه تعالى عن إعادتكم إلى الحياة ومحاسبتكم.

نعرف من العديد من الآيات أنّه سبحانه اتّخذ قراره، ولن يغيّره، وهنا تعبّر الآية عن ذلك بالوعد، وتضيف عليه أنّه لا أحد يمكنه منعه تعالى من تحقيق ما أراده، ويوم القيامة من الموت والحساب والجزاء آت لا محالة، فخذوا علماً بذلك، وانتبهوا.

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدِّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ{135})
بناءً على أنّ يوم القيامة آتٍ حتماً، {قُلْ} عبر هذا القرآن:

{يَا قَوْمِ}، يا أيها الناس التي لها كيان الجماعة وأنا من جَمَاعَتِهِم ومتفاعلون مع دينه تعالى ووعده، {اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ}، تصرّفوا على حيث أنتم في ناحية الكفر التي أنتم فيها، على موقفكم على رأيكم، اعملوا ما ترونه موافقاً لكفركم. بتعبير قرآني آخر: اعملوا ما شئتم. بالعامية: اصطفلوا واعملوا يلّي بتشوفوه.

{إِنِّي}، أنا شخصياً، {عَامِلٌ}، وتكملة الجملة تعرفها بالبداهة: إنّي عامل "على مكانتي". لأنّي اخترت الإيمان بالآخرة والحساب والجنة والنار، فهذه هي الناحية التي أقف فيها وأعمل على أساسها.

{فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ}، فالمكانة التي عملتم عليها سيكون لها عاقبة، سيعقبها شيء، سيأتي بعدها شيء سيكون له أثر ونتيجة وهو مكان تدور فيه نشاطات الحياة، والكلام هنا عن الجنّة، حيث ستعلمون من تكون عاقبة أعماله تلك الدار، وستعلمون من سيحصل على الجنة بسبب أعماله، لأنّ الأعمال من مكانة الإيمان عاقبتها الجنة.

{إِنَّهُ} {لَا يُفْلِحُ}، لا يوصف بأنّه فالح، لم يكن مجيداً في عمله، {الظَّالِمُونَ}، الذين لم يكن معهم حق حين اتخذوا مكانة الكفر، الذين كانوا في صفّ الكفر وظلماً اختاروا تلك المكانة لأنّ الحقّ كان واضحاً وتركوه.

(وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ{136})
في الآيات السابقة دخلنا على عدة تفريعات من بعد افتتاحية السورة بنكران بعض الناس لحمده تعالى وإنكارهم لعموم أي آيات... ومررنا على مجادلة المشركين في أهمية التسمية على الذبيحة، وتعود السورة لموضوع اختراع البشر لتشريعات.

{وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ}، من المخلوقات التي نشرها سبحانه فجعلها منتشرة، وهنا الكلام عمّا ذرأه تعالى على الأرض، {مِنَ الْحَرْثِ}، من عامّة الأشياء التي فيها قابلية الإنتاج، وهنا المقصود الأرض التي فيها قابلية الإنتاج الزراعي، {وَالْأَنْعَامِ}، من الحيوانات الموصوفة بأنّها نعمة لأننا نستخدمها ونأكلها، فجعل المشركون لله تعالى {نَصِيبًا}، حِصَّةً محدّدة منها! علماً أنّها كلّها ذرأها سبحانه فهي كلّها له تعالى!

{فَقَالُوا}، المشركون:

{هَذَا لِلَّهِ}، هذا النصيب هذه الحصة المحدّدة من النتاج الزراعي أو الحيواني هي حصّة لله تعالى، {بِزَعْمِهِمْ}، بقول منهم لا يستند إلا على قولهم فسبحانه لم يحدّد لنفسه حصّة... {وَهَذَا}، النصيب الآخر، {لِشُرَكَائِنَا}، لآلهتنا، ونتذكّر دائماً أنّ القرآن يقول عن الآلهة التي جعلوها شريكة لله تعالى، يقول عنها بأنّها شريكة لهم وليست شريكة لله تعالى، فهم بينهم وبينها شراكة عبد وعبادة وليس بينها وبينه تعالى أي شراكة في الألوهية.

مثلاً، ينذر أحد المشركين نذراً، فإن تحقق نذره فسيقدّم ذبيحة، نصفها لله تعالى ونصفها الآخر لإله الرزق، أو لكاهن إله الرزق، أو لِعُبَّادِ إله الرزق... أو لا ينذر وفقط بدافع التقرّب من الآلهة وشكرها على رزقها... فمثلاً يقدّم نعجة ويقسمها بين الله تعالى وبين آلهته...

{فَمَا كَانَ}، من نصيب، {لِشُرَكَائِهِمْ}، فالحصّة المحددة من المزروعات والأنعام للأصنام أو الكواكب أو الأرواح... {فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ} تعالى، لأنّهم وبكل بساطة أعلنوا أنّ هذه الحصّة ليست لله تعالى بل لآلهتهم، ولن يقبلها تعالى ولن يجازيهم عليها لأنّها أصلاً لم تقدّم قرباناً له.

{وَمَا كَانَ لِلَّهِ}، والنصيب الذي حدّدوه لله تعالى، القسم الذي قالوا عنه إنّه لله سبحانه، {فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ}، فهم من الأساس اعتقدوا أنّ الصنم رزقهم وليس الله سبحانه، وقدمّوا قرباناً لإله الرزق وبالطريق جعلوا حصّة لله تعالى، فلو كانوا يعتقدون أنّه تعالى وحده رزقهم وقدّموا قرباناً، لكان قربانهم وصل لله تعالى صحيحاً صافياً، ولكنّهم اعتقدوا أنّ الصنم رزقهم، والقربان هو اعتراف بجميل ما فعله الصنم لهم، وليس اعترافاً بجميل ما فعله تعالى لهم، فالحصّة التي قالوا عنها إنّها لله تعالى فهي حصّة "شرفية، وهميّة"، والله تعالى يبيّن لنا هنا أنّها لم تصله لأنّهم لم يعتقدوا أنّه هو الرازق بل جعلوا شيئاً آخر مشاركاً له في رزقهم.

نضع في بالنا أنّ القربى منه تعالى لمجرد التقرّب ليرضى عنهم ويحقّق لهم أمانيهم الدنيوية، هو سبب تقديم الحرث والأنعام له تعالى، مثلما نحن المؤمنين نفعل لمجرد القربى منه تعالى ولرضاه عنّا وطمعاً بالجنّة، نوزّع أشياء على المحتاجين أو ضيافة للناس... فانظر للموضوع كما ينظر الكفّار إليه، فهم لا ينظرون لثواب الآخرة بل لثواب الدنيا ومن هذا المنطلق يقدّمون أطعمة للناس على نيّة التقرّب منه تعالى ومن آلهتهم، ويتوقعون أنّه تعالى سيرضى عنهم...

{سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}، فما حكموا به، وما اعتبروه صواباً فقرّروه من تقسيم للحصص بجعلهم شركاء لله تعالى فيها، هو شيء سيء جداً.

تريدك الآية أن تفهم عمق تصرفات هؤلاء من النظرة الإلهية، فالرازق الوحيد هو الله تعالى، ويجب تقديم القربان له سبحانه وحده كشكر على ما رزقهم، لأنّه لا معنى للحصص بينه تعالى وبين غيره، وتقديم القربان للصنم ولله تعالى معناه أنّكم لم تعتقدوا أنّ الرازق هو الله تعالى وحده، بل الصنم رزقكم، فما معنى الحصّة لله تعالى؟! لأنّ كل الحصّة لمن تعتقدون أنّه رزقكم، إمّا أن تعتقدوا بالله تعالى وحده رازقاً، أو بالصنم رازقاً، لأنّ الاعتقاد بالتحاصص في الألوهية لا معنى له.

بعبارة أخرى، فإنّ الإله الحقيقي هو الرازق الحقيقي الوحيد، ولا يتشارك أي أحد آخر معه، لأنّه عمل واحد، يقوم به واحد، ولا مجال لتشارك اثنين فيه، وبالنسبة لنا يمكنك أن تتصور شخصاً فلح وبذر، وشخصاً آخر سقى وحصد، حيث يتشارك اثنان في العمل، أمّا في الأعمال الإلهية، فلا معنى للمشاركة فيها لأنّها عمل واحد، والإله واحد أحد، فإذا أردت تقديم حصّة للفقراء كقربان من الرازق، وقدّمتها لله تعالى وللصنم، فبمجرد اعتقادك بالصنم رازقاً فقد أخرجت الله تعالى، وإذا لم يكن المشركون منتبهين لهذا المعنى، فالآية توضّح لنا ولهم حقيقة معنى تصرّفهم.

الآية تلفت انتباهنا لعقلية وطريقة تفكير المشركين، لأنّ هذا التقسيم تشريع من اختراعات وهمية من أفكارهم السيئة في مقابل تشريعاته تعالى، فلنتابع ولكن قبل ذلك هناك شيء، حيث هناك ما هو دارج بين المسلمين من نذور لغيره تعالى، حيث ينذرون للصالحين من عباده تعالى، معتقدين أنّ قدّيسهم سبب في حصول ما يريدون، أو قديسهم سبب لاستجابته تعالى لما يريدون، وحين تلفت انتباههم لسوء ما يفعلونه يبررون لك أنّهم مؤمنون بإله واحد أحد، ولا يعتبرون قديسيهم آلهة، بل لهم كرامة عالية عنده تعالى وبواسطتهم سيستجيب تعالى لنذرهم ودعائهم، ولسنا نناقش في كرامة أولئك الأشخاص، بل الكلام عن سماحه تعالى بهذا؟ وأمام مئات الآيات الصريحة الواضحة الحاثّة على تعاملنا معه تعالى مباشرة، تراهم يؤوّلون آية ما هنا أو هناك ولا يظهر منها صراحة ما يقولونه! فما معنى هذا التأويل أمام مئات التصاريح الواضحة المانعة من إدخال أي مخلوق في العلاقة معه تعالى في شؤون إلهية؟

وحتى النذر له تعالى بتقديم حرث أو أنعام أو مال... وثواب الصدقة منه نهديه للقديس الفلاني، فهذا ليس نذراً قربة لله تعالى، وليس نذراً صحيحاً على المقياس القرآني، نعم هو عمل خير ثوابه نهديه لفلان، وفي هذا نقاش أصلاً، ولكن أكرر لك، إنّ هذا ليس نذراً لله تعالى، لأنّ القربى لله تعالى لم تعد خالصة، فإن أصريت على نذر شيء تهدي ثوابه لقدّيس ما، فاعلم أنّه نذر من اختراع البشر وليس نذراً من تشريعه تعالى الذي لا يقبل بذلك كنذر، ولا يعتبره قربة له كنذر، لأنّ النذر يكون قربة له تعالى فقط وفقط، وبيني وبينك حكم صريح القرآن، والآية التي تفسّرها بغير ما أقوله لك فراجع دراستها هنا لترى إن كنت محقاً فيما تقول، فلا تعتمد على ما ورثته من دين، ولا تثبّته وتنطلق منه، بل اتركه وانطلق من القرآن كلامه سبحانه وتعالى إن كنت على دينه تعالى، ولا تهتم بتبرير ما عليه الناس لتلوي كلامه تعالى حتى تجد له توافقاً مع كلام الناس، لأنّ هذا من أوضح الأدلة على أنّك على دين الناس ولست على دينه تعالى.

بالنسبة لمسألة إهداء ثواب عمل خير أو قراءة قرآن... لميّت فراجع دراستنا للآية 27 من سورة نوح {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا}.

(وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ{137})

{وَكَذَلِكَ}، وبهذه الطريقة من التفكير السيّئ، {زَيَّنَ}، جَمَّلَ حَسَّنَ، {لِكَثِيرٍ} {مِنَ} {الْمُشْرِكِينَ}، للكثيرين من الذين جعلوا له تعالى شركاء في الألوهية، {قَتْلَ} {أَوْلَادِهِمْ}، إنهاء حياة أولادهم، وأشهر حالة هي الوأد التي تحدّثت عنها الآية 59 من سورة النحل "يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ"، وغيرها من طقوس تقديم الأولاد كقرابين... {شُرَكَاؤُهُمْ}، آلهتهم التي جعلوها شريكة له تعالى والتي هي في الحقيقة ليست شريكة له تعالى بل شريكة لمن عبدها، حيث بينها وبين من عبدها شراكة عبد ومعبود، والله تعالى لا علاقة له بهذا القتل للأولاد.

{لِيُرْدُوهُمْ}، الذين زيّنوا للمشركين قتل أولادهم زيّنوا لهم ذلك ليوقعوهم متضررين، ويجعلونهم يقعون في حفر أفكار الشرك.

{وَلِيَلْبِسُوا} "كسرة على حرف الباء تميّز هذا الفعل عن لبس الثياب"، {عَلَيْهِمْ} {دِينَهُمْ}، فالدين، ما هم مدينون لربّهم سبحانه به من طاعة، والتبعات التي عليهم لإلههم، ستصير ملتبسة مشوشة بسبب اختلاطها مع شيء آخر، فالدين الإلهي لا يسمح بقتل الأولاد، ولكن بالتزيين التبس الدين الحقيقي عليهم، وبالكلام المنمّق المزيّن وباتباع الهوى صار الدين الإلهي المطلوب منهم اتباعه، صار ملتبساً مشوّهاً فلا يظهر لهم أنّ قتل الأولاد سيئة وجريمة عليها عقاب إلهي.

{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ}، لأنّ أمامه تعالى خيارات عديدة ولو قرّر سبحانه لكان تدخّل ومنعهم من قتل أولادهم، عبر تغيير عقولهم بالقوة أو... لأنّهم لا يتصرفون بإرادة قاهرة فوق إرادة ربنا سبحانه وتعالى، بل بقرار منه تعالى بقيت لديهم حرية الإرادة واختيارهم لقتل أولادهم.

{فَذَرْهُمْ}، فانفصل عنهم ولا تهتمّ بهم واتركهم، {وَمَا يَفْتَرُونَ}، لأنّهم افتروا على الله تعالى، حيث استقصدوا الكذب عليه تعالى وهم يعرفون أنّهم يكذبون، فقالوا إنّه تعالى يأمر أو يسمح أو يرضى بقتل البنات، ويأمر بتقديم الأولاد قرابين... وسبحانه أصلاً لم يقل ذلك فهذا افتراء، فاتركهم طبعاً بعد أن تقوم بتبليغهم أنّ دينه تعالى لا علاقة له بما يفعلون.

إذاً، من استهتارهم بذكر اسمه تعالى عند قتل الحيوان بناءً على الاعتقاد بأنّه هو تعالى السامح بقتلها وأكلها، ومن الاستهتار لدرجة تقديم قرابين لغيره تعالى شكراً على ما معهم من خيرات... صار عندهم استهتار بقتل إنسان، بل بقتل أولادهم!

كما تعلم فليس كل المشركين يقتلون أولادهم وأداً أو كقرابين لآلهتهم، ولكن بعضهم يفعل ذلك انطلاقاً من خلفية عقيدته المنفصلة عن أوامره تعالى، حيث تضربهم السورة كأبرز نموذج عمّا يمكن أن يصل إليه سوء أفعال المخالفين لدينه تعالى.

(وَقَالُواْ هَـذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ{138})

نكمل مع تشريعات اخترعها الناس تاركين تشريعه تعالى، {وَقَالُوا}، المشركون:

{هَذِهِ أَنْعَامٌ}، هذه حيوانات موصوفة بأنها نعمة لأننا نستخدمها ونأكلها، كالبقر والغنم والجمال... وهذه، {حَرْثٌ}، هذه أرض قابلة للإنتاج الزراعي فسينتج عنها القمح والتمر... وهي، {حِجْرٌ}، محجورة ممنوعة على الناس بشكل عام، {لَا يَطْعَمُهَا}، لا يأكل منها بكمية قليلة أو كثيرة، {إِلَّا مَنْ نَشَاءُ}، فأمامنا خيارات عديدة ونحن نختار من سيطعمها من سيذوقها بالأكل منها بكمية صغيرة أو كبيرة، فلا تكون حجراً ممنوعة على من نحدّده من الناس.

وهذا الكلام، {بِزَعْمِهِمْ}، حيث لا يستند في صحّته إلا على قولهم ولا يستند إلى أمر رباني، فلم يصدر منه تعالى كلام يسمح لهم بهذا التقسيم، فمن أين اخترعوه؟! وسنرى كيف اخترعوا هذه التقسيمات للطعام.

وقال المشركون: {وَأَنْعَامٌ}، حيوانات موصوفة بأنها نعمة، وسياق الكلام عن حيوانات الاستخدام للنقل، {حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا}، فممنوع أن تحمل على ظهرها حملاً، فممنوع الحرث عليها أو نقل الأغراض عليها... وأيضاً اخترعوا هذا الحرام الذي لا أساس إلهيَّ له.

{وَأَنْعَامٌ}، وسياق الكلام عن حيوانات للأكل، {لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا}، فحين يقتلونها لا يستحضرون اسمه تعالى الذي خلقها لهم وسمح لهم بقتلها لأكلها، {افْتِرَاءً عَلَيْهِ}، لأنهم يعلمون أنه يجب ذكر اسمه تعالى لشكره على خلقها وإتاحتها لهم لأكلها أو استخدامها... ولكنهم يقولون إنّه تعالى لا يأمر بذكر اسمه عليها بينما العكس هو الصحيح.

{سَيَجْزِيهِمْ} الله، سيحصلون منه تعالى على مقابل معادل مساوٍ، {بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}، فعملهم عليه عقاب يساوي في قيمته قيمة افترائهم عليه تعالى. الافتراء هو اختراع شيء لا عن نسيان أو من دون قصد بل عن علم وقصد باختراعه.

ربما في البداية تستغرب أو لا تفهم ما تتحدث عنه الآيات لأنك لم تَرَ مشركين، ولكن انظر إلى الهندوس والبوذيين وغيرهم من المشركين، حيث ينذرون لآلهتهم طعاماً مخصصاً للرهبان، أو نصفه للرهبان ونصفه لهم... ولسبب أو لآخر يتركون بقرة ما تسرح على هواها، فلا يأكلونها ولا يستعملونها لنقل الأغراض أو للحراثة.

مع أن الآية تتحدث عن المشركين، ولكن حينما تلتفت لما نعرفه عن الكثير من المسيحيين "وبعض المسلمين"، الذين يذبحون الحيوانات من دون أن يذكروا اسم الله تعالى عليها، علماً أنهم يعلمون يقيناً بوجوب التسمية، فستفهم الفرية التي يقوم بها المشركون بتركهم للتسمية مع علمهم بوجوب ذكر اسم خالقها السامح بقتلها وأكلها.

(وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ{139})
{وَقَالُوا}، المشركون:

{مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ}، هذه الحيوانات التي هي أصلاً تؤكل ونحن حرّمنا أكلها أو استخدامها، فإن صارت حاملاً فالذي في بطنها، {خَالِصَةٌ}، صافية من دون شريك، {لِذُكُورِنَا}، فالذكور الرجال والصبيان وحدهم بشكل خالص من دون مشاركة من النساء، ووحدهم يحقّ لهم أكل ما ستلده هذه الأنعام، {وَمُحَرَّمٌ}، ممنوع وعليه عقاب، {عَلَى أَزْوَاجِنَا}، ومن المنتشر في كتب التفسير قولهم إنّ المقصود بالأزواج هنا أنّ الزوج يكون من أنثى وذكر، وحلّلوا لعموم الذكر وحرّموا لعموم الأنثى باستعمال لفظ الزوج، واستعمل القرآن كلمة زوج أيضاً بنفس الطريقة في مواضع مختلفة حيث أشار فيها للزوجين الذكر والأنثى كجنسين وليس كقرينين. وبناءً عليه يَقْصِدُونَ أنّه لا يحق لزوج الذكر، أي لعموم النساء، أن يأكلن مما ستلده تلك الأنعام.

{وَإِنْ يَكُنْ}، ما في بطن الحيوان المنذور، {مَيْتَةً}، فتلده ميّتاً، أو يذبحوها ويجدوه ميّتاً في بطنها... {فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ}، فيأكل منه الذكور والإناث.

{سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ}، فسينالون منه تعالى المقابل المعادل المساويَ الناتج عن وصفهم بالحرمة والحلية لما في بطن الأنعام التي نذروها لآلهتهم، والجزاء كما تعلم هو عذاب في الآخرة، لأنّ هذا تحريم وتحليل لم يسمح به تعالى، حيث تركوا ما أمرهم به سبحانه واخترعوا تشريعهم الخاص، بل أكثر من ذلك، فإنّهم يسخرون من التشريع الإلهي حين أوجب عليهم ذكر اسمه تعالى أثناء قتل الحيوان المحلَّل للأكل!

{إِنَّهُ حَكِيمٌ}، فسبحانه يرى الصوابية في الأمور ولا يتصرف عن عبث وتسلية، فالأحكام التي شرّعها تعالى لنا كلّها على الصوابية على الحقّ وليست مثل سخافات تشريعات الكفّار، ومن ناحية ثانية فإنّ تركهم بلا عقاب على أخذهم دور الإله سبحانه وتعالى في التحليل والتحريم سيكون عملاً غير حكيم.

و{عَلِيمٌ}، فيعلم سبحانه كل شيء بالتفصيل، فعندما يشرّع أو يعاقب فعن علم، وليس عن جهل مثل تشريعات المشركين أو مثل من يعاقب وهو يجهل بالتفاصيل.

كما تلاحظ فأنت أمام نموذج عن تشريع اخترعه الناس، وترى سخافته وسوءه، ولنتعمّق قليلاً فيما تطرحه الآيات هنا وعموم القرآن، حيث ترى اختراعات في تشريعات المشركين كنموذج عمّا يلزم به الإنسان نفسه، فحتى غير المشركين ممن نسميهم علمانيين أو ملحدين... فعموم المعرضين عن دينه تعالى لديهم تشريعات غريبة عجيبة، فما معنى قبول العلمانيين بتشريع الزنا والقمار والمخدرات والربا والشذوذ... وقتل المغايرين لهم في العرق والبلد إذا كانت مصالحهم الاقتصادية تستدعي ذلك! كحروب النفط والألماس والذهب... التي يخوضونها بجيوشهم أو بالمرتزقة أو بتخريب البلاد التي فيها الثروات، وقبلها قديماً حروب الذهب والبهارات والكاكاو والبنّ...

(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ{140})
نتيجة تشريعات الكفّار: {قَدْ خَسِرَ}، ففقد شيئاً له أهمية "كبيرة"، {الَّذِينَ قَتَلُوا}، فأنهوا حياة، {أَوْلَادَهُمْ}، عبر قتل البنات أو دفنهن وهن أحياء، وأشهرها حالة الوأد التي صرّحت بها الآية 8 من سورة التكوير "وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ" ومرّت عليها الآية 59 من سورة النحل "يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ..."، أو قتلهم بطريقة أو بأخرى لأن الطعام غير متوافر لهم، وسيأتي الكلام عن ذلك في الآية 151 من هذه السورة، أو ما هو مشهور بين عموم المشركين من تقديم البعض منهم أولادهم كقرابين أو نذور، حيث ينذر أحدهم أن يقتل واحداً من أولاده إذا تحقّق نذره! لأنّ عقيدتهم تسمح بذلك بل سيعيب الآخرون عليهم إن لم يلتزموا بنذرهم! حيث قتلوهم، {سَفَهًا}، لا عن تفكير بل عن اختيارهم لقرارات نابعة من خفّة العقل، {بِغَيْرِ عِلْمٍ}، فالعلم بتعبيرنا الحالي هو الفهم والعقل، وهما لا يشيران عليك بقتل ابنك أو ابنتك، أمّا هؤلاء فسفهاء.

نحن أمام أبرز نموذج عن تشريعات سفيهة للمشركين حيث بطريقة أو بأخرى أباحوا قتل أولادهم! وهم في نفس الوقت يسخرون من أمره تعالى لنا بذكر اسمه قبل قتل الحيوان لأكله!

أنت تعلم أنّ البعض من المشركين قتلوا أولادهم، وبعضهم كان غير موافق على ذلك، ولكن الكلام هنا عن العقلية التي أوصلت المشركين إلى قتل أولادهم، فهذه نتائج نابعة عن شركهم، عن تركهم لدينه تعالى.

خسر الذين، {حَرَّمُوا}، منعوا، {مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ}، فالأشياء التي أعطاهم إياها تعالى ليسدوا بها حاجاتهم، ليأكلوها وقد حلّلها تعالى لهم فمنعوا أنفسهم من أكلها، {افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ}، فهم يعلمون أنّ تحريمهم لها نابع عن كذبهم، لأنّه ليس هناك تحريم إلهي لها، وهم يعلمون أنّه تعالى لم يحرّمها، ورغم ذلك حرّموها فخسروها لأنهم لم يأكلوها مثلما خسروا أولادهم وخسروا رحمته تعالى، وفوق ذلك نالوا عقاباً شديداً في الآخرة.

هذه النوعية من الناس، {قَدْ ضَلُّوا}، فصاروا على السوء الذي لا يوصلهم للشيء الصحيح، {وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}، ولم يكونوا على الشيء الصحيح الذي يوصلهم لغاية صحيحة، فأي نهاية صحيحة ستنتج عن تشريعاتهم الفاسدة وأفعالهم السيئة هذه!

هذا الكلام يرجع بنا إلى ما كرّره القرآن كثيراً عن حصر الهداية بما يقوله تعالى، وأي كلام آخر مخالف فهو ضلال لأنه سوء.

(وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ{141})
{وَهُوَ} سبحانه، {الَّذِي أَنْشَأَ}، كوّن من شيء سابق، {جَنَّاتٍ}، مفردها جنّة وتصغيرها جنينة، وهي المكان الموصوف بروعة ما فيه، {مَعْرُوشَاتٍ}، فيها نباتات مرتفعة عن الأرض في نموّها، كغابات الأشجار وكعريش العنب، وأنشأ سبحانه {جَنَّاتٍ} {غَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ}، فنباتاتها قريبة من الأرض، كالحشائش والنباتات القصيرة، ومن الدارج تسميتها: مروج وشتلات.

وهو سبحانه أنشأ، {النَّخْلَ}، أشجار البلح والتمر والرطب، وأنشأ، {وَالزَّرْعَ}، وهي النباتات التي يتم زرعها من البذر أو الحبّ، كالخس والقمح والعدس... {مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ}، مع أنّها كلّها زراعة لحبّة تحت الأرض، ولكن ينتج عنها ثمار مختلفة النوع بالطعم والشكل والطراوة...

وأنشأ سبحانه، {وَالزَّيْتُونَ}، {وَالرُّمَّانَ}، {مُتَشَابِهًا}، يشبه بعضه تماماً، فالثمرة من شجرة الرمان هذه، مشابهة للثمرة من شجرة الرمان تلك، فحبتهما متشابهة بالحجم واللون والطعم... وهناك ثمار، {وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ}، فهناك رمان حامض، وحلو، ووسطي بين المذاقين، وحبّة كبيرة زهرية، وحبّة غامقة...

الآية تلفت انتباهنا لتنوع نتاج النبات، ولتنوع طرق زراعتها، ولتنوّع طعم النوع الواحد منها.

{كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ}، فالذي أنشأها قد أتاح لكم أكل نتاجها، {إِذَا أَثْمَرَ}، حين تنتج شيئاً صالحاً للأكل، وهذا السماح بالأكل قبل أن يصير كلّ الثمر جاهزا للجني، فلنقل إنّ بضعة حبات نضجت قبل أكثرية الثمار، وانتظرنا بقية الثمار حتى نقطف كل البستان، فأثناء الانتظار يمكننا الأكل منها، وفي تكملة الآية سترى أنّها تشير لنا لحليّة الأكل من الثمر حين ينضج قبل أن نعطي المحتاجين منه، أمّا حين نحصده فيجب أن نعطي المحتاجين منه، فلنكمل:

{وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ}، في الحصاد أي في اليوم الذي تأخذون الثمار كلها فعليكم حق يجب أن تؤدّوه، فقد سمح سبحانه لكم بالأكل من ثمارها قبل أن تحصدوها كلها، أمّا حين حصدتموها كلها، فيجب أن تعطوا حقّ الحصاد في اليوم الذي تحصدونه فيه، وبغياب أي إشارات أخرى في الكلام سنفهم هذه الجملة على أنّها تشير لإعطاء المحتاجين حصّة من الحصاد وهي حقّ عليكم، ومن بعدها يحلّ لكم الأكل من حصادكم.

الذي أنشأ لكم هذه النباتات، قد جعل فيها حقاً عليكم للمساكين، وكثيرا ما استعمل القرآن ألفاظا عمومية كالصدقة والإيتاء والإنفاق... وأحيانا استعمل مصطلح الزكاة، واستعملها كلها في مختلف المصاريف، فلم يحدّد كلمة منها لمساعدة المحتاجين أو للشؤون العامّة للمسلمين أو للإنفاق الحربي... مما يشير إلى تشارك هذه العناوين "زكاة صدقة إيتاء انفاق..." في الدلالة، مع الفارق أنّ الزكاة كمصطلح ديني فهي مرادف للضريبة تصير نسبة إلزامية ندفعها...

لذلك أوجب تعالى علينا الإنفاق عموما إذا كان هناك ما يجب الإنفاق عليه، كالإنفاق على من هم تحت مسؤوليتنا كأهلنا وعيالنا... وعلى أقربائنا إن كانوا بحاجة للمساعدة، وعلى المحتاجين "فقراء أو مساكين"، وعلى الشؤون العامّة للمسلمين، وعلى التكاليف الحربية الدفاعية والهجومية...

ووصفه بالإيتاء لنجعله عند من يحتاجه أو عند من سيوزّعه، ووصفه بالصدقة حتى يكون عملا لا نبتغي منه الربح ولا المنفعة فيكون في سبيله تعالى، ووصفه بالزكاة لأنّك إن لم تفعله لم تكن لائقا بوصفك بالمؤمن ولم يكن مالك لائق بك صرفه إن لم تنفق منه، والزكاة كلمة صارت منذ القدم مصطلحا مرادفا لكلمة ضريبة بسبب إمكانية تحديد نسبة لها إن دعت الحاجة لذلك، بشرط أن لا تتجاوز تلك النسبة ما يوصف بأنه عفو كما ورد في الآية 219 من سورة البقرة "... وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...".

وبحسب مختلف الظروف والأوضاع فإن توافرت إمكانية إنشاء مركزية "بيت للمال" للإنفاق منه على المسلمين وشؤونهم العامّة، واتّخذ الحاكم قرارا بتحديد نسبة للزكاة، فيجب تسليمها لتلك الإدارة، ومع ذلك يبقى الأمر بمساعدة من يحتاج للمساعدة واجبا على الجميع، فلا يوجد شيء اسمه "صدقة مستحبّة" إن كان يوجد من يحتاج للمساعدة.

نرجع للآية، {وَلَا تُسْرِفُوا}، فلا تبالغوا في تصرّفكم بالحصاد، {إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}، فالله تعالى لا يحبّ الذين تجاوزوا التصرّف الصحيح وتصرّفوا بشكل مبالغ فيه، فمن صار له محصول زراعي ولم يعط المحتاجين حصّتهم فقد أسرف، فقد تصرّف في حصّة المحتاجين وهي ليست له، وتجد هذا المعنى للإسراف في مختلف آيات القرآن، على أساس أنك حصلت على ما تحتاجه وزيادة، وحرمت المحتاجين فصرفت ما زاد عنك في أمور غير أساسية في حياتك، هذا من جانب ومن جانب آخر فلا تدس على الفاكهة أو تتركها على الشجر أو تهمل العناية بها... لأنها كثيرة، فهذا إسراف، ومن ناحية أخرى فحتى بعد الإنفاق على المحتاجين فلا تتصرّف بما حصلت عليه باستهتار في صرفه على ما تحتاجه بشكل مبالغ فيه، فشراء ما لا تحتاجه هو تبذير، والمبالغة فيما تحتاجه هو إسراف، فتحتاج لقميص واشتريت اثنين، فهذا إسراف، وإن كنت لا تحتاج أصلا للقميص واشتريته فهذا تبذير.

ونلاحظ الآيات العديدة في مختلف سور تتحدّث عن الذي يجب الإنفاق عليه، أمّا هنا فتركيز الآيات على تحريم وتحليل الرزق الذي قام به الناس بتشريعاتهم الخاصة، فحرّموا وحلّلوا، وحدّدوا حصصا... فهنا تبين لهم أنّه تعالى فقط يحق له أن يحلّل ويحرّم ويوزّع الحصص... لأنه هو سبحانه الذي أنشأ هذه الأرزاق.

ضع في بالك في عموم ما ورد في القرآن أنه تعالى لا يحبّه، فقد وردت حيث لا داعي للكلام القاسي، وخذ مثلا كلامك معي حيث تريد تحذيري وتنبيهي فتقول: سأكسر عظامك لو فعلت كذا وكذا... فهذه نبرة عالية لا مبرر لها لأنك تعلم أني حاليا لست ناويا لفعل السوء، والجملة الأنسب: لا أحب أن تفعل كذا وكذا... وعلى هذا المفهوم جاءت الآيات التي وجّهت كلامها مع المؤمنين مستعملة عبارة مشابهة لعبارة "الله يحب أو لا يحب".

(وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{142})
هو سبحانه الذي أنشأ لكم، {مِنَ الْأَنْعَامِ}، من الحيوانات الموصوفة بأنّها نعمة لكم لأنّكم تأكلونها وتستخدمونها، {حَمُولَةً}، تحملكم "وتحمل أغراضكم"، {وَفَرْشًا}، تنامون أو تستلقون عليها، حيث تصنعون من صوفها ووبرها وجلدها فُرُشاً تفرشونها على أرضية بيوتكم لتمشوا أو تناموا عليها.

نلاحظ في القرآن ورود استعمال كلمة "فرش" ومشتقاتها حيث كانت كلها تشير للشيء الممدود تحت شيء، "عكسها: عرش"، وورد مرّة واحدة: كالفراش المبثوث. وهناك كان المقصود توصيف الفراشة وهي الحشرات ذات الأجنحة... وهنا في الآية، وفي عموم أشعار العرب قبل الإسلام والشعراء المخضرمين استعملوا كلمة فراش حصراً بالضبط كما فهمنا معناها في استعمال القرآن، لِيَبْقَ المعنى كما هو ولا نحمل معنى الفرش هنا في الآية على معنى لا أصل له في اللغة، حيث قالوا إنّها الأغنام والماعز وقالوا أشياء أخرى... ومن بعد قولهم هذا صار هناك استعمال في كلامهم لهذه الكلمة بهذا المعنى، ومن بعد نزول القرآن استحدثوا معنىً جديداً للكلمة واستعملوه، وهذا شيء منتشر جداً في عموم القواميس التي استشهدت بكلام العرب ولم تميّز بين كلامهم قبل نزول القرآن وبعده، وهذا النوع يسمّيه البعض بالتولّد بعد الإسلام.

{كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ}، استهلكوا مما حصلتم عليه من صاحب الاسم المميّز المحدّد "الله" تعالى لتسدّوا به حاجاتكم، من لحوم وألبان الأنعام التي أنشأها تعالى لكم لتعيشوا منها، حيث أتاح وسمح لكم سبحانه بقتلها وأكلها، كما سمح وأتاح لكم سبحانه باستخدامها واستعمال صوفها...

{وَلَا تَتَّبِعُوا}، ولا تكونوا على، {خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ}، حيث يمشي الذي يقوم بأعمال الضلال ويعمل على إضلالكم، فلا تتبعوه حين يوسوس لكم بتحريم ما حلّله تعالى، فَتَقُولُوا عن البقر والدجاج والسمك... إنّها حيوانات مثلنا ولا يحق لنا قتلها، مثلما يفعل بعض الناس "النباتيين"، أو تعتبروا الحيوانات مقدّسة فلا تأكلوا لحمها ولا تَسْتَخْدِمُوهَا، أو تقولوا عن البقرة التي أنجبت عدّة توائم إنّه صار حراماً أكلها واستخدامها، أو كما قرأنا قبل قليل، تُحَرِّمُونَ أكل وليد الأنعام على النساء إن كان حيّاً، ويحق لَهُنَّ أن يأكلن منه إن ولد ميّتاً! لأنّ كل هذه التشريعات وغيرها إنما هي شيطانية.

{إِنَّهُ}، الشيطان، {لَكُمْ}، أيها الناس، {عَدُوٌّ}، يتعدّى مجاله لِيَتَصَرَّفَ فيما لا مصلحة لكم به، فيريد لكم الضرر، {مُبِينٌ}، بشكل واضح فلا شكّ في عداوته لكم، ولا شك في أنّه لن يدلكم على الخير، وكل تشريع أو قانون مخالف لأوامره تعالى فهو شيطاني فانتبهوا.

(ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{143})
الأنعام الأساسية المتداولة بينكم، والتي تعتمدون عليها كمصدر للّحوم، هي {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ}:

{مِنَ الضَّأْنِ}، الحيوان اللبون والذي له صوف، أنشأ تعالى {اثْنَيْنِ}: ذكراً وهو الخروف "كبش"، وأنثى وهي النعجة، هذا المقصود باثنين هنا لأن تكملة الآية ستتحدّث عن اثنين مختلفين: الذكر والأنثى.

{وَمِنَ الْمَعْزِ}، وهو الحيوان المعروف والذي له شعر، أنشأ {اثْنَيْنِ} هما: ذكرٌ وهو التيس، وأنثى وهي المعزاة أو العنزة.

{قُلْ}، للذين شرّعوا حلالاً وحراماً في لحم أو استخدام الأنعام، قل لهم عبر هذا القرآن:

{آلذَّكَرَيْنِ}، هل "الخروف والتيس"، {حَرَّمَ}، منع من الأكل والاستخدام، {أَمِ}، حرّم الله تعالى فمنع أكل واستخدام، {الأُنْثَيَيْنِ}، "النعجة والعنزة"؟

{أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ}، أم حرّم تعالى ما حوت عليه، {أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ}؟ فإن كان في رحم، في مكان حَبَلِ النعجة أو المعزاة، فإن كان فيه جنين فهل حرّمه الله تعالى؟

{نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ}، أخبروني بما لا أعلمه لا عن جهل أو تخمين أو ظنّ، بل أخبروني بطريقة تثبت أنّ من خلقها حَرَّمَها.

{إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، إن كان كلامكم صحيحاً بأنّه حرام، حيث قرأنا في الآيات السابقة أنّهم رفضوا ذكر اسم الله تعالى عند قتل الحيوان للأكل، ولكنهم اخترعوا تشريعاً من رأسهم! فجعلوا حيواناتٍ حراماً، وحيواناتٍ حلالاً! وعلمنا أنّهم لا يحق لهم التشريع، بل الذي خلق فقط يحقّ له تحديد الممنوع من المسموح، ونتذكّر من الآية 103 من سورة المائدة أنّهم جعلوا سائبةً وبحيرةً وحامياً... فهنا يسألهم القرآن بطريقة: فلنضع كل الأمور على الطاولة، فالأنعام المتداولة بينكم واعتمادكم عليها هي أربعة أنواع: ضأن، معز، إبل، وبقر، وتصير ثمانية أزواج إذا عددنا من كل نوع ذكراً وأنثى، وبالنظرة الإلهية للأمور فسبحانه قبل أن يكون هناك أي شيء، صمّم السماوات والأرض وخلقها ومن ضمن ذلك أن تصل الأمور إلى حيث سيكون بين أيدي الناس هذه الأنعام، والآن هاتوا ذكراً وأنثى من المعز والضأن، وأخبرونا عن الحلال والحرام منها، فهل وصلكم علم أكيد منه تعالى بتحليل أو تحريم هذه الحيوانات؟ فإن لم يكن وصلكم من الذي أنشأها شيء، فبأي حق أنتم تحرّمون وتحلّلون؟!

(وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{144})
لنكمل الحديث عن الأنعام التي عادةً تعتمدون عليها للأكل، حتى ننتهي من موضوع اللحم الحلال والحرام كله نهائياً:

أَنْشَأَ تعالى، {مِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ}: ذكراً وهو الجمل، وأنثى وهي الناقة.

أَنْشَأَ تعالى، {مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ}: ذكراً وهو العجل، وأنثى وهي البقرة.

{قُلْ}، للذين اخترعوا تشريعات حلالٍ وحرامٍ في أكل واستخدام الحيوانات، قل لهم عبر هذا القرآن:

{آلذَّكَرَيْنِ}، هل "الجمل والعجل" {حَرَّمَ}، فمنع سبحانه من أكلهما واستخدامهما، {أَمِ}، حرّم فمنع أكل أو استخدام {الأُنْثَيَيْنِ} "البقرة والناقة"؟

{أَمَّا}، أم حرّم الذي، فمنع أكل أو استخدام الذي، {اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ}، ما حوته، {أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ}، فإن كان في بطن "الناقة أو البقرة" جنين فهل حرّمه الله تعالى؟ فاسألهم عبر هذا القرآن عندما حرّموا وحلّلوا:

{أَمْ كُنْتُمْ}، فهل كنتم، {شُهَدَاءَ}، حاضرين ترون وتسمعون، {إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا}؟ حين أوصل لكم سبحانه معلومات وصار تنفيذها من مسؤوليتكم، فهل كنتم حاضرين حين أمركم بالحلال والحرام وكان لديكم إمكانية بالمشاركة بهذه التعليمات؟ يعني فليتفضّل أحد منكم ويقول إنّه سمع شخصياً تحريماً وتحليلاً نازلاً من عند الله الخالق لهذه الحيوانات، أو فليقل إنّه كان حاضراً حين صدرت الأوامر منه تعالى، فأنتم لا ينزل عليكم وحي منه تعالى ولستم متواجدين حيث يتم أخذ القرارات.

تذكّر ما يفعله بعض الناس الآن من تحريم أكل اللحم، أو تحريم استخدام الحيوانات للنقل أو الحراثة، أو تحريم لبس جلود أو صوف الحيوانات! لأنهم من أنصار الحيوانات! فبأي حق يحرّمون ويحلّلون؟ فمن خلق هذه الحيوانات هو فقط يحق له أن يسمح أو يمنع من أكلها أو استخدامها، وأنتم لا يحق لكم، فهل كنتم حاضرين عند رسول أو نبي أو نزل عليكم وحي من الذي يحق له التحليل والتحريم، أو كنتم متواجدين حيث يحصل التحليل والتحريم؟

{فَمَنْ أَظْلَمُ}، فإن كان هناك من يفعل شيئاً ليس له حقّ به، فمن أظلم، مَنْ هو الأشدّ ابتعاداً عن العدل والإنصاف، {مِمَّنِ}، من الذي، {افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}، حيث عن قصد ومعرفة قال أشياء كاذبة لم يقلها تعالى، حيث قال عن البقر إنّه حرام أكله، وقال إنّه تعالى يحرّمها إذا أنجبت خمس بقرات "مثلاً"... فهل يوجد أظلم من الذي افترى كذباً، {لِيُضِلَّ

النَّاسَ}، ليجعلهم بعيدين عن الطريق الصحيح، ويُضِلَّهُمْ، {بِغَيْرِ عِلْمٍ}، بل عن جهل، لأنه لم يصله علم صحيح منه تعالى بالحرام والحلال، وهو اخترع من رأسه حلالاً وحراماً بحسب رأيه الفاسد، ولا يحقّ له ذلك فهذا ظلم.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي}، لا يضع على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة "غصباً عنهم"، {الْقَوْمَ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع التشريعات، {الظَّالِمِينَ}، الذين لم يكن معهم حقّ، حيث لم يكونوا عادلين ولا منصفين حين تركوا تشريعه تعالى واخترعوا تشريعاً خاصاً بهم، فالعدل والإنصاف أن تترك التشريع بالحلال والحرام لمن خلق هذه الحيوانات وهو يملكها، ولكن هؤلاء كانوا ظالمين ولن يهديهم تعالى ولن يضعهم على الطريق الصحيح، بل يرسل لهم خبراً عبر هذا القرآن، وبعد ذلك يتركهم، فإن اختاروا الاهتداء ساعدهم، وإن اختاروا الضلال فلن يغيّر سبحانه لهم عقولهم.

نتذكّر دائماً أنّ كلام القرآن عموماً عن نماذج، فالذين نزل القرآن في زمنهم وبيئتهم هم نموذج وجّه إليهم سبحانه الكلام كواقع حال لأن الرسول الإلهي كان بينهم، وإلا فكلامه تعالى عمومي على كل من توافرت فيه نفس صفات الذي خاطبهم القرآن، علماً أنّ القرآن توسّع في تناول مختلف العقليات والنفسيات عندما وجّه كلامه مع الذين نزل في زمنهم... والكلام هنا عن ثمانية أزواج من الأنعام فهو نموذج لبقية الناس، فهذه الأنعام في هذه البيئة حرّموا وحلّلوا منها، وإن كانت أنعام أخرى حرّم منها الناس وحلّلوا في بيئة أخرى، فنفس الكلام الإلهي يجري عليهم.

(قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{145})
أنتم لم تشهدوا تحريمه وتحليله تعالى، ومعلوم أنكم بشر ولا مكان لكم حيث يتم اتخاذ القرارات الإلهية، وأنتم اخترعتم تحليلا وتحريما من عندكم، وعبّر لهم أيها الرسول(ع) عن مستندك ودليلك للتحريم الإلهي، {قُلْ} للناس عبر هذا القرآن، وقل بالخصوص للذين يخترعون تشريعا للطعام مما يرونه هم مناسبا:

{لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ}، فيما وصلني إلى وعيي وحيا منه تعالى، لا أجد فيه: {مُحَرَّمًا}، ممنوعا وعليه عقاب، {عَلَى طَاعِمٍ}، على من يأكل، {يَطْعَمُهُ}، يأكله سواء بكمية قليلة أو كبيرة، {إِلَّا أَنْ يَكُونَ}، الطعام:

{مَيْتَةً}، وهي كل حيوان مات بأي طريقة " من مرض، من ضربه، أو وقوعه من مكان عال، أو اختناقه..." فهذا اللحم حرام أكله، والاستثناء هو التذكية قبل انتهاء حياة الحيوان.

أو يكون، {أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا}، دما مصبوبا سائلا، حيث يتم تجميع الدم لوحده وشربه فهذا حرام، وفي مقابله الدم الذي يبقى في اللحم فهذا حلال، ونجد في الآية 115 من النحل وفي الآية 3 من المائدة أنهما عبرتا بالدم فقط، بدل التعبير هنا بالدم المسفوح، وسواء ذكّينا الحيوان وجمّعنا دماءه، أو وهو حيّ سحبنا منه الدم، فشرب الدم أو طهيه بعد تجميعه... حرام.

{أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ}، فهو حرام، ويشمل العضلات والدهن وبقية الأعضاء، أما العظم والجلد والظلف... فعادة الناس لا تأكلها، ولذلك لم تذكرها الآية أنها حرام.

{فَإِنَّهُ}، هذا الطعام، {رِجْسٌ}، شيء مكروه مؤذٍ، لأن الضرر منه كبير أكبر بكثير من أي منفعة توجد فيه.

إذاً الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير كلها طعام رجس.

أو، الطعام الحرام يكون: {أَوْ فِسْقًا}، خروجا عن شيء صريح قاله الدين، لأنه، {أُهِلَّ}، تهلّل عليه، وقيل عليه، وذكروا عليه اسم، {لِغَيْرِ}، اسم، {اللَّهِ} تعالى، حين جرى قتله، حيث أمرنا سبحانه بذكر اسمه تعالى حين نقتل حيوانا للأكل، وترك ذكر اسمه تعالى عن عمد يجعل الذبيحة بحكم الميتة فلا يجوز أكلها، أمّا إذا ذكرنا اسما آخر، كاسم شخص أو ولي أو شخصية دينية أو اسم صنم أو كوكب... فهذا كله فسق وكلّه مخالفة لشيء صريح قاله تعالى، واللحم يكون حراما.

{فَمَنِ اضْطُرَّ}، ودفعته الظروف لأكلها غصباً عنه وهو أساسا لم يكن له رغبة فيها، ولم يجد خيارات أخرى إلّا أكلها لأنه جائع ولا يمكنه الحصول إلّا على هذا الطعام، كالسجين عند الكفّار الذين يقدّمون له لحما لم يذكروا اسمه تعالى

عليه... أو كالذي في الغابة أو الصحراء ووجد حيوانا ميتا ولم يجد نباتا أو فاكهة أو حيوانا حلالا ليأكله... فهذا مضطر للأكل من الميتة أو الخنزير وإلا فسيموت من الجوع، فلا بأس عليه أن يأكل منها، ولكن بشرط أن يكون، {غَيْرَ بَاغٍ}، غير فارض ذلك على نفسه فيكون راغبا فيه أصلا، مثلاً: يرغب أحدهم في أكل لحم الخنزير، يذهب من دون طعام إلى مكان بعيد يوجد فيه خنازير، ويبقى هناك حتى يجوع، يصطاد خنزيرا ويأكله لأنه لا يجد طعاما غيره! فهذا باغ، وهو سيتحاسب على أنه أكل حراما مع أنه صار مضطرا.

يأكل من هذه الأشياء عند الاضطرار بشرط ألا يكون، {وَلَا عَادٍ}، معتدياً، لنفرض بأنه سافر ليقتل أو يسرق أناسا أبرياء، فهو معتدٍ، وفي الطريق نفد منه الطعام، واضطر لأكل لحم الخنزير، فهو سيتحاسب لأنه أكل حراما مع أنه مضطر.

من كان مضطرا غير باغ ولا عاد، {فَإِنَّ رَبَّكَ}، وإن المسؤول عنك من مستوى إلهي، {غَفُورٌ}، يغفر يتجاوز عن هذا ويسامح، حيث قال لكم إنه حرام، وعليه عقاب، ولكن بما أنكم مضطرون، يغفر سبحانه لكم فقط في حالة الاضطرار ولن يعاقبكم على الذنب.

ربك، {رَّحِيمٌ}، لديه عناية خاصة للمؤمنين بما فيه مصلحتهم، ولذلك يسامحهم، أمّا غيرهم من الكفّار فلن ينالوا المغفرة على أكل اللحم الحرام حتى لو كانوا مضطرين.

نلاحظ الآية تتحدّث عن المغفرة لشخص مضطر، وإن كنت تشاهده يأكل لحم الخنزير، فهو عمليا يخالف أوامره تعالى، وسمح له تعالى بالأكل عند الاضطرار، وغفر له المخالفة، وحين تقرأ الآيات التي تتحدث عن مغفرة الذنوب للنبي(ع) فهي من هذا الباب، وليست ذنوبا مقصودة ارتكبها النبي(ع) بل مخالفات حصلت ودفعته الظروف لها، كتعيين أشخاص غير مؤهلين إيمانيا للمشاركة في الحرب، فيرتكبون الجرائم...

السوء يبقى وصفه بالسيئ حتى لو كنت مضطرا لفعله، ولكنه تعالى عند "اضطرارنا" يغفر لنا فعل "السوء"، والكلام هنا عن أكل اللحم الحرام وليست قاعدة عامّة تسمح لنا بفعل أي سوء كان عند الاضطرار، مثلاً ومهما كانت الظروف فلا يحقّ لنا قتل نفس بريئة، حتى لو كان قتل واحد بريء سينقذ كل البشرية من الموت أو سيجعلهم يؤمنون... حيث لدينا نصّ صريح يمنع من قتل البريء...

نلاحظ في كتبنا لائحة طويلة من الحيوانات المحرم أكلها، بينما الآية هنا تقول إن لحم مطلق الأنعام حلال، إلا الخنزير. ولكننا نجد في القرآن تحديدا لما هو حلال، حيث ورد في سورة الأنعام أن بهيمة الأنعام فقط هي حلال، ولذلك تخرج السباع والكلاب والسنانير والقوارض... ويبقى فقط الحيوانات التي يصحّ إطلاق لفظ الأنعام عليها، سواء أكانت أليفة كالبقر والدجاج... أو وحشية كالغزال والحجل...

من المشهور أن سورة الأنعام نزلت قبل سورة المائدة، ولكن هذا لا يعني أن الآية هنا حلّلت كل أنواع اللحم إلا الخنزير، ثم جاءت سورة المائدة بآية تضيّق "تخصّص" التحليل، أو تنسخ الآية هنا، لا، فالاعتماد على أكل السباع حالة شاذة في المجتمعات، والمشهور هو أكل الأنعام، وسياق الآيات هنا يتحدث عن الطعام المتعارف عليه بين الناس أنه طعامهم، والذي جعلوا منه حراما وحلالا، ويجيبهم سبحانه عبر القرآن بأنه لم يحرّم شيئا مما حرموه من الأنعام، وهم حرّموا من الأنعام، ولم يحرّم سبحانه من لحم الأنعام إلا ما كان ميتة و... فهذا ما تريد الآية هنا قوله.

انتبه للفرق بين ما يسمّى "طعاماً" وبين ما يسمّى "أكلاً"، حيث تأكل الخشب والقماش والتراب... وتأكل أموال الآخرين كما عبّرت الآية العاشرة من سورة النساء "إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا"، والأكل هو الحيازة والاستهلاك لعموم أي شيء، بينما الطعام لخصوص ما تعتبره الناس مرغوبا لأكله للشبع أو التفكه. وبناء عليه فالآية هنا لا تقصد الكلام عن كل ما حلّل أو حرّم تعالى أكله، والبول والغائط والخشب والتراب... يمكن أكلها ولكنها ليست طعاما، والديدان والصراصير والجيفة... عند العقلاء ليست طعاما، ولكن بعض الناس يعتبرونها طعاما، مثلما الحجر ليس إلها وبعض الناس يؤلهونه، ويأتي الكلام القرآني لتقويم هذا السوء ليخبرك عن إرجاع مفهوم الطعام إلى خصوص الطيبات وليس لكل ما يمكن أكله.

(وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ{146})

{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا}، وعلى الموصوفين بأنهم من الذين هادوا، حيث صار لهم تسمية اليهود بسبب وصف النبي موسى(ع) لنفسه ولمن معه من المؤمنين بأنهم هادوا إليه تعالى، وهي تعني أنهم اهتدوا وأنابوا وحمدوا له تعالى، وورد ذلك في الآية 159 في سورة الأعراف "وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ..."، وهذا المعنى لكلمة {هَادُوا} "يهود" هو الذي ستجده في قواميس اللغة العبرية المرموقة.

سواء أكانوا من بني إسرائيل أو من غيرهم ممن آمن بدينه تعالى على ملّة النبي موسى(ع)، {حَرَّمْنَا}، منعناهم من أكل، {كُلَّ ذِي ظُفُرٍ}، كل حيوان له ظُفُر، وهو وصف لما تلتقط به الشيء لتظفر به، والظُّفُر اسم لما ينبت على أطراف الأصابع لأن الحيوانات به تظفر، والكلام هنا في الآية تكملة للمحرمات التي ذكرتها الآية السابقة، فالمقصود بـ {ذِي ظُفُرٍ} السباع والجوارح ذات المخالب وهي من آكلات اللحوم، سواء أكانت من الحيوانات ذات الأجنحة أو غيرها.

ننتبه جيدا، لأن القرآن لم يقصد أن يقدّم لنا بحثا تاريخيا عن التشريعات الإلهية واختلافاتها، بل ذكر البعض منها كما في آيتنا هنا ليبيّن لنا أن ما فعله المشركون من تحريم وتحليل من عندهم وبشكل مخالف لما حلّله وحرّمه تعالى، فهو عمل عليه عقاب، أمّا بالنسبة لما حلّله تعالى ثمّ حرمه، أو حرّمه ثم حلّله، وهي موارد نادرة، فقد ذكرتها الآيات هنا وذكرت سبب حصول ذلك، فإذا قال مشرك ما أنه يحرّم ويحلّل، وديننا يحلّل ويحرّم ثم يتغيّر فيه الحلال والحرام بعد مدّة، فكما تبدو المطاطية وفقدان ثبات التشريعات في ديننا فليكن ما حرّمه وحلّله الكافر مشابها لذلك، فلماذا التعليق عليه؟ وتأتي الآيات هنا لتذكر بعض ما تغيّر حكمه في دينه تعالى مع سبب تغيّر الحكم. وسبحانه وتعالى دائما يطرح الأمور بشفافية.

ننتبه ثانية، حيث افترض الغالبية الساحقة من المفسرين أن تحريم {كُلِّ ذِي ظُفُرٍ} يقصد شيئا كان حلالاً وصار حراما، وهذا غير صحيح، بل تحريم {كُلِّ ذِي ظُفُرٍ} هو نفسه تحريم السباع والجوارح لأنه تكملة للمحرمات التي ذكرتها الآية السابقة، وأقحمت الآية تحريمها على بني إسرائيل لتكمل كلامها عمّا كان حلالا لهم وتحرّم عليهم، حيث إن {كُلَّ ذِي ظُفُرٍ} "على معنى السباع والجوارح" حرام معلوم حرمته في دينه تعالى منذ القدم، وفي شريعة القرآن وسنّة النبي(ع)، ومن سبقنا من المنتمين لدينه تعالى ونحن، فكلانا محرّم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله تعالى به، ومضافا إليه {كُلَّ ذِي ظُفُرٍ}... وبعدها تدخل الآية على ما كان حلالا وصار حراما وستذكر لنا سبب حرمته.

ستجد في التفاسير بناء على بعض الروايات أن الظفر يشير إلى ما ليس مشقوق الأصابع أنه حرام، وفسروه بالجمل والبط والنعام... ولكن هذا التفسير غير سليم أمام النسور التي أرجلها مشابهة للدجاج، علما أن النسور حرام عليهم وعلينا، والدجاج حلال، لذلك فضّلنا الاستغناء عن تفسيرهم الذي لا يعطي قاعدة واضحة لما هو حلال أو حرام، حيث لا في التراث اليهود ولا في تراثنا تنطبق هذه القاعدة، أي لن تجد كل ما ليس مشقوق الأصابع حرام عند اليهود في كتبهم.

{وَمِنَ الْبَقَرِ}، التي ذَكَرُها الثور ومن نوعها الجاموس... {وَالْغَنَمِ}، بنوعيه الضأن، الخراف من حمل وكبش ونعجة... والماعز، من جدي وتيس وعنزة... ويبدو أن العرب "قديما" استعملوا كلمة شاة كمفرد لكلمة غنم، وأنهم يقولونها للذكر والأنثى. {حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ}، منعا على اليهود، {شُحُومَهُمَا}، أكل شحوم البقر والغنم، وفي المصطلحات العبرية اسم الشحم الحرام: شيليف، وهو مميّز عن اللحم ذي اللون الأحمر، إذ إن الشحم من تدرجات اللون الأبيض والأصفر، وفي العامية لا نميّز كثيرا بين كلمتي دهن وشحم.

كلّ الشحم حرام {إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا}، ما كان على ظهر البقر والغنم من شحم حيث أجاز سبحانه لهم أكله، {أَوِ} ما حملت {الْحَوَايَا}، فما كان ملتصقا بالأمعاء والمصارين فهو حلال، {وَمَا اخْتَلَطَ}، من الشحم، {بِعَظْمٍ}، مثل ما نجده على فقرات الظهر حيث اللحم والشحم والعظم مختلطة ومن المتعذّر الفصل بينها. وهكذا تكون الإلية التي على الوركين وما فوق الكلى وشحم الأكتاف والأرداف وما تحت الرقبة، حراماً... والشحم في البقر يتميّز بقساوته وسماكته، أمّا في الغنم فغالبا طريٌّ ولونه أكثر بياضا من شحم البقر.

لاحظ في التراث اليهودي ستجد تفاصيل كثيرة جدا حول الشحم الحرام، مما يجعلك تحتاج للتخصّص والتعلّم لمعرفته بسبب كثرة التعقيدات التي ذكروها اشتقاقا مما ورد في سفر اللاويين... على كل حال يكفينا ما ذكرناه هنا لنفهم أنه تعالى حرّم عليهم شيئا كان حلالا، وعاد ليصير حلالاً في عهد النبي عيسى(ع)، فالتدقيق في هذا الموضوع لمعرفة مواضع ونوعية الشحم المحرّم صار مجرد فضول.

لاحظ ما ورد في الآية 118 من سورة النحل صراحة عن تحريم بعض الأمور على اليهود بسبب ظلمهم "وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ"، وتكملة الجملة هنا أيضا تقول نفس المعنى:

{ذَلِكَ}، التحريم للشحم... {جَزَيْنَاهُمْ}، حيث كان مقابلا معادلا مساويا، {بِبَغْيِهِمْ}، بتعديهم للحدود التي رسمها الله تعالى لهم، وبسبب ارتكابهم للسوء في تشريعاتهم وسلوكياتهم وتركهم لبعض الواجبات ضيّق سبحانه عليهم حتى يعاقبهم وجازاهم وشرّع لهم حرمة معادلة ومساوية لبغيهم.

{وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}، ولسنا نكذب ولا نمزح حين نقول بأنه حرام، وفعلا على أكل الشحم الذي ذكرناه عقاب، فمن فكّر منهم بالاستخفاف بهذا التشريع، فاستخفافه لن يغيّر أي شيء، إذ كان حلالا في السابق وليس عليه عقاب، ومن حين ما جازيناهم وقلنا إنَّهُ حرام فسنعاقب عليه، وهو تعالى صادق في كلامه.

(فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ{147})
{فَإِنْ كَذَّبُوكَ}، فيما قلته من أنك لا تجد في الوحي الذي ينزل عليك، حيث لا تجد فيه ما قال عنه المشركون إنَّهُ حرام، فإن قالوا عنك بأنك تكذب، وأن ما حرّموه فهو حرام عنده تعالى، {فَقُلْ}:

{رَبُّكُمْ}، المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ}، موصوف بأنه تعالى عنده عناية للجميع بما فيه مصلحتهم، وهذا التحريم الذي تقولون عنه ليس نابعا عن أي رحمة إلهية بل من مزاجكم صار حراما، فهو تضييق على الناس ولا معنى له، وليس لتحريمه أي سبب وجيه.

ربكم سبحانه، {لَا يُرَدُّ بَأْسُهُ}، فإذا قرّر تعالى أن يصيب أحدا ما بشيء شديد فلا أحد يمكنه ردّ شدّته، {عَنِ الْقَوْمِ}، عن الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع دينه تعالى، {الْمُجْرِمِينَ}، المرتكبين للجرائم، الذين يقومون بالأعمال التي يستحقون العقاب عليها. وعندما يقرر سبحانه إيقاع المجرمين في الضيق والشدّة فلا يمكن لأي أحد الوقوف في وجهه تعالى لمنع حصول ذلك.

من ناحية سبحانه رحمته واسعة ولا يضيّق على الناس في تشريعه لهم، وفي الوقت نفسه إن صار الناس مجرمين فسبحانه لا يضيّق عليهم فقط، بل يصيبهم ببأسه، حيث يصيبهم بالأمراض والحروب والكوارث...

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ{148})
{سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا}، الذين جعلوا له تعالى شركاء في الألوهية، سيقولون ردّا على كل الكلام الذي قالته لهم هذه السورة: {لَوْ شَاءَ اللَّهُ}، حيث أمامه تعالى خيارات عديدة ولو قرّر، {مَا أَشْرَكْنَا}، نحن، {وَلَا آبَاؤُنَا}، أشركوا، فلو كان فعلا الإله الأحد لكان منعنا من الشرك به، إذ لديه قدرات إلهية ولن يعجز عن منعنا من الشرك به إن كان الشرك به غير صحيح.
نلاحظ الكلام الفارغ في العديد من أقوال هذه النوعية من الناس، كلام بلا منطق ولا دليل، وسيأتي فيما يلي من الآيات قرابة أربعة أجوبة متنوعة على كلامهم هذا.
سيقولون لو شاء الله تعالى، {ولا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ}، لو أراد سبحانه لما كان تركنا نحرّم ونمنع أكل السائبة والبحيرة... وما حملته في بطونها... إن كان ربك يا محمّد مسيطرا على كل شيء، ويتدخل في حياتنا، ويشرّع لنا عقيدة وقانونا، فلماذا تركنا نشرك به، وتركنا نحلل ونحرّم مع أنه قادر على منعنا من ذلك بالقوّة؟ حَسَنٌ الجواب الأول الأساسي عن هذا الكلام:

{كَذَلِكَ}، بهذه الطريقة من الكلام والعقلية، {كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، فكلامهم ليس فيه صدق، فإمّا أن يخبرهم ربهم سبحانه بالصح والخطأ، وهذا حصل عبر الرسل، وإمّا أن يجبرهم ويغيّر عقولهم وهذا غير منطقي ولن يحصل، لأنه سيجعلهم كالآلات بلا إرادة ولا حرية اختيار وحينها لا معنى للثواب، فمن أين اخترعوا أن يتدخل تعالى بالقوّة ليمنعهم من الشرك واختراع التشريع! أو من أين اخترعوا أنه تعالى لم يخبرهم بأن هذه الأشياء ممنوعة؟ هل بقي معنى لاقتراحهم غير أن يقوم سبحانه بتغيير عقولهم ويأخذ منهم حرية الإرادة والاختيار، وهل هذا الكلام له معنى!
المشركون السابقون كذّبوا وأشركوا ولم يصدّقوا رسله تعالى... {حَتَّى ذَاقُوا}، إلى أن لمسوا وتحسّسوا، {بَأْسَنَا}، شدّتنا وقسوتنا، الأشياء التي تجعلهم يشعرون بالمضايقة الشديدة كالكوارث والحروب والأوبئة... حيث كذّبوا حتى صار تكذيبهم سببا ليذوقوا عذابه الشديد سبحانه، فهل ستقولون هذا الكلام الفارغ والذي يوصلكم إلى حيث يصيبكم سبحانه بعذاب شديد، وعندها ترجع إليكم عقولكم وتتوقفون عن التفاهات؟!
{قُلْ}، لهؤلاء عبر القرآن: {هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا}؟ وعندما أشركتم، وعندما اخترعتم شريعة فيها حلال وحرام، فعلى أي أساس قمتم بهذه الأشياء؟ عن علم أو عن جهل؟ وهل من مصدر إلهي أشركتم؟ وهل أخبركم سبحانه بأنه لديه شركاء؟ أو أخبركم بالحلال والحرام الذي تقولون عنه؟ أخبرونا عن العلم الذي وصلكم حتى أشركتم وشرّعتم، فمن أين، وقبل أن ترموا المسؤولية عليه تعالى تذكّروا أنكم أنتم ترتكبون هذه الأفعال السيئة، فعلى أي أساس تقومون بها، أخرجوه لنا العلم الذي استندتم إليه وأخبرونا عنه، أرونا إياه، بيّنوه.
بالتأكيد لا يوجد أي علم في كلامهم، بل: {إِنْ تَتَّبِعُونَ}، فقط أنتم على، {إِلَّا الظَّنَّ}، حيث إن لديكم علمٌ مستند على شيء غير صحيح، فأنتم تدّعون أنه تعالى لديه شركاء، وتدعون حرمة السائبة والبحيرة... ولكنه علم عن ظنّ غير صحيح. {وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ}، كلامكم فقط هو تخريص، فهو كلام عن حدس، عن تخمينات، ولستم متأكدين من أي شيء، ولا يمكنكم إثبات صحّة كلامكم.
للتوسّع في معنى كلمة "ظنّ" فراجع ما قلناه في دراسة الآية 116 من هذه السورة.

(قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ{149})
{قُلْ}، لهؤلاء عبر هذا القرآن: {فَلِلَّهِ} تعالى {الْحُجَّةُ}، الشيء الذي يبرهن على صحّة كلامه تعالى، {الْبَالِغَةُ}، التي تصل لأقصى وأشدّ ما تكون عليه، فله تعالى الحجة القوية الصحيحة الواضحة أنها صحيحة، {فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}، لجعلكم كلّكم بدون استثناء على الشيء الصحيح، وسياق الكلام يشير لجعلهم غصباً عن إرادتهم مؤمنين.

أول جواب عن كلامهم الفارغ الذي ليس عن علم، أنه تعالى لديه الحجج القوية جداً على نقيض كلام المشركين، وأوصل سبحانه حججه عبر رسله وكتبه، وفيما سيأتي سنرى العديد من الحجج، مما يعني أن كلامهم الفارغ عليه ردود... وثانياً سبحانه فعلاً قادر على سحب حرية الإرادة منكم، وقادر على جعلكم كالآلات، فيهديكم غصباً عنكم، ولكنه سبحانه أخبرنا بوضوح أنه لم يشء ذلك، فلن يفعل ذلك. وبعبارة أخرى فأنتم لا تقررون عنه تعالى ماذا سيفعل، فاحصروا همّكم فيما تقررون أنتم فعله لأنكم أنتم ستتحاسبون.

(قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَـذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ{150})
نبدأ مع أول حجّة إلهية:

{قُلْ}، للمشركين والمخترعين للشرائع عبر هذا القرآن:

{هَلُمَّ}، أحضروا تعالوا مع، {شُهَدَاءَكُمُ}، مع الذين يشهدون ويؤكدون عن حضور أو سمع أو رؤية، والمقصود هو آلهتهم التي اخترعوها وقالوا إنَّهَا شريكة له تعالى، فهاتوا آلهتكم التي تشهد، {أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا}، فليقولوا إِنَّهُمْ شهدوا أَنَّهُ تعالى منع أكل السائبة والبحيرة وما في بطونها حرام على أزواجكم...

{فَإِنْ شَهِدُوا}، وقالوا إنَّ شركاءهم يقولون إِنَّهُ تعالى حرّمها، فمثلاً يقول أحدهم إِنَّهُ أوحي إليه، أو تراءى له في المنام شيء من إلهه... أو هناك حادثة حصلت تعبّر عن قبول آلهتهم للقربان وحادثة تثبت تسبيب الأذية لهم لأنهم أطعموا الإناث من مواليد النذور... {فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ}، لأن تأكيدهم لصحة هذا الكلام كذب، حيث يقف واحد منهم ويقول: لقد أوحى الله تعالى إلى آبائنا بهذا الكلام. فلا يمكنك تكذيبه، ولكن نخبرك بأنهم حتى لو شهدوا، فكلامهم كذب فلا تشهد معهم على صحّة الكلام واصمد على موقفك، إذ نحن الإله الذي يحلّل ويحرّم وأي شخص يقول بأن الله تعالى حرّم أو حلّل، فها نحن "بأنفسنا" نخبرك بما حلّلنا وحرّمنا فلا تشهد معهم بشيء ينسبونه لنا ولم نقله لك.

{وَلَا تَتَّبِعْ}، ولا تكن على، {أَهْوَاءَ}، مشتهيات وما يحبّ، {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}، الذين قالوا عن الأمور المميزة المنسوبة لنا إِنَّهَا كاذبة وبالتالي فهي ليست أدلة ولا براهين على صحّة كلام الرسول(ع)، وهم ساروا على الآراء التي يحبونها، والتي على خاطرهم ومزاجهم، فما حللوه وحرموه نابع بشكل واضح من الهوى السيّء والمزاجية، وهي نفس العقلية والنفسية التي وصلت بهم إلى تكذيبهم بالآيات الإلهية.

ولا تتبع أهواء، {الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ}، فلو اعتقدوا بقدوم حياة في الآخرة بعد الحياة الأولى التي نحن فيها، طبعاً واعتقدوا أن فيها حساباً ومجازاةً، لما كانوا تجرؤوا على مخالفة أوامر ربهم سبحانه وتكذيب آياته.

{وَهُمْ بِرَبِّهِمْ}، بالمسؤول عنهم من مستوى إلهي، {يَعْدِلُونَ}، يميلون عنه وعن أوامره، ويشركون به ويخترعون تشريعهم الخاص!

عندما تقول الآية هنا أَنْ لا تشهد مع الذي يقول بأنه وصله خبر من الله تعالى بوجود شركاء وبتشريع... ننتبه للآيات التي عادة تشير للامتداد التاريخي لدينه تعالى، إذ تقول بأن القرآن مصدّق لما سبقه من الكتب، والتي تقول إنَّ الرسول محمد(ع) هو واحد من العديد من الرسل الإلهية قبله، وهنا بعد قليل سنجد لفت انتباه للرسول موسى(ع) ولكتابه، فأي شخص يقول بأنه تعالى أوحى له، فيجب أن يكون متوافقاً متماشياً مع من سبقه من الرسل الإلهية وَأَنْ لا يكون أوّل رسول للبشرية، فلا معنى لرسالته بعد آلاف من السنين بلا رسول سابق لهداية الناس... ولا معنى للأحلام التي يروونها عن خوارق وكرامات آلهتهم، ولا معنى للقصص التي ألّفوها حول معجزات آلهتهم... أمّا من يشهد بأنه تعالى أوصل لهم خبراً عن وجود آلهة أخرى، أو بتحريم السائبة والبحيرة... فهو كاذب ويناقض ما سبق من وحيه تعالى على رسله وفي كتبه منذ آلاف السنين، وبكل سهولة يمكنك تكذيبه.

(قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{151})
{قُلْ}، لهذه النوعية من الناس وللعموم عبر هذا القرآن:

{تَعَالَوْا أَتْلُ}، احضروا إليّ لأقرأ عليكم عن مستند، {مَا حَرَّمَ}، ما منع، {رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ}، فها أنا أخبركم مستنداً إلى وحي ينزل عليّ من المسؤول عنكم من مستوى إلهي، حيث إن كلمة "تلا يتلو تلاوة" في اللغة تشير إلى القراءة عن مستند، نقلا عن مستند، سواء نَقَلْتَ عن شيء مكتوب، أو نَقَلْتَ عن كلام لشخص آخر، أو عن الوحي... وأي نقل عن مصدر ما فهو تلاوة.

{أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}، فلا ولا بأي طريقة، ولا بأي شكل، فلا تجعلوا لله تعالى شريكاً في الألوهية أبداً، فلا تقولوا إِنَّهُ يوجد غير الله إله، أو يوجد نصف أو ربع إله، بل يوجد إله كامل واحد فقط لا إله غيره.

{وَبِالْوَالِدَيْنِ}، بالأم الوالدة والأب الوالد، {إِحْسَانًا}، بما هو موصوف بأنه حسن، بالمعاملة الحسنة الجيّدة، من تأمين ما يحتاجون إليه ويكون حسناً، ومعنوياً بالمعاملة الحسنة. وكلمة إحسان في استعمال القرآن هي وصف لعامة أي عمل حسن وليست مخصصة لما يشبه معنى التفضّل على الآخرين.

{وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ}، فلا تنهوا حياة أولادكم بسبب فقدان الطعام وفقدان القدرة على تحصيله، بسبب الفقر لكل أساسيات مستلزمات الحياة، حيث في ذلك الزمان كانت المرأة تتناول كمية كبيرة من الكافور حتى يموت الجنين في بطنها ويسقط، وفي عصرنا تأخذ حبّة دواء لقتل الجنين، أو يقوم الطبيب بعملية سحب الجنين من الرحم، لذا تقول لنا الآية إِنَّهُ ممنوع قتل الأولاد بسبب فقدان القدرة على تأمين الطعام لهم، ولا يوجد أي مبرر لقتل الولد، وأشدّ مبرّر هو فقدان القدرة على إطعام الولد بسبب الفقر، ورغم هذا فلا يجوز قتل الجنين أو الطفل أو الولد...

نقرأ في التاريخ أن بعض الناس قديماً كانوا إذا أفلسوا ولم يعد لديهم طعام كافٍ، فإنهم كانوا يأخذون أولادهم إلى أماكن بعيدة جداً عن البيوت "في الغابات أو الصحاري" ويتركونهم وحدَهم ليموتوا...

{نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ}، نحن ربّكم نتيح لكم ما تسدّون به حاجاتكم، وهنا الكلام عن الأكل، {وَإِيَّاهُمْ}، ونرزق أولادكم أيضاً. فلو كان ولدك أمامك قد وصل إلى مرحلة الموت من الجوع، فلا تقتله لتريحه من الجوع، فهذا فعل سوء حرام، وإذا وضعت هذا في بالك من الأساس، فستعمل على تأمين الطعام له بدل الاعتماد على الحلّ الأسهل عبر قتله، وإن واجهت هذه المشكلة فعليك بالاستمرار في البحث عن الحلول، ولا يجوز قتل الولد أبداً بتاتاً ولا بأي حال ولا بأي طريقة، فهذا ليس حلاً مطروحاً أبداً.

ما يحصل مع بعض المجتمعات من مجاعات فهو بسبب ظروف خارجية، وأمّا بالشكل الطبيعي، فحتى لو مرّ جفاف، فلا ينقطع الطعام إلا عن الكسالى المهملين، وخذ مثلاً فاضحاً، الهند، حيث كانت تحت حكم بريطانيا، وعانت من موجات المجاعة عدة مرات، وطالبت بالاستقلال عن بريطانيا التي كانت تقول بأنها لو تركتهم فسيموتون من الجوع، لكن العكس -- حدث، فلم تسجّل من بعد استقلال الهند عن بريطانيا ولا حالة مجاعة عامّة! وإن حصل جفاف في مكان ما، فمنطقة قريبة منها لن تكون في أزمة، ويمكن الاستعانة بمواردها أو انتقال الناس إليها... وأصلاً كل هذا لن يحدث إذا كان الناس ملتزمين بمساعدة بعضهم البعض... وأمّا الإشكالات السياسية على الحكم والحدود والموارد... والحروب الاقتصادية والعسكرية... والإهمال والكسل... وفساد الحكّام بتوظيف السيئين وغير المناسبين وبإهدار موارد الدولة... فهي أسباب مجاعة الناس، لأن رزقه تعالى دائماً متوافرٌ ولكن يجب السعي له، فمن ناحيته تعالى -- وفّر الرزق وأتاحه لنا في بيئتنا، وأمّا ما ينتج من صراعات الناس أو إهمالهم وكسلهم وسوء الإدارة فهو السبب الرئيسي للمجاعات.

{وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ}، نهائياً لا تقتربوا من الأعمال الغرائزية الجنسية الحرام، ولا بأي شكل، من زنا أو شذوذ... فلا تقربوا، {مَا ظَهَرَ}، من الفواحش، ما علمت به الناس وكان علنياً، ولا، {مَا بَطَنَ}، ما كان مخفياً وبالسر، حيث إنه يخطر ببال أحد ما أن يقوم بعمل جنسي حرام بينه وبين نفسه على أساس أنه لا يضرّ أحداً به، لأنه بالسرّ ولا يعلم به الناس، فيبرّر لنفسه القيام بالعمل الجنسي الحرام... فلا تقربوه وابتعدوا عنه.

{وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ}، حيث سمح تعالى لكم بـإنهاء حياة القاتل للأبرياء عن عمد، وسمح بقتل المعادي المحارب والمفسد من العيار الثقيل في الأرض... والمرتدّ عن دينه... ومنع قتل أي إنسان آخر، {إِلَّا بِالْحَقِّ}، بالصواب فإذا استحق شخص ما القتل بحسب الشريعة الإلهية فيحق لكم قتله، كالقاتل المجرم، والعدو المحارب، وكبار المفسدين...

{ذَلِكُمْ}، الكلام عن الواجب والممنوع، من المنع عن الشرك به تعالى والأمر بالإحسان بالوالدين... {وَصَّاكُمْ بِهِ}، فهو كلام وصلكم منه تعالى وصار الالتزام به من مسؤوليتكم.

{لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، فمن المفروض ومن المتوقع منكم أن تعقلوا وأن تستعملوا عقولكم بشكل صحيح "ولا تكونوا حمقى"، إذ من الواضح أن هذه التشريعات رائعة تضمن لكم حياة هانئة وآخرة سعيدة، ومن المفروض أنها ستدلكم على أنها من مصدر إلهي بدون أي شك، فمن المتوقّع منكم أن تفهموا الفرق بين الأوامر الإلهية وبين أوامر من أهوائكم الفاسدة.

(وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ{152})
نكمل مع الفرق بين الأوامر الإلهية وبين التشريعات التي يخترعها الناس:

{وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ}، حيث إنَّ الأملاك المنقولة وغير المنقولة التي يملكها شخص مات أبوه وهو لم يبلغ الرشد العقلي بعد لأنه صغير، ولا تقتربوا من أملاكه نهائيا، ولا تقربوها لتأخذوها لكم أو لتتصرّفوا بها بحسب مصالحكم أنتم، {إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، حيث فقط تقربوها بما هو موصوف بأنه حسن، ولا تغامر بمال الأيتام بالتجارة والمشاريع التي فيها مغامرة... ولا تصرف منه على نفسك بالبذخ والإسراف... بَلْ استلموا إدارة مال اليتيم ولكن بالتي هي أحسن، {حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ}، حتى تصل شدّة عقل اليتيم إلى درجة الوعي والرشد، ولا يَعُدْ ينقصه شيء ليدير أمواله بنفسه، فعندها اتركوه يتصرف بأمواله ولا تتدخّلوا من فوقية عليه، ويصير اليتيم مثله مثل أي شخص تشيرون عليه وتنصحونه بما فيه مصلحته.

ضع في بالك أن اليتيم أو اليتيمة في غالبية المجتمعات القديمة كانوا مستحقرين أو مستضعفين ويتسلّط الناس على مالهم، وإن كنت ترى في مجتمعك الاعتناء بالأيتام من البديهيات، فالحمد لله تعالى على ذلك، ولكن خذ علما أن الكثيرين لا زالوا إذا سنحت لهم فرصة اختلاس مال الأيتام فلن يقصّروا، وأبرز مثال على ذلك ما يفعله الكثير من الجمعيات الخيرية التي تجمع التبرعات باسم الأيتام ويسرقونها كلّها، أو يساعدونهم بقسم منها ويستحوذون على الباقي لدرجة الغنى والبذخ...

{وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ}، وكونوا أوفياء مع الكيل والميزان، وليكن تاماً، ولا تخونوا فيهما بالإنقاص منهما إذا بعتم الناس وبزيادتهما إذا اشتريتم من الناس، والكيل هو الوعاء لقياس الأشياء بالحجم كالليتر والغالون، والميزان هو للقياس بالوزن، وحق كيل "الليتر" أن تعطي من اشترى منك ليترا كاملا، أَوْفِ وَأَعْطِ الليتر حقه ولا تغشَّ وتلعب بحجمه، وتجعله أنقص من المتفق عليه، لِأَنَّ الغش في الكيل خيانة.

كذلك أوفوا الميزان حقّه، {بِالْقِسْطِ}، بما له بالتمام، بالحصّة والنصيب الصحيح، ولا تخونوا في وزنه الحقيقي، ولا تتلاعب بالميزان، مثلاً: يشتري شخص ما منك كيلو تفاح، وعلى ميزانك المتلاعب به، يصير الكيلو 900 غرامٍ، وتعطيه 900 غرامٍ بدلا من 1000 غرام، وهذه خيانة وليست وفاءً للميزان.

بالنسبة لإدارة مال اليتيم، وبالنسبة للكيل والميزان، هناك قاعدة إلهية عامة:

{لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}، حيث لا نأمرها بفعل شيء، {إِلَّا وُسْعَهَا}، إلا بحسب ما تتسع له قدرتها وتحمّلها.

يحصل خطأ غير مقصود أثناء إدارة أموال اليتيم، إذْ لا يمكنك أبداً إدارة مال اليتيم مع ضمان انتفاء وقوع الخسارة، لِأَنَّ هذا مستحيل، وإذا بذلت جهدك ولم تكن نواياك سيئة، وحصلت خسارة لمال اليتيم فسبحانه لن يحاسبك عليه، لأنه تعالى لن يكلّفك بما لا تستطيع فعله، وأنت لا تستطيع ضمان الربح الدائم لليتيم، وكذلك الأمر بالنسبة للكيل والميزان، فحتى الآن لا تستعمل كل الناس ميزاناً إلكترونياً يحسب الوزن بدقة ويعطيك عليه السعر، ويحصل تقدير من البائع لكسور الأوزان، وتقريباً كيلو ونصف وربع ربع الأوقية، ويقدّر الثمن لهذه الكمية تقديراً، وإذا كانت نيته إصابة الدقة ولم يقصد الغش، فحتى لو أخطأ فلا حساب عليه لأنه بذل جهده ونيّته سليمة، وسبحانه لا يأمره بما هو فوق قدرته...

{وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا}، وليكن كلامكم عادلاً غير ظالم، وبخاصة عند الشهادة، {وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى}، حتى لو كان موصوفاً بأنه من أقاربك، وربما كنت حاضراً حين صدم أخوك سيارة جارك، وبعدها سألوك عن الذي صدم السيارة، لِذَا اشهد بالعدل، حتى لو كان على أخيك الذي هو من أقربائك.

{وَبِعَهْدِ اللَّهِ}، بالالتزام الذي أعلنتموه لله تعالى، {أَوْفُوا}، وقوموا بالوفاء به وليكن تاماً ولا تخونوه، ويشمل العهد مع الله تعالى بطاعته وطاعة رسله، ويشمل عهدكم مع قسمكم ويمينكم بالله تعالى للناس في التجارة والشراكة... أو اعتماد الناس على إيمانك عندما تعاهدهم على اتفاقية او شراكة... فيكون عهدك معهم مضموناً من إيمانك به تعالى، ولا تَخُنْهُ.

{ذَلِكُمْ}، الذي ذكرناه لكم، {وَصَّاكُمْ بِهِ}، وصرتم أمامه تعالى مسؤولين عن تنفيذه، {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}، إذْ من المفروض ومن المتوقّع منكم أن تتذكروا ربكم سبحانه وتستحضروه تعالى في فكركم وعملكم من بعد سماعكم لهذه التشريعات التي فيها تنظيم حياتكم وضمان سعادتكم، وكما ترى إنَّ تشريعاته سبحانه الحكيمة يبدو الاختلاف واضحاً بينها وبين التشريعات التي يخترعها الناس على هواهم من استقواء على الأيتام الضعفاء وغشّ وشهادة زور.

(وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ{153})
نكمل مع الأمر الإلهي لرسوله محمّد(ع) ليقول للناس عبر هذا القرآن:

{وَأَنَّ هَذَا}، حيث إنَّ النموذج عن أهم التشريعات الإلهية التي ذكرتها الآيات السابقة، {صِرَاطِي}، طريقي الإيماني الأساسي الذي أمشي عليه أنا رسولكم، {مُسْتَقِيمًا}، يوصف بأنه على الأحسن فلا التواء فيه ولا اعوجاج عن الحقّ والصلاح، {فَاتَّبِعُوهُ}، وكونوا عليه، {وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ}، المسالك الأخرى، {فَتَفَرَّقَ بِكُمْ}، حيث تجعلكم تلك المسالك متفرقين، {عَنْ سَبِيلِهِ}، عن المسلك الإلهي، لِأَنَّ الطريق الإلهي هو الوحيد الذي يجمعكم على الاستقامة على الحقّ والصلاح، وتركه يجعلكم متفرقين كل واحد على طريق مختلف عن الآخر وتَكُونُونَ كلكم خارج طريق الاستقامة.

{ذَلِكُمْ}، اتباعي على الطريق المستقيم، {وَصَّاكُمْ بِهِ}، كلام قاله ربكم سبحانه وصار الالتزام به من مسؤوليتكم، حيث لم يترك لكم حرية الاختيار من دون عواقب بين طريقه تعالى وبين باقي الطرق، إذْ أمركم باتباع طريقه، وأي طريق آخر تسلكونه فسوف يحاسبكم عليه.

{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، إذْ من المتوقع ومن المفروض منكم إذا اتبعتم طريقه تعالى، فَمِنَ المتوقّع أن تتجنبوا السوء وهو نفسه تجنّب غضبه وعقابه سبحانه.

التشريعات التي ذكرتها الآيات السابقة واضحة بأنها مستقيمة عادلة جيدة، ومن الواضح أنها إلهية، ومن الواضح أن أي كلام يخالفها فهو أعوج مُلْتَوٍ، ومن يتبع الطريق الإلهي فسيكون تَقِيَّاً ولن يصيبه غضب أو عقاب إلهي، وهذا الكلام ليس مُوَجَّهَاً فقط للمشركين، بل لكل الناس، إذْ إنَّ حتى المنتمين لدينه تعالى عليهم أن يحذروا من ترك الطريق الإلهي، وسترى ذلك بعد قليل في الآية 159.

(ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ{154})
الآيات السابقة كانت تبيّن للذين يخترعون التشريعات المخالفة للتشريعات الإلهية، أَنَّهُمْ حلّلوا وحرّموا بلا إذن من الإله سبحانه، حيث بيّنت الآيات في الفقرة أهم "أمهات" نماذج التشريع الإلهي، ونتذكر أن الآيات السابقة سألت مخترعي التشريعات عن مصدر تشريعهم، وها هنا تكمل السورة الحديث عن هذه النقطة:

{ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ}، وهو التوراة، {تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ}، حيث بالنظر لأحسن شيء فهذا الكتاب بالتمام أحسن شيء، لا ينقصه شيء ليكون أحسن، لأنه بلا نواقص ولا فراغات ليتم إكمالها فيما بعد ليصير أحسن، لا، بل تَامٌّ على أحسن المواصفات، {وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ}، حيث لم يكن مُبْهَمَاً مَخْلُوطَاً بشيء باطل يشوّشكم، إذْ كان في التوراة كل الأحكام والأمور التي يَحْتَاجُهَا الناس لِيَمْشُوا على الصراط المستقيم، وبإمكانهم استخراج كل الأحكام التي يحتاجونها منه.

التوراة، {هُدًى}، تضع على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، وهي، {رَحْمَةً}، عناية إلهية لمصلحة الناس، لأنها تجعل حياة الناس في الدنيا والآخرة سعيدة هانئة.

آتيناها للرسول موسى(ع) الذي نقلها للناس، {لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ}، حيث كان من المتوقّع ومن المفروض منهم أن يؤمنوا بأنهم سيتواجهون مع المسؤول عنهم من مستوى إلهي، طَبْعَاً في الآخرة ليحاسبهم ويجازيهم على إيمانهم أو كفرهم بما وصّاهم به تعالى في التوراة.

تشريعات القرآن ليست جديدة على الناس، إذْ ليست دِينَاً جَدِيدَاً بل هي امتداد لدين له امتداد من آلاف السنين، حيث إنَّ القرآن امتداد لكتب إلهية نزلت في السابق، وكل ما ورد في الآيات السابقة من تشريعات فهو نفسه مذكور في التوراة، من حرمة الشرك وبرّ الوالدين... يعني، التشريعات التي اخترعها الناس لا يوجد لها امتداد تاريخي، إذْ من الواضح أنها اختراعات من هواهم الفاسد وليس دِينَاً إِلَهِيَّاً، لِذَا لا يمكنهم أن يقولوا ولو كذبا بأن تشريعاتهم لها مصدر إلهي بسبب وضوح مخالفتها لما ورد في الكتب الإلهية السابقة، وراجع في ذلك ما ورد منذ قليل في الآية 150 هنا في السورة.

نلاحظ شَيْئَاً مُهِمَّاً جِدَّاً، إذْ من كل الكلام السابق الذي قالته الآيات، فَإِنَّهُ كُلَّهُ مطابق لتشريعات وعقائد التوراة إلا مسألة واحدة، حيث نبّهت السورة عليها، وأنها كانت استثناء له سبب خاص، وهو تحريم بعض الشحوم... إذْ هذه لوحدها اختلفت مع تشريع القرآن، وكان لها سبب خاص، أما البقية فكله تمام بتمام لا اختلاف فيه.

الآية هنا تَصِفُ كلّ ما نزل بأنه أحسن، ومن الواضح قصدها أنه ليس في الكتاب حسن وأحسن، بل هو أحسن بالقياس مطلقا إلى أي شيء آخر، حيث إنَّ كل ما نزل حسن، وما تجده في آيات أخرى عن اتباع أحسن ما نزل فهذا معناه، إذْ هي على معنى قولنا: ما أحسن عملك. ولا نقصد أن له أعمالا سيئة بل نقيس عمله على مطلق أي عمل سيّء فيكون مقابله الحسن.

(وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{155})

{وَهَذَا}، القرآن، {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ}، نزل من عنده تعالى وكل ما فيه بركة، سبحانه راضٍ عنه لأنه خير، وكما كانت التوراة بالمواصفات التي ذكرتها الآية السابقة، فهذا القرآن كل ما فيه مَرْضِيٌّ عنه وهو خير، وسياق الكلام يشير للقرآن كامتداد لدينه تعالى الممتد لآلاف من السنين ومُتَّصِلٍ بالتوراة.

{فَاتَّبِعُوهُ}، فكونوا على ما يقوله القرآن، لأنه من الواضح أنه كتاب إلهي، وأمّا عقائدكم وتشريعاتكم التي من اختراعكم وليست مبنية على أساسيات كلام القرآن فهي سيئة.

{وَاتَّقُوا}، فكونوا متجنبين متحاشين، وتعلم أن المقصود أمرهم بتجنّب السوء وهو نفسه تجنّب مخالفة أوامره تعالى، {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}، فمن المفروض ومن المتوقع أن تصيبكم الرحمة، وهي العناية الإلهية بكم لما فيه مصلحتكم.

ضع في بالك دائماً أن كلمة {لَعَلَّ} تشير لعموم ما هو مفروض ومتوقّع حصوله، وتارة يكون الكلام عني وعنك، فآمرك بشيء وتتوقّع أنت مني شيئاً، فأقول لك: ...لعلّي أجازيك بمكافأة. وهناك احتمالات، حيث ربما لا تقوم بما أمرتك به فلن تستحقّ المكافأة، وربما أنا يتغيّر حالي ولا أستطيع مكافأتك، أو ربما أغيّر رأيي... أمّا بالنسبة لاستعمال كلمة {لَعَلَّ} حين يكون سبحانه طرفاً فيها، فمن ناحيته سبحانه جاهز دائماً للعناية وللرحمة بمن اتقاه، يغفر له ويضاعف حسناته... ولكن الناحية الثانية من جانبنا نحن هي التي فيها الاحتمالات، وإذا اتقيناه تعالى تماماً في كلّ شيء فحتماً سننال الرحمة، ولكن من المعلوم أن التقوى بهذا الشكل حالة قليلة، وغالبيتنا سنتقيه تعالى في أشياء ونعصيه في أشياء، فمن غير المحسوم نيلنا الرحمة حيث ربما اتقيناه تعالى في كلّ شيء ولكن قتلنا ظلماً وعدواناً نفساً بريئةً، فهذا سيسبب اللعن وهو الطرد من الرحمة الإلهية، فلهذا وأمثاله لم تحسم الآيات شمولنا بالرحمة حتماً واستعاضت عنه بتعبير {لَعَلَّ}، وهنا في آيتنا تفهمها أنه بعدما وصلتنا وصاياه تعالى لنا وبعد إيماننا بها، فلعلّنا نتقيه تعالى ويرحمنا، فمن المفروض ومن المتوقّع منّا التقوى، وهذا راجع لصلابة إرادتنا فتقوانا غير محسومة، ومن المفروض والمتوقّع منه تعالى أن يرحمنا إن اتقينا، وهذا راجع لصدقه تعالى في وعده وهذا محسومٌ حتميٌّ من ناحيته تعالى.

(أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ{156})
من آلاف السنين نزل كتاب إلهي "التوراة" وهذا القرآن امتداد له، فلا يمكنكم: {أَنْ تَقُولُوا}، ردّاً على أمر ربكم باتباع كتابيه التوراة والإنجيل: {إِنَّمَا أُنْزِلَ} {الْكِتَابُ} الإلهي "التوراة والإنجيل" {عَلَى طَائِفَتَيْنِ}، على فئتين من الناس انفردوا بشيء خاص بهم، {مِنْ قَبْلِنَا}، من قبل زماننا فلم نعاصر نزول تلك الكتب، حيث نزلت على اليهود والنصارى، {وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ}، عن قراءة تلك الكتب الإلهية لفهم محتواها، {لَغَافِلِينَ}، غير منتبهين ولا مهتمين، وهي كتب لليهود والنصارى ولا علاقة لنا بها، فهذا الكلام غير صحيح لأنها كتب إلهية موجّهة للجميع وكان عليكم الاهتمام بها وليس الغفلة عنها.

تذكّر دائماً أن القرآن خاطب كفّار العرب على أنهم نموذج عن بقية الناس، فهنا حين يسألهم عن غفلتهم عن كتب إلهية نزلت سابقاً، ومع علمهم بها لم يهتموا بدراستها على أساس أنها كتب لليهود أو للمسيحيين متجاهلين أنها كتب منه تعالى، فنفس الكلام موجّه لكل أهل الأرض، لليابان والصين والهند... حيث إنّ وصول خبر لهم عن كتب إلهية نزلت يفرض عليهم دراستها، وسترى من الآية التالية أن الكفّار البعيدين عن المنطقة الجغرافية لنزول الكتب الإلهية لم يكونوا ليؤمنوا لو نزلت تلك الكتب عليهم...

مضافاً لما سبق نضيف مفهوماً قرآنياً أساسياً، فالقوم الذين لم يتأهّل ولا واحد منهم ليكون رسولاً، ولم يكن ولا واحد منهم بقلب سليم من الدرجة العالية، فهؤلاء لن يكون بينهم رسول ولا نبي، وحجّته تعالى عليهم أولاً القدرة التي فيهم لتمييز الخير من الشر قبل إفسادهم لتلك القدرة باختيارهم السوء، وثانياً كتبه تعالى التي سمعوا بها.

أول ما سيخطر ببالك أن انتشار تلك الكتب سيكون بطيئاً وخاصة في الأزمنة القديمة، ولن يصل إلى مختلف بقاع الأرض، ولكن بمراجعة التراث الثقافي لمختلف أمم الأرض، سيلفت انتباهك وجود أمور كثيرة مشتركة بينهم، وخذ مثلاً حادثة سفينة النبي نوح (ع) والطوفان، وحادثة ابتلاع الحوت للنبي يونس (ع)، فنفس أساسيات هَاتَيْنِ القصتين تجدهما في مختلف ثقافات أهل الأرض! ففي التراث الصيني والهندي "وعند غيرهم" لديهم نسخة مماثلة في أساسيتها للقصتين! فكيف انتشرت هذه القصص؟

بعض الموصوفين بأنهم باحثون علميون قالوا إنّ ديننا اقتبس هذه القصص وأمثالها من المشركين، متجاهلين أبسط حقيقة، ومتجاهلين الامتداد التاريخي لدينه تعالى وتكرار ما فيه عبر التاريخ، وفي مقابله كالفطريات نبتت أديان مختلفة هنا وهناك ناسخة بعضاً من عقيدة وتشريعات وقصص... من كتبه تعالى، فهؤلاء الموصوفون زوراً بالباحثين اعتبروا ديننا من اختراعنا مثله مثل الأديان الأخرى، ولذلك اعتبروا أن المشتركات بين دينه تعالى وبين دين المشركين وغيرهم، إنما ترجع لتواصل الثقافات مع بعض وتطوير نسخ مختلفة من الأديان، ولكن العجب العجاب من نسبتهم كل ما هو مشترك بين ديننا وأديان المشركين للمشركين! وأننا نحن الموحِّدين استوردناه منهم لنصنع منها تراثاً دينياً! فعلى الأقل لينسبوا لنا شيئاً واحداً نحن اخترعناه واقتبسه الآخرون منّا! علماً أننا نحن فقط لدينا كتب بامتداد تاريخي لآلاف السنين لنفس الدين! فالبقية حتماً هم المستوردون.

نعم، الخزعبلات التي أدخلها الذين سموا أنفسهم "موحدين" على دينه تعالى، كانت بطريقة أو بأخرى استيراداً من أديان الشرك، وفي الحقيقة فتلك الأمور نابعة من عقلية الهوى الفاسد الذي كان في بعض المنتمين لدينه تعالى بالاسم ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، فديننا دين التوحيد ولكن أقحم فيه بعضهم الشرك به تعالى تحت عنوان التوحيد فقالوا إنّه تعالى إله واحد في أقانيم ثلاثة، الآب والابن والروح القدس! وإنّه تعالى بشكل أو بآخر تزوّج أو أولد من امرأة! وهذا مشابه لعقيدة العديد من المشركين... ونفس الكلام عن عقلية تقديس الأشخاص ليصيروا عملياً أرباباً لديهم اختصاصات تتعلق بما نريده، فقديس للسفر وآخر لطلب الولد وغيره النذر له غير مردود في مسألة الشفاء من المرض... فإذا علّق الآخرون على هكذا أمور أنها تقليد لعقائد المشركين، فالحقّ معهم في هذه الأمور، علماً أنها نفس النقطة التي أشار لها القرآن مراراً أثناء كلامه مع المشركين في موضوع ما، وكان بعض المنتمين لدينه تعالى لديهم نفس المشكلة في نفس الموضوع، فيعرّج القرآن على أهل الكتاب مشيراً لشيء يفعلونه وليس من دينه تعالى، وإذا لم نلتفت لذلك فسنشعر بأن السورة قفزت من موضوع المشركين لتتحدّث عن أهل الكتاب فجأة وبدون رابط، بينما عندما يحدث هذا في السور فدائماً السبب هو تشارك بعض أهل الكتاب مع المشركين في مسألة ما سيئة...

(أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ{157})
{أَوْ تَقُولُوا}: {لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ}، فلو نزل علينا نحن كتاب إلهي، {لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ}، ونحن سنكون على الشيء الصحيح، وسنمشي على حسب ما يقوله الكتاب الإلهي بالضبط، حيث مهما كان التزام الذين نزل عليهم كتاب إلهي، فنحن لو نزل علينا لكنّا أشدّ منهم التزاماً به.

كما ترى فالكلام سهل، الحكي ببلاش، الحكي بلا جمرك...

{فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ}، جاءكم شيء واضح، {مِنْ رَبِّكُمْ}، من المسؤول عنكم من مستوى إلهي، والشيء الواضح الصحيح جاءكم وهو القرآن، و{هُدًى}، يضعكم على الشيء الصحيح الذي يوصلكم للغاية الصحيحة، و{رَحْمَةٌ}، عناية لما فيه مصلحتكم، فكلامه من الإله العليم الحكيم الخبير... وفيه كل ما يؤمن لكم السعادة في الدنيا والآخرة.

تعلم أنهم لم يهتدوا كما ادّعوا، حيث تفلسفوا وقالوا بأنهم سيكونون أهدى ممن سبقهم لو نزل عليهم الكتاب، وها قد نزل كتاب من الواضح جداً أنه من مصدر إلهي ومن الواضح جداً حُسن ما فيه، فهل آمنوا؟!

كما ترى فهنا الكلام مع نموذج وعن نموذج، ونفس الكلام موجّه لجميع الناس على مختلف بقاع الأرض، فلا تتفلسفوا وتقولوا: لو نزل علينا القرآن لاهتدينا. فها قد وصلكم خبره، بل وصلتكم نسخة عنه، وما الفرق إن نزل عليكم أو على غيركم؟!

{فَمَنْ أَظْلَمُ}، فإنْ كانَ أحدٌ ما لم يكن معه حقّ في شيء ما، فمن ليس معه حقّ أكثر، {مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ}، من الذي قال عن الأمور المميزة المنسوبة له تعالى إنّها غير صحيحة وغير صادقة وكاذبة؟ والكلام هنا عن جمل وسور القرآن، حيث إنّ من الواضح أنها إلهية وأنها هدى للحقّ والصلاح، فالذي قال عنها إنّها كذب وليست من كلامه تعالى فهو ظالم ليس معه حقّ وهو غير عادل ولا منصف.

و {مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ} {صَدَفَ عَنْهَا}، حيث كان من المفروض اتجاهه إلى آياته تعالى، وعلى كلامه المميّز سبحانه، فتركها ولم تعد هدفاً له، فمن أظلم منه؟

كما ترى فالكلام مع النموذج كفّار العرب ولكنه عمومي لكل أمم الأرض، حيث إنّ لديهم ما يدفعهم ليروا إن كان نزل من عند الإله خبر أو كتاب، فبدل أن يكون هدفهم البحث عنه، صدفوا عنه! فلم يعتبروه هدفاً لبذل الجهد له.

{سَنَجْزِي}، سنعطي مقابلاً معادلاً، {الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا}، الذين لم يعتبروا الأمور المميزة المنسوبة له تعالى، كلامه، والتي كان من المفروض أن تكون وجهتهم ومقصدهم البحث عنها أو تلقيها عند وصولها لهم، سيجزيهم سبحانه، {سُوءَ الْعَذَابِ}، والشيء السيئ الذي سيتعرضون له سيكون سيئاً جداً جداً ولن يكون عادياً أو سهلاً، {بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ}، بسبب ابتعادهم وتركهم لما يفترض أن يكون هدفهم وغايتهم.

توسّع قليلاً في هذه النقطة لأن في عمقها أجوبة كثيراً ما تخطر بالبال، حيث عادة نسأل عن الأقوام البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط والتي انحصر فيها الأنبياء والرسل، فهؤلاء على أي أساس سيحاسبهم سبحانه طالما لم يأتهم نبي ولا رسول ولم يصلهم كتاب إلهي؟

الجواب معروض في الآية هنا مختصراً بكلمة "{صَدَفَ}"، فالمشركون كيف سمّوا آلهتهم؟ كيف حدّدوا لها وظائف للمطر والريح والبحر والتجارة...؟ وهل اتصلت بهم؟ أو أوحت إليهم؟ أو وصلهم منها كتاب؟... وما معنى وجود علماء دين عندهم؟ ككاهن أو عرّيف أو متنبّئ...؟ وهم يؤمنون بطريقة أو بأخرى أن هؤلاء لديهم تواصل ما مع آلهتهم، ومن الواضح لمن لديه ذرة عقل أن كل هذا اختراعات من الأوهام، وأبسط دليل على ذلك سوء الأصل والفرع، فأصل آلهتهم من أين؟ فها هو الله عزّ وجلّ وبشفافية يخبرنا أنه زرع فينا بذرة التعرف عليه والتعلق به عند الخوف الشديد أو من التفكّر والتأمّل بالدنيا وما فيها، وأنه تواصل معنا عبر أشخاص فيهم الأهلية لتلقي الوحي الإلهي، وأنزل كتباً.

الآن لنرجع لحالة المشركين، حيث تفعّلت فيهم حالة الإحساس بالإله، فلو تركوا الموضوع على أساسه العقلاني، ولم يخترعوا أسماء لآلهة، لبقوا على الصراحة والصدق معبرين عن شعورهم واعتقادهم بإله، ولتوقفوا عند هذا الحدّ.

من هنا سيبرز سؤال: هل تواصل الإله، بطريقة أو بأخرى، مع أحد ما من البشر؟ وهل وصلت منه معلومات ليعرّفنا بنفسه وتجيب عن الأسئلة التي في بالنا عن سبب خلقه لنا بهذه الصفات التي فينا وفي بيئتنا؟

فهذا هدف، صدف عنه المشركون بعدما وصلهم خبر عن أشخاص يقولون إنّ الإله تواصل معهم ولديهم كتاب منه، وهذا الخبر وصلهم بطريقة أو بأخرى، وسبق وقلنا إنّ التشابه غير العادي بين بعض القصص التي من التراث الديني الإلهي، كالطوفان والسفينة، وابتلاع الحوت لشخص وبقائه فيه لأيام... يشير بوضوح لانتشار معلومات من كتبه تعالى على مختلف بقاع الأرض، فهل كان التعرّف على أصل هذه المعلومات، وعلى كتبه تعالى... كان هدفاً أم صدفوا عنه مكتفين راضين بما اخترعوه!

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ{158})

من هنا يبدأ ختام السورة بخلاصة الردّ على المتحاذقين المشركين، وبعدها ستأتيك الخلاصة من الكلام.

أولئك التاركون لكتاب الله تعالى، الذي نزل عليهم، أو سمعوا بنزوله فتغافلوا، أو صدفوا عنه... ماذا ينتظرون حتى يؤمنوا؟

{هَلْ يَنْظُرُونَ}، هل ينتظرون، حيث هناك مدّة من الزمن لحصول شيء ما، والكلام هنا عن شيء سيحصل حتى يؤمن الذين لم يؤمنوا من بعد نزول القرآن، وهل سيؤمنون، {إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ}، إلا حين يرونها فعندها سيؤمنون! فلا شيء آخر سيقنعهم بالإيمان إلا رؤية الملائكة(ع)! حيث إنّ هناك أناس يشترطون بعض الأمور ليؤمنوا، وكنموذج هناك من يريد رؤية الملائكة(ع) ليؤمن، وهل سيبقى منتظراً حتى يراها ليؤمن؟

أو ينتظرون حتى {يَأْتِيَ رَبُّكَ}! حيث يقوم المسؤول عنهم من مستوى إلهي سبحانه بنفسه بالتكلّم معهم عبر وحي أو من وراء حجاب، حتى يؤمنوا!

أو ينتظرون أن {يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ}، فتحصل أمور مميزة منسوبة للمسؤول عنك من مستوى إلهي، شيء غير عادي من مستوى إلهي ويؤكد بأنه عمل إلهي حتى يؤمنوا! حيث هنا في الدنيا يريدون حصول ما يسمّى بالمعجزة أو يريدون مشاهدة الآخرة وعودة الناس من الموت ورؤية ساحة يوم القيامة وأحداثها... ورؤيتهم لكتب الأعمال وللجنّة والنار...

من الآية 9 من هذه السورة {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ} علمنا أن رؤية الملائكة(ع) التي أصلاً لا يمكنهم رؤيتها في الدنيا إلا إذا تمثّلت على شكل بشري، فلو حصلت فلن تحلّ الموضوع، ونعرف أنهم سيرونها كما هي على شكلها الحقيقي في الآخرة، وعلى كل حال حينها لا ينفع الإيمان وتكرّر ذلك مراراً في القرآن. وسبحانه يستحيل رؤيته لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولكن يمكنهم تلقي وحيه، وهنا في الدنيا لن يوحي سبحانه إلى المجرمين الأنجاس المشركين، لأنّ الوحي أساساً لا يسبّب الإيمان، حيث إنّ الأنبياء أصلاً لا يؤمنون بالوحي أنه إلهي لولا أنهم طاهرون مؤمنون متماشون مع ما يصلهم... والوحي لا يزيد في إيمانهم ولا يتغير عليهم أي شيء، وعلى أي حال في الآخرة سيخاطب سبحانه كل الناس من وراء حجاب، وسيعرفون حتماً بأنهم يكلمون ربهم تعالى، وحينها لن ينفعهم الإيمان به، وهذا شيء تكرّر مراراً في القرآن. وبقي الاحتمال الأخير المشترك بين الجميع:

{يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ}، ومن تكملة الجملة سترى أنها تشير حصراً لحالة قيامنا من الموت مرة ثانية في الآخرة، وهذا أمر مميّز لا يمكن إلا للإله أن يفعله، فإذا لمسنا بأننا في يوم الحساب ونرى ساحته وكتب الأعمال... يومها، في ذلك الزمن الذي يبدأ بحدث أساسي وهو ساعة قيامنا من الموت، ويليه أيام أخرى... تنتهي بساعة دخولنا إلى الجنّة والنار... يومها، {لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ}، حيث هناك في يوم القيامة وما بعده لا ينفع الاعتقاد بالآخرة، لأنه ينفع من آمن به في الدنيا ليعمل على أساسه فيؤمن ويعمل الصالحات، فلا ينفع الإيمان بيوم القيامة في يوم القيامة، إلا لمن آمن من قبل في الدنيا، {أَوْ كَسَبَتْ}، حيث حصلت النفس على ما نتج من عملها، {فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا}، حيث قامت بأعمال خير بسبب إيمانها. يعني المؤمنون العاملون للصالحات معلوم انتفاعهم من الإيمان بالآخرة، ويوجد أقل منهم أناس آمنوا بالآخرة ولكنهم لم يكونوا مؤمنين من الدرجة العالية ولا من العاملين لكل الصالحات الواجبة عليهم... فهؤلاء أيضاً سينفعهم إيمانهم بالآخرة إن لم يكونوا من مرتكبي كبائر السيئات، فسينالون مغفرة أو عفواً أو شفاعة... فعلى الأقل لن يخلدوا في جهنّم وسيتخفّف عنهم العذاب... والقاعدة الأساسية للجميع أنه هنا في الدنيا فرصة لهم للإيمان وكسب الحسنات، أمّا في الآخرة فطبعاً سيؤمنون بها هناك، ولكن هناك من أين لهم كسب الحسنات وقد صار وقت الحساب؟

بالنسبة لكلمة "آمن" لم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإسلام أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، حيث آمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كلاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

{قُلْ} لهؤلاء الناس الذين لم يؤمنوا وينتظرون رؤية الملائكة(ع) وأن يتواصل معهم ربهم سبحانه، وينتظرون يوم القيامة ليؤمنوا به:

{انْتَظِرُوا}، إن كان قراركم أن تؤمنوا حين حصول شيء ما من هذا المستوى "رؤية الملائكة(ع)" أو... {إِنَّا مُنْتَظِرُونَ}، وأيضاً نحن نتوقّع حصول شيء، وتعلم من عموم القرآن ومن سياق الكلام هنا أن المؤمنين ينتظرون يوم القيامة لينالوا أجرهم ويسعدوا به، والكلام هنا مع من لم يؤمن لأنه ينتظر شيئاً ليؤمن ولم يقتنع مع المؤمنين، والمؤمنون يقولون له: ابقَ منتظراً حيث إننا سنرى حالك حين يأتي ما تنتظره.

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ{159})

تحدّثت الآيات في هذه السورة أساساً عن المشركين، وهم مذاهب متعددة في الشرك، وتحدثت الآيات السابقة عن أناس سابقين نزل عليهم الكتاب الإلهي، وانتبهْتَ لما نقلته الآيات عن معرفة المشركين بكتب قيل إنّها نزلت منه تعالى ولكنهم غفلوا وصدفوا عنها، وقالوا "كاذبين" بأنهم لو نزل عليهم الكتاب لكانوا أهدى من أولئك الذين نزل عليهم كتاب إلهي... والذين نزل عليهم كتاب إلهي كاليهود والنصارى، فيهم فاسقون ومنافقون، وحتى لا نفهم من اختلافات الذين نزل في السابق عليهم كتاب إلهي أنّه تعالى أنزل أدياناً مختلفةً:

{إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ}، حيث إنّ الدين الإلهي بالأساس واحد، وكلنا ندين لله تعالى بالتوحيد والطاعة، وكلنا علينا تبعات طاعته تعالى لأننا عبيد له تعالى، ولكن لم يلتزم الناس بذلك، حيث كان لكل مجموعة منهم دين مختلف عن الآخر، ومنهم من أشرك، واليهود صاروا مذاهب، والمسيحيون مذاهب، ولم يكن دينهم واحداً، مع أن أهل الكتاب كتبهم الإلهية نبعت من مصدر واحد ومحتواها واحد "إلا في حالات خاصة قليلة جداً في بعض التشريعات".

والذين لم يلتزموا بدين واحد، {وَكَانُوا شِيَعًا}، حيث كانوا مجموعات مفترقة عن بعضها بشيء خاص بهم لا يوافقهم عليه الآخرون ولا يوافقون على ما يقوله الآخرون، فهؤلاء {لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ}، ولا علاقة لك بأديانهم ولا بمذاهبهم، لأنك على التشريع الصحيح الصافي، وهو الدين الوحيد الأساسي من آدم (ع) مروراً بالأنبياء وصولاً إلى نزول هذا القرآن، ولا علاقة لك بأي مذهب أو دين اخترعه أهل الكتاب.

{إِنَّمَا أَمْرُهُمْ}، فقط موضوع وشأن هؤلاء المذاهب التي اخترعوها في دينه تعالى، {إِلَى اللَّهِ}، حيث سبحانه سوف يحاسبهم ويقرّر ماذا سيفعل بهم، فلا تَشْغَلْ بالك بهم ومن معه حقّ ومن أخطأ وفيما أخطأ.

{ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}، حيث في الدنيا كانوا فعلوا أعمالاً مستورةً نتائجها ومستورة عن الآخرين ويظنون أنّها مستورة عليه تعالى، ولكن في يوم القيامة سيخبرهم تعالى بما علمه غير منتشر، ويحاسبهم عليه.

للأسف كلنا وقعنا في فخ التفرقة، ولم تعد كلمة مسلم تكفينا لتجمعنا، بل لكل منا مذهب وفرقة، ونكفّر بعضنا، ونتغابى على أنفسنا حين ندّعي أنّ مذهبنا حقّ، ومذهب غيرنا باطل، حيث إنّ مجرد قولنا كلمة "مذهبنا" هي لوحدها خطأٌ كبيرٌ، لذا يجب أن نشعر فعلاً بأننا كلنا مسلمون، وأنّه لا فرق بيننا، مع العلم بوجود فاسق هنا ومنافق هناك، وهؤلاء أشخاص، وحتى لو كانوا الأكثرية، ولكنهم مسلمون، فلا يحق لأحد نبذ الآخرين المسلمين عن الإسلام، ولا يحق لنا إطلاق اسم مذهبي على غيرنا ولا على أنفسنا، حيث شوّه أهل الكتاب الدين الإلهي لدرجة اعتراض الكفّار على كلّ الدين الإلهي بأنّه غير معلوم، حيث سيقول الكافر لك: دينكم مذاهب، ولو كان ديناً إلهياً صافياً صحيحاً فَلِمَ تفرّقتم فيه، بأيّ دين تقنعني؟ وما أدراني أنّ مذهبك الصحيح؟ وماذا يعني التدين بدينكم إن كان الآخرون من المذاهب الأخرى يقولون بأنهم متدينون وعلى الدين الصحيح وأن مذهبك غير صحيح... وآيتنا هنا تنبّهنا من هذا، وتهدّدنا بالعقاب عليه...

كُنْ كما أمر تعالى: {لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ}، ولا تخف لومة لائم لأنّ الله تعالى أمرك بذلك.

(مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ{160})

كائناً من كان، من المسلمين أو ممن سبقنا من أهل التوحيد، من أي مذهب أو دين كان، فلا فرق، حيث هناك حسابٌ للجميع، وعنده تعالى القاعدة الأساسية التالية:

{مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ}، فقام بالعمل الموصوف بأنه حسن جيد، {فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا}، فله عشر حسنات تشبه حسنته، عشر أشياء موصوفة بأنها حسنة مقابل عمله الواحد الموصوف بأنه حسن، وتعلم من آيات أخرى أن للمحسن حسنة مثل حسنته، وهذا الأساس، ويبدو من القرآن أن التعامل الأقل مع الحسنات هو مضاعفتها لعشرة من بعد الأساس، وتصاعدياً لبعض الناس وصولاً إلى السبعمئة، وآخرون أكثر من ذلك بمدى مفتوح لم يذكره القرآن، وراجع في ذلك دراسة الآية 261 من سورة البقرة: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}.

{وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ}، فقام بما هو موصوف بأنه سيئ، {فَلَا يُجْزَى}، لأنه لا يحصل على مقابل السيئة، {إِلَّا مِثْلَهَا}، شبهها المساوي لها، {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}، بل بالحقّ تتم محاسبتهم بهذا الشكل، فهذا هو الإنصاف.

لا يمكننا قياس السيئة على مزاجنا، مثلما لا يمكننا قياس الحسنة على مزاجنا، حيث في تصورنا البسيط سيكون جزاء الصدقة بتفاحة، عشر تفاحات! فهل سنحصل على عشر تفاحات في الآخرة كجزاء على صدقتنا بتفاحة! طبعاً لا، فهل لاحظت أنك في الحسنة ترى بكل سهولة أنها غير منطقية أن تكون بهذا الشكل، حيث إنّ سبحانه وعد بجنّات وقصور وحور... فهذا هو جزاء الحسنة، مثلاً الصدقة بتفاحة جزاؤها قصر وجنّة... ويتم مضاعفة ذلك لقصور وجنان... ونفس الشيء نفهمه عن تعذيب مرتكبي السيئات، فما نراه من تكبير للعقاب، إنما هو القياس المساوي له، ونقل القرآن لنا سلفاً أن الذين سيحكم تعالى عليهم بالعقاب في الآخرة، لن يعترضوا على شدّته لأنهم سيرونه بالضبط معادلاً لقيمة سيئاتهم.

من جديد نسأل، هل العذاب على السيئة مبالغ فيه؟ وكما ترى فلن نعترض على الجزاء الكبير بالقصور والجنان على عمل حسن صغير حتى لو شعرنا بالمبالغة فيه، لأنه في مصلحتنا، أمّا الخلود في جهنّم على أعمال قام بها الناس في حياتهم القصيرة، فإننا نشعر بالمبالغة في الجزاء.

ضع في بالك دائماً أن القرآن أخبرك عن الجزاء الذي تراه ضخماً كعقاب شديد أليمٍ عظيمٍ... خالد في النار، لأنه متعلّق بالنوايا والنفسيات، فهؤلاء لو تكررت عليهم نفس الظروف لكرروا السيئة التي ارتكبوها، ولو ردّهم تعالى إلى حالة تكليفهم كما كانوا في الدنيا لعادوا إلى تكرار السيئات، وبناء عليه اعتبر سبحانه سيئتهم متواصلة مثلما اعتبر حسنة المؤمن متواصلة فجازاه تعالى عليها خلوداً في النعيم.

كما ترى من نفسك رغبة في أن يكون العقاب مخففاً لأنك مرتكب للسيئات، فإنّ الآخرين ينطلقون من نفس هذه الرغبة، وحتى لو لم يكونوا من المؤمنين بالآخرة، فإنّ الميل النفسي سيكون معارضاً للعقاب الشديد لأنه يطالني ويطالك، ولكن لا تَنْسَ أننا لسنا بحكمته تعالى، لأننا عن هوى نميل لتخفيف العقاب وليس عن واقع ووقائع، وإذا تذكّرت أنه تعالى عفو غفور توّاب... لعلمت أن من سينال العقاب كان عنيداً صلباً لم يغيّر موقفه عن شيء حرّمه تعالى، فإن كان سوءاً من العيار الثقيل، كالقتل لنفس بريئة والزنا وأكل مال اليتيم... فلا غفران له حتى لو صلّى وصام وزكّى... إن لم يتب منها... أمّا إن تاب فكل ما سبق يُمْسَحُ عنه.

نحن أمام عقاب شديد لقاتل لنفس بريئة ولا يزال من داخله لا يشعر بالندم على ما فعله، حيث مات ولم يندم، ولو عاد إلى الحالة التي كان فيها في الدنيا، وعاد إلى عالم التكليف من جديد فلن يندم، وسيقتل نفساً بريئة من جديد، وهذا ما يخبرنا به الذي خلقنا وهو أعلم منّا، ومن فحوى كلام القرآن تفهم أنه لو كان هناك أمل بتغيّر أحد ما، لكان تعالى أمّن له ما يغيّره ليؤمن ويتوب قبل أن يموت، ولذلك كان العقاب على هذا المقياس الشديد على الجرائم، لأن الجميع يموت واصلاً إلى الحالة التي لن تتغيّر بعد ذلك... والعقاب الذي يبدو لنا الآن شديداً مبالغاً فيه من الخلود في جهنّم، لأننا الآن لم نر عمق السيئة، وفي يوم القيامة سنرى أن العقاب دقيق ولن يظلمهم سبحانه ولو مقدار ذرّة.

(قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{161})
خلاصة كلام السورة، {قُلْ}، عبر هذا القرآن لهؤلاء الناس من مشركين ومتلاعبين بالدين:

{إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي}، فوضعني المسؤول عنّي من مستوى إلهي على الشيء الصحيح الذي يوصلني للغاية الصحيحة، {إِلَى صِرَاطٍ}، إلى طريق إيماني أساسي، {مُسْتَقِيمٍ}، يوصف بأنه على الأحسن فلا اعوجاج ولا انحراف فيه عن الحقّ والصلاح، وهذا الطريق هو: {دِينًا}، أمور أدين بها لربي سبحانه، فهو تبعات عليّ لأنه تعالى له علي حق أن أطيع أوامره، وهذا الدين، {قِيَمًا}، يوصف بأنه على الأحسن فلا انحراف ولا اعوجاج فيه عن الحقّ والصلاح، "مستقيم وقيّم من نفس الجذر"، وهذا الدين هو، {مِلَّةَ}، ثقافة وعادات، {إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}، حيث كان النبي إبراهيم(ع) مائلاً عن كل شيء ومتوجهاً فقط نحوه تعالى، {وَمَا كَانَ}، النبي إبراهيم(ع)، {مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، حيث لم يقل أبداً أنه يوجد شركاء لله تعالى في الألوهية.

تلاحظ أن هذا الكلام موجّه لجميع الناس، وكمثال أهل مكة أكثرهم من نسل النبي إبراهيم(ع) من ابنه النبي إسماعيل(ع)، وأنت تعلم أنه حين نزول هذا الكلام كان أكثرهم مشركين، وأكثر المشركين العرب كانوا يقدّسون الكعبة التي لها ارتباط وثيق بالنبي إبراهيم(ع)، ومن ناحية ثانية دين اليهود والنصارى هو امتداد لدين النبي إبراهيم(ع)، وتقول الآية للجميع، إنّ العقيدة والشريعة "الملّة: الثقافة والعادات الدينية" التي أتت للنبي محمد(ع) هي على أصالة

عقيدة وشريعة النبي إبراهيم(ع)، الذي لم يكن مشركاً، فمن أين جئتم أيها الناس بعقيدة الشرك؟ ومن أين جئتم بالمذاهب والطوائف أيها المتفرقون في دينه تعالى؟

بالنسبة لعموم الناس، حيث مرّ معك في السورة هنا من الآية 74 وما بعدها كلام عن إبراهيم كنموذج عن إنسان حافظ على سلامة ما جعله تعالى فينا للتعرّف عليه، وصل إلى التوحيد بسهولة، وعدة مرات ذكره القرآن قاصداً هذه النقطة لنرى أنه تعالى خلقنا كلنا مع نفس القابلية الموجودة في إبراهيم وفي نفس البيئة التي من المفروض أن تؤدّي بنا إلى تفعيل الإيمان به تعالى وتوحيده وفعل الصالحات...

حين يأمر تعالى نبيّه محمد(ع) بالإعلان عن كونه (ع) على ملّة إبراهيم النموذج الراقي جداً والذي فيما بعد تواصل معه تعالى وصار نبياً... ففي هذا الكلام العديد من الإشارات، أهمّها الارتباط التاريخي لهذا القرآن بملّة عمرها آلاف من السنين وصولاً إلى إبراهيم الشخصية المشهورة جداً جداً بين الناس، حيث إنّه ليس شخصية وهمية بل تاريخه من أصلب المعلومات التاريخية. ومنها جعله تعالى لإبراهيم كمفترق بين دينه الصافي تعالى وبين أي شيء آخر اخترعه الناس، سواء المشركون، أو المنتمون لدينه تعالى والذين من المفروض أن يكون النبي إبراهيم(ع) بالنسبة لهم مرجعاً يتشبّهون بعقيدته وسلوكه...

ما هو دارج عن معنى كلمة "قيّم، قيمة" كتقدير للشيء، "قيمته عالية"، هو من مشتقات معنى الكلمة وليس معناها الصريح، حيث إلى حين نزول القرآن لم أجد في أشعار العرب "قبل الإسلام" أي استعمال لهذه الكلمة بهذا المعنى الصريح الذي نعرفه الآن، بل معناها مثل ما تفهمه الآن عندما تقول: تقويم الأسنان، وهذا لا يعني جعلها كلّها متشابهة بالطول أو الانحراف، بل جعلها على الأحسن المناسب، والدين القيم، {دِينًا قِيَمًا}... والصراط المستقيم... وصف للذي على الأحسن المناسب. ومن مشتقات المعنى أنّ له قيمة عالية ولكنه ليس أصل معنى الكلمة.

(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{162})
{قُلْ}، عبر هذا القرآن لكل الناس: {إِنَّ صَلَاتِي}، إنّ توجّهي، وهنا الكلام عن مصطلح ديني للتوجّه نحوه تعالى بالعبادة، وهي الصلاة التي نسميها بالصلاة الواجبة التي نقيمها خمس مرات في اليوم، {وَنُسُكِي}، والمنسك "المناسك" وهي الأعمال الدينية التي أقوم بها، كالحجّ والعمرة والأضحية... {وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي}، فحياتي هنا في الدنيا، وموتي فيها وبعده انتقالي للآخرة، كل هذا، {لِلَّهِ}، لصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {رَبِّ الْعَالَمِينَ}، المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس، حيث لا يوجد إله خاص بالعرب، وإله خاص لهذه الجماعة من العرب... وإله آخر خاص بأهل الكتاب... بل هو إله واحد لكل الناس من أوّلهم لآخرهم.

كل شيء يصدر مني فهو حصراً لله تعالى، ولا أصلّي لغيره، ولا أقوم بعمل عبادي لغيره، ولا أقدّم حياتي أو أحسب حساباً لما بعد مماتي لغيره تعالى.

بالنسبة لتعبير "محياي ومماتي" فليس المقصود منها أنني أؤمن بأن الحياة والموت شيء يملكه الله تعالى، علما أن هذا إيمان ضروري، بل المقصود أن كل ما يتعلّق بي فأنا أنظر إليه على أنه مرتبط به تعالى. نحن نقول أفديك بحياتي. ونقصد أنني أقدم لك حياتي لتكون مسخّرة لك، وأعمل فيها بطاعتك، وأقدّم مدّة حياتي لأجلك. ونقول أفديك بمماتي. ونقصد أنني مستعد للموت لأجلك. هنا التعبير هكذا بهذه الطريقة، فحياة المؤمن مسخّرة لله تعالى، وموته أيضاً يسخّره لله تعالى، ولا مانع عنده من الموت قتلاً في سبيله تعالى، ولا مانع عنده من ترك ملذة حرام لأنه يحسب حسابَ لِقَائِهِ تعالى بعد موته...

(لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ{163})
{لَا شَرِيكَ لَهُ}، وحده الله تعالى موصوف بالألوهية، ولوحده لديه الصفات والقدرات الفائقة فوق صفات وقدرات المخلوقين، ولا يوجد غيره إله، ولا ربع إله، ولا أحد بنفحة إلهية... فقط الله واحد بطبيعة إلهية، والبقية كلهم مخلوقات خلقهم سبحانه.

{وَبِذَلِكَ}، الذي ذكرته لكم من التوجّه الحصري بالعبادة له تعالى، وبالأعمال العبادية الطقوسية له فقط تعالى، وتوحيده تعالى... بهذه الأشياء {أُمِرْتُ}، فأمرني ربي بها، فلم أخترعها، وليست من اختراع أحد غيري، بل هي أوامر إلهية.

{وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}، فلن أفكّر بالموضوع مرتين قبل أن أُسْلِمَ قبل أن أنقادَ لذلك، وبناءً على هذه الأوامر التي وصلتني، فأنا أول من يعلن إسلامه، استسلامه، انقياده، تبعيّته لله تعالى، فلا أطيع هواي ومشتهياتي السيئة، ولا أطيع البشر والجنّ بالسوء، وفقط الأوامر التي تصلني منه تعالى والتي تتماشى مع ما يأمر به تعالى أتبعها وأنقاد لها.

{أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} ليس معناها أني الأول والبقية ثانٍ وثالثٌ... مثل الانطلاق من خطّ السباق، لا، فهذا غير صحيح حيث إنّ من الواضح أنه سبقه (ع) عبر التاريخ مسلمون كُثُرٌ من الأنبياء والرسل والصالحين، ولا يقصد أنه الأول في تاريخ البشرية، ولا يقصد أنه حاصل على المرتبة الأولى من بين الذين أسلموا، لا، بل يقصد أنني لست مثل الملوك والرؤساء والزعماء الذين فوق القانون، ولست أقول لكم شيئاً لتلتزموا به أنتم وأنا لن ألتزم به، كالواعظين بالأخلاق وهم بلا أخلاق... بل أنا من بينكم أوّل من يسلم وينقاد للأوامر الإلهية، وما أنقله لكم عن إخلاص الدين لله تعالى، فأنا لست فوقه، ولست مختلفاً عنكم، بل أوّل من يعتبر نفسه تنطبق عليه أوامر الاستسلام والانقياد لله تعالى، وأعتقد ويجري عليّ الانقياد له تعالى.

تصوّر شخصاً يقول للآخرين: فلنذهب إلى الحرب وأنا أوّل واحد. يعني آمركم بالذهاب إلى الحرب وأنا من ضمنكم وذاهب معكم، ولا يقصد أنه سيمشي أوّل واحد، ولا يقصد أنه سينطلق أول واحد، ولا يقصد أنه سيكون في الأمام وأوّل من يهجم... لا، بل أنا أوّل واحد ينطبق عليّ ما أقول.

لاحظ وانتبه جيداً لشيء ركّز عليه القرآن بطرق مختلفة، حيث إنّ ما يقوله الوحي للنبي أصلاً يتماشى مع فكر ونفسية النبي، وتذكّر هذا دائماً، لأنّ سبحانه يختار الذين قلوبهم سليمة ليوظّفهم كرسل، والقلوب السليمة تتماشى تماماً مع دينه تعالى، وهنا التعبير بالأمر الإلهي لنبيّه أن يكون أوّل المسلمين يتضمّن شقّين، الأول هو تماشيه (ع) مع ما وصله وسيكون مسلماً منقاداً بشكل طبيعي له، والشقّ الثاني أنه أمر إلهي لا يمكن التلاعب به ولا خيار غير الالتزام به وإلا فالعقاب لمن لم يسلم. ومن هذه الناحية يكون الكلام خبراً للآخرين أني لا خيار لدي سوى الإسلام. ولكن هل هذا الأمر اعتباطي لا يستند لشيء عقلاني؟ وأسلم على العمى؟ لا، حيث مباشرة يأتيك الربط فيما يلي:

(قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ{164})

{قُلْ}، عبر هذا القرآن لكل الناس: {أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا}؟ هل أطلب أو أرغب بمسؤول عني من مستوى إلهي غير صاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى؟ {وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ}! وهو المسؤول من مستوى إلهي عن كل شيء، فلا يوجد إلا الربّ سبحانه من جهة، والبقية مربوبين له، فكيف أتركه وأقول عن غيره إنه ربّ! أو كيف أجعل غيره ربّاً معه!

تذكّر دائماً أن كلمة "ربّ" لعامّة من هو مسؤول عن الآخرين، فأنا ربّ بيتي، وزوجتي ربّة منزل، وذاك رب العمل... فكل واحد منّا نطلق عليه كلمة "ربّ" بحسب حجم مسؤوليته، وعندما نطلقها عليه سبحانه، فالمقصود هو الربوبية من مستوى إلهي.

في تاريخ الشعوب الوثنية أو المشركة بشكل عامّ، فإنهم بالغالبية الساحقة لم يستعملوا كلمة إله لوصف الذين يعبدونهم، واستعملوا كلمة "ربّ" لهم، على أساس أن الصفات الفائقة فوق الجميع لربّ واحد فوق بقية الأرباب، وهو الإله الأحد في صفاته وقدراته الفائقة عن البقيّة، والأرباب لديهم صفات وقدرات فائقة من مستوى إلهي، ولكن نظرة المشركين إلى أربابهم كانت من زاوية تأمين تلك الأرباب لحاجاتهم، فربّ الحرب ينصرهم في الحرب، وربّ المطر ينزل الماء عليهم... فيسمونه بالرب من زاوية مسؤوليته وقدرته عن شيء يحتاجونه من فوق مستواهم وقدرتهم على تأمينه.

طبعاً أشار القرآن بشكل ما لهذا التفكير، ولكن لم يفصله تماماً عن أصل الشرك بالألوهية، فاعتبرهما في الأصل واحداً، فمن أشرك بالربوبية في أمور من مستوى إلهي فقد أشرك بالألوهية، ولكن هنا وهناك ترى تفريقاً قرآنياً في هذا التفصيل، مثل آيتنا هنا، فإن كان أحد ما يقول بأن ربّ البيت أو ربّ العمل... ربّ يجب احترام مكانته مع أننا لا نألهه،

فهناك ربّ للمطر يجب أن نحترم مكانته ونتقرّب منه مع أننا لا نألهه... فتأتي أمثال آيتنا هنا لتنبّههم أن الربّ من المستوى الإلهي واحد أحد، والاعتقاد بكائنات تقوم بقدرتها الذاتية وبقرار منها بأعمال فوق مستوانا "من تحريك الرياح وسحب الحياة والنصر في الحرب وتنزيل المطر..." هو اعتقاد خطأ لأنه غير صحيح.

وقل، عبر هذا القرآن: {وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا}، فلا يحصل أي شخص إلا على ما نتج مما قام به هو نفسه من عمل، فلا أنت تكسب لي سيئة ولا حسنة، ولا أنا أكسب لك سيئة أو حسنة، بل كل واحد منّا ما يكسبه فهو له، سواء كسب خيراً أو شراً، فلن يتحاسب أحد عن أحد، ولن ينال عقاباً أحد بدل أحد...

ننتبه جيداً، فإذا علّمتك سوءاً أو شجّعتك عليه، فلي نصيب مما تفعله أنت، وهو نصيب مما أنا سبّبته لأني أنا شجّعتك على السوء، وهذا متوافق مع ما تقوله الآية بأنه لا علاقة لي بما تفعله أنت إن لم يكن لي به علاقة أصلاً، أمّا لو كان من الأصل ما قمت به أنت لي علاقة به، فسآخذ نصيبي منه.

{وَلَا تَزِرُ}، فلا تحمل حملاً ثقيلاً مزعجاً حمله، {وَازِرَةٌ}، نفس وازرة، نفس حاملة لأشياء ثقيلة مزعجة، حاملة لأعمالها التي ارتكبتها في الدنيا، فلا تحمل، {وِزْرَ}، حملاً ثقيلاً لنفس، {أُخْرَى}. فلا أحد في يوم القيامة سيحمل ذنوبا عن أحد، فكل واحد سيحمل أعماله ولن يجد من يحمل عنه، وهو أصلاً لن يتبرّع ليحمل ذنوبا عن غيره، فكل واحد منّا سيحمل وزره الشخصي.

الوزر هو الحمل والثقل، مثل الحقيبة والخرج والشنطة... فنحن في يوم القيامة سنحمل أعباء الأعمال التي قمنا بها في الدنيا، فكل نفس تحمل أوزارها الخاصة بها فقط لأنه تعالى لن يظلمك بتحميل ذنوب غيرك، ولن يتبرع أحد ليحمل عنك، ولا أنت ستتبرع بحمل ذنوب عن غيرك.

ونفس الكلام عن مجازاة كل واحد بما كسب سواء فعل السوء بنفسه أو علّمه لغيره، فحمل الأوزار من السوء الذي فعله الآخرون سيكون لأنك أنت علّمتهم السوء، فأنت لا تحمل عنهم من وزرهم بل من وزرك أنت، وهذا ما قالته الآية 25 من سورة النحل: {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ}.

ولهذا الكلام تفاصيل ذكرتها سور أخرى، ومنها ما يقوله بعض الناس استهتارا حتى تترك إيمانك، فيقولون لك اترك الصلاة واشرب الخمر وتعاطى الزنا والربا والغشّ...وأنهم سيتبرعون في الآخرة ليتحاسبوا عنك، فهذا كلام فارغ لأن قانونه تعالى أنهم سيتحاسبون فعلاً على تشجيعهم لك على فعل السوء، ولكن أنت أيضاً وحتماً ستتحاسب على فعل السوء.

فخذوا علماً من الآن أنه سبحانه ربّ أحد لا ربّ غيره من مستوى إلهي وواحد للجميع، وأن كل نفس تحمل وزرها لأنه بعد ذلك: {ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ}، فبعد أن تموتوا لن تختفوا، ولن تندثروا، ولن تذهبوا لمكان آخر لا يملكه تعالى... بل هناك طريق واحد، فإلى المسؤول عنكم من مستوى إلهي سترجعون في يوم القيامة من الموت، وستقفون بين يديه ليحاسبكم، {فَيُنَبِّئُكُمْ}، فيخبركم بأمور علمها غير منتشر، فنسيتموها أو نتجت عن أعمالكم ولم تعلموا بها أو لم يعلم بها الآخرون... فيخبركم، {بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}، فهذا دين التوحيد كان واضحاً، وأوامره تعالى واضحة، ولكنكم اختلفتم فلم تتفقوا على الالتزام بها واتّباعها، فيوم القيامة سيقول سبحانه لكم عن الاختلافات التي حصلت بينكم وبين دينه، فسيحاسبكم سبحانه على مخالفة دينه.

نلاحظ القرآن يسمّي ما يحمله الناس في يوم القيامة من ذنوب أنها "وزر" فهي ثقيلة على من يحملها، فيشعر بالتعب منها، وأمّا الحسنات فلم يعبّر عنها القرآن بالوزر أبداً، ولم يعبّر عنها حتى بالحمل، وعلى كل حال فلا تتصوّر أكياسا فيها السيئات "الثقيلة المتعبة" ويحملها الناس، ولا تتصوّر أكياس حسنات خفيفة، لا، فهنا في الدنيا نضع "الأوزار" الأحمال في مستوعبات، وهناك أيضاً أوزار معنوية نعيش تحت ضغطها كالعيش تحت وزر الدين، وزر الاتهام، وزر الإهانة... والأعمال والنيّات والأقوال في الآخرة فهي البيئة التي تبني جسدك وتبني محيطك من أول ما تفتح عينيك من الموت في الآخرة... وقد عبّرت الآيات عن الإيمان والعمل الصالح أنه ثواب حسن، حسنات، فرح، عطاء إلهي... فهذا لا يصحّ وصفه بالوزر ولا بالحمل، أمّا السيئات، فيعيش من قام بها تحت وطأتها، تحت أثر عذابها وآلامها، فيحملها معه كوزر كحمل ثقيل يلازمه ويعذّبه ولا يفارقه.

بالنسبة لعموم كلام القرآن عن الحساب في الآخرة فلن تجد فيه ولا إشارة لحسنة أو سيئة تنالها ولا علاقة لك بها، فلنقل أنك علّمت أولادك الصلاة، فلك أجر يتراكم كلما صلوا، فأنت لك علاقة مباشرة بالحسنة، ولكن ماذا لو صلّوا عنك أو صاموا عنك أو تصدّقوا عنك... فهل تنال حسنة من ذلك؟

في عموم أدبيات المنتمين لدينه تعالى نعتقد أننا يمكننا تجيير الثواب، فنفعل الخير ونهدي ثوابه لميّت، ولكن لا تجد في كل القرآن تصريح أو تلميح بذلك، وأقصى ما ستجده الاستغفار للأموات، كما ورد في الآية 27 من سورة نوح {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلِلْمُؤْمِنَاتِ...}، وفي دراستها تحدثنا عن الاستغفار أنه من نوع الشفاعة، وأن إهداء الثواب لميّت ليصير لديه حسنات فهي مسألة لا دعم قرآني لها، وتستوجب أن يكون هناك حظوظ في الآخرة، فيموت شخص لا صلّى ولا صام... وقام أولاده بالصلاة عنه والصيام... أو استأجروا من يقوم بذلك، وحجّوا عنه وبنوا الجوامع ودور الأيتام على اسم أبيهم... فهل سينال الحسنات لدرجة أن وضعه سيختلف في الآخرة عن وضع شخص آخر كان مثله في سيرة حياته بالتمام من ترك للواجبات وفعل السوء... ولكن أولاده لم يفعلوا أي شيء ليهدوا حسناته له بعد موته؟ فهل هذا ممكن؟ لا، فهذا معارض لكل كلام القرآن، فلا حظوظ في الاخرة أبداً بتاتاً، كل كلام القرآن صريح واضح بذلك وها آيتنا هنا صاغت عبارتين تحوطان هذه المسألة من كل جانب، فلا تكسب نفس إلا عليها ولا تزر من نفس أخرى، فما لا علاقة لنا به فلن ننال منه ثوابا ولا عقابا.

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ{165})
{وَهُوَ}، الله ربّ العالمين سبحانه، {الَّذِي جَعَلَكُمْ}، أيها الناس، {خَلَائِفَ الْأَرْضِ}، أناساً تخلف أناساً، أناساً تموت فتذهب ويأتي أناس غيرهم، فترون بشكل واضح أنه لا يوجد مجتمع مستمر، ولا أحد يخلد في الحياة على الأرض... وهذه الحالة هي انعكاس لسيطرةٍ إلهية ولتخطيطه لكم حتى يأتي الناس إلى الحياة فوجاً بعد فوج...

تذكّر ما ورد في بداية السورة بصراحة عن لفت انتباهها لوقوعنا تحت تصميمه تعالى ومسيرنا نحو المصير الذي قرّره تعالى، وخلال حياتنا نتمتّع بما تركه لنا من حرية الإرادة والاختيار في أفكارنا وأفعالنا. حيث إنّ حالتّنا كحالة أي مصنوع ترى له مصيراً محدّداً معلوماً، فالسيارة مصيرها استخدامها للنقل، وبعدها مصيرها الخراب، والصدأ... لنعيد تدويرها إلى موادّها الأولية... وهي نفس النظرة التي يجب أن نرى فيها أنفسنا من نظرته تعالى لنا. وهنا تعيد السورة عرض ملخص لكل مفاهيمها مضغوطاً بالتركيز على واقع الحال، فهذا ما نحن فيه، هذا واقعنا، فإن لم نفهمه ونتعامل معه بعقل وحكمة فالخطر أكيد علينا من عقابه تعالى...

{وَهُوَ} سبحانه {الَّذِي}، {رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ}، فجعل سبحانه أناساً في مراتب أعلى من مراتب أناس آخرين، والكلام عمومي لكل ما بين الناس فروقات فيه، فجعل سبحانه هذا أغنى من ذاك، وذاك أفهم من الآخر، وهذا أقوى جسدياً من غيره... فلم يجعلكم متساويين في المواصفات الجسدية والعقلية، ولا بما تحصلون عليه، بل قصد تعالى أن يكون مسار حياة البشرية بحيث ينتج عنه درجات، ولتفهم هذا المعنى تخيّل المدينة الفاضلة، أو أنك تخطط حتى تجعل كل الناس تعيش بسلام، فتجعلهم كلهم متساوين في كل شيء، في العقل والجسم والفكر... ولكن هذا لن يتماشى أبداً مع إعطاء حريّة الإرادة والاختيار للناس، لأنّ التخطيط الإلهي من النظرة الشاملة يتضمّن منحنا حرية الإرادة التي سينتج عنها ارتفاع بعضنا عن بعض في القدرات وما سنحصل عليه... حيث بعضنا سيهتم بصحة جسده والآخر بجمع المال والآخر بالعلوم...

كما ترى فهذه نتيجة لوقوعنا تحت مصير حتمي من تصميمه تعالى للدنيا، وبالتالي تصميمنا وخلقنا فيها بشكل سينتج عنه درجات بيننا في مختلف الأمور.

جعلكم خلائف وبينكم مراتب، {لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ}، ليصيبكم سبحانه بالأشياء التي من المحتمّل أن تغيّركم سواء للأحسن أو الأسوأ.

لنتذكّر الأفكار الكثيرة التي يطرحها الناس كحلول ليصير المجتمع فاضلاً، بلا مشاكل وحروب، وبلا فقر... ونقرأ أحياناً أفكاراً "خيالية" متطرفة عن أدوية أو طرق معالجة يمكنها جعل الناس بلا شهوة ولا غريزة ولا نزعة نفسية...

على أساس أن يعيش الكل بسلام... فالآية هنا تؤكد أن المخطط الإلهي لحياتنا على الأرض أن نكون مختلفين وبيننا درجات فهذا سيجعلنا نتأثّر ببعضنا، حباً وكرهاً، عقلانيةً وحمقاً... حتى يمتحننا، فيرى سبحانه ماذا سيفعل القوي مع الضعيف، والغني مع الفقير...

{إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ}، فحين يقرّر المسؤول عنك من مستوى إلهي أنه حان وقت العقاب فسيحصل فوراً حالما يريده تعالى.

{وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ}، فلا يجمد على موقف واحد صلب قاسٍ، بل يتجاوز عن السيئات فيسامح من أساء أثناء بلواه في الدنيا، وتعلم أنه تعالى يغفر لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، فصفة الرحيم التالية تريك ذلك.

{رَحِيمٌ}، فلديه سبحانه عناية خاصة للمؤمنين بما فيه مصلحتهم، فمن كان من داخله لديه رغبة حقيقية بالإيمان والعمل الصالح، فسينال معاملة إلهية خاصة، حيث سيهديه تعالى، وسيغفر له، وسيمسح ذنوبه... وهذه أمور لا ينالها إلا المؤمنون.

كما ترى فآيتنا هذه تجيب عن ناحية من سؤال: لماذا خلقني تعالى؟ فالنظرة العامّة لكل الناس، وبالخصوص في موضوع إنكار حمده تعالى وبالتالي حمد غيره... وإنكار آياته تعالى وبالتالي مخالفة دينه بفعل السيئات... والذين بعكسهم من الحامدين الموحدين، فنحن من الأساس مخلوقون للبلوى بحرية الإرادة التي ستتفعّل حين يكون بيننا درجات في مختلف الأمور، فهذا سيحسد الغني وذاك سيساعد الفقراء...

بقي شيء، حيث إننا عادةً نميل إلى تبسيط الأمور لأن تعقيداتها فوق قدرتنا على الاستيعاب، فتكون من مستوى إلهي، فالآية هنا عن سرعته تعالى بالعقاب، فسّرناها دافعين لها نحو السهولة، نحو أنه تعالى إذا قرّر عقاب أحد ما، فبسرعة سيحصل ذلك، وهذا المعنى صحيح ولكنه ليس العمق الذي تشير له الآية، لأنّ ما تشير له تجده مشروحاً بالتفصيل في كل سورة يوسف، وتجده بالتفصيل من الآية 121 وما بعدها في سورة آل عمران التي تحدّثت عن الخسارة في معركة أحد، ففي هذين النموذجين ترى تدخله تعالى بشكل غير ملموس ولكن النتائج ملموسة، فترى أن الإخوة هم قرروا قتل أخيهم يوسف(ع) واستعاضوا عن ذلك برميه في الجبّ، فمرت قافلة وأخذته إلى مصر، وهذا ما يريده تعالى! لذا من الصعب جداً علينا رؤية تدخله تعالى في هذه الأمور التي نراها حصلت من قرارات بشرية، ونفس الشيء في نموذج الانتصار في بداية معركة أحد والخسارة بعدها بسبب الفشل... فهذه أسباب لحصول الأمور وقد سبّبها المسلمون بتصرفاتهم، ولكن ترى كلامه تعالى عنها أنه هو سبحانه أجرى الأمور لتسير بهذا الشكل... لأسباب كذا وكذا...

هنا الكلام عن عقابه السريع تعالى، مشابه للعقاب السريع على الهزيمة بعد الفشل في أحد، ومشابه لقساوة قلب إخوة يوسف(ع) الذين لم يتوبوا حتى بعد مرور عشرات من السنين ولم يحصلوا على ما يريدون من محبّة أبيهم... ودارت الأمور حتى صار النبي يوسف(ع) غصباً عنهم رئيساً وسيداً عليهم... وسجدوا له.

يكفي هذا المقدار من الكلام، فهذه حدود ما يمكننا رؤيته مما أخبرنا تعالى عنه، حيث إنّ الناس يقتحمون هذا الموضوع أحياناً من تحليلاتهم، فيقولون: هذا أصابه المرض لأنه كان عاقّاً لوالديه، وذاك ليس له أولاد لأنه متكبر، والآخر خسر أمواله لأنه كان بخيلاً... والحكم على الناس بهذا الشكل خطير، فهل بدلاً من ذلك قيّمنا أنفسنا ونتائج أعمالنا وفي هذا استفادة لتقويم أنفسنا، فنشتغل بذلك بدل تقييم الآخرين الذي سيأخذنا للغيبة والبهتان! فما يحصل مع الناس شؤون إلهية تتداخل فيها قراراته تعالى مع ما فعله الناس مع ما يراه تعالى مناسباً حصوله، فهل الإهانات والرمي بالحجارة التي تعرّض لها الرسول محمّد(ع) عندما ذهب إلى مدينة الطائف منذراً ومبشراً، هل كانت عقاباً له؟ أم مقتل الحسين في كربلا وتهشيم لحمه وتحطيم عظامه بحوافر الخيل، وسبي نسائه... عقاب له؟ وهل رمي الطفل يوسف(ع) في الجبّ عقاب له؟ لا، بل هي شؤون إلهية من مجريات أحداث مما منحه تعالى لنا من حرية إرادة ليمتحننا.

سورة الأعراف (7) ص 151
محور السورة حول الولاية لله تعالى بكلامه الحقّ وما يتبع ذلك وما ينتج عن موالاة غيره من عقيدة وشريعة فاسدتين، والتركيز فيها على ما أتاحه تعالى لنا وحلّله من أمور جيدة، في مقابل ما نرغبه وحرَّمَهُ تعالى لفساده فكان سببًا لخروجنا من ولايته تعالى. تُلاحِظُ توجيهها الكلام للمجتمع ككل، فهي ناظرة لما ينتج عن سلوكيات المجتمعات.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(المص{1})
هذه حروفٌ نتهجّاها مقطّعةً هكذا: ألف، لام، ميم، صاد.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوَّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

(كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ{2})
{كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ}، والكتاب هو عموم أي معنى متنه "نصّه" محددٌ، سواء كان محفوظًا على الورق أو على الكومبيوتر أو في الذاكرة... والكلام هنا عن سور القرآن التي أنزلها سبحانه إليك أيها النبي محمد (ع)، فكل واحدة من السور هي كتاب، وكلها مع بعضها كتابٌ.

{فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ}، فلا يكن مركز تفاعلك الداخلي مع ما وصلك من القرآن، {حَرَجٌ مِنْهُ}، فلا تشعر بأنك وصلت إلى حافة الضغط قبل الانهيار "النفسي والإيماني"، {لِتُنْذِرَ بِهِ}، فلا تنحرج أن تنذر بالقرآن، فلا تشعر بالإحراج أن تخبر الذين يقول عنهم القرآن أنهم في حالة استحقاق العقاب الإلهي إن بقوا كما هم.

{كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ}، {ذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}، شيء يستحضره المعتقدون به تعالى في فكرهم وقولهم وسلوكهم.

لا تقرأ الآية بجفاف القراءة وتصوّر شخصًا موحدًا في مجتمع مشرك، وهذا الموحد مأمور منه تعالى بأن يقول لأفراد مجتمعه بأنكم ستدخلون النار بسبب اختراعكم للآلهة وعبادتها... فربما تستسهل الوضع لأنك تقرؤه ولا تعيشه، بينما نحن في حياتنا العادية نشعر بالإحراج إذا أردنا أن ننصح أحدًا ما ليصليَ، ليصومَ... ونعبّر عن الإحراج بأننا نستحي

ولا نريد أن نكون وقحين إن أخبرنا الآخرين أنهم على طريق الضلال، وهم من المسلمين! والآن تصوّر ما كان يحصل مع النبي محمد (ع) وتصوّر الإحراج، وخصوصًا إذا تصوّرت أنه (ع) يقول لهم: كلكم على الطريق الخطأ وما أقوله أنا فقط هو الصواب. وهل تتصوّر هذا الموقف؟ فهذا ما تقوله الآية وتشجّع النبي (ع) على القيام بمهمته وأن لا يشعر بالإحراج.

سترى في السورة نماذج عما حَرَّمَهُ تعالى وعما حَلَّلَهُ، حيث يمكنك أن تطرح على الآخرين ما حَرَّمَهُ تعالى بكل ثقة وبدون أي حرج، لأنه حَرَّمَ الفواحش وحَلَّلَ الطيبات...

بقي شيء ضعه في بالك دائمًا، حيث إنَّ العديد من آيات القرآن تعطي معنى: شخص كان مؤمنًا تقيًّا من قبل نزول القرآن، ونزل القرآن ليذكِّرَهُ ويبشِّرَهُ. وعلى عكس ما يخطر ببالنا للوهلة الأولى أن الشخص لا يكون مؤمنًا، وينزل القرآن فيؤمن، وهذا بالعموم غير صحيح، حيث إنَّ بعض الناس هكذا وآخرون بالأصل هم مؤمنون أتقياء ويتعرّفون على الكلام الإلهي فيؤمنون به لأنه يتماشى مع فكرهم ونفسيتهم، فالقرآن يشير لوجود قلب سليم، لأناس يعقلون وذوي ألباب ويفقهون... وفي مقابلهم أموات عُمْيٌ لا يبصرون بقلوب غلف مختومة... فهم هكذا بالأصل في حياتهم العادية قبل نزول القرآن، وأثناء نزوله، وبعده... ولا فرق بين من ولد من أبوين مسلمين ومن ولد من أبوين كافرين، فكم من مسلم وليس من إسلامه إلا تسميته على اسم شخصية دينية إسلامية وهو لا يمارس أي شيء من التدين، وإذا قام بأي عمل ديني فهو يقصد منه الحصول على متاع الدنيا، وحتى حين يدعوه تعالى فلشيء يريده في الدنيا يدعو، وإن لم يحصل على ما يريد فإنه يشكّك بالإله وبالدين... أما الآخرة فآخر همِّه... وهكذا تفهم آيتنا هنا وأشباهها، فهذا القرآن ذكرى لمن هو بالأصل لم يخترع آلهة من خياله وشريعة على هواه الفاسد، فكان يفقه ويعقل وقلبه فيه سلامة... وهذا القرآن أيضًا ذكرى لمن كان يتعارك في داخله مع الإيمان والكفر وبعدها مال نحو الإيمان... والقرآن بالنسبة للآخرين فهو مجرد إنذار، لأنهم لن يستفيدوا من القرآن ولن يكون بالنسبة لهم ذكرى إلا إن نفع مع بعضهم الإنذار وآمنوا...

(اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ{3})
هذه الآية مع الآية التي تليها تشكلان محور السورة.

{اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ}، كل من يصله هذا الكلام مأمورٌ فقط وفقط بالكون على ما وصله من المسؤول عنه من مستوى إلهي.

{وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ}، كما نقول: ذهبتم من دوني. أي تركتموني وذهبتم. فكل من نفَّذْتَ كلامه ولو مرة واحدة اعتبرتَ نفسك تابعًا له وصار وليَّكَ ومَرجعك، فلا تتركوا ما يقوله تعالى وتتبعوا ما يقوله غيره.

{قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}، فيحصل عندكم استحضار لكلامه تعالى في فكركم ولكنه قليل، والأكثر منه استحضاركم لما يقوله غيره تعالى واستحضار الهوى والغريزة السيئة... لتحكمكم.

سترى فيما سيأتي أن ما جاءنا منه تعالى كلُّه خير، ويتماشى مع ما جعله تعالى فينا من رغبات وشهوات ويلبّيها بالشكل الكافي، وستعرض السورة ذلك معتمدة على ما جعله تعالى فينا من تمييز بين الخير والشرّ، لنلتفت إلى حسن ما أمر به تعالى وسوء ما نهانا عنه، وعلى هذا الأساس يصير الأمر هنا باتباع ما أنزله تعالى علينا من تعليمات، يصير تماشيًا مع ما هو مجعول فينا، فهي أوامر بترك السوء وفعل الصالح.

لهذا الكلام عمق صرت تراه بسهولة منتشرًا في عموم القرآن وبمختلف التعابير، وبتعبير بسيط: لن تضغط على نفسك مؤذيًا لها حتى تكون متبعًا لكلامه تعالى، فلا تشعر "بالحرج" بأنك متضايق من الالتزام بكلامه تعالى لأنه حَرَّمَ عليك بعضًا مما ترغبه، فما حَرَّمَهُ تعالى سيكون حتمًا شيئًا سيئًا لك وللآخرين، وحين تأتي السورة على ذكر نماذج عن أقوام أهلكها تعالى، فسترى ما كانوا يفعلونه من سوء، وسترى أنك بسهولة ترى سوء ما فعلوه من اختراع آلهة وغشّ واستعباد للآخرين واعتداء جنسي على الآخرين... فهذا ما منعه تعالى وهذا ما يعاقب عليه سبحانه، وهذا ما تنذر الآخرين منه.

(وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ{4})
الآية السابقة أمرتنا باتخاذه تعالى وحده فقط وليًّا لنا، وهنا تقول الآية إنَّ من يتخذ غيره تعالى وليًّا فقد يأتيه عذاب في الدنيا قبل الآخرة إذا كان السوء الذي يفعلونه من العيار الثقيل...

{وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا}، كم من مجتمع من الناس استنفدنا حياته، والقرية هي وصف لأي تجمّع للناس، سواء كان كبيرًا أو صغيرًا، وما هو دارج من تسمية المجتمع الصغير بالقرية في مقابل الكبير بالمدينة... هو استعمال مستحدث عند العرب.

كم من قرية قرر سبحانه إهلاكها، {فَجَاءَهَا بَأْسُنَا}، فجاءها الشيء الشديد منّا، كزلزالٍ أو فيضانٍ... {بَيَاتًا}، وهم متوقفون عن النشاط والحركة وعادة يحصل معنا هذا في الليل حين ننام، أو يأتيهم بأسنا، و{هُمْ قَائِلُونَ}، نائمون ويرتاحون في النهار.

ليس المقصود أنه سبحانه ينتظرهم حتى يناموا في الليل أو ينتظرهم حتى يأخذوا قيلولة في النهار ثم يُهلكهم، بل هو نموذج عن حالة يكون الكافرون فيها مطمئنين ومرتاحين ونائمين ولا يحسبون حسابًا للتهديد، فهذا الأمان الذي يشعرون به لدرجة النوم بلا قلق ليلًا أو نهارًا، لا يعني أن التهديد الإلهي لن يتم تنفيذه.

نقول بشكل عام لكل الحيوانات عندما تأوي ليلًا إلى بيوتها فتقعد فيها أو تنام أو ترتاح... نقول إنها باتت، تبيت في بيوتها، ونقول للبشر الذين يرتاحون أو ينامون في بيوتهم خلال النهار إنهم قائلون، في قيلولة.

سترى في بقية السورة تركيزها على العذاب الجماعي، فيكون تمحور السورة حول ولاية المجتمعات لغيره تعالى.

(فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُواْ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ{5})
{فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ}، فقط كان ما أشهروه وما أعلنوه، {إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا}، إذا صار عندهم الشيء القوي الشديد الذي قررناه لهم، {إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ}، لم يكن معنا حَقٌّ فيما فعلناه، فلم نكن عادلين منصفين عندما اتخذنا أولياء غيره تعالى، فتركنا ولاية من له الولاية ووالينا من لا يستحقّ الولاية.

أيضًا هذا المعنى ورد في القرآن معروضًا من زوايا مختلفة، حيث يُؤكِّدُ لنا سبحانه أن ترك الناس لولايته تعالى إنما هو معاندة ومكابرة، فالحقّ كان واضحًا لهم، ولكنهم عاندوا فجحدوا وماروا وأعرضوا... ولكن حين يقعون في مصيبة العقاب الذي من الواضح أنه أصابهم منه تعالى بسبب كفرهم وسوء أفعالهم، فعندها يَرَوْنَ كم حجمهم صغيرٌ ويتواضعونَ معترفين بأنهم كانوا ظالمين بعنادهم ومخالفتهم لأوامره تعالى.

(فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ{6})
تختصر لنا الآية ماذا سيحدث في المستقبل مع نموذج من الكافرين الذين وقع عليهم العذاب "البأس" وماتوا وأتى يوم القيامة حيث سيحاسب سبحانه كل الناس:

{فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ}، حيث سوف نُعَبِّرُ عن إرادتنا للحصول على جواب من الناس الذين أرسل سبحانه إليهم رسلًا بالإنذار، حيث سيسألهم: هل جاءكم رسول ينذركم؟ هل بيَّن لكم أوامري؟ هل آمنتم به أم كفرتم؟ صدَّقتموه أم سخرتم منه؟

أيضًا، {وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ}، حيث سوف نُعَبِّرُ عن إرادتنا للحصول على جواب من المرسلين منه تعالى إلى الناس، حيث يسألُ تعالى رسله: كيف عاملوكم؟ هل استمعوا إليكم؟ صدَّقوكم أم كذَّبوكم؟...

معلوم أنه سبحانه يعلم الأجوبة "كما ستنبّهُ الآية التالية" ولكن هذه الآية تبين أنه إذا كان الكفار يشعرون بالراحة هنا أثناء مضايقتهم للرسول محمد (ع)، بينما يشعر الرسول بالحرج أثناء تبليغ الرسالة، فسينقلب الموقف في يوم القيامة وسيتولى سبحانه المحاسبة، وهم سيشعرون بالضيق والرسول سيشعر بالراحة حين يتكلّم.

(فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ{7})

{فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ}، حيث إنَّ سبحانه سوف يَقُصُّ ويقولُ لكل واحد من الناس قصة حياته، وتفاصيل أحداث حياته وما له علاقة به بشكل كامل وبعلم، وليس بالظن والتخمين، لأنه سبحانه يعلم بالتفصيل ماذا جرى معنا.

{وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ}، لأنه سبحانه بنفسه حاضر معنا في كل لحظات حياتنا.

يعني خذوا عِلْمًا من الآن أننا نراقبكم ويتم تسجيل كل شيء عنكم بالتفصيل.

(وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{8})
{وَالْوَزْنُ}، وقياس الأمور، {يَوْمَئِذٍ}، في يوم القيامة وما بعده، هو وزن، {الْحَقُّ}، الصواب، فلكل واحد ما فعل من دون نقص. في أيام الحساب في الآخرة سيتم موازنة الأعمال، وكما نقول للمحكمة إنه يجب أن يكون فيها ميزان للعدالة ولا نقصد الميزان العادي الذي نستعمله لوزن الكيلو والأوقية، فكذلك في الآخرة يتم إحضار تسجيلات كل الأعمال التي قمنا بها، وبحسب مدى مخالفتها أو مطابقتها للحقّ والصلاح سيتم احتساب وزنها أي إعطاؤُهَا قيمة محددة، {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ}، أي كان عنده أعمال لها ثقل فلها قيمة، وكما تعلم فإنَّ الإيمان فقط مع الأعمال الحسنة له قيمة وله ثقل معنوي، {فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، وهم الذين يوصفون بأنهم مُجِيدُونَ مُصِيبُونَ في فكرهم وعملهم.

من البديهي أن الكلام هنا عن استحقاق الدخول إلى الجنة، فالوزن الذي تتحدّث عنه الآيات هو ما يجعلنا ندخل الجنّة وفقداننا لما له قيمة "ثقل" يجعلنا ندخل النار، وليس الكلام عن الكيلو والطنّ، ويبقى توصيف السيئات بأنها وِزْرٌ بأنها شيء ثقيل يحمله الآثمون، ولكنها على ميزان ما حدّده تعالى كأجر ليجازينا عليه بدخول الجنّة فلا ثقل حَسَنٌ للسيئات ولا قيمة حسنة لها.

(وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ{9})
{وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ}، فلم يكن عنده شيء له قيمة محترمة، وليس لديه عمل له وزن حَسَنٌ، بتعبيرنا العامي فهو ليس لديه حسنات، حيث إنَّ هناك أناسًا لم يقوموا أصلًا ولا بأي عمل جيد، أو قاموا بأعمال جيدة ولكنها حبطت ففقدت قيمتها في الميزان الذي يقيس الأجر لدخول الجنة، فاحترقت وتبخرت أعمالهم الجيدة بسبب أعمالهم السيئة الكبيرة، ولم يَبْقَ شيء في ميزان أعمالهم حتى يستحقوا عليه الدخول للجنة، وتقرأ ذلك في الآية 105 من سورة الكهف {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا}. {فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ}، لأنَّ أنفسهم فقدت قيمتها، لأنها صارت مهانة بلا كرامة ولا قيمة عنده تعالى فسبَّبُوا لها العذاب الشديد، ولم يخسروا مالهم أو بيتهم... بل أنفسهم خسروها، {بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ}، فآياتنا، أي الأمور المميزة المنسوبة له تعالى، لم يتعاملوا معها بالحق والإنصاف بل ظلمًا، ولم يكن معهم حق حيث كذبُّوهَا ولم يؤمنوا بها لأنها كانت واضحة الصحة، حيث بكل وضوح كانت تدل على دينه تعالى وعلى العقاب في الآخرة وهم ظلمًا لم يؤمنوا بها، ولذلك لن يبقى لهم ولا أي شيء له قيمة حسنة.

ننتبه لموضوع ثقلت وخفت، فيوم القيامة نطمع كلنا بدخول الجنة، ونحتاج لذلك أن تكون الأعمال التي قمنا بها في الدنيا لها قيمة في الآخرة، أي أن يعتبرها سبحانه كحسنات نستحق عليها نيل ثواب وجزاء وأجر حَسَنٍ، وهذا الثواب هو دخول الجنة. لهذا نلاحظ التركيز في محاسبتنا على ما لدينا من أعمال حسنة إن كان لها ثقل، وهل لها قيمة تؤهلنا للدخول إلى الجنة؟ وبتعبير القرآن: ماذا بقي في ميزاننا ليكون سببًا لدخولنا إلى الجنة؟ وهل هو ثقيل أي فيه حسنات حتى ندخل الجنة؟ أم ميزاننا خفيف وفارغ من الحسنات؟ فعندها سندخل إلى النار.

نلاحظ أنَّ القرآن لا يقول عن السيئات إنَّ لها وزنًا وقيمةً، لأنها بالحقيقة بلا قيمة، فهي أعمال سيئة رديئة نتنة، ونحن ربما نُصِرُّ على تصور السيئات توضع في الميزان كما يضعون الحسنات في الميزان، ولكن الظاهر من القرآن أن الحسنات فقط توضع في الميزان، فيتم قياسها ومعرفة قيمتها وكم تساوي من قصور وبساتين و... وأثناء محاسبتنا يتم السحب من تلك الحسنات لمحو سيئات ارتكبناها... أو يتم الإضافة على حسناتنا من فضله تعالى بمضاعفتها... وأخيرًا وبعد الانتهاء من الحساب، ننظر كم بقي في الميزان من حسنات، وعلى هذا تتحدد الدرجة التي سندخلها في الجنة،

وهناك أناس لا يبقى لهم حسنات، أو أصلًا ليس لديهم حسنات لأنها حبطت ففقدت قيمتها بسبب كفرهم، وعلى هذا الأساس يدخلون النار.

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ{10})
{وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ}، فصرتم أيها الناس مُتَمَكِّنِينَ من فعل ما يناسبكم، حيث أعطيناكم الثبات في الأرض مع السيطرة، وجعلناكم تتصرفون وتتعاملون مع الأشياء الموجودة على الأرض بسلطة وسيطرة، تزرعون وتستخرجون المعادن والنفط وتبنون البيوت...

{وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ}، وأتحنا لكم في الأرض أشياء تُمَكِّنُكُمْ من العيش، حيث إنَّ الهواء والضوء والعتمة... تُناسِبُكُمْ، وكذلك الماء والزرع والشجر... كل ذلك يناسبكم لتعيشوا ولتبقوا على قيد الحياة...

مع كل هذا الذي قَدَّمَهُ ربكم لكم، أنتم {قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}، حيث إنَّهُ من المفروض أن تعلنوا بكثرة وبتكرار أنكم تُقَدِّرُونَ الأشياء الجيدة التي حصلتم عليها منه تعالى، ولكن تعبيركم عن هذا أقل بكثير مما هو مفروضٌ منكم.

من المفروض أن نشكره تعالى على تمكيننا في الأرض وعلى ما نحصل عليه من معايش فيها، وهنا الكلام بغض النظر عن استخدام موارد الأرض والمعايش بما يخالف أو يوافق أوامره تعالى، وبالنظر لواقع حالنا كمخلوقين بهذا الشكل في هذه البيئة، فإنَّهُ من المفروض منّا شكر من صَمَّمَنَا وخلقنا وأتاح لنا ما نحن فيه.

بالنسبة لمحور كلام السورة، تريك الآية هنا أن ما أنت فيه من نعمة ففيه ما يكفيك ويسدُّ رغباتك، فاشكره تعالى ولا تذهب خلف ما حَرَّمَهُ، حيث لا خير لك في ذلك لا في الدنيا ولا في الآخرة.

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ{11})
من هنا تدخل السورة على تعريفنا بعدو يعمل على تزيينِ السوءِ لنا:

{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ}، حيث ركَّبْنَاكُمْ وألّفناكم من المواد أيها الناس وصار لكم كيان، {ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ}، أي جعلنا لكم صورة، وجعلنا لكم هيئة وقوام إنسان، {ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ}، للكائنات الموصوفة بأنها "ملك" حيث تملك شيئًا مميزًا، وتعلم من القرآن أنها كائنات خلقها تعالى بقدرات أعلى بكثير من قدرات بقية المخلوقات وهي لا تعصيه تعالى... حيث قال لهم سبحانه بعد أن خلق البشر:

{اسْجُدُوا لِآدَمَ}، عبّروا عن احترامكم لهذا الشخص البشري بأشدّ تعبير ممكن، {فَسَجَدُوا}، حيث عبَّرُوا بأشد تعبير عن تقديرهم للقيمة العالية لآدم(ع)، {إِلَّا إِبْلِيسَ}، وكما تعلم من الآية 50 من سورة الكهف {إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ}، لأنَّ إبليس اسم لواحد من الجنّ، وكما يبدو واضحًا من مختلف سور القرآن أنه كان بين الملائكة(ع) حين صدر الأمر الإلهي لهم بالسجود لآدم(ع)، فسجدوا وهو، أي إبليس، {لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ}، حيث لم يُعَبِّرْ عن فائق احترامه وتقديره لآدم(ع) كما فعلت الملائكة(ع).

تذكَّرْ دائمًا أن السجود تعبير له تدرجات من الاحترام الشديد وصولًا إلى الخضوع والطاعة، وسجود الملائكة(ع) لآدم(ع) طبعًا ليس سجود خضوع وطاعة، وليس عبادة لآدم(ع)، بل أمر إلهي لهم بالتعبير عن شدّة احترامهم لما يمثّله آدم(ع) من خلافة له تعالى، وعلى نفس المعنى سجود أهل النبي يوسف(ع) له كما ورد في الآية 100 من سورة يوسف {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي...}.

لا تتعب نفسك كثيرًا لتتصوّر أو تتخيّل كيفية سجود الملائكة(ع)، فنحن نسجد عندما نقرّب أو نضع جبهتنا على الأرض، ولكن الملائكة(ع) لا تشبهنا في تكوينها ولا في شكلها كما تعلم، وأصلًا هي مكوَّنَةٌ من شيء مختلف عن تكويننا... وكما يبدو لك من الآيات لديها بطريقة ما حركةُ تعبير عن فائق الاحترام والتقدير وهي مشابهة في معناها لوضعنا نحن لجبهتنا على الأرض.

ننتبه جيدًا، حيث إنَّ آدم(ع) لم يكن يرى الملائكة(ع)، بل هو بشري وموجود على الأرض، والملائكة(ع) تراه من عالمها، وتسجد له وهي في عالمها، فلا يذهب فكرنا إلى أنَّ آدم(ع) واقف في سماء الملائكة(ع)، لا، فهذا غير ممكن،

حيث سبق وقالت الآية إنَّهُ مخلوق وله صورة {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ...}، ومعلوم أنه مخلوق من طين، والآية التي قبلها أشارت لمكان "البشر" آدم(ع) الطبيعي على الأرض التي لنا فيها معايش... وكما نسجد نحن باتجاه الكعبة وهي بعيدة عنا، فكذلك سجدت الملائكة(ع) وهي في عالمها لآدم(ع) وهو على الأرض.

نتذكَّرُ الآية 30 من سورة البقرة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، حيث قبل هذا الأمر بالسجود أخبر سبحانه الملائكة(ع) أنه سيجعل في الأرض خليفة... وهنا ركّزت الآيات فقط على رفض إبليس للسجود وأكملت مع عداوته لنا ليجعلنا نترك ولايته تعالى، ولم تتطرّق لموضوع الخلافة لأنه ليس من محورية السورة. لذلك لم تُبَرِّرِ السورة هنا سبب الأمر الإلهي بالسجود لآدم(ع) واكتفت بالحديث عن أمر صدر منه تعالى للملائكة(ع) وإبليس كان بينهم، ورفض السجود، وفي الآيات التالية سنرى السبب.

تتذكَّرُ من الآية 30 من سورة البقرة أن الملائكة(ع) كانوا يرون بشرًا يسفكون الدماء في حين ما قال لهم تعالى إنَّهُ سيجعل في الأرض خليفة، حيث إنَّ الآية تشير إلى خلقنا وتصويرنا كجنس بشري، وفي زمن ما وُلِدَ آدم(ع) وكان أول بشري تأهل ليكلّفه سبحانه بالحلال والحرام... وأمر سبحانه الملائكة(ع) بالسجود له(ع)...

(قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ{12})
{قَالَ} الله سبحانه: {مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ}؟ على أساس أنك يا إبليس هنا بين الملائكة(ع) وشملتَ نفسك معهم وأنك تتمثّل بهم في إطاعة أوامري... فما منعك من التعبير عن فائق احترامك وتقديرك لآدم(ع) وأمرتُكَ بذلك لأنك ضمن الملائكة(ع) حين أصدرت أمري؟

لاحظ وانتبه، حيث إنَّ الكلام الإلهي مع إبليس يتماشى مع ما أعلنه إبليس حين انضمّ للملائكة(ع)، حيث إنَّ الجملة فيها افتراض أن إبليس لم يكن ليرفض السجود بل منعه شيء ما من ذلك، وصحيح أنه من الجنّ كما ورد في الآية 50 من سورة الكهف، والأمر الإلهي بالسجود كان موجَّهًا للملائكة(ع)، ولكنه هو إبليس اعتبر نفسه من المطيعين له تعالى تمامًا كواحد من الملائكة، وحشر نفسه معهم في سمائهم، وحيث هو ألزم نفسه بإطاعة كل أنواع الأوامر الإلهية الموجّهة للملائكة(ع)، مثل متطوِّعٍ بين عسكريين منتسبين للجيش، وما معنى رفضه أمرًا من القيادة على أساس أنه متطوّع وغيَّرَ رأيه الآن! وستلاحظ أنه حتى إبليس لم يبرّر لرفضه للسجود بأنه ليس من الملائكة(ع)، فهو يعلم أن الأمر صار موجَّهًا له أيضًا، مثل المتطوّع في الجيش الذي صار ملزمًا بتنفيذ أوامر قيادة الجيش...

لاحظ وانتبه، إنَّ أمر السجود لآدم(ع) يتضمن في معناه أن آدم وبعض ذريته، أرقى وأجدر من الملائكة والجنّ بتوصيفهم كخلفاء له تعالى، وهذا ما تفهمه من كلام الملائكة في الآية 30 من سورة البقرة عن أنفسهم أنهم يسبحون له تعالى لأنهم الأجدر بأن يكونوا خليفة له تعالى في مقابل البشر الذين يسفكون دماء بعضهم البعض بالقتل.

كما ترى إنَّ إبليس اعترض على الاعتراف بكون آدم(ع) وبعض ذريته أرقى منه ليكونوا خلفاء له تعالى، لأنه يرى نفسه أفضل منهم ومستحقًّا لهذا الوصف، وترى أنه تكبَّرَ عن السجود لأنه من نار ونحن من طين كما سترى من تكملة كلام الآية هنا.

اشتقاقًا من كلام القرآن عن هذه الحادثة يَبْدُو أنه من بين المخلوقات الثلاثة "ملائكة جن وبشر"، حيث إنَّهُ سبحانه لم يجعل خليفة له إلا من البشر، مما يعني أنه من البشر سيكون أفراد أرقى إيمانيًّا من الملائكة والجنّ...

ننتبه، حيث إنَّ سبحانه يعلم سبب رفض إبليس للسجود، ولكنه سبحانه لديه طريقة الحلم والشفافية بالتعاطي مع الأمور، حيث ليس لديه ولا أي سبب ليستعجل، ولا ليحاكم من دون محاكمة، ويريدنا تعالى أن نعرف نحن والملائكة(ع) سبب تصرف إبليس من لسان إبليس، لأنه يريد سبحانه استنطاق إبليس بالذي أخفاه في نفسه، ويريد سبحانه أن يبيّن لإبليس العطل والسوء الساكن في قلبه، لأنَّ إبليس كان يظهر منه أنه مؤمن جدًّا، ويتصرف وكأنه راغب وبأي طريقة أن يتقرب إلى الله تعالى، ولكنه في الحقيقة لم يكن مخلصًا في هذه النية. وحالته مثل حالة الناس الذين تحدّثت عنهم الآية 179 من سورة آل عمران {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ...}، وما جرى مع إبليس أظهر خبثه الكامن...

ماذا كان جواب إبليس؟ {قَالَ} إبليس: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ}، فأنا أفضل من آدم(ع)، وأنا أستحق أن يسجد لي آدم(ع)، والسبب أنك {خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ}، ركّبتني وألّفتني من نار، {وَخَلَقْتَهُ} لآدم(ع)، {مِنْ طِينٍ}، من تراب معجون بالماء. لذلك الأمر لي بالسجود لآدم(ع) غير منطقي وغير صحيح... لأنَّ قيمة آدم أقل من قيمتي بالنظر إلى المادة التي نتكوّن منها.

كما نلاحظ، لَمْ يتراجع إبليس أمام ربنا سبحانه وتعالى، بل أصرّ على أنه أفضل من المخلوق البشري المصنوع من الطين، ولم يقتنع بأنه ارتكب أي خطأ! وجوابه لم يكن مثل السؤال، حيث إنَّ سبحانه يعلم أن إبليس مخلوق من نار، لأنه سبحانه هو الذي خلقه، ويعلم سبحانه أن آدم(ع) مخلوق من طين. وكان السؤال: أنت تعتبر نفسك مطيعًا لي، وتعيش مع الملائكة(ع) الذين يطيعونني مهما أمرتهم، وأنا ربك أمرتُكَ بالسجود وكان يجب أن تطيع، فما الذي منعك من إطاعتي؟

نلاحظ أنه سبحانه لم يناقش إبليس، ولم يدخل في موضوع أيهما أفضل: النار أم الطين. لأن الأهمية عنده سبحانه للطاعة وليس لنوع المادة. حيث إنَّ إبليس هو من رأسه اخترع أن المخلوق من نار أفضل من المخلوق من طين، ونلاحظ أننا نحن نفعل ذلك، ونخترع أشياء وصفات ونقول: العربي أفضل من الأجنبي. والأجنبي يقول العكس، والأبيض يقول إنه أفضل من الأسود... ونتذكر القول المنسوب لرسول الله محمد(ع): لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. هذا وأمثاله من أسباب التكبر والتعالي بالعائلة والعشيرة والبلد... وكلّنا مثل بعض بلا أي فرق! وقارنها مع تكبّر وتعالي إبليس علينا بالمادة التي انخلقنا منها، وسترى أن تكبّره غير منطقي ولا عقلاني، لأنَّ المعيار لقيمة الكائن ليس بمادته ولا بشكله ولا لونه ولا انتمائه... بل بمدى صدقه وصلاحه وهو نفسه مدى قربه منه تعالى.

تلاحظ أن الملائكة وهي كائنات بقدرات خارقة جدًّا أعلى بكثير من أقوى الجنّ، ومن أسباب ذلك طبيعة تكوينها المختلفة عن تكوين الجنّ وتكويننا، ورغم ذلك أطاعته تعالى وسجدت.

تذكَّرْ دائمًا أن التعبير القرآني "طين" يشير للمواد التي في بيئتنا، التراب والماء بما يحويانه من العناصر التي هي المادّة في عالمنا، من كربون وكالسيوم وحديد وهيدروجين ونحاس... وتصوَّرْ بيتًا كلّه من خشب، وفيه أثاث من خشب، سواء لوّنت البيت والأثاث أو تركته على لون الخشب، فحين تدخل البيت سترى ما حولك خشب بخشب... هكذا ترانا الملائكة(ع) وهكذا يرانا الجنّ، ونحن بالنسبة لهم لا نختلف في تكويننا عن الحائط والأرض والكرسي... حيث إنَّ كلَّنا من طين، من المواد التي في بيئتنا، وبالنسبة للتعبير عن خلقة الجنّ من نار، فكما نفهم تعبير خلقتنا من طين أنه يشير لنوع المادة التي في عالمنا فالنار هي نوع المادّة التي في عالم الجنّ، وأمّا تفاصيل تراكيبها المشابهة لتراكيب ذرات مادتنا فغير معلومة لنا.

بقي شيء، حيثُ من عموم القرآن نفهم أنه لا يستطيع أي مخلوق التواصل معه تعالى بشكل مباشر، ولَا نقدر على ذلك بسبب الفرق الهائل جدًّا جدًّا بيننا وبينه تعالى، وهنا وفي أي آيات تجد فيها أنه تعالى يقول شيئًا لأيٍّ كان، فهي تعني أنه تعالى يتكلّم وحيًا أو من وراء حجاب، ويخلق سبحانه الصوت في شيء ما...

هناك شيء آخر، حيث إنَّ هذه المحاورة لم تحصل باللغة العربية، ولا ندري بأي طريقة حصلت، ولذلك لا يمكننا تعميم طرق التواصل التي نعرفها على بقية الكائنات "بالكلام بالإشارات بالتخاطر بالذبذبات..." وربما هناك طرق تواصل لا تخطر ببالنا ولا يمكننا فهمها. على كل حال نتذكّر دائمًا أن ما نقله القرآن من كلام لأي محاورة، فهو نقل بالمعنى وليس نقلًا حرفيًّا، ودائمًا يركّز القرآن على ما قصده القائل في كلامه، ولَا ينقل لنا الترجمة الحرفية إلى اللغة العربية، بل ينقل لنا ما كان يقصده القائل، ولذلك ترى في القرآن نفس المحاورة منقولة بعبارات مختلفة في مختلف السور، وكل عبارة كان فيها تركيز مختلف على جانب مختلف قصده المتكلم بكلامه...

(قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ{13})
{قَالَ} سبحانه لإبليس: {فَاهْبِطْ مِنْهَا}، انْزِلْ يا إبليس من مجلس الملائكة(ع)، وتفهم من هذه الجملة وأشباهها أنه تعالى يقصد أن هذه السماء العالية مخصَّصَةٌ للذين لا يعصون أوامره سبحانه.

كما يستطيع بعض الناس "الأنبياء" الوصول إلى مكانة عالية بسبب طاعتهم لله سبحانه، فإنَّ إبليس وصل إلى مكانة عالية، ولكنه هنا في هذه الحادثة فَقَدَ إبليس الميزة التي تُخَوِّلُهُ البقاء في سماء الملائكة، لأنها فقط للذين لا يعصون أوامره سبحانه كما سترى من تكملة الجملة.

يُكْمِلُ سبحانه: {فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا}، حيث لا يتماشى أن ترى نفسك أكبر من الآخرين وأكبر من أوامري مع كونك في هذا المكان، {فَاخْرُجْ}، غادر يا إبليس من هذا المكان الذي تجتمع فيه الملائكة(ع)، لأنك لست بذي قدر عَالٍ بل بالعكس: {إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ}، "صاغر اسم فَاعِلٍ من صغر فهو صغير"، حيث إنك ترى نفسك كبيرًا ولكنك صغيرٌ، فأنت بلا قدر وبلا قيمة.

رأيتَ نفسك كبيرًا على آدم، وكبيرًا على إطاعة كلامي، وكبيرًا لتدخل إلى سماء مخصصة لذوي المقام العالي، فاخرج منها ملعونًا مطرودًا مرجومًا لأنك صغير جدًّا جدًّا ولا قيمة لك، وسترى ذلك فيما سيأتي من كلام.

(قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{14})
{قَالَ} إبليس: {أَنْظِرْنِي}، أمهلني فلا تُمتني واتركني حَيًّا، {إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}، إلى الزمن الذي ستبعث حيث ستُقِيمُ فيه آدم(ع) وذريته من الموت إلى الحياة مرة ثانية، أي اتركني حَيًّا حتى يوم القيامة.

سنعرف بعد قليل أن إبليس طلب منه سبحانه البقاء حَيًّا حتى وفاة آخر إنسان ليغويهم أجمعين.

(قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ{15})
{قَالَ}، سبحانه: {إِنَّكَ}، يا إبليس، {مِنَ الْمُنْظَرِينَ}، من الذين يعيشون في فترة الانتظار، ولن تموت الآن.

لكن لن تبقى حَيًّا حتى يوم القيامة كما طلبت، حيث في سورة صاد الآية 81، وسورة الحجر الآية 38، علمنا أن إبليس لن يبقى حَيًّا إلى يوم القيامة، ولن يخبره سبحانه متى سيموت بل سيتركه تعالى على قيد الحياة إلى "يوم الوقت المعلوم"، كما ورد في الآيتين، حيث سيتركه تعالى حَيًّا لوقت محدَّدٍ لا يعلمه إلا الله سبحانه.

يَبْدُو أنه سيبقى حَيًّا إلى الوقت الذي تنتهي فيه حياة البشرية، وحين تبدأ الدنيا بسماواتها وأراضيها بالتبدّل فإنَّ إبليس حتمًا سيموت أو يكون مَيْتًا ولن يبقى حَيًّا بعد فناء الدنيا وتبدلها لتأتي الآخرة، لأننا نفترض أن كل الكائنات المرتبطة ببيئة السماوات والأرض لن تستطيع الصمود حَيَّةً أثناء حصول التبدّل، وسيعيد تعالى إحياء إبليس في زمن قيامتنا من الموت ليتحاسب الجميع...

(قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ{16})
{قَالَ}، إبليس: {فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي}، أي بسبب هذه المسألة التي جعلتني أَتَكَبَّرُ وأعصي أمرك، ومِنْ تعريضي لما جعلني أعتقدُ بشيءٍ فاسد أنه صحيح، فأنا أعلم بوجوب طاعتك ولكني لم أستطعْ... {لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ}، حيث سوف أكون حاضرًا جاهزًا للناس على، {صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ}، أي الطريق الإيماني الأساسي المنسوب لك والذي هو على الأحسن ولا اعوجاج فيه، حيث سأكون هناك، ولن أتركهم يمشون عليه.

كما ترى إنَّ إبليس يريد أن يبرهن لله سبحانه أن آدم(ع) وبني البشر لا يستحقون المرتبة التي منحهم الله سبحانه إياها، وأنه هو أفضل منهم، ويريد الانتقام من آدم(ع) ومن ذريته لأنهم هم السبب في إفساد حلمه في أن يكون أفضل مخلوق عنده سبحانه، ويريد البقاء حَيًّا إلى آخر حياة البشر حتى يمرّ كل البشر عليه ويغويهم كُلَّهُمْ ويثبت لله تعالى أنه أفضل من البشر.

تلاحظ أيضا أن إبليس استخدم هذه الحجة "أغوتني" ليلقي باللائمة على الله بدلاً من الاعتراف بخطئه كما فعل آدم (ع) حين اعترف بخطأ الأكل من الشجرة.

(ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ{17})

وقال إبليس: {ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ}، حيث سوف آتي الناس، وتعلم من عموم القرآن ومن تكملة الجملة أنه سيأتي لهم ليوسوس لهم بكل الطرق ولن يتركهم، {مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ}، من أمامهم من حيث يرون أني أوسوس لهم بشكل صريح لمخالفة أوامرك الصريحة، {وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ}، أي من كل الجهات، ومِنْ كل جهة وطريق وفكرة... يعرفونها أو لا يعرفونها أو سيتعرفون عليها... حيث سوف أكون هناك ليتركوا صراطك المستقيم.

{وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}، حيث بعدها لن تجد الناس يعبّرون لك عن جميل ما فعلت لهم، بل سَيَنْسَوْنَكَ أو سيشكرونَ غيرك.

إلى هنا عرفنا أن إبليس يريد البرهنة لله سبحانه أنه لم يسجد للبشر لأنهم ليسوا أفضل منه، وأنهم سيكفرون بربهم سبحانه، ولن يشكروه تعالى على النعم التي أعطاهم سبحانه إياها، ورأيتَ منذ قليل في الآية 10 مشكلة إنكار أكثرنا لفضله تعالى علينا...

هنا سنتحدث عن شيء، لو لم يوسوس إبليس للناس فهل سيكونون كلهم في حالة إيمانية مستقيمة؟ أم هل بعد موت إبليس سوف يرتاح الناس من وسوسته ويصيرون مؤمنين؟

هذا الكلام معناه أن إبليس هو السبب الوحيد للوسوسة واللّعب بأفكار الناس، وهذا غير صحيح، لأنَّ نفس إبليس من وسوس له؟ وكما أنَّهُ عنده رغبات وشهوات سبّبت له أن يغار من البشر ويتكبّر على أمر ربه سبحانه، كذلك نحن البشر لدينا شهوات ورغبات وأحاسيس تدفعنا لارتكاب السوء حتى لو لم يوسوس لنا إبليس.

نذكر هنا أن العمل السيئ الذي يقوم به إبليس هو شيطنة، حيث إنَّ كل مخلوق يشجّع مخلوقًا آخر على فعل السوء فهو شيطان، وتعلم صراحة من القرآن أن الناس فيهم شياطينَ، كمثال عن ذلك ما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ...}، وهكذا ترى أن إبليس ليس الشيطان الوحيد ولكنه الشيطان الأعنف والمصرّ على إكمال مهامّ الشيطنة.

يتميز إبليس بأنه شيطان لديه قدرات على الوسوسة في أفكارنا من دون أن نراه، وفي المقابل تقوم الملائكة(ع) بعرض أفكار مضادة لوسوسة إبليس في أفكارنا، وبحسب ما تميل رغبتنا ومحبتنا للأمور سوف نأخذ القرار، إمّا أنْ نَسْمَعَ لصوت السوء والشرّ في عقولنا، أو نتبع صوت الحقّ والخير.

بعبارة أوضح، نحن كل واحد منّا لوحده يمكن أن يصير شيطانًا لنفسه وللآخرين، يوسوس لنفسه أو يوسوس لغيره، حتى لو مات إبليس، حيث إنَّنا نحن البشر يوجد بيننا شياطين، توسوس لنا، بل أحيانا لدى شياطين البشر سلطة وقدرة علينا أعلى من إبليس، مثل الرفاق والأصدقاء العاطلين السيئين، الذين يقدّمون لغيرهم المخدرات والمسكرات والطعام والمال الحرام... ويجعلون غيرهم يشتركُ في الغيبة... ويقاطعونه ولا يتحدثون مع من لا يشترك معهم في الغيبة والكذب والغش و... بينما إبليس تعامله محدودٌ معنا فقط بالوسوسة لنا.

في آيات أخرى من القرآن نجد إبليس يقول إنَّهُ سيضلل كل البشر إلا المخلصين والشاكرين، كمثال عن ذلك ما ورد في الآية 40 من سورة الحجر {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}، وهنا يقول إنَّهُ سيضلل كل البشر، لأنَّ هذا هو الأساس، لأنه سيحاول مع الجميع بدون استثناء، ولكن هناك عددٌ قليلٌ من البشر المخلصين جدًّا لله تعالى، ولن يستطيع إبليس أصلًا إضلالهم، ولذلك نجده في مكان آخر يقول إنَّ المخلصين سينجون من أفعاله، وعليك بدمج هذا مع ما سبق وذكرته سورة البقرة عن عرض الأسماء على الملائكة(ع)، وهي أسماء المؤمنين من الدرجة العالية من ذريّة آدم(ع)، ومن هناك ترى أن الأمر بالسجود حصل بعد عرض الأسماء... مما يشير إلى معرفة إبليس بوجود نوعية مميزة جدًّا من ذرية آدم(ع)، ويبدو له واضحًا أنه لن يستطيع إغواءهم...

على كلّ حال الكلام هنا في السورة يتمحور عن الولاية له تعالى، حيث عَرَضَتْ علينا إبليس ورفضه الولاية الإلهية... وعمله الدؤوب على جعلنا منحرفين مبتعدين عن ولايته تعالى.

بقي شيء، حيثُ مِنْ الكثير من الآيات نفهم أن من اتبع نفسه الأمارة بالسوء، فإنَّ هذا يصطاده إبليس بأهون مصيدة، وبعد تمرّس أي إنسان على السوء فإنه يصير منقادًا بالكامل لإبليس، حيث إنَّ أي وسوسة من إبليس ستذهب مباشرة إلى التنفيذ مع هذه النوعية من الناس، أمّا من كان مؤمنًا صافيًا مطيعًا لله تعالى فهذا لن يجد إبليس إليه ولا أي طريق

لإضلاله، وما بين الذين استحوذ عليهم الشيطان وبين المؤمنين من الدرجة العالية، تأتي تدرجات من سيطرة إبليس علينا في بعض الأمور، وفلتاننا من سيطرته في أمور أخرى، حيث ترانا نحبّ سوءًا ما ونفعله، وفي نفس الوقت ترانا نكره سوءًا ما وننفر منه ولا نفعله...

(قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ{18})
قال، الله سبحانه وتعالى: اخرج منها، لا تَبْقَ متواجدا في هذه السماء يا إبليس، أخرج منها، مذؤوما، قيل عنك كلام يوصّف سوءك، ومدحورا، منقولا منها بالإهانة. قارنها مع: إذا سمحت أخرج من هنا. بينما ستقوم الملائكة بطرد إبليس عبر رجمه... وسبب الطرد بمهانة وإذلال لإبليس بسبب حديثه بهذه الطريقة مع الله سبحانه بوقاحة حيث يريد جعل الناس يعصونه سبحانه... يقول ربنا له: لمن تبعك منهم، للذين يتبعون أفكارك ووسوستك من البشر، لن أتركّكم بل، لأملأن جهنم منكم أجمعين، فسوف أضعكم كلكم من دون استثناء في مكان موصوف بسوء كلّ ما فيه. لاحظ وانتبه لما يحصل مع الذين يخالفون أوامره تعالى، فهم مذمومون محقرون، فهذه نهاية من ترك ولايته تعالى.

(وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ{19})
الآن تنتقل الآيات بنا إلى أوّل امتحان حصل مع أول إنسان مكلّف بالولاية له تعالى.
بعد طرد إبليس من سماء الملائكة(ع)، أوحى سبحانه إلى آدم(ع) وقال له: يا آدم، اسكن أنت وزوجك الجنة، ابْقَ أنت وزوجتك قرينتك الأنثى في المكان الذي يوصف بروعة ما فيه، ففيه طبيعة خلابة من أشجار ومروج ومياه... فكلا من حيث شئتما، من أي مكان ومن أي ثمر، ولا تقربا، فلا تقتربا للأكل، من ثمار أو ورق، هذه الشجرة، فهي شجرة وحيدة واحدة من نوعها في الجنّة أو الإشارة بالمنع لهذا النوع من الشجر فقط، على أي حال فلا تأكلا منها نهائيا، وإذا أكلتما منها، فتكونا من الظالمين، فبما أنكما في جنّة يتوافر فيها كل ما تحتاجونه فلن يكون معكم حقّ بالأكل من الشجرة التي نهيتكم عنها، ففرضا لنقل أنكما جعتم ولم تجدوا طعاما إلا من هذه الشجرة فسيكون معكم حقّ أن تأكلوا منها، أو مرضتم وفيها شفاؤكم... أمّا غير ذلك فمن الظلم أن تأكلا منها، فلن يكون معكم حقّ لأن الطعام متوافر من غير هذه الشجرة.

وبالنسبة لنوع الشجرة فسترى من الآية 22 أنها من النوع الذي يسبّب فقدان العقل الواعي، كنوع من المخدرات، وليست شجرة المعرفة أو التفّاح... كما يقول الناس.

وننتبه بأن تواصله تعالى مع آدم(ع) ليس مباشرة، فالآية 51 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}، تصرح بأنه تعالى لا يكلّم بشرا إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا، ففي الآيات التي تتحدث عن آدم(ع) قد نشعر بأن الكلام مباشر بينه تعالى وآدم(ع) ولكن هذا غير صحيح، ونفس الشيء بالنسبة لكلام إبليس معه تعالى فهو وحيا أو من وراء حجاب... وليس مباشرة فهذا مستحيل.

ونلاحظ القرآن لم يذكر اسم زوجة آدم(ع)، ولكن في التوراة والمشهور بين أهل الإسلام أن اسمها "حواء".

ونلاحظ القرآن حين عدّد الأنبياء لم يصف آدم(ع) بالنبوّة، وصحيح أن آخرين معلوم أنهم أنبياء ولكن لم يرد وصف قرآني صريح مباشر لهم بالنبوة، كحالة النبي نوح(ع)، ولكن سياق الكلام القرآني عن أولئك المشهورين بالنبوة يختلف عن سياق الكلام مع آدم(ع)، ففي كلام القرآن عنه لا تشعر بنفس الشيء عند كلامه عن نوح(ع)، ولذلك اكتفينا في دراستنا هذه بالسلام عليه دون ذكر وصف النبوة له، فالنبوّة التي نقصدها هي المصطلح لمن توظّف منه تعالى بنقل الأنباء التي تصله منه تعالى للناس.

وبالنسبة لكلمة "زوجك" فحاليا من الدارج قولنا "زوجتك" على أساس أنها تشير للمؤنّث، وقد استعملها العرب قديما على كلا النحوين للأنثى "زوج وزوجة"، والقرآن لم يستعمل إلا الزوج، واكتفي بسابق معرفتنا أنها زوج أنثى، ولم يذكر تاء تأنيث الكلمة بتحويلها من مربوطة إلى ممدودة "زوجة، زوج ت ك".

وننتبه جيدا فهذه الجنة لا علاقة لها بجنة الآخرة أبدا، لا من قريب ولا من بعيد، فجنة الآخرة تتكون بعد انتهاء الدنيا وتبدّلها أي في الآخرة، وذلك بعدما تتبدل الأرض وتتبدل السماوات فهي ليست موجودة الآن. وكما ورد في سورة طه

في الآيتان 118 و 119 فإن تلك الجنة التي كان فيها آدم(ع) ليس فيها شيء مميز من قصور وترفيه... ففيها فقط الطعام مؤمن، والملبس، والماء وظل الشجر، فهي مثل أي بقعة فيها شجر وزرع وماء هنا على الأرض.

فهذه الجنة التي سكن فيها آدم(ع) كانت هنا على الأرض، فكلمة جنة معناها المكان الموصوف بالروعة وبالنسبة لنا فهو المكان الذي فيه زرع وبساتين وشجر وماء، وهناك خطأ شائع بحصر كلمة جنّة لجنّة الآخرة واستبعادها من استعمالنا الدارج لوصف شيء في الدنيا، علما أننا نستعمل كلمة "جنينة" وهي تصغير لكلمة جنّة، والقرآن استعمل كلمة جنّة عدّة مرات لوصف أماكن على الأرض كما استعملها لجنة الآخرة، وواحد من الأمثلة العديدة على ذلك ما ورد في الآية 39 من سورة الكهف {وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا}.

بقي شيء، فبالنسبة لزوجة آدم(ع) ستجد في ثقافتنا أنها مخلوقة مما بقي من طينة آدم(ع) أو من ضلعه، وهذا الكلام منقول من تراث أهل الكتاب، الذين لم يجدوا في الوحي الإلهي شيء صريح عن خلقها، فملؤوا الفراغ مما استنسبوه من فهمهم لخلق آدم(ع) كتمثال من طين وقد نفخ فيه تعالى الروح فصار فورا من لحم ودم وفيه حياة... ويبدو أنه وصلهم تعبير مشابه لما ورد هنا في القرآن عن خلقنا من نفس واحدة وخلق زوجها منها كما ورد في الآية 1 من سورة النساء، وهكذا لسبب أو لآخر تصوّروا الأمور ووصلوا إلى خلق زوجته من ضلعه...

وما تصوّروه يمكن استخراجه من القرآن إذا تركت الأمور على سطحيتها مع تفسيرها بالمعلومات المسبقة التي لديك عن ولادة البشرية من بداية صنع تمثال طيني ونفخ الروح فيه وخلق زوجته من ضلعه... ولكنك بذلك لن تتمكّن من تفسير وجود بقيّة الحيوانات، ولا النباتات، ولا البكتيريا... وستتوه بالاحتمالات المطروحة لزوجات أبناء آدم(ع)، فهل تزوّجوا من أخواتهم أو من الجنّ أو من حوريات أو خلق تعالى لهم زوجات من طين فورا... ولن تفهم معنى علم الملائكة(ع) ببشر يسفكون الدماء أثناء استفهامهم عن جعل آدم(ع) خليفة كما ورد في الآية 30 من سورة البقرة... وصولا إلى الآيات التي تقول بأننا مثل النبات بلا فرق قد أنبتنا تعالى من الأرض كم ورد في الآية 17 من سورة نوح {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}... والآيات التي تقول بأننا سلالة من طين كما ورد في الآية 12 من سورة المؤمنون {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ}... وقد سبق منذ قليل وتحدثنا عن نظرة إبليس لنا بأننا وكل ما حولنا على الأرض متشابهون في نظره، فكلّنا من طين، من المادة التي تعارفنا عليها في الجدول الدوري للعناصر من هيدروجين وهليوم وحديد ونحاس وكربون... ويبدو واضحا أن تعابير القرآن عن خلق آدم(ع) من طين لم تشر لتمثال من طين ولا مرة ولا بأي طريقة، وأشارت لنفخ الروح فيه، وقد فهمنا في دراستنا هذه أن الروح هو وصف لأي شيء صاف لا شوائب فيه، ومن تبعات وجودها في آدم(ع) أنه صار حيا بالصفات الإنسانية، ونربط الروح عادة بوجود الحياة في الكائن، ولكن بقية الآيات العديدة التي تحدّثت عن تشكّلنا لنصير إنسانا لم تذكر الروح! مما يشير بقوّة أن الروح ربما ترتبط بالحياة ولكنها ليست سببها، فالنباتات ليس فيها روح "كما يقولون" ورغم ذلك قد وصفها القرآن مرارا بالحياة.

إذا، من الواضح أنه كان يوجد بشر مزامنون لآدم(ع)، وهو متولّد منهم، وراجع في ذلك دراسة الآية 30 من سورة البقرة، وزوجته منهم، وآدم(ع) أوّل بشري تأهّل ليتكلّف بالأوامر الإلهية.

أمّا متى كان هذا؟ ففي أي زمن عاش آدم(ع)، فهذا غير معلوم، والتخمينات عند المنتمين لدينه تعالى اعتمدت على ما كتبوه في التوراة من تسلسل الأنبياء من آدم فشيث...اخنوخ....نوح فسام وحام... ابراهيم فاسماعيل واسحاق... وهذا النسب على ذمّة من كتبه فمصدره ليس إلهي، وما يقوله المسلمون فهو منقول من التوراة بلا إشارة إلى مصدره من هناك، فقد نقله اليعقوبي في كتابه التاريخي وتبعه البقية بدون التحقّق من المصدر... وبناء على الأعمار التي قيلت للمذكورين في سلسلة النسب هذه فتقدير تاريخ آدم(ع) يكون بين خمسة وعشرة آلاف سنة قبل الميلاد، علما أن كلامهم عن أعمار أولئك الأشخاص لا يتماشى مع أي دليل أو شاهد، وليس عليه دليل إلا ما كتبوه، فقد جعلوا الأعمار القديمة طويلة بمئات السنين وصارت تقصر... حتى وصلت لما يقارب المئة عام.

هذا هو المصدر الوحيد "دينيا" لمعرفة تاريخ آدم(ع)، وفي القرآن يمكن تلمّس إشارات قد تكون مفيدة، فزمن آدم(ع) فيه ثياب، وفيه طقوس تقديم قرابين من حيوانات أليفة أو نتاج زراعي، وفيه دفن حيث دفن قابيل هابيل، وفيه لغة معبّرة عن مفاهيم كما ترى من حوار الأخوين أولاد آدم(ع)... وهذه الإشارات القرآنية أمتن مما ذكروه من سلسلة ذرية آدم في التوراة.

لدينا قبور منسوبة لأولاد آدم(ع)، فهل هذه القبور فعلا لهم ويمكن الاستفادة من آثار ما فيها لتحديد بعدهم الزمني عنّا؟

خلاصة الكلام، فلحدّ الآن ليس لدينا تحديد لتاريخ بعد آدم عنّا إلا افتراضات تخمينية غير حاسمة، فإذا بحثت في هذا الموضوع فافتح كل الاحتمالات حتى تجد دليلا قويا ملموسا، ولا تعتمد على ما قيل، فهو سيقيّدك إلى ما قبل قرابة العشرة آلاف سنة قبل الميلاد، فربما هو أبعد من ذلك بآلاف أخرى من السنين...

ها قد أطلت عليك، ولكن ما نسمعه من تحليلات لا يمكن التغاضي عنه، فيقولون أنه تعالى أغوى آدم(ع) وزوجته على معنى تقصّد جعلهما يسقطان في الامتحان، وكأن منعهما عن الأكل من الشجرة شيء لا يمكنهما مقاومته، وهذا غير صحيح، فهذا ممنوع واحد، ولم يستطيعا الصمود أمامه، فلا تنسى أن بقية البشرية كانت مؤهلاتها أقل مما هو مطلوب لتكليفهم بأوامره تعالى...

نعد للآية، فقد أخبرتنا عن أول امتحان وتكليف يصدر لآدم(ع) وزوجته، وهو: أن لا تأكلا من هذه الشجرة. وليس هذا منع عن شيء فيه منفعة لهما، بل منع عمّا سيسبب لهما فعل السوء، فهذا محور كلام السورة. وبعد أول تكليف يصدر منه سبحانه لآدم(ع)... تدخّل إبليس مباشرة:

(فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ{20})

{فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ}، فأوصل إلى بالهما كلاماً يدفعهما للقيام بما يخالف أمره سبحانه.

كلمة الوسوسة تستعمل لوصف حالة دخول الأفكار السيئة على الفكر والبال، وفي استعمالنا لها تشمل وصول المعلومات من أي مصدر كان يدلّك على فعل الشيء السيئ ولا يجبرك عليه بالقوة، سواء وصلت الفكرة بالكلام من الفم للأذن، من إنسان لآخر، أو وصلت مباشرة إلى الوعي، من شيطان جنّي لإنسان، أو تكوّنت في الوعي، كما توسوس لنا أنفسنا.

هنا إبليس صار يوصف بالشيطان، وهذه الكلمة استعملها القرآن الكريم لوصف إبليس وأعوانه وبعض الناس الذين يضللون غيرهم من الناس ليبتعدوا عن طريق الإيمان، ويزيّنون لهم فعل السوء، والشيطنة عمليا مرادفة لمن يوصف بالقيام بعمل مضاد لعمل الأنبياء.

وسوس إبليس لآدم(ع) وزوجته، {لِيُبْدِيَ لَهُمَا}، ليُظهر ويكشف لآدم(ع) ولزوجه، {مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا}، مما يسوءهما إظهاره أمام الآخرين وجرى توريته وجرى إبعاده عن نظر الآخرين بالثياب، سواء عوراتُهما من الأعضاء التناسلية أو من مفاتن الجسد... ففي جسديهما يوجد سوآت، حيث يسوءهما إظهار أجزاء من جسدهما، ولا يحبان وينزعجان من كشف بعض أجزاء جسدهما، كالأعضاء التناسلية والقفا... وكانت هذه الأجزاء متوارية من جسدهما عن الآخرين بالثياب.

إبليس كان يعلم أنهما إذا أكلا من الشجرة فسوف يتغير حالهما، وسيفقدان السيطرة على عقليهما... وسنرى في الآيات الآتية أنهما سوف ينزعان عنهما ثيابهما ويصيران عاريَيْنِ في مكان مكشوف... أمّا آدم(ع) وزوجته فلم يكونا يعرفان ما سيسبّب لهما الأكل من تلك الشجرة.

وقال إبليس لآدم(ع) وزوجه: {مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ}، أتريدان أن تعرفا لماذا بشكل نهائي حاسم منعكما المسؤول عنكما من مستوى إلهي سبحانه عن الاقتراب من هذه الشجرة، لم ينهاكما، {إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ}، فإذا أكلتما منها فستصيران ملكا وملكة لهذه الجنة، وعندها تصير هذه الجنة لكما. ورد في الآية 120 من سورة طه التعبير بـ ... {وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ}. مما يؤكّد أن المقصود من كلام إبليس من احتمال صيرانهما "ملكين" أن يملكا الجنّة، لا أن يصيرا من الملائكة.

أو إذا أكلتما منها، {تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ}، تصيران خالدين ولا تموتان، وتعيشان إلى الأبد في هذه الجنة.

هاتان الفكرتان كانتا مغريتين لآدم(ع) ولزوجه، فإمّا أن تصير الجنّة ملكاً لهما لكل باقي حياتهما، وإمّا أن يصيرا خالدين فيعيشان في هذه الجنة إلى الأبد، وهذه الفكرة مغرية لنا أيضا، فكم منّا يحبّ الخلود في الدنيا؟ وكم منّا يحب أن يملك في الدنيا ملكاً لا يزول حتى آخر عمره؟

هكذا ترى ما تريد السورة قوله عن الفرق بين اتباع ما يصلنا منه تعالى لأن فيه مصلحتنا، وبين مخالفة أوامره تعالى التي تنبع من اعتقادنا بفوات ما فيه خير لنا...

هنا سؤال يخطر بالبال: لماذا لم يضع سبحانه آدم(ع) وزوجه في مكان ليس فيه شيء ممنوع؟ ولماذا وضعهما سبحانه في مكان فيه شجرة وممنوع أن يأكلا منها؟ والجواب أنه في الأساس هما خلقا ليكونا في مكان فيه تكاليف فيه حلال وحرام وواجب، فهما ليسا في جنة الآخرة حتى يفعلا ما يشاءان، بل هما يعيشان حياتهما العادية كما نعيشها نحن الآن، وإذا أحسنا العمل فيها وأطاعا ربهما سبحانه فعندها يستحقان جنة الخلود التي في الآخرة حيث لا شيء ممنوع.

نحن الآن تكاليفنا تتضمّن لائحة طويلة من الحلال والحرام والواجب، وفيها العديد من الأشياء التي يحرم علينا أكلها... وآدم(ع) وزوجته توجّه إليهما سبحانه بتكليف ترك الأكل من شجرة واحدة وباقي كلّ شيء مسموح، ولكن انتبه، فهناك أيضا أمور أُخَرَ كانا ممنوعَيْنِ منها، وكمثال على ذلك كان ممنوعاً عليهما كشف عورتهما "أمام الآخرين".

هذا الكلام يأخذك على أمور كثيرة أساسية يعتبرها تعالى معلومة ولا تحتاج ليقول لنا عن سوئها، فما تجده في هذا القرآن من تشريعات وسلوكيات سبحانه لم يطرحه على أساس أنه شيء لا نصل إليه نحن بفكرنا ونفسيتنا، بل عرضه تعالى علينا ليكون كلامه تعالى مقوّما لما انفسد من قابلية فينا على تمييز الخير من الشرّ بسبب اختيارنا لفعل السوء الذي نراه سوءاً، وبسبب ذلك تتشوّه قدرتنا على تمييز الخير من الشرّ.

مسألة نزع الثياب لتبدو السوءة، بالأساس لا تحتاج لتنبيه إلهي أنه حرام عليه عقاب، لأن هذا شيء معلوم بأقل درجة باقية من سلامة القلب، وإن ذكر تعالى هكذا أمور لنا فهي من باب إعادة تصحيح بصيرتنا، إذ من المفروض أن كل تشريعاته وأوامره السلوكية لنا تعالى معلومة لنا إن حافظنا على سلامة قلوبنا...

نرجع لمسألة الابتلاء بالأكل من الشجرة، ونفس السؤال يمكن طرحه الآن في حياتنا نحن، لماذا خلق سبحانه نباتاً يسبب الهلوسة وفقدان العقل كالكوكا والقنّب "الحشيش" وبعض أنواع الفطر والأفيون ... ومنعنا سبحانه عن تناولها!؟ فلو لم تكن هذه المخدرات موجودة لما ابتلينا بالمعصية، وكما ترى فالجواب متضمّن في السؤال لأنه تعالى وبكل صراحة ومرارا وتكرار قال لنا إنّه خلقنا بالصفات التي فينا من حرية إرادة وشهوة... وفي هذه البيئة المتاح لنا فيها فعل الخير أو الشرّ... ليبتلينا. والسؤال الذي نطرحه في أساسه وجوهره يعارض فكرة تعرّضنا للبلوى ويتضمن رفض البلوى بالمخدرات والممنوعات، وهذا يتعارض مع أساس تصميمه تعالى لنا... والناس عادة تطرح هذا السؤال من زاوية أخرى، فنقول: ما النفع من تلك المخدرات ولِمَ خلقها تعالى إن كانت محرّمة ومضرّة لنا؟ فانتبه أن هذا السؤال طفولي بالنسبة للكلام الإلهي عن خلقنا لابتلائنا وبعدها الآخرة والحساب على تصرفاتنا، لأن هذا هو الأساس، والسؤال عن منفعة خلق المخدرات مثل السؤال عن منفعة خلقنا بإرادة حرّة، فلا معنى له هكذا لوحده مقطوعا عن ربطه بحكمته تعالى في كل التخطيط لنا ولآخرتنا.

أي تفصيل صغير فينا أو في بيئتنا، إنما هو مرتبط بكل التصميم الكبير الذي نحن فيه، ولا يمكن الإجابة عن سؤال طفولي لتفصيل صغير، بحيث لا ننظر إلى الصورة الشاملة... على كلّ حال المخدرات ضرورية لحياتنا لأنها تستعمل لتخدير الآلام أثناء إجراء العمليات الجراحية، وتستعمل في حالات مستعصية من الخلل العصبي أو العقلي أو الهرموني "كالكآبة" التي تحتاج للمخدرات لمعالجتها، ولا ننسى بعض أنواع الآلام الناتجة عن الحوادث والأمراض والتي يتم استعمال مشتقات هذه النباتات وغيرها لتخفيف الآلام... وكما تدخل مشتقات المخدرات في تركيب الأدوية كناقل للدواء إلى مناطق لا تصل إليها إلّا مشتقات المخدرات، لأنها مركبات كيميائية لها قدرة الوصول إلى الدماغ...

(وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ{21})
إبليس لم يكتف بالقول بل {وَقَاسَمَهُمَا}، أكّد وأقسم لهما بالله تعالى، لآدم ولزوجته أقسم وقال: {إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ}، أنا أنصحكما نصيحة خير، وأنا لا أغشّكما بل أقول لكما شيئاً فيه مصلحتكما.

كما يبدو أنه لما عرض الفكرة على آدم(ع) وزوجه رفضا معصية أمره سبحانه، ولكنه حوَّر لهما فكرة المعصية إلى فكرة سوف تؤدي إلى نتيجة فيها مصلحة كبيرة لهما! وأقسم لهما بصحة ما يقول!

هنا ترى أن ما هو منتشر دارج بين الناس عن لوم زوجة آدم(ع) بأنها السبب في غواية زوجها ليأكل من الشجرة هو غير صحيح، فكلاهما معاً وقعا تحت تأثير إبليس.

ترى أن تَوَاصُلاً مُبَاشِراً أو شبه مباشر حصل بينهما وبين إبليس حيث كان يوسوس لهما بطريقة تتضمّن أن يقسم لهما بصحّة ما يقول، وهذا عادة لا يحصل معنا.

نتذكّر ما ورد في الآية 117 من سورة طه {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ}، فوصل للزوجين تحذير من إبليس، وها إبليس يتلاعب بالتحذير ليبدو أنه ناصح، فأقنعهما أن مسألة العداوة بينه وبينهما شيء، ومسألة المعلومات المخفية عنكما عن هذه الشجرة شيء آخر، والخيار لكما لتفعلا ما تريانه مُنَاسِباً...

(فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ{22})

{فَدَلَّاهُمَا}، وجعلهما يتدليان وينزلان ويبتعدان من طاعة أمره سبحانه إلى العصيان، {فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ}، بالتغرير بهما، بإقناعهما بشيء غير واقعي ليقتنعا بأنه حقيقي وواقعي، وخدعهما بتشويه الحقيقة لهما، وبتبديل الفكرة من المعصية إلى الطاعة، لأنهما اقتنعا بما قال وخاصة بعد أن أقسم لهما بالله سبحانه.

{فَلَمَّا ذَاقَا}، عندما أكلا من ثمار أو من ورق الشجرة، ولا نعلم ما هو نوع الشجرة بالضبط ولكن يبدو من الكلام أنها من أنواع الأشجار التي تسبب فقدان العقل والوعي، مثلما يسبب القات والكوكا والأفيون وبعض أنواع الفطر والنباتات... من حالة سكر.

على كل حال بعد أن وصلت أجزاء من الشجرة إلى حاسة التذوّق لديهما، وأكلا منها، {بَدَتْ}، ظهرت وبانت، {لَهُمَا}، أي لآدم(ع) ولزوجه، {سَوْآتُهُمَا}، ما يسوؤهما إظهاره، ما لا يحبان أن يبدو للآخرين، وهنا الكلام عن مخرج البول والغائط ومحيطهما من الشعر، أو أقلّ من ذلك فلنقل أنهما بقي عليهما ما يشبه ما نسمّيه بالثياب الداخلية... حيث نزعا عنهما ثيابهما كما هو واضح من الآية 27 من هذه السورة.

{وَطَفِقَا}، بَدَآ فورا، {يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ}، يجمعان أوراق الأشجار التي في الجنة سواء التي على الأرض أو التي يقصّانها... ويغطيان بها جسديهما، حيث إنّ ثيابهما كانت بعيدة عنهما حين استعادا وعييهما.

بعبارة أخرى استطاع إبليس إقناعهما بأن يأكلا من الشجرة، وعندما أكلا فقدا الفكر الواعي ونزعا ثيابهما، وظهرت سَوْآتُهُمَا... وتنقلا في الجنة وهما فَاقِدَانِ للفكر الواعي "كالسكران"... وبعد مدة من الوقت عاد إليهما وعيهما... واستَفَاقَا وَبَدَآ بتغطية جَسَدَيْهِمَا بورق الشجر.

سيأتيك كلام صريح في الآية 27 الآتية {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا}...، مِمَّا يؤكد أنهما كَانَا يرتديان الثياب وبسبب الأكل من الشجرة نزعاها، والاحتمال الذي نعرفه لهذه الحالة أنهما فقدا فكرهما الواعي مثلما يحدث مع السكران أو المتعاطي للمخدرات.

{وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا}، توجّه المسؤول عنهما من مستوى إلهي بكلامه: {أَلَمْ أَنْهَكُمَا}، ألم يصدر مني لكما أمر نهائي حاسم بلا رجعة، {عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ}؟ حيث سبق وصدر نهي عن الاقتراب منها للأكل منها.

{وَأَقُل لَّكُمَا} إنَّ الشيطان لكما عدو مبين؟ حيث قلت لكما بشكل واضح أنه لا يريد لكما أي شيء فيه مصلحتكما، ويكره حصول شيء فيه مصلحتكما، إذ حذّرتكما منه فكيف تصدّقونه حين أقسم لكما أنه يدلكما على ما فيه خيركما!

ننتبه جيدا، لَمْ يقبل سبحانه وتعالى التبرير لمخالفة أمره المباشر بسبب القسم الذي قاله إبليس لهما، وهذا ينطبق علينا كثيرا في الحالات التي نرتكب فيها السوء مبررين فعلتنا بأن فلان فعلها، أهلنا يفعلونها، عالم الدين فعلها... فلان قال لَنَا إنَّهَا ليست حراما... فأي سوء نعلم بسوئه بشكل واضح أو من كلام إلهي صريح... كترك الصلاة أو ترك الزكاة أو

الغش أو الكذب أو أذية الناس... فلا يمكن أبدا ولا بأي شكل تبرير فعلنا له، حتى لو أقسم لنا كلّ الناس أنه ليس حراماً وليس سوءاً.

سبحانه وتعالى ذكر لنا هذه القصة لا ليهين آدم(ع) وزوجه، لأنهما تعرضا لأول امتحان، وكان عقابها مُبَاشِراً، وهو تغيير المكان الذي يسكنان فيه إلى مكان يضطران فيه للبحث عن الطعام والشراب والأمان من الأخطار الطبيعية... إذ إن القرآن الكريم أراد أن يبين لنا أن إبليس "وعموم الشياطين" هو عدو حقيقي لنا، وأنه قد يصوّر لنا الأمور بعكس ما هي، وأنه قد يقسم لنا هو بنفسه أو أي شيطان آخر من الجنّ أو من الإنس... لذا يجب الانتباه للعداوة، للمعركة الحقيقية العنيفة التي أعلنها الشيطان على الدين الإلهي وأتباعه، لأن الحالة مثل حالة إنسان مسالم لا رغبة له في قتل الآخرين، والآخرون يتعدّون عليه ليؤذوه وهم يعلنون أنهم لن يتوقّفوا أبدا إلا حين يسببون له أقسى أنواع الأذية بالضرر أو القتل... فلا معنى للتعامل معهم بطيبة القلب والسذاجة، لأنهم عدو ويجب اعتبارهم كذلك دائما في جميع الأحوال والظروف.

بقي شيء، حيث يخطر ببالنا الكثير من الأسئلة منها: ما هو نوع الشجرة التي أكلا منها؟ وهذه المعلومة لم يعتبرها القرآن مهمّة ليخبرنا بها، وكما يبدو لك واضحا أنها من النوع الذي يسبب فقدان الفكر الواعي، يعني من نوع المخدرات.

يخطر ببالنا، لماذا لم يقل سبحانه لآدم(ع) ولزوجه ماذا سيحصل لهما إن أكلا من الشجرة؟ إذ ربما لو أخبرهما لسمعا أمره تعالى ولم يأكلا منها. ولكن هذا الافتراض لا معنى له، فهل سنجرّب كل ما منعنا عنه تعالى لنلمس سوء النتيجة؟ أم من المفروض بنا السمع والطاعة حتى لو لم نستطع فهم سوء ما نهانا تعالى عنه، لأن هنا الكلام عن وحي عبر الملائكة أو كلام من وراء حجاب إلهي مع آدم(ع)، ومن ناحية ثانية فإن لم تر مخموراً أو لم تحصل معك سابقا حالة السكر، فكيف ستفهم سوء ما يمكن أن ينتج عن السكر؟

هنا نقل سبحانه الحادثة بطريقة نتعلّم منها أنه علينا طاعته تعالى عندما يأمرنا، سواء علمنا السبب أم لم نعلمه، حيث قال سبحانه لهما إِنَّهُمَا سيظلمان أنفسهما، وهذا ما حدث فعلا. ويمكنك أن تقيس هذا الموضوع على ما يحصل معنا عندما لا نحسب حساباً لما بعد ما سنقوم به، إذ كلّنا نعلم يقينا بأن المخدرات والمسكرات تسبّب فقدان الفكر الواعي وأن المتعاطي لها سيقوم بأعمال غير واعية، ورغم ذلك يدّعي الكثيرون أن هذا لن يحصل معهم إذا تعاطوا الحشيش أو شربوا البيرة! ويتعامون عمّا هو فعلا حصل معهم من تصرفات غير لائقة عندما كانوا فاقدين للسيطرة على عقولهم!

لو أطلت عليك يا عزيزي ويا عزيزتي فَبَقِيَ ثلاثة أشياء، أولها: حيث أشرنا سابقا إلى أوّل تكليف إلهي تعرّض له آدم(ع) وزوجته، وهو منعهما من الأكل من الشجرة، وهذه الجملة تعني أن هذا هو التكليف الوحيد ولا تكليف غيره، وهذا غير صحيح، كما ترى من الآيات أنه من نتيجة الأكل من الشجرة حصل شيء آخر ممنوع، إذ نزعا عنهما لباسهما، مما يعني أنه قبل نهيهما عن الأكل من الشجرة كان لديهما تكليف بحرمة نزع ثيابهما في مكان عام "حيث يمكن للآخرين رؤيتهما"، وهذا الكلام يجرنا إلى البحث عن أوليات التكاليف التي يفترض سبحانه وتعالى أنها موجودة فينا مسبقاً، لأن الحياء من القيام ببعض الأمور متضمّن في تكويننا، وبداية كسر هذا الحياء يحتاج إلى جهد لمقاومة "فطرتنا"، وبعد فعله وتكراره لا نَعُودُ نراه مَعِيباً، كالتعرّي واللباس غير المحتشم...

الشيء الآخر هو افتراض وجود بشر آخرين في الجنّة كان من الممكن أن يروا آدم(ع) وزوجته عاريين "أو شبه عاريين"، فلا معنى لمحاسبتهما على التعرّي إن كانا لوحدهِمَا في تلك الجنّة، لأنهما زوجان يقربان بعضهما بالمعاشرة... وأنت تفهم الباقي... يعني كانا في مكان فيه بشر يمكنهما رؤية سَوْآتِهِمَا ولذلك ستراها بسرعة بما وقعت عليه أيديهما من أوراق الشجر، وإلا فلا معنى للخطأ بنزع الثياب إن كانا أَوَّلَ بَشَرَيْنِ، لأن الكائنات الأخرى "جنّ وإنس" أصلا لسنا مكلفين بالاستتار مِنْهَا، كما أنه لا قدرة لنا على الاستتار منهَا، ولا تعني لهَا عوراتنا أي شيء، ويمكنك مقاربتها مع رؤيتك لزهرة النبات التي يحصل فيها التلقيح والذي لا يعني أي شيء جنسي لك.

ثالثا، هناك الأمور المنتشرة في ثقافات المتدينين عن نوع تلك الشجرة، إذ إن كل تخميناتهم عن نوعها استبعدت ما هو صريح في كلام القرآن من تسبيبها لفقدان الفكر الواعي والذي نتج عنه التعرّي! وشطح بعضهم ليجعل الكلام تمثيلياً غير واقعي بتاتاً، ككلام من نسج الخيال عن تصوّر عام نموذجي لما يمكن أن يحصل مع عموم البشر! حيث قالوا إِنَّهُ

أصلا لا يوجد شخص محدّد اسمه آدم، بل هذا الاسم عام استعمله القرآن كنموذج عن أي إنسان...! وهذا الهراء المخالف لصريح القرآن نابع من التكذيب أصلا بأن القرآن كتاب إلهي صادق فيما يقوله، حيث إن الكثير من الناس لا يتعلمون من القرآن بل يفرضون على القرآن قناعاتهم، ويفسرون القرآن بما هم مقتنعون به!

آخرون قالوا إِنَّهَا شجرة المعرفة، وقبل ذلك كان آدم(ع) وزوجته يجهلان كل معاني الإنسانية ولم يكونا يعلمان بمعنى العورة والجنس... وغيرهم قال إنها شجرة الشهوة وقبل ذلك كان آدم(ع) وزوجته بلا غريزة... وغيرهم قال إِنَّهَا شجرة تسبب فوران الشهوة الجنسية... وبعضهم قال إِنَّهَا شجرة تفّاح! وغيرها الكثير من الافتراضات التي لم تنبع من فهم الآيات، بل نبعت من إسقاط أفكارهم على الآيات، وهذه الآيات أمامك صريحة في فقدان وعيهما بسبب الأكل من الشجرة ونزعهما لثيابهما، وفيما بعد استفاقا واستعادا وعيهما وسترا جسديهما بما حولهما من أوراق الشجر...

هذا الكلام تفرّدت به دراستنا هذه للقرآن، "بحسب اطلاعي"، وهو وغيره من الأمور التي انفردت بها دراستنا هذه سبّب لي قلقاً بالغاً، وتعاركت مع نفسي بسببه أياماً وأياماً، فهل أتجاوز تلك الأمور وأتغافل عنها وأكتفي بذكر معاني الكلمات فقط من دون طرح معاني الجمل؟ أم أعرضها كما هي مع صراحة مخالفتها لعامّة ما يقوله المتدينون؟ درستها مطولاً ومطولاً لأجد فيها خللاً، ولكني لم أجده، فلا يزال في بالي أني رُبَّمَا أكون على خطأ، وأكون بشكل ما واقعاً تحت تأثير ما تراكم عندي من ثقافة خاصّة بي وهوى... ولكني أعلم يقينا من نفسي أني لا غايات شخصية دنيوية لي من هذه الدراسة، ولا تهمّني الشهرة ولا المفاخرة ولا أي شكل من أشكال النزعات النفسية ذات الأهداف الدنيوية، ولست أقصد إقناعك بأني من الصالحين، فأنا لست كذلك، ولكن في خصوص هذه الدراسة القرآنية دَعْنِي أخبرك أنها لم تنطلق من فكرة تأليف تفسير للقرآن ونشره للناس، بل انطلقت من قراءة للقرآن الذي ورثت الإيمان به بأنه من الإله سبحانه، ويجب أن أفهمه، حيث استعصت عليّ الكثير من جمله ومراميه، واستعنت بالتفاسير، ولم تشف غليلي... وشوّشت أفكاري وكثّرت شكوكي وخفّضت إيماني... لذا قررت أن أدرس القرآن من الصفر، من بداية التأكّد أنه كتاب إلهي، نَاظِراً فيه بدراسة لا تعتمد على أي أسلوب أو مصدر أو خلفيات... ومن هنا بدأت الأمور تَبْدُو أوضح، حيث صار للكلمة معنى واحد، وللجملة معنى واحد، وللسورة محور واحد... وصارت الآراء المتعددة التي طرحوها لتفسير معنى الكلمة الواحدة والآية الواحدة، صار يظهر لي من كلامهم الكثير من خلفيات تفسيراتهم وأسبابها... إذ إن بعضه ناتج عن تقديس الروايات، وعن افتقاد الدقّة في معاني الكلمات، وعن آراء مسبقة كانوا مقتنعين بها وألصقوها بالقرآن إسقاطاً، وعن فراغ لم يجدوا في مخزونهم ما يفسّره واحتملوا وخمّنوا واستعانوا بتخمينات من سبقنا من أهل الكتاب... وغيرها وغيرها من الأسباب التي حاولت جاهداً الخروج منها، وبصعوبة بالغة بالكاد نجحت فيها لأني مثلهم لدي مخزوني الخاص بي من المعلومات والقناعات والرغبات، والأمور السيئة التي أشتهيها... وفي حياتي العادية أبرر لنفسي فعلها... إذ رُبَّمَا أُحَوِّرُ فهم الآيات لتطابق ما في هواي...

لست أهين نفسي أمامك بكلامي هذا، ولست أمدح نفسي، بل أعرض عليك صراحة ما أنا وأنت فيه، فخذ كلامي عن نفسي مثالاً وقوّمه، فأنا سقطت هنا وهناك واستقمت هنا وهناك، فلتكن أنت مستقيماً حيث زللت أنا، واستعن أنت مستفيداً مما كنت أنا فيه مستقيماً...

(قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ{23})

{قَالاَ}، آدم(ع) وزوجته: {رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا}، إذ لم يكن منا حق فيما فعلناه، وسبّبنا لأنفسنا شيئاً ليس من حقّنا ولا من الإنصاف تسبيبه لها، حيث عصيناك ونستحقّ العقاب، {وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا}، إذَا لم تتجاوز عمّا فعلناه وتسامحنا، {وَتَرْحَمْنَا}، وتعاملنا بعنايتك لما فيه مصلحتنا، {لَنَكُونَنَّ}، بالتأكيد سوف نكون، {مِنَ الْخَاسِرِينَ}، من الذين فقدوا شيئاً له أهمية، وهي خسارة المغفرة والثواب وبالتالي خسارة الجنّة.

لِنَرَ هل استجاب سبحانه لهما، وأبقاهما تحت الرعاية والعناية الخاصة في تلك الجنة؟ ولكن قبل ذلك هناك سؤال تجده هنا وهناك، كيف يقوم "النبي" آدم(ع) بالمعصية؟ وهل يرتكب الأنبياء المعصية! الجواب عن ذلك أن القرآن لم يقل ولا مرّة إنَّ آدم(ع) موظّف مكلّف كنبي ناقل لكلامه تعالى للناس، ونفس الشيء حصل مع لقمان(ع) "ومع السيدة مريم(ع)"، وبقية الأسماء التي ذكرها القرآن ذُكِرَ أنهم أنبياء في آية ما أو فحوى الكلام كان يشير لذلك، مما يرجّح بشدّة أن آدم(ع) لم يكن نبياً، وبالتالي فهو إنسان لم ينل وظيفة النبوّة، وهكذا ترى أن آدم(ع) خارج نطاق البحث عن إمكانية

حصول المعصية من الأنبياء. وبقية الكلام والتفاصيل التي ذكروها عن هذا الموضوع، من الفرق بين الأمر المولوي الذي على مخالفته عقاب، والأمر الإرشادي الذي لا يليه عقاب... وما قيل عن فترة الدورة التدريبية قبل النزول إلى الأرض حيث كان آدم(ع) في الجنّة ولا تكاليف عليه... وما قيل إنها معصية قبل التكليف بالنبوّة... كلّه كلام تخميني مبني أساساً على كونه (ع) كان نبياً، وهذا لا يبدو صحيحاً من أصله.

ثانياً، الأنبياء لا تحصل منهم معصية يقصدونها ويعلمون بمخالفتها لأوامره تعالى، لأنهم أشخاص من هذه النوعية أصلاً، ولهذا السبب وبعدها اختارهم تعالى لتوصيل كلامه للناس، حيث يحصل منهم خطأ غير مقصود، أو يحدث خطأ يتحمّلون مسؤوليته بسبب علاقتهم به، وسترى مِرَاراً في دراستنا هذه الاستشهاد بحادثة خالد بن الوليد الذي قتل أناساً أبرياء أثناء ما كان معيّنا من الرسول (ع) كقائد لحملة عسكرية... إذ لم يقصد الرسول(ع) قتل الأبرياء ولم يحتمل حصول ذلك، ولكنه حصل... لذا يجب عليه (ع) طلب المغفرة من عمل حصل وكان هو السبب في حصوله عبر تعيين خالدٍ قائداً... وهذا هو نوع المعاصي التي رُبَّمَا تحصل ويكون للأنبياء علاقة بها.

السؤال الثاني: كيف بادل آدم(ع) وجوده في الجنّة بمعصية واحدة لا قيمة لها وسخيفة وكان بكل سهولة بإمكانه تخطّيها؟! الجواب أنني أنا وأنت نقوم بمعاصٍ سخيفة ونعلم بأننا منتقلون إلى عالم فيه جنّة الخلود الرائعة، وآدم(ع) كان في حياته العادية ولم يكن في جنّة الآخرة التي لا مرض ولا تعب ولا همّ ولا ممنوع... فيها، إذ إنَّ وضعه(ع) مثل وضعنا الحالي، وما فعله (ع) هو لا شيء أمام ما نفعله نحن من معاصٍ...

بقي شيء عن وصفهما أنفسهما بالظلم، سنتوسع فيه قليلاً في الآية 28 التي ستتكلم عن الفحش.

(قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ{24})
طلبا المغفرة والرحمة فقال سبحانه وتعالى: {اهْبِطُوا}، انْزِلْ يا آدم وزوجك من الجنّة لِتَسْتَقِرَّا في مكان آخر، وكتحصيل حاصل إبليس سيلحق بهما ليستمر في إضلاله لهما ولذريتهما، {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}، حيث إنّ إبليس أعلن عداوته للبشر، وَسَوَاءٌ البشر عادوه أم تماشوا معه، فهو عدو للجميع لأنه يعمل على حصول الضرر للجميع.

{وَلَكُمْ}، لآدم(ع) ولزوجه ولذريتهما، {فِي الْأَرْضِ}، التي سيعيشون فيها، {مُسْتَقَرٌّ}، مكان للثبات للبقاء فيه لتمضية حياتكم، ولكم في الأرض أيضاً، {مَتَاعٌ}، تنتفعون بما هو موجود على الأرض، من أكل وماء وزواج وترفيه و... ولكن، {إِلَىٰ حِينٍ}، إلى أوقات محددة لكل واحد منكم، إذ لستم مخلدين في الأرض، بل ستموتون فيها وينتهي استقراركم في الأرض.

ننتبه جيّداً، حيث إنّ القرآن استعمل كلمة أرض مثلما استعملها العرب، إذ مرّة يشيرون بها إلى قطعة أرض، متراً بمتر، دونم، فدّان، هكتار... ومرة يشيرون بها لعموم أي موصوف بأنه أرض، كلّ الأرض، وهذا المفهوم يتماشى مع ما صار منتَشِراً بين الناس أنها كوكب، فانتبه، لأنّ الكلام القرآني أحيانا يمكن تفسير استعماله لكلمة أرض على أنها تشير لكوكب الأرض، ولكن انتبه جيداً، لأنّ الكلمة بالأصل تشير لعموم الأرض في مقابل عموم السماء وليس لخصوص كوكبنا، لذا هنا وفي العديد من الآيات لم تقصد "كوكب الأرض"، مثلها مثل: {فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ}، {فَسَاداً فِي الْأَرْضِ}... فلا يذهب فكرك هنا بالهبوط من السماء إلى كوكب الأرض، لا، لأنها مثل استعمال الهبوط في الآية 61 من سورة البقرة، {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ}، إذ هو الانتقال من مكان ما والهبوط، أي النزول في مكان آخر.

ننتبه، أنّ الجنة التي كان فيها آدم(ع) وزوجته كانت على الأرض، وكانت بقعة مميزة جداً، وفيها رزق وفير من مياه وفاكهة وخضار وحيوانات... لأنّ الجنّة الخالدة التي يتحدّث عنها القرآن هي في الآخرة، ونحن الآن في الدنيا لذا تلك الجنّة ليست موجودة الآن.

بعد ارتكاب المعصية من آدم(ع) وزوجته، شاء سبحانه تَغَيُّرَ حال تلك الجنة، كما نعلم من القرآن الكريم، أننا الآن نحن في عصرنا، فإذا مجتمع إنساني ما التزم بالدين والاستغفار، فإن بركات السماء ستفتح لهم وسيكون الرزق وفيراً ومتاحاً للجميع... من دون أن يتغير المكان، إذ إنّ نفس المكان الذي يسكنون فيه يتغير حاله ويصير ملائماً للزرع

وللحيوانات... ووفيراً بالماء وبعيداً عن الأمراض... وترى ذلك صريحاً في الآية 96 من هذه السورة {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، ونفس الشيء حصل مع آدم(ع)، حيث كان يعيش في مكان جيد جداً، والفاكهة منتشرة فيه وكذلك الخضار والحيوانات لأكل لحمها... ولكن بعد معصيته تغيّر حال المكان وصار سيئاً، "بجفاف أو ريح باردة أو انتشار حيوانات ضارية..." لذا صار آدم(ع) مضطراً للخروج منها للبحث عن مكان أفضل... فلا داعي لنتصور آدم وزوجه ينزلان من مكان ما في السماء، حيث استعمل القرآن التعبير بالهبوط في الآية 61 من سورة البقرة ... {اهْبِطُوا مِصْراً}... وكيفما فسّرته فهو لن يعني أبداً الهبوط على كوكب الأرض من مكان في السماء، بل سيعني نزولهم على مكان من الأرض غير الذي كانوا فيه، وهنا التعبير بالهبوط يشير إلى نفس المعنى، إذ إنّ الجنّة التي كانا فيها لم تكن في السماء، ولا على كوكب آخر...

الخلاصة أنه سبحانه لن يحاسب إبليس الآن وفوراً على الذي فعله، ولن يحاسب آدم(ع) وزوجه فوراً، بل سيتركهما يعيشان ويتمتعان ويتصرفان بأجسادهما وبما هو متاح لهما من موارد على الأرض، ولكن ليس للأبد بل إلى حين، حتى يموتا، والآية التالية ستشرح:

(قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ{25})

قال تعالى: {فِيهَا}، في عموم الأرض بدل الجنّة التي كان فيها مواصفات مناسبة للحياة السعيدة، {تَحْيَوْنَ}، تَقْضُونَ حياتكم، {وَفِيهَا}، في الأرض، {تَمُوتُونَ}، تَنْتَهِي حياتكم، {وَمِنْهَا}، ومن الأرض، {تُخْرَجُونَ}، سَوْفَ تخرجون إلى الحياة مرة ثانية حتى تتحاسبوا.

الكلام هنا موجّه لآدم(ع) وزوجته، وليس لإبليس.

الآية لا تقول بأن كل الناس سيبقون على كوكب الأرض، ولن يموت أحد في الفضاء أو على كوكب آخر، لأنها لا تتحدث عن الجغرافيا السكانية أو الفلكية، إذْ مِنَ الآية 34 من سورة لقمان ... {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ}...، نفهم منها نحن كناطقين باللغة العربية أن لا أحد يعرف بأي مكان سيموت، إذْ ربما يموت في البحر، وربما يموت على القمر... رغم ذلك نقول: لا يدري بأي أرض سيموت. لأن عامّة الموت وغالبيته الساحقة يحصل على الأرض، مع العلم بحصول حالات موت في البحر، والآية الأعم تعبيراً هي الآية 148 من سورة البقرة ... {أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ{26})

{يَا بَنِي آدَمَ}، الكلام موجّه لكلّ الناس، على أساس أن آدم (ع) من الأجداد وهناك أجداد غيره، أو أَنَّهُ (ع) الجدّ الوحيد لأن البقية انقرضوا "لا نعلم". حيث إنّ هذا النوع من التعبير {يَا بَنِي آدَمَ}... مُضَافاً إليه تعبير {خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ}... يوحي بأن كل الناس من ذرية آدم(ع)، وهذا غير صريح بل افتراض اشتقاقي يتحمّله الكلام القرآني ولا يقوله بصراحة، لِذَا يبقى الاحتمال مَفْتُوحاً على أن آدم(ع) من الأجداد، أو الجدّ الذي بقيت ذريته وانقرض الآخرون. على كلّ حال، مِحْوَرِيَّةُ كلام السورة مع المجتمعات عن ولايته تعالى، ومن أعمّ التعبيرات بذلك مناداتنا بـ {يَا بَنِي آدَمَ} (ع)، على أساس أنه (ع) أوّل بشري تأهّل ليتكلّف بولايته تعالى:

{قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً}، إذْ كُلُّ ما وصلنا منه تعالى فهو نزول للشيء علينا منه تعالى، وكما تعلم لَمْ تنزل علينا الثياب من السماء بل نزل علينا فكر ووعي وإحساس بوجوب وضع الثياب لستر جسدنا، وبتعبير دارج نقول: وُضِعَ في فطرتكم وفي باطن عقولكم وفي وعيكم، الإِحْسَاسُ بوجوب لبس "وضع ستر" على جسدكم، {يُوَارِي}، يبعد عن النظر فيستر ويغطي، {سَوْآتِكُمْ}، ما يَسُوؤُكُمْ إظهاره، ما يجعلكم تشعرون بحالة سيئة إن ظهر لغيركم، وهي الأعضاء التي يخرج منها البول والعذرة ومحيطهما من الشعر والإلية... واللباس يمكن أن يكون أي شيء يستر الجسد حتى لو لم يكن أَنِيقاً أو مُرِيحاً، وأنزلنا عليكم لِبَاساً يوصف بأنه، {رِيشاً}، أي ثِيَاباً مريحة ناعمة. حيث زُرِعَتْ فيكم رغبة لبس ثياب تستركم وفي نفس الوقت تكون مريحة وناعمة وجميلة ترتاحون بلبسها. ولدينا أيضا اهتمام باللباس حتى يكون جَمِيلاً وَمُرِيحاً مُضَافاً لأصل فكرة ستر السوءة.

تُلاحِظُ في عدة آيات أن الجمال في المخلوقات والتنوع بالألوان والأشكال مقصود منه سبحانه، ومنه الآية 6 من سورة النحل {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ}، والآية 27 من سورة فاطر {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ}.

{وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَٰلِكَ خَيْرٌ}، إذْ إنَّ ذلك اللباس الذي أنزلناه لتتجنّبوا إظهار السوءة هو، {خَيْرٌ} حيث يوصف بأنه جيّد وحسن، وهذا الكلام في مقابل كلام السخفاء الذين يقولون إِنَّنَا وُلِدْنَا عُرَاةً، ولم نولد وعلينا ثياب، ويمكننا البقاء على طبيعتنا عراة مثلنا مثل بقية الحيوانات ولا مشكلة في ذلك، لا، لِأَنَّ هذا شيء سَيِّئٌ واللباس الذي يجنّبنا إظهار السوءة هو الخير، وفَهِمْتُ من الآيات هنا أن فكرة اللباس مزروعة فينا منه تعالى، حيث أراد تعالى لنا أن نلبس ولم يردنا البقاء عراة.

حَسَناً، ربما يقول أحدهم: هذا غير صحيح، حيث إِنَّ هناك أُنَاساً لَا يَشْعُرُونَ بضرورة ستر جسدهم ولا ستر عورتهم. ننتبه، إذْ إنَّ هؤلاء أولا عدد نادر جدا، وتمكن إبليس من إقناعهم "بطريقة ما" أنهم لا يفعلون أي سوء! مثلهم مثل الذين تمكن إبليس من إقناعهم بأنه تعالى غير موجود! وأنه لا يوجد جنة ولا نار! ومثل الذين أقنعهم إبليس بأن يعبدوا النار والتماثيل... هَلْ تصدق بأن شَخْصاً عَاقِلاً يطلب من صورة أو من صنم أن يحقّق له أمانيه وأحلامه! حيث تغلب إبليس على الكثير من الناس حتى أوصلهم لهذا المستوى من السخافة والتفاهة، وكذلك يتغلب إبليس على مَنْ يَتَعَرَّوْنَ ويقنعهم بأن يخالفوا حسّ الحشمة وحسّ قيمة ستر الأعضاء الجنسية... وأي شيء نفعله مع التكرار والتمرّس سيصير عَادِيّاً وتطير فكرة شواذه من رأسنا...

{ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ}، إذْ إنَّ فكرة اللباس العادي أو الجميل التي فينا هِيَ من الأمور المميزة المنسوبة له تعالى، نَنْتَبِهُ جَيِّداً هنا، حيث كَمَا نقول: سبحان الله عندما نرى الحشرات تصنع بيوتها بالطرق المختلفة، كخلية النحل مَثَلاً، وكما نقول سبحان الله عندما نرى العصافير تنظف جسدها وتستحم، ونلتفت إِلَى أَنَّ الذي خلقها زَوَّدَهَا بهذه الرغبة، كَذَٰلِكَ الأمر بالنسبة لنا، إذْ لَوْ رأيت حَيَوَاناً غير الإنسان يصنع ثِيَاباً لقلت: سبحان الذي وضع هذه الرغبة فيه. لِذَا هنا الآية تنظر إلينا بنفس الطريقة.

{ذَٰلِكَ}، الإنزال للباس، وضع فكرة اللباس في الناس، {لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ}، إذْ مِنَ المفروض ومن المتوقّع أن يستحضروه تعالى في فكرهم وقولهم وعملهم، وَكَمَا يلفت انتباهك شيء تسمّيه إِنْسَانِيٌّ يفعله الحيوان، من الاستحمام والاهتمام بأولاده... تَسْتَحْضِرُ في فكرك الخالق الذي صمّمه وخلقه... كَذَٰلِكَ انظر لنفسك ولبقية الناس الَّذِينَ يشعرون بدافع صنع الثياب ولبسها، واستحضر في فكرك المصمّم الخالق الذي سبّب هذا لنا.

(يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ{27})
الخلاصة من سرد قصة إبليس مع آدم(ع) أَلَّا نوالي الشيطان لأنه عدو يريد ضررنا بمخالفة أوامره تعالى التي فيها مصلحتنا:

يقول الله تعالى لنا: {يَا بَنِي آدَمَ}، {لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ}، لِأَنَّكُمْ تتأثرون بالذي يعمل على إضلالكم لِذَا لا تقعوا فيما يريده، {كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم}، إذْ فتن إبليس آدم(ع) وزوجته، {يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا}، حَيْثُ بَعْدَمَا أكلا من الشجرة خلعا ثيابهما عنهما، وفهمنا من هذا أن الأكل من الشجرة سبّب لهما فقدان الفكر الواعي، كالسكران، {لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا}، إذْ إنَّ الشيطان كان يعلم أنه بسبب أكلهما من الشجرة سيفقدان فكرهما الواعي وينزعان ثيابهما، لِذَا لم يكن مقصده إفقادهما لفكرهما الواعي بل كان مقصده ما سيحدث بعد فقدهما لفكرهما الواعي وهو نزعهما لثيابهما، {لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا}، ليصير عندهما صورة لما يسوؤهما إظهاره، ليظهر موضع البول والغائط وما يحيط به... أو أجزاء أخرى من جسدهما عادة يسترانها، إذْ هناك احتمال أن يتأثرا من الأكل من الشجرة فينزعا لباسهما ثم يَلْبَسَاهُ من جديد ويَسْتَعِيدَا وعيهما ولا يَنْتَبِهَا لما فعلاه، ولن يشعرا بأنهما فعلا سُوءاً وخالفا أمره تعالى... ولكن إبليس أراد أن يريهما أنفسهما عاريين ليؤذيهما نَفْسِيّاً مما فعلاه... {إِنَّهُ}، الشيطان، {يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ}، لِأَنَّهُ من الجنّ، والجن قبيلة له لأنه من نوعهم وكلهم أقارب بالأصل، مثلما نحن البشر كلّنا أقارب بالأصل، والجنّ موصوفون بالقدرة على رؤيتنا، {مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ}، إذْ من عالمهم يمكنهم رؤيتنا ونحن من عالمنا وفي الحالة العادية لحواسّنا لا نراهم، يعني إن كنتم لا ترونهم فهذا لا يعني أنهم

ليسوا موجودين، ولا يعني أنهم لا يُرَاقِبُونَكُمْ، وبعض الجن شياطين إذْ يريدون لكم أن تضلّوا، {إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ}، جعلنا الذين يعملون على إضلال الناس، {أَوْلِيَاءَ}، مَرْجِعاً، {لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}، إذْ مَنْ لم يعتقد بدينه تعالى سيكون تابعا للشياطين وهم مرجع له. يعني إبليس من الجنّ، وهذا النوع من المخلوقات يرونكم وأنتم لا ترونهم، وبعضهم شياطين يوسوسون لكم لتضلّوا ويفرحون حين يرونكم تقومون بالسوء.

هُنَا الكلام عن ولاية بعض الناس للشياطين بالخصوص عن أمره تعالى بترك ما يسبّب فقدان الفكر الواعي حيث سينتج عنه أفعال سيئة وكنموذج منها نزع الثياب، والإنسان الذي ترك الأمر الإلهي الناهي عن السوء، صَارَ الشيطان وليّه "مرجعه"، والمؤمن الصالح لا يفعل ذلك.

لَاحِظْ، أَنَّ الآية تشير إِلَى أَنَّهُ لم يراهما أي أحد من البشر المعاصرين لهما عاريين، بل هما رأيا سوآتهما، حَيْثُ إِنَّ عموم القرآن تغافل عن هذه النقطة لأنه لا يريد الإهانة لآدم(ع) وزوجته، بل يريد تنبيهنا لنموذج بارز من ألاعيب الشيطان، ويقفز إلى الذهن سؤال عن مشكلة في رؤية الزوجين سوآت بعضهما؟ أَيْنَ المشكلة في ذلك؟ وهكذا تفهم أنهما لم يكونا وَحْدَهُمَا، وكان هناك احتمال أن يراهما آخرون يفهمون بمعنى السوءة، يعني من المفروض أنه كان يوجد بشر غيرهما ولذلك اسْتَعَابَا وسترا جسديهما بما حولهما من أوراق الشجر. وكما ترى إِنَّ هذا الكلام فيه بعض التحليل المدعوم بظاهر الآيات، وستجده مَنْطِقِيّاً إن تركت ما علق في ثقافتك الدينية الموروثة التي لا تتماشى مع ظاهر الآيات.

(وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{28})

تَعْقِيباً على نزع آدم وزوجته ثيابهما بسبب تأثرهما من أكل شيء من الشجرة:

{وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً}، فقام بعض الناس بأعمال سوء متعلقة بالغريزة، كالتعرّي والزنا وغيرهمَا... وَبَدَلَ أن ينتبهوا إِلَى أَنَّ الشيطان وسوسها لهم، {قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا}، حَيْثُ كبرنا ووجدنا آباءنا يقومون بتلك الأعمال، فهل نتّهم آباءنا بأنهم كانوا ضَالِّينَ! {وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا}، إذْ بِـالتأكيد آباؤنا لم يفعلوها وهي حرام بل الله تعالى أَمَرَهُمْ بها!

مَثَلاً، كان قَدِيماً بعض الناس "الشواذ" يطوفون حول الكعبة عُرَاةً ومن دون ثياب! وكانوا يقولون: خَلَقَنَا ربنا عُرَاةً، لِذَا يمكننا أن نعبده ونحن عُرَاةٌ، ولا يهم لو نظر إلينا الناس!

فِي عصرنا يوجد أناس يقولون مثل هذا، وَيَسْتَظْرِفُونَ أنفسهم ويقولون: لو أرادنا ربنا مُسَتَّرِينَ، لكان خلقنا مع ثياب! ونحن أَحْرَارٌ فيما نفعله بجسدنا! لا لستم أَحْرَاراً فيما تفعلونه لِأَنَّ هناك عِقَاباً، وخَلَقَكُمْ سبحانه بلا ثياب وَأَيْضاً بلا هاتف وبلا سيارة وبلا بيت... وطعامكم من ثدي الأم... وفيما بعدها خضار ولحوم غير مطبوخة... فلماذا لا تبقون على الطبيعة في أمثال هذه الأمور! وَأَصْلاً هل يولد حيوان وعليه ثياب؟ ففي بطن أمّه يخيط ثَوْباً ويخرج به!

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ}، فمن أين جئتم بهذا الكلام؟ من أي مستند؟ وهل من المعقول أن يأمر سبحانه وتعالى بالأمور الغرائزية السيئة! هل فِعْلاً فيكم عقل لتقولوا إِنَّهُ تعالى يأمركم بالتعرّي لأنه خلقكم عُرَاةً! فهل يأمر سبحانه بالتعرّي! {أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}؟ فهل فِعْلاً لا تعلمون أَنَّهُ تعالى لا يأمر بالفحشاء وتقولون إِنَّهُ تعالى يأمر بالفحشاء!

أنتم تعلمون يَقِيناً أَنَّهُ تعالى لا يأمرنا بالقيام بأعمال جنسية معيبة سيئة، كالتعري في الأماكن العامّة حيث يرانا الآخرون، وتكذبون وتقولون إنه تعالى يأمرنا بفعل الفاحشة. بعباراتنا الدارجة: عن جدّ ما بتعرفوا أَنَّهُ تعالى لا يأمر بالفحشاء؟!

إلى هنا صار بإمكاننا تحليل ما عرضته الآيات السابقة، ونحن أمام ما حصل مع آدم(ع) وزوجته من نزعهما لثيابهما، وشعورهما بسوء ما فعلاه، طَبْعاً تخطينا الموروث الثقافي الديني المنتشر، لأنهما كانا زَوْجَيْنِ ولا سوء في رؤيتهما لسوآت بعضهما، ولكن السوء في التعرّي في مكان عام كان يمكن للآخرين من البشر رُؤْيَتُهُمَا... وكما ترى إذْ سبحانه بما جعله فينا من قابليات يوجّه لنا الكلام بالتكليف، فما معنى تكليفي بالستر وأنا لا أشعر بأي عيب من الْعُرْيِ؟ ما معنى العقاب على فعلي لعموم أي عمل لا أشعر بسوئه؟ لو لم يجعل سبحانه فيّ قابلية تمييز الأعمال وتصنيفها لِسَيِّئٍ وصالح

فعلى أي أساس سيحاسبني؟ وهذا المفهوم ترتكز عليه السورة مُضَافاً لمفهوم أنه تعالى لن يحرّم عليّ ما فيه فائدتي وسعادتي، ولن يأمرني بما فيه تعاستي، وأنا أفهم ذلك وأراه.

الحسن والسوء، والخير والشرّ، والصلاح والفساد... ليست مفاهيم اعتبارية بمعنى إمكانية تغيّرها إذا تغيّر المزاج ليصير الخير شَرّاً، لا، وها كل القرآن يبقي توصيف السوء بأنه سوء مهما كانت الظروف، ويسمح بفعله في ظروف محددة اضطرارية لنا، إذِ القتل عمل سَيِّئٌ، ويبقى توصيفه سَيِّئاً حتى لو قتلت من هجم عليك ليقتلك، ولكنه سبحانه عفا عنك في حالة الدفاع عن نفسك إن قتلت من هجم عليك، وهذا هو معنى ما يطرحه علينا القرآن كتبرير لسماحه تعالى للمؤمنين بقتال الكفّار، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 190 من سورة البقرة {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}، وما ورد بعدها في الآية 193 من سورة البقرة {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ}.

هنا الكلام عن الفحشاء، التي تشير لعموم أي عمل جنسي سَيِّئٍ، ويشمل التعرّي، واللباس غير المحتشم... والزنا... وهذه ليست أُمُوراً اعْتِبَارِيَّةً في تصنيفها، إذْ هُوَ مَزْرُوعٌ فينا أنها سيئة، وَحَيْثُ صنفها تعالى سَيِّئَةً بِنَاءً على خلقتنا بغريزة ينتج عنها رغبة وشهوة إذا لم تتقيّد فلن يبقى أي معنى لتميّزنا عن بقية الحيوانات، بل في الحيوانات "ونحن منهم" ما يميّزنا على الآلات، وهي المشاعر، من الميل والعطف والحبّ... والإخلاص والتزاوج والمشاركة...

مَا تَسْمَعُهُ من كلام عن اعتبارية تصنيف بعض ما يقوله تعالى أَنَّهُ سَيِّئٌ، قائلين إِنَّنَا لو كلّنا تعرينا عندها سيصير العري من طبيعتنا ولن نراه سَيِّئاً، فما تفسيرهم لنحو البشرية من بدايتها نحو الستر؟! وما فرق الفحش بأنواعه المختلفة عن بقية الأعمال التي تصنيفها سَيِّئٌ، وعلى أي معيار ستقول بأن قتل الآخرين يبقى تصنيفه سَيِّئاً حتى لو فعله كل الناس؟ أم سيصير القتل للأبرياء حَسَناً؟

للأسف، هذا المثال الواضح من المفروض أن يثبت صحّة كلامي، ولكن فِعْلاً الإجرام المنتشر بين الناس جعل قتل الأبرياء عَمَلاً مُحَبَّباً! الكثيرون لا مانع لديهم من قتل أطفال أقوام آخرين إذا كانت النتيجة الاستفادة الاقتصادية من نفط ومعادن وماء وَأَرَاضٍ... أو كان الآخرون من دين أو عرق آخر!

في هذه السورة سترى عَرْضاً لنماذج عن أقوام انتشر فيهم فعل عمل سَيِّئٍ، فَقَوْمٌ انتشر فيهم الشرك به تعالى وفساد الحكومة، وآخرون الإسراف، وغيرهم الغش وغيرهم الشذوذ والاعتداء جِنْسِيّاً على الآخرين، وَحَيْثُ ذكر سبحانه لنا هذه النماذج المختلفة لأنك ومهما كنت أسود القلب غَارِقاً في الظلمات وَمُمَارِساً لواحدة من تلك الأعمال، فحتمًا سترى واحدة أخرى سيئة ولا تقبلها، وهكذا تفهم أن ما صنّفته أنت حَسَناً مَقْبُولاً، وصنّفه تعالى سَيِّئاً مَرْفُوضاً، فأنت وبسبب إصرارك على التعلّق بالعمل السيّء خَالَفْتَ ما زرعه تعالى فيك من تمييز للخير من الشرّ حتى صرت ترى الشرّ خَيْراً.

(قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ{29})
{قُلْ}: أيها النبي(ع) وأيها المؤمن عبر هذا القرآن نقلا عنه تعالى: {أَمَرَ رَبِّي}، فالمسؤول عني من مستوى إلهي يأمر، {بِالْقِسْطِ}، بما هو بالضبط على المقياس الصحيح، والكلام عامٌّ لكل ما هو بالضبط، وسياق الكلام عن تحريمه تعالى للفحش، عن تحريمه للأعمال الجنسية المعيبة السيئة، وتحليله لأعمال جنسية حسنة، فهذا ما لنا بالضبط، وأما الفحش فليس تصرفا مقبولاً، فسبحانه خلقنا مع شهوة وغريزة، والقسط أن نشبع شهوتنا بشكل مضبوطٍ تاركين السوءَ والشواذ.

أمرنا تعالى أن: {أَقِيمُوا}، فعّلوا لا تهملوا ولا تتركوا، {وُجُوهَكُمْ}، فنتوجّه باتجاه واحد، لا لليمين ولا لليسار، وطبعا نحوه وحده تعالى. بعبارة أخرى كما يقول الأستاذُ لتلاميذه: أديروا وجوهكم باتجاهي. فهو يطلب منهم ألا يلتهوا ولا يشردوا ولا يذهب فكرهم في شيء غير الدرس. وهنا التعبير بإقامة وجوهنا لله تعالى، فلا نقيمها لغيره ولا نعتبر غيره تعالى يستحق الطاعة أو العبادة، فأقيموها {عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ}، عند أي مكان أو حركات تعبير عن الخضوع، ومن تكملة الجملة تعلم أنها إقامة الوجه "بإخلاص" عند كل مسجد، ففي أي مكان أو حركات نقوم بها للتعبير عن الخضوع وفائق الاحترام فليكن له تعالى، وتطبيق فعل السجود عند البشر يكون بوضع الجبهة على الأرض، وأقل منه هو تقريب الوجه

من الأرض... بعبارة أخرى، عند كل عبادة أو صلاة، وفي كلّ مكان مخصّص لتأدية تلك الطقوس، ففعّلوا توجّهكم إليه تعالى بأعلى تعابير الاحترام والخضوع.

ضع في بالك دائماً أنَّ السجود هو عامَّةً أي تعبير حركي عن الخضوع والاحترام، وكوننا بشراً، يكون تعبيرنا بوضع جبهة الوجه على الأرض، أو تقريب الوجه كثيرا من الأرض، والملائكة(ع) لها تعبير سجود مختلفٌ عنّا ويناسب خلقتها، وكذلك النجوم والأشجار... لها ما يناسبها من تعابير السجود، والسجود هو أقصى أشكال تعابير الخضوع، فهو أقصى وأشد تعبيراً من الركوع، ومن الوقوف. ولذلك "بشكل عام" نلاحظ في القرآن الكريم التركيز على كلمة "السجود" كتعبير بديل لكلمة الصلاة، وسنلاحظ ذلك أيضا بعد آيتين من هذه السورة، كما نلاحظ أن مكان العبادة اسمه مسجدٌ تماشياً مع كون السجود من أشدّ مظاهر العبادة.

{وَادْعُوهُ}، فأعلنوا له سبحانه، {مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}، فبشكل منفرد له تعالى تدعونه على أساس أن ما تدينون به، فالتبعات التي عليكم تكون له تعالى وحده.

{كَمَا بَدَأَكُمْ}، مثلما بدأ خلقكم عندما سوّاكم وصوّركم... {تَعُودُونَ}، فبعدما تموتون لن تنتهوا وتختفوا بل مثلما خلقكم أوّل مرّة سيخلقكم مرّة ثانية. وتعلم أن المقصود هو عودتنا إلى الحياة في الآخرة في يوم القيامة من الموت.

كلمةُ دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، إذ هي ليست اصطلاحاً مخصَّصاً كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، فهي عامَّةً تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئاً ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني فأنا مدين له، فخلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعاً بسبب سَعَةِ تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا الاختيار... فكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة فهناك ندان بأعمالنا، فما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هي التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضاً يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسباً بحكمته قد يديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ{30})
{فَرِيقًا}، قسماً من الناس يفترق عن الآخرين بشيء، {هَدَى}، فوضعهم تعالى على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، {وَفَرِيقًا}، وقسماً آخر من الناس، {حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ}، فانطبق عليهم أن يكونوا على الطريق الخطأ الذي يوصلهم للنتيجة الخطأ، والسبب {إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ}، اعتبروا أنفسهم تابعين للذين يعملون على إضلال الناس، {مِنْ دُونِ اللَّهِ}، كما تقول: ذهبتم من دوني. وتقصد أنهم ذهبوا وتركوك، فهم تركوا ولاية الله تعالى ووالوا الشياطين.

تذكّر دائماً أن القرآن يعتبر أي شيء سمعت فيه كلاماً غير كلامه تعالى والتزمت به، ولو لمرة واحدة، فقد واليت الذي سمعت كلامه، وصار مرجعاً لك، ولو بشيء واحد ولمرة واحدة، طالما لم تتراجع عنه ولم تستغفر فأنت موالٍ لذاك الشخص في هذه المسألة، ويعتبرك تعالى تركت ولايته وواليت غيره.

{وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ}، بدون أي تفكير عقلاني ولأول وهلة يرون أنهم على الشيء الصحيح الذي يوصلهم لغايتهم الصحيحة علماً أنهم موالون للشياطين الذين حتما لن يدلوهم على الخير.

كما ترى فهذا المعنى متكرر كثيرا في القرآن بتعابير مختلفة، لأنَّ تكرار فعل السوء يجعل الشخص مُحِبّاً للسوء فلا يَعُودُ يراه أصلاً سوءاً، بل يراه عقلانياً منطقياً صحيحاً، وهذا هو الختم على القلب، وعمى القلب والبصر... فيرى العقائد والتشريعات المخالفة لدينه تعالى شيئاً صحيحاً، ويراها هداية ويرى المؤمنين على ضلال! على أساس أن المؤمنين يضيّعون على أنفسهم شهوات الدنيا بتركهم لما قال عنه الدين إنَّه حرام... ولن أطيل عليك هنا بما ردّ به القرآن على هذه الأقوال، وأختصرها لك بأنَّ أوامره تعالى "في القرآن" تضمن أقصى ما يمكن من سعادة للجميع إن التزموا بها، وغير ذلك من عقائد وتشريعات وسلوكيات فكلّه له تبعات غير محمودة على سعادة البشرية، هذا إذا ضيّقنا الحياة وحصرناها بالنظر إلى الدنيا، ناهيك عن عقاب الآخرة الذي يجب أن يكون أساس ومحور اهتمامنا قبل اهتمامنا بالدنيا.

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ{31})

فيما يلي نماذج عن أمره تعالى لنا بالقسط ردّا على الذين يقولون إنَّ الدين يأمر بالزهد والتنسّك والتقشّف، ويقولون إنَّ الدين يشجعنا على حياة الفقر، أمّا الغنى والراحة واللّذة بالحياة... فهي تتعارض مع الدين... فهل هذا صحيح؟ تتذكّر منذ قليل أنَّهم هم أنفسهم يتهمونه تعالى بأنَّهُ يأمر بالفحشاء! فمرّةً يبررون لأعمالهم السيئة بأنَّه تعالى أمرهم بها، ومرّةً يبررون لأعمالهم السيئة بأنَّ ما يصلهم من أوامر منسوبة له تعالى هي لا تتماشى مع طبيعتنا المزوَّدة بغريزة وشهوة ورغبات...

يقول تعالى لنا: {يَا بَنِي آدَمَ}، "راجع ما ورد في الآية 26 عن التعبير ببني آدم(ع)"، {خُذُوا زِينَتَكُمْ}، وهي الأشياء التي تزيّنكم وتحسّن مظهركم وتجمّلكم، من نظافة الجسد والثياب النظيفة والعطر... فتزيّنوا، {عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ}، عند عموم أي مكان أو عمل يعبّر عن أشد الخضوع والاحترام، وعندما تريدون أن تصلّوا وتعبدوا ربكم سبحانه سواء في البيت أو الأماكن المخصّصة للعبادة فتزيّنوا.

انتبهْ جيّداً يا عزيزي ويا عزيزتي، لا تقصد الآية أنَّهُ يجب ويكون لزاماً علينا أن نتزيّن للصلاة، بل في مقابل الذين يتهمون دينه تعالى بأنَّه يأمر بالزهد لدرجة إهمال النظافة والترتيب... تأتي آيتنا هنا لتقول لهم ولنا إنَّ الزينة محبوبة حتى في أماكن العبادة وأثناء العبادة.

بالنسبة لكلمة مسجد ما هو دارجٌ في عصرنا من بناء المساجد بالحيطان والأسقف والقبّة والمئذنة... فهذا لم يكن دارجاً في عصر النبي (ع)، ولا في عصر غالب الأنبياء من قبله، وخذْ مثلاً الباحة حول الكعبة، من حين ما كانت ساحة ترابية تحيط بها بيوت متفرقة لأهل مكّة، كانت تسمّى مسجداً "المسجد الحرام"، وأيُّ تعبير قرآني بكلمة مسجد إنما هو لعموم وصف حالة أشد تعابير الخضوع والاحترام له تعالى، سواء أكانت مكانا كبقعة على الأرض متعارف عليها لتأدية العبادة، أو حصلت فيه حركات العبادة... أو لوصف حركة التعبير الجسدية بتقريب الوجه من الأرض. بعبارة أخرى، نحن نستعمل الآن كلمة مسجد فقط لندلَّ على المكان المخصص للعبادة، ولكن القرآن استعملها بمعناها الأوسع الذي يشمل أي مكان جرت فيه العبادة، ويشمل العمل الذي فيه سجود وهو الصلاة. وهنا المقصود بالمسجد الصلاة وعموم أي مكان للصلاة.

{يَا بَنِي آدَمَ}(ع)، {كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا}، فلا تتجاوزوا الحدّ المعقول في الأكل والشرب، ولا تكن موائدكم زائدة عن حاجاتكم وينتج عنها فضلات كثيرة. بعبارة أبسط: فلتكن موائد طعامكم على قدر ما تحتاجون أكله. لأنَّ الطيّبات كلّها مسموحة لكم مما ترغبون به ولا يأمركم سبحانه بحرمان أنفسكم من أي طعام أو شراب حلال لذيذ ترغبونه، وإنما حرّم عليكم الإسراف فقط، وهو شراء أو تحضير كمية أكبر مما تحتاجونه من الطعام والشراب، أمّا النوعية فمهما كانت غالية أو رخيصة، طالما هي حلال فيمكنكم استهلاكها.

{إِنَّهُ}، الله تعالى، {لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}، وتقييمه تعالى سيّئٌ للمسرفين.

ضع في بالك في عموم ما ورد في القرآن أنَّهُ تعالى لا يحبّه، أنَّها وردت حيث لا داعي للكلام القاسي، وخذْ مثلاً كلامكَ معي حيث تريد تحذيري وتنبيهي وتقول: سأكسر عظامك لو فعلت كذا وكذا... فهذه نبرة عالية لا مبرر لها لأنك تعلم

أني حالياً لست ناوياً لفعل السوء، والجملة الأنسب: لا أحب أن تفعل كذا وكذا... وعلى هذا المفهوم جاءت الآيات التي وجّهت كلامها مع المؤمنين مستعملة عبارة مشابهة لعبارة "الله يحب أو لا يحب".

بقي شيء، ومن عموم القرآن تفهم من استعماله لكلمة إسراف وتبذير، أنَّ كليهما تجاوز للحدّ المعقول فيما فعلته، حيث كلاهما يشيران للمبالغة في عموم أي شيء مهما كان نوع ما فعلته، والتبذير مبالغة إلى درجة فعل ما لا تحتاجه أصلاً، كشراء ثياب لن تلبسها بسبب شبهها بالثياب التي عندك، أو أصلاً عندك ثياب لم تلبسها بعد... والإسراف مبالغة فيما تحتاجه، حيث تحتاج فعلاً لثياب ولكنك اشتريت ما يزيد عن حاجتك. وفي الطعام التخمة إسراف، والكمية الكبيرة إسرافٌ، وشراء الطعام بهدف التركيز على الطعام الغالي الثمن، إسراف... والتبذير تكديس طعام لن تأكله أصلاً... وكما ترى فكلتا الكلمتين تشيران للمبالغة لذا ستراهما قريبتين في المعنى.

سنعرف من الآية التالية لماذا تقول لنا الآية هنا أنَّهُ تعالى يسمح لنا بأكل الطعام الجيّد وشرب الشراب اللذيذ ونتزيّن "ولكن ضمن المعقول":

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ{32})
{قُلْ} يا أيها النبي(ع) عبر هذا القرآن: {مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ}؟ فالذين مفروض منهم طاعته تعالى وأتاح لهم ما يجعلهم أجمل، فمن منعهم عن ذلك؟ فإن كان سبحانه أخرج لكم زينة، فخلقكم ولديكم رغبة بالتزيّن وفي بيئتكم يوجد ما تتزينون به، فمن هذا الذي يقول إنَّهُ ممنوع عليكم التزيّن لتحسين منظركم؟

قل: من حرّم {الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ}؟ الأشياء التي معكم لتسدوا بها حاجتكم لتأكلوها، من لحم ونبات، والموصوفة بأنها من الطيبات أي من الأشياء المرغوبة المحبوبة، وليست من الخبائث كالخمور ولحم الكلب والخنزير... فمن حرّمها من منعها؟ بعبارة أخرى: من هذا الذي يحرّم شيئاً أتاحه تعالى لعباده؟! فمن هو حتى يحرّم ما أتاحه تعالى حلالاً لنا؟!

أيضاً عليك أن تستحضر في بالك ما هو دارجٌ عن الإيمان بين بعض مجموعات المتدينين الذين يحرمون أنفسهم من الطعام والشراب اللذيذ، بل ويعيبون على المؤمنين الذين يتلذذون بالطعام والشراب! على أساس أن التلذّذ بالطعام تعلّق بالدنيا ومخالف للإيمان!

{قُلْ} عبر هذا القرآن للناس: {هِيَ}، الزينة والطيبات، {لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، فالذين اعتقدوا بدينه تعالى هنا في الدنيا فالطيبات {خَالِصَةً} لهم لوحدهم في {يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، في الزمن الذي نقوم فيه من الموت في الآخرة.

ننتبه أنَّ الزينة والطيبات لم تحصرها الآية بيوم القيامة، بل من ذلك اليوم وفيما يليه فالزينة والطيبات خالصة لهم وممنوعة عن غيرهم، وفي القرآن تجد العديد من الآيات التي تتحدّث عن المؤمنين في يوم القيامة يأكلون ويشربون أثناء انتظارهم لانتهاء الحساب، وللأسف لم ينتبه الكثير من المفسرين لهذا المقصد للآيات وخلطوا مشاهد سعادة المؤمنين في يوم القيامة مع سعادتهم في الجنّة، فلم يركز في بال الغالبية أنَّهُ في يوم القيامة يوجد طعام وشراب للمؤمنين، وفي سورتنا هذه سترى هذا واضحاً جداً...

يعني هنا في الدنيا الطيبات متاحة للجميع، ولكنها في يوم القيامة خالصة للذين آمنوا وعملوا الصالحات.

كذلك، بما ذكرناه سابقاً عن المالك سبحانه وما أتاحه لعباده من زينة وطيبات في الدنيا وتحليلها، بل أمرنا تعالى بالزينة وتناول الطيبات، {نُفَصِّلُ الْآيَاتِ}، فالأمور المميزة بمستواها الإلهي نجعلها مفصَّلةً غير متداخلة مع أمور تجعلها مبهمة، فهذا الكلام عن حليّة الطيبات والزينة هو كلام واضح أنَّهُ من مستوى إلهي، {لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، للذين لديهم شيء فعلاً موصوف بأنَّهُ علم، فكلّنا في رأسنا معلومات، ولكن للمعلومات قيمة، بعضها قيمته صفر وأخرى قيمتها عالية، فمن كان لديه علم له قيمة، فهذا سيفهم الكلام عن الزينة والطيبات أنَّهُ كلام من مستوى إلهي.

ننتبه جيداً إلى الثقافة الدينية التي روّج لها عامّة المتدينين عبر التاريخ من التقشّف والزهد وتحريم الملذات على أنفسهم... معاندين للشهوة والرغبة واللذّة... التي زرعها تعالى في كيانهم، ولا نتحدّث عن الملذات الحرام فالآية التالية ستتحدّث عنها، بل نتحدّث عن الحلال المباح الذي حرّموه على أنفسهم على أساس أنهم بذلك يتقرّبون إلى الله تعالى

أكثر من غيرهم من الذين يقولون بأنهم مؤمنون ولكن سلوكهم فيه الكثير من الحيوانية الغريزية الشهوانية... على أساس أن جوهر الإنسانية الراقية والإيمان هو التقشّف وحرمان النفس من أي لذّة... هذه الثقافة المخالفة لعموم القرآن ولصريح آيتنا هنا، ما معناها! ما علاقتها بدينه تعالى! لماذا لا تزال دارجة هنا وهناك!

للأسف هذه الثقافة المنسوبة لدينه تعالى ظلماً وعدواناً هي على رأس الأسباب التي تجعل الكثيرين ينفرون من دينه تعالى، فلو كان فعلاً التقشّف وحرمة اللذّة الطيّبة هو الدين فمعهم حق بالنفور منه، وها آيتنا هنا تقول بأنَّ أمره تعالى لنا بالزينة وبحليّة الطيبات هو كلام يدلّ على المستوى الإلهي المميّز لمن قاله.

كلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، فكأن كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، فكلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أنَّ عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، فهي جمع الجمع، فأثناء الكلام بدقّة تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، فتقول الآيات: عبيد. ووردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وتكون لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وتكون لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، فهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخرون جاءهم رسول، وعبيد آخرون... فجمع الجمع "عباد"، فكلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جداً عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

نرجع إلى الآيات، فعندما حلل تعالى الطيبات والزينة حَرَّمَ سبحانه وتعالى في المقابل:

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{33})
يظنّ بعض الناس أنَّهُ تعالى يحرّم علينا أشياء جيدة وتفيدنا ولذلك يتركون ما أنزله تعالى ويخالفونه! فلْنَرَ ماذا يحرّم سبحانه:

{قُلْ} أيها النبي(ع) للناس عبر هذا القرآن: {إِنَّمَا حَرَّمَ}، ففقط وفقط منع، {رَبِّيَ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {الْفَوَاحِشَ}، وهي الأعمال الغرائزية الجنسية السيئة كالزنا وغيره، فهذه حرام ممنوعة وعليها عقاب، {مَا ظَهَرَ مِنْهَا}، ما كان علناً وبمعرفة الناس كالزنا علناً والتعري علناً وغيره... {وَمَا بَطَنَ}، أي ما كان بالسرّ، كالزنا بالسر والنظرة الحرام... وراجع ما قلناه بتوسع حول سوء الفحش في الآية 28 السابقة.

وقل: حرّم ربي سبحانه، {وَالْإِثْمَ}، وهو عموم أي عمل يقوم الإنسان به وهو يعلم أنَّهُ يفعل السوء، فأحيانا يفعل الشخص سوءاً كأن يبقى صائماً في شهر رمضان مع أنَّهُ مسافر أو مريض، وهو لا يعلم أنَّهُ تعالى لا يجيز له ذلك، فهنا صحيح أنَّهُ يفعل حراماً ولكنه لا يعرف، فهذا لا يوصف بالآثم إلى أن يعلم أنَّهُ تعالى لا يجيز له ذلك.

وحرّم ربي سبحانه، {وَالْبَغْيَ}، وهو عموم فرض أي شيء على الآخرين، {بِغَيْرِ الْحَقِّ}، فما لا يحقّ لنا فرضه على الآخرين، كفرض دين أو شريعة مخالفة لدينه تعالى، أو بغي مباشر كالفرض على الآخرين العمل بلا أجرة، أو أخذ أملاكهم... فهذا حرام عليه عقاب.

هناك بغي بحقّ من حيث المفهوم والتطبيق، ولكن القرآن لم يستعمل هذا التعبير لقتل القاتل لنفس زاكية، فهو بالأصل بغي لأنه عمل قتل، فالأساس أنَّهُ لا يحقّ لنا إنهاء حياة أي إنسان، ولكن بسبب سماحه تعالى لنا بذلك لم يسمّ القرآن هذا النوع من الأعمال بالبغي، وليست بغياً طالما سمح تعالى بها. وقارنها مع استعمال القرآن لكلمة اعتداء، فالاعتداء

حرام، ولكن نجد تعابيرَ قرآنية تسمح بردّ الاعتداء باعتداء، فاستعمل القرآن توصيف الاعتداء لعمل سمح تعالى به، وأبقى وصفه بالاعتداء.

هنا من عموم مفاهيم القرآن نعلم أنَّهُ من حيث المفهوم هناك بغي بحقّ، ولكن يتغيّر توصيفه من البغي إلى شيء آخر، كالقصاص.

وحرّم ربّي سبحانه، {وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ}، فممنوع أن تقولوا عن آخرين غير صاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى أنهم آلهة، {مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا}، فمن الأساس لا يوجد شيء صادر منه تعالى يقوّي هذا الكلام، فلا صحة لهذا الكلام، لأن الله تعالى إله، ولم يقل لنا إنَّهُ يوجد آلهة أخرى، فكيف وبأي سلطان وبأي حجة قوية أثبتوا وجود آلهة مع الله تعالى؟ فهل تتصور الإله لا يعلم إن كان هناك آلهة غيره! فنحن البشر نعلم بوجود آلهة متعددة، والله سبحانه لا يعلم! فإذا لم يقل لنا الله سبحانه إنَّهُ يوجد عدة آلهة، فبأي سلطان وبأي حجة قاهرة، وبأي دليل قوي سنقول إنَّهُ يوجد آلهة معه تعالى؟! وعلى هذا المعنى جاءت بعض الآيات ومنها الآية 18 من سورة يونس {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

بالنسبة لكلمة سلطان، مثلاً عندما أقول لك إنَّ البحر انفلق وصار فيه طرقات، فتقول لي: هل لديك سلطان بهذا الكلام؟ فأقول لك: إنّي كنت هناك مع النبي موسى(ع) وشاهدت ما حدث، فأنا أملك سلطاناً، وعندي شيء قوي، أو أقول لك إنَّ الله تعالى قال في القرآن إنَّ البحر انفلق، فأنا أملك سلطاناً في كلامي لأني أنقل إليك عن الله تعالى. هنا تقول الآية: عندما يجعل بعض الناس لله تعالى شركاء في الألوهية، فهل لديهم سلطان بهذا؟ فهل هم لديهم القدرة الشخصية على التأكد أنَّهُ يوجد آلهة مع الله تعالى؟ أو هل قال لهم مصدر موثوق ذلك؟ أو هل قال لكم الله تعالى ذلك؟

كما ترى، لم تكتفِ الآية بإصدار فرمان إلهي بكلام صلب عليك أن تؤمن به على عماه ويمنعنا من الشرك به، بل أتبعت الأمر بالتوحيد بدليل على صحّته، فبأي سلطان تثبتون صحّة وجود آلهة معه تعالى؟ ولم تدخل السورة في تفاصيل إثباتات توحيده تعالى مكتفية بسؤال المشركين عن دليلهم على صحّة شركهم.

كما ترى، حتى في مسألة توحيده تعالى والتي هي أهم مسألة على الإطلاق، سبحانه يتعامل فيها بشفافية معنا، فيسأل المشركين عن دليل يثبت صحّة شركهم.

وقل: حرّم سبحانه {وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، وهذا المنع عامٌّ فلا تقل في وصفه تعالى بما لم يخبرك به تعالى عن نفسه، فنحن نرى ونسمع ونلمس بعضنا البعض، فيمكنني أن أنظر إليك وأوصّف شكلك، وأوصّف حركاتك وأفعالك... ولكني لا أرى الله تعالى ولا أسمعه ولا أستطيع مراقبته مباشرة... فكيف يحق لي أن أقول عنه تعالى إنَّ لديه أولاداً! أو لديه شركاء! أو الملائكة(ع) بناته! أو شكله تعالى كشكل رجل! أو إنَّهُ سبحانه مزاجي! ولا تقل كلاماً تنسبه لله تعالى على أساس أنَّهُ سبحانه موافق عليه أو صدر منه، مثلاً تقول إنَّهُ تعالى حرّم اللحوم! أو حلّل الربا!...

القاعدة الأساسية التي يركّز عليها القرآن دائماً: لا يحقّ لنا أن نقول أي شيء عن الله سبحانه وتعالى، طالما هو نفسه لم يخبرنا به. ولا يحقّ لنا قول شيء ونسبته لله تعالى طالما سبحانه لم يقله. فلا يحق لي أن أخترع لا في وصفه تعالى ولا في تعاليمه وتشريعاته تعالى، بل أنظر في القرآن، وأرى ماذا يقول سبحانه، وأكتفي به ولا أخترع.

كما ترى، في الكلام عمق تراه بوضوح في مشكلة الاختلاف العقائدي والتشريعي بين المنتمين لدينه تعالى، فحتماً بعضهم قال على الله تعالى ما لا يعلم، ولذلك نتج لدينا عقائد وفتاوى مختلفة متخالفة، ولا تتعامى عن قومك متهماً بضبابية كل الآخرين بأنهم هم المخترعون للعقائد والتشريعات الفاسدة، لا، حتى قومك ومذهبك وطائفتك أبدعوا في الاختراع، ولكنك لن ترى ذلك إلا إذا بقي فيك شيء من القلب السليم، فإن لم تره فخذ علماً بحالك...

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ{34})

{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ}، لكلّ مجموعة من البشر لها امتداد تاريخي ولها اشتراك في ثقافة أو دين... يوجد لها {أَجَلٌ}، لها موعد محدَّدٌ تنتهي فيه حياتهم، {فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ}، حان وقت موتهم، {لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً}، لا يستطيعون أن يؤخّروا موعد موتهم ولو لمدة محددة من وقت قليل، {وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}، ولا يستطيعون جعل أجلهم يحصل في وقت متقدم قبل الموعد.

ضع في بالك أنَّ كلمة "ساعة ويوم" لا تعنيان الزمن المحدَّدَ المتعارف عليه ليوم أو ساعة على الأرض، بل كلمة يوم هي لعموم أي زمن مهما كان طويلاً أو قصيراً ويحصل فيه حدث أساسي ويتخلله ساعات تجري فيها أحداث فرعية، وهنا وفي عموم القرآن كلمة ساعة تشير لزمن قليل من زمن أكبر منه، وسياق الكلام عن حياة أمّة يشير بالساعة إلى وقت قليل من حياتهم الطويلة التي تبدأ من ولادتهم كأمّة وتنتهي بموتهم كأمّة، فالدقائق والساعات والأيام والسنة بما تعارفنا عليه نحن من زمن يعتمد على تتابع الثواني هو وقت قليل من حياتهم، هو في اللغة العربية يكون ساعة إذا حصل فيه شيء محدَّدٌ كحدث فرعي مرتبط بزمن أطول منه. كمثالٍ، يوم القيامة طويل جداً جداً ويبدأ بساعة قيام المليارات من الموت، تلك ساعة طويلة جداً جداً، ويبقى توصيفها بأنها ساعة لأنها حدث فرعي من أحداث أخرى وكلّها ستجري في يوم، في زمن يجمع كل تلك الأحداث تحت عنوان واحد، ويليه أيام من الحساب الفردي لكلِّ واحد منّا على حِدَةٍ، وأيام الحساب الجماعي للأشخاص والأقوام والأمم، وحضور الأشهاد...

بعبارة أخرى، لكل مجموعة من البشر تعيش في بلد ما ومرّ عليها أجيال مشتركة في التفكير والعقيدة... يوجد لهم موعد ليموتوا فيه كأمّة، وهم لا يستطيعون تغيير الموعد، ولا يمكنهم جعله أقرب، ولا جعله أبعد، خذ مثلاً عن الأمويين والعباسيين والمماليك، والعثمانيين، والمغول والحزب النازي... هذه أمم جاء أجلها وانتهت.

الأجل الذي يأتي لكل أمة لا يعني أنهم يموتون كلهم فجأةً في حادثة واحدة، كطوفان ماء، أو زلزال، أو بركان... من الممكن أن يحصل هذا، ولكن المقصود هو موت الجيل أو الأجيال، سواء ماتوا في زمن قصير أو طويل. لنأخذ مثلاً: الأمة التي كانت في عهد النبي إبراهيم(ع) "في مدينة أور في العراق كما هو مشهور بين الناس"، فهم لم يؤمنوا به (ع)، وجاء أجلهم ومات كل الأشخاص الذين كانوا يعرفون النبي إبراهيم(ع)، وماتوا موزَّعين على فترات طويلة، ولم يموتوا كلهم دفعة واحدة، ورغم الزمن الطويل الذي استغرقه موتهم، كان أجلهم كأمّة، كموعد لموتهم كلهم حتى انتهوا.

الخلاصة من الآية، أنَّهُ تعالى يقول لنا: هذا حلال وهذا حرام، وهذا مسموح وذاك ممنوع، وإن لم تلتزموا، فانتبهوا، لأنَّ لكل أمة موعد ستموت فيه، وطبعاً، يوجد بعد الموت حساب وجزاء، فانتبهوا.

الآية التالية ستعطينا نفس التنبيه ولكن بطريقة مختلفة:

(يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{35})

{يَا بَنِي آدَمَ}، "راجع ما ورد في الآية 26 عن التعبير ببني آدم(ع)"، {إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ}، فإذا أتاكم رسول مبعوث مني ناقل لكلامي، والرسول يكون منكم أي من الناس، وليس من الملائكة(ع) ولا من الجنّ ولا من كوكب آخر... وهؤلاء الرسل، {يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي}، بالتفصيل يخبرونكم بالأمور المميزة بمستواها الإلهي والمنسوبة له تعالى، مثلاً هنا في هذه السورة والتي هي رسالة، وصلتنا منه تعالى عبر الرسول محمد(ع)، وأخبرتنا أنَّهُ تعالى لا يقبل أن يكون لنا وليٌّ غيره، وأخبرتنا أنَّهُ تعالى ينهى عن الفحشاء و... فهذه كلها آيات، وهي دلائل مميزة توضّح لنا الحقّ والصلاح فيما يقوله سبحانه لنا.

{فَمَنِ اتَّقَى}، مَنْ تجنّب وابتعد عن أشياء، وسياق الكلام عن تجنّب السوء الذي يسبّب غضبه تعالى، {وَأَصْلَحَ}، وقام بما هو موصوف بالصلاح، لأنَّ سبحانه جعل فينا قابلية تمييز الصالح من الفاسد، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، وبالتالي الوصف بعمل الصالحات عملياً يتماشى مع ما يأمر به تعالى. وبناءً عليه ما تراه سيئاً وتظن أنَّهُ من أمره تعالى، فإمّا أنك واقع في مشكلة منعتك من تفعيل رؤية الخير فصرت ترى السوء حسناً، أو أصلاً لم يأمر سبحانه بهذا...

{فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ}، من الناحية الإلهية لن يشعروا بخطر من عقابه سبحانه، وهم يشعرون بالأمان، {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}، ومن داخلهم لن يصيبهم شعور مزعج بل بالعكس سيفرحون.

لاحظ تكرار القرآن لموضوع انتفاء الخوف عند المؤمنين وانتفاء حزنهم، وكلتا الكلمتين تعنيان أن المؤمنين في يوم القيامة سيرون الخطر الأكيد وسيرون ما بالتأكيد يسبّب الحزن، من العقاب والإهانة... للكافرين، ولكن المؤمنين نهائياً بتاتاً ولا بأي شكل سيشعرون بالخوف ولا بالحزن، أطلت عليك لأن القرآن كرّر هذا المعنى كثيراً وأرادنا أن نلتفت لشدة وفظاعة يوم القيامة...

(وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{36})
{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}، فقالوا عن الأمور الإلهية المميزة التي نقلها الرسل إنَّها كاذبة غير صادقة، {وَاسْتَكْبَرُوا}، فرأوا أنفسهم أكبر من الالتزام بما تدلّ عليه آياته تعالى، {أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ}، فهم مع بعض في المكان الذي فيه النار التي في الآخرة، {هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، لا يموتون ولا يفنون ولا يخرجون منها، ولن تخرب... بل يبقون يتعذبون فيها إلى ما لا نهاية.

وما السبب لهذا التعذيب الذي لا يَنتهي:

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُواْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ{37})
سبب الخلود في النار والتعذيب الذي لا ينتهي:

{فَمَنْ أَظْلَمُ}، أيُّ إنسان يكون موصوفاً بأنه ظالم، فليس معه حقّ، {مِمَّنِ}، من الذي، {افْتَرَى}، تجنّى واخترع أشياء كاذبة، {عَلَى اللَّهِ}، وهو يعلم أنه يخترعها؟ فقال إنَّهُ سبحانه له ولد، أو له زوجةٌ، أو الملائكة بناته، أو إنَّهُ تعالى يسمح باختراع آلهة وموالاة غيره، أو إنَّهُ سبحانه حرّم الطيبات وسمح بالفحشاء...

ربما يقول أحدهم عن ربنا سبحانه شيئاً غير صحيح، وهو لا ينوي الكذب، بل لِنَقُلْ إنَّهُ فهم القرآن بشكل غير صحيح، فهذا الشخص يكذب ولكنه لا يقصد الافتراء. أمّا الآية هنا فتتحدث عن الذين يكذبون عن قصد، فيخترعون الكذب وهم مدركون تماماً أنهم يكذبون، ويقدسون الأصنام، ويرببون الشخصيات الدينية... بالنسبة لمحور سورتنا فهم يوالون غيره تعالى تاركين دينه على أساس أن ما لديهم فيه الخير... مع علمهم التام بأنه تعالى لم يسمح لهم بموالاة غيره ومع علمهم بأنه تعالى لا يأمر إلا بالخير، ولكنهم يفلسفون ويبررون ما يفعلونه، فهذا هو افتراء الكذب لأنه تعالى أصلاً لم يقله.

الافتراء هو نسبتك كلاماً أو عملاً... للآخرين، تلفّقه وتلصقه بالآخرين وأنت لا تعلم إن هم فعلوه أو قالوه... وقد تلصق بهم شيئاً ويتبين لك فيما بعد أنهم فعلاً قالوه أو فعلوه، فتكون فقط مفترياً لأنك اخترعته ونسبته لهم من دون أن تعلم بأنه صحيح، وقد تلصق بهم شيئاً لا علاقة لهم به وأصلاً لم يفعلوه ولم يقولوه وهذا هو الافتراء الكاذب.

لو أنا قلت إنَّهُ تعالى يوحي إليّ، فأنا أفتري عليه تعالى لأنه لم يُوحِ إليّ، ولو قلت مفاهيمَ مغايرة لما قاله تعالى مدّعياً أنه تعالى قالها، أو قلت عنه تعالى بأنه سيفعل شيئاً وفي الحقيقة سبحانه لن يفعله، ففي هذه الأمثلة أنا أفتري الكذب عليه تعالى لأنه أصلاً لم يقل هذا الكلام، وأصلاً لن يفعل ما قلت أنا إنَّهُ تعالى سيفعله.

خذ مثلاً قولي عنك إنَّك قلت "لي" عن اكتشافك لدواء ما. فإن لم تكن قلت "لي" ذلك، فأنا أفتري عليك، وإن كنت لم تكتشف الدواء، فأنا أفتري عليك كاذباً، فأنا ألصق بك "أفتري" شيئاً غير صحيح "كاذباً".

{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ}، فالأمور المميزّة بمستواها الإلهي والمنسوبة له تعالى قال إنَّها كاذبة غير صادقة، فرآها أو سمعها ولكنه اعتبرها كاذبة وليست دليلاً عليه تعالى ولا على صحة كلامه... فهل هناك تصرّف لا يكون مع الإنسان حقّ به أكثر من هذا؟ فهل هناك ظلم كتصرّف غير عادل ولا منصف أكثر من هذا؟ فهو أمام آيات منه تعالى، من الإله، ويكذّبها!

{أُولَئِكَ}، المفترون والمكذبون، {يَنَالُهُمْ}، يصلهم ويطالهم، {نَصِيبُهُمْ}، ما هو محدّد لهم بلا زيادة، {مِنَ الْكِتَابِ}، مما سجّله تعالى، وقد أخبرنا سبحانه أنه سجّل في كتابه للظالمين خلوداً في النار، فهذا نصيبهم بالتمام.

بعبارة أخرى، قرار تخليدهم في النار ليس جديداً أو فجائياً، بل هو قرار قديم تمّ تسجيله في كتاب خاص، وتتذكّر أن هذا الكتاب ليس مثل كتبنا المصنوعة من ورق أو على الكومبيوتر، فهو كتاب تتعامل معه الملائكة(ع)، فهو مختلف كلياً عن كتبنا التي نعرفها، وفي ذلك الكتاب مسجّل كل شيء عن الدنيا والآخرة، ولمزيد من التفاصيل عنه راجع دراسة الآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

وهكذا عرفنا سبب الخلود في النار، فهو تعذيب قاسٍ جداً جداً ولا ينتهي، وسببه هو الافتراء على الإله العظيم، والتكذيب بآياته والذي يتضمن تكذيبه هو عزّ وجلّ، فهذه قضية لا تغتفر أبداً، وعقابها مؤبّدٌ.

{حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ}، وتعلم من القرآن أنه تعالى يوظّف الملائكة(ع) بهكذا أعمال فهي التي تأتي لتأخذ حياتهم بالتمام، فكانوا ظالمين حتى حان موتهم وأخذت الملائكة(ع) حياتهم، وبعدها، {قَالُوا}، قالت الملائكة(ع): {أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}؟! صاحب هذا الاسم المحدّد المميز هو الإله وأنتم أعلنتم وأشهرتم لغيره أموراً على أساس أنهم آلهة، فأين الذين تعاملتم معهم على أساس أنهم آلهة؟ نحن رسل منه تعالى توفيناكم، وهذا عمل من مستوى إلهي قمنا بتنفيذه بأمر إلهي، وها عدتم إلى الحياة لتتحاسبوا، وها نحاسبكم بأمره تعالى، "وفي الآية التالية سترى العقاب بأمر إلهي"، وكلّ ذلك يحصل بأمر من الله سبحانه صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، فأين الآخرون الذين اعتبرتموهم من مستوى إلهي؟ فلماذا لا يتدخلون لمساعدتكم إن كانوا فعلاً آلهة؟ وما معنى دعائكم لهم في السابق على أساس أنهم آلهة وتركِكم لتوحيده تعالى؟

{قَالُوا}، المفترون والمكذبون: {ضَلُّوا عَنَّا}، لأنَّ الذين كنّا ندعوهم هم على شيء لا يوصلهم لنا، هنا نحن نحتاج لكائن من مستوى إلهي لينفعنا، والذين دعوناهم آلهة ليسوا من مستوى إلهي حتى يصلوا إلينا لمساعدتنا.

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شراً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فقد ضلّ عنك صيدها. وقد استعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، فلم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضالٌّ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} رداً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

{وَشَهِدُوا}، أقرّ المكذّبون المفترون على أنفسهم، واعترفوا على أنفسهم ولم يشهد عليهم أحد، {عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ}، كانوا منكرين لشيء صحيح، فقد أنكروا آياته تعالى والتي تدلّ على وجوب موالاته تعالى لوحده.

لاحظ أن الآية لوحدها بشكل ما تتحمّل معنى حصول كلام الملائكة(ع) مع الكافرين أثناء توفّيهم أو بعده وقبل يوم القيامة، ولكن من تكملة الجملة وعموم القرآن تفهم أن الوفاة حصلت، وفقدوا وعيهم تماماً، وعندما استعادوه في يوم القيامة قالت لهم الملائكة(ع)... وبالنسبة لما يبدو من الجملة أنه وقت قليل جداً بين الوفاة وكلام الملائكة(ع) معهم، فهذا غير مدعوم من عموم القرآن، وهو من مخزون ثقافتنا الدينية التي فيها كلام كثير وتفاصيل عمّا يسمّونه بعالم البرزخ، حيث يفسر بعضهم الآية هنا بأنَّ الملائكة توفّت الظالمين، وهنا في الدنيا في عالم البرزخ قالت الملائكة للظالمين...
وهذا شيء لا يدعمه القرآن بشكل صريح، ومن الصعب استخراجه من فحوى الآيات، ولو نظرت لآيتنا هنا من منظور مفاهيم القرآن التي عبّرت عن فقدان الكافرين للشعور بمرور السنين أثناء وفاتهم، وذلك بسبب فقدانهم التام لوعيهم، وشعورهم فقط بمرور ساعة أو يوم، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 104 من سورة طه {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا}... فسترى أنه فعلاً بالنسبة للكافرين ما حصل كان شبه فوري، فتوفّتهم الملائكة(ع) وفقدوا وعيهم، وحين استعادوه شعر الكافرون بمرور وقت قليل جداً جداً بين موتهم وبين بعثهم في يوم القيامة، وقالت لهم الملائكة: أين ما كنتم تدعون من دون الله... وعموم القرآن يشير صراحة لهذا المعنى، وآيتنا هنا واحدة من تلك الآيات.

بقي شيء، القرآن نقل لنا إنكار الكافرين لكفرهم، وتبريرهم لكل سيّء فعلوه... ونقل مواجهتهم مع الشهود، وشهادة أعضاء جسدهم عليهم... ولكن كما ترى يبدو أن السؤال هنا من أوائل الأسئلة التي يتعرضون لها، وقد أشار له القرآن مراراً، فأول ما سيلاحظونه في يوم القيامة أن الملك والسيطرة وما يمشي هناك... فقط من أوامر الله سبحانه وتعالى، فجوابهم عن ضلال آلهتهم عنهم، هو واقع حالهم، سواء قالوه معترفين أو سكتوا، فهناك في الآخرة حيث يسيرون باتجاه جهنّم ولا أثر لأي إله من آلهتهم...

(قَالَ ادْخُلُواْ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّن الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـكِن لاَّ تَعْلَمُونَ{38})
ما سبق كان من حساب الملائكة(ع) للكافرين، وبعد انتهاء الحساب، {قَالَ} الله تعالى للمكذبين والمفترين: {ادْخُلُوا فِي}، كونوا في، {أُمَمٍ}، مجموعات الناس التي كانت مشتركة من قبلكم بالافتراء والكذب ولها امتداد تاريخي في ذلك، {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ}، كانت موجودة قبلكم في الدنيا وذهبت، {مِنَ} أمم {الْجِنِّ}، من الكائنات المخلوقة من نار، وأمم {وَالْإِنْسِ}، الناس، فادخلوا في تلك الأمم، {فِي النَّارِ}، فكونوا معهم في المكان الذي فيه النار.

في يوم القيامة يتم حشر الناس وجمعهم مع بعض في مجموعات تشترك في تصرفاتها وأفكارها، كمجموعة الذين عاندوا النبي موسى(ع)، ومجموعة الذين قالوا عن النبي عيسى(ع) إنَّهُ ابن الله تعالى... وتلك المجموعات تنضم لاحقاً إلى مجموعة أكبر منها، وهي مجموعة المفترين والمكذبين، وهناك مجموعات أخرى كبيرة مثل القتلة والمجرمين، ومجموعة الذين لم يصلّوا ولم يصوموا ولم يتصدقوا... ثم تنضم جميع تلك المجموعات مع بعضها في النار.

{كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ}، كلّما صارت في النار مجموعة من أولئك الناس المتشابهين في امتدادهم التاريخي بالكفر، {لَعَنَتْ أُخْتَهَا}، فدعت بالطرد من الرحمة الإلهية على الأمة التي تشاركها في النار! فهم يدخلون ويرون أجدادهم من الكفّار، ويرون الأمم السابقة التي سمعوا عنها، ويرون الأمم التي لحقتهم بالكفر، فيطلبون منه تعالى أن يعامل الآخرين بأقصى ما يخالف العناية بهم، فيصيبهم بأقصى العذاب...

لنتذكر أنهم هنا في الدنيا كانوا يقولون: أجدادنا كانوا يقولون بتعدد الآلهة، وأجداد أجدادنا أيضاً، وأناس كثيرون في مختلف المناطق على الأرض مثلنا، وأنتم أيها الرسل وأيها المؤمنون تريدون إقناعنا بأنَّهم كلهم على خطأ! وهذا الكلام عن بركتهم وتأييدهم ببقية الكفّار أمثالهم كان هنا في الدنيا، أمّا في الآخرة فعندما يلتقون بهم، فأول ما يقولون لأجدادهم، ولأجداد أجدادهم، وللناس الذين مثلهم: لعنة الله عليكم. صحيح أنهم كلّهم في حالة اللعنة، في حالة الطرد من الرحمة الإلهية، لأنَّهم لا ينالون منه تعالى أي عناية بهم لما فيه مصلحتهم، ولكنهم يطلبون زيادة اللعنة لأنه لا حبّ ولا رحمة لبعضهم البعض في قلوب الداخلين إلى النار، إذْ لا أحد من سكان النار لديه شفقة على غيره.

{حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا}، فأخذوا مواقعهم المحددة {فِيهَا}، في النار، {جَمِيعًا}، حيث دخل كل الناس والجنّ من المكذبين والمفترين والمجرمين... إلى النار، فعندما اجتمع الكل، {قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ}، فالأمة التي دخلت النار في الآخر قالت للأمّة التي سبقتها ودخلت إلى النار: {رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا}، فجعلونا على الشيء الخطأ الذي أوصلنا لهذه النتيجة السيّئة، وجعلونا نتشجع ونكفر، {فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ}، فما يتعرضون له ويؤذيهم من النار فليكن مضاعفاً فليكن أكثر ألماً مما هم فيه.

{قَالَ} تعالى: {لِكُلٍّ ضِعْفٌ}، كل واحد منكم له ضعف فله زيادة في التعذيب، {وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ}، فما ترونه من عذابهم هو فعلاً مؤلم إلى أقصى الحدود، وهم فعلاً في أشدّ العذاب، وأنتم كذلك ستكونون، ولكنكم لا تعلمون بذلك.

تفهمها إذا لم تعلق على معنى كلمة ضعف بأنه الزيادة، فلا زيادة على ما يستحقونه من عذاب، فهو العذاب المضاعف ألماً، وهو عقابهم الذي يستحقّونه، وتفهمها لو عايشت حالتهم وتصوّرت نفسك داخلاً إلى النار، وتألَّمْتَ إلى أقصى حدود الألم، ووجدت من سبقك من أمم الكفر يتألمون، ولكن من شدّة ألمك وكرهك لهم على أساس أنهم شجّعوك فكفرت وصرت هنا، فستطلب لهم عذاباً أشدّ من عذابك، على أساس أن الألم الذي تشعر به هو الأقصى وتطلب أن يحصلوا عليه أيضاً، لأنَّ هناك عذاباً عادياً وهناك عذاباً مضاعفاً عن العادي، وهو عذاب في أشدّ قوته... حيث يجيبهم تعالى بأنَّ كلّ واحد منكم يشعر بأنه ينال عذاباً فوق العادي، عذاباً مضاعفاً، ولا تعلمون بأنَّ الآخرين الذين في النار أيضاً

يشعرون بأنهم في حالة العذاب غير العادي، ويشعر كل واحد بأنَّهُ هو لوحده في حالة العذاب الضعف عن العذاب العادي.

لو أطلت عليك، فمن القرآن تفهم بأنَّ حال أهل الجنّة مشابه ولكن بالعكس، حيث كل من في الجنّة، في أعلى درجة أو في أقلّ درجة، سيشعر بأنَّ السعادة التي هو فيها هي أقصى سعادة، ولذا لا ولا بأي طريقة سيخطر بباله أنَّ الآخرين سعداء أكثر منه، ولن يشعر ولو للمحة أنَّهُ في سعادة أقل من سعادة الآخرين، مع أنه يعلم أنهم كانوا في الدنيا من المؤمنين العاملين للصالحات أكثر منه، ولكنه أبداً بتاتاً لن يشعر بأن ما معهم أو أنَّ حياتهم وسعادتهم أكثر منه، والحال مشابه بشكل معاكس لحالة أهل النار الذين يشعر كلّ واحد منهم بأن الآخرين يتعذبون ولكنه يتعذّب أكثر منهم، ويطلب أن يتعذّبوا أكثر منه.

أضف لذلك أن العذاب في النار لا يخفّ بل يزيد مع الوقت، وهو يتضاعف مع الوقت، إذْ إنَّ الجزاء على سيئاتهم يتضمن التصاعدية في العذاب، لنقل مثلاً على التخمين أنَّ عذابهم يبدأ بسيئاتهم الصغيرة، ثم الأكبر منها، ويتضاعف العذاب، ثم الأكبر منها، ويتضاعف العذاب أكثر... يعني مضاعفة العذاب ليست متعارضة مع مجازاتهم بالضبط بما فعلوه، وهي ليست ظلماً لهم. وتفهمها بمقارنتها مع ثواب الصدقة بتفاحة، هل يكون أجرها في الآخرة تفاحة أو صندوق تفاح، أو بساتين تفّاح، على قاعدة أن الحسنة تتضاعف؟ لا، بل الصدقة بتفاحة وبحسب صفاء نيّة المتصدّق تصير قصوراً وبساتينَ وما يسبب السعادة... هذه هي أجور الصدقة بتفاحة ومن بعدها تأتي المضاعفة، ومن بعدها تأتي الزيادة من عنده تعالى. طبعاً الكلام عن أجر التفاحة مثال لتسهيل فهم معنى الأجر، وبالتالي فهم معنى الجزاء بالعقاب، ومجازاة الذي عذب بريئاً في الدنيا لن يكون بتعذيبه بمثلما فعل، بضربة واحدة تكسّر عظامه، لا، بل سيتعرّض لتكسير عظامه إلى ما لا نهاية، لأنَّ هذا هو الجزاء المعادل للسوء الذي فعله، وهذا ما نفهمه من كلامه تعالى عن السيئة بمثلها مع الخلود في النار، حيث إنَّ تكسير عظام لبريء يُقابَلُ بتكسير عظام الظالم، وتكسيرها مرة ثانية وثالثة وإلى ما لا نهاية... أمّا التبرير لذلك فهو أنَّ الظالم لم يتب ولم يستغفر في الدنيا، لأنه سيكررها وسيعيد فعلها كلما سنحت له الفرصة، ومات ونفسيته وفكره مطبوعة على هذا السوء، ولذلك ينال عقاباً بلا نهاية عليه... وأمّا لو كان هناك حالة عرضية طارئة لفعل السوء، بلا نية تكراره أو مع الندم منه... هنا تصير التفاصيل شائكة وكثيرة، لذلك أيام الحساب طويلة لتصفية حساب كل واحد بالحق وهم لا يظلمون...

تذكّر أن السورة من بدايتها تمحورت حول أهل القرى، وبني آدم، وتوجَّهَ كلامها عن المجتمعات، وهنا ترى الكلام عن الأمم، وبعدها سترى الكلام عن أقوام عاقبهم سبحانه... إذْ إنَّ محورية السورة حول مسألة ولاية المجتمعات له تعالى.

(وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ{39})
{وَقَالَتْ أُولاَهُمْ}، الأمة الكافرة التي كانت تعيش قبلهم في الدنيا، ردّت وقالت، {لِأُخْرَاهُمْ}، للأمة التي ماتت في الآخر، ودخلت النار في الآخر: {فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ}، فأنتم لستم أفضل منّا، لأنكم فعلتم ما فعلناه فعلى ماذا ولأي سبب تطلبون لنا مضاعفة العذاب؟ وكأنكم كنتم أفضل منّا وكأننا نحن سبّبنا لكم العذاب! فهل لأننا كفرنا قبلكم كنّا سبباً مبرراً لكفركم؟ {فَذُوقُوا}، فاشعروا وتحسسوا، {الْعَذَابَ}، ما يصيبكم ويؤذيكم، {بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ}، بسبب ما حصلتم عليه مما نتج من عملكم وكلامكم، ,ما ستذوقونه من عذاب هو ناتج عمّا فعلتموه أنتم بأنفسكم لأنفسكم.

ننتبه للكره والحقد واللؤم والخباثة والشتم واللعن والأذية... هذه هي نفسيات سكان النار، حيث سيعذّبون بعضهم البعض بالكلام القاسي والكره...

الكلام هنا عن الكافرين ينطبق على الأقل منهم درجة في الكفر، وصولاً إلينا نحن ضعاف الإيمان، فلا تبرير لنا بالبقاء على سوء كان يفعله السابقون، حتى لو كانوا فعلوه تحت عنوان الدين الإلهي، وهذا شيء منتشر الكلام عنه في القرآن.

(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ{40})

{إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}، فقالوا عن الأمور المميزة بمستواها الإلهي والمنسوبة له تعالى إنَّها كاذبة فلم يصدّقوها، {وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا}، ورأوا أنفسهم أكبر من الإيمان بالآيات، فهذه النوعية من الناس في يوم القيامة، {لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ}، فتبقى مغلقة، ولا باب ولا ممر لهم للخروج من النار، فمهما دعوا وتضرعوا وبكوا وتندّموا وتألموا وصرخوا... فلن يتغيّر حالهم، والإشارة هنا إلى كونهم في قعر، في مكان كالحفرة العميقة وكلّه ملتهب، وفوقهم سماء لا يرونها ولكن يعلمون أنَّهُ ليس فيها عذاب، فهم في مكان مغلق عليهم ولن ينفتح لهم أي باب للخروج منه والانتقال إلى سماء أخرى، بعبارة أخرى لا يوجد ولا أي طريقة لخروجهم من النار، لأنَّ الله تعالى لن يغيّر قراره وحكمه فيهم أبداً بتاتاً.

تَصَوَّرْ تخيّلياً حالتهم على كوكب كلّه مشتعل، ويفور بالبراكين... فأينما ذهبوا يطالهم العذاب، ويعلمون من ساحة الحساب أن المؤمنين في الجنّة التي عرضها كعرض السماوات والأرض، ولنتصوّر تخيّلياً مشابهتها لكوننا الحالي بمجراته التريليونية، وكل مجرّة فيها تريليونات الكواكب، وكلّها جنان، فأهل النار في نقطة وفوقهم السماء التي يعلمون أنَّها جنان ويتمنون الخروج من أرض النار إلى السماء، إلى حيث الجنّة.

{وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ}، فلا يصيرون في المكان الموصوف بروعته، {حَتَّى يَلِجَ} يدخل {الْجَمَلُ} "القلس الغليظ" الحبل الثخين كالذي يربطون السفن به، {فِي سَمِّ}، في ثقب أو خرم، {الْخِيَاطِ}، إبرة الخياطة، الإبرة الصغيرة التي نخيط بها الثياب، وهذا يعني أنهم لن يدخلوا إلى الجنة أبداً.

نلاحظ أن القرآن لم يستعمل كلمة "جمل" للحديث عن الحيوان المعروف ذي السنمة، وفي كلام العرب قديماً استعمال لكلمة "جمل" لعموم ما كان ضخماً، وهنا الكلام عن شيء يدخل في الإبرة، فنفهم أن الجمل وصف لما يشبه الخيط ولكنه ضخم، وورد في القواميس أن كلمة جمل يستعملها البحّارة لوصف حبالهم السميكة.

قرأت لسخيف علّق على آيتنا هنا بأنها تعبير غير صحيح لأنه يمكن صنع إبرة بثقب كبير يدخل فيه الحبل... وأبهرني ذكاؤه، فلو لم يخبرنا بذلك لكنّا ضللنا واقتنعنا بأن القرآن كلام إلهي، فشكراً له على ما قدّمه من معرفة قيّمة، ونضيف له أن يترك الإبرة على حجمها وينسّل الحبل إلى خيوط صغيرة، ويدخلها في خرم الإبرة ويخرجها من الجهة الثانية واحدة بعد الأخرى... وهكذا يمر الحبل كلّه في خرم الإبرة ويكون تكذيباً للآية ودليلاً على أنها ليست كلاماً إلهياً. فليكن هذا الكلام نموذجاً لك عن سخافة وتفاهة وغباء يتمتّع به الكافرون بالقرآن، فالآية تفترض أنها تتحدّث مع أناس لديهم فهم وعقل ولو من أقل درجة مقبولة، فيفهمون أنه لو بقي الحبل على حجمه الثخين والإبرة على حجمها الصغير فمن المستحيل مرور الحبل فيها، وكذلك يستحيل دخول الكفّار إلى الجنّة، والفهيم صاحب الأفكار المنيرة فليصنع في خياله أو عن حقيقة إبرة تدخل في ثقبها سفينة، ولْيَرَ إن كان ذلك سيخرجه من النار.

{وَكَذَلِكَ}، بالذي ذكرناه بالخلود في جهنّم، {نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ}، نعطي المقابل المعادل للذين ارتكبوا أعمالاً يستحقّون العقاب عليها.

بقي شيء، مِنْ مفاهيم القرآن تستوحي أن البعض سيدخلون إلى النار للمحة أو لثانية أو... لأيام أو لسنوات... وفي الأخير يخرجون منها ليدخلوا إلى الجنّة، وهذا يحصل مع الذين لم يكفروا به تعالى ولم يرتكبوا الجرائم من العيار الثقيل كقتل الأبرياء... ولم يذكر القرآن هذا الكلام صراحة لأنه تعالى لم يرد أن يطمع عموم الناس بهذا ويقولوا كما قال من سبقنا من أهل الكتاب إنَّنا مهما فعلنا فلن ندخل النار إلا أياماً معدودات وبعدها ندخل إلى الجنّة، وهنا الآية لم تتطرّق للمؤمنين المرتكبين لأعمال لا تسبّب الخلود في النار، وأشارت في نفس الوقت إلى وجود أبواب يمكن أن تنفتح لمن في النار، ولكن المجرمين من المستحيل أن تنفتح لهم تلك الأبواب مثل استحالة دخول الحبل الثخين في إبرة صغيرة.

هناك كلام في بعض الكتب الاسلامية يقولون فيه، إنَّ التعبير بدخول الجمل في سمّ الخياط لا يقصد الاستحالة، بل يشير إلى احتمال خروجهم من النار بعد تنحيف الجمل "على أساس أن المقصود به الحيوان"... على كل حال وبغض النظر عن النقاش في معنى كلمة جمل، مِنْ أين حوّروا سياق الآيات هنا ليصير كلامها عن المؤمنين الذين لم يرتكبوا الجرائم الكبيرة؟ فآخر كلام الآية عن المجرمين، وكل القرآن توعدّهم بالخلود في النار، وسياق الآيات هنا ممتد من الآية 36 التي بصراحة تحدّثت عن خلودهم في النار! وكما ترى فهم خلطوا بين حالة الذين لم يكن الحكم عليهم بالخلود في النار،

وبين المجرمين المحكوم عليهم الخلود في النار، وتعاملوا مع الآية بجمود وأرادوا تحريكها ليتضمّن كلامها الذين لا يخلدون في النار، بينما الآية كلامها محصور عن المحكوم عليهم الخلود في النار.

(لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ{41})
{لَهُم}، لأولئك الكافرين بالآيات، {مِّن جَهَنَّمَ}، من المكان الموصوف بسوء ما فيه، حيث إنَّ النار المتأججة بدرجة حرارة عالية جدا جدا، {لَهُم}، {مِهَادٌ}، أرضية ومكان تمّت تهيئته ليقفوا أو يجلسوا أو يستلقوا فيه، فالفراش على الأرض هو مهاد جيد، ولكن لو فرشت الأرض بالشوك، وأجبرت شخصا على النوم عليه، فالشوك أيضا مهاد ولكنه عَاطِل، وأرضية جهنم وعرة ملتهبة وسيبقون فيها إلى الأبد.

{وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ}، شيء يغشاهم، ويُحيط وينتشر عليهم، لأنَّ النار ودخانها أيضا من فوقهم، {وَكَذَلِكَ}، بـهذا المكان السيّء جدا من كل الجهات، {نَجْزِي الظَّالِمِينَ}، نعطي المعادل المقابل للذين لم يكن معهم حقّ حين كفروا بالآيات الإلهية، حيث كانت واضحة وأكثر من كافية ليؤمنوا ولكنهم ظلما كفروا بها، فلم يكن معهم حق حين كفروا بها.

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{42})
هل الإيمان "وموالاته وإطاعته تعالى" شيء صعب؟ لِنَرَ مقابل الكافرين ماذا يوجد:

{وَالَّذِينَ آمَنُواْ}، حيث اعتقدوا بآياته تعالى وبالتالي اعتقدوا بتوحيده تعالى... واعتقدوا برسله وبحسابه و... {وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ}،

قاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، حيث خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، عملياً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى. وبشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموما وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائما أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى ويؤمنون به. وهذا الكلام له عمق، لذا لا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعا ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. وهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّا لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو سيّء" فهو في الحقيقة اختراع من البشر وليس أمرا إلهيا.

{لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً}، لا نفرض لا نوجب عملا على نفس، على أي شخص كان، {إِلاَّ وُسْعَهَا}، إلا بحسب سَعَة قدرتها، إلا بحسب قدرتها على التحمل.

بعبارة أخرى: تحدثت الآيات السابقة عن الخلود في النار للمفترين والمكذبين الذين قاموا بأعمال إجرامية وظالمة، وهنا الآيات ستتحدث عن الخلود في الجنة للذين آمنوا وقاموا بالأعمال الصالحة، ومباشرة تأتي جملة من الكلام لتبين لنا أن الإيمان والعمل الصالح لم يكن مستحيلا، حيث لم يكن فوق قدرتنا على التحمّل، بل كان مدروسا منه تعالى الذي كلّف كل شخص منّا بقدر سعة تحمّله، أي بمقدار ما يستطيع أن يتحمّل، فمن آمن فهذا لم ينجز عملا جبّارا فوق قدرته، ومن كفر فهذا لم يُعْرَض عليه دينه تعالى فارضا عليه أمورا فوق قدرته على التحمّل، لا، لأنَّ الإيمان على قدر قدرة أي واحد منّا على التحمّل وليس فيه أمور فوق قدرتنا على التحمّل.

الوصول لنهاية دخول الجنة والخلود فيها، ليس مستحيلا، بل كلنا قادرون عليه. ولا تَنْسَ أن الدين فيه تكاليف، بعضها سهل وبعضها الآخر وبسبب الظروف يصير صعبا، كوجوب محاربة العدو "جهاد"... ولكن بالعموم فكلّ ما سيحاسبك عليه تعالى بالعقاب فكان بإمكانك تركه، وكل ما سيحاسبك عليه تعالى بالثواب بجنّة خالدة فكان بإمكانك فعله، وهذا ما تريدك الآية أن تفهمه، وهذا لبّ السورة المتمحور حول صلاح ما يأمرنا به تعالى، وبالتالي مصلحتنا فيه، وفساد ما يخالف أوامره تعالى وبالتالي فيه السوء لنا.

{أُوْلَـئِكَ}، المؤمنون العاملون للصالحات هم، {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ}، وسيكونون مع بعض في المكان الموصوف بالروعة، {هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، لا يموتون ولا يفنون ولا يخرجون منها ولا هي تخرب...

نلاحظ القرآن دائما يقرن بين الإيمان والعمل الصالح مع بعض، والنتيجة للاثنين معا هي دخول الجنة، فلا الإيمان بدون عمل صالح ينفع، ولا العمل الصالح من دون إيمان ينفع، بل كلاهما معا ينفعان.

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{43})

{وَنَزَعْنَا}، أبعدنا شيئا عن شيء كان ملتصقا به، {مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ}، في صدورهم، في مركز تفاعلهم مع ما يدركونه، في تفاعلهم مع ما تلتقطه حواسّهم وأفكارهم، يوجد غلّ، يوجد شيء ثقيل يربط تفاعلهم مع الأمور، ومما سبق من كلام عن المؤمنين العاملين للصالحات ومن تكملة الجملة نفهم أن الغلّ شعور سيّء كان بين المؤمنين العاملين للصالحات، وسينزعه تعالى أوّل ما يبعثهم إلى الحياة في الآخرة، ربما في السابق كانوا يعرفون بعضهم وبينهم خلاف طفولي سخيف لم يتجاوزوه... وربما من دون قصد آذى أحدهم الآخر... أو حتى لو لم يكن المؤمن في قلبه أي غلّ على أي أحد، فحتى لا يحصل في الجنّة ولأي سبب كان، أي غلّ بين سكّانها، فسبحانه سينزع هذا النوع من المشاعر السيّئة نهائيا من مركز تفاعلنا مما نتعرّض له، فكما تضحك لطفلك الرضيع إذا ضربك، ولن يحصل عندك أي شعور سيّء تجاهه بسبب شدّة محبّتك له، فكذلك يصير أهل الجنّة مع بعضهم في الجنّة من بعد نزع الغلّ من صدورهم، حيث يقبلون بفرح وسعادة كل ما يفعله الآخرون، لأنَّ كلّهم لن يقصدوا الضرر ولا الأذية لبعضهم البعض.

لو أطلت عليك، فكثيرا ما سمعنا عن زوجة تسأل، إن دخلت الجنّة فهل هي مجبرة هناك على العيش مع زوجها إن دخل الجنّة؟ وكذلك الزوج يسأل عن ذلك، وفي داخلهم ذكريات عن المشاحنات والخلافات التي تحصل بين الزوج والزوجة، وعن تحمّله وعن تحمّلها لتصرفات لا يحبّونها من بعضهم... فآيتنا هنا توضيح لهذا النموذج البارز ولغيره من الأمثلة التي تتواجد بين المؤمنين الذين لم تتوافق طباعهم مع بعض في الدنيا... فهم إن دخلوا جنّة الآخرة فلن يشعروا بأي غلّ ولا بأي شكل تجاه أي أحد آخر في الجنّة، والآية هنا تتحدّث عن نزع الغلّ من صدور المؤمنين تجاه بعضهم البعض من أول لحظة قيامهم من الموت.

{وَقَالُواْ}، الذين آمنوا وعملوا الصالحات: {الْحَمْدُ لِلّهِ}، لأنَّ كل ما يفعله تعالى موصوف بأنه محمود جيّد حسن، {الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا}، الذي وضعنا على الشيء الذي أوصلنا للمرغوب المحبوب الذي نحن فيه الآن، حيث وضعنا على الإيمان الذي أوصلنا إلى هذا الاحترام والراحة التي نجدها في يوم القيامة وما بعده، {وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ}، لأنَّ أي طريق آخر غير الطريق الإلهي لم يكن ليوصلنا إلى ما نحن فيه.

{لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ}، حيث إنَّ الذين أرسلهم لنا المسؤول عنّا من مستوى إلهي نقلوا لنا الكلام الصواب الصحيح، وها نحن نرى ترجمة كلامهم عملياً، حيث قمنا من الموت إلى الحياة، وها نرى المؤمنين يتنعمون والكفّار يتعذّبون.

{وَنُودُواْ}، حيث توجّه إليهم أحد ما بكلام، {أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ}، حيث ترون المكان الموصوف بالروعة، لأنهم يتنعمون في يوم القيامة ولم يدخلوا إلى الجنّة بعد، لذا تشير الملائكة(ع) الى الجنة الخالدة التي تقترب منهم على مهل، وصوّرت العديد من الآيات هذا المشهد بتعابير مختلفة منها ما ورد في الآية 31 من سورة ق "وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ"، حيث تشير الملائكة(ع) للمؤمنين إلى الجنّة ويقولون لهم إنَّ تلك الجنّة التي ترونها، {أُورِثْتُمُوهَا}، حيث صارت لكم ولن يستردّها منكم الذي أعطاها لكم، {بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، حيث حصلتم على تمليك الجنّة لكم بسبب عملكم الذي كان على ما أمر به تعالى.

بالنسبة للتعبير بالوراثة للجنّة، فإنَّ انتقال الملكية بالوراثة ليس حصراً على انتقاله من ميّت كما تصوّر الكثيرون، وأطالوا في شروحاتهم وتخميناتهم حتى قالوا إنَّ أهل الجنّة ورثوا الأماكن التي كان من المفروض أن يحصل عليها أهل النار لو آمنوا! وهذا شيء بدعة بعيد كل البعد عن مفاهيم القرآن... على كل حال فالإرث وصف لعموم انتقال الملكية بدون تدخّل المالك السابق فيها من بعد انتقال ملكيتها، ومن أبرز نماذج توقّف المالك السابق عن التدخّل، هو حالة موت

المالك السابق، أمّا توريثه تعالى للجنّة فهو تعبير عميق يشير إلى نقله تعالى لملكية الجنّة الخالدة للمؤمنين بدون أي استرداد منه تعالى لها نهائيا.

لم يستعمل القرآن ولا أي تعبير يشير ولا بأي شكل إلى تمليك النار لأهل النار، لأنَّ الميراث هو انتقال الملكية وتوقف المالك السابق عن التدخّل فيها، لذا فإنَّ توريث الجنّة تعبير عن قرار إلهي بالمنحة الدائمة الخالدة للجنّة لأهل الجنّة، وما هو دارج في كلامنا عن الدعاء بجعل مثوى فلان الجنّة، فهذا تعبير لم يستعمله القرآن لأنه غير دقيق ولا يتماشى مع تمليك الجنّة لأهل الجنّة، واستعمل القرآن كلمة مثوى لتوصيف حالة أهل النار كمثوى لهم فيها، لأنهم كالسجين مؤبداً في سجن، فهو مقيم "ثاوٍ" في السجن وليس مستأجراً له ولا مالكاً له، وكذلك أهل النار ثاوون فيها كالسجين كالعبد كالضيف في مكان غريب... في مكان لا يملكه وليس له، وراجع استعمال القرآن لكلمة ثاوٍ في الآية 21 من سورة يوسف "وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ..." الواصفة لحال العبد يوسف في بيت سيّده، والآية 45 من سورة القصص "... وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا..." الواصفة لحالة الهارب الضيف موسى في مدين، والآية 151 من سورة آل عمران "سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ".

(وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ{44})
{وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ}، الموصوفون بأنهم سيكونون مع بعض في جنّة الآخرة توجّهوا بكلام إلى، {أَصْحَابِ النَّارِ}، إلى الذين سيكونون مع بعض في نار الآخرة، فقالوا لهم، {أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً}، فقالوا بما معناه ومفاده أنّ ما قاله المسؤول عنّا من مستوى إلهي أنه سيفعله وفعلا حصل وكان حقّا ولم يكن كذبا أو كلاما باطلا، حيث وعدنا سبحانه إن آمنّا وعملنا الصالحات أن يدخلنا الجنّة، وها نحن نراها أمامنا، {فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً}؟ حيث قال المسؤول عنكم من مستوى إلهي أنه سيعذّب الذين يكفرون بآياته ويوالون غيره فهل كان وعده تعالى كاذبا باطلا أم حصل؟

أصحاب الجنّة في يوم القيامة يرون أصحاب النار يتعذّبون ومصيرهم بعد ذلك إلى النار، والسؤال تهكّمي للسخرية منهم كما سخر الكافرون من المؤمنين في الدنيا.

{قَالُواْ}، الكافرون بالآيات: {نَعَمْ}. نؤكّد كلامكم حيث كان وعده تعالى حقا، فها نحن في حالة العقاب والآتي أعظم.

{فَأَذَّنَ}، فقال أحد ما كلاما يعلنه للجميع، {مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ}، واحد من أصحاب الجنة أعلن فقال، {أَن لَّعْنَةُ اللهِ}، فأعلن للجميع بما معناه أن الطرد من العناية الإلهية، {عَلَى الظَّالِمِينَ}، على الذين لم يكن معهم حقّ فظلما قالوا عن وعده تعالى بأنه كاذب، حيث كانت الآيات أكثر من كافية ليؤمنوا ولكنهم ظلما كفروا بها فلم يكن معهم حقّ بكفرهم.

لاحظ وانتبه أن الآية هنا وما سيليها تتحدّث عن مشاهد في يوم القيامة، حيث إنَّ أصحاب الجنّة وأصحاب النار ما زالوا واقفين في ساحة الحساب وجرى فرز الناس لمؤمنين سيدخلون الجنّة وكافرين سيدخلون النار، وفي مقابلهم صراط كطريق إلى الجنّة والنار... فعلى اليمين "في مقابل التوجّه نحو الجنة والنار" فهناك مكان للمؤمنين وهم يتنعمون فيه قبل الدخول إلى الجنّة، وعلى الشمال هناك الذين سيدخلون إلى النار، وهم يتعرضون للإهانة والتعذيب.

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ{45})
نكمل مع الأذان... الظالمون هم، {الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}، حيث يمنعون الآخرين من سلوك المسلك الإلهي، وعندما يفترون الكذب عليه تعالى فهم يضللون الناس، ويشوّشون عقولهم، ويبعدونهم عن الحقّ...

الظالمون، {يَبْغُونَهَا عِوَجاً}، يريدون سبيله تعالى أن يكون مُلْتَوِياً وغير مستقيم، حيث يريدون العقيدة والشريعة على مزاجهم السيّء الفاسد وبعدها لا مشكلة أن تكون منسوبة له تعالى، ويريدون أن يكونوا أحرارا فيمن يوالونه وفي الحلال والحرام وفي تركهم لعبادته تعالى وتكذيبهم لرسله... وليكن هذا الاعوجاج عن سبيله تعالى هو الدين الإلهي!

كأن الخلاف معهم على التسمية وليس على الشيء الحقيقي الفعلي، لأنَّ بعض الناس من شدّة تعلّقهم بسلوكهم السيّء المخالف لأوامره تعالى، وهم لا يريدون تغييره، يقولون إنَّهُ ما المشكلة إذا بقوا كما هم على سلوكهم واعتبرتهم على دينه تعالى؟! فأنت لديك سلوك وتعطيه عنوان "دين الله تعالى" فما المانع أن يكون نفس العنوان لسلوكهم وتنتقل أنت لتصير مثلهم على دين الله تعالى؟

هؤلاء الظالمون إنما يفترون ويكذبون ويصدون ويبغونها عوجا، {وَهُم بِالآخِرَةِ}، بالتي ستأتي في الآخِرِ بعد انتهاء الحياة الدنيا، {كَافِرُونَ}، ناكرون لا يصدّقون أنها ستحصل.

لاحظ ربط القرآن مرارا بين إنكار الآخرة وبين الكفر، لو آمنت بأنَّهُ يوجد عقاب على مخالفة القانون وأن الشرطة ستقبض عليك، لفكّرت كثيرا قبل ارتكاب الجرم، هذا إن كنت تفكّر، وهؤلاء بما أنهم لا يعتقدون بأنَّهُ يوجد آخرة سنعود فيها إلى الحياة لنتحاسب ونتجازى على ما فعلناه في حياتنا الدنيا، لِذَا لا يرون أنفسهم ملزمين بموالاته تعالى، ويرون أنهم على راحتهم ويمكنهم فعل ما يريدونه حتى لو كان سَيِّئاً.

(وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ{46})
نكمل مع مشاهد من يوم القيامة:

{وَبَيْنَهُمَا}، وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار يوجد، {حِجَابٌ}، شيء يحجب، وكما ترى وسترى فهو حجاب يمنع انتقال أصحاب النار إلى مكان أصحاب الجنّة، أمّا ما هو نوع هذا الحجاب فلا ندري، وما نعلمه من عموم القرآن أنه في يوم القيامة يوجد حاجب كمانع حاجز لانتقال أصحاب النار إلى ناحية أصحاب الجنّة، هذا بالرغم من إمكانية تواصلهم مع بعض، حيث يرون ويسمعون بعضهم البعض... ولدينا آيات تنقل لنا مشاهدَ فيها حجاب بين من في الجنّة ومن في النار، فيمكن لمن في الجنّة أن يرى من في النار، ولا يمكن لمن في النار الانتقال إلى الجنّة، ولا يمكنه تمتيع نظره بها ولا يمكنه حتى أن يشمّ ريحها الطيّبة... وهذا ما تفهمه من عموم كلام القرآن ومن ذلك ما في الآية 55 من سورة الصافات "فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ"، فهذا واحد من أهل الجنّة أراد الاطلاع على مصير قرين سوء كان يحاول إضلاله...

{وَعَلَى الأَعْرَافِ}، وسيبدو لك من تكملة الآية وبقية الآيات التالية أن الأعراف اسم بقعة في يوم القيامة بين أصحاب الجنّة وأصحاب النار وعليها، {رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ}، وفيها أناس "يعرفون" من في يوم القيامة بسيماهم، فسمّى القرآن بقعة وقوفهم بوصفهم أنهم يعرفون فهم على الأعراف، مثل تسمية مكان ما بأنه "مرصد" كتسمية على وصف من فيه والذي يرصد. وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم، يعرفون كل واحد من الملامح والعلامات الخاصة به، لأنَّ الملامح والتفاصيل هي التي تجعلنا نميّز الأشخاص عن بعضهم، فنعرف أن هذا أبي وذاك أخي والآخر صديق الطفولة وغيره... مع أنهم كلهم لديهم عينان وأنف وفم وأكتاف... ولكن لكل واحد منهم صفات تميّزه عن الآخرين ونعرفه بها فهذه هي السمات.

ليس المقصود أن كل شخص من أهل الأعراف يعرف كل شخص في يوم القيامة، لأنه لا يوجد شخص يعرف مليارات البشر، وسترى مما سيأتي أنهم يعرفون الأشخاص الذين كانوا يعرفونهم في الدنيا، ولكن يعرفونهم بسماتهم "بسيماهم" لأن أشكال الناس تتغير في يوم القيامة، حيث أصحاب الجنة وجوههم جميلة نضرة متوردة... وأصحاب النار وجوههم كالحة معتمة... قارنها مع شخص أجرى عملية تجميل، ليتغيّر وتبقى بعض السمات التي توحي لك أنه فلان... الآن قارنها مع جمال أصحاب الجنّة بمستوى الجمال الموعودين به في الآخرة، والذي سيكون تغيّراً هائلا، ولكن ستبقى سمات تعرف منها بأنه فلان من الناس الذي كنت تعرفه في الدنيا.

سيتبين لك من تكملة الآيات أن رجال الأعراف هم أشخاص كان لهم شغل في الدعوة ونشر الدين الإلهي، وأنهم من الأنبياء والرسل والأوصياء والعلماء والدعاة و...

ورجال الأعراف، {وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ}، توجّهوا بالكلام إلى الذين سيكونون مع بعض في الجنّة، {أَن سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ}، سيقولون لهم ما معناه أنه لن يصيبكم أي سوء ولا بأي شكل، فكونوا مطمئنين، فلا خوف ولا حزن، {لَمْ

يَدْخُلُوهَا}، أصحاب الجنّة والرجال الذين على الأعراف لم يدخلوا إلى الجنّة، حيث انتهى الحساب ولكنهم لا يزالون في ساحة الحساب، ولنقل إنه آخر يوم من الحساب، {وَهُمْ يَطْمَعُونَ}، وهم يرغبون بشدة بالدخول إليها مع وجود أمل بالدخول...

عادة نحن نعتبر الطمع شيئا سيئا، لأننا نقول إنَّ الطمع هو حرمان الآخرين من شيء أرغب بشدة في الحصول عليه لوحدي، أما في الحقيقة وفي استعمال العرب قديما "وحديثا" فالطمع هو مجرد الرغبة الشديدة في حصول أو الحصول على شيء مع أمل بحصوله، وللطمع تفريعان، واحد يريد حرمان الآخرين من الخير وهذا سيء، وتفريع آخر حيث الطامع لا يريد حرمان الآخرين، بل يصبّ اهتمامه بالحصول على ما يريده لنفسه، وقد ورد مرارا في القرآن ومنه الآية 82 من سورة الشعراء "وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ"، ولهذه الحالة تفريعان أيضا، فقد يطمع بشيء حرام أو حلال...

يعني هي بشارة طيّبة من رجال الأعراف للذين يقفون كمجموعة لوحدهم من الذين صدر الحكم الإلهي لهم بدخول الجنّة، فهم أنفسهم الرجال على الأعراف محكوم لهم بدخول الجنّة ويبشّرون الآخرين المحكوم لهم أيضا بدخول الجنّة، وهم رجال الأعراف يطمعون أيضا بدخول الجنّة.

في الكتب كلام كثير ولغط حول هذه الآيات، وسببها الابتعاد عن معاني الكلمات، والابتعاد عن سياق الآيات، وأمور أخرى "مذهبية عصبية..."، والمعنى الذي حدّدناه لكلمة "طمع" يشرح لنا حال الذين لديهم أمل بدخول الجنّة، والأمل هنا قوي جدا جدا، ولكنه طالما لم يحصل دخولهم إلى الجنّة فهو يوصف بأنه طمع، وما قيل عن معنى "الطمع" محدّدا بأمل خفيف على أساس أن الرجال على الأعراف ليسوا من المؤمنين من الدرجة العالية بل من الطامعين بالشفاعة وبالرحمة الإلهية، فهو يجعل كلمة طمع لا تنطبق حتى على أصحاب الجنّة وهذا غير صحيح، لأن أصحاب النار لا ينطبق عليهم وصف الطمع بدخول الجنّة، لأنه لا أمل لهم بدخولها، وسياق باقي الآيات يشير إلى أن رجال الأعراف كانوا في الدنيا من المتعاطين للشؤون الدينية العامّة، ولديهم مكانة محترمة في يوم القيامة، وما تنقله عنهم الآيات لا يعبّر إلا عن واقع حال الصراحة، فالنبي إبراهيم(ع) نقل عنه القرآن طمعه بالمغفرة الإلهية كما ورد في الآية 82 من سورة الشعراء "وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ"، وهذا كلام واقعي حقيقي لا يتماشى مع في أوهامنا من الحسم والتأكيد لهذا وذاك بدخول الجنّة، والقرآن مشحون بالآيات التي لم تحسم دخول الجنّة إلا لمن اتّصف بالإيمان والعمل الصالح من بعدما يحاسبه تعالى ويحكم له بالجنّة، ولكن قبل أن يتنفّذ فعلا الدخول إلى الجنّة، يكون الحال الواقعي هو الطمع بدخولها.

أضف إلى ما سبق من لغط في فهمهم للآيات سببه خلط مشهد يوم القيامة مع انتهائه، ومع دخول أصحاب الجنّة إلى الجنّة وأصحاب النار إلى النار وبقاء رجال الأعراف خارجا... وهذا غير صحيح، لأن الآيات هنا تتحدّث عمّا قبل الدخول إلى الجنّة والنار.

(وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاء أَصْحَابِ النَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{47})
{وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ}، فقدرة رجال الأعراف "وأصحاب الجنّة" على إدراك معنى الصور إذا توجّهت وتحوّلت، {تِلْقَاءَ}، باتجاه، {أَصْحَابِ النَّارِ} {قَالُواْ}: {رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ}، مع الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الإيمان وعمل الصالحات ولكنهم كفروا وعملوا السيئات، {الظَّالِمِينَ}، الذين لم يكن معهم حقّ حين كفروا بآياتك ولم يؤمنوا بدينك...

الجملة هنا شبيهة بحالة من يقول: يا ساتر يا حفيظ... إذا رأى مشهدا لا يريده أن يحصل معه.

ضع في بالك ما ورد في سورة الصافات ما قبل الآية 60 "إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"، حيث ستلاحظ الدهشة الشديدة لبعض من دخل الجنة، ولم تكن الدهشة من روعة الجنّة فقط، بل من نجاحهم في وصولهم إليها، ووصفتهم السورة هناك أنهم كانوا من الصالحين، فهل يتماشى ما في ثقافتك الدينية عن الصالحين مع دهشتهم بالفوز بالجنّة؟ لا، على أساس أن دخول الجنّة كان مضمومنا "في الجيبة" كتحصيل حاصل، وهذا المفهوم يقبله القرآن بالوصف العام لمن آمن وعمل صَالِحاً، ولا يقبله حين لا يعطي ضَمَاناً لهذا وذاك بدخول الجنّة قبل محاسبتهم، لأنَّ نَفْسَ النبي محمّد(ع) وبقية

الرسل، أثناء حياتهم في الدنيا لم يحصلوا على ضمان أكيد بدخول الجنّة إلا إذا حافظوا ولآخر لحظة من حياتهم على الإيمان والعمل الصالح، لِذَا يمكنك أن تفهم أن الرسل والأنبياء والصالحين من الطبيعي أن يقولوا عندما يرون أصحاب النار أنهم لا يرغبون بأن يكونوا معهم...

(وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُواْ مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ{48})
{وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ}، حيث قال الذين مع بعض على الأعراف كلاما توجّهوا به لـ، فقالوا لـ، {رِجَالاً يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ}، كما تتغيّر وجوه أصحاب الجنّة للأجمل فستتغيّر وجوه أصحاب النار لِلْأَسْوَأِ، مثل الذي تعرّض لضرب مبرح وتغيّرت معالم وجهه، حيث تعرفه من سماته من ملامحه، وكذلك أصحاب النار في يومِ القيامة تجرجروا على وجوههم الممتقعة بالزرقة والسواد والعابسة الكالحة... والذين على الأعراف من الأنبياء والرسل والمؤمنين فكل واحد منهم يعرف جماعة كانت في عصره معادية للإيمان وصدر عليها الحكم بالنار.

{قَالُواْ}، أصحاب الأعراف لأصحاب النار: {مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ}، لأنَّ الشخص الواحد يشعر أنه بحاجة ليكون معه جماعة ليملك القوّة، مثل الذي لديه المال ليشتري ما يحتاجه، فإن ملك المال الكثير فهل هو غني إن كان في الصحراء لوحده عَطْشَانَ ولا يجد ما يشتريه؟ وكذلك أصحاب النار فهم في الدنيا كانوا مجتمعين وعددهم أكثر من المؤمنين، وآذوهم وحاربوهم... ويوم القيامة أيضا هم جماعة هائلة العدد مع بعض، فهل أغنتهم جمعتهم في الْآخِرَةِ عن العذاب؟ وهل أغنى عنكم، {مَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ}؟ حيث عندما كنتم في الدنيا ترون أنفسكم أكبر من موالاته تعالى وأكبر من الإيمان بآياته فهل نفعكم هذا التكبّر؟

طبعا وكما هو واضح لا كثرة عددهم ولا التكبّر نفعهم فهم محكوم عليهم بدخول النار ويبدو واضحا أنهم سيدخلونها حتما.

نلاحظ شيئا عامّا في القرآن، حيث مرّ قبل قليل الكلام عن "رجال" الأعراف، فهل كلّهم ذكور؟ ونادوا "رجالا" من أصحاب النار... فهل كلّ أصحاب النار ذكور؟ لا، وعامّة القرآن وجّه كلامه إلى الرجال وبصيغة المذكّر على قاعدة جريان الأحكام على الْإِنَاثِ أيضا، مثل الآية 23 من سورة النساء بكلامه عمن يحرم الزواج منه للرجل ... {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ} و... وهو نفسه نقلبه من المذكّر إلى المؤنّث ونعرف من يحرم على الأنثى الزواج منه، وعامّة كلام القرآن عن الواجبات والمحرمات التي كانت بصيغة الْمُذَكَّرِ فهي نفسها موجّهة للإناث، وهنا يترجّح الكلام بصيغة المذكّر لأن غالب المتعاطين للشؤون العامّة هم رجال، والرجال المؤمنون هم غالبا يقومون بالتصدّي لمن كفر، وغالب الكفّار المتصدين لمحاربة المؤمنين هم الرجال، وهناك الكثير من النساء الكافرات ويجري عليهن الكلام بمعرفتهن بسيماهن وسؤالهن عن تكبّرهن... ولكن سياق الكلام هنا مع من كان فاعلا في نشر الكفر ومحاربة الإيمان، وهؤلاء عادة من الرجال.

(أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ{49})
يكمل أصحاب الأعراف حديثهم، حيث يشيرون إلى أصحاب الجنة ويسألون أصحاب النار: {أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ}، حيث أكدتم أنه، {لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ}؟ حيث لن يحصلوا ولن يطالهم عناية خاصّة منه تعالى لما فيه مصلحتهم؟ لأنكم كنتم في الدنيا تقولون عن المؤمنين أنهم مجانين، ودينهم غير صحيح وليس منه تعالى، وسبحانه لن يخصّصهم بشيء مميّز عن الآخَرِينَ بسبب تديّنهم... وأنه لا يوجد آخرة ولا حساب، وبعضهم قال كما نقل لنا القرآن، إنَّهُ تعالى سيكون رحيما بالكافرين إن كان هناك آخرة لأنهم هم المحترمون الموقّرون أصحاب المال والزعامة، كما ورد كمثال في الآية 36 من سورة الكهف "وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا"، والمؤمنون سيهينهم سبحانه ولن يحصلوا على أي شيء بسبب إيمانهم، فهل هذا ما قلتموه؟ وأقسمتم عليه حيث أكدتم أنه صحيح حتما؟

يتوجه رجال الأعراف بالحديث لأصحاب الجنة ويقولون لهم: {ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ}، انطلقوا لتكونوا في المكان الموصوف بروعة ما فيه، إلى الحدائق والبساتين والقصور والأنهار... {لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ}، حيث لن تتعرّضوا لأي سوء ولن تشعروا بأي ضرر أو خطر لأنكم في الأمان، {وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ}، حيث لن تشعروا إلا بالسرور، ولن ينقصكم شيء ولن يحصل شيء ليس على خاطركم ولن تأسفوا على أي شيء فاتكم من الدنيا...

تلاحظ أن أصحاب الأعراف يصدر على لسانهم إعلان دخول أصحاب الجنة إلى الجنة، وهذا صريح جدا في كون رجال الأعراف من المرموقين جدا إيمانيا كالأنبياء والرسل وأوصياء الأنبياء والصالحين، ولشدّة كرامتهم عليه تعالى منحهم سبحانه شرف إعلان انتهاء الحساب ووقت دخول أصحاب الجنّة إلى الجنّة.

(وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ{ 50})

{وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ}، فقال الذين سيكونون مع بعض في النار كلاما لـ، {أَصْحَابَ الْجَنَّةِ}، للذين سيكونون في المكان الموصوف بالروعة، {أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء}، فقالوا لهم بما معناه إنَّ ما معكم من الماء زائد جدا عن حاجتكم فأعطونا منه، أو أفيضوا علينا، {أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ}، حيث إنَّ الأشياء التي معكم للأكل زائدة جدا عن حاجتكم فأعطونا منها.

تذكّر أنه منذ قليل صدر الإعلان من رجال الأعراف لأصحاب الجنّة ليدخلوا إلى الجنّة، والكلام هنا أثناء دخول أصحاب الجنّة إلى الجنّة، حيث في يوم الحساب يوجد عند أصحاب الجنّة ماء ورزق يشربونه ويأكلونه بانتظار انتهاء الحساب، وهذا واضح من العديد من الآيات، منها الآية 24 من سورة الفرقان "أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا"، وتجد في عامّة الكتب جهلا لهذه النقطة، ولهذا السبب يفسّرون أمثال آيتنا هنا أنها تشير لكون أصحاب الجنّة هم في الجنّة وأن أصحاب النار من النار يطلبون من أهل الجنّة الماء والرزق. هكذا يطير المعنى الحقيقي للمشهد الذي تعرضه الآية، حيث إنَّ أصحاب الجنّة يغادرون ساحة الحساب للدخول إلى الجنّة ويتركون وراءهم كميات كبيرة من الشراب والطعام، وأصحاب النار جائعون وعطشى ومن وراء الحجاب في الجهة الثانية يرون الشراب والطعام مَتْرُوكاً... يستعطون، كالشحاذين المتسولين، ويقولون لأصحاب الجنة ما معناه: إنكم لن تحتاجوا هذا الماء والطعام والفاكهة... فارموها لنا فنحن عطشى وجوعى...

يجيبهم أصحاب الجنة، {قَالُواْ}: {إِنَّ اللّهَ حَرَّمَهُمَا}، منع هذا الماء وهذا الرزق، {عَلَى الْكَافِرِينَ}، على الناكرين لدينه تعالى، الناكرين لوحدانيته تعالى ولآياته...

نتذكر أنَّ أهل النار كانوا في الدنيا يسخرون من المؤمنين ويقولون إنَّ المؤمنين لن ينالوا الرحمة من الله تعالى على إيمانهم وعملهم الصالح... حيث هذا لن ينفع بشيء... هنا نرى أنهم في الآخرة هم المحرومون من رحمته تعالى...

هؤلاء الكافرون كيف كان سلوكهم في الدنيا الذي سبّب تعذيبهم في الآخرة؟

(الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ{ 51})

الكافرون هم، {الَّذِينَ اتَّخَذُواْ}، فجعلوا، {دِينَهُمْ}، فما يدينون به، فالتبعات التي عليهم لخالقهم، فهم كان عليهم واجب إطاعة أوامر إلههم ولكن هذا الواجب اتخذوه، {لَهْواً}، فتركوه على أهميته ووجّهوا اهتمامهم لشيء آخر أقل أهمية أو لا أهمية له، فتلهّوا بأمور أخرى، واتخذوا الدين، {لَعِباً}، فإذا تحدّثوا بالدين الإلهي فهم لا يقصدون الجدّية بل يتسلون به، ويقضون به أوقات فراغهم لتمضية الوقت، فيتحدثون عن الدين ويناقشون ويطلقون نظرياتهم فيه هكذا: لَعِباً للتسلية، {وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}، حيث انْخَدَعُوا بما في الحياة الدنيا من ملذات وشهوات على أساس أنها أقصى ما يمكن الحصول عليه في فترة حياتهم القصيرة التي ستنتهي بالموت.

{فَالْيَوْمَ}، في هذا الزمن، في يوم القيامة من الموت وما بعده، {نَنسَاهُمْ}، فلا نستحضرهم في اهتمامنا، حيث يَخْرُجُونَ من اهتمامنا، وعمليا لَنْ نهتم ولن نعتني بهم، {كَمَا}، مثلما، {نَسُواْ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَـذَا}، فهم حين كانوا في الدنيا لم يستحضروا في بالهم وَلَمْ يكن من اهتماماتهم لِقَاؤُهُمْ معنا لمحاسبتهم في الآخرة، فها نعاملهم بالمثل حيث إنَّ معاناتهم وعذابهم لن تكون محلّ اهتمامنا.

بعبارة أخرى هُمْ عندما كانوا في الدنيا كان دينه تعالى بالنسبة لهم لهوا ولعبا ولم يكن من اهتماماتهم، واغتروا بالحياة الدنيا فتعلقوا بها ولم يعودوا يُفَكِّرُونَ بالآخرة، وكما كانوا ناسين وغير مهتمين بِلِقَاءِ ومقابلة ربهم سبحانه، بِالْمِثْلِ سينساهم تعالى هناك وَلَنْ يهتم بمعاناتهم.

{وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا}، فسننساهم أيضا بسبب أنهم أمام الأمور المميزة بمستواها الإلهي والمنسوبة لنا كانوا، {يَجْحَدُونَ}، فهي رغم وضوحها ينكرون صدقها وصحّتها، لِذَا لَمْ يؤمنوا بها وبالتالي هُمْ لم يؤمنوا بدينه تعالى.

لَاحِظِ الفاصلة بين شيئين، حيث إنَّ القسم الأول نسيان الكفّار للقائه تعالى المبني على تعاملهم مع الدين باللهو واللعب الناتج عن اغترارهم بالدنيا، والذي يعني تعلّقهم بما فيها وصبّ اهتمامهم على ملذاتها ونسيان اللقاء معه تعالى في الآخرة، فلو استحضروا هذا اللقاء في فكرهم وعملهم لكانوا تجهّزوا له عبر الإيمان بدينه تعالى وبالعمل الصالح، وَنَتَجَ عن ذلك نسيانه تعالى لهم في الآخرة، حيث تَرَكَهُمْ سبحانه بدون استحضارهم في اهتماماته بمعاناتهم، فهذه معاملة المثل بالمثل، نسوه سبحانه فنسيهم، والشق الثاني ليس معاملة المثل بالمثل لِذَا فَصَلَتْهُ الآية، لِأَنَّهُمْ جحدوا آياته تعالى ويستحقّون العقاب.

بقي شيء، حيث إنَّ النسيان مثله مثل أي وصف له تدرجات، وَعَامَّةُ النسيان هو خروج الشيء عن الاهتمام، سواء غاب عن البال والذاكرة، أو غيّبته عن الاهتمام به رغم رؤيتك له، وبتعبير متساهل فيها سُبْحَانَهُ عليم لا ينسى على معنى غياب شيء من الذاكرة، لِذَا فَإِنَّ الْمَلْعُونَ الْمَطْرُودَ من الرحمة الإلهية هو التطبيق العملي لنسيانه من الرحمة الإلهية، فسبحانه يعلم بحاله ولكنه تعالى حين يوجّه رحمته سَيَتَجَاوَزُ عن الملعون، وعمليا الْوَصْفُ هو: ينساه تعالى من رحمته.

(وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{52})

يلهون ويلعبون ويجحدون بالآيات... {وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ}، وصّلنا إليهم شيئا محدّدا نصّه، وهو هذا القرآن وما سبقه من كتب، {فَصَّلْنَاهُ}، فلم نجعله مبهما مخلوطا بأمور باطلة تشوّشكم، {عَلَى عِلْمٍ}، فلم يكن تفصيل محتوى الكتاب عَبَثِيّاً وَصَفْصَفَةَ كلمات أَوْ عَنْ ضعف في المعلومات... {هُدًى}، فبتفصيله على علم كان الكتاب موصوفا بأنه يدل على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {وَرَحْمَةً}، فهو عناية إلهية لما فيه مصلحة للناس، حيث يدلّهم على طريق الفوز بالجنّة والنجاة من النار، {لِّقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة، {يُؤْمِنُونَ}، يصيرون في حالة الاعتقاد وَالِالْتِزَامِ بما في الكتاب.

القرآن فيه وعيد بالعذاب للكافر، وبشرى بالنعيم للمؤمن، ولكن هنا ننظر إلى القرآن من جانب واحد، لأن التهديد والوعيد لن ينفع مع الذين قرروا البقاء كافرين، فتنحصر المنفعة من القرآن للمؤمنين، لِذَا من جهة المنفعة والاستفادة سيكون القرآن هدى ورحمة للمؤمنين فقط.

أمّا الكافرون:

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ{53})

أمّا الكافرون الناكرون للآيات فلن يكون القرآن كتاب هداية ورحمة لهم، لأنهم ينكرون صدقه...:

{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ}، هل ينتظرون حتى تحصل ترجمته العملية! هل في بالهم أنه بعد مرور زمن سيحصل أمامهم ما يقوله الكتاب! والمقصود تأويل كلام الكتاب الإلهي عن لقائه تعالى في الآخرة لمحاسبتهم، لأنهم لم يؤمنوا به، وهو بالنسبة لهم مجرد كلام، وحتى يؤمنوا به ينتظرون تأويله أي تحقّقه وحصوله أمامهم، لأنهم لن يؤمنوا بكلام عن شيء لم يروه.

{يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ}، في الزمن الذي يحصل عمليا وفعليا ما يقوله القرآن عن الآخرة، ويحصل عمليا ونشاهد ونلمس ما يقوله القرآن عن يوم القيامة والحساب، عندها، {يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ}، الذين غاب كلام القرآن عن اهتمامهم ولم يستحضروا في فكرهم وعملهم ما يقوله القرآن، وعمليا هم لم يؤمنوا به ولم يجعلوه في بالهم كمنهاج حياة، يقولون: {قَدْ

جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ}، وما نقله لنا الأشخاص الذين وظّفهم تعالى لنقل كلامه لنا كان كلاما صحيحا صوابا ولم يكن كذبا، لأنهم صاروا في يوم القيامة من الموت وصاروا أمامه تعالى يحاسبهم، إذن صحيح ما قاله الرسل عن هذا اليوم، وهذا هو تأويل ما قالوه حيث نعيشه وصرنا فيه.

{فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا}؟ الآن نحن مؤمنون هل من أحد يعطي قيمة لهذا الإيمان ويتدخّل بقيمته المعنوية طالبا لنا الرحمة منه سبحانه، ويتوسط لنا عنده تعالى ليعفو عنّا ويغفر لنا؟

هل هناك مجال لأن يشفع لنا أحد ما فننجوَ من العذاب، {أَوْ نُرَدُّ}، ويتم إرجاعنا إلى حالة التكليف التي كنّا فيها في الدنيا، {فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ}، لأننا كنّا كفاراً، ولكننا إذا رجعنا إلى الدنيا سنتغير ولن نفعل ما فعلناه سابقا، وسنلتزم بأوامره تعالى ونفعل كل ما يقوله...

يردّ سبحانه عليهم بوصف حالهم: {قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ}، حيث فقدت أنفسهم قيمتها، وصارت أنفسهم مهانة بلا قيمة لأنهم سيتعذبون بلا نهاية... {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}، فالافتراء هو اختراع شيء لا عن نسيان أو من دون قصد بل عن علم وقصد باختراعه، وهنا محور السورة عن ولاية غيره تعالى، حيث تركوا دينه وولايته تعالى، واخترعوا دينا أو آلهة من خيالهم... وما افتروه لا يصلهم، لأن آلهتهم لا نفع منها... وبقية أنواع الافتراءات أيضا تضلّ عنهم، كقولهم إنّه إذا فرضاً حصل وكان يوجد آخرة فنحن سنكون مكرمين فيها حتما لأن قيمتنا عالية... فهذا الكلام لن يصلهم منه أي شيء، وسيضلّ عنهم...

بعبارة أخرى، أمام حقيقة لن تتغيّر، وهي كلامه تعالى عن الآخرة، وهم لم يؤمنوا بها وافتروا وقالوا كلام خزعبلات من تخريفاتهم على أساس وكأنه سيغيّر أي شيء من الواقع مما قرّره تعالى، وكأن كلامهم سيجعل الآخرة لن تحصل، فخسروا أنفسهم حين تحقّق كلامه تعالى، {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}، فكلامهم الفارغ المخترع لم يوصلهم إلى أي نتيجة وهم في الآخرة يتحاسبون وسيتعذّبون.

سبق وذكرت لك معنى كلمة ضلال وها أعيد تذكيرك به، حيث كثيرا ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، وهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شراً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضلّ عنك صيدها. استعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، حيث لم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، ولن يفيدوه بشيء. استعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون لأنه ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} رداً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

بالنسبة لكلمة تأويل بالاستعمال العربي القديم وكما استعملها القرآن فهي تشير لما تؤول إليه الأمور، للترجمة العملية لما قيل، لما سيحصل بناءً على ما قيل. أمّا المعاني الأخرى فهي اشتقاقات مستحدثة أو من تبعات المعنى، كقولهم إنّه بمعنى التفسير، فهو صحيح فقط على معنى تفسير الكلام بالواقع، وتفسّر الكلام بترجمته إلى حدث.

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{54})

من هو الذي يجب أن توالوه وتحسبوا حساباً للقائه؟ من بإمكانه إدخالكم إلى الجنة أو إلى النار؟ {إِنَّ رَبَّكُمُ}، إن المسؤول عنكم من مستوى إلهي هو، {اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد والمميّز، فلا تخترعوا آلهة وهمية، ولا تنكروه تعالى، حيث أخبركم باسمه. أنا ربّ بيتي، وزوجتي ربّة منزل، وذاك رب العمل... والله سبحانه ربنا أي المسؤول عنّا ولكن يختلف عن وصف الآخرين بالربّ لأنه تعالى ربّ من مستوى إلهي. {الَّذِي خَلَقَ}، ركّب وألّف، من المواد التي نعرفها ومن التي لا نعرفها، {السَّمَاوَاتِ}، وهنّ سبع سماوات، وما نراه بأعيننا ونسميه كوننا هو سماء واحدة من تلك السماوات، وصولاً إلى السماء العالية السابعة والتي عادة يقول الناس إنّ فيها الملائكة العالية(ع)، علماً أنّ هذا شيء لا تجده صريحاً في القرآن. خلق، {الْأَرْضَ}، وبما أن الكلام معنا فالمقصود هي التي نعيش عليها نحن الآن، وإلا فكلمة سماء لعموم ما كان يقابله أرض، لأنّ كلمة أرض أعم من كوكب الأرض، وكل سماء من السماوات السبع يقابلها أرض

كما ورد في الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}، وكما ترى من حالنا كوكبنا أرض وسطح القمر أرض، والسطح الغازي للمشتري أرض، وسطح الشمس أرض... والتصورات البسيطة لكلمة أرض مقابل سماء على معنى امتداد الأرض كقطعة واحدة تحت السماء، هي تصوّر طفولي، وعلى كل حال الآية لم تقصد الإشارة لتعقيدات علم الفلك لكوننا أو للسماوات الأخرى، ولذلك نفهم الكلام بالبساطة على الأرض التي نحن عليها لأن الكلام موجّه لنا. خلق تعالى السماوات السبع وما يقابلهن من أراضٍ، وأرضنا، {فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}، في ست فترات زمنية. تذكّر دائماً أنّ التعبير القرآني بالسماوات والأرض، يرادف معنى: كلّ شيء، كل ما في دنيا المخلوقات، والكلام هنا يرادف قولنا: خلق سبحانه كلّ شيء... بالنسبة لكلمة يوم هي تشير لعموم أي فترة زمنية لحدث أساسي مهما كانت تلك الفترة، ولمزيد من التفاصيل حول كلمة يوم راجع دراسة الآية 19 من سورة القمر {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ}، ولمزيد من التفاصيل حول فترات خلق السماوات والأرض راجع دراسة الآية 9 وما بعدها من سورة فصلت {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ}. {ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ}، بعد أن اكتمل الملك "اكتملت مملكة السماوات والأرض" استوى سبحانه وصار الحال بالتمام كما هو مطلوب من السيطرة والملك، على العرش، على إصدار الأوامر المركزية، وسبحانه كما أخبرنا هو المالك الوحيد وهو في كل مكان، وبالتالي عرش ربنا سبحانه أيضاً في كل مكان. العرش الذي نعرفه نحن هو الكرسي الفخم الضخم الموضوع على منصّة ويجلس عليه الملك أو الحاكم أو الرئيس... ونقول إنّ الحاكم أو الملك استوى على العرش عندما يصير في حالة "التمام المناسب" بالسيطرة والسلطة، بحيث يكون حكمه صلباً ولن يتعرض لانقلاب أو لانتهاء مدّته أو يهدّده أحد ما بالجلوس مكانه... والجالس على العرش يدير مملكته منفرداً بالقرار النهائي... بعبارة أخرى، كلّ السماوات... وهذه الأرض، خلقها سبحانه، ولم تخرج فجأة من لا شيء، والتفكير بأصل تكوّنها وسببه، طالما أنه ليس من العقلانية التفكير بأنها هكذا لوحدها انوجدت كما هي هكذا بلا بداية، يجب أن يدفعك هذا إلى الإيمان بربّ من مستوى إلهي خلقها، وبعد أن اكتملت، لم يتركها سبحانه لغيره ليديرها، بل استوى على العرش، حيث كل شيء صار بالتمام بانبساط سلطته سبحانه عليها كلها. وهذا الكلام تفهمه أكثر إذا تذكّرت أن محور السورة حول ولايته تعالى لوحده، لأنه الخالق ربّ العرش، فكلنا تابعون له تعالى وهو مرجعنا من مستوى إلهي. {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ}، تحيط وتنتشر فترة العتمة من اليوم على فترة الضوء من اليوم، {يَطْلُبُهُ حَثِيثًا}، يسير خلفه ليصل إليه حثيثاً، أي كما نقول: خطوة بخطوة، ومن دون توقف، حيث الظلام يلاحق الضوء ليحل مكانه، وهذه الظاهرة نموذج بارز عن الظواهر الكثيرة الأخرى التي تحصل بتكرار، هل لوحدها حصلت هكذا من دون وجود من صمّمها ومسؤول عنها من مستوى إلهي!؟ {وَالشَّمْسَ}، التي نراها في النهار وتعطينا الضوء والدفء... {وَالْقَمَرَ}، الذي ينير في الليل وله أطوار من هلال وربع وبدر... ونعدّ به الأيام والأشهر... {وَالنُّجُومَ}، وهي عموم ما كان له مكان في السماء، سواء أكان مشتعلاً مضيئاً بذاته أو عاكساً للضوء، وهكذا استعملها القرآن وهكذا نجدها في أشعار العرب قبل الإسلام. كلّهن، {مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ}، ولا يقومون بما يريدونه لأنفسهم بل بما يريده تعالى، ومن ناحيتنا نفهم التسخير لهم بما نستفيده منهم نحن البشر بالسخرة أي من دون أن نعطيها أي مقابل، حيث تعمل الشمس والقمر للإضاءة لنا... ولتعريفنا بالمواقيت، ومنحنا الطاقة الشمسية والريح والمدّ والجزر...، والنجوم لمعرفة الاتجاهات ولمنظرها الجميل، وربما لاستفادة أخرى في المستقبل... فالتسخير أساساً ناظر لكونهم لا يعملون لما هم يريدونه، ومن ناحيتنا نرى أنه لأجلنا جعلهم تعالى مسخّرين لأننا المستفيدون منهم بدون أن نفعل أي شيء لهم... وصحيح أننا نستفيد منهم لتحقيق الأمور التي نريدها نحن، ولكنهم ليسوا مسخرين لنا بإرادتنا وتخطيطنا وقدرتنا أو بالمصادفة أو من طبيعة الأشياء، بل هم يمشون لتنفيذ الأمور التي قرّرها ربنا سبحانه، لأنه سبحانه خلقهم ليكونوا قابلين لنستفيد منهم. {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ}، فخلقٌ فتركيبٌ تأليفُ الأشياء والظواهر التي تنتج عنها كلّها منسوبة له تعالى، وهو سبحانه أساس تصميمها وتكوّنها... وله تعالى، {الْأَمْرُ}، فأيّ أمر، أيّ شيء مهما كان نوعه، أيّ قرار وأي تصميم وأي ظاهرة... له تعالى القرار فيه ويُنفَّذ ما يأمر به سبحانه. {تَبَارَكَ اللَّهُ}، وهو سبحانه بنفسه موصوف بأنه خير، وما يصدر عنه تعالى موصوف بأنه خير، أنت مبارك إن كان تقييم الآخرين لك أنّهم يرضون عنك لأن أعمالك وأقوالك موصوفة بأنها جيّدة حسنة، والمكان مبارك بسبب ما جرى فيه وكان تقييم ما جرى أنه جيّد ومحبوب... وبعبارة متساهلة نتسامح فيها قليلاً، الله سبحانه تبارك، وليس مباركاً من غيره بل موصوف بالبركة لأن تقييم ما يفعله تعالى موصوف بأنه جيّد حسن، {رَبُّ الْعَالَمِينَ}، المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس. نلاحظ أنّ كلمة "أمر" بمعنى: فعل الأمر. تتشارك مع كلمة "أمر" بمعنى: الشيء الذي نريده أن يحصل. في الآية هنا إذا استنتجنا أنها تقصد أنه سبحانه هو الآمر الناهي، فيكون كلامنا صحيحاً ولكن الآية لا تقصده، بل تقصد أن كل الأمور، كل الأشياء، كل الشؤون... كل القرارات بيده تعالى، وتقصد أن السماوات مسخرات لشؤون لأمور حدّدها ربنا سبحانه، ولا تقصد أنه سبحانه يأمرها، مع العلم أنه سبحانه يأمرها، ولكن الفرق البسيط بين المعنيين هو بكل بساطة: أمر سبحانه السماوات فنفّذت الآن. السماوات بأمره سبحانه حيث تسير على مخطط رسمه لها سبحانه. الآيات تقصد المعنى الثاني، وهو يتضمن المعنى الأول. بقي شيء، كثيراً ما تطرّق القرآن إلى ذكر السماوات والأرض، وكان يقصد الإشارة إلى الضخامة، ضخامة السماء الواحدة المعروفة بأنها كوننا، وهي واحدة من ستّ سماوات أخريات، وما يقوله تعالى عن قدراته لإعادة خلقنا كلّنا، لمحاسبتنا كلّنا، لمجازاتنا

بجنّة أو نار خالدة... هذه أمور ضخمة، والضخامة الهائلة لسمائنا، وضخامة ظاهرة الليل والنهار، وضخامة ظاهرة الشمس والقمر والنجوم، نماذج تجعلك تفهم بكل سهولة أنّ كل ما ذكره القرآن عمّا سيفعله تعالى في الآخرة هي أمور عادية بالنسبة له سبحانه.

(ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ{55})
بعد أن تعرّفنا على ربنا الخالق العظيم بموجز مختصر، يعلّمنا سبحانه كيف نبني معه علاقة جيدة:

{ادْعُوا رَبَّكُمْ}، أعلنوا وأشهروا للمسؤول عنكم من مستوى إلهي، حيث إنّ كلمة دعاء ومشتقاتها لعموم الإعلان والإشهار عن أي شيء، وغالبية القرآن استعملها للإعلان عن التأليه لا للإعلان عن طلب ما، ومن تطبيقات الإعلان والإشهار الإعلان عن طلب تريده منه تعالى، وصار هذا المعنى دارجاً لدرجة جعلتنا بضبابية نفهم غالبية استعمال القرآن لمشتقات كلمة دعاء على معنى الطلب، وهذا غير صحيح. هنا في الآية الدعاء عمومي وأهمّه الإعلان أنّه تعالى الإله ومن تبعاته الطلب منه تحقيق أمور يهمّكم التوجّه بها إليه سبحانه بسبب اتصافه بالربوبية، وعلى رأس تلك الأمور الاستغفار وطلب الرحمة... {تَضَرُّعًا}، تعلنون له تعالى عن حاجاتكم الملّحة لشيء مهمّ تفقدونه وتحتاجونه، {وَخُفْيَةً}، أي بشكل غير ظاهر، حيث تتحدث داخل نفسك معه سبحانه.

قيل في الكتب إنّها مقابلة بين الدعاء جهراً {تَضَرُّعًا}، والدعاء خفية، حيث فسّروا التضرّع بالبكاء المسموع... ولكن عموم القرآن واستعمال العرب قديماً لهذه الكلمة يعطيك معنى طلب شيء ملحّ مهمّ لك، ومن تبعات هذا النوع من الطلب أن تكون "أحياناً" مجهشاً بالبكاء بصوت عالٍ، ولكن هذا ليس من أساس معنى الكلمة، ومن تبعاته أيضاً ما قالوه إنّها تعني التذلّل والتملّق.

{إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}، لا يقيّم بشكل جيد المتخطين المتجاوزين لحدودهم، الذين يتركون أوامره سبحانه. تفهمها أكثر إذا التفتّ لمن يفكّر أنّه تعالى أصلاً لا يهمّه ولن يأخذ موقفاً منّا مهما فعلنا، لا، بل لديه سبحانه موقف من تصرفاتنا ولا يحب من يعتدي، لأنّ حجمي أنّي عبد وأحتاج لأمور من الإله سبحانه، فإن طلبتها من غيره تعالى فهذا اعتداء على الساحة الإلهية التي يتفرّد بها سبحانه ربّ العرش، وأدخلت أحداً آخر إليها.

لاحظ أنّ كلمة "معتدين" لعامّة أي اعتداء، وهنا سياق الكلام ومحور السورة عن الولاية له تعالى، ولذلك حصرنا معناها هنا بالاعتداء على مقامه تعالى بولاية غيره.

لاحظ العمق في التعبير المبني على اعتبار الخير مقبولاً والشرّ مرفوضاً، لأنّ الاعتداء وصف يشير إلى فعل شيء سيئ، وولاية غيره تعالى اعتداء، ومخالفة كلامه تعالى اعتداء، وإذا فرضاً كلامه تعالى لم يصدر عنه وصدر عن جهة أخرى، فتقييم هذا الكلام يبقى هو نفسه، لأنّ فيه الخير ومخالفته سوء، وهكذا ترى الناحيتين في انتفاء محبته تعالى للاعتداء بحسب ما يتمحور عليه كلام السورة عن ولايته تعالى، وعمّا نواليه به تعالى، لأنّ كلامه تعالى حقّ وخير وصلاح... ومخالفة ذلك لوحده هو اعتداء، وسترى ذلك من الآية التالية، ومخالفته كونه صادراً عن الذي يحقّ له أن يفرض علينا ما يريده لأنه ربنا من مستوى إلهي، ولأنه ربّ عرش الدنيا، فإنّ هذا أيضاً اعتداء.

ضع في بالك في عموم ما ورد في القرآن أنّه تعالى لا يحبّه، حيث وردت حيث لا داعي للكلام القاسي، وخذ مثلاً كلامك معي حيث تريد تحذيري وتنبيهي وتقول: سأكسر عظامك لو فعلت كذا وكذا... فهذه نبرة عالية لا مبرر لها لأنك تعلم أنّي حالياً لست ناوياً لفعل السوء، والجملة الأنسب: لا أحب أن تفعل كذا وكذا... وعلى هذا المفهوم جاءت الآيات التي وجّهت كلامها مع المؤمنين مستعملة عبارة مشابهة لعبارة "الله يحب أو لا يحب".

(وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ{56})
{وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ}، فلا تقوموا بما هو باطل غير صحيح حيث تعيشون، {بَعْدَ إِصْلَاحِهَا}، فأصلحها تعالى بما جاءت به رسله من حقّ وصلاح، فما جاؤوا به فيه صلاح دنيا الناس وآخرتهم، حيث الكلام هنا يدور حول ما تتمحور عليه السورة من الولاية له تعالى، فالصلاح هو عموم ما يتوافق مع أوامره تعالى وهو السلوك العملي لولايته تعالى، والفساد عملياً هو عموم مخالفة أوامره تعالى بناءً على اتباع عقائد وشرائع فاسدة باطلة.

{وَادْعُوهُ}، فأعلنوا له تعالى وأشهروا عن تأليهه "ورغباتكم وما تحتاجونه"، {خَوْفًا}، فاشعروا بخطر أكيد من عقابه تعالى والذي لا يمكن تجنّبه، وادعوه سبحانه، {وَطَمَعًا}، رغبة مع أمل في دخول جنته تعالى. وهنا ترى أن الدعاء يشير بالخصوص للإعلان عن تأليهه تعالى، بالخوف من الشرك به ومن مخالفة أوامره، وطمعاً بما ينتج عن توحيده وطاعته بالمغفرة ودخول الجنّة.

{إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ}، فعنايته تعالى لما فيه مصلحتنا، {قَرِيبٌ}، وليس ببعيد من، {الْمُحْسِنِينَ}، من الذين يقومون بأعمال موصوفة بأنها حسنة، وعملياً فهو ترك ما حرّمه تعالى وفعل ما أمر به تعالى لأنه سبحانه لا يأمر إلا بما هو حسن.

لاحظ ربط آيتنا هنا لترك الاعتداء والإفساد بالدعاء على معنى إعلان توحيده تعالى وولايته فيما يأمر به، لأنّ المعتدي والمفسد ليسا معلنين توحيده تعالى ولا ولايته، ومن نظرته تعالى للموالين لغيره ينصحهم بأهمّ شيء يمكن أن يفعلوه في حياتهم، الدعاء له تعالى بالألوهية والولاية لوحده، ويحذّرهم من أسوأ شيء يمكن أن يفعلوه، وهو الاعتداء والإفساد، ويحثّهم سبحانه على الإحسان، وهذه هي الترجمة العملية لتوحيده وولايته تعالى.

لاحظ أنه في نسخ القرآن المطبوعة بما يسمّى الرسم العثماني، نسبة لنشرها على عهد الخليفة الثالث عثمان، رسموا تاء كلمة "رحمة" طويلة "رحمت"، وهذا رسم على اللفظ حين وصل الكلمة بما بعدها، وتجد هنا وهناك تعليقات سخيفة على القرآن ويذكرون منها الأخطاء الإملائية، ويشطحون بها وصولاً إلى نسبة التحريف في القرآن... وهم متعامون ومتجاهلون لحقيقة نزول القرآن لفظاً وأن الكتابة رسمها المسلمون، ومتعامون ومتجاهلون للجهد الرائع الذي بذله الجيل الأول الذي دوّن القرآن حيث لا جامعات تخصّص ولا كتب قواعد إملاء ولا نحو ولا صرف... ولا علم لهم أصلاً بهذه التفصيلات التي انبلجت وتطوّرت بسرعة هائلة في زمن قصير جداً جداً من بعد نزول القرآن، حيث إنّ العديد من باحثي اللغات يشيرون إلى تفرّد اللغة العربية بهذه السرعة القياسية لضبط قواعدها، بغضّ النظر عن النجاح والفشل في ذلك هنا وهناك، ولكن المجموع العام لتنسيل علوم مختلفة في أبواب اللغة في مدّة قصيرة لم تتجاوز القرن كان إنجازاً بشرياً لغوياً علمياً يبدو أنه غير مسبوق، وسببه معلوم فهو اهتمام المسلمين بالكتاب الإلهي.

ستجد في القرآن بالرسم العثماني كلمة "امرأة" و"قرة" بالتاء الطويلة الممدودة "ت"، كما رسموا في الآية 11 من سورة التحريم {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ...}، وكما رسموا في الآية 9 من سورة القصص {وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ}، وستجد قرة بالتاء القصيرة في آيات أخرى كما رسموا في الآية 17 من سورة السجدة {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، لأن من كتب سورة السجدة حين اعتمدوا نسخة واحدة من القرآن كتبها على اللفظ الموصول، ومن كتب نفس الكلمة "قرّة" في سورة الفرقان والسجدة كتبها على القاعدة بالتاء القصيرة "ة" "المربوطة"، ونفس الشيء مع كلمة شجرة التي رسموها مراراً ومرة واحدة بالتاء الطويلة في الآية 43 من سورة الدخان {إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ}، ونفس الشيء مع كلمة رحمة حيث رسموها في بعض السور بالتاء الطويلة وفي أخريات بالتاء القصيرة. ومثلها كلمة معصية الواردة في الآية 8 و 9 من سورة المجادلة {... وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ...}

بحسب قواعد الرسم "الحالية" من المفروض أن ترسم هذه الكلمات بالتاء القصيرة التي تلفظ "ه" إذا وقفت على الكلمة وسكتت ولم تلفظ الكلمة التي بعدها، وتلفظ "ت" عندما توصل لفظ الكلمة بالتي بعدها.

الرسم بالتاء الطويلة لهذه الكلمات لا يغيّر أي شيء من لفظ الكلمة، إلا إذا توقّفت عليها معتمداً على اتباع القراءة بالتاء الطويلة كما هو مرسوم، وهذا ما لن يحدث مع من يجيد اللغة العربية لأنه يعلم أن اللفظ هنا بالهاء عند الوقف على الكلمة، على أي حال معلوم أن القرآن توارثه المسلمون لفظاً وحفظاً عن ظهر قلب، من فم للسان، وهذه الكلمة وصلتنا ملفوظة ونحن نعلم أن الذي كتبها استنسب كتابتها على لفظ وصلها بما بعدها ولا تأثير لرسمها بالتاء الطويلة، فهو على معاييرنا "ومعايير زمانهم" خطأ إملائي لم يسبّب تحريفاً لفظياً، ونبرّر لمن كتبها طويلة أنه رسمها على مقاييس الرسم بحسب اللفظ محاولاً جعل الرسم مساعداً على اللفظ الصحيح، وهذه أصلاً هي القاعدة لرسم الكلمات حتى يستطيع من يراها التلفظ بالكلمة مثلما يلفظها الناس... وهذه القاعدة كانت معتمدة حين كتب الجيل الأول من المسلمين القرآن، حتى أنهم رسموا كلمات مع أحرف علّة زائدة ليعرف القارئ الكلمة التي يقصدونها ويميّزها عن كلمة شبيهة لها بالرسم... لذا رسمهم مقبول وله تبريره بل مستحسن حيث الوقف ممنوع أو غير متوقّع.

ما يقولونه عن تبريرات لرسم التاء طويلةً في بعض الكلمات، فهي تبريرات واهية واهمة، فلا هي قابلة للتطبيق على بقية الكلمات التي لها نفس الحالة، ولا معلوم من العرب قصدهم أي شيء من الكتابة بشكل يجعلك ترى معنىً خاصاً من رسم الكلمات، وفرضاً لو لم ينكتب القرآن على الورق وبقينا نتوارثه باللفظ، فلم نر تاء طويلة بدل القصيرة، فعندها ما معنى فذلكتهم لرسمها!

تاريخياً رسم الكلمات "الإملاء" تغيّر ويتغيّر باستمرار، ولن يتوقّف تغيّره على الذي تعرفه الآن، وهو ليس إلّا تحسيناً لتقريب الرسم إلى اللفظ وفي نفس الوقت إلى ضبطه على قواعد صرفية ونحوية، وسيبقى متغيراً بسبب تغيّر لهجتنا وبسبب تحسين ضبط القواعد وبسبب جمالية رسم الكلمة وأسباب أخرى... فخذ مثلاً كلمة "هذا" التي مرّ عليها تغيرات بإضافة المدّ وحذفه "هاذا"، وفي عصرنا أسألك عن الفرق باللفظ بين ما يسمونه ألف لام التعريف في "الذين" للجمع و "اللذين" للمثنى، استنسبنا كتابتهما هكذا لمجرد التمييز بينهما ولسنا مستندين ولا على أي قاعدة، لأنّ الفرق بينهما باللفظ في كسر أو فتح حرف الذال. فلا تحاكم رسم كلمات القرآن بالطريقة القديمة على طريقتنا الحالية في الكتابة، لأننا في عصرنا لا زلنا نختلف على رسم الهمزة المضمومة التي قبلها حركة ضمّة "رؤوس، رؤس"، ويمكنك مراجعة معجم اللغة العربية في ذلك وغيره، ويمكنك مراجعة كتب البحوث المتخصصة في رسم كلمات القرآن وعموم بحوث رسم الكلمات العربية.

طبعاً خلال بحثك عليك الانتباه من مشكلة تعدّد القراءات، فهذه مصيبة ما بعدها مصيبة، فحجّتنا في وصول القرآن سليماً إلينا باللفظ وليس بالاعتماد فقط على الكتابة، ولكن خليطاً من النسيان أو الاستهتار أو الجهل أو السذاجة أو الغباء... أو نفاق أو حبّ التميّز والظهور... أو... صار لدينا قراءات متعددة للقرآن! وبسهولة ووضوح ترى الكثير الكثير منها نشأ بعد وقت طويل من وفاة الرسول، وخذ مثلاً عن ذلك قراءة ابن أبي عبلة، فليكن ما فعله هذا نموذجاً لك لما فعله البقية ممن يسمونهم بأصحاب القراءات، فقراءة جمهور المسلمين شيء، وقراءاتهم شيء آخر، ولسبب لم أفهم له أي معنى أو تبرير، ألّفوا الكتب حول القراءات، ولم يشيروا صراحةً إلى كون قراءة حفص عن عاصم هي قراءة جمهور المسلمين، وهذه هي القراءة التي بقيت منتشرة حتى وصلت إلينا، فسيبدو لك من كتبهم أن حفصاً قارئ مثله مثل بقية القرّاء، بينما لو دقّقت قليلاً فسترى بوضوح أن حفصاً ممثل لقراءة جمهور المسلمين.

أقول لك هذا حتى لا تضيع في المشكلة الوهمية لتعدّد القراءات، وحين تبحث عن أنسب رسم للكلمة القرآنية ستحتار في رسمها على أي قراءة، فهم وربّهم الذين فعلوا ما فعلوا... وفي دراسة الآية 38 من سورة الأنفال توسعنا في نفس المسألة {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ}.

(وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ{57})

{وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ}، فما نراه من أسباب طبيعية، من ضغط منخفض وضغط مرتفع بسبب فرق حرارة الهواء، مما يسبب سريان تيارات مسببة للرياح أي للهواء الذي يجري بشكل خفيف أو قوي، فهذا تحليلنا نحن لما نراه في عالمنا، ولكنه سبحانه هو الذي صمّم كل ذلك ليحدث، فلا الهواء ولا الحرارة ولا الضغط ولا أي شيء له قدرة ذاتية على صنع الريح، بل سبحانه هو الذي صنع الهواء بخواصه التي نعرفها، وجعله قابلاً للتعرض للحرارة، ومتغيّراً في وزنه... وجعل النتيجة ريحاً...

التفسير "العلمي" لحركة الرياح صحيح بحسب معلوماتنا الحالية، ولكنه يبقى تفسيراً بسيطاً أمام حقيقة إرسال الرياح كما يراها سبحانه من ناحيته، وسنتحدّث عن ذلك بعد قليل.

هذه الرياح يرسلها تعالى، {بُشْرًا}، بُشْرَى، تحمل خبراً سارّاً لنا، وهو توقّع هطول المطر عند هبوب الرياح الحاملة للسحاب التي نراها في السماء، {بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ}، فرحمته تعالى عناية، وهي بنا لما فيه مصلحتنا بنزول الماء علينا وهذه عناية من يديه تعالى نحصل عليها، من الوسائل والأدوات التي من خلالها يرحمنا سبحانه بإتاحة الماء الحلو لنا.

نلاحظ كيف عبّرت الآية عن الرحمة بأنها جاءت عبر يدي ربنا سبحانه، أي بالوسائل التي استعملها هو بنفسه سبحانه، لتنبهنا إلى حصولنا على النعمة منه تعالى مباشرة، وأنه لم يوكلنا لغيره... فاليد للإنسان هي العضو الذي فيه الأصابع

والكفّ لفعل الأشياء، ويد الآلة من المعدن وفيها ملقط... ويده تعالى هي الوسائل والوسائط التي عبرها يفعل سبحانه الأمور.

معلوم لك أن الكلام هنا عن نموذج من الرياح التي تنقل غيوماً بعدها مطر... وإلا فهناك رياح عواصف تكسّر وتخرّب، والآية هنا ليست بوارد شرح أسباب ذلك فكلامها عن خصوص النعمة...

{حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ}، إذا حملت ونقلت تلك الرياح، {سَحَابًا ثِقَالًا}، غيوماً محمّلةً ببخار الماء الكثير جدّاً جدّاً، فالغيوم كلها من الماء وهو بحالة الغاز، وهي أنواع عديدة، فمنها المرتفع العالي والذي لا ينزل منه المطر، ومنها المنخفض جدّاً الذي يرطّب الأرض والجبال، وخبراء الجغرافيا يعرفون أنواع الغيوم بدقة ولها عندهم تسميات مختلفة، وهنا تتحدث الآية عن سحاب وهو نوع من الغيم يحمل ثقلاً، أي يحمل ماءً سينزل مطراً، ومن الكميات الضخمة للمطر الذي يتساقط تعلم الثقل الهائل الذي كانت تقلّه الريح، وحالياً لدينا اصطلاح علمي لوزن متر مكعّب من الماء والمساوي لألف كيلو "طنّ"، فانتبه للأطنان من الماء التي تنزل من السحاب.

ذلك السحاب، {سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ}، مشينا به بحمل الرياح له إلى مكان واسع محدّد على الأرض، {مَيِّتٍ}، ليس فيه حياة نباتية فليس فيه نبات.

{فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ}، من ذلك السحاب نزل الماء. بعبارة أخرى تقول الآية لنا أنّ هذه وسيلة اعتمدها سبحانه في تصميمه لبيئتنا لنقل الماء عبر الريح، وهكذا نفهم عندما يقول أنه سبحانه "بيديه" أرسل الرياح، لتحمل الماء، وتمطره في مكان ما، وسترى معنى ذلك بالتفصيل بعد قليل.

{فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ}، من الماء خرج من نتاج ومحصول كل النباتات، طبعاً ليس المقصود كل أنواع النباتات بل المقصود هو خروج النباتات التي عادة وبحسب الظروف المناسبة تنمو في تلك البقعة التي نزل فيها المطر.

ننتبه جيّداً، فلا يذهب فكرنا إلى أنّ هذا يحدث في ساعة، فتمطر وتنبت في ساعة أو يوم! على كل حال أقل وقت يمكن أن يحدث هذا الإثمار -على ما أظن- وبسبب سقطة مطر واحدة، فهو ما يحصل في بعض الصحاري، حيث يوجد بذور لنباتات تعيش من أول هطول للمطر... ففي بعض الصحاري بعد يوم أو يومين من هطول المطر ترى مرجاً من النباتات... ولكن الكلام في الآية عمومي عن موسم مطر وخلاله بأيام أو أشهر يحصل ثمر للنباتات.

{كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى}، كما خرجت الحياة في أرض ميتة بسبب المطر وكلنا نراه يحصل هنا وهناك... ونراه سهلاً وعادياً... فكذلك سهل وعادي عنده سبحانه إخراجنا من الأرض بعد موتنا بما يشبه خروج الحياة النباتية من هطول المطر.

لدينا العديد من الآيات التي تشبه آيتنا هذه، والتي تؤكّد لنا أن رجوعنا إلى الحياة هو بنفس طريقة إخراج النبات من الأرض من حيث التشكّل من المواد، ومشابه لها من حيث مبدأ تفاعل المواد... فعندما نموت، فإننا نتحلل ونصير تراباً، وكذلك النبات عندما يموت يتحلل ويصير تراباً، ولكن بعد نزول الماء، فالنبات يعيش من جديد، وكذلك نحن ولكن ليس من نزول الماء، فعندما يموت الجميع، وتتبدّل السماوات والأرض، ويحصل النفخ في الصور، فإننا سنعود إلى الحياة بسهولة، وبشكل يشبه كثيراً طريقة عودة النبات إلى الحياة "من حيث النمو من بذرة مثلاً، أو من حيث التشكّل من المواد، من طين". والآية 17 من سورة نوح {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا} أوضح من شرحها، فمن الأرض، فمن الطين، فمن الماء والتراب، فمن المواد من كالسيوم وكربون وهيدروجين... خرجنا إلى الحياة ونمونا وكبرنا، هذا على التعلّق بالمعنى الأساسي لمعنى كلمة نبت، ولكن تشبيه حياتنا بحياة النبات وتشبيه خروجنا إلى الحياة بخروجها في العديد من الآيات، يشير إلى شبه بيننا وبينها أكثر من التشارك في النمو والكبر، والآية 44 من سورة ق {يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ}، تعطي الكثير من الشبه بين عودتنا إلى الحياة وبين خروج النبات...

على أي حال، فسواء فهمنا بالضبط "عملياً مخبرياً" كيف سنخرج، فلنفترض مثلاً أن جيناتنا تبقى محفوظة في حبة تراب وبأمر منه تعالى سنتشكّل من بقايا جين واحد "مثلاً مع أنه ليس قريباً"، أو افترضنا أن معلومات تشكّل المواد بحسب ما يعيد كل واحد منّا بفكره ونفسيته ومشاعره وذاكرته... محفوظة عنده تعالى وبطريقة ما يجري سبحانه إعادة تشكّلنا من مادة ما "وهذا هو الأرجح"... أم لنفترض أننا أمام احتمالات وتتضمّن ما لا يخطر على بالنا فلم نفهم كيف

سنخرج إلى الحياة، فعلى الأقل نحن نرى كيف تكون الأرض جرداء بلا نبات، أي ميتة، وعندما ينزل الماء، فبكل سهولة، يصير فيها حياة من تراكم المواد، وهذا يتكرر دائماً! فمن صممها ومن فعلها...؟! إذاً، وكما يقول سبحانه الذي يخلق النبات في كل لحظة من أرض ميتة، فإن عودتنا إلى الحياة سهلة عليه أيضاً، فبنظره سبحانه، فإن خلق الحياة النباتية والحياة الإنسانية نفس الشيء، فكلاهما حياة من المواد.

لعلكم تذكرون، بعد الذي ذكرناه عن سوق الرياح... وصولاً إلى خروج النبات، فمن المفروض ومن المتوقّع منكم أن تستحضروه تعالى في فكركم وعملكم، فتؤمنوا به خالقاً ومعيداً لكم إلى الحياة مرة ثانية.

حتى نفهم آيتنا وما سبقها أكثر، وحتى نفهم عموم الآيات المشابهة لكلام آيتنا عن فعله تعالى للأشياء، فلتتصوّر نفسك أنت قرّرت خلق كائنات وبيئة، فصمّمت أسماكاً في حوض ماء، وصممتها تنمو بالأكل وجعلتها تجوع لتأكل، وجعلتها تتكاثر... فلو كان لديك قدرات أعلى لخلقت البيئة التي ينتج عنها السمك والبيئة التي تناسبه، ولو لديك قدرات أعلى، لخلقت كائنات أخرى تتعايش مع السمك والبيئة لتشكّل نظاماً بيئياً يتكامل مع بعضه لاستمرار حياة البيئة، كنبات ينمو ويرمي البذور لتنمو نباتات أخرى... وإذا كانت قدراتك أعلى، فلن تكتفي بخلق حوض كبير، خاصة إذا أردت للأسماك أن تدرك عظمتك... الآن، انتبه جيّداً، فعندما يأكل السمك مما يجده في بيئته، فمن أطعمه؟ توقّف قليلاً وقارن بين إنشاء السحاب وسوق الرياح له ونزوله وخروج النبات، فمن فعله؟ فإن كانت الأسماك لن تؤمن بأنك أنت أطعمتها إلا إذا رأتك ترشّ الطعام على سطح الحوض، مثلما لن يؤمن بعض الناس إلا أن يروه تعالى جهرة، أو يشاهدوا معجزة، أو لن يؤمنوا بإمكانية إعادته تعالى لنا إلى الحياة... حيث لم يكفهم خلق السماوات والأرض وخلقهم فيها وظاهرة الليل والنهار... والمطر وخروج الحياة النباتية، فهنا المشكلة ليست في الخالق بل في قرار عميق عند المخلوق أن لا يؤمن لأنه لا يريد ترك السوء الذي يستتبع الإيمان به تعالى محاسباً ومجازياً...

من هذا المثال نفهم معنى من كلامه تعالى عن تحريكه الرياح وإنزاله المطر... وخلقه لنا ورزقه لنا... وتفهم ما نقله القرآن عن النبي إبراهيم حول الآية 79 من سورة الشعراء {وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ}.

من هذا المثال نفهم معنى يد الله تعالى، فأنت لأنك إنسان فبكفيك وأصابعك وذراعك ستصنع الأشياء، أمّا هو عزّ وجلّ الذي ليس كمثله شيء، فبالوسائل سيخلق، فبأمره من مستوى إلهي وسيطرته من مستوى إلهي المتداخلة في كل شيء ستنخلق الأشياء كما يريد سبحانه وتعالى، وبالتفكير والتحليل والتجربة سنتمكن من فهم بعض ما فعله تعالى، وكمثال عن ذلك فهمنا لآلية نزول الماء، ولدينا فرضيات حول آلية نشأة كوننا بمجراته... بنظرتين واحدة واسعة بمساحة المجرات... وأخرى أصغر من قدرتنا على التعامل معها بحواسنا وهي باحثة في العناصر الأولية للمادة والطاقة، وإلى عمق ما حتماً سيتوقّف فهمنا لآلية فعله تعالى للأشياء حيث سنبقى في فلك التخمين، وهذا العمق لا يزال بعيداً غائراً، فنحن نخدش سطح المعرفة ونبهر بما نحصلّه، وأمامنا الكثير الكثير لنستكشفه.

هل كل بلد ميت إذا نزل عليه الماء فإن النبات يخرج؟

(وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ{58})
{وَالْبَلَدُ}، والبقعة على الأرض ولها حدود وعادة لها اسم، {الطَّيِّبُ}، الموصوف بأنه محبّب مرغوب، وبالنسبة لوصف الأرض بالطيبة بتعبير المزارعين يعني أن التربة صالحة للزراعة وتنتج جيّداً، فإذا سقط المطر على البلد الطيّب، {يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ}، بسماح من المسؤول عنه من مستوى إلهي يحصل النمو ويكبر، فليس للنبات ولا للمطر ولا للأرض قدرة ذاتية على فعل أي شيء، وليس بالصدفة حصل ذلك، وليس من قوّة الطبيعة...

تذكّر المثال السابق عن السمك والحوض، فلو كان بقاء وجود الحوض والأسماك متعلّقاً بوجودك، فلنقل بتصوير بسيط أنك تحمل الحوض الزجاجي للسمك بيديك وإن تركته سقط وتحطّم، وبنظرة أعمق فكل ذرة "نقطة" في الوجود يتعلّق بقاؤها به سبحانه، فإن تركها سبحانه زالت، وتقرأ ذلك صراحة في الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ}...، وأضف إلى ذلك انتباهك لقدراته تعالى النافذة في كل نقطة من السماوات والأرض، فتفهم أنه لن يتحرّك أي شيء في دنيا المخلوقات من دون إذنه وسماحه تعالى.

للأسف يدرج كثيراً في الكتب العلمية والأفلام الوثائقية مصطلح: الطبيعة الخلاقة، أو الطبيعة الأم، أو الطبيعة خلقتنا! مع أن كل ذلك يحصل بإذنه سبحانه فيترك البيئة التي خلقها تعمل بحسب ما خطّط لها، وهؤلاء لن يؤمنوا به تعالى حتى يروه شخصياً يرش لهم الطعام على سطح حوض الماء! وراجع معنى هذا الاستغراب في المثال الذي ذكرناه في الآية السابقة.

{وَالَّذِي خَبُثَ}، والبلد الموصوف بأنه لا يتماشى مع شيء حسن، حيث إنّ تربته غير صالحة لإنتاج الزراعة، {لَا يَخْرُجُ}، النبات، {إِلَّا نَكِدًا}، أي بعسر وصعوبة، فأنت تريد النبات منه ولكنك تحصل عليه منه بعسر وصعوبة، فنبتةٌ هناك ونبتة هناك غير مكتملة النمو، وإذا أنتجت تنتج ثمراً قليلاً وصفاته غير مرغوبة... وهذه الكلمة "نكد" لم ترد في القرآن إلّا في سورتنا هذه.

ليس كل بلد ميت إذا هطل عليه المطر أنتج ثمراً، بل الأرض التي تربتها صالحة تنتج، مما يعني أنه سبحانه هو يسيطر على الأمور، فيقرر أنه في الأرض الجيدة يخرج نبات وفي الأرض العاطلة لا يخرج نبات.

{كَذَلِكَ}، بهذا الذي قلناه عن خروج النبات طَيّباً ونَكِداً، {نُصَرِّفُ الْآيَاتِ}، فالأمور المميزة من مستوى إلهي نحوّلها من عندنا ونوزعها في هذا القرآن، {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الآيات، {يَشْكُرُونَ}، يعلنون أنهم حصلوا على شيء جيّد منه تعالى، لأنهم حصلوا على بيئة مناسبة لهم وفيها ما يحتاجونه.

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ{59})
من هنا بداية فقرة تسرد القصص عن بعض الأقوام السابقة، كنموذج عن الذين لم يتخذوه سبحانه وليّاً، ففعلوا ما ليس من المفروض أن تناقش في سوئه، وليكونوا نماذجَ عن نتيجة من ترك ولايته تعالى، وتتذكّر من بداية السورة أنها تتمحور حول ولاية المجتمعات له تعالى وحول أنه تعالى لا يأمر إلا بالخير، وبالتالي فمخالفة أوامره تعالى ما هي إلا السوء والفساد، فلنَرَ نماذجَ عن ذلك:

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ}، إلى الناس الذين لهم كيان الجماعة وهو من جماعتهم وهم متفاعلون مع آياته تعالى.

{فَقَالَ}، النبي نوح(ع): {يَا قَوْمِ}، يا أيها الذين أنتمي لجماعتهم، {اعْبُدُوا اللَّهَ}، فتصرفوا على أساس أنكم عبيده ومفروض منكم طاعته، فكلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

{مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}، فلا يوجد ولا كائن بالصفات والقدرات الفائقة عن صفات وقدرات المخلوقين إلا صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" عزّ وجلّ، وعلى هذا الأساس فلا يحقّ لكم التصرّف على أساس أنكم عبيد لإله غيره، فيجب عليكم طاعته تعالى وحده.

{إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ}، فأشعر بخطر أكيد لا يمكن تجنّبه وهو، {عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، فهناك زمن يتعرّض فيه الناس للأذى والضرر بشكل ضخم، وأنتم إذا بقيتم كما أنتم فحتماً ستتعذبون.

هنا اختصرت الآية سنواتٍ طوالاً جداً من دعوة النبي نوح(ع) لقومه، وأخبرتنا بخلاصة ما أوصله لهم النبي(ع) من ربّه سبحانه، فماذا كان جواب قومه؟ وهذا ما ستقوله الآية التالية، ولكن قبل ذلك فلنتحدّث عن كلمة إله، فتذكّر دائماً أننا كبشر جعل سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرّف عليه سبحانه من ملاحظة أفعاله "آياته في خلقه" ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء... وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق بالقوّة الإلهية الفائقة عند الوقوع في الشدائد... فوضعنا كلمة نصف بها الكائن ذا الصفات والقدرات العالية جداً عن قدراتنا، وهي كلمة "إله" كوصف لذي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلّق به عند الوقوع في الورطات...

في الحقيقة، الكائن الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة هو الله سبحانه، وتساهل الناس في استعمال كلمة إله لتنطبق على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، فيطلقونها على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أن فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}...

القرآن يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهي، فيقوّم اللغة ككلّ، ويقوّم دقة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة "إله"، فيخبرنا أنها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرّج في استعمالها.

لأنّ المشركين الناطقين باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... استعملوا كلمة إله بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

قارنها مع كلمة "ربّ"، فأنا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... فهذه كلمة تتحمّل التدرّج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهي، فهي لا تتحمّل التدرّج، فهي حصراً له تعالى ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهي.

فكلمة إله في حقيقة معناها لا تتحمّل التدرج ليُوصَف بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، فحين يخبرك أنه خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، وسبحانه وظّف الملائكة(ع) التي خلقها لتنفيذ بعض أوامره... وهكذا ترى بوضوح أنه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، فماذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدّد له والمميّز "الله" جلّ جلاله فعل كل شيء، فما معنى ألوهية غيره! هذا ملخّص مبسّط للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

ألفت انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، فحصروا استعمال كلمة إله للإله الكبير، واستعملوا للآخرين وصف الربّ، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربّة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون: إله المطر وإله الحرب... وعلى كل حال فالقرآن رفض توصيف غيره تعالى بالألوهية والربوبية من مستوى إلهي، فالمشركون يعتقدون بوجود كائن "ربّ" مسيطر على المطر من مستوى إلهي وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم أنه توصيف لألوهية أربابهم.

من ناحية ثانية لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، فيصير الهوى إلهاً كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}...، فهي لا تشير لاعتقاد الشخص بأن هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لدين فيه ما يهواه، فعمليّاً هو يعبد هواه.

بالنسبة لأصل كلمة "الله" فهناك كلام كثير حولها، ويبدو من تتبّع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حالياً بالسامية... أن الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة "إله" ومنها جرى اشتقاق اسم العلم "الله"، وهذا الاسم لم يكن متداولاً في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط فللآخرين نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، فكلمة إله واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات ما يسمّى بأصل اللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة الله من وصف الإله ومتى، فهل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قديماً عبر الوحي، فالأرجح عندي "استذواقاً" أنه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك "استذواقاً" لأن المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين بلا مستند صريح لتأكيد كلام ما، فهو بطبيعته يصير استذواقياً لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا ذات نفسي ففي سياق كلام آخر قد أستذوق أنه تعالى هو سمّى نفسه، فليس من المعقول ولا من المقبول منك أن تطلب حسماً من الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دليلاً حاسماً، ولا مقبول من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنه الصحّ إلا اللهم إن قدّم دليلاً دامغاً، وهذا لا يبدو ممكناً في مسألتنا هذه.

(قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{60})
{قَالَ الْمَلأُ}، قال الجماعة من الناس الذين لهم سلطة معنوية على الآخرين، كالمشاركين في الحكم كالأمراء والوزراء والمستشارين، وصولاً إلى الوجهاء، {مِنْ قَوْمِهِ}، من الجماعة التي ينتمي النبي نوح(ع) لجماعتها، قالوا: {إِنَّا لَنَرَاكَ}،

فلدينا صورة لك أنك، كما نقول بالعامية: شايفينك. {فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}، بشكل واضح على شيء لا يوصل لغاية صحيحة.

هم لهم آلهة أخرى يعبدونها وكلام النبي(ع) عن توحيد الله تعالى هو بشكل واضح ليس ديناً صحيحاً برأيهم.

(قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{61})
{قَالَ}، النبي نوح(ع): {يَا قَوْمِ}، يا أيها الناس الذين أنتمي إلى جماعتهم، {لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ}، فأنا لا يوجد في كلامي وتصرفي شيء خطأ يوصل لنتيجة خطأ وسيئة، {وَلَكِنِّي رَسُولٌ}، فأنا أنقل رسالة، {مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، من المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس.

بعبارة أخرى كيف يكون كلامي ضلالاً، وأنا أنقل إليكم كلام ربّ كل الناس!

حالتنا أمام كلامكم أنتم وكلامي أنا المنقول عن إلهكم ربّ كل الناس، والفرق واضح، فكيف أكون أنا ضالاً وأنتم المهتدون، بينما مصدر كلامي عن ربّ العالمين؟!

(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{62})
مهمّتي كرسول هي أن، {أُبَلِّغُكُمْ}، فأوصل إلى مسامعكم بالتمام مما وصلني من المصدر، {رِسَالَاتِ رَبِّي}، فالمسؤول عني من مستوى إلهي مرة بعد مرة يأمرني بنقل أوامره لكم، فتصلني رسالة بعدها رسالة أخرى... والرسالات هي: أن الله تعالى هو الإله الواحد الأحد، وممنوع عبادة غيره... وعلى هذا عقاب... ويوجد آخرة وحساب وجزاء...

{أُبَلِّغُكُمْ}... {وَأَنْصَحُ لَكُمْ}، فأقدّم لكم النصيحة، فلا أغشّكم بكلامي بل أقول لكم ما هو صحيح.

{وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، لأن الوحي ينزل عليّ، فسبحانه أخبرني عن يوم للحساب، فصرت أعلم هذا بالتأكيد، وأنتم تسمعونه مني ولكنكم لم تعتبروه معلومة صحيحة، فعلى الأقل اعتبروني أعلم منكم بهذا واسمعوا نصيحتي. مثل الذي سمع أن العقارات سيرتفع سعرها ولم يقتنع، فتأتي وتنصحه بعلمك الأكيد أن الأسعار سترتفع حتى لا يبيع عقاره الآن، فأنت تعلم وهو سمع بذلك ولكنه لا يعلم أنها حقيقة.

ضع في بالك هذا المعنى الذي بتعابير مختلفة ذكره القرآن مراراً عن النبي محمّد(ع) الذي كان يجهد نفسه ويرهقها ليؤمن الناس بسبب يقينه بوجود عقاب شديد لهم، هو يعلم به ويراه سيحصل، وهم سمعوا به ولكن اعتبروها معلومة غير صادقة، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 8 من سورة فاطر {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ}، وكمثال آخر الحادثة التي يروونها عن النبي محمّد(ع) حين سأل قومه إن كانوا يصدقونه إذا أخبرهم عن عدو قادم إليهم... فقالوا إنهم بالطبع سيصدقونه لأنه صادق أمين... فأخبرهم (ع) عن عذاب الآخرة... فهنا الآية على هذا المعنى.

(أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{63})
يا قوم، {أَوَعَجِبْتُمْ}، فكان تقييمكم لما حصل أنه مخالف للتوقعات وغير عادي، {أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ}، جاءكم من المسؤول عنكم من مستوى إلهي شيء لتستحضروه في فكركم وعملكم، {عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ}، فأنا رجل عادي مثلي مثلكم اختارني تعالى لنقل رسالته لكم لتتذكّروا فهل كان تقييمكم لهذا أنه شيء غير عادي! جاءكم رجل منكم، {لِيُنْذِرَكُمْ}، فحالتكم الآن نهايتها العقاب حتماً، فيقول سبحانه لكم عَبْرِي أنكم إذا بقيتم هكذا فستصلون إلى العقاب حتماً، {وَلِتَتَّقُوا}، لتتجنّبوا، وسياق الكلام عن تجنّب غضبه وعقابه تعالى، وعملياً توحّدوه تعالى وتطيعوا أوامره، {وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}، فمن ناحيته تعالى فرحمته وعنايته بمن اتقى جاهزة ومن المتوقّع ومن المفروض أن تحصلوا عليها إن اتقيتم.

باختصار، وظيفة الرسول هي نقل الإنذار، فمن الواضح أنكم في حالة الوصول إلى العقاب الإلهي، ورجل عادي مثلي كافٍ لنقل هذه الرسالة فما سبب اعتراضكم عليّ وتكذيبكم لي!

في سور أخرى من القرآن نقرأ اقتراحاتهم البديلة للرسول الإلهي البشري، فهم يريدون الرسول أن يكون ملاكاً، أو كائناً بقدرات خارقة... والسورة هنا اكتفت بذكر اعتراضهم من دون التفصيل لأن تركيزها على: تبليغهم بتوحيده تعالى، ووضوح اختراعهم للآلهة، ورفضهم للدين الصحيح، وإخبارهم بنتيجة حالتهم بما بعدها من عقاب أليم، فكائن من كان لو بلّغك عن حتمية وصولك للسوء الفظيع بسبب ما أنت فيه فهل تهتم بما قاله وتغيّر سلوكك؟

إذا وضعت في بالك ما سيأتي من قصص الأقوام في هذه الفقرة، وانتبهت لما كانوا يفعلونه، ورأيت واحداً منه سيئاً جدّاً، ولم تر سوء الأفعال الأخرى، فليكن ما رأيته نموذجاً عن سوء ما فعله البقية لتقوّم مشكلة نظرتك للأمور... والسورة هنا والعديد من سور القرآن اختارت ذكر قوم النبي نوح(ع) أولاً ولم تقصد الترتيب الزمني للحوادث، بل البداية مع أسوأ ما فعله الأقوام، وهو الشرك به تعالى، فمن القرآن تعلم عن قوم النبي نوح(ع) أنهم أشركوا ولن يُولَد منهم في المستقبل إلا كفّارٌ، كما ورد في الآية 27 من سورة نوح {إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا}، وتركيز القرآن على هذه النقطة لا يعني أن شريعتهم كانت حسنة ومشكلتهم فقط في الشرك به تعالى، فمن البديهي ومن تبعات الشرك أن تكون شريعتهم فاسدة من أهوائهم، وهذا واضح من الآية 52 من سورة النجم {وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى}، ولكن لم يظهر فيهم شيء واحد فاقع كما ظهر في الأقوام التي ستذكرها بقية الفقرة، فكان موجوداً ولكن لم ينتشر بينهم الغشّ والإسراف والفاحشة... فبعضهم غشاش ولكن ليس مسرفاً والآخر بالعكس وهكذا في بقية الصفات السيئة فهي موجودة ولكن لا واحدة منها كانت طاغية في الانتشار. وتقريب حالتهم مثل حالة البلدان القوية التي تتعامل من منطق القوة والمصلحة مع الأمور، وتشريعاتها الداخلية تهتم فقط بما يحفظ النظام الحكومي، فإذا سنح لهم بلد ضعيف احتلوه أو استغلوه واستهلكوا خيراته... وفي الداخل لا حلال ولا حرام على أساس الحرية الشخصية في اختيار الدين والشريعة... ونتج عن نظامهم الفاسد طبقة منبوذين معدومين كما يبدو من الآية {قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ}، {قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، وهذا ما تراه من الأحياء الفقيرة في بعض الدول الغنية في عصرنا...

ضع في بالك دائماً الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى معانيَ قرآنيةً رائعةً، فتصور شخصاً أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أياً منهما بعد، فهنا تحذّره من سلوك الطريق السيّء، فهو حالياً ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ}...، والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}...

أمّا إذا سلك طريق الخطر، فتنذره، لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. فالإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتماً ما يضرّه، فتنذر الكافر حيث هو في حالة ستسبّب له العقاب حتماً، وورد هذا كثيراً في القرآن. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يتلبّس بما سيسبّب له الضرر، فتحذّر المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

هذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، فقد يقوم المؤمن بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، فتنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة المسيحيين المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}، وعموم المؤمنين المشمولين بالتهديد من فكرة فعل السيئات على أساس أن يحمل أحد ما السيئات عنهم {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}، والمشمولين بالتهديد إن لم يتغيّروا نحو الأحسن، الموعودين بالمغفرة كما ورد في الآية {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}، ونفس المفهوم في الآية 45 من سورة النازعات {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا}.

(فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ{64})
{فَكَذَّبُوهُ}، فقالوا إنّ كلامه (ع) غير صادق، {فَأَنجَيْنَاهُ} والذين معه في الفلك، فهناك أشخاص آمنوا وركبوا معه (ع) {فِي الْفُلْكِ}، في السفينة "وتصغيرها فلوكة" فخلّصهم تعالى، {وَأَغْرَقْنَا}، فأمتناهم بالاختناق تحت الماء، {الَّذِينَ

كَذَّبُوا}، الذين قالوا عمّا نقله الرسول نوح(ع) أنه كذب، {إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً}، كانوا أناساً لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الرسول الإلهي، {عَمِينَ}، عمياناً لا يرون، فقلبهم وبصيرتهم كان أمامه الحقّ ولم يروه، طبعاً لأنهم لا يريدون رؤيته.

في ذيل الآية 93 سنشير إلى أمور تبدو من القصص التي ستذكرها السورة في هذه الفقرة.

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ{65})

قصة ثانية مختصرة لنموذج آخر من أناس لم يتخذوا الله تعالى وليّاً ففعلوا سوءاً: {وَإِلَى عَادٍ}، وهو اسم لقبيلة كبيرة كانت منتشرة في شبه الجزيرة العربية، والكلام القرآني عن الذين عاشوا في مدينة اسمها إرم كما ورد في الآية 7 من سورة الفجر "إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ"، فأرسل سبحانه لهم، {أَخَاهُمْ هُوداً}، شخصاً اسمه هود(ع) كان يشاركهم في شيء أساسي، وهنا الكلام عن مشاركته (ع) في مكان سكنهم وشؤون حياتهم.

{قَالَ}، النبي هود(ع): {يَا قَوْمِ}، يا أيها الناس الذين أنتمي لجماعتهم وهم متفاعلون مع الدين، {اعْبُدُواْ اللّهَ}، فتصرفوا على أساس أنكم مفروض منكم طاعته، {مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ}، فالعبادة لا تكون إلا للإله، إلا لكائن فيه صفات وقدرات فائقة فوق صفات وقدرات المخلوقين، والله سبحانه هو الكائن الأحد بهذه الصفات، {أَفَلاَ تَتَّقُونَ}؟ فلماذا لا تتجنبون وتتحاشون شيئاً ما؟ بعدما علمتم أن الله تعالى صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز له هو الإله الواحد الأحد فمن المفروض أن تتجنّبوا عبادة "طاعة" غيره وأن تتجنبوا غضبه وعقابه تعالى لأنه لا يرضى إلا بعبادته وحده سبحانه.

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ{66})

أيضاً مثلما حصل مع النبي نوح(ع)، {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ}، الوجهاء وأصحاب النفوذ من المنتمين لجماعة الناس الذين ينتمي إليهم النبي هود(ع) قالوا: {إِنَّا لَنَرَاكَ}، حصلت عندنا صورة محددة، كما نقول بالعامية: شايفينك. {فِي سَفَاهَةٍ}، في حالة خفّة العقل، فكلامك يصدر عن سفيه، عمّن عقله خفيف بسيط، {وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ}، فنعتقد استناداً إلى ما لدينا من معلومات اقتنعنا بها أنك، {مِنَ الْكَاذِبِينَ}، من الذين يقولون كلاماً غير صحيح.

الظنّ هو اعتقادك بشيء ما مستنداً إلى شيء ما، فإن كان ما تستند عليه صحيحاً كان ظنّك صحيحاً، وهذه حالة المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم سبحانه كما ورد في الآية 46 من سورة البقرة "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"، فهم مستندون في ظنّهم على آياته وكلامه تعالى. وإن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران "... وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ..."، فاستناداً للحالة الحرجة التي كانوا فيها ظنّوا أنه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء. وبين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند عليها ولكنه ليس مقتنعاً بها، فلا تزال الأمور عنده مرجّحة لاحتمالات أخرى، فهذا ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية "وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ"، فهم يريدون أن يلمسوا مباشرة حصول ساعة قيامهم من الموت حتى يعتقدوا بها ولا يكفيهم الاستناد إلى معلومات تدلّ عليها، فيريدون اليقين بها عياناً حتى يؤمنوا. وهذه الحالة قريبة جدّاً من الاصطلاح "في علم المنطق" والدارج لمعنى كلمة ظنّ على معنى وجود عدة احتمالات. وها صرت تعلم المعنى اللغوي الأساسي لكلمة "ظنّ" فانتبه للفرق بينه وبين المعنى الاصطلاحي حتى لا تفسّر القرآن على أساس المعنى الاصطلاحي.

في عموم كتب التفاسير ستجد كلاماً آخر عن الظنّ، ولا ينطبق معناه على كلّ آيات القرآن، فستجدهم لا يثبتون على معنى واحد للظنّ، حيث مرة يرادفونه باليقين، ومرّة بالشك، ومرة بالحسبان... وهي معانٍ غالباً ستجدها صحيحة لأن الآيات واضحة وتدل على المعنى الذي ذكروه بالشكل العمومي الذي يتحمله الاشتقاق والتدرّج من أصل معنى كلمة ظنّ، ولكنها ليست المعنى الدقيق لكلمة ظنّ، بل كلامهم توصيف لحالة العلم الذي استند إليه الظنّ، وها صرت تعلم معنى الكلمة العام، وأن القرآن دائماً يوضّح لك نوع العلم الذي يستند الظنّ له إن كان صحيحاً أو فاسداً، فلن تضيع في معرفة الظنّ الصحيح من الظنّ الخطأ.

(قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{67})
أجابهم النبي هود(ع) فقال: {يَا قَوْمِ}، يا أيها الناس الذين أنتمي لجماعتهم، {لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ}، فأنتم تعرفونني جيّداً، فلست بسيطاً خفيف العقل، فعقلي تامّ كامل، {وَلَكِنِّي رَسُولٌ}، أنقل لكم كلاماً، {مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، من المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس. انتبهوا، فأنتم تقولون عن رسالته تعالى بأنها سفيهة لأني مجرد ناقل لها.

(أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ{68})
عملي كرسول هو أن، {أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي} سبحانه، فأوصل إلى مسامعكم بالتمام مما وصلني من المصدر، من المسؤول عني من مستوى إلهي، {وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ}، فأقول لكم كلاماً لا غشّ فيه، فينفعكم إذا اقتنعتم به ومشيتم عليه، وأنا، {أَمِينٌ}، لا أخونكم فلا أكذب عليكم، فأنا أقول لكم شيئاً أعرف تماماً أنه صحيح.

(أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ{69})
يكمل النبي هود(ع) قائلا لقومه: {أَوَعَجِبْتُمْ}، فهل تعجبتم، فكان تقييمكم لما حصل أنه مخالف لتوقعاتكم وغير عادي، {أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ} سبحانه، أنه جاءكم شيء لتستحضروه في فكركم وعملكم من المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ}، عليّ وأنا رجل منكم، وليس على جنّي أو ملاك أو مخلوق شكله غريب... بصفات غريبة...

{لِيُنْذِرَكُمْ}، فأنتم في حالة من سيصل حتماً إلى شيء سيّئ وهذا الرجل "أنا" أقول لكم أن تتغيّروا "عن الشرك" الذي نتيجته الحتمية العقاب، فما المطلوب أكثر من ذلك؟ لو كائن من كان رآكم على حالة تؤدّي بكم إلى مصيبة، فنصحكم، فهل تهتمون بمن قال أو من المفروض اهتمامكم بما قيل لكم؟ فما معنى اعتراضكم على كوني رجلاً عادياً منكم بدل اهتمامكم بالسوء الذي سيحصل حتماً معكم! لو كان بدلاً منّي ملاكاً أو مخلوقاً غريباً، أو لو كان عندي قدرات خارقة... ما الفرق ومن الواضح جدّاً جدّاً أنكم على السوء والفساد؟! ولمزيد من التفصيل حول كلمة "أنذر" راجع ما ذكرناه في ذيل الآية 63 من هذه السورة.

يا قومي، {وَاذْكُرُوا}، استحضروا في فكركم وعملكم، {إِذْ جَعَلَكُمْ} سبحانه {خُلَفَاءَ}، تخلفون، تحلّون محل، {مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ}، فهم ماتوا وأنتم جئتم بعدهم تخلفونهم في إنسانيتكم وتكليفكم بدينه تعالى، وفي هذا الكلام إشارة إلى العقاب الذي حصل مع قوم النبي نوح(ع) وأنه حصل لنفس السبب الذي أنذركم منه.

لا تنسَ أننا بنظره تعالى كلّنا من المفروض أن نمثّله فنخلفه تعالى على الأرض، وهذا ما تجده هنا وهنا في مختلف آيات القرآن، فتحديد شخص منه تعالى كرسول لا يعني سقوط وجوب عملي على اتصافي أنا بالصفات اللائقة التي يأمرني بها تعالى، لأني أنا وأنت "على كلّ حال" مكلّفان باتباع ما نراه خيراً وترك ما نراه سوءاً وهو نفس دينه تعالى بالحرف وعلى المسطرة، كلّنا في الأساس مشروع خليفة له تعالى على الأرض، والبعض منّا "الأنبياء والرسل والصالحون..." حافظوا على صفات الخلقة الإلهية الموجودة فيهم {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} الآية 4 من سورة التين، فبقوا لائقين بوصفهم كخلفاء له تعالى.

الآية لا تقصد أنهم الوحيدون الأحياء بعد قوم النبي نوح(ع)، ولا تقصد أنهم عاشوا في نفس المكان، بل عاد كانوا في منطقتهم قوة عسكرية واقتصادية قوية، طغوا في البلاد، بحسب ما ورد في الآية 11 من سورة الفجر، فهناك أقوام آخرون في زمنهم طغى واعتدى عليهم قوم النبي هود(ع).

يكمل النبي هود(ع): يا قومي اذكروا إذ، {وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً}، ففي تركيبكم في جسدكم حصلتم منه تعالى على بسطة، على توسعة كزيادة في أجسادكم، فيما نقوله بكلامنا الدارج: صحّة وعافية فأجسادكم أقوى من أجساد غيركم، فلنقل مقاومة للمرض أكثر، تتحمّل الجهد أكثر... فهم كانت بنيتهم الجسدية أفضل بالنسبة للأقوام التي تعيش حولهم، وهذه نعمة منه تعالى، ولكنهم حوّلوها لنقمة باستغلالها في فرض قوّتهم العسكرية على الآخرين.

{فَاذْكُرُوا}، تذكروا، واستحضروا في فكركم وعملكم، {آلَاءَ اللَّهِ}، عموم الأفعال المميزة التي فعلها تعالى معكم وفيكم، فتذكّروا ما فعله تعالى معكم حين زادكم بسطة في الجسم، ويبدو لك من عموم القرآن أنهم كانوا مرتاحين اقتصادياً لدرجة بنائهم لمدينة ضخمة مزخرفة {الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ} كما ورد في الآية 8 من سورة الفجر... وعمليّاً

ذكر آلائه تعالى هو حمده وشكره تعالى، {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، فمن المتوقع ومن المفروض أن تكونوا من الذين قاموا بعمل فالح، فأجادوا فيما عملوا لأنهم عملوا الصحيح، هذا إن تذكّرتم آلاءه تعالى عليكم وبالتالي وحدتموه ولم توالوا غيره.

(قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{70})
{قَالُوا}، قوم النبي هود(ع): {أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ}! هل كان إرسالك لنا من الله تعالى كما تقول لسبب أن نتصرّف على أساس أننا عبيدٌ مفروضةٌ منّا الطاعة لله تعالى وحده فقط، {وَنَذَرَ}، وننفصل ونترك فلا نهتمّ بـ، {مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا}! آباؤنا كانوا يعتبرون أنفسهم عبيداً مفروضةً منهم الطاعة لعدة آلهة وهل نترك آلهتهم ولا تعودَ لنا علاقة بها! هل كان آباؤنا المحترمون الموقرون يقومون بشيء خطأ! وحضرتك تقول الصحّ؟ لا، لن نصدقكَ ونكذب آباءنا، {فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا}، أنت تهددنا بالعقاب الإلهي فليحصل، {إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}، وإن كنت لا تكذب وكان صحيحاً ما تقوله عن إرسال الإله لك بهذه الرسالة فنحن لن نؤمن لك ولن نصدقك ولْيَأْتِ العقاب وأرح نفسك من نصحنا...

(قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ{71})
وصلنا إلى حصيلة سنين من محاولة هدايتهم، ما سبق من كلام لم يحصل في دقائق ومنه انتقلنا لنزول العذاب عليهم، لا، بل ينقل لنا القرآن ملخّصاً عن أهمّ ما جرى خلال سنين من دعوته (ع) لقومه، والإضاءة هنا على وضوح فساد عقيدتهم، وجدلهم العقيم دفاعاً عنها ورفضهم لما هو واضح وجلي، في نفس الوقت الذي رفضوا فيه رجلاً يقول بأن الإله يوحي إليه... وكذّبوه، هم يؤمنون بآلهة لم تُوحِ لأي أحد؟!...

{قَالَ}، النبي هود(ع): {قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} سبحانه {رِجْسٌ}، شيء سيّئٌ جداً جدّاً لم يصبكم بعد ولكنه وقع عليكم، فصرتم مستحقين له، فقرّره لكم المسؤول عنكم من مستوى إلهي، مثل المجرم الذي حاكمته وصنّفته أنه مجرم وحكمت عليه بالعقاب "بالرجس" ولم ينل عقابه بعد، ووقع عليكم منه تعالى، {غَضَبٌ}، فحكم عليكم تعالى أنه لن يمرّر إنكاركم لتوحيده من دون عقاب.

{أَتُجَادِلُونَنِي}، هل تحاولون إقناعي، {فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ}؟ أقول لكم إنّ الإله أحد واسمه الله تعالى، وتجادلونني وتقولون إنّ الآلهة كثيرة، مع العلم أن أسماء تلك الآلهة أنتم اخترعتموها! وسميتموها أنتم وآباؤكم! وهي ليست آلهة أصلاً! ولم ترسل لكم رسلها! ولم تتواصل معكم! بل هكذا اخترعتموها من خيالكم، قبل اختراعها لم يكن لها ذكر، وفجأة ومن خيالكم اخترعتم أسماء لآلهة! {مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا}، بتلك الآلهة، {مِنْ سُلْطَانٍ}! السلطان والقوّة والمصدر الوحيد القوي الموثوق، الذي يحدّد إذا كان هناك آلهة متعددة أو إله واحد، يجب أن يكون إلهاً، والله تعالى لم يقل لنا أبداً إنّ لديه شركاء في الألوهية، ومن يقل بوجود آلهة متعددة فيجب أن يكون عنده سلطان، شيء قوي جداً كدليل، وليس هناك أقوى من كلام الله تعالى الإله الذي حتماً سيعلم إن كان هناك آلهة أخرى.

نكرر كما يكرر القرآن دائماً، الله سبحانه يقول بصراحة وشفافية: ليس هناك إله غيري، في كل السماوات والأرض لست أرى ولا بأي شكل ولا يوجد أي أثر لسلطة أو لقوة... لإله غيري. وكيف واستناداً على ماذا تقولون بوجود آلهة غير الله تعالى، وأنتم تعلمون أنها مجرد أسماء اخترعتم البعض منها أنتم من خيالكم والبعض الآخر اخترعه آباؤكم من خيالهم، ونضرب مثلاً بالآلهة الرومانية، خذ مثلاً "جونو"، فهو مجرد اسم لا يعبّر عن حقيقة كائن موجود، وجعلوا لها وصفاً بأنها ملكة الآلهة، فما معنى ذلك؟!

{فَانْتَظِرُوا}، فهناك زمن سيمرّ قبل حصول العقاب الإلهي، {إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ}، أنتم تسألونني أنا أن آتيكم بالعقاب ولكن لا علاقة لي به فلست أنا من يقرّره، ومثلي مثلكم وصلني خبر به وأنا مثلكم سيمر عليّ زمن لأرى حصوله.

(فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ{72})
{فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ}، خلّص تعالى النبي هود(ع)، والذين معه في الإيمان بالتوحيد نجوا من العقاب الإلهي الدنيوي، {بِرَحْمَةٍ مِنَّا}، نالتهم منّا عناية لما فيه مصلحتهم، {وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا}، حرفيّاً معناها قطع سبحانه ولم يترك أي اتصال في الحياة لأحد خلف الذين لم يصدّقوا لا بالتوحيد ولا بالعقاب، دابر هؤلاء القوم هو أن يبقى أحد خلفهم، لِيُنجِبَ

أولاداً، ولكن مات كل الذين كذبوا، {بِآيَاتِنَا}، بالأمور المميزة بمستواها الإلهي المنسوبة له سبحانه، {وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ}، لأنهم لم يعتقدوا بالآيات أنها إلهية.

كما ترى القصة مختصرة جدّاً، لأن التركيز فيها على نزول العذاب في الدنيا على من لم يوحّده تعالى ولم يتخذه وليّاً أَحَداً، ولم تذكر لنا كيف أبادهم سبحانه... وهناك سور أخرى ذكرت لنا تفاصيل عن عاد وكانت مواضيع تلك السور تشير لأمور أخرى من قصصهم مناسبة مع موضوع السورة.

بقي شيء، ضع في بالك دائماً أن الأقوام التي ذكر القرآن نزول العذاب عليها، لم يحصل لها كلّها إبادة تامّة لكل من كفر، التعبير هنا عن قطع دابر قوم النبي هود(ع) "وفي سور أخرى من القرآن" يفيد بالإبادة الشاملة لكل من كفر من قومه(ع)، ومثله حصلت إبادة شاملة لكل من كفر من قوم النبي نوح(ع) وقوم النبي لوط(ع)، وسترى فيما سيأتي من آيات أن قوم النبي صالح(ع) وقوم النبي شعيب(ع) وقع عليهم العقاب ولكن لم تحصل لهم إبادة شاملة لكل من كفر منهم.

في ذيل الآية 93 سنشير إلى أمور تبدو من القصص التي تذكرها السورة.

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوَءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{73})

الآن نبدأ مع قصة لنموذج ثالث مشابه للقصتين السابقتين: {وَإِلَى ثَمُودَ}، وهو اسم لقبيلة عربية كبيرة، كانت منتشرة في عدة أماكن في شبه الجزيرة العربية، والنبي صالح(ع) أرسله الله سبحانه إلى مدينة الحجر كما هو واضح مما حول الآية 80 من سورة الحجر "وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ"، ويوجد إلى الآن آثار لبيوت منحوتة في الصخر في مدينة الحجر، وتسمى أيضاً مدائن صالح، وهي تقع فيما يسمّى حالياً بالمملكة العربية السعودية، لجهة الشمال الغربي من المدينة المنورة.

{وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا}، أرسل سبحانه لهم أخاهم أي واحداً من المشاركين معهم وهنا الكلام عن مشاركته (ع) لهم في مكان السكن.

{قَالَ}، النبي صالح(ع): {يَا قَوْمِ}، يا جماعة الناس الذين أنتمي لجماعتهم والمتفاعلين مع الدين، {اعْبُدُوا اللَّهَ}، فأنتم عبيد له مفروضةٌ منكم طاعتهُ فتصرّفوا على هذا الأساس، {مَا لَكُمْ}، ليس لكم، {مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}، لا يوجد كائن غيره موصوف بالصفات والقدرات الفائقة عن صفات المخلوقين، ووحده الله بهذا الاسم المميّز المحدّد له سبحانه يملك الصفات والقدرات الفائقة.

{قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ}، صار عندكم من المسؤول عنكم من مستوى إلهي شيء واضح يدل على تفرّده تعالى بالألوهية، {هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ}، هذه أنثى الجمل والمنسوبة لله تعالى لأنها ليست مِلكاً لأي مخلوق، والمشهور بين الناس أنهم هم طلبوا خروج ناقة فوراً من صخرة كآية حتى يؤمنوا، واستجاب سبحانه لهم، ولكن انتبه القرآن لم يذكر ذلك، وهي، {لَكُمْ آيَةً}، وهي الشيء الواضح المميّز والذي يدلّ على أنه تعالى الإله الأحد لأنه خلقها بناءً على طلبكم...

بناءً على ما هو مشهور بين الناس من خروج الناقة من صخرة، ولسبب لا أعلمه تخطاه القرآن ولم يؤيده ولم يكذّبه، ربما بسبب شهرة الخبر بين الناس وانتفاء الحاجة لذكره، وربما ما هو مشهور بين الناس له نفس دلالة ما حدث فعلاً حتى لو كان مختلفةً طريقةُ خلقها... على أي حال بناءً على ذلك وبما أنها آية حصلت بسبب طلبهم لها منه تعالى من المفروض أن تبيّن لهم عبر استجابته تعالى لهم أنه الإله الأحد، لأن أيّاً من آلهتهم التي اخترعوها من المستحيل أن تستجيب لطلبهم وتخلق لهم ناقة من لا شيء، كما يبدو بالأصل هم طلبوا هذا الطلب على أساس أنه تعجيزي فلن يحصل...

علينا أن نتصور مشكلة هؤلاء الناس مع الناقة، هم لم يؤمنوا، ولا يريدون أن يؤمنوا، ويريدون أن ترحل الناقة عنهم، لأنها كلما مشت بين بيوتهم وحقولهم شعروا بالمضايقة والانزعاج بشكل واضح، وظهر عليهم أنهم يريدون التخلّص منها...

نكمل مع كلام النبي صالح(ع): {فَذَرُوهَا}، انفصلوا عنها ولا تتدخّلوا بها واتركوها، {تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ}، واتركوها على حريّتها لترعى حيث تشاء، أنتم لديكم أراضيكم التي ترعى فيها مواشيكم وتزرعونها، وهي ترعى في أرضه تعالى في أماكن أخرى ولا تضرّكم، {وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ}، ولا تتحوّل النيّة التي عندكم بالضرر لها إلى التنفيذ، ولا تؤذوها.

وإذا آذيتموها، {فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، ولن يترككم بل سيأخذكم شيء مضرّ مُؤذٍ ولن يكون عادياً بل سيكون مؤلماً جدّاً.

(وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ{74})

{وَاذْكُرُوا}، واستحضروا في فكركم وعملكم، {إِذْ جَعَلَكُمْ}، سبحانه، {خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ}، تخلفون، تحلّون محلَّهم، من بعد قوم عاد، هم ماتوا وأنتم جئتم بعدهم تخلفونهم بشراً مكلّفين بالحقّ والباطل أي بدينه تعالى، وفي الكلام إشارة للعقاب الذي نزل على قوم عاد وأنهم انتهوا وها أنتم تكرّرون خطأهم.

{وَبَوَّأَكُمْ}، أعطاكم مكاناً، {فِي الْأَرْضِ}، على البسيطة حيث يمكن للناس أن يعيشوا، "طبعاً ليس الكلام عن كوكب الأرض ككوكب بل عن مساحة الأرض التي عاشوا فيها"، {تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا}، على الأراضي المنبسطة تبنون البيوت الفخمة الضخمة، {وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا}، حيث تختارون جبلاً صخرياً وفي بقعة منه تزيلون قطع الصخر فتحفرون الغرف والممرات مع زخرفة ونقوش وحيطان ملساء... لتكون بيوتاً، كما يبدو من الكلام هنا ومن عموم القرآن أنهم لم يكونوا بحاجة لتلك البيوت، إذ إنّ طبيعة منطقتهم لم تحكمهم بحفر بيوت في الجبال الصخرية، ولم يكونوا مضطرين لذلك بسبب فيضانات المياه من الشتاء أو من كثرة المطر أو بسبب حيوانات مفترسة... لديهم بيوت "فخمة" في السهول ولكنهم نحتوا وحفروا البيوت في الجبال مع زخارف مكلفة بالمال والجهد البشري بما لا يحتاجونه، وهذه هي المشكلة، البذخ. وتقرأ ذلك صراحة في الآية 146 وما بعدها من سورة الشعراء {أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ}.

{فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ}، استحضروا في فكركم وعملكم الأمور المميزة التي فعلها تعالى لكم، كما تعلم من الآية هنا "ببناء القصور ونحت الجبال" ومن مختلف سور القرآن أنهم كانوا مرتاحين جدّاً اقتصادياً، وعمليّاً ذكرهم لآلائه تعالى هو توحيده وعبادته وشكره سبحانه على النعمة الاقتصادية التي هم فيها.

{وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ}، ولا يكن ما يصدر منكم حيث تعيشون موصوفاً بأنه غير منظّم، مثل الذي يفعل أي شيء من دون دراسة عواقبه ولا يفكّر فيه مرتين، {مُفْسِدِينَ}، غير مصلحين، فهذا الترف المفرط هو فساد وليس إصلاحاً، لأنّ فيه إهدار للمال وللقدرة العمالية... وينطبق عليه وصف العثو كما نقول بالعامية:أرعن، متخبط، طائش...

بقي شيء، مشكلة ثمود هو نحتهم البيوت في الصخر، هل يستحقّون تعذيبهم؟ نعم، فهذا الترف بالإضافة لشركهم به تعالى، والذي أدّى إلى تصرفهم في أموالهم وقدراتهم الاقتصادية بترف غير آبهين بتحريمه تعالى لذلك لأنهم ليسوا مؤمنين بكلامه سبحانه، ومضافاً لترفهم وشركهم كذّبوا بآية هم طلبوها، وقتلوا الناقة وهي الدليل الملموس على فعله تعالى لشيء لن تفعله آلهتهم لأنها وهمية.

لنتناول مسألة الترف من زاوية أخرى، لو لسبب أو لآخر كنت أنت فقيراً معدماً بلا مأوى أنت وأولادك وأهلك... وبلا أكل، وتحتاج أنت أو ولدك... لدواء وإلّا العلّة والموت، ورأيت قصراً مترفاً في تكاليف بنائه، وصاحبه يعلم بفقرك وبؤسك، وباب مدخل القصر تكاليفه تكفيك لتأمين حاجاتك لسنة... فهل ترى ذلك مقبولاً؟ سترى من الآية التالية أنه في قوم النبي صالح(ع) كان يوجد مستضعفون...

لا تقرأ الآيات هنا بجفاف متجاهلاً واقع حال وجود فقراء سيعملون بالأشغال الشاقة لنحت الجبل بيتاً حتى يحصلوا على وجبة طعام... ما تراه في بيوت العديد من مجتمعاتنا، من أمور زيادة عن الحاجة... وتكاليف أعراسنا وأحزاننا... وأعياد الميلاد... ما هو إلا نسخة مصغرة عن الترف، ولم نعد نراه ترفاً بالرغم من مساهمتنا في نشره ووقوع الكثيرين منّا في الضيق بسبب العرف الذي ساهمنا بنشره بين الناس، فصرنا نعيب على بيت متواضع لا بذخ فيه ولا ترف،

ونعيب على عرس على سطح البيت أو أمام البيت، فالأعراس في الصالات المزيّنة بتكاليف ترهق غالبية الناس، ورغم ذلك يفعلونها!

أطلت عليك الكلام حتى لا يعمينا ترفنا وإسرافنا عن رؤية حقيقة سوء ما نفعله، وبالتالي لن ترى سوء ما فعله ثمود، بل أنا شخصيّاً أتمنّى لو أملك بيتاً منحوتاً في الصخر بدون زخرفة وتكاليف زائدة، سيكون بارداً صيفاً ودافئاً شتاءً، ولكن المشكلة أنهم لم ينحتوها بسبب عملانيتها بل للترف كما ورد في الآية 149 من سورة الشعراء {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ}.

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ{75})
{قَالَ الْمَلَأُ}، قال الوجهاء والزعماء والفاعلون في المجتمع وأصحاب النفوذ والمناصب الاجتماعية والسياسية... {الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ}، المنتمون للجماعة التي ينتمي لها النبي صالح(ع) والذين رأوا أنفسهم أكبر من الآخرين وأكبر من الإيمان بما يقوله (ع)، قالوا، {لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا}، للناس الذين يرونهم أضعف منهم وأقل منهم، للناس الذين لا يملكون قدرات عسكرية أو مالية أو اجتماعية... هم الذين يمكن أن يضعوهم في السجون أو أن يقتلوهم أو يطردوهم من القرية أو من العمل... لم يقل الملأ كلامهم لكل المستضعفين من قومه (ع) بل فقط، {لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ}، الذي آمن بما قاله النبي صالح(ع) من المستضعفين سمع الخطاب التالي من الملأ:

{أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ}؟ هل لديكم معلومة تعتقدون بأنها صحيحة حقيقية واقعية تقول إنّ صالحاً أرسله المسؤول عنه من مستوى إلهي؟ يقصد المستكبرون بهذا السؤال تهديد المؤمنين المستضعفين، يطلبون منهم أن يحدّدوا موقفهم، هل هم معهم أم مع صالح المدّعي بأنه رسول من الربّ؟

أجاب المستضعفون المؤمنون، قالوا: {إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ}، نحن نعتقد بصحة ما ينقله لنا النبي صالح(ع).

هذا الكلام حصل من بعدما طلبوا "خروج الناقة من صخرة" كشرط ليؤمنوا، وكما تعلم عامّة الوجهاء لم يؤمنوا، وترى ذلك بتفصيل أوسع قليلاً في سورة النمل من الآية 45 وما يليها.

تذكّر دائماً أنّ القرآن لم يستعمل كلمة "اعتقد"، واستعمل كلمة عقد ومشتقاتها لشيء لا علاقة له بالاعتقاد على المعنى الدارج، كعقد الحبل، والعرب قبل الإسلام أيضاً وبحسب ما لدي من مصادر لم يشتقوا كلمة اعتقد من عقد ولم يقصدوا باشتقاقاتها المعنى الذي درج فيما بعد بين المسلمين، ولو بحثت في كلمة آمن واعتقد، لوجدت أن القرآن "وعموم كلام العرب قديماً" يقصد بكلمة آمن ما يرادف ما هو دارج من معنى لكلمة اعتقد.

(قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ{76})
{قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا}، الذين كانوا يرون أنفسهم أكبر من بقيّة الناس وأكبر من الإيمان بما يقوله النبي صالح(ع)، قالوا: {إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}، نحن ننكر ولا نعتقد بما اعتقدتم به.

نحن موقفنا واضح، ونحن كافرون ومنكرون ولسنا معتقدين بما تؤمنون به.

هنا ننتبه أنّ هذا الكلام معناه أننا سوف نجعلكم تدفعون ثمن إيمانكم، لأنكم تخالفون عقيدتنا وديننا وتعلنون أنها فاسدة، وأنتم تحت حكمنا وسلطتنا... سوف نطردكم من وظائفكم وأعمالكم، وسوف نضايقكم... ونهينكم، ونضربكم....

(فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ{77})
{فَعَقَرُوا النَّاقَةَ}، قام المستكبرون بضرب الناقة بآلة حادة لها رأس، كرمح أو نبل أو سكّين... وهم يقصدون قتلها، فماتت الناقة.

{وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ}، فعلوا أشدّ ما يخالف ما أمرهم به المسؤول عنهم من مستوى إلهي، أمرهم سبحانه بأن لا يؤذوا الناقة، ولكنهم قتلوها عن قصد، بل وعن تحدّ! وهذا هو العتو، أي المبالغة الشديدة فيما فعلوه. تصوّر لو أنهم حاولوا إبعادها عن قريتهم بإخافتها، لكان تعدّياً على أمره تعالى ولكنه لا يوصف بالعتو مثل قتلها.

{وَقَالُوا}، الملأ الذين قرروا عقر الناقة: {يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا}، لأنك قلت لنا إننا إذا قتلنا الناقة فسيأتينا العقاب في الدنيا قبل الآخرة، وها نحن قتلناها، فليَأْتِ العقاب الذي قلت لنا عنه.

{إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}، إن كنت فعلاً مرسَلاً من الإله فقل له عمّا فعلناه حتى يعاقبنا.

هم حتى هذه اللحظة لم يؤمنوا بآية الناقة كونها دليلاً على صدق رسالة النبي صالح(ع)! ولم يعودوا يستطيعون تحمّل رؤية الناقة بينهم، فقتلوها وهم يتحدّون النبي صالح(ع)... على معنى: أرنا أنك فعلاً رسول إلهي ولينزل العقاب كما تدّعي، ها نحن قتلنا الناقة.

(فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ{78})
{فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ}، لم تتركهم، وهي تحرّك واضطراب الأرض، فتزلزلت الأرض ودمرت بيوتهم عليهم، {فَأَصْبَحُوا}، أول ما صاروا من بعد حصول الزلزال، {فِي دَارِهِمْ}، حيث تدور فتحصل شؤون حياتهم اليومية، في بيوتهم وأماكن عملهم... أصبحوا، {جَاثِمِينَ}، ملاصقين مرميين على الأرض.

بقي شيء، فهمنا أنهم كانوا مشركين، وكانوا مسرفين في بناء البيوت المترفة فوق ما يحتاجونه، فهل هذا سبب لعقابهم؟ هل بناء البيوت المكلفة سبب لنزول العقاب الإلهي؟ يبدو لك من عموم القرآن أنه السبب الأساسي لاستحقاق العقاب، بعض سور القرآن لم تذكر أن العقاب نزل عليهم بسبب قتلهم للناقة، فقفزت عن قتلهم للناقة إلى الإسراف في البناء إلى العقاب، حتى إنّ بعض فقرات القرآن لم تشر أصلاً إلى شركهم به تعالى، وركّزت على نحتهم للبيوت كسبب لعقابهم، وفقرتنا هنا جمعت كل ذلك "من شركهم ونحتهم للجبال وقتلهم الناقة" بالتناسق المترابط.

الآن، هل يحقّ لنا أن نحصر نزول العقاب عليهم بسبب شركهم، أم بسبب بنائهم للبيوت بإسراف؟ أم بسبب قتلهم للناقة كونها آية هم طلبوها وبعد ذلك كفروا بها؟ أم نربط الجميع معاً؟ أم نضيف عليه ما نعلمه من القرآن أن العقاب الجماعي لا ينزل على قوم إلا إذا كانوا كلّهم بغالبيتهم وخصوصاً أصحاب القرار فيهم المدعومين من مجتمعهم، كانوا موافقين وغير معترضين على سوء ما من العيار الثقيل، فلنقل إنّ بعضاً من ثمود لم ينحتوا بيوتاً في الصخر ولكنهم لا يرون بأساً في فعله، مثلما نعلم أن عاقر الناقة وقاتلها كان شخصاً واحداً، كما ورد في الآية 12 من سورة الشمس "إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا"، ولكن العقاب شمل الآخرين بسبب موافقتهم على فعلته.

حسناً، يريدك القرآن ألا تحصر سبب العقاب بأي نقطة، فثمود نموذج تحدّث عنه القرآن واختاره من بين النماذج الأخرى بسبب وجود هذه النقاط المتعددة فيه، فنتعلّم من قصّتهم أن الإسراف في البيوت سوء كبير وعليه عقاب حتماً في الآخرة، ونتعلّم من قصّتهم أن من يطلب آية ولا يؤمن بها فله عقاب في الدنيا قبل الآخرة، وأي مجتمع يتواطأ على السوء ويوافق الغالبية عليه فسينال المجتمع عقاباً في الدنيا قبل الآخرة.

(فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ{79})
بعد قتلهم للناقة حدث الزلزال ومات عدد كبير من الناس، ولكن ننتبه إلى أنّهم لم يموتوا كلهم، ولا نجد في القرآن أنه تم قطع دابر ثمود كما حكى عن قوم النبي نوح(ع) والنبي هود(ع) والنبي لوط(ع) لأنّ الكفّار من هذه الأقوام تمّت إبادتهم بالكامل، وقوم النبي شعيب(ع) أيضاً لم يموتوا كلهم بالزلزال.

{فَتَوَلَّى عَنْهُمْ}، توجّه باتجاه آخر غير اتجاههم، وانصرف وغادر النبي صالح(ع) مدينتهم التي أصابها الزلزال المدمّر.

{وَقَالَ}، النبي صالح(ع): {يَا قَوْمِ}، يا أيها الذين أنتمي لجماعتهم، {لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ}، أوصلت إليكم بالتمام من المصدر، {رِسَالَةَ رَبِّي}، أنا قمت بوظيفتي وكل ما هو مطلوب مني بشكل كامل، ونقلت لكم بالتمام ما وصلني من المسؤول عنّي

من مستوى إلهي، {وَنَصَحْتُ لَكُمْ}، قلت لكم كلاماً صحيحاً لم أغشّكم فيه، قلت لكم إنّ قتل الناقة سيكون عليه عقاب وها ترون أن كلامي لم يكن غشّاً لكم، {وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}، لا رغبة لكم بالتعاطي مع من لا يغشّكم، وبالعكس تحبّون من يقول لكم ما يتوافق مع هواكم حتى لو كان غير صحيح وسيّئاً.

هكذا انتهت قصة النبي صالح(ع) مع قومه، لأنهم رفضوا أن يكون الله سبحانه وليّهم الأحد، وفعلوا السوء بالإسراف، وكذّبوا بآية هم طلبوها... فكانت النتيجة أن تعذّبوا في الدنيا قبل الآخرة. ونلاحظ أن التركيز لم يكن على تفاصيل القصة بل على الخلاصة التالية: قوم كافرون، مفسدون مترفون، أرسل لهم سبحانه نبيّاً ليريهم خطورة الشرك به تعالى وخطورة سوء ما يفعلونه من إسراف، ولم يؤمنوا، وحصلت آية ولم يؤمنوا، ولم يروا قتل الناقة سوءاً... فنزل عليهم العقاب في الدنيا.

ستجد في بعض الكتب تبريراً وتخريجاً لآيتنا هنا على أساس أنها جملة قالها النبي صالح(ع) قبل حصول الرجفة، على أساس أنهم بعد الزلزال ماتوا كلّهم. ولكن من عموم القرآن تفهم أنّ ثمود لم تتمّ إبادتهم بالكامل، حيث لم يستعمل القرآن فيهم وصف قطع دابرهم أو ما يدلّ على إبادتهم، حصل الزلزال ومات عدد منهم ولم يموتوا كلّهم، وبمراجعة ما ورد في سورة النمل تجد تركيزاً على موت رهط قصدهم العقاب، على ما يبدو أن أثر الرجفة كان قاتلاً لساكني القصور في السهل ولساكني البيوت المنحوتة، ونجا عدد من المستضعفين من الكافرين الساكنين لبيوت عادية... هنا الكلام في الآية بعد عودة النبي صالح(ع) إلى ديار قومه ومعاتبة من بقي حيّاً، وحكاية الحال لمن مات، فالكلام عمّا جرى مع الذين هلكوا موجّه للأحياء حتى يتّعظوا.

في ذيل الآية 93 سنشير إلى أمور تبدو من القصص التي تذكرها السورة.

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ{80})
{وَلُوطًا}، أيضاً أرسلنا النبي لوط(ع) إلى قومه، إلى جماعة الناس التي لها كيان الجماعة وهو (ع) من جماعتهم، فقال لهم: {أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ}، وهذه الجملة تقرأها مع الاستغراب التعجبي، هل تقومون بالعمل الجنسي السيّئ الذي لم يفعله قبلكم أحد من الناس؟

الإشارة في الكلام إلى ما تميّزوا به حيث إنّ كلّهم موافقون على الشذوذ الذكوري والتعدّي الجنسي على الذكور الغرباء المارّين بقرب قراهم، فهذا ما لم يسبقهم به أحد من الأقوام، وتقرأ ذلك في الآية 29 من سورة العنكبوت {أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ}...

حالياً في البلد الذي يسمى الأردن، توجد منطقة تسمّى غور الأردن، وهي منطقة كانت مسكونة منذ القدم، ويقع فيها البحر الميت، وهو البحر الصغير المشهور بارتفاع نسبة الملح في مائه لقرابة الثلاثين من المئة، ومن المشهور بين المسلمين أنه في زمن النبي لوط(ع) كان في منطقة غور الأردن أربعة تجمعات سكنية، لكل واحدة منها اسم، مذكورة فيما يسمّى بالتوراة ولم يذكرها القرآن وهي: سادوم، عامورة، أدومة، صبييم. وهذه التجمعات هي القرية التي كان فيها النبي لوط(ع). والمشهور في عموم ثقافة المتدينين أن البحر الميت لم يكن موجوداً في عصر النبي لوط(ع) بل كان مكانه واحدة من التجمعات السكنية، "وهذا غير صحيح لأنّ البحوث الحالية تثبت بأن البحر الميّت عمره بعشرات آلاف السنين"، ويقولون إنّه عندما نزل العذاب على تلك المنطقة حصل زلزال وفوران للحمم من الأرض، وانخسفت قطعة من الأرض وصارت فيما بعد بحيرة كبيرة هي الآن البحر الميت.

كما تلاحظ استعملت كلمة "المشهور ويقولون" بسبب وجود الكثير من الاختلافات بين كتب التاريخ حول مكان وأسماء وتواريخ وماذا حصل في تلك المنطقة، ولا يتماشى ما قالوه عن ولادة البحر الميّت من تلك الحادثة مع العمر الذي يقدّره علماء الجيولوجيا له، ربما حصل خسف فعلاً وتوسّع البحر الميّت ليغطي تلك القرى... وربما لا... على كل حال حتى عهد نزول القرآن يبدو أنه كان هناك آثار ما لتلك القرى وكان مشهوراً بين الناس حصول دمار هناك لقوم سوء كانوا يعتدون جنسياً على الغرباء... القرآن أشار لمعرفة المسافرين من أهل مكّة لمكان قوم النبي لوط(ع) ولقصّتهم، ومعرفتهم تلك لم تكن مستندة لمصدر ديني بل مستندة لما يعرفه الناس عن تاريخ المنطقة، وهذا ما يبدو من الآية 137 من سورة الصافات {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ}.

يبدو من الآية أنهم كمجتمع من الناس كانوا أول مجتمع أعلن فعله ورضاه عن الشذوذ، وما حصل قبلهم كان حالات فردية لم توافق عليها مجتمعاتهم، ولذلك لحقت تسمية فاعل هذا الشذوذ بنسبته لقوم النبي لوط(ع)، وبعدها حصل اختصار النسبة لتصير على اسم النبي لوط(ع)، لوطي، علماً أن الغالبية الساحقة من اللغويين والمؤرخين والمفسرين يرفضون هذه النسبة، ويبدو رفضهم انطلاقاً من خلفية احترام مقام نبي من أنبيائه تعالى، ولكن يبدو واضحاً جدّاً وللأسف أنّ النسبة لاسمه (ع)، وكما يبدو مع الأسف درجت وصارت اسماً للفعل اشتقاقاً من اسمه (ع). وأنت تعلم أنه (ع) أوّل من حاربها، فالنسبة "لوطي" اختصار لـ: من قوم لوط. طبعاً لا يقصدون أن الشاذّ من سكان قريتهم أو أقاربهم بل المقصود أنه يفعل مثلهم، وطبعاً ليس المقصود أن النبي لوط(ع) له علاقة بالفحش بل هو المحارب الأول له. انتبه إلى أنّ استعمال الناس لهذه التسمية "لوطي" وللأسف بالاشتقاق من اسم النبي لوط(ع)، هو وحده دليل تاريخي تفهم منه تواجد شخص اسمه لوط جرت معه حادثة مع قومه بسبب شذوذهم.

من المشهور جدّاً أن النبي لوط(ع) كان مع النبي إبراهيم(ع) حين هاجرا من بعد رمي النبي إبراهيم(ع) في النار في المدينة التي كانا فيها... كما يبدو من التاريخ أن القرية الفاعلة للفاحشة والتي كان فيها النبي لوط(ع) هم لم يكونوا من أقاربه، وبالنسبة لتعبير القرآن عنهم بأنهم قومه، فهذا يشير إلى انتمائه (ع) إلى جماعتهم المتفاعلة مع الدين الإلهي ومع السلوكيات... ولا يشير إلى أي قرابة "نسب" بينه وبينهم، علماً أنه من المشهور أيضاً أن زوجته كانت منهم وبينه (ع) وبينهم قرابة "سبب" مصاهرة، على كل حال كلمة "قوم" هي وصف لعموم جماعات الناس المتفاعلين مع شيء، فحتى لو كان كل واحد منهم بالأصل من بلد مختلف عن الآخر، فوصفهم كجماعة يكون بكلمة "قوم". وبالنسبة للتعبير الوارد في الآية 161 من سورة الشعراء {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ} بوصف الإخوة من الواضح جدّاً أنه ليس أخاهم من أبيهم أو أمّهم، بل هو استعمال لكلمة الأخوة على معناها الأساسي العام الذي يشير لعلاقة مشابهة مع تساوي في شيء أساسي يجمعهما معاً، ففي النسب وفي الإيمان وفي الإنسانية وفي التكليف... أو المكان والمعيشة كالتعبير بأخي العرب، وأخي المهنة... وعلى المعنى العمومي ما ورد في الآية 10 من سورة الحجرات {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}...، وما ورد في الآية 161 من سورة الشعراء {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ}.

لِنَعُد للسورة، ما هو العمل الجنسي السيّء الذي كانوا يقومون به:

(إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ{81})
يكمل النبي لوط(ع): {إِنَّكُمْ}، يا قومي، {لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ}، تقومون بفعل الشذوذ الجنسي الذكوري "اللواط". وكانوا يفعلونه عن شهوة أي عن قصد ورغبة مع بعضهم! بدل أن تكون شهوة الرجال جنسياً للنساء!

{بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ}، أناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع هذا الموضوع، {مُسْرِفُونَ}، مبالغون في التصرف ومتجاوزون لما هو معقول ومقبول، يمكنكم تنفيس وإشباع شهوتكم بطريقة صحيحة، عبر العلاقة العادية الطبيعية لذكر مع أنثى، ولكن بسبب الإسراف، بسبب المبالغة في الشهوة الجنسية فوق ما تحتاجونه، ذهبتم بها إلى ما بعد المسموح، حتى دخلتم في الممنوع!

كما نجد أناساً يملكون الكثير من المال، والبيوت، والسيارات و... كل شيء مؤمّن لهم، ولكنهم يسعون للمزيد من السعادة، فيدخلون في الإسراف وهو الدخول فيما لا تحتاجه من بعد حصولك على ما يكفيك، فيتعاطون المخدرات... وبعضهم يموتون من الجرعات الزائدة من المخدرات لأنهم يريدون الوصول لأقصى درجات إشباع الشهوة، بل يريدون تخطّي أقصى ما يمكننا الوصول إليه بهذا الجسد! فيسرفون في إشباع شهوتهم فوق حاجتهم، وحتى لو كان بالسوء. نلاحظ هنا دقة التعبير عن قوم النبي لوط(ع) وهو الإسراف في إشباع الشهوة، فالحلال متاح وكافٍ لإشباع الرغبة ولكنهم يريدون الزيادة وعلى هذا الأساس دخلوا في الشذوذ، علماً أن العلاقة الطبيعية الحلال كافية وتلبّى الاحتياجات.

ضع في بالك أنه ليس بالضرورة أن يكون كل أهل هذه القرية ممارسين للواط، بل كانوا كلّهم مشرّعين له وغير معترضين عليه، فكان بعضهم يقوم به، وكان أهلهم وأقرباؤهم وجيرانهم موافقين، ومن الآية 29 من سورة العنكبوت

{أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ}... نعلم أن هؤلاء الشاذّين كانوا يتعدون على الغرباء الذين يأتون إلى قريتهم أو يمرون على طريقها، أيضاً بدعم وتأييد من بقية سكان قريتهم! ولهذا السبب استحقوا كلهم أن يتعذبوا.

ننتبه، في عصرنا وما قبله، نسمع كلاماً يظهر منه العقلانية والرزانة ويبرّر للشاذّين، على أساس أنّ لديهم حاجة لا يمكنهم إشباعها إلا بالشذوذ، وعلى أساس أن هؤلاء تركيبة فكرهم ومشاعرهم تميل إلى نفس جنسهم وليس لديهم ميل للجنس الآخر، فيبررون ذلك نفسياً وبالخلقة! يقولون إنّ لدى هؤلاء الناس "الشاذّين" جينات تجبرهم على ميل الرجل إلى رجل ونفوره من الميل الجنسي للأنثى... والنتيجة من الكلام أنهم ليسوا شاذّين بل هم طبيعيون. ويقولون إنّ ميل الذكر للذكر حالة منتشرة بين الحيوانات... على أساس أنه من طبيعتنا ومخالفته مخالفة للطبيعة...

هذا الكلام الهراء ردّت عليه الآيات بكلمة "إسراف" وقبلها بكلمة "فاحشة"، فالزنا فاحشة، علماً أن الزنا علاقة بين ذكر وأنثى، ولكنها علاقة غير شرعية، فهل من الطبيعي المقبول أن تخون الزوجة زوجها وأن يخونها هو مع امرأة متزوجة؟ حتى لو كان هذا يحصل، وصار سلوكاً دارجاً في بعض المجتمعات، فهل هو الحالة الطبيعية العادية المقبولة؟

كما ترى، الذي لم ينغمس في هذه الحالة سيرى الزنا فاحشة، ومن انغمس فيها سيبرّر لها ولن يعتبرها فحشاً، ونفس الشيء للشذوذ، فمن انغمس في السيئات الواضحة سيقوم بالتبرير للسيئات التي يفعلها والتي لم يفعلها كغطاء لنفسه حتى لا يعترف بالسوء، وسيرفض وصفه بالسوء والشذوذ والفحش، وسيرفض وصفه بالإسراف، على أساس أن حاجته الجنسية لا يمكنه إشباعها إلا مع رجل؟! وكأن العملية ستختلف لو أقامها مع أنثى! علماً أن الدين الإلهي حلّل للزوجين ملامسة ومعاشرة بعضهما بأي طريقة يرغبان بها...

يقولون إنها حاجة عاطفية، فهناك ذكر يحبّ ذكراً آخر مثلما يحب الذكر الأنثى. يقولون هذا وهم متجاهلون للعقد النفسية الناتجة عن السلوكيات العدوانية التي تدمّر نفسية الأولاد الذين يسخرون من بعضهم البعض، وينتج عنه ذكور منبوذون يشعرون بعقدة النقص تجاه الإناث، فيشذّون نحو الآخرين الذين يشعرون أنهم منبوذون من الإناث... ومع هذا ما هو تبريركم للاغتصاب؟ أيّ حبّ في الاغتصاب غير تنفيس الشهوة بالقوّة؟ وأي حبّ للأدوات؟

خذ علماً يا عزيزي أن الغالب الأعمّ من العائلات المنتمية لمجتمعات أباحت المثلية، هؤلاء يعيشون حالة توهّم العلمانية العقلانية والحرية... ويتوهّمون التنوّر والانفتاح والتحرّر... مقابل تحجّر الأديان، وعندما يشذّ أولادهم تراهم في حالة مزرية، هم يقبلون بالفكرة طالما هي بعيدة عن أولادهم وأقاربهم، ويشمئزون منها ويتضايقون إن حصلت مع من يحبّون من أقاربهم، فهي في صميم فطرتنا فاحشة، وشذوذ يصاب به الإنسان والحيوان.

يقولون إنها عند الحيوان حالة شائعة وكلامهم غير صحيح، وعلى فرض صحّته "جدلاً" سنقبل بكلامكم مع أنه غير صحيح، هل قتل الحيوانات لبعضها يبرّر لنا قتل بعضنا أم نصفه بأنه سلوك حيواني من المعيب اتصافنا به كإنسان!؟ عموم ذكور فصيلة الهررة والكلاب "التي تشمل الأسد والنمر والقطط..." تقتل أولادها إذا جاعت، ويقتل الذكر أولاده إذا مانعته الأنثى من مقاربتها! ويقولون إنّ هذا يحصل عند فقدانها للرغبة الجنسية بسبب عنايتها بأولادها، فهل هذه وحشية أم مبرّر ليقتل الرجل أولاده إذا خفّت الرغبة الجنسية عند زوجته بسبب تركيز جهدها ووقتها وعواطفها للعناية بأولادها!

كما ترى الفاحشة يبقى تصنيفها فاحشة حتى في عمق فكر ونفسية الذين يبرّرون لها، وانغماسهم في الشهوة لدرجة تبرير الشذوذ لا يختلف عن الانغماس في السخافة والحماقة لمن عجن بيديه الطين وصنع تمثالاً وعبده كإله، وهذه هي حالة قوم النبي لوط(ع) الذين لم يسبقهم مجتمع آخر في النزول حيوانياً كمجتمع إلى هذه الدرجة من الانحطاط.

(وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ{82})
{وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ}، الذين كان ينتمي (ع) لجماعتهم لم يكن لهم جواب آخر، {إِلَّا أَنْ قَالُوا}: {أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ}. النبي لوط(ع) ومن معه "من أفراد عائلته" يجب إخراجهم بالقوّة من قريتنا من مكان تجمّعنا، {إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}، يعملون على خلوّهم من الأمور الشاذّة المعيبة السيئة.

من القرآن لن تجد صراحةً إلّا أنه (ع) كان عنده بنات، وهذا لا ينفي إن كان عنده (ع) أولاد ذكور، ولكن من المشهور في التاريخ الموروث ممن سبقنا من أهل الكتاب أن النبي لوط(ع) لم يكن عنده أولاد ذكور، ويختلفون في كتب التاريخ حول وجود أصهارٍ له (ع) وأنهم خرجوا معه... ولكن الصهر والزوجة ليسا من الآل، وتكرّر في القرآن كلام عن نجاة آله (ع) فقط، والآية 56 من سورة النمل مشابهة تماماً لآيتنا هنا وفيها اقتراح القوم إخراج آل النبي لوط (ع) {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}. على كل حال، الكلام القرآني ليس هدفه تعريفنا بالحالة الاجتماعية "الأحوال الشخصية" للنبي لوط(ع)، ولذلك اكتفى القرآن بذكر ما له علاقة بالحادثة.

لاحظ أن القوم بهذا الكلام يسخرون من النبي(ع)، لأنه يقول لقومه إنّ ما تفعلونه هو فاحشة وهو عمل جنسي سيّئٌ، عمل رذيل منحطّ سافل... قالوا له عن سخرية: بما أنك تعتبرنا هكذا وتعتبر نفسك طاهراً وراقياً ومحترماً فسوف نطردك من قريتنا أيها الطاهر الذي يرى عملنا فاحشة.

(فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ{83})
{فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ}، أخرجناه من دائرة الخطر وأخرجنا معه المنتمين له (ع)، وتعلم من القرآن أنّ العقاب نزل على القوم وأبادهم وغادرهم النبي لوط(ع) وأولاده قبل حصول الكارثة، {إِلَّا امْرَأَتَهُ}، إلا زوجته لم ينجّها سبحانه، {كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ}، من الماضين من الذين صاروا في خبر كان، من الذين ماتوا وصاروا من الماضي، مثل التعبير بصاروا أحاديث، بدل أن يكونوا أحياء مشاركين في الحديث عمّا حصل، صاروا أمواتاً يجري الحديث عنهم، وهي مثل قومها "الغابرين" كافرة فاسدة، ولم تبق لتكون مع الأحداث التي تجري بل صارت مع قومها الغابرين، مع الذين مضوا وانتهت حياتهم، وبتعبيرنا الدارج: راحت مع الذين راحوا.

نلاحظ استعمال القرآن لكلمة الغابرين سبع مرات، وفقط لامرأة النبي لوط(ع)، وكما نعرف من القرآن، سبحانه أمر نبيه لوطاً(ع) بالخروج مع أهله في الليل من القرية، وألَّا يلتفتوا إلى الخلف عندما يبدأ العذاب، خرجت زوجته معهم أيضاً، "فهي من أهله وليست من آله"، ولكنها لم تكن مؤمنة أصلاً وكانت موافقة على ما يفعله قومها، وكان يجب أن تموت مع قومها، وبعد ابتعادهم عن القرية وابتداء العذاب، التفتت ورأت الحجارة والحمم تنزل على القرية، وفي هذه اللحظة نزل حجر عليها وألحقها بهم، راجع الآية 81 من سورة هود التي تشير لذلك {فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ}...، التفتت فكانت من الغابرين، ولم تكن من الناجين بل من الذين ماتوا وصاروا من الماضي.

(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ{84})
{وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا}، كما نعرف من سور أخرى أنّ المطر كان سقوط حجارة، حيثُ إنّ الحمم البركانية تطايرت وتطايرت معها حجارة ساخنة... راجع الآية 82 من سورة هود {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ}.

كما نقول: ضربته ضَرْبًا. أو نقول: أطعمته طَعَامًا. أو أضحكته ضَحِكًا... نقصد التأكيد على أنه كان على المواصفات التامة للكلمة، فهنا {أَمْطَرْنَا مَطَرًا}، تقصد أنه كان مَطَرًا بكل مواصفات المطر، بلا فراغات ولا فترات انقطاع حتى انتهائه من القضاء عليهم.

{فَانْظُرْ}، وَجِّهْ اهتمامك العام أيها القارئ للقرآن، {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ}، ما عقب وما أتى بعد شيء، {الْمُجْرِمِينَ}، الفاعلين للجرائم، الذين يستحقون العقاب بسبب ما قاموا به من أعمال سيئة، فما الذي عقب إجرامهم؟

انتبه ولاحظ بالمقارنة مع كلام الأنبياء السابقين مع قومهم الذي نقلته السورة، لا ترى في الفقرة هنا كَلَامًا من النبي لوط(ع) عنه تعالى وأنه سبحانه أرسله ليقول لهم إنّ الفاحشة عليها عقاب... هذا تفترضه الآيات هنا كتحصيل حاصل، ومن بداية كل فقرة مرّت عن نبي وقومه تفهم أنه تعالى أرسل نُوحًا(ع) إلى قومه... وأرسل سبحانه لُوطًا(ع) إلى قومه... قصدت بشكل واضح الفقرة هنا نقل اعتراض الإنسان العادي "لوط" على الفحشاء من دون الحاجة لدعم اعتراضه كونه نَبِيًّا ينقل لهم الإنذار منه تعالى، فهو رسول لقومه ولكن لا يحتاج أن يقول لهم أنه رسول الإله الذي

ينذرهم من العقاب، إذ يكفي أن الفاحشة إسراف في السوء ويجب الانتهاء عنه، تَعَمَّدَتِ الآيات حصر الكلام بين ما هو معلوم أنه فاحشة سيئة من العيار الثقيل وبين التنبيه عليها من مستوى إنساني، فهي بين إنسان طبيعي عقلاني غير مسرف... وهو "لوط"، ويؤيّده في ذلك عموم الناس الباقين على الحدّ المعقول المقبول الكافي لإشباع الشهوة بالطرق العادية الطبيعية، وبين الذين أسرفوا في الشهوة فوق حاجتهم، لدرجة أنهم لم يعودوا يَرَوْنَهَا سُوءًا، وصولًا لدرجة اعتدائهم جِنْسِيًّا على الغرباء...

بعبارة أخرى، لم تذكر الفقرة أنه سبحانه أوحى إلى نبيّه (ع) أن ينذر قومه من العقاب على الفاحشة، مع أن هذا متضمّن في كونه (ع) نَبِيًّا رَسُولًا، تَعَمَّدَتْ وكما يبدو وَاضِحًا أن تجعلنا نرى الفاحشة فاحشة من دون الحاجة لأمر إلهي للانتهاء عنها.

في ذيل الآية 93 سنشير إلى أمور تبدو من القصص التي تذكرها السورة.

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{85})
{وَإِلَىٰ مَدْيَنَ}، وهو اسم لقبيلة وفي نفس الوقت اسم لمكان سكنهم كما هو مشهور، أرسلنا لهم، {أَخَاهُمْ شُعَيْبًا}، شخصا يشاركهم في مكان سكنهم وهو النبي شعيب(ع).

قال النبي(ع) لهم: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ}، فأنتم عبيده، ومفروض منكم طاعته، وتصرّفوا على هذا الأساس، {مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ}، حيث لا يوجد كائن موصوف بالصفات والقدرات الفائقة فوق صفات وقدرات المخلوقين إلا الله سبحانه وتعالى، والذين تدعونهم آلهة هم ليسوا آلهة.

ضع في بالك أن هذه الجملة نفسها تكررت على لسان الأنبياء الآخرين، وتَقَصَّدَ القرآن تكرار نفس الجملة حتى نفهم أن نفس السيناريو الأساسي تكرّر عبر التاريخ، ونقل القرآن لنا نفس الجمل التي ردّ بها المشركون على أنبيائهم أيضا لنرى نفس العقلية المشتركة بينهم على امتداد التاريخ.

{قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ}، حيث جاءكم شيء واضح من المسؤول عنكم من مستوى إلهي، وها عبر كلامي الواضح لكم والذي أنقله لكم منه تعالى يتبيّن لكم أنه الإله الأحد.

{فَأَوْفُوا الْكَيْلَ}، فكونوا أوفياء للكيل، وأعطوا الكيل حقّه كاملا وليكن بالتمام، ولا تخونوا. والكيل هو ما نقيس به الأشياء بحسب حجمها، والآن نحن نستعمل وحدة القياس الليتر والغالون. وأهل مدين كانوا يغشّون، حيث يصنعون كيلا له حجم أقل من الكيل الحقيقي ويستعملونه ليبيعوك الأشياء، فمثلا تشتري منهم 20 ليتراً زيت، ولكنك في الحقيقة تحصل على 19 ليتراً، لأنهم صنعوا مكيالا مغشوشا حجمه أقل من الأصلي...

وأوفوا، {الْمِيزَانَ}، فكونوا أوفياء في الميزان، وأعطوا الوزن حقّه كاملا ولا تغشوا. والميزان هو لقياس كل شيء، ولكن هنا بما أننا نتحدث عن البيع والشراء، فالمقصود هو الميزان العادي الذي نَزِن به الكيلو والأوقية والباوند. وكانوا يغشّون بالميزان، فمثلا تشتري منهم تفاحاً، وتضعه على الميزان المغشوش، فيعطيك أن الوزن 4 ك، ولكن في الحقيقة فإن الوزن هو ثلاثة كيلوات ونصف، وهذا يعني أنك دفعت ثمن أربعة ولكنك حصلت على ثلاثة ونصف.

يكمل النبي شعيب(ع): {وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ}، وهذه كلمة عامّة تشمل كل ما كان للآخرين وقَلَّلُوا من قيمته، فإن اشتريتم منهم فلا تغشّوهم وأعطوهم ثمن بضاعتهم بدون التلاعب بوزنها أو مكيالها، وإن اشتروا منكم فأعطوهم ما دفعوا ثمنه... وإن جرت عملية البيع والشراء من الناس أو للناس وكانت تقديرية، كشراء حيوان للفلاحة أو للتحميل، فبالفحص بالنظر يتم تقدير قيمته بحسب عمره وصحّته... أو الكلام عن ضمان محصول زراعي لم يحصد بعد، حيث لا يزال على الشجر أو في أرضه... وهذا يتم تقدير قيمته، فلا تجعلوه أقل من قيمته...

يكمل النبي شعيب(ع): {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا}، فالكيل الصحيح والميزان الصحيح هما صلاح وخير في الأرض، لأن كل شخص يأخذ حقّه، وهما عنوانان مهمّان جدا حتى تكون المعاملات التجارية بين الناس صحيحةً

غيرَ فاسدة، فلا تفسدوا وتخرّبوا في الأرض علما أن وسائل الإصلاح موجودة، وهي الضامنة لحقوقكم وحقوق الآخرين.

الأرض بدون مكيال وميزان، هي أرض فاسدة، لأن الحق يضيع، حيث تقف أمام صندوق الليمون وتقول: هذا يساوي ريالين أو درهمين أو دولارين... ولكن صاحبه يقول لك: لا، هذا القفص كبير ويساوي أربعة ريالات، أو أربعة دولارات... هكذا يكون الحال من دون وجود ميزان أو مكيال! ولا تظن أن هذا الكلام سخيف، لا، لأن البشرية مرت في هذا النقاش، وإلى الآن لا تزال مجتمعات قليلة تعتمد التقدير بدل الوزن والكيل... وكما ترى منذ القدم تدرك البشرية أهمية أدوات القياس التجارية، ولكن ولسبب أو لآخر لا يعتمدونها، مع أنها مصلحة لهم وضامنة لحقوقهم، وهنا يقول النبي(ع) لقومه: بعد أن صارت الأرض صالحة، وصار الناس يعتمدون المكيال والميزان ليأخذ كل واحد حقّه بالتمام، فما بالكم تغشّون فيهما فتفسدون في الأرض؟

يكمل النبي(ع): {ذَٰلِكُم خَيْرٌ لَّكُمْ}، فاعتماد الكيل والوزن المضبوط هو شيء موصوف بأنه خير وهو حسن وجيّد لكم، أما الغش فهو شرّ وفيه ضرر لكم وللناس، {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}، إن صار عندكم اعتقاد بصحّة كلامي فسترون أن الوفاء بالبيع والشراء فيه خيركم.

الكلام هنا يتحمّل العمومية، لأن الوزن الحقّ يعطي كل واحد حقّه وهو خير لهم ولكلّ الناس، ولكن توجيه الكلام هنا لأهل مدين وكما تعلم من عموم القرآن حيث يشير إلى ازدهار تجارتهم وربحهم أكثر إن لم يغشّوا، لأن الربح القليل من الغشّ سيسبّب لهم على المدى البعيد خسارة لهم، وستنفر الناس من أسواقهم لتنشأ أسواق جديدة لا غشّ فيها... ومن ناحية ثانية، الغشّ عندما يكون حالة جماعية منتشرة بين جماعة أناس ما، حتماً هناك عقاب إلهي عليه، ويكون الغشّ شرّاً لهم، ومضافا إليه انتشار الغشّ حتى يصير الآخرون يغشّون أهل مدين...

من واقع حياتنا اليومية نرى الضرر الهائل من الغشّ في كل المجالات، ونرى أن المجتمعات التي تعتمد الأمانة والاستقامة في معاملاتها، نراها مزدهرة، لأن الناتج عن الغشّ مسبّب لتعسير حياة الناس وانشغالهم بالأضرار الناتجة عن الغشّ، وهدر أموالهم فيما سبّب لهم الضرر، كالغشّ في مكيال ونوع البنزين وما يسببه من أعطال في السيارة... والغش في مواد البناء المسبب لانهيار المباني أو النشّ...

(وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ{86})
يكمل النبي شعيب(ع) الحديث مع قومه: {وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ}، فأي صراط وأي طريق غير طريق الغش فلا تقعدوا به لتمنعوه وتتوعَّدوا من يمشي عليه بالضرر منكم، حيث تهددون الذين معكم من قومكم في سوقكم وهم لا يغشّون، لتجبروهم على أن يغشّوا مثلكم.

لاحظ أن كلام النبي شعيب(ع) مع الغشّاشين سينتشر بين عموم أهل مدين، ولن يبقى بين تجّار مدين فقط، وفي نهاية الأمر سيصل إلى الذين يتعاملون مع أهل مدين من القرى الأخرى وسيعلمون أنهم يتعرّضون للغشّ، وكما هو واضح من عموم القرآن كان هناك من أهل مدين جماعة قليلة مؤمنة لا تغشّ، والكلام هنا في الآية عنهم، والغشّاشون لا يناسبهم انتشار الكلام عن غشّهم وأمانة المؤمنين، ولذلك توعَّدوا المؤمنين، حيث هدّدوهم بأنواع مختلفة من العقاب، ومنها الطرد من القرية كما سترى فيما سيأتي...

{وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}، فمن يرد السلوك على ما يأمر ويرضى به تعالى تمنعونه، {مَنْ آمَنَ بِهِ}، مَنْ صار في حالة الاعتقاد بالله تعالى والالتزام بأوامره تمنعونه من الالتزام بما يأمر به تعالى من الوفاء بالبيع والشراء.

{تَبْغُونَهَا عِوَجًا}، تريدون أن تكون سبيل تجارتكم غير مستقيمة ولا صحيحة بل تريدونها عوجاء ملتوية مغشوشة.

{وَاذْكُرُوا}، وتذكروا، واستحضروا في فكركم، {إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا}، حيث كان عددكم قليلاً كعائلة صغيرة، {فَكَثَّرَكُمْ}، وصرتم كُثُرًا وصارت لكم قرية كبيرة وعددكم كثيرٌ. فقبل أن تصيروا غشّاشين كنتم في نعمة منه تعالى وصرتم قبيلة كبيرة مزدهرة، فهذا الازدهار الذي سبّب لكم إنشاء سوق وإنتاج بضائع لبيعها لم ينتج عن الغشّ.

سترى في مختلف سور القرآن نقاشاً بين الغشاشين وبين النبي شعيب(ع) ومفاده أنهم يعتقدون أن الغشّ يسبّب لهم الربح وهو سبب ازدهارهم... وسترى كلاماً مثل كلام آيتنا هنا يذكّرهم بأنهم قبل الغشّ كانوا بخير، وليس الغشّ سببا للازدهار بل سيسبّب لهم كساد تجارتهم إن لم يسبقه العقاب الإلهي.

{وَانظُرُوا}، ووجّهوا اهتمامكم العام، {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ}، ما عَقَبَ وما أَتَى بعد شيء، كمصير وخاتمة، {الْمُفْسِدِينَ}، الذين يقومون بأعمال فاسدة عاطلة باطلة، فانظروا لقوم النبي نوح(ع) وثمود وعاد وغيرها... كيف دمّرهم سبحانه بسبب فسادهم.

لنتصور المشهد، فمدين كانت قرية كبيرة وفيها سوق كبير، ويأتي إليها الناس من القرى الصغيرة المجاورة للبيع والشراء، وكان قسم "كبير" من أهل مدين يغشّون الناس بالكيل والوزن، وكان هناك عدد "قليل" من التجار المؤمنين الذين لا يغشّون، فتذهب أنت إلى السوق، وتشتري من الغشاش، وفيما بعد تلاحظ أن الوزن غير صحيح، ومرة أخرى تتعامل مع تاجر آخر، ويكون مؤمنا لا يغشّ، وتلاحظ الفرق، وستخبر الآخرين... أو سيخبرك أحدٌ ما أنه لاحظ الفرق في الميزان والكيل بين هذا التاجر وذاك... ولهذا السبب تحرّك الغشّاشون ليجبروا المؤمنين على الغشّ، على أساس أن التجارة العادية ربحها قليل ولا يكفيهم ليعيشوا منه، والغشّ ينتج عنه ربح أكبر هم بحاجة له.

لاحظ تقديرهم للحاجة إلى المال الناتج عن الغشّ أنه ضروري لمعيشتهم، وسترى ذلك في الآية 90 الآتية، وتراه في عموم القرآن، فماذا لو قام كل الناس بالغش، وتعرّض غشّاشو أهل مدين للغشّ؟ فحينها من سيربح؟

طبعاً هناك تبريرات لهم للغشّ، وتسمعها هي نفسها من الناس حولنا في مختلف الأشغال والأعمال، وسنشير لها في دراسة الآية 90.

(وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ{87})
يكمل النبي شعيب(ع): {وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ}، قسم من المنتمين لمدين، {آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ}، فاعتقدوا بما وصلني منه تعالى ونقلته لهم منه، فاعتقدوا أن الشرك والغشّ سوء عليه عقاب، {وَطَائِفَةٌ}، وقسم من المنتمين لمدين، {لَّمْ يُؤْمِنُوا}، لم يعتقدوا بما أقوله فبقوا مشركين وغشّاشين، {فَاصْبِرُوا}، فليحتفظ الجميع بهدوء أعصابه ولا يتصرّف بشكل غير مناسب، {حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا}، حتى يقول تعالى ما هو العدل والحقّ والصواب فيما نختلف به، فأنتم مشركون به تعالى ولكن أنتم مثلنا مؤمنون بالله تعالى أنه إله، وها أنقل لكم منه سبحانه أنه سيتدخّل ليحكم ليبتّ بالصواب في الخلاف الذي بيننا، {وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}، وغيره تعالى يحكم، وغيره تعالى يقول العدل والصواب، ولكن بصفاته تعالى من المستوى الإلهي فسيكون كلامه هو العدل والصوابية.

(قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ{88})
{قَالَ الْمَلَأُ}، قال الوجهاء وأصحاب النفوذ والمراكز السياسية والاجتماعية والمالية... {الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ}، فمن الذين كان النبي شعيب(ع) ينتمي لجماعتهم كان فيهم ملأ يرون أنفسهم أكبر وأعلى من الآخرين، وفي نفس الوقت يرون أنفسهم حتى أعلى مما يقوله لهم النبي شعيب(ع) عن توحيده تعالى والعمل الصالح... فقالوا: {لَنُخْرِجَنَّكَ}، سنجعلك خارج قريتنا، {يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ}، والذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بما تقوله أيضا سنجعلهم في الخارج، فسنطردكم، {مِن قَرْيَتِنَا}، من مكان تجمّعنا هذا الخاص بنا، {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}، أو لا نطردكم إذا عدتم إلى ثقافتنا وعاداتنا، فتعودوا إلى ما نحن الملأ مع من يتبعنا متفقون عليه، فتعودوا لعقيدتنا وثقافتنا من الشرك والتجارة بالغشّ. أصل ملّة "ثقافة وعادات" قريتهم كانت على الشرك والغشّ، وخرج النبي شعيب(ع) ومن آمن معه عن حالة عموم القرية، فدعوتهم لعودة النبي شعيب(ع) إلى ملّتهم ليست على أساس أنه (ع) كان مثلهم، بل تعني العودة إلى ملّة القرية التي كانت قبل إعلانه(ع) عن معارضته لها، لأنَّ كلامه (ع) عن التوحيد ومنع الغشّ هو كلام جديد بالنسبة لما كانت عليه القرية، فعودته (ع) تعني العودة إلى ما كانت عليه القرية. قال النبي(ع): {أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ}؟ حتى لو كنا لا رغبة لنا بذلك بل لا نريده؟ فهل تريدون إجبارنا على الشرك والغشّ واللعب بالمكيال والميزان؟ ومن دون أي خجل تدافعون عن الغشّ، وفوق ذلك تُكْرِهُونَنَا أن نكون مثلكم؟!

(قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ{89})

{قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم}، فنحن نقول عن أنفسنا أننا مؤمنون بالله تعالى وحده وأن الغش سوء وعليه عقاب إلهي، وملّة قومنا الشرك والغش، واختلفنا عنها، فإن عدنا لهذه الملّة فنحن نفتري الكذب على الله تعالى، ونخترع الكذب ونحن نعلم بأننا نكذب ونلفقه وننسبه لله تعالى، لأن سبحانه يقول: الغشّ ممنوع. وأنتم تقولون إنَّ الله تعالى يسمح بالغشّ وآلهتكم تسمح بالغشّ ونحن نعلم بأن كلامكم غير صحيح لأن سبحانه لا يسمح بالغشّ، فهل نكذب ونحن نعلم بأننا نكذب ونشرك ونغشّ؟ ونترك التقدّم الذي نحن فيه على طريق الهدى ونعود إلى ملّتكم؟

بالنسبة للافتراء فهو نسبتك كلاما أو عملا... للآخرين، حيث تلفّقه وتلصقه بالآخرين وأنت لا تعلم إن هم فعلوه أو قالوه... وقد تلصق بهم شيئا ويتبين لك فيما بعد أنهم فعلا قالوه أو فعلوه، فتكون فقط مُفْتَرِيًا لأنك اخترعته ونسبته لهم من دون أن تعلم بأنه صحيح، وقد تلصق بهم شيئا لا علاقة لهم به حيث إنهم أصلا لم يفعلوه ولم يقولوه وهذا هو الافتراء الكاذب.

لو أنا قلت إنه تعالى يوحي إليّ، فأنا أفتري عليه تعالى لأنه لم يوح إليّ، ولو قلت مفاهيمَ مغايرة لما قاله تعالى مدّعيا أنه تعالى قالها، أو قلت عنه تعالى بأنه سيفعل شيئا وفي الحقيقة إن سبحانه لن يفعله، ففي هذه الأمثلة أنا أفتري الكذب عليه تعالى لأنه أصلا لم يقل هذا الكلام، وأصلا لن يفعل ما قلت أنا إنه تعالى سيفعله.

خذ مثلا قولي عنك إنك قلت "لي" عن اكتشافك لدواء ما. فإن لم تكن قلت "لي" ذلك، فأنا أفتري عليك، وإن كنت لم تكتشف الدواء، فأنا أفتري عليك كاذبا، حيث ألصق بك "أفتري" شيئا غير صحيح "كاذبا".

نرجع للآية، فهل نعود... {بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا}! حيث وصلنا أمر منه تعالى بالتوحيد وحرمة الغشّ وهكذا هدانا سبحانه وخلّصنا من الوقوع في ملّتكم المشركة الغشّاشة، فهل نعود لنكذب وننسب له تعالى ما اخترعتموه أنتم!

يكمل المؤمنون: {وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا}، هذه الجملة نفهمها بشكل أسهل هكذا: فهل يفعل العاقل هذا؟ هل بعد ما اهتدينا تريدون أن نترك الحقّ والصواب ونفعل السوء؟ فهذا غير معقول.

{إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ}، فإذا أراد جعلنا نتغير فيمكنه سبحانه ذلك، حيث إن أمامه تعالى خيارات عديدة ويمكنه "نظريا" السماح بالشرك والغشّ ولكن طبعا هذا لن يحصل لأنه سبحانه حكيم، ومن ناحية ثانية يمكنه تعالى جعلنا نرى الغشّ صوابا عبر التلاعب بعقلنا ولكن هذا أيضا لن يحصل لأنه تعالى أخبرنا أنه لن يفعله.

يكمل المؤمنون قولهم: {وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا}، لأن المسؤول عنّا من مستوى إلهي ليس محصورا في مكان بحيث يغيب عن علمه ماذا يجري في بقعة أخرى ما لأنه تعالى ليس فيها، بل سَعَةُ علمه تعالى بما يجري منتشرة على كل نقطة في السماوات والأرض، فإن افترينا الكذب عليه تعالى فحتما سيعلم بذلك، وإن آمنّا فحتما يعلم سبحانه بذلك، وأمامه تعالى الخيارات العديدة ليقرّر منها في خصوص أي كائن في الدنيا. لأننا كلّنا تحت المراقبة الإلهية فلا مصلحة لنا بمخالفة أوامره تعالى.

{عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا}، حيث نعتمد عليه تعالى لتيسير وتسيير أمورنا بما يراه مناسبا لما فيه مصلحتنا، وأي شيء نرغب به ونريده أن يتحقّق فنحن نعتقد أنه سبحانه قادر عليه وسيفعله لنا، طبعا سيفعله تعالى إن شاء وكان الأمر حكيما متماشيا مع مصلحة المؤمنين في الدنيا والآخرة.

{رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ}، لأن بيننا وبين قومنا مشكلة مغلقة بدون حلّ، ونحن نريد الحقّ الصواب الصحيح، حيث إن فكرهم مختلف عن فكرنا وإيمانهم غير إيماننا، وهناك حواجز بيننا وبينهم ولم نصل فيها إلى نتيجة، لذلك نَدْعُو المسؤول عنّا من مستوى إلهي أن يفتح بيننا، والحاجز الذي بيننا بحيث نحن من جهة وهم من جهة، لذا فإن هذا الحاجز بحاجة لأن يفتحه تعالى حتى لا نبقى نحن في جهة متمسكين بإيماننا وهم من جهة متمسكين بشركهم وغشّهم، وعمليا هم يطلبون أن يحدّد سبحانه من هو على الحقّ فيجازيه بالثواب، ومن هو مُخْطِئٌ فيجازيه بالعقاب، وهكذا ينتهي الحاجز بيننا وبينهم في مسألة الإيمان ويظهر بأننا كنّا على حقّ.

{وَأَنتَ} "يا رب" {خَيْرُ الْفَاتِحِينَ}، موصوف بالخير بالحسن حين تفتح بين المؤمنين والكافرين وتحلّ المشكلة والخلاف. عندما يقع خلاف بين شخصين ويتدخل شخص ثالث ليحل المشكلة، فيقول لهذا: معك حق. ويقول للآخر: عليك الحق. بذلك هو يفتح بينهما، لأنهما كانا في حالة مغلقة ولا يصلان إلى حل وكل واحد في جهة، وإذا كنّا نقول إنَّ

القاضي الفلاني ماهر في حل المشاكل، أو الرجل المحترم الخبير الفلاني يمكنه حلّ المشاكل... فالله سبحانه خير من يمكنه الحسم في الأمور، بسبب علمه الواسع وحكمته، ومن ناحية ثانية إن سبحانه وتعالى إذا شاء فلديه القدرة على الفتح بالقوّة ويفرض ما يشاء، فإن حكم بأن المؤمنين على حقّ وشاء العقاب للمشركين الغشّاشين فهو سبحانه وحده القادر دوما على فعل ما يريد في أي شيء ومتى شاء وكيفما يشاء، ولذلك فهو سبحانه خير الفاتحين.

(وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ{90})
{وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا}، ردّ الوجهاء والنافذون الذين أنكروا توحيده سبحانه وأنكروا حرمة الغشّ، {مِن قَوْمِهِ}، من الجماعة التي كان ينتمي النبي شعيب(ع) لـجماعتهم، حيث قالوا للمؤمنين:

{لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ لَخَاسِرُونَ}، في نظرهم إنَّ النبي(ع) يدلهم على الخسارة، ويدلهم على فقدان أشياء لها أهمية، ومن ناحية التجارة هم بسبب الغشّ يربحون أكثر من المؤمنين، ومن آمن وترك الغشّ فهذا سيخسر.

قارنها مع الذين يعملون بالأمور السيئة التي يُحَرِّمُهَا تعالى، في الملاهي وتقديم الخمور والطعام الخبيث الحرام...
فهؤلاء يقولون إنهم إذا تركوا وظائفهم فهم سيخسرون وسيفقدون المال الذي يحتاجونه ليعيشوا، ويتحجّجون بأنها الوظائف الوحيدة المتاحة لهم والتي تؤمّن لهم معيشتهم، ويقولون لك: أمّن لي وظيفة حلال بأجرٍ مثل أجري وعندها سأترك العمل الحرام. وكأن تأمين الوظائف من مسؤوليتك كمؤمن، وكأن الوظيفة بالحرام هي الوحيدة المتاحة! وقارنها مع الأطباء الذين يصفون لك الدواء الغالي الذي لهم نسبة من أرباحه ويدفعها للأطباء وكيل الدواء، علما أنه يوجد دواء آخر في السوق أرخص وأنفع لحالتك! وقارنها مع المقاولين الذين يقنعونك بـأنهم سيخسرون إن التزموا بتنفيذ الطرقات والأشغال والأبنية... بالمواصفات المطلوبة! وقارنها وقارنها مع بقية المهن والأشغال... وإذا نبّهتهم من الغشّ والعمل الحرام سيقولون لك إنهم سيخسرون إن تركوا الغش.

أضف إلى ما سبق ما يعطيه لك سياق الكلام هنا بالتحديد عن لصق الإيمان بالخسارة، فهم يقصدون أن الدين المعروض عليهم ليس فيه منفعتهم بل فيه ضررهم، وكان رأيهم بما أنهم من الوجهاء وأصحاب الرأي والرياسة على الناس... أنهم سيكونون أغبياء إن آمنوا بشيء سيسبّب لهم خسارة ما يحصلون عليه من الغشّ.

(فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ{91})
ما سبق كان خلاصة سنوات من النقاش والجدال حيث وصلت الأمور إلى نهايتها.

{فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ}، حيث حصل اضطراب واهتزاز في الأرض، وحدث زلزال أخذهم فلم يتركهم أحياء على شركهم وغشّهم، {فَأَصْبَحُوا}، وأوّل ما صاروا من بعد الرجفة، {فِي دَارِهِمْ}، في الأماكن التي كانت تدور فيها شؤون معيشتهم، في بيوتهم وأسواقهم... {جَاثِمِينَ}، ملاصقين للأرض من دون حراك.

اختصار وصف نهايتهم هنا بجملة موجزة يعطيك معنى سهولة حصول قرار العقاب لهم عنده تعالى، فـأمام عنادهم وتكبّرهم وتكذيبهم... ومحاولة النبي لهدايتهم ورفضهم... وتهديدهم للمؤمنين... كما نقول بتعبيرنا الدارج، رأسمالهم زلزال يأمر تعالى بحصوله فيصيرون على الأرض بلا حركة.

بالنسبة للتعبير بـ"أصبح" فالكلمة في أصل اللغة مجعولة لتوصيف الصيرورة لأول حالة بعد حدث، مشابهة بذلك الإصباح لأول ما يستقبلك من النهار من بعد الليل. فهي أوّل حالة من بعد حالة سابقة، وخذ مثلا حالة أم النبي موسى(ع) التي أصبح فؤادها فارغا كما ورد في الآية 10 من سورة القصص {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا}... فالذهول بتوقّف وجمود فكرها ومشاعرها هو أول حالة أصابتها بعد إلقائه (ع) في النهر. وترى هذا المعنى بوضوح في الآية 103 من سورة آل عمران {...وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا...}. فكلمة "أصبح" ليست مخصّصة لزمن أول طلوع الشمس بل لعامّة أول حالة من بعد حدث ما، فهي ليست مقابل "أمسى" على معنى ربطها دائما في أي جملة بزمن أوّل النهار، وهي أيضا ليست مرادفة لكلمة "صار".

(الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْباً كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ{92})

{الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا}، الذين قالوا عن النبي شعيب(ع) إنه كذاب ولم يصدّقوه حين قال إن الله تعالى أرسله ليقول للناس إن الغشّ سوء حرام ممنوع وعليه عقاب، حالتهم الآن من بعد الزلزال، {كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا}، حيث كان المكان مزدهرا معمورا يغني ساكنيه عن الانتقال منه لتأمين ما يحتاجونه، لأنَّ فيه ما يحتاجونه، والآن بعد الدمار منظره لم يعد منظر مكان يغني من يسكنه، ولم يعد صالحا للعيش فيه، ولم يعد يدل على أنه كان مكانا يؤمّن حاجات من يسكن فيه. مثل الذي فلح وبذر وسقى... حيث تتوقع في الختام أنه سَيَغْنَى بالمحصول، وسيؤمّن له محصوله ما يحتاجه، أمّا إذا احترق المحصول قبل حصاده، فتصفه بأنه كأنه لم يَغْنَ، من بعد الزلزال ما نفع كل المهارات بالغشّ؟ فهل هم الآن أغنياء؟ تابع الجملة لتفهم المقصود أكثر: {الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا}، حيث قالوا عن النبي شعيب(ع) إنه كذّاب ولم يصدّقوه فيما يقوله عن العقاب الإلهي على الشرك وفعل الغشّ، {كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ}، فهم الذين فقدوا شيئا له قيمة وأهمية كبيرة، حيث فقدوا كل شيء مما جمعوه في حياتهم من أموال وأملاك، وفقدوا حياتهم، وفقدوا مغفرته ورحمته وثوابه تعالى، وفقدت أنفسهم قيمتها وسيتعذبون في جهنم. تصور المشهد كما يصوره ربنا سبحانه، الذين كانوا يغشون حتى يكون معهم مال أكثر، بعد موتهم بالزلزال ما معنى ونفع ما فعلوه؟ وما معنى المال الذي جمعوه وهم الآن أموات؟! وما معنى ثروتهم وقد تدمرت بيوتهم وماتوا؟ وعلى كل حال كانوا سيموتون بعد انتهاء حياتهم القصيرة، فما نفع الغشّ وتجميع المال؟! فهل أغناهم شركهم وغشّهم وها قد دمّرهم الزلزال؟ ركّز على هذا المعنى جيدا، تجميع المال حتى بالسوء إلى أين وصل بهم؟ لنقل إنه لم يحصل العقاب الإلهي وتركهم سبحانه أحياء، وماتوا وهم أغنياء، فهم على كل حال سيموتون، والرجفة فقط قرّبت أجلهم، والآن انظر إليهم أمواتا وبيوتهم مدمّرة، فما معنى الغشّ ليجمعوا مالا أكثر؟ وهذه الرجفة عقاب دنيوي لهم قبل الآخرة، وموعظة لنا...

(فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ{93})

{فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ}، حيث توجّه النبي شعيب(ع) باتجاه آخر وانصرف وغادر المنطقة التي حصل فيها الزلزال، {وَقَالَ} (ع)، لمن بقي حيا منهم بعد الزلزال: {يَا قَوْمِ}، يا أيها الناس الذين أنتمي لجماعتهم، {لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي}، حيث إن المسؤول عنّي من مستوى إلهي أوصل لي كلاما وأمرني بنقله لكم وأنا نقلته لكم من مصدره بالتمام، حيث قال سبحانه لي أن أقول لكم: لا تعبدوا غيره سبحانه، ولا تغشوا، وانتبهوا للآخرة... غادر النبي شعيب(ع) والمؤمنون القرية قبل وقوع الزلزال، وبعد وقوعه عادوا إلى القرية، وقال النبي شعيب(ع) للناجين ما تقرأه هنا. {وَنَصَحْتُ لَكُمْ}، حيث قلت لكم ما هو صحيح ولم أغشّكم، لأنكم كنتم لا تعرفون نتيجة الكفر والغشّ، وأنا نصحتكم ولم أغشّكم حين قلت لكم إن النتيجة ستكون عذابا في الدنيا والآخرة ولكنكم لم تسمعوا النصيحة. {فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ}؟ فمن أنكر ولم يؤمن بالشيء الذي أنقله بالتمام من الربّ سبحانه، ونصحته ولم أغشّه، ولكنه لم يسمع، ووقع عليه العقاب وانتقل إلى الآخرة كافرا ينتظره عقاب أليم خالد، فهؤلاء كيف سأفكّر بأنه كان من الممكن أن تكون حالهم أفضل؟ لأنهم بكامل إرادتهم وبإصرارهم وصلوا إلى هذه النتيجة الحتمية، فما معنى شعوري بأنه كان يمكن أن يحصل شيء آخر أفضل لهم؟ بعبارة أبسط، أنت إذا رأيت أحدا ما في ورطة، تأسف لحاله إن كان هناك مجال ولو بسيط ليتفادى الورطة، ولكن لو نصحته ولم يسمع، وأصرّ على الدخول في الورطة بكامل إرادته، فما معنى الأسى أو أسفك عليه؟ لا معنى له، فهو يستحق ما حصل له لأنه بيده وبقرار منه وصلت الأمور إلى السوء. نلاحظ أن النبي صالح(ع) والنبي شعيب(ع) بشكل ما لامَا أو عَاتَبَا من بقي حيا من قومهم بعد نزول العذاب، لأن قومهما لم يُبَادُوا بالكامل، أما قوم النبي نوح(ع) وهود(ع) ولوط(ع) فقد تمت إبادتهم بالكامل، ولذلك لا ترى في عموم آيات القرآن أي كلام مع ناجين منهم، بل استعمل القرآن فيهم وصفهم بالمقطوع دابرهم، وهذا يعني أنهم أبيدوا تماما كلّهم إلا من آمن واتّبع الأنبياء(ع)... بقي شيء نلاحظه من عموم القرآن ومما سبق من نبذة عن حوادث اختارها تعالى لنا كنماذج كرر ذكرها في مختلف السور، حيث إن القضية المركزية في القرآن هي توحيده تعالى، ولكنه تعالى ربط توحيده كعقيدة مع ما يتعلق بها من سلوكيات تؤثّر على صلاح أو فساد حياتنا، وكان نموذج قوم النبي نوح(ع) منفردا في التركيز على إبادتهم لأنهم لن يلدوا إلا فاجرا كفّارا، كما ورد في الآية 27 من سورة نوح، وكما يبدو أن عقيدة الشرك كانت السبب الأبرز لإبادتهم، طبعا ويتبع ذلك ارتكابهم للسيئات كتحصيل حاصل كسلوك لمن أشرك وأنكر الآخرة والحساب... فهم نموذج عن المجتمعات الفاسدة بشكل متنوّع في الفساد من دون أن ينتشر بينهم فساد محدّد... وينتقل القرآن عادة إلى نماذج أخرى كان لديها سلوك فاسد منتشر فيهم، فإن ناقشت في إحداها وقلت إنها ليست سببا وجيها لتعذيب القوم، لأنك ولسبب أو لآخر لا ترى الفساد في سلوكياتهم أو لم تفهم عمقه... فلن تناقش في الأخرى، لأن طغيان عاد مشابه لطغيان الدول القوية على الدول الضعيفة لاحتلالها وامتصاص مواردها الطبيعية وقواها البشرية... ومشابه لاستضعاف عائلة كبيرة لعائلة أصغر منها... ومشابه لعصابة سياسية أو عسكرية... تفرض سلطتها على المستضعفين... ومشابه لاستضعاف الأب لأولاده ولزوجته، والأخ لأخته، والجار لجاره... ونموذج ثمود مشابه لحال الأثرياء بشكل فاحش بحيث يملكون أراضيَ لا يعرفون موقعها، وبيوت فيها غرف لم يَتَسَنَّ لهم الإقامة فيها، وأموال لا تنتهي من صرفها على ما يرغبون... وتكفي بلدا بأكمله... ومشابه لقصور الأغنياء التي تكلفة بناء الواحد منها تكفي لإيواء ومعيشة عشرات الفقراء... ومشابه لزخرفة البيوت وبناء النصب التذكارية والتحف الأثرية... وهناك من يموت لأن دواءً ثمنه دينار أو دولار غير متوافر

له... وقوم النبي لوط(ع) مُرتكِبُو الفاحشة لدرجة الاعتداء جنسيا على الغرباء عن قريتهم، فهم أبرز نموذج عن السفالة والانحطاط الأخلاقي، وفي عصرنا ينادي المدّعون بالحرية الشخصية والتمدّن والتحضّر... متباهين بتشريع الشذوذ، وهم لا يرون انحطاطهم الأخلاقي شبيها بالانحطاط الفكري لمن عبد حجرة منحوتة. وأخيرا نموذج مدين، فهل تجد عاقلا يناقش في فساد الغشّ؟ في تدميره لأساسيات العدالة والحقوق وللاقتصاد؟ صَرَّحَ وأشار وألمح القرآن وبطرق مختلفة لعموم السلوكيات الفاسدة النابعة من إنكار توحيده تعالى، وبالتالي إنكار تشريعاته، وبالتالي اختراع تشريعات من الهوى بحيث لا خوف من عقاب الآخرة طالما هنا في الدنيا لن يتعرضوا للعقاب، ولا معنى حتى للقوانين العلمانية المتماشية مع تشريعاته تعالى طالما يشعر الناس بـأنهم إن حبكوا فعلتهم المخالفة للقانون لتحصل بدون أن يعرف أحد وبدون أي دليل على ارتكابهم لها... فهم سيفلتون من عقاب القانون. بقي شيء آخر، حيث إن عموم القرآن ركّز على الملأ أكثر من تركيزه على أفراد المجتمع، فهم الوجهاء والنافذون، وهم الفارضون سلطتهم على الآخرين، وهم واضعوا القوانين، وهم إن تغيّروا تغيّر الآخرون... وأساسا هم ملأ، وهم في مراكز السلطة والسيطرة لأن أفراد المجتمع داعمون لهم، وكما ترى في نموذجي ثمود ومدين، كان مع النبيين مستضعفون وقفوا في وجه الملأ وبقية القوم... وأنت تعلم أنه لن يكون على الناس رئيس ليس له داعمون، والعذاب حين نزل على ثمود ومدين، نزل على الملأ وعلى الداعمين لهم، ومثله نزول العذاب على أقوام الأنبياء نوح(ع) وهود(ع) ولوط(ع). إذًا، لا عذر للناس حين يقولون بأنهم تحت سلطة الفاسدين، لأنكم وضعتم الفاسدين حكّاما عليكم، وأنتم لو اعتقدتم بدينه تعالى وواليتموه، لالتزمتم بولاية المؤمنين وجعلتموهم حكّاما عليكم، ولكنكم بجهلكم أوصلتم بهواكم الفاسد من تهوون سياسته... والنتيجة فساد حكوماتكم وغضبه تعالى عليكم...

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ{94})
الخلاصة من القصص الخمس: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ}، ففي أي مجتمع من الناس لم نعيّن واحدا منهم ليصله النبأ، لِيَنْزِلَ عليه وحي بخبر غير منتشر علمه بين الناس، {إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا}، فلم نترك المنتمين للقرية على حالهم وَأَصَبْنَاهُمْ {بِالْبَأْسَاءِ}، أي بما يجعلهم يشعرون شعورا قويا بشيء سيّء، كالحرب الكبيرة أو الزلازل الْقَوِيَّةِ أَوِ الطوفان العام أَوِ الجفاف المستمر... وأخذنا أهلها {بِالضَّرَّاءِ}، بالأشياء التي يتضررون بسببها ولكن لا تكون ضخمة جدا، كتلف بعض المزروعات أو حالات المرض للناس الأقل من الوباء أو للحيوانات...

السَّبَبُ لإصابة القرية بالبأساء أو الضراء: {لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ}، فمن المفروض ومن المتوقّع من أهل القرية أن يعلنوا له سبحانه فقدانهم لشيء ضروري يحتاجونه.

تذكّر دائما أن كلمة "قرية" تشير لأي تجمع لعدد من الناس، سواء كانوا في بِضْعِ خيام أو في بِضْعَةِ بيوت أو في مدينة كبيرة، وَمَا هو دارج لحصر معنى كلمة قرية لخصوص البيوت القليلة فهذا اصطلاح جديد على اللغة العربية.

نَنْتَبِهُ جيدا، لِأَنَّ أَيَّ قرية مؤمنة لم ينتشر فيها أي نوع من السوء بموافقة الجميع، فهذه القرية لا حاجة لها بنبي رسول، والآية هنا تفترض أنك تعلم ذلك، وبدأت كلامها عن أي قرية قرّر سبحانه حاجتها لنبي رسول لها ينذرها من الاستمرار بعمل سوء انْتَشَرَ بينهم وهم بغالبيتهم لا يعترضون عليه، فهؤلاء يصيبهم سبحانه بالبأساء والضرّاء على أساس أنه من المفروض ومن المتوقّع أن ينتبهوا أنهم تحت سلطة إلهية أقوى منهم وهم يحتاجونها وليسوا بالغنى عنها لرفع البأس والضرر... أمّا هل ينفع هذا وَيَتَضَرَّعُونَ أو لا ينفع معهم وَيَبْقَوْنَ كفّارا، فالمشكلة ليست في التخطيط الإلهي، بل بقرارهم هم على البقاء على كفرهم، وَهُمُ الفاشلون، وسترى من الآية التالية أن "العلّ" تصدق فيهم أحيانا وَيَتَضَرَّعُونَ.

بشكل بسيط أوضح، الْآيَةُ لا تقول: القرية كانت بخير، وَأَرْسَلَ سبحانه إليها نبيا، وأنزل عليهم المصائب، لا، بل تقول: النبي يتم إرساله إلى قرية ترتكب السوء، وَإِذَا لم تتوقف، فعندها ينزل عليها سبحانه المصائب لعلها تفهم حاجتها للقوّة الإلهية القادرة على رفع الضرر وبناء عليه يؤمنون بدينه تعالى وَيَتَوَقَّفُونَ عن فسادهم.

بقي شيء ضعه دائما في بالك، إِنَّ تَحْدِيدَهُ تعالى لشخص من قرية ما ليكون نبيا، فهذا يحدث إن كان بينهم من لديه الصفات الْمُؤَهِّلَةُ ليكون نبيا، وإن لم يوجد بينهم شخص مناسب، فلن يكون منهم نبي، وبعبارة أصرح سُبْحَانَهُ لا يختار شخصا منهم ليكون نبيا إلا إذا تأهّل منهم أحد ما ليكون نبيا، وَكَلَامُ الآية هنا عن نموذج قرية تأهل منها نبي، وإلا فمعلوم العدد الهائل للقرى والأزمنة التي لم يكن فيها أنبياء.

هَذَا الكلام يأخذنا إلى أمور أخرى، مَنْ ينذر القرى التي لم يتأهّل منها شخص ليكون نبيا؟ كما يبدو من عموم القرآن إنَّ الكتب التي نزلت على الأنبياء سينتشر خبرها بين الناس، ومن بعدها هُمْ يتحملون مسؤولية إهمالهم لها. وكما ترى إنَّ القرآن عندما يتحدّث عن نبي أو رسول لقرية ما... يَتَحَدَّثُ عن نماذج بارزة واضحة سهلة الفهم والانتباه، أمّا بقية المناطق التي لم يأتها رسول ولا نبي منها، ولا من خارجها، فهي قرى دون المستوى الإيماني المؤهّل لتوجيه الكلام الإلهي مباشرة لهم، لِأَنَّ مُسْتَوَى الإيمان فيهم لن يتغيّر عن حالته، وَسَيَبْقَوْنَ كما هم.

عَلَى أي حال لَدَيْنَا خبر منه تعالى عن مرور "رسول نذير" في كل أمّة كما تقرأ في الآية 24 من سورة فاطر {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}، والآية 47 من سورة يونس {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} رَاجِعْ دراستها لمزيد من التوسّع، حَيْثُ إِنَّ أَيَّ مؤمن عاقل يهدي الناس فهو نذير حتى لو لم يكن نبيا ولا رسولا، والكلام عن أنه لم تخل أمّة من نذير، وليس الكلام عن أنه لن تخل قرية وفي كل زمان من نذير، وَهَذَا لم يحصل لأنه تَمُرُّ فترات على القرى وليس فيها من تأهّل بالصفات اللائقة ليكون نبيا، وهناك قرى لم يمرّ عليها في تاريخها كلّه من تأهّل ليكون نبيا، ولكن في تاريخ أمّتها حَتْمًا مرّ من تأهل ليكون رسولا نذيرا.

(ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ{95})
نكمل مع الكلام عن نموذج قرية فعلت السوء وجاءها نبي وَأَصَابَهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ.

{ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ}، فبعض أو أكثر أهل القرية تضرعوا لربهم سبحانه، حَيْثُ كَانَ سبحانه أَصَابَهُمْ بشيء سَيِّئٍ، وبعد تضرعهم أَبْعَدَ سبحانه الشيء السيّء وبدله بشيء حسن، فلنقل مثلا إنَّ جفافا وانقطاعا للمطر حَصَلَ، فهذا سيء، فتضرعوا... ونزل الماء، فهذا حسن.

هذا التبديل بالوضع الحسن سيستمر، {حَتَّىٰ}، أهل القرية، {عَفَوْا}، فمروا عن تلك الحادثة التي حصلت منذ مدة من الزمن ونسوا الموضوع، وَنَسُوا حالة الخوف والانزعاج التي كانوا فيها، "عفا الزمان على ما حصل وصار قديما". {وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ}، فوقعت مع الأجيال السابقة أشياء سببت لهم الضرر كالجفاف والأمراض... ومسّهم {وَالسَّرَّاءُ}، فحصلت معهم الأشياء التي تسرّهم وَتُسْعِدُهُمْ وعلى خاطرهم، مَثَلًا: نزل الماء في موسمه، ولم تحصل الزلازل... بعبارة أخرى هم يقولون: لا، لم تنزل المصائب لأننا كنّا نرتكب سوءا، لا، فأهلنا من قبل كانت تحصل معهم هذه الأمور، حَيْثُ مَرَّةً تقع مصيبة ومرة تمر سنوات من السعادة، وَهَذِهِ هي الحياة وَهَذِهِ عَادَةُ تاريخ البشر ولا علاقة لإيماننا بالضراء والسراء.

تريك الآية نموذجا عن الذين يتضرعون له تعالى عند المصائب، ولكن بعد ذهاب المصيبة، وعفو الزمن عنها، يَمُرُّ عليهم بعض الشهور أو السنوات بحيث يذهب أثر الضرر عنهم، إِنَّهُمْ يقولون: العقلانية ودراسة التاريخ بعيدا عن الوقوع في حالة الضغط التي كنّا فيها، سَتُفْهِمُ منها أن الضرر والمسرّة، شيئان عاديان كَانَا يَحْصُلَانِ سابقا وَصَادَفَ حُصُولُهُمَا في عهدنا، وحين تضرعنا للإله ليساعدنا فِعْلِيًّا لم يتدخل أي أحد ليغيّر حالتنا السيئة، بل هي هكذا الظروف لوحدها تغيّرت... فلو لم نتضرع لكان نفس الشيء، لِأَنَّ أَهْلَنَا من قبل مرّت عليهم فترات مصائب وكانت تنتهي لوحدها.

{فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً}، فلم نتركهم على حالهم بل بغتة أي بشكل مفاجئ غير متوقع نأخذهم بالعقاب، وَلَا يكون عندهم الاستعداد للنجاة منه، {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}، لا يتفاعلون مع شيء يحصل، وَلَمْ يَنْتَبِهُوا أصلا أن هذه نهايتهم وموتهم، وَيُفَكِّرُونَ بأنها حادثة عادية وستمرّ كما مرّ غيرها، وَلَا يدرون أنها نهايتهم.

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{96})
{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى}، لو المنتمون لمجتمع سكاني من الناس، {آمَنُوا وَاتَّقَوْا}، اعتقدوا بالدين الإلهي وتجنّبوا فعل السوء وهو نفسه تجنّب مخالفة كلامه تعالى، {لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ}، فالأمور الموصوفة بأنها خير بشكل زائد وهي عادة غير متاحة دائما للناس لأنها مغلقة عليهم أحيانا، فلو آمنوا واتقوا لفتحها سبحانه فصارت متوافرة لهم، {مِنَ

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}، من فوقهم ومن تحتهم، وهذا التعبير ليس عن جهتين بل عن كل البيئة التي نحن فيها، من الطقس والمطر والريح... والزرع والمياه... بلا زلازل مدمّرة... ونفس هذا المعنى ورد في الآية 66 من سورة المائدة "وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ".

{وَلَكِنْ كَذَّبُوا}، لم يصدّقوا بالعقيدة ولا بالشريعة الإلهية، فلم يؤمنوا ولم يتقوا، فأشركوا وفعلوا السوء، {فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، لم نتركهم من دون التعامل معهم فهم كفروا ولم يتّقوا وحصلوا على ما نتج من ذلك، وهذا المعنى ورد مثله في الآية 33 من سورة الشورى "وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ". وورد في الآيات السابقة خمسة نماذج عن عقاب دنيوي لأقوام كفروا ولم يتقوا فأصابهم العذاب بما كسبوا.

توقّف يا عزيزي ويا عزيزتي عند آيتنا هنا لتتذكّر دائما أنه تعالى يتكفّل بحياة سعيدة للجميع إن آمنوا واتقوا، وتكرّر الكلام القرآني عن ذلك مرارا وخذ مثلا نقله كلام الرسل لقومهم كما تقرأ في الآية 52 من سورة هود "وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ"، والآيات التالية من سورة نوح "فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12)". أمّا الكفر والنفاق والفسق فكفيل لوحده بإفساد حياة الناس، مُضافاً إليه العقاب الإلهي هنا في الدنيا عليه... واجمع آيتنا هذه مع مختلف الآيات المشابهة وأضف إليها مختلف الآيات التي يخبرنا بها تعالى عن أنه لا يترك النفاق والفسق والكفر مستورا، فيبتلي تعالى بالحروب والجفاف والكوارث... المجتمعات التي أعلنت أنها مؤمنة ولكن فيها الكثير من المنافقين والفاسقين والكافرين... وتحدّث القرآن مطولا وبالتفصيل عن نموذج المجتمع الذي كان معاصرا للرسول محمّد(ع)، وذكر لنا التفاصيل العديدة عن حوادث أمنية وعسكرية واجتماعية وتشريعية... أظهرت المنافقين والفاسقين والكافرين على حقيقتهم، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 179 من سورة آل عمران "مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ...".

أطلت عليك الكلام حتى لا تنخدع بسذاجة طفولية تنسب فيها الإيمان لبلد مسلم، وتسأل عن تركه تعالى لهم يعانون الويلات، وتسأل عن تنعّم بلاد تصفها أنت بالكفر... فهذا تقييم بعيد عن النظرة القرآنية التي لا تميّز بين الناس لمجرد تسجيل وصفهم الديني على الهوية، فالإسلام عقيدة وشريعة، وأخلاقيات سلوكية، فإن فُقِدت الأساسيات فلا نفع للاتصاف بالإسلام بدون تطبيق، وبعض البلاد التي تصفها بالكافرة، شعوبُها انتخبت من تراه الأصلح للحكم، أمّا نحن فالحاكمون علينا الذين نصّبناهم أولياء على أمورنا، من أفسد وأسوأ ما يمكن... وهم انعكاس لأهوائنا وفسادنا نحن الشعوب... وهل البلاء الذي نحن فيه إلّا من صنع أيدينا؟ فوضعنا مشابه تماما للأقوام التي نزل عليها العذاب لأن الملأ المدعومين من الناس معارضون لدينه تعالى مثلما الحاكمون علينا منافقون وفاسقون... ونحن انتخبناهم وأيّدناهم أو سكتنا عنهم...

أضف لذلك شريعتنا وسلوكياتنا المعتمدة بيننا، من كذب وغشّ ونصب واحتيال واستهتار... فهذه لوحدها سبب دمار المجتمعات، وأضف إليها سلوكياتنا الأخلاقية من غيبة وبهتان وزنا وربا ومخدرات من حشيشة الكيف والقات والخمر والبيرة...

قبل ذلك كلّه لا تنسَ كرهنا لبعضنا البعض مذهبياً وطائفياً وعشائرياً ومناطقياً...

بطفولية تصوّر زائرا من كوكب آخر قام بتصنيف الدول بحسب صلاح حكّامها وشعوبها، وقارن بين ادّعائنا للإيمان والصلاح، ووصفنا الآخرين بالكفر! ستفهم ما أقوله لك إن فهمت من كلام القرآن أن العمل الصالح لا يقتصر على الصلاة والصوم والحجاب واللحية... فالعقاب الإلهي على فساد المجتمعات لم يكن سببه تركهم لهذه الأمور، بل لفساد حكومتهم الناتج عن فساد مجتمعهم...

لا تنسَ دائما أننا في دنيا البلاء وليس في جنّة الآخرة، فتصميمه تعالى لبيئتنا يتضمّن حدوث كوارث طبيعية فيها، ويتركها تعالى تحدث أو في حالات نادرة يتدخل سبحانه مباشرة ليحدثها عندما يقرر تعذيب قوم ما، أو يتدخّل سبحانه حتى لا تحدث إن كان المجتمع مؤمنا مستغفرا، أو من نتيجة صلاح المجتمع بدرجة عالية فيقومون هم باتخاذ

الإجراءات اللازمة لتفادي الكوارث أو تفادي ضررها... فمن هذه الاحتمالات نفهم كل كلامه تعالى، فلا تجمد على أي نصّ قرآني من دون الانتباه لنوع الكلام الذي يقصده النصّ.

الكلام يجرّ الكلام، وهنا يسأل الناس عن ذنب الأطفال التي تموت بالكوارث على أساس أنه تعالى أحدث الكارثة فقتلهم، أو ترك الكارثة تحدث ولم ينقذهم.

فهمت مما سبق وقلناه أنه تعالى خلقنا في بيئة البلاء بجسد يموت من مرض أو علّة أو حادث... وبهذا لا فرق بين موتنا أطفالا أو كبارا في السنّ، وفهمت أن التكاليف علينا منه تعالى وليس العكس، فنحن مسؤولون عن تفادي الكوارث بقدر ما نستطيع، وقبل ذلك نحن مسؤولون عن تولية الصالحين للحكم لإقامة حكومة صالحة، وسنتحاسب على موت الناس بالكوارث التي كان بإمكاننا تجنّبها... وسنتحاسب نحن على الحروب والغشّ والتلاعب بالعملة والأسعار... والتي نتج عنها أذى وضرر وموت للناس.

بعض الناس يسألون عن تركه تعالى للمجرمين يقتلون الأطفال في الحروب، وكأن تكليفه تعالى حمل السلاح للدفاع عنهم! هؤلاء المعترضون بهكذا أنواع من التفاهات هم دائما من المتقاعسين عن تكاليفهم، فلا يقاتلون عدوا ولا يدعمون بالمال، ولا يلتزمون بشريعته تعالى في الصلاح بأعمالهم التي تمسّ الآخرين... ناسين متعامين متجاهلين أنهم هم سيتحاسبون على ما يعترضون به عليه تعالى.

سيحاسبهم تعالى على فسادهم في الأرض، على فسقهم، على تناحرهم المذهبي والطائفي، على أذية الناس...

على المعيار الكبير لمعنى "عملوا الصالحات" والذي يشمل كل الصلاح، بعض المجتمعات المسلمة تستحق نزول العذاب عليها، وبعض المجتمعات غير المسلمة تستحق العناية الإلهية بها.

هذا الكلام قرآني وليس من عندي، فها بنو إسرائيل من المنتمين لدينه تعالى، والعذاب المهين الذي أصابهم بسبب فسقهم لم يصب غيرهم، فقد جعلهم تعالى قردة كما تقرأ في الآية 65 من سورة البقرة "وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ".

(أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ{97})
{أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى}، فهل يشعر المنتمون للمجتمعات السكانية ببعد الخطر، {أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا}، أن يصير عندهم الشيء المؤذي الشديد، ويسبّب الموت، {بَيَاتًا}، وهم في بيوتهم، {وَهُمْ نَائِمُونَ}؟ عامَّةً نشعر بالأمان والسكون في البيت، وعامَّةً ننام إذا كنّا في حالة اطمئنان، ويحصل الشعور بالأمان أثناء أشغالنا وأعمالنا، وهذا ستذكره الآية التالية، ولكن ركّزت الآية هنا حيث الشعور بالأمان أغلب في البيت وأثناء النوم، فمن أين لهم الشعور بالأمان من العقاب الإلهي أن يأتيهم وهم في حالة أقصى الأمان المتعارف عليه؟ قارنها مع الذي يشعر بخطر من شيء ما، فهذا لن ينام... أمّا هؤلاء فهم كافرون فاعلون للسيئات ويبيتون وينامون وكأنهم في الأمان من العقاب الإلهي على الكفر، وكأنه شيء لن يحصل، وتتذكّر القصص الخمس المختصرة عن عقاب إلهي حصل فِعْلاً لكافرين، فكيف يأمن الكفّار عقابه تعالى كأنه لن يحصل؟! تذكّر دائماً أن السورة ركّزت كلامها عن المجتمعات والولاية له تعالى، وهنا الكلام عن أهل القرى يشير للمجتمعات كما ترى.

(أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ{98})
{أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى}، فهل شعر المنتمون لمجتمع سكّاني بالأمان بالابتعاد عن الخطر الإلهي بالعقاب على كفرهم، {أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا}، أن يصير عندهم الشيء الشديد، وهنا الكلام عمّا يسبّب الموت، {ضُحًى}، في الفترة التي يستمر فيها ضوء النهار، وعادة يقصدون بها ما بعد شروق الشمس حتى الظهيرة، وتكون الإشارة ضِمْناً لما تتضمنّه تلك الفترة من نشاطنا فيها مقابل الليل وبياتنا فيه، وآخر النهار وراحتنا فيه، فالضحى عادة وغالباً هو فترة نشاطنا. يأتيهم بأسه تعالى في فترة النشاط، {وَهُمْ يَلْعَبُونَ}؟ وهم يفعلون أموراً لا يقصدون منها الإنتاج والجديّة، فلنقل في يوم عطلة أو في يوم عيد... فمن يلعب يَكُنْ في أقصى حالة الراحة النفسية والاطمئنان، فالخائف من شيء ما لا يلعب، بل يصبّ اهتمامه على الخطر الذي يتوقّعه، وهؤلاء كفروا وفعلوا السيئات ويوجد خطر عليهم من العقاب الإلهي، فكيف يأمنون ألّا يأتيهم العقاب الإلهي حتى في أثناء شعورهم بأنهم في أقصى درجات الأمان؟ كما ترى فلا تقصد الآيتان أن العقاب لن يحصل إلا في وقت نومهم أو لعبهم، بل تشير إلى حالتين يكون فيها الناس غالباً في أقصى درجات الشعور بالأمان، وليكن هذا

النوع من الكلام نموذجاً لك عن عموم كلام القرآن الذي عادة يختار حالات كنماذج بارزة ليتكلّم عنها وتكون سهلة الفهم وملفتة للانتباه.

(أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ{99})
{أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ} تعالى! فلا يتوقعون أنه تعالى سيخطّط لفعل شيء مضاد لمصالحهم كعقاب على كفرهم وفعلهم السيئات! اربطها مع ما سبق من كلام عن إرسال الرسل وإصابة أهل القرى بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون... وعودة الحياة العادية إليهم... وقولهم إنَّها ظروف صعبة ومرّت وهذه هي الحياة بحلوها ومرّها ولا علاقة للتديّن والسلوكيات بما يحصل... فما هم فيه هو مكر إلهي لهم، فتسير الأمور كما رسمها سبحانه لتوصلهم إلى عقاب يستحقونه على كفرهم. {فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ}، فلا يشعر بالأمان مما يخطّطه تعالى لمن كفر، {إِلَّا الْقَوْمُ}، إلّا الناس الذين لهم كيان الجماعة، {الْخَاسِرُونَ}، الذين فقدوا شيئاً له أهمية كبيرة، فمن لم يحسب حساباً له تعالى فهو الخاسر، ولن يفوز بما يحصل عليه المؤمنون، وسيخسر رحمته تعالى ومغفرته وثوابه بالجنّة. هل يمكننا القول إنَّ المؤمن الحقيقي يحسب حساب مكره تعالى والخاسرون لا يحسبون حساباً لمكره تعالى؟ لا، المؤمن الحقيقي لا يمكر تعالى به، فلا يخطط له السوء، بل يمكر تعالى له، فيخطط تعالى السوء لأعداء المؤمن الحقيقي.

(أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ{100})
{أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا}، الذين انتقلت لهم ملكية الأرض التي يعيشون عليها ممن لن يستردها لأنها كانت لأهلٍ، لأناس منتمين لتلك القرى، وماتوا، وكانت ملكية الأرض منتسبة لأناس ماتوا، وهؤلاء الوارثون ألم يهتدوا وألم يروا الشيء الصحيح، {أَنْ لَوْ نَشَاءُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة ويمكنه أن يقرر منها ما يختاره، فلو قرّر تعالى، {أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ}، لوقعت عليهم ولم تحد عنهم أعمالهم المخالفة لأوامره تعالى وعليها عقاب، فلو شاء تعالى لأصابهم بعقاب بسبب مخالفتهم لأوامره، ألم يعلموا ذلك وهم يعلمون أن من سبقهم من الناس مات وانتقلت ملكية الأرض لهم، وهم بدورهم سيموتون ويرث غيرهم ملكية الأرض. وهم يرون أنه لا سيطرة دائمة لهم على ما يملكونه وهم ورثوه وبالتالي سيرثه بعدهم آخرون، فكيف لم يروا أنه تعالى فِعْلاً يمكنه أن يعاقبهم على ذنوبهم مثلما فعل مع من سبقهم؟

{وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ}، فنجعل قلبهم وهو أساس فكرهم ونفسيتهم، نجعله مطبوعاً مترسّخاً فيه شيء، فتصير طبيعته كذا... {فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ}، والمقصود أنهم لا يسمعون الكلام الهادي لدينه تعالى. ونتيجة الطبع على قلبهم "على أساس فكرهم ونفسيتهم" بحيث يصيرون لا يسمعون، تتحرك طبلات السمع في آذانهم ولكن معنى الكلام لا يدخل على فكرهم ونفسيتهم لأنه مطبوع على رفض هذه النوعية من الكلام الحقّ.

هم تحت خطر العقاب "الإصابة بذنوبهم" وتحت خطر الطبع على القلب، وتعلم من القرآن ومن معنى كلمة قلب "أساس الفكر والنفسية"، أن الكلام يشير للتمرّس والاعتياد على مخالفة كلامه تعالى، ومع التكرار يحصل الطبع، ففي البداية تفكّر في الكلام الإلهي الذي سمعته، فإذا رفضته رغم عقلانيته وصلاحه فمرّةً ثانية حين تسمعه ستفكّر فيه أقل، وهكذا أقل فأقل، حتى ينطبع قلبك على رفضه فَوْراً حين تسمعه، وهكذا ينقطع الأمل من إيمانك به نهائياً، ويكون مصيرك عقاباً شديداً خالداً في جهنّم، وهذا ما تنبّهنا الآية منه "وعموم السورة" كجماعة ينتشر بينها مخالفة كلامه تعالى.

تتذكّر أن عامّة لغات البشر واللغة العربية منها، يستعملون كلمة قلب لعموم أساس الشيء، فهي كلمة مشتركة بين العضلة التي تضخّ الدم وبين أساسنا نحن كبشر، لفكرنا ونفسيتنا، ونستعملها استعمالاً حقيقياً على معناها الأساسي حين نقول: قلب النهار، قلب الكوكب ونقصد نواته، قلب الحقيقة، ونقصد أساسها، وأحبك من كل قلبي...

(تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ{101})
{تِلْكَ الْقُرَى}، تلك المجتمعات السكانية، {نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا}، نقول لك ما حدث معها وهي أخبار عِلْمُهَا لم يكن منتشرا بين الناس، وها أخبرناك عن خمسة أقوام بالتفصيل "بما يكفي لتفهم ما نريدك أن تنتبه له" وآخرين غيرهم من أهل القرى أخبرناك بعموم حالهم.

{وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ}، أي أشخاص نقلوا لتلك القرى الكلمات الإلهية الواضحة، ومرّ معك في السورة ذكر للرسل: نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم سلام الله تعالى، {فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا}، لم ولن تجعلهم البينات يعتقدون، {بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ}، لأنهم من قبل كذّبوا بالدين الإلهي ولم يصدقوا به من قبل أن تأتي البينات، ومن بعد ما أتتهم البينات أيضا لم يتغيّر شيء وبقوا مكذّبين بالدين الإلهي، {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ}، فالمنكرون للدين الإلهي يحصل لهم طبع على أساس فكرهم ونفسيتهم فلا يصدّقون حتى الأمور الواضحة، ومِنْ تكرارهم لإصرارهم على التكذيب لدرجة رفضهم للحقّ تصير طبيعتهم تكذيب الواضح أنه صحيح وحقّ.

تتذكّر دائما أنه تعالى لا يستقصدهم ليطبع قلوبهم ليكفروا، بل هي خلقتنا كلّنا مصمّمة بحيث إذا كررنا أي فعل وتمرّسنا عليه فإننا سننطبع عليه، ويصير طبيعتنا، وقرار تصميمنا بحيث ينطبع قلبنا على الكفر أو الإيمان، كان قراراً صادراً منه تعالى، وترك سبحانه لنا حرية الارادة لاختيار أي طبعة نريد، فمن أراد الكفر سينطبع على الكفر ويصير رافضا لأي كلام إيماني، وعكسه من قرّر الإيمان فينشرح قلبه وصدره لقبول الهداية الإلهية.

بقي شيء، حيث إنّ عموم القرآن يشير إلى بقاء كل واحد منّا كما هو، فالكفر وصف حالة، والموصوف بها قد يكون ملتصقا بالوصف في صميم فكره ونفسيته، وقد يكون متماشيا مع قومه وفي داخله متذبذبا ليس مقتنعا تماماً بالكفر... ومن أوّل ولادتنا نبدأ باتخاذ قرارات ستشكّل قلبنا "أساس فكرنا ونفسيتنا"، وتصرفاتنا بغالبيتها ستكون انعكاسا لقلبنا، وبعض التصرفات ستكون غير منضبطة، فترانا نندم بعدما فعلناها، لأنها مخالفة بشكل ما لفكرنا ونفسيتنا ولكن لسبب أو لآخر فعلناها، فإن كررناها وكررناها ففي الأخير نصير مطبوعين عليها وشبه مستحيل التغيّر عنها إن لم نعد نشعر بالندم أو بسوء ما فعلناه... وبناء عليه نفهم أن ما يحصل أمامنا أو نسمعه إن لم يكن في فكرنا ونفسيتنا ما يسمح بمروره إلى قناعتنا، فلن نقتنع به حتى لو كنت أنت تشير للشمس عند الظهيرة فسأنكر أنا أنها الشمس قائلاً إنّي متمسك برأيي وهذه ليست الشمس حتى لو كانت كل مواصفات كلمة شمس تنطبق عليها...

إلى هذه الدرجة يصل الكافرون بآياته تعالى، وسيأتيك في السورة أبرز نموذج عن هذه الحالة، وهي حالة فرعون وملئه، لترى أن من انطبع قلبه على إنكار الحقّ فلن يؤمن ولا بأي شكل، ولا بأي آية... ولم يحدث في التاريخ أن آمن أحد ما لأنه رأى ما يسمونه بالمعجزة، فإن لم يكن لديه دافع محبّة الخير، وترك السوء، فلن يؤمن بالكلام الحقّ، ولا بالآيات التي صرّفها تعالى وجعلها منتشرة ومتنوّعة في تصميمنا وخلقتنا وتصميم بيئتنا وخلقتها، ولن يؤمن بالآيات التي يفعلها تعالى خارقاً بها عادة الطبيعة من حولنا "معجزة"، حتى لو تحوّلت العصا لحيّة فلن يؤمن، ولو خرجت ناقة من صخرة فلن يؤمن.

هذا المفهوم القرآني أساسي، لأنه سبحانه أَخْبَرُ منّا بعبيده، وتاريخنا يؤكّد لنا ذلك، والحالة الوحيدة التي تظنّ أنها تكسر هذه القاعدة هي إيمان السحرة بعد تيقنهم أن ما فعله النبي موسى(ع) من تحويل للعصا لحيّة أنه حقيقة وليس سحراً، ولكن السحرة من قبل كان عندهم بذرة إيمان وفرعون أكرههم على تحدّي النبي موسى(ع)، وترى ذلك جلياً في الآية 73 من سورة طه "إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى"، لأنّ حالتهم ليست حالة من انطبع قلبه على الكفر وإنكار الحق...

تفهم من الآية هنا مضموماً لعموم القرآن أن إرسال الرسل لن يغيّر الكافر ليصير مؤمناً، ولا حصول ما يسمّيه الناس بالمعاجز سيغيّر أحداً ما ليصير مؤمناً، بل هو الشخص وبحسب قراراته تتقولب نفسيته وفكره، حيث إنّ كلنا بدون استثناء لدينا قدرة تمييز الخير من الشرّ، ولدينا حرية إرادة لنختار منهما، وعلى هذا الأساس كلّفنا تعالى ووعدنا بالثواب عقاباً أو حسناً، وأي كلام آخر غير هذا فسيجعل محاسبته تعالى لنا بلا معنى، إذ إنّ بعض الناس يبررون لأنفسهم وللآخرين أنهم لم يميّزوا بين الحقّ والباطل والخير والشرّ ولذلك فعلوا السوء، وهذا صحيح ولكن قبل الوصول إلى هذه الحالة نحن من قبل فعلنا ما نراه سيئاً، وفعلنا غيره، وكرّرنا ذلك، حتى فقدنا قدرة تمييز الخير من الشرّ والحقّ من الباطل، وصرنا نفعل السوء ونحن مقتنعون تماماً أنه الخير! مثل المجرمين القتلة ومفتعلي الحروب ومروجي المخدرات والمتاجرين بالبشر وناهبي خيرات البلاد والعباد... ومثل مثيري النعرات الدينية والطائفية والمذهبية لدرجة تحليل قتل أي مخالف لهم... فهؤلاء لديهم تبريراتهم لذلك، وهؤلاء يقولون إنهم يرون ما يفعلونه حقّاً وصلاحاً.

هكذا ترى بوضوح معنى انطباع القلب، والعمى والصمم، لأنّ هذه أوصاف تشير لحالة الذين لم يعودوا يستطيعون رؤية الحقّ من كثرة ما تمرّسوا على الباطل.

هكذا نفهم أن ما يقوله البعض كاعتراض على انحصار الكتب الإلهية والأنبياء والرسل والآيات "المعاجز" في منطقة الشرق، فهو لا معنى له لأن الحالة نموذجية فقط، إذ إنّ القليل النادر جداً من القرى في منطقة الشرق الأوسط وفي زمن ما حصل أمامهم آية مما يسمّيه الناس بالمعجزة، والقليل النادر من زمانهم مرّ على بعضهم نبي ما، والغالبية الساحقة عبر التاريخ لم يروا نبياً ولا حدثت أمامهم معجزة، وأصلاً وبصريح كلامه تعالى لا النبي يغيّر الناس ولا المعاجز تغيّرهم، بل الاستفادة من النبي لتصويب وتقويم الهدى، لا أكثر ولا أقل، ونفس الشيء بالنسبة لكتبه تعالى، إذ هداها هو عرضها للحقّ والصلاح ليصير مرجعاً لتقويم الرؤية لمن أساساً وأصلاً لديهم رغبة بالهدى، وهذا ليس شيئاً حصرياً لأهل منطقة الشرق الأوسط، ولم ينف القرآن وجود مهتدين من بقية الأمم، بل أكّد أن كتبه تعالى موجّهة للجميع ليستعينوا بها على الهدى، ولكن واقع حال بقية الأمم أنه لم يتأهّل أحد منهم بالصفات المناسبة ليتواصل معه تعالى ويوظّفه كرسول...

(وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ{102})
{وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ}، فأكثر الناس إذا عاهدونا وأعلنوا لنا أنهم سيلتزمون بشيء ما فهم لا يلتزمون به، وهنا الكلام عن عموم التزامهم بأمره تعالى، سواء أصابهم بالبأساء والضراء وتضرعوا على أساس أن يصيروا ملتزمين بدينه تعالى... أو جاءهم الرسل فأعلنوا إيمانهم بهم... أو على أساس تكليفهم من الأساس بأن يلتزموا بما يقوله لهم إلههم سبحانه من أوّل ما خلقهم سبحانه بسبب ما جعله تعالى فيهم من قدرة على تمييز الخير من الشرّ وحرية إرادة، وهذا المعنى الأخير هو بالتحديد ما نفهمه من عموم كلام القرآن عن عهد بيننا وبينه تعالى، فلا تفهمها أنني أنا أو أنت أو هو أو هم... قلنا بلساننا كلاماً يعبّر عن التزامنا بدينه تعالى ليصير وصفنا بأننا عاهدنا، لا، فالكلام هو أحد طرق العهد، أمّا عموم ما يذكره القرآن فهو عن واقع الحال، حيث أنا كشخص وصلني كلامه تعالى واضحاً بعقلانيته "إذا كنت من المطبوع على قلبهم بالكفر فسأرفضه وأراه لا عقلانياً"، وبعدما يصلني أصير تحت عهد، أصير ملزماً به، سواء تلفّظت بذلك أم لم أتلفّظ. وقبل ذلك سبحانه جعل فيّ ما يعرفني عليه كإله واحد أحد خالق... وجعل فيّ القدرة على تمييز الخير من الشرّ، وجعل فيّ حرية الإرادة لأختار الهدى أو الضلال، وأنا أصلاً تحت عهد أن لا أكفر ولا أفعل السوء، ولكن كلام الآية هنا يشير لشيء إضافي على الحالة الأصلية، مضافاً لما جعله تعالى فينا من قدرات تجعلنا تحت عهد معه تعالى أن نكون مهتدين، والكلام القرآني عن حالة نماذج وصلها كلامه تعالى ورغم ذلك لم ينفعهم أن يهتدوا لأن قرار الفسق عميق وصلب جداً.

تلاحظ عموم استعمال القرآن لعهد المؤمنين معه تعالى أنه كان لوصف حالهم وليس نقلاً لكلام قالوه حرفياً عن عهدهم، فلا داعي ليقول أحدهم: أتعهد بالالتزام بدينه تعالى... بل حالته حين تصله الأوامر الإلهية، "أو مما جعله تعالى فيه من قدرة تعرّفه على الهدى والضلال" فقد صار عليه عهد اتباع الحقّ، وأكثر الناس سواء كان عهدهم من واقع حالهم أو أعلنوه وقالوه بلسانهم، {فَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ}، {وَإِنْ وَجَدْنَا}، وفقط وجدنا، {أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ}، خارجين عن أوامرنا الواضحة، مخالفين للكلام الإلهي الواضح الذي وصلهم.

ضع في بالك أن آيتنا هنا ستكون الرابط بين الفقرة السابقة والتالية، فهي كالختام لما سبق والمقدمة لما سيأتي، فالقصة التالية عن نبي جاء بالكثير من الآيات ورغم ذلك لم يؤمن الكفّار الذين كلما تعرّضوا للبأساء والضرّاء تعهدوا بالالتزام بأمره تعالى ثم تراجعوا عن ذلك بعدما ذهب الضرر... وستلاحظ فيها أيضاً أن الكثيرين ممن أعلنوا الإيمان مع الرسول فإنهم لم يلتزموا بالعهد، بل وكما سنرى، كان أكثرهم فاسقين.

لاحظ مفهوماً عاماً منتشراً هنا وهناك في القرآن عن كون أكثرية الناس فاسقة، أي هم مخالفون لأمور علموا بوضوح ما يقوله الدين عنها، وفسقهم بتدرجات تبدأ من الكفر والشرك واختراع شريعة كاملة مغايرة لشريعته تعالى، وصولاً إلى الذي أعلن إيمانه وقام ببعض الأمور التي يأمر بها الدين الإلهي ولكن فسق عنها بهذا الأمر أو ذاك... ومن الآية 7 من سورة يس "لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ" تفهم أنه سبحانه عندما خلقنا من الأساس كان يعلم أنَّ الأكثرية لن تؤمن وصدق قوله سبحانه فينا.

بقي شيء، هل من لم يعاهده تعالى صار بعيداً عن محاسبته ومجازاته ولا علاقة له؟ فبعض الناس تنقل لهم كلامه تعالى عن الخير والشرّ والواجبات... والآخرة والحساب... فيقول لك إنه لا علاقة له بهذا الموضوع، وكأنك أنت تؤمن به وسيحصل معك، وهو لا يؤمن به فلن يحصل معه! لا، فمن عاهده تعالى والتزم فاز، ومن خالف فسق، ومن بالأصل لم يهتم بالموضوع فهو كافر، أي منكر لأساس كلامه تعالى، وسيتحاسب على ذلك.

تذكّر دائماً الفرق بين مصطلحاتنا وبين المعاني الأصلية للكلمات، فالفسق في استعمال القرآن استناداً للمعنى اللغوي عند وصف حالة إنسان مع الدين، هو الخروج عن شيء علني قاله الدين، ويوصف به المشرك والكافر المخالف بكفره لما أعلنه الدين، ويوصف به أهل الكتاب لمخالفتهم ما أعلنه تعالى في كتبهم، ولمخالفتهم لما أعلنه تعالى في القرآن، ونوصف به نحن لمخالفتنا لأمور صريحة وواضحة يقولها الدين. واصطلح بعضهم على كلمة فسق وفاسق لتشير للمسلم الذي علناً يخالف الدين الإلهي، وذلك في مقابل المنافق الذي بالسرّ يخالف الدين، وهذه المعاني تقبل اشتقاقها كتطبيقات من الأساس اللغوي للكلمات ولكن ما ذكرته لك هو المعنى الذي استعمله القرآن، فهناك شيء نعلم أن الدين قاله، وخالفناه، بالسرّ أو بالعلن، فهذا فسق ديني. والنفاق هو عموم إخفاء الكفر كاملاً أو بأمور، لم يؤمن ولكن يمثّل أمام الآخرين أنه مؤمن.

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ{103})

{ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى}، من بعد الرسل التي مرّ الكلام عنها أنهض سبحانه النبي موسى(ع)، {بِآَيَاتِنَا}، بالأمور المميزة بمستواها الإلهي والمنسوبة له تعالى، {إِلَى فِرْعَوْنَ}، وهو لقب أطلقه المصريون القدماء على بعض حكّامهم، كما نقول ملك وكسرى وقيصر... وإلى {مَلَئِهِ}، إلى بقية الوجهاء والمجموعة الحاكمة والوزراء والمستشارين، {فَظَلَمُوا بِهَا}، فالآيات كانت واضحة وتدل على أن موسى (ع) مرسل من الإله سبحانه، فمن الحقّ والعدل والإنصاف الإيمان بها، ولكنهم ظُلْماً لم يؤمنوا بها، فلم يكن معهم حقّ بكفرهم بها.

{فَانْظُرْ}، فوجّه اهتمامك العام أيها النبي محمد(ع) وأيها القارئ للقرآن، كما نقول بالعامية: شوف، باوع. {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ}، ما عَقَبَ وما أتى بعد، كخاتمة ونهاية، {الْمُفْسِدِينَ}، الذين يخرّبون ولا يعملون بحسب الصلاح لأنفسهم وللبقية. كما تعلم فإن نتيجة فرعون وجنوده أنهم غرقوا... والدمار أصاب مدنهم... نتيجة فساد عقيدتهم وشريعتهم وإصرارهم على استعباد بني إسرائيل.

تذكّر دائماً أن القرآن أشار بوصف الفرعون فقط للفرعون الذي كان على عهد النبي موسى(ع).

ننتبه أنَّ الفراعنة بنوا المدن وتطوروا في البناء والزراعة والتنظيم... وهي حضارة متقدمة، ولكن هذا تم بناؤه على الفساد، لأنهم استعبدوا الناس، وفرضوا الضرائب الكثيرة على الفقراء، وأجبروا بقية الشعوب على دفع الضرائب بقوة السلاح... ونشروا عبادة الأصنام... وتسلّط كهنة المعابد على الناس يشرّعون القوانين التي تناسبهم وتناسب فرعون... وحتى إنَّهم أعلنوا فرعون كإله! واستعبدوا الشعوب التي لا كيان حكومي لها ولا قوّة عسكرية...

بقي شيء، ضعه في بالك كنموذج عن تطوّر واختلاف طرق رسم الكلمات، في عصرنا لا يزال بعض الناس يستنسبون كتابة بعض الكلمات بطريقة لا يستنسبها الآخرون، حيث كلمة "ملئه" يكتبها البعض "ملإه" وآخرون يكتبونها "ملأه" فيرسمون الهمزة من فوق الألف مع رسم كسرة تحت الهمزة. ضع هذا في بالك لتنتبه للكلام الفارغ الذي تجده هنا وهناك عن أخطاء إملائية في القرآن، حيث رسم الجيل الأوّل كلمات القرآن بحسب ما رأوه مناسباً للّفظ وعلى القواعد البسيطة التي كانوا يعلمونها، فتلك مرحلة لم يكن فيها أصلاً تخصّص في علوم اللغة، فإن سمعت بخطأ إملائي يقولونه عن رسم كلمة ما في القرآن، فالسؤال البديهي الأول: هذا الخطأ بناءً على أي قواعد؟ على القواعد التي نشأت بعد تدوين القرآن أم في عصره؟ فكيف ستحاسب من كتب القرآن على ما اعتبرته أنت فيما بعد خطأً! وبالنسبة لعصر من كتب القرآن فبذلوا جهداً جباراً ليكتبوه على قواعد كانت في عصرهم شبه بدائية، ومن بعدهم انفجرت التخصصات باللغة العربية بسبب اهتمام المسلمين بالقرآن...

على أي حال فالقرآن نزل ملفوظاً وتعلّمه المسلمون من فم لأذن مستعينين بالكتابة لتنشيط الذاكرة، وما حصل بعد ذلك ممّا يسمّونه بالقراءات المتعددة للقرآن، فحساب الذين روّجوا لهذه الفكرة ولتلك القراءات على الله تعالى، فمن الواضح

جداً أنَّ الجيل الأوّل للمسلمين كان على قراءة واحدة، وما وردنا عنهم من اختلافهم في القليل النادر من الكلمات، وردنا عنهم بصيغة تؤكد رفض هذا أو ذاك من الآحاد لما يقرأه الناس ومُصِرّاً على تصحيح ما يقولونه بناءً على ما سمعه هو من الرسول(ع)، ولن تجد ولا رواية عن الجيل الأول تتضمّن قبولهم بتعدد القراءات، ومنه تفهم أنَّ اشتباهاً حصل لهذا أو ذاك منهم في كلمة ما، أو نسياناً أو تخريفاً... ولكن تقديس الأشخاص والموروث والقديم والروايات... جعل العديدين يخترعون القراءات المتعددة! والأنكى من ذلك قبولهم بقراءة أصلاً لا رواية لها حتى عن الجيل الأوّل! والأنكى من ذلك كلّه تسميتهم لحفص كقارئ في مقابل بقيّة القرّاء وكأن حفصاً مُقَارَنٌ لهم فيما يقرؤه، بينما حفص هو ممثل لقراءة جمهور المسلمين بالضبط كما وصلتهم من الرسول، وحفص ومن نقل عنهم لم يكونوا مخترعين مثل الآخرين...

حَسَنٌ، كانت هذه الآية اختصاراً شديداً لما حصل بين النبي موسى(ع) وفرعون وملئه، وإليكم أهم المحطات التي جرت في مدة طويلة بينهم، وستلاحظ فيها إيمان السحرة من آية تحوّل العصا لحيّة وإصرار فرعون وملئه على الكفر:

(وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{104})
هنا المشهد هو أول لقاء بين النبي موسى(ع) وفرعون. قال النبي موسى(ع): يا فرعون، إني رسول من رب العالمين، أحمل رسالة من المسؤول من مستوى إلهي عن كلّ الناس.

ضع في بالك أن فرعون وقومه كان لديهم آلهة يعتبرونها خاصّة بهم وللآخرين آلهة خاصة بالآخرين، حيث إنّ كلام النبي موسى(ع) هنا سيكون غريباً على عقيدة فرعون، ففي رأي فرعون أنه لبني إسرائيل ربٌّ خاص بهم وهو ليس ربّاً للمصريين... وهذه الجملة لوحدها "ربّ العالمين" هي إعلان حرب على عقيدة فرعون وقومه، إذ فيها إلغاء لكل الأرباب الأخرى والاعتراف بإله واحد وهو الإله الذي يقول عنه بنو إسرائيل.

قارنها مع الشخصيات الدينية الموقّرة في نظرك، والشخصيات الدينية التي يوقرها الآخرون وأنت لا توقرها، وقارنها مع شعورك بمن يقول لك عن شخصية دينية عندك أنها غير مرموقة بل سيّئة، ويريدك أن توقّر شخصياته الدينية التي كنت أنت لا توقّرها... حيث إنّ فرعون يعبد أرباباً يراها خاصّة له ولقومه، والنبي موسى(ع) يقول له بأنها وهمية والربّ الحقيقي هو الرب الذي نحن بنو إسرائيل نعبده، فعقيدتك يا فرعون غير صحيحة وعقيدتنا صحيحة... ويمكنك أن تراجع سورة الشعراء من الآية 17 لتقرأ تفاصيل أكثر عن أول لقاء دار بين النبي موسى(ع) وفرعون.

(حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ{105})
{حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ}، بما أني رسول من الربّ فأنا حقّ عَلَيَّ، مُلْزَمٌ أَلَّا أقول، {عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ}، إلا الصواب الصحيح، فالجدير بي وما هو متوقّع مني وما يجب عَلَيَّ، أن أقول فقط الصواب والصدق على رب العالمين صاحب الاسم المحدّد المميّز الله سبحانه، لست مثل كهنة معابد الأصنام الذين يخترعون ويكذبون على الناس ويقولون لهم القصص الخرافية عن بطولات وقصص الأصنام والآلهة الوهمية...

{قَدْ جِئْتُكُمْ}، أوصلت إليكم يا فرعون ومَلَأَهُ، {بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ}، بشيء واضح صحيح من المسؤول عنكم من مستوى إلهي، يثبت لكم أني رسول منه تعالى وأنه الرب الأحد الحقيقي... وفي الآية التالية سيطلب فرعون من النبي موسى(ع) أن يريه البينة التي جاء بها على أساس أن الآية هنا تنقل لنا أول لقاء بين النبي موسى(ع) وفرعون وملئه.

{فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}، أي أبناء النبي يعقوب(ع) الذي له اسمان "إسرائيل ويعقوب"، أي أبناؤه ذريته... تجبرهم على البقاء هنا وربّ العالمين يقول لك أن تتركهم ليذهبوا معي خارج مصر. بعبارة أخرى: إذا لم تؤمن يا فرعون أنت وقومك بعقيدتي، فليست مهمتي جعلكم تؤمنون، ها قد عرضت عليكم عقيدتي وأنتم وشأنكم، ولكن جئت لكم بدليل إلهي حتى تتركوني آخذ بني إسرائيل من مصر إلى مكان آخر.

كما تعلم بنو إسرائيل كانوا مستعبدين على المعنى العامّ للاستعباد فقد كان مفروضاً عليهم طاعة فرعون وملئه... وكان لا يحقّ لهم عبادة الله تعالى وحده، وكانوا مجبرين على إظهار الاحترام لآلهة المصريين... وكل هذا يتضمّن في حينها الفوقية للإنسان المصري على غيره من الشعوب... مثل الفوقية التي تراها على مرّ العصور "وفي عصرنا" للأقوام

القوية عسكرياً واقتصادياً... وهنا يقول النبي موسى(ع) لفرعون: إذا لم تؤمن بما أقول فاتركني آخذ بني إسرائيل من مصر وهذا أمر من الله تعالى ومعي بيّنة عليه.

لاحظ وانتبه وضع في بالك دائماً أنه تعالى أرادك أن ترى من حالة فرعون وقومه أنه تعالى لم يفرض عليهم الإيمان بالقوّة، بل عرضه رسوله عليهم ولم يهددهم تعالى بعذاب في الدنيا إن لم يؤمنوا وإنّما هدّدهم بالعذاب في الآخرة، وهددهم بالعذاب في الدنيا إن لم يتركوا بني إسرائيل يغادرون مصر. وتفهم من ذلك أن فرعون وقومه ورغم كفرهم سبحانه لم يقرر تعذيبهم هنا في الدنيا، وبالتحليل لعموم مفاهيم القرآن نرى أنهم لم يكونوا كلّهم مرتكبين لسوء من العيار الثقيل حتى يستحقّوا العقاب الدنيوي عليه، وهي مثل حالة الدول التي لا تعتمد الإيمان التوحيدي كعقيدة ولا تعتمد تشريعاته تعالى بدقة، ولكن ليس منتشراً بينهم سوء من العيار الثقيل، هؤلاء لا يصيبهم تعالى بكارثة من عنده، بل يتركهم لكوارث الطبيعة، وإن كانت حكوماتهم صالحة بشكل مقبول، عندها سيتمكنون من تفادي أضرار الكوارث الطبيعية عبر الاحتياط منها... وربما لن يتدخّل سبحانه لحمايتهم من كارثة مدمّرة وربما يتدخّل، فسبحانه أعلم بشؤونهم.

كلام السورة هنا عن النموذج فرعون يمكن الاستفادة منه للتعرّف على كيفية تعامله تعالى مع مختلف حالات الدول والحكومات، حيث ليس الكفر ولا الشرك سبباً وحيداً لحصول عذاب في الدنيا... من ناحية ثانية فرعون وقومه تقصّد سبحانه جعلهم نموذجاً عمّن تصلّب وجمد كفراً أمام مختلف أنواع الآيات لنفهم أن الآيات الاستثنائية ليست ولن تكون سبباً في إيمان أحد ما... وتكملة كلام السورة وللأسف عن النموذج المعاكس بعنايته تعالى الزائدة ببني إسرائيل لترى أن عنايته تعالى بقوم ما يعلنون انتماءهم لدينه تعالى لن تغيّرهم العناية الزائدة ليصيروا مؤمنين أكثر...

(قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{106})
{قَالَ}، فرعون: {إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ}، مَعَكَ شيء مميّز يؤكّد صحّة إرسالك من الإله، {فَأْتِ بِهَا}، أَحْضِرْهَا وافعلها وأرنا إياها، {إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}، إن كان معك فِعْلاً شَيْءٌ مُمَيَّزٌ يقنعنا بأنك رسول من رب العالمين. لا أوافق على تركك تأخذ بني إسرائيل من مصر، "لأنهم يعملون عندي ومملكتي بحاجة لقوتهم العمالية في البناء والزراعة..."، ولكن أرنا آيتك لنقتنع بصدق كلامك.

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ{107})
{فَأَلْقَى عَصَاهُ}، رَمَى النبي موسى(ع) فرع الخشب "غصن الخشب" الذي يحمله معه، وكان حمل الرجال لِلْعِصِيِّ رائجا في ذلك الزمن كما يقولون في الكتب، وكما يحمل كبار السن العكّاز في زماننا. {فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ}، بِدُونِ أدنى شك صارت العصا ثُعْبَاناً حَقِيقِيّاً من لحم ودم، والثعبان هو الحية الكبيرة. وَعَصَا النبي موسى(ع) كانت طويلة وثخينة نِسْبِيّاً، وعندما رماها (ع) على الأرض تحولت إلى حية كبيرة وأخذت تمشي بين الجالسين في مجلس فرعون، بشكل يؤكد للجميع بشكل مبين "واضح" أنها فِعْلاً الحيوان المعروف باسم الحيّة. ما قيل عن أن الثعبان هو الحية الكبيرة، ووصفها بالجان الوارد في الآية 31 من سورة القصص "وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ..." يشير لحية صغيرة، على أساس أن نفس العصا تغيّر حجم الحيّة التي تحوّلت إِلَيْهَا، هُوَ كلام تخميني لم أجد له مَصْدَراً في الكلام قَدِيماً لاستعمال العرب لكلمتي ثعبان وجانّ، وَالْأَرْجَحُ الواضح من الكلام القرآني أن العصا تحوّلت دائما إلى حية بنفس حجم العصا، والاستنتاجات لمعاني الآيات بناء على معانيهم الافتراضية لكلمات حية وثعبان وجانّ تَبْدُو لَطِيفَةً وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ صَحِيحَةً. وَكَلِمَةُ "جانّ" ليست من أسماء أو صفات الحيّات. في أشعار العرب قبل الاسلام "فيما لدي من مصادر" استعمال كثير لكلمتي أفعى وحيّة واستعمال نادر لكلمة ثعبان، ولا يظهر منه أي تمييز لهذا الوصف أو التسمية عن الحيّة والأفعى إلا من ناحية تذكير اللفظ وتأنيثه، وبتحليل الشعر القديم وكلام الفراهيدي في كتاب العين، وكلام تاج العروس ستجد أن العرب القدماء يقصدون بالأفعى اسْماً لِنَوْعٍ من الحيات، وسيبدو لك بوضوح أنها تسمية غير متفق عليها بين العرب، وَهُنَاكَ العديد من أنواع الحيّات، وكل جماعة منهم تقصد بالأفعى نَوْعاً ما... ويبدو أن الغالبية يسمون بالثعبان الحية الطويلة غير السامة المشهورة بأكلها للفئران. وتعابيرهم عنها أنها ضخمة هِيَ على مقاييس حيّات المنطقة العربية التي يعرفونها، ولا يقصدون الضخامة من قياس حيّة الأناكوندا التي لا يعرفونها ولا تتواجد في مناطقنا. بناء عليه لم يستعمل القرآن كلمة أفعى لأن العرب استعملوها بضبابية كاسم لنوع من الحيّات، واستعمل كلمة ثعبان لترى أن طول العصا هو نفسه صار طول الحيّة.

(وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ{108})

{وَنَزَعَ يَدَهُ}، أبعد النبي موسى(ع) يده عن شيء كانت فيه، وكما تعلم من الآية 32 من سورة القصص "اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ..." أنه (ع) أدخلها في جيبه أي تحت ثِيَابِهِ لجهة أضلاعه وسحبها، {فَإِذَا هِيَ}، يده، {بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ}، لونها أبيض كالثلج كالرخام الأبيض لكل من يوجّه اهتمامه العام بها. لِنَتَصَوَّرْ النبي موسى(ع) مشى بين الحضور وأخذ يريهم يده ويحركها لهم فينظرون إليها وهي شديدة البياض بشكل غريب. ربما لا تعني لنا هذه الآيَة كَثِيراً لأننا نسمعها ولا نراها، وكأنها إِسْقَاطٌ لليد في سطل دهان أبيض، وإخراجها منه بيضاء، ثم إسقاطها في محلول يمسح الدهان فتعود كما كانت، ولكن ما سنراه بعد قليل من تقليد السحرة للثعبان وتركهم تقليد تبييض الْيَدِ يدل على أنها كانت شَيْئاً مُمَيّزاً غير قابل للتقليد. أمّا بالنسبة لقيمتها عندك الآن كآية، فأنت لم ترها لتحكم عليها، وعلى كلّ حال اخْتِيَارُهُ سبحانه لها وعجز السحرة عن تقليدها يشير لكونها مميّزة جِدّاً وَدَلِيلاً على تدخّل إلهي لتغيير طبيعة المواد... بِالتَّوَسُّعِ قَلِيلاً من هذه الآية التي كرّر القرآن ذكرها مِرَاراً، نتذكّر بعض الآيات التي اعترض فيها الناس على رسلهم لأنهم يريدون رَسُولاً مُمَيّزاً غَرِيباً... فإلى أي درجة يريدون الرسول غَرِيباً من غير البشر؟ لدرجة أن يكون رَجُلاً بأجنحة! أو بأربع أَيْدٍ، أو يطير في الهواء... كُلُّ ذلك لن يغيّر أي شيء كما ترى مما حصل مع النبي موسى(ع)، فهو بشري تزوّد بأمور خارقة عن قدرتنا على فعلها، بِجَسَدِهِ بِيَدِهِ تغيّر تكوينه، وغيّر تكوين خشبة لتصير حَيَوَاناً، ولم ينفع ذلك مع المصريين على الكفر. نضع هذا في بالنا لأن القرآن ذكرها لتكون لنا عبرة وَنَمُوذَجاً، بَعْضُ الناس من عصرنا يطلبون حدوث أمور كهذه ليروا بأم أعينهم تدخّله تعالى ليؤمنوا، ولكن القرآن يؤكّد أن هذه الأمور لم ولن تسبّب الإيمان، وإنما فعلها تعالى عبر بعض الأنبياء لتكون نَمَاذِجَ للآخرين ليفهموا أنها لن تقدّم ولن تؤخّر، فَالشَّخْصُ إمّا يؤمن بما يراه من آيات في خلقته وخلقة بيئته، ويكون مُتَمَاشِياً مع ما يراه صَالِحاً وتاركا لما يراه سَيِّئاً، أو لن يتغيّر عن ضلاله ولا بأي شكل إلا بقوّة تغيير برمجة فكره وسحب حرية الإرادة منه، أو سحب دَوَافِعِ فعل السوء منه ليصير لا رغبات ولا شهوات...

(قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ{109})
{قَالَ الْمَلأُ}، قال جماعة من الناس لهم سلطة معنوية، كالمشاركين في الحكم من الأمراء والوزراء والمستشارين وصولاً إلى الوجهاء، {مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ}، من الناس الذين لهم كيان الجماعة وفرعون منتسب لجماعتهم، بعد أن شاهدوا تحوّل العصا إلى ثعبان وابيضاض اليد، قالوا: {إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ}، موسى لديه علم واسع بفنون السحر، ساحر قوي خبير. وهذا ليس رسولاً من الإله وهذه ليست آية تثبت أنه رسول، بل هو مجرد ساحر ماهر، فلا تنخدع.

ضع في بالك دائماً أن السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شيئاً غير حقيقي أنه حقيقي. فالساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد بأنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع أنها لم تختف، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر والذي تراه صريحاً في الآية 66 من سورة طه "قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى". وهنا في الآية الملأ يقصدون أن العصا لم تتحول فِعْلاً لحيّةٍ بل هناك خدعة جعلتنا نتوّهم ذلك.

وما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، فهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية إنها سحر، فهذا كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

(يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ{110})
في الآية 35 من سورة الشعراء جملة قريبة من الآية هنا "يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ"، وكانت من سياق كلام فرعون، وهنا من الآية التالية تبدو أيضاً من كلام فرعون، وعلى كل حال فهذه خلاصة تقييم فرعون وملئه لهدف النبي موسى(ع) سواء قالها الملأ أولاً، أو قالها فرعون أولاً، أو كررها فرعون من بعد عصف الأفكار الذي حصل في هذا الاجتماع...

{يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ}، فهو في الظاهر يقول بأنه يريد إخراج بني إسرائيل من مصر ولكن في الحقيقة مخطّطه هو الاستيلاء على مصر وطرد الحاكمين المصريين منها.

{فَمَاذَا تَأْمُرُونَ}؟ أي الأمر الذي ترونه مناسباً للتعامل مع هذا الذي يخطّط لإخراجكم من أرضكم.

بقي شيء، فكرة إخراج المصريين من أرضهم ماذا تعني؟ يمكننا أن نفهمها على أنها نظرة بعيدة المدى، حيث إنّ جيش فرعون حين ينطلق إلى الحرب، عندها يبقى في مصر عدد قليل لحفظ الأمن والسيطرة على المدن بالمراقبة الدائمة وإجبار العمّال على العمل لساعات طويلة بالأشغال الشاقة... فلا يبقى للمواطنين من الدرجة الثانية أي قدرة على القتال... وبنو إسرائيل أصلاً غير مسلحين ولا متدربين على القتال... ولكن إن خرجوا من مصر، وحملوا السلاح وتدربوا عليه وارتاحت أجسادهم من إرهاق العمل الشاق مع طعام قليل... وهم يعرفون زوايا مدن مصر، فإن هجموا في غياب الجيش المصري فإنهم سيتمكنون من السيطرة على مصر وطرد المصريين منها.

أو تحصل ثورة لبني إسرائيل ضد فرعون من داخل مصر بعد تنظيم النبي موسى(ع) لهم، ومن فحوى آيات القرآن تفهم أن النبي موسى (ع) طلب تركهم يغادرون مصر وضمنياً طلب "حالاً ومن الآن" التوقّف عن معاملتهم كمواطنين من الدرجة الثانية...

في أدبياتنا درج القول عن استعباد فرعون لبني إسرائيل، على المعنى الدارج لكلمة استعباد، وتأيّد عندنا ذلك من عبارتين وردتا في الآية 22 من سورة الشعراء ولم يرد في القرآن غيرها "وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ"، والآية 47 من سورة المؤمنون "فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ"، ولكن على المعنى الأساسي لكلمة عبد التي تشير لمن مفروض منه أو عليه الطاعة، فهي مقابل الحرّ وليست مرادفة للمملوك، لأن الملكية من تبعيتها العبودية. وهكذا نصير أمام وساعة في المعنى في حالة بني إسرائيل تحت حكم فرعون، فالحالة العامة أنهم كلهم تحت حكمه وسلطته مثلهم مثل بقية المواطنين التابعين لسلطة فرعون، والحالة الخاصة أن بني إسرائيل لم يكونوا مواطنين من الدرجة الأولى، حيث لدى البعض منهم حياته الخاصّة كطبيب ومهندس وتاجر وساحر... وبعضهم الآخر عمال. وتفهم ذلك من حالة قارون الثري النافذ من بني إسرائيل تحت حكم فرعون، ومن حالة السحرة كنموذج عن مهنة مارسها بعض أفراد بني إسرائيل، ولست أقصد أنهم كانوا مرتاحين أو لديهم حقوقهم كاملة ولم يعمل البعض منهم بالسخرة مقابل وجبة الطعام... بل أقصد أن تشبيه الصورة عن حالتهم كلّهم بشكل مُزْرٍ مبالغ فيه، فتصوَّرها مثل حالة العيش تحت حكم ديكتاتور تعرفه من عصرك أو سمعت به.

مفهوم الاستعباد في ثقافتنا بعيد كثيراً عن أصل معنى الكلمة ومنطلق من تطبيقات سيئة جداً لها، وهكذا صار لها معنى في بالنا وبعيد عن المعنى اللغوي الذي استعمله القرآن لها، ولا ننتبه لذلك ونفسّر القرآن على ما في بالنا من معنى "تطبيقي سيئ" لكلمة عبد. لغوياً كلمة "عبد" تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك. وبهذا المعنى استعملها القرآن.

أقول لك هذا لأنني متأثر بخلفية استعباد فرعون لبني إسرائيل على المعنى الدارج في ثقافتنا التاريخية الدينية، وحاولت الابتعاد عن وصفهم بالاستعباد، ورغم ذلك وأثناء المراجعة لهذه الدراسة أجد فلتات مني لوصفهم بالاستعباد، وهذا وللأسف شيء حصل حتى في مواضيع أخرى تَقَوَّمَتْ عندي أكثر بعد دراستها، ولكن فلتات الخلفية الثقافية أسرع وأقوى من استحضار معلومة توصّلت لها عن دراسة.

(قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ{111})
{قَالُوا}، الملأ، {أَرْجِهْ}، عَلِّقْ ردّك عليه "حتى ترى ماذا يمكن للسحرة أن يفعلوا"، وَلَا تبتّ في أمره الآن وأخّره بعض الوقت هو، {وَأَخَاهُ}، فهو وأخوه هارون(ع) أتيا بسحر ونحن بدورنا سوف نردّ عليهما، فلا تَسْتَجِبْ لطلبهما الآن واتركهما لمدة، {وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ}، إلى الأماكن التي فيها سكن ثابت، في المدن من حولنا، لِيَذْهَبْ بأمر منك، {حَاشِرِينَ}، أناس يحشرون، أَرْسِلْ مجموعات تحشر وَتَجْمَعُ "السحرة" بقرار من فرعون وهم لن يستطيعوا إلا الاستجابة لأمره.

ورد في الآية 36 من سورة الشعراء نفس التعبير مع استبدال كلمة أرسل بكلمة ابْعَثْ، وفي دراستنا هذه وفي رأي الغالبية من الباحثين المعاصرين والقدماء، هُنَاكَ معنى دقيق لكل الكلمات التي تبدو مترادفة، وَهُنَاكَ فرق ما بين بعث وأرسل، وما ألفت انتباهك له هنا ليس الفرق بين الكلمتين بل لِشَيْءٍ أهمّ، اللغة التي كان يتكلّم بها من تنقل الآيات هنا

كلامهم، لم تكن اللغة العربية، والآيات لا تنقل لنا الترجمة الحرفية لكلامهم، وهذا شيء منتشر في القرآن الذي ركّز على ما يقصده الناس في كلامهم ولم يركّز على نقل كلامهم بالحرف، فَشَخْصٌ قال لآخر: اضْرِبْهُ. الْمَعْنَى الحرفي للكلمة يتحمّل التطبيق للضرب بالصفعة على الخد، أَوْ باللطم على الوجه... وُصُولاً إلى ضربة تقتل أو ضربة تنكيل وتمثيل... ولو نقل لك القرآن هذا الكلام لنقله حَرْفِيّاً كما هو: قال اضربه. وإذا نقله بالمقصود منه: قال اقتله. وهذا شيء يفعله كل الناس أثناء نقلهم لأحاديث الآخرين، طَبْعاً مع الفرق بأننا لا نعلم ما في ضمائر الناس وسبحانه يعلم، فإذا استبدل القرآن كلمة اضربه باقتله، عَنْ علمه تعالى الدقيق بما يقصده القائل نقل الكلام.

بالنسبة للفرق بين بعث وأرسل، الْبَعْثُ إنهاض من همود، والإرسال إطلاق من كمون. مِنْ ناحية وجود أناس لفرعون في مختلف المدن وَأَسَاساً من ضمن عملهم تنفيذ أوامره فهو إرسالهم لحشر السحرة، ومن ناحية انتفاء أي اهتمام سابق بحشر السحرة فهو بعث للعمّال لحشر السحرة. تَرَى القرآن استعمل وصف البعث لإقامة الأموات في يوم القيامة من همود، ولا يصح استعمال الإرسال لأن الحياة لم تكن كامنة فيهم ليرسلهم، والله أعلم.

(يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ{112})
أولئك الْحَاشِرُونَ الذين يجمعون مُهِمَّتُهُمْ أن: {يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ}، يَجْلِبُوا إلى هنا كل ساحر من الدرجة الأولى الخبير بفنون السحر.

هُمْ أنكروا أن تكون العصا تحولت فِعْلاً لثعبان وأنكروا بياض الْيَدِ أنها آية، واعتبروا ذلك سِحْراً، فقرروا جمع السحرة من كل مكان ليفعلوا كما فعل النبي موسى(ع). وعندها لن يؤمنوا به كرسول من الإله وبالتالي ليسوا مضطرين لتنفيذ كلامه.

بالنسبة لمعنى كلمة سحر رَاجِعْ ما ذكرناه في الآية 109.

(وَجَاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالْواْ إِنَّ لَنَا لأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ{113})
انطلق الذين أرسلهم فرعون إلى مختلف المدن، وأمروا السحرة الماهرين بتحضير سحر لِعَصًا تتحول لِثُعْبَانٍ، وأن تصير اليد بَيْضَاءَ وبعدها ترجع عادية، وأخبروهم أن يتحضروا ليوم الزينة الذي اختاره النبي موسى(ع) كموعد للتحدّي... كما ورد في الآية 59 من سورة طه {قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى}. في اليوم المحدد للتحدي، وهو يوم عيد عند المصريين حينها: {جَاءَ السَّحَرَةُ}، حضروا من المدن المختلفة إلى فِرْعَوْنَ، وعلموا أن التحدي كبير ومهم بالنسبة لفرعون، وعلموا أنهم يتحدون رجلا يقول إنه مرسل من رب العالمين. {قَالُوا}، قال السحرة لفرعون: {إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا}، نحن نتوقّع أن تكون حدّدت سلفا قيمة عالية نستحقها، {إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ}، إن كانت الأرجحية لنا في قوّة السحر. لأنهم لم يروا العصا التي تحوّلت لِثُعْبَانٍ، وفي بالهم أنها سحر، ويمكن أن يكون فيها ضعف، فلا تتحرك كما تتحرك الحيّة أو لا ترفع رأسها أو لا تمدّ لسانها... وأنهم سيقومون بسحر قوي يجعل من يرى سحرهم يظن أنه فعلا يرى حيّة حقيقية، وبذلك يغلبون النبي موسى(ع) فيكون سحرهم أقوى. لاحظ الفقرات في مختلف السور والتي نقلت هذه الحادثة، حيث أرادت أن تظهر لك استغلال السحرة للموقف للضغط على فرعون لتلبية كل مطالبهم، حيث عَادَةً يأمرهم فرعون ولا يخالفون رغباته ولو بِالْمَجَّانِ وإلا فالقتل والتعذيب بانتظارهم، أمّا في هذه الحادثة فلاحظ استغلالهم للموقف وتماشي فرعون معهم:

(قَالَ نَعَمْ وَإَنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ{114})
{قَالَ} فِرْعَوْنُ: {نَعَمْ}، أؤكّد لكم بأنني سلفا حدّدت أجراً كقيمة عالية لكم تستحقونها إن غلبتموه، بل أكثر من ذلك، {وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}، ففوق الأجر ستكون لكم قيمة معنوية فتكونون من الذين يحضرون إلى مجلسي ويمكنهم التحدّث معي على انفراد... فرعون لاحظ بوضوح أنهم يستغلون الموقف، وإن لم يلبّ طلباتهم فلن يتحدّوا النبي موسى(ع) وسيتركونه بلا أي دفاع وَضَعِيفاً أمام الناس... فتماشى معهم بل ووعدهم بأن تتغيّر مكانتهم الاجتماعية فيصيروا كأصدقاء للفرعون.

(قَالُواْ يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ{115})
{قَالُوا}، قال السحرة: {يَا مُوسَى}، {إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ}، فترمي عصاك أولا، {وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ}، فماذا تختار هل ترمي عصاك قبلنا أم نحن نرميها قبلك؟ ورد في الآية 61 وما بعدها من سورة طه أن النبي موسى(ع) تكلّم مع

السحرة وحذّرهم من الافتراء عليه تعالى... وأنه حصلت بلبلة بينهم... وجاءت هذه الجملة من السحرة "هناك في تلك السورة" على معنى: بلا طول كلام ومواعظ، فلنبدأ التحدّي لأنك ساحر ونحن سحرة فَلْنَرَ ماذا لديك. وستعلم من عموم تناول القرآن للحادثة أن السحرة لم يكونوا كفرة، حتى جملتهم هذه هنا على معنى: فَلْنَرَ ما لديك، لأنهم مُعْتَمِدُونَ على كلام فرعون وأعوانه عن النبي موسى(ع) أنه ساحر يقوم بخدعة تحويل العصا لحيّة وليس رسولا إِلَهِيّاً... لاحظ أن السورة هنا وسورة طه والشعراء وغيرها من السور، تناولت جَوَانِبَ مختلفة من هذه القصّة، وبما أنه لكل سورة مِحْوَرٌ خاص بها تتحدّث عنه، لذلك ركّزت كل سورة على ما يتماشى من قصّة النبي موسى(ع) مع محورها، وهنا محورية السورة حول الولاية له تعالى ورفض فرعون وملئه لها رغم الآيات التي حصلت... مما يشير إلى وجود قرار عندنا يحدّد سلفا موقفنا من الإيمان والكفر وأن الآيات التي تحصل على يد الأنبياء ومهما كان نوعها فلن تجعلنا مؤمنين إن كان لدينا قرار بالكفر... وحتى شهادة السحرة المتخصصين بالسحر بصحّة الآية وأنها ليست سحرا، لم تَنْفَعْ مع من قرّر الكفر... فلنتابع:

(قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ{116})
{قَالَ} النبي موسى(ع): {أَلْقُوا}، ارْمُوا ما أَحْضَرْتُمُوهُ أنتم أولاً. {فَلَمَّا أَلْقَوْا}، عِنْدَمَا رمى السحرة حبالهم وعصيَّهم، {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ}، تَعَرَّضَ الناس لخدعة تجعلهم يرون الحبال والعصي أَفَاعِيَ، إذْ كانت خدعة بصرية. {وَاسْتَرْهَبُوهُمْ}، جَعَلُوا الناس تَشْعُرُ بالرهب، حيثُ يَشْعُرُ الناس بشيء يفوق قدرتهم على مواجهته. لا تَنْسَ أنَّ الناس يعلمون أَنَّهُمْ يحضرون عرضاً للسحر، وهم يعلمون سلفاً أَنَّ ما يرونه خدعة، لكنْ من شدّة قوّة الخدعة شَعَرُوا فعلاً أَنَّهُمْ يرون مجموعة من الْحَيَّاتِ، والغالبُ الأعم من الناس يخافون من الْحَيَّاتِ، مِمَّا صَيَّرَ عندهم رهبة من المشهد، وهو شعور بِضَعْفِ قدرتهم أمام ما يرونه من تحوّل العصي والحبال لِحَيَّاتٍ. {وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ}، إنَّ ما قام به السحرة هو سحر قوي. لاحظ في عموم القرآن أَنَّهُ أخبرنا فقط عن سحرهم لِلْحَيَّاتِ ولم يخبرنا عن سحرهم لتقليد ابيضاض اليد، الَّذِي على ما يبدو أَنَّهُ لم يحصل، أو حصل لكنَّهُ كان ضعيفاً أمام سحرهم لِلْحَيَّاتِ، أقول لك هذا لتنتبه أَنَّهُ تعالى اختار لرسوله آيتين عن حكمة، وهنا مَكْرُهُ تعالى في آية الْحَيَّةِ أن تكون حدثاً أمام جمع غفير جداً من الناس... وآية ابيضاض اليد لا تغفل عن أهميتها حتى لو لم يظهر لي في هذه الدراسة "ولم أجد في عموم إطلاعي" أي تحليل جدي لأهميتها لأنني لم أرها لأعرف نوعيتها. أُضِيفُ لك شيئاً لا أعرف إذا كان مهمّاً، حيثُ في التراث المصري القديم نجد أهمية للشمس بعبادتها مباشرة كونها هي بنفسها إله أو اعتبارها رمزاً للإله أو تقديراً لأهميتها... إذْ كانوا يبنون المسلات "عواميد صخرية طويلة جداً" ويضعون كرة معدنية عاكسة للضوء على رأسها كرمز للشمس، وهذا أقرب ما خطر ببالي عن ربط ابيضاض اليد بثقافة المصريين ليكون لها أهمية عندهم كآية، وهذا افتراض تحليلي للربط ولا يستند إلا على التحليل، ذَكَرْتُهُ ليكون مفتاحاً فكرياً تحليلياً لك ربما ظهر لأحد ما شيءٌ من تراث ذلك الزمان يوضّح أهمية آية ابيضاض اليدّ للمصريين.

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ{117})
بسبب تركيز السورة هنا على جانب محدّد من القصة يختلف عمّا ركّزت عليه الآيات في سورة طه، سَتَجِدُ هناك تفصيلاً عن خوف النبي موسى(ع) مما رآه من سحر قوي... {وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى}، وَضَعَ تعالى في وعي النبي موسى(ع): {أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ}، وكما يبدو لك تَرَدَّدَ النبي موسى(ع) برمي العصا لأنها لو تحولت لثعبان فلن يبرهن ذلك أي شيء، إذْ سَيَكُونُ مجرد ثعبان شبيه بثعابين السحرة... جاءه الوحي يخبره أنَّ الْحَيَّةَ الخاصة بك ستلتقط حبالهم وعصيهم... وهذا سيكون دليلاً على صدقك وكذبهم. {فَإِذَا هِيَ}، الْحَيَّةُ، {تَلْقَفُ}، تلتقط بسرعة، {مَا يَأْفِكُونَ}، الكذب الذي يعلمون أَنَّهُ ليس حقيقة، وهو الكذب الذي خدعوا به الناس، حيثُ تلك الحبال والعصي لم تتحول فعلاً لثعابين بل هي خدعة كاذبة اخترعها السحرة. بِتَصَوُّرِ مشهد ما حصل، سَتَرَى الفرق بين خدعة جعلتك ترى الحبل والعصا تحوّلت لِحَيَّةٍ، وبين عصا تحوّلت فعلاً لِحَيَّةٍ، لأنَّ قدرتهم على الخدعة محصورة بجعل الحبل أو العصا تتلوى وتتحرك، لكنَّ ثعبان النبي موسى(ع) سار باتجاه حبالهم وعصيهم التي ألقوها ليهاجمها وصار "يَلْقَفُ" فيلتقطها الواحدة تِلْوَ الأخرى، حيثُ يَبْدُو واضحاً للمشاهد الخدعة التي جعلته يراها ثعابين. مِنْ موروثنا الثقافي الديني ورثنا أنها بلعت تلك الحبال والعصي، وللأسف لم أَنْفَلِتْ منه في بداية دراستي للقرآن حيثُ كَانَ كخلفية حاكمة عليّ، علماً أَنَّ التَّلَقُّفَ وصف لعموم التقاط سريع لشيء ألقاه أحد ما، وليست مخصصة للبلع الذي أحياناً هو من تبعات المعنى، إذْ يمكن أن يحصل تلقف من دون بلع، ولا داعي لتصور حَيَّةِ النبي موسى(ع) تبلع حبالهم وعصيَّهم، بل يبدو أن المشهد سيكون أقوى لو تصوّرنا حَيَّةَ النبي موسى(ع) تهاجم وتتصرّف كما تتصرّف الْحَيَّةُ عندما تهجم على حَيَّةٍ أخرى، فَتَعَضُّهَا، وهذا هو الِالْتِقَاطُ، وحصل هذا بسرعة لما ألقاه السحرة، والكلمة العربية لوصف ذلك هي التَّلَقُّفُ. ظَهَرَ بوضوح أَنَّ حَيَّةَ النبي موسى(ع) حقيقية وتتصرّف على طبيعتها الحقيقية كَحَيَّةٍ تهاجم الْحَيَّاتِ، بينما حَيَّاتُ السحرة مجرد حبال وعصي تتلوّى بميكانيكية آلية من تمدّد أو تقلّص للمواد من حرارة الشمس أو من تفاعلها الكيميائي... أو بسبب آخر، بلا أي حركة إرادية لأنها لم تصر حيواناً، حيثُ حين الْتَقَطَتْهَا حَيَّةُ النبي موسى(ع) أكملت تحركها الآلي أو خربت وتَبَيَّنَ بوضوح أنها لم تصر

حيواناً، رَمَتْهَا حَيَّةُ النبي موسى(ع) واتجهت باتجاه الأخرى وهكذا الْحَيَّةُ الآية سعت بحركة الحيوان الإرادية ليرى الجميع الفرق بين عصا صارت حيواناً حقيقياً وبين الخدعة.

(فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{118})
{فَوَقَعَ الْحَقُّ}، صار الْحَقُّ الصواب والصدق واقعا مسيطرا، {وَبَطَلَ}، وَتَعَطَّلَ ولم يعد يخدع أحدا، {مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، الوهم الذي قام به السحرة تبيّن أنه باطل وَأَنَّهُ مجرد خدعة وانتهت حين تبيّن أن عصا النبي موسى(ع) فعلا تحوّلت لحيوان حقيقي يلقف حبال وعصي السحرة...

(فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ{119})
{فَغُلِبُوا هُنَالِكَ}، حَيْثُ صَارَتْ قوة البرهان مع النبي موسى(ع) على كونه فعلا يحمل آية من مستوى إلهي، {وَانْقَلَبُوا}، انقلبت حالهم التي كانت على شيء وصارت شيئا آخر، {صَاغِرِينَ}، حَيْثُ أَخَذُوا حجمهم الصغير الطبيعي بدل الحجم الكبير. إلى هنا صار واضحا جدا أن النبي موسى(ع) معه آية ربانية وليس ساحرا، وَمِنَ المفروض أن يقتنع فرعون وقومه وخاصة بعد تأكيد المتخصصين "السحرة" أنها ليست خدعة...

(وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ{120})
{وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ}، حَيْثُ رَمَوْا أنفسهم على الأرض متأثرين مما حصل، {سَاجِدِينَ}، حَيْثُ قَرَّبُوا وجههم من الأرض أو وضعوا جبهتهم على الأرض لله سبحانه، لِأَنَّهُمْ أرباب السحر ويعرفون أن ما حصل ليس سحرا بل حقيقة، وأن الله تعالى وحده قادر على فعل هذا. وكما ترى أَنَّهُمْ أهل خبرة وشهادتهم على آية النبي موسى(ع) من المفروض أن تجعل فرعون وَمَلَأَهُ يُؤْمِنُونَ...

(قَالُواْ آمَنَّا بِربِّ الْعَالَمِينَ{121})
{قَالُوا}، قال السحرة: {آمَنَّا}، اعتقدنا، {بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}، بالمسؤول من مستوى إلهي عن كلّ الناس. يمكنك مراجعة ما ورد في سورة طه لتقرأ ما قاله لهم النبي موسى(ع) قبل حصول التحدّي، حيث نبّههم من خطورة عواقب ما يفعلونه لأنه رسول من الإله سبحانه... وهنا ترى أنهم كفروا بأي آلهة كانوا يعتقدون بها وأعلنوا اعتقادهم بالإله الأحد الذي أخبرهم عنه النبي موسى(ع) ومن قبل هم يعلمون أن بني إسرائيل يعتقدون فقط بإله أحد لكل الناس... وقبل ذلك كانوا يسمعون نفس الكلام مما وصلهم من تاريخ النبي يوسف(ع)... وربما بعض السحرة أو كلّهم كانوا أصلا من بني إسرائيل أو من الموحدين...

(رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ{122})
...آمَنَّا بِرَبِّ العالمين، {رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}، بالتحديد آمنّا بالذي يقول عنه هذان الشخصان أنه المسؤول عنهما من مستوى إلهي. ننتبه دائما للفرق بين الإله الأحد الواحد الحقيقي كَرَبٍّ لكل الناس، وبين الآلهة التي يخترعها الناس، وانطلاقا من قناعة عندنا بإله خالق للجميع، يقوم البعض باختراع صفات وقدرات للإله، وآخرون يخترعون إِلَهاً أو آلهة... وهكذا حتى لا يَعُودَ الإله واحدا أحدا للجميع لِيَصِيرَ لكل جماعة إلههم الخاص... وهذا موضوع أشار إليه القرآن بشكل صريح حين تكلّم عن المشركين، وكان أصرح وأوضح وأعمق حين تكلّم عن اليهود وَالْمَسِيحِيِّينَ، ولا أقصد اختراعهم للأرباب غيره تعالى، بل أقصد حصرهم للإله بهم ورفضهم انضمام الآخرين إلى التوحيد إلا إذا مشوا على دينهم هم وليس على دينه تعالى، هذا العمق تنتبه له حين يشير القرآن إلى عقائد وسلوكيات منحرفة عن دينه تعالى قام بها من سبقنا من أهل الكتاب، الذين تفرّقوا أَدْيَاناً وَمَذَاهِبَ وَطَوَائِفَ... كل جماعة منهم تدّعي أنها الدين، وهكذا بدل أن يكون الإله وَاحِداً للجميع صار الإله وَاحِداً عند كل جماعة، والدين الإلهي لكل واحد منهم متعارض عقائديا وتشريعيا مع الآخرين... أطلت عليك بذلك لترى أن إعلان السحرة الإيمان بِرَبِّ العالمين، {رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}، له هذا العمق، فهو إعلان الإيمان بِرَبٍّ واحد ودين واحد للجميع.

(قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ{123})
هذا الانتصار العظيم للنبي موسى(ع) أمام جمع غفير جدا من الناس لم يتحمّله فرعون كخسارة له، فركب رأسه، وَتَشَبَّثَ بعناده! وقال للسحرة: {آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ}، حَيْثُ أَعْلَنْتُمْ اعتقادكم به كرسول وأعلنتم إيمانكم بربّه قبل أن أسمح لكم؟ لِأَنَّ فرعون ليس معتادا على أن يأخذ أحد ما قرارا في وجوده، وَهُمْ على الأقصى يقدمون اقتراحات، وفرعون يأخذ القرارات، فما معنى انفلات السحرة من سلطته؟ إِذْ إِنَّ فرعون ديكتاتور بكل ما تحمله هذه الْكَلِمَةُ من مَعْنًى، وَلَا يسمح لأحد باتخاذ أي قرار وكلمته هو فقط التي يجب أن تتنفّذ، وخاصة أنهم سحرة وليسوا من الملأ. {إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ}، إِذْ من الواضح من إعلانكم لإيمانكم به أن هذا شيء خططتم له كتمثيلية تمثلونها أمامي

وأمام الناس ليبدو منها أن موسى غَلَبَكُمْ، وَاتَّفَقْتُمْ معه على ذلك أو تماشيتم مع ما يريده قبل أن تأتوا إلى هنا حين اجتمعتم في المدينة... وهذا ما تفهمه من اتهامه الباطل للنبي موسى(ع) أنه كبيرهم الذي علّمهم السحر كما ورد في الْآيَةِ 71 من سورة طه والآية 49 من سورة الشعراء. والخطّة من هذه التمثيلية ، {لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا}، حتى تقوموا بانقلاب عسكري عليّ ويكون الحكم لموسى ولبني إسرائيل علينا نحن المصريين وَتَسْتَفِيدُوا أنتم من ذلك بشيء وعدكم به موسى... {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}، وهذا تهديد معناه: سَتَعْلَمُونَ كيف يكون تصرّفي مع حالة كهذه، وهو التالي:

(لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ{124})
{لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ}، بِأَنْ أقطع اليد اليمين بكاملها من الكتف، وأيضا أقطع من الجهة المخالفة لِأَقْطَعَ الرجل اليسرى بكاملها من الورك. أو أقطع اليد الشمال وبخلافها من الجهة الثانية أقطع الرجل اليمين. فمن خلاف أي جهة مخالفة للجهة الثانية. {ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ}، سَوْفَ أربطكم كلّكم على العمدان الخشبية معلّقين، لِتَتَعَذَّبُوا حتى تموتوا على مهل وَيُشَاهِدَكُمُ الناس.

(قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ{125})
{قَالُوا}، قال السحرة: {إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ}، بعد قتلك لنا من هذه الحياة الدنيا سننقلب لِتَنْتَقِلَ حالتنا لمكان أو حالة أخرى، وَنَنْقَلِبَ في النهاية إلى المسؤول عنّا من مستوى إلهي. فلا يهمّنا ما ستفعله بنا، وَلَنْ نتراجع عن إيماننا، وكل ما سمعناه سابقا عن الإله الأحد وعن عودة الناس إلى الحياة، والجنّة والنار... فنحن نعتقد به، ونعتقد بأننا سننقلب إلى هناك بعد أن تقتلنا، وهذا الكلام ضمنيا يقصدون به أنهم سينالون الجنّة كثواب على إيمانهم.

(وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ{126})
تكملة كلام السحرة: {وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا}، أَنْتَ لا تشعر بضرورة الردّ السلبي على إيماننا الذي أزعجك، وَتَنْوِي الضرر لنا، {إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا}، فقط وفقط لأننا صرنا في حالة اعتقاد بالأمور المميزة من مستوى إلهي المنسوبة للمسؤول عنّا من مستوى إلهي، {لَمَّا جَاءَتْنَا}، عِنْدَمَا جاءنا ما يثبت أنه تعالى أحد وموسى رسوله فَقَطْ لهذا السبب أعلنت أنك ستنتقم منّا. لِذَا غَيْرُ صحيح أن ما حصل كان مكرا اتفقنا عليه مع النبي موسى(ع)، بل انتقامك منّا سببه إيماننا بآية إلهية حقيقية أنت أنكرتها تَشَبُّثاً وتكبرا وعنادا... وتوجهوا بالدعاء وقالوا: {رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا}، حَيْثُ إِنَّ وعاء الصبر الذي فينا املأه بشيء يجعلنا لا نتصرف بشكل سيّء أو غير مدروس بسبب الأزمة التي نحن فيها الآن، لِأَنَّهُمْ تحت تهديد التعذيب بقطع الأعضاء والصلب، ويطلبون منه تعالى أن يجعلهم يَصْبِرُونَ على التعذيب والقتل ولا يَتَرَاجَعُونَ. {رَبَّنَا}، {وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ}، خُذْ حياتنا بالتمام من هذه الدنيا ونحن مستسلمون منقادون فقط لك. لا تتصور الموقف أنه حصل كله في دقائق، لِأَنَّ الآيات تنقل لنا مختصرا عن وقت طويل من الجدال في أوقات مختلفة بين السحرة الذين آمنوا وبين فرعون وأعوانه. ننتبه لشيء مهم، حَيْثُ تبين أن آية الثعبان ليست سحرا، وأنها فوق قدرة البشر، لأن السحرة آمنوا بها رغم تهديدهم بالتعذيب والقتل، لِذَا يجب أن ننتبه أنها كانت واضحة لفرعون وقومه ولكنهم عاندوها! وبخلاف ما هو شائع من إيمان ضعيف يعلنه بعض الناس مع شرط ضمني: أنا آمنت بهذا الدين، فإن كان هذا الدين صحيحا وإيماني له قيمة، فيجب أن يتدخّل الإله وينقذني من الورطة التي أنا فيها، أو يجب أن لا أتعرض لأي ورطة لأني مؤمن... هنا في كلام السحرة ترى إيمانا حقيقيا لم يتضمّن شرط حصول التدخّل الإلهي، حَيْثُ تراهم غير مهتمّين بما سيحصل معهم هنا في الدنيا لأن إيمانهم بالآخرة صار من درجة شبيهة باليقين بجنّتها الخالدة، فما قيمة عذاب أيام أمام جنّة خالدة؟

(وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِـي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ{127})
{وَقَالَ الْمَلَأُ}، قال الجماعة من الناس الذين لهم سلطة معنوية، كالأمراء أو الوزراء أو المستشارين... وصولا إلى الوجهاء، {مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ}، من الناس الذين لهم كيان الجماعة وفرعون منتسب لِجَمَاعَتِهِمْ، بعد أن شاهدوا غلبة النبي موسى(ع) للسحرة، قالوا: {أَتَذَرُ}، هل تترك ولا تهتمّ بأمر، {مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ}؟! لِأَنَّهُمْ بعد انتصار موسى قائد بني إسرائيل على السحرة واستسلام السحرة له... سَوْفَ ينشرون دينهم وسوف تفسد مصر لأنها ستخرج عن سيطرتنا، وربما يَقُومُونَ بانقلاب علينا... وها أعلنت عن عقابك للسحرة ولم تفعل أي شيء لموسى وقومه؟! {وَيَذَرَكَ}، ويتركك ولا يهتمّ "موسى" بك فلا يعتبرك حاكما أعلى عليه، {وَآلِهَتَكَ}، يذرها أيضا فلا يعترف بها كآلهة، ويعبد إلهه الخاص به؟! هذا الكلام مبني على ثقافتهم الدينية التي تعتبر آلهتهم خاصّة بهم وَلِلْأَقْوَامِ الآخرين آلهة خاصّة

بِهِمْ، وبما أنهم المسيطرون عسكريا فهم يفرضون على الآخرين تبجيل آلهة المصريين، وهنا الكلام عن تَدَمُّرِ سلطتهم وَتَدَمُّرِ ديانتهم.
نَضَعُ في بالنا أن غالبية قوم فرعون كان هذا رأيهم ولكن ليس كلهم، إِذْ كان بينهم مؤمن يكتم إيمانه، وَحَيْثُ نقلت لنا آيات أخرى أنه تدخل وقال كلام حق، رَاجِعْهَا إن أردت من الآية 28 من سورة غافر وما بعدها. وهناك زوجة فرعون المؤمنة التي تحدّثت عنها الآية 11 من سورة التحريم.
{قَالَ} فرعون: {سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ}، سننهي حياة الذكور حتى لا يتكوّن لديهم جيل من الشباب المقاتلين، وتعلم من عموم القرآن والتاريخ أن فرعون كان مدّة بعد مدّة يقتل المواليد الذكور الجدد ليبقى عدد بَنِي إسرائيل تحت سيطرة عدد رجال فرعون الموكّلين بإدارة وحفظ الأمن، {وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ}، بِتَرْكِ المواليد الجدد من الإناث أحياء لِأَنَّهُنَّ لا يُشَكِّلْنَ خطرا عسكريا ونستفيد مِنْهُنَّ في العمالة بالزراعة وغيرها من الأشغال...
{وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ}، لَدَيْنَا قدرة قوية تقهر قوتهم، وَمَا نقرره فيهم يحصل حتى لو عارضوه فقدرتنا فوق قدرتهم وَسَتَتَحَقَّقُ، إِذْ نَحْنُ لدينا الجيش القوي القادر على قتلهم جميعا. فِي السابق عندما كنا نشعر بالخطر من ازدياد عدد الذكور من بني إسرائيل كنا نقتلهم حين ولادتهم، ونترك الإناث لأنهن لا يشكلن أي خطر عسكري، وسنفعل ذلك الآن حتى ننتهي من خطرهم، فلن يستطيع موسى إفساد حكومتنا وحكمنا ولن يستطيع أن يفرض على الآخرين عبادة آلهته لأنه لن يجد عددا كافيا من المقاتلين، وهكذا نبقى مُسْتَفِيدِينَ من عمالة ومهارات بني إسرائيل.

(قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ{128})
علم بنو إسرائيل بقرار فرعون، وبدأ تنفيذ قتل الأطفال الذكور... قال موسى لقومه، للجماعة التي ينتمي لها، لبني إسرائيل: {اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ}، اطلبوا المساعدة منه تعالى ليخلّصكم من فرعون، {وَاصْبِرُوا}، وابقوا على تصرفكم بشكل واعٍ ومدروس ولا تفلت أعصابكم، ولا ترتكبوا السوء أو تتركوا دينكم أو تتململوا وتيأسوا، لأنَّ هذه الظروف الصعبة لن تستمر.

{إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ}، وليست لفرعون، حيث إنَّ الأرض في الظاهر هي الآن ملك لفرعون وقومه، ولكنها في الحقيقة له تعالى، {يُورِثُهَا}، ينقل ملكيتها لـ، {مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}، لأنَّ كل الناس عبيده تعالى فمفروض منهم طاعته، وأمامه سبحانه خيارات عديدة ليقرر منها بحكمة ما يريده، ويمكنه تعالى جعل أياً كان يملك ويحكم في الأرض، {وَالْعَاقِبَةُ}، وما يعقب وما يأتي بعد هذا، وما يحصل بعدها، {لِلْمُتَّقِينَ}، الذين يتحاشون ويتجنبون، وهنا الكلام عن الذين يتجنّبون غضبه تعالى عبر تجنّب فعل السوء، حيث إنَّ حالة سلطة فرعون سيعقبها شيء وستتغيّر وإن كان هناك متقون فالعاقبة ستكون لصالحهم، وسيتدخل سبحانه ليحصل شيء ضد فرعون وسلطته في مصلحة المتقين، سواء في الدنيا أو في الآخرة، فكونوا متقين.

حتى لو ملك فرعون الأرض حاليا فهذا لا يعني أي شيء، ولا يعني أن فرعون مَرْضِيٌّ عنه من الإله سبحانه، ولا يعني أن آلهته ملّكته... ولا يعني أنه دائما كان ملكا، إذْ قبله ملوك من أمم أخرى وبعده سيأتي ملوك من أمم أخرى... لأنَّ الله تعالى وحده المالك لكل شيء، وإن كنتم متقين فسيتدخّل سبحانه ليعقب سلطة فرعون بسلطة لكم... وعلى أي حال فإنَّ ما يعقب هذه الملكية للأرض في الحياة هو الانتقال للآخرة، وهناك المتقون وحدهم فقط لهم عاقبة حسنة ومن كان يملك الأرض في الدنيا فلا قيمة لملكه.

بعبارة أبسط، حين تحصل الأزمات فقط من لديه بعد نظر يرى للمدى الأبعد، وقصيرو النظر لا يصبرون ويريدون أي حلّ سريع ومهما كان، وبناء عليه يخبرهم النبي موسى(ع) أن ملك فرعون لم يكن سابقا ولن يبقى للأبد، وإجرامه بنا وهذه هي الحالة الآن وعلينا الصبر لتجاوزها، ولا استسلام ولا تراجع، وفي النهاية سيتحقّق ما يريده تعالى، وأصلا لو قتلنا فرعون وجيشه ولم نكن متّقين فما الفرق بيننا وبينه؟ بينما لو اتقينا فسبحانه سيتدخّل...

ضع في بالك أن هذا الكلام ضمنيا فيه وعده تعالى لبني إسرائيل بخروجهم من مصر وتمليكهم أرضا خاصة بهم يحكمونها بأنفسهم... و**{يُورِثُهَا}** تعالى لمن يشاء و**{وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}**، جملتان تحددان أن الملك للأرض وَحْدَهُ ليس علامة على رضاه تعالى عن المالك، وتفهمها أكثر بمقارنتها مع تفكير متدينٍ يرى نقصا وعيبا في العقيدة الدينية لأنه يفترض نيله للرعاية الإلهية لتيسير أموره المالية والاجتماعية... ويستغرب ولا يفهم راحة الكافرين وانبساط سلطتهم، ويراها متعارضة مع مفهومه الديني...

سترى مما سيأتي من آيات أن مشيئته تعالى بحكمته أن يرث المؤمنون الأرض ويكونوا مرتاحين عليها، لأنَّ هذا قراره تعالى، ولكن تنفيذه متوقّف على وجود متقين حقيقيين... وفيما سيأتي من آيات سترى أن بني إسرائيل ورغم العناية الإلهية بهم هم بغالبيتهم لم يكونوا متقين ولا مستحقين للعناية الإلهية. واعتراضهم على مشيئته تعالى بِتَرْكِ فرعون حاكما عليهم بالظلم، واستغرابهم أنه تعالى لم يتدخل بقدرته الفائقة لينهي حكم فرعون فَوْراً، ويخلص أولادهم من القتل... على أساس أنهم هم المؤمنون الحقيقيون الذين يجب أن يرثوا الأرض... سترى أنه كلام فارغ وأنهم بغالبيتهم ليسوا مؤمنين حقيقيين، وسيعبدون العجل... وأساسا سبحانه لم يقرّر تملّك بني إسرائيل لمصر...

الكلام يجرّ الكلام، مِنْ بداية السورة وإلى هنا كنت تقرأ كلامها مع مشركين منكرين لولايته تعالى وللآيات ولحسن ما يقوله تعالى لنا... ووصلت إلى الكلام عن فرعون وملئه، وها ترى دخول السورة على منتمين لدينه تعالى، وستعرضهم عليك كنموذج لمنتمين لدينه تعالى وعندهم عقائد وسلوكيات لا تختلف عن المشركين، حيث سبحانه لم يقصد إهانة بني إسرائيل، ولا الكلام عنهم لمجرد عرض للتاريخ، ولم يُحَابِ ويستر على المنتمين لدينه، بل ليرى الجميع سوء ما فعلوه حتى يتعلموا مما جرى وينتبهوا لدينه تعالى الأصيل ولا يحيدوا عنه...

في الآية التالية سَتُوَسِّعُ قليلا في مسألة السوء الذي يتعرض له بنو إسرائيل من فرعون، وسنرى معنى سماحه تعالى بحصول ذلك ولماذا لم يتدخّل بقوته الفائقة لينصرهم... وخلاصة ذلك أن القلة القليلة منهم كانوا متقين والغالبية كانوا فقط بالاسم منتمين لدينه تعالى بلا فرق بينهم وبين فرعون وملئه، فلماذا سينصرهم سبحانه؟ وهذا ما تختصره لك آخر جملة في آيتنا هنا، {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}، وهذا ما ستراه من بعدما جعلهم تعالى نموذجا تاريخيا لعنايته بالمنتمين لدينه وأن هذه العناية لن تحسّن إيمانهم...

(قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ{129})
{قَالُوا}، قال بنو إسرائيل: {أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا}، حيث تعرّضنا لأمور سيئة من قبل أن تحضر وتكون بيننا، إذْ كان فرعون يعاملنا كمواطنين من الدرجة الثانية ويقتل مواليدنا الذكور مدة بعد مدة، ويأمرنا بعبادته وعبادة آلهته، ويجعلنا نعمل فوق طاقتنا، ونتعرض للإهانات... {وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا}، فإنَّ الوضع لم يتغيّر، فها هو يهددنا بالقتل والتعذيب! إذْ لم يتغيّر حالنا السيِّئ بعدما أتيتنا فما الفائدة من مجيئك؟ وما معنى كونك مُعَيَّناً منه تعالى كرسول لإخراجنا من هذه الأذية التي نحن فيها وها هي نفسها ما زالت مستمرة! وما معنى أمرك لنا بالصبر للنجاة من هذا الأذى المستمر؟ وما معنى وعدك لنا بالجنّة في الآخرة...

{قَالَ}، النبي(ع)، {عَسَى رَبُّكُمْ}، فمن المحتمل المرجّح غير الأكيد أن يقوم المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {أَنْ يُهْلِكَ}، أن يَسْتَنْفِدَ حياة، {عَدُوَّكُمْ}، فينهي حياة الذي يريد لكم الشرّ، {وَيَسْتَخْلِفَكُمْ}، ويجعلكم تعيشون في الأرض بعدما لا يَعُودُ لعدوكم سلطة عليكم لأنه هلك ومَات، {فَيَنْظُرَ}، فيوجّه سبحانه اهتمامه العام ناحيتكم، {كَيْفَ تَعْمَلُونَ}، فما هي الأعمال التي ستقومون بها بعد أن تصيروا أنتم حاكمين بعدما يستخلفكم سبحانه في الأرض.

بعبارة أخرى، أنتم الآن تقولون كلاما نظريا عن إيمانكم وأنكم أفضل من فرعون المشرك الظالم، وهذا الكلام لم تثبت صحّته فعليا حتى تطلبوا منه تعالى أن يهلك فرعون وجنوده ويجعلكم حكّاما على أنفسكم، فمن المحتمل المرجّح وليس الأكيد، أن يتدخل سبحانه لإهلاك فرعون ويجعلكم أنتم حكّاما لأنفسكم بلا سلطة بشرية فوقكم، وهذه الـ"عسى" ليست من جهته تعالى، لأنَّ قراراته سبحانه محسومة للتدخّل لصالح المؤمنين ولكن هل أنتم فعلا مؤمنون حتى يتدخّل سبحانه لصالحكم؟! هذا هو السؤال، وَهل إن حصل وهلك فرعون وحكمتم أنتم فَسَتَكُونُونَ فعلا مؤمنين متّقين مختلفين عنه!؟ فسبحانه يراقبكم لينظر كيف تعملون...

سَنُلاحِظُ في الآيات الآتية أن الكثير من بني إسرائيل بعدما هلك فرعون ونجوا منه، أنهم كرّروا ما كان يفعله فرعون! حيث أشركوا بعبادتهم للعجل وفرضوا شركهم على الآخَرِينَ من بني إسرائيل وهدّدوهم بالقتل! وهذا ما تفهمه من الكلام المنقول عن لسان النبي هارون(ع) في الآية 150 من هذه السورة، وهنا الآية تنقل لنا كلاما مسبقا ينبّههم لمعنى التدخّل الإلهي لمصلحة المؤمنين الحقيقيين، أمّا المزيَّفُونَ فما معنى عنايته تعالى بهم؟

سَنَرَى في الآيات التالية أنه سبحانه بدأ بالتدخل، ولكن قبل أن نكمل لِنَتَوَقَّفْ هنا ولنحلّل ما مرّ وما نعلم أنه سيأتي، لأن ما مرّ به بنو إسرائيل مرّ به الكثير من المنتسبين لدينه تعالى عبر التاريخ، وما زلنا إلى الآن يعيش الكثيرون منّا تحت حكم الظالمين، ونشتكي إلى الله تعالى لينجينا... وها أمامك في عصر تدوين هذه الدراسة، منتسبون للتدين كانوا تحت حكم طغاة، وهلك الطغاة واستلم المدّعون للتدين الحكم، وكرّروا نفس طغيان الطغاة بل وفعلوا باسم الدين أَسْوَأَ ممن سبقهم! من قتل وسجن ونفي... للأبرياء لمجرد أنهم يخالفونهم في الرأي! وينهبون الأموال العامّة للناس "أموال الدولة"، ويوظفون أقاربهم والمنتمين لأحزابهم ومن يمشي على خطاهم... فها هم أمامك نماذج حيّة لما تقوله الآيات هنا، فافهمها لتطبقها على حالك ولترى أن السورة لا تعرض قصصا تاريخية لتسلّيك دينيا، فما الفرق بين مضيعة الوقت على مشاهدة مُبَارَاةِ كرة قدم أو مسلسل أو فيلم وبين قراءة القرآن؟ لأنه إن لم نفهم تطبيق القرآن على حالنا فقراءته تصير تسلية دينية، وإن لم نفهم هنا أن الفرص تأتي للمؤمنين ليحكموا ولكن هل فعلا هم مؤمنون يحكمون بما أنزل الله تعالى؟ لذا قبل أن تسأل عن تدخّله تعالى لتحكم بدل الفاسدين، هل أنت أصلا مؤمن حقيقي مختلف عن الفاسدين؟

بَقِيَ شيء آخر وهو معاناة القائد الصالح من عوام مجتمعه، وهذا تراه جليا فيما نقله القرآن من قصص بني إسرائيل وقصص الجيل الأول من المسلمين، إذْ كلاهما كان لديهما قائد حكيم رزين ذُو بصيرة... والقوم لا يرون أبعد من أُنُوفِهِمْ ويريدون كل ما يحلمون به أن يحصل بسحر ساحر وَفَوْراً وبلا مجهود... ولديهم تعليقات على كل شيء ويتأففون من كل شيء، ويلومون القائد على كل سوء... حتى إِنَّهُمْ ينسون ما كانوا فيه من سوء الحال ويلومون القائد على سوء الحال المستجدّ... كالذين يقعون تحت الاحتلال ويلومون المقاومة لأنها بعملياتها العسكرية تستفز العدو ليقصف المدنيين، وكأن مقاومة الاحتلال هي المصيبة! ونفس هذا الكلام تقرأه هنا في الآية من نفس عقلية المتجاهلين عن قصد ما يعلمونه من حقّ ليلوموا قائدهم لأنه الحلقة الأضعف...

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ{130})
بدأ التدخل الإلهي... {وَلَقَدْ أَخَذْنَا}، وَلم نترك، {آلَ فِرْعَوْنَ}، أقرباء النسب لفرعون، "كَإِخْوَتِهِ وعمومته وأخواله... وأولادهم..."، أخذهم تعالى، {بِالسِّنِينَ}، أي بالأرض التي أكلوا خيراتها ولكنها لم تُعْطِ نتاجا جيدا من بعد ذلك سواء لهم أو لمواشيهم، إذْ يزرع عمالهم البذور ولكن غالبيتها لا تَنْمُو، وأخذهم تعالى بـ {نَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ}، حيث حصل نقص في نتاج الأشجار والنبات كالنخيل والقمح والأرز وغيره... وَصار إنتاجه أقل بكثير من السابق، {لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ}، إذْ من المتوقع ومن المفروض منهم أن يستحضروا في فكرهم أن ما يحصل معهم هو منه تعالى وسببه منعهم بني إسرائيل من مغادرة مصر.

سترى من الآية التالية أنهم لم يَذَّكَّرُوا بل كان لهم تحليل آخر لما يحصل!

لاحظ أن أهل مصر كثيرون ومنتشرون على أراضيها، والأذى لبني إسرائيل كان من فرعون وحاشيته، ولا علاقة لبقية أهل مصر، وَكما ترى من الآيات، فإنه لا يوجد قرار إلهي بتعذيب كلّ أهل مصر، بل المشكلة مع الحاكم وأقاربه وحاشيته، ولذلك حَصَلَتِ السِّنُونَ ونقص الثمرات كضغط على فرعون حتى يترك بني إسرائيل... فلا تفترض أنه كان عامّا لكل أهل مصر، ولذلك ترى تعبير الآية هنا بـ {آلَ فِرْعَوْنَ} بالعائلة الحاكمة حيث أصابها في أملاكها السِّنُونَ ونقص الثمرات.

انتبه جيدا للآيات، فهي تتحدث عن مواسم زراعية، إذْ مرّت السنوات بين طلب النبي موسى(ع) من فرعون ترك بني إسرائيل يرحلون وبين وقت رحيلهم، وأثناء تلك السنين حصلت أمور كثيرة.

(فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{131})
{فَإِذَا جَاءَتْهُمُ}، لفرعون وآله، {الْحَسَنَةُ}، حيث حصل معهم شيء حسن جيد، كأن يحصدوا الأرز بغلّة وافرة أو القمح بنتاج جيد من بقعة أرض ما... {قَالُوا} {لَنَا هَذِهِ}، أي بسبب ذكائنا وفطنتنا نجح موسم الحصاد.

{وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ}، فَيَحْصُدُوا الزرع ويكون نتاجه سَيِّئاً وَقَلِيلاً فإنهم {يَطَّيَّرُوا} {بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ}، من المؤمنين، ورغم الانفصال الواضح بين ما حصل من سوء وبين المؤمنين فهم يجعلونهم سببا لحصوله.

{أَلَا إِنَّمَا}، فبالتأكيد وفقط، {طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ}، فهو سبحانه الذي يسبّب لهم هذه السيئات، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}، إِذْ كِلْتَا الحالتين الحسنة والسيئة فقرار حصولها عنده تعالى، وهذه المعلومة يعتبرها أكثرية آل فرعون غير صحيحة، فهم سمعوا بها ولكنها لم تصر كمعلومة صحيحة بالنسبة لهم، فالخير يعتقدون أنه من آلهتهم أو من ذكائهم، والسوء من المؤمنين بموسى(ع).

الآية هنا تنقل لنا ما من الصعب نقله عادة، لأنَّ الكلام العشوائي الذي تقوله عامّة الناس لا عن دراسة ولا عن تفكير ويرمونه هكذا وينتشر بينهم ويرددونه... فمن الصعب جدا نقله بالقصص عنهم، وبدل أن يَذَّكَّرَ فرعون وآله أنه تعالى يعاقبهم ليتغيّر موقفهم ويتركوا بني إسرائيل... كان تحليلهم لما يحصل معهم من سوء أن النبي موسى(ع) وَالْمُؤْمِنِينَ معه نحسوهم! "بمعنى كلمة نحس الدارجة بيننا"، فهكذا بدون رابطة سببية معلومة يقوم النبي موسى(ع) ومن معه بالتأثير على الإنتاج الزراعي لمزارع وبساتين فرعون وآله! فَيَنْحَسُ "بالمعنى الدارج لكلمة نحس" مزروعاتهم ومواشيهم! وكما ترى فهذا تفكير سخيف جدا، يؤمن به فعلا غالبية الناس، وَنقله لك القرآن لترى تعاميهم عن السبب الحقيقي وتبريرهم لما يحصل معهم أنه من النحس! من شيء لا معنى له ولا حقيقة له!

بَعْضُ الناس يرون شخصا لا يحبونه، وأثناءها أو بعدها يحصل معهم شيء سَيِّئٌ، فيربطون ما حصل من سوء معهم مع رؤيتهم لذاك الشخص، وهذا هو التطبيق العملي لمعنى كلمة طيرة، وحاليا نقول عنها "نحس"، وكلام القرآن عنها لا يعني أنه يؤيدها ويثبت صحّتها، لا، بل ينقل لنا ما يقوله جماعة فرعون من اتهامهم للمؤمنين أنهم نحسوا محاصيلهم، وتكمل الآية لتصحّح كلامهم وتخبرهم أن الطيرة الحقيقية التي يبحثون عنها هي عنده تعالى، فسبحانه من سبّب لهم السوء.

كَمَا ترى فإنَّ سبحانه سبّب لهم السوء كآية لتجعلهم يلتفتون إلى ما ينقله لهم الرسول موسى(ع)... ولكن لم ينفع معهم ذلك! وبدل اعترافهم أن السوء منه تعالى حتى يردعهم، فهم استبدلوه باتهام المؤمنين بالطيرة "بالنحس"...

الطِّيَرَةُ هي ربط حصول شيء سَيِّئٍ بشيء آخر أصلا لا علاقة مباشرة بينهما، فهذا هو معنى الكلمة بغض النظر عن قناعتك بها، وَعندما قال الكافرون أنهم يتطيرون من إنذار المؤمنين لهم، قصدوا أنه أصلا لن يحصل عقاب إلهي لمن كفر، لأنَّ كلام المؤمنين عن الإنذار غير حقيقي، ولكن مجرد كلام المؤمنين عن شيء سَيِّئٍ قادم، فهذا الكلام لوحده سيسبّب حصول شيء سَيِّئٍ، مثلما أتوقّع أن تقع عن الدراجة، وأكرر قولي هذا... وعندما تقع ستقول بأنك وقعت بسبب قولي لك أنك ستقع، علما أنه لا ربط حقيقي بين كلامي ووقوعك.

(وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ{132})
{قَالُوا}، قال فرعون وآله للنبي موسى(ع): {مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ}، أيْ أي شيء مميّز بمستواه تأتي به، {لِتَسْحَرَنَا بِهَا}، لتجعلنا ننخدع ونتوّهم الخيال أنه حقيقة، {فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}، وَكما نقول بالعامية: انْسَ، فموضوع العصا التي تحوّلت لِحَيَّةٍ ومسرحية اتفاقك مع السحرة أن تغلبهم أمام الناس... وقولك إنَّ نقص الثمرات عمل من إلهك... فَأَيُّ آية وَأي عمل مميز تقوم به لَنْ نقتنع به ليكون دليلا على صدقك بأنك رسول من الإله.

صارت السِّنُونَ ونقص الثمرات، وأخبرهم النبي موسى (ع) أنها بسبب منعهم بني إسرائيل من الخروج من مصر، فكان جوابهم ما مفاده في آيتنا هنا: مصائب أو مشاكل زراعية وحيوانية وبيئية... وفوقها أمور مميزّة تقوم بها يا موسى فلن نتغيّر ومستحيل أن نعتقد بأنك رسول من الإله ولن نتركك وقومك تخرجون من مصر... وكما نقول بالعامية: لا تعذّب حالك عَلَى الْفَاضِي.

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ{133})
{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ}، على فرعون وآله، {الطُّوفَانَ}، حيث فاض الماء وغمر الأراضي وَأتلف المزروعات وغمر البيوت... ولم يؤمنوا....

بعدها أرسل سبحانه عليهم، {الْجَرَادَ} وَهُوَ "النطاط أو القبوط أو الجندب" ولكن بقياس كبير، وَهُوَ حشرة تأكل كل أنواع النباتات، حيث تأكل الخضار والحشائش وحتى أوراق الأشجار، وعندما تكون أعدادها كبيرة فإنها تأكل كل النباتات التي تمرّ عليها في يومين أو ثلاثة!

بعدها أصابهم، {الْقُمَّلَ}، وَهُوَ فصيلة من الحشرات الصغيرة التي تقوم بامتصاص دماء الحيوانات من فوق الجلد أو تدخل تحت الجلد، كالبقّ والبرغوث وقمل الرأس والسيبان... والقمل مزعج جدا ويسبب الحكة ويضع بيضه تحت جلد الإنسان "والحيوان" ويسبب تورمات... ولم يؤمنوا...

بعدها جاءت، {الضَّفَادِعَ}، وهي حيوان برمائي، وصوتها مزعج جدا ليلا ونهارا، حيث جاءت بكميات كبيرة... وقتلها سهل ولكن يبدو أن المشكلة كانت في أعدادها الكبيرة، إذْ تلتقطها وتقتلها ولكن يأتي فورا غيرها... مِمَّا يجبرك على الإغلاق على نفسك في البيت وإلا قفزت عليك وعلى أثاثك... وستدوس عليها وتهشمها في بيتك...

{وَالدَّمَ}، حيث إنَّ المشهور في الكتب أن ماء نهر النيل تحوّل إلى دم، وصار مقرفا مؤذيا للشرب أو الاستحمام... ولا ندري إن تحوّل للون ورائحة وطعم الدم، أم بسبب قتلهم للضفادع ورميها فيه صار هكذا، ربما هناك ارتباط بين تسلسل هذه الكوارث، حيث واحدة سبّبت الأخرى أو ساعدت على نشوئها وَحصلت بترتيب إلهي للبيئة، وربما لا... على أي حال لا ننسى أن هذه الحوادث جرت خلال سنين، وليس خلال أيام، إذْ ربما الجراد استمر لأيام، وبعده بأشهر جاء القمل واستمرّ لأيام وبعده الضفادع...

أرسل سبحانه كل تلك الأمور المزعجة المؤذية لفرعون وآله، {آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ}، أيْ أمور مميزة من مستوى إلهي وليست مبهمة ولا مخلوطة مع شيء آخر يشوّشها، ومن الواضح جدا أنها أمور غريبة عليهم وليست طبيعية عادية، ومن الواضح جدا أنها من مستوى التدخّل الإلهي لإزعاج حياتهم السعيدة.

{فَاسْتَكْبَرُوا}، حيث رأوا أنفسهم أكبر من أن يسمعوا لقول النبي موسى(ع) وأكبر من أن يعبدوا ربّ قوم آخرين، {وَكَانُوا قَوْماً}، كانوا أناسا لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الدين، {مُجْرِمِينَ}، مرتكبين للأعمال التي تستحق العقاب، فهم كافرون به سبحانه ويقيّدون حرية الناس...

نلاحظ بوضوح أنه سبحانه وتعالى لم يأخذ قرارا بإهلاك فرعون وملئه وجيشه، وما حصل إلى الآن هو إزعاجهم بشدّة... وهو تطبيق لما سبق وذكرته السورة هنا في الآية 94، وتطبيق لما ورد في عموم القرآن عن الأمور السيئة المؤذية والمضرّة التي تصيب الناس قبل نزول العذاب النهائي القاتل، والقصّة هنا نموذج بارز جدا عن حلمه تعالى وحكمته وَاسْتِنْفَادِهِ تعالى للأمور التي فيها احتمال جعل الناس يُؤْمِنُونَ... وبتذكّرنا لمشاهد يوم القيامة والحوارات التي تدور فيها، نرى أنه تعالى لم يترك لأي إنسان أَيَّ مجال ليعترض عليه تعالى، فلا يحصل العقاب الإلهي الشديد من أول مرّة، بل تَمُرُّ قَبْلَهُ أمور سيئة كتنبيه... وحالة فرعون وملئه مميزة جدا في حلمه تعالى عليهم لسنين طويلة، ولذلك تراها متكررة في القرآن، ومتكررة كثيرا في حياتنا التي نتعرّض فيها لمشاكل على مستوى القوم "الجماعة" ومشاكل على المستوى الفردي، والسورة هنا مخصصة للمشاكل من المستوى الجماعي.

بقي شيء، إذْ إنَّ بعض الناس يرون في الكلام الإلهي عن هذه الحوادث، يرونها كقصص طفولية ساذجة، لم تحصل فعلا، وحتى دلالتها سَخِيفَةٌ بسيطة ككلام شخص بسيط، فيصوّرون المشهد وكأنه تعالى إله من اختراعنا، وألّفنا عنه قِصَصاً يتصرّف فيها بطفولية، فيرسل الجراد، والقمل، ويحوّل الماء لِدَمٍ... يقولون هذا على أساس أن مستواهم الفكري العالي جعلهم يرون سذاجة من سيؤمن بهذه الأساطير. وتدرج هذه الأفكار لتصير معيارا للمثقفين، فمن يُرِدِ الانضمام إليهم فعليه بالسخرية من هذه القصص مع حرية إضافته للتعليقات الساخرة.

المشكلة أننا أمام كلامه تعالى، وأمام كلام المنتمين لدينه تعالى، وأمام كلام هؤلاء المنكرين لدينه تعالى، حيث لو التزم المنتمون لدينه تعالى بكلامه سبحانه، ولم يضيفوا عليه ما يشوّهه ويظهر للآخرين أنه كلامه تعالى ودينه، لكان التوضيح أسهل، ولكن في العديد من الأمور التي يعلّق بها الكافرون على دينه تعالى يكون معهم حقّ، لأنهم يعلقون على كلام المنتمين لدينه تعالى وليس على كلامه تعالى، وهذا موضوع تناولناه في مناسبات مختلفة منها مسألة خلق آدم من طين حيث فسّر المؤمنون ذلك بأنه الخلق لأوّل بشري...

هنا نحن أمام كلامه تعالى وتعليق الكافرين به عليه، فهم يحلّلون نفسية المخترعين لهذه القصص والمخترعين لإله فعل ما فعله... بل هم جريئون ووقحون لدرجة تحليلهم لنفسية الإله عزّ وجلّ، حيث عن سخرية يصفون الإله بالطفولية والسذاجة، مقترحين طرقا أخرى لتصرّف الإله في حالة كهذه، ومن هنا فإنَّ باب السخرية مفتوح على مصراعيه، واقتراحاتهم لا نهاية لها، لِيَقْتُلْ فرعون، لِيُبِدْ جيشه، لِيُصِبْهُمْ بالكهرباء كلما فعلوا سوءا ما... لِيَخْتَفِ بنو إسرائيل من مصر وينقلهم فورا إلى أي أرض يريد... بدل أن يتسلّى بهم في أمور لم تنفع في جعل المصريين مؤمنين أو جعلهم يَتْرُكُونَ بني إسرائيل...

حَسَناً، أنتم أيها الساخرون هل تريدون آية لتؤمنوا؟ إنَّهُ سبحانه وتعالى وبكل حلم وصبر ورحمة وحكمة... وبشفافية، عرض علينا في كتابه هذا ملخص ما مرّ على البشرية بالنسبة لهذا الموضوع، حيث إنَّ أي آية يمكن أن تحصل حصلت، والنتيجة معلومة، إذْ لم يؤمن الناس، بل حصلت آيات لم يطلبها الناس لأنها كانت من نوع البأساء والضرّاء، فَفَسَّرَهَا الناس بأنها كوارث عادية تحصل ولم يؤمنوا أنها تنبيه وتحذير أو إنذار إلهي ليروا قدرة فائقة يمكنها إبادتهم...

ها هُوَ القرآن أمامك، وفيه مختلف ما طلبه الناس كآية، ومضافا إليه ما فعله تعالى كآيات "ما نسميه معاجز" من خارج أفعاله العادية التي تراها في تصميمك وخلقتك وتصميم الدنيا وخلقتها.

بدل أن تسخر منه تعالى انتبه لنفسك لترى أنه تعالى تعامل معك بحسب مستوى سذاجتك أنت أيها الفهيم، لأنَّهُ سبحانه يعلم غيب الدنيا والآخرة، فيعلم أن فرعون وقومه لن يؤمنوا، ونهايتهم الغرق، ولكن تعامل معهم بمستوى سذاجتهم واستهتارهم حتى يكونوا عبرة وموعظة لك، وها هُوَ يذكر لك تعالى ما فعله معهم، لترى أنك لو كنت مكانهم ولديك قرار بالكفر، فلن تؤمن لو حصل ما حصل معهم معك، وأصلا سبحانه أخبرنا وبوضوح أن هذا النوع من الآيات لن يجعل أي أحد يُؤْمِنُ إن كان قراره العميق الكفر، حيث مرّ ذلك معك هنا في السورة في الآية 101 التي افتتحت الكلام عن ذلك كمقدمة قبل الدخول في ذكرها لحادثة فرعون، فراجعها لترى وصفه تعالى للمطبوع على قلوبهم...

مشكلة هَؤُلَاءِ الناس هي نفس ما يسخرون منه، حيث إنَّ الآية السابقة نقلت عن فرعون وملئه أنهم لن يؤمنوا مهما جاءتهم من آية، فتعامل معهم تعالى بمستواهم ليجعلهم عبرة ونموذجا لمن يأتي بعدهم، وسبحانه يعلم أن الاستفادة من ذلك ستكون لقلّة قليلة جدا جدا من المؤمنين، والبقية سيسخرون، إذِ الذين حصلت مَعَهُمُ الآيات وآذتهم سخروا منها، فكيف بالذين سمعوا بها ولم يروها ولديهم قرار عميق بالكفر؟ حتما سيسخرون منها.

خلاصة الكلام أن سماعك كمؤمن لتعليق على شيء جزئي من كلامه تعالى، يُشَوِّشُ فكرك، فلا تَنْسَ دائما الصورة الكبيرة، وَلا تنظر للتفاصيل ناسيا الأساسيات، وها القرآن أمامك وهو كلامه تعالى، ولا يعرض عليك دينا جديدا غريبا عنك، بل يقول لك إنَّ ما يدفعك للاعتقاد بإله، من سبب التفكير فيما تراه، أو من مشاعر الحبّ والاحترام لإلهك أو الخوف من كوارث الطبيعة للتعلق بإلهك... سبحانه صمّمك هكذا لتتعرّف عليه، فلا تشطح عن ذلك لتخترع آلهة من خيالك وابق على إله واحد أحد، وبالنسبة للتشريع، فإنَّهُ سبحانه صمّمك مع قابلية تمييزك للخير من الشرّ، فلا تفعل الشرّ. وهذا ملخص كل كلامه تعالى معك، فهل للتصديق بالحقيقة وفعل الصالحات تحتاج لآيات وآيات تطلبها حتى تؤمن؟ وإن لم تؤمن به تعالى وتلتزم بشريعته فماذا ستفعل؟ هل ستنكر الحقائق الواضحة عنه تعالى كخالق واحد أحد بصفات حسنى؟ أم هل ستتفلّت من الصالحات لتفعل السوء؟ أَيُّهَا المؤمن ضع هذا دائما في بالك فهذا هو كلامه تعالى، والبقية تفاصيل متفرعة عن هذا.

(وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ{134})

{وَلَمَّا}، وعندما، {وَقَعَ عَلَيْهِمُ}، على فرعون وملئه وآله، {الرِّجْزُ}، الشيء الموصوف بأنه ولا من أي ناحية فيه خير، من طوفان وجراد وضفادع و... قالوا: {يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ}، أَشْهِرْ لِأَنَّ المسؤول عنك من مستوى إلهي عهد عندك فألزمك والتزمت أنت له بإخراج بني إسرائيل من مصر وإلا فسيصبنا ما يصيبنا الآن، وَحتى يتوقف الأذى عنّا فأعلن وأشهر له أننا سننفذ ما عهد به إليك.

{لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ}، حيثُ من بعد دعائك إن ارتفع عنّا ما ليس فيه خير، {لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ}، فسنعلن أننا نعتقد بما تقوله عن إلهك الأحد، {وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}، وَنسمح لك بأخذهم من مصر.

في كلّ مرة يرسل فيها سبحانه شَيْئاً يضرّهم، الطوفان والجراد... في كل مرّة يستمر حال السوء إلى أن يقولوا للنبي موسى(ع): حَسَناً اكتفينا، وإذا دعوت ربّك وارتفع عنّا ما نحن فيه فسنؤمن بما تقوله وسيتحقق ما عهد به تعالى عندك من إخراج بني إسرائيل من مصر... وبعد انتهاء الضرّ هل كانوا يوفون بما يقولونه؟

قبل أن نكمل، سيخطر ببالنا أنهم يطلبون من النبي(ع) أن يقول دُعَاءً مثل الأدعية المنتشرة في كتب الأدعية بين المسلمين، بينما كلمة دعاء أصلا ليست مخصصة لهذا المعنى، وأساسا فإنَّ غالبية استعمال القرآن لها لم تقصد هذا المعنى، حيث إنَّ كلمة دعاء وكل مشتقاتها تشير لعموم الإعلان والإشهار، والاشتقاقات من ذلك تتضمّن الإعلان والإشهار عن طلب، وهذا هو المعنى الدارج للدعاء والذي بضبابية نفسّر به كلامه تعالى عند اسْتِعْمَالِ القرآن لتصريفات كلمة دعاء.

هنا هم يسألون النبي(ع) أن يعلن ويشهر لربّه أنهم سَيُؤْمِنُونَ وَيُطْلِقُونَ سراح بني إسرائيل، وبذلك ينتفي سبب حصول الضرر لهم، حيث عهد تعالى لموسى(ع) بإخراج بني إسرائيل، فَلْيُعْلِنْ له أن هذا سيحصل بعدما يتوقّف الضرر...

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ{135})
{فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ}، حيث ارتفع عنهم وانتهى ما كان كلّه سَيِّئاً عليهم، {إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ}، إلى زمن محدّد سيأتي عليهم، بعد أيام أو أشهر، {إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ}، حيث إنَّ ما قالوه سابقا وكان كلاما جديا قويا، بعد مرور بعض الوقت يعتبرون أَنَّ ما قالوه لم يكن جديا ولا قوّة فيه، لأنه مجرد كلام قالوه حين كانوا تحت ضغط المشكلة والآن انحلّت المشكلة وليسوا مضطرين للإيمان بإله النبي موسى(ع) ولا بترك بني إسرائيل.

سبحانه وتعالى بدأ بهم بالطوفان، فتضايقوا، وصبروا أياما أو أكثر... وبعدها لم يجدوا حلا، فقالوا للنبي موسى(ع) أن يدعو ربّه وأنهم سَيُؤْمِنُونَ وَيَتْرُكُونَ بني إسرائيل يخرجون من مصر، وبعد أن دعا النبي(ع) واستجاب سبحانه، بعد أيام، غيّر فرعون وملؤه رأيهم واعتبروا أن ما قالوه سابقا لا قيمة له الآن، وسبحانه وتعالى كان يعلم بأنهم لن يصدقوا بكلامهم، ويعلم سبحانه متى بالضبط سيتراجعون عن كلامهم، وبعدها أرسل تعالى عليهم الجراد، فتحمّلوه... ثم لم يجدوا له حلا... فدعوا النبي موسى(ع)... وبعدما ذهب الجراد تراجعوا... وبعدها جاء القمل... وهكذا حتى وعدوا النبي موسى(ع) أنهم سيتركوه يخرج ببني إسرائيل، فعندها خرج (ع) فورا بهم... ولحقهم فرعون...

{فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ}، حيث عاقبناهم بناء على تبييت نية الضرر لهم بسبب ما فعلوه، ورغم كفرهم به تعالى فإنَّ سبحانه لم يَقْضِ عليهم مباشرة، بل أنزل عليهم المصائب الواحدة تلو الأخرى ليكونوا عبرة للآخرين بِأَنَّ المصرّ على الكفر لن يؤمن مهما أتته من آية، وحتى لا يقولوا في يوم القيامة "لا هم ولا غيرهم" أنهم كانوا آمنوا لو أصابتهم مصيبة ولكانوا انتبهوا... حيثُ لِسِنِينَ طويلة كانت هذه المصائب تنزل، وكانت تذهب مباشرة عندما يدعو النبي موسى(ع)، وفي الأخير، وعندما أمر سبحانه نبيّه موسى(ع) بأخذ بني إسرائيل سرا وبالليل ليخرجوا من مصر، لَحِقَ بهم فرعون بجنوده ليقتلهم!

انتقم ربنا سبحانه منهم، {فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ}، حيث جعلناهم يَفْقِدُونَ حياتهم بالموت في مكان فيه تجمّع كبير للمياه، {بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}، إذِ الأمور المميزة بمستواها الإلهي والمنسوبة له تعالى قالوا عنها إنها غير صحيحة ولا تدل على شيء ولن تجعلنا نغيّر ديننا وقراراتنا... ولهذا أغرقهم سبحانه، {وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}، حيث عن قصد صرفوا انتباههم عن الآيات وَمَعَانِيهَا ودلالتها، وَكانوا غير مهتمين أصلا بها وليست من اهتماماتهم ليؤمنوا بها بل تعاملوا معها كشيء مزعج لهم.

من عموم سور القرآن تعلم أن بني إسرائيل وصلوا لضفّة الماء، وشاهدوا جيش فرعون قادما من بعيد ليقتلهم، فانقسم البحر، وصار فيه ممرات، وسار فيها بنو إسرائيل وعبروا البحر إلى الضفة الثانية، وَعندما وصل فرعون وجنوده وشاهدوا البحر منفلقا، وهذه كانت الآية رقم تسعة، لم يؤمنوا بِأَنَّ إلها فلقه! لأنهم تمرّسوا على إنكار الآيات! وقرروا

اللحاق ببني إسرائيل وقتلهم! وعندما دخل الجيش وصار في الممرات بين جدران الماء، عندها انهارت عليهم الممرات وماتوا غرقا.

(وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ{137})
{وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ}، نقلنا الملكية إلى الناس الذين لهم كيان الجماعة، والكلام هنا عن بني إسرائيل، {الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ}، حيث كان فرعون يستضعفهم وكان أقوى منهم ويفرض عليهم إرادته بالقوّة، {مَشَارِقَ الْأَرْضِ}، أورث تعالى بني إسرائيل جهة شروق الشمس من الأرض، {وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا}، إذِ الكلام هنا عن بقعة محددة مباركة من الأرض، وَبركته سبحانه لتلك الأرض هي تخصيصها بأمور حصلت فيها وكانت كلّها خَيْراً، وهذه البقعة من المشهور بين الناس أنها الآن تقع بين الأردن ومصر وفلسطين وسوريا ولبنان، وسبحانه خصّصها بالرسل والأنبياء والصالحين الذين عاشوا في تلك البقعة، فتلك البقعة المباركة بمشارقها ومغاربها ورثوها، فعلى امتداد نظرهم لجهتي شروق وغروب الشمس كانت المنطقة تحت سلطتهم، فبانتهاء فرعون صاروا فيها بالأمان من جهة المشارق ومن جهة المغارب، وهذا التعبير يمدّ وساعة جهة الشرق وجهة الغرب ليكون المقصود به أنهم من كل الجهات كانوا في الأمان من أي عدو.

{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ}، بلا انقطاع إلى النهاية تحقّق الكلام الموصوف بأنه حسن والذي قاله سبحانه لبني إسرائيل، إذْ وعدهم بالنجاة من فرعون وتوريثهم أرضا لا أحد يحكمهم فيها، {بِمَا صَبَرُوا}، بسبب محافظتهم على تصرفهم الواعي المدروس على المقياس الديني، فمن حين مَا جاءهم النبي موسى(ع) بالوعد الإلهي للخروج من مصر مرّت سنين طويلة عليهم تحت الاستضعاف، وبالعموم، لم يرتكبوا السوء خلال تلك السنين، وَبالعموم صبروا على المعاناة وكانوا بشكل عامّ مطيعين للنبي موسى(ع)...

كلمة ربنا سبحانه حسنى، وهي كلمة وعده تعالى عن وقت يخرجون فيه من العبودية "بالمعنى اللغوي الأساسي لكلمة عبودية" من مصر، وسنلاحظ من بقية السورة أَنَّ الكلمة الحسنى لها معنى واسع، فلا نتصور أن بني إسرائيل يكفرون أو يقومون بالسوء ورغم ذلك فإنَّ سبحانه يلتزم معهم بكلمة حسنى، لا، بل طالما هم يقومون بالأعمال الحسنة "كما صبروا لسنين" فسبحانه يلتزم معهم بالحسنى، وإلا فالعقاب بأشد أنواعه ينزل عليهم كما سترى...

{وَدَمَّرْنَا}، حيث قوّض وهدّم سبحانه "بشكل كلي أو جزئي" والنتيجة أن الأشياء لم تعد صالحة للاستعمال، {مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ}، حيث صنعوا أشياء كثيرة، من الأسلحة والعربات والأبنية والحدائق... ودمر سبحانه أيضا، {وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ}، عموم ما كانوا يبنون من مبان وحدائق لتكون فوقهم، عموم ما هو كالسقف فوقهم كالبيوت أو القصور من خشب أو من طين، أو عروش من نبات كالحدائق والبساتين وغيره... فإنه تدمر جزئيا أو كليا فلم يعد صالحا للاستعمال.

ليس بالضرورة حصول هذا من أثر انهيار المياه، فهذا ممكن، ولكن الاحتمالات الأخرى أيضا مَفْتُوحَةٌ، فبعد غرق الجيش فقد المصريون قائدهم وجزءا من قوتهم الْعَسْكَرِيَّةِ، وصاروا ضعفاء، فربما بعد مدّة سقط حكم آل فرعون، وربما الكلام عن مدة طويلة سقط فيها حكم آل فرعون، وبمراجعة تاريخ تلك الحقبة سترى أن عائلات مختلفة تعاقبت على الحكم في مصر...

الفضول يدفعنا لنعرف من هو الفرعون الذي كان في عهد النبي موسى(ع)، والعديد من المسلمين والمسيحيين واليهود حاولوا معرفته، وقد ترشّحت لديهم عدة أسماء، ولكن ما الفائدة من معرفة اسمه؟! وماذا سيتغير لو عرفناه؟ هل سيزيد إيماننا؟ هل نحن نطلب من مصدر آخر تأكيد كلامه سبحانه لنجد الفرعون الغارق!

لا يوجد مانع من البحث التَّارِيخِيّ والآثاري، ولكن إن كنّا مؤمنين فالبحث بنية التأكد من صدق القرآن يعني أننا لسنا مؤمنين، لأنَّ القرآن كلام ربنا سبحانه، وهو صحيح، ودليل صحّة مصدر القرآن منه تعالى واضح من تقانة الكلام ودقّته ومعلوماته ذات المستوى العالي... وليس بحاجة لإثبات من التاريخ، فالقصص التي ذكرها لنا القرآن هي لتعليمنا العبرة والموعظة من تلك القصص، ولم يخبرنا بها لتكون دليلا على صحة مصدره من الإله سبحانه، بل هناك أمور

أخرى كثيرة ذكرها القرآن لتكون دليلا على إلهية مصدرها، كأميّة النبي محمّد(ع) وأنه لم يكن يعلم في السابق أي شيء عن المعلومات التي وردت في هذا القرآن، وتقانة كلام القرآن، وتوافقه مع بعضه رغم تفرّق نزوله لأكثر من عشرين سنة على رجل أمي ليس باستطاعته مراجعة ما قاله سابقا...

ننتبه جيدا من أن يصيبنا شك فيما يقوله القرآن إذا لم يتوافق مع ما يقوله علماء الآثار، علما أننا نرى علماء الآثار يغيّرون ويعدّلون في استنتاجاتهم مدة بعد مدة بسبب تغيّر المعطيات، كما نرى أنفسنا نتغيّر في فهم القرآن أيضا، فنكتشف شيئا جديدا لم نكن منتبهين له من قبل.

يمكنك مراجعة التحليل الذي ذكرناه في دراستنا هذه عن فرعون في الآية 24 من سورة غافر، فهناك رجّحنا أن يكون خوفو.

إلى هنا انتهينا من قصة مشابهة لقصص الأنبياء السابقين الذين تحدثت عنهم السورة من قبل، بداية من النبي نوح(ع) فهود(ع) فصالح(ع) فلوط(ع) فشعيب(ع)، ومطولا مع النبي موسى(ع) وفرعون، والتشابه بينهم هو أنه تعالى يرسل رسوله للقوم الذين كفروا به وأفسدوا... وعندما لا يتغيرون فسبحانه يقضي عليهم، وقد ذكرت لنا السورة أنواعا متعددة من المجتمعات وأنواعا متعددة من الإجرام الذي قاموا به، واختتمت كلامها عن نموذج فرعون وملئه الذين جاءتهم تسع آيات ولم يؤمنوا، وآخرها انفلاق البحر أمامهم ولم يؤمنوا فدخلوا فيه...

لا ننسى أن من لديه نيّة صادقة ليؤمن فسيؤمن عند أول فرصة، وهذه الحالة التي نقلتها السورة عن إيمان السحرة...

الآن ننتقل إلى نفس الفكرة ولكن بشيء جديد: هل تبقى العناية الإلهية ملازمة لمن كان يواليه تعالى ثم يكفر به بعد ذلك ويبقى فقط بالاسم منتميا لدينه تعالى؟ فَلْنَرَ:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ{138})

{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ}، جعلناهم يتجاوزونه إلى الضفّة الأخرى عبر الممرات التي انفلقت فيه، ومشوا فيها ووصلوا إلى الناحية الثانية من البحر، {فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ}، حيث وصلوا في الضفّة الثانية من البحر إلى أناس لهم كيان الجماعة، {يَعْكُفُونَ}، في حالة ملازمة وتركيز، {عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ}، وهي المنحوتات من الحجارة أو الخشب التي تتم عبادتها، ويصلّون لها ويقدمون النذور لها...

{قَالُوا}، قال بنو إسرائيل: {يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ}، وحدّد لنا صنما لنعتبره بمكانة وبصفات وقدرات فوق مكانة وصفات وقدرات المخلوقين.

أعجبتهم فكرة أن يروا بأعينهم وأن يلمسوا بأيديهم وأن يتحدثوا وجها لوجه مع إلههم مثلما يفعل هؤلاء القوم! لأنهم كانوا في مصر والناس هناك يعبدون الأصنام، وخرجوا من مصر ليجدوا أناسا آخرين يعبدون الأصنام، فلماذا الناس لها أصنام لآلهتها وهم ليس لهم صنم؟ وهذه العقلية لها شبه بشكل كبير مع محبّي جمع التذكارات الدينية ليتبركوا بأثر من مكان له صبغة دينية.

{قَالَ}، لهم النبي موسى(ع): {إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}، أنتم جماعة تتصرف عن طيش لا عن فكر ووعي ودراسة، وتصدر منكم أقوال الجهلة الذين لم يتعلّموا ولم يعرفوا الحقيقة، وسيشرح (ع) لهم ذلك في الآية التالية.

سنلاحظ فيما بعد أن فكرة صنع صنم ليعبدوه بقيت عالقة في أذهان البعض منهم مما كانوا يرونه من المصريين، وعند أول فرصة "عندما غاب عنهم النبي موسى(ع) حين صعد إلى الجبل..." صنعوا تمثالا على شكل عجل! وألّهوه!

نلاحظ أن صنع صنم كرمز أو تجسيد للإله، بدأ بنيّة التقرب من الله تعالى، لأنهم لم يطلبوا أن يعبدوا الحجارة أو الخشب، بل طلبوا أن يكون الصنم رمزا للإله الواحد، وسنرى في الآية التالية ما يقوله سبحانه في هذا الموضوع على لسان نبيه موسى(ع):

(إِنَّ هَـؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{139})
أكمل النبي موسى(ع) كلامه: {إِنَّ هَؤُلَاءِ}، الذين يعبدون الأصنام، {مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ}، وكلمة تَبْر مستعملة بكثرة لوصف كِسْرات الذهب فيقولون: تِبْرُ ذهب. فالأصنام التي هم في عبادتها ستصير مفتتة لقطع صغيرة، {وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، كما نقول: أبطل مفعول الدواء... فالعكوف على الأصنام لعبادتها عمل باطل لأنه غير صحيح ولا سليم كعبادة.

حتى لو كان هؤلاء يقولون إنهم لا يعبدون الحجر أو الخشب بل يعبدونها كرمز، كما نقبّل ونعانق نحن صورة ورسمة من نحب، لأننا لا نقصد تقبيل ورقة الصورة بل نقبّل ما ترمز له الصورة، فإنَّ الله تعالى لا يسمح بجعل تمثال ولا صورة ولا رسمة ولا تشبيهٍ له ولا أي شيء، لأنَّ هذا العمل باطل وليس صحيحا وغير مقبول.

نلاحظ في التوراة الحالية إضافة أحبار اليهود عليها قصصا من تأليفهم، حيث قالوا فيها إنَّ ربنا عز وجل تمثّل بشكل رجل، وتصارع "تعارك" مع النبي يعقوب(ع)! ونلاحظ أن الكثير من المسيحيين يعتقدون أنه سبحانه تجسّد في جسد النبي عيسى(ع)! والكثير من الناس من مختلف الديانات يصنعون التماثيل والصور لآلهتهم! مع أن الأنبياء دائما حذَّروا الناس من هذه التصرفات كما نسمع هنا ما يقوله النبي موسى(ع)، ولكن للأسف يتبعون أهواءهم ويصنعون الرموز للإله!

هل نجونا نحن المسلمين من ذلك؟ لا، لأنَّ هناك سفهاء دائما يشحنون الدين بتفاهاتهم، حيث لدينا روايات نسبوها افتراء للنبي محمّد(ع) بعد نقلهم لها من تراث أهل الكتاب مع إضافة لمسة إسلامية عليها، يتحدثون فيها عن نزوله تعالى ليلة الجمعة يجول بين الناس راكبا على حمار! وبدل مسح هكذا روايات من تراثنا بالعكس تجد لها جمهورا تعجبه ويضيف عليها أنهم يوم القيامة سيرون وجهه تعالى كوجه الآدميين من جبهة وعينين ووجنتين وأنف وفم!

(قَالَ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـهاً وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ{140})
قال لهم النبي موسى(ع): {أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـهًا}؟! فهل تتوقعون منّي ترك اعتقادي بالله تعالى صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز وأَعْتَبِرَ كائنا غيره بصفات وقدرات فائقة من مستوى إلهي! فكيف أطلب منكم تأليه التمثال والصنم بينما الله سبحانه محيط بكم، وهو في كل مكان، فما معنى أن تتجهوا نحو التمثال وتلمسوه وتتحدثوا معه وتعبدوه وتنظّفوه وتضعوا له البخّور والورود... فأنتم ولا بأي حال تعبدون الله سبحانه، بل تعبدون التمثال وسبحانه وتعالى لم يسمح ولا بأي شكل بتمثيله بصنم أو تمثال أو صورة أو أي شيء...

تصوّر نفسك واقفا بقرب من يحبّك، وهو لا يلتفت إليك، وهو يحمل صورتك ويتحدث إليها! فهل هو يحبك أنت؟ لا، بل يحب الورقة التي عليها صورتك. فكذلك سبحانه ينظر لمن يعبد التمثال والصورة والشخص و... لأنَّ هؤلاء يتركون الله سبحانه الموجود في كل مكان، والقريب منهم جدا جدا، ويعكفون على الصنم! فكيف يعتبرون أنهم يعبدون الله تعالى!

يكمل النبي(ع) كلامه: أأجعلكم تألّهون غير الله تعالى، {وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}، حيث من بين كل الناس حصلتم منّه تعالى على أشياء مهمّة من دون أن تكون فرضا واجبا عليه فلا تنسوا هذا الجميل وتخترعوا من رأسكم ديانة على هواكم.

لمزيد من التفصيل حول معنى تفضيلهم راجع دراسة الآية 47 من سورة البقرة {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}، والخلاصة أنهم حصلوا على العناية الإلهية بما لم يحصل عليه الآخرون، وهذا لا يعني أنهم أفضل من الآخرين بل تفضّل تعالى عليهم بما لم يتفضّل به على الآخرين، وضمنا هذا التفضيل سببه وجود مؤمنين من الدرجة العالية بينهم علما أنَّ الغالبية كانوا فاسقين، حيث إنَّ النعمة الإلهية للمؤمنين منهم كفضل إلهي، والآخرون بالتبعية شملتهم النعمة، ومعلوم لك أن الفاسقين منهم أهانهم تعالى بعذاب لم يُصِبْ حتى أعتى الكفّار به، وهو تحويل البعض من بني إسرائيل لقردة بسبب فسقهم.

بعبارة أخرى: إنما حصلتم على تفضيله سبحانه حيث نجّاكم من فرعون "كما سنرى من الآية التالية" لأنكم تعبدونه وحده كما أمركم، فإذا عبدتم غيره، أو عبدتموه تعالى كما تهوون بتمثيله بصنم، فلن تحصلوا على تفضيله تعالى لكم، بل ستتعرضون لعقاب قاسٍ جدا... وسنرى ذلك يحصل في الآيات التالية.

(وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ{141})
الله سبحانه يؤكد ما قاله النبي موسى(ع):

{وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ}، خلّصناكم يا بني إسرائيل، {مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ}، منه ومن عائلته الحاكمة الذين كانوا، {يَسُومُونَكُمْ}، يَنَالُكُمْ ويُصِيبُكُمْ منهم، {سُوءَ الْعَذَابِ}، حيث تتعرضون منهم لأسوأ ما يؤذيكم، حيث استضعفكم كمواطنين من الدرجة الثانية، وبالإضافة لذلك، {يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ}، وكما تعلم كان فرعون مدّة بعد مدّة يأمر بقتل المواليد الجدد الذكور، وسبب ذلك أن الجيش المصري كان يخرج من مصر للقيام بالغزوات على البلدان البعيدة، ويبقى في مصر جيش صغير للسيطرة على العبيد حتى لا يثوروا على فرعون، ولنقل مثلا إنَّ هذا الجيش الصغير عدده ألف جندي، ولنقل مثلا إنَّ هذا الجيش يستطيع السيطرة على خمسة آلاف عبد إذا حاولوا الفرار أو القيام بثورة... وكان لدى الجيش إحصاء بعدد وأسماء العبيد، وعندما يزيد عدد العبيد الذكور عن خمسة آلاف "مثلا" يصدر فرعون أمرا بقتل الأطفال الذكور، حتى يبقى العدد تحت الخمسة آلاف.

{وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ}، حيث يتركون الأطفال الإناث أحياءً، لأنهن لا يقاتلن ولا يشكلن خطرا، بل يعملن في الزراعة ورعاية الماشية والخدمة و...

{وَفِي ذَلِكُم}، في هذه الحالة الاستضعافية لدرجة القتل: {بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ}، حيث من نظرة المسؤول عنكم من مستوى إلهي كان بإمكانه التدخّل لمنع حصول هذا ولكنه تعالى ترككم لتبتلوا بهذا، ليصيبكم بما يغيّر حالكم، لأنكم فسدتم وسيؤثر بكم هذا البلاء حتى ترجعوا إلى التدين الصحيح...

كما تعلم أنَّ غيرهم من الأقوام ولأسباب مختلفة وقعوا في نفس الظروف عبر التاريخ، لأنَّ الفساد نتيجة ما يفعله الناس، وحين يصف سبحانه بالبلاء حالة معاناة قوم ما من سوء، فهذا من نظرته تعالى للأمور، وإلا فهي لم تحصل لأنه تعالى فعلها، بل حدثت مما فعله الناس، وهذا واضح في الحالة هنا أنها من قرارات فرعون وملئه، وتركها تعالى تحصل، وهذا هو ابتلاء الناس ببعضها البعض، حيث هذا ما يتعرّض له الناس ويتغيّر بسببه حالهم، وفي خضمّ ذلك بعض الناس يعودون إليه تعالى طالبين تدخّله، وهذا الجانب الذي يهتم بالإضاءة عليه سبحانه في كلامه معنا... وتعلم من عموم القرآن أنه سبحانه يتدخل ويغيّر حال الناس إذا هم أعلنوا إيمانهم واستغفروا...

بعبارة أخرى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى بقية الناس التي كانت مستضعفة ومقهورة عند فرعون، لأنكم "بشكل ما" تعرفون دينه تعالى ولديكم قناعة ما به سبحانه، وفيكم قلة من المؤمنين الحقيقيين، ولهذا فضّلكم ونجّاكم من العذاب. وتعلم من عموم القرآن أن بني إسرائيل سيكون منهم في المستقبل رسلٌ وأنبياءُ وصالحون، وهذا أيضا من الأسباب لتفضيلهم على العالمين بالنعم الإلهية.

لنعد إلى سياق الآيات، لأنَّ الكلام هنا منه تعالى لبني إسرائيل ليذكّرهم بأفضاله تعالى عليهم، لأيِّ سبب فكّروا بترك دينه الصحيح وعبادة الأصنام؟! فهل جَزَاءُ من نجّاكم أن تعبدوا غيره؟ أو تصنعوا له صنما وتعبدوا الصنم؟

ضَعْ في بالك مضافا لهذا الكلام عن عبادة الصنم، شكل الصنم، بالنسبة لك لو صنعوا لك تمثالا على شكل حيوان وقالوا إنه لك، وبجدية يقولون إنه يرمز لك، فما رأيك؟ وهذا شيء لم تذكره الآيات صراحة، وتركته لأنها أصلا تحدّثت عن منعه تعالى من صنع أي رمز له عزّ وجل، وكيفما كان الشكل، ومهما كانت النيّة أو الفكرة، ويمكننا أن نضيف على سخافة رمزية الصنم للإله، التفكير في سخافة وتفاهة أي شكل يَتَصَوَّرُونَهُ ليكون رمزا للإله عزّ وجلّ،

سوف نرى كيف حصل هذا حين عبد بنو إسرائيل العجل!:

(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ{142})
مرَّ موضوع طلبهم لصنم يرمز له تعالى... وساروا في صحراء سيناء كما هو مشهور ويشير إليه القرآن...

{وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً}، أعطيناه وقتا كان مقداره ثلاثين فترة عتمة من الأيام، ومشهور أن الموعد كان على جبل في صحراء سيناء لإعطاء النبي موسى(ع) التوراة، التي فيها أساسيات العقيدة والتشريع والسلوكيات مثلما في القرآن، وكان الموعد لثلاثين ليلة، حيث أخبر النبي موسى(ع) قومه أن ينتظروه في هذه المدّة المحددة حيث سيصعد إلى الجبل وسينزل إليهم بعد ثلاثين يوما بالتوراة.

الموعد كان ثلاثين ليلة، {وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ}، حيث بلا انقطاع جرى وصل الثلاثين ليلة بعشر ليال، {فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ}، فاكتمل بلا انقطاع الموعد الزمني الذي حدّده سلفا المسؤول عن النبي موسى(ع) من مستوى إلهي.

بعبارة أخرى، أساساً كان قراره سبحانه باللقاء لأربعين ليلة، ولكنه سبحانه لم يخبر نبيه موسى(ع) بذلك، بل أخبره بالثلاثين ليلة، وكان مقررا سلفا أن يأمره تعالى هناك بالبقاء لعشرة أيام أخرى، لإتمام الثلاثين بعشرة فتصير أربعين وهكذا يتم الميقات، وسنعرف السبب بعد قليل.

{وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي}، خذ مكاني أثناء غيابي، وكن المسؤول، {فِي قَوْمِي}، في الناس الذين لهم كيان الجماعة وأنا من جمعتهم، {وَأَصْلِحْ}، فلتكن قراراتك صالحة جيدة، وتصبّ في مصلحة بني إسرائيل، {وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ}، ولا تكن على مسالك وطريق وآراء وأفكار... {الْمُفْسِدِينَ}، الذين لا يهتمون بالصلاح والخير والحقّ. وكما ترى فالنبي موسى(ع) ينبّه أخاه من خزعبلات قومه التي تبدو عقلانية، ولكن أي شيء ديني لم يصرّح به تعالى فممنوع اختراعه... ومنذ قليل سمعنا البعض منهم طلبوا من النبي موسى(ع) أن يصنع لهم صنما ليعبدوه! فلذلك ينبّه أخاه من اقتراحاتهم وطلباتهم، وسنرى بعد قليل أنه (ع) كان محقا في خوفه منهم، حيث عرضوا على النبي هارون(ع) أن يصنع تمثالا ليعبدوه... وصنعوا التمثال فعلا كما سنرى بعد قليل.

(وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ{143})

{وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا}، عندما جاء ليبقى مدة الزمن التي حدّدها تعالى، للأربعين ليلة، حيث صعد النبي موسى(ع) إلى الجبل، {وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}، حيث سمع النبي(ع) كلاما يقوله المسؤول عنه من مستوى إلهي، ونعلم من الآية 30 في سورة القصص أن أول كلام إلهي مع النبي موسى(ع) عندما كان راجعا من مدين إلى مصر حصل من الشجرة، لأننا نتكلم بالصوت المسموع من خلال خروج الهواء من القصبة الهوائية مرورا بالحنجرة التي تسبب تغيُّراً في نبرة الصوت، ثم يمر الهواء بالفم الذي يسبب تغيُّراً في تقطيع الصوت والنغمة... فتنتج الحروف والكلمات المسموعة بأذن الآخرين، وسبحانه بطريقة مشابهة تقريبا، جعل الهواء باصطدامه بأغصان وورق الشجرة يصدر صوتا يسمعه النبي موسى(ع) كما يبدو من الآية 30 من سورة القصص {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ}... أمّا في الميقات على الجبل فنفترض حصول شيء مشابه لأنه سبحانه وتعالى يمكنه إصدار الأصوات من أي شيء، ومستحيل أن يصير له سبحانه جسم يصدر منه الصوت مباشرة...

سنرى في الآيات التالية أنه بكلامه تعالى علّمه (ع) التشريع والقانون...

أثناء الكلام، {قَالَ} النبي(ع): {رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ}، اجعلْ عندي صورة محددة لك فيصير أمامي منظر لك، وأتح لي مجال رؤيتك ليصير منظرك أمامي.

لاحظ أن هذا السؤال بهذا التعبير {أَرِنِي أَنظُرْ} معناه أنه (ع) يطلب حصول صورة محددة بالعين لله تعالى، ولا يطلب حصول صورة كاملة، بل منظر، على أساس أنه تعالى واسع لا يحيط به شيءٌ فهو سبحانه في كل مكان، حيث يكفي رؤية منظر، لأنَّ التعبير في الآية مثل التعبير عن أرني أنظر إلى السماء، لأنَّ السماء واسعة جدا وسترى منها قسما صغيرا بعينك ولن تستطيع رؤيتها كلّها دفعة واحدة، وهنا الآية صاغت تعبير كلام النبي(ع) بهذا المعنى.

{قَالَ} الله تعالى لنبيه (ع): {لَن تَرَانِي}، فإن حصل وأظهرت نفسي لك فلن تحصل عندك الرؤية، وسترى من تكملة الكلام أن النبي موسى(ع) لن يتحمّل ولا بأي شكل ظهوره "تجليه" تعالى، وهذا ضمنا يعني أنه لا يوجد ولا أي طريقة مباشرة أو غير مباشرة يمكن أن تجعلك ترى صورة محددة لي في عينيك، ولا حتى لمنظر عام لي.

{وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ}، ووَجّهْ نظرك العام باتجاه الجبل، {فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ}، إن ثَبَتَ وبقي موجودا كما هو، وبقي كيانه في محلّه، وبقي صامدا كجبل، {فَسَوْفَ تَرَانِي}، فعندها يكون هناك إمكانية أن يصير لي "بشكل ما" صورة في عينيك.

{فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ}، أبعد سبحانه ما بينه وبين الجبل حتى يحصل مباشرة، ورفع سبحانه الحواجز "الحواجب" بينه سبحانه وبين الجبل، {جَعَلَهُ دَكًّا}، التجلّي جعل الجبل يتفتت فلم يعد متماسكا، فلم تتحمل مادة تكوين الجبل تجلّي ربنا سبحانه عليه، فانهارت مادته، فانهار الجبل. وفي نهاية الكلام هنا سنتحدث قليلا عن معنى التجلّي.

إذا الجبل الضخم انهار من التجلّي فماذا كان سيحصل مع النبي موسى (ع) لو تجلّى سبحانه عليه...

{وَخَرَّ}، حيث وقع منهارا، النبي موسى(ع)، {صَعِقًا}، لأنه أصابه شيء قوي فجأة، لأنَّ المشهد الذي حصل فجأة كان سريعا قويا جدا عليه، ومعنى الكلام أنه من نتيجة الصعقة فقد النبي(ع) وعيه فأغمي عليه.

{فَلَمَّا أَفَاقَ}، عندما استعاد النبي(ع) وعيه بعد مدة، {قَالَ سُبْحَانَكَ}، أُنَزِّهُكَ ولا أقول عنك أي صفة ناقصة لا تليق بك، وهنا المقصود، أنك سبحانك كما لا يمكن سماع صوتك مباشرة، فلا يمكن رؤيتك أبدا وهذا وصف فائق لك وأنا أنزهّك عن إمكانية رؤيتك ولا بأي طريقة.

{تُبْتُ إِلَيْكَ}، وأعترف بسوء طلبي ولن أفعل ذلك مرة ثانية.

{وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}، لأنَّ هذا الذي حصل لن أفكّر فيه مرتين، حيث من أول وهلة أعلن أني من المعتقدين بصفاتك الكاملة والتي لا نقص فيها ومستواها فائق جدا جدا وفوق ما كنت أتصوّر.

لا يقصد (ع) أنه لا يوجد أحد قبله من المؤمنين بأنه تعالى لا يمكن رؤيته ولا بأي طريقة، لا، بل بالنظر إلى ما حصل وكان (ع) شاهدا عليه، فلن يكون الثاني أو الثالث الذي يؤمن بأنه تعالى لا يمكن رؤيته ولا بأي شكل، بل من أول ما حصلت الحادثة آمن، ورد التعبير بالأول في عدة آيات ولم يكن التعبير يشير للأولية غير المسبوقة بأحد قبله، وكمثال عن ذلك الآية 163 الأنعام والآية 12 من سورة الزمر... بل يشير لأولية الإسلام والإيمان أول ما عُرِضَ عليه الإسلام والإيمان، ومن تبعات هذا أن يكون الأول قبل غيره إن كان هو فعلا أول من عُرِضَ عليه الإيمان والإسلام.

بقي شيء، لأنَّ طلب الرؤية لم يكن على جدول الثلاثين يوما للقائه تعالى، وبالإضافة لما فهمناه مما عرضته الآية عن استحالة رؤيته سبحانه ولا بأي شكل مباشر أو غير مباشر، يمكننا أن نفهم أن هذه الحادثة كانت نموذجا عن أمور أخرى فعلها النبي موسى(ع) ولم تكن على جدول الأعمال، وسبحانه وتعالى كان يعلم بأنها ستحصل، حيث أخبر سبحانه نبيّه (ع) بالثلاثين يوما الخاصّة بتلقّي التوراة، والأيام العشرة الزائدة يبدو أنها كانت بسبب أمور أخرى طلبها النبي موسى(ع)... ويبدو هذا الكلام متناسبا "بشكل ما" مع الآيات 83 و 84 من سورة طه {وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى}، {قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى}، حيث مرّت الثلاثون يوما ولم تنته التوراة والنبي موسى(ع) يستعجل متوقعا انتهاءَها بسرعة.

بتحليل الآيات نفهم أنه (ع) يسأل عن إمكانية وجود طريقة ليراه تعالى مثلما وُجِدَتْ طريقة ليسمع كلامه تعالى، لأنَّ النبي موسى(ع) كان يعلم أنه لا يسمع "صوته" سبحانه مباشرة، بل كان يسمعه بواسطة الشجرة أو شيء آخر، ولكن "إحداث الكلام" كان منه تعالى مباشرة، وهنا يسأل (ع) إن كان هناك طريقةٌ مباشرة أو غير مباشرة لرؤيته تعالى وتكون مشابهة لطريقة خلق الصوت في الشجرة فتكون مثلا بخلق صورة له تعالى في شيء ما...

من مخزون ثقافتنا وتصوراتنا ستتبادر إلى ذهننا أمورٌ مختلفة عن احتمالات ما كان (ع) يتوقّع رؤيته، حيث نحن كل واحد منّا بشكل مختلف عن الآخر يفهم طلب النبي موسى(ع)، فالذي فهمه ساذج سيتصور أن النبي(ع) كان يتوقّع رؤية رجل أو كائن مشابه لنا... ومن يظن أن فهمه أعمق سيتصوّر أنه (ع) كان يتوقّع رؤية نور ما... ولكن هذه توقعاتنا نحن، ومن الكلام الكثير المنتشر في الكتب نفهم أن كل كاتب كان لديه توقعات ينطلق منها لتفسير الآية، وهناك توقّع لم يخطر على بالنا، فماذا لو كان النبي (ع) لم يتوقّع أي شيء؟ وفقط هكذا يسأل عن إمكانية الرؤية غير المباشرة؟ وماذا لو كان ناقلا لاقتراح البعض من بني إسرائيل أن يسأل ربّه إن كان بالإمكان رؤيته ولو بشكل غير مباشر؟ وماذا

لو كان مجرد انقداح للفضول لسؤاله تعالى عن الرؤية بسبب التأثّر بكلام بني إسرائيل، حيث جالت الفكرة وجالت ولم تستقر وبضبابية سأل (ع) عن شأن إلهي، وربما هناك طريقة ما ولو تقريبية لحصول شيء ما في موضوع الرؤية...

أثناء دراستي لهذه الآية كتبت عبارة تشير لعلم النبي موسى (ع) باستحالة رؤيته تعالى مباشرة، وأثناء المراجعة سألت نفسي: وما أدراني أنه (ع) كان يعلم باستحالة رؤيته تعالى مباشرة؟ وهكذا ترى كيف تتحكّم بنا ثقافتنا لترينا معنى الكلام، حيث إنني مشحون بالدراسات الفلسفية والعقائدية والكلامية... التي تشير لاستحالة رؤيته تعالى ولا بأي شكل لأي مخلوق، ولكن هل هذه الدراسات العقلية يمكنها أن توصلني إلى فهم شيء إلهي؟

أطلتُ عليك بشيء من خارج التفسير، ولكنه في غاية الأهمية لتبني لنفسك منهاجا صحيحا لفهم كلامه تعالى، لأننا كلّنا نفسّر كلامه تعالى انطلاقا من مخزوننا الثقافي لدرجة تجعلنا نَعْمَى عن الواضح البسيط من كلامه تعالى ونفسّره بشيء مختلف...

أنا ما أدراني أنه تعالى يستحيل رؤيته بشكل مباشر أو غير مباشر؟ وما أدراني أنه لا يمكن انطباع صورة في عيني أو ذهني عنه تعالى؟ وليس بالضرورة أن يكون الكلام عن رؤيته كلّه تعالى... فإن لم يخبرني تعالى عن استحالة رؤيته ولا بأي شكل، ولا بأي طريقة، فكيف سأعلم أن ذلك مستحيل؟

الآن ننتقل إلى كلام خطير نجده هنا وهناك في الكتب الصوفية والعرفانية، حيث يظنون أنفسهم على فهم راق، ويستعملون تعابيرَ قرآنية ورد فيها وصفه تعالى بالنور، ليقولوا إنَّ المؤمنين من الدرجة العالية يرون أنواره تعالى، وبعد ذلك يقولون إنَّ الحجب ترتفع بين المؤمن وربّه سبحانه حتى يصل إلى آخر حجاب حيث لا يمكن لأي مخلوق أن يتخطاه، بل بعضهم نفهم من كلامه أنَّ الرسول محمّد (ع) وصل إلى ما بعد ذلك...

لديهم تفاسير لآيتنا هنا تجعل السؤال الصادر من النبي موسى(ع) وكأنه صادر من واحد منهم متمرّس على اصطلاحاتهم الصوفية والعرفانية! فيصير السؤال منه (ع) عن الرؤية القلبية له تعالى بدلا من الرؤية بالعين... والسؤال عن رؤية النور بدلا من الصورة... ومن مخزون ثقافتي المشحون بكلامهم كررت ما قالوه وقلت إنَّ النبي موسى(ع) يعلم باستحالة رؤيته تعالى!

إن كان (ع) يعلم باستحالة رؤيته تعالى بالعين ويعلم بإمكانية رؤية نوره سبحانه فما معنى السؤال إذا؟ وما معنى الجواب الذي تذكره الآية؟ وما معنى رؤية العارفين والمتصوفة لنوره تعالى بينما الجواب هنا بالاستحالة ولا بأي شكل ولا بأي طريقة، فلو كان كلامهم صحيحا لأراه تعالى نورا!

كما ترى نحن نفترض شيئا توقّعه (ع) وبناء عليه نفسّر الكلام، فماذا لو كان (ع) لم يفترض ما نفترضه نحن؟ أو ماذا لو كان أصلا لم يفترض أي شيء ويسأل ليتعلّم؟ وهذا أبسط وأسهل تفسير للآية، وبعد نقل هذا الخبر للآخرين صار للجميع علم بأنه تعالى يستحيل رؤيته ولا بأي شكل، لا مباشرة ولا غير مباشر، لا نوره ولا عظمته ولا آلاؤه ولا جماله... وعلماؤنا الموصوفون بالرقي الفكري الذين يعتبرون أنفسهم ممثلين لدينه تعالى في كتبهم، كان عليهم أن يكونوا روّادا في الضبط، وللأسف كان أكثرهم روادا في الشطح.

بقي شيء عن تجليه تعالى للجبل، لأنَّ الجلاء وصف لعموم ابتعاد شيء عن شيء بعد أن كان مغطى، كجلاء المحتل، وجلاء النهار للّيل... وفي حالة تجليّه سبحانه، لأنه واسع محيط لطيف... يصير المعنى بتعابيرنا المبسطة: رفع سبحانه الحجب بينه وبين الجبل. بينما أصلا ليس هناك بعد بين أي شيء وبينه تعالى، ولكن بسبب استحالة فهمنا لطبيعة تكوينه تعالى، لن يكون لدينا كلمات لوصف حالة التواصل المباشر أو شبه المباشر بينه تعالى وبين المادة، ولذلك عبّرت الآية بالجلو مختصرة بدقة ما يمكن وصفه بكلمات من لغة البشر.

أمّا سبب انهيار الجبل فيبدو من الآية أنه انهيار للمادة التي تكوّنه، حيث لم تتحمّل تعرّضها لانجلائه تعالى، وبالتشبيه لمجرد تقريب الفكرة لِنَقُلْ إنَّ الجبل تعرّض لطاقة عالية فكّكت ترابط موادّه.

يكفي هذا المقدار لأننا أصلا دخلنا فيما لا طاقة لنا على فهمه من الشؤون الإلهية، وأي تحليل في هكذا أمور سيكون عادةً اقتحاما للمجهول، وسيكون فيه الكثير من الأخطاء، ولقد تمرّست فئةٌ من الناس على استعمال كلمات اصطلاحية في مثل هذه الحالات، وكلماتهم ستستهلك فكرك ووقتك لفهم ما يقصدونه منها وللتمرّس على استعمالها، كالإشراق

والنور والفيض... ووحدة الوجود... وفي النهاية ستظنّ نفسك تقدمت في شيء مهمّ إيمانيا، في علم الربوبية والفلسفة والحكمة العالية، ناسيا أن النبي موسى(ع) من أرقى البشر قربا منه تعالى وبالرغم من ذلك لن يفهم كلامك، وهذه الحادثة أمامك تحلّلها بطريقة لن يفهمها حتى النبي موسى(ع) ذات نفسه! لأنه لسبب أو لآخر سأل، وعلم الجواب من انهيار الجبل، وانتهى الموضوع.

هذا لا يعني الحطّ من قيمة المتعاطين فيما يسمّونه بعلم الربوبية، ولا يعني منع هكذا علوم، بل أقصد التحذير من خطورة ربط الإيمان بها، لأنَّ العقائد البسيطة السهلة الفهم على غالبية البشر، كافية للاتصاف بالإيمان، بينما راج بين بعض الناس أن الإيمان الحقيقي في تعلّم الفلسفة اليونانية المحوّرة لتصير إسلامية، والتي تطوّرت لتصير تصوّفا وعرفانا كفنّ استذواقي لاستنباط بواطن من كلامه تعالى، وأن هذا هو الإيمان العالي للخواص! وبقيتنا عوام!

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ{144})
{قَالَ} ربنا سبحانه: {يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ}، حيث اخترت لك شيئا مميزا لم يحصل عليه بقية الناس، اصطفيتك {بِرِسَالَاتِي}، حيث اخترتك لشيء مميز وهو نقل رسالة منّي للناس عبرك، واصطفيتك {وَبِكَلَامِي}، حيث اخترت لك شيئا مميزا وكلَّمتك، وهذه أمور مميزة خصصتك بها على الناس.

{فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ}، فاكْتَفِ بهذا الاصطفاء وكن من المعلنين لحصولهم على شيء جيّد.

طلبك للرؤية لم يكن في محلّه بغضّ النظر عن استحالته، فمهما كانت التبريرات لهذا الطلب فهو شيء مبالغ فيه لأنك من الأساس حصلت على أمور مميزة جدا، ومعلوم أنك لم تطلبها لتؤمن ولكن لا داعي لطلب الرؤية ولا بأي شكل.

نتذكّر دائما أن الأنبياء هم أشخاص مثلنا مثلهم ولكن قلبهم "أساس فكرهم ونفسيتهم" طاهر سليم، ولهذا السبب يختارهم سبحانه ليكونوا أنبياءَ ورسلاً، لأنَّ الاصطفاء كلمة عامّة تشير لشيء مميز جرى اختياره، حيث إنَّ الشخص بالأصل يكون مميزا وبعدها يحصل على شيء مميز فيصير نبيا، أو من تصفية الأشياء يتم اختيار المميز لوصفه بالاصطفاء، لأنَّ سياق الكلام يحدّد إن كان الموصوف بالاصطفاء مميزا، أو حصل على شيء مميز، أو الاثنين معا، فيكون مميزا ويحصل على شيء مميز.

تلاحظ في كلامه تعالى هنا معه (ع) أنها على معنى: ها قد سألت نفسك عن معنى طلبك للرؤية ما أهميته وما نفعه وما جدواه... وماذا يقدّم أو يؤخّر... وما سببه... وتبيّن لك أنه كان من الأفضل لك أن لا تطلب الرؤية، ويمكنك السؤال عن إمكانية ذلك... لأنَّه سبحانه وتعالى أجاب أولا عمليا على الطلب، حيث حسم سبحانه الموضوع نهائيا، حيث عمليا صار واضحا استحالة رؤيته تعالى، وبعدها انتبه الرسول(ع) أنه أخطأ بهذا الطلب فأعلن فورا التوبة، ويأتي الكلام في الآية هنا للفت انتباه الرسول(ع) لأمور تبدو أنها صارت من الماضي بالنسبة له(ع)، لأنه منذ مدّة طويلة هو رسول، ويكلّمه تعالى، وهذه ميزة غير عادية فما معنى الانتقال عنها لتطلب التميّز بشيء آخر.

بعبارة أخرى، إنَّه سبحانه وتعالى لم يكلّم البشر، واختارك أنت وكلَّمك، وهذا شيء مميز جدا جدا جدا، حيث صار لديك شعور بأنك يمكن أن تتميّز أيضا برؤيته تعالى! وكأن الكلام معه تعالى صار روتينيا عاديا لك!

أطيل عليك لأن القرآن يقصد من نقله لهذه الحادثة تعليمنا منها، لأننا غارقون في نعمه تعالى، وبدل الاشتغال بشكره تعالى عليها ترانا نتلهى بالفضول، بل لا نراه فضولا، بل يصير الأهمّ، حيث ترانا نعتقد بعلو إيمان من يتفرّغ لرؤية أنواره تعالى من بعد تلاوة الأذكار والأوراد والأدعية السرية التي لا يتداولها إلا العارفون من الدرجة العالية، لأنها من الأسرار التي لا يظهرونها للجميع! وإذا واظبت على تكرار صفته تعالى "يا نور" مع كلّ نفس لمدة ثلاثة أيام، فسترى نورا! ويقولون إنَّك أولا سترى ومضات، بعدها نور مبهم، وبعدها أنوار الملائكة(ع)... وإذا فرحت بذلك عَلِقْتَ ولن تتقدّم لترى نوره تعالى، فعليك أن تتخلّى عن كلّ شيء لترى نوره تعالى...

أين هذا الكلام من كلامه تعالى؟ وأين تجده في القرآن؟ وما الذي يدعمه من القرآن؟ وما الذي يوحي به من القرآن؟ بل بالعكس تماما ترى هنا نهيَهُ تعالى عن هكذا فضول وتوجيهَهُ للاهتمام بشكره تعالى على نعمه...

(وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ{145})
{وَكَتَبْنَا لَهُ}، للنبي موسى(ع)، {فِي الْأَلْوَاحِ}، في أشياء لها وجه صفحة كبيرة، ومن المشهور بين الناس أنها كانت ألواحاً حجريةً، كَتَبَ له تعالى فيها، {مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً}، حيث لم يكتب سبحانه له (ع) فيها كلّ المواعظ، لم يكتب كل الأمور التي يتّعظ بها الناس ليتعلموا ما يجب فعله وما يجب تركه حتى لا يقعوا في المشاكل، بل أساسيات الوعظ الكافية لتعلّم ما يجب تركه وفعله حتى لا نقع في الخطأ.

كَتَبَ تعالى له(ع) في الألواح، {وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ}، حيث إنَّ كل شيء مهم للناس لم يجعله تعالى مبهماً مخلوطاً مع شيء آخر يشوّشهم، لأنَّ في التوراة التشريعات الإلهية من الحلال والحرام، وفيها العقيدة الصحيحة، ومثلما نجد في القرآن كل ما هو مطلوب منّا، حيث نعلم أنه يجب توحيده تعالى، والإيمان بأنبيائه ورسله... ونعلم بوجود حساب في الآخرة... ووجوب الصلاة والصوم... وتحريمه تعالى لأكل الميتة والدم... وكما في القرآن يوجد تفصيل لكل ما هو مطلوب منّا، كذلك كان في تلك الألواح.

مِنَ المشهور أن الألواح هي التوراة، حيث ما هو مكتوب فيها اسمه التوراة، ضَعْ في بالك أن الكتاب الذي بين أيدينا ويسميه اليهود والمسيحيون حاليا بالتوراة، لا يقصدون أنها التوراة التي نزلت على النبي موسى(ع)، بل هي تسمية شرفية لمجموع كتبهم الدينية التراثية، والتوراة التي نزلت على النبي موسى(ع) هي جزء صغير "أول خمسة أسفار" من كتاب كبير، المسيحيون يسمّونه بالعهد القديم ويسميه اليهود "تناخ"، مقابل العهد الجديد الذي فِيهِ كتب المسيحيين الدينية التراثية...

يكمل سبحانه كلامه مع نبيه(ع): {فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ}، لَا تترك ما في تلك الألواح بل تمسّك به بقوّة، وعمليا هو أن لا تلن في تنفيذ ما فيها، وَلَا تقبل من أحد تغييرها أو التراخي فيها.

{وَأْمُرْ قَوْمَكَ}، وهم الناس الذين تنتمي لجماعتهم أي بنو إسرائيل، {يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا}، كما تقول: ما أحسن هذا المنظر. ولا تقصد مقارنته مع شيء سيِّئٍ، بل تقصد أنه بالنسبة للحسن فهو كامل الحسن. لأنَّ كل شيء في الألواح هو أحسن ما يمكن، لِيَأْخُذُوا به وَلْتَكُنْ عقيدتهم وشريعتهم منه حصراً.

{سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ}، مَنْ يفسق ويخرج عمّا في تلك الألواح، فسنجعل عندكم صورة محددة لداره، للمكان الذي تدور فيه أمور حياته، والكلام هنا عن وصف جهنّم، كتهديد لمن يصله ما في الألواح ولا يلتزم به، مثلما في القرآن وصف لجهنّم كمكان عقاب لمن خالف ما في القرآن.

لِمَزِيدٍ من التوسّع في معنى كلمة فسق راجع ما ذكرناه في دراسة الآية 102 من هذه السورة.

(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ{146})
{سَأَصْرِفُ}، سيحوّل سبحانه، {عَنْ آيَاتِيَ}، عن الأمور المميزة بمستواها الإلهي والمنسوبة له تعالى، حيث يُشَتِّتُ تعالى عنها انتباه {الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ}، الذين يرون أنفسهم أكبر من غيرهم، حيث لا يحترمون حقوق غيرهم، ويَسْتَعْبِدُونَهُمْ ويَسْتَضْعِفُونَهُمْ ويَحْرِمُونَهُمْ من خيرات الأرض... {بِغَيْرِ الْحَقِّ} بتصرفات غير صائبة، بتصرفات باطلة، على أساس غير صحيح يرون أنفسهم أكبر من الآخرين.

أولئك المتكبرون بغير الحق، {وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ}، حيث أَيَّمَا كان نوع الشيء المميّز بمستواه الإلهي، فإذا صار عند المستكبرين صورة له، {لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا}، لا يعتقدون بها، مهما كان نوعها فلن تقنعهم ليؤمنوا بكلامه تعالى.

الله سبحانه يقول إنَّهُ هو سبحانه صرفهم عن آياته فجعلهم لا يؤمنون بها مهما كان نوعها، وأنت تعلم أنَّهُ سبحانه خلقهم وفي داخلهم تصميم يجعلهم إذا قرروا التكبّر بغير حق، وتمرّسوا على ذلك، فَسَيَنْطَبِعُونَ على هذا التصرّف ويَتَكَبَّرُونَ عن الإيمان بأي آية مهما كانت... وهكذا نفهم أنه تعالى لا يتقصّد شخصاً أو أشخاصاً ليجعلهم منكرين لآياته، لا، بل بسبب تصميمه تعالى لنا بحيث ينطبع قلبنا بقرار منّا على قبول أو رفض الحقّ، فلهذا ينسب تعالى لنفسه سبب وقوع البعض في حالة الكفر بأي آية مهما كان نوعها.

أولئك المتكبرون، {وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ}، حيث يَصِيرُ عندهم صورة محددة لطريق التفكير والتصرف بشكل صحيح عاقل، {لَّا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا}، حيث يَتْرُكُونَهُ ولا يَسْلُكُونَهُ، {وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ}، حيث يَصِيرُ عندهم صورة محدّدة لطريق التفكير والتصرّف بشكل شهواني غريزي فاسد لا عقلاني، {يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا}، يجعلونه مسلكهم في الحياة، حيث يَتَصَرَّفُونَ على أساسه.

{ذَٰلِكَ}، تركهم للرشاد واتباعهم للغي، {بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}، لأنهم لم يصدّقوا بالأمور المميزة بمستواها الإلهي والمنسوبة له تعالى، {وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}، حيث عَنْ قصد لم يهتمّوا ولم يلتفتوا لها أصلا ومشغولين بأشياء أخرى.

تذكّر أن سياق الكلام عن نزول كلام إلهي كتبه النبي موسى(ع) على ألواح، وعن آيات إلهية جرت، ورغم ذلك هناك أناس لا يؤمنون بالآيات رغم وضوح كونها إلهية، ويتركون الطريق الإلهي الحقّ الصالح المرسوم بالكلمات على تلك الألواح، والسبب أنهم بالأساس هم تكبّروا... حيث أَثَّرَ فيهم التكبّر لدرجة جعلتهم يرفضون أي آية إلهية، وجعلتهم يرون طريق الرشد الإلهي ويتركونه، ويرون طريق الغي ويعلمون أنه غيّ ولكنه يعجبهم وعلى هواهم الفاسد وَيَمْشُونَ عليه.

(وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{147})
{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}، الذين قالوا عن الأمور المميزة بمستواها الإلهي والمنسوبة له تعالى إنها كاذبة غير صادقة، وعمليا هم رفضوا الإذعان لدلالتها عليه تعالى وبالتالي هم غير ملزمين بالالتزام بما يقوله الرسول، {وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ}، حيث كذبوا بلقائه تعالى في الآخرة التي ستأتي بعد هذه الدنيا الأولى، لأنهم لم يصدّقوا أنه سيحصل قيام من الموت ووقوف أمامه تعالى ليحاسبنا ويجازينا، وعمليا هو تصرّفهم على هواهم السَّيِّئ هنا في الدنيا على أساس أنه لا يوجد من يحاسبهم مهما فعلوا، فهؤلاء، {حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ}، حيث إنَّ الأمور التي قاموا بها وكان لها تصنيف جيّد لم يعد لها أي قيمة، لأنَّ قيمة العمل الذي تتوقّع أن يعطيك عليه سبحانه ثواباً في الآخرة، مرتبطة بإيمانك به تعالى وأنك ستلاقيه ليجازيك، حيث قمت بالأعمال الحسنة لتنال منه تعالى الثواب، أمّا لو قمت بالعمل الحسن ولم تكن مؤمنا بلقائه تعالى، حيث آويت الأيتام وأطعمت الجياع... ولم تقم بذلك لأجل ثوابه تعالى، فلماذا سيعطيك سبحانه عليها الثواب وأنت أصلا حين قمت بها لم يهمّك أن تحصل منه تعالى على ثواب! بل أهملت دينه!

قبل ذلك وصلتهم آيات تدل على صحّة كلامه تعالى عن الآخرة وحسابها ولم يصدّقوه، فلا يمكنهم أن يقولوا: نحن من فاعلي الأمور الحسنة ولو وصلنا شيء يقنعنا بوجود الآخرة لكنّا آمنّا، ولنوينا أعمالنا له تعالى لننال ثوابه سبحانه... لا، وَصَلَتْهُمْ آيات أكثر من كافية ولم يؤمنوا، وقاموا بأعمال حسنة ولم تكن بنيّة الحصول على ثواب منه تعالى حين لقائه، فهذه الأعمال حبطت، راحت قيمتها، فلا نفع منها.

هذا الكلام فيه جدل دائم بين الناس، على أساس أنَّ من يعمل مثقال ذرة خيرا يره، فَفَاعِلُو الخير لا بدّ أن ينالوا حسنة في الآخرة على عمل الخير، لا، لأنَّ فَاعِلَ الخير بنيّة القربى له تعالى حَدَّدَ له تعالى ثوابا، وفاعل الخير لا بنيّة القربى منه تعالى فلماذا سيعطيه تعالى ثوابا! فلا تفترض أن قلبك طيّب وتعتقد أنه لا بد من ثواب على كل عمل حسن، لأنَّ ديننا عظيم وهو دين الرحمة... لا، ديننا عظيم وهو دين الرحمة ولكن لا تخترع من عندك طيبة قلب له تعالى ولدينه ولا معنى لها، لذا لا تفرض عليه تعالى وعلى دينه شيئا يرفضه سبحانه علنا، لأنه لا أجر على عمل حسن مهما كان ضخما إلا لمن آمن بدينه تعالى والتزم به وآمن بالآخرة وعمل لها، نقطة انتهى.

{هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}؟ هل الحبط لأعمالهم حتى فقدت قيمتها في يوم القيامة بحيث لن ينالوا عليها أي ثواب حسن، هل هو إلا ما كانوا يعملون؟ لأنَّ عملهم من الأساس لا قيمة له عنده تعالى، كمن عمل عندي في أمور تخصّني وذهب يطلب منك الأَجْرَ! حيث إنَّ عمله بالنسبة لك لا قيمة له عندك لتعطيه عليه أجراً.

بعضهم يقول إنَّ العمل الحسن كان مع الناس وسبحانه يأمرنا بعمل الصالحات مع الناس وَوَعَدَ عليها بالثواب، وَهذا صحيح ولكن بشرط أنَّ ما فعلته مع الناس بنيّة الحصول على الثواب في الآخرة منه تعالى، وبشرط أَلَّا ترتكب جرائم كبيرة... حتى من أعلن أنه مؤمن، وصلّى وصام... وتصدّق وآوى الأيتام... فإن قتل نفسا بريئة، ولم يتب ويستغفر، فكل حسناته تحبط ولا يعد لها أي قيمة عنده سبحانه.

بعبارة أخرى إنَّ المشركَ لن يقبل منه تعالى ولا حسنة ولن يعطيه عليها ولا أي أجر، وغير المشرك إن كان مجرما كقاتل النفس البريئة فهذا أيضا لن ينال ولا أي حسنة ولا أجر، حتى لو كان مسلما مصليا صائما... وَبَقِيَّةُ الناس من الموحدين ولكن عندهم خلل ما، حالتهم لا تختلف عن حالتي وحالتك، لأنَّ الشرك به تعالى أو الجرائم الكبيرة هما السببان لحبط الأعمال، ومن هنا يمكن الانطلاق في تحليل وتوقّع ما سيحدث معنا أو مع الآخرين من الملل الأخرى.

(وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ{148})

كان النبي موسى(ع) على الجبل مشغولا بتلقّي الكلام الإلهي، على أساس أن يبقى ثلاثين ليلة وأخبر قومه بذلك، ولكن سبحانه وتعالى من الأساس كان قراره ببقاء النبي(ع) لأربعين ليلة، علما منه تعالى أن فسق بعض بني إسرائيل سيظهر خلال هذه الأيام العشرة "الزائدة"... بالنسبة لبني إسرائيل انتهت مدّة الغياب ولم يرجع النبي موسى(ع)...

{وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ}، من بعد صعوده (ع) إلى الجبل وتأخّره عن الثلاثين يوما، {مِنْ حُلِيِّهِمْ}، من الأشياء التي يتحلّون وَيَتَجَمَّلُونَ بها من صيغتهم وعقودهم وأساورهم، حيث صَنَعُوا منها، {عِجْلًا جَسَدًا}، تمثالا من المعدن على شكل جسد عجل وهو ذكر البقرة، {لَّهُ خُوَارٌ}، ويصدر من التمثال صوت شبيه بصوت العجل الحقيقي، واتخذوه إلها!

لاحظ التعبير عن تمثال العجل بأنه جسد، فالتمثال فيه تفاصيل حقيقية لجسم العجل كحيوان حقيقي، وكان يصدر منه صوت بالتمام كصوت خوار العجل، وسبب حصول الصوت فيه مذكور في سورة طه الآية 87 حيث وضع السامري في التمثال شيئا سبّب حصول صوت... وَمِنَ المشهور بين الناس في عموم الثقافات الدينية أنهم صنعوه من معدن الذهب، علما أنَّ الحلي في حينها كانت تصنع من مختلف أنواع المعادن وقديما كان أشهرها وأكثرها انتشارا بين الناس البرونز "نحاس مع شوائب تجعله صلبا".

الله سبحانه وتعالى يسأل: {أَلَمْ يَرَوْا}، ألم يصر لديهم صورة محددة، كما نقول بالعامية: ما شافوا. {أَنَّهُ}، العجل، {لَا يُكَلِّمُهُمْ}؟ فهو مجرد تمثال لن يتكلّم ولا بأي طريقة معهم فهو صنم، فما معنى عبادة الذي لن يصدر منه أي قول له معنى؟ {وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا}؟ حيث لا يدلّهم ولا على أي مسلك لهم رغبة عقلانية فيه؟ فعلى أي أساس عبدوه؟ فأي صفة إلهية فيه حتى عبدوه؟ وماذا يتوقعون منه أن يفعل؟ وأي قدرات فائقة من مستوى إلهي عنده؟ فالكلام من أبسط القدرات، فهذا التمثال لا يتكلم! فكيف سيتلقون أوامره؟ وكيف يدلهم على الطريق الصحيح؟ فهذه أبسط الأسئلة التي كان من المفروض أن تخطر على بالهم قبل أن يَسْتَغْبُوا ويعبدوه.

أطلت عليك حتى تنتبه أَنَّهُ تعالى لم يدخل في الكلام عن الصفات الإلهية التي نعتبرها معقّدة، كوساعته وإحاطته ولطافته تعالى، وأنه سبحانه ليس كمثله شيء... حيث كثيراً ما تسمع من الناس حيرتهم في محاولة تصوّره تعالى بالرغم من سماعهم من المصادر الدينية أن تصوّره عزّ وجل مستحيل، ولكنَّ البعض لا يستطيعون كبح خيالهم من محاولة تصوّره سبحانه... وهنا الآية لم تدخل في مواضيع عميقة كالتي تجدها في كتاب نهج البلاغة لوصفه تعالى بكلمات بشرية رديفة لمعاني ذكرها القرآن، واكتفت بسؤالين بسيطين جدا جدا يمكن فَهْمُهُمَا بكل سهولة، فَلْنَنْسَ كل شيء، ولنقل إنَّ هذا العجل إله، على أساس أنه خلقهم وخلق بيئتهم، فهذا العجل صنم حقيقي لا يصدر منه إلا خوار! فلا يقول كلاما مفهوما! بأيِّ طريقة سيعلمون منه الطريق الصحيح في الحياة! وما الذي يميّزه عن أي كومة من المعدن غير الشكل! فكلاهما معدن جامد! حيث إنَّ أبسط أبسط إنسان بإمكانه الالتفات لهذه الأسئلة البسيطة البديهية ليعلم أنَّ اعتبار هذا الصنم إلها هُوَ سخافة لا معنى لها، ولا استفادة منها، بل كلّها ضرر.

{اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ}، حيث اعْتَبَرُوهُ إلها وهم ليس معهم ولا أي حق ولا بأي شكل، فالحق والعدل والإنصاف، أن يعبدوا الإله الحقيقي الذي رأوا آياته العديدة، ومن الظلم ترك عبادة الإله الحقيقي وعبادة تمثال لا يتكلم ولا بأي طريقة يصدر عنه إرشادات لمن يعبده.

لاحظ أن مختلف السور التي تحدّثت عن تمثال العجل هذا استعملت عبارات مثل عبارات آياتنا هنا، حيث قالت باختصار إنهم اتخذوه، كالآية 51 من سورة البقرة، وبعدها الآية 92 من نفس السورة، وفي الآية 153 من سورة النساء وهنا، حيث لم تقل إنهم اتخذوه إلها إلّا ما تجده صراحة في الآية 88 من سورة طه {فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ

فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ}، فعلى ما يبدو قَفَزَتِ الآيات عن القول باتخاذهم العجل "إلها" بسبب كراهة الحديث عن تنزيل للمستوى الإلهي إلى هذه الدرجة من مُنْتَمِينَ لدينه تعالى...

بقي شيء، فعبادة العجل نموذج واضح جدا عن اختراع الناس لإله، إذ إنَّهُمْ يعرفونه تعالى ولكن هواهم دفعهم لاختراع إله، وهذا له معنى أعمق مما يبدو، فحتى نحن المؤمنين الذين لم نصنع عجلا أو تمثالا لنعبده، فبطرق أخرى نخترع إلها، وما تراه من عموم الديانات التي تؤمن به تعالى، والذين لديهم اختلافات كثيرة في دينهم، فما دياناتهم إلا نسخ مختلفة من عبادة العجل، فيصير لدينا إلهان، إله خالق لكل الناس ودينه واحد بامتداد تاريخي واضح لآلاف من السنين مع كتب... وإله خلقه الناس وخلقوا له دينا وطقوسا وشريعة مختلفة عمّا يقوله الله تعالى...

(وَلَمَّا سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ{149})

{وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ}، عِنْدَمَا لم يعد بين أيديهم شيء يَتَمَسَّكُونَ به، حيث تَحَيَّرُوا فيما يقولونه كعذر لا يجدونه ليبرروا تأليههم للعجل، وكما تعلم من الآية 97 من سورة طه {لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا} لأنَّ النبي موسى (ع) فَتَّتَ العجل بالنار وذراه في بحر أو نهر، {وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا}، حيث صَارَ عندهم صورة مُحَدَّدَةً، كما نقول بالعامية: شافوا، أنهم كانوا على الطريق الخطأ، {قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا}، إذا لم تَنَلْنَا عناية لما فيه مصلحتنا من المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {وَيَغْفِرْ لَنَا}، حيث يَتَجَاوَزُ عن عبادتنا للعجل، {لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}، حيث سَوْفَ نكون من الذين فقدوا شيئا له أهمية كبيرة، من الذين خسروا كل شيء، لأننا في الدنيا لن تشملنا الرحمة وسيحلّ علينا العذاب، وفي الآخرة مصيرنا النار.

هنا الكلام عن عموم ما جرى معهم، حيث قَفَزَتِ الآيات عن التسلسل في القصة، وَذَكَرَتْ ندمهم قبل أن تذكر نزول النبي موسى(ع)، حتى تريك كيف بسهولة تراجعوا عن عقيدة هشّة دفعهم إليها جنون جماعي أصابهم... في الآية التالية ستعيد السورة القصّة إلى تسلسل أحداثها، حيث بَعْدَ نزول النبي موسى (ع) ومعاتبته لقومه... ندموا...:

(وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الألْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{150})

مِمَّا ورد في الآية 85 من سورة طه علمنا أن النبي موسى(ع) حين كان على الجبل أَخْبَرَهُ سبحانه أن قومه عَبَدُوا العجل {قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ}.

{وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ}، عِنْدَمَا نزل من الجبل بعد أربعين ليلة عائدا إلى الجماعة التي ينتمي لها، {غَضْبَانَ}، لا يمكنه تمرير ما فعلوه من دون ردّ قَاسٍ، {أَسِفًا}، حيث حَصَلَ شيء سَيِّئٌ وهو تأليههم للعجل وكان من الأفضل لو بقوا على إيمانهم، {قَالَ} (ع) لقومه: {بِئْسَمَا}، يا بئس يا لسوء، {خَلَفْتُمُونِي}، حيث غِبْتُ وخَلَّفْتُكُمْ ورائي وَمِنْ بعد ما تركتكم فعلتم شيئا من أَسْوَإِ الأشياء...

{أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ}؟ حيث أَرَدْتُمْ حصول الأمر الذي يريده المسؤول عنكم من مستوى إلهي أن يحصل فيما بعد؟ تفهمها بشكل أبسط حيث تَتَصَوَّرُ أنهم قالوا له: قلت لنا إنَّكَ ستغيب لشهر، ولكنك غبت لأربعين يوما. أَجَابَ (ع) باستغراب أن غيابي كان بأمره تعالى، لِأَنَّنِي سأرجع حتما، وتأخّرت عودتي لعشرة أيّام، وَلَمْ تَسْتَطِيعُوا الانتظار لعشرة أيّام! فهل تأخري عذر لكم لتفعلوا السوء؟ وهل تأخيره تعالى للموعد الذي تَعْرِفُونَهُ هو تبرير لفسادكم؟

بعبارة أُخْرَى أبسط، مَنْ وعدك بشيء بالغ الأهمية بالنسبة لك، وتأخّر، فستخترع ألف عذر له وتنتظره، وهؤلاء لو كان رجوع النبي موسى(ع) بالكلام الإلهي مُهِمًّا لهم، لانتظروا عودة النبي(ع) لسنين ولوجدوا ألف تبرير لتأخّره، والنبي (ع) يصيغ المسألة رابطا لها به تعالى، لأنَّ غيابه كان بأمر منه تعالى، وَلَوْ كان مهمّا في نظرهم انتظار ما يقرره تعالى لكانوا بقوا منتظرين... ولكنهم استعجلوا نزوله ولم يتمهّلوا حتى يأتي لأنهم غير مهتمين أصلا بدينه، وكانوا ينتظرون أول فرصة تناسب جعلها عذرا لهم ليفسقوا... وهذا واضح جدا جدا من تأليههم لتمثال، لأنَّ هَذِهِ الْفِكْرَةَ بَقِيَتْ في بالهم عندما عبروا البحر ورأوا أناسا يعبدون التماثيل...

{وَأَلْقَى}، ورمى النبي موسى(ع)، {الْأَلْوَاحَ}، المكتوب عليها التوراة، رماها (ع) على الأرض، حيث مِنْ شدّة غضبه حين رأى العجل ترك الْأَلْوَاحَ من يده، وما ورد في الآية 7 من سورة القصص عن إلقاء الطفل في اليم يفيد بأن الإلقاء عام لأي ترك لأي شيء ليستقر على أو في شيء آخر، ويحتاج لقرينة أو تصريح في الكلام لتفهم أنه (ع) رماها وتكسّرت كما يقول البعض، حيث إِنَّ إِلْقَاءَهَا لا يَعْنِي أنه (ع) رماها وتكسّر البعض منها، وَرُبَّمَا حصل فعلا انكسار للبعض منها.

{وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ}، النبي هارون(ع)، حيث شَدَّهُ من شعر رأسه وشعر ذقنه "كما ورد في الآية 94 من سورة طه"، {يَجُرُّهُ إِلَيْهِ}، يسحبه معه، ونتوقّع أنه (ع) مشى به إلى حيث يمكن للجميع أن يروه، أو قرّبه من موقع الجريمة، من تمثال العجل، لِأَنَّ النبي موسى(ع) تَرَكَ أخاه النبي هارون(ع) مسؤولا عن القوم في غيابه، فأين كان حين عبدوا العجل؟! ولماذا لم يمنعهم؟

{قَالَ} النبي هارون(ع): {ابْنَ أُمَّ}، يا أخي من أمي، وهذا لا يعني أنه لم يكن أخاه من أبيه أيضا، حيث لَيْسَ لدينا مصادر تقول إِنَّهُمْ ليسوا إِخْوَةً من نفس الأب، لأَنَّهُ مجرد تعبير متعارف عليه للتنبيه على شدّة القرابة، لأَنَّ نَفْسَ البطن الذي حملك لتسعة أشهر حَمَلَنِي. {إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي}، إن هذه الجماعة من الناس تعاملوا معي انطلاقا من ضعفي أمام اجتماعهم ضدّي، استقووا علي، {وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي}، كما نقول نحن: على شعرة كانوا سَيَقْتُلُونَنِي، على لحظة كانوا سينهون حياتي. طبعا هذا يعني أنه (ع) عارضهم وَهَجَمُوا عليه ليقتلوه... وَهَا أنت تجرني من رأسي وتعنفني وكأنني لم أفعل شيئا بينما وصلت الأمور بيني وبينهم إلى حدّ أنهم هجموا عليّ لِيَقْتُلُونِي لأني عارضتهم بقوّة... {فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ}، لِأَنَّنِي من صفّك ولست من صفّهم وَلَا تجعلهم يفرحون بإهانتك لي على أساس تحميلي أنا مسؤولية أعمالهم، {وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}، لِأَنَّ هَؤُلَاءِ لم يكن معهم حق في تأليههم للعجل بل ظلما عبدوه وأنا لم أكن موافقا بل عارضتهم وَلَا تحسبني معهم.

كَمَا نعرف من الآية 94 من سورة طه {قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}، حيث شَرَحَ النبي هارون(ع) للنبي موسى(ع) وأخبره: إِنَّهُ فَكَّرَ بمنعهم بالقوة مستعينا بالمؤمنين، ولكنه كان متأكدا أن القوم سينقسمون لمؤمنين ولمشركين، وستقع معارك.

بَنُو إسرائيل كانوا 12 قبيلة، وكل قبيلة لها جدّ من أولاد النبي إسرائيل(ع) أي يعقوب(ع)، والنبي هارون(ع) من أولاد لاوي كما يقولون، وَفَكَّرَ النبي هارون(ع) أنه لو منعهم من صنع العجل بالقوة لربما قتلوه، وَعِنْدَهَا ستتحرك العصبية القبلية وسيثأر له أقاربه من أولاد لاوي... وسيثأر له المؤمنون... وَتَصِيرُ بين بني إسرائيل جبهة قتال، وينقسمون فرقا ضد بعضها، وكان متأكدا أن النبي موسى(ع) سيرجع، لِذَلِكَ فَضَّلَ الانتظار.

بقي شيء، مِمَّا ترويه لك الآيات ترى بوضوح فَرْقاً بين تأثير النبي موسى(ع) عن النبي هارون(ع)، وَتَرَى فَرْقَ قوّة الشخصية، وعليك أن ترى الفرق بينهما من عيون الذين عبدوا العجل، وَرُبَّمَا يَخْطُرُ بالبال أن خوفهم من النبي موسى(ع) بسبب ما يمكنه أن يفعله (ع) بهم بقوته... على أساس أنه (ع) يكلّمه تعالى، وَفَعَلَ ما فعل بفرعون، وعصاه تتحوّل لحيّة... خُذْ علما أن أصل منحه تعالى لهذه الأمور نابع من تماشيها مع شخصيته (ع)، لِأَنَّهُ شخصية قيادية، صلبة على الحقّ، ولديها أفق، وتفرض احترامها وهيبتها على الآخرين... إِذِ الْفَرْقُ هائل بينه وبين أَخِيهِ هارون (ع)، وَانْظُرْ لكل الحدث بتصوّر نزول شخص عن الجبل، شخص واحد، وتوجّه الجميع نحوه منقادين لكلامه.

كَمَا ترى بِسُهُولَةٍ يأخذك هذا الكلام إلى الفرق بين شخصيات الأنبياء، وترى لماذا تميّز بعضهم بقيادة المجتمعات "مثل النَّبِيَّيْنِ داوود وسليمان" في حين أن الأنبياء الآخرين لم يقودوا مجتمعاتهم وكانوا مجرد موجّهين نحو دينه تعالى، "مثل الأنبياء نوح وهود وصالح ولوط..." وبعضهم حاول القيادة ولكنه لم ينجح بسبب معاندة الناس له... "مثل النَّبِيَّيْنِ يَحْيَى وعيسى..."، ومن هذه النظرة ترى عظمة ما فعله النبي محمّد(ع) بتشكيله لدويلة صارت نواة دولة فيما بعد، بِالْمُقَارَنَةِ مع من سبقه من أنبياء ترى أنه (ع) بنى من الصفر نواة مجتمع ينتمي لدينه تعالى، وبنى منهم نواة دولة، وبحسب التاريخ هَذَا شيء لم يستطع فعله كل بقية الأنبياء. وحتى الذين كان قومهم من المنتمين أصلا لدينه تعالى نَجَحَ من الأنبياء النبي داوود(ع) في تكوين دولة، وورثه ولده سليمان(ع)، أمّا البقية وبحسب التاريخ فَأَقْصَى ما نجح به بعضهم هو قيادة مجتمع صغير.

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ{151})
{قَالَ} النبي موسى(ع): {رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي}، حيث تَتَجَاوَزُ عمّا جرى معنا ولا تحاسبنا عليه، {وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ}، وَاجْعَلْنَا مشمولين بالعناية لما فيه مصلحتنا، {وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}، فإن كان هناك أحد موصوف بالرحمة، بالعناية بالآخرين لما فيه مصلحتهم فأنت يا رب الأرحم.

تَذَكَّرْ دائما المفهوم القرآني المنتشر في عدّة سور عن أن السوء يبقى توصيفه سوءا ولا يتغيّر، حيث حصل تأليه لتمثال، وهذا سوء، ويتحمّل الجميع مسؤوليته، ولذلك ترى النبي موسى(ع) لا يبرّئ نفسه ولا أخاه مما حصل، فهو مسؤول عن هَؤُلَاءِ الناس حيث عيّن أخاه خليفة له فيهم، وحصل السوء، فالاستغفار هنا حقيقي، مثل أمر القرآن للنبي محمّد(ع) أن يستغفر لذنبه عن أمور سيّئة قام بها أناس تحت مسؤوليته (ع)، فحتى لو لم يكن (ع) يتوقّع حصولها، وحتى لو لم يأمر بها، وحتى لو كان نَهَى عنها... لأَنَّهُ حين يحصل الشَّيْءُ السَّيِّئُ تحت مسؤوليته (ع) فَيُحَمِّلُهُ سبحانه الجزء المتعلّق به من المسؤولية.

سؤال: هل كان بالإمكان اتخاذ النبي موسى(ع) لإجراء آخر غير تعيين أَخِيهِ هارون(ع) كخليفة، لِيَمْنَعَ به ما حصل من تأليه للعجل؟ ربما نعم وربما لا، فلا تفكّر فيها من علمه تعالى بما سيحدث وأنه سيحدث حتما، فهذا موضوع آخر لسنا نسأل عنه هنا، بل نسأل عن الاستغفار من حدث سَيِّئٍ كان له(ع) علاقة ما بحدوثه فاستغفر منه، فهل كان هناك حَلٌّ آخر يمنع وصول الأمور إلى هنا حتى يستغفر (ع) مما حدث؟ أُكَرِّرُ لك الجواب: ربما نعم وربما لا. وَفَرْضاً كان هناك حَلٌّ آخر، كفرض منع تجوّل واجتماعات حتى يعود النبي من الجبل... أو التزام النبي موسى(ع) فقط بكتابة التوراة بدلا من طلبه للرؤية وهي شيء من خارج جدول أعمال الثلاثين يوما... أو... ولكن أي فرض تفترضه فلن يغيّر أي شيء من واقع حال تلك الجماعة المؤلهة للعجل، فالسوء الكامن فيهم سينفجر في مناسبة أخرى حتما، وفيما سيأتي من كلام السورة سترى أشكالا أخرى من انفجارات للسوء الكامن فيهم...

على أي حال، ورغم علم النبي موسى(ع) بوجود جماعة كبيرة من المنافقين والفاسقين بين قومه، إلا أنه القائد، فيتحمّل مسؤولية ما يجري من سوء يفعله قومه، لأنه الْمُتَصَدِّي للمسؤولية عنهم وعليهم، ولديه سلطة تعيين قادة ومستشارين... ولديه سلطة تنفيذية...

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ{152})
{إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ}، الذين اعتبروه إلها أو رمزا للإله، {سَيَنَالُهُمْ}، سيحصلون على، حيث يُصِيبُهُمْ، {غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ}، حيث لَنْ يمرّر لهم المسؤول عنهم من مستوى إلهي ما فعلوه بدون ردّ قَاسٍ، لِأَنَّهُ في الآخرة سينالهم العقاب، وَسَيَنَالُهُمْ {ذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، حيث سَيَكُونُونَ هنا في هذه الحياة منقادين تابعين لغيرهم بسبب ضعفهم، {وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ}، الذين عن قصد ورغم معرفتهم أَنَّ صنع التمثال لتمثيله تعالى سوء، صَنَعُوهُ وهم يقولون إِنَّهُ إله وَأَنَّهُ تعالى يرضى عن فعلتهم هذه، لِأَنَّ هَؤُلَاءِ سيكون الغضب الإلهي والذلة لهم في الدنيا مقابل افْتِرَائِهِمْ، مقابل ما لفقوه له تعالى من رضاه على تأليههم العجل وهم يعلمون أن هذا غير صحيح ولا يرضاه تعالى.

مِنَ الآية 54 من سورة البقرة {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ}... نعلم أنه صدر أمر إلهي بهجوم المؤمنين على الذين عبدوا العجل ليقتلوهم، حيث هَذَا جانب من الترجمة العملية للغضب الإلهي عليهم، وَالآيَةُ 55 من سورة آل عمران {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، تعطيك جانبا من الترجمة العملية للذلة لبني إسرائيل.

(وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ{153})
{وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ}، الذين قاموا بالأعمال الموصوفة بأنها سيئة، والكلام عمومي وهنا بالخصوص عن الذين أَلّهوا العجل، {ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا}، حيث فتحوا صفحة جديدة من بعد السيئة، وَمِنْ بعد ما عملوا السوء تركوه وتوقفوا عنه وأعلنوا أنهم لن يَعُودُوا لفعله، {وَآمَنُوا}، حيث أعلنوا اعتقادهم بدينه تعالى بشكل صحيح، {إِنَّ رَبَّكَ}، إِنَّ

المسؤول عنك من مستوى إلهي، {مِن بَعْدِهَا}، من بعد توبتهم، {لَغَفُورٌ}، حيث يتجاوز عن الأخطاء، {رَّحِيمٌ}، حيث لديه عناية خاصة للمؤمنين لما فيه مصلحتهم.

لَاحِظْ دائما في القرآن تَعَابِيرَ مختلفة تعطي معنى أنه سبحانه وتعالى ليس صلبا قاسيا جافا لئيما... بل غفور رحيم، لِأَنَّهُ سبحانه وتعالى لا يأخذ موقفا واحدا لا يتغيّر عنه، حَتَّى الذين أخطؤوا معه سبحانه، وَعَبَدُوا تمثالا على شكل عجل على أنه رمز له تعالى، وهذه إهانة فظيعة للمكانة الإلهية، ورغم ذلك، فإن تابوا وآمنوا، فَإِنَّهُ سبحانه وتعالى يغفر لهم.

تَذَكَّرْ دائما أنه تعالى وصف نفسه بِالرَّحْمَنِ إذا كان الكلام عَامّاً عن عناية لما فيه مصلحة عموم الذين خلقهم سبحانه، ووصف تعالى نفسه بالرحيم عندما يكون الكلام بالخصوص عن العناية الخاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، لِأَنَّ المغفرة والثواب والشفاعة... كتطبيق عملي للرحمة هِيَ أمور لا يحصل عليها إلا المؤمنون حصرا، لأن الآخرين هم بإرادتهم خرجوا من تحت مظلّة الرحمة الإلهية حين كفروا وأشركوا وفسقوا ونافقوا.

(وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ{154})
{وَلَمَّا}، وعندما، {سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ}، حيث إنَّ حالته السابقة بأنه لن يمرّر ما فعلوه بدون رَدٍّ قَاسٍ، ذهبت، وكما تعلم هذا حصل بعد أن أمر المؤمنين بقتل الذين عبدوا العجل... بعدها، {أَخَذَ الأَلْوَاحَ}، حيث الْتَفَتَ لها(ع).

الآيات تريد لفت انتباهك لأهميّة هذه الألواح التي عليها كلام الإله عزّ وجلّ لهداية الناس، وأنها كانت أصلا سبب صعود النبي (ع) إلى الجبل لثلاثين يوما، لأنها كلام إلهي فيه العقيدة والشريعة، فما أهمية أي شيء آخر بالنسبة لنا كبشر أمام أهمية ما ينظّم علاقتنا معه تعالى وينظّم علاقاتنا نحن مع بعضنا؟ حيث إنَّ التوراة تقوّم وتصوّب رؤيتنا للأمور لأنها مرجع للمعلومات الصحيحة عنه تعالى وعمّا فعله وعمّا قرّر فعله، وتصوّب وتقوّم رؤيتنا للأمور حتى نميّز بين الحقّ والباطل والفساد والصلاح، لأنَّ المشكلة بالأساس تحت حكم فرعون كنموذج عن عموم مشاكل بقية المجتمعات، كانت مشكلة عقائدية وتشريعية، حيث فرض فرعون على الناس عقيدة خرافية ينتج عنها شريعة ظالمة تبيح استضعاف بني إسرائيل وقتل أطفالهم... هكذا تفهم أن غيابه (ع) ورجوعه بالألواح ثم إِلْقَاءَهُ (ع) لها عندما غضب... ولم يلتفت لها إلا بعد حصول الاقتتال... أن ما جرى كان مفارقة! لأنهم كانوا بانتظار كتاب هداية، وأثناء الانتظار فعل البعض منهم أَسْوَأَ ما يمكن فعله بتأليه صنم وتهديد الآخرين إن لم يعبدوه! فما معنى كتاب الهداية لأمثال هؤلاء؟!

{وَفِي نُسْخَتِهَا}، حيث إنَّ الأَلْوَاحَ فيها كلام منسوخ، وتعلم أنها نسخة عن كلامه تعالى وعمليا هِيَ منقولة عن الكتاب الأساسي الذي فيه كل شيء حتى هذا القرآن، وكلامها المنسوخ، {هُدًى}، يدل على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، وهنا الكلام عَامٌّ للطريق العقائدي الصحيح الذي يوصل لعبادة صحيحة، وللطريق التشريعي الصحيح الذي يوصل لحياة سعيدة في الدنيا والآخرة.

{وَرَحْمَةٌ}، عناية إلهية لما فيها مصلحتنا، والهدى والرحمة التي في تلك الألواح، {لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ}، حيث إِنَّهَا نافعة مع الَّذِينَ لديهم شعور العجز أمام المسؤول عنهم من مستوى إِلَهِيٍّ، أمّا الذين لا يرهبون فليس لديهم شعور العجز أمامه تعالى، فلا يخافون عقاب مخالفة أوامره تعالى، فهؤلاء لن يعني لهم الكلام المذكور في الألواح أي شيء.

تَتَذَكَّرُ أن موضوع السورة كان عن الجماعات التي توالي أو لا تواليه تعالى، فيصيبهم العقاب في الدنيا والآخرة، حيث تناولت السورة قصصا لأقوام كافرة نالت نصيبها من العقاب... وهنا بدأت السورة تتحدث عن أناس أعلنوا أنهم مؤمنون ولكنهم فعليا لم يسمعوا كلامه سبحانه، لِذَا أخذهم تعالى بالعقاب في الدنيا، وفي حالة الذين عبدوا العجل كَانَ العقاب بالقتل على يد المؤمنين، ولكننا سنرى بعد قليل عقابا مباشرا منه تعالى.

ضَعْ هذا في بالك دائما حتى تنتبه لماذا بعض السور عَرَّجَتْ بالكلام عن أهل الكتاب عموما أو عن بني إسرائيل أو عن النصارى، لأنَّ تلك السور لم تقفز من موضوع لآخر، بل كان هناك شيء فعله أهل الكتاب، وَمُنَاسِبٌ ذكره مع الموضوع الذي تتناوله السورة، حيث كان الكلام عن انحراف عموم الناس عن الحقّ، وفي نقطة ترك موالاته تعالى لفعل شيء سَيِّئٍ، اشْتَرَكَ بنو إسرائيل الْعَابِدُونَ للعجل مع المشركين، بل وكانوا نموذجا فاقعا عن قوم اعتنى بهم تعالى

بإنقاذهم من فرعون العاتي، وَبَدَلَ شكره تعالى عبر إخلاص الالتزام بكلامه وموالاته على أكمل وجه، فِي أول فرصة من بعد ارتياحهم من فرعون، أشركوا! بل عبدوا تمثال عجل!

(وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ{155})

نقرأ في الآية 55 من سورة البقرة {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}، نقرأ عن طلب قوم النبي موسى(ع) رؤيته تعالى {جَهْرَةً}... {فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ}... وبما أننا لا نعرف حادثة أخرى غير هذه، فعادة نفهم أن آيتنا هنا وهناك تتحدثان عن نفس الحادثة، وستجد في الروايات والتفاسير أنهم أولًا طلبوا سماع كلامه تعالى وبعدها طلبوا رؤيته تعالى، والقرآن لم ينقل لنا أي تفصيل عن طلب سماعهم لكلامه تعالى، ونقل لنا فقط صراحةً في الآية 55 من سورة البقرة طلبهم لرؤيته تعالى، ولكن سياق الكلام القرآني لا ينفي طلبهم السماع أولًا، وهذا ممكن بخلقه تعالى للصوت في الهواء أو مباشرةً في طبلات آذانهم أو... وبعد حصوله طلبوا الرؤية {جَهْرَةً}.

اختار موسى قومه، حيث اختار(ع) من الناس الذين ينتمي لجماعتهم، سبعين رجلًا {لِمِيقَاتِنَا}، للحضور إلى موعد حدّده سبحانه لهم، فقومه كُثُرٌ واختار (ع) منهم من رآه مناسبًا، ربما اختار الأكثر إلحاحًا أو الوجهاء المؤثرين على غيرهم... لا ندري، على كل حال، لم يختارهم من المؤمنين "الحقيقيين" بل من نوعية الذين قالوا إنهم لن يؤمنوا حتى يروه تعالى {جَهْرَةً}.

ذهبوا إلى اللقاء... {فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ}، فعندما لم يتركهم الشيء الذي يهزّ أجسادهم، وقرأت منذ قليل هنا في السورة أنه تعالى تجلّى للجبل فانهار الجبل، فنفهم هنا أنه تعالى لأقل وقت ممكن تجلّى لهم فانهاروا، فحصل فجأةً اهتزاز شديد لأجسادهم وماتوا، وبقي النبي موسى(ع) حيًّا لأنه لم يتعرّض لما تعرّضوا له.

{قَالَ} النبي موسى(ع): {رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {لَوْ شِئْتَ}، فأمامك سبحانك خيارات عديدة يمكنك أن تقرر منها ما تراه مناسبًا ولو قررت، {أَهْلَكْتَهُمْ} {وَإِيَّايَ}، لاستنفدت حياتهم وحياتي فمتنا كلّنا، {مِنْ قَبْلُ}، من قبل حصول هذا اللقاء، {أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا}؟ هل تستنفد حياتنا إذا قمنا بعمل ناتج عن خفّة عقل وبساطة؟

النبي (ع) يعلم أنهم ماتوا بسبب تجلّيه تعالى عليهم مثلما انهار الجبل من تجليه تعالى عليه، ومرّ معك ذلك في الآية 143 من هذه السورة حين طلب النبي موسى(ع) رؤيته تعالى، وأنت تعلم الفرق بين الطلبين، فالنبي لم يطلبه ليؤمن أمّا السبعون رجلًا فقد جعلوه شرطًا ليؤمنوا. وأخذتهم {الصَّاعِقَةُ} "الشيء المفاجئ السريع" {وَهُمْ يَنْظُرُونَ}، ولكنه (ع) يريد استعطافه تعالى تلافيًا لسوء التفاهم مع بقية القوم الذين ينتظرون عودة السبعين رجلًا، فالقوم يتوقعون عودة الوفد مع أخبار عن رؤيته تعالى، والآن ستعود جثثهم.

النبي موسى(ع) يطلب بهذا الاسترحام أن يعيد سبحانه هؤلاء السبعين إلى الحياة وألّا يحاسبهم على خفّة عقلهم لأنهم اشترطوا عليه الرؤية ليؤمنوا.

يكمل النبي موسى(ع) كلامه: {إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ}، فهذه الأمور التي نتعرّض لها وتغيّرنا هي من ضمن تصميمك لنا وخلقك لنا بهذه العقلية وفي هذه البيئة، {تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ}، فأمامك سبحانك خيارات عديدة وبتلك الأمور التي نتعرّض لها يمشي البعض منّا على الطريق غير الصحيح، {وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ}، فتضع على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة من لم تغيّره للأسوأ الأمور التي تصيبنا.

هنا الكلام عمّن اهتدى بالآيات واكتفى بها ولم يطلب رؤيته تعالى، ومن خطرت بباله أو عُرضت عليه فكرة رؤيته تعالى ليؤمن فهذا ضلّ، وهذا حصل بسبب قرار منك سبحانك عندما صمّمتنا بحرية الإرادة والاختيار. وكما ترى، فهذا كلام من النبي(ع) لاستعطافه تعالى ومسامحته لهؤلاء الضالين.

{أَنْتَ وَلِيُّنَا}، فنحن تابعون لك وأنت مرجعنا في أمورنا لأنك الإله الأحد، وبلسان حال النبي موسى(ع) المؤمن، هذا تعبير عن اعتقاده الشخصي وعن حقيقة كونه تعالى وليًّا لا وليّ غيره من مستوى إلهي للذين ماتوا بالرجفة، وعلى

أساس ولايتنا لك وولايتك علينا، {فَاغْفِرْ لَنَا}، فتجاوز عن سيئاتنا ولا تعاقبنا، {وَارْحَمْنَا}، فعاملنا بعنايتك لما فيه مصلحتنا، {وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ}، والمعنى المباشر لكلمة "خير" هو وصف الشيء بأنه جيّد في مقابل شيء سيئ، أو في مقابل ما هو أقل منه خيرًا، فنفهم هذا النوع من التعابير القرآنية عادة بالمقارنة مع الآخرين، فخير الحاكمين خير الغافرين خير الرازقين... على أساس أنه إن كان عبادك يغفرون لبعضهم، فأنت يا رب خير منهم ومن غيرهم في المغفرة ومسامحة من فعل السوء، ولكن كلمة خير أيضًا تشمل عموم الوصف مطلقًا بدون مقارنة مع أي شيء آخر.

قبل أن نكمل مع كلام النبي موسى(ع) سيخطر ببالنا أنه هو (ع) منذ قليل نقلت لنا الآيات طلبه رؤيته تعالى، ولكن الفرق أن هؤلاء السبعين جماعة من جماعة أكبر من بني إسرائيل، فهم أعلنوا أنهم لن يؤمنوا به تعالى حتى يروه {جَهْرَةً} كما ورد في الآية 55 من سورة البقرة، وهذا على فرض أنه لم تحصل حادثتان وأن القرآن في مختلف الآيات يتحدّث عن حادثة واحدة وهي طلب الرؤية واختيار السبعين... وهو الأرجح، أمّا النبي موسى(ع) فكان يسأل عن إمكانية الرؤية لا ليؤمن، فهو مؤمن سواء حصلت الرؤية أم لم تحصل.

هذا الكلام يأخذنا إلى شيء نقرأه في الكتب عمّا يسمونه بالعلم الشهودي، على أساس أنه نوع من العلم اليقيني كشعوري بذات نفسي، فأنا لا أشك بأني موجود أو غير موجود، فأنا أشعر بنفسي، بفكري، بتأثيري على ما حولي... وحتى لو أغمضت عينيَّ وتعطّلت حواسّي، فإني أشعر بنفسي... فيقولون إنّ الأنبياء هكذا يشعرون به تعالى، وهذا ليس نقاشنا هنا، فالسؤال: هل حين يسمع النبي الوحيَ يشعر بأنه يتواصل معه تعالى؟ وبشكل أبسط: هل الوحي يجعله يؤمن به تعالى لأنه يشعر به تعالى أثناء نزول الوحي؟ وهل يحصل علم شهودي عند النبي أثناء نزول الوحي؟

النبي موسى(ع) كلّمه تعالى، وهل حين يكلّمه تعالى يشعر (ع) بوجوده تعالى شهوديًّا كما يشعر بذاته؟

بدلًا من هذه الأسئلة التي قد لا نفهمها، والتي حتى تصل إليها تحتاج لليّ القرآن بما يسمّونه باطن كلامه تعالى كتأويل لا أفهمه أنا البسيط وهم يفهمونه، لنسأل السؤال البسيط: هل لو نزل عليَّ الوحي وبنفس الطريقة التي نزل بها على الأنبياء، لَنَقَلني من الكفر إلى الإيمان أو لازداد إيماني؟ أم هل لو كلّمني تعالى كما كلّم نبيّه موسى(ع) سأزداد إيمانًا أو سأصير بسبب الكلام الإلهي معي مؤمنًا بعدما كنت شاكًّا أو كافرًا؟

لا، فالوحي وسماع الكلام الإلهي لا تأثير زائد له عن سماعي الكلام من شخص ما عبر أُذُنيَّ، فإمّا أقتنع وأتماشى مع ما أسمعه، أو سأرفضه حتى ولو نطق الطائر أو الحائط وقاله.

النبي موسى(ع) لم يصر مؤمنًا لأنه سمع كلامه تعالى من الشجرة، ولم يطلب الرؤية ليصير مؤمنًا، ولن يصير هؤلاء السبعون مؤمنين إذا سمعوا كلامه تعالى، ولن يؤمنوا حتى لو رأوه تعالى.

ما يقولونه في الكتب عن حالات العلم الشهودي ورؤية نوره تعالى... هو كلام لا أثر له في القرآن إلا عبر التأويل لكلامه بغير ما يعطيه المعنى الظاهر، وهنا في الحادثة للسبعين وقبلها مع النبي موسى(ع)، فإن لم تكن رؤيته تعالى {جَهْرَةً} ممكنة، فلماذا لم ير النبي موسى(ع) نوره تعالى طالما هذا أقصى ما يمكن رؤيته كما يدّعي العرفاء والمتصوفة؟! أو لماذا لم يشعر به تعالى شهوديًّا كما يقولون؟! فإن لم يكن في هكذا حادثة مناسبة للكلام الإلهي عن العلم الشهودي ورؤية الأنوار، فأي حادثة أخرى أنسب لذلك؟

(وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَـا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ{156})
يكمل النبي موسى(ع) كلامه: {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً}، فقرّر لنا هنا في هذه الحياة أن يحصل معنا شيء موصوف بأنه حَسَنٌ، {وَفِي الْآخِرَةِ}، في الحياة التي ستأتي في الآخرة من بعد تبدّل الدنيا وأيضًا قرّر أن يكون لنا شيء موصوف بأنه حَسَنٌ.

{إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ}، فنعتبر هدايتنا نحوك، فأبنا إليك، فرجعنا إليك وتوجهنا إليك في كل شيء. وهذه الجملة القرآنية هي أقدم وصف قرآني لجماعة بني إسرائيل بأنهم يهود، وبناءً عليه اعتبرنا أن التسمية لهم سببها كلام النبي موسى(ع) هذا المنقول هنا على شكل اشتقاق من كلمة هداية.

في القواميس العبرية المرموقة نجد كلمة "يهود" واشتقاقها من هاد هدنا "هداية"، وتطبيقيًا كفعل "مباشر" فسروها على معنى الإنابة والحمد له تعالى "المنيبين الحامدين"، ففي اللغتين العربية والعبرية هي في الأساس نفس الكلمة بنفس المعنى من الاهتداء "الهداية"، وعندما تشتق منها تسمية أو فعلٌ مباشرٌ يصير تصريفها مثل قول النبي موسى(ع) الوارد هنا {إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ}، وترى ذلك في استعمال اشتقاق فعل منها عدة مرات في القرآن ومنها ما ورد في الآية 62 من سورة البقرة {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى...}.

{قَالَ}، أجاب سبحانه: {عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة ليقرّر من سيتعرّض لما يؤذيه، وهذا كلام عامّ وتعلم من القرآن أنه تعالى بحكمته شاء فقرّر تعذيب الكافرين والمنافقين والفاسقين، وبالنسبة للاسترحام الذي قدّمه النبي موسى(ع) للذين أخذتهم الرجفة، فهذا الاسترحام لن يغيّر ما شاءه تعالى من عذاب للذين لن يؤمنوا حتى يروه تعالى {جَهْرَةً}.

قارن بين طلب النبي موسى(ع) لرؤيته تعالى على أساس الفضول إذا كان هناك مجال لحصول الرؤية بطريقة ما ولو غير مباشرة... وبين طلب هؤلاء للرؤية {جَهْرَةً} "بشكل مباشر" كشرط للإيمان به عزّ وجلّ، فسبحانه تجلّى للجبل حتى لا يُصَابَ نبيّه (ع) بأي ضرر، أمّا هؤلاء فقد تعمّد سبحانه إصابتهم بما يؤذيهم، فمعاقبتهم على طلبهم للرؤية جهرةً حصلت، وعقابهم في الآخرة سيحصل حتمًا إن بقوا على نفس العقلية، فهذا ما شاءه تعالى لهذه النوعية من الناس.

نكمل مع كلامه تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}، فعنايتي لما فيه المصلحة للآخرين ليست ضيّقة محصورة بأحد، بل مفتوحة لتشمل كل شيء، فمن لم أعامله برحمتي فهو الذي خرج منها. بعبارة أبسط، بالأصل والأساس إنّ عنايته تعالى بمخلوقاته لما فيه مصلحتهم "سعادتهم راحتهم توفير ما يحتاجونه..." ممتدة لتشمل الجميع بدون أي استثناء، فهي متاحة للجميع ولكن بشرط، {فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ}، فستكون مسجلة كقرار للذين يتجنبون ويتحاشون، وهذا الوصف عمومي لتجنّب أي شيء، وغالبًا يشير بها القرآن لتجنّب فعل السوء والشرّ والفساد... وهذا عمليًا تجنّب لمخالفة أوامره تعالى وبالتالي تجنّب غضبه وعقابه تعالى، ولذلك ليس من الصعب التمييز بين ما تقصده الآيات بالتقوى، فهل تشير لتجنّب السوء أو تشير لتجنّب غضبه تعالى؟ وكما ترى، لا داعي أصلًا لفصل الحالتين عن بعض لأنهما متلازمتان في النتيجة فكلاهما ترك السوء. فمن خالف أوامره تعالى فهذا بقرار منه هو شخصيًا قرّر الخروج من تحت مظلّة الرحمة الإلهية الواسعة، وبخصوص الكلام هنا، هؤلاء السبعون رجلًا هم قرّروا الخروج من رحمته تعالى.

سيكتب سبحانه رحمته {لِلَّذِينَ} {يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ}، فيجعلونها عند من يوزعها على المصاريف المناسبة أو بيدهم ينفقونها على المصاريف المناسبة. وكلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، فتشير لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكية، مال زاكٍ، طعام زاكٍ..."، ومنذ القدم صارت مصطلحًا دينيًا يشير إلى دفع نسبة محدّدة من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ...}، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، فيدفع منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة {...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...}، فتكون نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرةً على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

الرحمة سيكتبها سبحانه، {وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}، الذين يعتقدون بعموم الأمور المميزة بمستواها الإلهي والمنسوبة له سبحانه، فهي تشمل ما يسمّيه الناس بالمعجزات وتشمل خلقتنا وخلقة بيئتنا والصفات والظواهر فينا وفي بيئتنا... وهذا ما ركّز القرآن عليه كثيرًا، وتشمل كلامه تعالى في الكتب التي نزلت على أنبيائه... فالمعتقدون بها مضافًا للتقى والزكاة، هؤلاء سيكونون تحت مظلّة الرحمة الإلهية، والآخرون سيكونون خارجها.

بقي شيء، فمنذ القدم درج بين الناس اختراع الأدعية التي يتوجّهون بها إليه سبحانه، وهذه الأدعية ستكون انعكاسًا لقلوبهم... وعلّمنا القرآن مرارًا كيف ندعوه تعالى، ولم يمنعنا من اختراع الدعاء ولكن ضمن المفاهيم التي طرحها

القرآن، وهنا في الآية نقطتان واضحتان حول الدعاء، الأولى دعاء النبي(ع) بالحسنة في الدنيا والآخرة، وهذا الكلام شبه التمام بما ورد في الآية 201 من سورة البقرة {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}، فكثير من الأدعية التي يخترعها عامّة الناس موجّهة لطلبات دنيوية وليس فيها استغفار ولا طلب الحسنة للآخرة، لأن قلوبهم متعلقة بالدنيا أكثر من الآخرة، حتى إنّ بعض الأدعية التي ينشرها الناس على تطبيقات التواصل الاجتماعي تشبه كثيرًا التعامل مع جني الفانوس السحري الخرافي! وليس مع الإله سبحانه وتعالى، فتلك الأدعية تشبه تمامًا ما ورد في سورة البقرة الآية 200، حيث يطلبون هنا للدنيا المال والصحة والتوفيق... بينما هو لو مات لذهب إلى النار حتمًا! {...فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ}.

النقطة الثانية الواضحة في آيتنا هنا وجود معايير إلهية لا يمكن تخطيها بأي شكل، فالدعاء لن يغيّر أي شيء في تلك المعايير، فمن لم يتقه تعالى ولم يُزَكِّ ولم يؤمن... فهذا مهما دعا ومهما دعا له الآخرون فلن ينال الرحمة الإلهية، ويمكنك أن تشتق شيئًا مهمًا جدًا من هذا الكلام، فلا يوجد أي طريقة لعقد اتفاق جانبي معه سبحانه وتعالى، فالكلّ تحت نفس المسطرة، ولتقريب الفكرة ألفت انتباهك لمن يقول عن نفسه بأن قلبه طيّب وأن إهماله لأوامره تعالى وارتكابه للكبائر وإصراره عليها وليس لديه نيّة للتوقّف عنها... يمكن أن يتغاضى عنها سبحانه لأنه يساعد الفقراء... لا، لن يحصل هذا.

يمكن أن تلتفت إلى ما نفكّر به دنيويًا من حصولنا على كمية ضخمة من المال هكذا فجأةً، كالعثور على كنز، على أساس أن يكون حدثًا ننفرد به عن الآخرين لأننا سنستعمل هذا المال لمساعدة الآخرين... فهذا التفكير من نوع الاعتقاد بإمكانية عقد اتفاقيات جانبية معه تعالى، ليحصل معنا نحن فقط ولا يحصل مع الآخرين، فهذا التفكير لا قيمة له، فطلب الرزق منه تعالى مشروط بسيرة حياة من التقى، وبعدها يأتي الرزق من حيث نحتسب ومن حيث لا نحتسب، فلا نفع للتقوى لخمس دقائق أثناء الدعاء، وقبلها وبعدها سيرة فسق! والرزق بما يكفينا لنعيش بكرامة ليس على معايير محبّي الدنيا من الغنى الفاحش، بل على مقياس العيش بكرامة...

أطلت عليك لأن الآية ردّت على طلب الاسترحام الذي قدّمه النبي موسى(ع) بحق السبعين رجلًا لتكون لنا درسًا نتعلّم منه، فمن الآية 56 من سورة البقرة {ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} علمنا أنه تعالى أعاد إحياءهم، وكما ترى فهذا لا يتضمّن ولا يعني أن العذاب على نكرانهم للآيات ارتفع عنهم، فإن بقوا على حالهم فعذاب الآخرة موعودون به وحتميٌّ للكافرين والفاسقين والمنافقين.

هناك العديد من الأمور التي يمكن اشتقاقها بسهولة من آيتنا هنا، ففيها أن شفاعة رسول كليم له تعالى لن تنفع لتغيير المعايير الإلهية، فالفاعل للسوء من العيار الثقيل ولم يتب منه فحتمًا سيُجَازَى عليه حتى لو فرضًا شفع له كل الملائكة والأنبياء. وفيها أننا نحن الذين نخرج من تحت مظلّة رحمته تعالى بإرادتنا، وفيها أن الزكاة أمر إلهي ملتصق بدينه تعالى منذ القدم، وبناءً عليه فأي كلام لتفسير آيات القرآن التي نزلت في مكّة قبل الهجرة والتي ذكرت الزكاة، والتي فسروها بمعانٍ أخرى غير الضريبة الدينية الواجبة، على أساس أن الزكاة شُرّعَت في المدينة بعد الهجرة، فهو كلام مرفوض مردود بآيتنا هنا وأشباهها، حيث ترى بوضوح أن الزكاة من الفروع القديمة للدين الإلهي، مثلها مثل حرمة الكذب والزنا والسرقة وشرب الخمر ولعب القمار... فعلى أساس حديث القرآن عن عقاب السارق في سور نزلت بالمدينة، فهل من المعقول أن نقول إنّ السرقة تشريع نزل في المدينة وقبل ذلك لم يكن المسلمون ملزمين بحرمته!...

وأخيرًا ننتبه للأوصاف الإيمانية الشخصية التي ذكرتها الآية واختيار الزكاة من بين بقية الواجبات الدينية، فلم تختر الصلاة ولا الصوم... بل اختارت أمرًا إلهيًا فيه منفعة موجهة لنا بين بعضنا، وهو مساعدة بعضنا البعض ماليًا، كأبرز نموذج عن أمور لها علاقة بحياتنا الاجتماعية وهي من صميم الدين الإلهي.

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{157})

تكمل السورة الكلام العامّ الإلهي السابق لتدخل في استمراره عبر التاريخ كقرار إلهي لم يتغيّر ويسري على كلّ الناس بدون أي استثناء، ونزول هذا القرآن مع الرسول محمّد(ع) استمرار للخط الإلهي، وهذا القرآن آخر كتاب إلهي موجّه

للناس، والتطبيق العملي الفعلي للذين هم تحت مظلة رحمته تعالى من المتقين المؤمنين بالآيات المزكّين... وتطبيقه عمليًا في عصر القرآن هو الاستمرار بالإيمان والعمل على ما شاءه تعالى مما ورد في القرآن، وبالالتزام به نبقى مشمولين بالرحمة:

{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ}، فيكونون على ما يقوله الناقل لرسالة منه تعالى للناس، {النَّبِيَّ}، الذي يصله النبأ منه تعالى، يصله خبر غير منتشر علمه بين الناس، {الْأُمِّيَّ}، الذي على الحالة التي ولدته فيها أمّه، وهناك شيء ما لا يحصل عليه إلا إذا تعلّمه، وهنا المقصود أنه (ع) لا علم له بالكتاب الإلهي، ولم يكن من أهل الكتاب من اليهود أو النصارى أو غيرهم...

كلمة أمّيّ أعمّ من جهل الكتابة والقراءة، تشمل انتفاء معرفة أي شيء كان، وأساس المعنى للأمية هو الرجوع إلى الحالة الأم الأساسية، كالتعبير في الآية 9 من سورة القارعة {فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ}، وكحالتك حين ولدتك أمّك، عندك قابلية تعلّم الأشياء، كالقراءة والكتابة والزراعة وتعلّم الكتاب الإلهي والكيمياء... أنت أمّيّ بالطبّ إن لم تتعلّم الطبابة، وأمّيّ بالكتابة إن لم تتعلّم الكتابة، وأمّيّ بالفلك إن لم تكن من أهل علم الفلك... وبحسب سياق الكلام يتحدّد نوع الأميّة التي نقصدها، وهنا سياق الكلام يشير إلى كون النبي محمّد (ع) أمّيًّا لأنه ليس من أهل الكتاب، علمًا أنه (ع) أيضًا كان أمّيًّا بالقراءة والكتابة، وهذا المعنى الذي صار انصراف الذهن إليه دارجًا بسبب حصر الكثيرين لاستعمال كلمة أمي بهذا المعنى.

بعبارة أخرى، سياق الكلام هنا عن أن الرسول محمّد(ع) أمّيّ يشير لكونه على الأساس الإيماني وليس يهوديًا ولا نصرانيًا، وهذا المعنى يتضمّن مدحًا لحالته الإيمانية(ع) بأنها لا تزال صافية لم تتشوّه بانحرافات اليهود والنصارى، ويتضمّن أن ما ينقله من كلامه تعالى فهو على الأساس أيضًا، ولنقل إنّه (ع) لا يزال فكره ونفسيته صافيين، وصار رسولًا، وبالتالي ما سيقوله نقلًا عنه تعالى سيكون صافيًا على الأساس من المصدر وعبر الناقل.

أيّ معنى آخر كتطبيق لوصف الأمية ككونه (ع) لا يجيد القراءة ولا الكتابة أو لكونه من أمّ القرى مكّة... سياق الكلام لا يساعد عليه.

ذلك النبي، {الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ}، وهو مجموع الكتب الدينية لليهود، ويجدونه مكتوبًا في {الْإِنْجِيلِ}، وهو مجموع الكتب الدينية للمسيحيين، فيهما أنه سيأتي في الآخر نبي وسيكون أمّيًّا، ولن يكون من أهل الكتاب.

حتى وقت نزول هذه الآية نحتمل بقوّة أن يكون للنبي محمّد(ع) ذكر في الكتابين، وربما لا يزال إلى الآن بعض النسخ المخبأة وهي مطابقة لما كان في عهد نزول هذه الآية، وما ورد في سورة الصف عن بشارة النبي عيسى(ع) بنبي اسمه أحمد ربطه البعض بكلمة "بارقليط" الواردة في إنجيل يوحنا، حيث كان الكلام عن شخص موعود بقدومه... وحتى بعد ترجمة هذا الإنجيل إلى العربية تركوا هذه الكلمة على لفظها اليوناني بلا ترجمة، مما يدل على أنها اسم منحول من وصف وتركوها كما هي، ويبدو من بعض الأبحاث بشكل قوي أنّ كلمة "بارقليط" هي المرادف اليوناني لكلمة أحمد، ومحمد الذي غيره يصفه بأحمد، وهي صفة للكائن، مثل أصفر كصفة للكائن، ومصفرّ عندما تصف أنت الكائن.

نجد في التوراة المنشورة حاليًا إشارات لشخص سيأتي بعد المسيح(ع)، ولكنها مبهمة جدًا... وعلى كل حال، تحريف الكتابين لمحو اسم وأوصاف الرسول الإلهي الأخير، لا يغيّر من كونه تعالى ذكره في تلك الكتب، والآية هنا خبر منه تعالى لنا لننتبه أنه سبحانه زوّد الناس بدليل للتأكد من صدق نبوّة الرسول محمّد(ع).

بعبارة أخرى، فإن لم نجد اسْمَ ووصف الرسول محمّد(ع) في التوراة أو الإنجيل الحاليين، فهذا ليس حجة لنا ألّا نؤمن به كرسول، ومن المعلوم والذي لا يجادل فيه إلا كذّاب مفترٍ، أنه في بداية إنشاء مركزية الكنيسة المسيحية قرروا إلغاء كل الأناجيل التي وصلتهم واعتمدوا أربعة أناجيل كتبها أشخاص لم يكونوا من أصحاب النبي عيسى(ع)، وما في هذه الأناجيل نسخة محرّفة عن الإنجيل الإلهي الذي نزل على النبي عيسى(ع)، وبناء عليه لا يمكن للمسيحي أن يقول: لا أجد في الإنجيل ما تقوله الآية هنا، فالقرآن كاذب ولن أؤمن به. لا، لأنّ المشكلة في إنجيلك المحرّف.

بالنسبة للتوراة، أيضًا من المعلوم والذي لا يجادل به إلا كذاب مفترٍ أن القسم القديم من التوراة التي بين أيدينا كتبه الكاهن اليهودي "عزرا" من ذاكرته، وذلك بعدما فقدوا النسخة الأصلية بسبب تعرّضهم لهجوم دمّر مدن اليهود واحترقت نسخ التوراة... وفي التوراة تعارض بين بعضها البعض، وفيها تعارض مع المصادر التاريخية الأخرى المثبتة بالآثار... ولا يحقّ لليهودي أن يقول عن آيتنا هنا أنها غير صحيحة لأنه لا يجد في التوراة ما ذكرته الآية هنا، لأنه يبحث في توراة تحرّفت عن الأصل...

نرجع للآية التي تكمل مع دليل آخر على صدق نبوّة ورسولية محمّد(ع): {يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ}، ويطلب من الناس القيام بالأعمال المتعارف عليها، وسياق الكلام يقصد أنه (ع) يأمر الناس بالخير المتعارف عليه بين العقلاء والصالحين المنتمين للدين الإلهي، ويأمر بالتوحيد والإيمان بالآخرة وبالرسل السابقين وبالصلاة والصيام والزكاة...

ننتبه جيدًا، العلمانيون الذين يكتبون عن الأديان نجدهم يشملون الدين اليهودي والمسيحي والإسلامي مع بعض، وهؤلاء لا يؤمنون بهذه الأديان ولكنهم من مراجعة ثقافة هذه الأديان يقولون بأنها امتداد لخط عقائدي وتشريعي واحد، وفيه بعض الاختلافات التي لا تشوّه الشبه الكبير بينهم في الأساسيات... وتجد عمومًا بين اليهود والمسيحيين الكثير ممن يقرّ بهذه النظرة، وفي المقابل تجد المتعصبين من اليهود والمسيحيين بصلابة عقول صخرية رافضة لهذا الشبه الواضح! رافضين أن يكون القرآن امتدادًا لدينهم! وهذا ما تشير له الآية بكلامها عن الأمر بالمعروف وهو نفسه الأمر بما يعرفه اليهود والمسيحيون من دينه تعالى مع إعادة تقويم وتصويب لما حرّفوه.

نكمل مع الآية: {وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ}، ويطلب منهم الامتناع نهائيًا عن أي عمل منكر، وسياق الكلام عمّا ينكره ولا يستحسنه "المتدينون العقلاء" لأنه سيئ، كالشرك والزنا والسرقة وقتل الأبرياء وعقوق الوالدين وشهادة الزور...

المنكر من مقابلته مع "عرف معرفة" يعطي معنى حصول صورة أو مفهوم ونفي تطابقه مع ما لديك، وهو عموم ما ليس معروفًا على الوجه المطروح، كرفض لتصنيفه.

فإن كانت الكتب محرّفة ولا تجد فيها ذكرًا للرسول محمّد(ع)، أو خرج شخص يقول إنه هو النبي الموعود به في تلك الكتب، فيمكننا معرفة إن كان هذا الشخص نبيًّا أم لا مما يأمر به وينهى عنه، فإن أمر الناس بالمعروف ونهاهم عن المنكر، فهذا دليل إضافي أنه نبي ومرسل منه سبحانه، لأنّ من الصعب جدًا أن يلتزم الدجّال بالخطّ الإلهي، حتمًا هنا أو هناك سيأمر بالمنكر وينهى عن المعروف... وسيكنز المال أو يستغلّ السلطة ويظلم الناس...

وذلك النبي، {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ}، الأشياء الموصوفة بأنها جيدة محببة وهو يقول للناس بأنها حلال ولا عقاب إلهي على فعلها. ويمكنك أن تفهم آيتنا هنا أنها تشير لأمور طيّبة كان حرمها تعالى في السابق على أهل الكتاب بسبب سيئة جماعية ارتكبوها... ويأتي هذا الرسول محمّد(ع) ليعيد تحليلها بأمر منه تعالى، وهذا له نموذج في القرآن عندما تحدّث عن تحريم بعض شحوم الأنعام والذي تجد عنه كلامًا تفصيليًا في الآية 146 من سورة الأنعام {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}، ولكن اترك جملة تحليل الطيبات على عمومها، وانظر لها من بعيد "كنظرة العلمانيين العقلانيين بدرجة مقبولة أو كنظرة المتدينين العقلانيين"، فسترى بالعموم أن أديان الخط الإلهي تحلل الملذات الجسدية من أكل وشرب وزواج... ما كان على المواصفات الجيدة، وقارنها مع أديان تحرّم أكل كافة اللحومات، أو قارنها مع أديان تعتبر الزواج علاقة حيوانية مانعة من الرقي الروحي، أو مع أديان تمنع الالتذاذ بالأكل وعموم الشهوة... علمًا أن هذا التخريف دخل على بعض اليهود والمسيحيين الذين يعتبرون أنفسهم راقين إيمانيًا، ودخل علينا أيضًا من باب الزهد والتصوف والعرفان، مروّجين لإجبار النفس على ترك ملذات الدنيا الحلال حتى لا نتحاسب عليها! أو حتى لا نتعلّق بها وننسى الآخرة! وغيره من الكلام الذي في جانب الحرام منه صحيح، ولكن في جانب الحلال وما أباحه تعالى فهذا شأن كل فرد منّا، ولا يحق لي تعميم ذلك ليفعله الآخرون، وها ترى الكلام هنا صريحًا بتحليل الطيبات، ولسنا أرقى إيمانيًا من النبي محمّد(ع) الذي حين كانت الظروف مواتية كان يأكل المشاوي محبًّا للحم الكتف "كما هو مذكور عنه"... وفي الظروف الصعبة كان يجوع مقدّمًا ما يملكه للآخرين...

وذلك النبي، {وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ}، وهي الأشياء الموصوفة بأنها عاطلة فاسدة، من عموم الملذات الجسدية والتي ينفر منها المتدينون العقلاء، من الأطعمة والأشربة كالدم والبول والحيوانات الميتة... والعلاقات الجنسية السيئة كالزنا...

وذلك النبي، {وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ}، الأشياء الثقيلة، {وَالْأَغْلَالَ}، الأشياء التي تقيّدهم، حيث نتج تضييق إلهي على أهل الكتاب ببعض التشريعات بسبب تكذيب آبائهم للرسل وقتلهم الأنبياء وتضامنهم على فعل السوء... كحرمة العمل بتاتًا يوم السبت... ونتج أيضًا عن تراكم ثقافاتهم الدينية والاجتماعية تشريعات ثقيلة وتقيّدهم وليست من تشريعاته تعالى... كتحريمهم لإعداد الطعام في يوم السبت...

سنرى في الآيات التالية مثلًا عن الإصر والأغلال، في نهار السبت كان ممنوعًا العمل فيه نهائيًا على اليهود، من أول ليله حتى آخر نهاره، وهذا تغيّر عندما جاء النبي محمد(ع)، وصار العمل ممنوعًا فقط في فترة صلاة الظهر في يوم الجمعة. وفي فترة من تاريخ اليهود حرّم سبحانه عليهم بعض شحوم الحيوانات، وعادت لتصير حلالًا من بعد نزول القرآن... ومضافًا لذلك التعقيدات التي يخترعها الناس في التشريعات والثقافات والعادات التي تصير من التشريعات، وتصير أيضًا نوعًا من الإصر والأغلال...

لاحظ طريقة كلامه تعالى من نظرته لمن ادّعى أنه مؤمن بدينه تعالى، أنت مؤمن وحرام عليك كذا وكذا... والآن جاءك تشريع إلهي يسمح لك بكذا وكذا... على أساس أن هذا القرآن ليس دينًا جديدًا، بل امتدادًا لدينه تعالى.

{فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ}، الذين اعتقدوا بمحمد(ع) نبيًا رسولًا، {وَعَزَّرُوهُ}، دعموه ليكون منيعًا، وأيّدوه ولم يعارضوه، {وَنَصَرُوهُ}، وساعدوه على تحقيق ما هو مطلوب منه (ع) كرسول وما هو مطلوب منهم كمؤمنين، كالحرب ضد الكافرين... {وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ}، وتعلم أنه (ع) نزل عليه القرآن، وهذا القرآن نور يكشف الطريق الصحيح، وهو كمصباح "كلمبة" منيرة للظلمة على الطريق وهم يمشون حيث ينير القرآن، ويتبعون العقيدة والشريعة والسلوكيات المذكورة فيه.

{أُولَئِكَ}، الذين آمنوا بالرسول(ع) وعزّروه... {هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، هم الذين قاموا بعمل فالح، هم الذين أجادوا فيما عملوا لأنهم عملوا الصحيح.

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِـي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ{158})
انتقالًا من أمثلة التاريخ الماضي إلى التطبيق من بعد نزول القرآن... {قُلْ}، أيها الرسول محمّد(ع) عبر هذا القرآن:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}، لليهود والمسيحيين والكفار وغيرهم... فالرسالة التي أنقلها من صاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى ليست لمكة أو للمدينة أو للعرب فقط، بل لكل الناس مهما كانوا "أصفر، أسود، أبيض...، عرب، فرس، ترك، ألمان..."، وأينما كانوا في أي بقعة على الأرض.

الله سبحانه الذي أرسلني هو {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، الله تعالى منسوب له ملك كل شيء لأنه وحده خالق كلّ شيء، فالإله الواحد الأحد لكل السماوات والأرض هو الذي أرسلني لكم أيها الناس.

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، الله سبحانه وتعالى صاحب هذا الاسم المحدّد المميز، لا يوجد ولا أي كائن آخر فيه الصفات والقدرات الفائقة فوق صفات وقدرات المخلوقين إلا هو وحده فقط.

لمزيد من التوسّع حول كلمة إله، راجع ما ذكرناه في دراسة الآية 59 من هذه السورة.

التفصيل في هذا الكلام واسع جدًا، ففي القرآن تجد دائمًا أنه تعالى يقول لنا بصراحة أنه سبحانه لا يجد أي شيء خارج السماوات السبع والأرض التي نعيش عليها أو التي تقابل كل سماء، لأن كلمة سماء تشير لعموم ما هو فوق أرض، وبالتالي فلكل سماء جهة تحتية، فلها ما يسمّى أرضًا تحتها وليس بالضرورة أن تكون أرضًا ترابية صخرية أو مائية، وليس بالضرورة أن تكون أرضًا متّصلة تحتها، وسطح كوكبنا أرض، وسطح القمر أرض... على كلّ حال، من نظرته سبحانه، وبشفافية يخبرنا أنه لا يجد أي كائن أو ظاهرة أو مكان لم يخلقه هو سبحانه وتعالى، ولا يجد أي أثر لأي كائن

آخر في كل ما في الدنيا إلا هو وما خلقه، وبالتالي فهو متفرّد أحد في الصفات والقدرات الفائقة، بالألوهية، وبقية كل الكائنات والأمكنة وما فيها من ظواهر، فهو تعالى خالقها ويملكها، وبناءً عليه يأمر رسوله محمّد(ع) أن يعلن من خلال هذا القرآن أن الله سبحانه المالك لكل شيء والذي لا إله غيره قد أرسله (ع) لكل الناس. وتفهمها بشكل أسهل عندما تنتبه إلى أنّ جماعات الناس بغالبيتهم يعتقدون أنّ لكل جماعة منهم إلههم الخاص بهم، حتى لو على المستوى النظري قالوا إنّ إلههم هو إله للآخرين أيضًا، ولكن عمليًا كل جماعة تعتقد أنه إله لهم بشكل خاص مختلف عن الآخرين، ولنقل إنهم يعتقدون أنفسهم مميزين عند الإله أكثر من الآخرين حتى لو كان الآخرون إيمانهم وسلوكهم أفضل، طالما الآخرون ليسوا منتمين لدين جماعتنا فقيمتهم عنده تعالى أقل. تأتي الجمل القرآنية المشابهة لآياتنا هذه لتخبر الجميع أنه تعالى بالتساوي إله للجميع بدون استثناء، وتكملة الكلام يريك أن الميزة عنده تعالى ليست للانتماء لاسم ديني ما، بل التميز عنده تعالى بالإيمان والعمل الصالح.

الله تعالى {يُحْيِي وَيُمِيتُ}، وهاتان الصفتان من أقوى الصفات التي يجب أن يتمتع بها الإله، فلا أحد غيره سبحانه يملك قدرة منح الحياة وقدرة سحبها من الكائنات، فالحياة بكل مستويات الفعل والانفعال، والممات وهو سحب الفعل والانفعال من الكائنات، فهذه قدرة من مستوى فائق.

إن خطر ببالك أنه يمكنك إنهاء حياة حشرة بسحقها فهذا ليس تصرّفًا من مستوى إلهي، فبإذن منه تعالى صار لديك القدرة على إنهاء حياتها، لأنّ من صمّمها وخلقها جعلها تفقد حياتها إن أنت سحقتها، فإن كانت غير قابلة للسحق أو الحرق أو الخنق... فأنت لا تملك قدرة من مستوى إلهي لتقرر إنهاء حياتها، هل يمكنك أن تنهي حياة ملاك أو جنّي؟ وإن خطر ببالك أن النبي عيسى(ع) أحيا الموتى فبإذنه تعالى أحياهم وليس بقدرته الذاتية المنفصلة عنه سبحانه، بل منحه تعالى القدرة على إحياء الموتى وهي قدرة موصولة بقدرته تعالى، فإن قرر سبحانه قطعها فلن يتمكّن النبي عيسى(ع) من فعل الإحياء، ومثلها تمامًا قدرتنا نحن على تركيب المواد لإنتاج الحياة، لأنّ تصميمه تعالى لبيئتنا يسمح لنا بإنتاج الحياة وإنهائها.

الكلام الإلهي هنا ينظر لأصل وجود الحياة ولأصل إنهائها، من نظرته سبحانه حيث كان تعالى ولم يكن معه شيء، خلق سبحانه الحياة والموت بدعة من الصفر.

{فَآمِنُوا}، فاعتقدوا أيها الناس، {بِاللَّهِ}، بصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز أنه الإله الخالق الأحد المحيي المميت... وبالتالي يجب عليكم أن تطيعوه تعالى، وآمنوا {بِرَسُولِهِ}، فمحمّد(ع) الناقل لكلامه تعالى يجب عليكم الاعتقاد به كرسول منه تعالى، وبالتالي طاعته سبحانه عمليًا هي الالتزام بالرسالة التي ينقلها الرسول محمّد(ع)، {النَّبِيِّ}، الذي يصله النبأ منه تعالى، {الْأُمِّيِّ}، الذي ما زال إيمانيًا على الأساس والمرجع، فلم يولد من جماعة أهل الكتاب، ولم يكن أصله يهوديًا أو مسيحيًا، وراجع ما توسعنا به في معنى كلمة "أمي" في الآية السابقة.

{الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ}، فهذا الرسول (ع) يعلن لكم اعتقاده بصاحب الاسم المحدّد المميّز الله عز وجلّ، لم يأت بعقيدة جديدة ولا بأسماء لآلهة جديدة، بل هو (ع) ينقل لكم ما له امتداد لتاريخ طويل لآلاف السنين عن نفس الإله سبحانه "الله"، ويؤمن {وَكَلِمَاتِهِ}، فهو (ع) يعتقد بما يقوله تعالى، ولن تجدوا في كلامه أي كلام آخر غير الموافقة التامّة مع كلام الله تعالى.

خذ مثلًا متطرفًا، لن تسمع منه (ع) قولًا يخالف القرآن، ولن تسمعه (ع) يقول شيئًا من رأيه ويعلن فيه أنه يخالف ما في القرآن. وخذ مثلًا على ذلك علماء السوء من مختلف العلماء المنتسبين لليهودية أو المسيحية أو الإسلام، الذين علنًا يقولون رأيهم ويخالفون علنًا ما تقوله التوراة والإنجيل والقرآن، كتحليل الربا، والزنا، والسفور، وأكل الميتة وحرمان الإناث من بعض أنواع الميراث...

نقول إنّ إيمان النبي محمد (ع) بالله سبحانه وبكلماته تعالى هو تحصيل حاصل وليس شيئًا جديدًا، لو عايشت أول ما نزل هذا الكلام لفهمت أنه تأييد إلهي لرسوله، وتنبيه على صفاته (ع) وتنبيه على امتداده لمن سبقه من الرسل من آلاف السنين، والاعتقاد الشائع بين الناس عن ارتباط النبوة بالإيمان التامّ على أساس أنه تعالى يميّز رجلًا ما ويجعله نبيًا وبالتالي يصير هذا الرجل موصوفًا بالإيمان الكامل، فهذا مفهوم شائع وهو غير صحيح، بالأصل هو رجل عادي مثلنا مثله، ولكن قلبه "أساس فكره ونفسيته" سليم، ونتج عن ذلك أخلاق عالية... وهو لائق لتمثيله تعالى كخليفة وكرسول،

ولهذا اختاره تعالى لحمل الرسالة الإلهية للناس، وعندما وصله الوحي، فهو مثلي ومثلك، يمكن أن يرفض التماشي مع ما يصله من وحي أو يقبله، وهو طبعًا سيقبله لأنه يتماشى بالتمام مع فكره ونفسيته، ويختلف عنّي وعنك أنه سمع كلامًا منه تعالى عبر الملائكة(ع) في وعيه لا من خلال أذنيه، لا أكثر ولا أقل.

كررنا مرارًا في دراستنا هذه المفهوم القرآني الذي يؤكّد أن نزول الوحي ورؤية الملائكة(ع) لن تجعل أبا جهل وأمثاله يؤمنون، وأيضًا لن تزيد في إيمانك وإيماني لو حصلت معنا. إذًا، وصف محمّد(ع) بأنه رسول معناه أنه ناقل للرسالة منه تعالى، ووصفه بأنه نبي معناه أن الأنباء تصله منه تعالى، وهذا لم يغيّر فيه (ع) أي شيء زائد عن تغيّرنا نحن إن اقتنعنا بما أرسل به (ع)، فليس إيمانه (ع) بالله تعالى وبكلامه تعالى تحصيل حاصل، لا، بل إيمان ناتج عن كونه (ع) سليم القلب وهذه السلامة متوافقة تمامًا ومتماشية مع مضمون كلامه تعالى عن العقيدة والتشريع والسلوكيات، فيقبلها فكره ونفسيته (ع) لأنها متوافقة أصلًا مع فكره ونفسيته.

أمّا أمثال أبي جهل وأبي لهب... فهؤلاء سيجنّ جنونهم لو سمعوا الوحي في رأسهم يقول لهم ما لا يتماشى مع فكرهم ونفسيتهم، وسيرفضونه، وسيستشيرون كل الناس لمعرفة طريقة للخلاص من هذا الوحي...

هكذا خلقنا كلّنا سبحانه، فينا قابلية أن نكون بقلب سليم، ومن كان قلبه سليمًا من الدرجة العالية اختاره تعالى نبيًا ورسولًا، والأقل منه كان من الصالحين والأقل منه... وصولًا إلينا نحن المؤمنين العاديين، فينا شيء من القلب السليم، نكره بعض السيئات، ونحبّ بعض المحرمات، وهذا الحبّ لها ناتج عن تعلقنا بالشهوة والغريزة والانتقام الأعمى والعصبية وحب السلطة وحب الظهور... وهي نزعات متعارضة مع القلب السليم...

أمّا اختيار يحيى (ع) وعيسى(ع) كنبيين رسولين قبل ولادتهما، فمن علمه تعالى بما سيكونان عليه ميّزهما بالتعامل معهما قبل ولادتهما، لو فرضًا خلقني تعالى أنا بالطريقة التي خلق بها النبي عيسى(ع) فلن يزيد إيماني ولو بمقدار شعرة، وفرضًا ميّزني تعالى بالقدرات التي منحها للنبي عيسى(ع) فلن يزيد إيماني ولو بمقدار شعرة بل بالعكس سأكون تحت ضغط هائل قد يفوق قدرتي على التحمّل للمحافظة على إيماني والعمل الصالح وأتجبّر بقدراتي... وهذا شيء واضح من الكلام المنقول عن النبي سليمان(ع) في الآية 40 من سورة النمل {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}.

نرجع للآية، {وَاتَّبِعُوهُ}، فيأمركم تعالى أن تكونوا على ما يقوله ويفعله الرسول محمد (ع)، فالتزموا بما يقوله لكم (ع)، {لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}، فمن المفروض ومن المتوقع أن تصيروا على الشيء الصحيح الذي يوصلكم للغاية الصحيحة إن فعلًا التزمتم باتباع النبي محمّد(ع).

ضع في بالك دائمًا أنّ القرآن استعمل كلمة لعلّ حين يكون تأكيد حصول الشيء متعلّقًا بشيء غير أكيد، فالهدى حتمي من اتباع الرسول(ع)، فإن اتبعناه فنحن حتمًا مهتدون، وهذا جانب نظري، أمّا عمليًا فهل سنلتزم باتباع الرسول(ع)؟ وهنا تأتي "لعلّ" لتفيد أننا من المفروض ومن المتوقّع أن نهتدي، إن اتبعنا الرسول(ع).

(وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ{159})
{وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى}، ومن الذين ينتمي النبي موسى (ع) لجماعتهم يوجد، {أُمَّةٌ}، أناس لهم امتداد تاريخيٌّ وبينهم شيء أساسي مشترك، ومن سياق الكلام هنا تعلم أنهم أمّة مؤمنة، {يَهْدُونَ بِالْحَقِّ}، فبالصواب يضعون الناس على الشيء الصحيح، فبالكلام الحقّ الصواب عن الإيمان والعمل الصالح "وهو نفسه الكلام الإلهي" فهم يضعون الناس على طريق الصواب، {وَبِهِ}، بالحق، {يَعْدِلُونَ}، فيتركون كل الطرق ويعدلون عنها فيحيدون عنها ولكن يلتزمون فقط بطريق الحق.

خطّ المهتدين المفلحين له امتدادٌ تاريخيٌّ من الأنبياء الذين مضوا مرورًا بأمّة من قوم النبي موسى(ع)، حتى لا يخطر ببالنا أن البعض عبدوا العجل والبقية لا مؤمنون ولا عابدون للعجل، وحتى لا يخطر ببالنا أنهم كلهم رفضوا الإيمان به تعالى حتى يروه جهرة... لا، ففيهم مؤمنون حقيقيون، وهم سلسلة من حلقة الامتداد التاريخي للمهتدين المفلحين الموصول بمن اتّبع الرسول محمّد الأمّي(ع).

مضافًا لما سبق، تميّز اليهود تاريخيًّا عن بقية الأمم بأنه كان فيهم مؤمنون مخلصون أكثر بكثير من غيرهم، ولذلك تشير إليهم الآيات كأمّة لها شهرة تاريخية بين الناس لترينا الامتداد التاريخي لدينه تعالى في هذا النموذج البارز بعدد كبير من الأنبياء والرسل والصالحين.

ضع هذا في بالك لأنك في الآيات التالية سترى أن العناية الإلهية كانت لبني إسرائيل بسبب هذه الأمّة المؤمنة منهم، وسترى أن الفاسقين والمنافقين منهم نالهم عذاب الخزي في الدنيا قبل الآخرة...

بالنسبة للهداية بالحقّ مقابل الهداية بالسوء، فقارنها مع علماء السوء، الذين يعلنون أنهم يهدون الناس ولكنهم لا يهدونهم بالحقِّ بل بالباطل، ويمشي الناس خلفهم فيهتدون بهم على الباطل، ربما تفهمها أن بعض الناس يريدون الاهتداء إلى الحق ولكن يقوم علماء السوء بهدايتهم إلى الباطل، لا، ففي أربع مرات "الحج 4، الصافات 23، البلد 10، الإنسان 3" استعمل القرآن الهداية صراحةً على معناها العام لعامة وضع الناس على الشيء الصحيح سواء الذي هم يرونه صحيحًا أو ما ينتج عمّا صوّروه لأنفسهم أنه صحيح، فإضلال من يريد أن يهتدي يمكن أن يحصل في التفاصيل، وسببه تشويه القدرة على تمييز الحقّ من الباطل بسبب كثرة فعل السوء، وبسبب القرار برفض الحقّ في مسائل واضحة يراها حقًّا، فتتشوّه القدرة على تمييز الحقّ من الباطل في بقية المسائل، فحتى لو أراد رؤية الحقّ فيها فقد لا يستطيع، وخاصة إن لم يؤمن بكلامه تعالى كمرجع تقويميّ لنا لتصويب رؤيتنا للحقّ في الأمور.

مضافًا لما سبق، ففي الأمور التي تؤدّي إلى جهنّم حتمًا لا يمكن أن يقع في الضلال من يريد الاهتداء، فإقناع بعض المسلمين بتفجير أنفسهم في مساجد المسلمين هو أمر لا مغفرة له، ومثله عموم قتل أي بريء، ولا يمكن أبدًا أمام أمر إلهي صريح بحرمة قتل النفس البريئة أن يسامح سبحانه هؤلاء الذين تلاعب الآخرون بعقولهم، ففي الآية 4 من سورة الحجّ تقرأ صراحةً "{كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ}". فهؤلاء المفجرون لأنفسهم والقتلة للأبرياء لديهم نفسية الإجرام وراغبون بالضلال فيجدون من يهديهم إليه، وليسوا أبرياء مضلَّلين، لا، ولن يسامحهم تعالى، لا، وإلا فهذا الكلام معناه فقدان أهلية هؤلاء للتكليف، فهل هم فاقدون للأهلية؟ فهل هم بلا عقل وبلا قدرة على تمييز هذا السوء؟ فإن كان هذا صحيحًا فلا معنى للحساب والجزاء، وبكل سهولة ترى أنها تبريرات صادرة ممن هو أصلًا تشوّهت عنده قدرة تمييز الحقّ من الباطل فصار يرى المجرمين أبرياء لأنهم بسطاء والآخرون تلاعبوا بعقولهم، متجاهلًا متعاميًا عن التكليف الإلهي الموجّه لكل واحد واحد منّا، وهؤلاء وغيرهم ليسوا مختلفين عنّا، إلا إذا كانوا مجانين في عقولهم خلل، ففعلا في هذه الحالة تسقط عنهم بعض التكاليف، ويصير النقاش في أهليتهم على رؤية القتل سوءًا، فهل هناك مجنون أو مضطرب نفسيًّا ومعذور لقتل الأبرياء؟ لا، فحتى الطفل الصغير يفهم معنى سوء تعرّض أمّه للضرب، فيميّز بين الخير والشرّ... ويكفينا هذا المقدار من الكلام هنا لأن الأمور واضحة، والكثير من الناس يجادلون انطلاقًا من خلفيات فاسدة لن يتخلّوا عنها حتى يتمكنوا من رؤية الحقّ، فالكثيرون يكرهون المغايرين لهم في الدين أو الطائفة أو المذهب، بل حتى في الدوائر الصغيرة يكرهون فردًا من عائلتهم ويتحازبون ضدّه، ويكرهون عائلة أخرى، ويكرهون أهل بلدة أخرى، ويكرهون أهل بلد آخر... فطالما لم يعالجوا أنفسهم من هذه الأمراض فهم لن يروا الحقّ في المسائل الأخرى، ومن هذه العقلية وغيرها كخلفية تراهم يبررون لقتلة الأبرياء على أساس أنهم مخدوعون...

(وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ{160})
هنا تكمل الآيات العناية والرعاية التي تفضّل بها سبحانه على بني إسرائيل، وفهمنا من الآية السابقة أن هذه العناية الإلهية كانت بسبب الأمّة المؤمنة منهم...

{وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا}، فالسبط هو ولد الولد... ومن كثرة عددهم تقسّموا إلى اثنتي عشرة "عائلة"، كل سبط له جد هو ولد من أولاد النبي يعقوب(ع) الذي له اسم آخر وهو إسرائيل(ع). وهكذا صاروا اثني عشر سبطاً: سبط لاوي، سبط النبي يوسف(ع)، سبط بنيامين... والتعبير بتقطيعهم يعني أنّه تعالى جعل عددهم كثيرا لدرجة استوجبت تقسيمهم، والعدد الكبير لأولاد من جدّ واحد هو نعمة منه سبحانه.

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى}، فأوصل تعالى للنبي معلومات بلا كلام مسموع صادر مباشرة من القائل، ولمزيد من التوسّع حول كلمة "وحي" راجع ما ذكرناه في دراسة الآية 106 من سورة الأنعام {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}...، حيث أوصل تعالى إليه معلومات، {إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ}، حين طلب الناس الذين ينتمي (ع) لجمعتهم، وطلبوا منه (ع) السقاية، وطلبوا أن يسقيهم ويؤمّن لهم ماء الشرب، وسبحانه أوحى لنبيّه(ع) بما سيفعله "فيضرب بعصاه الحجر..."، وتعلم من عموم القرآن أنهم بعد خروجهم من مصر، صاروا في منطقة سيناء كما هو مشهور في التاريخ، وهي منطقة فيها بقع شبه صحراوية، وكما يبدو في إحدى المرات لم يبق معهم ماء، حيث طلبوا من النبي موسى(ع) تأمين الماء لهم، وأوحى سبحانه لنبيه (ع)، {أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ}، فالعصا التي معك اضرب الحجر بها، {فَانْبَجَسَتْ}، فاندفع الماء بقوة من الصخرة، {اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا}، اثنتا عشرة فتحة في الصخرة "نبعا" من الماء، {قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ}، من الأسباط الاثني عشر، {مَّشْرَبَهُمْ}، حيث نصبوا خيامهم ليرتاحوا من المسير، وكل سبط منهم ركّب خيامه قرب بعضها في مجموعة منفصلة عن السبط الآخر... وتشقّق من الحجر بعد ضربه بالعصا اثنتا عشرة عينا من الماء، وسار الماء من كل عين باتجاه جماعة سبط من الأسباط، فعلم كل أناس منهم مشربهم، حيث مشى الماء باتجاههم أو هم جرّوه بحفر أخدود باتجاههم، وصار لهم ماء خاص بهم، أو بالأساس نصبوا خيامهم حول صخرة كبيرة وسالت المياه متفرعة من الصخرة وكل فرع سار باتجاه واحدة من تجمعاتهم.

{وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ}، صار الغمام "الغيم الخفيف" يعطي ظلا عليهم، مانعا بذلك أشعة الشمس الحارقة من أذيتهم.

{وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ}، وهو إفرازات تخرج من أصناف عديدة من الأشجار، والمشهور منها صمغ شجر البلوط، ولا يزال الناس إلى عصرنا يصنعون منه حلوى تسمى "المن والسلوى" وفي العراق يسمونه "من السما"، ويوجد في الأسواق شبيه لحلوى المنّ وهي ليست مصنوعة من صمغ الشجر بل من سكر القصب أو الشمندر مع منكهات. على كل حال، حيث أفرزت الأشجار المحيطة بهم صمغا حلو الطعم، ولا ندري إن كان نوعه يمكن أكله مباشرة، أو يمكن أكله بعد طهيه كما هي الحال الآن.

وأنزل سبحانه عليهم، {السَّلْوَى}، وهو اسم لفصيلة من الطيور تشمل: الفرّي والسمّان والحجل... حيث جعل سبحانه هذه الطيور تحطّ بقربهم بكثرة، لدرجة أنهم يلتقطونها بأيديهم أو بالشباك أو يتصيّدونها بسهولة.

بالنسبة لتعبير {أَنزَلْنَا} ففي عامّة القرآن هو تعبير يدل على عموم إتاحته تعالى لشيء ما لمخلوقاته، ومن نظرته تعالى كخالق ونحن أمامه فما يتيحه لنا هو إنزال منه تعالى لنا، وتصوّرها للتقريب أنك أنت خلقت كائنات في علبة، وفي العلبة صمّمت بيئة لهم أتحت فيها ما يحتاجونه، ومرّت على المخلوقات ظروف بيئية صعبة فجاعوا... وقررت مساعدتهم، فيمكنك أن تخلق لهم وجبات طعام جاهزة، وتنزّل عليهم تلك الوجبات وهم في العلبة، أو تجعل البيئة تتغيّر ليصير الطعام متاحا لهم، وفي كلتا الحالتين وصلهم الطعام و"نزل" عليهم من عندك. وحتى لو خرج الطعام من تحتك فهذا بالنسبة له تعالى "ولك" نزل عليك منه تعالى.

{كُلُوا}، فاستهلكوا، {مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}، حيث أمّن سبحانه لكم ما تأكلونه لتسدّوا به حاجتكم فهو رزق وهو موصوف بأنه طيّب أي حسن محبوب لا خبث فيه، ومن تبعاتها أن طعمه لذيذ "طيّب".

{وَمَا ظَلَمُونَا}، حيث أمّنا لهم المشرب والمأكل الطيّب، وماءً وأرضاً واسعةً آمنةً للسكن فيها وزراعتها... ولكنهم تدللوا عليه تعالى طالبين منه إنبات مختلف أنواع البقول والحصاد... كما ورد في الآية 61 من سورة البقرة، فهو سبحانه لم يتأثر ولا يتأثر مهما فعلوا، {وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}، فهم مع أنفسهم لم يكن معهم حقّ بالتأفّف والاعتراض على ما منحه تعالى لهم.

ضع في بالك دائما أنّ عموم القرآن استعمل تعبير "ظلم" على معنى: ليس معه حق ولم يكن منصفاً عادلاً. ولهذه الحالة تبعات، منها حصول أذية لأحد ما، ولكن هذا ليس من أساس معنى الكلمة، فـ**{ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ}** تعني أنهم لم يكونوا محقّين فيما فعلوه بأنفسهم، ومن تبعاتها أنهم آذوا أنفسهم بالانتقال لظروف آذتهم...

تذكّر دائما أنهم صاروا أحراراً من بعدما خرجوا من مصر، وصاروا بالأمان من بعد غرق الطاغية فرعون وجنوده، فصار بإمكانهم الاستقرار في منطقة سيناء وما بعدها بكل أمان، وأمّن سبحانه لهم الماء ولحم الطير والتحلية، وملّوا من ذلك طالبين الخضار والحشائش.

الآن تأتي التحليلات التي تجدها في الكتب والمقالات، وبعضها معيوب بالخلط بين ما سبق وبين التيه، لأنّ ما سبق حصل قبل التيه، ففي التيه لأربعين سنة لم ينزل عليهم من ولا سلوى ولا نبع الماء من الصخرة.

لم تلتفت تلك التحليلات للكلام الإلهي ولتصوّر واقع الحال، ومن طلبهم أن ينبت لهم تعالى الخضار والحشائش، والجواب عليه بدخولهم قرية مجاورة قائلين عند بابها حطّة حتى يقبلهم أهل القرية، فمن هذا نفهم أنه تعالى لم يفرض عليهم البقاء على المنّ والسلوى كطعام، حيث أمّن لهم الماء، وصار بإمكانهم ممارسة الزراعة، ولكنهم تدلّلوا وطلبوا أن يقوم تعالى هو بإنبات الزرع لهم! فأجابهم تعالى أنه لن ينبت لهم الزرع، ولكن سيساعدهم بتأمينه لهم من التعاطي مع قرية مجاورة لهم... فسخروا من الاستغفار كسبب لقبول أهل القرية لهم... فطردوهم...

بعبارة أخرى مباشرة وصريحة، سبحانه أمّن لهم الاستقرار في أرض صالحة للزراعة وآمنة، وساعدهم بتأمين الماء والمنّ والسلوى، ولكنهم تدلّلوا رافضين العمل بالزراعة وطالبين أن ينبت لهم سبحانه الزرع... وهكذا ترى بوضوح أنه تعالى تقصّد تفضيلهم حتى يكونوا عبرة لنا جميعا بأننا إذا نلنا عناية إلهية فإننا لن نصير مؤمنين أكثر، فالمؤمن سيبقى مؤمنا، والفاسق والمنافق سيزيد سوءهم.

فكرة نيلنا لدعمه تعالى لمجرد أننا منتمون لدينه، وظانّون بأننا نستحق ذلك منه تعالى لأننا أفضل من الآخرين لأننا منتمون لدينه، وظانّون بأن إيماننا سيزيد إذا تدخّل تعالى لتحسين ظروف معيشتنا... و... فكله كلام فارغ دمّره النموذج بنو إسرائيل بإثباتهم لنا جميعا بأن العناية الإلهية الزائدة لهذه الدرجة الفاقعة لن تغيّر ما بالقوم من فكر ونفسية، فالمؤمنون سيبقون مؤمنين حتى تحت أقصى الظروف، والفسقة والمنافقون سيبقون كذلك حتى لو أنعم واعتُني بهم تعالى لدرجة الدلال.

بقي شيء آخر، إجراؤه تعالى لفلق البحر ولخروج الماء بضرب العصا من يد النبي موسى(ع) له دلالة، وحتى لا يخطر ببال أحد من بني إسرائيل أنه لا علاقة لله تعالى وللنبي موسى(ع) بما حصل، أجرى سبحانه فلق البحر وخروج الماء من بعد الضرب بالعصا ليروا ارتباطَ ما حصل بشكل مباشر وصريح مع النبي موسى(ع) وبالتالي ليروا ارتباط ما حصل به تعالى.

أقول لك هذا لأنه في بعض الأدبيات شطحوا ونسبوا للنبي موسى(ع) منحة إلهية بقدرة تمكّنه من أمر البحر بالانفلاق، وبعضهم يسمّي ذلك بالولاية التكوينية، وكلامهم هذا من كثرة ما استغرقوا فيه صاروا يرونه صريحاً من القرآن! فما هو تعريف هذه الولاية؟ وما فرقها عمّا يمكن لبقية الناس فعله؟ فأنا وأنت نفعل ويحصل أثر، وبالتفكير في ذلك ترى أنهم بنوا فكرتهم على إمكانية حدوث الأمور بالطريقة السحرية الخرافية حيث التلفّظ بكلمة ما، أو بتركيز الإرادة على شيء ما، فإن أثراً سيحصل، علماً أنه سبحانه وتعالى لم يقل ذلك حتى عن نفسه، إذ سبحانه يجري الأمور بأسبابها، سواء التي نفهمها أو لا نفهمها، وضرب البحر أو الصخرة بالعصا ليس سببا للانفلاق أو لخروج الماء، وحتى تفهم ما أقصد تصوّر وصولهم إلى مكان سبق وأخرج تعالى منه الماء ووفّر فيه المنّ والسلوى، سيقولون إنّ هذه المنطقة هي هكذا، أمّا وقد عطشوا وجاعوا، وبعدها أتاح لهم تعالى الماء والطعام، فمن المفروض أن يفهموا بوضوح أن ما حصل كان من تدخّله تعالى، فيفهموا ذلك هم ونفهمه نحن أيضا ليكون نموذجاً لنا عن العناية المباشرة وغير المباشرة التي تمرّ علينا نحن ولا نرى فيها واجب شكره تعالى عليها، بذكائنا نجحنا وبمثابرتنا فلحنا وبالصدفة توفقّنا... وبعضنا لن يؤمن بفضله تعالى حتى يجد فجأة أمامه ملايين الأموال أو وجبة طعام تنبثق أمامه من الفراغ، وهذا ما تراه مما حدث مع بني إسرائيل حيث تقصّد سبحانه فجاجة وضوح الأمور بحصولها من ضرب الصخرة بالعصا وفجأة خروج الصمغ من الشجر بكثرة وفجأة مرور أسراب من السلوى، والنتيجة أن المؤمنين القلائل بقوا على إيمانهم وزيادة، والبقية الأكثرية بقوا على حالهم ولم يزدادوا إيماناً بل ازدادوا نفاقاً وفسقاً كما سترى، ولم تقصد الآيات هنا ذكرهم لإهانتهم لمجرد إهانتهم، بل لنطبّق ذلك على أنفسنا من نموذج فاقع في وضوحه إلى نماذجنا التي لن تغيّر حالة الفسق والنفاق إلى الإيمان حتى لو حصلت معنا كل أنواع الآيات.

الكلام يجر الكلام، فهناك دائرة مفرغة يدور فيها من لديه كفر كامن أو فسق أو نفاق، وما أشرحه من كلامه تعالى عن أن الآيات كلّها لن تغيّر ذوي القلوب الفاسدة، فلن يقتنع بهذا الكلام ذوو القلوب الفاسدة! وسيقولون: لا، لو حصلت آية واحدة معنا مما يذكره القرآن مما حصل مع الأقوام التي كفرت، فنحن ولو بآية واحدة سنتغيّر ونؤمن. وهذا الموضوع تناولته سورة الأنعام بالتفصيل وكمثال عما ذكرته الآية 25 {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}. وكما ترى بوضوح فهي حلقة يدورون فيها ليعودوا إلى حالتهم التي كانوا عليها من كفر أو فسق أو نفاق.

(وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ{161})
... اختصرت الآيات ما هو مشهور ومذكور في الآيات 57 وما يليها من سورة البقرة وهو مشابه للكلام هنا، حيث تأفّفوا من تكرار نفس الطعام "المنّ والسلوى" فظلموا أنفسهم وطلبوا منه تعالى تأمين الخضار والحشائش بدلًا من الاستفادة مما لديهم والعمل على تأمين ما يريدونه...

{وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ}، قال لهم سبحانه عبر النبي موسى(ع): {اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ}، دلّهم (ع) على قرية، على تجمّع للناس في أراض زراعية ومراعٍ... ويمكنهم العيش فيها.

{وَكُلُوا مِنْهَا}، من هذه القرية، {حَيْثُ شِئْتُمْ}، من شجرها وزرعها... براحتكم يمكنكم أن تسكنوا فيها ولن تتعرّضوا لأي مشاكل.

{وَقُولُوا حِطَّةٌ}، واطلبوا منه تعالى أن يحطّ فينزل عنكم شَيْءٌ ما، وتعلم أن المقصود هو طلبهم منه تعالى أن يحطّ عنهم خطاياهم فيغفر لهم ذنوبهم، {وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا}، عندما تصلون إلى الممر الذي يدخلكم إلى القرية فقوموا بالتعبير عن أقصى درجات خضوعكم له تعالى بتقريب وجوهكم من الأرض أو وضع الجبهة على الأرض.

إذا فعلتم هذا، {نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ}، نتجاوز عن الأعمال الخطأ لأنها مخالفة لكلامه تعالى والتي ارتكبتموها سابقاً.

{سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ}، وهذه قاعدة إلهية عامّة لزيادة نعمته سبحانه على الذين يقومون بالأعمال الحسنة، وكما ترى فالاستغفار والسجود كتعبير عن الخضوع له تعالى، هما من أهمّ الأعمال الحسنة للتقرّب منه سبحانه، والجماعة التي تقوم بهما تنال منه تعالى خيراً ونعمةً زائدةً، وورد هذا المعنى في الآية 96 من هذه السورة.

ننتبه أنهم يدخلون على قرية زراعية مسكونة، وعادة لا يقبل أهالي أي قرية أن يأتي عدد كبير من الناس ليسكنوا معهم ويتقاسموا معهم الأراضي والمياه... فلذلك أمرهم سبحانه أن يقوموا بالأعمال التي تتماشى مع سُنَّتِهِ تعالى بالعناية بالمجتمع الذي يستغفر... حتى يؤمّن سبحانه لهم أن يستقبلهم أهل تلك القرية، ومضافاً إلى هذا فالكلام يوحي بأن أهل القرية كانوا موحدين وحركة السجود ستعني لهم الكثير، فسيرون بني إسرائيل محترمين وموقّرين أصحاب ناموس ودين... ولكنَّ ما رأوه من استهزاء ستقرأ عنه في الآية التالية، جعلهم يطردون بني إسرائيل...

بقي شيء، ما يقولونه في بعض الكتب عن الأعداد بمئات الآلاف لبني إسرائيل عند مغادرتهم لمصر، فهي مبالغات لا تتماشى مع حالهم حين كانوا في مصر، لأنّ هذه الأعداد كانت حالة نادرة جداً في تاريخ البشرية قديماً لتواجدها في مكان واحد، إذ في أوجّ ازدهار الحضارة المصرية لن تجد أكثر من بضع مدن يقطنها عشرات الآلاف، والنادر منها يتجاوز بضع مئات من الآلاف، فالأوبئة "كالطاعون والجدري والإنفلونزا..." كانت كفيلة بالقضاء على المجتمعات الكبيرة بشكل أسرع من المجتمعات الصغيرة المتباعدة... وحين تقرأ تاريخ بني إسرائيل في فترة النبي موسى(ع) تُلاحظ العديد من المناسبات التي يبدو منها أن أعداد بني إسرائيل كانت بالآلاف أو ببضعة عشرات من الآلاف، ولا تتحمّل تفاصيل قصصهم أن يكونوا بمئات الآلاف، وخذ مثلاً الكلام هنا عن دخولهم قرية للاستفادة من مواردها، فأي قرية ستتحمّل استضافة مئات الآلاف! أو مشاركتهم في مواردها الزراعية والحيوانية؟!

(فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ{162})

{فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ}، فقد قيل لهم أن يقولوا {حِطَّةٌ} على معنى: نطلب أن تحطّ فتنزل عنّا خطايانا وتغفرها لنا يا رب... ومن العدل والإنصاف أن يقولوا هذه الكلمة ليحصلوا منه تعالى على عناية غير عادية، وليجعل سبحانه أهل القرية يستقبلونهم... ولكن البعض منهم قال ظلماً كلمة أخرى، فلم يكن معهم حقّ حين قالوها، فهم لا يستحقون العناية الإلهية المميزة عن غيرهم إلا إذا تميّزوا فعلاً عن غيرهم، وعليهم ذنوب مثل غيرهم من الناس، وها هي العناية الإلهية معروضة عليهم والمطلوب منهم فقط الطلب منه تعالى التجاوز عن أخطائهم السابقة، فهل هذا صعب حقاً! ولنفرض مثلاً أنهم قالوا حنطة بدل حطّة، أو قالوا حطبة... أو أي شيء مثل هذا من الكلمات التي تشبه كلمة حطة في لغتهم، فهل كان كثيراً وصعباً عليهم فعلاً أن يقولوا حطّة لينالوا العناية الإلهية!

ضع في بالك دائماً أنّ بني إسرائيل فهموا بشكل غير صحيح العناية الإلهية بهم، حيث إنّ العناية الإلهية انصبّت عليهم وفضّلهم سبحانه على العالمين بسبب وجود مؤمنين بينهم، وبسبب خروج مؤمنين في المستقبل من نسلهم، ولكن غالبيتهم "وإلى الآن" فهموا أنهم مدللون عنده تعالى ومميزون جداً وبفرق هائل عن بقيّة الناس فقط وفقط لأنهم من نسل النبي يعقوب(ع) "بني إسرائيل"! وهذا الشعور ترى بداياته من بعد خروجهم من مصر، وبالخصوص في هذه الحادثة التي تعبّر عن استهتارهم بالخضوع له تعالى...

لم تدخل الآيات هنا بتحليل نفسية الظالمين، وهناك سور عديدة دخلت في تلك التفاصيل، لأن موضوعها أو محورها يناسبه الدخول في هكذا تفاصيل، ونفترض بالتحليل أن الذين بدّلوا قول حطّة كانوا مستهترين بأوامره تعالى، أو لم يكونوا أصلاً من المؤمنين الحقيقيين بالآخرة والحساب فلم يشعروا بضرورة للاستغفار... أو اعتمدوا على كثرة عددهم الذي سيخاف منه أهل القرية فيستقبلونهم غصباً عنهم... أو اعتمدوا على مهاراتهم التي اكتسبوها من سنين العمل في مختلف المجالات وأن أهل القرية سيسعدهم انضمام هكذا مهارات إلى مجتمعهم...

الذي بدّل كلمة {حِطَّةٌ} لم يكن غير مهتمّ بالسكن في القرية، بل اعتبر أن السكن في القرية شيء سيحصل سواء استغفر أم لم يستغفر، وأن الاستغفار سخافة وقلّة عقل ولن يقدّم ولن يؤخّر في أي شيء... وهذا مشابه جداً لحياتنا نحن العادية التي لا نعتقد فيها بأي تأثير للاستغفار كمجتمع، علماً أنه تعالى وعد المجتمع المستغفر بفتح البركات عليه...

{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ}، أرسل سبحانه على بني إسرائيل شيئاً سيئاً من كل النواحي، ومن نتيجة طرد أهل القرية لقوم النبي موسى(ع) وارتعابهم من أهل القرية والمغادرة بعيداً عنها، تفهم أن الرجز عملياً كان النفور الشديد لأهل القرية منهم لدرجة الاستشراس في طردهم من القرية، وارتعاب بني إسرائيل من ردّة الفعل العنيفة غير المتوقّعة.

نلاحظ بعد هذه القصة أننا رجعنا إلى موضوع السورة، ولكن من زاوية مختلفة، فهنا لدينا أناس يقولون عن أنفسهم بأنهم مؤمنون بالله تعالى، وليسوا كفاراً، فنالوا العناية منه سبحانه، ولكن عندما خرجوا عن ولايته تعالى أصابهم ما يصيب غيرهم، فلم يعودوا مشمولين بعنايته تعالى، وسنرى فيما سيأتي مزيداً من الكلام عن هذه النوعية من الناس:

(وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ{163})

{وَاسْأَلْهُمْ}، فعبّر أيها النبي محمّد(ع) عن إرادتك للحصول على جواب من اليهود، {عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ}، عن تجمّع سكاني للناس في مكان يطلّ ويشرف على البحر. في فترة من تاريخ اليهود، عاش البعض منهم في قرية مجاورة للبحر. حيث انتقلت السورة في التاريخ من عهد النبي موسى(ع) إلى زمن آخر بعده، ويقولون في بعض الكتب إنّ هؤلاء كانوا معاصرين للنبي داوود(ع)، ويبدو ذلك مقبولاً بالنظر لما ورد في الآية 78 من سورة المائدة {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}، حيث نقلت اللعن عن النبي داوود(ع) لجماعة من بني إسرائيل، ولكن هذا تحليل وليس صريحاً من القرآن.

{إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ}، يتخطون أوامره سبحانه في ترك العمل يوم السبت، لأنّ يوم السبت كان ممنوعاً عليهم العمل فيه بأمر منه تعالى.

ضع في بالك أن مختلف المجتمعات القديمة كانت لديها تسميات مختلفة للأشهر والأيام، ويبدو من اللغة العبرية أن يوم السبت صار اسماً ليوم من أيام الأسبوع من بعد الأمر بالسبت فيه، بالسبات فيه، بترك العمل فيه.

{إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ}، حيث إنّ الأسماك الكبيرة نسبياً كانت تأتيهم في {يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا}، في اليوم المأمورين فيه بالتوقّف عن العمل تأتي الأسماك على مداها وبشكل كثيف وفي الكثير من البقع، {وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ}، في الأيام المباح لهم العمل فيها، من نهار الأحد حتى الجمعة، {لَا تَأْتِيهِمْ}، لا تأتي الأسماك.

{كَذَلِكَ}، بمجيء الأسماك في يوم السبت وغيابها بقية الأيام، {نَبْلُوهُمْ}، أصبناهم بشيء يغيّرهم، {بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}، بسبب خروجهم عن أمور واضحة قالها الدين.

كما ترى فهم أصلاً كانوا يفسقون، إذ هناك أمور معلوم أن الدين الإلهي يمنعها وهم يخالفونها، أو أمور واجبة وهم لا يفعلونها، حيث كانوا بحارة ويصطادون السمك، وكان قسم من الصيادين لا يأخذون يوم السبت يوم عطلة، فابتلاهم سبحانه أكثر، حيث جعل سبحانه الأسماك تأتي يوم السبت بكثرة إلى أماكن الصيد، وفي بقية الأيام لا تأتي الأسماك... وهكذا ظهر الفاسقون بشكل واضح عندما صار عندهم حجّة ليخالفوا أوامره تعالى وللعملِ بكل جرأة يوم السبت.

قارنها مع الذين ينتجون أموالاً وفيرةً من العمل بالحرام، كالعمل بالخمور وتقديمها للزبائن... وكالعمل باللحم الحرام وطهيه وتقديمه للزبائن... وكالعمل في أماكن اللهو الحرام... أو العمل بأمور فيها غشّ... أو العمل بما فيه رباً أو قمارٌ... فهؤلاء يقولون لك: نحن ليس لدينا مشكلة في التدين، حيث نحبّ التديّن، ولكن التديّن يمنعنا من الاستفادة من هذه الموارد المنتجة بوفرة، فأمّن لنا معاشاً أو ربحاً وفيراً حلالاً ونحن فوراً سنترك العمل بما يسمّيه الدين حراماً. وكما ترى فهذا فسق، ووفرة الإيجار والربح من هذه الأعمال هي البلوى.

ضع في بالك دائماً أنه تعالى لا يقوم بإضلال من يريد الاهتداء، فهو لا ينصب سبحانه وتعالى الأفخاخ للناس حتى يفسقوا، لا، بل الناس يكون عندهم فسق كامن، يَهْدِيهِمْ تعالى ويرفضون، فيبتليهم تعالى بما يجعل الفسق الكامن يظهر، وفي حالة مثل حالة قرية الصيادين، فهي نموذج عن مجتمع صار فيه الفسق علنياً، وموضوع العمل في يوم السبت لم يكن فسقهم الوحيد بل نموذجاً عن مخالفتهم لشيء ديني صريح جداً، وأيضاً وكما نفهم من عموم القرآن سبحانه وتعالى لا يعاقب قوماً في الدنيا بعقاب جماعي إلا إذا توافقوا وتضامنوا على مخالفة أوامره تعالى علناً.

الآن لنرجع إلى بداية السورة، إلى قصص الأقوام المشركة الكافرة التي تضامنت على مخالفة أوامره تعالى، وقارنها مع مجتمع الصيادين الذين كانوا ينتمون "في الظاهر فقط" لدينه تعالى، لأنّ السورة أرادت إكمال الكلام عن الموالين لغيره تعالى، والبداية من الكافرين المشركين المنكرين للرسل والكتب والآيات... ومن قبل نقلت لنا عبادة بني إسرائيل للعجل، وهنا أكملت الحديث عن التاركين لولايته سبحانه من المحسوبين على المنتمين لدينه تعالى.

قرية الصيادين اليهود نموذج مشابه لمختلف حالات المولودين في مجتمع منتسب لدينه تعالى، مثل عامّة المسلمين في مختلف العصور، والشعور بالتميّز عن أهل الأديان الأخرى، والشعور بالأمان من عقابه تعالى لمجرد الانتماء بالاسم لدينه تعالى ومن دون الالتزام الفعلي بدينه سبحانه، هو ما تنبّهنا السورة منه بكلامها عن بني إسرائيل، والقرآن غالباً يعرض نماذج فاقعة واضحة جداً ولا مجال للشك في كونها عقاباً إلهياً لمن خالف أوامره تعالى، وبقية المصائب التي تمرّ بها المجتمعات، والتي تفسّر حدوثها أمور نفهمها ونعلمها كسبب لها، كالحروب الناتجة عن الطمع بالنفط أو بالأرض أو المياه... أو الكراهية العرقية والدينية... فهي من منظوره تعالى نفس الشيء كعقاب للذين لا يوالونه، وكرّر القرآن كلامه عن هذه الحالات كابتلاءات للناس حتى يتضرعوا أو حتى يميز سبحانه الخبيث من الطيّب.

اعذرني لأنني أطلت عليك بكلام تطبيقي للآيات على مجتمعاتنا بدل الإطالة بما لا طائل منه من معرفة مكان وتاريخ قرية الصيادين ونوع السمك... وأنهم كانوا ينصبون الشباك ليلاً فيعلق فيها السمك نهار السبت وينتشلونها صباح الأحد... وهذا شيء لا يفعله الصيادون عادة لأن السراطين "السلاطعين" وبقية الحيوانات البحرية التي لا تعلق في الشباك تقوم بقرض أعين وزعانف الأسماك العالقة في الشباك، ولذلك يسارع الصيادون عادة بلمّ الشباك التي يعلق بها السمك بعد ساعة أو ساعتين... وثانيها أن الشباك لا تثبت مكانها لمدة طويلة لأنّ التيارات البحرية تسحبها... وثالثها أن يوم السبت في الثقافة الدينية يبدأ من انتهاء نهار الجمعة، ونصب الشباك في تلك الليلة هو نصبها في يوم السبت، والذين افترضوا هذا لم ينتبهوا أن اليوم في الثقافة الدينية يبدأ من المغرب... وظاهر الآية يقول بصراحة إنّهم كانوا يعدون في السبت، ويعملون في الصيد في يوم السبت.

بعبارة أبسط، ظاهر الآية يشير إلى عملهم بالصيد بشكل عادي يوم السبت، وما نجده في كتب التفاسير عن تحايل الصيّادين على يوم السبت هو تحليل لا داعي له، ربما البعض فعله ولكن وصف الآية للمجموع بأنهم فاسقون، يعني علناً يخالفون كلاماً يعلمون أنه تعالى قاله.

(وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ{164})
{وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ}، فمن أهل تلك القرية أناس يوجد بينهم شيء أساسي مشترك ولهم امتداد تاريخي، وسترى أنهم جماعة مشتركة في ترك الأمر بالمعروف وترك النهي عن المنكر، ومن سياق الكلام سيبدو لك أنهم وجّهوا كلامهم لمجموعة مؤمنة من الناس: {لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا}، لماذا تقولون لأناس لهم كيان الجماعة كلاماً يحدّد لهم ماذا يفعلون وماذا يتركون حتى لا يقعوا في المشاكل، فلماذا تقولون للصيادين أن يتركوا العمل يوم السبت حتى لا يقعوا في المشاكل، و**{اللَّهُ}** تعالى {مُهْلِكُهُمْ}، فسيستنفد حياتهم، أو الله تعالى {مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا}، فسيتعرضون لما يؤذيهم بشدّة.

يعني اتركوا الصيادين الذين يعملون يوم السبت، فلا حاجة لوعظهم لأنهم يعلمون أنه حرام ويفعلونه، وحتماً سيميتهم سبحانه بكارثة أو يعذّبهم بكارثة، فلماذا تتعبون أنفسكم بوعظهم؟

هذه النوعية من الناس هي عادة الأكثرية الغالبة في المجتمعات، وهم الذين لا يتدخلون في الأمور لحلّها ويكتفون بالتسلية بالكلام عنها... ويمشون مع الموجات الكبيرة، فأي شيء ينتشر في مجتمعهم يجرفهم معه، فهم جماعة: ما دخلني. لا علاقة لي. أنا بحالي... حيث يرون الخطأ ولا يفعلون أي شيء لتصحيحه، بل وكما ترى هنا إذ يسألون المؤمنين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر عن سبب إتعاب أنفسهم بوعظ الصيادين العاملين يوم السبت!

{قَالُوا}، المؤمنون الواعظون:

{مَعْذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ}، فالمسؤول عنكم من مستوى إلهي أمرنا بوعظهم، وحين يسألنا سبحانه إن أمرناهم بالمعروف ونهيناهم عن المنكر يكون لدينا عذر، فلا يعاتبنا ولا يعاقبنا سبحانه، لأنّ الوعظ واجب علينا ونحن فعلناه، وحتى لو كنّا متأكدين بأن وعظنا لهم لن ينفع، يجب علينا القيام بواجبنا.

{وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}، إذ من المفروض ومن المتوقّع من وعظنا لهم أن يتجنبوا مخالفة أوامره تعالى.

ضع في بالك دائماً أنّ كلمة "العلّ" تعني: من المفروض ومن المتوقّع. ولهذا المعنى درجات، من التوقّع القوي لحصول شيء ما إلى التوقّع الضعيف، لأنّ الوعظ من المفروض حين تسمعه بعقلانية أن تنتبه وتتجنّب مخالفة أوامره تعالى، وكما ترى، إنّ قوّة أو ضعف ما هو متوقّع حدوثه، متعلق بك، ومتعلق بمدى عقلانيتك، وحينما لا يكون لديك تحديد لدرجة توقّع ما سيحصل عندها تستعمل كلمة "لعل"، ولو استعملت عسى، لكان لديك ترجيح قوي لحصول ما تتوقّعه. هكذا استعمل القرآن هذه الكلمات فضعها في بالك.

من ناحية ثانية لعلّ مرتبطة بشيء متوقع حصوله من طرف أو من طرفين، فإن كان أحد الطرفين هو سبحانه، فالاحتمال لا يكون وارداً من ناحيته تعالى، بل من ناحية الناس، لأنهم إن سمعوا كلامه تعالى لعلهم يتقون لعلهم يرشدون لعله تعالى يرحمهم... إذ من ناحيته تعالى محسوم معلوم ما سيفعله إن هم اتقوا، وفي هكذا موارد تصف "العلّ" الحالة من ناحيتنا وليس من ناحيته تعالى.

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ{165})
{فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ}، حيث ما قيل لهم من الوعظ عن خطورة العمل يوم السبت ليستحضروه في بالهم، وعندما صار خارج اهتماماتهم، وذهب عن بالهم بالمرّة، وصار العمل يوم السبت عادياً عندهم ولا يشعرون بتاتاً بأنهم يرتكبون مخالفة عليها عقاب، عندها، {أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ}، خلّصنا الذين يأمرون الآخرين بترك الأعمال السيئة، وكما ترى فهم المؤمنون الذين كانوا يعظون.

{وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا}، حيث لم نترك الذين لم يكن معهم حق حين خالفوا أوامره سبحانه، وأصابهم سبحانه، {بِعَذَابٍ}، بشيء يصيبهم بالضرر، {بَئِيسٍ}، الشديد في سوئه عليهم، {بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}، بسبب خروجهم عن أوامر واضحة قالها تعالى، فهم يقولون إنهم متدينون ولكنهم خرجوا عن أوامر الدين بالعمل في يوم السبت "كنموذج عن بقية فسقهم".

لاحظ أن مجتمعاتنا غالبيتها من هذه النوعية، فالنادرون منّا يعلنون أنهم لا ينتمون لدين الإسلام، "ملحدون أو علمانيون..."، والقليل يعلنون أنهم ملتزمون تماماً بالدين، والغالبية يعلنون أنهم منتمون لهذا الدين، وهم فقط منتمون ومزاجيون، بعضهم يصلّي وبعضهم يصوم أحياناً... وغالبيتهم لا يزكّي... ولا يقبل بحكم الشرع في المنازعات والميراث إن لم تكن على خاطره وفي صالحه... ويعملون في وقت صلاة الجمعة... والنموذج الذي تطرحه الآيات هنا هو عن عذاب لأناس من هذه النوعية، عن أناس يدّعون الانتماء للدين الإلهي ولكنهم مزاجيون في اختيار ما يعجبهم وما لا يعجبهم من دينه تعالى، والعمل يوم السبت هو نموذج بارز عن مخالفة أوامره تعالى علناً، ولم يكن الفسق الوحيد بل الأبرز.

السؤال يتوجّه لنا لمجتمعاتنا، فهل نحن بالأمان من العقاب الإلهي؟ لا، لأنّ أنواع عقابه سبحانه متنوعة، بعضها ظاهر جداً بأنه من فعله تعالى، كتحويل الصيادين لقردة كما سترى من الآية التالية، ولذلك ذكره القرآن لنا كنموذج، وبقية غالبية العقاب سنرى له أسباباً من واقعنا، كالنزاعات والحروب وفساد الحكومات والحكّام... والذي ينتج عنه الفقر والعوز والتخلّف وفقدان الأمن... وهي في الأساس ناتجة عن فسق المجتمعات، وهذا ما تعاني منه مجتمعاتنا.

بقي شيء ننتبه له، حيث إنّ النجاة كانت فقط للناهين عن السوء، وحتى الذين لم يكونوا فاسقين ولكنهم كانوا ساكتين لا يعلنون اعتراضهم على السوء، بل يطلبون من الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر التوقّف عن أعمالهم التي تسبّب بلبلة في صفوف مجتمعهم... فهؤلاء طالهم العذاب كما يبدو من تحديد الآية للناهين عن السوء أنهم الناجون.

هذا شيء يتماشى مع عموم كلام القرآن عن الساكتين عن الحقّ، وعن الذين يعتبرون أنفسهم مستضعفين، وعن الذين لا يدخلون بين السلاطين، وعن الذين يقولون: حيدي حياد. حيث يحيدون عن المشاكل ويطلبون أن تحيد عنهم... فهؤلاء لا عذر لهم بالحياد والوقوف على التلّ للمشاهدة، ولهم حساب مثل حساب الفاسدين المجرمين بالتمام، لأنّ الأمر الإلهي للجميع بالتصدّي للظلم والفساد، وخذ مثالاً آخر حيث إنّ الهروب من الزحف عليه عقاب الخلود في جهنّم.

(فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ{166})
{فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ}، عندما وصلوا إلى أقصى ما أمرناهم بتركه نهائيًّا، وصار العمل يوم السبت عندهم عاديًّا ولا تَهُمُّهُم بتاتًا مخالفتهم لأمره تعالى، عندها، {قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً}، صيروا على شكل الحيوان المعروف بعدة أنواع، كالسعدان والغوريلا والشمبانزي، {خَاسِئِينَ}، فحالكم بعد تحوّلكم تدل على عجز قدرتكم على تحدّي أوامره تعالى.

غيَّرَ سبحانه تكوين شكلهم الإنساني وصار لهم شكل القرود.

نلاحظ أن عقاب المجتمع الفاسق الذي ينتمي للدين الإلهي أشدّ من عقاب الكافرين، لأنَّ التحويل لقردة "المسخ" أسوأ بكثير من عقاب إهلاك الكافرين بكارثة.

نتذكَّرُ أن محور السورة عن الذين يوالونه أو لا يوالونه تعالى، وإلى هنا صار واضحًا من السورة أن التهديد الإلهي بالتعذيب في الدنيا يشمل كل الناس، حيثُ يَشْمَلُ الكفَّار والمشركين والفسَّاق والمنافقين ومن كان مؤمنًا ثم تراخى أو تراجع...

ننتبه إلى أنَّ الموضوع ليس عن العقاب الإلهي بسبب يوم العطلة، بل الموضوع عن مخالفة أمر إلهي توافق عليه المجتمع، فعندما تضع في بالك أنه تعالى حكيم حتى لو لم تفهم أهمية العطلة "لهم" في يوم السبت، لكنك ستفهم أنه تعالى بحكمته رأى أنهم يستحقون عقابًا شديدًا من نوع "المسخ"، وأضف إلى ذلك ما تعرفه من المجتمع من حولك، حيثُ إنَّ غالبِيَّتَهُمْ يرتكبون الكثير من المحرمات ويتركون الكثير من الواجبات، وترى انعكاس ذلك في بضعة أشخاص في صلاة الجمعة... لأنَّ مجتمعَ أولئك الصيادين لم يكن جرمهم الوحيد العمل يوم السبت، بل هو نموذج عن توافقهم على مخالفة جماعية لأمر إلهي صريح.

بعبارة أبسط، من عمومِ القرآن تفهم أني كفرد، كشخص بحالي، أبني ارتباطي الشخصي به تعالى، بالتوحيد، بفهم صفاته تعالى بشكره والتوكُّلِ عليه... بالقيام بواجباتي... وكفرد من مجتمع، هناك نظرة إلهية للمجتمع، لأنَّ محافظةَ المجتمع على مظهر التدين، هذا له حسنات عنده تعالى حتى لو كانوا كأفراد مستهترين بواجباتهم المتعلقة بهم، وَلْنفرضْ أنهم كُلَّهُمْ لا يُصَلُّونَ ولا يصومون ولا يُزَكُّونَ... ولكنهم لا يتجاهرون بذلك أمام بعضهم البعض، وهذا المجتمعُ سَيُحَيَّدُ عن العقاب الإلهي المباشر، وسيتعرّض للبلوى حتى يظهر على حقيقته، فإمّا يتحسّن إيمان الناس أو يُعْلِنُونَ مخالفتهم لأمره تعالى علنا، وعندها يستحقون العقاب الإلهي... وهذا ما حصل مع قرية الصيادين، حيثُ جاءَتْهُمْ الحيتان يوم السبت كبلوى لتظهر ما كان خافيًا كامنًا من فسق بعضهم.

عادةً في تراثنا نضيف تحويلهم "مسخهم" خنازير إلى قردة، عِلْمًا أنَّ القرآن هنا وفي الآية 65 من سورة البقرة {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}، حَدَّدَ جعلهم "مسخهم" لقردة، وما جاء عن جعل البعض خنازير في الآية 60 من سورة المائدة {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ...} يَبْدُو لقوم آخرين غير الصيادين.

هناك كلام عن المسخ، وفي عمقه تحليل للكلام الإلهي إنْ كَانَ تحويلًا حقيقيًّا للجسد ليصيروا قردة قلبًا وقالَبًا، مِمَّا يَتَضَمَّنُ تغيير هيئتهم وفكرهم مع احتفاظهم بما يمكن للقردة الاحتفاظ به مِمَّا يُشَابِهُ الإنسان... أو كان فقط تحويلًا للشكل مع بقاء المضمون إنسانًا، أو تَغَيُّرًا جُزْئِيًّا في الشكل مع بقاء المضمون إنسانًا، أو لا شيء مما سبق بل هي تعابير مجازية عن تحوّل مجتمعهم لحياة القرود بتخلّفهم وتراجعهم لحالة الإنسان البدائي، كما نصف شخصًا مُهْتَاجًا بأنه كالثور، حيثُ إنَّهُمْ بقوا كما هم ولكن صارت تصرفاتهم بدائية كالقردة.

أوَّلًا، لم يستعمل القرآن كلمة مسخ أو مشتقاتها إلا في الآية 67 من سورة يس {وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ}، وقصدت تشويه الخلقة لتصير مانعة للكافرين من الوصول إلى صراط الجنّة مَشْيًا أو زَحْفًا... ولم يستعمل القرآن كلمة مسخ لحالة الذين صاروا قردة أو خنازير، بل استعمل {جَعَلَهُمْ} وأن {يَكُونُوا}، وهذه تعابير مباشرة لمعنى تحويل الخلقة، ولا تَتَضَمَّنُ معنى التشويه بل معنى التحويل بلا مهانة للقرد والخنزير لأنهما حيوانان صمّمهما تعالى ولم يُفَضِّلْهُمَا في الخلقة كما فَضَّلَنَا بالفكر المُؤَهِّلِ للتكليف لدرجة خلافته تعالى، لأنَّ المَهَانَةَ لمن تحوّل من أحسن صورة إلى ما دُونَهَا حتى ينكسر تكبره وتعاليه على أوامره تعالى وَكَتَنْكِيلٍ يَتَّعِظُ منه الآخرون فلا يَتَدَلَّلُونَ عليه تعالى ويُفَسِّرُونَ حلمه عليهم كأفضلية ثابتة لهم وأنهم فوق العقاب.

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ{167})

{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ}، المسؤول عنك من مستوى إلهي أعلن جَهْرًا، "آذان"، حيثُ في السابق أخبرهم عبر الأنبياء، {لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، بالتأكيد المحسوم سيكون على بني إسرائيل "من بداية عصيانهم لأوامره تعالى" إلى زمن قيامهم من الموت، حيثُ بقوة قاهرة لا يمكن تغييرها سيكون على بني إسرائيل، {مَنْ يَسُومُهُمْ}، من ينالهم منه وَيُصِيبُهُمْ بِـ {سُوءِ الْعَذَابِ}، لأَنَّهُمْ سَيَتَعَرَّضُونَ لما يؤذيهم وسيكون سَيِّئًا، حيثُ فترة بعد فترة سيأتي من لن يعاملهم بالحسنى بل سيصيبهم بِأَسْوَإِ أنواع العذاب.

{إِنَّ رَبَّكَ}، إن المسؤول عنك من مستوى إلهي، {لَسَرِيعُ الْعِقَابِ}، وهنا الكلام عن فسق بني إسرائيل، لأنَّ الفسق عليه عقاب، حيثُ هُنَاكَ شيء يعقب وَيَأْتِي بعد الفسق، وَهَا قَرَّرَ سبحانه أن يكون العقاب سَرِيعًا في حالة بني إسرائيل، حيثُ هنا في الدنيا قبل الآخرة قَرَّرَ سبحانه مجازاتهم على فسقهم بتسليط من يسيء معاملتهم... وكما تعلم أَنَّ هذا العقاب السريع هنا في الدنيا هو جزء بسيط من عقاب الآخرة.

{وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ}، حيثُ يَتَجَاوَزُ سبحانه عن الذنوب لمن طلب منه المغفرة، {رَحِيمٌ}، وَلَدَيْهِ عناية خاصة للمؤمنين لما فيه مصلحتهم.

هذا العقاب الدنيوي المقرّر لهم ليس مُخَالِفًا للقاعدة الإلهية الأساسية: المغفرة تتبعها الرحمة. وحتى لا تتصوّر أنهم استغفروا ومن المفروض عندها أن تنالهم الرحمة ولكنه تعالى تأذّن أن يعاقبهم ولن يتراجع سبحانه، لا، لأَنَّهُ سبحانه

غفور رحيم وفي نفس الوقت قرّر بعث من يسومهم بالعذاب إلى يوم القيامة لأنهم كجماعة لن يستغفروه تعالى وبالتالي لن ينالوا الرحمة الخاصّة بالمؤمنين، وسيبقى هذا القرار سَارِيًا إلى يوم القيامة على كل من لم يتب منهم.

بَنُو إسرائيل بشكل عام عبر التاريخ لم يتغيروا، حيثُ لعبوا بالدين الإلهي، يحلّلون ويحرّمون كما يشاؤون، ولذلك قَرَّرَ سبحانه جعلهم لا يعيشون في أمان، بل يتعرضون لِأَسْوَأِ أنواع العذاب مدة بعد مدة. وخلال تاريخهم نلاحظ أنهم مدة بعد مدة تحصل معهم مشاكل كبيرة مع بقية الشعوب، حيثُ قَدِيمًا حصل الكثير من الحروب بينهم وبين جيرانهم من الشعوب من العموريين والموآبيين وبقية الفلسطينيين... واستعبدهم نبوخذنصر وهو ملك منطقة بابل وهي في العراق الآن، وبعدها صاروا تحت حكم ملك الفرس كورش وهي إيران الآن، ليطلق سراحهم فيما بعد، بعد ذلك حكمهم اليونان ثم الرومان... ثم المسلمون... وُصُولًا إلى عصرنا حيث يتعرضون بين الحين والآخر للحروب لأن القوى الكبرى تريدهم كفتيل حرب جاهز للاشتعال في منطقة الشرق الأوسط، وذلك حتى لا يستقر حال المسلمين ويتخلون عن مبادئهم والتماشي على الموجة الغربية التي تعيّن وتدعم حُكَّامًا فاسدين للمسلمين، كضمانة حتى لا يصير المسلمون أمّة كما كانوا في السابق... وَمُضَافًا له إيمان العديد من السياسيين المسيحيين أن النبي عيسى (ع) سيعود حين يصير الدمّ بِرَكًا وَأَنْهَارًا في فلسطين، فيريد هؤلاء جرّ المنطقة إِلَى حرب دامية من أَسْوَأِ ما يمكن عبر استخدام اليهود كمحفّز للحرب... وَمُضَافًا لذلك الكره الباطن لغالبية المسيحيين لليهود حيثُ يتعاملون معهم كعصابة من الصعب التخلّص منها إلا إذا شغلتها بعدو يلهيها...

ضع آيتنا هنا في بالك عندما تظن أنه تعالى فضّلهم على العالمين بمعنى أنهم الأفضل، لا، بل فضّلهم تعالى بالعناية والنعمة إلا أَنَّهُمْ فسقوا فكان مصيرهم أَسْوَأَ من مصير الكافرين، حيثُ لم نسمع بتحويله تعالى لقردة وخنازير إلا لفسّاق بني إسرائيل.

(وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{168})
يكمل سبحانه توصيف حالة بني إسرائيل من بعد زمن النبي موسى(ع):

{وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا}، حيثُ جَعَلَهُمْ سبحانه ينتشرون في الأرض قِطَعًا أَقْسَامًا فلم يبقوا مجتمعين في مكان واحد، وَتَقَطَّعُوا أُمَمًا، جماعات منفصلة ولكل جماعة اشتراك بشيء أساسي بينهم له امتداد تاريخي، فَجَمَاعَةٌ منهم في هذا البلد ولها اسم خاص وطريقة خاصة في الحياة، وجماعة في تلك الناحية، وصاروا فِرَقًا وَمَذَاهِبَ...

{مِنْهُمُ}، من تلك الأمم يوجد أمم، {الصَّالِحُونَ}، موصوفون بأنهم يقومون بالأعمال الصالحة، فلا يخالفون أوامره تعالى، لأَنَّهُمْ مؤمنون متدينون حقيقيون، {وَمِنْهُمْ}، من تلك الأمم، {دُونَ ذَلِكَ}، حيثُ إِنَّهُمْ أقل من الصالحين، وهكذا وُصُولًا إلى أمم فاسقة...

نَنْتَبِهُ جَيِّدًا، حيثُ من زمن انتقال بني إسرائيل إلى مصر في عهد النبي يوسف(ع) كانت الفكرة استقرارهم في وطن لهم، لَكِنَّهُمْ وقعوا تحت استضعاف فرعون... وحين خرجوا مع النبي موسى(ع) من مصر أَيْضًا كانت الفكرة استقرارهم في وطن لهم، ولم تتحقّق هذه الفكرة بسبب فسقهم فَتَاهُوا أربعين سنة، وهذا الفسق "بشكل عامّ" مستمر مع غالبيتهم عبر التاريخ، وَسَبَّبَ لهم تَقَطُّعَهُمْ في الأرض أُمَمًا بدل أن يكونوا أمّة واحدة في وطن خاص بهم.

عبر التاريخ ترى محاولاتهم لبناء وطن، لَكِنْ كُلَّمَا عَمَرَتْ، خربت، وتشردوا في البلاد، وَقَرِيبًا من عصرنا هذا بنوا دولة على أرض فلسطين، ويحاولون التجمّع، ولكنهم لم يرتاحوا من بداية تأسيسها، ولن يرتاحوا، ولا يزال من في الشتات أكثر بكثير ممن في مستوطناتهم، وكما ترى من كلام القرآن فَإِنَّهُمْ حَتْمًا سيتشردون في البلدان ولن يكون لهم وطن مستقر ولن يعيشوا بأمان... وَطَبْعًا السبب هو فسقهم، هو مخالفة أوامره تعالى، وَعَمَلِيًّا هُمْ وصلوا إلى مرحلة من لا ناموس له، حيثُ إِنَّ غَالِبِيَّتَهُمْ يقتلون الأبرياء أو يقبلون بقتلهم، ويكذبون، ويخادعون، وَطَمَّاعُونَ، ويكذبون ويخونون العهود... وهذه صفات لا يمكن للآخرين التعايش معها، فَحَتْمًا سيبقون في حالة المشاكل مع الآخرين...

{وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ}، حيثُ أَصَبْنَاهُمْ بأمور يمكن أن تغيّرهم، بأمور حسنة جيدة فيها مصلحتهم وتعجبهم، وأصابهم تعالى بأمور سيئة ليس فيها مصلحتهم ولا تعجبهم، {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، حيثُ من المفروض ومن المتوقّع أن يرجعوا إليه تعالى، وَيَرْجِعُوا إِلَى الالتزام بدينه تعالى بسبب تعرّضهم للأمور الحسنة وَيَطْمَعُوا بالمزيد منها عبر

الالتزام بأوامره تعالى، وبسبب تعرضهم لأمور سيئة ومعرفتهم أن طريق الخلاص منها يكون عبر استغفاره تعالى والالتزام بدينه.

(فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـذَا الأدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ{169})

يبدو لك من السياق العام للآيات أنها تعتمد على ما تعرفه من القرآن ومن هذه السورة عن نزول الألواح التي فيها التوراة على النبي موسى(ع)، وتقطيعهم في الأرض أُمَمًا...

{فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ}، جَاءَ من بعدهم، من يخلفهم من يأتي بعدهم، {وَرِثُوا الْكِتَابَ}، حيثُ انتقل الكتاب الإلهي "التوراة" إلى الخَلْف الجديد، أي إلى الأجيال الجديدة، {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى}، فَأَيُّ شيء يُعْرَضُ عليهم وَيَكُونُ دَانِيًا منهم أي بمتناولهم فإنهم يأخذونه، وَأَيُّ شيء بإمكانهم فعله أو أخذه، مع أَنَّهُمْ يعلمون أنه سوء، فإنهم يفعلونه، {وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا}، حيثُ يَتَجَاوَزُ سبحانه عن أفعالنا ولن يعاقبنا.

نلاحظ طريقة قولهم: {سَيُغْفَرُ لَنَا}. إذْ يقولونها بلا مبالاة، وليس عن إيمان، لأنَّ المؤمن يطلب المغفرة وهو شاعر بسوء ما فعله ولا ينوي تكراره، أمّا هم فمحسوم عندهم المغفرة مهما فعلوا ولا داعي للاستغفار.

{وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ}، وَمَرَّةً ثانية إن تعرّضوا لشيء مشابه لما تعرّضوا له في المرّة السابقة، وهو سوء مخالف لأوامره تعالى، فإنهم لا يَتْرُكُونَهُ، حيثُ صاروا في حالة فعل لأي سوء يتعرضون له، فمن أول مرة يقول فيها الشخص: هذا العمل السيّء أرغب به وسأفعله لأنه تعالى سيغفر لي لأني من أهل الكتاب... تَصِيرُ هذه الحالة مترسخة عنده وَبِنَاءً على هذه القاعدة لا يبقى أي سوء لن يفعله...

يقول سبحانه رَدًّا على هذه الحالة: {أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ}، حيثُ إِنَّ الكتاب الإلهي الذي ورثوه هو ميثاق وَهُوَ شيء شديد، لأَنَّهُمْ ورثوه على أساس أنهم منتمون منتسبون للكتاب الإلهي، وَعَمَلِيًّا هُمْ ملزمون بتطبيق ما فيه وإلا فما معنى انتسابهم له إن كانوا يخالفون ما فيه! وفي هذا الكتاب مكتوب، {أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ}، لِذَا لا يحقّ لهم اختراع أمور غير صحيحة ونسبتها له تعالى، لِأَنَّهُ سبحانه لم يقل في كتابه أن أعمالهم مغفورة على كلّ حال ومهما فعلوا، فما معنى أوامره تعالى التي في كتابه إن كان دائما مَغْفُورًا لهم مخالفتها؟! وما معنى أن تقولوا إِنَّهُ تعالى قال أو قرّر أن يغفر لكم مهما فعلتم؟!

{وَدَرَسُوا مَا فِيهِ}، حيثُ قَرَأُوا ما في الكتاب الإلهي "التوراة" وراجعوه لفهم محتواه، فهم يعلمون أنه في الكتاب لا يوجد كلام إلهي حول حتمية المغفرة لهم مهما فعلوا، وفي الكتاب تهديد لمن يغيّر معانيه ولمن يخترع أفكارا من عنده وينسبها له تعالى، ورغم ذلك قرّروا أنه مغفور لهم مهما فعلوا!

هذا الكلام مماثل لما نسمعه من بعض الناس في مجتمعاتنا، الذين يفعلون السوء ويقولون: ربنا غفور رحيم. نعم ربنا غفور، ولكن ليس لمن يرتكب السوء وهو لا يبالي، بل سبحانه غفور لمن طلب المغفرة مع ندمه وشعوره بسوء ما فَعَلَهُ وتصميمه على ترك السوء، وإلا فكيف يكون لِلِاسْتِغْفَارِ معنى! فكيف أَسْتَغْفِرُ الله سبحانه وفي نفس اللحظة من داخلي سوف أَنْتَهِي من الاستغفار وأقوم بفعل السوء! وما معنى أوامره تعالى ودينه إن كانت مخالفتها مغفورة مع الإصرار على تكرار المخالفة لمجرد أني مُنْتَمٍ بِالِاسْمِ لدينه تعالى أو لأني أنتمي لمذهب أو طائفة مميزة!

لا أدري إن مرّ عليك أناس من هذه النوعية، ولكنهم موجودون بيننا، حيثُ بطريقة أو بأخرى يقنعون أنفسهم أنهم متدينون لأنهم منتسبون لدينه تعالى ومعتقدون بتوحيده سبحانه وبآخرته... ويعتقدون أن بقية الأمور الواجبة والحرام هِيَ مجرد تفاصيل غير مهمّة، لِأَنَّهَا أمور لن يهتمّ بها تعالى طالما أنك لا تؤذي الناس، فـ"بقلبي أصلي ولا داعي للحركات والكلام المحدّد، بل صلاتي النابعة من قلبي أهمّ من الحركات والكلمات التي يقوم بها الناس!"... والصيام عن أذية الناس أهمّ من الصيام عن الأكل والشرب... هَذِهِ المفاهيم وأمثالها المشوّهة للدين الإلهي مُنْتَشِرَةٌ هنا وهناك بيننا نحن المُسْلِمِينَ، حيثُ حرّم سبحانه أذية الناس ولكنه سبحانه أوجب الصلاة والصوم والزكاة والعفّة والحشمة... وحرّم الزنا والخمر والمجون... فأي دين هذا الذي من اختراعهم ويكون تطبيقه في القلب كما يرونه هم مُنَاسِبًا؟! لِأَنَّ دينه

تعالى المكتوب في كتابه والذي يعرفونه لا يتوافق مع دين قلوبهم، بَلْ هُوَ في الحقيقة دين هواهم السيّء ومشتهياتهم الفاسدة، وتعرض الآيات هنا عليك هذا النوع من الدين بكلامها عن نموذج من متديني بني إسرائيل على أساس أن هذا القرآن يخبرك بما مرّ حتى لا تكرره، وها نحن نكرره، وبنسخ محدّثة، لِأَنَّ المسلم لا يخلد في النار! والذي من مذهبك لا يدخل النار أصلا حتى لو كان فاسقا أو منافقا!

{وَالدَّارُ الْآخِرَةُ}، والمكان الذي تدور فيه النشاطات الحياتية الذي سيكون في الآخر بعد انتهاء هذه الدنيا، وهو الجنة، {خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ}، مَوْصُوفٌ بأنه حسن وأحسن من هذه الدنيا للذين يتحاشون ويتجنبون، والكلام عن المتجنبين لفعل السوء وهو نفسه تجنّب مخالفة أوامره تعالى، لِأَنَّ المُتَّقِينَ لا يأخذون هذا العرض وذاك العرض الدنيوي بل يرون أن ترك ما يُعْرَضُ عليهم من سوء مقابل حصولهم على الدار الآخرة أهمّ.

{أَفَلَا تَعْقِلُونَ}، أليس لديكم القدرة على عقل الأمور، حيثُ في كتابه تعالى وعد المتقين فقط بالدار الْآخِرَةِ، وحالة من يفعل ما يُعْرَضُ عليه من سوء ليست حالة تقى، فمن أين تخترعون أن ذنوبكم مغفورة حتما وأنكم ستدخلون إلى الجنّة؟ على أي أساس؟ وما الفرق بينكم وبين الكافرين والفاسقين والمنافقين؟

(وَالَّذِينَ يُمَسَّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ{170})
انتهينا في الآيات السابقة ممن ورث الكتاب وخالفه وأهمله، وننتقل للمؤمنين الَّذِينَ ورثوا الكتاب:

{وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ الْكِتَابَ}، حيثُ إِنَّهُمْ مُتَمَسِّكُونَ بشدّة بكل ما في الكتاب الإلهي، وَيَلْتَزِمُونَ بِمُحْتَوَاهُ مِنَ الإيمان والعمل الصالح.

{وَأَقَامُوا}، فعّلوا لم يعطّلوا لم يتركوا أو يهملوا، {الصَّلَاةَ}، التوجّه وَالْإِقْبَالَ على شيء ما، وهذه الكلمة مصطلح ديني يشير لِلتَّوَجُّهِ بالحركات والكلام المعروف بالصلاة الواجبة، وهي الفريضة الدينية التي نقيمها خمس مرات في اليوم وتعبّر عن ذكرنا لله تعالى، عِلْمًا أَنَّ كلمة صلاة عمومية لأي توجّه وإقبال، "عبادي" أو غيره، لَكِنَّ سياق الكلام يحدّد إن كان المقصود بها الصلاة الواجبة بالحركات والكلام المحدّد.

{إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ}، الْمَوْصُوفِينَ بأنهم مصلحون لأنهم يقومون بما هو صالح وهو نفسه الالتزام بأوامره تعالى، فَهَؤُلَاءِ حَدَّدْنَا لهم سَلَفًا ما يستحقونه على صلاحهم، ولن يضيع ما يستحقونه حيثُ سَيَحْصُلُونَ عليه حَتْمًا.

الآن لاحظ وقارن بين التمسّك بالكتاب وإقامة الصلاة وعموم الأعمال الصالحة، حيثُ إِنَّ هذا عليه أَجْرٌ مُحَدَّدٌ مَعْلُومٌ وهو دخول الجنّة في الآخرة، فَقَارِنْهُ مع من لا يتمسك بالكتاب وَيُخَالِفُ ما فيه، ويهمل الصلاة وعموم أعماله غير موصوفة بأنها صالحة ويقول بأن كل ذلك مغفور وأنه سيدخل الجنّة؟ فهل قال تعالى ذلك له في كتابه؟

ننتبه لمعنى كلمة أجر، حيثُ إِنَّهَا بِالدِّقَّةِ تعني: الشيء الذي تَحَدَّدَ سَلَفًا كقيمة يستحقها شخص ما على عمل مُحَدَّدٍ يقوم به، فَبِنَاءُ الحائط أجره عشر ريالات، حيثُ تَعْلَمُ سَلَفًا أن من يبني هذا الحائط يجب أن ينال عشر ريالات ممن حدّد قيمة الْأَجْرِ لبنائه، وهنا الكلام نفس الشيء، حيثُ حَدَّدَ سبحانه سَلَفًا قيمة الأجر على التمسّك بالكتاب والصلاة وعموم الأعمال الصالحة، ويعدنا سبحانه أن من يلتزم بهذه الأمور فلن يضيع أجره بل سَيَأْخُذُهُ حَتْمًا، وكما ترى إِنْ لم تعمل على بناء الحائط فكيف ستحصل على أَجْرٍ؟ وَأَيُّ أَجْرٍ لك؟ لِذَا، من ترك الكتاب ولم يعمل صَالِحًا فكيف يعد نفسه بِأَجْرٍ منه تعالى؟ على أي أساس!

ولا تَنْسَ دَائِمًا أن الأجر من فضله تعالى، إِذْ ليس فَرْضًا وَاجِبًا عليه سبحانه مجازاتنا بالجنّة إن آمنّا وعملنا الصالحات بل من فضله تعالى حدّد لنا أَجْرًا على ذلك، وَفَكِّرْ فيها مثلما عرضها القرآن عليك، لِمَاذَا سيكون فَرْضًا وَاجِبًا عليه تعالى مجازاتك إن آمنت؟ وَهَلْ استفاد تعالى منك؟ أو كان سيتضرر لو آمنت؟ ومن ناحية ثانية هَلْ آمنت بشيء غير صحيح حتى تطلب الأجر على جهد غير عادي وخدمة فعلتها؟ وهل عملك للصالحات يستوجب نيلك للأجر؟ وَمَا هي الصالحات التي ترى وجوب حصولك على الأجر منها؟ فَإِنْ ظننته تعالى سيأمرك بشيء لا منفعة لك منه سوى أنك أطعته تعالى والتزمت بكلامه فَأَنْتَ لم تفهم أنه تعالى أمرك بالصلاة حتى تتسجّل لك حسنات تُغْفَرُ منها ذنوبك وهذا صريح في الآية 114 من سورة هود {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ

ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}، ومثله الصيام والحج... وأمّا بقية التشريعات فهي صالحة ولا شر ولا فساد فيها، فهل تريد أَجْرًا لأنك صالح؟

وهكذا نفهم أَوَّلًا أننا لا حقّ لنا عنده تعالى كفرض واجب عليه أن يجازينا بالجنّة إن آمنا وفعلنا الصالحات، وله كل الحقّ سبحانه بمعاقبة من كفر وفعل السوء، ومن فضله سبحانه حدّد أَجْرًا للمؤمنين الْعَامِلِينَ للصالحات، ومن بعد هذا صَارَ لَنَا حَتْمًا أَجْرٌ لأنه هو تعالى قرّر ذلك.

بالنسبة للصلاة، لِبعض اليَهُودِ وضوء وصلاة مثل صلاتنا، وخمس مرات في اليوم، وبعضهم يوجب ركعتي صلاة الليل، وَاسْتَغْرَقَنِي جُهْدٌ طَوِيلٌ حتى رأيت بالفيديو وضوءهم وصلاتهم الأصلية عند بعض طوائف ملتزمة منهم "الحسيديون في أوروبا الشرقية، والسامريون في فلسطين"، وهي شِبْهُ تَامَّةٍ بوضوئنا وصلاتنا، وما تراه من أفعال بعضهم أمام الناس من المراوحة إلى الأمام والخلف، فهذه ليست الصلاة الرسمية...

(وَإِذ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ{171})
{وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ}، فقلع سبحانه الجبل ورفعه من مكانه وصار فوقهم، {كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ}، كأنه شيء له فيء، كأنه مظلة شمسية واقية من الشمس، {وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ}، فعندما صار بنو إسرائيل تحت الجبل صار لديهم اعتقاد أنه سيقع ويطبق عليهم، فمن رعب المشهد لم يتمكنوا من الاقتناع أنه لن يقع عليهم.

{خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ}، حيثُ آتيناكم كِتَابًا من عندنا فلا تتركوه أو تهملوه بل بقوّة خذوه، وَمَا هو مكتوب من عقيدة وشريعة وسلوكيات فنفذوه كما هو، بدون تهاون أو إهمال.

{وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ}، فاستحضروا في بالكم ما في الكتاب، فلا تنسوه بل تعلّقوا به وليبقى في بالكم دائما عقائده ووعوده...

{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، فمن المفروض ومن المتوقّع أن تصيروا في حالة تجنّب لمخالفة أوامره تعالى إذا أخذتم ما في الكتاب...

لاحظ أننا نفهم من الآيات المكررة في مختلف السور عن رفع الجبل فوقهم، أنه كان علامة على أخذه تعالى العهد ممّن حصلت معهم حادثة الرفع هذه من بني إسرائيل بأن يكونوا ملتزمين بكتابه تعالى مؤمنين صالحين. وهذه حالة فريدة من نوعها، لِأَنَّ بقية التعابير عن أخذ ميثاقه تعالى من المؤمنين تفيد بأن وصول محتوى الكتاب الإلهي إلى أَيٍّ كَانَ، ومعرفة أَيٍّ كَانَ بكلامه تعالى وإعلانه الإيمان به، فَهُوَ صار في حالة الارتباط بشيء شديد، في حالة الموثق معه تعالى، في حالة العهد له تعالى، وهذا لا يعني أن الآخرين غير المتدينين حالتهم أفضل لأنهم ليس بينهم وبينه تعالى عهد أو ميثاق، لا، لِأَنَّ هؤلاء محسوم لهم العذاب، أمّا المُؤْمِنُونَ فلا داعي لأن يقولوا أي تعبير فيه كلمة عهد أو ميثاق أو ما شابهها ليكون سبحانه أخذ منهم مِيثَاقًا، لا، لِأَنَّ نفس حالة التزامهم بالدين هي ميثاق وعهد عليهم، لِأَنَّ دينه تعالى لا يتحمّل التراخي فيه بمخالفته والاستهتار به كَمَا مرّ معك منذ القليل بالكلام عن الآخذين بأي عرض والمعتقدين أن كل ما يَفْعَلُونَهُ مغفور... وحالة رفع الجبل فوق بني إسرائيل هي نموذج عن حادثة أعلن فيها سبحانه بشكل ظاهر أنه تعالى أخذ ميثاقهم بالالتزام بدينه.

لِلْمَرَّةِ الفريدة في القرآن سترى في الآيات التالية نظرة أعمق للميثاق الذي علينا كلّنا له تعالى:

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ{172})
{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ}، نُخْبِرُكَ أيها النبي محمد(ع) وأيها القارئ للقرآن {إِذْ} أَخَذَ، تعامل بشيء ما المسؤول عنك من مستوى إلهي، {مِنْ بَنِي آدَمَ}، من المنتمين لآدم(ع)، {مِنْ ظُهُورِهِمْ}، من حيث يحملون، {ذُرِّيَّتَهُمْ}، من انفصل عنهم "بالولادة أو بغيرها وصار منفردا، وبهذا المعنى استعمل القرآن كلمة ذرية"، والظهر هو عموم ما حمل شيئا ما، كظهر الأرض... وهذا التعبير يستعمله العرب لما يخصّ وصف خلقتنا حيث اعتبروا أسفل ظهر الرجل والمرأة من الداخل، اعتبروه مكان تشكّل النطفة والبويضة، أو الأرجح أنهم عبّروا بالظهر عمّا نحمله ويصير فيما بعد ذريتنا، أو هو خليط من هذا وذاك ولكن ثبتت في استعمال الناس ككلمة تعبّر عمّا تخرج منه الذرية بغض النظر عن التفاصيل التشريحية

للأعضاء، فهو مثل التعبير الوارد في الآية 39 من سورة طه {... وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي} ومثل التعبير في الآية 17 من سورة عبس {قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ}، فهذه تعابير استعملها العرب للعناية، ولاستحقاق الموت قتلا، فلم يصنع سبحانه النبي موسى(ع) على عينه، ولم يمت قتلا كل من كفر، وكذلك استعمال كلمة ظهر هنا، فليست تشير لجهة أو للأعضاء التي تخرج منها الذرية، بل لعموم مسمّى مكان تحمل فيه شيئا، وبالنسبة لنا فهو مستعمل لوصف حملنا للذرية، وهكذا استعملها العرب.

حاول استبدال كلمة {ظُهُورِهِمْ} بأي كلمة أو جملة، وسترى مشكلة في الاستبدال، وأقرب شيء إذا استبدلتها وقلت "من جهازهم التناسلي"، وفيما سيأتي ستصير الصورة عندك أوضح لترى ما تقصده الآية.

{وَأَشْهَدَهُمْ}، ربّك سبحانه، {عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ}، فالحديث توجّه مباشرة لكل واحد منهم، فصار كل واحد منهم شاهدا على نفسه فلا يحتاج لشخص آخر ليشهد عليه، فقال لهم سبحانه: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ}؟ ألا ترون وتعتقدون بأني المسؤول عنكم من مستوى إلهي؟

{قَالُوا بَلَىٰ}، "نفي للنفي المتضمّن في قوله تعالى: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ}"، فبالتأكيد أنت المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {شَهِدْنَا}، فبأنفسنا علمنا أنك ربنا الأحد فهي ليست معلومة منقولة إلينا. خذ مثلا عن خبر الأهرامات الشاهقة في مصر، فهل تشهد بأنها موجودة؟ لتقول: نعم، قيل لي عنها. ولكن لو رأيتها بنفسك فستقول: شهدت على وجودها في مصر. وهنا نفس الشيء إذ هم بأنفسهم كل واحد منهم لديه علم بربّه.

هذا هو معنى ما يذكره تعالى في القرآن بعدة صيغ مختلفة عن تعلقنا به تعالى عند الخوف الشديد وفي الأزمات... كالخوف من الغرق... وما يذكره تعالى عن دوافع فينا للسؤال عمّن خلقنا وبالتالي تعرّفنا عليه من خلقتنا وخلقة ما في الدنيا... فهذا ما زرعه تعالى فينا للتعرّف عليه، وما تصيغه الآية هنا على أنه قول فهو ما انزرع فينا، ما انطبع فينا للتعرّف عليه تعالى بعدما صرنا في الدنيا.

جرى تصميمنا وخلقنا مُتَضَمِّناً معرفته تعالى، ونسمّي ذلك بالفطرة، واشتقّوا هذا التعبير من القرآن الذي عبر عن فطره تعالى لنا، عن صيران كيان لنا، وأضافوا إلى الفطرة اصطلاحا قابلية تعرفنا عليه تعالى.

هذا الإشهاد على أنفسنا حصل، {أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، حتى لا تقولوا يوم القيامة من الموت في الآخرة: {إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ}، ونفهمها بشكل أبسط لو خلقنا تعالى ولم يجعل فينا ما يعرّفنا عليه، والدارج تسمية ذلك بالفطرة، فماذا لو أعاد تعالى إحياءنا لمحاسبتنا لأننا كفرنا به أو أشركنا أو أنكرناه من الأساس ولم نؤمن بأي إله؟ فعلى أي أساس سيحاسبنا إن لم يجعل فينا إمكانية التعرّف عليه؟ وهكذا نفهم الآية هنا والعديد من آيات القرآن التي تحدّثت بشكل مباشر عن الإيمان البدائي من سبب الخوف والعجز، كما في الآيات التي تتحدّث عن الخوف غرقا... أو الآيات الكثيرة والتي تتحدّث عن تعرّفنا عليه تعالى مما هو مزروع فينا للسؤال عمّن خلقنا ولماذا، ومن التفكّر في خلق السماوات والأرض، فنفهم أنه تعالى سيحاسبنا بالحقّ لأن فينا ما يكفي للتعرّف عليه. فلا يمكن أن نقول: كنّا عن التعرّف عليك غافلين، كنت ولكن لم نلحظك ولم نلحظ أثرك، ولم نجد فينا ما يمكّننا من التعرّف عليك... فالجملة هنا لا يبدو أنه تعالى قالها لنا حين أشهدنا، بل تشرح لنا لماذا سبحانه أشهدنا على أنفسنا أنه ربّنا، وذلك حتى لا نأتي يوم القيامة ونقول بأننا مررنا في الدنيا ولم يكن فينا فكر ونفسية تؤهلنا للتعرّف على ربنا الحقيقي.

طبعاً، معنى الاعتراف بربوبيته تعالى عمليا هو ترك اختراع آلهة غيره وعبادتها، وتنفيذ أوامره تعالى فقط.

لاحظ في عموم القرآن تركيزه على القلب السليم، أولي الألباب، قوم يعقلون... فكلما ابتعدنا عن الهوى الفاسد واختراع أمور وهمية وكاذبة وفاسدة... بقينا على حالة معرفته تعالى أنه ربّنا الأحد، فبشكل ما هذا الشعور مغروس فينا، ويتم تفسيره بشكل صحيح عند الذين لم يتّبعوا الهوى، فالأنبياء والصالحون أشخاص ذكرهم القرآن كنماذج عن الذين بقوا على سلامة قلبهم ووصلوا بسهولة إلى معرفته تعالى، فبقوا على أحسن تقويم كما تصف الآية 4 من سورة التين {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}، فهؤلاء تفعّل لديهم بشكل قوي جدا ذكرى اللقاء معه تعالى، ولا تفهم أنهم يتذكّرون المشهد، لا، فلا شيء للمشاهدة بالعين في تلك الحادثة، ولا تفهم أنهم يتذكرون أنهم قالوا: {بَلَىٰ شَهِدْنَا}. إذ أصلاً كلامهم هو واقع حال، ولا تفهم أنه لديهم خيالات أو تصورات عن ذلك اللقاء... لا، بل لديهم شعور داخلي قوي جدا جدا بأنهم

تابعون لربّ واحد أحد، وهذا الشعور أصله مما جعله تعالى فينا من قابلية للتعرف عليه تعالى من الفكر والنفسية، وتعبّر عنه الآية بأنه كلامه تعالى معنا...

الخلاصة، بغض النظر عن اختلاف الدراسات حول الآية فمن الواضح منها أنه سبحانه يريد إخبارنا عمّا فعله معنا حتى نتعرّف عليه بأنفسنا، وذلك حتى لا نأتي يوم القيامة ونقول بأننا كنّا غافلين عن معرفته، وبالتالي لا يحق له تعالى محاسبتنا على الكفر أو الشرك به لأننا لم نتمكّن من معرفته، لا، حيث حصل شيء ما، وهو خلقنا بقابلية الفكر والنفسية المُعَرِّفَةِ عليه تعالى. والخلاف بين مختلف دراسات الآية تتفق عموما حول هذا المعنى، ولكن تختلف في تفصيل حصوله.

بعضهم فسروا الآية بأنها تتحدّث عن استخراجه تعالى للنطفة من آدم(ع) و... علماً أن صريح الآية يشير لأخذ الذرية من ظهور بني آدم(ع) وليس من آدم(ع).

قالوا إن هذه الحادثة وقعت قديما في عالم مختلف عن عالمنا الحالي ويسمّونه من تعبير الآية بالذرية أنه عالم الذرّ، وقالوا إنه عالم ما قبل ولادتنا بجسد، علماً أن الآية تشير لظهر أحد ما من أبناء آدم، ولظهر ابنه وابن ابنه... فهناك أبناء لآدم ومن ظهرهم أخذ تعالى ذريتهم، ومرة ثانية من ظهر ذريتهم أخذ تعالى ذريّته وهكذا... ولهذا السبب وضعت {إِذْ} بين هلالين في تفسير كلمات السورة، فهي للفجائية بعد شيء، وليست حصرا لشيء حدث قديما، ولا لشيء حدث وانتهى، بل تعطي المعنى الذي رجّحناه من تكرار الحدث مع كل واحد من بني آدم صار له ذرية، ولكل واحد من ذريته صار له ذرية...

هناك أشخاص لهم ظهر ومنه أخذ تعالى الذرية، وما يقولونه عن عالم ما قبل الأجساد يجعل التعبير بالظهر يشير لشيء غير معلوم ولا مفهوم، وقال بعضهم إنه تعالى استخرج النطف "الحيوان المنوي" والنطف من النطف، وهم يقولون إنه عالم غير مادي وليس مثل عالمنا، فعن أي نطف يتحدثون إن كانت الحادثة وبحسب قولهم قد حدثت في عالم لا أجساد فيه؟! وحديثاً يمكن تفسير الآية على نفس نمط هذا التفسير بأنه استخراج للجينات الوراثية، ولكن كلا التفسيرين وأشباههما يجعلان الكلمات غير حقيقية، فلا يبقى معنى للظهر ولا للذرية، ولا يمكنهم أن يشرحوا لنا معنى حصول ذلك في عالم قبل أن يكون لنا أجساد، أو أن آدم وحده كان له جسد ونحن كنّا في عالم الذرّ، فهذا يعني أن عالم الذر في ظهر آدم... على أي حال فالآية قالت إن الأخذ تمّ من بني آدم وليس من آدم(ع).

بعضهم جعل ما يسمونه بعالم الذرّ أنه عالم الأرواح والأشباح، وبناء عليه فتعابير الآية عندهم تقريبية، فلا ظهر ولا ذرية، وما معنى "بني آدم" في الجملة؟! فهل أخذ سبحانه من ظهور أرواح بني آدم ذريتهم؟ فهذا يخالف ظاهر الآية وظاهر الكثير من كلام القرآن الصريح بأننا كنّا لا شيء بتاتا، وصرنا، فكنا أمواتاً وأحيانا تعالى، وحين كنّا أمواتاً لم يكن لنا حالة حياة سابقة، بينما بعضهم يقولون إن أوّل حالة لنا من لا شيء أن صرنا شيئاً ما، شبحاً أو روحاً... بعدها متنا، بعدها أحيانا تعالى حين تشكّلنا كأجنّة في بطن أمهاتنا، وهذا الكلام عن حالة ما لنا قبل أن نولد، فلن تجده صريحاً في القرآن، وستجد في القرآن وصفه لحالة حين لم نكن، بأننا كنّا أمواتاً وأحيانا تعالى، فنقول عن الأرض أنها موات "ميتة" حتى لو لم يكن فيها سابقاً أي نبات حيّ، فكلام القرآن عن إحياء الأرض وكلام العرب مستعملين كلمة ميّت وموات... لا يعطيك معنى حالة حياة قبل الموت، بل الموت هو وصف حالة فقدان الحياة عموما سواء كانت وفقدتها أو أصلا لم تكن. وعلى أي حال فوصفهم "وبحسب كلامهم" لروحي أنها كانت قبل ولادتي، وماتت، ثم ولدتني أمّي، فما معناه؟ فلو راجعت فلسفتهم لوجدتهم افترضوا الروح بصفات تخلّصهم من مشكلة موت الجسد، فالروح عندهم تبقى كما هي ويموت جسدنا، وسبحانه يعيد إسقاط أرواحنا في أجساد جديدة في الآخرة، فلن نناقش في ذلك هنا ونكتفي بسؤالهم عن معنى الموت في عالم كنّا فيه روحاً فما معناه إن كانت عندهم الروح لا تموت؟

لمزيد من التوسّع حول هذا الموضوع راجع دراسة الآية 67 من سورة مريم {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}.

كلامهم في الكتب الدينية عن الروح يعتمد على ثقافة منتشرة عند أهل الكتاب والفلاسفة القدماء، ولسبب أو لآخر صارت منتشرة عندنا أيضاً، حيث يقولون بأن الروح أو النفس أو الجوهر أو... هو كياننا الحقيقي والجسد مجرد وعاء، وهكذا صار بإمكانهم نسج سلسلة أفكار مترابطة ومبنية على ذلك، وصار بإمكانهم الحديث عن عالم كنّا فيه أرواح...

ودرجت هذه الثقافة حتى إن الأكثرية يظنّون أنها من كلامه المباشر سبحانه وليست آراء ودراسات لكلامه تعالى، وهكذا تصير مخالفة هذا الكلام هرطقة مخالفة للدين في نظر عموم المنتمين لدينه تعالى.

على أي حال فلنفسّر الآية هنا دمجاً مع الآية 30 من سورة الروم {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ} التي تحدّثت عن تضمّن خلقتنا "الحالية" لمعرفته تعالى "بفكرنا عبر التفكّر بالآيات وبنفسيتنا الناتجة عن تراكم الأفكار"، ودمجاً مع الآية 11 من سورة غافر {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ}، التي تشير لحالة موتنا قبل أن يصير لنا أي كيان، وتشير لحياتنا هنا بهذه الأجساد، فهذه الآية وغيرها من عموم تعابير القرآن عن إحيائنا تنفي وجود عالم كنّا فيه قبل أن يصير لنا جسد، إذ كنّا موصوفين بالأموات قبل ولادتنا ولا حالة أخرى قبل ذلك.

بناءً عليه، تماشياً مع عموم مفاهيم القرآن الأساسية الواضحة، وبغض النظر عن تلميحات مخالفة قد تشتقها من آية ما، فالكلام عن الأخذ من الظهور، هو توصيف واقع حال إحيائنا كأطفال صار لها فؤاد، وتقرأ هذا المعنى في الآية 78 من سورة النحل وغيرها {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، وبالقدر الممكن لاستيعابنا لأساسيات التعرّف عليه تعالى، فهكذا فطرنا سبحانه، فجعل معرفته متضمنةً في خلقتنا، وأول حالة لها معنى بالنسبة لنا لتتفعّل فينا معرفته تعالى هي صيران فؤاد لنا وهو يعني تفاعلنا مع محيطنا...

هكذا نفهم الآية أنها تشير لتصميمه تعالى لنا بحيث حين نتشكّل ونكتمل بالقدر الكافي لنصير إنساناً، فمزروع فينا التعرّف عليه تعالى، وهو ما نلمسه عند حالة الخوف الشديد مع الشعور بالعجز عن التعامل مع ما يخيفنا، والحالة النموذجية لذلك هي حالة الخوف غرقاً في عرض البحر في عاصفة هوجاء... وهو ما نلمسه من السؤال الذي لا ينفكّ عنّا: من أوجدنا؟ ولماذا؟ فأخذه تعالى لنا لنشهد على أنفسنا بمعرفته، هو واقع حالة أوّل تشكّلنا، فكلما تشكّل واحد من بني آدم من ظهر من سبقه، مجعول فيه، مطبوع فيه، مزروع فيه، فهو مفطور، على معرفته تعالى. وبناء عليه لا يحقّ لأي واحد منا في يوم القيامة أن يقول إنه كان غافلاً عن معرفة ربّه، لا، لأن ذلك انزرع فيك.

بالتقريب التشبيهي فهي كحالة كتابة سطر برمجي في برنامج، عندما يكتمل برنامج إنسان ما، يوجد فيه سطر للتعرّف عليه تعالى، طبعاً، هذا الكلام فقط لتقريب الفكرة، والكلام الدارج بين الناس أقرب للفهم حيث يقولون إنه في فطرتنا ما يعرّفنا عليه تعالى، وقرآنياً، فهذا المعنى نصوغه بالعبارة التالية: عندما فطرنا سبحانه، فجعل لنا كياناً تشكّل من بعدما خرجنا من حمل أهلنا لنا "من ظهر أهلنا" واكتملنا كإنسان، فتصميم خلقتنا يتضمّن تعرّفنا عليه سبحانه.

(أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ{173})
{أَوْ تَقُولُوا}، في يوم القيامة عندما أسألكم: لماذا أشركتم؟ ولماذا لم تطيعوني؟ وتبرروا وتقولوا:

{إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ}، نحن ولدنا ووجدنا آباءنا مشركين، وفتحنا أعيننا في مجتمع يعلن أنك سبحانك لست الربّ الأحد، {وَكُنَّا ذُرِّيَّةً}، وكنا منفصلين عنهم "بالولادة أو بغيرها"، وكنا الأجيال التي خلّفوها، {مِّن بَعْدِهِمْ}، خلّفونا ولّدونا وجئنا بعدهم، وتعلمنا منهم أنك سبحانك لديك شركاء في الربوبية ولست الأحد، فأشركنا! {أَفَتُهْلِكُنَا}، أتستنفد منّا معنى حياتنا، ونفقد صحّتنا وراحتنا وسعادتنا... وتنهي حياتنا بتعاسة في جهنم، {بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ}! هل بسبب الباطل غير الصحيح ولا السليم الذي فعله آباؤنا سنتعرّض نحن للهلاك عبر العذاب في جهنّم، لأننا ورثنا منهم الشرك وبسببهم أشركنا، لذا لا يحقّ لك محاسبتنا. لا.

كلمة هلك تقال لعموم ما هو مُسْتَنْفَدٌ بِتَدَرُّجَاتٍ حتى نهايته، كالعمر أو الجسد أو الزرع بِانْقِضَائِهِ حتى انْتِهَائِهِ أو فساده، ويختلف عن الموت بأن فيه تَدَرُّجاً في اسْتِنْفَادِ الحياة والصحة والقوة، ومنه ما ورد في الآية هنا، والكلام عن الهلاك بِاسْتِنْفَادِ الراحة والأمن والصحّة في النار. أما الموت فهو حالة فقدان الحياة.

هَلَكَ الشخص أو هلك القوم لا تعطي حَصْرِيّاً معنى موتهم بل تشمل موتهم وتشمل انتهاءهم بأي معنى كان، وللشخص تشمل انتهاء تأثيره أو انتهاء حكمه كالتعبير في الآية 34 من سورة غافر {وَلَقَدْ جَاءَكُم يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا} فوصف هلاكه وصف اسْتِنْفَادِ حالة وجود رسول بينهم، واستعمال هلك للقوم فهي تشمل انتهاء أثرهم الفاعل ومنه معنى موتهم، وتشمل انتهاء كيانهم من بعد تشتتهم...

نرجع للآية، مِنَ الآن خذوا عِلْماً أنه حين يأتي يوم القيامة ونحاسبكم على ولايتكم لربّكم، فإن التبرير بأنكم ولدتم في مجتمع مشرك هو تبرير غير مقبول ولن ينفع، إذ في كل واحد منكم ما يعرّفه على مولاه ربّه من مستوى إلهي، لذا كان يجب عليكم رفض كل ما عدا ذلك.

نتذكّر أن موضوع السورة كان عن الذين يتولّون غير الله تعالى، ويجعلون له شركاء، ويفسدون في الأرض... وأن العقاب في الدنيا ينزل عليهم... هنا تشرح لنا الآيات أنه قبل خروجنا إلى هذه الحياة عرّفنا سبحانه نفسه، وخرجنا إلى الحياة ومزروع فينا أنه تعالى ربّنا الأحد. لذا لا عذر لنا إن كفرنا أو أشركنا أو تركنا طاعته تعالى.

بقي شيء، هناك سؤال ينطرح كَثِيراً: ما ذنب الطفل الذي ولد في بلد مشرك؟ حيث ترعرع الطفل على دين غير دينه تعالى، وتشرّب تلك الديانة وعقيدتها وطقوسها... ولم يسمع أَصْلاً بدينه تعالى، أو سمع بدينه تعالى ولكن تشرّب من بيئته أن الدين القرآني غير صحيح... ما ذنبه ليتحاسب؟ ولنطرح السؤال بصيغة أخرى: أنا ولدت في مجتمع ينتمي للدين الإلهي، وتربيّت عليه، وهذا ساعدني كَثِيراً لأكون مُؤْمِناً... وهذه الفرصة لم يحصل عليها المولود في بلد مشرك، ولو تبدّلت الولادات، حيث ولدت أنا في بلده وهو في بلدي لتغيّر الحال ولكان هو المؤمن...

انتبه جَيِّداً، هذا السؤال ينطرح على كل الأديان، لو قال لي البوذي إِنَّ ديانتنا غير صحيحة، فماذا سيكون جوابه عن الذين ماتوا وهم على ديانتنا ولم يسمعوا أَصْلاً بديانته البوذية الصحيحة؟ وعلى أي أساس لن يحصلوا على التنوير الروحي لما بعد الممات فيما يشبه الجنّة حيث الأمان والراحة والسعادة الروحية فقط للبوذيين... كما يقولون.

ننتبه جَيِّداً لمفهوم قرآني يميّز الدين الإلهي الصحيح عن الأديان التي تخترعها الناس، حيث إن القرآن يقول إِنَّنَا كلّنا مزروع في داخلنا الاعتقاد والشعور بأنه يوجد فوقنا ربّ من مستوى إلهي، وإن كان قلبنا سَلِيماً، ولم نخترع من أوهامنا وهوانا شَيْئاً دِينِيّاً، فأساسيات أساسيات المعرفة للحقّ والصلاح الموجودة فينا ستبقى مفعّلة، وسنوحده تعالى بصفاته الفائقة ولن نصنع تِمْثَالاً ونعبده، وسنعرف أساسيات الخير والشر في الشريعة والسلوكيات، وأبسطها الابتعاد عن أذية الآخرين، والابتعاد عن الكذب والرذيلة... وهذه الحالة يصف بها القرآن أُنَاساً لم يصلهم دينه تعالى، ويقول بأنهم متقون وعندما وصلهم الكتاب الإلهي اهتدوا به، ولمزيد من التوسّع في هذه النقطة راجع دراسة الآية 2 من سورة البقرة {ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}.

بعبارة بسيطة جِدّاً، أنا من أين سأعرف هبل واللات وفينوس وأبولو... ومن أين سأعرف صفات كل واحد منهم... إن ولدت في بلد لم يسمع بهم؟ مِنَ الواضح أنها آلهة اخترعها الناس، أمّا بالنسبة للمعلومات الصحيحة عن الإله، فسبحانه وتعالى يقول لنا عبر هذا القرآن إِنَّهُ سبحانه كإله مَعْلُومٌ من الآثار الضخمة الهائلة والتفاصيل الكثيرة جِدّاً جِدّاً التي نراها في أنفسنا وما حولنا، والتي لها خالق صمّمها ويديرها، وهذه يسميها القرآن بالآيات، وأكثر القرآن يذكرها ويركّز عليها. بعد ذلك يذكر لنا القرآن الرسل، الذين نقلوا لنا اسمه تعالى بتحديد خاص له تعالى "الله"، وبعدها ينقلون لنا الكلام عن تصميمه وتخطيطه تعالى لنا بالمرور من الدنيا إلى الآخرة لنتحاسب على ما فعلناه...

الآن، وعلى مقياس الكلام القرآني، وبالخصوص بالنظر لما ورد في الآيات هنا، فَرْضاً هناك من لم يصله كلام الرسل، سَيُحَاسَبُ على اختراعاته الدينية، ولو التزم بما هو مغروس فيه من شعور به تعالى وتوحيده... وَالْتَزَمَ بقلب سليم، بفكر وعقل ولبّ ونفسية... سليمة، فلن يخالف أساسيات الإيمان وسيبقى مُوَحِّداً، ولن يخالف أساسيات التشريعات والسلوكيات التي يأمر بها تعالى لأنها هي نفسها الأمور التي لديه القدرة على رؤية خسرها من شرّها... وهذا الشخص مؤمن تقي حتى لو لم يصله كلام الرسل، وسيؤمن فَوْراً بكلام الرسل إذا سمعه لأنه سيجده مُتَمَاشِياً مع قلبه.

هو هذا نفس الشيء الذي قاله القرآن مِرَاراً عن النموذج "إبراهيم" (ع)، وسورة الأنبياء مشحونة بنماذج راقية لأشخاص كانوا بقلب سليم ووصلوا إلى التقى الأساسي لوحدهم، وبعدها جاءهم الوحي ليهديهم إلى تمام الدين... وسورة الأنبياء ذكرت السيدة مريم (ع) مع المميزين وهي ليست نَبِيّاً ولا رَسُولاً ولكنها (ع) نموذج نسائي عن القلب السليم، وَأَلْفِتُ انتباهك أن سورة الأنبياء لم يرد فيها ولا مرة كلمة نَبِيٍّ لأن تركيزها كان على أساس سلامة قلوب هذه النماذج قبل أن يصيروا أنبياء...

بقي نقطتان، كما تعلم، نزول الوحي الإلهي على أبي جهل لن يغيّره ليصير مُؤْمِناً، ولن يغيّرك لتصير مُؤْمِناً أكثر مما أنت عليه، إذ بالأصل يكون عند الشخص قلب سليم، وبعدها يتماشى مع الكلام الإلهي، سواء نزل عليه وسمعه مُبَاشَرَةً، أو نزل على غيره وسمعه منه أو قرأه في كتاب فسيجده مُتَمَاشِياً مع سلامة قلبه.

النقطة الثانية، إن افتراضنا نحن المَوْلُودِينَ في مجتمع مسلم بأننا متميزون بِانْتِمَائِنَا للإسلام، ومتميزون عن المولودين في بيئات أخرى كبر فيها أطفالها وهم منتمون لدين غير دينه تعالى، فهو افتراض لا أساس له، ها القرآن أمامك يساوي بين الكافرين وبين المسلمين المنافقين والفاسقين، بل حتى أنه يستعمل مُبَاشَرَةً كلمة الفسق والكفر بحقّ الذين يقولون بأنهم منتمون لدينه تعالى عندما يقومون بالسوء الكبير... لذا لا قيمة للانتماء للدين الإلهي من دون قلب سليم، ولا نجاة من الحساب لمجرد ولادتنا وتماشينا مع الدين الإسلامي الذي من حولنا، الذي اتخذ إلهه هواه، ووالى الشيطان، ووالى الكفار... فهو مثل مجتمع اليهود الصيادين الذين مرّ كلام السورة عنهم منذ قليل، لذا لا أفضلية لهم على المولود في الهند أو الصين في بيئة تعبد الأرواح والأشجار وبوذا وتقدّس البقرة...

أَخِيراً، كل ما سبق من كلام محكوم بما ورد في الآية 24 من سورة فاطر، أي أمّة من أمم الأرض مرّ في تاريخها نذير، يعني لا يوجد أمّة لم يصلها الإنذار من العقائد والتشريعات الفاسدة. وبالنسبة لواقع الحال لميزة إرسال رسول بين جماعة محددة من الناس، كحالة الرسول محمّد(ع) وإرساله بين من كان في محيطه وعصره، هذه منّة إلهية ذكرها القرآن صَرَاحَةً في الآية 164 من سورة آل عمران {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ}، وهي نابعة من واقع حالنا نحن، كل واحد منّا فيه قابلية أن يكون نَبِيّاً إذا التزم بسلامة القلب، أو على الأقل أن يكون صَالِحاً كمؤمن آل فرعون وزوجة فرعون... قبل أن نسأل عن النبي أو الصالح الهندي أو الصيني أو الألماني أو الروسي... أو عن النذير الذي مرّ في تلك الأمم، سيسألنا تعالى كلّنا عمّا زرعه فينا من قابلية للتعرّف عليه ومن قابلية لتمييز الخير من الشرّ، وحرية الإرادة لاختيار فعل ما نريد، هذا الذي على أساسه سيحاسبنا سبحانه، وهذا ما تقوله الآيات هنا.

(وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{174})
{وَكَذَلِكَ}، بهذا الذي ذكرته الآيات عن شيء فعله تعالى حتى نتعرّف عليه وتنبيهه لنا من أي تبرير يخطر بِبَالِنَا للشرك أو الكفر به بأنه لن ينفع، {نُفَصِّلُ الْآيَاتِ}، فالأمور المميزة بمستواها الإلهي نجعلها مفصلّة غير مشوشة ولا مخلوطة بشيء لا يمكن فهمه، {وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، فبعد أن ينتبهوا لما هو مزروع فيهم فمن المفروض ومن المتوقّع منهم أن يكونوا عليه وَيُؤْمِنُوا به تعالى وحده.

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ{175})
{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ}، فقل للناس مُسْتَنِداً على هذا القرآن، {نَبَأَ}، خَبَراً غير منتشر عمله بين الناس عن، {الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا}، وصلته الأمور المميزة بمستواها الإلهي والمنسوبة له تعالى، {فَانسَلَخَ مِنْهَا}، فكانت ملتصقة به وهو أخرج نفسه منها وتخلى عنها نِهَائِيّاً.

هذا الكلام معطوف على الكلام السابق، فكما الشهود بالربوبية له تعالى مزروع في خلقتنا، فالتعرّف على الآيات الإلهية وإدراك معانيها ودلالاتها أَيْضاً ملتصق بنا، وعموم أي شخص يرفض التماشي مع عموم الآيات الإلهية مما خلقه ومما قاله تعالى فالآية تخبرنا عن حالة انسلاخه منها.

{فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ}، فالموصوف بالقيام بأعمال الضلال لنفسه وللآخرين وجدها فرصة مناسبة فأتى للمنسلخ عن الآيات حالما انسلخ، حيث تعلم أن الشيطان يبدأ بالوسوسة له ليرتكب السوء ويترك الصالحات... {فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ}، فكان اعتقاد وسلوك المنسلخ من الآيات فَاسِداً وَبَعِيداً عن الرشد.

لاحظ عمومية انطباق الآية على أي إنسان، سواء الذي تربّى في مجتمع مشرك أو الذي تربّى في مجتمع مؤمن، فالآيات التي فينا وحولنا لا تختلف عن آيات كلامه تعالى، فعموم أي إنسان وصلته عموم أي نوع من الآيات، وانسلخ منها فكفر أو أشرك بدل التماشي مع دلالتها عليه تعالى، فهذا سيكون خلفه مُبَاشَرَةً الشيطان ليقوده.

سَوَاءٌ الذي عاصر نَبِيّاً أو مرّ نَبِيٌّ في تاريخ منطقته، أو نشأ بين منتمين لدينه تعالى أو وصله كتابه تعالى... أو كل ذلك لم يحصل معه، فكلنا مزروع فينا قابلية التعرّف عليه تعالى من آياته فيما خلقه، وكلّنا نرى الخير من الشرّ، وفي اللحظة

التي نقرر فيها معارضة مداليل آياته تعالى لأنها تتعارض مع هوانا السيّء، فالشيطان ينتظر هذه اللحظة حتى ينقض علينا بالوسوسة لنغرق في الكفر والسوء أكثر.

تَفْهَمُ كلام الآية هنا وكأن الشيطان لم يكن يفعل شَيْئاً لنا إلى أن ننسلخ من الآيات فعندها يوسوس لنا... وهذا ليس دَقِيقاً، فالشيطان يوسوس لكل الناس، ولكن لا ضرر من وسوسته طالما لم ننسلخ من آياته تعالى وبقينا مؤمنين بها ومتماشين مع دلالاتها، فإن كفرنا بها مشوّهين دلالتها فعندها يصير الشيطان فَعَّالاً في حياتنا لأننا سنطيعه فيما يوسوس لنا لأننا صرنا متماشين مع الضلال.

الآية السابقة تحدّثت عمّا هُوَ مزروع في خلقتنا من التعرّف عليه، وهنا نرى تفعيل تعرفنا عليه تعالى عبر الآيات، عبر النظر في تصميم وخلقة الدنيا، وأنها الدالة عليه تعالى.

(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ{176})
{وَلَوْ شِئْنَا}، أمامه سبحانه خيارات عديدة ويمكنه أن يقرر منها ما يريد، ولو قرّر تعالى، {لَرَفَعْنَاهُ بِهَا}، لجعلناه يرتفع بالآيات، فسيؤمن بالحقّ ويعمل الصالحات فيصير مَوْصُوفاً بالقيمة العالية كإنسان رَاقٍ، ولصار له مقام عَالٍ عند ربه سبحانه، {وَلَكِنَّهُ}، هذا المنسلخ من الآيات، {أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ}، فقرر البقاء والتعلّق بالحياة هنا على الأرض، فلم يكن عنده أي تفكير بغير ما يراه على الأرض مما هو متاح له من متاع وشهوات وغرائز، {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ}، فلحق ما يهواه ما يشتهيه والكلام عمّا يحبّ فعله من دون أي تفكير عقلاني حتى لو كان ما يهواه سَيِّئاً فَاسِداً.

ما يعرضه عليه تعالى يرفعه، وَيَجْعَلُ له قيمة عالية، لأنه سيؤمن بالحق ويعمل الصالحات، ولكنه بَدَلاً من ذلك اختار الإخلاد إلى الأرض بما فيها من متاع واتبع هواه الفاسد.

{فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ}، هذا المنسلخ عن الآيات الذي أخلد إلى الأرض فهو شبه التمام بالحيوان المعروف باسم الكلب، {إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ}، إن تهاجمه لتضربه أو تطرده فهو يتنفّس بسرعة، وهذه حالة طبيعية لمن صار مُجْهَداً تَعِباً، {أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ}، فإن لم تدفعه ليفعل أي مجهود فهو أَيْضاً يتنفّس بسرعة كالذي يبذل مَجْهُوداً.

التشبيه بحالة الكلب الطبيعية الملازمة له، فهو دَائِماً يلهث، والمنسلخ من الآيات الإلهية التابع لهواه السيّء تصير حالته الطبيعية الإخلاد إلى الأرض، سواء أتته الآيات أم لم تأته، فهو لاهث خلف هواه وشهواته لا يغيّر حالته مهما حصل معه.

{ذَّلِكَ}، التمثيل بحالة لهث الكلب، {مَثَلُ الْقَوْمِ}، شبه التمام للذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع آياته تعالى، {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}، فالأمور المميزة بمستواها الإلهي المنسوبة له تعالى قالوا عنها إنها كاذبة وليست صادقة فهي برأيهم لا دلالة فيها عليه تعالى ولا على وجوب طاعته تعالى ولا على صدق كلامه سبحانه عن الآخرة والحساب...

{فَاقْصُصِ الْقَصَصَ}، أَخْبِرِ الناس تفاصيل الأمور، عبر هذا القرآن أخبرهم عمّا زرعه تعالى فينا وعن آياته... {لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}، فمن المفروض ومن المتوقّع أن تجول هذه المعلومات في فكرهم ويصلوا منها إلى نتيجة.

الآية التالية سنعلّق فيها على التمثيل بالكلب.

(سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ{177})
{سَاءَ مَثَلًا}، فما أَسْوَأَهُ وما أتعسه من تشبيه، {الْقَوْمُ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة، {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}، الذين قالوا عن الأمور المميزة المنسوبة له تعالى إِنَّهَا كذب، فتشبيههم بلهث الكلب هو شيء سيّء ولكنه فِعْلاً ينطبق عليهم.

{وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ}، فإن كنت أنت تقول لي شَيْئاً صَحِيحاً، وأنا بالمقابل لم أكن مُنْصِفاً عَادِلاً معك، فقلت إِنَّكَ تكذب، فَظَلَمْتُكَ بقولي عنك إِنَّكَ تكذب، وهؤلاء قالوا عن عموم ما هو منسوب له تعالى من أفعال تدل عليه سبحانه، قالوا إِنَّهُ كذب، وهذا ظلم، فهم ليس معهم حقّ، فهل ظلموه تعالى؟ فهل تأثّر سبحانه من تكذيبهم له؟ لا، بل هم مع أنفسهم لم يكونوا منصفين عادلين، فأنا نفسي تستحق مني أن أنصفها بجعلها تتبع الحقّ وأن لا أؤذيها مُشَوِّهاً لها بتكذيبها للحقّ،

والإنصاف أن لا أسبب لنفسي الضرر، وهم بتكذيبهم لآياته تعالى ظلموا أنفسهم بجعلها بلا قيمة وفاسدة وَمُضَافاً لذلك سببوا لها الضرر من عذابه تعالى.

هناك من يعلّق على تشبيه القرآن للمكذبين بآياته تعالى بأنهم كالكلب، فيتحسّس لأنه هو المقصود بهذا التشبيه، ويهاجم القرآن على أنه كتاب فيه إهانات فقيمته منخفضة... ويشطح بمحاضرات في الأخلاق وأن الكلب حيوان محترم وأن القرآن اعتبره حَيَوَاناً حَقِيراً... وكلامهم بعضه صحيح، فالكلب حيوان محترم أكثر منهم، والقرآن لم يشبههم بالكلب لأن قيمته أعلى من قيمتهم، بل شبّههم بحالة اللهث المستمرة عند الكلب، وَقَصَدَ القرآن أن يكون التشبيه مَثَلاً سَيِّئاً، فما قيمة الذي يقول عن كلامي أنا إِنَّهُ كذب ويكذّبني أمام الْآخَرِينَ وهو الكذّاب وكلامي صَحِيحٌ؟ فهذا ما قيمته عندي؟ الآن انظر إِلَى الذين كذّبوا عموم آياته تعالى فيما فعله سبحانه، والتي تتضمّن كلامه تعالى، فهم يقولون عن أمور منسوبة للإله عزّ وجلّ إِنَّهَا كاذبة، ويلهثون خلف هواهم، فأي تشبيه يناسبهم؟

أكرر لك، هَذَا الكلام واضح أمامك فالقرآن لم يشبههم بالكلب بل بحالة لهث الكلب المستمرة، والتي تتضمّن أن قيمة الإنسان العالي بالصدق والعمل الصالح، فهو من هذه الناحية يكون أرقى من الكلب، والمكذّب بالآيات الإلهية قِيمَتُهُ أقل من الكلب لأن الكلب أَصْلاً قابليته أقل من قابليتنا لفهم ما يمكننا نحن فهمه، ورغم ذلك فالآية شبهتهم بحالة النفس السريع الدائم عند الكلب، فهم في حالة اتباع الهوى السيّء دَائِماً لَاهِثُونَ خلفه.

(مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{178})
هذه الآية هي الخاتمة للمثال السابق، والرابط للحديث الآتي الذي سيتوجه إلينا نحن الذين سَمِعْنَا السورة من أولها.

{مَن يَهْدِ اللَّهُ}، من يضعه سبحانه على الشيء الصحيح الذي يوصله للغاية الصحيحة، {فَهُوَ الْمُهْتَدِي}، فهو سيكون الموصوف فِعْلاً بأنه على الشيء الصحيح، فآياته تعالى تدلنا على توحيده وطاعته ووجود آخرة وحساب... وهذه أمور أتاحها تعالى لنا وتوصلنا لغاية صحيحة، فنكون مؤمنين بالحقّ وعاملين للصالحات، وهذا هو نفسه مرضاته تعالى والحصول على ثوابه...

{وَمَن يُضْلِلْ}، فلا يضعه تعالى على الطريق الصحيح، وأنت تعلم أن الكلام عن الذين هم بإرادتهم لم يريدوا اتِّبَاعَ الهدى الإلهي، {فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}، هم الذين فقدوا شَيْئاً له أهمية "كبيرة"، حيث فقدوا قيمتهم كإنسان رَاقٍ ونهاية طريق الضلال الخلود المؤبد في جهنم، ولا يوجد خسارة أكبر من هذا.

سَبَقَ الكلام حول ما جعله تعالى فينا للتعرّف عليه، وعمّن قرّر الانسلاخ عن آياته تعالى والتي تهدي، إِذْ سبحانه لا يجبرنا على الهداية ولا على الضلال، وبسهولة تفهم أن هدايته تعالى لنا تكون عبر آياته سبحانه المنتشرة فينا وحولنا، وهي واضحة وكثيرة وضخمة وصغيرة... وتدل عليه تعالى... لِذَا لن يتلاعب سبحانه بعقولنا لنصير مؤمنين غَصْباً عنّا، وإضلاله تعالى لنا يكون أَيْضاً بقرار منّا لتكذيب آياته سبحانه، وسبحانه يتركنا نضلّ مع قدرته تعالى على التلاعب بعقولنا ليجبرنا على الهدى، وَتَرْكُهُ تعالى لنا بحرية الإرادة لاختيار الضلال رغم قدرته الفائقة على إجبارنا على الهدى، من هذه النظرة يُعْتَبَرُ سبحانه أنه أضلّنا، نَحْنُ لو تركنا سبحانه وتعالى لَلَمْحَةٍ لزال ما في الدنيا كما تقرأ صَرَاحَةً من الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ}، وَعُمُومُ القدرة التي لدينا لفعل أي شيء، هي دَائِماً متاحة لنا لأنه تعالى شاء لنا ذلك، ومن هذه النظرة هُوَ تعالى أضلّنا على معنى أننا لا نملك قدرة ذاتية مُنْفَصِلَةً عنه تعالى. وسنرى من الآية التالية أنه سبحانه لم يظلمهم عندما قرروا هم أن يضلوا، إِذْ جعل فيهم ما يجعلهم مؤمنين وَزَوَّدَهُمْ بالعقل والعين والأذن والآيات...

لَكِنْ قبل ذلك بقي شيء يقصده القرآن عند كلامه عن الهداية، ونفهمها بسهولة عندما تسمع أَحَداً ما يخترع من رأسه أنه تعالى غفور رحيم وَلَنْ يعاقبه مهما فعل، ويسألنا تعالى عن مصدر هذه المعلومات إن كان تعالى قالها؟ هَلْ هذه "القناعة" هداية؟ لا، بل هي شيء لم يقله تعالى ولن توصل لغاية مطلوبة، وهذا أَيْضاً ما يقصده القرآن بهداه تعالى، إِذْ فقط كلامه تعالى يوصل للغاية المطلوبة...

بعبارة أصرح، سُبْحَانَهُ لا يضلّ أَحَداً منّا رَغْماً عن إرادتنا، وهذا واضح جِدّاً ويعتبره القرآن أَسَاساً ليس مُضْطَرّاً لتكراره كل مرّة، وتقرؤه في أمثال الآية 3 من سورة الإنسان {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}، حَيْثُ نحن

مَمْنُوحَةٌ لنا حرية الإرادة للاختيار بين الْهُدَى للحقّ وبين الضلال، ومن بعد هذا الأساس يأتي سياق كلام عن خصوص نظرة ما في مسألة الهداية والضلال، مَرَّةً تشير الآيات أنه تعالى لن يتلاعب بعقولنا ونفسيتنا ليهدينا لَاغِياً حرية الإرادة الممنوحة لنا، كما ورد في الآية 11 من سورة الرعد {... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ...}، ومرة تشير أنه تعالى لن يغيّر معايير الخير والشر لتتماشى مع ما يفعله الناس فتصير أفعالهم موصوفة بأنها مقبولة كما تقرأ في فحوى كلام الآية 73 من سورة آل عمران {وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ...}، وكحالة الذين يسألون عن المشكلة في عبادتهم لغيره تعالى طالما سبحانه لن يتضرّر وطالما سبحانه لم يتلاعب بعقولهم وتركهم على شركهم وَلَوْ شاء لهداهم كما ورد في الآية 148 من سورة الأنعام {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ...}.

مِنْ كل هذا وغيره ترى بوضوح أنه تعالى حين يعبّر عن إضلاله لأحد ما لَا يقصد إضلاله غَصْباً عنه، بل لأنه تعالى خلقه بحرية إرادة وتركه يضلّ لِذَا ينسب سبحانه لنفسه إضلاله، إذْ سبحانه قادر في أي لحظة على جعله مُؤْمِناً غَصْباً عنه، ولكن هذا يستدعي إلغاء حرية الإرادة فينا، وعندها لَا معنى للمجازاة بالأجر على الإيمان والعمل الصالح لأننا نصير كالآلة بلا إرادة...

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ{179})
نتساءل: الكثير من الناس ليسوا مُهْتَدِينَ، هل تُوجَدُ مشكلة في الآيات التي تهدي فهي ليست واضحة ولا كافية؟ وهل تُوجَدُ مشكلة في تخطيطه، سبحانه، لهدايتنا؟ هل المشروع الإلهي لخلقنا لِنَصِيرَ مؤمنين فشل ولم ينجح؟ الجواب:

{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا}، نشرنا أشياء منفردة، والكلام عن خلقنا أَشْخَاصاً ونشرنا في الحياة، {لِجَهَنَّمَ}، للمكان الموصوف بسوء ما فيه، ليتعذّب فيها، {كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ}، من المخلوقات التي مادتها النار ولها إرادة حرّة، {وَالْإِنسِ}، الناس أي نحن المخلوقون من طين.

فسبحانه من الأساس خلق الكثيرين من الجن والإنس الذين سيذهبون إلى جهنم، إذْ يعلم سبحانه سَلَفاً أن هذه الخليقة سينتج عنها الكثير من أهل النار.

{لَهُمْ}، لهؤلاء الجن والإنس، {قُلُوبٌ}، أساس فكر ونفسية، {لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا}، لا يستعملونها ليربطوا المعلومات بشكل سليم وبالتالي لن يصلوا لنتيجة سليمة، إذْ سبحانه زوّدهم بما يجعلهم يفقهون آياته حَيْثُ زودهم بقلوب ولكنهم لم يستعملوها كما يجب، إذْ عطّلوا فكرهم ونفسيتهم الصافية وجعلوا الهوى والشهوة الفاسدة... مُسَيْطِرَةً على قراراتهم ونفسيتهم...

{وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا}، فعيونهم تنقل لهم الصور ولكنهم لا يدركون معناها ولا يَفْهَمُونَهَا، مَثَلاً يرون بأعينهم وأمامهم أن هذا صنم لا يتحرك وليس فيه حياة، ولكنهم يعبدونه! ويرون المظلوم والذي يتألم من الفقر أو الجوع، ولكنهم لا يهتمون إلا بمصالحهم!...

{وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا}، فتتحرك طبلة أذنهم لتنقل كلامه تعالى إلى قلبهم "فكرهم ونفسيتهم" ولكن قلبهم لا يتفاعل مع معاني الكلام، فلا يهتمون بمعنى الكلام الذي يسمعونه! إذْ إِنَّ العقيدة والشريعة التي أوصلها تعالى إليهم دخلت في آذانهم ولكن مفعولها في فهمهم كمفعول صوت الهواء وصوت الضجيج... بلا معنى.

لِذَا لا يعمل فكرهم ونفسيتهم بشكل سليم على المقياس الصحيح المناسب لما يمكن لهذه القلوب استيعابه، والصور التي يرونها والكلام الذي يسمعونه لا يفهمونه، {أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ}، كالحيوانات الموصوفة بأنها نعمة وعادة هي الحيوانات الأليفة التي نأكلها، وهنا الكلام عن وصفها بأنها أليفة كالبقرة والغنم... هَذِهِ الحيوانات الأليفة من حولك بمستواها الفكري لا تتوقّع منها أن تفهم الدين الإلهي، والجنّ والإنس رغم تزويدهم بكل ما يحتاجونه لفهم دينه تعالى أكثريتهم وبقرار منهم نزلوا إلى مستوى البهائم المحصورة قدراتها في أكلها وشربها وتزاوجها والاختباء من البرد والمطر... إذْ هي تتبع شهوتها وغريزتها وليس عندها أي فهم للآيات وللدين أو بالآخرة... بالمستوى الإنساني.

{بَلْ هُمْ أَضَلُّ}، فهم ضائعون في فكرهم وتصرفاتهم أكثر من الحيوانات، فلو نظرت إلى سلوك الحيوانات لوجدتها متناسبة مع ما هو متاح لها من قدرات، وأمّا الضالون من الجنّ والإنس فلو نظرت لسلوكهم لوجدته غير متناسب مع ما هو متاح لهم من قدرات فكرية ونفسية، بل لديهم تصرفات سيئة لا يفعلها الحيوان، مَثَلاً عموم الحيوان لا يدمّر بيئته بقصد أَلَّا يستفيد منها الآخرون...

{أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}، هذه النوعية هم الذين فِعْلاً لا ينتبهون لما يحصل، فالآيات من حولهم والكلام الإلهي يسمعونه ويرون أمامهم الحقّ... وكلّ ذلك يحصل وهم لا يدرون به لأنه لا أهمية له عندهم. تجاهلهم للأوامر الإلهية وتعاملهم معها كأنها غير موجودة لن يلغيها، لِأَنَّ الآخرة آتية حَتْماً لمحاسبتهم وهناك جهنّم بانتظارهم... وهذا واقع وحقيقة يعيشونها وذاهبون إليها وهم غافلون عنها فيتعاملون معها كأنها لن تحصل.

ننتبه جَيِّداً، مِنَ الآية هنا ومن عموم القرآن نفهم أن هؤلاء الكثيرين من الجنّ والإنس الذَّاهِبِينَ حَتْماً إلى جهنّم، هم بقرار منهم وباختيارهم قرّروا ذلك، وآخرون عددهم قليل جِدّاً قرروا العكس، إِذْ هي خلقة الجن والإنس بهذا التصميم، بغرائز وشهوات مع فكر وحرية إرادة، وَهِيَ واحدة من التصاميم المُتَنَوِّعَةِ التي خلقها سبحانه، هُنَاكَ كائنات بفكر وحرية إرادة ولكنها خالية مما ينتج عن جسد من طين من غرائز وشهوات، وهم الملائكة(ع)، وهناك كائنات تَقْرِيباً بلا فكر مع غريزة وشهوة "البهائم"، وهناك كائنات لها وعي ما ولكنها بلا فكر ولا غريزة ولا شهوة "كالأرض والجبال... مِنْ ناحيتنا هي جمادات ولكن من ناحيته تعالى لديها وعي ما يناسب تكوينها وسبحانه يتعامل معها..."، وهناك كائنات بلا فكر وتتكاثر "كالنبات"... فهو خليط مما يمكن خلقه في بيئة السماوات والأرض، وكلّه خلقه عزّ وجلّ بحسب ما وجده تعالى بحكمته مُتَنَاسِباً مع بيئة السماوات والأرض...

مِنْ قبل خلقنا، سبحانه يعلم سَلَفاً أن تصميمنا وتصميم الجنّ سينتج عنه كائنات يكون أكثرها مصيره إلى جهنّم، وكائنات قليلة منهم مصيرها إلى الجنّة، ولا تُوجَدُ نهاية أخرى لهذا التصميم، إِذْ من الأساس يعلم سبحانه أن هذه هي نتيجة خلقة كائنات بهذا التصميم.

اَلْجَنَّةُ بملذاتها لا معنى لها بالنسبة للملائكة(ع) التي تفتقد للشعور باللذة الجسدية، وَالْجَنَّةُ حَصْرِيّاً لها معنى لنا نحن وللجنّ، نحن الذين لدينا وعي وجسد يشعر ويلتذّ... وهذا الجسد وهذا الوعي مع حرية الإرادة نَتِيجَتُهُ الحتمية ذهاب الأكثرية إلى النار بسبب تعلّقهم بملذات الدنيا بشكل سَيِّئٍ... ولو فرضنا أنه تعالى وبسبب كثرة الذاهبين من الجنّ والإنس إلى جهنّم، قرّر إلغاء خلق الجنّ والإنس، على أساس أنه مشروع فاشل، أين الفشل فيه؟ مِنْ عموم القرآن تفهم أن القلّة القليلة المؤمنة مدحها سبحانه عبر آلاف السنين من حياة البشرية، وكرّر سبحانه كلامه عنهم في كتبه، وأطال في مدحهم وفيما أعدّه تعالى لهم في الآخرة من سعادة تفوق الوصف والتصوّر... هَلْ يحرم سبحانه هؤلاء من السعادة الفائقة بسبب قرار اتخذه الآخرون بتركهم لهذه السعادة وتسبيب العقاب لأنفسهم!

الْأَكْثَرِيَّةُ الذاهبة إلى جهنّم هم الفاشلون، فليعترضوا وليقولوا إِنَّهُ لو صدق كلام القرآن وكان يوجد آخرة، ونحن نرى أكثرية الناس ليسوا مؤمنين، فلن نؤمن بوجود مشروع إلهي فاشل كهذا. طَبْعاً هو بنظرهم مشروع فاشل، لأنهم هم الفاشلون.

يَقُولُونَ: نحن لو كان الخيار لنا لما قبلنا أن نكون ضمن هذا المشروع الفاشل، إِذْ نحن لن نلتزم بالدين ولا نقبل أن يكون مصيرنا العذاب... فليخلق الإله الذين سيدخلون إلى الجنّة وليتركنا نحن ولا يخلقنا. هذا الكلام ردّ عليه القرآن بطرق عدّة، أَوَّلاً أنت محكوم غَصْباً عنك بقرار خلقه تعالى لك، أعجبك أم لم يعجبك، واعتراضك لن يغيّر أي شيء، هَا أنت مخلوق ومحكوم، ووجودك كبشري هو نتيجة إمكانية تنوّع المواصفات الممكنة للكائنات الحية، وَقَرَّرَ سبحانه خلق الكائنات بهذا التنوّع وشملك القرار. وَعَرَضَ سبحانه على كائناته الأمانة، ونحن الناس بواقع حال طبيعتنا "فكر جسد شهوة غريزة..." قبلناها، وهذا الكلام يأخذنا إلى كلام عميق عن انفراد كل واحد منّا بوعي خاص به، هَلْ تتصوّر نفسك فراشة! وكما ترى لا معنى لهذا الشيء، فأنت أنت بوعيك هذا، أنت إنسان، وهذا "الذي أنت بوعيك" لا يسقط على فراشة، ولم تخرج إلى الحياة مع إمكانية أن تخرج كفراشة، إِذْ هذا ليس مُمْكِناً، حَتْماً بهذا الوعي الخاص بك ستخرج كإنسان، وبهذا الوعي قبلت أن تكون حَامِلاً للأمانة الإلهية التي على الالتزام بها فوز بجنّة خالدة... وَمَرَّ ذلك منذ قليل في الآية 172.

أَيْنَ الفشل في مشروع زودّنا فيه خالقنا بكل ما نحتاجه لنفهم ونرى ونسمع كلامه الحقّ، مع وعد بالفوز بجنّة خالدة... نَحْنُ الفاشلون إن لم نستفد من نعمة الحياة والقلب والبصر والسمع... التي أتيحت لنا، وَأَهْمَلْنَاهَا وصببنا اهتمامنا على هوانا وشهواتنا وغرائزنا السيئة المضرة لنا وللآخرين.

هذا الكلام الذي فهمناه من الآية هو جانب أساسي من جوانب عديدة تناولتها سور أخرى من القرآن، هُنَا التركيز فقط وفقط على تزويده تعالى لنا في خلقتنا بكل ما نحتاجه حتى نهتدي، حَيْثُ زودنا سبحانه بقلب وبصر وسمع... وفي سور أخرى كان لها محاور أخرى، ترى في بعضها تَرْكِيزاً على نوعية العقيدة الإلهية مقابل عقيدة اخترعها الناس من خيالهم... وترى تَرْكِيزاً على التشريع الذي يقدّمه تعالى لنا والذي فيه برّ الوالدين والصدقة والإحسان... وبين تشريعات ظالمة يعمل بها الناس وُصُولاً إلى وأد البنات... وترى أن الآيات الإلهية فائضة وأكثر من كافية للهداية... وَأُمُوراً أخرى تجدها منتشرة في السور بحسب ما يناسب موضوعها ومحورها وسياق كلامها.

بَقِيَ شيء تحليلي، إِذْ إِنَّ القرآن يخبرنا عن سيئات تسبب الخلود في النار، وَمَحْسُومٌ منها بالتأكيد الشرك كما هو واضح من الآيتين 48 و 116 من سورة النساء {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا}، {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}، فالشرك حالة استثنائية، وبعدها الحالات الأصعب وهي قتل نفس بغير حقّ، والزنا، والهروب من قتال الأعداء...

بِنَاءً عليه، فمن مات مُشْرِكاً، وسبحانه أعلم بفكره ونفسيته إن كان مُشْرِكاً من الدرجة العالية من الصلابة في إنكار الحقّ وَمُعَانِداً... فهذا مصيره الخلود في جهنّم، ومن مات فَاعِلاً لأمور أخرى توعّد عليها سبحانه بالخلود في النار، فحتى هؤلاء بينهم درجات في السوء بحسب نواياهم... لِسَبَبٍ وجيه وحكيم قد لا يحكم سبحانه على البعض منهم بالخلود في النار... وسترى ما أقصده بعد قليل.

اَلْقُرْآنُ يخبرنا عن سيئات توعّد عليها بالعقاب في النار ولم يقل بأننا سنخلد بسببها، كالذي تذكره الآية 10 من سورة النساء {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا}.

كَمَا يخبرنا القرآن عن سيئات بدون أي تهديد بالنار، كالسخرية والغيبة كما تقرأ في الآية 11 من سورة الحجرات {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، والخمر والقمار كما ورد في الآية 91 من سورة المائدة {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ}.

من هذه التصانيف الثَّلَاثَةِ نرى أنه تعالى يرينا الفرق في نظرته للأمور بين درجات سوء ما نفعله، وبالتالي فَرْقاً في العقاب عليها، وبما أننا بشر بتعقيدات وحالات مختلفة جِدّاً عن بعضنا البعض في نوايانا وسيرة حياتنا وخلط أعمالنا من صالح لسيّء... لِذَا طرح القرآن عناوين عَامَّةً وبعض الأمثلة كنماذج.

وهكذا نفهم أنه تعالى لم يردنا أن نستهتر ونفعل السيئات إذا أخبرنا عن العذاب في النار لمدة ما وبعدها دخول الجنّة، إِذْ مِنَ الواضح من فحوى القرآن أن الخلود في النار محصور في أعمال السوء من العيار الثقيل فقط.

مِنَ الواضح من دراستنا لسلوكياتنا أننا بعيدون جِدّاً جِدّاً عن صفات الذين حسم تعالى مصيرهم إلى الجنّة، إِذْ نحن مشحونون بسيئات من مختلف الأنواع والدرجات، حتى لو كنّا نصلّي ونصوم ونتصدّق... وَهَذِهِ أعمال حسنة في مقابلها أعمال سيئة كثيرة جِدّاً... هَلْ مصيرنا إلى النار؟

الواضح لي من دراسة نفسي ومن حولي وبقية الناس أن الأصل من بعد الحكم على أعمالنا في الآخرة أن مصيرنا النار، على الأقل أنا أعمّم ما أعرفه من نفسي وأتمنّى أَلَّا تكون حالتك مثل حالتي إِذْ ربما أنت من المتّقين من الدرجة العالية، ولست أبالغ في هذا الكلام، لِأَنَّ النادرين النادرين هم الناجون من النار، والبقية من أمثالنا أعمالنا لا تؤهلنا لدخول الجنّة.

من هذه الواقعية نفهم الكثير من كلام القرآن ومنه الآية 32 من سورة النجم {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ}، والآية 31 من سورة النساء {إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا}، والغريب أن هذا الموضوع صار له عدة استشهادات من سورة النساء!

على أي حال، دخول الكثيرين إلى النار لا يعني خلودهم فيها، ولم يقل القرآن ذلك، ولكن وللصراحة في نفس الوقت لم ينف ذلك بكلام صريح، بل بتحليل قوي جِدّاً لكلامه تعالى نفهم ذلك، والسبب أنه تعالى لم يردنا أن نستهتر ويكون لنا عذر أننا استهترنا بسبب كلامه الدافع لنا للاستهتار، ومن هذه الخلفية سنفهم معنى أوضح وأعمق من الآية 185 من سورة آل عمران {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}، إِذْ منها تفهم أن المرور ولو لمدة قليلة على النار فهو مصيبة كبيرة، إِذْ نحن هنا في الدنيا لا نتحمّل برغشة أو ذبابة تحوم فوق رأسنا وتحرمنا من النوم، وفي اليوم التالي نتحدّث عن مغامراتنا معها...
على أي حال، ومن عموم القرآن ومن الآية تفهم أَنَّهُ هناك من يدخل النار في دركاتها السفلى، وهناك من تزحزح عنها، وبالتحليل نقول إِنَّهُ هناك من سيدخلها لوقت ما، لثانية، لساعة، ليوم، لسنة، لملايين السنين... ولم يفصّل القرآن في ذلك، وتحليلي للسبب حتى لا نستهتر كما استهتر اليهود كما نقلت الآية 24 من سورة آل عمران {ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} وكانت النتيجة فِسْقاً وَنِفَاقاً من العيار الثقيل جِدّاً والمسبّب للخلود في النار.

(وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{180})
أيها المؤمنون بآيات الله تعالى، غير المنسلخين منها:
{وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز له عزّ وجلّ "الله" له الأسماء التي يتم إطلاقها عليه، وكلّها حسنى، لِأَنَّهَا موصوفة بالحسن فهي جيّدة.

سأضرب لك مِثَالاً مُتَطَرِّفاً جِدّاً حتى نفهم معنى حسن أسمائه تعالى، إِذِ اللئيم الحقود الجلف القاسي... هي أسماء سيّئة وهي ليست من أسمائه تعالى، بَيْنَمَا هو الودود المحبّ الرحيم الغفور... والصفات التي تعبّر عن قسوة كالعقاب بشدّة واللعن والتعذيب... هي أَيْضاً حسنة لأنها أسماء تعامله سبحانه مع المجرمين، الذين يستحقون معاملتهم بهذه الأوصاف، ومن الحسن معاقبتهم على إجرامهم، فما معنى مغفرة ذنوب مجرم مات ولم يندم على إجرامه ولو عاش مليار سنة لبقي مُجْرِماً! هل ستكون صفته تعالى حسنى إن تركه بلا عقاب قَاسٍ!

{فَادْعُوهُ بِهَا}، فأعلنوا وأشهروا له تعالى تسميته بالأسماء الحسنى.

عادة نفهم أن الدعاء هو الطلب منه تعالى، كطلب الرزق والصحّة والمغفرة والتوفيق... وهذا جانب ضيّق من الدعاء وليس المعنى الواسع لكلمة دعاء، ونفهم معناها الواسع من جملة: يدعونني طارق، ويدعونك خليل... وكما ترى فالدعاء أعمّ من حصره بطلب شيء ما، بل هو عامّة الإشهار والإعلان، إِذْ دعاؤه تعالى: يا خالق ويا محيي يا مميت... هو دعاء بأسماء حسنى ولا يتضمّن أي طلب منه تعالى، وهنا الآية تشير للمعنى الواسع للدعاء على معنى الإشهار والإعلان، وإن كنت ستطلب شَيْئاً ما فهو أَيْضاً دعاء لِأَنَّهُ إعلان منك لما تريده، وهذا الدعاء بمعنى "الطلب" تفهمه من سياق الكلام القرآني، وهو نادر، أمّا هنا وغالبية استعمال القرآن لمشتقات كلمة "دعاء" فقد قصدت الإعلان والإشهار عن الإله وصفاته وأسمائه، سواء الدعاء لله تعالى أو الدعاء "الإعلان والإشهار" لغيره أنهم آلهة، وسترى ما تقصده الآية من بعدما تقرأ تكملة الكلام.

بالنسبة لكلمة "دعاء" ومشتقاتها، ففي عموم استعمال العرب، الكلمة يَائِيَّةٌ وَوَاوِيَّةٌ "دعوت ودعيت" مثل "طغوت وطغيت". هذا في استعمال العرب ولكن كل القرآن استعملها فقط بالواو من الأصل الصرفي "دعو"، ووردت مرتين للمبني للمجهول مع ياء في الآية 12 من سورة غافر {... إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ...}، وفي الآية 53 من سورة الأحزاب {... وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا...}، وهذا ممّا جرى به لسان العرب في هكذا حالة، وكما ترى فمن الاستعمال لا يمكن حمل الكلمتين "بالواو أو بالياء" على نفس المعنى إلا إذا كانتا على معنى عموم الإشهار والإعلان، وكذا الحال فيما جرى عليه لسان العرب بما ورد مرتين في الآية 4 و 37 من سورة الأحزاب {أَدْعِيَاءَكُمْ}، {أَدْعِيَاءَهُمْ}.

ضع في بالك دَائِماً أن أكثر الجمل القرآنية المشابهة لآيتنا هذه لم تقصد بشكل خاص أن ندعوا على معنى طلب أشياء وأمور منه تعالى لتحقيقها لنا، بل قصدت العمومية، قاصدة إعلاننا أنه تعالى إلهنا الواحد الأحد وإعلاننا عن إيماننا بأسمائه الحسنى سبحانه، وغيرها من الآيات كانت تقصد الإعلان والإشهار لغيره تعالى أنهم آلهة، وأن المشركين يدعون "يعلنون" من ليسوا بآلهة أنهم آلهة... وهذا عَمَلِيّاً يتضمّن التوجّه بالدعاء لتلك الآلهة أن ترزقه أو تشفيه... وأن تنفعه أو تشفع له في الآخرة، وقارن هذا الكلام مع دعاء نتوجّه به نحوه تعالى لمدحه للتقرّب منه فقط، فهذا دعاء لا يحوي على أي طلب، وهو مجرد إعلان منك أن الله تعالى إلهك وصفاته كذا وكذا... وتمدحه تعالى... وتذكر فضائله عليك لتشكره... ضع هذا في بالك دَائِماً لأن أكثر استعمال القرآن لكلمة دعاء قصدت ذلك ولم تقصد الدعاء على معنى طلب الأمور والأشياء.

أكرر لك بسبب ما درج في أدبياتنا من استعمال بعض الآيات للدلالة على الدعاء له تعالى بمعنى الطلب منه لتحقيق أمور نريدها، وغالبية الآيات التي ذكروها لم تقصد هذا المعنى، بل عموم كلام القرآن سواء استعمل كلمة دعاء أو غيرها، لم يقصد أنه تعالى سيحقّق طلباتنا إن دعوناه، بل قصدت أنه تعالى يسمع، وسيفعل ما يراه مُنَاسِباً، وهذا الموضوع له متعلقات ومتفرعات، فمن هو الداعي وما مكانته عنده تعالى إيمَانِيّاً حتى يستجيب تعالى لطلبه؟ وماذا يطلب الداعي أن يتحقّق؟ هل طلبه حكيم وله فِعْلاً فيه مصلحة وليس لَاغِياً لحالة دنيا البلاء كمن كل طلباته تتمحور حول جعل حياته وكأنه في جنّة الآخرة!...

نرجع للآية، {وَذَرُوا}، فاتركوا ولا يعد لكم علاقة بـ {الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ}، فيحيدون عن حصر الأسماء الحسنى من مستوى إلهي به تعالى ويسمّون غيره تعالى بها... أو يحيدون عن معاني وحقائق أسمائه الحسنى ويتحولون إلى أسماء سيئة وينسبونها له تعالى، وأبسط مثال على ذلك دعاؤه تعالى بالأحد، مقابل دعاء المشركين له تعالى ومعه إله ثان وثالث حين يقولون إنَّ له شركاء في الألوهية أو الربوبية من مستوى إلهي... أو أنهم يقولون إنَّهُ تعالى خلقنا وتركنا وشأننا ولا يهتمّ بما نفعله، وهذا عبث والحقيقة أنه تعالى حكيم...

{سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، سينالون مُقَابِلاً مُعَادِلاً مُسَاوِياً على عملهم هذا، إِذِ الكلام عنه تعالى هو عمل، وعليه ثواب إن كان دُعَاءً بأسماء حسنة له تعالى، وعليه عقاب إن كان بأسماء ليست له تعالى، فلله تعالى فقط وفقط الأسماء الحسنى، أمّا تسميته سبحانه بأسماء سيئة أو قول أمور سيئة عنه تعالى فهذا عليه جزاء، عليه شيء يقابله وسيحصلون عليه، وأنت تعلم أن عليه عِقَاباً في الآخرة.

على المستوى النظري بالكلام عن أسمائه الحسنى سبحانه، غالبيتنا فطاحل تنظير، ولكن عَمَلِيّاً حين يصيبنا البلاء نبدأ بالظن السيّء به تعالى، كالحالة التي تصفها الآية 10 من سورة الأحزاب {إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا}، فنحن لدينا خلفية عن تميّزنا وضرورة عنايته تعالى بنا لأننا منتمون لدينه وهذا غير صحيح، إِذْ فقط المؤمنون العاملون للصالحات لهم العناية المميزة منه تعالى، والبقية تنزل مستوى العناية الخاصة بهم بحسب مستواهم الإيماني، وُصُولاً إلى الذين لا يقيم تعالى لهم وَزْناً حتى لو بكوا ليل نهار يدعونه لتحقيق شيء لهم، وُصُولاً إلى الذين ييسّر سبحانه لهم ما يطلبونه لأنه تعالى يريد إغراقهم في الكفر أكثر ليتعذّبوا في الآخرة أكثر لأنه تعالى يكرههم.

انتبه حين تدعوه تعالى طَالِباً تحقيق شيء ما، وانظر فيما يطلبه المؤمنون الصالحون من الدرجة العالية، وقارنه مع طلباتك، فلو كنت بدل النبي محمّد(ع) لما مرّ عليك يوم لم تطلب تدخله الفوري تعالى في مسألة ما بسبب كثرة ما تعرّض له (ع) من مصائب سببها شدة اهتمامه بهداية الناس... حَيْثُ مرّت عليه الضائقة الاقتصادية مِرَاراً، ومجاعة، وقحط، ومرض، وفقدان الأمن في بيته وفي مدينته... وتكالب الناس عليه من كل جانب، وخذلان من حوله بنفاقهم... وَأَخِيراً مثل بسيط بارز مشهور عن موت ثَلَاثَةِ أطفال له (ع) وهم صغار ولم يطلب تدخله تعالى لإبقائهم أحياء.

للأسف ترى في أدبياتنا وثقافتنا الدينية تَرْكِيزاً على بعض الروايات والأحاديث التي تجعل الكلام القرآني العقلاني غير مقبول، وكأن تحقيقه تعالى لطلباتنا شرط أساسي لمعنى إيماننا، وإلا فلماذا نؤمن ونلتزم بدين لن يكون لنا منه منفعة العلاقة المميزة مع الإله الذي آمنّا به ليحقق طلباتنا؟

هذه عقلية التعامل مع جنّي الفانوس السحري الخرافي، وليست عقلية الإيمان به تعالى، فانتبه منها ولا تنجرف خلفها، وليكن أوّل همّك فيما تخاطبه به تعالى أن يغفر لك ويهديك، ومن بعدها ومن بعد صلاحك إيمَانيّاً، سترى إن وصلت للتوكّل عليه تعالى، وهناك سترى أن أدعيتك لتحقيقه تعالى لشيء ما تريده من أمور الدنيا فما هي إلا مجرد أمنية، إن تحقّقت فبها ونعمت، وإلا فنعمته تعالى غامرة، وما بنا من سوء، ومهما كان نوعه، حتى الولادات المشوهة والكوارث الطبيعية والأمراض... فمما كسبت أيدينا وأيدي الناس.

(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ{181})
مقابل الكثيرين الذين ذرأهم تعالى لجهنّم والذين يلحدون في أسمائه تعالى هناك:

{وَمِمَّنْ خَلَقْنَا}، من الذين ركّبنا وألّفنا من المواد، وهنا الكلام مع وعن الناس، فمنهم يوجد، {أُمَّةٌ}، جماعة بينها شيء أساسي مشترك ولها امتداد تاريخي، وهنا المقصود تديّنهم بدينه تعالى، وهذه الأمّة، {يَهْدُونَ}، يضعون الناس الآخرين على الشيء الصحيح، {بِالْحَقِّ}، بالصواب بالكلام الصحيح حَقّاً، وهو نفسه الكلام الإلهي، {وَبِهِ}، بالحق، {يَعْدِلُونَ}، حَيْثُ يتركون بقية الخيارات ويلحقون الحق فقط.

إذاً هناك على امتداد التاريخ لآلاف من السنين يوجد أمّة، يوجد جماعة مهتدية وتهدي الآخرين ولها امتداد تاريخي متّصل، وكان لهم ميلان عن كلّ الأمور الأخرى إلا الحق.

لا هواهم ولا غرائزهم ولا شهواتهم ولا مصالحهم ولا حبّ الدنيا ولا الجاه ولا المال... ولا شيء يؤثر بهم، ويقولون فقط ما يرضاه تعالى، وعندما يحكمون بين شخصين، يقولون حكمه تعالى، وعندما يرون مُنْكَراً، لا يقبلون به بل ينهون عن المنكر...

تلاحظ أننا عادة نفسّر أمثال آيتنا هذه بالهداية للحقّ، أنهم ينقلون للناس ما قاله تعالى، عَلَى أساس أن كلامه تعالى حقّ وهم يهدون الناس إليه، وهذا صحيح، ولكن حتى سبحانه وتعالى عندما يتكلّم معنا لَا يعتبر أن كلامه حقّ لمجرد أنه تعالى قاله، بل بشفافية يخبرنا عن صفاته الحسنى، والنابعة والمرتبطة بقدراته الفائقة، حيث لا شيء يضره تعالى ولا ينفعه، وليس مُضْطَرّاً للاستعجال، ويفعل ما يريد... ونتج عن ذلك كونه تعالى بصفات حسنى أنه حليم رَحْمَنٌ غفور... حكيم خبير... وهكذا يكون ما يفعله تعالى هو المرجعية للحقّ والباطل والخير والشرّ، ومنه تعالى حصلنا على منحة تمييز الخير من الشرّ والحقّ من الباطل بما جعله تعالى فينا من قدرات، وهكذا صار فينا قابلية معرفة الحقّ والخير، ومن الناس أمّة يهدون بالحق، إذْ بالأصل هم مفعّلة فيهم "بسلامة" قابليات رؤية الحق، وليس بالضرورة كل كلمة يقولونها سَيَكُونُونَ سمعوها منه تعالى وَحْياً أو من كتبه أو نقلا عمّن نزل عليه وحي، لا، بل هم مهتدون، وبالتالي متماشون مع الكلام الإلهي.

كما ترى إنَّ النفع من هذا الكلام عموميته، لأن الجملة تصدق على الأنبياء والصالحين كأمّة هادية بالحق، وتصدق على أي أمّة من الصالحين "فكريا بالتوحيد، أو سلوكيا بالعمل الصالح" في أي مجتمع وفي أي قارة كَانُوا، حتى لو كانوا نادرين، وخذ مَثَلاً الحالة الواضحة جِدّاً بتميّزها مما هو مشهور في التاريخ من حالة سقراط وأفلاطون وأرسطو، حيث هؤلاء "وبحسب معلوماتي" كانوا في مجتمع أَصْلاً لم يسمع ولم يتواصل مع نبي، ولا مع كتاب إلهي، ورغم ذلك كانوا بشكل ما موحدين، هذا بما أعرفه عنهم من جهرهم بالتوحيد في مجتمع مشرك، وجهرهم بالأخلاق في مجتمع منغمس إلى رأسه في ملذات السوء.

لِمَزِيدٍ من التوسّع حول مرجعية تصنيف الخير والشرّ راجع دراسة الآية 11 من سورة البقرة {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}، ودراسة الآية 38 من سورة الإسراء {كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا}.

(وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ{182})
{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}، فقالوا عن الأمور المميزة بمستواها الإلهي والمنسوبة له تعالى إِنَّهَا كاذبة غير صادقة، فبنظرهم هي لا تدل على أمور صحيحة، فلا الْآيَاتِ التي في أنفسهم من خلقتهم وحياتهم ومواصفاتهم... ولا ما في بيئتهم أو في

السماء... ولا كلامه تعالى الذي في الكتب التي نزلت على الرسل... فكله قالوا عنه إِنَّهُ كَذِبٌ لا يدل عليه تعالى وعلى صفاته الحسنى.

منذ قليل في الآية 172 وما بعدها قرأنا أَنَّهُ في أنفسهم "فِكْرِيّاً وَنَفْسِيّاً" مزروع الإيمان به تعالى، فرفضوه وكذّبوا آياته تعالى!

{سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ}، فسوف يوصلهم تعالى إلى حيث يريد من دون أن ينتبهوا وهم لا يدرون بأنهم يسيرون إلى حيث يريد سبحانه.

تَعْلَمُ من عموم القرآن أَنَّهُ تعالى سيجعلهم يشعرون بأنهم مرتاحون أكثر وفي سعادة أكبر لأنهم مبتعدون عنه وعن دينه، وبذلك يزيد كفرهم وبالتالي يزيد عقابهم في الآخرة.

تَعْقِيباً على ما مرّ من كلام حول علمه تعالى بأن أكثر الجنّ والإنس ذاهبون إلى النار، فهم قرّروا إفساد قلبهم وبصرهم وفكرهم واتباع هواهم الفاسد... ومن بعد ذلك وفوق ذلك سَوْفَ يجعلهم سبحانه ينجرّون أكثر ويغرقون أكثر في كفرهم.

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ{183})
{وَأُمْلِي لَهُمْ}، فأتركهم لمدة أَطْوَلَ على حالهم كما هم، فهم كذّبوا بالآيات رغم وضوحها عندهم، وصارت حياتهم مبنية على تكذيبهم للآيات، فهم يخالفون العقيدة الصحيحة والشريعة الصالحة، وسبحانه سيملي لهم، فسيتركهم كما هم لمدة أطول.

لا تقصد الآية أنهم سيعيشون أكثر، لا، فهم يستحقون العقاب فَوْراً، ولكنه تعالى سيتركهم على حياتهم العادية المنغمسة في فعل ما سيسبّب لهم عَذَاباً أكبر في الآخرة.

{إِنَّ كَيْدِي}، إن الأمور التي أفعلها بهدف الضرر بهم، {مَتِينٌ}، لا خلل ولا ضعف فيه، فسيقعون في المكيدة الإلهية حيث يتركهم تعالى يقومون بفعل السوء حتى يزيد عقابهم في الْآخِرَةِ أكثر، فيتماشون مع الإملاء لهم وهم يشعرون بأنهم هم المسيطرون بينما هم تزيد عقوبتهم.

اَلْمَكِيدَةُ هي عموم أي عمل لا تقصد به أن تنتفع أنت منه وتقصد به فقط الضرر للآخرين، سواء أكان عملك بالسرّ أو بالعلن فهو مكيدة.

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ{184})
{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا}، ألم تَجُلِ المعلومات في فكرهم ليصلوا إلى نتيجة أنه، {مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ}، أن الشخص الذي بصحبتهم وبرفقتهم ليس به جنون، والكلام عن النبي محمد(ع) الذي ينقل لهم الكلام الإلهي، فهم يصاحبون النبي محمد(ع) ويعرفونه جيدا، ويعرفون أنه ليس خفيف العقل أو بسيطاً أو مجنوناً، بل هو إنسان طبيعي موزون وعاقل.

حين تسمع كلاما ما من شخص عاقل، ألا تفكّر فيما يقوله؟!

{إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ}، فبشكل واضح ينقل لكم الخبر السيّء عن العقاب الأكيد لمن توافرت فيه شروط حصول العقاب، فالعقاب أكيد لمن أشرك ولم يؤمن وفعل سوءا.

إذا كان الكلام صادراً من مجنون فعادة لن تفكّر فيه وتدرسه، ونوعية الكلام الذي تسمعه من أي كان أيضا، فإن كان لا عقلانياً فسيمنعك من التأمّل فيه، أو إن كان عقلانيا فسيدفعك للتفكير فيه، والنبي محمّد(ع) ينذر الناس، فينقل كلامه تعالى للمشركين الذين هم حتما ذاهبون إلى العقاب الإلهي إن بقوا على شركهم، فهل هذا كلام مجانين أم كلام العاقلين! أم الشرك الذي هم عليه بالآلهة التي اخترعوها من أوهامهم هو تصرّف العاقلين! أم الشريعة والسلوكيات الفاسدة التي هم عليها هي تصرّف عاقلين!

من هذه الآية نتحوّل بالحديث إلى عصر النبي محمد(ع) وعصرنا، ويتوجه الخطاب مباشرة لمن يسمع، حيث من بداية السورة كان التركيز "تقريبا" على سماع أخبار وقصص أناس من قديم الزمان، ومن هنا نلاحظ مباشرةً في الحديث معنا عبر نبينا.

نحن لسنا في عصر النبي محمّد(ع) فلم نسمع كلامه مباشرة، ولكن هذا لا يعني أن الآية لا تتحدّث معك ومعي، لأن هذا القرآن نقله لنا النبي محمّد(ع)، وهم لم يؤمنوا بأنه (ع) ينقله من مصدر إلهي، فهل الكلام القرآني كلام رجل مجنون أم رجل عاقل ينقل كلاما من مستوى عالٍ ويجب التفكير فيما قاله "نقله"؟

ضع في بالك دائما الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى معانيَ قرآنية رائعة، وتصور شخصا أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، فهنا تحذّره من سلوك الطريق السيّء، لأنه حاليا ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ}، والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}.

أمّا إذا سلك طريق الخطر، فتنذره، لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. والإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتما ما يضرّه، لذا تنذر الكافر حيث هو في حالة ستسبّب له العقاب حتما، وورد هذا كثيرا في القرآن. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يتلبّس بما سيسبّب له الضرر، لذلك تحذّر المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

هذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، لأن المؤمن قد يقوم بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، وتنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة المسيحيين المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}، وعموم المؤمنين المشمولين بالتهديد من فكرة فعل السيئات على أساس أن يحمل أحد ما السيئات عنهم {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}، والمشمولين بالتهديد إن لم يتغيّروا نحو الأحسن الموعودين بالمغفرة كما ورد في الآية {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}، ونفس المفهوم في الآية 45 من سورة النازعات {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا}.

(أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ{185})
هؤلاء الذين يقولون عن الإنذار الذي ينقله لهم الرسول محمّد(ع) إنه خفة عقل وجنون:

{أَوَلَمْ يَنْظُرُوا}، فاسألهم إن وجّهوا اهتمامهم العام، في {مَلَكُوتِ}، في ممالكه المتعددة سبحانه، في الأشياء الكثيرة المتنوعة التي يملكها سبحانه التي في {السَّمَاوَاتِ}، في عموم ما هو فوقهم، في التي لونها أزرق نهاراً، في نجومها المتلألئة ليلاً، في ضخامة مساحتها وضخامة عدد نجومها، في الكواكب السيارة التي نلاحظها تسير يوماً بعد يوم... والسماوات التي تليها وصولاً إلى السماء التي فيها الملائكة(ع) والتي هي ربما السماء السابعة الأخيرة. وتتذكّر من الآية 33 من سورة الرحمن {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} وغيرها، أننا في المستقبل سنتخطّى سماءنا ونصل إلى السماوات التالية والجنّ سبقونا في ذلك... وسنتعرّض لما تعرّض له الجنّ في تلك السماوات كما ورد في الآية 35 من سورة الرحمن {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ}. سابقاً والآن يلفت تعالى انتباهنا لعموم ما فوقنا مما نعرفه من سمائنا بنجومها، ومما عرفناه عن مجراتها، ومما سمعنا به من كلامه تعالى عن سبع سماوات، كمعلومة لنا عن وجودها حتى لو لحد الآن لم نستطع التعامل معها برؤيتها أو لمس أثرها مخبريا...

{أَوَلَمْ يَنْظُرُوا} في {الْأَرْضِ}، في تكوينها وتضاريسها من جبال ووديان وسهول... والظواهر التي عليها وحولها من ليل ونهار وشفق...

{أَوَلَمْ يَنْظُرُوا} في {مَا خَلَقَ اللَّهُ}، في ما ألّف وركب من المواد، {مِنْ شَيْءٍ}، في الأشياء المتركبة مثل الحيوانات والنباتات... تلك المخلوقات المتنوعة في أشكالها وأحجامها وسلوكها ومعيشتها...

بعد التفكير في السماوات والأرض والمخلوقات يجب أن يتفعّل فيهم ما زرعه تعالى في خلقتهم فينتبهوا أنه يوجد خالق عظيم فعل هذا، ويجب أن ينتبهوا أنه لم يخلق كل هذا للتسلية، بل استقصد تعالى أن تكون الدنيا ضخمة ومتنوعة لتكون آيات للتفكير في دلالتها عليه سبحانه.

{أَوَلَمْ يَنْظُرُوا}... {أَنْ عَسَى}، فمن المحتمل المرجّح غير الأكيد، {أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ}، فموعد موتهم ربما يكون قريباً جداً، فيموت أحدهم الآن فوراً أو بعد ساعة أو بعد يوم... وبعد أن يأتي أجلهم المرجّح حصوله في أي وقت، {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ}، فبأي كلام يسمعونه، {بَعْدَهُ}، بعد هذا الكلام، {يُؤْمِنُونَ}، يعتقدون؟ في حياة أي واحد منّا نسمع الحديث الإلهي عن آياته تعالى، عن ملكوته سبحانه... وإن لم نؤمن فورا بها وبدينه تعالى وبالإنذار... فأي حديث آخر سنؤمن به وخاصةً إن كان موعد موتنا محتملاً في أي لحظة، فما معنى تكذيب حديثه تعالى والاعتقاد بحديث آخر ونحن في حالة احتمال أن نموت في أي لحظة وانتقالنا بعدها للآخرة حيث المحاسبة والمجازاة على الإيمان والكفر!

لاحظ أن نفس المعنى تقريباً سيكون فهمه أسهل علينا لو فسرناها هكذا: فبأي حديث "بعد" وصول أجلهم يؤمنون. على معنى: ما فائدة إيمانهم بآياته تعالى بعد موتهم؟ وهذا المعنى ذكره القرآن في العديد من السور، ولكن ورود شبه الجملة في الآية 6 من سورة الجاثية {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ}، ونفس الجملة في آخر سورة المرسلات، كان على معنى: بأي حديث بعد حديثه تعالى يؤمنون. ولذلك التزمنا هنا بهذا المعنى وهو معنى قرآني صريح، وذكرت لك المعنى الآخر الذي يخطر بالبال وهو أيضاً صحيح ومشتق من القرآن ولكن الآية هنا لم تقصده مباشرة، بل أدمجت المعنيين مع بعض.

حتى نرى الفرق نأخذ مثلاً حالة قولي: أنه غداً وبحسب الأرصاد الجوية سيأتي ثلج كثير، عندها عليك أن تحتاط منه بحصاد زرعك اليوم قبل إتلاف الثلج له غداً، فهل هذا موضوع يتحمل التأجيل لغدٍ؟ ونفس المفهوم هنا عن تأجيلهم الإيمان بآياته تعالى وهم في أي لحظة قد يموتون، ومعلوم أنهم بعد موتهم لا فرصة ثانية للرجعة وليس هناك في الآخرة فرصة ثانية للتوبة، فما معنى تأجيلهم الإيمان بالآيات؟

بالنسبة لكلمة {مَلَكُوتِ}، تبحّر البعض في معناها ومقصدها... وصار لديهم اصطلاح عن عالم الملك ويقصدون بذلك عالمنا، وعالم الملكوت ويقصدون بذلك عالم الملائكة العالية... ودرج هذا الاصطلاح في ثقافتنا حتى صار تفسيراً للكلمة التي استعملها القرآن، ولكنها مجرد كلمة معناها: ممالك متعددة تضم أملاكاً متعددة. وما يقولونه من معانٍ لا هي من المعنى اللغوي للكلمات العربية التي استعملها القرآن والعرب قديماً، ولا سياق الكلام القرآني يشير لما قالوه، وهذا لا يعني منع الآخرين من وضع مصطلحات ولكن علينا الانتباه من تفسير القرآن بتلك المصطلحات.

(مَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{186})
{مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ}، لا يضعه سبحانه على الشيء الصحيح، بل يتركه سبحانه على الشيء الخطأ الذي يوصله لنتيجة غير مرغوبة، {فَلَا هَادِيَ لَهُ}، ولن يجد من يضعه على الشيء الصحيح الذي يوصله للغاية الصحيحة أبداً، ولن يصل لطريق الهدى الموصل للفوز بالجنة والنجاة من النار.

{وَيَذَرُهُمْ}، ويتركهم ربهم سبحانه ولا يهتمّ بهم، {فِي طُغْيَانِهِمْ}، في تعديهم وتخطيهم للحدود، {يَعْمَهُونَ}، حيث لا يثبتون على شيء صحيح بل ينتقلون من ضلال إلى ضلال آخر.

أنت تعلم أنه من المستحيل أن يوجد شخص يريد أن يؤمن ولكن الله تعالى يقرر إضلاله، وهذا مستحيل، وبما أن هذا واضح جداً، فإنّ الآية تقول إنّ من يضلّه تعالى ولا يرشده للطريق الصحيح "الموصل إلى الجنة"، فهذا الشخص لن يهتدي أبداً، ومن الواضح أن هذا الشخص هو لم يكن يرغب أبداً في أن يكون مؤمناً، ولذلك سبحانه يتركه يضل.

بعبارة أخرى، الذي قرر ألّا يؤمن، سبحانه لن يجبره على الإيمان أبداً، ولذلك إنه من المستحيل على هذا الشخص أن يتبع أي طريق يوصل إلى الجنة، لأن طريق الجنة واحد، وهو الطريق الذي رسمه سبحانه، وأي عقيدة أو شريعة أخرى لن يوافق عليها تعالى، ولن يقبل بها طريقاً إلى الجنّة.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللّهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ{187})
هؤلاء الذين ينذرهم النبي(ع) بعقاب في الآخرة:

{يَسْأَلُونَكَ}، يعبّرون لك أيها النبي محمّد(ع) عن إرادتهم للحصول على جواب منك، {عَنِ السَّاعَةِ}، عن زمن محدّد بحدث وهو جزء من زمن أطول منه، فالساعة زمن من يوم، وهنا المقصود أنهم يسألون عن ساعة قيامهم من الموت، وهذا سيحصل في يوم القيامة، وهو يوم طويل ويليه أيام، وأول ساعة من يوم القيامة هي ساعة قيامنا من الموت وبعدها ساعات مختلفة يجري فيها حشرنا... وبعدها أيام محاسبتنا فردياً ومحاسبتنا جماعياً... وصولاً لآخر يوم وآخر ساعة بدخول المؤمنين إلى الجنة أولاً ودخول آخر واحد إلى النار "وهذا نفهمه من الآيات 49 و 50 من هذه السورة".

يسألونك عن الزمن المحدّد لرجوع الناس إلى الحياة مرة ثانية للمحاسبة، {أَيَّانَ مُرْسَاهَا}؟ متى توقفها؟ أين ستحل وتأتي؟ في أي وقت ستحصل؟ لأن الزمن يمشي فمتى تأتي الساعة ومتى ترسو الساعة، وفي أي تاريخ بعد كم سنة ستأتي؟

{قُلْ}، لهم أيها النبي(ع) عبر هذا القرآن:

{إِنَّمَا عِلْمُهَا}، فقط وفقط علم تاريخ وزمن حصول ووقوع ساعة قيامنا من الموت، {عِنْدَ رَبِّي}، عند المسؤول عني من مستوى إلهي، فعلمها ليس عندك حتى تجيبهم أنت عنها، فلا علاقة لك ولا بأي شكل بتوقيتها.

{لَا يُجَلِّيهَا}، لا يظهرها فلا يجعلها سبحانه واضحة، {لِوَقْتِهَا}، لحين توقيت حصولها، {إِلَّا هُوَ}، فعندما يأتي وقتها يجليها تعالى فيعلم الآخرون بأنها حصلت، أمّا قبل ذلك فلن يظهر لأي أحد متى وقت حصولها.

{ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، علم الساعة ثقيل، فهو ليس معلومة خفيفة يمكن لأحد ما في السماوات والأرض تحمّلها، فمعرفة وقت حصولها ليس سهلاً وبسيطاً كما تتصورون، فعلى السماوات بما فيها من مخلوقات سواء كانت الملائكة(ع) أو الجن أو غيرهم... وعلى الأرض وما فيها من مخلوقات، تُعَدّ معرفة الساعة ثقيلة، إذ إنّه فوق قدرتهم على معرفة متى حصولها. قاربها مع العلوم التخصصية العميقة المعقدة، فالمعادلات مكتوبة أمامك، ولكنها ثقيلة على الفهم إلا لقلّة قليلة من المتخصصين، وتحديد تاريخ ساعة قيامنا من الموت مستوى معرفته مشروط بقدرة إلهية.

{لَا تَأْتِيكُمْ}، لا تصير عندكم ساعة رجوعكم إلى الحياة، {إِلَّا بَغْتَةً}، حيث سمعتم بها وبعضكم آمن بها وآخرون اعتبروها مستحيلة وآخرون اعتقدوا بها بدرجات مختلفة ولكن جميعكم لن تشعروا بمقدمات حصولها وستحصل سريعاً وتكونون فيها فوراً، وهذا قريب جداً من معنى فجأة "وهي كلمة لم يستعملها القرآن" لأنه على ما يبدو أنها تعني أصلاً انتفاء توقّع حصول الشيء، والبغتة تفيد أنه يوجد توقّع ما بحصول الشيء ولكن زمن حصوله جرى من دون مقدمات وإنذار بقدومه.

تذكّر دائماً، أني أموت، وأفقد وعيي، ولا أشعر بما يجري حولي، حتى لو بقيت لملايين أو مليارات السنين على هذه الحالة فأنا لن أشعر بأي شيء، ولن أشعر بمرور الزمن عليّ، وعندما أرجع إلى الحياة مرة ثانية، وأفتح عينيَّ مرة ثانية، فسأشعر أني أغلقت عينيَّ في الدنيا وبعدها بقليل من الزمن فتحتها في الآخرة، ولن أشعر بمليارات السنين التي مرّت عليّ وأنا ميّت.

شعورنا برجوعنا إلى الحياة سيكون في اللحظة التي نستعيد فيها وعينا، وقبل ذلك نكون بلا وعي حيث لا معنى عندنا لمرور الزمن علينا، ومن القرآن تعلم أنه حين تتبدّل السماوات والأرض الحالية والتي في مرحلة الدنيا، لنصير في مرحلة الآخرة، سيمرّ على كل الكائنات على الأرض زمن تكون فانية فيه، فاقدة كلّها لوعيها، ويبقى تعالى وحده كما نفهم من الآية 26 و 27 من سورة الرحمن {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}، فتتبدّل السماوات

والأرض، وتصير الآخرة... فما معنى اليوم والتاريخ حيث لا أربع وعشرون ساعة ولا شهر ولا سنة... وما معنى تحديد زمن لحصول ذلك؟

نحن يمكننا التقدير والتخمين قائلين إننا كلنا سنموت إذا ضربنا نيزك كبير، أو إذا حصلت حرب نووية، أو أصابنا وباء معدٍ لا دواء له، أو بعد انطفاء شمسنا... فيمكننا أن نخمّن متى سنموت كلنا، ولكن لا يمكننا التخمين متى سنعود إلى الحياة. وكثيرا ما يخلط الناس بين موتنا كلنا وبين عودتنا، فيقولون إنّ الساعة هي الوقت الذي نموت فيه كلنا، صحيح أنه توجد ساعة يحصل فيها ذلك ولكنها ساعة مختلفة عن ساعة قيامنا من الموت. وفي عموم ثقافة العوام من أهل الكتاب والمسلمين تجد عندهم خلطاً لتسمية يوم القيامة مع حادثة تبدّل السماوات والأرض، وتراهم يقولون عن مرحلة تبدّل الأرض والسماوات إنه يوم القيامة علماً أنه تبدّل للدنيا للانتقال إلى الآخرة، وبعد التبدّل يحصل قيامنا من الموت.

من عموم القرآن ومن الآية 15 من سورة طه ترى أنه حتى الملائكة(ع) العالية لا تعرف متى ستحصل الساعة، ولديها تقدير لذلك، وعلى شعرة لكانت الساعة غير معلوم وقت حصولها نهائياً ولو بالتقدير حتى للملائكة العالية، {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا}...، فالقليل القليل جداً من ملامح وقت حصولها ظاهر فقط.

الكلام ليس عن أدلة حصولها، فهذا يقيني بالأدلة التي يظهر فيها صدقه تعالى في وعوده وأنه قادر على ما يشاء وأنه هنا في الدنيا نرى إحياءه تعالى للحيوان والنبات... بل الكلام عن معرفة توقيت حصولها، فهذا يكاد يكون مخفياً معرفته على كل الكائنات إلا الله تعالى.

{يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا} يعبّرون لك أيها النبي عن إرادتهم للحصول على جواب منك عن توقيت حصول ساعة قيامنا من الموت وكأنك تعلمه وتستقصد أن تحتفظ بهذه المعلومة لنفسك! {قُلْ}، عبر هذا القرآن لهم: {إِنَّمَا عِلْمُهَا}، فقط وحصراً العلم بتوقيت الساعة، {عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}، فالأكثرية تنكر ولا تصدّق أن الساعة ستحصل وبالتالي لا يعلمون أنه تعالى فعلاً يعلم توقيتها.

هذا يشبه كلامي لك عن شيء غريب لم تره أنت في حياتك ورأيته أنا في الصين، فلم تصدّقني لأني لم أستطع أن أريك إياه... لأنك أنت لا تعلم بأني فعلاً رأيته ولن تصدقني حتى تراه، وهنا الكلام عن أكثرية الناس التي لن تؤمن حتى تعطيها زمناً محدّداً لحصول ساعة القيامة من الموت، والآية تقول إنه علم ثقيل فوق القدرات المتاحة لكل الكائنات على فهمه، ولا أحد من المخلوقات قادر على معرفته لأنه فوق قدرات الجميع، والنبي محمّد(ع) لم يحصل على التوقيت وبالتالي لم يقم بالاحتفاظ بهذه المعلومة لنفسه، لأنه مثل البقية لا قدرة لديه على استيعاب معلومة توقيت الساعة.

هنا السورة لم تتوسّع في هذه النقطة واكتفت بالتنبيه على شبه استحالة معرفتنا لتوقيت الساعة، فهي كلام مع من يجادل، ومن ضمن اعتراضاته على الدين أن الساعة التي تنذرونه بها توقيتها غير معلوم، فما هذا الإنذار بشيء غير محدّد زمنه؟

تذكّر أن سوراً عديدة من القرآن توسّعت في أمور أخرى متفرعة عن السؤال عن يوم القيامة، حيث تحدّثت عن نفي أهمية معرفة وقتها لأنه بإمكان النبي(ع) أن يرمي رقماً بعيداً جداً جداً، بعد مليون سنة، فهل سيكون جواباً مرضياً لهم وسيؤمنون؟...

(قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{188})
سؤالهم عن وقت حصول ساعة قيامنا من الموت يتضمّن اعتقادهم بأنهم سيحسّنون سلوكهم ويؤمنون قبل حصولها ولو بقليل لو علموا بها، ويتضمّن أن الرسول الذي يتّصل بالإله سبحانه لا بد أن يتميّز عنهم بأمور ومنها معرفة معلومات "سريّة" لم يقلها لهم...

{قُلْ}، أيها النبي(ع) للناس عبر هذا القرآن:

{لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ}، فأنا لا قدرة ذاتية لي منفصلة ومستقلة عنه تعالى الذي أمامه خيارات عديدة ويقرر سبحانه منها ما يريد، فإن قرّر سبحانه تركي أنتفع فأستفيد ممّا عملته وخطّطت له من تجارة و... أو قرّر تعالى ألّا أتوفّق فيما عملت وخطّطت للابتعاد عن أمور تضرّني وتغيّر أحوالي للأسوأ، فسيصيبني الضرر.

بعبارة أبسط، أنا مثلي مثلكم، لا أحبّ أن أتضرّر وأحبّ الانتفاع لتكون أمور حياتي موفقةً ميسّرةً، وكوني رسولاً فهذا لم يجعلني أحظى بأي امتيازات لأستفيد منها في حياتي، إذ حياتي تسير بشكل عادي وأنتفع من أمور وأتضرر من أمور، مثلما يحصل مع أي إنسان عادي، فلو قرّرت أني لا أريد أن أتضرّر وأريد فقط الانتفاع فهذا قرار لن يمشي ويحصل إلا إذا شاء الله تعالى أن يحصل، وهذا شيء مشترك بيني وبينكم.

{وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ}، لو كنت أعلم بما غاب عنّي، والغيب يشمل عموم ما غاب عنك سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وهنا الكلام عن معرفة ما غاب عنه (ع) وسيحصل في المستقبل، فلو كان يعلمه (ع)، {لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ}، لجعلت الكثير من الخير والأمور النافعة تحصل معي، وكل شيء فيه خير لاخترته وفعلته، فأشتري البقرة التي أعرف أنها لن تموت باكراً وستلد التوائم وتحلب الأرطال... وأزرع نباتاً محدداً في الوقت الذي أعرف أنه مناسب لهطول المطر... ولا أذهب في الطريق الذي فيه خطر، ولا أتعامل مع الناس الذين لن يعملوا كما أريد... وهكذا تكون كل أموري على التمام، ولا شيء يخيب معي، بل أحصل على كل الخير... {وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ}، فلن يصيبني أي شيء سيئ...

لكن وكما ترون، أنا مثلكم، أشتري الماعز فتموت، وأذهب إلى ذلك المكان فتقع معي المشاكل... لذا لست أعلم الغيب، ولست أحصل على كل الخير، بل ويمسّني السوء.

{إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ}، أنا فقط وفقط أختلف عنكم بشيء واحد، حيث أحمل لكم الخبر السيئ عن العقاب الحتمي في الآخرة لمن توافرت فيه شروط حصول العذاب، {وَبَشِيرٌ}، حيث أحمل الخبر المفرح، {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة، {يُؤْمِنُونَ}، وهم في حالة الاعتقاد والالتزام بدينه تعالى، والمؤمنون برسالتي أنقل لهم البشارة بدخولهم إلى جنّة خالدة رائعة.

في عموم ثقافات المتدينين من يهود ومسيحيين ومسلمين، وغيرهم من أهل الديانات الأخرى، تجد أنهم ينسبون أموراً خارقة لشخصياتهم الدينية، نعم حصلت فعلاً أمور غير عادية مع بعض الأنبياء، ونقلها القرآن لنا، كفلق البحر وإنباع الماء من صخرة، والإسراء... ولكن ما تجده في تلك الثقافات جعل الناس تعتقد بأن المؤمن الحقيقي "يجب" أن يحصل على قدرات خارقة! فيرى المنامات التي تتنبأ بالغيب، أو يرى الملائكة(ع) في منامه أو يرى نورها أو يسمع صوتها... أو تُطوى له الأرض فيقطع المسافات البعيدة بلمح البصر، أو يحوّل التراب إلى ذهب... فهو مبارك وإذا زارك حلّت عليك البركة وتتيسّر أمور حياتك... ويدعو لك بالتوفيق فتتحقّق أمانيك... وغيرها الكثير الكثير من الأمور التي بالغوا فيها، وصارت مخالفة لما تقوله آيتنا هنا وغيرها العديد من الآيات... والمخالفة للسيرة الحقيقية للرسول(ع)، التي تضمنت مشقات جمة من تعثرات ومصاعب...

ما يقوله البعض عن معرفة الرسول(ع) أو شخصياتهم الدينية للغيب، صحيح جزئياً، إذ سبحانه علّم رسوله مغيبات عن الماضي حين أخبره بقصص لم يسمع بها... وأخبره عن مغيبات في الحاضر عندما أظهر له بعض المنافقين والفاسقين، وأخبره عن مغيبات في المستقبل عن الآخرة والحساب والجنّة والنار... ولكن، هل هناك أمور غيبية أخرى غير التي ذكرها القرآن تعلمها الرسول(ع)؟ لا يهمنا الجواب طالما نحن مقتنعون بأن الرسول(ع) "تعلّمها" ولم "يعلمها من قدرته على الاطلاع على الغيب"، وطالما فهمنا أن قدراته (ع) كبشر محدودة جداً جداً وغير قادرة على استيعاب كم هائل من المعلومات، لأن سبحانه كما ورد في الآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، وبالنسبة له تعالى لا توجد معلومات غير مهمة حتى لا يلتفت لها أو لا يعلم بها أو ينساها... هذه حالتنا نحن، أمّا سبحانه فكل المعلومات بالنسبة له مثل بعضها فهي معلومات وحتما سيعلم بها تعالى حتى لو كان تقييمها تافهاً لا قيمة له وتأثير له على أي شيء مهم كسقوط ورقة شجر. وبناءً عليه فإنّ القول عن الرسول (ع) بأنه يعلم الغيب يجب أن يكون مضبوطاً بما هو تحت المستوى الإلهي...

من ناحية ثانية ترى هنا وبوضوح أنه (ع) ليس لديه القدرة على التنبؤ بالأحداث، حتى التي يهمه علمها، إذ إنّ بعضهم يقولون إنه (ع) لو أراد الاطلاع على الغيب لمعرفة شيء ما فيمكنه ذلك، وهذا غير صحيح لأن الغيب ليس مفتوحاً أمامه (ع)، وهذا ظاهر واضح من آيتنا هنا ومن غيرها من الآيات، حتى لو أراد (ع) أن يعلم شيئاً ما فإنّ سبحانه يقرّر إن كان سيوحي إليه (ع) بالمعلومة أم لا...

من المفيد في مسألة معرفة الغيب مراجعة دراسة الآية 59 من سورة الأنعام، ومراجعة الآية 6 من سورة يوسف {وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ}...

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ{189})
من هنا سترى نموذجاً عن إنعامه تعالى على الناس وفي المقابل شركهم به تعالى...

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ}، فألّفكم وركّبكم أيها الناس، {مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}، فلم يخلقكم سبحانه بالآلاف أو بالمليارات دفعة واحدة، بل من مخلوق واحد خلق سبحانه البقية، {وَجَعَلَ مِنْهَا}، من تلك النفس، {زَوْجَهَا}، فكان تخطيطه سبحانه أن يتركّب كائن من الطين ومنه يخرج كائن آخر ليصيرا زوجين، فيكونان معاً: ذكراً وأنثى. {لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا}، فيشعر بالراحة والهدوء بقربه منها، وهي حالة الانجذاب التي يشعر بها الذكر والأنثى نحو بعضهما.

إلى هنا فهمنا أن أصل خلقة البشرية من نفس واحدة، وهذا في مرحلة قديمة جداً من بعد تسلسلنا من طين، إلى أن صار حيواناً... وبعده صار الحيوان ذكراً وأنثى، وساقت الآية الكلام من بعد ذلك عن أبرز نموذج يحدث من مقاربة ذكر وأنثى وهو الحمل، فأعد قراءة الآية من هذه الزاوية وسترى أنها لا تقصد زوجين محدّدين بل تتكلّم عن حالة عمومية، ولا تقصد أن أول نفس صار منها زوجان أصابتهما حالة تمنّي ولد صالح، بل تقصد العمومية لأي زوجين فالغالبية الساحقة منّا لديها هذه الأمنية.

{فَلَمَّا تَغَشَّاهَا}، وهنا الكلام عن زوجية مما يعني أنه قاربها... {حَمَلَتْ}، في بطنها، {حَمْلًا خَفِيفًا}، وهذا ما تعرفه من تلقيح البويضة بالحييمن وبعدها تبدأ عملية نمو الجنين... لأن الحمل في البداية خفيف الوزن والأثر على الأنثى. {فَلَمَّا أَثْقَلَتْ}، فصار حملها فيه ثقل، وكبر حجم الجنين وزاد وزنه، وبالتالي كبرت بطنها وعلما أنها حامل، {دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا}، أعلنا لله الذي يعتقدان أنه المسؤول عنهما من مستوى إلهي، فقالا له سبحانه:

{لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا}، إذا جاءنا مولود صالح، وسياق الكلام عن أن يكون سليماً فكرياً وأخلاقياً وجسدياً مثلما يتمنّى أي أبوين، {لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}، فعندها نعترف ونعلن أننا حصلنا على شيء جيّد منك.

نحن أمام حالة يفقد فيها الإنسان السيطرة على كل الظروف، لأن الجنين حسّاس جداً ويمكن أن يصاب بالأذى من عوامل شتّى... وعادة يريد الأبوان بشدة ورغبة قوية جداً أن يكون لهما ولد معافى فكرياً وجسدياً وخلوقاً معهما، وفي الأبوين ما يدفعهما للتوجّه نحو قوّة فائقة لتساعدهما، لقوّة إلهية قاهرة بإرادتها لكل الظروف لتحقّق ما تريده، حيث أشار القرآن في العديد من المناسبات لما يمكن أن نسمّيه "إيمان الإنسان البدائي" الدافع للإيمان بالإله، ومنه عموم المشاعر كالخوف الشديد والشعور بفقدان القدرة على تغيير الظروف والحاجة لقوة من مستوى فائق لتغيير الظروف بما يناسب الإنسان... وقبل ذلك لدينا الأسئلة البسيطة عمّن خلقنا وخلق ما حولنا... وهنا تعرض الآية علينا دافعاً زرعه تعالى فينا للتوجّه نحوه لحصول شيء نرغب به بشدّة، وكما ترى اختار سبحانه نموذجاً سهل الفهم، ومنتشراً بيننا، إذ من المعلوم رغبتنا الشديدة بولد صالح فكرياً ونفسياً وجسدياً...

بالنسبة للمواضيع التي يطرحها القرآن وتتناول جانباً من أوّل خلقة البشرية، فعادة تختلف تفسيراتنا لها، والسبب أنها شيء من التاريخ القديم جداً الذي نقله تعالى لنا من وجهة نظره هو سبحانه كخالق، ونقلها تعالى لنا في كتبه بدقة، ولكن ما هو عالق في أذهاننا من ثقافتنا ومعطياتٍ يتحكّم في فهمنا للآيات، وهذه مشكلة عامّة نقع فيها جميعاً عند فهمنا لعموم آيات القرآن، والأجيال القديمة من المتدينين الأوائل لم يستطيعوا فهم الكلام الإلهي إلا بالمقارنة مع ما لديهم من معلومات، وهكذا نحن أيضاً، إذ ورثنا منهم أنه تعالى صنع تمثالاً من الطين بحجم وشكل إنسان، ونفخ تعالى فيه، فصار من لحم ودم وعظم... وصار فيه حياة... فتكوّن آدم(ع) وكان أوّل إنسان على وجه الأرض...

هذا النوع البسيط من التفسير لكلامه تعالى سببه طبيعي وعادي لأنه مبني على فقدان معطيات أخرى غير محاولة تفسير كلامه تعالى بشكل تطبيقي، وفي ما مرّ من تاريخ ترى فيه أن هذه النظرية الدينية كانت الجواب الوحيد المعلوم عن كيفية خلقتنا، وبالتالي كانت من أقوى أسلحة المنتمين لدينه تعالى، فهم لوحدهم لديهم تفسير لبداية وجود البشر...

ها هو القرآن يقول بأن خلقنا كانت بدايته من الطين وبعدها صار كائناً... وبعدها صار منه ذكر وأنثى، وصار التوالد من سلالة من طين عبر النطفة... ولمزيد من التفاصيل راجع دراسة الآية 7 وما بعدها من سورة السجدة {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}، إذ إن الطين بتعبير القرآن هو المواد التي في بيئتنا، من حديد وكربون وكالسيوم وماء... وهذه هي المواد التي تركّبنا منها، فالتعبير بخلقنا من طين لا يعني "حرفياً" خلق تمثال من طين ونفخ الحياة فيه، لأن تسوية آدم(ع) كما ورد في الآية 29 من سورة الحجر {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}، لا تختلف عن تسوية أي واحد منّا، لذا ترى نفس الوصف بالتسوية منتشراً في القرآن ولن تفهم منه ما فهموه من تسوية آدم(ع)، كمثال واضح جداً عن ذلك ما ورد في الآية 37 من سورة الكهف {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا}.

ترى في الثقافات الدينية أن مشكلة خلق البشرية محلولة بنفخه تعالى في تمثال من الطين ليتكوّن أوّل بشري، ومشكلة خلق زوجته أيضاً محلولة حيث أخذ تعالى ضلعاً من القفص الصدري لآدم(ع) وخلق منه حوّاء، وهذا كان تفسيرهم لكلام جاءهم منه تعالى ومشابه للكلام هنا عن خلق الزوجين من نفس واحدة... ومن الدارج جداً في ثقافات المتدينين أن أضلاع الرجل ناقصة بضلع عن أضلاع المرأة، باعتبار أن هذا الضلع سحبه تعالى من آدم ليخلق منه زوجته، وهذا غير صحيح، فلا أضلاع الرجال ناقصة ولا زوجة آدم مخلوقة من ضلعه.

عند المنتمين لدينه تعالى وبالنسبة لخلق بقية الحيوانات، فإنّ الأجوبة متحيّرة بين صنع تماثيل لها أو خلقها هكذا فجأة... علماً أن الكتب الإلهية لم تتطرّق بشكل مباشر إلى كيفية خلق الحيوانات أو النباتات...

درج أيضاً بين عموم المتدينين رفضٌ باتٌّ حاسمٌ قاطعٌ لنظرية النشوء والارتقاء، على أساس أنها معارضة لما يقوله الدين الإلهي، وهنا لا أقصد تشجيعك على قبول هذه النظرية، ولا أقول إنها صحيحة مئة بالمئة، لأن هذا ليس من اختصاصي، ولكني لا أشجعك على رفض الفكرة، إذ إنها بشكل ما متوافقة مع كلام القرآن، وأي آية تخطر في بالك عن خلقتنا راجعها في دراستنا هنا لترى أنها لا تتوافق مع عموم ما هو دارج في ثقافات المتدينين عن بداية خلقة البشرية، وتتوافق أكثر مع فكرة إنبات كل أشكال الحياة من المواد التي على الأرض وعلى مراحل، حتى إنّ تكوّن الأرض وتشكّل بيئتها مرّ بمراحل... كما تقرأ في الآية 9 وما بعدها من سورة فصلت {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ}...

على كلّ حال، آيتنا هنا لا تتحدّث عن آدم(ع) وزوجته، بل عن عموم أي زوجين صارا موجودين بعد مرورهما بمراحل الخلق المختلفة وصولاً إلى اكتمال وصفهما بالمواصفات التي في زوجين من نوع البشر، وحصل ما تقوله الآية قبل آدم(ع) أو في زمنه أو بعده... لذا ليس الكلام عن زوجين متدينين، بل عن عموم أي زوجين مرّا بحالة الرغبة في الحصول على ولد سليم معافى، ولا قدرة لهما على فعل أي شيء في هذا الموضوع...

بعبارة أخرى لتفسير الآية، ويكون تفسيراً مبنياً على معطيات من عصرنا، في مرحلة ما من خلقة البشرية لم يكن مفصولاً الجنسان، فلنقل كان "خنثى" ولا أقصد توصيف إنسان خنثى، بل حيوان ما، وبعدها صار منه ذكر وأنثى... وصولاً إلى صيران البشر... وصولاً إلى ولادة آدم كأوّل بشري تأهّل ليتكلّف بدينه تعالى، وهكذا ترى أن الآية لم تقصد حين صار ذكراً وأنثى أنهما دَعَوَا أن يكون لهما ولد صالح، لأنهما ليسا أول ذكر وأنثى، بل الكلام عن التحوّل الذي نتج عنه زوجان ينتج عنهما أطفال، ومزروع فيهما رغبة الحصول على أطفال، ومزروع فيهما رغبة الحصول على أطفال أصحّاء، ومزروع فيهما التوجّه نحو قدرة فائقة يمكنها السيطرة على الظروف لتحقيق ما يريدانه.

تذكّر دائماً أنه ليس سليماً تفسير القرآن بناء على معطيات جديدة، لأنّ الأساس الصحيح في تفسير القرآن هو اعتماد معاني الكلمات كما كانت مستعملة حين نزول القرآن، وللأسف تنطّح الكثيرون لتفسير القرآن من الأجيال الأولى والتي تلتهم من المسلمين، ولكن بشكل غير علمي ومنهجي لأنهم هم أنفسهم كانوا حديثي التعاطي مع هكذا موضوع، فوردنا

عنهم خليط بين معرفتهم وبين تخميناتهم وبين افتراضاتهم، وتراه بوضوح من تخالفهم ومن تخالف الواحد منهم مع نفسه في حديث آخر منقول عنه!

هذا الاختلاف في تفسير الكلمات والناتج عنه اختلاف في تفسير الجمل، وقبله فقدان الكثيرين للرؤية الشاملة للسور وفقراتها عبر تقطيعها لفقرات منفصلة ولجمل منفصلة لوحدها بدون ارتباط بمحور كلام السورة، نتج عنه قبولهم تفسير جملة ما بشكل متفرد عن كل محيطها.

مضافاً لما سبق، انبهر بعض المسلمين بما لدى اليهود والنصارى من كمّ هائل من تراث ثقافتهم الدينية، فاستوردوه على عماه! ولم يشيروا لنا أنهم استوردوه فقالوه ووصلنا وفهمنا أنه من أقوال المسلمين...

في تلك الفترة كانت العلوم تتقدّم ببطء شديد، إذ إنّ المعطيات العلمية القديمة التي على أساسها فسّر أهل الكتاب كلامه تعالى، لم تكن متغيّرة كثيراً بين عوام الناس، ولذلك فإنّ المسلمين الأوائل وغالبية الذين من بعدهم بلعوا ما وصلهم من أهل الكتاب وفسّروا به القرآن... وبعدهم بقليل صار للمسلمين علماء ونظريات جديدة ومعطيات جديدة، فسّروا بها القرآن حتى لو لم يتوافق مع تفاسير أهل الكتاب، فأقحموا في تفسير القرآن نظريات الأفلاك التسعة والعقول العشرة والعناصر الأربعة الأساسية "ماء تراب هواء نار" وأقحموا وصفهم للمواد "رطوبة حرارة يبوسة..."، وبناءً على معطياتهم الجديدة فسّروا القرآن، وبقي الكثير على حاله مما استوردناه من أهل الكتاب عن خلقة آدم(ع)، لأن المسلمين "وكل الناس حينها" لم يكن لديهم معطيات تشير لما يعارض ذلك...

حسناً، هذا عرض موجز جداً، وخلاصته أن تفسير القرآن بناء على المعطيات ليس تفسيراً صحيحاً دائماً، والتفسير الصحيح دائماً هو التعلّق بالمعنى الحرفي للكلمات مثلما استعملها العرب إلى حين نزول القرآن، ودراسة كل سورة كسورة فعلاً، فهي تسمّى سورة لأنها تتناول محوراً أو موضوعاً واحداً، وبالتالي فإنّ فقراتها وجملها مترابطة، وأي تفسير يسلخ آية ما عن محيطها فهو حتماً تفسير غير صحيح حتى لو كان المعنى الذي يقولونه صحيحاً، فرغم أنه صحيح ولكنه ليس تفسيراً للآية.

أي تفسير يحصر الآية بالانطباق فقط على شخص أو أشخاص، فهو غالباً غير صحيح لأن غالبية كلام القرآن عن نماذج، وستجد في كتب التفاسير ربطهم للآية هنا بأشخاص، إذ لم يتركوها على عموميتها وحاولوا تحديد زوجين من تاريخ البشرية ليطبقوا عليهما الآية أنها تقصدهما، بينما كلام الآية واضح جداً أنه عامّ جداً جداً كنموذج ينطبق على الكثيرين.

(فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ{190})
{فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا}، عندما ولدت المرأة وخرج الطفل منها سليماً معافىً، {جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا}، حيث جعل الزوجان لربهما سبحانه شركاء في خلقة المولود المعافى! ولم يشكراه تعالى بل قالا إنّ الصنم أو التمثال أو الكواكب أو الأبراج أو الطبيعة... تدخلت في ولادة الطفل معافىً!

{فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، فسبحانه في الحقيقة فوق تفكيرهم وأعلى من كلامهم وتصوّرهم عندما أشركوا أحداً آخر قالوا إنه كان له علاقة في سلامة مولودهم، لأنهم عند حالة الضعف يقولون له تعالى سوف نشكرك وحدك، ولكن بعدما حصلا على مرادهما شكرا غيره، حيث شكرا الأبراج لأن وقت المواقعة كان موافقاً للطالع السعيد! وشكرا الكواكب لأن موقعها واقترانها كان ممتازاً وفي وقت السعد! وشكرا الصنم والتمثال والطبيعة...

معلوم لك أن بعض الناس أصلاً يكفرون به تعالى من بعد حدوث ما يعجبهم وينسونه تعالى، وفي نفس الوقت لا ينسبون الفضل لأحد غيره تعالى، لذا هم ليسوا مشركين، وهؤلاء لم تقصدهم الآية بكلامها لأنهم موحدون ولكن جاحدون لنعمته تعالى عليهم، كحالة قارون الذي لم يكن مشركاً بالله ولكنه لم يعتقد أنه تعالى مسيطر على الأمور وأنه بقدرته الذاتية جمع الثروة الطائلة ونجح في ذلك حتى لو لم تكن هذه مشيئة الله... لذا هذه النوعية لا تقصدها الآيات هنا بل تتكلم عن المشركين.

(أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ{191})
{أَيُشْرِكُونَ}، هل يجعلون له تعالى شركاء يمكنهم التدخّل من مستوى إلهي لتسيير أمورهم، وهنا الكلام عن نموذج الخلقة السليمة لولدهم حيث قالوا إنّ أحداً ما غيره تعالى تدخّل من مستوى إلهي وأعطاهم ولداً معافىً، {مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا}، إذ من هو الكائن الذي لديه قدرة على خلق الكائنات غيره تعالى؟ لأن المولود كائن مخلوق، فمن غيره سبحانه لديه القدرة من مستوى إلهي على إعطاء طفل معافىً لأبوين؟ فأي كائن آخر يقول عنه الناس إنه شارك في تكوّن الطفل فيجب أن يكون له قدرة خلق الكائنات، ولا أحد لديه هذه القدرة من مستوى إلهي غير الله سبحانه، {وَهُمْ يُخْلَقُونَ}، لأنّ الله تعالى خالق كلّ شيء من دون أي استثناء، فمن أين جاؤوا بشريك له تعالى في خلق مولودهم إن كانت كلّ الكائنات خلقها هو تعالى؟

ضع في بالك أنّ القرآن أحياناً يفترض معرفتك بمعلومات مسبقة، إذ هنا الكلام عن عموم أي إله يخترعه الناس، والإله الذي يخترعونه من أوهامهم وأصلاً ليس له وجود ككائن، وهذا ليس مخلوقاً، لأنه وهم موجود فقط في الخيال، كإله الرعد وإله البرق وإله المطر وإلهة الخمرة... والآية هنا افترضت معرفتك بوهمية هكذا آلهة، وسترى بعد آيتين أنّ الفقرة هنا حصرت كلامها عن إنسان أو ملاك أو جنّي قال عنه الناس إنه إله، على أساس أنهم كائنات موجودة، وهؤلاء كلّهم مخلوقون ولم يخلقوا أنفسهم، فكيف يكون لديهم قدرة من مستوى إلهي على خلق طفل حتى يشكرهم الوالدان اللذان ذكرتهما الآيات كنموذج عن أي حالة مشابهة في أي موضوع كان.

(وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ{192})
هؤلاء الذين يقولون عنهم إنهم شركاء لله تعالى، {لَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا}، فلا يمكنهم أن يحقّقوا ما يريده الوالدان، {وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ}، فتلك الكائنات التي قالوا إنها آلهة وشاركت في خلق ولدهم المعافى، إذا أرادوا تحقيق شيء ما لأنفسهم كمنفعة، فلا قدرة ذاتية لهم على تحقيقه لأنهم ليسوا آلهة بل هم كائنات مخلوقة محدودة القدرة.

الله سبحانه وتعالى وحده ووحده فقط يمكنه أن يفعل ما يريد من دون أن يستطيع أحد ما منعه أو معارضته أو إزعاجه أو التأثير عليه... أبداً بتاتاً. أي كائن آخر فهو تحت سيطرته سبحانه، وإذا شاء الكائن شيئاً ما وشاء تعالى شيئاً آخر، فما شاءه تعالى سيحصل حتماً، فإن كانت كل الكائنات تحت سيطرته وقدرته تعالى فكيف جعلها بعض الناس آلهة! كيف آمنوا أنها نصرتهم بقدرة إلهية حقّقت لهم ما يريدونه بقهر الظروف وتغييرها بما يناسب طلباتهم ورغباتهم!

تذكّر دائماً أنه تعالى شاء منحنا حرية الإرادة والاختيار، وعلى أساسها سيحاسبنا ويجازينا، وشحن تعالى القرآن بما ينبهنا أنه لا واحد من مخلوقاته يمكنه إرادة شيء وفي مقابله في نفس الشيء إرادة مختلفة لربنا سبحانه، فما يريده تعالى سيحصل حتماً.

بعبارة أصرح، لا يوجد كلام في القرآن عن إرادته ومشيئته تعالى لنا الهداية بمعنى إرادته حدوث ذلك، وإلا لحصل ذلك حتماً، ولكن ستجد كلاماً أنه تعالى يشاء ويريد لنا أن نهتدي عبر ما زودنا به من معرفة وآيات على أساس أن هذا شيء جيد لنا إن نحن اخترناه، وقراره سبحانه واضح فلن يلغي حرية إرادتنا حتى نهتدي بالرغم من قدرته على ذلك.

(وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاء عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ{193})
{وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى}، فتلك الكائنات التي قلتم إنها آلهة إذا أعلنتم لها أنكم تريدون منها أن تهديكم لتكونوا على الشيء الصحيح الذي يوصلكم للغاية الصحيحة، وهنا الكلام بالخصوص عن اهتدائكم لأمور تريدون حصولها، {لَا يَتَّبِعُوكُمْ}، لن يكونوا "تلك الآلهة أو الأرباب" على مسألتكم التي طلبتموها.

بعبارة أخرى، إذا طلبتم منهم أن يهدوكم لتحقّقوا النجاح لتنجبوا طفلاً لتتوفّق تجارتكم... فلن يتبعوكم في دعوتكم، ولن يكونوا عليها، ولن يردّوا عليكم ليهدوكم لما تريدون حصوله، لأنهم ليسوا آلهة حقيقية فهم لا قدرة لهم من مستوى إلهي لهدايتكم لما ترغبون بحصوله.

{سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ}، إذ نفس الشيء سيحصل، {أَدَعَوْتُمُوهُمْ}، فأعلنتم وأشهرتم لهم طلبكم ليهدوكم إلى ما تريدونه، {أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ}، لا يصدر منكم أي صوت، إذا وجّهتم كلامكم إليهم أو بقيتم ساكتين ولم تدعوهم فنفس النتيجة، فهم لا قدرة لديهم على توصيلكم إلى ما تريدونه وترغبون به.

(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{194})
{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، الذين تعلنون وتشهرون لهم أمورا على أساس أنهم آلهة وتتركون الدعاء بالألوهية لله تعالى وحده، كما نقول: ذهبتم من دوني. ونقصد أنكم تركتموني وذهبتم بدوني. فهم تركوا الدعاء "الإعلان" له تعالى وحده كإله ودعوا غيره أنهم آلهة، والذين دَعَوْهُمْ إنما هم فقط وفقط، {عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ}، فهم عبيد مفروض عليهم طاعته تعالى وليسوا آلهة، فهم مثلكم عبيد له سبحانه لأنه إله كل شيء.

كما ترى، تخطّت الآيات هنا ولم تشر للآلهة الوهمية التي اخترعها الناس وليس لها كيان حقيقي ككائن حي ويفكّر... فالأصنام والكواكب والنار... من الواضح جدا أنها آلهة وهمية من اختراعات الناس، فهي مجرد أسماء اخترعها الناس وأعطوها صفات من خيالهم وجعلوها آلهة، فلا هي حكت معهم ولا أرسلت لهم رسلاً... ولا الله سبحانه قال إنها آلهة... وهذا شيء كرّره القرآن مراراً... أمّا هنا فركّزت الآيات على الكائنات الحقيقية التي لها كيان حقيقي والتي قالوا إنها آلهة، كإنسان ما، أو ملاك أو جنّي أو... فهؤلاء عباد مثلنا مثلهم ومفروض عليهم طاعته تعالى لأنه إلههم وهم ليسوا آلهة.

{فَادْعُوهُمْ}، فأعلنوا وأشهروا لهم عن أموركم التي تريدون تحقيقها على أساس أنهم آلهة، {فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ}، فليحققوا لكم ما تطلبونه منهم، {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، فإن لم تكن دعواكم لهم كاذبة فمن المفروض أن يتحقّق ما تطلبونه منهم إن كانوا فعلاً آلهة، وهذا لن يحصل. بينما في المقابل لدينا تاريخ طويل ممتد لآلاف السنين وفيه نماذج عديدة عن طلب الأنبياء منه تعالى شيئاً، واستجابته تعالى لهم.

هذا القرآن بشكل ما هو دليل ملموس منه تعالى كاستجابة، سواء كلّه ككتاب هداية، أو بعضه في الأمور التي طلب الناس فيها جوابه تعالى، بينما آلهة المشركين ليس لها رسول ولا كتاب صادر منها مباشرة مثل هذا القرآن وما سبقه من كتب، وإن ادّعى أحد ما كتاباً منسوباً لآلهته، فما هو محتوى كتابه بالنسبة للمعلومات الصحيحة عنه تعالى وبالنسبة للهداية للأمر الصلاح حتى نؤمن بأن آلهته فعلاً أنزلت كتاباً.

لا تتعامل مع الموضوع بضبابية، قرأتُ كتب مختلف الديانات ولم أجد فيها المستوى الإلهي، بل تلك الكتب من الواضح جداً أنها من تأليف الناس، علماً أن بعض ما فيها من عقائد وتشريعات صحيح، ولكنها بعيدة كل البعد عن مستوى الإلهية في النظرة العامة لكل التشريعات، ولدقة المعلومات عنه تعالى.

ما تسمعه وتقرأه من قصص "قديمة" عجيبة يؤمن بها الناس في أمور مختلفة، كقصص زواج بعض الناس من الجنيات، وقصص حضور بعض الناس لأعراس الجنّ، ولقائهم في الليالي وفي الأماكن المهجورة مع الجنّ... وهذه القصص صارت قليلة في عصرنا لأن عموم مستوى ثقافة الناس ارتفع وصار الغالبية يميّزون بين الأوهام والتخريف... وهي نفس هذه النوعية من الكلام المنخفض المستوى الذي كان يتداوله الناس عن آلهتهم الوهمية أنها فعلت كذا وكذا... والآن في عصرنا بعد اختفاء غالبية تلك الآلهة التي عبدها المشركون الرومان واليونان والعرب... لن تجد من يقول إنّ زيوس أو أبولو أو هبل أو... نصره في الحرب، فأي كلام قاله الناس قديماً عن أفعال آلهتهم فهو هراء وأوهام لا يختلف عن قصص حضور بعض الناس لأعراس الجنّ.

من جانب آخر، من نظرته تعالى يرى أنه لا يوجد أي كائن بصفات وقدرات فائقة عن صفات وقدرات البقية إلّا عند الله تعالى، فهو سبحانه يرى ذلك، ويخبرنا أنه الخالق المالك لكل شيء عبر رسله، وعبر بعض أفعاله المباشرة الظاهرة أنها صادرة منه تعالى كفلق البحر وتحويل العصا لحيّة... وعبر آياته في خلقه التي فينا وفي بيئتنا... أمّا الذين يدعوهم الناس بأنهم آلهة، فماذا فعلوا من مستوى إلهي؟ وسؤال الآيات هنا: ماذا يمكنهم أن يفعلوا من مستوى إلهي؟ لا شيء. وأي كلام يخترعه الناس عن أفعال آلهتهم فهو هراء وخرافات.

ستجد في عموم كتب التفاسير تعميماً في غير محلّه للكلام الإلهي، فيقحمون الأصنام والكواكب... في تفسيرهم للآيات هنا وفي عموم أي آية تتحدّث عن الآلهة التي اخترعها الناس، وهذا غير صحيح، إذ إنّ بعض الآيات تحدّثت عن الكلّ وبعضها عن الأصنام فقط وأخرى عن عبادة البشر... وهنا تركيز الآيات على عموم أي كائن حقيقي جعلوه إلهاً، كإنسان أو جنّي أو ملاك...

كلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، فكأن كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، فكلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، فهي جمع الجمع، لذا أثناء الكلام بدقّة قد تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، فتقول الآيات: عبيد. وردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وقد تكون لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وقد تكون لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، فهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخرين جاءهم رسول، وعبيد آخرين... فجمع الجمع "عباد"، فكلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جداً عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

(أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ{195})
تلك الآلهة التي تدعونها، {أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا}؟ هل لديهم أرجل وأقدام ليمشوا بها؟ ليتحركوا ويتنقلوا، إذا دعاهم شخص ما فهل يمشون إليه ليحضروا عنده ويسمعوا دعاءه ويستجيبوا له ويتحركوا للتنفيذ.

ننتبه جيداً، لأن الآلهة الوهمية تجاهلتها الآيات هنا، فهي وهمية، أمّا الكائنات التي قال عنها بعض الناس إنها آلهة، تسألهم آيتنا هنا عنها، مثل ولد يقول لمن ضربه: أخي الكبير سوف يضربك. فيقول له: فليأتِ أخوك وَلْنَرَ عضلاته. وهنا نفس المعنى تقريباً.

{أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا}؟ فهل عند آلهتكم وسيلة أو أداة أو عضو يتعاملون به بالعنف والقوّة مع الأمور التي يريدونها؟

{أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا}؟ فهل لديهم أداة "كعضو العين" تنقل لهم صوراً يدركونها ويعونها؟ هل يرونكم أو يرون ما يحصل معكم؟

{أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا}؟ هل يسمعونكم، أو يسمعون ما يجري معكم؟

{قُلِ}، لهم أيها النبي(ع) عبر هذا القرآن نقلاً عن إلهك الحقيقي الأحد: {ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ}، إذ إنّ الله تعالى لا يعترف بهم أنهم شركاء له في الألوهية، بل هم فقط شركاء لكم لأنكم أنتم بينكم وبينهم شراكة عبد وإله، فأعلنوا لهم، {ثُمَّ كِيدُونِ}، فقوموا بعمل مُوجَّهٍ ضدّي، ادعوهم وأعلنوا لهم حتى يقوموا بعمل مُوجَّهٍ ومقصود به فقط أن يكون مضاداً لي أنا محمّد، {فَلَا تُنْظِرُونِ}، لا تعطوني أي مهلة انتظار، ومباشرة ما يستطيعون فعله ضدي فليفعلوه.

أنت أيها الرسول محمّد(ع) ناصرك الله تعالى، وهم شركاء مع آلهة اخترعوها، فليطلبوا من آلهتهم أن تفعل أي شيء معك فوراً ولا داعي لأي مهلة.

(إِنَّ وَلِيِّـيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ{196})

قل أيها النبي محمّد(ع) "وأيها المؤمن": {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ}، مرجعي الذي أنا تابع له هو صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" سبحانه وتعالى، {الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ}، نزّل القرآن، {وَهُوَ}، الله تعالى، {يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ}، فالذين يقومون بالأعمال الصالحة يكون سبحانه فعلا مرجعا لهم فيتولّى أمورهم.

كما ترى، سبحانه وصلنا منه كتاب، فهل إله غيره تعالى وصل منه كتاب؟ وسبحانه مرجع للصالحين، حيث جعل تعالى فينا القدرة على تمييز الأعمال الصالحة من الفاسدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، وبالتالي فالذين يفعلون ما هو صالح فهم متماشون مع كلامه تعالى، وهذا الكلام في مقابل الذين لا يتماشون مع كلامه تعالى، فسيكون في عقيدتهم وشريعتهم وسلوكهم فساد، وهؤلاء من وليّهم؟ من الواضح أن وليهم الشيطان والهوى الفاسد...

قارنها مع آلهتهم، فماذا وصلهم منها؟ لا شيء. ويمكنهم أن يكذبوا ويقولوا إنَّها تواصلت معهم، ولكن على أرض الواقع فهم كاذبون ولا يمكنهم إقناع أي عاقل بذلك، ولن يكون كلامهم مختلفا عن كلام الذين قالوا إنَّهم حضروا عرسا للجنّ.

الفرق هائل بين دينه تعالى الممتد لآلاف من السنين بداية مع أول بشري تأهل ليتكلّف آدم(ع)، مرورا بكتب وأنبياء وصولا إلى هذا القرآن، وبين أي دين آخر اخترعه الناس، حيث بدايتُه معلومة وليست قديمة، والكثير منها نهايته معلومة، كنموذج مشركي العرب الذين شبه اختفى أثرهم بعد نزول القرآن بقليل.

نتذكّر أن ما تقوله الآية هنا هو موضوع السورة وما تمحورت عليه آياتها، حيث من البداية كانت تتحدث عن الأقوام الذين يوالون غير الله تعالى، سواء أكان رفضا لولايته تعالى وموالاة للهوى والغريزة... أو موالاة لبعضهم البعض، أو موالاتهم لآلهة اخترعوها... أو كانوا من الذين يقولون عن أنفسهم إنَّهم من المؤمنين ولكنهم في الحقيقة لا يوالونه تعالى، وأخبرتنا السورة أن نماذج منهم نالوا عذابهم هنا في الدنيا منه تعالى... ورأينا كيف انتهت منهم السورة ودخلت في عصر النبي محمد(ع)، وفي عصرنا لم يتغيّر أي شيء، حيث هناك الكثير من الناس الكافرين والمشركين أو الذين يقولون إنَّهم مؤمنون ولكنهم في الحقيقة منافقون وفاسقون، فالسورة تتحدث مع الذين في عصرنا أيضا.

لاحظ عمومية تعبير الآية، حيث سبحانه يتولّى الصالحين عموما، هذا بغض النظر عن الاسم الديني الذي ورثوه، كحالة إبراهيم الشابّ، لأنه لم يرث دين التوحيد من آبائه، ولا تعلّمه من الكتب، بل كان صالحا فاهتدى لأنه تعالى تولّاه.

بالنسبة لما تجده في بعض الكتب عن الفرق بين كلمتي نزل وتنزيل، فكلاهما وصف لعموم الانتقال من علو "ماديا أو معنويا" إلى مكان منخفض ماديا أو معنويا. حيث معنويا نقول: نزلت رتبته العسكرية. وكلتا الكلمتين "نزل وتنزيل" تتحملان معنى النزول دفعة واحدة أو على دفعات، ويتحدّد ذلك مما تتكلّم عنه، وتتحملان النظر للفاعل وحده، أو للمفعول وحده، أو للحالة. فلا فرق بالمعنى بين الأصل "نزل" وبين الاشتقاق "تنزّل تنزيل نزول..."، خصوصا فيما يقولونه عن الفرق بينهما في نزول القرآن دفعة واحدة أو بالتدريج على دفعات.

ما تجده هنا وهناك في ثقافتنا عن نزول القرآن كلّه من السماء السابعة إلى السماء الرابعة... ومن الرابعة جرى تنزيل القرآن "فنزل" على دفعات على الرسول(ص)، فبهذا التفصيل "وأشباهه" يقصدون تفسير كلمتي نزل وتنزيل بتوصيف مختلف للفعل، وهذا تفصيل لا ضرورة له وأصلا لا دليل قرآنياً عليه، ويمكن فهم نزول القرآن تدريجيا على دفعات ونزوله كلّه كوجهين لعملة واحدة، حيث بعضه نزل "تنزّل" في ليلة القدر، ثم نزل "تنزّل" بعضه في زمن بعدها... وبالنظر للقرآن كلّه جرى تنزيله "نزوله" على دفعات استمرت لقرابة العشرين سنة حتى وفاة الرسول(ص).

يبدو أن الفهم الضبابي لكلمة "قرآن وكتاب" دفع بالكثيرين للبحث عن فرق بين التنزيل والإنزال بالمعاني التي ذكروها، حيث فهموا أن كلمة قرآن تشير لكل ما بين الدفتين، لكل القرآن من أوله لآخره، وفهموا كلمة كتاب كذلك أنها تشير لكل القرآن من أوّله لآخره، وبناء عليه أرادوا تبرير الآيات التي تذكر نزول "كتاب القرآن" على أساس أنها تشير لنزول كتاب القرآن كلّه من أوّله لآخره دفعة واحدة، ومن المعلوم أنه كلّه لم يكن نازلا على الرسول(ص) حين جاءت الآيات التي تقول إنَّ القرآن نزل...

بناءً على فهمهم هذا، بدأت تبزغ الآراء المختلفة لتبرير الموضوع، فقال بعضهم إنَّه كلّه من أوّل مرّة نزل على الرسول(ع)... وبعدها عاد ونزل عليه (ع) على دفعات. وآخرون قالوا: لم ينزل أولا كلّه على الرسول(ع) وإنما نزل كلّه من السماء السابعة إلى الرابعة، ومن هناك صار ينزل على دفعات على الرسول(ع)... وغيرها من التبريرات التي

لا داعي لها، فالآية الواحدة قرآن، والسورة قرآن، والسورتان قرآن... لأن كلمة قرآن وصف إمكانية قراءتنا لما نزل منه تعالى، فأي تعبير يشير لنزول أو تنزيل "القرآن" فهو لا يعني أكثر من نزول شيء يمكن قراءته، فلا داعي لنفهم أن التعبير يشير إلى نزول كلّ القرآن.

كلمة كتاب تشير لعموم أي موضوع تامّ، حيث السورة الواحدة كتاب، والفقرة أو الآية الواحدة من السورة إن كانت تامّة الموضوع فهي كتاب، وكلّ القرآن كتاب، وهكذا فعندما تجد آية تتحدّث عن نزول القرآن أو نزول الكتاب فهي ليست بالضرورة تشير إلى نزوله كلّه، فلو نزلت آية فهي قرآن، ولو نزلت آية موضوعها تامّ فهي نزول لكتاب...

(وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ{197})
في مقابل ولايته تعالى للمؤمنين:

{وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ}، الذين تعلنون وتشهرون لهم بكلامكم على أساس أنهم من مستوى إلهي وتتركون الدعاء له تعالى، {لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ}، لا قدرة ولا إمكانية لديهم لتحقيق أي شيء مما تريدونه.

{وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ}، وهم الذين تدعونهم إذا كان لديهم شيء يريدون تحقيقه فلا قدرة إلهية لديهم لتحقيق ما يريدونه، هم مثلكم محكومون بمشيئته تعالى، فإن شاء تعالى سيحصل ما يريدونه وإن لم يَشَأْ سبحانه عندها لن يحصل ما يريدونه لأنهم ليسوا فعلا آلهة.

منذ قليل ورد نفس المعنى في الآية 192 وللتأكيد من زاوية أخرى تأتي آيتنا هنا لتكرار نفي أي معنى لولاية غيره تعالى، فلو كانت آلهة المشركين تنصر من والاها لكان هناك معنى من ولايتها.

(وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لاَ يَسْمَعُواْ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ{198})
{وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى}، إن تعلن لهؤلاء المشركين أنك تدلهم إلى الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، وهنا الكلام عن دعوتهم إلى التوحيد وشريعته تعالى، {لَا يَسْمَعُوا}، فكأنك تتكلّم مع الحائط، حيث تهتز طبلات أذنهم ولكن لا يدخل الكلام إلى وعيهم.

{وَتَرَاهُمْ}، فيصير عندك صورة محدّدة لهم وهم، {يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ}، حيث يتوجهون باهتمامهم بشكل عام إليك، {وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ}، فلا يحصل لديهم إدراك ووعي لما يرونه أمامهم، وكأنك لست أمامهم تتحدّث معهم.

تلاحظ في آيتنا هنا استعمال ثلاث كلمات لها علاقة بالعين، الرؤية، النظر، البصر، فالنظر هو عموم التوجّه نحو شيء لرؤيته، كمنظر الغابة، ومنظر البحر... من دون التدقيق، والرؤية هي حصول صورة لشيء محدّد، لشجرة محدّدة أو لطائر محدّد على الشجرة، والبصر هو إدراك ووعي الصورة والمنظر. وبهذا المعنى استعمل القرآن هذه الكلمات.
جهدتُ لأجد هذه الفروق لأننا في بعض جملنا لا نستحسن تبديل هذه الكلمات ببعضها، وفي جمل أخرى لا نرى خطأ في تبديلها ببعضها، والسبب تراخينا في التعبير، والعجب أن بقية اللغات لديها كلمات متعددة لها علاقة بفعل العين، وأيضا لا يستحسنون تبديلها ببعضها في بعض الجمل، وفي جمل أخرى يصرّون مثلنا على استعمال كلمة محدّدة منهم، والعجيب أن نفس المشكلة التي في قواميسنا موجودة عند بقية اللغات في تفسيرهم لمعاني الكلمات القريبة بالمعنى من بعضها، فيرادفونها على مضض وهم عالمون بأن فرقا ما بينها ولكنه لا يظهر لهم، وأدّعي في هذه الدراسة تقدما في العديد من الكلمات التي يمكن للغات الأخرى الاستفادة من تعريفها لتشكيل تعريفٍ أدق لكلماتهم، فهذا شيء فعلتُه بالاستفادة من قواميسهم لأجد تعريفا مميزا لكلمة ما، وإن كنت خبيرا ستفهم أني لا أقصد أن كل كلمة عربية لها مساوٍ أعجمي، لا، بل الاستفادة من الفرق بين الكلمات التي تبدو مترادفة وقريبة بالمعنى، ستعينك لترى الفرق بين كلمات مشابهة من لغتك، واستفدتُ بذلك خصوصا من اللغة الإنجليزية بسبب كثرة دراسة كلماتها في مجالات متعددة...

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ{199})
{خُذِ الْعَفْوَ}، أيها النبي محمّد(ع) وأيها المؤمن، اجعل العفو، وهو المرور عن الأشياء بدون التوقّف عندها، اجعله كنهج وطريقة في تعاملك مع عامّة الناس، لا تكن دقيقاً متذكّراً لكل كلمة سيئة قالوها ولكل فعل سيئ فعلوه... ولا تحفظ

لهم أقوالهم وأفعالهم كاللئيم لا، بل مرّ عن الأمور. طبعاً لا يمكن المرور على قتل الأبرياء ولا الكفر... بل المرور عمّا فعلوه من بعدما تغيّروا وصاروا مؤمنين أو حين يَلِينُونَ ويظهر عليهم إعادة نظرهم في أفعالهم السيئة ليصيروا مؤمنين وصالحين...

{وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ}، بما هو متعارف عليه بين الناس أَنَّه جيّد مقبول، طبعاً المقصود المعروف بين المؤمنين العقلاء والمتماشي مع دينه تعالى.

{وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}، فلا تهتم بالذين يفكّرون ويتصرفون بطيش لا عن علم ولا عن دراسة، فهم متعلقون بدين الشرك ولا يريدون التغيّر حتى لو حدثتهم بالمنطق والحجة والبرهان، مثلما نقول للشاب الطائش: جهلان. فهو لا يردّ على النصائح. فعندما ترى شخصاً متعلقاً بدين الشرك والكفر وتعلم أنه يناقشك ويجادلك وهو لا يريد معرفة الحق، بل فقط يجادل ويتسلى... فهؤلاء أعرض عنهم واتركهم ولا تكلمهم في الدين، ولا تتجادل معهم، أمّا الذين ترى فيهم خيراً فاعف عمّا سبق وعن زلّاتهم وسوئهم، فلا تجعلها خلفية عندك عنهم ومانعة لك من احتمال أن يؤمنوا، بل اطلب منهم أن يكون تصرّفهم بما يقول عنه العقلاء إنَّه جيّد... وسترى من الآية التالية تكملة لهذا الكلام.

ها القرآن أمامك نادراً ما تحدّث بالتفصيل عن أمور تشريعية، ولو قارنت عدد آيات الأحكام مع ما في كتب الفتاوى لوجدت الفرق هائلاً، وأكثر ما في تلك الكتب من تفاصيل هو أمور افترض القرآن في العقلاء معرفتها، كتفصيل حرمة الوضوء بماء مغصوب أو مسروق... أو ربوية تبادل نفس النوعين مع زيادة... وأكثر المستحبات ترجع لعادات كانت متوافقة مع الثقافة التي كانت دارجة في زمن الرسول(ع) وما بعده بقليل، كشكل اللباس والكحل في العين للرجال... وبعض الأحكام تركها القرآن مطّاطة تتحمّل التماشي مع مختلف الثقافات، وحتى نفس المجتمع الواحد تتغيّر ثقافته مع مرور الزمن، كتزويج البنت في عمر الصبا، حيث منذ زمن قليل كان دارجاً ذلك حتى في المجتمعات الأوروبية... فالأمر بالعرف هو أمر بما يوافق عليه العقلاء، وهذا من المفروض أَلَّا ينتج عنه أمور لا تتماشى مع شريعته تعالى.

بعبارة أصرح، هناك هامش تركه تعالى كمرونة في التشريعات لأن مزاج المجتمعات مختلف عن بعضه، وأيضاً يختلف عن نفسه بعد مدّة من الزمن، ومتعلقات أخرى تفرض نفسها لتكون مختلفة في المجتمعات المختلفة، حيث ديّة المقتول لا معنى ليحدّدها القرآن بشيء له قيمة، كجمل أو بقر... أو بقيمة مباشرة بالذهب أو الفضّة، لأن المجتمعات تختلف في مستواها الاقتصادي، وهو نفس المجتمع يمر عليه متغيرات اقتصادية، فلو حدّد تعالى الديّة، لكانت مستطاعة لمجتمع ما وفوق الاستطاعة لمجتمع آخر... ومثله موضوع تحديد مِمَّا يجب الزكاة فيه، فعنوانه القرآني من الخير كما ورد في الآية 215 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ...}، ومثله تحديد كم يجب أن ينفقوا "النسبة" فعنوانه من العفو كما ورد في الآية 219 من سورة البقرة {...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...}، هذا النوع من الهامش لولاه لكانت التشريعات صلبة قاسية جافة وغير قابلة للتطبيق. وهذا النوع من الهامش هو التطبيق العملي لما تقوله آيتنا هنا عن الأمر بالعرف بما يتوافق عليه العقلاء إنَّه جيّد.

هناك عرف آخر وأيضاً متروك كهامش مرونة لما يراه الناس مناسباً ولكنه ليس بقوة القانون، حيث لم يوجب تعالى علينا تزويج الصبيان ولا البنات حين يَبْلُغُونَ جنسياً جسدياً، ولم يجبر الرجل على الزواج من أربعة نسوة... ومدّة بعد مدّة يتغيّر مزاج المجتمعات، فيصير لديهم قبول لزواج البنات صغيرات، أو بعمر الرابعة عشرة، أو بعمر الثامنة عشرة، أو بعمر العشرين وما فوق، أو بعمر الثلاثين وما فوق... وحيث يتبدل المزاج ويصير عرفاً فلا مشكلة، لأنَّ سبحانه أصلاً ترك هذه الأمور لأنه خلقنا بحيث تتغيّر عاداتنا وثقافاتنا مع مرور الزمن...

(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{200})
{وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ}، في حال صرت في داخلك تشعر بحالة خلاف مع الآخرين، {مِنَ الشَّيْطَانِ}، وهذه الحالة سبّبها لك الموصوف بقيامه بأعمال الضلال لنفسه وللآخرين فأصابك منه، {نَزْغٌ}، شيء يجعلك تنفر من الآخرين، فإذا خطر ببالك أن تغضب على الجاهلين، أن تشتمهم، أن تصرخ عليهم، أن تهينهم، أن تسبّهم... فهذا كله نزغ شيطاني.

{فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ}، حيث بمجرد أن يخطر ببالك شيء سيئ فاعلم أنه من الشيطان واطلب منه تعالى الحماية من هكذا أفكار، وعمليا تستحضر في بالك أن ما تشعر به لا يرضى عنه تعالى، وتتركه وتذهب إلى ما يرضى سبحانه عنه، وتلتزم بما أمرتك به الآية السابقة من العفو والأمر بالعرف والإعراض عن الجاهلين.

{إِنَّهُ سَمِيعٌ}، حيث يسمع سبحانه نزغ الشيطان ويسمعك حين تطلب منه تعالى المساعدة، لأن استعاذتك به تعالى سيسمعها الذي يسمع كلّ شيء، وَ{عَلِيمٌ}، حيث يعلم كلّ شيء، ومن ضمنها علمه تعالى بما يحصل معك وما تشعر به.

ننتبه، لأن الأفكار الضبابية التي عندنا عن عصمة الأنبياء، يتداخل فيها الصحيح مع الخطأ، حيث إنَّ النبي محمداً (ع) وبقية الأنبياء وأي إنسان آخر، إن عارض الأفكار الشيطانية ولم يتماشَ معها، فسيحافظ على قلبه السليم، ويميّز فورا الأفكار الشيطانية ويرفضها... وبالعكس تماما فمن يتماشى مع الأفكار الشيطانية فهذا يصل إلى مرحلة حيث يسيطر عليه الشيطان تماما ويديره كيفما يشاء... ما هو متاح للأنبياء من حماية إلهية "عصمة" من وساوس الشيطان فهو متاح ومعروض علينا كلّنا، وبدرجة ما نتمرّن على معارضة الأفكار الشيطانية يصير عندنا بصيرة موازية ومساوية بنفس القوّة لما يتمتع به الأنبياء من كره أو مقاومة لوساوس الشيطان، والنبي وأي إنسان آخر لن يتوقّف الشيطان عن محاولة إغوائه وإضلاله... ولكن محاولات الشيطان تختلف في نوعيتها بحسب الأشخاص، حيث كلّ الأفكار السيئة تخطر في بالنا، وبعضها يكون بعيدا جدا جدا عن إمكانية تنفيذنا لها، وبعضها يكون قريبا جدا من هوانا وإمكانية تنفيذها، حيث بعض الناس مهما استفززتَهم فلن يَرُدُّوا بالشتائم والسباب، مع أنهم يخطر ذلك في بالهم، ويشعرون بالرغبة القوية به، ولكن تمرسهم على التقوى، وعادتهم في الابتعاد عن الشتم والسبّ، سبَّبا لهم الكبت الفوري لرغبة الشتم والسبّ... "العصمة من السباب..." ونفس الشيء يحصل مع كلّ الناس، وبدرجات متفاوتة، من مجرد فكرة تخطر على البال، إلى الرغبة ولو القليلة بفعلها، إلى استحضار السباب والشتم في البال وتركيب الجمل... ولكن بعضنا لا ينطق بها...

هكذا نفهم أن نزغ الشيطان إن لسبب ما حصل مع النبي، فهو مرتبط بدرجة تقواه وإيمانه، وتعلم أن الأنبياء يتحلّون بأعلى درجات التقى، حيث يكون النزغ عندهم مجرد فكرة عابرة، لأنهم يغضبون ويتضايقون مثلنا، وهم ليسوا محرومين من هذه المشاعر التي تؤدّي إلى العنف بالكلام والفعل، حيث بسبب الغضب من المجرمين نقاتلهم ونعنّفهم بالكلام... ولكن الأنبياء في الحالات التي تستدعي الصبر يصبرون.

هنا التنبيه للجميع وليس للنبي محمّد(ع) فقط، حيث عادة يعتبره (ع) القرآن نموذجا يحدّثنا عنه لنتعلّم من تجربته الإيمانية، ويحدّثه كشخص كإنسان عادي يتلقّى الأوامر والتنبيهات الإلهية، لأنه فعلا مثلي ومثلك، ولكن يختلف عنّا بدرجة تقواه التي عمل عليها وصقلها وأبقاها نقية من وسوسات الشياطين، ولهذا السبب ميّزه سبحانه واختاره ليكون ناقلا للوحي الإلهي للناس، وها هو ينقل لنا توجيهاته تعالى لنبيّه حتى نلتزم بها نحن أيضا.

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ{201})
{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا}، الذين تحاشوا وتجنبوا، وسياق الكلام عمومي عن تجنّب ما يوسوس به الشيطان من سوء، وهذا هو نفسه تقواه تعالى بتجنّب غضبه وعقابه سبحانه عبر ترك ما حرّمه وفعل ما أمر تعالى به، فالذين اتقوا، {إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ}، حيث طاف عليهم، جال ومرّ عليهم شيء شعروا به ولمسوه وكان من الموصوف بأنه يعمل على إضلالهم، {تَذَكَّرُوا}، استحضروا في فكرهم وبالهم، حيث استحضروا حالة التقى وتذكّروا أوامره تعالى التي تأمر بعكس ما يدور في بالهم مما وسوس به الشيطان، {فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ}، حيث يدركون ويفهمون معنى الصورة التي أمامهم، ويدرك وعيهم أن الشيطان مسّهم بطائف، ولأنهم متقون فسيقاومون النزغ والمسّ الشيطاني.

كما يحصل معنا أحيانا، حيث يخطر ببالنا شيء سيئ ولكن لا ننفذه، حيث يكون الشيطان وسوس لنا ولكننا لم نستمع له لأننا أبصرنا الوسوسة، حيث من سوئها أدرك وعينا أنها وسوسة شيطانية، فاتقيناه تعالى، وفي نفس الوقت طمعنا في ثوابه ولم ننفّذ ما وسوسه الشيطان.

لاحظ التعبير بالمسّ من طائف، وأقرب شيء له بكلامنا الدارج هو فكرة كلمحة على البال، حيث هناك ما هو أقوى من ذلك ولو بقليل، وصولا إلى الفكرة التي تلصق مباشرة في وعينا ونُعجَب بها وتذهب للتنفيذ، فتعبير الآية هنا عمومي

شامل حتى للأنبياء كما ورد في كلام الآية السابقة، ولكن درجته عندهم هي درجة شيء يخطر مرورا سريعا على البال.

(وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ{202})
{وَإِخْوَانُهُمْ}، إخوان الشياطين، المشابهون لهم، {يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ}، فالأمور غير الرشيدة والنابعة عن الهوى والشهوة والغريزة... السيئة، حيث إخوان الشياطين إذا تعرّضوا لنزغ أو مسّ شيطاني تتطوّر وتزيد عندهم الحالة التي يرغب بها الشيطان، {ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ}، حيث دائماً هناك مدد بالغي بلا انقطاع، كما نقول: قصر عنه. ونقصد أنه كان يتعامل معه أو متجهاً نحوه وبعدها تركه، كما نقول عن رجل بخيل إنَّه "يقصّر" في مصروفه على عياله. حيث الشياطين توسوس وتوسوس ويبقى تركيزها مستمراً بلا انقطاع على من سمع لهم فلا يقصرون عنه.

محاولة الشياطين لإغواء المتقين لن تنجح، ولكنها تنجح مع إخوان الشياطين، حيث الكافرون والفاسقون والمنافقون هم إخوان للشياطين، فتقوم الشياطين بالوسوسة بشكل بسيط بموضوع بسيط يبلعه بسهولة غيرُ المتقين، وبعد ذلك تصير العلاقة الشيطانية مستمرة بينهم، فيمدُّونهم بشكل مستمر ومتواصل بالأفكار السيئة.

(وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يِوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَـذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{203})
{وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ}، حيث لم يَصِرْ معهم شيء مميز من مستوى إلهي يبرهن أنك رسول إلهي، يطلبون ما يسمّيه الناس بالمعجزة، كخروج ناقة من الصخرة كما هو مشهور أنه حصل في عهد النبي صالح(ع)، أو انفلاق البحر كما حصل في زمن النبي موسى(ع)... أو تجعلهم يرون الملائكة(ع) ويتحدثون معها، أو أن يعطيك سبحانه الكنوز وجبال الذهب... فإذا لم يحصل ذلك، {قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا}. لو كان عندك شيء خاص بك، لو أنك دبّرت شيئا لتقنعنا به ويكون خاصاً بك ولا نقدر على فهمه أو فعله، كأن تتعلم السحر وتسحرنا، أو تخترع شيئا غريبا علينا...

بعبارة أخرى، هم طلبوا من النبي محمد(ع) أن يفعل شيئا غريبا خارقا حتى يؤمنوا، والنبي(ع) لم يفعل شيئا، قالوا له: كان من المفروض منك أن تحسب حسابا لتفعل شيئا غريبا حتى نتبعك، لولا حسبت هذا الحساب ودبّرت أمرك، وفكرت في شيء تخترعه وتفعله أمامنا... ويكون مُجْتَبىً، حيث يكون خاصاً بك لوحدك ولا يقدر الآخرون على تقليده.

{قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ}، حيث فقط أكون على، {مَا يُوحَى إِلَيَّ}، ما يصلني إلى وعيي بلا كلام مباشر، {مِنْ رَبِّي}، من المسؤول عنّي من مستوى إلهي. ما أقوله لكم هو نقلٌ عمّا يصلني منه تعالى، وليس مشروعا أنا اخترعته من رأسي حتى أحسب حسابا لطريقة تجعلكم تؤمنون بي...

{هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ}، حيث إنَّ ما أنقله لكم من المسؤول عنكم من مستوى إلهي يجعلكم تدركون وترون الحقيقة، {وَهُدًى}، يدلكم على الشيء الصحيح الذي يوصلكم لغاية صحيحة، {وَرَحْمَةٌ}، لأنه عناية لما فيه مصلحتكم منه سبحانه لأنه يدلّكم على فعل الخير ونهاية ذلك إلى الجنّة ويبعدكم عن النار، {لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}، لأناس لهم كيان الجماعة ومُتفاعِلينَ اعتقادا بما أنقله لهم.

أولاً هذا ليس مشروعي الشخصي حتى أحسب حسابا لإيمانكم بي واجتبي شيئا خارقا يقنعكم، ثانياً ما معنى طلبكم لآية في حين أن ما أعرضه عليكم يريكم حقيقة الأمور "منها وعلى رأسها أنكم اخترعتم آلهة لا حقيقة لألوهيتها..." ويهديكم لأمور مرغوبة صالحة جيدة حسنة... لأن فيها سعادتكم في الدنيا والآخرة، ومعروض عليكم كرحمة كعناية إلهية لما فيه مصلحتكم، إذن ما معنى أي آية غريبة تطلبونها لتصدقوني!

هذا الكلام له عمق تراه منتشرا كمفهوم في كل كلامه تعالى، حيث سبحانه في كتبه وعبر رسله وأنبيائه، ماذا يعرض علينا؟ لو كان المعروض علينا للإيمان به غير عقلاني، أو في الشريعة فاسداً، لكان من حقّنا رفضه، ولكنه سبحانه يعرض علينا أن لا نخترع عقيدة من الأوهام، حيث يعرض علينا توحيده تعالى، وهذا هو الواقع حيث لا إله غيره، ويعرض علينا شريعة وسلوكيات من المفروض أن نرى صلاحها، كبرّ الوالدين والصدقة والأمانة... هل هذا شيء يحتاج لآيات خارقة حارقة حتى تؤمنوا وتلتزموا به! أم أن العاقل الرزين سيؤمن به ويتماشى معه ولا يحتاج لأي شيء

آخر حتى يستقيم على هذا الهدى، لذا انتبهوا ماذا يعرض تعالى عليكم لتؤمنوا به وتتبعوه، وانتبهوا لما أنتم عليه، وبعدها انظروا إن كان طلبكم لآية ما معكم حقّ فيه.

الوحي هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خيرا أم شرّا، وبناء عليه كل أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وحيا لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وترى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}، وحتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...}.

ينطبق فعل الوحي على أي كائن كان "إنساناً، حيواناً، مَلَكاً، أو جنّاً" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم، وطرق فعل الوحي وأنواعه متعددة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}. ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}، وما ورد في الآية 193 و 194 من سورة الشعراء {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ}. أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ...}، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل. ووحي عبر إصداره تعالى صوتا في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، مضافا لها الآية 13 من سورة طه {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}، حيث إنَّ كلامه تعالى معه(ع) وحي لأن الكلام ليس صادرا مباشرة منه تعالى فهذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، ليصير وصف الحالة أن كلامي يصلك وحيا.

هناك وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} حيث في النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

الوحي يصدق على وحي الخير والشر، حيث إنَّ الشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا...} ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... فالوسوسة في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيراً أو شراً فهو وحي.

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{204})
نكمل مع ما قالت الآية السابقة إنَّ الآيات، إنَّ الأشياء المميّزة "الغريبة والتي نسمّيها بالمعجزة" ليست هي المهمة، بل ما يوحى إلى النبي(ع) فيه بصائر وهدى ورحمة وهذا هو المهمّ.

{وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ}، فأعطوه آذانكم واهتموا بما تسمعونه وَلْيَدْخُلْ إلى فكركم ووعيكم، {وَأَنْصِتُوا}، فلا تتكلموا بل اتركوا الكلام للقرآن. عندما تتحدث أنت معي ربما أقطع كلامك، وربما بينما أنت تتكلم أنا أفكر بصحة ما تقول، أو ربما أفكر بماذا سأقول عندما تنتهي من كلامك وأنا أصلاً غير مهتم بكلامك، وربما أفكر فيما يقوله غيرك من الناس في نفس الموضوع... فالمطلوب عندما نسمع القرآن أن نضع في فكرنا أن هذا كلام الإله سبحانه، وأننا يجب علينا رمي كل ما في ذهننا من معلومات ونتعلم من القرآن... وهذا هو الإنصات هنا، كالإنصات للأستاذ للتعلم، والإنصات للأب...

فإذا استمعتم وأنصتّم، {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}، فمن المفروض ومن المتوقّع أن تنالكم عناية إلهية لما فيه مصلحتكم، فيعتني بكم تعالى في الدنيا والآخرة.

نتذكّر دائماً أنّه من ناحيته تعالى رحمتُه متاحة لمن كانت فيه الصفات المناسبة، فمن أنصت فآمن وعمل صالحاً فمن المفروض أن تناله رحمته تعالى، ولكن من ناحيتنا نحن لا يوجد ثبات محسوم دائم لحالتنا على الإنصات، لأنَّ {لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ} متعلقة بنا نحن، حيث من جانبنا يضعف الاحتمال أو يقوى على نيل رحمته تعالى، فنحن نؤمن أو لا نؤمن، أو نؤمن ونقوم ببعض المخالفات التي نستحقّ عليها العقاب... ومن جانبه سبحانه فالرحمة لنا متاحة وحاضرة وجاهزة... لمن آمن وعمل صالحاً، ولذلك استعملت الآية التعبير بـ"لعلّ".

ننتبه جيداً، حيث إنَّ الآية لا تمدح سكوتي عند قراءة أحد ما للقرآن، بل الترجمة العملية للإنصات أَلَّا أُسْقِطَ ما في ذهني على ما أسمعه من قرآن، حيث ما أسمعه من قرآن يدخل إلى فكري كما هو، فلا معنى لمدح سكوتي عند سماعي لقارئ القرآن لمجرد سكوتي، ولا معنى لحصولي على الرحمة من السكوت فقط، لأن الإنصات عملياً هو توجيه اهتمامي لما أسمعه على اعتبار أن له أهمية كبيرة وهكذا يدخل الكلام إلى وعيي، ويصير من قناعاتي وأترجمه بأفعالي، وعندها تنالني الرحمة.

ما درج في أدبياتنا عن حسنات من تلاوة القرآن وسماعه وحفظه... فكلّه مشروط بما تقوله الآية هنا من الإنصات على معنى التعلّم وتطبيق ما نسمع، وإلا فلا قيمة ولا حسنات لمن سمع وخالف، أو استهتر بما يسمع وفقط من الخارج منظره مستمعٌ للقرآن...

(وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ{205})
{وَاذْكُرْ رَبَّكَ}، فاستحضر المسؤول عنك من مستوى إلهي في فكرك وعملك أيها النبي(ع) وأيها المؤمن، {فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا}، فتحدّث نفسك عن حاجاتك منه تعالى لأمور تحتاجها بشدّة من المسؤول عنك من مستوى إلهي، حيث تحتاج للهداية وللمغفرة وَأَلَّا تُبْتَلَى بما لا طاقة لك به... واذكره تعالى في نفسك، {خِيفَةً}، أي مع شعورك بالخوف بأنك إذا فعلت ما تَوَعَّدَكَ عليه تعالى بالعقاب فستتعرّض لخطر حتمي لا يمكنك تجنّبه، {وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ}، فاذكره تعالى بما هو أقل من الإعلان بالقول، حيث تذكره تعالى بحيث لا يسمعك الآخرون، بصوت نبرته عادية لا تصل إلى حدّ الصوت العالي، {بِالْغُدُوِّ}، في فترة الغداة من اليوم وهي الفترة التي يكون فيها قرص الشمس ظاهرا، فاذكره تعالى من أوّل نهارك. واذكره تعالى في {الْآصَالِ}، من بعد اقتراب قرص الشمس لأفق المغيب، من بعد العصر، ونقول: شمس الأصيل. حين تقترب الشمس كثيرا من أفق غيابها إلى حين تختفي، كوصف للشمس في حالة دخول النهار في الأصيل، في غياب الشمس.

هذا التعبير القرآني مشابه لقولنا عن استمرار شيء ما: كنت أعمل من الصبح للمسا. وهناك تعابير قرآنية أخرى لنفس المفهوم: بالليل والنهار، بكرة وعشيا... فهي كناية عن دوام ذكره تعالى، ويناسبها التفسير بالعموم لأي ذكر له تعالى، ويناسبها قرآنيا أكثر أن تكون إشارة للصلوات الخمس الواجبة، ولكنها ليست إشارة لمواقيت الصلاة الخمس بل هو تعبير مستوعب لنهارك حيث تكون في حالة النشاط.

{وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ}، لا تكن من الذين يجري شيء ما وهم غير منتبهين له عن قصد أو تهاون أو إهمال، فذكره تعالى بشكل دائم في فترة نشاطك هو شيء مهمّ جدا فلا يفوتك هذا الشيء.

طبعا، من عموم القرآن تفهم أنه تعالى لا يأمرنا بتعطيل حياتنا والتفرّغ لذكره تعالى، لا، فالصلاة خمس مرات يوميا من أهم وأقل مصاديق ذكره تعالى يوميا، وبعدها حفّزنا القرآن على صلاة النوافل خصوصا في الليل، ودائما حفّزنا على دوام ذكره تعالى بالحمد والتسبيح... في أي حال وفي أي وقت، وهذا ما تشير له الآية هنا، التي لا تقصد التوقّف عن أنشطة الحياة للتفرّغ للعبادة، بل دمجهما معا.

(إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ{206})
{إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ}، فهم عند المسؤول عنك من مستوى إلهي وليسوا عندك من الذين تتعاطى معهم في بيئتك، وسياق الكلام يشير للملائكة(ع) بأصنافها المتعددة، {لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ}، لا يرون أنفسهم أكبر من أن يتصرّفوا على أساس أنهم عبيده، على أساس أنهم مفروض منهم طاعته سبحانه، حيث كل تصرفاتهم دائما محكومة بفكرة أنهم صغار ومطيعون له تعالى، حيث ما يصلهم من أوامر منه تعالى فهم ينفذّونها وهم متواضعون ويشعرون بأن طاعته تعالى شيء طبيعي بالنسبة لهم.

{وَيُسَبِّحُونَهُ}، حيث ينزهونه فلا يَصِفُونَهُ تعالى بأي شيء سيئ أو وصف بمستوى غير مناسب له تعالى، وبداية التسبيح من نفي أي شريك له تعالى في الألوهية، ونفي العبثية واللهو عنه تعالى... عبر تعبيرات: أحد صمد حكيم عليم رحمن...

{وَلَهُ}، لله تعالى، {يَسْجُدُونَ}، يعبّرون عن أقصى درجات الخضوع له تعالى، حيث نحن البشر أعلى تعبير لدينا للخضوع هو ملامسة جبهة الوجه للأرض، والملائكة(ع) لديهم تعبير يناسبهم وهو من مستوى أعلى تعبير عن خضوعهم له تعالى، وهذا بلغة البشر يصير وصفه بالسجود.

بعبارة أخرى، عندما يقول القرآن إنَّ الملائكة(ع) يسجدون، فلا يقصد أنهم يضعون جبهتهم على الأرض، بل يفعلون شيئا لا نعرف ما هو، ولا نعرف كيف يقومون به، ولكنه تعبير عن أقصى درجات الخضوع له تعالى، مثلما نحن "سجودنا" وضع جبهتنا على الأرض هو أقصى تعبير لخضوعنا له تعالى.

هناك كائنات بشكل ما قريبة منه تعالى أكثر منّا "بالمجمل"، وتعرفه تعالى أكثر مما يعرفه أكثريتنا، وبسبب قربها ومعرفتها به تعالى فهي ترى فعلا أن التصرّف كعبيد صغار أمامه تعالى، هو تصرّف طبيعي عادي لأنهم فعلا عبيد له تعالى، قارنها مع من وصله خبر بأنه تعالى يأمرنا بالصلاة، لو أَنَّ أي واحد منّا لديه اعتقاد وشعور بأنه فعلا عبد مملوك له تعالى، لكان تصرّف على هذا الأساس، وبعض من لا يعبده تعالى لا يتصرّف على أساس أنه مفروض منه طاعته تعالى لأنه بشكل ما يرى نفسه أكبر من هذا، لذا تلفت السورة انتباهنا لكائنات قريبة منه تعالى، ولديها قدرات خارقة بالنسبة لبقية المخلوقات، وتعرف حقّ المعرفة أن عبادته تعالى عادية طبيعية وأنهم صغار جدا جدا أمامه تعالى.

بناءً عليه، من أنت أيها الإنسان حتى ترى نفسك أكبر من عبادته تعالى! وأكبر من موالاته والالتزام بكلامه؟ لذا انتبه لنفسك ماذا تفعل ومع من وما النتيجة.

سورة الأنفال (8) ص 177

هذه السورة نموذج واضح جدا جدا عن الكلام الإلهي معنا من النظرة الإلهية لنا، وسوف نتوسّع في الكلام هنا لِتَتَكَوَّنَ لدينا صورةٌ نعمّمها على عموم القرآن.

فإذا سألنا: لماذا لا نجد سورة مخصّصة لكل نبي لتقصّ سيرته فيها بدلا من تفرّق قصّته على سور عدّة؟ ولماذا لا نجد سورة خاصة بالتشريعات؟ أو سورة عن الصلاة والوضوء وحدها، وسورة عن الحج وأخرى عن الصوم...؟

حين تقرأ اسم سورتنا هذه "الأنفال" تتوقّع أن تكون مخصّصة لتشريع الغنائم، وبشكل ضبابي تتوقّع أن سورة البقرة مخصّصة بشكل ما للحديث عن قصّة البقرة التي ذبحوها لإحياء ميّت... ولكن لا هنا ولا هناك كانت السورة مخصّصة أو تتمحور حول اسمها، ولا سورة يوسف للحديث عن النبي يوسف(ع) بل للعبرة من النظرة الإلهية لما جرى معه(ع)، فنرى معاناته من تصرفات الآخرين حتى لا نفعل مثلهم، ونرى صبره حتى نفعل مثله إذا تعرّضنا للظروف الصعبة... ونرى وصول الأمور إلى النتيجة التي أرادها تعالى لِنَشْرِهِ(ع) لدينه تعالى في أقوى دولة في ذلك الزمان...

فلكل سورة محور أساسي، ويتفرع عنه في السور الطوال مواضيعُ، وفي دراستنا هذه ستجد نجاحا ملحوظا في تحديد المحور الأساسي للعديد من السور، وبعضها الآخر ستجد قربنا من فهم محورها، وبعضها يحتاج لِهِمَّتِكَ حتى تصوّب ما شرد عنّي...

هنا السورة سمّاها المسلمون بالأنفال، لأنَّ أسماء السور لم يحدّدها تعالى، ولا نبيّه(ع)، بل اشترك النبي (ع) مع الناس في إطلاق تسميات عديدة على السورة الواحدة، والمهمّ من التسمية هو معرفة أي سورة تقصد أثناء كلامك مع الآخرين، حيثُ تذكر للآخرين أول آية فيها أو تذكر كلمة مميزة فيها... ومع مرور الزمن صارت تستقر أسماء محدّدة للسور، ولا تزال تجد في مختلف كتب التفاسير نقلهم لأسماء عديدة للسور، ولا يزال في المساجد نسخ قديمة للقرآن تجد فيها أسماء السور مختلفة عمّا هو دارج الآن، كسورة محمد(ع) التي كانوا يسمّونها القتال، وسورة الإسراء كانوا يسمّونها بني إسرائيل...

سورتنا هذه سمّوها بالأنفال، ولكن موضوعها الأساسي ليس عن الأنفال، لأنَّ سورتنا هنا مثل كلّ القرآن: كلام إلهي من النظرة الإلهية. لو كان السؤال موجّها للنبي محمّد(ع) أو لك، عمّا حازه المقاتلون من العدو، لقمت بالردّ على طريقة كتب التشريعات القانونية: تعريف الأنفال والغنائم والفيء، مِمَّا يتفرّع، وما يتفرّع منه وأنواعه، وتقسيماته... أمّا الجواب منه عزّ وجلّ فمختلف، لأنه من نظرة إلهية من مستوى إلهي، وليس من نظرة النبي محمّد(ع) ولا من نظرتي ونظرتك البشرية.

سترى أن السورة أقل ما تحدّثت عنه هو الأنفال، وستراها تسحبك إلى ما قبل ذلك، إلى أمور أهميتها أشدّ بكثير من الأنفال.

ستعيدك السورة إلى وصف الإيمان وأهميته وفرقه عن كفر العدو، وستأخذك إلى النصر الإلهي للمؤمنين على العدو الكافر، وإلى سبب أمره تعالى للمؤمنين بقتال العدو... وأمّا الأنفال فليست هدفا.

بعد انتهاء المعركة والصيرورة في حالة النصر، ينسى الناس عادة ما أوصلهم إلى هنا، ويركّزون اهتمامهم على أمور مادية هي الآن بين أيديهم ومحور اهتمامهم... من مال وسلاح وعتاد ومؤنة وحصان وجمل... وعمامة وخاتم وثياب وحذاء... بل ومستعدون للشجار فيما بينهم مختلفين في تقسيم ما حصلوا عليه من العدو، بل ومستعدون للقتال فيما بينهم على ذلك! فهل لأجل الحصول على الغنائم قاتلوا الكفّار؟

سترى في سورتنا هذه النظرة الإلهية الشاملة البعيدة العميقة والتي لم تهمل أي تفصيل مهمّ، وترفّعت بمستواها الإلهي عن تفاصيل تقسيم الغنائم، وتركت التقسيم بشكل عادل لما يراه عقلاء المؤمنين وعلى رأسهم الرسول(ع) مع مشورته لمن حوله...

مثلاً: من شارك في الحرب برمي الحجارة من بعيد لأنه لا يملك سيفا، فهذا لم يكن في الخطر مثل الذي شارك في القتال بالسيف، ومن شارك ومعه حصان، وكان بإمكانه التنقّل بسرعة لتغطية بقع مختلفة من أرض المعركة... والدخول في قلب المعركة وساحة العدو... لأنَّ الحصان مكلف في علفه وتمريضه وحدواته وسرجه... وهناك المؤمن الذي سلب العدو أملاكه فله أولوية التعويض عليه من الأنفال... وهناك من شارك بفاعلية وحماسة وقتل عددا أكبر من الأعداء... وهذه التفاصيل هي السبب في السؤال العقلاني عن كيفية التقسيم العادل للغنائم، حتى يحصل البعض على حصص أكبر من حصص الآخرين بسبب اختلاف فعاليتهم في تحقيق النصر واختلاف ظروفهم... وبعد انتهاء المعركة والنصر صارت هذه التفاصيل هي الأهم بنظر بعض المقاتلين، ونسوا ما كانوا فيه من قبل، من الفرق بين الإيمان والكفر، وأساس سبب النزاع، وأن النصر عمليا ليس ترجمته الحصول على الغنائم بل انتصار للخطّ الإيماني...

هكذا تسحبك السورة إلى الصورة الكبيرة من المنظور الإلهي، لتكون مؤمنا حقيقيا، وأمّا كيفية تقسيم الغنائم والأنفال والفيء... فموضوع ثانوي جدا جدا. ضع هذا في بالك دائما لترى مختلف السور تأخذك إلى عمق من نظرته تعالى للأمور مختلف عمّا تراه أنت مهمّا...

على ما يبدو من التاريخ أنه بعد انتهاء أول أكبر معركة في تاريخ المسلمين الأوائل "معركة بدر" طُرِحَ سؤال عن تقسيم الغنائم، فجاءت سورتنا هنا لتجيب عن السؤال ولتنبهنا لما هو أهم من ذلك بكثير...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{1})
{يَسْأَلُونَكَ}، يعبّرون لك أيها النبي(ع) عن إرادتهم للحصول على معلومة منك، {عَنِ الأَنفَالِ}، عن الأشياء الزائدة، وسياق ما سيأتي من الكلام يشير للأشياء التي صارت بحوزتهم مما خلّفه العدو في ساحة المعركة، حيثُ يصفها تعالى بالأنفال، بالحصول على شيء زائد، وهذا الوصف سترى له معنى عميق فيما سيأتي من كلام السورة الذي يسحب المؤمنين إلى أبعد مما يحوزونه مما له قيمة مالية من بعد الانتصار على العدو، وَيَرُدُّهُمْ إلى سبب حصول القتال والفرق بين المؤمنين والعدو...

بِسَبَبِ تشرّب ثقافتنا بالمصطلحات التي استقرَّتْ كمصطلحات من كثرة استعمالها في خصوص وصف شيء ما، هُنَا يذهب فكرنا من كلمة أنفال لمصطلح ما يحصل عليه المقاتلون من العدو، علماً أَنَّ الآية استعملت الكلمة على أصل معناها اللغوي عن قصد لوصف ما يبقى مما يتركه العدو في المعركة بالأنفال، بالأشياء الزائدة، حتى لا يكون اهتمام المؤمنين بها من أصل أسباب حصول القتال مع عدوّهم.

مِنْ بعد نزول الآية كَثُرَ بين المسلمين استعمال هذه الكلمة في وصف ما حازوه من العدو من بعد القتال، وَصَارَتْ مصطلحاً. فيما لديّ من مصادر لأشعار العرب قبل الإسلام، وَهُوَ لا يشير إلى استعمال لهذه الكلمة بالمعنى الضيّق لخصوص ما يتركه العدو، بل يشير للعمومية، وهذا شيءٌ تراه في استعمال القرآن لهذه الكلمة في الآية 79 من سورة الإسراء {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ} وفي الآية 72 من سورة الأنبياء {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً}.

مِنَ المشهور تاريخيّاً أَنَّ أول معركة كبيرة حصلت مع المسلمين هي معركة بدر الكبرى، حيثُ سَبَقَتْهَا غارات ومعارك جانبية، ولكن "بدر الكبرى" كانت فعلياً حرباً "على مقياس زمانهم وجغرافيتهم" حيث تواجه فيها جيشان "صغيران"، ولكن نتيجة المواجهة كان لها أثر عميق في تغيير وجه المنطقة العربية وما يحيط بها... ويمكننا الاستنتاج أَنَّ هذا السؤال هنا عمّا تركه العدو من سلاح وعتاد ومؤنة وأحصنة و... حَصَلَ بعد انتهاء المعركة التي انتصر فيها المسلمون، وَجَاءَ الردّ منه تعالى أولا بوصفها بالأنفال.

هذا الكلام يبعدك عن تفاصيل شائكة وليست صحيحة لتحديد المعنى الاصطلاحي لكلمة أنفال وغنيمة وفيء، حيثُ استعملَ القرآن هذه الكلمات بمعناها اللغوي الوصفي، فالغنيمة عموم أي شيء تحصل عليه، من العدو أو غيره، والفيء عموم ما كان تحت شيء، وبالنسبة لاستعمالها في النشاط العسكري فهي عموم ما صار تحت سيطرة المسلمين من أَرَاضٍ وقرى وَمَوَاشٍ وأموال... بسبب انهزام أو استسلام عدوهم.

{قُلِ}، أيها النبي محمّد(ع) لهم عبر هذا القرآن، {الأَنفَالُ}، والكلام هنا عمّا حصلتم عليه زيادة من العدو من بعد هزيمته، {لِلّهِ وَالرَّسُولِ}، فأمرها ليس لكم، بل لله تعالى ولرسوله(ع). وعمليّاً وَمَا يأتي من أمر منه تعالى بتقسيمها فَهُوَ لاغٍ لأي رأي لكم بتقسيمها، والرسول(ع) كقائد له وجهة نظر عقلانية في تقسيمها من موقعه كقائد وملتزم بالعناوين التي حدّدها تعالى، فتقسيم الرسول لها يجب عليكم القبول به.

مَا سيأتي في الآية 41 من هذه السورة سيحدّد ما يجب على الغانم إنفاقه مما غنمه، وهو الخمس، ولن تجد في السورة ولا في بقية القرآن أي تقسيم بالحصص للأنفال "للغنيمة" على الغانمين، فكلام الآية هنا يشير لسحب تحكّم المقاتلين بتقسيم الغنيمة على بعضهم البعض، وَيَجْعَلُهُ عنده تعالى، وهذا لا يعني أَنَّهُ تعالى سيحدّد الحصص، فهذه تفاصيل تختلف باختلاف الظروف، ولكن تجعل التقسيم على المعايير الإلهية ولا تترك التقسيم ليتحكّم به الأقوى والأكثر سيطرة والوقح والعنيف... وعمليّاً، مَتْرُوكٌ التقسيم لمن سيلتزم بالمعايير الإلهِيَّةِ، فهو متروك للرسول بما له من موقع قيادي لِيَكُونَ نموذجاً، وَأَيُّ قائد آخر في المستقبل ستنتقل له هذه الصلاحية.

بعبارة أصرح، السورةُ لم تدخل في تحديد معايير اختلاف حصص المقاتلين من الغنيمة بسبب اختلاف فعاليتهم في المعركة، وبسبب اختلاف التكاليف التي تكبدها كل واحد منهم في المعركة... وَتَرَكَتْ ذلك لتقييم الرسول(ع)، ومن بعدها مَا أخذه الغانم فيجب عليه دفع الخمس منه...

مِنْ عموم القرآن نفهم أَنَّ كلامه عن الرسول محمّد(ع) كونه قائداً، يجعل الكلام معه أو عنه كنموذج، فأي قائد يأتي بعده فله نفس الصلاحيات بالشؤون المتعلقة بالقيادة، فالكلام هنا ليس عن حصّة لله تعالى وللرسول(ع) كَمُنَاصَفَةٍ لتقسيم الأنفال، بل عن صاحب القرار فيها في توزيعها على المقاتلين، فلله تعالى عملياً أي على معاييره تعالى، وللرسول أي على ما يراه الرسول مناسباً.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ}، تَجَنَّبُوا غضبه وعقابه سبحانه، فإذا كنتم تشعرون بِأَنَّ الأنفال لكم، وتريدون توزيعها على مزاجكم، فأنتم ستتعرضون لغضب وعقاب ربكم سبحانه.

{وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ}، لِيَكُنْ بينكم وِفَاقٌ، توافق على الأمور وَلا يَكُنْ بينكم تعارك وتخالف على تقسيم الأنفال، وعمليّاً لِيُقَدِّمْ كل واحد منكم وجهة نظره في التقسيم العادل للغنائم بالنظر لأمور لها علاقة بالمعركة، وسيأخذ الرسول(ع)

وجهة نظركم بعين الاعتبار، ولكنه ليس مُلْزَماً بها لِأَنَّهُ كقائدٍ ذِي نَظْرَةٍ شَامِلَةٍ سيكون له وجهة نظر أعمق وأوسع من وجهة نظركم، وكمثالٍ، وُجُودُ أحصنة ضروري في المعارك "في ذلك الزمان"، وصاحب الحصان يتكلّف على حصانه، لِذَلِكَ يأخذ حصّة مثل بقية المقاتلين وحصة أخرى لتغطية نفقات حصانه... وكمثال عن بعد النظر فهناك مُهَاجِرُونَ صاروا فقراء معدمين بسبب استيلاء العدو على أملاكهم، فهؤلاء حتى لو لسبب أو لآخر لم يشاركوا في القتال، أو لم تكن مشاركتهم فعّالة، ولكن لهم ظرفهم الخاص الذي يستدعي تحديد حصّة مميزة لهم...

حتى تفهم هذا الكلام فاستحضر في ذهنك وجود أناس طمّاعين ومتسلّطين يحاولون الاستفادة والسيطرة على أقصى ما يمكنهم حتى لو لم يكن من حقّهم...ويوجد أناس قاتلوا بجهد أكثر من غيرهم، وَرُبَّمَا يطالبون بحصّة أكبر من الأنفال... فانتبهوا أيها المسلمون وأصلحوا بينكم وَلا يَكُنْ بينكم هذا النوع من الخلاف، وَاتَّفِقُوا على المعايير، وَقَدِّمُوهَا كاقتراحات للقائد...

{وَأَطِيعُوا اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}، فإن كنتم حَقّاً معتقدين بدينه تعالى وبرسوله (ع) فكونوا مطيعين تسمعون الكلام وتلتزمون به، لِأَنَّهُ سبحانه يأمركم بالعدل والإنصاف، والرسول(ع) بناء على ما اعتبرتموه مُنَاسِباً للتقسيم، عبر إصلاح ذات بينكم، سَيُقَسِّمُهَا مُلْتَزِماً بالعناوين المتماشية مع كلامه تعالى، فيجب عليكم أن تلتزموا بما قاله(ع).

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{2})
{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ}، الموصوفون حَقّاً بِأَنَّهُمْ يعتقدون بدينه تعالى فهم فقط، {الَّذِينَ}، {إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}، فإذا سمعوا بالاسم المحدّد المميز الله عندها شعروا في أساس تفكيرهم ونفسيتهم بما يوجب الخوف منه تعالى، فإذا سمعوا كَلَاماً فيه شيء عن ربنا سبحانه فسيحصل لديهم شعور بالوجل، شعور بِأَنَّهُ تعالى يستحق أن نخاف منه، طَبْعاً إن خالفنا كلامه، ولذلك فهم يطيعونه تعالى ويطيعون رسوله (ع).

الآيَةُ هنا تتكلّم عنهم من بعدما حدّدت المسؤول عن توزيع الأنفال، وَتَتَكَلَّمُ معهم لتصفهم بالوجل حتى تشجعهم عليه وتريهم أنه الشعور الصحيح، وتطبيق هذا المعنى هنا أنه ليس عندهم مشكلة في سحب ملكية الأنفال منهم لحصرها بما يأمر به تعالى ورسوله(ع)، وإذا خطر ببالهم اعتراض لأنهم يريدون حصّة أكبر لأنفسهم أو لمن يرونه مُسْتَحِقّاً فبسبب الوجل منه تعالى فهم يقدمون وجهة نظرهم في المسألة وفي نفس الوقت لا يتخطّون كلامه تعالى ولا كلام رسوله(ع).

{وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ}، فقرأ أحد ما على المؤمنين عن مستند، {آيَاتُهُ}، الأمور المميزة بمستواها الإلهي والمنسوبة له تعالى، والمقصود هنا أنهم إذا سمعوا كَلَاماً وكان سنده القرآن، حَيْثُ كَانَ مَنْقُولاً من القرآن، {زَادَتْهُمْ إِيمَاناً}، ففوق ما هم مُؤْمِنُونَ فالآيات تعمّق إيمانهم أكثر، وَتُبَيِّنُ لهم الطريق بشكل أوضح، بعكس الذين لا تعجبهم بعض الآيات فيتزلزل إيمانهم، ويتراجع.

هُنَا الكلام عن الأنفال كمثال، فمن لم يعجبه ما تقوله السورة من سحب ملكية الأنفال منه أو من سحب رأيه في تقسيمها، فهذا سينقص إيمانه ويشكّك بالدين الإلهي لأنه كان يطمع بالحصول على أشياء من النفل أكثر من غيره، وسيشعر بأن الدين حرمه منها، أمّا المؤمن الحقيقي فيرى أن كلامه تعالى عن الأنفال بسحب ملكيتها من المقاتلين صحيح... وفي تكملة السورة سنرى نقلا للنظرة الإلهية لما جرى قبل وبعد المعركة التي نتج عنها أنفال، وعندما يقرأها المؤمن الحقيقي سَيَفْهَمُ فِعْلاً ما هو المهمّ، وسيفهم أن الأنفال شيء ثانوي...

الْمُؤْمِنُونَ الحقيقيون، {عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}، فيعتقدون أن المسؤول عنهم من مستوى إلهي يدير أمورهم لتسير كما يجب، والكلام عن توكّلهم عمومي وهنا سِيَاقُ الكلام عن سحب ملكية الأنفال منهم، فهم يرون هذا القرار فيه مصلحتهم لتيسير أمورهم.

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{3})
نكمل مع عرض السورة لمواصفات المؤمنين لمدحهم وتشجيعهم على الالتزام بكلامه تعالى:

{الَّذِينَ يُقِيمُونَ}، يُفَعِّلُونَ لا يتركون ولا يهملون، {الصَّلَاةَ}، التوجّه والإقبال، حَيْثُ يَقُومُونَ بالتوجّه بذكر الله تعالى، وَلا يَنْسَوْنَهَا ولا يتغافلون عنها، ولا يتوجهون لغيره تعالى... والصلاة منذ القدم صارت مُصْطَلَحاً دِينِيّاً يشير إلى كلام

وحركات محدّدة نقوم بها خمس مرات يَوْمِيّاً في أوقات متفرقة... وهي المعروفة بالصلوات الخمس الواجبة، عِلْماً أَنَّهَا ككلمة وَحْدَهَا تشير لعموم التوجّه والإقبال مهما كان نوعه.

{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ}، ومن الأشياء التي صارت معهم منه تعالى ليسدّوا بها احتياجاتهم ورغباتهم، مما يؤكل أو من الأشياء... أو من المال الذي نشتري به ما نحتاجه ... {يُنفِقُونَ}، يصرفون منها، والكلام طَبْعاً عن صرفها على المحتاجين وفي سبيل الله تعالى.

الصَّلَاةُ هي أساس إعلان الطاعة لله تعالى، وبعكس المتعلقين بالمال الذين يريدون حصة كبيرة من الأنفال، الْمُؤْمِنُونَ من مالهم الخاص الذي تعبوا في تحصيله ينفقون منه على المحتاجين وعموم ما يحتاجه المسلمون.

كما ترى، فِي مقابل طرح موضوع الأنفال الذي يبدو في غاية الأهمية، سَحَبَتْكَ السورة إلى أصل الإيمان، إلى الذي يصلّي وَيَتَوَجَّهُ لربّه سبحانه وينفق من ماله، وَالْكَلَامُ عن الغنائم والمؤمن الحقيقي حتى من ماله الخاص ينفق، وَلَنْ تكون مسألة الغنائم إلا أَنْفَالاً بالنسبة له... ومن هنا وما يلي في السورة سترى النظرة الإلهية للموضوع كلّه...

(أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ{4})
{أُولَئِكَ}، الذين بتلك الصفات، حَيْثُ يُصِيبُهُمُ الوجل من ذكره تعالى، ويزيد إيمانهم عند سماعهم لكلامه تعالى وعليه يتوكلون، ويقيمون الصلاة وينفقون، {هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا}، لِأَنَّهُمْ فِعْلاً ينطبق عليهم وصف المعتقدين بدينه تعالى، وَلَيْسَ ظَاهِرُهُمُ الإيمان وَمِنْ دَاخِلِهِمْ نِفَاقٌ.

{لَهُمْ دَرَجَاتٌ}، لهم مرتبات حَيْثُ بَعْضُهُمْ فوق بعض، {عِندَ رَبِّهِمْ}، فَكُلُّ واحد منهم بحسب شدّة إيمانه وطاعته وصلاته... سيكون له درجة أعلى من الآخرين بالقرب من المسؤول عنهم من مستوى إلهي، وإن كانت الآية تشير لأهمية القرب منه تعالى مَعْنَوِيّاً، فَعَمَلِيّاً هناك عناية إلهية خاصة بالمؤمنين بحسب درجاتهم، وفي الآخرة يدخل المؤمنون بحسب درجة إيمانهم إلى درجة مناسبة لهم في الجنّة كترجمة عملية لدرجة القرب منه تعالى. بعبارة أصرح، الْقُرْبُ هنا ليس بالاقتراب منه تعالى بالمسافة لكل واحد منهم بحسب درجته، بل القرب بمقدار ما سينال من عناية إلهية.

ولهم، {مَغْفِرَةٌ}، تَجَاوُزٌ عن سيئاتهم، كمسامحة على ذنوبهم.

ولهم، {رِزْقٌ}، أشياء يحصلون عليها ليسدّوا بها حاجاتهم ورغباتهم، {كَرِيمٌ}، موصوف بأن له قيمة وليس مُهِيناً، وَهِيَ أشياء لها قيمة محترمة وهم يشعرون بأنهم محترمون، سواء من المعاملة أو من نوعية الرزق الممتازة.

ضع في بالك دَائِماً أَنَّ القرآن لم يستعمل كلمة كريم على معنى الإكثار من العطاء أو العطاء من نوعية عالية، لِأَنَّ هَذَا أَحْيَاناً من تبعات معنى الكلمة، إِذْ إِنَّهَا أَصْلاً تعني: قيمته تقديره مكانته عالية. وعكسها المذموم المهان... وعندما استعملها القرآن كوصف لما سيحصل عليه المؤمنون في الجنّة كَانَ يُشِيرُ للاحترام وللقيمة العالية، فَلْنُبَالِغْ في التصوّر وَلْنَقُلْ إِنِّي أعطيتك مليون دينار، ولكن رميتها أمامك على الأرض، وَهَذَا ليس رزقا كَرِيماً بل إهانة، أمّا أهل الجنّة فَيَشْعُرُونَ بالاحترام والمكانة العالية... بالكرامة.

بِالنِّسْبَةِ لكلمة آمن، لَمْ أَجِدْ في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإِسْلَامِ أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، حَيْثُ إِنَّ آمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كِلْتَاهُمَا تَعْنِيَانِ عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ{5})
من هنا ستدخل السورة في الكلام عن حالة بعض المؤمنين الذين شاركوا في القتال وستريك حالتهم ما قبل صَيْرُورَةِ الأنفال بين أيديهم لتذكّرهم بأي حال كانوا، لنرى أن هذه الأنفال لم تكن الهدف، وأنهم من قبلها أصلا لم يكونوا متأكدين

من النصر، ولولا الدعم الإلهي لما حصل النصر... وبالتالي الأَنْفَالُ ليست شيئا لهم مَسْلُوباً منهم بإعلان قرار تقسيمها لله تعالى ولرسوله(ع).

{كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ}، مثلما أمرك المسؤول عنك من مستوى إلهي أن تخرج من بيتك، ومن الآية التالية سترى أنه أمر إلهي بالخروج لقتال العدو، {بِالْحَقِّ}، بالصواب، لِأَنَّهُ كَانَ صَوَاباً خروجك للقتال، حَيْثُ خَرَجْتَ ضد معتدين معادين محاربين... {وَإِنَّ فَرِيقاً}، قِسْماً، {مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ}، من الذين أعلنوا أنهم معتقدون بالدين، {لَكَارِهُونَ}، حَيْثُ خَرَجُوا معك غَصْباً عنهم وَكَانُوا لا يحبون الخروج للقتال بالرغم من أنه أمر إلهي.

أَسَاسُ الخروج إلى القتال كان بأمر إلهي وكان قسم منكم كَارِهاً للخروج، وَهَذَا الفريق الذي كان كَارِهاً للخروج كيف يطالب الآن بأن يكون له حصّة من الأنفال! وَالآنَ بعد انتهاء المعركة نسي أنه كان مُعَارِضاً، لِأَنَّهُ لَوْ مشى البقية على رأيه لما حصلت المعركة ولما غنموا من العدو.

في الآية بعد التالية سأذكر لك مُخْتَصَراً تَارِيخِيّاً عمّا جرى، ومن ذلك ومن بقية السورة سترى أن المسلمين كانوا أمام خيارين: إمّا اللحاق بالقافلة التجارية القادمة من الشام وإمّا مواجهة القوّة العسكرية القادمة من مكّة... وأن عامّة المسلمين كانوا موافقين للخروج لمهاجمة القافلة ولكن حين طُرِحَ خيار مواجهة القوّة العسكرية، حصلت بلبلة...

(يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ{6})
{يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ}، يتحدثون معك في موضوع الخروج لمواجهة القوة العسكرية بدل مواجهة القافلة التجارية، مع أن مواجهة القوّة العسكرية للكفّار هِيَ الصواب، حَيْثُ يَتَحَدَّثُونَ معك في هذا الموضوع وهم لا يريدون تغيير ما في قناعتهم، {بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ}، بعدما صار واضحا الحقّ وأنهم يجب عليهم مقاتلة القوة العسكرية وترك القافلة التجارية.

بعبارة أبسط، عِنْدَمَا أمر الرسول(ع) بترك القافلة التجارية وانتظار القوة العسكرية، أخذ بعض المؤمنين يجادل النبي(ع)، ويقولون له إِنَّهُمْ سيتضررون من القتال، لِأَنَّ كُفَّارَ قريش أقوياء وأكثر منّا عددا وأفضل تسليحا... وسنخسر الحرب... والهجوم على قافلتهم التجارية أفضل... وَبَيَّنَ لهم النبي(ع) حَيْثُ وَضَّحَ لهم الأسباب التي أوجبت عليهم مواجهة القوّة العسكرية، ورغم ذلك بقي البعض منهم يجادل! لِأَنَّ هَؤُلاءِ أصلا لا يريدون مواجهة القوّة العسكرية للكفّار مهما قلت لهم فَالأَمْرُ محسوم عندهم وَهَمُّهُمُ المال، ولم يروا أبعد من أُنُوفِهِمْ، فَمَا النَّفْعُ من سلب القافلة التجارية إن كانت القوّة العسكرية الكبيرة للعدو قادمة؟ وَبَعْدَ سلب القافلة هل سترجع تلك القوّة أم سيكون لديهم سبب لقتال مميت لاسترداد أموالهم؟... شَرَحَ لهم النبي(ع) ذلك ولكنهم مصرّون على تجنّب الحرب...

{كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ}، حَيْثُ يَتِمُّ تسييرهم بغير إرادتهم، {إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ}! وهم يوجّهون اهتمامهم العام إلى حيث سيفقدون حياتهم، وَيُجَادِلُونَ في الخروج إلى القتال عن قناعة مثل قناعة الذي تأخذه حتما ليموت، بعبارة دَارِجَةٍ: هم متأكدون أنها روحة بلا رجعة.

في الآية التالية سأذكر لك مُخْتَصَراً تَارِيخِيّاً عمّا جرى حينها...

(وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ{7})
{وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ}، يَقُولُ لكم سبحانه عن شيء سيحقّقه لكم، {إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ}، إحدى المجموعتين التابعتين للكفّار، {أَنَّهَا لَكُمْ}، حَيْثُ هُنَاكَ طائفتان محتملتان لتقاتلوهما، {وَتَوَدُّونَ}، وترغبون بمحبّة، لو {أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ}، لو أن الطائفة التي بلا شوك يعني الطائفة التي ليست قادرة على أذيتكم، لِأَنَّ الشَّوْكَةَ هي عامّة ما ينخزك ويجرحك، سواء الْمَوْجُودَةُ على الورد والشجر وتسبب لنا الجراح إذا لامسناها، أو أطراف الأسلحة التي تسبب الجراح العميقة المسببة للموت، وهنا المقصود القافلة التي ليس لها قوّة قتالية، وهي القافلة التجارية، تودون لو، {تَكُونُ لَكُمْ}.

هُنَاكَ مجموعتان من الكفار لِتُقَاتِلُوهُمَا، واحدة لها قوّة عسكرية، والأخرى ليس فيها قوّة عسكرية، وأنتم ترغبون بمواجهة الطائفة الضعيفة.

من المشهور في التاريخ، أنه بعد مهاجرة المسلمين من مكّة إلى مدينة يثرب، اسْتَوْلَى كفّار قريش على أملاك المسلمين في مكة، وأشاعوا بين عموم العرب عداوة للمسلمين وحريّة الهجوم عليهم وعلى مصالحهم... وَضَاقَتِ الأرض على المسلمين وصاروا شبه محصورين في المدينة ولا يبتعدون عنها حتى لرعي مواشيهم أو للزراعة... لِذَلِكَ قَرَّرَ المسلمون أخذ حقّهم من كفّار قريش بالهجوم على قافلة تجارية تابعة لكفّار قريش... وَاخْتَارَ المسلمون قافلة قادمة من الشام وستمرّ من ناحية قريبة نِسْبِيّاً من مدينة يثرب، وعلم الكفّار بهذا التخطيط، وَانْطَلَقَتْ من مكّة فرقة قتالية لحماية القافلة التجارية وفي نفس الوقت سار أبو سفيان الذي كان على رأس القافلة التجارية التابعة للكفّار في خط سير بعيد عن المسلمين... وكما ترى، فَكَّرَ المسلمون أنهم سيهجمون على القافلة التجارية ويأخذونها بسهولة لأن القوة العسكرية المرافقة للقافلة ستكون ضعيفة أمامهم، حَيْثُ لا شوكة لها أمامهم، ولكن مجريات الأحداث تغيّرت... وصار من الأفضل لهم لمستقبل إيمانهم أن يتواجهوا مع القوة العسكرية القادمة من مكة لكسر القوّة العسكرية للكفّار، ولأن واقع الحال يفرض عليهم ذلك لأن القوّة العسكرية القادمة لن ترجع بعد سلب القافلة بل ستقاتل بضراوة لاسترداد الأموال...

حَسَناً، كُنْتُمْ تحبون الهجوم على القافلة التي لا شوكة لها، وأن تأخذوا البضائع، لِأَنَّ هَذِهِ رغبتكم، ولكن:

{وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ}، حَيْثُ يُرِيدُ سبحانه أن يجعل الصواب مُتَحَقِّقاً بِكَلِمَاتِهِ من عقيدة وشريعة وسلوكيات، وَيُرِيدُ تعالى أن يجعل الصواب مُتَحَقِّقاً مُنْتَشِراً، فما النفع من مهاجمة القافلة التجارية غير الاستفادة المالية المؤقتة... بل يريد تعالى ضرب القوّة العسكرية للكفّار حتى لا يتعرّضوا للمؤمنين بالأذى فيما بعد.

ويريد تعالى أن، {يَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ}، أن لا يترك صلة بين المنكرين للدين وبين من سيأتي منهم من بعدهم حين يُدْبِرُونَ، حين يَذْهَبُونَ، حَيْثُ يُرِيدُ سبحانه إنهاء الكفر لينتشر الحقّ قَوِيّاً بشكل يقطع استمرارية الكفر.

اَلْبَعْضُ منكم كان يريد مواجهة القافلة التجارية لأن قوتها العسكرية ضعيفة، وستحصلون على البضائع، ولكنه تعالى يريدكم أن تواجهوا الفرقة العسكرية لأنه تعالى يريد إنهاء دين الكفر.

ننتبه، لِأَنَّ الإرادة الإلهية هي إِنْهَاءُ الكفر، ولم يكن المخطط قتل كل الكفّار في تلك المعركة، حَيْثُ أَصْلاً لم يجتمع كل الكفار في العالم في تلك المعركة، بل عدد قليل منهم، لِذَلِكَ هَذِهِ المعركة هي تنفيذ المؤمنين للإرادة الإلهية بإنهاء الكفر عبر ضرب القوّة العسكرية للكفّار، وهذا أهم من الحصول على الغنائم.

وحتى من النظرة البعيدة المدى، فما الفائدة من الغنائم من القافلة التجارية إن لم يضمنوا التمتّع بها؟ لِأَنَّهُ لَنْ يسكت كفّار قريش على ذلك، وسيهجمون بقوّتهم العسكرية وبشراسة على المسلمين، وَفَوْراً لِأَنَّهُمْ أَصْلاً متجهزون لذلك بل وانطلقوا من مكّة بجيش من قرابة الألف مقاتل لحماية القافلة... وفي كلامه تعالى هنا ترى تَقَاطُعاً بين مصلحة المؤمنين على المدى البعيد وبين استحكام قوة الحقّ بَدَلاً من اللهث خلف استفادة مادية مؤقتة لن تدوم إذا لم تحصّنها قوّة الغلبة على الأعداء...

(لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ{8})
سبب اختياره تعالى لكم لمواجهة القوّة العسكرية للكافرين بَدَلاً من مواجهة القافلة التجارية:

{لِيُحِقَّ الْحَقَّ}، حتى يصير الصواب مُتَحَقِّقاً كدين منتشر بين الناس، {وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ}، لِيُفْسِدَ وَيُخَرِّبَ ما هو عاطل فاسد، وهو دين الكفر.

{وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}، حتى لو لم تكن هذه رغبة مرتكبي الأعمال التي يستحقون العقاب عليها، فإن الحقّ سينتشر غَصْباً عنهم.

ننتبه جَيِّداً، لِأَنَّ كَلامَ القرآن دَائِماً يشير للعمق الذي تقوله الآية هنا، وَالْمُشْكِلَةُ ليست بين جماعتين بينهما خلاف ولكن لا اختلاف بينهما، لا، بَلْ هُنَاكَ جماعة تريد تحقيق الحقّ، بالإيمان بما هو صحيح وبفعل الصالحات، والجماعة الأخرى مجرمة فاسدة ظالمة معتدية...

دَائِماً دَائِماً تقرأ كَلاماً في مختلف السور وفيه المعنى الذي تطرحه الآية هنا، حَيْثُ إِنَّهُ سبحانه وتعالى لا يتعامل مع المنتمين لدينه على أنهم جماعته ضد الجماعات الأخرى، لا، بل المسألة مسألة الحقّ والباطل، الخير والشرّ، الصلاح

والفساد... فَجَمَاعَتُهُ تعالى مؤمنون صالحون، والآخرون فاسدون. وإن كان المنتمون لدينه تعالى مُنْتَمِينَ بِالاسْمِ فقط بلا تطبيق لدينه تعالى، فبحسب نسبة تطبيقهم لكلامه تعالى يكون الفرق عنده تعالى بينهم وبين الآخرين الكافرين، وُصُولاً إلى مستوى تساوي المنتمين لدينه تعالى مع الكافرين، حَيْثُ يُصِيبُهُمْ تعالى بعذابه تَمَاماً مثل الكافرين، وهذا ما أراكه القرآن بكلامه عمّن سبقنا من فساد بعض المنتمين لدينه تعالى من أهل الكتاب...

لا تَحْتَاجُ لتفكير عميق في هذا لتنتبه للفرق الهائل بين فهمنا للمسألة وبين نظرته تعالى لها، فإن كنّا "براجماتيين" عمليين في تعاملنا مع الأمور ويهمّنا فقط النتيجة وهي سيطرتنا على الآخرين، فلا فرق بيننا وبين الآخرين، ولذلك ترى القرآن يستعمل كلمات "الحقّ، الصلاح، الفساد..." ليوصّف الفرق بين جماعة المنتمين لدينه تعالى وبين الجماعات الأخرى، وكثيرا ما تضيع بوصلة المسلمين عن هذه النظرة، وَيَصِيرُونَ بلا فرق بينهم وبين أعدائهم، وَيَنْغَمِسُونَ في الأمور متجاهلين أنهم محكومون بقرآنه تعالى، بل الأنكى من ذلك أَنْ يَصِيرَ لديهم تفسير لكلامه تعالى يَتَمَاشَى مع أهوائهم، وَيَصِيرَ لديهم فتاوى شرعية على قياس إجرامهم! كتحليل بعضهم لقتل الآخرين المسالمين لمجرد أنهم يختلفون عنهم في الدين أو المذهب أو الطائفة... متعامين عن قصد عن كل كلامه القرآني تعالى الآمِرِ فقط وفقط بقتال المعادين المقاتلين، والآمر بالبرّ والقسط للمسالمين حتى لو كانوا كفّارا كما هو واضح جِدّاً جِدّاً من كل القرآن وكمثال عنه ما ورد في الآية 8 من سورة الممتحنة {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ{9})
نَتَذَكَّرُ أن السورة افتتحت الحديث عن الأنفال وأن ملكيتها لله تعالى وللرسول(ع)، ثم بدأت تتحدث عما قبل حصول المسلمين على الأنفال، وأن البعض منهم كان كَارِهاً للخروج للقتال أَصْلاً، وعندما خرج كان يريد أن يكون الهجوم على قافلة تجارية معها حراسة خفيفة، ولا يريد مواجهة قوة الكفّار العسكرية القادمة من مكّة... وهنا تتحدث الآيات عندما حُسِمَ الأمر وصاروا في مواجهة حتمية مع قوة عسكرية تفوقهم عددا بثلاث مَرَّاتٍ، فَعَدَدُ المسلمين كان قرابة الثَّلَاثِمِئَةِ، وعدد الكفار قرابة الألف كما هو مشهور في التاريخ.

{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ}، حَيْثُ تَطْلُبُونَ المساعدة للوضع الحرج من المسؤول عنكم من مستوى إلهي لأنكم تعلمون أن عدد المقاتلين الكفّار أكثر من عددكم بثلاث مرات.

ننتبه جَيِّداً، لِأَنَّهُ لَوْ هاجم المسلمون القافلة التجارية، فَإِنَّ هَذِهِ الفرقة العسكرية التي يستغيثونه تعالى "الآن" منها كَانَتْ ستهاجمهم فَوْراً، بل وبشراسة بدافع استرداد أموالهم المسلوبة... وأصحاب رأي مهاجمة القافلة التجارية لم يضعوا ذلك في الحسبان، أو استهتروا به وَلَمْ يُفَكِّرُوا به وركّزوا اهتمامهم على سلب أموال القافلة التجارية والهرب بها إلى المدينة، وهم لا يرون عواقب الأمور لما هو أبعد من ذلك... وَالآنَ بعد حسم الأمر بمواجهة الفرقة العسكرية، صاروا يطلبون الغوث منه تعالى!

{فَاسْتَجَابَ لَكُمْ}، حَيْثُ رَدَّ سبحانه على استغاثتكم، وأخبركم عبر النبي(ع) بتحقيق ما يلي:

{أَنِّي مُمِدُّكُم}، سأعينكم سأدعمكم، {بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ}، متتابعين، حَيْثُ يَنْزِلُ ملاك ثم ينزل بعده ملاك...

نَتَذَكَّرُ أن عدد جيش الكفار كان تقديره أَلْفاً، لِذَلِكَ جَاءَ الوعد الإلهي بنصرة المؤمنين بتنزيل ألف ملاك على تتابع ليكونوا أَلْفاً في مواجهة ألف. ومعلوم لدى المسلمين أن الملائكة كانت ذات قدرات أعلى بكثير من قدرات البشر...

تَارِيخِيّاً، مِنَ المشهور أن جيش المسلمين وَصَلَ إلى منطقة آبار بدر، ووصل جيش الكفار إلى منطقة قريبة جدا منهم، ولكنهما لم يتقاتلا فَوْراً، بل استراح الجيشان من المسير، وناما كل واحد في مكانه، وفي الصباح تلاقيا... وفي تلك الفترة من حين ما قرّر النبي(ع) ملاقاة الجيش بَدَلاً من القافلة التجارية، من هنا بدأ بعض المسلمين بالاعتراض على هذا القرار، لأنهم كانوا يريدون سلب القافلة التي فيها المال ويحرسها عدد قليل من المقاتلين، ولا يريدون مواجهة قوة عسكرية أكبر منهم بكثير... وها ترى أن المواجهة مع القوة العسكرية حتمية حتى لو لم يهاجمها المسلمون فهي سَتُهَاجِمُهُمْ من بعد سلبهم للقافلة، وها ترى المسلمين يستغيثونه تعالى طَلَباً للعون لأن الكفّار أكثر منهم... ومن بعد نصرتهم نسوا وصار لهم رأي في تقسيم الغنائم...

في الليلة قبل المعركة نزل وحي على النبي(ع) يخبره أن الدعم الإلهي سيكون بألف ملاك، وهذا أول وعد نزل، ومرّت الساعات، ويبدو أن عدد الألف ملاك لم يكن كَافِياً ليقنع بعض المسلمين بالنصر! لِذَلِكَ نَزَلَ وحي آخر يقول بنزول ثلاثة آلاف ملاك، وَنَقَلَتْهُ لنا سورة آل عمران في الآية 124، وَأَيْضاً بقي الشك عند البعض! لِذَلِكَ نَزَلَ وحي يخبرهم عبر النبي(ع) بأنه ستنزل عليكم ملائكة تساعدكم حتى تنتصروا، فإن كنتم فهمتم أن عددهم محدّد بالألف أو بالثلاثة آلاف، فعددهم غير محدود وحتى لو احتجتم لخمسة آلاف فلا مشكلة، ولكن اثبتوا والنصر لكم.

ننتبه جَيِّداً، حَيْثُ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ يمكنه محو الكفار بلمحة، ويمكنه إِرْسَالَ ملاك واحد ليقتلهم جَمِيعاً، ولكن القتال بلاء للمسلمين، حتى يميز الخبيث من الطيب، وسبحانه لا يريد تشويه صورة المؤمنين الحقيقيين بهروب المؤمنين المزيفين من المعركة، وخاصة أنها المعركة الأولى بهذه الضخامة في تاريخ الإسلام، لِذَلِكَ أَرَادَ سبحانه أن يبقوا كلهم في المعركة حتى لو لم يقاتل قسم منهم في سبيله، وكل هذه الوعود هي فقط حتى لا يهربوا وتتشوّه صورة جيش المسلمين، طَبْعاً مع الدعم الإلهي الفكري والنفسي للمؤمنين وتخويف الكافرين، والقتال الحقيقي في سبيله تعالى، وَمِنَ الْمَعْرُوفِ أن المؤمنين الحقيقيين قَاتَلُوا بشراسة، ونعرف أن المؤمنين الحقيقيين كانوا مطمئنين، وناموا بهناء في الليلة التي قبل المعركة كما سترى من الآية بعد التالية.

كَمَا نفهم أن من ضلّ فبسماح منه تعالى ضل، ويستعمل القرآن تعبير "شاء تعالى ضلاله"، وكما نفهم النور الذي في قلب المؤمن ليزيد إيمانه أنه تعالى شاء له الإيمان، وكما نفهم الطبع على قلوب الكافرين حتى لا يؤمنوا بأنه تعالى هو خلقنا هكذا بهذه الخاصية، حَيْثُ يَنْطَبِعُ قلبنا على ما نكرّره بكثرة، وبالتالي ينسب تعالى لنفسه الطبع على قلوبهم... فهنا نفس الشيء تَقْرِيباً، حَيْثُ إِنَّ تَدَخُّلَهُ تعالى لتقوية قلوب المؤمنين هو تصميمه تعالى لنا بحيث إذا آمنّا بصدق، وواجهنا مَوْقِفاً صَعْباً، فستقوى عزيمتنا... وهذا لا ينفي تدخّله تعالى لزيادة الاطْمِئْنَانِ والشجاعة في قلوب المؤمنين، وهذا ما حصل، وهذا ما ستفهمه مما سيرد في الآية التالية من كون هذا الوعد بُشْرَى...

بِعِبَارَةٍ أصرح، لِأَنَّهُ لَنْ يجعل تعالى المنتمين لدينه شُجْعَاناً إن لم يكن إيمانهم وصلاحهم مَقْبُولاً، ولن تنزل الملائكة(ع) لتقاتل. وما قيل في بعض المرويات عن نزول الملائكة(ع) لتقاتل فراجعه بالتحقيق فيه لترى أن آخرين مشاركين في المعركة نفوا أي شيء من هذا، وألمحوا بأن من قال عن رؤيته للملائكة(ع) بعماماتهم البيض على أحصنة... يقاتلون في معركة بدر، ألمحوا بأنه صار خَرِفاً تتداخل الصور الوهمية عنده مع الحقيقة...

لاحظ أن القرآن لم يرد أن يكتب لنا تَارِيخاً، حَيْثُ لَمْ يذكر عن معركة بدر إلا ما يناسب موضوع السورة، وهنا أرادت السورة أن تبين لمن يريد تقسيم الأنفال على ما يناسبه لأنه هو انتصر وحصل عليها، لِتُذَكِّرَهُ السورة بأنه لولا الدعم الإلهي والمؤمنين الحقيقيين لما حصل الانتصار... لِأَنَّهُ قَبْلَ المعركة كان بعضكم أَصْلاً لا يريدها، وحين حُسِمَ أمر المواجهة كنتم متأكدين من الهزيمة، والنصر حصل من تدخل إلهي، وَبَعْدَ انتهاء المعركة وانتصاركم، كيف نسيتم كل هذا وصرتم ترون لكم حَقّاً مَفْرُوضاً في الغنائم وَتُرِيدُونَ تقسيمها بمزاجيتكم؟

لا تَنْسَ أن القرآن تَنَاوَلَ الكثير من الأحداث بالتحليل بعد أن وقعت، فَلَا تَفْهَمْ من الآيات هنا أنها نزلت قبل حصول معركة بدر أو أَثْنَاءَهَا، لا، بل تنقل لنا ما جرى هناك، والوعد بالإمداد بالملائكة(ع) نزل وَحْياً على الرسول(ع) كمعلومة، حَيْثُ لَمْ ينزل وحي بالقرآن يخبره(ع) بذلك في حينها.

بِعِبَارَةٍ أصرح، دَرَجَ بين عموم المفسرين فهم الآيات التي تناولت أَحْدَاثاً تَارِيخِيَّةً من عصر الرسول(ع)، أنها نزلت فَوْراً "في" أثناء حصول الحادثة، وهذا غَالِباً غير صحيح، حَيْثُ إِنَّهُ هُنَا من الواضح أن السورة كلها نزلت بعد انتهاء معركة بدر بقليل، ولم ينزل منها شيء سَابِقاً ولا في أثناء المعركة، لِأَنَّهَا تخبرك عمّا جرى من نظرته تعالى للأمور حتى نتعلّم من تقييمه "تحليله" تعالى لما جرى...

(وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{10})
نفس هذه الآية تكررت في نفس الموضوع في الآية 126 من سورة آل عمران، وبفرق بسيط جِدّاً بين الآيتين {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}.

{وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ}، ما جعل الوعد بنزول الملائكة(ع)، {إِلاَّ بُشْرَى}، لِأَنَّهُ فَقَطْ خبر مفرح يسبب السرور للمؤمنين، {وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ}، حَيْثُ يَصِيرُ عندكم معطيات تجعل أساس تفكيركم ونفسيتكم يستبعد الخطر، وَيَذْهَبُ عنكم القلق والخوف لأنكم تفكّرون وتشعرون بأنكم مدعومون ومنتصرون، لِأَنَّ وَعْدَهُ تعالى بتنزيل الملائكة(ع) لا يعني أنه تعالى يحتاج للملائكة (ع) لتنصركم، وَقَارِنْهَا مع قيادة الجيش التي ترسل فرقة لدعم فرقة... حَيْثُ تَحْتَاجُ فِعْلاً قيادة الجيش لإرسال فرقة داعمة لتحقيق النصر، أَمَّا سبحانه وتعالى فَلا يَحْتَاجُ لإرسال الملائكة (ع) لتحقيق النصر، حَيْثُ أَخْبَرَ المؤمنين عن نزول الملائكة (ع) فقط كخبر مفرح لهم عن وصول فرقة دعم، وليرتاحوا فِكْرِيّاً وَنَفْسِيّاً من مسألة أكثرية جيش العدو عليهم...

أُكَرّرُ لك أن هذه الآيات هنا نزلت بعد حصول المعركة، وكما ترى بوضوح هنا حَيْثُ إِنَّهَا تقييم "تحليل" من نظرة إلهية لما حصل.

{وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ}، لِأَنَّ تَحْقِيقَ ما تطلبونه فقط من عنده هو تعالى بنفسه، وَإِذَا هو سبحانه قرّر أن تنتصروا فَحَتْماً سَتَنْتَصِرُونَ، {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ}، منفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... لِأَنَّهُ فَوْقَ الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... وهنا الكلام عن عزّته تعالى بفرضه نصر المؤمنين على أعدائهم.

{حَكِيمٌ}، حَيْثُ يَرَى الصوابية في الأمور وكل ما يصدر عنه تعالى لا يكون عن عبث أو لهو أو من دون تخطيط... وَعِنْدَمَا يُقَرِّرُ أن تنتصروا أو أن تنهزموا، أو أن تتدخّل الملائكة (ع) فِعْلاً أو يبقى موضوع نزولها كبشرى... فَهَذَا القرار يكون عن حكمة وليس عن عبث.

وَانْتَبِهْ جَيّداً، وَلا تَسْتَنْتِجْ من الآية أن الملائكة(ع) لم تنزل وأنها كانت مجرد بشرى لتطمئن قلوب المؤمنين، لا، بل نزلت الملائكة(ع) ولكن من الأساس لم يكن نزولها لتقاتل بَدَلاً عن المؤمنين، لِأَنَّهَا سَدَّدَتْ ضربات المؤمنين، وربطت على قلوبهم، وثبطت الكفّار... كما سيرد في الآية 12 بعد التالية، لِأَنَّ الآيَةَ تُرِيدُنَا أن نفهم أن الأساس الأساس في تقرير مصير المعركة هو بيد الله سبحانه وتعالى، وَمَعَ أو بدون نزول الملائكة(ع) كنتم ستنتصرون لأنه سبحانه قَرَّرَ لكم أن تنتصروا ويمكنه تعالى تحقيق ذلك بعدة طرق... ولكن أخبركم سبحانه بدعمه لكم بالملائكة(ع) لأنه الأقرب إلى فهمكم ولتشعروا بالاطمئنان مثلما لو أن جيشا من آلاف المقاتلين انْضَمَّ إليكم، حِينَهَا كُنْتُمْ ستشعرون بالاطمئنان، ولكن النصر من عند الله تعالى وليس من كثرة الجيش أو من نزول الملائكة(ع).

ضع في بالك أن كل المخلوقات تبقى موجودة لأنه سبحانه وتعالى في كل لحظة يرعاها ويهتم بها ليبقى لها كيان، وإذا تركها سبحانه فإنها تزول، وهذا واضح وصريح في وصفه تعالى لهذه الحالة في الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً}. لِأَنَّ كُلَّ شيء بيده سبحانه وتعالى، وَلَوْ أراد إماتة الكفّار في تلك المعركة، فَسُبْحَانَهُ يُمْكِنُهُ إزالتهم من الدنيا من أصله، وَبِتَعْبِيرِنَا نحن يُمْكِنُهُ تعالى محوهم من الوجود، حَيْثُ دَائِماً يُنَبِّهُنَا القرآن أن كل شيء تحت السيطرة الإلهية المباشرة، ولكنه سبحانه يترك مخلوقاته تعمل وتحارب و... وهكذا تَسَجَّلَ في التاريخ أن ثلاثمئة مسلم هزموا ألف كافر.

سَتُلاحِظُ في الآية بعد التالية أن الملائكة(ع) لن تقاتل، بل فقط ستقوم بِشَدِّ عزيمة المؤمنين.

(إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ{11})
نكمل مع التدخل الإلهي المباشر الذي سبّب لكم النصر:

{إِذْ يُغَشِّيكُمُ}، حَيْثُ ينتشر ويحيط بكم بشكل جزئي أو كلّي، {النُّعَاسَ}، الشعور بالحاجة إلى النوم، {أَمَنَةً}، أَمَاناً لِأَنَّهُ بِسَبَبِ النعاس فقدتم الشعور بالخطر، وهذا النعاس والأمان من الخطر الذي أصابكم هُوَ منه تعالى.

{وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السَّمَاء مَاء}، حَيْثُ جَعَلَ سبحانه السماء تمطر، {لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ}، بِهَذَا الماء يجعلكم سبحانه خالين من الأشياء المكروهة، {وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ}، وَلَنْ يبقى في بالكم الأشياء التي كلّها مكروهة وخبيثة والمنسوبة

للموصوف بأنه يعمل على إضلالكم، لِأَنَّهُ حَتَّى لو كنتم مؤمنين حقيقيين فَإِنَّ الْأَفْكَارَ المزعجة تَخْطُرُ على بالكم وتمنعكم من النوم، وهذا ما يريد تعالى تطهيركم منه، وَمُضَافاً إليه هُنَاكَ وساوس الشيطان الذي يحبّب لكم الهرب من المعركة والحياد وتجنّب الخطر أثناء القتال... وهذه رجز يريد تعالى إذهابه عنكم.

{وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ}، حتى يكون أساس أفكاركم ونفسيتكم متماسكا ولا يكون متفلتا هوائيا، فَتَثْبُتُونَ على فكرة قتال العدو ببسالة، {وَيُثَبِّتَ بِهِ}، بذاك المطر، {الأَقْدَامَ}، فلا تهربوا من مواجهة العدو.

اِنْتَبِهْ جَيِّداً، لِأَنَّكَ إِذَا لم تتحضّر لمعركة في حياتك، فلن تعرف المعاني الحقيقية لهذه الكلمات، لِأَنَّهُ فِي ساعات الضيق سيجعلك النعاس ترتاح، والمطر اللطيف أيضا سيجعلك ترتاح نفسيا وبالتالي يرتاح فكرك وجسدك من التوتّر، وكل الآية تتحدث عن الاستعداد النفسي والفكري الذي أصاب المؤمنين الحقيقيين، لِأَنَّ الْقَلَقَ والشعور بالخطر القادم، يمنعان المقاتل من النوم، وَالْأَفْكَارَ تأخذه يمينا وشمالا، فإذا بقي على هذه الحال فلن تثبت أقدامه في المعركة، وسيهرب أو يتجابن.

هُنَاكَ أشياء غير منطقية بتاتا ذكرها بعض المفسرين حول الآية هنا، حَيْثُ قَالُوا إِنَّ تثبيت الاقدام معناه أنه بسبب نزول الماء سيشتد التراب تحت ارجل المؤمنين ولا يعد رخوا فيكون صالحا للركض وثبات الأرجل للقتال، ولكن هذا سيكون شيئا مشتركا بينهم وبين العدو! لِأَنَّ أَقْدَامَ الأعداء أيضا ستثبت على التراب! وتثبيت الأقدام مذكور في آيات أخرى من القرآن، وهناك فسروه بالثبات بدل الهروب أو التخاذل، كما ورد في الآية 7 من سورة محمد {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}، وهذا هو المعنى الذي تستعمل فيه العرب هذه الجملة، وهذا هو المعنى الذي قصدته الآية هنا.

بِالنِّسْبَةِ لجملة {لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ} أي بالماء، لَيْسَ معنى "الطهارة" ما هو متداول الآن كمصطلح فقهي، بل الطهارة والنجاسة في القرآن مستعملان للطهارة والنجاسة المعنوية "النفسية"، وَلا معنى للروايات التي تقول بأن بعض المسلمين كان على جنابة وأمطرت فتطهروا من الجنابة عبر نزول الماء عليهم! ولا ننسى أَنَّهُمْ كانوا قرب آبار بدر وكانت السيطرة على الآبار بيدهم، وكانوا يتوقعون العدو في نهار اليوم الثاني وليس في الليل، مما يعني بأن الطهارة بالغسل كانت ممكنة لمن أجنب ليلا، حَيْثُ يُمْكِنُهُ استعمال ماء آبار بدر... لِذَلِكَ الْأَنْسَبُ أَنْ تكون الطهارة هنا الخلو من الأفكار السيئة، فهي تثبيت نفسي بسبب الراحة التي يشعر بها المرء عادة عند سقوط المطر اللطيف.

بقي شيء، حَيْثُ إِنَّ أَكْثَرَ القدماء من المؤمنين يعتقدون بأن الجنابة من الشيطان، ولذلك فسّروا هذه الآية على معنى الطهارة من الجنابة التي سببها الشيطان، ولكن الجنابة هي حالة جسدية يسببها بعض انواع الطعام او فائض التغذية ببعض انواع الطعام، أو حالة فيزيولوجية من برد أو حرارة، أو حالة نفسية ناشئة من كثرة التفكير بالجنس، أو هي حالة هروب لا وَاعٍ من واقع حرج عبر تصورات مسببة للسعادة... وَهُنَاكَ الكثير من المسببات لحدوث الجنابة. وإنما تكون الجنابة شيطانية عند تفكير الشخص بشيء حرام في يقظته سبّب له حلما نتج عنه جنابة في منامه، لِذَلِكَ لا يَحِقُّ لنا الحكم على كل جنابة في المنام بأنها من الشيطان. وعلى كلّ حال لا عَلاقَةَ لا من قريب ولا من بعيد للجنابة بموضوع كلام الآية.

(إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ{12})
نكمل مع الدعم الإلهي لنصرة المسلمين في بدر:

{إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ}، حَيْثُ يَضَعُ المسؤول عنك من مستوى إلهي في وعي الملائكة(ع) المعلومات التالية:

{أَنِّي مَعَكُمْ}، حَيْثُ سَتَقُومُونَ بما آمركم به وأنا معكم أَيْضاً سأتدخل. وهذا التعبير يريك شدة عنايته تعالى، لِأَنَّهُ عَادَةً سبحانه وتعالى وبسبب قدراته الفائقة وإحاطته، فهو سبحانه دَائِماً متابع مدبّر لكل الأمور التي تجري، وهنا هذا الكلام الذي جرى مع الملائكة تنقله الآية لنا لنرى شدة اهتمامه تعالى بتدخّله شخصيا في المسألة عِلْماً أَنَّ مَلَاكاً وَاحِداً من الملائكة العالية قادر على تحقيق ما يأمر به سبحانه.

بعبارة أخرى، أَرَادَ تعالى للمؤمن أن يرى قيمته العالية عنده تعالى بحيث سبحانه بنفسه تدخّل مع أن الملائكة قادرة على إنجاز المهمّة.

{فَثَبِّتُوا}، قُومُوا أيها الملائكة بتثبيت بتمكين، {الَّذِينَ آمَنُوا}، المعتقدين بي وبديني، وَضَعُوا في قلوبهم أَفْكَاراً تجعلهم لا يهربون من المعركة، وَحَبِّبُوا لهم الجنة ورضوانه تعالى والتأكد من النصر...

وَعَمَلِيّاً ما معنى أنه تعالى مع الملائكة؟ سترى ذلك من تكملة الجملة:

{سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا}، في مركز أساس تفكير ونفسية الذين أنكروا الدين الإلهي سأجعل من عندي فيه، {الرُّعْبَ}، أقصى درجات الشعور بالخطر الشديد. فهذا شيء يبدو أن الملائكة(ع) لا تقدر عليه، لِأَنَّهُ تدخّل في فكر ونفسية الكفّار ليرتعبوا من المؤمنين، وَتَدَخَّلَ سبحانه وفعله، أو تقدر الملائكة عليه ولكنه سبحانه أراد أن يرينا شدة عنايته بالمؤمنين لينتصروا، لِأَنَّ الرُّعْبَ في قلوب الكافرين ليس الحلّ الوحيد لجعل المؤمنين ينتصرون، ولكنه الحلّ الأنسب، حَيْثُ إِنَّ النَّتِيجَةَ أمام الناس أن الكافرين ارتعبوا من المؤمنين القلائل وهذه هي الدعاية المطلوب انتشارها عبر التاريخ.

ونتيجة تثبيت المؤمنين وإرعاب الكافرين ستكون الأفكار التالية في ضمير المؤمنين: {فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ}، اضْرِبُوا على رقبة ورأس العدو المقاتل، لِأَنَّ الْعُنُقَ هو عموم ما كان ضيقا وقبله اتساع، وفي الإنسان هو ما تطاول من الوصلة بين الرأس والجسد، وبالعامية نسميها رقبة، حَيْثُ سَيَأْتِي على بال المؤمنين أن تكون ضرباتهم قاتلة، بَدَلاً من التفكير بالمناورة بانتظار الفرصة المناسبة للضربة القاتلة، لِذَلِكَ سَيَهْجُمُ المؤمن وفي باله أنه منتصر حَتْماً وأن العدو جبان وخائف وضعيف، وَيُقَاتِلُهُ بأريحية... ومن ناحية ثانية الخائف والجبان فهذا يفكر في تفادي الضربات بدلا من الضرب للقتل...

{وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ}، من المقاتلين الكفار، {كُلَّ بَنَانٍ}، كل ما له مفصل ويتحرك في كفّ يدهم، لقطع أصابعهم التي تتحرّك بالمفاصل، وهي التي تمسك بالسلاح، حَيْثُ لَنْ يضربوهم ليجرحوهم ليتوقفوا عن القتال، بل فلتكن الضربات قاتلة وحاسمة لإنهاء قدرتهم على حمل السلاح عليكم مرّة ثانية، فاقطعوا أصابعهم. وهذا التعبير مشابه لقولنا: اضربه لتقطع رأسه واضربه لتقطع يديه. وأنت تعلم أن الآية لا تقصد استهداف أصابع الأعداء بل تأمر المؤمنين بإنهاء قدرة العدو على حمل السلاح، فلا تقاتلوهم حتى يرموا السلاح ويستسلموا بل فليكن الضرب يهدف إلى قتلهم وإلى إنهاء قدرتهم على حمل السلاح بأصابع يدهم مرّة ثانية.

ونلاحظ أن الملائكة(ع) لا يحق لها التصرّف على هواها، لِأَنَّ الْبَعْضَ من الملائكة(ع) يتمتع بقدرات عالية، وقادر على إماتة عدد كبير في لحظة، ولكنه لا يتدخل في أي شيء إلا من بعدما يأمره ربنا سبحانه، حَيْثُ يَقُولُ تعالى للملائكة(ع) إِنَّنِي آمركم بالتدخل واستعمال قدراتكم على البشر في هذه المعركة هنا، وبالشكل الذي أقوله لكم، لِأَنَّهُ سبحانه يريد أن يبذل المؤمنون جُهْداً لينتصروا... ويريد أن تكون المعركة دعاية لقوّة المؤمنين القلائل التي أرعبت وهزمت قوّة تفوقهم بثلاثة أضعاف.

ونرى هنا أن هذا هو نوع تدخل الملائكة(ع) في المعركة، لِأَنَّهَا لم تقاتل بل ألقت في قلوب المؤمنين التثبيت.

نَتَذَكَّرُ دَائِماً أنه سبحانه حتى مع الملائكة(ع) لا يتكلم بشكل مباشر، لِأَنَّ هَذَا مستحيل لأن تكوين الملائكة(ع) بعيد جدا جدا عن تكوينه تعالى "إن جاز التعبير"، فلا يقدر ولا يتحمّل أي مخلوق أن يتواصل بشكل مباشر معه تعالى، ويحصل التواصل عبر وسائط يعبّر عنها القرآن أنها حجاب، أو عبر إلقائه تعالى للمعلومات في وعي الكائنات... ولمزيد من التوسّع راجع الآية 51 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ}.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ{13})

{ذَلِكَ}، التدخل الإلهي لدعم المؤمنين ضدّ الكفّار، {بِأَنَّهُمْ}، بسبب أن الكفار، {شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، كانوا شِقَّاً، حَيْثُ انْفَصَلُوا وَانْقَسَمُوا عن الله تعالى ورسوله(ع) لدرجة العداوة وإعلان الحرب، ومن تبعات معنى الانشقاق في مورد كهذا هو المعاندة في العمل المضاد على ما يحبّه تعالى ورسوله(ع).

{وَمَن يُشَاقِقِ}، ومن يختار الانشقاق ليكون معاديا لـ {اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، {فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}، لِأَنَّ الْعُقُوبَةَ وَمَا يعقب وَمَا يأتي كنتيجة للشقاق سَيَكُونُ شَدِيداً لا يمكن تحمّله.

هنا شيء مهمّ، حَيْثُ إِنَّهُ سبحانه وتعالى لا يعقد اتفاقيات جانبية مع أحد، بل يتعامل مع الجميع بنفس الطريقة، لِأَنَّهُ بالأساس يعتني سبحانه بكل مخلوقاته، إلى أن يقرّروا هم معصيته تعالى، فعندها لا يعاملهم تعالى برحمته، بَلْ تَصِلُ الأمور إلى درجة لعنه تعالى لهم لمعاملتهم بغضبه... هنا وكما ترى إِنَّهُ سبحانه وتعالى يخبرنا وبكل شفافية عن سبب قراره بالانحياز مع رسوله (ع) لصالح المؤمنين ضد الآخرين، لِأَنَّهُ سبحانه ليس مُضْطَرَّاً للتبرير لنا عمّا فعله، ولكنه تعالى بصفاته الفائقة الحسنى، يتحدّث معنا في كل الأمور بصراحة وشفافية، وهذه الحالة نفهمها بسهولة عند الانتباه لحالة إنسان لديه ثقة تامة بنفسه وبقدراته وبسيطرته على الأمور... وَبِنَاءً على ذلك هُوَ ليس مُضْطَرَّاً للكذب، ولا للمحاباة، ولا للمداهنة... فعندما تسمعه يتحدّث ستسمع كَلاماً صَادِقاً صَرِيحاً شَفَّافاً...

هكذا نفهم من آيتنا هنا أنها كلام بصراحة ويتضمّن تعليلا يفهمه الْعَقْلانِيُّونَ، لِأَنَّ سَبَبَ انحيازه تعالى لنصرة المؤمنين أن الآخرين اختاروا معاداته تعالى ورسوله(ع)، وبالتالي هُمُ اختاروا الخطّ السيّء الفاسد العاطل الباطل... وهكذا تصير مشكلتهم مع المؤمنين الصالحين البارّين... حَيْثُ هُنَاكَ تضاد وتعارض عملي بين الجهتين.

يَبْدُو لك أن نصرته تعالى للمؤمنين تحصيل حاصل، كشيء من العادي أن يحدث، ولكن هذا صار في ثقافتنا من بعدما أخبرنا تعالى عن قراره بذلك، وهنا تقرأ كلامه تعالى عن سبب قراره بنصرة المؤمنين.

كَمَا ترى يُمْكِنُ أن تضمّ آيتنا هنا إلى عموم ما ذكره تعالى بشفافية كتبريرات لأعماله وَلِأَمْرِهِ للمؤمنين بقتال الآخرين، لِأَنَّهُ لَوِ الآخَرُونَ لم يشاقّوا الله تعالى ورسوله، والذي عمليا أدّى إلى تهجيرهم وحبسهم وقتلهم... للمؤمنين، فسبحانه لن يتدخل لينصر المنتمين لدينه عليهم، وَتَفْهَمُهَا في حالة منتمين لدينه تعالى اعتدوا على كفّار مسالمين، فإذا انتصروا فنصرهم ليس بدعم إلهي، لأن الآخرين لم يشاقوه تعالى ورسوله.

(ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ{14})
{ذَلِكُمْ}، العقاب الشديد بسبب نصرته تعالى للمؤمنين على المشاقين لله تعالى ورسوله، من رعب وقتل على أيدي المؤمنين، {فَذُوقُوهُ}، فَتَحَسَّسُوهُ جَيِّداً، حَيْثُ سَتَشْعُرُونَ بِالْعِقَابِ شُعُوراً قَوِيَّاً، وَلَنْ يكون كالمنام، أو مجرد تعذيب نفسي أو وهمي... لا، بل هو عقاب شديد جِدَّاً تتحسّسونه بكل جوارحكم وأحاسيسكم.

{وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ}، بالتأكيد لِلْمُنْكِرِينَ للدين الإلهي، {عَذَابَ النَّارِ}، حَيْثُ سَيَتَعَرَّضُونَ للنار التي تؤذيهم. الْعَذَابُ الأَسَاسِيُّ سيكون في الآخرة بالنار حرقا، وَهُنَاكَ أَنْوَاعٌ أخرى من العذاب تأتي مع العذاب بالنار في الآخرة مثل الجوع والعطش والإرهاق والألم النفسي... ولكن أشد التعذيب سيكون بالنار.

هناك شيء من خارج الدراسة ولكن فيه إفادة، حَيْثُ إِنَّ تَصْوِيرَ معركة بدر في الفيلم المشهور "الرسالة"، ليس عاكسا لحقيقة ما كان عليه الوضع بالتمام، حَيْثُ صَوَّرُوا المسلمين بلباس أبيض موحّد، وفرقة بالسهام وأخرى بالرماح وغيرها بالسيوف، وهذا مبالغ فيه جِدَّاً، لِأَنَّ الْقَلِيلَ من المسلمين كان معهم سيوف، والغالبية قاتلوا بالعصي والأدوات الزراعية "مجرفة ورفش ومعول..."، وبرمي الحجارة وبالسكاكين... أقول لك هذا ليس للتقليل من قيمة المعركة بل لتراها على حقيقتها القاسية، لِأَنَّ جَيْشَ الْكُفَّارِ كان تجهيزه أحسن بكثير، ومع عدد منهم أحصنة عليها فرسان متمرسون على القتال بالسيف... بينما المسلمون كان معهم فارس أو فَارِسَانِ فقط، ومن بعد معركة بدر تغيّرت تجهيزات المسلمين وتحسّنت مع تكتيكاتهم، حَيْثُ انْتَقَلُوا من الغارات ومعارك المجموعات الصغيرة، ودخلوا فِعْلِيَّاً في مرحلة إعداد فرقة عسكرية كبيرة كجيش، وهذا واحد من جوانب أهمية معركة بدر التي كانت أوّل معركة يحشد فيها المسلمون عَدَداً كَبِيراً من قوّتهم القتالية، ليبدؤوا بمراكمة خبرات الحرب بجيش.

الْكَلامِ يَجُرُّ الْكَلامَ، لِأَنَّ أَهَمِّيَّةَ النصر في معركة بدر لا تَقِلُّ عن أهمية الهزيمة في معركة أحد، لِأَنَّ الْهَزِيمَةَ كانت ضرورية كدرس تاريخي للمتعاطين بالشؤون العسكرية أن لا يستهتروا، وأن يتجهّزوا مَعْنَوِيَّاً وَجَسَدِيَّاً وبالعتاد... وأن يلتزموا بالخطط... ولمزيد من التوسّع حول ذلك راجع ما ذكره القرآن مُطَوَّلاً في سورة آل عمران من الآية 121 وما بعدها {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ {15})
بِنَاءً على ما تقدّم من الوعد بالدعم الإلهي للمؤمنين في المعارك:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين الإلهي، {إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا}، إذا تواجهتم مع المنكرين للدين الإلهي، {زَحْفاً}، حَيْثُ كُنْتُمْ جماعة تتقدّم قِتَالِيَّاً إلى الأمام، {فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ}، أَيْ لا تتوجهوا باتجاه آخر وَيَصِيرُ قفاكم لجهة العدو، وَلا تعطوا ظهركم للعدو، وَلا تهربوا من القتال بل واجهوهم.

سَتَرَى من الآية التالية تَنْبِيهاً على معنى الأمر الإلهي بالمنع من تولية الدبر، لِأَنَّ هَذَا لا يشمل التكتيكات العسكرية التي تَفْرِضُ "تولية الدبر" بِالالْتِفَافِ أو الانْسِحَابِ مُؤَقَّتاً... لتحسين ظروف القتال...

كَلِمَةُ زحف لم ترد في القرآن إلا هنا، وبغض النظر عن أصل معناها فَمِنَ الْمَشْهُورِ قَدِيماً وَحَدِيثاً وصفها لحالة تقدّم مجموعة قتالية نحو العدو، لِأَنَّهَا في سياق القتال لا تشير إلى السير حَبْواً، ويبدو من الاستعمال أنها ليست وَصْفاً لحالة الفرد بل وَصْفٌ لحالة المجموع، لِأَنَّ وَصْفَ تقدّمهم نحو العدو زَحْفاً يشير للمشاركة مع مجموعة في التقدّم نحو العدو، وَرُبَّمَا تكون هناك مجموعات أخرى، وَالْكَلامُ تَكْتِيكِيَّاً عن اعتماد المجموعة على ثبات كل أفرادها، واعتماد المجموعات الباقية على ثبات بعضها البعض، لِأَنَّ تَخَاذُلَ فرد سيؤثّر بالضرر على مجموعته الزاحفة، والمجموعة المتخاذلة ستؤثر بالضرر على المجموعات الأخرى.

(وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ {16})
{وَمَن يُوَلِّهِمْ}، حَيْثُ يَتَّجِهُ بِاتِّجَاهٍ آخر غير اتجاه الكفار، {يَوْمَئِذٍ}، يوم معركة ما، {دُبُرَهُ}، ظهره قفاه، {إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ}، حَيْثُ يَنْحَرِفُ عن العدو وَيُعْطِي ظهره للعدو ولكن حتى يقاتل من زاوية أخرى أنسب له، أو، يعطي ظهره للعدو، {مُتَحَيِّزاً}، يريد أن ينحاز أن يبتعد عن المواجهة قليلا حتى يصل، {إِلَى فِئَةٍ}، إلى مجموعة مقاتلين آخرين، حَيْثُ أَدَارَ ظهره للعدو وانسحب ولكن لم يهرب بل التحق بمجموعة أخرى تقاتل في نفس المعركة وكان انضمامه لها ضروريا وليس تَخَاذُلاً لمجموعته التي تتعرّض للضغط... وَمَنْ أدار ظهره للعدو لغير هذين السببين، وَهَرَبَ، {فَقَدْ بَاءَ}، حَيْثُ صَارَتْ مكانته، {بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ}، لِأَنَّهُ لَنْ يُمَرِّرَ له تعالى فعلته وسيردّ عليها بقسوة لأنه هرب من المعركة، {وَمَأْوَاهُ}، وصار له مكان محدّد، مسكنه، {جَهَنَّمُ}، المكان الموصوف بسوء ما فيه، فيه النار المتأججة والعذاب... {وَبِئْسَ}، وَأَسْوَأُ وأتعس، {الْمَصِيرُ}، النهاية التي لن تتغيّر، فلا يوجد نهاية دائمة أَسْوَأُ من دخول جهنم.

اَلْهَرَبُ من المعركة عندما تقع مَمْنُوعٌ وعليه عقاب على أي حال، لِذَلِكَ تَجِبُ المواجهة بشروط سَتَذْكُرُ منها الآية 66 ما يخص عدد المقاتلين وعدد عدوّهم... وما نسمّيه من الخطط العسكرية وفنيّات "تكتيكات" الحرب عبر تغيير موقع القتال، أو الانضمام لمجموعة مقاتلين أخرى لها مركز أنسب للقتال... فَهَذَا مَسْمُوحٌ بل واجب كما هو واضح من الآية هنا.

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {17})
{فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ}، أَيْ أَنْتُمْ لم تنهوا حياة الكفار، {وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ}، لِأَنَّهُ سبحانه أنهى حياتهم.

هذا الكلام مشابه لعموم كلام القرآن عن إحيائه تعالى لنا وإماتته لنا، وإنباته تعالى للنبات، وأنه تعالى يرزقنا ويشفينا... تَكَرَّرَ في دراستنا هذه مِثَالٌ عن مقارنة تصميمك وخلقك أنت لكائنات في بيئة، وَأَنَّ كُلَّ ما يحدث فيها سيكون نَابِعاً من تصميمك لها، وكلما كانت قدراتك أعلى، كَانَ تحكّمك بالبيئة التي صمّمتها وخلقتها أكبر، حَيْثُ يَزِيدُ علمك بما سينتج

عن تصميمك وستضع تفاصيل أكثر فيما خلقته... ولو وصلت الأمور في تلك البيئة إلى تعارك الكائنات مع بعضها، وَإِنْهَاءِ بَعْضِهِمْ حَيَاةَ بَعْضٍ، وَهُوَ ما يحصل في بيئتنا نحن، فمن هذه النظرة يكون هو سبحانه أنهى حياة الكفّار، والمؤمنون كانوا مجرد كائنات تتحرّك في بيئة صمّمها وخلقها سبحانه ويسيطر على ما يحدث فيها، والكائنات محكومة بالفكر والقدرة والاختيار... الذي أوصلها لتمشي وتتواجه مع بعضها وتسبّب الأذية لأجساد بعضها...

حَتَّى لو تسامحنا في دراستنا هذه وقلنا إِنَّهُ تعالى ترك الأمور تجري بحسب تسلسل أحداثها المترابطة، وكان الكلام يوحي بأنه تعالى لم يتدخّل، فهذا بالعمق كلام صحيح من جهة وغير صحيح من جهة أخرى، لِأَنَّهُ من وجهة نظر أننا مرتبطون دائما به تعالى وسنزول إن تركنا تعالى وَحْدَنَا، كما تقرأ في الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا}، وأن كل الأمور المتعلقة ببعضها والمتأثّرة ببعضها نابعة من تصميمه تعالى لها بهذا الشكل الذي نحن فيه... مِنْ هذه النظرة العميقة جدا جدا كُلُّ شيء يحدث بِأَمْرٍ منه سبحانه، حَيْثُ إِنِّي أزرع البذرة في الأرض وأسقيها وتنبت... ولكن لا أنا ولا البذرة سنبقى للمحة لو تركنا سبحانه، ولا البذرة ستنبت لولا تصميمه تعالى لها بهذا الشكل، ولن تتحرّك وتتفاعل وتنمو لولا سماحه تعالى لأجزائها بالتفاعل مع الماء والتراب...

ومن ناحية ثانية، إِذَا أنا فعلت شيئا مخالفا لأوامره تعالى، فسبحانه تركني أفعله، وَمِنَ النَّظْرَةِ العميقة يستعمل القرآن تعبير: أَنَّهُ تعالى أضلّني. لأنه تعالى تركني أضلّ وصمّمني بحيث يمكنني أن أضلّ، وَهَذَا لا يَعْنِي بِأَيِّ شَكْلٍ أَنَّهُ تعالى أجبرني أن أضلّ.

نَفْهَمُهَا بِالشَّكْلِ الأبسط حين نتذكّر أنه تعالى صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا بحيث نجوع، وأتاح في بيئتنا ما يناسب لنأكله، حَيْثُ إِنَّهُ تعالى رزقنا وَأَطْعَمَنَا وسقانا... ونفس الشيء لكل بقية الأمور حَيْثُ إِنَّهُ سبحانه أحيانا وأماتنا وهدانا وأضلنا... لِأَنَّ كُلَّ شيء من نتاج تصميمه وخلقته تعالى لنا حتى لو فعلناه بحرية الإرادة الممنوحة لنا منه تعالى، فَأَنَا زرعت وأنا حصدت وأنا طهيت "طبخت" وأنا أكلت، ولكن بالعمق هُوَ تعالى رزقني وأطعمني.

هنا في الآية، الْمُؤْمِنُونَ ضربوا الكفّار ضربا مسببا للموت، حَيْثُ إِنَّهُمْ بما منحه تعالى لهم بإرادتهم واختيارهم دخلوا المعركة وضربوا الكفّار، ولكن تماشى فعلهم مع الإرادة الإلهية، مع ما يريده تعالى، فتبنّى سبحانه قتلهم للكفّار ونسبه لنفسه.

لَمْ تقصد الآية القول بأن المؤمنين لم يفعلوا أي شيء وأنه عزّ وجلّ كان وَحْدَهُ يضرب الكفّار بالسيف، أو أنه تعالى حرّكهم كالألعاب وأنهم بلا إرادة، لِأَنَّكَ تعلم أن هذا فهم ساذج للكلام، ولم تقصد الآية التقليل من قيمة ما فعله المؤمنون، بل تقصد أن الفعل الذي قام به المؤمنون، كان عظيما عنده تعالى لدرجة تماشيه مع إرادته تعالى، ومن النظرة العميقة لسيطرته سبحانه على كلّ شيء، تَبَنَّى سبحانه هذا العمل، ليريك مدى أهميته.

اَلْمُؤْمِنُونَ سيرون قيمة عالية لأفعالهم لأنه تعالى تبنّى عملهم، وسيشعرون بالعزة، ومن ناحية ثانية لِأَنَّهُ عمل فيه إنهاء حياة للآخرين، فلا داعي للشعور بأي سوء من ذلك، لِأَنَّ تَبَنِّيهِ تعالى لقتلهم يعني أنه تصرّف حق مئة بالمئة.

{وَمَا رَمَيْتَ}، أَيْ مَا ألقيت شيئا، وهنا الكلام عن عمل قتالي، فَأَيُّ ضربة من بعيد بالنبل أو بالحجر أو بالرمح... {إِذْ رَمَيْتَ}، حين رميتها على العدو لتقتله، {وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى}، حَيْثُ تماشت إرادته تعالى بقتل الكفّار مع فعلك أنت بضرب الكفّار بحيث صار وصف رميتك بأنها رمية إلهية، وإلغاء الآية للمؤمن من المشهد، باختيار نشاط قتالي يحصل فيه رميّ، لِأَنَّ أَدَاةَ القتل خرجت من يد المؤمن وصار مسارها مُنْفَصِلاً عن إرادته... لِذَلِكَ عَرَضَتِ الآية هذا المشهد كنموذج يبين سهولة فهم قتله تعالى للكفّار، بدلا من مشهد ضرب المؤمن للكفّار بالسيف والذي فيه يد المؤمن تضرب الكفّار، لِأَنَّ الْمَقْصُودَ من تبنّي الرمية رفع مستوى الفعل القتالي إلى مستوى إلهي مما يجعل المؤمن يعتزّ بعظمة ما قام به.

مَا رميت الرمح أو النبل أو الحجر وما ضربت السيف... ولكن الله تعالى رمى وضرب.

مِنْ جهتنا نراه تعالى جَعَلَكَ أشجع وجعلهم أجبن، وجعل ضربتك مسددة تصيب، وجعل ضربة عدوك تخيب... ولكن وكما هو تعالى يحرّك الرياح وينزل الماء ويتوفّى الأنفس ويسيّر السفن وينبت النبات... ونحن من ناحيتنا نرى الغيوم

تنزل بالمطر، والسفن تحركها الرياح، والرياح تتحرك بسبب فرق الحرارة... لِأَنَّهُ تعالى هو خطّط وصمّم للأشياء لتكون هكذا، وهو تعالى خلقها لتفعل هذا، وهو تعالى الآن يتابعها وهي تفعل ما أمر به، فمن هذه النظرة يَتَبَنَّى تعالى ما يتماشى مع ما هو حسن وجيد وصالح... وَهُوَ الذي قتل ورمى وأنبت وسيّر وتوفّى... ونفس النظرة تنطبق على قتل الكافر لمؤمن، حَيْثُ إِنَّ اللَّهَ سبحانه قتل المؤمن من النظرة العميقة، ولكن لم تتماش إرادته تعالى مع إرادة الكافر، حَيْثُ تَرَكَ سبحانه الكافر يقتل المؤمن لأننا في حياة صمّمها سبحانه لتتسجّل فيها أعمالنا لنتحاسب عليها في الآخِرَةِ، وسبحانه لا يتبنّى هذا القتل، بل يحاسب عليه، ويتبنّى سبحانه الأعمال الحقّ التي يأمر هو سبحانه بها، لأنها تتماشى مع ما يحبّه تعالى ويرضاه، وَهُنَا سُبْحَانَهُ رمى...

{وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ} تعالى {بَلَاء حَسَناً}، لِأَنَّ الْبَلْوَى هي عموم ما يحصل معك ويمكن أن يجعلك تتغيّر، للأحسن أو لِلْأَسْوَأِ، والتدخّل الإلهي لنصرة المؤمنين المقصود منه تعريض المؤمنين لشيء يغيّرهم نحو الأحسن، لشيء يريهم التدخّل الإلهي فيزيد إيمانهم.

{إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ}، حَيْثُ يَسْمَعُ كل شيء وَسَمِعَ استغاثة المؤمنين واستجاب لهم.

وَأَنَّ الله، {عَلِيمٌ}، لَدَيْهِ علم شامل تفصيلي حَيْثُ يَعْلَمُ ماذا سيفعل لينصركم ويعلم أساسا إن كان النصر فيه مصلحة لكم أم لا...

كُلُّ من درس التاريخ الإسلامي قال بِأَنَّ تلك المعركة في بدر، كانت أهمّ حدث عسكري في تاريخ المسلمين، لِأَنَّهَا أول معركة حقيقية، وَأَعْطَتْ معنويات ضخمة للمسلمين... حَيْثُ صَارَ لهم قوّة عسكرية نموذجية... وصار الآخَرُونَ يحسبون لهم حسابا... بالرغم مِنْ أَنَّهَا معركة لم يتجاوز فيها عدد الجيشين الألف والثلاثمئة مقاتل، إلا أنها كانت مفصلا مهمّا غيّر تاريخ كلّ المنطقة وأجزاء كبيرة من العالم...

(ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ{18})
{ذَلِكُمْ}، الذي ذكرته الآيات عن التدخل الإلهي لنصرتكم وبقتل الكفّار على أيديكم كبلاء حسن... {وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ}، جاعل فقدان القدرة في، {كَيْدِ الْكَافِرِينَ}، حَيْثُ مَا يفعله المنكرون للدين الإلهي كعمل مضاد للدين الإلهي وللمؤمنين سَيَجْعَلُهُ سبحانه غير قادر على التأثير، لِأَنَّ كيد الكفر أَصْلاً ضعيف أمام الإيمان وسبحانه لن يجعله قَوِيّاً عليكم.

تَذَكَّرْ دَائِماً العديد من الآيات التي وضعت شُرُوطاً للدعم الإلهي لنصرة المؤمنين، لِأَنَّهُمْ لن ينالوا النصر الإلهي إلا إذا كانوا مؤمنين بشكل مقبول، وأمّا إن كان فيهم نفاق وفسق بشكل غير مقبول، فحتى لو انتصروا فنصرهم لن يكون إِلَهِيّاً... راجع في ذلك ما ورد مُوَسَّعاً في سورة آل عمران بكلامها عن معركة أحد من الآية 121 وما بعدها {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.

كَلِمَةُ كيد هي لعموم أي عمل مضاد لمصلحة الآخرين وليس المقصود منه حصول مصلحة للفاعل، وَرُبَّمَا يكون عَلَنِيّاً أو بالسرّ، وتشابه كثيرا الكلمة العامية: جكارة.

(إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ{19})
أيها الكفار الذين أوهن تعالى كيدهم:

{إِن تَسْتَفْتِحُوا}، إن تطلبوا الفتح، إن تريدوا الانتصار على المؤمنين، فَهَا قد جاءكم الفتح أتاكم النصر، صحيح أنه أتى ولكن لم يكن لكم بل للمؤمنين، حَيْثُ فِي بدر خسرتم الحرب، وحصل الفتح للمسلمين عليكم.

ضع في بالك أن كلمة فتح التي صار مَشْهُوراً أنها تعني عَسْكَرِيّاً: الهجوم على مدينة وفتحها، أَنَّهُ ليس المعنى الأساسي للكلمة، لِأَنَّ الفتح معناه أوسع، ويشمل كل أَنْوَاعِ التمكّن من دخول أو الوصول لشيء كان مُغْلَقاً مَسْدُوداً أمامك ولا يمكنك الوصول إليه، لِأَنَّ العدو يقف في طريق أشياء إيمانية فكرية ونفسية وعملية ومالية واجتماعية... تريدها أنت،

والانتصار عليه هو فتح للوصول إلى ما كان يحجبه وَيُغْلِقُهُ وَيَمْنَعُهُ العدو عليك. وترى انطباق المعنى العمومي لكلمة فتح في الآية 26 من سورة سبأ {قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ}.

{وَإِن تَنتَهُوا}، أَيْ تَتَوَقَّفُوا ولا تعودوا أيها الكفار إلى أعمالكم النابعة من الكفر، فهذا الانتهاء، {خَيْرٌ لَّكُمْ}، شيء جيد لكم، {وَإِن تَعُودُوا}، أَيْ تَرْجِعُوا لأعمال الكفر، {نَعُدْ}، نرجع لنوهن كيدكم، {وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ}، لِأَنَّكُمْ فئة، أنتم مجموعة من الكفار تجمّعت للقتال، وحتى لو كان عددكم كَثِيراً، فهذا لن يغنيكم بشيء وَلَنْ يسدّ حاجتكم حتى تنتصروا على المؤمنين.

قارنها مع من يملك المال الذي يغنيه لأنه يمكنه الحصول على ما يريده بالمال، ولكن لو كان في الصحراء ولا يوجد ما يشتريه، فهذا لم يغنه ماله، والكفّار حتى لو كان عددهم كَبِيراً فلن يغنيهم، وَلَنْ يؤمّن لهم النصر إذا قرّر سبحانه هزيمتهم.

{وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ}، لِأَنَّهُ قديما كان معهم ولا يزال وسيبقى سبحانه يؤيدهم ينصرهم يشجعهم ويسدّد ضرباتهم... لِهَذَا السَّبَبِ، مهما حاولتم أو كثر عددكم فلن تنجحوا لأن تأييده تعالى محسوم لصالح المؤمنين.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ{20})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{أَطِيعُوا اللَّهَ}، وَاسْمَعُوا كلامه تعالى ونفّذوه، {وَرَسُولَهُ}، وَأَيْضاً أطيعوه لأن قراراته مبنية على ما يرضيه تعالى.

{وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ}، أَيْ لا تتجهوا باتجاه آخر وتتركوا طاعته، {وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ}، حَيْثُ يصل إلى مسمعكم وَتَعُونَ ما يقوله لكم، فلا تتصرفوا وكأنكم لم تسمعوا الكلام، وكما نقول: لا تديروا أذنكم الطرشى.

هَذَا هو الفرق بينكم وبين الآخرين، لِأَنَّكُمْ تَابِعُونَ لخطّ إلهي، وهذا ضِمْنِيّاً يعني كونكم تابعين لخطّ الصلاح والخير... ولستم مثل عدوّكم الذي لا يهمّه الحقّ من الباطل، وليس لديه ناموس، فما يراه مُنَاسِباً لهواه الفاسد يفعله، لِأَنَّ عِنْدَهُ الوسيلة تبررها الغاية، والغاية هي ما فيه مصلحته وما يهواه حتى لو كانت ظلما للآخرين... وأنتم لستم كذلك بَلْ أَنْتُمْ مُطِيعُونَ لله تعالى، ومطيعون لرسوله كأفضل نموذج عن قائد لكم يمشي على كلامه تعالى ولن يأمركم بما يعلم بأنه سوء.

كما ترى، مَسْأَلَةُ إطاعة الرسول فيما ينقله عنه تعالى متضمنة في إطاعة الله تعالى، وهكذا يصير معنى إطاعة الرسول كقائد فيما يراه مُنَاسِباً مما لم يوح له تعالى به، وهكذا تصير طاعة الرسول كقائد سارية في أي قائد فيه الصفات المناسبة إِيمَانِيّاً وَقِيَادِيّاً.

مَعْلُومٌ أَنَّهُ حتى طاعته تعالى لم يأمرنا بها على العمى، لِأَنَّهُ بَعْدَ الإيمان بصفاته الحسنى، وبعد تعليمه تعالى لنا الحكمة من أفعاله وقراراته، وبعد كلامه تعالى معنا بشفافية حتى نفهم معنى أوامره التي تعكس صفاته الحسنى من رحمة وحكمة، نَرَى فيها الحقّ والصلاح... وَبَعْدَ هذا كلّه تأتي مرحلة التسليم لله تعالى، ومثلها حالة التسليم للرسول من بعدما آمنّا به كرسول ورأينا أهليته للقيادة.

هل الأمر بالطاعة للرسول(ع) يَجْعَلُهُ دِيكْتَاتُوراً؟ لا، لِأَنَّ الرَّسُولَ محمّد(ع) لم يتعامل مع الذين من حوله كديكتاتور، حَيْثُ لَمْ يَأْمُرْهُمْ مَانِعاً لهم من النقاش فيما أمر به، بل شاورهم كما هو معلوم من التاريخ وجاء تأكيد قرآني عليه كما ورد في الآية 159 من سورة آل عمران {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}، ونفس الأمر موجّه لبقية المؤمنين أن لا يتعاملوا مع بعضهم بديكتاتورية كما ورد في الآية 38 من سورة الشورى {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}.

اَلْبَعْضُ من علماء المسلمين استغلّ الآيات والروايات التي تأمرنا بالوحدة تحت راية واحدة، والآمرة بالولاية...
وصاروا يدافعون بها حتى عن الحكّام الفاسقين الفاجرين آمرين الناس بمبايعة وطاعة الحاكم مهما فعل من فسق وفجور وإجرام... بحجّة أن الله تعالى يأمرنا بالطاعة العمياء للحاكم في سبيل وحدة المسلمين...

في مقابلهم من اتجه بنفس الصلابة في الاتجاه المعاكس مُنَظِّراً للقائد الفقيه كديكتاتور عليه صبغة القداسة، لِتَصِيرَ مخالفته مخالفة لله تعالى، شَاطِحاً بذلك بما هو أبعد عن حدود كلامه تعالى، وَشَاطِحاً عن سيرة الرسول الذي شاور، وغيّر رأيه من بعد مشورة، وتماشى مع المزاج العام طالما الأمور تتحمل التماشي... وعيّن الأنسب للمناصب القيادية والعسكرية والإدارية بغض النظر عن درجة إيمانهم، ولم يجعل طاعة المعينين من قبله كطاعته كرسول ينقل الكلام عنه تعالى.

بعبارة أصرح، مطلوب طاعة الرسول بما ينقله عنه تعالى بلا نقاش، وهذا يتضمن الإيمان أَسَاسَاً بِأَنَّ الصلاح والحق فيما يقوله تعالى، وأما من ناحية كون الرسول قَائِداً، حَاكِماً، رَئِيساً، إِمَاماً... فهذا شأن آخر، مطلوب فيه الطاعة ولكن من بعدما نتأكّد أن القائد اتّخذ القرار المناسب، وإلا فالمشورة بإخباره بالأنسب.

سبحانه وتعالى كان وَاضِحاً معنا أن الحالة الاسْتِثْنَائِيَّةَ لمحمّد كشخص بقلب سليم من الدرجة العالية والتي أهلّته ليكون رَسُولاً، والتي جعلته نموذجا لكل من سيأتي بعده كقائد، لِأَنَّ فَقَطِ الرسول محمّد(ع) له ميزة الضمانة الإلهية لنا أنه لن يأمرنا بما يعلم أَنَّهُ سُوءٌ، أو مخالف لما يقوله تعالى، حَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يَحْصُلَ أن يأمر الرسول بشيء لم يعلم أن نتيجته سيئة، كحالة تأمير خالد وقتله لأبرياء من بني جذيمة كما ذكروا في كتب التاريخ... وبالرغم من ذلك أعاد الرسول تعيين خالد مرة ثانية وثالثة... لأن الرجل فرض نفسه كخبير عسكري ميداني يمكنه تنفيذ المهمات بنجاح... حتى أنه كرّر القتل أثناء فتح مكّة...

هكذا ترى بوضوح أن الرسول(ع) كنموذج لأي قائد، لِأَنَّ الْفَرْقَ أن الرسول نموذج مثالي إِيمَانِيّاً وَلَنْ يَأْمُرَ بما يعلم أنه مخالف لرضاه تعالى، ونموذج شبه مثالي كقائد، حَيْثُ كَانَتْ آرَاؤُهُ جَيِّدَةً وهذا واضح من النتيجة التي أوصلت الأمور لبناء نواة دولة... وكان (ع) كثير الاعتماد على المشورة المفتوحة في المسجد وأمام جميع المسلمين، حَيْثُ لا القرآن نصبّه ديكتاتورا "ولا ملكا ولا حاكما" ولا هو الرسول محمّد(ع) تصرّف كديكتاتور، ولكن واقع حال غياب الحكومة في يثرب، وتمحور الناس حول الدين الجديد والرسول(ع)، جَعَلَ الأمور تَسِيرُ باتجاه صَيْرُورَةِ الرسول(ع) قائدا "حاكما" بِصَلاحِيَّاتٍ مُطْلَقَةٍ في كل الشؤون بسبب غياب شكل ومفهوم الدولة عن ذلك المجتمع.

حين أقول إِنَّهُ (ع) قائد شبه مثالي، فَلِأَنَّ بعض الأمور تستدعي معطيات ومعلومات وخبرات كان (ع) يفتقدها ويحتاج لخبرة أهل الاختصاص فيها، وهذا ليس منقصة له (ع)، بل هو واقع حال لأنه لا يوجد ولن يوجد بشري ليكون مِثَالِيّاً كقائد عالم بكل شؤون الدولة والحكومة، وإن قارنّا بينه (ع) وبين قادة العالم عبر التاريخ، فبكل تأكيد ومن دون أي مبالغة، وبحسب معلوماتي، فهو (ع) أعظم قائد على الإطلاق، حَيْثُ إِنَّهُ من الصفر في بيئة من أجلف أجلاف العرب "قريش"، ومحيطها أقوام برؤوس أيبس من الصخر عِنَاداً وَعَصَبِيَّةً وَجَهْلاً... وفي بيئة متخلفة عِلْمِيّاً وَثَقَافِيّاً وَتِقَانِيّاً وَصِنَاعِيّاً... وَحُكُومِيّاً وَعَسْكَرِيّاً وَاقْتِصَادِيّاً... من هؤلاء بنى (ع) نواة دولة لها قابلية الاستمرار، واستمرت كدولة تتبنّى بشكل مقبول قَوَانِينَ صَالِحَةً... بالمقارنة مع بقية الدول التي بنت امبراطوريات مترامية الأطراف...

لِنَتَوَسَّعْ من هنا قَلِيلاً لنتكلّم عن مجمل الآراء التي تناولت حالة النبي محمّد(ع) كحاكم، وفي غالبيتها تجد خلطا غَرِيباً عَجِيباً بين الاصطلاحات للمفردات السياسية والدينية، وأترك لك مراجعة أي كلمة استعملوها ووردت في القرآن لترى في دراستنا هذه أن الكثيرين منهم لم يكونوا على مستوى ما يتكلمون عنه لا نَظَرِيّاً ولا عَمَلِيّاً.

اَلنُّبُوَّةُ وَصْفٌ لمن تواصل معه الإله سبحانه، والرسول وصف لناقل الرسالة، وكلا الكلمتين لا تتضمنان ولا تعنيان أَبَداً أن الموصوف بهما أفهم الناس بشؤون حياتهم وحاجاتهم من الناحية المطلوبة مما نسميه حَالِيّاً بالحكومة، بل تعنيان أن الموصوف بهما هو من أفضل الناس إِيمَاناً وأشدهم حرصا على مرضاته تعالى بالعمل الصالح، وبالتالي سَيَنْقُلُ للناس كلامه تعالى بأمانة وسيكون نموذجا للمؤمنين.

هكذا سيختلف الرسل في نتائج تعاطيهم الشأن العام لمجتمعاتهم، لِأَنَّ صِفَاتِهِمُ الشخصية وقدراتهم الجسدية والفكرية والنفسية وخبراتهم في مختلف المجالات، وقدرتهم على حسن استخدام قدرات الذين حولهم... وغيرها العديد من العناوين ستحدّد النتائج المتوقعة من رسول نشيط في زمانه.

بالمختصر، الرسول محمّد(ع) مثله مثل غيره من الرسل، حَيْثُ بلّغ رسالة ربّه، وحاول هداية الناس، وبسبب فقدان الحكومة في بيئته، تصدّى الرسول(ع) لمختلف الشؤون، وبنى نواة حكومة، ونجح حيث فشل الكثير من الرسل، وَأَسَّسَ نواة دولة، وتلك النواة اتّخذت شكل القدرات المتاحة عند وحول الرسول(ع)، حَيْثُ لَمْ تكن دولة كاملة الأوصاف بنظام حكومي، بل كانت النموذج الأبسط لحالة تسيير أمور الناس لما فيه صلاحهم بحسب ما رآه الرسول(ع) مُنَاسِباً بحسب قدرته "وقدرة من حوله" على فهم الأمور، وبحسب ما هو متاح، وَطَبْعاً بحسب ما يتحمّل المجتمع.

حتى لو خطر على بال الرسول(ع) إجراء نظام حكومي لتعيين رؤساء قبائل من أصحاب الأهلية بَدَلاً من الكثير من الجماجم العفنة، لكان الفشل مصير دعوته حَتْماً.

من هذا المثال البسيط ترى، أن أي بحث في تاريخه (ع) لتحديد نظام حكومي أو اقتصادي أو قضائي أو عسكري... له صفة الإسلامية القرآنية ومن سنّة الرسول، سيكون مجرد بحث تاريخي لتجربة الرسول محمّد(ع) الشخصية مع شؤون الحكومة، ولن يكون شيئا له صفة القداسة الدينية، أَوَّلاً لأن القرآن لم يهتم إلا بعنوان واحد: تسيير أمور الناس بالصلاح، وبغض النظر عن كيفية تحقيق ذلك. وَثَانِياً لأن ما فعله الرسول(ع) لم يكن تطبيقا لنظرية حكومية إسلامية، بل كان تعامله (ع) مع واقع الحال بأنسب ما يرى.

(وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ{21})
{وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا}، {وَهُمْ}، في الحقيقة، {لَا يَسْمَعُونَ}، لِأَنَّهُ لَا ينطبق عليهم فِعْلاً وصف الذي سمع الكلام. قارنها مع من تتكلّم معه فَتَحَرَّكَتْ طبلات أذنه ووصل الكلام إلى دماغه ولكن لم يدخل إلى قناعته، وبعد كلامك معه ذهب وفعل شَيْئاً آخر غير الذي قلته له، فَمَا معنى أنه سمع كلامك؟

اَلْمُقَارَنَةُ هنا مع أي شخص لم يصر مُؤْمِناً حَقِيقِيّاً، سواء أكان فَاسِقاً أو مُنَافِقاً أو كَافِراً، فَهَؤُلَاءِ كيف يمكن وصفهم أنهم سمعوا كلام الرسول الإلهي إذا لم يتبعوه؟ لِذَلِكَ لَا تكونوا مثلهم ويصير إيمانكم مُجَرَّدَ إِعْلَانٍ فَارِغٍ لَا حقيقة عملية وواقعية وتطبيقية له، حَيْثُ إِنَّ كلام الآية كلام عام لكل ما ينقله الرسول(ع) وهنا الكلام بالخصوص عن نقل الرسول للكلام الإلهي عن القرار بِالْأَنْفَالِ لله تعالى وللرسول(ع)، وعن الأمر الإلهي بقتال الفرقة العسكرية للكافرين بَدَلاً من مهاجمة القافلة التجارية، وقبلها الأمر الإلهي العام بقتال الكافرين المعادين المحاربين للدين وللمتدينين. وهذه نماذج من موضوع الآية ويبقى الكلام على عموميته في سماع وطاعة ما يقوله الرسول(ع) بالتفصيل الذي ذكرناه في دراسة الآية السابقة.

عُمْقُ الآية يأخذك إلى الفرق بين المؤمن الحقيقي الملتزم بالطاعة، وبين الآخرين الذين لا فرق جَوْهَرِيَّ بينهم وبين الكفّار والفسّاق والمنافقين، لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يأمر إلا بما هو صالح، ورسوله(ع) لن يفعل إلا ما يراه صَالِحاً، لِأَنَّهُ لَوْ تَخَالَفَ مع الآخرين ما يقوله تعالى ويقوله رسوله(ع)، فَهَذَا يعني أن الآخرين يقولون شَرّاً وَفَسَاداً وَسُوءاً... وَبِنَاءً عليه مَا الفرق بينهم وبين من يقول بأنه من المؤمنين بينما هو لا يطيعه تعالى ولا يطيع رسوله(ع)؟ فَهُوَ يطيع من وفي ماذا؟

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ{22})
{إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ}، أَسْوَأَ الحيوانات التي تدبّ تتحرك على الأرض "في الماء أو اليابسة" ومن ضمنها نحن البشر، أَسْوَأَهَا، {عِندَ اللَّهِ}، {الصُّمُّ}، الموصوفون بأنهم فاقدون للقدرة على السمع، {الْبُكْمُ}، الموصوفون بأنهم لا يتكلمون بكلام مفهوم، {الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ}، الذين لا عقل لهم فَلَا يفهمون ما يسمعونه أو يرونه، ولا يقولون كَلَاماً يفهمه الآخرون.

نَحْنُ وبقية الحيوانات دواب، ولكن البقرة "كمثال عن الدواب" لَا تَمْلِكُ قدرة على فهم الكلام مثلنا، ولا تتكلّم عن عقل من مستوانا... وعندما ينظر تعالى إلينا، فَكُلُّنَا دواب، والبقرة والهرّة والعصفور... نعلم قدراتهم، أمّا نحن البشر فَلَدَيْنَا قدرة على السمع والتكلّم وعقل ما نسمعه، وقول ما عقلناه... بشكل متقدّم عن بقية الدواب، لِأَنَّ شَرَّ الدواب هم البشر الذين يصلهم الكلام الإلهي ولكنهم تَمَاماً كَالصُّمِّ فَكَأَنَّهُمْ أَصْلاً فَاقِدُونَ للقدرة على سماع الكلام، بتعبيرنا نحن: وكأنك تتحدّث مع الحائط. وهم بكم لأنهم إذا نطقوا لم ينطقوا بالحقّ بل بالكلام الباطل، لِأَنَّ مُجَرَّدَ التلفّظ بالأحرف وتركيب

الجمل لا يجعل الإنسان نَاطِقاً، لِأَنَّ الْمَوْصُوفَ بأنه ناطق يجب أن يكون لكلامه معنى حقيقي صحيح، وهؤلاء ينطقون بالكفر والكذب، ولا يعقلون، لِأَنَّ الْعَاقِلَ هو الذي يستوعب فِعْلاً ما يراه ويسمعه وهؤلاء لا يتصرفون بعقل، لِذَلِكَ يَتْرُكُونَ توحيده تعالى وَيَخْتَرِعُونَ آلهة ويعبدونها! ويخترعون شريعة على قياس هواهم الفاسد وَيَتْرُكُونَ شريعته الحكيمة الصالحة سبحانه!

نَنْتَبِهُ جَيِّداً، حَيْثُ هُنَاكَ مُؤْمِنٌ حَقِيقِيٌّ أَصَمُّ أو أَبْكَمُ، حَيْثُ فِي أعضاء جسده عطل، لِأَنَّ آيَاتِ القرآن لا تتحدث عن المصابين بعلّة في جسدهم، ولا تصفهم بأنهم شرّ الدواب، بل وبكل وضوح نعلم أن آيات القرآن تتحدث مع أناس سمعوا الرسل والكتب، وسمعوا الأدلة الإلهية، وعلموا أنها صالحة وعادلة ومحقّة ولمصلحة الجميع... لكنهم كذّبوا بها، فَهَلْ هَؤُلَاءِ فِعْلاً يَسْمَعُونَ؟ وهل عندما يتكلمون يقولون أشياء منطقية؟ وهل فِعْلاً لديهم عقل؟ لا.

بِالْمُنَاسَبَةِ يمكنك مراجعة سورة عبس الَّتِي سترى فيها القيمة التي يعطيها تعالى لمؤمن فقير أعمى على أثرياء ووجهاء من الكفّار...

إذَاً، فَالْفَرْقُ بينكم وبينهم واضح فَلْيَبْقَ كذلك، لِأَنَّكُمْ تسمعون لكلام الإله سبحانه ولرسول الإله، وهذا شيء رَاقٍ، وهم مستواهم الأقل من بين الدواب، حَيْثُ هُنَاكَ الْبَشَرُ الرَّاقُونَ، وبعدهم بقية الحيوانات، وهؤلاء في الآخر من أَسْوَأِ نوع.

(وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ{23})
{وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ}، في شرّ الدواب، {خَيْراً}، فلو وجد تعالى احتمال أن يكونوا مؤمنين حقيقيين، {لَّأَسْمَعَهُمْ}، لَجَعَلَ سبحانه كلمات رسوله(ع) تدخل إلى عقولهم وأفهامهم، مثلما يفعل سبحانه مع الأشخاص الذين لديهم نيّة صادقة ليكونوا مؤمنين، حَيْثُ يَجْعَلُ الكلام الإلهي مفهوما محبوبا لهم، أمّا هؤلاء فلن ينالوا المساعدة الإلهية لأنهم أصلا ليس في أفكارهم ونفسيتهم خَيْرٌ، فهم لا ينوون أصلا أن يهتدوا.

{وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ}، الله تعالى كلام الحق بالقوة، {لَتَوَلَّوْا}، لَتَوَجَّهُوا باتجاه آخر وتركوا الكلام الإلهي، {وَهُم مُّعْرِضُونَ}، لا يعتبرونه مُهِمَّاً.

تَذَكَّرْ دَائِماً ما يعرضه القرآن مِرَاراً عن صلابة الكفّار بالبقاء على كفرهم مهما جاءتهم من آيات، وهنا ترى أنهم حتى لو تدخّل سبحانه وأجبرهم على دخول الكلام الإلهي إلى وعيهم، ولو أسمعهم بالضبط ما هو قريب من فهمهم ليقتنعوا به... فحتى لو حدث ذلك سَيَرْفُضُونَهُ ولن يتبعوه. وَقَارِنْهَا مع شخص يريد الحصول على الكثير من المال بالطريقة السهلة السريعة، وقام بعمل سوء ونجح به، واستلذّ بالمال الحرام... حَيْثُ وَسَّعَ نشاطاته ليجمع مزيدا من المال... حَيْثُ إنَّ هَذَا يصل إلى مرحلة لن يقتنع فيها بأي كلام ليتوقّف عن نشاطاته طالما هو بالأمان من العقاب، حَتَّى لَوْ جئته بكلام مقنع تعلم يقينا أنه فهمه، لَلَحْظَةٍ سيقول في باله: هذا الكلام صحيح. ولكن في اللحظة التالية سيقول: حتى لو كان صحيحا فلن ألتزم به. هنا تقول الآية نفس الشيء عن الكفر، فحتى لو تدخّل سبحانه للحظة وأجبر عقول الكافرين على التركيز للاقتناع بصحّة الكلام الإلهي، فهم من بعدها فورا سيقولون: حتى لو كان صحيحا فلن نتبعه ولن نؤمن به... فَإِمَّا أَنْ يكون لديهم إرادة للإيمان أو لن يؤمنوا إلّا بالتلاعب بعقولهم بتغييرها بالقوة لدرجة فقدانهم لحرية الإرادة التي نتمتّع بها كبشر...

مَعْلُومٌ أَنَّهُ سبحانه وتعالى لن يتلاعب بعقل أي إنسان ليجبره على الإيمان، حَيْثُ خَلَقَنَا سبحانه "نحن والجنّ" مميزين عن بقية الكائنات بحرية الإرادة والاختيار مع شهوة وغريزة، وما نفعله باختيارنا نُحَاسَبُ عليه في الآخرة، وحتى لو كفرنا كلّنا فلن يجبرنا سبحانه على الإيمان ولن يتلاعب بعقولنا ولن يجعلنا مبرمجين غَصْباً عَنَّا على الإيمان كالآلات...

بِنَاءً عَلَيْهِ تطرح الآية افتراضا عن جعل الكلام الإلهي في وعي الكافرين ولم تنتقل إلى تلاعبه تعالى بعقولهم.

كَثِيراً مَا مرّ معنا في دراستنا هذه أن العديد من الآيات تشير إلى أن نزول الوحي على كافر ما لَنْ يجعله مؤمنا، وهنا ترى نفس المفهوم، فلو سمعت كلامه تعالى بأذنك أو أوحاه تعالى لك في وعيك، حَيْثُ أَسْمَعَكَ كلامه في وعيك مباشرة، فإن كان فكرك ونفسيتك يتماشى مع كلامه تعالى، وهذه حالة الأنبياء، فلن ترفض ما تسمعه وستتماشى معه كلّه، أمّا

الكافر فسيجنّ جنونه إن تكرّر سماعه للكلام الإلهي في وعيه، لأنه لا يتماشى مع فكره ونفسيته، وَلَنْ يَهْتَدِيَ بل سيبحث عن طريقة للتخلّص من الصوت الذي يسمعه...

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ{24})

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين: لِيَكُنْ عندكم ردّة فعل لتحقيق ما يأمركم به تعالى ورسوله(ع)، {اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ}، {إِذَا دَعَاكُمْ}، أَيْ إذَا أعلن لكم عن شيء، {لِمَا يُحْيِيكُمْ}، وَإِذَا دَعَاكُمُ الله تعالى عبر رسوله(ع) حَيْثُ طَلَبَ منكم فعل شيء ما، وهذا الشيء سيكون فيه حياتكم، إِذْ لا مَعْنَى لحياة الناس إن كانت بعقيدة وشريعة وسلوكيات فاسدة، لِأَنَّ الْكَلامَ السابق كان عن الفرق بين خطّ المؤمنين الملتزمين بكلامه تعالى وكلام رسوله(ع) وبين خطّ الآخرين الفاسد.

عَلَى هذا النسج نفهم ما ورد في الآية 179 من سورة البقرة {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، وما ورد في الآية هنا، حَيْثُ فِي هَذِهِ الآيات كلام عن الحياة الدنيا للبشر والتي ستفقد معناها إن لم تكن آمنة وسعيدة، وإن لم تكن في طريق الحقّ، ولم يحصل منها كسب لثواب نافع في الآخرة.

كَمِثَالٍ تطبيقي صريح عن ذلك ما ورد في الآية 180 من سورة آل عمران {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، وَدَمْجاً مع ما ورد في الآية 38 من سورة محمّد {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ}، اَلْبُخْلُ هنا في الدنيا سيكون له آثار سلبية تطال البخيل، حَيْثُ إِنْ شَاعَ البخل بين الناس ولم ينفقوا على المحتاجين ولا على الشؤون العامّة للمسلمين ومن ضمنها الإنفاق على ما يحفظ الأمن ويردّ خطر الأعداء، فهو نفسه البخيل إن صار فقيرًا فلن يجد من ينفق عليه، وإن تحوّلت الظروف الأمنية للمجتمع نحو الأَسْوَأِ فهو البخيل سيتعرض للضرّ مثله مثل بقية الناس.

مُضَافاً لكل ما سبق إِنَّ مُخَالَفَةَ كلامه تعالى ستحرمنا من الثواب وأجر الآخرة، وبالتالي حَيْثُ فِي الْعَقِيدَةِ الحقّ والقصاص على معيار الشريعة الإلهية، والإنفاق وعموم ما يأمر به تعالى... فَفِيهِ حياة لنا في الدنيا والآخرة.

مَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ ما سبق مبني على كونه تعالى جعل فينا قابلية تمييز الخير من الشرّ، وسبحانه لا يأمر إِلَّا بالخير ولا ينهى إِلَّا عن شَرٍّ، وبالتالي إِنَّ الدَّعْوَةَ للالتزام بكلامه تعالى هي دعوة الحقّ، حَيْثُ هِيَ دَعْوَةٌ لِمَا يُحْيِينَا، وَإِلَّا فَمَا الفرق بيننا وبين البهائم؟ حَيْثُ هُنَاكَ شريعة الغابة حيث القوي يأكل الضعيف، وهناك شريعة مزاجية تترك الضعيف حَيّاً لِيَكُونَ مُسَخَّراً لمصالح الأقوياء... وهناك شريعته تعالى التي أعطت للجميع ضمانًا بالحقّ بالتساوي.

لِنَرْجِعْ للآية، {وَاعْلَمُوا}، أيها المؤمنون، {أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ}، أَيْ يَفْعَلُ شيئًا ليقف كَمَانِعٍ، {بَيْنَ الْمَرْءِ}، بين الشخص بوعيه الذاتي، {وَبَيْنَ قَلْبِهِ}، وبين أساس فكره ونفسيته، نَحْنُ أَشْخَاصٌ والغنم والدجاج أشخاص "دَوَابٌّ" أيضًا، ولكن نحن لدينا قلب أي لدينا تفكير ونفسية مختلفة عن بقية الدواب، حَيْثُ يُمْكِنُهُ أَنْ يَحُولَ بيننا وبين قلبنا فيجعل بيننا وبين تفكيرنا ونفسيتنا حاجزًا، وَنَصِيرُ بمستوى بقية الحيوانات، وَإِذَا لَمْ نَنْوِ طاعته تعالى، فَيُمْكِنُهُ سبحانه جعل قلوبنا بلا حياة، حَيْثُ يَفْقِدُ فكرنا ونفسيتنا معناهما الإنساني وَنَصِيرُ بمستوى أقل من الدواب فلا نعد نرى الفرق بين الحق والباطل وبين الخطأ والصواب.

لا يَكُونُ في تفكيرنا وحواسنا أي معنى للحياة حتى لو كنا حاصلين على الدرجات الجامعية ونعمل في التدريس والاختراعات ونحقّق الإنجازات... حَيْثُ طَالَمَا لا نستجيب لله تعالى وللرسول(ع) حَالَ تعالى بيننا وبين الحياة التي لها معنى حقيقي لفكرنا ونفسيتنا. وَإِذَا تَذَكَّرْنَا الآيات العديدة التي تصف الكفّار من عموم الناس وحتى من بعض المنتمين لدينه تعالى، حَيْثُ وَصَفَتْهُمْ بِالدَّوَابِّ والأنعام التي لا تسمع ولا تتكلم، بل الأنعام أفضل منهم كما ورد في الآية 44 من سورة الفرقان {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً}، وأن قلوبهم أقسى من الحجارة بل الحجارة ألين وأفضل من قلوبهم، كما ورد في الآية 74 من سورة البقرة {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ

مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}، سَنَفْهَمُ بكل سهولة ما تقوله الآية هنا، مَنْ لا قلب له فَلا حَيَاةَ له في اعتباره تعالى، وفي اعتبار العقلاء الحكماء من الناس.

{وَاعْلَمُوا} أيها المؤمنون، {أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}، بَعْدَ مَوْتِكُمْ لَنْ تختفوا أو تندثروا أو تذهبوا لمكان آخر غير تابع لسلطته تعالى... بل سيتم حشركم، جمعكم بقرار منه تعالى سواء قبلتم أو رفضتم.

بِنَاءً عَلَيْهِ اِنْتَبِهُوا أَنَّ المسألة اختيارية حَيْثُ يُمْكِنُكُمْ أَنْ لا تستجيبوا لله تعالى وللرسول(ع)، ولكن هذا سيؤدّي بكم إلى فقدان معنى الحياة هنا في الدنيا، وفي الآخرة ستتحملون أنتم العواقب السيئة لذلك فهناك حشر وحساب ومجازاة.

(وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ{25})
يَا أيها الذين أعلنوا أَنَّهُمْ مُعْتَقِدُونَ وملتزمون بهذا الدين الإلهي، {وَاتَّقُوا}، تجنبوا تحاشوا، {فِتْنَةً}، شَيْئاً يعجبكم أو تَتَأَثَّرُونَ به فَيُغَيِّرُكُمْ، كامتحان تسقطون فيه فَتَتَرَاجَعُونَ عن إيمانكم، {لَّا تُصِيبَنَّ}، لا تحصل تلك الفتنة، {الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً}، حَيْثُ إِنَّهَا حين تصيبكم لا تكون محصورة بالذين لم يكونوا منصفين ولا عادلين، لِأَنَّ الظَّالِمِينَ هم الذين لم يكن معهم حق وَظُلْماً اختاروا أن لا يؤمنوا كما يجب، ففسقوا أو نافقوا أو كفروا، والفتنة لا تصيبهم وَحْدَهُمْ حَيْثُ هُنَاكَ أَنْوَاعٌ من الفتن تصيب الجميع حتى المؤمنين من ضمنهم.

هَا تَرَى فقدان القيمة للحياة إذا أصاب المجتمع شيء يغيّره لِلْأَسْوَأِ، حَيْثُ يَحْكُمُ الظالمون وينشرون سلطتهم بالظلم...

اَلْكَلامُ هنا عن أصل الإيمان الحقيقي، حَيْثُ لَا يقبل سبحانه الانتساب إلى الإيمان فقط بالكلام بلا قناعة وبلا تطبيق فعلي لكلامه تعالى، وتعلم من عموم القرآن أنه تعالى يصيب المجتمعات بِبَلَاءَاتٍ تغربل الناس، لِأَنَّ مَنْ كان مُنْتَسِباً للإيمان بالكلام فقط، فَهَذَا سَيَسْقُطُ في الفتنة وسيظهر على حقيقته، وتقرأ ذلك في الآية 179 من سورة آل عمران {مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}، ولكن حين يكون الفسقة والمنافقون كُثُراً في المجتمع المسلم، سَيَتَعَرَّضُ كل المجتمع لفتنة، لشيء يعجبهم فيغريهم فَيَتَمَاشَوْنَ معه، أو يجبرهم بتهديد مصالحهم أو بقوّة السلاح... على ترك الإيمان، وهذا شيء سيصيب الجميع ومن ضمنهم الْمُؤْمِنُونَ الْحَقِيقِيُّونَ، لِأَنَّ الْكَلامَ هنا مع الذين أعلنوا أنهم مؤمنون، معتقدون وملتزمون بدينه تعالى، وَإِذَا تراخيتم في إيمانكم "فكرا وممارسة" سَتَصِلُونَ إلى حالة انتشار الظلم والكفر، ومن بينكم قد ينبعث ذلك أو من عدوّكم الذي سيتسلط عليكم وينشر عقيدته وشريعته وسلوكياته... فَاتَّقُوا ذلك، طَبْعاً عبر طاعته تعالى وطاعة رسوله(ع).

{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}، لِأَنَّ هُنَاكَ ما يعقب وما يأتي بعد الكفر ظُلْماً، ومن بعد السقوط في الفتنة، ولن يكون سهلا عاديا بل سيكون شديدا، وتعلم أنه عقاب خالد في جهنّم.

نَنْتَبِهُ هنا، حَيْثُ إِنَّ مَا حصل في معركة أحد ذَكَرَتْ تفاصيله سورة آل عمران بداية من الآية 121، حيث لم يلتزم بعض المسلمين بأوامر الرسول(ع) وتقرأ ذلك في الآية 152 {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ}، لِذَلِكَ كَانَتِ النتيجة خسارة المعركة... وهنا الحديث عن الطاعة لله تعالى وللرسول(ع) بشكل عام، ولكن عندما نتذكر الخسارة في معركة أحد كنموذج، نفهم عَمَلِيّاً أن الفتنة لم تقع على الذين خالفوا الأوامر بشكل خاص، بل أصابت كل المؤمنين، حَيْثُ مَاتَ وَجُرِحَ منهم الكثير...

نَفْسُ الْكَلامِ عن الفتنة في الحالة السابقة التي كان عليها المؤمنون في أول بداية دعوة الرسول محمّد(ع)، حَيْثُ إِنَّهُمْ إِذَا لم يشدّوا قوّتهم ليحافظوا على كيانهم كمجتمع مؤمن يحكم نفسه، فَسَيَعُودُونَ لحالة تسلّط الظالمين حَيْثُ مِنَ الْمَعْلُومِ سوء الحياة فيها تحت حكمهم...

اَلْكَلامُ هُنَا عامّ ولكنه بالخصوص في سياق الأمر الإلهي بمهاجمة القوّة العسكرية للكفّار بَدَلاً من مهاجمة القافلة التجارية، وإلا فبعدها الفتنة... ومن قبل ذلك عموم طاعته تعالى وطاعة رسوله(ع)، وَإِذَا تلاعب المجتمع بهذه الأمور وتهاون فيها فَسَتُصِيبُهُمْ فِتْنَةٌ لَا يَنْجُو منها أحد، لِأَنَّهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ سَيَتَخَالَفُونَ بِفَسَادِهِمْ... وسيصيرون ضعفاء وسيتعرضون للضرر من الأعداء.

لَاحِظْ وَانْتَبِهْ، حَيْثُ إِنَّنَا نفرح إذا انتسب الكثيرون إلى حزبنا حتى لو لم يكونوا من المؤمنين الملتزمين بالميثاق الحزبي، وَيَكْفِينَا أنهم صاروا جَمَاهِيرَ لنا، أمّا سبحانه وتعالى فلا يهمّه هذا الأمر، ولا يقبل أن يوصف مجتمع ما بأنه مؤمن إلا إذا كان فِعْلاً مُؤْمِناً، وَإِذَا تراخوا إِيمَانِيَّاً تَسِيرُ الأمور نحو إصابتهم بالفتنة التي تجعل الفسّاق والمنافقين حاكمين والكافرين...

(وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{26})

{وَاذْكُرُوا}، أيها المعلنون إيمانهم تذكّروا واستحضروا في بالكم "العناية الإلهية بكم"، {إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ}، كان عددكم كمؤمنين قليلاً، {مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ}، ولم تكونوا أقوياء أمام أعدائكم، وكانوا يستضعفونكم ويعاملونكم على أنكم ضعفاء، ويهينونكم أو يضربونكم أو يقتلونكم... وأنتم لا تستطيعون الدفاع عن أنفسكم. ولم تكن هذه حالتكم فقط في مكّة بل في عموم أي أرضٍ تذهبون إليها، فأي مجتمع آخر في الأرض وهو على غير دينكم ستكونون ضعافا أمامه.

{تَخَافُونَ}، تشعرون بخطر لا يمكن تَجَنُّبُهُ، {أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ}، ولا تعرفون متى يقوم الكفار باختطافكم بأخذكم بحركة سريعة، لسجنكم أو ضربكم أو قتلكم... فهذا الاحتمال كان واردا دائما ولا يمكنكم تَجَنُّبُهُ إن حصل.

{فَآوَاكُمْ}، وضمّكم سبحانه إليه وجعلكم تحت رعايته، وعمليا هو هجرة المؤمنين مع الرسول(ع) من مكّة وتجميع نواة إيمانية في مدينة يثرب "المدينة"، {وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ}، ساندكم ودعمكم سبحانه بتحقيق ما تريدونه كمؤمنين، ولم تعودوا مستضعفين وصار بإمكانكم الدفاع عن أنفسكم، وها صار لكم قوّة قتالية تخوضون فيها المعارك.

{وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ}، وجعلكم تعالى تحصلون على الأشياء التي تسدون بها حاجاتكم وما ترغبونه، وتأكلونها أو تشترون بها ما تأكلونه من الطيبات من الأشياء الجيدة وليس من الأشياء الخبيثة السيئة، حيث كنتم تخافون من الفقر بسبب الهجرة وكنتم تخافون من نقص الموارد بسبب زيادة عدد السكان في مدينة يثرب... ولكن سارت أموركم على التمام...

كل ذلك فعله تعالى معكم، {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، إذْ من المتوقّع ومن المفروض منكم أن تعترفوا وتعلنوا له تعالى أنكم حصلتم على أشياء جيّدة منه سبحانه.

نعلم مما هو مشهور جدا في التاريخ ومن القرآن أن أول سنوات دعوة النبي محمد(ع) في مكة كانت صعبة جدا على الذين آمنوا معه، حيث كان عددهم قليلا، وكانوا يتعرضون لكل أشكال العنف الكلامي والجسدي والنفسي والمالي... ولكن تغيّر حالهم للأحسن عندما هاجروا إلى يثرب "المدينة"، ولم يعودوا مستضعفين، وها صار لهم قوّة عسكرية يواجهون بها الكفّار وجها لوجه كما حصل في معركة بدر. والآية توجّه كلامها للمؤمنين الذين هاجروا لتذكّرهم بحالتهم السابقة وفرقها عن حالتهم الحالية، وتوجّه كلامها للأنصار الذين استقبلوا مهاجري مكّة، فمن سيعتدي على مسلم فقد صار سيحسب حسابا لقوّة المسلمين العسكرية.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ{27})

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين الإلهي: {لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ}، فنفذوا ما اتفقتم عليه معه سبحانه ومع رسوله(ع)، فلا تتراجعوا عنه وتقوموا بما يخالف الإيمان، {وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}، فأنتم بإعلانكم لإيمانكم صار عندكم أمانة، كشيءٍ يجب أن تحافظوا عليه، وهو تديّنكم عبر اعتقادكم والتزامكم بأوامره تعالى وأوامر رسوله(ع) فلا تخونوها وأنتم تعلمون أنها أمانة يجب المحافظة عليها وتعلمون أن على خيانتها حساباً. طبعاً الآخرون الذين أصلاً لم يعاهدوه تعالى تصرفهم ليس خيانة، وهذا لا يعني أنهم لا علاقة لهم بالدين الإلهي، لا، حيث مصيرهم معلوم وهم حتماً إلى النار.

(وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ{28})

{وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ}، التي من فضّة أو من ذهب "أو من ورق" أو أراضيكم أو مواشيكم... {وَأَوْلاَدُكُمْ}، الذين أنجبتموهم وتحبونهم كثيراً، فهما {فِتْنَةٌ}، شيء يعجبكم وتتغيّرون بسببه، أو يفرض عليكم التغيّر وتتجاوبون معه، حيث لتحصيل المال يُعْرَضُ عليكم تحصيله بالطرق السيئة كالربا... ولراحة أولادكم مادياً وأمنياً لا تسألون عن الحلال

والحرام، ولإرضاء أولادكم تسكتون عن فعلهم هم للحرام... فلا تتعلقوا بالمال والأولاد وتخونوا إيمانكم بالله تعالى ورسوله(ع). {وَأَنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ}، يوجد على إيمانكم شيء تحصلون عليه وحدّد سبحانه قيمته سلفاً، {عَظِيمٌ}، وليس أجراً عادياً بل أكثر من رائع وأكثر من مذهل، حيث أجر الحفاظ على الأمانة معه تعالى ومع رسوله(ع) هو جنات خالدة فوق الوصف في الروعة، ولا يمكن مقارنة السعادة التي تحصلون عليها هنا من المال والأولاد بالسعادة التي ستحصلون عليها في الآخرة، فالتزموا بكلامه تعالى حتى تحصلوا على الأجر العظيم. معلومٌ لك أن عموم كلام القرآن عن نماذج، فالمال والأولاد من أبرز النماذج التي لأجلها نُفْتَتَنُ، وهناك لائحة أطول من نماذج أخرى عرضتها الآية 14 من سورة آل عمران {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}.

(يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{29})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين الإلهي: {إِن تَتَّقُوا اللَّهَ}، فإذا تجنبتم غضبه وعقابه تعالى ولم تخالفوا كلامه فعندها، {يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا}، يجعلكم تفرقون بين الحق والباطل، وتصيرون ترون الحقّ وتميزونه عن الباطل، وكما ترى لا زالت السورة في فقرة الفرق بين المؤمنين والآخرين وتعطيك نتائج الفرق بشكل مباشر، {وَيُكَفِّرْ}، يغطي ويستر سبحانه، {عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ}، الأعمال السيئة التي قمتم بها ولا يجعلها تظهر حيث في يوم القيامة لن تتحاسبوا عليها ولن يراها الآخرون، {وَيَغْفِرْ لَكُمْ}، يتجاوز عن ذنوبكم، حيث إنّ الأساس ستر ما يمكن ستره عليكم، وتكفير ذنوبكم، وإن لم تكن من النوع الذي يتحمّل إخفاؤه، وأفترض مثالاً عن ذلك الخطأ الذي نرتكبه مع أحد من الناس ويطالبنا به في الآخرة، فسيغفره تعالى بعد إرضاء من له حقّ على المؤمن... {وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}، والله منسوب إليه صفة الفضل وهي صفة تقديم أشياء جيّدة للآخرين من دون أن تكون فرضاً واجباً عليه سبحانه، وتقديماته سبحانه توصف بأنها عظيمة لأنها من أعلى المواصفات. ها هو يخبركم أنه تعالى يستر ويغفر الذنب، فتحمّسوا وتشجّعوا للحصول على فضله العظيم هذا. لاحظ ارتباط الفرقان بشكل ما مع تكفير الذنوب وغفرانها، فرؤية الأمور السيئة أنها سيئة، والابتعاد عنها لأننا نراها سيئة ونكرهها ولا نرغب بها، هو الفرقان، وهذا يأتي من القلب السليم إذا حافظنا على سلامته وينتج عنه تُقًى، أو يأتي من إجبار النفس على التقى وهو بشكل ما يكون عملياً التمرّن والتعوّد على ترك ما حرّمه تعالى وبعدها نسترجع حالة القلب السليم لنرى الأمور السيّئة أنها سيئة، حيث ننغمس في المحبة أو الرغبة في شيء سيئٍ، ولكن نتركه اتقاءً من غضبه تعالى، فمع التمرّس على ترك السوء سنسترجع حالة القلب السليم لنراه سيئاً ونكره فعله... وهكذا يتكوّن الفرق الجوهري الحقيقي بين المؤمن الحقيقي وبين من انتسب للإسلام ولم يدخل الإيمان إلى قلبه، ونتيجة هذا الفرق تظهر بوضوح في الآخرة، حيث صاحب الفرقان كاره نادم على ذنوبه وسيئاته، يَمْحُو سبحانه ما يَنْمَحِي منها ويستره عن الجميع، ويغفر سبحانه الباقي ويظهر في أثناء الحساب ولكن لا ينال المؤمن "الحقيقي" العقاب عليه. ورد صراحةً في الآية 31 من سورة النساء أن تكفير السيئات مشروط بالابتعاد عن الكبائر {إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا}، ومن آيات عديدة من القرآن نعلم أن التوبة من الذنوب ومهما كانت الذنوب كبيرة فإن التوبة الحقيقية تجعل المؤمن مستحقاً للتكفير عن ذنبه.

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ{30})
إليك النص بعد المراجعة النحوية والإملائية وتطبيق الشروط المطلوبة بدقة:

بعد أن صار الفرق واضحاً بين المؤمنين والآخرين، ندخل على مثال عن استضعاف المؤمنين والعناية الإلهية بهم، وهو نفسه التعليل لأمره تعالى للمؤمنين بقتال الكفّار، والذي انبنى عليه أساساً الوصول للنصر على الكفّار واستملاك ما كان معهم، والذي أوصل المسلمين لحالة السؤال عن الغنائم "الأنفال". فهذا كتاب إلهي يمحور كلّ شيء حول الحقّ والباطل، ويريد سبحانه أن يجعل معركة بدر نموذجاً ليشرح فيه ما أوصل المؤمنين إلى الذهاب لمواجهة القوّة العسكرية للكافرين بدلاً من مهاجمة قافلتهم التجارية، فالموضوع المالي مهمّ لأن الكفّار استولوا على أملاك وبيوت المؤمنين التي تركوها في مكّة، مضافاً إليه حصارهم للمؤمنين عبر الغطاء من كفّار مكّة لكل من يؤذي المؤمنين أينما كانوا... ولكنه "في حينها" ليس الهجوم على القافلة التجارية بأهمية ضرب القوّة العسكرية للكفّار.

{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، فيخطط لك الكفار شيئاً سيئاً يضرّك، حتى ينتهوا من دعوتك ودينك لذا قرّروا ضربك أنت شخصياً، وكانت خياراتهم كالتالي: {لِيُثْبِتُوكَ}، فيجعلوك ثابتاً في مكان ما، فيحبسوك أو يجعلوك تقيم في منزلك ويمنعوك من مغادرته "إقامة جبرية"، {أَوْ يَقْتُلُوكَ}، فينهوا حياتك علناً أمام الناس أو اغتيالاً بالسرّ، {أَوْ يُخْرِجُوكَ}، فيطردوك وينفوك من مكة، فهذه كانت خيارات مكرهم لك، خيارات تخطيطهم السيّء لك.

{وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ}، حيث في مقابل تخطيطهم ضدّك يوجد تخطيط إلهي ضدّهم، {وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}، فمكره سبحانه مكر حقّ، حيث إنّ الكافرين الظالمين يستضعفون المؤمنين... فيستحقون أن يقوم سبحانه بعمل ضدّ مصلحتهم، وسبحانه دائما حين يمكر لا يظلم ولا يعتدي، أمّا الآخرون فيمكرون أحياناً للاعتداء ولظلم الآخرين، ولذلك فإنّ مكره تعالى مكر خير حسن دائماً لأنه تعالى دائما يمكر بعدل وحكمة.

من التاريخ المشهور تعلم أنه حين كان الرسول محمّد(ع) لا يزال في مكّة وقبل أن يهاجر، تعرّض لمحاولات فردية وجماعية من الكفّار لتشويه صورته وإيذائه للتوقف عن دعوته... وحين قرّر الهجرة من مكة إلى يثرب "المدينة" تداول ملأ مكّة الحلول لإيقاف نشاطه(ع) نهائياً، وجاءت مختلف الاقتراحات من نفيه أو حبسه أو قتله... وفي الأخير قرار قتلهم له (ع) ذهب للتنفيذ، ولكن في تلك الليلة ذهب الإمام علي إلى بيت الرسول(ع) وبقي فيه، وخرج الرسول(ع) فظنّت المجموعة التي تراقب البيت أن الإمام علياً خرج وبقي الرسول(ع) في البيت، وبعدها هجموا على البيت... وكان الرسول(ع) ابتعد عن الخطر وانطلق مهاجراً باتجاه مدينة يثرب...

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَـذَا إِنْ هَـذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ{31})
نكمل مع مواصفات الذين قاتلهم المؤمنون في معركة بدر: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ}، يقرأ أحد ما عليهم من مستند، وهو القراءة عليهم من هذا القرآن، {آيَاتُنَا}، وهنا المقصود هو قراءة جمل القرآن المميزة بمستواها الإلهي والمنسوبة له تعالى، {قَالُوا}: {قَدْ سَمِعْنَا}، حيث إنّ هذا الكلام سمعناه وأعرناه انتباهنا وفكّرنا فيه.

{وَلَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا}، فلو أردنا لقمنا بتأليف كلام مثل كلام القرآن، وهذا سهل، ولا نجد فيه شيئاً يقنعنا أنه من مصدر إلهي.

{إِنْ هَذَا}، فهذا الكلام فقط، {إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}، مجرد أشياء مسطورة، حيث تقرؤون علينا كتباً قديمة قالها الأولون، الناس الذين كانوا أولاً، كانوا قبلنا، مثل أساطير اليونان والرومان والصين والهند... وهي قصص تراثية مسلية وليست واقعية.

لاحظ السورة هنا نقلت تعليق الكفار على القرآن ولكن لم تردّ عليه لأن تركيز السورة على إظهار موقف الكفار من كلامه تعالى فقط، وأنهم استسخفوه تماماً! ونجد في سور أخرى رداً على هذا النوع من الكلام، ورغم ذلك فالآية هنا بإشارة بسيطة ردّت عليهم عندما لفتت انتباهنا أنهم يكذّبون آيات من الإله سبحانه، ومن هم أمام كلام منه تعالى؟ وقولهم إنهم بإمكانهم تأليف كلام مثله، معلوم سخافته لأنهم لم ولن يستطيعوا ذلك لا هم ولا غيرهم، ولا إن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فلن يستطيعوا، وراجع في ذلك دراسة الآية 88 من سورة الإسراء {قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}.

(وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ{32})
{وَإِذْ قَالُواْ}، قال الكفار تعقيباً على إنكارهم للقرآن: {اللَّهُمَّ}، الذي أنت بصفة الإله لنا، {إِن كَانَ هَـذَا}، القرآن وهذا الرسول، {هُوَ الْحَقَّ}، هو الصواب الصحيح، {مِنْ عِندِكَ}، فعلاً أنت سبحانك أرسلت لنا هذا الرسول مع هذا القرآن، ونحن أنكرناه، {فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ}، فاجعل الحجارة تنزل علينا من السماء لتقتلنا، {أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}، أو فليأتِ إلينا شيء يؤذينا في جسدنا ويكون مؤلماً. نحن نتصور سقوط الحجارة علينا كالمطر بأنه عذاب شديد، ولكن إن كان هناك عذاب آخر أشدّ، فليكن، أنزله علينا لأننا لن نؤمن لهذا الرسول ولا لهذا القرآن. هم بهذا الدعاء كنموذج عن قول البعض منهم ما يفيد هذا المعنى، وهم يعترضون عليه تعالى، ففرضاً كان محمّد رسوله والقرآن كتابه، فهما بنظرنا سيئان لأن كلامهما لا يتماشى مع أفكارنا ونفسيتنا وعاداتنا وثقافتنا التي نراها صحيحة وحقّة وعادلة ومناسبة... ولم نقتنع بكلام رسولك المخالف لما نحن عليه ويمكننا أن نؤلّف مثل كتابك بكلام يتماشى مع ما نحن عليه... ورسولك وكتابك يهددانا بالعذاب إن لم نؤمن... فإن كان محمّد رسولك حقاً والقرآن من عندك حقاً، ها نحن نعلن لك أننا لن نؤمن بهما وليكن عذابك لنا شديداً.

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ{33})
سترى أنهم يستحقون نزول العذاب ولكن هناك سببان يمنعان نزول العذاب: {وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ}، حيث لم يكن ليسبب ضرراً لكفار مكة، {وَأَنتَ}، أيها الرسول محمّد(ع)، {فِيهِمْ}، وما دمت محجوزاً ممنوعاً من المغادرة، فلن ينزل عليهم أي نوع من العذاب حتى تغادرهم. {وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}، حيث من المشهور في التاريخ ومن عموم القرآن أنه كان في مكّة مؤمنون مستضعفون محجوزون وبعضهم مسجون وهم ممنوعون من مغادرة مكّة، هؤلاء كانوا يستغفرونه تعالى ولا قدرة لهم على مغادرة مكّة، فلن ينزل العذاب على الكفّار وهم فيها، وتنتبه لذلك في طيات الآية 25 من سورة الفتح {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}، إذ فيهم مؤمنون مستضعفون ولكنهم مخلوطون مع الكفّار وليسوا مزيَّلين عنهم، أي ليسوا مفصولين وحدهم عنهم، حيث بعضهم يتماشى مع الكفّار تماماً كأنه منهم، وهم مستضعفون لا يقدرون على الهجرة... من عموم القرآن تعلم أنه حين يقرّر سبحانه إنزال عذاب على قوم ما، فإن الرسول والمؤمنين يأتيهم أمر بمغادرة المكان حتى ينزل العذاب على من يستحقونه، وحين قال الكافرون إنهم مستعجلون لنزول العذاب عليهم، ورغم استحقاقهم لنزوله، في حينها لم يكن للرسول(ع) وللمؤمنين قدرة على المغادرة، وحتى فيما بعد عندما هاجر الرسول(ع) إلى يثرب وهاجر عدد من المؤمنين قبله وبعده، بقي في مكّة مؤمنون مستضعفون وبعضهم مسجون...
وتعلم من آيات أخرى متفرقّة أنه تعالى لم يقرّر أصلاً نزول عذاب من عنده على كفّار مكّة لأنهم فيما بعد سيؤمن عدد كبير منهم، وسيكون من ذريتهم الكثير من المؤمنين، لذا بقي سبحانه يهددهم بنزول العذاب هنا في الدنيا إلى أن حصل فتح مكّة وأسلموا، وبعدها ترى لفت انتباه إلى أن هذه النتيجة كانت معلومة وبسببها لم يحصل عذاب دنيوي لأهل مكّة، وراجع في ذلك دراسة سورة الفتح عموماً وخصوصاً الآية 24 {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا}.

(وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{34})
نكمل مع تعليل أمره تعالى المؤمنين بقتال الكفّار. {وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ}! فهم فعلاً يستحقون أن يصيبهم منه تعالى ما يضرّهم ويؤذيهم، {وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، فمن يُرِدْ من المؤمنين الحقيقيين الذهاب إلى المسجد الحرام وهو المكان الذي فيه الكعبة والصفا والمروة... فإنهم يمنعونه.

تعلم مما هو مشهور جداً من التاريخ أنهم كانوا يضايقون النبي محمّد(ع) كثيراً حين كان يصلّي في المسجد الحرام، فحركات الصلاة واضحة وتعبّر عن التزام القائم بها بالدين الذي يقول عنه النبي محمّد(ع)، فإن كان هو النبي(ع) المحمي من عشيرته "بني هاشم" يتعرّض للمضايقة أثناء صلاته في المسجد الحرام، فمن البديهي أن الآخرين المستضعفين لم يكونوا أصلاً قادرين على أداء الصلاة في المسجد الحرام فضلاً عن إعلان إيمانهم.

معلومٌ أنه من بعد هجرة الرسول (ع) للمدينة منع الكفّار المسلمين عامّة من دخول مكّة للعمرة أو الحجّ.

{وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ}، حيث إنّ الكفّار ليسوا مرجعاً للمسجد الحرام فهو ليس تابعاً لهم، وهو ليس ملكاً لهم، وهم مشركون وكفّار بدين رب البيت، ولم يعيّنهم تعالى كمرجع لتحديد من هو المسموح له بالدخول أو الممنوع من الدخول إلى المسجد الحرام، بينما هم عيّنوا أنفسهم أولياء عليه بل ومانعين للموحدين من التعبّد فيه؟ فكيف لا يكونون مستحقين لنزول العذاب عليهم؟

{إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ}، فقط وفقط مرجعية وتبعية المسجد الحرام، {إِلَّا الْمُتَّقُونَ}، حصراً الأشخاص الذين يتجنبون شيئاً ما، وهنا الكلام عن المتجنبين لفعل السوء وعلى رأس ذلك الشرك به تعالى، فهؤلاء يستحقون أن يكونوا مرجعاً يحدّد من يدخل ومن لا يدخل إلى المسجد الحرام، حيث أمر تعالى المتقين بمنع المشركين من دخول المسجد الحرام حين صار تحت سيطرتهم كما ورد في الآية 28 من سورة التوبة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا...}.

{وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}، حيث إنّ الكفّار في بالهم أنهم هم المرجعية التي تحدّد من المسموح له بدخول المسجد الحرام، على أساس أن الأمور هكذا تجري على هواهم ومزاجهم بالتسلّط على بيت تحدّد ليكون للموحدين له تعالى بينما هم مشركون ولا يرون ذلك سوءاً. وولايتهم على المسجد الحرام يعتبرونها كتراث وكملكية عائلية لقريش! لذا فإنّ

الكلام عن المواصفات اللائقة بمن يكون مسؤولاً عن المسجد الحرام، هو كلام لا يفهمون معناه، فأكثرهم لا يعلمون الفرق بين كفرهم وشدة سوئه، وبين الإيمان الحقيقي.

ضع في بالك أن المسجد هو تسمية لمكان السجود، كتسمية لمكان الذكر "العبادة"، وصفة الحرام له تعني أنه المسجد الذي له حرمة، فتحرم فيه بعض الأمور، حيث يوجد أشياء ممنوع القيام بها أثناء التواجد في ذلك المسجد، فله حرمة كما نقول ذلك عن حرمة بيتي التي تمنعك من الدخول إليه أو التجوال فيه أو أخذ أو استعمال ما فيه... بدون إذني، ففي المسجد الحرام لا تتصرّف وكأنك في مكان عام لتفعل ما ترتاح له ويخطر ببالك من أحاديث وتسلية وضحك... ومضافاً شدة الحرمة في فعل الأمور السيئة فيه من سباب وكذب وتعدٍّ على الآخرين... والمسجد الحرام كلمة متعارف عليها بين الناس أنها لخصوص الباحة التي حول الكعبة التي في مكة، وهي باحة كبيرة حول البيت وتحوي الصفا والمروة وزمزم... والمسجد الآن في بالنا هو البناء المغلق الذي له قبة ومئذنة، ولكن هذا التصور هو شيء حديث، أما قديماً فبقعة الأرض حتى لو كانت من دون أي بناء عليها وبدون سياج... يصحّ تسميتها "مسجد"، فهي مكان للسجود "للعبادة" ولا داعي لأن يكون فيها بناء، وهكذا كان المسجد الحرام قديماً باحة بلا سور ولا سقف.

(وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{35})
إنْ كنت ترى الكفّار يقومون بطقوس في المسجد الحرام، فلا تفهم منها أي قيمة لهم ولطقوسهم، وبالتالي طقوسهم وحركاتهم لن تعطيهم حقّ الولاية على المسجد:

{وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ}، فقط كان توجّه الكفار، {عِندَ الْبَيْتِ}، وهو الكعبة التي في المسجد الحرام، {إِلَّا مُكَاءً}، فقط ضجيجاً من الفم كصوت الصفير وأشباهه من الغوغائية، إذ ليست صلاة حقيقية وهي ليست توجّهاً نحوه تعالى لعبادته، {وَتَصْدِيَةً}، وليست إلا ضجيجاً بالحركات كالتصفيق باليدين وضرب بالرجلين، حيث إنّ المكان مسجد والحركات يبدو منها عبادة كتوجّهٍ نحوه تعالى، كصلاةٍ، ولكنها في الحقيقة ليست سوى كلام كالضجيج غير المفهوم وبلا قيمة وكالحركات الغوغائية بلا تعبير عن أي احترام وخضوعٍ له تعالى.

من المشهور أن كفّار مكّة لم يمنعوا من يحجّ ويطوف حول الكعبة وهو يصفر ويصفّق ويغنّي ويرقص أو ما يشبه ذلك من الحركات التي لا تعبّر عن العبادة وقدسية المكان، ويمكن تفسير الآية بقصدها هذا، ولكن كلامها عمومي ويشمل صلاة أي كافر بدينه تعالى، حيث إنّ كلمات صلاتهم وحركاتها فارغة من المعنى لأنهم كفّار مشركون.

معلومٌ أنهم منعوا المؤمنين الحقيقيين من الذكر والعبادة في المسجد الحرام! وهي مقارنة بين المؤمنين الذين منعهم الكفّار من الصلاة في المسجد الحرام، وهم مصلّون حقيقيون وصلاتهم لها معنى حقيقي، وفي المقابل صلاة الكفّار أصلاً فارغة ولا معنى لها لأنهم مشركون به تعالى ومخالفون لكلامه في عقيدتهم وشريعتهم وسلوكياتهم، فأي معنى يبقى لصلاتهم وهم بهذه الحال؟! لذا تصفها الآية هنا بالتهريج بأصوات وحركات غوغائية إذ ليست صلاة لأن الذي يفعلها فارغ إيمانياً لأنه مشرك وكافر بالرسول وبالكتاب الإلهي... وأعماله فاسدة فهو كافر بشريعته تعالى... فما معنى صلاة هذه النوعية من الناس حتى لو كانوا يفعلونها في المسجد الحرام؟

{فَذُوقُوا}، وتحسسوا، {الْعَذَابَ}، ما يضرّكم ويؤذيكم، {بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ}، بسبب إنكاركم لوحدانيته تعالى ورسوله(ع) وقرآنه، إذ في الآخرة ستلمسون العذاب لمساً وتحسساً... فلن يكون كالحلم ولن يكون شعوراً عابراً بل ستشعرون به بقوة.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ{36})
{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، إن الذين أنكروا الدين الإلهي، {يُنفِقُونَ}، يصرفون ويدفعون، {أَمْوَالَهُمْ}، {لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ}، حيث من يُرِدْ سلوك الطريق الإلهي فإنهم يمنعونه بتقديم أموالهم للمقاتلين ضد الدين الإلهي، وللكهنة والشعراء الساخرين السابين لدينه تعالى، ويَقِفُون في المسلك الذي يوصل الناس إلى الله تعالى. {فَسَيُنفِقُونَهَا}، سيصرفون تلك الأموال وتذهب من يدهم، {ثُمَّ تَكُونُ}، تلك الأموال، {عَلَيْهِمْ}، على الكافرين الذين أنفقوها، {حَسْرَةً}، حيث فيما بعد سيرون أن أموالهم ذهبت ولم يستفيدوا منها، إذ كان يمكنهم صرفها في سبيله تعالى لو أنهم آمنوا، ولَاستفادوا منها

بالحسنات، أو على الأقل كانوا صرفوها على أشياء تسعدهم في الدنيا. بعد صرفهم وخسارتهم لتلك الأموال التي سيتحسّرون على صرفها، {ثُمَّ يُغْلَبُونَ}، حيث لم تنفع أموالهم التي دفعوها للسلاح والطعام والمقاتلين ضد الدين الإلهي، ولن يكون دينهم منتِشراً ولا قوّتهم ستكون أقوى من المؤمنين. {وَالَّذِينَ كَفَرُواْ}، أنكروا الدين الإلهي، {إِلَى جَهَنَّمَ}، إلى المكان الموصوف بسوء ما فيه من النار المتأججة والعذاب، {يُحْشَرُونَ}، يتم حشرهم، ويتم جمعهم بقرار منه تعالى سواء قبلوا أو رفضوا، حيث بعد موتهم سيعيد تعالى خلقهم، ولن ينسى منهم أيَّ أحدٍ، إذْ كل المنكرين للدين الإلهي سيتم جمعهم لمواجهة جهنم.

(لِيَمِيزَ اللّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{37})

هذا الحشر للكفار إلى جهنم، {لِيَمِيزَ اللّهُ}، يفصل على أساس معيار، {الْخَبِيثَ}، السيئ الفاسد المكروه، {مِنَ الطَّيِّبِ}، من الجيد المحبوب. حيث بعد إعادة الناس كلهم إلى الحياة في الآخرة، لن يبقوا مخلوطين، بل سيتم تمييز الخبثاء وجعلهم في جانب، وتمييز الطيبين وجعلهم في جانب آخر. {وَيَجْعَلَ}، الله تعالى، {الْخَبِيثَ}، الفاسد السيئ، {بَعْضَهُ عَلَىَ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً}، يراكمه ويجعله كومة واحدة فوق بعض، {فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ}، في المكان الذي كل ما فيه سيئٌ جداً حيث فيه النار المتأججة والعذاب، ويراكمهم تعالى فوق بعضهم ويرميهم في جهنّم، وهذا التوصيف تقصد الآية منه أن تريك الاحتقار والإهانة لهم، حيث من بعد انتهاء الحساب فإنَّ رميهم في جهنم سيكون بطريقة مهينة كما تصف عدة آيات ومنها الآية 94 من سورة الشعراء {فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ}. {أُوْلَـئِكَ}، الخبثاء، {هُمُ الْخَاسِرُونَ}، هم الذين فقدوا شيئاً له أهمية كبيرة، حيث فقدوا رحمته تعالى وفقدوا الدخول إلى الجنّة الخالدة.

(قُل لِلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغَفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينِ{38})

قل، عبر هذا القرآن، للذين كفروا، للذين أنكروا هذا الدين الإلهي ولم يؤمنوا به، قل لهم: {قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ}

{إِن يَنتَهُوا}، فإذا توقفوا نهائياً ولم يرجعوا لكفرهم، {يُغْفَرْ لَهُم}، يتجاوز عن سيئاتهم، {مَّا قَدْ سَلَفَ}، ما حصل في الماضي من أعمالهم السيئة، فلا يحاسبهم سبحانه على ما فعلوه في السابق، فيغفر لهم سبحانه الكفر وقتال المؤمنين إذا آمنوا وتوقفوا عن قتال المؤمنين، وطبعاً ليس المعنى مغفرة كلّ ما سلف مع الاستمرار عليه، لا، حيث إنّ الكلام هنا حصراً عن كفرهم وقتالهم للمؤمنين، فما يستمرون عليه من سيئات من بعد إعلانهم لإيمانهم فسيتحاسبون عليه وحتى على ما فعلوه في السابق منها إن لم يتوبوا منها من بعدما أسلموا.

{وَإِن يَعُودُوا}، فيكرّروا الكفر وقتال المؤمنين، {فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ}، أي الطريقة التي يتصرّف بها تعالى عادة مع هذه النوعية من الناس قد مضت ومرّت وحصلت سابقاً مع الناس الذين كانوا أولاً، إذْ من قبل كان هناك من آمن ثم كفر وطريقة تعامله تعالى معهم أن يعذّبهم، وقد تعذّبوا. فهذا تهديد صريح للكفّار الذين يسمعون هذا القرآن بأن إيمانهم مرّة واحدة "أو مرّات" لن ينفعهم ويمنع عنهم العذاب إن عادوا للكفر.

هنا وما سيأتي في السورة من كلام في الآية 70 عن الفدية التي دفعها الأسرى، ترى نموذجاً واضحاً جداً أن القرآن كلام إلهي بحقّ، وللأسف لم نُشِرْ لكل الموارد التي تبيّن الفرق بين كلامنا وبين كلامه تعالى، واكتفينا في هذه الدراسة بالإشارة إلى القليل منها، فالقرآن يدلّ على أنه من مصدر إلهي، ولكن بعض المواضيع أوضح لي من الأخرى، ومواضيع غيرها أوضح لك مما هي واضحة لي، فهنا ترى المستوى الإلهي في التعامل مع من كفر به تعالى وكذّب كلامه، وكذّب رسله، ومنع المؤمنين عن مسجده تعالى، وأنفق ماله وجهده بالصدّ عن سبيله تعالى، وقاتل المؤمنين... حيث باب المغفرة مفتوح له دائماً ليتراجع! وهذا المستوى من الكلام إلهي بوضوح.

وتلاحظ في المصاحف المطبوعة بما يسمّى: الخط العثماني. ستجد كلمة "سنّة" مكتوبة بالتاء الطويلة "سنّت"، فقد كتبها الجيل الأول من المسلمين على اللفظ وليس على القواعد التي درجت فيما بعد لكتابة الكلمات العربية، وتذكّر دائماً أن رسم الكلمات تطوّر مع الزمن ولا يزال يتبدّل، فقسم من الكلمات يرسمونه على قواعد الصرف والنحو، وقسم على جمالية الرسم، "مرأة مرءة، هذا هاذا..."، وقسم ضروري للتمييز بين الكلمات "الذين للجمع واللذين للمثنى"، وقسم لا زالوا مختلفين عليه "رؤس رؤوس..." ... ولو راجعت تاريخ كتابة اللغة العربية لوجدت ما فعله الجيل الأول من المسلمين إنجازاً عظيماً في رسمهم لكلمات القرآن بشكل يمكن قراءته بأقرب دقّة ممكنة، ورغم اعتمادهم الكبير على

ذاكرة الحفظ سماعاً من الرسول(ع) أكثر من اعتمادهم على القراءة من النص بسبب فقر اللغة العربية في حينها للرسومات التي تمكننا من قراءة الكلمة بالاعتماد على الرسم فقط، فقد كانت الأحرف بلا نقط والكلمات بلا حركات، وقواعد كتابة اللغة العربية كانت بدائية جداً...

على كل حال فالجيل الأول على ما يبدو من رسمهم للقرآن، كانوا يعلمون بوجود تاء طويلة وأخرى تصير هاء عند الوقف عليها، ولنفرض أنهم هنا لم يريدوا أن تختلط كلمة "سنة" التي تشير لاثني عشر شهراً، مع كلمة "سنّة" التي تشير لطريقة في التصرّف، فكلا الكلمتين كانتا ستكتبان مثل بعض بالخط القديم "سه"، طبعاً هذا افتراض تبريري نضربه كمثال ولا ندري إن كان صحيحاً، وربما كتبوها تبعاً للّفظ وصلاً إجبارياً مع الكلمة التي تليها، حيث في هذه الجملة لا معنى للوقوف على كلمة سنّة، وإجبارياً يجب وصلها بما بعدها للحصول على المعنى، وربما فعلاً هو خطأ إملائي حتى على مقاييس زمانهم ولا تبرير له... فعلى أي حال فالقرآن لم ينزل مكتوباً منه تعالى، بل ملفوظاً عن لسان نبيّه محمّد(ع)، وطالما رسم الكلمات سيساعد على لفظ الكلمة بشكل صحيح، فلا مشكلة في رسمها بأي طريقة كانت، وفي حينها رأى كاتب هذه الكلمة ومن معه من بقية المتابعين لكتابة القرآن من الجيل الأول من المسلمين، أن هذه الرسمة تفي بالغرض للفظ الكلمة.

ويمكنك التوسّع في هذا الموضوع لترى أن بقية اللغات فيها نفس ما في اللغة العربية من اختلاف رسم الكلمات عبر الزمن، وفيها نفس مشكلة رسم الكلمة لتكون على اللفظ الصحيح... وقد تطوّر علم رسم الأصوات "الفونوتيك" منذ عهد قريب جداً، فوضعوا رسماً لكل نبرة ولهجة صوت لكل ما طاله الدارسون من كلّ اللغات، وهو مستعمل في القواميس الحديثة، ولحد علمي فهو ليس مستعملاً في أي لغة معتمدة بين الناس، وحتى لغة "الأسبيرنتو" التي اخترعوها لتتخطّى المشكلات والتعقيدات المنتشرة في لغات البشر، حتى هذه صار فيها لهجات واختلافات في رسم الكلمات!

وإن لم تكن متخصصاً باللغة العربية فلا تشغل بالك كثيراً بتاريخها وفروقات الرسم القرآني عن الرسم الدارج في زمنك والذي تتعلمه في المدرسة، فقد وصلنا القرآن من الفم إلى الأذن، برواية عليها عامّة وغالبية قراءة المسلمين، والتي درج تسميتها برواية حفص عن عاصم، فلا تنسَ أن هذه القراءة لم تكن مماثلة في القيمة لبقية القراءات التي رووها، لا، بل هي قراءة عامّة المسلمين وغالبيتهم، والقرّاء الآخرون لم يعتمدوا على الذاكرة الجماعية للمسلمين، أو تعلّموا القراءة ممن لم يعتمد الذاكرة الجماعية للمسلمين... فكان بين قراءتهم وقراءة جمهور المسلمين بعض الفروقات، فانتقلوا إلى بلدان بعيدة عن مكة والمدينة والكوفة، وبعدها صار في بعض المجتمعات قراءة مختلفة عن قراءة المسلمين الأوائل... فما بين أيدينا من قرآن مرسوم ومسموع ونسمّيه "قراءة حفص عن عاصم" فهي قراءة الذاكرة الجماعية للأجيال الأولى من المسلمين والتي نقلوها إلينا بالحرف والحركة بالضبط كما هي.

أكرر لك، في مرحلة ما برز بعض الأشخاص المخالفين "ببعض الكلمات أو باللهجة أو ببعض الحركات..." لقراءة جمهور المسلمين، وبدلاً من تصويب قراءتهم لإعادتها إلى ما هو منتشر بين عموم المسلمين، للأسف أثبتها البعض في الكتب كقراءة معتمدة، وللأسف نسبوا كل تلك القراءات للرسول(ع)! وأول سبب لذلك هو وجود بعض الروايات التي فيها كلام عن صحابي للرسول(ع) يقول إنه سمع الرسول(ع) يتلو الآية أو الكلمة بشكل مختلف عمّا تقوله الناس وبقية الصحابة... وبدلاً من تصويب ذاكرته، وتنبيهه، أو إهمال ما قاله والمخالف لجمهور طويل عريض ممن سمعوا التلاوة من الرسول... أو بدلاً من تكذيب الناقل للرواية... بسبب تقديسهم للروايات وللأشخاص التي تتحدّث عنهم الروايات، قرّروا وبكل بساطة أن كل القراءات صحيحة ومنقولة عن الرسول(ع)! فإن لم يكن هذا هو الاستهتار والسذاجة... وتوصيفات أخرى... وإن لم يكن هذا تحريفاً لكلامه تعالى فما هو التحريف؟

والغريب أن رواياتهم والتي فيها قراءة من صحابي ما، ويخالف فيها قراءة الجمهور، في تلك الروايات تأكيد من القائل على صحّة ما سمعه من الرسول(ع) لنفي صحّة قراءة الآخرين! وليس لتثبيت قراءتين من الرسول! ولكن تقديسهم للروايات وللمذكورين في الروايات، ولأمراض نفسية وفكرية، وأمراض إيمانية، أعلنوا أن كل القراءات منقولة عن الرسول(ع)!

والأغرب من ذلك اعتبارهم لشيء معلوم أنه مُحْدَث ومخترع من بعد وفاة الرسول، وقائله لا يدّعي استناده على قراءة منقولة من الرسول، بل يقول علناً إنه يستنسبها لغوياً، كتقويم أو تصحيح منه لكلامه تعالى! كالمنقول عن ابن أبي عبلة

والكسائي والفرّاء وابن هشام... وأمثالهم من اللغويين، فاعتبر علماء المسلمين لكلام هؤلاء قيمة كقيمة كلامه تعالى! وكأنها قراءة صحيحة للقرآن! ويكفيك هذا المقدار لتعلم الطامة الكبرى لتقديسات من سبقنا للروايات وللمذكورين فيها حتى لو خالفت كتابه تعالى، واستهتارهم بذلك لدرجة قبولهم بلا اعتراض لأي اقتراح لقراءة لكلامه تعالى ومخالفة لقراءة جمهور المسلمين! والطامة الأكبر هو تقديسنا نحن لهم على أساس أنهم كبار علماء المسلمين!؟ ونرفض أي تقويم لما فعلوه وصار مترسخاً كثقافة دينية نتوارثها، فبكل صراحة وجهاراً نقول: القراءة الصحيحة التي نطق بها الرسول(ع) ولم ينطق بغيرها، هي القراءة التي نسمّيها قراءة "حفص عن عاصم" الذي لم يكن متميزاً بقراءتها لوحده، بل من صنّف القراءات اختار حفصاً كممثل لقراءة جمهور المسلمين وترى هذا بوضوح في كتبهم. وأي رواية أو قراءة غير هذه، فهي مردودة مرفوضة، ولم يقلها الرسول(ع)، وهي تحريف عن نسيان أو جهل أو اشتباه... أو عن قصد حبّاً بالتميّز والشهرة... أو عن غباء... أو عن فسق... والله تعالى أعلم بالنوايا، ولكن بعضها ظاهر بوضوح...

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {39})
إذًا، لم يحصل قرار إلهي بنزول عذاب من عنده على الكفار، وجب عليكم أنتم أيها المؤمنون: {وَقَاتِلُوهُمْ}، فقوموا بإنهاء حياة الكفار، {حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ}، حتى لا يتمكن الكفار من فرض الكفر على المؤمنين فيجبروهم على ترك الإيمان بسبب قوّتهم القاهرة للمؤمنين، {وَيَكُونَ الدِّينُ}، ما يَدينُ به الناس، ما عليهم من تبعات لخالقهم كونهم مخلوقين، {كُلُّهُ لِلَّهِ}، فلا يقوم الناس بأي تصرفات تعبّر عن تبعات عليهم لإلههم إلا لله تعالى.

أنتم أيها المؤمنون مأمورون بإنهاء حياة هؤلاء الكفّار المقاتلين لكم الصادين عن دينه تعالى... حتى ينتهي أيُّ دين مسيطر بالقوّة بين الناس غير دينهم له تعالى.

{فَإِنِ انْتَهَوْا}، فتوقّف الكفّار بشكل حاسم وبلا تكرار عن فتنة المؤمنين وقتالهم، {فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}، حيثُ إنَّ صورةَ أعمالهم يدركها تعالى ويعي معناها، لأنه ليس مثل كاميرا المراقبة التي تسجّل ولا تفهم ما يجري. ويعلم سبحانه إن كانوا فِعْلًا توقفوا أم ينتظرون الفرصة المناسبة للاعتداء عليكم، وعلى هذا الأساس يعلم تعالى ماذا سيفعل بهم، فلا يمكنهم خداعه تعالى، يعني أنتم تنتهون عن قتالهم إذا انتهوا عن قتالكم حتى لو بقوا كفارًا، ولكنهم فِعْلًا صاروا مسالمين، أو فَرْضًا أعلنوا إسلامهم... على أي حال فهم تحت المراقبة الإلهية الدقيقة، ومن ناحيتكم انتهى تكليفكم بقتالهم ولكنهم يبقون تحت مراقبته تعالى.

نزول العذاب على الأمم الكافرة بحسب ما نفهمه من القرآن، ما كان لينزل إذا كان هناك قوة للمؤمنين، وينزل فقط "بحسب ما نعلم من القرآن" في حالة ضعف المؤمنين وفقدانهم القدرة على الدفاع عن أنفسهم، فعندها ينزل العذاب الإلهي، وتلاحظ هنا الآيات تناولت هذا الموضوع حتى وصلت إلى أمر المسلمين بالقتال، لأنه لديكم قوة عسكرية، فلن ينزل عذاب مباشر منه تعالى على الكفار، فقاتلوهم.

كثيرًا ما نجد في التفاسير قَطْعًا لآية قرآنية عن سياقها وتفسيرها وحدها، وآيتنا هنا ليست مفصولة عن سياقها ولا عن عموم القرآن، فالأمر بقتال الكافرين ليس عموميًّا، حيثُ إنَّ مِنَ الآية نفسها ترى أن أمر قتال الكفّار حتى ينتهوا، فهو أمر بقتال الكفّار المعادين المعلنين للحرب على المؤمنين، وليس أَمْرًا بقتال كل من كفر حتى لو كان مُسَالِمًا، حتى الكافر المعادي المحارب إذا انتهى عن هذه العداوة فلا يجوز للمسلمين القيام بأي عمل عدائي ضدّه. وهذا شيء سترى فيه الكثير من التفاصيل في سورة التوبة، وسورة الممتحنة، وخذ كمثال عن ذلك الآية 8 من سورة الممتحنة التي كانت تتحدّث عن كفّار مسالمين {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، وهذه ضعها دائمًا في بالك لأنها قاعدة إلهية عامةٌ وليست حالة استثنائية.

كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، فهي ليست اصطلاحًا مخصّصًا كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، وهي عامةُ تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئًا ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني فأنا مدين له، حيثُ إنَّ خلقَهُ سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعًا بسبب سَعَةِ تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني

تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... وكلُّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة فهناك ندان بأعمالنا، فما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هو التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضًا يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسبًا بحكمته قد يديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ {40})
{وَإِنْ تَوَلَّوْا}، فتوجَّهَ الكفار باتجاه آخر غير العرض الذي قدّمه لهم تعالى من مغفرة إن آمنوا، أو بأمره تعالى للمؤمنين بتركهم إن الكفار سالموا، {فَاعْلَمُوا} أيها المؤمنون أنَّ الله مولاكم، فهو مرجعكم ويعتبركم سبحانه تابعين له، وعمليًّا فهو سبحانه سيهتم بكم في حال قرر الكفار قتالكم وفتنتكم.

اللهُ تعالى {نِعْمَ الْمَوْلَى}، فما أحسنه سبحانه من مرجع يعتني بمن يتبعونه، {وَنِعْمَ النَّصِيرُ}، فما أحسنه سبحانه في تحقيق ما يريده التابعون له.

(وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {41})
{وَاعْلَمُوا} أيها المسلمون {أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ}، والكلام هنا عن أي شيء كسبتموه من الحرب كمقاتلين، من دواب ومال وسلاح... {فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ}، إذْ إنَّ عشرينَ من المئة من قيمة ما حصلتم عليه فهي لله تعالى وللرسول ولذي القربى... وما ستذكره الآية من عناوين لتوزيع العشرين بالمئة هو أسهم، والسهم الذي له تعالى معلوم أنه لا يوضع في صندوق ليأخذَهُ سبحانه وتعالى، لأنه يُصْرَفُ في سبيله تعالى، وأول ما يخطر ببالنا هو بناء المساجد، بينما هو سهم لعموم أمور المصالح العامّة للمسلمين بحسب الأولويةِ التي تحدّدها الظروف، حيثُ إنَّ تجهيز المقاتلين للدفاع عن المؤمنين... أهمّ من بناء المساجد، وبناء المستشفيات والمدارس ربما أهم من بناء المساجد وخاصة إن كان أغلبها شبه فارغ من المصلين!

أَلفِتُ انتباهك لما ورد في الآية 282 من سورة البقرة عن التأكيد على الكتّاب والشهود أن يأتوا ليشهدوا، وأنه لا يُضارَّ كاتب ولا شهيد، وضمنا مصاريف وتكاليف حضورهم للشهادة وتعويض وقتهم وتركهم لأشغالهم ليشهدوا... فهي على نفقة المحكمة في القضايا العامّة... وألفت انتباهك أيضًا لما ورد في الآية 11 من سورة الممتحنة {وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا}، إذْ إنَّ الكلام عن خسارة مسلم لمهر زوجته الكافرة التي لم تردّ له المهر حين تركته لأنه أسلم، فعلى المسلمين دفع المهر لهذا الزوج... وبناء عليه فأي موضوع للمصلحة العامة للمسلمين وفيه تكاليف لأشخاص أو تجهيزات أو إيجارات... فمن أين تأتي بالتكاليف؟ وأي ضرر حصل لمسلم بسبب إسلامه فمن يعوّض عليه؟ وهكذا ترى أن العنوان الكبير لعموم كل شؤون المسلمين ينضوي تحت مسمّى سبيله تعالى.

{وَلِلرَّسُولِ}(ع)، فله سهم من الخمس، وعمليًّا فإنَّ الحصّة التي خصّصها تعالى للرسول(ع) من الغنائم كانت للمصاريف التي ترتبط به(ع) كونه قائدًا، لأنه معلوم من سيرته (ع) أن المحتاجين من الناس كانوا يقصدونه (ع) شخصيًّا طلبًا للمساعدة المالية منه(ع)، ويستقبل (ع) الوفود الذين يضطر إلى استضافتهم وإطعامهم... ويتوقعون الحصول على هدايا وعطايا... وهذه حاله(ع) وحال عموم أي قائد...

{وَلِذِي الْقُرْبَى}، وهذه الجملة عامة وعمل العلماء على تخصيصها، إذْ إنَّ الغالبية منهم يفسرونها بقرابة الرسول محمّد(ع) والقلّة يقولون إنها تشير لأقرباء الغانمين، وبالتحليل فهل لو كان أقرباء الرسول(ع) أو أقرباء الغانمين أغنياء

فلهم حصّة من الخمس تزيدهم غِنًى حتى مع وجود فقراء بين المسلمين؟ وهل لأقرباء الرسول(ع) أو أقرباء الغانمين إن كانوا مساكين، هل لهم حصّة من الخمس لتوزيعها عليهم وحدهم، وهناك حصّة مماثلة في القيمة لتوزيعها على بقية الفقراء والمساكين؟ وهذا يعني الدخول في تقسيم الخمس على العناوين بالتساوي، وهذا عمليًّا لا معنى له، إذْ إنَّ حالة ابن السبيل نادرة، فهل نترك لهذا العنوان حصّة ونراكمها إلى أن يأتي ابن سبيل؟ أم نأخذ حصّة هذا العنوان لنعيد توزيعها على بقية العناوين بالتساوي؟ وهل نفعل نفس الشيء بحصّة الرسول محمّد(ع) لأنه مات؟

التفكير في دراسة الآية يأخذك باتجاه كلامها عن الأولويات وليس عن حصص متساوية بين العناوين، وبالتالي المساكين من أقارب الرسول وأقارب الغانمين لهم الأولوية، وسترى ذلك من مراجعة الآيات التي وردت فيها كلمة "قربى" وأصرحها الآية 90 من سورة النحل {إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى}، والآية 26 من سورة الإسراء {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا}، ومن الآية 83 من سورة البقرة بكلامها مع بني إسرائيل {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ} ترى حتمًا أنها لا تشير لقرابة الرسول محمّد(ع)، لأنَّ الكلام مع بني إسرائيل هو نفسه الكلام معنا.

بناءً على ما هو مشهور بين غالبية المسلمين "فقهيا وتطبيقا في الزمن الأول للخلفاء وحكم الأمويين..."، عن حرمان أقارب الرسول محمّد(ع) من عموم الصدقات، وتخصيصهم بسهم محدّد من الغنائم والفيء، فهذا ليس من صريح القرآن، فإن كانوا مساكين فلن تجد في القرآن ما يحرمهم من الأخذ من الصدقات، ولا تجد في القرآن ما يجيز إعطاءهم من الصدقات أو خمس الغنائم أو الفيء ما يجعلهم أغنياء في مقابل وجود مساكين في نفس الوقت من بقية المسلمين.

هكذا ترى بناءً على مفاهيم القرآن أن أقارب الذي سينفق لهم الأولويةُ، فأقاربه المساكين لهم الأولويةُ على المساكين الآخرين، ولم يخطر ببالي أي كلام آخر غير هذا ويتماشى مع مفاهيم القرآن، وترى ذلك جليًّا في مسألة فدية المقتول التي تذهب لأقاربه "الوارثين"، ووجوب تحمّل الأقارب للأعباء المالية عن بعضهم البعض، وفي هذا الكلام تفاصيل لن ندخل بها هنا...

يمكننا فهم الكلام عن ذوي القربى، بأنَّهُ الأولويةُ لمساكين أقارب الرسول(ع) ومساكين أقارب الغانمين، مع أولوية لأقارب الرسول(ع)، إذْ إنَّ الأنفال "وهنا الكلام عن الغنيمة" فهي لله تعالى وللرسول(ع)، فإن كان عنوان ما في سبيله تعالى حَرِجًا يحتاج لكل الموارد المالية، كحالة حرب تكاليفها عالية، فهي تلغي كل بقية العناوين، وإن لم تكن الحالة حرجة فبعدها بالأولوية ما يأمر به الرسول(ع)... وبعدها بالأولوية مساكين أقارب الرسول(ع)، وبعدها وبشكل صريح ورد مرارًا في القرآن تكون الأولوية لمساكين أقارب الغانمين...

بالتحليل، سبب الأولوية لأقارب الرسول(ع) هو نفسه سبب الأولوية لأقارب الذي سينفق، وهناك أمور إضافية خاصة بأقارب الرسول محمّد(ع)، لأنه معلوم أنهم في زمنه وبعده تعرّضوا للضرر من الآخرين بسبب قرابتهم العائلية منه (ع)، وكمثال عن ذلك مقاطعة كفّار مكّة اقتصاديًّا لبني هاشم لأنهم يحمون الرسول محمّد(ع)، والذي أدّى إلى انعزال العديد من بني هاشم مع مستضعفي المسلمين لقرابة السنتين في أرض تابعة لأبي طالب عمّ النبي (ع)... وبسبب تحمّلهم ما تحمله العائلة بالدفاع عنه والمطالبة بحقوقه واستقبالها لضيوفه، وكونهم الأقرب منه وكقائد يُكلّفهم بأمور تأخذ من وقتهم... وما حصل في معركة حنين يعطيك نموذجًا عن واقع حال تحمّل بعض أقاربه(ع) ما لم يتحمّله غيرهم، فقد هرب قرابة العشرة آلاف وبقيت قلّة قليلة حوله(ع) معدودين على الأصابع محاصرين وسط مئات الأعداء في واد في منطقة حنين، وتلك القلة كانت غالبيتها من بني هاشم إلى أن عاد للالتحاق بهم أقل من مئة من المسلمين، وبعدها عاد البقية... ومعلوم تاريخيًّا محافظة بني هاشم على تدينهم، ويدفعهم لذلك قرابتهم للرسول(ع) كحافز للعائلة، وقد مرّ فيها فسّاق ومنافقون... ولكن الطابع العام لهم كان يردّ بقية الناس إلى العودة للخط الإلهي...

مجموع كل هذا هو سبب توصيته تعالى للمسلمين بالمودة لقرابة الرسول(ع) كما ورد في الآية 23 من سورة الشورى {قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}.

{وَالْيَتَامَى}، وهم الأولاد الذين فقدوا أباهم الذي كان "يعيلهم" فيصرف عليهم. وهذا العنوان يعطي أولوية للأولاد المساكين الذين لا معيل لهم.

{وَالْمَسَاكِينِ}، والمسكين وصف لعموم من تعرّض لظروف متعثّرة وصولًا إلى الذي ظروفه صعبة، وقد استعملها العرب لوصف الذي حالته المادية متعثرة أو معدومة، ووصفوا بها أيضًا الذي حالته النفسية سيئة بسبب تعرّضه لظروف صعبة. فيوصف بها الفقير الذي لا يملك قوت يومه ويوصف بها الذي يمرّ بظروف مالية صعبة حتى لو كان يملك بيتًا أو متجرًا أو أرضًا... ولكن ظروفه متعسرة، وهذا واضح في الآية 79 من سورة الكهف {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ... وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} فقد كانوا يملكون السفينة ولكن إنتاجها لا يكفي ليعيشوا بأمان اقتصادي.

{وَابْنِ السَّبِيلِ}، ابن المسلك وهو الذي ليس من بلدكم وأوصله مسلك السفر إليكم، وهو ليس فقيرًا في بلده ولكنه لسبب أو لآخر صار فقيرًا في بلدكم ولا يتمكن من إحضار أموال من بلده، فيحتاج للمساعدة ليتمكن من الرجوع إلى بلده، أو أيضًا يحتاج للمساعدة ليقضي بعض الوقت في بلدكم إلى حين تمكّنه من الرجوع إلى بلده.

هذا التوزيع على هذه العناوين تلتزمون به، {إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ}، فاعتقدتم به فِعْلًا رَبًّا إلَهًا تجب طاعته، وإن كنتم آمنتم بـ {مَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا}، محمد(ع) الذي مفروض منه الطاعة وقد أنزلنا عليه كلامنا وَحْيًا، {يَوْمَ الْفُرْقَانِ}، يوم حصل الفرق بين الحق والباطل، وهو {يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ}، يوم تواجه جمع المؤمنين وجمع الكافرين. فإن كنتم أثناء لقاء الجمعان حيث حصل الفرق الواضح بين الحقّ والباطل لأنهما يتقاتلان بعداوة ظاهرة... وتعتقدون بعموم ما نزل على النبي(ع) من وحي، وبالخصوص تؤمنون بالوحي الذي نزل في يوم المعركة ويخبر الرسول(ع) عن الوعد الإلهي بانتصاركم... فالتزموا بتوزيع خمس ما غنمتموه على ما ذكرته الآية من عناوين.

الكلام هنا نموذج لتذكير المؤمنين بأن النصر من عنده تعالى، وفي حادثة بدر نزل وحي على الرسول(ع) يخبره بحتمية النصر الإلهي للمؤمنين، ومن بعد ذلك حصلوا على الغنائم، فمن المفروض ألَّا يروا الخمس نسبة كبيرة لدفعها مما غنموه. وأكرر لك أنَّ الحكم في الآية لعموم أي غنيمة كحصّة يحصل عليها المقاتل، من أي حرب كانت، ومن المفروض ألَّا يرى الخمس نسبة عالية، وليتذكّر نموذج معركة بدر، إذْ إنَّ النصر كان من تدخله تعالى هناك، وأي نصر آخر للمؤمنين سيكون من سماحه تعالى لهم بالقتال ومن تدخّله لنصرهم ومن سماحه تعالى لهم بأخذ الغنائم.

{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، فلا يعجز سبحانه عن فعل أي شيء يريده بأي شيء، فقد أخبركم الرسول(ع) عن وحي نزل عليه منه تعالى يخبره عن وعده لكم بالانتصار، وها قد انتصرتم لأنه سبحانه قدير ويمكنه أن يقدر على فعل أي شيء يريده، إذْ بعددكم القليل غلبتم ثلاثة أضعافكم من العدو. فلا تنسوا أنه تعالى سبّب لكم النصر على الكافرين وهذا أهم من الغنائم، وبعدها صارت الغنائم في أيديكم لأنه تعالى قدير فالتزموا بما يأمركم تعالى به في الغنائم.

هكذا ترى أن بداية السورة سمّت الغنائم بالأنفال حتى يرى المؤمنون أنها شيء زائد وليست هدفًا، وأخبرتهم أن ملكيتها مسحوبة منهم، فقرار التصرّف بها لله تعالى وللرسول(ع)، وبعد هذه الصلاحية للرسول(ع) في تقسيم الغنائم بما يراه مناسبًا، فكل غانم منكم يجب عليه دفع خمس ما غنمه لِيُصْرَفَ على الموارد التي ذكرتها الآية هنا.

قيل إنه نزل شيء من القرآن على النبي(ع) يوم التقى الجمعان في بدر، ولكن وكما ترى فإنَّ الوحي بكل أنواعه هو نزول شيء على النبي(ع)، وكما ترى من الآيات هنا ومن الآية 125 من سورة آل عمران فقد علمنا عن نزول الملائكة بالوحي على النبي(ع) عدة مرات ولم يكن وَحْيًا من نوع القرآن، فمرة يخبرونه بالدعم، ومرة بعدد الدعم، ومرة ثانية بزيادة الدعم... وليس لدينا آيات قرآنية تدل على أنها نازلة في يوم معركة بدر، بل كل الآيات نزلت بعد المعركة لتتحدث عمّا جرى قبلها وفيها وبعدها، ومن ضمنها أنه نزل وحي على الرسول(ع) يخبره أن دعمًا إلهيًّا بالملائكة(ع) سيأتي لنصرة المؤمنين.

استظهرتُ سابقًا أن الآية قد تشير لبداية نزول القرآن، حيثُ إنَّ معركة بدر حصلت في شهر رمضان، وأوّل نزول القرآن حصل في شهر رمضان كما ورد صريحًا في الآية 185 من سورة البقرة {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ}، والليلة التي بدأ نزول القرآن فيها سميّت بليلة القدر التي تتحدّث عنها سورة القدر، وبناء عليه قد تشير الآية هنا إلى تطابق نفس اليوم الذي بدأ فيه نزول القرآن من شهر رمضان مع اليوم الذي التقى فيه الجمعان، وهذا الاحتمال لتفسير الآية سيكون قويًّا لولا ختام السورة بقوله تعالى أنه على كل شيء قدير، فهذا الكلام يناسب نزول الوحي بالوعد للمؤمنين بالنصر وأنه تعالى على كل شيء قدير، ولا يناسب الإشارة لتوافق يوم بداية نزول القرآن مع يوم المعركة،

وقد يكون كلام الآية داعِمًا لبداية نزول القرآن مع ما نزل من وحي يخبره (ع) بحتمية النصر، فتصير الجملة: إن كنتم آمنتم بالله تعالى وبقرآنه وبما نزل من وعد إلهي لانتصاركم. ولكن جملة أنه تعالى على كل شيء قدير لا تدعم هذا الاحتمال.

على أي حال فهذا الكلام سيأخذك إلى أبعاد أخرى، فالمشهور أن معركة بدر وقعت في السابع عشر من شهر رمضان، وزمن بداية نزول القرآن والمسمّى بليلة القدر قيل إنها في العشر الأواخر من شهر رمضان، وهذا يشير لكونها ليلة التاسع عشر أو ما بعدها، علمًا أن هذا الكلام أتى من دراسة الروايات المتخالفة، فكلامها لم يكن حاسمًا، وعلمًا أن البرامج التي بين أيدينا لتحديد تولّد الهلال في سنة حادثة معركة بدر، تشير لإمكانية مرور يومين من بعد تولّده حتى يمكن رؤيته في منطقة شبه الجزيرة العربية... وهذا كلام له هواته، ويبدو أن التحقيق فيه ترف ليس منه فائدة...

نلاحظ أن الآية تركت التفصيل الذي نقرأه في كتب الفقه حول تقسيم الغنائم بين المقاتلين، فيبدو أن الأساس هو التساوي إلا إذا تكلّف أحد المقاتلين تكلفة على القتال أعلى مما تكلّف غيره، ومتروك تقدير التوزيع بالحق والعدل للقائد، إذْ قديما من كان فارسًا أي مشاركًا في المعركة ومعه حصان، فإنَّ العناية والطعام... للحصان هو تكلفة إضافية عليه، ومن المفروض أَلَّا يتحملها المقاتل صاحب الحصان... ولذلك نجد في الروايات اختلافًا في حالات تقسيم الغنائم بين المقاتلين ويرجع في أساسه إلى تكاليف تحمّلها بعض المقاتلين زيادة عن غيرهم، وعلى أي حال فمن الواضح من السورة أن تقدير حصص المقاتلين من الغنائم متروك لما يراه القائد مناسبًا.

تلاحظ أيضًا أنه لا معنى لتقسيم الخمس ستَّ حِصَصٍ متساوية بين "الله تعالى ورسوله وذوي القربى والفقراء واليتامى والمساكين وابن السبيل" فماذا لو لم يكن هناك ابن سبيل؟ فهل نحتفظ له بحصة لا نصرفها على أحد ونراكم الحصص حتى يأتي ابن سبيل! لا، فتقدير الحصص متروك لتقدير المسؤول عن المسلمين، ويبدو أن الآية ذكرت العناوين مع ترتيب الأولوية، فإن كان هناك تهديد عسكري من الأعداء على المسلمين، فقد يستدعي ذلك صرف كل المال على الحرب... وإن لم يكن هناك فقراء ومحتاجون فيتم صرف المال على الشؤون العامّة للمسلمين، كحفر الآبار وشقّ الطرقات وعموم البنية التحتية... وبناء المدارس والجامعات...

ماذا نفعل بحصة الرسول(ع) بعد أن مات فهل نحتفظ بها ولا نصرفها؟ لا فعموم القرآن حين تحدّث عنه(ع) فقد جعله نموذجًا كقائد، فأي كلام في القرآن عن الرسول بوصفه قائدًا، فهو نفسه ينتقل لولي المسلمين، بلا فرق.

كما تلاحظ فإنَّ كلمات "الأنفال، الغنيمة، والفيء" لها تطبيقات كمصطلحات فقهية مشتقة من المعنى اللغوي للكلمات، وتجد في كلام الناس خلطًا بين هذه الكلمات وغيرها، فزمن الرسول(ع) كان بداية تشكّل المصطلحات الدينية بالنسبة للمعاصرين له ولمن بعدهم، والتوافق على الاصطلاح يحتاج لوقت حتى يستقرّ معناه وينتشر استعماله، وهذه الحالة هي من أسباب صعوبة استخراج معاني أمثال الكلمات من اللغة ومن الاستعمال في عصره(ع).

على أي حال فكل التفاصيل الفقهية التي ذكروها وحاولوا وضعها في معاني هذه الكلمات، هي ما سبّب اختلافهم في تعريفها، فمثلاً يقولون إنَّ من قتل كافرًا فله سلبه، فما مع الكافر المقتول "غنيمة" خاصة بالذي قتله ولا يشاركه فيها الآخرون، وهي غير حصّته من بقية ما تركه الكفّار في أرض المعركة... وهكذا سيصير له حصتان...

المشكلة العامة المنتشرة في كتب الفقه هي الحديّة في الفتوى، فمن جانب أنت تراجعها لأنك تريد حكمًا محدَّدًا في مسألة ما، ولا تريد حكمًا عامًّا لا يحدّد الأمور، ومن جانب آخر فعامّة الأمور يجب أن يكون فيها مرونة تقبل الظروف المختلفة، فيعمل الفقهاء على محاولة تدقيق تحديد مختلف الظروف لشمل مختلف أحكامها، وهذا شيء مساعد ومضرّ في نفس الوقت، فيساعد على تحديد الحكم في مسألة ما، ومضرّ لأن ظرفًا واحدًا لم تلحظه الفتوى قد يستدعي تغيير الحكم. وهذا الكلام معلوم عند عامّة الفقهاء، ولكن عند التطبيق لا يمكنهم إلّا عرض فتاوى حادّة حاسمة... ولذلك ترى خلافات بين تعاريفهم للاصطلاحات وبين فتاويهم، وهو شيء طبيعي فيما ترك فيه تعالى هامشًا للمرونة لتتناسب الأحكام مع مختلف الأزمنة والجغرافيا والظروف، وليس طبيعيًّا فيما لم يترك فيه تعالى هامشًا أو كان عنوانًا عامًّا...

يَبْدُو فرق بين توزيع الغنائم والصدقات، ففي الصدقات، وهي عامّة ما يتم تجميعه من مصادر مختلفة "كالزكاة أو الهبات..." ووضعه في صندوق خاص، وهو ما نسمّيه عادة: بيت مال المسلمين. فهذا يأخذ منه العاملون عليه والمؤلفة

قلوبهم والغارمون كما ورد في الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ}، فليس فيها تسمية حصّة لله تعالى ولرسوله(ع) ولا لذوي القربى. ولكن مسمّى الحصّة لله تعالى هو نفسه التعبير عنها "في سبيل الله"، والرسول(ع) من العاملين عليها، وذَوُو القربى مشمولون مع الفقراء والمساكين إن كانوا منهم، فلا فرق فعلي عميق بين مصرف خمس الغنيمة وبين مصرف عموم بقية ما يسمّى صدقات، فهم بالأصل من مصدرين مختلفين، واحد من الغنائم وأولويات توزيعه كذا وكذا... والآخر من الصدقات ويتم صرفه على العناوين التالية...

بقي شيء، فلدينا مشكلة فيمن عاصر الرسول(ع) ونقل التاريخ، فقد نقله من منظوره وتحليله وما رآه مهمًّا متجنبًا ذكر ما لم يره وما لم ينتبه لأهميته، وهذا الكلام بغض النظر عن الروايات الكاذبة التي أَلَّفُوها ونسبوها للصحابة.

خذ مثلاً ما ستفهمه بسطحية من الروايات التي تريك أن الرسول(ع) كان يفرغ بيت المال فورًا بتوزيعه فلا يبقى فيه شيء، فبشكل عام ستلحظ من الروايات أن الرسول(ع) لم يترك احتياطًا ماليًّا. علمًا أن دراسة الروايات تشير لخبايا في كلامهم ولا تتماشى مع هذه النظرة السطحية، فالأساس هو تلبية حاجات واحتياجات المسلمين طالما هناك إمكانية لذلك، فلا معنى لترك احتياط جانبي بينما هناك من يحتاج الآن للمساعدة، ففي الأزمات الاقتصادية لن يبقى مال في بيت المال، ولكن في خبايا الروايات ستجد موارد مستمرة لبيت المال من أملاك زراعية وحيوانية تابعة لبيت المال، وجباية زكاة من مكلّفين في مواعيد موزعة على السنة... وهناك رعاة لمواشي الزكاة... فحين تتأمّن الحاجات الملحة كان الرسول(ع) يترك احتياطيًّا نقديًّا وعينيًّا من المال، وإن خاب تحليلي للتاريخ وصدقوا في قولهم إنَّ الرسول(ع) لم يترك احتياطًا ماليًّا لوقت الأزمات، فهذا يشير إلى ما رآه الرسول مناسبًا بحسب قدراته العلمية الاقتصادية...

يبدو جليًّا أن الروايات ركّزت على نقل أحداث فيها ما يلفت الانتباه، متجاهلة الأحداث التي بدت عادية ولا أهمية لذكرها، فرووا أحداث الأزمات والمشاكل... ولم يهتموا كثيرًا بنقل هيكلية الإدارة والتنظيم والأوضاع الاجتماعية... فهذه أمور بصعوبة تجمعها من هنا وهناك من طيّات كلامهم، فمثلاً تجد بعض الأسماء التي وظّفها الرسول(ع) على رعاية ماشية الزكاة، وكانت الرواية اعتراضًا من أحدهم على الموظّف...

بالنسبة لموضوع تطبيق الرسول(ع) لآيتنا هذه، فعادة تجد الروايات المتعلقة به (ع) وبعصره تتحدّث عن أزمات ومشاكل، ففي وقت أزمة اقتصادية ما، هناك فقير يحتاج لمساعدة وأعطاه الرسول (ع) أو صحابي ما من مؤنة بيته، أو باع أشياء يحتاجها ومهمّة ليسدّ حاجة فقير ما... والرسول(ع) استدان من يهودي...

كما ترى فليس كل الصحابة كانوا على مستوى الوعي السياسي والاقتصادي والإداري والأمني والاجتماعي والعسكري... لينقلوا لنا أحداثًا دقيقة عن تلك الأمور، وأنا لست متخصصًا في هذه الأمور، ولكن قراءة العناوين التي يتحدّث بها المتخصصون تجعل عندك الحد الأدنى من الثقافة، وهذا ما افتقده الكثير من الصحابة الناقلين لأحداث حصلت في زمن الرسول(ع).

هذا الكلام التحليلي للروايات لم يدخل في الكلام عن دقّة من قالها في نقل الحدث، ناهيك عن صحّة الروايات إن لم تكن موضوعة ومدسوسة ومتلاعبًا بها من الرواة... فدعك من ذلك ولنقل إننا أمام مجموعة من الروايات فِعْلًا قالها الصحابة ووصلتنا كما هي، فهل كانوا واعين لخطورة ما ينقلونه وأنه سيصير معتمدًا للفقهاء؟ بالعموم لا، فنادر جدًّا ما تجدهم قالوا شيئًا في موضوع ما ومتناولين لكل ما يتعلق به، فغالبًا لن تفهم من كلامهم الظروف التي أدّت إلى تحديد الحكم الشرعي... ومضافًا لذلك خلافاتهم بين بعضهم أثناء حياة الرسول(ع) وبعده في التشريعات، فما معنى ذلك؟ وكيف نتجاهله ليصير كلامهم معتمدًا عندنا كمصدر لا يقبل النقاش للتشريع!

خذ مثًلًا مشهورًا عن ذلك ما نقلوه في الكتب عن الخلاف في المسح في الوضوء على الخفّ، وهو خلاف كان من بعد وفاة الرسول بقليل وبين الجيل الأول من الصحابة.

مِنْ رواياتهم الكلام حول حصّة قرابة الرسول(ع) من الزكاة وعموم الصدقات والغنائم والفيء... فلنقل إنَّ القرآن يعطي أقارب الرسول(ع) حصّة صريحة من الفيء والغنائم بتفسير الآية 7 من سورة الحشر والآية هنا فيهم، فكيف نلغيهم

قرآنيًّا من بقية الموارد المالية للدولة؟ وماذا إن لم يكن هناك غنائم وفيء فهل يموت فقراؤهم من الجوع وممنوع الصدقة عليهم؟

هم اعتمدوا على فصل الآيات لذوي القربى عن المساكين، وذلك ذهب بهم إلى نتيجة أخرى عويصة، فصار برأيهم أنه حتى لو كان ذَوُو القربى "للرسول" أغنياء، فلهم حصّة؟ وأيضًا لهم حصّة تجعلهم أثرياء يملكون فائضًا يكفيهم مصروفًا لسنوات! وهذا ما تجده صريحًا في فتاوى الكثيرين، بينما صريح الآية 7 من سورة الحشر مانع من تداول مال الفيء بين الأغنياء {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ...}.

(إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتَّمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَـكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ{42})

{إِذْ أَنْتُمْ} أيها المسلمون {بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا}، تتعدون وتتجاوزون الأماكن في مسيركم حتى وصلتم للعدوة الدنيا، الدانية الأقرب، لمكان اللقاء، لآبار بدر. {وَهُمْ}، ومن تكملة الجملة سترى أنهم الأعداء المقاتلون، {بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى}، تعدوا وتجاوزوا وسافروا المسافات حتى وصلوا للعدوة القاصية عن نقطة اللقاء، عن آبار بدر. أنتم وهم قصدتم نفس المكان ولكنكم وصلتم قبلهم وعسكرتم فيه "بالعدوة الدنيا" بينما هم بعيدون عنه نسبيًّا "بالعدوة القصوى"، {وَالرَّكْبُ}، القافلة الراكبة على الدواب، القافلة التجارية للكفّار، {أَسْفَلَ مِنْكُمْ}، وبالنسبة لموقعكم فهم تحتكم أي قريبون منكم.

من المشهور في التاريخ أن المسلمين كانوا يقصدون الهجوم على الركب "على القافلة التجارية لكفّار مكّة"، وكانوا يتوقعون وصولها إلى مكان ستستريح فيه على آبار مياه بدر، وانطلقوا من المدينة باتجاه بدر، وعلى ما يبدو أنه بعد انطلاقهم باتجاه بدر علم رئيس القافلة أبو سفيان بذلك فغيَّر طريق القافلة عن منطقة بدر ولكنه وكما تقول الآية هنا، ما زال قريبًا جدًّا من المقاتلين المسلمين... ووصل المسلمون لآبار بدر وكانوا قريبين نسبيًّا من القافلة بحيثُ يُمكنهم اللحاق بها، وهذا ما تفهمه من تعبير "والركب أسفل منكم"، ولكن المسلمين قرروا ترك القافلة التجارية للكفّار وانتظار وصول القوّة القتالية التي انطلقت من مكّة للدفاع عن القافلة.

أثناء هذا حصل ما ذكرته الآيات السابقة عن رغبة بعض المسلمين باللحاق بالقافلة التجارية، ورغبة الرسول(ع) والمؤمنين بملاقاة القوّة العسكرية، كما نفهم من الآية 7 من هذه السورة {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ}، إلى أن وصل جيش الكفار إلى منطقة بدر، وهكذا تصف الآية هنا لقاءً خَطَّطَ له ربنا سبحانه.

هذا الخليط العجيب من الانطلاق لملاقاة القافلة، والوصول إلى منطقة بدر التي كان من المتوقع مرور القافلة التجارية منها، وبدلًا من ذلك تركها وملاقاة جيش انطلق من كفّار مكّة لحماية القافلة من المسلمين...

{وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ}، ولو حدّدتم وقتًا للقاء بينكم وبين القوة العسكرية للكفّار، {لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ}، لَحَضَرَ أحدكم في وقت مختلف عن الآخر إلى منطقة بدر، ولكن حَضَرَ كِلَاكُمَا إلى مكان القتال مع بعض بدون تأخير، فلا أنتم خطّطتم وقصدتم حصول اللقاء، ولا الكفّار، حيثُ تسارعت الأمور وتداخلت وفي أيام قليلة حصل اللقاء على الموعد الإلهي بالتمام، {لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا}، ليحصل الأمر الذي قرر تعالى حصوله، وهو أمر {كَانَ مَفْعُولًا}، كان سيحصل حتمًا، إذْ إنَّهُ تعالى كان سلفًا قَرَّرَ أن تلتقوا في منطقة بدر، وها قد حضرتم على الموعد الذي حدده تعالى بالضبط.

سَبَبُ لِقَائِكُمْ هناك: {لِيَهْلِكَ}، لِتُسْتَنْفَدَ حياته ويموت، {مَنْ هَلَكَ}، من اسْتَنْفَدَ حياته، {عَنْ بَيِّنَةٍ}، عن وضوح، حيثُ يَمُوتُ من مات وهو يعلم أنه يقاتل في سبيله تعالى أو في سبيل الكفر، {وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ}، فيخرج حَيًّا من المعركة من بقي حَيًّا، {عَنْ بَيِّنَةٍ}، عن وضوح، بِحَيْثُ يَعْلَمُ أنه خرج حَيًّا من معركة خاضها لنصرة الدين الإلهي أو ضدّه، إذْ إنَّ كِلَا الطرفين المتقاتلين يعرفان بوضوح ماذا يفعلان، فمن مات مُؤْمِنًا يعلم أنه نصر الدين الإلهي والرسول(ع)، ومن مات كَافِرًا يعلم أنه حارب الدين الإلهي، ومن بقي حَيًّا من الكفار يعلم أنه نَجَا من حرب ضد الدين الإلهي، والمؤمن يعلم أنه بقي حَيًّا من معركة نصر فيها الدين الإلهي.

{وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ}، يَسْمَعُ كل شيء، وَيَسْمَعُ ما يقوله الكافر أو المؤمن جَهْرًا أو في قلبه، يَسْمَعُ كفر الكافر وإيمان المؤمن، والله {عَلِيمٌ}، يَعْلَمُ كل شيء، وَيَعْلَمُ ماذا جرى في فكر ونفسيات المشاركين في تلك المعركة، كما يَعْلَمُ أنهم كانوا يعرفون ماذا يفعلون وأن الأمور واضحة لهم، لِأَنَّ هذه الفئة قررت القتال في سبيله تعالى، وتلك قررت القتال ضد سبيله تعالى.

(إِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَـكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {43})

سيحصل اللقاء على الموعد الإلهي بالتمام، ولكن قبل ذلك حصل تدخل إلهي آخر غير ما ذكرته الآيات السابقة: {إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا}، أثناء فقدانك لِلْإِحْسَاسِ بمحيطك "أثناء نومك" جعل سبحانه لديك صورة محدّدة عن عدد الأعداء بأنه قليل، حيثُ رأى النبي(ع) في منامه أن عدد الأعداء قليل بالنسبة لقوّة المحاربين معه، ولنقل إِنَّهُ (ع) تصوّر المقاتلين معه يتعامل الواحد منهم بسهولة مع ثلاثة أو أربعة... من الأعداء ويقتلهم بسهولة... إذْ إِنَّ الأعداء عددهم قرابة الألف وعدد أصحاب النبي(ع) قرابة الثلاثمئة، وعلى الورقة والقلم فإنَّ النصر يميل بقوة لمن عددهم أكبر، لِذَلِكَ جعله تعالى يراهم في منامه بعدد قليل غير كاف لهزيمة من معه، وبأنه انتصر عليهم، فَاسْتَيْقَظَ (ع) وهو مرتاح ومتأكد من النصر.

{وَلَوْ أَرَاكَهُمْ}، لو جعلك تعالى ترى الأعداء في منامك، {كَثِيرًا}، أكثر منكم بكثير، {لَفَشِلْتُمْ}، لأخفقتم في إكمال ما هو مطلوب منكم، {وَلَتَنَازَعْتُمْ}، حيثُ لم تتفقوا بل لحصل نزاع بينكم في أمر القتال أو الانسحاب...

{وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ}، حيثُ خرجتم سالمين من تلك المحنة، ولم تقعوا في الفشل أو النزاع.

{إِنَّهُ عَلِيمٌ}، إذْ لديه علم تفصيلي، {بِذَاتِ الصُّدُورِ}، بما ينتمي للصدور، ويعلم تفاعل أفكاركم ومشاعركم الداخلية مع ما تتعرضون له، ولذلك جعل تعالى قائد المعركة مُرْتَاحًا كُلِّيًّا للنتيجة ويتحدّث بثقة عن النصر.

ضع في بالك أن القرآن استعمل كلمة "صدر صدور" للإشارة إلى حالة تفاعلنا الفكري والنفسي مع ما نتعرّض له، ولا يقصد تفكيرنا بما حصل معنا أو خُطُورَهُ في البال أو... لأنَّ هذه لها تعابير أخرى، وهنا يمكنك أن تفترض بسهولة أن المسلمين كان يدور في صدورهم: عددهم كبير وأسلحتهم أفضل ونحن سنخسر حَتْمًا... حيثُ إِنَّ آيتنا هذه تحدّثت عن الدعم الإلهي لقائد المقاتلين، أما من ناحية المقاتلين:

(وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ {44})

{وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ}، حيثُ يَجْعَلُ سبحانه لديكم أيها المؤمنون صورة محدّدة للأعداء، {إِذِ الْتَقَيْتُمْ}، حين تواجهتم للقتال، {قَلِيلًا فِي أَعْيُنِكُمْ}، إذْ إِنَّ عددهم في الحقيقة ثلاث مرات أكثر منكم، حيثُ كنتم قرابة الثلاثمئة وكانوا قرابة الألف، لِذَلِكَ جعلكم تعالى ترونهم أقل منكم عَدَدًا، حتى تَصِيرَ في نفوسكم ثِقَةٌ بالنصر عليهم. كحالة الواثق بقوته البدنية القادرة على أن تغلب أربعة أو خمسة... أشخاص، لِذَلِكَ يتعامل مع مهاجم واحد بأريحية تعبّر عن راحة واطمئنان بالانتصار عليه وعلى من سيأتي بعده...

مِنْ ناحية ثانية، {وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ}، إذْ حين الْتَقَيْتُمْ كانوا يرون عددكم قَلِيلًا حتى يستهتروا بكم فلا يقاتلوا بجديّة.

حِينَ بدأ القتال لَوْ بَقِيَ الكفّار يرون المؤمنين قلائل لكانت معنوياتهم مرتفعة، وَلَكِنْ كما نعرف من الآية 13 من سورة آل عمران فَقَدْ رأوهم أكثر منهم حين بدأ القتال، فانهارت معنويات الكفّار. قَبْلَ القتال رأوهم قلائل لِذَلِكَ حصلت عند الكافرين حالة الاستهتار وَهَجَمُوا بلا تنظيم، وَظَنُّوا أن المسلمين سيهربون... وحين بدأ القتال والضرب... رأوهم أكثر منهم فَصَارَتْ عند الكافرين حالة الخوف.

{لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا}، حتى يحصل الشيء الذي {كَانَ مَفْعُولًا}، كان مُقَرَّرًا سَلَفًا وسيحصل حَتْمًا، فَأَمْرُ (أي موضوع) قتالكم لهم وانتصاركم عليهم كان مُقَرَّرًا سَلَفًا، وها قد حصل.

{وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}، حيثُ إنَّ كل الأمور يعود القرار فيها إليه تعالى، وهنا قَرَّرَ تعالى النصر للمؤمنين لِذَلِكَ سينتصرون حَتْمًا لأنه لا يوجد أحد يمكنه منع ما يريد سبحانه تحقيقه.

هَكَذَا ترى التدخّل الإلهي لانتصار المؤمنين في بدر، لِذَلِكَ تذكّرهم به السورة حتى ينتبهوا إِلَى أن ما نُفِلَ، أَيْ ما حصلوا عليه كزيادة من الأشياء التي حازوها من المشركين، وَهِيَ الأنفال أَوِ الغنائم، لم تكن الهدف، ولم تحصل بمجهودهم الشخصي من دون تدخله تعالى، والأهم من ذلك أَلَّا يصير الحصول على الغنائم هو همّهم.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ{45})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} قاعدة عامة وأمر إلهي في الحروب: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين الإلهي: {إِذَا لَقِيتُمْ}، فتواجهتم مع {فِئَةً}، مع جماعة لها تصنيف وهنا الكلام عن جماعة تريد قتالكم، {فَاثْبُتُوا}، فلا تهربوا، {وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا}، فاستحضروه تعالى في قلوبكم وبلسانكم، {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، فإذا ثبتم وَذَكَرْتُمْ فمن المتوقع ومن المفروض أن تكونوا من الذين قاموا بعمل فالح، فأجادوا فيما عملوا لأنهم عملوا الصحيح.

(وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ{46})
{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، فالأمر الذي يصلكم منه تعالى أو من رسوله(ع) نفّذوه. {وَلا تَنَازَعُوا}، فلا يحصل بينكم نزاعٌ أو خلافٌ، بحيث يُصِرَّ كلُّ واحدٍ منكم على رأيه، ولا تَتَّفِقُون على رأي، فإذا لم تطيعوا ربكم تعالى ورسوله(ع) وتنازعتم، عندها، {فَتَفْشَلُوا}، فتخفقوا ولا تنجحوا فيما هو مطلوب منكم، {وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ}، الريح القوية يسبّبها اتجاه الهواء في مجرى واحد، فإذا توحدتم كنتم كالريح، وإذا تفرقتم ذهب ريحكم فصرتم كالهواء الضعيف. {وَاصْبِرُوا}، وتصرفوا بشكل واعٍ ومدروس ولا تتحكّم بكم مشاعركم من خوف أو غضب أو تململ أو تأفّف... {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}، مع المؤمنين الذين لا يتصرفون على أساس فلتان أعصابهم وفكرهم، وعمليًّا يؤيدهم وينصرهم سبحانه. الصبرُ والثبات والاتحاد للمقاتلين هو بحدّ ذاته سبب للنصر في أي معركة، والآيات هنا تُوعِّينا لهذه النقاط، ولكن الفرق بين المؤمنين وغيرهم، أن حرب المؤمنين تكون في سبيله تعالى، تكون متماشية مع ما يأمر به تعالى ويرضاه، وينالون دعمًا إلهيًّا لا يناله غيرهم، ولهم الجنة إن ماتوا ولهم الثواب إن انتصروا، أما غيرهم فلهم السيئات على القتل والجرح والترهيب، ولهم جهنم على ذنوبهم، والآية التالية سَتُنَبِّهُ على هذا الفرق.
قبل ذلك نَتَذَكَّرُ الخسارة في معركة أحد والتي سببها التنازع والفشل كما ورد في الآية 152 من سورة آل عمران {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ}...، حيث في البداية انتصر المسلمون ولكن وقبل انتهاء المعركة تنازعوا وفشلوا... لذلك خسروا، ولن ينصرهم سبحانه إذا تنازعوا وفشلوا، وكانت الخسارة في أحد درسًا قاسيًا ضروريًّا للمسلمين حينها وعبر التاريخ.

(وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاء النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَاللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ{47})
{وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ}، أيها المؤمنون لا تكونوا مثل الذين تركوا الأماكن التي تدور فيها شؤون حياتهم، فتركوا بيوتهم وأماكن أشغالهم... وانطلقوا للحرب، {بَطَرًا}، فبسبب الوفرة والكثرة في القوّة والعدد والمؤنة والعتاد... حيثُ خرجوا للحرب لأنهم متأكدون من النصر، وخرجوا، {رِئَاءَ النَّاسِ}، حتى يراهم الناس، حتى يصير لدى الناس صورة محدّدة عن قوتّهم، تفاخرا وزهوا على الآخرين بأنهم أقوياء ويخوضون الحروب والنصر محسوم لهم... وَقارنها مع الشباب الذين يحبون التباهي بعضلاتهم فَيَفْتَعِلُونَ المشاكل ليرى الناس قوّتهم... خَرَجُوا للحرب، {وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، فهدفهم منع الناس من المشي على المسلك الإلهي، حيثُ يريدون منع الآخرين من الإيمان وتطبيق ما يرضاه تعالى. هَذِهِ حالة كفّار مكّة حين خرجوا لقتالكم، {بَطَرًا} حيثُ يشعرون بالراحة الزائدة لأن عددهم أكبر من عددكم وأموالهم أكثر وتسليحهم أفضل... وَطالما هم قادرون على قتالكم فيسألون أنفسهم: لماذا لا نقاتلهم؟ وَهذه النفسية السيئة ليست محصورة بقتالهم لكم، لِأَيِّ سبب وجيه أو غير وجيه، أيُّ جماعة أخرى غيركم يقدرون على ضربها، فسيضربونها إن شعروا أن قوّتهم فائضة، وهذه حالة عامّة منتشرة منذ فجر التاريخ وإلى الآن، حيثُ لا يوجد بين الدول شيء اسمه عدالة وحقّ، إِذْ لا أحد سيقول للآخر: لك حقّ عندي فخذه. بل من يشعر بالقوّة سيجد بل سيخترع مبررا ليأخذ أرضا أو مواردَ أو يفرض سلطته... على الضعيف. وهذا ما تصفه الآية بالبطر، وتصفه بالرئاء لتراهم بقية القبائل ويقولون إنَّ قريشا عظيمة قاهرة قوية... وهدفهم المعلن ونتيجة هجومهم عليكم منع الآخرين من الإيمان ومن تطبيق دينه تعالى. إِذًا، هناك فئة مؤمنة تقاتل في سبيله تعالى وستنال الدعم الإلهي، وهناك فئة أخرى لم تخرج لتقاتل في سبيله تعالى، فليكن هناك فرق بينكم وبينهم، فلا تخرجوا للحرب بنوايا مثل نواياهم، فلا يكن هدفكم الغنيمة، بل تقاطع مصالحكم مع أوامره تعالى هو الموصوف بالقتال في سبيله تعالى، لِأَنَّكُمْ مضطرون لقتال من حمل السلاح

ليقاتلكم، ومضطرون لإنهاء الحصار العدائي الاقتصادي والأمني... وإن لم يكن هناك فرق بينكم، فَلَمْ تكونوا عادلين محقّين فكرا وتطبيقا، وهذا ما يصفه القرآن بالإيمان وعمل الصالحات، فعندها لا فرق بينكم وبين الآخرين ولن تنالوا الدعم الإلهي ولا الثواب الإلهي... {وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}، فكل أعمالهم تحت السيطرة وتحت المراقبة الإلهية ولا تفلت من قدرته تعالى، فلا يمكنهم الانتصار إن لم يأذن سبحانه، ولا يَنْهَزِمُونَ إن لم يأذن سبحانه، ولا يصدون عن سبيله إن لم يأذن سبحانه... فقوتهم وبطرهم لا يَغْنِيَانِ أي شيء بالنسبة له تعالى. لاحِظِ الآية هنا عامة شاملة لكل الحالات، ولكنها تتحدّث عن نموذج المقاتلين الكفّار في بدر، حيث قيل إنَّ البطر وصل بالكفّار لِحَدِّ أنهم أحضروا معهم الخمور والمغنيات والراقصات والعازفات! فلشدة بطرهم اعتبروا خروجهم كالنزهة! وأنهم بعد قتلهم للمسلمين سيقيمون الاحتفالات! وسينظمون الأشعار تفاخرا ببطولاتهم في ساحات القتال... وسيدخلون تاريخ المجد والشهرة... حتى إِنَّهُمْ نقلوا في التاريخ عن بعض زعماء الكفّار عَرْضَهُ لفكرة الرجوع عن قتال المسلمين لأن القافلة التجارية صارت بِأَمَانٍ... فعارضه البقية لأنهم أصلا لا يهمّهم الحقّ والباطل، وأصلا لديهم كره للمؤمنين ولدينه تعالى، ويرون أن الانتصار سهل، فليس لديهم سبب حتى لا يخوضوا المعركة بطرا ورئاء...

(وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ{48})

{وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ}، الذي يقوم بأعمال الضلال لنفسه وللآخرين حسّن وجمّل للكفار فكرة عرض عضلاتهم والصدّ عن سبيله تعالى، وجعل الشيطان الكافرين يرون هذا العمل الشنيع جميلاً حسناً.

{وَقَالَ} الشيطان: {لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ}، فلا أحد من الناس يمكنه أن يغلبكم، لأنكم قوّة شديدة جداً.

نلاحظ أن وسوسة الشيطان لم تسبب القدر المناسب من الثقة، بل سببت لهم الإفراط في الثقة لدرجة الاستهتار بالمؤمنين، فلم يقاتلوهم بجدّيّةٍ، بل بهزل واستهزاء خاضوا الحرب.

قال الشيطان لهم: {إِنِّي جَارٌ لَكُمْ}، فأنا مجير لكم وسترون تأميني لكم من الخطر ومساعدتي لكم.

ضع في بالك أنها وسوسة، والآية تعرضها من الزاوية الحقيقية وتريك ما يفعله الشيطان، حيث إن الكفّار أصلاً لا يعتبرونها وسوسة شيطانية، لأنها متماشية مع فكرهم ونفسيتهم السيئة، والشيطان لا يقول لهم إنّه هو شخصيّاً معهم، ولا هم يشعرون بأنه يتكلّم معهم عبر الوسوسة، بل نتيجة وسوسته لهم هي اعتمادهم على الفكرة التي أعجبتهم من وسوسته، وبدل الخوف منه تعالى لأنهم يقاتلون رسوله(ع) والمؤمنين، زرع فيهم الشيطان مختلف الأفكار والتصورات الوهمية التي تجعلهم يشعرون بأنهم مُجارون، بأنهم مدعومون بقوّة سوف تؤمّنهم من الخطر، بقوة آلهتهم، عضلاتهم، سيوفهم، صيتهم وتاريخهم...

نحن كمؤمنين نتعرّض لوسوسة الشيطان، مما يجعلنا نفكر في الموت وفقدنا لمباهج الحياة ولأموالنا ولأهلنا... إذا خضنا الحرب، ونفس الشيء يحصل مع الكفار، ولكننا نفكّر أيضاً بالثواب منه تعالى، وهذه نورانية تمحو الوسوسة الشيطانية، أما المستوى العالي من الوسوسة الشيطانية الذي تتحدث عنه الآية هنا، فهو حيث يصير عند الكافر فكرة بأن الدعم الشيطاني سيساعده، وهي معاكسة للفكرة عند المؤمن الذي يعتمد على الدعم الإلهي، حيث إن الكافر يتولى الشيطان تصوير فكرة الإله في رأسه، والإله الذي في فكر الكافر، سواء أكان إلهاً ككائن أو كفكرة، ولنقل إنّه وسوس له أن إله الحرب سينصره، أو وسوس له أن دعماً من مستوى إلهي سينصره... أو جبروته وعضلاته وسيفه البتّار... سينصره، فهذا في الحقيقة كلام شيطان، كصورة رسمها الشيطان في فكر الكافر وأقنعته بأنها ستدعمه... وكل هذا هو وهم بوهم، ولا الإله الذي اعتمدوا على نصره لهم حقيقي لأن الإله الحقيقي فقط هو الله تعالى وهم ليسوا من حزبه تعالى، ولا أي دعم من قوّة قاهرة سيأتيهم لأنه تعالى وحده القوّة القاهرة.

بعبارة أبسط، المؤمنون متوكلون معتمدون عليه تعالى ليجيرهم ليؤمّنهم من الخطر، أمّا أعداؤهم فبمن يثقون؟ على من يعتمدون كقوّة تنصرهم ضدّ المؤمنين؟ هم يعتمدون على آلهتهم الوهمية، على عضلاتهم، على تاريخهم السابق في البطولات والإجرام، على من معهم من المجرمين... هذه الأمور كلها شيطانية وهي الترجمة العملية لوسوسة الشيطان لهم ليجعلهم يشعرون بالاطمئنان بأنهم مُجارون، حيث هناك من يؤمّن لهم الحماية وردّ الخطر.

بقي شيء ننتبه له جيداً، إذ إن الشيطان حتى مع أوليائه ليس ناصحاً أميناً، لأنهم ليسوا جماعته التي يعمل على ما فيه مصلحتها، والأساس عنده أن جميع الناس من مؤمنين وكافرين، هم أعداء له، لذا يريد الضرر للجميع، ويريدنا أن

نكفر، ويريدنا أن نصدّ عن سبيله تعالى... ومن كفر فلن ينصره الشيطان بالنصيحة التي تجعله يغلب المؤمنين، وهذا في نظرنا نحن استراتيجية بعيدة الأمد لبقاء انتشار الكفر واستمراريّة للخطّ الشيطاني، ولكن استراتيجية الشيطان مع جميع البشر واحدة: من يصل منهم إلى أقصى الكفر والإجرام، ويحصل معه أقصى الضرر، فهو النجاح. وحتى الذين يوالونه، يريد الشيطان لهم الضرر بكافة أشكاله، لأنه كاره لجميع البشر، وعدو محبٌّ لرؤيتهم يتضررون، ومن أكبر نجاحاته وقوع مجموعة من الناس تحت سيطرته حتى يغريهم بالقتال ضدّ المؤمنين، ورؤيتهم يتضررون ويموتون وهم كافرون، إذ إن الشيطان يعلم أن الطرف الآخر "المؤمنون الحقيقيون" مدعومون منه تعالى، ويعلم أنه تعالى إن قرّر نصرهم فلا يمكن للشيطان فعل أي شيء ليخسروا، لذا يوسوس للمؤمنين حتى يفقدوا الثقة به تعالى وليتراجعوا عن إيمانهم ويهربوا، وبذلك تصيبهم لعنة منه تعالى، ويوسوس للكافرين حتى يجرموا في قتل المؤمنين...

تفهم هذا صراحة من الآية 168 من سورة البقرة {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}، ومن الآية 60 من سورة يس {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}، ويا أيها الناس، ويا بني آدم، تشملنا كلنا من مؤمنين بالدرجات المتفاوتة، ومن كافرين ومشركين وملحدين وفسقة ومنافقين، وعدوّنا كلنا مشترك وهو الشيطان الذي وبكل الطرق يريد لنا الضرر جميعاً، ولا يعين ولا ينصر ولا ينصح ولا يساعد... حتى الذين يعبدونه.

{فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ}، وصار عند كل مجموعة منهما صورة محدّدة عن الآخر، حيث يرون بعضهم مباشرة، وصار المؤمنون يمكنهم رؤية مجموعة الكفّار، والكفّار يرون المؤمنين، وتواجه الجيشان، {نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ}، كان الشيطان وعدهم بمساعدتهم عبر صورة الآلهة الوهمية التي في رأسهم حيث اعتقدوا أنها ستدعمهم، وعبر اعتمادهم على قوّتهم وجبروتهم... ولكنه نكص وأحجم وتراجع على عقبيه أي إلى الخلف، ولم يكمل معهم! {وَقَالَ} الشيطان:

{إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ}، لا ارتباط ولا علاقة لي بكم، لأن هذا القتال الذي تحاربون فيه الله تعالى ورسوله(ع) وتصدّون عن سبيله تعالى أنا لا علاقة لي به ولن أشارك في القتال، {إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ}، حيث لديّ صورة محدّدة عن أمور وأنتم لا ترونها، إذ أرى نتيجة عملكم بعقاب إلهي شديد، {إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ}، حيث أشعر بخطر أكيد لا يمكن تجنّبه إن قرّر تعالى معاقبتي، ولا أريد أن يعاقبني لأني حاربت رسوله(ع)، {وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}، إذ ما يعقب أي ما يأتي منه تعالى بعد قيام أحد ما بعمل سيّئٍ لا يمكن تحمّله، ولست مستعدّاً للمشاركة معكم في القتال لأني لا أريد التواجه مع العقاب الإلهي.

كما ترى، إنّ صورة الإله في عقول الكفار ليست الصورة الحقيقية بل هي الصورة الشيطانية، وكل الشجاعة والبطر الذي كان يشعر به الكفار، طار حين التقى الجمعان، وحين بدأت المعركة حلّ بهم الخوف الشديد، والكفار يطلبون من صورة الإله الوهمية التي في فكرهم أن تنصرهم، ولكن الذي حبّب لهم تلك الصورة الوهمية تركهم بعد أن تورّطوا، لأنه يعلم أن قرار النصر ليس بيده بل بيد الله تعالى، ويعلم أنه لا يمكنه أن ينصرهم، وأصلاً لا يهمّه إن انتصروا، لأن نجاحه هو توصيلهم لحالة قتال المؤمنين، وارتكابهم للجرائم، وموتهم وهم كفّار يقاتلون ضد سبيله تعالى، وتورّطوا وبدأت هزيمتهم وشعروا أنهم متروكون بلا أي دعم من آلهتهم وعضلاتهم وجبروتهم...

لا ننسى الآيات الكثيرة التي تتحدث عن محاولات الشيطان مع الذين أعلنوا أنهم مؤمنون، حيث ينجح الشيطان أيضاً مع ضعفاء الإيمان والمنافقين والفاسقين، ولكن على الأرض لا تأثير له سوى الوسوسة، أمّا من الناحية الثانية فالملائكة(ع) يرسلها تعالى لتنير قلوب فئة المقاتلين في سبيله تعالى، والمؤمن الحقيقي يتبع النور، وأما المزيّف فيصله كلام الملائكة(ع) ولكنه يرميه ويسمع كلام الشيطان.

كما تلاحظ، إن الشيطان عدو للمؤمنين، فلماذا لا يقاتل؟ وكيف يقول بأنه يخاف الله تعالى! فهو الشيطان! ولكن بمراجعتك للقرآن، ولبداية إعلان إبليس لعداوته للبشر، ستجد أنه عصى الله تعالى مرة واحدة وهو مقتنع بأنه سيثبت لربنا تعالى أن البشر لا يستحقون أن يَسجُدَ لهم، وهو من وقتها يعمل السوء بنا حتى يبرهن أننا سيّئون ولا نستحق سجوده لنا، وإبليس لا يفعل معنا أكثر من الوسوسة، إذ لا يمدّ يده ولا رجله، بل يضع فقط أفكاراً خبيثة في عقولنا، لأنه يخاف من عقابه تعالى، ولم يقتنع أنه سيتعذّب لأنه يعصيه تعالى بهذه الوسوسة! ولا يزال مصمّماً على أن يبرهن له

تعالى أنه أفضل من البشر، ويظن أنه إذا نجح في إضلالهم فلن يتعذّب! هذا ما نقرؤه من القرآن، وهذه قناعة إبليس وأعوانه.

لا تستغربها، لأنني أنا وأنت لسنا أفضل منه، ها هو القرآن بين أيدينا، ونحفظ الآيات التي تتحدث عن الحرام والحلال والواجب، وعن العقاب الشديد، هل أنا وأنت توقفنا عن كل المحرمات؟ أم هل قمنا بكل الواجبات؟ لا، وفوقها لدينا أمل بالمغفرة على ذنوب نعلم أنها غير مغفورة إلا بالتوقّف عنها والتوبة! فلا تستغرب ما تنقله الآيات عن الشيطان، لأنها تنقل لنا أفكاره الذاتية المنحرفة أصلاً، مثل أفكار من قرأ القرآن الذي يخبره عن العقاب على الحرام ويعرف بالعقاب ولكنه يفعل الحرام! ويضحك على نفسه ويقول: إن الله غفور رحيم!

قيل في الكتب إنّ الشيطان تمثّل بشكل شخص اسمه "سراقة بن مالك"، وقال لكفار قريش هذا الكلام المنقول هنا عن لسان الشيطان، وقال لهم إنهم اليوم لا غالب لهم وإنّه جار لهم، ولكن نفس الروايات التاريخية تلك تقول بأنه كان بين "سراقة" وبين قريش عداوة فخافوا إن خرجوا من مكة أن يهجم سراقة عليهم، لذا لا معنى لروايات من قال بأن سراقة هذا ذهب معهم للحرب وقال إنّه جار لهم، فما معنى أن يخرج لوحده معهم! وما معنى جيرته لهم لوحده! وما قيمة هروبه كشخص واحد قبل أن تبدأ المعركة! إذ إن الآية تقول بأن الشيطان نكص على عقبيه... ولو قيل إنّ "سراقة" حضر مع مقاتليه ليكون جاراً للكفّار، لفهمنا معنى جيرته، ولو قطع هو ومقاتلوه الطريق على المسلمين لصالح الكفّار، لفهمنا جيرته... لو... أمّا كلامهم عن تمثّل إبليس بشخص "سراقة" وحضوره لوحده إلى الكفّار ليخبرهم أنه جار لهم، وهروبه قبل بداية المعركة، فهو كلام لا معنى له أصلاً، ولم يرد في القرآن ما يدعم تمثّل إبليس على شكل بشر، علماً أنّه شيء منتشر في عموم ثقافة أهل الكتاب وفي رواياتنا...

من بعد قولهم هذا، فهل من بعد ما ذهب معهم سراقة والتقى الجمعان، نكص وقال {إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}، هل هذا قول من سراقة الذي لم يسلم إلا بعد سنين طويلة من هذه الحادثة، حيث إنّه أسلم بعد فتح مكّة!

من هذا الباب نرى تلك الروايات غير مقنعة، وهي إمّا مبالغة كاذبة حيث ربما حصل تواصل ما مع "سراقة" حتى يترك الخلافات مع قريش جانباً الآن... أو أصلاً الروايات كاذبة اخترعها أحد ما من أوهامه، وهذا الكذب والمبالغة والتخريف... منتشر بكثرة في الروايات، والآية لا إشارة فيها أبداً لأي تمثّل للشيطان، إذ ما هي إلا وسوسة...

(إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{49})

{إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ}، حيث يقول الذين يعلنون أنهم مؤمنون ولكنهم في الحقيقة ومن داخلهم ليسوا كذلك، وأيضا يقول {الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}، الذين لم يكن قلبهم سليماً، فكرهم ونفسيتهم مريضة إذ أعلنوا إيمانهم أو أعلنوا ميلهم للدين الإلهي ولكن لديهم دائماً شكوك واعتراضات على الدين والمتدينين، ولمرضهم تدرجات تصل في أقصاها إلى التشابه التام مع الكفر ونزولا وصولا إلى ضعفاء الإيمان، فيقولون:

{غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ}، مما يدينون به، وما يعتقدون به أنهم تحت تبعاته، وما يلتزمون به فيه إيمان عن حصولهم على الدعم الإلهي، وهذا غرّهم وجعلهم ينخدعون ليؤمنوا بشيء غير صحيح، وهنا الكلام عن المؤمنين الذين قرروا قتال القوة العسكرية للكفاّر بالرغم من أن عدد الكفّار أكثر منهم، واحتمال انتصار المؤمنين على الكفار شبه مستحيل، لأن الاعتقاد بالآخرة والجنة والتأييد الإلهي وأقوال الرسول(ع) عن النصر... كل ذلك غرّهم فآمنوا به وهو غير صحيح ولن ينفعهم، إذ إن الصحيح أنهم سينهزمون حتماً. وهذا كان رأي المنافقين والذين في قلوبهم مرض قبل معركة بدر.

{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}، من يعتمد عليه تعالى لتيسير وتحقيق ما فيه مصلحته، {فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ}، منفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... وبناء عليه يفرض تعالى ما يريده على الآخرين ولا يفرض عليه أي أحد أي شيء، وهذا بشكل عام وهنا الكلام عن قدرته تعالى على تحقيق النصر للمؤمنين على الكافرين، حيث إن هذا الاعتقاد بقدرته تعالى على نصر المؤمنين والنابع من الدين الإلهي، هذا الاعتقاد ليس اغتراراً بل هو توكّل على العزيز بكل ما تحمله كلمة عزيز من معنى لأنه يفرض أي شيء يريده.

الله {حَكِيمٌ}، حيث يرى الصوابية في الأمور، وقراراته وأعماله ليست عبثية، فعندما يقرر سبحانه نصر المؤمنين فسيكون هذا فعلاً صائباً وحقّاً وفيه صلاح، وعندما يقرر سبحانه هزيمتهم فأيضا سيكون هذا فعلاً صائباً وحقّاً وفيه صلاح، حيث قرّر تعالى هزيمتهم في معركة أحد لأنهم تنازعوا وفشلوا... وكانت درساً قاسياً لهم استفادوا منه كثيراً ولم ينهزموا بعدها في حياة النبي(ع)...

في القرآن قرابة الخمسين مرّة وردت الصفتان عزيز وحكيم مع بعض، ومع بعضهما تعطيان معنىً إضافياً، فبالرغم من عزّته الفائقة سبحانه لفرض ما يريده إلا أنه سبحانه حكيم فلا يستعمل عزّته عبثاً أو بصلافة الجلافة السيئة.

توجد مشكلة عويصة عند بعض المفسرين حين يواجهون آيات قرآنية تتكلم عمن كان حول الرسول(ع)، حيث إنه بناء على إعلائهم لقيمة المسلمين الأوائل بشكل مفرط مبالغ فيه، وتسميتهم كلهم بـ: الصحابة، يقع الكثيرون في مشكلة "تقديسهم" "للصحابة" لدرجة رفضهم لفهم الآيات الصريحة التي تقول بأنه كان بين من يسمونهم "بالصحابة" منافقون وفاسقون وفي قلوبهم مرض، ونحن لسنا بوارد تسمية "الصحابة المنافقين أو الفاسقين أو الذين في قلوبهم مرض" ومحاكمتهم، ولا شأن لنا بذلك، ولكن لا معنى لمخالفة صريح القرآن حين قال بأن البعض منهم كان منافقاً او فاسقاً أو قلبه مريض، لأن هذه حقيقة لم يستحِ تعالى منها والبعض منّا يستحي منها على أساس أن عموم الآخرين من الأديان الأخرى يظهرون صورة لمّاعة لتاريخهم ولا ينشرون غسيلهم الوسخ أمام الآخرين...

هنا من الواضح أن الآية تتحدّث عن أشخاص معاصرين للرسول(ع) ومن المحسوبين على المنتمين لدينه تعالى، وهم صحابة في تعريف مقدّسي الصحابة، فما معنى التقديس لكل من صحب الرسول(ع) وفيهم بوضوح منافقون وفاسقون وفي قلوبهم مرض؟

من جانب آخر، بأي حق ننصّب أنفسنا قضاة في محاكمة المعاصرين للرسول(ع) من ناحية ما فعلوه من سوء ناسين ما فعلوه من خير، وننسى أنفسنا وما نفعله نحن من سوء، معتبرين أن أفعالنا السيئة لن تصل في مستواها إلى سوء ما فعله أولئك الذين كانوا معاصرين لرسول ينزل عليه الوحي، وكأن هذا مبرّرٌ مقبولٌ لهم عنده تعالى للتخفيف من سيئاتنا ومبيحٌ لنا سبّ وشتيمة وإهانة "مسلمين" ماتوا منذ زمن بعيد، وكأن قاعدة حرمة المسلم تنكسر لأنهم من التاريخ بينما معلوم أن حرمة المسلم فرض إلهي لمن مات وصار من التاريخ أو لا يزال حيّاً في عصرنا.

أقل ما يمكن قوله في هذا الموضوع، أنه لن يزيد في إيمان أحد البحث فيه، وسيدمّر إيماننا الخوض فيه لأنه تأجيج للعصبية المذهبية والطائفية بين المسلمين.

لنسلّم جدلاً أن فلاناً وفلاناً وفلاناً... من الصحابة كانوا منافقين فسقة بل وكفّاراً، ما دخلك أنت بذلك وما تأثيره على مجريات حياتك؟ فأنت لست في زمنهم حتى ترفض ولايتهم، ومطلوب منك في زمنك تولّي صالح المؤمنين، فمن وليّك؟ من رئيس بلدك؟ من رئيس الوزراء ومن هم الوزراء ومن النواب ومن رئيس البلدية ومن المختار ومن رئيس الحزب ومن رئيس العائلة...؟ على هذا ستتحاسب في يوم القيامة وليس عن ولاية من مات قبلك، فهل انحصر الزمان الديني في عصر النبي محمّد(ع) بحيث كل من نهتم به له ارتباط فقط وفقط بذلك الزمان؟ وماذا عن الرسل السابقين والمشاكل التي حصلت في حياتهم وبعدها، ماذا عن يوشع بن نون وصيّ النبي موسى(ع) وما يقولونه عن تاريخه الذي مرّ فيه حروب داخلية كما جرى في عهد الإمام علي، لماذا لست مهتماً بيوشع وهو وصي رسول؟ ولماذا أصلاً لا تعرف اسمه ولا شيء عنه طالما المفاصل التاريخية تهمّك وتعتبرها أساسية وضرورية لتحديد الإيمان الصحيح؟ ولماذا لا تبحث عن أسماء معارضيه لتضع كل اللوم عليهم في تمزيق دينه تعالى؟

يكفي هذا المقدار لترى أننا كلنا غارقون في الوحل، بين تقديس لشخصيات نعتبرها لنا، وتوهين وإهانة لشخصيات نعتبرها للآخرين، حتى صرنا سخرية لصغار ضباط المخابرات العالمية الذين يتلاعبون بنا لتمزيقنا، وهم لم يعتدوا علينا بل نحن بغباء السذاجة مع لمسة ميل نحو الإجرام، هيّأنا لهم التلاعب بنا لتفريقنا وتمزيقنا...

(وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ{50})
{وَلَوْ تَرَى}، فلو يحصل لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: لو شفت. {إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ}، فلو رأيت الذين كانوا منكرين للدين حين يأخذهم بالتمام، {الْمَلآئِكَةُ}، فأنتم الآن لا ترون الآخرة ولا ترون ما سيحدث لكافر عندما

تتوفّاه الملائكة(ع) فيصير بالتمام في أيدي الملائكة(ع)، حيث ستتوفّاهم الملائكة فيموتون، وبعدها تأتي الآخرة ويبقى الذين ماتوا تحت يد الملائكة(ع) من بعد إحيائهم، {يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ}، حيث تقوم الملائكة(ع) بضرب وجوه الكفار، وجههم الذي فيه أعينهم وصدرهم وكل مقدمة جسدهم... ويضربون، {أَدْبَارَهُمْ}، كل جهة ظهرهم، وفوق هذا الضرب، {ذُوقُوا}، تحسسوا تلمسوا، {عَذَابَ الْحَرِيقِ}، الاحتراق بنار جهنم الذي يعذّبهم فيسبب لهم تلفاً لجسدهم.

راجع دراسة الآية 97 من سورة النساء {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}، حيث إنّ الكلام هناك عن الوفاة في حالة {ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ} وبعدها الآخرة وعودتهم إلى الحياة، وقول الملائكة لهم: {فِيمَ كُنْتُمْ}... وهنا الكلام عن الوفاة في حالة الكفر، حيث تتوفّاهم الملائكة(ع) موتاً فيصيرون عندهم، ويبقون على هذه الحالة تحت يد الملائكة حتى يسترجعوا حياتهم في الآخرة، وعندها تبدأ الملائكة(ع) بضربهم.

ما يقال عن تفسير الآية بأن الملائكة (ع) حين تتوفّى الكافر تبدأ بضربه هنا في الدنيا... فهذا من تشرّبنا لفكرة الحياة فيما يسمّونه بـ"عالم البرزخ" لكل من مات، لأنّ القرآن فقط وبصراحة أخبرنا عن المقتولين في سبيله تعالى أنهم هنا في الدنيا يبقون أحياء في عالم مختلف عن عالمنا، وفي دراستنا هذه يمكنك مراجعة الآيات التي يقولون إنّها تدعم قولهم عن عذاب في نار هنا في الدنيا للكافرين وفوراً بعد موتهم وقبل الآخرة لترى أنه ليس تفسيراً صائباً، وأرجوك أن لا تستحضر بضبابية في بالك آيات تظنّها تدحض كلامي، بل راجع دراستنا لتلك الآيات وبعدها ادحض كلامي.

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ{51})
{ذَلِكَ} الضرب والعذاب، {بِمَا}، بسبب الذي، {قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ}، كما نقول إنّك قدّمت لي الطعام، حيث إنّ الكلام هنا عمّن تعذّب بما قدّمه لنفسه من أعمال سيئة وأخّر الأعمال الحسنة. أنتم كفرتم وأنتم قاتلتم المؤمنين، وهذه أمور بأيديكم حصلت، وقدمتموها لأنفسكم، مثلما تحضّر الطعام وتقدمه، فهم حضّروا أعمال الكفر والقتل، وقدّموها لأنفسهم في الآخرة.

{وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}، حيث إنّ الذين مفروض منهم طاعته تعالى يعاملهم بالعدل والإنصاف ولا يظلمهم، لا قليلاً ولا كثيراً.

ننتبه لسبب استعمال صيغة المبالغة "ظَلَّام"، حيث استنتج البعض أنه تعالى يقول إنّه لا يظلم كثيراً، فيمكن أن يظلم قليلاً. وهذا غير صحيح أبداً بتاتاً، إذ لدينا آيات صريحة عديدة بأن الله تعالى لا يظلم أحداً كما تقرأ في الآية 49 {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}، ولا يظلم ربك شيئاً كما ورد في الآية 47 من سورة الأنبياء {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}، وغيرها من التعابير المختلفة والمتنوعة والواضحة جداً جداً بأنه تعالى لا يظلم لا كثيراً ولا قليلاً... ومنها الآية 52 من سورة يونس {ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ}.

أما سبب استعمال صيغة المبالغة "ظُلْم، ظَلَّام"، فلأن العذاب الذي يتعرض له الكفّار شديد جداً، فهو ضرب مستمر واحتراق مستمر بلا نهاية، فهل هذا كثير كعقاب خالد لا ينتهي لمن كفر في حياته التي امتدت لمدة خمسين أو ثمانين سنة؟ هذا ما يمكن أن يخطر بالبال عندما تتحدث الآيات عن خلود في جهنم للكفار، فهل هذا العقاب فيه ظلم؟ هنا الآية تقول بأن العقاب محقّ، فالله تعالى ليس بظلام للعبيد، وهذا العذاب الشديد جداً والذي لا ينتهي ليس "ظُلامَةً" لهم، وليس مبالغة في الظلم لهم، بل هم يستحقون هذه الشدة من التعذيب.

نلاحظ أنّ القرآن لم ينقل لنا أي اعتراض لأهل النار على شدة التعذيب، ولم ينقل أنهم قالوا بأنه أكثر مما يستحقونه، هنا نحن ربما نشعر بأنه كثير لأننا لم نَرَ ماذا فعلوا، أما في الآخرة عندما نرى حقيقتهم من الداخل فسنعلم وسيعلمون هم أنهم يستحقون الخلود في العذاب.

كلمة {عَبْد} تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة، فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة عِبَاد على كلمة عَبيد، وكأنّ كلمة عَبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عِبَاد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإلهٍ، ولكن هذا غير صحيح، فكلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عَبيد جمع عبد، وَعِبَاد جمع عَبيد، فهي جمع الجمع، وأثناء الكلام بدقّة رُبما تكون الإشارة لمجموعة عَبيد بينهم شيء خاص مشترك، فتقول الآيات: عَبيد. ووردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وتكون لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عِبَاد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وربما تكون لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، فهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيدٍ آخرين جاءهم رسول، وعبيدٍ آخرين... فجمع الجمع "عِبَاد"، فكلمة عِبَاد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جداً عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللهِ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ{52})

{كَدَأْبِ}، كديدن كعادة ما قام به باستمرار، {آلِ فِرْعَوْنَ}، أقاربه بالنسب، والقرآن عادة يقصد الفرعون الذي كان على عهد النبي موسى(ع)، فهو وأقاربه "العائلة الحاكمة" كان لديهم تصرفات متكررة باستمرار، والكلام هنا عن التصرفات النابعة من الكفر، وهي مشابهة لما يفعله الكفّار عموماً، والكلام هنا خصوصاً عن التشابه مع الكفّار أهل مكّة الذين كانوا في عهد النبي محمّد(ع) كنموذج، {وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، وكدأب الكفّار الذين كانوا قبل زمن آل فرعون، كثمود وعاد... حيث كان دأبهم، عادتهم المستمرة أنهم، {كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ}، حيث إنّ الأمور المميزة بمستواها الإلهي والمنسوبة له تعالى أنكروها فلم يؤمنوا بها، {فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ}، إذ إنّ ما قاموا به من أعمال مخالفة لأوامره تعالى سببت لهم أن لا يتركهم سبحانه، وتعلم أن المقصود هو تعرّضهم لعقاب إلهي هنا في الدنيا.

{إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ}، وليس ضعيفاً حتى يتركهم بلا عقاب على كفرهم إذا قاوموه... ولديه تعالى القوّة ليعذّبهم كما يريد، و{شَدِيدُ الْعِقَابِ}، حيث إنّ الشيء السيّء الذي يعقب الذي يأتي بعد ما قاموا به من ذنوب سيكون شديداً ولن يكون عادياً أو يمكنهم تحمّله أو الاعتياد عليه.

هذا خبر لنا ولكل الناس عبر القرآن حتى ننتبه، حيث قديماً مرّت أمم كافرة أصابها عذاب هنا في الدنيا منه تعالى، وكان نموذجاً عن عقاب الآخرة الذي قرّره تعالى لمن خالف أوامره سبحانه، ويمكن أن يتكرّر العقاب في الدنيا قبل الآخرة للأمم الكافرة، لأنّ هذه سنّته تعالى فيهم، حيث إنّ هذا عادة ما يفعله تعالى مع هكذا حالات.

نلاحظ القرآن يستعمل صفة فرعون، وهي صفة لحاكم مصر القديمة في بعض فتراتها الزمنية، مثل صفة الملك لأعلى حاكم عند العرب، وصفة كسرى للحاكم عند الفرس، وقيصر عند الرومان... لذا نلاحظ القرآن تحدّث عن فرعون واحد محدّدٍ، وهو نفسه الذي التقطت زوجته الطفل موسى(ع)، وهو نفسه الذي لحق بالنبي موسى(ع) وقومه وغرق في البحر، فأينما قرأت في القرآن كلمة فرعون فهي تشير لهذا الشخص.

تلاحظ القرآن دائماً ما يطرح فرعون كنموذج عن أعتى قوّة كافرة معاندة لدينه تعالى عبر التاريخ، حتى أي كافر بدينه تعالى يقيس نفسه بقدراته وسلطته وثروته... مع فرعون الذي كانت رغباته أوامر، ولا يسايس أحداً، ولا يفاوض أحداً، ولا يسمح بأي شيء مخالف لإرادته، وغناه بالمال كان فائضاً عن حاجاته بشكل هائل، والقدرات المسخّرة لخدمته من عبيد وعمّال وعسكر كانت أكثر من كافية ليفعل ما يريده، وكل ذلك دفعه لإعلان ربوبيته وألوهيته... وإن صدق ما حققناه من كونه الفرعون خوفو، فهو باني أهرامات الجيزة، والتي لوحدها تخبرك عن القدرات البشرية والمادية التي كانت مسخرة له.

لو قارنت هذا الفرعون مع رئيس دولة تملك قنابل نووية وحاملات طائرات... وأموالاً طائلة أكثر مما كان يملك فرعون، ونسيت أن قوّة فرعون كانت أكثر من كافية لإخضاع كل من تطالهم يده في زمنه، وأن ثروته المالية والعبيد والعمّال المسخرين لخدمته كانوا أكثر من كافين لتحقيق ما يريد، ونسيت أن فرعون لم يكن يفاوض ولا يسايس، وأن حكمه استمرّ لسنين طويلة... فلن تفهم كلام القرآن عنه كنموذج فريد في تاريخ البشرية.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{53})
{ذَلِكَ}، الذي قلناه لكم عن العذاب لهؤلاء إنما حصل بسبب ذنوبهم لذا خذوا علماً، {بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا}، مبدّلاً بشيء مختلف، {نِعْمَةً}، شيء جيّد، {أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ}، على أناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع دينه تعالى، حيث أعطاهم النعم والأشياء الجيدة، كالصحة والمال والأمان... فلم يكن سبحانه ليغير تلك الأشياء بأشياء أخرى سيئة، {حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}، حيث إنّهم إن تغيّروا من الإيمان إلى الكفر، فإن النعم ستزول عنهم.

فرعون وآله ورثوا نعمة ممن قبلهم، وزادوا عليها، وسبحانه لم يحرمهم النعمة بإغراقهم إلا لأنهم هم تغيّروا من حالة سماحه تعالى لهم بالعيش في نعمة، إلى حالة استوجبت نزول العقاب الإلهي هنا في الدنيا عليهم. وهذا يأخذك إلى عمق في كلامه تعالى عن تركهم لسنين طويلة بدون عقاب، واستبدالِه تعالى بعذاب دون ذلك، بقمل ودم وضفادع وسنين... فقط حتى يتركوا بني إسرائيل يغادروا مصر، لسبب أو لآخر تلاحظ أنه تعالى لم يرد لهم العقاب في الدنيا، إلى أن هم أوصلوا الأمور إلى ضرورة إغراقهم في اليمّ...

{وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ}، يسمع كل شيء، لأنّ كل شيء تحت المراقبة، {عَلِيمٌ}، حيث يعلم كل ما حصل ويحصل بتفاصيله، لذا عندما يتغيّر الناس فإنّه تعالى لا ينتظر أحداً ما ليخبره بذلك ليعلم بحصول تغيّر، لا، بل بنفسه سبحانه يسمع ويعلم أنهم تغيّروا.

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَالِمِينَ{54})
{كَدَأْبِ}، خذ مثلاً ديدن وعادة ما فعل باستمرار، {آلِ فِرْعَوْنَ}، أقارب فرعون بالنسب وهم العائلة الحاكمة في عهد النبي موسى(ع)، وخذ مثلاً آخر، {وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، من قبل آل فرعون من الكفّار، كثمود وعاد... حيث إنّ دأبهم وعادتهم المستمرّة أنهم: {كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ}، لأنّ الأمور المميزة بمستواها الإلهي والمنسوبة للمسؤول عنهم من مستوى إلهي قالوا عنها إنها كاذبة غير صحيحة، {فَأَخَذْنَاهُمْ}، استنفدنا وأخذنا حياتهم التي كانت في نعمة، {بِذُنُوبِهِمْ}، بسبب أعمالهم المخالفة لأوامره تعالى، وكمثال عن العقاب الإلهي لهذه النوعية من الناس: {وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ}، جعلناهم تحت الماء، وأمتناهم تحت الماء حين أطبق البحر عليهم... بعدما لحقوا بالنبي موسى(ع) ومن معه ليقتلوهم أو يرجعوا معهم... {وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ}، إذ لا واحد من تلك الأقوام كان معه حق بتكذيبه للآيات الإلهية، حيث آتتهم آيات كثيرة وافية وأكثر من كافية ليؤمنوا ولكنهم ظُلْماً كذّبوها، لذا استحقوا الهلاك.

يا كفّار مكّة "كنموذج" تتصرفون كما تصرّف آل فرعون وبقية الكفّار من قبله، لذا قد تهلكون كما هلك فرعون ومن قبله من كفّار عقاباً على ذنوبهم، لأنها سنّته تعالى، هذه طريقته وعادته تعالى في التعامل مع هكذا نوعية من الناس.

نلاحظ هنا حصول الإهلاك لكفار قريش بما جرى من إهلاك قسم منهم في معركة بدر، حيث كان التدخّل الإلهي لإهلاك قسم منهم على أيدي المؤمنين، ولكن عموم كلام القرآن عندما يتحدّث عن إهلاكه تعالى للكافرين المرتكبين لسيئة من العيار الثقيل، عادة يشير لهلاكهم بكارثة ما وليس لقتلهم على أيدي المؤمنين. التهديد هنا ليس بالقتل على أيدي المؤمنين "مع أنه عذاب للكافرين" بل الإنذار من سنّته تعالى في إهلاك الأقوام الكافرة، كما أهلك فرعون ومن قبله بكوارث.

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ{55})
{إِنَّ شَرَّ}، إن أسوأ، {الدَّوَابِّ}، الحيوانات التي تدب تتحرّك على الأرض "على اليابسة أو في الماء" ومن ضمنها الإنسان، إن الأكثر شراً، {عِنْدَ اللَّهِ}، في تصنيفه تعالى، هم، {الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا دينه تعالى وأنكروا آياته، {فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}، لا يعتقدون بعقيدته ولا بشريعته تعالى.

نحن الناس وبقية الحيوانات والحشرات دواب، خلقنا تعالى مختلفين بالقدرات وبالتالي مختلفين بالتصرفات، وبشكل عام ترى أحياناً تصرفات عدوانية عند عموم الدواب، وترى تصرفات عادية أو تعاطفية... مما يشير لمستوى ما من تمييزهم الجيد من السيئ من التصرفات، وبنظرة عامة إلى الدواب بشكل عام، يصير لدينا تصنيف من الأحسن إلى الأسوأ، طبعاً بحسب ما يمكن للدابة فعله بما فيها من قابليات وقدرات...

من هذه النظرة يقول تعالى عن الكفّار أنهم من أسوأ الدواب. لأنه خلق البشر مميزين عن بقية الدواب بقدرات وقابليات أعلى، والكلام هنا خصوصاً عن تمييزنا بين الخير والشرّ والفاسد والصالح... بما له متعلقات بإنسانيتنا فماذا في كلامه تعالى من سوء حتى كفر به بعض الناس؟ فإذا كان كل كلامه تعالى حقاً وصدقاً وصلاحاً بكل ما تحمله هذه الكلمات من معنى، وفينا القدرة على تمييز ذلك بسهولة، فما معنى الكفر بكلامه تعالى؟ معناه رفض الحقّ والخير والصلاح... والرغبة في الكذب والظلم والشر والفساد... ولهذا نرى آيات تقول بأن الكفّار كالأنعام كالبهائم بل البهائم أفضل من الكفار كما ورد في الآية 44 من سورة الفرقان {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا}، وسترى من الآية التالية نموذجاً تطبيقياً على هذا الكلام.

بالنسبة لكلمة آمن فلم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإسلام أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، فآمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كلتاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ{56})
مثال عن شرّ الدواب تنتقل إليه السورة بعد كلامها عن الكفّار المعادين علناً والذين جرت معهم معركة بدر، حيث تنقلنا السورة إلى الكفّار الذين عاهدوا الرسول(ع) على السلم، ولكنهم عندما رأوا قوّة قريش القتالية واعتقدوا أن النصر لقريش، بطريقة أو بأخرى أعانوا قريشاً في حربها ضد المسلمين في بدر:

{الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ}، من الكفار، فكان بينك أيها النبي محمّد(ع) وبينهم عهد، اتفاق على شيء قبلوا الالتزام به، وهنا الكلام عن التزام الكفّار بالسلم مع المؤمنين، {ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ}، فلا يلتزمون ويفسخون ما أعلنوه لك، فلا يلتزمون بما قالوه لك، {فِي كُلِّ مَرَّةٍ}، ومرةً بعد مرةٍ تتعاهد مع أناس كفّار ولكنهم مرة بعد مرة لا يلتزمون بالعهد، {وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ}، لا يتجنبون سوء مخالفتهم للعهود التي أعلنوها، يعني كما نقول بالعامية: ينقضون العهد وما بتفرق معهم، لا يهمّهم. وكأن العهد لا قيمة له، فلا يهمهم اتصافهم بالسوء إن نقضوا العهد معكم.

لاحظ كيف تدرجت الآيات من الحديث عن شدة العذاب في الآخرة والإهلاك في الدنيا... إلى شرّ الدواب لترجع لموضوع السورة عن الكفار المقاتلين المحاربين للمؤمنين، فهم شرّ الدواب لأنهم لا ناموس لهم، وهنا تشير الآية لأناس تعاهد معهم الرسول(ع) أن يكون بينه وبينهم سلم، ولكنهم ساعدوا الكفّار ضده، ثم طلبوا من جديد أن يكون بينه (ع) وبينهم سلم، ثم من جديد ساعدوا الكفار ضده، بالقتال أو بالمعلومات أو بالماء والمؤونة أو بالسماح لهم بالمرور من أرضهم...

كما ترى فالكلام هنا من بعد وقوع معركة بدر كتوجيه منه تعالى لكيفية التعامل مع الكفّار الذين ساندوا كفّار قريش في قتالهم ضد المسلمين في بدر.

عطفاً على ما ورد في الآية السابقة، فما قيمة هذه النوعية من الكفّار الذين يعاهدون وينقضون العهد ثم يعاهدون وينقضون العهد... فما معنى العهد بين شخصين أو جماعتين؟ ومن أين تأتي قيمة الالتزام به؟ وما معنى فقدانه لقيمته لنقضه ساعة تشاء؟ وهكذا ترى جانباً من المعنى التطبيقي للآية السابقة، فالإنسان قيمته المختلفة عن بقية الدواب هي هذه المفردات من حقّ وباطل، وظلم وعدل، وخير وشرّ... وعهد ونقض، فأي قيمة لإنسان تعلم أنه سيكذب وسيخون وسيقتل ويعتدي... ولن يلتزم بأي شيء يقوله لك إلا إذا كان خائفاً منك ويعلم بأنك حالياً يمكنك ردّ الأذية له إن آذاك... فهؤلاء شرّ الدواب، وكالأنعام، بل بعض الحيوانات لديها ناموس ما أرقى من هذه النوعية المتدنيّة جداً من الناس.

(فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ{57})

{فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ}، إذا استطعت أن تطالهم، {فِي الْحَرْبِ}، في حالة إعلان القتال، {فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ}، قاتلهم بقساوة لدرجة أن الذين خلفهم من عموم الكفّار الآخرين سواء الخائنون لعهودهم معك أو غيرهم سيشردون، ولن يتجّهوا باتجاهك ولن يقتربوا من المؤمنين ليؤذوهم خوفاً مما فعلتم مع الخائنين للعهود أن تفعلوه معهم.

وهذه القسوة، {لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ}، من المتوقع ومن المفروض من بقية الكفّار سواء الذين تعاهدت معهم أو الآخرين أن يستحضروا في ذهنهم تعاملك القاسي مع الخونة، فيتقوا ولا يتجرؤوا على نقض عهدهم معك أو معاداتك.

بعبارة أخرى، هم مستهترون بعهد السلم الموقّع معك، وساعة يشاؤون وعلى هواهم يغيرون رأيهم ويعتدون على المسلمين أو يشاركون مع الآخرين في حرب ضدّك، هم عاهدوك لأنك أنت تلتزم بالعهد وهم في الأمان، ولم يعاهدوك ليكونوا صادقين معك، فأي فرصة سانحة لهم للانقضاض عليك فسيستغنمونها... فيما مضى عاهدوك، وهم يعتقدون أن عداوتك لهم أخف من معاداتك لكفّار قريش، فإن تقاتلت معهم ولطيبة قلبك فستفكّر أنهم سيعيدون عقد اتفاق سلمي معك، فلا داعي لأن تكون شديداً معهم... لا، كن قاسياً شديداً معهم ولا قيمة لكونهم فيما مضى عاهدوك وها قد نقضوا العهد، وقساوتك عليهم لتكن درساً لعموم الكفّار الآخرين وخصوصاً الذين مثلهم عاهدوك ولا يتقون نقض العهد معك، كن قاسياً لدرجة جعل الآخرين يتفرقون عن بعضهم وهم خائفون من أن تعتبرهم قوةً قتالية إن اجتمعوا مع بعض، فتهجم عليهم، وأي عدد من الناقضين للعهد اجتمع مع بعض، فاعتبره تجمعاً يقصدون منه الهجوم عليك، واهجم عليهم فور تجمّعهم.

(وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ{58})

{وَإِمَّا تَخَافَنَّ}، إذا شعرت بخطر سيحصل ولا يمكن تجنبه، {مِنْ قَوْمٍ}، من أناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة معك بعهد، ووصلت إليك معلومات تشير لتأكيد وقوع، {خِيَانَةً}، وتخاف أن يهجموا عليك بالرغم من العهد الذي بينك وبينهم والذي ينص أن لا يهجموا عليك، ووصلتك معلومات أنهم يتجهزون للحرب ضدك:

{فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ}، اترك مكانك وقم إليهم، واخرج إليهم، {عَلَى سَوَاءٍ}، بلا فرق وبالتساوي بينك وبينهم، وبشكل واضح أخبرهم وأعلن لهم أنك قادم إليهم لأنه وصلك خبر أنهم نقضوا العهد بتجهزهم لخيانتك وأنت لم تعد ملزماً به، لا تخدعهم واخرج إليهم علناً، {عَلَى سَوَاءٍ}، وليصلهم خبر أنك ستنبذ إليهم، إمّا أن يؤكدوا عهد السلم معك مع ضمانات... أو يقاتلوك. حالة ما بين بين، وأنهم على ذوقهم سيختارون في الوقت المناسب ليفعلوا ما يحلو لهم، فهذا غير مقبول.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ}، الذين لم يعلنوا لك أنهم نقضوا العهد ورغم ذلك يتصرفون وكأنه بلا قيمة، في الظاهر يجعلونك تشعر بأنهم ملتزمون بالسلم معك وفي الباطن هم لا مشكلة عندهم بتغيير رأيهم والهجوم عليك، فلا تكن مثلهم حتى لو وصلتك معلومات أنهم ينوون الهجوم عليك، وبشكل صريح أعلن لهم أنك ستهجم عليهم لأنك وصلتك معلومات عن نقضهم للعهد... لا تتصرّف مثل الخائنين، وحين يصلهم خبر انطلاقك إليهم إمّا أن يؤكّدوا العهد معك، ويتعلموا احترام الالتزام بالعهود معك، وإمّا أن يقاتلوك.

دائماً في كل العصور تجد في التاريخ أناساً يعتبرون الاتفاقيات أنها مجرد حبر على ورق، لا قيمة لها ولن يلتزموا بها إلا إذا كانوا لا يقدرون على مخالفتها، وحين تصير لديهم القدرة على مخالفتها، فهم لا يتقون، وهذه الحال كانت منتشرة بين القبائل والعشائر التي تعاهد معها النبي محمّد(ع)، بعضهم بسبب خوفهم من قوّة المسلمين عاهدوهم، ومن الأساس كانوا ينوون الخيانة وعاهدوا وهم بانتظار الفرصة المناسبة للهجوم على النبي(ع).

ضع في بالك في عموم ما ورد في القرآن أنه تعالى لا يُحِبُّهُ، وردت حيث لا داعي للكلام القاسي، وخذ مثلاً كلامك معي حيث تريد تحذيري وتنبيهي وتقول: سأكسر عظامك لو فعلت كذا وكذا... هذه نبرة عالية لا مبرر لها لأنك تعلم أني حالياً لست ناوياً لفعل السوء، والجملة الأنسب: لا أحب أن تفعل كذا وكذا... وعلى هذا المفهوم جاءت الآيات التي وجّهت كلامها مع المؤمنين مستعملة عبارة مشابهة لعبارة "الله يحب أو لا يحب".

بقي شيء من الفضول، ما يقولونه عن إعجاز تكرّر بعض كلمات القرآن بعدد ملفتٍ، كقولهم عن تكرار كلمة ليل 12 مرة وكلمة نهار 12 مرة... تتبعت غالبية الكلمات التي قالوها ووجدت غالبية كلامهم كذباً إلا في أقل من عشر كلمات،

ومما تحققت وتأكدت منه كلمة شهر بالمفرد "شهر، شهراً" حيث تكررت 12 مرة، وتكررت كلمة شهر بالمثنى "شهرين" مرتين فقط. كلمة "رجل" بالمفرد تكررت 24 مرة، وكلمة "امرأة، امرأت" أيضاً تكررت 24 مرة. كلمة "يأمرون" تكررت 7 مرات، وكلمة "ينهون" أيضاً تكررت 7 مرات. كلمة "الخبيث" بالمفرد تكررت 7 مرات، وكلمة "الطيب" بالمفرد تكررت 7 مرات. وهناك كلمات أخرى فيها الكثير من التراخي والاستنسابية بحيث يلغون كلمة أو كلمات لسبب غير وجيه ويدّعون أن الأعداد متساوية كقولهم عن تكرار كلمة ملائكة والشيطان.

الغريب أن الحالة الوحيدة الصادقة بالتمام والوضوح ليست منتشرة في مقالاتهم وكتبهم! فعلاً تكررت في القرآن جملة "الله يحب" 16 مرة، وجملة "الله لا يحب" 16 مرّة.

لكن، هل هذا يعني أي شيء؟ لا، لا يحتاج القرآن لخزعبلات من هذا النوع ليصير له قيمة أو لنؤمن بأنه من مصدر إلهي، لأن ما فيه من حقّ وصلاح هو قيمته.

(وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ{59})
{فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ}... {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا الدين الإلهي فلا يخطر ببالهم من دون تفكير واقعي، {سَبَقُوا}، أنهم سبقوكم فاستغلوا على أحسن وجه فرصة نقض العهد واستعدوا قبلكم للقتال لأنهم ظنوكم بسطاء وانطلت عليكم حيلة المعاهدة، لا، هذا غير صحيح، {إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ}، فلن يجعلوك عاجزاً عن الهجوم عليهم بالاختباء خلف العهد الكاذب.

لاحظ أن النبي(ع) يلتزم بالعهد بالتأكيد، وهناك أناس يعتمدون على صدقه (ع) عندما يعاهد، فيتحضرون لقتاله وهم آمنون من هجومه عليهم، ويحسبون أنهم يمكنهم استغلال ذلك فلن يهجم عليهم النبي(ع) حتى لو وصلته معلومات أنهم يتجهَّزون ويتحضَّرون لقتاله...

بعبارة أبسط، فهم مطمئنون أنك لن تهجم عليهم بسبب تأكدهم من التزامك بالعهد، ومن جهتهم فهم يعتبرون أنفسهم أحراراً من العهد معك، وأنهم في أي وقت يمكنهم تغيير رأيهم ومهاجمتك أو مساندة من يهاجمك... وحتى لو قاموا بأعمال مخالفة للعهد الذي بينك وبينهم فهم يعتبرون أنك ملزم بالاتفاقية ولن تؤذيهم بل ستطلب منهم العودة إلى الاتفاق...

(وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ{60})
{وَأَعِدُّوا لَهُمْ}، حضّروا وجهّزوا للكفّار، {مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ}، أقصى قوة يمكنكم الحصول عليها يجب أن تكون حاضرة عندكم، من التدريب الجسدي والتخطيط... وأقوى ما يمكن من اقتصاد وسلاح ودعاية... {وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ}، من الأحصنة المرابطة الجاهزة المنتظرة لتركبوها للقتال، فلا تنتظروا حتى حصول المعركة وتذهبوا للبحث عن أحصنة لتشتروها ولتدريبها والتدرّب عليها للقتال، لا، فلتكن الأحصنة مرابطة جاهزة حاضرة، والكلام عن الأحصنة نموذج عن عموم العتاد وما له أهمية للحرب، وبتعبيرنا الحالي فلتكن أفضل آليات القتال والعتاد جاهزة للحرب.

بهذا الاستعداد، {تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ}، فالذي يعمل بشكل مضاد لما يريده تعالى ومضاد لما تريدونه أنتم وضد مصلحتكم فبالاستعداد بالقوّة تجعلونه يرهب منكم فيشعر بأنه لا يقدر على مواجهتكم، وترهبون بالقوة، {وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ}، من غير هؤلاء الأعداء الذين تعرفونهم، ترهبون الأعداء الذين تعرفونهم، وترهبون أناسا سيصيرون لكم أعداءً وأنتم، {لَا تَعْلَمُونَهُمْ}، ربما يكونون بالقرب منكم ولا تعلمون أنهم يضمرون لكم العداوة، وربما يكونون معادين لكم وبعيدين عنكم ولا تعرفونهم ولكن حين يسمعون بقوتكم يرتهبون منكم... {اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ}، لديه سبحانه علم بأولئك الأعداء المستترة، ولذلك حتى لو كان جيرانكم لا يعادونكم، ولا تشعرون بالحاجة للاستعداد، فربما هم إن رأوا فيكم ضعفا عادوكم ليعتدوا عليكم، وهناك أعداء آخرون لا تعلمونهم أنتم ولكنه تعالى يعلمهم، ويجب أن يعلم الجميع أنكم أقوياء مستعدون للحرب ويخافون منكم ولا يقومون بأي نشاط مُعَادٍ لكم...

هنا يبدو الكلام عمومياً عن تخويف كل الآخرين باستعدادكم، ولكن سياق الآيات يشير بالخصوص إلى الذين لم يخافوا منكم ولديهم نية الضرر لكم عندما تسنح لهم الفرصة...

{وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ}، أي شيء تصرفونه، {فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، في مسلك يرضى عنه تعالى، {يُوَفَّ إِلَيْكُمْ}، فتحصلون عليه بالتمام، لن تخسروا ما صرفتموه على الاستعداد والتحضير للقوة العسكرية، بل سيعطيكم تعالى عليه الأجر، {وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}، فمقابل صرفكم للمال على الاستعداد الحربي ستحصلون منه تعالى على أمور تجعلكم ترون أنكم حصلتم على ما يرضيكم وأنه كان أجراً مناسباً لما أنفقتموه.

لا يحصل لديكم شعور بأنكم في حالة السلم، وأن إنفاق المال على شراء الأسلحة والتدريب هو خسارة للمال والجهد لأنكم لستم في حرب... لا، هذا إنفاق في شيء يرضى تعالى عنه "في سبيله تعالى" بل يأمركم به، ولذلك لن تخسروا المال الذي صرفتموه على الاستعداد، فعليه أجر منه تعالى.

لا تفهم من الآية أنه يوجد نوعان من الأعداء، الأول عدو لله تعالى وفي نفس الوقت صديق لنا، والثاني عدو لنا وفي نفس الوقت "صديق" لله تعالى، لا، عدو الله تعالى هو نفسه عدو المؤمنين، ولا يوجد لهم عدو غيره. هذا الكلام يأخذك إلى الانتباه دائما لكلام القرآن عن تعليل وتبرير أمره وسماحه تعالى للمؤمنين بقتال الآخرين، القاعدة الأساس أن قتل الآخرين ممنوع وعليه عقاب شديد، وبسبب أن الآخرين يقومون بأعمال عدائية ضد المؤمنين، سمح بل أمر تعالى بقتالهم.

عملياً لا يوجد شيء اسمه قتال في سبيله تعالى ولا يتقاطع مع مصالح المؤمنين، ولا يسمح سبحانه للمؤمنين بقتال غيرهم إلا لأسباب موجبة، وعندها يصف تعالى القتال أنه في سبيله، هذا مفهوم منتشر في القرآن فهمناه بشكل غير صحيح حين فصلنا وصف القتال في سبيله تعالى عن مصالحنا كمؤمنين، وصرنا نبرّر لقتال الآخرين أنه في سبيله تعالى وكأن سبيله تعالى شيء لا علاقة لنا به، وكأمرٍ وصلنا منه تعالى لنقاتل ولا علاقة لنا به، لا، الترجمة العملية لوصف القتال في سبيله تعالى هي مصالح المؤمنين التي يرضى عنها تعالى والتي تتعرّض لاعتداء قتالي من الآخرين.

العنوان الأسهل على الفهم هو قتال المؤمنين لمن عاداهم وحاربهم لأنهم مؤمنون بدينه تعالى، ماذا لو لم يكن الآخرون يهمّهم دينك وبالقوة العسكرية احتلّوا أرضك وطردوك منها؟ هل أنت مضطر لتبحث وتتأكّد إن كانوا معادين لدينه تعالى حتى تقاتلهم لأنك لا تقاتل إلّا في سبيل الله تعالى ولا تقاتل في سبيل أرضك؟ هذا هراء، لأن سبيله تعالى متقاطع مع مصالحك، وتبرز المشكلة في ذلك فقط إن كانت مصالحك مخالفة لكلامه تعالى.

تأثرنا بهذا النوع من الثقافة لفهم عنوان "القتال في سبيل الله تعالى" حتى صرنا لا نميّز معنى كلامه تعالى الواضح في تبرير وتعليل أمره أو سماحه تعالى للمؤمنين بالقتال، ها القرآن ينتشر فيه الكلام عما فعله الآخرون حتى أمر تعالى بقتالهم، قبل قليل مرّ معك نموذج عن ذلك بأمره تعالى بقتال الذين خانوا العهود، وقبلها في الآية 39 أمر بقتال الآخرين حتى لا تكون فتنة، حيث أمر بقتال من يفتن المؤمنين فيعرّضهم لما يجبرهم على تغيير دينهم، بقطع رزقهم أو حبسهم أو ضربهم أو قتلهم... فالدفاع عن النفس والتديّن والأموال والأرض... كلها عناوين تطبيقية للقتال في سبيله تعالى.

بعبارة أصرح الكلام القرآني عن العهود مع الكفّار ليس كلاماً مؤقتاً ومنسوخاً كما يقولون، لا، المسالمون من الكفّار أو من أي دين أو مذهب أو طائفة... لا سبيل للمسلمين عليهم، حيث غير مسموح التعرّض لهم بالأذى اعتداءً ولا بأي شكل، هذا واضح جداً من عموم كلام القرآن ومثال عنه الآية 8 من سورة الممتحنة {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، ولتأكيد مسالمة غير المسلمين يجري توقيع العهود مع الأقوام منهم، وسترى هذا المعنى واضحاً من الآية التالية.

كما ترى الآية بشكل ما تأمر بتشكيل جيش احتياطي على الأقل، ويكون من كل المجتمع المسلم القادر على حمل السلاح وغيره مما يلزم للحرب... ويكون جاهزاً للاستعداد والتجهّز فوراً للحرب، والأفضل منه تشكيل جيش نظامي إذا كانت الظروف تستدعي ذلك، وبين هذا وذاك تشكيل قوّة قتالية صغيرة جاهزة دائماً للطوارئ وخلفها قوّة تعبئة مع إمكانية تجهّزها للحرب بسرعة. كلام الآية يريك المرونة في عموم كلام القرآن ليتلاءم مع مختلف الظروف، لا يأمر

تعالى بتشكيل جيش نظامي كبير بتكاليف للمعاشات والتجهيزات... ولا يوجد على المدى البعيد خطر عدو بهذا الحجم من الاستعداد، ولكنه تعالى يأمر بتجهيز ما يناسب الحالة والزمان والمكان...

(وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{61})
{وَإِنْ جَنَحُوا}، إذا مال الكفار، {لِلسَّلْمِ}، للأمان بينكم وبينهم، ولا يريدون الحرب معكم نهائياً، {فَاجْنَحْ لَهَا}، فليكن ميلك للسلم، فإن كانوا لا يُحَارِبُونَكَ ولا يريدون أبداً أن يحاربوك، وليس عندهم استعداد للحرب... وليس بينك وبينهم معاهدة ولكنهم لا يعلنون العداوة والكراهة لك وللمؤمنين، ويريدون أن يكون بينكم وبينهم حالة سلم، فكن أنت أيضاً مائلاً إلى هذا الخيار فاقبل منهم عرضهم.

{وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}، فاعتمد عليه في تيسير وتحقيق أمورك، {إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ}، الذي يسمع كل شيء، فلا تخف فكلهم يراقبهم تعالى، وهو، {الْعَلِيمُ}، فيعلم تفاصيل كل شيء، فمن تتوكّل عليه يراقب كل شيء.

تملك القوة للقضاء عليهم، لكنهم أرادوا السلم معك، ولو قضيت عليهم لشعرت بالأمان أكثر، حيث ربما حاربوك فيما بعد، ولكن عندما يأمرك ربك سبحانه بأن تسالم من أعلن السلم معك، فتوكّل عليه تعالى لأنه هو أمرك بذلك، فإن خانوك فيما بعد، ومن المفروض أنك دائماً مستعد للحرب، فسيتم تأييدك بالنصر الإلهي عليهم، والآية التالية ستكمل الحديث عن هذه الحالة:

بالنسبة لكلمة "سلم" ميّز اللغويون بين "السلم" بالكسرة على السين على أنها تشير للانقياد، ومنها اشتقاق الإسلام ومسلمين... كما ورد في الآية 78 من سورة الحجّ {... وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ...}، وميّزوا بينها وبين "السلم" بالفتحة على السين على أنها إعلان نفي أي سوء للآخرين، الأمان مع الآخرين سواء أكانوا مسالمين بالأصل أو كانوا معادين وصاروا ناوين للسلم، كما ورد في الآية 90 من سورة النساء {... فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا}، وكما ورد في الآية 35 من سورة محمد {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ...}.

(وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ{62})
{وَإِنْ يُرِيدُوا}، يقصد أولئك الذين أعلنوا ميلهم للسلم، {أَنْ يَخْدَعُوكَ}، بعرض السلم عليك وإخفاء "تبييت" نيّة الحرب، طالما هم معلنون للسلم ولا تجد منهم بوادر للقتال، ولا استعدادات وتحضيرات لديهم للقتال، ولا معلومات سرية مخابراتية وصلتك عن استعدادهم لقتالٍ... فيجب عليك المسالمة، وإن كانت نيّتهم أن يخدعوك، فلا مشكلة، {فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ}، فلا تحتاج لأحد معه تعالى حتى ينصرك على المخادعين، {هُوَ}، الله تعالى، {الَّذِي أَيَّدَكَ}، ساندك دعمك، {بِنَصْرِهِ}، فجعلك تحقّق ما تريده على أعدائك، وكنموذج عن ذلك انتصارك في معركة بدر، وأيّدك، {بِالْمُؤْمِنِينَ}، بالمعتقدين الحقيقيين الذين قاتلوا معك في سبيله تعالى.

ما نقرؤه هنا هو الفرق بين الإيمان والكفر، وهو الفرق بين دينه تعالى وأديان الناس، حيث سبحانه يمنع رسوله(ع) أن يكون مخادعاً، ويمنعه من قتل الآخرين على الشبهة والشكّ والنوايا... وفي نفس الوقت يخبره تعالى بأنه سيكون هناك أناس مخادعون يستغلون التزامك بمبادئك، ورغم ذلك ممنوع أن تتغيّر لتصير مخادعاً، ولا تخف من أي شيء، طالما أنت على الخطّ الإلهي، ومتجهّز ومستعد للحرب كما أمرك تعالى، فلن يتمكنوا من تحقيق أي شيء ضدّك.

(وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{63})
المؤمنون الذين أيدك تعالى بهم: {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ}، وجعل تعالى في أساس تفكيرهم ونفسيتهم إلفة لبعضهم البعض، فيعتاد ويتماشى فكرهم ونفسيتهم مع بعضهم بلا تنافر، {وَلَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}، لو صرفت مال كل الأرض وأملاكها وأرزاقها كلها عليهم، وراضيتهم بأموال طائلة لكل واحد منهم، {مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ}، فلن تنجح في جعلهم متماشين معتادين على بعضهم البعض بلا تنافر، حيث حالة القبلية والعصبية والثأر... كانت شديدة جداً بين العرب، فلا تجد من مختلف العشائر والقبائل عشيرتين أو قبيلتين أو عائلتين متحابتين متعاونتين بالشكل الذي صار عليه المؤمنون حولك، وبخاصة ما نعرفه ومشهور في التاريخ عن العشيرتين الكبيرتين "الأوس، والخزرج" سكّان مدينة يثرب، حيث

كان بينهما قتال ونزاع طويل، واختفى النزاع العائلي بين المؤمنين الحقيقيين منهم، وأضف إليهم المهاجرين القرشيين، والمسلمين من العائلات الأخرى... فالإلفة بين المؤمنين الحقيقيين منهم تحت لواء الدين الإلهي كانت غير طبيعية بالنسبة لمحيط له تاريخ في الخلافات على أتفه الأسباب...

{وَلَكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ}، فصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز سبحانه قرّب بين قلوب المؤمنين بالمواءمة، فجعلهم تعالى لا يتنافرون بل يساعدون بعضهم، ويدافعون عن بعضهم ولو ضدّ أهلهم وإخوانهم من الكفار.

{إِنَّهُ عَزِيزٌ}، منفي عنه تعالى عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... فيفرض ما يريده ولا يمكن لأي أحد أن يفرض عليه تعالى أي شيء، سبحانه قرّر أن تتآلف قلوبهم، ولا يحتاج أصلاً للمؤمنين لينصروك لو شاء تعالى لأمات كل أعدائك بأمر منه تعالى وبلمح البصر.

إنه، {حَكِيمٌ}، بحكمته وبرؤيته للصوابية في الأمور جعل قلوب المؤمنين متآلفة، ومن الأساس عندما صمّمنا سبحانه جعل في المؤمنين ما يؤالفهم، لو لم يكن سبحانه حكيماً وكل ما يصدر عنه له حقّ وصلاح... لما خلقنا مع خاصية الإلفة بين المؤمنين مهما اختلفت أصولهم وأعراقهم وجنسياتهم...

كما ترى، ما يحصل في عصرنا من تآلف وأخوّة بين أفراد المذهب أو الطائفة الواحدة من المسلمين، بغض النظر عن بلدانهم، هو الدليل على الأثر الجيّد لإمكانية حصول إلفة للمختلفين في الحسب والنسب والعرق، وفي نفس الوقت دليل على أننا كلّنا بدون استثناء مشكوك في سلامة إيماننا، لأن الأمر الإلهي الأول للمنتمين لدينه يمنع التمذهب والانشقاق مهما كان السبب، وأي شعور عندك بالميل لأبناء مذهبك وطائفتك بشكل يفوق ميلك لبقية المسلمين، فإيمانك فيه خلل.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{64})
{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}، يا أيها الذي يصله النبأ، وهذه الكلمة صارت مصطلحاً دينياً يشير لمن يصله منه تعالى خَبَرٌ غير منتشر علمه بين الناس.

{حَسْبُكَ اللّهُ}، فصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز يكفيك ولا تحتاج لغيره، {وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، والذين على ما أنت عليه من الإيمان فلا تحتاج لغيرهم، فأنت لا تحتاج لعدد كبير لتنتصر، وسترى الآية التالية تشير إلى هذا المعنى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ{65})
{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}، يا أيها الذي يصله النبأ، الخبر منه تعالى وغير المنتشر علمه بين الناس:

{حَرِّضِ}، حفّز**،** حمّس**،** استفزّ، {الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ}، فالذين اعتقدوا بدينه تعالى حرّضهم فاجعلهم متحمسين للمشاركة في عمل إنهاء حياة الأعداء، فأخبرهم عبر هذا القرآن:

{إِن يَكُن مِّنكُمْ}، أيها المؤمنون، {عِشْرُونَ صَابِرُونَ}، عشرون مؤمناً تبقى تصرفاتهم مدروسة وواعية فلا تتحكّم بهم أهواؤهم وهواجسهم وعواطفهم فلا يتراجعون ولا يخافون ولا يملّون... فإنهم، {يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ}، يترجّح ما يريده المؤمنون العشرون على مئتين من الأعداء.

{وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ}، مقاتلون مؤمنون عددهم مئة، فإنهم، {يَغْلِبُواْ أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ}، فيترجّح ما يريده المؤمنون على الذين أنكروا دينه تعالى. والسبب الذي يجعل الواحد منكم يغلب عشرة من الكفار، {بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ}، بسبب أنهم أناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع دينه تعالى، {لاَّ يَفْقَهُونَ}، فلا يربطون المعلومات بشكل سليم فالنتيجة لن تكون جيدة أو صحيحة، لأنهم لم يفقهوا ولم يفهموا معنى قوّة الإيمان التي فيكم، فإذا كان عددهم أكثر من عددكم فسيدخلون في حرب معكم واثقين من النصر عليكم، بينما النصر مؤكد لكم.

كما ترى فالتدخّل الإلهي عامل مهم دائماً في كل الأمور، وهنا الكلام عن المقاتلين المؤمنين الصابرين الثابتين، وفي قبالتهم فرقة كافرة وأيضاً صابرة ثابتة، ورغم ما يبدو أنه لا فرق بينهما يؤكّد سبحانه لنا على أن الفرق هائل بين

المؤمنين الحقيقيين والآخرين، حيث إن المؤمنين يتلقون دعماً إلهياً، وكنموذج عنه ما جرى في معركة بدر ونقلته السورة هنا حيث جعل سبحانه العدو مستهتراً بالمؤمنين، وفجأة خافوا منهم... وبالعكس يجعل تعالى المؤمنين محبّين للقتال ولا يخافون... وفي ذيل الآية التالية سنتوسّع قليلاً بالموضوع.

اشتقاقاً من هذا الكلام، إن كانت فئة محسوبة بالانتماء على دينه تعالى، وهربت أو خسرت أو استسلمت، فهذا يعني أنهم ليسوا صابرين فليسوا مؤمنين من الدرجة العالية، وربما يكونون منافقين وفاسقين.

(الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ{66})
الذي ورد في الآية السابقة هو الأساس، وهذه حالة أعلى درجة يصل إليها المقاتل المؤمن الحقيقي، ولكن هذا المستوى العالي ليس حالتكم كلكم أيها المسلمون:

الآن، في هذه الحال، حالياً في الوضع الراهن، خفّف الله عنكم، فالأصل أنه لو تواجه عشرون مؤمناً ضد مئتي كافر فيجب على المؤمنين مقاتلتهم، ولو تواجه مئة مؤمن ضد ألف مقاتل فيجب أن يقاتلوهم، ولكن "الآن، حالياً" خفّف الله تعالى على المؤمنين، وعلم أن فيكم، أيها المؤمنون، ضعفاً، فلستم كلكم على الدرجة العالية جدا من الاستعداد البدني والإيماني.

{فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ}، مئة مقاتل صابرون لتبقى تصرفاتهم واعية ومدروسة، فإنهم، {يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ} من الكفار، {وَإِن يَكُن مِّنكُم أَلْفٌ} مقاتل فإنهم، {يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ} من الكفار، {بِإِذْنِ اللّهِ}، وهذا يحصل بسماح منه تعالى، ومواجهة المؤمن لاثنين من الأعداء لن تَحْسِمَ النصر الأكيد لكم إلا إذا أذن سبحانه.

{وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}، فإذا صبر المؤمنون وبقيت تصرفاتهم مدروسة وواعية فالله تعالى معهم وعمليا يعني سينصرهم سبحانه، وأمّا لو كانوا غير صابرين فلن يكون سبحانه معهم لينصرهم.

انتبه، فالآيات لا تقول إنّ المؤمن الواحد لوحده يقتل عشرة كفار، بل تتحدث عن الغلبة، عن حالة حرب بمجموعات تغلب الأعداء، فيموت قسم من الأعداء ويستسلم قسم ويهرب آخرون... والمجموعة المؤلفة من عشرين مقاتلاً مؤمناً صابراً يمكنها "التغلّب" على مئتي مقاتل كافر، هذا إن كانوا مؤمنين من الدرجة العالية، أمّا في حالة الأشخاص الذين كانوا حول النبي(ع) حيث كان فيهم ضعف، إذ البعض منهم من الدرجة العالية إيمانياً وبدنياً والبعض الآخر لم يكن كذلك، والتخفيف بسبب حالة الضعف التي يعلمها سبحانه وتعالى فيهم، لذا كل مجموعة من مئة مقاتل مؤمن يمكنها التغلب على مئتين من الكفار... هذا بحسب حالة المسلمين حول النبي محمّد(ع).

نلاحظ الآيات هنا تقصد إعطاء المقاتلين دَفْعاً معنوياً حقيقياً، فتقول لهم: كونوا مؤمنين حقيقيين والعشرون منكم يغلبون مئتين، وإن كان فيكم ضعف، فعلى الأقل المئة منكم يغلبون مئتين، وفي أسوأ حالتكم الإيمانية والبدنية فالمئة منكم تغلب مئتين من العدو، فلتكن معنوياتكم مرتفعة. وبهذا المعنى ترى أن كلام بعض المفسرين عن مسافة زمنية بين الآيتين غير صحيح، حيث قيل إنّ الأمر الأول جاء بالدخول في قتال عشرين لمئتين "واحد ضدّ عشرة"، وبعدها بزمن جاء التخفيف بأمر الدخول في قتال المئة لمئتين "الواحد ضد اثنين"، وهذا غير صحيح، لأن سياق الكلام متتابع ويشير لأساس ما يمكن للمؤمنين من الدرجة العالية والصابرين مواجهته، وبعدها تشير لأقل ما يمكن للمؤمنين "العاديين" مواجهته، ولستم مكلفين بما يمكن للمؤمنين من الدرجة العالية فعله.

الآية 16 من هذه السورة أخبرتنا أنّ الهروب من المعركة ممنوع، وبدمجها مع الآية هنا نفهم أنه: إن كان عدد المقاتلين الكفار المواجهين للمؤمنين أكثر منهم بمرتين، ويعلم المؤمنون أنهم ضعفاء "بدنياً" على المواجهة، فيمكن للمؤمنين الانسحاب والالتحاق بمجموعة أخرى من المؤمنين، ولا يحق لهم الهرب أبداً، ولا الاستسلام، بل ينسحبون حتى ينضموا لمؤمنين آخرين ويصير العدد مناسباً للقتال، هذا في أسوأ حالة ضعف المؤمنين، وأمّا في حالة القوة فالعشرون يقاتلون مئتين.

بقي شيء، كما فهمنا من الآيات التي تحدّثت عن إخبار النبي(ع) للمؤمنين عن نزول الملائكة(ع) لنصرتهم، أنّه في حينها نزل وحي على النبي (ع) وأخبره بذلك ولم يكن وحياً من نوع القرآن، كذلك نفهم الآيات هنا أنه نزل عليه (ع) وحي يأمره (ع) بإخبار المؤمنين بأن العشرين مؤمنا يغلبون مئتين من الكفّار، وعلى أقل تقدير في حالة الضعف فإن العشرين يغلبون أربعين من الكفّار... وحصلت معركة بدر... وبعدها نزلت السورة لتخبرنا عمّا كان يجري قبل المعركة... فما قيل عن نزول آيات من هذه السورة قبل معركة بدر فهو غير صحيح، ومشكلة تقطيع نزول السورة وتوزيعها على أزمنة مختلفة، وأحيانا بشكل يجعل أول السورة نازلاً بعد آيات من آخر نفس السورة، فهو أمر شائع الانتشار في الكتب والروايات، وأكثره خلط بين الكلام الصريح عن وقت النزول، وعن نزول الآيات لتتحدّث عن حادثة مضت، والأكثر منه استنسابهم لتطبيق ما تقوله الآيات على حادثة يرونها متماشية مع ما تقوله الآيات، فيقولون إنها نزلت في تلك الحادثة، وأحيانا هم يقصدون إنها نزلت لتتحدّث عن تلك الحادثة، ولا يقصدون أن زمن نزولها كان بالتمام في وقت حدوث تلك الحادثة، وأحيانا لا، فتشرد بهم الافتراضات ليقصدوا فعلا أن الآيات نزلت في زمن حصول تلك الحادثة، ويضيع بذلك موضوع السورة، وسياقها، وترابط آياتها...

آياتنا هنا شبه التمام لحالة فرض تقديم صدقة قبل مناجاة الرسول(ع) الواردة في الآية 12 و 13 من سورة المجادلة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}، فلا هناك ولا هنا كان تقطيع بين نزول الآيات، إذ نزلت مع بعض.

هنا الآيات ترينا أنّ الإنجاز بانتصار ثلاثمئة على ألف، له قيمته، ولكن فليعرف المسلمون حجمهم، فمحور الكلام الذي عنونته السورة كسبب لتسرد التعليقات الإلهية على معركة بدر، هو الحصول على الغنائم وشعور البعض بأنها من حقّه، ومضافا إليه العادة عندهم في الاستقواء على المقاتلين الآخرين لأخذ حصّة أكبر من الغنائم... فيأتي الكلام هنا ليريهم أن ما فعلوه إنجاز لأن النسبة "واحد مؤمن مقابل ثلاثة من الكفّار"، فهم فوق الحدّ الأدنى "واحد لاثنين"، وبعيدون جدا عن الحدّ الأعلى "واحد لعشرة"، فالنصر الإلهي للمؤمنين هو الذي يحسم المسألة بحسب درجة إيمانهم، وما ينتج من غنائم للمؤمنين المقاتلين في سبيله تعالى، حيث حصل لأنه تعالى نصرهم، وسيأتيك في السورة التالية نموذج معركة حنين التي كان فيها المسلمون أكثر بكثير من عدوّهم ورغم ذلك ففي بداية المعركة انهزموا... ولولا ثبات الرسول وعدد قليل جدا معه لخسروا المعركة...

بالنسبة لتقطيع نزول السور يمكنك مراجعة دراستنا هذه لترى أن تقطيعهم لنزول السورة الواحدة على أزمنة مختلفة بحيث تجعل آيات السور متداخلة مع بعضها البعض، فتنزل آية أو آيات من سورة البقرة، وبعدها آيات من سورة الأنفال... بعدها آيات من سورة الأعلى... بعدها آيات من سورة الأنفال... بعدها تنزل آيات من سورة البقرة... فهذا غير صحيح، وقبول فكرة نزول كل سورة من القرآن لوحدها بلا انقطاع حتى تنتهي على آخرها، هي فكرة صعبة القبول جدا على من تعلّق بروايات تفسّر القرآن بما يتماشى مع مذهبه، وأصعب منها على محبّي القصص التشويقية الروائية ذات المستوى المنخفض بسبب كذبها أو مبالغتها... والمتماشية مع المزاج العام للناس الذين يحبّون سماع تفاصيل وأسماء ومعلومات زائدة لا نفع فيها.... ويحبّون سماع المبالغات... فمن لم يعتقد بأن ما ذكره الله عزّ وجلّ في قرآنه كافٍ وافٍ بدون زوائد لا حاجة لها، فهذا لن يقتنع أبدا بانتفاء أهمية ما يقال في الكثير من الروايات...

على أقصى تقدير افترض القرآن فيمن يقرؤونه خلفية تاريخية بسيطة جدا جدا وهي كافية لفهم ما يقوله القرآن، ولم يشترط أن تكون على علم ودراية تامّة بتاريخ المسلمين الأوائل لتفهم القرآن، وها سورتنا أمامك، لم تذكر كلمة "بدر"، ولا حاجة لك لتعلم أنها تتحدّث عن معركة بدر أصلا، فيكفيك أن تعلم أنها معركة جرى فيها كذا وكذا، والتعليق الإلهي على ما جرى هو كذا وكذا، فهي مجرد نموذج لتتعلّم منها... وحينما دعت الحاجة لذكر نموذج عن انتصار العدد القليل من المؤمنين على عدد كبير من الكفّار، ورد في الآية 123 سورة آل عمران ذكر كلمة "بدر" كنموذج، ومن دون أي معلومات تاريخية عند أي قارئ للقرآن فإنه سيفهم من تلك الآيات أنّ "بدرا" اسم لمعركة انتصر فيها عدد قليل من المؤمنين على عدد كبير للكافرين، {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}.

هكذا ترى أنّ المتعلقين بالروايات كمصدر أساسي لتفسير القرآن فهم يتوهمون أهمية ما في تلك الروايات في حين أغفله القرآن فلم يذكره، وربما يكون لتلك المعلومات أهمية ما للباحثين في التاريخ... ولكن للهداية فلا شيء ينقص

القرآن، وما تركه القرآن من تفاصيل الكثير من التشريعات العبادية والمعاملات، حيث تركه إمّا لأنه منتشر علمه بين المسلمين بلا توقّع للخلاف بينهم عليه، كأركان وفروع الصلاة، أو تركه لأنه بديهي، كحرمة الوضوء بماء مسروق، أو تركه ليبقى فيه هامش مرونة تتناسب مع اختلاف الأزمنة والمجتمعات، كتركه لتحديد قيمة ديّة المقتول وقيمة الزكاة...

(مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{67})

{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ}، فمن غير المسموح لشخص يصله منه تعالى نبأ، كعلم بشيء غير منتشر بين الناس، "لهداية الناس"، فمن غير المسموح له وهو موصوف بأنه ناقل لكلامه تعالى للناس، {أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى}، فيأسر من الأعداء أثناء القتال، ويأخذ من الأعداء أحياء لا يقتلهم، {حَتَّى يُثْخِنَ}، حتى يعمّق إصابات الأعداء، فيصيب الأعداء بقتل وجرح شديد، {فِي الأَرْضِ}، فتنتهي القدرة العسكرية للأعداء على الأرض، وطالما أن الضرب والقتل مستمر، فأي نبي من أنبياء الله تعالى يقود معركة ما، فلا يحق له التهاون مع الأعداء ويحاول أخذ أسرى منهم، إلا أن يتوقفوا عن القتال نهائياً وتصير أرض المعركة تحت السيطرة تماماً.

أيها المسلمون الذين أخذتم المقاتلين الأعداء أسرى، {تُرِيدُونَ}، مقصدكم ورغبتكم، {عَرَضَ الدُّنْيَا}، تريدون أن تحصلوا على ما عرض لكم "وترونه مهمّاً" من مصالح دنيوية، من فدية مالية مقابل الأسير أو مصلحة لكم مع الأسير أو أهله... {وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ}، يريد لكم أن تحصلوا على الآخرة، فلا يريد تعالى أن تهتموا بأشياء دنيوية وتخسروا أشياء في غاية الأهمية في الآخرة، لأن هناك الجنّة الخالدة.

الأمر الإلهي بقتل كل مقاتل لكم تقع أيديكم عليه أثناء المعركة، ولا يحق لكم أن تأسروا من الأعداء حتى يستسلموا نهائياً بتوقّف القتال نهائياً، وإذا فكّرتم بأخذ الأسرى أثناء المعركة، فأنتم تفكرون بالمال الذي ستحصلون عليه من أقاربه كفدية حتى تطلقوا سراحه فيما بعد، أو تفكرون في مصالحكم الاجتماعية أو المالية معه أو مع ارتباطاته... وتتركون الأمر الإلهي الذي عليه أجر عظيم في الآخرة، وتريدون الحصول على ما يُعْرَض عليكم الحصول عليه هنا في الدنيا من فدية لأنه لن يدوم ولن يسبب لكم نفس السعادة التي ستحصلون عليها في الآخرة.

{وَاللهُ عَزِيزٌ}، منفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... إذ هو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... حيث يفرض ما يريده على الآخرين ولا يفرض الآخرون عليه تعالى أي شيء، لذلك فرض عليكم قتل العدو إلى حين الإثخان في الأرض وإن خالفتم فعلى ذلك عقاب، ولم يأمركم بقتل الكفار لأنه يحتاج لمساعدتكم، إذ لو أراد تعالى لقتل الكفار كلهم بلمح البصر.

{حَكِيمٌ}، عن حكمة وعن صوابية في رؤية الأمور وليس عن عبث أمركم بأن لا تأخذوا أسرى أثناء المعركة، لأن هؤلاء ما دامت المعركة مستمرة هم أعداء توقّفوا عن القتال عندما فقدوا الأمل من الانتصار عليكم وقتلكم، ويمكن أن يستأنفوا القتال ضدكم إن سنحت لهم فرصة أثناء جريان المعركة.

نلاحظ الآية لم تشر بشكل مباشر لسبب أمره تعالى بمنع أخذ الأسرى أثناء جريان المعركة، ونخمّن احتمالات، أقواها ما ذكرناه عن كون المستسلمين هم فعلياً ما زالوا أعداء ولم يستسلموا إلا لأنهم فقدوا فرصة قتل المؤمنين، واستسلامهم لا يعني أي تغيّر في حالة المستسلم لأن المعارك ما زالت مستمرة، والاحتمال الثاني العملي هو الاتقاء من التهاء المؤمنين بالأسير مع احتمال قوي بأنه سيهرب ليعود ويقاتلهم، أو في أرض المعركة سينتظر الفرصة لينقلب على من أسره... أو يجعل المؤمنين أهدافاً سهلة بسبب توجيه اهتمامهم إليه متغافلين عن الأعداء... لأن الأسير يجب تجريده من سلاحه، وسحبه من أرض المعركة إلى مكان فيه حراسة، وربطه حتى لا يهرب، أو حتى لا يعد للمشاركة في القتال ضدك... وهذا سيسبب خروجك من المعركة... وسينقص عدد المقاتلين مما يسبب لكم الخسارة، ومما يعرضكم لتكونوا أهدافاً مكشوفة لعدوكم... لذا لا يحق للأنبياء أن يفعلوا هذا، وبالتالي ولا يحق لكم أيها المؤمنون أن تفعلوا هذا أيضاً.

الاحتمال الثالث أن لا يشيع بين أعدائكم أنكم لا تقتلون من أعلن استسلامه أثناء جريان المعركة، فَيَتَشَجَّعُوا على المشاركة في القتال ضدّكم لأنهم يضمنون سلامتهم حتى آخر لحظة، إذ يمكنهم إعلان استسلامهم إذا شعروا بالخطر... ويمكنهم وضع خطّة مبنية على هذا الأساس حيث يعلنون استسلامهم مع خطة للهجوم عليكم من بينكم...

الآية تتحدث عن أمر المقاتلين المسلمين بأن لا يأخذوا أسرى أثناء القتال، وأما بعد انتهاء المعركة وتوقف القتال ووقوع بقية المقاتلين أسرى بعد رميهم للسلاح، فحكمهم مثلما ذكرت الآية 4 من سورة محمد(ع): بدفع المال فدية، أو القتل "الجرم ثابت عليهم"، أو إطلاق سراحهم، حيث يرجع للنبي(ع) "اللقائد" بحسب ما يراه مناسباً، {فَإذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ...}، لأن الآية هنا لا تتحدث عن شيء حصل بعد وقوع الأسرى في أيدي المسلمين، بل تتحدث عن خطأ ارتكبوه حين أخذوا أسرى والمعركة لا تزال مشتعلة.

ننتبه أيضاً، أن النبي محمّد(ع) وقبل بداية المعركة هو لم يأمر المؤمنين بأخذ الأسرى أثناء القتال، ولكنه لم يعترض على أخذ الأسرى أثناء جريان المعركة لأنه رأى الكفّة في الميدان راجحة لأصحابه... لذا الآية لا تحاسبه أو تلومه بل تخبرنا عن سلوك الأنبياء "وهو (ع) منهم" يسلك سلوكهم، لأن الأنبياء نموذج عن الذين لا يفعلون السوء عن قصد، وأخذ الأسرى أثناء جريان المعركة سوء لا يفعله الأنبياء، ولكن المسلمين بعضهم ركّز على القتال ولم يأخذ أسرى أثناء جريان المعركة، فهؤلاء أكدّت الآية صحّة ما فعلوه، وآخرون قتلوا وأسروا، وغيرهم التقط المقاتلين الكفار الذين رموا سلاحهم ورفعوا أيديهم أو جلسوا على الأرض معلنين الاستسلام، وأخذهم وهو يفكّر بالفدية التي سيحصل عليها من أسرهم، أو حيّد نفسه عن القتال ليسير باتجاه المستسلمين... ولم يقتلهم ويكمل المعركة التي لا تزال مشتعلة وبحاجة له... هؤلاء هم الذين تتحدث معهم "وعنهم" الآية.

الأساس أن لا يأخذ المؤمنون أسرى من الأعداء أثناء جريان المعارك إلى أن تستحكم قبضة المؤمنين بأرض المعركة، فـفرضاً كانت المعارك تدور على بقع مختلفة، واستسلم العدو في بقعة ما ولا يزال القتال جارياً في بقعة أخرى لن يشارك فيها المؤمنون الموجودون في البقعة التي استسلمت، فهنا يجب أخذ المستسلمين أسرى، وعموماً حين توقّف القتال واستسلام العدو بشكل كامل ممنوع قتل الأسرى إلا الذين عليهم جرائم سابقة وحكمها القتل، أو كانوا في المعركة قتلوا المؤمنين. لذا لا يختلط عليك كلام القرآن مرّة عن المنع من أخذ الأسرى وفِدَائِهِم، ومرّة عن منع أخذ الأسرى، لأن الكلام فيه تفصيل عن ظروف وأوضاع مختلفة، حيث أثناء جريان المعارك ممنوع أخذ الأسرى، وبعد انتهائها ممنوع قتل الأسرى إلا المجرمين الثابت عليهم الجرم، ولمزيد من التوسّع راجع دراسة الآية 4 من سورة محمّد.

(لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{68})
{لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللهِ سَبَقَ}، لولا أنه تعالى كتب فثبّت شيئاً سبق هذه الفعلة منكم، حيث قبل أن تقوموا بأخذ الأسرى أثناء المعركة، كان سبق وقرّر تعالى شيئاً، إذ قرّر أنكم ستنتصرون، ومرّ ذلك معك هنا خلال السورة في الآية 7 {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ...} ولولا ذلك، {لَمَسَّكُمْ}، لطالكم ولأحسستم، {فِيمَا أَخَذْتُمْ}، في فعلكم لأخذ الأسرى أثناء جريان المعركة، لمسّكم، {عَذَابٌ عَظِيمٌ}، شيء يسبب لكم الضرر ولن يكون سهلاً أو عادياً.

أخذ البعض منكم للأسرى أثناء جريان المعركة هو ذنب عليه عقاب، فتستحقون أن يقرر تعالى خسارتكم للمعركة التي لا تزال جارية، أو يقرر إصابتكم بالقتل والجراح... ولكنه تعالى سلفاً قرّر أن تنتصروا بالرغم من علمه بأن البعض منكم سيأخذ أسرى.

سؤال: هل قبل المعركة نزل وحي يخبر المؤمنين عن منعه تعالى إياهم من أخذهم للأسرى أثناء جريان المعركة؟ هذا غير واضح من الروايات والقرآن بشكل صريح، والتعبير بـ: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى}... يشير إلى كون هذا الشيء من المفروض أن يعلمه النبي محمّد(ع) والمؤمنون، ويبدو لأنه لم يأتهم أمر مباشر صريح بذلك مرّرها تعالى لهم... وبناء عليه لحكمة لم ينبّههم تعالى إلى هذا، وباب التحليل مفتوح لمعرفة سبب إغفاله تعالى تنبيههم إلى هذا، وأهم ما يخطر ببالي أن الأمور العقلانية من المفروض أنها معلومة، ولا داعي لذكر البديهيات، لأن ما يذهب إليه فكرنا من تصنيف كلام الآيات هنا على أنها أحكام تشريعية، بحيث لا يجوز أخذ أسرى قبل انتهاء المعركة، سيجعل المسألة تحتاج لتفاصيل أكثرها من البديهيات، ماذا لو وقع العدو في بئر عميق ولا يمكنه الخروج منه إلا بمساعدة، فهذا حكماً صار أسيراً ولست مضطراً للانشغال بقتله، وهكذا نفهم أهمية بعض العناوين التي ذكرها القرآن وربما تعتبرها بديهية ولكنه تعالى أراد تثبيتها والتأكيد عليها بصراحة، ونفهم الكثير من الأمور التفصيلية التي تركها تعالى عن قصد على أساس أنها ليست مستعصية على العقلاء ليعرفوها لوحدهم.

بقي شيء له علاقة بمعركة أحد التي خسرها المسلمون، حيث تقرأ عن كتاب من الله تعالى لنصر المسلمين في معركة بدر، وحقّق تعالى وعده رغم تلهي بعض المسلمين بالأسرى وهم يفكرون بالفدية المالية الناتجة عن ذلك، يعني هم يفكرون بالغنائم، ورغم نزول قرآن ينبههم إلى هذه المشكلة إلا أن البعض منهم لم يحفظ الدرس، ودفعوا الثمن غالياً في معركة أحد التي لم يمرّر فيها سبحانه الخطأ الذي ارتكبه بعض المسلمين حين طمعوا بالغنائم، إذ حقّق سبحانه وعده ونصرهم، ولكن غالبيتهم تركوا أماكنهم في حماية المنطقة الخلفية للمسلمين، ونزلوا إلى ساحة القتال لالتقاط الغنائم، وآخرون في ساحة المعركة كان همّهم التقاط الغنائم التي تركها العدو على الأرض أثناء هربه وهمّهم التقاط الغنائم من أغراض وأسلحة القتلى، ففقدوا التركيز على العدو وتشتتوا باحثين عن الغنائم، فباغتهم العدو بكتلة هجومية كبيرة مركّزة لاحقت المسلمين المشتتين... فتركهم تعالى ليخسروا حتى يكون درساً تاريخياً للجميع...

(فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{69})
{فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ}، فاستهلكوا مما حصلتم عليه بسبب الأسرى، من فدية مالية دفعها أهل الأسير أو قومه... من ماله أو من مالهم، كلوها، {حَلالاً}، فأنتم أحرار في التصرف بها وليس عليها عقاب، {طَيِّباً}، فهي ليست مالاً خبيثاً، فلا تفهموا من الكلام أن أخذ الفدية ممنوع وعليه عقاب، وبالنسبة للحالة التي أخذتم فيها أسرى قبل انتهاء المعركة فمرّرها تعالى لكم لأنكم لم تقصدوا فعل السوء وبالتالي سمح لكم بأخذ الفدية مقابل الأسرى.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}، فتجنبوا مخالفة كلامه حتى تتجنبوا غضبه وعقابه تعالى، فهذه المرة نجوتم من العقاب لأنّ وعداً إلهياً بالمغفرة وانتصاركم سبق هذه المعركة، وسبحانه لن يحاسب من لم يقصد السوء... فهي درس لكم ولغيركم، أمّا في معركة أخرى فلن تحصلوا على العفو.

{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ}، فيغفر ويتجاوز عن السيئات، لأنّ باب المغفرة دائماً مفتوح، والعقاب ليس محتوماً محسوماً طالما يمكننا الرجوع عن الذنب، فسنجد المغفرة بانتظارنا.

{رَحِيمٌ}، فلديه تعالى عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، وهي تختلف عن الرحمة العامة الشاملة لكل المخلوقات، حيث إنّ المؤمنين فقط يحصلون على المغفرة، ويحصلون على مضاعفة الحسنات وتكفير السيئات والشفاعة... أمّا غيرهم فلا يحصلون عليها لأنهم هم بكفرهم ونفاقهم وفسقهم خرجوا من الرحمة الإلهية.

لاحظ أن سياق الآيات السابقة يحصر الغنيمة هنا بما حصل عليها المؤمنون من الأسرى، وهي الفدية التي يدفعونها أو يدفعها الآخرون عنهم لتحريرهم، إذ الغنيمة كلمة عامّة لم تقصد الآية هنا عموميتها، بل خصوص الفدية على الأسرى، ومرّ معك سابقاً في السورة كلامها عن الأنواع الأخرى من الغنائم من العتاد والأسلحة... وتفهم الآية هنا أنها استثناء لغنيمة عن أسرى أخذهم المسلمون أثناء جريان المعركة، وأخذ الأسرى حصل بشكل غير مقبول، ولكنه حصل، فالمال الناتج عن الفدية فيما بعد حلّله تعالى للمؤمنين بسبب هذه الظروف الاستثنائية، واعتبره تعالى استثنائياً مثله مثل المال الناتج عن فدية الأسرى الذين استسلموا بعد انتهاء المعركة.

بعبارة أصرح، {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً}، تشير حصراً إلى سماحه تعالى للمؤمنين باستعمال أموال الفدية عن الأسرى الذين أخذوهم أثناء جريان المعركة.

مما هو دارج في أدبياتنا أن من قتل عدواً مقاتلاً فما مع العدو من سلاح ومتاع... فهو من حقّ الذي قتله، ودمجاً مع كلام السورة هنا عن حصّة للمقاتلين من الغنائم، يكون من باب الأولوية أن حصة المقاتل ليست منحصرة ولا شاملة لما كان مع الذي قتله، فإن كانت حصّته من الغنائم تتحمّل أخذه لما كان مع الذي قتله فهي له...

أقول لك هذا لأن فحوى الآيات هنا بكلامها عن أخذ أسرى أثناء جريان المعركة يشير بالتحليل إلى بعض المسلمين الطامعين بفداء الأسرى، فانشغلوا بأسر من يظنون أن فديته ستكون كبيرة على أساس أن الفدية ستكون للآسر لوحده، وأنت تعلم أن مجموع كل الغنائم جعلته السورة لله تعالى ولرسوله(ع)، ومن بعدها فإن استنسب الرسول "القائد" بحكمته أن يوزّع حصصاً على المقاتلين، إذ الفداء من الأسرى محسوب مع الغنائم، وليس ملكاً لمن أسر، ويكفي هذا المقدار من الكلام وبقية التفاصيل صارت سهلة...

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{70})
{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}، يا أيها الذي يصله النبأ، حيث يصله منه تعالى خَبَرٌ غير المنتشر علمه بين الناس، وهذا الشخص يكون نموذجاً للآخرين فيما يفعله لأنه يمثّل النموذج الأرقى إيمانياً لدرجة تأهُّله لنزول الوحي الإلهي عليه، {قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى}، قل للذين احتجزتم حرّيتهم من الكفّار المقاتلين الذين كانوا مشاركين في المعركة ضدّكم:

{إِن يَعْلَمِ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً}، وإن كان في أساس فكركم ونفسيتكم شيء جيّدٌ، وكان بشكل ما فيكم سلامة في القلب، فلم يتشرّب الكفر فيكم، وكنتم أشخاصاً لا ترتكبون الجرائم، وبشكل ما تحبّون الخير، عندها، {يُؤْتِكُمْ}، يعطيكم تعالى، {خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ}، إذ إنّ المال الذي دفعتموه للفدية سوف تحصلون في مقابله على شيء جيّد إن كان في قلوبكم خيرٌ، فهو الله تعالى ربكم وإلهكم مثلما هو رب المؤمنين وإلههم، حيث في الظاهر أنتم كنتم مشاركين مع الكفّار ضد المؤمنين ولكن في قلوبكم ربما كنتم مؤمنين "ولو بأدنى درجة من الإيمان" وربما كنتم مجبورين على المشاركة مع جيش الكفّار، وربما كنتم شكّاكين وتغيّرتم للميل أكثر نحو دينه تعالى... وربما هناك بذرة خير في قلوبكم ستجعلكم فيما بعد مؤمنين... ووقعتم في الأسر ودفعتم الفدية عن أنفسكم لتحريركم، وبسبب الخير "الإيمان ولو الخفيف، والكره للإجرام..." فـأنتم في ظروف أخرى لم يكن من المفروض أن تكونوا معادين للمؤمنين وبالتالي لن تصلوا إلى ظروف تدفعون فيها الفدية لتحريركم.

لا تنظروا لهذه الفدية على أنها شيء قاسٍ فرضه عليكم المؤمنون، أو آذاكم بها ربّ المؤمنين وكأنه ليس ربّكم، لا، لأن هذه الفدية سببها أنتم بمشاركتكم ضدّ المؤمنين بربّكم، وها ربّكم يعدكم بخير منها إن آمنتم...

{وَيَغْفِرْ لَكُمْ}، حيث يتجاوز تعالى عن سيئاتكم ولا يعاقبكم عليها أيها الأسرى. طبعاً إن صرتم مؤمنين.

{وَاللّهُ غَفُورٌ}، إذ صاحب هذا الاسم المحدّد المميز له تعالى ليس صلباً قاسياً فلا يجمد على قرار عقابكم فإذا آمنتم وطلبتم المغفرة فهي دائماً متاحة حتى لو كنتم من قبل كفاراً وقاتلتم المؤمنين.

{رَّحِيمٌ}، حيث لديه سبحانه عناية خاصة لما فيه مصلحة المؤمنين والمغفرة نموذج عن تلك العناية الخاصّة، أما غير المؤمنين لا مغفرة لهم.

انتبه لـلتفقّه لاستخراج أحكام من القرآن يجب أن يكون بعد دراسة كل القرآن، لأن الآية هنا لم تقل إنّ الفدية عن أي أسير ستحرّره، إذ من الـمعلوم من التاريخ أن الرسول(ع) أمر بقتل بعض الأسرى، وأمر بقتل بعض الأشخاص حتى لو استسلموا، لأن هؤلاء أشخاص كانوا من مرتكبي الجرائم، وهنا الكلام عن الأسرى الذين ربما يكون في قلوبهم خير، وهذا وصف لن تقوله عن مجرم...

بقي شيء، حيث إنّ الآية هنا من أوضح الآيات علينا لنرى الفرق بين كلام إلهي وكلام بشري، إذ كلامها مع أسرى كفّار به تعالى وكانوا مشاركين في معركة ضدّ التابعين له تعالى... ولكنهم لم يقتلوا أو يجرحوا من المؤمنين، ويأتي هنا كلام من مستوى إلهي ومن نظرة إلهية لهم، حيث لا يفرّق سبحانه بينهم وبين بقية عباده، لأنهم صاروا أسرى، ولا خطر منهم على المؤمنين، وبعبارة نتساهل فيها كثيراً نقول إنّه تعالى يعلّل "يبرّر" للأسرى أخذ مال الفدية منهم، وهذا شيء يبيّن لك وبكل وضوح أن القرآن كلام إلهي، لأن هذا المستوى غير العادي من التعامل مع الأمور، هو نموذج عن بقية كلام القرآن الذي ربما لا يكون واضحاً لنا فيه الفرق بين الكلام النابع من نظرة إلهية وبين كلامنا نحن.

نتذكّر شفافية الإله عزّ وجلّ مراراً وتكراراً حين يخبرنا أنه سبحانه لا يجد أي أثر لأي كائن من مستوى إلهي في السماوات والأرض التي هي حدود كلّ دنيا المخلوقات، وبناء عليه يؤكّد لنا أنه الإله الأحد... وتذكّر أمره سبحانه المؤمنين بالإنفاق وإخبارهم أن عليه حسنات ومغفرة للذنوب... كتعليل منه تعالى لأمر يجعلنا نخسر من أموالنا...
وتذكّر ما ورد في السورة هنا في الآية 13 عن تعليل استحقاق كفّار مكّة للعذاب... وهنا في الآية ترى نفس الكلام من مستوى إلهي حتى مع كافرين ومنذ قليل كانوا مشاركين في حرب ضد دينه تعالى وضدّ المتدينين، كتعليل منه تعالى لأخذ المؤمنين مالاً من الأسرى "الذين في قلوبهم خير" كفدية.

نتذكّر من التاريخ ومما تسمعه أن الكثير من الناس يدخلون في الحروب بهدف الاستفادة المالية، ليسرقوا وينهبوا... ليخطفوا ويأخذوا فدية... فيأتي الكلام الإلهي هنا ليبيّن الفرق بين أوامره تعالى وبين أفعال الناس غير التابعين له تعالى، فيقول للأسرى: ستدفعون مالاً مقابل حريتكم، وسيكون ثقيلاً عليكم، ولكن إن كان في قلوبكم خير فتعويض خسارتكم يضمنه تعالى لكم، فأنتم الآن في ظروف أوقعتم أنفسكم فيها، وإن تغيّرتم وآمنتم، فحتى ما دفعتموه كفدية سيعيده تعالى لكم بل وستحصلون على أفضل مما دفعتم، إذ هناك أجرٌ منه تعالى في الآخرة على إيمانكم وسيتضمّن تعويضكم عن الفدية.

(وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ اللّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{71})
{وَإِن يُرِيدُوا}، فإذا قصد الأسرى، {خِيَانَتَكَ}، بتركهم ما اتفقت عليه معهم أيها النبي(ع)، حيث أعلنوا لك أيها النبي(ع) أنهم إن تركتهم فلن يشاركوا بأي شكل في أي عمل مُعَادٍ لك وهم في حينها كانوا يكذبون وينوون خيانة هذا الكلام والمشاركة بعمل عدائي ضدّك فيما بعد، فلا مشكلة ولا تحاسبهم على نواياهم واقبل منهم إعلانهم للإيمان أو إعلانهم للسلم معك، حتى لو كان احتمال أن يخونوك وارداً، {فَقَدْ خَانُواْ اللّهَ مِن قَبْلُ}، حين كفروا به تعالى وبرسوله(ع) وحين قاتلوا المؤمنين، فهذه خيانة من العبيد لربهم تعالى، ورغم ذلك، {فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ}، فجعل سبحانه المؤمنين يتمكّنون منهم، وجعلهم تعالى أسرى، {وَاللّهُ عَلِيمٌ}، إذ يعلم بكل شيء، ويعلم سبحانه إن كانوا آمنوا حقاً أو أعلنوا أنهم لن يعودوا للمشاركة في عمل عدائي ضدّكم أو سيخونون بهذا، وعن علم يأمرك أن تقبل ما يعلنونه.

{حَكِيمٌ}، عندما أمرك أن تقبل منهم الفدية وتتركهم على شرط أن لا يقوموا بعمل عدائي ضدّك وضد المؤمنين، وهذا ما صار مفهوماً من الآية هنا، إذ عن حكمة وعن رؤية الصوابية في الأمور وليس عن عبث أمرك بقبول ما أعلنوه، فلا تتوقع أن تحصل مصيبة أو مشكلة بسببهم، لأنهم وقعوا في الأسر أول مرة وإن خانوك فمرة ثانية يُمكن أن يجعلك الله تعالى تقتلهم أو تأسرهم.

نلاحظ تكرار هذه الحالة في هذه السورة، حيث يأمر سبحانه نبيه بالتصرّف بحسب الظاهر، وأن لا يحاسب على النوايا، بل يقبل عهد "اتفاقية" السلم مع الآخرين، ويقبل من الأسرى عهد "اتفاقية" الابتعاد عن المشاركة في عمل عدائي ضدّ المؤمنين كشرط حتى يفاديهم ويطلق سراحهم، وهذه ليست سذاجة أو بساطة في التفكير، بل هو الفرق بين المؤمن والكافر، لأنّ الكافر مجرم ويفكر بطريقة إجرامية ويخون ويريد ضمان انتصاره ومصالحه ولو بأي طريقة "براغماتي لدرجة أن الغاية تبرّر الوسيلة"... أما المؤمن فيريد رضاه تعالى ويريد الآخرة ويريد إنهاء الكفر ونشر الإيمان... ولذلك أوجب سبحانه على المؤمن قبول العهود، وفي نفس الوقت أمر سبحانه المؤمنين بالاستعداد دوماً لأسوأ الاحتمالات.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ{72})
{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا}، إن الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {وَهَاجَرُوا}، وسياق الكلام عن الذين تركوا المكان الذي يحكمه الكفّار ويمنعون فيه المتدينين من ممارسة دينهم، {وَجَاهَدُوا}، فقاموا بعمل فيه جهد، {بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ}، فقدّموا أموالهم "طبعا ليس كلّها" وشاركوا بأنفسهم، {فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، في مسلك فيه رضاه تعالى وليس في مسالك الغايات الشخصية السيئة، وراجع ما توسّعنا به في دراسة الآية 60 من هذه السورة حول معنى القتال في سبيله تعالى.

إذًا لدينا أول فئة من المسلمين بثلاث صفات: إيمان، هجرة، جهاد.

لدينا فئة ثانية: {وَالَّذِينَ آوَوْا}، أسكنوا في بيوتهم، وهذا تكملة للكلام فتعلم أن المقصود هو إيواؤهم للمؤمنين الذين هاجروا، {وَنَصَرُوا}، فعملوا على تحقيق ما يريده المؤمنون، وهذا الكلام يعني ضِمنًا أنهم آمنوا فآووا ونصروا.

هاتان الفئتان: {أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}، فهم تابعون لبعضهم البعض حيث هذا مرجع لذاك وذاك مرجع لهذا، فيتوافقون على ما يجب فعله ويعينون بعضهم على تنفيذه، فصاروا كمجتمع واحد بلا فرق في الاهتمامات والواجبات، والمشاكل التي يعاني منها أحد المهاجرين فليس فقط المهاجرون يهتمون به بل يهتم به الأنصار أيضًا.

هناك فئة ثالثة: {وَالَّذِينَ آمَنُوا}، فأعلنوا أنهم معتقدون بهذا الدين، ولكن، {لَمْ يُهَاجِرُوا}، والكلام عن الذين لم يغادروا من المكان الذي يحكمه الكفار، {مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ}، فليسوا تابعين لكم ولستم مرجعًا لهم ولا ارتباط لكم بهم إذا تعرّضوا للقتل أو الاعتداء عليهم، فلا يجب عليكم أن تقيموا حربًا لأجلهم ولا أن تفادوهم... {حَتَّى يُهَاجِرُوا}، فإذا تركوا المكان الذي يحكمه الكفار فهم صاروا أولياء لكم وأنتم أولياء لهم، فيجب عليكم مساعدتهم.

{وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ}، فطلبوا منكم الدفاع عنهم والقتال معهم، {فِي الدِّينِ}، لأنهم يريدون أن يمارسوا دينهم والكفار يمنعونهم من الصلاة والصوم وتطبيق تشريعاته تعالى... {فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ}، فواجب عليكم مساعدتهم لتحقيق ما يريدونه على الآخرين، {إِلَّا عَلَى قَوْمٍ}، على أناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع هذه الحالة، {بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ}، فإذا كان يوجد شيء مؤكّد مشدّد بينكم وبين الكفار الحاكمين على هؤلاء الذين يقولون بأنهم مؤمنون ولكنهم لم يهاجروا، حيث بينكم وبين أولئك الكفّار اتفاق هدنة أو سلام على أن لا تهاجموهم ولا يُهاجموكم، ففي هذه الحالة لا يحق لكم نصرة من يقول بأنه مؤمن ولم يهاجر من تحت حكم الكفّار.

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}، فصورة أعمالهم يدركها تعالى ويعي معناها، وهو ليس مثل كاميرا المراقبة التي تسجّل ولا تفهم ما يجري. ويعلم سبحانه إن كان باستطاعة هؤلاء المهاجرة من تحت حكم الكفار، ويراقب سبحانه ماذا يجري معهم، ويعلم إن كنتم حسبتم حسابهم لتضمنوا سلامتهم حين عقدتم اتفاقًا مع الكفّار الحاكمين عليهم.

يعني هناك مكان كمدينة أو بلد يحكمه الكفار، ويمنعون المؤمنين من ممارسة تديّنهم، فيمنعونهم من الصلاة والصوم والحجاب... وتطبيق الشريعة... وتحت هذا الحكم يوجد أناس يقولون بأنهم مؤمنون، فأولًا يجب عليهم الهجرة إلى مكان يستطيعون فيه ممارسة دينهم، فإن لم يفعلوا مع استطاعتهم لذلك، فلا ولاية بينكم وبينهم، فأي مشكلة تحصل معهم فليست من شؤونكم، ولكن إن طلبوا من المؤمنين الآخرين التدخّل لنصرتهم، فهذا يعني أنهم غير قادرين على الهجرة أو يريدون التحرك للبقاء على تدينهم في مكانهم حيث هم، وهذا حقّهم إن أمكنهم تحقيق ذلك بمساعدة المؤمنين الآخرين من خارج مدينتهم أو بلدهم.

فإن لم يكن بين المؤمنين "الذين هم خارج منطقة حكم الكفّار" وبين الكفار شيء مؤكّد كاتفاق سلمي، فيجب عليكم أن تنصروا المؤمنين الذين لم يهاجروا ويريدون أن يحكموا أنفسهم في منطقتهم.

هذا الحكم فقط يمنع هجوم المسلمين على الكفار لأنه يوجد بينهم اتفاق، ولكن لا يحق للمسلمين أن يوقعوا اتفاقًا يسمح للكفار بقتل المؤمنين أو مضايقة الذين تحت حكمهم، وهنا من مشتقات الكلام أن أي اتفاق بين المؤمنين والكافرين يجب أن يتضمّن أن لا يتعرّض المؤمنون المقيمون تحت حكم الكفار لأي مضايقة.

ننتبه جيدًا، فالقرآن ليس كتاب تاريخ، وعندما يتحدث عن شيء حصل في الماضي فهو لا يؤرخ له، بل يضربه كمثال أو نموذج أو عبرة، وهنا من المشهور ما جرى مع المسلمين الأوائل الذين هاجروا من مكة إلى مدينة يثرب "المدينة"... وكيف استقبلهم المسلمون في المدينة "الأنصار"... ولكن الآيات تتحدث عن حالة عامة تحصل مع المسلمين في أي زمان ومكان، فحكمها يكون مثل ما تقوله الآيات هنا.

بقي شيء عن معنى ولاية المؤمنين لبعضهم سنذكره في الآية التالية:

(وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ {73})
{وَالَّذِينَ كَفَرُوا}، الناس الذين أعلنوا إنكارهم للدين الإلهي، {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}، فهم تابعون ومرجع لبعضهم البعض. طبعًا لا تقصد الآية أن كل كافر مهما كان وأينما كان سيعتبره بقية الكفّار من ضمن مسؤولياتهم، لا، بل هي تقابل بين ولاية المؤمنين على بعضهم البعض، والمحصورة بينهم بلا ولاية لأي كافر، ومن جهة ثانية تخبرك الآية هنا أن الكفّار بطبيعة الحال لم يتخذوا المؤمنين أولياء وإلا لكانوا مؤمنين، فيبقى للكفّار موالاة الكافرين الآخرين، يعني هم

مع بعض، مثل بعض. هذه جماعة كافرة توالي بعضها وتلك أخرى كافرة توالي بعضها ولا توالي كفارًا آخرين... أمّا المؤمنون عمومًا وفي أي ظرف فهم يجب أن يكونوا موالين لبعضهم البعض.

{إِلَّا تَفْعَلُوهُ}، أيها المؤمنون إذا لم تفعلوا ما تقوله لكم الآيات هنا، ولم تتركوا موالاة الكفّار، ولم تلتزموا بولاية المؤمنين فقط، عندها، {تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ}، فيقع المؤمنون في شيء يغيّرهم تحت الضغط "أو لأنه يعجبهم"، حيث سيصير الإيمان صعبًا على الناس ولن يتجرّأ أحد على إعلان إيمانه، ويكون {فَسَادٌ كَبِيرٌ}، خراب كبير في الأرض، فسيسود حكم الكفّار وهو حكم فاسد لأنه غير شرعي وظالم.

من الآية هنا نفهم بشكل واضح ما المقصود بالولاية المذكورة في الآية السابقة، فهي الولاية بالمعنى العام، وليست مخصوصة بولاية الميراث، بل لا علاقة لها بولاية الورثة... تحدث بعض المفسرين حول الولاية في الآية السابقة وقالوا إنها عن وراثة الأنصاري للمهاجر لأنهم تآخوا، فإذا لم يكن للمهاجر أقاربُ مؤمنون، يرثه إخوةٌ في الإيمان من الأنصار، ولا يرثه أقاربه الكفار، ولا أقاربه البعيدون من المؤمنين، حتى إنّ بعضهم قال إنّ الأخ من الأنصار يرث أخاه المهاجر حتى لو كان للمهاجر عم أو خال مؤمن! وهذا الكلام الروائي الذي تجده في التفاسير لا أحد من فقهاء المسلمين يعتمد عليه ليفتي به، ولا القرآن أشار إليه في آيات المواريث أو غيرها من الآيات، إلا اللهم الكلام عن وراثة الموالي الذي ورد في الآية 33 من سورة النساء "وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ..." فراجع دراستها لترى أن كلامهم مكانه هناك وليس هنا.

الآيات هنا عامة ولا تقصد حادثة توريث ما ترك مهاجر لأنصاري، وإذا فهمنا ولاية المؤمنين في الآية السابقة كما قالوا إنها تقصد توريث المهاجرين والأنصار لبعضهم البعض، فكيف سنفهم حديث الآية هنا عن ولاية الكفار؟ فهل يشرّع القرآن لمواريث الكفار بين بعضهم البعض فيقول لهم كيف يتوارثون! وعلى كل حال، هذا النوع من الروايات الذي يؤدّي إلى التشويش على أصل الموضوع الذي تتحدث عنه الآيات، يؤدي بنا إلى الابتعاد عن لبّ موضوع الآيات والسورة، وهذا شيء لم ينتبه له أكثر المفسرين، وطالت تفسيراتهم بسبب أبحاث جانبية لا علاقة لها بالآيات.

بقي شيء، هذه الآيات أمامك بمفاهيمها الواضحة جدًا جدًا، هي نظام سياسي لحصر مراكز القرار والسلطة بالمؤمنين، هناك من يسأل عن النظام السياسي في الإسلام، على أساس أنه يجب أن يجد فيه كلامًا عن الديموقراطية والانتخابات وكيفية توزيع السلطات التشريعية والتنفيذية... أو يتهم الإسلام بالدكتاتورية... والكثير من المدافعين عن الإسلام انجرّوا إلى تفاصيل أرادوا بها إظهار الإسلام كدين لديه نظام سياسي اقتصادي اجتماعي... معتمدين على المعلومات التي الآن نراها عقلانية عادلة، الدارج الآن هو نظام الديموقراطية على أساس وصول الحاكمين إلى السلطة عبر انتخابات مباشرة من الشعب أو غير مباشرة عبر مجلس نواب ينتخبه الشعب...

ننتبه جيدًا، القرآن لم يطرح نظامًا سياسيًا بالتفصيل الذي يقولونه، بل أشار ولفت انتباهنا فقط وفقط لأساسيات التعامل مع مختلف الأمور، وترك لنا التفاصيل بما نراه مناسبًا. فما معنى الديموقراطية لقوم سينتخبون رئيسهم وهم لا تعاطي لهم بالأمور السياسية وينتخبون من يرونه أجمل! أو من لديه ثروة أكبر! أو من له إرث سياسي كونه من عائلة سياسية! أو من يسمعون باسمه ويرون صوره وهم لا يعلمون عنه أي شيء!... حتى في الدول التي تعتبر نفسها كشعوب راقية تنتخب بعقلانية، كثيرًا ما شاهدنا نتائج لا عقلانية عبر انتخاب أغبياء مستهترين ليصيروا رؤساء لدول عظمى!

أختصر لك الكلام حتى لا تنجرف مع ما تسمعه هنا وهناك عن عظمة الإسلام وأنّ فيه جوابًا عن كلّ سؤال، وفيه أنظمة لكل شيء... هذا غير صحيح، لأنه سبحانه اكتفى بالأساسيات وترك التفاصيل لنا بما نراه مناسبًا لأن مجتمعاتنا مختلفة، وحتى مزاج نفس المجتمع يختلف مع مرور الزمن...

الأساسيات للولاية: ولاية المؤمنين. تنصيب المؤمنين الكُفُؤِينَ حكّامًا ومسؤولين. وهذا ضمنيًا يعني تطبيقهم لكلامه تعالى، وترجمة ذلك أن الصلاح هو عنوان حكمهم، وأي طريقة كانت نعتمدها لاختيار المؤمنين الصالحين ليتولوا المناصب ونتوافق عليها، فسبحانه يسمح بها.

أساسيات الإيمان تعني عمليًا التزام من ترشّح لمنصب ما أو وظيفة... بدينه تعالى. وكلما علا المنصب، فمن المفروض أن تعلوَ معه معايير الإيمان والكفاءة لمن سننصبّه فيه، لأن المسؤوليات أكبر والخطأ هناك ستكون نتيجته كارثية،

وهكذا ترى أن الموظف الذي مسؤولياته صغيرة لن تهمل في توظيفه معايير الصدق والأمانة... لأن صلاحيته صغيرة، لا، ولكن لن يكون عقلانيًا البحث عن مؤمنين من مستوى الأنبياء لتوظيفهم في كل الوظائف العامّة، فكلما توسعت الصلاحيات وجب علينا اختيار الأنسب والأرقى.

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ{74})

{وَالَّذِينَ آمَنُوا}، الأشخاص الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {وَهَاجَرُوا}، فتركوا عيشهم في الأماكن التي يحكمها الكفار، {وَجَاهَدُوا}، فقاموا بجهد، وبذلوا أموالهم وأنفسهم، {فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، في مسلك يرضى عنه تعالى ولم يدفعوا المال ولا شاركوا في الحرب لأمور فاسدة سيئة.... {وَالَّذِينَ}، من جهة ثانية، {آوَوْا}، فأسكنوا المهاجرين عندهم، {وَنَصَرُوا}، فعملوا على تحقيق ما يريده المهاجرون المؤمنون، ودافعوا عن المهاجرين بالمال والنفس، {أُولَٰئِكَ}، الفئتان من الناس، المهاجرون والأنصار، {هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا}، فهم فعلًا المعتقدون بالدين الإلهي، وعمليًا أثبتوا وعن جدارة أنهم مؤمنون.

{لَّهُم}، لأولئك النوعية من الناس، {مَّغْفِرَةٌ}، فلهم تجاوز عن ذنوبهم ولن يعاقبهم تعالى عليها، {وَرِزْقٌ}، حيث سيحصلون على ما يسدّون به حاجاتهم ورغباتهم، {كَرِيمٌ}، ويكون موصوفًا بأنه له قيمة محترمة عالية، وليس عاديًا أو مهينًا، إذ سينالون أشياء في الجنة من أكل وشرب ومسرات، وهم يشعرون بأنهم محترمون.

لاحظ أن الآية تعطي معنًى أنه تعالى سيستضيف هذه النوعية من الناس، فيغفر لهم ذنوبهم أولًا، ثم يكرمهم.

لا تنسَ أن الآية تعطينا مواصفات المؤمنين الحقيقيين، فأي شخص تنقص عنده هذه المواصفات فعنده مشكلة إيمانية.

الآية تتحدث عن المؤمنين حقًا، ولا ننسى الآيات الكثيرة التي تحدثت عن المنافقين والفاسقين والذين في قلوبهم مرض من المسلمين الأوائل، لأن هالة القداسة لكل من كان حول النبي(ع)، هي مبالغة تتعارض مع ما يقوله القرآن، والمشكلة المذهبية في شدّ هذا الصحابي لهذه الطائفة، واعتبار ذاك الصحابي خاصًا بتلك الطائفة من المسلمين، هي مشكلة نحن أوقعنا أنفسنا فيها، فكلنا مسلمون، ولا علاقة لنا بحساب "الصحابة"، لهم أعمالهم ولنا أعمالنا، ولا معنى لمحاكمتنا لهم كأشخاص، بل نكتفي بما قاله القرآن من تنبيهات حتى لا نقع في الأخطاء التي وقعوا فيها، من دون تسميتهم حتى لا نقع في غيبة مسلم، إذ حسابه على ربه تعالى، مثله مثل أي مسلم في عصرنا، ومن الغريب ما يفعله البعض من محاكمات للمسلمين الأوائل وينسى حسناتهم، بل وينسى سيئات نفسه! وكأنه قديس وهم شياطين! ولو حاسب نفسه لكان خيرًا له بدلًا من محاسبة غيره. والغريب أننا ولأسباب نراها وجيهة جدًا نتغاضى عن فسقة ومنافقين بل ومجرمين من بيئتنا! ونتلهّى بمحاسبة الذين ماتوا من مئات السنين رافضين ولايتهم؟ أو مقتنعين بولاية البعض منهم... وبعضنا بل أكثرنا موالٍ لظالمين فاسقين منافقين مجرمين من عصره؟!

(وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{75})

{وَالَّذِينَ آمَنُوا}، فأعلنوا اعتقادهم والتزامهم بالدين الإلهي، {مِن بَعْدُ}، من بعد تشكّل نواة لمجتمع متديّن، حيث كانوا كفارًا أو مؤمنين ولكن لا يعلنون إيمانهم، وبعدما تحمّل المهاجرون الأوائل والأنصار الفاتورة الضخمة لتشكيل مجتمع متدين، تشجّع الآخرون على الإيمان، {وَهَاجَرُوا}، فغادروا أماكن عيشهم التي يحكمها الكفّار، والتحقوا بالمكان الذي يحكمه المؤمنون، {وَجَاهَدُوا}، وقاموا بأعمال فيها جهد، وقدّموا أموالهم وأنفسهم في سبيله تعالى، {فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ}، حيث صاروا منكم من المؤمنين الموالين لكم، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، ولذا يجب نصرتهم ومساعدتهم وموالاتهم...

هناك فعلًا تقدير إلهي لأول من آمن وهاجر ونصر، لأن هؤلاء بدؤوا من الصفر تحت ضغوطات هائلة، ومن التحق بهم فيما بعد فجاء إلى أرضية مهّدها بصعوبة بالغة من سبقه إلى الإيمان والهجرة والنصرة، ولكن بآيتنا هنا يمنع سبحانه المؤمنين الأوائل من تمييز أنفسهم عمّن آمن بعدهم، حيث لا يوجد طبقية في الإيمان، ومع وجود عدّة آيات متفرقة هنا وهناك تؤكّد أن عنده سبحانه وتعالى قيمة مميزة للمؤمنين "الحقيقيين" الأوائل، ولكن بين المؤمنين أنفسهم، ممنوعٌ عليهم الطبقية وتمييز أنفسهم عن المؤمنين الآخرين.

للأسف إنّ أغلبية الذين يتولون السلطات، وحتى أصحاب النوايا الحسنة منهم، يتعاملون مع واقع حال الاعتماد على الذين يحتكون معهم، فيوظفونهم ويعطونهم المناصب... وليست المشكلة كلها هنا، لأن هذا أحيانًا واقع حال يفرض نفسه لأن المسؤول لا يعرف الآخرين ولا مؤهلاتهم ليوظفهم، ولكن المشكلة في طريقة تعاملهم مع الأمور ليصيروا كعصابة حاكمة مانعة للآخرين الجديرين بالحكم والوظائف من الوصول إلى أماكن مناسبة لهم أكثر من الذين من العصابة.

ترى هذا واضحًا في الأحزاب حيث المؤسسون يحتكرون الرئاسة ومن الصعب جدًا وصول منتسب جديد إلى الرئاسة حتى لو كان مؤهلًا أكثر من غيره، ونفس الشيء يحدث في مناصب الدولة حيث يصير الحاكمون عصابة مانعة للآخرين من مشاركتهم الحكم حتى لو كان الآخرون أفضل منهم، والجميع لديهم تبريرات لذلك، حيث يبرّر بعضهم بالأمن، إذ الوثوقية عنده بمن يعرفهم والشكّ دائم في ولاء الآخرين، وبعضهم يبرر بالتوافقية لأن العصابة منسجمة والعنصر الجديد سيغرّد من خارج السرب وسيفوته الكثير مما سبق من أمور صارت بديهيات عند العصابة...
وتبريرات وتبريرات تؤدّي في الأخير إلى حكم العصابة والحزب والعائلة، والملكية غير المعلنة أو المعلنة، والديكتاتورية المتسلطة العمياء.

نرجع للآية، هل هذه الموالاة الإيمانية للمؤمنين لبعضهم البعض، هل تصير أقوى من القرابة؟:

{وَأُولُو الْأَرْحَامِ}، الذين بينهم رحم، الأقارب، {بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ}، إذ في الكتاب الإلهي هناك حكم بأن الأقرباء أولى ببعض ولهم أولوية وأحقية القرابة، لأن الإيمان الذي جعل المؤمنين أولياء بعض، ليس أقوى من الإيمان مع القرابة، لذا الأقرباء المؤمنون لهم أفضلية لموالاة بعضهم البعض.

لا يصير أخي في الإيمان مثل أخي المؤمن من أبي أو أمي، ولا يرثني أخي في الإيمان، ويجب على أخي من أمي أو من أبي أن يساعدني أكثر مما يجب على صديقي المؤمن، بسداد ديني وقضاء حاجتي... وأقاربي أحق بالوصاية "الولاية" على أولادي من المؤمنين الغرباء... وأقاربي هم أولياء دمي...

{إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، حيث يعلم كل شيء وعلى هذا الأساس يأمركم سبحانه عن علم، ولذلك منع سبحانه الطبقية والتفريق بين المؤمنين الأوائل وبين من آمن بعد أن استتب الوضع وصار المؤمنون أقوياء، والكلام عنهم كنموذج، وبعلمه تعالى قرّر أن يكون الأقارب المؤمنون لهم أفضلية الولاية على بعض.

قارنها مع الأحزاب العقائدية التي تقنع المتحازبين بأنهم منفصلون عن أهلهم وأقاربهم مهما كانوا، حتى لو كانوا معهم في نفس الحزب، إذ كل المنتمين للحزب إخوته بالتساوي، لكن هنا الآية تقول لا، عندما يصير المؤمن في مجتمع مؤمن، فأقاربه المؤمنون أولى به، لمساعدته وهو يساعدهم... مثلاً، إن كان سيتصدّق على المحتاجين فأقاربه المؤمنون أولى بالصدقة من المحتاجين المؤمنين الآخرين...

سورة التوبة (9) ص 187
كانت قديمًا تسمّى سورة براءة.

تتمحور حول كيفية التعامل مع الآفات الإنسانية من خارج المجتمع المسلم حيث تتكلم عن المشركين وعن أهل الكتاب المنحرفين عن دينه تعالى، ومن داخل المجتمع المسلم تُعرّفنا بالمنافقين وبتصرفاتهم وكيفية التعامل معهم... ويجمع كل هؤلاء: البراءة منهم.

هناك حادثة مشهورة تتعلق بتبليغ هذه السورة للناس في موسم الحج، حيث خرج الخليفة الأول أبو بكر مندوبًا عن النبي(ع) من مدينة يثرب إلى مكّة في موسم الحجّ ليبلغهم هذه السورة، ثم وبأمر من النبي(ع) لحق به الإمام علي كبديل عن الخليفة أبي بكر لتبليغ هذه السورة للناس، وقيل إنّ ذلك حدث في سنة تسع للهجرة قبل ذي الحجة.

أمّا بالنسبة لكتابة البسملة في أول هذه السورة، فمعلوم أنّ الجيل الأول من المسلمين بأغلبية ساحقة لم يكتبوا البسملة في أول هذه السورة في قرآنهم، وهكذا نعلم أنّها هكذا نزلت من دون بسملة، وأمّا السبب لذلك فغير معلوم من صريح

القرآن، والاحتمالات الأخرى تبقى احتمالاتٍ لا تُقدّم ولا تُؤخّر في شيء، ولكن من هذه الأجواء تستوحي أنّ البسملة في أول بقية السور الأخرى هي جزء من افتتاحية السورة، فالسور تبدأ بالبسملة كجزء منها، وأما قراءة أي سورة من منتصفها "مثلاً" فلا يستوجب ذكر البسملة قبلها، وما قيل عن سبب ترك ذكر البسملة هنا لأنّها تابعة لسورة الأنفال فهذا مبني على الاعتقاد بتقطيع نزول السور، حيث إنّ سورة الأنفال بالتأكيد نزلت بعد معركة بدر وقبل معركة أحد التي وقعت في السنة الثالثة من بعد الهجرة، لأنّه من بعدها نزلت سور تناولت الكلام عن معركة أحد وصلح الحديبية... وسورتنا هنا أشارت لمعركة حنين التي حصلت بعد فتح مكّة...

القول بأنّ سورة الأنفال وسورة التوبة سورة واحدة، حتى لو كان بينهما سنون نزلت خلالها سور أخرى، فهذا لا يتماشى مع ما تبيّن في دراستنا هذه من نزول كل سورة كاملة متتابعة قبل أن ينزل أي شيء من سورة أخرى، إلا أن يكون إلحاق التوبة بالأنفال غير مقصود منه وحدة السورتين على أنّهما سورة واحدة فيكون المقصود شيئًا آخرَ لم نلتفت له.

تكرّر فيها بشكل ملحوظ أنّه تعالى لا يهدي كذا...

(بَرَاءةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ{1})
{بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}، يصل إعلان هذه البراءة، إعلان أنّه لا ارتباط ولا علاقة لله تعالى ورسوله(ع)، {إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم}، إلى الذين حصل بينكم وبينهم عهد اتفاق سلام أو هدنة، {مِّنَ الْمُشْرِكِينَ}، من الذين جعلوا له تعالى شركاء في الألوهية.

بعبارة أخرى، الذين جعلوا لله تعالى شركاء في الألوهية من الأصنام أو الجن أو الأرواح... فليصل إليهم خبر عبر هذا القرآن أنّه لا علاقة لله تعالى أو لرسوله(ع) بأي اتفاق سلام أو هدنة معهم، ومن بقية السورة ستفهم أنّه يوجد تفاصيل لهذه البراءة، فالآية الرابعة التي ستأتي تخبرك بالوفاء بالعهد إلى تمامه مع المشركين الذين التزموا بعهودهم، مما يعني أنّ الكلام هنا مع الذين لم يلتزموا بعهودهم أو سبق وقاموا بأنشطة عدائية أو علناً يقولون إنّهم سيستأنفون أنشطتهم العدائية بعد انتهاء العهد...

(فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ{2})
{فَسِيحُوا}، تنقّلوا أيها المشركون بلا خوف من قتال المسلمين لكم، {فِي الْأَرْضِ}، في الأماكن المختلفة، {أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ}، فمن كان العهد معه بلا مدّة محدّدة فها نعلن لكم أنّ مدّة العهد تنتهي بعد أربعة أشهر من هذا الإعلان، ومن بعدها فلا أمان لكم من المسلمين، فإمّا القتال أو الإسلام أو خلوّكم من القدرة القتالية التي لا تفسير لوجودها إلا استعمالها ضد المسلمين...

ننتبه جيّداً، وهذا هو معنى الكلام المنقول في الروايات عن تحديد هذه الأشهر الأربعة أنّها من بعد اليوم العاشر من شهر ذي الحجة إلى تمام عدد أربعة أشهر بعدها إلى اليوم العاشر من شهر ربيع الأول. وهذا الكلام لا يشير إلى مخالفة الأشهر الحرم المعلومة "ذو القعدة، ذو الحجة، محرّم ورجب" بل يشير إلى أربعة أشهر تأتي من بعد هذا الإعلان بالبراءة من العهود التي أبرمت مع المشركين ولم يكن لها تحديد زمني لمدة انتهائها، فمن بعد هذا الإعلان بأربعة أشهر تنتهي تلك العهود.

{وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ}، فلا تستطيعون أن تفعلوا أي شيء يعجزه فيمنعه تعالى من فعل ما يريد بكم، ومهلة الأربعة أشهر لن تجعلكم تتحضرون لقتال المؤمنين، ولا للتحصين ضدهم... لأنّه سبحانه يطالكم تحت أي ظرف كان...

{وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ}، فالناكرون لأحكامه تعالى ستصيبهم المهانة بسبب قبيح كفرهم بكلامه تعالى.

تلاحظ أنّ مدّة الأربعة أشهر كنهاية للعهود التي لم يكن لها مدّة محدّدة، تلاحظ أنّها مساوية لمدة الأشهر الحرم الأربعة المشهورة.

سترى من بقية السورة أنّها تميّز بين عدو مشرك بينه وبين المسلمين اتفاقية هدنة أو تسالم، فهذا الذي تتحدّث عنه افتتاحية السورة، وستميّزه السورة عن مشركين أو أهل كتاب غير معادين أصلاً للمسلمين، وهؤلاء الاتفاقية معهم هي تأكيد للسلم وليست للأمان من العداوة، وبالتالي فالكلام هنا ليس معهم.

أكرّر لك، أنّ كثيراً من المفسرين، بل الغالبية، لم يميّزوا بين مختلف الظروف التي تقصدها السورة، حيث بحديّة جمعوا الكلام من مختلف السور ليخرجوا بنتيجة واحدة معمّمة على مختلف الظروف، وخالفوا المعنى الصريح لبعض الآيات التي تتعارض مع النتيجة التي وصلوا إليها، وقالوا عن تلك الآيات إنّها منسوخة أي ملغية، علماً أنّ النسخ بالمعنى المنتشر بينهم غير صحيح، إذ لا يوجد في القرآن إلغاء لأحكام أو تغيير فيها... لأنّ كلام القرآن متوافق مع بعضه، وهم لم يروا التوافق لأنّهم لم يتوسّع أفقهم ليروا مختلف الظروف والحالات التي تتحدّث عنها السور، وراجع في دراستنا هذه أي آية تظنّها منسوخة "ملغية" بآية أخرى لترى أنّ ذلك غير صحيح.

(وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ{3})

{وَأَذَانٌ}، إعلانٌ كما نسمّي الأذان للصلاة فهو إعلان عن دخول وقتها، {مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ}، يوم الحجّ يوم يقصد الناس إلى مكة، وهو الأكبر أي في ذي الحجة، لأن بقية مواسم الحج "في شهري شوال وذي القعدة" لا يكون عدد الحجاج فيها كبيراً، وفي أكبر تجمع للناس، يتم إعلان ما يلي:

{أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ}، لا ارتباط له ولا علاقة له سبحانه، بالمشركين {مِّنَ الْمُشْرِكِينَ}، بالذين جعلوا له تعالى شركاء في الألوهية، {وَرَسُولُهُ}، أيضاً بريء من المشركين، فليس للمشركين عنده تعالى ولا عند رسوله(ع) أي احترام لا لأنفس المشركين ولا لمالهم ولا للعهد معهم، طبعاً من بعد مرور أربعة أشهر من هذا البلاغ، وطبعاً الكلام مع الذين لديهم قوّة قتالية وعلى أساسها وقّعوا عهداً مع المؤمنين مع بقائهم معادين، وإلا فالكافرون الآخرون المسالمون بالأساس، فالآيات لا تتحدّث عنهم، وراجع في ذلك سورة الممتحنة.

نتذكّر أنّ العرب بشكل عام، كانوا يقلّدون ما كان يفعله النبي إبراهيم(ع)، حيث كان (ع) يحجّ، وعلى ما يبدو أنّ الحجّ طقس عبادي أقدم من حجّ النبي إبراهيم(ع) وإن كان مختلفاً في كيفيته... وتوقّفت بقية الأمم من المنتمين لدينه تعالى عن الحجّ إلى مكّة، واستمرّ طقس الحجّ عند العرب حتى بعدما أشركوا، وكانت الأكثرية تحجّ في شهر ذي الحجة، فيكون أكبر اجتماع للعرب في ذلك التاريخ.

{فَإِن تُبْتُمْ}، فإن أعلنتم فتح صفحة جديدة عبر ترككم للشرك، {فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}، فهذا شيء جيّد لكم في الدنيا وفي الآخرة، حيث ستصيرون مسلمين ولن يحاربكم المسلمون، ولن تُحاسَبوا على الشرك في الآخرة.

{وَإِن تَوَلَّيْتُمْ}، فتوجّهتم باتجاه آخر غير التوحيد والالتزام بالدين الإلهي وبقيتم على الشرك، {فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ}، فلن يعجز سبحانه عن عقابكم في الدنيا أو الآخرة، فيمكنه تعالى أن يفعل بكم ما يشاء.

{وَبَشِّرِ}، فأوصل الخبر "السارّ"، {الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا التوحيد والدين، {بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}، بشيء يصيبهم بالضرر وسيكون مؤلماً لا يمكن تحمله ولن يكون عادياً.

نلاحظ أنّه في مرات قليلة استعمل القرآن تعبير التبشير بالعذاب، علماً أنّ البشرى هي انتظار وتوقّع سماع الخبر السار، فنفهم أنّ الكافر لا يظن أنّ كفره سيسبب له مشاكل، بل كفره جيّد، فيستبشر من حجّه للبيت مع كفره بأشياء جيّدة، فيستبشر بالثواب من الله تعالى لأنّه يحجّ البيت، ويستبشر بتوفيقه في الدنيا فيما يرغبه... والذي يتوقّع خبراً منهم عن نتيجة عقيدته وسلوكياته فهو يستبشر فيتوقّع الخير، فأخبره أيها الرسول(ع) عبر هذا القرآن أن يستبشر بالعذاب.

بعض المعلّقين على القرآن الجاهلين باللغة العربية الفصحى، أو هم "على الأرجح" غير جاهلين باللغة ولكن يرمون سمومهم بين الناس، يستنتجون أنّ الآية هنا تقول بأنّه تعالى بريء من المشركين وبريء من الرسول(ع). وهذا وهم لا أساس له، ولا معنى له بالنظر إلى بقية القرآن، ولا في إعراب الآية، حيث إنّ اسم الجلالة "الله" منصوب وهو اسم للحرف المشبّه بالفعل "إن"، وهو الفاعل المضمر لاسم الفعل "بريء"، و"من المشركين" في محل نصب مفعول به،

وكلمة "رسوله" مرفوعة بالضمّة الظاهرة ومعطوفة بالواو على ضمير الفاعل المستتر الأول "الله" فهي في معنى الفاعل الثاني المشارك في البراءة من المشركين، ومن الواضح جداً أنّ الجملة أخّرت الفاعل الثاني لبريء، وكان تركيبها البسيط: بريء الله تعالى ورسوله من المشركين. وبعد دخول "إن" للتأكيد الخبري والتشديد، تغيرت صياغة الجملة بشكل عادي جداً مثلما يقولها الناطقون باللغة العربية، ولو كانت كلمة "رسوله" منصوبة لكان المقصود البراءة منه أيضاً(ع)، ولكنها مرفوعة فهي معطوفة على ضمير الفاعل المستتر اسم الجلالة الله "بريء".

(إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ{4})

{إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا}، فلا براءة من العهود المتّفق عليها مع المشركين الذين التزموا بها ولم ينقصوا من مدّتها، ولم يقاتلوكم في المدّة التي اتفقتم على السلم فيها، {وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا}، أي لم يعينوا ولم يساعدوا أحداً من أعدائكم ضدّكم، فهؤلاء الملتزمون بالعهد، {فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ}، أوصلوا للآخر بلا انقطاع ما اتفقتم عليه معهم من السلم بينكم، {إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ}، حتى تنتهي مدة الاتفاق فيجب عليكم أن تلتزموا بما اتفقتم عليه معهم بلا انقطاع إلى انتهاء المدة، طبعاً طالما أنهم هم ملتزمون بالاتفاق خلال تلك المدّة.

{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}، يحب سبحانه الذين يتجنبون، وهنا الكلام عن الذين يتجنبون نقض العهود المحترمة ولذلك يأمر سبحانه المؤمنين باحترام عهودهم حتى لو كانت مع المشركين.

محبّته تعالى للملتزمين بالعهود ليست واسعة لتشمل المشركين، فهؤلاء طالما هم مشركون فلن يحبّهم سبحانه ولا بأي شكل، والكلام هنا فقط عن حبّه تعالى للمؤمنين المتقين المحافظين على عهودهم.

بقي شيء من الفضول، وما يقولونه عن إعجاز تكرّر بعض كلمات القرآن بعدد مُلفت، كقولهم عن تكرار كلمة ليل 12 مرّة وكلمة نهار 12 مرّة... تتبّعتُ غالبية الكلمات التي قالوها ووجدت غالبية كلامهم كذباً إلّا في أقل من عشر كلمات، وممّا تحقّقتُ وتأكّدتُ منه كلمة شهر بالمفرد "شهر، شهراً" حيث تكرّرت 12 مرّة، وتكرّرت كلمة شهر بالمثنى "شهرين" مرتين فقط. كلمة "رجل" بالمفرد تكرّرت 24 مرّة، وكلمة "امرأة، امرأت" أيضاً تكرّرت 24 مرّة. كلمة "يأمرون" تكرّرت 7 مرّات، وكلمة "ينهون" أيضاً تكرّرت 7 مرّات. كلمة "الخبيث" بالمفرد تكرّرت 7 مرّات، وكلمة "الطيب" بالمفرد تكرّرت 7 مرّات. وهناك كلمات أخرى فيها الكثير من التراخي والاستنسابية بحيث يلغون كلمة أو كلمات لسبب غير وجيه ويدّعون أنّ الأعداد متساوية كقولهم عن تكرار كلمة ملائكة والشيطان.

الغريب أنّ الحالة الوحيدة الصادقة بالتمام والوضوح ليست منتشرة في مقالاتهم وكتبهم! إذ فعلاً تكرّرت في القرآن جملة "الله يحب" 16 مرّة، وجملة "الله لا يحب" 16 مرّة.

لكن، هل هذا يعني أي شيء؟ لا، إذ لا يحتاج القرآن لخزعبلات من هذا النوع لتصير له قيمة أو لنؤمن بأنّه من مصدر إلهي، لأنّ ما فيه من حقّ وصلاح هو قيمته.

(فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{5})

{فَإِذَا انسَلَخَ}، مضى وذهبت عنكم، {الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ}، التي يحرم وممنوع فيها القتال، وهي الأربعة أشهر من بعد إعلان البراءة من العهود التي لا مدّة لها، ومضافٌ إليها "ومتداخلٌ معها" الأشهر الحرم الثابتة والتي ستتحدّث عنها الآية 36 من هذه السورة وهي: محرّم، رجب، ذو القعدة وذو الحجة. {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ}، فأنهوا حياة الذين جعلوا له تعالى شركاء في الألوهية، {حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ}، أينما وجدتموهم، فإن كانوا في مكة أو في السفر أو في مدنهم... فلا سياحة لهم، فإمّا أن يسلموا أو يتم قتلهم. طبعاً الكلام عن الذين لديهم قوّة قتالية ومعلنين العداوة للمؤمنين وبينهم وبين المسلمين اتفاق سلم من نوع الهدنة، أمّا الكفّار المسالمون فالآيات هنا لا تتحدّث عنهم.

{وَخُذُوهُمْ}، فأسروهم، {وَاحْصُرُوهُمْ}، حاصروهم وامنعوهم من التقدم والتحرّك، فلا تتركوا لهم مجالاً للحياة العادية، {وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ}، حيث في كل مكان وزمان للقائهم كونوا فيه، عبر إعداد كمين أو قطع الطرقات أو الهجوم... فيجب أن تقعدوا فيه لملاقاتهم.

{فَإِن تَابُوا}، وفتحوا صفحة جديدة وأعلنوا تركهم للكفر، حيث شهدوا أنّ الله تعالى إله واحد، {وَأَقَامُوا}، فعّلوا ولم يهملوا ولم يتركوا، {الصَّلَاةَ}، وهي التوجه والإقبال بالحركات والكلمات التي تعبّر عن عبادة الله تعالى مثلما يفعل المسلمون خمس مرات في اليوم.

{وَآتَوُا الزَّكَاةَ}، فجعلوها عند من يوزّعها أو وزّعوها هم بحسب ما أمر سبحانه. وكلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، حيث تشير لشيء موصوف بأنّه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكية، مال زاكٍ، طعام زاكٍ..."، ومنذ القدم صارت مصطلحاً دينياً يشير إلى دفع نسبة محدّدة من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ...}، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، فيدفع منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة {...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...}، فتكون نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

{فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ}، فاتركوهم في مسلكهم، فلا تقفوا في طريقهم ولا تقيدوا حركتهم ولا تعترضوهم، لأنّ النطق بالشهادة، والصلاة ودفع الزكاة، هي إشارات بأنّهم مسلمون فلا يحق لكم أن تعاملوهم بأنّهم كفّار معادون إذا صدرت منهم هذه الأمور الثلاثة.

{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ}، فلا يأخذ موقفاً صلباً قاسياً بل يغفر ويسامح حتى من كفر به، {رَّحِيمٌ}، فلديه عناية خاصة للمؤمنين لما فيه مصلحتهم، فيغفر لهم ويبدل سيئاتهم لحسنات، ويضاعف الحسنات، ويساعدهم على الاهتداء أكثر... وهذه أمور لا ينالها إلا المؤمنون لأن الآخرين هم بكفرهم خرجوا من تحت مظلة الرحمة الإلهية هذه.

الدين الصحيح غير محصور بهذه الأمور الثلاثة "شهادة صلاة زكاة"، ولكن جعلها تعالى العلامات التي تدل على إسلام الناس، فالمسلم المؤمن الحقيقي، لديه واجبات وعليه محرمات عديدة، ولكن لا يحق لك أن تحكم بكفر شخص أو مجتمع طالما هم يعلنون الإسلام، ويصلون، ويدفعون الزكاة.

ننتبه، لأنّ الآية تريدنا أن نميّز بين المشركين الذين حموا أنفسهم من القتل عندما قالوا إنّهم يشهدون بوحدانية الله تعالى وبأن محمدا(ع) رسوله، بينما هم كاذبون ولا يزالون على عداوتهم... وبين المشركين الذين أسلموا عن حقّ، والصلاة والزكاة تصرّفان علنيّان ظاهران ويدلان على إسلام المشركين، أما في المجتمع المسلم، فقد كان في عصر النبي(ع) أشخاص لا يذهبون للمسجد، ولا يراقبهم الناس إن كانوا يصلون، وكما نرى في مجتمعاتنا أناساً مسلمين ولكن لا يصلون، فهؤلاء ليسوا مشركين، بل مسلمون ولكن ليسوا ملتزمين بالدين الإلهي، وما تتحدث عنه الآية هنا، هو عن مشركين أعلنوا إسلامهم، وحتى تتأكد من إسلامهم، فيكفيك أن ترى منهم أناساً يصلون ويدفعون الزكاة، فعلى الأقل هذا يعني أنّ هذا المجتمع من الناس لم يعد معادياً للمنتمين لدينه تعالى.

بعبارة أصرح لتكون نموذجاً لنا عن كلام القرآن عن نماذج، فالكلام هنا في الآيات عن حالة مجتمع كان معادياً للمسلمين، وعاهدهم بلا مدّة محددة، كنوع من الهدنة، فيأمر سبحانه بإنهاء الهدنة معهم ووضعهم أمام خيارين، إمّا الحرب، وإما إسلامهم. وبالنسبة لإعلانهم لإسلامهم فعندما ترى مسجداً في قرية أو بلدة، وترى فيه بعض المصلّين، وأهل القرية أو البلدة يقولون بأنّهم مسلمون، فهذا كاف لتحكم عليهم بأنّهم مسلمون، ومضافٌ إليه كدليل على إسلامهم هو دفعهم للزكاة، فيأتي جابي الزكاة ولا يعارضونه...

نلاحظ أنّه بعد وفاة الرسول(ع)، أعلن بعض القبائل تركهم للإسلام علناً، ورجعوا للكفر، فقاتلهم المسلمون، وهناك قبائل لم يعلنوا تركهم للإسلام، ولكنهم رفضوا إرسال الزكاة للحكومة المركزية، فقام المسلمون بإرسال من يتأكد من حالهم واعتمدوا على الآية هنا، فإذا حان وقت الصلاة، وقاموا للصلاة، بعدها سألوهم أن يدفعوا الزكاة للحكومة المركزية كعلامة على إسلامهم... فالآية تتحدث عن شخص أو أشخاص كانوا مشركين معادين، ثم أعلنوا إسلامهم، ولا تتحدث عن شخص من مجتمع مسلم أو من أبوين مسلمين، فهذا إن لم يصلّ أو لم يدفع الزكاة فهو مسلم غير ملتزم، وهو منافق أو فاسق، وليس مشركاً، وحكمه ليس مثل حكم الكفّار، فلا يجوز قتله حتى لو لم يصلِّ ولم يؤتِ الزكاة.

نلاحظ في الآية 36 من هذه السورة أنّها سوف تتحدث عن الأشهر الحرم المشهورة "ذو القعدة وذو الحجة ومحرّم ورجب" بأنّها ليست تراثاً عربياً بل تشريعاً إلهياً قديماً جداً قبل العرب، وهنا الآية لم تدخل في تفاصيل تداخل الأشهر الحرم المعلومة مع مدّة الأربعة أشهر من بعد إعلان البراءة من المشركين، وهذا الفهم للآيات يستند على كون الكلام القرآني هنا لا ينقل لنا تاريخاً، بل نموذجاً للتطبيق، فإن تكررت ظروف على المسلمين واضطروا فيها لمعاهدة مشركين معادين كهدنة بمدة مفتوحة غير محددة، وبعدها لم يعودوا مضطرين للمعاهدة، فلا يحقّ لهم الخيانة والغدر، بل يجب الإعلان الصريح عن البراءة من العهد وتحديد أربعة أشهر "تصير حرماً" من بعد إعلان البراءة، فإن أراد الطرف الآخر الالتزام بتلك الأشهر وإلّا فأي إعلان حرب من الآخرين فيجب على المسلمين التعامل معه فوراً بعمل قتالي حتى ضمن المهلة بل وحتى ضمن الأشهر الحرم إن لم يحترمها الطرف الآخر... وعلى هذا ففي أي شهر من السنة يحصل إعلان البراءة، فالأشهر الأربعة التي تأتي من بعد البراءة تتداخل مع الأشهر الحرم المشهورة، لذلك لم تدخل الآيات في تلك التفاصيل التي من السهل الانتباه لها.

بقي شيء نكرره، ممّا سيأتي في السورة ومن عموم مفاهيم القرآن نرى فرقاً بين مشرك معادٍ ومشرك مسالم، فالكلام هنا عن مجتمع كافر معادٍ عقد هدنة أو سلم مؤقّت، وهناك حالات يكون فيها المشركون مسالمين لا يعارضون المؤمنين ولا يعادوهم، فالآية هنا لا تقصدهم.

بقي شيء آخر، تكرر في السورة التركيز على الصلاة والزكاة كنموذجين بارزين عن ظاهر الإيمان الذي يلمسه الآخرون ليعرفوا المسلم من الكافر، ولكن عموم القرآن ركّز على الزكاة مع الصلاة كنموذج بارز على ناحيتين من أوامره تعالى، ناحية التدين كممارسة عملية للفرد الواحد، وهي الصلاة، وناحية التدين كممارسة لها أثر عملي على الآخرين، وهي الزكاة، فالفرق هائل بين الضريبة الدينية "الزكاة" من حيث كميتها ومصرفها وبين الضرائب التي تفرضها أنظمة لا تستند على دينه تعالى، إلا اللهم ما نراه من بعض أنظمة دول في عصرنا تتعامل مع جباية وصرف الضرائب على معايير إنسانية، فنرى في تصرفاتهم تطبيقاً عملياً لأوامره تعالى في الزكاة، وهذا ما أراده تعالى من فرضه للزكاة علينا، وهذا ما أرادته السورة لتراه أنت كفرق هائل شاسع بين دينه تعالى وبين دين المشركين الذي في حينها لم يكن لديهم أي شكل من أشكال التكافل الاجتماعي على مستوى مركزي، ونادراً ما تجد تكافلاً اجتماعياً على المستوى الفردي...

بالنسبة لما يقوله البعض عن آيتنا هنا بأنّها تجيز قتل المسلم التارك للصلاة، فها صرت تعلم أنّ هذا لم تقله الآية، ولمزيد من التفاصيل حول هذه المسألة راجع دراسة الآية 132 من سورة طه {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ}.

(وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ{6})
ماذا لو لم يكن الزمان في واحد من الأشهر الحرم وأراد مشرك أن يتواصل مع المؤمنين ليعلم ما القصّة وما هذا الدين...؟ فهل هناك مجال ألّا يتعرّض له بالأذية والضرر المسلمون خارج الأشهر الحرم؟:

{وَإِنْ أَحَدٌ}، إذا أي واحد مهما كان موقفه السياسي، {مِّنَ الْمُشْرِكِينَ}، من الذين جعلوا له تعالى شركاء في الألوهية، {اسْتَجَارَكَ}، طلب جيرتك لتجيره وتحميه من القتل، {فَأَجِرْهُ}، اجعله في حمايتك، {حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ}، فهو مشرك علم أنّ المسلمين يقتلون المشركين المعادين وهو كان منهم، وكان الوقت خارج الأشهر الحرم التي فيها الأمان، حيث جاء إليكم يريد التعرّف على دينكم، وطلب الاستجارة بكم، فأجيروه واجعلوه في حمايتكم حتى لا يقتله أحد من المسلمين

الآخرين، ثم أسمعوه كلام الله تعالى عن العقيدة والشريعة والسلوكيات، ثم بعد أن يسمع هذا الكلام، {ثُمَّ أَبْلِغْهُ}، أوصله، {مَأْمَنَهُ}، إلى المكان الذي يشعر فيه بالأمان من قتل المسلمين، إلى بلده أو إلى منطقة آمنة من المسلمين، {ذَٰلِكَ}، القبول لإجارته خارج الأشهر الحرم، {بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ}، لأنّهم أناس لهم كيان الجماعة، {لَّا يَعْلَمُونَ}، فلا علم لهم بالدين الإلهي، ولم يتعرفوا على الإسلام، ويحق لهم أن يطلبوا منكم تعريفهم بما تدعونهم إليه.

نلاحظ أنّه بعد وصوله إلى مكان آمن وتركه، بعد ذلك تنتهي الإجارة...

ننتبه جيّداً، لأنّ آياتنا هنا من نوادر الآيات التي تفرّق بين مشرك وصله الدين الإلهي بشكل واضح، ورفضه، وبين مشرك لم يصله الدين الإلهي أو وصله بالدعاية المعادية للإسلام، ففيها ملامة على من استهتر ولم يسأل عن دينه تعالى، حيث في الأوضاع التي نزل فيها هذا الكلام الإلهي كان هناك نبي، وهناك كتاب إلهي، وهناك مسلمون عارفون بدينهم، وبضمّ كل ذلك مع بعض نستنتج أنّ النبي الرسول وظيفته الإنذار والتبشير، وهذا عمليّاً يعني نشر كلامه تعالى ليصل إلى كلّ الناس، وهناك كتاب إلهي، فهذان بابان لتتعرّف الناس على دينه تعالى، وفي غياب الرسول هناك مسؤولية على المسلمين لإكمال مهمّة التبشير والإنذار، ومسؤولية على الآخرين الذين سمعوا بكتاب منه تعالى أن يقرؤوه ليروا إن كان فعلاً منه تعالى وبالتالي فهم ملزمون باتباعه.

(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ{7})
كيف يكون للمشركين، للذين جعلوا له تعالى شركاء في الألوهية، عهد عند الله تعالى ورسوله(ع)؟! لأي سبب وبأي منطق سيكون هناك اتفاق يلتزم به تعالى ورسوله(ع) مع المشركين؟ وفيما سيلي سترى السورة تعرض أسباباً تعليليّةً مختلفة للأمر الإلهي بإنهاء العهود مع المشركين المعادين، وعادة التعليل "التبريرية" هذه منتشرة في القرآن وفي مختلف المواضيع الشارحة لأوامره تعالى... وهنا بدأت السورة من أصل الخلاف بين المؤمنين وبين الكافرين، فهم منكرون لتبعيتهم لله تعالى ولرسوله(ع)، وهذا يعني مخالفتهما للحقّ وضمنيّاً يعني مخالفتهم للخير والصلاح الملتصقين بكلامه تعالى وبكلام رسوله(ع)، وهذا سبب العداوة منهم للمسلمين، فكيف سيقبل تعالى أن تعاهدوهم بهدنة مفتوحة الأمد وهم لا يزال أصل العداوة معهم موجوداً ولم يتغيّر لأنّهم لا زالوا مشركين ويكفرون بالرسول(ع)، فالخلاف بالأساس على هاتين النقطتين وليس على قطعة أرض.

ما جرى من عهود مع المشركين المعادين أجازه تعالى لظروف استثنائية سببها ضعف المسلمين، وإلا فلا معنى للعهد مع معادين منكرين لتوحيده تعالى ومنكرين لرسوله(ع) فهذا هو لبّ الخلاف مع المشركين، والعهد معهم لن ولم يغيّر أي شيء في هاتين النقطتين اللتين بسببهما أصلاً بعث تعالى رسولاً مبشّراً ومنذراً، ولأجل ذلك أعلن هؤلاء المشركون عداوتهم للمسلمين.

{إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم}، اتفقتم معهم بالتزام، {عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، عند الباحة التي فيه الكعبة في مكة.

الحالة المشهورة في تاريخ النبي(ع) والتي حصل فيها توقيع عهود "عند" المسجد الحرام كانت قبل فتح مكّة وسُمّي العهد بصلح الحديبية، ومن المشهور في التاريخ أنّ توقيع الاتفاقيات حصل في منطقة تسمّى الحديبية وهي قريبة من مكة، فعبّرت الآية عنه هنا بعند المسجد وليس بفي المسجد. وفي ذلك الصلح انقسمت قبائل المشركين المجاورين لمكة إلى قسمين، قسمٌ بقي مشركاً ولكنّه انضمّ إلى المسلمين وصار تحت حمايتهم وهم تحت حمايته، والبقية انضموا لقريش، ومن المشهور أنّ قريشاً ساندت قبيلة مشركة تابعة لها ضد قبيلة مشركة وقّعت في الحديبية أنها تابعة للمسلمين، وهذا كان نقضاً لاتفاقية الحديبية وسَبَبَ هجوم المسلمين على مكّة وفتحها "سنة ثمان للهجرة وقبل نزول هذه السورة بأشهر".

بناءً عليه، هناك قبيلة مشركة التزمت بعهدها مع المسلمين طوال سنين، فاستثناها سبحانه من أصل السؤال عن معنى العهد مع المشركين، وهؤلاء مشركون ولكنهم لم يتعرّضوا بتاتاً للمسلمين ولم يؤذوهم بل وقّعوا اتفاقية تضمن سلامة المسلمين من المشركين الآخرين.

نحن أمام حالة مشركين غير معادين للمسلمين ولا بأي شكل، بل ضامنين لأمنهم، وبناءً عليه ورغم الخلاف الديني الجذري بين شركهم وبين دينه تعالى، سمح سبحانه للمسلمين بالحفاظ على العهد مع هؤلاء المشركين.

{فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ}، طالما هؤلاء المشركون مستقيمون على الأحسن معكم على خط الاتفاق بلا انحراف عنه، ولم ينقضوا عهدهم، {فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ}، ابقوا أنتم أيضاً على الأحسن معهم مستقيمين غير منحرفين عن الاتفاق.

{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}، يحب سبحانه الذين يتجنبون، وهنا الكلام عن المؤمنين الملتزمين لعهودهم، لأنّ هناك عقاباً إلهيّاً لمن لا يلتزم بالعهود والمؤمنون يتجنبون السوء بمخالفة العهود وهو نفسه تجنّب غضبه وعقابه تعالى فيلتزمون بالعهود حتى مع المشركين.

لاحظ الآيات هنا تتحدّث عن اتفاقيات مختلفة وقّعها المسلمون، ومن سياق الكلام تفهم الظروف المختلفة للعهود المختلفة، وهنا من الواضح كلام الآية عن نموذج وليس عن حكم عام، إذ لا تقول الآية إنّ العهد الوحيد الذي نلتزم به مع المشركين يجب أن يكون موقّعاً في المسجد الحرام، لا، بل وكما سترى من الآية التالية إنّها تشير لنموذج جرى في التاريخ الماضي للاستفادة منه في المستقبل، حيث هناك مشركون أصلاً مسالمون لكم، ولم يبدر منهم أي سوء لكم، بل والعهد معهم تضمّن ضمانهم لأمن المسلمين من المشركين الآخرين، ولذلك ميّزهم سبحانه عن الكافرين الآخرين وقدّر سبحانه انتفاء معاداتهم للمسلمين، وقدّر سبحانه لهم صدقهم بعهدهم فاستثناهم وأبقى على العهد معهم مهما كانت مدّته، وفحوى الكلام يشير إلى قابلية تجديد العهد معهم أيضاً مع بقائهم مشركين.

(كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ{8})
شرح سبب رفض قبوله تعالى ورسوله(ع) للعهد مع المشركين عامّةً من أساسه، مع استثناء الذين ليسوا معادين كنموذج المشركين الذين وقّعوا بعد صلح الحديبية بأنّهم متحالفون مع المسلمين ضد المشركين الآخرين، وهؤلاء "النموذج" استثنتهم الآية السابقة من الكلام هنا.

{كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}، إذا شعروا بأنّهم متفوقون عليكم وبإمكانهم أن يغلبوكم، عندها، {وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ}، {لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ}، لا يُراعون ولا يهمّهم فيكم، {إِلًّا}، تأكيداً من نوع المؤالاة حينما يقولون: آليت أن أفعل كذا... وهو تأكيد بضمانة صدق التزام القائل بتنفيذ ما يقوله، ولو كان هؤلاء المشركون قالوا للمسلمين: آلينا على أنفسنا أن نسالمكم ولا نقاتلكم.. فهم حين يشعرون بأنّهم قادرون على ضربكم فلن يهمّهم ما آلوه، ولن يلتزموا بما قالوه عن السلم معكم، ولا يرقبون فيكم فلا يعتنون ولا يهمهم فيكم، {ذِمَّةً}، فلا يهتمّون بأي ضمان قالوه من أنفسهم، حين أقسموا لكم على الالتزام بالاتفاق، صار على "ذمتهم" على ضمانهم، وهم في الحقيقة إن صار لديهم قوة عسكرية أو اقتصادية... حتى يؤذوكم، أو شعروا بضعفكم، فلا يهمهم أي نوع من التعبير عن الالتزام الذي قالوه حين الاتفاق معكم، ولا يهمهم الضمان الشخصي لما قالوه لكم حين اتفقتم معهم.

{يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ}، بما يتفوّهون به عبر فمهم بالكلام يقولون لكم ما تقبلونه مما يعجب خاطركم ولا تعترضون عليه، بأنّهم لا يريدون حربكم، أو أنّهم معجبون بكم وبدينكم... {وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ}، ترفض بشدّة، من داخلهم في أساس فكرهم ونفسيتهم يكرهون الالتزام باتفاق معكم.

هم يقولون لكم فقط ما يرضيكم عنهم أما في الحقيقة فكلامهم ليس نابعاً من قلبهم، وحين يعقدون معكم اتفاقاً ويقسمون لكم أنّهم سيلتزمون به، فهم من داخلهم رافضون لهذا الاتفاق، ولكنهم لسبب أو لآخر مجبورون عليه، ولو كان عندهم قوة على حربكم، لما اتفقوا معكم على هدنة سلام.

{وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ}، خارجون عن شيء ما، وهنا الكلام عن خروجهم عن العهد والذمة، حيث إنّ هناك اتفاقاً واضحاً صريحاً وهم يخالفونه حتى من دون تبرير ولا تفسير عقلاني سوى الرغبة بالاعتداء عليكم مع علمهم بأنّكم مسالمون لمن سالمكم.

هكذا ترى سبب إعادة تكرار السورة أمرها للمسلمين بالتزام العهد حتى نهاية مدّته مع المشركين الذين لم ينقضوا عهدهم، حيث أرادت استثناءهم من كلامها عن المشركين الذين بلا إلّ ولا ذمّة، وبشكل ما أعطت المشركين الملتزمين بالعهد قيمة محترمة بالرغم من شركهم "لأنّ عندهم إلاً وذمّةً" فهم ملتزمون بالعهود.

أساساً عندما اتفقتم مع مشركين وصار بينكم وبينهم عهد، فهو وهمي، لأنه لا يوجد سبب يجعل بعض المشركين يحترمون العهد إن استطاعوا أن يتغلبوا عليكم، فإذا اتفقتم على صلح أو هدنة مع قبيلة مشركة "معادية" لعشر سنين، ولكن صارت القبيلة أقوى منكم، لأنكم ضعفتم أو انضم إليهم قبائل أخرى، وصار بإمكانهم أن يغلبوكم، فهل تتوقع منهم أن يلتزموا بالاتفاق وألّا يهجموا عليكم لمدة عشر سنين؟ ولا في الأحلام، بل نحن فقط كمسلمين نلتزم بالعهد لأننا نؤمن أنّ المخالفة عليها عقاب إلهي، أما المشركون فلا عهد لهم لأنهم لا يؤمنون بأي عواقب سيئة من تركهم للعهد بل بالعكس، سيرون الخير بالهجوم عليكم وترك العهد.

يمكنك القول من منظور التحليل السياسي البحت إنّ كلام السورة هنا عن البراءة من العهود مع المشركين المعادين أنّه غير عادل، فانتبه، لأنّ البراءة من العهود من حين إعلان البراءة إلى أربعة أشهر هي مع الذين سبق لهم وخانوا ونقضوا العهد وآذوا المسلمين ولم يخبروهم بأنّهم نقضوا العهد، ومع الذين العهد معهم ليس له مدّة ينتهي بها وهم معلنون للعداء، فالكلام عن الذين كان العهد معهم يتضمن خلفية العداوة بين الطرفين والعهد مجرد هدنة، وهذا صارت مدّة عهده منتهية بعد أربعة أشهر ليختاروا بين الإسلام أو القتال، وأمّا الذين لعهدهم مدّة ولم يسبق لهم أن خانوا فتأمرنا السورة بالوفاء بالعهد معهم حتى تمام مدّته... هذا من جانب، ومن جانب آخر، نكمل مع تبريرات السورة للبراءة من العهود مع المشركين "باستثناء القليل منهم الذين أشارت إليهم الآية السابقة"، والبداية مع أصل سبب الخلاف وهو الشرك والكفر بالرسول(ع)، ثانيها إضمار بعض المشركين العداوة للمسلمين وأنّهم في أقرب فرصة إن شعروا بالقوّة فلن يلتزموا بأي عهد، وثالثها منعهم المشركين للآخرين من الإيمان، وهذا ما سنراه في الآية التالية:

(اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{9})
{اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ}، فالأمور المميّزة بمستواها الإلهي والمنسوبة له تعالى باعوها وتخلّوا عنها واشتروا بها، {ثَمَنًا قَلِيلًا}، فالثمن، وهو الشيء الذي حصلوا عليه من بيعهم وتخلّيهم عن الأمور المميزة التي تدل على الدين الحقّ الصحيح الصالح فهو ثمن قليل، لأنّ أيّ شيء حصلوا عليه من تركهم للدين الإلهي فهو قليل تافه أمام قيمتهم كإنسان صار كافراً فاسداً وأمام خسارتهم لجنة الآخرة، حيث حصلوا على شهوات سيئة في الدنيا وعلى مناصب ورئاسة ومال حرام... وهذه أشياء تافهة أمام روائع الآخرة.

بناءً على بيعهم لآياته تعالى، أي كفرهم بها وإنكارهم لها، {فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ}، فمن يرد سلوك الطريق الإلهي منعوه من المشي عليه، حيث هدّدوه أو قاطعوه أو حبسوه أو قتلوه... حتى يترك دينه تعالى، {إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، لأنّ أعمالهم موصوفة بأنّها سيئة، فبيعهم للآيات الإلهية وصدّهم عن سبيله تعالى هو عمل موصوف بأنّه سيّئٌ غير جيّد.

وصلهم ما يقنعهم وزيادة بهذا الدين الإلهي وهي التي توصف بالآيات لأنّها مميّزة والمنتشرة بكثرة في خلقتهم وفي خلقة بيئتهم وكلامه تعالى عبر قرآنه... فباعوها ولم يعتبروا لها قيمة وتخلّوا عنها ليحصلوا على أمور دنيوية يعتبرون لها قيمة أعلى، وهذا سلوك شخصي خاص بهم، ولكنهم أيضاً منعوا الآخرين من الالتزام بدينه تعالى، فكيف لا يستحقون البراءة من العهود معهم وقتالهم!؟

ضمنيّاً ومن عموم مفاهيم القرآن يشير الكلام هنا إلى الفرق بين دينه تعالى وبين دين الناس، دينه تعالى دقيق وكل ما فيه حقّ وخير ويمنع عن كل ما هو كذب وسيّئ، ودين الناس ليس فيه هذه الصفات، فالتخلّي عن آياته تعالى الدالّة عليه وعلى صلاح أوامره... عمليّاً هو ترك الكلام الإلهي المميّز بدلالته على الخير والصلاح لنا في الدنيا والآخرة، وهو الإيمان بالكذب وفعل السوء، والصدّ عن سبيله تعالى عمليّاً هو منع الآخرين من الصلاح لاتباع الفساد، فلا يوجد شيء اسمه "سبيل الله" ومنفصل أو مختلف عمّا نعرفه من حقّ وصلاح وخير، فهو نفسه.

هكذا يصير عموم كلام القرآن أوضح، فلا يوجد دعوة دينية منه تعالى لنلتزم بشيء غريب عجيب جديد... بل الدعوة لتفعيل القابلية التي زرعها تعالى فينا والتي منها نميّز الخير من الشرّ، وأن نتّبع الخير، وهكذا بوضوح نفهم معنى أن المشركين ساء ما كانوا يعملون، فمخالفة كلامه تعالى فيها شقّان متلاصقان بل هما مجرد نظرة من زاوية مختلفة لنفس الموضوع، الأول مشكلة مخالفة عموم كلام الإله عزّ وجلّ، والثاني مشكلة أن هذه المخالفة عمليّاً هي مخالفة الخير والصلاح.

(لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ{10})
{لاَ} {يَرْقُبُونَ}، يغفلون ولا يعتنون ولا يهمّهم، {فِي} {مُؤْمِنٍ}، في شخص معتقد بهذا الدين، {إِلاًّ}، تأكيدا من نوع الموالاة حينما يقولون: آليت أن أفعل كذا... وهو تأكيد بضمانة صدق التزام القائل بتنفيذ ما يقوله، يقولون للمؤمن إنهم آلوا على أنفسهم أن يكونوا مسالمين معه... ولكنهم لا يرقبون مآلاتهم فلا يعتنون بها ويقولونها عن كذب، فهي مجرد كلام فارغ لن يلتزموا به، {وَلاَ}، يرقبون {فِي} {مُؤْمِنٍ}، {ذِمَّةً}، بشيء على ذمتهم، فلا قيمة لضماناتهم الشخصية عندما يقولون: هذا الموضوع على ذمتي "عليّ شخصيا" فسوف أفعل كذا... فلا تهمهم الاتفاقيات مع أي مؤمن كان، فإن استطاعوا مخالفتها فسيخالفونها، حتى لو كان اتفاقا آلوا عليه أو أخذوه على ذمّتهم على عاتقهم بضمانتهم الشخصية.

{أُولَئِكَ}، الذين لا يحترمون إلّهم ولا ذمتهم، {هُمُ} {الْمُعْتَدُونَ}، هم المتخطون لحدودهم، فتركهم للوفاء بالإيلاء والذمّة هو الاعتداء بعينه، ويستحقون أن تقاتلوهم.

بقي شيء يبدو لي كفرق بين كلمة إيلاء وذمّة، فالإيلاء هو إعلان التزام، ولكن تُعْلِنُ التزامك بشيء لا يعجبك وتقول: هذا لا يعجبني ولا أحب الالتزام به ورغم ذلك أُعْلِنُ أني آليت على نفسي أن ألتزم به. أمّا الذمّة فهي إعلان التزام مع ضمانة شخصية من الذي التزم، فهو يعلن فهمه وقناعته بما التزم به. وهذه النوعية من المشركين لن يحترموا ما يقولونه فلن يلتزموا به سواء أكان إعلانهم بكلام مضطرين لقوله أو الذي يبدو أنهم مقتنعون به، فعلى كلتا الحالتين لن يلتزموا بكلامهم.

(فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ{11})
{فَإِن} {تَابُوا}، فتحوا صفحة جديدة، أعلنوا تركهم للشرك وأنهم لن يرجعوا إليه، {وَأَقَامُوا}، فَعَّلُوا لم يهملوا ولم يتركوا، {الصَّلَاةَ}، التوجّه والإقبال، وهنا الكلام عن الصلاة التي صارت مصطلحا دينيا، فهي العبادة التي يصليها المسلمون خمس مرات في اليوم، {وَآتَوُا}، دفعوا، {الزَّكَاةَ}، وهي الضريبة المحددة التي يدفعها المسلمون على المال والمواشي والمزروعات... لأن الصلاة والزكاة دليل على خروجهم من الشرك والتزامهم بالدين الإلهي، {فَإِخْوَانُكُمْ} {فِي} {الدِّينِ}، عندها يَكُونُونَ مثلكم مَثَلُهُمْ مُشَارِكِينَ لكم بالتبعات التي عليهم لإلههم سبحانه.

{وَنُفَصِّلُ} {الْآيَاتِ}، لأن الأمور المميزة من مستوى إلهي لا يجعلها سبحانه مجملة مخلوطة مع شيء آخر يُشَوِّشُ أفكاركم، حيث تَدُلُّ بشكل واضح على الدين الإلهي، والكلام هنا عن مجمل آياته تعالى وخصوصا تفصيله الكلام عن معاملة الكفّار قبل وبعد توبتهم، هذا الكلام آيات معروضة بالتفصيل الواضح، {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع كلامه تعالى، {يَعْلَمُونَ}، في مقابل الذين قلوبهم مختومة وبلا بصيرة... هؤلاء لن يروا الآيات مُفَصَّلَةً بل سيرونها مُشَوَّشَةً، ولن يفهموا منها إلا هجوما عليهم للضرر بهم وضد مصالحهم وما يحبّون، لأنها تجبرهم على الإيمان أو القتال.

بالنسبة لكلمة "زكاة" راجع ما قلناه منذ قليل في الآية 5.

كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، حيث إنها ليست اصطلاحا مخصّصا كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، فهي عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئا ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني وأنا مدين له، لأن خلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعا بسبب سَعَةِ تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، وهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... وكل ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة فهناك نُدَانُ بأعمالنا، لأن ما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هو التعذيب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضا يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسبا بحكمته يَدِينُنَا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ{12})
{وَإِن} {نَكَثُوا} {أَيْمَانَهُمْ}، فأيمان المشركين، ما قالوه عن إسلامهم لم يبقوه قويا فاعتبروه كلاما ضعيفا وبالتالي اعتبروا أنهم غير ملزمين به، {وَطَعَنُوا} {فِي} {دِينِكُمْ}، غرزوا شيئا فيما تقولون إنه تبعات عليكم لربّكم سبحانه، فأعلنوا أنه دين باطل ومطعون في صحّته... فتركوه، عندها، {فَقَاتِلُوا} {أَئِمَّةَ} {الْكُفْرِ}، فقوموا أيها المؤمنون بإنهاء حياة الأشخاص الذين يتبعهم الناس في إنكار الدين الإلهي الصحيح، {إِنَّهُمْ} {لَا} {أَيْمَانَ} {لَهُمْ}، لِأَنَّهُمْ بالأساس هم ليسوا من الذين يُؤَكِّدُونَ شيئا ويلتزمون به، فهم أصلا لم يؤمنوا.

بعبارة أصرح، لا تعتبروهم مسلمين ضالين أو منافقين أو فاسقين، هم ما زالوا كُفَّاراً لأنهم منذ قليل كانوا كفّارا علنا وبعدها لسبب أو لآخر "كالخوف منكم" أعلنوا إسلامهم، ظانين أنهم صاروا بالأمان منكم وأن لهم حرمة المسلم، وبدؤوا بالطعن في الدين، لا، فطعنهم في الدين دلالة على أنهم لم يتغيّروا فما زالوا كفّارا ولم يصيروا مسلمين.

قارنها مع حالة مسلمين منافقين وفاسقين، كحالة مجتمعاتنا اليوم، حيث هؤلاء حكم التعامل معهم يختلف حتى لو طعنوا في الدين، وتبقى لهم حرمة المسلم ولا يجوز التعامل معهم مثل التعامل مع الكفّار الذين كانوا معادين وأسلموا كذبا.

دائما دائما ميّز بين كافر مُعَادٍ "مقاتل"، وبين كافر مسالم، ومسلم ملتزم، ومسلم منافق أو فاسق، فالكافر المعادي "المقاتل" هو الذي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ الآيات هنا، وأما الكافر المسالم والمسلم المنافق والفاسق فله أحكام أخرى ستذكرها السورة هنا.

فقاتلوهم، {لَعَلَّهُمْ} {يَنتَهُونَ}، فمن المتوقع منهم بعد مقاتلتكم لهم أن ينتهوا فيتوقفوا بشكل حاسم وبلا تكرار عن الاستهتار بالتزاماتهم، فسيحسبون حسابا لقتلكم لهم وَسَيَلْتَزِمُونَ بما قالوه.

كما ترى، وصفتهم الآية بأئمة الكفر، مما يعني أنه إذا كان هناك أحد موصوف بأنه مترأس وفي أعلى الْعَدَاوَةِ للدين الإلهي، فَهُمْ هذه النوعية من الناس الذين كانوا كافرين وأسلموا ثم وفي أول فرصة أعلنوا أنهم ليسوا على دينه تعالى بل ويطعنون به كدين، فيقولون إِنَّهُ ليس دينا صحيحا، وَكَرَّرْتُ لك الكلام لترى التعبير القرآني الدقيق في وصف حالتهم، ولو وصفهم بالارتداد عن الدين، لتضمن ذلك أنهم ربما كان لديهم قناعة ما بدينه تعالى، ثم تراجعوا، ولكن الآية تصف أناسا أصلا لم يقتنعوا بالدين الإلهي، ولسبب أو لآخر أعلنوا انضمامهم له، وعند أول فرصة تمكنهم من إعلانهم لتركه فهم سيسلكونها... ويظنون أنهم يتمتعون بالحصانة لِأَنَّهُمْ صاروا منتمين للدين ولن يتعرّض لهم أي أحد بالأذى إن قالوا إنَّ دينه تعالى مطعون به وباطل... ودينهم السابق أحسن.

(أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤُمِنِينَ{13})
إذا آمنوا وظهرت عليهم علامات الإسلام فإخوانكم في الدين وإن نكثوا أيمانهم فقاتلوهم كما قالت الآية السابقة.

{أَلَا}، كيف لا، {تُقَاتِلُونَ} {قَوْماً}، تقومون بأنشطة لإنهاء حياة أناس لهم كيان الجماعة الْمُتَفَاعِلَةِ كفرا مع دينه تعالى... {نَكَثُوا} {أَيْمَانَهُمْ}، فيمينهم تَأْكِيدُهُمْ القوي عن أنهم أعلنوا اعْتِقَادَهُمْ بهذا الدين عن قناعة، ولكنهم نكثوه فلم يتركوه قويا وأضعفوه وَتَرَاجَعُوا عمّا قالوه، فكيف لا تُقَاتِلُونَهُمْ وهم، {هَمُّوا}، حَيْثُ نَوَوْا بقوّة، وعمليا قاموا بالتخطيط ولكنه بَقِيَ هَمّاً وَبَقِيَ نيّة قوية ولكنه لم يُنَفَّذْ، همّوا، {بِإِخْرَاجِ} {الرَّسُولِ}(ع)، والكلام هنا عُمُومِيٌّ عن كل من عاداه (ع) وكان من نواياه إِخْرَاجُ الرسول من حيثما كان قويا إلى حيث يكون ضعيفا لا مُنَاصِرِينَ له ولا قدرة له على نشر دعوته.

{وَهُم} {بَدَءُوكُمْ} {أَوَّلَ} {مَرَّةٍ}، لِأَنَّ الرسول(ع) كانت دعوته للجميع للانضمام لدينه تعالى، والكفّار عموما بدؤوا بالأعمال القتالية ضد المؤمنين.

أَوَّلُ ما يخطر ببالنا تطبيق الآية على قريش، فقبل مهاجرة النبي(ع) إلى مدينة يثرب، كَانَتْ خيارات إسكاته(ع) بين قتله أو حبسه أو نفيه "هموا بإخراجه" إلى حيث لا يجد أنصارا ولا يستطيع نشر دعوته، وقريش أول من قام بأنشطة قتالية ضد المؤمنين حَيْثُ قَتَلُوا المستضعفين ومنهم ياسر وسمية والدي عمّار، وقريش خاضت أول معركة كبيرة "نسبيا" وهي معركة بدر، "هم بدؤوكم بالقتال أول مرة"... لِذَلِكَ سيخطر ببالنا أن الكلام هنا موجه لقريش، ولكن كلام الآية هنا عمومي ويشير لاشتراك العقلية والنفسية بين عموم المشركين الذين عادوه (ع)، ولم تقصد قريشا، فالمشركون بغالبيتهم لديهم همّ إخراج الرسول محمّد(ع) أينما كان قويا ليصير ضعيفا معنويا وفي أي مكان، وكثيرا ما تلقّى الرسول(ع) في أول هجرته تهديدات من عائلات وقبائل من غير قريش لقتله وطرد التابعين له من منطقتهم... وقبل المعارك الكبيرة مع قريش "بدر وأحد" حَصَلَتْ في أول هجرة الرسول(ع) مناوشات عديدة بين المسلمين وبين الكفّار المجاورين لِمَدِينَةِ يثرب وعلى الطرقات إليها... فالحالة الأصلية للتكليف الإلهي لرسوله(ع) هي فقط وفقط دعوة الناس إلى الإيمان، وإن لم يؤمنوا فلا يوجد أمر إلهي بقتال أي أحد لأنه لم يؤمن، لا في حينها ولا بعدها، ولكن تحولت الأمور إلى القتال لأن الكفّار هم بدؤوا بالأعمال القتالية.

{أَتَخْشَوْنَهُمْ}؟ هل عندكم شعور يجعلكم تتوقعون أن المشركين سَيَضُرُّونَكُمْ لِذَلِكَ تُرِيدُونَ تجنّب ضررهم وَلَا تريدون قتالهم بل تريدون تجديد الاتفاقيات معهم رغم علمكم بأنهم لا يحترمون العهد إن قدروا على قتلكم! ورغم علمكم بشركهم وكفرهم! {فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ}، فما تريدون تجنبه من قتال المشركين هو لا شيء أمام ما سيصيبكم إن خالفتم أوامره تعالى، لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ أحق أن تعملوا على تجنّب عقابه عبر تنفيذ أوامره بقتال هذه النوعية من الناس، {إِن} {كُنتُم} {مُّؤْمِنِينَ}، إن كنتم حقا معتقدين بهذا الدين الإلهي فلن تخشوا أحدا غيره تعالى.

بعد قليل سترى ما تفهم منه معنى الكلام هنا عن خشية المؤمنين من المشركين، رَغْمَ التوسّع في منطقة سيطرة المسلمين على بقاع مختلفة، إلا أنها ولحين نزول هذه السورة، "وموت الرسول(ع)" لم تتركّز سيطرتهم إلا على قسم من العرب المتشعبين من "مضر"، وقسم آخر من القريبين من مكّة هم من "ربيعة" وهؤلاء خرج منهم مسيلمة الذي ادّعى النبوة في عهد النبي محمّد(ع)... لِذَلِكَ عِنْدَمَا يأتي الكلام الإلهي هنا عن منعه تعالى للمؤمنين من إبرام عهود مع المشركين، ستفهم خشية المؤمنين من المشركين الذين وصلهم عبر هذه السورة إعلان الحرب بلا أي مجال للتفاوض مع كل مشرك لم يسبق أَنْ أَثْبَتَ أنه غير معاد للمسلمين، وفي حينها كَانَ ذَلِكَ يعني إعلان الحرب على كثير من العرب ومنهم كفّار مضر، والأخطر منه إعلان الحرب على "ربيعة" وهي أكثر عددا من "مضر" ومع "ربيعة" سينضم حلفاء كثر آخرون من العرب المشركين الكارهين لدينه تعالى...

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ{14})
{قَاتِلُوهُمْ}، أيها المؤمنون قوموا بإنهاء حياة المشركين الذين قاتلوكم، {يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ}، يصيبهم سبحانه بما يضرّهم عبر قتالكم لهم، {وَيُخْزِهِمْ}، ويجعلهم تعالى يشعرون بالمهانة بسبب قبيح ما فعلوه، وبدل القوة والعنفوان اللذين يشعرون بهما، سيشعرون بالمهانة بسبب شركهم وقتالهم لكم وصدّهم عن سبيله تعالى، {وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ}، ويحقّق سبحانه لكم ما تريدونه منهم، وينهزمون أمامكم، {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ}، هناك أناس لهم كيان الجماعة ممن كان يتأذّى من المشركين حتى صارت حالتهم سيئة، وبنصركم عليهم يحصل لهؤلاء المؤمنين المتأذين من المشركين، يحصل الشفاء من الضغوط الفكرية والنفسية التي عانوها من المشركين، ومن الخوف والمضايقة وتعسير حياتهم...

(وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{15})
انتصاركم على المشركين، يُذْهِبْ غَيْظَ قلوبهم، حيث في أساس فكرهم ونفسيتهم كان يوجد انزعاج شديد، وسيذهب هذا الانزعاج ممّا كان يقوم به المشركون ومن تهديداتهم ومضايقاتهم... {وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ}، وسترى من الآية التالية أن الكلام عن الذين كانوا يخشون الحرب مع المشركين وبعدها شاركوا في الحرب "أو لم يشاركوا وتابوا من ذلك"، فالله تعالى أعلم بنواياهم إن كانوا يستحقون أن يتوب سبحانه عليهم، حيث أمامه سبحانه خيارات عديدة وأخبرنا تعالى أنه شاء تعالى قبول توبتهم إن كانت حقيقية، ويفتح لهم سبحانه صفحة جديدة ويسامحهم على ما سبق.

{وَاللّهُ عَلِيمٌ}، يعلم كل شيء، فيعلم لماذا يأمركم بالقتال، لأنه يعلم مصلحتكم، ويعلم من يستحق أن يتوب تعالى عليه، و{حَكِيمٌ}، فلا يأمركم سبحانه بأشياء عبثية بل عن حكمة، عن رؤية الصوابية في الأمور يأمركم بقتال المشركين، وعن حكمة يتوب سبحانه على من يراه مناسبًا للتوبة عليه.

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ{16})
{أَمْ حَسِبْتُمْ}: فهل خطر في بالكم ومن دون دليل أيها المعلنون إيمانهم، {أَن تُتْرَكُوا}، وهو فعل مبني للمجهول، بأن يترككم ربكم سبحانه، حيث من دون امتحانات تثبت أنكم مؤمنون حقيقيون سيترككم سبحانه! {وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ}: ولحدّ الآن لم يعلم الله تعالى علمًا فعليًا على أرض الواقع، {الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ}، الذين قاموا بمجهود بالمال والنفس، ولحد الآن لم يعلم سبحانه من {لَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً}: وهي الدخيل، شيء يلج فيدخل بين الله تعالى ورسوله(ع) والمؤمنين من جهة وبين من أعلن أنه مؤمن من جهة أخرى، حيث يريد الله تعالى أن يعلم إن كنا سنجعل المشركين المعادين أصدقاءنا أو أحباءنا... فنتخذهم {وَلِيجةً}، فيكونوا دخلاء غرباء علينا من خارج التدين بدينه تعالى.

تذكر دائمًا الآية 8 من سورة الممتحنة "{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}"، حيث الكلام هنا عن {وَلِيجةً} هو عن كافر معاد مقاتل يدخل بكلامه وعلاقتك معه بينك وبينه تعالى والرسول(ع) والمؤمنين، فيجعلك بشيء ما نافرًا منهم، وليس الكلام عن كافر مسالم.

أعلنتم أنكم مؤمنون، وإذا لم يأمركم سبحانه بشيء فيه جهد، بقتال المشركين، فكيف سيعلم من منكم المؤمن الحقيقي؟ وكيف سيعلم من منكم لا يعترف بالمشركين المعادين كأقارب أو أصدقاء أو أحباء؟ لذا يجب أن تتعرضوا لامتحان قتال المشركين المعادين حتى تظهروا على حقيقتكم.

بالنظر لعموم مفاهيم القرآن وما ورد في سورتنا هنا، فيمكنه سبحانه القضاء على المشركين بلمحة، ولكن نحن كلّنا في الدنيا في مرحلة امتحان لتثبيت استحقاقنا لدخول الجنّة الرائعة الخالدة، وما الفرق بين المؤمن الحقيقي والمزيّف إن لم يمرّوا في الامتحان؟ حيث المؤمن الحقيقي لا مشكلة عنده في أي شيء سيحصل، لأنه مطيع دائمًا له تعالى ولن يتراجع عن إيمانه، أمّا المزيّف، الذي لو أتيحت له الفرصة لترك الدين الإلهي، فسيتماشى مع مصالحه ليمثّل دور المؤمن في بيئة تفرض عليه ذلك... وهذا لن يدعه تعالى يستفيد من ولادته أو عيشه في بيئة مسلمة أمّنت له بيئة يعلن فيها إسلامه ويدخل الجنّة بينما من داخله لا يوجد إيمان، فما ذنب من ولد في بيئة كافرة وتماشى مع بيئته إذا كان في البيئة المسلمة أشخاص من داخلهم مماثلون له في الكفر وكره الالتزام بالدين الإلهي ويفعلون ما يعلمون أنه حرام ومخالف لأبسط المفاهيم الإنسانية "التي هي نفسها أوامره تعالى"! إذ لا فرق بينهما عنده تعالى، وكلّنا سنمرّ بامتحانات تثبت جدارتنا بوصفنا بالإيمان، وحتى لو كنّا نصلي ونصوم ونزكّي... وكنّا من داخلنا غير مقتنعين بالدين الإلهي، ومرتكبين لبعض المحرمات، أو محبين للمال الحرام والشهوات السيئة أكثر من حبّنا له تعالى... آكلين لأموال الأيتام والفقراء والأرامل.... ناهبين للمال العام... غشاشين في أعمالنا.... فسنحاسب مثل الطاويين والأرواحيين من البوذيين والهندوس... على أعمالنا ولن يعتبرنا سبحانه من الموحدين له إن كنّا بالحبّ مألّهين للمال والشهوات.

{وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}، إذ لديه سبحانه أخبار وتفاصيل كل ما يصدر عنكم، فيخبر سبحانه إن شاركتم بالجهاد، ويخبر إن كنتم أدخلتم المشركين المعادين في حياتكم، فانتبهوا لأفعالكم لأنكم تحت المراقبة.

سبحانه لا ينصب الأفخاخ لنا لنسقط فيها ونترك الإيمان، بل سبحانه يمتحننا حتى نظهر على حقيقتنا أمامه، حيث سبحانه يعلم من منّا المؤمن الحقيقي، إذ يظهر نفاق بعض الناس علنًا وقد يراه الآخرون أو لا يرونه ولكنه تعالى خبير...

سبحانه يعلم كل شيء، حتى قبل حصوله، فيعلم بفكري ومشاعري، ويعلم بالضبط ماذا سيكون قراري، لأنه تعالى يعلم الغيب، ولكن هل يحاسبني على علمه بالغيب؟ إذ يعلم أنه إذا حصلت معركة فإنني سأهرب، فيحاسبني على الفرار من الزحف حتى لو لم تحصل أي معركة! لا، وفعليًا وعلى أرض الواقع، يمتحنني سبحانه، فإذا هربت يصير علم الغيب

علم شهادة، وعندها يحاسبني، وكل المدة قبل تعرضي لامتحان الجهاد كان يعلم تعالى ماذا سأفعل، ولكني فعليًا وقبل الحرب، لم أفعل أي شيء، وبعد الحرب هربت، فعلم تعالى فعليًا أني هربت.

ضع في بالك دائمًا أن تركيب الجملة في اللغة العربية مع الكلمة {لَمَّا} يفيد نفي الماضي حتى الزمن الحاضر، حيث من الماضي حتى الآن هناك شيء لم يحصل، إذ في الماضي ولحد الآن هم أعلنوا أنهم مؤمنون، والعلم الإلهي الفعلي بأنهم ليسوا كلهم مؤمنين لم يحصل من الماضي ولحدّ الآن لأنهم لم يتعرضوا لامتحان، ومن بعد الامتحان يظهر أمامه تعالى إيمانهم الحقيقي.

هناك مفهوم قرآني ثابت أنه تعالى لا يحاسبني على شيء لم أفعله ولم أنو فعله، وما نويت فعله وعزمت على فعله، سواء استطعت أن أفعله أو لم أستطع، أتحاسب عليه، وسبحانه بعلمه للغيب يعلم سلفًا ما سأفعله في المستقبل، ولكن لن يحاسبني عليه إلا إذا فعلته، إذ ما معنى أن أفتح عيني على الحياة لأجد نفسي في جهنم أتعذب لأنني لو خلقني تعالى في الدنيا لكنت كافرًا... وهكذا من دون مروري في الدنيا خلقني سبحانه مباشرة في جهنم! كما ترى فهذا لا معنى له، وأنا هنا في حياتي الدنيا لن يحكم تعالى عليّ بعلمه، بل يجعلني أمرّ بالظروف المختلفة ويرى تعالى أني اجتزتها أو سقطت فيها، وعندها يعلم سبحانه علمًا فعليًا عمليًا واقعًا ملموسًا أني نجحت أو فسقت.

(مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ{ {17})

نرجع لموضوع المشركين، وبالأخص الذين يقومون بالعناية بالمسجد الحرام كنموذج، فهل هذا العمل يجعل لهم ميزة؟ حيث رأينا من الآيات السابقة أن المشركين المعادين محكوم عليهم بالقتل أو الإسلام، وهل المشركون عموما والذين كانوا يهتمون بأماكن العبادة، هل لهم ميزة أو فضل واعتبار؟:

{مَا كَانَ}، ليس من المفروض، {لِلْمُشْرِكِينَ}، للذين جعلوا لله تعالى شركاء في الألوهية، ليس من المفروض، {أَن يَعْمُرُوا}، ويبنوا ويهتموا ويقيموا، {مَسَاجِدَ اللَّهِ}، أماكن التعبير عن الخضوع له تعالى، أماكن لعبادة الله تعالى، والمشركون {شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ}، لأن إنكارهم لتوحيده تعالى ليس تهمة، فهم لا ينكرون أنهم ينكرون التوحيد، بل يعلنون ذلك، وهذا هو شهودهم على كفرهم.

ليس من المنطقي أن يقوم المشركون بالاهتمام بأماكن لعبادة الله تعالى، فكيف يكفرون بتوحيده، ويعبدون غيره وفي نفس الوقت يعمرون أماكن عبادته تعالى! فمن كان من المشركين يتوقع الحصول على تميّز منه تعالى أو من المسلمين لأنه كان يهتم بأماكن العبادة "بالمسجد الحرام الذي في مكّة كنموذج"، فهو مخطئ، لأن من الأساس مكانه خطأ، ومكانه ليس الاهتمام بأماكن عبادة الله تعالى، لأنه مشرك به تعالى ومنكر لدينه ولرسوله ولكتبه، وهذه أماكن لعبادته تعالى لوحده.

{أُولَٰئِكَ}، المشركون، {حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ}، وفقدت قيمتها مع أنها أعمال حسنة، ولا أجر لهم منه تعالى على عمارة المسجد لأنهم مشركون، لأن المشرك مهما فعل من خير عموما فلن يكون لعمله أي قيمة عنده تعالى، ولن يأخذ عليه أجرًا، فكيف سيعطيه الله تعالى أجرًا بينما يجعل له تعالى شركاء في الألوهية؟ لاحظ أنك عندما تقوم بعمل خير فسبحانه لا يحصل على أي شيء، ولكن بما أنك قمت به طاعة لأمره تعالى، يحسب سبحانه لك عليه أجرًا، وإن قمت بعمل خير ولم تكن تنويه كطاعة أو كقربى لله تعالى، فلماذا سيعطيك سبحانه عليه أجرًا؟ وإن قمت بعمل خير وأنت تعتبر أنه يوجد آلهة كثيرة، فالله تعالى لا يعتبرك تقربت إليه بل ابتعدت عنه، بل تعديت على مقام ألوهيته، لذا لا أجر لك عنده حتى لو عمرت المساجد. وفيما سيأتي في دراسة الآية 69 من هذه السورة سيأتيك كلام طويل عن الحبط.

{وَفِي النَّارِ}، التي في الآخرة، {هُمْ خَالِدُونَ}، حيث لا يموتون ولا تنتهي حياتهم. وبدل أن يتوقع المشركون مكانة عالية لهم لأنهم يعمرون المسجد فليأخذوا علمًا أنهم ذاهبون إلى النار خالدين فيها، إذ أحيانا يقوم أحد ما بعمل خير من العيار الثقيل ويقدّره تعالى له، ويحاسبه على أعماله وتكون النتيجة دخوله النار، ولكن عمل الخير الذي كان عياره ثقيلًا قد يجعله لا يخلد في النار إن كان دخلها لسوء ليس من العيار الثقيل، وهنا الكلام من هذا المعنى، فمهما كان يبدو من

عمارة المساجد أنه عمل ضخم وثوابه عنده تعالى عظيم جدا جدا، لكن مع الشرك لن ينفع ولا بأي شيء، وسيخلدون في النار.

(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُوْلَـئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ{18})

{إِنَّمَا} "من المفروض والمنطقي" حصرًا وفقط، {يَعْمُرُ}، يبني ويهتم بـ، {مَسَاجِدَ اللَّهِ}، الأماكن التي يتم فيها التعبير عن الخضوع له تعالى بذكره سبحانه، حيث من المفروض أن يكون عامرها، {مَنْ آمَنَ}، من اعتقد، {بِاللَّهِ}، لأن حقيقة الإيمان بصاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" سبحانه وتعالى كإله تستوجب توحيده وإلا فلن يكون إيمانًا حقيقيًا به سبحانه، {وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، واعتقد أنه يوجد حياة في الآخرة بعد الحياة الدنيا الأولى، وعمليا يعني أنه اعتقد بوجود حساب وعقاب وثواب، {وَأَقَامَ}، فلم يترك أو يهمل، بل فعّل، {الصَّلَاةَ}، التوجّه بالذكر إلى الله تعالى، والكلام عن الصلاة الواجبة التي نقيمها خمس مرات في اليوم.

{وَآتَى الزَّكَاةَ}، فأخذ نسبة من أملاكه ليصرفها في سبيله تعالى، وراجع في ذلك ما ذكرناه في الآية 5 من هذه السورة.

ويعمرها من {لَمْ يَخْشَ}، لم يحصل عنده شعور ضرورة تجنّب شيء سيئ سيحصل من المخالفة، {إِلَّا اللَّهَ}، فلم يخش من المشركين ولا من آلهتهم الوهمية.

{فَعَسَىٰ}، ومن المرجّح غير الأكيد، {أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}، فيكونوا من الموصوفين بأنهم على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، حيث إن الشخص الذي يتحلى بالإيمان ويصلي ويزكي من جهة، ويقوم بعمارة لمسجد من جهة أخرى، فإن كان كل شيء على ما يرام، فمن المحتمل المرجّح أنه من المهتدين، وإلا فمن الممكن ألا يكون وضعه سليما، لذا لا تريدنا الآية أن نفهم أن كل من يعمر مسجدًا لله تعالى بأنه صار مميزًا جدًا، لا، بل {عَسَىٰ} ومن المحتمل المرجّح أن يكون مهتديًا، لأن عمارة المسجد والصلاة والزكاة ترجّح كون الشخص ذا إيمان عال، وهذه الأمور ليست لوحدها دليلًا على الإيمان العالي، إذ ربما يكون نصابًا محتالًا مغتابًا كذابًا غشاشًا... فاسقًا في أمر ما أو منافقًا، مثل بعض الذين يربون اللحى وعلى جبينهم دمغة السجود وهم نصابون محتالون وآكلون لأموال الأيتام... لأن المظاهر ليست دليلًا على علو مقام صاحبها.

(أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{19})

{أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ}، هل جعلتم الاهتمام بتأمين الماء للحجاج القاصدين لمكة لعمرة أو حجّ، وجعلتم، {وَعِمَارَةَ}، الاهتمام بالبناء والنظافة وبالتسهيلات... {الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، بالباحة الكبيرة التي فيها الكعبة في مكة، وفيها زمزم والصفا والمروة... هل جعلتم هذين العملين، {كَمَنْ آمَنَ}، مثل من اعتقد، {بِاللَّهِ}، بحقيقة الإيمان بتوحيده وصفاته سبحانه، {وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، وآمن بزمن سيأتي علينا ونعود فيه إلى الحياة، وسيأتي في الآخرة بعد موتنا في الدنيا الأولى، وهذا عمليا يعني أنه اعتقد بوجود حساب وجزاء في الحياة الآخرة، {وَجَاهَدَ}، وقام بشيء فيه جهد جسدي أو نفسي، {فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، وليس لأهداف شخصية سيئة، وشارك في عموم الأعمال التي ترضيه تعالى وقدّم من أمواله في الأمور التي ترضيه تعالى، وهي تتداخل ولا تنفك عن مصالح المؤمنين الصالحة....

{لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ}، الساقون للحجيج والعامرون للمسجد الحرام ليسوا في نفس المستوى، وليسوا في نفس القيمة والاعتبار، ولا يتساوون عنده تعالى مع المؤمنين به تعالى وبآخرته المجاهدين...

{وَاللَّهُ لَا يَهْدِي}، لا يضع على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {الْقَوْمَ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة والمتفاعلين مع دينه تعالى، {الظَّالِمِينَ}، الذين لم يكونوا منصفين ولا عادلين حين لم يؤمنوا كما يجب، ومن الآية التالية سترى أننا انتقلنا من عموم من اهتمّ بعمارة المسجد وسقاية الحجيج إلى خصوص من آمن وعمر البيت وسقى الحجيج وإلى من آمن وجاهد.

تكملة لما قالته الآيات السابقة عن عمارة مساجد لله تعالى أنها لوحدها لا تعطي أي قيمة منه تعالى لمن قام بها، ومع الشرك فإن العمارة حابطة لا قيمة لها أصلاً، وهنا، حتى عمارة المسجد الحرام بعظمته وبركته، والعناية بحجاجه بتأمين مياه الشرب لهم، وهذا شيء كان مكلفًا جدًا في حينها، فلا يتساوى هذا العمل مع الإيمان والجهاد...

بقي شيء، حيث في مختلف كتب التفاسير روايات مختلفة يروونها كسبب لنزول هذه الآية، وأكثرها جعل الإمام علي هو المقصود بمن آمن وجاهد في مقابل شخصين من مكّة كانا من أيام الشرك يعمران ويسقيان، وأسلما، وتفاخرا على المسلمين بذلك... هذا النوع من الروايات يجعل القرآن كتاب تاريخ محصور بحوادث وقعت حين نزوله، ولا نقول إن الحوادث المذكورة لم تحصل، ولا نقول إنها كلها كاذبة، ولكن نشكك كثيرًا في كونها سببًا مباشرًا لنزول آيات تقصدها، علمًا أن سورتنا هذه نموذج واضح عن ارتباط بعض الآيات بأحداث تاريخية، فعلى الأقل هي تشير لشيء حصل في زمن نزولها... كنموذج مثلما هو عموم كلام القرآن عن نماذج، ولكن الذي يجب أن ننتبه له، أن سورتنا هنا أيضًا نموذج واضح جدًا أن القرآن ذكر أمورًا يريدها تعالى لنا دينًا عبر استخدامه الحوادث التي جرت على عهد النبي(ع) كنموذج، فلم يقصد سبحانه أن يؤرّخها بل قصد التمثيل بها لتكون نموذجًا عمليًا أسهل لنا على فهم أسباب أحكامه تعالى.

مرت في ذلك الزمان ظروف كان فيها غالبية الناس مخالفين لدينه تعالى، وتحمّل قسم قليل جدًا جدًا منهم بناء نواة لدينه تعالى، وكانت المعاناة بأقصاها وبكل أشكال المعاناة من قتل وتشريد وسجن وسلب أموال وتعطّل مصالح وتقديم وقت وجهد... ومن قبل مرّت على مختلف المجتمعات ظروف كهذه، وذكر بعضها القرآن مع أسماء رسل عايشوها وعانوا منها... ومن بعد الرسول محمّد(ع) أيضًا تغيّرت الظروف، ولا نزال نمرّ بتلك الفترات... حيث يتراجع تديّن الناس... ثم ينبري مؤمنون صادقون يصنعون موجة تدين تعيد الناس إلى الإيمان... وبعدها فتور إيماني يليه نهضة...

آيتنا هنا نموذج عام للمقارنة بين العمل الجدي المؤثّر فعلًا على بناء نواة مجتمع مؤمن عبر الجهاد، عبر تحمّل مشقة ومعاناة مخالفة عموم الناس المنحرفين عن دينه تعالى، ومخالفة الحكّام والنافذين... وبين الأعمال الوجاهية الشرفية الترفية ذات الاسم الرنّان والتي من قبل لم تغيّر أي شيء ومن بعد لن تغيّر أي شيء، ولا أكبر من طنين صفة عامر لبيته تعالى، أو ساقي حجيجه تعالى، ورغم ذلك أنزلهما تعالى إلى مستواهما الطبيعي تحت قيمة المؤمن المجاهد.

خذ مثلًا ما هو دارج منذ زمن بعيد من بناء الأغنياء للمساجد، من أمراء ووزراء ورجال أعمال... خذ مثلًا من عصرنا قيام الممثلين والمغنين ببناء المساجد، هل تتغيّر قيمتهم الإيمانية عنده تعالى لأنهم بنوا مسجدًا؟ لا، فلو كانت بهكذا أعمال ترتفع قيمتنا عنده تعالى، لكان الفقراء لا سبيل لهم للوصول إلى مراتب عالية مثلما يقدر الأغنياء عليه من بناء مساجد.

لا الآية ولا المثال الذي ضربته مقصود منهما تسخيف التبرع ببناء مساجد، ولكن المقصود وضع هكذا أعمال في حجمها الطبيعي، لأنها مثلها مثل رخي اللحية وحمل السبحة ولبس العباءة ودمغة الجبين... لا تبرهن على أي شيء كتأكيد على القيمة العالية عنده تعالى، إذ هي مظاهر، وأمّا الإيمان والتطبيق للإيمان بعموم الأعمال الصالحة وخصوصًا بالجهاد، الذي يعني تقديم المال في عموم سبيله تعالى وتقديم النفس جهدًا في عموم سبيله تعالى، هما يعطيان فعلًا قيمة عالية عنده تعالى.

أمّا في ما يخص الإمام علي، فلا غرابة أن يقصده القرآن كأبرز نموذج عن الإيمان والجهاد إن انتشر بين الناس مفاخرة العامر والساقي على علي، ولكن هلك في علي محبّ غالٍ، ومبغض قالٍ، وهو علم منارة ليس في تاريخ الإسلام وحسب بل في تاريخ البشرية، ومحبّته لن تجرني إلى محورة القرآن حوله، وطالما الآية هنا عمومية وتشير لكل من آمن وجاهد أنه أفضل ممن عمر المسجد وسقى الحجيج، فلن أحصرها فيه، علمًا أن عليًا يمثّل أرقى الصحابة إيمانًا وجهادًا ومن الطبيعي أن يختاره الآخرون ليتفاخروا عليه بعمارتهم للمسجد وسقاية الحجيج، ومن الطبيعي أن ينصرف ذهننا إليه إذا أردنا نموذجًا تطبيقيًا لمؤمن مجاهد.

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ{20})
{الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين اعتقدوا بالله تعالى ربًا أحدًا وبالآخرة... {وَهَاجَرُوا}، حيث سياق الكلام عن الذين تركوا مكان عيشهم الذي يحكمه الكفار لأنهم يمنعونهم من الإيمان، {وَجَاهَدُوا}، فقاموا بجهد، بعمل غير مريح ومتعب، {فِي سَبِيلِ

اللَّهِ}، وليس لأغراض أو غايات خاصة شخصية سيئة، {بِأَمْوَالِهِمْ}، فقدموا من أموالهم في سبيله تعالى لتكاليف الحرب... {وَأَنفُسِهِمْ}، فبأنفسهم ذهبوا للقتال ولم يقعدوا.

{أُولَٰئِكَ}، {أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ}، فهم قيمتهم أكبر من الذي عمر المسجد الحرام وسقى الحجّاج.

لا شك أن الاهتمام بالأماكن المقدسة عمل وجاهي، فيشتهر من يقوم بهذا العمل بين قاصدي تلك الأماكن، وتريد الآيات أن تؤكد بأنها مجرد أماكن، يجب على المؤمنين الاهتمام بعمارتها، ولكنها لا تعطي أي دليل على علو الإيمان، ولا على علو مقامهم عنده تعالى، بل هي أقل من درجة الإيمان مع جهاد، فهي الأعلى عنده تعالى.

إن كان هناك عمل عليه وجاهة إيمانية، فهو الجهاد بالمال والنفس معًا، طبعًا لمن يستطيع.

{وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ}، هم الموصوفون بكل ما تحمله كلمة فوز من معنى، حيث مرّوا بامتحانات الدنيا ونجحوا، والفوز وما سيحصلون عليه وله قيمة هو الجنّة.

بقي شيء، حيث إن الواو بين أنفسهم وأموالهم، ليست للتخيير بل للعطف، لأن بعض الناس يقولون إنهم إذا قدّموا من أموالهم للمجهود الحربي فإن الجهاد بالنفس يسقط عنهم، لا، إلا في حالة كان فيها الجهاد "كفائيًا"، فكان هناك عدد كافٍ ممن يقومون بالقتال وعددهم يكفي لإنجاز المهمة، وورد في سيرة الرسول(ع) إرساله (ع) لسرايا في مهمّات عسكرية، فلم يرسل الجميع في كل نشاط عسكري، وورد أيضًا في بعض الحالات أمره(ع) لجميع القادرين على حمل السلاح بالمشاركة في الأنشطة العسكرية، كوقعة أحد وتبوك... يعني: من قدّم الكثير من أمواله في سبيله تعالى ولم يشارك بنفسه في الأنشطة فهذا لن يصل إلى مستوى الذي ماله قليل وقدّم منه في سبيله تعالى، ومع تقديمه للمال شارك بنفسه، وراجع في ذلك دراسة الآية 95 من سورة النساء "{لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا}" وسترى أنها كانت تتحدّث عن حالة لا يجب فيها على الجميع الخروج للقتال ويكفي عدد منهم لذلك...

(يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ{21})
{يُبَشِّرُهُمْ}، فيبشّر تعالى المؤمنين ويخبرهم بالخبر السار، {بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ} تعالى، بعناية إلهية خاصة بهم لما فيه مصلحتهم، {وَرِضْوَانٍ}، ويبشّرهم بقبوله سبحانه بمحبّة لأعمالهم وإيمانهم، {وَجَنَّاتٍ}، ويبشّرهم بأماكن موصوفة بروعة ما فيها، حيث فيها الحدائق والبساتين والبهجة والسعادة، {لَّهُمْ فِيهَا}، للمؤمنين المجاهدين في الجنّات، {نَعِيمٌ}، أشياء توصف بأنها نِعْمَ الأشياء، أشياء جيدة جدًا، وهو نعيم، {مُّقِيمٌ}، يقيم معهم، بعبارة أبسط: يسكن معهم، ملازم لهم لا ينقطع ولا يفارقهم ولو للحظة.

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً إِنَّ اللّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ{22})
{خَالِدِينَ فِيهَا}، لا يموتون ولا يفنون ولا يخرجون فهم باقون في تلك الجنات، {أَبَدًا}، مهما جاء من زمان، ومهما طال الزمن ولو لتريليونات تريليونات السنين، حيث مهما طال الزمن فهم في الجنات وفي حالة نعيم.
{إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}، ما حدّده سبحانه سلفًا من قيمة كمقابل لما يستحقّه المؤمن المجاهد فهو ضخم كبير، وكما ترى فلا يوجد أعظم من الخلود في نعيم.
نلاحظ أن فكرة الخلود في الجنّة لا تبدو سهلة الاستيعاب على الكثير من الناس، من ناحية البقاء أحياء بلا نهاية ومن ناحية الملل من البقاء أحياء لمدّة طويلة، أمّا من ناحية الخلود كشيء صعب حصوله، فنحن أمام كلام من خلق السماوات بضخامة هائلة لا تقدر عليها التلسكوبات، بما نسمّيه كوننا ما هو إلّا سماء واحدة من سبع سماوات. وخلق سبحانه فيها تفاصيل فوق قدرتنا على التصوّر، لذا نستعمل لها أرقامًا بالتريليونات، إذ عدد المجرات بالتريليونات، وعدد شموسها بتريليونات التريليونات، وعدد كواكبها بتريليونات التريليونات... ونحن لا قدرة لنا على تصوّر صورة في ذهننا لأكثر من بضعة أشياء، وعلى تقدير نبالغ فيه كثيرًا نقول إنه يوجد إنسان يمكنه تصوّر خمسين شيئًا دفعة واحدة في ذهنه، وكما ترى فهذا حجم قدرتنا على تصوّر الأشياء الكبيرة، وهو محدود جدًا جدًا، ومعلوم أن فقداننا للحياة هنا في الدنيا سببه عطل في جسدنا، فإن بني جسدنا بتصميم آخر لا يتعطّل، فسنبقى أحياء إلى ما شاء الله تعالى.

هناك الكثير الكثير من المفاهيم التي نستعملها وهي أصلًا تفوق قدرتنا على تصوّرها، ومن ضمنها الخلود "بسعادة" في الجنّة، وقياسًا على قدراتنا الجسدية هنا، وعلى بيئتنا، وعلى محيطنا من الناس، ترى البعض منّا يستصعب فكرة السعادة الدائمة الخالدة، وهذا صحيح، ولكنه سبحانه أخبرنا أن الوضع في الآخرة مختلف جدًا جدًا جدًا عن الوضع الحالي في الدنيا، حيث هناك جسدنا مختلف "مع الأمل أن نكون منهم"، وبيئتنا مختلفة، والناس حولنا مختلفون، ولا غلّ ولا أحقاد ولا مشاكل... كما سيرد في الآية 43 من هذه السورة "{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ...}"، لذا لا ترد على بالنا أصلًا فكرة إمكانية حصول أي شيء مزعج... وبجسد نشعر بأنه خالد لن يصيبه أي مكروه ودائما في صحّة ونشاط... وفي بيئة أصلًا لا يمكن مقارنة روعتها بما في الدنيا من متاع، وهي بيئة متجدّدة باستمرار، تقريبًا مثل تجدّد بيئتنا هنا مع الاكتشافات العلمية التي ينتج عنها مدّة بعد مدّة وسائل راحة وتسلية... وتجد ذلك في العديد من الآيات منها الآية 71 من سورة الزخرف "{يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}"، والآية 35 من سورة ق "{لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}". في الختام، بجملة قرآنية مختصرة جدًا يقولها إلهنا الذي خلقنا ويخبرنا بعلمه الواسع الفائق بأن أهل الجنّة لا يبغون عنها حِوَلًا، كما ورد في الآية 108 من سورة الكهف "{خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}"، فلا يخطر ببالهم ولا يرغبون أصلًا بشيء آخر، ولا ملل ولا روتين... خالدين في نعيم...

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{23})

انتهينا من وجوب قتال المشركين، لكن ماذا لو كانوا من أقاربنا؟: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الناس الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين: {لَا تَتَّخِذُوا}، لا تجعلوا، {آبَاءَكُمْ}، الذين ولدوكم، {وَإِخْوَانَكُمْ}، المشاركين لكم بالنسب من الأم أو الأب أو منهما معاً، لا تعتبروهم، {أَوْلِيَاءَ}، تابعين لكم أو أنتم تابعون لهم، ونعرف من القرآن أن من سمعت منه ولو كلمة واحدة مخالفة لكلامه تعالى ونفّذتها جعلته ولياً لك، وصرت موصوفاً بأنك تابع له وهو مرجع لك، فلا تتخذوهم أولياء، {إِنِ اسْتَحَبُّوا}، إذا فضّل وأحبّ آباؤكم وإخوانكم، {الْكُفْرَ}، إنكار الدين الإلهي، {عَلَى الْإِيمَانِ}، على الاعتقاد بالدين الإلهي.

{وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ}، من يجعل من نفسه تابعاً لهم ويسمع كلامهم وينفّذه، ولو بشيء واحد مخالف لكلامه تعالى، {فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، حيث لم يكن معهم حقّ حين تعرّفوا على كلامه تعالى الحقّ الصالح وفي نفس الوقت تولوا الكفّار الذين يخترعون العقيدة والشريعة من أهوائهم الفاسدة.

سترى من الآية التالية كلاماً عمومياً عن التطبيق العملي لولاية غير المؤمنين، حيث إن الآية هنا تنهانا عن ولاية الكافرين حتى لو كانوا من أقرب الناس لنا، لأن القرابة ليست عذراً مقبولاً لسماع كلامهم إذا كان متعارضاً مع كلامه تعالى، والآية التالية ستتناول عموم أي شيء يجعلنا نقوم بعمل متعارض مع دينه تعالى مع تكرارها لولاية الأقارب لتشملها مع أمور أخرى:

قبل أن نكمل، كلام الآيات هنا لا يعني كره كل الكافرين والتعامل معهم بجلافة... ورفض كل كلامهم، لا، الكافرون المسالمون نعاملهم بمسالمة بل نبرّهم ونقسط إليهم كما هو واضح كأمر إلهي في الآية 8 من سورة الممتحنة {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، والكافرون أصحاب الاختصاص والناصحون بالخير نسمع كلامهم... حيث إن الآية هنا تنهى عن موالاتهم فقط وفقط فيما نعلم أنه مخالف معارض لما يرضاه تعالى.

(قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ{24})

{قُلْ}، يا أيها النبي(ع) عبر هذا القرآن للذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ}، {وَعَشِيرَتُكُمْ}، أقاربكم من عائلتكم وهم عموم من تعاشرهم عادة وتقضي وقتك بينهم وهم بقية الأقارب من أعمام وأخوال وأولادهم... {وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا}، حصلتم على البعض منها من أعمالكم وعلاقاتكم، {وَتِجَارَةٌ}، من بيع وشراء للبضائع يقصد أحد طرفيها أو كلاهما زيادة الربح على رأس المال،

{تَخْشَوْنَ}، وتشعرون بضرورة تجنّب ضرر، {كَسَادَهَا}، تعطيلها وتوقفها، وهنا الكلام عن العلاقة مع الكفّار الذين لن يشتروا من المؤمن ولن يبيعوه بضائع يحتاجها...

{وَمَسَاكِنُ}، أماكن تسكنون فيها من بيوت أو دور، {تَرْضَوْنَهَا}، تعبّرون عن قبولكم لها بمحبّة وتعجبكم لأنها بيوت ودور جيدة في مكان جيد...

إن كان كل ما سبق، {أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ}، وأحبَّ إليكم من بذل الجهد، وسياق الكلام عن عموم الجهد المالي والجسدي ويشمل الحرب في سبيل الله تعالى، وتكملة الكلام في الآية التالية ستشير حصراً للجهاد في القتال، فلأجل أقربائكم تركتم أوامره تعالى ورسوله(ع)، فلم تلتزموا بكل الدين، وتركتم الجهاد أو هربتم من الحرب، لأنهم يحبونكم ويمنعونكم من المشاركة في القتال خوفاً عليكم من الموت، أو تهربون من المعركة بسبب تفكيركم باعتراضهم عليكم... وتخافون على تجارتكم أن تخرب إذا تركتموها وذهبتم للحرب... وتفكرون في الأموال التي جمعتموها لتصرفوها على الملذات والمشتهيات أنها ستذهب لغيركم بالميراث إن متم في الحرب... ولا تريدون أن تنفقوا منها على مصاريف الحرب... وتفكرون في بيوتكم التي تسكنون فيها ولا تحبون أن تتركوها لتذهبوا إلى البراري والخنادق في الحرب...

إن كان مجموع ما سبق أو واحد منها هو سببٌ لكم حتى لا تشاركوا في الحرب، أو حتى تهربوا أثناء الحرب ضد المعادين:

{فَتَرَبَّصُوا}، فانتظروا حدثاً متوقَّعاً حدوثه، {حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}، فربما يأمر سبحانه بخسارتكم لكل ما تحبون، وربما يأمر بموتكم في بيوتكم، وربما يسمح بهجوم عدو عليكم وتدمير حياتكم... وأخيراً فلا مجال للهرب من أمره تعالى في الآخرة والحساب العسير فهذا سيأتي حتماً فانتظروه.

{وَاللَّهُ لَا يَهْدِي}، لا يضع على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {الْقَوْمَ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع كلامه، {الْفَاسِقِينَ}، الخارجين عن أمور أعلن عنها صراحة الدين الإلهي، فمن لم يلتزم حقاً بما يأمر به تعالى فهذا لن يصل إلى الطريق الصحيح. فمن فضّل الأهل والزوجة والمال... على طاعته تعالى وقع في الضلال ولن يساعده تعالى للخروج منه.

بقي شيء كررناه في دراسة السورة، فالجهاد في سبيله تعالى ليس أمراً منفصلاً عنّا، بل هو نفسه ما نحتاجه نحن، والشرط حتى يتلازم وصف ما نحتاجه بسبيله تعالى أن يكون متماشياً متوافقاً مع أوامره تعالى وما يسمح به ويرضى عنه، فلا يوجد شيء اسمه "الجهاد في سبيله تعالى" وهو مفصولٌ عنّا كأنه أمر إلهي نزل من السماء لأجل موضوع لا علاقة لنا به، بل هو نفسه الدفاع عن أنفسنا من المعتدين، والدفاع عن أرضنا وأموالنا وكرامتنا... فهو نفسه موصوف بأنه في سبيله تعالى.

في الأدبيات المتماشية مع مفاهيم القرآن يقول البعض: الدفاع عن دينه تعالى. وعملياً هو هذا نفسه الدفاع عن تعرّضك لما يجبرك على فعل السوء، فأنت تريد تطبيق كلامه تعالى، تطبيق دينه تعالى، وليس في كلامه تعالى إلا الصلاح والخير والمنع عن الفساد والسوء، وهذه هي مصالحك.

أما إن كنت لا مشكلة لديك في انتقال السلطة إلى المخالفين لكلامه تعالى، فلن تقاتلهم، وستصير تحت حكمهم برغبتك مع علمك بأنهم لن يسمحوا لك بتطبيق دينه تعالى في مختلف شؤون حياتك... ففي هذه الحالة يصير وصف قيامك ضدّهم أنه نصرة لدينه تعالى، لأنك لا مشكلة لديك مع الكفر والشريعة الفاسدة وفقط لأجله تعالى تقاتلهم. فهل هذا شيء له معنى؟!

لست مضطراً لتبرئة نفسك من أي علاقة بأي قتال ليصير العنوان في سبيله تعالى، فيأخذ القتال عنواناً دينياً لا علاقة لك به، فهذا أصلاً غير صحيح، وأصلاً لا تطبيق عمليٌّ له إلا بتحوير الكلام والتلاعب به، فالمشكلة ليست بين الله تعالى وبين غير المسلمين وأنت تقوم بعمل ضدهم لأجله تعالى، لا، فلن تجد في كلّ القرآن كلاماً بهذا المعنى إلا إذا قطعته عن سياقه، بل المشكلة بينك وبينهم لأنك تريد تطبيق الحقّ وهو نفسه تطبيق كلامه تعالى، فتقاتلهم فقط إن عادوك وقاتلوك، سواء قاتلوك كُرْهاً بدينك وبإلهك... أو قاتلوك ظُلْماً وَعُدْوَاناً ولا يهمّهم دينك ولا إلهك.

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ{25})
أيها المعلنون أنكم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، ومن ضمنكم المتخاذلون عن الجهاد، ومن ضمنكم من هرب من الحرب، فتذكروا ما يلي:

{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ}، وحقّق لكم ما تريدونه، {فِي مَوَاطِنَ}، في أماكن ثبتت فيها حوادث، {كَثِيرَةٍ}، حيث جعلكم تعالى تغلبون أعداءكم في الكثير من الأماكن التي حصل فيها القتال، {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ}، وفي زمن المعركة التي حصلت في منطقة حنين، {إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ}، حيث كان عددكم أكثر من عدد عدوكم، وكنتم معجبين بكثرة عددكم، وكان تقييمكم لعددكم الكبير أنه حسن جيّد فظننتم أنكم بسهولة ستغلبون عدوّكم، {فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا}، إذ إن كثرة عددكم لم تنفعكم، فالذي يملك المال هو غني لأن المال سيؤمّن له ما يريده، ولكن إن كان الغني بالمال في الصحراء وجاع وليس معه طعام، فلن يغني عنه ماله شيئاً، ولن يجد طعاماً ليشتريه بماله. لذا فإن عددكم الذي يفوق عدد مقاتلي عدوّكم لن يؤمّن لكم النصر، {وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ}، فشعرتم أنها صغيرة وأنكم محاصرون! {بِمَا رَحُبَتْ}، رغم رحابة الأرض ورغم وساعتها شعرتم أن العدو أحاط بكم من كل جانب! مع أنكم أكثر منه بكثير!

{ثُمَّ وَلَّيْتُمْ}، وجّهتم حركتكم، {مُدْبِرِينَ}، فأعطيتم دبركم ظهركم للعدو، وركضتم هرباً من المعركة!

لاحظ كيف قارنت الآية بين الخسارة مع عدد كبير ضد عدو عدده أقل، حيث قارنتها كمثل وكنموذج مع من والى أهله الكفّار ومع من خشي على بيته وماله وتجارته... أن يخسرها إذا أطاعه تعالى، على أساس أنها أمور لا يريد أن يفقدها، ولا يمكن لله تعالى أن يعوّضها عليه! وتقول له الآية هنا إنه سابقاً انتصر المؤمنون في معارك كان البعض منها خاسراً بكل المقاييس البشرية، حيث كان المؤمنون عددهم قليلاً جداً، وعتادهم وتدريبهم وخبرتهم ضعيفة... ورغم ذلك انتصروا بسبب تأييده تعالى لهم، فهل سبق أن أخلصتم وخذلكم سبحانه حتى تختاروا ولاية الكفّار على ولايته تعالى؟ أم هل سبق وأخلصتم وخسرتم شيئاً ولم يعوّضه تعالى عليكم؟ وهنا في حنين، حيث لم تعتمدوا عليه تعالى واعتمدتم على كثرة عددكم، فهزمكم العدو في أول جولة وهربتم!

سنتحدث عن شيء من تاريخ معركة حنين في الآية التالية.

(ثُمَّ أَنَزلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ{26})
{ثُمَّ} بعد هربكم، {أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ}، هدوءه وأمانه، {عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ}، الحقيقيين، فلم يشعروا بالخوف ولا بالاضطراب، وعملياً ثبت القليل منهم، وعاد سريعاً آخرون إلى ساحة المعركة "من تولّيهم" بسبب المفاجأة بالكمين... {وَأَنْزَلَ} تعالى {جُنُودًا}، كائنات ملتزمة بتنفيذ أوامره تعالى، ومن عموم القرآن تعلم أنه تعالى يأمر الملائكة(ع) بمختلف أنواع الأعمال، وتلك الجنود، {لَمْ تَرَوْهَا}، لم تحصل لكم صورة محدّدة لها، حيث شاركت الملائكة(ع) في نصر المؤمنين، {وَعَذَّبَ} سبحانه {الَّذِينَ كَفَرُوا}، فسبّب سبحانه ضرراً للذين أنكروا دينه، وهم العدو الكافر الذي تواجهتم معه في منطقة حنين، {وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ}، فالتدخّل الإلهي عبر إرسال جنوده تعالى وتعذيب الكافرين على أيدي المؤمنين الحقيقيين، هو جزاء وهو المقابل المعادل لكفرهم، وهو ما يستحقه المنكرون لدينه تعالى.

لولا التدخل الإلهي لكنتم خسرتم رغم كثرة عددكم، فأطيعوه تعالى ولا تطيعوا غيره، ولا تتعلقوا بالدنيا...

من المشهور في التاريخ، أنه بعد فتح مكّة واستسلام أهلها للنبي(ع)، انتشر الخبر وخمّنت قبيلة هوازن التي في منطقة الطائف، أن النبي (ع) سيتوجّه نحوهم ليجبرهم على الإسلام... فقامت القبيلة بالمسير نحو مكة لغزوها، ووصلوا إلى وادي حنين، الذي بين مكة والطائف، وكمنوا فيه للمسلمين... علم المسلمون بقدوم جيش هوازن، فانطلقوا وانطلق معهم كل المسلمين الجدد، وكانوا كُثُراً، أكثر من عشرة آلاف "قرابة الاثني عشر ألف مقاتل"، ويبدو واضحاً من الآيات أنهم كانوا مستهترين مستخفين بالعدو، لأنهم في الحروب السابقة كانوا أقل من أعدائهم وانتصروا، والآن هم كثيرون جداً، وعدوّهم عدده قرابة الأربعة آلاف، فلا خوف من الهزيمة.

عندما وصل المسلمون إلى وادي حنين، فاجأهم الأعداء بالنبال من الكمائن المنتشرة على الجوانب، فالعدو على المرتفعات والمسلمون في الوادي... فهرب الغالبية الساحقة من المسلمين الجدد على الفور، وصمد الرسول(ع) والقلة القليلة من المؤمنين، وأخذوا ينادون الأعداد القليلة من المؤمنين الحقيقيين الذين كانوا مشتتين في الجيش الكبير حتى يتجمّعوا في مكان واحد، حتى تتشكل مجموعة قتالية... فاجتمع المؤمنون الحقيقيون القدامى والجدد حول النبي(ع)، ورجع البعض ممن هرب... وقاموا بالهجوم على الكمائن حتى انتصروا وهرب مقاتلو هوازن من أرض المعركة.

كما ترى، من دون أي معرفة تاريخية يمكنك فهم ما تقوله الآيات هنا، ومعرفتك بالتاريخ لن تزيدك إلا تفاصيل لم تر الآيات هنا أنها متماشية مع موضوع السورة، حيث إن دراسة التاريخ مهمّة لأخذ العبر، ولكن السورة هنا لا تتحدّث عن الدروس العسكرية وأخذ الاحتياطات من الكمائن... بالرغم من تضمّن كلام القرآن لآيات فيها إشاراتٌ عن هذه الأمور، فمن الاعتماد على كثرة عدد جيش الرسول(ع) استهتر المسلمون في كشف الطريق أمامهم، واستهتروا بالاستعداد للقتال في أي لحظة، واستهتروا بتقسيم القوى القتالية كخطوط مواجهة ودفاع...

(ثُمَّ يَتُوبُ اللّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{27})
{ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}، الهرب ذنب عليه عقاب الخلود في جهنّم كما تقرأ في الآية 16 من سورة الأنفال {وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}، ومن عاد من بعد الهرب ليشارك في القتال، وهنا الكلام عن نموذج حنين، وبالتحليل فمن عاد للقتال وَمَا زَالَتِ المعمعة تشير لانتصار العدو، فَسَيَعْتَبِرُ تعالى هذه الرجعة توبة، كفتح منهم لصفحة جديدة، وسيلغي سبحانه مسألة هربهم فلن يحاسبهم عليها وسيفتح لهم صفحة جديدة.

أَمَّا من هرب ثم عاد بعد تَأَكُّدِهِ من تَرَجُّحِ الكِفَّةِ للمسلمين، فهذا خائن وليس تَائِباً...

{يَتُوبُ} سبحانه، {عَلَى مَنْ يَشَاءُ}، أمامه سبحانه خيارات عديدة وَأَخْبَرَنَا أنه تعالى يتوب على المؤمنين الصادقين في توبتهم، فليست التوبة مضمونة لمن فقط تكلّم بها بلسانه، بل من داخله يجب أن يحصل قرار أكيد بأنه لن يكرر الهرب مرة ثانية، فلا تفكروا أنكم يمكنكم الهرب والتوبة بعد ذلك، لا، فالتوبة غير مضمونة القبول، وَشَاءَ الله تعالى أن يتوب على من تاب فِعْلاً، وليس على كل من قال بلسانه أَنَّهُ تاب.

مِنْ ناحية ثانية، هُنَاكَ من هرب، ثم رجع بعد رؤيته لِتَحَسُّنِ وضع المسلمين وأنهم سينتصرون، فهذا ليس تَائِباً، بل خَائِنٌ.

{وَاللَّهُ غَفُورٌ}، لا يجمد سبحانه على موقف صلب بل يسامح ولا يعاقب من تاب، فباب المسامحة الإلهية دَائِماً مفتوح.

{وَاللَّهُ ، رَحِيمٌ}، وعنده سبحانه عناية خاصة لمصلحة من آمن، وَتَتَذَكَّرُ دَائِماً أن القرآن استعمل وصفه تعالى بالرحيم عندما تكلّم عن رحمة خاصّة بالمؤمنين، فالتوبة والمغفرة وتكفير الذنوب والشفاعة ومضاعفة الحسنات... هي فقط للمؤمنين ولا يحصل عليها أَبَداً الآخرون لأنهم هم بفسقهم ونفاقهم وكفرهم اختاروا الخروج من تحت الرحمة الإلهية، فلا يحصلون على المغفرة إلا إذا آمنوا وتابوا عَنْ حَقٍّ.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{28})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الناس الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ}، الَّذِينَ جعلوا لله تعالى شركاء في الألوهية هم فقط، {نَجَسٌ}، فليس فيهم أي شيء من الطهارة، وهنا الكلام عن فكرهم وعقيدتهم وسلوكهم السيّء، فهم خَالُونَ من طهارة الإيمان، {فَلَا يَقْرَبُوا}، لَا يقتربوا ولا بأي شكل من {الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ}، من الباحة التي فيها الكعبة وزمزم والصفا والمروة التي في مكة، {بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا}، حَيْثُ بعد تبليغ هذه السورة في موسم الحجّ، لِيَكُنْ هذا آخر حجّ يأتي فيه المشركون للحجّ، ومن بعد هذا الموسم فممنوع عليهم الحجّ أو العمرة، وممنوع عليهم دخول المسجد ولو لأي سبب.

مِنَ المفروض بالحاجّ أو المعتمر لبيت الله تعالى أن يكون عمله نَابِعاً عن صلاحه، والشرك بالله تعالى هو أكبر سوء، ومعه شريعة المشركين الفاسدة، فهم نجس ولا معنى لحجّهم أو لأي عمل عبادي آخر مبني على الشرك في مكان لله تعالى.

تُلَاحِظُ استعمال الآية لكلمة عَامٍ، فلو كانت: لا يقربوا المسجد الحرام بعد سنتهم هذه، لكان معنى الجملة أنهم لا يزال أمامهم أشهر حتى تنتهي السنة وبإمكانهم خلال تلك الأشهر أن يأتوا إلى المسجد الحرام، فالسنة تقال لمجموع الِاثْنَيْ عشر شَهْراً، أمّا التعبير بمنعهم من بعد هذا العام فَيَعْنِي أنهم الآن في "العام" في عموم الاثني عشر شهرا، في شهر من السنة، فَهَا أتوا إلى المسجد هذا العام وهذه آخر مرّة.

{وَإِنْ خِفْتُمْ}، شَعَرْتُمْ أيها المسلمون بالضرر الذي لا يمكن تَجَنُّبُهُ من {عَيْلَةً}، من أعباء مصاريف وتكاليف الحياة، فَيَصِيرُ صَعْباً تأمين مصاريف إعالتكم لأنفسكم وللذين من مسؤوليتكم إعالتهم لأنكم تعتمدون على ما يشتريه الحجاج منكم خلال موسم الحج، والكلام هنا مع وعن ساكني مكّة الذين سيخسرون قسما كبيرا من زبائنهم المشركين، فلا مشكلة، {فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}، مِنْ فضله تعالى وليس فَرْضاً وَاجِباً عليه تعالى سيعطيكم أشياء تغنيكم وَتَكْفِيكُمْ لِتُؤَمِّنُوا حاجتكم، وَعَمَلِيّاً سَوْفَ يؤمن سبحانه لكم مصدر رزق يسبّب لكم الاستغناء عن زبائن الحج والعمرة المشركين، ولكن، {إِنْ شَاءَ}، أَمَامَهُ تعالى خيارات عديدة وَقَدْ لَا تستحقون أن يرزقكم لأنكم ترتكبون السوء... أَصْلاً وَأَسَاساً إغناؤكم ليس فَرْضاً وَاجِباً عليه تعالى، وَلَمْ يَعِدْكُمْ به سبحانه على كل حال ومهما كانت الظروف، وكما تعلم من عموم القرآن إِنْ كان المؤمنون يستحقون الغنى بسبب الاستغفار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... وإذا كان الغنى لن يؤثّر على إيمانهم فلن يتكبّروا أَوْ يَبْطَرُوا... فسيحصلون على الغنى بتوفيق إلهي.

{إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ}، يَعْلَمُ كل شيء، وَيَعْلَمُ تعالى متى تحتاجون للمساعدة المالية ويعلم متى تكون لكم مصلحة في غناكم...

والله {حَكِيمٌ}، فَقَرَارَاتُهُ وأفعاله سبحانه عن صَوَابِيَّةٍ في رؤية الأمور، عِنْدَمَا أمركم بمنع المشركين من الحجّ فَأَمْرُهُ تعالى كان عن حكمة وليس عن عبث، وعندما سيرزقكم تَعْوِيضاً عن الزبائن من الحجّاج المشركين فَبِحِكْمَةٍ سيرزقكم سبحانه وليس كيفما كان وفي أي حال، لا، بل حين يكون للمؤمنين مصلحة إيمانية في الحصول على الرزق.

بقي شيء، كَلِمَةُ "نجس" مع مرور الزمن صارت بين المسلمين مُصْطَلَحاً يشير إلى ما لا يجوز أكله ولا الصلاة فيه أو السجود عليه... كالدم والبول... وَانْتَبِهْ جَيِّداً، فَالْقُرْآنُ لم يستعمل هذه الكلمة إلا مرة واحدة هنا في هذه الآية، ولم يستعملها بالمعنى الذي درج فيما بعد في الكلام الفقهي، بل استعملها كما استعملها العرب القدماء فيما يشير إلى نفي الطهارة، نفي الخلو من الخبث، حَيْثُ فِيهِمْ خُبْثٌ، وهنا الكلام عن الشرك وما يتبعه من أفعال سوء مبنية على عقيدة الشرك، فَهُمْ نَجَسٌ بشركهم، والإيمان طهارة، وأي اشتقاق فقهي لحكم اعتبار لعاب أو عرق أو شعر... الكافر أنه لا يجوز الصلاة فيه لأنه "نجاسة"، وأن الكافر إذا شرب من الماء فَالْكُوبُ من بعده "نجس"... فَهَذِهِ فَتَاوَى لا يمكن استخراجها من معنى كلمات الآية ولا بأي شكل، لِأَنَّهَا أَصْلاً منعتهم من دخول المسجد الحرام لأنهم مشركون نجس، ولم تشر لا من قريب ولا من بعيد للابتعاد عمّا لمسوه بِأَيْدِيهِمُ المبللة بعرقهم أو بالماء...

مَسْأَلَةُ استهتار بعض غير المسلمين بالنظافة "من المشركين ومن أهل الكتاب..."، حَيْثُ لَا مُشْكِلَةَ عندهم من آثار البول أو الغائط على أيديهم وأوانيهم، وَهُنَاكَ الكثير من المسلمين مثلهم، والاتقاء من الأكل والشرب مما تعامل به هؤلاء تَجَنُّباً لآثار من نسميه بالنجاسات من بول وغائط ودم... في المأكل والمشرب، فَالِاتِّقَاءُ مِنْهُ شَيْءٌ، والحكم على غير المسلمين بالنجاسة "فِقْهِيّاً" شَيْءٌ آخَرُ، وَقُرْآنِيّاً لا مستند صَرِيحٌ لَهُ، لِأَنَّ آيَتَنَا هنا أصلا لا علاقة لها بالموضوع، وما ورد في الروايات هُوَ خَلِيطٌ بين نجاستهم المعنوية على المعنى الذي تذكره الآية هنا، وبين معنى استهتارهم بالقاذورات.

هُنَاكَ شيء آخر ضعه في بالك دَائِماً، لِأَنَّ الْغِنَى يختلف عن الثراء، عِنْدَمَا تملك ما تحتاجه فَأَنْتَ غَنِيٌّ، حتى لو كان ما تملكه قَلِيلاً، والدارج بيننا أنها القناعة بالقليل الذي معك، فَأَنْتَ غَنِيٌّ بالقناعة... وَهَذَا كَلَامٌ لم يقصده القرآن، لِأَنَّنَا نربط بين الزيادة الفائضة بكثرة عن حاجتنا فيما نملك مع الغنى ولا نميّزه عن الثراء.

بِعِبَارَةٍ أَبْسَطَ، حِينَ نطلب أن نكون أغنياء فَنَحْنُ نُرِيدُ أن يكون معنا الكثير من المال بشكل يزيد كَثِيراً عن حاجتنا، وَنُرِيدُ أن نكون أغنياء لدرجة الثراء، أمّا كلامه تعالى معنا فَيُشِيرُ إلى الغنى، إلى وجود ما نحتاجه معنا سواء أكان قَلِيلاً أَوْ

كَثِيراً، وَكَمِثَالٍ، الكلام هنا في الآية عن إغنائه تعالى لا يعني أن يصيروا أثرياء، هَا هُوَ الْقُرْآنُ أمامك من أوله لآخره يتحدّث عن الغنى شَامِلاً مختلف الظروف والمستويات، مَنْ يَعِشْ في الصحراء ويملك خيمة وعنزة يحلبها... فَإِنْ كَانَ هذا ما يحتاجه فَهُوَ غَنِيٌّ، ومن لديه عمل بِأَجْرٍ يكفيه ليعيش بكرامة... فَهَذَا غَنِيٌّ، ومن يطلب منه تعالى الغنى فَهَذَا هُوَ مفهوم الغنى، وَعَادَةً نَحْنُ نطلب الغنى مع أننا أغنياء! وهكذا ترى الناس معترضة عليه تعالى أنه سبحانه لا يستجيب لأدعيتهم! لأنهم يريدون الغنى الفاحش "الثراء"، وسبحانه بشكل ما يعتبر ذلك من علامات حبّ الدنيا ونسيان الآخرة...

(قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ{29})
بعد حديث السورة عن حكم التعامل مع المشركين المعادين، وحثّها المؤمنين على قتالهم، انتقلت للحديث عن التعامل مع أهل الكتاب من نوعية المنتمين فقط بِالاسْمِ لكتاب منه تعالى، فهؤلاء بعضهم كالمشركين تماما:

{قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}، فلا يعتقدون به ربا إلها أحدا، {وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ}، فلا يعتقدون بالزمن الذي سيأتي في الآخر بعد انتهاء الدنيا، لَا يَعْتَقِدُونَ بحياة بعد الموت ولا بحساب وجنة ونار، {وَلَا يُحَرِّمُونَ}، لا يمنعون، {مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ}، فهناك ما قاله تعالى عن أساسيات التَّشْرِيعَاتِ والسلوكيات، وهناك التطبيقات التي يشتقها الرسول من تلك الأساسيات، وهم لا يلتزمون لا بما قاله تعالى ولا بما قاله رسوله، فيأكلون الخنزير ويتعاملون بالربا ويحللون الزنا... {وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ}، لِأَنَّ الدِّينَ هو التبعات التي عليهم الالتزام بها، وهناك دين حقّ، وهم لا يدينون به، لَا يَعْتَبِرُونَ دين الحقّ تبعات عليهم الالتزام بها، وَيَتَّبِعُونَ شيئا مختلفا عن الحقّ والصلاح والخير، أي مختلف عمّا يقوله تعالى، وَدِينُهُ تعالى الحقّ وهم لا يدينون به، {مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، من الذين وصلهم كتاب منه سبحانه، كالذين أعطاهم سبحانه التوراة والإنجيل... فقاتلوهم... {حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ}، وَالْجَزَاءُ وَالْمُقَابِلُ على انحرافهم عن الحقّ أن يكونوا تحت سلطتكم وَبِالتَّالِي قاتلوهم حتى يدفعوا لكم ضريبة، يدفعوا مبلغا من المال تُحَدِّدُونَهُ أنتم، لِيَدْفَعُوا الجزية لكم، {عَنْ يَدٍ}، عن قوة لكم عليهم، حَيْثُ من غير المسموح أن يكون لهم قوة عسكرية أقوى منكم، {وَهُمْ صَاغِرُونَ}، "صاغر اسم فاعل من صغر، أي حجمه المادي أو المعنوي صغير"، أي يَدْفَعُونَهَا وهم على حجمهم المصغّر بالقدر والقيمة، وَكَانَتْ قيمتهم الكبيرة أنهم يدينون بدين الله تعالى، ولكن حتى لو كانوا كمجتمع يعلنون أنهم مسيحيون أو يهود ولكنهم لا يؤمنون بالله تعالى ربا واحدا ولا باليوم الآخر ولديهم دين مختلف عن دينه تعالى كما سترى من الآيات التالية... فهؤلاء لا قيمة حقيقية لانتسابهم لكتاب إلهي، وَالْأَسَاسُ ومن المفترض أن يكون لإيمانهم قيمة مساوية لقيمة إيمان المسلمين، ولكن بسبب كفرهم الحقيقي بدينه تعالى وتستّرهم تحت عنوان الانتماء لدين إلهي وهو عنوان فضفاض لمّاع، فهذا لن يجعل لهم قيمة عنده تعالى، طالما لديهم اعتقادات وأفعال مثل المشركين، فما قيل عن المشركين سينطبق عليهم.

الآيات التالية سترينا أن المتولّين للشؤون الدينية عن هذه المجتمعات المنتسبة لكتاب إلهي "رجال الدين، علماء الدين، ملك أو أمير باسم الدين كَحَامٍ للدين..." كانوا يكنزون المال المجموع باسم الدين ولا ينفقونه في سبيله تعالى، ويبدو بشكل واضح من الكلام في الآية هنا والتالية علاقة بين فرض الجزية عليهم وبين ذلك المال المكنوز عندهم باسم الدين، وبناء عليه فَجُمْلَةُ {يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} تفسّر بعضها، أَيْ يُعْطُونَ الجزية وهم تحت يد المسلمين، وهم صاغرون، وهم صغار أمام المسلمين، وَلَا يعطونها مع بقاء قوّة قتالية لهم، حَيْثُ إِنَّ الجزية كَضَرِيبَةٍ يفرضها أحد ما على الآخر، إجراء قديم جدا، وله تفسيرات عديدة، منها استغلال القوي المسيطر على الأضعف منه حتى يتمتع بخيرات مما تعب به الضعفاء، وهذا لا ترى له أَثَراً في كلامه تعالى، وبالتالي لا يكون فرضه تعالى الجزية لهذا السبب، بل لإضعاف القوّة الاقتصادية التي تمكن من بناء قوة قتالية، لِأَنَّ الجزية ليست مفروضة حتى يصير المعادون فقراء، بل حتى يصير مجتمعهم ليس فيه فائض مالي لبناء قوّة قتالية.

عموم مفاهيم القرآن ترينا أن الجزية المأخوذة من أهل الكتاب يتم إنفاقها في سبيله تعالى وليس ليكنزها الحكّام المسلمون ولا ليصرفوها على ترفهم...

ننتبه لِأَنَّ هَذَا الحكم ليس لكل أهل الكتاب بل لخصوص المشركين المنكرين للآخرة ولدينه تعالى، ويمكنك المقارنة بينهم وبين بعض مجتمعات المسلمين، الذين لا يصلّون ولا يصومون ولا يزكون ولا يتبعون شرعه تعالى... هؤلاء بقي

من إسلامهم فقط الانتساب بِالاسْمِ للقرآن ولا شيء فعلي من الدين، حيث وصفهم بأهل الكتاب مجرد وصف فارغ المعنى.

لا يذهب فكرك إلى حجم الدول فقط، حَيْثُ هُنَاكَ دول وهناك مدن وقرى لا يمارس أهلها دينه تعالى... فإن زنا الذكر افتخروا به وإن زنت البنت قتلوها... ومن جرّاء تلاسن بالكلام هم مستعدون لقتل بعضهم البعض... وفي تقسيم الميراث والأراضي والمشاعات... يستقوي القوي على الضعيف... فهذه وأمثالها من الأمور هي على مستوى المجتمعات الصغيرة وَتَكُونُ منتشرة في بلد أو يكون للبلد تشريع لا يتماشى مع الدين الإلهي...

ربما يبدو لك أَنَّ كل أهل الكتاب يجب قتالهم حتى يدفعوا الجزية لأنك تعرف أنهم كلهم منحرفون عن الدين الصحيح، ولكن هذا تقييمك أنت، أما الله تعالى فيأمرك فقط بقتال من تحققت فيهم المواصفات التي ذكرتها الآية وكانوا معادين، لِأَنَّ سِيَاقَ كلام كل السورة عن المعادين.

وبالتحليل بناء على مفاهيم القرآن فإن كان أهل الكتاب مسالمين ولا قوة عسكرية لهم، وصاروا ضمن نفوذ سلطة المسلمين، فالجزية عليهم هي المرادف للزكاة وهي الضريبة المفروضة على المسلمين. وإن كانوا معادين فالجزية عليهم تتحدّد بمقدار يمنعهم من بناء قوّة قتالية... وإن كان لديهم قوّة قتالية ومعادين، فيجب قتالهم وبعد الانتصار عليهم تُفْرَضُ عليهم جزية تمنعهم من بناء قوّة قتالية من جديد.

باختصار اَلْكَلَامُ هنا يتمحور حول معادين وقوتهم القتالية.

قبل ذلك لا ننسى، أن الكلام مع المسلمين المؤمنين الحقيقيين، الْمُعْتَقِدِينَ بشكل صحيح بدينه تعالى ويطبّقونه، فهؤلاء عليهم أمر إلهي بقتال المنحرفين المعادين من أهل الكتاب حتى يدفعوا الجزية، أَمَّا الْمُسْلِمُونَ الْمُسْتَهْتِرُونَ بدينهم من الذين لا فرق بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الكتاب المنحرفين عن دينهم، فهؤلاء "المسلمون" عليهم الاهتمام بتدينهم أولا...

نتذكّر الآيات السابقة التي لم تذكر الجزية على المشركين، حَيْثُ الْمُعَادُونَ منهم حكمهم بحسب الحالة المناسبة إمّا القتل أو الإسلام أو الاستعباد أو الفداء أو الْمَنُّ بالتسريح.

نلاحظ أن أكثر الكلام الذي في الكتب حول الجزية وفلسفة سببها، ومقدارها وكيفية دفعها... نلاحظ أَنَّ أَكْثَرَهُ بَعِيدٌ عن الآية ومن نوع محاولة التحليل المزاجي لمفردات تطبيق الكلام الإلهي. أمّا تصويبه فسهل بعد الانتباه لسياق كلام السورة الذي لم يكن عن أهل الكتاب المسالمين بل عن المعادين، ويمكن تعميم كلامها لتكون الجزية على أهل الكتاب المسالمين كبديل عن الزكاة الواجبة على المسلمين الذين يدفعونها من العفو عن طيب خاطر لدعم حكومتهم في المصاريف التي حدّدها تعالى وعوائد فوائدها عليهم، عندها لا حاجة لتسميتها بالجزية بل أيضا يمكن تسميتها زكاة من أهل الكتاب المسالمين التابعين لحكم المسلمين، لأن عوائد فوائدها تشملهم.

بقي شيء، إِنَّ الْكَلَامَ هنا ضمنا يشير إلى تثبيت قيمة للمؤمنين من أهل الكتاب، لأن الكلام عن قتال الذين لا فرق جوهري بينهم وبين المشركين في العقيدة والشريعة والسلوكيات، وهم معادون للمسلمين، أَمَّا الْمُسَالِمُونَ منهم فحتى لو كانوا مثل الكافرين في العقيدة والشريعة والسلوكيات، فحكمهم حكم التعامل مع الكافر المسالم، فلا يجوز قتالهم ولا فرض جزية عليهم إلا بما يساوي الزكاة المفروضة على المسلمين، لأنهم هم مثل المسلمين فمساكينهم يستفيدون من الزكاة...

للتوسع في كلمة دين راجع دراسة الآية 11 من هذه السورة.

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ{30})
مِنْ هنا تعرض السورة أبرز نماذج عن انحراف بعض أهل الكتاب عن أساس العقيدة التوحيدية والشريعة، وهي على رأس الأسباب التي أدّت إلى حكمه تعالى عليهم بقتال المعادين منهم... فلم يعد تعالى يعتبرهم مؤمنين حقيقيين، فأتباع هذا القرآن ليسوا على دين جديد أنزله تعالى، بل هم امتداد لدينه تعالى القديم، والذين كانوا على الدين الإلهي قديما فهم

نفسهم في نظره تعالى كالتابعين لهذا القرآن وللرسول الناقل له، والكلام عن أمره تعالى بقتال المعادين للمؤمنين بهذا القرآن، لَيْسَ محصورا بالمشركين بل حتى المنتمين بالاسم لدينه تعالى من أهل الكتاب يجب قتالهم.

بِعِبَارَةٍ أُخْرَى سبحانه لا يأمر المؤمنين بدينه بالقتال مع بعض، وسبحانه لم يعط تعليمات للمؤمنين بدينه قديما وحديثا ومتخالفة وتؤدّي إلى اقْتِتَالِهِمْ مع بعض، لا، حَيْثُ المشكلة لن تحصل لو كانوا فعلا مؤمنين حقيقيين، ولكن المشاكل ستحصل لأنهم منتمون بالاسم لدينه تعالى، فليسوا ملتزمين فعلا به، وكنموذج عن ذلك:

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ}، بعض المنتسبين لكتاب التوراة من اليهود قالوا: {عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ}.

أَشْهَرُ شخصية يهودية تحمل اسم "عزير، عزريا، عزرا" هو الشخص الذي كتب التوراة "المكتوب منها ما قبل 500 قبل الميلاد فهو من عزرا"، حيث يقولون إنَّ جميع النسخ قد أحرقت بسبب هجوم البابليين على اليهود... وقام عزرا "في أجواء الخمسمئة عام قبل الميلاد" بكتابتها من جديد اعتمادا على ذاكرته... وفي كتب التاريخ ستجد عدّة شخصيات تحمل هذا الاسم وهناك العديد من القبور في العديد من البلدان لأنبياء يحملون هذا الاسم، وعلى ما يبدو فقد اختلط على المسلمين ما ورد في الإنجيل عن إعادة النبي عيسى(ع) لميّت اسمه عزرا... مع الآيات القرآنية التي تحدّثت عن ميّت أعاده تعالى بعد مئة عام، وراجع في ذلك دراسة الآية 259 من سورة البقرة، فقالوا إِنَّهُ نفس الشخص، ولذلك تجد تخمينات في كتب التفاسير عن عزرا المذكور هنا أنه هو الذي أماته تعالى مئة عام وأنه هو نفسه اعتبره بعض اليهود ابْناً له تعالى، ولكن لا يوجد لدينا مصدر موثوق يؤكّد ذلك وهي لحدّ الآن تخمينات، وعلى ما يبدو من التاريخ أنه في زمن ما في مجتمع يهودي ما، ولسبب أو لآخر، قد اعتبروا شخصا اسمه عزير أَنَّهُ ابْنٌ له تعالى.

لِتَقْرِيبِ فكرة غموض هذا الموضوع قارنها حالة تربيب البعض للإمام الحسين ابن علي، وقارنها مع قول البعض من الناس إنه تعالى رفعه مثلما رفع النبي عيسى(ع)... فهذه ليست عقيدة مشهورة، ولكن في طيات الكتب ترى أنها كانت فعلا عقيدة لجماعة ما من الناس.

قَارِنْهَا مع الذين ألّهوا الإمام علي، وأنت تعلم أن جماعة من المسلمين اعتقدوا بذلك، ولكن لا تجد مصادر واسعة وافية عن ذلك إلا كلاما هنا وهناك كنتثرات أكثرها غير دقيق، فأمهات كتب المسلمين ليس فيها تفاصيل عن الموضوع، وشيء من الغموض يلف عقيدة العلويين التي لا يهتم بها عامة بقية المسلمين حتى يدرسوها ليذكروها في كتبهم...
ونفس الشيء حصل مع مسألة عبادة جماعة ما من اليهود في زمن ما لشخص اسمه عزير، فلا تقارنها في تصوّرك مع مسألة عبادة الكثير من المسيحيين للنبي عيسى(ع)، وتستغرب أنك لا تجد عبادة عزير في كتب اليهود أو كلامهم العام أو فيما هو مشهور عنهم، مثلما تجد تأليه أو تربيب النبي عيسى(ع) منتشر عند الكثير من المسيحيين المتدينين حاليا، لِأَنَّ النَّظْرَةَ السريعة للمصادر العامة لليهود والتي بين أيدينا مع ما تقوله الآية هنا تشيران لحالة شاذة مرّت على جماعة من اليهود ولم تنتشر، ولم يهتم علماء اليهود بالإضاءة عليها. مثل حالة تأليه الإمام علي(ع) عند المسلمين.

على أي حال الْآيَةُ هنا تريك شيئا فاقعا جدا حصل في مجتمعهم ليكون نموذجا فقط عن بقية الانحرافات العقائدية الأقل منه، وسيأتيك في الآية التالية تكملة الكلام عن نموذج آخر فاقع من الشرك وهو كثير الانتشار بينهم.

{وَقَالَتِ النَّصَارَى}، قال بعض المنتمين للجماعة الموصوفة بأنها مناصرة للنبي عيسى(ع)، بعض المسيحيين قالوا: {الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ}. وكما تعلم فالقرآن وصف النبي عيسى(ع) حصرا بصفة المسيح كما تقرأ في بضعة آيات منه الآية 45 من سورة آل عمران {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ...}، وبناء عليه فالكلام هنا عنه(ع)، ومن المشهور في ثقافة الذين سبقونا من أهل الكتاب أن المسيح صفة لمن يتم مسح رأسه بالزيت ليكون ملكا، سواء أكان نبيا أو غيره، ولسبب ما التصقت صفة المسيح بالنبي عيسى(ع) حتى صارت كالإسم له.

قَدِيماً كان المنتمون لدينه تعالى يستعملون عبارات تبجيل للنبي عيسى(ع)، وتراخوا في الكلام وغالوا في التبجيل، مِنْ أساس التراخي بالتعبير بأننا كلنا أبناء "معنويين" لله تعالى، إلى تخصيصهم النبي عيسى(ع) بالكلام كصفة بأنه ابن لله تعالى... إلى إعلان البعض تربيبهم للنبي عيسى(ع)، مستندين على أمور... وتلك الأمور قد تناولها القرآن وردّ عليها مبينا أنها ليست دليلا على شيء مما يقولونه، وفي ذلك راجع مثلا الآيات 73 وما بعدها من سورة المائدة...

مِحْوَرُ السورة هنا عن تعامل المسلمين المؤمنين مع بقية الناس، وبدأت بالكلام عن معاملة المشركين الكفّار "المعادين" من غير التابعين لكتاب إلهي، وانتقلت هنا للكلام عن المشركين من التابعين لكتاب إلهي، فحالهم كحال المشركين في هذه النقطة، حيث البعض منهم جعل له تعالى إبنا من مستوى إلهي... وتركت السورة هنا الردّ على هذه المعتقدات لأن محور كلامها وتركيزها فقط وفقط على تشريعات معاملة المسلمين المؤمنين مع الآخرين من الناس.

{ذَلِكَ}، الكلام عن نسبتهم له تعالى إبنا هو، {قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ}، بما يتفوهون به، من حيث يخرج الكلام، فقولهم هذا هو مجرد كلام ولا حقيقية واقعية له، فلا المسيح(ع) ولا عزير إبنا له تعالى، فهذه الجملة كتعليل تبريري للإجازة للمؤمنين بفرض الجزية عليهم، وطبعا اكتفت الآيات بعرض نموذج عن أبرز انحرافاتهم وإلا فمعلوم من القرآن أنهم ليسوا كلّهم ينسبون إبنا له تعالى... وفرضا فرضا كان واحد منهم فعلا ولد له تعالى، لكان الحكم عليهم بدفع الجزية ظُلْماً، ولكنه قولهم بأفواههم، فهو كلام فقط ولا يعبّر عن حقيقة، فهو مثل كلام المشركين عن آلهتهم، فهو مجرد كلام لا يعبّر عن حقيقة، ولذلك استحق المشركون ما استحقوه من أحكامه تعالى، وفي نفس المسألة تشارك معهم من أشرك من أهل الكتاب فاستحقوا ما استحقوه من أحكامه تعالى.

{يُضَاهِئُونَ}، يتساوون يشابهون، {قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ}، كلامهم مقارن مماثل مساوي لكلام الذين أنكروا التوحيد من قبل، حَيْثُ قبلهم قال أناس بوجود شركاء في الربوبية لله تعالى ولم يكونوا من أهل كتاب إلهي، وها أهل الكتاب نزل عليهم كتب إلهية تصحح هذه العقائد، ولكنهم تركوها ولحقوا ما قالته الناس قبلهم من تعدد الأرباب!

هكذا ترى أنه تعالى لا يحابي أحدا، حتى المنتمين لدينه إذا أساؤوا فسبحانه يشير إلى سوئهم ولا يستر عليه، وها ترى أن بعضهم وصل في سوئه إلى مضاهأة، إلى التساوي في التشابه مع المشركين عبّاد الأصنام والكواكب والآلهة الوهمية...

{قَاتَلَهُمُ اللَّهُ}، عاداهم وحاربهم سبحانه لدرجة إنهاء حياتهم، وكما ترى هنا فقد أمر سبحانه المؤمنين بقتالهم حتى يستسلموا وينحصر شركهم بهم ولا ينتشر... {أَنَّى}، فكيف وبأي طريقة ولأي سبب، {يُؤْفَكُونَ}، ينقلبون عن الحقيقة الصحيحة، فكيف يقولون هذه الأمور وهي بعكس الحقيقة الواقعية! لا يوجد أي منطق ولا أي سبب يجعلهم يقولون بأن لله تعالى ولد، هم لن يستفيدوا من هذه الكذبة بشيء جيّد لا في الدنيا ولا في الآخرة، فكيف يقولون ذلك ولماذا!

بقي شيء، فعلى مستوى الكتب الكنسية تجد في بعضها صراحة بنوّة المسيح(ع) له تعالى، كشبه التمام لبنوّة أي واحد منّا لولده، وهذا الكلام من نوع الكلام الشعبي وعقائد عوامّ الناس، وفي كتب أخرى تجد فلسفة لهذه العقيدة، وصولا إلى كلام عن مجازية التعبير ببنوّة المسيح (ع) له تعالى مع الإصرار على الطبيعة الإلهية للمسيح(ع)... وفي كتب أخرى من خارج الكنيسة لمفكرين مسيحيين تجد أنهم يعتبرون وصف المسيح (ع) بالبنوّة له تعالى مجرد تعابير مجازية وأننا كلنا أبناء له تعالى بالمعنى المجازي، ويعتمدون في ذلك على الترجمات المختلفة للإنجيل والتي ورد فيها مرارا وتكرارا أننا كلنا أبناء له سبحانه وبالتالي فإن جاء فيها وصف المسيح(ع) لنفسه أنه إبن لله تعالى، فهو يحمل نفس الوصف المعنوي لنا كلّنا كأبناء له تعالى... وفي بعض نسخ الإنجيل استبدال وصف المسيح(ع) لله تعالى، فبدل أن يقول :أبي. تجد ترجمة يقول فيها: سيدي. هذا يريك التساهل والتراخي والاستهتار من بعض الذين كتبوا وترجموا الأناجيل... ويكفينا هنا هذا المقدار من الكلام فراجع دراسة الآية 73 وما بعدها من سورة المائدة لمزيد من التفاصيل.

(اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ{31})
نكمل مع نماذج عن تخالف عقيدة "البعض من" أهل الكتاب مع أساس الدين الإلهي، ونكمل مع مخالفتهم للتوحيد لله تعالى كتبرير تعليلي للمؤمنين بقتالهم إن صدر من هذه النوعية من أهل الكتاب نشاط قتالي، فبسبب فساد عقيدتهم وشريعتهم سينتج الخلاف بينهم وبين المؤمنين الجدد بدينه تعالى:

{اتَّخَذُوا}، أهل الكتاب عامّة جعلوا، {أَحْبَارَهُمْ}، والحبر جمعها أحبار وهي صفة عربية لعالم الدين عند اليهود، واليهود لا يصفون عالم الدين عندهم بلغتهم العبرية بالحبر بل يقولون: رباي. ويبدو أن هذا التصريف لهذه الكلمة من الربّاني. وصفة "رباي" كانت مستعملة عند الأجيال الأولى من المسيحيين لوصف علماء الدين عندهم تقليدا بذلك

لليهود... والحبر في العربية تعني: من تعتبره وتعامله على ما تعطيه من قيمة عالية، كوصف عبد الله ابن عباس بالحبر.

وَاتَّخَذُوا، {وَرُهْبَانَهُمْ}، الأشخاص الذين ترهبنوا فأعلنوا أنهم لديهم خوف شديد من الله تعالى ويشعرون بأنهم عاجزون أمام ربّهم سبحانه، وبسبب قوّة هذا الشعور يتفرغون للتقرب إلى الله تعالى والابتعاد عن الحرام بسبب الرهبة منه تعالى، واشتهرت هذه الرهبنة عن بعض المؤمنين المسيحيين الذين تركوا كل أشغال الدنيا وتفرّغوا للعبادة... والبعض منهم كانوا فعلا رهبانا مؤمنين من الدرجة العالية، ولكن الكلام هنا ليس عن إيمان بعض الرهبان بل عن الذين اتخذوهم أربابا... فاتخذوهم، {أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ}، ففي بعض الأمور أو كلّها ترك البعض من أهل الكتاب اعتبار الله تعالى المسؤول الأحد عنهم من مستوى إلهي، وتوجّهوا بالدعاء والنذور "والعبادة" لشخصياتهم الدينية "المقدسة".

وَتَجِدُ في تاريخ أهل الكتاب قديما وفي عصرنا وبشكل منتشر في غالبية المجتمعات المسيحية، تجد تقديسا لشخص متخصّص في أمر ما، فهناك شفيع لمرضى الكلى وشفيع لمرضى القلب... وشفيع للسفر وآخر للنجاح في الدراسة... وتجد في مختلف المجتمعات المسيحية شفعاء من تراثهم مُخْتَلِفِينَ عن شفعاء من تراث مجتمع مسيحي آخر، فمثلا شفيع النجاح في التجارة عند الكاثوليك شخص آخر غير شفيع نجاح التجارة عند الأرثوذكس... وهذا هو التربيب الذي تتحدّث عنه الآية، وللأسف تجد في العديد من مجتمعات المسلمين عادات مماثلة لهذا التربيب، فهناك "قديسون" مسلمون لشفاء المرضى وآخرون لسداد الديون وغيرهم لتأمين العريس... ولديهم تعابير دارجة بينهم مثل: يشفيك فلان أو فلانة، ويحرسك فلان أو فلانه، ويرزقك فلان أو فلانة... وهذا كلّه خطأ ومخالف لما يأمر به تعالى.

{وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ}، أيضا اتخذوه ربا فاعتبروه مسؤولا عنهم من مستوى إلهي.

{وَمَا أُمِرُوا}، لَمْ يَصِلْهُمْ أوامر، {إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً}، لَمْ تَصِلْهُمْ أوامر منه تعالى ليعبدوا ليتصرّفوا على أساس أنهم مفروض منهم الطاعة إلا لإله واحد وهو صاحب الاسم المحدّد المميز الله عزّ وجلّ.

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، لا أحد لديه الصفات والقدرات الفائقة من مستوى يفوق مستوى المخلوقين إلّا هو، إلا الإله الأحد الذي أمرهم بعبادته فقط وفقط لوحده، فلا إله آخر معه، ولا نصف إله، ولا بنفحة إلهية... فقط إله واحد.

{سُبْحَانَهُ}، تنزّه، {عَمَّا يُشْرِكُونَ}، عن ما يقولونه عنه تعالى بأن لديه شركاء في الربوبية من مستوى إلهي، فهذا كلام سيّء بحقّه تعالى وهو تعالى منزّه عنه.

بِعِبَارَةٍ بَسِيطَةٍ، هم مشركون ولكن بنسخة تحمل عنوانا تابعا لدينه تعالى، فأي اعتقاد بأن مخلوقا لديه قدرات من مستوى إلهي، فيشفي من المرض بقدرة من مستوى إلهي، أو يؤمّن النجاح في السفر أو الدراسة أو التجارة... سواء اعتقد الناس أن "المقدسين" بقدرتهم الذاتية قادرون على فعل هذه الأمور، أو بقدرة إلهية ممنوحة لهم للقيام بهذه الأمور، أو أنهم شفعاء كواسطة فيطلب الناس منهم وهم بدورهم يطلبون منه تعالى... فَلَا ولا بأي شكل يسمح سبحانه بالتوجّه نحو غيره في أمور من مستوى ربوبي إلهي، ويعتبره شركا، فأنا أطلب منك مساعدتي في الدراسة لتشرح لي فأنجح في الامتحانات، وأطلب منك الكشف عليّ لمعرفة دائي ودوائي... وهذه أمور عادية ضمن القدرات البشرية المتاحة لنا، أمّا التفكير بوجود قدرة عند أي مخلوق للقيام بعمل يفوق قدرة المخلوقين على القيام به، كالشفاء من المرض بلا دواء، لأن الأدوية لم تنفع... فهذا هو نوع المشاكل التي يتوجّه فيها الناس نحوه تعالى بالدعاء، وهذا ما يقول عنه تعالى بأنه شرك به تعالى وممنوع التوجّه بالدعاء من هذا النوع نحو أي مخلوق لتحقيقه، طبعا لم ندخل في تفاصيل الأفكار البسيطة المنتشرة بين الناس، كالدعاء بالنجاح في الامتحان لمن لم يدرس أو لم يستوعب المواد الدراسية! فيدعو طالبا التدخّل الإلهي لينجح! وكمن لا يعمل مع قدرته على العمل وهو يدعو للحصول على الرزق هكذا من لا شيء بقدرة إلهية!... وكلامنا هنا حصرا عن تقديس شخصيات دينية والتوجّه إليها بالدعاء والنذور لتحقيق أمور من مستوى إلهي.

وَبِالنِّسْبَةِ لتسبيحه تعالى، فعلى ما يبدو من عموم القرآن، سبحانه يرى الصفات التي فيه فائقة جدا جدا جدا، ويرى أنه من المستحيل وجود كائن آخر لديه صفات وقدرات قريبة من صفاته تعالى، وهذا شيء نحن نعرفه منه تعالى، فهو سبحانه أخبرنا مرارا وتكرارا بذلك، وأخبرنا سبحانه صراحة أنه في كل السماوات والأرض لم يجد أي أثر ولا بأي شكل لأي شيء غير ما خلقه هو سبحانه وتعالى، ولم يجد أي أثر لأي شيء يدل على وجود كائن آخر لديه قدرات من

مستوى إلهي... هذا من جانب، والجانب الذي أريد لفت انتباهك له، أنه من كلامه تعالى عن نفسه يبدو أنه من المستحيل أن يوجد كائن آخر عنده صفة إلهية، فتسبيحه "تنزيهه" تعالى عن أي صفة ناقصة ليس المقصود منه المديح فقط، مثلما تمدحني وتقول بأني لاعب ماهر بكرة القدم، مع احتمال وجود من هو أمهر منّي، لا، بل المقصود بتسبيحه تعالى أن يكون الكلام لتوصيف حقيقة حقيقية موجودة لا تتبدل ولا تتغير وهي أنه تعالى لا يمكن ومن المستحيل أن يكون معه كائن آخر لديه صفات إلهية.

بِعِبَارَةٍ أَبْسَطَ، الملك الحاكم الفارض سلطته على الناس، كلما كانت صفاته عالية كلما كانت سلطته مطلقة وينفذّها الناس بالحرف، وإذا وجدنا شخصا لديه صفات قريبة بالقوّة من صفات الملك، فإن الملك سيكون شخصا عاديا ومن الممكن أن يوجد شخص آخر يعارضه في ملكه... فالتعبير القرآني بتسبيحه تعالى المقصود منه أنه لو كان بشكل من الأشكال يمكن أن يوجد كائن لديه صفات وقدرات فائقة من مستوى إلهي فهذا سيكون نقصا في صفاته وقدراته تعالى، فبسبب ما يراه تعالى في نفسه من قدرات وصفات فائقة جدا جدا، يرى سبحانه أنه من المستحيل أن يوجد كائن آخر لديه صفة إلهية حقيقية، فحتى لو كان لكائن ما صفة عالية جدا جدا، فهي ومن حيث يراها سبحانه وتعالى من المستحيل أن تكون قريبة من مستواه عزّ وجلّ، وستكون بعيدة جدا جدا جدا، وهذا هو ما نفهمه بعمق من كلام القرآن عن تسبيحه تعالى، وبالخصوص هنا في كلام يقارن بين الأحبار والرهبان الذين ربّبهم الناس وبينه عزّ وجلّ.

وهنا الكلام عن تربيب بعض اليهود والمسيحيين لقديسهم فهو نفسه الكلام عن اعتقاد المشركين بأربابهم، ولا شيء جديد سوى تفاصيل لا تغير من جوهر الموضوع أي شيء، ونفس الشيء ما هو دارج من تقديس بعض المسلمين لقديسهم فعند عوام الناس في جوهره هو تربيب، وعند المثقفين الذين يفلسفونه فهو في الحقيقة تربيب مع تغليف بعبارات رنانة على أساس أن هذا التغليف لا يجعل كلامهم تَرْبِيباً لقديسهم، وهو نفسه بالضبط كلام اليهود والمسيحيين وفلسفتهم عن قديسهم، ونفسه كلام المشركين عن أربابهم.

تَذَكَّرْ دائما أننا كبشر قد جعل سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرّف عليه سبحانه من ملاحظة أفعاله "آياته في خلقه" ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء... وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق بالقوّة الإلهية الفائقة عند الوقوع في الشدائد... فوضعنا كلمة نصف بها الكائن ذَا الصفات والقدرات العالية جدا عن قدراتنا، وهي كلمة "إله" كوصف لذي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلّق به عند الوقوع في الورطات...

وفي الحقيقة الكائن الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة هو الله سبحانه، وقد تساهل الناس في استعمال كلمة إله لتنطبق على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، فيطلقونها على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أن فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي...}.

والقرآن يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهي، فيقوّم اللغة ككلّ، وَيُقَوِّمُ دقة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة "إله"، فيخبرنا أنها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرّج في استعمالها.

فَالْمُشْرِكُونَ الناطقون باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... قد استعملوا كلمة إله بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

وَقَارِنْهَا مع كلمة "ربّ"، فأنا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... فهذه كلمة تتحمّل التدرّج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهي، فهي لا تتحمّل التدرّج، فهي حصرا له تعالى ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهي.

فكلمة إله في حقيقة معناها لا تتحمّل التدرج لينوصف بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، فحين يخبرك أنه خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، وسبحانه وظّف الملائكة(ع) التي خلقها لتنفيذ بعض أوامره... وهكذا ترى بوضوح أنه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، فماذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها

بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدّد له والمميّز "الله" جلّ جلاله قد فعل كل شيء، فما معنى ألوهية غيره! وهذا ملخّص مبسّط للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

وَأَلْفِتُ انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، فحصروا استعمال كلمة إله للإله الكبير، واستعملوا للآخرين وصف الربّ، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربّة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون: إله المطر وإله الحرب... وعلى كل حال القرآن رفض توصيف غيره تعالى بالألوهية والربوبية من مستوى إلهي، فالمشركون يعتقدون بوجود كائن "ربّ" مسيطر على المطر من مستوى إلهي وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم أنه توصيف لألوهية أربابهم.

وَمِنْ ناحية ثانية لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، فيصير الهوى إلها كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ...}، فهي لا تشير لاعتقاد الشخص بأن هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لدين فيه ما يهواه، فعمليا هو يعبد هواه.

وبِالنِّسْبَةِ لأصل كلمة "الله"، هناك كلام كثير حولها، ويبدو من تتبّع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حاليا بالسامية... أن الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة "إله" ومنها جرى اشتقاق إسم العلم "الله"، وهذا الاسم لم يكن متداولا في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط فللآخرين نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، فكلمة إله واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات ما يسمّى بأصل اللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة الله من وصف الإله ومتى، فهل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قديما عبر الوحي، فالأرجح عندي "استذواقا" أنه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك "استذواقا" لأن المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين بلا مستند صريح لتأكيد كلام ما، فهو بطبيعته يصير استذواقيا لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا ذات نفسي في سياق كلام آخر قد استذوق أنه تعالى هو سمّى نفسه، فليس من المعقول ولا من المقبول منك أن تطلب حسما من الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دليلا حاسما، ولا مقبول من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنه الصحّ إلا اللهم إن قدّم دليلا دامغا، وهذا لا يبدو ممكنا في مسألتنا هذه.

(يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ{32})
باتخاذهم لأرباب جعلوهم شركاء في الربوبية من مستوى إلهي لله عزّ وجلّ:

{يُرِيدُونَ}، يقصدون ورغبتهم، {أَنْ يُطْفِئُوا}، يُخْمِدُوا وَيُنْهُوا، {نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ}، بما يتفوّهون به، بكلامهم من فمهم والذي هو مجرد كلام ولا يعبّر عن أي واقع، فَالنُّورُ الإلهي، أَيْ مَا يَنْكَشِفُ ويظهر ويكون مَنْسُوباً له تعالى، من كلام عن صفاته تعالى، وكلام عن عقيدة وشريعة صادرة عنه تعالى، عن أفعاله تعالى ورحمته وعنايته... ويقابله الظلام من الكفر والشرك والشريعة الفاسدة التي يخترعها الناس، ويقابلها تربيب وتقديس الناس لشخصيات ينذرون لها ويدعون لها تاركين نوره عزّ وجلّ... وَبِكَلَامِهِمْ يريدون أن يسود الظلام ويذهب النور الإلهي، هَا هُوَ القرآن أَمَامَكَ وَاضِحٌ صَرِيحٌ، فأين المشكلة في الاعتقاد به تعالى إِلَهاً أَحَداً رَبّاً، ولماذا إدخال القديسين على الموضوع؟ نُورُهُ تعالى متاح فلماذا محاولة إِطْفَائِهِ عبر إقحام القديسين في شؤون إلهية؟!

{وَيَأْبَى اللَّهُ}، ويرفض سبحانه بشدّة، {إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ}، لِيَصِلَ ما يسبّب الانكشاف إلى تمامه بلا فترات انقطاع، حَيْثُ لَا يقبل سبحانه بنجاح مشروع هؤلاء واختفاء الحقيقة، لا، لن تختفي الحقيقة وستبقى ظاهرة، {وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}، حتى لو كان ذلك لا يتماشى ولا يريده أن يحصل المنكرون لدينه تعالى، وهنا وصف الكافرين صار وَاسِعاً شَامِلاً لكل من عبد أو ربّب غيره تعالى حتى لو كان من المنتمين لكتاب إلهي، ومن ضمنهم نحن المنتمون للقرآن.

سَنَرَى من الآية التالية كيف يتمّ سبحانه نوره.

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ{33})
كيف أتمّ الله تعالى نوره:

{هُوَ}، الله تعالى، {الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ}، وظّف محمدا(ع) لينقل شيئا منه تعالى إلى الناس فأرسله، {بِالْهُدَى}، بالشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {وَدِينِ الْحَقِّ}، وأرسله بالشيء الصواب الذي يجب أن يعتبره الناس كتبعات عليهم فيسيرون عليه، {لِيُظْهِرَهُ}، ليجعل سبحانه الدين الصحيح مسيطرا منتصرا، {عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}، على كل ما كانت تدين به الناس، على كل ما كانت الناس تعتبره كتبعات عليهم. فدين الحقّ ظاهر أي أقوى ومسنود "بِالْحُجَّةِ الواضحة" على بقية الأديان.

{وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}، فسيظهر وسيكون قويا دينه تعالى حتى لو تعارض ذلك مع رغبة الذين جعلوا له تعالى شركاء في الألوهية، فهؤلاء مصرّون على اختراع دين "عقيدة وشريعة وسلوكيات" كتبعات عليهم الالتزام بها، وهي من هواهم الفاسد ويحاربون دينه تعالى.

كُلُّ كلام باطل قاله الناس، من غير المنتمين لكتب منه تعالى أو من المنتمين لكتاب منه تعالى، قَامَ الدين الذي حمله الرسول محمد(ع) بالردّ عليه وتوضيح الحقّ حتى ظهر فكان مدعوما بقوة بِالْحُجَّةِ التي تبيّن فساد بقية الأديان.

مَنْ قرأ القرآن وهو الرسالة الَّتِي أرسلها تعالى عبر رسوله محمّد(ع)، فسيجد ردودا وإجابات وتصحيحات للعقائد والتشريعات والسلوكيات، وسيجد عرضا مفصلا للعقيدة والشريعة والسلوكيات الصحيحة، فالقرآن ظاهر "مسنود بقوة الحجّة والأدلة.." على كل العقائد والأديان، أمّا انتشار الدين الإسلامي بين الناس فلا علاقة له بما تتحدث عنه الآية، حَيْثُ يُمْكِنُ أن لا ينتشر دينه تعالى بين الناس، ويمكن أن ينتشر دين "إسلامي" محرّف... فظهور دينه تعالى على معنى القوّة التي فيه والمستندة لقوة أدلته فلا علاقة لها بإيمان الناس به أو معارضته... فأكثرهم كافرون فاسقون... ولكن القرآن واضح الصحّة ويمكن دائما الرجوع إليه لمعرفة الصحّ من الخطأ.

إِذَنْ نحن أمام تعليل تبريري لأمره تعالى للمؤمنين الحقيقيين بقتال المشركين المعادين، وقتال أهل الكتاب المعادين، وأرتنا نماذج عن انحرافهم عن دينه تعالى لنفهم أنهم لو كانوا مستقيمين على دينه تعالى فأصلا لا فرق بينهم وبين المؤمنين بهذا القرآن من حيث المبدأ...

لَوْ لم يرسل سبحانه رسولا مع رسالة فيها توضيح للحقّ، لكان بشكل ما ظُلْماً عِقَابُ أهل الكتاب لأن كتبهم وتراثهم الديني الذي وصلهم كان تراكمات من تحريفات، وهم اتبعوه، ويظنون أنهم على دينه تَعَالَى، ويعلمون أن العديد من الأمور في دينهم لم يعد واضحا فيها الحقّ من الباطل بسبب كثرة الاختلافات بينهم... هَا هُوَ عبر هذا القرآن جاءهم منه تعالى الحقّ والهدى، فمن لم يتغيّر منهم إلى الطريق المستقيم، وكان معاديا للمؤمنين، فهناك إذن إلهي للمؤمنين بقتاله وأخذ الجزية منه.

علينا أن نرى الموضوع بالشمولية التي تتحدّث عنها الآيات، فسبحانه ناظر فيها إلى كون بعض أهل الكتاب يعتبرون المؤمنين بهذا القرآن أنهم مخالفون لدينهم، مع ادعائنا نحن الْمُسْلِمِينَ بأننا على دينهم، وأن القرآن هو الصحيح في مقابل كل ما لديهم من تراث ديني... وفي نظرهم سَحَبْنَا منهم الإله عزّ وجل واتخذناه إلها لنا، وسحبنا منهم الأنبياء وقلنا بأننا نؤمن بهم وَتَابِعُونَ لهم... وقلنا عن دينهم أنه باطل بسبب التحريف... وفي المقابل فهم لديهم في تراثهم مثل ما لدينا عن قتال وأخذ للجزية من الذين دينهم منحرف... وهكذا ترى معنى آيتنا هنا بكلامها عن الحقّ والهدى، وترى معنى الكلام السابق عن تربيبهم لأحبارهم ورهبانهم، فمن الواضح أنهم هم فسدوا ولم يعودوا مؤهلين لقتال أي أحد تحت اسم الدفاع عن الدين الإلهي، بل صار واجبا على المؤمنين الحقيقيين وضع حدّ لهم، وهذا ما تقوله الفقرة هنا...

لِلتَّوَسُّعِ في معنى كلمة دين راجع دراسة الآية 11 من هذه السورة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ{34})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الأشخاص الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين الإلهي، خذوا علما بما يلي وانتبهوا:

{إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ}، والحبر جمعها أحبار وهي صفة عربية لعالم الدين عند اليهود، واليهود لا يصفون عالم الدين عندهم بلغتهم العبرية بالحبر بل يقولون: رباي. ويبدو أن هذا التصريف لهذه الكلمة من الربّاني. وصفة "رباي" كانت مستعملة عند الأجيال الأولى من المسيحيين لوصف علماء الدين عندهم تقليدا بذلك لليهود... والحبر في العربية تعني: من تعتبره وتعامله على ما تعطيه من قيمة عالية، كوصف عبد الله ابن عباس بالحبر.

وكثير من {وَالرُّهْبَانِ}، جمع راهب، وهي اسم فاعل معناها الخوف مع الشعور بالعجز عن دفع الخطر، وصارت صفة لمن ترك التعلق بشهوات الدنيا وترك الحرام وتفرّغ للعبادة... ويوصف بها بعض رجال الدين عند المسيحيين، وهم من تقصدهم الآية، فكثير من الأحبار والرهبان، {لَيَأْكُلُونَ}، يستهلكون يأخذون وَيَسْتَعْمِلُونَ، {أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ}، بالفساد بالطرق غير الصحيحة، فَيَأْخُذُونَهَا منهم عبر الفتاوى المنحرفة، وعبر الزكاة والصدقات والنذورات... التي يَأْخُذُونَهَا لأنفسهم ولا يَصْرِفُونَهَا مثلما أمر تعالى، أو عبر خداع الناس بجمع التبرعات لصرفها على الدين أو على المحتاجين، أو عبر التصرف في الأوقاف الدينية، أو عبر بيع قطع أرض وبيوت في الجنة، أو عبر إعطاء شهادات مسامحة وغفران دائمة... ومشهور في تراث المسيحيين أنهم يبنون الكنيسة ويتركون شيئا حساسا ناقصا بداخلها "وعادة يتركون ما يسمّونه بالمذبح" وهكذا يستمرون بجمع التبرعات من الناس... وهذه الأموال المجموعة من العناوين المتنوّعة يقوم الأحبار والرهبان باستعمالها لأغراضهم الشخصية، فطريقة أخذ الأموال من الناس باسمه تعالى فاسدة وطريقة التصرّف بها فاسدة أيضا.

{وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، فمن يرد سلوك الطريق الإلهي فإن الكثير من الرهبان والأحبار يمنعونه من سلوكه، فيجعلون الناس تسير على مسالك أخرى غير الطريق الإلهي، على مسالك مخالفة لدينه تعالى عقائديا وتشريعيا وسلوكيا، فأي مسيحي أو يهودي يقول كلام حقّ معارض لفساد الدين المنتشر بين قومه، فأوّل من يسكته وَيَتَصَدَّى لَهُ ويهينه ويتهمه بالكفر وينبذه... هم الأحبار والرهبان كنموذج عن بقية ألقاب علماء الدين عند أهل الكتاب.

والأحبار والرهبان مع غيرهم من المتولين لمواقع المسؤولية عن الناس باسم الدين الإلهي، وغيرهم من الأثرياء المنتسبين لكتاب إلهي: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ}، يجمعون ويراكمون ولا يصرفون، {الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ}، وهذان المعدنان بما لهما من قيمة ماديّة فهما من أبرز نماذج تكديس ما يحتاجه الناس لصرفه على حاجاتهم، وجمعهما ناتج من التبرعات والصدقات والأوقاف... أو ناتج من الأعمال والتجارة... فيجمعونها وهم لا ينوون صرفها، بحيث تتكدس في الخزائن، {وَلَا يُنْفِقُونَهَا}، لا يصرفونها، {فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، فلا ينفقونها فيما يأمر به تعالى ويرضاه كصرفها على الفقراء والمحتاجين ومشاريع الخير... لا، بل يخزنونها ويخبئونها! {فَبَشِّرْهُمْ}، فأوصل إليهم الخبر، {بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}، بشيء يصيبهم بالضرر ويكون أليما فلا يمكنهم تحمّله أو الاعتياد عليه.

صِفَةُ وموقع ومكانة هؤلاء الأشخاص أنهم منتمون لكتاب إلهي، من علماء دين "رهبان وأحبار" أو من أثرياء منتسبين لكتاب إلهي، فهم يعيشون حالة الاعتقاد بأن آخرتهم إلى الجنّة، فبدل البشارة لهم بالجنّة، فبدل نقل الخبر السارّ لهم عن دخول الجنّة، بشّرهم وانقل لهم الخبر بالعذاب، فهم يتوقعون منه تعالى خبرا سارّا لأنهم منتمون لكتاب إلهي، فلتصلهم البشارة التي يتوقعونها ولكن بالعذاب الأليم.

نلاحظ في الكتب استعمالا للآية هنا لتدل على وجوب صرف المال في سبيل الله تعالى وحرمة كنزها، وننتبه، فإذا كان المال مَجْمُوعاً بِاسْمِ الدين، من زكاة أو تبرعات... فيحرم كنزه، ويجب صرفه في سبيل الله تعالى، وإن كان مالا شخصيا، فبعد دفع زكاته فيمكن كنزه، طبعا بشرط أن لا يكون هناك من يحتاج للمساعدة، وأن لا يكون هناك أمور عامّة يحتاجها الناس بشدّة... فما نعرفه من الآيات الكثيرة جدا في القرآن، فإن دفع الزكاة المفروضة لا يلغي الواجب علينا بمساعدة المحتاجين، بل دائما يجب مساعدة المحتاجين حتى لو كنا قد دفعنا الزكاة، ومن لم يساعد المحتاجين فقد كنز ماله وسينال عقابه. أمّا إن لم يكن هناك عنوان ضروري للإنفاق عليه في سبيله تعالى، فلا حرمة في كنز المال، ونصير تحت عنوان آخر وهو عنوان الإنفاق أيضا في سبيله تعالى على عناوين ليست واجبة ولكن فيها أجر وثواب منه تعالى، كأي عمل يجعل حياة الناس أسهل وأيسر...

لَاحِظِ الْآيَةَ هنا بشكل ما تعلّل وتبرّر أخذ الجزية من أهل الكتاب المنحرفين عن الدين القويم، فالمسؤولون الدينيون يكنزون المال أو يستهلكونها بالفساد، وأثرياؤهم يكنزون المال ولا ينفقون منه في سبيله تعالى، فالجزية ليست ضريبة للضرر بفقراء أهل الكتاب، بل موجّهة للكانزين للمال كما يبدو لك هنا.

وكما ترى في عموم القرآن أنّه لم يميّز بين مسلم فقير وفقير من أهل الكتاب، فكلاهما يجب مساعدتهما من المال الذي تجمعه الحكومة الاسلامية من مصادر مختلفة، والجزية مصدر من مصادر ذلك المال المجموع في بيت المال، فلا معنى لفرض جزية على فقير من أهل الكتاب وهو أصلا فقير، وهو محروم من المال لأن رجال الدين في مجتمعه يأكلون المال... والأثرياء في مجتمعه قد كنزوا المال... وهكذا ترى أن الجزية في جانب منها قد فرضها تعالى عليهم لإجبارهم على التوقّف عن استهلاك أموال الناس بالباطل، وتوقفهم عن كنزه والامتناع عن صرفه في سبيله تعالى في الضروريات.

ولا تَنْسَ أن ممارسات غالبية حكّام المسلمين من علماء دين أو رؤساء وقادة ونافذين... قديما وحديثا، لا تختلف عمّا تقوله الآية هنا عن المنتسبين لكتاب إلهي من اليهود والنصارى وغيرهم، فقد أخذوا المال من الناس باسم الدين وأكلوه بالفساد! وكنزوا المال لأنفسهم!

ولو أطلت عليك، فسنعود إلى مفهوم إظهار الدين، فالآية هنا تطرح عقلانية متماشية بسلاسة مع العقل الذي منحه تعالى لنا، فهي من نماذج إظهار دين الحقّ، وكما ترى فالناس لم يطبّقوها، وهذا لا يعني أن الدين غير ظاهر، غير قوي، لا، فَآيَتُنَا هنا أمامك ويفهمها أي عقلاني ويرى قوّتها وصلابة الحقّ فيها، وهذا هو الدين الظاهر، الدين القوي، ولا يهمّ ما تفعله الناس، ولا يهم لو كلّهم كفروا، فتاريخنا كمسلمين لم يختلف كثيرا عن تاريخ من سبقنا من أهل الكتاب، حيث نرى العديد من علماء الدين المسلمين يصدون عن سبيله تعالى عبر عقائد وفتاوى باطلة فاسدة، ويتهمون بالضلال بل وبالكفر كل ما خالف عقيدتهم وشريعتهم وسلوكياتهم المخالفة للقرآن... والكثير من علماء المسلمين يأكلون أموال الناس بالباطل، فيعيشون في ترف! ويكنزونها لأولادهم! فيرث أولادهم ما انجمع في بيوت أموال المسلمين... وترى أثرياء المسلمين يكنزون الأموال وهم يرون من حولهم فقراء معدمين من المسلمين! فبشّرهم بعذاب أليم.

بقي شيء، ففي الآيات السابقة من أول السورة قد لفتنا الانتباه لكلامها عن ربط الصلاة بالزكاة كعملين من أبرز ما يجعلنا مسلمين ملتزمين، وهنا ترى الكلام عن الأموال التي يتم جمعها وصرفها بطرق فاسدة، فنلتفت لاهتمامه تعالى بما يمسّ حياتنا كلّنا، فهؤلاء أثرياء لا يزكّون وآخرون حاملون لصفة تمثيل دينه تعالى كعلماء دين أو "كرجال" دين، بينما هم محرّفون للزكاة التي فرضها تعالى!...

وتعليق أخير من فحوى الآية، فهناك نقاش فقهي حول وجوب الزكاة على الأموال الورقية أو الالكترونية المتداولة في عصرنا، وقد أفتى البعض بأن المال الذي يجب فيه الزكاة هو فقط المال المعدني من الذهب والفضة، وأمّا الأموال الورقية فهي ليست أموالا حقيقية لأنها مجرد ورقة لا قيمة لها... فالزكاة في القرآن والروايات تكلّمت عن العملة المعدنية فقط... وللأسف فهذا الكلام لا يزال له جمهور عريض من الفقهاء، ونسأل كيف ينفون صفة المال والرزق والخير... عن العملة الورقية، وهم أنفسهم لا مال آخر لديهم سواها للتعامل بها كمال! ولو فرضا كان هناك أناس يعتبرون النحاس والألومنيوم عُمْلَةً مَعْدِنِيَّةً، فهم يفتون بأنه لا زكاة عليها لأنها ليست من الذهب والفضّة! علما أن القرآن أصلا لم يقيّد زكاة الأموال من الذهب والفضّة، ونفس المشكلة متكررة في زكاة الغلّات الأربع "حنطة شعير زبيب تمر" التي حدّدتها أكثر الروايات أنها فقط ما يجب فيه الزكاة، ولم يتوسّعوا عن تضييق دينه تعالى بمجتمع الرسول(ع)، فالمجتمعات التي تعتمد في حياتها على الأرز والذرة قد استثنوهم من وجوب الزكاة!

هذا هو نوع الفتاوى التي تربط دينه تعالى بثقافة وعادات فترة تاريخية من حياة العرب، بدلا من تركه عامّا شاملا فيه المرونة التي طرحها القرآن لكل المجتمعات المختلفة، وكلامنا هذا عن كلامهم سيجابه بالصدّ والمعارضة، فليكن نموذجا لك عن صدّ البعض منهم عن سبيله تعالى.

(يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ{35})

العذاب الأليم:

{يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا}، في الزمن الذي فيه يتم تسخين كنوز الذهب والفضة، {فَتُكْوَى بِهَا}، فتصير كمكواة الدمغة والعلامة على الجلد، كمكواة مُعَالَجَةِ الجروح العميقة لإغلاق النزيف، وهنا المقصود كيّ الجلد لتسبيب الألم بِإِحْرَاقِ، {جِبَاهُهُمْ}، ما بين جبينهم، المنطقة التي فوق أعينهم وتحت شعر رأسهم، فيتم لصق تلك المعادن وهي حامية على جبهتهم، ويكوى بها، {جُنُوبُهُمْ}، جنبيهم اليمين والشمال، وعلى {ظُهُورُهُمْ}، فكيفما تقلّبوا يطالهم الكي "الحرق بتلامس المعادن الحامية" دَائِماً على جلدهم.

هَذَا نموذج عن تعذيبهم بما كنزوه، فمن كنز مَالاً وَرَقِيّاً، أو عُمْلَةً رَقْمِيَّةً، لا يختلف تعذيبه عمّن كنز ذَهَباً أو فِضَّةً أو أَلْمَاساً... لِأَنَّ الْآيَةَ أَصْلاً لا تقصد أن نفس الذهب والفضّة التي كنزها سيتم استعمالها لكيّه بها، حَيْثُ مَنْ مات منذ زمن بعيد وذابت فضّته وذهبه وامتلكها الْآخَرُونَ... وكنزوها... فَيَوْمَ القيامة لن يتم إحضار ما كنزوه، بل سَتَتَحَوَّلُ قيمة ما كنزوه إلى سيئات، وتزيد سيئاتهم كلما كان هناك محتاجون أكثر انحرموا من ذلك المال المكنوز، حَيْثُ إِنَّ قِيمَةَ سيئاتهم بقيمة الضرر الناتج عن كنزهم، ولهذا النوع من الذنب عذاب مخصّص، وَيَتِمُّ تحويل سيئات كنز المال إلى عذاب بكيّ جلودهم.

يُمْكِنُكَ مقارنتها بالعكس مع الصدقة بِتُفَّاحَةٍ على فقير، فالحسنة عنده تعالى على هذه التُّفَّاحَةِ لن تكون بعشر تُفَّاحَاتٍ ولا بصناديق تُفَّاحٍ ولا ببستان تُفَّاحٍ... بل بأمور مختلفة رائعة في الجنّة، وكذلك بالعكس عذاب كنز المال، لِذَلِكَ لَا دَاعِيَ لأن يكون التعذيب بنفس المال المكنوز بل بعذاب مخصّص يجعل الكانز يشعر في كلّ لحظة بأنه يتعذّب بما فعله هو من كنز للمال الذي حرم المحتاجين منه، وهذا هو المقصود من تعذيبهم بما كنزوه.

{هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ}، هذا الكي بالنار هو ما خبأتم وخزّنتم واحتفظتم به لأنفسكم، وَبِالْعَكْسِ مَنْ أنفق في سبيله تعالى فسيجد ما أنفقه حسنات يتم ترجمتها عَمَلِيّاً إلى قصور وحدائق...

{فَذُوقُوا}، فتحسسوا واشعروا بِـ، {مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ}، وَهَذَا خبر عبر هذا القرآن لكل الكانزين للمال الْحَارِمِينَ منه الْمُحْتَاجِينَ، حَيْثُ فِي الآخرة سيشعر الكانزون في كلّ لحظة بأن العذاب الذي هم فيه سببه كنزهم للمال.

لَا تَنْسَ أننا نَحْنُ الْمُسْلِمِينَ لسنا في الأمان من الكيّ بما نكنز، لِأَنَّ هَذَا الكلام مع أهل الكتاب موجّه لنا أَيْضاً، وَنَحْنُ أهل كتاب وإن فعلنا "وقد فعلنا" ما فعلوا، فسيطالنا ما سيصيبهم.

انتهت السورة من ذكر أسباب قتال وأخذ الجزية من بعض أهل الكتاب الذين حرّفوا دينهم وفعلوا مثلما يفعل المشركون الفاسدون، فَلَمْ تَعُدْ لهم قيمة الانتماء لدينه تعالى... وَهَا هِيَ ترجع لبعض الأمور التي ذكرتها سَابِقاً والتي تحتاج لتعليل تبريري نفهم منه سببها:

(إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ{36})
تَحَدَّثَتِ السورة في بدايتها عن مهلة الأربعة أشهر للبراءة من العهود، وعن حرمة القتال في الأشهر الحرام... فما قصتها؟:

{إِنَّ عِدَّةَ}، عدد تعداد، {الشُّهُورِ}، الظهور للقمر "في نفس الطور"، حَيْثُ إِنَّ الْأَشْهَرَ القمرية تَبْدَأُ من ظهور الهلال وتنتهي باختفاء الهلال، وعددها، {اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ}، حَيْثُ إِنَّهَا مسجلة في الكتاب الرئيسي هكذا: 12 شهرا. {يَوْمَ خَلَقَ}، من الزمن الذي ركّب ألّف الله تعالى، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وَبَعْدَمَا تركبت السماوات والأرض من المواد، كَانَ التصميم الإلهي أن يدور القمر حول الأرض ويظهر بأحجامه المختلفة اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مرة، وَهَذَا ليس شيئا حصل بالصدفة أو لوحده من دون تخطيط إلهي.

{مِنْهَا}، من تلك الأشهر تحدّد، {أَرْبَعَةٌ}، أشهر، {حُرُمٌ}، ممنوع فيه شيء وهو القتال، وهي مشهورة جدا: شهر رجب، وَبَعْدَهُ على التوالي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم، ثلاثة أشهر متتابعات. {ذَلِكَ}، التحريم للقتال في هذه الأشهر الأربعة، هو {الدِّينُ الْقَيِّمُ}، ذلك شيء تدينون به وَتَعْتَقِدُونَ أن الالتزام به تبعات عليكم لكونكم مخلوقين وخالقكم أمر

بحرمتها، وهو دين قيّم وَيُوصَفُ بأنه على الأحسن، وَهَذَا التحريم للقتال فيها هو شيء حسن تدينون به، وَبِأَمْرٍ إلهي هي فترة إجبارية لتوقّف أنشطة القتال فيها، وبالتالي يتحاور فيها المتحاربون حتى يصلوا إلى حلّ سلمي.

تَذَكَّرْ دائما أن العرب حين نزول القرآن لم يستعملوا كلمة "قيّم قيمة..." بالمعنى الصريح الذي نقصده الآن عن تقدير عال أو منخفض للشيء، بل على معنى الذي يوصف بأنه أحسن، وهكذا استعملها القرآن، ومن مشتقات هذا المعنى أنه لا انحراف فيه، أنه جيّد، وبتعبيرنا الْحَالِيّ: له قيمة عالية.

{فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ}، في تلك الأشهر، {أَنْفُسَكُمْ}، حَيْثُ إِنَّ الْحَقَّ والإنصاف أن تلتزموا بأمره تعالى وتتوقّفوا عن القتال في تلك الأشهر ومن الظلم لأنفسكم مخالفة أمره تعالى والقتال فيهنّ، كما نقول: ظلمني حَيْثُ لَيْسَ معه حق حين فعل معي كذا... وَقَتْلُنَا لبعضنا البعض في أشهر حرّم فيها سبحانه القتال هو ظلم هو عمل ليس معنا حقّ في فعله.

إِذَنِ الْأَشْهَرُ الحرام ليست من التراث العربي، وليست من اختراع البشر، بل هي حكم إلهي قديم، وكان القرار الإلهي بحرمة الاقتتال في هذه الأشهر متضمنا في المخطط الأساسي حين خلق الله تعالى السماوات والأرض وحين صمّم دورة القمر حول الأرض، وحين صمّم سبحانه اختلاف أطوار القمر من هلال وربع وبدر...

{وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ}، قوموا بإنهاء حياة الذين يقولون بأنه تعالى لديه شركاء في الألوهية، {كَافَّةً}: كلهم بدون استثناء. لَا يوجد مشركون يحرم قتالهم مثلما يوجد أشهر يحرم القتال فيها، لا، لِذَلِكَ عَلَيْكُمْ قتال كل المشركين، {كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً}، لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ لا يميّزون بينكم، وَكُلُّ المؤمنين أعداء لهم، وَيُقَاتِلُونَكُمْ كلكم حين يَكُونُونَ أقوى منكم عسكريا أو اقتصاديا... وَبِالنِّسْبَةِ للتوقيت، يُوجَدُ أزمنة يحرم القتال فيها طبعا إذا التزم الطرف الآخر بحرمة القتال فيها كما تقرأ في الآية 217 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ...}، وفي الآية 194 من نفس السورة {الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ...}، وعلى أي حال هَذَا لا يغيّر أي شيء بالنسبة لحكم قتال المشركين، وَلَا يوجد نوع من المشركين يحرم قتالهم وسياق الكلام أنه حتى لو كان لديهم هم مواقيت حرم للقتال مختلفة عن الأشهر الحرم التي حدّدها تعالى، فمواقيتهم لا قيمة لها، وهذا ما ستقوله الآية التالية.

انْتَبِهْ دائما أن كلام السورة عن مشركين ظهرت منهم المعاداة.

{وَاعْلَمُوا}، أيها المسلمون، {أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}، مع الذين يتجنبون، وعمليا هم يتجنبون فعل السوء وهو نفسه يؤدي إلى تجنّب غضبه وعقابه سبحانه فلا يعصون أوامره، وعمليا سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أي سينصرهم، فلن يفوت المتقين أي شيء إن التزموا بحرمة القتال في الأشهر الحرم، يَخْطُرُ ببال المؤمنين أن العدو سيستغلّ هذه الفترة ليستعدّ ويستعيد قوّته... وَهَذَا لن يحصل إن كنتم متقين لِأَنَّ اللَّهَ تعالى معكم، ومن ضمن تقواه تعالى استعداد المؤمنين الدائم لكل الاحتمالات.

نُلَاحِظُ وجود توقيت زمني للأشهر يعتمد على دوران الأرض دورة كاملة حول الشمس في سنة يتم تقسيمها لأشهر اعتمادا على الاعتدال الربيعي والخريفي... وتوقيت آخر يعتمد على دورة القمر حول الأرض، وهناك استفادة من التوقيت الشمسي لمعرفة الفصول الأربعة ولمعرفة بعض مواقيت فيضانات الأنهار... والآية هنا لا تقصد اعتبار التقويم القمري أفضل من الشمسي، وَلَا مَعْنَى لهذا التفضيل، لِأَنَّهُمَا مجرد ظواهر طبيعية، وكلاهما من تصميمه تعالى، ولكن تقصد الآية تنبيهنا أن الأشهر الحرام ليست من اختراع العرب، والأشهر القمرية ليست من اختراع البشر أصلا، بل هي حصلت من تخطيط إلهي لتكون بهذا الشكل الذي تعرّفنا عليه بسهولة من تغيّر أطوار القمر.

لَا يُوجَدُ أي تأثير لتحديدنا لبداية السنة القمرية، وَمِنَ المتعارف عليه أن السنة القمرية تم تحديد بدايتها في زمن الخليفة الثاني ليكون شهر محرم، ويقولون في الكتب أنهم تماشوا بهذا التحديد مع ما كان يعتمده العرب قبل الاسلام... ولكن على أي حال لَا اعْتِبَارَ ديني لأي شهر نعتمده كبداية للسنة، وَلَا شَيْءَ ديني ولا حياتي سيتغيّر من اعتماد أي شهر...

(إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ{37})
{إِنَّمَا النَّسِيءُ}، وهنا الكلام عن تناسي الأشهر الحرام، تأجيلها والتلاعب بتوقيتها، هو {زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ}، شيء إضافي في إنكار الدين الإلهي. فالمشركون كانوا يبدؤون بالحرب، ويأتي شهر حرام، فيقولون: سنكمل القتال في هذا

الشهر، وسنعتبر شهراً آخر غيره حراماً، على أساس أنه لن يتغير أي شيء فالأشهر الحرام ستبقى أربعة. وتقول الآية عنهم إنّهم كانوا يعرفون أنّ تحريم تلك الأشهر المحدّدة بالاسم مِنَ اللهِ تعالى، وكانوا مشركين بالله تعالى وزيادة في الكفر تركوا الالتزام بالأشهر الحرام.

{يُضَلُّ بِهِ}، يضيع بهذه النسيئة**،** بهذا التناسي والتأجيل للأشهر الحرام، يضيع بهذا التلاعب، {الَّذِينَ كَفَرُوا}، فهذا عمل ضلال غير مقبول يقوم به الكفّار، فالهدى هو الالتزام بها بالتحديد والضلال هو التلاعب بتحديدها واعتبار أي شهر آخر حراماً بدل الذي تناسوا أنّه حرام.

{يُحِلُّونَهُ عَامًا}، حيث خلال العام، خلال مسمّى الاثني عشر شهراً، يقولون عن الشهر الحرام إنّه حلال القتال فيه، فلا يُعَدُّ حراماً، فلنقل أحلّوه في العام ألفين، وهو العام الذي يريدون القتال فيه، و**{يُحَرِّمُونَهُ عَامًا}**، ففي عام آخر "2001" يقولون عن نفس الشهر إنّ القتال حرام فيه، يعني يتلاعبون به، فمرّةً حرامٌ ومرّةً حلالٌ، {لِيُوَاطِئُوا}، لتكون الوطأة مكان الوطأة، ليتناسب التغيّر الذي أجروه، مع {عِدَّةَ}، مع عدد الأشهر، {مَا حَرَّمَ اللَّهُ}، القتال فيها. فيتلاعبون بالأشهر الحرام ولكن يحافظون على "عدّة عدد" أربعة أشهر حرامٍ في كل عام، فلنقل إنّهم في هذا العام ألغوا حرمة شهر رجب، وجعلوا شعبان بدله حراماً، فبقيت الأشهر أربعة حُرُمٍ، وفي العام القادم يرجع رجب كما كان حراماً، ويلغون الحرمة عن شعبان، وبذلك، يحلّون ما حرم الله تعالى! فيجعلون الحرام حلالاً.

يقاتلون في الشهر الحرام ويقولون سوف نعتبر هذا الشهر حلالاً استثنائياً، ولكنه بالتأكيد حرام ولن نقاتل فيه في السنة القادمة.

{زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ}، فهذا التلاعب بحرام معلومة حرمته تمّ تزيينه، تجميله، تحسينه لهم حتى يبدو عملاً جيداً لا سوء فيه، فصاروا يرونه عملاً حسناً!

{وَاللَّهُ لَا يَهْدِي}، لا يضع على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {الْقَوْمَ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع كلامه، {الْكَافِرِينَ}، المنكرين، فالكفر وإنكار الدين الإلهي أعم من إنكار توحيده تعالى، وها نحن أمام زيادة في الكفر، ونحن أمام معرفتهم بشيء حرّمه تعالى وهم يتلاعبون به**،** وهؤلاء بهذه العقلية لن يصلوا أبداً إلى غاية صحيحة، فلن يصلوا إلى مرضاته تعالى والجنّة بل نهايتهم إلى النار.

ربطاً مع الآية السابقة فلا حرمة إلا للأشهر الحُرُمِ، فلا قيمة حرمة للشهر الذي غيّره الكافرون، فقاتلوهم كافّة حتى في الشهر الذي هم يعتبرونه حراماً، طبعاً إن لم يكن من الأشهر التي حدّدها تعالى حراماً.

نلاحظ ما تقوله الآية عن التغيرات التي أجراها بعض العرب للأشهر الحرم أنّه تلاعب منهم بتشريع إلهي، فربما يخطر ببالنا أنهم هم اخترعوا الأشهر الحرم، بدليل أنّهم يتلاعبون بها ليغيّروها على مزاجهم، وتقول الآية: لا، فهي أشهر معلومة ثابتة حرّم سبحانه القتال فيها وبعض العرب تلاعبوا أحيانا بها، ومن ناحية ثانية، تنبهنا الآية حتى لا نتلاعب نحن بها.

رغم أسفنا على حروب المسلمين مع بعضهم البعض، وفوق ذلك فهم لا يحترمون الأشهر الحرام! وكما ترى من الآيات فإن الاقتتال فيها حرام أصلاً! ناهيك عن حرمة الاقتتال بين المسلمين!

بقي شيء، هنا وهناك تجد كلاماً يستخدمون فيه آيتنا هنا ليقولوا إنّ نظام الأشهر القمريّة المتحرّك عن نظام الأشهر الشمسيّة، فيه نظر شرعي، فشهر رمضان ثابت في النظام الشهري القمري، ولكنه متحرك بالنسبة للنظام الشهري الشمسي، فيأتي في آذار، وبعدها يتحرك ليصير في شباط وهكذا... فقالوا إنّ هذا غير صحيح وإنّ الأشهر القمرية كانت ثابتة بالنسبة للأشهر الشمسية، فشهر رمضان يأتي دائما في نفس الشهر من السنة الشمسية، فلنقل إنّه دائماً يأتي في تموز. ولديهم أقوال استوحوها من بعض المرويات، مع تحليلات...

لن أطيل عليك هنا بذكر ما قالوه كتفسير لآيتنا هنا، فها هو معنى آيتنا هنا أمامك واضح ولا علاقة له بتاتاً بما يقولونه، وراجع دراسة الآيات التي ذكروها وفسّروها بأمور غريبة عن النسيئة... فواضح أنّها لا تناسب ما قالوه، فالشهر القمري متحرك بالنسبة للشهر الشمسي.

مِنْ كلامهم تفهم أنّهم لديهم دوافع يرونها عقلانية لهذا الكلام، وبالعموم فهم متأثرون بثبات الأشهر الشمسية مع الفصول "تغيّر المناخ"، ولسبب أو لآخر منزعجون من اعتماد دينه تعالى على الأشهر القمرية المتغيرة بالنسبة لفصول السنة... ووجدوا هنا وهناك كلاماً قديماً يشير لشيء ما، فالشهر القمري المسمّى بربيع الأول، لا معنى لتسميته حين ينتقل ويصير في فصل الشتاء أو الصيف أو الخريف، وهكذا قرروا البحث عن تثبيت شهر ربيع الأول القمري ليبقى في مكانه في فصل الربيع وكان لديهم اقتراحات مختلفة لذلك...

لكن أيضاً بدراسة سريعة لأقوال العرب قديماً، تجد أنّهم كان لديهم تسميات أخرى لنفس الأشهر القمرية، وكانوا يعلمون بتحرّكها بالنسبة لفصول السنة، فكانوا يعتمدون على ما يسمّى بالأنواء لتحديد الفصول بدلاً من الاعتماد على الأشهر القمرية، والأنواء هي النجوم في السماء التي تتغير أماكنها بالنسبة لوقت الغروب والشروق... مع تغيّر الفصول...
فمثلاً سترى برج العقرب أول الغروب قريباً من جهة شروق الشمس، وبعده بأيام فعند الغروب ستراه صار أقرب لجهة مغيب الشمس، وهكذا في كل غروب سترى موقعه يتغيّر...

طبعاً دخل في موضوع الأنواء خرافات وكلام فارغ سُمّي فيما بعد بالتنجيم على معنى تأثير النجوم على المناخ وعلى البشر وعلى مجريات الأمور، وأنت تعلم أنّ النجوم لا تأثير لها على شيء من ذلك، فتحرّك كوكب الأرض حول الشمس بزاوية ميلان لمحور الأرض، مضاف إليه هامش يقارب عشرة ملايين كيلومتر تقترب وتبتعد فيها الأرض عن الشمس أثناء دورانها حولها، هو ما يسبّب تغيّر أماكن النجوم بالنسبة لأوقات الليل، فمرّةً ترى نجمة ما في فترة المغرب قرب نقطة غروب الشمس وبعد أشهر تراها قرب نقطة شروق الشمس...

بالمختصر، الكلام الذي حاولوا الاعتماد عليه لتثبيت الأشهر القمرية بالنسبة لفصول السنة، ليس له أساس، لا من كلام القرآن، وها هي أمامك دراستنا هذه فراجعها لترى الآيات التي قالوا إنّها تدعم قولهم... ولا من التاريخ المشهور للناس.

فاتهم ما فات غيرهم، فأي كلام مروي من تاريخ قديم، قيمته بقيمة صحّته وليست صحّته ثابتة لأنه كلام قديم، فإنّ أحداً ما قديماً قال كلاماً يشير لثبات الأشهر القمرية بالنسبة لفصول السنة، فكلامه لا يختلف في قيمته عن كلام من يسأل أمّه متى ولدته فتقول له: ولدتك ومزاريب السطح كانت تجري فيها مياه الشتاء. فمشكلة افتراض الأهلية العلمية بكل الأقدمين، هي مشكلة آثارها منعكسة على مختلف العلوم، وأخطرها الكلام الذي له مساس بدينه تعالى، فلا زال الكثيرون عالقين في زمن غابر، يبحثون في التاريخ عن إجابات لأسئلة من عصرهم، تاركين كلامه تعالى، ويأخذون بأي كلام آخر طالما هو قديم! متجاهلين ومتعامين عن حقيقة أنّ نقل كلام قديم عن أحد ما لا يعطي موثوقية للكلام، فماذا عن التنجيم؟ والطالع والفال والحظ وعلم الأحرف "حساب الجمل"؟

في ذلك الزمان كان القليل منهم يعرفون بالأنواء الفصلية، وأعتقد أنّه ولا واحد من العرب في عصر نزول القرآن كان لديه علم بميلان محور الأرض وأنّه مع ابتعادها واقترابها من الشمس تتسبّب الفصول... فهذا شيء كان يعلمه القلّة النادرة من العلماء مع تعديل لتثبيت الأرض واعتبار الشمس تدور حولها... والأكثرية الساحقة من عموم الناس كانت تؤمن بتسطّح الأرض...

كلامهم ما هو إلا انعكاس لمستوى ثقافتهم، ويعرّفك على ثقافتهم، لا أكثر ولا أقل، وبناء عليه، شيوع تسمية أشهر قمرية باسم الفصول، كتسمية شهرين بالربيع... ما هو إلا انعكاس لثقافة العوام التي في زمن ما سمّت تلك الأشهر مع جهلها بتغيّرها... أو انتقالاً من أسماء لأشهر شمسية واستعمالها بدل القمرية... ومعلوم أنّ غالبية الناس تقبل هذا النوع من التراخي في التعامل مع الأمور، فيفرضون على الآخرين ما قبلوه لأنهم الأكثرية... ويستمر ليصير موروثاً من شبه المستحيل تغييره...

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ{38})
انتهينا من آفات المجتمع الإنساني من مشركين ومنتمين للدين الإلهي متلاعبين به، وانتهينا من التنبيه على تشريع حرمة القتال في الأشهر الحرم في دينه تعالى... وننتقل لآفات داخل المجتمع المسلم:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنّهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ}، لماذا إذا قال لكم الله تعالى أو رسوله(ع) أو القائد...: {انْفِرُوا}، اتركوا مساكنكم وانطلقوا، {فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، في مسلك يأمر به تعالى أو يرضى عنه، والكلام هنا عن القتال لا لغايات شخصية سيئة مالية واجتماعية ورئاسية... بل لأهداف يرضى الله تعالى عنها وهي نفسها مصلحتكم لأمور الخير والصلاح، فلماذا إذا جاء أمر القتال، {اثَّاقَلْتُمْ}، شعرتم بالثقل الذي يجعلكم تثبتون، {إِلَى الْأَرْضِ}، التي أنتم فيها، فلم يكن عندكم همّة ولا عزم للنهوض والسير، بل لصقتم في أماكنكم ولم تتحركوا للقتال!

تتذكّر أنّ السورة جاء فيها أمر بإعلان العداوة على نطاق واسع لكل المشركين المعادين وللذين ليس بينهم وبين المسلمين عهد محترم، وهذا معناه أنّه من بعد سماع المسلمين لهذه السورة فإنّ القتال صار جزءاً من حياتهم بشكل أكبر مما كان ومضافاً له توسيع دائرة الأعداء... ومن المسلمين من كان نظره ضيّقاً ويتصوّر الإسلام كدين محصور بمجتمعه الضيّق، فنحن مسلمون، وصار لنا منطقة نحكمها، والآخرون نقيم معهم الاتفاقيات السلمية... وانتهى الموضوع. لا، فقد تناولت السورة أبرز نقاط أسباب أمره تعالى لكم بالجهاد، فسبحانه وتعالى أعلم منكم، وتفكيركم بشكل سلمي اتجاه الآخرين لن يجعل الآخرين مسالمين، فها هو تاريخ البشرية أمامك من أوله لآخره، ولن تجد فيه قوماً أو أمّةً أو قريةً أو بلداً أو مجموعة من الناس كعصابة... وجدوا في أنفسهم قوّة عسكرية تفوق قوّة جيرانهم ولم يستخدموها، فهذا الخطر دائماً متوافر للجميع، ومن ناحية ثانية سبحانه يأمركم بنشر دينه وإطفاء الكفر حتى لا يصير قوياً وفي النهاية يحكمكم، وبالقوّة العسكرية لكسر شوكة الآخرين المعادين تأمنون منهم، فحتى لو لم يُسْلِمْ أهل الكتاب المعادون، فليكونوا بلا قوّة عسكرية عبر فرض الجزية...

{أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ}؟ هل عبّرتم عن قبولكم بمحبّة، وهل أعجبتكم الحياة الدنيا لهذه الدرجة وصرتم تفضلونها على الحياة التي في الآخرة؟ لأنّ الأجر على الجهاد عظيم جداً جداً، فهل تركتم أجر الآخرة خوفاً من الموت فتثاقلتم عن القتال وتعلقتم بما هو موجود في الدنيا من شهوات خفيفة قليلة زائلة؟

{فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، إنّما ما تتمتعون به في الدنيا، وما تستفيدون به لإشباع شهواتكم وحاجاتكم هنا في الدنيا، إذا تمت مقارنته بما، {فِي الْآخِرَةِ}، في جنتها، {إِلَّا قَلِيلٌ}، فالمتاع في الدنيا كله قليل بالنسبة لما هو موجود في الآخرة.

نلاحظ القرآن يصف ما في الدنيا بأنّه متاع، ولا يصف ما في الآخرة بأنّه متاع، وهذه إشارة للفرق بين ما نجده في الدنيا من استفادة لسد حاجاتنا ورغباتنا، أمّا ما في الآخرة فهو ليس لسدّ الحاجة بل حصراً للسعادة والفرح، مثلاً لا تأكل لتسدّ جوعك بل تأكل لتستلذّ بالطعم الطيّب، ولن تشعر بأي انزعاج أو ضرر إذا أكلت كميات كبيرة جداً جداً...

ها رغّبتكم الآيات بالوعد الإلهي للمجاهدين بمتاع الجنة الخالدة، والآن جاء التهديد والوعيد:

(إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {39})
{إِلَّا تَنْفِرُوا}، إذا لم تتركوا أماكنكم وتنطلقوا، وهنا الكلام عن الانطلاق لقتال المعادين، {يُعَذِّبْكُمْ} تعالى {عَذَابًا أَلِيمًا}، يصيبكم بضرر سيكون مؤلماً لا يمكن تحمله، فهناك عقاب شديد في الآخرة للذين لا يقاتلون في سبيله تعالى مع ضرورة مشاركتهم... {وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ}، يأتي سبحانه بدلاً منكم بأناس لهم كيان الجماعة، وسياق الكلام يشير إلى تبديل المتثاقلين عن الجهاد بأناس غير متثاقلين حين يأتيهم أمرٌ بالقتال، مثلما استبدل سبحانه من كان قبلنا من أهل الكتاب بالمسلمين عندما لم يطيعوا كلامه سبحانه.

{وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا}، فلا يتضرر سبحانه منكم بأي شيء، لا على نفسه ولا على ملكه، فلن يتغيّر الحال الإلهي للأسوأ بسببكم، لأنّ الخروج للقتال لا ينتفع تعالى منه، ولا يتضرر إذا لم تقاتلوا، ولا يتضرر سبحانه إن تركتم طاعته من أصله، ولا يتضرر سبحانه إن ترككم، ولا تشكّلون له تعالى أي خسارة ولا ينقص ملكه ولا يتأثّر...

{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، حيث يقدر أن يفعل أي شيء يريده بأي شيء، ويمكنه سبحانه استبدالكم بأناس آخرين يطيعونه ويهتم بهم، فأنتم الخاسرون وليس هو تعالى.

لاحظ جيداً وانتبه لتعابير الآية المتعارضة مع الكثير من أدبياتنا عن القتال في سبيله تعالى، حيث في بعضها كلام عن الدفاع عن توحيده تعالى وعن دينه، وتأكيدٌ على أن القتال في سبيله تعالى لأجله تعالى، ونفي لأي مصلحة لنا فيه،

ويقصدون بذلك أننا إذا قاتلنا لأجل مصلحة دنيوية لنا وحتى لو لم نكن معتدين، وإن كان هذا سبب القتال فيقولون إنّه ليس قتالاً في سبيله تعالى! وتراهم يجعلون القتال في سبيله تعالى كشيء لا علاقة لنا به ولا مصلحة، بينما لا يوجد أصلاً حالة صادقة من ذلك المفهوم.

لو كان الآخرون مسالمين، فمهما كان دينهم فممنوع التعرّض لهم بأي نوع من الأذى، وإن كان الآخرون معادين مقاتلين للمسلمين بغياً واعتداءً، ولم يكن المسلمون ظالمين والآخرون يدافعون عن أنفسهم، وفي هذه الحالة يجب مقاتلتهم، وهكذا ترى بوضوح وصراحة أنّه لا يوجد حالة سماح بقتال الآخرين لمجرد أنّهم مختلفون عنك في الدين، ولا سماح إلهي بقتال لسبب الاختلاف في الدين مهما كان الدين، وإنما فقط وفقط وحصراً يسمح ويأمر تعالى بقتال الذين اعتدوا علينا، وقتالهم شيء يرضى عنه تعالى ولذلك يسمّيه قتالاً في سبيله، وهذا الوصف يتضمّن أنّنا نحن لسنا المعتدين على الآخرين، وأنّ لدينا حقوقاً اغتصبها الآخرون ونريد استرجاعها.

لو كان صحيحاً القتال في سبيله تعالى لا علاقة لنا به، فمن المفروض أن يتضرّر سبحانه إن لم نقاتل، وإلا فما معنى الأمر بالقتال!؟

من ناحية ثانية تلاحظ أنّ القيمة العالية لنا عنده تعالى مشروطة بأفعالنا التي تسبب لنا قيمة عالية عنده تعالى، إذ إنّ الانتماء بالاسم لدينه تعالى ليس له أي ميزة، وكثرة الجماهير المنتمية لدينه تعالى بدون إيمان وعمل صالح، كلّهم لا قيمة لهم عنده سبحانه، لأنّه ليس بحاجة لجماهير ولا لمنتمين لدينه...

بالنسبة للعذاب الذي سيصيبنا إن لم نقاتل في سبيله تعالى فمعلوم أنّه ذنبٌ وعليه عقاب في الآخرة، أمّا ما سينتج في الدنيا عن التخاذل وانتصار الأعداء سواءً بقتل أو جرح أو أسر أو سلب خيرات المسلمين... أو فرض السيطرة على المسلمين، فهذا عذاب بأيدي الكافرين، لكنّ الآية لم تقصده، لأنّ هذا عذاب بما كسبت أيدي الناس وليس عذاباً مباشراً منه تعالى على فعل سيّئ...

(إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{40}(

{إِلَّا تَنْصُرُوهُ}، إذا لم تنصروا النبي(ع) في قتال الأعداء فلم تحاربوا معه لتحقيق ما يريده من عدوّه، {فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ}، حيث حقّق سبحانه للنبي(ع) ما يريده من عدوّه، {إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا}، فالذين أنكروا الدين الإلهي أخرجوا النبي(ع) من مكة.

كما تعلم في بداية الدعوة وقبل أن يصير مع النبي(ع) قوّة من المقاتلين... حاول مشركو مكّة قتله (ع) في بيته، وعلم بذلك فبات الإمام علي مكانه، وخرج الرسول(ع) وظن المتربصون به أنَّ علياً خرج وأنَّ الرسول (ع) صار وحده في البيت... وهكذا خرج الرسول متخفّياً من مكّة... باتجاه مدينة يثرب، ويقولون إنّه (ع) سلك طريقاً طويلاً لا يسلكه المسافرون عادة، وذلك حتى لا يجده الكفّار الذين يلاحقونه لقتله... وقرّر (ع) الاختباء لمدة أيّام في مغارة صغيرة جدا، حتى يفقد الكفّار الأمل من إيجاده وبعدها انطلق إلى مدينة يثرب...

كان النبي(ع)، {ثَانِيَ اثْنَيْنِ}، حيث كان مع شخص واحد آخر ولم يكن ثاني ثلاثة أو أربعة أو أكثر، ومن المشهور في التاريخ أنّه (ع) كان معه أبو بكر، {إِذْ هُمَا}، النبي(ع) وأبو بكر، في الغار، في مغارة صغيرة، في تجويف صخري صغير، {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ}، لأبي بكر الذي رافقه، {لَا تَحْزَنْ}، لا تشعر بالانزعاج من داخلك لأنّ الأمور تبدو سيّئةً غيرَ متوافقة مع ما نريد، {إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا}، مع رسوله ومع المسلمين ومع دينه، وعمليّاً هذا يعني أنّه تعالى لن يتركنا وسينصرنا بالرغم من كل ما نراه من ظروف معاكسة لما نريده.

ننتبه، فجملة "إنّ الله معنا" نفهمها من الوعود الكثيرة التي في القرآن للنبي(ع) بأنّه في المستقبل سينتصر وأنّ الكفر سينهزم، وأبو بكر واحد من المسلمين ويرى الحالة المزرية التي هم فيها من الضعف وملاحقة الكفار للمسلمين لقتلهم، وإصرارهم على قتل النبي(ع) علناً بعدما فشلت محاولة اغتياله في منزله ليلاً حين بات علي مكانه... وحديث النبي(ع) لأبي بكر يدل على أنّ الشخص الذي كان مرافقاً له كان حزيناً لأنّه متأكّدٌ من فشل الهروب من مكة بسبب الجائزة

الكبيرة التي حدّدها كفار مكة لمن يقتل النبي(ع)، والتي عَلِمَا بها من بنت أبي بكر التي كانت توصل لهما الطعام سرّاً... وبقيا مختبئَيْنِ في الغار لمدّة ثلاثة أيام حتى خفّت دوريات الكفّار، وبعدها انطلقا إلى مدينة يثرب...

بعبارة أخرى، إذا لم تنفروا للجهاد مع النبي(ع)، فلا مشكلة، تذكّروا حين كان النبي(ع) هارباً من كفار مكة بعدما أحاطوا بمنزله وأرادوا قتله، وتسلّل (ع) منه ليلاً... إذ كان (ع) مع شخص آخر لوحدهما مختبئَيْنِ في جوف مغارة صغيرة، "يقولون إنّ اسمها غار ثور"، وكان الكفّار يبحثون عن النبي(ع) ولم يكن معه أي قوّة عسكرية للدفاع عنه، فكان معه فقط شخص واحد "أبو بكر" ومشهور أنّ أبا بكر لا يجيد القتال أصلاً... وأصلاً لم يكن لديه (ع) أتباع لديهم القدرة للدفاع عنه ونصرته ليحضرهم معه ليحموه...

الآن إن لم تنصروه (ع) من بعدما أمركم سبحانه بقتال كل المشركين المعادين... قديماً نصره تعالى وفي حادثة نموذج عن أسوأ الظروف حيث كان معه (ع) شخص واحد حزين غير قادر على فعل أي شيء نهائياً... وهما مختبئان في غار... {فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ}، هدوءه وطمأنينته، {عَلَيْهِ}، على النبي(ع)، ولم يخف ولم يضطرب، رغم أنّه بلا أي حماية من البشر ومرافقه الوحيد "حزين" فهو يعلم أنّ الكفّار الذين يبحثون عنهما لو وجدوهما لقتلوهما... {وَأَيَّدَهُ}، وسانده دعمه تعالى، {بِجُنُودٍ}، بكائنات ملتزمة بتنفيذ ما يأمرها به تعالى، حيث عادةً ينصرف ذهننا للملائكة(ع) فعادة القرآن يتحدّث عنها بتوظيفه تعالى لها في مهمّاتٍ... {لَمْ تَرَوْهَا}، حيث لم يحصل لديكم صورة محدّدة لها، ولكن أثرها موجود إذ تدخّلت "بطريقة ما" وأبعدت الكفار عن النبي(ع).

يقولون في التاريخ إنّ الكفّار وقفوا على باب الغار الذي فيه النبي(ع) وصاحبه، ولم يدخلوه بسبب معرفتهم بوجود ثعابين سامّة فيه... ويقولون إنّه من بعدما دخل(ع) مع صاحبه إلى الغار إنّ عنكبوتاً نسجت بيتاً على باب الغار وأنّ حمامةً كانت على الباب في عشّها تحضن بيوضها... فظنّ الكفّار أنّ الغار لم يدخله أحد... على أي حال، تخبرنا الآية هنا أنّ تدخّلاً إلهيّاً حصل، وانصرف الكفّار عن الغار ذاهبين باتجاه آخر للبحث عن الرسول(ع)...

وإن صدق ما رووه عن بيت العنكبوت والحمامة، فهذا يريك أنّ فعلاً بسيطاً دمّر كيداً كبيراً بحجم استنفار جماعي لمكّة لقتل رسول الإله... بعدما كان الكفّار على بعد قرابة المترين من الرسول(ع)، لأنّ الغار تجويف صغير وليس مغارة، فإنّ تدخّلاً بسيطاً منه تعالى غيّر اتجاه الكفّار عن رسول(ع).

{وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى}، فهم قالوا بأنّهم سيقتلون النبي(ع) ويطفئون دينه، حيث جعل الله تعالى كلامهم مغلوباً أسفل كلامه، {وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا}، أعلى من كلمة الكفّار، فهي الغالبة وفوق كلمة الكفار.

نلاحظ أنّ هذه الآيات نزلت بعد تسع سنين من بعد حادثة الهرب والاختباء في الغار، وكان وضع المسلمين ممتازاً عسكريّاً حين نزلت هذه السورة، حيث كانوا مسيطرين على قسم لا بأس به من الجزيرة العربية. تريد الآية هنا لفت انتباهنا لبداية الإسلام الضعيفة جداً جداً لدرجة هرب النبي(ع) واختبائه في غار... ومقارنةً هذا مع الحالة القوية التي صار عليها المسلمون حين أمرهم تعالى بالبراءة من العهود مع الكفّار المعادين، إن لم تنصروا الله تعالى فلا مشكلة، لأنّ لديه تعالى الكثير من الحلول لنشر دينه، وأحدها أن يستبدلكم بأناس آخرين أفضل منكم لنشر دينه.

{وَاللَّهُ عَزِيزٌ}، منفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... يفرض ما يريده على الآخرين ولا يمكن لأي أحد أن يفرض عليه تعالى أي شيء، وقرّر تعالى أن ينصر نبيّه(ع)، وقرّر الكفار أن يقتلوا النبي(ع)، وبعزّته سبحانه تحققت كلمته ولم تتحقق كلمة الكفار، وإن أنتم "الآن" لم تنصروا رسوله(ع) فبِعِدَّةِ طرقٍ يمكن للعزيز أن ينصر رسوله(ع).

و**{حَكِيمٌ}**، حيث يرى الصوابية في الأمور ولا يتصرف عن عبث، بل يفعل الحقّ الصحيح دائماً، وبتعبيراتنا المتساهل فيها نقول إنّه سبحانه يتصرّف عن أهداف وغايات سامية، وهذا ليس وصفاً صحيحاً لأفعاله تعالى لأنّه سبحانه لا معنى للغايات والأهداف عنده، وعلى أي حال قرارُه تعالى بنصر نبيه(ع) كان قراراً حقّاً صائباً.

تذكّروا أيها المسلمون حين كان النبي(ع) مطارداً مهدّداً بالقتل ولا أحد يدافع عنه، مختبئاً في غار... وحتى الذي معه في الغار كان مضطرباً ولا يشعر بالأمان، لأنّه يعلم أنّ الكفار يطاردونهما وإن وجدوهما فسيقتلانهما... إذ كان

النبي(ع) في موقف ضعيف جداً جداً، في أقصى ما يمكن تصوره من الضعف، وبلا بصيص للنجاة من الكفّار، ولا شكل لأي قوّة عسكرية للمؤمنين... ورغم ذلك، تدخّل سبحانه فأرسل جنوداً غير مرئيين وقاموا بتضليل الكفار عن النبي(ع)... ونجا النبي(ع) ووصل إلى مدينة يثرب... والآن حين صرتم منصورين ومعكم قوّة وأتاكم عبر هذه السورة أمر بالبراءة من العهود مع الكفّار، فهل ستتخاذلون؟!

بقي شيء، هناك نقاش طائفي مذهبي حول عموم هذه السورة، والبداية مع الجدال العقيم حول نزولها وأمر النبي(ع) لأبي بكر بتبليغها للناس في موسم الحج في مكّة، وانطلاق أبي بكر من المدينة باتجاه مكّة... وبعدها بعث النبي (ع) بالإمام علي خلف أبي بكر ليقول له بأن تبليغ الآيات صار موكولاً إلى الإمام علي... والجدل حول أهمية الإمام علي أكثر من أبي بكر... بعدها جدال عقيم حول أهمية أبي بكر لأنّ الآية هنا أشارت إليه... وكما ترى، هذا جدال مذهبي طائفي بامتياز، بالنسبة لي ولك، ما معنى الاعتقاد بأفضلية الإمام علي على أبي بكر؟! أو الاعتقاد بأنّهما متساويان في الفضل؟! أو الاعتقاد بأنّ أبا بكر أفضل؟! نعم هناك أمر إلهي بموالاة المؤمنين، ويصرّ فريق من المسلمين أنّ الولاية تكون لأفضل الأشخاص دينياً وفكرياً وشجاعةً... وهذا يجب أن يكون القائد للمسلمين، ولكن بغضّ النظر عن التاريخ القديم، عن زمن الإمام علي وأبي بكر، لأنّ هذا شيء من التاريخ، مِنْ بعدهم وإلى زماننا هناك من تصدّى للقيادة، ويؤيّده الأتباع، وتصير له السلطة... ومن النادر جداً جداً أن نجد في التاريخ أحداً ما رأى شخصاً آخر أنسب منه فتنحّى عن السلطة له! وهم أنفسهم القائلون بأحقية الإمام علي بالخلافة بدل أبي بكر، وبالتالي برأيهم كان يجب على أبي بكر التنحّي ومبايعة علي، وهم أنفسهم لا يتنحّون عن مناصبهم لمن هو أفضل منهم؟! ودائماً يرون أنفسهم أفضل من الآخرين؟! ولن تتغيّر نفسيتهم تلك حتى لو كانوا في زمن علي ولديهم منصب، فلن يعطوه لعلي...

والبعض منهم من المدّعين لولاية علي بينما هم يوالون ظَلَمَةً ومجرمين من رؤساء عشائر ورؤساء قبائل وزعماء وسياسيين... وعلماء دين فاسدين! فهم يقدّسون عليّاً ويذمّون الكثير من الآخرين ممن كانوا في زمنه، وهذا ليس سوى رأي تاريخي لا يقدّم ولا يؤخّر في حسابهم عنده تعالى على وجوب ولاية المؤمنين في عصرهم وزمن حياتهم...

وفي المقلب الآخر قدّس فريق من المسلمين كل من رأى الرسول(ع)! وجعلوهم كلّهم بمستوى واحد من الفضل والقيمة وأهلية القيادة والحكم والفتوى... متجاهلين آيات قرآنية بالعشرات تصرّح بوجود العديد من المنافقين بين من صحب الرسول (ع)، والكثير من المسلمين تاريخيّاً وعلى المستوى النظري تراخى في صفات من يجب موالاته وأوجبوا حتى موالاة وطاعة الفاسق المتولّي لشؤون المسلمين!

طبعاً لا كلّ هؤلاء ولا كل أولئك متشابهون، فهناك البعض من السنّة والشيعة الذين نظريّاً وعمليّاً رفضوا موالاة الظالمين، ولكن للأسف الأكثرية منهم عبر التاريخ عمليّاً كانوا خلف أي ناعق للرئاسة عليهم، فاسقاً أو فاجراً أو مجرماً، بل والمزاج العام لكل فرقة يفضل ترئيس المجرمين الذين سيفتكون بالفرق الأخرى من المسلمين!

للأسف، إنّ العقول السخيفة تهوى هكذا نزاعات تسبّب الخلاف والاختلاف بين المسلمين، وهم يعلمون أنّهم لا يحسنون صنعاً، فيخالفون قرآناً مشحوناً بالآيات التي تأمرهم بالوحدة والتمسّك بحبله تعالى ونبذ الفرقة... ومدّة بعد مدّة يظهر جهلة أو مأجورون من المخابرات المعادية للإسلام ليشحنوا الناس طائفياً ومذهبياً، وللأسف الشديد على مستوى علماء الفريقين من النادر جداً جداً أن تجد أشخاصاً يؤمنون فعلاً بكلامه تعالى عن وحدة المسلمين، ولديهم كلام منمّق عقائدي وكلامي وروائي يبرهن أنّ الوحدة بين المسلمين معناها أن يترك الآخرون ما هم عليه ليكونوا مثلهم!

لنلخّص الكلام في هذا النزاع من مفاهيم القرآن: أنت مكلّف الآن باتباع من تجده ملتزماً بدينه تعالى وجديراً كفؤاً بالمنصب الذي ترشّح له... ولن تتحاسب على ولاية يوشع بن نون ولا ولاية آصف بن برخيا ولا حبيب النجّار... ولا عليّ بن أبي طالب، فهؤلاء مرّ زمانهم، أنت في أقل ما هو متاح لك من قدرة على اختيار أي شخص لأي منصب، في يوم القيامة ستتحاسب على ولائك واختيارك، سواءً في انتخابات مختار أو عضو بلدية أو نائب أو رئيس... أو تأييد زعيم... وهذه هي الولاية التي يتحدّث عنها القرآن، ومن مضى زمنهم فحسابهم على ما جرى في زمانهم، وتحدّث عنهم القرآن لتتعظ مما جرى معهم... وأنت حسابك على ما يجري في زمنك، ورأيك التاريخي إن كان سيجرّ المسلمين للفرقة والتناحر، فستتحاسب عليه أيضاً.

(انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{41})
ما زلنا في أجواء الحديث مع المسلمين الذين وصلهم الأمر الإلهي بالبراءة من العهود مع المشركين المعادين والأمر بقتالهم وقتال أهل الكتاب المشركين المعادين...:

{انْفِرُوا}، غادروا مكانكم لوجهة محددة ليحصل فيها شيء محدّد، وسياق الكلام عن التوجّه إلى قتال الأعداء، فانطلقوا للقتال، {خِفَافًا}، بعدد قليل من المقاتلين ويكون سيرهم خفيفاً وهم سريعون في الانتقال، وانفروا {ثِقَالًا}، بعدد كبير من المقاتلين ويكون سيرهم ثقيلاً بطيئاً، فعلى كلا الحالتين، سواء أكان العدد المطلوب لمواجهة العدو صغيراً ولا يحتاج لمواجهته بعدد كبير، أو كان عدد مقاتلي العدو كبيراً وتحتاجون للخروج بعدد كبير لقتاله، فعلى كلا الحالتين انفروا، فلا تقل إنّي أخرج فقط إذا كان الكلّ خارجين، وأمّا الأنشطة الخفيفة فهي لا تعنيني، لا. ولا تقل العكس بأنك من قوّات النخبة ولا تقاتل إلا في المهامّ الخاصّة، لا.

أنت تعلم أنّه إذا قام عدد كافٍ من الأشخاص للخروج إلى القتال فأنت لم يعد واجباً عليك الخروج، حيث سقط عنك الواجب "الكفائي"، ولكن الآية تنبّهك أنّ تكليف الخروج للقتال متوجّه إليك مثلما هو موجّه للآخرين، فلا تقعد جانباً وتترك الآخرين يقومون لوحدهم بالواجب حتى لو كان عملاً صغيراً.

نتذكّر الآية 95 من سورة النساء {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا}، فالكلام عن حالة لا يجب فيها على الجميع الخروج للقتال، وهو ما يسمّيه الفقهاء بالواجب الكفائي، والذين يتصدون دائماً للقيام بالمهام العسكرية وحتى الصغيرة منها فهؤلاء أعظم درجةً عنده تعالى.

{وَجَاهِدُوا}، ابذلوا جهداً، {بِأَمْوَالِكُمْ}، عبر تقديم قسم منها للمصروف الحربي على السلاح والطعام وباقي تكاليف الحرب كالتدريبات والاستعدادات... {وَأَنْفُسِكُمْ}، جاهدوا بها، إذ لا يكفي تقديم المال، بل بنفسك انفر للقتال إذا لم يكن عدد المقاتلين كافياً... فمن يستطع الجهاد بالمال والنفس فكلاهما واجبان عليه.

جاهدوا، {فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، فيما يأمر به تعالى ويرضى عنه، فلا تقتلوا المسالمين، ولا تعتدوا... بل جاهدوا بما يرضى عنه تعالى، وهو نفسه ما يتقاطع مع مصالحكم التي فيها خير لكم.

{ذَلِكُمْ}، الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله تعالى، هو {خَيْرٌ لَكُمْ}، شيء جيّد، {إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، فلو درستم الموضوع بشكل صحيح، لعلمتم أن الجهاد أفضل من أي شيء آخر، فلكم أجر عظيم إن مُتُّمْ أو انتصرتم أو جُرِحْتُمْ... ولكم في الدنيا العزة لأنكم ستكونون أقوياء ولن تكونوا تحت حكم الظالمين الذين سيجبرونكم على ممارسات سيئة فاسدة...

(لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ وَلَـكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ{42})
{لَوْ كَانَ}، الخروج للقتال، {عَرَضًا قَرِيبًا}، شَيْئًا عَرَضَ لهم وَكَانَ متاحا لهم، قريبا منهم غير بعيد عنهم، فمكان القتال بالقرب من سكنهم ومدينتهم، فلا يحتاج للتحضير والتجهيز للسفر لمكان بعيد وقضاء وقت طويل للانتقال، أو لو كان، {سَفَرًا قَاصِدًا}، مكانا يسافرون إليه ينتقلون إليه تاركين ديارهم وكان قاصدا، كان مكانا ليس بَعِيدًا كَثِيرًا، ففي هاتين الحالتين، للجهاد في مكان قريب جدا، أو في مكان ليس ببعيد جدا، {لَاتَّبَعُوكَ}، لكانوا على سفرك معك أيها النبي(ع) للجهاد، {وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ}، فهم في شُقَّةٍ في قسم في قطعة من الأرض، ومكان الجهاد في شُقَّةٍ في قطعة أرض أخرى بعيدة عنهم، فهذه واحدة من أعذار ترك بعضهم للجهاد أو التكاسل أو التأفف منه، وهو بُعْدُ المسافة، الذي يسبّب سفرا طويلا لمدّة طويلة تاركين فيها الأهل والأشغال والأعمال... لمدة طويلة، والسفر الطويل يسبّب التعب والملل والاشتياق للأهل وخسارة الزبائن...

{وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ}، فيقولون كلاما لتبرير قعودهم عن القتال باستعمال صيغة التأكيد فيقولون: والله... {لَوِ اسْتَطَعْنَا}، لو كَانَتْ عندنا الاستطاعة، وَنحن نرغب بذلك ولكن هناك عوامل منعتنا، {لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ}، فلو كنّا نقدر على ترك ما نحن

فيه من أشغال وواجبات عائلية وزراعة... لنفرنا معكم للقتال، ولكننا لا نقدر فالسفر طويل ويسبب لنا مشاكل عائلية أو مالية أو جسدية... ولذلك لا نقدر على الذهاب معكم إمّا بسبب الْجُهْدِ أو بسبب الوقت الذي نحتاجه لتسيير أعمالنا أو لعوامل نفسية... {يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ}، فيتبين لمن يسمعهم يحلفون بأنهم هلكى مُسْتَنْفَدُونَ معرّضون للهلاك للموت وللفقر وللأزمات... إن خرجوا، وَيُقَدِّمُونَ تبريرات تفيد بأنهم سَيَهْلِكُونَ إن خرجوا ولولا ذلك لخرجوا، وبالتالي يريدون من النبي(ع) أن يسمح لهم بالبقاء.

{وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}، فلن يهلكوا إن خرجوا للجهاد، فهم يضخّمون الأمور أكثر مما هي عليه بكثير، وَكل الناس لديها أشغال وأعمال، وكل الناس لديها مصالح زراعية أو تجارية أو عائلية... يجب أن ترعاها، وكل الناس لديها مشاعر لأمور لا تحبّ مفارقتها... ولكن هؤلاء الَّذِينَ لا يريدون الخروج للجهاد، يجعلون الأمور تبدو كارثية إن خرجوا للجهاد، وَأَنَّ في الخروج هَلَاكَهم! ولكن الله تعالى يعلم أنهم كاذبون.

(عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ{43})
الله تعالى يعلم أنهم يكذبون، ولكن أنت أيها النبي(ع) لا تعلم، فأعطيتهم إِذْنًا وسمحت لهم بترك الخروج للجهاد:

{عَفَا اللَّهُ عَنكَ}، فلم يتوقّف عند ما فعلته أيها الرسول(ع) وَمرّ عنه، فلن يطالبك، {لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ}، عَنْ إعطائك لهم الإذن، وَعَنْ سماحك لهم حتى لا يخرجوا للجهاد، عفا الله تعالى عنك رغم أن الظروف تستدعي الخروج مع كل شخص قادر على حمل السلاح، {حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا}، حتى يصير واضحا الذين فعلا لم يكذبوا حين أبدوا لك أعذارهم وأسبابهم، وحتى، {تَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ}، حتى يصير واضحا لك الذين اخترعوا الأعذار الكاذبة كي لا يخرجوا، فأنت معفو عنك ما دمت لم يتبين لك الصادق من الكاذب، أمّا إن تَبَيَّنُوا لك، فلا عفو عنك إن أذنت للكاذب.

النَّبِيُّ النموذج عن أي قائد، فلا يحق له إجبار الناس على الخروج إن أظهروا له أَعْذَارًا تُبَيِّنُ الْإِحْرَاجَ الشديد الذي يسببه تركهم لعيالهم أو أشغالهم ومصالحهم، وعلى القائد التأكد من صدقهم، فإن كانوا كاذبين فالقائد معفو عنه لأنه لم يعلم كذبهم، ولكن إن علم بكذبهم وأذن لهم فهذا غير معفو عنه.

نُلَاحِظُ هنا أنه تعالى عَفَا عن نبيه(ع)، فَوَقَعَ الخطأ وكان النبي(ع) هو المسؤول عن إعطاء الأذونات لمن سيبقى ولا يخرج للقتال، وَأَعْطَى الإذن لأشخاص كاذبين وليس لديهم عذر صحيح، لكن النبي(ع) تصرّف معهم بحسب الظاهر من كلامهم وحججهم، وليس بحسب الغيب، فلم يكن يعلم أنهم يكذبون، وربما يعلم لأن سلوكهم من قبل لم يكن سلوكا إيمانيا راقيا ولكنهم يقدمون أعذارا قويّة ويحتمل أن يكون فعلا وضعهم حَرِجًا... وعلى كل حال، فَأَمَرَهُ تعالى بقبول الأعذار الصحيحة، وَقَبِلَ (ع) أعذارا كاذبة ووقع الخطأ "غير المقصود"، والعفو عن هذا الخطأ غير المقصود مثله مثل بقية الأخطاء التي في أساسها ترجع للقائد لأنه صاحب القرار... ولكنها غير مقصودة مثلما فعل بعض الأشخاص الذين أوكل لهم النبي(ع) مهمات عسكرية، فقتلوا أناسا أبرياء، فَالخَطَأُ وَقَعَ، والنبي(ع) هو مَنْ أرسلهم، فهو يتحمل مسؤولية إرسالهم، ولكنه نال العفو الإلهي لأنه لم يقصد حصول أخطاء.

أطلت عليك حتى ترى أن كلام القرآن هنا وهناك عن مغفرته تعالى للنبي محمّد(ع)، كما ورد كمثال في الآية 55 من سورة غافر {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ...}، فهي مغفرة حقيقية عن أخطاء حصلت، ونعلم أن تلك الأخطاء من النبي(ع) لم تكن مقصودة، فهي من نوع الخطأ المذكور هنا حين أَذِنَ النبي(ع) لبعض الكاذبين في أعذارهم للتخلّف عن الجهاد، حَيْثُ حلفوا له أن وضعهم حرج ولا يمكنهم الخروج، فأذن لهم (ع) بالبقاء...

إلى هنا فهمنا أول عذر يمكن أن يستعمله الكارهون للجهاد، وهو بُعْدُ المسافة وطول مدة الابتعاد عن الأهل والأعمال، وسنرى بعد الآية التالية أن السبب الحقيقي ليس بُعْدَ المسافة وطول المدة...

(لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ{44})
{لَا يَسْتَأْذِنُكَ}، لا يطلب منك الإذن، لا يطلب منك السماح بترك الخروج للقتال، {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}، الذين يعتقدون به تعالى كإله بصفات فائقة وَهؤلاء فعلا يعتقدون بصفاته تعالى الحسنى، وسنتحدّث عن هذا المعنى بعد قليل، ولا يستأذنك الذين يعتقدون بـ، {الْيَوْمِ الْآخِرِ}، بالزمن الذي سيأتي في الْآخِرَةِ بعد انتهاء الدنيا، حَيْثُ يعتقدون أنه تُوجَدُ حياة

آخرة بعد هذه الحياة الدنيا ويوجد حساب وجزاء، فهؤلاء لا يطلبون الإذن بترك القتال، لأنهم يطيعون الإله ربهم ويؤمنون بصفاته، ويرجون ثوابه في الآخرة ويخافون عقابه، فهؤلاء لا يطلبون الإذن حتى لا {يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ}، بل يبادرون للجهاد لمرضاته تعالى وللثواب.

بِعَكْسِ الذين يبررون تركهم للجهاد بسبب أمور دنيوية، هُنَاكَ من آمن به تعالى وبثواب الآخرة فلم يجد مبررا يدفعه للتعلّق بما في الدنيا لترك القتال بل بالعكس لديه أطنان من الأسباب حتى يشارك في قِتَالٍ في سبيله تعالى.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ}، يَعْلَمُ سبحانه من هم الذين يتجنبون فعل السوء، وهنا الكلام عن تجنّبهم لغضبه وعقابه تعالى فلا يتخلفون عن الجهاد.

ضَعْ في بالك دائما أن الإيمان بالله تعالى بالشكل الذي تذكره الآية هنا، هُوَ مفهوم لعموم كلام القرآن عن الإيمان به تعالى، وَهُنَاكَ فرق في درجات الإيمان به تعالى، من إنكار وجوده بِالضَّغْطِ على ما هُوَ مَزْرُوعٌ فينا للتعرّف عليه تعالى لإنكار ما يدفعنا للإيمان به سبحانه، إلى إنكار وحدانيته تعالى، إلى الجهل ببعض صفاته تعالى، كالشكّ في صدقه وقدرته تعالى على تحقيق وعوده، كالشكّ في حكمته تعالى واحتمال العبثية في كلامه ووعوده عزّ وجلّ... وَهُوَ نفس الإيمان العالي الذي يدفعنا للاعتقاد بأنه تعالى معنا ويراقب ويرى ما يجري معنا وبالتالي نؤمن بأنه في كلّ الظروف والأحوال نَحْنُ في عنايته حتى لو كنّا نتعرّض للضرر والأذية، ونفهم أنها طبيعة الحياة التي صمّمها تعالى لتكون بلاء وفتنة لنا لنجتازها بنجاح وننال ثواب الآخرة... وَهُوَ نفس التعبير بالإيمان به تعالى عمليا هو الاعتقاد بحكمته وَبِقُدْرَتِهِ وَبِعِلْمِهِ... اعتقادا صحيحا عن قناعة متشربة فينا، وهذا ما يقصده عموم القرآن عندما يقول لنا إِنَّ المؤمنين الحقيقيين به تعالى يلتزمون بأوامره سبحانه، وَهَا نَحْنُ هُنَا أمام مسلمين "مؤمنين" يبررون ويحلفون أَنَّهُمْ سَيَتَعَرَّضُونَ لمشاكل كبيرة إن نفروا للجهاد، فَتَأْتِي الآيات هنا لتخبرنا وتخبرهم أن إيمانهم فيه عطل، لِأَنَّ الْمُؤْمِنَ الحقيقي بالله تعالى وبالآخرة لن يرى أي سبب لترك الالتزام بأوامره تعالى مهما كانت.

دائما دائما نتذكّر أنه لا يوجد شيء اسمه أمر إلهي ولا علاقة لنا به، وَالتَّعَابِيرُ القرآنية عن الخروج للقتال بأمر منه تعالى، أو بأمر من نبيّه(ع) أو في سبيله تعالى، لَيْسَتْ تَعَابِيرَ عن أوامر نازلة من كوكب آخر، وَوَاجِبٌ علينا تنفيذها، ولا علاقة لنا بها، بل هناك مشكلة حالية أو سنتعرض لها إن لم نقاتل الأعداء، فَانْظُرْ في النماذج التي تحدّث عنها القرآن والتي فيها أمر إلهي مباشر أو أمر من النبي(ع) بناء على تطبيق كلامه تعالى بقتال الأعداء، وَانْظُرْ في سيرة حياة النبي(ع)، وسترى أن كل القتال كان للدفاع عن المؤمنين، ولتأمين بيئة تمكّن المؤمنين من ممارسة دينهم الحقّ.

صِرْتَ تعلم مما كررناه مرارا مما تكرّر في القرآن كثيرا، أَنَّ الدين المعروض علينا في قرآنه تعالى، لَيْسَ عقيدة وتشريعا وسلوكا من كوكب آخر لنلتزم به وهو غريب علينا، بل هو نفسه الدين الإلهي هو التطبيق التفعيلي للقدرة المزروعة فينا لتمييز الخير من الشر والحقّ من الباطل، والصلاح من الفساد... وَالْقِتَالُ لكسر قوة وسلطة المعادين للمؤمنين، حتى يستطيع المؤمنون ممارسة تدينهم، ليس معناه إلّا عمل المؤمنين على تأمين بيئة يَسْتَطِيعُونَ فيها فعل الصلاح والخير، وكمثال عن ذلك ما تختصره الآية 90 من سورة النحل {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ...}.

لِذَلِكَ ترى في دراستنا هذه بين الحين والآخر تنبيها على معنى التقوى الذي تشير له الآيات كوصف للمؤمنين، حَيْثُ إِنَّ تَقْوَاهُ تعالى ليست عمليا إلا الابتعاد عن السوء والشرّ والفساد، وليست شيئا غريبا أو من السماء ولا علاقة لنا به، فنلتزم به مجبرين أنفسنا عليه، كشيء ديني اسْمُهُ التقوى. لا بل التقوى هي تجنّب ما يمكننا رؤية سُوءِهِ إن كان قلبنا سليما بالدرجة الكافية، وهو نفسه تجنّب ما نهى عنه تعالى، وهو نفسه تجنّب غضبه وعقابه تعالى.

(إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ{45})
{إِنَّمَا}، في الحقيقة فَقَطْ، {يَسْتَأْذِنُكَ}، يطلب منك الإذن، وَيَطْلُبُ منك السماح له بترك الخروج للقتال، {الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}، فما معنى الإيمان به تعالى إن لم تَرَ ما يقوله تعالى خيرا لك لتلتزم به؟ ولم تؤمن بأن وعوده تعالى صادقة وبالتالي، {وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، أيضا الزمن الذي سيأتي في الْآخِرَةِ بعد انتهاء الدنيا والذي قال تعالى عنه وعن الأجر فيه والعقاب... فهم لا يؤمنون به، فَوَعْدُهُ تعالى لهم بجنّة الآخرة الخالدة الرائعة لم يصل عندهم إلى درجة التأكّد

من صحّته، فلا ثقة لهم بكلامه تعالى ولا بوعوده ولا بقدرته على فعل ما يقوله، فلا ثقة لهم بأنه فعلا تُوجَدُ آخِرَةٌ وحساب.

{وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ}، فكان في مركز تفكيرهم ونفسيتهم احتمال كذب ما يقوله القرآن عن الإله والآخرة، وَلَدَيْهِمْ بشكل ما شعور بأن الكلام الديني عن الإله والآخرة غير صحيح.

{فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ}، في حالة الاحتمال الضعيف لصدق الكلام الإلهي، {يَتَرَدَّدُونَ}، فَمَرَّةً يميلون لِلاِقْتِنَاعِ ومرة يميلون للإنكار، فَمَرَّةً يقولون: ربما تُوجَدُ آخِرَةٌ وعقاب إن لم نخرج... ولكن ليس لدينا اعتقاد قوي بذلك... ومرة يقولون: ربما لا تُوجَدُ آخِرَةٌ وسنخسر حياتنا وأموالنا وأهلنا إن خرجنا للجهاد ومتنا.

ضَعْ في بالك دائما أن الريب هو أوّل وهلة تصيبك من سماع الشيء، فتنكره أو تصدّق به لمجرد سماعك له وبدون أي تفكير. والشكّ هو اختيارك للتصديق أو الإنكار مع إعلانك أنك لم تستند لدراسة أو تفكير. والظن هو تصديقك أو إنكارك لشيء وأنت مستند إلى معلومات أو تفكير به، طبعا هذا وصف لك بغضّ النظر عن صحّة ما استندت إليه وبغضّ النظر عن صحّة أو فساد النتيجة التي وصلت إليها، فَتَكُونُ غير مطابقة للواقع. واليقين هو تطابق اعتقادك مع الحقيقة، من تعاملك مع الشيء مباشرة أو من خبر ممن تثق به... وهكذا صرت تعلم الفرق بين ما اصطلحوا عليه في كتب المنطق عن هذه الكلمات وبين معناها اللغوي الأساسي الأصلي الذي استعمله القرآن بدقة مع تقويمها عبر تحديد استعمال دقيق لها.

(وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَـكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ{46})
{وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ}، لَوْ فعلا كان عندهم رغبة وقرار لترك ما هم فيه والانطلاق لقتال الأعداء، {لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً}، كَانُوا من قبل جهّزوا وَرتبوا أمورهم العائلية والمالية والأشغال... وجهزوا العدّة من سلاح ووسائل لنقلهم وطعامهم... وَحضّروا أنفسهم للخروج للقتال، وَمَا كانوا أعطوا مواعيد تجارية في وقت الخروج للجهاد، ولكانوا أوكلوا شخصا ما بتجارتهم وزراعتهم...

{وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ}، حَيْثُ لم يحبّ سبحانه أن ينهضوا وَيقوموا ويخرجوا للقتال مع المؤمنين الحقيقيين تحت شعار القتال في سبيله تعالى، {فَثَبَّطَهُمْ}، وَأحبط عزيمتهم، مِمَّا جعلهم بلا عزم ولا نيّة ولذلك تثاقلوا عن الخروج للقتال.

{وَقِيلَ}، لهؤلاء، {اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ}، فهم كما مرّ معك منذ قليل كانوا يحلفون أنهم مضطرون للبقاء ولا يمكنهم الخروج بسبب أمور في غاية الأهمية... وكانوا يقدّمون أعذارا لا يمكن تكذيبها، فقبلها الرسول(ع) وقال لهم أَنْ يبقوا مع الآخرين الذين مثلهم ولديهم أعذار واهية، ومع الذين فعلا لديهم أعذار حَقِيقِيَّةٌ، كالمرضى والمعاقين...

الْخُرُوجُ تحت راية القتال في سبيله تعالى، هو شرف رفيع ويعطي قيمة ومكانة عالية عنده تعالى، وهؤلاء لا يستحقّون هذه القيمة، بدليل أنهم أصلا لم يتجهّزوا للخروج وبقيت أمورهم كما كانت من قبل من دون أن يحسبوا حسابا للخروج، مَثَلًا زرعوا ما يحتاج للعناية المستمرة... وأعطوا مواعيد تجارية تتزامن مع الخروج للقتال... لِذَلِكَ، كره سبحانه نيلهم شرف الخروج تحت راية القتال في سبيله تعالى، {فَثَبَّطَهُمْ} وَجعلهم تعالى لا ينوون الخروج وجعلهم يشعرون بالثقل منه.

(لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ{47})
هل هناك مصلحة في وجود هذه النوعية السيئة من الناس في جيش المسلمين؟:

{لَوْ خَرَجُوا فِيكُم}، لو تركوا ما هم فيه، وَتَرَكُوا ديارهم وصاروا فيكم في جيشكم، {مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا}، فَبَدَلَ أن تزيد قوّتكم الفكرية للتخطيط والتفكير، هَؤُلَاءِ لو كانوا معكم فَسَيَزِيدُونَكُمْ خَبْلًا: فسادا في الرأي، لأَشَارُوا عليكم بالآراء الفاسدة السيئة، كالهرب، والتراجع، والتأجيل... {وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ}، وَجَعَلُوا بينكم شيئا ما، وَيَنْشُرُونَ خلالكم "بينكم" أفكارهم السيئة من التأفّف والضجر والتذكير بالاشتياق للأهل والأعمال التي تركوها... {يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ}، يريدون ويقصدون أن يفتنوكم، وَأَنْ يصيبوكم بما سيغيّركم، حتى تصيروا مثلهم كارهين للنفير.

{وَفِيكُمْ}، أيها المسلمون يوجد أناس، {سَمَّاعُونَ لَهُمْ}، يسمعون كلامهم ويقتنعون به، وَيَبْدَءُونَ بالتأفف والاعتراض من الجهاد والسفر وترك الأهل والأشغال... وَهُنَاكَ مؤمنون بسطاء لا ينتبهون للفرق بين نيّتهم ونيّة أولئك السيئين، فهم لم يخرجوا في نزهة بل للقتال، ومن الطبيعي أن يكون فيه جهد وابتعاد عن الأهل والمصالح والأعمال والأشغال... وفيه احتمال الموت أو الإصابة بإعاقة أو الأسر... وهذه أمور إذا تذكّرها المؤمن البسيط فَسَيَنْجَرُّ بالكلام ويقلّد أصحاب النوايا السيئة الذين لديهم ريب في دينه تعالى، ولأجل ذلك قرّر سبحانه تثبيط غير المؤمنين حتى لا يتأثّر المؤمنون البسطاء بكلامهم.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}، الَّذِينَ لم يكن معهم حقّ في البقاء وترك الخروج للقتال فَلَا يَظُنُّوا أنه سبحانه لا يعلم أنهم ليس معهم حقّ في التبريرات التي يقولونها عن أشغالهم وأعمالهم وصحّتهم... بل هم تحت المراقبة وَسَيُحَاسَبُونَ.

(لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاء الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ{48})
الذين يخترعون الأعذار حتى لا يخرجوا للجهاد:

{لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ}، قبل الأمر بالخروج للقتال، قصدوا بقرار منهم أن يكونوا مفتونين، حَيْثُ من قبل تماشوا مع ما يغيّر إيمانهم لِلْأَسْوَإِ، وعرضوه على الآخرين ليتغيّر أيضا إيمان الآخرين لِلْأَسْوَإِ، وَهذه ليست المرة الأولى التي تُحَاوِلُ فيها هذه النوعية من الناس جعل المسلمين يتخاذلون عن القتال وحتى يفتتن الجميع ويفشل مشروع الجهاد، وَليست المرة الأولى التي يقترحون فيها الأفكار السيئة التي تغيّرهم وتغيّر الآخرين لِلْأَسْوَإِ...

وهذه النوعية من الناس من قبل أيضا، {وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ}، حَيْثُ يطرحون عدة أمور مضادة للقتال، وَلا يثبتون على قرار القتال ويبدؤون بتقليب الأفكار والاقتراحات المعارضة للقتال، وَيَقْتَرِحُونَ الابتعاد عن القتال من أصله، أو تأجيله لما بعد موسم الزراعة، أو لما بعد موسم الحصاد، أو لما بعد موسم البيع... وبعد موجة الحر، وبعد موجة البرد... وَدَائِمًا لديهم أعذار للقعود عن القتال، وهي أمور يفتتن بها بقية المسلمين فَتَحْصُلُ عندهم حالة الاضطراب وَتَذَبْذُبٍ وَتَغَيُّرٍ.

بقي هؤلاء الناس يفتنون وَيُقَلِّبُونَ الأمور، {حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ}، حَيْثُ أمر سُبْحَانَهُ المسلمين بالقتال حتى ينتشر الحقّ ووعدهم بالنصر... وهذه النوعية من الناس فِي كل مرّة كان يجري فيها الكلام عن القتال يطرحون أفكارا نابعة من تخاذلهم، ولو مشى كلامهم لما وصلت الأمور إلى ما هي عليه الآن "حين نزول هذه السورة"، حَيْثُ صَارَ للمسلمين كيان قوي وسيطرة لأنهم خاضوا ما سبق من قتال ضدّ الأعداء، وها هُمْ صاروا في حالة تحقّق الحقّ، فَانْتَشَرَ الصحيح الصالح من العقيدة والشريعة والسلوكيات، وصار غالبا قويا ما أمر به تعالى، وَمِنَ الناحيتين حيث وَعَدَ تَعَالَى بانتصار المؤمنين وها تَحَقَّقَ ذلك، وسبحانه أمر بالصلاح والخير... وإنهاء الفساد والشرّ... وهذا أيضا صار متحققا.

{وَهُمْ كَارِهُونَ}، وهم خلال كل التاريخ السابق كانوا لا رغبة ولا محبّة لهم بانتصار وانتشار الأمور الإلهية على حساب مشاركتهم في القتال وتركهم لملذات التمتّع بالحياة.

هذه النوعية من الناس هم من أوّل تاريخهم معك هم رأس الفتنة، حَيْثُ كَانُوا دائما يطرحون أمورا سيئة تؤثّر على المسيرة كلّها سلبا لو نُفِّذَ ما قالوه، ولكن مشت المسيرة وصار الحقّ قويا رغم كرههم لكل القرارات السابقة التي أوصلت الأمور إلى هنا.

ننتبه لشيء، حَيْثُ إِنَّ هذه النوعية من الناس عاشرت نَبِيًّا رَسُولًا نزل عليه آخر كتاب إلهي، والكتاب الإلهي معلومة قيمته، والنبي محمّد(ع) معلومة صفاته العالية في القيادة والحكمة باتخاذ القرارات التي أوصلت الأمور إلى حيث شكّل المسلمون نواة دولة وقوّة عسكرية مرعبة... ورغم ذلك بقي معاصرون معاشرون للنبي(ع) على حالهم من التشكيك والرفض لكل شيء حكيم وفيه مصلحة الدنيا والآخرة للمسلمين؟!

إن كنت بسيطا فَهَذِهِ النوعية من الناس قادرة بسهولة على تشويش ذهنك، وفي تاريخنا الحديث استعمرت بعض الدول بلداننا، وكان تسليحها وتدريبها ومستوى خبرة جيشها... أعلى بكثير من قدرات المسلمين، وبعض مجتمعاتنا كانت

الغالبية فيها محاربة للاحتلال، وبعضها كانت الأقلية فيها مقاومة للاحتلال، وتتعرّض الأقلية للانتقادات المثبطة للعزائم على أساس أنه لا جدوى من مقاومة الاحتلال... وها أَثْبَتَ التاريخ أن المقاومة هي السبيل الوحيد لاسترجاع البلاد...

كلامنا عن النوعية السيئة من الناس التي تفتن الآخرين، وَهَؤُلَاءِ لا يقولون بأنهم ضدّ الحق أو ضد الدين أو ضد القتال أو ضد مقاومة الاحتلال... بل بالعكس يقولون إِنَّهُمْ مع الحق وأرباب القتال... ولكن دائما لديهم تبريرات للتخاذل تحت عنوان: الظروف غير مناسبة ومن الأفضل فعل كذا وكذا، فهم ملوك التنظير، وإن فِي زَمَانِهِمْ فَعَلُوا شيئا ما مهمّا فَمَشْكُوكٌ في مدى فعاليتهم حينها، ومشكوك في نواياهم حينها، أو حينها كانوا لائقين والآن صاروا متخاذلين.

لِنَتَعَلَّمْ من كلام الآية هنا أَلَّا نسمع لكل ناعق، لِأَنَّ الحقّ واضح، والقتال جهاد، وليس نزهة، وحتما فيه تضحية، فاصمد على الحقّ وكن مؤمنا حقيقيا به تعالى وبالآخرة كما قالت الآيات السابقة، وإلا فنسمة ريح شكّ سترميك بسهولة على أرض الفتنة.

(وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ{49})

{وَمِنْهُم}، ومن هؤلاء الذين لا يريدون الذهاب إلى القتال، {مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي}، أعطني الإذن، اسْمَحْ لي أَلَّا أخرج معكم، {وَلَا تَفْتِنِّي}، وَلَا تجعلني مفتونا وَأَتَعَرَّضَ لشيء يغيّرني، فإذا لم تأذن لي فَسَيَحْصُلُ شيء غير جيّد لإيماني، حَيْثُ سَأَشْعُرُ من هذا الدين أو منك أنت بأنكم لا تهتمون بظروفي الخاصّة الحرجة.

أَنَا عندي عذر حتى لا أخرج للقتال، أو هكذا ليس عندي رغبة في ترك بيتي وأهلي وأشغالي... فَأَعْطِنِي الإذن بالبقاء، وإذا لم تسمح لي بالبقاء فَأَوْقَعْتَنِي في الفتنة، في شيء سيغيّر إيماني لِلْأَسْوَإِ، فإن لم أخرج للجهاد صرت عاصيا لأوامرك، وإن خرجت فأنا كاره للخروج وَسَأَكْرَهُ أوامرك! وأعتبر أن هذا الدين قَاسٍ عليّ ولم يُرَاعِ ظروفي...

{أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا}، وَهُمْ حين يطلبون منك أَلَّا توقعهم في الفتنة عبر الإذن حتى لا يخرجوا للقتال، حَيْثُ إِنَّهُمْ أصلا وفعلا في حالة السقوط في الفتنة، وَهُمْ فعلا تعرّضوا لشيء غيّر إيمانهم، وَلَمْ ينجحوا إيمانيا حين وصلهم الأمر بالخروج للقتال، وَهَذِهِ فتنة سقطوا فيها، وقولهم إِنَّهُمْ يخافون من الوقوع فيما يفتنهم إن لم تأذن لهم بالبقاء، هُوَ هو نفسه فتنة سقطوا ولم ينجحوا فيها.

{وَإِنَّ جَهَنَّمَ}، المكان الموصوف بسوء ما فيه، حَيْثُ فِيهِ النار والعذاب، {لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ}، وَالْمُتَعَلِّقُونَ بالدنيا المنكرون للأوامر الإلهية وطاعة الرسول(ع) والمنكرون لثواب الآخرة... هَؤُلَاءِ من كل الجوانب ستحيط بهم جهنم، وَلَا مهرب، ولا جهة أقل حرارة من جهة أخرى.

في الروايات تجد كلاما عن شخص تَعَذَّرَ عن الخروج للقتال لأنه معجب ببنات الروم ذوات الشعر الأصفر... وهناك العديد من الذين فنّدوا هذه الرواية واعتبروها من اختراع الرواة... وألفت انتباهك إِلَى أَنَّ هذا النوع من الروايات الذي يجعل الآيات محصورة بشخص، تَفْهَمُ منها أنها مثال تطبيقي ويمكن أن يكون هناك أمثلة أخرى، ولكن لو مشيت مع الآيات لرأيت أنها لوحدها وبدون الرجوع لأي رواية، سَتُعْطِيكَ مَعْنًى من صورة عامّة شاملة تجعلك ترى أبعد مما تجده في الروايات.

هُنَا الكلام عن عموم أي شخص يحذّر القائد من تحمّل مسؤولية تراجع إيمانه إن أصرّ القائد عليه بالخروج للقتال، أَنَا الآن مؤمن ملتزم، وإن لم تُرَاعِ ظروفي الاجتماعية أو العائلية أو التجارية أو الزراعية... فَسَيَصِيرُ عندي اعتقاد بأن هذا الدين يظلمني ويضرّني، وَيَتَرَاجَعُ إيماني أو أكفر. أو ليس لدي أعذار ولكني كاره للخروج للقتال، وَأَنَا بين حالتين، إِمَّا أن تأذن لي وَأَبْقَى وعندها لن أشعر بأني فعلت شيئا سيئا لأنك أذنت لي، وإما أَلَّا تأذن لي ورغم ذلك أبقى وبذلك سأشعر أني خالفت أمرا دينيا، وإمّا أن أخرج معكم غصبا عنّي وأنا كاره، وهكذا بدل حالتي الآن كمتدين محبّ لدينه تعالى سَأَصِيرُ كارها لهذا الدين الذي أجبرني على فعل ما لا رغبة لي فيه.

هَذِهِ الفتنة، وَهَذَا الذي أتعرّض له وَيَجْعَلُنِي عاصيا أو يصير إيماني متراجعا أو يجعلني أكفر... أَنْتَ يمكنك حلّها بسهولة إن أذنت لي بالبقاء، وهكذا أبقى مؤمنا صالحا، لِذَا لَا تفتنّي، لِأَنَّكَ تتحمّل مسؤولية ما يَحْصُلُ معي.

هذا ما تقوله الآية وهو شامل لكل نفسيات الكاذبين الكارهين أصلا للخروج إلى القتال مهما كانت أفكارهم أو نفسياتهم.

(إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّ هُمْ فَرِحُونَ{50})
{إِن تُصِبْكَ}، أيها الرسول(ع) {حَسَنَةٌ}، فَيَحْصُلُ معك شيء حسن جيد، كأن تنتصر أو يستسلم عدوك، {تَسُؤْهُمْ}، تجعل تلك الحسنة هذه النوعية من الناس الذين لا يريدون الخروج للجهاد، تجعلهم يشعرون بالسوء من الشيء الحسن الذي حصل معك، لأنهم كانوا يتوقّعون السوء من الخروج وَهَا حَصَلَ العكس، أو يشعرون بالسوء لأنهم لم يَكُونُوا من ضمن شيء حسن جرى...

{وَإِن تُصِبْكَ}، أيها الرسول(ع)، {مُصِيبَةٌ}، وسياق الكلام يشير إلى شيء سيّء يصيبك، كأن تتعب من السفر أو تتأذى من الطقس بمطره وبرده أو حرارة الشمس، أو يقع في صفوف المسلمين قتلى وجرحى، أو تخسر في المعركة... عندها يقولون:

{قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ}، أَخَذْنَا احتياطاتنا من قبل أن تقع هذه المصيبة، حَيْثُ كُنَّا نقول لكم إنَّ الوقت غير مناسب للخروج للقتال، وكنا نقول لكم إِنَّنَا غير مستعدين بشكل جيد للعدو... وكنّا نقول ونقول... فَكَانَ معنا حق حين لم نخرج، بدليل المصيبة التي وقعت عليكم.

{وَيَتَوَلَّوا}، وَيَذْهَبُونَ عنكم باتجاه آخر، {وَهُمْ فَرِحُونَ}، وهم بحالة شعور جيّد بما أصابكم من سوء، لأنهم لم يصبهم ما أصابكم، ولأنهم كان معهم حقّ بتوقّع حدوث السوء...

عِنْدَمَا اخترعوا الأعذار حتى لا يخرجوا للقتال، اخْتَرَعُوا أن الوقت غير مناسب، والعدو بعيد ونحتاج للاستعداد بشكل أفضل، والعدو قوي ونحتاج لعدد أكبر لقتاله... وَلْنَنْتَظِرْ فَرُبَّمَا العدو يغيّر رأيه وينسحب... وَهَذِهِ كلمات وحجج تبدو منطقية بنظرهم، وبنظر ضعفاء الإيمان، وبعد ذلك إذا انتصر المسلمون، سيشعرون بالسوء لأن كلامهم لم يكن صحيحا، وإذا تعرّض المسلمون لشيء سيء، عندها يَفْرَحُونَ لأنهم برهنوا أنهم كان معهم حق بأن لا يخرجوا، ولا تَظْهَرُ عليهم الشماتة بكم فهم يتعاطفون معكم، ولكن عندما يتولون عنكم، يَتْرُكُونَكُمْ وَيَصِيرُونَ لوحدهم، فهم فرحون مسرورون بما أصابكم من مصيبة.

هُمْ شامتون بكم إن حصل شيء سيء لكم، ومتضايقون إن حصل شيء جيد لكم، وَهُمْ ليسوا منكم، ولا يهمهم أمركم، ولا يعتبرون أنفسهم جزءا من المؤمنين.

لاحظ الآية هنا تنطبق على حالة استباق ما سيحصل، حَيْثُ قَبْلَ أن تخرجوا للقتال وتعودوا ها نخبركم بما سيحصل، فإن عدتم منتصرين فهؤلاء سيحزنون، حَيْثُ تَبَيَّنَ أن الخروج للقتال أنتج نصرا ولم يكن معهم حقّ حين توقّعوا الهزيمة... وإن عدتم منهزمين فسيفرحون ويشمتون بكم حَيْثُ تَبَيَّنَ أنهم أفهم منكم حين قالوا لكم أَلَّا تخرجوا لقتال العدو.

(قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ{51})
قبل خروجكم للقتال، وَغَيْرِ الْمَعْلُومِ نتيجته بخسارة أو انتصار، {قُلْ}، عبر هذا القرآن لهذه النوعية من الناس، وفي نفس الوقت تعلّم أنت ما يلي:

{لَّن يُصِيبَنَا}، لن يحصل معنا من سوء أو خير، {إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا}، حَيْثُ إذا قرّر سبحانه أن ننتصر أو أن يستسلم العدو، فَتُصِيبُنَا حسنة، وإن قرر سبحانه أن نموت أو نخسر فَهُوَ أَيْضًا بقرار منه تعالى، وسنتوسّع قليلا بالكلام عن هذا بعد أسطر.

{هُوَ مَوْلَانَا}، نحن تابعون له، وعمليا هُوَ المسؤول عنّا لأنه مرجعنا، حَيْثُ اسْتَعْدَدْنَا وخرجنا مطيعين لأوامره سبحانه، وَنَحْنُ تابعون له، وبعدها مهما حصل فَنَحْنُ راضون به أو صابرون عليه.

{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}، لِأَنَّ مَنْ فعلا يعتقد بصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز "الله"، ويعتقد بكلامه، فَسَيَتَوَكَّلُ وَيَعْتَمِدُ عليه تعالى أَنَّهُ سبحانه سَيُسَيِّرُ الأمور لما فيه مصلحتهم الإيمانية.

ننتبه جيدا، لِأَنَّهُ سبحانه لا يأمرنا بالتوكل عليه من دون استعداد وتحضير ودراسة، وَمِنَ الآية 60 من سورة الأنفال {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ...}، نفهم أن الاستعداد العسكري والاقتصادي والاجتماعي... واجب بكل الطرق، والآيات هنا تتحدث عن أناس أصلا لا يريدون الخروج للحرب في سبيله تعالى، ومهما كان وضع جيش المسلمين قويا ومستعدا، ومهما حسبوا من حسابات واحتياطات للمعركة... فَدَائِمًا لديهم حجج وأعذار حتى لا يخرجوا للجهاد.

بقي شيء، هَلْ جملة {لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا} تشير لإجباره تعالى لهم على النتيجة التي ستحصل؟ لا، ليس الكلام هنا عن ذلك بهذا الشكل اللاغي للإرادة وحرية الاختيار، وكأنه تعالى يقرّر ما سيحصل معنا وكأننا آلات مبرمجة تتحرك، بل الكلام عمّا قرّره تعالى لهم، حَيْثُ اخْتَارُوا الخروج للعدو، ولديهم تقديرات لما سيحصل، وَرُبَّمَا يتوقعون نصرا كاسحا، أو نصرا مشحونا بالصعوبات، ولكنهم حتما لم ينطلقوا وهم يتوقعون الخسارة، وَهَذَا ممنوع، وعلى أي حال هُمْ ليس لديهم علم بما سيحصل، فرغم المعطيات التي بين أيديهم والتي تشير لإمكانية انتصارهم على العدو، والتي على أساسها انطلقوا لمواجهة العدو، رَغْمَ ذَلِكَ هُمْ يَعْلَمُونَ أنهم ولسبب أو لآخر قَدْ يَنْهَزِمُونَ شرّ هزيمة، إِذْ لَيْسَ لديهم قدرة على حسم النصر لصالحهم، لِأَنَّ هَذَا شَيْءٌ من مستوى إلهي، وَالْقَرَارُ بنصرهم بيده تعالى، ولهذه الحالة تفاصيل كثيرة، رُبَّمَا يتدخل سبحانه مباشرة لإبادة الجيش كما حصل في حالة إبادة جيش فرعون، وَإِمَّا أَنْ يُدِبَّ الرعب سبحانه في قلب العدو... وربما... وربما يذيقهم تعالى النصر الصعب... وربما يذيقهم تعالى مرارة الهزيمة لأنهم فاشلون...

الْآيَةُ ليست على معنى: مهما فعلنا ومهما خطّطنا فَهُنَاكَ قَرَارٌ إلهي سابق كتبه تعالى وسيحصل وَيُنَفَّذُ، أَنَّهُ سَيَنْصُرُنَا حتى لو تخاذلنا، أو سننهزم حتى لو كنا ننوي القتال في سبيله ومستعدين له والقدرة العسكرية متوافرة معنا لذلك، وَهَذَا كَلَامٌ لا معنى له، بِالدِّقَّةِ ومن النظرة الإلهية سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ سلفا إن كانت حالتهم ستكون مستحقة لنصرهم إلهيا أو يستحقون نصرا صعبا أو هزيمة، وَهَذَا مَا كَتَبَهُ تعالى لهم وهم مؤمنون به، ولذلك يعملون في المساحة المتاحة لهم في حرية الإرادة والاختيار على التماشي مع أوامره تعالى حتى ينصرهم، وفي نفس الوقت هُمْ مُتَوَكِّلُونَ عليه تعالى لأن إيمانهم فرض عليهم القتال، فَفِي سبيله تعالى خرجوا، وَتَمَاشِيًا مع أوامره تعالى المتقاطعة مع مصالحهم خرجوا... ويعلمون أن عقيدتهم وسلوكياتهم ليست من درجة الأنبياء، وأن اسْتِعْدَادَاتِهِمُ الحربية يمكن أن تكون أفضل... ويمكن أن يقعوا في الملل أو الكلل أو التعب أو الفشل... ولتعبئة هذا الفراغ يتوكّلون عليه تعالى ليساعدهم بما يراه مناسبا، وهذه حالة ضعاف المؤمنين، وأمّا المؤمنون من الدرجة الأعلى فَهُمْ أصلا يتوكلون عليه تعالى ليحدث ما يريدونه حتى لو كانت كل المعطيات تجعلهم متأكدين من حصول ما يريدونه...

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ{52})
{قُلْ} عبر هذا القرآن لهذه النوعية المتخاذلة غير المؤمنة عن حق بالدين الإلهي:

{هَلْ تَرَبَّصُونَ}، هل تنتظرون أن يَحِلّ بنا شيء متوقَّعٌ حدوثه، {إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ}؟ فكلتا الحالتين اللتين تنتظرون حصولهما معنا، جيدةٌ أو سيئةٌ، بالنسبة لنا، كلتاهما حُسْنَيَانِ جيدتان، لأن انتصارنا أو هزيمتنا سينتجان من قيامنا بما رأيناه واجباً علينا بناءً على المعطيات المتوفرة، قمنا بتكليفنا، ومن بعدها النتيجة خير سواء انتصرنا أو انهزمنا، لأننا نتوقّع أجراً في الآخرة منه تعالى على التزامنا بتكليفنا.

أنت تعلم بالبداهة أنهم لم يذهبوا للحرب متوقعين الخسارة، بل بناءً على المعطيات تَرَجَّحَ لديهم النصر، فقاموا بواجبهم وانطلقوا للجهاد، ومن بعدها مهما حصل فهو حَسَنٌ، سواء انتصروا أم خسروا.

{وَنَحْنُ}، المؤمنين، {نَتَرَبَّصُ بِكُمْ}، ننتظر أن يحصل شيء نتوقّع حصوله بكم، {أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ}، بشيء يسبّب لكم الضرر، بمرض، بفقر أو بكارثة تميتكم... أو عذابِ الآخرة، {أَوْ بِأَيْدِينَا}، فيصيبكم العذاب منّا نحن مباشرة إذا أعلنتم ارتدادكم عن الدين، أو ساعدتم العدو، فسنقتلكم، أو ننبذكم ونقطع العلاقات معكم...

{فَتَرَبَّصُوا}، فانتظروا ما تتوقّعون حصوله بنا، من نصر أو هزيمة أو موت أو جرح... {إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ}، فنحن ننتظر أيضاً ما نتوقّع حصوله معكم وهو العذاب من عنده تعالى في الدنيا أو الآخرة أو بأيدينا.

هذا الكلام من الله تعالى يُعَلِّمُ المؤمنين أن يقولوه، مما يعني أنه ربما سيحصل مع هذه النوعية من الناس أشياءُ سيئةٌ هنا في الدنيا، ولكن بالتأكيد سيحصل لهم شيءٌ سيّءٌ في الآخرة. ضع هذا في بالك لأن كلا العذابين في الدنيا والآخرة هما عذاب، ولهذا السبب العديد من آيات القرآن لم تَرَ ضرورةً للتمييز بينهما، فقصدتهما معاً.

(قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ{53})
{قُلْ} عبر هذا القرآن لهذه النوعية من المسلمين الذين لا يريدون الجهاد لا بأنفسهم ولا بأموالهم:

{أَنفِقُوا}، اصرفوا أموالكم، {طَوْعًا}، بإرادتكم، {أَوْ كَرْهًا}، غصباً عنكم، ادفعوا للجيش المسلم أموالكم ليشتروا بها وسائل النقل والسلاح والتموين... بإرادتكم، تريدون أن يذهب خطر الأعداء عنكم فتدفعون للجيش، أو تريدون أن تحصلوا على رضا النبي(ع) والمسلمين... أو غصباً عنكم عن إحراج أو خوف من مقاطعة المسلمين لكم... في كلتا الحالتين، {لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ}، ما أنفقتموه من مال لن يَحْسِبَ سبحانه لكم عليه حسناتٍ، والسبب، {إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا}، أناساً لكم كيان الجماعة المتفاعلة مع دينه، {فَاسِقِينَ}، خارجين عن أمور علنية قالها الدين الإلهي، لأنه لم يكن دفعكم للمال نابعاً عن إيمان، بل نبع عن نوايا في أساسها مخالفة للدين، حيث دفعتم المال لمصالح شخصية سيئة أو بسبب الإحراج، لأيِّ سبب ستحصلون على الحسنات من الله تعالى؟

(وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ{54})
{وَمَا مَنَعَهُمْ}، وما سبّب لهم المنع، {أَن تُقْبَلَ} {نَفَقَاتُهُمْ}، أن يقبل تعالى المال الذي صرفوه على الجيش، {إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ}، حيث أنكروا أنه تعالى إله يجب أن يطيعوه، وأنكروا ثوابه الجزيل في الآخرة، {وَبِرَسُولِهِ}(ع)، أيضاً كفروا لأنهم لم يؤمنوا فعلاً بأنه مرسل وينقل لهم كلاماً من الإله سبحانه ولم يطيعوه.

{وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ}، حيث لا يقومون للتوجّه بالذكر إلى الله تعالى، {إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى}، لأنه ليس لهم رغبةٌ ولا همّةٌ ولا حبٌّ لعبادته تعالى، فإن كنت تراهم يصلّون وتعتقد بأنهم من المؤمنين الحقيقيين فاعلم أن هذه النوعية من الناس يصلّون ولا رغبة حقيقية لهم بالصلاة.

{وَلَا يُنفِقُونَ}، ولا يصرفون المال على مصاريف قتال الأعداء وعلى المحتاجين، {إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ}، غير راغبين بالإنفاق، ربما يكون لهم مصلحة في دعم الجيش حتى يتخلصوا من العدو، ويدفعون المال طوعاً، ولكن لن يدفعوا المال لو تأكدوا من انتصار المسلمين على العدو، لأنهم عندما دفعوه طوعاً، دفعوه كارهين للإنفاق من أساسه، وأما المؤمن الحقيقي، فيؤمن أن دفع المال على الجهاد يتقاطع مع رضاه تعالى وفرصة مناسبة لتحصيل الحسنات، وينفق وهو مسرور لأن المسلمين سينتصرون بسبب دعمه وسينال ثواباً منه تعالى.

المنافقون ينفقون كارهين على عموم ما في سبيله تعالى، كالإنفاق على المحتاجين، لأنهم من داخلهم لم ينفقوا قربةً لله تعالى...

نلاحظ الآية ربطت بين نفسية القيام للصلاة وهي التوجّه بالذكر إلى الله تعالى، وبين نفسية إنفاق المال من ناحية التقرب إليه تعالى، لو كان لديهم إيمان حقيقي، لكانت الصلاة بالنسبة لهم، كعمل خاص بين الفرد وربّه سبحانه كلحظات مهمة لهم، لأنها لحظات التوجّه إلى الله تعالى، ولكسب الحسنات ومغفرة الذنوب... ولو كان عندهم إيمان حقيقي، لكانت فرصة إنفاق المال على جيش المسلمين خصوصاً وفي سبيله تعالى عموماً، كعمل ديني له أثر جماعي، ولكانت فرصة لكسب الحسنات والتقرب إلى الله تعالى، ولكن كما هم كسالى عن الصلاة، يصلّونها مع شعور بالإكراه والانزعاج، كذلك ينفقون المال مع شعور بالإكراه والانزعاج، فكيف سيقبل تعالى أعمالهم ويعطيهم أجراً على الإنفاق أو على الصلاة؟

فلا يخدعك منظرهم وهم يصلّون وينفقون لأنهم من داخلهم فاسقون، وتبريراتهم لترك الخروج معك إلى قتال الأعداء ما هو إلّا دليل على كفرهم به تعالى وبرسوله(ع).

لاحظ مما سبق في السورة ربطها مراراً الصلاة مع الزكاة، وهنا ترى نفس الشيء، إذ إن الصلاة نموذج عن عمل ديني أثره فردي أولاً، والزكاة أو الإنفاق في سبيله تعالى عموماً هو نموذج عن عمل ديني له أثر جماعي مباشر، وكما ترى سياق الكلام هنا عن قتال الأعداء ومن متعلقات ذلك إنفاق المال على تكاليف القتال، لأن دينه تعالى ليس محصوراً بأعمال تخصّ الفرد كعلاقة شخصية بينه وبين ربّه سبحانه، لا، بل هو الدين الإلهي مرتبط بالأمور التي تمسّ المجتمع أيضاً.

حين نقول بأن الصلاة عمل فردي لسنا ننسى أثرها على الجماعة، لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر كما ورد في الآية 45 من سورة العنكبوت "اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ..."، وهذا نموذج يختصر كل بقية ما تفعله الصلاة بالفرد وينعكس أثرها على المجتمع.

(فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ{55})
{فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ}، لا يكن تقييمك لأموالهم ولأولادهم أنها حسنة جيدة، فلا تتمنّاها، {إِنَّمَا}، فقط وبالتحديد، {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، بطريقةٍ أو بأخرى سيتعذّبون وسيتعرضون للضرر وما يؤذيهم هنا في الدنيا بسبب المال والأولاد، {وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ}، فتغادر أنفسهم أجسادهم فيموتون بلا قيمة لموتهم، {وَهُمْ كَافِرُونَ}، وهم على حالة الإنكار للدين الإلهي بسبب تعلقهم بأموالهم وأولادهم أكثر من تعلقهم بالأوامر الإلهية.

ننتبه، فليس كل شخص من هذه النوعية من الناس الكارهة للجهاد، الكسولة عند الصلاة، المنفقة كرهاً للمال... الفاسقة... ليسوا كلهم لديهم مالٌ وأولاد، بل يوجد نماذج منهم في قمّة الاهتمام بالدنيا، وهم أغنياء ولديهم أولاد بصحة جيدة ومرفّهون... ومن هذه النوعية الكارهة للجهاد الفاسقة... يوجد فقراء أيضاً، ولكنهم لن يلفتوا الانتباه، بل يلفت الانتباه الغني الميسور المرفّه ذو العائلة الكبيرة المرفّهة... فتنظر إلى حالك، وتركت أهلك وأشغالك، وأنفقت القليل من المال الذي معك على الجهاد، وأنفقت صحتك ووقتك... وتنظر إلى ذاك النموذج الغني المرفّه السعيد مع أولاده من حوله... فتنبهك الآية أَلَّا يعجبك ما تراه، فهذا منظر خادع، والتعلق به سيسبب الفسق أو النفاق والعذاب في الدنيا، فهل تريد ترك الآخرة الخالدة لأجل مال وأولاد في الدنيا؟

بعبارةٍ أخرى من المهمّ أن نذكرها لتعلق في ذهننا، إنَّ القرآن عادة يشير لنماذج، ولا يقصد توجيه الكلام حصراً عن الحالات، فهنا الكلام عن متخاذلين عن القتال من المتعلقين بالدنيا، واكتفى القرآن بالكلام عن الأغنياء منهم، فهو كلام له معنى وستفهمه بسهولة لأن الأغنياء الذين لديهم أموال وأملاك ومصالح وأولاد... على الأقل لديهم سبب "وإن لم يكن وجيهاً في نظره تعالى" للتعلّق بالدنيا، ولن يكون للكلام عن الفقراء المتعلقين بالدنيا أي تأثير عليك، بل بالعكس فهؤلاء لو تكلمت الآيات عن تعلّقهم بالدنيا لكنت استغربت كلامها عنهم، إذْ لن تفهم سبب تعلّقهم بالدنيا لأنهم أصلاً فقراء محرومون من الكثير من متاع الدنيا... علماً أنهم حتى الفقراء فيهم فاسقون متعلقون بآمال الدنيا أو بالقليل التافه الذي معهم من متاعها.

بقي شيء مهمٌّ جداً ذكرناه هنا وهناك في دراستنا هذه، حيث كثيراً ما نسأل عن ذنب الذي ولد في بيئة بوذية أو هندوسية أو... وأنه لو ولد في بيئة مسلمة لجرى عليه ما تعارف عليه المسلمون على من نطق بالشهادتين أنه لا يخلد في النار مهما فعل، ولكان أمامه فرصة ليكون مؤمناً حقيقياً... أضف إلى هذا هالة القداسة التي يعطيها البعض للجيل الأول من المسلمين لمجرد أنهم رأوا الرسول(ع)، فلماذا أنا وأنت ولدنا في عصر آخر ولم نَحْظَ بهذا الشرف والقيمة عنده تعالى ولم نَكُ من الصحابة... ولماذا المولود في شرق آسيا أو أميركا... أصلاً لم تَصِرْ له فرصة الولادة في مجتمع مسلم...

كما ترى من الآيات هنا ومن العديد أمثالها، مَن كان في بيئة مسلمة وفي عصر الرسول(ع) فوضعه لا يختلف عن وضع الذي ولد في بيئة كافرة، فهنا أمامك مسلمون من المصلّين ومن المنفقين، ولكن في امتحان الخروج لقتال الأعداء سقطوا، وتشرح لك الآيات أنهم من الأصل هم ساقطون، ووصلت في تعبيراتها عنهم لتصفهم بالكفر والفسق! طبعاً لا

تذهب إلى حيث ذهب بعض المجرمين من المسلمين الذين يفتون بإهدار دم المسلمين الآخرين وحِلِّيَّةِ عرضهم ومالهم على أساس وصف القرآن لهم بالكفر، فهؤلاء هم نموذج الإجرام بزيّ الإسلام، فالآيات هنا وغيرها وإن كانت وصفت بعض المسلمين بالكفر والفسق والنفاق ولكنها أبقت على حرمتهم طالما هم في الظاهر مسلمون، وأصلاً حتى الكافر والمشرك والملحد... علناً، له حرمته إن كان مسالماً كما هو صريح القرآن ومنه الآية 8 من سورة الممتحنة {لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

في أي بيئة وفي أي ظرف كان، أيُّ إنسان كان قلبه سليماً فهذا لن يشرك به تعالى، ولن يؤذي الآخرين ولن يعتدي عليهم إلا إذا آذوه، وسيساعد المحتاجين... فهو بشكل ما "مؤمن"، وما يفعله أصلاً هو ما سمّاه تعالى دينه، وعلى هذا المعنى جاءت العديد من الآيات منها الآية 2 من سورة البقرة فراجع دراستها لمزيد من التفاصيل {ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، ولكن إذا وصله دينه تعالى ولم يؤمن ويلتزم بالتفاصيل التي فيه... يصير حاله مثل حال فُسَّاقِ ومنافقي المسلمين، فالفسق والنفاق درجات وأعلاها مساوية للكفر والشرك، وأقلّها هو حالتنا نحن ضعاف الإيمان.

عادةً يوجه القرآن كلامه لأناس وصلهم الخبر عن نزول كتاب منه تعالى، ويحمّلهم مسؤولية إهمال الاهتمام به... فلا معنى لتوجيه الكلام لمن لم يصله الكتاب، وإن فرضاً لم يصل لبعض الناس خبر عن دينه تعالى ولا عن كتبه... يحاسبنا سبحانه وتعالى على القلب السليم الذي خلقنا سبحانه به، وقمنا بإفساده... وهذا في أساسياته ليس ببعيد عن محاسبته تعالى لنا نحن المسلمين. المشكلة أننا نظنّ بامتياز وأفضلية لنا على الآخرين لأننا مسلمون، ولكن هذا لا شيء ولا قيمة له، فذو قلب سليم سيصيب الكثير من الإيمان بالحقّ والعمل الصالح... وحتى لو كان يعيش في غابة ولم يسمع بأي شيء من دينه تعالى، فهذا أفضل منّي ومنك.

(وَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ{56})
هذه النوعية من الناس: {وَيَحْلِفُونَ} لكم {بِاللَّهِ}، فيقولون كلاماً ليبرروا لكم تخاذلهم عن الجهاد ولِيُؤَكِّدُوا لكم، {إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ}، فيقولون: والله نحن مسلمون مؤمنون مثلكم، ولكن ظروفنا تختلف عن ظروفكم، فأنتم يمكنكم الخروج للجهاد أما نحن فلا نقدر، لأن صحتنا لا تسمح، أو لأن أشغالنا ستخرب... ولكننا مثلكم مسلمون مؤمنون.

{وَمَا هُم مِّنكُمْ}، لا ليسوا من المؤمنين بالدين الإلهي.

{وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ}، أناسٌ لهم كيان الجماعة، {يَفْرَقُونَ}، يصيبهم الفَرَقُ فيصيبهم الخوف من أقل شيء، وهنا مجرد الكلام عن القتال الذي فيه احتمال الموت قتلاً أو الوقوع في الأسر أو التعرّض للجرح... يسبّب لهم الفَرَقَ "الخوف" وهم يحلفون أنه ليس بسبب الخوف من ذلك لم يخرجوا بل لأسباب أخرى.

(لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ{57})
{لَوْ يَجِدُونَ}، لو وَجَدَتْ تلك النوعية من الناس، {مَغَارَاتٍ}، فجوات في الجبال، أو يجدون، {مُدَّخَلًا}، "بالشدّة على حرف الدال" شيئاً يدخلون فيه تحت الأرض، مغارةً تحت الأرض أو نفقاً، {لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ}، لوجّهوا وجهتهم باتجاه المغارة أو المُدَّخَلِ، لتركوكم وهربوا إليه، {وَهُمْ يَجْمَحُونَ}، حيث يركضون إلى المغارة أو النفق بهدف الهرب بسرعة كبيرة ومن دون أي التفات إلى الوراء، ويقفزون فوق العوائق من دون إبطاء للسرعة، مثل الحصان الجامح الذي لا يتوقف مهما ظهر أمامه من عوائق.

هم جبناء وخوفهم من القتال هو من الأسباب الحقيقية لتركهم الخروج معكم، ولو فرضاً ذهبوا معكم وحصل القتال وتوافر لهم مخبأ لهربوا إليه مسرعين بأقصى سرعة.

(وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ{58})
بعد انتهاء الآيات السابقة من الحديث عن المتخاذلين عن الجهاد بالمال والنفس... نكمل في الآيات التالية مع بقية أنواع الآفات السيئة من الناس في المجتمع الإسلامي:

{وَمِنْهُمْ}، من المسلمين من النوعية السيئة، {مَنْ يَلْمِزُكَ}، فيقوم بفعل اللَّمْزِ وهو يقصدك أنت، واللَّمْزُ هو فعل الشدّ بقوة على شيء ما، وهنا المقصود عموم أي حركة شدّ بأعضاء الجسد ليشير شخص إلى شخص بقربه ليلتفت إلى النبي(ع) أثناء توزيعه للصدقات، حيث يَشُدُّهُ من ثيابه أو من يده... كتعبير عن اعتراضه، {فِي الصَّدَقَاتِ}، في توزيعك للأموال التي من الزكاة والخمس والتبرعات... وكان يتم جمع كل الأموال من المصادر المختلفة، وتقسيمها وتوزيعها على المسلمين بحسب ما يراه الرسول(ع) مُناسِباً بحسب الظروف المختلفة للناس، ونعلم من التاريخ أنه فيما بعد مع تطوّر مركزية الحكومة الإسلامية صار التوزيع على المحتاجين يتم بمعاشات شهرية يتخلّله بعض الاستثناءات في زيادة لبعض على آخرين بحسب ظروفهم... وهنا الكلام عن أصل تقييم النبي محمّد(ع) للذين هم بحاجة لحصّة من الصدقات، والذي يعتبر نفسه أحقّ "السبب أو لآخر" فله أولوية أكثر من الآخرين بالحصول على حصّة من الصدقات ولم يحصل عليها عندها يقوم بِاللَّمْزِ، وهي أقل حركة تعبّر للآخرين عن الاعتراض على توزيع الصدقات، والأعلى منها الكلام بالسوء واتهام النبي(ع) بتوزيع الصدقات على هواه، وبتفضيل الآخرين عليهم لمصالح شخصية للنبي(ع)... أو لقرابته منهم أو لصداقته معهم...

{فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا}، فأخذوا حصة من مال الصدقات، {رَضُوا}، عبّروا عن قبولهم بمحبّة ولم يلمزوا النبي(ع) وصار التوزيع عادِلاً في نظرهم!

{وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا}، فإن لم يعطهم النبي(ع) من مال الصدقات، {إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ}، فتصيبهم حالة الرفض مع الكره للرسول من طريقة توزيعه للمال، وتصدر عنهم تعابير الاعتراض التي أقلّها اللَّمْزُ بشدّ الآخرين الواقفين بجانبهم ليلتفتوا إلى الحصّة التي حصل عليها الآخرون...

كلام الآية عن نموذج اللمز لأنهم أمام الجميع لن يعلنوا اعتراضهم وسخطهم، بِحَرَكَةٍ خفيفة بشدّ ثياب أو بشدّ يد الذي بقربهم... يعبّرون عن اعتراضهم.

(وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ{59})
{وَلَوْ أَنَّهُمْ}، هؤلاء الناس، {رَضُوا مَا آتَاهُمُ}، عبّروا عن قبولهم بمحبّة للذي حصلوا عليه من، {اللَّهُ وَرَسُولُهُ}، ولو أنهم، {قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ}، نعتقد أننا مكتفون به تعالى ولا نحتاج لأي شيء آخر من أي أحد، فما نحتاجه سنحصل عليه منه تعالى ولا نأمل بالخير لسدّ حاجتنا إلا منه تعالى، وبناء عليه لو قالوا: {سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}، فسيصلنا منه تعالى أمور جيدة وليس فَرْضاً واجِباً عليه تعالى أن يعطينا إياها، {وَرَسُولُهُ}، أيضا سيعطينا من فضله فليس واجِباً عليه (ع) أن يعطينا، {إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ}، فلا نرغب ولا نريد سواه أن يعطينا، بل نحبّ أن نحصل على ما نريد منه تعالى.

الموقف الإيماني الصحيح من توزيع أموال الصدقات هو الرضا بالتقسيم الذي استثناك أو الرضا بما حصلت عليه حتى لو كنت ترغب في أكثر مما حصلت عليه، وأن تتوجه بالدعاء لربك تعالى بإعلان الاعتماد عليه تعالى والرغبة في فضله... واعتقادك بأنه تعالى موصوف بالفضل ورسوله(ع) أيضا موصوف بالفضل.

لو رأى الرسول(ع) أنك بحاجة أكثر من غيرك لزاد لك في حصّتك... ولو كنت بحاجة أكثر من غيرك ولكن المعطيات أمام الرسول(ع) تشير لآخرين محتاجين أكثر منك، فكمؤمن أنت تعتقد بأنه تعالى ورسوله لا يظلمان، وأن ما تحصل عليه من الصدقات فهو فضل منه تعالى ومن رسوله(ع)، وليس حَقّاً مَسْلوباً منك، وتعتقد بأنه تعالى ورسوله(ع) لن يتخليا عنك إن صرت بحاجة للمساعدة.

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{60})
التَّقْسِيمُ الْأَصْلِيُّ للصدقات ليس مِزاجِيّاً حتى تتهموا النبي(ع) بأنه يوزّعها على مزاجه، لأنَّ عناوين توزيعها كما يلي:

{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ}، الأموال والأملاك التي جرى جمعها من مصادر مختلفة "زكاة خُمْسٌ تبرعات..." هي:

{لِلْفُقَرَاءِ}، للذين لا يملكون ما يسدّ حاجتهم، فهم محتاجون للطعام أو الثياب أو المسكن... {وَالْمَسَاكِينِ}، للمحتاجين للمساعدة بسبب الظروف الصعبة، حتى لو كان عندهم بيت أو أرض أو مصلحة تجارية... ولكن أمورهم المالية متعثرة

ويحتاجون للمساعدة، ولهم حصّة من المساعدات، وهذه الحصة تبدأ من الفقير فَقْراً مُدْقِعاً الذي لا يملك ثمن وجبة طعام... وصولا إلى الذي يملك بيتا أو متجرا ولكن حاليا ظروفه المالية صعبة. ومن هذا التعريف للمسكين تعلم سبب ذكر الآية للفقير أوّلاً لأنه أشد درجات المسكين حاجة.

{وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا}، الموظفون الذين يقضون وقتهم في تحصيل وتوزيع وحراسة وحسابات... الصدقات، وهؤلاء المهتمون بالمساعدات لهم "معاش" أجار من الصدقات.

{وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ}، وهم الأشخاص الذين تريدون تأليف قلوبهم حتى يصير بينهم وبينكم إلفة، حيث تريدون أن يصير بينكم وبينهم تَماشٍ واعتياد بلا تنافر وتقارب وعلاقات حسنة، إذْ هناك دائما أشخاص "مُسْلِمُونَ أو غير مسلمين" يريدون الاستفادة المالية، وإلا فسوف يقومون بالتشويش سياسيا واجتماعيا وأمنيا... وتصعيب حياة المؤمنين... فيقوم الرسول(ع) "أو القائد" بإرضائهم بحصة من الصدقات، حتى لو كانوا أغنياء، لِيُرْضِيَهُمْ ليكسب رضاهم ويبعد خطرهم عن المسلمين، هذا إن كان إرْضاؤُهُمْ بالمال هو الحلّ الأنسب...

ننتبه، لأنَّ هذا التفسير "للمؤلفة قلوبهم" يتناسب تماما مع معاني الكلمات، فلو كانوا مؤمنين حقيقيين فما معنى تأليف قلوبهم! إذن هم أناس بشكل أو بآخر يبتعد خطرهم وأذاهم عن المسلمين بإعطائهم المال وبذلك يصيرون أَلِيفِينَ مع المسلمين. ويدعم هذا التفسير ما هو مشهور جدا في التاريخ، حيث ذكروا قرابة الأحد عشر شخصا كانوا من الوجهاء وكان النبي(ع) "في آخر حياته" يخصّصهم بحصص مالية ومادية كبيرة حتى لا يستغلّوا قدرتهم على تسبيب البلبلة والأذى والفتنة... بين المسلمين. ونجد أحداثا تاريخية أخرى عن العديد من الأشخاص الذين حصلوا من النبي(ع) لمرة واحدة "أو أكثر" على كمية مالية أو مادية كبيرة حتى يرتاح المسلمون من شرّهم ومضايقاتهم...

والصدقات لمن هم، {وَفِي الرِّقَابِ}، كما نقول: هذه العيال في رقبتي. يعني أنا مسؤول عن العناية بهم، وأشهر نموذج لمن في رقبة الشخص هم الْمَمْلوكُونَ التَّابِعُونَ له أو التَّابِعُونَ للمسلمين الآخرين، ولكنه تعبير عامّ لعموم الذين هم في رقبته وهو مسؤول عنهم لتعلّقهم بشكل أو بآخر به، كالخدم والعمّال الذين قضوا عمرهم معه ولا يجيدون عملا إلا بخدمته... أو هم أصلا يعملون مقابل الطعام... وأيضا الأسرى والمساجين وأمثالهم من الذين لا يمكنهم العمل لتأمين المال للطعام أو اللباس وصاروا في رقاب المسلمين، وصارت رعايتهم واجبة على المسلمين، وأيضا أسرى المسلمين عند الآخرين ودفع الفدية عنهم أيضا مشمول بعنوان "في الرقاب"... لذلك لم أجد في كلام أهل اللغة العربية قديما ولا في القرآن ما يخصّص كلمة "في الرقاب" التي وردت مرتين، هنا وفي الآية 177 من سورة البقرة، ولم أجد ما يخصّصها فقط للمملوكين، ووجدت في تاريخ الرسول(ع) تَوَسُّعاً في عنوان صرف الصدقات ليشمل العناية بالأسرى...

والصدقات لمن هم من، {وَالْغَارِمِينَ}، وهم الأشخاص الذين عليهم مغرم، ووقعوا تحت شيء ثَقِيلٍ، حيث وقعوا تحت عجز مالي بسبب دين أو ديّة يجب دفعها...

{وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ}، حيث يتم صرف مال الصدقات على الأمور التي تتماشى مع أوامره تعالى، في الأمور التي فيها مرضاة لله تعالى، كبناء المدارس والمساجد والطرقات، وتجهيز الجيش ومعاشات للمقاتلين...

{وَابْنِ السَّبِيلِ}، وهو الشخص الذي كان مسافرا ووصل إلى بلد غريب، ولم يَبْقَ معه مال ليصرف على نفسه، أو لم يَبْقَ معه مال ليرجع إلى بلده، ولا يمكنه جلب المال من بلده إلى حيث هو... فيجب مساعدته بحسب ما يحتاجه حتى لو كان غنيا في بلده، ومساعدته تكون إمّا بدفع مصاريف سفره ليرجع إلى بلده، أو دفع مصاريف إقامته إلى حين تتغيّر أوضاعه ويتمكّن من الرجوع إلى بلده، أو إلى حين يصله مال من أمواله التي في بلده....

{فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ}، لأنَّ هذا التقسيم للمال بهذه الطريقة هو فرض واجب عليكم، هو أمر أوجبه سبحانه عليكم، فلا يحق لكم المزاجية في توزيعه بالخروج عن هذه العناوين.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ}، حيث يعلم كل شيء وعن علم قرّر سبحانه توزيع المال بهذا الشكل، كحالة من يصف لك الدواء فإن كان طبيبا متخصصا فعن علم وصف لك الدواء، وكحالة من سنّ القوانين فإن كان متخصصا فعن علم سنّ القوانين.

{وَاللَّهُ حَكِيمٌ}، حيث يرى الصوابية في الأمور ولا يعبث ولا يتسلى، فعن صوابية قرّر سبحانه تقسيم المال بهذا الشكل.

دائماً الآيات القرآنية تبدأ بالكلام عن حصّة للمساكين من الأموال التي للتوزيع، ثم تذكر بقية الحصص، وهذا يشير بشكل ما إلى أولوية للمساكين في توزيع الصدقات، وبالتالي فضمنيا يكون اليتيم الفقير أولى الأولويات، ويليه عموم أي فقير كما نفهم من عموم القرآن، ومن بعده نصرف بالتدريج على بقية العناوين التي ذكرتها الآيات.

بعبارة أصرح الآية لا تقصد تقسيم الصدقات إلى حصص متساوية للعناوين التي ذكرتها، فمثلا لو لم نجد ابن سبيل فهل نراكم تحت هذا العنوان حصّة من الصدقات بانتظار أن يأتي ابن سبيل ونعطيه منها؟ طبعا لا معنى لذلك، وأظن أنه من أسباب ذكر القرآن له مع أنه حالة نادرة، أن نلتفت أن التقسيم ليس للتساوي وليس للاحتفاظ بحصص للعناوين، فالآية هنا وأي آية أخرى تحدّثت عن عناوين صرف الصدقات كانت تشير للعناوين فقط، ولا تقصد تساوي الحصص.

القرآن عادة يذكر الْإِنْفاقَ على المساكين، ونادرا ما استعمل وصف الفقير، وآياتنا هنا هي الوحيدة في القرآن التي ذكرت الفقراء إلى جانب المساكين في احتساب حصّة لهم من الأموال التي للتوزيع، فالمسكين هو أي إنسان عادي عاكسته الظروف وصار بحاجة للمساعدة، فربما هو يملك أرضا أو بيتا أو سيارة أو محلا تجاريا... ولكن عاكسته الظروف، وقد تصل به الأمور إلى أن يصير فقيرا لا يملك أي شيء، فالمسكين حالة لها درجات أقصاها الفقر على معنى أنه لا يملك أي شيء له قيمة تقريبا. وبناء عليه فالوضع الطبيعي لأفراد المجتمع أنه إذا كان بينهم من يحتاج للمساعدة فهو صار محتاجا للمساعدة بسبب تعرّضه لظروف قاهرة، ومن المفروض عادة أن لا يصل إلى حدّ الفقر لأنه ليس كسولا خاملا هاملا منتظرا للمساعدة.

أمّا الخمول الكسول المعتمد على الصدقات "المتسوّل" مع قدرته على العمل، فهو فقير لدرجة حاجته لوجبة طعام... وهذا يجب أن يكون حالة شاذة في المجتمع المسلم، حيث إنَّ في خلفيتنا الثقافية التي نعتقد أنها متماشية مع مفاهيم القرآن نرى الواجب على كل واحد منا بالعمل على تحصيل رزقه إن كان من القادرين على العمل على تحصيله، علما أن الكلام هنا دقيق، ويبدأ من الأدبيات وصولا إلى الحقوق والواجبات، إذْ من الأدبيات التي لا تجبر أحدا على الالتزام بها، أن يعتمد كل واحد على نفسه في تحصيل رزقه، فربما تبرّع أحد ما لك بما يغنيك عن العمل، علما أنك قادر على العمل، فهل هذا حرام؟ لا. وهكذا وصولا إلى الاتكالية على الآخرين الرافضين لهذه الاتكالية عليهم، كالحالة التي يصل إليها أب تقدّم في العمر وصار العمل يرهقه بينما له أولاد بنات أو ذكور قادرون على العمل ولا يعملون وهم متّكلون على أبيهم ليعيلهم... والكثير من التفاصيل التي تجعل إصدار حكم حادّ على حالة الفقر بأنه ناتج عن نفاق أو فسق أو ضعف إيمان أو استعباد غير معلن للآخرين ليجتهدوا وتأكل رزقهم... أو مجرد استهتار... لذلك فإنَّ الحكم العام غير ممكن إلا بعد دراسة مختلف الظروف لمختلف الحالات والحكم على كل حالة على حدة.

وعلى ما يبدو ذكرت الآية هنا الفقير قبل المساكين لنفهم منها أن له الأولوية، ومنه الحالة الاستثنائية للمهاجرين التاركين لأملاكهم بسبب إيمانهم والواردة في الآية 8 من سورة الحشر {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}، لأن سياق الكلام في الآيات كان عن اعتراض بعض الناس على تقسيم الصدقات، حيث قد يحصل نِقاشٌ في درجة المسكنة وبالتالي نقاش فيما يحصل عليه ذاك المسكين أو ذاك... ولكن من سيناقش في أولوية المساكين لدرجة الفقر في الحصول على حصّة من الصدقات فهذا فاقد لإنسانيته، لأنه يريد المال من الصدقات على حساب حرمان أو تنقيص حصص يقوم النبي (ع) بتوزيعها على هذا المقياس الإلهي بالعناوين التي ذكرتها الآية هنا، وماذا يريد هو أن يفعل بذلك المال؟ يريد الترف به، يريد الترفّه، يريد تكديسه... في مقابل مسلم حالته سيئة جدا!

بقي شيء، حيث إنَّ في كتب الفقه والفتاوى تجد تفصيلات كثيرة لعنوان قصير ذكره القرآن، كعنوان الفقير والمسكين، وهذه التفصيلات لم يذكرها القرآن لأنه افترض فينا العقلانية لمعرفتها، فراجع ما قلناه قبل أسطر قليلة عن شروط مساعدة ابن السبيل والفقير، إذْ توسَّعْتُ قليلا في الكلام عن قصد حتى تنتبه أنها أمور يمكنك أن تزيد عليها من عندك أمورا أخرى، ومثلها في عبارة {وَفِي الرِّقَابِ} و{وَالْمَسَاكِينِ}و {وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ} **..." حيث إنَّ تحديدهم وتحديد كمية وكيفية مساعدتهم ومتى ولمتى... فهي أمور تفصيلية تركها القرآن وافترض بالمتخصصين أن يكون فيهم عقلانية سنّ القوانين والتشريعات بناء على مفاهيم القرآن، وهكذا بوضوح يكون كلام القرآن عن تولّي الرسول(ع) لتوزيع الصدقات على أنه مراقب لتوزيعها بأحسن ما يمكن، فهو الكلام عن نموذج لأي قائد تولّى شؤون الناس...

(وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{61})

نكمل مع مختلف آفات المجتمع المسلم: {وَمِنْهُمُ}، ممن ظاهرهم الإسلام مِنهم، {الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ}(ع)، فيقولون عنه كلاماً مؤذياً يتضايق منه ولا يحبّ أن يقولوه، {وَيَقُولُونَ}: {هُوَ}، النبي(ع)، {أُذُنٌ}، يُدير أذنه لأي كان، فأي واحد قال للنبي(ع) شيئاً فالنبي(ع) يصدّقه، ويقصدون أنه (ع) بسيط وأي شخص يمكن أن يديره ويقنعه، مثلما نقول: كُلّي آذان صاغية**،** حين أستمع إليك جيدا، فهنا التعبير بأن النبي(ع) {أُذُنٌ} أي يعطي أذنه ويسمع لمن يتكلم معه ولا يصدّه ولا يكذّبه...

{قُلْ}، لهؤلاء الناس: {أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ}، نعم النبي(ع) أذن يَسمع كلامكم ويصدّقكم ويقبل ما تقولونه، لأن حالة سماعه لكلامكم هي حالة خير، قارنها مع الشكّاك أو المكذّب لكل ما يسمعه حتى لو كانوا صادقين، فأذنه أذن شرّ، ولكنه (ع) يقابلكم بأذن خير لأنها صفة نابعة من أخلاقه العالية، وتفترض فيكم الخير، فهو لا يسمع كلامكم ويصدقّه لأنه بسيط، بل لأنه {يُؤْمِنُ بِاللَّهِ} تعالى، فيعتقد بصحّة كل ما يقوله له تعالى، {وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ}، فيعتقد بصحّة ما يقولونه لأنهم معتقدون بالله تعالى، فمن المفروض أن يكونوا صادقين وليس لديهم نوايا سيّئة. فمثلما يعتقد (ع) بصحة ما يقوله له الله تعالى بناءً على اعتقاده بصفاته تعالى العالية الحسنة، فهو (ع) يعتقد بصحة ما يقوله المؤمنون بالله تعالى بناءً على أن إيمانهم به تعالى يمنعهم من الكذب.

النبي(ع)، {رَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا}، فهو نموذج عن العناية الإلهية لما فيه مصلحة الذين اعتقدوا بهذا الدين الإلهي، فكونه {أُذُنٌ} فهذا ليس عطلا فيه بل هي صفة جيدة فيه، بل وهي من الصفات التي سبّبت اختياره ليصير نبياً رسولاً لما فيه مصلحة الناس.

قارنها مع القادة والمسؤولين والذين لديهم مناصب كبيرة أو صغيرة... فهم ليسوا مستعدين لسماع كلام الآخرين على أساس أنه لا أحد يفهم أكثر منهم! أو على أساس التمسّك برأيهم الذي يناسب هواهم حتى لو كان مخالفاً للدين وللعقل والمنطق... وينتج عن ذلك أذية وأمور مخالفة لمصلحة الذين تحت أمرهم، والرسول محمّد(ع) ليس فيه هذه الصفة، بل يستمع لأي رأي من أي مؤمن كان، وحتى لو كان ما يسمعه (ع) سخيفاً فهو لا يبدي ذلك، فلم يكن فظّاً غليظا، بل دائما يظهر اهتمامه بما يسمعه، ولهذا قالوا عنه (ع) أنه {أُذُنٌ}، وهذا لا يعني أنه (ع) بسيط فكرياً، فمن المعلوم أنه (ع) عادة كان يستمع للجميع وعادة في الأخير يعرض ما توصّل إليه على الآخرين ليوافقوا عليه ويمشوا كلّهم على رأي واحد، إلا في حالات نادرة جدا تستدعي السرية، وهذا من أسباب نجاحه في تكوين نواة دولة حيث عجز الكثير من الرسل عن ذلك.

نقل لنا التاريخ عدّة مواقف توافق عليها عموم المؤمنين في النهاية على رأي واحد، كحالة الهجوم على الخائنين من يهود المدينة وجوارها... ومواقف أخرى حصل فيها تغييرهم لرأيهم فيما بعد كحالة ما قبل معركة أحد... ومواقف غيرها لم يحصل فيها توافق جماعي ولكن الرسول(ع) حسم أمره ومشى على رأي واحد، كحالة الخروج لملاقاة الكفّار قرب جبل أحد... وحفّزه سبحانه وتعالى على المضي بما يراه مناسباً بعد استشارة الآخرين حتى لو غيّروا رأيهم فيما بعد لأن الأمور العامّة لن تمشي إذا كان هناك أناس هم بالأصل لا يستقرون على رأي، وترى ذلك في الآية 159 من سورة آل عمران {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}، وفي خضمّ كل ذلك كان النبي (ع) قبل اتخاذه لأي قرار يستمع لأي رأي من أي أحد، وبعض الذين يرون أنفسهم أفهم من الآخرين وأن النبي (ع) من المفروض أن يسمع لآرائهم فقط... علّقوا على تصرفات النبي (ع) أنه بسيط ويسمع لأي كان.

{وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ}، والقرآن استعمل كلمة "أذى" غالباً لما تشتكي منه نفسياً، وهنا الأذية من الكلام السيّء عنه (ع)، بأنه بسيط أو يديره أي كان... فهؤلاء، {لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، لهم شيء يصيبهم بالضرر ولا يمكنهم تحمّله أو الاعتياد عليه، وتعلم أنه عذاب في نار الآخرة.

لاحظ النتيجة التي وصلت إليها الأمور بسبب قيادة النبي محمّد(ع) للمسلمين، أنشأ نواة دولة من أجلاف جهّال عصبيين... وطوّرهم فكرياً ونفسياً وعلمياً... حتى صاروا منظمين ومشرّعين وعسكريين مخضرمين... فما تقرأه هنا

من تعليقات عليه (ع)، تريك جانباً من معاناته مع المدّعين للفهم، والذين تعليقاتهم لم تكن إلا أذى، فلولاه (ع) لكان تسجّل لهم في التاريخ أنهم الأمة التي اكتشفت التداوي ببول الجمل، كأعظم إنجاز لهم...

نفس معاناته (ع) مع المدّعين للفهم تراها دائماً في كل العصور، يتعرض لها المتصدون للشأن العام من الصالحين، ولا يتحملون الضغط، فيتركون السلطة والحكومة لأنجاس فسقة ومنافقين يتحمّلون الضغط من كل الأنواع، وحتى الإهانات منها والتشهير... لأنهم أصلاً بلا كرامة ولديهم أهداف سيئة مصرّون على تحقيقها... ويعلمون أنهم إذا استحكموا بالسلطة فسيفعلون ما يريدون، وكل ما سبق من معاناة في سبيل الوصول إلى السلطة سيصير من الماضي، وفي طريقهم للوصول إلى السلطة لا مشكلة عندهم بالكذب ولا بالظلم للآخرين ولا حتى بالقتل...

هكذا تكون الآيات هنا درساً للصالحين أن يصبروا ويستمروا في تولّي مسؤولياتهم، فها محمد بن عبد الله(ع) نجح في ظروف من أصعب ما يكون، بل من الصفر، بل وأي دارس للتاريخ سيحكم باستحالة حدوث ما حدث من تشكيله (ع) لنواة دولة من أيبس رؤوس خلقها تعالى على وجه الأرض...

تكون الآيات هنا درساً للمدّعين للفهم وهم لا يرون أبعد من أنوفهم، ولكثيري التعليقات من دون طرح الحلول، أو طرح حلول من نوع الكلام الناتج عن أحاديث شرب القهوة عند الصباح... فهؤلاء قد لا يعلمون خطورة ما يفعلونه من تدمير للصالحين المحاولين جهدهم لما فيه رضاه تعالى... ولا يعلمون أن نتيجة أفعالهم خلودٌ في النار كما ستقول الآية بعد التالية...

(يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ{62})
هذه النوعية السيّئة من الناس: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ}، فيقولون كلاماً تأكيدياً لتبرير شيء فعلوه أو قالوه، {لِيُرْضُوكُمْ}، لتعبّروا عن قبولكم بمحبّة عن أقوالهم، بعد أي شيء سيّء يفعلونه، يقومون بِالْحَلِفِ يقولون مثلاً: والله لم نقصد السوء، أو: والله لم نقل الكلام السيّء... يقولون ذلك حتى لا تغضبوا عليهم.

كما ترى، هناك مؤمنون يواجهون هذه النوعية السيئة من الناس، وَيُرُونَهُمْ خطورة وسوء ما يفعلونه من تعليقات... حيثُ يحلف السيئون للمؤمنين بأنهم لم يقصدوا إلا الخير...

{وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ}، صحيح أن رضا المؤمنين عليهم شيء جيد، ولكن من الأساس الأفضلية هي أن يرضى عليهم سبحانه فَيَقْبَلَ ما يفعلونه بمحبّة، ورسوله(ع) أيضاً يقبلهم بمحبّة، فما الفائدة إن رضي الناس عنهم ولكن سخط وغضب الله تعالى والرسول(ع).

{إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ}، إن كانوا فعلاً معتقدين حقاً بهذا الدين فالأولوية بالدرجة الأولى هي تحصيل رضاه تعالى ورضا رسوله(ع) وليس رضا الناس.

هم لا يعتبرونه (ع) فعلاً ذا قيمة عالية، لذلك يَفْصِلُونَ بين علاقتهم مع الرسول (ع) وبين علاقتهم مع المجتمع حول الرسول(ع)، على أساس أنهم يمكنهم أن يشكّلوا من داخل المجتمع المسلم مجموعة معارضة للرسول(ع)، وَيَهْتَمُّونَ بِرِضَا بعض الناس ويبررون لهم تصرفاتهم وآخر همّهم رضاه تعالى ورضا الرسول(ع)، فكيف يَكُونُونَ مؤمنين حقيقيين وهم بعقلية وتصرفات كهذه!

(أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ{63})
هؤلاء الذين يؤذون النبي(ع) ويسترضون الناس: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ}، من يكن صلباً قاسياً، لا يهمّه رضا الله ورسوله، {فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ}، حيثُ سيكون في نار المكان الموصوف بسوء ما فيه، {خَالِدًا فِيهَا}، لا يموت ولا يفنى ولا يخرج منها، ذلك العذاب الخالد هو {الْخِزْيُ الْعَظِيمُ}، فلا شعور بالإهانة والاستحقار بسبب قبيح ما فعلوه أعظم من دخولهم إلى النار.

تذكّر دائماً أن كلام القرآن عن النبي محمّد(ع) هو كلام عن نموذج، ولم تذكره الآيات هنا لتأريخ شيء قديمٍ لم يعد له تطبيق فيما بعد موت النبي محمّد(ع)، فهو (ع) نموذج عن أي قائد يتصدّى للولاية على المسلمين، طبعاً مع الفارق

الهائل بين كون الرسول محمّد(ع) نموذجاً مثالياً مثالية تفوق التصور البشري المعتاد من شدة استقامته على الهدى، والكلام هنا عنه(ع) كقائد يمشي بالضبط على رضاه تعالى، وحكيم، ورحيم بالمؤمنين، وحليم ورحب الصدر بدرجة غير معقولة... ومن الخطأ أن نطلب تواجد هذه الصفات فيمن سنتبعه في عصرنا لأنها صفات شبه مستحيل بل مستحيل تكرارها في شخص بعد النبي محمّد(ع).

يبقى التطبيق لعموم كلامه تعالى عن النبي محمّد(ع) كنموذجٍ لأي قائد نعلم أنه الأصلح إيمانياً ولديه الكفاءة المقبولة...

حتى إنّ مفاهيم القرآن تجعلني أقول رأيي بكل صراحة، التهديد هنا بالخلود في النار لمن حادده تعالى ورسوله، هو نفسه موجّهٌ لمن حادده تعالى وحادد أي مؤمن صالح يحاول جهده فيما لديه من مسؤوليات، طبعاً كلما علت المسؤوليات كلما علت الخطورة، إذ إنّ الناقدين بقصد الهدم والتخريب على ما يفعله قائد مؤمن يحاول جهده ليفعل صالحاً، هؤلاء موجّهٌ لهم عبر الآية هنا التهديد بالخلود في جهنّم...

(يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِئُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ{64})
{يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ}، ينتبه الأشخاص الذين يظهرون الإيمان ولكنهم من الداخل ليسوا مؤمنين، ينتبهون من احتمال لشيء سيحصل بالتأكيد إذا اكتملت شروط حصوله وهو، {أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ}، يَنزل منه تعالى كلام تام يدور حولهم ويتكلّم عنهم، وهنا المقصود هو كلام من القرآن يفضح نفاقهم، يَحذرون نزول وحي قرآني بمجموعة جمل تتحدث عن موضوع نفاقهم، {تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ}، تعلن لهم ما هو موجود ومستور في أساس تفكيرهم ونفسيتهم، فهم مستترون بغطاء الإيمان وأساس فكرهم ونفسيتهم ليس متوافقاً مع الإيمان، فيحذرون من انفضاحه بكلام قرآني.

{قُلِ}، للمنافقين عبر هذا القرآن: {اسْتَهْزِئُوا}، والكلام هنا عن تعاملهم مع الرسول(ع) من خلفية اعتباره بلا قيمة والاستهانة به، {إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ}، أنتم تحذرون نزول سورة تتحدث عن نفاقكم، فستخرج تلك السورة وتتحدث عنكم.

ها قَدْ خرجت هذه السورة وتحدثت عن المستهزئين بالرسول(ع) واللامزين له بالصدقات... وبيّنت فكرهم ونفسيتهم الفاسدة، ودافعت عن رحمة وطيبة قلب الرسول(ع)... ووعدت المنافقين من الدرجة العالية بالعذاب الخالد في الآخرة...

ننتبه، نحن لا نتوقع من منافق أن يؤمن بأنه تحت مراقبته تعالى وأن القرآن وحي إلهي، وبالتالي فهو لا يؤمن بمراقبته تعالى إن سخر من الرسول(ع)، ولا يؤمن بأنه سينزل قرآن ليفضحه، لِذلِكَ نعتبر أن هذا التوقّع يحصل من مؤمن وليس من منافق، ولكن هذا النوع من النفاق موجود، فهو خليط بين تكرار كلمات الإيمان، وتكرار كلمات الكفر، وهذا هو النفاق أصلاً، فالمنافق يعرف أشياء كثيرة عن الدين، لأنه يتظاهر بأنه مؤمن متدينٌ، ويعرف أن القرآن بعض الأحيان يفضح نفسيات الناس السيئة، وعندما يقوم بالسخرية مِنَ النبي(ع)، ويضحك ويلمز ويستهزئ ويتسلى، ولكنه بعد ذلك، يفكّر بأن القرآن قَدْ يفضح نفاقه، وها قَدْ حصل ذلك.

قارنها مع أفعال ضعفاء الإيمان، الذين يقومون بالسوء وبعدها يخافون أن يعاقبهم سبحانه عليها! بل قارنها مع فسقة لا يقيمون وزناً لأي كلام إلهي، وهم منتمون لدينه تعالى بالاسم، فهؤلاء كبروا ضمن أجواء من التراث الديني، ومع أنهم لا يصلّون ولا يصومون... ويتعاطون الخمور والمخدرات ويمارسون الزنا... ويتعاملون بالربا وَغَشّاشُونَ... ولا يتبعون شرعه تعالى في الخلافات... ولكن حين يموت لهم عزيز تراهم يهتمون بإقامة أشد المراسم التراثية الدينية، من قرآن وصدقات يهدون ثوابهم لميّتهم... وكأنها تصرفات من درجة الإيمان العالي جدا جدا بالآخرة!

النفاق له درجات من الأقل "كحالة عموم ضعفاء الإيمان" حتى تصل إلى حدّ النفاق الأعلى المساوي للكفر والشرك، وخلال ذلك لا يزال في قلب المنافق "من الدرجة المنخفضة أو العالية" لا تزال موجودة فكرة إمكانية أن ينزل فيه قرآن يفضحه، وهذا الشعور ليس دليلاً على إيمانه بالقرآن، بل هو نابع من تركيبتنا النفسية التي تستصعب استبعاد خطر من مصدر يفوق قدرتنا على مواجهته، ونابع من تكرار سماع الكلام عن القرآن والإله والآخرة...

قارنها مع تهديد الكفّار للمؤمنين من غضب آلهتهم، لأول وهلة يشعر عامّة الناس بالخطر من تسفيه تلك الآلهة، ولذلك نبّه القرآن مراراً بأن آلهتهم وهمية ولا يمكنها فعل أي شيء... فهي الطبيعة البشرية بالخوف أو الحذر من أي تهديد

حتى لو كان وهمياً، والذي يسمّيه بعض علماء النفس بـ "التابو"، وَالاحتمال الضعيف جدا جدا يبقى موجوداً بشكل ما ويجعلنا نتوقّع حصول الخطر، والمنافقون ورغم أنهم لا يؤمنون بشكل كامل بالقرآن كونه من مصدر إلهي، رغم ذلك لا يمكنهم الخروج من حالة توقّع حصول الخطر من مصدر لا يمكنهم مواجهته، وهو خطر نزول قرآن منه تعالى يفضحهم.

نلاحظ أن التعبير بحذرهم من نزول قرآن "على" المنافقين، ليس معناه أبداً أن ينزل الوحي بسورة على المنافقين شخصياً، فأصل إنزال سور القرآن على النبي(ع) ليس للنبي شخصياً، بل ليبلغها للناس، حيثُ السور تنزل منه تعالى على الناس بواسطة النبي محمد(ع).

ننتبه لأمر مهم، هل الآيات هنا تتحدث فقط عن أشخاص كانوا في زمن النبي(ع) ولا تنطبق على المنافقين في بقية الأزمنة؟ لا، فهي تضرب مثالاً وتنبهنا بهؤلاء الناس، ولو أننا متمسكون بالقرآن، لكان المنافقون حَذِرِينَ من تطبيق معاني القرآن عليهم، فهم يستهزئون بالدين الإلهي، وبالله تعالى، وبالرسول(ع) وبالمؤمنين وبالعلماء المؤمنين، وبالقادة الصالحين... وإذا نبهتهم من حرمة ما يفعلون فإما أن يركبوا رأسهم ويعاندوا، أو يخترعوا الأعذار... وهنا الآيات تفضح حقيقة نوايا وتفكير ومشاعر كل منافق في أي عصر كان.

(وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ{65})
{وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ}، إذا عبّرت أيها النبي(ع) للمستهزئين عن إرادتك لجواب عن قلة الأدب هذه، وعن السوء الذي ارتكبوه، {لَيَقُولُنَّ}، فسيقولون:

{إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ}، فنحن فقط كنّا ندخل في هذا الموضوع لمجرد الدخول فيه كموضوع مطروح، فلم ندخل فيه لغاية محدّدة مدروسة، لا، انطرح أمامنا ودخلنا فيه، {وَنَلْعَبُ}، فلا نقصد الجدّ بل نتسلى، فلم نقصد التقليل من قيمة الرسول(ع)، بل هكذا كنا نخوض وَنَدْخُلُ في الحديث عنه وعن تصرفاته، ونتسلى وَنَقُولُ بأنه أذن، ونحن لا نقصد الإقلال من قيمته، مِثْلَمَا الأصحاب يتمازحون كنا نمزح عن الرسول(ع)، أو مثلما نتحدّث عن الأدوية والأمراض ونحن لسنا متخصصين بها، وَنَخُوضُ فيها للتسلية.

إنْ كان هذا تبريرهم، {قُلْ}، عبر هذا القرآن لهم:

{أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ}، بصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز وبالأمور المميزة بمستواها الإلهي والمنسوبة له تعالى، {وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ}! تَتَعَامَلُونَ معها من خلفية أنها بلا قيمة وتستخفون بهم! أما وجدتم شيئاً آخر تتسلون به إلا هؤلاء الثلاثة! الله تعالى وآياته ورسوله(ع)!

لا يوجد أي تبرير لاستهزائكم، حتى لو قلتم بأنكم جماعة مازحة، أو أنكم جماعة تتعامل مع كل الأمور بالضحك واللعب، وحتى لو قلتم بأنكم لا تقصدون قلّة القيمة... فلا تبرير للّعب والاستهزاء بالله تعالى وآياته ورسوله(ع)، فهذا عذر أقبح من الذنب.

نَنْتَبِهُ جيداً، مُدَّةً بعد مدّة يدرج مزاحٌ "نكتة" يتضمّن شيئاً عنه تعالى أو عن رسله... ولا ننتبه أنها قلّة أدب، وَنَعْتَبِرُهَا مجرد مزحة، ولكن التوقير لكل ما يتعلق به تعالى واجب، ولا تساهل في هكذا أمور، وينتشر كمّ هائل من الاستهزاء عليه تعالى وعلى النبي عيسى(ع) من بعض المسيحيين، ويعتبرون أنفسهم مضحكين، كمتحضرين عصريين تقدميين... ولديهم تسميات راقية لذلك يُسَمُّونَهُ الانتقاد الساخر، كطرح لأفكار جديّة ولكن بأسلوب مضحك... هذه قلّة أدب ولا تبرير لها، وهناك أمور أخرى كثيرة للتسلية بها، ومثلما لا يحقّ للكوميدي السخرية منّي أنا شخصياً، ويحقّ لي رفع دعوى عليه لاستخدام اسمي بطريقة لم أوافق عليها، فبأي حقّ ألغوا هذه الحرمة والقيمة عنه تعالى وعن رسله وصاروا يسخرون منهم! بل وَهُمْ مَحْمِيُّونَ من القانون على أساس أنها حرية تعبير! وكما ترى، كُلُّ هذا القانون مسنون ممّن لا يوقّره تعالى ولا يوقّر رسله ولكن يوقرك أنت ويحترمك ويمنع الآخرين من السخرية منك!

(لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ{66})

{لَا تَعْتَذِرُوا}، لا تقولوا الأسباب التي جعلتكم تخوضون وتلعبون لتبرير ما فعلتموه ولتبييض صورتكم عند المؤمنين، أو عند النبي(ع)، فمهما كانت أعذاركم فهي غير مقبولة، لأنَّ هذا الذي قمتم به لا ينتهي بالاعتذار، أقول عنك كلاماً سيئاً، ثم أعتذر منك، وتقبل اعتذاري، وينتهي الموضوع، أما الاستهزاء بالله تعالى وآياته ورسوله(ع) فهذا لا ينتهي بالاعتذار، لأنه إنكار للدين الإلهي، وكما تعلم من كلام القرآن ومن تكملة الجملة فإنَّ هذا الموضوع ينتهي بالتوبة والاستغفار وتصحيح الإيمان.

{قَدْ كَفَرْتُم}، أنكرتم الدين الإلهي، {بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}، بعد إعلانكم اعتقادكم به، وَإِنْ لم تكن السخرية منه تعالى ومن آياته والرسول الناقل للكلام الإلهي، وَإِنْ لم يكن تقليل قيمتهم هو الكفر، فما هو الكفر؟

{إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ}، إن نتجاوز ولا نقف عند الاستهزاء الذي قامت به مجموعة من جماعتكم المنافقة، فهذا لا يعني العفو عن الجميع، {نُعَذِّبْ طَآئِفَةً}، نصيب بالضرر مجموعة أخرى من جماعة المنافقين، {بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ}، لأنهم قاموا بعمل يستحقون العقاب عليه ولن نعفو عنهم.

في الأساس إنَّ هذه السخرية والاستهزاء بالله تعالى وبآياته وبرسوله(ع)، ليست ذنباً يتم العفو عنه بالاعتذار، بل بالتوبة وتصحيح الإيمان، وَإِنْ لم يخرج المستهزئ من حالة النفاق فلن يحصل على العفو، والله تعالى قرّر أن يعفو عن أي ذنب مهما كان نوعه لمن تاب فعلاً وعن حق، وَإِنْ عفا تعالى لبعض المعتذرين لأنهم فعلاً تائبون، فهذا لا يعني أنه سبحانه أصدر عفواً عاماً لكل الساخرين إذا اعتذروا، بل يطال العفو جماعة التائبين ولا يطال بقية الساخرين الباقين على نفاقهم من المجرمين أي المرتكبين لعمل يستحقون عليه العقاب، فهم استهزأوا قاصدين الاستهزاء وهذا جرم، لأنَّ هذا عمل يستحقون عليه العقاب وسينالونه.

تلاحظ خروج المنافق من الرحمة الإلهية الخاصة بالمؤمنين "رحيم" وهذا الذي تشير إليه الآية هنا، حيثُ إنَّ الرحمة الإلهية الخاصة بالمؤمنين بوصفه تعالى بالرحيم، تمنح المؤمنين حصراً العفو والغفران، أمّا المنافق فلا عفو ولا غفران له ما دام منافقاً، وَسَتَرَى في الآية التالية أنه تعالى ينسى المنافقين من الرحمة الخاصة بالمؤمنين.

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ{67})
{الْمُنَافِقُونَ}، المظهرون للتدين ولكن من داخلهم ليسوا مؤمنين به، {وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ}، أعمالهم وأفكارهم متشابهة، فلا فرق بين أي منافق، كبيرٍ أو صغيرٍ، ذكرٍ أو أنثى، فَانْظُرُوا إلى المنافقين وتعاملوا معهم على أساس أنه لا يوجد منافق صديق لكم أو من أهلكم أو تعتبرون له قيمة... ويختلف في نظركم عن المنافقين الآخرين، أو أنها أنثى من الجنس اللطيف تعتبرها منافقة لطيفة، لا، لِأَنَّ النفاق قاعدة فكرية ونفسية أساسها واحد، ولذلك المنافقون هم جماعة واحدة مغايرة لجماعة المؤمنين.

{يَأْمُرُونَ}، يأمر المنافقون والمنافقات، {بِالْمُنكَرِ}، بالأشياء المنكرة التي ينكرها الدين وعقلاء المؤمنين وَيَعْتَبِرُونَهَا سيئة مرفوضة، حَيْثُ المنافقون يأمرون الناس بالقيام بأعمال سيئة، {وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ}، فَالْأَشْيَاءُ المتعارف عليها دينياً وبين عقلاء المؤمنين بأنها جيدة، إِنَّهُمْ يأمرون الناس بتركها وأن لا يفعلوها أبداً!

عملياً ومما سبق من نماذج تحدّثت عنها السورة، هُمْ يأمرون الناس بمعصيته تعالى ومعصية الرسول (ع) بمعارضة الخروج للقتال، ويأمرون الناس بالاستهزاء بالرسول(ع) ويشجعون الآخرين على الاعتراض على توزيع الصدقات...

{وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ}، يغلقونها ولا يبسطونها، فلا يدفعون الزكاة ولا يتصدقون على المحتاجين ولا يقدمون مالهم للجهاد في سبيله تعالى...

هؤلاء المنافقون والمنافقات، {نَسُوا اللَّهَ}، عرفوه تعالى ولكنهم أخرجوا الإيمان به تعالى وبدينه ورسوله(ع) من عقولهم ونفسيتهم، عِنْدَمَا يقومون بأي عمل هُمْ لا يتذكرون بأنه تعالى يراقب وسيحاسب وسيجازي. {فَنَسِيَهُمْ}، لَمْ يعد سبحانه يهتم بهم مثلما يهتم بالمؤمنين، إِذِ الْمُنَافِقُ بالظاهر من الخارج فقط يبدو عليه الإيمان، وأما داخله فلا إيمان فيه،

ولذلك، عندما يعامل تعالى المؤمنين برحمته الخاصة سَيَنْسَى المنافقين منها مثلما نسوه تعالى، فلا يعتني بهم، ولا يرأف بهم، ولا يهديهم...

{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}، حَيْثُ الفسق هو الخروج عن أمور واضحة قالها الدين، وَيَكُونُ الفسق علناً أو بالسرّ، فإن كان المنافق يرى نفسه مؤمناً بشكلٍ ما لأنه يصلّي ويرخي لحيته ويقرأ القرآن ويتصدّق على الفقراء... فليعلم أنه خارج عن الدين في نظره تعالى. قارنها مع الذي نقول عنه: هو رجل فاسد لديه الكثير من السيئات ولكنه على الأقل يصلّي ويصوم... لا، هُنَاكَ أمور أساسية إن تركها الإنسان لا يقبل سبحانه وتعالى وصفه بالإيمان، لِأَنَّهُ فاسق خَارِجٌ عن الدين، لِيَعْلَمَ المنافق أنه ليس نصف مؤمن ولا ربع مؤمن إن اخترع الأعذار ليتخلّف عن الجهاد في سبيله تعالى وإن لمز في الصدقات وإن استهزأ بالنبي(ع)... وإن أمر بالمنكر ونهى عن المعروف، بل هو فاسق خارج عن الدين الإلهي.

بالنسبة للنسيان لَهُ تدرجات، تبدأ من اختفاء المعلومة تماماً من ذاكرتك، وصولاً إلى بقائها في ذاكرتك مع خروجها من اهتمامك وتركيزك بسبب انشغالك بشيء آخر أو بسبب تنزيلك لمستوى أهميتها، أو النسيان عن قصد. ووصفه تعالى بالنسيان، المقصود منه إخراجهم من رحمته تعالى، وَهُوَ نسيانهم عن قصد من قاموس الرحمة والعناية والرأفة... سبحانه لا تختفي المعلومات من عنده ولا بأي شكل، ولا ينشغل بشيء يسبب له ترك الاهتمام بأشياء أُخْرَى... قَصَدَتِ الآية من تعبيرها بنسيانه تعالى للمنافقين نسيانهم من رحمته كما هو واضح، وَقَصَدَتْ توصيل تعبير قاسٍ جداً جداً لنا عبر التأكيد على انقطاع اهتمامه تعالى بهم عن قصد، حَيْثُ أَنَّهُ نسيان عن قصد، وليس محواً لهم من علمه تعالى، بل محواً لهم من رحمته تعالى، وليس لانشغاله تعالى بأمور أخرى بل لِتَقَصُّدِهِ تعالى نسيانهم.

لِتَكُنْ هذه الكلمة "النسيان" نموذجاً لك عن استعمال لغة البشر لوصفه تعالى، يَجِبُ تجريد الكلمات من أي متعلقات بشرية حين وصفه تعالى بها، وخذ مثلاً وصفه تعالى بالحياة، هَلْ هذا يعني إمكانية أن يفقدها تعالى؟ لا، وخذ وصف وجه له تعالى، هَلْ هذا يعني وجود رأس وعينين وأنف... له تعالى؟ لا، بل يقصد ما يتوجّه به تعالى. وخذ وصف اليد له تعالى، هَلْ هذا يعني أن له يداً من خمس أو عشر أصابع؟ لا، بل تشير لما يفعل به تعالى الأمور.

كلمات لغتنا من اختراع البشر بما جعله تعالى فيهم من قدرات، وستكون اللغة بما يفهمه البشر، أمّا ما يتعلّق به تعالى من مستوى إلهي، فَيُمْكِنُ وصفه بلغة البشر، ولكن بعد سحب الخصائص البشرية من الكلمات، سبحانه يحبّ ويكره ويغضب... وينسى... ولكن ليس مع الخصائص البشرية لهذه الكلمات.

هَلْ هناك حلّ آخر لاستعمال كلمات لوصفه تعالى؟ لا، نَحْنُ نعبّر عن الأوصاف بلغتنا بما نفهمه، حتى وصف الملائكة بلغتنا يصل إلى حد التقريب التشبيهي أحياناً وبشكل لا يمكننا تصوّره، مَا معنى وصف حركة سجود الملائكة لآدم(ع)؟ هِيَ ليست مثلنا من طين ولا مثل الجنّ من نار، لَهَا كيان ولكن لا جسد مادي لها ولذلك يستحيل علينا هنا في الدنيا رؤيتها كما هي بعيننا التي من طين، ومن كلام القرآن نفهم أننا سنراهم في الآخرة... قَامَتِ الملائكة بشيء يعبّر عن أقصى احترامها لآدم(ع)، وعند البشر أقصى تعبير خضوع واحترام يكون بحركة تقريب الوجه من الأرض، وهذا هو السجود، وَصَفَ تعالى بلغة البشر ما قامت به الملائكة بأنه سجود، بَعْدَ سحب الخصائص البشرية من الوصف يصحّ وصف ما فعلوه بالسجود.

هكذا هي القاعدة العامة لوصفه تعالى بلغتنا...

(وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ{68})

{وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ}، الْفَاسِقونَ وَهُمُ الَّذِينَ يسترون الكفر والفسق من الذكور والإناث ومعهم المنكرون علناً للدين الإلهي وهم المعلنون أنهم لا ينتمون له، أعطاهم تعالى وعداً، وَقَالَ تعالى لهم شيئاً سيفعله معهم، {نَارَ جَهَنَّمَ}، نار في المكان الموصوف بسوء ما فيه، {خَالِدِينَ فِيهَا}، لا يموتون ولا يفنون ولا يخرجون منها ولا هي تخرب.

{هِيَ حَسْبُهُمْ}، هي كافية لهم، فهم يكتفون بها فلا شيء آخر لهم عنده تعالى.

{وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ}، طردهم سبحانه من رحمته ورأفته وعنايته.

{وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ}، لهم شيء يضرّهم ويقيم معهم، بعبارة أبسط: يسكن معهم لا يفارقهم، فلا راحة لهم من العذاب ولو لثانية.

(كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُواْ أُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{69})
{كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ}، هذا الوعد الإلهي بالخلود في نار جهنم هو مثلما وعد تعالى المنافقين والكافرين الذين كانوا من قبلهم، فأنتم أيها المنافقون والكافرون مثل من سبقكم من الناس عبر التاريخ بلا فرق عنده تعالى، {كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً}، سواء بدنياً كانوا أقوى أو أشدّ منكم بالقوة العسكرية القتالية، {وَأَكْثَرَ مَالًا وَأَوْلَادًا}، منكم، {فَاسْتَمْتَعُوا}، استفادوا وتصرفوا براحة، {بِخَلَاقِهِمْ}، بعموم ما جرى توزيعه بغض النظر عن كيفية وكمية وسبب توزيعه، بما حصلوا عليه من القوة والمال والأولاد.

تلاحظ القرآن بصراحة وبالفحوى يشير بعبارات مختلفة إلى ما نرغبه بقوة من الدنيا أنّه المال والولد، كما تقرأ في الآية 46 من سورة الكهف {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...}، ولا يلغي بذلك رغبتنا بأمور أخرى، كالنماذج التي وردت في الآية 14 من سورة آل عمران {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}، ولكن حين يوجّه الكلام للكفّار والمنافقين والفاسقين لافتا انتباههم لحصول بعضهم على المال والولد، كما ورد كمثال في الآيتين 12 و 13 من سورة المدثر {وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا، وَبَنِينَ شُهُودًا}، نفهم أن الطبع البشري الغالب يتخطّى فقدانه للأمور الأخرى، علماً أننا لو توافر لنا المال فسنحصل على كثير مما نريد... ولكن هناك صعوبة في تخطي مسألة فقدان المال والولد وتوابعهما. وبحسب سياق الآيات نفهم معنى الإشارة للولد، فهي تتضمّن أقصى السعادة بما يمكن أن نحصل عليه، ويكون لنا ومنّا ومن نسلنا... وتتضمّن توافر عصابة للوالد كقوة عمالية أو قتالية أو فرحاً بعدد المنتمين له...

فإن كان لديكم أيها المنافقون قوّة ومال وأولاد، فلا تغترّوا بها، وتعتزّوا بها وتشعروا بالقوّة، فهي لن تنفعكم أمام ربكم سبحانه، فمن قبلكم أناس كانوا أقوى منكم وأكثر مالاً وولداً، واستمتعوا بهذه الأمور، {وَاسْتَمْتَعْتُمْ} أنتم أيضاً {بِخَلَاقِكُمْ}، حيث استفدتم بما صار معكم، كما، مثلما، {اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ}، والكلام هنا عن استفادتهم بشكل سيّء بما صار معهم مثلما استمتع واستفاد واستغلّ القوّة والمال والولد بشكل سيّء من سبقهم من كفّار ومنافقين، {وَخُضْتُمْ}، ودخلتم وشاركتم بشكل فعّال في الكلام وهنا الحديث عن دخولهم في كلام مخالف لدينه تعالى، {كَالَّذِي خَاضُوا}، لأنّ نفس الأحاديث السيئة التي دخلوا بها دخلتم بها وكنتم أساسيين فيها.

تذكّر أن كلام القرآن دائماً عن نماذج، فليس كل من سبقهم من الكفّار أو المنافقين كانت أوضاعهم الاقتصادية والعسكرية... جيدة، بل هناك البعض منهم كانوا أفضل وآخرون كانوا أسوأ من الكفّار والمنافقين المعاصرين لنزول هذا الكلام، فهم نموذج ليقارن الناس أنفسهم عليه، فهذه القوّة ومهما كان مستواها فلن تغيّر أي شيء من مصيرهم في الآخرة...

{أُولَئِكَ}، تلك النوعية من الناس القديمة والجديدة بعدما تبين تساويهم في العقلية والنفسية والتصرف، {حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ}، فأي عمل جيّد قاموا به سيفقد قيمته عنده تعالى، حتى لو ساعدوا الفقراء، وداووا المرضى... فلا أجر لهم منه تعالى على أي عمل قاموا به.

{وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}، فهم الذين فقدوا شيئاً له أهمية كبيرة، وفقدوا الأجر منه تعالى على الأعمال الحسنة وفقدوا المغفرة والثواب والجنّة.

فإن كنتم تعتقدون أنكم مميزون بالقوة والمال والولد، وأن لكم أعمالاً حسنةً لها قيمة، فأنتم أسأتم التصرف بما معكم وأعمالكم الحسنة أحبطها سبحانه وأسقط قيمتها لأنكم استهزأتم به تعالى وبآياته وبرسوله(ع).

حبط الأعمال

كثيراً ما يتجادل ويبحث الناس عن رأي الدين بفاعلي الخير من غير المؤمنين، ويسألون مختلف أهل الأديان عن رأي دينهم في فاعل الخير إن كان له حسنة عند إلههم، ويسألون البوذي عن رأي دينه في فاعل خير مسلم أو مسيحي أو سيخي أو علماني... ويسألون الهندوسي عن رأي دينه في فاعل الخير السيخي والمسلم... ويسألوننا نحن عمّا يقوله القرآن عن ذلك.

المسلمون لديهم آراء مختلفة حول هذا الموضوع، وكما ترى صريح القرآن يخبرنا عن حبط قيمة أي عمل خير قام به كافر أو مشرك، فهؤلاء وبصراحة مهما فعلوا من خير مع بقية البشرية ومهما كان نوع الخير الذي فعلوه، فعملهم هذا يبقى موصوفاً بأنه حسن ولكن لن ينالوا منه تعالى أجراً عليه، سبق أن مرّ معك هنا في السورة في الآية 17 كلامها عن ذلك {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ}، فعمارة المسجد عمل حسن، ولكن لا أجر لهم عليه منه تعالى بسبب شركهم، فعملهم حابط.

أمّا المنافق والفاسق، فهؤلاء درجات في فسقهم ونفاقهم، وتبدأ من التساوي مع الكفر بالفكر والنفسية والسلوك، مروراً إلى مستوى التشابه مع الكفر، وصولاً إلى حالتنا نحن المؤمنين العاديين، فنحن لدينا سيئات من العيارات المختلفة، فإن تجنّبنا كبائر ما نهانا تعالى عنه، واستغفرنا وعدنا تعالى بالمغفرة بل وبتكفير الأعمال السيئة "سترها عن الآخرين"، وبالتالي سننال الأجر على ما قمنا به من أعمال صالحة، وراجع كمثال عن ذلك الآية 32 من سورة النجم {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ...}.

هكذا ترى أن الكلام عن حبط الأعمال ليس موجّهاً فقط للآخرين من غير المسلمين، فسياق الكلام في الفقرة وصولاً لهذه الآية هنا فهي تتحدّث عن مسلمين منافقين وفاسقين حبطت أعمالهم.

المسلمون الذين تداولوا في موضوع حبط الأعمال أكثرهم كانوا يعكسون خلفياتهم الفكرية والنفسية ويسقطونها على تفسيرهم لكلامه تعالى، وبعضهم يشعر بالحرج من الآخرين إن قال لهم إنّ القرآن يقول بحبط كل أنواع الأعمال الحسنة لغير المؤمنين. وبالعكس وبعضهم متعصّب لإسلامه بصلافة يعلن أن الجميع إلى النار إلّا المسلمين، متجاهلاً بذلك كلام القرآن الصريح الواضح ومنه آيتنا هنا بكلامها عن المنافقين من المسلمين وأن أعمالهم تحبط، وحتى لا يضيع الموضوع بالتسميات بين المنافق والفاسق أيهما تحبط أعماله فالآية ما قبل السابقة أضافت الفسق مع وصف نفاقهم وهما متداخلان وكلاهما معرّضان لحبط الأعمال.

بعض المسلمين التزم بمفاهيم القرآن وميّز بين المسلمين من نوعية المؤمنين الحقيقيين، وبين المنافقين والفاسقين من المسلمين، فهؤلاء وبحسب درجة فسقهم ونفاقهم سيعاملهم تعالى، فإن ارتكبوا سيئات من العيار الثقيل، ولم يتوبوا، ففي الآخرة حسابهم مثل حساب الكفّار بالخلود في النار وطبعاً ستحبط أعمالهم...

نضيف على ذلك، أنّ تقييم الأشخاص ليس من اختصاصنا، فالقرآن قيّم الناس بحسب سلوكياتهم وأخبرنا عن كيفية التعامل معهم بناءً على أفعالهم معنا، وليس بناءً على عقائدهم وأفعالهم معه تعالى، فمن عادانا مقاتلاً نقاتله، ومن سبّنا فيحق لنا سبّه هو بشخصه ونهينه، ومن اعتدى علينا فيحق لنا الاعتداء عليه بمثل ما اعتدى علينا... أمّا المسالم معنا والفاعل للخير معنا، فمن أي دين كان، وحتى لو كان يقول بأنه ملحد منكر لوجود الإله من أصله، فشكره على فعل الخير معنا أدب معروف، فسبحانه لم يوكل لنا بل ولم يسمح لنا بالتدخّل في الناس في أمور تخصّه هو سبحانه وتعالى، ها القرآن أمامك من أوّله لآخره، ولن ترى فيه أمراً تنفيذيّاً موجّهاً لنا للتعامل مع الآخرين إلا بما يخصّنا نحن، فلا علاقة لنا بما يؤمنون به، فمن اعتدى علينا يسمح سبحانه لنا بالاعتداء عليه بمثل ما اعتدى علينا، أو نسامحه... وكائن من كان فمن اعتدى علينا بقتل واحد منّا سمح لنا تعالى بقتله أو العفو عنه، أمّا من اعتدى علينا بالقتل أو الأذية قاصداً ذلك بسبب تديّننا، ففي هذه الحالة لدينا أمر إلهي حاسم بردّ الاعتداء عند الاستطاعة ولا عفو أو تسامح إلا بعد إنهائه... ولمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية الثامنة من سورة الممتحنة {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ...}.

نضيف على ما سبق، سبحانه من صفاته الحسنى الفائقة التي انعكست في مخلوقاته، صار مزروعاً في البشر مفاهيم أصيلة عن الخير والشرّ والحسن والسوء والصلاح والفساد... فهذه قيم ثابتة لا تتغيّر مهما تغيّرت الظروف، ولولا ذلك فلا معنى للحكمة ولا للعدل ولا للعقلانية... في أي شيء ديني أو غيره، ولا معنى لتكليفه تعالى لنا ومحاسبتنا، فسبحانه

لا يعرض علينا ديناً كشيء غريب عنّا، بل يعرض علينا الالتزام بالخير والصلاح وينهانا عن الشر والفساد... فهذا دينه تعالى، وخلقنا مع قابلية تمييز الخير من الشرّ وعلى هذا الأساس كلّفنا وسيحاسبنا ويجازينا على السوء الذي نعلم بسوئه وفعلناه، وعلى الخير الذي نعلم بخيره وفعلناه.

مثلاً ومن وحي كلام سورتنا هنا أمره تعالى لنا بقتال الآخرين كان دائماً ملصقاً بتعليل تبريري لقتالهم، فهم بدؤوا بالاعتداء، وهم صدّوا عن سبيله تعالى، وهم هجّروا المؤمنين... فقتالهم عمل سيّء ولكن لهذه الأسباب التي دائماً يكررها القرآن كتعليل تبريري، سمح تعالى بقتالهم.

بالعكس، فالعمل الحسن يبقى توصيفه حسناً حتى لو فعله الكافر الملحد المنكر لوجود الإله... وأمّا بالنسبة لأجر منه تعالى على العمل الحسن، وضع تعالى شروطاً لذلك، مع الإيمان التوحيدي به تعالى يصير لنا أجرٌ منه سبحانه على عمل الصالحات، وبدون إيمان فلن يعطي تعالى أجراً لأي أحد على أي عمل صالح قام به حتى لو أحيا الناس جميعاً، ويبقى توصيف عمله أنه خير وحسن ولكنه يحبط فيصير في الآخرة فاقداً للقيمة عنده تعالى ولا ثواب عليه، وهذا واضح من التعبير بالحبط، وواضح من مختلف توصيفات القرآن ومنها بشكل واضح ما ورد في الآية 23 من سورة الفرقان {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}.

الخلاصة، نحن مأمورون منه تعالى بالتعامل مع الآخرين بناءً على تعاملهم معنا نحن، ولا علاقة لنا بإيمانهم أو كفرهم به تعالى، أو فسقهم أو نفاقهم، طالما لا أثر اعتدائي لذلك علينا، وبما فينا من قابلية مزروعة لتمييز الخير من الشرّ، نحن مأمورون منه تعالى بالالتزام بهذه المعايير، كائناً من كان فعل خيراً، فإن لم يكن مؤمناً فمن ناحيته تعالى لا أجر له على الحسنة، ولكن من ناحيتنا نحن لا، فالخير كان علينا ونحن استفدنا منه، ويجب علينا شكر فاعله معنا.

أين ذلك من القرآن؟ من فحوى الآية 8 من سورة الممتحنة {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، في هذه الآية كان الكلام عن الكفّار المشركين المسالمين، وبأمر إلهي يجب أن نقسط إليهم ونعطيهم حقوقهم وسبحانه يحبّ المقسطين حتى مع الكافرين، وهكذا ترى بوضوح أنه تعالى وعد الكافرين بالخلود في جهنّم، وفي نفس الوقت أمرنا بالبرّ والقسط معهم إن كانوا مسالمين معنا، معه تعالى أخطأوا بكفرهم وشركهم وسيجازيهم على ذلك بالعذاب ولن ينالوا أيّ أجر على أعمالهم الحسنة لأنها أصلاً وكما يبدو واضحاً من توصيفهم بالكفر والشرك فهم لم يفعلوا الخير رغبةً بالأجر منه تعالى، ولكن معنا نحن كانوا مسالمين وأمرنا تعالى بمعاملتهم بالقسط والبرّ.

بالنسبة للآيات العديدة التي ذكروها أثناء كلامهم عن حبط الأعمال، وخرجوا منها بنتائج غير التي ذكرتها لك، فلم أطل عليك هنا لتقويم ما قالوه عن معنى تلك الآيات حتى صارت أحياناً تبدو متعارضة مع بعضها، أو دلالتها غير متوافقة... راجع تلك الآيات في دراستنا لها وسترى أنها متوافقة تماماً مع ما ذكرناه هنا.

في الأخير الحكم بالكفر والشرك على الناس ليس من اختصاصنا، فسبحانه أخبر بنوايا عبيده، ولم يوكل سبحانه لنا هداية الآخرين لإدخالهم إلى الجنّة، بل ركّز على الفرد الذي وصله البلاغ الإلهي كي يعمل ويفوز بالجنّة، ومطلوب منّا فقط إبلاغ الآخرين بما قاله تعالى، وبعد ذلك كلّ واحد ذنبه على جنبه.

لم يوكل إلينا سبحانه تصنيف الناس، وأمرنا بالبرّ مع الجميع، ولم يعطنا تعالى تراخيص دخول الجنّة حتى نحدّد نحن من سيدخلها من بعد تصنيفنا للناس بناءً على ما نراه منهم، نحن نتعامل معهم بناءً على ما نراه منهم، أمّا الحكم عليهم بالنار فهذا ليس من اختصاصنا، وسبحانه عندما أخبرنا بالحكم على الكفار والمشركين بالنار، كان يحذّرنا حتى لا نكون منهم وينذرهم حتى يهتدوا، لا أكثر ولا أقل.

(أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وِأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ{70})
بعد مساواة الآيات السابقة لأسوأ المنافقين مع الكافرين بالعقلية والنفسية، والعذاب، وحبط الأعمال... ها هي تلفت انتباه المنافق والكافر والمنحرف من أهل الكتاب لما يلي:

{أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}؟ فهناك أخبار كانت مستورة عنهم لأنهم لم يكونوا حاضرين حين حصلت ووصلتهم عبر الناس وعبر هذا القرآن، {نَبَأُ}، {قَوْمِ نُوحٍ}، أناس لهم كيان الجماعة والنبي نوح(ع) من جمعتهم، وقبيلة، {عَادٍ}، قوم النبي هود(ع)، وقبيلة، {وَثَمُودَ}، قوم النبي صالح(ع)، {وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ}، {وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ}، وهم قوم النبي شعيب(ع) ومدينتهم كان اسمها مدين، {وَالْمُؤْتَفِكَاتِ}، الأماكن التي أفكها تعالى فانقلبت أرضها، وفي القرآن نجد توصيفاً لعذاب قوم النبي لوط(ع) بجعل عالي القرية سافلها في الآية 82 من سورة هود "فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ"، والآية 74 من سورة الحجر "فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ"، وهذا تعبير آخر عن أفكها، فالكلام هنا عن قرية النبي لوط(ع) والتي مضافاً لقلبها أمطر تعالى عليهم حجارة...

ألم يأتكم خبر هؤلاء الناس ماذا حلّ بها؟ فالبعض منهم كان أقوى منكم من كل النواحي، والبعض منهم انغمس في الشهوات أكثر مما انغمستم... ألم تعرفوا كيف كانت نتيجتهم ونهايتهم؟ فكلهم "إلا قوم النبي إبراهيم(ع)" تعرضوا لعذاب في الدنيا، وماتوا وسيتعرضون لعذاب الآخرة، وأمّا قوم النبي إبراهيم فذهب كيدهم هباء رغم تكالبهم كلّهم على شخص واحد حيث أنجاه تعالى من النار، ولا معلومات لدينا عن نزول عذاب عليهم بعد ذلك، وهنا الآية لم تصرّح بنزول عذاب عليهم، يكون الكلام عن خليط أقوام عذّبها تعالى بالإبادة كقوم الأنبياء نوح(ع) وهود(ع) ولوط(ع)، وقوم أهلك تعالى منهم بدون إبادة شاملة كقوم النبي صالح(ع) وشعيب(ع)، وقوم تكالبوا كلّهم على حرق رجل واحد ولم يستطيعوا وهم قوم النبي إبراهيم(ع).

فكيف وأنتم منافقون تشعرون بالأمان وسمعتم بما فعل تعالى مع هؤلاء؟

{أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ}، جاءت لتلك الأقوام الأمور الواضحة التي تدل على الدين الصحيح عبر أشخاص أرسلناهم لهم، مثلما أتاكم النبي محمد(ع) بهذا القرآن البيّن الواضح الذي يدل على الدين الصحيح، فنافقتم وأشركتم وانحرفتم...

{فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ}، فما نزل عليهم من العذاب في الدنيا وما سينالونه من عذاب في الآخرة فهذا ليس ظلماً منه تعالى لهم، بل كان سبحانه محقّاً يفعل الحقّ الصواب بتعذيبهم، {وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}، فهم لم يكن معهم حقّ فيما فعلوه، فظلماً كفروا وفسقوا ونافقوا بشيءٍ كان واضح الصحّة، ولذلك استحقوا عذاب الدنيا والآخرة، وأنتم أيها المنافقون الذين في عمقكم كفرٌ فلستم غيرهم، وستكون معاملته تعالى معكم مثل معاملته مع هذه الأقوام التي تعذّبت في الدنيا قبل الآخرة.

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{71})
بعكس المنافقين والكافرين والمنحرفين من أهل الكتاب، هناك:

{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ}، المعتقدون والمعتقدات حقّاً بالدين الإلهي، {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}، فهم مرجع وتابعون لبعضهم البعض، فيسمعون كلام الإيمان والهدى من بعضهم البعض ويطيعون بعضهم البعض في الهدى.

تذكّر دائماً أن القرآن والعرب قديماً لم يستعملوا كلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج حالياً، وبدلاً منها استعملوا كلمة "آمن" بشكل شبه مرادف للمعنى الذي نتعارف عليه حالياً لكلمة "اعتقد" كتصديق عميق بصحّة شيء ما.

المؤمنون والمؤمنات، {يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ}، يطلبون من الآخرين القيام بما هو متعارف عليه دينياً وبين عقلاء المؤمنين أنّه جيّدٌ، فيأمرون بعموم ما هو حسن وجيد وصالح... فيأمرون بالصلاة والصوم وبرّ الوالدين والجهاد والإنفاق في سبيل الله تعالى...

{وَيَنْهَوْنَ}، فيأمرون الآخرين نهائياً بلا عودة بترك، {عَنِ الْمُنْكَرِ}، عن الأشياء التي ينكرها الدين وعقلاء المؤمنين فلا يؤيدونها ويرفضونها، فينهون أنفسهم والآخرين عن السوء وهي نفسها المحرمات.

المنكر من مقابلته مع "عرف معرفة" يعطي معنى حصول صورة أو مفهوم ونفي تطابقه مع ما لديك، فهو عموم ما ليس معروفاً على الوجه المطروح، كرفض لتصنيفه.

{وَيُقِيمُونَ}، يفعّلون لا يهملون ولا يتركون، {الصَّلَاةَ}، التوجّه والإقبال، وكلمة صلاة صارت مصطلحاً يشير إلى حركات وكلمات خاصّةٍ، والتي نقوم بها خمس مرات في اليوم للتوجّه والإقبال عليه تعالى بالذكر، علماً أن معناها الأساسي عمومي لعموم أي توجّه.

{وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ}، فيجعلونها عند من يوزّعها أو يوزّعونها بحسب ما أمر سبحانه. وكلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، فتشير لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكية، مال زاكٍ، طعام زاكٍ..."، ومنذ القدم صارت مصطلحاً دينياً يشير إلى دفع نسبة محدّدة من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ..."، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، فيدفع منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة "...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ..."، فتكون نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ".

المؤمنون والمؤمنات، {وَيُطِيعُونَ}، ينفذّون ما يأمرهم به، {اللَّهَ وَرَسُولَهُ}.

{أُولَئِكَ}، الأشخاص الذين بهذه الصفات، {سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ}، فسينالون منه تعالى عناية لما فيه مصلحتهم، كغفران الذنوب والهداية ومضاعفة الحسنات... وهذه هي الأمور التي يُحْرَمُ منها الكفّار والمنافقون حيث ينساهم تعالى منها فلا يذكرهم سبحانه بهذه الرحمة الخاصة بالمؤمنين حين يعاملهم، مرّ ذلك معك منذ قليل في الآية 67.

{إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ}، منفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... فيفرض ما يريده على الآخرين ولا يفرض عليه تعالى أي أحد أي شيء، بناءً عليه سيرحم سبحانه فقط المؤمنين والمؤمنات ولا قوّة تستطيع تغيير ذلك.

الله، {حَكِيمٌ}، يرى الصوابية في الأمور فقراراته وأفعاله سبحانه كلّها حق على الصواب وليست عبثية، وعندما قرّر سبحانه حبط أعمال المنافقين والكفار، فهذا أمر حكيم ولذلك قرّره تعالى، وعندما قرر العناية الخاصة بالمؤمنين، أيضا عن حكمة وليس عن حاجته تعالى للمؤمنين.

ننتبه لاختصار القرآن أموراً مهمّةً في جملة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، ففيها المعنى الذي تحمله جملة "هدى للمتقين"، فبالأساس في بعض الناس سلامة القلب، وهذا مرادف للإيمان والتقى، ومثله تعابير القرآن الكثيرة بجملة "عملوا الصالحات"، فهؤلاء لا يتبعون هواهم الفاسد ولا يخترعون عقيدة أو شريعة مبنية على مصالح شخصية سيئة أو عدوانية... بل يتبعون سلامة قلبهم، وبما زودّهم به تعالى من قلب سليم فهم يعملون ما يرونه صالحاً، وسيتماشى ذلك مع أوامره تعالى، لأنه سبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح.

هكذا نفهم أن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ليس مختلفاً عن الالتزام بدينه تعالى، بل هو تعبير مرادف لتماشي ما يرونه منكراً مع ما قال عنه تعالى أنه منكر، وتماشي ما يرونه معروفاً مع ما قال تعالى عنه أنه صالح.

مضافاً لما سبق جملة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، تحوي في صلبها معنى تطبيق أساسيات دينه تعالى على التفاصيل التي لا تجدها مذكورة في القرآن.

بقي شيء تكرّر في سورتنا هذه، حيث اختارت الصلاة والزكاة كأبرز نموذجين من دينه تعالى، فالصلاة أبرز نموذج عن العمل الديني الإيماني ذي الأثر الفردي المباشر، والزكاة أبرز نموذج عن العمل الذي أثره اجتماعي.

(وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{72})

{وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}، فقال لهم سبحانه بأنه سيفعل شيئاً لهم، ووعدهم، {جَنَّاتٍ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها، من حدائق وبساتين... {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، جداول وأنهار الماء والمشروبات المتنوّعة اللذيذة، متوزّعة تحت أشجار الحدائق.

ضع في بالك دائماً أنّ التعبير بجريان الأنهار من تحتها لا يقصد تصوير مكان كالمستنقعات، بل هو شيء مشابه للحدائق والبساتين والغابات التي فيها ساحات من المروج، وفيها أماكن أخرى تتشابك فيها النباتات، وتلك مساحة فيها صخور متداخلة من النباتات... وهناك نهر وهنا جدول وذاك شلّال... من مختلف الألوان والنكهات كما ورد في الآية 15 من سورة محمد "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى..."، فلا تبالغ في التصوّر لتتصور المكان كمستنقعات.

{خَالِدِينَ}، لا يموتون ولا يفنون، {فِيهَا}، في تلك الجنات فلا يخرجون منها ولا هي تخرب.

وعدهم تعالى، {وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً}، أماكن يسكنون فيها من بيوت وقصور وخيام... طيّبة، ليس فيها أي شيء خبيث تنفر منه وتكرهه، حيث البناء والألوان والأثاث والاستقبال والخدمة... كلها طيبة ولا شيء فاسد مزعج فيها، وهذه المساكن، {فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ}، في أماكن موصوفة بالروعة وهي عدن أي مكان إقامة دائمة، فهي ليست مؤقتة أو سيسكنها غيرهم أو ستنهار أو سيضطرون لمغادرتها...

وعدهم سبحانه، {وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ}، قبول منه تعالى بمحبّة لكل ما يفعلونه وهذا شيء أكبر من كل روائع الجنان وما فيها، يرضى تعالى عنهم دائماً مهما فعلوا، ويقبل بمحبّة ما يفعلونه ويقولونه، فلا واجبات عليهم ليطالبهم سبحانه بها، ولا إثم عليهم مهما فعلوا، لأنه بالأصل لا ممنوعات ولا مراقبة ولا محاسبة... وكل ما يخطر ببالهم سيفعلونه مع رضا إلهي دائم عليهم.

{ذَلِكَ}، السكن في الجنة الخالدة مع الرضوان الإلهي هو: {الْفَوْزُ}، هو الحصول على شيء له قيمة عالية من بعد نجاحهم في الدنيا، {الْعَظِيمُ}، الكبير الضخم الهائل.

ننتبه، فكيف يكون الرضا الإلهي الدائم عن أي شيء يفعلونه أكبر مما حصلوا عليه في الجنة؟ ولكن إذا تذكرت أننا عبيد محكومون تحت الإله سبحانه، وحصلنا في الجنّة على الحرية المطلقة الدائمة لنفعل أي شيء نريده، ومن دون أن نتحاسب أو أن يفرض علينا أي أحد أي شيء، وحتى الإله سبحانه نفسه لن يفرض علينا أي شيء، فلا ممنوعات ولا واجبات في الجنّة، فهذا الشعور بهذه الحرية وممارستها عملياً ستكون أكبر من أي شيء آخر نحصل عليه.

مع أن الآية تتحدّث عن رضاه تعالى، فلنستغل المناسبة لنتحدث عن تعابير رضا المؤمنين الذين في الجنّة عمّا في الجنة وعنه تعالى، كما ورد في الآية 8 في سورة البيّنة "جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ".

كلمة رضا ومشتقاتها معناها في كلام العرب وفي القرآن: وصف شعور كتعبير عن القبول وانتفاء الاعتراض بل بالعكس فهو الموافقة المتدرجة من السرور إلى الحبّ عن فعال أحد ما، والوصف يشمل شعورك تجاه العمل أو على صاحب العمل. فهي ليست وصفاً لقبول شيء مكروه، فهذا وصفه الصبر، حيث في أدبياتنا نجد كلاماً عن الصبر على المكروه، وأن الرضا بالمكروه أعلى من الصبر، وهذا معنى لم يستعمله القرآن في كلامه، ومخالف للمعنى اللغوي لكلمة رضا، ويحمل في طياته معاني أخرى مرفوضة إذا قارنتها مع مفاهيم القرآن، فسبحانه لا يخصّص "من عنده" مكروهاً لمؤمن حتى يكون إيمانه عالياً بالرضا عليه، فأي مكروه غير محبوب يحصل مع المؤمن فهو بسبب ذنب ارتكبه المؤمن أو ذنب ارتكبه غيره، وليس منه تعالى أبداً بتاتاً وهذا واضح من عموم كلام القرآن ومنه الآية 30 من سورة الشورى "وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ".

نعم لا مشكلة بالتهاون في معاني الكلمات في الأدبيات التي بيننا إلا إذا كانت تعبّر عن شيء ديني منسوب له تعالى، فالقرآن دقيق في تعابيره ولا يتهاون أو يتساهل أو يتراخى في معاني الكلمات التي يستعملها، وعندما نتهاون نحن ويصير للكلمات معانٍ نظنها من مفاهيم قرآنية، وعندما تترسخ هذه المعاني المتراخية للكلمات في ذهننا، فعندها سنقع في مشكلة تفسير كلام القرآن على أساس المعنى والمفهوم الذي أصلاً تراخينا فيه.

لدينا كم هائل من الآيات التي تصف روعة الجنّة وأن من يدخلها سيبقى مذهولاً بروعة ما فيها أبداً، بلا ملل ولا أي رغبة في شيء آخر، فكل ما يرغب به يجده في الجنّة، بل يجد فيها ما لا يخطر على باله... وكمثال جامع لذلك ما ورد في الآية 108 من سورة الكهف "خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا" فهو راض بها، وراض عنه تعالى، وهذا هو معنى كلمة الرضا لغويّاً وهكذا استعملها القرآن، وهي لا تتحمّل ولا تتوافق مع ما درج في أدبياتنا عن الرضا على شيء مكروه، والذي سيعني ضمناً احتمال حصول شيء مكروه في الجنّة، ورغم ذلك سيرضى عنه المؤمن، لا، فانتبه دائماً من ذلك.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ {73})
بعد شرح الآيات لك عن الكفار، والمنافقين من المسلمين، والمنحرفين من أهل الكتاب أنهم نوعية واحدة، {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}، يا أيها الذي يصله النبأ، حيث يصله منه تعالى الخبر غير المنتشر علمه بين الناس:

{جَاهِدِ}، قم بعمل فيه جهد، عملاً ليس سهلاً ضد، {الْكُفَّارَ}، المنكرين للدين الإلهي فهم يعلنون أنهم ليسوا منتمين له، وجاهد {الْمُنَافِقِينَ}، الذين يظهر عليهم الدين من الخارج ولكن من داخلهم ليسوا مؤمنين، {وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ}، فكن قاسياً فلا تتساهل ولا تلن معهم.

هذا هو حكم التعامل مع الكفار والمنافقين في الدنيا، طبعاً بسبب أعمال عدائية أو مؤذية قاموا بها ضدّ المؤمنين، وأمّا غير ذلك فلا يوجد أمر إلهي بالتعرّض لهم بسوء، {وَمَأْوَاهُمْ}، وسيكون المكان المحدد الذي سيبقون فيه، مكان سكنهم، {جَهَنَّمُ}، المكان الموصوف بسوء ما فيه، ففيه النار المتأججة، {وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}، فكون جهنّم مأواهم فهو أسوأ نهاية لن تتغيّر، فهي أتعس نتيجة سيبقون فيها.

علمنا أن حكم الكفار المعادين هو قتالهم... وأما المنافقون فهم أعلنوا أنهم أسلموا فيجب جهادهم إذا حملوا السلاح وقاتلوا مسلمين آخرين، وإذا أفسدوا في الأرض فيجب جهادهم ومعاقبتهم، وفي بعض الظروف يجب مقاطعتهم...

(يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ {74})
هنا تكمل الآية الحديث عن المنافقين: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ}، يقولون كلاما تأكيديا لتبرير شيء فعلوه، ويبررون أنهم {مَا قَالُوا} كلمةَ الكفر، لم يعلنوا أنهم ينكرون شيئا من الدين الإلهي، ويقولون والله لم نشرك ولم نترك الإسلام.

{وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ}، لكنهم في الحقيقة قالوا كلاما معناه إنكار الدين الإلهي وتكذيبه، حيث استهزؤوا بكلامه تعالى وبالرسول(ع) وبقرآنه وبدينه... واعترضوا على تقسيم الصدقات والغنائم...

{وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ}، حيث أنكروا الدين الإلهي بعد إعلانهم أنهم مستسلمون منقادون لله تعالى.

{وَهَمُّوا}، نووا بقوّة فعل شيء ما ولكنهم في النهاية لم يفعلوه، {بِمَا لَمْ يَنَالُوا}، أي بما لم يحصل معهم أو يحصلوا عليه، حيث همّوا بالانتقال من الكفر إلى الإسلام الحقيقي، ولكنه بقي همًّا ولم يتحقق، ولم يصيروا مسلمين حقيقيين وبقوا من داخلهم كفّارًا.

{وَمَا نَقَمُوا}، لم يشعروا بالنقمة على الدين الإلهي، ولم يشعروا بنية فعل الضرر للدين الإلهي ومعاداته، {إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ}، حيث حصلوا على أمور جيدة لم يكن فرضًا واجبًا الحصول عليها من الله تعالى أو من رسوله(ع). فهل يوجد معنى لنقمتهم على الدين الإلهي؟ وما معنى تبييتهم لنية الضرر للدين الإلهي ومعاداته؟ لأنهم حصلوا بسبب الدين الإلهي على الغنى من الأمن والراحة والبحبوحة الاقتصادية، والعدل بين الناس وانتشار الأمر بالخير... يعني كما تقول لمن في السابق أحسنت إليه ولكنه أحرق لك بيتك: معك حق أن تحرق لي بيتي فأنا أطعمتك وأسكنتك وساعدتك... هنا الآية تشير إلى السؤال والاستفسار والاستغراب، فلأي سبب وجيه نقم هؤلاء على الدين الإلهي؟ لأنهم في نعمة من فضل الله تعالى عليهم وبفضل الرسول(ع)، إذ صارت السلطة والحكومة للخير والصلاح! فلماذا تبييت النيّة لمعارضة الدين الإلهي ومعاداته ومحاربته؟!

{فَإِنْ يَتُوبُوا}، أي إن يفتحوا صفحة جديدة، ويتوقفوا عن النفاق وينووا ترك الرجوع إليه، {يَكُ خَيْرًا لَهُمْ}، فهذا شيء جيد. {وَإِنْ يَتَوَلَّوْا}، أي يتوجّهوا باتجاه آخر غير التوبة، ويديروا ظهرهم للتوبة وللإيمان الحقيقي، عندها، {يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا}، حيث سيتعرضون لضرر لا يمكنهم تحمُّلُه أو الاعتياد عليه، ويكون العذاب، {فِي الدُّنْيَا}، أي في حياتهم هنا على أيدي المؤمنين أو بكوارث طبيعية يأمر بها تعالى... {وَالْآخِرَةِ}، أيضًا لهم فيها عذاب أليم في الحياة التي ستأتي في الآخر بعد انتهاء الحياة الدنيا الأولى.

{وَمَا لَهُمْ}، وليس للمنافقين، {فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ}، أي ليس لهم أحد كمرجع لهم يتولّى شؤونهم وما فيه مصلحتهم، {وَلَا نَصِيرٍ}، فلا أحد سيعمل على تحقيق ما يريدونه. هذا الكلام من النظرة الإلهية المسيطرة على كلّ شيء، فالله تعالى هو وحده الولي والنصير الحقيقي، وحده سبحانه يمكنه فرض ما يريده على الآخرين، والمنافقون فقدوا ولايته ونصرته تعالى بسبب كفرهم، حتى لو كان ظاهرهم التديّنَ، فهذا لا يعني أبدًا أنه تعالى ولي لهم ليتولى شؤونهم ويساعدهم، حتى لو بنوا المساجد وأرخوا اللحى... لأنهم من الداخل كفار.

نتذكّر أن المنافق تعرّف على الدين، وأعلن تدينه، ولكنه فقط مجرد إعلان، فتقول له الآية: لقد تركت الله تعالى وهو الولي الحقيقي الوحيد، فلن تجد على الأرض لك وليًّا ولا نصيرًا، فأنت مخطئ في نفاقك وأنت الخسران. طبعًا هم المنافقون والكفّار أولياء لبعضهم البعض، ولكنها ولاية لا تحقّق ما يريدونه إن تعارض مع ما يشاءه تعالى، وهذا ما تشير له الآية هنا، فهي تنفي وجود ولي بالمعنى الحقيقي القادر على تحقيق ما يريدونه مهما كانت الظروف، وأهم شيء في الولاية من النظرة الإلهية هي هداية من اعتبره تعالى وليًّا له، ونصرته نصرًا إلهيًّا ليكون كل ما يجري من بعده في مصلحة المؤمن المنصور...

بقي شيء، ستجد روايات تفسّر آيتنا هنا وبعض آيات سبقت، أنها تؤرّخ لحادثة محاولة اغتيال النبي (ع) من بعض المنافقين من بعد رجوعه (ع) من غزوة تبوك، علمًا أن الآيات عامّة جدًّا، فعلى فرض صحّة تلك الروايات فهي تطبيق عملي لعنوان الآيات على بعض المنافقين، ولكن الآية هنا وما سبقها لا تشير بكلامها إلى حادثة محاولة الاغتيال تلك.

(وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ{75})
{وَمِنْهُمْ}، من المنافقين، {مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ}، وعد أن يلتزم بشيء، {لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ}، أي إذا أعطانا من أمور جيدة ليست واجبة عليه تعالى منحها لنا، ومن تكملة الكلام تعلم أنهم يقصدون أن يجعلهم سبحانه يملكون الكثير من المال، {لَنَصَّدَّقَنَّ}، لسوف نتصدّق وندفع من المال والأملاك للمحتاجين وفي سبيله تعالى، {وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ}، لتكون أعمالنا صالحة ولن نرتكب السوء ولن نغشّ ولن نتحايل ولن نتعامل بالربا... لأننا صار معنا فائض من المال، ولن نقصّر في واجب بالإنفاق في عموم سبيله تعالى على المحتاجين وعلى شؤون المسلمين وعلى الأمور العسكرية، ولن نقصّر في واجب عبادي ولن نهمل الصلاة لأننا لم نعد مشغولين بجمع المال...

بالنسبة لدفع المال في سبيله تعالى، المنافق يبخل، ويسمع الدين الإلهي يقول له: إن امتناعك عن إنفاق المال هو عمل سيئ وليس صالحًا، يقول المنافق بينه وبين نفسه أو أمام الناس: عهدًا عليّ، إذا صار معي مالٌ كثيرٌ، فسوف أنفق منه في سبيله تعالى، وهكذا أكون صالحًا، العُطْلُ ليس من عندي إن لم أنفق، بل العُطْلُ من عند الله تعالى لأنه سبحانه لم يعطني مالًا وفيرًا لأنفق منه.

ننتبه جيدًا حتى لا نكون من المنافقين الذين تتحدّث عنهم الآية، بقدر ما معنا من مال وعلى قدر إمكانياتنا فلنتصدّق على المحتاجين، ولَا نسرح في أحلام النفاق مثلما تقول الآية هنا عن الذين تصفهم بالمنافقين، نحلم ونتمنّى وندعوه تعالى أن يرزقنا مالًا وفيرًا جدًّا لنتصدّق به على كل من نعلم أنه بحاجة للمساعدة، لا، لا تربط بين حصولك على المال الكثير وبين الصدقة على المحتاجين، أنت مكلّف بالصدقة بقدر ما تستطيع مما معك، وأحلام اليقظة عن حصولك على الملايين وأنك ستتصرّف فيها بصلاح، هذه أضغاث أحلام النفاق في اليقظة، الإيمان الحقيقي أن تتصدّق مما تحبّ ومن القليل الذي معك، بشكل لا تصير من بعده أنت بحاجة لمن يساعدك، وتقرأ ذلك في الآية 29 من سورة الإسراء {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا}، وفي الآية 92 من سورة آل عمران {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}، الأمنية هنا في الآية عن حالة يصير المال فيها فائضًا بكثرة كشرط حتى نتصدّق

وهي ليست الحالة الصحيحة... الجهاد بالمال، الجهد، العمل غير المريح ماليًّا، معناه الإنفاق حتى من القليل الذي معك بشكل لا تصير بعده أنت بحاجة للمساعدة، ما معنى حصولك على مال يكفي لبلدة ومن بعدها تتصدّق منه على المحتاجين! أين الجهد! وما معنى هذه الفكرة أصلًا؟ مَنْ أنا ومن أنت حتى نكون رسله تعالى لتوزيع رزقه على الناس؟ لو شاء تعالى لرزقنا جميعًا مالًا يطمرنا، ولكننا ولأسباب كثيرة لم نحصل على الوفرة، على رأسها فقداننا لنقاوة الإيمان كمجتمع، وتعرّض غالبيتنا لمرض البطر والفخر والزهو والإسراف والتبذير... إن صرنا أغنياء، بل لمجرد الشعور بامتلاك شيء تافه كسيّارة أو هاتف أو ثياب جميلة... أو وظيفة... يتحوّل بعض الناس إلى التكبّر والافتخار والزهو، وهذا شيء أشارت له الآية 27 من سورة الشورى {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ}.

(فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ{76})

{فَلَمَّا آتَاهُمْ}، عندما أعطى سبحانه المنافقين، {مِنْ فَضْلِهِ}، أي أعطاهم تعالى من الأمور الجيدة وليس فرضًا واجبًا عليه تعالى أن يعطيهم من تلك الأشياء، أعطاهم تعالى مالًا وأملاكًا، ماذا حصل: {بَخِلُوا بِهِ}! حيث لم ينفقوا منه بسبب حبّهم لبقاء المال والأملاك معهم.

{وَتَوَلَّوْا}، أي ذهبوا باتجاه آخر، {وَهُمْ مُعْرِضُونَ}، وهم يعتبرون الإنفاق موضوعًا لا يستحقّ الاهتمام به!

لا تتصور أن كل منافق قال إنّه سيتصدق إن أغناه تعالى، أنّه سبحانه حتمًا سيغنيه حتى يمتحنه، لا، بل الكلام هنا عن نموذج منافق صار غنيًّا لدرجة الثراء، ولدينا حاليًا تصنيف "متوسّطي الحال" للمكتفين ماليًّا، وهم أغنياء وليسوا أثرياء، وهذه عادة الحالة العامّة لغالبية الناس، والمؤمن منهم يتصدّق بما يستطيع، أمّا المنافق، فيصرف أمواله على الكماليات في ثيابه وطعامه ورحلاته وأثاث بيته وبناء بيته... ولكن حين يصير أمام صدقة في سبيله تعالى، يقف، ويريد أن يكون عنده فائض ماليٌّ أكثر مما معه بكثير حتى ينفق! وإذا حصل معه فائض، نسي الصدقة، وأدار ظهره لها!

نتذكّر دائمًا كلام القرآن مع وعن نماذج، حيث لن يغني ولن يثري تعالى كل منافق ليمتحنه، وأصلًا ليس معنى الغنى أن يكون ثريًّا، فإن ملك الشخص ما يحتاجه ولو لأشهر أو لسنة أو أكثر قليلًا، فهو غنيٌّ، ويجب عليه الإنفاق في سبيله تعالى إن كان هناك ضرورة... والآية جعلت الكلام عامًّا، فأيُّ شيء نحصل عليه فهو أصلًا من فضله تعالى، ومهما كانت قيمته، فالمنافق يبخل حتى لو كان فاحش الثراء والمؤمن ينفق حتى من القليل الذي معه.

(فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ{77})

{فَأَعْقَبَهُمْ}، عَقِبَ بخلهم، حصل معهم من بعد بخلهم، {نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ}، في أساس فكرهم ونفسيتهم صار عندهم حالة التمثيل بأنهم متدينون، مثل الذي ترى أفعاله الشنيعة الإجرامية وهو مصرّ بأنه مؤمن أكثر من الجميع، وأساس فكره ونفسيته تلبّس بحالة النفاق، بحالة تصور نفسه لنفسه بأنه مؤمن حقيقي من الدرجة العالية مهما فعل، وعقابًا لهم على بخلهم النابع من نفاقهم البدائي سيصيرون في حالة نفاق متأصل متجذّر في أساس فكرهم ونفسيتهم، {إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ}، حيث سيبقون كذلك حتى يتواجهوا معه تعالى حين يحاسبهم في يوم القيامة.

هذا العقاب لهم بالبقاء على حالة النفاق من دون أمل بالتحوّل إلى الإيمان الحقيقي، {بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ}، بسبب تركهم الالتزام بما قالوا إنهم سيفعلونه إن آتاهم تعالى من فضله، حيث آتاهم تعالى وبخلوا.

{وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}، حيث كذّبوا حين قالوا بأنهم مؤمنون لأنهم لو آمنوا لتصدقوا، وكذبوا حين قالوا بأنهم لو صاروا أغنياء سيتصدّقون... ولذلك سيقضون حياتهم وسيموتون وهم منافقون بلا أي أمل بإيمانهم.

نتذكّر دائمًا أنه تعالى صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا بشكل يجعل ما نفعله ونقوله يتجذر فينا من كثرة إصرارنا عليه ومن كثرة تكراره، لا تفهم من الآية هنا ومن أمثالها من الآيات التي تقول بأن بعض الناس حكم سبحانه عليهم أن يبقوا منافقين أو كفّارًا أو فاسقين كلّ عمرهم، ولا تفهم أنه تعالى سيتدخّل ويتلاعب بقلوبهم "أساس فكرهم ونفسيتهم" ليجبرهم على البقاء على كفرهم أو نفاقهم أو فسقهم، لا، لأن هذا النوع من الكلام دائمًا يشير إلى طبيعتنا التي خلقنا سبحانه وتعالى عليها، ونفس المعنى تقوله الآيات التي تتحدّث عن دمغ وطبع القلوب، لأنه سبحانه

صمّمنا بهذه الخاصية، بحيث إذا أصررنا على شيء ما وكرّرنا فعله، فإننا نتعلّق به ويصير جزءًا منّا لدرجة استحالة انفكاكه عنّا.

نفس الشيء بالعكس بالنسبة للإيمان، خذ مثلًا الأنبياء، هؤلاء من كثرة إصرارهم على سلامة قلبهم "أساس فكرهم ونفسيتهم"، وابتعادهم المتكرر عمّا يتعارض مع سلامة قلبهم، يصير هذا الإيمان متجذّرًا فيهم ولا ينفكّ عنهم، وهذا المعنى من المعاني التي يقصدها القرآن حين يقول بأنه تعالى يهدي المؤمنين وينير قلوبهم...

(أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ{78})
{أَلَمْ يَعْلَمُوا}، ألم تصل معلومات إلى المنافقين، {أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ}، أفكارهم ومشاعرهم التي في داخلهم ولا يُعْلِنُونَهَا، ويعلم، {نَجْوَاهُمْ}، ما يتناجون به، ما يتحدثون به مع بعضهم البعض براحتهم، حَيْثُ هناك اجتماعات تجمع المنافقين مع بعضهم لأنهم متشابهون في الهوى والعقلية، وفي تلك الاجتماعات يَتَنَاجَوْنَ وَيَتَحَدَّثُونَ براحة وصراحة، وهنا المقصود أنهم يتناجون والموضوع هو دينه تعالى، وهنا مجرى الكلام في الآيات يشير لنموذج تعليقاتهم المعترضة على الرسول(ع) في توزيع الصدقة، واعتراضهم على الزكاة والصدقة... وكما ترى فهم يرونها شَيْئاً يتعارض مع ما يرونه هم مُنَاسِباً، وَيَتَنَاجَوْنَ به براحتهم بلا حسيب ولا رقيب وَعَلَى مزاجهم يعلّقون وينتقدون ولا يهمّهم الحق والباطل والخير والصلاح، بل تَهُمُّهُمْ فقط مصلحتهم الخاصّة...

ألم يصلهم خبر، {أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}، يعلم تعالى كل ما يغيب عن المخلوقات لانه مستور عنهم أو يحصل بِالْخَفَاءِ، أو لا يمكنهم سماعه أو رؤيته... أو حصل في الماضي قبلهم، أو يحصل في الحاضر في مَكَانٍ هم ليسوا فيه فلا يشهدون حصوله، أو سيحصل في المستقبل... سواء حصل تحت الأرض أو في أي سماء...

هُمْ عندما يقولون بأنهم سيتصدّقون وَسَيَكُونُونَ صالحين إن حصل معهم فائض مالي، هل هم لا يعلمون أنه تعالى يعلم إن كانوا سيتصدقون إن حصلوا على فائض مالي؟ ولا يعلمون أَنَّهُ تعالى يعلم إن كان معهم مال فائض زائد عن حاجاتهم؟ ولا يعلمون أنه تعالى يعلم إن أنفقوا أم لا؟ ولا يعلمون أنه تعالى يعلم أفكارهم ونفسيتهم المنافقة؟ ولا يعلمون أنه تعالى يعلم نجواهم مع بعضهم بكلامهم السَّيِّئِ وبالنظرة الضيقة لمصالحهم الخاصّة؟...

عَلَى من ينافقون؟ وعلى من يخفون إنكارهم للدين الإلهي؟ على علاّم الغيوب!

(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{79})
المنافقون الذين يبخلون، {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ}، يَقُومُونَ بفعل اللمز وَهُوَ فعل الشدّ بقوة على شيء، وهنا المقصود عموم أي حركة شدّ بأعضاء الجسد أو بثياب شخص بقربك ليلتفت إلى شخص آخر، تَشُدُّهُ بثيابه أو بيده... ليلتفت إلى {الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ}، ليلفت المنافق انتباه الذي بقربه لينظر إلى المعتقدين حقا بالدين الإلهي وهم الْمُطَّوِّعُونَ الذين عن طواعية، عَنْ طيب نفس ورغبة، يتصدّقون وَيُقَدِّمُونَ من أموالهم في سبيله تعالى.

الْمُنَافِقُونَ يقومون بحركات للفت انتباه الآخرين للسخرية والاستهزاء والاستنكار على المؤمنين الذين يدفعون الصدقة طواعية عن طيب نفس وخاطر، وَيَعِيبُونَ على الشخص الذي يدفع طواعية من رَغْبَةٍ، من مَحَبَّةٍ، بأنه مستهتر بماله، بأن عقله مضروب فليصرف المال على نفسه وعياله بدل أن يعطيه لغيره... أو فليتمتع هو بماله على الملذات التَّرْفِيهِيَّةِ بِالرِّحْلَاتِ والطعام والثياب الفاخرة... "والهاتف الجديد والانترنت السريع والتلفزيون الكبير..." بدلا من إنفاقه في سبيله تعالى.

اللمز هو أقل فعل يقوم به المنافقون، وهناك أعلى منه حيث يقولون للآخرين المنافقين مثلهم شيئا معيبا بحقّ الْمُطَّوِّعِينَ بالصدقات، وَهُنَا الآية تتحدّث عن اللمز كنموذج لتشير إلى أنه حتى هذه الحركة البسيطة حسابها عسير جدا، ناهيك عن السخرية والكلام المعيب الذي يقوله المنافقون عن الْمُطَّوِّعِينَ في الصدقات فتلك حسابها أعسر.

يَلْمِزُ المنافقون أيضا المؤمنين، {وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ}، المؤمن الذي لديه القليل من المال، ودفعه كصدقة فهو جهد وَهُوَ شيء شاق مجهد عليه، ورغم ذلك يدفعه، وَيَلْمِزُ المنافقون بعضهم البعض قاصدين بأنه مخبول مجنون،

فليصرفه على نفسه لأنه أحوج من غيره... {فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ}، حيث ينتقدهم المنافقون بازدراء وبنظرة دونية، لأن الصدقة بنظر المنافقين هي خسارة للمال، ومن ينفقه عن طيب خاطر يكون مخبولا أو مجنونا وغير عاقل... وأمّا الذي أصلا أوضاعه المالية أقل من العادي، وينفق، فهذا فعل لا يتحمّله المنافقون ولا يبلعونه أبدا، وهو بنظرهم الجنون وَالسَّفَهُ بعينه...

{سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ}، سبحانه يزدري بهم بنظرة دونية، لأن ما يقوم به المنافقون شيء غير عقلاني وَسَيِّئٌ، {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، وسيتعرضون لما يضرّهم ولن يكون عاديا بل قويا.

كما ترى، ليس شَرْطاً الصدقة من الغني فقط، بل حتى الذي يحصل على رزقه من عمل يومه، ولا يملك إلا فائض أُجْرَةِ يومين، وهذا إن تصدّق لن يحتاج للمساعدة لأنه أصلا عامل يومي وهو معتاد على هذه الحالة الصعبة، فأمثال هؤلاء حين يتصدقون، وبحسب مفاهيم القرآن، يكون الأجر لهم منه تعالى يفوق بأضعاف مضاعفة الصدقة بالملايين من الذي فائض ثروته بالمليارات، وهذا لا يعني أن صاحب المليارات لا يستطيع الحصول على أجر ضخم مثل المسكين الذي تصدّق، لا، بل يمكنه التصدق مما يحب لينال عظيم الأجر.

(اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ{80})
{اسْتَغْفِرْ لَهُمْ}، اطلب منه تعالى مسامحة المنافقين عن ذنوبهم، {أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ}، سيّان، فمثل بعضها سواء أاستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم هم لن ينتفعوا بشيء. فرضا علمت بذنبهم وعطفت عليهم واستغفرت لهم، أو أحدهم انفضح أمره وطلب منك أن تستغفر له، فلا نفع لطلبك، لأنك تستغفر لمنافق لم يتب.

{إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً}، وليس مرة واحدة، {فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}، {ذَٰلِكَ}، قراره تعالى بأن لا يقبل استغفارك لهم، {بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ}، في الحقيقة هم لم يؤمنوا به تعالى كما يجب، وأنكروا {وَرَسُولِهِ}، فلو اعتقدوا فعلا أنه ينقل لهم أوامرَ من الإله سبحانه، والكلام عمومي وكنموذج عنه ما قاله الرسول عن الصدقة، فلو آمنوا بأنه ناقل لأمر إلهي لكانوا احترموا تلك الأوامر.

{وَاللَّهُ لَا يَهْدِي}، لا يضع على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {الْقَوْمَ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الإنفاق والذي هو محور الكلام هنا، {الْفَاسِقِينَ}، الخارجين المخالفين لأمور بصراحة وعلانية واضحة يقولها الدين الإلهي، فكيف سيضعهم تعالى على الطريق الصحيح إن أنكروا ربوبيته سبحانه وأنكروا رسوله(ع)؟ لذلك لم يبق لهدايتهم إلا أن يجبرهم سبحانه بالقوة ويغيّر عقولهم ونفسيتهم بالقوة حتى يؤمنوا... وهذا لن يحصل، ولذلك لن يحصلوا على الهداية التي يحصل عليها المؤمنون به تعالى وبرسوله(ع)، لأن المؤمنين لديهم قرار بأن يؤمنوا ليساعدهم سبحانه ليؤمنوا أكثر.

ننتبه، لأنه لا خصوصية للسبعين مرة، حيث تريد الآية أن تقول: لو استغفرت مرة أو أكثر، فلا نفع. لذا لا تغرق في أبحاث الأعداد، وميزة السبعين مرّة... لأنّ كله كلام فارغ، ولو فكّرت بأن الآية ستستعمل أي عدد لتدل على كثرة تكرار الاستغفار، فيمكن أن تقول أربعين أو ثمانين مرة أو تسعين... لذلك تنتبه أن العدد لا ميزة له، لأنه مجرد إشارة لكثرة تكرار الاستغفار، حيث لا المرة تنفع، ولا المرّتان ولا السبعون ولا المليون مرة.

لاحظ ما درج في ثقافتنا عن تعريف "النفاق" بأنه إخفاء للخروج عن الدين، وتعريف "الفسق" بأنه علانية الخروج عن الدين، وهذه الكلمات وغيرها الكثير علقت في أذهاننا تعاريفها الدارجة، وهي تعاريف لا تتوافق بدقّة مع أصل وأساس معاني تلك الكلمات في اللغة العربية القديمة في عهد نزول القرآن، وفي دراستنا هذه للقرآن حاولت الخروج من هذه التعاريف والالتزام بالمعاني اللغوية الأساسية، ولكن من شدّة تعشّق تلك الثقافة فينا، وانتشارها في كتب التفاسير والقواميس، ومن دون أن نشعر، تغلبنا تلك التعاريف للكلمات ونفسّر بها كلمات القرآن، وراجعت هذه الدراسة للقرآن مرات ومرات، وفي كلّ مرة أجد العديد من الكلمات التي لم ألتزم بتفسيرها بما درسته وحقّقته من معانٍ للكلمات، لأن الطبع غالب! ولذلك تجد بين الحين والآخر ملاحظة أشير بها إلى ما حقّقته من معنى لكلمة ما حتى تبقى في ذهنك وتعذرني إن سهوت في معناها في آية أخرى.

ها ترى الآيات هنا تتحدّث عن النفاق والفسق وتخلطهما ببعض، على أساس أن النفاق نابع من إنكار داخلي للدين، وله تدرجات، تبدأ من الإنكار الكلّي لعموم أساسيات الدين، وهذا نفاق متساوٍ في أثره مع الكفر، والفرق أن المنافق يعلن انتماءه لدينه تعالى بينما الكافر يعلن كفره به، مرورا بإنكار بعض أساسيات أو فرعيات من الدين، وخلال ذلك أيضا يعلن المنافق نفسه منتميا لدينه تعالى، وصولا إلى حالتنا نحن بما نفعله من سوء نعلم سوءه وحرمته ووجود عقاب عليه ولكننا لا رغبة لنا بالاتّصاف بالنفاق ونحاول الإقلاع عن بعض السيئات المتكررة... فهذه أقل درجة وصف بالنفاق.

للنفاق علامات، فكيف يكون الشخص منافقا إن كان كل كلامه وسلوكه متوافقاً مع الدين! إذن هناك تصرفات علنية مخالفة للدين يقوم بها شخص ما، وتنبع تصرفاته من إنكار داخلي للدين، مع إصرار ذلك الشخص على وصف نفسه بأنه مؤمن، مثلاً يقول: ليس من الواضح عندي أن الزكاة واجبة عليّ لأنها واجبة على أصحاب المليارات وأنا لست منهم...

الفسق هو الخروج عن شيء قاله الدين بوضوح، حيث إنّ الزكاة واجبة والصوم واجب والصلاة واجبة... وهذه أمور صريحة وواضحة قالها الدين، ومن يخالفها فهو يخالف شيئا قاله الدين بصراحة ووضوح، لذا هو فاسق وموافق على وصف نفسه بأنه مخالف وخارج عن شيء علناً قاله الدين. مثلاً يقول: من الواضح أن القرآن يأمر بالزكاة، ولكن هذا لا يعجبني ولن أفعله. وأيضا للفسق تدرجات، حيث يمكن أن يكون خارجا عن كل أساسيات الدين، أو بعضها، وهنا لو راجعت الآيات فسترى أنها تتحدّث مع من يخالف الدين وهو في نفس الوقت يقول عن نفسه بأنه مؤمن، حيث تقول له الآيات إنّه فاسق وليس مؤمنا، وتظهر له ما في داخله لتبرهن له أن ما يخفيه في داخله هو الفسق.

أيضاً يوصف الكفّار بالفسق، لأنهم خارجون عن أمور يقولها علناً دينه تعالى، ولكن لا يوصف الكفّار بالنفاق دينيا لأنهم يعلنون أنهم ليسوا منتمين لدينه تعالى.

قارنها مع شخص مؤمن على مزاجه، حيث يعتقد أنه يمكنه الاختيار من الدين الإلهي فقط ما يقتنع به ويوافق هواه، وحتى لو كان الرسول شخصيا أمامه وقال له الرسول بأنه نقلا عنه سبحانه: الصدقة واجبة. ولم يعجبه ذلك، فهو يرى نفسه مؤمنا عقلانياً منطقياً يأخذ من الدين ما يراه مناسباً مدّعياً أن رأيه عقلاني. وهذا هو الوصف بالنفاق الذي تتحدّث عنه الآيات، حيث يدّعي الانتماء لدينه تعالى ويدّعي أنه لا يخالف كلامه تعالى، بل هناك مشكلة في كلامه تعالى أو في كلام الناقل والمفسّر المطبّق لكلامه تعالى... لذلك تشرح الآيات هنا لنا عبر الإضاءة على ما في داخل ذلك الشخص لتبيّن أنّه في الأصل فاسق، لأنه في الأصل هو من داخله لا رغبة له بالالتزام بصريح ما وصله من دينه تعالى، وبالتالي هو بالعمق غير موصوف بالإيمان.

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ{81})
من هنا ستبين الآيات أحكام التعامل مع المنافقين الذين لم يخرجوا للجهاد.

{فَرِحَ}، شعر بحالة جيّدة، {الْمُخَلَّفُونَ}، الذين تركهم الآخرون في الخلف، حيث سار المسلمون لقتال العدو وتركوهم في الخلف ولم يخرجوا للجهاد وبقوا في ديارهم، فرحوا، {بِمَقْعَدِهِمْ}، بقعودهم ببقائهم في ديارهم، {خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ}، فهم مسرورون لأنهم لم يخرجوا للجهاد وبقوا خلف الرسول(ع) في ديارهم ولم يرافقوه، وانتبه للتعبير، فقيمة الرسول أعلى من قيمة أي شخص، وهو بنفسه خرج للجهاد، وهم فرحون لأنه هو ذهب وهم بقوا خلفه!

تلاحظ الآية استعملت التعبير بالمبني للمجهول بالضمة على ميم "المخلفون" لتريك أنهم تركهم المسلمون، والكلام عن الذين تركوهم بسبب الأعذار التبريرية لضرورة تخلّفهم...

{وَكَرِهُوا}، ولم يحبوا وأبغضوا، {أَنْ يُجَاهِدُوا}، أن يقدموا عملا مجهدا ليس سهلا، {بِأَمْوَالِهِمْ}، حيث كرهوا أن يتركوا مصالحهم التجارية وأن يدفعوا من أموالهم في سبيله تعالى لتكاليف قتال الأعداء، {وَأَنْفُسِهِمْ}، وكرهوا أن يجاهدوا بها لذا لم يذهبوا للجهاد، {فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، في مسلك يرضى عنه تعالى وهنا الكلام عن الخروج لقتال الأعداء.

الذين اخترعوا الأعذار حتى لا يخرجوا لقتال الأعداء، هم فرحون لأنهم بقوا ولم يخرجوا ولم يدفعوا مالا لتكاليف الحرب، وهؤلاء ليس عندهم أي عذر حقيقي، إذ ليسوا مرضى ولا معاقين ولا ظروفهم صعبة... بل عندهم كره للجهاد في سبيله تعالى بالمال والنفس.

أمّا الذين لم يحصلوا على الإذن بالبقاء، فتواروا ولم يتعبوا أنفسهم لتقديم أعذار واهية، فهؤلاء لم تتحدّث عنهم الآية لأن حالتهم أصعب من حالة الكذّابين المحاولين الحصول على إذن شرعي بالبقاء، ووصف حالتهم مشمول مع الكلام عن الأعراب "البعيدين عن المدينة" الذين بعضهم أصلا لا يهمّه الموضوع من أساسه وليس على مزاجه، وسيأتيك الحديث عنهم في الآية 90، وسترى وصف عموم هذه النوعية من الناس بأنهم الأشد كفرا ونفاقا كما ستقول الآية 97.

هؤلاء {قَالُوا} لبقية المسلمين قبل أن يخرجوا لقتال العدو:

{لَا تَنْفِرُوا}، لا تغادروا مواطنكم قاصدين ساحة الحرب، {فِي الْحَرِّ}، في أيام الحرارة العالية، فستتعبون جدا على الطريق، وستتعبون أثناء القتال، وستعانون من العطش والإجهاد من الهواء الساخن والشمس الحارقة... وربما تموتون من ذلك قبل وصولكم إلى ملاقاة العدو... ومضافاً لتخلّفهم عن الجهاد فهم يثبطون عزيمة الآخرين ويشجعونهم على ترك الجهاد.

تحدثنا سابقا في السورة عن نوعية هؤلاء الناس المدّعين للفهم وأصحاب الانتقادات الهدّامة مع الادّعاء بأنها بناءة، وهذا ما تنقله السورة هنا وتعلمه من التاريخ، فما فعله الرسول(ع) سبّب انتقال جهّال ومراسهم صعب وعقولهم كالحجر بالعصبية... إلى تشكيل نواة دولة، لذا أنت تعلم الآن يقينا أن هذه الانتقادات والاقتراحات والآراء، عن اختيار الطقس المناسب للجهاد، كنموذج عن بقية الطروحات، فما هي إلا تفاهة وسخافة بثوب الفهم والثقافة وبعد النظر... فلو مشى الرسول(ع) على رأي هؤلاء المنظّرين من أمثال أكثر المحللين الاستراتيجيين في عصرنا، لبقي العرب رعاة أباعر وأعظم إنجازاتهم خرافات ومبالغات وعنتريات على الباطل... مصاغة في بيوت شعر.

{قُلْ}، عبر القرآن لهذه النوعية من الناس:

{نَارُ جَهَنَّمَ}، النار التي في الآخرة في المكان الموصوف بسوء ما فيه، {أَشَدُّ حَرًّا}، فحرارتها أعلى بكثير من الحرارة في الصيف في الدنيا، {لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ}، لو ربطوا المعلومات مع بعضها بشكل صحيح لوصلوا إلى نتيجة أن نار جهنّم التي سيتعذّب فيها المتخلفون عن القتال هي أشدّ بكثير من حرّ الدنيا.

الآية تضرب مثالا كنموذج عن أشخاص يختلقون العذر حتى لا يخرجوا للجهاد، ففي أيام الصيف تكون الحرارة عالية جدا في المنطقة التي كان فيها الرسول(ع) "شبه الجزيرة العربية"، ولكن هذا الكلام ليس موجها فقط لهؤلاء الذين كانوا في عهد الرسول(ع)، بل هم نموذج والكلام موجّه لكل من يبحث عن الأعذار حتى لا يخرج لقتال الأعداء، وتلفت الآية الانتباه أنهم أصلا كارهون للجهاد بالمال والنفس وهذا الكلام عن الحرّ إنما هو مجرد عذر.

كما ترى فاختيار الآية لعذرهم بالحرارة العالية هو نموذج واضح جدا عن الأعذار الواهية، كما نقول بالعامية "كلام بلا طعمة"، هل يسألهم الرسول(ع) أن يذهبوا معه في نزهة حتى يعترضوا على رداءة الطقس؟! وما معنى الاعتراض على رداءة الطقس وهو شيء مشترك بينهم وبين العدو واللقاء سيكون للقتال؟! وما معنى انتظار طقس جميل للقتال! هل الكلام عن نزهة؟!

(فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{82})
{فَلْيَضْحَكُوا}، فليعبّر المنافقون عن سرورهم لدرجة ظهور تعابير الفرح على وجههم بالابتسامة العريضة أو القهقهة... ومن سرورهم بالتخلّف عن الجهاد، {فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا}، وكم هي مدة ضحكهم؟ {وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا}، فليعبّروا عن حزنهم لدرجة نزول دموعهم، {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، لأنّ البكاء كما تعلم سيكون من الألم الجسدي والنفسي الذي سيصيبهم في جهنّم، {جَزَاءً}، لأنه المقابل الذي سيحصلون عليه، {بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، بسبب ما كانوا يحصلون عليه مما ينتج عن أعمالهم من سيئات.

بعبارة أبسط، هم الآن يضحكون ولكنهم كسبوا من نفاقهم شيئا سيسبّب لهم البكاء الكثير، حيث كسبوا وحصلوا على شيء من تركهم للجهاد بالنفس والمال، وسيكون الجزاء: الشيء المقابل المعادل لذلك، دخولهم في نار الآخرة، وهذا سيسبّب لهم البكاء الكثير، لأنهم سيخلدون فيها.

(فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ{83})
أول حكم من أحكام التعامل مع المنافقين المتخلفين عن الجهاد بلا عذر حقيقي مقبول: {فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ}، فرجعت وعدت من خروجك لقتال الأعداء، {إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ}، إلى مجموعة من جماعة الذين تخلّفوا عن الخروج معك، ومرة ثانية أردت الخروج لقتال الأعداء، ونشرت الخبر ووصل إلى طائفة إلى مجموعة من الناس الذين تخلّفوا في السابق عن الجهاد، {فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ}، فمجموعة من الذين تخلّفوا في السابق طلبوا إذنك لتسمح لهم بالخروج معك الآن لقتال الأعداء، {فَقُلْ} لهم: {لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا}، فمهما خرجت في مرات قادمة فلن أسمح لكم بالخروج معي لقتال الأعداء، {وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا}، فحتى لو حضر العدو إلينا فلن أسمح لكم بالمشاركة معي في القتال، حيث في أي حال وفي أي زمان فلن أسمح لكم بالمشاركة معي في قتال عدو، لا بالخروج إليه ولا إن أتى إلينا.

{إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ}، فقبلتم بمحبّة وسرور، {بِالْقُعُودِ}، عن الخروج لقتال العدو، {أَوَّلَ مَرَّةٍ}، ففي المرّة السابقة كان مطلوبا منكم المشاركة ولم تشاركوا، ولم يكن لديكم عذر حقيقي... {فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ}، فلا تقوموا للذهاب معنا وابقوا مع الخالفين مع الباقين خلفنا وراءنا، من معاقين ومرضى ونساء وأطفال وعجائز... وبالخصوص، ابقوا مع بقية مجموعة المنافقين أمثالكم الذين لم يخرجوا أوّل مرّة.

في المرة السابقة هناك مجموعة لم تخرج للقتال، وفيهم من لديه عذر كالمريض وكبير السنّ... وفيهم من ليس له عذر ومضافا لذلك بدؤوا بتحطيم معنويات الآخرين عبر طرح التبريرات "الواهية" التي دفعتهم لترك الجهاد... إذ كلّهم مجموعة القاعدين من أصحاب أعذار حقيقية وأصحاب أعذار كاذبة، أما جماعة "طائفة" أصحاب الأعذار الكاذبة، وبعدما عاد الرسول(ع) من الجهاد طلبوا المشاركة في حرب ثانية... وها تسمع الأمر الإلهي لرسوله(ع) في آيتنا هنا والتي تليها بقطع العلاقة معهم.

هم أصلا يحبّون البقاء في ديارهم ويكرهون الخروج لقتال الأعداء، وفوق ذلك عملوا على تبرير قعودهم بتثبيط وتهديم معنويات الخارجين إلى الحرب بتعليقات عن المشقة في الصيف الحارّ... وفرحوا لأنهم لم يذهبوا أول مرة، فأخبرهم من الآن أنه لا مجال لمشاركتكم مع المسلمين في القتال، لأنكم لم تتوبوا، ولم تعلنوا ندمكم، ولم تتغيروا، ولو كنتم منّا لخرجتم معنا لنصرتنا مهما كانت الظروف... فلا حاجة لنا بكم ولا بمالكم ولا بنصائحكم، لذا اشعروا بالاستحقار وممنوع عليكم مشاركتنا بالجهاد.

ننتبه، كيف يكون عقابهم بتركهم في الخلف وهم محبّون لهذا البقاء؟ ربما يبدو أنه ليس عقاباً! لذا ننتبه أنهم طائفة من المنافقين، حيث إنهم مجموعة من مجموعة أكبر لم تخرج، وطلبوا هذه المرّة الإذن بالخروج... لأنّ المقصود برفض خروجهم الآن هو إشعارهم بالإهانة لهم على أساس اعتبارهم من غير المؤمنين وبناء عليه الأمر الإلهي للمؤمنين بقتال الأعداء ليس موجّها لهم، ومن غير المسموح لهم أصلا بالمشاركة، وهذا نموذج عن حالة المقاطعة لهم، وسترى مزيداً من العقوبات في الآية التالية.

بعبارة أبسط الكلام عن نموذج "طائفة" من القاعدين، حيث على المزاج والخاطر أحبوا الآن ولسبب أو لآخر، لسهولة المعركة وقرب المسافة، أو لتوقّع الحصول على غنائم، أو للعنتريات... أحبوا الآن الخروج للقتال، فجاء الجواب بالرفض. إذ ليس الكلام عن محبّ للقعود ولم يطلب الخروج للجهاد، ويقول تعالى لرسوله أن لا يأخذه معه إلى الجهاد ليجعله يشعر بالمهانة، بل صياغة الكلام بالنسبة لهذا تكون أن القاعد سابقا والطالب حاليا للخروج ممنوع عليه الخروج ليشعر بأنه مهان، وأمّا القاعد سابقا وحاليا لا يريد الخروج، فأصلا لن يسأله أحد ليخرج لأنه بلا قيمة، وسترى أنه يوجد عقاب آخر لهذه النوعية من الناس عبر مقاطعتهم... حيث لا يُصلّي عليهم الرسول إن ماتوا... كما سيرد في الآية التالية.

قبل أن نكمل مع الآية التالية نتذكّر كل الصورة، بداية الكلام عن حالة الخروج لمسافة طويلة لقتال العدو، وهناك من رفض الخروج، وكانوا مستويات مختلفة من النفاق والفسق... ولكن كلهم مشتركون في بذرة مخالفة أمره تعالى وأمر رسوله(ع)، ومشتركون بالأعذار الواهية التي يعلنونها كسبب لتركهم الجهاد... وفي هذا المثال عاد الرسول(ع) من سفره، والبعض من المتخلفين لا يزال يعتبر نفسه بقيمة المؤمن بكامل مواصفات الإيمان ومقنعاً نفسه بصحة أعذاره الواهية... لذا تأتي الآيات هنا لتسحب منه هذه القيمة، حيث بأمر إلهي صار ممنوعاً من المشاركة في الجهاد حتى لو عرض نفسه وطلب المشاركة.

هي حالة الذي علم بحفل زفاف أو باجتماع أو دعوة... وهو غير راغب بالذهاب، ولكن جرى توزيع دعوات واستثنوه من الدعوة، ورغم كرهه للذهاب لكنه سيشعر بالاحتقار والمهانة بسبب استثنائه... وهنا يريد تعالى استثناءه حتى يشعر بالمهانة، حتى لو كان منافقاً من العيار الثقيل، وكارهاً من داخله للدين الإلهي من أصله، وكارهاً للجهاد... وأصلا لم يطلب الخروج، حين يجري إهماله وتناسيه من الدعوة للجهاد فسيشعر بالمهانة والاستحقار.

(وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ{84})
{وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ}، إذا مات أحد ما من المتخلفين عن القتال "بلا عذر حقيقي" فلا تُصلِّ عليه صلاة الميّت، {أَبَدًا}، لأنّ هذا الحكم ليس لحالة خاصة بل مؤبّد، حتى لو لم تحصل حروب في المستقبل، ومرّ زمن طويل، فلا انتهاء لحكم مقاطعة المتخلفين بلا عذر مقبول عن الخروج لقتال الأعداء.

{وَلَا تَقُمْ}، فلا تقف لتفعل شيئا، {عَلَىٰ قَبْرِهِ}، على المكان الذي دفنوه فيه، وهو مكان عادة له علامة لتحديد مكان الدفن، لذا لا تشارك أصلا في وضعه في قبره "في دفنه" ولا تشارك بالوقوف على قبره للترحم عليه أو الاستغفار له...

كنموذج عن عقوبات المنافقين وترك التعاطي معهم نهائيا، ضربت لنا الآية مثالا عن حالة عادة نتعاطف فيها مع من مات ونتناسى خلافاتنا... فلم يأخذ شيئا من مال الدنيا معه، ونفسه التي بخل بها عن الجهاد ذهبت أيضا، وحمل معه ذنوبه... وها هو مات، لنتعاطف معه... لا، لأنّ المقاطعة دائمة في حياته وحتى بعد مماته، ونستنتج من الآيات أن مقاطعة التعامل معه تشمل ترك زيارته وهو حيّ في أي حالة كانت، وترك التحدث معه، وترك التعامل معه... وإهماله حتى بعدما يموت.

والسبب لهذه المقاطعة الشديدة: {إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ}، أنكروا أن يكون ربّاً آمراً يجب طاعته، {وَرَسُولِهِ}، أيضا لم يؤمنوا أنه يجب طاعته، {وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ}، وهم مخالفون وخارجون عن أمور علنية واضحة قالها الدين الإلهي.

كما ترى فإنّ هذه النوعية التي تتحدث عنها الآية هم المنافقون الذين يقولون بأنهم مسلمون، أما في الحقيقة ومن داخلهم فهم فاسقون خارجون عن أمور أعلن عنها الدين الإلهي، وتبيّن البعض من تلك الحقيقة عندما تخلّفوا عن الجهاد بالمال والنفس، لذا حكمهم المقاطعة وترك التعامل معهم أبدا، ولو بعد عشرات السنين، وحتى لو ماتوا فالمقاطعة مستمرة حيث لا تقم بترتيبات دفنهم ولا الصلاة عليهم ولا الترحّم عليهم في قبرهم، وكأن المقاطعة انتهت والموقف منه تغير بسبب موته، لا، بل ليقم بدفن من مات منهم من هو مجبور بذلك كأبيه أو ولده أو أخيه...

بقي شيء، مما تركه القرآن ولم يذكره "كيفية الصلاة على الميّت"، حيث اعتبره تفصيلا لا يستدعي ذكره لسهولة معرفته مما فعله النبي(ع)، ومثله العديد من الأمور التي لا تجد تفاصيلها في القرآن، كتحديد عدد ركعات الصلوات الواجبة وكيفيتها وأحكام السهو والشك فيها... وذكر القرآن لنا كيفية الوضوء لأنه عمل من الصعب انتشاره بين الآخرين من مراقبة الرسول(ع)، لأنّ الصلاة جماعة خلف الرسول(ع) لخمس مرات يوميا لسنين، كانت كافية لتعلّم الناس كيفية الصلاة، وما تجده في كتب الفقهاء من اختلافات حول الصلاة، فهي تفاصيل يختفي الكثير منها بالعقلانية وترك العصبية، ويبقى ما هم متفقون عليه بالأكثرية من الواجبات الأساسية للصلاة، حيث إنه رغم ما يبدو من خلافات فإنّ بدراسة كلامهم سترى أنهم متفقون على أساسيات الصلاة... ولله الحمد.

اللاعقلانية والعصبية دخلت منهم على نص قرآني صريح لتعليم الوضوء، حيث اخترعوا الخلافات فيه! وراجع في ذلك دراسة الآية 6 من سورة المائدة، ومشكلة هذه العقلية والنفسية في التعاطي مع دينه تعالى منتشرة في كل الأمور تقريبا.

مما فهمناه من دراسة القرآن أنه تعالى ترك عن قصد الدخول في تفاصيل التشريعات، حيث إنّ بعضها متروك لأنه بديهي يعرفه العقلاء بسهولة كحرمة الوضوء بماء مغصوب أو مسروق، وكحرمة الوضوء بماء يحتاجه الآخرون للشرب وإلّا ماتوا عطشا... وبعضها متروك كهامش مرونة لما يتناسب مع اختلاف ظروف المجتمعات بالنسبة لبعضها وبالنسبة لتغيّر الطباع والأوضاع عبر الزمن، مثلاً ترك القرآن تحديد القيمة المالية لديَة القتيل، حيث تحصل هذه الحادثة بين فقراء لا يملكون ما يأكلون... وبعضها متروك لأن سنّة النبي(ع)، أو لأن ما فعله النبي(ع) أمام الناس مرارا كان كفيلا بتعليمهم، وفي كل هذا ستجد خلافات بين الفقهاء حول التفاصيل وليس سببها خفاء المعلومات من القرآن أو من سنّة النبي(ع) بل من ضيق الأفق الذي يصيب بعض الفقهاء في مسألة ما...

المشكلة أننا كثيرا ما ندخل في تفاصيل فتوائية نراها بالعقلانية ولا نعترض على النتيجة ولا نرى حاجة فيها لرواية عن الرسول(ع)، علما أن الغالبية من الفقهاء يصرّون على إيجاد رواية أو آية لكل مجال يبحثون فيه، وهذا واجب عليهم لتصويب ما يبحثون به على مقياس مصدر تشريعي أساسي. وكثيرا ما نصرّ باحثين عن رواية ما لتحدّد لنا ما يجب فعله في موضوع أصلا متروك كهامش مرونة، لذا نصرّ على تطبيق حكم علينا كان مناسبا لزمن الرسول(ع) ولم يعد مناسبا لزماننا، ونصرّ على تفاصيل حتى الرسول(ع) لم يهتم بها ولا الذين من حوله...

بالنسبة لصلاة الميت فإنّ أساسيات واجباتها ترى فيها اتفاقا بين عموم فقهاء المسلمين، وتنتشر بين الناس مشكلة لا دخل للفقهاء فيها، حيث إنّ الكثيرين يتركون القراءة للإمام، بينما صلاة الميّت ليست جماعة كالصلوات الخمس الواجبة، لأنّ الوقوف خلف إمام الصلاة صامتا مكتفيا بالتكبير خمس مرات، ليس صلاة على الميت، التي أصلا ليست واجبة على الجميع ويكفي قيام واحد بها، وأمّا لو أردت صلاتها فعليك بتكرار ما يقوله إمام الصلاة، أو أن تصليها فرادى "لوحدك".

الآن سؤال: كيف نميّز بين ما هو واجب مما فعله النبي(ع) وبين ما هو "مندوب، مستحب، نافلة، سنّة للتأسّي..." حيث لسنا ملزمين بفعله؟ وكمثال ماذا عن طقوس غسل وتكفين الميّت؟ بعض الناس تطرّفوا في هذا الموضوع لدرجة تقليد النبي (ع) في كل ما فعله، من لباسه وعطره وطريقة تسريح شعره وتختّمه... وطريقة أكله ونوعه... حيث يعتبرونها سنّة مقدسة أو شبه مقدسة ويبجّلون الالتزام بها ويذمّون التارك لها! والكثير من فقهاء المسلمين سمّوا تلك الأمور بالمستحبات حيث إنها ليست واجبة، ولكن كان من المفروض من الفقهاء التمييز بين مستحبات مناسبة فقط لذلك العصر وما يشبهه، وبين مستحبات تتحمّل تعميمها على بقية العصور والمجتمعات، لأنّ غسل اليدين قبل الأكل وبعده، من سنن النبي(ع)، ومناسبة لكل العصور، أمّا الصبغة بالحنّاء لشعر الرأس والذقن والكحل بالعين للرجال، وهي أيضا من سننه(ع)، فهل هي مناسبة لعصرنا؟ وبالنسبة للبس العمامة والجبّة... حيث خلط فيها الرواة بين اللباس الرسمي للمناسبات وبين اللباس العملي، لأنّ العمامة لباس رسمي وبديل للقبعة للوقاية من حرارة الشمس، لذا فإنّ المعاصرين للنبي(ع) تعاملوا بواقعية مع هكذا أمور، حيث كانت ثيابهم للحياة اليومية عادية وفي المناسبات مع عمامة وجبّة... بينما نحن تعاملنا معها بشبه تقديسها!

بعض الفقهاء استعانوا بآيتنا هنا مع بعض الروايات ليؤكدوا على الوجوب الكفائي للصلاة على الميت، فإن فعله ولو شخص واحد، فلا يجب على البقية فعله، فهل آيتنا هنا صريحة بوجوب الصلاة على الميّت أو هي سنّة مستحبّة؟ وماذا عن طقوس غسله وتكفينه؟ وهل الميّت سيدخل النار أو ينقصه شيء إن لم نُصلِّ عليه ولم نغسله ونكفنه؟ أم نحن نتحاسب على ترك غسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه؟

كما ترى فإنّ هذا النوع من الكلام يأخذك إلى المدى الذي يدخل "يتدخّل" فيه الدين في أمورنا، والمعتادون على ممارسات التدين لا يجدون مشكلة في هذه التفاصيل، لأنها جزء من حياتهم لتعوّدهم على ممارستها، أمّا الآخرون من غير المسلمين فيسألون عن الدين الإلهي الذي يدخل في تفاصيل لم يسمعوا بها ولا اهتمام لهم بها، بينما في كتب الدين يبدو لها أهمية.

هكذا ترى أنه تعالى ترك الكلام في قرآنه عن الكثير من التفاصيل عن قصد، وذلك حتى لا تصير النظرة دونية إلى مستوى كلامه تعالى، كمتدخّل في تفاصيل من البديهي للناس التعامل معها بما هو مناسب، فماذا عن ترك الميّت يتعفّن على جانب الطريق؟ هل هذا يحتاج لأمر إلهي حتى ندفن الميّت؟

هكذا ترى أن الصلاة على الميّت وغسله وتكفينه... بالطريقة التي وردتنا عن الرسول(ع) ومن عاصره، ما هي إلا أدبيات، بعضها ذو أهمية بالغة وبعضها تفاصيل تجميلية. ويستعمل الكثيرون كلمة "سنّة" لما وردنا عن النبي(ع) ويقصدون بها معنى وصفها بالأدبيات التي لا ترقى في مستواها إلى الحرمة والوجوب... وهذا الاستعمال المطّاط لكلمة سنة يتصلّب عند البعض ليشير لوجوب الالتزام بكل ما ورد عنه(ع)، وبعضهم بقيت عنده الكلمة مطاطة حيث مرّة ينزّل مستوى وصفيتها للأدبيات ومرّة يرفعها ليؤكد على وجوب الالتزام بها، وفي الحالتين يستعملون كلمة "سنّة النبي".

الآن وصلنا إلى مفهوم ما أوجب وما حرّم تعالى، والكلام عن هذين العنوانين نادر في القرآن، فصحيح أنهما وردا مرارا ولكن وردَا في نفس العناوين القليلة، كالصلاة والزكاة والإنفاق والبرّ... والجهاد بالمال والنفس... وبالمقارنة بين العناوين والتفريعات الكثيرة التي تجدها في كتب الفقه "الفتاوى" عن المحرمات والواجبات وما يتفرع منها، وبين القليل الذي تجده في القرآن، فإنّ الفرق هائل. ولهذا السبب نبّهنا مرارا في دراستنا هذه على حصر هذا الدين الإلهي في: العقيدة، والتشريع، والسلوكيات. والعديد من العلماء انتبه قبلنا لذلك، حيث انتبهوا أن ما ركّز عليه القرآن واهتمّ به، مختلف بشكل ما عمّا نحن نركّز عليه ونهتم به في كتب الفقه، لأنّ كتب الفقه نعتبرها القانون لدينه تعالى، فالذي مع الإيمان أيضا التزم بما في كتب الفقه يكون قد التزم بدينه تعالى كاملا، ويكون قد صار بالتعبير القرآني: مؤمنا عاملا للصالحات. ولكن كتب الفقه لم تستطع احتواء الكثير من العناوين التي طرحها وركّز عليها القرآن وكان لها الأهمية مما لا يمشي تحت عنوان القانون والتشريع، وهي التي يسميها بعضهم بالأخلاقيات، ونسميها في دراستنا هذه بالسلوكيات ومنها الزهو والفخر والتكبّر والرياء... وعكسها التواضع...

أهمية الكلام عن هذه النقاط أن الحرام والواجب عليه عقاب إن لم نلتزم به، ولا تجد في القرآن شيئا توعّد عليه تعالى بالعقاب ويمكن لعاقل المناقشة فيه، أو ينحرج المؤمن به أمام الآخرين، بينما التفاصيل التي يعتبرها العلماء تفريدا وتفصيلا لكلامه تعالى، تجد البعض منها من السخيف تسميته بالحرام الذي عليه عقاب، كحلق اللحية، ولبس البنطلون، ووضع ساعة في اليدّ، ولبس الكرافات... حتى لا نتشبّه بالكافرين. وبعضها تجد أصلا تحريمه سخيفا بل ربما يجب أن يكون واجبا فعله! كتحريم البعض قديما لتناول الدواء لأن الله تعالى هو الشافي ومن الشرك به أخذ الدواء للشفاء! والتبرع بالدمّ وتصوير الجنين...

هذه أمور أكثرها لم يعد متداولا الآن ولكنها موجودة في الكتب وكانت متداولة والتزم بها المؤمنون، حيث إنّ في حينها لم يستوعب أولئك العلماء التغيرات وتحجّروا على الثقافة والعادات التي كانت دارجة على عهد النبي(ع)، ولا يزال كذلك العديد منهم في عصرنا، وعلى ما يبدو سيبقى العديد منهم كذلك فيما سيأتي من زمن بسبب انفصال تطوّر المناهج العلمية الدينية عن تطور بقية العلوم...

كما ترى فإنّ العقيدة "الإيمان" أساس، ومن بعدها بالنسبة لما يمكن تسميته بالتشريع يوجد ما حرّم وما أوجب تعالى في قرآنه، وأكثر المذكور فيه ما كان على مخالفته عقاب الخلود في جهنّم مع التصريح بذلك، كقتل النفس البريئة والزنا... والقليل عليه عقاب غير محدّد المدّة لأن الضرر يختلف والممارس لها تختلف قيمة حسناته الأخرى، كالسرقة التي هي عنوان يندرج تحته سرقة شيء ثمين وأيضا شيء تافه القيمة... وهناك السلوكيات التي لم يتوعّد عليها تعالى بالخلود في جهنّم وتوعّد فاعلها بالعقاب، كالسخرية من الآخرين التي ورد عنها الكلام في الآية 11 من سورة الحجرات "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ...".

نأتي الآن للنظر فيما يسمّى بسنّة النبي(ع)، لنرى فيها ما أوجبه أو حرّمه تعالى علينا وكان العقاب على المخالفة الخلود في جهنّم أو مجرد عقاب مؤقت، فإذا أخذنا بعين الاعتبار أن القرآن فيه تفصيل كل شيء، وليس على معنى تركه تماما لبعض الأمور لنتعلمها من الرسول(ع) كما يفهم البعض من الآية 7 من سورة الحشر "... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا..."، بل على معنى حصر كل الأساسيات في العناوين التي ذكرها القرآن، وتعلّم بعض التفاصيل من سلوك وكلام الرسول، فمن هذا نفهم أن ما عليه خلود في النار كلّه مذكور في القرآن، حيث إنّ كل ما هو واجب الالتزام به بتركه أو فعله ومخالفته تسبب الخلود في النار، كلّه مذكور في القرآن، وكل ما عليه عقاب شديد أيضا مذكور في القرآن.

طبعا انتبهت لمسألة تمحور الكلام حول الخلود في النار لأنه النتيجة لما نتكلّم عنه ولذلك ربطنا الكلام به.

هكذا لا يبقى شيء جديد لنتعلمه من سنّة النبي(ع) من مستوى الواجب والحرام الذي يسبّب الخلود في جهنّم أو العقاب الشديد، وإنما فقط نتعلم ما يرتبط بتطبيقات تفريد العناوين التي ذكرها القرآن، وهنا يأتي دور الدراسة للسنّة لنميّز بين السنّة على معنى العادات والثقافة التي كانت دارجة ومناسبة لزمن النبي(ع)، ولسنا ملزمين بها، بل بعضها ليس مستحبّا لمجتمع ما من مجتمعات عصرنا، وبين ما هو أساسي ويجب الالتزام به.

لعلك تعلم أن الفقهاء عانوا من محاولة استخراج الأحكام اعتمادا فقط على القرآن، لأن القرآن طرح عناوين، لذا لجؤوا إلى الروايات التي وجدوا فيها غزارة في التفاصيل، وأكثرهم لم يميّز بين ما ذكرناه سابقا عن سبب تركه تعالى الكلام عن بعض الأمور، وفي دراستهم للروايات لسنّة الرسول(ع) فإنّ أكثرهم لم يميّز الذي ذكرناه عن تحرّكه (ع) في الهامش المتروك قرآنيا ليناسب مختلف الأزمنة والمجتمعات، وبين تفريده (ع) لعنوان قرآني يحمل في قيمته قيمة التشريع القرآني لأنه تعالى أمرنا باعتبار تصرفات الرسول(ع) عاكسة لما أمر به تعالى في قرآنه أو بوحي خاص نزل على الرسول(ع) ليعلّمه التفاصيل التي لا داعي لذكرها في كتاب يحمل صفة "كتاب إلهي".

هكذا ترى أن بعض ما يسمّى بالتشريعات من سنّة النبي(ع) هو فعلا من نوع التشريعات ولكنها لا ترقى في خطورة مخالفتها عن غير قصد أو عن تساهل أو إهمال... أو عن قصد، إلى ما توعّد عليه تعالى بالخلود في جهنّم، ولا حتى ترقى إلى مستوى الكلام عن العقاب عليها لوحدها من دون شرح للعنوان الذي تفرعت عنه، كالصلاة على الميّت ودفنه وتغسيله... فأين الضرر على الميّت أو علينا إن دفناه بثياب عادية؟ وأين ذلك من مخالفة كلام القرآن؟...

هكذا ترى أن كل ما سبق من كلام هو تفاصيل شائكة محكومة بمستوى الإيمان، حيث أمام ما توعّد عليه تعالى صراحة في القرآن بالخلود في النار، وأمام ما توعد عليه القرآن فقط بالعقاب الشديد، نصل إلى ما عليه عقاب أقل فأقل فأقل... وهذا واقع حال لا يمكن التغاضي عنه لجعل كل الممنوع والواجب من نفس المستوى، وحتى لو أدّى هذا النوع من الكلام إلى نتيجة استهتار أحد ما بحرام اعتبره من العيار الخفيف، فهذا هو نفسه ما قلنا إنها تفاصيل شائكة محكومة بمستوى إيمان كل واحد منّا.

بالنسبة للعديد مما وردنا من سنّة النبي(ع) فإنّ من الخطأ رفع قيمتها كلّها إلى مستوى الواجب والحرام من المستوى العالي، وحتى من الخطأ اعتماد الكثير منها لتطبيقه على كل المجتمعات والعصور لأنّ بذلك سنلغي الهامش الذي تركه تعالى لنا لتكون بعض الأحكام مرنة ومناسبة ليتعامل معها المجتمعات المختلفة بالعادات والثقافات، كتحديد الزكاة كواجب من "القمح والشعير والزبيب والتمر" فقط، فماذا عن المجتمعات التي لا تتعامل إلا بالأرز أو الذرة كمادة أساسية للطعام...

بالنسبة لبعض السلوكيات من سنّة النبي(ع)، وكمثال عنها تغسيل وتكفين ودفن الميت بتوجيهه نحو القبلة... فهي على كل حال ممارسات لا يستفيد منها الميّت بأي شيء، وأنا وأنت لن نرى لها قيمة إلا حين ندفن عزيزا على قلبنا، حيث نريد طقوسا وداعية نراها لائقة ومعبرة عن محبتنا للميّت... هكذا ترى أنها عادات ورثنا بعضها عن الأجيال الأولى من المسلمين، وأضفنا إليها القليل، وصارت معبرة عن سلوكيات راقية لوداع الميّت، وصارت في قيمتها التشريعية مثلها مثل أي سلوكيات من الواجب القيام بها ولكن مستوى خطورة مخالفتها لا يرقى لما توعّد عليه تعالى بالنار، لأنّ بعض المخالفات التي يعلم تعالى أن فاعلها ليس شخصا سيئا بالعموم، يكون العقاب عليها بالتأنيب، وبعضها بعقاب أعلى، فلنقل بضربة كفّ لتقريب الصورة، ثم أعلى... وصولا إلى دخول النار، وصولا إلى الخلود في جهنّم.

(وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ{85})
{وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ}، فلا يكن تقييمك لأموال الأغنياء من المتخلفين عن الجهاد أنّه شيء جيّد لهم، ولا تعجبك، {أَوْلَادُهُمْ}، فلا يكن تقييمك أن ما لديهم من أولاد هو شيء جيد تتمنى الحصول عليه، لا، لأنه لو كان غنيا وعنده أولاد كثيرون فهذه ليست نعمة له، {إِنَّمَا}، فقط وحصرا، {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا}، بالمال والأولاد، {فِي الدُّنْيَا}، لأنهم تعلقوا بها وسيتعذبون بألم الحرص على المال والولد، وألم الفقدان والخسارة... {وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ}، فتخرج أنفسهم

فيموتون وهم بلا قيمة عند من أماتهم، {وَهُمْ كَافِرُونَ}، وهم منكرون للدين الإلهي بسبب تعلّقهم بأموالهم وأولادهم على حساب مخالفة كلامه تعالى.

نلاحظ أنّ المؤمن إذا فقد مالا أو ولدا فإنه يحتسب أمره إلى الله تعالى، حيث يشعر بالألم والحزن ولكن من المفروض أن لا يتعذّب، لأنه يؤمن بالآخرة، لأنّ خسارة المال في الدنيا هي لا شيء أمام خسارة الإيمان، وخسارة الولد ليست نهائية لأنه انتقل إلى ربه تعالى وسوف تلاقيه في الجنة إن كنتما مؤمنين، وهذا تفهمه من الآية 156 من سورة البقرة "{الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}"، أمّا المنافق والفاسق فيتعذّبان فعليا عند خسارة المال أو الولد لأنهما لا يؤمنان بالآخرة، فلا يؤمنان بتعويض المال بروائع الجنّة ورؤية الولد فيها ولقائه مرة ثانية.

ننتبه دائما، لأنّ الآية لم تقل إنّ كل منافق عنده مال كثير وأولاد، لا، فالمنافق الفقير والذي ليس عنده أولاد، لا يشكّل نموذجا مناسبا للكلام عنه هنا، حيث إنّ المال والأولاد من أبرز عناوين التعلّق بالدنيا ومن المفروض بمن فقدهما أن يزهد أصلا بالدنيا، ولذلك تخطّت الآية الفقير ليسأل نفسه: لماذا لا أتعلّق بثواب الآخرة؟ وتضرب الآيات نموذجا عن منافقين أغنياء وعندهم أولاد على أساس أنهم من وجهة نظر أولية سترى مبررا لتخلّفهم عن الجهاد، لذا انتبه، ولا تعجبك ثروتهم ولا أولادهم فهي لا تعني أي شيء، فإذا رأيت منافقا غنيا وله أولاد بصحة جيدة ولديهم شهادات جامعية ومناصب ووظائف عالية... فهذا لا يعني أبدا أي شيء، ولا يعني أنه أفضل منك عنده تعالى، ولا يعني أنه تعالى راض عنه، ولا يعني أنه مرتاح والمؤمن الفقير يتعذّب، لا، لأنك لا تعلم، وسبحانه يخبرك أنه سيتعذّب "بطريقة أو بأخرى" في الدنيا والآخرة.

(وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُواْ الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ{86})
{وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ}، فنزل من عنده تعالى سورة، مجموعة كلمات أو جمل تتحدث في موضوع محدّد، وهنا الموضوع المقصود هو التالي:

{أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ}، فاعتقدوا به ربّاً آمراً يجب طاعته، وتقول السورة أيضاً: {وَجَاهِدُوا}، فقوموا بالعمل الذي فيه جُهْد وغير السهل، وهو تقديم المال والنفس في سبيله تعالى، {مَعَ رَسُولِهِ}، مع الشخص المحدّد منه تعالى لينقل لكم كلامه تعالى، فإذا نزلت سورة قرآنية تأمركم بذلك عندها:

{اسْتَأْذَنَكَ}، طلب منك الاستئذان، طلب أن تسمح له بالقعود عن المشاركة في الجهاد، {أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ}! الموصوفون بأنهم لديهم طَوْل "فتحة على الطاء"، فقدرتهم المالية والجسدية ممتدة ومناسبة للجهاد، لذا يطلبون الإذن بالسماح لهم بالتخلّف رغم اتّصافهم بالطول، أي رغم توافر صفات فيهم لقدرتهم على المشاركة!

الحديث موجّه لكل الناس عامة، فإذا نزل من عند الإله سبحانه كلام عن الإيمان به ربّاً واحداً آمراً مراقباً محاسباً مجازياً... ولا يقول إلا الحقّ... ويأمركم بالجهاد، تجد الذي يملك القدرة على الجهاد يطلب منك الإذن بالقعود! حيث يخترع الأعذار والأسباب بالرغم من قدرته على الذهاب للجهاد! فهل هذا يؤمن بالله تعالى وبوجوب طاعته؟

{وَقَالُوا}، أولو الطول منهم: {ذَرْنَا}، اتركنا ولا تهتمّ بنا، {نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ}، نبقى مع الذين لم ينهضوا للجهاد، إذ تركت أُناساً لم تأخذهم من المعاقين وذوي الأعذار... فاتركنا معهم.

نلاحظ أنه قبل هذه السورة نزل الكثير من السور التي تتضمّن أمراً بالجهاد، وحالياً نحن بين أيدينا كل القرآن الذي نزل، ولسنا في حالة أولئك الذين كانوا على عهد النبي(ع) ينتظرون نزول أمر الجهاد، ولكن التشابه أكيد بين المنافقين في كل العصور، سواء في ذلك العصر أو في زمننا، فإذا قرأت الآيات التي تأمر بالجهاد، فستجد أُناساً يطلبون الإذن بالقعود! ولديهم لائحة أعذار طويلة، وخذ مثلاً الطامة الكبرى فلسطين المحتلة، وهي بلد للمسلمين، جرى احتلاله، وقَتْل وتشريد أهله، وها هو القرآن هنا في هذه الآيات وفي غيرها، يأمركم أيها المسلمون بالجهاد، فهل أنتم مؤمنون أم منافقون؟ وها هو ينهاكم عن قتال بعضكم البعض، فما بالكم تركتم أوامر إلهية صريحة واضحة! حيث قعدتم عن الجهاد الواضح وجوبه، وأوجبتم الجهاد على بعضكم البعض! بل والأنكى من ذلك من تحت الاحتلال الإسرائيلي تبرز أحياناً بعض الرايات الداعية لقتال المسلمين لبعضهم البعض على خلفية مذهبية وطائفية!

(رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ{87})
{رَضُوا}، فقبل المنافقون بمحبّة وسرور، {بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ}، أن يكونوا مع الذين تتركهم خلفك ولا تأخذهم معك إلى الجهاد، من النساء والأولاد والعجائز والمرضى وأصحاب الأعذار المقبولة... فإذا أعطيتهم الإذن بالقعود فَسَيَكُونُونَ راضين، مع أنَّ فيهم الصفات المناسبة للمشاركة في القتال ولكن ليس لهم رِضاً فيه.

{وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ}، فجعل سبحانه أساس تفكيرهم ونفسيتهم مطبوعاً، وصار له طبيعة وصار مترسّخاً فيه شيء ما، ومن سياق الكلام تعلم أن النفاق والفسق صارا من طبيعتهم، {فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}، لا يربطون المعلومات مع بعضها بشكل صحيح وبناء عليه لن يخرجوا بنتائج صحيحة. بسبب قرارهم السابق بالتخلّف عن الجهاد صار من طبيعتهم في فكرهم ونفسيتهم مخالفة دينه تعالى فلم يعودوا يفكّرون بطريقة سليمة وقراراتهم صارت لا توصلهم لنتائج سليمة، تخلّفهم عن الجهاد نهايته عذاب شديد وهم لم يفهموا ذلك ولم يَصِرْ من قناعتهم بسبب انطباع قلبهم.

مِنَ المشتقات الدارجة من معنى الطبع أن تَطْبَعَ يدك على الطين، أو تطبع على الشمع الذائب، ولكن أصل المعنى هو الطبيعة، هو ما يصير عليه الشيء مترسّخاً كصفة لا تنفصل عنه، مثلما نصف طبائع الناس، فهذا لطيف بطبعه، وذاك طبعه سريع الغضب...

تتذكّر أن هذا الكلام القرآني عن طبعه تعالى على قلوبهم، يقصد أنه تعالى هكذا صمّمنا وخلقنا، ولا يقصد أنه تعالى يستقصدهم ويتجنّى عليهم ويظلمهم بطبع قلوبهم على النفاق، لا، مَنْ تمرّس على إقناع نفسه بشيء ما، وكرّر فعله، فسوف ينطبع عليه، وسيكون من طبيعته التي لا تنفكّ عنه، مثل الذي يبالغ في كلامه ويضخّم الأمور، مِنْ كثرة التكرار يختفي من قلبه "من أساس فكره ونفسيته" أن ما يفعله معيب، وتصير المبالغة في كل كلامه جزءاً من طبيعته... ونفس الشيء بالنسبة للنفاق، مِنْ بعد إنكار أمر إلهي صريح عبر كلام قرآني، تصير طبيعة الشخص منافقة وبعدها لن يعتبر للكلام الإلهي أي قيمة وبالتالي لن يَفْقَهَهُ ولن يفهم معناه. خذ مثلا الكلام الإلهي عن الثواب بجنّة خالدة رائعة، لو كان مؤمنا يفقه هذا الكلام، لفعل كل ما بوسعه للوصول إلى تلك الجنّة، ولكن هؤلاء انطبع على قلوبهم بالنفاق وسيستمرون في حياتهم على تمثيلية أنهم مؤمنون ولكنهم في الحقيقة لا يفهمون أي شيء عن الإيمان.

(لَـكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{88})
{لَكِنِ}، في المقلب الثاني، {الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ}، مع الذين اعتقدوا كما يعتقد الرسول(ع) بوجوب طاعته تعالى والجهاد في سبيله... وأنّ هذا حقّ وصلاح وعليه ثواب رائع في الآخرة، فهؤلاء، {جَاهَدُوا}، قاموا بعمل فيه جهد وغير سهل، {بِأَمْوَالِهِمْ}، وأنفقوا منها في سبيله تعالى، {وَأَنْفُسِهِمْ}، جاهدوا بها وشاركوا شخصياً في الجهاد.

{وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ}، في الدنيا لهم الأمور الموصوفة بأنها خير جيّدة، حيث تشملهم الرحمة الخاصة بالهداية والمغفرة وتجميع الحسنات والرزق الطيب... وفي الآخرة ينالون خيرات من مضاعفة الحسنات والعفو عن السيئات ودخول الجنة الخالدة...

{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، هم الذين قاموا بعمل أفلحوا فيه، أجادوا فيما عملوا لأنهم عملوا الصحيح النافع لهم.

نلاحظ المقارنة بين ما سيحصل عليه مَنْ ترك طاعته تعالى بالجهاد وبين ما حصل عليه مَنْ آمن وجاهد، فمن الفالح الفائز الرابح منهما؟

ننتبه دائماً، لأنَّ الآيات هنا تضرب أمثلة لكل الناس، وليست مخصصة لمن كان في عهد الرسول(ع) وإلا فلا معنى لها أن نقرأها ككتاب إلهي، وسيصير القرآن كتاب تاريخ! وتلاحظ أن الآيات لم تذكر أي تفصيل عن أي معركة تخلّف فيها الناس عن الجهاد ولا ذكرت من هم، ولا إذا تكرر القعود منهم... فكلنا نفهم بأنها عامة، وتتحدث معنا أيضاً، فلا فائدة من البحث في تفاصيل حول الحوادث وأسماء الأشخاص والمعركة والتوقيت وماذا جرى... كما تلاحظ فهمنا الآيات بشكلها العام مثلما أرادنا سبحانه أن نفهمها.

أقول لك ذلك لأن كتب التفاسير مشحونة بالروايات عن تطبيق الآيات هنا على غزوة تبوك، ولا ضرر من قراءة تاريخ تلك الغزوة، ولكن حتى من دون قراءتها يمكنك فهم الآيات بكل سهولة كما ترى، ولست بحاجة لمعرفة التاريخ حتى

تفهم الآيات، أرادت الآيات أن تكون عمومية كنموذج ينطبق على أي زمان ومكان، فاتركها كما هي ولا تجعلها مخصّصة لحوادث جرت في عهد الرسول(ع)، إلا اللهم أن تقصد كما قصد منها القرآن أن تلك الحوادث نماذج تريد استخدامها كما استخدمها القرآن كأمثلة، وهذا شيء عادة لا تجده في كتب التفاسير، حيث غالباً حين يذكرون الحوادث التاريخية من عهد الرسول(ع) رابطين لها بالآيات فهم لا يشيرون لها بالنماذج، بل غالباً تفهم من كلامهم حصرية تفسير وانطباق الآيات على حادثة ما... وبعكس ذلك تجد بعض الدراسات القرآنية التي حاولوا فيها تطبيق القرآن عملياً على واقعنا وعلى أي زمان غير الزمن الذي نزلت فيه الآيات، وهذا هو التعامل الصحيح مع كلامه تعالى.

(أَعَدَّ اللّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{89})
{أَعَدَّ}، جهّز وهَيَّأ، {اللّهُ لَهُمْ}، للرسول(ع) وللذين آمنوا معه حقاً وجاهدوا، سبحانه جهّز لهم وبانتظارهم: {جَنَّاتٍ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين وقصور... {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، حيث هنا نهر وهناك آخر من السوائل المتنوعة من الماء والعسل واللبن و... كما ورد في الآية 15 من سورة محمّد "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى..."، فليسوا بحاجة للانتقال للحصول على المشروبات اللذيذة المتنوعة بالإضافة إلى روعة منظر أنهار المياه الجارية هنا وهناك من تحت الأشجار. وتذكّر دائماً أَلّا تبالغ في التصوّر لتظنّ أن الجنّة مستنقعات، لا، بل تجري من تحتها الأنهار، حيث هناك فسحات واسعة جافة وأخرى متوسطة وغيرها مليئة بالجداول والشلالات والأنهار، ومن أجمل المناظر هي الأماكن التي تجري فيها الأنهار.

{خَالِدِينَ فِيهَا}، لا يموتون ولا يفنون في تلك الجنات ولا هي تخرب.

{ذَلِكَ}، الدخول إلى تلك الجنات، هو {الْفَوْزُ}، هو الحصول على شيء له قيمة عالية، {الْعَظِيمُ}، الكبير الضخم الهائل، فلا يوجد شيء تفوز به أعظم من دخول جنة الآخرة خالداً في روعتها.

(وَجَاء الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{90})
{وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ}، جاء أصحاب الأعذار "الكاذبة أو الصادقة"، جاء الذين سيقولون الأسباب التي تمنعهم من المشاركة في الخروج للقتال مع الرسول(ع)، {مِنَ الْأَعْرَابِ}، من سكان البادية، حيث جاء الناس الذين لا يعيشون في المدن، {لِيُؤْذَنَ لَهُمْ}، حتى يحصلوا على الموافقة فتأذن وتسمح لهم، وسياق الكلام عن أصحاب الأعذار لتأذن لهم أَلّا يخرجوا معك لقتال العدو.

مِنْ سياق الكلام يظهر لك أنهم أصحاب الأعذار الكاذبة، فلا صحّتهم الجسدية والنفسية ولا أوضاعهم الاجتماعية تمنعهم من الخروج معك، ولكنهم يختلقون الأعذار حتى لا يخرجوا وحتى تأذن لهم على أساس أنهم من المؤمنين ولديهم أعذار حقيقية تمنعهم من الخروج...

{وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، قسم من الأعراب من سكان البادية جاؤوا حاملين أعذارهم، وآخرون قعدوا ولم يتعبوا أنفسهم ليأتوا ويعتذروا عن الخروج معك! فهؤلاء أصلاً كذبوا الله تعالى ورسوله(ع)، وأساساً لم يصدّقوه تعالى ولا صدّقوا رسوله(ع)، حيث أساساً هم لا قناعة عندهم بِالْإِسْلَامِ من أصله وأجبرتهم الظروف على إعلان إسلامهم، ولذلك لم يجدوا أنفسهم مضطرين ليأخذوا إذناً بالتخلّف والقعود.

{سَيُصِيبُ}، سيحصل مع، {الَّذِينَ كَفَرُوا}، مع الذين أنكروا الله تعالى ورسوله(ع)، {مِنْهُمْ}، من الأعراب، سيصيبهم، {عَذَابٌ أَلِيمٌ}، ضرر لا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه في جهنم.

إذاً، كما نجد حالة النفاق تظهر على حقيقتها في الذين في المدينة حيث الرسول(ع)، كذلك نجدها في سكان البراري والبوادي... بلا فرق، والقرآن ينبّه البعيدين عن الحياة المدنية والبعيدين عن مكان اتخاذ القرار بقتال الأعداء، وينبههم أن الأوامر الإلهية ليست لأهل المدن فقط، بل لكل الناس.

تذكّر الفرق بين كلمة "أعراب ومنها أعرابي" التي معناها: غير حضري فلا يسكن في البيوت الثابتة**،** وبين كلمة "عرب ومنها عربي" التي تشير لعرق من الناس يسكن الجزيرة العربية، فالأعراب هي كلمة لوصف سكّان البادية.

انتبه لما تجده في الكتب أو في كلام الناس عن الأعرابي كصفة للصلف الجلف أو الغشيم الغبي البسيط... فأصل الكلمة لا يشير لهذه المعاني، وإنما صارت من تبعاتها بسبب تركيز الناس على نماذج سيئة من الأعراب وفيهم هذه الصفات السيئة.

لاحظ أنَّ السورة تناولت مختلف العناوين الرئيسية لمختلف النماذج، وهنا نحن أمام من هو بعيد عن المدينة ووصله خبر عن انطلاق الرسول(ع) للجهاد، فبعضهم لبّى الواجب، والبعض الآخر جاء حاملاً أعذاره الواهية، وآخرون أصلاً لم يعذّبوا أنفسهم ليحصلوا على إذن التخلّف عن الجهاد من الرسول(ع).

(لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{91})

من هم المعذورون حقاً من الخروج لقتال الأعداء؟: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ}، جسدياً كالمعاقين وضعاف البنية... أو الضعاف عقلياً كالبسطاء والمجانين، {وَلَا عَلَى الْمَرْضَى}، هم أشخاص ليسوا ضعفاء ولكنهم الآن في حالة استثنائية وجسدهم غير سليم ففيه علّة تمنعهم من القيام بجهد السفر والقتال، {وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ}، ليس لديهم مال كاف ليتركوه لعيالهم ليعيشوا منه في غيابهم، وهم الفقراء الذين يعملون بأجرة قليلة بالكاد تكفي لمدة قليلة، حيث إذا انطلق للجهاد، ليس معه مال يكفي عياله ليتركه لهم أثناء غيابه ليعيشوا منه، أو أنه لا يملك مالاً ليشتري طعاماً يكفيه لرحلة القتال، أو لا يملك سلاحاً ولا ثمن السلاح...

هذه الفئات الثلاث "ضعفاء، مرضى، فاقدون لما ينفقونه"، {حَرَجٌ}، لا تحرجوهم، بشكل أو بآخر لا تجبروهم على الخروج معكم وهم حالتهم حرجة على الحافّة ولا تتحمل الخروج، {إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ}، إذا قالوا كلاماً صحيحاً لا يغشّون به الناس عن الله تعالى وعن رسوله(ع).

يعني لا يستغلون عذرهم "الشرعي الصحيح" للبقاء حتى يشجعوا غيرهم على البقاء، أمّا إذا أخذوا ينصحون الآخرين بترك الجهاد، سيتحاسبون على كلامهم، بل كما نفهم من الآية سيُعتبرون كأنهم بلا عذر أصلاً، وسيحاسبهم على القعود.

خذ مثلاً شخصاً مريضاً ولا يمكنه الخروج لقتال الأعداء، هذا لديه عذر للبقاء، إن كان مؤمناً سيعبّر عن أسفه لأنه لم يقدر على الخروج، وسينصح الآخرين بتلبية أمره تعالى وأمر رسوله(ع)... أمّا لو كان هو أصلاً كارهاً للخروج، وحالة المرض أوجدت له عذراً مقبولاً للقعود، هذا سيتبجّح بعذره أمام الآخرين على أساس أنه تملّص من الخروج مع عذر، وبذلك يجعل الآخرين يشعرون بأنه حقّق رغبته وأنهم عالقون لا خلاص لهم من الخروج إلى الجهاد... مِنْ هكذا تصرف سيحاسبه تعالى على نيّته، وسيعتبره تعالى من المتخلفين بلا عذر.

{مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ}، ليس على الأشخاص الذين حسنت أعمالهم وأقوالهم، {مِنْ سَبِيلٍ}، من مسلك، وهنا واضح أن الآية تقصد أنه ليس على هذه النوعية "الضعيف المريض والفقير بالشكل الذي شرحناه" ليس لنا عليهم سبيل فلا طريق لنا عليهم ولا يحق لنا أخذهم غصباً للجهاد، ولا التقليل من قيمتهم لأنهم قعود... ولا يحق لنا قطع التعامل معهم مثلما نفعل مع المنافقين.

{وَاللَّهُ غَفُورٌ}، يغفر لهؤلاء قعودهم عن الجهاد، بالأساس هم ارتكبوا ذنباً لأنهم تركوا أمراً إلهياً، ولكنه تعالى استثنائياً يسامحهم عن هذا الذنب بسبب أوضاعهم وظروفهم.

{رَحِيمٌ}، لديه سبحانه عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، وبناء عليه يغفر لهم القعود عن الجهاد إن كانت أعذارهم صحيحة، أمّا غير المؤمنين فلن يغفر تعالى تركهم للجهاد حتى لو كان لديهم أعذار صحيحة وخاصة إذا بدؤوا بتشجيع الآخرين على ترك الجهاد، حيث هم حتى بدون الأعذار الصحيحة التي معهم الآن، أصلاً بدونها لن يلتزموا بأمره تعالى وسيتخلّفون بطريقة أو بأخرى.

نلاحظ أنَّ الآية خصصت هؤلاء الفئات بالقعود عن الجهاد إن كانوا محسنين، أمّا إن كانوا من المسيئين وصادف أنهم ضعفاء أو مرضى أو فقراء، فهم أيضاً معذورون ولكن الآية لا تحترمهم ولا تتكلم عنهم، لأنهم أصلاً "لو" كانوا في حالة جيدة لما خرجوا، فهي حصراً تتحدث عن المحسنين عن أصحاب الأعمال الحسنة، عن المؤمنين الحقيقيين.

لنتوسّع قليلاً في مفهوم قرآني عامّ مرّ في الآية هنا عن ترك هؤلاء المعذورين للجهاد بأنه سيغفر تعالى لهم، رغم أنهم معذورون، نفهم أن مخالفة الأمر الإلهي ولو بعذر، تبقى مخالفة، ولكنها مغفورة للمؤمن، وغير مغفورة للكافر والمنافق والفاسق، هل نستنتج أن المنافق حتى لو كان عنده عذر صحيح لترك الجهاد، هل بسبب نفاقه سيتحاسب على ترك الجهاد؟ على ما يبدو من عموم مفاهيم القرآن أنه "نعم" سيتحاسب، إلا إذا ضبط نفسه ولم يفعل أي شيء سيّء له علاقة بتخلّفه، وكان نفاقه وفسقه من الدرجة المنخفضة كحالة أكثرية المنتمين لدينه تعالى مثلنا، فإن كانت حالته العامّة تجعله من المقبول إيمانهم، هذا تشمله الرحمة الخاصة بالمؤمنين، ويغفر له تعالى السيئات التي ليست من الكبائر...

هنا نتذكّر الآيات التي تحدّثت عن المغفرة للنبي(ع) بأنها من هذا النوع، حتى لو حصل سوء غير مقصود، وللنبي(ع) مسؤولية في حصول ذلك السوء، هناك حساب على من شارك في السوء، ولذلك نسمع الآيات تتحدث عن غفران ذنوب النبي(ع)، مثلاً حين أرسل (ع) فرقة قتالية وقامت بجريمة قتل أبرياء، الجريمة قد حصلت، والنبي(ع) هو الذي أرسل الفرقة، علماً أنه (ع) لم يأمرهم بارتكاب الجرائم، ولم يكن يعلم أنهم سيرتكبون جريمة، ولكن الجريمة حصلت على يد الذين أرسلهم، ولذلك نقرأ الآيات التي تأمره (ع) أن يستغفر لذنبه...

هنا في الفقرة الواجب على الجميع الخروج للقتال، وهناك من لا يستطيع الخروج، فعلياً خالف الأمر الإلهي، ولكن بسبب عذره هذا الذنب مغفور لأنه تعالى رحيم بالمؤمنين، وعليه، من لم يكن مؤمناً حقيقياً وكان لديه عذر حقيقي لترك الخروج للقتال، هذا سيتحاسب لأنه ليس مؤمناً حقيقياً، حيث المغفرة فقط للمؤمنين.

الأساس أن تطيعه تعالى حتى لو كنت ستموت، ومن بعد ذلك يأتي التخفيف منه تعالى مراعاة لظروف المؤمنين، أمّا غير المؤمنين فيحاسبهم تعالى ويجازيهم على الأساس، ولمزيد من التوسّع راجع دراسة الآية 286 من سورة البقرة "لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ"

أخيراً ننتبه جيداً للآية هنا وما يليها، بعض الناس يعتقدون بأنهم مخيّرون بين الجهاد بالمال والنفس، ويظنون بأنهم إذا دفعوا مالاً للمجاهدين سقط عنهم الجهاد بالنفس، الآيات هنا تقول لهم: لا. فقط الضعفاء والمرضى والفقراء "على التفصيل الذي ذكرناه"، فقط هؤلاء يسقط عنهم الجهاد بالنفس، هذا إن كان النداء للجهاد عاماً للجميع ويستوجب خروج الجميع، أمّا تقديم مليارات الأموال للجهاد، لا يسقط وجوب الجهاد بالنفس في حالة وجوب مشاركة الجميع بالجهاد.

أطلت عليك مع أن الجملة المختصرة باستعمال المصطلحات هي: سقوط الواجب الكفائي بالجهاد بالنفس إذا أنجزه بعض الأشخاص وكانوا كفاية له، ولا يسقط الواجب العيني بالجهاد بالنفس في حالة توجّه التكليف للجميع.

(وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ{92})

{وَلَا} سبيل ولا طريق لكم، {عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ}، على الذين جاؤوا إليك لتحملهم معك إلى القتال.

{قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ}، لا يوجد جمل أو حصان... زيادة ليحملكم أو يحمل أغراضكم في سفرنا لقتال العدو.

هؤلاء أيضاً معذورون، لأنهم جاؤوا لينضمّوا للمسير إلى الجهاد ولا يملكون وسيلة نقل للسفر، وأنت لم تستطع تأمين وسيلة نقل لهم.

هؤلاء الذين نيّتهم صادقة، {تَوَلَّوْا}، توجّهوا باتجاه آخر غير الذهاب معكم، {وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ}، تمتلئ وتسيل، {مِنَ الدَّمْعِ}، فتتغرغر وتنزل الدموع من أعينهم فيبكون، {حَزَناً}، مع شعور بالحزن، مع شعور بالانزعاج الداخلي، {أَلَّا يَجِدُوا}، فيبكون حزناً لأنه ليس لديهم، {مَا يُنْفِقُونَ}، ما يقدمونه في سبيل الله تعالى، حيث أرادوا تقديم أنفسهم، ولم ينجحوا، وليس معهم مال ليقدموه للمسلمين كدعم للجهاد، ولا مال ليؤمّنوا وسيلة نقل لأنفسهم.

نلاحظ أن الحالة نفسها لو حصلت مع منافق، لفاضت عيناه من الدمع "فرحاً" لأنه وجد عذراً لترك الذهاب إلى قتال الأعداء ومرّ شيء من هذا المعنى في الآية 81 من هذه السورة.

نتساءل، هل هذه حالة خاصة جرت مع مسلمين في عهد النبي(ع)؟ لا، بل هي نموذج عن أي مسلم يريد إطاعة أوامره تعالى، وكما عرفنا صفات المنافق بالكسل عن الصلاة، فعلامة المؤمن هنا فيض دمعه "حزناً" لأنه لم يتمكّن من تنفيذ أوامره تعالى، سواء حصل ذلك في زمن النبي(ع) أو في أي زمن. طبعاً اختارت الآية نموذجاً واضحاً عن مؤمن دمعت عيناه لأنه لم يستطع المشاركة في الجهاد، كتعبير واضح طبيعي عاكس لشدة رغبته بالمشاركة فيما يرضيه تعالى، وهذا لا يعني أن من لم تدمع عيناه فهو فاسق أو منافق، لا بل ربما هو طبيعته قاسية ولا تدمع عينه، فيحزن بدون تعابير.

(إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{93})

نتذكر من الآيتين السابقتين إعطاءهما رخصة للضعيف والمريض، حتى لو كانا من الأغنياء فالرخصة بترك الخروج سببها فقدان الأهلية الجسدية للقتال، وأعطتا رخصة للفقير الذي يعتمد عليه عياله في تأمين المصروف بشكل شبه يومي، وللفقير الذي لا يملك مستلزمات الجهاد من مؤنة وسلاح، وللفقير الذي لا يملك وسيلة نقل، حيث لا يملك جملاً أو حصاناً... لينقله في سفر طويل لقتال الأعداء، ولم يتوافر له من الآخرين وسيلة نقل له ولأغراض سفره... وهنا تحدد لنا الآية من هو الذي نتعامل معه على أنه متخلّف عن الجهاد فنقاطعه ولا نتعامل معه:

{إِنَّمَا السَّبِيلُ}، فقط مفتوح لكم المسلك، {عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ}، يطلبون منك الإذن ويطلبون السماح لهم بترك الخروج لقتال العدو، {وَهُمْ أَغْنِيَاءُ}، حيث معهم مال يكفي لعيالهم في أثناء غيابهم، ومعهم مؤنة وسلاح وتكاليف النقل... فهؤلاء للمؤمنين عليهم سبيل، فالطريق مفتوح أمام المؤمنين لمطالبة هؤلاء بالخروج لقتال العدو، وللمؤمنين طريق عليهم أن يقاطعوهم حين تخلّفوا...

السبب أنه صار للمؤمنين عليهم سبيل لأنهم {رَضُوا}، أي قبلوا بمحبّة وسرور، {بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ}، أن يكونوا مع الذين يبقون خلفكم ولا يخرجون معكم، من النساء والعجائز والأطفال والمرضى... ولم يرضوا بالخروج للقتال.

{وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ}، حيث جعل تعالى على أساس فكرهم ونفسيتهم طَبْعاً، فهناك شيء صار من طبيعتهم ومترسّخاً فيهم، ومن سياق الكلام تعلم أنها طبعة "طبيعة" مُخالَفَةِ الدين الإلهي، {فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}، إذ لديهم علم ما ولكنه ليس العلم الذي يتماشى مع الواقع والحقيقة. لأن خروجهم إلى قتال العدو أفضل من كلّ النواحي من قعودهم، ففي الدنيا سينالون العيش بعزّة وكرامة... وفي الآخرة حسنات وجنّات... ولكن هذا الكلام لا يعتبرونه معلومة لها قيمة، ولديهم معلومة أخرى مكانها يعتقدون بها، وهي أن قعودهم أفضل من الخروج لقتال العدو.

تتذكّر أنّه تعالى صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا بحيث إذا قررنا شيئاً ما وأصرّينا عليه وكررناه فإن أساس فكرنا ونفسيتنا ينطبع به، ويصير من طبيعتنا، وهنا المثال عن النفاق واختلاق الأعذار للبقاء وترك الخروج لقتال الأعداء، فهذا التصرّف سيطبع قلب من فعله على مخالفة أوامره تعالى، فسيصير من طبيعته تكرار الأعمال المشابهة. بعبارة مباشرة: الله سبحانه وتعالى لا يتجنّى عليهم ومزاجيّاً يختارهم ليطبع قلوبهم على النفاق، لا، فكلّنا كبشر لدينا هذه القابلية، وهؤلاء فعّلوا قابلية انطباع قلوبهم على النفاق، وآخرون فعّلوا قابلية انطباع قلوبهم على الإيمان.

(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{94})

{يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ}، يقدمون تبريراتهم لكم عن تركهم الخروج للجهاد، ويطلبون منكم اعتبار الأسباب التي دفعتهم للقعود مقبولة حتى لا تقاطعوهم، {إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ}، من الجهاد، عندها، {قُلْ}، لهم:

{لَا تَعْتَذِرُوا}، لا تقولوا لنا عن أسبابكم حتى تبرروا لنا، {لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ}، لن نصير في حالة اعتقاد بصحّة ما تقولونه من أعذار، {قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ}، فقال سبحانه لنا إنّ تصرفكم يدل على فسق وكفر بالدين الإلهي من داخلكم وهذا نبأ حيث كان شيئاً غير معلوم لنا وصار عندنا خبر وعلم به، {وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ}، فأنتم تحت المراقبة الإلهية

وسيصير لديه تعالى صورة محدّدة، {وَرَسُولُهُ}، أيضاً سيصير لديه صورة محدّدة عن عملكم، وهذا العمل وهذا التخلّف عن الخروج إلى قتال الأعداء سيراه تعالى وسيراه رسوله(ع)، وموضوعكم سيكون مطروحاً للبحث فيه لأنه ليس شيئاً من الماضي مرّ ولم يعد يذكره أحد.

{ثُمَّ تُرَدُّونَ}، فتموتون وتغادرون الدنيا ويتم ردّكم من الموت إلى الحياة، {إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ}، إلى الذي يعلم كل ما غاب عن مخلوقاته، فيعلم نفسيتهم وأفكارهم وحقيقتهم من الداخل... ويعلم الماضي والحاضر والمستقبل... و{الشَّهَادَةِ}، فيعلم سبحانه ما تشهده مخلوقاته، وهو ما يرونه وما يسمعونه وما يحسّون به، فيعلم ما تعلمونه أيضاً، وعلى أساس هذا العلم للغيب والشهادة، {فَيُنَبِّئُكُم}، يخبركم بشيء لم يكن علنياً من قبل، {بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، ويخبركم بالأسباب الحقيقية عن الفكر والنفسية الإيمانية الفاسقة التي جعلتكم لا تخرجون للجهاد، ويحاسبكم عليها، فأعذاركم مسرحية سخيفة لن تمرّ عليه تعالى.

كما ترى يمكنك فهم وصول النبأ عن كذبهم عبر نزول وحي على النبي(ع) حين كان بعيداً عنهم، حيث تكون جملة {قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ} تشير لخبر مباشر منه تعالى عنهم أنهم كاذبون وليس لديهم عذر، ولكن يمكنك بسهولة فهم وصول النبأ منه تعالى عبر الحوادث، عبر ما رآه المسلمون وسمعوه من الناس من بعدما رجعوا، وهذا المعنى أسلس على الفهم وسياق الكلام لأن كذبهم يكون واضحاً معلوماً من الجميع، فالذي قال إنّه مريض وكان كاذباً، بعدما انطلق المسلمون صار نشيطاً كالحصان! والذي قال إنّ عياله سيموتون من الجوع لأنه لا يملك مالاً ليتركه لهم... وبعدما انطلق المسلمون اشترى شيئاً غالياً... هكذا فضحهم تعالى بتصرفاتهم التي تبيّن كذبهم حين تعذّروا عن الخروج للقتال.

(سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{95})

{سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ}، سيقولون لكم كلاماً تبريرياً لتأكيد صحّة ما فعلوه سابقاً حين لم يخرجوا لقتال العدو، {إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ}، حيث كنتم في مَقْلَبٍ في جهة أو مكان من الأرض، وكنتم في الخارج مسافرين لقتال العدو، وانتقلتم إلى المقلب إلى الجهة والمكان الذي هم فيه، وعندما جئتم من سفركم سيحلفون لكم: والله لم نقصد ترككم، وكنّا نحب مشاركتكم ولكن ظروفنا كانت قاهرة... أو والله نحن معكم ونشعر بخطئنا وتقصيرنا... وكل هذا الحلفان، {لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ}، حتى لا تجعلوا موضوع تركهم للجهاد مهمّاً وبالتالي لا تقاطعوهم على أساسه.

{فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ}، لا تهتموا بهم، ولا تهتمّوا بحلفانهم ولا اعتذاراتهم وقاطعوهم ولا تتعاملوا معهم.

{إِنَّهُمْ رِجْسٌ}، إنهم شيء منفور منه لشدّة سوئه، لأنهم ضرر وأذى لكم، حتى لو كان فيهم منفعة قليلة فإن الضرر منهم أكبر بكثير، لذلك لا تتعاملوا مع هذه النوعية من الناس المؤذية إيمانياً.

{وَمَأْوَاهُمْ}، والمكان المحدّد لبقائهم فيه، مسكنهم، {جَهَنَّمُ}، المكان الموصوف بسوء ما فيه، وهذا، {جَزَاءً}، مقابل معادل، {بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، بالذي كانوا يحصلون عليه مما نتج من تركهم للجهاد الناتج عن فسقهم الداخلي.

مهما كانت درجة تعذيبهم في جهنّم فهي بالتمام، حيث ستكون مساوية تماماً لما كسبوه، معادلة لما نتج وحصلوا عليه من نفاقهم.

كرّرتُ وأطلت عليك الكلام، والسبب هو تمرينك على فهم الكلام الإلهي وعلى دقّة معاني الكلمات، وكما ترى إنّ هذه الدقّة تجعل الكثير من الأمور أوضح، هنا تريك الآية أنهم يحصلون على عذاب هو بالتمام ناتج عمّا فعلوه هم، وأي سؤال عن كون العذاب في جهنّم كثيراً عليهم، على أساس أن ذنبهم صغير، الآية تريك أنه إن كان فعلاً صغيراً فعقابه صغير، أمّا إن كان ذنباً مستنداً إلى كفر عميق به تعالى فسيكون على قدر كفرهم بالتمام لأنهم كسبوه، وهو ناتج لهم عمّا فعلوه.

(يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ{96})

{يَحْلِفُونَ لَكُمْ}، يقولون لكم كلاماً تأكيدياً لتبرير قعودهم، {لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ}، حتى تعبّروا لهم عن قبولكم لأعمالهم وأقوالهم بمحبّة وسرور، {فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ}، إن تسامحتم معهم بعد أن حلفوا لكم ولانت قلوبكم لهم واعتبرتم أنه شيء

صار من الماضي... {فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ}، عن الناس الذين لهم كيان الجماعة، {الْفَاسِقِينَ}، الخارجين عن أمور علنية معلومة، حيث لا يعبّر سبحانه عن محبّته وقبوله لهذه النوعية من الناس.

انتبهوا أيها المؤمنون مع أي جهة تقفون، لأنّ هؤلاء سيحلفون ويعتذرون ويتملّقون ويتحببون... إليكم حتى لا تقاطعوهم، فإن رضيتم عنهم، فخذوا علماً بأنه تعالى لا يرضى أبداً عن الفاسقين ما داموا فاسقين، فهم أصلاً خَارِجُونَ عن الدين ولذلك لم يخرجوا لقتال العدو، فكيف يكون هذا شيئاً من الماضي وهم لا يزال فسقهم مترسّخاً فيهم! لذلك لا ترضوا عنهم وكونوا في الصفّ الإلهي.

كلمة "حلف" ومشتقاتها استعملها القرآن لتبرير عمل حصل في الماضي، كصيغة تتضمّن ما له قيمة اعتبارية عند الحالف للتأكيد به على شيء حصل في الماضي نفياً أو إثباتاً، كرفع التهمة عن شيء حصل، أو طلب البراءة عن اتهام بشيء مضى، أو تأكيد حصول شيء مضى... وبهذا لا يصح وصف الحلفان بالنكث، بل النكث لليمين والقسم خاصّةً، والحلفان يصح له وصف الكذب أو الصدق.

(الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{97})
{الْأَعْرَابُ}، الناس الذين لا يسكنون في المدن والقرى، ويسكنون متفرقين في البراري والبوادي... هم، {أَشَدُّ كُفْرًا}، أشد إنكاراً للدين الإلهي، {وَأَشَدُّ نِفَاقًا}، فيظهرون أنهم متدينون ولكن من داخلهم ليسوا كذلك. فكفرهم ونفاقهم أشد من كفر ونفاق من حولكم من المنافقين في المدينة، حيث على الأقل إنّ بعض المنافقين من الساكنين معكم يحاولون إبداء ندمهم لكم، وربما "على الأقل" يشعرون بالمضايقة ولو قليلاً مما فعلوه، فتتداخل الأمور عندهم بين خجلهم من خذلانكم كإخوان وأقارب ومتشاركين بنفس المصالح حيث الانتصار والهزيمة فسينعكس عليهم أيضاً... أمّا المنافق الذي لا يشعر بالمضايقة من مقاطعة المؤمنين له بسبب تركه الجهاد، فلأنه يعيش لوحده أو مع عائلته بعيداً عن الناس، لذلك نفاقه يكون أشدّ قساوةً، لأنه ليس مضطراً للاعتذار ولا للحلفان ولا للمداهنة ومسايرة المؤمنين، كما أنّ مقاطعة المؤمنين للقاعدين له لا تعني له شيئاً، لأنه أصلاً بعيد عنهم.

هذه النوعية من الأعراب هم، {أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ}، تَصَوَّرِ الأمر بالعكس، فأنا جدير بهذا العمل لأنه مناسب لي بحسب مؤهلاتي الفكرية وقدراتي... ولست جديراً بعمل آخر لأنني لا أملك الإمكانيات الفكرية والقدرات التي تجعلني أنجح فيه. فأنا في هذه الحالة أكون جديراً بترك هذا العمل. هنا تقول الآية إنّ الحدود، الأوامر والواجبات والتشريعات الإلهية التي نزلت على الرسول(ع)، الأعراب المنافقون جديرون بأن لا يعلموها، إذ لديهم كل الصفات المناسبة حتى لا يتعلموا الدين الإلهي، حيث ليس فيهم المؤهلات الفكرية والنفسية ليؤمنوا فيتماشوا مع كلامه تعالى.

هذا الكلام يأخذك إلى عمق من خارج سياق السورة، حين فهمنا من الآية 30 من سورة البقرة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...}، ومما فهمناه من عموم ما تراكم من مفاهيم القرآن أنّ آدم(ع) أوّل من تأهّل من البشر ليتكلّف بكلامه تعالى، فهنا ترى كلاماً إلهياً صريحاً يصف فيه بعض الناس بأنهم ليس لديهم أي مقومات مناسبة ليصلهم كلامه تعالى، ليس لأن خلقتهم الفكرية والنفسية لم تؤهلهم بل بسبب طبيعتهم التي صاروا عليها من كثرة فسادهم ففقدوا أهلية استحقاق وصول كلامٍ إلهيّ لهم.

لا نخلط بين استحقاقهم للعقاب على قراراتهم وسلوكياتهم التي أدت إلى فقدانهم لأهلية نفع الكلام الإلهي معهم، وبين أهلية تكليفهم، لأنهم مكلفون وسيتحاسبون ويُجَازَوْنَ.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ}، حيث يعلم كل شيء، ويعلم بأن هذه النوعية هي الأشد كفراً ونفاقاً.

{وَاللَّهُ}، {حَكِيمٌ}، حيث عن صوابية في رؤية الأمور يخبركم عن هذه النوعية من الناس وليس عن عبث، وعن حكمة أنزل الدين لأناس محترمين فكرياً ونفسياً، ولم تنزل التشريعات الإلهية الراقية لأجل هذه النوعية السيئة جداً من الناس.

نتذكّر الفرق بين أعرابيّ وعربيّ، إذ إنّ الأعرابي هو ساكن البادية، والعربي هو من ينتسب إلى أجداد من أول الناطقين باللغة العربية، ونلتفت للكثير من القصص والروايات التي تقول: جاء أعرابي... قال أعرابي... سمعت أعرابياً... حيث

إنّ المقصود شخص ليس من سكان المدن والقرى، إذ هو شخص يسكن لوحده أو مع عائلته أو مع جماعة قليلة في مكان بعيد عن التجمعات السكانية الكبيرة. على هذا المعنى يقصدون بقولهم: التعرّب بعد الهجرة، حيث إنّ الرجوع للعادات والأفكار التي لا يوافق عليها الإسلام والتي كانت منتشرة عند أهل البادية هو الحرام بعد أن هجر المسلم تلك العادات عندما أسلم، ومقصدنا هو لفت الانتباه لكلمة أعرابيّ وعربيّ لأنّ كثيرين من عصرنا لم يميّزوا الفرق بينهما، ويستعملون كلمات أخرى بدل الأعرابي، كعرب البادية والشوايا...

(وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{98})
{وَمِنَ الْأَعْرَابِ}، ومن الناس الذين لا يعيشون في المدن والقرى، {مَن يَتَّخِذُ}، حيث يجعل، {مَا يُنفِقُ}، ما يصرف من مال وأملاك، {مَغْرَمًا}، إذ يشعر بأنه بسبب ما قدّمه من مال وقع تحت شيء ثقيل، ووقع تحت خسارة مادية كبيرة، حيث يدفع لكم الزكاة، ويدفع لكم مساهمته في الحرب، لا عن طيب نفس ولا عن رضا، بل هو متضايق ويشعر بأن دفع المال ثقيل عليه، لذلك لا يرد على باله أبداً فكرة الحصول على الحسنات والتقرب إليه تعالى بدفع المال، وعندما يضطر لسبب أو لآخر للإنفاق من ماله فهو يشعر أنه يدفع ضريبة أو جزية، لأنه مغصوب على الإنفاق.

{وَيَتَرَبَّصُ}، وينتظر حدوث شيء يتوقّعه، {بِكُمُ الدَّوَائِرَ}، أن تدور الأمور عليكم بشكل سيئ، حيث يريد أن ينتهي منكم ومن دينكم حتى لا يضطر للإنفاق في سبيله تعالى، وكل ما بيده فعله هو انتظار أن يقضي عليكم أحد ما وهو يتوقّع ويأمل حصول ذلك.

{عَلَيْهِمْ}، على هذه النوعية من الناس، {دَائِرَةُ السَّوْءِ}، حيث دارت الأمور عليهم بأسوأ ما يكون، وهل هناك أسوأ من هذه العقلية والنفسية!

{وَاللَّهُ سَمِيعٌ}، حيث يسمع كل شيء، ويسمع حديث هؤلاء مع الآخرين وحتى حديثهم مع أنفسهم بأفكارهم الداخلية عندما شعروا بالمضايقة من الإنفاق وعندما تمنّوا بينهم وبين أنفسهم أن يصيب المسلمين ضرر شديد ينهيهم ويكسرهم.

الله، {عَلِيمٌ}، حيث يعلم كل شيء، ويعلم بنفسياتهم وتصرفاتهم... لأنهم تحت المراقبة، وها هي الآيات تخبرنا بأسرارهم.

(وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{99})
ليس كل الأعراب نوعية واحدة: {وَمِنَ الْأَعْرَابِ}، ومن سكان البوادي والبراري، {مَن يُؤْمِنُ}، فيعتقد، {بِاللَّهِ}، {وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، فيعتقد بالزمن الذي سيأتي في الآخر بعد انتهاء الدنيا، ويعتقد بيوم القيامة من الموت والمحاسبة، {وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ}، فيجعل ويعتبر ما يصرف من مال وأملاك، {قُرُبَاتٍ}، تقرّب وتقرّب آخر... {عِندَ اللَّهِ}، فيدفع من ماله وأملاكه وهو يشعر بأنه يفعل شيئاً يقرّبه من صاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى، ويتّخذ ما ينفقه، {وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ}، فيجعل إنفاقه للمال وسيلة لحصوله على توجّه الرسول(ع) إليه، لاهتمام الرسول(ع) به، طبعاً المقصود هو توجّه الرسول(ع) بالدعاء إليه تعالى بالمغفرة والهداية والرحمة لمن أنفق، فلا يشعر هذا الأعرابي أنّ ما دفعه مَغْرَمٌ، بل فيه منفعتان، الأولى التقرّب منه تعالى، والثانية دعاء الرسول(ع) له.

{أَلَا إِنَّهَا}، فما أنفقوه هو بالتأكيد، {قُرْبَةٌ لَّهُمْ}، حيث فعلاً سيسبب لهم القرب منه تعالى ومن الرسول(ع)، فصحيح ما فكّروا به وما شعروا به.

{سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ}، فسينالون العناية الإلهية لما فيه مصلحتهم، حيث يغفر سبحانه ذنوبهم ويهديهم ويضاعف حسناتهم...

{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ}، يسامح عن الذنوب، فهؤلاء المنفقون حتماً عليهم ذنوب، وبسبب دخولهم في رحمته تعالى عبر الإنفاق مع نيّة القربى منه تعالى ومن رسوله(ع)، فسيتجاوز سبحانه عن ذنوبهم.

الله، {رَّحِيمٌ}، حيث لديه سبحانه عناية خاصّة بالمؤمنين، وهؤلاء مؤمنون ولذلك حصلوا على هذه العناية الخاصّة التي على رأسها: مغفرة الذنوب، حيث إنّ الكافر والمنافق والفاسق لا يحصل أبداً على مغفرة عن أي ذنب. ومن الأمثلة الأخرى عن صفة الرحيم الخاصّة بالمؤمنين والتي لا ينالها غيرهم: تكفير الذنوب، مضاعفة الحسنات...

ضع في بالك دائماً أنّ كلمة صلاة معناها عموم التوجّه والإقبال على شيء ما، وهذه الكلمة صارت مصطلحاً يشير للتوجّه بالحركات والكلام المعروف بين المسلمين، وهي الفريضة الدينية التي نقيمها خمس مرات في اليوم وتعبّر عن ذكرنا لله تعالى، علماً أنّ كلمة صلاة عمومية لأي توجّه، سواء أكان عبادياً أو غيره، حيث سبحانه يصلي علينا فَيُقْبِلُ ويتوجّه علينا بالعناية، والنبي(ع) يصلي علينا فيطلب توجه ربنا سبحانه إلينا بالعناية، ونحن نصلي على النبي(ع) فنطلب منه سبحانه التوجّه عليه (ع) بتزكية زائدة، ونحن نصلي لربنا سبحانه فنتوجه إليه بالذكر والمديح.

(وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{100})
مضافاً للأعراب المؤمنين بالله تعالى وباليوم الآخر... معهم: {وَالسَّابِقُونَ}، وسياق الكلام هنا عن الذين سبقوا غيرهم للإيمان، حيث آمنوا بالدين الإلهي قبل أن يؤمن الآخرون، {الْأَوَّلُونَ}، فكانوا من أوائل من آمن، {مِنَ الْمُهَاجِرِينَ}، من الأشخاص الذين تركوا ديارهم بلا رجعة، والكلام هنا عن نموذج الذين كانوا في عهد النبي محمّد(ع) الذين تركوا مكة وانتقلوا لمدينة يثرب "المدينة" هربا من كفار قريش، {وَالْأَنصَارِ}، وأيضا هم نموذج والكلام هنا عن الذين من مدينة يثرب حيث ناصروا وعملوا على إنجاز وتحقيق ما يريده تعالى ورسوله(ع) والمهاجرون.

{وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم}، والذين كانوا على خطى المهاجرين والأنصار، {بِإِحْسَانٍ}، بشكل حسن، فلم يتبعوهم لأجل مصالح شخصية سيئة ولا لأن الإسلام صار قوياً... بل عن قناعة اتبعوهم.

هؤلاء المؤمنون بالله تعالى وباليوم الآخر والمنفقون قُرْبَةً لله تعالى وصلوات الرسول(ع)، من المهاجرين والأنصار ومن اتبعهم بإحسان: {رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ}، فقبل سبحانه أعمالهم الإيمانية بمحبّة، {وَرَضُوا عَنْهُ}، فقبلوا بمحبّة دينه تعالى وإدخاله تعالى لهم تحت رحمته، ورضوا بكل ما حصل معهم من الفضائل الإلهية عليهم.

{وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها، حيث فيها الحدائق والبساتين والقصور... جهّزها لهم سبحانه لتكون بانتظارهم، {تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ}، السوائل المختلفة من المياه ومن المشروبات المتنوّعة اللون والطعم، {خَالِدِينَ}، لا يموتون ولا يفنون ولا يخرجون منها، {أَبَدًا}، مهما مرّ من زمن، فلو قضوا تريليونات تريليونات تريليونات السنين... فلن يموتوا ولن يفنوا ولن يفارقوا الجنّة، ولا هي ستخرب.

{ذَٰلِكَ}، الخلود في الجنات، هو {الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}، هو شيء يحصلون عليه وله قيمة كبيرة جداً جداً.

طبعاً لا نستنتج عمومية شاملة من الآية لكل مهاجر وأنصاري، فلا نفهم منها تأكيدها على صحّة إيمان كل شخص منهم وممن تبعهم فيما بعد، بل تؤكّد على تميّز المهاجر الحقيقي، والأنصاري الحقيقي، ومن اتبعهم في إيمانهم بشكل صحيح، وكما ترى في السورة سابقاً "الأنفال" وهنا فيما سبق من كلام كثير، وفي الآية التالية، ترى كلاماً عن منافقين...
والبحث في أسماء المهاجرين والأنصار الأوائل لتحديد المؤمن الحقيقي من الفاسق والمنافق، فهذا عمل في أغلبه حرام، وبالخصوص إن كان يسبّب الفرقة والتناحر والتمذهب بين المسلمين، فما لنا بهم، وتكفينا عمومية الآية وترك خوضها في التفاصيل، ولنستفد منها في إطرائها على هؤلاء، رغم معرفتنا بكل التفاصيل التي حصلت مع البعض منهم في معركة أحد، والتي تحدثت عنها سورة آل عمران، ولكن ما جدوى الخوض في الأسماء؟ هذه القصص هي درس قرآني لنا حتى يصلح إيماننا، فكيف صارت هذه الآيات مادة للتمذهب والتفرّق؟! وفساداً لإيماننا؟!

كلما مرّت على المسلمين فتراتُ ابتعاد عن الدين، وقام البعض بإحياء الدين الإلهي سيواجهون صعوبات من المجتمع المنحرف، فهم مثل المهاجرين والأنصار الأوائل في الفضل والتميّز، بخاصة إذا تعرضوا للمضايقات والتعذيب والقتل...

لمزيدٍ من التوسّع حول كلمة رِضَا راجع دراسة الآية 72 من هذه السورة.

(وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ{101})
{وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ}، البعض من سكان البادية من جيرانكم، {مُنَافِقُونَ}، ظاهرهم الدين وباطنهم الكفر، {وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ}، من المنتمين لمدينة يثرب التي أنتم فيها يوجد أشخاص، {مَرَدُوا}، تمرسوا اعتياداً، {عَلَى النِّفَاقِ}، على التظاهر بالإيمان فصاروا ممثلين بارعين معتادين متمرسين متخصصين بتمثيل دور المتدينين.

{لَا تَعْلَمُهُمْ}، بسبب شدة تمرسهم وتفننهم في النفاق فلن تعلم أنهم منافقون، لأنهم ممثلون بارعون لدور المؤمن، {نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ}، طبعاً سبحانه عالم الغيب والشهادة يعلم بنفاقهم، {سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ}، والكلام هنا كما يبدو يَقْصِدُ تعذيبهم مرتين، مرة على كفرهم القديم قبل إعلانهم للإيمان، فهم لا يزالون عليه، ومرة ثانية على نفاقهم الجديد، لأنَّ نفس العمل السَّيِّئ الواحد عليه تعذيب مكرر، مرة على أساس أنهم فعلوها ولا زالوا كُفَّاراً، ومرة ثانية عذاب ثَانٍ على نفس السيئة على أساس أنهم فعلوها وهم منافقون. قارنها مع ما يناله المؤمن من أهل الكتاب الذي له أجران، أجر على إيمانه القديم وأجر ثَانٍ على إيمانه الجديد بالإسلام، راجع الآية 54 من سورة القصص {أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ}...

{ثُمَّ يُرَدُّونَ}، حيث يتم إرجاعهم، {إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ}، إلى شيء يصيبهم بالضرر ولن يكون سهلاً يمكن تحمّله أو الاعتياد عليه.

لدينا عذاب كعقاب على السيئة، ولدينا عذاب كعقاب لوحده على الكفر والنفاق، بعبارة أبسط حيث بفكرهم ونفسيتهم كفروا ونافقوا، وهذا عليه عذاب عظيم، وارتكبوا أفعالاً سيئة وهذا عليه عقاب لوحده، وبما أنهم كانوا كُفَّاراً وصاروا منافقين، فالعقاب على السيئة يتكرر، مرةً لأنهم في أساسهم كُفَّارٌ ومرة ثانية لأنهم ينافقون.

الآية هنا لا تكرر الآيات السابقة، بل تريد لفت الانتباه إلى ضعف تمثيل الأعراب للنفاق، وتمرّس منافقي المدينة على تمثيل دور الإيمان، ومنافقو المدينة ولكثرة احتكاكهم بالمسلمين من حولهم، وتظاهرهم بالإسلام يومياً، صاروا ممثلين بارعين، وهنا يخبركم سبحانه ويخبرهم أن براعتهم في التمثيل قد تجعل نفاقهم خافياً عن الناس ولكنها مكشوفة عنده سبحانه.

أمّا بالنسبة لتعذيبهم مرتين وردّهم إلى عذاب عظيم، فقد يُحْتَمَلُ أنهما عذابان قبل عذاب الآخرة، فلنقل عذاباً في الدنيا والثاني فيما يسمونه بعالم البرزخ بعد الموت، وبعدهما العذاب الأليم الثالث في الآخرة، وستجد في عموم التفاسير وبعض الروايات دعماً لهذا التفسير، ولكن موضوع العقاب في القبر "البرزخ" لم يشر له القرآن بشكل صريح، ويمكنك مراجعة الآيات التي فسّروها بعذاب القبر أو ما يسمونه بالبرزخ لتجد أنها غير صريحة بذلك، وتجد أن سبب فهمنا لها بأنها تقصد القبر أو البرزخ هو نابع من مخزون ثقافتنا المشحون بكلام كثير عن عالم البرزخ، وليس نابعاً من كلام قرآني صريح، ولن تجد في القرآن كلاماً بشكل صريح عن شيء فيما بعد الموت وقبل يوم القيامة إلا عن المقتولين في سبيله تعالى، فلهم جنّات فور مفارقتهم للدنيا وقبل الآخرة، وأمّا العذاب فيما بعد الموت وقبل الآخرة فليس صريحاً.

عطفاً على الأجر مرتين لأهل الكتاب والذي ورد في الآية 54 من سورة القصص، ففي تلك الآية نفس التعبير بمرتين وبدل العذاب ثواب حسن، ولكن المفسرين عموماً لم يفسّروه بأجر في البرزخ قبل الآخرة!

(وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{102})
{وَآخَرُونَ}، وهناك من الأعراب ومن أهل المدينة لم يمردوا على النفاق، فلم يتمرسوا عليه ولم يصيروا بارعين فيه، {اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ}، حيث أعلنوا أنهم نافقوا، وهم، {خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا}، وعملاً، {وَآخَرَ سَيِّئًا}، فهؤلاء ليس عندهم نِيَّةُ النفاق الحقيقي، ولكن بعض ممارساتهم فيها نفاق، وبعض أعمالهم الأخرى كانت جيدةً وقاموا بها عن نِيَّةٍ حسنة.

هؤلاء، {عَسَى اللَّهُ}، فمن المحتمل المرجّح غير الأكيد، {أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ}، حيث يقبل توبتهم، ويعتبرهم توقفوا عن السيئات ويفتح لهم صفحة جديدة ويسامحهم على ذنوبهم السابقة، وهذه التوبة منه تعالى عليهم غير أكيدة لأنها مرتبطة بسلوكهم وابتعادهم عن الكبائر طوال حياتهم حتى يموتوا.

{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ}، فسبحانه ليس صُلْباً قَاسِياً لا يغيّر موقفه، وهنا الكلام عمّن ارتكب السيئة فسبحانه لا يجمد على موقف صُلْبٍ لمعاقبته بل يغفر له إن تاب ويتجاوز عن السيئة.

والله، {رَّحِيمٌ}، فلديه سبحانه عنايةٌ خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، ولذلك يغفر سبحانه لهم الذنوب مع أنهم يستحقون العقاب عليها، وأمّا غير المؤمنين، فهناك أمور لا يحصلون عليها منه تعالى لأنهم بإرادتهم خرجوا من تحت الرحمة الإلهية، فلا ينالون المغفرة ولا مضاعفة الحسنات...

من المحتمل المرجّح وليس الأكيد أن يتوب تعالى عليهم، لأنه من الناحية الإلهية لا يوجد احتمال، فهو تعالى غفور رحيم ويتوب عليهم، ولكن "عسى" تُوَصِّفُ الموضوع من ناحيتهم، فهل هم استحقوا مغفرته ورحمته تعالى؟ وهل تابوا فعلاً؟ فهذا غير مؤكّد حتى تنقضي حياتهم ويموتوا على حالة التوبة ولا يرجعوا إلى النفاق ولا يقوموا بارتكاب سوءٍ من العيار الثقيل الذي يخرجهم من رحمته تعالى، كقتل نفس بريئةٍ أو الهروب من القتال...

بقي شيء، حيث هناك كلام عن خلط العمل السيئ بالصالح وتشبيهه بالكافر حين يقوم بعمل حسن، ولنقل إنَّ الكافر ساعد المحتاجين والأيتام... وتشبيهه بالنفاق وصلاة المنافق... حيث إنَّ عموم القرآن يصرّح بحبط الأعمال الحسنة التي قام بها هؤلاء إن ماتوا كفاراً أو منافقين، بحيث لا يعتبر سبحانه لأعمالهم الحسنة أي قيمة ولا ينالون عليها أي ثواب، واستعمل القرآن لذلك وصف حبط الأعمال كما ورد سابقاً في السورة في الآية 69، وهنا الآية تتحدّث عن مسلم خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فهذا نوع من النفاق أو الفسق وإن بدرجات منخفضة، فعلى قاعدة حبط الأعمال، فمن المفروض أن تحبط أعماله الصالحة بسبب نفاقه "الخفيف"، فكيف تقول الآية إنَّهُ عسى أن يتوب تعالى عليه؟ وكما ترى فهذا كلام ركيك، لأن مفاهيم القرآن تتحدّث عن حبط أعمال من مات على الكفر أو النفاق "من العيار الثقيل"، وهنا الآية تتحدّث عمّن اعترف بذنبه، فهذا لم يعد منافقاً بكامل مواصفات النفاق المدمّرة للإيمان، لأنه كان يرى أعماله النفاقية غير متعارضة مع إعلانه للإيمان، والآن اعترف بأن أعماله النفاقية مخالفة للإيمان، فهذا صار مؤمناً مثل بقية المؤمنين العاديين من الناس، والكلام هنا يشمل غالبية المؤمنين، حيث إننا نرتكب بعض المحرمات، ولسنا منافقين من الدرجة العالية، لأننا نعترف بأنها مخالفة لدينه تعالى ونستغفره تعالى عليها، ففي هذه الحالة لا يدخل حبط الأعمال علينا إلا إذا قمنا بحرام من العيار الثقيل ولم نتب منه.

من المفيد هنا طرح هذا المفهوم القرآني بصراحة، فليس سليماً عرضنا لأنفسنا على الآخرين كمنتمين لدينه تعالى وكأننا مؤمنون من الدرجة العالية، فأولاً نحن لسنا كذلك، وثانياً سنتحمّل جزءاً من مسؤولية كرههم للمنتمين لدينه تعالى بعدما يروننا نقوم بأعمال سيئة، ولا نزال ندّعي أننا أفضل منهم! بل الصحيح هو اعتبار أنفسنا نحاول أن نكون صالحين بقدر ما نستطيع، ونعترف بذلك أمام الآخرين، ولا أقصد أن نعدّد للآخرين السيئات التي نفعلها، بل أقصد أن يفهموا أننا لا نرى أنفسنا أفضل منهم طالما هناك سيئات نرتكبها، بل وربما نرتكب سيئات خطيرة لا يفعلها حتى غير المنتمين لدينه تعالى... فكم من مُنْتَمٍ لدينه تعالى ومُدَّعٍ للإيمان من الدرجة العالية ويحمل وصف عالم دين، وهو مجرم!

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{103})

{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ}، خذ أيها الرسول(ع) من أموال المسلمين، {صَدَقَةً}، عموم أي شيء له قيمة مالية يقدمونه لا لغاية تجارية أو ربحية من الناس بل يُقَدِّمُونَهُ فقط في سبيله تعالى، والصدقة بمعناها العامّ تشمل الزكاة والخمس والتبرعات... والصدقة التي تأخذها منهم، {تُطَهِّرُهُمْ}، تجعلهم خالصين من العيوب الإيمانية، فيكون إيمانهم نظيفاً من الأشياء المكروهة السيئة، {وَتُزَكِّيهِم}، وأخذك للصدقة منهم يَجْعَلُهُمْ زاكين لائقين بوصفهم بالإيمان.

الصدقةُ باب من أبواب الرحمة الإلهية، فتجعل الإنسان طاهراً خالياً من الشِّيَةِ من العيوب، ويصير زاكياً أي لائقاً بوصفه بالإيمان، فيصلح إيمانه ويخرج النفاق من قلبه. والصدقةُ تعبّر عن إيمان عميق، وعن قناعة بأن المال مال الله تعالى، وأنه الرازق، وأنه يعطي الحسنات على الصدقة في الآخرة...

{وَصَلِّ عَلَيْهِمْ}، فتوجّه عليهم بالدعاء لهم أن يقبل سبحانه منهم صدقتهم وأن يغفر لهم وأن يبارك لهم في أموالهم...

{إِنَّ صَلاَتَكَ}، إن توجّهك عليهم بالدعاء لهم، هي، {سَكَنٌ لَّهُمْ}، فتذهب عنهم حالة الاضطراب فهي سكون كاطمئنان وراحة نفسية لهم.

{وَاللَّهُ سَمِيعٌ}، فيسمع صلاتك لهم، وعملياً تعني أن صلاتك لهم مسموعة وسيتعامل سبحانه معها بما يناسب.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ}، فيعلم سبحانه بصدق نواياهم، ويعلم سبحانه ما هو المناسب فعله معهم، فسيستجيب سبحانه "بما هو مناسب" لصلواتك لمن يعلم أنه مؤمن حقيقي.

ننتبه، لأنَّ غالبيتنا من نوعية من خلط عملاً صالحاً بآخرَ سيئٍ، وها هي الآية ترشدنا على طريق الطهارة والزكاة عبر الصدقة.

نُلاحِظُ أنَّ القرآن لم يفرّق بين صدقة واجبة وصدقة مستحبّة، ففصلها عن الزكاة وجعلها عمومية تشملهما، وركّز القرآن حديثه على عموم الإنفاق في سبيله تعالى في عموم حاجات المسلمين، سواء للدفاع عنهم أو للهجوم على العدو... أو مساعدة المحتاجين للمساعدة الملحّة، فإن كانوا بحاجة ماسّة للمساعدة، فالصدقة عليهم واجبة إن كنت تستطيع حتى بعد دفعك للزكاة.

(أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{104})
{أَلَمْ يَعْلَمُوا}، المسلمون الذين خلطوا صالحاً بطالحٍ، والذين أمرناك بأخذ الصدقة منهم، {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ}، ولا يرفض، {التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ}، حيث إنَّ الذين المفروضَ منهم طاعته سبحانه يفتح لهم صفحة جديدة ولا يحاسبهم على السيئات التي مرّت إن هم استغفروه تعالى، فلا يقولوا: راحت علينا ولن يقبل تعالى توبتنا إن تبنا من العمل النفاقي وآمنّا، لا. حيث إنَّ القرآن مشحون بالكلام الإلهي الذي يخبر الجميع بأن باب التوبة مفتوح دائماً لأي إنسان كان ومهما فعل.

{أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ} تعالى {هُوَ}، {يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ}، فما يدفعونها في سبيله تعالى من الأشياء التي يملكونها ولها قيمة فسبحانه وتعالى يأخذها، وعملياً يتم توزيع الصدقة على المحتاجين وفي سبيله تعالى، ولا يستفيد سبحانه منها شخصياً ولا بأي شيء، ولكن بما أن الصدقة عمل خير نندفع لفعله بسبب ما جعله تعالى فينا لحبّ فعل الخير، وجعل تعالى على فعلها أجراً، فنحن لا علاقة لنا بمن أخذها، فلا نطلب ممن أخذها أجراً، وإنما نطلب أجرنا من الذي أمرنا بإنفاقها في سبيله، واعتبر تعالى أنه يقترض منّا المال الذي ننفقه في سبيله، كما ورد في الآية 11 من سورة الحديد {مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ}، وسيردّه تعالى لنا حَسَنَاتٍ ومغفرة في الآخرة.

هؤلاء حين يتصدّقون فهم لديهم نيّة القربى منه تعالى تعويضاً عن ذنوبهم، وهنا يخبرهم سبحانه أنه تَوَّابٌ، وأنه هو يأخذ الصدقات، فهذا تشجيع لهم وتأكيد على صحّة التقرب منه تعالى ومسح الذنوب بالصدقة.

افهم كلام الآية هنا مثل الآية 114 من سورة هود {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ}، لأنَّ الصلاة فعل حسن يجعل السيئات تذهب عنّا، وهنا في الآية سياق الكلام عن الصدقة كفعل حسن يعتبره تعالى بقيمة إعلانِ التوبة، فيقبل الصدقة مُعْتَبِراً لها قيمة حسنة تجعل السيئات مَعْفُوّاً عنها.

ألم يعلموا، {أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ}، فإن كان هناك من يفتح صفحة جديدة فسبحانه موصوف بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى حيث فعلاً يفتح لنا صفحة جديدة وكأن الماضي السَّيِّئَ لم يحصل، إذ سبحانه ليس صلباً قاسياً لا يتراجع عن قراره بل حتى يَمْحُو ذنوب من تاب وكأنها أصلاً لم تحصل.

وأنه، {الرَّحِيمُ}، فعنده سبحانه عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، والمؤمنون فقط يتم غفران ذنوبهم، وأما الكافر والمنافق والفاسق، فلا يغفر تعالى له ولا أي ذنب، ولا يقبل الصدقة منه، لأنهم هم بكفرهم وبفسقهم ونفاقهم قرروا الخروج من تحت الرحمة الإلهية.

افهموا أن باب التوبة مفتوح دائماً، واستفيدوا من الصدقة لأنها وسيلة صحيحة للطهارة الإيمانية والتقرّب منه تعالى فتصدقوا.

كثيراً ما تكرّر كلام القرآن عن الصدقة رابطاً لها بأساس الإيمان به تعالى، وكما ترى حيث إنها عمل تنعكس كل الاستفادة منه علينا نحن البشر، فهي من أبرز كلامه تعالى معنا والذي نعتبره دينياً، وترى فيه أن الدين الإلهي ليس مسألة محصورة بالعلاقة بين الإنسان وربّه، بل تمسّ صميم حياتنا نحن، وحياتنا نحن بما فيها من صلاح وفساد هي

الدين الإلهي، وهي تكليفه تعالى لنا بفعل الخير والصلاح الذي وبما فينا من قابلية لتمييز الخير من الشرّ فمن المفروض أن نميّز نحن بين الصلاح والفساد، ومن المفروض أن نتوافق كلنا محاولين نشر الخير بيننا.

أقول لك هذا لأن كلام عامَّةِ الناس كثيراً ما يخلط بين المفاهيم، حيث تدرج فكرة أن الدين شيء شخصي تمارسه بينك وبين نفسك في بيتك ولوحدك... ومن المفروض حصره بذلك، وأي كلام ديني يتدخّل في شؤون عامّة فهو مرفوض، وفي نفس الوقت يتداخل ذلك مع فكرة أن الدين هو المعاملة! فيجب على المتدين بأي دين كان أن يكون سلوكه حسناً، وعندها يعترفون بأن الدين له قيمة حتى لو هم لم يتديّنوا به. وفي نفس الوقت يحصرون التدين بالسلوك الشخصي الخاص الذي لا تأثير له على الآخرين، ويرفضون انعكاسه على أي عمل يخصّ الآخرين، وفاصلين له عن الشريعة والقانون... وفي نفس الوقت مطلوب من المتديّن أن يكون سلوكه حسناً بل ممتازاً مع الآخرين لأنه متديّن وإلا فدينه سَيِّئٌ.

هذا القرآن لا يعرض ديناً جرت صياغته ليعجب الناس، فعندما يأمر بالصدقة لا يقصد سبحانه إثارة إعجابنا باهتمامه بمساعدة بعضنا البعض حتى نلتزم بدينه، بل هو كلامه تعالى النابعُ عن حكمة ومن المفروض رؤيتنا لتماشي كلامه تعالى مع القابلية التي جعلها تعالى فينا لتمييز الحكمة من الجهل.

كما ترى فمن كلام عموم الناس غير المدروس ينتج تشويش سببه رغبة الناس ببقاء الحالة غير واضحة، فمرةً يصنفون الدين كدين شخصي بينك وبين ربّك ومفصول عن التشريع والقانون، ومرةً كشيء يفرض عليك التصرف بكل اللياقة الإنسانية وهي نفسها احترام حقوق الآخرين، والتي عملياً هي الالتزام بالقانون والشريعة.

حين لا يريدون التقيد بالصلاح الذي في كلامه تعالى في التشريعات والسلوكيات، يقولون إنَّ الدين شيء شخصي لتبني به علاقة طيبة مع ربك وتصلي له وتصوم له وتحمده وتمدحه... وَيُحِبَّكَ ويرضى عنك... ولكن لا تفرض علينا أيها المتدين شريعتك فنحن أدرى بما فيه مصلحتنا... ومعلوم لك من هذا القرآن الشريعة والسلوكيات التي يأمر بها دينه تعالى والتي تختصر أهم أساسياتها الآية 177 من سورة البقرة {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}، فليس البرّ بالشكليات عبر التوجّه بدقة إلى القبلة، بل هو التطبيق الفعلي للإيمان بالممارسة الصالحة.

حين تتعامل معهم، فهم يفرضون عليك لوحدك أن تكون صالحاً صادقاً أميناً ناصحاً وفياً عفيفاً مخلصاً صبوراً... وإلا فلست متديناً، بينما هم لا يرون أنفسهم ملزمين بهذه العناوين، لأنهم لم يعلنوا انتماءهم لدين يفرض عليهم الالتزام بها.

الفرق بين المؤمن والآخرين أن المؤمن يحاول أن يكون صالحاً، حتى لو أساء، فهو لديه نيّة فعلية أن لا يكرر السوء، وأما الآخرون فهم في حالة إقناع أنفسهم بأن توصيف شيء ما بالسوء فهو فقط ما يتعارض مع رغباتهم وشهواتهم حتى لو كانت سيئة، ومع تمرسهم عليها لا يَعُودُونَ يرون فعلهم لها سَيِّئاً، ويرونها سيئة فقط حين يفعلها الآخرون معهم.

هذه الدراسة استعملت تعبير "اعتبار الصلاة" عملاً فردياً يستفيد منه الفرد في مقابل الصدقة كعمل يقوم به الفرد ويستفيد منه الآخرون، على أساس أن تعابير القرآن المتكررة عن الصلاة والزكاة تقصد أبرز نموذجين عمّا يأمر به تعالى، حيث إنَّ عمل الصلاة نموذج عمّا أثره فردي، وعمل الزكاة نموذج عمّا يأمر به تعالى وأثره جماعي، وهذا الكلام له عمق آخر، ولولا الصلاة لما كان بيننا وبينه تعالى علاقة أصلاً، ولولا هذه العلاقة لما فعلنا الزكاة ولا بقية الصالحات، لأنَّ الصلاة عمل فردي وأثره في إصلاح الفرد، وبالتالي حين يصلح الفرد تكون سلوكياته مع الآخرين صالحة.

صلاتك بالنسبة لي تعني أني أستطيع الكلام معك لتطبيق الحقّ والصلاح المتماشي مع دينه تعالى لأنك مُعْلِنٌ لإيمانك بدينه تعالى، وإلا فإن لم أَسْتَطِعْ الكلام معك لأخذ الحقّ منك، فهي شريعة الغابة والاستقواء والحيلة والشطارة... وهكذا تصير الصلاة عملاً فردياً أثره جماعي، لأن الصلاة تفرض وتعني أن المصلّي ملتزم بالحقّ والصلاح.

(وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{105})
{وَقُلِ}، أيها الرسول(ع) للمسلمين عبر هذا القرآن: {اعْمَلُوا}، قوموا بالأعمال، الحسنة طبعاً، {فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ}، فسيصير لديه تعالى صورة محدّدة عن عملكم، {وَرَسُولُهُ}، أيضاً سيرى عملكم، {وَالْمُؤْمِنُونَ}، سيرون عملكم الجيد.

نلاحظ أنه تعالى لوحده يكفي أن يرى أعمالنا، لأنه هو تعالى الذي يجازينا بالأجر، ولكنه سبحانه وتعالى قرّر أن يجعل للمؤمنين مكانة وكرامة عالية، فعندما تقوم بعمل خير، فأنت تريد رضاه تعالى، ولا ضرر إن أردت بعمل الخير التحبب إلى الرسول(ع) والمؤمنين، فأنت لا تتفاخر ولا تتباهى ولا ترائي، بل كما يحب تعالى رؤيتك تفعل الخير فإن المؤمنين أيضاً يحبّون رؤية عمل الخير، وسيشفعون لك في يوم القيامة...

{وَقُلِ اعْمَلُوا... وَسَتُرَدُّونَ}، وسيتم إرجاعكم، {إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ}، فبعد أن تموتوا فلن تنتهوا أو تتبخروا، بل سترجعون إلى الحياة مرة ثانية في الآخرة لتقفوا بين يدي من يعلم كل ما غاب عن مخلوقاته سواء أكان في الماضي أو المستقبل، أو في الحاضر وهم لا علم لهم بما يجري، كجهلي في الحاضر بما يجري في بيت جاري... ويعلم، {الشَّهَادَةِ}، فيعلم ما تعرفه مخلوقاته أيضاً، فيعلم ما يرونه وما يسمعونه وما يحسّون به، فإن قمت بعمل الخير علناً، فشهده الناس، وسبحانه يعلم بعملك، وإن قمت بعمل الخير في السرّ، وغاب عن الناس، فسبحانه أيضاً يعلم بعملك لأنه تعالى يعلم الغيب.

ضَعْ في بالك أنه تعالى لا تفلت المعلومات منه بعد علمه بها، فلا ينساها، ومضافاً لذلك خلق تعالى كتاباً تسجل فيه كل ما سيحدث، ويتسجل فيه كل ما يحدث، وهذا واضح من عموم القرآن ومنه الآية 59 من سورة الأنعام ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

بعدَ رجوعِكُمْ إليه تعالى، {فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، فالأشياء التي قمتم بها علناً أو بالسرّ ولكنها ليست منشورة أمام الآخرين، والأشياء التي نسيتموها ونسيها الناس... فكلها معلومة له تعالى "محفوظة مسجلة"، وسيخبرنا بها سبحانه.

لن يضيع أي عمل خير قمت به، حتى لو أنت نسيته فسبحانه لن ينساه وفي يوم القيامة سيخبرك عنه، وعملياً فهذا يعني أنك ستحصل على الأجر من عمل الخير الذي سينبئك به تعالى.

(وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{106})
{وَآخَرُونَ}، وأناس غَيْرُ النوعية الجيدة جدا من المؤمنين، وغير النوعية السيئة جدا من المسلمين هم، {مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ}، وسياق الكلام عن إنبائنا في الآخرة بما عملنا، حيث هناك أناس سيتم إرجاؤهم بتأخير محاسبتهم لما بعد النظر في أمور تتعلق بهم، وسترى من تكملة الجملة أن القرار فيهم متعلق بموازنة أعمالهم الحسنة والسيئة. وبالنظر لأعمالهم التي فيها صالح وطالح، لم يصدر قرار إلهي "حالياً" بشأنهم، لأنهم لم يرتكبوا الكبائر بإصرار حتى ماتوا، ولم يشركوا ولم يعقّوا الوالدين... ولكن عندهم تقصير في الواجبات، وارتكبوا بعض السيئات، ولا هم مؤمنون خالصون، ولا هم منحرفون لأشد الانحراف، بل بين الحالتين، وقرارهم بيده تعالى، {إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ}، حيث هناك احتمال أن يصيبهم ما يضرّهم إن كثرت سيئاتهم أكثر من حسناتهم بكثير، {وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ}، والاحتمال الثاني أن يفتح سبحانه لهم صفحة جديدة ويسامحهم سبحانه ولا يعذّبهم على ذنوبهم، طبعاً هذا إن كانت أعمالهم الحسنة غالبة على أعمالهم السيئة.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ}، ويعلم سبحانه كل شيء، ويعلم ما فعلوا بالتفصيل، وعندما سيحكم عليهم بالتعذيب أو بالتوبة عليهم فعن علم تفصيلي دقيق سيحكم سبحانه عليهم.

{وَاللَّهُ حَكِيمٌ}، ولا يقرر سبحانه تعذيبهم أو مسامحتهم بشكل عبثي أو عشوائي، بل عن حكمة وعن صوابية يأخذ سبحانه القرار فيهم.

كما تعلم السيئات درجات، من الأعلى سوءاً كالشرك وكقتل النفس البريئة والزنا... والفساد من العيار الثقيل كنهب المال العام... وبعده الغيبة بذكر مساوئ الناس والسرقة لأشياء صغيرة... وبعده وصولا إلى أن لا ترمي السلام على الناس أو لا تردّ سلامهم عليك، والمبالغة في الكلام الذي لا أهمية له كالمبالغة في عدد الورود التي أنتجتها نبتتك...

اختلاف كبر السيئة يفرض اختلاف العقاب عليها، والكلام في الآية هنا عن أناس ماتوا وهم ليسوا موصوفين بالتوبة من سيئاتهم، حيث فعلوا سيئات من العيار الوسط والخفيف ولم يستغفروا منها، لذلك هؤلاء يستحقون العقاب ولكن لا يستحقون الخلود في جهنّم.

القرآن لم يُرِدِ القول بصراحة أن بعض الناس لا يخلدون في جهنّم، حتى لا نتهاون ونتجرّأ على فعل السيئات الصغيرة، وبعدها نعتاد ونفعل الوسط ولا نتوب منها، وبعدها يعلو احتمال فعلنا للكبيرة... ودائما عبّر القرآن عن الرعب والألم الشديد لمن فتح عينيه في الآخرة ولم يَكُ من المؤمنين من الدرجة العالية، وحتى الذين تتحدّث عنهم الآية هنا أنهم سيتحاسبون لموازنة أعمالهم، وربما تنالهم الشفاعة... وحتى هؤلاء عليهم ذنوب كفيلة باستقبالهم بالضرب والإهانات من أول ما يفتحون أعينهم في الآخرة، وبعض الناس يعلمون هذا ورغم ذلك يستهترون، بينما هنا في الدنيا إذا لسعته نحلة أو دبّور، بإبرة صغيرة جدا عليها أقل من نقطة سمّ، فهو لا يستطيع النوم من الألم... ولذلك دائما نبّه القرآن من الاستهتار الناتج عن عقلية ونفسية تمرّنت على الاستهتار حتى في أمور من الشؤون الحياتية... بدلا من المحافظة على العقلانية في التعاطي مع الأمور، واستعمل القرآن تعابيرَ قاسية جدا حتى لا نتهاون، ومنها الآية 185 من سورة آل عمران {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}. مجرد الزحزحة عن النار بالنجاة منها بفارق حسنة واحدة، فهو فوز، لأن أقل تعذيب في جهنّم، ولو لمدة ثوانٍ، فهو جهنّمي، فكيف بعذاب لمدة ساعات أو أيام أو سنين بالعشرات والمئات والملايين...

فحوى كلام القرآن عن الخلود في النار فقط لمرتكبي السيئات الكبيرة، وأن مرتكبي السيئات الوسط لهم سنُونَ طويلة من العذاب، ولمرتكبي السيئات الصغيرة عذاب حتمي إن كانت أعمالهم الحسنة غير كافية لمسح سيئاتهم، وبعض الأحيان نظنّ أننا لدينا حسنات فائضة وأكثر من كافية لمسح سيئاتنا، وفي الحقيقة تكون محترقة هنا في الدنيا بالزهو والفخر والتكبر والخيلاء والمراءاة... وبالضرر النفسي الكبير الذي سبّبناه للآخرين حين سخرنا منهم... ونتج عنه تسبيبهم بدورهم لضرر كبير للآخرين.

آيتنا هنا من الآيات القرآنية القليلة التي تحدّثت عن القسم الثالث من الناس، إذ عادة القرآن يشير للمؤمنين من الدرجة العالية، وفي مقابلهم السيئون من الدرجة العالية، من الكفّار والمشركين، والمنافقين والفاسقين من الدرجة العالية لدرجة شبههم بالكفّار، وعموم كلام القرآن عن الهداية والضلال، عن الإيمان والكفر، ونادرا هي المناسبات التي تتيح الكلام عن آخرة الذين ما بين بين، مع أنهم الغالبية من الناس، وهؤلاء بدل كلام القرآن تفصيليا وتكرارا عن آخرتهم، اكتفى بتنبيههم أن دخولهم الجنّة ليس محسوما، وأكثر القرآن كلامه معهم لتوجيههم لتحسين إيمانهم وعملهم الصالح، لأن المؤمنين من الدرجة العالية يكفيهم الخبر عَمَّا يأمر به تعالى ويرضاه، أَمَّا بقية كلام القرآن فهو مع الغالبية من المنتمين لدينه تعالى لتعليمهم وتنبيههم وتحذيرهم حتى لا يفعلوا السوء، وفي الأخير إنذارهم أن يتراجعوا عنه وتخويفهم بالنار.

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ{107})
ننتقل لمنافقين بنوا مسجدا! فلننتبه من هذه النوعية:

{وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا}، جعلوا من مكان يتم التعبير فيه عن أقصى حالات الخضوع، وهنا المقصود أنهم حدّدوا بقعة أرض مخصصة للصلاة له تعالى، {ضِرَارًا}، حيث حدّدوا مكانا ليكون مسجدا ولكن لتسبيب ضرر، لتسبيب أشياء سيئة! لضرر الإيمان لا للنفع الإيماني! ويجتمعون فيه ليتحدثوا بأشياء سيئة مضرّة إيمانيًّا، كالتعليقات السيئة على الدين والشريعة والزكاة والجهاد والرسول...

{وَاتَّخَذُوا مَسْجِدًا}: {كُفْرًا}، إنكارا للدين الإلهي وليس لإقامة الدين! ولا يتحدثون فيه عن طاعته تعالى ورسوله(ع)، ولا عن تنفيذ الشريعة الإلهية، بل يتحدثون عن أشياء أساسها كفر، أساسها إنكار للدين الإلهي، حيث يتحدثون عن آرائهم المعارضة لأساسيات الدين ولما يقوله الرسول(ع)...

{وَاتَّخَذُوا مَسْجِدًا}، {تَفْرِيقًا}، تشتيتا إبعادا، {بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ}، وجعلوا المسجد خاصا بهم، والمساجد الأخرى لغيرهم، حيث كل مسجد يصير تابعا لجماعة مختلفة عن الأخرى، وفي مسجدهم يتحدثون بما يجعل بين المسلمين فرقة، لأنهم

طائفة متمذهبة بآراء خاصة بهم لوحدهم، والآخرون غيرهم... ومع مرور الوقت يصير المسجد خاصا بهم ولا يدخله الآخرون المخالفون لهم بالرأي والأهواء!

{وَاتَّخَذُوا مَسْجِدًا}، {إِرْصَادًا}، مكانا للرصد، {لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ}، حيث يترصّد في المسجد أناس معادون للإسلام حاربوه من قبل، ويجتمع في ذلك المسجد الأشخاص الذين من قبل صدر منهم تصرفات علنية معادية لله تعالى ورسوله(ع)! ويصير المسجد مكانا للرصد، ويكونون جاهزين فيه للتعامل مع أي مستجدات تأتيهم منه تعالى ومن رسوله(ع) ومن المؤمنين.

بكل وضوح إنّ حضور أناس كانوا في السابق علناً معادين للدين الإلهي، حضورهم لذلك المسجد واجتماعهم مع الذين بَنَوْا وعَمَّرُوا ويَحْضُرُونَ في ذاك المسجد، لَهوَ دليل واضح على أن المسجد صار مكان اجتماع ولقاء للمعادين للإسلام والمسلمين، وفيه ينتظرون أي شيء يحصل من المؤمنين ليتعاملوا معه بحسب ما يناسبهم. وصدق فيهم المثل: إن الطيور على أشكالها تقع. حيث الدوري يهبط بين جماعة عصافير الدوري، والحمام يهبط بين جماعة الحمام... لأنهم بنوا مسجدا يتحدثون فيه بما يعارض دينه تعالى، مما لفت مسجدهم انتباه البقية السيئين من أمثالهم، والذين من قبل كانوا منبوذين من المجتمع المؤمن لأنهم مصرّون على معارضة دينه تعالى، ووجدوا في المسجد "الضرار" فرصة لتجميع أنفسهم فيه مع عصابة لها نفس هواهم السيئ.

{وَلَيَحْلِفُنَّ}، لسوف يحلفون، ويقولون كلاما تأكيديا لتبرير بنائهم للمسجد: والله... {إِنْ أَرَدْنَا}، فقط كان قصدنا ورغبتنا، {إِلَّا الْحُسْنَى}، إلا الشيء الذي أحسن ما يكون، حيث بنينا مسجدا لم نقصد منه إلا العمل الحسن، بل أحسن الأعمال لأنه مسجد لعبادته تعالى.

{وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}، إذ هو تعالى يراقبهم، ويشهد على كذبهم، لأنهم أرادوا الضرر ولم يريدوا العمل الحسن.

قصدوا أن يكون المسجد مكانا خاصا بهم ليجتمعوا فيه بعيدا عن المؤمنين الحقيقيين، ويأخذوا راحتهم في الحديث بشكل مريح مناسب لهم ولعقلية النفاق التي عندهم، وأي كلام يأتيهم من الرسول (ع) ومن بقية المؤمنين فهم لم يعودوا ملزمين بتنفيذه لأنهم جماعة لها كيانها ومسجدها... لذلك تتخذ القرارات التي تراها مناسبة...

كم من مسجد في عصرنا نعرف أنه خاص لجماعة فلان، ولمذهب فلان، وللحزب الفلاني... وأن الأحاديث والخطب التي فيه مخصصة لتوافق عقلية زبائن تلك المساجد! ولا يعجبهم ما يقوله الخطباء في المساجد الأخرى! وهذه كلها مساجد "ضرار"، وأي حديث خاص ويعجب جماعة محددة، فهو ليس من أصل الدين الإلهي، ومن لم يعجبه أصل الدين، ولم يعجبه الكلام القرآني الصافي غير المتلاعب بمعانيه، فلينتبه، لأن هذه الآية تتحدث معه.

تذكّر أن السورة هنا في الآية 18 لفتت انتباهنا أن عمارة المساجد وحتى عمارة المسجد الحرام، هي لوحدها كعمل لا تدل على أي شيء، وليست دليلا على إيمان من بناها أو اهتم بها أو ذهب إليها أو نظّفها... حيث إن المنافقين في أي مكان يمكنهم بناء مسجد وهو أيضا لا يدل على أي شيء إيماني، فكيف إذا كان المسجد بُني ليكون خاصا بالمنافقين حتى يبقوا على ظاهر الدين ولكن في مجتمع منافق خاص بهم، ولهم مسجد خاص بهم!

سألتك قبل بضعة أسطر عن عدد مساجد ضرار التي في عصرنا، والآن أسألك عن عدد المساجد التي ليست ضرارا؟ هل تعرف واحدا منها؟ وانتبه أن نفس السؤال موجّه لبقية المسلمين، وانتبه أنهم كلّهم سيقولون مثلما أنت ستقول، حيث ستقول بأن مسجد جماعتك ليس ضرارا. ولكنك عادة لا تدخل مساجد المسلمين من الطوائف الأخرى ولا تصلّي معهم جماعة، أليس كذلك؟ والآخرون نفس الشيء وعادة لا يدخلون مسجدك ولا يصلّون جماعتك!

إن لم تر أننا كلّنا غارقون في مستنقع الطائفية المذهبية البغيضة المدمّرة للإيمان، والمدمّرة لآخرتنا، وأن الكثير "إن لم أقل كل" مساجدنا ضرارٌ، فأنت لم تر بعد معنى كلامه تعالى المانع عن الفرقة بين المسلمين، إذ لا يسمح سبحانه بأي تسمية تميّز جماعة عن أخرى دينيا، لا سنة ولا شيعة ولا أباضي ولا زيدي ولا فاطمي ولا إسماعيلي... لأن كلّه عليه عقاب شديد.

(لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ{108})
{لَا تَقُمْ فِيهِ}، في ذلك المسجد لا تفعل أي شيء ديني، {أَبَدًا}، لا الآن ولا في أي زمن قادم، ولا تتوقف لتفعل أي شيء "ديني" في ذلك المسجد لأي سبب كان، لا تصلّي فيه، ولا تخطب، ولا تتحدث مع أحد... أَبَدًا. أَيُّ مسجد بتلك المواصفات فلا تقم فيه ولا تعتبر له قدسية واعتباراً كمكان لذكره تعالى حتى لو سمّوه مسجدا.

{لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى}، حيث إنَّ عموم أي مكان مخصّص للتعبير عن عبادته تعالى، ومن بناه وعمَّره كان يقصد تقواه تعالى ويتجنّب غضبه وعقابه، {مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ}، إذْ من أول ما بنوا المسجد كان المقصود منه تقواه تعالى، {أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ}، حيث له الأولوية أن تقف فيه لتفعل شيئا "دينيا" وتصلّي فيه وتخطب وتتحدث عن الدين وعن شؤون المسلمين فيه...

أَيُّ مسجد بناه الناس لوجهه تعالى، لا لغايات نفاق أو مذهبية أو طائفية، فله الأولوية والأفضلية أن تقوم فيه للعبادة والدعاء والخطاب، والكلام على معنى أن هذا النوع من المساجد تقصده وتضعه في برنامجك.

{فِيهِ}، في ذلك المسجد الذي بُنِيَ على التقوى، {رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا}، حيث لديهم رغبة بالتخلص من الشِّيَةِ، من الأشياء السيئة المعيبة، من النفاق والفسق والسيئات... وهذه هي صفات رجال المسجد الصحيح، وعندما تجد زوار ذلك المسجد عندهم تقوى فأنت في المسجد الصحيح.

{وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ}، المُتَطَهِّرِينَ، الذين يعملون على التخلّص من أو الابتعاد عن الأشياء السيئة.

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{109})
{أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ}، حيث من الأصل كان المسجد الذي بناه، {عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ}، حيث بناه على تجنب غضب وعقاب الله تعالى، {وَرِضْوَانٍ}، وبناه قاصدا رضا وقبول إلهي بمحبّة لما بناه، وهل هذا، {خَيْرٌ}، موصوف بأنه حسن، {أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ}، حيث كان أصل بنائه للمسجد، {عَلَى شَفَا}، على حافّة، {جُرُفٍ}، مكان قابل للانزلاق حيث تنجرف فيه الأشياء للأسفل، كحافة شيّار جبلي، {هَارٍ}، متصدع مُتَهَاوٍ غير متماسك. تَصَوَّرْ جبلاً عالياً، فِيهِ منحدر شديد الانحدار "جرف"، والمنحدر غير ثابت وقابل للانهيار والانزلاق "هار"، وعلى حافة "شفا" المنحدر، بنى مسجدا، وبهذه الطريقة سيسقط البناء بالتأكيد.

{فَانْهَارَ بِهِ}، حيث سقط به البناء، {فِي نَارِ جَهَنَّمَ}، في المكان الموصوف بسوء ما فيه، لأن هذا البناء من أساسه بني ليسقط، حيث إنَّ كل أساس غير تقوى الله تعالى فهو أساس مهزوز غير ثابت وفي النهاية سيقع البناء في هاوية جهنم.

صحيح أن سياق الكلام عن بناء مسجد ولكن ملحوظ في الآية التعبير عن عامة بناء كل شيء، من بناء مسجد لبناء مدرسة... أو بناء شخصية... لبناء الأسرة لبناء حزب أو دولة... لأن أي بناء لم يُبْنَ على تقواه تعالى فنهاية من بناه إلى جهنّم.

{وَاللَّهُ لَا يَهْدِي}، لا يضع على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {الْقَوْمَ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة، وهنا الكلام عن أناس اشتركوا في بناء مسجد على غير تقواه تعالى، إذ سبحانه لا يهدي، {الظَّالِمِينَ}، الذين لم يكونوا عادلين ولا منصفين، لأن العدل والإنصاف أن يكونوا أتقياء متطهرين، وأن يبنوا ما يَبْنُونَهُ على تقواه تعالى، وليس معهم حق أن يكونوا منافقين أرجاساً، إذْ ظلما اختاروا النفاق.

لذلك، انظر للأساس والأصل في نفسية الذي بنى مسجدا، لأن المسجد بناء، وإمّا أن يكون مبنيا على تقوى ورضوان، حيث يستمر وينمو ويوصل روّاده إلى الجنة... وإمّا أن يكون على أساس مهزوز فسينهار في النهاية إلى نار جهنم، والتمثيل بانهيار البناء، ولكن المقصود هو نفسية من بنى البناء "وأنشأ الحزب، وبنى دولة..."، لأنه هو نفسه سيتحاسب على تركه للتقوى والرضوان.

(لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{110})
{لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا}، حيث إنَّ المسجد الذي بنوه ضرارا وكفرا... لم يزل {رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ}! إذْ عندهم شعور بأنه لم يكن عملا سيئا! ولم يروه مسجدا ضرارا وكفرا! لذلك ما يزالون يشعرون بأنهم مظلومون بهدم مسجدهم والاعتراض على تصرفهم!

نستنتج من الكلام هنا أن المسجد هدمه النبي(ع)، والمنافقون الذين بنوه وعمروه لا يزالون يتحدثون عن مسجدهم أنه كان مكانا لعبادته تعالى، فما هذا الدين وما هذا الرسول الذي يهدم مسجدا، وأنه كان مكانا يجتمعون فيه كمؤمنين، فلماذا جرى هدمه؟!

هم منافقون، وكان لهم مكان يجتمعون فيه على راحتهم ليتحدثوا بأمور يرتاحون لها، ويبقوا محسوبين على المسلمين لأنهم منهم، ولكن يصير لهم كيانهم الخاص المنفصل عن الآخرين، حيث على راحتهم يعلّقون على الدين وعلى المؤمنين وعلى الرسول(ع)، وبعد هدم المسجد، ما زالوا يشعرون أنهم مظلومون بهدم مسجدهم! وترك مساجد الآخرين.

عليك مقارنتها مع مساجد أخرى بنتها جماعات أخرى في أحياء سكنية من المدينة، ولم يقم النبي(ع) بهدمها، حيث إنَّ المنافقين الذين تهدّم مسجدهم لم يقتنعوا بأنهم منافقون مختلفون عن المؤمنين الحقيقيين، ويرون الآخرين لديهم مساجد خاصّة بهم، ولا يرون أولئك الآخرين كمؤمنين حقيقيين، بل يرون أنفسهم أفضل وأفهم... من الآخرين، فلماذا جرى هدم مسجدهم الخاص بهم وترك مساجد الآخرين؟

لن نفهم ما تقوله الآيات إن لم نقسها على واقعنا المرّ، حيث هذا مسجد لجماعة فلان، وذاك مسجد لجماعة فلان الآخر، ومسجد غيرهما لجماعة الحزب الفلاني... وكلّهم من نفس الطائفة! ومساجد أخرى لجماعات من طوائف أخرى! ومساجد لجماعات أخرى عديدة من مذاهب أخرى! وكل جماعة مسجد يرون الجماعات الأخرى أقل منهم إيمانيًّا، بل ويرونهم منافقين، بل وبعضهم يرونهم كفرة! ويرون مسجدهم بُنِيَ على التقوى والمساجد الأخرى مساجد ضرارٍ! وهي نفس حالة الذين بنوا مسجدا ضرارا في عهد النبي(ع) وهدمه النبي(ع)، ومن بناه يستغرب: بقية الجماعات التي لا نراها مؤمنة أكثر منّا بقي مسجدها وتهدّم مسجدنا!؟ لماذا؟! فكيف يمكنك الإجابة على سؤال هذه النوعية من الناس؟ ستقول إنَّ القرآن واضح بوصفهم بالنفاق وانتهى الموضوع، والآن، كيف تصف المساجد التي حولك؟ بكل بساطة وبكل سهولة ستعتبر مسجد جماعتك مسجد التقوى، ومساجد الآخرين مساجد ضرار! وأنت تعلم أن الآخرين يقولون عنك العكس؟ وهذه حالة مساجد ضرار المنتشرة في كل مكان، ومعرفتها بسيطة جدا جدا، حيث إنَّ كل من يرى نفسه مؤمنا أكثر من الآخرين، مع أنه يخالف ما يقوله القرآن ويعمل على التفريق بين المسلمين، وكل من أباح حرمة المسلمين... هو صاحب مسجد ضرار.

{إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ}، لذلك يجب أن يُقَطَّعَ و يُفْرَمَ أساسُ فكرهم ونفسيتهم حتى تنهي حالة النفاق التي عندهم، وحتى يفهموا أن مسجدهم كان للضرر بالدين الإلهي، وإلا فلن يخرج النفاق من تلك القلوب المريضة أبدا إلا بفرمها وطحنها، يعني لا يوجد أمل لهذه النوعية أن تتغير.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ}، ويعلم سبحانه أنهم بنوا المسجد للنفاق والكفر فيه، وأنه لا حلّ لتلك القلوب المريضة المنافقة إلا بالتقطيع.

{وَاللَّهُ حَكِيمٌ}، حيث إنَّ أمره تعالى لنبيّه (ع) بهدم مسجدهم كان عن حكمة وعن صوابية، لا عن عبث وعشوائية.

(إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{111})
بعدما تَعَرَّفْنا على المنافقين بأنواعهم وبتصرفاتهم المختلفة، تُعَرِّفُنا الآيات على المؤمنين الحقيقيين:

{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى}، أخذ سبحانه شيئاً مقابل شيء، {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، من المعتقدين حقاً بدينه تعالى، {أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ}، لأنَّ هذا شيءٌ له قيمة، وأخذه تعالى ليعطيهم بدلاً منه شيئاً له قيمة، {بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ}، فثمن أنفسهم التي قدموها للقتال ومختلف الأعمال في سبيله تعالى، وثمن أموالهم التي دفعوها في سبيله تعالى، فالثمن هو الجنة، هو المكان الموصوف بروعة ما فيه، ففيه حدائقُ والبساتين والقصور وتوابعها من المشتهيات والملذات.

{يُقَاتِلُونَ}، يقوم المؤمنون بنشاط فيه إنهاء حياة الآخرين، {فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، فلا يقاتلون من أجل مصالح دنيوية شخصية سيئة من رئاسة وتسلط أو انتقام شخصي... أو اعتداء على الآخرين... {فَيَقْتُلُونَ}، فينهون حياة الأعداء، {وَيُقْتَلُونَ}، وينهي الأعداء حياة المؤمنين.

هذه التجارة من بيع المؤمنين لأنفسهم وأموالهم، والشراء منه تعالى بالجنة، هذا: {وَعْدًا عَلَيْهِ}، شيء قال تعالى إنَّه سيفعله، {حَقًّا}، فهو وعد صحيح سيتحقق حتماً، وهذا الوعد مذكور سابقاً، {فِي التَّوْرَاةِ}، وهو الكتاب الذي نزل على النبي موسى(ع)، ومكتوب في، {الْإِنْجِيلِ}، وهو الكتاب الذي نزل على النبي عيسى(ع)، ومكتوب في، {الْقُرْآنِ} وهو الكتاب الذي نزل على النبي محمد(ع)، فهذا الوعد ليس شيئاً جديداً، حيث عبر التاريخ كانت هذه التجارة الإلهية متاحة للمؤمنين على عهد الأنبياء والرسل السابقين، وهم متساوون بالتمام لكم في الإيمان والجهاد والوعد الإلهي بالجنة.

{وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ}؟ فهل يوجد من يفي ويلتزم بالتمام، بعهده، بشيء قال إنَّه سيلتزم به وسينفّذه، أكثر من التزامه تعالى؟ فأي مخلوق وعوده صادقة ومهما بلغت درجة مصداقية وصحّة وعوده، فإن الظروف قد تجبره على الإخلاف بوعده، أمّا الإله سبحانه فلا يوجد أي شيء يمنعه من تحقيق وعوده، حيث قال بأن للمؤمنين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم الجنة، فلا يمكن لأي كائن منعه تعالى من إدخالهم للجنة، ولا يمكن لأي ظرف أن يمنعه تعالى من خلق الجنة الرائعة، فلا يمكن ولا بأي شكل أن يحصل أي تغيُّر في الوعد الإلهي، فهل يوجد صادق في وعوده مثل الله تعالى سواء من ناحية القدرة على فعل ما يريد أو فرض ما يُريده لِيَحْصُلَ؟ لا، لا يوجد أصدق ولا أقدر منه تعالى على الوفاء بما يعد.

{فَاسْتَبْشِرُوا}، فانتظروا الخبر السار المفرح أيها المؤمنون، {بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ}، حيث تمّ البيع بينكم وبينه تعالى وهو تعالى اشترى، وأنتم من طرفكم كان مبيعكم أنفسكم وأموالكم والشاري يبشّركم، فانتظروا الأخبار الطيبة الناتجة عن عملية البيع هذه، فسوف تدخلون إلى جنة خالدة رائعة.

ننتبه لبداية الآية حيث اشترى تعالى... وهم باعوا فليستبشروا ببيعهم الذي بايعوا...

{وَذَلِكَ} الدخول إلى الجنة، {هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}، هو الحصول على شيء له قيمة عالية بشكل ضخم هائل. كلُّ ما تتصوره في الدنيا من فوز، وكل ما تتصوره من سعادة... فكله لا شيء أمام ما يوجد في جنات الآخرة، وأقل درجة من جنات الآخرة هي أعظم روعة من أي شيء في الدنيا.

بعتَ حياتك الدنيوية التي قيمتها بعشرات السنين، وتتضمن الطفولة والكهولة، وستحصل في المقابل على حياة شبابية خالدة، وبعت ما لا يشتري بلدة أو دولة، وحصلت على جنة بحجم يفوق مساحة الكون بتريليونات مجراته... وفيها بساتين وحدائق وقصور وأنهار... ومشتهيات وخدم... فأي فوز أعظم من هذه التجارة؟

بالنسبة للقتال في سبيله تعالى عملياً لا يوجد شيء اسمه قتال في سبيله تعالى ولا يتقاطع مع مصالح المؤمنين، ولا يسمح سبحانه للمؤمنين بقتال غيرهم إلا لأسباب موجبة، وعندها يصف تعالى القتال بأنَّه في سبيله، وهذا مفهوم منتشر في القرآن وفهمناه بشكل غير صحيح حين فصلنا وصف القتال في سبيله تعالى عن مصالحنا كمؤمنين، وصرنا نبرّر لقتال الآخرين بأنَّه في سبيله تعالى وكأن سبيله تعالى شيء لا علاقة لنا به، وكأمر وصلنا منه تعالى لنقاتل لأجله تعالى ولا علاقة لنا بالقتال، لا، فالترجمة العملية لوصف القتال في سبيله تعالى هي مصالح المؤمنين التي يرضى عنها تعالى والتي تتعرّض لاعتداء قتالي من الآخرين.

العنوان الأسهل على الفهم هو قتال المؤمنين لمن عاداهم وحاربهم لأنهم مؤمنون بدينه تعالى، فماذا لو لم يكن الآخرون يهمّهم دينك وبالقوة العسكرية احتلّوا أرضك وطردوك منها؟ فهل أنت مضطر لتبحث وتتأكّد إن كانوا معادين لدينه تعالى حتى تقاتلهم لأنك لا تقاتل إلّا في سبيل الله تعالى ولا تقاتل في سبيل أرضك؟ هذا هراء، لأن سبيله تعالى هو ما يرضاه تعالى وهو متقاطع مع مصالحك، وتبرز المشكلة في ذلك فقط إن كانت مصالحك مخالفة لكلامه تعالى.

تأثرنا بهذا النوع من الثقافة لفهم عنوان "القتال في سبيل الله تعالى" حتى صرنا لا نميّز معنى كلامه تعالى الواضح في تبرير وتعليل أمره أو سماحه تعالى للمؤمنين بالقتال، حيث إنَّ القرآن ينتشر فيه الكلام عما فعله الآخرون حتى أمر

تعالى بقتالهم، من قتل وتهجير وصدّ عن الإيمان... فالدفاع عن النفس وعن التديّن وعن الأموال والأرض... كلها عناوين تطبيقية للقتال في سبيله تعالى.

للأسف تعامى الكثيرون عن أساس كلامه تعالى الذي من الواضح فيه التعليلات حتى سمح وأمر تعالى بقتال الآخرين، وهي من نوع التبريرات حتى نتعلّم ما يرضى عنه تعالى ويسمح به، ولماذا سمح لنا بل أمرنا بقتل الآخرين، فالآيات الأساسية تخبرك بأن الآخرين هم بدؤوا بالأنشطة المعادية للمؤمنين، وبحسب نوع نشاطهم يكون الردّ، وصولاً إلى قيامهم بقتل المؤمنين، فعندها يسمح بل يأمر تعالى بقتالهم وكمثال عن الآيات العديدة التي تحدّثت عن ذلك الآية 190 من سورة البقرة {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}. اضمم لتلك الآيات الآيات العديدة التي تمنع الاعتداء على المسالمين مهما كان دينهم ومنها الآية 8 من سورة الممتحنة {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، فيكون لديك أساس كامل لتشريعه تعالى في مسألة قتال الآخرين.

لكن، ولسبب أو لآخر، قطع الكثيرون الآيات عن سياقها، وعن الأساس التشريعي القرآني، وفسّروا كلامه تعالى بوجوب قتل كل كافر أينما كان وحتى لو كان مسالماً، كقطعهم بشكل غير معقول لكلام الآية 191 من سورة البقرة {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ}، والآية 91 من سورة النساء {سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا}، فتسمعهم يقولون: اقتلوهم حيث ثقفتموهم. علماً أنّ الآيات أصلاً واضحة في كلامها فقط وفقط عن كفّار مقاتلين، لا عن كفّار مسالمين!

هذه الجريمة بتفسير كلامه تعالى من عقلية الإجرام أو الاستهتار بالمنتمين للأديان الأخرى، دفعنا ثمنها غالياً لأن نفسية الإجرام عند الكثير من العلماء لم تتوقّف عند كره عموم غير المسلمين وإهدار حرمتهم، وانتشرت واستفحلت حتى صرنا نُفتي بجواز بل بوجوب قتلنا لبعضنا البعض! واصفين بعضنا البعض بالكفر! ومن بعد ذلك فالأمر سهل، فالكافر لا حرمة له!

(التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ{112})
ما هي صفات الذين باعوا أموالهم وأنفسهم لله تعالى؟

{التَّائِبُونَ}، الذين يفتحون صفحة جديدة فيقلعون عمّا سبق من سيئات، التاركون للذنب مع نيّتهم ألا يعودوا له.

{الْعَابِدُونَ}، الذين يتصرّفون على أساس أنهم مفروض عليهم طاعته تعالى، بالحركات والأقوال والأفعال من عبادة وصلاة وصوم وحج ودعاء وتصرفات في حياتهم...

{الْحَامِدُونَ}، الذين يؤمنون أن كل ما يفعله تعالى فهو خير، وحتى تميّز الحمد عن الشكر، فالشكر هو إعلانك عن حصولك على شيء جيد ترغبه، والحمد هو إعلانك أنك حامد لكل ما فعله، على اعتبار أنه لا يفعل إلا ما هو حميد، ما هو خير. لغوياً وقرآنياً، لا تقولُ شكراً على شيء لم تحبّه ولم ترغب به، ولكن تعلن حمدك حتى لو تعرّضت لشيء لا تحبّه ولا ترغب به، على أساس اعتقادك بأنه تعالى لم يفعل معك إلا ما هو حميد جيّد، وتعريضك للبلاء في الدنيا سينتج عنه خلود في جنّة الآخرة، هذا من نظرة عادية، أمّا من نظرة إيمانية أرقى، لأنَّه سبحانه وتعالى لا يفعل أي شيء سيئ، وأبرز مثال يخطر بالبال عن شيء سيئ هو إبليس، على أساس أنه كتلة من الشر التي خلقها تعالى، ولكن إبليس لا يختلف عنّي وعنك، فهو مخلوق فيه قابلية الإيمان والكفر بسبب حرية الإرادة الممنوحة له "ولنا"، ويتمتع بقدرات أعلى من قدراتي، فأنا أستطيع إغواء الكثير من الناس عبر وسائل التواصل المباشر معهم بالكلام، وأستطيع إغواء الآلاف عبر وسائل الاتصالات عبر الهاتف أو الكمبيوتر... وإبليس لديه القدرة على الوسوسة في عقول البشر الجاهزين لاستقبال وسوسته، وهو لا يتمتع بقدرة فائقة لمتابعة كل ما يدور في بال كل الناس، لا، بل هناك أعوان له من الجنّ ومن البشر يوسوسون بالسوء للآخرين... إذ سبحانه وتعالى لم يصمّم ويخلق كائناً لا يفعل إلا الشرّ.

كمثال آخر الحيوانات المفترسة والحشرات القاتلة، فإن تركتها بحالها فهي لن تلحق بك وتبحث عنك لتقتلك... وكما ترى فنحن المجرمون بحق الحيوانات لأننا أبدناها حتى انقرض البعض منها... أقيس لك ما تفكّر به أنه كائن شرير لا يصدر منه إلا الشر، وأقيسه لك على الإنسان لترى أننا مثلنا مثله، وليس صحيحاً أنه كائن تصمّم ليكون فقط شريراً... باقي كل شيء حولنا من كائنات وظواهر لم يصمّمها تعالى ليصدر منها الشرّ، بل صمّمها تعالى وخلقها لتكون بيئة بلاء في الدنيا، وإذا قابلتها مع وصف القرآن لما في الآخرة، تعلم الفرق بين دنيا البلاء، وآخرة الحساب، ففي الجنّة لا يوجد حتى أصغر انزعاج لساكنيها من بعضهم البعض ولا من أي شيء آخر...

بقليل من تصفية الذهن مستعيناً بهدى القرآن ترى أنه تعالى لم يفعل معك أي سوء، لأنك تسبّب السوء للآخرين، والآخرون يسببونه لك، وأنت مخلوق لتتعرّض للبلاء وتموت، فإن أردت هنا في الدنيا بيئة لا سوء فيها عليك، فكن فرداً من مجتمع يستغفره تعالى وتنالون كلّكم عناية تدخّله تعالى لمنع الكوارث الطبيعية عنكم، وهذا ما تقوله عدة آيات منها الآية 66 من سورة المائدة {وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ}، لكن الناس بالغالبية الساحقة لمجتمعاتهم لم تكن على الدرجة الكافية ليتدخّل تعالى مانعاً كل الكوارث، وها أنت ترى أنه حتى المجتمع الذي عاصر الرسول محمّد(ع) كان فيه منافقون وفاسقون... ولم يتدخّل تعالى مانعاً الكوارث عنهم حيث أصابهم وباء ومجاعة وحروب... والعديد من الآيات تحدّثت عن سبب السوء ناسبة له كنتاج مما يفعله الناس من سوء، وكمثال عن ذلك الآية 41 من سورة الروم {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

نرجع للآية، {السَّائِحُونَ}، التاركون لأماكن سكنهم والمنتقلون لمكان آخر في سبيله تعالى، كالمشي للمساجد البعيدة، والسفر للحجّ، والهجرة من مدن الكفّار، والمسير للجهاد... حالياً نصطلح على السياحة لمن سافر للاستجمام ولزيارة الأماكن الأثرية، لكن هناك سياحة دينية لأماكن العبادة وسفراً للجهاد في سبيله تعالى، واستعمل القرآن هذه الكلمة للدلالة على التنقّل في الأرض بشكل واضح في الآية 1 من هذه السورة.

{الرَّاكِعُونَ}، المعبّرون عن خضوعهم له تعالى عبر الانحناء، الخافضون لرؤوسهم ولظهورهم، كتعبير عن خضوعهم واعترافهم بمكانة ربهم العالية جداً.

{السَّاجِدُونَ}، المعبّرون بأقصى درجات التعبير عن الخضوع له تعالى، الذين يقربون وجههم من الأرض لدرجة وضع جبهتهم على الأرض.

حتى تخرج من روتين الركوع والسجود في الصلاة الذي يصير مع كثرة التكرار فارغاً من المعنى، تصور شخصاً عادياً يقول لك: عندما تراني وتريد أن تسلّم عليّ، اركع لي. اسجد لي. ستشعر حينها بأن الركوع والسجود ليسا حركة فارغة، بل هما تعبير عن أنك صغير، ومن تركع له فهو أكبر منك قيمة... وإن كان الانحناء بالرأس قليلاً إلى الأمام ليس تعبيراً قوياً عن الخضوع لمن أحنيت رأسك له، فانتقل إلى السجود الذي هو تعبير قوي جداً عن استصغارك لنفسك أمام من سجدت له، وبهذه النفسية وبهذا الشعور يكون ركوعنا وسجودنا لله تعالى له معنى حقيقي، ويعتبره تعالى ركوعاً وسجوداً، وإلا فالركوع والسجود كحركة فارغة بلا شعور، فلا قيمة إيمانية قلبية لها.

{الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ}، يأمرون الناس من حولهم بالقيام بأعمال المعروف، بما هو متعارف عليه من الدين الإلهي وبين عقلاء المؤمنين بأنه جيد وحسن، كالصلاة والزكاة والجهاد والصدقة...

{وَالنَّاهُونَ}، الآمرون بالتوقف نهائياً بلا عودة، {عَنِ الْمُنْكَرِ}، حيث ينبهون من يقوم بأعمال ينكرها الدين وعقلاء المؤمنين بأن يتوقف عن تلك الأعمال ولا يكررها أبداً، ويأمرون الناس بترك السيئات من كذب وغيبة وسرقة...

{الْمُنْكَرِ} من مقابلته مع "عرف معرفة" يعطي معنى حصول صورة أو مفهوم ونفي تطابقه مع ما لديك، فهو عموم ما ليس معروفاً على الوجه المطروح، كرفض لتصنيفه.

{وَالْحَافِظُونَ}، المراعون الصائنون، {لِحُدُودِ اللَّهِ}، يقفون على الحدّ ولا يتخطونه، وما يقوله لهم سبحانه لا يتخطونه ولا يتعدونه، بل يلتزمون به، ويقومون بكل ما أوجبه تعالى ويتركون كل ما منعه تعالى.

{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}، احمل الخبر السار المفرح للمعتقدين حقاً بالله تعالى وبدينه، واحمل الخبر المفرح للأشخاص ذوي الصفات التي ذكرناها. طبعاً كلنا نعلم أن الخبر المفرح هو دخول جنة خالدة.

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ{113})
ننتقل من النفاق لنكمل مع العلاقة بين المؤمنين والمشركين على مستوى آخر:

{مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ}، ليس من المفروض بشخص يصله نبأ، وهذه الكلمة صارت مُصْطَلَحاً لوصف الذي يصله وحي منه تعالى بخبر عن أمور غير منتشر علمها لهداية الناس، {وَالَّذِينَ آمَنُوا}، للذين اعتقدوا بالدين الإلهي، فكلاهما ليس من المفروض منهما ولا يحق لهما، {أَنْ يَسْتَغْفِرُوا}، أن يطلبوا المغفرة، أن يطلبوا منه تعالى التجاوز عن سيئات، {لِلْمُشْرِكِينَ}، للذين جعلوا لله تعالى شركاء في الألوهية، حيث إنَّ هذا عمل غير متوقع صدوره من النبي أو المؤمنين، {وَلَوْ كَانُوا}، حتى لو كان المشركون به تعالى، {أُولِي قُرْبَى}، موصوفين بأنَّ بينهم وبين المؤمنين قرابة بنوة، إخوة أو عمومة... {مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ}، من بعدما صار واضحاً للمؤمنين، {أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}، أن المشركين سيكونون مع بعض في المكان الموصوف بضخامة سوء ما فيه، سَيِّئٌ.

بعدما تبيّن للمؤمنين أن المشركين مصيرهم إلى النار في الآخرة بسبب شركهم به تعالى وهذا سوء من العيار الثقيل الضخم جداً جداً، لذلك عبّرت الآية عن مصيرهم إلى الجحيم بدلاً من التعبير بجهنّم، لأن وصف جهنّم يشير إلى سوء الشيء، بينما الجحيم تشير لضخامة السوء في الشيء.

من غير المتوقع من المؤمنين أن يطلبوا منه تعالى أن يغفر للمشركين، حتى لو كان بين المؤمنين والمشركين قرابة، فلا معنى لطلبهم المغفرة لمن حكم عليه تعالى بالنار بالتأكيد.

ننتبه إلى إشارة الآية للقرابة مع مشرك، فلو كان المشرك من بلد آخر، ولا تعرفه ولم تسمع باسمه، عندها هل يخطر ببالك كمؤمن أن تطلب منه تعالى مسامحة ذلك المشرك؟ ليس من الطبيعي أن تشغل نفسك بالاستغفار لأشخاص لا تعرفهم، هل هناك فرق بين كفرهم وشركهم وبين كفر وشرك أقربائك؟ لا، ولكن من الطبيعي أن يكون لديك شفقة على أقربائك الكفار والمشركين لأنك متأكد بأنهم سيدخلون النار، لأنك تراهم وتحتك بهم وتتحدث معهم... لذلك سيخطر ببالك الاستغفار لهم.

(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ{114})
الأنبياء والمؤمنون لا يستغفرون لمشرك ولكن قديماً حدث شيء غير عادي، حيث استغفر النبي إبراهيم(ع) لأبيه المشرك؟

{وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ}، طلب المغفرة الإلهية عن الذنوب، من، {إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ}، {إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ}، حيث دعا النبي إبراهيم(ع) أباه ليؤمن، ووعده أن يستغفر له الله تعالى حتى يسامحه عن شركه، واستغفر له، ولكن، {فَلَمَّا تَبَيَّنَ}، فصار واضحاً للنبي إبراهيم(ع)، {أَنَّهُ}، أباه، {عَدُوٌّ لِلَّهِ}، معارض كاره لتوحيده ولأوامره تعالى، عندها، {تَبَرَّأَ مِنْهُ}، فأعلن النبي إبراهيم(ع) أنه لا علاقة له بأبيه.

{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ}، كثير التأوه، وهذا وصف لمن قال آه كثيراً، ووصف لمن شعر بما تعبّر عنه كلمة آه حتى لو لم يقلها. حيث كان لديه نوع من الإشفاق والحسرة على الكفار لأنه متأكد أنهم سيدخلون النار الخالدة، مثلما نقول: آه على أبي، آه على صديقي... وهنا النبي إبراهيم(ع) كان يتأوّه على المشركين لأنه متأكد من العذاب الشديد الذي سيذهبون إليه.

والنبي إبراهيم(ع)، {حَلِيمٌ}، بتعبيرنا الدارج: طويل البال، فلا يمكن استفزازه بسهولة، حيث حاور أباه لمدة طويلة ولم يقطع الأمل من إقناعه رغم العناد الظاهر من أبيه.

نلاحظ أن نفس هذا المعنى الذي ذكرته الآية هنا والتي سبقتها، مذكور بطريقة أخرى في سورة الممتحنة الآية 4، حين أمرتنا بتقليد سلوك وفكر النبي إبراهيم(ع) إلا في استغفاره لأبيه المشرك، فلا نقلّد النبي إبراهيم(ع) بهذا العمل لأنه كان استثنائياً بسبب وعد وعد به أباه، {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}. وهنا توضّح لنا الآية أن النبي إبراهيم(ع) بسبب طول باله، وبسبب وجود مجال للتحاور مع أبيه، فإنه لم يقطع الأمل بإقناعه، ووعد أباه بأنه سيستغفر له، وكان يرى أملاً باهتدائه، ولكن عندما تأكد (ع) أن أباه صلب كالصخر ومتمسك بكفره ولن يقتنع ولا بأي طريقة، فعندها توقّف (ع) عن الاستغفار له.

ننتبه، فالآيتان تقولان إنَّ الاستغفار لكافر أو مشرك ممنوع بتاتاً، وأصلاً لا معنى له، فهذا دعاء غير مستجاب، ومخالف للحسم الإلهي بخلودهم في النار، ولكن لا ننسى أنهم إن كانوا مسالمين فنحن مأمورون بالتعامل معهم بالحسنى، وهذا ما تقوله بصراحة الآية 8 من سورة الممتحنة {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، فالاستغفار لهم لا معنى له، ولكننا مأمورون ببرهم والقسط إليهم.

هناك خلاف في الروايات والتفاسير حول هذا الشخص الذي يناديه النبي إبراهيم(ع) في القرآن: أبي. بعضهم قالوا: هو أبوه الحقيقي "والده الذي أولده". وآخرون قالوا: لم يكن والده بل عمّه، حيث رباه منذ طفولته، واعتاد النبي إبراهيم(ع) أن يسميه أبي.

ورد في التوراة أن اسم والد النبي إبراهيم(ع): تارخ "تارح". بينما الشخص الذي يتحدث عنه القرآن اسمه: آزر. وورد ذلك في الآية 74 من سورة الأنعام {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ...}، فيمكن الاستنتاج أن الذي ربّاه اسمه آزر، ووالده تارخ، وهذا على ذمّة من كتب التوراة...

لا تَنْسَ أن العرب ينادون العم بكلمة: أبي. استعمل القرآن نفس التعبير وكمثال على ذلك حين تحدّث أولاد النبي يعقوب(ع) عن آباء أبيهم وذكروا من ضمنهم عمّه النبي إسماعيل(ع) كما ورد في الآية 133 من سورة البقرة {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...}.

على كل حال فالآية 41 من سورة إبراهيم(ع) نقلت عن النبي إبراهيم(ع) دعاءه بالاستغفار لوالديه "وليس لأبويه" حين كان شيخاً كبيراً {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}، ونعلم أن النبي إبراهيم(ع) استغفر فعلاً لأبيه "آزر"، وكان النبي إبراهيم(ع) حينها شاباً، ولكن بعدما تبيّن للشابّ إبراهيم(ع) أن آزر عدو لله تعالى تبرّأ منه كما تقرأ في الآية 114 من سورة التوبة {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ...}، إذًا كما هو واضح، فلدينا استغفار حين كان (ع) شاباً "لأبيه" لآزر، وبعدها تبرّأ منه، ولدينا استغفار "لوالديه" حيث كان كبيراً في السنّ. مما يعني أنه (ع) حين صار شيخاً كان يستغفر لوالديه اللذين "ولداه"، فآزر لم يكن "والده" بل عمّه أو أحد أقاربه أو شخص تولّى العناية به وتربيته... ولذلك كان يناديه أبي.

(وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{115})
{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ}، ليضع على الشيء الخطأ الذي يوصل للنتيجة الخطأ، {قَوْمًا}، أناساً لهم كيان الجماعة، {بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ}، بعد أن وضعهم على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، فسبحانه لا ينصب الأفخاخ للمؤمنين، فمن اهتدى من قلبه للطريق الصحيح، فسبحانه لا يعرّضه للظروف التي تجعله يضلّ، فلا يعمل على إضلاله بعد أن هداه، {حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ}، حتى يوضّح للناس، {مَا يَتَّقُونَ}، ما هي الأشياء التي يجب أن يتجنبوها ولا يفعلوها.

لنبْدأْ من الآخر للأول: خلقنا تعالى جاعلاً فينا قلباً "أساس فكر ونفسية" يميّز بين الحقّ والباطل والخير والشرّ، فإذا منذ الطفولة استعملنا حرية إرادتنا لاختيار الحقّ والخير، فسنصل إلى حيث وصل الذين اختارهم تعالى لهذا السبب أنبياءَ

ورسلاً، وإن لم نحافظ عليها نصير فاقدين للقدرة على تمييز الحقّ من الباطل في بعض الأمور، وهنا يأتي دور الوحي الإلهي للبعض منّا ويأتي دور الكتاب الإلهي، حيث يعرض علينا تعالى عبرهم ما يقوّم لنا رؤيتنا للأمور.

بيّن سبحانه للناس مقوِّماً لهم معرفتهم للخير من الشرّ والحقّ من الباطل، حيث عرض لهم الأمور الصالحة ليفعلوها والأمور السيئة ليتركوها، وهناك أناس اهتدوا فعلاً لأنَّ لديهم رغبة في الإيمان الصحيح وعمل الصالحات، فهؤلاء لا يعمل تعالى على إضلالهم بل يزيدهم هدىً، وهؤلاء أصلاً بسهولة يتماشون مع ما يصلهم من كلام إلهي وهذا ما أشارت له العديد من الآيات منها الآية 2 من سورة البقرة {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} فراجع دراستها لمزيد من التفاصيل. وهناك أناس ضلوا ولم يتقوه تعالى وهؤلاء لن يجبرهم سبحانه على الاهتداء ولن يهديهم بالقوة.

أيها المؤمن لا تستغفر لأناس هم قرروا الكفر، حتى لو كانوا أقرباءك، فلا سبحانه أخطأ معهم ولا أنت، حيث إنَّه سبحانه وضّح لهم طريق الهداية وهم لم يتبعوه، فبأي منطق سيغفر لهم؟ وما معنى طلبك للمغفرة لهم؟

{إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، حيث يعلم سبحانه إن كانت الهداية وصلت بشكل واضح لكل الناس، ويعلم من قرّر من داخله الكفر أو الإيمان، وعن علم أخذ تعالى قراراً بحرمان من كفر من رحمته.

الآية هنا توضّح كل الآيات التي وردت في القرآن وتتحدّث عن إضلاله تعالى للناس، لأنَّه سبحانه لا يضلل مهتدياً، ولا يحكم بالضلال على شخص لم يتبيّن له الطريق الصحيح، بل يضلل سبحانه الذي اتخذ قراراً عميقاً صلباً بالضلال عن الهدى، فهذا يزيده تعالى ضلالاً، ولن يهديه ولن يجبره على الاهتداء غصباً عنه، ولن يساعده على الاهتداء مثلما يساعد المؤمنين، وأصلاً لا منفعة من مساعدة هؤلاء على الاهتداء مثلما يساعد سبحانه المؤمنين، لأن المؤمنين لديهم نيّة الاهتداء ولمساعدتهم معنى... وخذ مثلاً الآيات، حيث يراها المؤمن والكافر، والمؤمن يزيد إيمانه وأمّا الكافر فلا يؤمن بل يزيد كفره.

(إِنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِـي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ {116})
{إِنَّ اللَّهَ}، إنَّ صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وهذه هي الحدود التي فيها كل المخلوقات، وهذا التعبير القرآني يرادف قول: منسوب له تعالى ملك كلّ شيء. ويشابه قولنا: كل "الوجود" ملك له تعالى. فهذه الجملة خبر ممن خلق "دنيا المخلوقات" كلّها ويخبرك أنها منسوب له تعالى ملكها.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائماً أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، لذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...} وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراضٍ "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراضٍ.

عادةً نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير فنستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، فنقول: خلق سبحانه الدنيا. أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيراً صحيحاً دقيقاً بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى}.

{يُحْيِي وَيُمِيتُ}، فوحده تعالى لديه القدرة على منح الحياة وأخذها من مستوى إلهي، وله سبحانه وحده حرية التصرف في إحياء المخلوقات أو إماتتها، ولا أحد غيره تعالى يصل إلى هذه القدرة، فمن أعلى أمثلة الملكية الإلهية المطلقة هي تحكّمه سبحانه بمنح الحياة "الفعل والانفعال" وسحب الحياة.

أكرر لك، فخلقه تعالى لما صار موصوفاً زمنياً بالدنيا وبالأشياء التي فيها، فلن يكون له معنى إن لم يكن فيها حياة، فصيران وعي في الكائنات هو أعلى درجات الحياة، وهو أعلى ما يجعل لخلق الدنيا معنى، فتصوّر كوننا الذي تعرفه بمجراته التريليونية، رغم ضخامته الهائلة فما معناه إن لم يكن فيه حياة؟ لا شيء، وتصوّر أنه سبحانه بقدراته الفائقة خلق سبع سماوات هائلة الاتساع ولا يحصل فيها أي فعل عن وعي، حيث تحصل حوادث ميكانيكية جافة، يتشكّل كوكب وتنفجر شمس... ولكن لا معنى لهذه الحوادث إن لم يكن هناك من يعيه ويفعل فيها عن وعي.

من ناحية ثانية، ما نراه نحن من كثرة انتشار للحياة في بيئتنا يجعلنا أحياناً لا نلتفت للقيمة العالية لذلك، وفي عصرنا صرنا قريبين جداً من القدرة على تركيب المواد الأولية لإنتاج حياة، ولدينا مفاهيم عامة عن الحياة التي ستنتج إذا اختلفت المواد والترابطات... وصرنا نفهم قيمة تصميم المواد بخصائصها التي تجعل فيها قابلية إنتاج الحياة، وبعضنا وأمام وضوح لمساته تعالى في التصميم والخلق، يزيد عمق إيمانه ورؤيته للخالق تبارك وتعالى، وآخرون تعاموا عن ذلك مدّعين أن الحياة نتجت كتحصيل حاصل عن الخصائص الفيزيائية وبعدها الكيميائية للمواد، ولا يؤمنون بإله أصلاً صمّم الدنيا وخلقها لتصل إلى مرحلة تخرج فيها الحياة...

بكلام مباشر، المنتمون لدينه تعالى أكثرهم شوّه كلامه تعالى وصار كلامهم هو الدين الإلهي، فعن سذاجة وطفولية كانت انعكاساً لواقع حال ناتج عن ضعف في المعلومات والمعطيات، استنتج المؤمنون أنه تعالى يفعل بعض الأشياء فوراً من دون أي شيء كسبب يربطها مع أمور أخرى، يقولون إنَّه تعالى فجأة عجن الطين ونفخ فيه، فَتَكَوَّنَ آدم كأوّل إنسان، ولا إنسان قبله... وبهذا المثال تفهم كلامهم عن بقية الأمور التي تحدث، حيث إنَّ المطر ينزل لأنه تعالى أمر بنزوله، على معنى أنه لا ترابط بين نزول الماء وبين الظروف الطبيعية... وخلق سبحانه كوكب الأرض فجأة من تجميع المواد ونحتها وخلق الأشياء فيها فوراً، كعمل عجائبي سحري ينتج عنه انبثاق الأشياء وحصولها فوراً بمجرد أن يقول لها تعالى: كوني.

هذا المفهوم الذي صار الآخرون يعتبرونه كعقيدة للدين الإلهي، هو ما كفروا به، ومعهم حقّ في هذا الجانب، لأنَّ هذا الكلام غير صحيح ومعارض لما يقوله القرآن عن مراحل لخلق السماوات ولخلق الأرض، حيث عبّر عنها بستة أيام، وراجع دراسة الآية 9 وما بعدها من سورة فصلت لترى بوضوح ما نقوله هنا {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ...}، وتحدّث القرآن عن مراحل لخلق الإنسان تراها بوضوح في الآية 7 وما بعدها من سورة السجدة {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}.

بالنسبة لتشكل الحياة، لخلق الحياة، كوصف لعموم ما يفعل ويتفاعل مع تدرجات في الوعي والقصدية... فها أمامك ما أشرنا إليه من كلامه تعالى في آيات تصف بوضوح تصميمه تعالى لدنيا المخلوقات بحيث تصل الأمور إلى مرحلة تتشكّل فيها كائنات حيّة، حيث من لا شيء خلق سبحانه الدنيا على تصميم تسير عليه منتقلة من مرحلة لأخرى وصولاً للمرحلة التي أنتجت الحياة ومروراً بالمرحلة التي نحن فيها الآن وتكملة لمرحلة ستتبدّل فيها الدنيا لنصير في الآخرة وتعود فيها الكائنات إلى الحياة من جديد... وهذه هي القدرة لمن منسوب له ملك السماوات والأرض، هذا هو الله لتراه في نفسك وحولك وفي المدى الذي يصل إليه علمك... لتراه المالك المحيي المميت.

سيكون من الرائع اكتمال القابلية الفكرية المتاحة لنا منه تعالى من بعد تقدّمنا بالعلوم، حتى نصل إلى حيث نتمكّن من تصميم لحياة بيولوجية "أو رقمية أو من مواد لم نعرفها الآن وسنعرفها في المستقبل..."، فنخلقها من الصفر باستخدام خصائص المواد التي خلقها تعالى بخصائص نتجنا نحن عنها، وإذا فعلنا ذلك فهذه قدرة متاحة لنا على خلق الحياة، وصار واضحاً لك الفرق بين هذه القدرة الممنوحة والمتاحة، وبين قدرة من مستوى إلهي خلقت من الصفر ما سيصل إلى مرحلة تشكّل مواد في بيئة قابلة لإنتاج الحياة...

نرجع للآية:

{وَمَا لَكُمْ}، وليس لكم، {مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ}، فليس هناك كائن غيره تعالى بالمستوى الإلهي ليكون مرجعاً لكم، وهذا واضح جداً لأنَّ الله تعالى له ملك السماوات والأرض وهو المحيي والمميت.

{وَلَا نَصِيرٍ}، وما لكم كائن غيره تعالى يحقّق لكم ما تريدونه. كما نقول: ذهبتم إلى الرحلة من دوني. لأنكم من دونه تعالى لن تجدوا مرجعاً حقيقياً عنكم من مستوى إلهي، فإذا طلبتم أي شيء، فلن تجدوا مسؤولاً عنكم ليسمع لكم ويحقق مطلبكم، ولن تجدوا من يحقّق لكم ما تريدونه، لأنه تعالى هو الملك الحقيقي الوحيد لكل شيء.

سياق الكلام هنا عن استغفار المؤمن للكافر، فلن ينفعه بأي شيء، فإذا طلب الكافر حماية من دونه تعالى من أي كان، حتى لو من مؤمن، فلن يحصل على أي شيء.

بعبارة أصرح، هناك شخص مشرك يعتقد بغيره تعالى إلهاً، فيعتقد بإله للمطر وآخر للحرب وغيره للرزق والزرع... بهذه العناوين وغيرها تخلّى عن الإله الحقيقي واعتبر نفسه عبداً مألوهاً لتلك الآلهة غير الحقيقية، ونتج عن هذا كفره بكلامه تعالى وبرسله وكتبه والآخرة... وهذه كلها أمور سيئة جداً جداً وسيعاقب سبحانه عليها، فهل هناك طريقة ما تخلّص المشرك من عقابه تعالى؟ لا، لأنَّ سبحانه له ملك السماوات والأرض ولا سلطة لأي أحد يمكنها معارضة أوامره تعالى، وهو الذي يحيي ويميت، من ناحيتنا نحن هذان فعلان من أبرز الصفات الإلهية الفائقة، فنحن أحياء لأنه تعالى أحيانا... فهل استغفار المؤمن لمشرك له معنى بعد أن علم المؤمن بقراره تعالى العقاب للمشرك؟ فهل للمشرك ولي أو نصير يمكنه تغيير القرار الإلهي أو منع حصوله؟ فلمنع حدوث ذلك تحتاج لمن له ملك حقيقي لشيء مما في الدنيا، أو ممن يخلق ويميت من مستوى إلهي كنموذج عن بقية قدراته الفائقة سبحانه.

من الآية الآتية سنرى مثالاً بارزاً عن الولاية والنصرة الإلهية التي ينالها المؤمنون:

(لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{117})
{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ}، فتح سبحانه صفحة جديدة وألغى محاسبة النبي(ع) على أساس أن الموضوع ملغى من عند الطرفين، حيث حصل شيء سيّءٌ وكان للنبي(ع) علاقة به، وها هنا إعلان إلهي عن إلغاء الحساب على ما مرّ.
وسترى من تكملة الآية أن الذين تقول الآية أنه تعالى تاب عليهم، مرّت عليهم ظروف قاسية واجتازوها بنجاح إيماني ولذلك حصلوا على توبته تعالى عليهم على ما مرّ وحصل سابقا ولن يحاسبهم عليه.

كلام القرآن عن توبته تعالى على نبيّه(ع) وعلى الغفران له (ع)، فيه كلام كثير يتمحور حول: هل النبي معصوم "يمنعه شيء ما بشكل ما" عن ارتكاب أي نوع من السيئات؟ فإن كان كذلك، فما معنى كلام القرآن عن توبته تعالى ومغفرته له (ع) طالما هو معصوم وأصلا لا يقوم بأي سيئة؟

بكلام قليل يعتمد على مفاهيم القرآن نفهم أن أي عمل سيّءٍ حصل، حتى لو عن غير قصد، فهو عمل سيّءٌ حصل، ويبقى توصيفه سيّئاً، وبناء عليه فهو يستوجب العقاب لمن فعله ولمن له علاقة به. وهذا أساس قرآني وعلى ضوئه نفهم أن النبي (ع) يتحمل مسؤوليته عن الأعمال التي يقوم بها الذين حوله وهم تحت إمرته، كحادثة الفرقة العسكرية برئاسة خالد بن الوليد "على ذمّة البخاري" التي أرسلها (ع) إلى جذيمة وقامت تلك الفرقة بقتل أناس أبرياء... صحيحٌ أن النبي (ع) لم يأمر بقتل الأبرياء ولكنه يتحمّل مسؤولية اختيار الذين أرسلهم... وهنا في السورة رأينا أناساً يعلم النبي (ع) أنهم منافقون ويخترعون الأعذار التي تبرر تخلّفهم عن قتال الأعداء ويطلبون أن يأذن النبي (ع) لهم بالقعود... ومن الخطأ إعطاء الإذن لهم لأنهم كاذبون والنبي (ع) يعلم ذلك، ومن ناحية ثانية هم يقدّمون أعذارا قوية لا يمكن رفضها... لذا أعطاهم النبي (ع) الإذن بالبقاء، وهذا خطأ حصل، ولا يتغيّر وصفه بأنه خطأ حتى لو كان النبي (ع) مكلّفاً بالتعامل مع الأمور بحسب ظاهرها... ما ورد صراحة في القرآن من أمور عاتب فيها سبحانه نبيّه (ع) كانت كلّها من نوع الخطأ غير المباشر، وغير المقصود، وبسبب رحمته سبحانه الخاصّة بالمؤمنين فإنه سبحانه يغفر ويتوب ويعفو ويصفح ويكفّر عن هذا النوع من الذنوب غير المباشرة وغير المقصودة، أمّا غير المؤمنين فسيتحاسبون على كلّ شيء.

نكمل استطرادا مع ما يسمّونه بالعصمة، أولاً نتذكّر أن بعض الناس من الدرجة العالية من سلامة القلب لأنهم منذ بداية حياتهم اختاروا الحقّ والصلاح، فهؤلاء يكرهون السوء ولا يفعلونه، وتعرف ذلك من نفسك حيث أنت تكره استغابة الآخرين لك وكذبهم عليك وغشّهم لك... وأنت نفسك تكره سوءاً ما ولا تفعله، وتكره الكذب والغيبة... أو على الأقل

تكره وتستعيب النميمة باختراع أشياء سيئة كاذبة عن الناس وتلفيقها لهم... وهكذا نفهم أن المؤمنين من الدرجة العالية، وعلى رأسهم الأنبياء، هؤلاء أصلاً يكرهون فعل السوء، وأصلاً لذلك يختارهم تعالى لِيَكُونُوا خُلَفَاءَ له...

أمّا حالة النبي عيسى(ع) والنبي يحيى (ع)، والنبي موسى(ع)... فبعلمه تعالى بالغيب لما سيكونون عليه اعتنى بهم منذ صغرهم، وأنا لن أتغيّر لو اعتنى بي تعالى مثلما اعتنى بهم، فلن أصير مؤمنا أكثر، بل إن منحني تعالى ما منحه للنبي عيسى بخلق الحياة من طين وشفاء المرضى وإحياء الموتى... فربما أكفر به تعالى منفصلا عن أوامره... وتقرأ هذا التحليل في الكلام القرآني المنقول عن لسان النبي سليمان(ع) في الآية 40 من سورة النمل {قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}.

مضافاً لما سبق، معلومٌ لنا جميعا وبشفافية أنه تعالى يدعم المؤمنين ليزدادوا هدى، وكل واحد منّا وبحسب قوة نيّته للهداية سيحصل على الدعم الإلهي بنفس القوّة، لأنه لا نفع من قوّة أكبر معي لأني لست من ذاك المستوى... وبناء عليه فإن المؤمنين من الدرجة العالية ينالون دعمه تعالى لتصويب أفعالهم ليبتعدوا عن السوء...

ضع في بالك دائما أنه لا يوجد شيء جانبي خاص سري منه تعالى لأحد من خلقه، فما يعرضه تعالى علينا كبشر فهو متاح للجميع، فلو كنت بعلمه تعالى بصفات موسى(ع) لاعتنى بي مثلما اعتنى به، ولكني لست بصفاته، وأظن أني لو نلت التمييز كَمُنْتَمٍ لقصر فرعون ومُتَاحَةٌ لي خيراته وملذاته... لنسيت بني إسرائيل وأهلاً فوقهم، وهذا شيء عادي نفعله جميعا بالاستهتار بما تطاله يدنا، حيث ترانا داعمين لسياسيين سيئين لأجل منفعة صغيرة تافهة، والنتيجة دمار حياة أهلنا...

على أي حال، ها أنت ترى أن كلامهم عن العصمة في أبحاثهم العقائدية والتفسيرية والروائية... أكثره بعيد عن كلام القرآن، لأن كلام القرآن أسهل وأسلس وأوضح، فسبحانه لا يجبر أحدا أن يكون مؤمنا ولا يفعل إلا الصالحات، وإلا سأقف يوم القيامة وأسأله تعالى: لماذا لم تخترني أنا لتعصمني، وعندها لكنت مؤمنا من الدرجة العالية. وأظن أن هذا المقدار يكفيك ومنه سترى أن أكثر كلامهم عن العصمة بلا معنى، بل وغير صحيح. علما أن بعضهم يقول بعض ما قلته لك، ولكن وبشكل عام تراهم تلتبس عليهم الأمور في نقطة ما...

نرجع للآية، و{تَابَ اللَّهُ عَلَى} {الْمُهَاجِرِينَ}، على الذين تركوا العيش في بلدهم وانتقلوا لمكان آخر، ونموذج الكلام هنا عن المؤمنين الذين غادروا مكّة إلى يثرب، وتاب سبحانه على {الأَنصَارِ}، الموصوفين بأنهم عملوا على تحقيق ما يريده النبي (ع) والمهاجرون، ونموذج الكلام هنا عن أهل مدينة يثرب "المدينة" الذين استقبلوا النبي(ع) والمؤمنين المهاجرين ونصروهم، وما سبق من أعمال موصوفة بأنها سيئة قام بها هؤلاء، ألغى سبحانه الحساب عليها من أصله على أساس أنهم نووا أن لا يتكرر منهم القيام بأعمال سيّئة.

ما سبب توبته تعالى عليهم؟ وماذا فعلوا ليتوب تعالى عليهم ويلغي محاسبتهم على ما مضى من سيئات؟:

{الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ}، حيث مرّت ساعة، أي مرّ وقت محدّد كانت الأمور فيه عسيرة لا تمشي كما يريدون بل تمشي بعكس ما يريدون، فاتبعوا النبي(ع) فلم يتركوه بالرغم من العسرة بالرغم من الصعوبات، {مِن بَعْدِ مَا كَادَ}، أي على شعرة وبقي لهم القليل حتى، {يَزِيغُ}، يميل ويتشوّش، {قُلُوبُ}، أساس فكر ونفسية، {فَرِيقٍ مِّنْهُمْ}، وهو قسم من الأنصار والمهاجرين حين مرّ زمن قصير فيه صعوبات شديدة على المؤمنين، حيث على شعرة كانت قلوبهم ستتشوّش ويتركون النبي(ع).

إذاً، هناك فريق من المهاجرين والأنصار، كاد قلبه يزيغ، ويتراجع عن اتباع النبي(ع)، بسبب الخوف من الكفّار أو الخوف من الموت أو الخوف من فقدان المال والبيت... وبسبب الملل من الضغوطات الأمنية والاقتصادية... ولكنهم في الأخير مشوا مع النبي(ع)، وتعرّضوا للشدة والضيق، ولم يتراجعوا، وبسبب ذلك حصلوا على التوبة الإلهية على ما مرّ من سيئاتهم.

{لَقَدْ تَابَ اللَّهُ} تعالى على... وعلى الذين كاد قلبهم يزيغ، {ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ}، فهناك من لم يتحرّك قلبه وبقي ثابتاً واتبع النبي(ع) فهذا تاب تعالى عمّا سلف من سيئاته، وهناك من كاد يزيغ في ساعة العسرة، فتاب تعالى عليه مرة ثانية حين كاد يزيغ.

لا تفهم التعبير بـ {كَادَ يَزِيغُ} أنه تقليل من قيمتهم، بل لترى مدى العسرة الشديدة التي تعرّضوا لها.

{إِنَّهُ}، تعالى، {بِهِمْ}، بالنبي(ع) وبالمهاجرين والأنصار، {رَءُوفٌ}، إذ لو كان قاسياً صلباً ويركّز على أخطائهم، لما كان سامحهم، وهو {رَّحِيمٌ}، حيث لديه رحمة خاصة للمؤمنين، عناية خاصّة للمؤمنين لما فيه مصلحتهم، وبسبب هذه الرحمة الخاصة تاب عليهم، فلو كانوا مشركين لما نالوا التوبة الإلهية، لأن التوبة رحمة إلهية لا ينالها إلا المؤمنون.

ننتبه أن التوبة لمن تاب حقاً من المهاجرين والأنصار، إذ كلهم حصلوا على فرصة التوبة عليهم بسبب اتباعهم للنبي(ع)، وهذا يحصل في أي زمان ومكان، وليس مخصوصاً بمن كان في عصر النبي(ع)، لذا لا معنى لاستنباط قدسية لكل المهاجرين والأنصار، لأن الآية لم تقدسهم، بل أشارت للكيفية التي يتعامل بها تعالى مع المؤمنين في أي زمان ومكان. بالتأكيد، الآية مدحت الفريق الآخر من المهاجرين والأنصار الذين لم تزغ قلوبهم، وبالتأكيد فإن بينهم منافقين اتبعوا النبي(ع) بالظاهر وما زال في داخلهم زيغ، وتحدّثت السورة عن نموذج من المنافقين منهم الذين فرحوا {بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ} رسول الله(ع) حيث من دون عذر تركوا الخروج معه للجهاد...

أخيراً، لا يوجد في كلّ القرآن كلام إلهي يعطي لأي شخص حي أنه من أهل الجنّة حتماً مهما فعل إلا إذا بقي موصوفاً بالإيمان الكامل، لذا لا يوجد شيء اسمه: المهاجر حتماً من أهل الجنّة لأنه تاب تعالى عليه. لا، بل تاب تعالى عليه حين تجاوز امتحاناً صعباً، أمّا إذا سقط في امتحان بعده، وهذا ما حصل مع البعض، والسورة هنا تحدّثت عن نفاقهم بترك الجهاد، فهذا لن تنفعه هجرته ولا نصرته...

هم أناس مثلنا، والفرق بيننا وبينهم، أنه كان بينهم نبي، وفي أي زمان تكررت نفس الظروف لنصرة الدين الإلهي، وكان هناك مهاجرون، أو كان هناك أنصار، والذين حصل معهم زيغ ولم يلحقوه، وقاموا بواجبهم، فإنهم سيحصلون على التوبة الإلهية لما سبق من سيئاتهم.

بعبارة أبسط، هل من فكّر في الهرب والاختباء من الجهاد هو منافق؟ تقول الآية أنه من هؤلاء في آخر لحظة قرّر اتباع النبي(ع) والتزم بأوامره (ع)... تاب تعالى عليه، وألغى سبحانه الحساب على تفكيره بالهرب والاختباء... من قتال الأعداء، وأمّا من استمرت معه الفكرة وذهبت للتنفيذ، فهو منافق حتى لو لم يستطع تنفيذ فكرة الهرب.

(وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{118})

{وَعَلَى الثَّلَاثَةِ}، أي على ثلاثة أشخاص، {الَّذِينَ خُلِّفُوا}، حيث تمَّ تركهم في الخلف، ولم ينطلقوا لقتال الأعداء وبقوا في الخلف في الديار، والكلام هنا عن ثلاثة أشخاص بقوا وكان عذرهم غير صحيح، فتاب سبحانه عليهم لسبب الحالة التالية: {حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ}، ورغم رحابة وساعة الأرض، إلا أن هؤلاء الثلاثة بعدما علموا بالخطأ الفظيع الذي ارتكبوه بتخلفهم عن الخروج لقتال الأعداء، شعروا بضيق شديد جداً، وهم لا يرتاحون في أي بقعة من الأرض، حيث في أي مكان ذهبوا إليه يشعرون بالضيق بالمضايقة بالانزعاج، {وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ}، فلم يعودوا يطيقون حتى أنفسهم، فحتى لو كان الواحدُ منهم لوحده ومن دون أن يؤذيه أي أحد بنظرة أو كلام... إذ هو يشعر بالانزعاج من نفسه من تخلّفه.

{وَظَنُّوا}، إذ كان لديهم اعتقاد مبني على أساس ما، {أَن لَّا مَلْجَأَ}، أي لا مخبأ للهرب، {مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ}، إذ اعتقادُهم المبني على علمهم الديني أن الذنب الذي ارتكبوه عليه عقاب إلهي ولا مهرب منه إلا بالاحتماء عنده تعالى، وطلبوا منه تعالى أن يتوب تعالى عليهم.

ثمَّ، بعد شعورهم بالمضايقة الشديدة مما فعلوه واعتقادهم بأن الهرب من مشكلتهم له اتجاه واحد باتجاهه تعالى، {تَابَ عَلَيْهِمْ}، ففتح سبحانه لهم صفحة جديدة، وعملياً ألغى سبحانه محاسبتهم على تخلّفهم عن الخروج لقتال العدو، {لِيَتُوبُوا}، حتى هم يبدؤوا بسيرة حياة إيمانية من جديد.

{إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ}، هو الموصوف بكل ما تحمله كلمة تَوَّابٌ من معنى، فيفتح صفحة جديدة ماحياً تماماً ما سبق، فيلغي تماماً المعاملة على أساس خلفية أنهم من أصحاب السوابق، بل يعاملهم سبحانه بشكل عادي وكأنهم لم يصدر منهم أي شيء سيءٌ.

وهو {الرَّحِيمُ}، فلديه سبحانه عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، وترجمة هذه العناية تكون بالتوبة عليهم، فسبحانه لا يتوب على الكفار.

إذاً نحن أمام نموذج عن ثلاثةِ أشخاص كانوا في عصر النبي(ع)، وكانوا من مجموعة الذين تخلّفوا بدون عذر عن الجهاد، وفيما بعد شعروا بالندم الشديد، وتوجّهوا بكل صدق نحوه سبحانه ليسامحهم، وتقول لنا الآية أن باب التوبة مفتوح، ومن تاب فعلاً من المتخلفين عن الجهاد، فاقبلوا توبتهم مثلما تاب تعالى عنهم، وتعاملوا معهم من جديد على أنهم منكم، ولا تقاطعوهم مثلما تقاطعوا المنافقين.

نلفت الانتباه جيدا، إذ إنَّ الفضول يدفعك لمعرفة أسماء هؤلاء الثلاثة وقصّتهم، لكن لنركّز على الآية لنرى أنها حدّدت ثلاثة من مجموعة كبيرة من المتخلّفين عن الخروج لقتال العدو، حيث سابقاً في السورة قرأنا عن الأمر الإلهي بمقاطعة من تخلّف عن الجهاد، ولكن هل كلّهم كانوا منافقين ولا أمل من توبتهم؟ لا، إذ هناك من ندم فعلاً عن تخلّفه عن الخروج، ونعرف نحن ذلك من رؤية سلوكه الذي اختارت الآية منه نموذجين، إذ لا ذهابهم إلى أي مكان للترويح عن أنفسهم أو التسلية... ينسيهم ما فعلوه، ويبدو من كلامهم وتصرفاتهم أنهم كما نقول بالعامية: "مش طايق حالي، عايف نفسه، زهقان روحه..."، مما يعني وضوح علامات الندم عليهم... وأقول لك هذا حتى لا تظن أن الآية ميّزت ثلاثة أشخاص من التاريخ بكلامها عن توبة الله عنهم، لا، بل هم نموذج وقد أظهرت لك الآية الدليل على توبتهم من تصرفاتهم لتتعلم منها الحكم من التصرفات على توبة الآخرين...

نزل وحي على النبي محمّد(ع) يخبره بأنه تعالى قد حدّد ثلاثة أشخاص ندموا فعلاً وتابوا، وأنتم تعرفون صدق توبتهم من تصرفاتهم... ولا تتصوّر أن التوبة الإلهية عليهم كانت مفاجأة غير متوقّعة من النبي (ع)، لا، إذ حتماً تغيّرت تصرفات أولئك الثلاثة بشكل ظاهر يبدو منه أنهم متألمون جدا ونادمون على تخلّفهم عن الجهاد، بينما المتخلّفون الآخرون تضايقوا من مقاطعة المسلمين لهم، ولكنهم بقوا على موقفهم القديم غير نادمين... مرَّ معك سابقاً في السورة أنه حين عاد المسلمون إلى المدينة من بعد خروجهم لقتال الأعداء فإنَّ البعض من الذين تخلّفوا قد أظهر فرحه لأنه لم يخرج.. وناقش في جدوى الخروج وطالب من خرج بتقديم الإنجازات التي حققوها... ولا زال يقول بأن خروجه لم يكن ليغيّر أي شيء مما حصل... ومن بين المتخلفين ثلاثة ظهر عليهم "بشكل واضح" في سلوكهم اليومي الندم الشديد، فأخذتهم السورة هنا كنموذج لنفهم أن من أظهر ندمه الشديد فيجب علينا قبول توبته.

بقي شيء، حيث كما تلاحظ في الآية هنا أنها تتحدّث عن شيء حصل سابقاً قبل نزول وحي إلهي على النبي (ع) يخبره بأن هؤلاء الثلاثة فلان وفلان وفلان الذين ظهر بوضوح ندمهم... فيأمرك سبحانه بقبول توبتهم... وبعد ذلك نزل قرآن يذكر حصول هذه الحادثة، حيث هناك مجموعة كبيرة من الحوادث التي تناولتها السورة هنا وكان الوحي الإلهي "بدون قرآن" ينزل على النبي محمّد(ع) ويخبره بالأوامر الإلهية المناسبة، وبعدها نزلت سورتنا هذه لتؤرّخ نماذج من التاريخ برؤية إلهية لتكون نماذج يتعلّم منها كل من سيأتي فيما بعد.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ{119})

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{اتَّقُوا اللَّهَ}، فتجنبوا غضبه وعقابه، فلا تعصوا أوامره حتى لا يعذبكم.

{وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}، فليكن إيمانكم صَادِقاً بلا نفاق ولا زيغ.

التخلف عن الجهاد وزيغ القلب ينبع عن إيمان كاذب، والمؤمنون الصادقون لا يزيغون ولا يتخلفون عن الجهاد فكونوا معهم.

بعبارة أخرى، لا تفكّروا بالمعصية وبعدها تتوبون، حيث ترون مؤمنين صادقين على الخط، فامشوا معهم وكونوا مثلهم.

بعبارة ثانية، دائماً في المجتمعات تجد مجموعات مختلفة من الناس، حيث ترى مجموعة مداومة على الذهاب إلى المسجد، ومجموعة تتعاطى الشأن العام، ومجموعة بينهم مصالح تجارية، ومجموعة لعب كرة القدم ولعب الورق... ومجموعة شغلها الشاغل الانتقادات والتعليقات... ومجموعات الغيبة أثناء شرب القهوة الصباحية والعصرونية... هنا الآية تنبهنا مَنْ نختار لنكون معهم، فلنكن مع المؤمنين الصادقين.

عادةً يشتكي الكثير من الناس أنهم لا يجدون رجلاً مؤمناً، إذ إنَّ الجميع لديهم سيئات، وهذا صحيح، ولكن هنا متعاطو المخدرات، والسكارى، وتاركو الصوم والصلاة والزكاة... وهناك المصلّون المزكّون المجاهدون... مع سيئات من هذا النوع أو ذاك، فهل تتركهم وتريد مجموعة من الأنبياء لتكون معهم؟! هذا كلام فارغ وأعذار واهية، وبالترقّي من أسفل الحرام الذي نعرفه عبر تركه، أو على الأقل الاعتراف بأنه خطأ، حيث نترك الغيبة والتسلّي بالناس والغشّ والكسل والاستهتار... أو على الأقل نعترف أننا نرتكب السيئات، مِن بعدها وبشكل آلي وتدريجيٍ سنغيّر الذين نصاحبهم، وسنرى الفرق الهائل بين مَن كنّا معهم وبين مَن صرنا فيهم، مِن هنا نفهم معنى {تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}، إذ أنا تقع عليَّ مسؤولية إرتقائي بنفسي وترقية الآخرين إيمانياً. هكذا ننتقل من التعليقات السيئة على إيمان الآخرين لنصير مسؤولين عن تحسين إيماننا أولاً وبعدها تحسين إيمان الذين حولنا...

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ{120})
أي عذر للمتخلفين عن الجهاد فهو غير صحيح:

{مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ}، الأشخاص المنتمين لمدينة يثرب، {وَمَنْ حَوْلَهُم}، حول المدينة، {مِّنَ الْأَعْرَابِ}، من الذين يسكنون في البادية والبراري، حيث لا يحق لهم وليس من المفروض، {أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ}، فلا يحقّ لهم أن يبقوا خلفه ولا يلتحقوا به، {وَلَا} يحق لهم ولا يوجد سبب أن {يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ}، حيث يكون عندهم رغبة تعلّق بأنفسهم عن نفس الرسول(ع)، فإذا كان الرسول(ع) يقدّم نفسه للجهاد وقد يموت فكيف هم عندهم رغبة في حفظ أنفسهم من الموت وتدليلها بالبقاء في البيت! فالرسول(ع) أهمّ منهم بكثير، لأنه الحامل للرسالة الإلهية، والموظّف بتبليغها، ففقدانه له أثر لا يمكن مقارنته بفقدان أي واحد منكم، وإن انطلق هو بنفسه للجهاد فبأي حق تتخلفون عنه وتتركونه؟ فهل أنتم أهمّ منه؟ ولديكم أشغال مهمّة وهو (ع) ليس لديه عائلة ولا أشغال ولا اهتمامات شخصية...؟

{ذَٰلِكَ}، الذي قالته الآية بنفيها لأي سبب للتخلف، {بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ}، إذ إنَّ أي حالة لحاجة جسمهم الشديدة للماء تصيبهم بسبب الابتعاد عن الماء ونفاد الماء الذي معهم أثناء خروجهم لقتال العدو...

{وَلَا} يصيبهم {نَصَبٌ}، أي ألم من تعب، وهنا الكلام عن ألم من إرهاق المسير الطويل...

{وَلَا} يصيبهم {مَخْمَصَةٌ}، أي حالة الحاجة الشديدة لجسمهم للأكل، بسبب قلّة الطعام...

فلا يصيبهم ظمأ أو نصب أو مخمصة {فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، لأجل مسلك يتماشى مع أوامره تعالى وليس لأجل مصالح شخصية دنيوية سيئة للحصول على الغنائم أو على المناصب والرئاسة... أو بنية الاعتداء على الآخرين، "إلا كتب لهم تعالى به عمل صالح".

{وَلَا يَطَئُونَ}، ولا يدوسون بأرجلهم، {مَوْطِئًا}، دعسة "دوسة بقدمهم"، {يَغِيظُ الْكُفَّارَ}، يسبب الانزعاج الشديد للمنكرين للدين الإلهي، فأي منطقة يمرون بها صارت محررة من الكفر لأن الجيش الإسلامي صار قادراً على

الوصول إليها والمحاربة فيها، فكلما سار الجيش ووطأ منطقة ما، فهذا يعني أن الأعداء لن يتحركوا فيما بعد في تلك المنطقة لأن جيش المسلمين قادر على الوصول إلى تلك المنطقة لمحاربته.

{وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ}، ولا يطالون من أي جماعة تعمل ضدّ الدين الإلهي، {نَّيْلًا}، مأخذاً، سواء بالقتل أو الأسر أو الاستسلام أو تخويفه وهروبه...

بأي شيء يحصل معكم من الظمأ أو النصب أو المخمصة... أثناء المسير لقتال العدو، وأي مسير تتقدمون فيه في الأراضي، فهذا يعلن للكفّار عن إمكانية وصولكم إلى هذه الأماكن، وبالتالي صارت تحت سيطرتكم، وأي شيء تفعلونه بالعدو ويكون أثره سلبياً على العدو:

{إِلَّا كُتِبَ لَهُم}، أي تسجّل لهم به، {عَمَلٌ صَالِحٌ}، حيث إنَّ أي شيء يحصل معكم مما سبق فسيكتب تعالى لكم به أنكم قمتم بعمل صالح، عمل جيّد حسن، ومن مفاهيم القرآن نفهم أنه تعالى عملياً سيكتب لهم حسنات على أعمالهم تلك ويعطيهم عليها أجراً.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ}، لا يترك ولا يهمل ولا ينسى، {أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}، فالعمل الحسن له قيمة محدّدة سلفاً عنده تعالى، والذين قاموا بعمل حسن سيحصلون على الأجر، أي سيحصلون حتماً على الشيء المحدّد سلفاً لهذه الأعمال، وهو المغفرة ودخول الجنّة.

نتذكر من الآيات السابقة أن قتل المجاهدين للأعداء، أو قتل الأعداء للمجاهدين، كان أجره الجنة للمؤمنين الحقيقيين المقاتلين في سبيله تعالى، وهنا تضيف الآية أن أي شيء يصيب المجاهدين أثناء تحرّكهم في سبيله تعالى، من عطش أو جوع أو تعب... فعليه أجر منه تعالى، وأي شيء ينتج جانباً عن مسيرهم للقتال، من هرب العدو أو تخويفه... فلن يذهب عملهم سُدًى، بل هناك ضمان إلهي بإعطاء الحسنات عليه.

إذاً، ما سبب ترككم للخروج لقتال العدو؟ هل هرباً من العطش والجوع والتعب؟ فإن العطش والجوع والتعب... عليه أجر عظيم جدا جدا، وإن لم يحصل قتال ونتج عن المسير بسط السيطرة أو تخويف العدو... فعليه أجر أيضاً، فهل تهربون من هذه الفرصة التي لا تُعوَّض؟

قبل أن نكمل سنذكر شيئاً من التاريخ كنموذج، إذ في كتب التاريخ ستجد تسميات وتواريخ لمعارك خاضها المسلمون الأوائل، وغزوات وسرايا وغارات... وبعض المؤرخين انتبه للإضاءة على التحركات العسكرية التي لم يحصل فيها قتال، فحاول اختيار وصف لها يميّزها عن غيرها، فبعضهم سمّاها سرايا، والغالبية حاولوا ذكر كل التحركات العسكرية مهما كان نوعها من دون أن يقولوا إن حصل نشاط قتالي فيها أم لا، ومن أشهرها ما يسمّونه "غزوة تبوك" حيث قرّر النبي (ع) الخروج لقتال الروم "الرومان، حالياً إيطاليا"، وكانت سيطرتهم ممتدة إلى ما بعد الأردن بقليل في العمق الشمالي لشبه الجزيرة العربية، ويبدو أن سورتنا هذه اعتمدت هذه الغزوة كنموذج.

يقولون إنَّ الروم علموا بمجريات الأمور في المدينة وأنه توجد قوّة عسكرية تنمو هناك، وفي المستقبل قد تشكل خطراً على مصالح روما التي لها مستعمرات في جزء كبير من أوروبا وآسيا... ووصل خبر للمسلمين أَنَّ الروم قرّروا الزحف باتجاه المدينة... فقرّر النبي (ع) الزحف هو باتجاه أقرب نقطة لهم...

خرج المسلمون في طقس حار جداً لملاقاة الروم، وكان الأمر بالجهاد منشوراً على كافّة المسلمين، وتخلّف البعض والتحق الكثيرون، وممن سار في الغزوة كان هناك منافقون وفاسقون... وذكر لنا التاريخ تعليقاتهم الناقدة والساخرة على المسير... حيث كانت مسيرة متعبة مجهدة جدا جدا في الصحراء في حرّ الصيف... وفي النهاية انسحب جيش الروم قبل وصول جيش المسلمين إليه... وأكمل جيش المسلمين السير إلى منطقة تبوك... ومن هناك رجعوا إلى المدينة.

ذكرت لك ذلك لأن الآيات استخدمته كنموذج، وواضح منها ما تريد قوله، فهي هنا تتحدّث عن نشاط عسكري لم يحصل فيه قتال، فهل كان للخروج إليه أي معنى أو قيمة عنده تعالى؟ علماً أنه كان مسيراً شاقاً جداً جداً، فهذا ما تجيب عنه الآيات بالعموم حتى يكون تطبيقها أسهل على أي حالة مشابهة تحصل مع المؤمنين عبر التاريخ، وحتى لا نفهم أن القرآن مخصّص ليؤرّخ حوادث جرت في عهده (ع).

كما ترى فالآية ضمناً تشرح للذين خرجوا وللمتخلّفين عن الجهاد منافع الخروج للجهاد، فترينا أنها فرصة لنيل ثواب منه تعالى على كل ما يحدث من جهد عطش أو جوع... وترينا من ناحية ثانية المنفعة العملية التي قد لا يراها الكثيرون الفاقدون لبعد النظر، فمرور قوّة قتالية في منطقة ما، وحتى لو لم تجد من تقاتله، فهو إعلان عن امتداد السيطرة، فأي موطئ قدم لهم سيغيظ الكفار... ومن التاريخ تعلم أن الروم من بعدما صار للمسلمين نواة دولة في المدينة، ومن بعد مسير المسلمين إلى تبوك والذي جعلته السورة هنا نموذجاً للكلام عنه، اعتبر الرومان أن المنطقة التي مرّ فيها المسلمون أنها تابعة لهم وتحت نفوذهم، وصاروا يتجنبون المرور فيها حتى لا يعتبر المسلمون تصرفهم كاعتداء على مناطق نفوذهم... وتلاحظ في الكتب أنه وبعد سنين قليلة صار المسلمون يعتبرون مرور الرومان على أطراف الجزيرة العربية، وهي مناطق بعيدة جدا عن المدينة، صاروا يعتبرونها انتهاكاً لسيادتهم ويصنفونها كغارات... وهذا شيء لم يفهم أهميته العديدون من معاصري النبي محمّد(ع)، ورأوا أن المسير الشاق إلى تبوك بلا معنى... بينما هو كلّ المعنى، فالرومان يفهمون بهكذا أمور، ويفهمون معنى الوصول إلى حالة تشكيل قوّة قتالية تطيع قائدها بعبور الصحراء في أشدّ الفصول حرارة....

بقي شيء، حيث إنَّ أي نشاط في سبيله تعالى، ومهما كان نوعه، فعليه أجر. ومن هنا نفهم بعض الروايات التي تخبرنا بأن المؤمن له أجر حتى إن لدغته بعوضة، أو دخلت في رجله نسرة خشب. فهو مفهوم مبني على الآيات هنا، فحتى راحة المؤمن وترويحه عن نفسه بالحلال فعليها أجر...

علماً أننا قد نشعر بالمبالغة في الأجر الذي ورد في تلك الروايات عمّا يصيب المؤمن، فمثلاً تحدّثوا عن قصور وحور كأجر على عطش ساعة في سبيله تعالى، إلا أن هذا الكلام فعلاً يتماشى مع مفاهيم القرآن، وهو بشكل أو بآخر صحيح بغض النظر عن التفاصيل التي يحددون فيها ما سيحصل عليه المؤمن في الجنّة كأجر على لدغة بعوضة.

(وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{121})
{وَلَا يُنْفِقُونَ}، ولا يصرف المجاهدون في سبيله تعالى، {نَفَقَةً صَغِيرَةً}، مبلغاً مالياً صغيراً أو كميةً صغيرةً من الطعام... {وَلَا}، يصرفون نفقة، {كَبِيرَةً}، كمبلغٍ ماليّ كبيرٍ أو يقدمون أسلحةً غاليةً أو كميةً كبيرةً من الطعام...

{وَلَا يَقْطَعُونَ}، يتجاوزون بالمرور، {وَادِيًا}، منخفضاً بين جبلين، وبما أن الجبال والوديان والأنهار... من التضاريس التي اعتمدها الناس لتقسيم المناطق، فهذا التعبير يعني أنهم تجاوزوا منطقة ما ودخلوا في منطقة أخرى.

{إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ}، يُسَجَّلُ لهم ذلك عنده تعالى.

{لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ}، ليعطيهم سبحانه مقابلاً معادلاً مساوياً لهذه النفقة وهذا المسير، {أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، كما نقول: ما أحسن عملك. ولا نقصد الإشارة إلى حسن هذا العمل بالمقارنة مع أعمالك السابقة، بل نقصد قياس حسن العمل مطلقاً، وَكُلُّ هذه الأعمال حسنة، وهي أحسن من أي عمل آخر، فلا تشير الآية إلى الحسن والأحسن، بل مباشرة تشير للأحسن ويقابله الأسوأ.

ما أحسن ما عملوه وسيجزيهم تعالى عليه، حيثُ سَيَنَالُونَ عليه ما يقابله ويعادله، وَعَمَلِيّاً سَيَنَالُونَ المغفرة والثواب بالجنّة منه تعالى على عملهم الحسن.

(وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ{122})
{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً}، فليس من المفروض أن يترك المعتقدون بدينه تعالى كلّهم مساكنهم قاصدين مكاناً ما، ومن تكملة الكلام سترى أنه ليس من الواجب عليهم أن يسافروا كلّهم للوصول إلى شخص يعلّمهم الدين الإلهي.

كما ترى، اسْتَغَلَّتِ السورة حديثها السابق عن مشكلة التخلّف، القعود "ترك النفور" عن قتال العدو... وعرّجت على موضوع النفور لتعلّم الدين، فهل كل فرد من المجتمع الذي آمن بالدين الإلهي يجب عليه ترك دياره وَأَنْ يسافر ليصل إلى من يعلّمه الدين الإلهي؟ لا:

{فَلَوْلَا نَفَرَ}، وَبَدَلَ أن ينفروا كلّهم لَوْ ترك مسكنه قَاصِداً مكاناً يتعلّم فيه الدين الإلهي، {مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ}، من كل جماعة من المؤمنين لديها بشكل ما افتراق عن الآخرين، كعائلة مساكنها مجتمعة في ناحية لوحدها مفترقة عن بقية العائلات، أو كقرية لها كيانها الخاص عن بقية القرى... لينفر من كل فرقة منهم، {طَائِفَةٌ}، شخص أو عدة أشخاص هم مجموعة من جماعة أكبر منها، {لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ}، ليتعلموه ويدرسوا كيفية التعاطي مع المعلومات الدينية ليستخرجوا منها تطبيقات ومعلومات أخرى، وَعَنْ فكر وعقل يَفْهَمُونَ الإيمان الصحيح عقائدياً وتشريعياً وسلوكياً، وَيَسْتَخْرِجُونَ من بعد التعلّم أحكاماً تشريعية وسلوكية تطبيقية... وهكذا يكون دينهم، فتكون التبعات التي عليهم فيما يفعلونه في حياتهم مُتَمَاشِيَةً مع الحقّ والصلاح والخير وهذا هو نفسه التماشي مع ما يرضى عنه تعالى، وَيَتَعَلَّمُونَ الأساسيات لتطبيق المفاهيم الدينية الإلهية على حياتهم عقائدياً وتشريعياً وسلوكياً، {وَلِيُنْذِرُوا}، فليحملوا الخبر السَّيِّئَ لمن توافرت فيه شروط العقاب، {قَوْمَهُمْ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة والنافر للتفقّه من جَمَاعَتِهِمْ، وَيُنْذِرُونَهُمْ من العقاب الأكيد على مخالفة الدين الإلهي، وَيُعَلِّمُونَهُمْ الحلال والحرام والواجب... {إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ}، حَيْثُ يُنْذِرُونَ قومهم حين يَرْجِعُونَ من الدراسة الدينية.

هُنَاكَ عنوانان رئيسيان يجب أن يرجع بهما من نفر ليتعلّم الدين الإلهي، الفقاهة وهي تعلّم ربط المعلومات بشكل صحيح، والكلام عن الفقاهة الدينية معناه عملياً تعلّم كيفية تطبيق دينه تعالى عقائدياً وتشريعياً وسلوكياً، وثانيها الإنذار، وهو إخبار فاعل السوء من قومهم أن النهاية الحتمية له ستكون العقاب في جهنّم.

{لَعَلَّهُمْ}، مِنَ المتوقع ومن المفروض من قومهم أن، {يَحْذَرُونَ}، أن ينتبهوا من العقاب على السوء وهو نفسه العقاب على مخالفة الدين الإلهي، وَمِنَ المتوقّع إن تفقّه البعض منهم بالدين، وَأَنْذَرُوا فاعلي السوء من قومهم أن يصير عند قومهم فيما بعد حذر من العقاب على مخالفة الأوامر الإلهية.

لاحظ التعابير الدقيقة في الآية، حَيْثُ هُنَاكَ جماعة وصلهم خبر عن دينه تعالى، فلا يجب عليهم كلّهم مغادرة ديارهم والانتقال إلى جوار من يعلّمهم الدين الإلهي، ويكفي ذهاب شخص واحد أو أشخاص منهم، وذلك بحسب الحاجة المُتَمَاشِيَةِ مع عددهم، وَرُبَّمَا هم جماعة قليلة العدد ويكفيهم تفقّه شخص واحد قادر على الاحتكاك والتعاطي معهم جميعاً، وربما هم مدينة مترامية الأطراف وتحتاج لعدّة أشخاصٍ ليتوزعوا جغرافياً فيها... وَيَتَعَلَّمُونَ الدين "فقاهة"، والنتيجة من التَّفَقُّهِ تكون أنهم يتعلمون الأساسيات وكيفية اشتقاق التطبيقات منها بشكل سليم، وَيَرْجِعُونَ إلى قومهم.

بَعْدَ رجوع من "تفقّه" وَصَارَ لديه القدرة على تطبيق مفاهيم الدين على مختلف الأمور، فَإِنَّ قَوْمَهُ حتماً لديهم سلوكيات وعقائد مخالفة للدين الإلهي، لِأَنَّهُمْ ما زالوا على دينهم القديم، وفي هذه الحالة ينقل لهم الإنذار، بِمَا أَنَّهُمْ على الحالة التي هم فيها وَمَصِيرُهُمْ حتماً إلى العقاب، وبعد أن ينذرهم، وبما أنهم كانوا بانتظار قدوم من يعلّمهم، يَصِيرُونَ في حالة من توقّف عن مخالفة الدين الإلهي، وعندها يتوجّه إِلَيْهِ التحذير، فهذا وذاك وذاك إن فعلته فستستحقّ العقاب منه تعالى.

بِالنِّسْبَةِ للفقاهة فالبحث فيها يأخذك إلى عمق تحليلي، خاصة بالنظر إلى القدرات العلمية العملية التي كانت متاحة في زمن النبي محمّد(ع)، من فقدان الكتب وما تَتَضَمَّنُهُ من تبويب للعناوين وأمثلة تطبيقية... وبالنظر للأهلية العلمية المنخفضة لأهل ذلك الزمان، والكلام ليس عن قدراتهم الذهنية بل عن فقدان التعلّم الممنهج "الأكاديمي" منذ الصغر والذي ينتج عنه تراكم الأهلية الثقافية المناسبة للتعاطي مع العناوين الكثيرة التي لها علاقة بدينه تعالى... فالنتيجة واضحة: تكليف المتفقه ومن سيرجع إليهم بما يقدرون عليه. وَالْفَرْقُ هائل بين نبي بين الناس وبين فقيه مهما علا علمه.

بالتحليل، الْأَمْرُ الإلهي بانتداب من "سيتفقّه" دينياً، ترى شروطاً للانتداب، حَيْثُ تشير لقابلية المندوب للتفقه بما تحمله كلمة تفقه من قدرات فكرية ونفسية، مضافاً إليها أهلية إيمانية لضمان التزامه بدينه تعالى بدلاً من اختراع دين جديد بلباس الدين الإلهي.

بِالتَّحْلِيلِ المعتمد على المشهور من تاريخ الرسول(ع)، والذي لا نجد فيه بشكل رسمي مدرسة أو مدرسين أو اجتماعات أو محاضرات فقهية... ومما ذكروه في الكتب عن أيام قليلة قضاها البعض ليتعلموا بعض سور القرآن، وَيَرْجِعُونَ لقومهم كفقهاء... نفهم أن الفقاهة بمفهومها الأساسي القرآني تعتمد كلياً على أبسط العناوين، إِذْ إِنَّهَا ليست محصورة بالشريعة "الفتاوى" كما درج فيما بعد بين المسلمين، بل الفقاهة عَامَّةً تمييز الصالح من الفاسد، وَمِنَ القرآن تفهم أننا "وبحسب درجة سلامة قلب كل واحد منّا"، يُمْكِنُنَا لوحدنا معرفة الكثير أو غالبية الأمور التي أمر بها أو نهى عنها

تعالى إذا اعتمدنا مبدأ الصلاح والفساد المزروع فينا، وهو مبدأ سلامةِ القلب، ومع تصويبه بالعناوين الرئيسية القليلة التي طرحها القرآن، والتي يمكن تفريدها لتستوعب مختلف شؤون الحياة، وهكذا يصير الشخص فقيهاً.

هل السماح الإلهي بالتفقه في الدين سبب طبيعي لنشوء خلافات بين الفقهاء؟ بعبارة أخرى فهل من الطبيعي اختلاف الفقهاء حول المسائل الدينية؟ لا، الطبيعي هو اختلافهم في التطبيق في الأمور التي ترك القرآن لها هامش مرونة، لِأَنَّ كل منطقة لها خصوصياتها الناتجة عن نوعية ثقافتها وعاداتها المتراكمة عبر الأجيال، ولم يفرض علينا سبحانه تبنّي ثقافة وعادات قريش ولا اليثربيين، فَأَسَاسِيَّاتُ الإسلام شيء، وثقافة وعادات مجتمع النبي محمّد(ع) شيء آخر.

بالتأكيد الآية هنا لم تقصد إبداء رأي المتفقه بما طرحه القرآن، لأن القرآن لم يطرح إلا ما يراه القلب السليم حكيماً، بل تقصد فهم الأساسيات وفهم تطبيقاتها، وفهم قابلية تطبيق الأساسيات على التفاصيل.

اَلْقُرْآنُ ترك الكثير من التفاصيل لتكون هامش مرونة نتحرك ضمنها بما يناسب مجتمعاتنا المختلفة عن بعضها في ثقافاتها وعاداتها.

مِنَ الطبيعي اختلاف الفقهاء في تطبيق تفاصيل أساسيات القرآن على مجتمعاتهم، لأنها بالأصل متروكة كهامش مرونة، كتحديد قيمة الزكاة ودية المقتول...

لكن ليس من الطبيعي اعتبار الفقهاء لما يختلفون فيه أنه من الأساسيات المدمرة للدين، لدرجة وصفهم الفقهاء الآخرين بالضلال والكفر.

نعم، هناك أشخاص لا يملكون الأهلية الفكرية والنفسية ليكونوا فقهاء، ومع ذلك تصدّوا للفقاهة، وهؤلاء تتوقّع منهم كلّ شيء سَيِّئ.

هناك أشخاص يملكون المؤهلات المناسبة للفقاهة ليكونوا باحثين "نظريين" في الشؤون الدينية، ولكن ما نراه من تاريخنا أن الغالبية سقطوا في فخّ المذهبية الفقهية، وَصَارَ تبنّي الرأي الفقهي يورّث! حتى انفصل الناس لفرق، والذي يولد في بيئة فرقة ما منهم، بِشَكْلٍ آليٍّ يصير على مذهبهم ولا يفكّر بالتغيّر عنه لأنه الحقّ!

هذا الحال ولّد العديد من المذاهب الفقهية بشكل لم تقصده الآية هنا، والكل مقتنعون بأن الآية لم تقصد ذلك، ولكن عماهم يجعل كل فرقة منهم تتهم كل الآخرين بالضلال عن المذهب الحقّ!

هم بغالبيتهم الساحقة لم يفهموا معنى ترك القرآن للتفاصيل "التشريعية" كهامش مرونة، فلو فهموا ذلك لعلموا أن الاختلاف في التفاصيل شيء طبيعي ويجب تركه هكذا بدون إجبار جميع المسلمين في كل الأزمنة والأمكنة على اتباع نفس التشريعات في التفاصيل...

هم الفقهاء بغالبيتهم أَقْحَمُوا خلافاتهم السياسية في دينهم، والكثير منهم أقحموا أمراضهم الفكرية والنفسية في دينه تعالى، ونتج عن ذلك تحازب التعادي والتناحر باسم الدين.

لِمَزِيدٍ من التوسّع حول كلمة دين فراجع دراسة الآية 11 من هذه السورة.

ضع في بالك دائماً الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى مَعَانِيَ قرآنية رائعة، تَصَوَّرْ شَخْصاً أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، هُنَا تحذّره من سلوك الطريق السَّيِّئ، لِأَنَّهُ حَالِياً ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفاً وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ}، والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}.

أمّا إذا سلك طريق الخطر، فتنذره، لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. فالإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتماً ما يضرّه، وَتُنْذِرُ الكافر حيث هو في حالة ستسبّب له العقاب حتماً، وَوَرَدَ هذا كثيراً في القرآن. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يتلبّس بما سيسبّب له الضرر، حَيْثُ تُحَذِّرُ المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

هَذَا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، حَيْثُ يَقُومُ المؤمن بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، وَتُنْذِرُهُ من العقاب الحتمي عليه كحالة المسيحيين المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً}، وعموم المؤمنين المشمولين بالتهديد من فكرة فعل السيئات على أساس أن يحمل أحد ما السيئات عنهم {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}، والمشمولين بالتهديد إن لم يتغيّروا نحو الأحسن وَهُمْ موعودون بالمغفرة كما ورد في الآية {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}، ونفس المفهوم في الآية 45 من سورة النازعات {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا}.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ{123})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين: {قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ}، قوموا بعمل يصل إلى حدّ إنهاء حياة المنكرين للدين الإلهي من الذين يلونكم ويُجَاوِرُونَكُمْ، كما نقول: هذا يلي ذاك. ونقصد أنه يأتي بعده لقربه منه، فابدؤوا بقتال الكفّار الذين حولكم، ثم الذين حولهم وهكذا، فلا تتركوا كُفَّارًا في بقعة قريبة وتقاتلوا كُفَّارًا في بقعة بَعِيدَةٍ، بل توسّعوا في قتال الكفار تَدْرِيجِيًّا، الأقرب فالأقرب.

{وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً}، فليكن القتال بشكل يجعل الكفّار يشعرون بغلظة قتالكم لهم، فقاتلوهم بشدّة بلا لين ولا تساهل نِهَائِيًّا، فلا تطيلوا الحرب معهم وتوجّهوا نحو الحسم السريع...

{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}، فسبحانه مع الذين يتجنبون شَيْئًا ما، والكلام مع المؤمنين فهم المتجنبون للسيئات، وهو نفسه تَجَنُّبُ غضبه وعقابه تعالى.

يعني سينصركم ويؤيدكم سبحانه إن كنتم لا تفعلون السوء بقتالكم لهم اعْتِدَاءً، فلا تتخاذلوا عن قتال الكفّار ولا تكونوا معتدين وسينصركم سبحانه. وهذا الكلام يفترض بك خلفية معرفة منعه تعالى لك عن قتال المسالمين من أي دين كانوا، فالأمر هنا بقتال الكفّار يشير حَصْرًا لقتال المعادين المقاتلين منهم للمؤمنين.

ستجد في مختلف سور القرآن التبريرات لنا لسبب أمره تعالى لقتال الآخرين، وكلّها لا تشير لكفرهم كسبب لقتالهم، بل تشير لكفرهم الناتج عنه كرههم للمؤمنين بدينه تعالى وصدّهم عن السبيل الإلهي عبر منع الْآخَرِينَ من الإيمان بدينه تعالى، وبسبب قيامهم بأنشطة عدائية ضد المؤمنين... ومنها الآية 190 من سورة البقرة: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}، فالقاعدة الأساسية هِيَ الْمُسَالَمَةُ مع المسالم مهما كان دينه، وهذا واضح من الآية 8 من سورة الممتحنة: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، ومن الآية 7 من سورة التوبة: {كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ}، حيث استثنت الكفّار المسالمين من الذين يجب إِنْهَاءُ العهد معهم من الكفّار الذين يعلنون العداء، وبينهم وبين المسلمين هدنة، فالكفّار الْمُسَالِمُونَ لا سبيل للمسلمين عليهم.

(وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ{124})
الآيات السابقة تتحدث مع الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بالدين الإلهي، ولكن فيهم أُنَاسٌ مُنَافِقُونَ:

{وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ}، فنزل من عنده تعالى، {سُورَةٌ}، مجموعة جمل تتحدث عن موضوع محدّد، وسياق الكلام عن السور التي تتحدث عن القتال والإنفاق والأجر...

{فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ}، فمن الذين أعلنوا أنهم مؤمنون من يقول:

{أَيُّكُمْ}، أي واحد منكم، {زَادَتْهُ هَذِهِ}، السورة، {إِيمَانًا}؟ فمن منكم زاد إيمانه بسبب هذه السورة التي تأمرنا بالنفور للقتال والإنفاق وتعدنا بالأجر والثواب؟ يعني هم يسخرون من سور القرآن التي تتحدث عن زيادة الإيمان عبر الكلام والوعد الإلهي بالثواب.

{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا}، فاعتقدوا عن حق، {فَزَادَتْهُمْ}، السور، {إِيمَانًا}، اعتقادا بالدين الإلهي، حَيْثُ يرونها متماشية مع ما يتوقّعونه من الدين الصحيح، {وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}، ينتظرون الخبر المفرح السار، لِأَنَّهُمْ آمنوا بما يقوله تعالى ويلتزمون به وينتظرون الحصول على الثواب الإلهي.

لم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الْإِسْلَامِ أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعملها القرآن بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن**،** وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها "مؤمنون..." في القرآن، تجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، حَيْثُ آمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كِلْتَاهُمَا تَعْنِيَانِ عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ{125})

{وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}، فالذين قلبهم، أَسَاسُ تفكيرهم ونفسيتهم مريض غير سليم، حَيْثُ رأوا الآيات الإلهية الواضحة، وأعلنوا الإيمان، وَلَكِنْ دَائِمًا عندهم شكوك غير منطقية ولا عقلانية لأنهم مرضى نَفْسِيًّا وَفِكْرِيًّا، {فَزَادَتْهُمْ}، السور التي تأمرهم بالنفور والإنفاق... وتعدهم بالثواب، زادتهم {رِجْسًا}، شَيْئًا مَكْرُوهًا غير محبوب، {إِلَى رِجْسِهِمْ}، فهم بالأساس كان الرجس فيهم وَكَانَ الشيء المكروه فيهم، ففي قلوبهم مرض، والكلام الإلهي عن النفور والإنفاق لم يُسَبِّبْ لهم طهارة لقلوبهم بل زاد في مرضهم بِكَمِّيَّةٍ أكبر مما كانت عليه سَابِقًا.

{وَمَاتُوا}، فانتهت حياة هذه النوعية من الذين في قلوبهم مرض، {وَهُمْ كَافِرُونَ}، وهم منكرون للدين الإلهي فلم يؤمنوا عن حقّ به.

الْكَلَامُ هنا عن منافقين لا يريدون رؤية الصورة الكبيرة لمصلحة الجميع بقتال الأعداء حتى يسود حكم مبني على دينه تعالى، ولا يريدون الجهاد حتى لو علموا بما فيه من مصلحة للمؤمنين، فهم من ناحية لا يرون أبعد من أنفهم ويريدون تحجيم رؤية الآخرين إلى مستوى رؤيتهم هم، ومن ناحية ثانية لَا مشكلة عندهم إن جاهد الآخرون ليريحوهم من الأعداء بينما هم المنافقون قاعدون متعلقون بالدنيا يخافون الموت... وصولا إلى المنافقين الذين لا مشكلة لديهم مع انتصار الأعداء وسيادة دين الشرك... وهذه العناوين وغيرها كلّها تنبع من كفر بدينه تعالى...

بقي شيء، حَيْثُ تَرَى عموم الباحثين قُرْآنِيًّا لديهم ميل وإصرار على مقاربة معاني كلمات القرآن على اصطلاحات، لِأَنَّهُ بالأساس من المفروض منهم البحث عن تعريف لغوي أصيل لمعنى الكلمة القرآنية حتى نفهم الجملة على معناها الظاهر من الكلام العربي، ولكن مع تراكم الثقافات التفسيرية، انتقلنا إلى تعاريف اصطلاحية بَدَلًا من معاني الكلمات اللغوية، وانتقلنا إلى البعد عن المعنى اللغوي بل صرنا لا نقبل بالمعنى الظاهر لكلامه تعالى من المعنى اللغوي للكلمات ونصرّ على تفسيرها بالمصطلحات، وهكذا صار لدينا التفسير بالباطن وما يسمّونه هم بالتأويل على معنى قبول الكلمة والجملة القرآنية لأكثر من معنى!

خذ مَثَلًا وصف مرض القلب، حَيْثُ إِنَّ بَعْضَ الدارسين للقرآن لديه ميل لتطبيق القرآن فقط على أشخاص محددين من عصر النبي(ع)، وبعض أولئك لم يفهموا أن كلام القرآن عن نماذج وليس عن أشخاص... وَمِنْ هذه النوعية من الجيل الأول وصلنا عنهم الكثير من التخمينات فيها تسميات لأشخاص استنسبوا لهم وصف الآيات، وَعِنْدَ هؤلاء صار "بشكل ما" وصف مرضى القلب خَاصًّا بجماعة من عصر النبي(ع)، ولا يتوسّع ليشمل كل الناس على مرّ العصور من الذين حالتهم مشابهة لما تصفه الآيات من تفكير ونفسية وسلوكيات.

بَعْضُ الدارسين لديهم ميل لوضع تعاريف حَدِّيَّةٍ للكلمات بلا تدرجات، لِذَا يُصِرُّونَ على جعل الكلمات أَضْدَادًا وَمُقَابِلَاتٍ وَمُعَاكِسَاتٍ... وَالْمُنَافِقُ عندهم هو فاعل السوء بالسرّ، ويقابله الفاسق وهو فاعل السوء بالعلن... وبالتالي لَا يتداخل وصف الفسق مع النفاق، وبالتالي يجدون مشكلات في فهم النصوص القرآنية أمثال الآية 67 من هذه السورة:

{الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}، وَمَرِيضُ القلب عندهم يجب أن يكون وَصْفًا مُخَصَّصًا لحالة منفصلة لا تتداخل مع المنافق والفاسق والكافر، وينتج عن هذه العقلية تفاسير شائكة معقدة تائهة...

لن أطيل عليك أكثر بتحليل خلفيات الدارسين للقرآن، وسأطلب منك أن تضع في بالك دَائِمًا أن الأوصاف عادة لها تدرجات، وسياق الكلام يعرّفك على الدرجة المقصودة، حَيْثُ إِنَّ النبي إبراهيم (ع) وصفه تعالى في الآية 84 من سورة الصافات بأن قلبه سليم: {إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}، فهل أنا ذو قلب سليم مثله؟ للأسف لا وألف لا، فبماذا ستصفني؟ ستصفني بذي قلب مريض، لِأَنَّ أَسَاسَ فكري ونفسيتي لَيْسَا سَلِيمَيْنِ مئة في المئة، ولكن ما هي درجة مرضي؟ ربما ستقول عني أني خفيف الظلّ ومتواضع بضربي لمثال مرض القلب على نفسي لأن ما بين يديك تفسير للقرآن من تأليفي، وبالتالي فأنا من الراقين إيمَانًا... لا، ركّز معي على مثال لِأَنَّهُ حقيقي، إِذْ لَا واحد منّا بسلامة قلب من درجة ما هم عليه الأنبياء وإلا لما كان محمّد(ع) خاتم الأنبياء، وَمِنْ علمه تعالى بالغيب أنه لن يأتي بَشَرِيٌّ بصفات من الدرجة العالية في سلامة القلب من بعد ابن عبد الله(ع)، لِذَلِكَ أخبرنا أنه (ع) خاتم النبيين كما ورد في الآية 40 من سورة الأحزاب: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}.

هل أطلنا الكلام فيما لا فائدة منه؟ لا، لِيَتَرَسَّخَ عندك مفهوم التدرجات في الوصف لترى أن سياق الكلام يريك درجة مرض القلب في الذين تقصدهم آية ما، حَيْثُ إِنَّ التَّدَرُّجَاتِ تبدأ منّا أنت وأنا، وهذا ما نأمله بكوننا من الأقل مَرَضًا، وترتفع إلى الذين يعلنون رفضهم لبعض الأمور الدينية وقبولهم بأخرى على المزاج، ولكن عموم سلوكياتهم لا يزال ضمن الحدّ المقبول بوصفهم بالمؤمنين، مُرُورًا بالذين تتحدّث الآية هنا وَهُمْ مُسْلِمُونَ على معنى إعلان انْتِمَائِهِمْ لدينه تعالى ولكن مرض قلبهم مستفحل وشديد في أمور أساسية، وَمَاتُوا على هذه الحالة، وَهُمْ فِعْلِيًّا مَاتُوا كافرين وهذا يعني خلودهم في جهنّم. وُصُولًا إلى وصف الكافرين علنا بأن قلوبهم مريضة، وهنا ترى وَصْفًا قُرْآنِيًّا عنيفا لمرضهم، حَيْثُ إِنَّ قُلُوبَهُمْ مطبوعة على السوء، ومعمية وغلف وكالحجارة...

(أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ{126})
{أَوَلَا يَرَوْنَ}، ألم تحصل لديهم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شافوا، الذين في قلوبهم مرض من "العيار الثقيل". {أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ}، حَيْثُ يتم تعريضهم لأمور قد تغيّرهم، عبر امتحانهم واختبارهم، {فِي كُلِّ عَامٍ}، خلال مسمّى السنة، بتكرار في أشهر حياتهم، يفتنون، {مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ}! فهم من ناحيتهم في داخلهم حالة قوية لتكذيب ما يقوله الدين الإلهي، ومن الناحية الخارجية فهم مع التابعين لهذا الدين، مثل غالبية المسلمين في عصرنا حيث هم منتمون لهذا الدين ولكنهم ليسوا ملتزمين به. ولكن ألم ينتبهوا أنهم يتعرضون لأمور تجعل مستوى إيمانهم يظهر على حقيقته، {ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ}، وَلَا يَفْتَحُونَ صفحة جديدة وَلَا يُعْلِنُونَ توقفهم عن نفاقهم، {وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ}، وَلَا يَسْتَحْضِرُونَ في فكرهم وتصرفاتهم أنهم من المفروض إذا تعرضوا للامتحان الإلهي أن ينجحوا فيه ويثبتوا إيمانهم الصحيح، فمن المفروض أن يتوبوا عن المعصية، ومن المفروض أن ينتبهوا أنهم يتعرضون لامتحان.

تصور مؤمنا تعرّض لِامْتِحَانِ الجهاد ووقع في معصية ترك الجهاد، فمن المفروض أن ينتبه أنه سقط في الفتنة، ويجب عليه التوبة من ذنبه، وإذا مرة ثانية تعرّض لفتنة أخرى، فمن المفروض أن يتذكّر الفتنة الأولى التي سقط فيها وأن الِامْتِحَانَ تَكَرَّرَ، فينتبه ولا يسقط مرة ثانية. أمّا هؤلاء فمن شدّة المرض الذي في قلوبهم، فهم لا يتوبون ولا ينتبهون أنهم يتعرضون مرة ثانية لنفس الامتحان أو يتعرضون لامتحان شبيه، بل يسقطون فيه مرة ثانية وثالثة ورابعة... ولا ينتبهون أنهم في امتحانات وأنهم يرسبون فيها باستمرار!

من الآية هنا نفهم أن الفتنة الإلهية هي فرصة لبعض الناس لتصحيح إيمانهم، ومن ناحية ثانية فهي بلاء إلهي للبعض الآخر لإظهار مرض قلوبهم على حقيقته ليترسّخ.

لَاحِظْ عمومية كلام الآية لأي فتنة، سواء أكانت اجتماعية أو اقتصادية أو إعلامية... وسياق الكلام هنا عن أبرز فتنة يسقط فيها بشكل واضح الكثيرون وهي فتنة الأمر بقتال العدو.

(وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُون{127})

{وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ}، فنزل من عنده تعالى، {سُورَةٌ}، مجموعة جمل تتحدث عن موضوع محدد، عندها، {نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ}، فوجّه كلّ واحد منهم اهتمامه العام إلى الآخرين، وتساءلوا: {هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ}؟ فهل أحد ما صار لديه صورة محدّدة لكم وأنتم تسمعون هذا الكلام الإلهي؟ هل شهد أحد سماعكم للسورة؟

{ثُمَّ انْصَرَفُوا}، توزعوا إلى أماكن أخرى، كأنهم لم يكونوا حين نزل الكلام الإلهي، وكأنهم لم يصلهم كلامه تعالى وَهُمْ أبرياء من مخالفة كلامه تعالى بحجّة أنهم لم يسمعوه.

تصوّر لو أن مجموعة من المؤمنين سمعوا سورة فيها أوامر إلهية، فهم سيجتمعون ويتباحثون في كيفية تنفيذ الأوامر الإلهية... أما الذين في قلوبهم مرض، فإذا وجدوا الفرصة المناسبة انسحبوا حتى لا يكونوا مشاركين في تنفيذ الأوامر الإلهية، ويتصرفون بشكل يبدو منه أنهم لم تصلهم الأوامر الإلهية.

{صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}، فجعل تعالى أساس تفكيرهم ونفسيتهم مَصْرُوفًا عن الإيمان باتجاه الكفر والفسق والنفاق، {بِأَنَّهُمْ}، بسبب أنهم، {قَوْمٌ}، أناس لهم كيان الجماعة، {لَا يَفْقَهُونَ}، فمصلحتهم الحقيقية في تنفيذ الأوامر الإلهية، ولكنهم لم يدرسوا ويفكّروا فيما تعرّضوا له، فسقطوا في الفتنة وَسَيُسَبِّبُونَ لأنفسهم الخروج من رحمته تعالى...

ماذا قصد القرآن باستعمال كلمة قلب؟

كلمة قلب بمعناها العامّ عند العرب تعني: أساس الشيء وما هو مركزي فيه. حَيْثُ تشير مَعْنَوِيًّا لأساس الفكر والنفسية فينا، وَلِأَسَاسِ ما يجعل الشيء يعمل... وَمَادِّيًّا تشير لعضو أو لجهاز... مركزي في الشيء، كالعضو مُضَخَّةِ الدم، وكقلب المحرّك...

فِي استعمال العرب قديما وحديثا، ولأسباب عديدة، تجد تساهلا وتراخيا في استعمال الكثير من الكلمات، وتجد مجازا واستعارة وكناية... وكمثال كَلِمَةُ فؤاد ولبّ وقلب... مترادفة في عموم الاستعمال إلا اللهم حين تدفعهم العادة من مجمل استعمالهم لكلمة ما، أَنَّهُ لا يناسب استبدالها بكلمة أخرى في سياق ما، وهم لا يستطيعون صياغة سبب صريح لذلك، وهذه حالة عامّة منتشرة في كل اللغات، حَيْثُ تراهم في القواميس يحتارون في إيجاد الفرق بين كلمتين متقاربتين بالمعنى مع أنهم كناطقين بتلك اللغة، يعلمون من أنفسهم أنهم في جملة ما لا يرون استبدال كلمة بأخرى مُنَاسِبًا... وهذا ما تراه مُنْتَشِرًا بكثرة في تفاسير القرآن حيث يفسرون الخوف بالخشية مرة وبالحذر مرة وبالاتقاء مرّة... علما أن لكل كلمة معنى دَقِيقًا نشعر به وَلَكِنْ لَا نَسْتَطِيعُ تحديده بدقة...

سُبْحَانَهُ باستعماله للّغة العربية لتنزيل كلامه مَقْرُوءًا، قرآنا، قَوَّمَ لغتنا وجعلها أدق، إِذْ لَا مقارنة بين تقانة استعمال الإله سبحانه للغة من لغات البشر، وبين كل البشر مجتمعين وفوقهم بقية المخلوقات لو كانوا كلّهم ناطقين بنفس اللغة، فالدقة التي يصل إليها المستوى الإلهي فائقة، وبالتالي قُرْآنُهُ تعالى فرصة غير عادية لكل اللغات للاستفادة من استعمال الإله سبحانه للّغة العربية مقوّما ومحددا بدقة المعاني...

للأسف ترى الكثيرين يتبجحون بالكلام الدعائي الرنّان عن عظمة القرآن لكونه كلامه تعالى، وفي نفس الوقت في تفاسيرهم ودراستهم للقرآن يجعلون كلام أَعْرَابِيٍّ جَاهِلٍ يبول على عقبيه، حاكما على كلام القرآن! بدلا من دراسة استعمال القرآن للكلمة واكتشاف الدقة فيها...

على أي حال فِي عموم اللغات نستعمل التعبير بالقلب للدلالة المعنوية على مركز الشعور والأحاسيس والفكر في الإنسان، حَيْثُ نَقُولُ: أحبك من قلبي. قلبي لم يهتف له. قلبي تعب من شدة الهم. قلبي مُعَمًّى ولا أستطيع التركيز... ولا أي لغة تقصد بهذا الكلام خصوص العضو الذي يضخ الدم، بل المقصود هو مركز شعورنا وأحاسيسنا وتفكيرنا، وبهذا المعنى استعملها القرآن "معنويا لنا" مثلما يستعملها أهل اللغة كمعنى حقيقي لمركز الشعور "النفسية" والفكر.

مَا قاله البعض عن اعتقاد "محمد" بأن عضلة القلب هي الفاعل بدل الدماغ الذي في الجمجمة، وأنه "محمد" يعتقد أن عضو القلب مَسْؤُولٌ عن الفكر والمشاعر، ولذلك في الكتاب الذي ألّفه وادّعى أنه نازل عليه من الإله، اسْتَعْمَلَ كلمة قلب بدلا من الدماغ، بِكَلِمَةٍ واحدة لهذه النوعية من فطاحل النوابغ، أكرهكم من كل دماغي، أو أكرهكم من العضو المسؤول عن إِنْتَاجِ مشاعر الكره والذي تُحَدِّدُونَهُ أنتم، وَأَكْرَهُكُمْ من تفاعل كيميائي لهرمونات جسمي... فهل هذا ما يجب أن يقوله القرآن لو كان نازلا من عند الإله وليس من تأليف محمّد؟! أم التعبير العربي عن ذلك: أكرهكم من صميم

شغاف قلبي. هَذِهِ هي لغتنا وهكذا نفهم، وسبحانه قوّمها وحدّدها حَيْثُ صَاغَهَا بتقانة من مستوى إلهي، فطالما هناك كلمة عربية تفيد المعنى المطلوب بدقة أعلى من كلمة أخرى، وسنفهمها، فسبحانه استعملها، ونحن البشر مع مجموع المخلوقات كلّهم مجتمعين مع بعض لَا قدرة إحصائية لنا على إحضار كل الكلمات في لحظة واحدة لاختيار الأنسب منها، وحتى محمّد بْنُ عبد الله ذات نفسه ليس له معرفة بكل الكلمات التي استعملها القرآن، لِأَنَّ هُنَاكَ كلمات اختصاصية لا يعرفها إلا المتعاطون بها، ككلمة سندس وَإِسْتَبْرَقٍ ومرجان ولؤلؤ وسفر ودسر ورحيق وكوب وكأس... فبعض هذه الأشياء لم يرها (ع) في حياته... ومن المحسوم لدينا أنه تعالى علّم رسوله معاني أمثال هذه الكلمات الغريبة عن مُحِيطِهِ، ولكن للأسف نشطح بالكلام غافلين عن نتائجه السلبية، حَيْثُ نَمْدَحُ رسولنا على أنه أبلغ العرب وأشجع العرب وأفهمهم بالطب والزراعة والعسكر والإدارة... وَنُبَالِغُ ونبالغ حتى نقع في المحذور، مِمَّا يُعْطِي للآخرين حججا لتكذيب كلامه تعالى، حَيْثُ إِنَّ مُحَمَّدًا البليغ بل أبلغ العرب بحسب قول الكثير من المسلمين، اسْتَفَادَ مِنْ ذَلِكَ البعض ليماروا ويجحدوا ما هو واضح بالأدلة على إلهية مصدر هذا القرآن لِيَقُولُوا أن محمدا ألّف القرآن!...

(لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{128})
{لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ}، شخص يحمل الرسالة الإلهية، {مِنْ أَنْفُسِكُمْ}، واحد منكم، وسياق الكلام في السورة يلفت الانتباه لكونه(ع) من عامّة الناس المؤمنين فلم يميّز نفسه عمّن حوله، فلم يأمرهم بالنفور لقتال العدو ويبقى هو في دياره، ولا يتعامل معهم بفوقية واستعلاء وتكبّر... وَهُوَ مثلهم تحت القانون، وليس من كوكب آخر لا يعي بما سينتج عمّا يأمركم به... وَبِشَكْلٍ عَامٍّ هُوَ مثله مثل أي مؤمن آخر والفرق بينه وبينكم أنه الوحيد بينكم الذي يصله الكلام الإلهي لينقله للآخرين.

{عَزِيزٌ عَلَيْهِ}، صعب عليه (ع)، {مَا عَنِتُّمْ}، ما كان عليكم شديدا. فأي شيء يسبب لكم "المعاناة" فإن الرسول(ع) يعزّ عليه حَيْثُ يصعب عليه معاناتكم، وَيَشْعُرُ (ع) بكم ويعيش معكم ويشارككم في نفس الظروف وليس جبارا لئيما بعيدا عنكم مترفّها في قصر...

{حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ}، يجتهد في الحفاظ عليكم، فليس مستهترا بكم بل يعتني بكم.

عِنْدَمَا يأمركم بالجهاد فهو ليس مثل الطغاة والملوك الذين يصدرون أوامرهم ولا يهمّهم معاناة من سينفذّها، بل (ع) يشعر بمعاناتكم، ويحرص عليكم فلا يرميكم في حروب خاسرة ولا يتاجر بكم...

{بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ}، فليس لئيما متسلّطا يستغل نقاط ضعف الذين أعلنوا أنهم معتقدون بدينه تعالى، لا، بل يقدّر حالة ضعفكم وَيَتَعَامَلُ معكم على أساسها.

{رَحِيمٌ}، فعنده عناية خاصة بكم لما فيه مصلحتكم.

لاحظ أن وصف الرسول (ع) بالرحيم في الآية هنا يعبّر عن شيء مميز جدا، حَيْثُ دِينِيًّا استعمل القرآن كلمة رحمان لتشير لعموم العناية الإلهية بعموم خلقه، واستعمل كلمة رحيم لخصوص العناية بالبعض المحدّد من خلقه، وَأَشَارَ بها القرآن للعناية الإلهية الخاصّة بالمؤمنين والتي لا يحصل عليها الآخرون، كالمغفرة ومضاعفة الحسنات... لِأَنَّ الْآخَرِينَ قَدْ خرجوا بكفرهم وفسقهم ونفاقهم من تحت الرحمة الإلهية... وَاسْتِعْمَالُهُ تعالى نفس هذه الصفة بحقّ رسوله محمّد (ع) شَيْءٌ مميّز تلتفت لأهميته، لِأَنَّهُ خبر إلهي يحسم للمؤمنين أن الرسول الإلهي الذي بينهم موصوف بالرحمة الخاصّة بهم، حَيْثُ إِنَّ تَصَرُّفَاتِ الرسول (ع) لا مجال للشك في كونها لم تراع العناية بالمؤمنين، وما سبق من كلام في السورة كان عن النفور لقتال العدو لمسافة سفر طويلة جدا في فصل حرّ شديد وفي طريق غالبيته صحراء قاحلة سيحصل فيه الظمأ والنصب والمخمصة... كان قرارا رحيما، حيث أشارت وألمحت السورة لأمور نافعة جدا للمؤمنين، مِمَّا أَظْهَرَ للأعداء أن المجال القتالي للمؤمنين واسع، وأنهم حتى في أصعب الظروف مستعدون للقتال... وفي تخويف وترهيب الأعداء رحمة للمؤمنين، لِأَنَّهُمْ سيعيشون في الأمان من الاعتداء عليهم...

اَلْقُرْآنُ لم يستعمل كلمة "معاناة" واستعمل كلمة العنت، حَيْثُ كَمَا يبدو أنهما متشابهتان بالمعنى.

بقي شيء، إِذْ إِنَّ هذه الصفات في النبي محمّد(ع) والذي ذكر لنا القرآن تاريخه ليكون نموذجا نتعلّم منه، وبالتالي هِيَ الصفات التي يجب أن يتحلّى بها الذي نجعله أو نقبله رئيسا علينا وقائدا لنا، وطبعا لن نجد شخصا بهذه الصفات جميعا ومن الدرجة العالية، ولكن إذا نظرت للجهة المقابلة حيث أفتى بعض الذين يسمّونهم بعلماء دين مسلمين، أفتوا بوجوب طاعة أولياء الأمر حتى لو كانوا فاسقين علنا جهارا مخالفين لكلامه تعالى، ومرتكبين حتى لأكبر السيئات ومنها قتل الأبرياء... فنفهم أن الحدّ الأدنى هو دعم واختيار وطاعة الأفضل من بيننا والأجدر، هذا بغض النظر عن آلية وصوله إلى الرئاسة عبر أي نوع كان من الانتخابات المباشرة أو انتخاب نواب ينتخبونه أو تعيين الوجهاء له... حَيْثُ إِنَّ لكل زمان ومكان ما يناسبه من أنظمة آلية تعيين الرئيس، لِأَنَّ الآلية بحدّ ذاتها ليست هدفا بل النتيجة بوصول الأفضل والأجدر هي الهدف.

لَا يوجد شيء اسمه: نظام إسلامي حكومي. ومحاولة استخراج ذلك من القرآن مُشَابِهَةٌ لمحاولة معرفة دواء للسرطان من القرآن، أو معرفة آلية نشأة الحياة من القرآن... سَتَجِدُ في القرآن أساسيات وتلميحات وتنبيهات... أمّا الآليات فمتروكة كهامش مرونة لنا للبحث فيها بما يناسب كل مكان وزمان.

هُنَاكَ مجتمعات غالبية أفرادها بسطاء فيما يخص الشؤون العامة ومعتادون على طاعة الزعيم الوارث للسلطة عائليا... وَهَؤُلَاءِ إذا فُرِضَ عليهم نظام الديموقراطية سينفعهم؟ أم سينتخبون الأكذب الذي يغريهم أكثر ولن ينفّذ وعوده؟

على أي حال الْكَلَامُ هنا ليس عن هذا بل عن ضرورة إعادة إحياء كلامه تعالى تطبيقيا إذا كنّا مسلمين، فما معنى قبول شعب مسلم برئيس يعلمون بتعاطيه للخمور والمخدرات بل ويخطب فيهم منتشيا لا يدري ماذا يقول وهم يصفقون له؟! معناه أَنَّ هذا ما يريدونه لأنهم بغالبيتهم مثله، ولكنهم في نفس الوقت يتأففون من الضائقة الاقتصادية والخدمات الطبية والاجتماعية... وفلتان الأمن وكثرة المشاكل بل الكوارث الناتجة عن فساد الإدارات...!

لسنا مسلمين حقيقيين ولا مؤمنين به تعالى ولا القرآن كتابنا طالما على رؤوسنا فاسدون علنا جهارا ولا صفة فيهم من الصفات التي تذكرها الآية هنا، ولو بالحدّ الأدنى.

(فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ{129})
{فَإِنْ تَوَلَّوْا}، فذهب الناس عنك باتجاه آخر وتركوك، مثلما فعل المتخلفون عن الجهاد، ومثلما فعل المنافقون، {فَقُلْ}:

{حَسْبِيَ اللَّهُ}، فإن كان هو تعالى يدعمني فلا أحتاج لأحد آخر معه، لِأَنَّهُ سبحانه يكفيني ولا أحتاج لأحد معه، {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، فلا يوجد أحد يملك القدرات الفائقة وَمَوْصُوفٌ بالصفات الفائقة التي تفوق صفات المخلوقين إلا هو، فبما أنه الإله الأحد، وَتَوَكَّلَ بي فأنا أعتقد بأنني لا أحتاج لأي أحد غيره تعالى. ومن نظرة أخرى، أَنَا أعتمد على الوحيد الذي يملك قدرات وصفات فائقة وهذا يكفيني ولست بحاجة لأحد غيره عزّ وجلّ.

بعبارة أبسط، اعْتَمِدْ على أقوى قوّة في الدنيا والآخرة، وهي قوّة من مستوى إلهي، لِأَنَّهَا فائقة بكل المقاييس.

{عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ}، عليه تعالى اعتمدت أنه سيسيّر الأمور على الأحسن، فأعتقد أنه قادر على مساعدتي وسيساعدني.

{وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}، وهو المسؤول من مستوى إلهي عن إدارة شؤون شيء ضخم جدا، حَيْثُ إِنَّ الْمُلُوكَ تجلس على عرش لتدير شؤون مملكتها، والله تعالى موصوف بنسبة العرش العظيم له على أساس أنه المسؤول من مستوى إلهي عن إدارة وحكم كل ما في السماوات والأرض.

الْعَرْشُ هو عموم أي شيء فوق الأشياء، وَمَعْنَوِيًّا هُوَ مرتبة ومقام الحاكم فوق الآخرين، ونستعمل هذه الكلمة "عرش" لوصف المكان الذي يجلس عليه من هو حاكم على الآخرين، وَالْعَرْشُ ماديا هو كرسي على منصّة وتحيط بها الزخرفة، ويجلس عَلَيْهِ الملك أو الحاكم... وبتعبير تقريبي مبسطّ: بما أنه سبحانه في كل مكان سواء في عالمنا أو في عالم الملائكة أو العوالم التي لا نعرفها فَإِذَنْ عرشه عظيم بضخامة ملكه وبانتشار سلطته عليه، فعلى معنى أن العرش شيء، يكون عرشه سبحانه في كل مكان لأن سلطته تعالى منتشرة على كل نقطة في السماوات والأرض.

بِالنِّسْبَةِ لجملة {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، راجع دراسة الآية 31 من هذه السورة.

سورة يونس (10) ص 208
تتمحور السورة حول محتوى هذا القرآن الحكيم وتعجّب بعض الناس من إرسال رسول إلهيّ لهم. موجّهةً كلامها للذين يؤمنون بالله تعالى إلهاً ولكن اخترعوا آلهة معه سبحانه، ولم تتحدّث بشكل مباشر مع عابدي الأصنام والنار والطبيعة والكواكب... وحصرت كلامها مع الذي عبد كائنات لها وعي، مع من عبد إنساناً أو جنّيّاً... وفي نفس الوقت يعترف بالله تعالى إلهاً.

تبيّن السورة فساد كلّ أساسيات هذه العقيدة الشركية، وتهدّد بالعقاب الشديد للمؤمن بها، وتعد بالثواب الجميل لمن وحّده تعالى واتّبع شرع الحقّ، وبناء عليه فمن الضروري إرسال رسول مع كتاب لهداية الناس للحقّ وإنذار السيّئين.

تطرّقت بكلام قصير ناسف لأساس اختراع هؤلاء المشركين من خيالهم وهواهم لشريعة "الحلال والحرام"، كنموذج بارز عن قانون جعلوا عليه عقاباً إلهيّاً ولم يَقُلْهُ تعالى، في مقابل قرآنٍ نزل منه تعالى بالصلاح والحقّ ورفضوه....

فيها تركيز بارز على كون هذا القرآن كلامَ الإله تعالى، وفيه أنّه الأحد، وبالتالي وجوب توحيده... وكلام عن الأسباب الواهية لكفرهم به.

فيها تركيز على كوننا في بيئة تجري على المخطّط الإلهي بشكل واضح، حيث تشير للارتباط بيننا وبين بيئتنا كانعكاسٍ لما صمّمه وخلقه تعالى، وأن ذلك سيوصلنا بسهولة للتعرف عليه تعالى، وأن المشركين بشكل أو بآخر يشعرون به تعالى في بعض الأحيان "حين يقعون في مأزقٍ"... وتربط السورة ذلك بتماشيه الطبيعي مع إرساله تعالى لنا من ينقل دينه لتصويب ديننا، كردٍّ على تعجبهم من إرسال رسول...

ذيل الآية 41 فيه كلام عن مناسبة سورتنا هنا للذين يدّعون أنهم ملحدون "منكرون لأيّ إلهٍ أو دينٍ"، وعادة القرآن يشملهم بكلامه حين يبيّن فساد عقيدة الشرك، فنفس الكلام يردّ على المشركين وعلى الملحدين.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ{1})
هذه حروفٌ نتهجّاها مقطّعةً هكذا: ألف، لام، راء.
تلك آيات الكتاب الحكيم، فهذه النماذج من الأحرف التي يتكلّم بها الناس، والأحرف ميزتها معلومة لأنها وسيلة لنقل المعلومات من وإلى الناس، وهي هذه الأحرف التي تشكّلت منها هذه السورة التي فيها معلومات أراد سبحانه أن تصل إلينا، فهي من الكتاب الرئيسي الذي فيه كل شيء عن الدنيا والآخرة، وهو موصوف بأنه حكيم، فيعرض الصوابية في الأمور فلا عبث فيه ولا غوغائية ولا كذب ولا مبالغة... بل حقّ صحيح صواب.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة

الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب

هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَـذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ{2})
{أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا}، هل من الطبيعي أن يكون عند الناس تقييم "سلبي" لأنهم لا يتوقعون، {أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ}، أن أنزل تعالى معلومات إلى فكر شخص، {مِنْهُمْ}، من البشر ويعيش بينهم، وذلك الرجل وصله أمر منه سبحانه بأن: {أَنْذِرِ النَّاسَ}، انقل للناس الخبر السيّئ عن العقاب الحتمي لمن توافرت فيه شروط حصول العقاب له.

أليس من الطبيعي والمتوقّع أن يقوم الإله سبحانه بالتواصل مع البشر الفاسدين ليخبرهم بمصيرهم السيّئ كإنذار حتى يرجعوا عن السوء الذي هم عليه ؟! فعلى أي أساس يتعجب المتعجبون من إرسالنا لك أيها الرسول محمّد؟! فهم وبسبب سوئهم بحاجة لمن ينذرهم ليهتدوا، وعلى ماذا تعجبهم حين جاءهم من ينذرهم؟

أنت تعلم أنهم يريدون البقاء على فكرهم ونفسيتهم السيئة فلا يريدون تقويم أفكارهم وأعمالهم لتصير صالحة، ولذلك برأيهم أنّ الإله خلقنا وتركنا على راحتنا لنفعل ما نراه نحن مناسباً، وأصلا نحن وضعنا تمام ولا حاجة لنا بتوجيهات إلهية...

في سور أخرى نرى وجهاً آخر لهذا التعجّب، حتى يقتنعوا بأن الرسول منه تعالى فهم يتوقعون أن يرسل لهم سبحانه ملاكاً أو جنّيّاً "أو كائناً شكله غريب من كوكب آخر"! أما هنا فالتركيز على الناس الذين اخترعوا آلهة وعبدوها، واخترعوا شريعة فاسدة... فهم فاسدون ويستحقون العقاب على ذلك، ويتعجبون أن يرسل الإله الحقيقي رسولاً ينقل لهم ديناً "عقيدة وتشريع" من الإله الأحد!

يتعجبون من أمره تعالى لرسول أن:

{بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا}، وأوصل الخبر السار للذين اعتقدوا بدينه تعالى وعملوا الصالحات، فبشّرهم، {أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ}، وهذا تعبير عن المكانة المحترمة لهم لأنهم صادقون وآمنوا بما هو صادق في مقابل الكاذبين الذين آمنوا بدين كذب.
والتفسير الحرفي العملي لجملة "{لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ}": فهم واقفون في يوم القيامة وأقدامهم في المكان الذي يقف فيه الصادقون مع ربهم سبحانه. وهؤلاء لهم مكان مرموق ومحترم عنده تعالى، وهذا التعبير يختصر كل ما سوف يقدّمه سبحانه لهم فيما بعد بناءً على صدقهم لأنه تعالى يحترمهم ويحبّهم، ويتضمّن عنايته الخاصة سبحانه بهم هنا في الدنيا أيضاً، والتفسير الحرفي لتعبير "{قَدَمَ صِدْقٍ}" بمكان وقوفهم على أقدامهم في الآخرة هو لتقريب الوصف لأن المعنى عمومي ويشير لعموم المكانة العالية لهم عنده تعالى من هنا في الدنيا وصولاً إلى الآخرة.

بناءً على التعجّب من إرسال نذير وبشير، {قَالَ الْكَافِرُونَ}، قال المنكرون لدينه تعالى: {إِنَّ هَذَا}، هذا الرجل الذي يقول لنا هذا الكلام الإنذاري والتبشيري وهو بالتأكيد، {لَسَاحِرٌ مُبِينٌ}، ومن الأكيد الواضح أنه يسحرنا يتلاعب بعقولنا بكلامه حتى نصدّقه وأمّا في الحقيقة فهو يخدعنا ولا يعرض علينا شيئاً صحيحاً.

ضع في بالك دائماً أن السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شيئاً غير حقيقي أنه حقيقي. الساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد بأنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع أنها لم تختف، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر والذي تراه صريحاً في الآية 66 من سورة طه {قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}. وما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة

خارقة عند شخص ما، وتُمَكِّنُه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، فهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية أنها سحر، فهذا كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

ننتبه لتكرار القرآن عدة مرّات الاتهام له وللرسل بالسحر، وهذا الاتهام بكلمة سحر لم يعد دارجاً كثيراً في عصرنا من الكافرين بالدين الإلهي، ولكن تسمع المرادف لها والذي يعطي نفس المعنى، حيث يقولون إنّ الدين للبسطاء، وهذا معناه أن البسطاء ينخدعون بالكلام الديني الخرافي ليروه حقيقة، ولغويّاً هذا هو معنى كلمة سحر.

حسناً، هذا ما يقوله الكافرون، هل نحن المتدينين نمارس السحر حين نتلو الآيات؟ نعم، إنّ ما تسمعه الآن على القنوات من دعاة الإسلام، في أغلبيته الساحقة لا يختلف عن كلام أهل العقائد الكافرة أو المنحرفة، إذ تسمع الدعاة يعرضون الكذب بالإعجاز العلمي والطبّي والليزر والثقوب السوداء... التي تكلّم عنها القرآن! وتسمع الكذب عن أسرار الحلال والحرام التي لم تظهر إلا بعد تقدّم العلم ليتبيّن أن السجود على الأرض يسحب منك الطاقة السلبية ويجعل الدم يتحرّك ليصل إلى المخيخ... وعن الجرثومة التي في لحم الخنزير والتي لا تموت بالتجميد ولا بالطهي... وعن وعن... وهو كلام فارغ وهراء ما أنزل الله به من سلطان. هذا الجانب المنحرف من ديننا الذي يخترعه الناس هو المساوي للسحر الذي يمارسه أهل العقائد الأخرى، ومثله في الكذب والانحراف والسحر: الكلام المذهبي بين المسلمين، الذي فعلاً يوقع الأغبياء تحت تأثيره حتى يرتكبوا السوء والفساد بالفرقة بين المسلمين وصولاً إلى قتل المسلم الآخر!

أمّا القرآن وبدون التلاعب به، فهو الحقّ، وليس بسحر لأنه لا يخدعنا بل يقدّم الواقع والحقيقة والصلاح، وعلينا عرضه على أنفسنا وعلى الناس كما هو، والأمور غير العادية التي ذكرها القرآن كفلق البحر للنبي موسى (ع)، ولبث النبي يونس (ع) في بطن الحوت وغيرها... فهي أمور حقيقية حصلت بتدخّل إلهي لتكون آيات، حيث دائما هناك أناس يطلبون آيات من هذا النوع ليؤمنوا، ولكنهم حين يسمعون بها حصلت في الماضي يسخرون! بينما نحن نؤمن بها لأن القرآن بمحتواه العقائدي والتشريعي الحقّ يدلّنا بوضوح أنّ مصدره إلهي... وأمّا خزعبلات الإعجاز العلمي والعددي... وأشباهها، وخزعبلات الروايات الكاذبة، وخزعبلات الطائفية والمذهبية والعصبية... فهي سحر خادع لا علاقة للقرآن بها.

إنذار وتبشير الرسول للناس بكلام مقنع، بيّن فيه فساد كلامهم وصحّة كلامه وهو منقول عنه تعالى، وحين لم يجد الكافرون أيّ ردٍّ يدافعون به عن عقيدتهم، قالوا عن كلام الرسول إنّه سحر، على أساس أن الرسول بكلامه تلاعب بعقولهم فجعلهم يرون دينهم الصحيح فاسداً، وجعلهم يرون دينه الفاسد صحيحاً.

بعد دخولنا في أعماق السورة سنفهم أن التعجب صادر من أناس مشركين به تعالى، وهم لم يحبّوا فكرة إرساله سبحانه رسولاً ليحدّد لهم ما يعبدون، وماذا يفعلون في حياتهم، وهذا حلال وهذا حرام و... ولذلك يريدون أن يتصرفوا على هواهم... وهذا هو محور السورة الأساسي، وسنرى في بقية السورة تفريعات حول هذا الموضوع:

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ{3})
{إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ}، إن المدبّر "المسؤول عنكم" من مستوى إلهي أيها الناس هو صاحب الاسم المحدّد المميّز الله عزّ وجلّ، {الَّذِي خَلَقَ}، ركّب ألّف، {السَّمَاوَاتِ}، وهنّ سبع سماوات بحسب ما ورد في القرآن، والسماء التي نسمّيها نحن بكوننا الذي فيه المجرات هي سماء من تلك السماوات، و{خَلَقَ} ركّب ألّف، {الأَرْضَ}، وهذا تعبير عن عموم ما كان تحت فضاء، ما تحت سماء، وعادة ينصرف ذهننا من التعبير بالأرض إلى الكوكب الذي نعيش عليه، ولكن الكلمة عمومية لعموم ما كان تحت أي سماء، فكوكب الأرض سطحه أرض، والقمر أرض، والمشتري أرض غازية... وهذه كلها أرض بالنسبة لسماء كوننا، وهكذا لكل سماء من السماوات الأخرى أرض بما يناسب طبيعة تلك السماوات كما ورد في الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...}، لأن كلمة سماء لا يصحّ إطلاقها كوصف على حالة ما إلا لما علا ويقابله شيء تحته...

التعبير القرآني {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} يشير إلى كل ما هو موجود في دنيا المخلوقات، ويقصد به القرآن أن المخلوقات ومهما كان نوعها فكلّها محصورة في السماوات والأرض ولا يوجد شيء آخر غيرها، ويخبرك سبحانه بشفافية أنه يعلم أنه لوحده ومن لا شيء ركّب وألّف السماوات والأرض، وسترى من تكملة الجملة أن المقصود من هذا الخبر أنه تعالى لم يَرَ ولم يلمس أي أثر إلا لنفسه ولما خلقه هو تعالى، فلا إله غيره والبقية مخلوقاته.

خلق سبحانه السماوات والأرض، {فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}، في ست فترات زمنية كل واحدة منها لحدث رئيسي وتنتهي بانتهائه لتبدأ المرحلة التي بعدها... وهكذا على ست مراحل زمنية كانت الأحوال في كلّ مدّة منها مختلفة عن التي سبقتها، وفي كل يوم، في كل فترة حصل تغيّر وتحوّل جديد، حيث في يوم منها كانت دخاناً وصار الدخان يتشكّل ليتركّب... وفي يوم آخر تشكلت الصخور... وفي يومين بدأ وانتهى خلق ما يمكن للناس أن يعيشوا بسببه، كالنبات وغيره، وهكذا... واليوم بتعبير القرآن هو المدة الزمنية لحصول شيء أساسي محدّد، ويمكن أنْ تكون المدة طويلة جدا وبالسنين، ويمكن أنْ تكون قصيرة، ولا تقصد الآية القول أن الفترات كانت متساوية في مدتها الزمنية، بل تقصد أن الخلق والتركيب مرّ في مراحل زمنية، وكل مرحلة من بدايتها لنهايتها فهي يوم، وهي فترة زمنية لحدث محدّد.

لمزيد من التوسّع حول خلق السماوات والأرض في ستة أيام راجع دراسة الآية 9 وما بعدها من سورة فصلت {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، ولمزيد من التوسع حول كلمة يوم راجع دراسة الآية 19 من سورة القمر {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ}.

{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، فبعد اكتمال الملك "اكتمال خلق السماوات والأرض" استوى سبحانه وصار الحال بالتمام كما هو مطلوب من السيطرة والملك فوق كلّ شيء.

بالنسبة لكلمة "عرش"، فالعرش الذي نعرفه نحن هو الكرسي الفخم الضخم الموضوع على منصّة ويجلس عليه الملك أو الحاكم، وأصلا كلمة عرش وصف لعموم ما علا ويقابلها فرش، وعرشه سبحانه تعبير عن الإدارة المركزية من مستوى ربوبيّ، تعبير عن مركزية السيطرة والقرار لكل ما في الدنيا "والآخرة"، وبما أن سيطرته تعالى ممتدة على كل الدنيا "والآخرة" فعرشه سبحانه ممتدّ بامتداد الدنيا "والآخرة"، على كل ما في الدنيا والآخرة كما هو واضح من تعبير الآية 255 من سورة البقرة {... وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}.

لدينا تراث ديني ثقافي يشير البعض منه إلى وجود شيء محدّد كعرش له سبحانه، كشيء مشابه بشكل ما لمكان تتم فيه إدارة شؤون الدنيا، واستندوا على ذلك قرآنياً بالآية 17 من سورة الحاقة {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، وكلامهم خليط من تصوّرات مختلفة، بعضها سببه استعمال لغتنا لتوصيف أمور لا يمكننا نحن البشر تصوّرها، وبالتالي فالكلمات التي نستعملها لذلك تنقل نفس المعنى ولكن لأمور مختلفة، حيث هناك ملك صلب لا يهتز وإدارة إلهية مركزية لما في الدنيا، ولكنه سبحانه واسع محيط، وهناك ملائكة بقدرات عالية خلقها سبحانه ووظّفها لإدارة بعض شؤون ما في الدنيا، وأشهرها وضوحا من القرآن ملك الموت، وهذه موصوفة "بلغتنا" أنها حاملة للعرش، لأنّ الكلام القرآني الذي يشير لقوّة الملك ولنواة الحكم والسيطرة لا يشير إلى مكان، ولا إلى شيء، بل إلى حالة، وهذا واضح جدا من تعبير الآية 255 من سورة البقرة بوصفها وساعة الكرسي بوساعة السماوات والأرض.

من السذاجة تصوّره تعالى جالساً على كرسي على منصّة وثمانية ملائكة يحملون المنصّة، ضاربين بعرض الحائط كلامه سبحانه عن نفسه بأنه واسع محيط وليس كمثله شيء فلا يمكن لأي مخلوق تصوّره...

الوصف القرآني لملائكة حافّين حول العرش أو حاملين له هو وصف حالة وليس وصف مكان.

بعبارة أخرى، كلّ السماوات... وهذه الأرض التي نحن عليها، فهي كل ما في دنيا المخلوقات، خلقها كلّها ربنا الله سبحانه، ويخبرنا سبحانه أنه هو بنفسه ولوحده ركّبها وألّفها في ست فترات زمنية، وبعد اكتمالها، لم يتركها سبحانه لغيره ليديرها، بل استوى على العرش حيث كل شيء صار بالتمام وانبسطت سلطته عليها كلها، ومن دون تهديد من أحد بالقدرة على التدخل.

على الاسميّة لكلمة عرش كاسم لشيء، فكل السماوات والأرض "كرسيه" عرشه تعالى، وعلى الوصفيّة للملك القوي والسيطرة والإدارة المركزية والتي بلغتنا البشرية نستعمل لها وصف العرش، فسبحانه حالته أن عرش السماوات

والأرض منسوب له، ذو العرش، واستوى على العرش، وهناك ملائكة موظفون منه تعالى بتنفيذ مهمات "رئيسية" ويكون وصف حالتهم كحاملين للعرش وحافّين حول العرش.

نرجع للآية، {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ}، فأمر فشأن فموضوع إدارة شؤون العرش، يحصل منه تعالى، والتدبير هو إدارة الأمور بالنظر إلى ما سيأتي بعدها، حيث يقرّر سبحانه شيئاً بسبب شيء سينتج عنه، فمثلاً قرّر سبحانه خلق البشر ليمتحنهم ويحاسبهم ويجازيهم...

إذًا لا يحق لكم أن تتعجبوا من تدخله سبحانه في حياتنا وإرسال رسول من عنده لينذرنا وليبشرنا، لأنّه سبحانه أصلاً متدخل فينا، وهو ربنا إلهنا الذي يدير شؤون كل السماوات والأرض، وإن لم يكن لخالقنا حق التدخّل فينا فمن له الحقّ بذلك؟ وسترى أن المتعجبين من هذه الحقيقة سمحوا لأنفسهم باختراع آلهة ويعبدونها أيضاً! ويتعجبون إن أمرهم خالقهم الحقيقي أن يعبدوه! وسترى أنهم فاسدون في فكرهم ونفسيتهم وعملهم وبحاجة لتقويم ورغم ذلك فهم يرفضون تقويمه تعالى لهم عبر إرسال رسول بكتاب حكيم.

{مَا مِنْ شَفِيعٍ}، فلا يوجد أحد يشفع فيتوسّط مستخدماً قيمته المعنوية أو السلطوية لتغيير ظروف أحد ما للأحسن، {إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ}، إذ ليس هناك من يمكنه تغيير قرار إلهي بتعذيب أحد ما إلاّ من بعدما يسمح تعالى بذلك.

الكلام عن الشفاعة هنا يشير إلى أناس يعتقدون بقدرة بعض المخلوقات على الاستقلالية في اتخاذ قرارات تتعلق بإدارة السماوات والأرض، حيث باعتقادهم يمكن لتلك الكائنات اتخاذ قرار بإدخال شخص ما إلى الجنّة ولا يتدخّل سبحانه في قرارهم! وهناك من يعتقد بأنه حتى لو عصاه تعالى فترك كل الواجبات وفعل كبائر السيئات فإن الشخص الفلاني أو الكوكب أو الصنم يمكنه أن يتدخل "والعياذ بالله تعالى" ويفرض رأيه بتخليص أحبابه ومن عبده وتقرّب إليه بالنذور من العذاب! وهذا غير صحيح، إذ لا أحد يمكنه أن يفرض عليه سبحانه أيَّ شيءٍ، والشفاعة موجودة وتحصل ولكنها بإذنه سبحانه تحصل، وليس فرضاً عليه تعالى تحصل. وسنرى عودة لهذه النقطة في الآية 18.

الشفاعة هي عموم استخدام القيمة المعنوية أو السلطوية لتغيير الظروف نحو الأحسن، والآيات القرآنية التي تحدّثت عن الشفاعة تناولتها من عدّة جوانب أهمّها نفي الشفاعة لأي مخلوق كحقّ مفروض ملزم "مرغم" للإله سبحانه وتعالى، كحقّ النقض "الفيتو"، وتقرأ ذلك في الآية 255 من سورة البقرة {... مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ...}، فلا تتصوّر أن ملاكاً أو شخصاً من خيرة المؤمنين يملك حقّ الشفاعة وسيفرض تنفيذها على مجرم لينقذه من العذاب، ويضرب رجله بالأرض "يحتجّ معترضاً" ويقول: معي حقّ الشفاعة وأريد أن يدخل فرعون إلى الجنّة. فهذا شيء لا يمكن أن يحصل لأنه لا أحد يمكنه فرض أي شيء من أي نوع عليه تعالى.

هناك آيات أخرى أكّدت على وجود شفاعة من الملائكة (ع) والمؤمنين من الدرجة العالية للمؤمنين من الدرجة المنخفضة، وكمثال عن ذلك الآية 28 من سورة الأنبياء {... وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}، إذ الشفاعة تتنفّذ بعدما يسمح الإله سبحانه بها، وضمن القرار الإلهي الأساسي يوجد أشخاص على ميزان العدل المستقيم يجب أن يتعذّبوا حتماً، ولكن القرار الإلهي فيه رحمة، فمن ابتعد عن الشرك والكبائر كقتل الأبرياء والزنا... قرّر له تعالى أن يكون له مخرج من العذاب، وسمح بالشفاعة له، أمّا المشركون والمرتكبون للكبائر من السيئات فلا تنفعهم الشفاعة كما ورد في الآية 123 من سورة البقرة {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ...}، ونفي الشفاعة هنا يقصد فعلنا لما نريد من سيئات، واعتمادنا على شفاعة أحد ما لنا في الآخرة.

لا تنسَ أن الشفاعة لا تعني دائماً أنها للنجاة من النار، بل التخفيف من عذابها أو التخفيف من وقت المكوث فيها هو أيضاً من آثار الشفاعة.

الجانب الثالث من الشفاعة الذي تجده في بعض الآيات هو نفيها عن الآلهة التي اخترعها المشركون، فآلهتهم الوهمية التخيلية كإله الحرب وإله الخمرة... أو التي لها كيان كملاك أو إنسان أو جنّي، لا قدرة لهم حتى على الوساطة عنده تعالى للعفو عمّن عبدهم، وعادة سياق كلام هذا النوع من الآيات يريك أنه تعالى وحده الإله وأن الآخرين ليس لهم سلطة من مستوى إلهي بل حتى ليس لديهم القدرة على فرض قيمتهم المعنوية عليه تعالى، وكمثال عن ذلك الآية 51 من سورة الأنعام {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}،

فسبحانه وحده بسلطته يشفع ويسمح بالشفاعة. والآية 13 من سورة الروم {وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ}، حيث كان الكلام عن الذين أشركوهم معه تعالى في الألوهية، وسبحانه لا شريك له، فهم بينهم وبين آلهتهم شراكة وهمية بين عبد وإله، ولا قدرة لها لتشفع لهم... والآية 43 من سورة الزمر {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ}، وهذه شاملة لكل أنواع الآلهة التي اخترعوا ألوهيتها، فحتى لو كان لها فعلاً كيان ولم تكن وهمية كإله الخمرة وإلهة الحبّ، فكانت ملاكاً أو إنساناً أو جنّيّاً، فهؤلاء لا يملكون شيئاً من مستوى إلهي.

{ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ}، هذا هو التعريف المضبوط الحقيقي الصحيح بالذي اسمه الله عزّ وجل والذي هو ربكم أي المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {فَاعْبُدُوهُ}، فأنتم عبيده فأنتم مفروض منكم طاعته فتصرّفوا على هذا الأساس، وتطيعون كلامه سبحانه وتتوجّهون إليه بالحركات والكلمات التي تعبّر عن خضوعكم له سبحانه، {أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}، فلماذا لا تستحضرون هذه المعلومات في أفكاركم لتنتبهوا أنه من الطبيعي أن الإله الأحد الذي يدير ما في الدنيا سيرسل رسولاً لعباده!

هل سيخلقكم ويترككم لتخترعوا أنتم الدين؟ وماذا لو اخترعتم ديناً فاسداً فهل يترككم؟ أم من المفروض أن يخبركم بالدين الذي ارتضاه لكم لتصححوا فسادكم... وأليس من المفروض وصول بشارة منه تعالى للصالحين منكم حتى يبقوا على صلاحهم، ويعلموا أن صلاحهم له قيمة عنده تعالى؟...

(إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ{4})
{إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا}، فكلّكم من دون استثناء من بدايتكم كنتم وما زلتم تحت سلطته تعالى، وحين تموتون فلن تختفوا أو تذهبوا لأحد غيره تعالى ولن تنتقلوا إلى مكان خارج سيطرته، بل كلّكم وبدون أي استثناء ستعودون إلى الحياة من جديد وتكونون تحت سلطته تعالى، {وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا}، فرجوعكم كلّكم هو كلام قاله تعالى وسيتحقّق حتمًا وبالتأكيد. طبعًا تعلم أنَّه سبحانه انطلاقًا من قدراته الفائقة القاهرة يقدر على فعل ما يريد، فحين يقول سبحانه عن شيء أنَّه سيفعله فحقًّا حتمًا بالتأكيد سيفعله.

بعض الناس يستسخفون أنفسهم، ومن مستوى تفكيرهم البشري وغير المستقيم، يخترعون أنَّه تعالى سيغيّر قراره "رأيه" وقد لا يعيد إحياءنا، أو سيغيّر قراره وسيلغي المجازاة بالثواب والعقاب، وحتى إنَّ بعضهم يقول بأنَّ التهديد وهمي وسبحانه يريدنا فقط أن نستقيم ولكِنَّه في النهاية سيسامح الجميع والكلّ سيدخلون الجنّة... هذه الأفكار وغيرها ينبّه تعالى عليها بأنَّها أوهام، فما وعدنا به تعالى فسيحصل حتمًا وبالضبط لأنَّه تعالى صادق الوعد لا يكذب سبحانه وتعالى، وقادر على فعل ما يريد.

{إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ}، فمن البداية هو تعالى قام بتركيب وتأليف كل شيء ومن ضمنه البشر، ومن "الصفر" خلق تعالى كل شيء، حيث لم يجد شيئًا مخلوقًا من غيره واستعمله، ولم يجد المواد أمامه فاستعملها... ولم يجد كائنات واستولى عليها... لا، فهو سبحانه من الصفر خلق كل شيء.

{ثُمَّ يُعِيدُهُ}، ويكرر خلقهم من جديد فيتكرّر خلقهم بعد فنائهم. وهذا التخطيط الإلهي لبداية الخلق في الدنيا ثم موتهم ثم إعادة خلقهم في الآخرة، والسبب لهذه العودة: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، ليعطي سبحانه المقابل المعادل للذين اعتقدوا بدينه تعالى وقاموا بالأعمال الموصوفة بأنَّها صالحة حسنة جيدة، يجزيهم، {بِالْقِسْطِ}، بما لهم بالضبط، فليس هناك وسائط أو غشّ، فكن مؤمنًا عاملًا للصالحات وستحصل على ما يقابل ذلك، ولن يضيع إيمانك ولا عملك.

خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، والمؤمنون باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، فعمليًّا وصفهم بـ{عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} هو تركهم لما حَرَّمَهُ تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى، وهذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعًا ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمَّا أنَّه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبًّا لشيء فاسد، أو أنَّ ما ظننت أنَّه أمر إلهي فهو في الحقيقة اختراع من البشر وليس أمرًا إلهيًّا.

الكلام هنا عن أصل بقاء قيمة الإيمان والعمل الصالح، فلن يضيع ذلك، والقسط هو حصولهم على ما يعادل ويقابل إيمانهم وعملهم الصالح بالضبط، ومضاعفة الحسنات يمكنك تصوّرها أنَّها أيضًا بالقسط فتقول إنَّه تعالى يرى هذا يستحقّ المضاعفة لحسناته مرتين، وذاك يستحق المضاعفة بعشرة... ويمكنك تصوّر مضاعفة الحسنات كزيادة منه تعالى فوق القسط وورد ذلك بالتعبير القرآني بالزيادة من فضله تعالى كما تقرأ في الآية 26 من هذه السورة {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ}، وعلى كلّ حال فبحكمته سبحانه وبحسب ما هو مناسب يحصل كلّ شخص على قسطه وعلى المضاعفة، وبحسب صفاء نيَّة العمل الحسن وظروفه... يتم تحديد استحقاق الفاعل للمضاعفة فهذا من القسط على مستوى إلهي.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا}، والذين أنكروا دينه تعالى، حيث أنكروا ربوبيته تعالى أو جعلوا له شركاء... فهؤلاء جزاؤهم أنَّ، {لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ}، لهم سوائل حرارتُها عاليةٌ جدًّا وتغلي ليستهلكوها من فمهم، فلهم، {عَذَابٌ أَلِيمٌ}، فلهم شيء يصيبهم بالضرر ولن يكون سهلًا عاديًّا، {بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ}، وهذا العذاب بسبب إنكارهم لدينه تعالى. وهنا الكلام بالخصوص عن إنكارهم لربوبيته سبحانه، فلم يؤمنوا أنَّه من حقه تعالى بعثُ رسولٍ لينذر الناس ويبشّرهم.

كما ترى فالآية تبيّن لنا أنَّه تعالى كان قراره من البداية خلق البشر وامتحانهم ثم يموتون ويعيد إحياءهم كلهم من جديد ليحاسبهم، فمن الطبيعي إرساله لنا رسولًا ليخبرنا بمخططه تعالى لنا وبقراراته فينا، فلماذا يتعجّب الكفّار؟!

ستلاحظ خلال السورة سؤالها للكفار إن كانت آلهتهم الوهمية قادرة على الخلق وإعادة الخلق؟ وما هو مخططها من الخلق؟ ولماذا هي آلهة فما معنى ألوهيتها إن كانت لم تفعل ولا تفعل أي شيء من مستوى إلهي؟

من المفروض أن نتوسّع قليلًا بالإضاءة على تعبير {آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، حيث إنَّ السورة وعموم القرآن يعتبر ذلك مفهومًا رئيسيًّا، فـ{آمَنُوا}، لا تشير لشيء جديد إضافي، كحالة شخص فارغ اعتقاده وملأه بالإيمان به تعالى، بل هي حالة التماشي مع خلقتنا، لأنَّ السيارة مكانها الصحيح سيرانها على الطرقات، وكذلك حالة الاعتقاد لدينا ومسارها الصحيح رؤيته تعالى بالفكر والشعور به مما نراه في أنفسنا وبيئتنا، إذ كونه الإله الواحد الأحد حقيقة واضحة منعكسة فيما خلقه تعالى من كائنات وظواهر، فالإيمان به تعالى هو وقوفنا أمام حقيقة واضحة والاعتراف بصحتها، وسيأتيك مزيد من الكلام في السورة عن ذلك.

بالنسبة لـ{عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، فعادة نفسرها مثلما نفهم الكثير من كلام القرآن ناسين أنَّنا تراكم لدينا ثقافة وتراث ديني بحيث لم نعد نرى جمل القرآن على معناها الأساسي، فنفهم {عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} بصاموا وصلّوا وتصدّقوا... وعمليًّا هذا صحيح إذ هذه عناوين تطبيقية للاتِّصاف بعمل الصالحات، ولكن ما عرضه القرآن كان الأساس، كان مما يمكننا نحن تمييزه كصالح، وبالقدرة المتاحة لنا والمزروعة فينا منه تعالى لتمييز الصالح من الفاسد، لِذا هناك الذين {عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، حيث عملوا ما يرونه صالحًا تاركين ما يرونه فاسدًا، مثلما آمنوا واعتقدوا بما يرونه حقًّا بفكرهم ومشاعرهم وأعينهم، فوحّدوه تعالى.

كُفْرُ الذي كفر لن يغيّر من واقع وحقيقة أنَّ الله تعالى الإله الأحد الخالق ورب العرش، وإيمان من آمن بذلك لم يضف شيئًا على الواقع، ومن عمل السيئات فهو رآها سيئة وفعلها وبعد ذلك من التكرار والتعلّق بها لم يعد يراها سيئة، ومن عمل الصالحات فهو رآها صالحة وفعلها وبعد ذلك صار رافضًا لفعل السوء، ولوحده ومن دون وحي إلهي مذكور فيه الحلال والواجب والحرام... فهو لوحده الإنسان لديه المعيار المزروع فيه لتمييز الصالح من الفاسد، ومشى على المعيار، وعندما أتاه كلام إلهي رآه يتماشى مع إيمانه وسلوكه، فتماشى مع الكلام الإلهي، حيث لم يؤمن بشيء جديد، ولم يسلك سلوكًا جديدًا.

هذا معنى الكلام المتكرر في القرآن بعبارات متنوّعة، فقول القرآن عن نفسه أنَّه {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}، تريك أنَّهم من الأصل متجنبون للسوء، وهذا القرآن هداهم فوضعهم على ما هم معتادون عليه ويريدونه ويحبونه، وأراهم السوء بشكل حاسم ليبتعدوا عنه... وتماشوا مع كلام القرآن، وهذا ما يقصده القرآن بقوله أنَّهم اهتدوا بكلام القرآن.

أمّا من كفر، فهو بفكر ونفسية سيئة، وهذا إن آمن و{عَمِلَ الصَّالِحَاتِ}، فبسبب انحرافه سابقًا عن الاستقامة فصار الدين الإلهي بعقيدته وشريعته وسلوكياته التي يأمر بها، صار كشيء جديد عليه.

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ{5})
نكمل مع التعريف بأفعال الإله تعالى والتي تدل على الربوبية التي نحن تحت سلطتها، وبالتالي فإرساله تعالى لرسول لنا ليس شيئًا عجيبًا بل تحصيل حاصل من نتاج ربوبيته التي تتضمن مسؤوليته عنّا من مستوى إلهي لهدايتنا وإنذارنا من مصيرنا السيّئ إن كنّا سيّئين:

{هُوَ}، الله تعالى، {الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً}، تضيء فيصدر منها الضوء لتجعل الأشياء مضيئة. والإضاءة وصف الشيء، فتقول: هذا ضوء، هذه بقعة ضوء. وترى الضوء وتلاحقه لوحده بدون العناية بكشفه للظلام. والنور حالة الانكشاف، فلا ترى نورًا ولكن ترى بالنور.

وجعل سبحانه، {الْقَمَرَ نُورًا}، كاشفًا للظلام.

عادةً الضوء ينير لنرى ولكن استعمال القرآن والعرب لكلمة ضوء بشكل دقيق يشير للضوء، للشيء، ومن تبعات الضوء النور أي انكشاف الأشياء.

{وَقَدَّرَهُ}، خطّط سبحانه للقمر تقديرًا لمساره ووقته وشكله، فصمّمه تعالى ليكون، {مَنَازِلَ}، فيتغيّر منزله مرتحله انتقاله في السماء، فيرتحل القمر عبر السماء فيصير له منازل مختلفة فيها، حيث في كل يوم نراه في منزلة مختلفة عن اليوم الذي سبقه، وفي البداية يكون كالخيط الرفيع قرب قرص الشمس ونستطيع رؤيته بعد غياب قرص الشمس، ثم نراه يكبر وتتغيّر منازله فيبتعد عن نقطة مغيب الشمس عند غيابها وهكذا يبتعد ويكتمل ليصير بدرًا... والنجوم نراها ثابتة في مكانها ونرى القمر يتغيّر مكانه بالنسبة لها كلما غربت الشمس، وتلك الأماكن المتغيرة هي ما يسمِّيه الناس: منازل القمر. وفي القسم الشمالي عن خط الاستواء يسمِّي الناس تلك المنازل بالبروج الاثني عشر، العقرب الجدي الدلو القوس... وفي القسم الجنوبي من خط الاستواء يرون مجموعات أخرى من النجوم وضعوا لها أسماء مختلفة: القرد والأرنب...

{لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ}، فقدّر سبحانه القمر منازل حتى تتمكّنوا من تعداد الشهور والسنين كوحدات مرجعية ثابتة، سنةً سنتين عشرًا... وأن تحسبوا فتعرفوا مقادير الزمن بمقارنة الأزمنة مع بعضها، فهذا الآن ولد بعمر العشر سنين وسيصير فتى كقوّة عاملة بعد ست أو ثمان سنوات، فتحسب متى سيصير فتيًّا... وهذه الأرض لا تتحمّل زراعة البطاطا موسمين متتاليين ويجب انتظار مرور ستة أشهر لزراعتها بالبطاطا من جديد... وهكذا تحسب للأشياء والأمور اعتمادًا على مرور الزمن الذي تحدّده من حركة القمر.

أكثر الناس اليوم معتادون على التقويم الشمسي، بسبب انتشاره على التقويمات الورقية "رزنامات" وعلى الهواتف والكومبيوترات... أمّا قديمًا فكان التقويم الشمسي منتشرًا في المدن الكبيرة فقط، وعند الذين لهم دولة عيّنت واعتمدت على متخصصين بتحديد الأيام لارتباط تحديد الفصول والسنين بشؤون الدولة ومصالح الناس... والآية هنا لا تعطي أهمية أكبر للتقويم القمري على التقويم الشمسي، بل تلفت الانتباه لظاهرة تغيّر شكل القمر بشكل واضح ومنتشر فوق رؤوس كل الناس، كرزنامة ضخمة في صفحة السماء، ويبدو من الآية أنها تشير لهذا التغيّر المتكرر في القمر أنه الدافع الذي حفّز الناس على الانتباه للوحدات الزمنية الأكبر من اليوم، وهي الأسبوع والشهر والسنة.

حسنًا، هل يعتقد أحدٌ ما أنه بالصدفة صار للقمر حركة دورية متكررة، ونحن البشر "بذكائنا الخارق" لاحظنا هذا واستعملناه للتقويم التاريخي؟ لا، فهذا غير صحيح، وليس بالصدفة، وليس بمهارة وشطارة منّا استغلينا هذه الظاهرة، بل هي بالأصل كان لها تخطيط، فالذي خلقها هو المخطّط حتى نستفيد منها ونعلم عدد السنين، فنعرف مثلًا كم "اثني عشر شهرًا" عمر شجرة الكرز هذه حتى نحسب لها كم سنة ستعيش وتنتج حتى نزرع غيرها بقربها قبل موتها...
ونعرف مثلًا كم سنة عمر هذه البقرة "كم اثني عشر شهرًا" لأنها من فصيلة لا تعيش أكثر من خمس عشرة سنة "تقريبًا"، ونعرف مدة استئجار العامل أو الأرض أو البيت أو المحل التجاري... وهكذا نعرف عدد السنين ونستفيد منه في الحسابات التي تؤثر على حياتنا ومأكلنا ومعاشنا وعلاقاتنا...

قارنها مع شيء آخر كرّر طرحه القرآن بعبارات مختلفة، فما علاقتك أنت بالطعم اللذيذ للعنب والتمر والرمان؟ وما معنى أن يكون لذيذًا ومرغوبًا ومغذّيًا لك؟ وما تفسيرك للمحلوب الذي ينتج من بين فرث ودم من البقرة وتشربه أنت ليغذّيك؟ ألا يدل ذلك على تصميم لك ولبيئتك ليكون بينك وبينها هذا الارتباط؟! وهنا الكلام عن علمنا لعدد السنين والحساب عبر حركة القمر، فهو نموذج يعرضه القرآن عن أمور لها علاقة بحياتي وأنا فقط التفتُّ لها فلم أصممها بهذا الشكل، فمن المسؤول عن ذلك؟

{مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ}، فلم يركّب ويؤلّف سبحانه الشمس والقمر وما ينتج عنهما من ظواهر، {إِلَّا بِالْحَقِّ}، بالصواب وليس بالباطل، فكان خَلْقُهُمْ لهم عملًا صائبًا صحيحًا. قارنها مع قدرات عقلية ومالية في إنسان قرّر إنجاز شيء ما اعتمادًا على حسابات بعيدة الأمد، فبنى ناطحة سحاب على أساس أنها توفير بالمساحة والطاقة ولتكون مدينة مع خصائص ومنافع الحيّز الصغير... فإن تحقّقت الأهداف فعمله كان حقًّا، والباطل هو إنجاز شيء لا ينتج عنه منافع. وهنا الكلام نفس الشيء، فسبحانه ليس مضطرًّا لخلق ظاهرة أطوار القمر المتكررة بشكل دوري، بل شاء "اختار وقرّر" سبحانه هذا التصميم وخلقه بالحقّ، فلم يكن باطلًا ما فعله سبحانه، فما نتج عن هذه الظاهرة من تعداد للسنين والحساب كان شيئًا مهمًّا.

ننتبه، فمقصد الآيات هنا في هذه الفقرة يشير إلى تعجّب الناس من تدخّله تعالى في شؤونهم حين قال شخص ما إنَّه رسول ناقل لأوامره تعالى للناس... ومن ناحية ثانية فهم لم يلتفتوا أنهم أصلًا تحت تدخله تعالى في كل ما يتعلّق بهم، فمن الصفر خلقهم سبحانه، وصمّم لهم بيئة فيها كذا وكذا... فكيف يفصلون بين حالة كونهم في كل شيء تحت ربّ العرش، وبين تدخّله تعالى في دينهم؟!

{يُفَصِّلُ الْآيَاتِ}، فالأمور المميزة من مستوى إلهي فصّلها فلم يجعلها سبحانه مجملةً مخلوطةً مع شيء آخر يشوّش أفكاركم، {لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، لأناس لهم كيان الجماعة ويتفاعلون مع هذه الظاهرة المرتبطة بهم كجماعة تحتاج فيما بينها لمعرفة عدد السنين والحساب وهم يعلمون بأهمية خلقها بهذا التصميم، بتعبير آخر: فسبحانه خلق ما خلقه هكذا لأناس فيها فهم وعقل ليروها مميزة ويتعرّفوا عليه سبحانه بسهولة.

في مقابل الذين يعلمون فهناك أناس لا يعلمون، لا يفهمون فلا يفكّرون لأنهم مصرّون على الكفر وعلى إنكار التخطيط الإلهي الواضح للظواهر من حولهم، وعندهم اعتقاد بأن كل هذه الأمور حدثت لوحدها وبالصدفة، ونحن بذكائنا نستفيد منها... فهؤلاء حقًّا لا يملكون علمًا حقيقيًّا، وحتى لو كان معهم شهادات جامعية، كدكاترة ومهندسين، فهم بلا عقل وبلا فهم حين يرون الشمس الضخمة جدًّا، وكيفية إصدارها للضوء، ويرون حركة القمر وتغيّر شكله، وكونه دافعًا لحساب الزمن البعيد الأمد والذي يحتاجه الناس كجماعة تتعامل مع بعضها، وبكل سخافة يقولون إنَّه صدفة ولوحده حصل، ومن كثرة الاحتمالات نجح احتمال منظومتنا الشمسية وتشكَّل كما نراه وصار فيه حياة...؟! وإذا وضعت أمامهم ساعة يدوية بسيطة من صنع الإنسان، وقلت لهم: هل هذه الساعة تحسب الوقت بالصدفة أم عن تخطيط؟ فسيعتبرونك سخيفًا فمن الواضح أنها مصنوعة لهدف. ولكن النظام الضخم للتوقيت والحساب، والمعتمد على حركة الشمس وضوئها وعلى نور القمر وأطواره والذي يمكن لكل سكان الأرض أن يروه، فبرأيهم حصل وصار هكذا بالصدفة أو لوحده أو من نتاج عشوائي نجح فيه الأفضل... وليس عن تخطيط من مستوى إلهي!

(إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ{6})
نكمل مع لفت الانتباه للخالق الذي خطط لكل شيء:

{إِنَّ فِي اخْتِلَافِ}، في تعاقب، {اللَّيْلِ}، فترة العتمة، {وَالنَّهَارِ}، فترة الضوء، كما نقول: أسامة وخليل يختلفان على الحراسة. يعني أسامة يذهب ويأتي خلفه خليل للحراسة، ثم يذهب خليل ويأتي خلفه أسامة. فالليل يذهب عن بقعة من سطح الأرض ويحل محله النهار، ثم النهار يذهب عن بقعة ويحل محله الليل وهكذا.

و{مَا خَلَقَ اللَّهُ}، فيما ألّف وركّب سبحانه، {فِي السَّمَاوَاتِ}، من مجرات وأشكال وأنواع من كواكب ونيازك ونجوم وغيرها في السماوات الأخرى من ملائكة (ع) وجنّ... وفي {الْأَرْضِ}، من حيوانات ونباتات وحشرات وأشياء وظواهر... {لَآيَاتٍ}، فهي أشياء مميزة بمستواها، وطبعا المقصود أنها مميزة وتدل على تميّز من صمّمها وخلقها،

{لِّقَوْمٍ}، لأناس لديهم كيان الجماعة المتفاعلة مع ما خلقه تعالى، {يَتَّقُونَ}، يتجنبون شيئا ما، وسياق الكلام عن تجنّبهم للسيئات وهذا هو نفسه تجنّبهم لغضبه وعقابه تعالى.

لكن ما العلاقة بين التقوى وفهم هذه الآيات؟

بعض الناس يتخصص في علم الفلك أو غيره، ويحصل على معلومات كثيرة ودقيقة عن كوننا، وبعض الناس يتخصص في علوم الحياة أو الجغرافيا للأرض ويحصل على معلومات أيضاً، ولكن لو كان في داخل عقلية هؤلاء الناس أنهم غير مستعدين لسماع كلام يتحكّم في أفكارهم وأفعالهم ليستقيموا، فهم لا يريدون أوامر منه تعالى والتي تنهاهم عن السيئات، فهؤلاء صحيح أنهم يعرفون الآيات السماوية والأرضية ولكنها غير نافعة لهم، بل هي نافعة وتكون فعلا آية "شيء مميّز" كعلامة ودليل للذي اتخذ قرارا بأن يكون تَقِيًّا، لأنه الوحيد الذي استفاد منها، فآمن واتقى، وتجنّب السيئات، وبالتالي تماشى مع أوامره تعالى، وسينال الجنة، وهذا هو التخطيط الذي بسببه خلق سبحانه هذه الظواهر.

تلاحظ شيئا مهماً جدا، حيث إن المعروض عليك عبر هذا القرآن أن تؤمن بالحقّ بالمعلومات العاكسة للواقع، فواقعاً الإله واحد أحد صمّم وخلق ويدير كل شيء، ومعروض عليك الصلاح بترك فعل السوء، فما معنى رفضك لذلك؟ وما البديل؟ الكفر عموما من الكفر بتوحيده تعالى عبر الشرك به أو الكفر بإنكاره تعالى، والشريعة والسلوكيات الفاسدة، فهل هذا هو البديل الدافع لك لرفض هذا القرآن؟ ومن ناحية ثانية الذي خلقك حكم عليك بمحاسبتك فيما تفعله ولا مهرب لك من ذلك، فلا تضحك على نفسك بأي عذر لن ينفع...

سنرى في الآية التالية شرحاً لربط التقوى بالاستفادة من الآيات:

(إَنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ{7})
السبب في أن صار بعض الناس لا يَتَّقُونَهُ تعالى وبالتالي لم يستفيدوا من الآيات ليهتدوا بها:

{إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا}، الذين أصلا حالة حبّ وتوقّع وترجيح حصول اللقاء معه تعالى في عالم الآخرة مفقودة عندهم، فلا يحبّون حصوله ولا يتوقعون حصوله، {وَرَضُوا}، فقبلوا بمحبّة وسرور، {بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، بما هو موجود هنا من إشباع للشهوات والرغبات ومن ضمنها السيئة منها، {وَاطْمَأَنُّوا بِهَا}، حيث توافرت عندهم معطيات تستبعد أي خطر عليهم، وفعلوا ما يريدون بمتاع الدنيا حتى لو كان سيئاً، وهم يستبعدون حصول أي خطر من محاسبتهم على ما فعلوه من سوء.

هذه الفئة من الناس الناكرة للآخرة، وبالتالي لا تجد سبباً يمنعها من التمتع بما في الدنيا حتى لو كان سيئاً، يوجد في مقابلها أناس غيرهم أيضاً ينكرون الآخرة، ولكن ربما ليسوا مرتاحين في الدنيا! ولكن لم تذكرهم الآية بشكل مباشر، وذكرت لنا السعداء في حياتهم كنموذج بارز عن الناس المتعلقين بالدنيا، لأن لديهم على الأقل سبباً للتعلق بها، أما الذي ليس سعيداً في حياته، ولا مُشْبِعاً لشهواته، وفي نفس الوقت متعلق بالدنيا، فهذا ليس لديه سبب مقنع للتعلق بها والكفر بالآخرة، ولا يصلح ليكون نموذجاً تتكلّم عنه الآيات كمثال عن الذين لا يرجون الآخرة بسبب تعلقهم بمتاع الدنيا التي فعلاً يتمتعون بها.

الراضون بالدنيا، {وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا}، وهم عموم الذين عن الأمور المميزة بمستواها الإلهي المنسوبة له تعالى، {غَافِلُونَ}، أي إنهم عن قصد غير منتبهين وغير آبهين ومشغولون بأشياء أخرى، لذا لا تَهُمُّهُمُ الآيات! وتكملة الكلام معهم في الآية التالية أن مأواهم النار...

تَقْوَاهُ تعالى الدافعة لرؤية آياته وفهم إشارتها لإله عظيم، يُقَابِلُهَا من ليس لديه الدافع لتقواه تعالى، فلماذا سيتجنّب السوء إن كان لا يؤمن بحصول لقاء معه تعالى في الآخرة لمحاسبته؟ وقبل ذلك، فإن استبعاده لحصول هذا اللقاء معه تعالى في الآخرة نابع من رضاه واطمئنانه بما يجده هنا في الدنيا من رغبات وشهوات ونزوات... فهو لا يريد التقيّد بأوامره تعالى ولا يرغب بالالتزام بالصلاح وترك السوء، ومن هذا المنطلق ليس لديه الرغبة في تصديق الآيات التي تدل على إله وآخرة وحساب وجزاء، وبناء عليه ليس لديه رغبة ولا توقّع لحصول آخرة وحساب وجزاء، وإضافة إلى هذه

النوعية الراضية بالدنيا، تضيف الآية عموم من غفل عن آياته تعالى ولم يؤمن بدينه سبحانه حتى لو لم يكن راضياً بالدنيا، فلنقل إنه فقير. وجميع الذين من هذه النوعية:

(أُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمُ النُّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{8})
{أُولَئِكَ}، الراضون بالدنيا ومعهم الغافلون عن الآيات حتى لو لم يكونوا من الراضين بالدنيا لأنهم لسبب أو لآخر محرومون من متاعها، {مَأْوَاهُمُ}، مكانهم الذي سيعودون إليه بعد هذه الدنيا هو، {النَّارُ}، وهي نار الآخرة ليتعذبوا فيها، {بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، بالذي كانوا يحصلون عليه مما نتج من أعمالهم، وهي الأعمال السيئة التي قاموا بها ونتج عنها تحصيلهم للسيئات ونتج عن ذلك أن يكون مأواهم النار.

أخبرنا سبحانه عن تخطيطه لأمور نشاهدها في الدنيا كَتَغَيُّرِ أشكال القمر وتعاقب الليل والنهار، كنموذج عَمَّا أراد تعالى حصوله، وحصل، وترى منه نموذجاً عن القدرة الفائقة للإله سبحانه... وها هو سبحانه يخبرنا عن تخطيطه للآخرة حيث سيحاسبنا إن لم نطعه، فمن آياته التي تراها والدالة على عظيم قدرته تفهم أن كلامه تعالى عن رجوعنا إلى الحياة ومجازاتنا شيء أكيد حتمي.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ{9})
{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، فقاموا بالأمور الصالحة الجيدة، فتركوا ما يرونه فاسداً وعمليّاً تركوا ما حرّمه تعالى، وفعلوا ما يرونه حسناً وعمليّاً فعلوا الحلال والواجبات الدينية.

{يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ}، يضعهم المسؤول عنهم من مستوى إلهي على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، {بِإِيمَانِهِمْ}، فهم بسبب إيمانهم عملوا الصالحات، وسيهديهم تعالى بإيمانهم إلى حيث، {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ}، إلى مكان رائع بالأشجار والبساتين والأنهار والشلالات... ولا تبالغ لتتصورها كمستنقعاتٍ من كثرة الأنهار، بل تذكر الوَسَاعَةَ مع كثرة الأنهار مثل المناطق على الأرض، حيث إن لدينا منطقة شلالات ومنطقة أنهار ومنطقة بحيرات وبقرب تلك المناظر الجميلة فسحاتٌ...

مرةً تتصور نفسك في منطقة فيها نهر واحد، ومرة في منطقة فيها نهران، ولكن الصورة عن الآخرة أنه في مناطقها المختلفة سوف تجد مناظر الأنهار والجداول الجميلة، وبقربك دائماً أنهار للشرب بأنواع المشروبات الرائعة المختلفة الطعم واللون كما ورد في الآية 15 من سورة محمّد "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى..."، {فِي جَنَّاتِ}، في أماكن كل ما فيه موصوف بالروعة، {النَّعِيمِ}، التنعّم، فهي جنّات فيها راحة وهناء وسعادة دائمة.

بعبارة من كلامنا العادي، يَسْأَلُكَ أحدٌ ما: إيمانك إلى أين سيؤدّي بك؟ تُجِيبُ الآية أنهم بإيمانهم سيهديهم تعالى إلى جنّات، حيث إنَّ نهاية المشي على الإيمان يوصلهم إلى حيث تجري من تحتهم الأنهار في جنّات النعيم.

نلاحظ المعنى الدقيق للآيات السابقة التي قالت عن الناس الذين رضوا بالحياة الدنيا، واطمئنوا بها، ونلاحظ كيف تصير معانيها واضحة عندما نقرأ في الآية هنا توصيفاً صغيراً ومختصراً عن الجنة، ونفهم أن كل شيء في الدنيا لا يساوي أي شيء من السعادة في الآخرة.

دائماً نتذكّر أن الإيمان وحده بلا عمل صالح لا ينفع، والعمل الصالح لوحده بلا إيمان لا ينفع، فكلاهما معاً يهديان إلى الجنّة.

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{10})
هل يأتي يوم ويشعر أهل الجنة بالملل أو الضجر أو التأفّف أو الانزعاج...؟:

تجيبنا الآية: {دَعْوَاهُمْ فِيهَا}، ما يُعْلِنُونَهُ ويُشْهِرُونَهُ في الجنّة له تعالى، قولهم في الجنة: {سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ}. تنزهت عن الصفات الناقصة يا إلهي، فكل صفاتك حسنة. هم يقولون ذلك لأنهم يرون الأشياء المدهشة بالروعة التي أعطاها سبحانه لهم في الجنة، حيث في كل لحظة هم في سعادة متواصلة بطرق مختلفة، ممّا يسبب لهم حالة دائمة من التعجب والدهشة من الروعة، لذلك لا يمرّ عليهم وقت إلّا ويصدر منهم دعاء التسبيح لعظمته تعالى الذي منحهم كل هذه الروائع.

هل يتشاجر أهل الجنة، أو يغارون من بعضهم، أو يحسدون بعضهم، أو يتذكّرون مشاكلهم في الدنيا؟ لا:

{وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا}، وأول كلمة يقولونها لبعضهم حين يتلاقون، في الجنة: {سَلَامٌ}. لا نتوقّع منكم ولا أي شيء سَيِّئٍ، ولا تتوقّعوا منّا أي شيء سَيِّئٍ. ففي الجنة لا يخطر ببالك أبداً ولو للحظة أنك ستتعرض للأذية ولو بشكل طفيف، ولو بالخطأ من أي أحد.

{وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ}، وآخر ما يعلنه ويشهره فيقوله المؤمنون بعد كل سعادة تحصل معهم: {أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، صاحب الاسم المحدّد المميّز الله الذي هو المدبّر " المسؤول عن الجميع" من مستوى إلهي، كل ما يفعله موصوف بأنه حميد جيّد.

نتذكّر أنه في الجنة ليس مطلوباً من المؤمنين لا الصلاة ولا التسبيح ولا غيره، ولكن بسبب التأثر من شدة السعادة فهم يسبحونه تعالى ويحمدونه مع أنه غير مطلوب منهم ذلك، فهي ردّ فعل عفوي، حيث يعبّرون عن شكره وحمده تعالى بشكل لا إرادي بسبب السعادة العارمة التي يعيشون فيها...

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{11})
تحدثت الآيات السابقة عن شرّ وخير، وعن النار والجنة، والمشرك يراهما بعيدتين، والمؤمن بإيمان ضعيف فيه تشويش أيضا يراهما بعيدتين، ويقول: أنا مؤمن فلماذا لا أحصل على الجنة الآن؟ أو يقول المشرك: لم أر النار ولا أخاف منها لأني لا أؤمن بها، ولست أرى الجنة، ولا أطمع بها لأني لا أؤمن بها، والآن هنا أريد الخير في الدنيا... وردا على هذه الأفكار تقول الآية:

{وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ}، يقدّم وقت الشرّ للناس السيئين المستحقين للشرّ، ويقدّم سبحانه وقته ليحصلوا الآن على العقاب على سيئاتهم ولا يتركه تعالى لوقته المناسب في الآخرة، حيث الحساب النهائي ودخول الناس قسمٌ إلى الجنة وقسمٌ للنار، فلو يعجّل سبحانه الشرّ، العقاب للناس السيئين، {اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ}، كما يستعجل هؤلاء الناس بالخير هنا في الدنيا، ولا يصبرون على الضرر والتعب والمشاكل ويريدون السعادة المطلقة الآن، {لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ}، لأمر سبحانه باستعجال أجلهم بالشرّ، لأنهم يستحقون العقاب وفي نفس الوقت يستعجلون ويريدون الآن الحصول على الجنّة حتى يؤمنوا! ولو استجاب سبحانه لاستعجالهم لكانت النتيجة أنهم الآن وفورا وقبل إكمال ما بقي من حياتهم سيدخلون إلى النار.

لكنْ كِلْتَا الحالتين من الاستعجال للخير أو الشرّ، لن تحدثا إلا في الموعد النهائي المحدّد في يوم القيامة، والذي لا يعلم توقيت حصوله إلا سبحانه.

بناءً على قراره سبحانه بأن لا يعجّل الخير أو الشر، {فَنَذَرُ}، نترك ولا نهتمّ بـ {الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا}، لأنهم أصلاً لم يحبّوا ولم يتوقّعوا ولا يرجّحون حصول لقاء معه تعالى في الآخرة، نذرهم {فِي طُغْيَانِهِمْ}، في تعدّيهم للحدود التي رسمها تعالى، {يَعْمَهُونَ}، ويكونون بدون استقرار، ولا يثبتون على رأي صحيح، فمرّةً يطلبون دخول الجنّة الآن ومرّةً يطلبون حصول العقاب الآن، ومرّةً يفهمون أن الحساب مؤجّل ومرّةً ينسون ذلك ويشترطون رؤية الجنّة والنار... ويتركهم سبحانه يعمهون، مشوّشين لا يدرون الحقيقة ولا يرونها مع أنها معروضة عليهم في القرآن بوضوح.

لِنراجع بشكل أبسط ما تقوله الآية: حيث إنّ الناس بشكل عام يريدون الحصول على الخير بعجلة وبسرعة، فيريدون القصور والبساتين والصحة والمشتهيات... ولا يصبرون للحصول عليها في الآخرة، بل هنا والآن في الدنيا يريدونها، ولكن أكثر الناس لا يستحقون هذا الخير بل يستحقون الشرّ لأنهم بالأكثرية كافرون فاسقون منافقون، لذلك يستحقون

العذاب في جهنم، ولو عجّل سبحانه لهم بالشرّ بناء على ما يستحقّونه كما يستعجلون هم بالخير بناء على طلبهم للجنّة الآن، لكان قضى الأمرَ ونفّذ فيهم سبحانه حكم الموت حالاً، ولدخلوا إلى جهنم التي يستحقونها بسبب كفرهم وسيئاتهم.

لكنّ الاستعجال بالجنّة أو النار لن يجعلهما يحصلان الآن، لأنه بعدما تتبدّل الدنيا ستأتي الآخرة وعندها يصير الوقت المحدّد للخير والشرّ الذي سيصيب الناس بناء على ما فعلوه في الدنيا، وحالياً يذر ويترك سبحانه الذين لا يؤمنون بالآخرة ومتعلقين بالدنيا ويريدون الخير هنا في الدنيا، ويتركهم سبحانه أحياء ولا يستعجل لهم الشرّ، ويتركهم في ارتكابهم للسيئات تائهين عن الحق.

نلاحظ ابتداءً من الآية 46 توسّعاً في هذه النقطة، حيث سنرى هناك الحديث عن الاستعجال بالعذاب الدنيوي أيضاً.

(وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَآئِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{12})
مثال عن استعجال الناس بالخير هنا في الدنيا وإهمالهم للآخرة، وفي نفس الوقت هو مثال عن اعترافهم بالإله المتدخّل في حياتهم، علماً أنهم يتعجبون من التدخل الإلهي في حياتهم عندما جاءهم رسول يحمل رسالة إلهية عن العقيدة والتشريع والسلوكيات، ويتعامون عن رؤية الآيات الواضحة الدالة على أنه تعالى خطّط لأدق وأكبر تفاصيل حياتنا وللكون من حولنا:

{وَإِذَا مَسَّ}، فأصاب وشعر، {الْإِنسَانَ}، الغالب الأعم والأكثرية من الناس، مسّه، {الضُّرُّ}، الضرر الأشياء السيئة التي تؤذيه هنا في الدنيا، كالمرض والخسارة المالية وفقدان الأمن... فربما يمرض شخص ما فيكون أصابه الضرر، ولكنه لم يشعر بأنه متضرر لأن المرض غير خطير، فلا يكون "مسّه" الضرّ، وربما يخسر شخص ما في تجارته فيتضرر ولكنه لم يهتم، فلا يكون في حالة "مسّه" الضرّ، ولكن عندما يشعر الإنسان بالمضايقة لأي سبب، سواء من مرضه هو أو من مرض الذين يحبّ، أو بسبب خسارة مادية، أو من شعوره بالخطر أو أي شيء، فعندها نقول: مسّه الضر، فأصابه وشعر فعلاً بالضرر.

فإذا شعر الإنسان بأن الضرر أصابه: {دَعَانَا}، فأعلن وأشهر لله تعالى، {لِجَنبِهِ}، وهو مستلقٍ على جنبه اليمين أو اليسار أو ظهره أو بطنه، أو دعانا، {قَاعِدًا}، على قفاه سواء على كرسي أو على الأرض وغيره، {أَوْ قَائِمًا}، أي واقفاً على رجليه، يعني في أي حالة ووضعية فهو يدعو فيعلن لله تعالى أنه بحاجة للمساعدة، والحالة العادية للإنسان المؤمن أن يدعو الله تعالى دائماً في كل حالاته، مستلقياً جالساً واقفاً ماشياً... وهو دائماً مؤمن به تعالى في السرّاء قبل أن يصيبه الضرّ، والحالة العادية لغير المؤمن أن لا يهتمّ أصلاً بالدعاء له تعالى، وهنا تقول الآية إنّ الناس "بشكل عام" عندما تشعر أنها متضررة ضرراً دنيوياً، وتريد المساعدة فإنها تدعوه تعالى في كل حالاتها، واقفةً نائمةً جالسةً... وسابقاً قبل الضرّ كانوا ناسين له تعالى!

أما الشرّ الذي ينتظرهم في آخرتهم فلا يهتمون به! ولا يدعونه سبحانه لتخليصهم منه!

{فَلَمَّا كَشَفْنَا}، أزال وأزاح تعالى، {عَنْهُ الضُّرَّ}، فزال الضرر عن الإنسان الذي دعا، {مَرَّ}، سار وانطلق صاحب الحادثة التي كانت عظيمة في نظره ويدعو لها في كل أوقاته وحالاته! مرّ {كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ}، وكأنه لم يكن مصاباً بضرر وقد توجّه إليه تعالى بإعلانه عن حاجته للمساعدة! فنسي ما حصل معه من ضرر ونسي أنه تعالى كشفه عنه، فمرّ على ما حصل من خلاص من الضرّ وكأنه لم يحصل.

{كَذَلِكَ}، أي بمثل هذا المثل الذي يحصل مع الناس ترى كيف، {زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، والسوء الذي يعمله المسرفون لسبب أو لآخر تزيّن لهم وصاروا يرونه جميلاً. فالمسرفون هم الذين تجاوزوا الحد المعقول والمسموح، حيث صرفوا حياتهم في غير طاعته سبحانه، وصرفوا مالهم في السيئات، وتجاوزوا الحدّ في شهواتهم واستعملوها في السيئات... وتزيّن للمسرفين ما كانوا يعملون من إسراف، فلم يعودوا يرونه إسرافاً ممنوعاً. وهنا سياق الكلام عن حالة الراحة التي أسرفوا فيها ونسوه تعالى، في مقابل حالة الضرّ التي توقفوا فيها عن الإسراف طالبين المساعدة منه تعالى، ولما انتهى الضرّ نسوه تعالى!

فيما سيأتي من السورة كلام عن نماذج من أقوام مسرفة...

بالنسبة لفاعل التزيين للناس، فسبحانه عبر تصميمه لنا بحيث إذا تعلّقنا بالدنيا ونسينا الآخرة فإننا سنرى الإسراف جميلاً، وعبر وسوسة الشياطين ستتحفّز عندنا حالة رؤية الإسراف جميلاً، لذلك فاعل التزيين بالأساس هو سبحانه الذي خلقنا مع إمكانية حصول تزيين الدنيا لنا، وأيضاً الشياطين لهم دور في تفعيل حصول حالة رؤيتنا للإسراف جميلاً، والأساس هو نفسنا التي تقرّر سلوك طريق الإسراف... وهي أيضاً تزيّن لنا...

على ما يبدو فإن السورة لم تتوسّع في موضوع إبليس ووسوسته واكتفت بالكلام عن نفسيات الناس حتى تبقى السورة مناسبة لفهم الشخص الذي لا يؤمن بأي شيء ديني، وحتى لا تستطرد بشيء من خارج محورها، فمن أراد التعمّق أكثر فهناك سور أخرى تتحدّث عن إبليس وشياطين الجن والإنس.

ننتبه، لأنّ الآية تتحدث عن حالة عامة تصيب كل الناس، وحتى المؤمنين، وذلك عندما يكون الاهتمام بما يصيبنا في الدنيا أكبر من الاهتمام بالآخرة، فعندما يمسنا الضرر الدنيوي، كالمرض وقلّة المال ومشاكل الوظيفة والدراسة... فإننا نصير في حالة استمرار بالدعاء لربنا سبحانه ليساعدنا، ولكن بعد انتهاء المحنة ينزل مستوى دعائنا إلى درجة الاختفاء!

نتذكّر دائماً، أنّ القرآن يتحدّث عن نماذج، لذلك لا تقصد الآية هنا أنه تعالى سيكشف الضرّ عن كل من دعاه، لا، بل تشير لحالات قرّر فيها سبحانه التدخّل "بالطريقة والمستوى المناسب" ليكشف الضرّ عن مشرك، كنموذج.

بقي شيء، فمن الآية هنا وأمثالها كالتي تصف الداعي له تعالى في ظلمات البحر حين يفقد الأمل بالنجاة من عاصفة... بهذه الأمثلة يلفت سبحانه انتباهنا لما جعله فينا من قابلية لتفعُّل التعلّق بقدرة فائقة يمكنها تغيير الظروف السيئة التي فقدنا القدرة على تغييرها، وفي عموم الورطات الصعبة، مزروع فينا التوجّه نحو الذي خلقنا لمساعدتنا، وهذا الإيمان الذي يمكن تسميته بالبدائي، الفطري، الغريزي... يلفت القرآن انتباهك له أنه مزروع فيك كواحدة من الطرق لتتعرّف عليه تعالى، لأنّ الخوف مما لا قدرة لنا على التعامل معه، كالنار والسيل والعاصفة والحرب... هي دوافع للتعلّق بقدرة فائقة، وبقلب سليم ستجعلك تتعلّق به تعالى وحده، وبقلب فاسد، ستجعلك تخترع إلهاً للنار وآخر للمطر وإلهاً للعواصف... بينما الفكر السليم يدلّك على إله واحد.

ضمّاً مع ذلك يلفت القرآن انتباهنا لطريق آخر للتعرّف عليه تعالى، وهو السؤال: من خلق؟ من صمّم؟ وبقلب سليم مِن الآيات فيما خلقه تعالى ستراه تعالى خالقاً، وسترى انعكاس صفاته الفائقة فيما خلقه، وهذا بالأصل ما ينتج عنه فيما بعد مشاعر مثل التوجّه نحوه تعالى بسبب الخوف مما لا قدرة لنا على التعامل معه، ومثل مشاعر الإعجاب والحبّ والمدح... له تعالى على روائع ما أعطانا... وتراتبياً تأتي ملاحظة الآيات ومنها ينشأ إيمان فكري، وخلاله تتراكم ردود الفعل النفسية على الأفكار فينتج عنها مشاعر الخوف والحب...

أخيراً يأتي الدور على ثالث طريقة للتعرف عليه تعالى عبر رسله وكتبه، حيث منها نتعرّف بالخبر عليه تعالى وعلى صفاته وعلى مخطّطه لنا.... وتكون هذه الأخبار كتقويم لمعلوماتنا التي استنتجناها من الآيات الإلهية التي نراها ونفكّر فيها، وتقويم لمشاعرنا له تعالى، فما تشوّش علينا معرفته لوحدنا مما نستنتجه من آيات أفعاله تعالى، وذلك بسبب أمراضنا القلبية، فيأتي الخبر منه تعالى مقوّماً مسدّداً مصوّباً لفكرنا ونفسيتنا، وهذا جانب من وصف تعلّمنا الحكمة من القرآن.

هذه الطرق الثلاث معاً متداخلة أو منفردة، تؤدّي إلى التعرّف عليه تعالى، وسورتنا هنا نموذج عن غيرها العديد من السور والتي أضاءت على هذه النواحي الثلاث، وبيّنت للمشركين سوء تفعيلهم لما زرعه تعالى فيهم بسبب سوء تفكيرهم وسلوكهم، وشرحت لهم أين أخطؤوا... ونبّهتهم أن سبب رفضهم لكلامه تعالى هو تزيّن الدنيا لهم لذلك رفضوا الإيمان والصلاح الذي بنظرهم يجعلهم مقيدين ممنوعين من أمور يحبونها ويرغبونها، مع أنهم موعودون بجنّة رائعة خالدة إن أحسنوا التصرّف، فهم ليسوا ممنوعين عن أشياء جيدة وفيها خير لهم، بل ممنوعون عن السوء فقط.

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ{13})

بناءً على اعتقادكم بالتدخل الإلهي في رفع الضرر عنكم حين تقعون في ورطة، التفتوا لنماذج عن التدخل الإلهي بإنزال الضرر في الدنيا على بعض الناس الذين كانوا مثلكم:

{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا}، استنفد فأمات تعالى، {الْقُرُونَ}، الجماعات المتعددة من الناس والتي كانت مقترنة فعاشت مع بعضها في زمان مشترك، {مِن قَبْلِكُمْ}، الذين كانوا قديماً قبل أن تكونوا.

كلمة هلك تقال لعموم ما هو مستنفَدٌ بتدرجات حتى نهايته، كالعمر أو الجسد أو الزرع انقضائِهِ حتى انتهائِهِ أو فساده، ويختلف عن الموت بأن فيه تدرّجاً في استنفاد الحياة والصحة والقوة، ومنه ما ورد في الآية 173 من سورة الأعراف "أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ"، فالكلام عن الهلاك باستنفاد الراحة والأمن والصحّة في النار. أما الموت فهو حالة فقدان الحياة.

هلك الشخص أو هلك القوم لا تعطي حصرياً معنى موتهم بل تشمل موتهم وتشمل انتهاءهم بأي معنى كان، وللشخص تشمل انتهاء تأثيره أو انتهاء حكمه كالتعبير في الآية 34 من سورة غافر "وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا..." حيث إنّ وصف هلاكه وصفٌ لاستنفاد حالة وجود رسول بينهم، واستعمال هلك للقوم يشمل انتهاء أثرهم الفاعل ومنه معنى موتهم، ويشمل انتهاء كيانهم من بعد تشتتهم...

لِنرجع إلى الآية، أنتم الآن جماعة تعيش في زمان ومكان واحد، وهناك قبلكم جماعات وجماعات كانت تعيش قبلكم، وقد أهلكهم سبحانه، {لَمَّا ظَلَمُوا}، عندما قاموا بأعمال لم يكن معهم حق فيها، كالكفر بالآيات الدالة عليه تعالى والشرك وقيامهم بأفعال السوء... فنزلت عليهم كوارث مميتة، فبعضهم أبيد بالكامل، وبعضهم جزئياً.

{وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ}، حيث أرسل تعالى لهم أشخاصاً ينقلون لهم الكلام الإلهي كموسى ونوح وهود وصالح عليهم السلام وغيرهم... جاؤوا بالبينات، بأمور بيّنة واضحة، تدل وترشد للإيمان، سواء أكانت كتاباً منه تعالى أو إجابة عن الأسئلة، أو آية "والتي نسميها معجزة"، ولكن رغم ذلك، {وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا}، فلم ولن يؤمن هؤلاء الناس! ولن يصيروا في حالة اعتقاد بدينه تعالى، لأنه كان لديهم قرار وتصميم على أن لا يؤمنوا.

{كَذَلِكَ}، أي بالهلاك، {نَجْزِي}، نعطي المقابل لـ {الْقَوْمَ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع دينه تعالى، {الْمُجْرِمِينَ}، الذين قاموا بالأعمال التي يستحقون عليها العقاب.

نلاحظ ابتداء الآيات بالدخول في موضوع الرسول الإلهي، فالناسُ السابقون ظلموا بكفرهم بالآيات وفعلهم السوء، فجاءهم رسل بالبينات، ولم يؤمنوا بسبب قرار عميق عندهم برفض دينه تعالى، لأنهم يريدون البقاء على سيئاتهم، فأهلكهم سبحانه، وأنتم لستم مختلفين عنهم، فقد جاءكم رسول... لننظر كيف تعملون:

(ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ{14})
{ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ}، أيها الناس عموماً وكنموذج عنكم الذين نزل القرآن في زمانهم، {خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ}، تخلفون الناس الذين ماتوا، وتأتون من خلفهم {مِن بَعْدِهِمْ} وتعيشون بدلاً منهم في الأرض، {لِنَنظُرَ}، ليصير أمامنا المنظر، لنوجّه اهتمامنا العام إليكم، {كَيْفَ تَعْمَلُونَ}، كيف ستكون نواياكم واعتقادكم وتصرفاتكم...

بعد القرون السابقة التي خلت، مضت، ها أنتم خلفهم حيث جاء دوركم للخروج إلى الحياة، وها أنتم تحت المراقبة الإلهية، فانتبهوا لمصيركم في الدنيا والآخرة.

ننتبه جيداً، لأن هذا الكلام يشير إلى الامتداد التاريخي لدينه تعالى، حيث قديماً أرسل تعالى الرسل، كسلسلة عبر تاريخ البشرية من أوّل ما تأهّل واحد منّا لحمل التكليف بدينه تعالى، من بعد آدم (ع)، وتلاحظ السورة من قبل لم تذكر إبليس كمتدخّل في تزيين الدنيا وهنا لم تذكر آدم (ع) وما جرى معه لأن كلامها عموميّ لأناس ربما يرفضون الاستماع لأي تاريخ دينيّ، ولكن لا بدّ من لفت انتباههم أنّه تعالى منذ قديم الزمان أرسل رسله، فلا معنى لتعجّبهم من إرسال رسول في زمانهم، إذ إنّ هذه سنّة الله تعالى التي خلت، والفقرات السابقة شرحت لنا أنّه لا معنى لتعجّبهم من إرساله تعالى

لرسله لأن كل شيء فينا ومن حولنا يجري تحت ربوبية ذي العرش، وبالتالي من الطبيعي أن يكون ديننا نابعاً من كلام ربّنا سبحانه.

في كلام الآيتين أسئلة كثيرة مضمرة، ما هو تفسيركم لتعاقب القرون؟ وما تفسيركم لهلاك البعض منهم؟ وما معنى تجاهلكم لحالة كونكم خلائف لمن سبق وسيخلفكم من سيأتي؟ وهو نفس الكلام السابق عن معنى الظواهر والأشياء التي من حولنا، وما معناها إن لم يكن هناك من خلقها وصمّمها بهذا الشكل؟ أيّ آلة "ماكينة" تراها ستبدي ملاحظاتك على تصميمها وعلى عملها... والغابة ستلاحظ فيها نظاماً بيئياً بيولوجياً متجانساً... والسماء ستلاحظ فيها ميكانيكيةً متجانسةً... ولكن أنت نفسك جزء من تصميم كبير، فكيف لا تلتفت لمن سبقك ولمن سيأتي بعدك لترى أنّكم معهم سائرون على شيء مخطّط ومرسوم لكم كلّكم؟ وإضافة لذلك وخلال مسيرة حياة البشرية هناك رسل يأتون بالبينات، ومنذ آلاف السنين ينقلون للناس نفس الكلام عنه تعالى وعن الآخرة، ما معنى ذلك؟ وما معنى هذا التكرار لنفس الكلام واستمراريته لآلاف السنين؟ وكيف تتجاهلونه وترفضون الإيمان بدينه تعالى؟

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ{15})
هنا تدخل السورة في الكلام عن الخبر الذي نقله الرسول ورفضه بعضهم متعلقين بما هم عليه من عقيدة وشريعة وسلوك:

{وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا}، فالشيء المميّز بمستواه الإلهي والمنسوب له تعالى {آيَاتُنَا}، والمقصود كلامه تعالى فإذا قرأه عن مستند إلهي أحد ما عليهم، لأن الرسول استناداً إلى الوحي يتلو الآيات، وهي، {بَيِّنَاتٍ}، واضحات، تدل على الإيمان الصحيح بشكل واضح وفيها شريعة تأمر بالصلاح وتنهى عن الفساد، عندها، {قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا}، فسمعوا الآيات الإلهية ولكنهم لا يحبون ولا يتوقّعون ولا يرجّحون حصول لقاء معه تعالى لمحاسبتهم، لأنهم يريدون البقاء على ما هم عليه وهو مخالف لما يقوله الرسول نقلاً عنه تعالى، قالوا: {ائْتِ}، أحضر لنا، {بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا}، بشيء تقرؤه غير هذا، {أَوْ بَدِّلْهُ}، أو تكلم بغير هذا الكلام.

لأنهم أصلاً لم يؤمنوا بالآخرة والحساب، وبالتعبير الدقيق بلا {يَرْجُونَ}، فهم أصلاً لا يريدون أن يكون هناك آخرة وحساب لأنهم يعلمون أنهم سيئون ولا يريدون التغيّر عن ذلك، لأن التعاليم التي يتلوها عليهم النبي(ع) لم تناسبهم، ولذلك يطلبون منه أن يقول قرآناً يعجبهم، حيث يتحدثون معه هكذا: لا يهمّنا مصدر كلامك، فالأساس عندنا حتى نؤمن لك أن تقول ما يناسبنا، فإما أن تحضر من عند ربك غير هذا القرآن، بحيث يكون محتواه مناسباً لما نحبّ وما نراه صحيحاً، فإذا أردتنا أن نتبعك فلا تطرح علينا أفكاراً لن نقتنع بها، فلا تحدّثنا عن تغيير دين الشرك ولا تفرض علينا حلالاً وحراماً غير ما نراه نحن مناسباً...

لو فرضاً كان هذا القرآن فعلاً من عند ربنا أو من عندك أو من أي مصدر كان، فلا يهمّنا الموضوع لأن قرآنك لا يعجبنا، وعليك أن تأتينا بقرآن غيره يعجبنا حتى نؤمن. أو إن كنت مصرّاً على مسألة أن القرآن ينزل عليك وحياً من ربّك، فلا مشكلة، حيث هناك حلّ، فقم بتبديل آيات القرآن النازلة عليك، اجعلها توافق أفكارنا والأمور التي نحبّها، تلاعب بها وبدّلها وقلها لنا بشكل يعجبنا، وعندها هناك احتمال أن نؤمن بك.

كما ترى بسبب شعورهم بالحرية والراحة والأمان من أي عواقب لأنهم لم يتعرضوا للتعذيب بعد، ولأنهم لا يؤمنون بآخرة فيها حساب، فهم يتعاملون مع الرسول الناقل للكلام الإلهي ببراغماتيّة عملانية استهتارية جافة، حيث في نظرهم يرون الرسول كشخص دخل في مشروع سياسي اجتماعي عقائدي وتشريعي... وحتى ينجح فعليه طرح الأمور بشكل مقنع، وكلامه الذي يدّعي أنه من الإله، غير مقنع، إذ لا يعجبهم لأنه مخالف لما هم عليه، وبما أن المدّعي للرسولية يبدو مصرّاً ولن يتوقّف عن دعوته، فهناك حلول لهذه المشكلة، أولها أن المشكلة في كلامه فَلْيَأْتِ بكلام غيره يعجبنا لنقتنع به، وهذا بغض النظر عن مصدر كلامه، فلا يهمّنا مصدره، ولكن يهمّنا أن يعجبنا حتى نقتنع به، فليحلّ هذه المشكلة، أو فَلْيُبَدِّلْهُ وَلْيُجْرِ عليه تعديلات بما يعجبنا فنقتنع به، وهكذا ستكون فرصته أعلى للنجاح بإقناعنا بكلامه.

ضع في بالك أنهم من خلفية الاستهتار بجدية الدين يقولون هذا الكلام، فهم أصلاً في حالة اختراع عقيدة وشريعة من هواهم وبما يناسب مشتهياتهم السيئة، وبناء عليه يسقطون هذا التصوّر على الرسول، فيقولون له: دعك من عقلية المبادئ الثابتة فهذه لن توصلك إلى أي نتيجة معنا.

{قُلْ}، أيها الرسول(ع): {مَا يَكُونُ لِي}، لا يحق لي وليس مسموحاً لي وليس من المفروض بي، {أَنْ أُبَدِّلَهُ}، أن أترك ما ينزل عليّ وأخترع آيات غيرها، {مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي}، من عندي أنا ومن دون أمر منه تعالى، كما نقول: هكذا لوحدي ومن رأسي. {إِنْ أَتَّبِعُ}، فأنا فقط أكون على، {إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ}، فقط ما ينزل على وعيي من الإله سبحانه أكون عليه وأنقله لكم كما هو، وأتبعه كلمة بكلمة وأنقله لكم كما هو.

هذا القرآن مصدره إلهي، وأنا مجرد رسول ناقل له، فلا معنى لطلبي من المصدر أن يبدّله، فهو سبحانه أمرني بنقل هذا القرآن، ولا معنى لتبديلي أنا للقرآن فأنا أقوم بوظيفتي كرسول، فهل سأتلاعب بكلام الإله!

والسبب الذي يدفعني لنقله لكم كما هو:

{إِنِّي أَخَافُ}، فأشعر بضرر أكيد لا يمكنني تجنّبه، {إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي}، إذا خالفت أوامر المسؤول عني من مستوى إلهي، فأطعتكم وبدّلت آيات القرآن بكلام آخر من عندي ليعجبكم، فإني أخاف، {عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، فهناك زمن وهو يوم القيامة من الموت وسأتحاسب فيه على أعمالي، فإن فعلت ما تطلبونه فسأتحاسب هناك ولن أتمكّن من تجنّب الضرر الناتج من ذلك، وهو يوم سيكون عظيماً بكل ما للكلمة من معنى، فهناك لا أحد يستطيع فعل أي شيء يريده، وفقط نقف لنتحاسب على ما فعلناه، وسنتعذّب، حيث سنتعرّض لما يضرّنا إذا كنّا سيئين ولا يمكننا التخلّص من العذاب...

كما ترى، فالردّ جاء متضمناً الفرقَ بين عقلية الاستهتار بالدين لدرجة اختراع عقيدة وشريعة قياساً على ما يعجبنا ويتماشى مع هوانا، وبين الالتزام بكلام الإله سبحانه، وهو دين صادق حقّ من إله حكيم، وفيما سيأتي من السورة كلام كثير عن القرآن وأنه منه تعالى... وعن كفرهم به ومحاسبتهم على ذلك في الآخرة...

بعبارة يُتَساهَلُ فيها، فإننا نلاحظ في كل العصور وليس حصراً على عصر النبي محمد(ع)، أن من لا تعجبه تعاليم القرآن، فهو يفكّر ويقول أنه لو نزل من الإله شيء يعجبه، ويتوافق مع مشتهياته ويكون في نفس الوقت ديناً. يتركني أخترع آلهة من أوهامي، أو يتركني أكفر به... ويكون الزنا حلالاً، وغصب الناس حقوقهم حلالاً، وأذيّة الناس الضعفاء حلالاً... وهذه هي الفكرة التي تتحدث عنها الآية في طيات كلامها، وتخبر الجميع أن القرآن نازل من الإله كما هو، ولا يحق لأحد التلاعب به، سواء أعجبه أم لم يعجبه.

ننتبه لشيء مهم، فما الذي لم يعجبهم في القرآن ويطلبون تبديله؟ أولاً: توحيد الإله الخالق، ثانياً: وجود مخطط إلهي للحياة الدنيا للبشر وأنه بعد الدنيا يوجد آخرة وحساب. ثالثاً: وجوب طاعة هذا الإله سبحانه عبر ما يقوله الرسول(ع). وفي تفاصيل الأمور التي يأمر بها الإله: برّ الوالدين، حرمة قتل النفس البريئة، الأمانة، العفّة... وبالنظر لهذه الأمور، فما الذي يجب تبديله ليعجبهم ليؤمنوا! فمن كان في ذلك العصر أو في عصرنا، ولم يعجبه القرآن، فليقل لنا ما الذي يجب تبديله؟ وهذه أمور طرحتها سور أخرى بالتفصيل وهنا سترى كلاماً مجملاً عنها، كما سيرد في الآية 59.

دائماً ضع في بالك الفرق بين دينه تعالى المطروح عبر قرآنه هذا، وبين دين الناس المشحون بكم هائل من التقاليد والعادات التي تحمل صبغة دينية، وبعضها مخالف لكلامه تعالى، والتي يراها الآخرون كعبء ثقيل التزامهم به لكثرة تفاصيله والتزاماته، كعادة ممارسة الصلوات المستحبة ليلاً وفجراً وبين بقية الفرائض... وعادة الصوم المستحب، والأدعية والصلوات المستحبة في أوقات النهار والأيام والأشهر والمناسبات... ناهيك عن استحباب هذا وكره ذاك من اللباس وقصّة الشعر والطعام... ناهيك عن العادات والتقاليد الشعبية كالمراسم وطقوس المناسبات الدينية الشعبية... ناهيك عن التزمّت بفرض واجبات وتدقيقات في التشريعات...

كمؤمنين مدّعين الالتزام أكثر من غيرنا بدينه تعالى، فلدينا دفتر شروط طويل عريض لوصف الآخرين بالإيمان، وأكثر تلك الشروط ما أنزل تعالى بها من سلطان، وأكثرها ليس واجباً، وأغلبها تزمّتٌ وتضييقٌ بلا معنى...

أقول لك هذا لِنَنْتَبِهَ حين نعرض دينه تعالى على الآخرين أو حين نتكلّم عن دينه تعالى أو نبحث فيه وندرسه... فنحن نتحمّل مسؤولية ما نقوله ونفعله ويعتبره الآخرون دينه تعالى، ولذلك تلاحظ الأهمية الشديدة لآياتنا هنا وأمثالها والتي تربط بوضوح أن دينه تعالى عُرِضَ علينا عبر تلاوته عن وحي إلهي، فهذا هو أصل وأساس دينه تعالى، والتفاصيل الأخرى إلى حدٍّ ما قبل التزمّت فهي من دينه تعالى السهل البسيط العادي، فإن ارتعب الآخرون كُرْهاً من أساسيات دينه تعالى لأنهم محبون للسيئات، فمسألتهم معلومة أنهم ظالمون، ولكن إن أرعبناهم بدينه تعالى بسبب اختراعنا في عقائده وتشريعاته وسلوكياته، فجعلناه ديناً لا يدخل في عقول إلا البسطاء، فنحن نتحمّل المسؤولية، وهكذا ترى جانباً مهماً جداً من آيتنا هنا، فحتى الرسول ذات نفسه مأمور بالانتباه من ذلك، وللأسف لم نفهم نحن ذلك وأقحمنا في دينه تعالى العجائب.

كمثالٍ عن ذلك انتشار الكتب والدراسات والوثائقيات... من الأكاديميين الذين بأكثريّتهم من المنتمين لمجتمع المسيحيين، وفيها كفر بدينه تعالى، وهو كفر سببه تعاملهم مع دينه تعالى بناءً على ما يجدونه في كتب المنتمين لدينه تعالى، كسخافة ولادة إله من امرأة بشرية، مشابهين في ذلك ميثولوجيا المشركين بقصصهم الخرافية عن الإله زوس وزواجه من بشرية... وهكذا سخافة بقية العقائد والتشريعات المخالفة لكلامه تعالى، أو التي كانت تفاسير ساذجة بسيطة طفولية لكلامه تعالى، كتفسير خلق السماوات والأرض في ستة أيام من أيام الأسبوع...

(قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ{16})
{قُلْ}، للذين لم يعجبهم أن يأتيهم رسول منه تعالى بأوامر ليست على هواهم، ويتعاملون مع الموضوع باستهتار طالبين تغيير أو تبديل كلامه تعالى، قل لهذه النوعية من الناس عبر هذا القرآن: {لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة ويمكنه تعالى أن يختار منها ويقرّر أن لا أقوم بقراءة هذا القرآن عليكم كما أفعل الآن من قراءة استناداً إلى ما يصلني من الوحي، فمن أصله يمكنه تعالى أن لا ينزّل عليّ هذا القرآن، {وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ}، فلو شاء تعالى لكنتم ستسمعون بالقرآن ولكن لن تحتكوا به وتسمعوه مباشرة منّي، أو أصلاً لن تسمعوا به.

{فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ}، حيث مرّ عليّ زمن وأنا بينكم، مرّ عمرٌ بحوالي أربعين سنة من عمر النبي(ع)، ولسنين عديدة من قبل أن أتلو عليكم القرآن كنت أعيش بينكم، {أَفَلَا تَعْقِلُونَ}، أليس لديكم عقل يستوعب هذا؟ فمن الواضح أن القرآن من مصدر إلهي وليس من تأليفي.

بعبارة أخرى: النبي(ع) كان يعيش بينهم حتى صار عمره (ع) قرابة الأربعين سنة، ثم نزل القرآن عليه وصار يتلوه على الناس، فلو كان القرآن من تأليف النبي محمد(ع) لكان من المفروض أن يسمعوه (ع) خلال مدة حياته السابقة يتكلم على الأقل بكلام يشبه كلام القرآن من حيث اللحن أو المعلومات، ولكن النبي محمد(ع) لم يكن يتكلم من قبل نزول الوحي عليه بأي كلام يشبه القرآن، ولم يتداول بمعلومات مشابهة لما يقوله القرآن، وبعد أربعين سنة من عمره (ع) هناك شيء جديد، فحتماً نزل القرآن وحياً من الإله سبحانه ولا دخل لشخص النبي محمد(ع) بمحتواه، فكيف تطلبون منه (ع) أن يأتي بغيره أو يبدّله؟ فهل هو ألّفه حتى يغيّر محتواه**؟** لا، فمن الواضح أنه من الإله فما معنى طلبكم الإتيان بغيره أو تبديله؟ فلا معنى له إلا أن كلام الإله لم يعجبكم.

بعبارة أخرى، لو كان فيكم عقل لانتبهتم أن هذا القرآن ليس من تأليفه(ع) بل حتماً نازلٌ من الإله سبحانه، حيث مرّ من عمره بينكم قرابة الأربعين عاماً ولم يصدر منه (ع) كلام مشابه للقرآن، ومن بعدها صار يتلوه عليكم، فكيف وبكل بساطة واستهتار واستخفاف تطلبون منه (ع) تغيير أو تبديل كلام الإله سبحانه.

في الآية 38 من هذه السورة سنرى بطريقة أخرى تأكيداً على كون هذا القرآن من مصدر إلهي.

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ{17})
حتى لو قمت بما تقترحونه عليّ من تغيير أو تبديل للقرآن، {فَمَنْ أَظْلَمُ}، فأي شخص هو أشد ظلماً وابتعاداً عن العدل والإنصاف، وإن كان هناك شخص لم يكن معه حقّ فيما فعله، من هو الأشد وصفاً بذلك، {مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}، حيث اخترع شيئاً من رأسه وقال كلاماً ينسبه لله تعالى وسبحانه لم يقل الكلام، وهو يعلم بأنه يكذب ولم يتواصل معه

تعالى. أكذب حين أقول إنّه تعالى قال لي عن الجنّة والنار، وأكذب لأنه تعالى لم يقل لي شيئاً، علماً أنّه تعالى فعلاً قال شيئاً لأحد ما غيري عن الجنّة والنار ولكن لي لم يقل، وأفتري عليه تعالى حين أقول إنّه قال لي كذا وكذا... وأفتري الكذب، وأقول إنّه تعالى قال لي إنّ كل الناس سيسامحهم ويدخلهم الجنّة فهذا افتراء كاذب لأنه تعالى لم يقل هذا أصلاً لا لي ولا لغيري.

الافتراء هو نسبتك كلاماً أو عملاً... للآخرين، تلفّقه وتلصقه بالآخرين وأنت لا تعلم إن هم فعلوه أو قالوه... وربما تلصق بهم شيئاً ويتبين لك فيما بعد أنهم فعلاً قالوه أو فعلوه، فتكون فقط مفترياً لأنك اخترعته ونسبته لهم من دون أن تعلم أنّه صحيح، وتُلصِق بهم شيئاً لا علاقة لهم به أصلاً لم يفعلوه ولم يقولوه وهذا هو الافتراء الكاذب.

{أَوْ}، من أظلم من الذي، {كَذَّبَ بِآيَاتِهِ}، حيث إنّ الأمور المميزة بمستواها الإلهي والمنسوبة له تعالى قال عنها بأنها كاذبة ليست صادرة منه تعالى. وهذه ستكون حالتي إن لم ألتزم حرفياً بما يصلني لأنني سأكون مكذّباً له، وهذه حالتكم فأنتم موصوفون بالأشد ظلماً لأنكم تكذبون آيات الإله سبحانه وتعالى.

لاحظ الكلام في الآيات يركّز على الإله بعظمته من جانب، وعليهم من جانب، لأنهم مستهترون لا يقدّرون قيمة كلام صادر عن الإله عزّ وجلّ، وهم بتكذيبهم لما يقوله الرسول نقلاً عنه تعالى يعتبرون كلامه تعالى كذباً. وكمثال الكلام عن الإله الأحد والآخرة هو كلامه تعالى وهم يقولون عن هذا الكلام إنّه كذب غير صحيح.

{إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ}، لا يوصف بأنه فالح، لم يكن مجيداً في عمله، {الْمُجْرِمُونَ}، المرتكبون للجريمة، حيث قاموا بالأعمال التي يستحقون عليها العقاب، والقول عن الكلام الإلهي بأنه ليس إلهياً هو جريمة، وهو عمل يستحقّ العقاب عليه، ولا يوصف من قام بها بأنه قام بعمل جيد، لأن هذا لم يفلح فيما فعله، وعملياً سيتعرّض لعقاب شديد في الآخرة.

حسناً، بعدما تبين لنا بالدليل أن القرآن نازل من الإله سبحانه وليس من تأليف النبي محمّد(ع)... لِنَرْجِعَ للمشركين الذين اتهموا النبي(ع) بتأليف القرآن، حيث اتهموه باختراع كلام ونسبته له تعالى، والمشركون هم الذين اخترعوا، فَلْنَرَ ماذا اخترعوا:

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ{18})
يرفضون ويكذّبون كلاماً من الواضح جداً أنّه كلام إلهي، فما هي قناعاتهم التي تتعارض مع القرآن حتى كذّبوه؟

{وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ}، فيتصرفون على أساس أنهم عبيد فمفروض منهم طاعة، {مَا لَا يَضُرُّهُمْ}، فالذين يعبدونهم لا يقدرون على تغيير حالهم للأسوأ مادياً أو جسدياً أو أمنياً أو بالكوارث، ولا معاقبتهم في الآخرة... ويعبدون ما، {لَا يَنفَعُهُمْ}، فتلك الآلهة لن يستفيدوا منها فلا تعطيهم حسنات ولن تغفر لهم ولن ترزقهم...

لِنُعِد الكلام لأهميته لأن القرآن كثيراً ما كرره، الكائن الوحيد بالصفات الفائقة عن صفات المخلوقين هو الله تعالى، فهو وحده الإله، ووحده القادر على فرض وتحقيق ما يريده ولا يستطيع أي كائن آخر منعه، وكل بقية المخلوقات عبيد له تعالى، حيث كلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك. وما تعارفنا عليه بتسمية العبادة من صلاة ومناجاة... فهي من تطبيقات العبادة وليست حصرية فيها لأنها شاملة لكل ما تطيعه به تعالى. والرافضون للقرآن لا يعبدونه تعالى لوحده، فلا يعتبرونه الإله المفروض طاعته لوحده، بل يعبدون غيره، وغيره تعالى لا يمكنه فرض الضرر عليهم بقدرة فائقة من مستوى إلهي، ولا يمكنه نفعهم بقدرة من مستوى إلهي، وربما عبدوا إلهاً وهمياً من خيالهم، فهذا وهمي ولا يصدر عنه أي شيء أصلاً كإله الحرب وإله المطر... فحتى لو كان له صنم أو تمثال فهو إله وهمي، وربما عبدوا إنساناً أو ملاكاً أو جنياً... فما معنى عبادتهم لكائن لا قدرة له على فرض ما يريده ويمكن للآخرين من بشر أو جنّ أو ملائكة أن يعارضوه ويمنعوه؟ فسبحانه وتعالى وحده فقط يمكنه فعل ما يريد، ويمكنه تعالى منع أي كائن آخر من فعل أي شيء، فما معنى عبادة غيره تعالى والتصرّف على أساس أنهم عبيد لهم!

{وَيَقُولُونَ}: {هَٰؤُلَاءِ}، الآلهة أو الأرباب التي نعبدها هم، {شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ!} فلهم قيمة معنوية كمكانة واحترام عنده سبحانه، وعندما نعبدها فإنها تشفع فبقيمتها المعنوية تتوسّط لنا عنده سبحانه، فنطلب منها النفع أو كشف الضرّ وهي تطلب منه تعالى فيتحقّق ما نريده.

هذه النوعية من الناس أول مشكلتهم العقائدية مع الدين القرآني هو عبادته تعالى لوحده، فهم يعبدون آلهة متعددة، ويقولون إنّه تعالى إله أكبر وأعظم من بقية الآلهة، ويمكنه فرض إرادته على الآخرين، ولكنه ليس لوحده إله، فهناك آلهة أخرى نعبدها وتقوم بتحقيق ما نريده لأن لها قيمة وكرامة عنده تعالى فيتركها سبحانه لتحقّق لنا ما نريده.

{قُلْ}، أيها النبي(ع)، وأيها المؤمن، عبر هذا القرآن لهذه النوعية من الناس: {أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟} فهل هناك شيء غير علني له تعالى وغير معلوم له تعالى في السماوات والأرض وأنتم أخبرتم به الله تعالى، حيث بسببكم صار الله تعالى يعلم أنه يوجد آلهة غيره وهي تشفع عنده لمن عبدها!

الله سبحانه يقول لكم عبر هذا القرآن: ليس هناك إله غيري، ولا أسمح لكم بعبادة غيري. ولكنكم تقولون: نعبد غيرك آلهة لها مكانة وقدر عندك وتشفع لنا عندك! وتتذكّر أن التعبير القرآني "السماوات والأرض" يرادف قولنا: كلّ شيء. وبتعبير بسيط: كل ما في الدنيا. ودائما يستعمل سبحانه هذا التعبير ليتكلّم معنا بصدق وشفافية وبدقّة، فهو سبحانه يعلم في كل لحظة بكل ما في السماوات والأرض، وخارج السماوات والأرض لا يوجد أي شيء، فيقول سبحانه وتعالى لنا بكل صدق وشفافية: كل ما أراه وأسمعه وأتعامل معه... فهو محصور ضمن السماوات والأرض، وكلّهم أنا خلقتهم من لا شيء من الصفر، وليس فيهم آلهة، فكيف تعلمون أنتم بوجود آلهة تشفع لكم عندي، فتحقّق لكم النفع أو تكشف الضرّ، وأنا لا أعلم أنها موجودة وأنها آلهة! وها قد علمت بها منكم!

{سُبْحَانَهُ}، فهو منزه عن الصفات الناقصة والمعيبة، {وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، فمستواه أعلى من أن يكون له شركاء في الألوهية، فصفاته وقدراته فائقة ولا تتحمّل أن يكون هناك إله مثله، وأنتم مجرد مخلوقات ضعيفة جداً جداً وتقولون أنكم تعلمون ما لا يعلمه تعالى!

لِنُطِل الكلام قليلاً عن معنى وصفه تعالى نفسه بالتسبيح. فسبحانه يعلم من نفسه أنه يستحيل تواجد كائن آخر مثله، ويخبرنا بكل شفافية بذلك، ويخبرنا أنه فرضاً لو كان هناك كائن آخر لديه صفات إلهية، فهذا يعني أنّه تعالى ناقص غير كامل وفيه ضعف، ولن نفهم هذا إن بقينا نتصوّره تعالى بصور تشابه صور المخلوقات، فمتى صار ومتى كان وكيف... فهذه أمور لا يمكننا السؤال عنها لأنها لا معنى لها بالنسبة له عزّ وجلّ، حيث إنّ هذه أمور تجري على المخلوقات. بعبارة مبسّطة نتساهل فيها، فطبيعته تعالى مختلفة تماماً عن تكوين المخلوقات، فلا معنى للزمان ولا للمكان بالنسبة له تعالى، وسبحانه ليس مركباً ولا مؤلفاً من مواد، فليس مخلوقاً حتى تسأل عمّن خلقه، إذ المخلوقات مركبة ومؤلفة ويمكنك أن تسأل عمّن خلقها، ولا معنى لوجود كائن آخر مشابه له سبحانه بالصفات التي له تعالى، فنفس الصفات لا تتحمّل تواجد كائنين منها.

أيضاً بعبارات مبسطة، فما معنى الألوهية إن لم تكن فائقة الصفات والقدرات؟ فما معنى إنسان إله؟ أو ملاك إله؟ وما معنى ألوهية من ليس واسعاً محيطاً وليس الأول ولا الآخر، ولا خالقاً لكل شيء... فالأول الذي لا أحد قبله هو حتماً الإله الخالق لكل شيء، ومع هذا الكلام لا يركب أن تضيف إلهاً آخر، وهكذا ترى بكل بساطة أن افتراض وجود إلهين أو أكثر لا يعني أكثر من وجود إله واحد لأنهما حتماً سيكونان متطابقين في الوساعة والإحاطة واللطافة والعلم وبقية القدرات والصفات... فلا معنى لافتراض كائنين كإلهين علماً أنهما يستحيل أن ينفصلا عن بعض ولو بشيء واحد، وإن انفصلا ولو بشيء واحد عن بعضهما فسبحانه يخبرنا أنهما حتماً سيكونان مخلوقين ولن يكونا آلهة.

لاحظ أن الآية لم تشر إلى نوع آلهتهم، أصنام أرواح جنّ... فهذا لا يهم، حيث الآية تريد الإشارة فقط إلى اختراعهم لآلهة جعلوها شركاء لله تعالى في الألوهية.

طبعاً تساهلنا بالكلام حتى يسهل علينا فهم استحالة وجود إلهين، فتعابير القرآن كانت دقيقة ومعبّرة لأقصى حدود ما يمكن للغة البشر أن تعبّر ويمكننا فهمه، فوصفه تعالى نفسه بأنه ليس كمثله شيء، كما ورد في الآية 11 من سورة الشورى، فطبيعته تعالى لا تشبه أي شيء، والتعبير بأي شيء عامّ، فلا تشبهه المخلوقات التي هو تعالى خلقها، ولا

يوجد شيء آخر يشبهه تعالى، لأن هذا مستحيل، وأنه الأول والآخر والظاهر والباطن كما ورد في الآية 3 من سورة الحديد {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، فكان تعالى ولم يكن معه أحد، وبالتالي فهل فجأة سيصير إله معه من لا شيء، أم سيخلق تعالى إلهاً مثله؟... وما ورد مراراً وتكراراً بوصفه نفسه بالسبحان والتعالي عند الكلام عن الشرك به، فهذا كلّه يشير إلى ما يعلمه تعالى عن صفات نفسه، بأنها يستحيل أن يكون مثلها كائن آخر، فطبيعته تعالى هو أدرى بها، ويخبرنا بالصفات والقدرات التي نفهمها، واختصر الكلام عن نفسه بأنه لا تكوين له مشابه لأي شيء، وأن الصفات التي فيه تجعله سبوحاً، منزهاً عن أن يكون هناك كائن مثله، وتعالى عن أن يكون هناك كائن مثله.

وأكرر لك، فحتى لو تسامحنا في الأفكار وتعامينا عن بعض الأمور، فالسؤال: هل من المعقول أن خالقنا لا يعلم بوجود آلهة غيره، ونحن البشر نعلم بها؟ ها هو كلامه تعالى معنا عبر رسله ولآلاف من السنين على نفس الكلام: لا إله إلا الله، وآلهتكم وهمية، ولا استمرارية لعبادتها، ولم يأتكم منها ولو رسول واحد، وفي الحقيقة لم تفعل أي شيء حتى لو ادّعى أحد ما أنها فعلت، حيث ها هي آلاف من السنين من أفعاله تعالى بتدخله في مجريات حوادث حياة البشر، بينما الآلهة التي اخترعها الناس يختفي الكلام عنها وتظهر آلهة جديدة لهم بأسماء وصفات جديدة، وتختفي من جديد هي والذي عبدها... وهذا يريك بوضوح أنها آلهة من اختراع أوهام الناس... وما معنى كفركم برسل يمتدون لآلاف من السنين على نفس الخبر من نفس الإله؟

حسناً، هل لدين الشرك امتداد تاريخي؟ أم أنه انحراف مستمر بوجوه متنوعة عن دينه تعالى؟:

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ{19})
{وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً}، حيث كانوا مجموعة لهم امتداد تاريخي واحد، وكانوا على شيء واحد، {فَاخْتَلَفُوا}، فصاروا مجموعات مختلفة عن بعضها، فهذه أمّة لوحدها وتلك أمّة أخرى... وسياق الكلام عن الإيمان حيث تقصد الآية هنا أن الناس بالأصل كانوا على عقيدة واحدة وهي توحيده تعالى وبعد ذلك صاروا يخترعون عقائد مختلفة فصاروا أُمَماً مختلفة عن بعضهم البعض.

بعبارة أخرى، في بداية تكليف من تسميهم "ناساً" وهم المتأهلون للتكليف بدينه تعالى على المستوى الحالي، أي من آدم(ع) وما بعده، كان الجميع يعبد الله سبحانه لوحده، حيث إنّ آدم (ع) وذريته كانوا موحدين، وبعد ذلك صاروا أُمَماً واختلفوا، فاختلف ذرية آدم(ع) عن التوحيد، وهذا على فرض أن آدم(ع) الأب لكل البشر، والباقون انقرضوا، أو على فرض أن البشر الآخرين وصلوا إلى مرحلة التأهّل للتكليف بدينه تعالى هم وذريتهم من بعدما تأهّل آدم(ع) وذريته... وصار يمكن وصفهم بالناس، والأرجح أن الكلام عن نموذج آدم(ع) وذريته الذين يمثلون أوّل من تأهل ليتكلّف بدينه تعالى... على أي حال، فقسم منهم اخترعوا آلهة من رأسهم وعبدوها، وقسم آخر اخترع آلهة أخرى وعبدوها...

لو راجعت تاريخ الأمم لوجدت أن العقيدة المشتركة بينهم هي عبادته تعالى، عبادته لوحده أو مع إشراك آلهة أخرى معه سبحانه، وستجد في الأمم المشركة أنه لكل أمّة منهم آلهة مختلفة عن آلهة الآخرين، وستجد في التاريخ أُمَماً اخترعت آلهة وعبدتها وانقرضت تلك الأمم وانقرضت آلهتها معها... ونبّه القرآن في سور عديدة على هذا الشيء، وسأل المشركين عن مدى الامتداد التاريخي لآلهتهم، فمن الواضح أنها من اختراع الناس وأن الأصل المشترك هو عبادته تعالى، فلو كانت آلهتهم حقيقية لكان لهم تواصل دائم معها، وهذا مما تقصده الآية هنا بقولها إنّ الناس كانوا أمّة واحدة على عبادته تعالى لوحده وبعدها صارت كل مجموعة منهم تخترع آلهة خاصّة بها.

هل حاسبهم سبحانه مباشرة على اختراعهم للآلهة؟ لا:

{وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ}، حيث إنّ المسؤول عنك من مستوى إلهي قال كلمته، ومن الواضح أنّه تعالى قال إنّه لن يحاسب الناس فوراً على عقيدتهم، حيث سيتركهم ليحاسبهم في يوم القيامة، لولا ذلك، {لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}، لكان سبحانه أصدر أحكامه وأنهى موضوع اختلاف الموحدين والمشركين. فما كان سيحصل في الآخرة من حساب لمن أشرك لكان حصل حالاً في الوقت الذي اختلف فيه الناس، ولكن هذا لن يحصل بل سيتم تأجيل حساب الجميع إلى يوم القيامة الذي له وقت محدّد عنده تعالى.

بعبارة أخرى، سبحانه سيترك البشرية تكمل الحياة الدنيا حتى الآخر مهما فعلوا، فإذا كفروا به أو أشركوا به تعالى، فلن ينهي سبحانه حياة كل الناس في الدنيا قبل وقت انتهائها ليحاسبهم، وهذه هي الكلمة التي قالها سبحانه ولن يغيّرها.

الآية السابقة بنت قاعدة أساسية أنّه لا يوجد إله إلا الله سبحانه، ولكن بعض الناس يخطر ببالهم أن توحيد الله سبحانه شيء جديد! وأن عقيدة الآلهة المتعددة هي الأساس عند الناس القدماء، فهنا تقول الآية: لا، العقيدة الأساسية هي التوحيد، وتعدد الآلهة هي الاختراع الذي صنعه بعض الناس فيما بعد، حيث تركهم سبحانه يشركون كأمم لها امتداد تاريخي، تورّث عبادة الشرك للأجيال التالية... ولم يحاسبهم فوراً لأنّه سبحانه قال سابقاً إنّه سيحاسب الجميع في يوم القيامة.

بقي شيئان، الأول عن الأمّة التي تقول الآية إنّها كانت على توحيده تعالى، ففكرنا يذهب إلى الإنسان القديم وانتشار آثاره في مختلف القارات، فاستعمال كلمة "إنسان" ينطبق بشكل ما على أصحاب تلك الآثار، ولكن المفهوم القرآني عن بداية تشكّل "الناس" كان دقيقاً، فآدم(ع) أول إنسان تأهّل فكرياً ونفسياً لتقبّل الالتزام بالشريعة الإلهية، وراجع في ذلك دراسة الآية 30 من سورة البقرة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، فمن الواضح أن الملائكة تتكلم عن بشر قبل آدم(ع) ومعاصرين له وهم مفسدون قتلة لبعضهم البعض، فآدم(ع) أوّل من تأهّل ليتكلّفَ ويكون خليفة له تعالى... والبقية لم يكونوا كذلك، ولذلك ذكرت لك في تفسير السورة أنها تشير لأمّة نشأت من عهد آدم(ع) وما بعده.

ثانياً، بمراجعة قصص الأقوام التي ذكر القرآن أنها نالت العذاب هنا في الدنيا قبل يوم القيامة، ستجد أن الشرك بالله تعالى كان من ضمن أسباب تعذيبهم ولكنه لم يكن السبب الرئيسي، فسبب هلاك فرعون وجنوده كان ظلمهم لبني إسرائيل، والفاحشة جريمة قوم النبي لوط(ع)، والغشّ جريمة قوم النبي شعيب(ع)، والترف والبذخ والاستعلاء... كان جريمة عاد وثمود، وقوم النبي نوح(ع) لا تجد القرآن يقول بصراحة ما فعلوه غير الشرك إلا التعبير بأنهم كانوا أظلم وأطغى من عاد وثمود كما ورد في الآية 52 من سورة النجم، وما تجده في الآية 27 من سورة نوح {إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا}، فحتى من ذريتهم لن يلدوا مؤمناً. وآيات عديدة في القرآن قالت إنّ المشركين يستحقون العقاب على شركهم به تعالى بغض النظر عمّا فعلوه، ولكن من عموم كلام القرآن تفهم ربطه للشرك بما ينتج عنه من إنكار الناس للآخرة وارتكابهم للسيئات، وعندما تكون سيئتهم من العيار الثقيل ومنتشرة فيهم فسينالون عقاباً في الدنيا قبل الآخرة.

على كل حال، ما جرى من تعذيب لأقوام كافرة هنا في الدنيا فهو ليس الحساب على معنى الحساب النهائي الذي من بعده العقاب على كل ما فعلوه، وهو الدخول إلى النار، حيث إنّ الآيات التي تشابه كلام آيتنا هنا تشير إلى قراره تعالى بأنّه لن يعجّل الآخرة، حيث الحساب النهائي والعقاب النهائي.

(وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ فَانْتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ{20})
لنراجع قليلاً بعض ما مرّ في الآيات السابقة، حيث لدينا الآيات السماوية والأرضية الضخمة الدالة على صانع واحد صمّم وخطّط ونفّذ ويتابع ما يجري... وهناك رسول ومعه كتاب فيه معلومات، وللكتاب طريقة تعبير ولحن لم يسبق للرسول (ع) طوال أربعين سنة من عمره أن تحدث بهذه الطريقة، ولا تكلّم (ع) مع الناس بمعلومات مشابهة لما في الكتاب... وكل ذلك غير كافٍ لبعض الناس حتى يؤمنوا، بل:

{وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ}، لو نزل من عنده تعالى على الشخص الذي يقول عن نفسه إنّه رسول، لو ينزل عليه، {آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ}، لو ينزل عليه شيء مميّز منسوب بمستواه إلى المسؤول عنه من مستوى إلهي، فآيات السماوات والأرض وغيره لم تقنعنا، والقرآن لم نقتنع بكلامه أنّه دليل... طالما المدّعي للرسولية يقول إنّ الربّ سبحانه يتواصل معه فحتماً كان ربّه سيزوّده بشيء مميز ليقنعنا بدينه وبأنه رسول... مثلاً لو طار في الهواء أو قلع الجبال أو حوّل التراب إلى ذهب... فكنّا سنقتنع بأنه رسول من الإله.

ننتبه جيداً، لأنّ كلامهم يعني أنهم لم يقتنعوا بالقرآن، طبعاً لأنه لا يتماشى مع هواهم السيئ، ويقولون لو كان القرآن فعلاً منه تعالى لهدايتهم، لكان سبحانه أنزل آية تقنعهم، على أساس أن القرآن فاشل وفشل في جعلهم مؤمنين به، وبالتالي فهو حتماً ليس مشروعاً إلهياً لهداية الناس.

الجواب: قل لهم أيها الرسول: {فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ}، فالعلم بما حصل وما يحصل وما سيحصل هو حصراً عند الله تعالى، يعني: أنا الرسول لا أعلم إن كان سبحانه سينزّل آية أم لا! ولا أعلم إن كانت الآية ستنفعكم لتؤمنوا أم لا!

{فَانْتَظِرُوا}، فليمرّ زمن وَلْنَرَ، {إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ}، فهذا الاقتراح وصله تعالى، فهو السميع، وها هو أمرني أن أقول لكم أن تنتظروا فقرار نزول آية عليّ مرتبط بما يقرره تعالى، وربما في المستقبل ستنزل آية وربما لن تنزل فأنا لا أعلم الغيب.

ننتبه إلى أنّه تعالى ينبه الجميع، بأن الرسول هو شخص عادي، ولا يملك مقدرات غير طبيعية لأنه رسول، فليس بأمر من الرسول تحصل المعاجز، بل بأمر منه تعالى، وإن طلب الرسول من ربه سبحانه أن تحدث آية، فالرسول لا يعلم إن كانت ستحصل أم لا لأن القرار بيده سبحانه.

نلاحظ في سورٍ أخرى حديثها عن موضوع طلبهم للآيات من النبي(ع) بالتفصيل، "فطلبوا رؤية الملائكة ونزول كتب عليهم..." وردّت عليهم، وسورة الأنعام تناولت بتوسّع هذا الموضوع، أما هنا فاكتفت السورة بالتنبيه إلى أنّ النبي(ع) لا علاقة له بنوعية الدليل على صحّة رسالته، فإن كان لم يعجبكم القرآن كدليل على رسالته، وطلبتم آية أخرى، فقرار حصول الآيات بيده تعالى، لا بيدكم ولا بيد رسولكم.

سترى في سورتنا هذه نماذج عن أقوام حصلت معهم آيات ولم يؤمنوا، وستفهم هناك أن نزول الآية التي يقرّرها تعالى أو حصول الآية التي يطلبها الناس فهذا ليس حلاً حاسماً أكيداً لجعل كل الناس يؤمنون، وأن حالة استثنائية "كنموذج" جرت مع قوم النبي يونس(ع) فآمنوا "تحت التهديد"، وانتبه الجيل الأول للمسلمين لتميّز السورة هنا بهذه الحادثة، فرغم قصر كلامها الشديد عن النبي يونس(ع) فقد اختاروا تسمية السورة باسم "يونس" لهذا السبب المميز بتراجع قومه عن كفرهم... فسبحانه كان يعلم بأنهم تحت ظرف ما سيؤمنون، فلم يستعجل عليهم بالعقاب، ولم ينزّل عليهم آية لأنهم إن كفروا بها فمصيرهم الهلاك فوراً وحتماً... فترك سبحانه لهم المجال الكافي ليؤمنوا... فأظهر تعالى لهم بوادر كارثة طبيعية ستدمرهم... فآمنوا، وكذلك نزول آية على الناس سيكون محكوماً بحكمته تعالى، فيستجيب سبحانه لهم مع علمه بأنهم لن يؤمنوا إذا كان هناك قرار إلهي بمعاقبتهم هنا في الدنيا، أو الأمل مقطوع من إيمانهم وإيمان أولادهم وأولاد أولادهم، فأهلكهم سبحانه... كما في حالة قوم النبي نوح(ع) كما ورد في الآية 27 من سورة نوح {إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا}.

الآيات التالية ستشرح كيف أنّ الإنسان عندما يكون في حالة الضرر فإنه يؤمن ولا يناقش ولا يطلب آية!

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ{21})

{وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً}، إذا جعلناهم يشعرون بحصولهم على ما يرضيهم وفيه مصلحتهم من الراحة المادية أو الاجتماعية أو الصحية أو الأمنية أو... {مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ}، حيث كانت سابقاً حالتهم سيّئةً وشعروا فعلاً بذلك وتأذّوا منه، كالأمراض والحروب الصغيرة، أو الجفاف لشهر أو أشهر، والشدائد الاجتماعية والاقتصادية... ثُمَّ ذاقوا الرحمة الإلهية، عندها، {إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا}! يخطّط هؤلاء الناس أموراً سيّئةً للأمور المميَّزة المنسوبة له تعالى، وحين يرتاحون بنعمته تعالى بدل انشغالهم بحمده وتسبيحه وشكره... ينشغلون بالتعلقات السيّئة وبتكذيب الأمور المميَّزة الإلهية!

هناك سور نقلت لنا حالة تضرُّعهم له تعالى عندما يكونون في الشِّدَّة، ومن بعد زوالها يكفرون، ورد ذلك سابقاً في الآية 12 من هذه السورة، والآيتان التاليتان ستتحدَّثان عن ذلك، وهنا في الآية نفس الشيء تقريباً، ولكن من زاوية أنهم حين يعيشون في الضرَّاء يكونون منكسرين مشغولين بمصيبتهم، ويتعاملون بمسكنة مع كل الأمور، فيدعونه تعالى، أو

يتمنون تدخله، أو يربطون ما يحصل معهم بسوء فعلوه... وحين يرحمهم تعالى ويرتاحون، ينشغلون بالتعليقات على الآيات الإلهية بتسخيفها وتكذيبها!

{قُلْ} لهم أيها الرسول(ع) عبر هذا القرآن: {اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً}، صاحب هذا الاسم المحدَّد المميَّز، تخطيطه لأمور سيِّئة لهم هو أسرع من تخطيطهم هم، لأنهم حين ارتاح فكرهم ونفسيتهم من مصيبتهم حوَّلوا بعضاً من نشاطهم للمكر بالآيات الإلهية، أمّا سبحانه فلا شيء يشغله عن شيء، وحين بات وخمد مكرهم عند الشدة، وتنشَّط عند الرخاء، فسبحانه أصلاً في أي حال كانوا معلوم عنده تعالى الردّ المناسب على أي حالة كانت، لذا يمكرون ويمكر سبحانه بهم فوراً.

{إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ}، فوراً وكلما فعلتم شيئاً سيّئاً عن تخطيط ومضادًّا للإيمان بدينه تعالى فسبحانه لديه رسل يكتبون ما تفعلونه، ومن عموم القرآن تعلم أن الملائكة(ع) ترافق الناس وتسجِّل كلّ ما يفعلونه.

في نفس اللحظة التي تظنّون فيها أنكم تمكرون وتخططون لأمور سيِّئة، فإنكم في نفس اللحظة تمشون في تخطيطه تعالى لكم لتتعرضوا لأمور سيِّئة جدًّا "حين يعاقبكم في الآخرة" حيث تسجِّل الملائكة (ع) في الدنيا مكركم لتتعذّبوا عليه فيما بعد.

من عموم القرآن تعلم أنه في يوم القيامة سوف يقوم الماكرون من موتهم، وترافقهم الملائكة(ع) التي تحمل تسجيلات فيها تفاصيل المكر الذي قاموا به، ويتحاسبون عليه، مَن يكون مَكَرَ بمن؟ وهذا موضوع تجده مفصَّلاً من الآية 17 وما بعدها من سورة ق: {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ}، حيث تبدأ السورة بما تسجله الملائكة لنا من الدنيا وتنتقل بنا لترينا شهادتهم علينا في الآخرة...

كتابة الملائكة (ع) لما يفعله الناس ليست على ورق أو على ألواح صخرية أو على كومبيوتر، لا، بل من عموم القرآن تفهم أن الملائكة (ع) تسجل الأعمال بشكل يفوق تصورنا الآن، حيث هناك شيء مثل التصوير لما حصل ولكنه يتضمن عرض أفكار ونفسية من فعل السيِّئة... ويتضمّن إظهار الأثر السيِّئ الناتج على طول الزمن عن ذلك الفعل...

(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ{22})
مثال عن حالة يتوجّه فيها الناس لله تعالى وحده ليتدخل وينقذهم:

{هُوَ}، الله سبحانه، {الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ}، الذي يجعلكم تسيرون وتتنقلون، {فِي الْبَرِّ}، أي على الأرض وعلى الطرقات، ويسيركم {فِي الْبَحْرِ}، فتتنقلون في السفن والمراكب. والمشي وركوب الجمال والأحصنة والسيارة والطيارة والسفينة وغيرها... هي أمور تتعاملون معها كأمر عادي، وإنما هي من تخطيطه تعالى لكم ولبيئتكم.

لم يحصل بالصدفة هذا الترابط بينكم وبين بيئتكم فأنتم لم تستخدموا وسائل النقل بالصدفة، ومن ذكائكم الخارق استخدمتموها، لا، ولم تفاجئوه تعالى باستخدام وسائل النقل التي لم تكن في حساباته تعالى، لا، بل عن تصميم وتخطيط إلهي وصلتم إلى حيث اكتشفتم وسائل النقل المختلفة.

هذا مثله مثل ما ورد سابقاً في السورة هنا عن ملاحظتنا لأطوار القمر لنعلم عدد السنين والحساب، حيث كان ذلك بتقدير منه تعالى، ومثله على نفس المفهوم رغبتنا بأكل ثمار النباتات وتغذّينا منها، فهذا عن تصميم وتخطيط وتنفيذ إلهي حصل...

{حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ}، فإذا حصل أن كان أناس ما في الفلك، والفلك هو أي شيء يعوم على وجه الماء، كالسفينة أو المركب... وتصغيرها: الفلوكة. {وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ}، وجعلنا سفينتهم أو مركبهم يجري ويتحرك بهم بسبب ريح بسبب هواء قوي ولكنه مناسب لتحريك الفلك، طيّباً وبتعبيرنا الدارج: على الخاطر، محبَّباً مرغوباً، وليس عاصفاً. فهنا المثل عن فلك لها أشرعة من قماش أو جلد... تدفعها الريح فتسير السفينة أو القارب بهدوء.

{وَفَرِحُوا بِهَا}، فشعر المسافرون في الفلك بحالة جيّدة، فتلك الريح الطيبة تدفع مركبهم بلطف ليصلوا بأمان إلى المكان الذي يقصدونه.

{جَاءَتْهَا}، للفلك، {رِيحٌ عَاصِفٌ}، هواء يجري وبقوة على ما يمر عليه، {وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ}، فصار وجه الماء يرتفع ويتلاطم بفلكهم، فلو كان الموج من جهة واحدة لما كان الخطر كبيراً لأنه يدفع الفلك باتجاه واحد... ولكن الموج المتلاطم من كل جهة فبالتأكيد سيكسر أو يقلب السفينة.

{وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ}، فاستناداً إلى ما يتعرّضون له اعتقدوا أنهم محاطون بالخطر فلا خلاص لهم منه.

{دَعَوُا اللَّهَ}، أعلنوا وأشهروا لصاحب الاسم المحدَّد المميَّز الله تعالى، طبعاً أعلنوا أنه الإله الأحد وأنهم بحاجة للمساعدة منه سبحانه، {مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}، والدين هو التبعات التي عليك لأي شيء، فحين أقرضك المال فأنت مدين لي فعليك تبعات ردّ المال أو العمل عندي بقيمة ما عليك من مال... وكوننا مخلوقات مملوكة له تعالى وهو إلهنا فنحن "مدينون" له سبحانه لوحده بالعبادة "بالطاعة مع التأليه"، فعلينا تبعات كوننا عبيداً للإله، وهنا حين تعرّضوا للخطر الذي لا يرون أي أمل بالخلاص منه، توجّهوا نحوه سبحانه وهم مخلصون لا يشركون أي أحد آخر في دينهم، فيما يشعرون أنه تبعات عليهم، في حالة كونهم عبيداً للإله الأحد الله تعالى.

بعبارة أبسط فهم في هذه الحالة فقط وفقط يتوجهون إلى الله تعالى بالدعاء بالإعلان أنه إلههم الأحد ولا يدعون غيره وهم في حالة: {مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}، فيشعرون ويعتقدون بأنهم "يدينون" له تعالى وحده بالعبودية ولا إله غيره.

يقولون في دعائهم، في إعلانهم: {لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ}، فخلصتنا من هذه الحالة قبل أن نغرق، {لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}، فنؤكّد بأننا سنعلن لك عن حصولنا على شيء جيّد منك.

نلاحظ في عموم القرآن تأكيده على وجود شيء في خلقتنا يجعلنا نتعلّق به تعالى لوحده في الحالات التي نشعر فيها بالخطر وأننا لا نستطيع فعل أي شيء، وحتى أشدّ الناكرين له تعالى ورغم تمرسّهم على الكفر به سبحانه، فإنهم في حالة الخوف الشديد يرون أنفسهم مدفوعين غصباً عنهم للتعلّق به تعالى وطلب النجدة منه، وعلى كلّ حال فالخوف من الغرق هو نموذج، ومثله الخوف من قصف القذائف وحوادث السير والمرض الشديد المميت...

أيضاً لا تَنْسَ أن النجاة نموذج، فليس كل من دعاه تعالى لينجيه سينجو، لا، فهناك من يغرق ويموت، ولكن الآية تعرض نموذجاً بارزاً عن حالة تحصل فيها النجاة، حيث في حياتنا العادية كثيراً ما نتعرّض لأمور لا سيطرة لنا عليها ونتوجّه إليه تعالى لمساعدتنا، واختارت السورة الكلام عن الغرق في البحر في عاصفة كنموذج بارز جدًّا جدًّا عن حالة انقطاع الأمل بالنجاة إلّا بتدخّل منه تعالى.

سبق وتكلمنا في الآية 12 عن لفت انتباهه تعالى لنا للتصميم الذي خلقنا عليه، حيث زرع فينا ما يدفعنا للتعلق به في حالة فقداننا السيطرة على أمور تخيفنا أو تزعجنا، فيذهب فكرنا ونفسيتنا نحو قدرة قاهرة يمكنها تغيير الظروف لتناسبنا، وفي دراستنا هذه سمّينا هذه الحالة بالإيمان البدائي، وما يقولونه في بعض الدراسات عن سبب نشوء فكرة الإله عند الإنسان، على أساس أنه لا يوجد إله وأننا نحن اخترعناه، لأن الإنسان القديم لم يفهم كيف تحصل الأمور، وببدائية فسّرها بعمل تقوم به قوّة خارقة تسيطر على الطبيعة، فتنزل الماء وتسبب العواصف والبراكين... وتوسّع المفهوم ليشمل كل ما لا سيطرة لنا عليه أو نراه أقوى منّا، لذا اخترعوا إله الشمس وإله النار... وكلام هذه الدراسات صحيح ولكن بتعابير القرآن تفهم أن خالقنا زرع ذلك فينا كواحدة من الطرق للتعرّف عليه، وأن رداءة الفكر والنفسية سبب في الانحراف عن توحيده تعالى لاختراع آلهة وهمية، فبقلب سليم لن ترى إلا إلهاً واحداً أحداً صمّم وخلق ويسيطر على كل شيء، وهنا آيتنا نموذج عن ذلك، فتذهب بنا كلّنا إلى العمق، إلى حيث يتفعّل فينا التعلّق به تعالى لينقذنا، وبعد النجاة من المأزق، يعود الناس إلى مشكلة الشرك والكفر به تعالى بأشكاله المختلفة، فلنكمل:

(فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{23})

{فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ}، عندما أخرجهم سبحانه من الخطر قبل أن يغرقوا، {إِذَا هُمْ يَبْغُونَ بِغَيْرِ الْحَقِّ}، ومن بعدها في حياتهم العادية يخرجون عن الحدّ المسموح لهم به، ويتصرفون بطريقة باطلة فاسدة.

نتذكّر من تعاليم القرآن أن الحالة الأساسية تقول: لكل إنسان حدود، فلا يحق له أن يقتل أو يأخذ أموال غيره بالقوة... ولكن في بعض الحالات يحق له القيام بهذه الأشياء، حيث يحق له قتل من يهاجمه عندما يدافع عن نفسه. هنا تقول الآية أنَّهم يبغون ويتعدون حدودهم بغير حق، مثلاً يأخذون أموال غيرهم من دون حق، ويقتلون الناس حتى لو لم يتعرضوا للهجوم والخطر منهم... وغير ذلك... ويخترعون آلهة، نتذكّر أن سياق الكلام في السورة عن توحيده وطاعته تعالى، بحيث لو تركهم سبحانه على راحتهم ولم يرسل سبحانه لهم رسلاً يقولون لهم بأنه سبحانه لا يرضى باختراع آلهة، لكان بغيهم باختراعهم آلهة ليس فيه مشكلة لأن الإله لم يهتم بهذا الشيء، أو بالعكس أرسل تعالى لهم رسولاً يقول لهم عن الإله أنه يسمح لهم باختراع آلهة، أيضاً لكان بغيهم باختراع آلهة ليس فيه مشكلة، لأن الإله سمح لهم... ولكنه تعالى أخبرنا صراحة أن اختراع الآلهة غير مسموح وعليه عقاب.

الآن لاحظ وانتبه جيّداً، فلو فسّرنا بغيهم بعد نجاتهم بأنه مخالفتهم لأوامره تعالى، يكون التفسير صحيحا، ولكن الآية تقول شيئاً آخر، فهل صمّمنا سبحانه للتعلّق به عند المصائب لينجينا منها، حيث إن ذلك مزروعٌ فينا كإيمان بدائي "فطري"، والهدف من إيماننا به تعالى ينعكس عليه سبحانه ليسعد بأننا تعرّفنا عليه وآمنّا به وعبدناه...؟ هذا غير صحيح. أم يريد سبحانه لنا ولاستفادتنا نحن أن نؤمن به؟

بهذا السؤال نفهم الآية هنا بوضوح، لأنه سبحانه يريد لنا الاستقامة والصلاح والابتعاد عن السوء والفساد، وبهذا خير الدنيا والآخرة للبشرية كمجتمعات وأفراد، والطريق لذلك واحد، وهو الإيمان به تعالى كإله واحد أحد، وبأنه يحاسب على العقائد والتشريعات والسلوكيات الفاسدة. وإلا فلماذا سأكون فرداً صالحاً في المجتمع بينما منفعتي الشخصية أن أسيطر وأفرض إرادتي على جميع البشر، وأن أشبع رغباتي لأقصى درجة متجاهلاً أي قيمة لأي شيء، حيث إن فرصتي في الحياة قصيرة جدًّا وبحدّها الأقصى لن تتجاوز المئة سنة "تقريباً"، فلماذا ستمرّ حياتي وأنا لم أسعد بها بكل ما يمكن فعله؟ هذه الفكرة المتطرفة إلى الحدّ الأقصى هي السلوك الطبيعي الذي من المفروض انتشاره بين كل الكافرين بدينه تعالى، طالما لا يؤمنون بالآخرة فلماذا ستذهب حياتهم سدى بالتضحية بالنفس أو المال أو الجهد أو العناية... بالآخرين؟ ولماذا سيحرمون أنفسهم من ملذات سيئة؟ هناك ملذات ينعكس أكثر سوءها على الفرد مع قليل من الأثر على الآخرين، وهناك ملذات ينعكس سوءها على الفرد والمجتمع معاً، فإن كفر الإنسان به تعالى، ولم يؤمن بحسابه، فماذا سيفعل؟ وما البديل؟

بعضهم يتغابى ليَعْمَهُ، رافعا من قيمة الأخلاق الإنسانية ومفلسفها لنتمسّك بها لتكون بديلاً عن دينه تعالى الناهي عن فعل السيئات، وفي نفس الوقت هم لا يستطيعون مقاومة شهوات ورغبات يعلمون بسوئها فيحللونها! وخلال ذلك فإن لم نقل كلّهم نرى النادر منهم يمشي على صراط الإنسانية، لأنه في موضوع ما ستغلبه رغبته وهواه عندها يحلّل لنفسه ما يعلم بأنه مخالف للأخلاق الإنسانية... وبعضهم يدّعي الصلاح للإنسانية بينما هو يعمل فقط وفقط لأجل رفاهية نفسه، ليصير ديكتاتوراً حاكماً بأمره، ولهذه الحالة قياسات مختلفة أعلاها نموذج فرعون، مروراً بأمثاله الأقل منه بقليل، وصولاً إلى الذين لم تتح لهم الظروف الاستحكام بالسلطة مع فرعنة كاملة، وهذه حالة غالبية الحكومات في البلدان، حيث لم تعد الرئاسة التنفيذية والتشريعية وظيفة، بل الغاية من الوصول إليها الاستفادة بكل ما يمكن منها لتكديس المال والارتفاع فوق القانون...

هذا هو المعنى الذي تشير له الآية هنا، فسبحانه ماذا يعرض علينا؟ حين زرع فينا قابلية تمييز الخير من الشر، وزرع فينا قابلية التعرّف عليه بطرق متعددة، ومن آلاف السنين من بداية تأهّل البشر للتكليف أنذرنا وحذّرنا وبشّرنا، بالنار للسيئين وبالجنة للصالحين.

نرجع للآية، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ}، الكلام موجّه لكم كلّكم بوصفكم ناس فيكم قابلية فهم هذا الكلام وتطبيقه، {إِنَّمَا بَغْيُكُمْ}، تعديكم وتخطّيكم لحدودكم فهو فقط، {عَلَى أَنْفُسِكُمْ}، عملياً لا يتأثّر سبحانه بشرككم أو كفركم، ولا بأعمالكم السيئة، لأنكم ستتأثرون ببغيكم، وحياتكم في الدنيا ستفسد بأذيتكم لبعضكم، وعلى هذا أيضاً عقاب في الآخرة.

{مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، أي شيء تحصلون عليه من بغيكم فهو أمور تستفيدون منها في الحياة الدنيا التي تعيشون فيها الآن، ومن المعروف أنها غير دائمة لأنها تتبدّل كما ستشرح الآية التالية، فحين ترون "وبأي شكل كان" أنكم تستفيدون من فعل البغي، من فعل السيئات والتي عملياً هي ترك طاعته تعالى، فهذه أمور مجالها محدود بحياتكم القصيرة هنا في الدنيا، ونوعية الاستفادة منها أيضاً محدودة فهي ليست مثل السعادة المطلقة التي يحصل عليها المؤمنون في جنّة الآخرة، فالتعبير القرآني "متاع الحياة الدنيا" دائماً يشير إلى محدودية وتفاهة هذه الأمور أمام سعادة جنّة الآخرة، فهناك الشعور الدائم بالأمان والراحة والسعادة والصحّة والقوّة والنشاط والتلذّذ بدون أي ألم... أمّا هنا فالأمراض والتعب والألم... تنتج حتى من الملذات.

{ثُمَّ}، بعد متاع الدنيا، {إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ}، حيث من بعد موتكم لن تفنوا ولن تختفوا ولن تذهبوا إلى عالم غير تابع له تعالى، بل من الموت سترجعون إليه تعالى، {فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، فكل ما صدر عنكم في الدنيا سيتم إخباركم به، لأن أعمالكم التي قمتم بها في الدنيا لم تكن مجموعة ومعروضة عليكم من قبل، حتى أنكم نسيتم أكثرها، وحين تلاقونه تعالى في الآخرة سيخبركم بكل ما فعلتموه، فأنتم الآن تحت المراقبة، وستموتون وبعدها سيرجع الجميع إلى الحياة، وستتحاسبون على أعمالكم، وعلى السيئة منها عقاب.

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ{24})

مثل تشبيهي لكل حالة الحياة الدنيا، حيث تشبهها الآية بحالة من الحالات التي تحصل في الدنيا، وتكون نموذجاً عنها كلِّها، وتدل على أنها تحت سيطرته تعالى وليست تحت سيطرة الناس، حيث إن المثل هنا يدل على أن الدنيا فعلاً يسيطر عليها قوَّةٌ فائقة صمَّمتها وحكمت مسارها، وتشعرون بالتعلّق بتلك القوّة حين تقعون في الأزمات... والدنيا ليست مصمّمة للسعادة الدائمة فيها، وأنها في زمن ما ستخرب ولن تعود كما كانت، فهي متاع تافه بالنسبة لجنّة الآخرة، وبالتالي فما معنى الكفر الذي سينتج عنه البغي بسبب التعلّق بها؟:

{إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، الحياة التي تعيشون فيها الآن هي شبيهة بـ: {مَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ}، حيث نزل الماء بسبب التصميم الذي خلقه سبحانه لبيئة الأرض، {فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ}، حيث انمزج الماء بالنبات الذي في الأرض، ولامس الماء البذور والجذور والأغصان... وشربت النباتات الماء ونمت وصار الماء مخلوطاً مع كيانها، {مِمَّا يَأْكُلُ}، من النباتات الصالحة والمرغوبة ليستهلكها، {النَّاسُ}، نحن البشر، ويأكلها، {الْأَنْعَامُ}، وهي عامَّةُ الحيوانات النباتية الموصوفة بأنها نعمة لنا كالبقر والغنم وغيرها التي نأكل لحمها ونستخدمها، فهناك أنواع كثيرة من الحيوانات التي تأكل النبات ولكن الآية تشير إلى أكلنا نحن للنباتات وأكلنا للحيوانات التي تأكل النباتات، فحصرت كلامها عن نوع محدَّدٍ من الحيوانات وهو الأنعام لتحصر الكلام عن النعمة باستفادتنا نحن مما يجري.

بعد الاختلاط بين الماء والنباتات التي نأكلها نحن وتأكلها الحيوانات التي تنفعنا، يمر وقت لينمو النبات... {حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا}، فهي بالماء والنبات فيها قابلية صيرورتها مزخرفة، فحصلت تلك البقعة الأرضية على زخرفها، فصار فيها التداخل بين أشكال وألوان الطحالب وأغصان وأوراق النباتات وزهورها، {وَازَّيَّنَتْ}، فصارت مزيَّنةً وصارت أجمل بسبب الزخرفة النباتية.

{وَظَنَّ أَهْلُهَا}، واستناداً على هذه الحالة اعتقد المنتسبون لتلك القطعة من الأرض، أي المستفيدون من تلك الأرض الرائعة، على أساس ما حولهم من وفرة نباتية وحيوانية اعتقدوا، {أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا}، أنهم مستطيعون ومسيطرون على الوضع وأن كلّ شيء تحت السيطرة، {أَتَاهَا}، جاء لتلك البقعة، {أَمْرُنَا}، أمر ما، شيء قرّر سبحانه حصوله، وسترى أنه أمر إلهي بخرابها، وأمره تعالى يمكن أن يحصل في أي وقت، {لَيْلاً}، في فترة العتمة من اليوم، {أَوْ نَهَاراً}، في فترة الضوء من اليوم. فنحن البشر أحياناً نقول: نهجم على العدو بغتة في الليل، ومرة أخرى نقول إنه من الأنسب الهجوم في النهار. فهنا لا يوجد توقيت محدَّدٌ، فأمر الله تعالى بالخراب يمكن حصوله في أي وقت يريده تعالى. ويمكن حصول الخراب ببرد أو مطر شديد وسيول أو ريح شديدة أو ريح حارة أو باردة...

{فَجَعَلْنَاهَا}، تلك البقعة المزخرفة المزيَّنة، {حَصِيداً}، أخذنا ما عليها، مثلما تحصد الزرع فتأخذه، هنا التعبير عن حصدها بالخراب يشير لأخذ ما نتج عن النبات بتخريبها، بتساقط الثمار ويباس الخضار... {كَأَنْ}، تلك البقعة، {لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ}، يتغيّر حالها فوراً كأنها البارحة وما قبله لم تكن غنية بالخضار والثمار وجمال المنظر، حيث تمرّ وتراها وتقول مستغرباً: هذه البقعة الخربة من الأرض هل من المعقول أنها البارحة كانت مزدهرة مفعمة بالخضرة والنضارة والجمال؟!

{كَذَلِكَ}، بهذا التشبيه لكل الحياة الدنيا بحادثة تحصل فيها، {نُفَصِّلُ الْآيَاتِ}، الأمور المميزة من مستوى إلهي ليست مجملة مخلوطة مع شيء آخر يشوّش أفكاركم، بل مفصَّلةٌ، {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة، {يَتَفَكَّرُونَ}، يفكرون ويستعملون فكرهم، قدرتهم على تحليل الأمور حتى يصلوا لفهمها، وهنا الكلام عن الذين يفكرون بالقدرة التي صمّمت الدنيا بحيث يمكن أن يزول متاعها سريعاً.

بعبارة أخرى، مهما كان شكل دنياكم وحياتكم، فهي خارج سيطرتكم ويمكن أن تخرب، والسعادة فيها ليست دائمة لا لكم ولا لغيركم، حيث في زمن قصير ترون كيف يمكن أن تخرب ديار عامرةً مزدهرة، فما معنى تعلّقكم بشيء زائل ومدّته قليلة وترككم لتوحيده سبحانه وطاعته الذي يؤدّي إلى جنّة خالدة لا تخرب ولا تزول! وسترى ذلك من الآية التالية:

(وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{25})
مقابل تعلق بعض الناس بالدنيا الفانية والتي مهما اعتنينا بها فإنها ستتغير وتخرب ويحصل هذا في أي وقت...

{وَاللَّهُ}، وصاحب هذا الاسم المحدَّد المميَّز، {يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ}، يعلن لكل الناس أن يهتمّوا بالدخول إلى دار، إلى مكان تدور فيه حياتهم ونشاطاتهم فيتحركون فيه ليعيشوا فيه وهو موصوف بأنه، {سَلَامٍ}، فلا انزعاج من البيئة ولا ممن فيها، وهذا الوصف لجنّة الآخرة يختصر كل روعتها فهي مكان لن يحصل فيه أي سوء أو انزعاج لساكنيه ولا بأي شكل.

مقابل الخراب الطبيعي الذي يحصل لدور الدنيا مع مرور الزمن، وحتى مع الصيانة الدائمة فهي تتفتت وتخرب، وتدمرها الكوارث... ومقابل الخراب الذي يحصل في الدنيا بقرار إلهي لمعاقبة المشركين، ومقابل الخراب الذي يحصل بإذنه تعالى لأي سبب كان... فهناك في الآخرة ديار "جنّة" لا تخرب أبداً، حيث بقرار إلهي سيكون تصميم تلك الجنّة كدار سلام، فلا حروب ولا نزاعات ولا كوارث... ولا حتى شعور بالانزعاج ولا من أي شيء.

الله سبحانه يدعو الجميع للدخول إلى تلك الدار الخالدة، ولترك التعلّق بالدنيا الزائلة التي خراب ما فيها محتمل في أي وقت، وفي النهاية لأن كلّها ستخرب.

{وَيَهْدِي}، حيث يضع سبحانه على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {مَنْ يَشَاءُ}، لأن أمامه تعالى خيارات عديدة وأخبرنا عن اختياره وضع أصحاب القلوب السليمة من الناس على الشيء الصحيح ويهديهم، {إِلَى صِرَاطٍ}، إلى طريق إيماني أساسي، {مُسْتَقِيمٍ}، يوصف بأنه على الأحسن حيث ليس فيه التواء ولا اعوجاج عن الحق.

بعبارة أخرى، للوصول إلى دار السلام في الآخرة يجب السير على الطريق الصحيح في الدنيا، لأن الهدى هو السير على الطريق الصحيح الذي يوصل إلى دار السلام وهذا ما يدعونا سبحانه إليه لنكون عليه، وهناك أناس لديهم قرار بالوصول لتلك الدار، ويساعدهم سبحانه ويهديهم ويدلهم على الطريق الذي يوصلهم إليه، ومن عموم القرآن تعلم أن الهداية الإلهية أبسطها هو قراءة ما في هذا القرآن، حيث يدلّك على العقيدة الصحيحة، ويدلّك على السيئات وهي نفسها أساسيات الحلال والحرام التي يجب تجنّبها، ويدلّك على الخير والصلاح وهي نفسها أساسيات الواجبات التي يجب فعلها، وبعد ذلك هناك وسائل أخرى لمساعدة الذين لديهم فعلاً نيّة صافية للاهتداء، بإنارة قلوبهم عبر تكريههم بالسيئات، وتحبيبهم بالخير... وعبر تدخله تعالى بشكل غير ملحوظ في مجريات الأمور بما يجعلهم يزدادون إيماناً، وهذه الأمور وغيرها التي تساعد على الهداية نافعةٌ فقط مع الذين لديهم نيّة للاهتداء، لأنها ليست هي التي تجعلهم مؤمنين، بل تساعدهم ليهتدوا، والآخرون أيضاً ينالون مساعدة إلهية ليهتدوا ولكنها تنفع معهم بمقدار نيّتهم للهدى، وصولاً إلى الذين لا ينفع معهم أي شيء.

الذين سلوكهم مستقيم تكون أعمالهم حسنة كما سيلي:

(لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{26})

{لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا}، للناس الذين كان عملهم هنا في الدنيا موصوفاً بأنه حسن جيد، فلهم {الْحُسْنَى}، ولهم في المقابل ما هو موصوف بأنه حسن جيّد بشكل أقوى، مثلاً وللتقريب، من تصدق بتفاحة فلن يكون جزاؤه يوم القيامة أن يردوا له التفاحة! أو يعطوه صندوق تفاح! أو بستان تفّاح! بل جزاء العمل الحسن: {الْحُسْنَى} "لغوياً نسميها باسم تفضيل" أي جزاء حسن ولكن على مقياس أحسن وأكبر وأجمل، وجزاء الصدقة بتفاحة واحدة بنيّة صادقة للقربى منه تعالى سيكون قصوراً وبساتينَ...

فوق {الْحُسْنَى} هناك {زِيَادَةٌ}، حيث يتم احتساب الحسنة بشكل مضاعف، بعشرة أو بمئة أو بسبعمئة أو أكثر، ويصير أجر التصدق بتفاحة "كمثال" زيادة في العدد بعشرات القصور وعشرات البساتين وغيرها، وزيادة في النوعية كقصور أجمل وبساتين أروع وغيرها، وزيادة في التنوع والتجدد ولا أستطيع أن أضرب مثلاً عنها، لأنها أشياء وأمور فوق قدرتنا على التصور الآن.

الزيادة بشكل دقيق نفهمها من الآية 35 من سورة قاف، التي قالت بأن أهل الجنة يحصلون على ما يشاؤون، {وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}. ونفهمها من الآية 17 من سورة السجدة {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، يعني هناك أشياء في الجنة جديدة دائماً لا تخطر بالبال، لا الآن ولا هناك.

أطلت عليك يا عزيزي لسبب وجود روايات في الكتب تفسّر {الْمَزِيدِ} بأن أهل الجنّة سينظرون إلى وجه الله عزّ وجلّ، ومشكلة الإيمان العامّي البسيط الساذج الذي يدخل منه على الدين أمور ساذجة مخالفة لأساسيات المفاهيم القرآنية، هي مشكلة منتشرة في ناقلي الروايات ومفسّري القرآن، حيث إنّ الراوي أو الناقل للرواية عن الراوي، والعالم الديني صاحب الكتاب الذي سجّل الروايات، ومن تناقل الروايات واعتمد عليها في كلامه على أساس أنها حتماً صحيحة وصادرة من الرسول(ع)... وكان من ضمن تلك الروايات أنه تعالى في ليلة الجمعة ينزل من السماء ويركب على حمار ويدور بين الناس! وأنه تعالى يضع قدمه في النار لأنها تريد أن تمتلئ! هؤلاء لن يكون عندهم مشكلة في إمكانية رؤية وجهه تعالى على أساس أن له تعالى وجهاً فيه عينان وأنف وفم... أو يقول بعضهم: إننا سنرى وجهه تعالى بأعيننا كشيء محدّدٍ أمامنا ولكن لا ندري الآن كيف سيحصل هذا. ما شاء الله على هذا التخريج إصرارا على تثبيت شيء بجهلنا كيف سيحدث، واعتباره كدليل على صحّة الفكرة! الله الذي ليس كمثله شيء الواسع المحيط، له وجه كشيء محدّد ويمكن النظر إليه! لمزيد من التوسّع راجع في دراستنا هذه أي آية استعملت أسماء أعضاء الإنسان ووصفته تعالى بها لترى معناها، ولنرجع للآية:

{وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ}، لا يصيب وجوه المحسنين أي شيء سيئ وهو {الْقَتَرُ} أي الغبار والدخان الأسود، {وَلَا}، يصيب وجوههم، {ذِلَّةٌ}، فلا تعبّر وجوههم عن التبعية والانقياد للغير من الضعف الناتج عن الذنوب والمعاصي التي تجعل الشخص غير عزيز وغير محترم ولا كريم في يوم القيامة.

{أُولَئِكَ}، الذين أحسنوا هم، {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ}، هم مع بعض في المكان الموصوف بروعة ما فيه، حيث فيه البساتين والحدائق والقصور... {هُمْ فِيهَا}، في الجنة، {خَالِدُونَ}، لا يموتون ولا يفنون ولا يخرجون منها، ولن تخرب الجنّة.

ننتبه جيداً للخلود في الجنة، لأنه يعني: سعادة بلا نهاية، وتجدّد دائم في كل أساليب الرفاهية والسعادة. وعلينا الوثوق بقدرة خالق هذا الكون الهائل بكل ما فيه من مجرات ومخلوقات، ومعه سماوات أخرى لم نتعامل معها بشكل مباشر بعد، فعندما يقول سبحانه بأن أهل الجنة سيكونون في كل لحظة في سعادة لا توصف ولمدة لا متناهية، فعلينا أن نؤمن بهذا، ولا يخطر ببالنا الملل الذي يصيبنا هنا في الدنيا بعد انتهائنا من إشباع شهواتنا من الطعام اللذيذ أو المناظر الخلابة أو... لأنّ هذا يحصل فقط هنا في الدنيا، أما في الآخرة، فقد وعدنا سبحانه بسعادة لا نهاية لها، وأرانا في خلقه للسماوات والأرض نموذجاً بسيطاً عن قدرته الفائقة، إذ خلق سبحانه الدنيا وما مسّه {مِنْ لُغُوبٍ}، وبالتالي فقدرته على خلق جنّة رائعة تَحصُل فيها سعادة خالدة شيء سهل عليه تعالى، وعن هذا المعنى تعبّر الآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}.

ننتبه، إنها نفس النقطة عن الخلود، عن الحياة بلا نهاية والتي نستصعب تصوّرها، وهي نفس النقطة التي يحفّزنا سبحانه بها لنطمع بها، حيث أراد سبحانه أن يكون الخلود في الجنّة دافعاً لنا لنلتزم بدينه، طبعاً من بعد عرضه تعالى علينا الآيات التي تبرهن صحّة دينه، ومن بعد شرحه تعالى لنا وتوضيح الأمور عبر هذا القرآن بعرض الحجج التي تبرهن أنه تعالى الإله الواحد الأحد ذو الصفات الفائقة... وبعدها يأتي تحفيزٌ لنا بالسعادةِ الخالدة حتى نلتزم بدينه سبحانه.

لم يُغْرِنَا هذا الدين بجنّة الآخرة لنؤمن بتعاليمه على العمى غاضين النظر عن سوءٍ فيه، لا، بل أرانا الآيات الدالة على الحقّ والصلاح، وقوّم لنا معرفة الخير من الشرّ، وفي هذا سعادة دنيانا، وفوقه وعدنا بسعادة خالدة في الآخرة.

بالنسبة لموضوع الخلود في الجنّة، فعلاً صعب تصوّره علينا، ليس لأنه شيء ديني "ما ورائي، خيالي..." لا يمكننا اختباره... لا، بل لأننا كائنات محدودة بقدراتها الفكرية، حتى إنّ معلومة حجم الكون الذي نحن فيه بتريليونات تريليونات المجرات التي فيه، وهي معلومة نرى بعض آثارها بأعيننا ولكن من الصعب بل من المستحيل علينا استحضار صورة في ذهننا بهذا الحجم الهائل، ومثله الكثير الكثير من الأمور التي الآن نحتكّ بها ونتعامل معها ولا يمكننا تصوّرها كلّها دفعة واحدة، كالأشياء الصغيرة جداً، والأشياء المختلفة المتفرقة أو المجتمعة... كذكرياتنا عن السنين التي مرّت، والتي لو عصرنا دماغنا فسيفوتنا الكثير الكثير من أيامها... ونفس الشيء بالنسبة لتصوّر الخلود في الجنّة، إذ إنها معلومة بوعد من الإله الفائق القدرات، وبقدر ما يكون قلبنا سليماً من السيئات، بقدر ما سنرى سهولة أكبر بالقناعة بالكلام القرآني.

لنكمل الكلام بشيء من مفاهيم القرآن، حيث إنّ القرآن لا يطلب منك إقناع نفسك بالقوّة بأي شيء يقوله لك، فإذا كان عندك إيمان عمومي بأن هذا الدين حقّ في عموميته مع بعض تعليقاتٍ لا تطال أساسيات الإيمان، وضمن ذلك التزمت به، والتزمت حتى بالأمور التي لا تعجبك، والسبب أنها قد لا تعجبك لأن قلبك فيه شيء سيئ... فيقول لك القرآن بأنك ستفوز بالجنّة، وراجع عن ذلك ما ورد في سورة الصافات في نقلها لكلام عن نموذج رجل دخل الجنة وانبهر بما فيها و... حتى {قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ} موجّهاً كلامه لشخص كان مصيره النار وكان في الدنيا يشدّه للكفر... ولمزيد من التوسّع راجع الآية 56 وما قبلها وما بعدها من سورة الصافات.

بهذا الإيمان والسلوك ستدخل الجنّة بالرغم من تنبيهه تعالى لك عبر هذا القرآن عن أي شعور بتكذيب أو رفض ما يقوله القرآن، وفرضاً لم يعجبك شيء من القرآن فسيكون نابعاً من تفسير الكلام القرآني بشكل غير صحيح، أو لأنك بشكل ما متعلّق بشيء سيئ ولا ترغب بتركه حتى مع علمك بسوئه، وحتى مع علمك بضرره على الحياة الاجتماعية للناس، ولكن من كثرة تكرارك له صرت تراه حسناً بل ضرورياً...

هذا يردّنا إلى أول جملة في الآية {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا} والمشابهة للتعابير القرآنية الكثيرة، كالتعبير بـ {عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، والمبنية على مفهوم خلقه تعالى لنا مع قابلية تمييزنا للخير والشر، للحسن والسوء، ومفهوم تماشي القلب السليم بفكر ونفسية سليمة رافضة للسوء ومحبّة للخير، وتماشي هذا القلب مع أوامره تعالى لأنه سبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، وهكذا نفهم أنهم أحسنوا لأنهم هم يرون ما فعلوه حسناً انطلاقاً من سلامة قلبهم، وهو متماشٍ تماماً مع كلامه تعالى.

انتبه جيداً كيف يعرض سبحانه توصيف الداخلين إلى الجنّة بأنهم هم يرون ما فعلوه حسناً صالحاً، طبعاً هم أصحاب قلوب سليمة لا تزيّن لهم السوء، لأنهم لن يروا السوء صالحاً، وهكذا نلتفت إلى عمق في دينه تعالى مبني ليس فقط على تنفيذ أوامره تعالى كيفما كانت، حيث إنّ بعضهم يظن بوجود أمور سيئة في دينه تعالى... يكون مصلياً صائماً مزكياً... ولكن لا تعجبه بعض التشريعات... ويراها سيئة، وقد يعلن أنها لا تعجبه ولكنه سيلتزم بها، فهذا من ضعفاء الإيمان، ومن الذين في قلبه مرض ولو خفيفاً، حيث لم يَرَ المعنى الصحيح لكلامه تعالى ولذلك رآه سيئاً، أو تُفَسَّرُ له كلامه تعالى بطريقة سيئة، أو هو محبّ للسوء ولذلك يرى ما يقوله تعالى سيئاً لأنه مخالف لما يحبّه. أمّا النموذج الراقي الذي يركّز عليه القرآن دائماً، فهو نموذج أصحاب القلوب السليمة الذين يرون كل دينه تعالى صالحاً حسناً لأنه فعلاً كذلك.

هناك كلام فصلناه عن البغي كنتيجة كنتيجة تصرّف حتمية لمن كفر، وترى هنا العكس حيث إنّ الإيمان "الحقيقي" نتيجته الحتمية فعل الحسن، راجع ذلك الكلام الذي ستلتفت لمعناه جيداً إذا لم تُفَسِّر وصف {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا} بأنهم أطاعوه تعالى، فهذا صحيح ولكن كلام الآية عن نتيجة الإيمان بأنها تدفعك لفعل ما هو حسن وهو نفسه ما يأمرك تعالى بفعله،

وراجع دراسة الآية 23 وامزج الكلام مع الآية هنا ومع وصف {كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ} الذي سيرد في الآية التالية، فتكون من الذين يتفكرون...

(وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{27})

مقابل الذين أحسنوا هناك: {وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ}، والناس الذين حصلوا على السيئات التي نتجت من أعمالهم فـ {جَزَاءُ}، فالمقابل المعادل لكل سيئة، {بِمِثْلِهَا}، بالمساوي لها، حيث تحدثت الآية السابقة عن الزيادة على الحسنات للمؤمنين، وهنا تخبرنا الآية أنه لا يوجد زيادة على السيئات للمسيئين حين يحاسبهم ويجازيهم سبحانه.

{تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ}، تصيبهم حالة متعبة من ذلة، من شعور الانقياد غصباً عنهم لمن هو حاكم عليهم وينفّذون ما يريده غيرهم ولا يفعلون ما يناسبهم هم، فهم في يوم القيامة في وضع مُزْرٍ مفروض عليهم ولا يمكنهم تغييره ومجبورون على العيش فيه... فهم مهانون يتعرضون للضرب وجائعون... {مَا لَهُمْ}، ليس لهم، {مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ}، لا أحد يمكنه منع حصول ما يريده تعالى بهم، فهم أمامه سبحانه ولا يمكن لأي أحد فعل أي شيء لينجيهم من الحساب وفيما بعد من العذاب، والذين كانوا يعبدونهم من دونه تعالى لا يمكنهم أن يفعلوا أي شيء.

وهم في تلك الحالة المزرية، {كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ}، مثلما لو أنه انتشر وأحاط بشكل كلّي أو جزئي على، {وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا}، فكما في عتمة الليل أثناء المشي تلاحظ بقعاً على الأرض شديدة العتمة، فوجوههم عليها بقع سوداء مشابهة ببقع سواد الليل الداكنة.

{أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ}، هم مع بعض في النار، {هُمْ فِيهَا}، في النار، {خَالِدُونَ}، لا يموتون ولا يخرجون منها ولا هي ستخرب. الوعيد في الآية بالخلود في النار يشير أنها تتكلّم مع أصحاب السيئات من العيار الثقيل، الشرك، قتل الأبرياء، مانع الزكاة...

تتذكّر ما ذكرناه منذ قليل عن التحفيز عبر الترغيب "بالخلود" في الجنّة، هنا بالعكس تجد الترهيب من "الخلود" في النار، وذلك حتى لا نستسهل الموضوع وحتى نتعامل معه بجدية، فهناك بقاء دائم مستمر لا نهاية له في العقاب.

تذكّر ما قلناه في الآية السابقة، عن أن كلام القرآن غالباً لا يشير للحرام والواجب، فهذا ما أمر به تعالى، ولكن يشير إلى نفس هذه الأمور بوصفها حسنة وسيئة بما فينا من قابلية لرؤيتها حسنة أو سيئة، حيث سبحانه لا يعرض علينا ديناً من الفضاء الغريب لنلتزم به، لا يعرض علينا واجباً يجب أن نفعله وهو عمل سيّء، ولا يمنعنا من شيء نريد فعله وهو خير وصلاح، وهكذا ترى تعابير الآيات هنا لتريك هذا المفهوم القرآني الأساسي.

عطفاً على هذا الموقف وأنه لا عاصم ولا مانع من حسابه وعقابه تعالى، فلنستمع للتالي:

(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ{28})

{وَيَوْمَ}، وفي الزمن الذي، {نَحْشُرُهُمْ}، نجمعهم مع بعض بقرار منّا سواء قبلوا أو رفضوا، {جَمِيعًا}، بدون استثناء فلا أحد سينساه تعالى ولا أحد سيختبئ... وهذا سيحصل فيما يسمّيه القرآن: يوم القيامة من الموت. {ثُمَّ}، بعد جمع كل البشر بدون استثناء، {نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا}، يقول سبحانه للذين جعلوا له آلهة شركاء: {مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ}، توقفوا حيث أنتم وشركاؤكم فليتوقفوا أيضاً، لأنكم هنا في يوم الحشر لستم متروكين على راحتكم بل محكومون وكذلك الذين قلتم عنهم أنهم آلهة وصار بينكم وبينهم شراكة آلهة وعابدين، وهم أيضاً محكومون، فتوقفوا في مكانهم مع شركائكم لأنهم معكم في نفس الناحية. وهذا تعبير تصويري ينبّه على وضوح انحصار الألوهية بالله تعالى وأنّ الذين قالوا عنهم آلهة فهم محكومون لأوامره تعالى ولا يمكنهم فعل أي شيء.

{فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ}، فجعلنا ما يزيل العابدين عن آلهتهم، وصار المشركون في زائل كمجموعة مزيَّلَةٍ مُزَاحَةٍ منفصلة عن مجموعة الآلهة التي عبدوها، وتعلم من عموم القرآن أنّ الملائكة (ع) تسوق الناس لتحشرهم زُمَراً ومجموعات ويصير الجميع في ناحيتين، ناحية فيها مجموعات السيئين وناحية فيها مجموعات المحسنين... لنفهم ما تقصده الآية فلنتصوّر

لو أنّ آلهتهم فعلاً آلهة، لكانت آلهتهم معهم لتساعدهم وتدافع عنهم وتحميهم... ولكنهم ليسوا آلهة فلا قدرة لهم على فعل إلا ما يأمر به سبحانه، وها بأمره تعالى جرت إزالة "إبعاد وفصل" العابدين عن آلهتهم.

{وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ}، قال الذين كان بينهم وبين من عبدهم شراكة إله وعبد: {مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ}، إنّ تصرّفكم على أساس أننا آلهة مفروض طاعتها كان بلا معنى، ونحن ننكر أننا آلهة إذ نحن لم نخلقكم، ولسنا نملككم، ولستم عباداً لنا، وكل تصرفاتكم على أساس أنكم عباد لنا لم يكن لها أي معنى.

قبل أن نحلّل الكلام نتذكّر دائماً أنّ بعض المشركين قالوا عن كائنات حقيقية من الإنس والجن والملائكة... أنها شريكة له تعالى في الألوهية، فيردّ سبحانه عليهم بوصفهم أنهم هم شركاء مع تلك الآلهة وليس الله تعالى شريكاً معهم، حيث إنّ بينهم وبين تلك الآلهة علاقة عابد ومعبود، إله ومألوه له، حيث بينهم هذه الشراكة.

ننتبه أنّ القرآن يفترض بنا مقداراً من العلم بأمور بسيطة جداً فيتركها وينتقل لغيرها، وهنا أنت تعلم أنّ المشركين عبدوا آلهة وهمية من خيالهم وأصلاً لا واقع لها، إذ ليس هناك كائن حقيقي لتلك الآلهة، لأنّ هذه الآلهة الوهمية التي لا وجود لها أصلاً، يفترض القرآن بك علمك بأنها وهمية من الخيال، فلا يشير إليها بكلامه هنا عندما يقول بأنه تعالى زيّل بين المشركين وبين آلهتهم، وكذلك الكلام مع الذين عبدوا النار أو الطبيعة أو الصنم أو كوكباً ما... لأنّ هذه كائنات لا يتم حشرها "بحسب علمنا"، ومن عبد الملائكة(ع) فالملائكة ستكون موجودة في يوم القيامة ولكنها لا تتحاسب لأنها أصلاً لا علاقة لها بالموضوع لأنها لم تقل لأي أحد أنها آلهة ليعبدها... وعادة يشير القرآن للشياطين الذين وسوسوا للناس حتى يعبدوا الملائكة... فإذا خرجت الآلهة الخيالية التي لا كيان لها كالأصنام وساكني الجبل المقدّس الذي قبّته في السماء... ومن فوق الغيوم... وخرجت الآلهة التي لا علاقة لها بالحشر كالنار والهواء... وبقي من عبد أفراداً من الجنّ أو من الإنس أو من الملائكة، فهؤلاء سيتم حشرهم وتوجيه الأسئلة لهم...

بعبارة أخرى ضعها في بالك دائماً، حيث إنّ كلام القرآن عامّةً عن نماذج، وعادة يفترض أنك عقلاني فيقفز عن الكثير من البديهيات، فلا تفهم كل كلمة يوجهها للمشركين عن آلهتهم أنها تشير لكل أنواع المشركين وكل آلهتهم، إذ إنّ بعض المشركين اخترع آلهة من خياله، وهذا معلوم، وسخر القرآن منهم مراراً وبتعابير مختلفة ومنها ما ورد في الآية 71 من سورة الأعراف {أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ}، فهل من معنى للكلام عن آلهة أصلاً لا يوجد لها كائن؟ كإله الخمرة وآلهة الحبّ... وخذ مثلاً نفس الشيء بالنسبة لمن عبد النبي عيسى(ع) أو عبد أمّه(ع) أو عبد الروح القدس(ع)، لأنّ هؤلاء لا علاقة لهم بمن عبدهم، ولن يهينهم تعالى ولن يحشرهم مع الذين عبدوهم، وهكذا بقي الكلام عن الذين عبدوا إنساناً هو قال لهم إنه إله، أو عبدوا الشيطان الذي وسوس لهم إنه إله، فحتى لو كانت هذه حالات نادرة، فهي الحالة الوحيدة التي يمكن الكلام عنها لتكون نموذجاً عن فقدان أي كائن غير الله تعالى لصفة الألوهية، وأنه في يوم القيامة سيكون الجميع فاقدين للحرية وسبحانه يفعل بهم ما يشاء.

إنّ كل مسألة الشرك به تعالى سخافة بتفاهة، وهكذا تفرض الأمور نفسها، فعن أي شيء سيتحدّث تعالى معنا ومع المشركين؟ لأنّ الشيء الوحيد الذي يمكن الحديث عنه هو اختيار نموذج المشركين الذين عبدوا مخلوقاً له كيان، فلا معنى للحديث مع مخترعي آلهة من الأوهام ولا كيان لها، وبالنسبة لعابدي مخلوق ما، فكلامه تعالى عن هذه الحالة هو أقصى ما يمكن من اختيار شيء يمكن الحديث عنه بالرغم من سخافة وتفاهة كل المسألة، إذ لا منطق ولا عقلانية ولا ذرة فهم في عقيدة الشرك به تعالى، ولكن الردّ عليهم وتبيان الأمور لهم يستدعي توجيه الكلام لهم عن عقيدتهم، وبالتالي يستدعي اختيار شيء يمكن الحديث عنه من عقيدتهم... وهو اختيار عابدي مخلوقات لها كيان حقيقي.

أمّا البقية من عابدي النار والقمر وإله الشمس... فيقفون يوم القيامة كالبُلْهِ وهم يعلمون أنهم سخيفون لدرجة ما بعدها سخافة، إذ أصلاً كانوا يعبدون لا شيء؟ والعديد من المفسرين استبدلوا الآلهة الوهمية لهؤلاء الناس بالشيطان، وقالوا إنهم بالحقيقة عبدوا الشيطان الذي وسوس لهم ليعبدوا الآلهة الوهمية، ويدعم ذلك جزئياً ما قاله النبي إبراهيم (ع) لأبيه عابد الأصنام والذي نقلته الآية 44 من سورة مريم {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا}، ويدعمه جزئياً ما ورد في الآية 117 من سورة النساء {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا}، ولكني لا أتذكّر أي آية تنقل مشاهدَ من يوم القيامة تصرّح باستبدال آلهتهم بالشيطان مباشرة كإله، بل هم حزبه وعباده وأولياؤه... إلا الذين فعلاً عبدوه، كالذين يعتقدون بإلهين، واحد للخير وآخر للشرّ، ويعبدون إله الشرّ ويتقربون منه حتى يرضى

عنهم ولا يؤذيهم، ويبدو أنها كانت حالة الذي كان يناديه النبي إبراهيم(ع) بأبيه. وأمّا كيف يفلسفون ترك إله الشرّ لهم ولا يؤذيهم حين يعبدونه مع أنه إله للشرّ؟ فلا أعلم!

(فَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ{29})
{فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}، نكتفي بصاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى ولا نحتاج لغيره ليشهد، {بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ}، فالله تعالى كان شاهداً حاضراً فيرى ويسمع ويسجّل كل شيء، وأنتم تقولون: كنا نعبدكم. ونحن نقول: لم نطلب منكم أن تعبدونا. ونكتفي بالله تعالى ولا نطلب غيره ليشهد، {إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ}، حيث لم ننتبه لها أنها تحصل، إذ لا علم لنا بها من أصله، ولم نشعر بأي شيء عندما اعتبرتم أنفسكم عباداً لنا!

الآن ترى بوضوح أنّ الآية السابقة والآية هنا حذفتا الآلهة الخيالية التي عبدها الناس "إله الحرب وإله المطر وإله القمر..."، وحذفت الأشياء التي اعتبرها الناس آلهة وهي كيانات لن يحشرها تعالى كالكواكب والنار والطبيعة والدهر... حيث لا معنى أصلاً للكلام عن الآلهة الوهمية والخيالية، فهي أصلاً لا كائن لها ولا معنى لألوهيتها! وركّزت على من سيكون موجوداً في يوم القيامة ليردَّ على الذي عبده، واختارت السورة عرض نموذج آلهة عبدها الناس وهم أصلاً لا علم لهم بالموضوع ولا علاقة لهم به. فلنقل إنهم عبدوا ملاكاً، أو نبياً، أو أرواح الأجداد...

تذكّر أنّ السورة تتحدث عن أناس أنكروا فكفروا بالرسول الإلهي الذي يدعو للتوحيد، وفي المقابل عبدوا آلهة وهمية وخيالية، وعبدوا كائنات لم تقل لهم أصلاً إنها آلهة! وهذا ما اختارته السورة كنموذج من بعض مشاهد يوم القيامة لتعرضه هنا ليكون نموذجاً فاقعاً في وضوح سخافة الشرك به تعالى، لذلك هنا تتحدث معهم الآيات وتخبرهم بمصيرهم في الآخرة، وهذا من الأسباب الرئيسية لإرسال رسول من الله تعالى، حتى ينذرهم من السوء ويرشدهم لعبادة الإله الحقّ، ويبشرهم بالنهاية الجيدة إن عملوا الصالحات، هذا ما يقوله الرسول الناقل لهذا القرآن من الإله عزّ وجلّ فهل من هذا تعجّبوا، ويريدون قرآناً غير هذا أو فليقم النبي محمّد(ع) بتبديله؟ أم العجب من اختراعهم للآلهة الوهمية! أم العجب من عبادة كائنات أصلاً ليس فيها القدرة الإلهية لتسمع من عبدها فهي أصلاً غافلة عمّن يعبدها ويدعوها ويبجّلها! أم العجب من فعلهم للسيئات التي يعلمون أنها سيئةٌ ويتركون الصلاح الذي يرونه صلاحاً ويأمر به تعالى عبر قرآنه ورسوله!

(هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ{30})
{هُنَالِكَ}، في ذلك الزمان والمكان في يوم الحشر، {تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ}، كل نفس يصيبها ويغيّر حالها ما فعلت سابقاً، وما فعلته سلفاً في الحياة الدنيا سيصيبها ويغيّر فيها في الآخرة، فإن فعلت سوءاً ستصيبها الأمور السيئة وإن فعلت خيراً فستصاب بالأمور الجيدة.

{وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ}، هم في حالة ردّهم من الموت إلى الله تعالى، {مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ}، هم اعتبروا أنفسهم تابعين لإله غيره تعالى بينما تبعيتهم ومرجعيتهم الحق الصحيحة هي لله تعالى، فمن يردّهم من الموت هو فعلاً مولاهم من مستوى إلهي، فهل هناك سيطرة عليهم أعلى من السيطرة على حياتهم ومماتهم؟ وهذا هو الله تعالى المحيي المميت، ومن ناحية ثانية هناك سيرون أنّ كلامه تعالى وحده الذي يتنفّذ، والذين اعتبروهم آلهة أولياء لهم، فلا ولاية لهم على أي شيء في الآخرة.

{وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}، تركوا توحيده تعالى واخترعوا وعبدوا آلهة من اختراعهم وهذا افتراء، فهو لا صحّة له ولا أساس ورغم ذلك قالوه وفعلوه، فهذا لن يصلهم منه أي نتيجة في يوم القيامة، ولن يلاقوا نتيجة مرغوبة من عبادتهم لآلهتهم، ولا آلهتهم التي عبدوها سيجدونها وليّة لهم هناك لتساعدهم.

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شراً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضلّ عنك صيدها. واستعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، فلم تقصد الآيات أنّ آلهته ضاعت ولم يجدها أو

لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، ولن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضالّ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردّاً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

نرجع للفقرة، لنسأل هل هناك فقط في الآخرة يتبين للجميع أنّ الله تعالى وحده هو المولى الحق؟ لا، بل هنا في الدنيا أيضاً يظهر ذلك:

(قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ{31})
هنا تلفت الآية انتباهنا لبعض الأمور التي تدفعنا للسؤال: من صمّم وخلق الأشياء بهذا الشكل؟ ومن بعد ما سميناه بالإيمان البدائي بالتعلّق به تعالى عند الشدائد، يكون الكلام هنا عمّا جعله تعالى فينا من فكر دافع للتعرّف عليه عبر السؤال عمّن صمّم وخلق الكون ويدبّر شؤونه...:

أيها النبي(ع)، {قُلْ}، عبر هذا القرآن: {مَنْ يَرْزُقُكُمْ}، أيها المشركون فمن يجعل معكم عامّة ما تحتاجونه أو ما تشبعون رغباتكم به، والكلام هنا عمّا تأكلونه وتشربونه، فمن يجعله معكم، {مِنَ السَّمَاءِ}، وهو المطر الذي تشربونه وينتج عنه ما تأكلونه؟ ومن يرزقكم من، {الْأَرْضِ}، من نبات وحيوان تأكلونهما؟ فهل هي هكذا لوحدها حصلت بالصدفة هذه الأشياء التي تسبّب حصولكم على ما تأكلونه وتشربونه؟ أم يظهر بوضوح وجود إله قدرته عظيمة جعل هذه الأمور تحدث بهذا الشكل، فينزل الماء وينبت الزرع وترعى الحيوانات... وأنتم تستفيدون بذلك لسدّ حاجاتكم.

{أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ}، فقدرتكم على السمع باستيعاب ما تسمعونه، وقدرتكم على الإبصار بوعي وفهم الصور التي ترونها، فلمن تلك القدرة التي تتمتعون بها؟ فأنتم لستم بقدرتكم الذاتية صنعتم لأنفسكم حاستي السمع والبصر وإدراكهما، فمن أين حصلتم عليهما؟ ومن يمكنه استعادتها منكم؟ فلمن هي هاتان القدرتان؟ وهما حاستان من أبرز نماذج الحواس التي نتمتع بها نحن البشر، فمن كان يملكها وجعلها فينا؟

تصور شخصاً عنده عطل في حاسة السمع، أو أصلاً يفقد أعضاء السمع وقمت بإعطائه جهازاً يتم وصله بالدماغ لتحليل الأصوات، فأنت المالك الأصلي لهذا الجهاز، وهنا تسأل الآية عن المالك الأصلي لحاستي السمع والبصر، من المدخل "من الأذن والعين" إلى القدرة على الاستيعاب "إلى الدماغ" فهذه منحة منه تعالى لنا.

بل هناك ما هو أعمق من ذلك، فحين صمّم سبحانه الكائنات، مَنَحَ لبعضها القدرة على السمع والبصر، وحرم آخرين من هذه الأمور، ولنفهم ذلك بعمق نلتفت إلى أنّ بعض الكائنات لها خصائص كحواس ووعي يدرك ما يصله من الحواس "فؤاد"، وما نعرفه من خصائص للحواس المختلفة والمتنوعة فهو ما قرّر تعالى منحه للكائنات، فالنحلة والذبابة... ترى بشكل مختلف عمّا نراه نحن، فمعهم خاصية رؤية ليست معنا، وكلانا معنا خاصية الرؤية التي تفتقدها النباتات.

من نظرته تعالى لكل شيء، فإنه أصلاً لم يكن هناك شيء، ولا أي شيء، لا كائنات، ولا مواد، ولا مكان، ولا حتى زمان، وشاء سبحانه خلق السماوات والأرض، وشاء منح بعض المخلوقات قدرة على إدراك الأصوات والصور، فمنح لبعض الكائنات هذه القدرة التي نسميها حواس، ومن هذه النظرة فهاتان الحاسّتان كنموذج عن بقية الحواس، فهي منه تعالى، فهي أصلاً وأساساً ملكه وجعلها فينا، ويمكنه سحبها منّا متى شاء.

هذا الكلام عن الحواس وعمّا سيأتي من كلام عن الحياة والموت، يأخذنا إلى الوراء، إلى ما قبل أن نصير بشراً بالصفات والقدرات التي فينا، ويسألنا عن معنى الصفات والقدرات التي فينا، وهي كثيرة جداً جداً، وفيها تفاصيل كثيرة وتعقيدات بترابطها... فكيف حصلنا عليها؟ وكيف صرنا هكذا؟

{وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ}؟ من الذي أخرجكم من حالة اللافعل ولا انفعال وجعلكم أحياء: تفعلون وتنفعلون؟ فبما أنكم كنتم غير أحياء في زمن ما "قبل ولادتكم" فمن أين حصلتم على حياتكم؟

{وَمَنْ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ}؟ من الذي يخرجكم من حالة الفعل والانفعال إلى حالة فقدان أي أثر يصدر عنكم؟ وبعد قليل سنتوسّع قليلاً بهذا السؤال.

{وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ}، ومن الذي يقوم بتدبير الأمور، فمن يدير الأمور بالنظر إلى ما سيحصل معها؟ من يتخذ القرارات ويدير الشؤون؟ فدكّان سمّانةٍ أو متجر صغير صغير يحتاج لمن يدبّر أموره حتى يعمل، فكيف بكون فسيح، وسماوات وأرض، فمن الذي يدبّر أمورها لتبقى وتستمر؟

نحن نرى الأمور تسير على ما يرام، ونقول إنّ للطبيعة قوانين هي التي تسيّرها، وبعض المؤمنين يقول بأنه تعالى هو الخالق لقوانين الطبيعة، فإذا هو الذي يدبر الأمور. هنا الآية تقول شيئاً أعمق، فالله سبحانه هو الذي يدبر الأمر، فلم يترك الكون لما نسميه نحن "قوانين الطبيعة" لا، فهذه القوانين هي التي نراها نحن من وجهة نظرنا العلمية المخبرية التجريبية بمقدار ما تطاله تجاربنا وفكرنا، ولكن في الحقيقة فإن التدبير أعمق من ذلك بكثير، وننتبه أنه تعالى لا تعني له شيئاً حساباتنا الفلكية والفيزيائية والكيميائية و... فسبحانه لا يستعمل الآلة الحاسبة والكومبيوتر ليدير الكون.

هذا الفهم لتدبيره تعالى لهذا الكون، ربما يكون أفضل طريق لفهمه عبر رمي كل شيء نعرفه، الفيزياء والفلك وغيره... وننظر للكون الضخم الهائل، ونبحث عن المصمّم العظيم الذي بناه... وكيف يديره، مع كل التفاصيل التي فيه... وصولاً لتدبير أمور الهداية للناس... وتدبير الرزق...

البحث في العلوم أمر مهم ويقدّره سبحانه، ويعطينا عليه أجراً، بل، ويأمرنا سبحانه بالبحث والتفكّر في كل الكون، من أصغر كائن وصولاً إلى المجرات التي في سمائنا وإلى ما بعدها من سماوات... ولكن ينبهنا سبحانه أن نلتفت للحقيقة العميقة التي لا يمكن الوصول إليها بالآلات والمعدات، فلن نصل أبداً إلى القدرة على "رؤية" كيفية إدارة الله تعالى للكون.

هذا الكلام مهم جداً، لأن الكثير من كلام علماء الفيزياء والفلك يشعرنا بأنهم سيصلون إلى كتابة القواعد العلمية النهائية التي تبيّن لنا كيف بدأ نشوء الكون، على أساس أنهم إذا علموا بذلك فلا حاجة لوجود إله مصمّم خالق لأن الأمور جرت لوحدها على قواعد كذا وكذا... في الحقيقة هناك أمور أعمق من ذلك بكثير، هناك ناحية تعاملنا نحن مع الكون كما نراه، حيث نحلّل ترابطه وتناسقه ونستخرج القواعد منها، والعاقلون الرصينون من العلماء يصرّحون بأن قدراتنا أقل بكثير جداً جداً من الوصول إلى فهم حقيقة ترابط الظواهر، والغالبية الأخرى يعيشون وهماً جماعياً في حالة ضبابية القدرة الفائقة للفكر البشري الذي يعلم كلّ شيء وسيعلم كلّ شيء، بينما في الحقيقة إنما نحن نعلم القليل جداً جداً من أسرار هذا الكون...

{فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز هو يرزق... ويملك الحواس... ويخرج الحي... ويدبر الأمر.

ننتبه لأنّ الآية تضمّنت كلامها رداً على من قد يقول جواباً غير هذا، فقد تقول: هناك من سيجيب ويقول: الطبيعة. وآخر سيقول الصدفة، وغيره سيقول شيئاً آخر... وسيأتيك التفصيل عن ذلك في الأسطر التالية، فهنا الآية تذكر لك الجواب الصحيح وتمحي كل الإجابات غير الصحيحة.

سياق الكلام هنا مع المشركين، فمن قال عن الصنم أو الكوكب أو الأرواح... إنها آلهة "والعياذ بالله تعالى"، فعندما تسأله عمّن يرزق ومن يملك ومن يدبر... فسيقول: الله تعالى. لأن هذه النوعية من المشركين يقولون بأن الله تعالى هو ربّ الأرباب، إله الآلهة... ولكن لديه شركاء.

أما أنواع الكفر والشرك الأخرى فقد تحدثت عنها سور أخرى بشكل مباشر، وحتى الكلام هنا على اختصاره يشير إلى سخافة الأنواع الأخرى من الشرك به تعالى، ويشير إلى سخافة اختراعهم للآلهة، فعادة آلهة المشركين تكون متخصّصة بشيء واحد، فلديهم إله للمطر وإله للخضرة والزرع وإله للحرب... وكما ترى تطرح الآية أموراً بعضها متداخل مع قدرات وأفعال آلهتهم الوهمية، حيث السؤال عمّن يرزقهم يشير إلى ترابط كل الظواهر التي ينتج عنها ما يأكلونه ويشربونه، فإله المطر الذي اخترعوه سيقوم بإنزال المطر، إذاً فمن الذي خلق البيئة التي تسبّب نزول الماء؟ ومن الذي ربط بين المطر وخروج النبات؟ ومن ربط بين النبات وأكلكم له... فسيقولون: الله سبحانه وتعالى. وأي

جواب آخر سيتعارض مع الواقع، فالصدفة وحصول الأمور لوحدها بدون من صمّمها، لن يكون جواباً عمّا نراه بوضوح من ترابط عميق بين الكائنات والظواهر التي حولنا.

لنفصّل قليلاً بهذه النقطة، حيث هناك خواص للمواد، نتج عنها خواص مميزة للماء، في بيئة فيها حرارة وهواء، ونتج عن ذلك بخار الماء، وتصاعد إلى بيئة غازية تجمعه وفيها تيارات... ونتج عن ذلك غيوم، بعدها ولأسباب عديدة يعود الماء ليتكاثف كقطرات... وينزل على الأرض، وتمتصّه التربة، وتترطّب البذور والأغصان، وهذه أيضاً ناتجة من بيئة مناسبة ومواد لها خواص لتتركّب بشكل محدّد... فتنمو النباتات... ويأتي الإنسان والحيوان ليأكلها، مع التفاصيل الهائلة التي في تلك الكائنات الحيّة، من نمو لحم وعظم وعصب وأعضاء... وفكر وحواس للتعامل مع المحيط... إلى الرغبات والحاجات... كما ترى فهذا كلام مختصر جداً جداً عن تفاصيل هائلة وكلّها مختصرة في: نزل الماء على الأرض ونبت النبات فأكله الحيوان. فمن دبّر فمن أدار فمن صمّم وخلق هذا؟

هناك جواب واحد: الله عزّ وجلّ. وكلّ الأجوبة الباقية من الواضح فسادها وسخافتها.

إذاً، لطالما تعرفون أن الأمور بيده تعالى، {أَفَلَا تَتَّقُونَ}، لماذا لا تتحاشون وتتجنبّون؟ وهنا سياق الكلام عن سبب جرأتهم على اختراع آلهة ولأي سبب لا يتجنبّون اختراع آلهة من خيالهم طالما أن الله تعالى هو الإله الحقيقي؟ وبعبارة أصرح: أليس من الواضح أن الإله الخالق لكل شيء واحد أحد، عندها ما معنى ارتكابكم للخطأ مع إلهكم باختراعكم لآلهة معه؟ أليس من الواضح أنه يجب عليكم الاتقاء من الخطأ معه سبحانه وتعالى؟

تذكّر دائماً أن السورة تركّز على نوعية محدّدة من المشركين، على الذين يؤمنون بالله رباً "أو بربّ إله كبير أساسي" ولكن اخترعوا آلهة شريكة له تعالى في الألوهية، ويفترض القرآن دائماً أننا كلّنا بالأساس نؤمن بالله تعالى إلهاً، فهو سبحانه قد خلقنا وزرع فينا ما يدلّنا عليه، وخلقنا في بيئة تفرض علينا أن نؤمن بإله صمّمها وخلقها ويديرها، ولذلك من النادر أن تجد في القرآن كلاماً صريحاً مباشراً مع المنكرين أصلاً لوجود إله، على أساس أنه حتى لو وجدنا إنساناً ينكر أصلاً وجود الإله، فهم كاذبون لأنهم يعارضون ما في داخلهم...

بقي شيء لا بد من ذكره هنا وقد كررناه في هذه الدراسة مراراً، فتصوّر نفسك أنت تصمّم كائنات وبيئة لها، ولنقل أنك صمّمت حوض أسماك، وجعلتها تجوع لتأكل وتنمو... فإن كانت قدراتك عالية، ستجعل بيئتهم تنتج لهم الطعام، وإن كانت قدراتك أقل، عندها ستصنع أنت الطعام وترميه لهم... الآن قارنها مع قوله تعالى عن رزقه لنا، فمما حولك ترى قدراته الفائقة سبحانه، ولا تراه تعالى مباشرة يصنع الطعام ويرزقك وذلك بسبب تصميمه البديع الرائع لك ولبيئتك المتناسقة مع حاجاتك والتي ينتج عنها ما تحتاجه... هذا التصوّر لمحاولتك أنت لتصميم وخلق بيئة وكائنات سيريك التفاصيل الهائلة التي اختصرها القرآن بكلمات قليلة، والتي تبيّن بوضوح أنه تعالى رزق وأحيا وأمات ودبّر... وعن قصد جعل التفاصيل والظواهر الكثيرة والضخامة... ليريك بوضوح قدراته الفائقة سبحانه وتعالى.

أمّا إن لم تؤمن الأسماك أنك أنت رازقها إلا إذا رأتك بعينها تصنع لها الطعام، فهذه الحال مثل حال الذي ينكر أن الله تعالى رازقه لأنه يرى بيئته ينتج عنها الطعام، متغابيا متجاهلا لأي معنى لترابط بيئته به، متعاميا عن أسئلة بالتريليونات عن معنى متعته برؤية الألوان وشمّ الروائح واستذواق الطعم والرغبة في أكل ما ينتج عن بيئته... على أساس أن كل هذا حصل لوحده وبدون إله!

(فَذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ{32})
{فَذَٰلِكُمُ}، الموصوف منذ قليل بأنه يرزق ويملك و... هو، {اللَّهُ}، هذا تعريف بأفعال صاحب الاسم المحدّد المميّز الله، {رَبُّكُمُ الْحَقُّ}، المدبّر "المسؤول الحقيقي عنكم" من مستوى إلهي، فأنا ربّ بيتي وذاك رب العمل وتلك ربّة منزل... وهو تعالى ربّ الناس على معنى التدبير "مسؤوليته عنهم" من مستوى إلهي. وكما ترى فالربوبية عملياً قد ذكرت لك الآية السابقة نماذج بارزة منها، من الرزق ومنح الحواس والحياة وتدبير عموم الأمور، فإذا كانت هذه أساسيات وجودكم وحاجاتكم ومصمّمها وخالقها الله تعالى:

{فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ}؟ الحقيقة الوحيدة هي أنّ الله سبحانه صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز له، هو الربّ الأحد، فليس بعد هذا إلا الضلال إلا الابتعاد عن الحقيقة. فجعل آلهة معه تعالى هو كذب وسخافة، وإنكار وجوده تعالى أسخف.

وللتوسّع في معنى كلمة ضلال راجع دراسة الآية ما قبل السابقة.

{فَأَنَّى}، كيف وبأي سبب وبأي منطق، {تُصْرَفُونَ}، تتحوّلون عن حقيقة توحيده تعالى نحو الاعتقاد بوجود آلهة أخرى معه! ما هو المنطق الذي يجعلكم تذهبون في عقائد مختلفة عن توحيد الله تعالى كإله ورب واحد أحد؟

نلاحظ أنّ العقائد التي نسمعها عن المشركين، تختلف كثيراً فيما بينها، وتختلف حتى بين المثقفين وبين عامة الناس الذين من نفس الدين... فبعضهم لم يستعمل كلمة إله لتسمية المشاركين لله عزّ وجلّ في الألوهية، بل استعمل كلمة ربّ، وبعضهم استعمل الكلمتين "إله، ربّ" وهناك فرق بين معاني الكلمتين.

كلمة إله حصرها سبحانه بنفسه كونها تشير لكائن لديه صفات وقدرات فائقة لا يمكن للآخرين امتلاكها، فحتى لو كان الملاك بقدرات تفوق قدرات البشر فهو ليس إلهاً لأنّ قدراته تعالى فوق قدرات الملاك، فطالما هناك من هو أعظم فلا يصح وصف أي أحد بالإله إلا الأعظم بكل شيء من الجميع، طبعاً نحن الآن نتماشى مع كلامه تعالى عن نفسه وتحديده سبحانه لمعنى دقيق يصف به نفسه من لغة البشر، فقد استعمل سبحانه كلمة إله ليصف بها نفسه وقد حدّد معناها ليكون دقيقاً بحسب ما يراه سبحانه في نفسه، فلنقل إننا نحن البشر اخترعنا كلمة إله لنصف بها الكائن ذا القدرات والصفات التي تفوق قدراتنا وصفاتنا، وبالتالي فأي كائن أقدر منّا فهو إله بالنسبة لنا، وعلى هذا المعنى ترى بعض الناس استعملوا كلمة إله لوصف الجنّ أو الملائكة (ع) أو بعض البشر، أو يخترعون إلهاً من خيالهم بقدرات عالية... وفي نفس الوقت يصفونه تعالى بكلمة إله. هذا من ناحيتنا نحن في استعمال كلمة إله في موضوع أصلاً خارج عن نطاقنا، فنحن لسنا آلهة لنفهم بهذه الشؤون، أمّا من ناحيته تعالى، الإله الحقيقي، فيخبرنا أنّ قدراته وصفاته فائقة جداً جداً وبعيدة كثيراً عن قدرات كل المخلوقات، وحدّد لنا أن نصفه وحده سبحانه بوصف "الإله" بناء على كونها تشير لكائن بصفات وقدرات فائقة، فهي من نظره تعالى لا تنطبق إلا عليه سبحانه وتعالى.

مضافاً لذلك فمن وصفه لنفسه في القرآن بالسبوح والمتعال حين كان الكلام موجهاً للمشركين، فهمنا أنّ صفة "إله" بكل ما تحمله من معنى فلا يمكن انطباقها إلا على الله عزّ وجلّ، حيث إنّ كلمة إله من اختراع البشر وناتجة مما جعله تعالى فينا من قابلية للتعرف عليه ككائن بقدرات فائقة مسيطرة على كل شيء، وككائن هو خلف تصميم وخلق كل ما نراه... والتعريف الصحيح بمن وصفناه بكلمة إله، يأتينا واضحاً من الذي يحمل هذه الصفة عبر رسله وكتبه، ويخبرنا عن نفسه، وبما يعلمه من نفسه أنّ صفاته بحقيقتها الفائقة العالية جداً جداً فلا يمكن ولا تتحمّل التواجد في كائنين.

ركّز وانتبه، ففي العديد من الآيات التي ذكرت صفة السبوح والمتعال فقد كانت تشير إلى هذا المعنى، فتقول إنّ صفاته تعالى "لا تتحمّل" ولا يمكن ويستحيل أن يوصف بها كائن آخر غيره تعالى.

أمّا كلمة رب، فيمكن أن نستعملها لأي مخلوق عنده مسؤولية رعاية لشيء، كربّ البيت، وربّة منزل، وربّ العمل... والمشكلة أنّ المشركين قد استعملوا كلمة ربّ لمخلوقات جعلوها مسؤولة عن أمور من مستوى إلهي! كربّ الرزق، وربّ الحرب، وربّ المطر... وتوسّعوا في استعمال كلمة ربّ واصفين بها من ليس إلهاً مدّعين بأنه يقوم بشؤون من مستوى إلهي. ونجد في القرآن آيات كثيرة تتحدث عن هذا النوع من الشرك، وسورتنا هنا وعموم القرآن قد اعتبر أنّ أي استعمال لكلمة ربّ لوصف أي كائن بها على أساس أنه بقدرات وصفات من مستوى فائق جداً "من مستوى إلهي" فقد وصف كائنه بالألوهية، وهذا لا يسمح به سبحانه.

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ{33})

{كَذَلِكَ}، كما نخبرك عن الحقيقة والضلال، وبهذا السؤال لهم عن الإله الحقيقي الأحد، والجواب الوحيد الصحيح بأنه الله تعالى:

{حَقَّتْ}، صدقت وانطبقت، {كَلِمَةُ رَبِّكَ}، حيث إنّ الكلمة التي قالها المسؤول عنك من مستوى إلهي انطبقت، {عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا}، على الذين خرجوا عن الحقّ الواضح، والكلام هنا عن الذين اخترعوا آلهة وعبدوها، لأنّ الحقّ وحدانيته تعالى والفسق هو مخالفة هذه الحقيقة الواضحة، فتحقّقت فيهم كلمته تعالى، {أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}، فلا ولن يعتقدوا بشكل صحيح، إذ إنّ ما لديهم ليس إيماناً، بل شرك وضلال.

بعبارة أخرى، إنّ الشخص من هذه النوعية من الناس يظن نفسه مؤمناً بشيء حقيقي! فهو يعبد الآلهة، ويتقرّب منها بالدعاء والنذور... والبخور... وأيضاً يعبده تعالى الذي نحن نعبده، فهو مؤمن، لا، بل هو فاسق، لأنّ هناك حقيقة واضحة تشير لوحدانيته تعالى وهو يخالفها، فليس إيماناً عبادة غيره تعالى، بل هو الكفر بالتوحيد، وهو الشرك، لأنه إيمان بشيء غير صحيح ولا يتوافق ولا يتماشى مع الإيمان به تعالى.

(قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ{34})

أيها النبي(ع)، قل، عبر هذا القرآن لهؤلاء الذين جعلوا لله تعالى شركاء: {هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ}، هل من الذين جعلتم بينكم وبينهم شراكة عبادة ومعبود، رَبٍّ ومَرْبُوبِينَ، وقلتم بأنها آلهة وأنتم تابعون لها، وقلتم بأنكم تدعونها وهي تستجيب لكم... وكنتم تزعمون أن بينكم وبينهم اشتراكاً في مسألة عبد وإله، يأتي لكم شيء منها، ويصلها شيء منكم، مع العلم أنهم يقولون بأنها شريكة لله عزّ وجلّ في الألوهية ولكنه تعالى ينفي هذه الشراكة من ناحيته، فيقول أنا وحدي الإله، ومن ناحية ثانية يثبت هذه الشراكة مع تلك الآلهة المزعومة لكم أنتم.

هل يوجد أحد من شركائكم، {يَبْدَأُ الْخَلْقَ}؟ هل تسمّون لنا أحداً من الآلهة التي تتحدثون عنها وتقولون لنا: من منهم خلق فَرَكَّبَ وألّف المخلوقات من البداية؟

انتبه لأهمية التعبير بـ: {يَبْدَأُ الْخَلْقَ}. فإذا قارنتها مع الآيات التي تقول بأن إعادة المخلوقات للحياة مرة ثانية أهون عليه تعالى من خلقهم أول مرّة، كما ورد في الآية 27 من سورة الروم "وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ..."، فستنتبه لأهمية الكلام هنا، ولو فرضنا أننا نحن استطعنا خلق كائن ما، فسنخلقه وسنركّبه ونؤلّفه من المواد التي حولنا، وهي مواد لم نوجدها نحن ولم نجعل فيها الخصائص، وسنخلقه في بيئة لم نصمّمها نحن، وهذا ليس خلقاً ابتدائياً، بل استعمالاً لمواد خلقها غيرنا، وإذا استطعنا خلق كائن ما، فسنخلقه كتقليد للأشياء من حولنا... وسنخلقه مستفيدين من القدرات المجعولة فينا...

الآية تسأل عن خالق يمكنه أن يخلق ابتداءً، يخلق من لا شيء مُرَكَّبٍ سابقاً وبلا تقليد لمخلوقات خلقها كائن آخر، فهذا شيء لا يقدر عليه إلا الإله، ولا إله إلا الله سبحانه وتعالى. {هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}، فيخلقه مرّة ثانية بعدما يفقد تركيبه وكيانه؟ هل من تلك الكائنات التي تقولون إنها الآلهة، هل يوجد أحد منهم يمكنه إعادة خلق كل شيء مرة ثانية بعد فنائه وانتهائه؟

غالبية المشركين يقولون: هناك إله كبير خلق كل شيء، ولكن يوجد معه آلهة أصغر منه! والسورة هنا توجّه كلامها حصرياً لهذه النوعية من المشركين، وننتبه أنهم ليسوا كلهم يؤمنون بأن الخلق تتم إعادته، وبغض النظر عن إيمانهم بالعودة إلى حياة أخرى بعد الممات للبشر، فالآية تسألهم عن أفكارهم عن "قدرة الخلق وإعادة الخلق" عند تلك الآلهة، فهل بإمكانها الابتداء من الصفر بخلق أي شيء؟ وهل يمكنها إعادة خلقه هو نفسه إن مات؟ وهذا بغضّ النظر عن إيمانهم أو كفرهم بالحياة الآخرة، فإعادة الميّت إلى الحياة قدرة مميزة جداً، ولا يتصف بها إلا إله، فإن كانوا آلهة كما تقولون، فدلونا على واحد منهم يمكنه الابتداء بخلق شيء من الصفر، ويمكنه إعادة خلقه مرة ثانية بعد أن يموت ويتدمّر تركيبه؟

{قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ}، لأن بداية تركيب وتأليف أي مخلوق تحدث بفعل منه تعالى، {ثُمَّ يُعِيدُهُ}، فيكرّر خلقه مرة ثانية بعد أن يفنى، فحتى لو اختفى أثره، لا مشكلة في هذا، لأنه خلقه تعالى في البداية ومن الهيّن عليه تعالى خلقه مرة ثانية.

{فَأَنَّى}، كيف وبأي طريقة، وبأي منطق ولأي سبب، {تُؤْفَكُونَ}، ها أمامكم الوجهة الصحيحة فلأي سبب لا يكون وجهكم باتجاهها وتكونوا بالمقلوب أمامها؟! لأي سبب تنقلبون عن التوحيد وتختارون طرق الشرك! ما معنى ألوهية آلهتهم إن لم تكن تملك القدرة على الخلق وإعادة الخلق، ويمكنهم القول إنها لديها القدرة على ذلك ولكنها لم تفعله، ولكن هل هذا الكلام يثبت فعلاً ألوهيتها؟ وإن كان الجواب الوحيد أنه تعالى الخالق المعيد، فما معنى انقلابهم عن هذه الحقيقة واختراع آلهة لا دليل على ألوهيتها؟!

فيما سبق مرّ لفت انتباهنا لعناوين تتضمّن تفاصيل هائلة فينا وفي بيئتنا، وكان لفت الانتباه لترابط الأمور، مما يشير بوضوح إلى من صمّم وخلق، وهنا يأتي السؤال إلى ما قبل ما تراه، إلى الصفر، إلى حيث لم يكن شيءٌ، فمن بدأه؟ ننتبه جيداً، حيث إن الكلام مع المشركين يتضمّن النسخ الجديدة من الشرك، فالقائلون بالصدفة صارت الصدفة إلههم، وهي ليست كياناً يمكنه اتخاذ القرارات، بل هي مثل إله الحرب وإله الخمرة... فالصدفة إله من الخيال. وحتى لو رفضوا استعمالنا لكلمة إله لوصف إيمانهم بالطبيعة أو الصدفة... فهنا الآية تسألهم: البداية لهذا الكون من أين وكيف؟ من شيء أو من لا شيء بدأ الكون؟ من خلقه ليكون هكذا؟ ويسبقه سؤال عن كيفية بداية هذا المشروع، فكيف بدأ؟ والجواب العقلاني الوحيد أن إلهاً صمّمه وخلقه.

هناك العديد من الأمور المتفرعة من كلام آيتنا هنا، ومنها قول بعضهم: تسألني عمّن خلق الدنيا من الصفر وتريدنا أن أقول لك إنه إله، عندها أسألك عمّن خلق الإله؟ وللفلاسفة والحكماء أجوبة عن هذا ويبدو أن أجوبتهم ترجع إلى أساس عقلي موجود فينا ويرفض الدور والتسلسل في العليّة، فإذا قلت إن الله تعالى خلق كل المخلوقات، وسألت عمّن خلق

الله، فستقول: اللهُ آخر. وتعود وتسأل عمّن خلق الله الآخر... وهكذا يتكرر السؤال، فهذا تسلسل لا يتوقف، وعقلنا يرفض هكذا جواب، ويدفعنا عقلنا للتوقّف لنقول إنه يوجد كائن بدأ بخلق كل شيء وهو ليس مخلوقاً.
أو سنقول إن الله رقم واحد خلقه الله رقم اثنين، والله رقم اثنين خلقه الله رقم ثلاثة، والله رقم ثلاثة خلقه الله رقم واحد، وهكذا ندور بين الله رقم واحد واثنين وثلاثة، وأيضاً عقلنا يرفض ذلك ويدفعنا للتوقّف عند واحد منهم لنقول إن البداية من عنده.
هذان الدليلان العقليان على توحيده تعالى ليسا صريحين في القرآن، ويمكن اشتقاقهما بشكل ما من كلامه، أمّا ما ذكره القرآن فمختلف عمّا يقولونه: أنت مؤمن بأن الأمور والظواهر والكائنات لا يمكن أن تحدث لوحدها، هكذا من الفراغ ولوحدها فجأة وبدون سبب ومن الصفر من لا شيء، فجأة يصير شيءٌ، وحتى لو قلت بأن بذرة صغيرة جداً جداً ولا يمكن رؤيتها بالعين ولا بالمكبّرات، وهي بذرة من الطاقة، وبشكل ما توسعت حتى صارت كوناً هائلاً، نسألك عن هذه البذرة من أين أتت؟ ومن وضع فيها خصائصها التي سينتج عنها الكون؟ وكما ترى هنا لم تهتم السورة بكيف بدأ خلق السماوات والأرض وقفزت عنه لتسألك عمّن بدأ بالخلق من الصفر، فأي فكرة أو فرضية أو نظرية عن كيفية بداية تشكّل كوننا، لا أهمية لها لأن السؤال المطروح يبقى هو نفسه مهما اختلفت تفسيراتنا لبداية خلق الكون، فها النتيجة نحن فيها، بكيان في بيئة، فمن بدأ بخلقنا من لا شيء؟ أم كان هناك شيء وجرى خلقنا منه، فمن خلق ذلك الشيء؟ وبغض النظر عن تكوين ذلك الشيء، فليكن بذرة من الطاقة، أو بذرة من الجوهر أو... فمن خلقه؟ إن قلت إنها لوحدها تلك البذرة كانت، أو قلت بضبابية إن صفات تلك البذرة من الطاقة الصافية التي لا تركيب فيها فهي لا تحتاج لمن يخلقها... أنت بشكل ما تتحدّث عنه تعالى ولكن بطريقة غير مستقيمة.
القرآن اعتمد تعابيرَ دقيقة، وقال عن كل شيء في الدنيا إنه مخلوق إلا الله عزّ وجلّ، ونفس كلمة مخلوق والتي في دراستنا هذه فسّرناها اعتماداً على كلام العرب قديماً وعلى تقويم القرآن لمعناها الدقيق، هي رديف لوصف الكائن المركّب المؤلّف من شيء ما، وكل ما في السماوات والأرض، فهو مخلوق، أي مركّب ومؤلّف من شيء ما، إلا الله تعالى الذي {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} كما وصف نفسه في الآية 11 من سورة الشورى "فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ..."، فيخبرنا سبحانه عن نفسه أن السؤال عمّن خلقه، ليس له معنى لأن طبيعته تعالى لا تتحمّل هكذا سؤال، هو ليس مخلوقاً، ليس مركباً ولا مؤلفاً. وهذا هو الجواب القرآني البديل لما يقوله الفلاسفة والحكماء عن إثبات وحدانيته تعالى لأن عقلنا يرفض الدور أو التسلسل، وبإعادة قراءة ما قلنا سابقاً سترى الفرق بين الدليلين.
أيضاً هناك كلام للفلاسفة وللحكماء من نوع الترف الفكري المتعمّق في مجال خارج نطاق قدراتنا على التحقّق من صحّته بالتجربة، فيقولون إنه يوجد تدرّج كشيء من الطبقات بين طبيعته تعالى الصافية، ويستعمل العديد منهم وصف هذه الحالة بالنور، وبين أول ما يمكن أن يصدر عن هذا الصفاء، فسيكون من بعد طبيعته تعالى نتاج من أبسط تركيب ممكن، ويقولون إنها الملائكة، وبعدها ينتج تركيب من أشياء أكثر وهو خلقته تعالى للجنّ من النار، وبعدها ينتج تركيب من أشياء أكثر وهو خلقته تعالى لنا من طين.
هم بذلك حاولوا تفسير كيفية البداية من الصفر لخلقه تعالى لكل دنيا المخلوقات بسماواتها السبع، وكلامهم مشابه لمحاولة تفسيرنا بنظرياتنا الفيزيائية حالياً لنشوء الكون الذي نحن فيه من الصفر.
لا داعي لدخولنا في تفاصيل أكثر، وإنما أحببت لفت انتباهك للفرق بين الاعتماد على ما يقوله تعالى وبين ما نتج عن الفلاسفة والحكماء لإثبات وحدانيته تعالى، فالكثيرون انجرفوا مع كلام الفلاسفة الموحدين، حتى صار كلام الفلاسفة جزءاً من ديننا! ويمثّل خطّ الدفاع عن ديننا! بل وجعلوه تفسيراً لبعض آيات القرآن من بعد تطويع الكلمات والتلاعب بمعانيها... لست أقصد تسخيف ما قاله الفلاسفة والحكماء عن توحيده تعالى، ولكن أقصد فصله عن الكلام الإلهي، فكلامه تعالى يمثله، وكلام الفلاسفة ليس كلامه تعالى، والردّ على كلامهم وإثبات بطلانه ليس معناه إثبات بطلان عقيدة التوحيد، بل سيكون إثبات فساد كلام الفلاسفة والحكماء، ها كلامه تعالى في قرآنه، فردّ عليه وأثبت فساده إن استطعت.
أقول لك هذا لأن كلامه تعالى عن نفسه وعن مسألة توحيده واضح وسهل نسبياً ولا يتضمّن أموراً يمكن المناقشة فيها بل هي أمور يمكن دراستها بقليل من التمعّن لفهمها، أما كلام الفلاسفة فيتضمن أموراً يمكن المناقشة فيها، فدليل منع الدور ومنع التسلسل يعتمدان على مفهوم اللانهاية، وهو مفهوم أصلاً وهمي لا حقيقة له، وانتبه لذلك السيّد الطباطبائي في كتاب نهاية الحكمة، وانتبه لذلك أيضاً الشيخ المصباح المعلّق على كتاب نهاية الحكمة.
قبلهما انتبه جمّ غفير من العلماء رفضوا أصلاً قبول علم المنطق والفلسفة كجزء من العلوم الدينية، والبعض منهم رفضها عالماً بخطورة تمثيلها لدينه تعالى، فالردّ على ما فيها سيعني الردّ على عقيدتنا إن اعتمدناها كخط دفاع عن عقيدتنا، وهو نفس الأساس الذي حاولت مراراً وتكراراً التنبيه إليه في دراستي هذه للفصل بين كلامي ودراستي وكلام عموم المنتمين لدينه تعالى ودراساتهم وكلام عموم المسلمين ودراساتهم، فنبّهت للفصل بين كل هذا وبين كلامه تعالى، فتفسيري لكلامه تعالى ما هو إلا انعكاس لمخزوني الثقافي ولطريقة تفكيري ولنفسيتي، ومعلوم محدودية قدراتي والسوء الذي ينخر هنا وهناك... ومهما حاولنا جاهدين الخروج من ذلك لعرض كلامه تعالى كما هو فلن نستطيع...

أقول لك هذا كمثال عن الفرق في كلامه الدقيق سبحانه في قرآنه مستعملاً لغتنا لوصف الحالة لنفسه ولمخلوقاته، وبين ما نقوله نحن عن نفس الحالات مستعملين اصطلاحات تستبدل ضعف كلمات اللغة البشرية التي لم نضع كلماتها العملية أصلاً لوصف حالات من خارج مجال ما تطاله حواسنا، وأمّا كلماتنا البشرية من النوع المفهومي والتصوّري، والتي يمكنها التعامل مع مجالات من خارج نطاق حواسنا، فتعامل الكلمات من نوع المفاهيم مع أمور من خارج قدرتنا على التجربة فهو ليس إلا التخمين، لأن قدرة فكرنا ليست مطلقة لتمتد إلى كل شيء، بل محدودة، والذي خلقنا جعل فينا مقداراً أكثر من كافٍ للتعرّف عليه بمشاعرنا وبتفكيرنا في خلقتنا وبخبر يأتينا منه عبر رسله.

(قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{35})

{قُلْ} أيها النبي(ع) للمشركين عبر هذا القرآن: {هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ}، هل من الذين قلتم عنهم شركائي في الألوهية، ولكن بما أنه ليس لي شريك، أقول عنهم أنهم شركاؤكم أنتم، حيث جعلتموها آلهة لكم، وهي شريكة لكم في هذا الموضوع وليست شريكة لي، فهل من تلك الآلهة المزعومة {مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ}، من يضع الآخرين على الشيء الصحيح الصواب؟

بعبارة بسيطة هل وصلكم منهم رسول؟ أو نبي؟ أو كتاب؟ أو أي شيء ليهديكم إلى طريق الحق! وبعبارة أعمق سبحانه وتعالى الواسع العليم الحكيم الخبير البصير السميع العزيز... بشكل فائق، فمن يمكنه هداية الآخرين إلى الحقّ أفضل منه تعالى؟ وأي شيء سيقوله الآخرون فحتما سيكون فيه أمور غير صحيحة أو غير دقيقة، حتى الملائكة العالية(ع) لو وصفوه تعالى مما يعرفونه لوحدهم فلن يستطيعوا أن يكونوا دقيقين، وفقط سبحانه يمكن أن يهدينا لصفاته الإلهية، ومن ناحية ثانية إذا لم يخبر سبحانه ملائكته(ع) والإنس والجنّ عن الآخرة والحساب للإنس والجنّ بالخلود في الجنّة أو النار، فمن أين سنعلم بذلك؟... فمن ناحية القدرة على معرفة الحقيقة ومن ناحية توصيل تلك الحقيقة للآخرين، فدلّونا على إله من آلهتكم يمكنه ذلك.

الجواب، {قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ}، بسبب اتصافه سبحانه وتعالى وحده بالألوهية يمكنه وحده أن يقول للآخرين الأشياء الصحيحة عن الشؤون الإلهية والربوبية من مستوى إلهي.

{أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ}، كما يفعل الله سبحانه الذي فعلا يعلم بما هو حقيقي صحيح ويخبركم به، {أَحَقُّ}، له الأحقية الأفضلية، {أَنْ يُتَّبَعَ}، أن يكون الناس على كلامه، {أَمَّنْ لَا يَهِدِّي} "يَهِدِّي مع الكسرة على الهاء والكسرة وشدّة على حرف الدال" {إِلَّا أَنْ يُهْدَى}؟ أم تمشي على كلام من لا يعلم الأمور الصحيحة إلا إذا تعلمها أو وصله خبر عنها؟ وإذا لم يصله خبر عنها منه تعالى فهو لن يعلم بالهدى، فهل تتّبعونه أم تتّبعون الذي هداه بتعليمه أو هداه بتزويده بما يهديه أو هداه بإيصال خبر له؟

بعبارة أخرى، هو أصلاً لا يعرف ما هي الهداية فكيف سيهدي غيره؟ وإن دلّ على الهداية فهو تمّت هدايته، وهذا الذي تسمّونه إلهاً، إذا أراد هدايتكم للحقّ فهو لا يستطيع! وهو نفسه يحتاج لمن يهديه للحقّ، لأنه ليس إلهاً حقيقياً، كائناً من كان فلن يعرف الحقيقة الكاملة عن الإله إلا الإله، ولن يعرف أي شيء عن القرارات الإلهية للدنيا أو للآخرة... فكيف سيهديكم؟ وإن كان بحاجة للهداية ليهديكم فهل تلحقون به وتتركون من يستطيع هدايتكم للحقّ وليس بحاجة للهداية من أحد!

فرضاً وبطريقة أو بأخرى حصلت تلك "الآلهة" على الهداية لتدلكم على الحق، فرضاً حصل هذا، فبأي منطق تتركون الهادي الحقيقي وتتبعونها؟

{فَمَا لَكُمْ}، ما بكم أيها السامعون لهذا الكلام؟ {كَيْفَ تَحْكُمُونَ}؟ كيف تصدرون حكماً عقلياً عقائدياً تشريعياً فتقولون إنَّ عبادة غيره تعالى هي عبادة صحيحة، بينما هم لا يمكنهم هدايتكم ولا يفعلون أي شيء حتى يهدوكم!

سترى في الآية بعد التالية أنه تعالى هدانا عبر هذا القرآن، وقبله عبر قابلية الفكر والشعور التي جعلها تعالى فينا لتدلّنا عليه سبحانه، فيكون السؤال هنا عن السبب الذي دفعهم لترك القرآن النازل من الهادي الأحد، مضافاً إليه مخالفة ما يقوله الفكر والمشاعر السليمة الدالة عليه تعالى.

قبل أن نكمل هناك أساس تقوله الآية وتبني كلامها عليه، هل الكلام مع المشركين له قواعد مشتركة منها ينطلق الحديث عن عقيدتهم وعن تصحيحها؟ كما ترى في الآية تسأل عن الهداية الحقّ، فإن كانوا باحثين عن الحقّ، عن الصواب، عمّا هو صحيح، كان هذا هو الأساس المشترك بينك وبينهم، فها القرآن يهديهم، وأمّا الاستهتار والجهل والتعامي... المقصود عن الحقّ، والتمسّك بما هم عليه من عقيدة وشريعة وسلوكيات ولا يهمّهم الحق من الباطل ولا الصحيح من الفاسد، فهذا يقطع أصل الكلام معهم لأنه يصير بلا فائدة، وهذا ما قاله القرآن مراراً وتكراراً واصفاً الغالبية الساحقة منهم، وكنموذج صريح عن ذلك ما ورد في الآية 103 من سورة يوسف {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}، ولدراسة هذه المسألة ضمّ إليها ما قالته الآية 81 من سورة النمل {وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ}، فمن لديه رغبة بمعرفة الحقّ فهذا فقط الذي سيهتدي.

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً إَنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ{36})
بعد الحديث عن الهدى، والتأكد من أن الهدى فقط منه تعالى وعبر أنبيائه. ماذا لدى المشركين؟ وما هي عقيدة المشركين؟

{وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ}، ما يكون عليه هؤلاء المشركون، {إِلَّا ظَنًّا}، فقط وفقط لديهم اعتقاد يستند إلى شيء، وكما تعلم سياق الكلام يفيد بأنهم يستندون على شيء غير صحيح "وهو اختراعهم لآلهة من أوهامهم" وبالتالي فاعتقادهم غير صحيح، {إِنَّ الظَّنَّ}، إنَّ الاعتقاد استناد لشيء، وهنا الكلام عن شيء لم تره ولم تعاينه ولم تختبره فلم تتأكّد من صحّته بنفسك وبدليل، {لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا}، لا يجعلنا نستغني عن الحقّ.

مثلما نقول: معي مال كثير فأنا غني. فبمالي يمكنني تحقيق ما أريد. ولكن لو كان مالي معي وجعت وعطشت وأنا في الصحراء، فعندها لا معنى للغنى. تقول الآية: هناك حقيقة ثابتة، ومن يعلمها فهو الغني، فهو لا يحتاج لشيء لأنه يملك ما يحتاج إليه، لأنه يعلم الحقيقة، وهناك من يظن بشيء يتعارض مع الحقيقة، والترجمة العملية للحالتين عرضتها السورة مراراً، فنهاية من يعلم الحقّ ويتبعه إلى الجنّة، ونهاية من لا يتبع الحقّ إلى النار.

{إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ}، فلديه علم كامل من كل النواحي، {بِمَا يَفْعَلُونَ}، فهؤلاء المشركون به تعالى هم تحت المراقبة الإلهية، وعملياً هذا يعني أنهم سيتحاسبون على شركهم.

سنعرف في الآية التالية وما بعدها كيف نحصل على العلم بالحقّ.

قبل ذلك، ضع في بالك دائماً أنَّ التعريف المتداول لكلمة "ظنّ" على أنها: ترجيح متساوي النسبة بين أمرين، خمسين بالمئة لهذا الرأي وخمسين بالمئة لذاك الرأي. هذا ليس المعنى الأساسي في اللغة العربية لكلمة "ظنّ"، معناها العام: الاستناد على شيء ما في اعتقادنا بصحّة أو بطلان شيء ما، فإن كان استنادنا لعلم صحيح، فظنّنا صحيح، وإن كان استنادنا لعلم غير صحيح، فظنّنا غير صحيح. ومن هذا المعنى العمومي لن ترى الفرق بين الظنّ واليقين، إلا بعدما تمشي على التحديد القرآني لمعنى "اليقين"، حدّد القرآن استعمال كلمة يقين بما يكون فعلاً صحيحاً ومطابقاً للواقع. فعندما تكون متأكّداً جدّاً من شيء، وهذا الشيء حقيقي وصحيح، فهذا يسمّيه القرآن يقيناً، وإن كنت متأكّداً جدّاً من شيء ما، وتقسم بأنه صحيح، ومستعد لأن تغامر بحياتك ومالك وتدخل فيه من شدّة تأكّدك بأنه صحيح، فإن لم يكن صحيحاً فعلاً في الحقيقة، فالقرآن لا يسمّيه يقيناً، ويفصل القرآن بين تأكّدك "الشديد" منه، وبين كونه في الحقيقة مخالفاً لاعتقادك، فيسمّي القرآن حالتك بأنها ظنّ، وطبعاً هو ظنّ غير صحيح.

"الظنّ" هو اعتقادك بشيء ما مستنداً إلى شيء ما، فإن كان ما تستند عليه صحيحاً كان ظنّك صحيحاً، وهذه حالة المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم سبحانه كما ورد في الآية 46 من سورة البقرة {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، فهم مستندون في ظنّهم على آياته وكلامه تعالى. وإن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران {... وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ...}، استناداً للحالة الحرجة التي كانوا فيها ظنّوا أنه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء. وبين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند عليها ولكنه ليس مقتنعاً بها، فلا تزال الأمور عنده مرجّحة لاحتمالات أخرى، فهذا ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا

السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}، فهم يريدون أن يلمسوا مباشرة حصول ساعة قيامهم من الموت حتى يعتقدوا بها ولا يكفيهم الاستناد إلى معلومات تدلّ عليها، فيريدون اليقين بها عياناً حتى يؤمنوا. وهذه الحالة قريبة جدّاً من الاصطلاح "في علم المنطق" والدارج لمعنى كلمة ظنّ على معنى وجود عدة احتمالات. وها صرت تعلم المعنى اللغوي الأساسي لكلمة "ظنّ" فانتبه للفرق بينه وبين المعنى الاصطلاحي حتى لا تفسّر القرآن على أساس المعنى الاصطلاحي.

في عموم كتب التفاسير ستجد كلاماً آخر عن الظنّ، ولا ينطبق معناه على كلّ آيات القرآن، حيث ستجدهم لا يثبتون على معنى واحد للظنّ، حيث مرة يرادفونه باليقين، ومرّة بالشك، ومرة بالحسبان... وهي معانٍ غالباً ستجدها صحيحة لأن الآيات واضحة وتدل على المعنى الذي ذكروه بالشكل العمومي الذي يتحمله الاشتقاق والتدرّج من أصل معنى كلمة ظنّ، ولكنها ليست المعنى الدقيق لكلمة ظنّ، بل كلامهم توصيف لحالة العلم الذي استند إليه الظنّ، وها صرت تعلم معنى الكلمة العام، وأن القرآن دائماً يوضّح لك نوع العلم الذي يستند الظنّ له إن كان صحيحاً أو فاسداً، فلن تضيع في معرفة الظنّ الصحيح من الظنّ الخطأ.

لو أطلت عليك، قبل آيات قليلة تحدّثنا عن وصف المشركين لكائنات بأنها آلهة، ورأينا أنه تعالى يرفض استعمال كلمة إله على غيره سبحانه، والسبب في ذلك أن كلمة إله بمعناها الحقيقي الدقيق لا تتحمّل الانطباق إلّا عليه سبحانه وتعالى، حتى لو اخترعنا نحن هذه الكلمة، وحتى لو نحن أطلقناها على غيره تعالى، طالما نقصد بها: كائناً لديه قدرات وصفات فائقة. فالله سبحانه وتعالى وحده ينطبق عليه معنى كلمة إله. وهنا نفس الشيء، اليقين حتى لو نحن وصفنا به المتأكّد جدّاً من شيء ما، فالقرآن يرفض هذا الاستعمال ويعتبره غير دقيق، لأن اليقين يجب أن يعبّر عن حقيقة واقعية، وإلا فهو ظنّ.

بعبارة أبسط، نحن نربط اليقين بالقناعة، فشدة اقتناعي وتأكّدي الشديد بشيء، نسميه يقيناً، ولم يَتَمَاشَ القرآن مع ذلك، حدّد كلمة يقين لما يطابق الواقع، لو فرضاً وجدت مشركاً يؤمن بقوة بأن إله السفر نجّاه لأنه نذره له ودعاه... فهذا لا يسمّي القرآن حالته باليقين لأنه في الحقيقة لا يوجد إله للسفر، حتى لو فرضاً كان الناجي الوحيد من غرق السفينة هو فقط الناذر الداعي لإله السفر والبقية الذين ماتوا لم يكونوا من المؤمنين بإله السفر، فهذا لا يجعل قناعته يقيناً، لأنه في الواقع لا يوجد إله للسفر، وبالعكس المؤمنون بقرآنه تعالى لم يروا يوم القيامة، وبعضهم من شدّة إيمانه بأن القرآن كلام الإله سبحانه، فهو متأكد جدّاً جدّاً من حصول يوم القيامة، وبما أن يوم القيامة حقيقة ستحصل فيصف القرآن حالتهم باليقين كما ورد كمثال في الآية 4 من سورة البقرة {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}، الوصف باليقين مرتبط بالواقع، سواء حصل أو يحصل أو سيحصل حتماً. والظن مرتبط بما تستند إليه ليصير عندك اعتقاد ما، استناداً للقرآن سيكون ظنّك بما يقوله صحيحاً لأن القرآن كلام الإله، واستناداً لغير القرآن بما يعارض ما يقوله القرآن فسيكون ظنّاً غير صحيح.

كما ترى الكلام السابق عن الإله والظن واليقين، يأخذنا إلى الفرق الهائل بين استعمالنا نحن للغة، وبين استعماله سبحانه للغة البشر، وهذا القرآن فرصة نادرة لن تحدث مرّة ثانية، حيث إنَّ الإله استعمل هذه اللغة العربية لتأليف كتاب، نحن البشر تخوننا العبارة، وننسى، وتتبيّن فيما بعد صياغة أنسب وأدق... أمّا سبحانه فاستعمل لغتنا بدقة، وصحّح لنا استعمالها وقوّمها، وقوّم مفرداتها لتدل على معنى دقيق، وقوّم تركيب جملها لتدل على معنى دقيق.

أثناء دراستي لمعاني الكلمات المستعملة في القرآن، الكثير منها حقّقت فيه من الصفر، وبدأت من استعمال العرب لها قبل الإسلام، وقارنت الكثير منها مع المرادف بالمعنى من لغات أخرى "الإنجليزية والفرنسية"، ولاحظت نفس المشكلة الموجودة عندنا منتشرة في قواميس بقية اللغات، حيث إنَّ تعاريفهم للكلمات القريبة في المعنى متداخلة، ويمكن استبدالها بدل بعضها كمرادف في بعض الجمل، كمثال خذ نموذج: نظر ورأى وبصر وشاهد. وبعدما توصلت لمعنى أدق لتعريف بعض الكلمات كالفرق بين "أنذر وحذّر، خاف وخشي..." متعلّماً من استعمال القرآن لها، انتبهت إلى أنَّ ما توصلت إليه بتعاريف بعض كلمات اللغة العربية التي استعملها القرآن يساعد كثيراً في تقويم تعريفات كلمات اللغات الأخرى...

(وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{37})
أمّا بالنسبة للهداية الحقّ التي جاءت منه تعالى لعباده، وهي هذا القرآن، فلا شكّ في صدور القرآن منه تعالى:

{وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ}، ليس من المعقول أن يحصل لهذا الشيء الذي يمكن قراءته، لا يمكن، {أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ}، وليس بالإمكان أن يؤلّفه أي كائن ويفتري فيكذب وهو يعلم بأنه يكذب ويقول إنَّ الله تعالى أنزله، لأنَّ الفرق واضح جدّاً بين نوعية كلام القرآن وكلام الآخرين.

حتى نفس هذه العبارة التي تعرض علينا الموضوع من نظرته تعالى، هي تحتاج لتأمّلٍ لتفهمها بدقّةٍ، وتجعلك تنتبه لمستوى إلهية مصدر القرآن، وأيُّ كلام لم يقله هو سبحانه سيكون افتراءً، وسيكون اختراعاً لم يقله تعالى، ومن المستحيل أن يأتي مفترٍ بهذا القرآن.

محتوى القرآن من عقيدة وتشريع وتوضيح لعقليات ونفسيات الموافقين والمخالفين لكلامه تعالى... والقصص والعبر التي فيه... ودقّة استعماله للغة... وكلامه من نظرة إلهية للأمور، وكلامه تعالى عن نفسه... تدل بوضوح على أنَّ مصدره إلهي، ولا يمكن أن يقوم أي أحد بتأليف كتاب مثله "وبمحتوى مختلف" ويقول إنّه من الله تعالى، حيث سيتبيّن فوراً الفرق بين الافتراء وبين كلامه تعالى. ومن الجملة التالية سترى تركيزاً على شيء واحد من محتوى القرآن يدل حتماً على إلهية مصدر القرآن.

حتى نفهم ما تقصده الجملة هنا بأنّه "{مَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى}..."، فلنقل إنّي استعملت المعلومات الواردة في القرآن ولم أحد عنها، وألّفت كتاباً وقلت إنّه من عنده تعالى، ففي هذه الحالة أنا لم أفترِ عليه تعالى، ولم أنسب له تعالى كلاماً لم يقله، فهذا هو كلامه تعالى عن توحيده وعن الإيمان بملائكته ورسله... وعن تشريعاته... كلّه كما هو مذكور في كتابي الذي كذبت وقلت إنّه من تأليفه تعالى.

يمكن تأليف كتاب يعتمد بالكامل على ما ورد في القرآن، ولكن إن ألّف أحدٌ ما كتاباً ومحتوى المعلومات التي فيه مخالفٌ لما يقوله القرآن، فستعلم فوراً أنّه افتراء من فساد المعلومات، وهنا الجملة تقول إنَّ محتوى القرآن من معلومات لا يمكن ومن غير المعقول أن يكون افتراء عليه تعالى، ولا يمكن إلا أن يكون من تأليفه تعالى، وتكملة الجملة عن تصديق القرآن لما سبقه من كتب إلهية يكمل هذا المعنى، لأنَّ الفحوى الأساسي في تلك الكتب هو نفسه مضمون القرآن...

{وَلَكِنْ}، هذا القرآن، {تَصْدِيقَ}، تأكيد، {الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ}، وهو ليس افتراء عليه تعالى بل تأكيد لما تحتويه الكتب الإلهية التي نزلت من قبله وهي موجودة بين يدي القرآن، وبالتحديد هما كتابا موسى وعيسى عليهما السلام، التوراة والإنجيل، حيث وصفهما القرآن عدة مرات بأنهما بين يدي القرآن لأنهما سبقاه في النزول وصارا موجودين أمامه، والقرآن بكل وضوح هو امتداد للكتب التي سبقته، والقرآن لا يعرض ديناً جديداً بل هو مصدّقٌ لما سبقه من كتب طرحت العقيدة والشريعة الإلهية.

{وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ}، هذا القرآن مسحوب من كتاب إلهي أساسي أشمل منه بكثير، وهو من كتاب فيه كلّ شيء حصل وسيحصل في الدنيا والآخرة، وقسم من ذلك الكتاب جرى تفصيله فلم يكن مجملاً مخلوطاً بأمور باطلة أو بأمور تشوّشكم، ونزل عليكم على شكل يمكنكم قراءته فصار قرآناً، {لَا رَيْبَ فِيهِ}، ولا يوجد ولا احتمال ولو ضعيف بأنه كتاب غير صحيح، لأنَّ محتواه يؤكد أنّه صحيح، ويعطي أدلة على أنه صحيح من دون أي شك، وهو كتاب، {مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، من المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس، وربّكم هو بنفسه اختار ما سيجعله قرآناً وأنزله موجّهاً لكل الناس.

ننتبه إلى أنَّ تصديق القرآن للكتب التي سبقته لا يقصد الكتب المطبوعة الآن. لا، ولا نظن أنَّ الكتب الأصلية كانت موجودة في زمن النبي محمد(ع). لا، "لا أعتقد ذلك"، لأنَّ هذه الكتب فيها تحريف، ولكن القرآن بتعابير مختلفة ومنها التعبير بتصديقه لما سبقه من كتب، يشير دائماً إلى الامتداد التاريخي العميق للدين الإلهي، وأنَّ هذا القرآن لم يأت بدين جديد.

رغم التحريف الهائل في التوراة والإنجيل إلّا أنّها ما زالت تحتفظ بنواة الدين الإلهي، وبالتحديد فيها تحديد لله سبحانه وتعالى كإله واحد أحد فائق القدرات، وفيها تأكيد على إرساله تعالى للرسل، وفيها تأكيد على يوم القيامة والحساب... وليس غريباً أن يقول العلمانيون إنَّ الأديان الثلاثة "يهودية مسيحية وإسلام" هي دين التوحيد الإبراهيمي، بسبب التشابه الكبير جدّاً جدّاً بين كتب هذه الأديان. ودارسو الأديان ومن مختلف الخلفيات الثقافية "علمانيون ملحدون مشركون..." يرون بوضوح هذه الأديان الثلاثة "يهودية مسيحية إسلام" يرونها متشابهة وكدين واحد، وحتى المتعصبون من اليهود والمسيحيين الرافضين الاعتراف بالقرآن لا ينكرون التشابه شبه المتطابق بين الإسلام ودينهم ولكن يقولون إنَّ محمّداً(ع) نسخ دينه عن دينهم، وهذا يدلّك بوضوح على أنَّ القرآن تصديق لما بين يديه.

سيأتيك في السورة كلام عن شيء أساسي انحرفت به تلك الكتب عن القرآن وسترِدّ عليه، وهو نسبة الولد له تعالى... وأنت تعلم أنَّ العديد من آيات القرآن خصّصت كلامها لأهل الكتاب حول هذه النقطة، وأمّا هنا فتركيز كلام السورة عن عموم من أشرك به تعالى، وطبعاً يتضمّن ذلك أهل الكتاب الذين أشركوا...

الخلاصة أنَّ القرآن قال لنا في عدة آيات بأنَّ الكتب الإلهية السابقة جرى التلاعب بها وتغيير محتواها، كما ورد كمثال في الآية 79 من سورة البقرة {فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ...}، ولكن بحالتها الأصلية هي متوافقة تماماً مع القرآن، وحتى بحالتها الحالية هي بالعموم متوافقة متماشية مع القرآن بشكل لا يمكن أن تقول عن القرآن إنّه دين جديد، إذ من الواضح أنّه امتداد للتوراة والإنجيل، وهذا يكفي ليؤكّد الامتداد التاريخي للكلام الإلهي لقياس كلام القرآن على ما سبق من كتب منسوبة له تعالى.

من هذه الزاوية من غير المعقول أن يستطيع أحد "غيره تعالى" تأليف هذا القرآن، بالشكل الذي تراه من معلومات مصدّقة لما سبقه من كتب.

إعادة طرح دينه تعالى على الناس عبر هذا القرآن كمقابل لكتابي التوراة والإنجيل اللذين حَرَّفَهُما الناس، وذكر معلومات دقيقة فيه صافية منه تعالى، وتهيمن على ما سبقه من كتب بشكل واضح، لأنَّ الاعتماد على ذينك الكتابين لتأليف كتاب ونسبته لله تعالى لن يعطيك الدقة بالمعلومات التي تراها في هذا القرآن.

أكرر لك الكلام لأن الآية تريد التركيز على هذه النقطة، كيلا ننجرف خلف كل ما يقولونه في الكتب ليبرهنوا أنَّ القرآن مصدره إلهي، حيث عادة تنجرف الكتب هنا للكلام عن إعجاز القرآن اللغوي والبلاغي والتاريخي والفلكي والطبّي... بينما الآية تركيزها على تصديقه لما سبقه من كتب كدليل على إلهية مصدره.

نتذكّر دائماً أنَّ كلمة قرآن معناها: الشيء الذي يمكن قراءته، إذ إنَّ الآية الواحدة اسمها قرآن، والسورة اسمها قرآن... وهذا الكلام الذي نزل على النبي محمد(ع) كان في كتاب أساسي فيه معلومات عن كل الدنيا والآخرة، ثم وبأمر منه تعالى تحوّل قسم منه إلى اللغة العربية فصار يمكن للبشر قراءته فصار قرآناً، فالآية الواحدة قرآن، والسورة قرآن، والمجموع كله قرآن.

ستذكر لنا الآية التالية كيف أنَّ محتوى القرآن يؤكد على أنَّ مصدره إلهي...:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{38})
{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ}. هذه الجملة طريقتها تعجبية هكذا: حسناً، بعد كل الأدلة على استحالة افتراء هذا القرآن عليه تعالى، هناك من يركب رأسه ويقول هكذا ومن دون أي دليل: محمد افترى القرآن، يعني اخترعه وألّفه ونسبه لله سبحانه، وسبحانه أصلاً لم يقل هذا الكلام.

لا تنسَ الآيات السابقة وبداية السورة، منها فهمنا أنهم أشركوا فاخترعوا آلهة ولم يقتنعوا أنه تعالى قد أرسل إليهم رسولا، فآلهتهم التي اخترعوها لا يمكنهم أن يخترعوا لها رسلاً، ولا كتباً، لأنَّ هذا سيظهر كذبه فوراً، إذ لا امتداد تاريخي لعبادة آلهتهم ولا لرسلهم ولا لكتبهم، وسترى فوراً أن هذا اختراع جديد، وأنت تعلم أنه لا معنى لدين إلهي جديد يظهر فجأةً ليتكلّف به البشر، بل يجب أن يكون له امتداد تاريخي، وإلا فأين كانت تلك الآلهة ولماذا لم تعرّف عن نفسها! وما معنى الفراغ الذي مرّ على البشرية بدون اتصال من آلهتهم؟...

ولا تنسَ أن الكلام هنا عن المعلومات الواردة في القرآن، فهذا ما قاله تعالى، ولا يمكن أن يكون القرآن افتراء عليه تعالى لأن محتواها يدل على أن مصدره إلهي، ويتأكّد ذلك أيضاً من موافقة ما في القرآن مع ما سبقه من كتب إلهية نزلت سابقاً.

{قُلْ} يا أيها النبي(ع) لهم إذا كنتم تقولون بأنك ألّفت القرآن: {فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ}، أحضروا مجموعة جمل تؤلف موضوعاً مثل المواضيع التي يقولها القرآن، {وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، أعلنوا وأشهروا لكل من تستطيعون أن تعلنوا له ليساعدكم على تأليف موضوع مماثل لمواضيع القرآن، وطبعاً من دون تدخّله تعالى، واطلبوا المعونة ممن تستطيعون طلب معونته للتأليف من دون الله تعالى، اطلبوا من بقية الناس "ومن الجنّ والملائكة(ع) والكومبيوتر..." ومن آلهتكم الوهمية أن تساعدكم، {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} بأن هذا القرآن يمكن لأحد غيره تعالى أن يؤلّف مثله.

ننتبه إلى أنّه سبحانه كان يسأل المشركين عبر هذه السورة: من قال لكم إنّه يوجد شركاء لي؟ ومن قال لكم بأني أسمح أن تعبدوا غيري؟ هل نزل من عندي شيء يسمح لكم بالشرك بي؟ أو هل نزل من تلكم الآلهة شيء يثبت أنها آلهة حقيقيّة؟ فها قد أنزلت القرآن لأنبّهكم، وهو واضح بكلامه أنه من مصدر إلهي، بدليل أن النبي محمداً(ع) كان بينكم لمدة تقارب الأربعين عاماً، ولم تسمعوا منه ولا مرّة أي كلام مثل كلام القرآن، وقد ورد الكلام عن ذلك في الآية 16 من هذه السورة {قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}، فكيف فجأةً يصدر منه هذا النوع من الكلام! وبدليل توافق أساسيات هذا القرآن مع ما سبقه من كتب منسوبة له تعالى، لأنَّ هذا القرآن امتداد تاريخي لكتب نزلت منه تعالى سابقاً وليس كتاباً لدين جديد، وهذا القرآن كتاب هداية من ربكم الذي لم يترككم، وهكذا يتصرّف الإله الحقيقي...

إذا أصرّيتم على العناد وتكذيب القرآن وقلتم إنّه من تأليف النبي محمد(ع)، "ولأنه من المستحيل أن ينزل شيء من أولئك الشركاء التي تعبدونها"، فقوموا بتأليف سورة من مجموعة كلمات لها موضوع محدّد انطلاقاً من عقيدتكم وشريعتكم وسلوكياتكم، فاشرحوا في السورة دينكم ودين آلهتكم الوهمية، وصفاتها وتخطيطها وماذا تفعل... أو "من مثله" فلتكن السورة مثل سور القرآن التي الكثير منها لم يتناول كل أساسيات دينه تعالى، ففرقّها على مختلف السور، ولكن أي سورة منه فهي متماشية ومنطلقة من نفس أساسيات بقية السور، فليس بالضرورة أن تأتوا بسورة فيها كامل عقيدتكم وشريعتكم، بل يكفي "من مثله" فيكفي سورة فيها كلام نابع من دينكم، إذ إنَّ العديد من سور القرآن وخاصة القصار منها لم تَحْوِ تفاصيل عن دينه تعالى، وليكن هذا مقبولاً منكم أيضاً فألفوا سورة فيها بعضٌ من دينكم المخالف لدينه تعالى... وعندها قارنوها مع كلام القرآن لنرى إن كان بإمكان مخلوق ما أن يؤلّف مثله.

جرت فعلاً محاولات عديدة لتأليف شيء مثل القرآن، ولكنها فشلت في أن تكون مثله، وبأقلّ نظرة إلى تلك المؤلفات تلاحظ الفرق الكبير بينها وبين القرآن من ناحية المواضيع ودقّة استعمال الكلمات ودقّة تركيب الجمل... ولكن هذا لا يعني أن أصحاب الأنفس الخبيثة والمريضة ستلاحظ الفرق، فكما أجاب القرآن عن كل أسئلة الكفار، وبيّن لهم خطأ تفكيرهم، ورغم ذلك لم يؤمنوا، فكذلك نجد نوعاً آخر من الناس يملك نفس هذه العقلية العوجاء، فلا يرى الفرق بين القرآن العظيم وبين تأليفات البشر السخيفة.

هي نفس العقلية السخيفة التي تنحت حجراً لتصنع منه تمثالاً وتعبده! ونفس العقلية الرافضة للصلاح الذي يطرحه القرآن... فهي نفسها في الذين رأوا كتباً منسوبة له تعالى وأقنعوا أنفسهم بها بالرغم من هزالتها وشدّة سخافتها.

القرآن حكيم وليس فيه هزل، ونور يهدي للحق بعقيدته وشريعته، فليقلدوه إن استطاعوا تأليف موضوع مثل مواضيعه، وحتى لو كانت سورة صغيرة جدّاً، وتحوي موضوعاً صغيراً محدداً وقد طرحه القرآن لأهميته، وفي قرآنه تعالى لا يخرج الموضوع الصغير في السورة القصيرة عن محورية بقية القرآن بل يتناغم معه، فهل يمكنهم فعل ذلك؟

بعض السخفاء قديماً وحديثاً، قاموا بتأليف سور لها لحن "وزن موسيقي" مثل القرآن، بحيث يقلّدون القرآن في وزن تفعيل جمله، وأما المحتوى فسخيف جدّاً إلا إذا كان مسحوباً من مفاهيم القرآن ومن كلماته، ولشدة عماهم لم يروا أنه تعالى عبر القرآن قد شرح لهم نفسيتهم وأسباب ابتعادهم عن دينه وكفرهم بكتبه ورسله وأنذرهم من ذلك... على أي حال فهل تمكّنوا من تأليف سورة لها قيمة؟ فلها قيمة فكرية عقائدية أو تشريعية أو أخلاقية أو حتى دقيقة في تعابيرها... ومخالفة لما يقوله القرآن؟ لا، فقد ألّفوا سوراً لها أوزان كلمات وجمل مثل أوزان تفاعيل كلمات وجمل القرآن، فعندما

تقرأها بدون النظر لمعناها، ستجد أنها على نغم وموسيقى قرآنية في سماعها، أما المحتوى، فصفر، أو تقليد لمحتوى القرآن.

نجد كتباً قالوا إنها من وحي إلهي، ككتاب البهائية، ويا ويل المؤلف والناشر والموزّع... والمؤمن بتلك الكتب، وتلك الكتب أكبر دليل على إلهية مصدر هذا القرآن، فشتانَ بين القرآن وبينها، وأمّا من آمن بها، ولو كانوا بالمليارات، فهم ليسوا مختلفين عن الحمقى الذين يعبدون الأصنام، فهل يوجد أسخف من عبادة حجر! وأنت تعرف أن الملايين من الناس عبر التاريخ قد عبدوا الحجر، وهؤلاء المؤمنون بكتب سخيفة ركيكة المحتوى، فهم لا يختلفون عن سخفاء عبّاد الحجر.

الخلاصة مع تكرار لما سبق: لا تنجرف في تفسير آيتنا هنا بالكلام الكثير الذي قيل ويقال حول إعجاز القرآن اللغوي والبلاغي والعلمي... حيث إنَّ الغالبية يقولون إنَّ هذه الأمور قصدتها الآية حين تحدّت البشر بالإتيان بسورة من مثله، فانتبه لأن هذا ليس المقصد المباشر للآية من التحدّي، وإنما الكلام كان مع المشركين المختلفين عن دينه تعالى، فهم لديهم عقيدة وشريعة وسلوكيات مختلفة عن هذا القرآن، فإن كان محمد بن عبد الله(ع) قادراً "بنظرهم" بطريقة أو بأخرى أن يقوم بافتراء هذا القرآن على الله تعالى، فليتفضّلوا وليجمعوا معهم من يرونه مناسباً، وبأي طريقة يرونها مناسبةً، وليؤلّفوا ولو سورة واحدة انطلاقاً من عقيدتهم وشريعتكم وسلوكياتهم وليقولوا إنها نازلة من آلهتهم. فهذا هو المعنى المباشر الذي قصدته الآية، وأي كلام آخر فهو اشتقاق أو من التبعات، وللأسف فالتوسّع الذي تجده في الكتب حول التحدّي بالبلاغة قد أضاع المعنى المباشر الذي تقصده الآية.

بقي شيء مهمّ، فمن كل القرآن تخرج بمفهوم أساسي: هذا القرآن يعرض الحقّ الصحيح، وأي كلام مخالف له فهو فاسد باطل. وبناء على القابلية التي جعلها تعالى فينا لتمييز الخير من الشرّ والصلاح من الفساد، فهذا القرآن يعرض علينا الحقّ الذي يجب أن نراه نحن حقّاً، ففينا قابلية لرؤية ذلك، ويعرض علينا ترك ورفض والابتعاد... عن السوء والفساد والشرّ الذي بالقابلية التي فينا يجب أن نراه نحن فاسداً شرّاً سيئاً.

الآن، يا أيها الكافرون بإلهية مصدر هذا القرآن، ما هي مشكلتكم معه؟ طبعاً مشكلتكم مع محتواه الذي يخالف ما أنتم عليه، وأنتم لا تريدون الاعتقاد بإلهية مصدر هذا القرآن لأن هذا يعني وجوب التزامكم بما يقوله وأنتم كارهون لذلك، وها القرآن يريكم الصلاح والخير ويأمركم به، ويعدكم عليه بثواب، ويريكم السوء والفحشاء والمنكر... وينهاكم عنه... ويخبركم بالشؤون الإلهية عن الله الإله الربّ الواحد الأحد. وهذا هو ما تكفرون به، حسناً، محمد يدّعي أن القرآن نزل عليه وحياً من الإله، وأنتم لم يعجبكم المحتوى، ورفضتموه فقلتم إن القرآن ليس كلام الإله، وأصلاً الإله لم يقل هذا الكلام حتى في السابق، ومحمد افتراه، وبالتالي فلستم ملزمين باتباع القرآن. وكلامكم هذا يعني أن محمداً لديه القدرة على تأليف هذا القرآن، فاخترع ديناً ونسبه للإله، فهل الكلام الوارد في القرآن يمكن أن يقوله غير الله تعالى؟
فالمعلومات التي فيه عنه تعالى وعن شؤونه وعن نظرته للأمور وعن أفعاله وقراراته وتشريعاته والسلوكيات التي يأمر بها... فهل هذه يمكن أن تصدر عن غيره تعالى أم من الواضح أنها كلام إلهي؟

إن كان بإمكان محمد اختراع دين وتأليف كتاب ينسبه لله تعالى، فهاتوا ألّفوا ولو سورة واحدة تقولون فيها عقيدتكم وتشريعاتكم... أو سورة فيها بعضٌ من دينكم، وطبعا لا تقوموا بنسخ وتحوير ما في هذا القرآن، بل اعرضوا دينكم أنتم، ولنَرَ إن كان العاقل سيبلع كلامكم ويرى أنه كلام إلهي، أو كلام يوافق عليه الإله ليكون ديناً للناس.

هكذا ترى معنى كلام الآيات عن تصديق القرآن للكتب التي سبقته، فعلى أي أساس يتهمون محمداً بتأليفه ومن الواضح أن القرآن امتداد لكتب منسوبة له تعالى وعمرها آلاف السنين، فما تفسيرهم لهذا؟

يمكنك مراجعة ما ذكرناه بعد الآية 23 من سورة البقرة حول كلام بعض المفسرين عن عجز الناس على الإتيان بكلام مماثل لبلاغة القرآن، ومراجعة دراسة الآية 13 من سورة هود التي تحدّتهم بالإتيان بعشر سور مثل سور القرآن.

(بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ{39})
من لديه ذرّة فهم وعقل فسيعترف أنَّ القرآن لا يمكن للمخلوقات تأليف مثله بالمحتوى، ولكن سيبقى لديه إشكال على القرآن:

{بَلْ كَذَّبُوا}، وقالوا إنَّ كلام القرآن فيه كلام كذب! ولم يصدّقوا {بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ}، وقابلها مع إحاطته تعالى التي تعني وصول علمه تعالى إلى ما سيحصل في المستقبل، وعلمه تعالى بحتمية حصول يوم قيام من الموت والحساب والجزاء، لأنه هو سبحانه القدير قرّره... وقارنها مع غياب هذه المعلومة عنّا إلا عبر خبر وصلنا ممن علمه محيط بكل شيء، حيث كلما كان علمنا محيطا بموضوع ما، كان بإمكاننا توقّع ما سيحدث بدقّة أكبر، ولكن قدراتنا أقل بكثير مما هو مطلوب لنعلم بيوم القيامة، حيث سبحانه يرى بكل وضوح أنَّ الأمور تسير باتجاه تبدّل الدنيا وقيامنا من الموت ومحاسبتنا... وهم لم يحيطوا علما من ذات نفسهم بذلك، لأنه مجرد كلام يصلهم من دون أي قدرة لديهم على التحقّق من صحّته عبر اختباره بلمسه أو رؤيته... وطالما لم يؤمنوا بالقرآن بأنه كلام إلهي، فلن يعتبروا كلام القرآن عن الآخرة صادقاً، فسيكذّبونه.

نتذكر ما يقوله بعض الناس عن الآخرة: لا نعرف شخصا مات ورأى الآخرة ثم رجع وأخبرنا عنها، فلو حصل هذا لربما آمنا أنَّها موجودة. والخبر منه سبحانه لا يصدقونه، ويطلبون شاهدا "إنسانا" يذهب للآخرة ويرجع حتى يصدقوا بأنها موجودة! علما أنَّ هذا مستحيل حدوثه، لأن الآخرة تأتي في الآخر بعد تبدّل الدنيا، فالآخرة أصلا غير موجودة الآن لأننا الآن في الدنيا، وبغض النظر عن هذا فكلامهم يعني أنّ الراجع من هناك سيكون أصدق منه تعالى!

ولا يؤمنون {بِمَا}، {لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ}، حيث من الماضي وإلى أي واحد منهم سمع بالآخرة، ولم يحصل أمامه ما يقوله هذا القرآن، ولم يروا تأويله أي تطبيقه بترجمة أقوال القرآن، حيث كذّبوا كلام القرآن عن الآخرة والحساب... وهي أمور لا يمكن اختبارها، ولا تجربتها، وهم لم يؤمنوا بهذه الأمور لأنه لحد "الآن" لم يحصل ما يقوله القرآن أمام أعينهم.

بعبارة أبسط فيها تكرار مملّ سببه كثرة اللغط في التفاسير حول آيتنا هذه، وأكرر لك حتى تفهم المعنى بوضوح وتنتبه لخطأ ما يقولونه في الكتب بدلا من تضييع الوقت بذكر الكثير الذي قالوه... ونتذكر الآية 53 من سورة الأعراف، {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ...}، حيث تحدثت عن طلب الكفار تأويل القرآن حتى يصدقوا كلامه، وكانوا يطلبون حصول ما يقوله القرآن أمام أعينهم "والآن" عن العودة إلى الحياة بعد الموت، والحساب ودخول الجنة أو النار... وهذه أمور ذكرها القرآن، والمشركون كذبوا بها، ويريدون تأويلها أمامهم الآن، وذكرت لنا الآية من سورة الأعراف، أنه حين يحصل تأويل القرآن يكون قد فات الأوان بالإيمان بالآخرة، لأنها حصلت وجاء وقت الحساب...

تحدثت عدة آيات عن هذا الموضوع بطرق مختلفة. وهنا بعد أن نكمل مع الآيات سنلاحظ معالجتها لنفس الموضوع بطريقة أنَّ الفاصل بين حياتكم الآن، وبين رؤيتكم لما سيحصل في الآخرة، ليس بعيدا جدا، فستشعرون أنَّ حياتكم كلها لم تكن إلا برهة قليلة من الزمن، وبعدما تموتون ستتفاجؤون عندما تفتحون أعينكم لتروا الآخرة، التي هي تأويل وتحقيق ما يتحدث عنه القرآن... وتخبرهم الآيات بأنهم يستعجلون برؤية الآخرة وهم لا مصلحة لهم في ذلك لأنهم سيتعذبون...

{كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، حيث من كان قبلهم من المشركين الناكرين للكلام الإلهي عن الآخرة الذي وصلهم عبر الرسل، كذلك بنفس الكلام، وقالوا نفس هذا: أنَّهم لا يؤمنون إلا بما يرونه أمامهم وما يلمسونه ويمكنهم اختباره.
فالمكذبون لما يقوله القرآن عن الآخرة ليسوا أوّل من كذّب الكلام الإلهي عن الآخرة، بل كان يوجد مثلهم الكثيرون من قبل.

{فَانْظُرْ}، ووجّه اهتمامك العام، كما نقول بالعامية: وشوف. {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ}، كيف كان ما عقب ما صار بعد أعمال واعتقاد، {الظَّالِمِينَ}، الذين لم يكن معهم حقّ بتكذيب الكلام الإلهي، لأنَّ كلامه تعالى واضح أنَّه صحيح وعليه حجج كثيرة دامغة صلبة، حيث ظلما كذّبوا الكلام الإلهي والعدل والحقّ والإنصاف أن يؤمنوا به لا أن يكذّبوه.

بقي شيء، فهل ذكر تعالى لنا شيئا ما ولم يعطنا عليه دليلا؟ لا، وفي مسألة قدرته تعالى على إعادتنا إلى الحياة ترى فقرة كاملة مع أمثلة متعددة عن ذلك في سورة البقرة بداية مع الآية 258 {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ...} وما بعدها عن الذي أماته تعالى مئة عام ثم بعثه... ثم طلب النبي إبراهيم(ع) رؤية إحياء الموتى... ومعهم ما ورد عن معاينة الناس لإحياء بعض الموتى على يد

النبي عيسى(ع) كما ورد في الآية 110 من سورة المائدة {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ... وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي...}، وكلام غيره الكثير عن بيان قدرته الفائقة سبحانه الذي بدأ الخلق أول مرّة ويمكنه بسهولة إعادة خلقه... ولكن هنا الكلام عن خبر حصول يوم قيامة وحساب وجزاء، فهذا مختلف، ودليله الملموس هو حصوله فقط، أمّا دليل إثبات حصوله فمنتشر في القرآن بعبارات مختلفة، منها أنَّه قرار منه تعالى ووصلنا الخبر بذلك عبر كتاب من الواضح أنَّ مصدره إلهي ويدعمه كتب قبله عمرها آلاف السنين كلها أكدت أنَّ هذا الخبر متكرر منه تعالى لنا، ومنها أنَّ هذا القرار تفرضه الحكمة من خلقنا بحرية إرادة واختيار، وإلا فما معنى خلقنا قابلين للكفر والإيمان بماذا؟ ولماذا؟ وما السبب وما النتيجة لذلك...؟ وذكر القرآن ذلك بطرق عديدة منها ما ورد في الآية 27 من سورة ص {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}.

الكلام يجرّ الكلام، وبناءً على ما يبدو من القرآن أنَّ إبراهيم إلى حين حادثة محاولة إحراقه، لم يكن نبيا ولم ينزل عليه وحي، وبقلبه السليم وصل إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه البشر من معلومات عنه تعالى وعن الآخرة، وتقرأ ذلك من الآية 78 مرورا بالآية 82 {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} والآية 87 {وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ}، فإن صدق تحليلنا أنَّها من كلامه (ع) من دون نزول وحي عليه، فهي تريك أنَّ سلامة القلب من الدرجة العالية كفيلة بالتعرّف حتى على يوم القيامة والحساب والجزاء.

(وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ{40})

على كل حال، {وَمِنْهُم}، ومن الناس، {مَّن يُؤْمِنُ بِهِ}، من يعتقد بالقرآن بأنَّه نازل من ربنا سبحانه وكلامه صحيح، فيعتقدون أنَّ الآخرة ستحصل بناء على اعتقادهم بإلهية مصدر القرآن، وهذه النوعية من الناس تشمل المؤمنين والمعلنين أنَّهم منكرون للآخرة ولكن من داخلهم لديهم قناعة بصحّة كلام القرآن، ولكنهم عنيدون بدرجات مختلفة تبدأ من الإيمان الخفيف مع التزام بسيط جدا بدينه تعالى، ويتدرّج للأسوأ وصولا إلى من أعلن الكفر بالقرآن مع قناعة في داخله بصحّة ما يقوله القرآن، ولكنه يعاند ويحارب قناعته تلك حتى تنمحي في الآخر...

عليك أن تفصل بين إعلان الاعتقاد وبين الاعتقاد من الداخل بما يقوله القرآن، حيث إنَّ الآية هنا تتكلّم عن الاعتقاد الداخلي بكلام القرآن بغض النظر عن ممارسة هذا الاعتقاد ليكون الشخص مؤمنا ملتزما، أو يكون من الخارج يعلن كفره بكلام القرآن ولكن من داخله يؤمن بصحته "ولو بشكل طفيف".

{وَمِنْهُم}، من الناس، {مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ}، حيث لا يعتقد بصحة ما يقوله القرآن، وتعلم من سور أخرى أنَّه لا يؤمن بسبب شدّة سواد قلبه، ومن شدّة كرهه للالتزام بالحلال والحرام والواجب... وكما ترى يكون منافقا علنا يقول بأنَّه مؤمن ولكن من داخله لا يؤمن، فتركيز كلام الآية على ما في داخلنا.

{وَرَبُّكَ}، والمسؤول عنك من مستوى إلهي أيها النبي(ع)، {أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ}، فإن كان هناك من يحدّد من هو فاسد وما هو مرفوض لأنَّه غير صحيح، فلست أنا الأعلم بذلك، ولا أنت ولا أي أحد آخر، والأعلم بذلك هو ربّك سبحانه. والكلام هنا عن فساد تكذيبهم لكلامه تعالى عن الآخرة التي لن يؤمنوا بها حتى يروها أمامهم، لأنَّ الحقّ كلامه تعالى وأنَّها حتما ستحصل، وكلامهم عن تكذيب ما يقوله القرآن عن الآخرة فاسد غير صحيح، وضمنا الكلام عن الفساد العمومي، فإنكارهم للآخرة سينتج عنه تركهم الالتزام بالصلاح لأنهم لا يؤمنون بأنهم سيتحاسبون على الفساد.

هناك مفهوم قرآني منتشر في عموم السور، وتراه في سورتنا هنا بكثرة، عن كونه تعالى بعلمه المطلق من المستوى الفائق العالي بشكل هائل فوق كل الآخرين، فهو تعالى وحده يمكنه أن يحدّد بدقة في كل المجالات ما هو الحقّ والخير وما هو الباطل والشرّ، ومن ناحية ثانية، ما يقوله تعالى هو حتما الصحّ وما يقوله الآخرون إن كان معارضا لما يقوله تعالى فهو حتما خطأ. من هذه النظرة ترى معنى واضحاً للجمل القرآنية المشابهة لجملة: {هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ}.

قارنها مع الذين يفعلون ما يحلو لهم، وتقول لهم: ما تفعلونه سيّء. ويردّون عليك أو حالتهم تردّ عليك: ما نفعله لا نريد التغيّر عنه، فليكن سيئاً فهذه ليست مشكلتنا، بل يجب على الدين أن يحلّل ما نراه نحن مناسبا. من النظرة الإلهية ترى العكس تماما، بحكمته تعالى ورحمته وقدرته الفائقة وعلمه الواسع المحيط... بالتأكيد ما يقوله تعالى هو الحقّ، وهو تعالى يحدّد بالضبط ما هو حقّ، وما يخالف قوله تعالى فسيكون فاسدا باطلا كذبا... والدين الذي يريدونه ليس حقاً بل

باطل فاسد، وهو سبحانه أعلم بالمفسدين لأنَّه الأعلم من الجميع بما هو حقّ، وبالتالي فهو تعالى بسهولة يحدّد من هو المفسد.

(وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ{41})
من لم تقنعه الآيات التي شرحت له بطلان عقيدة الشرك، ولم يقنعه شرح المخطط الإلهي الذي يتضمّن الآخرة والحساب، ولم يقنعه القرآن، ولم يأت بمثل القرآن ليثبت أنَّه من تأليف البشر، وكل ما فعله هو أنَّه تمسّك برأيه بلا أي دليل ولا منطق، فهذا ما تقوله له أيها الرسول(ع):

{وَإِنْ كَذَّبُوكَ}، وبعد كل هذه الأدلة قالوا إنَّك غير صادق وبالخصوص في موضوع الآخرة والحساب، {فَقُلْ} أيها النبي(ع):

{لِي عَمَلِي}، وما أعمله وما أقوم به ويصدر عنّي في حياتي فهو لي، {وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ}، وما تقومون به ويصدر عنكم فهو لكم، وهو مختلف عن عملي.

{أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ}، فلا علاقة لكم ولا ارتباط بالذي صدر عني، {وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ}، فلا ارتباط ولا علاقة لي بكم.

بعبارة أخرى، لا يقول أحد ما من المشركين إنَّه: لا فرق بين ديننا ودين الإسلام، وبالرغم من الاختلاف بينهما ولكن كلاهما يسميان ديناً. لا، لأنَّكم كذبتم النبي(ع) عندما قال لكم إنَّه تعالى أرسله لكم، وكذبتموه في التوحيد والقرآن والآخرة والحساب... فهو بريء من دينكم وأنتم بريئون من دينه، فلا علاقة لدينه بدينكم ولستم مثل بعض.

ركبتم رأسكم، وتمسّكتم برأيكم الباطل، فخذوا علماً أنَّكم إن بقيتم هكذا، فكل واحد منّا مسؤول عن عمله، ولا علاقة نهائياً بين عملي وعملكم، مثلاً: عبادتكم لله تعالى ولشركاء معه، لا علاقة لها بعبادة الله تعالى وحده، وعمل الخير الذي تقومون به للتقرب من الله تعالى "ومن الشركاء"، ليس صحيحاً، ولا نصف صحيح، ولا ربع صحيح... ولا علاقة لي به ولا تشابه ولا ارتباط... وطالما تقومون بأعمالكم على أساس الشرك بالله تعالى، ومهما كان نوعها، أو اسمها، أو شكلها، فلا علاقة لها بدين التوحيد، فخذوا علماً بهذا، وتحمّلوا نتيجة تمسككم برأيكم.

يمكنك التوسّع فيما تقوله الآية لتنتبه لبعض الدراسات والانتقادات عن الأديان، والتي تصوّر كل الأديان مثل بعضها، بلا فرق، على أساس أنَّها تعتمد على الاعتقاد بإله أو آلهة، ولديها شريعة فيها حلال وحرام، ولديها تراث تاريخي... وهكذا تراهم يعرضون اشتراك الأديان كلّها في العناوين الرئيسية، وبناء عليه فكلّهم مثل بعض، اختراع.

الغالبية يتناولون الموضوع من فوق، لأنَّهم فوق الاعتقاد بأي دين من هذه الأديان، على أساس أنَّها ثقافة قديمة من "بدائية" البشرية وهم تطوّروا وترقّوا عن الإيمان بهذه السخافات.

سورتنا هنا مناسبة تماماً لهذه النوعية من الناس، حيث إنَّهم وإن ادّعوا أنَّهم ليس لهم دين، ولا يعتقدون بإله، ولا يتقيّدون بأي شيء، فهم يتوهمون لأنهم حتما لديهم تفسير لمن خلقنا وكيف صرنا... ولو قالوا إنَّها الصدفة أو الطبيعة... فهذا اعتقاد، وأيضاً لا واحد منهم ينكر ضرورة التشريعات لتنظيم حياة الناس ومعاملاتهم مع بعض، فهذا تشريع، حيث لديهم نسخة دينية عن ديننا، والعنوان أنَّهم لا دين لهم ولا يدينون بأي دين فهو وهم.

سورتنا هنا مناسبة تماماً لهذه النوعية من الناس لو درسوها لينتبهوا للمصير الخطير الذي ينتظرهم.

(وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ{42})
ربما نستغرب، كيف لا يؤمن المشرك بعد كل هذه الأدلة؟! لهذا تقول الآية:

{وَمِنْهُمْ}، من المشركين، {مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ}، حيث أنت تتكلم وهم يتسمّعون، ويصل كلامك إلى آذانهم، وتظن أنَّهم لا بد أن يؤمنوا، ولكن انتبه، {أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ}، فهل لديك القدرة على جعل الصمّ "الطرشان" يسمعونكَ وهم أصلا

لا يسمعون الصوت؟ فالأطرش لا يسمع الصوت لا منك ولا من غيرك، ورغم معرفتك بذلك فهل تتكلّم معه على أساس أنَّه سيسمعك؟ {وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ}، حتى لو كان الكلام لا يصل إلى عقل الأصمّ فلا يعقل الصوت؟!

بعبارة أخرى، أنت معك حجج قوية ودامغة، وتؤمن بأنك تستطيع إقناع كل من يسمعها، وتتكلم مع أشخاص آلة السمع لديهم تعمل بشكل صحيح، ويسمعون كلامك مئة بالمئة، ولكنهم لا يؤمنون! لماذا؟

لو كنت تتحدث مع شخص أصمّ "أطرش"، فهل يمكنك جعل كلامك يصل إلى عقله؟ لأنَّ السمع الحقيقي هو ليس مرور الصوت في الأذن إلى الدماغ فقط، بل هو أن نعقل ما نسمعه. وأنت تعلم أنَّ الأصم أصلا لن يصل الكلام إلى عقله، فكيف تتوقّع أن يعقل كلامك؟ وهؤلاء مثل الأصمّ من هذه الناحية، لأنَّ الكلام لا يصل إلى عقولهم.

بعبارة أخرى، ليست المشكلة فيك ولا بدينك بل فيهم، ومحاولات إقناعهم مثل محاولة تفهيمك الكلام بالصوت لأطرش لا يسمع الكلام، فإن كان هذا يوصلك لنتيجة، فكلامك مع المتمسكين برأيهم بالشرك سيوصلك لنتيجة.

عليك أن تلتفت إلى احتكاكك بالناس في حياتك العادية، حيث حين تواجه شخصاً لا يريد الاقتناع معك بما تراه أنت صواباً، وتتحدّث معه وتتحدّث وتشرح... وبعد انتهائك من الكلام يعيد عليك ما كان يقوله سابقاً رافضاً كلّ كلامك. طبعاً نفترض أنَّك تقول كلاماً صحيحاً واضحاً والآخر يرفضه، وهنا نفس التصوير، حيث الآخر كأنَّه لم يسمعك؟ وحالتك بالكلام معه لتقنعه بالكلام مثل لو أنَّك بالكلام تتوجّه إلى أصم أصلا لا يسمع، أو كمن يتكلّم مع الحائط، فلن تحصل على نتيجة من الكلام معه.

تذكّر دائما أنَّ كلام القرآن عادة عن نماذج، حيث يختار شيئاً محدداً ليكون نموذجاً لك لتفهم الكلام، ولا يقصد أبداً تعميم النموذج، لأنَّه معلوم بالبداهة أنَّه ليس كل كافر غنياً، واختار القرآن عادة وبكثرة نموذج الكافر الغني ليريك سبب تعلّق بعض الأشخاص بمتاع الحياة الدنيا لأنَّهم فعلاً يتمتعون بخيراتها، ولا معنى للكلام عن متعلّق بالدنيا كافر بدينه تعالى وهو أصلا بالكاد يُؤَمِّنُ حاجياته ليعيش، فهذا لا يصلح نموذجاً للكلام عنه في مسألة التعلّق بمتاع الدنيا، وتحدّث عنه القرآن في مسائل حبّ السوء، والتمسك بالعادات والتقاليد والعقيدة والشريعة والسلوكيات الموروثة.

هنا نفس الشيء حيث معلوم بالبداهة أنَّه ليس كل أطرش كافراً، وليس كل أطرش فاقداً لطريقة أخرى بديلة تعوّض عن فقدان قدرة السمع ليفهم عليك، لأنَّ بعضهم يقرأ الشفاه وآخرون حركات اليد... وهؤلاء لا يصلحون كنموذج لتفهم أنَّ بعض الناس حين تتكلّم معهم فهم رافضون لكلامك الحقّ وكأنَّك تتكلّم مع أطرش لا يسمعك.

يعني بتعابيرنا نحن لو صغت أنا هذه العبارة القرآنية لقلت: أفأنت تسمع الحائط وتتوقّع منه الاقتناع معك؟ وكما ترى فهذه العبارة توصل المعنى المراد ولكنها بعيدة جداً عن الواقع لأنَّ الحائط أصلا لا يسمع ولا يعقل، بينما نموذج الأصمّ كلام عن إنسان فيه قابلية فهم الكلام ولكنه لا يسمع، وتقارنه الآية مع إنسان لا يريد أن يسمعك.

(وَمِنهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ{43})
{وَمِنْهُمْ}، من المشركين، {مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ} فَيُوَجِّهُ اهتمامه العام عليك، لأنَّ لديه القدرة على الرؤية، ولكنه لا يراك! وأنت بالنسبة له منظر عام، فأنت نبي ومرسل من الله سبحانه، واقف أمامه، وهو لا يراك هكذا! بل يراك شخصا كذابا مفتريا! أو يستهتر بك ولا يعطي لك قيمة، فقارنها مع حالتك أنت كمسلم لو الآن وبطريقة ما استطعت الوقوف أمام الرسول محمّد(ع)، فستنتظر إليه باهتمام محاولا تركيز ذاكرتك لِتُسَجِّلَ كل تفصيل تراه. بينما الكلام هنا عن نموذج من المعاصرين له (ع) الذين لم يكونوا مهتمين به حين يحاول هدايتهم!

{أَفَأَنْتَ تَهْدِي}، فهل أنت تضع على الشيء الصحيح الذي يوصل لغاية صحيحة، {الْعُمْيَ}، الأشخاص الذين لا يمكنهم الرؤية، {وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ}، حتى لو كانوا فاقدين للقدرة على إدراك وفهم معاني الصور!

هل يمكن أن يبقى الأعمى أعمى وفي نفس الوقت تجعله يراك لمجرد أنه يتوجّه إليك! طبعا هو تصوير تمثيلي، حيث يمكن للأعمى أن يتعرّف عليك من صوتك أو من رائحتك... ولكن السؤال هنا تمثيلي عن شخص أمام عينيه حقيقة واضحة ويرفض الاقتناع بها، فهو مثل محاولتك لوضع شيء أمام الأعمى ليراه، فنفس النتيجة، لن يرى شيئا.

إذن، لا حَلَّ مع هذه النوعية المتمسكة برأيها الباطل.

كما هو واضح، فالآيتان لا تتحدثان عن عطل في حاستي السمع والبصر عند المشركين، بل عن عطل في النفسية وطريقة التفكير التي تجعل هؤلاء الكفار بلا عقل وبلا فهم للكلام المنطقي الصحيح، وتبين للنبي(ع) ولنا أنه لا يوجد أية طريقة تجعل أناسا بهذه العقلية يؤمنون به أو بدينه، فالآيات هنا لا تهين أو تقلل من قيمة الأصمّ والأعمى، إنما تهين الكافر كائنا من كان.

يمكنك مراجعة سورة عبس التي بيّنت قيمة المؤمن الأعمى الفقير... عنده تعالى على الكفّار الوجهاء الأغنياء.

(إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَـكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ{44})
{إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا}، مَنْ أعطاه تعالى سمعا أو بصرا أو عقلا أو حسّا... وأرسل إليه رسولا ليهديه، وأنزل كتابا فيه الإجابة عن كل الأسئلة الدينية الأساسية... أيكون ظَلَمَ الناس حين عرض عليهم أن يؤمنوا؟ أيكون ظالما حين يعاقبهم؟

هل الإيمان صعب مستحيل وهناك أشياء تنقصنا حتى نؤمن؟ فيكون تعالى ظالما حين عرض علينا الإيمان لأن طرق الإيمان غير واضحة، أو لأننا لم تصلنا رسالته، أو لأننا لا نعقل ما نسمع وما نبصر، أو ما أمرنا به سيّئ؟

لا، {وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}، حيث فقط هم يظلمون أنفسهم، أما الله تعالى فلا يظلمهم أبدا. وفي لغة العرب عندما نقول: {أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}، بدل: يظلمون أنفسهم، فيكون المقصود أن كل الظلم حصراً يُسَبِّبُونَهُ هم لأنفسهم، والله سبحانه لا يظلمهم أبدا، ولو حتى قليلا.

الناس لديهم الفكر والبصر والسمع، ولديهم كتاب إلهي فيه كل ما يحتاجونه ليؤمنوا، فمن اختار الكفر والشرك، فهو ظالم، لأنه لم يكن معه حقّ، وسيسبّب لنفسه العقاب، حيث لم يكن عادلا منصفا مع نفسه.

غالباً في عموم كتب التفاسير تراهم يفسرون ظلم النفس بتسبيب العقاب الإلهي لها من الكفر وفعل السوء، وهذا صحيح، ولكن كلمة "ظلم" لها معنى يعطيك فهما آخر لكلامه تعالى، فاستبدلها بـ: ليس معه حقّ. على معنى أن الحق كان واضحا أمامه وهو رفضه، فلم يكن معه حقّ حين رفضه، وَظُلْماً رفضه لأنه كان واضحا أمامه. هذا هو المعنى المباشر لاستعمال القرآن لكلمة "ظلم النفس"، وتراه واضحا على هذا المعنى في العديد من الآيات ومنها الآية 148 من سورة الأعراف {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ}، لم يكن معهم حقّ باتخاذه إلها وهم يرون بوضوح أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا، لذلك ننتبه حين نجد في التفاسير أنهم ظلموا أنفسهم بتسبيب العذاب لها، فهذا المعنى أيضا مقصود في بعض الآيات، ولكن الأصل دائما أنهم لم يكن معهم حقّ، بتسبيب العذاب لأنفسهم.

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ{45})
ما ينكرونه من كلام القرآن عن الآخرة لأنهم لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله كما ورد منذ قليل في الآية 39، سيكونون فيه حتما وحالهم حينها سيكون:

{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ}، وفي الزمن الذي يجمعهم تعالى فيه بقرار منه سبحانه سواء قبلوا أم لم يقبلوا، بعد أن يعيدهم سبحانه إلى الحياة في الآخرة، هل سيشعرون بأنهم بقوا أحياء في الدنيا لمدة طويلة؟ الذي عاش خمسين أو ثمانين أو فوق المئة عام، كيف سيشعر عندما يستعيد وعيه في يوم الحشر في يوم القيامة من الموت؟

سيشعرون، {كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا}، كأنهم لم يمرّ عليهم زمن وهم أحياء في الدنيا، {إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ}، مقدار محدّد من فترة الضوء من اليوم، لأنَّ هذا مقدار مقدرتهم على التذكّر، سيشعرون بأن حياتهم في الدنيا كانت قصيرة جدا، وكانت كافية فقط لـ{يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ}، حيث تعرّفوا في حياتهم على أناس آخرين، وما جرى في حياتهم كلّه ستختصره ذاكرتهم في ساعة، طبعا ليس المقصود أنها ساعة من ستين دقيقة، لأنَّ هذا أصلا لم يكن تعريفا دارجا للساعة بين العرب في حين نزول القرآن، ولا الكلمة باستعمال العرب مخصصة لهذا المعنى، بل المقصود فترة قصيرة لحدث فرعي من زمن طويل لحدث أساسي، كساعة الصباح من اليوم، أو ساعة الظهيرة، أو ساعة البعث من يوم القيامة، حيث في أساس اللغة لا الساعة ستون دقيقة ولا اليوم أربع وعشرون ساعة، فهما أوسع في المعنى انطباقا على هذا الوضع "على هذا

التعريف الاصطلاحي" وعلى غيره، يوم من أيام خلق السماوات والأرض نقدّره لكوننا بمليارات السنين، ويوم القيامة طويل جدا جدا ويليه أيام من الحساب...

هنا ننتبه جيدا، بعد عودتنا إلى الحياة مرة ثانية، سنصير خالدين، ولن نموت، نحن هنا في الدنيا نعرف الموت، ونبتعد عن الخطر، ونحسب حسابا لما نفعله حتى لا نخسر حياتنا، ونعلم أن حياتنا قصيرة، ولكن في الآخرة سوف نملك شعورا مختلفا، حيث سنشعر بالخلود.

لِنَنْتَبِهَ جيدا، سنشعر بالخلود، ومن هنا يأتي كلام الآية، هل كانت الحياة الدنيا القصيرة جدا تستحقّ التعلّق بها؟ أم الاستعداد لحياة خالدة يستحق الانتباه له؟ بعد هذا الشعور بالخلود في الآخرة ستصير ذكرياتنا عن الحياة التي عشناها في الدنيا كلها كأنها ساعة من النهار، وانتهت مع انتهاء تعارفنا على بعض الناس، إنها مثل سهرة مسائية والتقيت فيها بعدد من الناس، وانتهت، هكذا سنشعر.

حتى بدون هذا التحليل عن المقارنة بين الشعور بالخلود في الآخرة وبين قصر حياة الإنسان في الدنيا، أصلاً قدرتنا على استحضار معلومات إلى الذاكرة للتعامل مع الأمور الحالية، ففي الحالة العادية قدرتنا محدودة، وتفهمها بشكل أوضح حين تقارنها مع تصميم برنامج ما، كلعبة أو برنامج يحلّ المسائل العلمية... حتى لو صمّمت برنامج ذكاء اصطناعي، فهناك محدودية في التعامل مع كل المعلومات المخزنة، دائماً هناك معالج للمعلومات وهناك مخزن للمعلومات، وفي مسألة ما يجري الآن العمل عليها، يتم إحضار المعلومات المطلوبة لمعالجتها... وتبقى بقية المعلومات غائبة عن المعالجة. ونفس الشيء حالتنا نحن البشر، في هذه اللحظة أنت تستحضر المعلومات التي لها علاقة بما تقرؤه، وتنسى غداء البارحة ونشرة الأخبار التي شاهدتها منذ قليل...

الآية هنا تخبرك عن واقع حال فقداننا القدرة على وعي ما جرى في حياتنا كلّها في مدة قليلة من الزمن، حيث إنَّ مجموع الأحداث الأساسية التي يمكنك استحضارها عن حياتك قليلة، ويمكنك أن تبدأ بسردها لتستحضرها تباعا، ولكنك لا تَسْتَطِيعُ استحضارها كلها دفعة واحدة.

يصير الوصف في الآية يعطي معنى حالة أن حياتك في الدنيا كانت قصيرة جدا، وذكرياتك عنها حاليا لا تساوي أكثر من ساعة كنت تتعرّف فيها على الناس، هذا صار صديقك وذاك قريبك وَالْآخَرُ جارك... وخلالها كنت متلهيا غافلا منكرا لهذا اللقاء معه تعالى، والذي من بعده حياة خالدة في النار أو الجنّة، والآن بعد هذا التنبيه يأتي السؤال: هل تستحقّ الحياة الدنيا التعلّق بمتاعها السيّء في مقابل ما بعد اللقاء معه تعالى في الآخرة؟

نرجع للآية، هناك في يوم الحشر، {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ} اعتقدوا أنه غير صحيح أي كلام عن التواجه معه تعالى، والمقصدو كفرهم بعودتنا إلى الحياة في الآخرة لمجازاتنا، هؤلاء خسروا أي فقدوا أمورا لها أهمية كبيرة، حيث فقدوا رحمته تعالى وفقدوا الجنّة الخالدة ومصيرهم إلى العذاب.

{وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}، لأنهم لم يكونوا على الشيء الصحيح الذي يوصلهم لغاية صحيحة، حيث إنَّ تعلّقهم بالدنيا الفانية التي زمنها قليل جدا كان ضلالا، وها هي نتيجة ضلالهم عن طريق الحقّ والصلاح، حيث ضلّوا عن رحمته تعالى وعن مغفرته وعن الثواب بالجنّة.

تَذَكَّرْ دائما تَعَابِيرَ القرآن التي نادرا ما أشارت للعقاب على مخالفة كلامه تعالى والكفر به كسبب لِوَحْدِهِ، بل دائما يستعمل القرآن تَعَابِيرَ تريك أنهم كانوا رافضين للحقّ والصلاح، وهو نفسه رفضهم للإيمان به تعالى ورفضهم لكلامه، هنا التعبير بـ "ما كانوا مهتدين" يشير لهذا المعنى، وهذا يختلف عن الأدبيات المنتشرة بيننا والتي عادة نعبّر فيها عن العقاب بسبب شيء يتعلّق به تعالى ولا نشير للعقاب على أنه بسبب رفض الحقّ والصلاح.

من المفيد الرجوع للآية 39 التي قالت بأنهم كذّبوا القرآن لأنهم لم يروا تأويله، حيث كانوا يريدون رؤية الأشياء التي في الآخرة والتي يتحدّث عنها القرآن حتى يؤمنوا، كانوا يريدون رؤية يوم القيامة ورؤية الجنة والنار الآن في حياتهم الدنيا! وها هم في يوم القيامة، فما نفع رؤيتها الآن! هل فاز من كذّب بها؟ لا بل خسروا.

(وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ{46})

{وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ}، يُمكن أن نجعل لديك أيها النبي(ع) صورة محدّدة عن {بَعْضِ الَّذِي نَعِدُهُمْ}، حيث وعدناهم وَقلنا لهم إنَّنَا سنصيبهم بالعذاب ويمكننا أن نجعل لديك صورة محددة عن حصول ذلك، فيصيبهم عذاب إلهي هنا في الدنيا أمامك، {أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ}، حيث نأخذك بالتمام من الحياة فتموت ولا نريك بعض ما نعدهم. تَعْذِيبُهُمْ ليس مرتبطا برؤيتك له أو بوجودك بينهم حين حدوثه، لأنَّ المسألة ليست شخصية بينك وبينهم، حيث ربما نقرّر تعذيبهم وأنت في زمنهم وربما تموت فيحصل تعذيبهم بعدك.

طبعا هذا خبر لهم حتى لا يربطوا عذابه تعالى بوجود شخص النبي محمّد(ع) بينهم، وحتى ينتبهوا وهو (ع) ينتبه ونحن ننتبه إلى أن التاريخ لا يتمحور حول شخصه (ع)، لأنه ينقل لهم التهديد بالعقاب، ولكن لا علاقة له ولا بأي شكل بقرار حصول العقاب، إذْ قد يحصل لهم وهو (ع) حيّ وقد يحصل لهم بعد مماته.

{فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ}، على كل حال هم سيموتون ويرجعون إليه تعالى، أين سيذهبون منه سبحانه؟ إنْ حصل لهم عذاب في الدنيا أو لم يحصل، وإن حصل العذاب وأنت موجود أو بعد أن تموت، على كل حال هم سيرجعون إلى ربهم سبحانه ولن يختفوا بعدما يموتون، ولن ينتقلوا إلى عالم لا علاقة له تعالى به... هناك حتما آخرة وحساب بين يديه تعالى.

{ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ}، بعد رجوعهم كلهم إليه تعالى هو سبحانه شهيد، حاضر ويرى ما يفعلون، حيث لم يتركهم من دون مراقبة، وهناك في الآخرة هو سبحانه سيكون الشهيد على شركهم وكفرهم بالرسل وبالكتب الإلهية ونكرانهم للآخرة... المقصود أنه تعالى سيحاسبهم ويجازيهم على كفرهم.

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ{47})

سياق الكلام لا يزال عن نقل مشاهد من الآخرة: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ}، لكل جماعة من الناس لها امتداد تاريخي واشتراك في شيء أساسي، يوجد لكلّ أمّة، {رَسُولٌ}، حيث في تاريخ الأمة في الحياة الدنيا جاءهم شخص نقل لهم كلامه تعالى.

{فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ}، حان وقت الحساب الجماعي للأمّة ووقف الرسول يشهد على الكافرين من أمّته أنّه أوصل لهم كلامه تعالى، حيث إنّ أحداث الآخرة كما نفهم من القرآن تتضمّن القيام من الموت في اليوم الأول وبعده أيام حشرنا وفرزنا زمرا... وبعده أيام الحساب الفردي مع كل متعلقاته للزمن الذي كان يعيش فيه الفرد، ولامتداد الزمن بحسب امتداد آثار أفعاله "فإذا علّم الآخرين صلاحا نال من بعد موته حسنات من الصلاح الذي فعله الناس..."... وبعدها أيام الحساب الجماعي للسيئات الناتجة عن عمل الجماعة التي تضامنت عليه... وصولا إلى مشهد وقوف كل جماعة أمام المؤمن الذي تأذّى منهم، والمؤمن الذي نهاهم عن المنكر...

منه وقوف الجماعة والجماعات والأقوام أمام منذريهم، وأخيرا وقوف الأمّة أمام رسولها.... وهذا الترتيب للمشاهد هو تحليلي لكلام القرآن الذي لم يهتم بذكر ترتيب الأحداث ربما لأنها متداخلة، فربما لا يزال يجري حساب فردي لبعض أفراد الأمم بينما أمة ما يجري حسابها الجماعي في نفس الوقت... عادة نحن نتصوّر إجراء الحساب الفردي لواحد من البشر والبقية ينتظرون دورهم، ولكن هناك تصورات أخرى من المحاسبة الفردية في نفس الوقت لجميع افراد البشر كل واحد لوحد... وأثناء تداخل وترابط تأثير عمل فرد ما مع فرد آخر، يتم جمع الفردين مع بعض لمحاسبتهما عن عملهما الذي كان مشتركا بشيء ما بينهما...

نرجع للآية، {قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ}، فحكم سبحانه بين أفراد الأمة والرسول بالقسط أي بما لكل واحد منهم بالضبط بدون زيادة أو نقصان، لأنّه سبحانه لا ينحاز مع رسوله على الباطل ضد الأمّة الكافرة، بل بما لكل واحد منهم من حقّ بالضبط فسيحصل عليه.

معلوم لك وضوح آياته تعالى في خلقنا وفيما حولنا وهي أكثر من كافية لنتعرّف عليه سبحانه... ومضافا له وصول كلامه تعالى للناس، ودلالة كلامه تعالى واضحة على الحقّ والصلاح، فقضية الكافرين خاسرة أمام رسول أمّتهم.

{وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}، حيث إنّه سبحانه سيكون عادلا منصفا معهم حين يقضي بينهم، وهذا معيار عام لكل تعامله تعالى في كل الأمور، ولن يكون تعامله مع الكافرين والمشركين مختلفا، فمهما فعلوا من سوء وقلّة أدب معه تعالى... فلن يجور في حكمه عليهم...

كما ترى فهذا حساب أمّة بالنسبة لما نقله رسولها لهم منه تعالى، وليس حسابا لأفراد الأمّة كل واحد لوحد، حيث إنّهم كأمّة وصلهم كلام الرسول، وكأمة يتحاسبون على كيفية تعاملهم مع كلام الرسول، فبعضهم كان بينهم وبين الرسول احتكاك مباشر، وهؤلاء من الطبيعي أن عددهم قليل جدا، وآخرون وصلهم كلام الرسول نقلا عن آخرين، وهؤلاء عددهم أكبر، وآخرون وصلهم كلام الرسول نقلا عن نقل الآخرين... وهكذا مع مرور الزمن فإمّا أكمل الكلام انتشاره وإمّا أماتت انتشاره الأمّة لأنهم لم يؤمنوا به ولم يختاروا التوحيد... ولم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر... واختاروا الكفر...

قارنها مع انتشار دين الأرواحية في الشرق الأقصى مما يسمّى بالصين واليابان والهند وما جاورهم من بلدان صغيرة، حيث إنّهم كأمّة وفي فترة زمنية من تاريخهم تماشوا مع دين البوذية والسيخية والهندوسية والطاوية... التي يصنفها بعض الدارسين بالأديان الأرواحية "أو الطاوية"... لذلك هم كأمّة سيتحاسبون على ما نشروه من دين بين بعضهم وجعلوه مقبولا بينهم.

هو حساب على المقياس الكبير لدعم فكرة نتج عنها إيمان وشريعة وسلوكيات، مثلما هناك حساب للجماعات من العائلات والمجموعات والأحزاب... لأنّ هؤلاء ككتلة من البشر داعمة لفكرة ما، سبّبوا دعما لتلك الفكرة وانتشارا أو سيطرة لها...

عمليا سيتحاسب الرسول إن كان نقل كلامه تعالى بالضبط، وسيتحاسب على المتعلقات به من تصرفات وقرارات إن كانت مسببة لنفور الناس من دينه تعالى... وستتحاسب الأمّة على موقفها من كلام الرسول، دعما أو رفضا أو سكوتا أو إعراضا... لأنّ عليهم مسؤولية قبول كلام الحقّ والصلاح، وتطبيقه، وبالتالي انتشاره.

فإن لم ينتشر ولم يسد، فالأمّة تتحمّل مسؤولية ذلك وليس الرسول، وهكذا ترى أننا لا يحقّ لنا مطالبته تعالى بنشر دينه على كل بقاع الأرض عبر إرسال رسل على كل بقاع الأرض وفي كل الأزمنة، لأنّ هذا رمي عليه تعالى للمسؤولية عن سوئنا كأمّة... وكمثال، كيف نشر الناس دين الأرواحية بينهم كأمّة، ولم ينشروا دينه تعالى الذي وصلهم عبر أفراد نقلوه لهم عن الرسول الإلهي؟ ومعه كتاب؟ ومعلوم لك أنهم لم يناسبهم الحقّ والصلاح الذي في دينه تعالى وفضّلوا دينا متماشيا مع هواهم السيّء.

الآن ننتقل لشيء آخر، بضمّ آيتنا هنا {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ}... مع ما ورد في الآية 24 من سورة فاطر {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}، وما ورد في الآية 36 من سورة النحل {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}...، يبرز سؤال: هل تقول الآيات أنّه لكل أمّة في كل الأزمنة والأمكنة على الأرض جاءها رسول أو نذير؟ نعم، لأنّ كلمة أمة تشير للذين لهم امتداد تاريخي، فلو في زمان قديم جدا جاءهم رسول، فوصف الحالة بعد مرور مئات أو آلاف السنين أنّه لتلك الأمة جاء رسول.

هناك فرق بين لكل قوم أو قرية "أو بلدة أو بلد..." في كل زمان ومكان رسول أو نذير، حيث إنّ هذا لم يقله القرآن وأصلا لم يحصل، وبين التعبير بلكل أمّة رسول أو نذير، وخذ مثلا حالة المصريين من بعد النبي يوسف(ع)، حيث إنّهم بعد مئات السنين يكون وصف حالهم: أمّة جاءها رسول. ومن بعده جاءهم النبي موسى(ع) الذي غادر مصر... فهم بعد مئات السنين من مغادرته وحتى لو لم يأتهم رسول غيره، فهم أمّة جاءها رسول.

ولا تنسَ أننا نحلّل كلام الآية بالنسبة للدنيا علما أن كلامها عن إحضار الرسول في الآخرة ليشهد على أمّته، لأنّ التعبير بـ {جَاءَ رَسُولُهُمْ... قُضِيَ بَيْنَهُمْ} هو مشهد من الآخرة من بعد قيام كلّ الأمّة من الموت ووقوفهم أمام الرسول الذي مرّ في تاريخ أمّتهم... يعني هي لا توصّف مشهدا في الدنيا حيث جاء الرسول وفي مقابله أمّته... لا بل المشهد في الآخرة حيث الأمّة بكل أفرادها عادت إلى الحياة، وجاء رسولهم يشهد عليهم وهو في الدنيا عاصر واحتك مع عدد قليل جدا منهم، ولكنه في الآخرة سيتواجه مع كل الذين أتوا بعده من تلك الأمّة...

من هنا يبرز نفس السؤال السابق بصيغة مختلفة وأدق، حيث من المتعارف عليه أننا نحن المسلمين أمةٌ وإلى انتهاء الدنيا فرسولنا محمدّ(ع) أليس كذلك، فلماذا هذا التضييق إن كان الرسول محمّد(ع) مبعوثاً لكل الناس؟ أليس هذا معنى الآية 158 من سورة الأعراف {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}...،

والآية 107 من سورة الأنبياء {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}، والآية 28 من سورة سبأ {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}، فلماذا ليس هو الرسول لكل الناس من زمن بعثته إلى يوم الدين مثلما نعتبره رسولا لنا نحن المسلمين منذ بعثته إلى يوم الدين؟

حين تبحث في مسألة الرسول الإلهي لقارة أميركا الشمالية والجنوبية، ولقارة استراليا وأفريقيا، وأوروبا، وشرق ووسط آسيا، تبحث في التاريخ لتجد رسولا مرّ في تلك الأمكنة، فأنت عادة "ومن دون الانتباه للأسباب" ستبحث عنه قبل بعثة النبي محمّد(ع)، وأنت بخلفيتك معتقد بأنّه تعالى يقول في الآية هنا أو في غيرها أنّه سبحانه أرسل لكل أمّة رسولا، وتعني أن لكل بقعة من بقاع الأرض جاءها رسول، أو في بالك أنه لكل قوم أو لكل بلد رسول، فلماذا لا ننتبه لواقع الحال من بعد وفاة النبي محمّد(ع)، حيث مرّ ألف وقرابة الخمسمئة عام، والله أعلم كم عشرات أو مئات أو آلاف أو مئات آلاف من السنين سيمرّ بعد على حياة البشرية، ولدينا حسم إلهي أنّه بعد النبي محمد(ع) لن يأتي نبي كما هو واضح من الآية 40 من سورة الأحزاب {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}، فلماذا لا تسأل نفس السؤال عن أنبياء بقاع الأرض المختلفة من بعد النبي محمّد(ع)؟ ولماذا تصرّ على إيجاد نبي لمختلف بقاع الأرض قبل النبي محمّد(ع)؟ لأنّ صريح القرآن لم يقل ذلك حتى تبرّر للقرآن باحثا في التاريخ عن أنبياء صينيين وهنود وروس وألمان ونيجيريين وأزتيك...

بعبارة أبسط طالما من الواضح أن محمّدا(ع) رسول وأمّته كل الناس على كل وجه الأرض من زمنه وإلى يوم الدين، فلماذا يصرّ البعض على البحث عن أنبياء ورسل في القارات الخمس في تاريخ ما قبل النبي محمّد(ع)؟

في الآية 51 من سورة الفرقان {وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا}، تجد تصريحا واضحا أنّه تعالى لن يبعث في كل قرية نذيرا، لا بشكل مستمر بحيث إذا مات النذير وفي نفس يوم موته أو بعد مدة قصيرة يتعيّن نذيرٌ بدلا منه، ولن يبعث سبحانه في تاريخ كل قرية نذيرا، وهذا واضح من فحوى الآية 19 من سورة المائدة {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ}... حيث إنّ حالة الفراغ من الأنبياء قبل النذير محمّد(ع) شيء عادي ومنتشر في تاريخ البشرية.

هذا جواب صريح لكل من يبحث في التاريخ القديم عن أنبياء لمختلف البلدان والقارات، حتى إنّ بعضهم وبدون أي دليل له قيمة حقيقية، جعل بوذا نبيا، وأرسطو نبيا، واخترع أنبياء صينيين ويابانيين وأوروبيين... وكله كلام فارغ.

بناء عليه، كل أناس لهم امتداد تاريخي، حتما في زمن ما جاءهم رسول، وهذا واضح من التاريخ حيث جاء رسل كثيرون عبر امتداد تاريخ البشرية، وأشهرهم النبي إبراهيم(ع) الذي انتشر دينه وسمّي باسمه "التوحيد الإبراهيمي"، حيث إنّه رسول لكل الناس من زمنه وما بعده... وبعده في الشهرة النازل عليه كتاب التوراة النبي موسى(ع)، وهو رسول لكل الناس من زمنه وما بعده... وبعده النازل عليه كتاب الإنجيل النبي عيسى(ع)، وانتشار المسيحية على مختلف بقاع الأرض يريك كفاية توصيل شيء من كلامه تعالى لينتشر بين الناس من مختلف الجنسيات... وفي الأخير النازل عليه القرآن النبي محمّد(ع) والذي هو آخر النبيين فلا نبي "ولا رسول" بعده، وهو رسول لأمة الناس على وجه الأرض كلهم من زمن بعثته إلى يوم الدين، وانتشار دينه على مختلف بقاع الأرض أيضا يريك كفاية توصيل الكلام الإلهي لينتشر بين عموم الناس...

تذكّر دائما أنّه سبحانه لا يختار شخصا ليجعله رسولا، بل يتأهّل شخص بالصفات المناسبة فيختاره تعالى ليجعله رسولا، لأنّ الجماعة التي لم يتحلّ ولا واحد منها بالصفات اللائقة ليكون موظّفا منه تعالى كرسول له، فلن يجعل سبحانه من تلك الجماعة رسولا، بل سيكون رسولهم من الخارج، كحالة قوم النبي لوط(ع) حيث إنّه بالأصل مهاجر إليهم من مدينة بعيدة... وكحالة المصريين والنبي يوسف(ع) الذي جاءهم من بلد آخر... وكحالة النبي محمّد(ع) لكل المعاصرين له على كل وجه الأرض، وهي نفس حالة ما بعدهم من أقوام إلى يوم الدين، لذلك لم ولن يأتي منهم رسول جديد.

أمّا حالة ولادة النبي عيسى(ع) بدون أب وجعله رسولا، ومثله حالة النبي يحيى (ع) فكلاهما قبل ولادتهما قال تعالى عنهما أنّهما سيكونان رسولين، وقبلهما حالة العناية الإلهية المميزة منذ الطفولة بالنبي موسى(ع)، فهذه الحالات التي

يبدو لك منها اختياره تعالى أفرادا من البشر ليجعل فيهم الصفات اللائقة ويجعلهم رسلا، فهذا غير صحيح، بل من علمه تعالى بما سيكون عليه هؤلاء الأشخاص حين يكبرون فلذلك اعتنى بهم بشكل مميز إلى أن تأهلوا ليصيروا أنبياء.

ولو حصلت أنا على نفس العناية التي حصلوا عليها فهل تتوقّع زيادة إيماني وارتفاعه لأصير نبيا رسولا؟ لا، بل قد أكفر إن منحني تعالى قدرات شفاء المرضى وإحياء الموتى وخلق حياة من الطين... وهذا صريح وواضح نقلا عن لسان النبي سليمان في الآية 40 من سورة النمل {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ} "النبي سليمان" {هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}، فراجع دراستها لمزيد من التفاصيل.

نعم انحصر المتأهلون للنبوة بعائلة واحدة كذرية بعضها من بعض، وهذا واضح جدا من التاريخ الموثوق ومن عموم كلام القرآن عن أنبياء كلّهم أقارب وهذا ما نفهمه من الآية 33 و 34 من سورة آل عمران {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}، فلن يوحي سبحانه لأي شخص ليس فيه الصفات المؤهلة ليكون ممثلا له تعالى كخليفة، وفقط من هذه العائلة ومدّة بعد مدّة تأهّل أشخاص ليكونوا أنبياء، ونتج عن ذلك واقع حال حدوث فراغ زمني وجغرافي ليس فيه شخص يصله الوحي منه تعالى، ولذلك عبّر القرآن بأن الأمّة يأتيها رسول، ولم يقل أن كل قوم في كل زمان ومكان يأتيهم رسول، لأنّ الأمة كجماعة من الناس مرّ في تاريخها رسول، حيث إنّ خبر ما نقله الرسول من المفروض انتشاره بينهم على امتداد تاريخهم، وإن تحوّر وتحرّف الخبر أو انطفأ فهي الأمّة مسؤولة عن ذلك، وستتحاسب على ذلك كما تقول الآية هنا {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}.

كمثال لدينا المؤمن من آل فرعون والذي وصله ما قاله الرسول يوسف(ع) من مئات السنين، بينما أقاربه آل فرعون متعامون معرضون عنه بالرغم من علمهم به، وهذا شيء تجده منقولا في القرآن من الآية 28 وما بعدها من سورة غافر {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ}، وفيما بعدها من آيات تجد معلومات عميقة ودقيقة وصلت للمؤمن وتجاهلها قومه...

بسبب انحصار النبوة بعائلة واحدة، انحصر النشاط للأنبياء في بقعة جغرافية واحدة، وهي منطقة الشرق الأوسط وجوارها، وهذا واقع حال ليس الخلل فيه من جانبه تعالى، بل من جانب الناس، لأنّ بقية العائلات من بقية المجتمعات لم يتحلّ ولا واحد من أفرادها بالصفات اللائقة ليتأهّل لاختياره ممثلا له تعالى كنبي أو لوظيفة رسول إلهي، ومسؤولية انتشار كلامه تعالى تقع على عاتق الأمّة حيث إنّه أوصل تعالى كلامه لواحد منهم وهم لم ينشروه...

كما ترى فالتفاصيل عديدة وشائكة، وفهم كلام القرآن بشكل غير دقيق سيجعله مخالفا للواقع المعلوم، فإذا فهمت من القرآن أن كل جماعة من الناس في أي زمان ومكان سيأتيهم رسول، فهذا ليس معنى كلمة أمّة، حيث إنّنا "العرب" أمّة وجاءها رسول منذ أكثر من ألف وبضعة مئات من السنين، وأنا وأنت لم نعاصر الرسول الإلهي ولكن نعتبره رسولنا، ومن الخطأ حصر الرسول محمّد(ع) بنا كمسلمين أو عرب، لأنّه رسول لكل الناس من عصره إلى يوم الدين، وترى ما نقوله بوضوح من الآية 24 من سورة فاطر {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}، فأي أمّة قابلة للتكليف خلا، فمرّ في زمن من تاريخها، نذير، وأنت يا محمد مرسل لهذه الأمة... فمن الواضح أنّه تعالى لم يشء أن يجعل في كل قرية نذيرا كما مرّ معك نقلا عن الآية 51 من سورة الفرقان.

بالنسبة لحساب أفراد الأمم التي ماتت ولم تسمع بالنذير، أو سمعت به ولكن بشكل مشوّه، ولم يصلها كتابه تعالى... فهذا بحث يرتبط جانب منه بآياتنا هنا حيث بقية الأمّة ستتحاسب لأنها لم تؤمن وبالتالي فلم ينتشر خبر ما قاله الرسول على الجميع، ونفهمها بشكل بسيط في حال فرضا لم يقم الرسول بتبليغ الذين حوله، فهو يتحمّل مسؤولية وصول الخبر الإلهي إليهم، وهكذا نفهم أن الآخرين أيضا يتحملون مسؤولية نقل الكلام الإلهي للآخرين...

من جانب آخر حتى لو قصّرت الأمّة بنقل كلام الرسول أو شوهّته... فهناك حساب بناء على ما جعله تعالى فينا من قدرة على التمييز بين الحقّ والباطل والخير والشرّ، ولدراسة هذه النقطة أحيلك إلى دراسة الآية 2 من سورة البقرة {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} مع دراسة الآية 3 من سورة الإنسان {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}.

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{48})
{وَيَقُولُونَ}، يقول المشركون المكذّبون لكلام القرآن: {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ}، ففي أي زمان سيتحقق ما تقوله عن العذاب نقلا عن كلامه تعالى بأنه سيقوم بتعذيبنا على شركنا في الدنيا أو في الآخرة؟ ومتى سيأتي زمان وقوفنا أمام رسولنا لنتحاسب على مخالفة ما نقله لنا؟ فها نحن لا نؤمن بدينكم ولحدّ الآن لم يحصل معنا أي شيء! فمتى سيحصل العذاب؟ هذا، {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، إن كنتم لا تكذبون فقولوا لنا عن زمنه.

سترى من تكملة الآيات أنها تتحدث عن سؤالهم لعذاب يحصل في الدنيا ويكون متّصلا مع عذاب يليه في الآخرة، حيث إنّ في العديد من سور القرآن ترى الكلام عن العذاب عموميّاً لا يفصل بين عذاب الدنيا والآخرة، على أساس أنه إن حصل عذاب في الدنيا فله امتداد متواصل في الآخرة، وسترى ذلك واضحا في الآيات التالية، وإذا أصررتَ على تحديد العذاب الذي تقصده الآية هنا إن كان في الدنيا أو الآخرة، فلن تستطيع التحديد، لأن المشركين شملوا كلامهم عن عموم أي عذاب يحصل معهم ويهدّدهم به القرآن، وسواء أكان في الدنيا أو الآخرة، فمتى هذا الوعد بالعذاب سيتحقّق في أي تاريخ؟

(قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاء اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ{49})
قل لهم عبر هذا القرآن: {لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا}، لا قدرة حاسمة قاهرة لدي لأتحكّم بتغيير حالي وما حولي للأسوأ، {وَلَا}، أملك لنفسي، {نَفْعًا}، لا قدرة قاهرة لدي لأتحكّم وأنتفع وأستفيد مما حولي وفي صحّتي... بعبارة أخرى: أنا على مستوايَ الشخصي لا قدرة لي على التحكّم بحياتي بقدرتي الذاتية التي أفرض بها حصول الأمور، {إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة وإن قرّر سبحانه تركي أتضرّر فسأتضرّر وإن قرّر تعالى جعلي أنتفع فسأنتفع، فلدي مساحة صغيرة في حياتي أتحكم بها لأنه تعالى شاء لي التحكّم بها، حيث يمكنني المتاجرة أو المزارعة و... ولكنني لا أملك القدرة على جعل كل أعمالي نافعة ومن دون مشاكل، ولا يمكنني منع الرزق عن نفسي أو النجاح أو السعادة إذا قرّر سبحانه إعطائي إياها. كيف تسألونني أن أجيبكم عن توقيت العذاب وأنا مجرد شخص عادي ينقل لكم رسالة ربكم سبحانه، فإذا لم يقل سبحانه لي متى سيعذّبكم فمن أين لي معرفة ذلك؟ وأنا أصلا لا علاقة لي بهذا القرار بدليل أنه لا علاقة لي بقرار ضرّي ونفعي الشخصي وأنتم ترون أني أتضرّر وأنتفع!

{لِكُلِّ أُمَّةٍ}، لكل مجموعة من الناس لها امتداد تاريخي وبينها اشتراك على شيء أساسي، لها، {أَجَلٌ}، حيث لها وقتٌ ستنتهي فيه حياتهم ويموتون كلهم، لأنّ هذا شيءٌ بيده تعالى تحديده، وهذا الأجل ربما يأتي بعذاب جماعي، أو بسلسلة كوارث، أو بحرب إبادة، أو بسلسلة حروب، أو بموت طبيعي لكل شخص لوحده وفناء النسل... وعلى كل حال، يوجد في الأخير يوم تموت فيه جميع الأمم.

{إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ}، حيث حان وقت موتهم وانتهاء حياتهم، {فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً}، أي لا يستطيعون تأخير موعد موتهم ولو لساعة، أي لمدة محددة من الوقت، {وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}، ولا يستطيعون جعل أجلهم يحصل في وقت متقدم قبل موعده المحدّد.

الأجل الذي يأتي لكل أمة لا يعني دائماً موتهم كلهم فجأة في حادثة واحدة، كطوفان ماء، أو زلزال، أو بركان... يبيدهم، حيث إنّه من الممكن حصول هذا، ولكن المقصود هو موت الجيل أو الأجيال التي تشكّل الأمّة، سواءٌ ماتوا في زمن قصير أو طويل.

تتذكّر دائماً أن الساعة كلمة تشير لزمن قصير يحصل فيه حدث فرعي وهو جزء من اليوم الذي هو زمن يحصل فيه حدث أساسي وينتهي، ويتخلل اليوم ساعات فيها أحداث فرعية، حيث إنّ ستّين دقيقة هي أول ما يخطر ببالنا من كلمة ساعة، وهذا شيء جديد على الكلمة وليس معناها الذي كان دارجاً عند العرب قديماً، ونفسُ الشيء لكلمة يوم التي كانت تعني عندهم المدة من الزمن التي مرّ فيها حدث أساسي والتي يتخللها أحداث فرعية تسمّى بالساعات، لذا لا الساعة لها طول محدّد ولا كلمة يوم في أساس معناها واستعمالها قديماً عند العرب لها طول محدّد ثابت، فيومٌ من ليل ونهار له طول محدّد، ويوم حرب داحس والغبراء له طول محدّد بأشهر والتعبير عنه باليوم حقيقيٌّ، ومثله التعبير القرآني عن ستة أيام لخلق السماوات والأرض، حيث إنّ تقديراتنا الحالية تشير لمليارات من السنين لخلق سمائنا، مما يعني

بوضوح أن اليوم من خلق دنيا المخلوقات هو مرحلة حصل فيها شيء أساسي محدّد وأمّا المدة فمختلفة بين الأيام "المراحل" وتستغرق الواحدة منها مليارات السنين...

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ{50})
{قُلْ}، يا أيها النبي(ع) عبر هذا القرآن للسائلين عن العذاب:

{أَرَأَيْتُمْ}، إن حصل لديكم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: إذا شفتوا، التفتّوا. {إِنْ أَتَاكُمْ}، إذا صار عندكم، {عَذَابُهُ}، تسبيبه تعالى بما يؤذيكم، بسبب شرككم، فجاءكم العذاب، {بَيَاتًا}، وأنتم في أماكن وحالة التوقف عن النشاط والحركة في الليل، {أَوْ} أتاكم العذاب، {نَهَارًا}، خلال استيقاظكم في وقت وحالة النشاط، {مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ}؟ فالمجرمون الذين قاموا بالأمور التي تجعلهم يستحقّون العقاب، هؤلاء لماذا يريدون حصول العقاب قبل أوانه؟ فإن حصل وصاروا في العقاب فما معنى استعجالهم للعذاب!

إن كنت تتوقع خيراً من تجارة أو عمل أو دراسة... فأنت تستعجل الحصول على النتيجة، ولكن إن كنت تتوقّع الشرّ، فما معنى استعجالك حصول الشر! وهؤلاء يقولون للنبي(ع): لِيَحْصُلِ العذاب الذي تهددنا به الآن. ولكن إن حصل الآن أو بعد قليل، يسألكم تعالى: ما الفائدة التي ستحصلون عليها؟ هل ستؤمنون إن حصلت؟ هل تستفيدون؟ هل من العقلانية استعجال حصول الشرّ!

طبعاً لم يغب عن ذهنك أنّه تعالى لديه قرار مسبق بتوقيت العذاب ومكانه، واستعجالهم به لن يغيّر من قراراته تعالى، حيث إنّه في وقته سيحصل، وهنا الآية لم تنزل لمستوى التفكير الاستهتاري للمشركين، لأنّهم يقولون هكذا ومن دون تفكير: لِيَأْتِ العذاب. ولكنه تعالى ينبّههم لمعنى قولهم، لأنّه عذاب، فما معنى استعجالكم به!

(أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ{51})
{أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ}، بعد سؤالكم عن العقاب حصل العقاب، {آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ}؟ أعلنتم اعتقادكم به الآن حين وقع! {وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ}، حيث كنتم تطلبون حصوله قبل أوانه؟

إنْ كان استعجالكم للعذاب مَبْنِيًّا على أساس أنكم ستؤمنون حين ترونه، فما نفع الإيمان به حين يحصل؟ لأنّه سيحصل كعذاب لكم على شرككم، فما نفع الإيمان أثناء التعذيب وبعد حصول العقاب! لِنَقُلْ إِنَّكَ تقف في مكان سأرمي عليه المعدن الذائب، وأخبرتك أن تنتقل من مكانك، وقلت لي إِنَّكَ لن تصدقني حتى ينزل عليك المعدن الذي يغلي، وطلبت منّي الضغط على الزرّ لنزول المعدن، فإن نزل عليك، وأذابك، فما نفع تصديقك الآن بأنك تحت المعدن الساخن وَأَحْرَقَكَ!

الآيات السابقة بيّنت فساد أفكار وعقيدة المشركين، بالدليل الواضح، وهناك نقطة واحدة سيكون تركيز السورة عليها في آخرها وهي مسألة نزول العذاب في الدنيا بقرار إلهي على من أشرك أو كفر. حيث تبيّن بشكل واضح أنه تعالى الإله الأحد المالك المتحكّم بكل شيء، وبكل سهولة يمكنه إنزال كارثة دنيوية على الكافرين، وستجد في خاتمة السورة حديثا عن ثلاثة نماذج لأقوام جرى تهديدهم بنزول عذاب دنيوي، وسترى ماذا حصل معهم.

(ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ{52})
{ثُمَّ}، بعد حصول العذاب، سواءٌ العذاب الدنيوي المتّصل بعذاب الآخرة أو حصل عذاب الآخرة بدون عذاب قبله في الدنيا، {قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا}، ومن عموم القرآن تعلم أنّه مرّةً سبحانه يقول لهم ومرّةً أخرى الملائكة(ع) ومرّة المؤمنون يقولون للذين لم يكن معهم حقّ حين كفروا لأنّ الإيمان واضح، فظلما كفروا، فيقال لهم:

{ذُوقُوا}، تحسّسوا واشعروا أيها الكفار، {عَذَابَ الْخُلْدِ}، تعرّضكم لما يؤذيكم بشكل دائم لا ينتهي. وهل هذا كثير؟ لأنّه عذاب مؤبّدٌ لا ينتهي! الجواب: {هَلْ تُجْزَوْنَ}، هل المقابل لعملكم بالعذاب الخالد، {إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ}؟ إلا بما كنتم تحصلون عليه مما نتج من أعمالكم؟ حيث إنّكم لستم تتعذبون ظلما وعدوانا بشدّةٍ وخالدين فيه، بل هو عقاب نتج بالضبط "بالقسط" مما حصلتم عليه أنتم.

بعبارة أخرى، إنّ العذاب الخالد الذي ستتعرضون له، هو نتيجة عملكم أنتم، لِيَنْتَبِهِ الجميع لأنّ العذاب على الكفر خالد لا نهاية له.

تتذكّر من عموم القرآن الآيات العديدةَ التي أخبرتنا أنّه فرضاً لو عاد المشركون إلى حياة تكليف كالتي كانوا فيها في الدنيا لكانوا عادوا إلى الشرك والكفر، وتقرأ ذلك في الآية 28 من سورة الأنعام {بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}، ولهذا السبب سيكون عذابهم خالدا، لأنّهم لو خلدوا في الدنيا لبقوا مشركين، ولو كان فيهم أمل ولو بسيط بالتَّغَيُّرِ لتركهم سبحانه أحياء ليتوبوا قبل هلاكهم، وتلاحظ أنّ القرآن دائما يؤكّد لنا أنهم سيرون خلودهم في العذاب مساويا تماما لما فعلوه هم من دون أي زيادة، لذلك لن يعترضوا على العذاب الشديد أنّه أكثر مما يستحقونه لأنهم يرونه مساويا لما نتج عن أفعالهم.

(وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ{53})
{وَيَسْتَنْبِئُونَكَ}، بما أنّك تقول إنّك نبي، حيث يصلك نبأ من الإله سبحانه، يقولون لك: أنبئنا، أخبرنا عن شيء لا نعلمه، {أَحَقٌّ هُوَ}؟ أهذا العذاب الخالد في الآخرة حقيقي؟ هل ما تقوله هو الصواب وليس كذباً أو وهميّاً؟ كما نقول بالعامية: عن جدّ عم تحكي؟

{قُلْ}، أيها النبي(ع): {إِي وَرَبِّي}، بالتأكيد هو حقيقي وأؤكّد لكم ذلك بقسمي بالمسؤول عنّي من مستوى إلهي، إنَّ العذاب الخالد لَحَقٌّ وليس مزحةً أو تهديداً فارغاً أو مبالغةً...

{وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ}، وليس لديكم القدرة على منع حدوث العذاب، لأنّ القرار بالتعذيب اتّخذه تعالى ولن تجعلوه "عاجزاً" عن تنفيذه، فلا يمكنكم منع حصوله.

حتى إنّنا نسمع هذا السؤال من مسلمين، حيث يهملون كل كلام القرآن وينسونه ويحلمون بأنّه تعالى سيغيّر قراره في الآخرة ويعفو عن الجميع، ويحلمون بذلك حتى ينالهم هم العفو لأنهم يرتكبون سيّئاتٍ لا يريدون التوبة منها... ولكن حين يتغيّر الحديث ويصير عن الذين ظلموهم من المجرمين والفاسدين... وحتى عن الذين وقع بينهم خلافٌ بالكلام على أمور تافهةٍ، تراهم يريدون وبإصرار أن يعاقب تعالى هؤلاء الناس بجهنَّمَ وبأشد العذاب!

(وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ{54})
أنتم الآن تسألون: هل سيكون فعلاً آخرة وحساب وعذاب؟ ولا تصدقون بذلك، وتسخرون منه، ولكن عندما يحصل:

{وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ}، حيث إنّ كل إنسان ظلم فلم يكن معه حقّ في تفكيره وتصرفاته، حيث ظلماً ومن دون حق اختار الشرك وترك الإيمان الواضح أنه صحيح، فلو أنه منسوب له "فيملك كل"، {مَا فِي الْأَرْضِ}، من عقارات، وبيوت وبلدان، وبشر... {لَافْتَدَتْ بِهِ}، لقال: خذوا كل ما هو منسوب لي واتركوني، ارموا كل الناس في جهنم ولكن لا ترموني أنا فيها!

كما ترى فهذا خبر عن شدّة الخوف من العذاب الشديد، حيث هنا في الدنيا تجد أشخاصاً مستعدين للموت دفاعاً عن أموالهم، أو عن أحبائهم... ومستعدون لتحمّل التعذيب عن غيرهم... أمّا في الآخرة فلشدّة عذابها ورعبها، فرضاً لو كان الشخص الذي سيتعذّب له كل ما على الأرض، لتخلّى عنه وقدّمه كبدل عن تعذيبه، على معنى: خذوا كل شيء واتركوني.

{وَأَسَرُّوا}، أخفوا عن الآخرين في داخلهم، {النَّدَامَةَ}، الشعور بفعل شيء خطأ سبّب لهم شيئاً سيئاً، مما سبّب العذاب والمهانة... {لَمَّا}، عندما، {رَأَوْا}، صار لديهم صورة محدّدة عن، {الْعَذَابَ}، فيتمنون في داخلهم لو أنهم آمنوا وعملوا الصالحات ولم يكن مصيرهم هم تعرّضهم لما يؤلمهم.

نلاحظ نفس التعبير ورد في الآية 33 من سورة سبأ {وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، حيث في لحظة رؤيتهم للعذاب حصل عندهم هذا الشعور بالندم، مما يجعلنا

نفهم أنّه هناك فترة معيّنة أثناء يوم القيامة يحصل لهم هذا الشعور بالندم، ويبدو أن الندم سيحصل في بداية القيام من الموت، لأنّه بحسب تعبير الآيتين "هنا وفي سورة سبأ" فسيكون الشعور بالندم عند لحظة رؤيتهم للعذاب، وبعد ذلك تبين لنا العديد من الآيات أن هذا الشعور لن يبقى سرّيّاً بل سيصير علنيّاً بالصراخ والويل...

{وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ}، أنهى سبحانه المواضيع بين عباده، حيث حاسبهم وأصدر سبحانه قراره النهائي فيهم، {بِالْقِسْطِ}، بما لكل واحد منهم بالضبط، لأنّ كل واحد سيحصل على ما نتج من أعماله بالتمام، {وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}، حيث بالعدل والإنصاف يقضي سبحانه بينهم.

بعد الصورة المرعبة التي صوّرتها لنا الآية، وحتى لا يخطر ببالنا أن هذا الخوف والعقاب كثير وأكثر مما يستحق الظالمون، يأتي التعقيب سريعاً، لأنّ العذاب الذي يرونه هو قسطهم، حيث إنّه ما لهم بالضبط من دون أي زيادة ولا نقصان.

نتذكّر أن كل الناس حصلت على الفكر والحسّ والوسائل والأدوات والرسالة... التي تسهّل لهم الإيمان المنطقي الواضح العقلاني... ولكن البعض منهم اختاروا الكفر، لذلك عندما يعذّبهم تعالى على شركهم فهو سبحانه لم يظلمهم.

نتذكّر أنّ جزاء سيئة بسيئة مثلها من دون زيادة، وهذا على معيار الحق والعدل هو نفسه الحسنة بحسنة مثلها، ومعلوم لك أنه لا معنى للحسنة لك بنيلك تفّاحة في يوم القيامة مقابل التفاحة التي تصدّقت بها في الدنيا، ولا حتى صندوق تفاح، ولا حتى بستان تفاح له معنى، بل الصدقة بتفاحة حسنة لها قيمة بحسب نيّتك وتصير قصوراً وبساتين وما يسبب السعادة، هكذا يكون الجزاء حسنة بحسنة، وبالعكس، حيث إنّ ضربة كفّ كعمل سيّء لن تكون المجازاة عليها ضربة كفّ، بل ضربات ولمدة طويلة إذا كان لضربة الكفّ تلك مفاعيل مستمرة من الأذية، والمثال الأوضح هو قتل شخص بريء، الذي عقابه الخلود في جهنم، وهذا هو الجزاء المناسب لتلك الجريمة وليس إعادة تمثيل الجريمة وتنفيذها في القاتل، لا بل هذه السيئة جزاؤها الخلود في النار... ومن هذه الأمثلة التي يؤيدها ظاهر كلام القرآن نفهم أن العذاب الشديد على الكفر والشرك والسوء، هو بالضبط ما يستحقونه على معيار الحقّ.

(أَلا إِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{55})
{أَلَا إِنَّ لِلَّهِ}، لصاحبِ هذا الاسم المحدَّدِ المميَّزِ، {مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وهنّ سبعُ سماواتٍ بحسب القرآن، وكلمة سماء توصيف لعموم ما علا من فضاء، مهما كان نوعها، وأي مقابل لها فهو أرض. وأرضنا "كوكب الأرض" ليست الأرض الوحيدة، وليست الوحيدة حتى في كوننا، وسطح القمر أرض، والسطح الغازي للمشتري أرض أيضا... وهناك سبع سماوات ولكل سماء أرض أو أراضٍ في مقابلها. وهذا التعبير القرآني بالسماوات والأرض يشير إلى كل ما في دنيا المخلوقات، وكلها له تعالى لأنه صمّمها وخلقها وتحت أمره، ويستطيع أن يفعل فيها أي شيء يريد، وسياق الكلام يشير إلى قراره تعالى أن يكون للبشر والجنّ يوم قيامة من الموت وحساب، فمن يستطيع منع أو تغيير قرار من له كل شيء؟

{أَلَا إِنَّ}، بالتأكيد، {وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ}، لأن كلامه سبحانه عمّا سيفعله حقّ صواب صحيح، واستنادا لملكه سبحانه لكل شيء فإن وعده تعالى سيتنفّذ حتما.

بكل بساطة، كل ما نعرفه ونسمع به ومعه ما لا نعرفه ولم نسمع به... خلقه تعالى، وهو يملكه، وكل شيء تحت سيطرته سبحانه، وسبحانه يقول: سأعيدكم من الموت وأحاسبكم. وهذا وعد منه تعالى، ومن معرفتك بملكه تعالى لكل شيء تفهم عظيم قدرته وسيطرته، وبناء عليه، طالما قال تعالى إنه سيحصل، فلا يخطر ببال أحد أنه لن يحصل، لأن سبحانه لن يغيّر قراره، ولن يمنعه أي شيء عن تنفيذ ما يريده.

{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}، حيث يسمعون بوعده تعالى ولكنهم لا يعلمون أن هذا الوعد حق وصدق وحتما سيتحقّق.

رغم كل ما جاء في القرآن، من خبر واضح من الله الخالق الذي قال بوضوح: يوجد آخرة وحساب وجزاء. ورغم الأدلة التي في القرآن، والأجوبة عن كل الأسئلة... ورغم أن لله ملك السماوات والأرض مِمَّا يُمكِّنُهُ فعل ما يشاء... رغم كل هذا فإن أكثر الناس لا تعلم أن وعده تعالى حقّ!

قارنها مع وعدي لك بأن آتيك غدا، فقد أكون كاذبا، أو أغيّر رأيي، أو يمنعني شيء ما من المجيء إليك، أو آتي إليك ولا أجدك... فهذه الأمور وغيرها من مستوى الوعد البشري لا تنطبق عليه سبحانه، والآية هنا تركيزها على ناحية أن المالك لكل السماوات والأرض، وهي انعكاس لقدرته الفائقة سبحانه، يُمكنه تعالى أن يقرّر وأن يحصل بالتأكيد ما يقرّره تعالى.

حسناً، الوعد الإلهي بالآخرة هو خبر صحيح لمن آمن بالرسل وكتبهم، ونستدل على صحّته بما يلي:

(هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{56})
{يُحْيِي}، الله سبحانه المالك لكل شيء، فيجعل الحياة موجودة، فسبحانه الذي جعلكم أنتم أيها الناس أحياء فتفعلون وتنفعلون، بل بنظرة أعمق من ذلك فهو تعالى جعل الحياة في الكائنات.

وسبحانه، {يُمِيتُ}، فيأخذ الحياة، فهو سبحانه يجعلكم تموتون، ويجعل كل الأحياء الأخرى تموت فلا تفعل ولا تنفعل.

{وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، فلن تذهبوا إلى العدم وإلى الفراغ بعد موتكم، ولن ترجعوا إلى عالم لا يملكه تعالى، بل سترجعون إليه تعالى حين يعيدكم إلى الحياة.

انتبهتَ لما تريد الآية قوله؟ هنا في الدنيا نرى الموت يحصل أمامنا، ونرى الحياة تحصل أمامنا، فهو نفسه الإله الذي يميت ويُحيي كما ترى أمامك، وهو نفسه يقول بأنه سيحييكم مرة ثانية، وها أنتم ترون النماذج على قدرته تعالى على الإحياء والإماتة، فوعده سبحانه بإعادتكم إلى الحياة سيحصل حتما.

ومن ناحية ثانية لا تفسير لوجود الحياة والموت للكائنات إلا بأنها ممنوحة من أحد ما، ويمكنه أخذها منهم، ومعرفتنا ببعض تفاصيل آلية نشأة الحياة، على فرض أنها بدأت من خصائص فيزيائية لترابط المواد، وبعدها من خصائص كيميائية لترابط مركّبات المواد "بوليمر"، وبعدها تكوّن أبسط شكل بدائي للرنا، وبعدها خلية مفردة بدائية بصفات الفيروس... بعدها بكتيريا وبعدها حيوان... فهذه الآلية "إن صدقت" فهي آلية تصميمه تعالى لتشكّل الحياة، وأخبرنا بشيء من ذلك قال تعالى إنه جعل {مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}، كما ورد في الآية 30 من سورة الأنبياء، وأنه تعالى {بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}، كما ورد في الآية 7 من سورة السجدة. والكلام عن إحيائه تعالى وإماتته، لا يشير إلى آلية حدوث ذلك، بل لأصل حدوث ذلك، فالحياة كنتاج من تفاعل المواد، هي الآلية، ولكن السؤال عن التصميم والتخطيط والتنفيذ الذي جعل الحياة تنتج.

قديما فهم المتدينون كلامه تعالى عن خلق الحياة بسذاجة طفولية نابعة من طفولية معلوماتهم العلمية، ففهموا أنه تعالى عجن بيديه تمثالا من الطين على شكل إنسان، ونفخ فيه فصار الطين لحما وعظما ودما، وفورا صار فيه حياة، وهذا مشابه لما فعله النبي عيسى (ع) حين خلق من تماثيل الطين طيورا، كما ورد في الآية 49 من سورة آل عمران، ولكنها حالة استثنائية لم يكن المقصود منها إلّا البرهنة لبني إسرائيل أن النبي عيسى (ع) مرسل منه تعالى، ولم تكن في سياق الكلام عنها ولا في ظروف حصولها، فلم تكن تشير إلى آلية خلقه تعالى لآدم (ع)، ولا لآلية خلقه تعالى للحياة، وحادثة خروج الناقة من صخرة لثمود، كما هو مشهور ولم يذكره القرآن، كانت أيضا آية للبرهنة على رسولية صالح (ع) من الإله سبحانه ولا علاقة لها بأي شيء آخر.

في دراستنا هذه كثيرا ما كررنا تصوّر لو أنك أنت قررت خلق كائنات، فبحسب قدراتك سيكون تصميمك وتنفيذه، حيث في بيئتنا ستستعمل المواد التي حولك لتركّبها بيديك، أو ستبرمج آلة لتقوم بالعمل، أو ستجمع موادَّ بخصائص محدّدة في بيئة مناسبة ولوحدها ستكمل المواد ترابطها لتشكّل كائنا... أو... وكما ترى فهذا الكلام عن آلية خلق الحياة، وسبحانه كما نعلم الآن، وبفهم أعمق لكلامه تعالى، فبأبسط تصميم بالنسبة له سبحانه جعل كل الدنيا بما فيها من سماوات وأرض تتشكّل من شيء كبذرة فيها كل القابليات التي سينتج عنها السماوات والأرض، وسينتج عنها الحياة في الكائنات،

والكلام القرآني بشكل ما يشير لهذا المعنى ولكنه ليس صريحا، إذ إن كلامه عن مراحل بوصفها {سِتَّةِ أَيَّامٍ} يشير للتشكّل والاستمرار بالتشكّل مرحلة بعد أخرى، ولا يصرّح بكيفية البداية من بذرة أو نور أو طاقة أو... لأن الكلام في القرآن غالبا عن التصميم والتخطيط والتنفيذ، وليس عن الآلية، وليس عن خطوات التنفيذ.

بعبارة أخرى، الأمور لا تحصل لوحدها، إذ لن يقفز الإبريق لتحت الحنفية "الصنبورة" ليمتلئ بالماء، وبعدها لن يقفز على الغاز "بوتوغاز" ليغلي، ولن يقفز الشاي إلى الأبريق... وبهذه النظرة يسأل القرآن عن سبب حصول الأشياء من أصله، حيث إن الشمس تبخّر الماء ليتشكّل البخار ويصير غيوما... ويتساقط مطرا... وتخرج النباتات... فهذه آلية كخطوات لحصول الأشياء المترابطة، فمن ربطها، ومن صمّمها، لأن روابطها لن تحدث لوحدها... وبالتالي فهي لن تحدث لوحدها.

قديما جدا من آلاف السنين، درج بين العلماء المرموقين في حينها تسميته تعالى بالمحرّك الأول. فبعد التعمّق في دراسة الطبيعة لاحظوا تلخيص كل ما فيها بأنه يرجع في أصله إلى حركة ما، فأي شيء نعرفه في بيئتنا ونلمسه أو نختبره فلا معنى لوجوده من دون كائن "إله" لديه صفات مختلفة جدا عنّا، وتجعله بطبيعة خارجة عن التركيب فلا يسري عليه ما يسري علينا، إذ نحن مركّبون مخلوقون لأننا من المواد، وبفكر سليم وصلوا إلى التعرّف عليه تعالى أنه مختلف وليس مثلنا، حيث إن تركيبنا يجعلنا نسأل عمّن ركّبنا، عمّن صممنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا"، والذي صمّمنا وخلقنا حتماً هو ليس مركبا مصمما مخلوقا، وإلا لسألنا من جديد عمّن خلقه... وهكذا وصلوا وبقلب سليم إلى حيث لا يصحّ السؤال عمّن صمّم الذي صمّمنا، ولا عمّن خلق الذي خلقنا، لأنه حتما مختلف عنّا و {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}... وتدعّم هذا برسل مع البعض منهم كتب منه تعالى يخبرنا فيها عن نفسه...

إلى الآن لا يزال السؤال العلمي المجرد عن الاعتقاد الديني، لا يزال يبحث عن سبب أول حركة نتج عنها الكون، حيث تعمقنا نزولا إلى أدق ما يمكننا الوصول إليه "حاليا" من تفاصيل تركيب المادة، وتوسّعنا علوا بين المجرات، باحثين عن الآليات "عن المراحل" التي شكّلت الكون، وفي التفاصيل الدقيقة وفي الحجم الكبير، يُطرح دائما نفس السؤال: من سبّب الحركة؟

هناك نسخ مختلفة لهذا السؤال، حيث البعض يستبدل السؤال عن الحركة بالطاقة، فمن أين جاءت الطاقة التي حرّكت الأشياء لتحصل أحداث نشأة الكون، وتلك الطاقة لا تزال منتشرة مسببة بقاء الأشياء، ومسببة حصول الحوادث...

ربما في المستقبل ستأتي نسخ جديدة من هذه الأسئلة من بعد تعمّقنا في البنية الأولية للمادة لنتعامل مع مجال جديد تتركّب منه تلك البنية، فما نسميه اليوم بالعناصر الأولية، "فوتون إلكترون..." ربما بل المرجّح أن نجد تحته أشياء أخرى، وسينتج عن ذلك تغيير في الكلمات السائلة عن سبب نشأة الكون من نظرة علمية غير مبنية على الكلام الديني.

هذا هو الطريق الصحيح للتعامل مع الأشياء، طريق البحث العلمي الرصين المبني على الوقائع، أو على افتراضات مدعومة ببعض الوقائع، وهذا هو الطريق الصحيح العميق إلى معرفة عظمة الخالق.

خالقنا أعلم بأنفسنا منّا، وفي كلامه بيّن لنا الأساس المسبّب لكفرنا، حيث إن العقل والتفكير والفهم واللبّ والقلب والبصيرة... كرّر القرآن ذكرها مرارا كطريق جعله تعالى فينا للتعرّف عليه، وللتعرّف على الخير والشرّ، وللتماشي مع كلامه تعالى... وأي كفر، فهو من رفض ولو شيئاً واحداً من كلامه تعالى لأنه مخالف لما نهواه من سوء.

أطلت عليك كثيرا فلتكن مناسبة الكلام هنا مرجعا عن مفاهيم القرآن ونُحيل إليه من بقية السور، إذ إن حبّ الدنيا رأس أسباب الكفر، ولذلك تفاصيل، ففقير بالكاد يجد ما يأكله ليبعد عنه الموت، فما سبب كفره؟ فسقه؟ نفاقه؟ فأي حبّ للدنيا يعيشه؟ أو شخص قرّر الانتحار، فأي حبّ للدنيا هذا؟ الجواب من عمق القرآن يأتيك ليخبرك أن شيئا ما يهوونه فيريدون الحصول عليه، شيئاً من زينة الدنيا، شيئاً لم تساعدهم الظروف للحصول عليه، فلو صار ذاك الفقير غنيا فلديه مشاريع لا تتماشى مع رضاه تعالى، والذي يريد الانتحار لم يجد فيما حوله تنفيساً لرغباته، ولم يشبع فملّ من الحياة، وكره الدنيا، متجاهلا الآخرة من شدّة تعلقه بإشباع الرغبة، أو من تعرّضه لشيء منعه من الراحة في الحياة...

ما سبق كان نظرة سريعة لتفسير عامّة سلوكيات الناس، والعلماء من الناس، فإن سمعتهم يكفرون به تعالى، مؤمنين بالصدفة والطبيعة وقوانين الفيزياء، فلا تظنّ أن كلامهم مبني على علم، لأن العلم دائما يشير إلى من صمّم وخلق، إلى

المحرّك الأول، إلى العقل الأول... إلى من أرسل إلينا رسله وكتبه على امتداد التاريخ الواعي للبشرية لآلاف من السنين، إلى من تشريعه صالح حسن يتماشى مع نظرة الخير المزروعة فينا...

دائما انظر إلى ما حرّمه تعالى، وقابله مع رغبتنا فيه، وادرسه لترى أن كلامه تعالى يتماشى مع العقلانية، وخلال دراستك عليك باعتماد كلام القرآن، حيث إن التراث الديني من صنع المتدينين، فهو مختلف "بشكل ما" عن جوهر دينه تعالى، ومشكلة الرافضين للتدين متشعّبة ولها منابع، وحبّ الدنيا منها، وكره الدنيا التي لم تؤمّن لهم هواهم أيضا منها، وكره الدين المطروح عليهم والذي اخترعه المتدينون أيضا منها، بل في الكثير من الأحيان كرههم للدين الإلهي سببه الرئيسي كرههم لما فعله ويفعله رجال الدين والمنتمون للدين باسم الدين. وبشكل أو بآخر معهم حقّ في ذلك، ولست أبرّر لهم كفرهم، إذ سبحانه لم يقبل بأي تبرير لذلك لأنه تعالى زودنا بقلب "أساس فكر ونفسية" كفيل بإيصالنا إليه سبحانه إن لم نفسد قلبنا، ولكن لنطرح الحقائق كما هي، فعلى مرّ التاريخ، وللأسف، كانت الغالبية الساحقة من علماء الدين المنتمين لدينه تعالى، كانوا أوّل وأكثر من حرّف في دينه تعالى، ولست أستثني أحدا، من يهود ومسيحيين ومسلمين، إذ إن الغالبية الساحقة فرضوا على الآخرين الدين الذي فهموه هم، متهمين من يخالفهم بأنه كافر، رافضين أي تدين لا يمشي على هواهم، فَهْمِ الدين، ومن هنا تكرّر في هذه الدراسة الكثير من الهجوم على علماء الدين المسلمين، لأن القرآن تكفّل بالهجوم صراحة على علماء الدين اليهود والمسيحيين والمشركين... ومعهم بقية نكهات الكفر بدينه تعالى، ولذلك كانت دراستنا هذه مشحونة بتطبيق هجومه تعالى على علماء المسلمين الذين فعلوا نفس ما فعله اليهود والمسيحيون.

لا يزال كتابه تعالى "القرآن" بين أيدينا سليما من التحريف، مرجعا، متاحا للجميع لدراسته، وهذا فرق ما بعده فرق عن المراجع الدينية السابقة للقرآن لدينه تعالى، حيث انمحى دينه تعالى من تراثهم ليحلّ محلّه دين رجال الدين، والغالبية الساحقة من علمائنا مشوا على خطاهم، وتجد ثلّة مؤمنة تعاني في دينها من الثقافة المنحرفة عن دينه تعالى والتي يروّج لها علماء الدين وتجد لها جمهورا عريضا محبّا للعصبية والخرافات...

بسهولة سترى آياته تعالى والتي ذكرت سورتنا هنا بعضا من أبرز وأبسط نماذجها، سترى لفت انتباه كفيل بتحويل بوصلة قلبك باتجاهه تعالى، وبسهولة ستفهم أن هذا القرآن كلامه تعالى، وبسهولة سترى أنه تعالى لم ولن يأمر إلا بما هو صالح، وبسهولة سترى أن وعده تعالى بالآخرة حقّ، {فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}؟ فكيف نترك كل هذا لنكفر أو نفسق أو ننافق؟

نتركه لأن شيئا من الهوى الفاسد السيئ جعلناه يتحكّم فينا، ولست أشير إلى المتدينين فقط، بل لكل الناس كما أشار القرآن، وعلماء الطبيعة من علماء فيزياء وفلك وطبّ وكيمياء... إذ هم ليسوا استثناء عن القاعدة، لأن الشهادات التي يحملونها لا تعني إلّا أنهم متخصصون ومفرّغون وقتهم لمواضيع محدّدة، ويفهمون فيها أكثر منّا، ولكن، هل هذا يعني أنهم ليسوا من محبي الدنيا؟ ولا يتحكّم بهم هواهم الفاسد؟ ولا يكفرون به تعالى لأنهم لا يريدون أن يحكمهم رجال الدين، ولا يريدون التقيّد بما يخالف هواهم السيئ...؟

صار واضحا لديك أن كلام العلماء الأكاديميين الكفري ليس كلاما علميا، ولو سألت نفسك إن كان القرآن توجّه بكلام مخصّص لهذه النوعية من الناس، فعليك بمراجعة ما نقله القرآن من كلام قوم النبي نوح (ع) وكلام فرعون وعاد وثمود وقريش... فراجعه وانتبه أنهم كلّهم كانوا يتكلمون من منطق أنهم متطورون جدا جدا جدا جدا... ونحن الآن متبجحون بتقدمنا العلمي ومتجاهلون لحقيقة أننا بعد ألف سنة سنصير مضحكة مثلما نضحك على علوم الذين سبقونا، وعادة حيث إن العلماء الرصينين يفهمون مراحل تطور العلوم أنها إجبارية، فلا نسخر ولا نضحك على من سبقنا، ولكن عوام الناس لا يميّزون ذلك، إذ في عصرنا نحن مبهورون بالأقمار الصناعية والهواتف النقالة التي صارت كومبيوترات مصغرة... ومبهورون بالعمليات الجراحية للقلب والشرايين والدماغ... ومبهورون بعلوم زيادة إنتاج اللحوم والنبات... مستسخفين بدائية من سبقنا... ولكن هو نفس الانبهار يبدو على كل عصر، حيث الآن لدينا محطة فضائية ومركبة تسافر من الأرض لتلك المحطة، وفي المستقبل ستكون مركبات تسافر لمسافات أبعد، وفي المستقبل بمركبات أو بطريقة أخرى، سنتخطّى سماء كوننا لنصل إلى سماوات أخرى، من هناك سترى طفولية مركبتنا التي تسافر من الأرض إلى المحطّة الفضائية الملاصقة لجوّ الأرض.

الآن خذ مثلا التقانة المتقدمة لصناعة السفن التي تعرّف عليها قوم النبي نوح (ع)، وخذ مثلا بناء الأهرامات، ومدينة إرم، ومدينة الحجر... وخذ مثلا النظام الاقتصادي التجاري "الرأسمالي" لقريش... فكلّ كفّار هؤلاء هم نسخة قديمة لا تختلف أبدا بتاتا عن نسخة كفّار أي عصر، ومن ضمنهم علماء أي عصر.

أطلت عليك حتى تضع كلام علماء عصرنا الكافرين بدينه تعالى على نفس مستوى كلام علماء فرعون، وعلى نفس مستوى كلام عموم الكفّار، فلا تشعر بقوّة مؤثّرة لكلامهم عليك، لأنهم مثلهم مثلك، إن اتبعوا سلامة القلب فسيؤمنون ويرون علومهم تدل على الإيمان، وإن تعلقوا ولو بشيء واحد سيئ من الدنيا، أو وحتى لو كرهوا الدنيا لأنها لم تحقّق أهواءهم، فهم مثلنا، ستعمى قلوبهم ولن يروا الآيات... وسيكفرون...

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ{57})
{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ}، هذا القرآن الذي جاءكم عبر النبي محمد(ع) من المدبّر "المسؤول عنكم" من مستوى إلهي فهو وعظ، وهو كلام يحدّد لنا ما نفعل وما لا نفعل حتى لا نقع في مشاكل، فهو كلام إن اتبعناه نكون على خير، حيث جاءنا كلام منه تعالى أن لا نشرك به وأن لا نفعل السوء حتى لا يكون مصيرنا إلى جهنم... ويعظنا أن نعبده وحده حتى ندخل إلى الجنة...

{وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ}، من كان في صدره، في مركز تفاعله مع ما يدركه، كان يوجد مرض أي يوجد خلل، ولديه أسئلة لم يجد لها أجوبة لأن فكره لم يعد سليما، أو يسمع ما يقوله المشركون عن الآلهة التي اخترعوها فيحصل عنده حالة تشوّش... فهذه أمراض وأعطال نفسية وفكرية، وكل ذلك جاءكم دواؤُه وهو هذا القرآن الذي يشفيكم، ويزيل عنكم الأفكار والاعتقادات والمشاعر والنفسيات السيئة عبر عرض القرآن عليكم للأمور الصحيحة.

{وَهُدًى}، يضعكم على الشيء الصحيح الذي يوصلكم للغاية الصحيحة، كما لو وُزعت خرائط تدل على الطرقات، فتلك الخرائط هدى للناس، وتم توزيعها على الجميع، استعملوها أم تركوها، فتلك الخرائط تبقى هدىً يدل على الطريق الصحيح، وهكذا القرآن، فهو يدل على الطريق الصحيح للإيمان بالحق وفعل الصالحات ونتيجة ذلك الفوز بجنة الآخرة الخالدة، ويبقى موصوفا بأنه هدى حتى لو لم يعتمده ولا واحد من الناس.

{وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}، عناية منه تعالى لما فيه مصلحة المعتقدين به تعالى، حيث ساعدهم بإنزال القرآن ليهتدوا به، لِيكون مقوّما مصوّبا لما انحرف من فكرهم ونفسيتهم.

ضع في بالك دائما أن القرآن استعمل كلمات اللغة العربية كما يستعملها العرب ولكن مع تحديد دقيقٍ لمعانيها، وهذا الكلام له عمق يأخذك إلى كيفية تناغم وتوافق الناس على دقة معاني الكلمات واستعمالها... ومعلوم أن اللغة تنشأ من الوضع والاستعمال بحسب الحاجات وتنتقل وتنتشر بالتعامل بها مع الآخرين... ومع كثرة الاستعمال تتركّز معانيها لتتوافق مع بقية الكلمات، إذ الكلمة لا نضعها أول مرّة في الاستعمال مع تعريف لها، بل يتبلور معناها الدقيق من الاستعمال مع بقية الكلمات وتراكيب الجمل، وهكذا ترى أن نشوء اللغة يتضمّن ثغرات مقبولة لتبقى اللغة معبرة بدقة عن المعاني المقصودة، ولكنها حتما ستفتقد للدقّة من القياس المليمتري لمعانيها، وهنا نرى الفرق الهائل بين استعمالنا نحن البشر للغة، وبين استعماله تعالى للغتنا ليكلمنا، إذ إن سبحانه قوّم وصوّب دقّة استعمال كلمات اللغة العربية حين استعملها لأن قدراته عزّ وجلّ فائقة، مما نتج عن ذلك استعمال دقيق من مستوى إلهي للغتنا، وتقوّمت اللغة العربية إلى الحدّ الأقصى الممكن مع بقائها في نفس الوقت لغة بشرية. وقارن ما أحاول شرحه مع حالة لغة برمجة رقمية متقنة بحيث الكود فيها لا يتداخل أو يتعارض مع كود آخر، حيث إننا نحن البشر لم نَصُغْ لغتنا على هذا النحو بل نحتها الاستعمال عبر الزمن لتصير أدق بالتعبير... ومن هذا التقريب تفهم الفرق بين كلامه تعالى "بلغة" يخلقها هو سبحانه مباشرة ويكتب بها المعلومات عمّا سيجري في الدنيا والآخرة مع كل المخلوقات والظواهر... والفرق بين استعماله تعالى للغة من لغات البشر ليتكلّم معهم، إذ لن يتكلّم سبحانه مثلهم متساهلا متراخيا باستعمال الكلمات طالما هناك كلمة مناسبة للمعنى المطلوب، ومضافا لذلك فإن سبحانه مضطر لتقويم لغتنا لأن فيها عيوباً بشرية، حيث قوّمها وحدد معانيها بدقة عبر استعمالها بدقة في مختلف الجمل، وأبقاها في نفس الوقت مفهومة لنا بالقدر الذي لا يجعلها تبدو مثل كلامنا المتساهل فيه، ولا تبدو معقدة عصية على الفهم...

بالنسبة لكلمة صَدْرٍ، فهي تشير إلى مجموعة من الأعضاء في الإنسان، وتقع ضمن العظام التي فوق البطن، وتمثل القفص الصدري الذي فيه القلب والرئة والقصبة الهوائية والمريء... وهذا معنى كلمة صدر حين تدل على موضع في جسدنا، واستعملها القرآن كما يستعملها الناطقون باللغة العربية، وفي العديد من اللغات الأخرى لديهم نفس التعبير بالصدر عن التفاعل الداخلي للإنسان مع ما يراه ويسمعه ويشعر به مما يتعرّض له... إذ نحن عندما نتعرّض لمختلف الظروف، نشعر بالانقباض أو الانشراح... في صدرنا، لذلك استعملنا كلمة صدر لتوصيف حالة تفاعلنا مع الأمور، وحتى لو لم تشعر بأي شيء في قفصك الصدري، من انقباض أو صعوبة في التنفّس أو راحة... فإن مجرد تفاعلك مع ما تعرّضت له، يجعل مختلف اللغات البشرية تعبّر عن هذا التفاعل بأن شيئا حصل في صدرك، وحتى السرّ الذي تخفيه عن الآخرين تعبّر عنه مختلف اللغات بأنه في صدرك، وكلّنا نعلم أن السرّ ليس في القفص الصدري، إذ ليس تحته في الرئة أو القلب أو المريء... بل هو تعبير يشير لحالة تفاعلنا مع ما ندركه سواء بقي مخفيا أو ظهر له أثر حسّي في منطقة الصدر أو على تعابيرنا وحركاتنا.

ترى في دراستنا هذه أن القرآن حدّد معانيَ دقيقة جدا لبعض كلمات اللغة العربية بشكل يتوافق مع استعمال العرب لها ولكن بدقّة تعبيرية أعلى، حيث هناك تفاصيل كثيرة لوصف حالة الوعي والفكر والمشاعر والإحساس عند الإنسان، إذ لدينا الريب والشك والظن واليقين... ولدينا توقع الشيء ومعايشة حالته، كـالإشفاق والخشية... مثلا، ولدينا حصول الشيء وتفاعلنا معه، كالضرر والألم... ولدينا أفكار ومشاعر متجذّرة ولدينا أخرى متغيّرة... وغيرها الكثير من التفاصيل، حيث ضيّق القرآن وحدّد استعمال كلمة صدر ليشير بها إلى مركز تفاعل الإنسان مع ما يجري معه وحوله، قاصداً بها مركز انفعال الفكر والنفسية مع ما أدركناه ووصلنا من الحواس أو التفكير...

نتذكّر أن المشرك أو الكافر أو المنافق أو الفاسق، وصفه القرآن في العديد من الآيات بأن قلبه مريض، إذ إن المرض هو العطل وافتقاد السلامة، وبالتحديد إن القرآن يتحدّث عن سلامة العقيدة بالفكر والشريعة والسلوك وعن سلامة النفسية، ولا يتحدث عن أمراض الأعضاء كتلف صمامات القلب أو سرطان في المعدة... ومن يستعمل هذه الآية هنا ليثبت أن القرآن يمكن استعماله لمداواة الأمراض الجسدية، فهو واهم، وانتشار هذا النوع من الكلام عن التداوي بالقرآن، يُعَدّ أبرز مثال عن ثقافة المتدينين التي تصير من كثرة انتشارها غير متميّزة عن دينه تعالى، وتصير هي الدين وإنكارها كفر! وهي من أهم أسباب ابتعاد العقلاء عن هذا "الدين" السخيف، وهم لا يميّزون بين دينه تعالى وبين دين بعض السخفاء والبسطاء المنتمين لدينه تعالى.

بقي شيء، وهو أنّه من عموم مفاهيم القرآن وبالخصوص من تعابير توصّف الْعُمْيِ والأموات ومرضى القلوب والمطبوع على قلوبهم... الرَّافِضِينَ فورا لكلامه تعالى، تجد في مقابلهم هناك أُولُو الألباب وأصحاب القلوب السليمة والأحياء وَأُولُو الأبصار... لِتَفْهَمَ من هذا الكلام أنه قبل نزول الكتاب الإلهي عبر الرسل، كان هناك أناس أصلا بهذه الصفات، وكل من اخترع آلهة من هواه، واخترع تشريعا على قياس قواه وما يناسب سيطرته ومصالحه، وعلى هواه السيّء، يقابله من لم يخترع عقيدة واختار تشريعا عادلا يساوي بين الناس... إذ يجزم القرآن لنا بأن أي إنسان يتّبع قلبا سليما "فكرا ونفسية سليمة" فهو سيصل إلى أساسيات الدين الإلهي، وهو موصوف بأنه مؤمن، وهكذا تفهم العديد من الآيات التي تقول بصراحة: مؤمن وصله القرآن فآمن به كما ورد في الآية 97 من سورة البقرة {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}. وتقي وصله القرآن فاهتدى به، كما ورد في الآية 97 من سورة مريم {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا}، ولمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 2 من سورة البقرة {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}، وهذا مفهوم ليس منتشرا في ثقافتنا الدينية، على أساس أن الإنسان لا يكون مؤمنا، ويأتيه الكتاب الإلهي أو النبي ليهديه، لِيصير مؤمنا، لا، إذ هناك من هم أصلا من المؤمنين، ويأتي هذا القرآن ليهديهم، ليدلهم على أمور في العقيدة والشريعة لم يستطيعوا الوصول إليها لوحدهم... أو ليؤكّد لهم صوابية إيمانهم... وليصوّب ويقوّم لهم ما التبس عليهم...

(قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ{58})
{قُلْ}، عبر هذا القرآن لكل الناس:

{بِفَضْلِ اللَّهِ}، بأمور جيدة منه تعالى حصلتم عليها وليست فرضا واجبا عليه تعالى منحها لكم، {وَبِرَحْمَتِهِ}، وبعنايته من مستوى إلهي لما فيه مصلحتكم، {فَبِذَلِكَ} الفضل والرحمة، {فَلْيَفْرَحُوا}، لِيَشْعُرُوا بحالة نفسية جيّدة، لأنه تعالى أمّن لهم طريق الهداية فأرسل لهم رسولا وكتابا ليهديهم للحق والصلاح وللآخرة السعيدة.

لا تَنْسَ دائما أنه تعالى أمامه خيارات عديدة، وشاء منها تعالى منحنا العقل والفكر، وفيه ما يدلّنا على الأمور الصائبة من مستوانا، إذ إن معرفتنا للخير والشر، والصحّ والخطأ... فيها ما يكفي ليحاسبنا سبحانه عليها، وَمن دون كتاب منه سبحانه، سيكون من العدل أن يحاسبني سبحانه على فعلي للشرّ، مثلما نحن نحاسب بعضنا على شرّ نرتكبه بناء على توافقنا الأساسي كلّنا على أن الشرّ منبوذ مرفوض... حيث إن غالبيتنا الساحقة لم تقرأ قانون الدولة الذي فيه الأنواع المختلفة عن الاعتداء على الآخرين والعقاب على ذلك، ورغم ذلك تحاسبنا الدولة، وكلنا متفقون على اعتماد العقاب بناء على معرفتنا المسبقة الذاتية لكل واحد منّا بالخير والشرّ... وهكذا نفهم أنه سبحانه سهّل علينا، وتفضّل علينا برحمته بكتاب يهدينا ومذكور فيه ما يتماشى مع الفكر والنفسية السليمة لِيُقَوِّمَ ويصوّب لنا رؤيتنا للأمور من بعدما تشوّهت رؤيتنا لها بسبب فساد في قلوبنا من هوانا لبعض السيئات...

الفرح بفضل الله تعالى ورحمته، {هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ}، مِمَّا يجعلونه معهم هنا في الدنيا من المال والعقارات والذهب والمجوهرات و... لأن الكلام الإلهي هو هدى لهم ليصلوا إلى جنّة رائعة خالدة أفضل بكثير مما يمكن أن يحصلوا عليه من متاع الدنيا.

أضف إلى ما سبق، أنَّ هناك وَجْهاً آخر لفضله تعالى ورحمته، إذ إن سبحانه بفضله، يعني ليس مجبرا، وليس لنا عليه تعالى أي شيء، بل برحمته قرّر سبحانه مساعدتنا لنهتدي، وبقرار منه جعل ثواب الإيمان الجنة، وبرحمته وعنايته وعطفه على المؤمنين دلّهم على الطريق الصحيح في الدنيا والآخرة، وبحلمه عليهم حيث لم يعاقبهم فورا، ومنحهم الغفران... إذ بقرار رحيم منه تعالى قرّر أن يكون للمؤمنين المغفرة ومضاعفة الثواب والخلود في الجنّة. وهذا يستدعي فرح المؤمنين.

حَسَنًا، ما تجمعونه وتحبونه هنا في الدنيا مَن أتاحه لكم؟ وماذا فعلتم به؟

(قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ{59})
فيما سبق من أوّل السورة كان الكلام عن العقيدة، عن اختراع المشركين لآلهة من أوهامهم، وتعجّبهم من إرساله تعالى لرسولٍ مع كتاب يبيّن لهم العقيدة الصحيحة... ووصلنا هنا في السورة إلى القسم الثاني من الدين، حيث وصلنا إلى موضوع اختراعهم لتشريع فيه حلال وحرام على أساس العقاب الإلهي، وبكلمة واحدة تنسف السورة هذا الاختراع حين تسأل: من أذن لكم بذلك؟ وأمّا مشتقات بقية الرد على التشريعات التي لم ينزلها تعالى، فواسعة ويمكن بسهولة استخراجها من الآية هنا، والتي طرحت أساسا وحدا عاما: حقّ التشريع محصور به تعالى.

{قُلْ}، أيها النبي(ع) عبر هذا القرآن:

{أَرَأَيْتُمْ}، إذا حصل لديكم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: شفتوا. التفتوا إلى، {مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُم مِنْ رِزْقٍ}، من أشياء تصير معكم لتسدّوا بها حاجاتكم ورغباتكم، وسياق الكلام عن أبرز رزق، عمّا يجعلنا نستمر في حياتنا، عمّا نأكله، وبقرار منه سبحانه صار على الأرض شجر وزرع وحيوانات و... ولم تأت تلك الأشياء وحدها من العدم بل نزلت من خزائن رحمة ربنا سبحانه.

{فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ}، حيث قلتم عن قسم من رزقه تعالى: {حَرَامًا}، أكله أو استعماله ممنوع، وبعضكم قال إنّ عليه عقابًا إلهيًّا! كالبحيرة والسائبة والحام... وهي من المواشي التي حلّلها سبحانه، وهم ينذرونها فتبقى حيّة ولا يأكلونها... أو لا تأكل منها النساء... وجعلتم منه، {حَلَالًا}، مسموحا أكله واستعماله، وتقولون إنه ليس عليه عقاب إلهي! وراجع كمثال عن تشريعاتهم تلك ما ورد كنموذج في الآية 103 من سورة المائدة "مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ".

ننتبه، وحتى لو كان ما حرّموه فعلا حراما في التشريع الإلهي، ولكنهم وبدون الاستناد على كلامه تعالى حرّموه، فعلامَ يستندون في حقّهم في التشريع؟

هو سبحانه أتاح لكم وجعل في متناولكم كل ما تطالونه من رزق وغيره، وحين تشرّعون حلالاً منه وحراما، بأي حقّ؟ فما دخلكم أنتم لتحرّموا وتحلّلوا على الآخرين أشياء لم تخلقوها! وما دخلكم لتقولوا عن وجود عقاب إلهي على المخالفة! هل اعتمادا على كلامه تعالى بنيتم هذا؟ أو على أساس وجود عقاب منكم لمن خالف تشريعكم، فأنتم يحقّ لكم معاقبة المخالف لتشريعاتكم وسبحانه لا يحقّ له معاقبة المخالف لتشريعاته؟

تذكّر أول السورة حين تعجّبوا من شخص يقول إنّه رسول إلهي ناقل لعقيدة وشريعة وسلوكيات منه تعالى ليلتزموا بها، هنا السؤال نموذج عن أبرز ما يمسّ حياتنا، عن نموذج تحريمهم وتحليلهم لبعض الأطعمة، من أين لهم هذه السلطة للتحريم والتحليل لأنفسهم وللآخرين؟ وفي الوقت نفسه يرفضون أن يشرّع لهم سبحانه!

قل لهؤلاء الناس: {آللَّهُ} "بلفظ الهمزة ممدودة" هل الله تعالى، {أَذِنَ لَكُمْ}؟ حيث ترككم ولم يعارض وسمح لكم بالتحليل والتحريم باسمكم أو باسمه؟ هل جاءكم خبر منه تعالى، ولو بأي طريقة، يقول لكم تعالى فيها بأنه يسمح لكم لِيعطيكم السلطة لتشرّعوا الحلال والحرام لأنفسكم وللآخرين، ويسمح لكم بمعاقبة المخالفين لتشريعاتكم، أو تهديدهم بعقاب منه تعالى إن خالفوا تشريعاتكم؟

{أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ}؟ حيث تؤلّفون وتخترعون الحلال والحرام من رأسكم وأنتم تعلمون أنه من رأسكم ولا علاقة له تعالى به ولم يقله، وأنتم تعلمون أنه لم يأذن لكم بالتشريع.

كلام الآية عن التشريعات المتعلقة بالرزق لأنه نموذج سهل الفهم، إذ سبحانه مانح الرزق للجميع وهم لا دخل لهم إلا بتجميعه من مصادره المتنوّعة... لِتقارنه مع بقية التشريعات لترى أنه تعالى وحده يحقّ له التشريع لنا. فإذا لم تكونوا أنتم خلقتم هذا الرزق، ولم يصلكم إذن منه سبحانه يجيز لكم اختراع شريعة الحلال والحرام، فبأي حق تقولون هذا الطعام حلال وذاك الطعام حرام؟ وفوق ذلك عارضتم الآخرين وأجبرتموهم بطريقة أو بأخرى على اتباع تشريعكم، وجعلتم عقابا على مخالفة تشريعكم؟ وفوق ذلك بعضكم اخترع عقابا إلهيا لمن خالف ما أنتم قرّرتم أنه حرام!

إذًا، بكلماتٍ قليلة جدا، وبجملة قصيرة واحدة، تبيّن لنا أنّه لا يحق لأي أحد اختراع شريعة حلال وحرام من رأسه، لأنه يشرّع فيما لم يملكه ولم يخلقه، ويفرض على الآخرين شريعته بينما هم بدورهم يمكنهم اختراع شريعة وفرضها عليه، إذ إنّ الأصعب من اختراع الشريعة هو إلزام الآخرين بما اخترعه، والأصعب منه اختراع عقاب إلهي على مخالفة ما اخترعوا حرمته.

إذًا كنموذج بارز إلى الحدّ الأقصى في مخالفة كلامه تعالى، هو تحريم شيء ما والقول بأنه من تحريم إلهي، وهذا من الواضح جدا جدا أنه افتراء عليه تعالى، والأقل منه هو التحليل والتحريم لأنفسنا وللآخرين ووضعنا لعقاب منّا عليه لمن خالف، والأقل منه نفورنا ومعارضتنا لمن خالف... وكما ترى كل ذلك ينبع من نفس الأساس: تحللون وتحرمون ما لم تخلقوه، إذ سبحانه أتاحه للجميع، لذلك هو وحده تعالى يحقّ له التحريم والتحليل مما خلقه لعباده.

نحن الآن نعيش في عصر يدّعي فيه المشرعون العقلانية، وبالقياس مع بعض تشريعات مرّت على البشرية، فعلاً هناك عقلانية أكثر في تشريعات عصرنا، ومن هذا المنطلق ربّما لا يبدو لنا تطبيق الآية على عصرنا لأننا نفترض أن الدولة تمنع المأكولات التي فيها ضرر لنا... وهذا شيء عقلاني، وصحيح، ولكن يبقى أصل السؤال الذي تطرحه الآية موجّها للمشرعين، مَن منحكم سلطة تحريم ما هو متاح للجميع؟ فلو حرّمتم انطلاقا من مبدأ إلهي يسمح لنا بتحريم ما نراه مضرا، فلا مشكلة، لأن الذي خلقنا وخلق الطعام، سمح لنا بمنع البعض منه علينا... مثلما أسمح لك بالأكل من كل ما في الثلاجة "البرّاد" إلا علبة الحلويات، لأنّ هذا من حقي لأني أنا أملكها. وكذلك الكلام هنا، فسبحانه المالك لكل شيء ووحده من حقّه التشريع أو إعطاء الإذن للآخرين بالتشريع.

سأطيل عليك لنرى عمق ما تطرحه الآية، في عصرنا دول تمنع استيراد بعض أنواع الفستق والبذور، على أساس أنّها إذا صارت عفنة فهي مسببة للسرطان، والدراسات تشير لاحتمال كبير في تسببها للسرطان إن تعفّنت جزئيا وأكلنا

منها كميات كبيرة، أو كانت عفنة بالكامل وأكلنا منها كمية تعادل وجبة طعام، وعلى كل حال فهي مسببة للسرطان بعد سنين طويلة...

لاحظ أن تلك الدول مشرّعة للدخّان "السجائر"، ومشرّعة للكحول، وللمخدرات... ومخاطر المخدرات أشدّ فتكا بصحّة الفرد وبحياته وبالمجتمع من الفستق! لكنّ الرغبة الجماعية، الهوى الجماعي بين الجماهير وحكّامهم بتعاطي المخدرات، أبعدهم عن تحريمها، بل دفعهم لقوننتها لتنظيم تعاطيها!

هكذا ترى عمق السؤال في الآية عن رفضهم لتشريعه تعالى العقلاني المنطقي، الذي ينظر لمصلحة تنطلق من الفرد لتعمّ المجتمع، وتعويضهم عن ذلك بتشريعاتٍ توافق هواهم الجماعي السيّء حتى لو كان فيه دمار للكثير من الأفراد والأسر والمجتمع...

(وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ{60})
{وَمَا ظَنُّ}، وما هو اعتقادهم المبني والمستند على معلومات، أولئك، {الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ}، بتشريع اخترعوه وينسبونه له تعالى وهم يعلمون أن تشريعهم صادر منهم ولا علاقة له تعالى به، ما في ظنّهم عمّا سيحصل معهم، {يَوْمَ الْقِيَامَةِ}؟ في زمن قيامهم من الموت، هل سيكرمهم تعالى أو يعاقبهم؟

{إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ}، إذ يوصف سبحانه بأن الفضل منسوب له، ويوصف سبحانه بتقديم الأمور الجيدة من دون أن تكون فرضا واجبا عليه سبحانه، فالرزق "الذي جعلوا منه حراما وحلالا" لم يحصلوا عليه بقدرتهم الذاتية المستقلة عنه تعالى، وأنزله سبحانه ليس لأنهم يستحقونه، وليس لأنهم دفعوا ثمنه، وليس لأنهم قد يؤذونه تعالى إذا لم ينزله، وليس حتى ينتفع تعالى منهم... بل نزل فقط وفقط هكذا: تفضلا منه سبحانه.

{وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ}، لا يعبّرون عن حصولهم على أمور جيّدة منه تعالى، بل وبعضهم يشكر غيره تعالى! وبعضهم يلعب بهذا الفضل والرزق ويحلل ويحرم!

بَدَلَ أن يشكروه تعالى على رزقه الحلال قاموا بالافتراء عليه سبحانه بتحريم بعض ما هو حلال وتحليل بعض ما هو حرام، فماذا يعتقدون أنه تعالى سيفعل بهم في يوم القيامة؟ من الواضح أنه تعالى سيحاسبهم ويجازيهم على افترائهم وإنكارهم لفضله.

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ{61})
{وَمَا تَكُونُ}، أنت أيها الرسول(ع)، {فِي شَأْنٍ}، في شيء من أمورك الخاصّة بك، وهنا الكلام عن شؤون تتعلّق بكونه (ع) رسولا يعارض أو يوافق على ما يفعله الناس، {وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ}، ما تقرؤه عن مستند من الكلام الإلهي المسمّى بالقرآن، وتتكلم به ويسمعك الناس، وأنتم أيها الناس، {وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ}، مهما كان صغيرا أو كبيرا، {إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا}، حيث نشهد ونسمع ونرى ونسجل كل ما تعملونه.

المشهد بين رسول ينقل رسالة الله سبحانه للناس، وبين ردة فعل الناس، حيث بعضهم يقبل وبعضهم يرفض، وسبحانه شاهد على كل شيء، إذ يشهد الشؤون والأمور التي يفعلها أو يقولها الرسول(ع)، ويشهد سبحانه كيف يستجيب الناس للرسول(ع)، إذ سبحانه ليس غائبا عنهم. وكما ترى فإنّ سبحانه دائما يتكلّم معنا بشفافية، فالآية هنا بصراحة تقول إنّ الرسول تحت المراقبة فيما يقوله للناس نقلا عنه تعالى، ومعلوم لك أن هذه المراقبة لا تقتصر فقط على المراقبة بل العقاب فوري للرسول لأنه تعالى يضمن لنا وصول كلامه لنا بالضبط، فإذا لسبب أو لآخر حَدَثَ خلل ما في نقل الرسول لكلامه تعالى، أو حَصَلَ خلل في تطبيق الرسول لكلامه تعالى فسبحانه فورا يتدخّل، وترى تطبيقا لذلك فيما جرى مع النبي داوود(ع) ونقلته الآية 21 وما بعدها من سورة ص وصولا إلى الآية 26 {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ...}، ومثله في معنى الضمانة ما قالته الآية 6 من سورة الأعلى {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى}، بضمانة إلهية سيتم توصيل القرآن بالحرف لنا عبر الرسول محمّد(ع).

كيف يرسل سبحانه لنا رسولا ولا يراقب رسوله ماذا فعل؟ ولا يراقب ماذا فعل الناس برسوله ورسالته؟ فلننظر ماذا فعل بعضهم بالرسالة، وبماذا ينبههم ربهم سبحانه:

{إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ}، حيث تتكلمون في القرآن بحيث يفيض فيزيد بشكل سيء عن المطلوب، كما أقول لك: امْلَأِ الكوب بالماء. تصبّ الماء في الكوب حتى يمتلئ ويفيض، ويسيل الماء ويقع على الأرض. كما نقول بالعامية: طق حنك، بعبعة، جأجأة، لعي... أمرنا سبحانه بالتحدث حول القرآن لندرسه ونفهمه، ولكن هؤلاء المشركين تحدثوا حوله، وناقشوا فيه بشكل سيّء... أفاضوا فيه، وخرجوا بشكل سيء عمّا أمرهم به سبحانه، فقالوا إنّه من تأليف محمد(ع)، وقالوا إنّه كتاب أساطير وخرافات، وعلّقوا على قصصه وعقائده وتشريعاته...

كلّ ذلك يحصل وسبحانه حاضر ويشهد كل ما يحصل، {وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ}، لا ينفرد أي شيء ليصير خارج ما يشهده المسؤول عنك من مستوى إلهي، {مِنْ مِثْقَالِ}، من شيء بقدر حجم أو وزن، {ذَرَّةٍ}، وهي أصغر منفصل له كيانه الخاص، كأصغر شيء يمكن أن نراه، إذ إنّ النمل الصغير جدا كنمل الخشب نقول له: ذرّ. ورماد الفحم لأنه ناعم وصغير جدا نقول له: ذرّ. لأنّ كل شيء صغير جدا صِفَتُهُ "ذر"، لذا لا يذهب فكرنا للذرة المؤلفة من بروتون ونيوترون وإلكترون كما يقول الفيزيائيون، فالذرّة بالتعبير العربي هي: كل شيء صغير جدا. ولكننا الآن لم نعد نستعملها هكذا كثيرا، وصرنا نستعملها أكثر في معنى اصطلاحي للذرة الفيزيائية للمواد، كذرة كربون وذرة نحاس...

طبعا لا يغيب عنه تعالى أي شيء، حتى لو كان أصغر من ذرة رماد، ولكن الكلام على بساطته اكتفى بالإشارة لأصغر ما يمكننا نحن التعامل معه مباشرة، وأخبرنا أنه "كنموذج" لا يغيب عنه تعالى، حيث يراه سبحانه ومتابعٌ له...

لا يغيب عنه سبحانه ولو ذرة منفردة، {فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}، بالرغم من العدد الهائل للمخلوقات من مجرات وكواكب وحيوانات وحشرات وبحص ورمل ومعادن وغبار... لا يوجد بينها ولا "ذرة" واحدة غائبة عنه سبحانه، بل يعلم سبحانه بكل ذرة، بكل شيء مهما صغر حجمه، ويعلم أين هو وما يجري معه.

حسن، قلنا إنّ الذرة بالتعبير العربي الأصلي هي: الشيء الصغير الذي يمكن أن نراه ولو بصعوبة بعيننا، لذا تقول الآية:

{وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ}، حتى لو كان أصغر من الذرة، {وَلَا أَكْبَرَ}، وأيضا حتى لو كان ضخما لا يغيب عنه سبحانه.

لا يعزب ولا يغيب عن ربك مثقال ذرة ... ولا أصغر ولا أكبر، {إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، إلا وهو مسجل بطريقة خاصة في كتاب رئيسي يحتوي على كل المعلومات عن السماوات والأرض، وهو كتاب مبين أي واضح وليس فيه تضارب واختلاط للمعلومات.

كُتُبُنا وسجلاتنا وأرشيفنا يحصل فيها خطأ، أو سهو، أو تلف، أو تسجيل بخط سيء يشوّش المعلومات ويفسدها، أو... ولكن هناك كتابٌ رئيسيٌّ عنده تعالى وهو مبين، إذ هو واضح وليس فيه أي عيب أو خطأ.

بعبارة أخرى: بينما أنتم أيها المشركون تعتقدون أنه سبحانه قد خلقنا وتركنا ولا يتدخل بنا... فاخترعتم عقيدة وشرّعتم، يخبركم سبحانه أنّه يراقبكم، بل وبشكل عادي بسبب قدراته الفائقة حالته الطبيعية العادية سبحانه مراقبة كل شيء في الدنيا، إذ يراقب كل ذرة فيها، بل ويراقب ما هو أصغر أو أكبر من الذرة.

ننتبه، فإنّ الكتاب الذي فيه معلومات عن كلّ شيء، تكرر ذكره في القرآن، وبشكل مختصر نقول إنّه كتاب مسجّل فيه كلّ شيء بدون أي استثناء، ففيه الماضي والحاضر والمستقبل لأي ذرة أو أصغر... وأي كائن مهما كان حجمه أو مكانه أو زمانه... والقرآن والتوراة والإنجيل... أيضا من ذلك الكتاب، وفيه حسنات وسيئات الناس... وهو موصوف بأنه كتاب لأن المعلومات مسجّلة فيه، ولكنه ليس من ورق وليس مثل ذاكرة الكومبيوتر... مثلما لا يمكننا الآن تصوّر الملائكة (ع) ولا تصوّر عالمها، كذلك لا يمكننا تصوّر ذلك الكتاب الآن، وفي الآخرة سيتبدّل تكويننا لنرى الملائكة (ع) ونرى كتاب أعمالنا الذي هو من ذلك الكتاب.

لاحظ أن هذه العبارة شِبْهَ متكررة في الآية 3 من سورة سبأ.

بقي شيء ألفت انتباهك له، ربما نقول إنّ الكلام عن الالتفات للأشياء الصغيرة يعبّر عن قدرة قوية، ولكن الأشياء الكبيرة واضحة ولن تغيب عنّا، رؤيتها عادية، ولا معنى قويًّا لذكرها هنا أنّها لا تعزب عنه تعالى. لذا ننتبه أنّ الكلام أعمّ بكثير من هذه البساطة، إذ أنت إن نظرت إلى السماء سترى مجموعة نقاط معدودة وهي مجرة "أندروميدا" التي حجمها بالنظر بالعينين، لو كان نظرك قويا كفاية، أكبر من حجم رؤيتك للقمر بقليل. وخذ مثلا آخر الأرض التي تقف عليها وتراها مسطحة، ومنذ عهد قريب من تاريخ البشرية رأيناها كروية من الفضاء... ضربت لك هذه الأمثلة لننتبه أنّ إمكانية رؤية الأحجام الكبيرة لا تَقِلُّ أهمية عن إمكانية رؤية الأشياء الصغيرة. وعلى أي حال سياق الكلام السابق والآتي عن آلهة اخترعها المشركون، ونظريا ربما لديهم فكرة عن آلهتهم أنها كبيرة، وكبيرة جدا، لذا يأتي الكلام هنا شاملا لكل ما هو صغير وكبير أنّه تعالى يعلم به، وبالتالي سبحانه بعلمه الواسع المحيط للحجم الهائل لسمائنا بمجراتها التريليونية، ومضافا لها ست سماوات أخرى، يستحيل أن يغيب عنه وجود كائن مهما كان حجمه، ومن هذا العلم الواسع الدقيق يخبرنا تعالى بشفافية أنّه لم يلمس أي أثر إلا لنفسه وللمخلوقات التي خلقها هو، لذا لا يوجد إله غيره...

(أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ{62})

{أَلَا إِنَّ}، بالتأكيد، {أَوْلِيَاءَ اللَّهِ}، الذين يعتبرونه تعالى مرجعًا لهم وهم تابعون له، وعمليا هم الذين يطيعونه ويعتبرونه سبحانه مرجعهم في كلّ شيء من مستوى إلهي، يُوَحِّدُونَهُ تعالى ويحللون ويحرّمون ما يقوله لهم تعالى... فهؤلاء، {لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ}، إذ لن يحصل معهم خطر لا يمكنهم ردّه، فهم في يوم القيامة سيتحاسبون وهناك خطر معاقبتهم على أمور سيئة صدرت منهم، ولكنه تعالى يخبرنا أنه لن يصيبهم بأي شيء سيّء، لأنّ ذنوبهم مغفورة... لأنهم أولياؤه تعالى، تابعون له، وسيتدخّل سبحانه لصالحهم، {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}، حيث في يوم القيامة لن يشعروا بحالة سيئة من أي شيء يرونه أو يحصل معهم.

تريد الآية القول إنّ من والى الله تعالى وحده ولم يُوالِ غيره، كما فعل المشركون، فإنه لن يخاف ولن يحزن. لأننا من الآيات السابقة سمعنا أنّ من أشرك به سبحانه فسوف يخاف ويحزن ويندم... فالكلام هنا خبر فيه تشجيع وتحفيز لنا لنواليه تعالى. ومن هم أولياء الله سبحانه:

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ{63})

{الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين اعتقدوا، وهنا الكلام عن اعتقادهم بتوحيده تعالى وبكتبه ورسله والآخرة... {وَكَانُوا يَتَّقُونَ}، كانوا يتجنبون ويتحاشون، وسياق الكلام عن تَجَنُّبِهِمْ ما يخالف أوامره تعالى، حيث يَتَجَنَّبُونَ غضبه وعقابه سبحانه وهو نفسه عمليا تَجَنُّبُهُمْ لأي شيء سيّء.

نلاحظ دائما تركيز القرآن على أن الإيمان وحده لا يكفي، بل يجب أن يكون معه عمل صالح، وهنا استعملت الآية التعبير بالتقوى كمرادف عملي للعمل الصالح، إذ إنّ التقوى عمليا هي ترك ما حرّمه والقيام بما أوجبه تعالى.

بالنسبة لكلمة "آمن" لم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإسلام أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقّاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عَقَدَ" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، فـ "آمن" على أصل معناها اللغوي، و"اعتقد" على معناها الاصطلاحي الدارج، كلتاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{64})

{لَهُمُ الْبُشْرَى}، أولياؤه تعالى المؤمنون المتقون لهم الخبر المفرح عن شيء سيأتي، {فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، فالآن هنا يسمعون عن دخولهم إلى الجنة، ولهم البشرى والأخبار المفرحة أيضا، {وَفِي الْآخِرَةِ}، في الحياة التي ستأتي في الْآخِرِ بعد تبدّل الدنيا، عِنْدَمَا يَقُومُونَ من الموت تخبرهم الملائكة (ع) فورا بأنهم سيدخلون إلى الجنّة بعد انتهاء

الحساب كما نفهم من الآية 12 من سورة الحديد "يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ".

{لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ}، إذْ قال سبحانه إنّه سيجعل المؤمنين يخلدون في جنة متجددة بالسعادة، ولن يتبدّل هذا الكلام، ولن يغيّر سبحانه قراره ويقول فيما بعد كلاما آخر، وطبعا لن يستطيع أحد تغيير كلامه سبحانه، ولن يستطيع أحد منع حصول السعادة في الجنة للمؤمنين.

السعادة الدائمة في جنّة خالدة، {ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}، هو الحصول على شيء له قيمة عالية جدا جدا. وحين يقول سبحانه بأن الفوز سيكون عظيما، فهل يمكننا تصور ذلك؟

ننتبه جيدا، فآيتنا هنا وأمثالها تريد أَلَّا يخطر ببال أحد أننا ربما نتفاجأ في يوم القيامة بأنه تعالى غيّر قراره! ولم يعد يريد إدخال المؤمنين إلى الجنة، أو سنموت ويغيّر سبحانه قراره ويلغي يوم القيامة، فنبقى أمواتا، أو... لا. مِنَ الآن يخبرنا سبحانه أنه خلقنا ضمن نظام ومخطط يبدأ من هنا، من الدنيا، ويمتد لِيَصِلَ إلى الآخرة، ويمتد حتى نعيش في نتائج الأعمال التي فعلناها في الدنيا، ولن يتغير هذا الكلام بل سيحصل حتما بهذا الشكل.

بعبارة أخرى، مثلما نبحث عن تسلسل الأحداث التي سبّبت نشوء كوننا بمجراته، ونشوء الحياة على الأرض... ونرى الأمور مترابطة وتسير... يبدو من مفاهيم القرآن أن الأمور بهذا الشكل ستسير إلى حيث تتبدّل الدنيا وتأتي الآخرة ونعود إلى الحياة...

للأسف، بعض الناس يقولون إنّه تعالى حرّ ويفعل ما يشاء، ويمكنه رمي المؤمن في النار والكافر في الجنة! نعم هو سبحانه حرّ ويفعل ما يشاء ويمكنه فعل ما يشاء، ولكنه سبحانه في هذه الآية وفي الكثير الكثير من الآيات أخبرنا ماذا شاء، وقال لنا كلمته: المؤمن في الجنة والكافر والمشرك في النار. ولا تبديل لكلماته سبحانه، فلا مجال أبدا لغير ما يقوله سبحانه وقد قاله سبحانه وأخبرنا مرارا وتكرارا أنه سيفي بوعده، ومعلوم أنه تعالى حكيم لا يظلم... فما معنى كلامهم أَنَّهُ تعالى حرّ ويمكنه في الآخرة أن يغيّر قراره "رأيه" ويرمي المؤمن في النار والكافر في الجنّة؟ وهم يقصدون أَنَّهُ فعلا قد يحصل ذلك! فإن لم يكن هذا هو السفه فما هو السفه؟

(وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{65})

{وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ}، فلا تشعر أيها النبي(ع) بشعور سيّء ولا تنزعج عندما تسمع شركهم وتكذيبهم لما تنقله لهم منه تعالى، {إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}، إذ إنّ العزّة يقابلها الذلة وهي الانقياد للآخرين، فإن كان هناك أحد موصوف بأنه فوق الانقياد للآخرين، فسبحانه كل معاني العزّة له جميعها.

لا تشعر من شركهم واستهزائهم وتكذيبهم... بأنك ضعيف، ولا تَنْسَ بأن إلهك عزيز جامع لكلّ العزّة، إذ من ناحية القوّة هو تعالى الأقوى والأقدر، ومن ناحية الملك فهو المالك لكل شيء...

الرجل يكون عزيزا بماله ولكنَّ رجلًا آخر عزيزٌ بجنوده إذ عنده جنود أكثر من الغني مما يمكنه إهانة الغني وسلبه ماله، إذًا العزيز بماله عزّته ناقصة، ورجل يكون عزيزا بمركزه لأنه رئيس أقوى دولة ولكنه لن يبقى رئيسا لأكثر من عدة سنين لأنه سيموت، وهكذا نفهم أن {الْعِزَّةَ ... جَمِيعًا} ومن كل النواحي هي لله تعالى، فهي لا تنقص ولا تتغير، ولا يوجد أحد لديه صفة أو قدرة أعلى من صفاته أو قدراته تعالى، إذ هو الغني القوي الخالق الملك المسيطر و... وسيبقى سبحانه هكذا. لذا لا تحزن من قلة احترامهم له تعالى لأنّ هذا لن يغيّر من واقع كونه تعالى عزيزا، ولا تشعر بأنك ضعيف لأنّك مدعوم بأقوى قوّة فائقة في الدنيا.

{هُوَ السَّمِيعُ}، الذي يسمع كل شيء، ومن ضمن ذلك يسمع سبحانه ما يقوله المشركون، فهم تحت المراقبة وتركهم تعالى الآن يقولون كلاما لا يتناسب مع عزّته وسيتحاسبون على ما يقولونه.

وهو، {الْعَلِيمُ}، إذ لديه علم تام كامل فيه كل تفاصيل ما يحدث وما يصدر من المشركين من أقوال وأفعال، إذ سبحانه ليس مثل كاميرا المراقبة التي تسجّل الصوت والصورة ولا تعي ما تسجّله، بل سبحانه يعلم بكل ما يجري، لذا هم تحت

المراقبة، ومن ناحية ثانية تركهم على ما هم عليه أيضا عن علم لأنّه في الوقت المناسب الذي يراه هو سبحانه سيحاسبهم، لذا لا تحزن.

(أَلا إِنَّ لِلّهِ مَن فِي السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ{66})

{أَلَا إِنَّ لِلَّهِ}، بالتأكيد وحصرا منسوب لصاحب الاسم الله المحدّد المميّز له، {مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ}، والتعبير القرآني بالسماوات والأرض يشير إلى كلّ ما في الدنيا، فكلهم له تعالى وهو يملكهم.

{وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ}، حيث هناك من يَدْعُو ويُعْلِن ويشهر لغير الله تعالى، ويُعْلِن أنّه تعالى لديه شركاء في الألوهية، ولكنه في الحقيقة هو لا يَدْعُو لشركاء حقيقيين له تعالى في الألوهية لأنه سبحانه الإله الأحد، {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ}، فاعتقادهم بذلك يستند على علم غير صحيح، {وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ}، وكلامهم فقط عن حدس عن تخمين عن اختراع من أوهامهم وليس عن دراسة وفكر وعلم.

يقولون إنّ له تعالى شركاء ويدعونهم آلهة، وفي الحقيقة ليس هناك شركاء له تعالى، لأنّ كل الكائنات منسوبة له تعالى وهي له ولا يوجد في السماوات والأرض أي كائن إلا الكائنات التي خلقها تعالى، فمن أين اخترعوا ألوهية لكائن مخلوق مملوك له تعالى! هذا إن كانت آلهتهم لها كائن يمثلها ولم تكن وهمية خيالية.

كما ترى، فالسورة في بدايتها حصرت كلامها عن الكائنات الموجودة التي لها كيان، كإنسان أو جنّي أو ملاك... والتي قال المشركون إنّها شريكة له تعالى في الألوهية، فالآلهة التي اخترعوها من خيالهم ولا وجود لها أصلا، كإله الحرب وإله الرزق وإله التجارة... وروح الصنم... فهذه كما يقولون: منتفية بانتفاء الموضوع. وأصلاً هي ليست موجودة لنناقش في ألوهيتها، فأنا لا أملك قصرا، وأنت تناقشني وتذكر لي العيوب التي في قصري، وتقول إنّ غرفه صغيرة وهندسته غير متناسقة... والقصر أصلا غير موجود! حيث هناك أناس اخترعوا أسماء من خيالهم لكائنات من خيالهم وقالوا إنّها آلهة، وتحدّثت معهم وعنهم بضع آيات من سور القرآن، أمّا سورتنا هنا "وغالبية القرآن" فحصرت كلامها مع الذين حدّدوا آلهة لهم من الكائنات الموجودة، فيقول لهم تعالى: إنّ كل الكائنات الموجودة في السماوات والأرض منسوبة له تعالى بخلقه لها وبملكيتها ومتابعة شؤونها... فكيف يكونون له سبحانه شركاء ويكونون آلهة؟ فماذا يملكون حتى يكونوا آلهة إن كانوا أصلاً لا يملكون أنفسهم!

ولا تَنْسَ دائما الصدق والشفافية في كلامه سبحانه وتعالى، فالقرآن يستعمل دائما تعبيرا دقيقا عندما يوجّه كلامه إلينا عمّا هو موجود، ويعبّر بالسماوات والأرض، وهذه كلّ دنيا المخلوقات، ومن ناحيته تعالى لا يرى أي شيء موجوداً خارج السماوات والأرض التي خلقها هو سبحانه، ونحن ضمن ما خلقه سبحانه، واختراع المشركين لآلهة سيكون مما هو موجود في السماوات والأرض، فلا معنى لاختراعهم لآلهة من خارج السماوات والأرض طالما لا يوجد ولا كائن غيره تعالى خارج الانحصار بالسماوات والأرض، وتتذكّر ما مرّ في الآية 18 من هذه السورة، {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ}، وكان الكلام فيها عن سؤاله تعالى لهم إن كانوا ينبئونه سبحانه بشيء لا يعلمه، فهل يوجد آلهة لها تأثير على الأمور التي تجري في السماوات والأرض والمشركون يعلمون بها، والله سبحانه لا يعلم بها! وهنا الآية من زاوية أخرى تقول من بعد تراكم المعلومات التي انطرحت سابقا: إن كان علمه تعالى واسعاً محيطاً ولا يعزب عنه تعالى ما هو أصغر من الذرة ولا أصغر ولا أكبر أينما كان في السماوات والأرض، وإن كان كل ما في السماوات والأرض مخلوق ومنسوب له تعالى، فما معنى قولهم عن كائن غيره تعالى إنّه إله! فهذا تخريص، هذا كلام عن حدس وتخمين وتوهّم.

بقي شيء، حيث بضبابية ينتشر في ثقافتنا تفسير الكثير من الآيات التي استعملت كلمة "دعاء" ومشتقاتها، على معنى الطلب، وعادة وغالبا يفسرون أمثال آيتنا هنا أنّ المشركين يدعون طالبين من آلهتهم الرزق والنجاح و... وهذا عادة يحصل ولكنه ليس ما تقصده الآيات، بل ونادرا ما استعمل القرآن كلمة دعاء ومشتقاتها لِيُشِيرَ إلى طلبنا من الله تعالى الرزق والصحّة والعافية و... بل استعملها غالبا على معنى عموم الإعلان والإشهار، وغالبا كان سياق الكلام عن الإعلان والإشهار عن الألوهية، فأعد قراءة آيتنا هنا مع فهمك لمعنى كلمة دعاء بأنّهم يعلنون ويشهرون لغيره تعالى

أنّهم آلهة، وسترى بسهولة بقية الآيات التي استعملت كلمة دعاء له تعالى أنّها أيضا بغالبيتها الساحقة تعني الإعلان والإشهار بأنّه تعالى الإله.

منفعة هذا الكلام هو محاربة ثقافة التعامل معه تعالى كالتعامل مع جني الفانوس السحري الخرافي، حيث تطلب منه ويحقّق لك ما تريد، وللأسف بَنَى المنتمون لدينه تعالى ثقافة الإيمان به تعالى بتحفيز استجابته تعالى لأدعية "طلبات" المؤمنين به، وصار لدينا كمّ هائل من الأدعية المخصصة لأنواع مختلفة من الطلبات، ودعاء للشفاء من المرض ودعاء للرزق ودعاء للزواج... وكلّه بعيد كل البعد عن فحوى كلام القرآن الذي أكّد أنّه تعالى يسمع طلباتنا ولكنه لم يصرّح أبدا بتاتا أنّ الأدعية مستجابة حتما، بل ذكر لنا نوادر استجابته تعالى لأدعية بعض الصالحين، كاستجابته لطلب النبي زكريا (ع) للولد، والذي انبهر به النبي حين استجاب له تعالى محققا طلبه، فراجع دراسة سورة مريم من أولها لمزيد من المعلومات حول الدعاء على معنى الطلبات منه تعالى.

لمزيد من التوسّع حول كلمة "ظنّ" راجع دراسة الآية 36 من هذه السورة.

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ{67})
الذين قلتم إنّهم شركاء له سبحانه في الألوهية فماذا يفعلون حتى وصفتموهم بالألوهية؟

{هُوَ}، الله سبحانه، {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ}، هو الذي جعل فترة العتمة من اليوم لتهدؤوا من التحرك وتناموا، ومن تكملة الجملة سترى أنّ المقصود هو جعله تعالى لفترة من اليوم ليس فيها ضوء مما يجبرنا على السكون، فيدفعنا للتوقّف عن النشاط والحركة.

وجعل سبحانه لكم {النَّهَارَ مُبْصِرًا}، حيث جعل فترة من اليوم فيها ضوء ليصير لديكم فيها القدرة على وعي وإدراك الصور، وتبصرون ما حولكم بسبب ضوء النهار، وتتحركون للعمل وغيره...

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، في عتمة الليل وضوء النهار، {لَآيَاتٍ}، فهي أشياء مميزة بمستواها الإلهي، {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة ويتفاعلون ويعايشون تلك الظواهر، {يَسْمَعُونَ}، لأنّ الكلام هنا للفت الانتباه إلى الليل والسكون فيه وإلى النهار والنشاط فيه ليس نافعا لأناس يمر هذا الكلام من قرب آذانهم ولا يدخل إلى عقولهم، ولا يعتبرونه كلاما عن أمور مميزة بمستواها الإلهي، أمّا لقوم يسمعون فهذا الكلام عن الليل والنهار سيكون بالنسبة لهم كلاما عن أمور مميزة تدل عليه تعالى كإله خالق عظيم.

ننتبه، لأنّ القرآن عموما تحدّث عن نماذج من الأمور، وحين أشار إلى الفلك "السفن والمراكب..." بأنّنا لم نبتكرها ولم تكن مفاجأة له تعالى عندما اخترعناها، لأنه تعالى هو الذي صمّمنا وخلقنا مع علمه المسبق بما يمكننا أن نخترع ومتى سنخترعه... حيث كان الفلك نموذجا، ومثله الخيل والحمير لتركبوها كما ورد في الآية 8 من سورة النحل {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، ومثله امتهاننا زراعة النباتات... ومثله نماذج عن الأقوام التي نالها العذاب في الدنيا وذكرها القرآن مكتفيا بها ولم يذكر غيرها، ومثله اختياره نماذج من الأنبياء لذكرهم وإغفال ذكر الآخرين... وهنا نفس الشيء، حيث إنّ ظاهرة الليل والنهار لا تحصل في بعض الأزمنة والأمكنة على الكرة الأرضية، لأنّ الآية لم تقل إنّ كل الأرض يحصل عليها ليل ونهار كلّ يوم، بل أشارت لظاهرة الليل والنهار التي تحصل على غالبية الأرض كونها ظاهرة معروفة منتشرة يعلم بها كلّ الناس.

ستقول: هذا كلام بسيط نعرفه ولا داعي له. فأقول لك: إن بعض الناس يصرّون على وجود اكتشافات علمية في القرآن، ويفسّرون الكثير من الآيات على أساس أنّها تشير لأمور علمية لا نعرفها، وهذا النوع من الكلام مخالف للقرآن الذي تحدّث عن ظواهر عامّة من وجهة نظر الناس العاديين، وبسبب هؤلاء الناس المدّعين للنظريات القرآنية العلمية، نجد أناسا يحاكمون القرآن وكأنه فعلا يعرض نظريات علمية، فيقولون عن آياتنا هنا إنّها غير دقيقة لأنّها لم تشر إلى فترات ومناطق على الأرض يمرّ عليها أيام في حالة الليل فقط، وأيام في حالة النهار فقط...

عادة القرآن يشير إلى ما تراه وتعرفه من الظواهر، ولم يقصد إخبارك بمعلومات جغرافية أو فلكية أو طبيّة أو فيزيائية لا تعرفها.

(قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَـذَا أَتقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{68})

{قَالُوا}، قال بعض المشركين: {اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}، حيث قرّر سبحانه جعل واعتبار واحدٍ من مخلوقاته كولد له! وكلّنا خلقنا سبحانه ولكنه تعالى اعتبر واحدا من مخلوقاته ولداً له، فمثلا قالوا عن اللات والعزى إنّهنّ ملائكة بنات لله عزّ وجلّ... ونعرف من التراث اليوناني والروماني أيضا أنهم اعتبروا الملائكة أو توّهموا مخلوقات وقالوا إنّهم أولاده عزّ وجلّ، ومن المشهور أن الفيلسوف اليوناني سقراط أعدموه بسبب تحدّثه عن سخافة الاعتقاد بوجود أولاد للإله.

{سُبْحَانَهُ}، تنزّه وارتفع الله في صفاته عن أن يكون له ولد، وبالنظر للصفات والقدرات الفائقة التي عنده تعالى يستحيل أن يكون له ولد حقيقي يولد منه سبحانه، ولا معنى لاتخاذه تعالى ولدا من مخلوقاته.

{هُوَ الْغَنِيُّ}، لا حاجة له بشيء، فأنا بالمال أصير غنيا لأني بالمال أشتري ما أحتاجه، أما تعالى فأصلا لا حاجة له بأي شيء، وصحيح أنه سبحانه يملك كل شيء ولكنه ليس لهذا السبب هو غني لأنه أصلا مستغنٍ عن كلّ شيء، فما فيه تعالى من صفات فائقة فهي السبب أنّه تعالى لا يحتاج لأي شيء.

ما حاجته لتحديد فلان أو فلان كولد له عزّ وجلّ! نعم نرى أنه تعالى مدح فلانا وفلانا من مخلوقاته ولكن هذه هي حدودهم القصوى، المديح، ولا معنى لاعتبار أي واحد منهم ولدا له تعالى.

{لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، كل شيء منسوب له، فكلهم مثل بعض بالنسبة له، مخلوقات خلقها هو سبحانه، فما معنى أن يكون منهم ولد له وكلّهم مثل بعض بالنسبة له تعالى ككائنات خلقها ويملكها!

{إِنْ عِنْدَكُمْ}، نسألكم إن كان عندكم، {مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا}؟ فهل عندكم شيء يجعل كلامكم قوياً؟ فهل لديكم دليل أو حجة أو برهان قوي على هذا الكلام لدرجة السلطنة والغلبة لإقناع أنفسكم أو غيركم به؟ فهل تواصلتم مع أحد وتبين لكم أنه ولد له تعالى؟ أو هل لدى أحد منكم القدرة على التعرّف على ولد له تعالى؟ أو هل قال لكم سبحانه إنّه لديه ولد؟ فما الذي تستندون عليه بقوة لتقولوا إنّه تعالى له ولد؟ أم أن هذه المسألة لا تحتاج لدليل ويكفي إبداء الرأي فيها!

{أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}! هكذا وبكل بساطة تخترعون لله تعالى ولدا، وأنتم لا تعلمون شيئا عن الموضوع! ومن أوهامكم وخيالاتكم تسمحون لأنفسكم أن تنسبوا له تعالى ولدا!

أنتم لا تسمحون لأحد أن يقول عنكم أشياء من خياله، فكيف تقولون على الله تعالى أشياء من خيالكم! ولنفترض أن امرأة من المشركين ليس عندها أولاد، ثم قلنا لها: كيف حال أولادك؟ فماذا ستقول؟ ستقول: ليس عندي أولاد. ولكننا سنصرّ عليها ونقول: بلى عندك ولد بالتأكيد. فستقول: هل أنا قلت لكم، ما دليلكم... فبأي سلطان تنسبون لي ولدا؟ واخترت لك مثالا عن امرأة لأنها ستحبل لأشهر ويستحيل أن يصير لها ولد وهي لا تدري، ولم أرد أن تناقشني في مثال رجل ليس له ولد، فربما له ولد ولكنه لا يدري، وأقول لك هذا لتنتبه أنّه حتى كلام القرآن عن نماذج، فإن افترضت فيها سيناريو يجعلها تبدو ناقصة أو غير صحيحة، كحالة الذين قالوا عن الآية السابقة إنّها غير صحيحة بسبب مرور أيام على منطقة قطبي الأرض بلا ليل، فاعلم أنك تناقش في نماذج مقصود منها فقط ما تشير له حالة النماذج، وليس مقصوداً منها أنها حالة عامّة، كالكلام عن ركوب الفلك والخيل كنعمة إلهية على البشرية، فتقول إنّك لم تركب سفينة ولا خيلاً في حياتك! فهل كلام الآيات يقصد أننا كلنا ركبنا السفن والخيل؟ أم لأنك لم تركب سفينة ولا خيلاً لم تعد الفلك والخيل نعمة للبشرية؟

نرجع للآية، فهذه الصورة اللطيفة المخففة عن جعل المشركين لله تعالى ولدا، ومثّلناها بنسبة ولد لمشرك ليس له أولاد... ولكن ماذا لو قلنا لأحد المشركين: هذه النملة أو تلك الذبابة ابنك. فماذا سيقول؟ فنحن بالنسبة لعظمة الله سبحانه أصغر بكثير من النملة بالنسبة لك. فكما لا يدخل في رأسك أن تكون النملة ابنتك، فكيف تقول إنّ لله تعالى ولداً من البشر أو من الملائكة؟

معلوم لك أن المشركين هم الذين يقولون إنّه لا يوجد إله واحد بل يوجد العديد من الآلهة، فليس عندهم مشكلة إذا اخترعت آلهة خاصة بك! يعني إذا استيقظ أحد المشركين ذات صباح، وخطر بباله أن يعبد السيارة أو الغسالة، فلا مشكلة! وإذا ذات يوم في سهرة مسائية، قرر أحد المشركين أن يقول: صنمي ابن للإله الكبير. فلا مشكلة عندهم!

هنا السورة تتحدث عن هذا النوع من الناس، الذي يعتقد أن موضوع الشرك بهذه البساطة، وليس مسألة عظيمة!

تتذكّر دائما أن بعض المسيحيين واليهود يؤمنون بأن بعض الشخصيات الدينية عندهم هم أبناء لله "تعالى عن ذلك"، وتجد في سور أخرى أثناء كلامه تعالى مع وعن المشركين تعريجا على انحراف أناس منسوبين لدينه تعالى ونسبوا له سبحانه ولداً، وبينت للمشركين أن هذه عقيدة انحراف عن دينه تعالى وليست مقبولة، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 30 من سورة التوبة {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}، وهنا ترى السورة لم تلفت الانتباه لأهل الكتاب المشركين، واكتفت بالردّ على الجميع بجملة واحدة، هو الغني، وله كل شيء، ولا سلطان لديكم بهذا الكلام، ولا علم لكم بما تقولونه لأنّه عن وهم وخيال تقولونه.

(قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ{69})
{قُلْ}، يا أيها النبي (ع) عبر هذا القرآن لهؤلاء:

{إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ}، حيث يُؤَلِّفُونَ الكلام وينسبونه لله تعالى وسبحانه لم يقله أصلاً لا لهم ولا لغيرهم، فهم يعلمون أنّهم يكذبون عليه، لأنّهم لا يكذبون عن غير قصد أو عن اشتباه، بل عن قصد يكذبون على الله تعالى ناسبين له شيئاً أصلاً لم يقله وهذا هو معنى الافتراء الكاذب، فهؤلاء {لَا يُفْلِحُونَ}، لا يوصفون بأنهم فلحوا، حيث ليسوا مجيدين فيما عملوه، فمن قال إنّه تعالى اتّخذ ولداً، فهو يفتري كاذباً ويقول شيئاً لم يقله تعالى وهو أصلاً غير صحيح.

كما أقول لشخص: عندك ولد اسمه عبدول. وهو أصلاً لم يقل لي ذلك، حيث أفتري عليه وأنسب له شيئاً من دون دليل، وأفتري عليه كاذباً لأنّه أصلاً ليس عنده ولد اسمه عبدول. فالافتراء هو نسبة شيء للآخرين وهم لم يعلنوه ولم يقولوه وليس لدينا دليل على صحّته، وربما كان صحيحاً ما نسبناه لهم، ولكنه يبقى افتراء طالما لا دليل لدينا على ما نقوله ولم يعلنوا أن ما قلناه عنهم صحيح، ويصير افتراءً كاذباً إن كان ما قلناه أصلاً غير صحيح.

ننتبه جيداً، لأنّ كل الناس إلا اللهم ما ندر، متعلقون بدينهم ومتعلقون بالفرع الذي هم عليه من دينهم، حيث لديهم معتقدات خاصة بهم مختلفة حتى عن الآخرين الذين من نفس دينهم، وهم مذاهب وطوائف وجماعات... وإصرارهم على التمسّك بعقائدهم مدفوع من اعتقادهم أنّ مخالفة عقيدة جماعتهم، سيسبّب لهم الابتعاد عن الإيمان... ولن يكونوا فالحين إن تركوا عقائدهم...

مع تقدّم الزمن تترسّخ عقائد وثقافة وعادات المجموعات الخاصة بهم لتصير هي الدين، ويصير مستحيلاً التخلّي عنها، وهي حتما فيها أخطاء، مع العلم أنّ كل جماعة تدّعي أنّها وحدها كل عقائدها صحيحة والآخرون على خطأ... فالآخرون ليسوا فالحين.

هنا الكلام مع المشركين نفس الشيء، لأنّ المشرك يعبد إلهاً يقول عنه إنّه ولدٌ له تعالى، وحين تبرهن له أنّ هذا غير صحيح، فأوّل ما يمنعه من الإيمان بكلامك، تفكيره بالفلاح، لأنّه يرى نفسه فالحاً يعمل ما هو جيدٌ بالتقرّب من ولد له تعالى، ويشعر بالدمار لدينه إن تراجع عن عقيدته، وهذا ما يقصده القرآن عموما حين ينفي الفلاح عن السلوكيات والعقائد والتشريعات المنحرفة.

نفس الحالة من دراستنا هذه التي حاربت كل التفاسير المذهبية والطائفية للقرآن، وردّته بقدر الإمكان إلى ما يرضيه تعالى، فأوّل ما يخطر ببال المتمسكين بمذاهبهم هو الفلاح، حيث يظنون أنّهم فالحون بعقائدهم وتفاسيرهم الخاصة بهم للقرآن، وليس سهلاً عليهم تقبّل نقض ما هم عليه مما يظنّونه فلاحاً...

(مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ{70})
{مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا}، هذا الذي يفتري كاذباً ويقول إنّه تعالى له ولد، إنما يعيش في الدنيا ويتمتّع بها ويستفيد بالأشياء الموجودة فيها، حتى لو كان المشرك فقيراً، فإنّه يتمتع بالحياة فيها، بجسده وبالهواء الذي يتنفّسه... وبمائها وطعامها وغيره... ولكن بعد الدنيا: أين سيذهبون؟

{ثُمَّ إِلَيْنَا}، إلى الله تعالى، {مَرْجِعُهُمْ}، حيث بعد أن يموتوا لن يختفوا ولن يعودوا إلى الحياة في عالم لا يملكه تعالى... بل إليه تعالى سيرجعون، {ثُمَّ نُذِيقُهُمُ}، ونجعلهم يشعرون ويتحسّسون، {الْعَذَابَ الشَّدِيدَ}، ويتعرّضون لما يؤذيهم وسيكون شديداً ولن يكون عادياً يمكن تحمّله، ولا يخطر بالبال أنّ شخصاً ما سيقف في جهنم ويقول إنّه يتحمّل الألم، لا، بل سيشعرون بالعذاب وسيكون شديداً، وعندما يقول سبحانه إنّه شديد، فهو سبحانه يعني ما يقول.

هذا العذاب الشديد، {بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ}، بسبب إنكارهم لوحدانيته تعالى في الألوهية.

بشكل عام وبالرغم من افترائهم عليه تعالى بأنّه له ولد، فإنّهم يعيشون في الدنيا ويتمتعون بما فيها، وهذا لا يعني أنّه تعالى ساكت عنهم لرضاه عنهم، حيث هناك زمان سيرجعون فيه إليه تعالى وسيحاسبهم على ذلك، وسيتعرضون لعذاب لا يمكنهم تحمّله، ولو كانوا أغنياء أو فقراء أو عاديين... لأنّ تركهم هنا يتمتعون بالحياة الدنيا لا يعني أنّه تعالى لم يعاقبهم لأنّهم معهم حقّ وعنده تعالى ولد فعلاً، ولا يعني أنّه تعالى لن يعاقبهم، بل هناك زمن للعقاب على هذا الكفر.

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللّهِ فَعَلَى اللّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ{71})
فيما مرّ من كلام كان فيه تهديد للمشركين بالعذاب الدنيوي من الإله الأحد المسيطر على كل شيء... ومرّ كلام يبرهن فساد عبادتهم لآلهة من دونه تعالى... ومرّ كلام عن توجّه الإنسان إلى توحيده تعالى في حالة الوقوع في الخطر الشديد... وقبله تعرّفنا عليه تعالى بالتفكّر في آياته، وبعد ذلك إضافة الرحمة الإلهية بما ينقله الرسل لهدايتنا...

من هنا ستبدأ السورة بعرض ثلاثة نماذج تاريخية كتطبيق للعناوين السابقة: نموذج قوم النبي نوح (ع) وهم مشهورون برفضهم لركوب السفينة حتى بعدما طغى الطوفان... ونموذج فرعون الذي لم يعلن إيمانه إلى أن أيقن بالموت، ونموذج إيمان قوم النبي يونس (ع) قبل وقوع العذاب بقليل...

{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ}، اقرأ أيها النبي (ع) على الناس وبالخصوص على المشركين، اقرأ استنادا إلى ما ينزل وحياً عليك، {نَبَأَ نُوحٍ}، خبراً غير منتشرٍ علمه بينهم عن شخص اسمه نوح (ع).

{إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ}، حيث قال النبي للناس الذين لهم كيان الجماعة وهو "النبي نوح (ع)" ينتمي لجماعتهم:

{يَا قَوْمِ}، يا قومي يا أيها الناس الذين أنتمي لجماعتهم، {إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ}، حيث استصعبتم ولم تتحمّلوا، {مَقَامِي}، المعنى السطحي: حيث أنا، المعنى الأدق: حالة جهوزيتي عندما أفعل، وهو ما أقوم به من أعمال في مكان ما. وبصفتي رسولاً يبلّغ الرسالة الإلهية لكم، وهذا مقامي وهذا ما أقوم به وأنا بينكم، فإن كبر عليكم كوني رسولاً إلهياً ولم تتقبلوا ذلك، {وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ}، ولم تتحملوا جعلي إياكم تستحضرون في فكركم وعملكم الأمور المميزة المنسوبة له تعالى، وهنا الكلام عن الأمور التي تثبت أنه سبحانه واحد وأرسل رسولاً، وأنه يوجد آخرة وحساب... وتثبت أنّ دينكم خطأ و... {فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ}، اعتمدت أنه تعالى يسيّر الأمور كما يجب، لأنّني أقوم بواجبي ومن بعد ذلك فالأمور بيده تعالى تسير على ما يراه سبحانه مناسباً، وهذا من جهتي.

أمّا من جهتكم: {فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ}، اتفقوا على الأمر على موضوع محدّد، وفكروا بكل الموضوع من كل النواحي وادرسوه جيداً، {وَشُرَكَاءَكُمْ}، والذين تقولون عنهم إنّهم آلهة وأنكم تعبدونهم وأنهم يهتمون لأمركم، فإذا كان هناك مجال وإمكانية تواصل معهم فليشتركوا معكم في جمع أمركم في الدراسة والتفكير.

{ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً}، لأنّ هذا الأمر، وهذا الموضوع حول كوني رسولاً منه تعالى، وما أذكّركم به والذي يسبّب لكم الغمّة، وتصيرون مغمومين وتشعرون بالثقل المعنوي المزعج من شيء له أثر سيئ عليكم، وبعد أن تجمعوا أمركم، وبعد دراسة الموضوع من المفروض أن تخرجوا بنتيجة واضحة تزيل هذا الغمّ عن بالكم.

{ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ}، وخذوا قراراً حاسماً لا تراجع عنه، وأخبروني بماذا خرجتم بأي نتيجة من بعد التفكير والدراسة، {وَلَا تُنْظِرُونِ}، ولا تتركوني آخذ مهلة، وحالما تخرجون بنتيجة تريحكم مباشرةً تعالوا وقولوها لي.

بعبارة أخرى، اختصرت الآية ما سبق وورد في السورة من كلام النبي محمّد (ع) عبر هذا القرآن مع قومه حول فساد الشرك والتهديد بالعقاب عليه... على أساس أن نفس الكلام قاله النبي نوح (ع) لقومه، وجاءت من الآخر لتنقل نهاية كلام النبي نوح (ع) معهم: فالأمر الذي يزعجكم، وهو وجودي بينكم وتذكيري لكم بآيات الله تعالى، وها بيّنت لكم كل شيء، ولم تؤمنوا بما أقول وأيضاً لم تبيّنوا صحّة شرككم! لنجد حلاً، وهو التالي: اجمعوا أمركم وضعوا كل ما أقوله وكل ما تقولونه على نفس الطاولة، وادرسوه وفكّروا فيه، حتى ننتهي مما يسبّب لكم الغم والهمّ من الاشتباه والشك ومن معارضتي لكم، ومن نقلي لكم التهديد بالعذاب على دينكم... وخذوا قراراً واحداً محدداً بعد انتهائكم من دراسة الموضوع، وكما أنا توكلت على إلهي الله تعالى، فأنتم اطلبوا المساعدة من شركائكم الذين تقولون عنهم إنّهم آلهتكم، وفكروا جيداً، واخرجوا بالنتيجة التي تشعرون أنها تريحكم من الشكوك والتفكير المشوش، ومباشرة أخبروني بالنتيجة.

تلاحظ دائماً اختيار القرآن للنبي نوح (ع) كنموذج يطرحه بسبب البعد بآلاف السنين عنّا، ليشير القرآن بذلك إلى امتداد دينه تعالى وامتداد سلسلة رسله عبر التاريخ، وهذا شيء ركّز عليه القرآن كثيراً كدليل يلفت الانتباه لكل الأديان الأخرى التي لا امتداد تاريخيّاً لها كالامتداد التاريخي السحيق لآلاف من السنين لدينه تعالى، حيث اخترع قوم النبي نوح (ع) عبادة {يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا}، كما ورد في الآية 23 من سورة نوح، وقبلهم لم تكن تلك الآلهة معروفة ولم يعبدها أحد، وبعدهم لم تعد تلك الآلهة معروفة ولم يعبدها أحد، فمن الواضح أنّها آلهة من اختراعهم، ونفس الشيء آلهة الآخرين، إلا الله تعالى، حيث من أوّل ما تأهّل من البشر واحد فيه قابلية التكليف بدينه تعالى، من آدم (ع)، بدأ دينه تعالى بين الناس، واستمر عبر رسل وكتب منه تعالى.

ضع في بالك أنّ العرب حين نزول القرآن لم يكونوا يستعملون كلمة "مقام مقامي" على معنى مكانتي، قيمتي، مركزي... بشكل صريح مباشرٍ، ولا على معنى تقدير القيمة "بتصريف تقييم" ولا على معنى المسؤولية "بتصريف قيّم"... ولا على معنى المكان أو كاسم مكان، ودرج فيما بعد استعمال هذه الاشتقاقات بهذه المعاني. ولم يستعمل القرآن كلمة "قوم" واشتقاقاتها إلا بمعناها كما كان يستعملها العرب حين نزوله: حيث أقوم بعمل ما، وضعي حين أكون مفعّلاً... ما أقوم به من أعمال في مكان ما... والمعنى الجامع لمختلف الاستعمالات: الكون مفعّلاً على ما هو محمود. وكما ترى، عمليّاً هذا المعنى سيأخذك إلى الاشتقاقات بالمعاني التي درجت بين الناس، فتصير الكلمة مشيرة لمكان أو قيمة أو مسؤولية...

ما هو دارج عن معنى كلمة "قيّم، قيمة، مقام" كتقدير للشيء، "قيمته عالية"، فهو من مشتقات معنى الكلمة وليس معناها الصريح، فإلى حين نزول القرآن لم أجد في أشعار العرب "قبل الإسلام" أي استعمال لهذه الكلمة بهذا المعنى الصريح الذي نعرفه الآن، بل معناها مثل ما تفهمه الآن عندما تقول: تقويم الأسنان، فهذا لا يعني جعلها كلّها متشابهة بالطول أو الانحراف، بل جعلها مفعّلة على الأحسن المناسب، والدين القيم، ديناً قيّماً... وصف للتفعيل الذي على الأحسن المناسب. ومن مشتقات المعنى أنّ له قيمة عالية ولكنه ليس أصل معنى الكلمة.

(فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ{72})

{فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ}، حيث اتجهتم باتجاه آخر، وتركتم ما أقول من دون أن تقوموا بدراسته والتفكير فيه، {فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ}، حيث لم أُعَبِّرْ لكم عن إرادتي للحصول على أجر منكم، على شيء له قيمة أستحقه منكم، وفي السابق والآن لم أطلب مالاً أو أي شيء على أساس أنّي أستحقّه على نقلي للرسالة الإلهية لكم، {إِنْ أَجْرِيَ}، وهو فقط ما أحصل عليه مقابل عملي كرسول إلهي، {إِلَّا عَلَى اللَّهِ}، فما أستحقّه على عملي كرسول حدّده تعالى وأنا هدفي ذلك الأجر.

قد يكون من أسباب رفضكم لكلامي أنّي طلبت منكم مالاً أو أرضاً أو قصراً... فشكّكتم في صحة كلامي واتهمتموني بأنّي لدي مصالح شخصية، وكذبت وقلت بأنّي رسولٌ حتى أحصل على مالكم وأملاككم... ولكنكم تعلمون أنّي لم أطلب منكم أي أجار، وهذا الكلام اختصار لكل ما يمكن أن يخطر ببالهم عن كون النبي نوح (ع) لديه مصلحة شخصية منهم ولذلك اخترع ديناً وعرضه عليهم ليصير هو المصدر لدينهم وهم أتباعه ويترأس عليهم...

{وَأُمِرْتُ}، حيث وصلني أمر منه تعالى، {أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}، أن أكون من المنقادين الذين يسلّمون أمورهم كلها لله سبحانه، لأنّ كوني رسولاً لا يجعلني ملكاً أو رئيساً عليكم، وأنا مثلي مثلكم مأمور بالانضمام إلى الذين أسلموا له تعالى. يعني كلّنا تحت نفس المظلة ولست متميزاً عنكم إن صرنا كلنا مسلمين، لأنّ كلّنا يحكمنا شيء واحد وهو الانضمام للانقياد له تعالى، للإيمان به وعمل الصالحات...

ضع في بالك دائماً أنّ كلمة "سأل"، معناها الأساسي هو المرادف تقريباً لمعنى كلمة "طلب" المستعملة حالياً، ولم يستعمل القرآن كلمة "طلب" بالمعنى الدارج حالياً واستعمل بدلاً منها كلمة "سأل" التي هي لعامّة إرادة شخص لشيء ما من شخص آخر، سواء أراد جواباً أو أراد غرضاً أو مساعدة... وعلى هذا، فجملة: ما سألتكم من أجر، تعادل قولنا العامي الدارج: لم أطلب منكم أجاراً.

(فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ{73})

{فَكَذَّبُوهُ}، حيث لم يصدّقوا ما قاله النبي نوح (ع)، فلو درسوا ما قاله (ع) بعقلانية لآمنوا به ولكنهم أصروا على تكذيبه (ع)، {فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ}، حيث خلصناه (ع) من الخطر قبل أن يطاله هو ومن معه من المؤمنين الذين ركبوا في الشيء الذي يعوم على الماء، في السفينة، {وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ}، وهؤلاء المؤمنون الذين نجوا من الطوفان جعلهم سبحانه خلائف أي يخلفون على الأرض، فمات قومهم المشركون وَبَقِيَ بعدهم "خلفهم" المؤمنون ليكونوا على الأرض.

{وَأَغْرَقْنَا}، وجعلنا تحت الماء، وأمتنا "اختناقا" بالماء، {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}، الذين قالوا عن الأمور المميّزة بمستواها الإلهي والمنسوبة له تعالى إنّها غير صحيحة ولا صادقة.

{فَانْظُرْ}، وَوَجِّهْ اهتمامك العام أيها النبي محمد (ع) ومن يسمع هذا الكلام، كما نقول بالعامية: شوف. التفت، {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ}، وانظر إلى ما عَقَبَ إلى ما أَتَى إلى الذين وصلهم الخبر عن شيء سيّء قادم حتما بسبب توافر شروط حصوله، حيث كانوا مشركين وهذا عليه عقاب وأنذرهم النبي نوح (ع) من العقاب ولكنهم لم يصدقوه، فكانت النتيجة: نزول العذاب، وغرق كل المشركين.

انتهينا من موجز عن قصة النبي نوح (ع) مع قومه المشركين، وكانت الغاية منها لفت الانتباه لنهاية المشركين الذين يقرر الله سبحانه تعذيبهم في الدنيا. وبمقارنة هذا المختصر الذي اختارته السورة مع ما سيأتي من نماذج أخرى ستذكرها السورة عن فرعون وقوم النبي يونس (ع)، فالسورة ستريك أنّ قوم النبي نوح (ع) كان أمامهم فلك "سفينة" حتى ينجوا من الطوفان، ولكن فقط وفقط المؤمنون ركبوا في السفينة والبقية ولآخر لحظة لم يتراجعوا عن شركهم ولم يفكّروا بركوب السفينة وماتوا غَرَقاً... وهذا في مقابل فرعون الذي أثناء غرقه أعلن إيمانه ولكن بعدما فات الأوان... وفي مقابل قوم النبي يونس (ع) الذين آمنوا قبل وقوع العذاب.

ضع هذا في بالك ليكون لك نموذجاً لفهم بقية سور القرآن التي تراها تعيد ذكر قوم النبي نوح (ع) وعاد وثمود وفرعون ومدين... حيث في كل مرة تركّز كل سورة على ناحية محدّدة من قصصهم والتي تناسب موضوع السورة.

بقي سؤال: هل كل كارثة طبيعية هي تعذيب لقوم فكرهم منحرف أو عملهم سيّء؟ من القرآن نفهم أن هذا جزئياً صحيح، لأننا نجد في القرآن تأكيداً على سلامة المجتمع المؤمن "الحقيقي" من كل الكوارث، كما ورد في الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، وهذا يعني أنّه تعالى يتدخّل لتغيير مجريات الأحداث لإبعاد الكوارث عن المؤمنين الحقيقيين، ويترك الكوارث الطبيعية تصيب الآخرين. وفي بعض الحالات يتدخّل سبحانه لإحداث كارثة لمعاقبة مجرمين...

يتبادر إلى ذهننا السؤال الثاني: ما هي الأمور التي تسبب حصول الكارثة "العذاب الدنيوي"؟ من القرآن نعرف العديد من الأسباب، حيث لدينا نماذج متعددة، ولكن دراسة تلك النماذج يجب أن تكون متأنية جداً، فإذا أردنا تطبيقها على المجتمعات التي نعرفها، وحتى نعرف من ستحل بهم الكارثة، ومن سينجو، فإننا لا نستطيع، بسبب النقص في المعلومات عن تلك المجتمعات، حيث في حالة قوم النبي نوح (ع) نعرف "من القرآن" وصولهم لمرحلة أنّهم لن يؤمنوا

أبداً، وأكثر من ذلك، ونعرف من القرآن أنّه لن يكون من أولادهم ولا أولاد أولادهم مؤمنون، كما ورد في الآية 27 من سورة نوح {إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا}، ونعلم أنّهم كانوا أظلم وأطغى من عاد وثمود كما تقول الآية 52 من سورة النجم {وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى} حيث كانوا فاسدين فاعلين للسوء ومجرمين... وهذا هو الذي سبّب حصول كارثة أبادتهم كلهم، وهل المجتمع الذي نريد أن نعلم إن كان سيصيبه كارثة بسبب كفره، هل يمكننا أن نعلم أنّهم لن يكون منهم مؤمنون في المستقبل؟ لا، لا قدرة لنا على معرفة ذلك، وتلاحظ أنّ المشركين في عهد النبي محمد (ع) لم تحصل لهم كوارث عذاب مبيدة، وتلاحظ أنّ الكثيرين منهم أعلنوا إيمانهم فيما بعد، حتى أنّ دين الشرك انتهى بشكل شبه نهائي في جزيرة العرب، وفي مدة قصيرة جدا جدا، لا تتجاوز بضع سنوات من بعد وفاة النبي محمد (ع). هذه نقطة واحدة من أمور عديدة يجب معرفتها قبل الحكم على قوم كافرين بالعذاب سواء بتدخّل إلهي لإحداث كارثة أو عبر تركه تعالى للكوارث تحدث... ونحن أيضاً لا قدرة لنا على تقييم درجة سوء القوم، وسترى في المثال التالي أنّه ورغم كل ما كان يفعله فرعون سبحانه لم يقرّر إهلاكه إلى أن هو قرّر الدخول في الكارثة... وكما تعلم هناك منتمون لدينه تعالى فسدوا فجعلهم تعالى قردة... وكما ترى لا قدرة لدينا على معرفة من يستحق التدخل الإلهي لمصلحته ومن يستحق التدخل الإلهي لإهلاكه...

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلوبِ الْمُعْتَدِينَ{74})

{ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا}، فأنهضنا من بعد النبي نوح(ع) من ينقل كلامنا، {إِلَىٰ قَوْمِهِمْ}، إلى أناس لهم كيان الجماعة والرسل ينتمون لجماعتهم، بعد الطوفان تكاثر عدد الناس وصاروا أقواما وجماعات منفصلة، ومن جديد صار منهم أقوام كافرون، ولم يكن فيهم رسل وأنهض تعالى فيهم رسلا كيونس وصالح وهود... عليهم السلام.

{فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ}، حيث جاء الرسل لأقوامهم بالأمور البيّنة الواضحة، التي تؤكد صحّة رسالتهم وصحّة توحيده تعالى... كالكتب والصحف النازلة وحيا منه تعالى، وكالأمور غير العادية "التي يسمّيها الناس بالمعجزات"... وعرضوها وتحدثوا بها مع قومهم.

{فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا}، لم ولن تجعلهم تلك البيّنات يعتقدون، {بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ}، فهؤلاء الأقوام الجدد يوجد بينهم أناس عقليتهم مثل عقلية الذين كانوا قبلهم من المشركين، مهما جاءهم من بيّنة فلن يؤمنوا.

{كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ}، وهكذا نخبرك بأن البيّنة لن تنفع المعتدين وهم الذين يتخطون حدودهم، من كان موصوفا بالاعتداء أينما كان وفي أي زمان فهم نوعية واحدة مطبوع على قلبهم، لأن طبيعة الكفر مترسّخة في فكرهم ونفسيتهم. ومن المشتقات الدارجة من معنى الطبع أن تطبع يدك على الطين، أو تطبع على الشمع الذائب، ولكن من أشعار العرب قبل الإسلام ترى أن أصل المعنى هو الطبيعة، هو ما يصير عليه الشيء مترسّخا كصفة لا تنفصل عنه، مثلما نستعمل تعابير: طبيعته مسالم، طبيعته يحبّ القراءة...

نلاحظ شيئا، حيث إن الآية تقول بأن الهداية عبر الرسل والآيات لم تنفع مع الذين كفروا من الناس الجدد مثلما لم تنفع مع من كان قبلهم، وتنبّهك الآية أن العطل ليس بالرسل ولا بالآيات، فهي بيّنة، بل العطل في قلوب الذين طبيعتهم الكفر.

من عموم القرآن تعلم بوجود أناس يتخذون قرارا عميقا بالكفر أو الشرك، مهما جاءهم من رسول، ومهما حاورهم وحاول إقناعهم، ومهما كان كلامه منطقيا وواضحا، فلا فائدة معهم. وهؤلاء بسبب قرارهم القوي بالمعاندة للحقّ وفعلهم للسوء يترك سبحانه قلوبهم تنطبع، وتتخذ شكلا "طريقة في التفكير والنفسية" لا يتغير وهو شكل "طبيعة" الكفر وإنكار الحقيقة الواضحة، فصمّمنا سبحانه "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا بحيث إذا تدربنا على الركض، نركض لدقائق عدة أيام، وبعدها سنتمكن من الركض لنصف ساعة، وبعدها نركض لساعة وأكثر... وقلبنا أي أساس تفكيرنا ونفسيتنا، كلما درّبناه على التفكير والاعتقاد الباطل، على الكذب ورفض الحقّ، صار منطبعا على ما درّبناه عليه، ومع كثرة التكرار والتمرين يتغير قلبنا أكثر فأكثر حتى يصير مطبوعا على ما دربناه وكرّرناه، وهكذا صمّمنا وخلقنا سبحانه ولذلك يقول لنا إنه سبحانه طبع على قلوبهم.

لو كررت لك، خلقنا الله سبحانه هكذا: نتعود على الإيمان والصدق واحترام الآخرين و... ومع الوقت نصير مؤمنين أكثر فأكثر...

نتعود على السوء من الكذب وإهانة الآخرين واغتيابهم والغشّ... ومع الوقت يتعمّق السوء والعطل ونصير كفارا ومشركين...

ننتبه إلى أن القرآن لم يخبرنا عن تاريخ حدوث الطوفان في زمن النبي نوح(ع)، لذلك لا نعرف متى حصل، ولا نعرف عدد الناس الذين كانوا في زمنه، ولسنا متأكدين من المنطقة التي حصل فيها الطوفان، ولا نعرف إن كان الطوفان قتل كل البشر على الأرض، أو فقط كان لمنطقة محصورة جغرافيا. ومعرفة كل هذا ليست شيئا أساسيا للموضوع الذي يطرحه القرآن، إنما التركيز في القصة المختصرة على مصير المشركين الذين جاءهم رسول، وأن آخرين لديهم نفس العقلية أتوا بعدهم... ومع جمع كلام السورة عن الأقوام الثلاثة قوم النبي نوح(ع) وقوم فرعون وقوم النبي يونس(ع)، ترى أنها تريدك رؤية رفض الناس لركوب السفينة وأن الكافرين عقلية واحدة على امتداد التاريخ، وحتى استئصال المجرمين في زمن ما، لن يغيّر في تاريخ البشرية الآتي، فهم سيتجددون...

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ{75})
{ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ}، أنهضنا من بعد النبي نوح(ع) عدداً من الرسل، كالنبي إبراهيم ويوسف... عليهم السلام، ثم أنهض سبحانه من بعدهم {مُوسَىٰ وَهَارُونَ}، بعثهما سبحانه {إِلَىٰ فِرْعَوْنَ}، وهذا ليس اسماً لشخص بل صفة لأعلى منصب في مصر في حينها، حيث في بلدان أخرى يقال لصفة أعلى منصب: رئيس، حاكم، زعيم، ملك، شاه... وحتى في تاريخ مصر القديمة لم يكن كل الذين تولّوا أعلى سلطة يحملون لقب فرعون، وترى ذلك من التاريخ، أشار القرآن بلقب الملك للحاكم المعاصر لزمن النبي يوسف(ع) كما ورد في الآية 43 من سورة يوسف {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ}...

بعث سبحانه النبيين إلى فرعون، إلى الحاكم في مصر في ذلك الزمن، {وَمَلَئِهِ}، وإلى الجماعة المشاركة في الحكم والاستشارات، وإلى الوجهاء وأصحاب النفوذ والسلطة مع فرعون.

بعثهما تعالى {بِآيَاتِنَا}، بالأمور المميزة بمستواها الإلهي والمنسوبة له تعالى، وهي الأمور التي تدل وتؤكّد على صحّة إرسالهما منه تعالى، بالتالي ما يقولانه وهو معارض لدين وشريعة فرعون وملئه إنما يقولانه نقلاً عنه تعالى...

{فَاسْتَكْبَرُوا}، حيث رأى فرعون وملؤه أنفسهم أكبر من الإيمان بالله عز وجل وبرسله وبدينه وشريعته، {وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ}، كانوا أناساً لهم كيان الجماعة، ومرتكبين للجرائم، يقومون بأعمال يستحقون العقاب عليها. نعرف من آيات أخرى أنهم كانوا مشركين وفارضين لدينهم على الذين تحت سلطتهم، وكانوا يضطهدون بقية المواطنين من غير ملّتهم...

نلاحظ من هنا أنَّ الآيات لم تتحدث بالتفصيل عن قصة النبي موسى(ع)، بل ركزت على حادثة تحويل العصا إلى حية، ونلاحظ أنها تتحدث معنا وتعتبر أننا نعرف مسبقاً تفاصيل عن الحادثة، حيث تم ذكرها في السور التي نزلت على النبي محمد(ع) قبل سورتنا هذه. سنحاول أن نفهم ما هي النقاط التي تريدنا الآيات الالتفات إليها عندما اختارت جوانب محدّدة من هذه القصّة، فلنتابع:

(فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَـذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ{76})
{فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ}، جاء لفرعون وقومه الصواب والأمور الصحيحة، {مِنْ عِنْدِنَا}، من عنده تعالى، وكان من المفروض أن يؤمنوا لأنها أمور من الإله سبحانه، ولكنهم كفروا ولا حجّة لديهم ولم يستطيعوا الردّ على النبيين والآيات بالعقل والمنطق {قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ}، بشكل واضح موسى وهارون يعرضان علينا شيئا غير حقيقي ويتلاعبان بعقولنا ليقنعونا بما يقولانه وهو غير حقيقي.

ضع في بالك دائما أن السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شيئا غير حقيقي أنه حقيقي. الساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد أنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع

أنها لم تختف، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر والذي تراه صريحا في الآية 66 من سورة طه {قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ}. وما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، هذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية إنها سحر، كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

ننتبه لتكرار القرآن عدة مرّات الاتهام للرسل بالسحر، وهذا الاتهام بكلمة سحر لم يعد دارجا كثيرا في عصرنا من الكافرين بالدين الإلهي، ولكن تسمع المرادف لها والذي يعطي نفس المعنى، فيقولون إنَّ الدين للبسطاء، وهذا معناه أن البسطاء ينخدعون بالكلام الديني الخرافي ليروه حقيقة، ولغويا هذا هو معنى كلمة سحر.

إذن نحن أمام شيء جاءهم منه سبحانه وتعالى وهم بكل بساطة يقولون إنه سحر! وهكذا لا يرون أنفسهم مضطرين لأي كلام عقلاني للرد على الآيات... لأنها سحر وانتهى الموضوع.

(قَالَ مُوسَى أَتقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَـذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ{77})
{قَالَ}، النبي موسى(ع): {أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ}، عندما وصل إليكم الشيء الصحيح تقولون: {أَسِحْرٌ هَـٰذَا}؟ ويعلّق النبي موسى على قولهم: {وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ}. لم تجدوا ولا أي ردّ إلا اتهامي بالسحر، ولو كان هذا الاتهام صحيحاً فلن أفلح ولن أكون مجيداً مُصِيباً فيما أفعله لأن السحرة لا تستمر خدعتهم، حيث سيأتي شخص ويكشف سرّ السحر ويفضحه، أو سيأتي شخص آخر ويقوم بالسحر نفسه.

بعبارة أخرى، قال فرعون وملؤه إنَّ الموضوع الذي يطرحه النبي موسى(ع) عن العقيدة والشريعة... لا يستحقّ النظر فيه لأنَّ حجم النبي موسى(ع) حجم ساحر حوّل العصا لحيَّةٍ بخدعة، وبهذه الخدعة يضحك علينا ليقول إنَّه رسول من الإله، فيعلّق النبي (ع) على كلامهم بأن الساحر نهايته معروفة، حيث سيأتي ساحر آخر يقوم بالخدعة نفسها ويتبين أنها لم تكن دليلاً حقيقياً... ومعلوم لك أنهم حاولوا إثبات اتهامهم للنبي موسى(ع) بأنه ساحر حين أحضروا سحرة لتقليد تحويل العصا لحيَّةٍ...

ننتبه جيدا جدا، حيث إنَّ كثيراً من الناس عبر التاريخ اشترطوا أن يروا آية حتى يؤمنوا، وحتى المؤمنين تجد الكثير منهم يتمنّى لو يرى آية ليزيد إيمانه وتذهب شكوكه... ولهذا كرّر القرآن لنا مرارا حادثة فرعون وقومه، وثمود والناقة، والنبي نوح(ع) المعلوم عمره الطويل... لنرى أن الآية "من النوع الذي يُسَمِّيهِ الناس بالمعجزة" ومهما كان نوعها فهي لا تقدّم ولا تؤخّر ولا تغيّر في إيمان الناس، وسترى في نموذج السحرة الذين أعلنوا إيمانهم أنهم من قبل كانوا مؤمنين ومكبوتين تحت حكم فرعون، وحين رأوا آية العصا أعلنوا إيمانهم بها بلا تردّد...

يعني هو الإنسان يكون مُتَفَكِّراً في آيات خلقه وما حوله من مخلوقات وظواهر، ومُتَفَكِّراً في أحوال الناس، ويصل إلى نتيجة يعتمدها في حياته، فإما يكون مَيَّالاً للحقّ والصلاح، وإمّا مَيَّالاً للكذب والسوء، وحين تأتيه الآيات "من النوع الذي يسميه الناس معجزة" كتحوّل العصا لحيَّةٍ، فلن يتغير حاله إن كان بالأساس ميله للكفر أكثر من ميله للحقّ، وسيزيد هداه من الآية إن كان ميله للحقّ أكثر من ميله للباطل، لأنه بالأساس يكون مؤمنا أو عنده درجة عالية من قابلية الإيمان، فهذه الآية تساعده لتزيد من هداه.

(قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ{78})
{قَالُوا} للنبي موسى(ع): {أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا}، هل أتيت لنلتفت إليك ونُدير اهتمامنا إليك ولا نهتم ولا نلتفت إلى الذي وجدنا عليه آباءنا، نحن فتحنا أعيننا على الحياة ووجدنا أهلنا على هذا الدين، أهلنا كلهم على خطأ وأنت معك حق؟! وبكل سهولة نترك ما اعتدنا عليه وتربينا عليه لنتبع كلامك؟! و{تَكُونَ لَكُمَا}، أنت وأخوك، {الْكِبْرِيَاءُ فِي

الْأَرْضِ}، وتكونان أكبر من كل الآخرين، ونسمع كلامكما ونطيعه وتستلمان الحكم بدلاً منا، وتحكمان على الآخرين حتى علينا؟

{وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ}، ما تقولانه عن كونكما رسولَيْنِ من الإله هو حيلة مكشوفة مفضوحة ولن تنطلي علينا وتخدعنا لنصير من أتباعكما ونطيعكما، لذلك لن نعتقد بأنكما رسولان ولن نعتقد بما تقولانه. تتذكّر ما قالوه سابقا: أنت ساحر ولن تخدعنا ولن نؤمن بما تقول... وهدفك واضح لأنك تريد إزاحتنا عن الحكم لتسيطر أنت وأخوك على المملكة التي نحن أسّسناها...

ننتبه جيدا، الثري عندما تحترمه أو تكرمه أو تلاطفه فأول ما يخطر بباله أنك تريد شيئا من ماله، ومصلحتك للأخذ من ماله هي الدافع للطافتك معه، وهنا الكلام نفس الشيء، فرعون وملؤه مسيطرون حاكمون على كل الأرض التي طالتها جيوشهم، وأي شيء يحصل معهم، فأوّل ما يفكرون به هو الخطر على حكمهم، ولم يستطيعوا أن يروا فيما يعرضه النبي موسى(ع) إلا التهديد لحكومتهم، لا الحقّ ولا الباطل ولا الإله ولا العقاب الإلهي... ولا أي شيء تمكّن من التقدم ليصير من أولويات اهتماماتهم، فقط الخوف من خسارة السلطة كان همّهم. حتى كل كلام النبي موسى(ع) عن هدفه الوحيد بإخراج بني إسرائيل من مصر لم يقنعهم ولا بأي شكل أنه هدفه، وأصروا لآخر لحظة على أنه (ع) تهديد لسلطتهم.

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ{79})
دارت جدالات ونقاشات ... ووصلت لنقطة يريد بها فرعون إثبات أن النبي موسى(ع) ساحر.

{وَقَالَ فِرْعَوْنُ}، لمن حوله من أعوان: {ائْتُونِي}، اذهبوا وارجعوا، {بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ}، أحضروا لي أقوى وأمهر السحرة الذين لديهم علم تام بفنون السحر.

نتذكر أن الآيات هنا تختصر ما جرى، وتريد التركيز على موضوع: رسولان أرسلهما سبحانه بالآيات ولم يؤمن فرعون وملؤه... فأهلكهم سبحانه، والتركيز هنا على العذاب في الدنيا الذي سيأتي ذكره في نهاية القصة، وتشحنك الآيات بصورة المعاندة الشديدة التي أبداها فرعون للآيات الإلهية التي تَأَكَّدَ أنها صحيحة... وفي النهاية حين أيقن بالموت أعلن إيمانه!

أرسل فرعون رسله ليجلبوا له السحرة البارعين من كل المدن، ليصنعوا سحرا تتحوّل فيه العصا أو أي خشبة أو حبل... تتحول إلى حية، ليبرهن أن النبي موسى(ع) ساحر وليس رسولا منه تعالى.

(فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُواْ مَا أَنتُم مُّلْقُونَ{80})
بعد مرور عدة أيام أو أسابيع، وعند حلول الموعد للقاء النبي موسى(ع) بالسحرة الذين جاؤوا من أماكن عديدة...

{فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ}، واجتمعوا في ساحة كبيرة والناس متجمهرة وتشاهد التحدّي كما تعلم من العديد من آيات القرآن، منها الآية 59 من سورة طه {قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى}، وفي يوم العيد قال النبي موسى(ع) للسحرة أمام الجماهير: {أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ}، ارموا الذي تنوون رميه، هيا أرونا ما حضرتموه للتحدّي، حيث وعدكم فرعون بالمال الكثير إذا رميتم خشبة أو عصا وتحولت إلى حية، وتقرأ ذلك في الآية 41 من سورة الشعراء {فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ}.

(فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ{81})
{فَلَمَّا أَلْقَوْا}، عندما رموا الحبال والعصي التي صنعوها بطريقة تجعلها تبدو فعلا كأنها حيّات.

قال لهم النبي موسى(ع): {مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ}، هذا الذي تفعلونه هو السحر وليس حقيقة وهو خدعة ولم تتحوّل العصي والحبال فعلا إلى حيوان من لحم ودم، {إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ}، فسبحانه لن يتركه يعمل ويؤثّر على عقول الناس ليخدعهم، وسيبيّن سبحانه أن سحركم مختلف عن الحقيقة التي أعرضها أنا عليكم.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ}، الناس الذين يفسدون هم الذين يخربون، وهنا الكلام عن تخريبهم لعقول غيرهم عبر الخدعة، مثلما يفعل هؤلاء السحرة الذين يحاولون إقناع الناس أن النبي موسى(ع) ليس رسولا منه تعالى، فهؤلاء السحرة عملهم مفسد ولن يصلحه تعالى ولن يؤيده ولن يجعله ينجح.

(وَيُحِقُّ اللّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ{82})
عمل السحر الفاسد سيبطله ولن يصلحه سبحانه، في المقابل:

{وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ}، فيجعل ما هو حقيقي وصحيح مُتَنَجِّزاً حاصلاً وواضحاً، {بِكَلِمَاتِهِ}، فأساس الخلاف ليس على من سحره أقوى، بل هناك كلام إلهي وآية تحوّل العصا إلى حيّة تدعم صحّة كوني رسولاً ناقلاً للكلام الإلهي، ومهما فعلتم فكلامه تعالى سيبقى ظاهراً واضحاً متحققاً أنه حقّ صحيح.

{وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}، فالناس الذين يقومون بأعمال سيئة ويستحقون العقاب عليها، حتى لو كرهوا ولم يريدوا أن يظهر الحق وينجح، فسبحانه يغلبهم، وما يريده سبحانه سيحصل في النهاية.

بعبارة أخرى: أنا رسول منه تعالى ناقل لكلامه لكم، حيث زوّدني سبحانه بآية تبين لكم أني رسول منه، فتتحول الخشبة إلى حيوان بلمحة، فإن كنتم قادرين على سحر الناس ليروا أنكم حوّلتم العصا لحيّة، فأنا متأكّد أنه تعالى الذي زودّني بهذه الآية لن يترككم تخدعون الناس وتجعلوني أبدو ساحراً كواحد مثلكم، بل لا بدّ أن يظهر الفرق بين آيتي وسحركم حتى يظهر أن كلامه تعالى هو الحقّ.

تعلم من آيات أخرى من القرآن، أنه عندما قام السحرة برمي الحبال والعصي التي حضّروها حتى يظن من يراها أنها حيّات تتحرك، قام النبي موسى(ع) برمي عصاه على الأرض، وتحولت لثعبان، وهجم على الحبال والعصي وتلقفها، فالتقطها بفمه وتعطّلت ميكانيكية سحرها وبانت بوضوح أنها حبال وعصي ولم تتحوّل فعلا لحيّات... وهكذا تبيّن أن آية النبي(ع) ثعبان حقيقي وليس كذبة.

كما تلاحظ، اختصرت الآيات القصّة لأنها معروفة ومشروحة في سور أخرى، ولكنها لفتت انتباهنا لهذه الآية الواضحة التي شاهدها مئات "وربما" آلاف الناس الذين كانوا متجمهرين ليروا التحدّي، فهل آمنوا؟:

(فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ{83})
رغم كل ما حصل، ورغم الحادثة العظيمة حيث لقفت الحية ما صنعه السحرة... أمام حشود الناس...

{فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ}، لم يعلن اعتقاده بكون النبي موسى (ع) رسولاً منه تعالى، {إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ}، فقومه وهم الناس الذين لهم كيان الجماعة وينتمي(ع) إلى جماعتهم هم: فرعون وأقاربه، وبقية سكان مصر الأصليين، مع القبائل التي كانت تعيش هناك، والعبيد، وبنو إسرائيل، ولم يؤمن له(ع) إلا ذرية من قومه، مجموعة من الناس مشتركة فيما بينها من مصدر توالدها، مجموعة متوالدة من والد واحد، وكما يبدو من الكلام أنَّ الذين آمنوا هم فقط مجموعة من بني إسرائيل من المنتسبين للنبي يعقوب(ع).

السحرة آمنوا كما تعلم من الآية 70 من سورة طه {فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ}، وبنو إسرائيل لم يؤمنوا كلّهم كما تقول الآية هنا، وبقية الناس من المصريين والعبيد... الذين رأوا الحدث، لم يؤمنوا. أمّا من خارج هذا الحدث، فزوجة فرعون كانت مؤمنة من قبل، وهناك شخص من آل فرعون أيضاً كان مؤمناً يكتم إيمانه.

نتذكر نبذة من قصة بني إسرائيل، عندما صار النبي يوسف(ع) ابن النبي يعقوب(ع) "إسرائيل" نائباً لحاكم مصر، وفي حينها كان الحاكم مَلِكاً، وانتشر دين التوحيد... عندها أحضر النبي يوسف(ع) أقاربه من أرض كنعان ليسكنوا في مصر، وذهب معهم والده النبي يعقوب(ع) والذي يسمى أيضاً إسرائيل، حيث ذهب مع أبنائه وأبنائهم إلى مصر، وعاشوا هناك وكثر عددهم، ومات النبي يوسف(ع) وبعدها بعدة سنين حصل انقلاب في الحكم، وسيطر على مصر أناس آخرون، وأعادوا الناس إلى عبادة الأصنام وغيرها، وتغيّر لقب الحاكم من الملك إلى الفرعون، وفي ذلك دلالة

واضحة على استلام المشركين للسلطة لأنه وكما يبدو من الآثار فإنَّ كلمة فرعون لها دلالة ارتباط بالشرك لأنها تشير ضمناً لشيء من ألوهية الحاكم... وصار بنو إسرائيل يعيشون كمواطنين من الدرجة الثانية وكالعبيد... وبعد العديد من السنين أرسل سبحانه النبي موسى(ع) ليدعو الناس كلهم إلى الدين الحق... وحصل ما حصل من عرض للآيات... ولم يؤمن القوم إلّا بنو إسرائيل...

كما ترى أنَّ دعوة النبي موسى(ع) الناس للإيمان كانت موجّهة للجميع، لكل أهل مصر ولكل من يصله الكلام، ولم يكن له (ع) أي شغل معهم إن آمنوا أم لم يؤمنوا، حيث أمره تعالى فقط أن يخرج بني إسرائيل من مصر، ولإقناع فرعون بتركهم يخرجون زوَّد سبحانه نبيّه(ع) موسى بآيات تثبت أنه رسول منه تعالى... ومراراً وتكراراً وبكل الطرق برهن لهم النبي موسى(ع) أنه لا يهدّد الحكم المصري...

لِنَعُد للآية، {فَمَا آمَنَ... إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ}(ع)، {عَلَىٰ خَوْفٍ}، على شعور بخطر ضرر أكيد عليهم، {مِّن فِرْعَوْنَ}، من جهة ومن جهة ثانية حيث آمنوا على خوف، {وَمَلَئِهِمْ}، أي من النافذين والوجهاء من بني إسرائيل الذين لم يؤمنوا بالنبي موسى(ع) كقارون.

الذين آمنوا يخافون فرعون ومن الوجهاء من بني إسرائيل الذين لم يؤمنوا أن موسى(ع) رسول، خافوا، {أَن يَفْتِنَهُمْ}، فإذا أخذ فرعون قراراً بتعذيب أو سجن أو قتل من آمن فهذه فتنة، وهذا شيء سيتعرضون له ويجعلهم يتغيّرون ويتركون إيمانهم، وهناك وجهاء من بني إسرائيل سيقومون بمساعدة فرعون على إيذاء من يعرفون أنه آمن.

هذا الخوف له سبب وجيه: {وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ}، له أعلى سلطة، وأوامره مطاعة ويتم تنفيذها، فلو قرر تعذيبهم أو قتلهم سَيُنَفَّذ قوله، {وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ}، وهنا الكلام عن إسرافه في علوّه وسلطته واستعمالها بشكل زائد لدرجة استهتاره بأرواح الناس وأمره بقتل من يشاء منهم.

لاحظ أهمية هذه النقطة، قارون كان من قوم النبي موسى(ع) يعني كان من بني إسرائيل كما هو واضح من الآية 76 من سورة القصص {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ...}، وقارون من الملأ، أي من الوجهاء التابعين لفرعون، ويبدو من الآية هنا أنه كان يوجد وجهاء غيره، أقل منه أو مشابهون له في القيمة المعنوية، وبنو إسرائيل وضمن مجتمعهم كان هناك وجهاء موالون لفرعون ومتعاونون معه ضد قومهم، وهذا يجعل حياة بني إسرائيل أصعب حيث يوجد من الداخل ومن طبقة الوجهاء أعداء لهم إن آمنوا بموسى(ع).

(وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ{84})
{وَقَالَ مُوسَىٰ}، للذين آمنوا بعد رؤيته لخوفهم مما سيتعرضون له:

{يَا قَوْمِ}، يا جماعة الناس التي أنتمي لجماعتها، {إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ}، وصرتم فعلاً في حالة الاعتقاد به تعالى إلهاً واحداً أحداً، {فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا}، فآمنوا أنه تعالى سيسيّر الأمور كما يراه مناسباً لكم، {إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ}، إن كنتم فعلاً منقادين مطيعين لله سبحانه.

بعبارة أخرى: إن كنتم فعلاً آمنتم وأسلمتم في كل أموركم لله تعالى، فهذا يجب أن ينتج عنه توكّلكم عليه تعالى، وهو اعتقادكم بأنه تعالى لن يترككم وسيقوم بتحقيق ما هو مناسب لكم.

الكلام هنا يأخذنا لعمق نتيجة إيمان حقيقي لجماعة، فإن آمنوا والتزموا بكلامه تعالى، فسيتدخّل سبحانه بما يراه مناسباً، فإن كان النصر مناسباً لهم فسيحصل...

(فَقَالُواْ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{85})
الوضع الذي يعيش فيه المؤمنون كالتالي: حاكم شديد الظلم، يأمر بقتل الأبرياء ولا أحد يمكنه منعه أو محاسبته... ومعه أتباع وجنود يطيعونه ومستعدون لفعل أي شيء لإرضائه، وأتباعه أيضاً لا يحبون المؤمنين وليس لديهم شفقة أو رحمة بهم... هذا من جهة، ومن جهة ثانية المؤمنون ضعفاء، وعددهم قليل، وليس معهم أسلحة، وهم أصلاً ليسوا مدربين على القتال... ووجهاء قومهم أيضاً ضدّهم مع فرعون.

قال الذين آمنوا الدعاء الرائع التالي:

{عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا}، حيث اعتقدنا أنه تعالى يكفلنا ويرعانا وسيفعل ما يناسب لنا.

{رَبَّنَا}، المسؤول عنا من مستوى إلهي، {لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}، فهناك جماعة من الناس الذين لا يهمّهم الحق والعدل والإنصاف فهم ظالمون فلا تجعلنا كشيء يتعرّضون له ويغريهم ليقوموا بإجبارنا على الكفر.

تصور نفسك ضعيفاً أمام مجموعة مسلحة! هل يتركونك وهم قادرون على استغلالك أو استعبادك؟ فأنت فتنة لهم، لأنَّ ضعفك يغريهم حتى يستضعفوك، وهم لديهم القوة لفعل أي شيء بك، وهم في فتنة، فإمّا أن يتركوك، أو يظلموك فيستضعفوك. بنو إسرائيل هكذا كان وضعهم، حيث إنَّ ضعفهم يسبب الإغراء للظالمين حتى يعتدوا عليهم، وهم أصلاً يعيشون في هذه الحالة من الاستضعاف لدرجة قتل فرعون لمواليدهم الذكور مدةً بعد مدةٍ حتى لا يكثر عددهم ويشكّلوا قوّة قتالية تفوق قدرة قوات حفظ الأمن الفرعونية... الآن إيمانهم بالنبي موسى(ع) وكفرهم بدين فرعون جاء كسبب آخر للظالمين حتى يفعلوا بهم ما يشاؤون.

(وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ{86})
{وَنَجِّنَا}، خلّصنا من الخطر قبل وقوعنا فيه، {بِرَحْمَتِكَ}، بعنايتك لما فيه مصلحتنا، {مِنَ الْقَوْمِ}، من الناس الذين لهم كيان الجماعة، {الْكَافِرِينَ}، الناكرين لدينك ولرسولك.

من الواضح والأكيد أن هؤلاء الظالمين الكافرين سوف يؤذون بني إسرائيل، ويسألونه تعالى أن يرحمهم هنا في الدنيا ويساعدهم ويتدخل ويغيّر الحال الذي يعيشون فيه.

من المناسب هنا أن نضع في بالنا أن البلاءات العديدة التي أصابت فرعون وقومه من قمل وضفادع وقحط... كانت رداً إلهياً على استضعاف فرعون لبني إسرائيل، ومن المناسب أيضاً الالتفات إلى أنَّه تعالى لم يرد إهلاك فرعون وقومه، وأنه تعالى استنفد معهم كلّ الوسائل العادية التي من المفروض أن تقنعهم بترك بني إسرائيل، بل وزاد عليها سبحانه وجعل الأمور تطول عن قصد ليكونوا نموذجاً عن حلمه تعالى وعنادهم الأصلب من الحجارة، مع التأكيد المستمر بأن الرسول الإلهي ليس له أي هدف بتهديد سلطة الحكومة الفرعونية... وفقط يريد منهم ترك بني إسرائيل يرحلون عن مصر.

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ{87})
استجاب سبحانه للدعاء، وتدخّل:

{وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ}، أوصلنا إلى وعيه(ع) وإلى، {أَخِيهِ}، وعادة يشير القرآن إلى أخيه النبي هارون(ع)، {أَن تَبَوَّءَا}، فخذا مكان إقامة وسكن، {لِقَوْمِكُمَا}، للناس الذين لهم كيان الجماعة وأنتما من جماعتهم، لبني إسرائيل، {بِمِصْرَ}، في البلد الذي يسمّى مصر، واتخذوا لقومكما فيها، {بُيُوتًا}، أماكن للمبيت، لأنَّ خروجكم من مصر سيأخذ وقتاً طويلاً، فلا تتصرّفوا وكأنكم راحلون قريباً، {وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً}، فلتكن بيوتكم أماكن تقبلون فيها على شيء، وهنا المقصود أن يقبلوا على طاعته تعالى، وقيل أن يجعلوها بيوتا يقبلون فيها باتجاه بيت المقدس، مثلما نحن بيوتنا قبلة فنقبل فيها باتجاه مكّة، ولكن هذا لا يظهر بشكل حاسم من تعبير الآية ومن بقية الجملة، ولذلك فضّلنا تركها على عموم معنى الإقبال عليه تعالى بالعبادة من بيوتهم.

{وَأَقِيمُوا}، فعّلوا لا تعطّلوا، لا تتركوا أو تهملوا، {الصَّلَاةَ}، التوجّه والإقبال على شيء ما، وهذه الكلمة صارت مصطلحاً دينياً يشير للتوجُّهِ بالحركات والكلام المعروف بالصلاة الواجبة، وهي الفريضة الدينية التي نقيمها خمس مرات في اليوم وتعبر عن عبادتنا لله تعالى، علماً أن كلمة صلاة عمومية لأي توجّه وإقبال، عبادي أو غيره، ومن القرآن تعلم أن من سبقنا من المؤمنين كان لديهم صلاة من ركوع وسجود وقبلها وضوء... وترى ذلك في فيديوهات نادرة من تسعينات القرن العشرين لن تجدها بسهولة لبعض طوائف بني إسرائيل مثل طائفة السامريين المنتشرين في أوروبا الشرقية، يتوضؤون فيها مثلنا ويصلون مثلنا، وأمّا الفيديوهات المنتشرة لهم وهم يترنّحون أثناء تلاوة التوراة، ليست الصلاة الواجبة عندهم، بل صلواتهم بالأساس شبه التمام بالحركات والتوقيت من صلاتنا.

أوحينا إلى النبي موسى(ع) أن: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}، انقل الخبر السار للمعتقدين بدينه تعالى، والخبر السارّ هو بالطبع النجاة من فرعون وأنهم لن يكونوا فتنة له ولجنوده، هذا أولاً، وثانياً البشرى بأن لهم الجنة في الآخرة على إيمانهم وصبرهم.

الخروج من مصر سيستغرق وقتاً طويلاً، ولن يكون خلال أيام، وهذا ما حصل، حيث مضت السنوات، وحصلت فيها الآيات المتعددة من ضفادع وقمّل وسنين... وبعدها خرجوا من مصر... مرَّ معك أن سبب طول المدّة أنَّه تعالى أراد أن يبين للجميع أن فرعون وملأه طغاة وقلوبهم بصلابة الحجر أمام حلمه تعالى عليهم لسنين...

تلاحظ بشكل ما إعلان بني إسرائيل ضمناً الخروج من الاستضعاف وانفصالهم عن سلطة فرعون بانتظار السماح لهم بالمغادرة. في التوراة كلام عن تشكيلهم لقرية جديدة لهم بنوا فيها بيوتاً باستراتيجية دفاعية توقياً من أي هجوم فرعوني عليهم... بشكل ما يمكن تفسير جملة {وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً}... أنها تشير لبنائها بشكل متقابل حتى تشكّل دفاعاً... لكن يحتاج تطبيق ذلك الكلام التوراتي على آيتنا هنا إلى الكثير من الافتراضات التي ستشتقّها من كلمة "قبلة"... ولذلك اكتفينا بشرحها بأقل وأبسط ما تشير له معاني الكلمات.

(وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ{88})

{وَقَالَ مُوسَىٰ}: {رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ}، فصار عند فرعون والوجهاء والنافذين معه، {زِينَةً}، أشياء تجعلهم أجمل وأحسن، فثيابهم زينة فليست مجرد قماش يستر الجسد بل ناعمة وملونة ومفصّلة... وبيوتهم فاخرة... وأعطيتهم، {أَمْوَالًا}، فصار عندهم الكثير من الذهب والفضّة والمعادن الثمينة وما له قيمة... وأعطيتهم زينةً وأموالاً، {فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، هنا الآن، {رَبَّنَا لِيُضِلُّوا} "مبني للمجهول" عن {سَبِيلِكَ}، فأنت المسؤول من مستوى إلهي عنّا وكان قرارك بالثروة والرفاهية التي هم فيها ليجعلوا الآخرين لا يسلكون المسلك الذي يرضيك، فمن يراهم في زينة ومعهم مال وهم كفّار فسيقول: دينهم جيّد حيث أوصلهم إلى هذه الحالة من الرفاهية.

نكمل مع كلام النبي موسى(ع): {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ}، فأنت المسؤول عنّا من مستوى إلهي وبقرار منك أوصلهم إلى حالة تختفي فيها معالم وجود المال معهم، فيفقدونه ولا يَعُودُ له أثر معهم.

{وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ}، فاجعل أساس فكرهم ونفسيتهم مشدوداً لا يقبل الانفلات، وسياق الكلام عن التصاق الكفر بقلوبهم، {فَلَا يُؤْمِنُوا}، فلا يصيروا في حالة اعتقاد بدينك، {حَتَّىٰ يَرَوُا}، حتى يصير لديهم صورة محدّدة عن، {الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}، عن الضرر الذي يصيبهم والذي لا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه. وسترى الترجمة العملية لذلك في الآية بعد التالية حيث صار فرعون في حالة الغرق الأكيد وفي حالة من الرعب الشديد وعندها أعلن إيمانه.

هذا الدعاء من نوع الدعاء على الظالمين المجرمين، وصراحة نفهم منه أنه (ع) يطلب أن يصيبهم عذاب شديد يجعل فرعون وملأه يؤمنون في آخر لحظة قبل موتهم، وقبل ذلك فليكن قلبهم مشدوداً لا يقبل الانفلات من الكفر، وهذه حالة تعامله تعالى عادة مع الكفّار من العيار الثقيل المقطوع الأمل من تغيّرهم كما تقرأ في الآية 55 من سورة التوبة {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ}، وكما تقرأ من الآية 178 من سورة آل عمران {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}، فلو كان فيهم أمل ولو طفيفٌ فسبحانه سيعينهم حتى يتحسن حالهم الإيماني، ولكن الذين حالتهم مقطوع منها الأمل، فهم من بعد ذلك درجات نزولاً نحو أقصى الكفر، وسيسيّر سبحانه أمور ومجريات حياتهم ليوصلهم إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من الكفر كما هو واضح من الآية 178 من سورة آل عمران.

ننتبه لصياغة كلام النبي موسى(ع) مع قوله {رَبَّنَا} قبل كل جملة، حيث إنَّ ما يصفه من حال الكفّار من ثراء ورفاهية فإنَّه طبعاً بقرار منه تعالى حصل، فسبحانه المسيطر على كل المجريات، وهذا ما تعنيه كلمة "ربّ"، ولذلك ترى طلب النبي موسى(ع) أن يطمس سبحانه على أموالهم وأن يصلّب قلوبهم فلا يؤمنوا، تراه معروضاً كاقتراح عليه تعالى مع أدب التذكير دائماً بأنك أنت الربّ الذي ما جرى كان بسماح منك عن حكمة، وما سيجري فيما بعد فهو أيضاً بسماح منك وعن حكمة.

هؤلاء لم يؤمنوا بالآيات الإلهية التي كانت نوعاً خفيفاً من العذاب، فتعرضوا لفترة من القحط وفترة تحوّل الماء إلى دم وفترة انتشار الضفادع... وبقوا على كفرهم وبقوا متمتعين بالرفاهية والسلطة والمال، فالآخرون عندما يرون حالتهم هكذا سيقولون إنَّ كفرهم بدين موسى نتيجته الرفاهية، فلماذا نؤمن بدين موسى وها نحن نرى ديناً آخرَ نتيجته أفضل؟

هنا وصل النبي موسى(ع) إلى نتيجة، فإذا فقد فرعون وملؤه رفاهيتهم، وتعرّضوا لعذاب شديد يجعلهم يؤمنون بالدين الإلهي غصباً عنهم، فعندها ستنكسر صورة دينهم التي يراها الآخرون كسبب للرفاهية، ومضافاً لذلك كرهه الشديد للكافرين الظالمين المجرمين، لذلك يطلب إنزال أشدّ العقوبات بهم والتي يستحقّونها...

بعبارة أخرى نتعلّم منها الكثير حين نحن نطلب منه تعالى، فسبحانه يرى ويسمع كل شيء، وهو عالم بكل شيء، وحكيم فتجري الأمور بما يراه تعالى مناسباً، فما معنى طلبي منه تعالى شيئاً ما وفي نفس الوقت أنا متوكّل معتمد عليه ومؤمن بأنه يعتني بي؟ فهل أقترح عليه تعالى شيئاً جيداً ليفعله بي وسبحانه لم ينتبه له؟ إنَّ إيماننا بصفاته الحسنى التي فيه تعالى يعني أنه سبحانه سيسيّر أمور المؤمنين على الأحسن، ولا داعي لأي دعاء، إلا اللهم طلباً شخصياً يرغبه الطالب، وهنا أيضاً بحكمته تعالى يقرّر مصلحة المؤمن فيستجيب لطلبه أو لا...

هذا الكلام من الصعب علينا نحن ضعاف الإيمان استيعابه، أمّا المؤمنون من الدرجة العالية فهذا هو أساس إيمانهم، وها هو القرآن أمامك ادرس أدعيتهم وكمثال سترى النبي إبراهيم(ع) والنبي زكريا(ع) صارا شيخين ولم يكن لهما ذرية، وقبل ذلك لم يطلبا منه تعالى أن يرزقهما ولداً، حيث إنَّ النبي إبراهيم(ع) يرغب بولد من زوجته سارة، ولم يحصل ذلك، وبعدها تزوّج بهاجر وأنجب منها النبي إسماعيل(ع) الذي وبأمر منه تعالى أخذه وأمّه إلى مكّة... وبعدها بزمن طويل وحين رأى تعالى مناسباً حصوله (ع) على ولد من سارة، وهبه الأولاد منها... وبالتحليل فإنَّ النبي زكريا(ع) كان عنده حلّ الزواج من امرأة أخرى لينجب الولد ولكنه وكما يبدو تعاطف مع زوجته العاقر أو كان لديه سبب آخر... وبعد استنفاذه لكل الحلول الممكنة إلى أن فقد الأمل نهائياً لأن جسده وجسد امرأته لم يعودا قابلين لأي حلّ يمكن للبشر محاولته، عندها طلب منه تعالى الولد مع دعاء بعريضة تشرح الدوافع لهذا الطلب، وهكذا تفهم اندهاشه من استجابته تعالى لطلبه، فزكريا(ع) يؤمن بصفاته الحسنى الفائقة سبحانه، ويؤمن بأنه تعالى قراراته حكيمة ولسبب ما لم يرزقه ولداً، فما معنى الاقتراح عليه تعالى أن يرزقه الولد؟

هذا الأدب من المستوى العالي جداً جداً والذي نراه في الأنبياء، ونتعامل معه على الورقة والقلم بسهولة، ولكن تلبّس الحالة صعب جداً علينا نحن ضعاف الإيمان، فلا نتحمّل أي شيء سيئ ونريد العافية في كل شيء، وحتى نريد العافية من شرور الآخرين علينا! وهذا مخالف لأصل تصميم وتكوين الدنيا التي سينتج عنها حتماً كفّار وفسّاق ومنافقون يؤذون الآخرين...

هنا في الآية تكرار كلمة {رَبَّنَا} نقلاً عن النبي موسى(ع) يشير ضمناً لأدبه العالي(ع)، حيث إننا نحن ضعفاء الإيمان نتعامل معه تعالى في أدعيتنا كما نتعامل مع جنّي الفانوس السحري الخرافي، متوقعين أن "شبّيك لبيك" سيحقق طلباتنا، بينما ترى هنا إنساناً كلّمه تعالى، ويشرح رؤيته للأمور التي دفعته ليطلب منه تعالى، ودائماً دائماً لا تجد أدعية نقلها القرآن عن المؤمنين بصيغة الحسم، فلا تجد: أريد كذا منك يا ربّي. بل تجد العرض عليه تعالى كاقتراح خجول.

الآن ننتقل إلى أهمية ما طلبه الأنبياء، وأهمية طلباتنا نحن، والتي نرى أن الأمور ستكون أفضل إذا تحقّق ما طلبناه، فالأساس من خلقتنا مع حرية إرادة واختيار أن نجتاز الدنيا بحياتنا القصيرة فيها مع إيمان وعمل صالح للفوز بجنّة خالدة رائعة في الآخرة، وبالنظر لهذا فكل ما يمكن أن يجري معنا من مآسٍ وآلام ومصاعب... فلا قيمة له، وهذا ما ينتشر معناه في الأدبيات الإسلامية عن هوان الدنيا عليه تعالى، حيث يتعرّض المؤمن لأبشع انواع التعذيب ولا يتدخل سبحانه لأنها مؤقتة وقصيرة جداً جداً أمام خلود في جنّة رائعة، وهذا ما يراه المؤمنون من الدرجة العالية، طبعاً تمرُّ حالات شديدة جداً تدفع حتى المؤمنين من الدرجة العالية لطلب التدخّل منه تعالى هنا في الدنيا لتغيير الحال...

الآن وبشكل مباشر وجافّ، المؤمن دعوته مستجابة، طبعاً نتكلم عن المؤمن من الدرجة العالية فله كرامة عالية عنده تعالى، وها هي نماذج الأنبياء وأدعيتهم المستجابة، وآيتنا هنا والتي تليها نموذج عن ذلك، فحين كلّف تعالى النبي موسى(ع) بإخراج بني إسرائيل من مصر، لماذا لم يقل النبي موسى(ع) لربّه أن يميت فرعون وملأه وبذلك تسهل عملية تنفيذ الطلب؟ أو لماذا لم يخرجهم سبحانه بلمح البصر فينقلهم إلى حيث يكونون بأمان؟ أو... والكثير من الناس

لديهم تعليقات كهذه على القصص التاريخية التي نؤمن بها كمتدينين، حيث يقصدون بتعليقاتهم تسخيف القصص الدينية، وسحب عامل التدخّل الإلهي منها، لأنه لو كان هناك فعلاً تدخّل إلهي فهناك سيناريوهات عديدة نتائجها أفضل وأسهل... وطريقة تعامله تعالى مع الأمور كما يرد في القصص الدينية، تبدو ساذجة وطفولية، ويقولون إنها انعكاس لشخصية الإنسان الذي ألّف هذه القصص وأقحم فيها مخيّلته وأقحم فيها تدخّل الإله.

النقاط التي يعلّقون عليها هي نفسها التي سيعلقون عليها لو جرت الاقتراحات التي قالوها كبدل عمّا حصل وفعله تعالى، فلماذا سيميت تعالى فرعون وملأه ويريح بني إسرائيل منهم وفيهم من هو مماثل لفرعون في الشرك والإجرام؟ حيث إنهم سريعاً عبدوا العجل وقتلوا بعضهم وأنكروا الآيات ولن يؤمنوا حتى يروه تعالى جهرة...

لو سبحانه اتّخذ إجراءات مميتة لفرعون قبل عرض الآيات عليه، لاتهمناه تعالى بالظلم، ولو لم ينوّع سبحانه له الآيات لقلنا بأن فرعون كان سيقتنع لو عُرضت عليه آية أخرى...

مَن قال بأنه تعالى دلّل بني إسرائيل بدون فتنة يظهر فيها الخبيث من الطيّب حتى يفعل الاقتراحات التي يقولونها والأسهل بدلاً من وقوعهم تحت سنين من العذاب؟

أطلنا الكلام بعيداً عن الآيات ولكن هذه التعليقات منتشرة في كلام الناس وتمرّ في الأفلام السينمائية كسخرية مما قاله القرآن والتوراة والإنجيل عن قصص الأنبياء، وبغض النظر عن عمق فهم حكمته تعالى من خلقنا في الدنيا لنمرّ في الفتنة، والتي تفسّر كل ما يجري معنا أنه حصل بحكمة... فبغض النظر عن هذا العمق الذي لا يريدون رؤيته، اسمع لتعليقاتهم وانظر لاقتراحاتهم البديلة كأفكار منيرة لم تخطر على باله تعالى وهم بهذا ساخرون من دين اخترعه البشر وأقحموا فيه الإله، أو فعلاً لديهم الجرأة على السخرية مباشرة منه عزّ وجلّ، فاسمع لاقتراحاتهم البديلة وانظر لقيمتها ونتيجتها لترى أنها فعلاً طفولية ساذجة وليست عن دراسة، بل فقط للتعليق وتسخيف كلامه تعالى.

(قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ{89})
الظاهر أنّ النبي موسى (ع) كان يدعو، والنبي هارون (ع) كان بجنبه يسمع ويشاركه في الدعاء.

قال الله سبحانه للنبيين موسى وهارون عليهما السلام: {قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا}، فصار لها جواب، وسوف أحققها وأطمس على أموالهم، وسوف أعذبهم عذابًا شديدًا يسبّب لهم الإيمان غصبًا عنهم قبل آخر لحظة من موتهم.

{فَاسْتَقِيمَا}، وليكن وصفكما على ما هو أحسن، وابقيا من دون أي ميل وانحراف عن طريق الهدى، {وَلَا تَتَّبِعَانِّ}، ولا تكونا على، {سَبِيلَ}، مسلك، {الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}، حيث هناك أناسٌ من بني إسرائيل لا يعلمون علمًا إيمانيًا حقيقيًا، ولديهم سلوكيات مخالفة لما يأمر به تعالى، وقد يقومون بأعمال مخالفة لكلامه تعالى على أساس أنها الردّ المناسب على ما يقوم به فرعون ضدّهم، فلا تفعلا ذلك.

المؤمنون من حول النبيين (ع) بدأ قسم منهم يشكّك في الإيمان بسبب الفقر والحالة الصعبة والمضايقة من جنود فرعون، ويطلبون من النبيين الخلاص الفوري من فرعون وأعوانه... فينبّه سبحانه النبيين ألا يخطر ببالهما أي شيء مخالف لكلامه تعالى، وكمثال على ذلك أمرهما الله بالالتزام التام بالدعوة السلمية وعدم الانجرار لعمل عسكري، وهذا الافتراض قوي جدًا بالنظر لما نعرفه من عموم القرآن أنّ فرعون كان ينتظر غلطة من بني إسرائيل ليبيدهم في قريتهم، فأي نشاط عسكري من بني إسرائيل سيسبب إبادة حتمية لهم، وسبحانه وتعالى لم يرد هذا أن يحصل ولم يرد سبحانه أن يتدخّل ويبيد فرعون وجيشه لهذا السبب... ولم يرد سبحانه أن يقوم رسوله بأي تهديد لحكومة فرعون حتى لو لم يؤمنوا... وصرت تعلم سبب ذلك فسبحانه أراد جعل فرعون نموذجًا لكل التاريخ من بعده، حيث ترى فيه صلابةً وتحجّرًا برفض مختلف أنواع الآيات، ولتعلم أنّ الذي قرّر الكفر فمهما جاءته من آيات فلن يؤمن، بل وليس المطلوب من فرعون أن يؤمن فالمطلوب منه ترك بني إسرائيل يغادرون بلاده! ولم يقبل!

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ{90})

بعد عدة سنوات، أمر سبحانه نبيه موسى (ع) بأخذ بني إسرائيل من مصر والتوجّه بهم نحو أرض كنعان كما هو مشهور في التاريخ. تركوا بيوتهم سرًا في إحدى الليالي ومشوا، وعلم فرعون بخروجهم ولحق بهم مع جنوده حتى يقتلوهم أو يأسروهم.

من آيات أخرى نعرف أنّ بني إسرائيل كانوا يمشون قرب البحر، ورأوا من بعيد جيش فرعون قادمًا إليهم، فشق سبحانه البحر عدة طرقات... ولمزيد من التفاصيل راجع في ذلك ما قبل الآية 63 من سورة الشعراء وما بعدها: {فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}.

{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ}، حيث جعلناهم يتجاوزون منطقة فيها الكثير من الماء، وحاليًا درج استعمال كلمة بحر لخصوص المياه الكثيرة المالحة ولكن في أصل اللغة هي وصف للماء الكثير سواء أكان مالحًا أو حلوًا، راكدًا أو جاريًا. وعبروا من جهة لأخرى، {فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ}، ودخل فرعون ومعه الملتزمون بتنفيذ أوامره، ودخلوا في الممرات المائية حيث دخل بنو إسرائيل، {بَغْيًا}، تعديًا وتجاوزًا عليهم، وبدون أن يكون لفرعون ولا لجنوده أي حق على بني إسرائيل حيث تبعهم ليقتلهم، فلو كان بنو إسرائيل هدّدوه بالانقلاب عليه للسيطرة على الحكم، أو قاموا بعمل عسكري أو عدائي ضدّه قبل المغادرة... لكان معه حق في قتالهم، ولكنهم لم يفعلوا له ولا لجنوده أي شيء، وبغيا اتّبعهم، {وَعَدْوًا}، اعتداءً وتجاوزًا من دون أن يكون بنو إسرائيل فعلوا لهم أي شيء.

تصوّر لك الآية مشهد دخول فرعون مع جنوده بين الجدران المائية الممتدة في البحر، وهو مشهد من المفروض أن يستوقفهم بضخامته، فهو حتمًا من فعل إلهي، وبدل أن يؤمنوا فإنهم أصروا على الاستمرار في ملاحقة بني إسرائيل لقتلهم وأسرهم! وبمجرد أن خرج من الماء كل بني إسرائيل، ودخل إلى الماء كل جنود فرعون، مباشرةً انهارت الجدران المائية. وتصور اللحظة المرعبة لفرعون وهو على ظهر حصانه أو في عربة، وواقف بين حائطين عاليين جدًا من الماء، وبدأ انهيار الحائطين وهو بينهما.

{حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ}، حتى وصل إليه الموت اختناقًا بالماء، في لحظة انهيار الجدران المائية عليه، وفيما يقارب الثواني من الزمن، {قَالَ آمَنْتُ}، اعتقدت، {أَنَّهُ لَا إِلَهَ}، لا أحد موصوف بالصفات والقدرات الفائقة فوق صفات المخلوقين، {إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ}، وفقط الإله الذي يعتقد بنو إسرائيل أنه الإله أنا الآن أعلن إيماني به، {وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ}، من المنقادين المطيعين لذاك الإله.

هذا الغرق الحتمي هو عقاب من الإله الذي يؤمن به بنو إسرائيل، وها أعلن إيماني به وإسلامي له.

تذكّر أن فرعون نفسه كان يعتبر نفسه إلهًا وله شركاء في الألوهية! وكمثال عن ذلك ما نقلته الآية 29 من سورة الشعراء: {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}، وهنا يعلن أنه: لا إله إلا الذي يقول عنه بنو إسرائيل. ونتذكر عندما كان فرعون يقول للنبي موسى(ع) إني لن أتركك تحكم وتقول هذا مسموح وهذا ممنوع، وهنا يقول فرعون: أنا من المسلمين، وأسلمت أموري لله تعالى، ولست أنا الحاكم بل سأنفّذ ما يقوله إله بني إسرائيل. وهناك كلام حول إيمان فرعون وله علاقة بمحور السورة سنذكره في الآية بعد التالية.

بالنسبة لتحديد مكان حصول الحادثة فكلمة بحر تشير لتجمّع كبير للمياه، سواء أكان حلوًا أو مالحًا، جاريًا أو راكدًا، وبما أنّ الكلام عن انشقاق البحر حصل في مصر فالمرشحان للحادثة هما البحر الأحمر ونهر النيل، إذ كلاهما لغويًا تصدق عليهما كلمة بحر.

من غير المؤكّد إن كانت حادثة إغراق فرعون وجيشه جرت في النيل أو الأحمر، ولمزيد من التفاصيل راجع دراسة الآية 63 من سورة الشعراء: {فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ}.

ما تجده في بعض الكتب عن مصدر الذهب الذي استخدمه بنو إسرائيل لصنع العجل الذي عبده جماعة منهم، حيث قيل إنهم قبل خروجهم من مصر استعاروا من المصريين الحلي، وغادروا بها "سرقوها"، ولو فرضًا هكذا كميّة ضخمة كافية لصنع تمثال ذهبي جرت سرقتها من المصريين، لكان لحاق فرعون بهم ليس بغيًا وعدوًا كما تقول الآية هنا؟!

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ{91})

{آلْآنَ}، آمنت في هذا الوقت وهذا المكان، وبينما جدار الماء ينهار عليك وتأكدت من الموت، آمنت! وقبل ثانية فقط كنت تسرع لتقتل من أناس أبرياء لم يفعلوا أي شيء ضدّك!

{وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ}، فخالفت كلامه تعالى قبل الآن، حيث أمضى النبي موسى (ع) سنينَ عديدة يحاول إقناعك بالكلام والآيات البيّنات ولم تقتنع!

{وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}، ولم تكن من المصلحين، حيث كنت تقتل من لا يطيعك، وتستضعف وتستعبد الناس، ويعملون لك في البناء والزراعة والخياطة والخدمة و... كل ذلك "بالسخرة" من دون أجرٍ، أو بأجرٍ زهيد... وكنت تعذبهم وتسجنهم وتقتلهم و...

يعني فات الأوان على إعلانك إيمانك فهذه آخر لحظة لك في الدنيا، ومن قبلُ رفضت كل الفرص الكثيرة لتؤمن، بل كنت كافرًا وفاعلًا للسيئات من العيار الثقيل.

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ{92})
{فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ}، لن تنجو بحياتك بل سنترك جسدك يخرج من الماء بلا حياة، وقبل أن يتحلّل أو تأكله الأسماك، وسنرمي جسدك جثة على الشاطئ.

{لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً}، لتكون لمن سيأتي بعدك شيئًا مميّزًا بجسدك الذي يحكي قصة غرقك بعقاب إلهي غير عادي...

ورغم أنّ جثة فرعون وجثث جنوده يجب أن تكون آية كافية للناس حتى يؤمنوا بالله تعالى، ولكن، {إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا}، عن الأمور المميزة بمستواها الإلهي المنسوبة له تعالى، {لَغَافِلُونَ}، فعن قصد غير مهتمين بها، وكأنهم لا علم لهم بها من أصله، وكأنها لم تحصل! فلا تعني لهم الآيات الإلهية أي شيء!

نفهم أنه حتى المصريين الذين شاهدوا جثة فرعون وجثث الجنود، وعلموا أنّه حتمًا حصل تدخّل من مستوى إلهي حتى مات هؤلاء غرقًا، ومع علمهم بنجاة بني إسرائيل من الملاحقة... رغم ذلك نفهم أنهم لم يؤمنوا على الأقل بأن ما حدث تدخّل إلهي، وهم قبل ذلك لم يؤمنوا بثماني آيات "الحية والدم والضفادع..."!

إذًا، وصلت الآيات بنا إلى حيث نزل العذاب وحصل إيمان فرعون الكافر في آخر لحظة قبل الموت، ولم ينفعه ذلك لأنه تأخّر كثيرًا. فهذا هو النموذج الثاني الذي طرحته السورة بعد نموذج قوم النبي نوح(ع) الذين بدأ الطوفان الموعودون به ولم يؤمنوا وقصدوا المرتفعات... ولم يؤمنوا... مع أن النبي نوح(ع) أتاح لهم الركوب في السفينة... وهنا في السورة نرى إيمان فرعون ولكن بعد فوات الأوان.

ننتبه، حيث إنّ البحث عن اسم الفرعون الذي كان على عهد النبي موسى(ع) للتعرّف على موميائه "الآية"، يبدو صعبًا الآن، رغم العديد من الأسماء المقترحة، فلا أحد يمكنه الجزم أي فرعون كان على عهد النبي موسى(ع) حتى نقول أنّ بدنه لا يزال ناجيًا إلى الآن، وهو آية إلى الآن، حيث كان آية لزمنه وما بعده، لمن رآه ولمن علم بقصتّه... مثل حالة تركه تعالى لسفينة النبي نوح(ع) آية، فهي آية لمن كان قريبًا من الحادثة بالزمن ورآها، ولم يقصد القرآن أن السفينة آية إلى نهاية البشرية وأن الكل سيرونها، فهذا لم يحصل أصلًا.

لتحديد الفرعون المعاصر للنبي موسى(ع) يوجد في القرآن مفتاح يساعد على هذا الأمر، حيث إنّ الفرعون الذي كان على عهد النبي موسى(ع) كان عنده وزير اسمه هامان، كما ورد كمثال في الآية 36 من سورة غافر {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ}، فإذا وجدنا سجلات أو آثارًا تدل على هذا الوزير فمن الممكن معرفة شيء ما، ولكن كل هذا من الصعب أن يجعل مؤمنًا يشكك، أو أن يجعل كافرًا يؤمن، لأنّ البحث فيه ليس أكثر من مجرد هواية وفضول، فمن يفكّر بتأكيد صحّة ما يقوله القرآن عبر مومياء، فهو واهم، لأن المؤمن الحقيقي أصلًا يعتقد بصحّة ما يقوله القرآن، ومن يفكّر بدليل آثاري أو مومياء ليؤيّد ما يقوله القرآن حتى يجعل الآخرين يؤمنوا، فالآية هنا تنبهه إلى أنّ أكثر الناس غافلون فعن تعامٍ لا يهمهم موضوع الآيات الإلهية، لأنهم متعلقون بكفرهم وشركهم وشريعتهم... ولا يريدون التغير، فالمعاصرون لذاك الفرعون رأوا جثته وجثث جنوده وعلموا بسبب غرقهم ولم يؤمنوا.

ها قد لفتّ انتباهك إلى ضرورة المشي مع سياق الآيات التي ترينا كيف آمن فرعون في آخر الوقت حين أيقن بالموت... وهذا غير نافع، فلا يفكّر أحد بتأجيل إعلان إيمانه قبل الموت بقليل، فهذا لن ينفع، ويمكنك تشبيهها بالكثير من الناس الذين يعلنون إيمانهم وهم على فراش الموت...

الآن لننتقل إلى الفضول لتحديد الفرعون المعاصر للنبي موسى(ع)، وهناك جدل بين المؤرخين وعلماء الآثار والمتدينين والمهتمين... حول تحديد "اسم وتاريخ" هذا الفرعون، ولم أجد أي واحد منهم يملك دليلًا قاطعًا أو قويًا... واسم هامان الذي ورد في عدة آيات، من المفروض أن يكون مميّزا لتحديد اسم الفرعون الذي كان على عهد النبي موسى (ع)، وتتبعت اسم "هامان" في تاريخ الفراعنة، وكان تتبعًا مرهقًا، فوجدت شخصًا مناسبًا "بنفس الاسم" استبعده الكثيرون لأنه وزير للفرعون "خوفو" وهو أقدم بكثير من أي فرعون افترضوه، وفي التاريخ ذكروا أن هذا الوزير هو المسؤول عن بناء أهرامات الجيزة الضخمة، وهذا يشبه ما ورد في الآية 36 من سورة غافر من اعتماد فرعون عليه كمهندس أو كالرجل الأول لتنفيذ المهمات {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ}.

غالبية المؤرخين المتدينين لديهم تسلسل تاريخي ديني للأحداث من آدم(ع)... فالنبي نوح(ع)... فإبراهيم(ع) فيعقوب(ع) فيوسف(ع) الذي نقل بني إسرائيل لمصر، وبعد ذلك بسنين ولادة النبي موسى(ع)... وبعده مملكة النبي داوود(ع)... وولادة النبي عيسى(ع)... وهذا التاريخ الديني له روايات ومستندات عند المتدينين ولا يمكنهم مخالفتها، فهي تراثهم الديني، وبعضها كتبوه كملحق تاريخي ديني مع التوراة بما يماثل الروايات عندنا، فأي تغيير لتاريخ أي واحدة من تلك الأحداث سيسبّب لهم تشوّشًا في بقية التواريخ، وتحديدهم في التوراة "التي أعاد صياغتها الكاهن عزرا بناء على ما استنسبه من العقائد والتشريعات والتاريخ"، تحديدهم للفرعون الذي كان على عهد النبي موسى(ع) برعمسيس "رمسيس" وتحديدنا له في هذه الدراسة بخوفو سيسبّب رجوعًا هائلًا بألف سنة تقريبًا في جميع الأحداث التاريخية مشوّهًا بذلك كل تراثهم التاريخي.

ستجد في الويكيبيديا العربية والإنجليزية، أنّ للفرعون خوفو "خوبوس، شوبس" وزيرًا اسمه يتماشى بالعربية مع لفظ هامان "هم يونو، حم يونو، هامون"، وله تمثال محفور عليه اسمه محفوظ في المتاحف، وهذا المهندس "أو الإداري" بنى أهرامات الجيزة الضخمة، والقرآن عبّر عن الفرعون بأنه ذو الأوتاد، وفهمنا منها أنه الآمر ببناء الأهرامات والمسلّات، وراجع في ذلك دراسة الآية 7 من سورة النبأ والآية 12 من سورة ص، والآية 10 من سورة الفجر {وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ}، وخوفو نصّب نفسه إلهًا كما تقول دراسة الآثار، والفرعون الذي تحدّث عنه القرآن قد أعلن نفسه إلهًا كما ترى في الآية 29 من سورة الشعراء {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}، ومن الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}...

فهذه التفاصيل وغيرها كالكلام عن أنهم لم يجدوا مدفنًا لزوجة خوفو، وهذا يتماشى مع إيمان زوجة الفرعون الذي عاصر النبي موسى(ع)، وورد ذلك في الآية 11 من سورة التحريم {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}، وبالتالي نفترض كره زوجها لها وحرمانها من مدفن ملكيّ، أو خروجها من مصر مع بني إسرائيل...

كل ما سبق يجعلنا نعتقد بقوّة أنّ "خوفو" هو الفرعون الذي كان في زمن النبي موسى(ع). والمشكلة عند الآخرين الذين بنوا تاريخًا دينيًا بناءً على كون "رعمسيس رمسيس" هو الفرعون المعاصر للنبي موسى(ع)، وبين تغييره ليكون خوفو، المشكلة أنّ بين الفرعونين قرابة ألف ومئتي سنة، فتاريخ خوفو في فترة 2500 سنة قبل الميلاد، ورعمسيس في 1300 قبل الميلاد، وعليه تندفع قرابة الألف سنة إلى الخلف كل الأحداث التاريخية ويتشوّه بذلك التراث التاريخي الديني الذي افترضوه...

(وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُواْ حَتَّى جَاءهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ{93})
بعد خروج بني إسرائيل من البحر، حقق لهم سبحانه وعده بأن يعيشوا بعيدًا عن ظلم فرعون، ولكن هل هم التزموا بالإيمان؟ سترى في الآية عرضها باختصار شديد جدًا ما فعله تعالى معهم وما فعلوه هم:

{وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ}، حيث جعلناهم في مكان ومكانة توصف بالصدق بالحقّ، لأنهم صاروا الآن خارج سلطة من يفرض عليهم دين الشرك، وخارج سلطة من يستضعفهم، وهذا كان وعده تعالى لهم.

{وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ}، في تلك الحالة رزقهم سبحانه وصار معهم ما يسدّون به حاجاتهم وما يرغبونه، وهنا الكلام عن الحاجة الأساسية، عمّا يأكلونه، من الطيبات، من الطعام المرغوب المحبوب، وتعلم من القرآن أنهم تجاوزوا البحر ووصلوا إلى منطقة سيناء وهناك رزقهم سبحانه من طيور "السلوى" ليأكلوا لحمها، ورزقهم "المنّ" وهي إفرازات صمغية من الشجر محببة للأكل... راجع كمثال الآية 57 من سورة البقرة: {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى}...

{فَمَا اخْتَلَفُوا}، حيث ما صار لكل واحد ولكل جماعة منهم رأي وفكر ديني مختلف عن الآخر ومختلف عن كلامه تعالى، {حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ}، حيث جاءهم العلم منه تعالى بما هو صحيح ولكنهم كانوا يختلفون عنه عن قصد. عاملهم سبحانه بأفضل معاملة وعناية، وجاءهم علم منه تعالى، ولكنهم لم يبقوا متفقين عليه، واختلفوا فيه!

كما تلاحظ، لأول وهلة ستفهم من الآية أنهم كانوا متفقين، ولم يختلفوا "حتى" جاءهم العلم، لذا نفهم أنّ العلم سبّب لهم الاختلاف عن دينه تعالى، وصاروا فرقًا ومذاهبَ من بعدما جاءهم الكلام الإلهي، وكأن الكلام الإلهي سبّب لهم الاختلاف. ولكن انظر إليها من نظرته تعالى لهم، لو اختلفوا فيما بينهم قبل وصول علم منه تعالى، فهم سيختلفون ولا أحد منهم يستند لعلم إلهي، وهذا شيء لا يهتمّ به تعالى ليقول إنهم اختلفوا فيه، لأنّ كلّ أمورهم سيعتبرها تعالى مثل بعضها، حيث كلها ليست معتمدة على كلامه تعالى، والآن من منظوره تعالى، جاء علم منه تعالى لبني إسرائيل، وبدل أن يمشوا عليه، اختلفوا عنه واختلفوا فيه، والآن صار الموضوع مهمًا، لأنهم لم يختلفوا بالدين الإلهي لأن الكلام الإلهي لم يصلهم أو لأنه لم يكن واضحًا، فلو لم يصلهم واضحًا فعلى أي أساس سيحاسبهم سبحانه؟ بل اختلفوا بالدين الإلهي من بعدما جاءهم الدين الإلهي واضحًا، ودينه تعالى الذي وصلهم عبر الرسل كان خطًا واحدًا، وهم اختلفوا فيه وصاروا فرقًا ومذاهبَ.

{إِنَّ رَبَّكَ}، إنّ المسؤول عنك من مستوى إلهي يا أيها النبي محمد(ع) ويا أيها القارئ للقرآن، هو {يَقْضِي بَيْنَهُمْ}، يصدر حكمه النهائي بينهم، ويقول سبحانه الحقّ، ويظهر اختلافهم عن دينه تعالى واختلافهم بين بعضهم في دينه تعالى. في يوم القيامة من الموت، يحصل القضاء الإلهي في الأمور التي كانت تختلف فيها الناس عن دينه تعالى، والتي كانت تختلف فيها بين بعضهم البعض.

وكما تلاحظ فآيتنا هنا أرادت ألا ينتهي الكلام عن فرعون وبني إسرائيل ويبدو منها أنّ بني إسرائيل من بعد ذلك كانوا نموذجًا كاملًا في التوحيد والإيمان والعمل الصالح، ولا تريد أن يبدو أنهم ينالون العناية الإلهية مهما فعلوا، وأنهم سيبقى وصفهم مؤمنين مهما فعلوا، ولن يتحاسبوا مهما فعلوا... حيث إنّ السورة تتحدّث عن الشرك به تعالى وعن اختراع تشريع غير تشريعه تعالى، وهاجمت هذه الناس المشركة وأشارت هنا إلى ما فعله بنو إسرائيل وهو مشابه لما يفعله المشركون، ونبّهت إلى أنّ حمل بني إسرائيل لعنوان الانتساب لدينه تعالى لا يجعلهم نموذجًا دينيًا صالحًا للاقتداء به، فلا تستغرق بالعناية الإلهية بهم لتستنتج منها استمرار تميّزهم فتعتبرهم نموذجًا دينيًا صالحًا، لا، لأنهم اختلفوا عن دينه تعالى وسوف يتحاسبون...

في الآية التالية تريد السورة الدخول من الكلام عن بني إسرائيل إلى امتداد الدين الإلهي، وإلى الإشارة إلى صحّة ما ورد من قصّة فرعون عبر مستند بشري...

(فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ{94})
أيها النبي محمد(ع)، وأيها السامع للقرآن:

{فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ}، فلم تستطع الاستناد لشيء متأكّد منه يدفعك لتصديقٍ، {مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ}، ما وصلك منّا عبر الوحي عن الطوفان لقوم النبي نوح(ع) والسفينة... وما ورد عن النبي موسى(ع) وفرعون... لأنك لم تكن في عصر

النبي نوح(ع) ولم تشاهد الطوفان، ولم تكن في عصر النبي موسى(ع) ولم تشاهد العصا التي تتحول لثعبان... ولم تكن موجودًا حين انفلق البحر وعبره بنو إسرائيل وغرق فرعون وجنوده...

{فَاسْأَلِ}، فعبّر عن إرادتك للحصول على جواب من، {الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ}، فاسأل الناس الذين يجيدون القراءة وقرأوا الكتاب الإلهي السابق وهو التوراة، وقرأوه من قبلك أي من قبل أن تقرأ أنت "شيئًا من" الكتاب الإلهي وهو هذا القرآن الذي صرت تقرؤه من بعدما نزل عليك وحيًا.

اسألهم عن هذه القصص، هل هي مذكورة هناك؟ بالطبع هاتان القصتان مذكورتان في التوراة وبدون اختلاف عمّا ورد في سورتنا هنا التي اختارت فقط وفقط ما يتوافق بالتمام مع التوراة المنتشرة بين أيدي الناس.

{لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ}، جاءك الصواب، فوصلتك الأشياء الصحيحة من المسؤول عنك من مستوى إلهي، فهذه القصص التي نزلت عليك لا مجال للشك في صحتها لأنه لا يصدر عنه تعالى إلا الحق فهو تعالى دائمًا كلامه حق، {فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}، فلا تكن من نوعية الناس الذين يمكن أن يشاركوا في المماراة، فالمراء هو عموم أي كلام فارغ تافه مخالف لحقيقة واضحة.

لاحظ دائمًا، لو كان اختلاف وجهات النظر بيننا نحن لقلنا: الحق معي، أو الحق معك. ولكن القرآن دائمًا يعبّر بشكل مختلف فيقول: الحق من ربّك، الحق من ربّهم. ولا يقول أبدًا: الحق مع ربّك. فهناك فرق كبير بين القولين، حيث عندما تقول: الحق معي. فهذا يتضمّن إمكانية أن يكون الحق مع غيرك، ويتضمّن أنّ هذه المرّة الحق معك وربما في مرة أخرى يكون مع غيرك، أمّا التعبير القرآني فهو دائمًا دائمًا يقول: الحق "من" ربّك. لأنه تعالى لا يصدر عنه إلا الحق دائمًا، لذا بعد سماع ما يقوله سبحانه فلا تكن من الممترين، وأمام حقيقة وصلتك من ربّك سبحانه لا تشكّ ولا بأي شكل بصحتها.

ننتبه جيدًا، حيث إنّ الخلفية الثقافية الدينية التي عندنا تتحكّم في فهمنا لهذا النوع من الآيات، حيث تراكم في ثقافتنا أنّ محمدًا بن عبد الله هو أشدّ الناس إيمانًا من بين خلقه تعالى كلّهم، ومن هذه الخلفية نرفض أن يكون الكلام عن الشك والمماراة موجّهًا له صلوات الله تعالى عليه، "والآية التالية ستضيف تنبيهه (ع) من التكذيب"، ولكن لو تركنا هذا جانبًا، ونظرنا إلى شفافية كلام القرآن، وتذكّرنا كلام القرآن هنا وهناك عن انتفاء تأثير نزول الوحي لوحده على إيمان شخص ما، فلو نزل عليك أنت الوحي مثلما نزل على النبي محمّد(ع) فلن يزيد إيمانك، ولو نزل هذا الوحي على كافر فلن يجعله مؤمنًا، لأنه مجرد كلام يحصل في الوعي، ولن يختلف في جوهره عن الكلام الذي تحدّث به نفسك عن الأمور التي تعلم أنها سيئة وفاسدة ورغم ذلك تعارض الكلام الذي في رأسك وتفعلها... ولا يختلف عن شيء تسمعه بأذنيك، فإن لم يتماشَ مع فكرك ونفسيتك فسترفضه حتى لو سمعته مباشرة في وعيك...

محمّد شخص عادي مثلك ومثلي، نزل عليه هذا القرآن وحيًا، حيث وصله بدون كلام مباشر يدخل من أذنيه بل مباشرة وصله (ع) إلى وعيه، ولديه (ع) تقييم شخصي لهذا الكلام الذي دار في رأسه، حتى لو كان مؤمنًا بأنّ ما ينزل عليه هو وحي منه سبحانه وتعالى، ولكن المعلومات التي تصله هي في نهاية الأمر معلومات، وسيكون له (ع) ردّة فعل تجاهها، حيث إنك كمؤمن ملتزم بدينه تعالى إذا سمعت معلومة دينية جديدة، عقائدية أو تشريعية أو تاريخية... فسيكون لديك ردّة فعل تجاهها، استغرابها أو الحاجة لتأكيدها... ومحمّد (ع) ليس مبرمجًا كالآلة ليؤمن بكل ما يوحى إليه، والقرآن بشفافية تامّة يخبرك ويخبر الذي نزل عليه الوحي، أن يقارن بين هذه المعلومات عن الطوفان وفرعون... مع كتب قديمة إلهية وردت فيها قصص متطابقة مع ما تقوله السورة هنا.

ما المانع أن يبرهن سبحانه لرسوله أنّ الكلام الذي يصله هو كلام إلهي؟ فإن كنت أنت مؤمنًا حقيقيًا بدينه تعالى ولم ترث التدين من أهلك أو مجتمعك، فأنت حتمًا قد مررت بحالة التأكّد من إلهية مصدر هذا القرآن، ولا تزال الآيات القرآنية التي تبرهن أنّ القرآن من مصدر إلهي، لا تزال موضوع بحثك ودراستك... أمّا إن كنت ممن ورث التدين، فلن تفهم أنّ محمدًا شخص عادي لم يرث التدين وكان يفكّر فيما يصله ويحلّله ويسبّب له ردّة فعل...

ولو أطلت عليك فلنتذكّر شفافية القرآن في كلامه سبحانه وتعالى عن نفسه حين أخبرنا وبكل شفافية أنّ كل ما هو موجود "غيره عزّ وجلّ" فهو محصور ضمن السماوات والأرض، وهذه هي الدنيا كلّها مكانًا وزمانًا، وأنّه تعالى يعلم

بكل صغيرة وكبيرة فيهما، ويعلم أنّ كل ما فيهما خلقه هو سبحانه، ولا يرى سبحانه إلا نفسه والمخلوقات التي هو تعالى خلقها، وبالتالي لا يرى سبحانه أي إله غيره. ومن هذه الشفافية بكلامه عن نفسه سبحانه يمكننا فهم شفافية كلامه تعالى مع وعن رسوله محمّد(ع) أنّه آمن بما نزل عليه عن قناعة.

طبعًا لا تنسَ أنّ القرآن قد برهن على كونه من مصدر إلهي بطرق عديدة، وقد مرّ معك هنا البعض منها، كالتحدّي بتأليف سورة من سوره... ومنها التذكير بأن نفس النبي محمّد(ع) قد عاش في قومه سنينَ طوالًا من قبل أن يبدأ بتلاوة كلام القرآن عليهم، فلو كان من تأليفه لكان انفلت منه (ع) في السابق كلام مثل كلام القرآن... مضافًا إلى كل ذلك نفس المحتوى العقائدي للقرآن الذي يبدو بوضوح أنّه حقّ... ومضافًا إليه أمره تعالى بالصلاح ونهيه عن السوء... ومعهم هنا نضيف المحتوى التاريخي المتوافق مع ما ورد في كتب سابقة... فهذه القصص موجودة في كتب سابقة لم تكن منتشرة بين أهل مكّة، وما فيها من كلام لم يكن من اهتماماتهم أصلًا، وبشكل غالب أعمّ كما يبدو من التاريخ لا المشركون ولا النبي محمّد(ع) كان لديهم علم بتلك القصص، فكيف تمكّن محمد (ع) من تناول تلك القصص من جوانب عديدة في سور مختلفة مع الالتزام التام بالمحورية الأساسية لكل قصّة! فهل يمكن لأي إنسان أن يفعل ذلك؟!

ننتبه ولنكن واقعيين، فالكثير من المؤمنين الملتزمين، مقسومون لعقلانيين وبسطاء، وكلاهما تجد فيهم من لا يبلع مسألة حصول طوفان في زمن النبي نوح(ع) أو انشقاق للبحر وإطباقه على فرعون وجنوده، ويقول: طالما ذكرها القرآن فأنا أسلّم بها لأنّ الأمور الأخرى التي ذكرها القرآن تجعلني أؤمن بعموم ما يقوله حتى لو لم أجد دليلًا آخر.

نفس المشكلة موجودة في كل الديانات الأخرى، فلديهم أمور خرافية لا تعجبهم ولكن يؤمنون بها بسبب وجود أمور أخرى غيرها أقنعتهم بعموم دينهم، ولذلك عليك ألا ترفض ما يقوله القرآن بشفافية لتجعل دينه تعالى كالأديان الخرافية، فهنا كمثال، القرآن يحيلك إلى مصادر أخرى لتأكيد صحّة ما يقوله لتؤمن بها مع دليل، وإن لسبب أو لآخر لم تجدها، أو لم تجدها بشكل مباشر وصريح، أو فرضًا وجدتها وهي ليست متوافقة مع ما يقوله القرآن... فهنا يحيلك القرآن إلى قوّة أمور أخرى تثبت أنّ القرآن من مصدر إلهي، وينبهك ويلفت انتباهك أنّه حتى المنتمين لدينه تعالى قد تلاعبوا بكتبه تعالى.

كاتب التوراة قد تغافل عن ذكر أمور كثيرة جرت في عهد النبي سليمان(ع)، لأنها لم تدخل في رأسه واعتبرها خرافية، واحتفظ آخرون بها وسجلوها "بتلاعب" في التلمود، حتى أنّ كاتب التوراة لم يكن مهتمًا كثيرًا بتفاصيل مشاهد يوم القيامة والجنّة والنار، حيث أيضًا ندر الكلام عنهما في التوراة، أقول لك "كاتب التوراة" لأنه من المشهور جدًا والمعلوم أنّ أكثر التوراة التي بين أيدينا كتبها الكاهن عزرا من ذاكرته ومما أعجبه منها، وقد أضاف عليها ما رآه مناسبًا... وهذا شيء مشهور معلوم، ورغم ذلك احتفظت التوراة بما يشير لأساسيات دينه تعالى المتوافقة مع القرآن...

ونحن لسنا متمرسين على فكرة طرح القرآن لكل شيء مع دليله، لأنّ ثقافتنا الدينية ميّالة إلى تقديس النص من دون النظر فيه، فهذا قرآننا كتابنا وسندافع عن محتواه بكل الطرق... حتى أنّ الكثيرين منّا لا مشكلة عندهم في اختراع الأكاذيب لتثبيت صحّة ما يقوله القرآن! كأكاذيب الإعجاز العلمي والعددي والرياضي والتاريخي... وحتى الإعجاز اللغوي مع أنه الأبرز والأوضح، فقد شوّهوه ليصير للكلمة الواحدة عشرات المعاني وللآية الواحدة مئات المعاني! وادّعوا أنّ هذا إعجاز! مع أنه تهوين وتقليل من قيمة القرآن، فبدل أن يكون مبينًا صار كتاب أحاجي "حزازير"!

في دراستنا هذه لا تزال آثار الخلفيات الثقافية الموروثة وغير الصحيحة تبرز منّي هنا وهناك بشكل أو بآخر، وكلما راجعت هذه الدراسة وجدت منها الكثير هنا وهناك، وهذه المشكلة أصلًا كانت سببًا لتذبذبي لسنين بين الاختصار في دراسة الآيات لتجنّب دسّ موروثنا الثقافي فيها عن غير قصد بسبب تحكّمها في فكري ونفسيتي، وبين توسّعي فيها بالاعتماد على مفاهيم القرآن فقط، وأنا أعلم أني لم أختمرها جيدًا صافية من الشوائب... فالطبع غالب.

وأخيرًا كان القرار بالتوسّع وكثرة المراجعة مع التنبيه على حتمية بقاء شيء من الموروث الثقافي هنا وهناك، مضافًا إليه قناعاتي الذاتية التي تراكمت من بنائي لمفاهيم قرآنية، والتي حتمًا فيها خطأ في شيء منها...

آيتنا هنا نموذج بارز عن رفض القرآن طرح أي شيء بلا دليل، كأثر ملموس أو كلام منقول، أو تشبيه... فإعادة الحياة للأموات في الآخرة أخذت الأدلة عليه حيّزًا واسعًا في القرآن، وأبرزها نماذج ملموسة لإعادة الحياة لأناس هنا في

الدنيا، راجع الآية 243 والآية 259 والآية 260 من سورة البقرة، وغيرها... ولفت الانتباه لمن خلق أول مرة مما يشير لقدرته على الخلق مرّة ثانية... ولفت الانتباه للحياة والموت النباتي المشابه لحالتنا... فكلام القرآن عن الآخرة خبر، وعليه أدلة ملموسة، وإن لم تنتبه للأدلة فأنت أيضًا تؤمن بالخبر لأنك من أدلة أخرى تؤمن بأنّ هذا القرآن من مصدر إلهي، ومثله خبر عذاب الآخرة فله أدلة من نماذج ملموسة بعذاب أقوام هنا في الدنيا.

(وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ{95})
{وَلَا تَكُونَنَّ}، يا من ينزل عليه هذا القرآن وحيًا، لا تكن أبدًا، {مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ}، فهذه القصص تتحدّث عن أمور مميزة منسوبة له تعالى فلا تنكر صحّتها وتقول إنها كاذبة.

{فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}، فتكون من الذين فقدوا شيئًا له أهمية كبيرة، حيث إنّ تصديق الآيات الإلهية ينتج عنه ربح سيفوتك إن كذّبت بها، وعمليًا أنت تعلم أنّ الخاسرين لن يربحوا الحياة الخالدة في الجنة، وسيدخلون إلى النار.

بعبارة أخرى، أنت أيها النبي(ع) بما أنك لم تكن وقت وقوع تلك الحوادث، ولم تكن تعرف أنها مكتوبة أيضًا في الكتب النازلة قبلك منه تعالى والموجودة بين أيدي الناس، فلا يحق لك ولا لغيرك القول إنها غير صحيحة، ونحذّرك من ارتكاب الخطأ والقول إنها غير صحيحة فهي منسوبة له تعالى وتكذيبها سيكون له عواقب الخسارة.

ننتبه جيدًا، نقل لنا القرآن كثيرًا، وفي سورتنا هذه أيضًا نقل لنا بعضًا من الأفكار التي يقولها الناس، حيث بعضهم قال: أين المشكلة لو كان كلام القرآن صحيحًا ولكني لا أؤمن به؟ فأنا أحترم كلامه ولكن لا أريد الإيمان به... مثلما أنا أحترم رأي من يقول إنّ كلامي صحيح ولكنه لا يريد الاعتماد عليه، فهو حرّ وله رأيه الخاص... لا، فهناك عواقب وخيمة لتكذيب كلام الإله سبحانه وتعالى، فهو تعالى لا يقبل بتكذيب كلامه، وها يخبرك عبر هذا القرآن أنّه تعالى يعاقب المكذبين بعقوبات شديدة جدًا.

لنأخذ مثلًا شخصيًا، بعض الناس نصدّقهم في كل ما يقولونه، وبعضهم نفكّر في صدقهم، وبعضهم لا نصدقهم مهما قالوا، والمقياس لدينا هو مصداقية الشخص، فإن كان رزينًا، واعيًا عاقلًا، ولم نسمعه يكذب من قبل... فربما يصل بنا تصديق ما يقوله لدرجة العمى، حيث نصدّق كل ما يقوله، وهنا تلفت الآيات انتباهنا لأعلى مصداقية، إذ إنّ القرآن خبر من الله تعالى، وإن كنا لن نصدّقه سبحانه وتعالى، فمن سنصدّق؟

هذا الكلام كما ترى فهو موجّه مباشرة للنبي محمّد (ع) مثلما هو موجّه لي ولك، ولست بحاجة لتبريرات تجعل هذا الكلام غير موجّه له (ع)، على أساس أنه استنقاص من قيمة إيمانه (ع)، لا، ارجع في التاريخ إلى ما قبل هالة القداسة لشخص النبي محمّد (ع) كرسول جاهد بكل ما عنده في سبيله تعالى، وارجع إلى حيث كان مجرد إنسان عادي، يختلف عن الآخرين فقط بقلبه السليم، ولا يعرف أي شيء عن دينه تعالى إلا ما أوصلته إليه "فطرته"، ونرى هذا في الآية 52 من سورة الشورى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.

هنا انظر للآيات مع من تتكلّم؟ فهي تتكلّم مع شخص من المفروض أن صفاته تؤهّله للإيمان بما ينزل عليه لأنه لا يكذب ولا يخون ولم يخترع آلهة ولم يعبد آلهة اخترعها الناس... والآيات تعلمّه (ع) الدين الإلهي كما تعلّمه للآخرين، وتنبّهه كما تنبّه الآخرين، وتهدّده كما تهدّد الآخرين، بل وتهدّده بشكل خاص وتنبّهه أنه صار موصوفًا بأنه رسول منه سبحانه وتعالى وبالتالي أي خطأ منه فستكون عواقبه وخيمة عليه (ع) والعقاب سيكون أشدّ من عقاب الآخرين.

بقي شيء مهمّ، لدينا هاجس وضع ميزان للعقلانية أو لمعرفة صوابية الأمور، وقديمًا كانت الفلسفة وعلم المنطق والمدينة الفاضلة... من الأبحاث التي حاولت ضبط ذلك، حيث إنّ تحديد الصحّ من الخطأ والخير من الشرّ قد يبدو مطّاطًا بسبب وجهات نظر مختلفة من زوايا مختلفة لنفس الموضوع، وبضبابية قد تقول إنّ الحقّ واضح ولا يحتاج لتثبيت طرق للتعرّف عليه، فراجع أبحاث المعرفة والإدراك والمنطق ومناهج البحث العلمي... لترى أنّ الموضوع ليس بهذه السهولة، وكمثال بسيط عن ذلك كم عدد التجارب التي يجب إجراؤها للتثبّت من صحة فرضية ما للتأكد من رابط ما بين الأحداث؟

في كلامه تعالى عبر القرآن، ككتاب لا يزال يحتفظ بمتنه الأصلي، لدينا فرصة رائعة وصلتنا من الإله سبحانه لنمذجة طريقته في تثبيت صحّة كلامه، حيث لم يطرح سبحانه علينا كلامه بصلابة الإيمان به كيفما كان، بل لا يعتبر سبحانه هذا النوع من الاعتقاد إيمانًا، كمن يرث الإسلام من أهله ومجتمعه ويعتبر نفسه مسلمًا بينما في جوهره لا يختلف عن الآخرين من الأديان الأخرى...

في هذه الدراسة واعتمادًا على محورية كل سورة حول موضوع ما، ستجد معينًا لدراسة الأسلوب الإلهي في طرح الحقّ وإثبات صدقه، وما التفرعات التي تعرّج عليها السور إلا استكمالًا لكل ما يتعلق بمحور كلامها، لتنتهي بصورة كاملة ملمّة بكل جوانب موضوع السورة، ولو أتيحت لي دراسة كالتي بين يديك موفرة علي عناء سنين من بناء منهاج أصوب مما هو منتشر في الكتب، وبناء قاموس دقيق للكلمات، ونبذ التفاسير الطائفية والمذهبية... لتوسعت في دراسة كل سورة متناولًا تبويب موضوعها وتفرعاته بأفضل مما ستجده هنا...

(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ{96})
{إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ}، تحقّقت وانطبقت فصدقت، {عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ}، كلمة المسؤول عنك من مستوى إلهي، وسياق الكلام هنا عن الذين لم يؤمنوا بالآيات الإلهية، سواء كحالة فرعون بإنكاره للآيات التي رآها... أو حالة إنكار قصّة انفلاق البحر وغرق فرعون... فهناك أناس اجتمعت فيهم الصفات التي تجعلهم، {لَا يُؤْمِنُونَ}، وسياق الكلام عن الذين وصلوا إلى حالة الإنكار والتكذيب لكلامه تعالى وآياته، فرفضهم للحقّ الظاهر الواضح سيوصلهم إلى حالة لن يؤمنوا بعدها أبدًا بأي شيء من كلامه تعالى.

سبحانه يعلم بأناس لن يؤمنوا بالحقّ ولا بأي شكل، وها يخبرك بأنها حالة موجودة، فلا تَصِرْ منهم بإنكارك لما تراه حقًا وعليه أدلة، وهم الذين:

(وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ{97})
{وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ}، لو حصل معهم أو أمامهم كل شيء مميز من مستوى إلهي فلن يؤمنوا، {حَتَّى يَرَوُا}، حتى يصير لديهم صورة محدّدة عن، {الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}، عن شيء يؤذيهم ويكون مؤلمًا لا يمكنهم تحمّله.

لو أتتهم كل أنواع الآيات المختلفة فهم لن يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، حتى يصلوا إلى مرحلة يشعرون فيها بأن نهايتهم حتمية بكارثة من الواضح أنها من أفعاله تعالى، فعندها يؤمنون.

نتذكّر النموذج الأول الذي ذكرته السورة عن قوم النبي نوح(ع)، حيث ماتوا ولم يؤمنوا بأن الطوفان عذاب إلهي قادم لإهلاكهم، ونفترض أنهم هربوا إلى الجبال عندما أخذ الماء بالارتفاع، وبقوا على كفرهم حتى غمر الماء رؤوس الجبال! وقبل ذلك لم يفكّر ولا واحد منهم بركوب السفينة! والنموذج الثاني عن فرعون وقومه الذين رغم لمسهم ورؤيتهم لثماني آيات عظيمة، لم يؤمن فرعون حتى اللحظة الأخيرة قبل الموت، واختار سبحانه عذابهم غرقًا بناءً على علمه تعالى بأنها مرعبة جدًا لفرعون وستجعله يؤمن غصبًا عنه حين يشعر بأنه حتمًا سيموت، ولكن حين ينزل العذاب يفوت أوان الإيمان.

سننتقل لنموذج نادر في التاريخ، وهو النموذج الثالث الذي تخبرنا به السورة بعد اختيارها لنموذج قوم النبي نوح(ع) الذين لم يؤمنوا حتى بعدما بدأ الطوفان، ونموذج فرعون الذي آمن بعدما أصابه العذاب، فلنتابع:

(فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ{98})
تحدثت السورة فيما سبق عن نموذجين لعذابين نزلا على أناس مشركين، الأول: الطوفان على قوم النبي نوح(ع)، وأثناء حدوثه لم يؤمن أي أحد من المشركين أنه عذاب منه تعالى، وفكروا أنه مجرد طوفان ولن يصل في ارتفاعه لدرجة غمره للجبال، فهربوا إلى الجبال، ولم يفكر ولا واحد منهم بالركوب في السفينة!

النموذج الثاني الذي تحدّثت عنه السورة كان عن فرعون وجنوده، وآمن فرعون في لحظة انهيار الماء أي في آخر ثانية من حياته من بعدما تيقّن بالموت بعذاب من فعل إلهي.

هنا سوف تتحدث الآية عن نموذج مختلف، فمنذ قليل قرأنا عن الذين لن يؤمنوا ولو جاءتهم كل أنواع الآيات...

{فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا}، فلو مجتمع ما من الناس معرّض لعذاب منه تعالى وأعلنوا اعتقادهم بدينه تعالى فنفعهم الإيمان بحيث رفع سبحانه عنهم العذاب، ولكن هذا لم يحصل فالذين أمر سبحانه بنزول عذاب عليهم لم يؤمنوا فنزل عليهم العذاب، فلو آمنوا في الوقت المناسب لما نزل العذاب.

تتذكّر أن كلمة {قَرْيَةٌ} تشير لأي مجتمع من الناس، سواء كان عددهم قليلا أو كثيرا، وسواء كانوا يعيشون في الخيام أو في بضعة بيوت صغيرة، أو في مدينة كبيرة، فكلمة {قَرْيَةٌ} أساسا معناها: مكان تجمّع للناس. ودرج فيما بعد حصر استعمال كلمة {قَرْيَةٌ} للمجموعة الصغيرة من البيوت.

{فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ}، مثل قوم النبي نوح(ع)، وفرعون وقومه، فلو آمنت تلك المجموعات من الناس، لنفعها إيمانها، "ولم ينزل العذاب الدنيوي عليهم"، ولكنها لم تؤمن في الوقت المناسب...

{إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ}، إلا الناس الذين لهم كيان الجماعة وينتمي النبي يونس (ع) لجماعتهم، حيث نفع إيمان قريته (ع) في الوقت المناسب، {لَمَّا آمَنُوا}، عندما صاروا في حالة اعتقاد بدينه تعالى، {كَشَفْنَا عَنْهُمْ}، فلم يبق يغطّيهم، فأوقف سبحانه حصول {عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، فأزاح سبحانه عنهم عذابا فيه الشعور بالمهانة بسبب قبيح ما فعلوه، فتركهم سبحانه أحياء.

{وَمَتَّعْنَاهُمْ}، وجعلناهم يستفيدون فينعمون ويتمتعون، فيتصرفون في الأشياء الموجودة في الحياة الدنيا مثلما تفعل بقية الناس، ولكن، {إِلَىٰ حِينٍ}، فهم في النهاية سيموتون وسيتوقف تمتعهم بما في الدنيا من مال وحدائق وطعام ومشتهيات وغيرها...

قوم النبي يونس(ع) هم النموذج الثالث الذي تعرضه السورة، وآمنوا قبل حصول العذاب، فكما ترى من الآية هنا أنهم استلحقوا أنفسهم وأعلنوا إيمانهم قبل بداية العذاب.

يقولون في كتب التاريخ الديني، إنّ النبي يونس(ع) أنذرهم ولم يؤمنوا به، فأخبرهم عن موعد قريب جدا لنزول العذاب الإلهي عليهم، طبعا بناء على خبر وصله منه تعالى، وخرج (ع) من القرية... وبعدها عندما رأى أهل القرية غيوما سوداء تغطّي السماء قادمة باتجاههم، علموا أنه العذاب الإلهي، فأعلنوا إيمانهم، وكشف ورفع سبحانه عنهم الكارثة التي كانت ستدمرهم.

إلى هنا تكون السورة نبهت المشركين ألا ينتظروا نزول العذاب حتى يؤمنوا، فقبلهم نزل العذاب على المشركين ولم يؤمنوا، فقضى سبحانه عليهم، إلا في حالة استثنائية واحدة حصلت مع قوم النبي يونس(ع)، فهل ستؤمنون أيها الكفّار عند رؤية بوادر الكارثة أم أثناءها أم بعدها؟ وهل ستغامرون بذلك لتتركوا الإيمان إلى آخر لحظة؟ فماذا لو فاتكم الأوان؟

من اللطيف تسمية المسلمين لهذه السورة باسم النبي يونس(ع)، علما أن الآية هنا هي الوحيدة التي تحدّثت عنه (ع) وعن قومه، ولكنها فعلا من أبرز الأمور المهمّة الأخرى التي طرحتها السورة، فهم نموذج تاريخي نادر. ولتكن هذه التسمية للسور والتي توافق عليها المسلمون ولم تكن إلهية المصدر، فلتكن نموذجا عن تسميتهم لبقية السور، فهم غالبا لم يسمّوا السور بالنظر لموضوعها، بل بأبرز ما لفت انتباههم فيها.

(وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ{99})
هل يعجز سبحانه عن جعل كل الناس مؤمنين غصبا عنهم؟ لا، وها رأينا كيف استجاب سبحانه لدعاء النبي موسى(ع) فجعل سبحانه فرعون يؤمن غصبا عنه في اللحظة الأخيرة، ويمكنه تعالى جعل الناس تمشي على الصراط المستقيم غصبا عنهم، بالتهديد الدائم فوق رؤوسهم، ببرمجة عقولهم، بسحب الشهوة والغريزة منهم...

{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ}، فأمام المسؤول عنك من مستوى إلهي خيارات عديدة ولو قرّر سبحانه، {لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا}، ومن دون استثناء لآمنوا، ويستطيع سبحانه بطرق عديدة إجبارهم غصبا عنهم أن يؤمنوا، وتصور الملائكة (ع) ترافقنا "حتى لو لم نكن نراها" فتضرب باللكمة والصفعة كل من فعل سيئة، أو تضربه كتنبيه قبل أن يفعل السيئة حتى لا يفعلها! أو تصور حصول ألم جسدي فوري عند كل من قال أو فعل شيئا سيئا، أو تصوّر تعطّل الجسد عن العمل قبل الشروع بعمل سيّء... وتصور أن يجعلنا سبحانه غصبا عنّا على طاعته، بأي طريقة كانت، فهذا لا معنى له، لأنه سبحانه خلقنا مع حرية الإرادة والاختيار، حتى يحصل الثواب والعقاب.

لا يجعلك نموذج إيمان قرية النبي يونس(ع) تظنّ أنه لو حصل شيء مماثل مع الآخرين لكانوا آمنوا، حيث قرأت عن طوفان بدأ يرتفع ويرتفع ولم يؤمنوا... وعن تسع آيات لفرعون ولم يؤمن... وآخرها آية رؤيته لطرقات في البحر ولم يؤمن... فهناك نوعية من الناس لن يؤمنوا إذا بقوا متمتعين بحرية الإرادة والاختيار إلا إذا وصلوا إلى عذاب حتمي مؤلم مسبّب للموت، وسبحانه وتعالى ليس عاجزا عن تعذيب الناس بشكل مؤلم حتى يؤمنوا وبعدها يرفع العذاب، ولكن هل سيبقون مؤمنين بعدما يرتفع العذاب؟ أم سيعودون للكفر وسيعود وينزل عليهم عذاب مؤلم، ويؤمنون ويرتفع العذاب، وبعدها يكفرون... وبعدها... وهذا ما حصل مع نموذج فرعون وملئه، فمن عموم القرآن نفهم أن من فيه أمل أن يؤمن فلن يميته تعالى قبل وصوله إلى الإيمان، ومن لن يؤمن فهذا مهما حصل معه فلن يؤمن وسبحانه سيعرّضه لما من المفروض أن يجعله مؤمنا وذلك حتى يسحب منه الذرائع في الآخرة حين يعذّبه، وإن آمن فحتما سيعود للكفر بعد ارتفاع العذاب... إلا إذا قرّر سبحانه أن يجعله مؤمنا غصبا عنه، فمثلا يجعل معه ملاكا يرافقه ويضربه فورا أو قبل ارتكاب السيئة وصرت تعلم لماذا هذا لن يحصل.

نرجع للآية، ويقول سبحانه لنبيه(ع): الإله سبحانه لن يجبر الناس ليصيروا غصبا عنهم مؤمنين بالرغم من قدرته تعالى على فعل ذلك، {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}! فهم طوعا ومن طيب خاطرهم لم يؤمنوا فهل أنت مطلوب منك جعلهم يؤمنون غصبا عنهم وضدّ إرادتهم! فهل سبحانه عاجز عن ذلك وأنت قادر عليه؟! أو هل نسي سبحانه ذلك وأنت تذكّرته وستقوم به؟! أم هل هو اقتراح جيّد وأنت ستمشي عليه وسبحانه لسبب غير حكيم لم يختره؟!

من بعد انقطاع أملك من إقناعهم بالإيمان عبر الآيات والبراهين، ربما تتمنّى أن يؤمنوا ولو بأي طريقة حتى لا تكون نهايتهم في جهنّم، وربما ترى أن إكراههم على الإيمان سيكون أفضل لهم من جهنّم، وسبحانه وتعالى قادر على جعلهم يؤمنون بالقوّة وغصبا عنهم، ولم يفعل سبحانه ذلك، فأنت واستنادا على ماذا يخطر ببالك أن تجعلهم مؤمنين ولو غصبا عنهم؟ ويخطر ببالك أمورٌ لو قام بها تعالى لكانوا آمنوا غصبا عنهم، لا، وها قصصنا عليك ما يجعلك ترى أنه تعالى يعطي الفرص العديدة، وسمعت شرحه تعالى وردوده على عقائدهم، وقراره سبحانه كان ولا يزال تركهم مع حريّة الإرادة والاختيار، ومن قرّر أن لا يؤمن، فهذا قراره وهو يستحقّ العقاب.

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ{100})
{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ}، فأي واحد من الناس ما كان ليعتقد بدينه تعالى، {إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}، يعني حتى الذي يعلن إيمانه فهو وبسبب حرية الإرادة والاختيار والقلب السليم والآيات التي جعلها تعالى فيه آمن.

{وَيَجْعَلُ}، الله سبحانه، {الرِّجْسَ}، الأشياء والصفات السيئة المنفور منها لسوئها، {عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ}، فمن يعقل فيفهم الكلام الإلهي فهذا بإذنه تعالى سيؤمن، ومن لا يعقله، فمن لا يريد جعله في عقله، فلا يريد الاقتناع به، فهذا سيكون الرجس عليه، فالأمور المنفور منها لسوئها ستكون على هذه النوعية من الناس، وقارنها مع بركته تعالى للمؤمنين فالرجس هو المعاكس للبركة.

(قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ{101})
{قُلِ}، أيها النبي(ع) للناس عبر هذا القرآن: {انْظُرُوا}، وجّهوا اهتمامكم العام، كما نقول بالعامية: شوفوا. التفتوا، {مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}؟ ماذا ترون في دنيا المخلوقات، وماذا في كوننا من نجوم وشمس وقمر... وما في السماوات الأخرى... وماذا في الأرض من نبات وحشرات وحيوانات وظواهر... وما معنى ذلك؟ فماذا تحتاجون بعد أكثر من ذلك لتؤمنوا بإلهكم الواحد الأحد؟

{وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ}؟ فالأمور المميزة، والكلام هنا عن الأمور المميزة بدلالتها على الحقّ، لأنَّ الذي نظر في السماوات والأرض ستصير عنده صورة فكرية ونفسية أن ما يراه آيات، فهي مميزة ولها دلالة واضحة عليه تعالى... فهل الناظر للآيات يصير غنيا لديه ما يحتاجه ليعرف الحق؟ {وَمَا تُغْنِي النُّذُرُ}؟ فنقل الخبر السيِّئ عن العقاب الحتمي لمن توافرت فيه شروط الحصول على العقاب، فماذا تغني، {عَنْ قَوْمٍ}، أناس لديهم كيان الجماعة، {لَا يُؤْمِنُونَ}، لا يصيرون في حالة الاعتقاد والالتزام، حيث عندهم قرار بالكفر؟

تقول الآية أنَّهُ في الأخير، الكون مبني بضخامة وتفاصيل هائلة لتدل على خالق عظيم، فهو آيات، وأرسل تعالى رسلا للناس وأنذروهم شفهيا... فاعلموا أن كل هذا لا ينفع مع الذين لا يؤمنون، وهم الذين قرروا أنْ لا يُؤْمِنُوا بالله سبحانه ولن يؤمنوا ولا بأي طريقة عادية لا من الآيات مهما كان نوعها ولا بالتهديد، إلا حين يَرَوْنَ العذاب. فخذ علما أيها القارئ للقرآن بوجود هذه النوعية من الناس، ولا تفكّر ولو للحظة أنَّهُ تعالى لم يُزَوِّدْهُمْ بما يكفيهم ليؤمنوا.

بعبارة أخرى، الآيات والإنذارات من المفروض أن تجعل معنا ما نحتاجه لمعرفة الحقّ، فبها نصير أغنياء بمعرفة الحقّ، فمن يعقلها ويفهمها صار معه ما يحتاجه، فهو غني، وهذا هو المعنى الأساسي لكلمة غَنِيٍّ الذي ينتشر تطبيقه على كل ما يغنيك.

كلمة "غني" تفيد معنى الاستغناء، وهو عموم انتفاء عموم الحاجة لعموم أي سبب، إمّا لأنك لا تحتاج أصلا للشيء، وهذه حالته تعالى، وحالة الملائكة بالنسبة لطعامنا... أو لديك ما تحتاجه وهذه حالتنا حين نملك الطعام والشراب... أو تملك ما يمكّنك من الحصول على ما تحتاج، وهذه حالتنا حين نملك المال لنشتري به ما نحتاجه. وترى هذا المعنى للاستغناء بشكل مباشر وواضح لأصل معنى كلمة "غني" في تعبير {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} كما ورد في الآية 97 من سورة آلِ عِمْرَانَ، حيث بوضوح يشير الوصف بالغني للاستغناء، فلا حاجة له تعالى بهم.

(فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ{102})
هؤلاء المشركون الذين لا يعقلون ولا يؤمنون ماذا ينتظرون أنْ يحصل معهم؟

{فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ}، هل سيبقون على حالة الكفر حتى يأتي الزمن بشيء يجعلهم يُؤْمِنُونَ، {إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ}، لأنَّ الكفّار الذين كانوا مثلهم وكانوا قبلهم في الحياة جَاءَتْهُمْ أيام من العذاب، فهل هؤلاء ينتظرون شيئا آخر؟ وَهذا ما سيأتيهم بعد زمن إن لم يؤمنوا الآن.

{فَانْتَظِرُوا}، لِيَمُرَّ زمن لتروا ماذا سيحصل معكم، {إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ}، وَأنا أيضا أتوقع مع مرور الزمن حصول شيء ما. النبي(ع) والمؤمنون ليسوا في خطر، حيث هم لا ينتظرهم العذاب، ولا مشكلة عندهم في الانتظار، بل المشكلة على المشرك، كما سنرى في الآية التالية:

(ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ{103})
عَادَةً بعد الانتظار يحصل العذاب الإلهي لمن لم يؤمن، وَيحصل بعاصفة أو طوفان أو مرض أو بركان أو زلزال...

{ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا}، نخرجهم من الخطر قبل حصوله، {وَالَّذِينَ آمَنُوا}، والذين اعتقدوا بدينه تعالى أيضا نخرجهم من الخطر.

{كَذَلِكَ}، كما أخبرناك عن نجاة الرسل والمؤمنين، وَمرّ معك هنا في السورة نموذج نجاة الرسول نوح(ع) والذين آمنوا معه، ونجاة الرسول موسى(ع) والذين آمنوا معه، {حَقًّا عَلَيْنَا}، لِأَنَّ من صفاتنا أوجبنا على أنفسنا أَنْ {نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ}، وَلا نترك المعتقدين بديننا يتعرضون للعذاب المخصّص للذين كفروا.

هُوَ خبر للمؤمنين ليطمئنوا من العذاب المخصّص للكافرين، وخبر للكافرين ليعلموا أَنَّ العذاب سيكون لهم وَحْدَهُمْ.

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِنْ أَعْبُدُ اللّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{104})

السورة مَحْوَرَتْ كلامها مع وعن المشركين، وانتهت من بيان كل شيء يتعلق بأفكارهم وشرحته وردّت عليه وبيّنته... وهدّدت... وهنا تعرض السورة آخر الكلام معهم.

{قُلْ}، أيها النبي(ع) وأيها المؤمن عبر هذا القرآن:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ}، بَعْدَ كل الآيات والأجوبة والتهديد والترغيب، {إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي}، حيث يخطر في بالكم ومن دون الاستناد لأي علم أنني أكذب وتميلون لكوني لست على حق، وتقولون إنّي على الأرجح مخطئ، {فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، حيث لا شكّ عندي فيما أنا عليه وها أخبركم بشكل حاسم أني لن أَعْتَقِدَ ولن أتصرّف على أساس أني مفروض مني طاعة الذين تعبدونهم من دونه تعالى.

كلمة عبد تشير لمن مَفْرُوضٌ منه وعليه الطاعة وَهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك. وما تعارفنا عليه بتسمية العبادة للصلاة والمناجاة... وَهي من تطبيقات العبادة، من تطبيقات طاعته تعالى وليست حصرية فيها لأن العبادة شاملة لكل ما تُطِيعُهُ به تعالى.

{وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ}، فَذُو الاسم المحدّد المميّز "الله" أَعْتَبِرُ نفسي وأتصرف على أساس أني مفروض منّي طاعته وحده، وهو، {الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ}، الذي يأخذكم بالتمام، وَيأخذ حياتكم حين تموتون.

كَنَمُوذَجٍ عن القدرة والصفة التي من المفروض أن يَتَحَلَّى بها الذي سأعبده، أن يكون له سيطرة على الحياة والموت، والذين تعبدون من دونه تعالى فهم لا يتوفون الناس، فلا يوجد عندي أي سبب لأعبدهم، أمّا سبحانه فعندي سبب وجيه جدا لأعبده، فهو يتوفانا وَيأخذ حياتنا، مما يعني أنه من الأساس هو الذي أحيانا "جعلنا أحياء"، ومن تبعات ذلك أننا حين نموت لا نختفي ولا يَعُودُ لنا أثر بل يتوفانا تعالى وسيعيد إحياءنا ليجازينا على عقيدتنا وتصرفاتنا.

{وَأُمِرْتُ}، حيث وصلني أمر منه سبحانه، {أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، فلا يحق لي وليس مسموحا الشرك به تعالى، وليس مسموحا أن أكون حياديا ولا أؤمن بأي شيء... فالموضوع ليس لعبة وليس على خاطري ومزاجي، فأصنع آلهة من رأسي، أو أختار آلهة اخْتَرَعَهَا غيري، أو لا أؤمن بأي شيء... لا، بَلْ وصلني منه تعالى أمر بأن أكون معتقدا بدينه وإلا سينالني العقاب.

لا تقطع الجملة هنا عن عموم كلام القرآن، فمن البديهي تذكّر الآيات الدالة من التفكّر فيها على الحقّ والصلاح، وبالتالي فهي دالة عليه تعالى وعلى صحة كلامه... ومن بعد هذا ومضافا له أتانا كلام صريح منه تعالى يحذرنا وينذرنا من اختراع عقيدة غير صحيحة، ويأمرنا بالإيمان به تعالى، وتفهمها بشكل أبسط حين تسمع بعض الناس يقولون إِنَّهُ حتى لو كان الكلام عن توحيده تعالى صحيحا وَإِنَّ الإله الخالق... ولكني حرّ، وأرتاح أكثر لعقيدة أخرى، ولا أظن أن الله تعالى لديه مشكلة فيما أَخْتَارُهُ من عقيدة... لا، فسبحانه لا يقبل بهذا بل ويهدّد عليه بالعقاب، ولا يرضى لعباده الكفر بل يأمرهم بتوحيده...

(وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{105})
وصلني منه تعالى أمر: {أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ}، فعّل ولا تهمل ولا تترك وجهك تَوَجُّهَكَ، أيها النبي(ع) وأيها المؤمن، فاجعله موجّها باتجاه واحد، {لِلدِّينِ}، لما تدين به لربّك سبحانه، لما هو عليك كَتَبِعَاتٍ لكونك مَخْلُوقاً، فحقّه تعالى عليك أن تعبده، فليكن دينك، {حَنِيفًا}، فكن مائلا عن كلّ شيء ومتوجّها فقط نحو تبعات كونك عَبْداً لإله واحد للجميع وَأَحَدٍ فلا إله غيره.

{وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، فهناك من اعتبر أن لغيره تعالى تبعات عليه، حيث دَانَ لغيره تعالى، وَجَعَلَ شركاء له تعالى في الألوهية يدين لهم بالطاعة، فلا تكن من هؤلاء.

تذكّر دَائِماً أَنَّ مُحَمَّداً(ع) كان شَخْصاً عَادِيّاً لا يعرف كل شيء عن العقيدة الصحيحة، فنزل عليه الوحي الإلهي يُعَلِّمُهُ، فمن الطبيعي نزول أمر إلهي عليه يخبره أن الشرك ممنوع وأنه تعالى لم يسمح به... وتذكّر أن السورة تتحدّث مع وعن مشركين يؤمنون بالله تعالى، ولكن جعلوا له تعالى شركاء ورفضوا طاعة رسوله(ع)، فسيقولون للرسول(ع): حَسَناً،

أنت تعبد الله تعالى وحده، ونحن نعبده ونعبد معه آلهة أخرى، فأين المشكلة؟ هَا نَحْنُ نعبد الله تعالى أيضا وَمَثَلُنَا مثلك في هذه النقطة. هُنَا الآية تقول لهم: بل تُوجَدُ مُشْكِلَةٌ فالشرك ممنوع.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية بِمُرَاجَعَةِ بداية السورة في ثاني آية منها، نتذكّر أَنَّهُ هناك بالأصل فكرة عند المشركين تقول: لا نعتقد أنه تعالى لا يقبل بعبادتنا لغيره، فبماذا سيتأثّر ولماذا سيعارض... وطالما نحن مرتاحون بهذا الشكل فلماذا سيرسل لنا من يخبرنا أنه تعالى لا يرضى بما نفعله؟ فلماذا سيتدخّل في حياتنا... لِذَلِكَ تَأْتِي الآيات هنا كالخلاصة لمحور كلام السورة، ولتخبرنا وبشكل واضح وصريح ومباشر أنه تعالى لا يرضى أن نشرك به.

كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، فهي ليست اصْطِلَاحاً مُخَصَّصاً كَاسْمٍ لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يَتَخَصَّصُ معناها، فهي عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شَيْئاً ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني فأنا مدين له، حيث خَلْقُهُ سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى وَاسِعاً بسبب سَعَةِ تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا مَعْنًى عَمِيقٌ لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... وَكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة هُنَاكَ نُدَانُ بأعمالنا، فما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هو التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضا يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مُنَاسِباً بحكمته يُدِينُنَا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ{106})
إليك النص بعد المراجعة اللغوية والتدقيق النحوي والإملائي، مع تطبيق كافة الشروط المطلوبة:

{وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، فهذا أمر واضح وصريح منه تعالى أَلَّا تعلن ولا تشهر بالكلام الذي تقصد به التوجّه إلى كائن من مستوى إلهي، فلا تتوجّه به لأحد غير صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" تعالى، {مَا لَا يَنْفَعُكَ}، فإذا دعوت غيره تعالى فستكون دعوت الذي لن تحصل منه على الاستفادة، {وَلَا يَضُرُّكَ}، فلا يمكنه أن يغيّر حالك وأحوالك للأسوأ.

{فَإِنْ فَعَلْتَ}، فإن دعوت غيره سبحانه، {فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ}، فليس معك حق ولا من العدل والإنصاف أن تترك إلهك الحقيقي الأحد وتقوم بالدعاء بالإعلان والإشهار لآلهة غير حقيقية، وبيّنت السورة كل تفاصيل هذا الموضوع، وبرهنت أن الإله واحد لا إله غيره، فأي دعاء، وأي إعلان وإشهار لغيره تعالى أنهم آلهة فهو غير صحيح.

نلاحظ في العديد من السور ربطاً لعقيدة المشركين بالدعاء "للآلهة" لطلب المنفعة وإبعاد الضرر، حيث إن الناس اخترعت الآلهة حتى تحصل على الرزق والانتصار في الحرب والتوفيق في التجارة... وصار لديهم إله للمطر وإله آخر للحرب وإله غيرهما للبحر... والآية هنا هي خلاصة الكلام عن الدعاء لتلك الآلهة الوهمية، لأنها لا يمكنها أن تنفع ولا يمكنها أن تضر، إذ ليست آلهة أصلاً.

بالنسبة لكلمة "دعاء" ومشتقاتها، في عموم استعمال العرب الكلمة يائية وواوية "دعوت ودعيت" مثل "طغوت وطغيت". وهذا في استعمال العرب ولكن كل القرآن استعملها فقط بالواو من الأصل الصرفي "دعو"، ووردت مرتين للمبني للمجهول مع ياء في الآية 12 من سورة غافر: {إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ}، وفي الآية 53 من سورة الأحزاب: {وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا}، وهذا مما جرى به لسان العرب في مثل هذه الحالة، وكما ترى من الاستعمال لا يمكن حمل الكلمتين "بالواو أو بالياء" على نفس المعنى إلا إذا كانتا على معنى عموم الإشهار والإعلان، وكذا الحال فيما جرى عليه لسان العرب بما ورد مرتين في الآية 4 و 37 من سورة الأحزاب: {أَدْعِيَاءَكُمْ}، {أَدْعِيَاءَهُمْ}.

ضع في بالك دائماً أنَّ أكثر الجمل القرآنية المشابهة لآيتنا هذه لم تقصد بشكل خاص أنهم يدعون على معنى يطلبون أشياء وأموراً من آلهتهم، بل قصدت العمومية، حيث قصدت أنهم يعلنون ويشهرون عن غيره تعالى أنهم آلهة، ولن يجدوا رداً من تلك الآلهة على هذا الإعلان، وهذا عملياً يتضمّن التوجّه بالدعاء لتلك الآلهة أن ترزقه أو تشفيه... وقارن هذا الكلام مع دعاء نتوجّه به نحوه تعالى لإعلان توحيده أو إعلان مدحه بحمده... فهذا دعاء لا يحوي أي طلب، لأنه مجرد إعلان منك أن الله تعالى إلهك وصفاته كذا وكذا... وتمدحه تعالى... وتذكر فضائله عليك لتشكره... لذا ضع هذا في بالك دائماً لأن أكثر استعمال القرآن لكلمة دعاء قصد ذلك ولم يقصد الدعاء على معنى طلب الأمور والأشياء.

توجّه بالدعاء حصراً لله تعالى لأنه:

(وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{107})

إليك النص بعد المراجعة اللغوية والتدقيق النحوي والإملائي، مع الالتزام التام بكافة الشروط والتعديلات المطلوبة:

{وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ} تعالى {بِضُرٍّ}، إذا أصابك تعالى وجعلك تشعر بتغيّر أحوالك وما حولك للأسوأ مالياً أو جسدياً أو اجتماعياً... {فَلَا كَاشِفَ لَهُ}، فلا رافع ولا مزيل للضرر، {إِلَّا هُوَ} سبحانه. أيُّ نوع من الضرر الذي يمكن أن يحصل معك، سواء ضائقة مالية أو مرض أو حرب أو ... هي تحصل لأنه سبحانه سمح بحصولها، ولا أحد يستطيع إيقافها إذا لم يرد سبحانه توقفها، لأنه الإله الأحد فوحدهُ القادر على اتخاذ قرار سيسري حتماً. {وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ}، فإن كان له تعالى إرادة أن تكون بخير، بشيء جيد، وإن يرد سبحانه أن يحصل معك شيء جيد، {فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ}، فلا أحد يستطيع أن يردّ فضله، فيمنع حصولك على أشياء جيدة منه تعالى وقرّر تعالى أن تحصل عليها من دون أن تكون واجبة عليه تعالى أن يمنحها لك. أيُّ خير يصيبنا فهو فضل منه تعالى، لأننا لم نقدّم له سبحانه أي شيء حتى يكون من الواجب عليه أن يعطينا الخير، بل هو سبحانه قرّر منحنا الخير. {يُصِيبُ}، سبحانه، {بِهِ}، بفضله بالخير، {مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}، إذْ إنَّ كلنا مفروض منا طاعته تعالى وأمامه سبحانه خيارات عديدة، ويقرّر منها ما يراه مناسباً، لأنَّ بيده تعالى قرار حصول هذا أو ذاك على فضل منه تعالى عليهم... {وَهُوَ الْغَفُورُ}، إذ يتجاوز سبحانه عن السيئات، فإذا ارتكبت سيئة فلا تقطع الأمل وتقول راحت عليَّ، لا، لأنَّهُ دائماً باب المغفرة مفتوح. {الرَّحِيمُ}، حيث لديه سبحانه عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، وتتذكّر من عموم القرآن أنه استعمل كلمة "رحمن" للإشارة إلى عنايته سبحانه العامّة بكل مخلوقاته، واستعمل كلمة "رحيم" لخصوص العناية بالمؤمنين، فالمغفرة عناية مخصصة منه تعالى فقط وفقط للمؤمنين ولا ينالها الآخرون لأنهم هم بقرار منهم بكفرهم ومعاصيهم خرجوا من تحت الرحمة الإلهية. إذَنْ نحن هنا في فقرة ترينا جميعاً مؤمنين موحدين أو مشركين، أن النفع الذي نتوقعه من عبادة الإله محصور بعبادته تعالى، ولا يمكن لأي أحد غيره تعالى إصابتنا بالنفع أو الضرر من مستوى إلهي، وبناء عليه فما معنى عبادة غيره تعالى؟ والكلام هنا عن النفسية والفكرة التي تدفع البعض لاختراع آلهة وترك توحيده تعالى، إذ إنَّ الأساس هو حاجتنا لتيسير أمور حياتنا، وإبعاد الضرر عنّا، والطريق الوحيد الصحيح لذلك يتفرّع من توحيده تعالى، وأمّا الأمل بالنفع من غيره تعالى على مستوى إلهي، فلا معنى له لأنه لا إله إلا هو تعالى، لذا يا أيها المشركون انتبهوا إلى أن ما تريدونه من آلهتكم من خير فلن تحصلوا عليه منها، وستحصلون عليه من توحيده تعالى. لتسهيل الفكرة سنعيد طرحها بأسلوب آخر، إذ نحن المسلمين لدينا مشكلة مشابهة، فهذه آيتنا هنا وعموم القرآن مشحون بالكلام عن حصر الدعاء لله تعالى، وضمنياً هذا يعني حصر طلب حوائجنا منه تعالى، وأي كلام آخر عن أناس قدّيسين وذوي كرامة ومكانة عالية عنده تعالى... لنتقرب منهم حتى يحققوا طلباتنا هم بما لهم من كرامة عنده تعالى، أو يرفعوا طلباتنا له تعالى ليحققها لنا، أو يسمع سبحانه طلباتنا مشفوعة بطلبنا لوساطة القديسين لتحقيقها... فإنَّ صريح القرآن يعارض بل ويمنعنا عن ذلك، وأي كلام يقوله المتقربون من القديسين كتفسير للآيات القرآنية دعماً لعقيدتهم، فهو لا شيء أمام صريح القرآن وأمام وضوح الاشتقاق والتحوير بالكلام حتى تصير بعض الآيات داعمة لعقيدتهم. هذا الكلام هنا بصراحة يخبرنا أن بابه تعالى مفتوح للجميع، ولا حاجة لوسائط بيننا وبينه سبحانه، والنفع والضر بيده سبحانه فقط وفقط وفقط، ورغم ذلك ترى أناساً يخترعون آلهة لاستجابة طلباتهم؟! وترى تعديلاً على هذه العقيدة الفاسدة بإقحام القديسين بيننا وبينه تعالى لتحقيق طلباتنا! نحن نستلطف كلمة "عباد" على كلمة "عبيد"، وكأنَّ كلمة "عبيد" قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة "عباد" ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، إذ كلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى

أن "عبيد" جمع عبد، و**"عباد"** جمع عبيد، فهي جمع الجمع، وأثناء الكلام بدقّة تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، لذا تقول الآيات: "عبيد". ووردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وتكون لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية "عباد"، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. أو تكون لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، لأنها تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخرين جاءهم رسول، وعبيد آخرين... وجمع الجمع "عباد"، لذا فإنَّ كلمة "عباد" ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جداً عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ{108})

إليك النص بعد المراجعة اللغوية والتدقيق النحوي والإملائي، مع الالتزام التام بكافة الشروط والتعديلات المطلوبة:

أيها النبي(ع)، {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ}، الخطاب موجّه للجميع بدون استثناء، {قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ}، فوصلكم الصواب الصحيح، {مِنْ رَبِّكُمْ}، من المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {فَمَنِ اهْتَدَى}، مَنْ سار على الحق وكان على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، وكان على طريق الحق في تصرفاته وكلامه وفكره، {فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ}، إذ سيكون هو المستفيد لأنه هو سيعتقد بالحقّ وهو سيكون موصوفاً بالصلاح، وفي نفس الوقت سيكون تعالى راضياً عنه وسيدخله إلى الجنّة في الآخرة، والمستفيد من الهداية أنت ولا يستفيد النبي(ع) ولا يستفيد الله تعالى، إذ لا تزيد أملاكه تعالى أو قوته أو يرتاح نفسياً أو أي شيء...

{وَمَنْ ضَلَّ}، وَمَنْ ترك طريق الحق ومشى على طريق الباطل في كلامه وفكره وتصرفاته و... {فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا}، لأنَّ الضلال هو ترك طريق الحقّ والصلاح وهو الاتصاف بالاعتقاد بالكذب وفعل السوء، وهو نفسه ما يكرهه تعالى، وستكون نتيجته على من ضلّ لأنه هو سيدخل النار.

وقل أيها النبي(ع) للناس: {وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ}، لستُ بمعتمد ولا مسؤول عنكم لتسير أموركم على التمام، ولم يوظفني سبحانه وكيلاً عليكم لأراقب تصرفاتكم وأكون مسؤولاً عن إيمانكم وأتحاسب إن لم تؤمنوا. لستُ مثل مدير المصنع المسؤول عن العمال وبالتالي سيحاسبني صاحب المعمل وعلى الإنتاج... لا، ولست مثل وكيل مزرعة والمسؤول عن المزارعين لأضمن أن يعملوا بشكل صحيح، لا.

لاحظ أنَّ القرآن كرّر هذا المعنى مراراً بعدّة طرق، فقال مراراً إنَّ الرسول وظيفته التبليغ وتوصيل الرسالة فقط، ومن بعد ذلك حتى لو كفر كل الناس، فلن يتحاسب الرسول ولا علاقة له، لأنه ليس وكيلاً عليهم.

في النهاية وبعد كل شيء، يمكن للمشركين أن يتناسوا كل شيء ويقولوا: لننظر لنتيجة عمل محمد كرسول، إذ إنَّ الغالبية لم تؤمن له، "في بداية الدعوة"، وهناك فشل، وإمّا أن يكون كاذباً وفشل في طرح أمور تجذبنا، أو يكون صادقاً وفعلاً رسولاً منه تعالى ولكنه فاشل في التبليغ... وتأتي آيتنا هنا وبشكل واضح وصريح لتقول: لست أيها الرسول عليهم بوكيل. عملياً الرسول محمّد(ع) التزم بنقل كلامه تعالى، ونقل هذا القرآن، وتكفّل سبحانه بالكلام عبر هذا القرآن مع عموم الأنواع المختلفة من عقائد الناس ليطرح عليهم الحقّ، وعملياً لم يطلب تعالى من رسوله(ع) لهداية الناس إلا نقل هذا القرآن لهم، ولن يحاسبه إن لم يؤمنوا.

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، لأنها لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شراً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فقد ضلّ عنك صيدها. واستعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، ولم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، ولن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال

النبي موسى(ع) عن دين فرعون لأنه ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} رداً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىَ يَحْكُمَ اللّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ{109}
إليك النص بعد المراجعة اللغوية والتدقيق النحوي والإملائي، مع الالتزام التام بكافة الشروط والتعديلات المطلوبة:

{وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ}، كن فقط على ما يصل إلى وعيك من عندنا أيها النبي(ع)، لأنك رسول وعليك بنقل الرسالة بالكامل، وعليك "وعلى المؤمنين" الالتزام فقط بما نوحيه إليك. {وَاصْبِرْ}، حافظ على تصرفك بشكل واعٍ ومدروس، واصبر على الأذية وقلة الأدب والسباب والشتائم... ولا تفلت أعصابك، {حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ}، لأننا أمرناك بالصبر على أساس أننا نراقب كل شيء وسنحكم بما هو مناسب وفي الوقت المناسب لإنهاء الوضع الصعب الذي تمرّ فيه. {وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}، سبحانه أفضل من يحكم مطلقاً بالقياس لغيره أو بالنسبة لصفاته الحسنى والفائقة، حتى بدون مقارنة مع المخلوقات سبحانه خير الحاكمين، لأنه تعالى يحكم بالحقّ وعن علم، ولأن حكمه تعالى يتنفّذ بالتأكيد. تعلم مما هو مشهور في التاريخ وما تجده هنا وهناك في القرآن، أنه تعالى لم يقرّر تعذيب المشركين العرب بعذاب يبيدهم، وتعلم أنهم فيما بعد أسلموا، وفي سنوات قليلة من بعد وفاة النبي محمّد(ع) اختفى الشرك من عموم الجزيرة العربية وما جاورها، وحكمه تعالى الذي تتحدّث عنه الآية هنا وتأمره (ع) بالصبر حتى يأتي، صار معلوماً فيما بعد حيث نصر سبحانه رسوله(ع) عسكرياً على المشركين... كلمة حكمة ومشتقاتها تشير لعموم ضبط الشيء على المطلوب: على الصوابية على الحقّ... وعلى نفس المعنى الأساسي نقول: أحكم الوثاق، حكم بالعدل، حكومة على الناس... وتفسير الحكمة بالأهداف والغايات السامية هو من تبعات تطبيق صوابية الحقّ، ووصفه تعالى بالحكيم يشير لرؤيته تعالى الصوابية في الأمور وأن قراراته وأفعاله كلها على الصوابية، لأنه لا يعبث ولا يلعب وقراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول إنَّ أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، لأنه لا يفعل لغاية له سبحانه. كلمة "حكم" وصف لعموم ضبط الأمور كما هو مطلوب على الصواب، وعندما تكون صفة أو وصف فعل له تعالى فإنها تحمل الناحيتين من معناها، حيث تحمل معنى صوابية الأمور التي قرّرها وفعلها تعالى لأنها حقّ، وتحمل معنى الحكومة الدارج بيننا وهو معنى اشتقاقي من الحكم ويشير إلى تنفيذ ما حكم به، حيث تشير للسلطة على تنفيذ الحكم. الحكم على معنى الحاكمية والحكومة "السلطة"، إذ إنَّ أصل المعنى البتّ في الأمور بحكمة، بصوابية ضبطها على المطلوب على الحقّ، ومن مشتقات ذلك عموم أي حكومة كفرض شيء على الآخرين. ووصفه تعالى بالحكيم متضمناً "حكمه وحكومته" متطابق مع أصل معنى الكلمة، لأنَّ قراراته حقّ، أمّا حكم وأحكام وحكومة الناس، فالمقصود منها بالأساس أن تكون لضبط الأمور بالحق، وفي التطبيق يحصل عادة مخالفة للحقّ، حيث تكون الأحكام والحكومة ظالمة، وتعابير القرآن عن ذلك منها ما ورد في الآية 47 من سورة المائدة {وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}، وأمثالها من التعابير التي لم تغيّر في أصل معنى الكلمة، بل أبقتها على معنى ضبط الأمور على الصواب، ونبّهت إلى أن مخالفة أوامره تعالى هي حكومة ليست على الصواب.

سورة هود (11) ص 221
تتمحور السورة حول لبّ الدين الإلهي لنا وهو عبادة الإله الأحد، والاستغفار. وإلا فالعذاب الحتمي في الآخرة واحتمال نزول عذاب في الدنيا إذا توافرت شروط حصوله.

بدأت السورة بعرض لبّ الدين: التوحيد. وبعدها عَرْضٌ للمخطط الإلهي لنا بحياتنا هنا في الدنيا وبعدها انتقالنا للآخرة لمحاسبتنا ومجازاتنا، وبعدها انتقلت لِفَصْلِ العلاقة معه تعالى على أساس المصلحة الدنيوية، فهذه دار بلاء تقع فيها المصائب... وانتقلت للبرهنة المختصرة عن صحة إلهية مصدر هذا القرآن فعبره جاء الأمر بالتوحيد، وعبره جاء الإنذار من الشرك والكفر... وعبره ستأتي قصص فيها عبرة عن تعذيب مشركين... ثم دخلت مُطَوَّلاً في قصص أقوام

نالوا عذاباً دنيوياً وكانوا مرتاحين في حياتهم... وفي ختامها عادت للكلام عن مصير الناس في الآخرة استناداً لما كان عليه فكرهم ونفسيتهم وسلوكهم في الدنيا مع تعليم وتحفيز للمؤمنين للبقاء على إيمانهم.

في الآية 101 نجد الخلاصة من كل القصص، فالنعمة التي كان فيها بعض الأقوام هي منه تعالى وليست من آلهتهم التي كانوا يعبدونها والتي لم تستطع فعل شيء لهم أمام عذابه تعالى.

تلاحظ في سورتنا هنا وعموم السور التي كرّرت القصص المذكورة هنا، أنها اختارتها وذكرتها في كل سورة من الزاوية التي تناسب محور كلام السورة، حيث يبدأ التدرج من العذاب الإلهي بسبب الكفر لقوم النبي نوح(ع) والذي نتج عنه فعلهم لمختلف أنواع السوء، فلم يكن هناك سُوءٌ واحد بارز يفعلونه بل كان بينهم توافق شبه عام على مختلف أنواع السيئات... فإن استصعبت تعذيبهم لكفرهم وفعلهم لمختلف أنواع السيئات من العيار الثقيل، فخذ مثلاً عن تعذيب قوم طلبوا آية ليؤمنوا، وحصلت ومشت بينهم وقتلوها... وهذا تراه في نموذج قوم ثمود والناقة، وبعدها يأتيك نموذج التحدّي بالآلهة، حيث تهدّد النبي هود (ع) بآلهة المشركين، ولم يحصل شيء، وهدّدهم (ع) بالله عزّ وجلّ فأبيدوا، وبعدها نموذج عن شيء من المستحيل أن تعترض عليه إن كان فيك ذرة عقل، فهو كلام عن قوم يعتدون جنسياً على الغرباء، كنموذج فاقع واضح بارز على مخالفة أوامره تعالى والتي تمسّ الناس في حياتهم... وهو نموذج قوم النبي لوط(ع)، وبعدها مثال مشابه عن شيء فاسد جداً جداً، عن الغشّ، فقوم مدين كانوا مسيطرين على سوق مركزي يقصده مختلف الناس ويؤمّن لهم العيش الكريم، فما معنى الغشّ لربح زائد عن نعمة كافية للعيش الكريم!

أخيراً فرعون الذي تمتع مع قومه بثراء فاحش وقدرات غير عادية، وجاءتهم تسع آيات، ومع الكثير من طول البال عليهم ليكونوا نموذجاً عن حلمه تعالى... وفي المقابل إصرار فرعون على استضعاف الآخرين والاستهتار بأرواحهم. فهل من عاقل يناقش في معاقبة هذه النوعية من الناس؟

كلّ هذه النماذج كانت تعيش في نعمة، وتختلف في درجة بحبوحتها ورغدها، ولكن بشكل عام كانوا مرتاحين اقتصادياً، ولم يفهموا ولم يؤمنوا أنها نعمة من الله تعالى، فجعلهم سبحانه عبرة للآخرين...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ {1})
هذه حروفٌ نتهجّاها مقطّعةً هكذا: ألف، لام، راء.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوَّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ

فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوِّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

نرجع للآية، {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ}، فهذا القرآن كتاب جعل سبحانه جمله المميزة مترابطة ومتماسكة بالمضمون والهدف، ومن الكتاب الرئيسي جرى اختيار المواضيع التي ستتحول إلى هذا القرآن، فأحكمت، {ثُمَّ فُصِّلَتْ}، ففصّلها سبحانه ولم يجعلها مبهمة مختلطة مع أمور تشوّش من يقرأها، حيث في الكتاب الرئيسي لم تكن المعلومات مكتوبة فيه بالطريقة التي نفهمها نحن عادة للكتابة، بل هي شيء فوق قدرتنا على الفهم والتصور، ولذلك فصّلها لنا سبحانه فتحولت إلى معلومات على شكل جمل باللغة العربية لنفهمها نحن البشر.
هذا الإحكام والتفصيل هو {مِنْ لَدُنْ}، من عنده سبحانه "مباشرة" وبنفسه، فلم يترك انتقاء المواضيع وصياغة الجمل للملائكة(ع) أو لغيرها، بل بنفسه سبحانه اختار ما سينزل وحياً.

{مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ}، فأفعاله وقراراته على الحقّ والصوابية وليست عبثية، مما يعني أن الإحكام والتفصيل حصلا بحكمة ربانية، وحصلا من رؤية الصوابية في الأمور.

{خَبِيرٍ}، لديه أخبار تفصيلية عن كل شيء، وهذا يعني أن آيات القرآن صدرت عن خبير يعلم تفاصيل كل شيء، وعندما يخبرنا سبحانه عن نفسه أو عن الملائكة (ع) أو عن العقيدة أو عن قصص وحوادث ماضية أو مستقبلية... أو عن الآخرة وما سيجري فيها... فهو سبحانه يتحدث عن علم شامل بكل أخبار ما حدث أو سيحدث.

هنا في هذه السورة جرى اختيار قصص لأقوام سابقين عن حكمة، ومن خبير يعلم تفاصيل كل ما جرى. وقبلها وبعدها جرى اختيار كلام عن تخطيطه تعالى لنا بمرورنا من الدنيا إلى الآخرة حيث سنتحاسب ونتجازى، وعن حكمة جرى اختيار ما يناسب نقله، ومن خبير يعلم بالضبط والدقة والتفصيل ما جرى وسيجري، وأول وأهم شيء أحكمه تعالى وفصّله عبر هذا القرآن:

(أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ {2})
الكتاب الذي أحكمه وفصّله سبحانه وهو القرآن، محوره وموضوعه الأساسي كما تقول الآية هنا هو:

{أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ}، ذُو الاسم المميّز المحدّد "الله" سبحانه إلهكم فمفروض منكم طاعته وَحْدَهُ فتصرّفوا على هذا الأساس، ولا تتصرّفوا على أساس أنكم عبيد لغيره تعالى. عَمَلِيّاً هذا أمر بالإيمان بدينه تعالى واتخاذه منهجا في حياتنا.

{إِنَّنِي}، أنا الرسول الناقل لكلامه سبحانه لكم، {مِنْهُ نَذِيرٌ}، فأنقل لكم الخبر السَّيِّئَ منه تعالى بالعقاب الحتمي لمن توافرت فيه شروط حصول العقاب، فيا من أنتم الآن في حالة عبادة غيره تعالى، هذا شيء بالتأكيد عليه عقاب وأنا أنقل لكم الإنذار منه تعالى على ذلك.

أَنِّي لكم منه تعالى، {بَشِيرٌ}، فأنقل لكم الخبر السار المفرح منه تعالى لمن عبد الله تعالى وحده، وتعلم أنها بشارة بدخول جنّة رائعة لمن آمن وعمل صَالِحاً.

مِنْ هذه الآية، ستبدأ السورة بعرض موضوعها الرئيسي، بداية مع: عبادة الله تعالى وحده، وأنه أرسل لنا رَسُولاً ينذر المخالفين من كافرين ومشركين، ويبشّر المؤمنين.

سَنَرَى في السورة قِصَصاً عن أقوام عبدوا آلهة غير الله تعالى، وسنرى أن تلك الآلهة لم تستطع فعل أي شيء لتنقذهم من العذاب الدنيوي... وتخبرنا السورة عن عذاب أشد لهم في الآخرة... وتخبرنا عن عنايته تعالى بالمؤمنين في الدنيا ونجاتهم من العذاب وفوزهم في الآخرة بِالْجَنَّةِ...

أما بالنسبة للذين نصطلح عليهم بالملحدين وهم الذين لَا يُؤْمِنُونَ أَصْلاً لا بإله ولا بآلهة، فعادة يقفز القرآن عن توجيه الكلام معهم وعنهم مباشرة، ويجعله مُتَضَمّناً في كلامه مع المشركين حين يلفت انتباههم لِمَا هُوَ مَزْرُوعٌ فيهم من التعرّف عليه تعالى والذي يتفعّل في حالة الخوف الشديد... ويلفت انتباههم لأفعاله تعالى بخلقهم وخلق بيئتهم والتي تدل

على إله واحد... ويلفت انتباههم للامتداد التاريخي لتواصله تعالى معنا عبر رسله... وستجد سُوَرَ الرعد والجاثية والواقعة مُنَاسِبَةً للكلام مع الملحدين...

ضع في بالك دَائِماً الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى مَعَانِيَ قرآنية رائعة، وَتصور شَخْصاً أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أَيّاً منهما بعد، فهنا تحذّره من سلوك الطريق السَّيِّئ، لِأَنَّهُ حَالِيّاً ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ}، والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}.

أمّا إذا سلك طريق الخطر، فَتنذره، لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. وَالإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حَتْماً ما يضرّه، وَتنذر الكافر حيث هو في حالة ستسبّب له العقاب حَتْماً، وَورد هذا كَثِيراً في القرآن. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يتلبّس بما سيسبّب له الضرر، حيث تحذّر المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

هذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، حَيْثُ يقوم المؤمن بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، وَتنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة المسيحيين المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً}، وعموم المؤمنين المشمولين بالتهديد من فكرة فعل السيئات على أساس أن يحمل أحد ما السيئات عنهم {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}، والمشمولين بالتهديد إن لم يتغيّروا نحو الأحسن وَالْمَوْعُودِينَ بالمغفرة كما ورد في الآية {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}، ونفس المفهوم في الآية 45 من سورة النازعات {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا}.

(وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ {3})

أنقل لكم منه تعالى:

{أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ}، اطلبوا من المسؤول عنكم من مستوى إلهي أن يتجاوز عن سيئاتكم، {ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ}، وأقلعوا عمّا سبق، وافتحوا صفحة جديدة، وأعلنوا له تعالى أنكم فعلتم ما هو سيئٌ وتطلبون أن لا يعاقبكم سبحانه عليه على أساس أنكم تعترفون بسوئه ولن تكرّروه.

وإذا عبدتم الله تعالى وحده واستغفرتم وتبتم، {يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا}، حيث يجعلكم سبحانه تنتفعون وتستفيدون بشكل عام من الأشياء الموجودة في الدنيا من طعام ولباس ومسكن وزواج... وسوف تحصلون عليه بشكل حسن يرضيكم، ولكن هذا المتاع في الدنيا سيكون {إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}، إلى موعد زمني محدد ومعروف عنده سبحانه، لأنَّ حياة كل واحد منّا في الدنيا لها نهاية وأيضا الدنيا لها موعد وستنتهي فيه، وموت كل واحد منّا هو الموعد المحدّد عنده سبحانه لنهاية تمتّعنا بما في الدنيا.

سنلاحظ تركيز السورة على أقوام متّعهم تعالى في الدنيا وكفروا ولم يتركهم تعالى وقضى عليهم، وإذا لم يشرك الناس، وعبدوا الله تعالى وحده، وتابوا واستغفروا: يكونون في الأمان من العذاب الدنيوي الجماعي، ولهم فضل منه تعالى سيحصلون عليه، حيث من عموم القرآن أنه تعالى سيتدخّل مانعاً عنهم الكوارث الطبيعية بل سيتدخّل ليجعل حياتهم أفضل، وهذا مضافٌ لأصل كون حياتهم سعيدة إن كانوا عموماً مؤمنين عاملين للصالحات لأنهم وبسبب صلاحهم سيهتمون ببعضهم البعض وببيئتهم، وهذا ما تجده في الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}. أمّا إن أشركوا ولم يتوبوا فسينزل عليهم عذاب مثلما نزل على الأقوام التي ستتحدّث عنهم السورة.

ضع هذا في بالك وسترى في بقية السورة كلاماً يتمحور حول حصر بعض الناس العلاقة معه تعالى بما لهم من مصلحة دنيوية.

{وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ}، كل من هو موصوف بأن له شيئاً من فضله تعالى من أمور جيدة يقدمها تعالى له من دون أن تكون واجبة عليه سبحانه، فسيؤتيه سبحانه ما له من الفضل الإلهي، وعملياً سيعطيه تعالى ثواباً في الدنيا بتمتيعه بها وسيعطيه ثواباً في الآخرة على الأعمال الحسنة التي قام بها. بعبارة أخرى فإن الالتزام بما يأمرنا به سبحانه له نتيجة، وسيتحدّد عليها فضل منه تعالى، وسيحصل على الفضل الإلهي كل من هو موصوف باستحقاق الفضل الإلهي عليه. كررت لك الكلام لتنتبه أنه وعد منه تعالى لم يكن مفروضاً عليه بل، إن جاز التعبير، ألزم به سبحانه نفسه، وسيلتزم به مع المؤمنين.

{وَإِنْ تَوَلَّوْا}، إن ذهب الناس باتجاه آخر غير هذا العرض، ولم يقبلوه ولم يلتزموا به، فقل لهم أيها النبي(ع):

{فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ}، أشعر تجاهكم بخطر أكيد سيصيبكم ولا يمكنكم تجنّبه، وهو {عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ}، حيث هناك زمن الآخرة الذي يبدأ بيوم القيامة من الموت وهو حدث كبير، وبعده محاسبتنا مباشرة منه تعالى... وفيه أيضاً عذاب كبير، كشيء يصيب الذين تولّوا بالضرر والأذى ولن يكون عادياً.

(إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {4})

{إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ}، بعد الانتهاء من الحياة الدنيا، لن تختفوا، ولن تذهبوا للفراغ، ولن تنتقلوا إلى عالم لم يخلقه تعالى ولا يحكمه تعالى... بل سترجعون كلكم إلى الحياة مرة ثانية، وستخضعون لحكم صاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى وسيحاسبكم ويجازيكم على التزامكم أو مخالفتكم لما أمركم به.

{وَهُوَ}، الله سبحانه، {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، هو قادر على فعل أي شيء بأي شيء، حيث يمكنه تعالى إرجاعكم إلى الحياة مرة ثانية، ويمكنه محاسبتكم، وباستطاعته إدخالكم إلى النار أو إلى الجنة...

بعد قليل سوف نرى فيما نراه من أفعاله هنا في الدنيا أدلة على أنه تعالى قدير، حيث يملك قدرة عظيمة لفعل أي شيء يريده، وسنرى نماذج مطولة في قصص عن أقوام جرى تعذيبهم هنا في الدنيا، ولم يستطع أي أحد منع العذاب عنهم لأنه تعالى قدير، وهي نماذج عن عذاب الآخرة...

محور السورة حول صراحة ووضوح مخطط ربنا سبحانه لحياتنا كلها، حيث عرضته هذه المقدمة بشكل موجز وصريح: وَحِّد الله تعالى، أَطِع رسوله النذير البشير، وعندما تخالف كلامه تعالى فاستغفره وتب إليه... لأنك سترجع إليه تعالى، فيغفر لك وتدخل الجنة، وإن لم تفعل ذلك فستدخل النار.

خلال السورة سترى انطلاقاً من الآية السابقة التي لفتت الانتباه لحصولنا على فضله تعالى بقدر محدّدٍ سلفاً... سترى بشكل ما تركيزاً على بنيان علاقة صحيحة معه تعالى غير مبنية على المصالح الدنيوية التي إن فقدتها فقد تقرّر مخالفة كلامه تعالى.

تعقيباً على قدرته تعالى على كل شيء، ننتبه لسخافة بعض المتذاكين، الذين يقولون: هل يمكن أن يصنع ربنا دائرة مربعة؟ أو هل يمكنه جعلي موجَداً ومعدوماً في نفس الوقت؟ وهل يمكنه وضع الدنيا في بيضة دجاجة بحيث لا تصغر الدنيا، ولا تكبر البيضة؟ وهل يمكنه خلق نسخة عن نفسه؟... وإذا كان لا يستطيع فعل ذلك، فهو ليس على كل شيء قدير!

ننتبه جيداً فهذه سخافات لا معنى لها، وهي ليست مستحيلة، وصعبة جداً، بل: هي لا معنى لها. وأكرّر لك فانتبه جيداً: لا معنى لهذا الكلام. فهي مجرد صفصفة كلمات، فالكلمات المستعملة فيها لها معنى ولكنها موضوعة في جمل ليس لها معنى، ويمكننا اختراع الكثير منها وكمثال: هل يمكنك أن تعرف بماذا أفكر حتى لو استخرجت دماغي وأحرقته؟ وهل يمكنك أن تتواصل معي حتى لو عطلت لك كل حواسك؟ وهل يمكنك الرؤية حتى لو اقتلعت لك جهازك البصري بالكامل؟ هل يمكن أن أكون أنا أنت وأنت أنا وفي نفس الوقت أبقى أنا أنا وأنت أنت؟... هل ستأتي أمس لأريك حديقتي التي زرعتها السنة القادمة؟... وهل لهذه الجمل معانٍ؟ أم أنها مجرد صفصفة كلام؟ ويسمونها في الكتب بالمحالات

العقلية. انتبهتَ، فهي لا معنى لها، حيث يمكنك القول: هل يمكننا رمي شخص في النار ولا يحترق؟ الجواب: نعم، حيث نضع عازلاً بينه وبين النار، أو نعطّل الذبذبات والترددات الناتجة عن تفاعل المواد المسببة للنار ونمنعها عن التفاعل مع جسم الشخص الذي يتعرض لها... وحصل هذا مع النبي إبراهيم(ع)، حيث أمر سبحانه النار بأن تتغير طبيعتها لتكون برداً غير قارص على جسد النبي إبراهيم(ع)، ولم يترك سبحانه النار على طبيعتها بل غيّرها، فلا معنى لبقاء النار على طبيعتها، وفيها النبي إبراهيم(ع) بلا عازل، ولا يحترق، فهذا لا معنى له.

لا تتشوش أفكارك بالبحث عن أجوبة لكلام بلا معنى، فالله تعالى على كل شيء قدير.

(أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {5})

ما هي ردة فعل بعض الناس على التوجيهات الإلهية التي تحدثت عنها الآيات السابقة:

{أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ}، يقومون بحركة تدل على أنهم لم يسمعوا كلامك، وكما تشاهد شخصاً ماشياً على الطريق، تناديه، ولكنه يتهرّب منك، ولا يلتفت إليك، ويخفض رأسه، ويقوّس أكتافه باتجاه صدره، ويكمل مشيه، مع أنه من الواضح أنه يسمعك تناديه، وهيئة جسمه وحركاته تدل على تصنّعه بأنه لم يسمعك، وهنا نفس التصوير، حيث إنَّ النبي محمد(ع) يتكلم مع الناس بهذه الآيات وغيرها، ولكن الذين لا يريدون الإيمان {يَثْنُونَ} ويطوون صدورهم، ويحنون أكتافهم ورقبتهم وظهرهم باتجاه صدرهم، {لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ}، ليكونوا غير ظاهرين لك ولا تراهم، حتى يتجنبوك فلا توجّه الحديث لهم.

{أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ}، حين يقومون بتحريك الثوب الذي عليهم ليغطيهم ويحيط بهم جزئياً أو كلياً من جهتك ليواصلوا طريقهم وكأنهم لم يسمعوك لأنّهم يمثّلون أنك لم ترهم ولم يروك، ويقومون مثلاً بإنزال اللحاف أو الغطاء الذي يضعونه على رأسهم، أو يرفعون قميصهم على وجههم... بحيث يجعلون الثوب يغشى يغطي جانب وجههم باتجاهك، ولا ترى وجههم، ويكملون طريقهم كأنك لم ترهم...

كما ترى ضربت السورة هذا النموذج مثلاً بارزاً عن أي حركة أخرى يقوم بها المشركون تجنباً لسماع كلام الرسول(ع). فماذا يظنون أنفسهم يفعلون بهذه الحركات! فإن كانوا يتجنبونك بهذه الطريقة، فالله تعالى بالتأكيد، {يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ}، ما لا يظهر منهم علناً، ويعلم سبحانه ما لا يعلنون عنه وهو موجود في عقولهم وضمائرهم، ويعلم سبحانه، {مَا يُعْلِنُونَ}، ما يجعلونه واضحاً أمام الآخرين، ما يصدر عن ألسنتهم وأفعالهم.

ما نفع هذا التخفي بالحركات والثياب والتجاهل للنبي(ع) والمسرحيات! أنتم وصلتكم الرسالة منه سبحانه، فما نفع هذا التجاهل التمثيلي ممن يعلم ظاهركم وباطنكم؟

{إِنَّهُ عَلِيمٌ}، حيث لديه علم تامٌّ وشامل وتفصيلي، {بِذَاتِ الصُّدُورِ}، بما نتفاعل به مع الأمور، وما يدور في صدورنا وهو تفاعلنا الفكري والنفسي مع الأمور، حيث نتضايق منها أو نفرح بها أو نرفضها أو نقبلها... وكله يعلمه سبحانه، فما معنى مسرحية تهربكم من كلام النبي(ع)؟

هذا المشهد عمومي ويتكرر في كل العصور بين شخص مؤمن تَحَدَّثَ مع شخص غير مؤمن أو غير متدين، ويتحاشاه ويتجنب اللقاء معه أو السلام عليه، لأنه لا يريد الالتزام بالدين الإلهي، ويظن نفسه أنه سيكون متفلتاً من الالتزام به إن لم يسمعه! فإذا ادّعى أنه لا علاقة له بدينه تعالى فهو لن يتحاسب ولن يحصل معه أي شيء مما يقوله تعالى!

بالنسبة لكلمة {صَدْر، صُدُور} فإن لم يكن القصد بها لأعضاء الجسد للقفص الصدري وما تحته من أعضاء... استعملها القرآن كما يستعملها الناطقون باللغة العربية وكما هي مستعملة في العديد من اللغات الأخرى، حيث نشير بالصدر للتفاعل الداخلي للإنسان مع ما يراه ويسمعه ويشعر به مما يتعرّض له... ونحن عندما نتعرّض لمختلف الظروف، نشعر بالانقباض أو الانشراح... في صدرنا، واستعملنا كلمة صدر لتوصيف حالة تفاعلنا مع الأمور، وحتى لو لم تشعر بأي شيء في قفصك الصدري، من انقباض أو صعوبة في التنفّس أو راحة... ومجرد تفاعلك مع ما تعرّضت له، إنَّ مختلف اللغات البشرية تعبّر عن هذا التفاعل بأن شيئاً حصل في صدرك، وحتى السرّ الذي تخفيه عن

الآخرين تعبّر عنه مختلف اللغات بأنه في صدرك، وكلّنا نعلم أن السرّ ليس في القفص الصدري، لأنه ليس تحته في الرئة أو القلب أو المريء... بل هو تعبير يشير لحالة تفاعلنا مع ما ندركه سواء بقي مخفياً أو ظهر له أثر حسّيٌّ في منطقة الصدر أو على تعابيرنا وحركاتنا.

(وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ{6})
ما معنى سخافة الاستخفاء من كلام النبي(ع) المنقول عنه تعالى وأنتم أصلاً تعيشون بسبب عنايته تعالى بكم!

{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ}، ما من كائن حي يدب ويتحرك على الأرض، على اليابسة أو في الماء، من إنسان وحيوان وحشرة، {إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا}، فقط وفقط عليه تعالى مسألة حصولها على ما تحتاجه وأهمُّه ما يبقيها حيَّةً وهو ما تأكله، وكل الكائنات تعيش وتستمر في حياتها لأنه تعالى يؤمّن لها ما تأكله.

{وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا}، يعلم سبحانه مكان ثبوتها حيث تستقر وتقضي حياتها على هذه الأرض، حيث تتخذ لنفسها مكاناً أو منطقة لتعيش فيها، حيث يعلم سبحانه أين مكانها في كل لحظة، وكل الكائنات تحت مراقبته سبحانه.

{وَيَعْلَمُ مُسْتَوْدَعَهَا}، أين هي مودعة، وقبل خروجها إلى الحياة يعلم سبحانه من أين ستخرج إلى الحياة، ومن بذرة أي حيوان ستخرج إلى الحياة.

نحن قبل صيرورة كيان حيٍّ لنا، فإن لنا بذرة لوجودنا بشكل ما، ونحن مستودعون في مستودع ما، وعندما نخرج إلى الحياة فإننا نستقر فيها بعد خروجنا من المستودع الذي كنا فيه، وأقرب تصوّر لهذه الحالة هو كوننا موادَّ ستصير حيواناً منوياً وبويضة فيهما الجينات التي سنتشكّل منها. وأعمق من هذا، حين قرّر تعالى خلق السماوات والأرض ونحن من ضمنها، فإنَّ كل واحد منّا محسوب متى تشكُّله وخروجه إلى الحياة...

{كُلٌّ}، كل دابة برزقها ومستقرها ومستودعها، {فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، مسجّلة في كتاب واضح ليس فيه تشويش أو تداخل في المعلومات، ومن عموم القرآن تعلم أنه كتاب فيه كل شيء عن الدنيا والآخرة، ومنه نزلت التوراة والإنجيل والقرآن...

ما معنى استخفائكم من كلام رسوله تعالى إن كان يعلم بما في صدوركم، وها هو يلفت انتباهكم لشيء آخر، لأنه تعالى المسؤول عن تأمين رزقكم ورزق بقية مخلوقاته التي تلاحظونها تحصل على رزقها، وهذا يعني أنه تعالى متابع ومراقب لها، لأنه الوحيد القادر على فعل هذا، بل ويتم تسجيل كل شيء يحصل معها، بل وقبل أن يحصل معها ما حصل فهو مسجّل في كتاب واضح، فما معنى استخفائكم من كلام رسوله!

ننتبه، حيث إنَّ الآية لا تقول إنَّ الله تعالى "يؤمن" الطعام لكل الحيوانات والحشرات، ونفكر بأن البعض منها يموت من الجوع، فكيف تقول الآية إنَّهُ تعالى يؤمّن الطعام للكل؟ لا، لأنَّ الآية لا تتحدث عن تأمين الطعام بهذا الشكل، وكأننا نقول بأننا في مطعم ويتم تقديم الطعام لنا! لا، لأنَّ هذا سخيف، إنما الآية تتحدث عن الرزق وهو الأشياء التي تساعدنا على البقاء أحياء، وأهمّها الطعام والشراب "وتوسُّعاً معهما الهواء والرطوبة..." وسبحانه أتاح لنا الرزق وأمّن وجوده لنا في أماكن مناسبة، وهكذا سبحانه الذي رزقنا إياه، لأنه منه فقط تعالى وهو الإله الأحد، وها نحن وبقية الكائنات الحية نحصل على الرزق، وبالتأكيد أنَّهُ سبحانه متابع ومراقب لمخلوقاته حتى يرزقها لتعيش، وانتبه مرة ثانية، لأنَّ "يرزقها" لا تعني أنه سبحانه يقدم لها الطعام كما في المطاعم، ويحضر سبحانه الطعام أمامها! بل يؤمن لها البيئة التي تمكنها من العيش، من ماء وهواء وتراب ونبات...

بالنسبة للإنسان، يحضرني كلام منسوب للإمام علي: من وجد ماء وتراباً ثم افتقر، فأبعده الله. وعلى أقل تقدير يمكن للإنسان أن يزرع ويأكل ما زرعه، فإن لم يزرع، فأبعده الله أي لا جعله بالقرب منّا، لأنه كسول خامل، ماذا يريد بعد الماء والتراب؟ وهل ينتظر نزول مائدة من السماء عليه! أو أن يجد جيبه مملوءة بالمال هكذا لوحدها!

لو أطلت عليك بشيء كررته لك في هذه الدراسة، تصور نفسك أنت تقوم بتصميم وخلق كائنات في بيئة، ولنقل إنَّك صمّمت وخلقت أسماكاً في حوض، فإن كانت قدراتك عالية فستجعل البيئة تنتج طعاماً للكائنات التي صمّمتها تنمو بالأكل وتغتذي به، وتجوع حتى تطلبه وتستهلكه، وهل أنت رازقها؟ أو أنها ستنكر أنك رازقها إلا إذا رأتك ترش لها

الطعام على سطح الماء؟ ضع هذا في بالك دائماً لأن القرآن بهذا المعنى عيّب على الناكرين لرزقه تعالى لهم، لأنهم تعاموا ولم يروا أنه سبحانه صمّمهم وخلقهم في بيئة تنتج ما يحتاجونه، ويريدون طلبيات طعام جاهزة مطهوَّةً تنزل عليهم من السماء ليؤمنوا أنه تعالى رازقهم! وإن حصل هذا فلن يؤمنوا وسيجدون ألف تعليل لذلك إلا الإيمان بأنه تعالى رازقهم، ومن لم ير ولم يؤمن بأنه تعالى رازقنا بما أتاحه لنا من قدرات على استهلاك واستخدام ما في بيئتنا، فهذا لن يؤمن حتى يرى العذاب الأليم.

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ{7})
كيف يخطر ببال هؤلاء الناس أنَّه سبحانه لا يراقبهم، أو أنَّه لا يقدر على إرجاعهم إلى الحياة بعد موتهم، أو يقولون إنَّه خلقهم بدون تخطيط لشيء حكيم...

هو، الله سبحانه، {الَّذِي خَلَقَ}، الذي ركَّب وألّف، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وهذا التعبير القرآني يرادف: خلق كلّ شيء، خلق كل ما في دنيا المخلوقات. فعل سبحانه ذلك، {فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}، في ست فترات زمنية، وكل فترة حدث فيها شيء رئيسي وانتهت بانتهاء الحدث، فترة كان فيها دخان كما نفهم من الآية 11 من سورة فصلت {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}، وبعدها فترة تشكّل السماوات والأرض، وفترة لتهيئة بيئة الحياة على الأرض... وراجع في ذلك الآية 9 وما بعدها من سورة فصلت.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائماً أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...} وهي إشارة إلى وجود سبع أَرَضِين مقابل سبع سماوات، ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراضٍ "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراضٍ.

عادة نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير فنستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، فنقول: خلق سبحانه الدنيا، أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيراً صحيحاً دقيقاً بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى}.

لمزيد من التوسع حول كلمة يوم راجع دراسة الآية 19 من سورة القمر {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ}.

{وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ}، عرشه مجال ومساحة حكمه وملكه سبحانه على البشر، كان على الماء، حيث إنَّ كل البشر خلقهم سبحانه من الماء كما نفهم من الآية {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}، والمكوّن الثاني لخلقنا هو التراب، ومرة يشير القرآن لكل مكوّن لوحده ومرة يشير لهما معاً بوصفهما طيناً كما ورد في الآية 7 من سورة السجدة {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}. وفي مرحلة ما كان الماء موجوداً ولم نكن نحن تألّفنا منه بعد، وتكملة الجملة {كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} لتربطها بما بعدها تعرفه لوحدك: فخلقكم من الماء. وهكذا نربطها بالجملة التالية: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}، ليصيبكم بشيء يغيّركم وبعده ليرى سبحانه من سيكون عمله حسناً جيداً بعدما تعرّض لما يغيّره. فنحن في الدنيا نُبْتَلَى ونتعرّض لأمور، فنتعرّض للحاجة للطعام للمال للمنزل لسيارة لإشباع شهوة... فنتصرّف بشكل سيئ أو حسن، وسبحانه يراقبنا، وخلقنا سبحانه لنجتاز الابتلاء ونعمل حسناً ويثيبنا بالجنّة...

{وَلَئِنْ قُلْتَ}، أيها النبي(ع) لكل الناس عبر هذا القرآن، {إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ}، سوف تنهضون وتقومون من حالة الموت لترجعوا إلى الحياة، حيث تتحاسبون على سلوككم أثناء البلاء الذي تعرّضتم له، {لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، سيقول الذين أنكروا دينه تعالى وقرآنه ورسوله والآخرة...:

{إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}، هذا الكلام ما هو إلا خدعة تخدعنا بها وليس حقيقة. وفي الحقيقة نحن لن نقوم من الموت، وأنت كلامك منمّق وتتلاعب بعقولنا لنعتقد بما ليس صحيحاً أنه صحيح. كما يتلاعب الساحر بعقول الناس ويجعلهم يقتنعون بأشياء وهمية بأنها حقيقة وهم يعلمون أن الساحر يخدعهم، فالحمامة لن تختفي في القبّعة وهم يعلمون ذلك، ولكن الساحر فعل شيئاً جعلهم يرون أنها اختفت. وسحرك بالكلام عن الآخرة مبين وواضح ومكشوف، ولن ندعك تتلاعب بعقولنا وتضحك علينا وتقنعنا بأننا سنرجع إلى الحياة.

لاحظ، إله يلفت انتباه مخلوقاته للمخطط الذي صمّمه لهم، ويلفت انتباههم لمعنى ولهدف خلقه وتركيبه لسماوات وأرض، وأنها كانت لهدف خروجهم إلى الحياة ليبلوهم ثم يموتوا ثم يبعثهم، لاحظ كيف أنكروا هذا، بل ولأنه كلام مقنع جداً، اعتبروه تلاعباً بعقولهم كالسحر! ويستخفون ويتجنبون سماعه!

ضع في بالك دائماً أن السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شيئاً غير حقيقي أنه حقيقي. فالساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد بأنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع أنها لم تختف، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر والذي تراه صريحاً في الآية 66 من سورة طه {قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}. وما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، فهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية إنَّها سحر، فهذا كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأنَّ الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

ننتبه لتكرار القرآن عدة مرّات الاتهام له وللرسل بالسحر، وهذا الاتهام بكلمة سحر لم يعد دارجاً كثيراً في عصرنا من الكافرين بالدين الإلهي، ولكن تسمع المرادف لها والذي يعطي نفس المعنى، فيقولون إنَّ الدين للبسطاء، وهذا معناه أن البسطاء ينخدعون بالكلام الديني الخرافي ليروه حقيقة، ولغوياً هذا هو معنى كلمة سحر.

بالنسبة لكلمة "{عَرْشُهُ}"، فالعرش الذي نعرفه نحن هو الكرسي الفخم الضخم الموضوع على منصّة ويجلس عليه الملك أو الحاكم، وأصلاً كلمة عرش وصف لعموم ما علا ويقابلها فرش، وعرشه سبحانه تعبير عن الإدارة المركزية من مستوى ربوبي، تعبير عن مركزية السيطرة والقرار لكل ما في الدنيا "والآخرة"، وبما أن سيطرته تعالى ممتدة على كل الدنيا "والآخرة" فعرشه سبحانه ممتدّ بامتداد الدنيا "والآخرة"، على كل ما في الدنيا والآخرة كما هو واضح من تعبير الآية 255 من سورة البقرة {...وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}.

لدينا تراث ديني ثقافي يشير البعض منه إلى وجود شيء محدّد كعرش له سبحانه، كشيء مشابه بشكل ما لمكان تتم فيه إدارة شؤون الدنيا، واستندوا على ذلك قرآنياً بالآية 17 من سورة الحاقة {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، وكلامهم خليط من تصوّرات مختلفة، بعضها سببه استعمال لغتنا لتوصيف أمور لا يمكننا نحن البشر تصوّرها، وبالتالي فالكلمات التي نستعملها لذلك تنقل نفس المعنى ولكن لأمور مختلفة، فهناك ملك صلب لا يهتز وإدارة إلهية مركزية لما في الدنيا، ولكنه سبحانه واسع محيط، وهناك ملائكة بقدرات عالية خلقها سبحانه ووظّفها لإدارة بعض شؤون ما في الدنيا، وأشهرها وضوحاً من القرآن ملك الموت، وهذه موصوفة "بلغتنا" بأنَّها حاملة للعرش، فالكلام القرآني الذي يشير لقوّة الملك ولنواة الحكم والسيطرة لا يشير إلى مكان، ولا إلى شيء، بل إلى حالة، وهذا واضح جداً من تعبير الآية 255 من سورة البقرة بوصفها وساعة الكرسي بوساعة السماوات والأرض.

من السذاجة تصوّره تعالى جالساً على كرسي على منصّة وثمانية ملائكة يحملون المنصّة، ضاربين بعرض الحائط كلامه سبحانه عن نفسه بأنه واسع محيط وليس كمثله شيء فلا يمكن لأي مخلوق تصوّره...

الوصف القرآني لملائكة حافّين حول العرش أو حاملين له هو وصف حالة وليس وصف مكان.

بعبارة أخرى، كل السماوات... وهذه الأرض التي نحن عليها، هي كل ما في دنيا المخلوقات، خلقها كلّها ربنا الله سبحانه، ويخبرنا سبحانه أنه هو بنفسه ولوحده ركّبها وألّفها في ست فترات زمنية، وبعد اكتمالها، لم يتركها سبحانه لغيره ليديرها، بل استوى على العرش حيث إنَّ كل شيء صار بالتمام وانبسطت سلطته عليها كلها، ومن دون تهديد من أحد بالقدرة على التدخل.

على الاسمية لكلمة عرش كاسم لشيء، كل السماوات والأرض "كرسيه" عرشه تعالى، وعلى الوصفية للملك القوي والسيطرة والإدارة المركزية والتي بلغتنا البشرية نستعمل لها وصف العرش، سبحانه حالته أن عرش السماوات والأرض منسوب له، ذو العرش، واستوى على العرش، وهناك ملائكة موظفون منه تعالى بتنفيذ مهمات "رئيسية" فيكون وصف حالتهم كحاملين للعرش وحافّين حول العرش.

الجنّ كما تعلم من الآية 27 من سورة الحجر {وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ}، مخلوقون من نار، والملائكة(ع) كما هو واضح من استحالة رؤيتنا لهم هنا في الدنيا مخلوقون من شيء ولكنه لا طين ولا نار، وبالتالي هنا الكلام عن عرشه تعالى على الماء موجّه لنا نحن البشر، ويتحدّث عن مادة أساسية لخلقتنا، وتصير الجملة تشير لما قبل خلقتنا، حيث تكوّن الماء الذي سنتكوّن منه، ومنذ تلك المرحلة كان سبحانه يدبّر "يدير" الأمور، ومثلما الآن حيث صرنا بشراً سبحانه يدبّر أمور السماوات والأرض، تُشير الآية إلى نفس الحالة من السيطرة والإدارة الإلهية لما قبل صيرورتنا بشراً في هذه الدنيا، ويشير إلى السيطرة والإدارة من أوّل تشكّلت المادة الأساسية التي سنتشكّل منها نحن البشر فيما بعد.

معلوم لك أن المادة الثانية التي تشكّلنا منها هي التراب، والخليط من الماء والتراب هو الطين، ولسبب أو لآخر يناسب سياق الآيات أشارت الآية هنا لواحد من المكونات، ولسبب أو لآخر أشارت آيات أخرى فقط للتراب وكمثال عنه ما ورد في الآية 20 من سورة الروم {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ} ولمناسبة الكلام في آيات أخرى أشارت للمكوّنين معاً بالطين كما ورد في الآية 7 من سورة السجدة {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}.

(وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{8})

{وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ}، هم وبسبب كفرهم يستحق المشركون "الآن" تعذيبهم وإذا لم يعذّبهم تعالى الآن فجعل توقيته، {إِلَى أُمَّةٍ}، إلى مجموعة من الناس توصف بأنها تشترك في شيء ولها امتداد تاريخي، {مَعْدُودَةٍ}، لها عدد محدّد، حيث ستأتي أمّة وبعدها أمّة من نسلها وهكذا نبدأ بتعداد الأمم... هناك مشركون لم يعذّبهم تعالى، وجاء بعدهم من نسلهم أمّة وبعدها أمّة... واستمرت أمة الشرك فيهم إلى حين الوصول إلى الأمّة التي قرّر سبحانه عندها تعذيبهم.

سنفهم هذا النوع من التعابير القرآنية بشكل أفضل إذا وصلنا عموم ما حصل من تعذيب لبعض الأقوام مع بعض، ووصلنا العذاب في الدنيا مع الآخرة، هنا الكلام عمومي وليس محدّداً لعذاب الدنيا أو لعذاب الآخرة، إذ كلاهما عذاب، وطالما لم يكن الكلام محصورا بواحدة منهما فهو كلام عمومي، ويشير لإمكانية حصول عذاب في الدنيا لهم، ويشير لحصول عذاب لهم في الآخرة.

قوم النبي نوح كانوا كافرين وبقوا كذلك لمدة طويلة، أقلها المعلوم هو فترةٌ تقارب الألف سنة التي قضاها النبي نوح(ع) بينهم، ومات منهم أجيال كافرة وخرجت أجيال كافرة والعذاب الذي يستحقونه "بسبب كفرهم" في الدنيا أو الآخرة مؤخَّرٌ عنهم، إلى أن جاءت الأمّة التي أبيدت بالطوفان، وهناك أمم كافرة غيرهم لم يأتها عذاب في الدنيا وستمرّ منها الأجيال إلى آخر أمّة منهم قبل تبدّل السماوات والأرض، وتموت الأمّة بسبب أو بآخر، وتتبدّل الدنيا، وتأتي الآخرة ويأتيهم العقاب على كفرهم.

هنا الكلام عن استحقاقهم للعذاب، في الدنيا والآخرة بسبب كفرهم، وهم يُهَدَّدُونَ به، ولم يحصل بعد لأنه تعالى قرّر تأخيره للوقت المناسب، إمّا هنا في الدنيا حيث تأتي أمّة فيها شروط نزول عذاب دنيوي عليها، أو سيمر الزمن وتأتي آخر أمّة منهم وبعدها يفنى كلّ شيء وتتبدّل السماوات والأرض، ويأتي يوم القيامة بالعذاب للكافرين.

إذا تأخّر وقوع العذاب في الدنيا أو تأخّر العذاب الذي في الآخرة، {لَيَقُولُنَّ}، سيقول الكفار:

{مَا يَحْبِسُهُ}؟ ما الذي يمنع حصوله؟ فليحصل الآن ولماذا التأخير. طبعاً هم يسخرون.

ويجيبهم سبحانه عبر هذا القرآن:

{أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ}، هناك حالة واحدة أكيدة ستحصل معهم حين يأتي عذابهم، {لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ}، ليس منصرفاً ليس متحوّلاً عنهم بل سيأتيهم وسيلازمهم، {وَحَاقَ بِهِمْ}، التفّ وأحاط بالكفار، {مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، حيث من خلفية الهوان والاستخفاف تعاملوا مع التهديد بالعذاب، واعتبروه بلا قيمة واستهانوا به، وهو نفسه العذاب الذي استهزؤوا به وسيحيط بهم.

بعبارة أخرى، هم يسخرون من تهديدهم بالعذاب، فهموا الإنذار مثلما نقول بالعامية: رح فرجيك، رح تشوف شو بعمل فيك... تهديد وتهديد... واكتفينا من التهديد وليأت العذاب ولسنا خائفين منه لأنه كلام فارغ ولن يحصل أي شيء... ولكن حين يأتيهم العذاب فهو ملازم لهم ولا يفارقهم، فهل هذا موضوع للاستهزاء به أم للانتباه منه؟

(وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ {9})
ندخل في فقرة قصيرة عن تعرّضنا للبلاء واختلاف ردّة فعلنا: {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً}، إذا جعل سبحانه الإنسان، الغالب الأعم من الناس، جعله يشعر ويتحسّس شيئاً منه تعالى وفيه عناية ومصلحة للإنسان، وَذاق طعم الرزق أو الصحة أو المال أو الأولاد... {ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ}، أبعدنا الإنسان عمّا كان فيه من رحمتنا فتعست عيشته أو فقد ماله أو أصابه مرض... عندها، {إِنَّهُ}، الإنسان "الغالب الأعم الأكثر من الناس"، {لَيَئُوسٌ}، يَفْقِدُ الأمل باستعادة ما كان فيه، وَلا يفكر بأنه مجرد امتحان دنيوي وسيمر ولن يستمر معه إلى الأبد، وإن الإنسان من بعد انتزاع الرحمة منه، {كَفُورٌ}، وسياق الكلام عن صَيْرُورَةِ الغالب الأعم من الناس كافرين ناكرين لربهم سبحانه ولنعمته عليهم، حيثُ ينسون ما كانوا فيه من نعمة... وينسون النعم الأخرى التي هم فيها ولم يفقدوها، ويكفرون بوجوده سبحانه أو بصفاته الحسنة... لأنهم لا يرون أبعد من الدنيا وحالتهم التي هم فيها ويريدون الراحة فيها الآنَ، ولا تَهُمُّهُمُ الآخرة...

ميزان العلاقة معه سبحانه من منظور الأكثرية من الناس هو أَلَّا يحصل لهم الضرر، فإن حصل خربت العلاقة، وَيئسوا من رحمته تعالى ولم يعودوا يتوقعونها ولا يَتَعَلَّقُونَ بها، وكفروا به تعالى وَأنكروا وجوده أو حكمته أو رحمته...

هذا الوصف يسلم منه فقط المؤمنون من الدرجة العالية، حتى نحن المؤمنينَ العاديينَ يصيبنا هذا الشعور أحيانا...

ضع في بالك دائما أن القرآن استعمل كلمة {إِنْسَان} لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموما ذكراً وأنثى، وأنهم يتناسلون... أو مُتَعَلِّقٍ بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ {10})
قالت الآية السابقة: إذا ذهبت النعمة يئس الإنسان وكفر، وَلْنَرَ ماذا يحصل إذا أتته نعمة:

{وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ}، إذا جعل سبحانه الإنسان يشعر ويتحسّس، {نَعْمَاءَ}، شيئاً موصوفاً بأنه نعمة، من أشياء يتنعم بها في حياته من صحة أو رخاء أو أمان أو مال... {بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ}، من بعد مرور الأحوال السيئة من المرض أو الحرب أو الضائقة المالية التي كان يعيش فيها ويشعر بضررها عليه، {لَيَقُولَنَّ}: {ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي}، ذهبت الأمور السيئة عني، هي ذهبت وحدها ولحالها، ولا يرى أن ذهابها رحمة منه تعالى!

{إِنَّهُ لَفَرِحٌ}، حيثُ هُوَ في حالة نفسية جيّدة بالدنيا وبما حصل عليه، وكأنه لا يوجد فوق سعادته سعادة، وَ هو لا يؤمن بسعادة جنة الآخرة التي لا مقارنة بينها وبين فرح الدنيا الزائل المحدود.

{فَخُورٌ}، يفتخر بما معه على الآخرين، يَشْعُرُ ويتصرّف على أساس أن صفاته وما لديه أعلى وأفضل من صفات الآخرين وهم أقل منه. وَيشعر بالتَّبَاهِي على الآخرين بسبب النعمة التي هو فيها وليست موجودة عند غيره، كمن يشتري بيتاً، أو يحصل على مال وفير، أو ينجح في عمله أو تجارته أو دراسته... فتتغير مشيته! وحركاته! وطريقة كلامه مع الناس من حوله! لأنه يشعر، بالفخر، بالتعالي، بالسيطرة، بالشأن العالي، مِمَّا يَجْعَلُهُ يَشْعُرُ بأنه شخص مهم جداً بسبب الأشياء التي يتمتع بها.

لاحظت! الإنسان بشكل عام، إذا حُرِمَ من النعمة: يَئِسَ وكفر. وَإِذَا حصل على النعمة: فهو في الطرف السيِّئِ الآخر أيضاً، ناسياً لربه سبحانه، حيثُ هُوَ فَرِحٌ بالدنيا ومتعلق بها، ومتفاخر بما حصل عليه! فَفِي كِلْتَا الحالتين عنده مشكلة، حيثُ بِسَلْبِ النعمة منه ييأس ويكفر، وبوجودها يصيبه شعور الفخر السيِّئِ.

(إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُوْلَـئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ {11})
لكن ليس كل الناس نفسيتهم وعقليتهم سيئة:

{إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا}، الذين بقوا يتصرفون بشكل وَاعٍ ومدروس حين أصابهم الضرّ فلم ييأسوا ولم يكفروا، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، حِينَ أصابتهم النعمة لم يفرحوا بها ناسين الآخرة، ولم يفاخروا بها على غيرهم، بل استعملوا تلك النعمة كوسيلة وطريق للحصول على الآخرة بالقيام بالأعمال الصالحة ببدنهم السليم وبمالهم الحلال الذي تصدقوا منه، وانتفعوا بعلمهم للخير وعلّموا غيرهم... وَأَيْضاً هم عاملون للصالحات حتى في وقت الشدّة، حيثُ حافظوا على تركهم للسيئات وقيامهم بالخير حتى في الظروف الصعبة.

{أُولَئِكَ}، الصابرون العاملون للأعمال الصالحة، {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ}، يَتَجَاوَزُ سبحانه عن سيئاتهم، وَلن يعاقبهم سبحانه عليها في يوم القيامة، لِأَنَّهُ من شبه المستحيل أن تمرّ حياة إنسان ولم يفعل سيئة حتى لو من دون قصد... {وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}، حَدَّدَ سبحانه قيمة لعملهم وهي قيمة كبيرة جِدّاً، وتعلم أنها جنّة رائعة خالدة.

لاحظ وانتبه جَيِّداً لدقة الكلام الإلهي، مَا يحصل عليه المؤمنون في الآخرة هو فضل منه تعالى، لأنه ليس وَاجِباً مَفْرُوضاً عليه تعالى مجازاتهم بالجنّة، بل من فضله، ويوصف بأنه أجر لأن الأجر هو ما تحدّد كاستحقاق لهم على ما فعلوه، وَبِصِيَاغَةٍ أسهل نقول: سبحانه من فضله حدّد أَجْراً سيعطيه للذين آمنوا وعملوا الصالحات.

بالنسبة للتعبير بـ {عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، أَيْ قاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، خَلَقَنَا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، عَمَلِيّاً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى. وَبشكل أو بآخر يشيع بين الناس عُمُوماً وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، حتى لو كنت غير مُقْتَنِعٍ بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دَائِماً أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فَيُؤْمِنُونَ به. وهذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مُقْتَنِعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت مُحِبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو سَيِّئٌ" هُوَ في الحقيقة اختراع من البشر وليس أَمْراً إِلَهِيّاً.

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاء مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ{12})
{فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ}، هل من المتوقّع منك أيها النبي (ع) أنك تاركٌ بعض ما يوحى إليك، هل ستترك بعض ما يصلك من معلومات إلى فكرك عبر ملائكتنا (ع)، وَضائق به صدرك، تَشْعُرُ بالمضايقة بضيق في صدرك وهو حالة الانزعاج بسبب تفاعلك مع ما يقوله الكفّار لك، فهل من المتوقّع منك ومن المفروض أن

تترك مهمة تبليغ ما نوحيه إليك من آيات القرآن التي تتحدث عن البعث والحساب، بسبب أن هؤلاء الناس يقولون: {أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ}، لو نزل على هذا الذي يدّعي أنه رسول، لولا أنزل عليه إلهه كَنْزٌ، كميّة متراكمة من المال والمجوهرات والمعادن الغالية كالذهب والفضة... فكيف سنقتنع أنه ينزل عليه الوحي، فلولا نزل عليه كنز، عِنْدَهَا نَقْتَنِعُ بأنه فعلا يتواصل مع الإله، لِأَنَّ حصوله على كنز هو شيء مهمّ... أو، لولا جاء معه، مع هذا الذي يقول بأنه رسول، لولا جاء معه مَلَكٌ، ملاك، وهو كائن "يملك" صفات وقدرات عالية، يُلَبِّي أوامره "كجني الفانوس السحري الخرافي"... وعندها نتأكد بأنه رسول من الإله.

بعبارة أخرى: نزل عليك الوحي، ولم يقتنعوا به، فقالوا لولا نزل شيء آخر غير الوحي أو مع الوحي حتى نقتنع بأنك رسول، فلو نزل عليك كنز أو ملاك، فهل كلامهم هذا من المفروض أن يجعلك تترك تبليغهم بعض ما نوحيه إليك، فتترك نقل كلامنا الذي لا يقبلونه لأنك متضايق من أقوالهم حين اقترحوا حيازتك لكنز أو مرافقة ملاك لك حتى يؤمنوا بك؟!

خذ مثلا كلام النبي محمّد (ع) عن وعده تعالى بالجنّة لمن آمن، فسيقولون له: لو كان كلامك صحيحا فالقليل الذي لا قيمة له بالنسبة للجنّة الخالدة سيكون بالنسبة لنا الآن كَنْزاً له قيمة عالية، وأنت تدّعي إيمانا عاليا، ووضعك المالي بعيد عن أوضاع الأثرياء، فلو كنت صادقا بأنك رسول فليعطك ربّك كنزا أو لِيُرَافِقْكَ وَاحِدٌ من ملائكة ربّك التي تقول بأنها تنزل عليك، وملاك واحد كاف ليحقّق لك رغباتك وطلباتك... وإن لم يحصل ذلك معك فلا تكلّمنا عن دينك فلن نصدّقك. وهكذا فإذا نزل وحي على الرسول (ع) وهو مأمور بتبليغ كل الوحي القرآني للناس، فهل يسكت ولا يبلّغه لأنهم اشترطوا عليه أن يصير معه كنز أو يرافقه ملاك...!

تَتَذَكَّرُ دائما أن كلام القرآن غالبا عن نماذج، فاختارت السورة هنا نموذجين من شروطاتهم العديدة الأخرى.

يَسْأَلُ سبحانه: هل بسبب قولهم لهذا لَنْ تنقل لهم كلامنا عن الإيمان والعمل الصالح وجنّة الآخرة وعن نزول الملائكة عليك بالوحي؟!

تذكّر دائما أن محمّد ابن عبد الله رجل عادي مثلي ومثلك، آمن بما نزل عليه، وليس ما نزل عليه قد جعله مؤمنا، فلو نزل الوحي عليّ أو عليك أو على أبي جهل... فلن يغيّر نزول الوحي علينا أي شيء إذا لَمْ يَكُنْ قَلْبُنَا سَلِيماً يقتنع بالكلام الحقّ الصالح الذي يصل إلى فكرنا ووعينا، وهنا الآية تتحدّث مع شخص عادي، نزل عليه كلام وهو مأمور بنقله إلى الناس، ويتضمّن كلاما عن التوحيد وبعثهم من الموت والجنّة وأن الملائكة تتواصل معه... فكذّبوه، واشترطوا عليه فيما اشترطوا لتصديقه أن يصير معه كنز أو يرافقه ملاك يحقّق له طلباته... فتضايق الرسول مما قالوه له... وصار كلما أراد تبليغهم ما نزل عليه من وحي يُذَكِّرُونَهُ بأنه لم يحقّق طلباتهم ليؤمنوا به... ونحن في الحالة العادية لو طلب أحد ما منّا نقل كلامه للناس، وسخر الناس منّا وكذّبونا، فسنتضايق ولن نكمل نقل الكلام، فهنا الآية تسأل: هل بسبب تضايقك من كلامهم بشروطهم عليك بإحضار كنز أو مرافقة ملاك لك، فهل من المفروض أن تتوقّف عن نقل كلامنا لهم عن الإيمان... والآخرة والحساب؟

تَرَى بوضوح أن الآية اختارت نقل نموذجين سخيفين جدا جدا من الكلام السخيف الكثير الذي قاله الكفّار للرسول (ع)، فهل لو نزل عليك كنز لكنت فعلا رَسُولاً إِلَهِيّاً! فهل هذا فعلا دليل له قيمة! أو جاء معك ملاك، فهل الشكل الغريب للملاك سيقنعهم أنك رسول! أم الأفعال الغريبة للملاك ستقنعهم بأنك رسول! فلا تتأثر بكلامهم الفارغ السخيف الذي لا معنى له، فما معنى تنزيلنا كَنْزاً عليك! وما معنى نزول ملاك معك! فهذا كلام سخيف ومن غير المفروض أن تتأثر به أيها الرسول.

{إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ}، أنت فقط وفقط تحمل الخبر السيّء عن العقاب الحتمي لمن توافرت فيه شروط العقاب، والإنذار كلمة تصف حالة الذي هو فِعْلِيّاً في السوء، فهم كافرون وهذه الحالة سيئة جدا جدا لهم، فهم تحت خطر نزول عذاب إلهي في الدنيا عليهم، وتحت خطر حتمي أكيد بالعذاب لهم في الآخرة، فما معنى شرطهم عليك إحضار كنز أو مرافقة ملك لك! بل المطلوب منك توصيل الوحي إليهم، كل الوحي، سواء أعجبهم أم لم يعجبهم، أقنعهم أم لم يقنعهم، فهم في حالة السوء التي يستحقون عليها العقاب.

{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}، فأي شيء، فأي موضوع أو أمر من الأمور... فهو سبحانه يسيّره كما يجب، وأنت لست وكيلا عليهم ولا على إيمانهم ولا على أي شيء من مستوى إلهي، إنما أنت فقط وفقط نذير لهم.

وسنلاحظ أن من أسباب ذكر قصص الأنبياء التي ستأتي في هذه السورة، هو تثبيت فؤاد النبي (ع) على تبليغ الرسالة، فقد حصلت المعاندة مع من قبله من الرسل، ولم يتركوا تبليغ رسالة ربهم.

وننتبه، فالاقتصار هنا على الكنز والملك، فهم فقط كمثال من الأشياء التي طلبوها من النبي (ع)، وقد جرى ذِكْرُ العديد من الأشياء الأخرى في سور أخرى، منها أن يكون له جنّات أو يرقى في السماء... كما ورد في الآية 93 من سورة الإسراء {أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا}. والجواب عليها هو نفسه: إنما أنت نذير، فوظيفتك تبليغ الإنذار لأنهم في حالة استحقاق العذاب، وليست وظيفتك الاستجابة لطلبات المشركين وتخريفاتهم السخيفة.

ويبدو سبب اختيار السورة لاقتراحهم لحصوله (ع) على كنز، يبدو نابعا من تحقيق الرغبات وما نفعله بالمال، فهذا حلم "كلّ" إنسان تقريبا، واقتراحهم نزول ملاك مرافق له (ع) يبدو منه شيء يشبه التأثر بخرافة جنّي الفانوس السحري الذي يحقّق طلبات سيّده، فبشكل ما تتمحور السورة حول تصوّرهم للعلاقة معه تعالى بناء على تحقيقه سبحانه ما يرغبونه وإلا فلن يؤمنوا به وَسَيُشْرِكُونَ.

ضع في بالك دائما الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى معان قرآنية رائعة لن تراها من مرادفة كتب التفاسير لهما مع بعض "أنذر بحذّر وبالعكس" أو تفسيرهما بالخوف أو الخشية... حيث ستجد في عموم التفاسير استعمالهم هذه الكلمات لتفسير بعضها البعض كمترادفات، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لترى المعنى الدقيق لهذه الكلمات في أي آية تظن أنها ستكون مترادفة فيها لترى الفرق، ومثلها كلمة يرجو المختلفة عن يأمل ويطمع... ولفهم الفرق بين كلمتي "حذر وانذار" تصور شخصا أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، ففي هذه الحالة "تحذّره" من سلوك الطريق السيّء، لأنه حاليا ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، أمّا إذا سلك طريق الخطر "فتنذره" لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. الإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتما ما يضرّه، فتنذر الكافر لأنه في حالة ستسبّب له العقاب حتما. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يصير فيما سيسبّب له الضرر، فتحذّر المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

هذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، لأن المؤمن قد يقوم بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، عندها تنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة النصارى المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}.

كما ترى فاستعمال الآية لكلمة {نَذِيرٌ} هنا كردّ على طلباتهم، فالمعنى الأساسي الدقيق لكلمة "نذير" يريك معنى الردّ الحقيقي على كلامهم، فهي مثل حالة إنذاري لك من ارتفاع السكّري في دمك والذي سيسبب لك العلل والموت... فتقول بأنك لن تؤمن لكلامي حتى تراني أعيد ميّتا إلى الحياة كإثبات على مهارتي في الطبّ. فأنت في حالة سيئة وعليك بالتركيز على حالتك الواضحة من الفحوصات المخبرية، ولكنك تهمل ذلك! وتريد إثباتا خارقا على مهارتي في الطبّ!

فلنكمل الكلام مع شيء آخر يقوله الكافرون هكذا بدون تفكير فيه:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{13})
سوف تدخل السورة من الآية 25 في قصص بعض الأنبياء لتبين أن التعذيب الدنيوي للمشركين حصل فعلاً، كدليل على العقاب على الكفر والسوء، وابتدأت هنا بلفت الانتباه لصحة المستند "القرآن" الذي عبره ستتم رواية القصص، وقبل ذلك وفي هذا القرآن يرد توحيده تعالى والآخرة والحساب... والكفّار ينفون صحّة كل ذلك:

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ}! فيقول الكافرون إنّك اخترعت الوحي والقرآن من رأسك، وكذّبت مدّعياً بأن الإله يوحيه إليك وأنت لست متوهّماً بل تكذب وأنت تقصد الكذب وسبحانه لم يُوحِ لك ولم يقل أصلاً هذا الكلام، ولذلك لن نصدّق كلامك.

حسن، إذا كانوا يقولون إنّك بإمكانك أنت تأليف هذا القرآن، فيمكنهم هم أيضاً أن يفعلوا مثلك، فقل لهم:

{فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ}، بعشر مواضيع، {مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ}، وإن كان هذا القرآن افتراء وليس صادراً عنه تعالى فإن كان سهلاً على محمّد تأليفه فقوموا بافتراء عشر سور مثل سور القرآن التي تعالج مواضيع محددة، طبعاً ولتكن مفتريات على الله تعالى كما تقولون إنه (ع) افتراه عليه تعالى، فأرونا ماذا يمكن أن تنتجوا، فلو جاء النبي محمد(ع) بسورة واحدة، بموضوع واحد، ولم يستطع بعد ذلك المحافظة على نفس النهج، ونفس المواضيع، فلاحظتم تغيّراً في السور التي "افتراها" فيما بعد، فلاحظتم تغيّراً في المفاهيم والأساسيات واختلافاً في التفاصيل.. فسيكون معكم حق، وحتى تعرفوا أنه لا يمكن افتراء هذا القرآن، حاولوا الإتيان بعشر مواضيع لا يوجد بينها تعارض، أو تناقض، أو تغيّر في الأفكار...

تحديهم بالإتيان {بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ} يشير إلى تأليفها على أساس أنه تعالى هو قائلها، ولا يقصد عموم تأليف أي مواضيع، فيمكنهم تأليف كتاب تشريع على ما يرونه مناسباً، أو كتاب عقيدة مما يرونه مناسباً، أو كتاب قصص ينقلونها من التاريخ أو يؤلّفونها من خيالهم... ويمكن أن تكون بليغة وشيّقة للقراءة... ولكن تأليف سور ونسبتها له تعالى على أساس أنه سبحانه هو يقولها، فهذا هو التحدّي، بالإتيان بعشر سور مفتريات أي يفترون نسبتها لله تعالى.

{وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، وأعلنوا وأشهروا ووجّهوا كلامكم لمساعدتكم بتأليف السور للناس أو الجنّ أو آلهتكم أو أي كائن غيره تعالى، لا تطلبوا منه تعالى مساعدتكم على تأليف السور بل قوموا بتوجيه الدعوة لأي كائن شئتم ليساعدكم في تأليف السور ونسبتها له تعالى، {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، بأنه يمكن لأحد ما غيره تعالى أن يقول هذا الكلام القرآني.

ليس محمّد(ع) لوحده غير قادر على تأليف سور مثل سور هذا القرآن، بل كلّكم مجموعون مع كل المخلوقات لن تتمكنوا من تأليف كلام وتنسبوه له تعالى ويكون فعلاً له قيمة موازية مماثلة لكلامه تعالى الذي وصلكم عبر هذا القرآن، وسترون أنه من المستحيل تأليف مثل هذا القرآن، وبالتالي يجب أن تؤمنوا بإلهية مصدر هذا القرآن.

التحدي هنا ليس محصوراً بما يسمى: بلاغة وفصاحة القرآن. صحيح أن للقرآن طريقة ونسق مختلفان عن كلام العرب المتعارف عليه... وفيه دقّة لغوية من مستوى إلهي... ولكن هنا التركيز الأساسي على المواضيع التي طرحها القرآن، فالسورة هي مجموعة جمل لها هدف، لها موضوع، وهناك محورية أساسية تدور حولها كل سورة من سور القرآن، ويتم تناول متعلقات الموضوع بطرق وزوايا مختلفة، وهي التوحيد، ورسالته تعالى التشريعية للناس، والبعث، والحساب، والجنة والنار، وقصص الماضين للعبرة منها... وعرض حكمة أفعاله تعالى... وعرض أسباب كفر الناس والشرك والإيمان... ليس سهلاً كما يقول هؤلاء أن يقوم النبي محمد(ع) باختراع كل هذه السور، بدليل أنكم إذا حاولتم اختراع عشر سور لعلمتم أنكم أمام شيء مستحيل، فسورة واحدة تطرحون فيها دينكم أسهل من عشر سور، وكثرة الكلام سبب أكيد للوقوع في الزلل والخطأ، وها أمامكم سور القرآن التي نزلت حتى زمن نزول هذه السورة، وها ترون أنها كلّها متوافقة متجانسة في الأساسيات والتفاصيل، فهل تأليفها سهل!

من تبعات كون القرآن كلاماً إلهياً، أن يكون دقيقاً في استعمال الكلمات وتركيبات الجمل، فسيكون استعمالاً للّغة البشرية بمستوى إلهي، ومن تبعاته أيضاً أن يكون طرح المواضيع من نظرة إلهية، لا من نظرة بشرية، وهذا شيء واضح جداً جداً في القرآن، وكمثال عن ذلك كلامه سبحانه الذي ورد سابقاً في هذه السورة مع رسوله حين نبّهه أنه لا معنى لترك بعض ما يوحيه تعالى له لأنه تضايق مما يفعله الكفار معه... وفي دراستنا هذه ترى تكرارنا للتنبيه على كلام الآيات من نظرة إلهية للأمور...

أيضاً من تبعات كون مصدر القرآن إلهياً أن يكون طرح المواضيع مختلفاً عن طريقة طرحنا لها بسبب الفارق الهائل بين مستوانا في حصر الموضوع وما يتعلّق به، وبين المستوى الإلهي في تناول موضوع ما وما يتعلّق به... وترى هذا منتشراً بكثرة في القرآن حين يتحدث عن شيء ما ثم ينتقل للنفسية التي نبع منها السلوك البشري... أو ينتقل إلى قصّة من قصص الأنبياء ويركّز فيها على جانب واحد يتعلّق بمحورية السورة... فلا تجد في القرآن سورة مخصصة للتشريع، فهذا نمطنا نحن في الكلام، وبدلاً من ذلك تجد التشريعات منتشرة هنا وهناك بشكل يناسب محور موضوع كل سورة، فيكون التشريع متفرّعاً من موضوع السورة، كحالة سورة النساء التي موضوعها الأساسي تقواه تعالى في الناس، وركّزت السورة على أبرز التشريعات التي لها علاقة بتقواه تعالى في الناس...

ننتبه أنه لا خاصية مميزة للعدد عشرة، والآية تقول لهم أن يفتروا عدداً من السور، ولتكن عشرةً مثلاً، أو أكثر أو أقل، فحدّدوا العدد الذي يناسبكم لتختاروا مواضيع كاملة تطرحونها.

ننتبه أيضاً، لا علاقة بين التحدّي بتأليف سورة واحدة كما ورد في سورة يونس(ع)، وبين التحدّي هنا بتأليف عشر سور، ولا تتصور ولا بأي شكل أي علاقة بينهما، فبعض المفسرين فكّروا أن تأليف سورة واحدة سيكون سهلاً، لذلك أعاد القرآن تحدّي المشركين بتأليف عشر سور، وهذا كلام غير صحيح، فحتى السورة الواحدة، مهما كبر أو صغر حجمها، لا يمكنهم تأليف مثلها، لأن كلمة سورة تشير لمجموعة جمل لها موضوع محدّد. التحدّي هناك بتأليف موضوع محدّد له معنى كامل ويكون دينياً عقائدياً تشريعياً وسلوكياً، ويكون التحدّي هنا بأن يؤلّفوا عشر سور لها مواضيع محددة بحيث لا تتعارض مع بعضها. صحيح أن تجربة تأليف عشر سور فيها صعوبة أكبر، ولكن لا علاقة بين التحديين، بخاصة إذا التفت لقصد القرآن للتحدّي، فهدف القرآن هو لفت انتباههم أن القرآن إلهي المصدر، ويجب أن يؤمنوا به، أما إذا فهمت التحدّي بطريقة أخرى فسوف تدخل في متاهات لم يقصدها القرآن.

بعبارة أخرى، لا يزال القرآن يقول لمن أشرك بالله تعالى: ألّف سورة "ألّف موضوعاً"، وانسبه لآلهتك، أو انسبه لله تعالى، واقرأه على الناس العقلاء، وسترى أنهم لن يقتنعوا به لأنه لن يكون منطقياً ولا عقلانياً من المستوى الإلهي، إلا إذا نسخت محتواه من القرآن... هنا تقول الآية للمشركين: حتى تتأكدوا من إلهية مصدر القرآن، فجرّبوا تأليف عشر سور، عشر مواضيع، إن كنتم صادقين في أن تأليف مواضيع مثل مواضيع القرآن شيء سهل، وسترون أن هذا صعب جداً جداً بل مستحيل، فحتماً ستقعون في تعارض كلامكم مع بعضه... ولاحظ من الآية الآتية أن التحدّي الإلهي لهم، ليس تحدّياً عن غضب أو كسر شوكة، بل هي طريقة لإقناعهم بإلهية مصدر القرآن حتى يؤمنوا.

يمكنك مراجعة ما ذكرناه بعد الآية 23 من سورة البقرة حول كلام بعض المفسرين عن عجز الناس على الإتيان بكلام مماثل لبلاغة القرآن. ويمكنك مراجعة دراسة الآية 38 من سورة يونس التي تحدّتهم بالإتيان بسورة مثل سور القرآن.

(فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ{14})

{فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ}، بعدما دعوتم من استطعتم ولم يردوا بتحقيق طلبكم، فلم تستطيعوا أنتم ولم يستطع بقية المشركين تأليف عشر سور مماثلة لسور القرآن، ولم تستجب آلهتكم لهذا التحدّي... {فَاعْلَمُوا}، أيها الناس، {أَنَّمَا أُنْزِلَ}، فقط وحصراً القرآن نزل، {بِعِلْمِ اللَّهِ}، فصاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى وحده بعلمه الواسع يمكنه تأليف سور بهذا المحتوى وبهذا التركيب للجمل وبهذه الدقّة في الكلام... فسبحانه بعلمه الواسع اختار ماذا سيكون محتوى القرآن، ولذلك لا يمكن لكل المخلوقات مجموعين مع بعضهم الإتيان بمثله.

واعلموا، {أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، فلا أحد يمكن وصفه بكلمة إله إلا هو الله وحده سبحانه، فالإله كلمة لوصف من يملك قدرات وصفات فائقة، ولا يوجد أيّ كائن بصفات وقدرات فائقة غيره تعالى والبقيّة مخلوقاته سبحانه، وهذا القرآن الصادر منه تعالى واحد من الأمثلة التي تدلّكم على قدراته وصفاته الفائقة سبحانه لأن كل بقية المخلوقات لا يمكنهم تأليف مثله.

التحدي كان بتأليف السور التي يجب أن تشبه وتماثل القرآن في طرحها ومحتواها ومواضيعها من عقيدة وتشريع، وشرح سبب وجودنا، وسبب وجود الكون من حولنا، وإلى أين يسير... فجربّوا فعل ذلك، وسترون أن من لديه قدرات فائقة وحده القادر على تأليف هذه السور، أو أنكم ستقلدون محتوى القرآن ناسخين مفاهيمه وهذا لن يكون دينكم بل تحريف لدينه تعالى...

من الواضح أن الإله الواحد الأحد أنزل هذا القرآن، {فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}، فهل أنتم منقادون مطيعون له تعالى؟

قارنها مثلاً مع خلق الأرض، فكائن بقدرات عالية جداً يمكنه خلق الأرض، فكائن موصوف بأنه إله يمكنه فعل ذلك، وكلام القرآن بمثل مستوى عظمة خلق السماوات والأرض، فالمعلومات التي في القرآن صادرة ممن علمه فائق، ممن يعلم كلّ شيء، فيعلم ما حصل ويحصل وسيحصل، فيعلم ما قبل الخلق وما يحصل بعد خلقهم وما سيحصل في مستقبلهم... ويعلم سبحانه عن نفسه أموراً لا نعلمها نحن ونجدها مذكورة في هذا القرآن... ويعلم بلغة البشر فيستعملها بدقّة من المستحيل أن يقدروا كلّهم مجموعين على مجاراته تعالى في كلامه، فجملة يقولها بشري ما وتكون بليغة دقيقة

الكلمات والتركيب وجميلة الوقع على الأذن والفكر... فهذا شيء متوافر، ولكن لا يمكن مقارنتها مع كلامه تعالى ولا مع موضوع قرآني، ولا مع كل القرآن، لا من حيث الدقة ولا المضمون.

حتى أبلغ وأجمل كلام عربي، فهو من ناحية اللغة لن يكون بدقة استعماله تعالى للغتنا حيث قوّم تعالى لغتنا مستعملاً الكلمات بدقة للإشارة للمعاني التي يريدها، ولم يستعمل كلمة ما بدل أخرى طالما هناك كلمة أنسب وأدقّ للمعنى، فلم يستعمل مجازاً ولا كناية ولا استعارة... وهذا للأسف بعكس ما يعتقد به الغالبية من المسلمين...

خذ مثلا "وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا"، كلمة اشتعل ليست مخصصة للنار في الاستعمال العادي للعرب، إذا عصرنا كلمة "اشتعل" وصفيناها من كل سياق، فإن معناها الأساسي القابل للانطباق على أي شيء هو: "الاستيقاظ المفاجئ لشيء كامن، وتمدده الذاتي المتسارع، وبلوغه حالة من التوهج والوضوح يصعب احتواؤها أو السيطرة عليها." بهذا المعنى لا استعار ولا مجاز. ويمكن تطبيق هذه القاعدة "تفريغ الكلمات من المتعلقات" مثلما فعلنا في دراستنا هذه مع كلمات : وجه الله، يد الله... بهذا لسنا ننفي استعمال العرب للمجاز والاستعارة... بل نؤكد على ابتعاد القرآن عن هكذا استعمالات لأن دقة الكلام يجب أن تكون من مستوى إلهي.

من ناحية المضمون، فشدة اهتمامك بالموضوع تحدّد شدّة انجذابك له، وأكثرنا لا رغبة لهم بسماع كلام الوعظ وخاصة إذا كان تهديداً بعقاب في جهنّم على سوء نحبّ فعله... ونفضّل بدل الوعظ صوراً تخيلية لأشياء جميلة نحبّها حتى لو كانت خيالية أو سيئة... ومن الطبيعي أن تجد جملة أو بيتاً من الشعر تُعجب الكثيرين أكثر مما يعجبهم كلام القرآن، بل ستجد الكثيرين أصلاً لا يعجبهم ولا شيء من كلام القرآن، وسيقولون بأن القرآن ليس بليغاً ولا جميلاً في نسقه بل ومعانيه غير صحيحة ولا دقيقة... ومعلوم لك أنهم كافرون بالحقّ من ناحية العقيدة، وفاعلون للسيئات من ناحية التشريع والسلوكيات، فحتى لو عرضوا أنفسهم عليك كعقلانيين صالحين، فانتبه لما شرّعه القرآن وأمر به حتى رفضوه وكفروا به، وانتبه أكثر إن كان لديهم تعليقات سيئة على بعض الآيات التي فسروها هم بطريقة غير صحيحة، أو نقلوا تفسيرها من كتب لمسلمين فسّروا كلامه تعالى بطريقة غير صحيحة، وللأسف أراني مضطراً لإحالتك فقط إلى هذه الدراسة لترى المعنى الأضبط للآيات التي يستعملونها ليبيّنوا لك سوءاً في القرآن، وسترى تفسيراً بما يرضيه تعالى ويريك عظمة القرآن، وأقول للأسف لأن عموم التفاسير فيها مواضيع رائعة تدل على مجهود جبّار... ولكنها قليلة جداً، وللأسف فأكثر التفاسير أعطت للكافرين بالقرآن موادَّ دسمة للتعليق على القرآن بالسوء... لأن تفاسيرهم لم تكن دقيقة...

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ{15})
من لم يُسْلِمْ له تعالى فهو يريد الدنيا... {مَن كَانَ}، من الناس، {يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}، التي نحن فيها الآن مقابل تركه للحياة التي ستأتي في الآخرة، ويريد {زِينَتَهَا}، يريد الأشياء التي تزيّنها فتجعلها جميلة، واجتهد بالعمل للحصول عليها، أو كان مستغلًّا للفرص المالية، أو مثابرًا في سبيل هدفه، {نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا}، نعطيهم بالتمام ما عملوا من أجله هنا في الدنيا.
{وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ}، وهؤلاء الساعون وراء الدنيا وزينتها لا يبخسهم سبحانه، ولا ينقص لهم ما يحصلون عليه. لأنهم تعبوا وخطّطوا وسهروا وعملوا واجتهدوا للحصول على المال أو الجاه أو الشهرة أو السلطة... بالحلال أو بالحرام... سوف يحصلون على ما عملوا عليه من دون بخس، من دون تنقيص.
هذا ما نراه في حياتنا، حيث إنّ سبحانه يسمح لأي إنسان يعمل في سبيل تحقيق هدف في الدنيا، ويسمح له بالحصول عليه بقدر ما يجتهد ويتعب للحصول عليه، ولو حتى بالوسائل غير المشروعة والسيئة، سوف يحصل على نتيجة عمله. لن يقف تعالى في طريق الشخص الذي يريد الحياة الدنيا وزينتها، حتى لو كان كافرًا مشركًا، بل بحسب الظروف المناسبة سيتركه تعالى يحصل على ما يريد، لأنّ مجال المنافسة مفتوح للجميع.
لاحظ الآية لم تقل إنّ من يريد الحياة الدنيا سيحظى بتوفيقه تعالى له لينالها، لا، بل تقصد أنه تعالى عادة سيتركه ولن يعرقل له مساعيه، ولا يذهب فكرك أنها تقصد الأغنياء فقط، لا، فعموم من سعى لأي شيء دنيوي، كبيرًا كان أم صغيرًا، وسواء تَوَفَّقَ في الحصول على ما يريده أم تعرقلت أموره، أو سعى لذلك عبر الطرق المشروعة في دينه تعالى أو في قوانين البشر، أو سعى لها بالطرق غير المشروعة في دينه تعالى أو في قوانين البشر... عادةً لن يستقصده تعالى ويتدخّل ليعرقل له أموره بناءً على إيمانه أو كفره.

هذا شيء تراه في حياتنا، فهذا مؤمن لم يسعَ ولم يرث مالًا... سيبقى فقيرًا، وذاك كافر سعى وناسبته الظروف... فصار غنيًّا أو ثريًّا، والآخر كافر لم يسعَ كما يجب وبقي فقيرًا، وغيره كافر سعى ولكن لم يستغلّ الفرص المناسبة أو لم تأته الفرص المناسبة... فكان فقيرًا أو متوسّط الحال... هذا ما تقصده الآية مع تركيزها على قصد الساعي أنه سعى فقط للحياة الدنيا ولم يسعَ للآخرة.
كما ترى، لا تزال السورة في أجواء الكلام مع من يفكّر بالعلاقة معه تعالى على أساس مصلحته الدنيوية، ضع هذا في بالك لأن السورة ستروي لنا قصصًا عن أقوام حصلوا على القوة والمال والترف... ولم يمنعهم سبحانه من الحصول على {زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، ولكن:

(أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{16})
{أُولَئِكَ}، الساعون فقط للحياة الدنيا وزينتها، {لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ}، في الحياة التي ستأتي في الآخرة، في الحياة الثانية التي ستأتي بعد القيام من الموت، {لَيْسَ لَهُمْ إِلَّا النَّارُ}، لأنهم لم يعملوا لحياتهم التالية، وكان كل اهتمامهم للحياة الدنيا وزينتها، فلم يؤمنوا ولم يعملوا الصالحات.
{وَحَبِطَ}، لم يعد له قيمة، {مَا صَنَعُوا}، كل الأشياء "التي تبدو حسنة" ونتج عنها شيء حسن سيرونه في الآخرة بلا قيمة، {وَبَاطِلٌ}، غير سليم ولا صحيح ولا جيد، {مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، لأنّ ما عملوه لم يكن الصحيح للحصول على شيء له قيمة حقيقية، فالقيمة الحقيقية لما نحصل عليه في الآخرة.
هذا الكلام المختصر هو مفهوم قرآني منتشر بكثرة في السور، فمن اخترع دواءً، أو من آوى وأطعم الفقراء والأيتام... ولم يكن ينوي ما فعله قربة له تعالى، أو بقصد الحصول على ثوابه تعالى في الآخرة، ولم يكن مؤمنًا بدينه تعالى... فهذا قام بعمل حسن ولكن في الآخرة سيكون عمله حابطًا، سيفقد قيمته، ونفس العمل لو قام به مؤمن ستبقى قيمته وعليه ثواب حسن.
سبب حبط الأعمال الحسنة أنها لم تكن بنيّة الحصول على ثواب الآخرة ولا قربى له تعالى فلماذا سيعطيه تعالى عليها أجرًا؟! قارنها مع شخص طرق عليك الباب يسألك أن تعطيه أجرَه على تصليح السيارة، والسيارة ليست لك، فهذا قام بعمل حسن، ولكن لماذا سيكون لعمله الحسن أجر منك؟ ونفس الشيء يقوله تعالى عن الأعمال الحسنة التي يقوم بها بعض الناس ولا علاقة له تعالى بها، حتى لو كان شخص ما مؤمنًا بدينه تعالى، مصلّيًا صائمًا مزكّيًا... وقام بعمل حسن وقصد منه القربى من الناس ليحبّوه ويقولوا عنه إنّه مؤمن، وكان مرائيًا، فهذا عمله حابطٌ وسيفقد قيمته لأنه لم يَنْوِهِ قربة له تعالى، وفي الآخرة سيقولون له: اذهب وخذ ثوابك من الذين قصدتهم بعملك، اذهب وخذه من الناس الذين قصدت التقرّب منهم ليحبّوك ويقدّروك....
يمكنك اختراع طيبة قلب وتقول بأنك أنت ستعطي الثواب على العمل الحسن حتى لو لم يكن قربة لك، اخترع ما شئت من أفكار طيبة القلب "كاذبة"، فهذا شأنك، ولكن سبحانه وبكل صراحة أخبرنا مرارًا وتكرارًا أنه لن يعطي أجرًا على عمل حسن إلا مع الإيمان به بشكل صحيح، وأفكارك النيّرة لن تغيّر من هذا الواقع أي شيء، لأنّ سبحانه أرحم منك وأرأف منك، ولكنه حكيم عادل، وهذا لا يتماشى مع إعطاء الأجر لمن لم يؤمن به تعالى أو لمن أشرك به تعالى، لأنّ كل المسألة من خلقه تعالى لنا، هي لنمرّ في دار امتحان ينجح فيه من آمن ليفوز بالجنّة، عندها ما معنى رسوبهم في توحيده تعالى ونيلهم الجنّة!
أكرر لك الكلام، اخترع طيبة قلب على هواك على أساس أنك لو كان القرار من مستوى إلهي بيدك، لسامحت الجميع ولن تَرْمِيَهُمْ في النار... مع أنه افتراض كاذب وغير صحيح، لأنك تحلم بتمزيق الذي قال لك كلامًا مهينًا أمام الناس، أو أهان ولدك أو والدتك... أو صفعك كفًّا على خدّك...، وفرضًا فرضًا وجدت إنسانًا فعلًا طيّب القلب لهذه الدرجة المستحيلة... إنّ اختراع طيبة قلب لك أو لغيرك، وافتراض وجوب تحلّيه تعالى بها، هذا لن يغيّر من الواقع أي شيء، لأنّ الحكم والقرار من الإله الحكيم بتعذيب الكفّار الفاعلين للسوء، حيث كان من السهل جدًّا جدًّا جدًّا تجنّبه عبر الإيمان بآيات واضحة جدًّا جدًّا وعبر فعل الصالحات، وعادةً بضبابية يتعامل الناس مع هذا الموضوع مفترضين أن الكفّار به تعالى قلبهم طيّب وعاملون للصالحات ولا يفعلون السوء... ورغم ذلك حكم تعالى عليهم بالنار فقط وفقط لأنهم لم يؤمنوا به؟! لا، يستحيل وجود كافر لم يفعل سيئةً من العيار الثقيل، كالزنا والربا والغشّ وشهادة الزور... وقتل نفس بريئة أو الموافقة على قتل أنفس بريئة للاستفادة من خيرات بلادهم لصالح بلاده...
حتى نحن المنتمين لدينه تعالى يستحيل أننا لم نفعل سوءًا ما، من العيار الثقيل أو الوسط، ولكن الفرق هو اعترافنا بالسوء والاستغفار منه، وبعد ذلك سبحانه أخبر بنا، ربما بعضنا سيتحاسب بالعذاب لأن استغفاره كان باللسان فقط بدون أي نيّة لترك السوء، وكما ترى ذكرت لك تفصيلًا صغيرًا لتنتبه أنّ حتى المنتمين لدينه تعالى قد تحبط أعمالهم الحسنة وقد يرفض تعالى استغفارهم إن لم يكن له معنى حقيقي، ليست المشكلة مع الكفّار أنهم ليسوا من المنتمين لدينه تعالى ولذلك سيعذّبهم سبحانه، بل المشكلة في رفضهم للحقّ ولفعلهم السوء، وهذا شيء نشترك به معهم، والقرآن مشحون بكلام الإهانات لليهود والمسيحيين والمسلمين الذين نافقوا وفسقوا...

(أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ{17})

تأكيدٌ ثانٍ أن مصدر القرآن من الإله سبحانه، والتأكيدان هنا عن إلهية مصدر القرآن يشبهان التأكيدين اللذين وردا في سورة يونس(ع)، حيث هناك تحدتهم بالإتيان بسورة مثله، وهذا تأكيد أوّل، والتأكيد الثاني هو الإشارة لورود نفس المعلومات التي فيه في كتب قديمة نزلت سابقا مما يعني أن القرآن وتلك الكتب القديمة جدا لها مصدر واحد.

{أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ}، أي كان على شيء واضح، {مِنْ رَبِّهِ}، من المسؤول عنه من مستوى إلهي، ولديه أمور واضحة تدلّه على الإيمان بربّه سبحانه والكلام هنا عن المؤمنين بهذا القرآن البيّنةِ، {وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ}، ويقرأ هذا القرآن عن مستند شخص موصوف بأنه شاهد منه تعالى، فالنبي محمّد(ع) كنموذج لسلامة القلب وهو شاهد حاضر مؤكّد لكون هذا القرآن منه تعالى، وسبحانه اختاره (ع) بسبب الصفات المناسبة التي فيه (ع) ليكون ناقلا للقرآن وشاهداً على صحّة محتواه، وذلك بسبب صدقه (ع) وأمانته وأخلاقه العالية... {وَمِنْ قَبْلِهِ}، من قبل هذا القرآن، {كِتَابُ مُوسَىٰ}، حيث نزل منه سبحانه على النبي موسى(ع) من قبل القرآن كتاب وهو التوراة، وما يسمّى بالتوراة في عصرنا فهو مجموع من التوراة التي نزلت على النبي موسى(ع) "الأسفار الخمسة الأولى" ومضافٌ لها كتب منسوبة للأنبياء وكتب من تأليف أحبار اليهود، ومعلوم لك أن التوراة تعرّضت للتحريف... والتوراة النازلة على النبي موسى(ع)، {إِمَامًا}، فالتوراة كتاب موصوف بأنه متبوع كمرجع أساسي للدين الإلهي، طبعا بسبب احتوائها على أساسيات الدين الإلهي مثل القرآن، والتوراة هي، {وَرَحْمَةً}، فهي عناية إلهية لما فيه مصلحة المؤمنين لأنهم سيهتدون بها.

إذن هذا القرآن ليس بدعة ككتاب نازل منه تعالى ولم يحصل ذلك من قبل، لا، لأن للقرآن امتداد تاريخي يرجع لآلاف السنين إلى كتاب مشهور جدا مثله نزل قبله، وهذا دليل آخر على إلهية مصدر هذا القرآن، لأن كل بقية الأديان لا امتداد تاريخي عميق لها بالمقارنة مع هذا الدين القرآني الممتد إلى أوّل بشري تأهّل للتكليف "من آدم(ع)"، وإلى أول كتاب مشابه للقرآن نزل عليهم منذ آلاف السنين...

{أُولَٰئِكَ}، الذين على بيّنة ولديهم القرآن المشابه لكتاب النبي موسى(ع)، {أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ}، حيث يعتقدون بأن هذا القرآن كتاب إلهي.

{وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ}، أي ينكر أن القرآن رسالة هداية منه سبحانه، {مِنَ الْأَحْزَابِ}، من الجماعات المختلفة تحت عناوين مختلفة ويجمعهم عنوان الكفر بالقرآن، {فَالنَّارُ}، التي في الآخرة، {مَوْعِدُهُ}، فهو موعود بأن يكون فيها، حيث قال تعالى أنه سيرميه في النار وهذا سيحصل حتما.

{فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ}، لأن المراء هو عموم أي كلام تافه سخيف غير موزون ولا قيمة له، سواءً أكان حول أمر تافه، أو كان ردا على الحق الواضح بكلام تافه، حيث تبيّن لك بوضوح صحّة هذا القرآن، لأن الكلام عن الشك في صحّته ما هو إلا مرية، فهو كلامٌ فارغٌ بلا معنى، فلا معنى للكلام حول صحّة إلهية مصدر القرآن الواضحة.

{إِنَّهُ}، القرآن، {الْحَقُّ}، الصواب الصحيح، {مِنْ رَبِّكَ}، من المسؤول عنك من مستوى إلهي.

نلتفت إلى أن القرآن يستعمل دائما تعبير: الحق من ربّك. ولم يستعمل ولا مرّة تعبير الحق مع ربّك. لأننا نحن في المناقشات فيما بيننا نقول: الحق معي. الحق معك. وهذا يتضمّن أنه هذه المرّة الحق معي ولكن في مرّة أخرى ربما يكون الحق معك، أمّا سبحانه فدائما لا يصدر عنه إلا الحق، فلا يمكن أن نستعمل تعبير: معه حق. حتى لا يكون هناك أي احتمال أن يكون في مرّة أخرى ليس معه حق، لأن الحق من ربّك دائما.

{وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ}، لا يعتقدون، لأن العطل المسبب لكفر أكثر الناس ليس من القرآن، إذ ليس في القرآن أي مشكلة، حيث من الواضح أنه كتاب منه تعالى، بل العطل أنهم هم أكثر الناس عندهم قرار بأن لا يؤمنوا به حتى لا يلتزموا بما يقوله القرآن، وسبحانه يعلم ذلك من قبل أن يخلقهم.

ننتبه لشيء مهم جدا هنا، لأن القرآن تحدث مرارا مع النبي محمد(ع)، كما هنا يتحدث معه، ومحمد(ع) بالأساس وقبل نزول الوحي عليه كان رجلا صادقا لا يكذب، وعندما يبلّغ الرسالة فهو ينقل إلى الناس ما يسمعه من الوحي في وعيه،

وهو أشدّ الناس إيمانا به تعالى وبما ينزل عليه، ولكن تريد السور أن تنقل لنا أن هناك رب وهناك رسول، وسبحانه ينزّل القرآن، والرسول فقط يتلقاه وينقله، وسبحانه ينبّه رسوله من أي انحراف، كما ينبهنا نحن، فمن الطبيعي أن يعتني سبحانه برسوله وينبهه، وهذا لا يعني أبدا أن رسوله يشكك أو يماري في الرسالة، لأن هذا مستحيل.

بعبارة أخرى، عليك أن تنتبه أنك تجمع كل معلوماتك عن كل حياة محمد(ع)، وتصير لديك صورة عن قداسته ومن خلالها تقرأ القرآن: النبي الرسول العظيم... القائد الطاهر... الذي تحمّل الأذى... وصورته مكتملة في ذهنك، أمّا في القرآن فيتم التعامل مع الرسول محمد(ع) على أنه شخص عادي مثلي ومثلك ويختلف عنّا بأن قلبه سليم وليس لديه مرض أو انحراف فكري أو نفسي لاختراع شيء يتعارض مع قلبه السليم، وهو ليس منحرفا للشهوات والنزوات والغرائز على حساب ما يمليه عليه قلبه السليم... وعلى هذا الأساس اختاره تعالى ليكون رسولا، وهذا القرآن النازل عليه (ع) كان مصدره (ع) لتعلّم الدينِ الإلهي مثلنا، وهذا واضح من الآية 52 من سورة الشورى {وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.

لا تقرأ ما يقوله القرآن للرسول محمّد(ع) على أساس الصورة التي في ذهنك أنت، حيث هنا، محمد شخص عادي اختاره تعالى "لأسباب عديدة" ليكون رسولا ينقل رسالته سبحانه، وهنا يقول القرآن للناقل له: لقد تبيّن لك بشكل واضح جدا أن الوحي الذي يصلك هو من مصدر إلهي، وأي كلام معارض لذلك فهو مراءٌ وتفاهةٌ.

قارنها مع حالتك حين تَعُدُّ شيئا ما، وتعدّه، وتعيد العدّ لتتأكّد، وهذا شيء مقبول، ولكن ما معنى أن تعدّه مرة ثالثة أو رابعة وخامسة... لتتأكّد من حصولك في كل مرة على نفس النتيجة؟! وقارنها مع تأكّدك من موضوع ما، حيث ثبت بكل الطرق أنه صحيح، وتجري الأمور على أساسه بدون أي مشاكل... وتقول: مع أني متأكّد، فلأراجع الموضوع لأتأكّد أكثر. وراجعته وتأكّدت، فما معنى توقّفك عن الاعتماد عليه وإعادة التأكّد من صحّته إن لم تكن هناك أمارات أو إشارات تدل على احتمال كونه غير صحيح؟! بهذا المعنى تقول الآيات للرسول محمّد(ع) أنك متأكّد وبعدة طرق أن هذا القرآن كتاب إلهي، {فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ}، إذ لا معنى ولا داعي لإعادة التفكير في مصدر هذا القرآن.

لاحظ وانتبه أن شفافية القرآن في كلامه مع الرسول الناقل له، هي أدلّ دليل على إلهية مصدر هذا القرآن، فلو كان من تأليف محمّد، أو غيره... لوجدت في القرآن شيئاً شخصياً صادراً عن شخص محمّد، فقارن مثلا بين ما ورد في القرآن من مديح للسيدة مريم(ع) وأنه لم يذكر أي اسم لامرأة من زمن النبي محمّد(ع)، لا أمّه ولا ابنته ولا زوجةً من زوجاته... بل حين ذكر القرآن زوجاته (ع) قرن مدحهن ببقائهن صالحات... وقارن ما ورد عن بقية الأنبياء مع ما ورد من كلام مع النبي محمّد(ع)، وستجد وبكل وضوح أن الكلام ليس صادرا من محمّد، ولا علاقة له به، ولا شيء شخصي من شخص محمّد...

إن تحويل معاني الآيات عمّا هي عليه للتكبير بشخص النبي محمّد(ع)، على معنى أنه (ع) لم يشكّ والكلام موجّه لغيره، ولم يُمَارِ والكلام موجّه لغيره، ولم يرتكب خطأ غير مقصود والأمر بالاستغفار موجّه لغيره... سيجعل النقاط المهمّة التي ذكرناها عن كون القرآن كلامه تعالى، سيجعلها مختفية غير ظاهرة، علماً أن القرآن لم يقل أنه (ع) شكّ أو مارى... ولم ينهه (ع) عن الشك والمرية على أساس أنه (ع) كان شاكاً ممارياً، لا، بل نبّهه (ع) أن لا يسمح لنفسه بالوقوع في هذه الحالات...

بالنسبة لما ذكروه في بعض الكتب كتفسير للتالي للقرآن الشاهد منه تعالى "وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ"، فما قلناه هو الأسهل فهماً، إذ نحن أمام "محمّد" النموذج من أرقى نماذج البشرية، ولهذا السبب اختاره تعالى ليوظّفه كناقل لكلامه للناس، فلو نزل نفس هذا القرآن على أبي جهل وأنت تعلم صلافةَ وقساوةَ وكفرَ وبقية سلوكياته السيئة، وقال أبو جهل لك أنه يصله إلى وعيه المعلومات التالية:... وبدأ بقراءة القرآن. وكلام القرآن يتماشى فقط مع من كان قلبه سليما، أي كان فكره ونفسيته طاهرين من السوء، وأبو جهل لن يتماشى مع الوحي الذي يصله، بل سيجنّ جنونه منه ويبحث عن طريقة للتخلّص من تلقيه لهذه المعلومات في وعيه... وأنت السامع لهذا الكلام، فهل ستلتزم به بينما الناقل له لا يلتزم به؟ والناقل له تاريخه معارض تماما لما يقوله لك؟ بل تاريخه من أسوأ التواريخ؟

هكذا ترى أنه تعالى يعتمد شخص محمّد بالصفات المعلومة عنه لمن حوله، أنه أمين صادق... ليكون شاهداً على إلهية مصدر هذا القرآن، ففي مسألةٍ طبيّة ستسأل الاختصاصي عنها للتأكّد من صحتها، وفي مسألة فيزيائية ستسأل الاختصاصي... وفي مسألة الدين التي في جوهرها الحقّ ضد الباطل والشر والفساد... وإلا فهي دين شريعة الغاب وهذا موضوع آخر، فستسأل الذي فكره ونفسيته سليمة، وهكذا يكون محمّد بشخصه دليلاً وشاهداً على إلهية مصدر هذا القرآن لأنه يخبر من حوله بأنه مؤمن بذلك، وأنت تعلم أن ما يصله (ع) وحياً يتماشى مع فكره ونفسيته، ولذلك فوراً سيرى أنه لا مشكلة عنده بالالتزام به، وفورا سيرى أنها من مصدر إلهي.

أمّا التفاسير الأخرى التي ذكروها فلا تتماشى مع الفهم السهل الظاهر من الآية، وتحتاج لضم أمور أخرى لا تظهر من كلام الآية، ومضافاً لها فلو قارنت ما قالوه عن أشخاص قصدتهم الآية بأنهم الشاهد، فقارنت ذلك مع التاريخ، لوجدت تعارضاً بين تاريخ نزول هذه السورة وإسلام أولئك، ولوجدت فقدان التناسب...

أخيراً أحيلك إلى موضوع مبني على نفس المفهوم، حيث في سورة النجم تجد أنه تعالى جعل رسوله(ع) يعاين أموراً في السماوات العالية وعن الملائكة(ع)... ليكون شاهدَ عيانٍ لكل ما يمكن لبشري أن يشهده، وذلك في مقابل الادعاءات الفارغة بلا دليل أن نجم الشعرى إله! وهنا نفس المفهوم حيث إن شخص النبي محمد(ع) المشهور بصدقه بين الناس سيكون شاهداً بنفسه على أن القرآن مصدره إلهي، تصوّر أنك عاصرته(ع) وسمعته، وجاء شخص تثق به كثيرا وقال لك أن كلام محمدٍ(ع) صحيح، ونفس الشيء وتصوّر أن شخصا تثق به لأنه صادق، وأخبرك بأن وحياً إلهياً ينزل عليه، وهو متأكد من ذلك بسبب القيمة العالية للكلام وبسبب اتصال الكلام تاريخيا بكلام قبله منذ آلاف السنين... فيكون هو بنفسه شاهداً على صدق إلهية مصدر هذا القرآن. ومعلوم لك أن شهادة النبي محمّد(ع) على قرآنه ليست الدليل الوحيد، إذ إن التحدي بالإتيان بسورة أو بعشر سور أو بدين له امتداد تاريخي مثل القرآن أو تأليف كلام بتقانة وصلاح القرآن أو لفت الانتباه لأربعين سنة من عمر النبي(ع) ولم يكن يتكلم خلالها بأي كلام مشابه لكلام القرآن، وهو أمي، وخلال قرابة العشرين سنة من نزول القرآن لم يعدّل ولم يبدّل ولم يخالف بعضه بعضا...

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أُوْلَـئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَـؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ{18})

{وَمَنْ أَظْلَمُ}، من هو الأشد ابتعادا عن العدل والإنصاف، من هو من أكثر الموصوفين بأنه لم يكن معه حق، {مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}، فاخترع أشياء كاذبة على الله تعالى مع علمه بأنه يكذب وسبحانه أصلا لم يقلها؟ فهل هناك عمل ظالم أكثر من هذا؟ فقال عنه تعالى بأنه عنده شركاء، أو أنه لم يرسل رسولا، أو أنه خلقنا وتركنا... أو ألّف كتبا فيها ما لم يقله تعالى ونسبها له سبحانه... فمن يفتري على الله تعالى فإنه غير عادل وغير منصف مع من؟ مع الإله الواحد فأساء معه سبحانه.

{أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ}، سيكونون أمام المسؤول عنهم من مستوى إلهي محل اهتمام بخصوص محاسبتهم ومعاقبتهم، حيث هنا في الدنيا كانوا يتمتعون بالحرية، فيقولون الافتراء عليه تعالى، ولا يشعرون بأي خطر من أي شيء، أمّا في الآخرة فسيقفون أمام الذي افتروا عليه. لذا عليك الانتباه للصورة التي تريدك الآية تصوّرها، ففي الدنيا جرأة وافتراء كاذب على الرب العظيم، وفي الآخرة وقوف بين يديه تعالى لخصوص معاقبتهم.

يوم يتم عرض المفترين على ربهم سبحانه، {يَقُولُ الْأَشْهَادُ}، من الرسل والملائكة(ع) والناس المؤمنين، وهم الذين شهدوا على الافتراء، الذين كانوا حاضرين حين حصل الافتراء، فيشيرون إلى الناس المفترين ويقولون عنهم: {هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ}، هذه الجماعة من الناس قالوا عن المسؤول عنهم من مستوى إلهي أشياء غير صحيحة، فقالوا عنه بأن له شركاء في الألوهية، وقالوا عنه بأنه خلقنا وتركنا ولا يتدخل بنا ولن يحاسبنا، وقالوا عنه أنه لم يرسل رسولا، ولم ينزل كتبا، وجعلوا له تعالى بنات، وألّفوا كلاما ونسبوه له تعالى...

{أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ}، فبالتأكيد أن الطرد والنفي من الرحمة ومن العطف الإلهي، {عَلَى الظَّالِمِينَ}، على الذين لم يكن معهم حق فيما فعلوه، فهم لم يكونوا عادلين ومنصفين حين افتروا على ربهم تعالى.

لاحظ استعمال القرآن لوصف الكافرين بالظالمين، لأن المعروض عليهم هو الحقّ الواضح، وظلما أنكروه، فلم يكن معهم حقّ حين أنكروه.

بالنسبة للافتراء الكاذب، خذ مثلا قولي عنك أنك قلت "لي" عن اكتشافك لدواء ما. فإن لم تكن قلت "لي" ذلك، فأنا أفتري عليك، وإن كنت لم تكتشف الدواء، فأنا أفتري عليك كاذبا، فأنا ألصق بك "أفتري" شيئا غير صحيح "كاذبا". ولو كنت اكتشفت الدواء فعلا عندها أكون مفتريا عليك لأنك لم تقل ذلك لي، ويكون افترائي غير كاذب عند مقارنته مع الواقع.

لاحظ الكلام هنا عن حساب جماعي، حيث يقف الشاهد أو الشهود المؤمنون أمام جماعة أو جماعات أو أمّة كافرة، وهذا المشهد يذكّرنا بما ورد في الآية 47 من سورة يونس {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}، إذ إن أيام الآخرة بالنسبة لنا تبدأ من يوم قيامنا من الموت، ويلي ذلك أيام من حشرنا زمرا ومحاسبة كل واحد لوحده، ومحاسبته مع الذين لهم علاقة بعمله... وصولا إلى حساب الجماعات بالأثر الناتج عن تضامنهم على شيء سيّء كجماعة وفرضهم لذلك على الآخرين... وصولا إلى حساب الأمّة كلّها على عمل جماعي توافقوا عليه وتوارثوه ناقلين له من جيل لآخر...

(الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ{19})
المفترون الظالمون هم، {الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، فمن يرد سلوك المسلك الإلهي يمنعونه من سلوكه، حيث يأتيهم رسول منه سبحانه يخبرهم بما يأمرهم به ربهم سبحانه، ولكنهم يمتنعون عن الالتزام بالرسالة، ويمنعون غيرهم أيضاً من الالتزام بها عبر طرح الإشكالات الكاذبة على الدين، وطلبات تعجيزية من الرسول، ومعاداة المؤمنين وإلحاق الضرر بهم...

{وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا}، يريدون ويرغبون أن يكون المسلك إليه تعالى ملتوياً غير مستقيم. الدين المستقيم هو التوحيد وترك السوء والانتباه للآخرة... ولكنهم يريدون ديناً ملتوياً يحتوي على الشرك ويسمح لهم بارتكاب السوء...

{وَهُمْ بِالْآخِرَةِ}، بالحياة التي ستأتي في الآخِرِ بعد هذه الحياة الدنيا الأولى، {هُمْ كَافِرُونَ}، ناكرون لا يؤمنون بها.

نلاحظ ارتباط هذه الأمور ببعضها، فالذي لا يصدّ عن سبيله تعالى، يسلكها كما هي لأنه يؤمن بالحساب على ذلك في الآخرة، والذي يصد عن السبيل ويرغب بها ملتوية، فلأنه لم يؤمن بالحساب في الآخرة على تصرفاته التي قام بها في الدنيا فهو يشعر بالحرية في فعل ما يريد لأنه لا يؤمن بالحساب الإلهي على ما يفعله.

هناك عمق في التعبير {يَبْغُونَهَا عِوَجًا} يريك أنهم لا يريدون الاستقامة على سبيله تعالى، ومعلوم أن سبيله تعالى هو الصلاح، وهو نفس ما جعله تعالى فينا من قابلية لتمييز الخير من الشرّ، وعلى أساسه قرّر تعالى العقاب والثواب، ويريدون أن يكون ما هم عليه من سوء هو الدين المنتشر، وهي حالة: أنا هكذا، وهذا أنا ولا أريد التغيّرَ ورغبتي فيما أنا عليه، ولا أقبل بفرض شيء عليّ ومغاير لذلك، وليكن ما أنا عليه مقبولاً، ولا تقولوا لي أنه سيئٌ ولا يهمّني ذلك.

طبعاً أنت تعلم أنهم ومن كثرة تكرارهم للسوء سيفقدون التمييز بين الخير والشر، ويصيرون مطبوعين على الكفر، فيكونون في مرحلة: فليكن السوء الذي نحن عليه مقبولاً كدين ولا نتحاسب عليه إن كان هناك آخرة. وبعدها يصلون إلى مرحلة: ما نحن عليه ليس سيئاً بل هو الصلاح فليكن هو الدين. وكلتا الحالتين تنبعان من الشعور بالأمان من العقاب لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، حيث يخطر ببالهم أنها قد تكون حقيقية وستحصل، ولكن لا تأثير لها على ضبطهم لتصرفاتهم.

(أُولَـئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ{20})
أولئك الظالمون المفترون الصادون عن سبيله تعالى الناكرون للآخرة:

{لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ}، ليس لديهم القدرة القاهرة التي تجعله تعالى يعجز عن تعذيبهم، أو تدميرهم، أو إماتتهم... هنا في الأرض، فالآن هنا في الدنيا هم تحت السيطرة الإلهية بعكس ما قد يبدو لهم، لأن كفرهم بالحساب والعقاب في الآخرة كونها بعيدة أو مستحيلة في نظرهم لا يلغي كونهم الآن أيضاً تحت سلطته تعالى.

تذكّر ما ورد في الآية 15 من تركه تعالى لهم هنا في الدنيا يحصلون على مقابل ما عملوه في سبيل الحصول على متاعها، حيث ترك هذا لديهم شعور الحرية وشعور الانفلات من قدرته تعالى، وكأن كلام القرآن مجرد كلام خيالي لا تطبيق له، وسترى الكثير من الكلام في هذه السورة عن نماذج تطبيقات قدراته تعالى على بعض الأمم التي استحقت تعذيبها هنا في الدنيا...

{وَمَا كَانَ لَهُمْ}، لهؤلاء الكافرين، {مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ}، لا مرجع لهم من مستوى إلهي في الأمور التابعة للشؤون الإلهية، فإن حصل معهم شيء "سيّء أو جيّد" يقرره سبحانه لهم، فلن يجدوا أحداً غيره تعالى ولياً لهم من مستوى إلهي ليكون مرجعاً لهم وهم تابعون له ليتدخّل لصالحهم.

{يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ}، الظالمون المفترون... عذابهم سيكون مضاعفاً في الآخرة، فسيجعله تعالى بقيمة مرتفعة، ولا أحد يمكنه فعل شيء لهم لأنه لا ولي من مستوى إلهي لينجيهم إلا الله تعالى الذي قرّر تعذيبهم.

{مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ}، كلامه تعالى وصلهم ولكنهم صمّ، حيث إن لديهم قراراً بتعطيل سمعهم عن كلامه تعالى، {وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ}، هم لا يدرك وعيهم معنى الصور التي يرونها، فلا يرون الحق الذي يعرضه هذا الدين، وهذا التعبير مرادف لوصف القرآن لهم بأنهم عمي. فهم بكفرهم وظلمهم وصدهم... أغلقوا آذانهم وأعينهم فلم يسمعوا كلامه تعالى مع أنه وصلهم ودخل في أذنهم ولكن فكرهم لم يعه، ولم يروا الحق مع أنه واضح أمامهم، فمن تهدّد بهذا التهديد وهو يسمع كلامه تعالى ويرى الحق فمن المفروض أن ينتبه ولكن هؤلاء لم ينتبهوا وكان مصيرهم ضعف العذاب.

هل مضاعفة العذاب متعارضة مع كلام الآيات أمثال الآية 27 من سورة يونس {وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا...}؟ الجواب السريع: العذاب المضاعف هو الجزاء للسيئة بمثلها. ونفهم ذلك بسهولة من الانتباه لمضاعفة "الثواب الحسن"، فهو يبدأ من مصادقته تعالى على العمل أنه صالح وعليه أجر، فأجر الصدقة بتفاحة على فقير هل سيكون في الآخرة أن يعطوك تفاحة على أساس أن الحسنة بمثلها؟ أو يكون صندوق تفّاح، على أساس مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها أو بسبعمئة؟ من عموم كلام القرآن نفهم أنه من بعد الإيمان به تعالى يصير للعمل الحسن الواحد أجر من قصور وبساتين... وهذا هو الثواب الأساسي، وهذا مضاعف مرّة واحدة على الأقل، وكمثال تقريبي فأجر الصدقة بتفاحة سيكون الأجر الأساسي عليه مضاعفاً، فيصير قصوراً وبساتين... فهذا هو الأجر الأقل.

والعقاب أيضاً مثله، حيث بمجرد تحويله على المقياس الإلهي إلى عقاب سيكون مضاعفة للقيمة، فمن قتل بريئاً هنا في الدنيا فقد أنهى حياة واحدة قصيرة، والعقاب على مقياس الآخرة هو الضعف هو القيمة المضاعفة الحقيقية، هو العقاب بقدر الجريمة ولكن على مقياس الآخرة الخالدة، ليكون العقاب خلوداً في النار بسبب إنهاء حياة إنسان واحد بريء، راجع في ذلك دراسة الآية 32 من سورة المائدة {... أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...}.

بعبارة أخرى كما بسهولة نفهم أن الأعمال الحسنة التي قمنا بها في الدنيا، لو ردّها تعالى لنا كأجر كما هي أو ضاعفها، فلن يكون للأجر معنى في الآخرة، فهل سيعطوني مليار دينار بدلاً من المال الذي تصدّقت به؟ وماذا أفعل بها هناك؟ بل سيكون الأجر توريث الأرض، وجنّات فيها تجري من تحتها الأنهار، وفيها ما يسبب السعادة...

من ناحية ثانية إن الغشّاش المفسد في الأرض، هل عقابه في الآخرة أن يعطوه مالاً وبضاعة ويغشّوه؟ والقاتل يقتلونه؟ والسارق يسرقونه؟ والزاني والراشي والمرتشي وآكل مال الأيتام... ماذا يفعلون بهم؟ كما ترى فلا معنى للعقاب بمثل الفعل، وحتى نحن هنا في الدنيا فإن السارق والغشّاش والجاسوس... هل لعقابهم بمثل ما فعلوه معنى؟ فهل تسرق السارق كعقاب له؟ أو تغشّ الغشاش أو تتجسّس على الجاسوس...؟ فهؤلاء صار متعارفاً بين الناس مجازاتهم بالسجن، وبعضهم نحكمه بالسجن مؤبداً...

هكذا ترى أصلاً أن بعض السيئات لا معنى للمجازاة بفعل مثلها، بل المجازاة تكون بحسب قيمة الضرر، وعلى هذا المعيار تكون المجازاة في الآخرة، فقتل ابن آدم(ع) لأخيه منذ آلاف السنين، هو قتل لكل الذرية التي كانت ستنتج عن المقتول لو بقي حياً، ولذلك كان العقاب على هذه السيئة خلوداً في النار كما هو واضح من سياق الآيات قبل الآية 32 من سورة المائدة.

نرجع للآيات، فالذين بهذه الصفات:

(أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ{21})
أولئك الذين بهذه الصفات من الكفر والصدّ والظلم... هم، {الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ}، فلم يخسروا مالهم أو عملهم أو سيارتهم أو هاتفهم... بل خسروا أنفسهم، حيث إن أنفسهم فقدت قيمتها ولم يعد لها أهمية عنده تعالى، وصارت مهانة، وستتعذّب في النار.

{وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}، حيث إن ما كانوا يخترعونه كذباً عن قصد لم يصلهم منه أي شيء، ومن فحوى الكلام تعلم أن المقصود أنه لم يصلهم من افترائهم عليه تعالى أي شيء جيّدٍ.

افتروا واخترعوا وعن علم وقصد أشياءَ غير صحيحة، حيث جعلوا لله تعالى شركاء في الألوهية، وافتروا عليه تعالى أنه يقبل بما هم عليه من دين... ولن يصلهم أي شيء مفيد من تلك الآلهة التي اخترعوها ولا مما افتروه عليه تعالى.

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، حيث إنها لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شراً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضلّ عنك صيدها. استعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهةً ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، إذ لم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون حيث إنه ليس على طريقهم، بل ضالٌ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} رداً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ{22})
{لَا جَرَمَ}، حتما وبالتأكيد، {أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ}، في الحياة التي ستأتي في الآخر بعد انتهاء الحياة الدنيا الأولى، {هُمُ الْأَخْسَرُونَ}، هم الأشد خسارة، وسيكونون من أكثر الذين فقدوا أشياء لها أهمية كبيرة.

سيفقدون مغفرته تعالى ورحمته وثوابه، وأنفسهم ستفقد قيمتها... وعندما يفتحون أعينهم في الآخرة، فمن أول لحظة وإلى ما لا نهاية، هم مهانون معذبون بأشد أنواع العذاب.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{23})
{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا}، اعتقدوا بتوحيده سبحانه وبرسالته والآخرة... {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قاموا بالأعمال التي يرونها موصوفة بأنها صالحة وليست عاطلة فاسدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح وعمليا تماشت رغبتهم بالعمل الصالح مع ما يأمر به تعالى، فتركوا ما حرّمه تعالى وفعلوا ما أوجبه تعالى... {وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ}، تصرّفوا وشعروا على أساس أن المسؤول عنهم من مستوى إلهي فوقهم وهم عبيد تحته، فصارت العلاقة بينهم وبينه سبحانه علاقة خضوع له تعالى مع احترام وخشوع شديد وحبّ شديد.

نتذكّر أن هذه النوعية في مقابل النوعية التي اخترعت آلهة وديناً، فأولئك لم يخبتوا لله تعالى.

{أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ}، هم مع بعضٍ في المكان الموصوف بروعة ما فيه، {هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، لا يموتون ولا يفنون ولا يخرجون منها ولا هي تخرب.

ننتبه، حيث في الآخرة كلنا نشعر بالخلود، وهنا في الدنيا نعرف بأننا سنموت، ربما بحادث أو بمرض أو بالشيخوخة... ولكن بمجرد أن نفتح أعيننا في الآخرة، سنشعر بجسدنا الجديد الذي لا يموت ولا يفنى، وإذا كنا من أهل النار، عندها سيصيبنا الرعب الشديد لأننا سنواجه عذابا لا نهاية له بجسد عليل مُسَبِّبٍ للألم، ويشعر بالألم من أي شيء، وإن كنّا من أهل الجنة، فسيصيبنا فرح شديد لأننا سنتنعم بسعادة لا نهاية لها بجسد مفعم بالحيوية والنشاط دائما...

نلاحظ أن القرآن دائما يقرن بين الإيمان والعمل الصالح مع بعضٍ، والنتيجة للاثنين معا هي دخول الجنة، فلا الإيمان بدون عمل صالح ينفع، ولا العمل الصالح من دون إيمان ينفع، بل كلاهما معا ينفعان.

(مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ{24})
{مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ}، شبه مجموعة المؤمنين ومجموعة الكافرين، {كَالْأَعْمَى}، كالشبه بين الذي لا يرى الأشياء حتى لو كانت أمامه، وهنا المقصود بالأعمى الذي لا يرى الحقّ، {وَالْأَصَمِّ}، الذي لا يسمع، وهنا المقصود الذي لا يسمع الحقّ، وهذه حالة مَن كفر.

{وَالْبَصِيرِ}، الذي يدرك ويعي الصور التي يراها، وهنا الكلام عمّن يرى الحق ويمشي عليه، {وَالسَّمِيعِ}، حيث يدخل الكلام إلى وعيه، وهنا الكلام عن سماع كلام الإيمان واقتناعه به.

{هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا}؟ هل هذان الفريقان الأعمى والأصم من جهة والبصير والسميع من جهة ثانية هل هما في نفس مستوى القيمة والاعتبار بالتماثل، وهل هذا الفريق مثل ذاك الفريق باستواء "تساوي" قيمتهما؟ بالطبع لا، ففريق أعمى أصم، وفريق يبصر ويسمع.

{أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}؟ فلماذا لا تستحضرون هذه المعلومات! فمن وصلَتْهُ بَيِّنَاتٌ ورسالة من ربه تعالى فرآها وسمعها فمشى عليها، فهل هو مثل الذي عمي عنها فلم يرها ووصله الحقّ فلم يسمعه.

تشير هذه الآية وأمثالها إلى الكثير من الأقوال التافهة التي يقولها بعض الناس، فبعضهم يقول: أنت تعتقد بهذا الدين وبالآخرة... فهذا الإيمان الخاص بك. ويقولون ذلك على أساس أنهم إن كفروا به أو لم يسمعوا ما يقوله عن الآخرة... فلن يكون لهم أي علاقة بما يقوله الدين الإلهي، فلن يتعذّبوا! على أساس أن المؤمن بهذا الدين فقط سينطبق عليه ما يقوله دينه! حيث إن المؤمن فقط يتعذّب إن خالف الدين الإلهي والآخرون لا علاقة لهم بالعقاب لأنهم ليسوا مؤمنين بالدين!

بعض الناس يقولون: أنت مؤمن بدين ونحن مؤمنون بدين آخر، فنحن متشابهان. ويقولون ذلك وكأنه سيغيّر من الواقع، وكأن المؤمن بهذا الدين سيكون له آخرة وحساب... وهم سيكون لهم ما يعتقدون به!

بعض الناس يقولون إنه لو صدقتم أيها المتدينون بهذا الدين، فنحن لا نعتقد بأن إلهكم سيكون قاسيا معنا، وإذا حصل وصارت الآخرة كما تقولون، فحتما سيغيّر إلهكم رأيه ولن يعذّبنا...

كل ما سبق وأمثاله الكثير من الأفكار تردّ عليها آيتنا هنا وما يشبهها من بقية القرآن: لا، لن يعاملكم تعالى مثل بَعْضٍ فهناك فرق واضح وعلى أساسه ستتم المعاملة.

ننتبه دائما، فالآيات القرآنية لا تقلل من قيمة المعاق الأعمى الفاقد للبصر، ولا تقلل من قيمة المعاق الأصمّ "الأطرش"، حيث إن كل القرآن يقلل فقط من قيمة الكافر والمشرك والمنافق والفاسق، فالعمى الذي يذمّه القرآن هو عمى القلب والفكر والصمم الذي يذمّه هو الصمم عن قبول كلام الحق، فيمر من أذنهم ولا يعونه لأنهم يكرهونه. ويمكنك مراجعة سورة عبس لترى القيمة العالية للمؤمن عنده تعالى حتى لو كان أعمى وفقيراً من أفقر الناس وأبسطهم...

هذه الآية خاتمة للفقرات السابقة، حيث ختمتها بعرض رؤية إلهية لفريقين، وفيما يلي سوف تبدأ السورة بعرض قصص لرسل حصل تعذيب لأقوامهم المشركين هنا في الدنيا، وسوف نلاحظ تركيز القصص على عقلانية ومنطقية الرسول فيما يقوله، وعمى وصمم الكفار العنيد ضد الحقّ، وتلاحظ أن السورة تريد من القصص تنبيه كل المجتمعات من العذاب الدنيوي قبل الأخروي، وتعطيهم نماذج عن تدخّله تعالى هنا في الدنيا حتى يلتفتوا أنهم غير معجزين ولينهار

شعور الكافرين بالعظمة، وتكون نَمَاذِجَ كدليل تاريخي ملموس عن تعذيبه تعالى للكافرين في الآخرة... وإليكم بعضا من تلك القصص:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ{25})
بداية القصص عن رسل مرّوا بظروف مختلفة، وقصصهم فيها نقاشات دينية بينهم وبين قومهم، وعبرة، وذكرتها لنا السورة كنماذج حتى تساعد من يريد أن يؤمن، وتنذر الكافر، وبالتحديد حتى ترينا أنّ العذاب الدنيوي حصل في السابق وليكون نموذجاً ودليلاً على عذاب الآخرة.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ}، حمّلناه رسالةً منّا إلى الناس الذين لهم كيان الجماعة وهو (ع) من جماعتهم.

{إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ}، أنقل لكم بشكل واضح الخبر السيّء الحتمي بالعقاب لمن توافرت فيه شروط الحصول على العقاب.

لاحظ القرآن دائماً عندما يريد ردّك إلى عمق وامتداد دينه تعالى، فأبعد رسول يردّك إليه ويذكر اسمه هو نوح(ع)، مع أنهم يقولون في التراث الديني إنّ النبي إدريس(ع) قبله، وذكر القرآن اسمه ولكن بدون تفاصيل، والسبب على ما يبدو أنّ الرسول نوح(ع) كان من أولي العزم، من خمسة رسل اعتبرهم تعالى محطات فارقة في تاريخ البشرية "نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد" صلواته تعالى عليهم.

على أي حال فلنلتفت دائماً للعمق التاريخي السحيق لدينه تعالى في تاريخ البشرية، فلآلاف من السنين كان يأتينا رسل منه تعالى يقولون نفس الكلام حرفياً عن العقيدة، لتقارن ذلك مع كل الأديان الأخرى التي يؤمن بها الناس، ولترى أنّ أديانهم من اختراعهم وامتدادها التاريخي قصير جداً بل بالكاد يظهر أمام امتداد دينه تعالى.

(أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ{26})
{أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ}، أنتم الآن في حالة من يستحقّ العقاب وأنا أنقل لكم الإنذار وأخبركم ألّا تعتبروا أنفسكم عبيداً مفروضةً منكم الطاعة إلّا لصاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" تعالى، فلا تتصرفوا على أساس أنكم عبيدٌ لإله غيرِ الله تعالى، {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ}، فأشعر بخطر سيصيبكم ولن تتمكّنوا من تجنّبه إذا عبدتم غيره تعالى، والخطر هو، {عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ}، وتعلم من القرآن أنّه يوم القيامة من الموت وما بعده حيث هذه النوعية من الناس ستتعرّض لما يؤذيها ولن يكون عادياً يمكن تحمّله.

من القرآن تعلم أنّ قوم النبي نوح(ع) كانوا يعبدون آلهة متعددة كما ورد في الآية 23 من سورة نوح {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا}، وهنا ترى ملخصاً عن النبي(ع) وهو ينذرهم من العقاب الحتمي الأكيد على هذا الكفر بوحدانية الله تعالى.

(فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ{27})
{فَقَالَ الْمَلَأُ}، قال الجماعة من الناس التي لها سلطة معنوية، كالمشاركين في الحكم كرؤساء العائلات والعشائر وكالأمراء والوزراء والمستشارين وصولاً إلى الوجهاء، {الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا وحدانية الله تعالى كإله، {مِن قَوْمِهِ}، من الناس الذين لهم كيان الجماعة وهو (ع) من جماعتهم، قالوا رداً على الإنذار:

{مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا}، فالصورة المحدّدة عنك لدينا هي فقط صورة كائن له بشرة مثلنا نحن، كما نقول بالعامية: ما شايفينك إلا بشري عادي مثلنا ومساوٍ لنا، فلست مميزاً عنا بأي شيء حتى تكون رسولاً من الإله، ولست مميزاً عنا بقوتك أو بشكلك أو بقدراتك... بل مجرد رجل عادي، فلماذا نصدقك بأنك رسول؟ وهل أي واحد منّا يقول بأنه رسول من الإله فسنصدّقه؟!

ثانياً: {وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ}، فاقتنع بكلامك وصار عليه، {إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا}، فقط الذين هم أقل منا وعياً وفهماً، وهم أقل منّا اجتماعياً، وليس لهم قيمة فكرية، فليسوا من المثقفين، وليسوا من المرموقين اجتماعياً مثلنا، وليسوا من الوجهاء

ولا الأغنياء... واتبعك هؤلاء الأراذل، {بَادِيَ الرَّأْيِ}، أي من دون تفكير، حيث أول ما سمعوا كلامك وبدا لهم وخطر لهم رأي فيه أنّه جيدٌ ومن دون تفكير اقتنعوا به وصدّقوه. بعبارة أخرى نحن الملأ ونحن الوجهاء كقادة للمجتمع نحن نفكّر ونحسب... والذين آمنوا معك ليس لديهم أهلية رؤية الأمور الجيدة من السيئة فهذه قدرة نتمتع بها نحن ومن المفروض أن يكونوا تابعين لنا، فلو كان الإيمان بك له قيمة فنحن كنّا سنؤمن بك، أمّا وقد كفرنا وآمن بك بعض الناس، فمن الواضح أنهم بسبب بساطتهم آمنوا بك.

ضع في بالك أنّ الوصف بالرذالة يشير إلى عموم الدونية مع رداءة بالمقابلة مع آخر، فهذا رذيل لأنه أقل فهماً من الآخر، وذاك رذيل لأنه أقل اجتماعياً من الآخر... فبحسب سياق الاستعمال يتحدّد نوع الدونية المقصودة، سواء في العلم أو المال أو الهيئة أو الجسد أو المكانة أو في الأخلاق...

أنت يا نوح وهؤلاء الذين اتبعوك، {مَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ}! فلم تحصل معنا صورة محدّدة لشيء يكون لديكم وأفضل مما لدينا، فلا نراكم حصلتم على فضل على شيء مميز من إلهكم فضّلكم به علينا، ولا حصلتم على شيء مميز من تدينكم، فلأي سبب سنترك ديننا ونتبع دينك إن كان دينك لا يفيدنا بأي شيء؟! فها أنت والمؤمنون معك حالتكم عادية بل أقل من عادية مقارنة بنا نحن الملأ، نحن الوجهاء الزعماء الأغنياء...

{بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ}، فاستناداً لحالتكم نعتقد أنّكم لا تقولون الحقيقة، فهذا الإنذار والدين الذي تؤمنون به ما هو إلا كذبة.

مثلما يوجد لدى بعضنا شعور تجاه المتدينين من غير طائفتنا أو من غير ديننا بأنهم ليسوا مقتنعين بدينهم، ونشعر بأنهم يمثّلون، ونعتقد بأنهم يتظاهرون بالتدين ولكنهم في الحقيقة عندهم مصالح تدفعهم للتظاهر بالتدين، فكذلك إنّ بعضهم يشعر تجاهنا بنفس الشعور، مثلاً: بعضهم لا يقتنع بأننا نصوم عن الطعام فعلاً، بل يعتقد بأننا فقط أمامه لا نتناول الطعام في شهر رمضان، وأنّنا عندما نكون لوحدنا فإنّنا نأكل في النهار. وهنا الكفار يعبّرون عن شعورهم تجاه المؤمنين برسالة النبي نوح(ع) بأنهم يظنونهم كاذبين غير مقتنعين بالدين بل يعلنون اتباعهم له كتمثيلية، أما في الحقيقة فهم لا يؤمنون بالدين الإلهي التوحيدي...

ننتبه جيداً، فالمحاورات لا ينقلها القرآن دائماً حرفياً كما صدرت من فم المحاورين أو المتكلمين، بل غالباً ينقل القصّة من مزيج محاورات حصلت ليعطينا نظرة شاملة عن الموضوع، وعادة ينقل لنا القصد الفعلي للقائل، فيستعمل القرآن عبارات غير التي نطق بها القائل بالحرف، ويقول لنا ما كان يقصده القائل فعلاً، ولذلك نجد هنا في المحاورة بين النبي نوح(ع) وبين الكفار، نجد اختلافاً في الكلمات والجمل بين هذه المحاورة وبين محاورات أخرى في سور أخرى، فالغرض من القرآن ليس التقرير ونقل الكلام حرفياً، بل هدفه الهداية والعبرة والتحذير، فينقل لنا الأقوال بصدق وبالمقصود الحقيقي للقائل، ولا يهتم بنقل الكلام بالحرف، فلم يترجم لنا من لغة قوم النبي نوح(ع) إلى العربية، لا بل نقل مغزى الكلام بدقّة تصل إلى نقل ما يقصده المتكلّم من داخله، وانتبه، فالقرآن لم يهتم بنقل القصص للتاريخ بل في كل سورة ينقل لنا من القصص ما يتعلّق بمحور كلام السورة، ويختار زاوية من الكلام الذي قالوه والمتناسب مع محور السورة الناقلة له. وهذا شيء تراه بوضوح في نقل القرآن لكلامه تعالى مع إبليس حين رفض السجود، فلم يقصد سبحانه توزيع المعلومات عن الحادثة بين السور، بل نقل منها الزاوية المناسبة لموضوع كل سورة...

نلاحظ تركيز الآية على نقطتين هما ملخص عن محاورات عديدة جرت بين النبي نوح(ع) والكفار من قومه، النقطة الأولى في اعتراضهم عليه (ع) أنّه بشري عادي غير مميّز، والنقطة الثانية أنّ من اتبعه هم الأراذل.

بقي شيء تذكّره دائماً، فلسبب أو لآخر علق في أذهاننا عمّن سبقنا من البشر بآلاف السنين أنّهم كانوا بسطاء في التفكير، وهذا غير صحيح، حيث كان فيهم بسطاء، وكان فيهم محنّكون "أذكياء" ليسوا أقل من المفزلكين "المتفننين بالذكاء" من عصرنا، وانتبه دائماً للمستوى المشابه لكلامهم عن دينه تعالى مع رسلهم وبين كلام الذين في عصرنا، لأنه شبه التمام، فلا يخطر في بالك أنّ الكلام عن قوم النبي نوح(ع) كلام قديم عن بسطاء ولا يفيدنا ذكره... لا، بل نقله القرآن لأن العقلية لم تختلف من حينها إلى حيننا وإلى ما سيأتي بعدنا، وهذا هو أقصى مستوى كلام سيقوله الناس عن الدين الإلهي مهما مرّ من زمن.

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ{28})

قالَ النبيُّ نوحٌ (ع):

{يَا قَوْمِ}، يا جماعة الناس الذين أنتمي لجماعتهم والمتفاعلين مع الدين الإلهي، {أَرَأَيْتُمْ}، فلو صار لديكم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: لو شفتوا. {إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ}، على شيء واضح، {مِّن رَّبِّي}، من المسؤول عني من مستوى إلهي، {وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ}، فوصلني منه سبحانه شيء فيه عناية بي لما فيه مصلحتي، وهنا الكلام عن نزول الوحي عليه (ع)، فهو يدلّه على الهدى على الحقّ والصلاح وهذه رحمة منه تعالى.

{فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ}، فمع أنها رحمة واضحة ولكنكم لم تروها، فكانت الأمور واضحة أمامكم ولكنكم كالعميان فلا تروها رغم أنها أمامكم، {أَنُلْزِمُكُمُوهَا}، فنجعلكم بالقوة ملزمين بالتصديق بها، مرتبطين بها بلا انفكاك، {وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ} !؟ وأنتم تشعرون بالنفور منها ولا تريدونها، فهل صار العطل فيّ أني آمن بي الذين تعتبرونهم أقل منكم وأني لم أجعلكم ملتزمين بالدين الإلهي؟!

عرضت عليكم دينه تعالى بشكل واضح، وهو واضح أنه منه تعالى لأنه حقّ وصلاح، وهو رحمة منه تعالى لكم حتى تهتدوا ولا يصيبكم العذاب، فآمن القليل منكم، آمن الأراذل، الضعفاء العاديون من الناس فكرياً واجتماعياً ومالياً... وأنتم الملأ لم تؤمنوا فماذا أفعل لكم؟ فهل تتوقعون منّي أن أملك قدرة تجعلكم ملزمين بالإيمان بما أقول وأنتم من داخلكم لديكم كره لدينه تعالى؟! فالمشكلة ليست فيما وصلني ونقلته لكم، بل المشكلة فيكم، وليست المشكلة في شخصي حتى تعتبروا كفركم كملاً، وإيمان الأراذل، فشلاً لي، فماذا تتوقعون مني أن أفعل غير عرض الحقّ عليكم؟

(وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَـكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ{29})

يكمل النبي نوح(ع) كلامه:

{وَيَا قَوْمِ}، يا جماعة الناس الذين أنتمي لجماعتهم، {لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا}، لا أعبّر لكم عن إرادتي للحصول على مال منكم كأجرٍ مقابل الجهد الذي أبذله في نشر الدين، {إِنْ أَجْرِيَ}، فقط ما تحدَّدَ كشيء أستحقّه على قيامي بتبليغ الدين الإلهي، {إِلَّا عَلَى اللَّهِ}، فهو سبحانه فقط سيعطيني أجري.

بعبارة أخرى فلنَرَ إن كان لي مصالح دنيوية من كلامي الديني، فعندها يحقّ لكم الشكّ في صحّة ما أقول، ولكنكم تعلمون أني لم أطلب منكم مالا، وهذا يدلّ على أني لا مصلحة ومنفعة دنيوية لي من تبليغي للرسالة، لأنني أطمع في الأجر الإلهي فقط.

{وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا}، ولن أعمل على إبعادهم عنّي بالقوّة، ولا يحق لي رفضهم كمؤمنين، حيث أنا لا علاقة لي، والسبب، {إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ}، حيث سيموتون ويرجعون للحياة في الآخرة ليتواجهوا مع المسؤول عنهم من مستوى إلهي، وهناك حسابهم إن كانوا فعلا مؤمنين... وكلامه تعالى موجّه للجميع لأننا كلنا سنتحاسب حين نلاقيه تعالى في الآخرة، وأنا مأمور بتبليغ الجميع، وكونهم أراذل، وكونهم أقل منكم اجتماعيا وماليا وثقافيا... واتهامكم لهم بأنهم ليسوا مؤمنين بل يمثّلون، أو لهم مصلحة شخصية سيئة من إعلان تدينهم... فهذا ليس من شؤوني لأنهم سيُلاقون ربهم الذي يعلم إن كانوا مؤمنين حقيقيين... وأنا كرسول ما علاقتي بحسابهم وبصدق إيمانهم ولماذا سأطردهم ولا أتكلم معهم عن الدين الإلهي!

{وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ}، لدي صورة محددة عنكم أنكم أيها الملأ ومعهم بقية التابعين لهم، كما نقول بالعامية: شايفكم. {قَوْمًا}، أناس لهم كيان الجماعة، {تَجْهَلُونَ}، لا تتصرفون عن فكر ودراسة بل عن طيش، ومن لديه عقل وفهم وعلم له قيمة فسيؤمن بما هو واضح أنه حقّ، ولن يعلّق على كوني مثلكم من البشر، وسيعلم بأني لا يحق لي طرد من آمن مهما كان وضعه الاجتماعي أو المالي.

تذكّر دائما أن المعنى الأساسي للكلمة {سَأَلَ}، {أَسْأَلُكُمْ}... هو المرادف تقريبا لمعنى كلمة "طلب" المستعملة حاليا، ولم يستعمل القرآن كلمة "طلب" بالمعنى الدارج حاليا واستعمل بدلا منها كلمة {سَأَلَ} التي هي لعامّة إرادة شخص لشيء ما من شخص آخر، سواء أراد جوابا أو أراد غرضا أو مساعدة...

(وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ{30})
{وَيَا قَوْمِ}، {مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ}، من يحقّق لي ما أريده منه تعالى، {إِن طَرَدْتُهُمْ}؟ هؤلاء الذين آمنوا وهم لا يُعجبونكم فإن طردتهم إن منعتهم من مجالستي ومن الكلام معي عن الدين الإلهي ورفضت انتماءهم لديني، حتى تؤمنوا أنتم بي، بينما أنا مأمور بنقل كلامه تعالى إلى كلّ الناس ليؤمنوا، فسيعاقبني سبحانه إن طردتهم، فهل بإمكانكم منع عقابه تعالى عنّي إن طردتهم وعاقبني؟

{أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}؟ لماذا لا تستحضرون هذا في عقولكم، ألا تنتبهون لهذا! فلا تشترطوا عليّ حتى تدخلوا في دين الله تعالى أن أطرد الذين لا يُعجبونكم من المؤمنين، فهذا كلام غير مقبول لسببين، لأنهم مثلكم سيتحاسبون ويتعرضون للعقاب إن لم يؤمنوا، وهذا ما ذكرته الآية السابقة، حيث إن كونهم من الأراذل اجتماعيا وماليا لا يعني أنهم ليسوا مكلّفين... والسبب الثاني أنه تعالى أمرني بالعمل على هداية كل الناس من دون أي تمييز وسيعاقبني إن أهملت أو طردت أي واحد منهم، فهل يمكنكم حمايتي من عقابه تعالى حتى أطردهم؟

الجواب معلوم: لا، فلا يمكنهم حمايته (ع) من العقاب الإلهي إن طرد من آمن لأنه فقير أو لا منصب له أو عبد...

تلاحظ الآيات تنقل صورة أناس يعتبرون أنفسهم من الطبقة الراقية في المجتمع، وينظرون لما يعرضه عليهم النبي نوح(ع) كدعوة لتشكيل دين، أو كدعوة لتشكيل حزب أو عقيدة لجماعة، وبنظرهم فمن غير المقبول أن ينتموا لدين يساوي بينهم وبين عامّة الناس بحيث يفقدون تميّزهم عن الأراذل. وقارن ذلك مع أحزاب وجمعيات النخب، حيث هناك أندية خاصة بأصحاب عشرات المليارات، وأندية أخرى لأصحاب بضعة مليارات، وأندية لأصحاب الملايين... وهكذا وصولا إلى محيطنا حيث متوسطو الحال المرتاحون اقتصاديا يفصلون أنفسهم عن التعاطي مع الفقراء، والذين لديهم مناصب ووظائف لها أهمية ما، أيضاً يفصلون أنفسهم عن الذين إذا تعاطوا معهم فلن يستفيدوا منهم، ويفضلون التعاطي مع الذين يمكن أن يتبادلوا معهم الاستفادة...

هنا الكلام من الملأ يقصد هذا المعنى، فالنبي نوح(ع) لم يعرض عليهم فصلهم وتميّزهم عن بقية الناس ولا بأي شيء، فإن آمنتم أيها الملأ فأنتم مثلكم مثل أي مؤمن آخر ولا امتيازات دينية لكم لأنكم وجهاء.

أطلت عليك الكلام لأن هذه النفسية تنتشر بشكل أو بآخر حتى بين المنتمين لدينه تعالى، حيث إن بعض الجماعات يعتبرون أنفسهم دينيا أرقى من الآخرين ويفصلون أنفسهم عن الآخرين بالتعاطي وبالنظرة**.** والبداية مع أصحاب الأسرار الدينية العميقة التي لا يفهمها إلا هم! على أساس أن البقية إيمانهم سطحي ولا قيمة حقيقية له... ويقولون ذلك حتى على المنتمين لنفس مذهبهم... وانتقالا إلى تأسيس جمعيات وأحزاب للنخب من أثرياء وأصحاب شهادات ومن لهم مناصب ومسؤوليات... وليست المشكلة في وقوع الطيور على أشكالها، بل العقلية والنفسية المتعالية المتكبرة الفخورة المزهوّة التي ترفض التساوي إيمانيا مع الآخرين هي المشكلة، وحتى لو كانت صورتها صورة جماعة داخل جماعة والكل منتمون للدين الإلهي، فالتأطير للتميّز عن الآخرين بهدف التميّز فهو العيب.

نتذكّر دائما أن كلام القرآن عن نماذج، وحتى كلام الملأ هنا عن نماذج، فلم يكفر فقط الملأ من قومه(ع) والبقية آمنوا، لا، بل يشير الملأ إلى نماذج من الذين آمنوا، ومعلوم لك من الآية 40 من هذه السورة أنه آمن معه القليلون من قومه {وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}.

(وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ{31})
ورد في الآية 50 من سورة الأنعام كلام شبيه يأمر فيه تعالى رسوله محمّداً(ع) بقوله عن نفسه {قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ}...

بالنسبة لقولكم إنني مجرد إنسان بشري مثلي مثلكم فهذا صحيح، وأنا لم أقل عكس ذلك، حيث أنا مجرد رسول ينقل كلامه تعالى، ويكفي وجود صفة أمانتي وقدرتي على نقل الرسالة حتى أكون رسولا:

{وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ}، حتى أبرهن لكم أني رسول من الله تعالى، ولا أقول لكم: {عِندِي خَزَائِنُ اللّهِ}، فالأشياء والظواهر التي تحبونها كالمطر والزرع والمال... وأنا لست المسؤول عن تنزيلها ولا عن توزيعها، وقرارها ليس بيدي حتى أوزّعها كما أشاء، وتواصله معي تعالى لا يعني أني صرت مشاركا في قرارات وشؤون إلهية.

{وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ}، فمعلوماتي عن الحوادث محصورة بما أشاهده وبما يصلني خبره عبر الوحي، ولا قدرة لي على معرفة ما غاب عني، ولا أعرف ما حصل في الماضي أو الحاضر إلا إذا حصلت الأمور أمامي، ولا يمكنني بقدرتي الذاتية أن أتنبأ بالمستقبل.

{وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ}، ولست كائنا يملك قدرات عالية، لأنني بشري عادي مثلكم تماما وبقدرات كقدراتكم.

هذا يردّنا إلى الآية 12 من هذه السورة، إلى الشبه بين قول قومه (ع) مع ما قاله المعاصرون للنبي محمّد(ع)، وهناك فهمنا أنهم بشكل ما يفكرون على طريقة جنّي الفانوس السحري، حيث يتصورون أن من يتواصل معه تعالى فلا بد أن تتحقّق أحلامه، أو يصير بقدرات خارقة أو يرافقه ملاك ليفعل له ما يشاء. وهكذا نفهم كلمة {مَلَك} أنها توصيف لعموم من ملك شيئا ما، وهنا سياق الكلام عن امتلاك قدرات خارقة، كالاختفاء والانتقال السريع والطيران واستخراج الكنوز ومعرفة الغيب... فهذه أمور ذكرها القرآن من نفسية الكافر بدينه تعالى والراغب بها، ويجعلها شرطا للإيمان بدينه تعالى...

{وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ}، ولا أقول للذين آمنوا وهم في أعينكم قيمتهم منخفضة جدا بالنسبة لكم كملأ، ولا أقول: {لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْرًا}، لأنه من عندي لا يمكنني الحكم بأنه تعالى لن يعطيهم شيئا جيدا كثواب على إيمانهم، {اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ}، إن كانوا مؤمنين حقيقيين، أو آمنوا ليصير لهم أهمية، أو لديهم مصالح شخصية أخرى من الإيمان، أو آمنوا عن قناعة... لا أدري لأن الله تعالى وحده يعلم ذلك، وعمليا هذا يعني أن حسابهم عليه سبحانه وأنا لا علاقة لي.

{إِنِّي إِذًا}، إني إن طردتهم أو قلت عنهم إن إيمانهم بلا فائدة أو قلت إني ملك أو أعلم الغيب... فعندها أكون، {لَّمِنَ الظَّالِمِينَ}، وبالتأكيد أكون من الذين ليس معهم حق وظلما قلت شيئا ليس معي حقّ فيه.

بالنسبة لتعبير {خَزَائِنُ اللّهِ} فهي الأشياء التي يمكن خلقها ولم يخلقها ربنا سبحانه، أو الموجودة ولكنها بحاجة لأمر إلهي لتصير معنا، فيُعَبِّر عنها القرآن بأنها في الخزائن. والله سبحانه ليس عنده خزائن من حديد أو غرف أو مستودعات، وقدرته سبحانه على فعل أي شيء يريده هي الخزائن بالنسبة له تعالى، حيث أنا أسحب الماء من خزان المياه، وأسحب الطعام من خزانة الطعام، وأسحب المال من الخزنة الحديدية... أما ربنا سبحانه فيأمر فتسير آليات التنفيذ ليحصل ما أمر به تعالى، وفي الحالات العادية صَمَّمَ سبحانه السماوات والأرض لتصل إلى حيث ستنشأ الأرض ويصير عليها ظاهرة المطر، وهكذا تُفْهَمُ الحالة العادية لأمره تعالى بنزول الماء حيث تجري آليات ذلك من تبخّر وريح وفرق حرارة وضغط... فينزل الماء... وأمر تعالى أن تخرج المخلوقات إلى الحياة وَمَشَى تصميمه سبحانه للسماوات والأرض عبر مراحل وآليات وصولا إلى نشأة الحياة على الأرض... ويأمر سبحانه أن تَمْحُوَ الملائكة(ع) سيئاتي فَتَمْحُوهَا... وعادة نربط خزائنه سبحانه برحمته، حيث من رحمته حصلنا على أشياء من خزائنه، ومن رحمته خلقنا ومن رحمته نزل الماء ومن رحمته غفر لنا... وعمليا خزائنه هي أوامره سبحانه وتعالى.

بعبارة أخرى، سبحانه وتعالى يأمر فتحصل الأشياء، ولا يوجد علب أو صناديق أو غرف تخرج منها الأشياء، وخزائنه عمليا هي أوامره سبحانه وتعالى، وبما أنها جاهزة لتصير فور صدور الأمر الإلهي، مثلما الأشياء في الخزائن جاهزة لإخراجها، لذا وَصَّفَ تعالى ما يمكن خلقه وإتاحته بأنه في الخزائن.

لمزيد من التوسّع حول كلمة {مَلَك} راجع دراسة الآية 77 من سورة الزخرف {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ}.

(قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنِا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{32})

جوابهم، قالوا: {يَا نُوحُ}، {قَدْ جَادَلْتَنَا}، أخذت وأعطيت معنا بالحديث لتقنعنا بدينك، {فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا}، حيث تكلمت في كل عقائدنا وسلوكنا بشكل مكثّف، ومرات عديدة، ولم تصل إلى نتيجة معنا ولم تقنعنا، {فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا}، حيث أنت تقول إن عذاباً في الدنيا أو في الآخرة سيأتينا، فليأتِ هذا العذاب، {إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}، إن كان كلامك عن العذاب حقيقياً ولست تكذب، فنحن لن نؤمن وليأتِ العذاب لأننا نعتقد أن كلامك فارغ ولا نعتقد أن شيئاً ما سيحصل.

لاحظ فيما سبق ونقلته الآيات أن الكلام لم يكن في صلب الدين الذي يعرضه (ع) عليهم، بل رداً على تعليقاتهم عليه وعلى من آمن معه، على أساس أنهم مهما برهن لهم منطقياً وعقلانياً فلن يؤمنوا طالما هو نوح(ع) رجل عادي وآمن معه الأراذل، فإن لم تستطع يا نوح حلّ هاتين النقطتين فلن نؤمن لك مهما برهنت وحاججت.

نحن أمام نموذج محدّد اختارته السورة من عموم كلام قوم النبي نوح(ع)، وكما تعلم من سور أخرى أن لديهم تعليقات كثيرة واختارت السورة هنا هاتين النقطتين كنموذج واضح عن بقية تفاهاتهم ولمناسبة هذه النقاط مع محور سورتنا.

سورتنا في أوّلها نبّهت لسخافة التعجّب من إرساله تعالى لرسول من البشر... وبعدها نبّهت للفصل بين ربط الإيمان به تعالى مشروطاً مع الحصول منه تعالى على النعمة هنا في الدنيا، وكلام الملأ هنا عن الأراذل وأنهم لا يرون فضلاً لهم... يشير لربط التدين بالحالة المالية والاجتماعية، على أساس أن ملأ قوم النبي نوح(ع) يرون المؤمنين فقراء ولا مراكز لهم، والملأ "الوجهاء والأغنياء والنافذون..." كفّار، فكيف يكون دين نوح(ع) صحيحاً بينما الأغنياء والوجهاء كفّار؟ فما نفع هذا الدين إن كان الكفر لم يغيّر في حالتهم إلى الأسوأ؟!

كما رأيت سابقاً في الآية 15 وترى تطبيقاً عملياً هنا، فالنعمة متاحة منه تعالى للجميع، وبحسب السعي والظروف... تختلف أوضاع الناس... وتمتّع الكافرين بالدنيا ليس مؤشّراً على صحّة تدينهم، والدليل ما ستقرؤه هنا عن نماذج من أمثالهم عذّبها تعالى هنا في الدنيا.

(قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ{33})
قال النبي نوح(ع): {إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ}، فيجعلكم في العذاب، {اللَّهُ إِن شَاءَ}، حيث أمامه تعالى خيارات عديدة وهو سبحانه يقرّر إن كان يريد تعذيبكم هنا في الدنيا، لأن القرار ليس بيدي، {وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ}، حيث لا يمكنكم تعجيزه تعالى إذا أراد تعذيبكم، ولا يمكنكم جعله يعجز ولا يقدر على تعذيبكم، فإن قرّر سبحانه تعذيبكم فلا يمكن لأحد جعله تعالى يغيّر قراره، ولا يمكن لأحد منع حصول التعذيب، والذين يريد سبحانه تعذيبهم لا يمكن لأحد منهم الاحتماء من تعذيبه ولا بأي طريقة...

(وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{34})
{وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي}، كلامي الصحيح الذي لا أغشّكم به ولن تستفيدوا منه، {إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ}، حتى لو قررت أن أقول لكم الشيء الصحيح بإصرار لتقتنعوا فلن تنتفعوا، {إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ}، إن كان قراره سبحانه أن يجعلكم غير راشدين، وتعتقدون وتتصرفون على هواكم وشهواتكم، فماذا يمكنني أن أفعل معكم؟ وما نفع نصحي لكم حتى لو نصحتكم وأصررت على ذلك؟

لم تقصد الآية أنه (ع) لم ينصحهم لأن النصح لن ينفعهم، بل نصحهم (ع) كثيرا وبإصرار، ولكن هنا تنقل الآية ما معنى أنه آخر كلامه (ع) معهم، حيث إن نصائحه ورغم إصراره لن تغيّر أي شيء، ولن تنفع مع المصرّين على الكفر لأنه تعالى صمّمنا وخلقنا بطريقة لن ينفع النصح معنا إن كان قرارنا الداخلي المشي على الغواية، وبالعكس فالذي قراره الداخلي المشي على الرشد فهذا سينفعه النصح.

{هُوَ رَبُّكُمْ}، هو المسؤول عنكم من مستوى إلهي، وأنا مجرد رسول ولا قرار لي في تصميم الناس من الأساس، ولا قدرة لي على إجباركم على قبول نصائحي، أمّا هو تعالى فهو صمّمكم وخلقكم، وما يحصل معكم يعلمه تعالى ويمكنه أن يغيّركم وهذا شيء يرجع له. تعلَمُ من عموم القرآن أنه تعالى لن يتدخّل بالقوّة ليغيّر من الكفر إلى الإيمان من لا يريد التغيّر.

{وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، في كل أموركم وشؤونكم، لأن القرار بشأنكم بيده سبحانه، من تعذيبكم أو هدايتكم أو غوايتكم أو محاسبتكم... ورجعتكم من الموت أيضا إليه تعالى ليحاسبكم، حيث إن كل الأشياء والأمور ترجع إليه تعالى.

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ{35})
تذكّر آخر كلام بين النبي نوح(ع) وعامّة قومه، حيث أعلنوا له أن المحاججة لن تغيّر رأيهم، مهما جاءتهم من حجج ومهما كان نوعها وقوتها ووضوحها... وهذا جواب نقرؤه متكرراً مع العديد من الأنبياء، وتكرر مع النبي محمد(ع)، حيث هناك دائماً كلام يسدّ به المشركون الطريق على الرسل، ويقولون: حسناً، غلبتنا بالكلام، ولن نقتنع معك، فماذا ستفعل؟ هل تهددنا بالعذاب من ربّك؟ فليأتِ العذاب... ومن قبل ورد في هذه السورة كلام أيضاً يسدّ الطريق، يقولون للنبي محمّد(ع) إنه يفتري الكذب عليه تعالى، حتى لو أقنعهم بكلامه فكلامه مقنع ولكنه افتراء، مثلما يكذب عليك شخص ما وأنت لا قدرة لديك على التحقّق مما يقوله، وكلامه مقنع... فإن لم تستطع تكذيبه بدليل ما، ولا تريد أن تعلن تصديقك لكلامه، فتقول إنه يفتري، حتى لو لم يكن لديك دليل على ذلك، أو تقول إنه ساحر يسحرك فيخدعك لتتوهّم الخيال الكذب حقيقة.

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ}؟ في بعض جدالات النبي نوح (ع) مع قومه قالوا له: أنت تفتري الكذب على الإله، وتقول لنا أشياء وتنسبها للإله بينما أنت اخترعتها ونسبتها له.

{قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ}، إذا عن قصد اخترعت كلاماً ونسبته للإله، {فَعَلَيَّ إِجْرَامِي}، فهذا العمل الذي يستحق العقاب فسيطالني أنا، {وَأَنَا بَرِيءٌ}، فلا علاقة لي، {مِّمَّا تُجْرِمُونَ}، من الأعمال التي تستحق العقاب والتي تقومون بها أنتم.

الآية هنا مثل الآية 57 الآتية في سياق الكلام عن عاد، حيث إنها توجّه كلامها للنبي محمد(ع) ولمن هم في عصره ولمن لم يؤمن برسالته في كل الزمان الذي سيأتي من بعده. وأتت في سياق كلام النبي نوح (ع) مع قومه، لأنها قصدت أن تكون عمومية ناقلة لعموم حالة قول الناس لرسلهم إنهم مفترون، وخصّصت هذه العمومية لمن ينقل هذا الكلام القرآني ليردّ على الذي يقول إنه (ع) يفتري.

بعبارة أخرى، اتهام أي رسول بالافتراء من دون أي دليل، ومع رفض الأدلّة التي تثبت أنه رسول، فهذا نوع من تسكير الكلام وإنهائه، مهما قلت لنا وبرهنت وجئتنا بالأدلّة... فأنت تفتري ولست رسولاً ولا كلامك منقول من الإله. وتأتي آيتنا هنا أيضاً لتسكير الكلام معهم: إن كنت أنا الرسول مفترياً فسأنال عقابي على هذا الجرم، ولكن أعلن لكم براءتي من دينكم، واعلموا أنكم باتهامي بالافتراء لن تهربوا من العقاب على جرائمكم.

قارنها مع الذي يقول: ما دخلني بالأديان. لا علاقة لي بالأديان. أنا بحالي ولا أشارك بأي شيء ديني. على أساس أن الدين إذا قال شيئاً عن الجنّة والنار، وأنت قلت إنك لا علاقة لك بهذا الكلام، فلن تعارضه ولن تؤمن به، على أساس أنك لن تتحاسب إن قلت إنك لا علاقة لك بالدين، لا، فما سيحصل سيحصل. وقياساً على المثل المشهور الذي يقوله الناس عن حيوان النعامة الذي يضع رأسه في حفرة من الأرض، على أساس أن الحفرة ستحجب عنه رؤية الخطر، وبالتالي سينجو من الخطر إن لم يره... "أذكره لك كمثال توضيحي متعارف عليه بين الناس لأن الدراسات تقول إن النعامة تفعل ذلك لتقليب البيوض التي باضتها وطمرتها تحت التراب"، هنا يأمر سبحانه عموم رسله بالقول للذين اتهموهم بالافتراء، إن هذا الاتهام لن يغيّر أي شيء مما سيحصل، فضعوا رأسكم في الحفرة، ولن يذهب الخطر، فالعقاب للمجرمين سيحصل حتماً.

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ{36})
نرجع للقصّة حيث انتقلت إلى القرار الإلهي بتعذيب المشركين:

{وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ}، أوصل سبحانه معلومات إلى فكره (ع)، أنه: {لَن يُؤْمِنَ}، لن يعتقد بدينك، {مِن قَوْمِكَ}، من جماعة الناس الذين تنتمي لجماعتهم، {إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ}، ولن يدخل أي مؤمن جديد، {فَلَا تَبْتَئِسْ}، فلا يصيبك البؤس وهو الشعور بالمضايقة الشديدة، {بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}، لأنك متضايق بشدّة من أفعالهم والآن نخبرك "كما سترى من الآية التالية" أن العقاب على أفعالهم التي جعلتك بائسا جاء.

لاحظ الآية تقول إنهم لن يؤمن منهم أي شخص جديد، ولذلك جاء القرار الإلهي بإبادتهم بإنهائهم كلّهم، بل أكثر من ذلك، حيث من سورة النبي نوح(ع) في الآية 27 نعلم أنه حتى من ذريتهم لن يؤمن أي أحد، ولذلك صدر الحكم الإلهي على إفنائهم كلهم {إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا}.

ننتبه جيداً، حيث إن الآية هنا من الآيات القلائل التي ذكرت بشكل صريح أن أطفال الذين نزل عليهم العذاب الإلهي لن يؤمنوا إن كبروا، وحتى أولاد أولادهم... لن يؤمنوا، حيث وصل انتشار عقيدة الكفر في المجتمع إلى حالة ميؤوس منها تماماً، لأن لديهم عقلية ينتج عنها أجوبة يتوارثونها جيلاً بعد جيل، وهي تسكير وإغلاق أي منطق وعقل، وتعلّق بكلام فارغ لا يوصل لأي نتيجة، وما الجواب عن: كلامك أيها الذي تقول إنك رسول إلهي، هو كلام منطقي وعقلاني وعليه براهين، ولكنه افتراء كاذب، مثل أي شخص يكذب علينا، فيقول إنه رأى فيلاً يطير، فلا يمكننا التحقّق من كلامه لأن الفيل طار، فلن نؤمن لك مهما قلت. وما الجواب عن: تهددنا بالعذاب لنؤمن، حسناً، فإن كنت صادقا فسيأتينا العذاب، فليأتِ لنرى إن كنت صادقاً. وما الجواب عن: كلامك يبدو حقيقياً ولكنه ليس كذلك حيث إنك تسحرنا بكلامك... وغيرها العديد من الجمل التي نقلها القرآن ونقل الردّ الإلهي عليها، ونقل أمره تعالى لرسله أن ينقلوا الردّ لمن قال تلك الجمل... وفي النهاية فإن كان القوم لن يؤمن منهم أحد جديد غير الذين آمنوا، ولن يلدوا مؤمناً، فالعقاب سيأتيهم بالإبادة.

تذكّر دائماً أن قوم النبي نوح(ع) وقوم النبي لوط(ع) وقوم النبي هود(ع) أبيدوا بالكامل، أمّا قوم النبي شعيب(ع) وقوم النبي صالح(ع) فلم يبادوا بالكامل كما هو واضح من القرآن، لأن مسألة موت الأطفال أو البالغين بالعذاب الإلهي، متعلقة بانتفاء إمكانية إيمانهم فيما بعد، وانتفاء خروج مؤمنين من أولادهم وأولاد أولادهم، وإذا كانوا سيؤمنون أو سيكون من أولادهم مؤمنون، فلن يُبِيدَهُم سبحانه، وهذا شيء ذكره القرآن تلميحاً وصريحاً كسبب لنجاة كفّار مكّة من العذاب الدنيوي.

(وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ{37})
{وَاصْنَعِ الْفُلْكَ}، فاعمل شيئًا يعوم على الماء، فاصنع سفينة، {بِأَعْيُنِنَا}، والمقصود أننا سنراقبك حتى نساعدك، {وَوَحْيِنَا}، نحن سنضع معلومات في فكرك عن كيفية بناء الفلك.

نلاحظ في بعض الدول العربية يقولون للمركب الصغير بالعامية "فلوكة"، وهي كلمة تبدو بوضوح كتصغير لكلمة "فلك" التي لم تعد مستعملة كثيرًا في كلامنا الدارج.

{وَلَا تُخَاطِبْنِي}، فلا تكلمني بشيء تعتقده مهمًّا وعلى أساس أن أسمعك وأهتم، فلا تراجعني، {فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا}، فلا تكلمني عن الأشخاص الذين لم يكونوا منصفين ولا عادلين، وتركوا دينك واتبعوا الشرك بدون أي وجه حق، بل ظلمًا كفروا ولم يكن معهم حق في ذلك، فلا تطلب مني لأي واحد منهم أن أنجّيه أو أسامحه...

{إِنَّهُمْ}، الذين ظلموا، {مُغْرَقُونَ}، سيموتون اختناقًا بالماء.

سنعلّمك صناعة السفينة، وحكمنا بـغرق كل الكفرة، فلا تطلب النجاة لأي واحد منهم. وستلاحظ فيما بعد طلب النبي نوح(ع) منه تعالى النجاة لولده الكافر... وسنصل إلى هذا التفصيل بعد قليل. وستلاحظ في هذه السورة أن النبي إبراهيم(ع) جادل الملائكة(ع) التي جاءت لتنفيذ العقاب الإلهي في قوم النبي لوط(ع)... كشبه بين كلامه(ع) وبين كلام النبي نوح(ع) عن ابنه.

(وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ{38})
{وَيَصْنَعُ}، يعمل النبي نوح(ع) على تصنيع، على عمل شيء كمنتج وهو، {الْفُلْكَ}، السفينة، {وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ}، كلما مرّ جماعة الوجهاء والنافذين من جماعة الناس الذين يعيش بينهم، {سَخِرُوا مِنْهُ}، انتقدوه بازدراء، لأنه أخبرهم(ع) أنّ الطوفان قادم وأنّ هذه السفينة يصنعها بأمره تعالى للنجاة من الطوفان، ويسخرون منه: يبني سفينة ضخمة لأنّ الطوفان الضخم قادم... ويقولون عنه (ع) إنّه مجنون خَرِف...

إذًا نحن أمام سنين طويلة من صناعة سفينة ضخمة، وصانعها امتدّ عمره بشكل غير عادي، وهذا المشهد كان يجب أن يجعل قومه يفكرون ثانية بالموضوع، أو على الأقل أن ترسخَ فكرة الطوفان القادم في بالهم، وحين يرون بوادره يجب أن يؤمنوا، ولم يحصل هذا!

أعيد عليك الصورة، فقومه يرونه يبني سفينة على أساس أنّ طوفانًا سيحدث، وسيسألون بعضهم: منذ متى وهو يبني السفينة؟ والجواب كما تعلم فهو ممتد لمئات السنين، حيث جعل تعالى عمر نبيّه يمتدّ حتى ينتهي من صنع السفينة، وأتت أجيال من الناس رأوه يبني السفينة، وعلموا من المحيطين بهم أنّ هذا الرجل لا يزال حيًّا لمئات السنين ويصنع سفينة مدّعيًا أنّ طوفانًا سيحدث ويهلكنا إن لم نتوقّف عن الكفر وفعل السوء... ورغم ذلك لم يتغيّروا!

قال لهم النبي نوح(ع):

{إِن تَسْخَرُوا مِنَّا}، فتنتقدوني مع من يساعدني بازدراء لصنعي السفينة، {فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ}، فنفس الانتقاد الساخر، ونفس الازدراء واعتباركم لما نفعله غير عقلاني ستتعرضون له منّا حين لا تجدون ما ينجيكم من الطوفان إلا هذه السفينة. وهو تعبير عن تأكّده (ع) من قدوم الطوفان وأنّ السخرية منه لن تجعله يغيّر رأيه في بناء الفلك.

(فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ{39})
{فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}، بعد مدة من الزمن سيصير لديكم عِلْمٌ، {مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ}، فهناك عذاب قادم، وهناك طوفان قادم وسيسبب الموت، وحين يأتي الضرر سترون من سيصيب وسترون أن العذاب سيصيبكم بالخزي، بالمهانة بسبب قبيح ما فعلتم، وستعلمون من، {يَحِلُّ عَلَيْهِ}، من يصيبه ويلازمه، {عَذَابٌ مُّقِيمٌ}، شيء يسبّب له الضرر المقيم معه ولا يفارقه.

العذاب المقيم هنا هو تعبير عن عذاب متّصل من الدنيا للآخرة، وفي القرآن عمومًا ترى كلامًا يعبّر عن شمولية اتصال عذاب الدنيا بالآخرة، فهو وصلة واحدة، عذاب في الدنيا موصول بعذاب سيأتي في الآخرة، ضع هذا في بالك حين تتساءل إن كانت آية ما تقصد عذابًا في الدنيا أو عذابًا في الآخرة، فإن كانت آية ما لم تشر بوضوح لأي منهما بالتحديد، فهي عمومية تعتبر العذابين متصلين، فتعبّر عنهما بالعذاب من دون فرق أو فصل بينهما. وهنا كما ترى فالعذاب موصول، فهنا في الدنيا سيموتون بعذاب، ويفقدون وعيهم، وعندما يستعيدونه في الآخرة سيعودون في حالة العذاب، فهكذا يكون العذاب مقيمًا من هنا للآخرة، وهناك لن يفارقهم أبدًا.

(حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ{40})
مرّت الأيام حتى انتهى النبي نوح(ع) والمؤمنون من بناء السفينة...

{حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا}، إلى أن بدأ الشيء الذي قرّر سبحانه حصوله، فبدأ الطوفان، وبدايته كانت حين، {فَارَ التَّنُّورُ}، وهو الحفرة التي يصنعها الناس في الأرض ليخبزوا "ليسخّنوا" العجين فيها ليصير خبزًا، وهي لا تزال كلمة مستعملة بهذا المعنى في العديد من الدول العربية، وفارت وامتلأت الحفرة بالماء وفاضت، ونعرف من الآية 12 من سورة القمر أن الأرض تفجّرت منها عيون الماء من كل مكان، ويبدو من الآية هنا، أن حفر التنور الموجودة في مختلف البيوت في قرية النبي نوح(ع) امتلأت أرضيتها بالمياه أول ما بدأ الطوفان لأنها حفر، ثم أخذ الماء يرتفع من التنور حتى فاضت، وهذه كانت علامة بداية الطوفان، {قُلْنَا}، وعندها قال الله تعالى للنبي نوح(ع):

{احْمِلْ فِيهَا}، في السفينة، {مِن كُلٍّ} "على اللام شدة وتنوين كسر" {زَوْجَيْنِ}، من كل ذكر وأنثى من الحيوانات واحمل في السفينة، {اثْنَيْنِ}، فلا تحمل أكثر، واحمل ذكرًا وأنثى من كل زوجين من الحيوانات، واحمل بقرة واحدة وعجلاً واحدًا، ونعجة واحدة وخروفًا واحدًا... فمن الآية 3 من سورة الرعد "{وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ}..."، فهمنا أن التعبير: من كل زوجين اثنين. يعني من كل

نوع حيوان فيه زوج ففيه موصوفان بالمقارنة وهما من نفس النوع، فخذ اثنين، يعني بالبداهة خذ واحدًا ذكرًا وواحدة أنثى من الحيوانات.

واحمل، {أَهْلَكَ}، خاصّة من ينتمي لك، زوجتك أبناءك بناتك... فاحملهم معك في السفينة، {إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ}، فقلنا لك سابقًا إنّه لن ينجو من الطوفان أي كافر، فإن كان من أهلك يوجد شخص كافر فلا تحمله معك.

واحمل معك، {وَمَنْ آمَنَ}، من اعتقد بك، {وَمَا آمَنَ مَعَهُ}، فلم يعلن اعتقاده بدين النبي نوح(ع)، {إِلَّا قَلِيلٌ}، رقم صغير من الأشخاص، ولا ندري كم كان عددهم بالضبط ولكن عموم الروايات في عموم الثقافات الدينية الإبراهيمية لا تزيدهم عن المئة.

معلوم من الآية 10 من سورة التحريم "{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ}..."، أن زوجة للنبي نوح(ع) كانت كافرة، ولكن لا نعلم إن بقيت حيّة إلى زمن الطوفان، خاصة إذا تذكّرنا أن النبي نوح(ع) لبث في قومه يدعوهم قرابة الألف سنة قبل حدوث الطوفان، وهذا عمر استثنائي، وزوجته الكافرة لها عمر عادي، فإمّا أن تكون ماتت قبل الطوفان أو ماتت غرقًا، ولا ندري إن كان (ع) تزوّج غيرها أم لا، ولا ندري إن كان متزوجًا بأكثر من واحدة... وعلى كل حال، فتلك الزوجة الكافرة حتمًا لم تصعد إلى السفينة، سواء بقيت حيّة حتى زمن الطوفان أو ماتت قبله، والكلام هنا عن أهله (ع) له علاقة بما سيأتي حين نسمع ما جرى مع ولد كافر للنبي نوح(ع).

بقي شيء، فقد قيل في الكتب إنّ "حفص" هو القارئ الوحيد لكلمة "كل" بكسرتين على اللام، وبقية القرّاء حرّكوها بشكل مختلف، وكررنا لك في دراستنا هذه أنّ قراءة "حفص" هي نموذج عن قراءة عامّة بقية المسلمين للقرآن، فلا تفهم أنّه قارئ مثل بقية القرّاء "السبعة أو العشرة أو... الذين حدّدوهم في الكتب كأشخاص لهم قراءة مختلفة عن بعضهم البعض"، لا، بل هو قارئ ملتزم تمامًا بما سمعه ممن قبله، مثل بقيّة عامّة المسلمين، أمّا بقية القرّاء، فمن الواضح جدًّا جدًّا أنّ غالبيتهم غيّر في تصريف ونحو الكلمات لتتوافق مع "ما يراه هو" مناسبًا لقواعد اللغة العربية، ولتتوافق مع المعنى "الذي يراه هو" مناسبًا للآيات! فوصلته القراءة من جمهور المسلمين ولكنه غيّر فيها برأيه! ومن الواضح جدًّا جدًّا أنّ بعضهم خانته الذاكرة... أو مستهتر... أو...

أمّا حفص، فقراءته هي قراءة عموم بقية المسلمين الملتزمين بما وصلهم حرفيًّا عمّن سبقهم من المسلمين، وأي شواذ في القراءة وصل لهذا الجمهور العام فهم لم يأخذوا به ولم يقرؤوا على أساسه، وبقيت هذه القراءة الجماهيرية متواصلة حتى أتقن الناس رسم الكلمات مع الحركات التي تعبّر عن لفظ سليم عربيًّا للكلمة، ولكن هذا لا يعني أبدًا بتاتًا أننا نقرأ القرآن بالفصحى بنفس لهجة النبي محمّد(ع)، فاللهجة، أي طريقة النطق بالكلمة كلهجة، اختلف حتمًا من حينها إلى زمننا "ولو بشكل طفيف"، وخذ مثلاً على ذلك كلمة "صلاة"، فقد كتبها الجيل الأول على طريقة لهجتهم بها "{صَلَوٰة}" ويبدو واضحًا أنهم كانوا يميلون "باللهجة" بلفظ اللام هنا في هذه الكلمة نحو الضمّة، مثل بعض لهجات أهل القرى في عصرنا، ومثل الكثير الكثير من طريقة نطق العرب بلهجتهم العامية لكلمة صلاة بإمالة حرف اللام بشكل طفيف جدًّا نحو الواو، وسترى في الآية التالية كلمة "{مَجْرَاهَا}" التي وصلتنا قراءتها مع إمالة قوية واضحة نحو "الكسرة" وهي لفظة غير دارجة في الفصحى المتعارف عليها حاليًا.

أمّا بالنسبة لتعليل القراءة هنا بتنوين الكسر لكلمة "كل" فيبدو أنها للدلالة على معرّف، للدلالة على حيوانات يعرفها النبي نوح(ع) ويعلم مسبقًا أنها منتقاة لأخذها معه.

(وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ{41})
وقال النبي نوح(ع):

{ارْكَبُوا فِيهَا}، كونوا على السفينة يا أهلي ويا أيها المؤمنون، {بِسْمِ اللَّهِ}، عمليًّا المقصود أنه متوكّل عليه تعالى، بقدرة الله تعالى وبمعونته وبأمر منه وبتوفيقه... {مَجْرَاهَا}، "نقرؤها مع إمالة الراء نحو الكسر، وراجع في ذلك ما قلناه في آخر الآية السابقة عن اللهجات"، مجراها أي جريانها، سيرها، انتقالها بالتحرّك المتتابع على الماء، و{بِسْمِ اللَّهِ} تعالى، {مُرْسَاهَا}، رسوّها وتوقفها عن الجريان، لأنّ السفينة لا تثبت بلا حركة في الماء بل تثبت في مكانها طافية على الماء وقابلة للحركة، وعند العرب كلمة خاصة لوصف ذلك وهي الرسو.

يعني هذه السفينة بُنيت بأمر إلهي، والطوفان بدأ بأمر إلهي، والسفينة ستتحرك وتتوقّف بأمر إلهي.

يمكنك مقارنة البسملة باسم الله تعالى بالفرمانات والأوامر التي تصدر من دولة نظامها ملكي، فأي أمر من أي وزارة أو دائرة حكومية، يضعون في بدايته شيئًا يشير إلى الملك أو الملكة أو الدولة... لأنّ هذا الأمر الحكومي يستمد سلطته على التنفيذ من سلطة الملك أو الملكة أو الدولة، مثلاً إذا صدر للناس أمرٌ بالامتناع عن صيد الطيور، يصدر الأمر وفي بدايته يقولون: باسم الملك، نأمر الناس بالتوقّف عن صيد الطيور... وهنا في الآية إنّ النبي نوح(ع) يعلن لمن معه أن هذه السفينة سوف تتحرك وتتوقف بأمر إلهي. ومن ناحية ثانية والبسملة، أي التسمية باسمه تعالى بقول: بسم الله. هي تعبير من القائل عن توكّله عليه تعالى.

{إِنَّ رَبِّي}، إنّ المسؤول عني من مستوى إلهي، {لَغَفُورٌ}، يتجاوز عن السيئات، ونحن الراكبين في هذه السفينة لسنا ملائكة، ارتكبنا ذنوبًا ولم نتحاسب عليها بالغرق مع الكفّار، لأنه تعالى تجاوز عنها.

وربي سبحانه، {رَّحِيمٌ}، لديه عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، وعمليًّا من مصاديق تطبيق رحمته الخاصة سبحانه بالمؤمنين هو مغفرة ذنوبهم، ولولا ذلك لهلك الجميع بالطوفان. والرحيم صفة يستعملها القرآن للدلالة على العناية الإلهية الخاصّة بالمؤمنين، لأنّه سبحانه رحمنٌ لكل مخلوقاته، ولكن البعض منهم يكفر ويفعل السيئات فيخرج بإرادته من الرحمة الإلهية، ويفقد المغفرة وإنارة القلب... ويبقى المؤمنون تحت رحمته تعالى فيحصلون على عناية خاصة.

الطوفان ورد ذكره في وثائق سومرية قديمة ويقدّرون عمر بعضها بين 1500 و 2000 قبل الميلاد، وعلى ذمّة المراجعين لها والناشرين لترجمتها فهي تحكي قصّة طوفان فيه الكثير من التشابه مع رواية القرآن، ومن المرجّح أن بقاء السفينة لمدة طويلة كان السبب لمحافظة الناس على قصّة الطوفان، مضافًا له اهتمام المؤمنين بها لنقل القصّة للأجيال التالية... لذا لا تحدّد تاريخ الطوفان بتاريخ الوثائق، لأنّ الوثائق تتحدّث عن شيء أقدم منها.

من جانب آخر هناك أدلة جيولوجية على حدوث طوفان هائل للبحر الأسود بين فترة 7000 و5000 سنة قبل الميلاد، وأدلة على حدوث طوفانات غمرت الكثير من وجه الأرض ترجع لما قبل ذلك...

من المعلوم حدوث طوفانات متعددة على بقع مختلفة على الأرض، ولكن تثبيت حصول أي واحد منها عبر الآثار لا يعني أنه هو الطوفان الذي جرى على عهد النبي نوح(ع)، خاصة مع مشكلة اعتماد غالبية الباحثين في هذا الموضوع على التواريخ المذكورة أو المستوحاة من التوراة التي أقحم فيها علماء اليهود كلامهم مع كلامه تعالى، قاصدين جعل التوراة كتابًا جامعًا للتاريخ بناءً على المعلومات المتداولة بينهم، ويظهر لك فساد العديد من معلوماتهم بأقل تأمل ومقارنة بمعلوماتنا الحالية عن أعمار وأطوال أجساد من سبقنا من البشر، وبمقارنة بعض ما ورد في التوراة مع ما ورد في القرآن عن بعض تفاصيل قصص بعض الأنبياء، كتصويرهم لحالة اليأس للنبي أيوب(ع)... وبمقارنة الأحداث التاريخية التي ذكروها في التوراة عن معاركهم مع الفلسطينيين والعموريين والموآبيين... مع الآثار التي وجدها الناس، فستجد اختلافات كثيرة وتعارضًا... لأنهم كتبوا التاريخ على هواهم متجاهلين الحقائق...

إن لم نجد آثارًا مرتبطة بسفينة النبي نوح(ع)، أو أثرًا آخرَ مباشرًا لحادثة الطوفان ومؤكّدًا... أو لم نجد علمًا أثريًّا له ارتباط بتعلّم الناس صنع السفن من بعدما صنع النبي نوح(ع) سفينة... أو نجد أثرًا للآلهة التي عبدوها {سُوَاعًا}، {وَيَغُوثَ}، {وَيَعُوقَ} {وَنَسْرًا} كما ورد في الآية 23 من سورة نوح، فلن يكون لدينا دليل حاسم على زمن تاريخ حدوث الطوفان، وسندور في حلقة التقديرات والتخمينات والافتراضات.

الكلام له ارتباطات أخرى، منها إنْ كان الطوفان عامًّا لكل وجه الأرض أو لخصوص منطقة منها، أو أنه حصل في زمن كانت كل البشرية محصورة في بقعة واحدة، أو الكلام عن بقعة كانت فيها ذرية آدم(ع) والبشر الآخرون في المناطق البعيدة لم يتأهّلوا للتكليف بالدين الإلهي ولم يَطَلْهم الطوفان... أو طالهم الطوفان جزئيًّا... أو...

بما لدينا حاليًّا من معطيات جيولوجية، فمن المستبعد شمول الطوفان لكل وجه الكرة الأرضية، إلا إذا كان تاريخ حادثة النبي نوح(ع) يرجع لأكثر بكثير من خمسين ألف سنة، لأنّ المعلومات التي لدينا عن الحيوانات والبشر في مختلف القارات، تشير لنشاطات مستمرة للحيوانات والبشر في مختلف البقع وترجع لتاريخ ما قبل انفصال "برّ، يابسة"

القارات عن بعضها "ويسمّونها بانجيا" والقارات تتصل مع بعضها شتاءً بالجليد... وبحسب الدراسات الحالية لا يمكن تفسير نجاة الحيوانات في السفينة وانتشارها من جديد على وجه كل الأرض إلا إذا حصل الطوفان قبل أكثر من خمسين ألف سنة على الأقل... أكرر لك أنّ هذا تحليل يستند على معطياتنا العلمية حاليًّا، وأنا شخصيًّا لا أستبعد ولا أستقرب هذا التاريخ ولا أي تاريخ آخر قبله أو بعده، إذ ليس لدينا لحدّ الآن شيء تاريخي موثوق نستند عليه لتحديد تاريخ النبي نوح(ع)، إلا اللهم إن كانت دراسة آثار القبور المنسوبة لشخصيات تاريخية دينية، كالقبور المنسوبة لآدم(ع) وأولاده، ولنوح(ع) وأولاده... ستهدينا لتصويب التواريخ، هذا إن كانت تلك القبور فعلاً لمن هي على اسمهم ولم تكن من تخريفات أهل القرى... أو من افتراضات المتبجحين "كذبًا" على الآخرين بمعرفتهم التاريخية، وهم كُثُرٌ عبر التاريخ...

بعد آيتين سنتكلم عن السفينة وآثارها.

(وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ{42})
{وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ}، السفينة تسير على الماء بالنبي (ع) وأهله والمؤمنين وبالحيوانات، {فِي مَوْجٍ}، في ارتفاعات ماء حجمها، {كَالْجِبَالِ}، مماثلة للجبال وهي بعشرات الأمتار على الأقل في علوها وارتفاعها.

{وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ}، حيث وجّه (ع) كلامه لابنه، {وَكَانَ}، ابنه، {فِي مَعْزِلٍ}، في مكان عازل فلم يصله الماء بعد، ويبدو أنه كان واقفًا على تلّة عالية لم يغمرها الماء بعد، "أو عائمًا على شيء..."، وناداه أبوه(ع):

{يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا}، كن معنا على السفينة، {وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ}، لأنّ الذين لن يصعدوا إلى السفينة هم المنكرون لكلامي عن طوفان سيبيد الجميع. وأنت مؤمن بكلامي عن عذاب قاتل فلماذا تبقى على الأرض مع المنكرين لكلامي؟

قلت للجميع في السابق عن الطوفان العام الذي سيغرق فيه كل من لم يركب في السفينة، وما تراه الآن هو ذاك الطوفان، ولا نجاة منه، فلا تكن مع الكافرين واركب السفينة وإلا ستموت غرقًا.

نلاحظ أن الماء بدأ يغمر اليابسة بسرعة، ولكن من لم يؤمن بأنه عذاب منه تعالى هرب إلى المرتفعات، أو ركب في قارب "إن كان لديهم قوارب..."، وحتى مع بداية الطوفان ورؤيتهم له أنّه ضخم منتشر على كل منطقتهم، ما زالوا معاندين ويظنون أنه من المستحيل ارتفاعه ليغمر الجبال، ولن يركبوا في السفينة.

نلاحظ أيضًا أنّ السورة ستنقل قصّة النبي لوط(ع) مع قومه، وإلحاق امرأته بالعذاب مع قومه، وهنا سترى الكلام عن إلحاق ابن النبي نوح(ع) مع قومه.

(قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ{43})
ابن النبي نوح(ع) لا يؤمن بأنّ الطوفان عذاب إلهي لإبادة الكافرين، ويحسب أنّه مجرد طوفان قوي ولن يغمر الجبال، وبعد انتهاء الطوفان سيسخر الناس "الكافرون" منه إذا ركب في السفينة... فقال:

{سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ}، لن أبقى هنا حيث حدّدت مكانًا مرتفعًا جدًّا سأذهب إليه، و{يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ}، يمنع وصول الماء إليَّ بسبب شدّة ارتفاعه.

{قَالَ}، له أبوه النبي نوح(ع):

{لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}، فاليوم أمر سبحانه بغرق كل من لا يركب في هذه السفينة، ولا يوجد أيّ طريقة تمنع حصول ذلك، {إِلَّا مَن رَّحِمَ}، إلا الذين نالتهم العناية الإلهية لما فيه مصلحتهم، وهم الراكبون في هذه السفينة.

{وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ}، بعد مدّة بقي فيها النبي(ع) يحاول متابعة ابنه... حتى صارت المياه المرتفعة حائلاً كشيء يمنع تواصلهما ورؤيتهما لبعضهما البعض... {فَكَانَ}، ابنه، {مِنَ الْمُغْرَقِينَ}، من الذين ماتوا بسبب غمر المياه لهم.

ضع في بالك أنّ هذا الحوار بين النبي نوح(ع) وابنه لا يدل على أنّ الولد كافر، لأنه لم يعلن الولد كفره لأبيه، بل أعلن أنّها مجرد كارثة طبيعية وستزول، ولا داعي لركوب السفينة، أما في داخله فكان كافرًا، ورغم تكذيبه لأبيه لأنه لم يؤمن بأنّ الطوفان عذاب إلهي، فإن الأب حمل تصرّف ابنه على الطيش والجهل، ولم يفسّره على أنّه كفر...

(وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{44})
بعد غمر المياه كل المنطقة وإبادتها لكل من فيها، {وَقِيلَ}، قال الله تعالى:

{يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ}، ليَغِبِ الماء في باطنك، وتوقّفي عن إنباع الماء، {وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي}، وانتهي وتوقفي من بعد مدة من الاستمرار، طبعًا المقصود توقفها عن إنزال المطر، كما نقول: أقلع عن التدخين، أي توقّف عن تدخين النرجيلة أو السجائر بعد أن كان مداومًا عليها. {وَغِيضَ الْمَاءُ}، حيث نزل الماء تحت الأرض وعادت اليابسة إلى الظهور.

{وَقُضِيَ الْأَمْرُ}، حيث انتهى الشيء الذي قرر سبحانه حصوله، وانتهى الطوفان ومات قوم النبي نوح(ع) الكفّار ونجا من في السفينة.

{وَاسْتَوَتْ}، صارت في حالة التمام من التناسب، واستقرّت السفينة وثبتت ولم تعد تجري، ووقفت على جبل اسمه أو وصفه {الْجُودِيِّ}، فإن كانت كلمة "جودي" وصفًا فهي تحتمل معنى الجبل الذي قمّته كالعنق الطويل، أو وصف للجبل الذي قمّته واسعة كفسحة كبيرة، أو معنى آخر لم ألتفت له... {وَقِيلَ}، قال المؤمنون: {بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}، لا نرغب أن يكون بيننا وبين جماعة الناس الظالمين الذين لم يكونوا محقين ولا عادلين حين كفروا، لا نرغب بأي قرب مكاني أو معنوي بيننا وبينهم، لأنهم ماتوا وصاروا بعيدين عنّا.

كل المعلومات المنتشرة حول اكتشاف سفينة النبي نوح(ع) على جبل أرارات في تركيا، أو على سلسلة تلك الجبال التي تمتد من إيران وروسيا وأرمينيا وتركيا، ومن ضمنها جبال أرارات، وكل الآثار التي قالوا إنّها من خشب السفينة أو وجودها في السفينة... حتى تاريخ كتابة هذه الدراسة تتبعتها لمصادرها الأساسية ووجدتها ادعاءات لا دليل على صحّتها، ولا يوجد حاليًا ولا نسرة خشب بين أيدي الناس من تلك السفينة.

بالنسبة للمؤمن، لا يهم إن تمّ اكتشاف السفينة أم لا، لأنّ الخبر القرآني يكفينا بأن الحادثة وقعت، وأما من يشعر بتعلقه بإيجاد السفينة، فلينتبه أن لا يكون مثل الذين يريدون دليلاً ليقتنعوا بحادثة الطوفان، ولا معنى للشغف بإيجاد السفينة لإقناع الآخرين بحصول الطوفان، هل سيؤمنون؟ لا، لأن الآيات في خلقتنا وخلق السماوات والأرض وفي الرسل والكتب الإلهية، إن لم تجعلهم يؤمنون فلن يؤمنوا ولا بأي طريقة أخرى مهما كانت، لأنّ الذين كانوا معاصرين للسفينة وماتوا بالطوفان لم يؤمنوا!

نعم الفضول يدفعنا للعثور على السفينة، ولكن على أساس أن لا يقدّم ولا يؤخّر في إيماننا بالقصّة، لأن القرآن مشحون بالأدلة على إلهية مصدره وبالتالي كل كلامه حتمًا صحيح.

كما تعلم اعتمد الباحثون عن السفينة على النص التوراتي "للنسخة المسمّاة بالسبعينية"، التي تشير إلى وجود السفينة على جبل اسمه "أرارات"، وهي سلسلة جبال معروفة ممتدة بين "تركيا وإيران وروسيا وأرمينيا"، وأمّا في النسخ الأخرى للتوراة فتقول إنّ الجبل كان في منطقة كردستان العراق... وأما من مصادرنا الإسلامية فليس لدينا إلا اسم الجبل "جودي" الوارد في الآية هنا، وكل ما ستجده في كتب المسلمين هو تخمينات شخصية منهم بلا أي مصدر إلهي، وبدون مشاهدات حيّة، ويقولون فيها معلومات مخلوطة بين معلومات نقلوها من التوراة ومن التراث الديني لأهل الكتاب وبين تخمينات شخصية، ويقولون إنّ الجبل كان من جبال أرارات، وفي قول آخر لهم إنّه في كردستان وفي روايات أخريات إنّه في موصل العراق أو همدان إيران... وستجد في عصرنا الكثير من الصور المزيفة عن السفينة وعن خشبها ومحتوياتها.

(وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ{45})
{وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ}، وجّه النبي نوح(ع) كلامه إلى المسؤول عنه من مستوى إلهي:

{رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي}، فهو من الذين ينتمون لي، من عائلتي الخاصة، {وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ}، فإذا قلت إنّك سبحانك ستفعل شيئًا فإنك تلتزم به، فأنت لا تخلف وعدك، ووعدتني بنجاة أهلي من الطوفان، وهذا ابني لم يَنْجُ! ومرّ معك الوعد الإلهي في الآية 40 منذ قليل {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ...}

{وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ}، أنت أفضل من حكم، فإذا كنت حكمت، فأصدرت حكمك على ابني بالغرق، فأنا متأكد بأنك لن تحكم هكذا عبثًا بلا سبب.

أنا متأكّد أنّ غرق ولدي كان بحكم صحيح منك، ولكنك وعدتني أن ينجو كل أهلي، فلماذا لم يَنْجُ ولدي؟

بعبارة صريحة ومباشرة: وعدتني بنجاة أهلي، وابني من أهلي ولم يَنْجُ!

(قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ{ 46})

على الرغم من نقل الآية السابقة لكلام النبي نوح (ع) بحيث يظهر منها شدّة أدبه مع ربّه سبحانه، فلم يَصُغْ سؤاله على شكل اعتراض... جاء الجواب مع التنبيه على أن أصل الاستفسار غير مقبول، بإمكانك معرفة الجواب لوحدك إن كنت مؤمنًا بصفاته الحسنى تعالى... قال الله تعالى عبر الوحي:

{يَا نُوحُ إِنَّهُ}، الذي تسمّيه ابنك، {لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ}، والمقصود أنه ليس من الذين ينتمون لك ووعدتك بنجاتهم، وفي الآية 40 من هذه السورة نجد الوعد الإلهي لنبيه(ع) بإنجاء أهله "{إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ}" فمَن كان كافرًا قلنا سابقًا إنّه سيموت مع الكفار ولن ينجو، وابنك كافر فليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم.

{إِنَّهُ}، سؤالك عن الوعد الذي في نظرك لم يتحقّق، {عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ}، عمل طالح غير صحيح، {فَلَا تَسْأَلْنِ}، فلا تعبّر عن إرادتك للحصول على جواب منّي عن سبب غرق ابنك، {مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}، لأنّ معلوماتك أقل بكثير من أن تخوّلك التحدّث بالموضوع.

قارنها مع جندي يرى توزيع رفاقه من الجنود حول العدو بشكل يترك ثغرة ليس فيها جنود، حيث هناك ناحية يمكن للعدو الهرب منها، فيعترض على هذه الخطّة الفاشلة التي تركت منفذًا للعدو ليهرب بدل الإطباق عليه وإنهائه... فهذا يسأل وهو لا يعلم، وتركيب حالته على شكل جملة يكون: لماذا تركوا ممرًّا للعدو ولم نحاصره؟ الجواب: لو كنت تعلم أن الذي تتم محاصرته من كل الجهات سيقاتل بشراسة لأنه فقد الأمل بالنجاة، لما سألت هذا السؤال. فلو سألت لتتعلّم، لم تكن هناك مشكلة، ولكنك تسأل على أساس أنك تعلم.

هنا نفس المعنى تطرحه الآية، فالنبي (ع) وانطلاقًا من علمه بأن وعده تعالى حقّ، وفهم وعده تعالى بنجاة "كلّ" أهله، لأنه (ع) يراهم مؤمنين، يسأل (ع) عن تطبيق الوعد الذي لم يتحقّق، ولم يسأل عن سبب استثناء ابنه من الوعد، ولو سأل عن السبب لمعرفته فهذا سؤال ليس فيه مشكلة، حيث سأل: هل ابني كافر ولذلك لم يَنْجُ؟ وجوابه أن ابنك كافر ولا يستحق النجاة، فالمشكلة في سؤاله (ع) عن تحقّق الوعد، وهذا يتضمّن أنه بناءً على المعلومات التي لديه (ع) عن ابنه من المفروض أن يشمله الوعد الإلهي وينجو. وهذا عمل غير صالح فليس من المفروض أن يصدر عن مؤمن، وهذا سؤال عن شيء ليس له (ع) به علم، لأنّ الولد كافر.

{إِنِّي أَعِظُكَ}، أقول لك كلامًا يحدّد لك الصحّ من الخطأ وأنبّهك، {أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}، أن تكون من الذين يتصرفون عن جهل عن طيش وليس عن علم وفهم، فانتبه لأن الجهلة يسألون هكذا سؤال.

هل كان ابنك مؤمنًا ولم نشمله بمن وعدناك بنجاتهم؟ أم سنعدك بنجاة أفراد عائلتك حتى لو كانوا كفّارًا؟ ومن غرق ابنك تعلم أنه كافر ومن المفروض أن تعلم أنه غير مشمول بوعدنا بنجاة أهلك، وسؤالك عنه عمل غير صالح.

كرّرتُ لك لأن الكثير من التفاسير فيها تفاسير مختلفة ومتنوّعة لجملة "{إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ}"، ولهم فيها روايات ونقاشات... وأبسط وأسهل وأنسب تفسير هو ما ذكرناه بلا أي تعقيدات، وللأسف استبعده الكثيرون.

(قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ{47})
قال النبي نوح(ع) مباشرة بعد التفاته للتنبيه الإلهي:

{رَبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {إِنِّي أَعُوذُ بِكَ}، ألجأ إليك وما ترضاه أفعله، إن صدر مني شيء لا ترضاه سبحانك أطلب منك الحماية حتى من نفسي وأتبرّأ من، {أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ}، أنا لم أقصد أن أقترح أو أعترض أو أشكّك... عبّرت لك سبحانك عن إرادتي للحصول على جواب، وأنا أبدًا لا أفترض نفسي أعلم منك حتى أعلّق على شيء فعلته سبحانك.

لنفكّر بطريقة معاكسة حتى نفهم جيدًا، لو كان النبي نوح(ع) لديه علم حقيقي صحيح بأنّ ابنه مؤمن، عندها كان لسؤاله معنى، لأنه من أهلي ومؤمن ولم يكن من المفترض أن يغرق، لماذا غرق؟ ولكن هو يعرف الظاهر، ولا يعرف الحقيقة، وليس لديه علم حقيقي مثل علم الله تعالى، وبما أنه يؤمن بأن الله تعالى لديه علم تفصيلي بكل خفايا الأمور، فما معنى سؤاله عن استثناء ابنه من الوعد! كان من المفروض به(ع) الاستنتاج أن ابنه لا يستحق النجاة وأن يقتنع بالقرار الإلهي.

إنْ أطلت عليك، نحن في حياتنا العادية يحصل معنا شيء لا يعجبنا وليس على خاطرنا، وكنّا نتوقّع منه تعالى العناية بنا وأن لا يحصل معنا ما حصل، وعادة نسأل موجهين السؤال له تعالى: ليش هيك. ليه كيدا. ايش هاد... ويكون بيننا اختلاف في العمق الذي ينبع منه السؤال، مرّةً عن اعتراض عليه عزّ وجلّ، ومرّةً عن نصف اعتراض، مرّةً عن استفهام... ومرّةً هكذا من الذهول ومن دون تفكير نسأل.

هنا في هذه القصّة مجال تحليل العمق الذي انطلق منه سؤال النبي(ع) ليس مفتوحًا على كلّ الاحتمالات، من كلام الآيات نرى إشارتها إلى كلامه (ع) في شيء لا يعلمه، لسبب أو لآخر لم يكن(ع) يعلم أن ابنه كافر لدرجة استحقاق غرقه مع الكافرين، وهذا ما لم يكن يعلمه. ولا نحتمل أبدًا أنه(ع) يعلم بكفر ولده ورغم ذلك توقّع منه تعالى شمل ولده مع أهله بالنجاة، لأنّ الآيات لم تشر لهذا، ولا نتوقّع من نبي رسول فعل شيء كهذا.

نرجع لكلامه (ع)، {وَإِلَّا}، وإذا لم، {تَغْفِرْ لِي}، لم تسامحني وقرّرت معاقبتي على سيئتي، وإذا لم، {وَتَرْحَمْنِي}، ولم تشملني بعنايتك الخاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتي، وعاملتني كما تعامل الكفّار الذين لا ينالون أي نوع من المغفرة، عندها، {أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ}، أفقد أشياء لها قيمة، وأفقد مغفرتك ورحمتك سبحانك، وتصير نفسي بلا قيمة ومهانة، وعملي بلا ثواب...

نلاحظ في العديد من الآيات، أنّ السوء حين يقع، حتى لو لم يكن مقصودًا، فإنه وقع، ويتحمّل الحساب عليه فاعله ومن له علاقة به، إن كان كافرًا، فلا مجال للعفو عنه، وأمّا إن كان مؤمنًا واستغفر من الخطأ فبالرحمة الإلهية التي خصّصها سبحانه للمؤمنين يتم غفران ذنبه، ونجد ذلك واضحًا في حديثه تعالى مع أنبيائه، حيث وقعت منهم أخطاء غير مقصودة، واستغفروا منها، ونالوا الرحمة الخاصة بالمؤمنين، وسامحهم تعالى على ذنوبهم.

الاستفادة من قصّة ابن النبي نوح(ع) أنّه سبحانه إذا قرّر تعذيب قوم كفّار هنا في الدنيا، فإن التعذيب لن يستثني أحدًا، حتى ابن النبي(ع) لم يَنْجُ لأنه كان كافرًا ولم تنفعه قرابته من نبي من أهم الرسل.

(قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ{48})
{قِيلَ}، قال تعالى عبر الوحي: {يَا نُوحُ اهْبِطْ}، انزل على الأرض من السفينة، {بِسَلَامٍ مِّنَّا}، فمن ناحيتنا انتهى الطوفان ولن ينالك أي سوء أو أذى منّا، {وَبَرَكَاتٍ} "منّا" {عَلَيْكَ}، فانزل مع رضانا وموافقتنا على أعمالك وأفكارك وتصرفاتك... وسلام وبركات، {عَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ}، على من يوصف بأنه له شيء أساسي يتميّز به عن غيره وله امتداد تاريخي، والمقصود هي الأمم المؤمنة كما سترى من تكملة الآية، فأبناؤك والمؤمنون الذين نجوا معك في السفينة، سيكون من ذريّتهم {أُمَمٌ} مجموعات عليها البركة الإلهية لأنها مؤمنة، {وَأُمَمٌ}، ومجموعات أخرى من الناس "غير مؤمنة"، {سَنُمَتِّعُهُمْ}، سيستفيدون بمتاع الحياة، وينتفعون مما هو متاح في الحياة من طعام وشراب ولباس

ومسكن وزينة... {ثُمَّ}، بعد هذا التمتّع، {يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ}، فالكلام عن الذين لن يكونوا مؤمنين وسيرتكبون المعاصي حيث سيشعرون بشيء يؤذيهم ويضرّهم ولن يكون عادياً.

هذا الطوفان الذي أباد مجموعة كافرة من الناس، لن يكون الأخير، ففي الزمان القادم سيكون هناك أمم مؤمنة تنال البركة الإلهية، وسيكون هناك أمم كافرة ستتمتّع بما هو موجود في الحياة، ولكنها ستتعرّض للعذاب الإلهي، وسنقرأ عن بعض هذه الأقوام بعد قليل، وأصلاً نزلت هذه السورة متحدّثة مع وعن نماذج من الأقوام الواقعة تحت خطر العقاب.

(تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ{49})
{تِلْكَ}، التفاصيل لقصّة النبي نوح(ع)، {مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ}، هي معلومات كانت غائبة عنكم ولم تكن معلومةً منتشراً علمها بين الناس، {نُوحِيهَا إِلَيْكَ}، نوصلها إلى فكرك ووعيك مباشرة بدون أن تسمع الصوت عبر أذنيك، {مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا}، تلك القصص كنت تجهلها، {وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا}، وأيضا جماعة الناس الذين تنتمي لجماعتهم لم يكونوا يعلمونها قبل هذا القرآن.

{فَاصْبِرْ}، لِتَبْقَ تصرفاتك واعية ومدروسة على ما يحصل معك من تكذيب وسخرية... لأن هذا الوضع لن يستمر، {إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ}، فَمَا سيعقب وَمَا سيأتي بعد الصبر سيكون لصالح الذي تجنّب فعل السوء وهو نفسه تجنّب غضبه وعقابه تعالى، وفي الأخير سوف تكون النتيجة لصالح المؤمنين، سواء في الدنيا بالتوفيق الإلهي لهم ونصرهم... أو في الآخرة في دخولهم إلى الجنّة.

نَنْتَبِه جيداً، فلا النبي محمّد(ع) ولا قومه كانت هذه المعلومات متداولة بينهم، وهي معروفة عند المثقفين دينياً من أهل الكتاب، فكيف يمكن لمحمّد تأليف قصة عنها؟ تذاكى البعض وقال إنَّ بعضاً من أهل الكتاب كانوا يزوّدون محمداً (ع) بالمعلومات، بل حتى قالوا إنَّ بعضاً من أهل الكتاب ألّفوا السور لمحمّد(ع)... متعامين ومتجاهلين عن تاريخٍ بالتفصيل الممل وصلنا عنه (ع)، وليس فيه ولا شخص من أهل الكتاب رافقه إلى المدينة من مكة، فإن كان المؤلّف المزعوم "البارع بشكل غير عادي في التأليف وصياغة الكلام وغزارة المعلومات..." كان في مكّة، فمن تولّى التأليف لمحمّد (ع) في المدينة؟ وبنفس الأسلوب؟ وبنفس توافق المعلومات؟... والأسخف من السخافة قول من قال إنَّ سلمان الفارسي زوّد محمداً (ع) بالمعلومات، وليكن هذا الكلام نموذجاً لك عن التفاهات الأخرى التي يقولونها، لأنَّ سلمان تعرّف على النبي محمّد(ع) بعد قرابة عشر سنين نزل فيها قرآن كثير متضمناً قصصاً عن الأنبياء!

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ{50})
ننتقل إلى قصة قوم آخرين كفروا فتمّت إبادتهم:

{وَإِلَىٰ عَادٍ}، وعاد اسم لقبيلة كانت منتشرة في عدة قرى في شبه الجزيرة العربية، والنبي هود جاء لفرع منها في منطقة الأحقاف كما ورد في الآية 21 من سورة الأحقاف {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ...} أي التي فيها تلال رملية، ومدينتهم اسمها إرم كما ورد في الآية 7 من سورة الفجر {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ}، وأقوى الأقوال حالياً أنها كانت تقع بين اليمن وعُمَان، ولكن لا يمكننا الجزم بهذا فليس لدينا دليل قاطع.

{وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا}، أرسلنا شخصاً مشاركاً لهم في مكان معيشتهم وهو هود(ع)، فكما أرسلنا النبي نوح(ع) إلى قومه فكذلك أرسلنا النبي هود(ع) إلى قوم من قبيلة "عاد".

{قَالَ}، النبي هود(ع) لقوم عاد:

{يَا قَوْمِ}، يا جماعة الناس الذين أنتمي لجماعتهم، {اعْبُدُوا اللَّهَ}، هو تعالى إلهكم ومفروض منكم طاعته فتصرفوا على هذا الأساس، فأطيعوه وتوجّهوا إليه سبحانه بالدعاء والمديح... {مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ}، فليس هناك ولا أي كائن موصوف بالصفات والقدرات الفائقة فوق صفات وقدرات الجميع إلا الله تعالى.

{إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ}، أنتم فقط موصوفون بأنكم تخترعون شيئاً غير صحيح وأنتم تعلمون أنكم اخترعتموه، وتعلم أن الآية تقصد نقل قوله (ع) لهم عن آلهتهم التي اخترعوها وجعلوها شركاء له تعالى في الألوهية، فهذا افتراء، وهذا كذب وهم يعلمون أنه كذب ولا أصل لصحته.

انتبه وضع في بالك دائماً، أَنَّ عاداً هو اسم لقبيلة كبيرة كانت منتشرة في عدة مناطق من الجزيرة العربية، وفي إحدى مدنهم جاء النبي هود(ع) لهدايتهم، ففي آخر القصة هنا ستجد تنبيهاً أَنَّ الكارثة التي حصلت على قوم عاد، كانت خصيصاً للذين كان بينهم النبي هود(ع)، ويسكنون في مدينة اسمها: إرم.

(يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ{51})
{يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا}، لا أعبّر لكم عن إرادتي للحصول منكم على شيء محدّدٍ من المال أو الأملاك... أستحقّه على تبليغي كلامه تعالى لكم، {إِنْ أَجْرِيَ}، فقط ما تحدّد لي وأستحقّه على عملي كرسول، {إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي}، على الذي كوّنني وقبل ذلك كنت لا شيء، فأجري عليه تعالى، {أَفَلَا تَعْقِلُونَ}، أليس لديكم قدرة عقلٍ، وفهمٍ، واستيعابٍ لما أقوله؟

لو طلبت منكم أجراً لكان لديكم حقّ التشكيك في نزاهتي، وافتراض مصالح شخصية دنيوية خلف ادّعائي كوني رسولاً منه تعالى لأستفيد من الناس...

(وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ{52})
{وَيَا قَوْمِ}، ويا أيها الجماعة التي أنتمي لِجَمَاعَتِهِمْ، {اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ}، اطلبوا من المسؤول عنكم من مستوى إلهي أن يتجاوز عن سيئاتكم، {ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ}، أعلنوا له تعالى إقلاعكم عن الكفر وفتحكم لصفحة جديدة، فإذا استغفرتم وتبتم:

{يُرْسِلِ}، الله تعالى، {السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا}، لا يمسك السماء بل يتركها تمطر من دون فترات جفاف، وَلا تمرّ عليكم فترات طويلة من دون مطر. وهذا عمليا يعني الغنى بالماء، وينتج عنه الاستقرار حيث هُمْ، لأن توافر الماء ضمان للزراعة ولتربية المواشي...

{وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ}، أنتم الآن تملكون قوّة اقتصادية وعسكرية كبيرة، وإذا استغفرتم وتبتم ستصيرون أقوى، وَلا تربطوا قوتكم التي تملكونها الآن بأنها من الآلهة الوهمية، أو من قدراتكم الذاتية "وكأنكم أنتم آلهة"، بل الله تعالى سمح لكم بالحصول عليها، وإن أخلصتم له تعالى، فسيزيدكم قوّة، لأنكم سَتَكُونُونَ مدعومين بالنصر الإلهي.

هَذَا الكلام يعيدنا إلى محور من محاور السورة، وفيه شرح لكيفية الربط الصحيح للنعمة الدنيوية مع الإيمان وليس مع الكفر.

{وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ}، لا تتركوا ما أقول لكم عن التوحيد والاستغفار والتوبة وتتوجّهوا بالاتجاه الذي يجعلكم موصوفين بأنكم ارتكبتم أعمالا تستحقون عليها العقاب. أَنْتُمُ الآن مشركون بربكم سبحانه، وهذا جرم تستحقون عليه العقاب، والحلّ يكون عبر توحيده تعالى واستغفاركم وتوبتكم، وَلا تتركوا الحل الذي أقوله لكم وتذهبوا عنه وأنتم مجرمون، لِأَنَّكُمْ سوف تنالون العقاب على إجرامكم إذا لم تلتزموا بما أقوله لكم.

نلاحظ في السورة الْمُسَمَّاةِ باسم النبي نوح(ع)، أن النبي نوح(ع) قال لقومه نفس الكلام عن الاستغفار وَإِرْسَالِ السماء... راجع الآيات حول الآية 11 {يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا}، ولم تنقل السورة هنا هذا الكلام عن النبي نوح(ع)، ونقلته عن لسان النبي هود(ع)، ونحن نعرف من القرآن أن كلام الأنبياء مع أقوامهم متشابه جدا، بل يكاد يكون متطابقا، والاختلاف يكون في تفاصيل صغيرة، حَيْثُ إِنَّ كل الأنبياء بلّغوا نفس العقيدة، وأنذروا من الآخرة، وأنذروا من العقاب في الدنيا... ولفتوا انتباه قومهم إِلَى أن المجتمع الذي يستغفر وَيَتُوبُ سَيَحْصُلُ على العناية الإلهية في الدنيا...

(قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ{53})

ضع في بالك دائما أنه أحيانا تنقل لنا الآيات ملخص ما جرى مع الأنبياء خلال سنوات، وَهنا ما تقوله الآيات ربما حدث في خلال دَقِيقَتَيْنِ، وربما هو خلاصة ما حدث خلال سنوات من دعوة النبي لهم.

{قَالُوا}، قال قوم النبي هود(ع) جوابا على دعوته لهم للتوحيد وطلب المغفرة منه تعالى وتوبتهم:

{يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ}، وَلم تأتنا بشيء واضح على صحّة كلامك، {وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا}، لِأَنَّ الذين نعتبرهم بصفات وقدرات فائقة من مستوى إلهي لَنْ نترك عبادتهم وتقديسهم، {عَنْ قَوْلِكَ}، بسبب قولك لنا بتركها، وَلن نتركها لمجرد أنك قلت لنا أن نتركها.

{وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}، وَلسنا معتقدين بما تقوله عن التوحيد والآخرة... فلا تتعب نفسك معنا حَيْثُ نخبرك صراحة وعلنا أننا باقون على ديننا ولن نتغيّر لنصير على دينك.

بالنسبة لكلمة {آمَنَ} فَلَمْ أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الْإِسْلَامِ أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة {آمَنَ} ومشتقاتها في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، فَـ{آمَنَ} على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كِلْتَاهُمَا تَعْنِيَانِ عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ{54})
{إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ}، بالنسبة لحالتك لَا يبدو لنا سَبَبٌ لأقوالك الغريبة إلّا أن إِلَهًا من آلهتنا اعْتَرَاكَ وَمَرَّ بك وأصابك بسوء، بشيء سَيِّئٍ، وَمَرَّ بك وضرب عقلك، وَآلِهَتُنَا التي تقول عنها بأنها ليست آلهة ولا تستحق العبادة غَضِبَتْ عليك وأصابتك بشيء سَيِّئٍ في عقلك، فَكلامك غير منطقي وتخريف، وَيَبْدُو أن آلهتنا ضَرَبَتْكَ في عقلك عقابا لك لأنك لم تعبدها ولم تحترمها.

{قَالَ}، النبي هود(ع):

{إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ}، وَأَقُولُ أمامه تعالى وأطلب منه اعتبار ما أقوله تصريحا وَإِعْلَانًا مني، {وَاشْهَدُوا}، وأنتم سأقول أمامكم شيئا فاسمعوه وانقلوه عنّي، {أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}، وَلا علاقة لي ولا ارتباط بالذي تشركون... تكملة الجملة في الآية التالية: من دون الله تعالى. وَالْآلِهَةُ التي جعلتموها شريكة لله تعالى في الألوهية، هَا أَنَا أعلن أمامه تعالى وأمامكم ولكم أنني لا علاقة لي بها وَلا أعتبرها آلهة، ولا أعبدها.

(مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ{55})
...{بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}، {مِنْ دُونِهِ}، فكل ما تعتبرونه آلهة من غيره تعالى من الأصنام أو الكواكب أو الأرواح... فلا علاقة لي بها. كما نقول: ذهبتم إلى الرحلة من دوني، وَتَرَكْتُمُونِي. هُنَا يكون قوم عاد اتَّخَذُوا آلهة من دون الله تعالى، وَتَرَكُوهُ كإله أحد، واتخذوا آلهة أخرى.

{فَكِيدُونِي جَمِيعًا}، كُلُّكُمْ قوموا بأي عمل تقصدون منه أن يكون ضدي، وَقُومُوا بالدعاء لآلهتكم أن تؤذيني، {ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ}، فلا تمهلوني أي فرصة، فما تستطيعون فعله فافعلوه فلا يهمني، وَاطْلُبُوا من آلهتكم أن تؤذيني الآن وبأسرع وقت.

أَنْتُمْ تقولون إِنَّ آلهتكم أصابتني بضرر في عقلي، وها أنا أطلب منكم أن تسألوها أن تفعل أكثر ما تستطيع فعله لتضرّني أكثر.

كَلِمَةُ كيد وصف لعموم أي عمل مضاد لمصلحة الآخرين بدون أهمية حصول مصلحة للفاعل لِأَنَّ التركيز على الضرر للآخرين، وقد يكون العمل الكيدي علنيا أو بالسرّ، وَتُشْبِهُ كثيرا الكلمة العامية: جكارة.

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{56})
{إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي}، حَصْراً وفقط أَعْتَمِدُ على صاحب الاسم المميّز المحدّد الله الموصوف بأنه المسؤول عنّي من مستوى إلهي، وَأَعْتَقِدُ أنه تعالى يسيّر الأمور بما هو مناسب، {وَرَبِّكُمْ}، وهو نفسه المسؤول عنكم من مستوى إلهي. فلا أَعْتَمِدُ على غيره مثلما أنتم تفعلون لأني لا أؤمن بإله غيره تعالى. فآلهتكم ليست آلهة حقيقية ولا يمكنها فعل أي شيء وهو سبحانه ربّكم الحقيقي.

تَذَكَّرْ أن كلمة ربّ عمومية وتشير لأي مسؤول عن شيء ما، فأنا ربّ بيتي، والزوجة ربّة منزل، وذاك ربّ العمّال... والله تعالى ربنا، فهو المسؤول عنّا من مستوى إلهي، وهنا تقصد الآية أن آلهتهم ليست رَبًّا لهم من مستوى إلهي حتى تفعل شَيْئاً ما من مستوى إلهي، وأنه (ع) يتوكّل وبالتحديد وفقط على الله تعالى ربّه وربّ قومه، وربّ الجميع.

{مَا مِنْ دَابَّةٍ}، مَا مِنْ حيوان يدبّ وَيَتَحَرَّكُ على الأرض، على اليابسة أو فِي الماء، {إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا}، ماسكها من مقدمة رأسها، من فوق الجبين، وهذا التعبير يشير إِلَى أَنَّهُ سبحانه يقودها ويسيطر عليها ويتحكّم بشؤونها.

نَتَذَكَّرُ أن هذه الجمل هي ردّ على قولهم إنَّ آلهتهم سببت الضرر العقلي للنبي هود(ع)، وَيُخْبِرُهُمْ (ع) أن الله تعالى هو المسيطر على كل دابة، على كل من يمشي على الأرض، وهنا المقصود الإنسان بالخصوص من بين كل الدواب، فضرر الإنسان ونفعه فقط بيد الله تعالى، وَكَمَا تمسك الإنسان من الشعر الذي على رأسه وتأخذه هنا وهناك إن كنت مسيطرا عليه تماما، فهنا التعبير أنه تعالى مسيطر علينا بشكل كامل، ويمكنه تعالى فعل أي شيء بنا، وآلهتهم لا يمكنها فعل أي شيء من مستوى إلهي.

{إِنَّ رَبِّي}، إنَّ المسؤول عني من مستوى إلهي، {عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، على طريق أساسي يوصف بأنه على الأحسن فلا انحراف في صراطه تعالى، وَيَتَصَرَّفُ سبحانه مع مخلوقاته بطريقة مستقيمة، فسبحانه وتعالى ليس مِزَاجِيًّا ولا عَبَثِيًّا، وَبِالرَّغْمِ من سيطرته الكاملة سبحانه على مخلوقاته، ورغم قدرته على فعل ما يريد بهم، لَكِنَّهُ تعالى لا يلعب ولا يتسلى ولا يعبث... بل هو سبحانه على صراط مستقيم، لِأَنَّ لديه سبحانه صفات حسنى ومن المستحيل أن يوصف بصفات غير حسنى.

(فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ{57})
الآية هنا تتكلّم في الحاضر مثل الآية 35 التي مرّت في سياق الكلام عن قوم النبي نوح(ع)، فهي توجّه كلامها للنبي محمد(ع) ولمن هم في عصره ولمن لم يؤمن برسالته في كل زَمَانٍ الذي سيأتي من بعده، وَأتت في سياق كلام قوم كفّار وجدوا جوابا نهائيا لكل كلام الرسول هود(ع): كل ما تقوله ناتج عن ضرب آلهتنا لك في عقلك، فأنت تخرّف.

هُنَا الآية مقولة عن النبي هود(ع) ونقلتها السورة على صيغة الكلام في الزمن الحاضر لتكون مثل قول كلام من النبي محمّد(ع) لقومه ولمن يأتي بعدهم.

{فَإِنْ تَوَلَّوْا}، وَذَهَبُوا باتجاه آخر وتركوا كلامك عن دينه تعالى، {فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ}، أوصلت لكم بتمامه وإلى نهايته، {مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ}، لِأَنَّهُ أرسلني سبحانه لأنقل لكم كلامه تعالى وَهَا أَنَا أَوْصَلْتُهُ لكم كلّه بالتمام إلى نهايته، {وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ}، فَتَمُوتُونَ ويأتي المسؤول عني من مستوى إلهي بأناس غيركم، لِأَنَّكُمْ لستم أوّل همّه تعالى ولستم آخر البشر، {وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا}، وَلا يتغيّر حاله سبحانه لِلْأَسْوَأِ بسبب كفركم، ولا يتضرر إن أماتكم.

ننتبه للتهديد في منتصف القصّة، فإن تركتم ما يقوله الرسول، لا مشكلة، لا بالنسبة للرسول ولا له تعالى، لِأَنَّ الرسول قَامَ بِالْمَطْلُوبِ منه، حَيْثُ بَلَّغَ الرسالة، وبالنسبة لله سبحانه فهو لا يتضرر من كفركم، ويمكنه إماتتكم ولا يتضرر من موتكم أيضا.

نَتَذَكَّرُ دائما أن بعض الناس يعتقدون أنه عزّ وجلّ يحتاج إِلَيْنَا! وَيحتاج لإيماننا به! وَيُفَكِّرُونَ بأنه تعالى سيكون له قيمة أكبر إن عبدناه وصلينا له! وأنه تعالى سينزعج إن لم نعبده!... كل هذا كلام فارغ، فلا يتضرر سبحانه وتعالى ولا بأي شيء حتى لو كفرت به كل مخلوقاته.

{إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ}، الْمَسْؤُولُ عني من مستوى إلهي يرعى ويصون كل شيء بدون استثناء، فأنتم على قيد الحياة لأنه تعالى يحفظكم من الموت ويمكنه تعالى أن يميتكم ويأتي بأناس آخرين، وأنتم لا تعنون له أي شيء.

نلاحظ أن الاستخلاف حَصَلَ سابقا، حَيْثُ أَبَادَ سبحانه قوم النبي نوح(ع) واستخلف غيرهم على الأرض، وقوم عاد مِنَ الَّذِينَ استخلفهم سبحانه، ولم تحصل أي مشكلة بالنسبة له سبحانه وتعالى كما هو واضح.

(وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ{58})
{وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا}، عندما بدأ الشيء الذي قررنا حصوله، وهو حصول كارثة قاتلة على قبيلة عاد، {نَجَّيْنَا هُودًا} (ع) {وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ}، أخرجناهم من الخطر قبل وقوعه عليهم، فلم يموتوا مع الكفار، وَخَلَّصْنَاهُمْ، {بِرَحْمَةٍ مِّنَّا}، بعناية لما فيه مصلحتهم، {وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ}، وأبعدناهم عن شيء يضرّهم ولا لين فيه ولا سهولة، فالموت قد يحدث والإنسان نائما فلا يشعر بفقدانه للحياة، وقد يموت ويشعر بقليل من الانزعاج، ولكن قوم النبي هود(ع) مَاتُوا بطريقة غليظة قاسية جدا، فبألم شديد فقدوا حياتهم.

نعرف من آيات أخرى أن عاصفة قوية جدا ضربت لعدة أيام المنطقة التي كانت تعيش فيها قبيلة عاد، وأماتتهم بعد معاناة من البرد الشديد "أو من الحرّ الشديد"، كما ورد في الآية 7 من سورة الحاقة {سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}، ونعلم أن النبي هود(ع) والمؤمنين كانوا ابْتَعَدُوا عن منطقة الكارثة قبل أيام من حصولها.

نُلَاحِظُ أثناء نقل السورة لنجاة النبي نوح(ع) وأهله والمؤمنين، أنها في الآية 41 نقلت لنا كلاما للنبي نوح(ع) معناه: إننا نجونا لأنك غفور رحيم... فهنا نفس الإشارة، فالذين نجوا من الكارثة من قوم عاد لم يكونوا ملائكة، بل أُنَاسًا ارتكبوا بعض الذنوب، ولكنهم مؤمنون، ويعامل سبحانه المؤمنين برحمة خاصة، فيغفر لهم ذنوبهم، ولا يعاقبهم بكارثة في الدنيا... فبسبب هذه الرحمة الخاصة بالمؤمنين نَجَوْا من الكارثة.

(وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ{59})
{وَتِلْكَ عَادٌ}، هذا ما حصل مع قبيلة عاد الذين {جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ}، والجحد هو إِنْكَارُ شيء واضح الصحّة، ومن لوازم هذا الوضع أن يكون من داخله مُعْتَقِدًا بصحة ما ينكره. وَأَنْكَرُوا الأمور المميزة المنسوبة للمسؤول عنهم من مستوى إلهي رغم معرفتهم بوضوح صحّتها ودلالتها.

ضع في ذهنك أن الحجج التي تقرأها في القرآن عن وضوح التخطيط الإلهي لحياة البشر والأدلة على أن الإله واحد، وأنه قادر على الإحياء والإماتة... ولفت الانتباه للسماوات والأرض وما فيهن من ظواهر ومخلوقات... فهذه الآيات قَالَهَا النبي هود(ع) لقومه، ولكنهم جحدوها، فهي صحيحة وواضحة ولكنهم أنكروا صحتها مع أنهم من داخلهم يعلمون أنها صحيحة!

{وَعَصَوْا رُسُلَهُ}، لم يطيعوا كلام رسل ربهم سبحانه، على ما يبدو أنهم قبل النبي هود(ع) جَاءَهُمْ رسل ينذرونهم ولكن لم يطيعوهم، ووصل بهم الشرك والطغيان في عهد النبي هود(ع) إلى درجة يستحقون معها نزول العقاب الدنيوي، أو الكلام عمومي عن مخالفتهم لكلامه تعالى الذي انتشر عبر رسله ووصلهم وهو الأرجح.

{وَاتَّبَعُوا}، كانوا على خطى، {أمر كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ}، هناك أشخاص يرون أنفسهم جبارين أي قاهرين لغيرهم، لِأَنَّهُمْ أقوياء جسديا أو ماليا أو بالعصابة التي معهم... ويفرضون أقوالهم وأوامرهم على غيرهم، وَهُمُ الرُّؤَسَاءُ والزعماء الذين يتبعهم الناس، وجبابرة قوم عاد كانوا عنيدين، صلبين في رأيهم فلا يقنعهم ولا يغيّر رأيهم أي شيء مهما كان، وَتَرَكَ قوم عاد الرسل وأطاعوا أوامر الجبابرة العنيدين.

(وَأُتْبِعُواْ فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ{60})

{وَأُتْبِعُوا}، تبعهم وَكان على مسارهم، {فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً}، هنا لحقهم الطرد من الرحمة الإلهية، {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ}، وأيضا في زمن القيام من الموت في الآخرة أيضا لحق بهم الطرد من الرحمة الإلهية، فلا مغفرة لهم على ذنوبهم، بل عقاب شديد.

{أَلَا إِنَّ عَادًا}، نخبركم شيئا أكيدا عن قبيلة عاد أنهم، {كَفَرُوا رَبَّهُمْ}، أنكروا المسؤول عنهم من مستوى إلهي ولم يؤمنوا به سبحانه، وعمليا هُمْ لم يوحّدوه تعالى ولم يمشوا على دينه...

{أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ}، عاد كانت قبيلة كبيرة لها مدن عديدة، وَفَقَطِ الذين كان النبي هود(ع) من جَمَاعَتِهِمْ، ألا بعدا لهم، لا قرب لهم من الرحمة الإلهية بسبب كفرهم، مَثَلًا يقول المؤمنون: بعدا لعاد، أي لا أريد الاقتراب منهم ولا أن يقتربوا مني. وَمِنَ الناحية الإلهية هم أصلا بعيدون عنه تعالى وليسوا بقربه لأنهم أشركوا به، وبالتالي هُمْ بعيدون عن رحمته تعالى.

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ{61})
القصّة الثالثة لقوم جرى تعذيبهم في الدنيا: {وَإِلَى ثَمُودَ}، وهي قبيلة عربية كبيرة كان أهلها منتشرين في عدة قرى في شبه الجزيرة العربية، والنبي صالح(ع) أرسله سبحانه إلى مدينة الحجر كما نفهم من الآية 80 من سورة الحجر {وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ}، ويوجد إلى الآن آثارٌ لبيوت منحوتة في الصخر في مدينة الحجر، وتسمى أيضا مدائن صالح، وهي تقع لجهة الشمال الغربي من المدينة المنورة.

إلى هذه القبيلة أرسلنا {أَخَاهُمْ صَالِحًا}، الشخص المشارك معهم في مكان عيشهم، وهو النبي صالح(ع)، و{قَالَ} لهم(ع): {يَا قَوْمِ}، يا أيها الجماعة من الناس الذين أنتمي لجماعتهم، {اعْبُدُوا اللَّهَ}، فهو إلهكم وأنتم عبيده والمفروض منكم طاعته، وتصرّفوا على هذا الأساس، {مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}، إذ لا يوجد أيّ كائن لديه الصفات والقدرات الفائقة غيره، ومن عبد غيره تعالى واعتبر غيره إلها فهذا خطأ وغير صحيح.

{هُوَ}، الله سبحانه، {أَنْشَأَكُمْ}، بنى تركيبكم، {مِنَ الْأَرْضِ} من المواد التي على الأرض، من الماء والتراب، فأنتم مخلوقون من الموادّ التي على الأرض، وحاليا نطلق عليها أسماء الكربون والكالسيوم والهيدروجين... وهو سبحانه الذي خلقكم وليس أحد غيره، ولم تخلقكم الطبيعة ولا الصدفة ولا هكذا نشأتم من لا شيء... ولا الآلهة الوهمية أنشأتكم... وهو سبحانه، {وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}، فجعلكم تستعمرون الأرض، وتعمّرونها بالأبنية والزراعة... وتعيشون فيها، وأيضا هو وليس أحد غيره أتاح لكم موارد الأرض وجعلها بيئة مناسبة لكم لتعيشوا فيها.

{فَاسْتَغْفِرُوهُ}، فاطلبوا منه تعالى التجاوز عن سيئاتكم، {ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ}، فأعلنوا فتح صفحة جديدة معه سبحانه مقلعين عن الكفر، {إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ}، إن المسؤول عني من مستوى إلهي ليس بعيداً أو يغيب ويأتي، وليس بعيداً ولا يحتاج لوسيط حتى يسمعكم، لا، بل قريب من كل شخص منكم، وهو، {مُجِيبٌ}، فيسمع الدعاء ويعطي الجواب عليه.
وسبحانه لم يضع حاجزاً أو واسطة بينه وبين الذي يريد التقرّب منه، وحتى لو قلتم عن آلهتكم أنها واسطة لكم مع الله تعالى، فحتى هذا التفكير لا معنى له لأنه سبحانه قريب من الجميع، وسبحانه ليس مثل الذين تعرفونهم من الزعماء والرؤساء والملوك، بل تستغفره وتطلب منه التوبة وبالتأكيد سيجيبك وسيغفر لك ويتوب عليك، ولا حاجة لأي واسطة.

(قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَـذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ{62})
{قَالُوا}، القوم: {يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا}، قبل أن تقول لنا هذا الكلام عن الإله الواحد، كنا نرتجي فيك ونتوقّع ونحبّ أن نرى منك أموراً جيّدةً، على أساس أنك من العقلاء ومن المحترمين بيننا، ونتوقّع قيامك بإنجازات تفيد مجتمعنا... ولكن كلامك هذا يجعلنا ننظر إليك بشكل آخر.

{أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا}! أتأمرنا أن نتوقّف نهائياً ولا نتصرّف على أساس أننا عبيدٌ مفروضةٌ علينا الطاعة للآلهة التي عبدها آباؤنا ونحن الآن نعبدها!

{وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ}، أنت تدعونا لعبادة إله واحد، ونحن في شك، حيثُ إنَّ صحّة ما تقوله لم تدخل في عقلنا ونميل إلى تكذيب ما تقول، حتى لو لم يكن لدينا دليل نستند عليه في تكذيبك فإننا نميل بشدّة إلى تكذيبك، بشكل مريب، فلدينا ريبة، وهي حالة تكذيب كلامك من أول ما نسمعه، فمستوى شكّنا بك يبدأ من أقل مستوى الشعور، فلا يوجد لدينا حتى شعور طفيف للميل إلى تصديقك، وأوّل ما نسمع كلامك فإنَّ عقلنا وضميرنا يرفضانِهِ.

بعضَ الأحيان تسمع شيئاً ما وبعد تحليله بعقلك ترفضه، وبعض الأحيان ترفضه قبل أن تحلّل ما سمعته، وهذه هي الريبة. فهم يشكّون في صحّة كلامه لدرجة أنهم أوّل ما يسمعونه يرفضون تصديقه.

حالة الشك المريب تصيب كل الناس في مختلف الحالات، وخذ مثالاً عليها أوّل ما يسمع الناس تعليقك على شيء من أساسيات مذهبهم، يرفضونه فوراً قبل التفكير فيه... ومثلها حالة شخص من غير ديانتك وغير مهتم بتغيير دينه، وتدخل في الحديث معه لإقناعه بالإسلام، وردّة فعله هي الرفض فوراً لكل ما تقوله ولا يريد التفكير فيه. وهنا كلام ثمود نفس الشيء، الرفض فوراً.

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ {63})

{قَالَ}، النبي صالح(ع): {يَا قَوْمِ}، يا أيها الناس الذين أنتمي لجماعتهم، {أَرَأَيْتُمْ}، لو صار لديكم صورة، كما نقول بالعامية: شفتوا. التفتوا، {إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي}، كنت على وضوح، كنت على شيء واضح حدّد لي من هو المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {وَآتَانِي}، وصار عندي، {مِنْهُ رَحْمَةً}، حصلت على شيء منه تعالى وفيه عناية بي لما فيه مصلحتي، وسياق الكلام هنا عن وصول الهداية منه تعالى عبر الوحي والتي تدلّ على الدين الصحيح، {فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ}؟ فإن لم أطع أوامره تعالى وخالفتها فمن يحقّق لي ما يرضيني منه تعالى، طبعاً المقصود أنه إذا أراد تعالى تعذيبي على الكفر فمن يساعدني للنجاة من ذلك؟

أنا عندي بيّنة وعندي شيء واضح أكيد يدلّني على ربي الواحد الأحد سبحانه، حيثُ تعرّفت عليه تعالى من آيات خلقي وخلق ما حولي، ومن الكلام الحقّ الصالح الذي وصلني منه سبحانه، فهل أتركُ هذا وأشرك به! وإذا أشركت به مثلكم وعبدت غيره، فبماذا سينفعني هذا ومن سيساعدني حين يحاسبني ويجازيني تعالى على ذلك؟ فمن سينقذني من العذاب؟

{فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ}، فقط سأنال الخسارة من نصرتكم لي ومن نصرة آلهتكم لي، لأنه لا أنتم ولا آلهتكم يمكنكم فعلَ أي شيء أمامه سبحانه وتعالى، وسأفقد أموراً لها أهمية كبيرة أكثر وأكثر إذا عصيته تعالى واتّبعت دينكم.

أي كلام تقولونه لي فلن يغيّر تفكيري، لأنني لم أعبد الله تعالى وأعتقد به ربّاً بدون دليل بل على بيّنة عبدته تعالى، ومن بعد ذلك فكيف أعبد غيره وتبيّن لي وجود عقاب منه تعالى على الشرك به؟ فإن فعلت مثلكم فهل تنفعونَنِي إن عاقبني سبحانه؟

(وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ{64})

{وَيَا قَوْمِ}، يا أيها الناس الذين أنتمي لجماعتهم، {هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ}، هذه أنثى الجمل المنسوبة لله تعالى، كما نقول: عباد الله، بيت الله، فهذه: ناقة الله أي التي يملكها تعالى، حيثُ خلقها سبحانه ولم يُعْطِ ملكيتها لأحد منّا، وهي، {لَكُمْ آيَةً}، هي شيء مميّز.

مشهورٌ في التاريخ الديني أنهم طلبوا من النبي صالح(ع) خروج ناقة من الصخرة حتى يؤمنوا بكلامه، ولم يرد ذلك صراحة في القرآن، ولكن يبدو من القرآن أن تواجد الناقة لم يكن بطريقة عادية، فلم تَأْتِ من الصحراء أو كانت بينهم وتحدّدت كناقة مميزة... ولذلك سنفترض خروج الناقة من صخرة كما ورد في الموروث الثقافي لأنه الاحتمال الوحيد المتوافر من مستند "ولو ضعيف".

بطريقةٍ مميزة صارت الناقة بينهم، فهي آية "شيء مميّز"، ورغم ذلك لم يؤمنوا! بل ويبدو واضحاً أنهم منزعجون من وجودها كدليل حيّ يعيشون معه ويدلّ على صحّة ما يقوله (ع) ويدل على فشل آلهتهم وسخافة عبادتها، فقرروا التخلّص منها...

كما ترى تغافلت السورة عن ترفهم الباذخِ بحفر البيوت في الصخور، وركّزت على آية هم طلبوها ليؤمنوا، وحصلت ولم يؤمنوا، بل قتلوا الآية التي طلبوها!

{فَذَرُوهَا}، فاتركوا الناقة ولا تتدخّلوا بها، {تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ}، فتسرح لتأكل، {وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ}، فلا تؤذوها ولا تطردوها من المرعى ولا تضربوها أو تقتلوها، فإذا آذيتموها، {فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ}، فهناك عذاب لن يترككم وسيأتي إليكم لتصيروا فيه ولن يكون بعيداً من زمن أذيّتكم للناقة.

عادةُ العذاب على المعصية يكون في الآخرة، أمّا العذاب على أذية هذه الناقة فقريب، حيثُ إنَّهُ هنا في الدنيا سيحصل وبوقت قريب.

(فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ{65})
{فَعَقَرُوهَا}، ضربوا الناقة بشيء له رأس يسبّب الضرر للجسد، برمح أو سهم أو سكين... سَبَّبَ موتها، ونعرف من آيات أخرى من القرآن، أنهم لم يتحمّلوا منظر الناقة يومياً أمامهم، ولم يخطر ببالهم أن يأخذوها إلى مكان بعيد، بل لشدّة كفرهم، قتلوها ليتخلصوا من دليل إلهي يرونه يومياً! ونعرف من القرآن أنَّ أشقى شَقِيٍّ من ثمود قتل الناقة، كما ورد في الآية 12 من سورة الشمس {إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا}، ولكن كل الكفّار كانوا موافقين على قتلها، فمثلما تقول عن شخص ما دخل إلى بلد ما، وقتله أحدهم، فنقول: قتلوه، إذا كانوا كلهم موافقين على قتله.

{فَقَالَ}، النبي صالح(ع):

{تَمَتَّعُوا}، انتفعوا من الحياة والأشياء، {فِي دَارِكُمْ}، في الأماكن التي تدور فيها شؤون حياتكم، {ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ}، فقط معكم مهلة ثلاثة أيام قبل نزول العذاب عليكم، {وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ}، فهذا الكلام عن شيء سيفعله تعالى وهو ليس كلاماً كاذباً، وها أخبركم أنه تعالى وعدكم بالعذاب بعد ثلاثة أيام، وسيحصل بالتأكيد هذا العذاب، لأنه اتخذ سبحانه القرار فيكم.

(فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ{66})
{فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا}، عندما بدأ الشيء الذي قررنا حصوله، جاء العذاب، {نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ}، أمرناهم بالخروج من القرية قبل نزول العذاب، ونجوا، {بِرَحْمَةٍ مِنَّا}، بعناية إلهية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، {وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ}، ونجوا في ذلك الزمن من الشعور بالمهانة من العقاب على العمل القبيح، وهذا شيء يستحقه كفّار ثمود.

{إِنَّ رَبَّكَ}، إن المسؤول عنك من مستوى إلهي، {هُوَ الْقَوِيُّ}، لديه القدرة والاستطاعة على فعل أي شيء يريده مهما كان عظيما، ولا يعجز عن التحكم في الكون ولا في الأرض ولا في الطقس... وهو {الْعَزِيزُ}، هو الموصوف بكل ما تحمله كلمة عزيز من معنى، وهذه الكلمة يقابلها الذلّة بالتبعية والانقياد للآخرين، أمّا سبحانه فيفرض ما يريده على الآخرين ولا أحد يفرض عليه تعالى أي شيء، وبمجرد أن يقرر حصول العذاب، فإن العذاب سيحصل حتما، لأن القوّة موجودة، ولا حاجة لمساعدة أي أحد ولا يمكن لأي قوّة أخرى منعه تعالى من تنفيذ ما يريده.

هنا في السورة تكرر الحديث عن نجاة المؤمنين من العذاب الدنيوي بسبب الرحمة الإلهية، ونتذكّر أن كل الناس تخطئ، ولكن المؤمنين ينالون معاملة إلهية خاصة، فإن استغفروا وتابوا فيتم مسح ذنوبهم، وهنا، نزل العذاب الإلهي، ولكن الرحمة الإلهية الخاصة بالمؤمنين المستغفرين... حمتهم من العذاب.

(وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ{67})
{وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ}، الذين لم يكن معهم حقّ حين كفروا بأمور واضحة تدل على الإيمان، أخذتهم الصيحة فلم تتركهم بل صاروا في الصوت القوي، وصدر أمر إلهي بتعذيبهم وموتهم، وهم جماعة كثيرة من الناس، وكان الأمر الإلهي موصوفاً بأنه صيحة، موصوفاً بأنه ينتشر عليهم كلّهم، ليتعذبوا ويموتوا.

عبّر القرآن عن كل أنواع الأوامر الإلهية التي تكون متعلقة بعدد كبير من الناس بأن الأمر الإلهي: صيحة. ونقوم كلنا من الموت في يوم القيامة على أثر صيحة، والعذاب الجماعي في الدنيا يحصل على أثر صيحة، ولو كان الحادث سيحصل مع شخص واحد، لما وُصِّفَ الأمر بالصيحة، ويكفي القول أو النداء، وبما أن الأمر متوجّه لعدد كبير فالكلمة المناسبة لتوصيف ذلك في اللغة العربية هي الصيحة.

{فَأَصْبَحُوا}، فأول ما صاروا من بعد الصيحة، {فِي دِيَارِهِمْ}، في الأماكن التي كانت تدور فيها شؤون حياتهم، في بيوتهم ومساكنهم، {جَاثِمِينَ}، جثثهم ملقاة على الأرض بلا حركة.

نتذكّر دائما من القرآن أن قوم النبي صالح(ع) أصابهم زلزال، ولم يموتوا كلهم ولم تحصل لهم إبادة شاملة.

ضع في بالك دائما أن القرآن استعمل كلمة "أصبح" بشكل دقيق يشير إلى أوّل حالة بعد شيء، وتجد في أشعار العرب كثيراً استعمالهم لكلمة "أمسى" للدلالة على آخر حالة بعد شيء، ولم يحصروا استعمالها للإشارة إلى فترة المساء. وكلمة أصبح ليست مرادفة لصار، وليست مخصصة لفترة الصباح من اليوم، بل استعمالها على أصل معناها يفسّر أصل وضع كلمة "صباح" لكونها أول حالة النهار بعد الليل، وراجع كمثال استعمالها الآية 10 من سورة القصص {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، والآية 103 من سورة آل عمران {إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا}.

(كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ{68})
{كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا}، كان المكان مُزْدَهِرًا مَعْمُورًا يُغْنِي ساكنيه عن الانتقال منه لتأمين ما يحتاجونه، حيث فيه ما يحتاجونه، والآن بعد الدمار منظره لم يعد منظر مكان يغني من يسكنه، لم يعد صَالِحًا للعيش فيه، ولم يعد يدل أنه كان مكانا يؤمّن حاجات من يسكن فيه. وكأنه لم يكن في السابق مكانا صَالِحًا كديار للسكن فيه.

{أَلَا إِنَّ ثَمُودَ}، نخبركم شيئا أَكِيدًا عن قبيلة ثمود التي كان النبي صالح(ع) يسكن بينها، ألا إنهم: {كَفَرُوا رَبَّهُمْ}، أنكروا المسؤول الحقيقي عنهم من مستوى إلهي، ولم يؤمنوا بصفاته الألوهية العالية، وأنكروا أنه إله واحد أحد، ولم يؤمنوا بقدرته على إعادة خلقنا للحساب...

{أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ}، هم موصوفون بالابتعاد عن الرحمة الإلهية بسبب كفرهم، ومثلاً يقول المؤمنون: بعدا لثمود. أي لا أريد الاقتراب منهم ولا أريد أن يقتربوا مني. ومن الناحية الإلهية هم أَصْلًا بعيدون عنه تعالى وليسوا بقربه لأنهم أشركوا به تعالى، ومن ناحية ثانية لن يقرّبهم منه سبحانه، وها صار وَاضِحًا طردهم من الرحمة الإلهية، لأنه نزل عليهم العذاب.

(وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُـشْرَى قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ{69})
ننتقل للقصة الرابعة عن قوم جرى تعذيبهم في الدنيا وتسبقها مقدمة:

{وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا}، وليس لدينا معلومات عن كائنات غير الملائكة(ع) التي يوظفها تعالى بأعمال تخصّ البشر، وهكذا نفهم هنا أنه سبحانه أرسل الملائكة (ع) للنبي إبراهيم بالبشرى، بالخبر السار، وفيما سيأتي من كلام ستعلم أنها البشرى بمولود من زوجته. ولكن قبل أن يقولوا له الخبر المفرح، قالوا:

{سَلَامًا}، نعلن لك أنك لن يصيبك أي سوء منّا.

قال النبي إبراهيم(ع):

{سَلَامٌ}، أعلن لكم أني لا أنوي أي سوء لكم.

{فَمَا لَبِثَ}، وَلَمْ يمرّ عليه زمن في حالة غيابه عنهم، {أَنْ جَاءَ}، حتى جاء، {بِعِجْلٍ}، بذكر ولد البقرة، "عندما يكبر العجل يصير اسمه ثَوْراً"، {حَنِيذٍ}، يقطر منه الدهن، لأن العجل سمين كما ورد في الآية 26 من سورة الذاريات، وبعد شَيِّهِ على النار سيقطر منه الدهن، فاختصرت الآية بكلمة "حَنِيذٍ" أنه (ع) شواه "كاملاً أو بِقِطَعٍ منه" على النار.

بعبارة أخرى، بعد ردّه عليهم السلام، تركهم ولم يلبث وَلَمْ يغب إلا بمقدار ما يكفي حتى يشوي لهم، وجاء بقطع اللحم المشوية تقطر من الدهن. وهذا وصف طعام شهي لا يمكن مقاومته عادة، وسترى بعد قليل أن سبب الوصف للطعام هنا هو أنهم لم يأكلوا منه رغم أنه شهي.

غير واضح لي إنْ كان ذَبَحَ لهم العجل وشواه بعدما استقبلهم، أو كان العجل مذبوحا وشوى لهم منه، فالمهرة في السلخ يمكنهم بعشر دقائق ذبح وتجهيز لَحْمٍ للشوي، وعلى أي حال لا منفعة من معرفة ذلك.

قيل في الروايات إنَّ الملائكة (ع) كانوا بين ثلاثة واثني عشر، ونلاحظ أنَّ النبي إبراهيم(ع) لم يعرف أنهم من الملائكة، وحين رآهم علم أنهم لا يشبهون أهل منطقته "في لباسهم وهيئتهم" أو لأنهم ليسوا من أهل منطقته، فخمّن أنهم من مكان بعيد، وَأَنَّهُ لا بد أنهم كانوا مسافرين لمدة طويلة، فتركهم، ولم يسألهم من هم وماذا يريدون، وغاب عنهم لفترة تحضير الطعام... فلو بقي بينهم لقالوا له إنهم ملائكة ويريدون إخباره بكذا وكذا... ولكن وكما يبدو، حتى هم لم يخطر ببالهم أنه تركهم فورا ليقوم بواجب الضيافة معهم، فانتظروه وتركوه يفعل ما يفعله...

(فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ{70})
{فَلَمَّا رَأَى}، صار لديه (ع) صورة محدّدة عن، {أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ}، حيث لم يمدّوا أيديهم إلى لحم العجل المشوي الساخن الذي يشتهيه أي إنسان، وبقوا جالسين كما هم ولم يمدوا أيديهم إلى الطعام عندها، {نَكِرَهُمْ}! أنكر تصرفهم، ولم يعرف سبب تركهم للطعام، ولم يفهم كيف يكونون مسافرين لمدة طويلة ولا يشتهون اللحم المشوي! ولم يفهم كيف يرون طعاما شهيا أمامهم وهم يتصرفون كأنه غير موجود! ولم يفهم لماذا لم يقبلوا ضيافته!...

المنكر مِنْ مقابلته مع "عَرَفَ مَعْرِفَةً" يعطي معنى حصول صورة أو مفهوم ونفي تطابقه مع ما لديك، فهو عموم ما ليس معروفا على الوجه المطروح، كرفض لتصنيفه.

{وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً}، تكلّم مع نفسه خيفة، خوفا من هؤلاء الأشخاص، وتحدث مع نفسه بأفكار تسبب الخوف، وبدأ يفكر في حصول شيء خطير منهم ولا يمكنه تجنبّه، حيث قد يقتلونَهُ أو يقتلونَ أهله أو يسرقونَه...

{قَالُوا}، الملائكة(ع):

{لَا تَخَفْ}، لا تشعر بالخطر منّا، {إِنَّا أُرْسِلْنَا}، تمّ إرسالنا، {إِلَى قَوْمِ لُوطٍ}، إلى جماعة الناس التي ينتمي النبي لوط(ع) لجماعتها، وفعلاً سنسبّب الضرر لأحد ما، ولكن نحن لسنا هنا لإلحاق الضرر بك، بل نحن ملائكة جرى إرسالها إلى قوم النبي لوط(ع).

نتذكّر أن الملائكة (ع) بالأصل مرّت على النبي إبراهيم(ع) حاملة له البشرى، ولكن لم يحصل مجال ليخبروه بالبشرى لأنه (ع) تركهم فورا وذهب لإعداد الطعام، على أساس أن هذه هي أصول الضيافة من الاهتمام بالضيف قبل سؤاله عن سبب قدومه... وعندما لم يأكلوا وخاف منهم... أخبروه أنه لا داعي للخوف، فلسنا نقصدك بأي أذية، والضرر سيصيب قوم النبي لوط(ع).

ننتبه، فالملائكة (ع) كائنات لا تأكل ولا تجوع ولا تشعر بلذّة الطعام إن أكلت، ولذلك لم يَعْنِ لهم الطعام الشهي أي شيء، فبقوا جالسين لا ينظرون إلى الطعام لأنه لا يعنيهم.

نلاحظ في غالبية التراث اليهودي والمسيحي قولهم عن الملائكة (ع) أنها لا تأكل، ولكن في هذه الحادثة وفي حوادث أخرى مشابهة قالوا إنَّهُ تعالى جعل "روحا آكلة" في الملائكة(ع)، فصارت حالة ظاهرها أن الملائكة(ع) التي تمثّلت بشكل البشر تأكل، ولكن في الحقيقة فإن "الروح الآكلة" هي التي أكلت، وهذا من تشويهات أهل الكتاب للحوادث التاريخية، وها ترى القرآن يذكر الحادثة مع تصحيح لهذا الكلام، فالملائكة في تلك الحادثة لم تأكل.

(وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ{71})
{وَامْرَأَتُهُ}، المرأة المنسوبة للنبي إبراهيم(ع)، زوجته، {قَائِمَةٌ}، فهي واقفة بقربهم وتسمع الكلام، ومن المشهور جداً أنها المسمّاة سارة، {فَضَحِكَتْ}، حيث من مفاجأتها لرؤيتها الملائكة عبّرت بحركة في وجهها عن سرورها، بحركة

في الفم حتى بانت أسنانها أو بتوسّع العيون مع تحريك الوجنتين... وما قيل في بعض التفاسير إنَّ كلمة "ضحكت" تعني "حاضت" فهو من كلام المفسرين كتصوّر لربط الضحك مع البشارة بالولد، ولا أصل لغوي له كما يبدو من قاموس المفردات للأصفهاني والتاج للزبيدي.

{فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ}، حيث نقلت الملائكة (ع) منه سبحانه لها خبراً ساراً بأنه سيكون لها ولد وستسميه إسحاق.

نجد في التراث العبري أن معنى كلمة إسحاق في اللغة التي كان النبي إبراهيم(ع) يتكلّم بها: الضحوك البشوش. فمن مناسبة ضحك "سارة" أطلقت الملائكة(ع) التسمية على الولد. {وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ}، فسيكون لإسحاق ولد اسمه يعقوب، وأيضاً في التراث العبري نجد أن الاسم يعقوب من مناسبة الحادثة، ومعناه أنه الشخص الذي يعقب شخصاً آخر، فَعَقَبَ إسحاق يعقوب. ومما نقرؤه في التراث القديم نجد العديد من المؤشرات حول اهتمام البعض بتسمية المواليد ربطاً بشيء ما، وهذه حالة اختراع أسماء، ولم تعد دارجة، ودرج بدلاً منها استعمال أسماء العلم التي ورثتها المجتمعات إلا اللهم ما ندر...

(قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَـذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ{72})
{قَالَتْ}، زوجة النبي إبراهيم(ع):

{يَا وَيْلَتَى}! يا للشيء العظيم الذي سيحصل معي! {أَأَلِدُ}، أحبل وألد وأضع وَلَداً، {وَأَنَا عَجُوزٌ}، وأنا متقدمة في السن لدرجة العجز، لدرجة فقدان القدرة، وهنا المقصود فقدان القدرة على الإنجاب، فأنا أصلاً لم أحبل في أيام صباي، وجسدي الآن عاجز ولم يعد صالحاً أصلاً للحبل والإنجاب! {وَهَذَا بَعْلِي}، وهو الرجل الذي يوصف بحق معاشرته لي، زوجي الذي يعاشرني، {شَيْخًا}، موصوف بأنه في عمر صارت فيه قدراته الجسدية ضعيفة، وهنا الكلام عن فقدانه المواصفات المناسبة للتلقيح.

بالنسبة لرسم كلمة "ويلتى" بالياء المقصورة راجع دراسة الآية 56 من سورة الزمر.

ضع في ذهنك مما هو مشهور جداً في التاريخ الثقافي الديني أن النبي إبراهيم(ع) وزوجته سارة تزوجا وهما شابان ولم ينجبا أطفالاً، والآن وقت وقوع هذه الحادثة صارا عجوزين، وهنا الملائكة(ع) تخبرهما أنهما سيكون لهما أولاد. وقبل هذه الحادثة تزوّج النبي إبراهيم (ع) من هاجر وأنجبت له النبي إسماعيل (ع)، وأمره تعالى بأخذها وولدها ووضعهما في مكّة بقرب بيته تعالى... وكان (ع) مدة بعد مدّة يذهب إليهما... ورفع مع ابنه ذاك قواعد البيت... وهنا يبدو أن حادثة البشارة حدثت مع سارة، وهي الزوجة الأولى للنبي إبراهيم(ع) والتي لحد تاريخ هذه الزيارة للملائكة لهم لم تنجب أولاداً وصارت عجوزاً.

{إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ}! شيء تقييمي له أنه مغاير للتوقعات، فمن يخطر بباله أن زوجين شابين لم يرزقا بأطفال، وبعد أن صارا عجوزين سيصير عندهما أطفال!

نلاحظ أن كلمة "ويل" ومشتقاتها وردت قرابة الأربعين مرّة في القرآن، وكلّها كانت تشير لحادثة عظيمة تصيب شخصاً واحداً أو أشخاصاً، وفقط هنا في الآية كانت المصيبة العظيمة حسنة، وفي البقية كانت المصيبة سيّئة.

(قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ{73})
{قَالُوا}، الملائكة(ع):

{أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}، فهل تعبّرين عن تقييمك من شيء أمر تعالى بحصوله فتقولين إنَّهُ مخالف للتوقعات ومستبعد حصوله؟ فلو كان غير الله تعالى يقول بأنك ستحبلين وتلدين، لكان يحقّ لك التعجّب، أمّا من أمر الله تعالى، فلا تعجّب لأنه تعالى يمكنه فعل أي شيء.

{رَحْمَتُ اللَّهِ}، عنايته سبحانه لما فيه مصلحتكم، {وَبَرَكَاتُهُ}، وقبوله سبحانه لما تفعلون من أعمال حسنة ورضاه، {عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ}، على المنتمين لهذا البيت الذي نحن فيه الآن، من النبي إبراهيم(ع) وزوجته، وأولاده فيما بعد.

يعني من رحمته الخاصة بكم ومن قبوله بمحبة لما تفعلون حيث قَرَّرَ سبحانه التدخّل في الوقت المناسب ليصير عندكما ولد...

{إِنَّهُ حَمِيدٌ} ، فكل أفعاله سبحانه توصف بأنها حميدة جيدة حسنة، وهذا نموذج عن أعماله الممدوحة الحسنة الجيدة مع المؤمنين.

والله، {مَجِيدٌ} ، موصوف بالصفات الإيجابية العظيمة والتي محور الحديث عنها، فالملوك والأمراء والزعماء والرؤساء وغيرهم من أصحاب السلطة عندهم مجد إذا قاموا بأعمال جيّدة، ولكنهم لا شيء أمام صاحب الأعمال الإلهية، وها هو سبحانه يقوم بمنحكم أولاداً وأنتم كبار في السن، وهؤلاء الأولاد ليسوا عاديين، بل أنبياء عِظَامٌ، وسيكون من نسلهم أنبياء عظماء أيضاً، فهذا العمل صدر عن الموصوف بالمجد، الموصوف بالصفات العظيمة الحسنة.

بقي شيء، حيث هناك الكثير من الآراء والدراسات الاشتقاقية من وحي القرآن وتراثنا الديني، وتتراكم الثقافة ونبني عليها شيئاً جديدا، وهكذا... حتى نصل إلى عمق ليس من عمق الكلام القرآني بل مبتعدين عنه شَطَطاً، ونظن أننا غُصنَا في لبّ المفاهيم القرآنية.

من هذه الأغوار مسألة المعجزة كوصف لبعض ما قام به الأنبياء، حيث بدأت بوصف الآية "الشيء المميّز" بأنه شيء يعجز البشر عن فعله، وبالتالي فهو دليل على حصوله بتدخّل إلهي، ومنه انتقلنا إلى تحليل نوع الآية لتتناسب تعجيز الذين حصلت في زمانهم، وقيل مثلاً إنَّ السحر كان دارجاً في زمن النبي موسى(ع) فكانت آياته معجزة لسحرة عصره، وقيل إنَّ الطب كان رائجاً في عصر النبي عيسى(ع) فجاءت معاجزه من هذه الأجواء، وقيل إنَّ البلاغة كانت الشغل الشاغل للناس في عصر النبي محمّد(ع) فجاءهم القرآن معجزاً لهم عن الإتيان بمثله.

للوهلة الأولى نبلع هذا الكلام، ولكن بالتدقيق سترى أنه ليس بدقيق، فها القرآن أمامك من أوّله لآخره ولن تجد فيه ولا مستنداً أو تصريحاً عن إيمان كافر بآية، وتجد دائماً أن من لديهم بذرة إيمان تنفع معهم الآية، والسحرة الذين تحدّوا النبي موسى(ع) أبرز نموذج عن ذلك، فكان فيهم بذرة إيمان أزهرت حين رأوا آية إلهية... وقبل ذلك ترى أنه تعالى في كل كلامه لم يميّز بين عموم أفعاله، فكلها وصفها بالآية، وحتى كلامه تعالى وصفه بالآية، وترى معنى ذلك بوضوح حين تتذكّر أن دنيا المخلوقات لم تكن، وصارت، فأي حدث فيها فهو في عمقه فعل من مستوى إلهي. وبالتالي، وصفُ ما قام به بعض الأنبياء بأنه آية، لا يختلف عنده تعالى عن أي عمل آخر فعله سبحانه، وتجد في كلامه تعالى وصفاً للأفعال التي تجري على العادة كالليل والنهار ونزول الماء وشروق الشمس وخروج النبات... أنها آية، وتجد تنبيهاً على أفعال أخرى حصلت وليست على العادة، كالكوارث التي أصابت بعض الكفّار، وكتحويل العصا لحيّة وانشقاق البحر... فكلها آيات، وبالنسبة له تعالى، كل أعماله مميَّزةٌ بمستواها الإلهي بالنظر إلى فطره تعالى للسماوات والأرض وابتداعها من الأساس ومما يلي ذلك من خلق وإنشاء وصنع... وبالنسبة لنا، سيران الحوادث بارتباط الأسباب هو روتيني "عادي"، وحصول حوادث لا نفهمها لأننا لا نعرف ترابطها مع الأسباب التي اعتدنا عليها، هو غير عادي، وأكّد سبحانه أن حصول تلك الحوادث غير العادية حصل بقدرة إلهية، وأن هذا شيء ضخم، وليس عملاً عظيماً بحدّ ذاته كعمل أشد صعوبة من الأمور الأخرى التي فعلها تعالى، لا.

هنا النقطة المهمّة، حيث إنَّ أكثر ما ذكره القرآن كلفت انتباه لعظمته تعالى وكدليل عليه كإله، كان خلق السماوات والأرض بما فيهن من كائنات وظواهر، وحين تقرأ عن بعض الأفعال الإلهية من خارج سياق العادة، كالإسراء بعبده تعالى في ليلة واحدة ذهاباً وإياباً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعن الطوفان والسفينة كآية، وعن توصيف تحويل العصا لحيّة واليد لبياض والذي ورد توصيفه كآية كبرى في الآية 23 من سورة طه {لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى} ، وعن عذاب قوم النبي لوط(ع) أنه آية كما ورد في الآية 77 من سورة الحجر {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ} ... فما هو إلا نفس التوصيف لأي عمل إلهي آخر كآية وكمثال عن ذلك الآية 11 من سورة النحل {يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} ، مع إضافة أن تلك الأعمال من الواضح حاجتها لمستوى إلهي لحصولها لأنه فقط سبحانه لديه القدرة على فعل ما يريد بطرق مخالفة للعادة، وهذا لا يعني أنها أمور حصلت بلا أسباب، بل بأسباب وبطرق "يعجز" عن فعلها من ليس له قدرة إلهية.

هذا يأخذنا إلى ما نفعله نحن وإلى ما يفعله تعالى، حيث بضبابية نرى تشابهاً فيها، فأنا من المواد ركّبت عناصرَ تطورت لتصير كائناً حيّاً، أو عطّلت أعضاءً أساسيةً في كائن حيّ فمات، ولكن فوراً ستلاحظ الفرق الهائل بين أفعاله تعالى وبين أفعالنا.

هنا تدخّل إلهي لجعل عجوزين ينجبان، أمّا كيف حصل ذلك فغير معلوم لنا، وبطرقنا الحالية فذلك ممكن لنا فعله في حالة استخراج البويضات وتلقيحها... أو أخذ جينات جذعية وتوليفها، ولكن مستوى أفعالنا سيبقى تقليداً لأفعاله تعالى وباستعمال المواد التي لا علاقة لنا بخصائصها، وحتى لو تلاعبنا بخصائصها فأصل خلقها بدعة من لا شيء، فهذا شيء لا يمكننا فعله.

الأساس أن كل أفعاله تعالى وبدون أي استثناء هي مميزة "آيات"، لأنه لا يوجد ولا أي فعل لا يحتاج لمستوى إلهي لحصوله، وما نفعله نحن المخلوقات مهما علا فهو بعيد كل البعد عن المستوى الإلهي، لأنَّ حصول ما نفعله نحن يحتاج لمستوى إلهي قبله، حيث يحتاج لخلقنا وخلق بيئتنا... والتشابه بيننا وبينه تعالى في فعل ما، ما هو إلا تشابه بالتوصيف بالكلام، وأمّا في العمق فالمستوى مختلف بشكل هائل.

أقول لك هذا لأن من سبقنا من منتمين لدينه تعالى ورّطونا بآراء ودراسات ألزمونا بها على أنها مفاهيم منتزعة من كلامه تعالى، فصارت آراءهم هي الدين، ومن تسمية "المعجزة" لبعض ما فعله تعالى وبعض ما فعله الأنبياء، على معنى عجز الناس على فعل مثلها، تورطنا في نقاشات ليست في جوهرها إلا دفاعاً عن آراء نحن ألصقناها بكلامه تعالى، حيث إنَّ الآية وصف لعموم أي عمل مميز، وليست وصفاً لما يعجز الناس عن فعله على مرّ التاريخ.

نعيد الكلام، لأنه ليس كل نبي ولا كل رسول فعل آية حتى يؤمن الناس به، وسبحانه لا يتدخّل ليفعل شيئاً غير ما هو عادي حتى يؤمن الناس بدينه، بل يؤكد لنا سبحانه أن الآيات غير العادية لن تجعل كافراً يؤمن، ومجالها الأقصى جعل من فيه بذرة إيمان صالحة أن يزيد هدىً، وبالتالي أيُّ كلام عن الآيات التي أجراها تعالى على يد الأنبياء أو فعلها تعالى من خارج الآيات في خلقه تعالى للسماوات والأرض، يجب بناؤه على الأساسيات القرآنية التي قلتها لك، وأي كلام تحليلي عن الآيات التي يسمونها معجزة، فانتبه منه واطلب مستنده القرآني الصريح أو الذي يشير إليه، إذ لا الطب كان دارجاً في عهد النبي عيسى(ع)، ولا السحر كان دارجاً فقط في عهد النبي موسى(ع)، وأصلاً لا علاقة بالسحر لما أجراه تعالى على يد النبي موسى(ع)! فهما ليسا من نفس النوع حتى نقول بأن آياته كانت مناسبة لما هو دارج في عصره(ع)!

أنا لا علم لي بحدود القدرات التي أتاحها تعالى لنا، حيث في عصرنا تقدّم علمي هائل كان خيالاً مستحيلاً وغير واقعي لمن سبقنا، وكمثال عنه تبديل عضلة القلب بمضخّة آلية تعمل بالبطارية... وفيما سيأتي قد نتمكّن من إعادة إحياء الموتى، والسفر عبر السماوات... حيث فيما سبق تمكن بشري "النبي عيسى(ع)" من إحياء الموتى كما تقرأ في الآية 49 من سورة آل عمران {وَأُحْيِي الْمَوْتَى}، وتمكن بشري آخر من نقل عرش ضخم من أرض سبأ إلى أرض كنعان برمشة عين كما تقرأ في الآية 40 من سورة النمل {أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ}، وتمكن النبي سليمان(ع) من التواصل مع الحيوانات كما تقرأ في الآية 27 من سورة النمل {قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ}، وغيرها من الحوادث التي نقلها القرآن وتبدو للبعض خرافات، بينما هي تأكيدات إلهية لنفتح آفاقنا على القدرات الرائعة المتاحة لنا اكتشافها، والكفر بها لتكذيبها ما هو إلا الجهل والغباء والكره لدينه تعالى.

المضحك في كلام السخفاء تعليقاتهم على أمور مذكورة في كلامه تعالى، كحبل السيدة مريم(ع) بدون تلقيح من بشري، حيث قديماً أنكروها ضاحكين على إيماننا الساذج بقصص كهذه، وبعدما صار لدينا إمكانيات خلق إنسان من خلية جذعية، انتقلوا من تكذيب كلامه تعالى إلى تسفيهه! ولم يعد حبلها (ع) آية، فهم قادرون على خلق إنسان في أنبوب حتى بدون امرأة كحاضن للحبل! فهم مصرّون على الكفر والسخرية والاستهزاء، بداية مع إنكار حصول الحادثة لأنها مستحيلة، فاتّهموا الصديقة الطاهرة بالزنا، وبعدها انتقلوا لتسخيف ما حصل فهم قادرون على خلق ولد من خلية جذعية حتى بدون امرأة. وبعض الذين يعتبرون أنفسهم متدينين عقلانيين من المسيحيين، زَوَّجُوا السيدة مريم بالمدعو يوسف النجّار، والحبل بعيسى(ع) صار عندهم عبر يوسف بتدخّل إلهي لتكوين ولد غير عادي!

(فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ{74})
{فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ}، زال الشعور الضخم من الخوف، لأن الخوف ليس محصوراً بما كان خطره عظيماً، إذ أخاف من لدغ البرغش وهذا ليس خوفاً مريعاً، ولذلك عبّرت الآية هنا بـ{الرَّوْعُ} لتشير إلى خوف كبير كان لديه (ع) منهم قبل علمه بأنهم ملائكة، وبعدما {وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى}، وصله الخبر السار بأنه سيكون له أولاد من هذه الزوجة، بعد ذلك، {يُجَادِلُنَا}، والجدل هو عموم محاولة كل طرف إقناع الآخر، وتدرجاته تتحدّد من السياق، من التمسّك بالرأي إلى الليونة. حيث تكلّم (ع) مع الملائكة محاولاً الاستفسار بليونة عن وجهة نظر هو مقتنع بها، {فِي قَوْمِ لُوطٍ}، طبعاً المقصود أنه (ع) يطلب ألا يعذّبهم سبحانه لأن فيهم النبيَّ لوطاً (ع)... حيث قالت له الملائكة (ع) قبل قليل إنه لا داعي للخوف منّا، لأن الضرر سنسبّبه لقوم النبي لوط (ع)... وبعد أن ذهب الخوف عن النبي إبراهيم (ع) لعلمه أن الضيوف ملائكة، وبعدما سمع البشرى، وبعدما أخبروه أنهم في طريقهم لتعذيب قوم النبي لوط (ع)، أخذ يجادل الملائكة (ع)... وتعلم من الآية 32 من سورة العنكبوت أن سؤال النبي إبراهيم (ع) عن النبي لوط (ع) الذي بين القوم، لأنه يقوم بواجبه لهدايتهم ولا يزال المجال مفتوحاً أمامه لهدايتهم، وهل سيطاله (ع) العذاب؟ وهو لا يعلم بأنهم لن يهتدوا ولا يعلم بأنه تعالى سينجي المؤمنين، فيبدو أن جداله للملائكة كان حول هذه النقطة، فأجابته الملائكة (ع) بأن قوم النبي لوط (ع) مجرمون ولن يهتدوا، وأن النبي وأهله المؤمنين سينجون من العذاب...

لو كررت لك، فكلمة {يُجَادِلُنَا} تعطي شعوراً خاطئاً بأن النبي (ع) ناقش ضد الأمر الإلهي، أو أراد ألا يتنفّذ الأمر الإلهي بالعذاب، ولكن من القرآن نعلم أن الجدل الذي حصل كان في سؤاله (ع) عن وجود النبي لوط (ع) بينهم، حيث إنه حتماً يقوم بمحاولة هدايتهم وقد يحتاج بعضاً من الوقت لينجح، وهل سينزل العذاب عليهم والنبي لوط (ع) بينهم فيتعذّب معهم؟ وهو مقتنع بصحّة هذه النقطة، ومعه حقّ، حيث أخبرنا القرآن عن الجواب بأنك معك حق والنبي لوط (ع) وأفراد عائلته المؤمنون سينجون، ولكن لا أمل من هداية الكافرين، وهذا ما عارضته فيه الملائكة (ع) وحصل الجدال حوله...

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ{75})
{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ}، بتعبيرنا الدارج: طويل البال، حيث لا يمكن استفزازه بسهولة، ولا يتصرّف بسرعة أو بعصبية، إذ باله طويل، ولذلك جادل في عذاب قوم النبي لوط (ع)، لأنه (ع) يعرف أنهم مشركون عصاة، ولكنه حليم طويل البال، وبناء عليه فكّر (ع) أنه مع مهلة إضافية للنبي لوط (ع) مع قومه يمكن أن يغيّر البعض منهم على الأقل.

{أَوَّاهٌ}، كثير التَّأَوُّهِ، وسياق الكلام عن كثرة التأوّه لربه سبحانه، حيث يبكي ويحنّ حين يدعو ربّه تعالى، وهنا الإشارة إلى أنه (ع) تأوّه لربّه ودعا كما عادةً يدعو بالبكاء وصوت الحزن لربّه سبحانه حتى يؤجّل العذاب عن قوم النبي لوط (ع) لعلهم يهتدون.

{مُنِيبٌ}، حيث ليس لديه قرارات وأفكار خاصّة به، بل عادةً ينيب وسياق الكلام هنا عن إنابته أي رجوعه في أموره كلّها إلى الله تعالى، حيث يدعوه ويطلب منه تعالى ويترك القرار لله تعالى أن يستجيب لطلبه أو يرفضه أو يؤجله.

هنا يجادل في قوم النبي لوط (ع) ولكن من داخله لديه إنابة لله تعالى، ولا يعارض أي أمر إلهي، ولا يقرّر أي شيء من دون موافقة إلهية.

الآية هنا تشرح لنا نفسية النبي إبراهيم (ع) حتى لا نفهم جداله عن قوم النبي لوط (ع) بشكل خاطئ، لأنه (ع) لا يشكك في الحكمة الإلهية، ولا يشكك في أن القرار سليم، ولكن تركيبته النفسية "حليم" وأول ما سمع قرار الإبادة، توقّف نفسياً عن الرغبة بتنفيذ التعذيب لأنه هو هكذا نفسيته، وهكذا يتعامل مع الأمور بطول بال، وتذكر أن قومه رموه في النار ولم يَدْعُ عليهم... ونبّهت الآية أنه (ع) لا يعارض الأوامر الإلهية بل أكثر من ذلك لأنه (ع) منيب، حيث يرجع في قراراته كلها لله تعالى.

نَنْتَبِهُ جيداً، ما مناسبة الحديث هنا عن البشرى للنبي إبراهيم (ع) بولد، مع العلم أن الموضوع عن تعذيب دنيوي لأقوام كفّار عاصين لله تعالى! وبالتحليل يبدو لي أنه تعالى أراد أن يبيّن لنا عنايته الخاصة بهذا البيت المؤمن، إذ امرأة عجوز وزوج كبير في السن، قرّر ربنا سبحانه أن يغيّر في الطبيعة وجعلهما ينجبان أولاداً، وكما نرى الغضب الإلهي على

الكفار نرى في مقابله الرحمة والعطف لبيت مؤمن كنموذج عن عنايته تعالى، حيث سبحانه عنده صفة الرحمة مع صفة الغضب والتعذيب... يعامل كل واحد بحسب ما يستحقّ.

(يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ{76})
قالت الملائكة (ع): {يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا}، لا تعتبر هذا الموضوع محلّ اهتمامك، {إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ}، حيث هناك أمر من الأمور قرّر حصوله المسؤول عنك من مستوى إلهي، {وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ}، حيث لا يمكن ولا بأي طريقة ولا يمكن لأي أحد أن يَرُدَّ فيمنع عنهم إصابتهم بما يضرّهم.

الملائكة (ع) التي تتكلم مع النبي إبراهيم (ع) جاءها أمر إلهي بتعذيب قوم النبي لوط (ع)، والملائكة (ع) لا يخالفون أوامره سبحانه، وهذه الملائكة (ع) لديها قدرات عالية جداً، وعلى هذا الأساس، فإن تعذيب قوم النبي لوط (ع) سيحصل حتماً في موعده المقرر، ولا كلامك ولا أي شيء آخر يمكنه تغيير ما سيحصل.

بقي شيء، حيث هناك كلام يَبْدُو أنه من عمق كلام القرآن، وقالوا إنَّ إبراهيم (ع) رسول وإمام زمانه، فما سيجري من تدخّل إلهي سيمرّ عبره أدبياً بالنظر لمقام ولايته، فالملائكة (ع) هنا "بشكل أو بآخر" تحتاج لموافقة من النبي إبراهيم (ع) لإنزال العذاب على قوم النبي لوط (ع).

هم لا يقولون هذا بهذا الجفاف، ولكن بالتعابير المباشرة فهذا معنى كلامهم، ونتج هذا من تراكم آراء فوق آراء، حتى وصلت شططاً إلى هنا وما بعده... والآية هنا أمامك أوضح من الواضحة، {أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ}، تريك أنهم لم يسألوه رأيه، وأنهم بالأساس مرّوا عليه للبشرى بالولد، وحين خاف أخبروه أن خوفه منهم لا داعي له، ولمناسبة الخوف وفِعْلاً هناك من يجب أن يخاف منهم، وهم قوم النبي لوط (ع)، ومن هنا فالحديث جرّ الحديث.

هناك كلام كثير يخطر بالبال قوله عن هذا اللقاء مع الملائكة (ع)، لأنها حادثة من النوادر التي يأمر فيها تعالى الملائكة بالتمثّل بشراً للقاء بعض الناس، وحصل ذلك أيضاً مع السيدة مريم (ع) حيث تمثّل لها الروح القدس بشراً كما ورد في الآية 17 من سورة مريم: {فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا}.

الكلام يجر الكلام، ومن روعة الحادثة كفرصة لبشري أن يتحدّث بشكل مباشر مع كائنات من أرقى المخلوقات عنده تعالى قيمة وقدراً... حيث تبحّر المنتمون لدينه تعالى بالاشتقاقات منها، ومن لطيف ما توارثوه منها ما تجده في التراث اليهودي أن إكرام ضيف غريب سينتج عنه بشرى إلهية لحلّ مشكلة ما للمستضيف، واستمر هذا التراث الجميل منتقلاً إلينا بكمٍّ لا بأس به من الروايات التي تشجع على إكرام الضيف...

(وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَـذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ{77})
{وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا}، حيث إنَّ الملائكة (ع) التي كانت عند النبي إبراهيم (ع)، أكملت طريقها إلى قرية النبي لوط (ع)، وقصدوا النبي لوط (ع) حيث هو والتقوا به، {سِيءَ بِهِمْ}، حيث شعر (ع) بالسوء من قدومهم، كحالة الضيف الذي لا ترغب باستقباله وبدلاً من الترحيب به تشعر بالسوء من قدومه، {وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا}، ويبدو أن هذا التعبير يوصّف حالة محاولته (ع) إقناعهم بالابتعاد عن القرية وأنهم لم يقبلوا، حيث ضاق بهم ذرعاً، مثلما أحاول إقناعك بكل "الذرائع" والطرق التي أعلمها لتفعل شيئاً ما وترفض، وترفض، وترفض... فتصير حالتي تضييق ذرائعي، وما أتذرّع به، فالأفكار التي أحاول إقناعك بها لتفعل ما أقوله ضاقت عليَّ فلم أجد واحدة تقنعك. {وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ}، إنَّ هذا اليوم سيكون صعباً جداً.

قوم النبي لوط (ع) كانوا يعتدون جنسياً على الغرباء كما ورد في الآية 29 من سورة العنكبوت: {أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ}...، وهؤلاء الرسل وصلوا إلى القرية، وكما تلاحظ أنَّ النبيَّ لوطاً (ع) لم يسألهم من أين أنتم، ولماذا مررتم من هنا... بل ذهب فكره مباشرة إلى ما سيفعله أهل القرية بهم! إذ لا يمكنه تركهم لأن أهل القرية سيلتقطونهم ويحاولون الاعتداء عليهم... ويبدو من صياغة الجمل أنه حاول إقناعهم بالابتعاد سريعاً عن القرية، وفشل معهم... وإن استضافهم في بيته فإن أهل القرية لن يحترموا ذلك وسيتهجّمون عليهم في بيته...

حاول الكثيرون إبعاد اسم النبي لوط (ع) عن التسمية التي درجت من نسبة فعل الفاحشة الشذوذية، لوطي، عن اسم النبي لوط (ع)، وقالوا إنَّ التشابه مجرد صدفة... أو ... وكما يبدو من اللغة والتاريخ للأسف كلامهم غير صحيح، حيث نسب الناس أي عامل لهذه الفاحشة إلى الانتماء لقوم النبي لوط (ع)، وبعدها اختصروا النسبة لاسمه (ع)، مثلما اختصرت الناس النسبة للإبراهيمي والاسماعيلي... وواضح لك أنه (ع) كان محارباً للشذوذ، ولكن اشتهر قومه به ومع مرور الزمن اختصر الناس النسبة للشاذّ من قوم لوط، للأسف إلى لوطي، وكما ترى هذا أيضاً دليل على الحادثة من استمرار تناقل الناس لها عبر الأجيال ناسبين أي فعل للشذوذ منهم بالتشبيه لقوم النبي لوط... وهكذا إلى أن اختصروا التسمية بـ "لوطي".

حالياً في البلد الذي يسمى الأردن، توجد منطقة تسمّى غور الأردن، وهي منطقة كانت مسكونة منذ القدم، ويقع فيها البحر الميت، وهو البحر الصغير المشهور بارتفاع نسبة الملح في مائه لقرابة الثلاثين من المئة، ومن المشهور بين المسلمين أنه في زمن النبي لوط (ع) كان في منطقة غور الأردن أربعة تجمعات سكنية، لكل واحدة منها اسم، وهي مذكورة في التوراة ولم يذكرها القرآن وهي: سادوم، عامورة، أدومة، صبييم. وهذه التجمعات هي القرية التي كان فيها النبي لوط (ع). والمشهور في عموم ثقافة المتدينين أن البحر الميت لم يكن موجوداً في عصر النبي لوط (ع) بل كان مكانه واحدة من التجمعات السكنية، "وهذا غير صحيح لأن البحوث الحالية تثبت بأن البحر الميّت عمره بعشرات آلاف السنين"، ويقولون إنه عندما نزل العذاب على تلك المنطقة حصل زلزال وفوران للحمم من الأرض، وانخسفت قطعة من الأرض وصارت فيما بعد بحيرة كبيرة هي الآن البحر الميت.

كما تلاحظ استعملت كلمة "المشهور ويقولون" بسبب وجود الكثير من الاختلافات بين كتب التاريخ حول مكان وأسماء وتواريخ وماذا حصل في تلك المنطقة، ولا يتماشى ما قالوه عن ولادة البحر الميّت من تلك الحادثة مع العمر الذي يقدّره علماء الجيولوجيا له، حيث ربما حصل خسف فعلاً وتوسّع البحر الميّت ليغطي تلك القرى... وربما لا... على كل حال حتى عهد نزول القرآن يبدو أنه كانت هناك آثار ما لتلك القرى وكان مشهوراً بين الناس حصول دمار هناك لقوم سوء كانوا يعتدون جنسياً على الغرباء... حيث إنَّ القرآن أشار لمعرفة المسافرين من أهل مكّة لمكان قوم النبي لوط (ع) ولقصّتهم، ومعرفتهم تلك لم تكن مستندة لمصدر ديني بل مستندة لما يعرفه الناس عن تاريخ المنطقة، وهذا ما يبدو من الآية 137 من سورة الصافات: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ}، ومضافاً لذلك فإنَّ تسمية فعل الشذوذ بـ "لوطي" يريك أن قصتهم أيضاً كانت مشهورة لمدة طويلة جداً سببت اختصار النسبة من "قوم النبي لوط" إلى "لوطي" للأسف.

(وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَـؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ{78})

{وَجَاءَهُ قَوْمُهُ}، جاء إلى النبي لوط(ع) الناس الذين لهم كيان الجماعة وهو (ع) ينتمي لجماعتهم، {يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ}، مسرعين باتجاه بيته، بعدما انتشر خبر وجود غرباء عند النبي لوط(ع) جاؤوا إليه مسرعين من مسافة قريبة حيث صار (ع) مع ضيوفه في القرية، وعلم أهل القرية بهم وجاؤوا إليه مسرعين، {وَمِنْ قَبْلُ}، إن القوم، {كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ}، يقومون بالأعمال السيئة، كما سترى أنهم كانوا منحرفين جنسياً وكانوا يتهجمون جنسياً على الغرباء.

اختصرت الآيات هنا الحركات الهمجية وتهجماتٍ من القوم، والنقاش بينهم وبين النبي لوط(ع) {قَالَ}:

{يَا قَوْمِ}، يا أيها الذين أنتمي لجماعتهم، {هَؤُلَاءِ بَنَاتِي}، "في سن الزواج وعزباوات"، {هُنَّ}، بناتي، {أَطْهَرُ لَكُمْ}، لأن إقامة علاقة جنسية بين ذكر وأنثى بعد الزواج، هو عملٌ طاهرٌ ليس خبيثاً ولا عيب فيه أو مشكلة، {فَاتَّقُوا اللَّهَ}، تجنبوا غضبه وعقابه تعالى، طالما أن الطاهر متوافر فلا تقوموا بعمل جنسي شاذٍ سيئ لأن هذا عليه عقاب منه تعالى، {وَلَا تُخْزُونِ}، ولا تجعلوني أشعر بالمهانة من قبيح ما تريدون فعله، {فِي ضَيْفِي}، لأن هؤلاء صاروا عندي بشكل مؤقّت لأهتمّ بهم، وسأكون مُهاناً إن اعتديتم عليهم لأنهم عندي وفي بيتي.

{أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ}؟ ألا يوجد منكم رجل يفكّر ويتصرّف بطريقة صحيحة عاقلة؟ حيث عرضت عليكم بناتي للزواج، وخوّفتكم من غضب ربكم سبحانه، وبالأخير ليكن عندكم شهامة أو أي شيء يجعلكم تحترمون الضيف، ألا يوجد بينكم شخص ما دخل في عقله ولو كلمة من هذه الكلمات؟

في عموم القصص التي نقلها القرآن نلاحظ نقله لمشاهد فيها جماعة كبيرة لحضور حدث ما، في يوم عيد وقع التحدّي بين النبي موسى (ع) والسحرة أمام جمهور غفير، وإحراق النبي إبراهيم(ع) حصل في حالة جماعية، ولحاق فرعون مع جيشه ببني إسرائيل كان بحماسة وبعدد كبير... وهنا التعبير بـ "جاء القوم" إلى دار النبي لوط(ع)... يشير إلى عدد كبير جداً منهم في الهجوم، وكلّهم موافقون وبحماسة...

ننتبه، عندما عرض النبي(ع) بناته على الهاجمين على داره، لم يقصد أن يقيم كل الهاجمين على الدار علاقة مع بناته! لأن هذا لا معنى له! ولكن افهمها أن النبي(ع) كان يلفت انتباه الهاجمين على داره، أنهم إن كانوا بحاجة لتنفيس حاجة جنسية، فالطريق الطاهر لتنفيس هذه الرغبة يكون عبر الزواج، وهو متاح لكم، هذه بناتي للزواج كنماذج عن بقية البنات المتاحات للزواج، حيث يوجد بنات غيرهن كُثُرٌ متاحَاتٌ للزواج.

(قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ{79})
{قَالُوا}، الهاجمون على الدار: {لَقَدْ عَلِمْتَ}، يا لوط، أنه، {مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ}، فنحن شاذّون وحقنا الذي نريده ليس في بناتك، {وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ}، فنحن أتينا وقصدنا الاعتداء على ضيوفك، فحقنا ومعاملتنا بالصواب إعطاؤُنا ضيوفك.

لستَ تعطينا حقّنا حين تعرض بناتك علينا، لأننا نرغب بضيوفك وحقّنا هم.

لا تفكّر في جملتهم انطلاقاً من تفكيرك أنت، وفكّر فيما قالوه بناءً على ما في أفكارهم ومشاعرهم هم، فهم شاذّون ويشيع بينهم الفرح حين يعتدُونَ على الغرباء، ويعتبرون أنه من حقّهم الاعتداء على الغرباء، وهم لا يريدون الزواج من بنات، فبرأيهم ليس من الإنصاف عرض البنات عليهم.

قارنها مع همجية العائلة ذات روح العصابة الإجرامية، فإذا وَلَدٌ منهم ضرب غريباً، ولو اعتداءً، فهم يفرحون بذلك، ويتحدثون به على أنه إنجاز رائع! وهنا ترى نفس العقلية مع تطبيقها على نموذج الشذوذ، فمن حقّهم برأيهم الاعتداء على أي غريب يأتي إلى قريتهم وليس من حقّ النبي لوط(ع) حماية الغرباء.

الآن ننتبه جيداً، هل من إنسان فيه ذرة عقل سيناقش في شدّة سوء ما يريدونه؟ في فساد ما يفعلونه؟ فهذا ما عادة يريده القرآن منك فهمه عندما يأتي على ذكر قوم النبي لوط(ع)، ليريك بشكل واضح لا نقاش فيهِ موافقتك على سوء ما فعلوه وبالتالي أنهم يستحقون العقاب، وأن أي شيء آخر يعاقب عليه تعالى، وتراه لا يستحقّ العقاب، فدائماً راجع نفسك، وانتبه للنماذج البارزة التي لن تناقش في سوئها كالشذوذ والاعتداء على الغرباء جنسياً والغشّ بالكيل والميزان... وعليه فافهم أن بقية ما وعد عليه تعالى بالعقاب فسيكون واضحاً لك سوؤه إن كان قلبك سليماً.

(قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ{80})
{قَالَ}، النبي لوط(ع): {لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً}، لو أن عندي قوةً قتالية أو جسدية أدفعكم بتلك القوة، وأستعمل القوة لأمنعكم بها عن ضيوفي.

{أَوْ}، إذا لم يكن لي قوّة، {آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ}، أنضمُّ أو أنتمي إلى من أركن إليه وأستند إليه ويكون قوياً شديداً، وأجد شخصاً أو أشخاصاً يكونون ركناً لي، دعماً شديداً لي، ليدافعوا عني وعن ضيوفي.

لا أملك قوةً بدنية كافية لأقاتلكم بها وأطردكم، ولا أجد شخصاً أو أشخاصاً أقوياء ليطردوكم.

إذن، انتهى كل شيء، وصار القوم في الدار، وسيأخذون الضيوف...

(قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ{81})

{قَالُوا}، الضيوف "الملائكة(ع)": {يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ}، نحن لسنا أشخاصاً عاديين من البشر بل أرسلنا المسؤول عنك من مستوى إلهي، {لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ}، لا خطر علينا أصلاً، وأما بالنسبة لك فلن نجعلهم يصلون إليك ليضربوك أو يؤذوك، وسندفعهم عنك.

{فَأَسْرِ}، انتقلْ وامشِ، {بِأَهْلِكَ}، خُذِ المنتمين لك معك في انتقالك وانطلق، {بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ}، امشِ مع قِطَعِ الظلام، لا تنتظر الفجر وانطلق الآن في الليل وغادر القرية وخذ أهلك معك.

يقولون إنَّ كلمة أسرى مخصوصة للانتقال في الليل، ولكن هذا يبدو غير صحيح لأن القرآن في عدة آيات ذكر الظرف "الليل" بعد فعل سرى، مما يدل على أنها كلمة لِعَامَّةِ انتقال أي شيء ليلاً أو نهاراً، ومنها اشتقاق "سريا يسري" لوصف جريان الماء والذي ورد في الآية 24 من سورة مريم {فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا}.

{وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ}، مهما حصل فممنوعٌ أن يقوم أحد منكم بالنظر إلى الوراء، {إِلَّا امْرَأَتَكَ}، إلا المرأة المنسوبة لك، زوجتك، {إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ}، أهلك لن يصيبهم أي شيء إلا امرأتك، أنت ستخرج وتقول لأهلك إنه مهما حدث فلا يلتفتوا إلى الوراء، وليركّزوا على الطريق حتى يبتعدوا بأسرع ما يمكن، ولكن امرأتك لن تَنْجُوَ حتى لو خرجت معكم، لأنها ليست مؤمنة ويجب أن تموت معهم، سوف تلتفت إلى الوراء لتنظر ماذا يجري، وسيصيبها ما يقتلها.

{إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ}، ما سيصيبهم من عذاب سيحصل صباحاً، في أول فترة من النهار في أول فترة بزوغ ضوء الشمس، {أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}؟ يبدو أن النقاش والجدل والهجوم على البيت استغرق وقتاً طويلاً، وصار الوقت قريباً من منتصف الليل، وبقيت ساعات قليلة للصبح.

نلاحظ الآيات هنا لم تذكر كيف انتهى هجوم القوم على بيت النبي لوط(ع)، ومن كلام الملائكة(ع) نفهم أنها تدخلت وأخرجتهم من البيت، ونعرف من الآية 37 من سورة القمر {وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ...} أن الهاجمين على الدار أصابهم عمى، ورجعوا إلى بيوتهم، لأن الملائكة (ع) طمست أعين المهاجمين حتى غادروا المكان.

بقي شيء، السورة هنا نقلت قصّة النبي نوح(ع) مع ابنه، وترى هنا الفقرة تذكر حادثة امرأة النبي لوط(ع). وبينهما تراها ذكرت العناية الإلهية بامرأة النبي إبراهيم(ع) لتحقيق رغبتها بولد صالح...

(فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ{82})
{فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا}، عندما بدأ الشيء الذي قرر سبحانه حصوله، وهو نزول العذاب، عندها، {جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا}، حيثُ جعل سبحانه القرية تتهدّم فانهارت الأسقف وصارت في الأسفل، وأسفل البيوت صار في الأعلى، حيثُ ورد في عدة سور وصف القرية بالمؤتفكة أي مقلوبة، وأقرب تصور لذلك أن تتشقّق الأرض تحتهم مبتعدة عن بعضها وتنقلب القطع، كحصول ما يسمّى بالهدة حيث فراغات تحت الأرض تنهار مبتلعةً قِطَعاً من سطح الأرض.

نعرف من القرآن أن الإبادة كانت شاملة حيث ماتوا كلهم جميعاً في تلك الحادثة.

{وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ}، طيناً ساخناً صار يتساقط عليهم بكثرة من فوق، وورد في سورة الذاريات الآية 33 أنها حجارة من طين، فهي كتل صغيرة من تراب يابس حرارته عالية، {مَنْضُودٍ}، متراكم فوق بعضه كالعناقيد، فالحجارة الساخنة نزلت عليهم زُرَماً وزَخَّاتٍ. وأقرب تصوّر لذلك فوران بركان قديم أو فَوَرَانُ حمم من تحت قريتهم.

المشهدُ لدمار من تحتهم حيث انقلبت الأرض ومن فوقهم زخّات كثيفة من كتل الطين الساخن.

(مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ{83})
تلك الحجارة الطينية الساخنة التي تنزل دفعات متراكمة، هي: {مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ}، مُعَلَّمَةً مُحَدَّدَةً عند المسؤول عنك من مستوى إلهي، فكل حجرة تسقط في مكانها المحدّد لها، حيثُ نزول الحجارة يبدو عشوائياً ككارثة طبيعية لفوران بركان... وإنما في الحقيقة كل حجر له علامة تحدّد له أين سيسقط، {وَمَا هِيَ}، تلك الحجارة، {مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}، من الذين لم يكن معهم حق وظلماً كفروا بدينه تعالى لأن حصول كارثة كهذه ليس بعيداً حصولها على بقية الظالمين.

كما ترى انتقلت السورة من القصّة بالماضي إلى الكلام بصيغة الحاضر مع من ينزل عليه هذا القرآن، وهذه ثالث مرّة تحدث في هذه السورة، "راجع الآيات 35 و 57"، وانتقلت لتقول: أيها السامعون لهذه القصّة، لا تفكروا بأن تلك الحجارة نزلت على القوم ولم يعد يوجد منها! بل يوجد منها، وهي ليست بعيدة عن القوم الظالمين، فأي قوم ظالمين فلينتبهوا لأن تلك الحجارة ليست بعيدة عنهم، حيث يمكن وبكل سهولة أن تتكرر تلك الحادثة معهم.

لم تقصد الآية القول إنه على كل حجر نزل مكتوب عليه أين سينزل، لا، بل مثلما تحمل في يدك حجرين وترميهما وأنت تتحكم بمكان سقوطهما، فهما مُسَوَّمَتَانِ، بالنسبة لك فأنت تعرف أين سيسقط كل حجر، حيث تريد الآية لفت انتباهنا لسقوط الحجارة أنه لم يكن عشوائياً كما يبدو، بل كل حجر ينزل في المكان المحدّد له، فهو كَرَشْقٍ لهم بحجارة تتقصّد قتلهم جميعاً.

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ{84})
{وَإِلَى مَدْيَنَ}، وهو اسم مكان، اسم قرية، {أَخَاهُمْ}، الذي يشاركهم في مكان معيشتهم، {شُعَيْبًا}.

{قَالَ} النبي شعيب(ع):

{يَا قَوْمِ}، يا جماعة الناس الذين أَنتمي لجماعتهم، {اعْبُدُوا اللَّهَ}، فهو إلهكم وأنتم عبيده، والمفروض منكم طاعته، لذا تصرّفوا على هذا الأساس، وأطيعوه واحمدوه وادعوه... {مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ}، ليس لكم، حيث لا يوجد كائن آخر لديه الصفات والقدرات الفائقة غيره فهو الإله الواحد الأحد، وأما البقية فهم مخلوقاته أو مجرد أسماء لكائنات وهمية اخترعتموها.

{وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ}، والكيل هو الوعاء الذي نستعمله لقياس الحجم، مثل اللتر والغالون، فإذا بعتم شخصا بالكيل، فلا تجعلوا الكيل ناقصا، مثلا إذا اشترى عشرين لتراً فلا تجعلوها أنقص من ذلك، ولا تغشّوه وتعطوه تسعة عشر لتراً.

{وَلَا تَنقُصُوا الْمِيزَانَ}، وهي طريقة قياس الأشياء بالوزن، بالكيلو أو الباوند... لذا لا تغشوا في الوزن، مثلا من يشتري منكم مئة كيلو فلا تعطوه تسعةً وتسعين كيلو.

{إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ}، لديّ صورة محدّدة عن أحوالكم المالية والاجتماعية أنها جيدة، ولكن إذا استمررتم بالغش فستتغير حالتكم، {وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ}، أشعر بخطر سيصيبكم بسبب غشّكم ولا يمكنكم تجنّبه، وهو {عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ}، زمن سيحصل فيه ضرر لكم وسيحيط بكم فلا يمكنكم الفرار منه.

قوم النبي شعيب(ع) الساكنون في مدينة مدين، كانوا غشاشين في البيع والشراء، غشاشين بالكيل والميزان، وينذرهم النبي(ع) من عقاب إلهي على هذا العمل السيئ.

تلاحظ أن عموم القرآن لا يفصل بين العذاب الدنيوي والأخروي، ويصلهما مع بعض، سواء حصل لمدين عذاب في الدنيا أو لم يحصل، أو مات أحد ما من الغشاشين من أهل مدين قبل نزول عذاب دنيوي أو ناله العذاب الدنيوي، فمع أو بدون هذا العذاب، هناك عذاب أشدّ في الآخرة، وإذا حصل عذاب في الدنيا فسيكون مشابها في غالبية صفاته لعذاب الآخرة، حيث سيكون أليما، وعذاب الآخرة أشدّ ألما، ويكون محيطا لا يمكن الفرار منه، وكذلك عذاب الآخرة... حين لا تحدّد الآيات بشكل صريح أي زمن تقصده بالعذاب، في الدنيا أو الآخرة، فالمقصود يكون عموميا لأي زمن سيحصل فيه عذاب، ولا فرق سواء في الدنيا أو الآخرة.

(وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ{85})
يكمل النبي شعيب(ع) كلامه: {وَيَا قَوْمِ}، ويا جماعة الناس الذين أنتمي لجماعتهم، {أَوْفُوا الْكَيْلَ}، لِيَكُنْ تاماً، ولا تخونوا وتغشوا في وعاء الحجم للبيع والشراء، واستعملوا "اللتر" الصحيح، {وَأَوْفُوا}، {الْمِيزَانَ}، فاستعملوا ميزاناً صحيحاً لا ينقص من الوزن إذا بعتم للآخرين، واستعملوا ميزاناً لا يزيد لكم الوزن إذا أنتم اشتريتم من الآخرين، لذا أوفوا ولا تخونوا الكيل والميزان، {بِالْقِسْطِ}، بما لكم وللآخرين بالضبط.

{وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ}، عموم الأشياء التي يملكها الناس ويتم تقدير قيمتها بالكيل أو الوزن، أو يتم تقديرها بالتقييم لحالتها، ولا تبخسوها ولا تجعلوا قيمتها أقل.

الحيوانات التي نبيعها للعمل بالحراثة أو للنقل، هذه يتم تقدير ثمنها بحسب تقدير عمرها وقوتها وصحّتها، وكذلك تقييم قيمة السيارات والدراجات... والأراضي الزراعية يتم تقدير محصولها لمن يريد ضمانها من زارعها... وهناك أشياء نقيسها بالوزن أو الكيل، ونبّهت الآية إلى الغشّ فيها، وهناك أشياء يتم تقدير قيمتها بحالتها، بالعموم لأي شيء كان لا تبخسوه ولا تجعلوه أقل من قيمته.

{وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ}، ولا يكن ما يصدر منكم حيث تعيشون موصوفاً بأنه غير منظّم، مثل الذي يفعل أي شيء من دون دراسة عواقبه ولا يفكّر فيه مرتين، {مُفْسِدِينَ}، غير مصلحين، فهذا التلاعب بحقوق البيع والشراء والتلاعب بتقييم قيمة الأشياء... هو فساد.

معلوم الضرر الذي يصيب الناس من الغشّ، والذي يتبعه فقدان الثقة، وانهيار النظام الاقتصادي العادل الضامن لحقوق الناس، لتصل الأمور إلى ما يبدو من حالة أهل مدين أن الناس يعلمون بأنهم غشاشون ولكنهم مضطرون للتعامل معهم لأنهم المسيطرون على أكبر سوق في منطقتهم كما يبدو بالتحليل للآيات، وفي عصرنا هذه حال أصحاب الكثير من الأماكن التي نسمّيها بالحسبة، وهي أماكن بيع المزارعين لمنتجاتهم لوكيل يحتفظ بها ليبيعها لهم، ينقص من قيمتها على حسابهم ويأخذ نسبته مستهتراً بالقيمة الفعلية للمنتجات ومستهتراً بالقيمة التي تكبّدها المزارع، ويفرض على المزارع السعر، ويفرض عليه ضمان التلف إن بقيت البضاعة ولم يشترها أحد... ويكذب عليه فيبيعها بسعر عالٍ ويخبره بأنه باعها بسعر أرخص... لذلك قامت العديد من الدول بتنظيم وإدارة أماكن استقبال منتجات المزارعين لتحميهم من المافيات...

نفس المشكلة في بيع السيارات وقطع السيارات والأدوات الكهربائية والإلكترونية والأثاث... حيث إن الشركات تصنع بضائع منخفضة الجودة ولكن شكلها لا يوحي بذلك، ويشتريها التاجر عالماً بأن منظرها خادع، وتدفع ثمنها كمشترٍ على أساس أنها بضاعة جيدة، وينتهي بك الأمر مع إهدار لمالك على بضاعة رديئة...

نفس المشكلة في الأغذية والأدوية... تتعرّض للغش في جودة المنتج وصلاحيته...

هكذا تتدمّر حياة الأفراد بهدر أموالهم وفوقها أعباء الصيانة والصحّة... وتتدمّر تنمية المجتمعات الفقيرة... والبلدان الغشاشة ستعاني على المدى الطويل من فقدان الثقة بها فينهار اقتصادها من مقاطعة الآخرين لها...

(بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ{86})
على ماذا ستحصلون من الغش؟ وماذا ستكسبون؟ وما هي قيمة ما ربحتم؟

{بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ}، من الغش لا يبقى لكم أي شيء جيد مع الله تعالى، ولكن ترك الغش سيترك لكم شيئاً عنده تعالى، فهو بقية فيبقى لكم شيء عنده تعالى، وهو الأجر على العمل الصالح في الآخرة، {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}، إن كنتم معتقدين بالآخرة وثوابه تعالى فيها، فاتركوا الغش واحصلوا على شيء يبقى عنده تعالى.

{وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ}، أنا شعيب مجرد رسول ينقل رسالة ربكم لكم، ولست حفيظاً عليكم فليس من مهماتي رعايتكم وصونكم من الكفر والغشّ وأن تصيروا مؤمنين، ولست موكلاً بذلك، ولست أتحمّل مسؤولية كفركم ولا غشّكم. ولست مثل مسؤول حزبي يتحمّل مسؤولية بقاء المحازبين معه وانضمام محازبين جدد، ولست مثل مدير مصنع مسؤول عن إنتاجية العمّال وجودة الإنتاج، فوظيفتي فقط تبليغكم كلامه سبحانه.

إذاً نحن أمام نموذج لن يناقش أي عاقل في سوئه، فبأبسط نظرة ولمجرد سماعك بالغشّ، من المفترض أن تتراكم عشرات الأفكار في رأسك، الناشئة عن الأضرار الجسيمة الهائلة المفسدة لحياة الناس والناتجة عن الغشّ.

تلاحظ أن عموم الكلام القرآني يريك أن العمل الصالح، والذي عليه في الآخرة أجر منه تعالى، فهو يتضمن الأعمال العادية في كل شؤون حياتنا، حيث البائع الأمين الناصح الذي لا يغشّ والعامل الأمين الذي يقدّم عملاً بتقانة والأستاذ الأمين الذي يهتم بتلامذته... والزوج والزوجة المهتمان بعائلتهم... ومعاشرة الناس بالحسنى... كلها أعمال صالحة

وعليها أجر، فـ{بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ}، كلام يوجّهه النبي(ع) كتحفيز على التوقّف عن الغشّ ونيل ثوابٍ منه تعالى على عمل الصالحات بالأمانة في التعامل مع الناس.

(قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ{87})
{قَالُوا}، قال القوم ردّاً على كلام النبي(ع):

{يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ}، هل توجّهك بالذكر، {تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا}؟ أهلنا وأجدادنا كانوا يعبدون آلهة عديدة، ويعتبرون أنفسهم عبيداً لها ويتقربون إليها، فهل صلاتك لإلهك تجعلك تأمرنا بترك آلهتنا؟ هل نترك إله أجدادنا، ونصلي ونتوجّه بالذكر فقط لإلهك؟

{أَوْ}، هل صلاتك توجّهك بالذكر لإلهك تأمرنا، {أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ}؟ الذي تسميه أنت غشاً، إنما هو شطارة، فن البيع والشراء، مهنة التجارة، واستغلال قوّتنا لحصد مزيد من المكاسب... فهل هذه الأموال التي نكسبها من تفنّنا بالبيع والشراء، سنتركها؟ وهي لنا ومن حقنا؟

{إِنَّكَ}، يا شعيب، {لَأَنتَ الْحَلِيمُ}، بتعبيرنا الدارج طويل البال، أي يقصدون السخرية منه (ع) فيقولون إنه من بعد نظره في الأمور برويّة لم يستطع تحليلها بشكل صحيح، ويسخرون منه بأنه من شدّة طول باله نظر طويلاً في الموضوع وخرج بهذه النتيجة السيئة بنظرهم، وأنت، {الرَّشِيدُ}، فأنت فكرك وتصرفك صحيح مبني على العقل والمنطق! فهو (ع) برأيهم سفيهٌ مجنونٌ، لأنه يأمرهم بترك آلهة أجدادهم واتّباع آلهته، ويأمرهم بترك الغش وهو بنظرهم أموال لهم يحصلون عليها من الغش، وترك الغش هو ترك لأموال لهم مع الناس، لذا يسخرون منه بوصفه بالرشيد.

عندما نسمع أحداً ما يتفلسف قائلاً كلاماً لا يعجبنا ونراه خطأً، نسخر منه قائلين له: أنت شديد الذكاء وفهمك من مستوى عالٍ. وهذا ما يقصدونه بوصفهم للنبي(ع) بالحليم الرشيد.

نلاحظ الشبه بين عقلية ونفسية قوم النبي لوط(ع) الذين لم يروا أي شيء خطأً في اعتدائهم على الناس، بل كانوا يرونه حقاً لهم! وهنا نرى نفس العقلية حيث غشاشو مدين لا يرون أي خطأ في غش الناس بل بالعكس يرون أنه حقٌّ لهم!

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ{88})
قال النبي شعيب(ع): {يَا قَوْمِ}، يا جماعة الناس الذين أنتمي لجمعتهم، {أَرَأَيْتُمْ}، لو صار لديكم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: لو شفتوا. {إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ}، على وضوح، {مِنْ رَبِّي}، من المسؤول عنّي من مستوى إلهي، فأنا أؤمن به بسبب وضوح الأدلة على الإيمان به سبحانه.

وأرأيتم إن {وَرَزَقَنِي}، حصلت منه تعالى على ما أسدّ به حاجاتي ورغباتي، وبالخصوص الحصول على ما آكله لأبقى حيّاً أو أشتري به ما آكله... {رِزْقاً حَسَناً}، وما حصلت عليه موصوف بأنه حسن جيّد وليس سيئاً، وحصلت عليه بالحلال ولم أحصل عليه من الغش.

بالمقارنة مع إيمانكم بآلهة شريكة له تعالى من دون بيّنة، والذي نتج عنه أن تغشّوا لتسترزقوا برزق سيّئ، فأنا في المقابل إيماني عن بيّنة بربي الذي يرزقني رزقاً حسناً.

{وَمَا أُرِيدُ}، ليس مقصدي ولا رغبتي، {أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ}، لست آمركم بالتوقف عن الغش نهائياً وأريد أن أغشّ، لا، فأنا آمركم بتركه وأنا نفسي لم أغشّ ولن أغشّ.

{إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ}، على قدر ما أستطيع أريد أن أُصْلِحَ، أُصَوِّبَ حياة الناس، وأجعلَ الأمور صحيحة، مما يجعلكم تتوقفون عن الغشّ الذي يفسد حياة الناس.

{وَمَا تَوْفِيقِي}، ولن أتوقّق للإصلاح، {إِلَّا بِاللَّهِ}، إذا وفّقني سبحانه توفقت، وإذا جعلني أنجح في الإصلاح نجحت، فأنا أعمل جهدي ولكن قدراتي محدودة، وصاحب القدرات المطلقة هو سبحانه، وهو الذي يقرر إن كنت سأنجح أم لا.

{عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ}، اعتمدت أنه سبحانه يسيّر الأمور كما يجب، سواءٌ آمنتم أم لم تؤمنوا، وتوفقّت في جعلكم تتركون الغشّ أو لم أتوفّق... فعلى كل حال الأمور تسير كما يراه سبحانه مناسباً.

{وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}، ليس لدي قرارات خاصة بي بل أرجع في أموري له تعالى، ولا أتصرف ولا أقول أي شيء من دون الإنابة، ولا أفعل شيئاً من دون الرجوع إلى ربي سبحانه لأرى إن كان يرضى عن عملي أم لا، فإن رأيت رضاه سبحانه عن عملي فعندها أعمله، وإن رأيت أنه لا يرضيه عمل ما فعندها لا أفعله.

(وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ{89})

{وَيَا قَوْمِ}، يا جماعة الناس الذين أنتمي لجمعتهم، {لَا يَجْرِمَنَّكُمْ}، لا يدفعكم ولا يكون السبب في، {شِقَاقِي}، في أن تصيروا في شقّ وأنا في شقّ، فلا يكن لديكم دافع لمخالفة كلامي وإلا، {أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ}، فنتيجة إصراركم على مخالفة كلامي أن يصيبكم طوفان يغرقكم، أو ما أصاب، {قَوْمَ هُودٍ}، مثل عاصفة قوم النبي هود(ع)، أو {قَوْمَ صَالِحٍ}، أو مثل زلزال قوم النبي صالح، {وَمَا}، وليس، {قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ}، فها هم بقربكم.

من هذه الآية يظهر أن مدين قريبة من البحر الميت إن صدق توافق غالبية المؤرخين على أن قوم النبي لوط(ع) كانوا قرب البحر الميت.

بعبارة أخرى، شقاقي أي مخالفة أقوالي سيكون لها نتائج سيئة، فلا يجرمنكم لا تدفعكم، النكاية "الجكارة" لمجرد مخالفتي أن يصيبكم شيء سيئ. وبحسب من سبقني من الأنبياء، نزل عذاب على بعض أقوامهم الذين خالفوهم، فانتبهوا أن الموضوع ليس نكاية بيني وبينكم، فتخالفوا ما أقوله لمجرد أني أنا قلته، فهناك شيء خطير سيحصل بسبب مخالفتكم لي، حيث قد ينزل عليكم عذاب مثلما نزل على أقوام سمعتم بها، وعلى أقوام تعرفونها وترون آثارها.

نلاحظ الإشارة إلى نفسية المخالف، حيث إن بعض الناس تصير موصوفة بمخالفة أمر ما، على أساس أن هذا هو موقفها منه، ويصرون على موقفهم عناداً حتى لو برهنت لهم على خطئهم فلا يتراجعون، لأن التراجع عن الخطأ يحتاج لفكر ونفسية مشابهة للاعتراف بالخطأ والاعتذار... وغالبية الناس يستصعبون التراجع والاعتراف بالخطأ! لأنهم على عقلية غلبتني وغلبتك، غلطان واستصعب الاعتراف بل مستحيل أن أبدو أمام الآخرين مخطئاً...

هكذا نفهم كلام النبي هنا وهو يحاول تليين فكرهم ونفسيتهم للاعتراف بالخطأ، حيث بيّن لهم أنه على بيّنة، والرزق الحسن متوافر، ومخالفة ما يقوله عواقبها معلومة وشديدة، فالعناد سيكون ثمنه كبيراً...

(وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ{90})

طريقة النجاة من العذاب الإلهي: {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ}، اطلبوا من المسؤول عنكم من مستوى إلهي أن يتجاوز عن السيئات التي قمتم بها، {ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ}، أقلعوا وافتحوا صفحة جديدة، وأعلنوا له تعالى أنه وبناءً على التزامكم بكلامه فأنتم لن ترجعوا لارتكاب السيئات، حيث ستتركون العمل السيئ "الشرك والغشّ" نهائياً.

{إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ}، إنَّ المسؤول عنّي من مستوى إلهي لديه عنايةٌ خاصةٌ لما فيه مصلحة المؤمنين، وبموجب هذه الرحمة الخاصة سيحصل المؤمنون على المغفرة ولن يحصل عليها بتاتاً أبداً من لم يكن مؤمناً.

ربي، {وَدُودٌ}، يفعل مع المؤمنين ما يحبّون حصوله، لأنه سبحانه ليس لئيماً مبتعداً عن مخلوقاته، بل يتقرّب منهم إذا هم تقرّبوا منه، ويفعل معهم ما يعجبهم. وهنا الكلام حصراً عن المؤمنين ومعهم، إذ سبحانه ليس ودوداً مع الجميع، حيث سبحانه يكره الكافرين، فالكلام هنا لتحفيزهم وتشجيعهم وترغيبهم ليكونوا مؤمنين ويحصلوا على أهم شيء من إيمانهم وهو شمولهم بالرحمة الإلهية وأهمّها مغفرة الذنب، وعموماً في كل النواحي سبحانه ودود مع المؤمنين يقرّبهم ولا ينفّرهم منه وتصدر عنه تعالى أعمال محببةٌ لهم.

كما ترى رغم قدرته الفائقة سبحانه على فعل ما يريد، ورغم كرهه للكفّار، سبحانه لا يتصرّف إلا بحكمة نابعة من الرحمة والودّ... حيث يؤمّن لهم تعالى ما يهديهم ويلفت انتباههم ليؤمنوا، ويمهلهم... ويخبرهم أن باب التوبة دائماً مفتوح على مصراعيه... إلى أن ينقطع الأمل نهائياً ممن كفر، فيعذّبه سبحانه في الدنيا أو يتركه للآخرة ليعذّبه.

(قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ {91})
{قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ}، فالمعلومات التي تقولها لا تترابط معنا في فكرنا لتوصلنا لنفس النتيجة مثلك، كما نقول بالعامية: ما عم تفوت براسنا. نحن سمعنا ورأينا بعض الكوارث التي أصابت بعض الأقوام التي تتحدّث عنها، ولكننا لم نفقه وصفك لها بالعقاب الإلهي بسبب معارضتهم لرسولهم بينما هي مجرد كارثة طبيعية! ما معنى كلامك أننا إن خالفناك سيصيبنا عذاب! وكلامك عن التجارة والبيع والشراء بالحقّ والعدل على أساس أنه الرزق الحلال من ربّك، لا نفهمه، كيف يحرمنا إلهك من أرباح من الغشّ وهي من حقّنا، لأنك لا تفهم بفنون التجارة وربح المال...

{وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً}، لدينا صورة محدّدة عنك، كما نقول بالعامية: شايفينك. أنك لست قوياً بالمال أو بالرجال، {وَلَوْلَا رَهْطُكَ}، ولولا انتماؤك لعائلة تهتمّ بأفرادها، وهم يحامون عمّن ينتمي إلى عائلتهم، {لَرَجَمْنَاكَ}، لرميناك بالحجارة حتى تموت، واخترنا لك أن تموت قَتْلاً بأشدّ أنواع القتل المرعب، {وَمَا أَنْتَ}، ولست أنت، {عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ}، لا قيمة لك عندنا لنأسف على قتلك، ونرجمك ولا نشعر بأي شيء تجاهك لأنك بلا قيمة في نظرنا.

الرهط كلمة تشير إلى أشخاص ينتمون لأب واحد ويحامون عن بعضهم، خذ مثلاً: رهط النبي محمد(ع) بنو هاشم، والمشهور عنهم أنهم حين كانوا كفّاراً وقبل أن يؤمنوا دافعوا عن النبي محمّد(ع) لأنه من رهطهم، من عائلتهم التي تهتم بمصالح أفرادها وحمايتهم. النبي شعيب(ع) هو شخصياً ضعيف، إذ ليس لديه مجموعة مقاتلين يحمونه ولكن عنده عائلة لا تقبل أن يقتله الآخرون، حتى لو لم يكونوا رهطه من المؤمنين به، تماماً مثل وضع النبي محمد(ع) في بداية دعوته أهل مكّة للإسلام.

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ{92})
قال النبي شعيب(ع): {يَا قَوْمِ}، يا جماعة الناس الذين أنتمي لجماعتهم، {أَرَهْطِي}، هل عائلتي التي ترفض أن تؤذوني هم، {أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ}؟ عائلتي "برهطها" في نظركم لديها عِزَّةُ قُوَّةٍ أكثر من الله تعالى؟ يعني ألم تحسبوا أنَّهُ تعالى عنده عزّة ليحمي بها رسوله، وحسبتم حساب عزّة عائلتي؟
{وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا}، أصلاً لم تروا العزّة الإلهية وأدرتم ظهركم لها، ولم تحسبوا له سبحانه أي حساب؟ هدّدتكم بعذاب منه تعالى، فهدّدتموني بالقتل لولا عائلتي... {إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}، فأنتم تخطئون مع المسؤول عني من مستوى إلهي الذي لا يفلت أي شيء تعملونه عن سيطرته ومراقبته.

(وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ{93})
{وَيَا قَوْمِ}، يا جماعة الناس الذين أنتمي لجماعتهم، {اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ}، على حيث أنتم في ناحية الكفر، فعملكم يستند إلى عقليتكم وإيمانكم، فتصرفوا بحسب رأيكم وما ترونه مناسباً لدينكم، فأنتم كذّبتموني وأشركتم وتغشون... فهذه مكانتكم، وهذه ناحيتكم، {إِنِّي عَامِلٌ}، وتكملة الجملة تعرفها مما سبق، فعملي على مكانتي المعنوية، وأعمل انطلاقاً من ناحية الإيمان التي أنا فيها.
بناءً على بقاء كل واحد منّا على مكانته، {سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ}، سترون من منّا سيأتيه شيء يضرّه وفي نفس الوقت سيجعله يشعر بالمهانة بسبب قبيح ما فعله، {وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ}، أنا أم أنتم الذين لا يقولون الحقيقة، فأنا أقول إنّ الإله واحد والغشّ عمل عليه عقاب إلهي، وأنتم تكذّبونني في ذلك.
{وَارْتَقِبُوا}، هناك شيء يجب أن تتوجّهوا إليه ولا تغفلوا عنه، {إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ}، أنا أيضاً لن أغفل وسأوجّه اهتمامي نحو العذاب المخزي القادم، لأرى ماذا سيحدث في المستقبل.
هكذا اختصرت الآيات سنينَ من المعاناة مع الكافرين إلى أن وصل الأمر إلى نهايته بين النبي شعيب(ع) وقومه، وآخر كلامه معهم أن قال لهم: افعلوا ما يمليه عليكم إيمانكم، وأنا أفعل ما يمليه عليّ إيماني، وسوف نرى نتيجة كل واحد منّا،

حيث سوف نرى من سيتعذّب ويهان بسبب مكانته. ستعرف من الآية الآتية أن النبي شعيب(ع) صار عنده علم بنزول العذاب الدنيوي على قومه:

(وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ {94})

{وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا}، عندما بدأ الشيء الذي أردنا حصوله، ومن السياق تعلم أنه القرار الإلهي بحصول العذاب، {نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ}، حيّدناهم عن العذاب قبل وقوعه، حيث أخبرناهم أن العقاب قادم حتى يغادروا القرية قبل وقوعه، {بِرَحْمَةٍ مِّنَّا}، لأنهم مؤمنون ولذلك شملتهم الرحمة الخاصة وهي العناية الخاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، وغفر سبحانه لهم ذنوبهم، ونجّاهم سبحانه من العقاب عبر إخبارهم بموعده ليغادروا المدينة...

{وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ}، الذين لم يكن معهم حقّ لم يتركهم تعالى فأخذتهم الصيحة، وهي الأمر الإلهي على شكل واسع الانتشار: موتوا. ولأنه أمر إلهي موجّهٌ للكثيرين من الناس ففي اللغة العربية يصير وصفه بالصيحة.

نلاحظ تعبير القرآن عن الأوامر الإلهية التي سينفذها عدد كبير من الناس بأنها صيحة، يوم القيامة نعود إلى الحياة على أثر: صيحة. وعذابات الأقوام كانت على أثر: صيحة. وهو نفس تعبيرنا بالأمر بصوت قوي يسمعه كل من له علاقة. طبعاً الأمر الإلهي ليس صوتاً عبر أمواج في الهواء، بل أمراً إلهياً وبطريقة ما صدر وانتشر بضخامة على عدد كبير من الناس، والكلمة العربية لهذه الحالة هي الصيحة.

{فَأَصْبَحُوا}، أول ما صارت حالة قوم النبي شعيب(ع) من بعد الصيحة، {فِي دِيَارِهِمْ}، في الأماكن التي تدور فيها شؤون حياتهم، حيث مسكنهم وزراعتهم وأشغالهم... أصبحوا {جَاثِمِينَ}، ملاصقين للأرض بلا حركة، حيث ماتوا وصاروا جثثاً بلا حركة.

نعرف من القرآن أنهم أصابتهم الرجفة أي الزلزال، وورد وصف ذلك لمدين ولثمود في الآيتين 78 و 91 من سورة الأعراف {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ}، ونعرف أن مدين وثمود لم يموتوا كلهم بالعذاب حيث بقي منهم أحياء من بعد الزلزال، في القرآن لن تجد توصيفاً لإبادتهم وستجد نقلاً لكلام من الرسولين مع من بقي من قومهما من بعد الكارثة، وتقرأ ذلك في الآيتين 79 و 93 من سورة الأعراف {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ ... وَنَصَحْتُ لَكُمْ}.

ضع في بالك أن القرآن استعمل كلمة "أصبح" ليشير إلى أول حالة تصيب شيئاً ما من بعد حالة سابقة، ويمكنك استبدالها أحياناً بكلمة "صار" ولكن ستفقد الدقّة في التعبير، لأن صار لا تشير إلّا إلى تغيّر الحال ولا تشير "مثل أصبح" إلى أول ما تغيّر إليه الحال، لنقل حصل معك شيء محزن، ولكنك في البداية لم تتأثّر، وبقيت عادياً، وضحكت ولم تبكِ وتحدّثت... وبعد ساعات بدأت تشعر بالتأثّر، هنا نقول بالدقة القرآنية: صرت متأثّراً. ولا نقول: أصبحت متأثّراً. وخذ مثلاً حالة أمّ النبي موسى(ع) حين تركته في التابوت يجري مع النهر، أول ما تركته: {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا} كما ورد في الآية 10 من سورة القصص، أول حالة لها بعد تركه أنها شعرت بالفراغ في فكرها ونفسيتها... وفي أشعار العرب ترى بكثرة استعمالهم لكلمة "أمسى" للدلالة على آخر حالة صارت، ولم يستعملوها حصراً للدلالة على شيء صار في فترة المساء.

(كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ {95})

بعد تدمّر القرية:

{كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا}، كان المكان مزدهراً معموراً يغني ساكنيه عن الانتقال منه لتأمين ما يحتاجونه، ففيه ما يحتاجونه، والآن بعد الدمار لم يعد منظره منظر مكان يغني من يسكنه، ولم يعد يدل على أنّه كان مكاناً يؤمّن حاجات من يسكن فيه.

{أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ}، هم موصوفون باستحقاق الابتعاد عن الرحمة الإلهية، فهي قرية نزل عليها العذاب لأنها ابتعدت عن الحقّ، {كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ}، مثلما وُصفت قبيلة ثمود التي دمّرها الزلزال أيضاً.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ {96})

تنتقل بنا السورة إلى نموذج مشهور جدًّا، إلى نموذج عن أعتى رجل وحكومة مرّت على وجه الأرض...

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا}، بالأمور المميّزة المنسوبة له تعالى، {وَسُلْطَانٍ}، وهي الأمور التي لها سلطة ولها قوة غالبة، {مُّبِينٍ}، واضح أنّ خلفها سلطة قوية من مستوى إلهي.

هي الآيات كالعصا التي تتحوّل لِحَيَّةٍ، واليد البيضاء والقُمَّلِ والضفادع والدم... وهي بشكل مُبِينٍ، بشكل واضح، لها سلطان ولها غلبة، لأنها أمور مميّزة جدًّا وقوية جدًّا تغلب أي شيء آخر، فتدل بقوّة على صحّة ما يقوله النبي موسى(ع).

تذكّر أنّ الآيات تتحدث عن أقوام جاءهم رسل فلم يتبعوهم على الدين الصحيح فنزل عذاب دنيوي عليهم، وهنا تتحدث عن النبي موسى(ع) وفرعون، ولكن لم تذكر تفاصيل القصّة، وبكلمات مختصرة ركّزت فقط على الآيات والبراهين الواضحة، ورفض فرعون وملئه لها... والعذاب الدنيوي.

(إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ{97})
كل الآيات الواضحة جاءت: {إِلَى فِرْعَوْنَ}، وهو لقب لحاكم مصر في ذلك الزمان، وإلى {مَلَئِهِ}، وهم الوجهاء والمشاركون في الحكم كالأمراء والوزراء وقادة الجيش...

{فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ}، فكانوا على ما يأمر به ويريده فرعون، وتركوا الآيات الواضحة التي جاء بها النبي موسى(ع)!

{وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ}، فالأمور التي يقولها فرعون ليست صحيحة عن عقل ومنطق وتفكير سليم.

فتركوا ما يقوله النبي موسى(ع) المدعوم بآيات من مستوى إلهي ولها سلطان، لأنّ فيها قوّة قاهرة غالبة تُظهِر أنّها من مصدر إلهي، ولحقوا بالأمور التي يقولها فرعون، وأموره ليست رشيدة فهي فاسدة وسيئة.

(يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ{98})
{يَقْدُمُ قَوْمَهُ}، يتقدّم في المقدمة على جماعة الناس الذين ينتمي لجماعتهم، يكون أمامهم، {يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، في زمن قيام الناس من الموت، سيتمّ جمع تلك الأمة التي اتبعت فرعون، ويكون فرعون أمامهم، وهو أول واحد في المقدمة يتقدّم بقومه، {فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ}، فأخذهم باتجاه النار، وهنا الكلام عن النار التي في الآخرة.

{وَبِئْسَ}، ويا لسوء، {الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ}، المدخل الذي اتجهوا فيه، مثلما تقول: يا لبئس مَسْكَنٍ سكنوه. فلا يوجد ورد كمدخل للمرور، أسوأ من مدخلهم الذي اتّجهوا فيه إلى جهنّم.

كما في الدنيا اتبعوا أمره، فهناك في الآخرة سيكون فرعون في المقدمة وهم خلفه، واتجاهه باتجاه النار وسيتم رميه ورميهم فيها. يعني هو خبر للجميع أنّ اتّباع الفاسد هنا في الدنيا، بدعمه بتأييده ولو بالتصفيق، ولو بالسكوت مع الرضا عن أفعاله... ففي الآخرة سيكون أمامك وستسير خلفه حيث سيذهب، ومصيره النار، فسيوردك معه إلى النار.

لاحظ دقّة التعبير بـ{الْوِرْدِ}، فالوصف لن يكون لغويًّا دقيقًا لو قلنا أنّه أخذهم معه إلى النار، لأنه ليس صاحب القرار، وهو وهم يتم سوقهم إلى النار، فالمشهد عن جرجرة الجميع لرميهم في النار، وفرعون في المقدمة والمسير للبقية على الاتجاه الذي يتجرجر فيه فرعون باتجاه النار، لأنهم كانوا أتباعه في الدنيا وسيجعلهم تعالى على مساره باتجاه النار في الآخرة... ويكون المشهد بالعكس للمؤمنين التابعين لرسولهم، فرسولهم سيمشي باتجاه الجنّة وهم خلفه على نفس الاتجاه.

(وَأُتْبِعُواْ فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ{99})
{وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ}، فهنا في الدنيا كانوا على ما هم عليه، {لَعْنَةً}، طردًا من الرحمة الإلهية، ففكرهم وسلوكهم السيئ تبعه أن يكونوا مطرودين من الرحمة الإلهية، حيث تمّ إغراق فرعون والجيش بالماء، وذكرت الآية 137 من سورة الأعراف "... وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ"، فمدنهم أو البعض منها تدمّر ولكن لم يذكر القرآن كيف حصل هذا، وربما امتدّ البحر إلى مدنهم حين أطبق على فرعون وجنوده، وربما كارثة أخرى أصابتهم في

وقت آخر... ربما بسبب ضعفهم من بعد غرق فرعون والجيش تسلّط عليهم عدو ما... على أيّ حال فاللعنة تُرجمت بعذاب في الدنيا أماتهم ودمّر مدنهم.

{وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ}، وفي زمن القيام من الموت، أيضًا لعنة، فهناك أيضًا لهم الطرد من الرحمة الإلهية، فلا مغفرة ولا شفاعة... بل عذاب على كلّ شيء فعلوه.

{بِئْسَ}، يا لسوء، {الرِّفْدُ}، العطاء للإعانة، {الْمَرْفُودُ}، الذي أُعْطُوهُ، لأنهم حصلوا على اللعنة فيا لبئس العطية التي أُعطِيَت لهم، وهي اللعنة. وكلمة (رِفْد) لم ترد إلّا هنا في القرآن، وفي اللغة يقولون عن الرفادة أنّها شيء تعطيه للآخرين ليعينهم، وهم في يوم القيامة بحاجة للعون للخلاص من العذاب وحصلوا على اللعنة، فيا لبئس الإعانة.

بقي شيء، ففي أدبياتنا عادة نختصر كل الآخرة وقبل دخول الجنّة والنار بأنه "يوم القيامة"، وهذا ليس دقيقًا، فيوم القيامة من الموت هو أوّل يوم من أيام الآخرة بالنسبة لنا، وأوّل ساعة فيه بالنسبة لنا هي ساعة قيامنا من الموت، والقرآن عادةً شمل كل فترة قيامنا من الموت ومحاسبتنا بوصف اليوم، وهذا التوصيف دقيق بالنظر لمجموع الحدث فهو يوم للحساب، علمًا أنّه أيام وأيام من الحساب، فأيام للحساب الفردي لكل شخص وَحْدَهُ، وأيام للحساب الجماعي حيث ينضمّ الفرد للجماعات المختلفة التي انضمّ لها وفعل سوءًا مشتركًا معها... وأيام الوقوف أمام الأشهاد، وحساب لكل الأمم كل أمة وَحْدَهَا...

كما تلاحظ فالتسمية "يوم القيامة"، زمن القيام من الموت، وكل الآخرة بهذا التوصيف هي زمن القيام من الموت، ضع هذا في بالك وستنتبه أنّ الآيات التي ذكرت يوم القيامة بالتحديد قصدته وَحْدَهُ، أو قصدته كبداية لما سيحصل بعده، مثل آيتنا هنا، حيث من بعد يوم القيامة سيقدم فرعون قومه... وإلّا فأيام الحساب عديدة وحادثة القيام من الموت يوم منها.

(ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ{100})
{ذَلِكَ}، الذي قالته الآيات، {مِنْ أَنبَاءِ}، من أخبار غير منتشرةٍ معرفتها عند الناس عن، {الْقُرَى}، عن الناس التي كانت تعيش مع بعضها في أماكن وأزمنة مختلفة، {نَقُصُّهُ عَلَيْكَ}، حيث كنّا متتبعين لما حدث معها وها نخبرك به، {مِنْهَا}، من تلك القرى، {قَائِمٌ}، لا يزال بنيانها وعمارتها قائمة واقفة منتصبة على ما تقف عليه، لم تتهدم ولم تخرب بالكامل، وهناك أناس ناجون من تلك الكوارث، مثل مدائن قوم النبي صالح(ع)، وقوم مدين ومدينتهم، وآثار فرعون... ومنها، من تلك القرى، {حَصِيدٌ}، حُصِدَت وجرى انتزاعها بالكامل، سُوِّيَت بالأرض فتدمرت بالكامل، مثل مدينة قوم النبي لوط(ع) التي أبيدت بالكامل ببيوتها والناس، وقوم النبي نوح(ع) أيضًا أبيدوا بالكامل...

(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ{101})
{وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ}، عاملناهم بالحقّ بالعدل والإنصاف عندما أنزلنا عليهم العذاب الدنيوي، ولم نظلمهم عندما أمرناهم بالحقّ، {وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ}، فهم لم يكونوا منصفين عادلين مع أنفسهم، فلم يكن معهم حقّ حين هم سبّبوا لأنفسهم العذاب، فلو آمنوا لكانوا فعلوا الإنصاف والعدل مع أنفسهم لأنها تستحق منهم أن يؤمنوا وأن يبعدوا عنها العقاب الإلهي.

{فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ}، لم تقدّم لهم تلك الآلهة أي مساعدة من العذاب، وعندما تكون بحاجة لشيء ويتم تأمينه لك أغناك من أمّنه لك، فهم كانوا بحاجة للمساعدة لأن العذاب الدنيوي الإلهي نزل بهم، فلم ينالوا من آلهتهم أي مساعدة تغنيهم، فلم يحصلوا على شيء وبقوا بحاجة للمساعدة من العذاب، {لَمَّا}، عندما، {جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ}، فعندما قرر سبحانه حصول العذاب لم تقدّم تلك الآلهة أي شيء لمن عبدها!

{وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ}، آلهتهم أضافت فقط فشلًا في النجاة من العذاب، فتلك الآلهة فوق أنها لم تقدم المساعدة، بل كانت سببًا في زيادة الفشل، وعمليًّا زادوهم هلاكًا وخسارة، فتلك الآلهة إن قدّمت لهم شيئًا فسيكون زيادة في العذاب لأنهم عبدوها، فكلما كان تقديسهم لآلهتهم أكبر زاد عذابهم.

تذكّر القصص السابقة عن أقوام ارتكبوا السوء كالفحش والغش والاستعباد، فاستحقوا العذاب، وبما أنّهم كانوا يعبدون غيره تعالى، فتلك العبادة سببت لهم عذابًا زائدًا فوق العذاب الأول على سوء أفعالهم.

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ{102})
هذا هو لبّ تركيز السورة من القصص التي ذكرتها:

{وَكَذَلِكَ}، كما قلنا لك عبر الآيات يكون، {أَخْذُ رَبِّكَ}، هكذا لا يترك المسؤول عنك من مستوى إلهي بل يأخذ الظالمين بالعذاب، {إِذَا أَخَذَ الْقُرَى}، هكذا يأخذها إذا لم يتركها وتناولها فأصابها بالعقاب، {وَهِيَ ظَالِمَةٌ}، في حال لم تكن القرى تمشي على الحق، بل تمشي على الظلم فلم يكونوا منصفين وعادلين فبهذه النماذج التي أخبرناك عنها من عذاب يتمّ التعامل الإلهي معهم.

بعبارة أخرى المجتمعات العديدة هنا وهناك من الناس، إذا كانوا ظالمين فلم يكونوا عادلين منصفين، لأنهم أشركوا بالله تعالى وهذا شيء ليس معهم حقّ فيه، وخالفوا أوامره تعالى وفعلوا السوء، كما قلنا لك في الآيات السابقة من نماذج عذاب لبعض الأقوام، فبهذه النماذج نأخذهم بالعذاب.

لم تقصد الآية الإشارة للطرق التي نزل فيها العذاب "طوفان زلزال بركان..."، لا، ولكنها تلفت الانتباه لأخذهم بالعذاب، فتقول: هكذا كما قرأت، كنماذج، ينزل العذاب على الظالمين. وأما طريقة نزوله فلم تهتم الآية هنا بالإشارة إليها.

{إِنَّ أَخْذَهُ}، تَنَاوُلَهُ سبحانه للظالمين، {أَلِيمٌ شَدِيدٌ}، ليس عاديًّا ويمكن تحمّله، بل شديد قَاسٍ ثقيل مؤلم جدًّا...

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ{103})
{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، الأخذ للظالمين، {لآيَةً}، لهو عمل مميّز من مستوى إلهي، {لِّمَنْ خَافَ}، لمن شعر بخطر أكيد لا يمكن تجنّبه وهو، {عَذَابَ الْآخِرَةِ}، فمن يعتقد بوجود ضرر في الحياة الآخرة لمن خالف دينه تعالى، فستكون تلك القصص بالنسبة له: آية. ويقرؤها وتكون دليلًا له على وجوب التوحيد وطاعة الله تعالى... وإلا فهناك عقاب.

نلاحظ من عموم القرآن أنّ القرار الإلهي بتعذيب بعض الأقوام الكافرة هنا في الدنيا، كان من أسبابه جعلهم عبرة للآخرين، طبعًا السبب الرئيسي كفرهم، مع انقطاع الأمل بإيمانهم، مع تمرّسهم على سوءٍ من العيار الثقيل... وبعدها ليكونوا عبرة لمن يسمع بهم.

{ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ}، فالزمن الذي سيحصل فيه العذاب في الآخرة سيتم جمع كل الناس فيه، لأنّه يوم محدّد عنده تعالى سيجمع فيه كل الناس بدون استثناء، صحيح أنّه نفس النتيجة لو قلنا: سيجمع كل الناس "في" ذلك اليوم. ولكن حتى تتصور الفرق البسيط بين الجملتين فتصور يوم العيد، حيث تقول: اجتمعت الناس في يوم العيد. وتقول: اجتمعت الناس ليوم العيد، يعني بسبب العيد اجتمعوا. فالآخرة هي نتيجة المخطط الإلهي لخلقنا، فهي محطّة قبل دخول الجنّة أو النار، وسيتم جمعنا لتلك المحطة، لنتحاسب ونتجازى.

{وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ}، يشهده ويحضره كل الخلق، لأنّ كل المخلوقات التي خلقها تعالى ستحضر في يوم القيامة، من ملائكة (ع) وجنّ وكل الحيوانات التي على الأرض...

(وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ{104})
{وَمَا نُؤَخِّرُهُ}، لسنا نجعل يوم الحشر يحصل الآن، بل نجعله متأخراً، {إِلَّا لِأَجَلٍ}، لتوقيت زمني محدَّدٍ، {مَّعْدُودٍ}، محدَّدٍ بالأرقام سلفاً، لزمن تم عَدُّه من قبل.

في كل زمان يسأل الناس عن وقت يوم القيامة، ويموت السائلون ويأتي أناس غيرهم يسألون أيضاً عن موعد حصول يوم القيامة، ويموتون... وها نحن نسأل عن موعدها، وسنموت... ويوم القيامة تأخّر حصوله عَمَّن سبقنا، وتأخر عَمَّن جاء بعدهم... ووصل الدور إلينا ولا ندري إن كان سيتأخّر عنّا أم سيكون قريباً منّا... ولكن على كل حال، ليوم القيامة {أَجَلٍ مَّعْدُودٍ} موعد محدَّد، وتصوَّر لو أنه سبحانه خلقنا وراقبنا واستمرت الحياة... مع قرار إلهي بإعادة خلقنا من

الموت ليجازينا، ولكن لم يقرّر متى! وترك الموضوع ليقرره فيما بعد. لا، توقيت يوم القيامة محدَّد سلفاً، وكل تأخير نراه من ناحيتنا، في الواقع هو يقرّبنا من موعد زمن حصوله المحدَّد عنده سبحانه.

(يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ{105})
{يَوْمَ يَأْتِ}، عندما يحصل يوم الحشر، {لَا تَكَلَّمُ} "فتحة على التاء" {نَفْسٌ}، لا تتكلم أي نفس، وأي شخص لا ينطق بأي كلمة، {إِلَّا بِإِذْنِهِ}، إلا بسماح منه تعالى، ويأذن له سبحانه ويتكلَّم، وإن لم يأذن سبحانه لأي نفس أن تتكلّم فستسكت غصباً عنها.

هناك سيطرة كاملة على ساحة الحساب "قاعة المحكمة الإلهية"، رغم وجود المليارات من الناس، وربما تريليونات من الخليقة... والنظام مضبوط، ولا أحد يتكلم إلا بعد أن يأذن له سبحانه وتعالى بالكلام.

{فَمِنْهُمْ}، من الأنفس، من الناس، {شَقِيٌّ}، تعيس فعل ما يسبّب تعاسته، لأن الملائكة (ع) تضربه وتعذّبه وسترميه في جهنم، ومنهم، {سَعِيدٌ}، لأنه مرتاح في مكان مريح أثناء جريان الحساب ونهايته إلى الجنة.

نعرف من آيات عديدة أنه في الآخرة أحياناً يتم ختم أفواه المجرمين ليصمتوا، وتتكلم الجلود والأعضاء، ثم يتم فتح الختم عن الفم وينطقون من جديد... وهذه حالة السيئين، وأمّا المؤمنون فمفصولون وحدهم ولا علاقة لهم بأي أجواء رعب أو خوف.

الإذن بالكلام أو السكوت محصور في منطقة القضاء والحساب، أما عندما تنتظر ليأتي دورك للحساب فيمكنك الكلام مع من حولك، ولكن فقط المؤمنون يتسلّون بالكلام ويتمازحون ويضحكون، أما الكفّار فلا يتكلمون للتسلية بل بالنواح والاعتذار منه تعالى وباللعن والشتم لمن حولهم من أصحاب الشمال...

أقول لك هذا حتى لا تجمد على مشهد ما نقله القرآن عن أجواء آخرة المجرمين، فهم مرة يتم كتم أفواههم لتتكلّم جلودهم... ومرة يسمح تعالى لهم بالنطق، ومرة يسكتهم تعالى أثناء شهادة مؤمن عليهم، وبعدها يتركهم ينطقون... ومرّة يتعرضون للضرب... ومرة للجرجرة... ويأخذونهم من مكان لآخر ليواجهوا سوءاً فعلوه مع هذا، وسوءاً كانوا مشتركين فيه مع جماعة ما وتجرُّهم الملائكة لضمّهم لتلك الجماعة ليتحاسبوا معهم على ما فعلوه كجماعة... وهكذا ننتبه أن القرآن نقل مشاهد متنوّعة...

(فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ{106})
{فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا}، الذين كانت حالتهم الشقاوة التعاسة بسبب ما فعلوه، {فَفِي النَّارِ}، مصيرهم إلى النار، {لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ}، حيث تخرج النار واللهيب من المكان، ولهم في النار، {شَهِيقٌ}، يتم سحب النار واللهيب، ومثلما تنفخ على النار فتتأجج، ويصير لها صوت، فنار الآخرة تتأجج دائماً. لا تتصور أنها تخف عند الشهيق "عند السحب" أو عند الزفير "عند الإخراج"، لا، وكلاهما يحصلان مع تأججها الدائم.

لاحظ الآية 12 من سورة الفرقان "إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا"، والآية 7 من سورة الملك "إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ"، ومنهما نفهم أن النار هي التي لها شهيق وزفير وصوت تغيّظ... ومثلما يعبّر القرآن عن ساكني الجنة بأن "لهم فيها" ما يشاؤون... فهنا ساكنو النار "لهم فيها" شهيق وزفير، حيث تقدّم لهم النار شهيق اللهب وزفير النار... وهي إشارة للصوت المرعب للنار، وإشارة لتأججها الدائم وتطاير ألسنتها، وهم فيها، وهذا ما يحصلون عليه وهم في داخلها.

(خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ{107})
{خَالِدِينَ فِيهَا}، الأشقياء في تلك النار لا يموتون ولا يفنون ولا يخرجون منها، {مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ}، ونار الآخرة موجودة في سماوات وأرض الآخرة، وطالما البيئة التي يحصل فيها التعذيب موجودة، فهم سيتعذبون، وما دامت "موجودة" فهم سيبقون فيها يتعذبون، ولكن هل البيئة باقية كشيء له قدرة على البقاء؟ وهل هي البيئة خالدة بقدرة ذاتية كشيء أبدي لن يفنى؟ لا، فهي باقية، {إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ}، فأمامه سبحانه خيارات عديدة وليس مجبوراً على

تخليدهم في النار ولا على تخليد تلك السماوات والأرض، وهم والبيئة ليسوا باقين بقدرتهم الذاتية، لأن صفة البقاء بقدرة ذاتية هي صفة إلهية ولا يوصف بها إلا الله تعالى. وأخبرنا سبحانه في القرآن بعشرات الآيات أنه تعالى شاء، قرّر، أراد... أن يخلدوا في النار، كالآية 169 من سورة النساء "إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا"، وافتتاحية كلام الآية هنا "خالدين فيها" وهو على نفس المعنى القرآني عن خلودهم في النار وليست تقول شيئاً آخر.

تلاعب البعض بمعنى كلام "خلد" ليجعلها تشير للمدة الطويلة التي لها نهاية، وبذلك ظنّوا أنهم يبررون لربط الخلود بالمشيئة، وهذا غير صحيح بتاتاً، وها استعمال القرآن لكلمة خلود يريك أن الدقّة في استعمالها تشير للمدة بلا نهاية.

الآية تشير لمسألة خلودهم في النار بأن النار ذات نفسها ليست كائناً خالداً يبقى لوحده بقدرته الذاتية، وهذه قدرة إلهية والنار ليست إلهاً ولا كياناً بصفة من صفات الإله، ولا هم في النار سيكونون بقدرة ذاتية فيها كخالدين ومنفصلين عنه تعالى، لا، بل سبحانه شاء أن يخلدوا في النار الدائمة وهي لن تخرب هي أيضاً.

تذكّر أن الآية هنا تتحدث عن سماوات وأرض في الآخرة وهي غير السماوات والأرض الموجودة الآن في الدنيا، لأن السماوات والأرض "الدنيا" ستتبدّل، راجع الآية 48 من سورة إبراهيم "يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ".

نُكمل مع الآية، {إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ}، وما يقرّره سبحانه سيحصل حتماً لأن المسؤول عنك من مستوى إلهي موصوف بتمام الوصف بفعل شيء ما، حيث أنا أفعل وأنت تفعل وذاك يفعل... ونبني ونزرع ونصنع... ولكن بيننا مستويات مختلفة في الفعل، وذاك موصوف بأنه إن فعل الزراعة فهو بارع فيها وتعطي نتيجة جيدة أكثر من فعلي أنا للزراعة، لأنه فعّال "للزراعة" حيث هو موصوف بتمام الاتصاف بأنه مزارع أكثر مما أنا موصوف بأني مزارع. وهنا وصفه سبحانه بأنه "فعّال لما يريد" يشير إلى عمق وتمام اتصافه سبحانه بتمام الفعلية، فعمله النابع من قدراته وصفاته الفائقة سيكون بالتمام موصوفاً بما يفعله، وحيث أراد سبحانه أن تخلد النار، فسيفعل ذلك وستكون خالدة.

انتبه جيداً، لا تفهم من الآية أن الخلود مؤقت، وأنه سيأتي زمن تفنى فيه السماوات والأرض، أو سيأتي زمن يغيّر تعالى "قراره" ويُبيدهم، لا، لأن الخلود أبداً "بلا نهاية" لكل الناس سواء لأهل الجنّة أو لأهل النار، ولكن الآيات تنبهنا أن الخلود لن يحصل بقدرتنا الذاتية، ولن نستمر باقين بقدرتنا الذاتية، وحيث سنخلد في السماوات والأرض فهي أيضاً ليست دائمة بقدرتها الذاتية، وهي ليست شيئاً لا يفنى بسبب صفات فيها تجعله باقياً دائماً، لأن البقاء بسبب القدرة الذاتية هو صفة حصرية للإله سبحانه.

هناك الكثير من الآيات القرآنية التي تشبه آيتنا هنا، حينما يريد القرآن تنبيهنا على القدرة المطلقة والمشيئة القاهرة أنها فقط لله تعالى، وأي شيء قد يوحي بأن أي مخلوق صار عنده قدرة ما، أو موصوف بشيء ما، يأتي القرآن بجملة مثل جملة: "إلا ما شاء ربك". ولا أحد من المخلوقات يمكنه أن يشاء، أو أن يفعل أي شيء، أو يُوصَف بأي شيء، إلا أن يشاء الله تعالى، وإذا شاء تعالى فسيترك الأمور تحدث، وإن لم يَشَأْ فإنها لن تحدث.

خذ مثلاً الآية 6 و 7 من سورة الأعلى "سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى، إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ..." ومعناها أنك أيها الرسول محمد(ع) لن تملك قدرة ذاتية على التذكّر بل بمشيئة الله تعالى ستملك قدرة تجعلك لا تنسى القرآن.

مثال آخر ما ورد في الآية 23 و 24 من سورة الكهف "وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ..." والعديد من الآيات التي دائماً تنبّه أنه لا أحد لديه مشيئة قاهرة فوق مشيئته تعالى، أو منفصلة عنه تعالى، بل من آمن أو كفر فهو تحت المشيئة الإلهية، وهو سبحانه سمح لهما أن يختارا الإيمان أو الكفر، وهما لم يختارا بقدرة قاهرة فوق قدرة الله تعالى، ولو أراد سبحانه لهما أن يكفرا وهما أرادا أن يؤمنا، فغصباً عنهما سيكفران، ولو أراد سبحانه أن يؤمنا وهما أرادا أن يكفرا، فغصباً عنهما سيؤمنان.

هنا الكلام عن خلود أبدي لأهل النار، ولا نهاية له ما دامت البيئة التي هم فيها موجودة، وأخبرنا سبحانه أنه شاء أن تدوم أن تبقى تلك البيئة موجودة، مع لفت الانتباه أن خلودهم ودوام البيئة "السماوات والأرض" هو بيده تعالى.

هناك أناس يتعذبون للمحة في النار، ولدقيقة، ولساعة، وليوم، ولسنة، ولسنوات، وهناك الخالدون في النار، ولذلك كان للنار سبع مراتب رئيسية "راجع سورة الحجر الآيات 43 و 44 "لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ"، وهناك الذين يقضون فترة تعذيبهم في النار ويخرجون منها للدخول إلى جنّة من مرتبة منخفضة، وذكرت لك هذا حتى لا تظنّ أن الآية هنا تتحدث عمّن سيخرج من النار ويدخل الجنّة حين يشاء الله تعالى، وقد يتلاعب أحد ما بالكلام ليبدو كأنه يشير لذلك، ولكن الآية تتحدث فقط عن الخالدين في النار بمشيئته تعالى القادرة على تخلديهم فيها والقادرة على جعل النار دائمة، لأن نفس التعبير سيرد وصفاً لأهل الجنّة في الآية التالية، ولا يمكن تطبيق هذا المعنى عن قصد الآية كلامها عن الذين سيخرجون من النار، لتطبيقه على الذين في الجنّة، إذ لا معنى لإيقاف خلود أحد ما من الجنة.

(وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ{108})
{وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا}، الذين كانوا من الموصوفين بقيامهم بما يجعلهم سعداء، ولم ترد كلمة "سعد" في القرآن إلا هنا في هذه السورة مرتين، فهم مرتاحون لأنهم مؤمنون عاملون للصالحات وفي الآخرة يرون حسناتهم ويرون مغفرته تعالى... {فَفِي الْجَنَّةِ}، في المكان الموصوف بروعة ما فيه، وفيه حدائق وبساتين وقصور وما يسبّب السعادة... {خَالِدِينَ فِيهَا}، لا يموتون ولا يفنون ولا يخرجون من الجنّة، {مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ}، وطالما البيئة التي يعيشون فيها موجودة، فهم خالدون في الجنة.

تذكّر أن الآية هنا تتحدث عن السماوات والأرض التي في الآخرة، وهي غير السماوات والأرض الموجودة الآن، ونحن الآن في الدنيا وهي ستتبدّل لننتقل إلى الآخرة التي لن تتبدّل ليأتي غيرها. أقول لك هذا لأن الكثير من أدبيات الكلام المتساهل فيها تتضمّن أن الآخرة الآن موجودة، ونقول لمن مات إنه انتقل إلى الآخرة... ويقولون: لم يذهب أحد إلى الآخرة ورجع ليخبرنا أنها موجودة... وكما ترى مثل هذه الأدبيات متعارضة مع واقع كون الآخرة ليست موجودة الآن.

{إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ}، فأمام المسؤول عنك من مستوى إلهي خيارات عديدة، ولن يستمرّ خلودهم في الجنّة لو شاء وقرر سبحانه انتهاء خلودهم، ولكنه تعالى أخبرنا مراراً وتكراراً أنه قرّر خلودهم فيها وبالتالي السماوات والأرض التي فيها الجنة باقية، وخذ مثلاً الآية 100 من سورة التوبة "... وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ".

لا هم خالدون بقدرتهم الذاتية، ولا السماوات والأرض تدوم بقدرتها الذاتية، ولا يستمرون بالبقاء في الجنّة بقدرتهم الذاتية، بل كل شيء متعلق بالمشيئة الإلهية، فإذا شاء بقوا، وإذا شاء فنوا، وأخبرنا سبحانه وتعالى عشرات المرات أنه شاء لهم الخلود فيها.

ذلك الخلود في الجنة، {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ}، وهو شيء مستمر ولن ينفصل عن الاستمرارية، ولن يتم قطعه، وسيستمر هذا العطاء الإلهي بالخلود في الجنة. مثلما نقول: يد جذّاء، أو جذوة من النار. ونقصد انفصال شيء، وهنا الكلام عن حالة الاستمرار بلا انفصال عنها. وتصوّر مرور فترات انقطاع بموتهم وإعادة إحيائهم، أو بخراب الجنة وإعادة تجديدها، أو توقّف كل شيء لزمن ما وإعادته لما كان... وكل هذا وغيره لن يحصل بل ستستمر سعادة أهل الجنّة فيها بلا انقطاع.

في دراسة الآية السابقة توسّعنا قليلاً بالكلام عن تعليق الخلود بالمشيئة.

(فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـؤُلاء مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ{109})
{فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ}، هم يعتبرون أنفسهم عبيدًا مفروضٌ منهم الطاعة لآلهة غير الله تعالى وهذا شيء تافه لا يستحقّ أن يلفت اهتمامك، فالمراء هو عموم أي كلام فارغ تافه، سواء كان حول موضوع تافه أو ردًّا على الحقّ الواضح بكلام تافه، وأنت وصلك الحقّ المبين، أمّا المشركون فهم {مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ}، وكما آباؤهم من قبل اخترعوا آلهة وعبدوها فهم مثلهم، فالتفكير في احتمال ولو بسيط بوجود صحةٍ بشكل ما في عبادتهم

لآلهة غيره تعالى فهو مراء، والردّ عليك ومعارضة دينك هو مراء، فأنت أمام حقيقة ناصعة واضحة فامنع نفسك من أي تفكير بمخالفتها.

تذكّر أننا ولأسباب عديدة تمرّ علينا حالة تشبه تكرار تعدادنا للأشياء للتأكّد من عددها، ونعدُّها مرّة ومرتين وثلاث... مع وصولنا في كل مرة إلى نفس النتيجة، وما معنى أن نعدّها للمرة الخامسة أو السادسة! فالمرية التي تنهى الآية الرسول عنها، فهي من هذا النوع، فهو (ع) مقتنع بالأدلة المتراكمة بدينه تعالى ولذلك لا داعي لأي إعادة تفكير فيها، أمّا مرية الكافرين فهي كلامهم التافه أمام حقيقة واضحة ينكرونها.

{وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ}، لسوف نوفيهم، نعطيهم بالتمام {نَصِيبَهُمْ}، حصتهم المحدّدة {غَيْرَ مَنقُوصٍ}، من دون أي نقص. فهناك عقاب على الشرك، وسوف يحصل هؤلاء على عقابهم بالتمام والكمال مثلما حصل آباؤهم على حصتهم مما لهم من العذاب.

بقي شيءٌ، كما هذا الدين الإلهي له امتداد تاريخي، فالشرك أيضا له امتداد تاريخي ولكن شتّان بين الامتدادين، فدينه تعالى واحد وهو نفسه من الأول إلى الآن، ومن أوّل ما تأهلت البشرية لتحمل التكليف بدينه تعالى من آدم (ع) إلى نزول هذا القرآن، أمّا دين الشرك فجوهره وأساسه أيضا واحد وهو: اختراع آلهة وهمية. وتلك الآلهة الوهمية لا امتداد تاريخي لها، ومدّة بعد مدّة يخترع الناس آلهة من أوهامهم وخيالاتهم بأسماء جديدة وصفات وقدرات جديدة... فإن كان المشركون لديهم امتداد تاريخي لدينهم من آبائهم وأجدادهم، فيعبدون آلهة عبدها آباؤُهم، فهذا الامتداد القصير جدا والمحصور في منطقة ما لتلك الآلهة، فما هو إلا امتداد لعقلية اختراع الآلهة الوهمية، ولا يدل على ترسّخ عبادة تلك الآلهة عبر التاريخ، ولا يدل على وجودها وعلى كونها آلهة حقيقية.

وأنت تعلم أن المشركين عبر التاريخ كان لكل قوم منهم آلهة اخترعوها وكانت خاصّة بهم، وغيرهم اخترعوا آلهة أخرى... أمّا الله سبحانه وتعالى، فمن أوّل ما تأهل الناس إلى مستوى قدرتهم على تلقّي التكليف الإلهي، أرسل سبحانه لهم الأنبياء ليخبروهم بأنه تعالى إله أحد، وواحد لكل المخلوقين.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ{110})
{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ}، هذا الدين المذكور في هذا القرآن له عمق تاريخي يمتد لآلاف السنين، حيث هناك كتاب إلهي نزل على النبي مُوسَى (ع)، وهو التوراة، {فَاخْتُلِفَ فِيهِ}، ولم يتوافق الناس عليه بل خالفوا محتواه، وأشركوا...

ننتبه، الكتاب الذي نزل على الرسول مُوسَى (ع) ليس كتابًا مخصّصًا لبني إسرائيل بل لعموم الناس، ولكن الغالبية المؤمنة به كانت من بني إسرائيل، وكلام الآية هنا لا يشير بالخصوص إلى بني إسرائيل، بل لكل الناس الذين لم يؤمنوا بالكتاب الإلهي الذي وصلهم عبر النبي مُوسَى (ع).

الكلام هنا من القرآن عبر الرسول مُحَمَّد (ع) مع المشركين الذين ورثوا عن آبائهم عبادة آلهة وهمية، وتخبرنا السورة أن الامتداد التاريخي الحقيقي لدين حقيقي هو فقط امتداد دينه تعالى الذي سبق ونزل في كتاب على الرسول مُوسَى (ع)، ولم يوافقه الناس فأشركوا وتركوا كتابه تعالى، ولا معنى لكلام المشركين عن الامتداد التاريخي لدينهم لأن آباءهم كانوا قبلهم عليه، فهذا الامتداد الذي يدّعونه ما قدره وكم طوله؟ وهل يصل إلى آلافٍ من السنين مثلما يصل هذا الدين إلى كتاب من عصر النبي مُوسَى (ع)؟

لا تفهم من الآية هنا أن بني إسرائيل هم المقصودون بالذين اختلفوا في الكتاب الإلهي، لا، بل الكلام عن عموم من أشرك مخالفًا للكتاب الإلهي.

{وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ}، قال المسؤول عنك من مستوى إلهي كلمة من قبل، وكما ترى من سياق الكلام قال تعالى إنه سيترك البشرية حتى يكملوا الحياة الدنيا كلها للنهاية، وبعدها سيكون هناك يوم قيامة من الموت وسيقضي فيه تعالى بين الناس، {لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ}، لحصل ما يجب أن يحصل بين المختلفين عن كلامه تعالى، لأصدر سبحانه حكمه مباشرة بين الناس، ورمى فورًا من يكفر في النار، وأمات من يؤمن وأدخله إلى الجنّة، ولكن هذا لن يحصل بل ستكمل البشرية حياتها حتى الموعد الذي قرّره تعالى.

{وَإِنَّهُمْ}، عموم الناس الذين آتيناهم الكتاب مع النبي مُوسَى (ع)، {لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ}، غير مستندين لأي علم وبدون تفكير يحتملون أن الكتاب الذي جاءهم به الرسول مُوسَى (ع) غير صحيح! وشكُّهم {مُرِيبٍ}، إذ بمجرد انطلاق شعور يحصل معهم يرفضون كلامك.

هم يعلنون أن أول ما يصيبنا من سماع كلامك أن نشكّ في صحّته والبداية مع الريبة، ومن مستوى الريبة نرفضه، حيث إن أقل شعور يصيبنا عندما نسمعه يدفعنا فكرنا لرفضه.

(وَإِنَّ كُـلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ {111})
{وَإِنَّ كُلًّا}، كلُّ واحدٍ من المشركين الحاليين الذين وصلهم هذا القرآن والسابقين الذين وصلهم التوراة، {لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ}، إلَّا وبالتأكيد لسوف يعطيهم المسؤول عنك من مستوى إلهي بالتمام {أَعْمَالَهُمْ}، أعمال الشرك واختراع الدين يوجد عليها حساب وعقاب، ولسوف يحصلون "بالتأكيد" على حسابهم على ذلك بالتمام.

{إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}، لديه تعالى أخبار وتفاصيل كل ما فعلوه، حيث ما يفعله المشركون يحصل تحت مراقبة إلهية ويتم تسجيله، فمحاسبتهم ستتمّ بدقة.

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {112})
{فَاسْتَقِمْ}، كن على الأحسن ولا تنحرف، {كَمَا أُمِرْتَ}، مثلما أمرناك عبر الوحي، {وَمَنْ تَابَ مَعَكَ}، ومن أعلن أنه آمن وملتزم بهذا الدين ولن يعود لدين الشرك من الذين معك، أيضاً فليستقيموا ولا ينحرفوا.

الآيات السابقة قالت إنه لا يوجد أي سبب منطقي عقلاني حتى تفكروا بصحة دين الشرك، لأنه يقيناً خطأ، وهذا الدين الذي معكم صحّ، فاتبعوه بالضبط ولا تنحرفوا عنه.

{وَلَا تَطْغَوْا}، والطغيان هو تعدي الحدود، فلا تتعدوا حدودكم، لأن الميلان عن الأوامر الإلهية هو طغيان، وهو تعدٍّ وتخطٍّ للأوامر الإلهية، فلا تفعلوا ذلك، إذا أمركم بتوحيده فوحدوه، وإذا أمركم مثلاً بترك الربا فاتركوها...

{إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}، حيث إن صورة أعمالكم يدركها تعالى ويعي معناها، فهو ليس مثل كاميرا المراقبة التي تسجل ولا تفهم ما يجري، وأنتم تحت المراقبة فانتبهوا.

ننتبه دائماً ولا نقرأ هذا النوع من الآيات بناءً على ما تراكم لدينا من معلومات من الثقافة الدينية حول شخص النبي محمد (ع)، أنت كمسلم مؤمن لديك صورة عنه (ع) كواحد من أقرب الناس إليه تعالى وأشدهم إيماناً به تعالى، وأشدهم التزاماً بدينه تعالى... ولكن ارجع إلى الوراء إلى زمن نزول هذا القرآن عليه (ع)، حيث إن نزول الوحي عليه (ع) لم يجعله مؤمناً، بل أوصل إلى فكره معلومات، وآمن بها (ع) لأنها متماشية مع قلبه السليم، لو نزل الوحي على أبي لهب فهل تتوقع أن يصير أبو لهب مؤمناً لمجرد وعيه لكلام حق في فكره؟ لا، لن يؤمن لأن المعلومات التي سيتلقاها لا تتماشى مع قلبه الأعمى، وسيرفضها وسيحاول بأي طريقة ممكنة التخلص من تلقي الوحي...

من الطبيعي أن يتضمن القرآن أوامر للرسول محمد (ع) أن يستقيمَ مثلما أمره تعالى، ومن الطبيعي أن يأمره سبحانه أن لا يماري، ولا يشك... مثلما ترى أنه من الطبيعي أن يأمره تعالى بالصلاة والزكاة والصدقة والجهاد والصبر...
حيث إن هذه أول الأوامر الإلهية له (ع) ليكون مؤمناً حقيقياً ملتزماً بدينه تعالى، وترى ذلك صريحاً في الآية 52 من سورة الشورى {وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}.

(وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ{113})
{وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا}، فلا تميلوا وتطمئنوا إلى الذين لم يكن معهم حق حين أشركوا، لأنهم ظلماً أشركوا به تعالى وتركوا كتبه ورسله رغم الأدلة الواضحة، فإذا ركنتم إليهم فملتم إليهم، فسمعتم كلامهم وأطعتموهم... {فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ}، فستشعرون فعلاً بالألم من نار الآخرة.

{وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ}، حينها إن ركنتم لهم فصار لكم أولياء غيره تعالى، سواء واليتم المشركين أو واليتم آلهتهم، ففي الحقيقة ليس لكم من ولي غيره، فهو سبحانه الإله الأحد الذي فعلاً تتبع له المخلوقات، فيكون مرجعاً لهم من مستوى إلهي فيؤمّن لهم أموراً من مستوى إلهي. كما نقول: لا يمكنكم السفر بالطائرة من دوني، لأني الوحيد الذي يمكنه قيادتها. هنا ليس لكم من يكون مرجعاً لكم تتبعون له ليؤمّن لكم ما تحتاجونه من مستوى إلهي، كالمغفرة والحماية من العقاب والثواب الحسن... أي أحد من دون الله تعالى.

{ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ}، فلن تجدوا من يحقّق لكم ما ترغبون به وتريدونه، وهنا الكلام عن الخلاص من عقابه تعالى لمن والى غيره، بما أنه الإله الأحد، فوحده يمكنه فعل ما يريد، فلو قرّر تعذيبكم فعندها لن تجدوا من ينصركم منه تعالى.

من أهمّ المفاهيم التي يركّز عليها القرآن هي الولاية له تعالى، فأنت تواليه أي تعتبر نفسك تابعاً له وتنفّذ ما يقوله تعالى، ومن تبعات ذلك ما قاله سبحانه أنه سيفعله بالموالين له، فسيغفر لهم وينجّيهم من العقاب ويدخلهم الجنّة... ولكن القرآن يركّز دائماً مع ذلك على شيء آخر، لو لمرة واحدة، وبأي شيء كان، لو سمعت كلمة من أحد ما وكانت مخالفة لأوامره تعالى ونفّذتها، فيعتبرك سبحانه واليت ذلك الكائن وتركت ولايته تعالى، وإذا كان شيئاً يضرّ بأساسيات الإيمان فسيعتبرك تعالى أنك لم تعد تابعاً له سبحانه.

بناءً عليه فالتعبير هنا بـ {فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ}، لا يشير إلى عذاب قليل، بل إلى حتمية العذاب بالنار التي لم تكن لتمسّكم لو واليتموه تعالى لوحده، ومن بعد ذلك تأتي التفاصيل، من والى غيره تعالى بأمر غير خطير، فهذا قد تمسّه النار لمدةٍ قليلة... ومن والى غيره تعالى في موضوع خطير، فهذا قد يخلد في النار. وكما ترى فالسورة هنا ليست مخصصةً لهذه التفاصيل لأن محور كلامها مختلف وتجد تفاصيل عن ذلك في سور أخرى.

(وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّـيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ{114})

{وَأَقِمِ}، فعّل ولا تهمل ولا تترك، {الصَّلاَةَ}، التوجّه والإقبال، طبعاً المقصود هو التوجّه بالذكر إلى ربّك سبحانه، وكلمة صلاة صارت مصطلحاً دينياً للحركات والكلمات التي نقوم بها في مواقيت محدّدة ونسميها بالصلوات الخمس الواجبة فأقمها، {طَرَفَيِ النَّهَارِ}، أول النهار وآخره، ومن عموم القرآن ومن المشهور عن السنّة النبوية أن الصلاة الواجبة في الطرف الأول للنهار هي في فترة الضوء من اليوم عند الفجر حتى الشروق، وفي الطرف الآخر للنهار بعد الظهر إلى المغرب، ونعرف من سنّة النبي محمد(ع) المنتشرة بدون أي خلاف بين المسلمين، أنه (ع) صلّى عند الفجر وقبل شروق الشمس: ركعتين. ومن منتصف النهار وما بعده حتى المغرب: صلّى أربع ركعات، مرتين. وتُسميان بالظهرين.

{وَأَقِمِ الصَّلاَةَ}، {زُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ}، لأن الليل درجات تبدأ من غياب قرص الشمس ثم غياب الحمرة المشرقية بعدها غياب الحمرة المغربية ثم غسق الليل... وهذه الظواهر تختلف في حصولها على سطح الأرض بحسب بعد البقعة عن خط الاستواء وقربها من القطبين. فأقم الصلاة في مواضع مختلفة من الليل، ونعرف من سنة النبي(ع) المنتشرة بين المسلمين بلا خلاف أنه(ع) صلّى بعد غروب الشمس ثلاث ركعات تليها أربع ركعات، نسميهما بالعشائين، وصلّى "نافلة" غير واجبة بعد منتصف الليل، نسميها صلاة الليل.

{إِنَّ الْحَسَنَاتِ}، إن الأعمال الموصوفة بأنها حسنة، لأن عموم أي عمل جيد هو حسن، وهنا الكلام عن نموذج منها وهو الصلاة، {يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}، إذا كنت قمت بعمل سيّء فالعمل الحسن يجعل العمل السيّء يذهب عنك، ويتم محو السيئة من صفحة أعمالك.

{ذَٰلِكَ}، الكلام عن الصلاة كنموذج عن بقية الأعمال الحسنة الماحية للسيئات، {ذِكْرَىٰ}، وهي شيء يستحضره في عقولهم وفكرهم، {لِلذَّاكِرِينَ}، الذين يتذكّرون هكذا أمور، حيث إن هذا الكلام سمع به الكثير من الناس، ولكن لم يذكروه كلّهم، ولم يستحضروه في ذهنهم، ولم يكن له قيمة عندهم ولم يصلّوا له تعالى، ولكن هناك ذاكرون حيث هناك من يستحضر دائماً هذا الكلام في فكره وعمله، فيصلّي وهو يعلم أن الحسنات تنتج عن صلاته وأنها ستمحو عنه السيئات.

لاحظ أننا من الآية هنا علمنا أن الصلاة تمحو السيئات، وتصير هذه المعلومة ذكرى، وإذا استحضرتها في ذهنك وقمت للصلاة في الأوقات المعروفة، فأنت من الذاكرين ولست من الناسين.

نلاحظ أن القرآن دائماً يذكر ثلاثة مواقيت للصلاة، ولا مرة ذكر خمسة مواقيت، مع العلم أن الصلوات خمس، من القرآن نعلم أن الأساس هو الصلاة في ثلاثة مواقيت من اليوم، ومن السنّة نعلم أنه يمكن توزيع الصلوات على مواقيت خمسة، ويمكن جمعها على ثلاثة. الظهران يمكن أن تصليهما معاً في أي وقت بين الظهر والمغرب، والعشاءان يمكن أن تصليهما معاً في أي وقت بين المغرب ومنتصف الليل، وهذا شيء فعله الرسول(ع) في آخر فترات حياته حيث جمع بين الظهرين والعشائين كما هو مشهور بين عموم المسلمين.

أما بالنسبة لتسمية الصلوات باسم مواقيت: صبح، ظهر، عصر، مغرب، عشاء. فلا يبدو أنها تسميات منه تعالى أو من رسوله(ع) لِتُحَدِّدَ وقتها، لأن الرسول فصل بين الظهرين والعشائين، ومشى الناس على الفصل لمواقيت الفضيلة، وليس لمواقيت الوجوب، ما نسميه بصلاتي الظهر والعصر فهما صلاتان واجبتان بعد الظهر إلى ما قبل المغرب، وفضيلة أدائهما منفردتين، واحدة أول الظهر والثانية عند العصر، مع إمكانية صلاتهما معاً في أي وقت بين الظهر وقبل المغرب، ونفس الكلام عن صلاة العشائين.

انتبه، نحن نتحدّث بشكل عام عن الوقت، أما عن الفضيلة كأفضل وقت لأداء الصلوات، فهو أن تصلّي الصلاة في أوّل وقتها ولا تؤخّرها حتى آخر الوقت، وأن تفصل بين صلاة الظهرين وتصلي واحدة منها ظهراً والثانية عصراً، وتفصل بين صلاة العشائين...

بقي شيء تراه لو رجعت إلى الوراء قبل ما تراكم من ثقافة إسلامية عندك، بعد كلام السورة الطويل عن الشرك به تعالى وعن عقابه وعن ثواب الإيمان به تعالى، تأتي آيتنا هنا لتذكر الصلاة، لتؤكّد أن الإيمان يُترجم عملياً بالممارسة للعبادة، على أساس أن هذه العبادة من المفروض أن ينتج عنها ابتعادك عن أعمال المشركين الفاسدة، لأن دينهم لا يمنع من الفساد، وهذا الدين بصلاته من المفروض أن يمنعك من الفساد.

هنا ترى الآية تأتينا بأمر منه تعالى بالصلاة، وحتى لا تفهم أنه سبحانه هو المستفيد منها، أخبرتك الآية أنك أنت بحاجة لها، لأنك يومياً ترتكب العديد من السيئات، الخفيفة البسيطة أو الثقيلة، واستفادتك من الصلاة أنها ماحية لسيئاتك. يعني الصلاة منحة وفضل إلهي علينا لتكون طريقة نمحو بها سيئاتنا.

طبعاً هناك جوانب أخرى للصلاة ذكرتها سور متفرقة هنا وهناك بحسب ما يناسب سياق موضوعها، كنهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر كما ورد في الآية 45 من سورة العنكبوت "اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ"، وللتقرّب منه تعالى لزيادة الهدى...

(وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ{115})
{وَاصْبِرْ}، لتبقى تصرفاتك بشكل واعٍ ومدروس أمام ضغوطات لن تستمر، لا تكن ملولاً أو سريع الغضب... {فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}، فالإيمان والعمل الصالح هو عمل حسن، والذي يقوم به فهو محسن، وهذا العمل الحسن عليه أجر، وحدّد سبحانه ما تستحقونه على إيمانكم والعمل الصالح، وحتماً سوف تحصلون على هذا الأجر.

مثلما تصبر على التعب من العمل الشاقّ في التدريس أو النجارة أو الزراعة... أملاً بالأجر عليه، وإذا لم تصبر وتركت العمل عندها سيضيع عليك الأجر. هنا نفس الشيء، فأنت مؤمن عامل للصالحات، وحتى تحصل على الأجر على ذلك، عليك بالصبر على ما يضايقك في تدينك، وطالما سبحانه يقول لك إنَّه هو سيعطيك الأجر، فلن يضيع أجرك وستلقاه حتماً.

ننتبه دائماً لوصف المحسنين، وهم الذين يلتزمون بما يرونه حسناً، ولنقل إنهم رأوا الغشّ فاسداً ورغم الضغوطات والمغريات لم يفعلوه، فهذا الحسن منهم لن يذهب سُدىً، وعليه أجر، ومن ناحية ثانية لا يأمر سبحانه إلا بما هو حسن، وهكذا يتماشى ما يرونه حسناً مع دينه تعالى، وسبحانه حدّد سلفاً ما سيعطيه للمحسنين.

الدارج في الثقافة الدينية تفسير "المحسنين" بمن تفضّل على الآخرين، على معنى تقديمه للآخرين شيئاً ليس واجباً عليه، كالذي تنازل عن حقّه... وهذا ليس المعنى الأساسي لوصف الناس بالمحسنين بل هو من التطبيقات، والأصل هو وصف عموم من قام بأي عمل حسن فهو محسن من المحسنين.

بقي شيء نضعه في بالنا، حيث إن آيتنا هنا وما بعدها، وعموم كلام القرآن، لو فسّرت الكلمات بغير دقّة معانيها، سيذهب عليك مفهوم قرآني أساسي، وعادة حين يتحدث القرآن عن العمل الحسن والصالح والخير... يذهب فكرنا إلى الالتزام بكلامه تعالى، فنقول إنها مرادفة لفعل الواجب وترك ما حرّمه تعالى، وهذا صحيح، ولكن ننتبه أن هذا التفسير هو تماشٍ مع توصيفه تعالى للأمور، حيث هناك أمور سيئة فاسدة، كالغشّ والترف والاعتداء على الآخرين... ونحن من المفروض أن نراها سيّئة، وهناك أمور حسنة كالصدق والوفاء... من المفروض أن نراها حسنة صالحة، وهذه القابلية التي جعلها تعالى فينا لتمييز الخير من الشرّ، وهي ما يراكم لدينا تصنيفات للأمور لتصير مجموعة للأعمال السيئة مصنفة لوحدها، ومجموعة لأعمال الخير لوحدها، والتعامل مع هذه الأعمال سينبع من قناعة مبنية على القابلية التي فينا لرفض أو قبول حصول هذه الأفعال معنا، لأنني أرفض أن تغشّني أو أن تكذب عليّ أو تخونني أو تعتدي عليّ... بالتالي سأصنفها على أنها أعمال سيئة، وبالتالي من المفروض أن لا أفعلها مع الآخرين.

كما ترى مررنا بالكلام فوق على أساس تكوّن تصنيف الخير والشرّ في فكرنا ونفسيتنا، فكيف ينشأ وما هي آليات تفعيل هذه الخاصية الحيوانية؟ هذا باب مفتوح للدراسة، ولكن النتيجة هي واقعنا الذي يعتمد ولو على الحدّ الأدنى من أمور نتفق عليها أنها سيئة حتى نضمن أن الآخرين لن يقوموا بها ويؤذونا، وفي نفس الوقت يضمن الآخرون أننا لن نقوم بها ونؤذيهم.

هناك أمور أخرى زيادة عن ذلك، حيث نتفق على أمور تعاونية تعاضدية، تستدعي منك القيام بعمل لمصلحتي ولا استفادة لك منه حالياً، كمساعدتي مالياً عبر التبرع أو دفع الضريبة للدولة التي تَحسِبُ منها قسماً لمساعدة الفقراء... أو بالدفاع عني من الأشرار كحالة الشرطي والجندي...

هناك عناوين وتفاصيل كثيرة عن الصلاح والفساد وليس من اختصاصي البحث فيها، وما أشرت إليه هنا يرينا بعضاً من العمق فيما اعتمد عليه القرآن حين وجّه كلامه لنا، وصرنا نرى أننا نحن نميّز الخير من الشرّ، وبقرار منّا نفعل الشرّ، وبتكراره وبغياب أي تهديد أو عقاب على فعله فإننا نفعله وصولاً إلى مرحلة نرفض فيها تصنيفه بأنه سيّء.

هكذا نفهم أنه تعالى في قرآنه لا يعرض علينا شيئاً غريباً كدين نازل من الفضاء الخارجي، بل يلفت انتباهنا للعقاب على الأعمال السيئة والتي نحن من المفروض أننا نراها سيئة، ويلفت انتباهنا للأجر على الأعمال الحسنة التي من المفروض أننا نحن نراها حسنة.

الفساد في الأرض الذي تشير له الآية التالية، هو فعل السوء، المفروض أننا نحن نراه سيئاً وكان يجب علينا أن لا نقوم به، وهكذا نرى القرآن يشير هنا وهناك لنماذج عن السوء حتى ننتبه لها، وأنت تعلم أنها هي أفعال سيئة من الأساس ولم تصر مصنفة سيئة لأنه تعالى قال إنها سيئة، وبناءً عليه نفهم المساحة والهامش الكبير المتروك لنا فيما ترك سبحانه ذكر تفاصيله من التشريعات والسلوكيات، حيث لا تجد كلاماً قرآنياً صريحاً عن الفساد في الأرض بجمع القمح من الأسواق وخزنه للتحكّم بسعره، فهل تحتاج لآية قرآنية صريحة توصّف احتكار المواد الأساسية للحياة بأنه فساد؟

هذا المفهوم القرآني أساسي جداً وعليه ينبني الإيمان بدينه تعالى، لو وجدت شيئاً يقوله تعالى ولم يعجبك، فإما أنك لم تفهمه، أو فيك شيء سيّء يمنعك من فهمه، أو أنه تعالى لم يقله وهو من اختراع الناس وإلصاقهم له بدينه تعالى، لأنه سبحانه لا يعرض علينا أشياء غريبة عنّا، بل زرع فينا قابلية تمييز الخير من الشرّ، وسبحانه لا يأمر إلا بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى... وسيحاسبنا ويجازينا على هذا الأساس.

(فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ{116})
تعقيباً على الأمر بالصبر وما سبقها من أوامر للمؤمنين:

{فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ}، من الأفضل لو أنه من الناس الذين كانوا مقترنين مع بعض، فكانوا يعيشون مع بعض في زمان مشترك، وأتى بعدهم آخرون مقترنون مع بعض، وغيرهم... الذين كانوا، {مِن قَبْلِكُمْ}، هنا على الأرض، {أُولُو بَقِيَّةٍ}، فعندهم صفة البقاء على شيء، وهنا الكلام عن البقاء على الدين الإلهي، {يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ}، فيأمرون الناس أن ينتهوا فيتوقفوا نهائياً بلا عودة عن التخريب والعمل في الأرض بما ليس فيه لهم ولا لغيرهم مصلحة.

فهذا هو الوضع الأفضل، أن يكون هناك أولو بقية ممن سبقكم، فيكون منكم أناس باق عندهم دين وإيمان ومحسنون وصابرون... يعملون على إيقاف الآخرين عن الفساد بعمومه، سواء الفساد العقائدي من اختراع الآلهة أو اختراع شرائع على هواهم، ولكن هذا لم يحصل تماماً.

{إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ}، لولا كان هناك عدد أكبر أولو بقية لكان أفضل ولكن فقط القليل كانوا أولي بقية، فالقليل كانوا مؤمنين ينهون عن الفساد، وكانوا من الذين نجاهم سبحانه من العذاب، ومرّ معك هنا في السورة نماذج عن نجاة الرسل والمؤمنين مع العذاب الذي أصاب أقوامهم، وهؤلاء هم النماذج الذين يشير إليهم الكلام هنا.

بعبارة أبسط، مثلاً عندما تتحدث عن شخص غريب هجم عليه أهل قرية ما وضربوه، فتقول: لولا كان من أهل القرية أولو بقية "أخلاقية" يحامون عن الغريب، إلا قليلاً منهم. فهناك القليلون منهم أولو "بقية أخلاقية" قاموا بالدفاع عن الغريب.

وجودك أيها النبي(ع) ووجود هذا العدد القليل من المؤمنين "الصابرين المصلّين..." بحيث تشكّلون بقية باقية من التدين الصحيح، فهو امتداد لوجود نفس النوعية ضمن مجتمعات إنسانية عاشت من قبلكم، وقاموا بدورهم في الحياة، فنهوا عن المنكر، وكانوا دائماً قلةً.

{وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ}، فالذين لم يكونوا أولي بقية "دينية" لم يكن معهم حق حيث ظلماً كفروا بدينه الواضح سبحانه، وهنا في الدنيا كانوا مترفين فأشبعوا شهواتهم ورغباتهم بطريقة سيئة متطرفة، فكانوا مترفين في الشهوة وصولاً لفعل السوء والفواحش، ومترفين في المعيشة وصولاً لنحت الجبال بيوتاً، ومترفين في السلطة لدرجة استعباد وقتل الناس... فتركوا الصلاح ولحقوا الترف بمختلف أنواعه.

{وَكَانُوا مُجْرِمِينَ}، كانوا مرتكبين للأعمال التي تستحق العقاب.

فهناك فئتان، فئة تنهى عن الفساد، وفئة ترتكب الفساد، وهم الظلمة المترفون المجرمون.

المترف هو أي شخص كان، فهو كل من تطرّف في الشهوة والغريزة والتصرف المتطرف بشكل عام، غنياً أو فقيراً، رئيساً أو من عامة الناس، فكل واحد وبقدر ما هو متاح له يوصف بأنه مترف، فهناك مترف بسلطته البسيطة على زوجته وأولاده، وهناك مترفة بالسيطرة البسيطة على أولادها وزوجها... وهناك مترف لا يملك إلا مالاً قليلاً جداً واشترى به ثياباً غاليةً مزينةً... فلا تفهم الترف أنه كلام مخصصٌ يقصد الأغنياء، لا فهو موجّه للجميع.

القرن هو عموم ما كان مع بعض لفترة طويلة، كقرن من الناس كوصف لجماعة عاشت لفترة طويلة مع بعضها، وكاقترانٍ بزواج أو اقتران مع الأصفاد والأغلال، أو الاقتران مع بعض في جهنّم... وما هو دارج عن المئة عام أنه قرن فهذا اصطلاح جديد.

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ{117})
{وَمَا كَانَ رَبُّكَ}، ما كان المسؤول عنك من مستوى إلهي، {لِيُهْلِكَ}، ليستنفدَ لينهي، ليميت، {الْقُرَى}، المجتمعات الإنسانية، {بِظُلْمٍ}، من دون حق وإنصاف، {وَأَهْلُهَا}، والمنتمون لتلك القرى، {مُصْلِحُونَ}، يقومون بالأعمال الصالحة الجيدة.

بعبارة أبسط أهل القرى الصالحون لا يظلمهم سبحانه ويهلكهم، كما قرأنا في نماذج القصص التي روتها السورة، الذين أهلكهم تعالى هم أشركوا واخترعوا شريعة فاسدة سيئة... فاستحقوا العقاب.

تذكّر أن تركيز السورة على تعذيب القرى الظالمة هنا في الدنيا قبل الآخرة.

(وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ{118})
{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ}، أمام المسؤول عنك من مستوى إلهي خيارات عديدة ولو قرّر سبحانه، {لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً}، لجعلهم أناساً لهم امتداد تاريخي ويشتركون على شيء أساسي واحد، وهنا الكلام عن جعله تعالى لهم مؤمنين، إمّا بالتلاعب في عقولهم وبرمجتها كلها على نمط واحد من التدين والاعتقاد، وإمّا بمرافقة ملائكة للناس لتضربهم فوراً كلما تصرفوا بشكل سيئ، أو بسحب حرية الإرادة منهم مع سحب الشهوات... أو بطريقة أخرى... {وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ}، بما أنك ترى الناس لا يزالون مختلفين غير متفقين على دينه تعالى، فهذا مفسد وذاك مصلح... فهذا يعني أنه تعالى لم يشء جعلهم أمّة واحدة على دينه غصباً عنهم.

هم يخالفون أوامره سبحانه لا بقدرتهم القاهرة لقدرته تعالى، بل هو سبحانه سمح لهم بالتصرف بحرية الاختيار وتركهم سبحانه ولم يشء تغييرهم بالقوة، وسترى تكملة الكلام في الآية التالية:

(إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ{119})
{إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ}، هناك الذين لم يختلفوا عن دينه تعالى فكانوا عليه وهم الذين اعتنى بهم المسؤول عنك من مستوى إلهي لما فيه مصلحتهم، وهم المؤمنون الذين هداهم سبحانه بكلامه.

{وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ}، ركّب وألّف سبحانه الناس حتى يتركهم ولا يجبرهم على الإيمان غصباً عنهم، ومن بينهم من سينال العناية الإلهية ليكون مؤمناً. وهذا تعبير آخر عن خلقه تعالى لنا ليبلونا أيّنا أحسن عملاً كما ورد في الآية 7 من هذه السورة {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}... فلن يجبرنا غصباً عنّا على الإيمان، ومن اختار منّا الإيمان فسيؤمّن له سبحانه ما يهديه ويساعده ليهتدي.

هذا الكلام جواب عن سؤال افتراضي: طالما سبحانك خلقتهم، وأشركوا بك، ولم ترض بذلك، وأرسلت رسلاً وكتباً... فلماذا لا تجبرهم على الإيمان بك وتوحيدك؟ الجواب: صمّمنا سبحانه وخلقنا وتركنا مع حريّة الإرادة والاختيار عن قصد، لنمرّ في بلاء الدنيا، ومن ينجح يفزْ بالجنّة الخالدة، ومن يسقط يهوِ خالداً في النار.

{وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ}، فوصل ما قاله المسؤول عنك من مستوى إلهي إلى تمامه بلا انقطاع، والكلمة هي:

{لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ}، المكان الموصوف بسوء ما فيه سيئ فسأجعل فيه، {مِنَ الْجِنَّةِ}، كسرة على حرف الجيم، من المخلوقات من نوع الجنّ، ومن نوع، {وَالنَّاسِ}، {أَجْمَعِينَ}، من كلا النوعين بلا استثناء، وهذا مشابه لما قالته الآية 179 من سورة الأعراف {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ}...

إذن نحن البشر والجنّ حصلنا على العقل والشهوة... وقدرة التمييز بين الخير والشرّ، وحرية الإرادة والاختيار، وسينتج عن ذلك عدد كبير من المتّبعين للشهوة والغريزة والنزوة والهوى... التاركين للعقل، وستكون النتيجة امتلاء جهنم من النوعين. ومن الواضح البديهي أن الآية لا تقصد أن "كل" الجنّ والإنس سيدخلون إلى النار، لا، بل هي جواب لافتراض قد يطرحه أحدهم: الإنس لا يتعذّبون في النار والتهديد للجنّ. وبالعكس قد يقول الجنّ إنَّ التهديد بالنار مخصّص للإنس. فتجيبهم الآية أنه كائناً من كان من أي النوعين وهو كافر فسيدخل النار.

ننتبه جيداً، ربما نفهم من الآيات أنه تعالى لأنهم سيختلفون خلقهم، فكان يقصد أن يخلقهم بهدف أن يختلفوا، وكأنها مكيدة وانتقام من مخلوقات ضعيفة! فانتبه من هذا المعنى، لأنه ظلم، والآية قبل السابقة نبّهت أنه تعالى لا يظلم، ناهيك عن الكثير من آيات القرآن التي تخبرنا أنه تعالى حكيم عادل رحيم... إذن بقي أن نفهم الآية على الشكل التالي:
التخطيط لخلق المخلوقات بأشكالها المتنوعة، من المطيع لله تعالى، الذي مع عقل ولكن بلا شهوة ولا رغبات جسدية كالملائكة "بحسب فحوى كلام القرآن عنهم وبحسب ما هو مشهور في تراثنا الديني"، إلى المخلوقات التي بشهوة ولكن تقريباً بلا عقل بالقياس مع الإنسان كالبهائم، والمخلوقات بلا عقل ولا رغبة ولا شهوة "ولها نوع من الوعي لا نستطيع فهمه" كالأشياء الجامدة كالكواكب، ومخلوقات.... وصولاً لصنف مع عقل يميّز بين الخير والشرّ ومع حرية إرادة وشهوة وغريزة وهو الإنسان والجنّ.

عندما قرر تعالى خلق السماوات والأرض، قرّر خلق كل الأنواع، ومن هذه الأنواع يوجد نوع سيتكلّف بأمور مختلفة عن بقية المخلوقات، وسيتكلّف بترك ما يراه سيئاً... وسيختلف مع بعضه حول ذلك، لأنه مخلوق مع حرية إرادة وشهوة وغريزة... ويمكنه اختيار فعل الفساد أو الصلاح... ولذلك سبحانه خلقهم، لأن نوعهم هو المتمتّع بحرية الإرادة والاختيار والشهوة والهوى...

التخطيط الإلهي للدنيا أن يخلق سبحانه فيها كل أنواع المخلوقات "المناسبة"، والذين يتمتعون بعقل وشهوة وإرادة، جاء دورهم ليخلقهم، فخلقهم لأنهم ضمن المخطّط، ومن الأساس يعلم سبحانه أنهم سيختلفون ولن يتماشوا كلّهم مع كلامه، لأنها طبيعة في هذه الخلقة "بحرية الإرادة مع شهوة وغريزة" فسينتج عنها اختلاف بين أفرادها.

إذا فهمنا هذه الآية جيداً، فسنفهم الكثير عنه تعالى وعن دينه، فسنفهم أنه رحمنٌ حميد عزيز... خلق كل أنواع المخلوقات المتعددة، ولم يخلق مخلوقاً مجبوراً في تصرفاته على دخول الجنة أو النار في النهاية، بل كل نوع من المخلوقات له نهاية محدّدة له تناسب مواصفاته، ونحن فيما يخصّنا، نحن نوع حصل على التفكير، وعلى الشهوة والرغبة، وعلى حريّة الاختيار، وهذه المواصفات، سينتج عنها بالتأكيد، اختلاف في الأفكار والعقائد والتصرفات.

انتبه جيداً، فسينتج عنها أن الغالبية ستدخل النار، وأقلية ستدخل الجنّة، وقال القرآن بكل صراحة ووضوح أنه تعالى لم يلغ هذا المشروع لأن الغالبية ستدخل النار، فهم قرّروا ظلم أنفسهم، ومشى سبحانه بالمشروع لمحبّته للذين سيؤمنون.

أيضاً فكّر فيها، فهذه المحبّة للذين آمنوا وعملوا الصالحات، والجنّة الرائعة الخالدة لهم، سببها صبرهم على الظروف الصعبة التي مرّوا بها، فعن استحقاق نالوا المحبة الإلهية والجنّة. فلا يخطر بالبال اقتراح خلق المؤمنين لوحدهم وترك من سيكفر بدون أن يخلقه تعالى، لا، فسورتنا هنا تركت الدخول في عمق هذا الموضوع الذي تناوله القرآن مختصراً وبالإشارة هنا وهناك عن معنى خليفته تعالى... فنحن كلّنا بشكل ما اخترنا المرور بهذه الدنيا للفوز بالجنّة الخالدة... وراجع في ذلك عرض حمل الأمانة الوارد الكلام عنه في الآية 72 من سورة الأحزاب {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}، وسبحانه لا يهمّه إن كفر الجميع طالما لم يظلمهم وطالما هناك من سيستحقّ الجنّة الخالدة.

(وَكُـلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ{120})
{وَكُلًّا}، وَكُلَّ وَاحِدَةٍ، من نماذج القصص التي مرّت، {نَقُصُّ عَلَيْكَ}، نَتَتَبَّعْنَا ما جرى وأخبرناك به، {مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ}، من معلومات غير منتشر علمها بين الناس عن الناقلين لكلامنا إلى الناس، حَيْثُ أَخْبَرْنَاكَ من قصصهم، {مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ}، حتى يصير فكرك الواعي ونفسيتك مُثَبَّتًا مُسْتَقِرًّا لا يهتزّ.

جَرَى اختيار قصص لتكون نماذج عَمَّا حصل مع الرسل، وهي قصص لم يكن علمها منتشرا بين الناس بهذا الشكل الذي طرحناه، وَاخْتَرْنَاهَا وقصصناها عليك حتى يثبت فكرك ونفسيتك على الإيمان. وَتَرَى فيها التدخّل الإلهي وترى عقابا في الدنيا كنموذج عن عقاب الآخرة، وترى نجاة المؤمنين...

{وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ} "القصص" {الْحَقُّ}، الصواب ما هو صحيح وليس الباطل أو الكذب، وجاءك {مَوْعِظَةٌ}، وهو كلام يحدّد لك الصَّحَّ من الخطأ، وعمليا يُحَدِّدُ لك ماذا تفعل وماذا تترك حتى لا تقع في مشكلة، مثلا: إذا ركنت للمشركين وقعت في مشكلة، فستدخل النار، فالوعظ أن تنتبه فلا تركن للمشركين...

وما جاءك هو {وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}، ليستحضروا في ذهنهم وكلامهم وعملهم تلك القصص، فتكون تلك القصص نافعة للمعتقدين بالدين الإلهي، لأنهم سيتركون السيئات... أمّا غير المؤمنين فتلك القصص لا تعني لهم أي شيء، ولا أي آية ولا أي برهان يعني لهم أي شيء... فهم لديهم قرار بالبقاء على الكفر مهما جرى.

(وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ{121})
{وَقُلْ}، عبر هذا القرآن، {لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}، للذين لا يعتقدون بهذا الدين الإلهي وَبِالتَّالِي هُمْ لا يعتقدون بصحّة تلك القصص أنها كانت عقابا إلهيا لمن كفر..:

{اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ}، على حيث أنتم في ناحية الكفر، وَاعْمَلُوا بحسب عقليتكم وإيمانكم المخالف للدين الإلهي، فهذه نهاية الكلام معكم بعد البراهين والآيات والقصص، وبعد إصراركم على الكفر فتصرفوا بحسب رأيكم وما ترونه مناسبا متماشيا مع حالتكم، فأنتم لا تؤمنون بالدين الإلهي، فهذه مكانتكم، فهذا مكانكم المعنوي، وبالمقابل، {إِنَّا عَامِلُونَ}، نَحْنُ على مكانتنا عاملون، فَانْطِلَاقًا من الناحية الإيمانية التي نقف فيها سنقوم بأعمالنا، وعمليا هذا يعني أننا سنلتزم بدينه تعالى.

بعبارة أخرى، أَنْتُمْ لم تؤمنوا بما نقول وبقيتم على ما أنتم عليه وتقولون بأنكم لن تتغيّروا، وعادة نحن نقول لمن يركب رأسه ولا يسمع النصيحة: على راحتك، بخاطرك... وهنا التعبير يشير لشيء من هذا المعنى فسبحانه لن يستعمل تَعَابِيرَ غير دقيقة، وَلَنْ يقول لهم: على راحتكم افْعَلُوا ما تريدون. بل صاغها بطريقة أنكم إذا لم تتغيّروا فستكون أعمالكم نابعة من رفضكم لكلامه تعالى، وتكملة الكلام عن نتيجة ذلك في الآية التالية.

(وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ{122})
{وَانْتَظِرُوا}، سَيَمُرُّ زمن ومن بعده سيحدث شيء ما، {إِنَّا مُنْتَظِرُونَ}، أَنْتُمْ عملتم على مكانتكم وَهَا مَرَّ في القصص التي ذكرتها السورة نماذج عن عقاب في الدنيا، وكلام عن عقاب الآخرة لمن كان مثلكم، ومرّ فيها نتيجة من آمن، وَسَيَمُرُّ الزمن وسنرى ماذا سيحدث معنا ومعكم.

(وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ{123}
قُلْ لهم عبر هذا القرآن: {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، مَا غاب عنكم ولا تعرفونه من أشياء وحوادث تحصل في السماوات والأرض، فهي لله تعالى، وَيَعْلَمُهَا كلّها سبحانه، والسماوات والأرض هي حدود كل دنيا الْمَخْلُوقَاتِ ولا يوجد شيء خارجها، وكلّ ما يجري وسيجري فيها سُبْحَانَهُ يعلمه، وَمَا ننتظره نحن وأنتم فسبحانه يعلم سلفا ماذا سيحدث.

{وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ} "بالضمّة على الياء فالصيغة صيغة الفعل المبني للمجهول" {الْأَمْرُ كُلُّهُ}، أَيُّ أمر من الأمور وَأَيُّ شيء، فمرجعه الأساسي لأخذ القرار فيه بِيَدِهِ تعالى. وهنا الكلام عن ختام كلام السورة مع من يسمعها، عن الانتظار، والآية خبر عن رجوع كلّ الأمور إليه تعالى، حَيْثُ مِنْ الأساس هو سبحانه قَرَّرَ ماذا سيحدث، وقرّر عقابا لهؤلاء مع عذاب خالد وقرّر نجاة لآخرين مع سعادة خالدة...

{فَاعْبُدْهُ}، سُبْحَانَهُ إلهك ومفروض منك طاعته فتصرّف على هذا الأساس، وَكَلِمَةُ عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك. وما تعارفنا عليه بتسمية العبادة للصلاة والمناجاة... فهي من تطبيقات العبادة، من تطبيقات طاعته تعالى وليست حصرية فيها لأن العبادة شاملة لكل ما تطيعه به تعالى.

{وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}، اعْتَمِدْ عليه تعالى في تسيير أمورك كما يجب. والكلام عمومي لمختلف الشؤون وأهمها البقاء على الإيمان والعمل الصالح، حَيْثُ سُبْحَانَهُ وبحسب نوايانا الصادقة ييسّر أمورنا لما فيه مَصْلَحَتُنَا الإيمانية أولا وبعدها لما فيه مصلحتنا الدنيوية. وهذا موضوع له تفاصيل عديدة حين تصير الأمور متعلقة بما يفعله الآخرون، فإن كانوا سيئين فسبحانه يتدخّل لمصلحة المؤمن بحسب درجة إيمانه وبحسب الحكمة من التدخّل، وَلَدَيْنَا نموذج التدخّل لصالح الفتى إبراهيم ضد أهل مدينة بأكملها حاولوا إحراقه، ولدينا نماذج تدخله تعالى بالصبر والثبات للمؤمنين ليبقوا على إيمانهم وإهلاكه تعالى لقومهم بكارثة من عنده، ولدينا نماذج لم يصل فيها الآخرون لدرجة استحقاق نزول عذاب إلهي عليهم فيتدخّل سبحانه لنصرة المؤمنين... ولدينا نماذج لم يكن فيها المؤمنون من الدرجة المناسبة لينصرهم تعالى... ولدينا نماذج عن تركه سبحانه للأمور تجري ليفعل المجرمون جرائمهم بالأبرياء... وَلَمْ يقل تعالى بأنه سيمنع المجرمين من ارتكاب الجرائم، بل قال إِنَّهُ سيحاسبنا جميعا في الآخرة... وسيحاسب الذين تركوا المجرمين يفعلون ما يشاؤون...

{وَمَا رَبُّكَ}، وليس المسؤول عنك من مستوى إلهي، {بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}، عُمُومُ ما تقومون به لا يجري من دون انتباهه تعالى له، وَكُلُّ ما تعملونه أيها البشر فهو تحت المراقبة الإلهية.

بالنسبة للتعبير القرآني بالسماوات والأرض، فنحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضا على قبّة النجوم التي نراها ليلا ونطلقه أيضا على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنويا على الجنّة...

لذلك ضع في بالك دائما أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنويا" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} وهي إشارة إِلَى وجود سبع أَرَضِينَ مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضا بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراض.

عادة نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير فنستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، فنقول: خلق سبحانه الدنيا. أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيرا صحيحا دقيقا بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي تُوَصِّفُ الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى}.

سورة يوسف (12) ص 235
تتمحور السورة حول العبرة من بعض أهم فقرات حياة النبي يوسف(ع).

يَبْدُو واضحا فيها إبرازها لناحية جريان الأحداث بشكل نرى ترابطه الطبيعي من ناحيتنا، ولا نرى فيه أي تدخّل خارجي، ومن ناحية ثانية نرى عرضه تعالى لما جرى على أساس أنه تعالى سيّر الأحداث بهذا الشكل لتصل إلى حيث يُرِيدُهُ تعالى، مع الإبقاء على ظاهر حصولها بِالْأَسْبَابِ الطَّبِيعِيَّةِ، باستثناء منحه تعالى لنبيه يوسف(ع) تأويل الأحاديث.

وَاضِحٌ إبرازها لطهارة يوسف(ع) كنموذج يمكن للآخرين الوصول إِلَيْهِ، وهو (ع) نموذج عن طهارة بقية الأنبياء والصالحين. وفي المقابل تريك فشل الكيد بمؤمن من الدرجة العالية... فسبحانه اعتنى بالتقي وسيّر الأمور لما فيه مصلحته، وَتَرَكَهُ تعالى يمرّ في الامتحانات التي أثبت فيها أنه تقي...

بِالنِّسْبَةِ لتاريخ النبي يوسف(ع) بالمقارنة مع تاريخ مصر القديم، فما يقوله الناس لا يستند إلى أدلة، وهو تخمينات ورثناها من كتب أهل الكتاب الذين أقحموا افتراضاتهم في الكلام الإلهي، وَبِنَاءً على دراستنا لتاريخ النبي موسى(ع) استنادا للمقارنة بين ما ورد في القرآن وما وجدناه من آثار، تَبَيَّنَ لنا رجوع تاريخ النبي موسى(ع) كثيرا في الزمن عن التاريخ المتعارف عليه في الموروث الثقافي لأهل الكتاب، حَيْثُ رَجَعَ إلى زمن خوفو، وراجع في ذلك دراستنا للآية 6 من سورة القصص. وبالتالي تَارِيخُ النبي يوسف(ع) وهو قبل النبي موسى(ع) سَيَرْجِعُ زمنه أيضا إلى ما قبل ما يقولونه.

تُلَاحِظُ تسمية السورة للحاكم في زمان النبي يوسف (ع) بالملك، فهو ليس حاملا للقب فرعون، والمنصب التالي له موصوف بالعزيز، وتلاحظ من السورة بناء مخازن ضخمة للحبوب، وحالة الجفاف لسبع سنين، وانتشار دين التوحيد كدين رسمي للدولة، وانتشار علم تأويل الأحلام كعلم رسمي معترف به قبل وصول النبي يوسف(ع)، وتعاطي الناس بالعملة المسكوكة... فهذه إشارات تفيد من يريد تحديد الفترة التي كان فيها النبي يوسف(ع).

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ{1})
هذه حروفٌ نتهجّاها مقطّعةً هكذا: ألف، لام، راء.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوَّلَ سبحانه قسمًا منه

إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوِّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

نرجع للآية، {تِلْكَ}، الأحرف، هي، {آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ}، فهي أمور مميزة موجودة في الشيء المكتوب فيه معلومات بشكل واضح لا التباس ولا تشويش فيه. والمقصود هو الكتاب الرئيسي الأساسي الذي كتب فيه سبحانه كلّ شيء عن كلّ شيء، ومنه جاء هذا القرآن والتوراة والإنجيل... وهو الكتاب الذي تحدّثت عنه الآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{2})
{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ}، أَنْزَلَ سبحانه آيات الكتاب المبين، {قُرْآنًا}، شيئا يمكن قراءته، {عَرَبِيًّا}، باللغة العربية، {لَعَلَّكُمْ}، مِنَ المتوقّع منكم ومن المفروض أن، {تَعْقِلُونَ}، أن يصير هذا المقروء في عقلكم فتستوعبوه وبالتالي تقتنعوا به. أَنْ تعقلوه، هذا ما مفروض أن يحصل من بعد سماعكم لكلامه الحقّ الصالح الواضح تعالى، والصادر من كتابه الرئيسي المبين، والذي تَقْرَءُونَهُ بلغة من لغات البشر.

حول قداسة اللغة العربية واستعمال القرآن لكلمات أعجمية "غير عربية" بالنسبة لنزول القرآن باللغة العربية فهذا شيء منطقي، حَيْثُ إنَّ الرسول محمد(ع) من العرب، وهو رسول لكل البشرية، "مثل كل الرسل"، ولكن الرسالة التي تنزل عليه من ربه سبحانه حكما ستكون باللغة التي يعرفها الرسول الناقل لها، وهذا بديهي وذكرته الآية 4 من سورة إِبْرَاهِيمَ {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، لِذَلِكَ الإنسان الذي لا يعرف اللغة العربية لا يحق له أن يقول: محمد عربي، ورسالته بِالْعَرَبِيَّةِ، فلا علاقة لي به ولا بدينه. لا، إِذْ سبحانه عبر القرآن يقول له: إِنَّ الكلام الإلهي نزل بلغة من لغات البشر، وهذا كَافٍ لتصل المعلومات إلى الجميع عبر تناقل معانيه بينهم، ومن الطبيعي البديهي أن تنزل الرسالة باللغة التي يعرفها الرسول الذي نزلت عليه الرسالة، ومهما كانت لغتك فمن واجبك الالتزام بكلام ربك سبحانه.

مَعْلُومٌ لك أن اللغة الأجنبية ليست مشكلة لمن يريد التعلّم في الجامعات الأكاديمية حول العالم، حَيْثُ الدارج في عصرنا انتشار اللغة الْإِنْجْلِيزِيَّةِ في غالبية جامعات العالم، وقبله كانت الفرنسية والبرتغالية وَالْإِسْبَانِيَّةُ... وقبله كانت اللغة العربية ولمدة طويلة من الزمن مسيطرة على العلوم، وكان الأوروبي والآسيوي من وسطها وشرقها، كانوا قديما يتباهون بإجادتهم للغة العربية لأنها اللغة العلمية.

كَوْنُ القرآن عربيا فهذا ليس عائقا ولا عذرا مقبولا للذين يقولون إِنَّهُمْ لا يجيدون اللغة العربية طالما الكثيرون منهم يتعلمون لغة أجنبية لتعلّم أمور أقل أهمية من كتاب نازل من الإله.

مَعْلُومٌ لك أن كثيرين من أهل اللغات الأخرى غير العربية أسلموا بسبب ما علموه من حقّ وصلاح في هذا الدين، ولم يتعلموا من العربية إلا قراءة سورة الفاتحة وبعض قصار السور، وهذا لا يضرّ بإسلامهم طالما هم معلنون الالتزام بما في القرآن ويسمعونه عبر متفقّه في الدين، ويدعم قولنا هذا ما ورد في الآية 122 من سورة التوبة {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}.

انْتَبِهْ جيدا لما يقوله عموم القرآن، حَيْثُ إِنَّ الفرق الوحيد بين هذا الكتاب وبين ما سبقه من كتب أنها كانت بلغات الرسل التي نزلت عليهم ومحمّد (ع) لغته عربية فكان هذا الكتاب بالعربية.

نَنْتَبِهُ أيضا، حَيْثُ لَا تُوجَدُ خاصية تميّز اللغة العربية عن بقية اللغات، فلا يخطر ببالك أنه سبحانه أنزل القرآن باللغة العربية لأنها متفوقة على بقية اللغات في التعبير أو المفردات أو تركيب المعاني... فهذا غير صحيح، لِأَنَّ كل اللغات لديها القدرة على التعبير عن أي معنى بطريقتها الخاصة، وَفَكِّرْ في اللغة التي نزلت بها التوراة والإنجيل، والتي نزلت بها صحف الأنبياء، حَيْثُ لا واحدة منها كانت عربية، فهل كانت تلك الكتب عاجزة عن التعبير بدقّة عمّا يريد تعالى قوله؟ وفكّر في اللغة التي تكلّم بها تعالى شخصيا مع كليمه موسى(ع)، فهل هي لغة كانت مقدسة؟ أو صارت مقدسة؟ إِذَنْ لا خاصية مميزة ولا مقدسة لأي لغة على أخرى عند ربنا سبحانه وتعالى.

الْأَسْخَفُ منه كلام المسلمين عن لغة أهل الجنة أنها العربية فقط أو الفارسية فقط أو التركية فقط... فما هذه المعارك التافهة لنصرة تميّز لغة على بقية اللغات! وما هي لغة أهل النار؟ وبأي لغة سيكون الحساب؟ وطالما افترضوا أنه تعالى سيعتمد لغة واحدة في الآخرة ليزرعها في عقول كل البشر، فلماذا لم يخطر ببالهم لغة جديدة؟ ولماذا يحصرون طرق التواصل أصلا عبر الطرق التي يعرفونها الآن في الدنيا؟ ولقليل من التوسّع حول هذا راجع دراسة الآية 21 من سورة فصلت {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ...}.

نَنْتَبِهُ أكثر، حَيْثُ إِنَّ القرآن نزل باللغة العربية وبلهجة قريش، وهي القبيلة التي منها النبي محمد(ع)، إِذْ كُلُّ كلمات القرآن كانت مستعملة عند العرب في حين نزول القرآن، ولكن هذا لا يعني أن كل كلمات القرآن كانت تعرف معناها قريش، بل ستجد من بقيّة العرب أقواما بالتأكيد يعرفون معناها، حَيْثُ كَوْنُ الإنسان عربيا ملمّا بلغته لا يعني أبدا معرفته بكلّ كلمات اللغة العربية، فهناك أسماء لأشياء أصلا لم يرها ولم يسمع بها وعرب آخرون لديهم اسْمٌ لها، وعلى المستوى الإلهي سُبْحَانَهُ غير ملزم باستعمال الكلمات التي يعرفها القرشيون أو المدنيون "اليثريبيون"، بل سيستعمل الكلمة العربية الدقيقة الصحيحة التي يعرفها آخرون من العرب.

الْتَفِتْ إلى مكة البعيدة عن البحر، حَيْثُ أَهْلُهَا لا يعرفون الكلمات العربية التي يستعملها العرب الساكنون على البحر، لِذَلِكَ تجد "من الروايات والقواميس" أن المثقفين من أهل مكّة والمدينة لا يعرفون معنى كلمة مرجان! وسبحانه أراد في آية من كلامه أن يتحدّث عمّا في البحر، فأي كلمة سيستعمل إن كان غالبية أهل مكّة والمدينة لا علم لهم بأسماء بعض ما في البحر؟ ومكّة والمدينة لم يكن فيها مدينة صناعية، فهم لا يعرفون صنعة تسفير الكتب، ولا صنعة القماش، وليس لديهم علم باختلاف أسماء الأواني، وأكثرهم لا يَعْلَمُونَ صنعة تربية النحل، فلا يعرفون معنى كلمة رحيق... ولذلك تجد أنه حتى أصحاب القواميس يقعون في مشكلة جهلهم للكلمة العربية الخاصة بأهل صنعة أو فن أو حرفة، فيخترعون لها أقرب معنى، ونقع نحن في مشاكل معانيهم المخترعة.

بِالنِّسْبَةِ للكلمات القرآنية التي اخترع لها المفسرون مَعَانِيَ لا تجد لها أَصْلًا في اللغة العربية، فهذه المشكلة واضحة في القواميس التي اعتمدت على كلام العرب لتحديد معنى كلمة ما، وبعد كلامهم هذا يذكرون لك مَعْنًى مُخْتَلِفًا ذكره المفسرون للكلمة القرآنية! وهنا وهناك تجد كاتب القاموس يقول لك: ما قاله المفسرون عن معنى الكلمة القرآنية فهو ليس معناها اللغوي بل تطبيق لها على مصداق. وخذ مثلا عن ذلك تفسير بعضهم لكلمة إثم الواردة في الآية 33 من سورة الأعراف بالخمر... {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ...}.

بِالنِّسْبَةِ للكلمات الأجنبية عن العربية التي قالوا إِنَّهَا موجودة في القرآن، فكل اللغات تشترك في استعمال الكلمات، والكلمة التي لها أصل أجنبي واستعملها القرآن فهذا لا يعني أَنَّ الكلمة ليست عربية، فعندما يستعملها العرب تصير عربية من أصل أجنبي، ولا مشكلة في استعمال القرآن كلمة يستعملها العرب وَوَصَلَتْ إليهم من لغة أخرى، فهذا حال كل اللغات، واللغة العربية ليست استثناء، فهي لغة لم تخرج من الحائط، بل تولّدت مثلها مثل بقية اللغات، من الحاجة لتسمية ووصف الأشياء والحالات... حَيْثُ وَضَعَ العرب كلمات واستوردوا كلمات من لغات أخرى وورّدوا كلمات للغات أخرى... وحين استوردوا كلمة ما فهم نطقوها بطريقة خاصة في تركيب الكلمات والنطق... بما يناسب لغتهم ولهجتهم...

بصريح العبارة الَّذِينَ قالوا إِنَّ وصف القرآن لنفسه بأنه عربي فهو وصف غير صحيح بسبب ما فيه من كلمات أجنبية "برأيهم"، فهؤلاء سخفاء لدرجة التفاهة، والحقّ ليس عليهم لوحدهم بل على المسلمين الذين أسّسوا لهذه التفاهة، حَيْثُ لَدَيْنَا مخزون ضخم من روايات تفسيرية يتبجّحون فيها بمعرفتهم للغات أجنبية ويقولون فيها عن هذه الكلمة التي استعملها القرآن أو تلك إِنَّهَا من أصل أجنبي! وبعض الروايات يقولون فيها إِنَّ الكلمة القرآنية الفلانية أصلا ليست مستعملة عند العرب وهي أجنبية! فهي على لغة طي أو الحبشة أو فارسية... فهذا خطأ، ولم يكن عن دراسة، ولو تعمقت بما قالوه لوجدتها افتراضات غير مستندة إلى واقع... وَتَبَيَّنَ لك من هذه الدراسة للكلمات التي يقولون إِنَّهَا أجنبية، تبيّن لك طفولية وسذاجة علمية "غير بريئة" في كثير من الأحيان، فبدل أن يقولوا: لا أعلم معنى هذه الكلمات. اقتحموا المجهول!...

فَرْضًا فرضا فعلا كانت بعض الكلمات التي استعملها القرآن ليست عربية، وبالقياس مع ستة آلاف جملة يتألّف منها القرآن، ففرضا ما قالوه عن تلك الكلمات كان صحيحا وفرضا قبلنا أنها ليست عربية، فكم عددها حتى تمنع وصف القرآن بالعربية!

الْأَسْخَفُ من السخافة تبجّح البعض باللغة السريانية، وتفسيرهم لكلمات القرآن بسذاجة التخريف، فجعلوه كلّه من أصل سرياني! لدرجة مسحهم للغة العربية من أصلها وكأنها ليست لغة بل لهجة سريانية استعملها الذين اسْمُهُمْ عرب بشكل رديء! ونتج عن ذلك كتاب القرآن المؤلّف بالسرياني الرديء! ولن أطيل الكلام عن هؤلاء وأمثالهم من المتبجحين باللغة الْآرَامِيَّةِ، والمتبجحين بمعرفة بعض كلمات لغات قديمة كالحميرية والفينيقية... لأن صحّتي الجسدية لا تسمح بتحمل الغثيان من تفاهتهم.

الْقَائِلُونَ بأن القرآن يكذّب نفسه حين يقول بأنه عربي بينما نجد فيه كلمات غير عربية**،** فهم يقصدون بكلامهم أن هذا القرآن ليس من مصدر إلهي وأنّ محمّدا أَلَّفَهُ، أليس كذلك؟ حسن، ألا يعني هذا أن محمّدا خبير لغات أجنبية؟ وبحسب كلامهم وصحّة معاني الكلمات التي استعملها القرآن في دلالتها على المعنى المقصود، ويقولون إِنَّهَا أجنبية، فهذا يعني أن محمّدا خبير غير عادي في براعته في استعمال اللغة الفارسية والنبطية والرومية والسريانية والعبرية... وهي اللغات التي تفلسف الجيل الأول والثاني والثالث... من المسلمين وقالوا عن بعض كلمات القرآن إِنَّهَا من تلك اللغات. فما هذا الكلام! ألا يسمعون أنفسهم؟ فقط يريدون أن يقولوا: هذه الكلمة استعملها القرآن، وأصلها فارسي، فالقرآن لا يمكن أن يقول عن نفسه أنه عربي. أهذا ما يريدون قوله وهم لا يفكّرون في معنى كلامهم وأنه يدلّ على معرفة غير عادية بل معرفة فائقة لمحمّد باللغات!

كَلَامُهُمْ يعني أنه يوجد لغة على الأرض لم تأخذ ولا كلمة من أي لغة أخرى! ولا تشبه كلماتها كلمات أي لغة أخرى، وهذه اللغة "التي لم يخبرونا ما اسمها" فقط يحق لها وصف كلامها بأنه صاف ليس فيه كلمات أجنبية، فلو نزل القرآن بتلك اللغة فقط وفقط كان يحق له أن يقول إِنَّهُ من تلك اللغة! فمن المفروض وبحسب كلامهم أن تكون اللغة العربية لا تشبه بكلماتها ولا أي لغة أخرى، حتى يحقّ للقرآن أن يقول عن نفسه إِنَّهُ عربي! وها ترى في علم الألسنيات تصنيف اللغات واللهجات على الأرض "حاليا" بعدّها بقرابة الستة آلاف، ولا واحدة منها مختلفة عن كلّ الأخريات، ولا واحدة، وبالتالي وبحسب كلامهم فلا يحق ولا لأي لغة منهم أن تقول عن كتاب لها إِنَّهُ فرنسي أو ألماني أو صيني... لأن بعض كلماتهم مشتركة أو مستوردة من لغات أخرى!

هُنَاكَ كلام كثير حول هذا الموضوع، وأحيلك فيه إلى دراستنا هذه في أي كلمة قالوا عنها في كتب التفاسير والقواميس إنَّهَا أجنبية أو من أصل أجنبي، لترى مختلف حالات القائلين بين الاستهتار والطفولية والجهل... والخطأ غير المتعمّد، والخطأ المتعمد...

هَلْ هذا يعني أن هذه الدراسة فسّرت كل الكلمات بطريقة صحيحة؟ لا، ولكنها اعتمدت منهاجا أقرب للصواب، وإن شاء الله تعالى تكون بذرة ونواة لدراسات أفضل يقوم بها الآخرون ومتخلّصة تماما من الموروث الثقافي البعيد في أكثره عن الحقّ.

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ{3})
{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ}، نُخْبِرُكَ أيها النبي محمّد(ع) شيئا تتبعناه، {أَحْسَنَ الْقَصَصِ}، حَيْثُ إِنَّ القصص الإلهية والقصص البشرية، كلاهما قصص، ولكن أحسنها من حيث الصحّة والمضمون والهدف، هي التي يقولها تعالى لنا، وأمّا للدقّة فَقَصَصُهُ تعالى حسنة مطلقا حتى لو لم يكن هناك قصّاصون آخرون، حَيْثُ إِنَّ كَلِمَةَ أحسن تشير للحسن مطلقا حتى لو لم يَكُنْ هناك شيء آخر في المقابل، كما نقول: ما أحسن عملك. ولا نقصد أَنَّ لديك أَعْمَالًا سيئة أو حسنة وهذا العمل المشار إليه أحسن من أعمالك الأخرى، بل نقصد أن عملك موصوف بأنه حسن حتى لو لم تقم سابقا بأي عمل غيره، وحتى لو لم يكن هناك من نقارنك به.

نقصها عليك، {بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ}، عبر المعلومات التي أنزلناها على فكرك والتي صار يمكنك قراءتها، {وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ}، من قبل إيحاء هذا القرآن لك، {لَمِنَ الْغَافِلِينَ}، حَيْثُ لم تنتبه لأمور عديدة جرت ولا علم لك بها، فلا تدري شيئا عن المواضيع والقصص التي طرحها القرآن.

بِالْأَخَصِّ، ما كان لديك إلمام عن القصّة التي ستخبرك بها هذه السورة، حَيْثُ جَرَتْ قديما وأنت لا تعلمها.

(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ{4})
هذا هو محور السورة حول ما جرى مع النبي يوسف(ع)، وهي قصّة غير عادية عن حياة نبي رسول، وفي كل مرحلة من حياته (ع) يوجد شيء غريب مُلْفِتٌ للانتباه، وهي القصّة الوحيدة التي قصّها القرآن بتفاصيل كثيرة عن رسول واحد، وسترى فيها عجبا وعبرا وأشياء غير عادية... لِنَتَعَلَّمْ من قصّة الرسول يوسف(ع):

{إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ}، النبي يعقوب(ع): {يَا أَبَتِ}، أتوجّه إليك بالكلام يا أبي فأقول لك: {إِنِّي رَأَيْتُ}، صَارَ لدي صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: شفت. {أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا}، والكوكب بحسب استعمال القرآن وعموم استعمال العرب لَهُ في أشعارهم قبل الْإِسْلَامِ يَعْنِي: أي نقطة في السماء لها ضوء، بغضّ النظر عن كون الضوء يصدر منها أو تعكسه. والكلام هنا عن رؤيته (ع) في المنام لأحد عشر نورا في السماء، ورأى أيضا، {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ}، {رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ}، كانوا يعبّرون بأشدّ درجات التعبير عن احترامهم وخضوعهم لي.

سَتَعْرِفُ من بقية القصة أن النبي يوسف(ع) كان فتى صغيرا عندما رأى هذا المنام. وكما سترى من بقية السورة فإن للنبي يعقوب(ع) اثني عشر ولدا، مما يعني أن المنام كان عن الأحد عشر أخا الذين سيسجدون للنبي يوسف(ع)، وأبوه وأمّه "أو زوجة أبيه كما يقولون" أيضا سَيَسْجُدَانِ له (ع).

نُلَاحِظُ أننا لا يمكننا تصوّر شَكْلٍ لسجود الكواكب لِأَنَّهَا كروية، وأي حركة نتصورها لشكل كروي فلن يكون لَهَا أي معنى، فلا يمكننا وصفه بالسجود أو الركوع، ولدينا نفس مشكلة التصوّر مع الملائكة(ع) حين سجدت لآدم(ع)، فهي لا جسد لها، فكيف سجدت؟ وإذا تذكّرنا أن السجود هو أي تعبير شديد عن الخضوع والاحترام، وبالنسبة لنا نحن البشر فهو حركة تقريب أو وضع الجبهة على الأرض، فهكذا نفهم أن سجود الملائكة (ع) لآدم(ع) إذا فعله البشر فسيكون بوضع الجبهة على الأرض، كتعبير عن الخضوع والانقياد، وإذا فعله غير البشر، فسيكون بتعبير لا نعرفه ولا يمكننا تصوّره، ولكنه سيكون تعبيرا شديدا يعني أنهم خاضعون منقادون يحترمون بشدّة من يسجدون له.

لَا تَنْسَ أنه منام عن سجود كواكب وليس مشهدا حقيقيا لكواكب كروية سجدت، ولتقريب الفكرة فَإِنَّ رؤية النبي يوسف(ع) لنفسه واقفا والكواكب والشمس والقمر أمامه على الأرض، وشعوره بأنهم ساجدون له، هُوَ نفس ما يحصل

معنا حين نرى مناما نفهم مشاهده من مشاعرنا، فيقول الناس: رأيت فلانا في منامي يريد أن يقتلني، وهو كان جالسا ولم يفعل أي شيء ولم يقل إِنَّهُ يريد قتلي ولكني في المنام كان لدي شعور بأنه يريد قتلي... بهذا التقريب نفهم أنه (ع) شعر أنهم ساجدون له، فلنقل مثلا إِنَّهُ (ع) رآهم على مستوى الأرض وهو واقف أعلى منهم.

انْتَبِهْ عزيزي، لَا علاقة لكواكب المجموعة الشمسية بالمنام، ولا لأي كواكب أو نجوم أخرى، وَبِالتَّحْلِيلِ نرى أنها مجرد تعبير عن نفسية النبي يوسف(ع) تِجَاهَ إِخْوَتِهِ وأبويه، فهو في داخل نفسيته يراهم محببين له، حَيْثُ إِنَّ الكواكب عالية مضيئة جميلة محببة له(ع) وَأَهْلُهُ كذلك بالنسبة له(ع)، وهذا التحليل الافتراضي مبني على ما نعرفه من دراسة المنامات بناء على اللاوعي وتداخله مع القشرة الإبصارية للدماغ... وسترى من بقية السورة أن ما رآه (ع) كان وحيا إلهيا يخبره (ع) أنه في المستقبل سيكون زعيما عليهم، وَسَيَكُونُونَ خاضعين لحكمه... وأي كلام يربط بين هذه الآية وبين كواكب المجموعة الشمسية أو أي كواكب وظواهر فلكية، فهو كلام فارغ ونموذج عن الغرق في تطبيق كلام القرآن على علومنا لإظهار القرآن ككتاب عظيم، وهو كتاب عظيم فعلا ولكن عظمته مستمدّة من كونه كلاما إلهيا لهداية الناس وليس لتعليمهم الفلك والفيزياء والطبّ والرياضيات والسحر والشعوذة...

(قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{5})
قَالَ الأب لابنه: {يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ}، هَذِهِ الصورة التي حصلت لك في منامك لَا تنقلها لإخوتك، {فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا}، حَيْثُ يَقُومُونَ بعمل مضاد لك لمجرد أنه ليس في مصلحتك ولا ترغب بحصوله، وسيقومون به حتى لو لم يكن لهم مصلحة فيه.

مِنَ الواضح أن معنى الرؤية التي رَآهَا (ع) في المنام أنه سيكون زعيما على إِخْوَتِهِ، وهذا سوف يغضبهم، وسيكيدون أخاهم، وكما نقول بتعابيرنا: لَنْ تمرّ هذه الخبرية على خير. سَيَقُومُونَ بعمل مضاد لمصلحة أخيهم حتى لا تتحقق زعامته (ع) عليهم.

لِلْأَبِ اثْنَا عَشَرَ ولدا، وواحد منهم سيكون زعيما للعائلة كما هي العادة وبحسب ما يقولونه في التاريخ عنهم، وسجود الأولاد لواحد منهم من الواضح أن المسجود له سيكون الزعيم. لو كرّرت لك، فهذا المنام لا يحتاج لعبقري ليفهم معناه، وهكذا سيفهمه بلا شك إخوة النبي يوسف(ع) الطامحون للزعامة ولمقام النبوة، يَقُولُ الأب ليوسف(ع): سيفعلون بك شيئا سيئا حتى لا يكون لك قِيمَةٌ معنوية أعلى منهم كزعيم عليهم إن علموا بهذا المنام.

{إِنَّ الشَّيْطَانَ}، إِنَّ الكائن الموصوف برغبة فعل السوء وجعل الآخرين يفعلون السوء، {لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ}، حَيْثُ إِنَّ هذا الكائن وبشكل واضح يقوم بأعمال مضادة لهداية الناس، وَهَذِهِ فرصة حتما لن يفوّتها وسيتدخل الشيطان ليوسوس لإخوتك حتى يكيدوا لك كي لا تكون زعيما عليهم بالرغم من علمهم أنها إرادته تعالى، وسنرى بعد قليل أنهم حاولوا التخلّص منه بل حتى فكّروا في قتله (ع).

ضَعْ في بالك أنه من فحوى ما نقلته السورة من كلام إخوة النبي يوسف(ع) سَتَشْعُرُ أنهم شباب في أول العمر، وعلى التقدير أَكْبَرُهُمْ كان عمره قريبا من العشرين سنة، حَيْثُ تَشْعُرُ من كلامهم بأنهم مراهقون، وخوف الأب منهم على يوسف(ع) مبني على معرفته بأن العقلانية ليست مستقرة بعد فيهم إِذْ ما زالوا طائشين.

بَقِيَ شيء، هَلْ فهم الأب من الرؤيا أن ولده يوسف سيكون نبيا أو رسولا؟ أم فهم فقط أنه سيكون متزعما على إِخْوَتِهِ؟ وما معنى توقّعه لكيد إخوته له وتوقّعه من تمكّن الشيطان منهم؟ كما ترى وسترى كَانَ واضحا عند الأب ابتعاد بقية أولاده العشرة عن أخلاقيات وسلوكيات النبوّة، فِي حينها وعلى ما يبدو ابْنُهُ المسمّى بنيامين "كما هو مشهور في التاريخ" والذي احتفظ به النبي يوسف(ع) عندما جاء إِخْوَتُهُ لشراء الحنطة من مصر... كَانَ بنيامين طفلا صغيرا، لِأَنَّهُ والنبي يوسف(ع) أصغر الأخوة سنّا، لِذَلِكَ لَا علاقة لبنيامين بما جرى من أحداث رمي يوسف في الجبّ... بِنَاءً على ما يعلمه الأب من سلوكيات ونفسيات بقية الأخوة العشرة، تَوَقَّعَ قيامهم بعمل مضاد لأخيهم، ونبّهه منهم... يَبْدُو من الآية التالية أن نفس رؤيته (ع) لهذا النوع من المنامات دلالة فهم منها الأب تَمَيُّزًا إِيمَانِيًّا غير عادي لهذا الولد، وفهم اختيارا منه تعالى لهذا الولد ليكون ذا قيمة معنوية عالية وسلطة...

(وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{6})
سبحانه يعلّق على الحادثة، {وَكَذَلِكَ}، بِهَذَا الذي حصل معك يا يوسف من جعل البقية يسجدون لك على أساس أنك أعلى معنويا منهم "وزعيم عليهم"، {يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ}، فيختارك المسؤول عنك من مستوى إلهي ويعتبرك من الخاصين به، ومعلوم أنه (ع) سيكون نبيا رسولا.

{وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ}، سَتَتَعَلَّمُ منه تعالى من التأويل، وهو التفسير العملي لبعض الأحاديث التي يَقُولُهَا الناس عن مناماتها، فستعرف ماذا سيحدث في الواقع بعدما تسمع حديث الناس عن مناماتهم.

انْتَبِهْ للتعبير دائما بـ "من تأويل" وليس تأويل كل ما يسمعه، لِأَنَّ هَذِهِ تحتاج لقدرة هائلة لاستيعاب كمية ضخمة من المعلومات غير ذات الصلة، حَيْثُ هُنَاكَ تفاصيل هائلة للأمور وينتج عنها كمية معلومات هائلة لا فائدة لنا كبشر من معرفتها، ولا يمكننا أصلا الاحتفاظ بها في ذاكرتنا، ولمزيد من التوسّع حول هذا راجع دراسة الآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، حَالَتُهُ العادية سبحانه علمه بكل صغيرة وكبيرة تحدث لأن قدراته سبحانه فائقة قادرة على تحمّل هذا الكمّ الهائل من المعلومات، أمّا نحن فلا منفعة ولا قدرة أصلا لنا على تحمّل كمّ هائل من المعلومات، ولهذا السبب ولأسباب أخرى وصف القرآن حالة النبي يوسف(ع) بأنها علم "من" تأويل الأحاديث، وليس علما بتأويل كل الأحاديث، وبعد أسطر قليلة سنتوسّع في هذا الكلام.

نُلَاحِظُ أنه (ع) من هذا المنام بدأ بتأويل الأحاديث، حَيْثُ بَدَأَ بمعرفة التطبيق العملي لما يراه الناس في منامهم، وأوّل النماذج معرفته بما سيحصل معه بناء على منامه.

ضَعْ في بالك أن مسألة الزعامة في غاية الأهمية بالنسبة لإخوته، وليس ليوسف(ع)، ومسألة الزعامة ستكون المنطلق لتغيير مجرى حياة يوسف(ع)...

بِالنِّسْبَةِ للتأويل عموما، مِنَ الآية 37 من هذه السورة ومن عدة آيات قرآنية، نعرف أن التأويل بالاستعمال العربي القديم وَكَمَا اسْتَعْمَلَهُ القرآن فَهُوَ يُشِيرُ لما تؤول إليه الأمور، وإذا كان بناء على قول كالتعبير بـ "تأويل الأحاديث" فهو الترجمة العملية لما قيل، ومثله ما جاء في الآية 53 من سورة الأعراف {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ...}، كَلَامُهُ تعالى عن الآخرة سيأتي تأويله سَيَتَحَقَّقُ. وأمّا المعاني الأخرى لكلمة تأويل فهي اشتقاقات مستحدثة أو من تبعات المعنى، كقولهم إِنَّهُ بمعنى التفسير، فهو صحيح فقط على معنى تفسير الكلام بالواقع، فهو تفسير الكلام بترجمته إلى حدث.

هُنَا تَعْلِيمُهُ (ع) تأويل الأحاديث، فهو معرفة ما سيحصل من خلال أحاديث الناس، مِنِ اهتماماتهم ومن معيشتهم يمكن للنبي يوسف(ع) معرفة ما سيحصل معهم.

تَصَوَّرِ النبي يوسف(ع) حَصَلَ على معرفة كل ما سيحدث في المستقبل، حَيْثُ إِنَّ هَذِهِ كميّة ضخمة جدا جدا من المعلومات التي يتوه الإنسان فيها بسبب ضعف قدرته على استيعابها، فعليك أن تنتبه، حَيْثُ إِنَّ نَشْرَةَ الأخبار التي تشاهدها على التلفاز، تحوي أهم أحداث اليوم، فانتبه أَنَّ مَنْ يعرف المستقبل فلن يعرفه مثل مشاهدتك لنشرة الأخبار، ولا يمكن لإنسان أن يتحمل التفاصيل الضخمة لمستقبل ساعة واحدة لكل البشر، فهل تتصور كل تفصيل يحصل معك خلال ساعة واحدة، ويحصل مع ملايين الأشخاص! فتصور أن شخصا يحصل على كل تلك المعلومات ويقوم بتنقيتها لتحديد الأشياء المهمّة فيها! فهذا شيء فوق قدرة دماغ البشر، ولكن، إن أنا تحدّثت أمام النبي يوسف(ع)، فسيعرف اهتماماتي من كلامي، من حديثي، وهو يعرف التأويل، فسيحدد المعلومات التي سيأولّها من كلامي بناء على حديثي عن اهتماماتي.

لا أقصد أنه (ع) يحلّل الكلام وبناء عليه يستنتج، لا، لِأَنَّ هَذَا شيء نفعله نحن، أمّا هو (ع) فَتَعَلَّمَ منه تعالى كيف يسمع الحديث ويرى ما سيحصل في المستقبل مما يرتبط بهذا الحديث الذي سمعه، حَيْثُ إِنَّهَا موهبة منه تعالى للنبي يوسف(ع).

لَوْ سمع (ع) حديثا منّي عن عملي وأشغالي، فبناء على مضمون كلامي سيعلم (ع) ما سيكون فعليا وسيحدث في المستقبل بما يرتبط بكلامي، وَلَنْ يعلم كل شيء عني، ولن يعلم عن أحوال أهلي أو عن علاقاتي الاجتماعية... لِأَنَّ هَذَا لم يكن موضوع حديثي، وهذا يحتاج لقدرة عالية لاستيعاب كميّة المعلومات الضخمة المتعلقة بي، ولا نفع من معرفة النبي (ع) لهذه الكمية الضخمة من المعلومات، لِذَلِكَ يَكُونُ تأويله (ع) محصورا بما يهتمّ به ويراه مهمّا من الأحاديث التي يسمعها. وهذا ما نراه مقصودا بوصف: نعلمه "من" تأويل الأحاديث.

بالمختصر، الْكَلَامُ هنا عن قدرة على التأويل ممنوحة منه تعالى، وهي قدرة على معرفة الواقع الحقيقي المرتبط بالكلام الذي يَقُولُهُ الناس. أمّا بالنسبة لمعنى المنامات التي يراها الناس وارتباطها بالواقع فسنتحدّث خلال السورة عن ذلك.

نرجع للآية، {وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ}، فيوصل سبحانه النعمة، الأمور الجيّدة التي منحها لك إلى تمامها بلا انقطاع، {وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ}، ويتمّها سبحانه على عائلة النبي يعقوب(ع)، أَنْتَ وإخوتك وأبناؤكم وذريتكم... ستنالون من النعم الإلهية، {كَمَا}، مثلما، {أَتَمَّهَا} سبحانه {عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ}: النَّبِيَّيْنِ {إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ} (ع)، حَيْثُ حَصَلَا على النبوة وعلى نعم إلهية أخرى كثيرة لم تنقطع عنهم، وَصَارَ سلوك النبي إبراهيم(ع) شريعة، واسحاق(ع) هديّة إلهية لأمّ عاقر وصار نبيا... وآل يعقوب(ع) سينالون عزّا في مصر تحت حماية النبي يوسف(ع) وعيشة رغيدة... "إلى أن انحرف غالبيتهم عن الدين الإلهي فاستضعفهم المصريون...".

{إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ}، إن المسؤول عنك من مستوى إلهي يعلم كل شيء، فيعلم أنك مع آل يعقوب(ع) تستحقون نعمته، وربّك، {حَكِيمٌ}، فقراره بإكمال النعمة عليكم ليس عن عبث بل صوابية في رؤية الأمور.

تتذكّر أن النبي يعقوب (ع) يسمّى أيضا إسرائيل.

(لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ{7})
{لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ}، أمور مميزة، {لِّلسَّائِلِينَ}، لمن يعبّر عن إرادته للحصول على مزيد من المعلومات عن تلك القصّة. هي قصّة فيها عبر، وفيها مواعظ، وتنبيهات، وشروحات عن النفسيات العاطلة والجيدة... عن العناية الإلهية... عن السيطرة الإلهية على مجريات الأمور...
انتبه عزيزي، لأن القصّة طويلة نسبياً، ولكنها ركّزت على التفاصيل المهمة وتركت الكثير الكثير من التفاصيل التي لا عبرة فيها، حيث لا تجد أسماء الشخصيات الكثيرة التي في القصة إلا اسمي النبيين يوسف(ع) ويعقوب(ع) فقط، وهذا نموذج لك حتى تنتبه ويكون تركيزك على استخراج العبرة، وليس على تفاصيل لا نفع من معرفتها، فالقرآن ليس للتسلية، بل للمنفعة وللهداية ولا يضرّ أن يمر فيه ذلك بأسلوب قصصي شيّق، وخلال دراستنا للسورة سأشير إلى بعض الأمور من خارج السورة، ولكننا لن نغرق في تفاصيل لسنا متأكدين منها، ولا نفع لنا في معرفتها.

(إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{8})
{إِذْ قَالُوا}، إخوة النبي يوسف(ع): {لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ}، نحن متأكدون أنهما، {أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا}! وعند أبينا شعورٌ نابعٌ من تقييم عالٍ لهما ينتج عنه التعلّق بهما والتقرّب منهما وإرضاؤُهما... {وَنَحْنُ عُصْبَةٌ}، ونحن متضامنون مع بعض، ونحن مجموعة قوية، فكيف يحبهما ولا يجد ولا واحداً فينا يستحق أن يحبه بالرغم من تضامننا وقوّتنا! إنهما ولدان صغيران، فكيف ولأي سبب سيحبهما أكثر منّا ونحن أهميتنا واضحة لأننا قوّة عمالية وقتالية. {إِنَّ أَبَانَا}، يعقوب، {لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}، بشكل واضح هو ضالٌّ عن محبة من يستحق المحبة، فلو عرف أبونا كيف يتصرّف لأحبنا أكثر منهما، أو على الأقل لِيُحِبَّنَا مثل بعض! أو على الأقل الأقل لماذا لا يحبّ واحداً منا بشكل متميّز! فماذا ينقصنا؟! هؤلاء الإخوة هم مجموعة معتادة على بعضها ومترافقون دائما لأن أصغرهم سنّاً صار بعمر يمكّنه من مرافقة الأكبر منه سنّاً، وأمّا يوسف(ع) وأخوه وكما يبدو لك من الآيات فهما صغيران في السنّ وبعيدان ببضع سنين عن بقية الإخوة، والفرق ببضع سنين في الأعمار الصغيرة يشكّل عائقاً مانعاً من التوافق، فطفلٌ بعمر خمس سنين لن يتأقلم معه ولد بعمر عشر سنين مع أن الفارق بينهما قليل، وهو نفس الفارق بالسنّ بين الكبار لا يشكّل عائقاً لصداقتهم... ولهذا السبب الولدان مرافقان دائمان للأب، وهناك شعور عند عصبة الإخوة بأنهم مجموعة منفصلة عن الأخوين الصغيرين، فلماذا لا يحب أبوهما شخصا من هذه المجموعة، ويحب ذَيْنِكَ الوَلَدَيْنِ؟ عملياً لو أحبّ الأب واحداً من تلك العصبة أكثر من البقية، لكان الآخرون سيشعرون بالحسد منه أيضا! ولكن اقتصر نظر وفكر عصبة الإخوة على الحالة التي هم فيها،

وكما ترى فكلامهم يعبّر عن عمرهم المراهق. لاحظ من تعبيرهم {لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ}، أنه يؤيّد بشكل ما ما هو مشهور عن الأخوين {يُوسُفُ وَأَخُوهُ} أنهما من أم واحدة مختلفة عن أمهات بقية الإخوة، وستلاحظ تأكيداً على ذلك فيما بعد في القصّة في الآية 90 حين يعبّر النبي يوسف(ع) بالتمييز بالأُخُوَّةِ بينه وبين بنيامين: {قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي}، ومن المشهور بين أهل الكتاب أن أمهما اسمها "راحيل" وأن أخا النبي يوسف(ع) من أمّه وأبيه اسمه بنيامين، وورث المسلمون هذه الأسماء نقلاً عن أهل الكتاب وأدرجوها في كتبهم، واستعملتُها هنا نقلاً عن أهل الكتاب. سؤال: أبوهم يعقوب نبي، فهل من المعقول أن يعامل أولاده بشكل مختلف؟ وهل تتصوّر أن يخطئ نبي في التعامل مع أولاده؟ نحن كمتدينين نستصعب تصديق ذلك، لذلك نقول إنه سيعطي كل ولد ما يستحقّه من الرعاية، ولكن التنبيه الأول من قصّة يوسف(ع) مع إخوته موجّه للأهل لينتبهوا من غيرة وحسد الإخوة لبعضهم البعض، لذا لينتبه عموم أي والدين لهذا جيداً، حتى لو كان الأهل لا يشعرون بأنهم يميلون لأحد الأولاد أكثر من غيره، وحتى لو كانوا يعاملون كل الأولاد مثل بعض، لينتبهوا لأنه ربما يوجد حسد غير ظاهر بين الإخوة، وعادةً ستتفاجأ بولد يذكر لك حادثة ما لصقت بذهنه عن تمييز أهله لواحد غيره من إخوته، وتكون بنظرك حادثة سخيفة أو عادية ولا تعبّر عن أي شيء... والتنبيه الثاني موجّه للأولاد، لا يخترع الأولاد حسداً من لا شيء، وإن شعروا بتميّز في المعاملة، فليعبّروا عنها، ولكن لا يكتموها ليتراكم الحسد ويصل بهم إلى ارتكاب سيئة. كل من لديه أولاد يعلم أن الطفل الصغير ينال الاهتمام الزائد لأنه لا يمكن تركه لوحده ولو لثانية، إذ سيدبّ على الأرض أو سيمشي ويؤذي نفسه بما حوله... وإذا صار له إخوة، فيخفّ الاهتمام به حين يكبر لأنه صار قادراً بشكل ما على الاهتمام بنفسه، ويكثر الاهتمام بالولد الأصغر... ومن الخطأ استمرار الاهتمام بالأصغر بشكل مختلف عن أخيه عندما كان بعمره... الآن لننظر ليعقوب وأولاده، فمن الواضح مما فعلوه بأخيهم أنهم لم يكونوا في سلوكياتهم وطريقة تفكيرهم من النوع المحبّب لأب من نوع نبي، وأبٌ آخر من نوع المحبّ للقوة والسلطة والقوّة الضاربة كعصابة... ما كان ليختار إلا أشرس أولاده أو الأكثر حنكة وحيلة ليقرّبه منه... وهذا يريك أن يوسف وأخاه سلوكياتهم مختلفة ومحببة أكثر للأب، لذا عن غير قصد سينجرف الأب نحو الميلان لمن هم أقرب إلى تفكيره ونفسيته... وطبعا هذا ليس مبرراً للجريمة التي فعلها الأولاد العشرة، ولكننا نحلّل الأسباب، لأنها مذكورة هنا للعبرة، ودراستها لأخذ العبرة هو المطلوب.

(اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ{9})
{اقْتُلُوا يُوسُفَ}، هذا الاقتراح الأول حتى ينتهي الإخوة منه(ع)، وننهي حياته بضربة تسبّب موته، {أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا}، نضربه ضربة قاتلة ونتركه ليموت لوحده أو لتأكله الحيوانات المفترسة، وبكلا الحالتين، {يَخْلُ}، يصير خالياً، {لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ}، فلا يَعُدْ أمام أبيكم أحد غيركم، وعندها سيختار منكم شخصاً ليحبّه وليعيّنه خليفة له كمسؤول عن العائلة.
{وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ}، من بعد قتل يوسف(ع) مباشرة، أو طرحه أرضاً ليموت فيما بعد فتكونوا، {قَوْمًا}، أناساً لهم كيان الجماعة، {صَالِحِينَ}، فلا يصدر منكم أي شيء طالح بل هو فقط قتل أو طرح يوسف، ومن بعدها لن نقوم بأي عمل سيّء، نرتكب هذا الذنب فقط، ونستغفر منه، ولن نرتكب ذنباً غيره أبداً في حياتنا.
لاحظ، تركيز الإخوة على التخلص من يوسف(ع) بالرغم من حسدهم لأخيه "بنيامين" أيضاً، ولكنهم لم يخططوا للتخلص من بنيامين، حيث على ما يبدو أن كل الغضب والحنق والحسد كان بشكله الأقصى مركزاً على يوسف(ع) لأن بنيامين كان صغيراً جداً كما يبدو.
ننتبه للتفكير الديني المنحرف، فهم يعرفون أنها جريمة، ولكن سيرتكبون الجريمة لمرة واحدة فقط في حياتهم، على أساس أن ذلك لن يجعلهم من العصاة لله تعالى! مثل الذي يسرق أو ينصب مالاً على الناس، ويقول إنه لمرة واحدة فقط سيفعلها ومن بعدها ستكون أعماله كلها صالحة لأنه سيعمل بالحلال!
بقي شيء، ففي التراث الثقافي الديني لأهل الكتاب يقولون إن رؤيا النبي يوسف(ع) تسربّت عبر إحدى زوجات النبي يعقوب (ع) للآخرين، وبناء عليه قرّر الإخوة التخلّص منه. ويقولون إنه (ع) رأى مناماً آخر فيه ذئاب تحيط به... على كل حال، لا داعي لهذه التفاصيل، فمع معرفة الإخوة بالمنام أم بدونه، أصلاً وكما يبدو من كلامهم فإن الحسد والكره لأخيهم أصلا كان متملكاً منهم... ولذلك ترى السورة هنا لم تهتم إن كانوا علموا بالمنام أم لم يعلموا، لأنه وعلى ما يبدو فالنتيجة واحدة، وبسبب المنام أو لأي سبب آخر الأمور ذاهبة باتجاه قرارهم بالتخلّص من يوسف(ع).

(قَالَ قَآئِلٌ مَّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ{10})

{قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ}، من الإخوة: {لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ}، لا تنهوا حياته، لا مباشرة ولا بطرحه أرضا، {وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ}، ارموه ليغيب في عتمة وعمق، {الْجُبِّ}، الحفرة التي بلا حيطان من داخلها، وهي وصف لعموم أي حفرة غير عميقة، وتصحّ وصفا لبئر ماء، ولنقل حفرة بعمق المترين أو الثلاثة أمتار فهذه لا يمكن لطفل عادي التخلّص منها... اعتاد الناس على وصف هذا الجبّ أثناء روايتهم لهذه القصة بالبئر، وهو وصف صحيح فبعد قليل سترى أن الذي التقطه من الجبّ كان أدلى دلوه، ويوسف(ع) تعلّق بالدلو... ولكن وصف الجبّ يعطي معنى أنها بئر غير عميقة، وعندها، {يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ}، حيث يمرّ أناس يسيرون، ويمرّ مسافرون ليشربوا من الجبّ، ويلتقطون يوسف(ع)، ويأخذونه معهم كعبد ليبيعوه، {إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ}، إن كنتم قررتم التخلص منه، بدلا من قتله وارتكاب الجريمة، فيمكن التخلص منه بهذه الطريقة.

هذا الأخ أدرك أن القتل جريمة كبيرة، ولكنه موافق على التخلص من يوسف(ع) فاقترح التركيز على حلّ التخلّص من يوسف(ع) بدلا من قتله، على أساس "برأيه" أن قتله سيئة كبيرة وأمّا رميه في الجبّ ليأخذه الغرباء فهو ليس جريمة أو جريمة صغيرة عادية...

لاحظ أنه في عصرهم كان دارجا التقاط الناس واستعبادهم، ومن قبلهم ومن بعدهم وإلى زمن غير بعيد عن زماننا كان هذا لا يزال دارجا منتشرا على عموم الأرض، ومن الأمثلة على ذلك زيد ربيب النبي محمّد(ع) الذي كان عبدا للسيدة خديجة... وعلم أهله فيما بعد بمكانه... واختار زيد البقاء مع النبي محمّد(ع) الذي عامله كولده... فزيد هذا التقطه أحدهم عندما كان ولدا "يقولون إنه سبي أثناء غارة" واختطفه وباعه كعبد كما هو مشهور جدا في كتب التاريخ.

(قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ{11})
انتقل الإخوة من التخطيط إلى التنفيذ:

{قَالُوا}، الإخوة: {يَا أَبَانَا} "يعقوب"، {مَا لَكَ}، ما السبب أنك، {لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ}؟ لَا تشعر بالأمان إن أخذنا يوسف معنا أو كان بيننا فأنت تشعر عليه بالخطر، {وَإِنَّا لَهُ}، نحن إخوته ليوسف، {لَنَاصِحُونَ}، فنحن لن نغشّه وسنعلّمه الصحّ ليفعله والخطأ ليتركه، ونحن أكبر منه ويجب أن يعاشرنا حتى يستفيد من خبرتنا في الحياة ويتعلّم أن يكون في الأمان من الأخطار، ويجب أن يرافقنا حتى ننصحه بدلا من إبعاده عنّا وملاصقته لك، وبما أننا له ناصحون فكيف لا تشعر بالأمان عليه وهو معنا؟!

(أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{12})
{أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا}، أطلقه من حصره بقربك ليكون معنا في اليوم التالي، {يَرْتَعْ}، يأكل من الأشياء البريّة الكثيرة، كخضار الأرض "التوت البرّي والزعرور والبقول البريّة..." {وَيَلْعَبْ}، يُمَضّي وقته بأمور غير جديّة ليتسلّى، يعني سيكون مسرورا برفقتنا، {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}، سَنحفظه ونمنع عنه الضرر، لَا داعي للخوف عليه من أي شيء وهو سيكون سعيدا.

(قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ{13})
يبدو واضحا تعلّق الأب بابنه، بشكل غير عادي ويبدو أيضا أنه لا يثق بأولاده ويحتمل أن يؤذوا أخاهم.
{قَالَ}، النبي يعقوب(ع): {إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ}، سأشعر بأني غير مرتاح لمجرد فراقه عنّي، وثانيا، {وَأَخَافُ}، أشعر بخطر لا يمكن تجنبّه، والخطر هو، {أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ}، الحيوان المفترس، {وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ}، غير منتبهين لحصول عملية إغارة الذئب عليه.
المشهور في كتب التاريخ والتفسير أن الإخوة طلبوا مرافقة يوسف(ع) لهم أثناء رعايتهم للماشية، وإن لم تقل السورة هذا صراحة ولكن عندما رجعوا وعلى ثيابه (ع) دم... تستنتج أنهم ذبحوا ماشية ولطّخوا بها قميصه (ع)، وهنا ترى الخوف من هجوم الذئاب التي عادة تقصد الهجوم على قطيع ماشية، وإن كان يوسف الولد بالقرب من الماشية فستتناوله الذئاب... ننتبه جيدا، فكرة التحجّج بأكل الذئب ليوسف(ع) لم تكن خاطرة على بال الإخوة، وكما ترى حيث عن غير قصد أوحى الأب لهم بالفكرة.

(قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَّخَاسِرُونَ{14})

{قَالُوا}، استمرّ الإخوة بإحراج أبيهم والإلحاح عليه:
{لَئِنْ}، إذا حصل و {أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ}، ونحن عصابة، ونحن مجموعة متضامنة، وهنا المقصود أنهم لا يهربون ويتعاونون على ردّ الخطر، {إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ}، والرابح هو الذئب! هل من الممكن أن يربح علينا الذئب! عندها نكون موصوفين بأننا فاقدون لشيء له أهمية، نكون بلا رجولة بلا قوّة، فهل نحن بنظرك فاشلون وضعفاء؟ يَهْجُمُ الذئب علينا، ولكن هل يمكنه هزيمتنا؟ ويأكل واحداً من بيننا؟ فأنت تهيننا بهذا الكلام!

(فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ{15})
لم يجد الأب أعذارا أخرى فأحرجوه وسمح لهم بأخذ يوسف(ع) معهم... وكما ترى رغم كل احتياطاته لم يستطع (ع) منع جريان الأحداث الموصلة للنتيجة التي يريدها سبحانه وهي انتقال يوسف (ع) إلى مصر.
{فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ}، بيوسف (ع) إلى البريّة، {وَأَجْمَعُوا}، واتفقوا جميعا، {أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ}، أن يجعلوا يوسف في عتمة وعمق، {الْجُبِّ}، الحفرة، وهنا الكلام عن حفرة لجمع الماء بلا حيطان من الداخل، فأخذوه وأخيرا قرروا رمي يوسف في "البئر"، فرموه فيه.
{وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ}، وضعنا في فكر ووعي يوسف (ع) معلومات مفادها: {لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا}، رميهم لك في الجبّ هو خبر غير منتشر بين الناس وهم يعلمونه فقط، وسوف تخبر إخوتك بهذا الأمر بهذا الموضوع، {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}، وهم لا يتفاعلون مع ما يحصل، فهم الآن رموك في الجبّ على أساس أنهم تخلّصوا منك، ولكنهم لا يعون ولا يدرون ولا يخطر ببالهم بأنك أنت يوسف ستقف أمامهم تخبرهم عن رميهم لك في الجب.
سترى فيما سيأتي من القصة أنهم اجتمعوا بالنبي يوسف(ع) في مصر ولم يعرفوه، وأخبرهم النبي يوسف (ع) بأنهم رموا أخا لهم في الجبّ، فهذا نبأ لهم، وهم لا يخطر ببالهم أنهم يتحدثون "مع" الذي رموه في الجبّ.
الوحي يقول ليوسف(ع) إنه لن يعرف أي أحد برميك في الجبّ إلا إخوتك فقط، وستنجو أنت من هنا، وستلتقي بهم لتخبرهم بأنهم ارتكبوا جريمة رمي أخيهم في جبّ، وهم لا يشعرون مطلقا بأنك أنت يوسف(ع). لاحظ أن هذا الوحي مُطَمْئِناً ومُؤْنِساً لفتى صغير عالق في جبّ.

(وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ{16})
الآية السابقة أخبرتنا أن آخر قرار تنفّذ كان رمي يوسف(ع) في الجبّ، فرموه...:
{وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ}، {عِشَاءً}، من بعد ذهاب ضوء الشمس نهائيا، فانتظروا إلى ما بعد المغرب حين انتشار العتمة تماما وجاؤوا إلى بيت أبيهم، {يَبْكُونَ}، يعبّرون عن حزنهم بنزول دموعهم.
سترى في تكملة الكلام أنهم تأخروا إلى وقت العشاء ليأتوا حتى يقولوا إنهم بحثوا عن يوسف(ع) بأقصى ما يمكن ولم يتوقفوا حتى صار العشاء فلم يعد بإمكانهم البحث عنه بسبب فقدان الرؤية من اشتداد عتمة الليل.

(قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ{17})
{يَا أَبَانَا} يعقوب، {إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ}، نتسابق بالركض لنرى من هو الأسرع بيننا، {وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا}، تركناه قرب أمتعتنا قرب أغراضنا، وركضنا وركضنا حتى صرنا بعيدين عنه عن غير قصد ولم ننتبه لأننا كنا نتسابق فابتعدنا ولم ننتبه.

{فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا}، ولست معتقداً بكلامنا، ولست مقتنعاً بصحّة ما نقول، {وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ}، فنحن نخبرك بخبر يحتمل الصدق والكذب، وحتى لو كان خبرنا صادقاً فأنت لن تصدقنا لأنك بالتحديد حذّرتنا من أن يأكله الذئب ومن سهونا عنه ونحن عشرة، وهذا شيء لا يُصدّق...

(وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ{18})
{وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ}، قدّموا برهاناً لأبيهم أنّ يوسف (ع) أكله الذئب، حيث أحضروا القميص الذي كان يرتديه النبي يوسف (ع) وعليه دم، ومن المفروض أن يبرهن أنها دماء يوسف (ع) بسبب تمزيق الذئب لجسده... ولكنه دم كذب وليس صحيحاً أنه دم يوسف (ع).

يبدو من الآية أنّ الأب عرف من الدم على القميص أنهم يكذبون، فلو كان الدم ناتجاً عن هجوم ذئب لكان القميص ممزقاً، لكنّ القميص سليم! وعليه دم فقط من دون أي تمزّق! فهذا الدم كذب وليس صدقاً، لأنه مستحيل أن ينتج دم عن تمزيق الذئب ليوسف (ع) ويبقى القميص سليماً!

{قَالَ} الأب يعقوب (ع): {بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً}، هناك أمر، وهناك شيء سيئ وأنتم تعلمون أنه سيئ ورغم ذلك فعلتموه غاضّين النظر عن سوئه، لذا حتماً لم يأكله الذئب ومن الواضح أنكم أنتم فعلتم بأخيكم شيئاً تعلمون أنه سيئ.
{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ}، سأتمسك بالصبر الجميل، وستبقى تصرفاتي مدروسة وواعية وهذا التصرف يوصف بأنه جميل وحسن، ولن تجروني إلى الغضب القبيح، ولن أثور عليكم بغضب المجنون لأنكم تكذبون عليّ.

{وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ}، أستعين بالله تعالى ليساعدني، {عَلَى مَا تَصِفُونَ}، حيث وصفتم نهاية يوسف (ع) بأنّ الذئب أكله، وهذا غير صحيح، وأنا أستعين بالله تعالى حتى يحلّ هذه المشكلة، ويعين يوسف (ع) حيثما كان

تذكّر أنّ الأب يعلم أنّ ابنه يوسف (ع) سيأتي عليه زمن ويسجد له أهله ويكون سيّداً عليهم... وقصّة أكل الذئب له غير صحيحة، حيث إنّ يوسف (ع) حتماً حيٌّ، لكنّ الأب لا يستطيع إيجاده.

(وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَـذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ{19})
كما يبدو، لم يستطع الأب استنطاق الأولاد وإجبارهم على الاعتراف بما حصل، وهم لم يعترفوا بأي شيء، والبحث عن يوسف(ع) لم يوصل الأب لأي نتيجة، فالولد في حفرة تحت الأرض...

{وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ} جاء أناس يسيرون، {فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ}، انطلق واحد من السائرين وَارِدًا، أي ليرد، ليأتي إلى الجبّ ليحضر الماء، {فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ}، أنزل الدلو، السطل، المربوط بحبل في الجبّ.

{قَالَ يَا بُشْرَىٰ}، يا للخبر السار، {هَٰذَا غُلَامٌ}! هذا ذكر في مرحلة بين التمييز والبلوغ، كما يبدو لك، إنّ يوسف(ع) حين رأى الحبل متدليا تعلّق به، وعلم الوارد أن الحبل علق به شيء ثقيل، سحب الحبل ووجد غلاما: ولدا بعمر بين السبعة وَالْأَرْبَعَةَ عَشَرَ عاما، فأعلن عن فرحته لأنه حصل على غلام ليبيعه كعبد.

{وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً}، فلم يسألوه أين أهله ليردّوه لهم، بل جريا على عادة أسر وبيع من يجده الناس شريدا، وضعوا النبي يوسف(ع) مع البضاعة، مع الأشياء المخصصة للبيع، فأسرّوه أخفوه مع الأغراض حتى لا يراه أحد من أهل المنطقة ويعرفه فيستردّه منهم...

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}، فكل ما يجري تحت المراقبة الإلهية، بل ما حصل الآن إنّه تعالى كان يعلم أنه سيحصل، بل بطريقة لا نراها ولا نلاحظها، حيث جرت الأمور على هذا الشكل لتصل إلى النتيجة التي يريدها تعالى وهي انتقال يوسف(ع) إلى مصر...

ننتبه جيدا، يمكنك أن ترى في هذه القصة أن بعض الحوادث جرت بشكل طبيعي عادي، وَتَسَلْسَلَتْ أحداثها وكأنه لا يوجد تدخّل إلهي، فإخوته "بقرار منهم" رموه في جبّ، وجاءت قافلة "كانت مارّة من هناك" أخذته... وفيما بعد باعوه كعبد لعزيز مصر... وهذا هو نفسه المخطّط الإلهي لإرسال يوسف(ع) إلى مصر. ومهما حاولنا أن نحلّل وندرس القصّة، فمن الصعب أن نفهم كيف تكون الأمور في نفس الوقت تجري بحسب تسلسل الأحداث بمجراها الطبيعي وفي نفس الوقت تجري على مخطّط إلهي.

اسمح لي أن أستغل هذه الفرصة للتركيز على الإيمان بتخطيطه سبحانه لحياة البشر، فنحن الْمُؤْمِنِينَ نتصرف بناء على المعطيات المتوافرة، وفي نفس الوقت نؤمن بوجود سيطرة إلهية في الباطن وقاهرة فوق كل الظاهر الذي نراه،
فالحرب تحصل لأن العدو قرّر الهجوم... هذا الظاهر، أما في الباطن، فهناك مخطط إلهي، وهذه الحرب حصلت ضمن المخطط الإلهي ولسبب ما... وكلّ ما يحصل معنا وبحسب عموم مفاهيم القرآن فهو حتى تسير حياة الكافر من سَيِّئٍ لِأَسْوَأَ إيمانيا، وتسير حياة المؤمن من حسن لِأَحْسَنَ فيزداد إيمانا، ومن تفرعات ذلك يميز الخبيث من الطيّب فيظهر المؤمن الحقيقي من المزيّف ويهتدي من لديه قابلية الاهتداء... وهذا أبرز عنوان نفهمه من القرآن كسبب رئيسي خلف كل ما يحصل معنا في الدنيا، وفي نفس الوقت تجري الأحداث كنتيجة لما يفعله الناس بالمساحة الممنوحة لهم بحرية الإرادة والاختيار.

قد نستطيع نحن رؤية أو تخمين الأسباب الإلهية سواء أكانت سننا طبيعية أو تَدَخُّلاً إِلهِيًّا لحدوث شيء ما، ولكن هذا باب خطير الدخول فيه، فمثلا النبي إبراهيم(ع) خليل له تعالى، وليس من المفروض منه أن يحبّ أي كائن آخر أكثر

من حبّه له تعالى، فهَذَا نقص في نقاوة إيمانه، ولذلك امتحنه تعالى بالأمر بقتل ولده... وهذا تحليلنا نحن لما حصل، وتراه مَقْبُولاً "ربما هناك تحليل آخر أفضل"، وفلن يأمرني سبحانه بقتل ولدي مباشرة بيدي ليمتحنني لِأَنَّنِي أصلا لست بمستوى الخليل، وربما حب المال والشهوات أكبر من حبي له تعالى... عندها لا معنى لامتحاني بأمري بقتل ولدي بيدي... ولكن هناك درجات أقل من نفس نوع هذا الامتحان، حَيْثُ أدفع ولدي للمشاركة في قتال في سبيله تعالى...

إذًا واقع الحال أننا ليس لدينا إلا التحليل غير الأكيد عن سبب حصول الأحداث مع الناس، ولا يمكننا الجزم لِأَنَّ هذا شيء من مستوى إلهي، فلا يمكنني القول عن سبب ولادة ولد معاق لأهل كانوا يسخرون من المعاقين، أو من تكبّرهم عليه تعالى... أو أن أقول خسر ذاك أمواله في التجارة لأنه كان سيّئا مع والديه أو لأنه لا يدفع الزكاة... فكثير من هذا النوع من الكلام منتشر بين الناس، وعادة لا ينتبهون أنهم يتخطون حدودهم، فهذه تحليلات من الأفضل لك الاحتفاظ بها لنفسك، ولا يحقّ لك نسبتها له تعالى كتدخّل منه سبحانه بحسب الأسباب التي اقترحتها حضرتك، فهذا هو التخرّص، والافتراء، والكذب عليه تعالى.

نعم أنصحك بشيء، أَنْ تُحَلِّلَ ما يجري معك أنت، فهذا سيفيدك إن كنت فعلا مُقْتَنِعًا بأن الأمور السيئة تنتج عن عمل سيّء يرتكبه الناس، فانظر لنفسك ماذا فعلت من سوء حتى أصابك السوء؟ وهكذا ستفهم تداخل الأمور مع بعضها من سيئاتك وسيئات الآخرين التي مُجْتَمِعَةً وَمُنْفَرِدَةً أدّت لحصول السوء لك... فترى سيئاتك ويصير لديك دافع للاستغفار، وترى سيئات الْآخَرِينَ المؤذية لك فلا ترتكبها أنت مع الآخرين...

(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ{20})
{وَشَرَوْهُ}، باعوا يوسف(ع)، {بِثَمَنٍ بَخْسٍ}، بسعر قليل أقل مما يستحق، {دَرَاهِمَ}، عملة معدنية قيمتها قليلة أقل من الدنانير، وكانت دراهم، {مَعْدُودَةٍ}، يمكن عدّها بسهولة لأنها قليلة، وعادة مَا هو أقل من العشرة فهو قليل بحسب ما نعرفه من عموم قدرات الناس على اعتماد نظام العدّ العشري لأن أصابع أيديهم عشرة... وعلى كلّ حال، {وَكَانُوا فِيهِ}، في بيع يوسف(ع)، {مِنَ الزَّاهِدِينَ}، فلا دافع عندهم للاحتفاظ به وَيُرِيدُونَ بيعه، ولم يصبروا حتى يأتيهم من يشتريه بسعر أعلى لأنهم لا يرون له قيمة عالية...

ضَعْ في بالك أن كلمة "اشترى" تقال لمن دفع الثمن وأخذ الشيء، ولا تزال مستعملة بهذا المعنى إلى عصرنا. "شَرَى" تقال لمن أخذ الثمن وسلّم الشيء وَتُقَالُ للبائع، ولم يعد دارجا استعمالها، وَ"شَرَوْهُ" هنا بالمعنى الدارج تعني: باعوه. هذا الاستعمال لكلمة "شرى" هو الأصل ولم يعد دارجا بهذه الدقّة بين الناس وَاسْتَبْدَلُوهَا بكلمة "بَاعَ" التي في الأصل ناظرة لما قدّمته من بضاعة، وَ"شَرَى" ناظرة لقيمة ما أخذته كثمن للبضاعة. التَّعْبِيرُ "بالبيع، باع منه، باع له..." يكون ناظرا لعملية تقديم الطرفين لبعضهما شيئا ما، حَيْثُ قَدَّمَ وَاحِدٌ المال والآخر قدم البضاعة. والتعبير "بالشرو، اشترى منه، شرى له..." يكون ناظرا لعملية أخذ الطرفين من بعضهما شَيْئًا، حَيْثُ أَخَذَ وَاحِدٌ المال والآخر أخذ البضاعة.

مِنَ المنتشر بين المفسرين، أن إِخْوَتَهُ كانوا قرب الجبّ حين سحبه السَّيَّارَةُ، وَتَدَخَّلُوا ليعرفوا إلى أين ستذهب القافلة، خوفا من توجهها نحو قريتهم إن عرّفهم يوسف بنفسه ومكان سكنه... وحتى يتأكدوا أن يوسف(ع) سيذهب إلى أرض بعيدة، قَالُوا في الكتب إِنَّ الْإِخْوَةَ قالوا للقافلة إِنَّ يوسف(ع) عبد لهم، وطالبوهم به، وعندما علموا أن القافلة متجهة نحو مصر، باعوهم يوسف(ع) بسعر لا يمكن لتجّار القافلة رفضه، بدراهم قليلة جدا. علما أَنَّ الآيات هنا ومن دون هذا الافتراض يمكن تفسيرها بشكل أسلس، إِذِ الْقَافِلَةُ التي سحبت يوسف(ع)، أسرّته بضاعة، وَأَخْفَتْهُ حتى لا يراه أحد من أهل المنطقة، وسارت به وباعته بثمن بخس في مصر، لأنه ولد صغير ولن يدفع فيه أَحَدٌ مَا مَبْلَغًا كَبِيرًا، لِأَنَّ الْمُشْتَرِينَ للعبيد بحاجة لمن يقوم بالأعمال البدنية للخدمة والعمل، ولذلك سترى من الآية التالية أن من اشتراه كان يعلم أنه اشترى عبدا لا يصلح للخدمة الجسدية، وفكّر في تبنّيه... مَا هو منتشر بين الناس من بيع الأخوة للنبي يوسف(ع) مُسْتَوْرَدٌ من التراث اليهودي، ومن دونه لن ترى الآيات تشير إليه، بل تشير للسيارة الذين باعوه لعزيز مصر، وهذا هو الأنسب.

(وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ{21})

{وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ}، قال الذي قدّم مالا وأخذ يوسف(ع) وهو، {مِنْ مِصْرَ}، المشتري مصري، قال {لِامْرَأَتِهِ}، للأنثى المنسوبة له، لزوجته:

{أَكْرِمِي}، لا تهينيه أو تحقّريه وَلْيَكُنْ بكرامة بقيمة وتقدير عال، {مَثْوَاهُ}، إقامته بيننا، لا تعامليه كالعبيد، {عَسَىٰ}، من المحتمل المرجّح غير الأكيد، {أَنْ يَنْفَعَنَا}، ننتفع منه، لا تعامليه كالعبيد للخدمة والتنظيف و... حَيْثُ يبدو فيهِ صفات لائقة ومن المحتمل المرجّح "غير الأكيد" أن ينفعنا كمثقّف متعلّم، {أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا}، نَجْعَلُ من يوسف(ع) بمثابة ولد لنا، نتبناه ونعتبره ابنا لنا.

{وَكَذَٰلِكَ}، وكما قلنا لك وبهذه الطريقة التي سارت فيها الأمور بحيث يصل يوسف(ع) إلى مصر، {مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ}، جعلناه مُتَمَكِّنًا، مسيطرا وله سلطة وثبات، يمكنه التصرّف بحرية، لأنه صار تابعا لواحد من أشراف مصر، ويعامله كولد له وليس كعبد، وستعرف من بقية القصّة أن المشتري كان أو صار بعد ذلك، عزيزا لمصر، أي من أشراف مصر وتحت الملك بدرجة "كما يبدو". وإذا أضفنا لهذا كلّه أن الذي اشتراه يبدو أنه ليس له أولاد كما يقولون، سينال يوسف(ع) عناية وَدَلَالًا وَرَاحَةً...

التخطيط الإلهي كان بإيصال النبي يوسف (ع) لمصر ليكون رسولا هناك، وأن يكون متمكنا مرتاحا.

{وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ}، مما يقوله الناس وبعض ما يسمعه النبي يوسف(ع) إِنَّهُ سيعلم التفسير العملي لبعض ما يقولونه، ولاحظ أن الآية لم تقل أَنَّهُ (ع) يعلم تأويل كل الأحاديث، لِأَنَّ هذا أصلا لا فائدة فيه، ما الفائدة من معرفة كل ما سيحصل مع كل شخص تتحدث معه؟ حَيْثُ هُنَاكَ أشياء كثيرة ستحصل وهي عادية ومتكررة ولا قيمة لمعرفتها... أكل كذا وشرب كذا ونام في ساعة كذا... ولكن عندما يركّز النبي يوسف(ع) على حديث ما ليعلم تأويله إِنَّهُ سيعلم المهمّ منه، لأنه تعالى علّمه كيف يفعل ذلك.

{وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ}، أي أمر من الأمور، أي شيء يريد تعالى حصوله، سبحانه غالب ولا أحد يغلبه، وَيَحْصُلُ ما يريد سبحانه حصوله غصبا عن جميع المخلوقات، أراد سبحانه أن يصل يوسف(ع) إلى مصر وأن يكون متمكنا فيها، وأن يتعلّم من تأويل الأحاديث، وَحَصَلَ كل ذلك.

{وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}، سمعوا بذلك ولكنهم لم يعتبروها معلومة صحيحة أن الله تعالى غالب على أمره، لِأَنَّ أكثر الناس لا يعلمون أن الشيء الذي يريده تعالى أن يحصل سيحصل حتما.

أكرّر لفت انتباهك لظاهر الأمور التي جرت على النبي يوسف(ع)، حَيْثُ على راحة تفكير إِخْوَتِهِ رموه في الجبّ، وعلى راحة تفكير القافلة ذهبوا به إِلَى مصر، وعلى راحة تفكير المصري اشتراه وقرّر إكرامه... هذا كله الظاهر، أما الباطن والحقيقة، فهذا أمر إلهي، إِنَّهَا إرادة ربنا سبحانه وتعالى أن يصل يوسف(ع) إلى مصر ليكون رسولا هناك... وأكثر الناس لا تؤمن بوجود تخطيط إلهي باطن خلف الظواهر، وأما نحن المؤمنون، فنعتقد بأن كل تفصيل من حياتنا هو بمخطط إلهي، وإن كنّا لا نفهم كيف تحصل الأمور في الباطن، نفهم الحوادث كما نراها بأعيننا، وفي نفس الوقت نؤمن بالسيطرة الإلهية الباطنة على كل شيء، حتى لو لم نفهم كيف، وتكفينا القصّة هنا كمثال واضح جدا عن ذلك، وهذا الفهم هو وَاحِدٌ من الآيات الإلهية المهمة لنا من قصّة يوسف(ع) وَإِخْوَتِهِ.

بالنسبة لكلمة "ثَوَى، مَثْوَى" درج في أدبياتنا أن نقول: جعل تعالى مثواك الجنّة. ولكن من استعمال القرآن لهذه الكلمة نعلم أن معناها: إقامة شخص في مكان لا يملكه وليس له، كالضيف والسجين والعبد... وهي حالة النبي يوسف(ع) في قصر العزيز كما ورد في الآية 21 من سورة يوسف {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ...}، وكحالة النبي موسى(ع) في مدين كما ورد في الآية 45 من سورة القصص {...وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا...}، وكحالة أهل النار في النار كما ورد مرارا ومنه ما ورد في الآية 12 من سورة محمّد {...وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ}.

أهل الجنّة يرثون الجنّة يملكونها وهي لهم... كما ورد مِرَارًا ومنه الآية 11 من سورة الْمُؤْمِنُونَ {الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، لُغَوِيًّا لا يصحّ وصف من في الجنّة بأنه ثاو فيها، ولم يرد وصف كهذا أبدا في القرآن، وأمّا أهل النار فثاوون فيها لأنها ليست ملكا لهم، هم مسجونون فيها مؤبّدا، لِأَنَّ السَّجِينَ لا يملك السجن وليس وارثا له بل ثاو فيه.

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{22})
{وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ}، وعندما وصل النبي يوسف(ع) في العمر إلى أشدّه إلى القوة، حَيْثُ وصل إِلَى فترة العمر الَّتِي تصير فِيهَا قواه من قدراته العقلية والجسدية كاملة، {آتَيْنَاهُ حُكْمًا}، فصار يرى الصوابية في الأمور، وَآتَيْنَاهُ {عِلْمًا}، فصار عنده معلومات أكثر عن الأشياء والمفاهيم.

انْتَبِهْ جيدا، أَوَّلُ ما نفترض أنه (ع) زاد علما في الشريعة والعقيدة، ولا يظهر من بقية الآيات في القرآن تحديدا للعلم الذي يتم منحه من ربنا سبحانه، حَيْثُ أَخْبَرَنَا القرآن أَنَّ الأنبياء: لُوطًا، وَدَاوُودَ، وَسُلَيْمَانَ... عليهم السلام نالوا العلم، ولكن لم يتم تحديد نوع العلم، فلا من الكلام ولا من السياق يمكن معرفة نوع العلم، وربما من القرآن نستخرج قصد علم منطق الطير للنبيين داوود(ع) وسليمان(ع)، ونستنتج علم الرؤيا وطريقة لتخزين الحبوب للنبي يوسف(ع)، ولكن لا يوجد لدينا أي شيء يشير لنوع علم النبي لوط(ع) الذي ذكرته الآية 74 من سورة الأنبياء فيمن نالوا علما منه تعالى {وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا...}.

ننتبه ولا ننسب فَضِيلَةً كفضل للأنبياء، فالكثير من الناس يقولون إِنَّ الأنبياء يعلمون كل العلوم! بل ويعلمون كل اللغات! وهذا شيء ليس مهمّا ولا ضروريا ولا يرفع من قيمة الأنبياء... علما أن القرآن لم يقل ذلك، بل أعطى دليلا على العكس، فالنبي داوود(ع) لم يفهم كيف يحكم في قضية الغنم والحرث... وراجع في ذلك الآية 79 من سورة الأنبياء، وفهّمها سبحانه للنبي سليمان(ع)، فها داوود(ع) نبي رسول، ومرّ عليه شيء لا يعرفه، وما نعرفه من قصص الأنبياء في القرآن أنهم كانوا يتصرفون بشكل عادي مثلنا، فهذا يشير إلى مقدراتهم العادية مثلنا، إلى أن يتدخل سبحانه في المحطات المهمّة، فلا يَعْرِفُونَ شيئا زيادة عنّا إلا عندما يتدخل سبحانه "السبب حكيم" ليعلّمهم.

بالمختصر، إِنَّ الْعِلْمَ في أساسه هو قابلية التعامل بشكل سليم مع المعطيات، فكلمة علم مشتق منها كلمة معلومات، وهكذا ترى الإشارة لناحية الداخل فينا بالمعلومات التي عندنا، وإشارتها للخارج للمعلومات التي لا نعلمها، ويصير العلم وَصْفًا لحالة كيفية التعامل مع المعلومات مهما كان نوعها، وهذا بشكل عام، وفي التفاصيل يصير لدينا تخصّص ناتج من كثرة تجميع المعلومات حول موضوع محدّد، فنصير متخصصين بعلم من العلوم، وهذا شيء لا معنى له لتقصده الآيات الواصفة لعلم الأنبياء عندما يكون كلامها عُمُومِيًّا، وبتعبير من عصرنا، إِنَّ الشخص الموصوف بالعلم هو الذي لديه خلفية موزونة للتعاطي مع المعطيات، وبشكلها البسيط تراها في الذين يسمعون الحقّ ويقرّون به ولكنهم يبقون موصوفين بأنهم لا يعلمون! لأنهم لا يتعاطون بشكل سليم مع المعطيات، فقرارهم الداخلي هو التصرّف بحسب ما يهوونه، ومن هنا نفهم أن وصف الأنبياء بالعلم هو وصف لفكرهم ونفسيتهم بتعاطيهم مع المعطيات باستقرار الاتزان وليس بالهوى.

هَذَا لا ينفي كون بعض الأنبياء أكثر حنكة وحيلة وذكاء... من الآخرين، ولا ينفي أن بعضهم أشدّ علما من بقية الأنبياء في شيء ما تَخَصَّصَ به، لِنَقُلْ إِنَّهُ تعلّم حرفة النجارة أو الزراعة أو التجارة... وهكذا ترى أن وصفهم كلّهم بالعلم يُشِيرُ إلى الأساس الفكري والنفسي السليم في تعاملهم مع مختلف أنواع المعطيات.

نرجع للآية، {وَكَذَٰلِكَ}، وبهذا الشكل، {نَجْزِي}، نعطي شيئا كمقابل لـ، {الْمُحْسِنِينَ}، الذين حسنت أعمالهم، فالنبي يوسف(ع) كانت أعماله حسنة، ولذلك أعطاه سبحانه حكما وعلما.

كَمَا ترى لَمْ تهتم الآية بعمره (ع) ولفتت انتباهنا إلى حين بلغ كامل قوته الفكرية، نَتَسَاءَلُ: كم كان عمره(ع) حين بلغ أشدّه؟ ومن تقديرنا للأوضاع حينما نلتفت لما ستذكره الآيات الآتية، نُقَدِّرُ أنه كان شابا قريبا من العشرين سنة، أقل بقليل أو أكثر بقليل، وأصلا لا يوجد أي طريقة لنحدّد فيها متى يبلغ الإنسان كامل قواه الفكرية، لأنها تختلف من شخص لآخر، وبالنسبة لنبي(ع) ينال العناية الإلهية، تَكُونُ حَالَتُهُ خاصة ومتميّزة عن بقية الناس، فلا تشغل نفسك بتحديد سنة "الأشدّ" لأنها حالة مختلفة من شخص لآخر، وإذا فكّرت في مجريات القصة هنا فستعلم أن الآية توصّفه بِـ "بَلَغَ أَشُدَّهُ" في أول شبابه، وذلك حين حاولت زوجة العزيز استمالته... وشخصيا لا أحتمل أنه كان أكبر من العشرين حين جرت معه الحادثة التالية، لأن غرام زوجة العزيز الجنوني به (ع) لا يمكن أن نتصوره صامدا لأكثر من مدّة قليلة من ريعان شباب النبي يوسف(ع).

لماذا لم يجعلني سبحانه نبيا؟

بقي شيء، فالاعتقاد السائد بين عامّة الناس عن طهارة وقداسة الأنبياء أَنَّهُ تفضيل منه تعالى لهم على بقية الناس على أساس أنه تعالى اختارهم وفضّلهم... هُوَ اعتقاد مشوّش فيه بعض المخالفات للواقع وفيه ما لا يتماشى مع مفاهيم القرآن، فتفضيله تعالى لهم بالنبوّة أو الرسالة أو الوحي أو العلم أو الحكمة... لم يكن بلا قاعدة حكيمة، فهم بالأساس أشخاص مميزون جدا بطهارة قلبهم، حَيْثُ مِنْ دون أي وحي ينزل عليهم هم مؤمنون فلم يخترعوا آلهة من خيالهم، ولم يتبعوا نزواتهم وغرائزهم وشهواتهم السيئة... قتلا أو سرقة أو احتيالا أو أذية أو غيبة... وَلَمْ يسرفوا وَلَمْ يبذّروا... وبعد تحلّيهم بهذه الصفات اختارهم تعالى ليكونوا رسلا وأنبياء، وعدة مرات ذكرنا هذا في دراستنا هذه وأحلتك يا عزيزي ويا عزيزتي لقراءة سورة الأنبياء التي لم يرد فيها كلمة نبي ولا أي من مشتقاتها وكانت تتحدّث عن أناس أطهار...

هنا نرى ولدا صغيرا حظي بفضله تعالى عليه فأوحى إليه {لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا...}، ومن قبلها كان يرى في منامه أمورا ستحدث في المستقبل كنوع من الوحي الإلهي له (ع)... وفي آيتنا هنا نرى تفضيله بحكمة وعلم إلهي، بِكُلِّ وضوح نحن أمام نموذج راق من عبيده تعالى، فهو منذ طفولته لم يختر القيام بالأعمال السيئة، حَيْثُ كَانَ سَلِيمَ القلب، ولهذه الأسباب نال منذ صغره الفضل الإلهي عليه بالوحي له... وكبر واستمر على سلامة قلبه فنال علما وحكما... وبعدها صار نبيا رسولا.

لَوْ أطلت عليك، فلدينا نموذجان فريدان يَبْدُو منهما بشكل أوضح التعارض مع ما قلناه، وهما النبيان الرسولان يحيى (ع) وعيسى(ع)، فقبل ولادتهما أخبر سبحانه الناس أنهما سيكونان نَبِيَّيْنِ حين يولدان، والنبي عيسى(ع) تكلّم وهو في المهد... فهل خلقهما سبحانه بتدخّل منه ليكونا هكذا غصبا عنهما وليصيرا نَبِيَّيْنِ؟ وخلقني لأكون مختلفا عنهما بصفات فيها سوء؟ لا، فسبحانه يعلم الغيب، ويعلم أنهما سيكونان عَبْدَيْنِ طَاهِرَيْنِ، ومن هذا العلم أخبرنا سبحانه أنهما سيكونان مُمَيَّزَيْنِ، وسيصيران نبيين، وبدأ سبحانه بالعناية بهما منذ طفولتهما بناء على علمه تعالى بطهارة قلبيهما.

لو كان سبحانه وتعالى ينتقي عشوائيا أشخاصا ويجعلهم أنبياء ويؤتيهم العلم والحكمة، لكان يحقّ لي ولك الاعتراض على ذلك، فلماذا لم يَخْتَرْنِي سبحانه أنا ليعتني بي ويوحي إليّ ويجعلني نبيا ويؤتيني الحكمة والعلم؟ من الواضح أنه تعالى لم يَخْتَرْنِي لعلمه بالغيب أني لست بالمواصفات اللائقة بذلك، واختار سبحانه أولئك بناء على صفاتهم، ومن علمه تعالى بالغيب بأن فلانا وفلانا سيكون طاهرا، عاملهم على هذا الأساس منذ صغرهم. وهذه المعاملة الإلهية المميزة متاحة للجميع، ولكني أنا لم أستحقّها بالشكل الذي استحقّه الذين وظّفهم تعالى كأنبياء ورسل، ومن دون تلك المعاملة الإلهية المميزة فهؤلاء الأشخاص كانوا سيمضون حياتهم إلى آخر نفس وهم مميزون في طهارة قلوبهم، وحتى لو لم ينزل عليهم وحي، وهذا ما نفهمه من عموم القرآن.

لِنَقْلِبِ المشهد ولأكن أنا من نال العناية الإلهية، لِنَقُلْ إِنِّي صرت أعلم من تأويل الأحاديث، فهل سأصير عفيفا طاهرا تقيا... أم سأستغلها في أمور سيئة؟ الجواب سهل جدا، فماذا أفعل الآن بما أتمتع به من قدرات عادية من بصر وسمع وأموال وسلطة... وهي قدرات مثل قدرات أي بشري آخر؟ ألست أستغلها في بعض الأمور السيئة؟ فلماذا سأفترض أني بمنحي قدرات أعلى سأكون تقيا صالحا نبيا! ولمزيد من التفاصيل حول ذلك راجع دراسة الآية 40 من سورة النمل {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ...}

هُنَاكَ شيء سنذكره عن تأويل الأحاديث والعلم والحكمة في الآية التالية.

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ{23})

{وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ}، المرأة التي يسكن النبي يوسف (ع) في بيتها حَاوَلَتْ جعله يريد شيئا ما، حاولت استمالته لفعل شيء ما، ومن سياق الكلام تعلم أنها حاولت إغراءه ليقوم بعمل جنسي معها، والمشهور بين الناس أن اسمها زليخا.

{وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ}، وأغلقت أطبقت بإحكام على الممرات للغرفة، ويبدو أنها استفردت بالنبي يوسف (ع) في غرفة ما ولهذه الغرفة عدّة أبواب، أو للوصول إلى الغرفة ممرات لها أبواب، قَامَتْ بإغلاق الأبواب جيدا. {وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ}، أنا متهيئة جاهزة لك، فلا أحد يمكنه الدخول إلى الغرفة، ولا أحد يعلم بما يجري فيها، وها أنا مُتَجَهِّزَةٌ لك مستعدة.

{قَالَ} النبي يوسف(ع): {مَعَاذَ اللّهِ}، أنا مُلْتَجِئٌ إليه تعالى وفي حمايته ولست تاركا تبعيتي له، {إِنَّهُ رَبِّي}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {أَحْسَنَ مَثْوَايَ}، فجعل مكان إقامتي جيدا حسنا، {إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ}، لا يوصف بأنه فالح، لم يكن مجيدا في عمله، {الظَّالِمُونَ}، فمن الظلم ولن يكون معي حقّ إن خالفت أوامره تعالى من بعدما اعتنى بي.

تِلْكَ المرأة سقطت القيم عندها ولم يردعها تدينها، وأمّا يوسف(ع) فيخاف الله تعالى، ولن يرتكب السيئة.

قيل في الكتب إنَّ النبي يوسف(ع) كان يقصد سيّد البيت حين قال إنَّ ربّه أحسن مثواه، فيكون ربّه سيّد البيت، ومن المعلوم أنه في اللغة العربية "وفي غيرها من اللغات" كَلِمَةُ "ربّ" قريبة جدا بالمعنى من كلمة "سيّد"، فنقول للإله: سيّدي. ونقول لشخص عادي: سيّدي. وكذلك كلمة ربّ، فلا مشكلة في إطلاقها على الإله وعلى شخص عادي، فنقول: ربّ البيت، ربّة منزل، ربّ العمل... ونصفه تعالى بالربوبية ولكن من مستوى إلهي لِمَسْؤُولِيَّتِهِ عن الأمور. وهنا سِيَاقُ الجملة من: معاذ الله، وبعدها، إنه ربّي... فمن المفروض أن يكون معنى الكلام أنه (ع) يشير بربّه إلى الله تعالى.

بقي شيء مهم نلتفت له، إنَّ القدرة التي منحها تعالى للنبي يوسف(ع) من تأويل الأحاديث والعلم والحكمة، لم تُجَنِّبْهُ الْوُقُوعَ في مكيدة المرأة التي خطّطت للاستفراد به في غرفة مغلقة، وهذا يأخذك إلى رؤية حدود البشري الذي تمتّع بقدرة غير عادية ولكنه يبقى بَشَرِيًّا مَحْدُودًا لم يستطع رؤية خطر استفراد المرأة به، أو رغم علمه لَمْ يستطع تغيير مجرى الأمور التي ستذهب به إلى السجن، أو ستفترض أنه (ع) علم بما سيحصل ولم يتجنّبه لأن المطلوب دخوله السجن وغيابه عن الساحة لسنين، أو ستفترض شيئا آخر...

هذا النوع من الكلام يجرّك إلى الترف الفكري، فلا معطيات صريحة بين أيدينا لتفسير وقوعه (ع) في مسار حوادث ستؤدي به إلى السجن لسنين، وذلك بالرغم من تمتعه (ع) بقدرة تمكّنه من تأويل ما سيحدث، وهي قدرة تشبه كثيرا القدرة على معرفة ما سيحدث في المستقبل، فهل تجنّبه (ع) لذلك كان مستحيلا لأنه تعالى أجرى الأمور بشكل يمنعه (ع) من تجنّب دخول السجن؟ وحتى نفهم نحن أن أي قدرة غير عادية لأي إنسان سَتَبْقَى محكومة بإرادته تعالى التي تسير بالأمور نحو حكمة قد لا نستطيع فهمها إلا إذا حصلت...؟ قلت لك إنَّ هذا البحث سيأخذك إلى ترف فكري ترى فيه تطبيقا لأفكار الخيال العلمي على ما حصل معه (ع)، فحلّل ما شئت ولكن ننتبه أنه مجرد تحليل فلا تفرضه رافضا أي كلام آخر إلا إذا وقفت على أرض صلبة وَكَانَ لديك مستند قرآني صريح.

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ{24})
{وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ}، فكان عندها نيّة قوية للاقتراب من يوسف (ع) وباشرت فعلاً بذلك، ولكنها موصوفة بالـ {هَمَّ}، مما يعني أنّ لديها النيّة القوية التي لم تُنفّذ، ومن ناحية يوسف(ع)، {وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ}، فلولا حصول صورة "في الماضي" محدّدة لبرهان لدليل من المسؤول عنه من مستوى إلهي ويثبت أن هذا التصرّف غير صحيح، لكان حصل عنده {الهمّ}، لكانت حصلت عنده نيّة للفعل.

هي حصل لديها نيّة ومباشرة للفعل، وهو(ع) "لولا" البرهان الإلهي لكان همّ بها فغطس في الحرام، ولكنه لم يحصل لديه نيّة ولا مباشرة للفعل لأنه في الماضي رأى البرهان الإلهي، رأى سابقاً ما يجعله لا يهمّ بالمعصية. ويمكنك مراجعة استعمال معنى كلمة {هَمَّ} في بقيّة القرآن لترى أنها النية والمباشرة في فعل شيء لم يتحقق لسبب ما، لم يستعمل القرآن كلمة {هَمَّ} لتوصيف نيّة على فعل شيء تمّ فعله وإنجازه، بل استعملها حين تكون النيّة موجودة، وبوادر القيام بالعمل متوافرة... ولكن لسبب ما لم يتحقق فلم يحصل، وهذه حالة المرأة، أمّا هو (ع) فلولا رؤيته لبرهان منه تعالى سابقاً لهمّ بها، وراجع الآية 122 من سورة آل عمران {إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}، والآية 113 من سورة النساء {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ}...

أكرر لك، كما ترى من تعبير الآية أن أصل {الهمّ} لم يحصل له(ع)، فلولا برهان ربّه لحصل له (ع) {الهمّ}، أمّا هي فمن الواضح أنّه لم يتحقّق ما همّت به لأن يوسف الطاهر لم يطاوعها.

كذلك، بهذه الطريقة وكما أخبرناك عن رؤية النبي يوسف(ع) لبرهانه تعالى وامتناعه عن الفاحشة، {لِنَصْرِفَ عَنْهُ}، لنحوّل لنبعد عن يوسف(ع)، {السُّوءَ}، الشيء السيّئ وهو أن يكون ظالماً وخائناً، ونحن نصرف عنه، {وَالْفَحْشَاءَ}، ويبتعد عنه (ع) الفعل الجنسي السيّئ، لأنها امرأة متزوجة تعرض نفسها عليه وهذا فحش من نوع الزنا.

{إِنَّهُ}، يوسف(ع)، {مِنْ عِبَادِنَا}، من الذين مفروض منهم طاعتنا، {الْمُخْلَصِينَ}، "بالفتحة على حرف اللام"، من خالص عبادنا، فهو موصوف بأنه مع مجموعة أخرى مثله من العبيد المنفردين المتميّزين عن بقية العبيد، طبعاً هو من مجموعة المتميّزين بإيمانهم وطاعتهم.

لا ننسى أن القصّة رُويت لنا حتى نتعلّم العفّة، كل من يقول: فعلت الحرام لأني لم أتحمّل. فلينظر إلى يوسف(ع) كيف تحمّل.

ننتبه جيّداً، حيث إنّ الآيات بيّنت لنا أن الموقف لم يكن سهلاً، نعم على يوسف(ع) كان سهلاً لأنه صالح مُحسِن طاهر... مشمول بالعناية الإلهية الخاصة بالمؤمنين... ولكن توصيف الآيات للحادث أرادنا رؤية شدّة صعوبة الموقف، ونجح فيه يوسف(ع) نجاحاً متوقّعاً من مؤمن طاهر، وهذه العبرة من هذه القصّة. وكل كلام تقرأه في الكتب يُوحي لك أو يصرّح لك بأن يوسف(ع) اقترب من تلك المرأة، أو فكّر في الاقتراب منها، فهو كلام مخالف لعموم مفاهيم القرآن ومخالف للآيات هنا، فالآيات واضحة بطهارة نفسه وفكره(ع)، وأنه لم ينو أبداً أن يرتكب الحرام، لم يهمّ لأنه رأى سابقاً برهان ربّه سبحانه، وأضف عليه القميص المقدود من الخلف كما سيأتي، وأضف عليه ما قالته المرأة أن يوسف {اسْتَعْصَمَ} كما سيأتي في الآية 32 من السورة...

لو راجعنا نحن أنفسنا لوجدنا سيئة نكرهها، ربما نكره الكذب أو الغيبة أو الشذوذ أو السرقة... ونجد سيئة نحبّها وتميل نفسنا لفعلها، نفعلها أو لا نفعلها... بعد التركيز على هذه النقطة وإيجاد سيئة تكرهها، ستفهم أن غيرك يمكن أن يكره سيئة أنت تحبّها وترغبها، وتفهم أنه ينفر منها ولا يمكنه فعلها من شدّة كرهه لها، وهكذا نفهم نفسية الطاهرين أمام السيئات التي هي نفسها موصوفة بالمحرمات، ونفهم أن شاباً يافعاً عازباً "يخاف الله تعالى" يمكنه بسهولة أن يكره الاقتراب من امرأة بالحرام، وربما يبدو هذا الموقف علينا صعباً أو مستحيلاً، ولكن على قياس {الْعِبَادِ الْمُخْلَصِينَ} فهو طبيعي، لأنهم يكرهون السوء "الحرام".

هناك كلام كثير في الكتب عن البرهان الذي رآه النبي يوسف(ع)، وما يظهر من الآية أنه (ع) رأى شيئاً ما، ولم تفصّل فيه بالتحديد، وأشهر شيء قالوه إنّه (ع) عندما قال لها: معاذ الله... فهو (ع) لن يخون ربّه الذي يراه أينما كان... وقالوا إنّ امرأة العزيز قامت بوضع غطاء على تمثال كان في الغرفة لآلهة مصرية حتى لا تراها آلهتها... وكان ذلك برهاناً له (ع) أن الله تعالى يراه وبالتالي فلن يرتكب الفاحشة... وقيل إنّه (ع) رأى أموراً أخرى، منها أنه (ع) رأى أباه يعاتبه... وكل هذه الأقوال حصرت البرهان بشيء رآه (ع) بعينيه في تلك اللحظة، وتتماشى مع فكرة أنه (ع) كان ناوياً لمطاوعة المرأة ولكن رؤيته للبرهان وهو في الغرفة معها منعته، وهذا مخالف للمعاني الدقيقة لكلمات الآية، وتكملة الآية عن صرفه تعالى السوء والفحشاء عنه (ع) تشير إلى كون البرهان شيئاً داخلياً مترسّخاً فيه (ع)، فهو موصوف بأنه من العباد المخلصين، والذي بهذه الصفة يكن كره السوء مترسّخاً فيه، لا داعي ليريه تعالى شيئاً بعينيه حتى يبرهن له أن الابتعاد عن السوء أفضل، لا، لأنّ الرؤية ككلمة فهي أعمّ من الرؤية بالعين، وهي لعموم أي شيء تحصل له صورة في الذهن، سواء أكان شيئاً مجسّماً أو مفهوماً أو فكرة... ومما سبق من الكلام تجد أنه (ع) أول ما خطر بباله أن ربّه تعالى أحسن مثواه، إذ جعله مقيماً باحترام في بيت أثرياء... كيف سيفكّر أن معصيته تعالى في البيت الذي منحه الراحة؟ وهذا نموذج عن رؤيته (ع) لشيء منعه أصلاً من الهمّ بها.

كلمة {عَبْد} تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة وهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة {عِبَاد} على كلمة {عَبِيد}، كأنّ كلمة {عَبِيد} قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأنّ كلمة {عِبَاد} ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، كلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن {عَبِيد} جمع {عَبْد}، و{عِبَاد} جمع {عَبِيد}، وهي جمع الجمع، أثناء الكلام بدقّة تكون الإشارة لمجموعة {عَبِيد} بينهم شيء خاص مشترك، حيث تقول الآيات: {عَبِيد}. ووردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت

تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وتكون لكل العبيد بكل أنواعهم وتقول الآية {عِبَاد}، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وتكون لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، وهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخرون جاءهم رسول، وعبيد آخرين... وجمع الجمع "{عِبَاد}"، وكلمة {عِبَاد} ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جداً عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

(وَاسُتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{25})

{وَاسْتَبَقَا الْبَابَ}، ركضا باتجاه الباب يريد كل واحد منهما الوصول إلى الباب قبل الآخر، {وَقَدَّتْ}، حيث مَسَكَت قميص النبي يوسف(ع) وتمزّق القميص، {مِنْ دُبُرٍ}، من الخلف، فبان على القميص آثار المَسْك من الخلف لأنه تمزّق أو تفتّق، حيث كان يوسف(ع) يركض أمامها ويحاول فتح الباب ليخرج، وهي تشدّه من الخلف.

القميص في أساس اللغة هو ثوب من قماش خفيف، يستر من الرقبة حتى ما قبل الركبة، مع أو بدون أكمام، مع أو بدون أزرار، مع أو بدون رباطات. دَرَجَ منذ مدّة قليلة حصر استعمال كلمة قميص في الثوب الذي يصل إلى ما بعد الخصر بقليل وله أزرار وياقة "قبّة".

{وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ}، لاقيا بدون قصد لا منهما ولا من سيّد المرأة "زوجها"، لدى الباب، حيث فتح النبي يوسف(ع) الباب وكان العزيز واقِفاً هناك بالضبط. تعبير "سيدها" بدل زوجها لأنه من الوجهاء النافذين والأسياد على الناس، وهو سيّد كل من في بيته الكبير، ولا سيّد فوق تلك المرأة إلا زوجها، مع العلم أنه في مدن عربية عديدة تقول المرأة لزوجها: سيدي. لكنّ التعبير القرآني لم يقصد الترادف بين كلمتي "زوج، سيّد" بل قصد أنه لا أحد آخر في البيت كان فوق تلك المرأة إلا زوجها "السيّد" وأي شخص آخر هو تحت إمرة المرأة، وبالتالي يمكنها أن تأمر أي شخص بما تريد إلا سيدها، فلو وجدا أي شخص آخر غير سيّدها لكانت المرأة أجبرته على السكوت.

{قَالَتْ}، المرأة مباشرة:

{مَا جَزَاءُ}، ما المقابل ما عقاب، {مَنْ أَرَادَ}، من كان قصده، {بِأَهْلِكَ}، بالمنتمين لك، {سُوءًا}، شيئاً سيّئاً، على ماذا يحصل من أراد الاعتداء الجنسي على زوجتك؟ لأنّ الزوج وجد زوجته تخرج مع الشاب يوسف من غرفتها وهما في حالة تدل على حصول ما يشبه العراك، عندما انفتح الباب كانت زوجته والشاب في حالة تدافع، مباشرةً اتهمت المرأة النبي يوسف(ع) بأنه هو هجم عليها، وتسأل زوجها عن العقاب لهذا العمل؟ هل جزاؤه، {إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}؟ إمّا تقييد حريّته بالحبس أو بتسبيب الضرر الجسدي له بالضرب، فهذا أقل جزاء يستحقّه بسبب هجومه عليّ.

(قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ{26})

{قَالَ}، النبي يوسف(ع):

{هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي}، أنا نفسي لم ترد نفسي أبداً مقاربتها وهي حاولت جعلي أخالف إرادتي.

{وَشَهِدَ}، حضر وسمع ورأى ما يجري، {شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا}، واحد من أقارب المرأة، وكان حاضراً شاهداً على حادثة التدافع على الباب، ربما كان مع سيدها وصادف مرورهما من أمام الباب أو ربما كان قريباً من مكان الحادث وحضر بسبب الأصوات والجلبة... على أي حال هو من أقاربها وصار شاهداً على ما يلي:

{إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ}، ثوب يوسف(ع)، {قُدَّ}، تمزّق أو تفتّق وفيه آثار شدّ، {مِنْ قُبُلٍ}، "ضمّة على القاف والباء"، من الأمام، {فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ}، هذا يعني أنه هو هجم عليها ودافعت عن نفسها، لأنّ آثار دفاعها عن نفسها ستظهر على القميص من الأمام.

نلاحظ بعض التفاسير تقول إنّ الشاهد لم يكن رجلاً كبيراً، بل طفلاً صغيراً نطق بشكل عجيب وهو لا يزال في المهد! لكن لو كانت فعلاً هكذا، وللأهمية القصوى أنطق ربنا سبحانه طفلاً لينقذ يوسف(ع) من التهمة، فلماذا لم تشر الآية إلى

ذلك بصراحة؟! أصلاً لو تكلّم طفل في المهد لكان يكفيه أن يقول: يوسف بريء وهي راودته. لأنّ معجزة كلام الطفل لوحدها دليل كافٍ... إذن من الواضح من الآيات أنه كان رجلاً كبيراً حكيماً عاقلاً.

(وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ{27})
{وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ}، ثوب يوسف(ع)، {قُدَّ}، بالضمّة على القاف، تمزّق أو تفتّق أو فيه آثار الشدّ، {مِنْ دُبُرٍ}، من جهة الظهر، {فَكَذَبَتْ}، المرأة، {وَهُوَ}، يوسف(ع)، {مِنَ الصَّادِقِينَ}، بأنها هي راودته وهجمت عليه.

بغضّ النظر عن حالة ثيابها، التي ربما كانت سليمة أو هي مزّقتها بعدما علمت بوجود أحد خلف الباب، فقميصه(ع) يحدّد كيف كان اتجاهه نحوها...

(فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ{28})
{فَلَمَّا رَأَى}، عندما حصلت صورة محدّدة عند سيّدها عن الحادثة، كما نقول بالعامية: شاف. {قَمِيصَهُ}، ثوب النبي يوسف(ع)، {قُدَّ}، تمزّق أو تفتّق، {مِنْ دُبُرٍ}، من الخلف، مما يعني أن يوسف(ع) كان يحاول فتح الباب، والمرأة تشدّه من الخلف ليترك الباب.

{قَالَ}، سيّدها: {إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ}، كلمة كيد وصف لعموم أي عمل مضاد لمصلحة الآخرين بدون أهمية حصول مصلحة للفاعل، حيث التركيز على الضرر للآخرين، يكون العمل الكيدي علنيّاً أو بالسرّ، وتشابه كثيراً الكلمة العامية: جكارة. اتهامها له (ع) بمحاولة الاعتداء عليها هو كلام ستخترعه أي امرأة في مثل هذا الموقف، لن تعترف بأنها هي المسيئة وستحوّل الضرر الشديد على الطرف الآخر، {إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ}، وهذه الجملة تدل على قيام المرأة بتمثيلية التمسكن أو البكاء وادّعاء العفة... بشكل ينفي عنها أي تهمة ويصبّ التهمة على يوسف(ع)، وبعدما ثبت كذبها بالبرهان قارن سيدها بين ما تفعله لتبعد التهمة عنها وشدّتها في إقناع من يراها، وبين حقيقة أنها هي المجرمة فوصف الحال بأنه كيد عظيم يمكن للنساء أن يَقُمْنَ به.

طبعاً هذا رأي سيّدها بعموم النساء إن أردن الكيد، وسبب قوله هذا، أن المرأة بدأت فوراً بتمثيل دور الضحيّة من دون أي تحضير مسبق، وفوراً خطر ببالها حلّ اتهام يوسف(ع) لرفع التهمة عن نفسها، وركّبت جُمَلاً فوريّة ومتقنة لتدافع بها عن نفسها حين طالبت بالسجن أو التعذيب للذي تهجّم على أهلك أيها العزيز... من هذه النقاط انطلق سيّدها بتوصيفها بالكيد من درجة الامتياز، وأن هذا النوع من الكيد عادة يعجز عنه الرجال.

(يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ{29})
سيّد المرأة أكمل الكلام فقال: {يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا}، فلا تعتبره مهمّاً، كما نقول بالعامية: انسَ الموضوع. أي تجاوز عن الأمر ولا تتحدث به لأحد لدرء الفضيحة. {وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ}، فاعترفي بفعلك سوءاً يستوجب مسامحة الآخرين لك، واطلبي المسامحة من كل من له حقّ عليك، وسترى فيما سيأتي أنها لم تستغفر لأنها لم تَرَ ما فعلته سوءاً ولا زالت مصرّة عليه.

{إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ}، فعملك خطأ وغير صحيح، فإن كنت تبرّرينه لنفسك فاعلمي أنه لا تبرير له، وإن كنت لا ترينه سوءاً فافهمي أنه ليس عملاً صحيحاً.

هذا الكلام معناه: إنهاء هذا الموضوع هنا عند الباب، فيوسف(ع) بريء، والمرأة أخطأت بالتحرّش به، فلننسَ الموضوع هنا ولا ينتشر الخبر... {يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا}، "انسَ الموضوع"، وأنت اعتبري عملك سيّئاً حتى لا تكرريه. ما حصل هو محاولة فاشلة منها للخيانة ولكن فعلياً لم يحصل أي شيء، ويريد الزوج إصلاح الوضع وعودة كلِّ شيء إلى ما كان عليه سابقاً بطمر الموضوع هنا وإنهائه بلا فضائح، وهذا ما قصده سيّدها بكلامه حتى لا يتسلّى الناس بالفضيحة وتقل قيمته وهو رجل ذو منصب كبير في الدولة.

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{30})

{وَقَالَ نِسْوَةٌ}، مجموعة من النساء، {فِي الْمَدِينَةِ}، في المكان الذي فيه بيوت ثابتة والتي يسكن فيها النبي يوسف(ع)، ويبدو لك مما سيأتي حين دعتهنّ امرأة العزيز إلى بيتها أن الكلام يشير بالخصوص إلى نسوة من طبقة وجهاء المدينة، قلن:

{امْرَأَتُ الْعَزِيزِ}، زوجة الشخص الذي لديه قوّة وسلطة، فهو من الطبقة الحاكمة وله منصب في الدولة، زوجته، {تُرَاوِدُ}، تستدرج وتستميل "تجعله يريد ما تريده هي"، {فَتَاهَا}، الفتى المنسوب لها لأنه يعيش في بيتها، وكلمة فتى وصف لمن فيه فتوّة فجسده بالغ وقوي، وعادة نستعملها لمن عمره بين البلوغ والأربعين، ومن سياق الكلام تعلم أنهنّ يُشِرْنَ للنبي يوسف (ع) الشابّ البالغ، تراوده، {عَنْ نَفْسِهِ}، فهو يرفض وهي تحاول معه. {قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا}، فأحبته بأقصى درجة من الحبّ، فلا يذهب من تفكيرها ولا ترى غيره.

{إِنَّا لَنَرَاهَا}، لدينا صورة محدّدة لها أنها، بالعامية نقول: شايفينها. {فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}، بشكل واضح هي لا تتصرّف كما يجب. تصرفها يدل على أنها نسيت مكانتها ومكانة زوجها الاجتماعية حتى فضحت نفسها وزوجها بإغوائها لفتى كانت تقريباً تعتبره ابناً لها...

بطريقةٍ ما انتشر بين الناس خبر ما حصل على الباب ووصل إلى نساء في المدينة وصرن يتسلّين به... ويبدو لك من الآيات التالية أنهن لم يَكُنَّ خلوقاتٍ كما يدّعين، إذ سيتحرّشن بيوسف (ع)... ولكن كما ننسى نحن أفعالنا الشنيعة ونتسلّى بشيء فعله الآخرون، هنا الحالة نفس الشيء.

(فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ{31})
{فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ}، عندما وصل إلى امرأة العزيز ما يقوله نسوة المدينة عنها بقصد الضرر عبر التشهير بها، لأنهن سيئات ويردن أن يَبْدُونَ كأنهن طاهرات وهي فقط العاطلة، وهنّ يعطين دروسا في الأخلاق من قصتّها وينسين أعمالهن السيئة التي ستبدو لك واضحة من تحرشهن بيوسف(ع).

عندما وصل كلام النسوة إليها، {أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ}، انطلق من عندها من يقول لهن أن يحضرن إليها، فأرسلت لهن دعوة على الفطور أو الغداء أو دعوة عصرونية... {وَأَعْتَدَتْ}، وجهزّت، {لَهُنَّ}، للنسوة، {مُتَّكَأً}، مكانا يَتَّكِئُونَ عليه، حيث يلقون جُنُوبَهُمْ على الفراش وتحت جنبهم وسادة، وجهّزت لكل واحدة منهن فراشا على الأرض أو على الأرائك "شيء كالكنبة" ولكن مع متكآت، ومن المشهور قديما بين تلك النوعية من الطبقة الغنية أنهم كانوا يأكلون وهم مُتَّكِئُونَ على جُنُوبِهِمْ، {وَآتَتْ}، وأعطت، {كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ}، من النسوة، {سِكِّينًا}، آلة حادة جدا للتقطيع. وستعرف بعد قليل أن السكاكين كانت حادة جدا كشفرة الحلاقة، ونتصوّر أنها وضعت أمامهن طعاما بحاجة للتقطيع، أو ضيافة فاكهة بحاجة للتقشير بالسكّين...

انتظرت المرأة اللحظة التي حملت فيها النسوة السكاكين وَبَدَأْنَ باستعمالها... {وَقَالَتِ}، المرأة للفتى يوسف(ع):

{اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ} "من الغرفة التي نحن فيها" على الغرفة التي فيها النسوة، اذهب وامْشِ بين النساء. ويوسف(ع) عبد عندها فلا يستطيع الرفض إذا أمرته بحمل الضيافة لهن أو بالتمشّي بينهن.

كما ترى جعلت يوسف(ع) يقف في غرفة لها مدخل على الغرفة التي فيها النسوة، وحين بَدَأْنَ باستعمال السكاكين أمرته بِالخُرُوجِ من الغرفة التي هو فيها إلى غرفتهن لِيَرَيْنَهُ.

{فَلَمَّا رَأَيْنَهُ}، حيث من قبل سمعن عنه ولكن عندما صارت لديهن صورة محدّدة له (ع)، ووقعت عيون النسوة على يوسف(ع)، وهنّ لم يرينه من قبل، {أَكْبَرْنَهُ}، ورأينه كبيرا في شيء ما، وهنا الكلام عن جمال هيئته، {وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ}، حيث حدث تقطيع كثير في الأيدي بدل حصول التقطيع في الطعام "مثلا في الفاكهة التي ينزعن قشرتها"، وَأَحْدَثْنَ جراحات في أيديهن لأن السكاكين حَادَّةٌ جدا جدا كالشفرة أو الموس، ولأنهن صَبَبْنَ تركيزهن على جمال يوسف(ع). {وَقُلْنَ}:

{حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا}، تقولون عنه إنه من البشر ونحن نقول حاش لله نؤكّد بالله تعالى أننا ننكر هذا القول فلا نصدّق بأنه من البشر، {إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ}، لأنه كائن موصوف بامتلاكه شيئا مميزا جدا "يملك" جمالا رائعا يفوق الجمال البشري، وهو كائن كريم وله مكانة عالية.

من المشهور في تاريخ المنتمين لدينه تعالى أن النبي يوسف(ع) كان جميلا جدا، ولكن الدعاية التي انتشرت عن جماله، كانت كفيلة بصنع "وهم جماعي" عن جمال خارق، حتى لو كان جماله عاديا، والدعاية والأحاديث عنه، وتورّط زوجة الرجل القوي الغني معه، كل ذلك جعله هدفا مرغوبا لنسوة ثريات نافذات فاسدات... ولست أنفي الجمال الخارق عنه(ع)، ولكن لا داعي لذلك حتى يقوم النسوة بالسهو عن السكين وجرح الأيدي، لأن جَمَالاً عَادِيّاً مع الدعاية ينتج عنه نفس النتيجة، وستلاحظ أن أجواء الآيات تشير إلى حالة "وهم وهوس جماعي"، وفيما بعد "حين خرج النبي يوسف(ع) من السجن..." انتهت حالة الهستيريا، وعاش يوسف(ع) بينهم بشكل عادي...

لاحظ أن توزيع سكاكين حادة كالشفرة، مع فاكهة بحاجة لتقشير أو طعام بحاجة لتقطيع، هو وَحْدَهُ كفيل بحدوث بعض حالات جروح في الأيدي، وأضف إليه حالة من الوهم والمبالغة الإرادية ثم اللا إرادية لإظهار الانبهار بالشخص الذي صار مشهورا بجماله، وبذلك نجح مخطط امرأة العزيز، وحصلت حالات كثيرة لجرح الأيدي بين النساء، وصار جرح الأيدي بسبب الانبهار بيوسف(ع) سلاحا بيد امرأة العزيز "زليخا" ضد بقية النسوة، حيث سينتشر الخبر، ويصرن كلهن معها معجبات بيوسف(ع)، ويدور الحديث عن الجميع وليس عن زوجة العزيز لوحدها، وهكذا ردّت على مكرهن بمكر أعظم منه.

بقي شيء، إن وصف النسوة ليوسف (ع) بأنه ملك، بسبب مخزون ثقافتنا الدينية سينصرف ذهننا لقصدهم أنه من الملائكة(ع)، وخاصة من بعد قولهنّ إنه ليس من البشر، وأنت تعلم أن الناس لا علم لهم بشكل الملائكة التي لا يمكننا رؤيتها إلا إذا تمثّلت على شكل من عالمنا، وتعلم أن حالات نادرة تمثّلت فيها الملائكة وتلك الحالات التي نعرفها لا نفترض أنه منها انتشرت معلومة بين الناس عن جمالهم... وحتى لو فرضا وكما هي العادة، استنسخ الناس من الثقافة الدينية الإلهية شيئا ما وأقحموه في أدبياتهم، لِنفترض أنهم كمشركين استوردوا معلومات عن الملائكة من كلامه تعالى مع رسله، وحوّروه ليتناسب مع ديانتهم، فَالجمال الذي تصوّروه للملائكة هو خيالي من أوهامهم، ونعلم من الآثار أن المصريين عموما كان لديهم آلهة متعددة، والدراسات التاريخية لم تدخل في تفصيل وصف تلك الآلهة إن كان القصد منها أنها ملائكة على غرار الملائكة المذكورة في دينه تعالى، علما أن الآية 53 من سورة الزخرف المنقولة من كلام فرعون {فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ}، فيها تعبير صريح عن الملائكة باستعمال الكلمة من التصريف اللغوي المشهور المخصوص لهم.

على كل حال، كلمة ملك أعمّ من إطلاقها على الملائكة، وهي لعموم من ملك شيئا ما بشكل متميّز، وهكذا نحتمل في كلام النسوة أن جماله الشديد(ع) غير بشري على معنى أنه فوق جمال البشر، هو مَلَكٌ، على معنى عمومية من ملك جمالا خارقا وليس بشريا، وليس بالضرورة قصدهن أنه (ع) من الكائنات المشهور اسمها بالملائكة(ع) كجبريل وميكال(ع).

بدراسة بسيطة لتساهل الناس في استعمال كلمة "إله" حتى تنطبق على من لا يستحقّ وصفه بالألوهية، وتعميمهم لكلمة ربّ لتشمل كل من يعتني بهم، وتساهلهم في إطلاقها على أرباب وهمية يدّعون اعتناءها بهم من مستوى إلهي... نفهم من التعبير هنا بـ "ملك" أَنَّهُنَّ يَقْصِدْنَ أنه (ع) ملك الجمال، ربّ الجمال، إله الجمال.

تلاحظ في كل كلام القرآن عن النبي إبراهيم(ع) من أول ما صار فاعلا في مجتمعه وإلى مهاجرته من بعد محاولتهم إحراقه، تلاحظ أن كلمة ملاك أو ملائكة... لم ترد أبدا في سيرة حياته وكلام القرآن عنه، وحتى حين جاءه الضيوف... ونفس الشيء فيمن قبله من الأنبياء... ومما هو عالق في ذهني قرآنيا أن أول ذكر قرآني لأناس يذكرون الملائكة هم المذكورون في الآية هنا، هذا إن كانت الكلمة تشير للملائكة(ع)، وبعدها كلام فرعون الوارد في الآية 53 من سورة الزخرف.

أطلت عليك لأدفعك بعيدا عن تطبيق ثقافتك أنت الدينية على كلام النسوة، فلا تفهم قصدهم بكلمة ملك ما تفهمه أنت لو قلتها، لأن لهم عقائد مختلفة، وما ذكرته لك من تحليل لاحتمال قصدهم من كلمة "ملك" هو تحليل فقط، ويأخذك إلى

أصل انتقال كلمة "ملك بالفتحة على اللام أو بالكسرة" لتتوصف بها كائنات تملك قدرات عالية جدا ويصير اسمها ملائكة، ككلمة "قدح" كوصف أو فعل، وقدّاحة كاسم لشيء يقدح. ولمزيد من التفاصيل راجع دراسة الآية 77 من سورة الزخرف {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ}.

بقي شيء آخر، معلوم لك أن القرآن نقل كلام الناس بالمعنى الذي يقصده القائل، ولم يترجم حرفيا كلام المتكلمين من لغتهم إلى العربية، بل نقل لنا ما يقصده المتكلّم، وإذا تكرر نقل القرآن لنفس الكلام فسيعرض لك جانبا مما قصده المتكلم مما له علاقة بمحور السورة الناقلة له.

بناء عليه هنا نقل كلام النسوة ليس الترجمة الحرفية من لغتهم إلى العربية، لا، وبما أنهن جماعة نقلت السورة مجموع ما قصدنه في كلامهن كخلاصة تفهم منها شدة انبهارهن وهوسهن به (ع)، خذ مثلا لو قلن لبعضهن بالعامية اللبنانية: دخيل يلي خلقك أنت مخلوق سماوي. سبحان إلهك بجمالك الإلهي... لأنهن مشركات ويستعملن تَعَابِيرَ من عقيدتهن عن آلِهَتِهِنَّ... وبدلا من الترجمة الحرفية لكلامهن نقل القرآن مجموع ما قصدنه بكلامهن.

(قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ{32})
{قَالَتْ}، امرأة العزيز: {فَذَلِكُنَّ}، بِالنسبة لَكُنَّ أشير إليه فهو، {الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ}، حيث اعْتَبَرْتُنَّنِي ارتكبت خطأ ليس من المفروض أن يصدر مني أنا بالذات حين هَمَمْتُ به، {وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ}، نَفْسُهُ ترفض مقاربتي وأنا حاولت جعله يعارض نفسه ويقاربني، {فَاسْتَعْصَمَ}، احْتَمَى وامتنع عن استمالتي له.

مِنْ قبل أنتن لم تَرَيْنَهُ، وها رَأَيْتُنَّ جماله الذي أغراني وَبَهَرَكُنَّ، وها أقولها لَكُنَّ بكل صراحة أني راودته فامتنع، وكما تَرَيْنَ، فمعي حق إن راودته لِأَنَّ جماله باهر.

{وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ}، إنْ لم يطعني حين أراوده، {لَيُسْجَنَنَّ}، سَوْفَ أقيّد حريّته، {وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ}، من الذين بحجمهم الصغير الطبيعي، فيكون بلا قدر ولا قيمة، لِأَنَّهُ عبد عندنا ونحن جعلناه يعيش معنا في البيت كواحد منّا، فصار كبيرا في القيمة، وسأسحب منه تلك القيمة لأجعله صاغرا صغيرا بلا قيمة إذا لم يطع كلامي.

عليك أن تتصوّر حديثها عنه وكأنها أهينت "كرامتها" لِأَنَّ عبدها لم يطعها في الفاحشة! وتلاحظ حديثها عمّا في داخلها بكل جرأة أمام النسوة، حيث صارت عنيدة، ومصرّة على تنفيذ ما تريده حتى لو تهدّم الكون، ولا تهمّها سمعة زوجها الذي على ما يبدو تركها وجنونها بعد أن صار مكسور الجناح من حديث الناس عن زوجته وفتاها...

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ{33})
{قَالَ}، النبي يوسف(ع): {رَبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ}، حيث يَبْدُو أَنَّ النساء صِرْنَ يَتَحَدَّثْنَ معه وَيُرْسِلْنَ له المراسيل لإغرائه لارتكاب الفاحشة معهن، ووصل الهوس الجماعي إلى حالته القصوى، ولا يجد النبي يوسف(ع) حلا لهذه المشكلة... ويعلن أن تقييد حريّته أحبّ إليه من الذي يعرضونه عليه. {وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ}، وإذا يا ربّي لم تبعد عني الضرر الإيماني الذي تُرِيدُهُ النسوة بي، عندها، {أَصْبُ إِلَيْهِنَّ}، أصير في حالة ميل إليهن، {وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ}، وعندها أكون من الذين يتصرفون بطيش، حيث العلم والفهم يقولان إِنَّ هذا سيّء ومعيب.

صارت كل ساعات يومه بين حركات المرأة التي هو في بيتها تراوده، وبين حركات النسوة، وإن بقي الحال هكذا من الإِغْرَاءَاتِ اليومية المستمرة بعنف، فمن الطبيعي أن يحتمل النبي يوسف(ع) سقوطه أمام الإِغْرَاءَاتِ، وهو يعلن أنه يفضّل السجن لأنه فقط بهذه الطريقة يمكنه الابتعاد عن هذا "الهوس الجماعي".

لاحظ أن القدرات التي تمتّع بها (ع) والتي تشابه القدرة على معرفة المستقبل، لم تنفعه ليجد حلا لمشكلة النسوة، وهو نفسه اقترح أن يسجن ليتخلّص من هذه المشكلة، وهكذا سارت الأمور برضاه لتسير كما يريد تعالى، وَلِسَبَبٍ حكيم يجب أن يغيب يوسف(ع) عن الناس لبضعة سنين... وبالتحليل استنادا إلى بعض ما يقولونه في التاريخ الديني، نفترض

أن الحاكم "الملك" تغير أثناء تواجد النبي يوسف(ع) في السجن، حيث يقولون إنَّ الأب مات وحكم ابنه بدلا منه، وَبَقَاؤُهُ(ع) خارجا في عهد الملك القديم لن يوصل الأمور إلى حيث يصير هو الوزير الأوّل عند الملك الجديد...

(فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{34})
{فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ}، المسؤول عنه من مستوى إلهي ردّ على طلبه وحقّق له ما يلي، حيث طلب المساعدة لصرف كيد النسوة وَحصل عليها، {فَصَرَفَ}، حوّل سبحانه، {عَنْهُ}، عن النبي يوسف(ع)، {كَيْدَهُنَّ}، أعمالهن التي يقصدن منها إلحاق الضرر به، وهنا الكلام عن الضرر الإيماني، {إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ}، الذي يسمع كل شيء وَسمع دعاء يوسف(ع)، وهو {الْعَلِيمُ}، الذي يعلم كل شيء حيث كان يعلم حالة عبده يوسف(ع) قبل أن يقولها، فلا يحتاج سبحانه أن يخبره عبده يوسف(ع) بحاله، فهو سبحانه مُرَاقِبٌ سَامِعٌ ويعلم حالته.

كما ترى، زَادَهُ تعالى صبرا وجعله لا يهتمّ بهنّ.

سياق الآيات يرينا أن استجابة دعائه (ع) لصرف كيدهنّ عنه لم تكن بإدخاله (ع) إلى السجن، بل بمساعدة نفسية تجعله لا يهتمّ بهن. وَما قيل عن استجابة دعائه بِإِدْخَالِهِ السجن كما طلب فهو غير صحيح، إنْ كان النبي يوسف (ع) من تأويل الأحاديث "يعلم، يتوقّع" المستقبل للآخرين، فمن الواضح له لِحَالَتِهِ أن الحلّ الأنسب الذي سيراه النافذون للخلاص من مراودة النساء له أن يجعلوه في السجن، حيث أعلن لربّه أنه يفضّل هذا على حالة الهوس الجماعي به، وسبحانه من الأساس ولأسباب حكيمة يريد لعبده يوسف (ع) دخول السجن، وهذا ما حصل.

أقول لك هذا لأن بعض الأدبيات الدينية تتكلّم عن هذه الحادثة من مفهوم: انتبه ماذا تتمنّى. ويقولون لو أنه (ع) طلب منه تعالى حلّا آخر غير السجن، لكان سبحانه استجاب له، ولكنه (ع) هو اقترح السجن، فاستجاب له تعالى. وهذا كلام غير دقيق بل يَتَضَمَّنُ سوء ظنّ بحكمته تعالى، لِأَنَّهُ سبحانه لن يستجيب لنبيه فيما طلبه لو كان الطلب ليس حكيما، حيث سبحانه عزّ وجلّ لا يتعامل مع أدعية الناس كتعامل جني الفانوس السحري الخرافي مع الطلبات، بل سبحانه بحكمة يفعل المناسب إيمانيا للداعي.

من ناحية ثانية نرى قبول النبي يوسف (ع) بالأمر الواقع، لِأَنَّ المعطيات أمامه تشير لحلّ واقعي وحيد للتخلّص والابتعاد عن النسوة، وهو دخول السجن حتى يبتعد عن الساحة وينسوه، ولذلك أعلن له تعالى عن قبوله بهذا الحلّ بدلا من الانجرار نحو السوء.

بقي شيء، يبدو من الآية 51 الآتية أنه (ع) دخل السجن بتهمة التحرّش بامرأة العزيز وبقية النسوة، وذلك رغم معرفة الرجال ببراءته، حيث يبدو أن أَزْوَاجَهُنَّ وغيرهم من رجال الدولة رموه في السجن وهم يعلمون أنها تهمة باطلة ولكنهم رأوه الحلّ الوحيد أمامهم للتخلّص من هذه المشكلة كما هو واضح من الآية التالية.

(ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ{35})
{ثُمَّ بَدَا لَهُم}، من بعدما سارت الأمور في منحى اهتمام عامّة النسوة به (ع) وصار حديث المجتمع وشغلهم الشاغل، ظهر للناس الذين لهم علاقة بالنسوة ويوسف(ع)، {مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ}، بعدما صارت لديهم صورة محدّدة عن الأمور المميزة، وهي الأمور التي تدل على عفّة وطهارة يوسف(ع) ورفضه للفاحشة رغم محاولة النسوة لاستمالته... بدا لهم، {لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ}، ويضعونه في السجن مؤقّتاً، حيث لم يستطع الرجال أن يحكموا على يوسف(ع) بالموت أو النفي لأنهم رأوا كل العلامات على طهارته وعفّته، فأخذوا رأياً بسجنه كإبعاد له حتى يمضي بعض الوقت لتنتهي هذه المهزلة من النسوة.

رسمياً دخل (ع) السجن بتهمة التحرش بالنسوة، وهي تهمة باطلة بوضوح لجميع الذين لهم علاقة بالهوس الجماعي به، وهذا يبدو من الآية هنا ومن الآية 51 الآتية.

سترى بعد قليل أن الرجال رموه في السجن وتناسوه هناك... وارتاحوا من المشكلة ولم يعد أي منهم يريد فتح الموضوع من جديد... وتركوه هناك لسنين...

(وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ{36})

{وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ}، فيما مرّ من الأيام التي كان فيها النبي يوسف(ع) في السجن، دخل إلى نفس السجن فتيان، ذكران موصوفان بالفتوّة، شابان عمرهما بين البلوغ والأربعين...

{قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي}، حصلت لدي صورة محدّدة أني، {أَعْصِرُ خَمْرًا}، لأنهما في السجن مما يعني أنه رأى في المنام أنه يقوم بعصر الفاكهة لتنتج خمراً وهو شراب مُسْكِرٌ ينتج عن اختمار عصير الفاكهة وغيرها...

{وَقَالَ}، الفتى، {الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا}، حيث رأيت في المنام أني أحمل طَسْتاً أو صُرَّةً أو سَلَّةً على رأسي وفيها خبز، {تَأْكُلُ الطَّيْرُ}، الطيور، {مِنْهُ}، من الخبز.

{نَبِّئْنَا}، أخبرنا بشيء لا نعرفه، {بِتَأْوِيلِهِ}، بالتفسير العملي، لأنهما في المنام رأيا ذلك ويسألان النبي يوسف (ع) عن المعنى الفعلي لهذه المنامات، حيث يقصدان أنها تدل على شيء سيحصل معهما فما هو؟ {إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}، نراك من الأشخاص الذين أعمالهم حسنة، تصرفاتك حسنة ومهذّبٌ مؤدّبٌ لطيف الكلام... ولست كاذباً إن نطقت، وسنصدقك إن قلت إنك تعرف تأويل الرؤيا ونحن بحاجة لمعرفة تأويلها.

يعني بعدما دخلا السجن وفي نفس الليلة، رأيا في المنام شيئاً، "من تدبير إلهي"، وقالاه للنبي يوسف(ع) حتى يفسّره لهما، وهذا يعني أنه(ع) مارس تأويل الأحاديث من قبل وصار معروفاً في السجن بهذه القدرة كما سترى من الآية التالية.

من المشهور في كتب التاريخ والتفاسير أنّ هذين الفتيين كانا يعملان عند الملك، وأحدهما مسؤول عن إعداد المشروبات للملك، والآخر مسؤول عن الطعام "طبّاخ، طاهٍ"، ويقولون في كتب التاريخ إنّ الملك تعرّض لمحاولة اغتيال حيث وجدوا سمّاً في الطعام، فسجنوا المسؤولين عن الطعام والشراب حتى يعرفوا مَنِ المسؤول عن الاغتيال.

من الآية التالية سنعلم لماذا سألا النبي يوسف (ع) عن تأويل منامهما.

(قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ{37})

قال النبي يوسف(ع):

{لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ}، لا يصل إليكما ما يؤكل، {تُرْزَقَانِهِ}، ويصير لكما لتأكلاه في أي وقت شئتما، {إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا}، حيث أخبركما بتفسيره العملي الذي لا تعرفونه قبل أن يحدث، وقبل معرفتكما بطعامكما غداً أو بعده، فإنّي أعرفه.

{ذَٰلِكُمَا}، ذلك التأويل "معرفة حقيقة ما سيحدث"، {مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي}، حيث علمني المسؤول عنّي من مستوى إلهي أموراً كثيرة، والتأويل واحد منها.

ترى وسترى من تكملة الكلام، أنّ النبي يوسف(ع) كان يعلن وهو في السجن أنّه نبي ولديه علم التأويل، ولذلك سأله الفتيان عن تأويل منامهما.

{إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ}، حيث كنت مع أناس لهم كيان الجماعة ولهم عقيدة وثقافة... ولم أعد معهم وهم، {لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}، لا يعتقدون به تعالى إلهاً أحداً، {وَهُم بِالْآخِرَةِ}، بالحياة التي ستأتي في الآخر بعد انتهاء الحياة الدنيا الأولى، {هُمْ كَافِرُونَ}، ينكرونها ولا يعتقدون بها.

ننتبه ونتذكّر أنّ النسوة كلهن أو بعضهن قلن عندما رأين يوسف(ع): {حَاشَ لِلَّهِ}. حيث استعملوا كلمات تشير لله تعالى على أساس أنّه الإله الكبير، لأنهم كافرون بوحدانيته... مثل كفر العرب المشركين في عصر الرسول محمّد(ع)، حيث كانوا يستعملون كلمة "الله" لوصف الإله الكبير، ولأنهم كافرون بتوحيده... وهكذا نرى القرآن يصف العرب بأنهم لا

يؤمنون به تعالى، ويقصد أنهم ينكرون أنّه تعالى إلهٌ واحدٌ أحدٌ، ويؤمنون بغيره أيضاً إلهاً، وهنا نفس المسألة فالمصريون كانوا مشركين كافرين بتوحيده تعالى.

نعرف من التاريخ أنّ المصريين كانوا يحنّطون موتاهم منذ القدم، ولا ندري إن كانوا يفعلون ذلك في زمن النبي يوسف(ع) والذي تاريخه يرجع لما قبل النبي موسى(ع)، وبالتالي وبحسب ما رجحناه بقوّة فهو في عهد ما قبل الفرعون خوفو الذي كان على عهد النبي موسى(ع).

إذاً كانوا بشكل عام يؤمنون بحياة بعد الموت، بعالم الأرواح... ولكن هذا يختلف عن الإيمان بالآخرة، واخترعوا من خيالهم أسماء لأشخاص وأماكن في الحياة بعد الموت! وأمّا الآخرة التي ستحصل فعلاً من بعد فناء الدنيا، من قيام الجميع من الموت بأجسادهم... وحسابٍ على السوء وعلى الشرك ودخول المجرمين النار... فكل ذلك لا يؤمنون به.

مثلما هم يؤمنون بالله تعالى ولكنهم لا يوحّدونه ويعبدون آلهة أخرى ويعتبرهم القرآن منكرين لألوهيته تعالى لأن الاعتقاد به تعالى لا يتماشى مع الاعتقاد بإله آخر معه عزّ وجلّ، فكذلك الاعتقاد بالحياة بعد الموت بطريقة لا تتماشى مع ما يقوله تعالى لن يكون اعتقاداً بالآخرة على المقياس الإلهي.

خذ مثلاً اعتقاد بعض الناس قديماً بأنّه يجب وضع الذهب والمجوهرات والطعام... مع الميّت ليأخذها معه إلى عالم ما بعد الموت، ومن كان فقيراً، راحت عليه ولن يذهب إلى الحياة بعد الموت... فهذا بشكل ما اعتقاد بحياة بعد الموت، ولكنه ليس اعتقاداً "بالآخرة والجزاء فيها" والتي ستأتي بعد فناء الدنيا، وهذا اعتقاد بعيد كلّ البعد عن الاعتقاد الصحيح بالآخرة التي قررها سبحانه، فبعد الموت نحن لا نزال في الدنيا، وأمّا الآخرة فتأتي بعد تبدّل الدنيا... وهم لا يعتقدون بالحساب على مقياس العدل والحقّ بل على مقياس الوجاهة والمال... ولذلك يعتبرهم القرآن من المنكرين للآخرة التي يقول عنها سبحانه وتعالى.

ننتبه جيداً، فلو كان علم النبي يوسف(ع) بالتأويل محصوراً بالمنامات، فكيف يمكنه إخبار أي شخص عن أي طعام سيأتيه في المستقبل؟ فهل يجب أن أخبره مناماً حتى يخبرني عن الطعام الذي سيأتيني؟ لا، لأنّ هذا غير صحيح كما يبدو من الآيات، فأيّ حديث تقوله أمام النبي يوسف(ع) يجعله يرى ما سيحدث معك في الأمور التي تهمّك وتهتم بها، فالتأويل هو التحقيق الفعلي لحصول الحديث عملياً، مثلاً: سأصوم غداً. وهذا حديث، وتفسيره العملي، تأويله، أن يحصل الصوم غداً، فإن جاء الغد ولم أصم، فحديثي كاذب، وإن صمت، فحديثي صادق وتأوّل، والنبي يوسف(ع) يعلم سلفاً ما سيحدث، وما سيحدث غداً هو "تأويل" ما نقوله اليوم، حيث يخبرنا النبي(ع): غداً ستأكلون السمك. حيث يخبرنا عن تأويل، عن حقيقة رآها ستحصل، ولديه علم بحقيقة ما سيحصل. حتى لو قلت للنبي يوسف(ع) مناماً اخترعته من رأسك، فلا فرق، فسيخبرك (ع) بما سيحصل معك.

علينا بالفصل بين المنام، وبين الرؤيا على معنى أنّها نافذة لرؤية المستقبل، وبين التأويل. حيث إنّ الرؤيا معناها عامّ ومع الأنبياء هي نوع من الإلهام الإلهي، وهي عبارة عن أوامر إلهية، افعل كذا، اترك كذا، بلّغ كذا... وجزء صغير منها هو إخبار الأنبياء عما سيحصل في المستقبل، ولكن دائماً يعلق في ذهننا أنّ الرؤيا هي نافذة على رؤية المستقبل، ولذلك لا نعرف ما هي الرؤيا الحقيقية، ولا نفهمها لأن فكرنا مشغول بمعرفة المستقبل، وهو أقل شيء تفعله الرؤيا للمؤمنين، حيث ينتبه المؤمن أنّ المنام "أو الرؤيا" هي تنبيهات له حتى يتحسّن سلوكه الإيماني، وإلا فما حاجته لمعرفة المستقبل إن كان سلوكه الإيماني لن يتحسّن! وما الهدف وما الفائدة حتى يريه تعالى المستقبل؟ كما ترى فإنّ المفهوم القرآني من أصله مختلف عمّا هو متعارف بيننا.

كما ترى هنا في هذه القصّة، فإنّ التدخل الإلهي جعل الفتيين يريان رؤيا في نفس الليلة، وسترى التدخل الإلهي ليجعل الملك يرى رؤيا... ونتذكّر أنّ قصّة النبي يوسف (ع) من أولها تسير ضمن مخطط إلهي، وهو مسار لا يتعارض مع الإرادة الحرّة للناس حول يوسف(ع)، إذ هم يتصرّفون على طبيعتهم، ويتدخل الإله سبحانه ولا أحد يشعر بتدخله، وسارت الأمور حتى وصل النبي يوسف(ع) إلى مصر، واحترمه كل الناس الذين تعرّفوا عليه، وتعرّفوا على طهارته... وهنا نرى تدخّله سبحانه عبر جعل الفتية يرون رؤيا... حيث إنّ أحدهما سيذكره فيما بعد عند الملك...

في المستقبل إذا تمكنّا من فهم الأسباب الطبيعية "عبر دراسة انفعال قشرة الدماغ الإبصارية وغيرها" لمعرفة سبب رؤيتنا "للرؤيا" العاكسة للمستقبل، فسيكون شيئاً رائعاً، وربما هي قدرة متاحة لنا جميعاً للتعرّف عليها، ولكن ومثلما في بقية المواضيع التي تعامل معها بطفولية وسذاجة غالبية العلماء المنتمين لدينه تعالى، مثل موضوع الطلاسم وتحضير الجنّ والأرواح وفلك الأبراج والطوالع... والتي أثبتت فشلها للعقلاء، فإن لم ننفض تلك الموروثات العفنة عن رفوف كتبنا، فلن نتقدّم في المعرفة ذات القيمة، حيث إنّ أمام البشرية طريق طويل من التقدم العلمي الرصين للتعرّف على ما أتاحه تعالى لنا، وبعض الاستفزازات القرآنية الرائعة يجب أن تكون محفزاً لنا لمحاولة فعلها أو محاكاتها... ولكن ليس عبر الأساليب القديمة من بخور وعزائم وطلاسم.. حيث إنّ هذه فشلت بامتياز وبقيت صالحة لتسليتنا في الأفلام والمسلسلات فقط، بل عن طرق علمية رصينة كالتي نتعامل بها حالياً أو سنخترعها في المستقبل.

استفزّنا القرآن بما تقرأه هنا من معرفة شيء عن المستقبل، واستفزنا بخبر الذي نقل عرشاً من سبأ إلى قصر النبي سليمان(ع) بأسرع من رمشة عين، واستفزنا بإحياء النبي عيسى(ع) للموتى، وغيرها من الأمور... وأخبرنا تعالى صراحةً أنّنا سننفذ في أقطار السماوات وصولاً إلى حيث سبقنا الجنّ ونفذوا ووصلوا إلى حدود سماء الملائكة(ع)، وتقرأ هذا في الآيتين 33 و 35 من سورة الرحمن {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}... {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ}، كما يبدو لا يزال أمام البشرية مشوار طويل في الدنيا قد يمتد لملايين السنين...

(وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِـي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ{38})
نكمل مع استغلال النبي يوسف(ع) لإنصات الفتيين إليه، ويكمل مع محاضرة موجزة عن الدين الإلهي:

تركت ملّة قوم كفروا بالله تعالى وبالآخرة وهي ملّة الذين خارج السجن في مصر:

{وَاتَّبَعْتُ}، وكنت على، {مِلَّةَ}، ثقافة عقيدة وعادات، {آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ}، عليهم السلام، حيث كنت على ثقافتهم وعاداتهم، وهي ملّة على دين الله تعالى. ولست أخترع ديناً جديداً لأنّ هذا الدين له امتداد لسلسلة من الأنبياء...

{مَا كَانَ لَنَا}، ليس متوقعاً منّا ولا يحقّ لنا، {أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ}، حيث لا يوجد ولا أي سبب منطقي عقلاني حتى نجعل شيئاً ما آلهة تشاركه تعالى في ألوهيته.

{ذَلِكَ}، الإيمان بالتوحيد والكون على ملّة أجداده الأنبياء، {مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ}، من الأمور الجيدة التي حصلنا عليها منه تعالى ولم يكن واجباً عليه تعالى منحها لنا، لأنّ الإيمان بالتوحيد فضل إلهي، لنكون عقلانيين في عقيدتنا، وفي شريعتنا الإلهية، وننال ثواباً عظيماً على توحيده تعالى... وننجو من العقاب... {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ}، حيث لا يعبّرون ولا يعلنون أنهم حصلوا على أمور جيّدة منه تعالى، لأنّه مقابل التوحيد هناك الكفر، وهو ضلال عن الحقيقة، وبما أننا تعرّفنا على التوحيد الحقّ فنشكره تعالى على هدايتنا لذلك...

كما ترى قبل إجابة النبي يوسف(ع) عن التأويل لمنامهما، أخبرهما عن نفسه من هو، وعلى أي أساس صار يأوّل، ولأنّه مؤمن وعلى ملّة الطاهرين حصل على هبة التأويل، ويدعو الفتيين إلى الدين الصحيح، فما الفائدة من حصوله (ع) على علم التأويل إن لم يكن وسيلة للدعوة لدينه تعالى؟ وهكذا يكون تأويله الصحيح (ع) آية للآخرين تدل على كونه رسولاً إلهياً.

(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ{39})
{يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ}، أيها المتواجدون معي في المكان المقفل الذي يقيّد حريتي، {أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ}، هل العديد من الكائنات المسؤولة عن أمور من مستوى إلهي شيء جيد، {أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}؟ أليس خيراً الاعتقاد بالله صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز أنه الواحد الذي لا شريك له في الربوبية القهّار الذي يقهر كل الآخرين فيفرض إرادته على الآخرين، أليس هذا خيراً من الاعتقاد بأرباب متعددين لكل واحد منهم قوّة مميزة من مستوى إلهي في شيء محدّد،

حيث هذا يسيطر على المطر وذاك على الزرع والآخر على الماشية... فهل هذا سيكون أحسن من الاعتقاد بالله الربّ الذي لا ربّ غيره من مستوى إلهي والذي يفرض ما يريده على كلّ الآخرين؟

لاحظ لا تناسب مرادفة كلمة "خير" بـ "أفضل" هنا، حيث هنا ستقول: هل الأفضل إله واحد أم آلهة متعددة؟ بينما الآية تقول: ما الخير في آلهة متعددة؟ بينما الخير في الحقّ وهو الاعتقاد بذي الاسم المحدّد الله الواحد كإله والقهّار أي الفارض إرادته على كل شيء، مما يعني أنه وحده الإله.

نحن كبشر لا نقدّم ولا نؤخّر في حقيقة وجود ربّ واحد أم أرباب متعددين، فلو آمنا كلنا بوجود أرباب متعددة، فهي لن توجد، ولن تصير آلهة، ولو كفرنا كلنا بالله تعالى، فلن يحصل أي شيء، فسيبقى هو الإله الربّ الأحد، حيث إنّ النبي يوسف(ع) لا يقصد أن نختار الإله أو الربّ اختياراً وانتقاءً، بل يسأل عن أساس فكرتهم عن اختراع أرباب، هل من أساسها لها معنى؟ وهل نبعت من فكرة صحيحة حقيقية؟ وهل هي خير؟ سترى ذلك من الآية التالية.

بعبارة أخرى، إنّ النبي يوسف (ع) يتحدّث معهما بلغة بسيطة، طالما هناك ما يدفعنا للاعتقاد بالإله ككائن فائق القدرات والصفات، فما معنى تحويل هذا الاعتقاد من إله إلى الاعتقاد بآلهة! ألن يكون الاعتقاد بإله واحد أحد قاهر للجميع هو الصحيح بدلاً من الاعتقاد بآلهة صغيرة ضعيفة يمكنها أن تتخالف وتتعارك مع بعضها؟

ضع في بالك الفرق بين كلمتي ربّ وإله، حيث إنّ الربّ كلمة عمومية تصدق على كل من كان مسؤولاً منفرداً عن شيء، كربّ البيت، وربّة المنزل، وربّ العمل... وتتدرّج في مستواها من وصف البشر بها إلى وصفه تعالى بها لتصير على معنى: المسؤول من مستوى إلهي عن المخلوقات. أمّا كلمة إله، فهي لعموم وصف أي كائن بقدرات وصفات تفوق صفات وقدرات الآخرين، والقرآن دائماً ركّز على انتفاء إمكانية وصف أحد غير الله تعالى بوصف الإله، لأنه الوحيد الذي يملك الصفات والقدرات الفائقة فوق صفات وقدرات كل بقية الكائنات الأخرى.

في آيتنا هنا ترى تحديداً بكلمات دقيقة للعقيدة التي كانت دارجة في مصر في ذلك الزمان، وترى نفس الشيء في كتب تناولت تاريخ الشعوب الأخرى المشركة، حيث لديهم اعتقاد بوجود أرباب متعدّدة، وكانوا "بشكل ما" يفصلون بين معنى ربّ وإله، على أساس أن إلهاً واحداً أساسياً خلق كلّ شيء، وخلق كائنات بصفات ربوبية لتكون بقدرة من مستوى إلهي مؤثّرةً على حياة الناس، وستلاحظ في تاريخ أدبيات بعض المشركين أنهم لم يطلقوا وصف الإله على أربابهم وأبقوا وصف الإله محصوراً بالإله الكبير "الله" عزّ وجل، ووصف الربّ للذين لديهم مسؤوليات من مستوى إلهي. طبعاً كما ترى فهي عقيدة فاسدة ومهما حاولت إعادة صياغة الكلمات بناءً على معتقدهم فستقول جملاً فاسدة، لأن الرب من مستوى إلهي فهو فعلياً إله، ولذلك ترى القرآن مرات يعرض قولهم لترى منه تفريقهم هم بقصدهم بين الأرباب التي يعبدونها وبين الله، ومرات يعلّق على عقيدتهم بأنها فعلياً اعتبار آلهة معه تعالى.

السؤال في الآية هنا:

يوجد دافع دفعكم للاعتقاد بوجود كائن بقدرات فائقة تفوق قدرات المخلوقين، كائن صمّمكم وخلقكم وخلق بيئتكم... ومهما كان الدافع لذلك، فلماذا افترضتم وجود "عدّة" كائنات مسؤولة عنكم أو عن بيئتكم ولديها صفات فائقة؟ إنّ الدافع الذي دفعكم للاعتقاد بالإله هو دافع صحيح ولكن كيف وعلى أي أساس صار لديكم أرباب متعددة ولكل واحد منها قدرة من مستوى إلهي ومتميّزة عن قدرات بقية الأرباب؟

لنمشِ بهذه الفكرة ولنسأل: طالما أن فكرنا ومشاعرنا يشيران للإله، فأين المشكلة في الاعتقاد بربّ واحد قاهر لكل بقية الكائنات "مهما كان نوعها"؟ أين الخير في الاعتقاد بأرباب متعددين حتى نترك الفكرة الأساسية على ما هي عليه؟ لنقل إنّي اعتقدت بربّ للمطر فدعوت له حتى ينزل الماء وتنشط زراعتي وتربية ماشيتي، ولكن هذا لن يكفي لتسير أموري على خير حيث أنا بحاجة أيضاً للدعاء لربّ الزرع، ولربّ الماشية، ولربّ الصحة والمرض، ولرب الزلازل ولربّ البحر ولرب الأمراض... طالما تحقّق ما يدفعني إليه شعوري وفكري بالاعتقاد بالله تعالى القاهر القادر على فعل كلّ شيء، فما الخير من الاعتقاد بآلهة متعددة؟

كما ترى إنّه سؤال بسيط يتماشى مع ما يفهمونه ويعتقدون به، وليس سؤالاً فلسفياً بكلمات معقدّة لا يفهمونها. وإن كان كلامي عنها جعلك تراها معقدّة، فهذا طبيعي وعادي، ويحصل معي ومعك في العديد من آيات القرآن التي وجّهت

كلامها لأناس لديهم عقيدة غير عقيدتنا، حيث لا نفهم ما تقوله الآيات لأننا لا نعرف بالضبط ما هي عقيدة الذين تتكلّم معهم وعنهم الآيات.

غالباً ترى المفسرين يشملون كل أنواع الكفر بتفسيرهم لأي آية تحدّثت عن الكفر، يقولون إنّها تقصد من عبد الأصنام والأرواح والكواكب والأشخاص... علماً أن العديد من الآيات كانت تقصد نوعاً واحداً من الشرك به تعالى، حيث تشير مرّة لمن عبد الأصنام ومرّة تشير فقط لمن عبد كائنات لها وجود حقيقي، حيث عبد الملائكة أو الجنّ أو شخصاً من الإنس...

بالنسبة لكلمة "خير" في استعمال القرآن كثيراً ما نستنسب تفسيرها على معنى "أفضل"، وأحياناً يصدق هذا المعنى بالتبعية من فحوى الكلام، ولكن بعض الاستعمالات القرآنية لنفس الصياغة تريك أنه لم يقصد بكلمة خير أن تكون رديفاً لكلمة أفضل، وكمثال واضح عن ذلك ما ورد في الآية 16 من سورة العنكبوت {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}، حيث إنّ مرادفتها بأفضل في أمثال هذه الآية سيعطيك معانيَ غير دقيقة بل وغير مقبولة إلا إذا حملت معنى الأفضل على عموم المقابلة بين الأسوأ والأحسن، ولكن هذا ليس معناها بل هذا معنى كلمة خير، وكلمة "أفضل" في أشعار العرب قبل الإسلام محصورة بين الحسن والأحسن، لو قلت إنّ الإيمان أفضل لكم فهذا يعني أنّ الكفر حسن والإيمان أحسن، لا، لأنّ الإيمان خير لكم مما يعني ضمناً أن الكفر سوء لكم.

لم يستعمل القرآن كلمة أفضل بتاتاً، واستعمل التعبير بالخير وهو أوسع بالمعنى، فهو يقابل الشرّ كما في الآية 11 من سورة النور {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}...، واستعملها بمعنى ما يقابل الحسن حيث إنّ الآخر أحسن وليس شرّاً، كما ورد في الآية 271 من سورة البقرة {إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}...، لأنّ إبداء الصدقة ليس سوءاً وإنما إخفاؤها أحسن، وهنا يمكن استعمال كلمة أفضل.

يعني لا ترادف "خير" بـ "أفضل"، لأنهما في بعض سياق الكلام يتقاطعان تطبيقياً حيث يكون الذي تقارن بينهما كلاهما جيّدان، فعندها يصدق قول خير أو أفضل، ولكن حين يكون الكلام عمومياً يشمل ما كلاهما جيّدان ويشمل أيضاً ما أحدهما جيد والآخر سيء، ويشمل الوصف مطلقاً بمقارنة الحسن مع مطلق الوصف بالحسن، حتى لو لم يكن هناك طرف آخر للمقارنة والمقارنة مع مطلق الوصف، كوصفه تعالى بخير الرازقين وخير الحاكمين... هو تعالى بالمقارنة مع وصف الحسن مطلقاً كرازق وحاكم فهو خير موصوف بذلك، لأنّ كلمة أفضل ليست وصفاً صحيحاً لهذه الحالات وكلمة خير صحيحة.

(مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ{40})

{مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ}، الذين تعتبرون أنفسكم مفروضاً منكم طاعتهم وتتصرّفون على هذا الأساس، فما هم {إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ}، واخترعتم أسماء من خيالكم ولا حقيقة لها وقلتم إنّها أرباب!

{مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا}، بتلك الأسماء، {مِنْ سُلْطَانٍ}، من غلبة من دليل قوي أو إثبات، ولم يقل سبحانه إنّها أرباب، وفقط صارت بنظركم أرباباً مع أنكم أنتم اخترعتموها من رأسكم! فسبحانه ينظر إلى كل دنيا المخلوقات المحصورة بالسماوات والأرض، والتي صمّمها وخلقها ويدبّر شؤونها هو سبحانه لوحده، ولا يرى فيها إلّا مخلوقاته، فلا يرى ولا يلمس أثراً لإله غير نفسه، وسبحانه يعلم من نفسه أنّه لم يُعْطِ أحداً من مخلوقاته صفة ربوبية من مستوى إلهي، ولم يترك لأي أحد من مخلوقاته حرية التصرف والقرارات من مستوى إلهي في إدارة شأن من شؤون الدنيا، وحين قلتم إنّه له تعالى شركاء في الربوبية فهل لديكم سلطان بذلك؟ فهل لديكم شيء قوي يثبت صحّة كلامكم هذا؟ وأنتم مخلوقات ولا قدرة لكم على النظر في كل ما في الدنيا "وفي الوجود" لتروا ما يراه الله تعالى، فإن لم يقل لكم سبحانه إنّه يوجد أرباب غيره، أو هو تعالى "فرضاً" خلق أرباباً، أو... فإن لم يأتكم كلام منه تعالى عن وجود أرباب غيره فأي كلام منكم أو من غيركم لن يكون له سلطان، ولن يكون كلاماً قوياً مستنداً إلى حقيقة.

{إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ}، فكيف جعلتم تلك الأرباب حاكمة عليكم من مستوى إلهي بينما الحقيقة أنّ الحكم الحكومة السيطرة بالصوابية هي فقط لصاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" سبحانه.

الحكم على معنى الحاكمية والحكومة "السلطة"، وأصل المعنى البتّ في الأمور بحكمة، بصوابية ضبطها على المطلوب على الحقّ، ومن مشتقات ذلك عموم أي حكومة كفرض شيء على الآخرين. ووصفه تعالى بالحكيم متضمّناً "حكمه وحكومته" فهو متطابق مع أصل معنى الكلمة، فقراراته حقّ، أمّا حكم وأحكام وحكومة الناس، فالمقصود منها بالأساس أن تكون لضبط الأمور بالحق، وفي التطبيق تحصل عادة مخالفة للحقّ، فتكون الأحكام والحكومة ظالمة، وتعابير القرآن عن ذلك منها ما ورد في الآية 47 من سورة المائدة {وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}، وأمثالها من التعابير التي لم تغيّر في أصل معنى الكلمة، بل أبقتها على معنى ضبط الأمور على الصواب، ونبّهت إلى أنّ مخالفة أوامره تعالى هي حكومة ليست على الصواب.

{أَمَرَ} الله تعالى {أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}، لم يسمح أن تتصرّفوا على أساس أنكم عبيد لغيره، وأمركم بطاعته هو فقط وفقط. وكلمة عبد تشير لمن مفروضة منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك. وما تعارفنا عليه بتسمية العبادة للصلاة والمناجاة... هو من تطبيقات العبادة، من تطبيقات طاعته تعالى وليست حصرية فيها لأن العبادة شاملة لكل ما تطيعه به تعالى.

من مشتقات جملتي {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} و**{أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}**، أنّه تعالى لم يخلق كائنات ويجعل لها سلطة ربوبية من مستوى إلهي، وأيضا من المشتقات أنّه تعالى وحده له الحقّ بأن يسمح لنا أو لا يسمح لنا بعبادة غيره، لأنّه إلهنا الأحد ونحن عبيده، فإن فرضاً فرضاً حكم وسمح لنا بعبادة غيره، فعندها حتى لو كانت عبادتنا لغيره تعالى لا معنى حقيقياً لها، لأننا لسنا نعبد ربّاً أو إلهاً حقيقياً إن عبدنا غيره تعالى، ولكن لا حساب ولا عقاب على تلك العبادة لو أنّه فرضاً سمح تعالى لنا باختراع آلهة وعبادتها. وهكذا ترى الجملة هنا تشير لكل هذه المشتقات وتخبرك بأنّه تعالى لم يسمح بعبادة غيره.

تذكّر أنّ القرآن ركّز على هذه النقطة وكررها مراراً، فلو كان سبحانه لا يبالي بمن نعبد، ولن يحاسبنا إن اخترعنا آلهة "وأرباباً" وعبدناها، وأخبرنا بذلك، فعندها لن يحاسبنا تعالى على اختراع آلهة "وأربابٍ" والقيام بتمثيلية عبادتها، ولكن من ناحية أولى: تلك الأرباب من أين بدأت عبادتها؟ ويعلم الجميع أنّ عبادتها بدأت من أناس اخترعوا أسماء من خيالهم وقرروا إنّها أربابهم. وسبحانه وتعالى لم يؤكّد لنا وجودها وحقيقتها، بل بناءً على قدراته الفائقة نفى نفياً قاطعاً أي أثر لأي كائن غيره من مستوى إلهي... ومن ناحية ثانية سبحانه لم يسمح بعبادة غيره وأمر بعبادته وحده فقط وفقط.

{ذَلِكَ}، العبادة له وحده تعالى هو، {الدِّينُ}، هو الشيء الذي ندين به ونعتبره كتبعات علينا لكوننا مخلوقين عبيداً لله تعالى وبالتالي نعبده تعالى وحده، فهو الدين {الْقَيِّمُ}، وهو التصرّف والاعتقاد الموصوف بأنّه على الأحسن.

تذكّر دائماً أنّ العرب إلى حين نزول القرآن لم يستعملوا كلمة "قيّم قيمة..." بالمعنى الصريح الذي نقصده الآن عن تقدير عالٍ أو منخفض للشيء: قيمتي عالية، شيء له قيمة... بل على معنى الذي يوصف بأنّه أحسن، وهكذا استعملها القرآن، ومن مشتقات هذا المعنى أنّه لا انحراف فيه، أنّه جيّد، وبتعبيرنا الحالي: له قيمة عالية.

كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، وهي ليست اصطلاحاً مخصّصاً كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، وهي عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأنّي أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأنّي فعلت لك شيئاً ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني فأنا مدين له، وخلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعاً بسبب سعة تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنّه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... وكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة فهناك نُدان بأعمالنا، فما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هي التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضا يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسباً بحكمته يديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ{41})
إليك النص بعد المراجعة اللغوية والنحوية الدقيقة، مع تطبيق كافة الشروط التي طلبتها:

{يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ}، أوجّه كلامي لكما أنتما اللذين معي في المكان المغلق الذي يقيّد حريّتنا:

{أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا}، سيخرج من السجن ويكون ساقياً للمسؤول عنه، للملك، وهذه كانت وظيفته سابقاً كما استنتجنا من منامه الذي رأى فيه أنّه يعصر خمراً.

{وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ}، يتمّ ربطه على عمود حتى يموت، {فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ}. ونعلم أنّ الغربان والنسور عادة تقوم بأكل جثث المصلوبين، وتبدأ بنقر أعينهم...

{قُضِيَ الْأَمْرُ}، انتهى الشيء، {الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ}، الذي تسألان عنه وتنتظران جوابه. سألتماني عن الرؤيا، وأجبتكما بما سيحصل، وهو سيحصل بالتأكيد.

ننتبه، فمن المحاضرة الدينية المختصرة التي قالها النبي يوسف(ع) علمنا أنّ الفتيين كانا مشركين، مما يشير إلى أنّ المشرك يمكن أن يرى مناماً له تأويل، وهي ليست حالة محصورة بالمؤمنين الصالحين.

بقي شيء، استظهر أحد المفسرين من الآية هنا أنّ الفتى الذي قال له النبي يوسف(ع) إنّه سيصلب، قال إنّه لم يَرَ مناماً وأنّه كان يكذب، وبالتالي تأويل المنام الذي رواه لن يتحقّق، فأجابه النبي يوسف(ع) بجملة {قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ}، يعني سواء كنتما تكذبان ولم تريا المنام أو كنتما رأيتماه فعلاً، فنفس الشيء، فما قلته لكما سيحدث بالتأكيد. وكما ترى، من الآية لوحدها لا نفهم هذا المعنى بشكل صريح ومباشر، مع العلم أنّ هذه الجملة توحي بشكل قوي لحدوث شيء ما سبّب للنبي(ع) أن يقولها، ومن الطبيعي ألّا يصدّق الفتى الذي رأى الطير تأكل من الخبز... أنّه سيصلب، وسيعترض على التأويل، ويتّهم النبي يوسف بالكذب واختراع تأويل من خياله... وإذا ضمنّا ما قيل في الكتب عن تهمة محاولة اغتيال الملك، أو حصول اغتياله فعلاً، فتأويل النبي يوسف(ع) يعني تثبيت تهمة الاغتيال على الفتى الذي رأى أنّه يحمل خبزاً، وهكذا نرى أنّ الفتى لن يقبل بتثبيت التهمة عليه، ولحد تلك اللحظة التحقيقات جارية ولا دليل ثابت عليه بالتهمة... هذا بناء على المنتشر في الكتب، ونفهم أنّه اعترض ونفى وكذّب التأويل... وقال له النبي يوسف(ع): {قُضِيَ الْأَمْرُ}... وما قلته لك سيحصل.

على أي حال، السورة لم تَرَ منفعة من ذكر سبب سجنهما، ونقلت فقط ما له علاقة بصدق تأويل الرؤيا، وأحدهما سيكون ساقياً للملك، ويكون رأى صدق التأويل في المصلوب، ويعلم أنّ النبي يوسف(ع) فعلاً قادر على التأويل.

(وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ{428})
{وَقَالَ} النبيُّ يوسف(ع) {لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا}، للذي اعتقد وبناءً على علم صحيح بأنه سينجو وسيتخلّص من السجن، للذي علم أنه سيخرج من السجن اعتماداً على تأويل منامه ويرجع ليصير ساقياً للملك، قال له(ع):

{اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ}، استحضر معلومات عني عند المسؤول عنك، وقل له يوجد شخص بريء في السجن، ويجيد تعبير الرؤيا... حتى أخرج من هنا، لأنهم رموني هنا ونسوني وليس لي أحد يطالب بخروجي.

لاحظ، قال النبي يوسف(ع) عن نفسه أنه تعلّم "من" تأويل الأحاديث، ويعرف "بشكل محدود" في بعض الأمور ماذا سيحصل في مستقبلها، وهنا من الواضح أنه كان يعرف أن خروجه من السجن سيكون عن طريق هذا الساقي، ولكن لم يحصل ذلك على الفور:

{فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ}، بعد خروج الساقي من السجن ذهب عن باله أن يقول للملك عن يوسف(ع) أي شيء، لأن الشيطان، الموصوف بفعل السوء وبتشجيع الآخرين على فعله، وسوس له فجعله ينزّل أهمية الرؤيا التي بشّرته بالنجاة وكان تحت خطر صلبه... حيث تمّت تبرئته وخرج من السجن وعاد ساقياً للملك، ولم يعد تعبير الرؤيا مهماً في نظره، لأنه هو أصلاً كان بريئاً، ولم يفعل أي شيء... قارنها مع جميل فعله معنا الناس وكنا حين فعلوه نراه في غاية الأهمية، وبعد ذلك تجاوزنا أزمتنا ونسينا من أحسن إلينا وساعدنا، وعادة نحن نتذكّر ما فعلناه من جميل مع الناس ونتضايق منهم حين ينسون ما فعلناه لهم، بينما نحن ننسى بسهولة ما فعلوه معنا من إحسان... على كلّ حال، هنا الآية تخبرك عن هذه الحالة، ومن المفروض بالساقي ألا ينسى البشارة التي سمعها من النبي يوسف(ع)، حيث في حينها كان ينام ويستيقظ وهو في السجن ويفكّر بلحظة صلبه "وتعذيبه وقتله"... وبعد تبرئته نسي ذلك ونسي يوسف(ع) الذي طمأنه.

وصف الآية له بأن الشيطان تدخّل ووسوس له، يشير إلى تدخل الشيطان في منعه من القيام بعمل خير، فلو أخبر الملك عن البريء يوسف(ع) لوفّر عليه (ع) بضع سنين في السجن... وبالتالي نفهم أن نسياننا نحن لمن فعل معنا خيراً، ونسياننا لما وعدنا به من عمل خير، هو بسبب اتباعنا لوسوسة شيطانية، حيث يخطر على بالنا ما وعدنا به ولكن ننزّل أهميته ونهمله وهكذا حتى يغيب عن بالنا.

{فَلَبِثَ}، مرّ على النبي يوسف(ع) زمنٌ، {فِي السِّجْنِ}، في المكان المغلق الذي يقيّد حريته، {بِضْعَ سِنِينَ}، أقل من عشر سنين بقليل، ويقولون في التفاسير أنه (ع) بقي مسجوناً لسبع سنين.

كان (ع) يعلم أن خروجه سيكون على يد الساقي كما سنرى، ومن حيث الظاهر أنّ الشيطان سبّب تأخير خروج النبي يوسف(ع) من السجن، ولكن في العمق، كان المخطط الإلهي يريد بقاءه (ع) في السجن إلى ما بعد موت الملك الحالي... حيث جاء ملك جديد لا علم له بحادثة النسوة ويوسف(ع)... وبعدها رموه (ع) في السجن بلا دليل على فعله لأي سوء، فلو وصل الخبر للملك لكان سأل عن هذا الفلتان في الحكومة، وربما لقالوا له إنّ الفتى زير نساء ويستحق السجن، ولسكت الملك عن الموضوع... فلنتابع:

(وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ{43})
مرّت السنين، وقال الملك المصري:

{إِنِّي أَرَى}، ستعلم من بقية الكلام أن الملك تحصل لديه صور محدّدة في منامه لـ، {سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ}، متغذيةٍ بشكل جيد فبدنهن ممتلئ، {يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ}، سبع بقرات غير متغذيات بشكل جيد فبدنهن ضعيف، هزيلات، تأكل البقرات السمان.

وإني أرى، {سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ}، وسبع سنبلات {أُخَرَ يَابِسَاتٍ}، اسم رأس نبتة القمح أو الشعير "سنبلة"، ويكون بداخلها حبوب القمح أو الشعير، ورأى الملك سبعاً منها لونها أخضر، أي طرية نضرة، وبقربها سبعٌ يابسة جافّة صفراء.

{يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ}، أيها الوجهاء من علماء ومستشارين، {أَفْتُونِي}، أعطوني جواباً، {فِي رُؤْيَايَ}، في الصورة المحدّدة التي حصلت عندي وأنا نائم، {إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ}، إن كنتم حقاً تستطيعون قول ما تعبّر عنه الصور المحدّدة التي يراها النائمون، لأنكم تقولون بأنكم مفسّرون للمنامات وتقولون ما معناها، وها منامي، ففسروا لي ما معناه؟

نلاحظ أن ملكاً كان حاكماً على مصر، ولم يكن اللقب: فرعون.

نلاحظ أنه ليس بالضرورة أن يكون الشخص مؤمناً ليرى رؤيا، لأن الساقي والخبّاز كانا مشركين بدليل محاولة النبي يوسف(ع) جعلهما موحدين، وحصلت لهما رؤيا، وهذا الملك المصري بطبيعة الحال ليس لدينا أي شيء نستند إليه لنقول إنه كان مؤمناً، فنجري عليه ما نعرفه عن بقية أهل زمانه من المصريين.

(قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ{44})
{قَالُوا}، الملأ. {أَضْغَاثُ}، مجموعة صغيرة من خليط، {أَحْلَامٍ}، أنت ترى خليطاً مما تحلم به من رغباتك مع هواجسك، {وَمَا نَحْنُ}، لسنا نحن، {بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ}، بمعرفة المعنى العملي للأحلام، {بِعَالِمِينَ}، لا علم لنا بها، هذه ليست رؤيا، ليست صورة محدّدة لشيء ما ولها معنى، بل هي حلم حلمت به مما ترغب به أو مما يخيفك وهذا ينتج عن هواجسك "عقلك الباطني" وعن التخمة أو الجوع قبل النوم... وتفسير ذلك ليس من اختصاصنا.

نقرأ في كتب التاريخ والآثار أن مفسري المنامات كانوا جزءاً دائماً من أي مجتمع، والجو العام عن هؤلاء المفسرين أنهم من الكهنة أو السحرة أو العرّافين وقارئي الحظ والطالع والمنجمين... لا داعي لافتراض أن أجواء تفسير المنامات كانت رائجة بشكل خارج عن المألوف في عهد النبي يوسف(ع)، حيث في الأوضاع العادية لعموم المجتمعات يوجد أناس يقولون بأنهم متخصصون في تعبير المنامات، وهنا في هذه الحادثة إنّ منام الملك كان غريباً جداً عليه، ولذلك لم يستطع نسيانه وأصرّ على معرفة سببه وبالتالي معرفة معناه أو معنى رؤيته له...

يبدو أن المسار الطبيعي للأمور كان أن يرى الملك الرؤيا، وأن يعجز المعبّرون عن فهمها، حيث الأمور حصلت بشكلها الطبيعي ولكنها تسير في باطنها على التخطيط الإلهي، سبحانه أراه الرؤيا التي يعجز عن تفسيرها المؤوّلون.

لمزيد من المعلومات حول كلمة تأويل، راجع دراسة الآية 6 من هذه السورة.

(وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ{45})
{وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا}، الفتى الذي تخلّص من السجن من الفتيين اللذين كانا في السجن، وهو الساقي بناءً على ما قرأناه سابقاً من تأويل النبي يوسف(ع) للمنامين وأنّ الساقي سينجو... {وَادَّكَرَ}، وتذكّر، {بَعْدَ أُمَّةٍ}، بعد مرور مجموعة من الناس كان بينها شيء مشترك، يعني بعد حصول تغيّرات في المجتمع، حيث ذهبت أمّة وظهرت أمّة أخرى، ومن المشهور في كتب تاريخ أهل الكتاب أن الملك مات أثناء تواجد النبي يوسف(ع) في السجن، وأن ابنه صار ملكاً بعده، فالإشارة هنا لتغيّر الحاكم وبالتالي حصول تغيير في عقلية الإدارة الجديدة، لتكون الأمّة الجديدة للملك الجديد مجموعة مختلفة في العقلية والتفكير عن الأمة القديمة في عهد الملك القديم.

قال الساقي الناجي من السجن: {أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ}، أخبركم بما لا تعرفونه عن التفسير العملي لهذا المنام، {فَأَرْسِلُونِ}، فأرسلوني لأنطلق بهذه المهمّة إلى حيث يمكنني ملاقاة الشخص الذي يجيد تعبير الرؤيا، أرسلوني إلى السجن لأتكلم معه.

الساقي يحتاج لإذن حتى يغادر القصر إلى السجن، ويحتاج لإذن حتى يتكلّم مع النبي يوسف(ع) في السجن.

(يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ{46})
ذهب الساقي إلى السجن والتقى النبي يوسف(ع) وقال: {يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ}، أنت لا تكذب، حيث من قبل عبّرت لي رؤيا وكان تعبيرك صادقاً، {أَفْتِنَا}، أعطنا جوابك، {فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ}، ممتلئات البدن، {يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ}، سبع بقرات نحاف البدن يأكلن البقرات السمينة، {وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ}، نضرة، {وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ}، جافة.

{لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ}، إذا أجبتني فمن المفروض ومن المتوقّع أن أرجع إلى الناس بجواب صادق منك، {لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ}، ومن المفترض ومن المتوقّع أن يعلموا أنك رجل صادق عالم وأنك مسجون ظلماً، ومكانك ليس في السجن.

نلاحظ أن مفسري الأحلام عادة يتم ربطهم بالدين بشكل أو بآخر، والشخص الذي يصدق تفسيره للمنامات، سيكون في نظر الناس شخصاً مميزاً، ولا يمكنك أبداً أن تفصل النبي يوسف(ع) في تصرّفه ومنطقه عن الدين، فلذلك قام الساقي بمناداته بالصدّيق، وكما تلاحظ فهي كلمة تعطي معنى دينياً فور سماعها من المتدينين، مع أن معناها عادي وليس دينياً.

هكذا شاع خبر ما رآه الملك في منامه بين الناس، ولم يحصل الملك على جوابٍ شافٍ ممن حوله، وهذا الساقي استعاد ذاكرته واعتبرها فرصة للنبي يوسف(ع) ليجيبه بالتعبير للمنام ويخرج من السجن.

(قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ{47})
قال النبي يوسف(ع): {تَزْرَعُونَ} "نبات القمح والشعير وغيره"، {سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا}، بشكل دؤوب باستمرار من دون انقطاع، بجدّ واجتهاد متواصل تزرعون، {فَمَا حَصَدْتُمْ}، الذي أخذتموه من الزرع، {فَذَرُوهُ}، اتركوه كما هو، {فِي سُنْبُلِهِ}، لا تدرسوه ولا تستخرجوا الحبّ منه بل اتركوه كما هو في غلافه، {إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ}، قوموا باستخراج الحبّ من السنابل فقط للكمية التي تحتاجونها للأكل للاستهلاك.

يعني يعبّر المنام عن حالة رخاء ووفرة لمدة سبع سنين، قوموا باستغلالها، وازرعوا أكثر مما تحتاجونه بكثير، لدرجة أن ما ستستعملونه لحاجاتكم العادية سيكون قليل الكمية أمام الكمية الكبيرة التي حصدتموها، وبالنسبة للقمح والشعير الزائد عن حاجتكم اتركوه في سنابله، ويقولون إنّ هذا يمكّن من تخزينه لمدة طويلة ولا يفسد.

(ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ{48})
{ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}، من بعد الرخاء والوفرة، يأتي، {سَبْعٌ شِدَادٌ}، سبع سنين قاسيات، من الجفاف والحرارة العالية وندرة تساقط المطر، {يَأْكُلْنَ}، تلك السنين الشداد، {مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ}، كما نقول قدّمت لي الطعام، في السنين التي سيحصل فيها جفاف ستستهلكون ما حضّرتم من المؤنة التي تركتموها في السنابل، {إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ}، ما تحفظون من السنابل التي تخزنون، إذا قمتم باستغلال سبع سنين من فترة الخصاب فستحصلون على كمية كبيرة من المحصول ولكن ستمرّ سبع سنين قاسية جداً جداً وستستهلكون ما خزنتموه وسيبقى القليل جداً منه كفائض عن حاجتكم.

بعبارة أخرى، لا تهملوا فرصة الزراعة بكميات كبيرة فوق حاجتكم بكثير، ولا تفكّروا بتخزين كمية صغيرة، لأنّ السنين القادمة ستكون قاسية جداً وبالكاد سيبقى مما تخزنونه، هذا إن فعلاً زرعتم وحصدتم بأقصى طاقتكم، وإلا فستمرّون في مجاعة.

(ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ{49})
{ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}، من بعد سبع سنين من القحط والجفاف، يأتي {عَامٌ}، في السنة الثامنة وبدون تحديد في أي شهر منها، خلال العام الثامن في مسمّى الاثني عشر شهراً من السنة الثامنة، {فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ}، تتم إغاثتهم، ويحصلون على ما يساعدهم للخروج من وضعهم الحرج، حيث سيصل المخزون إلى نهايته ومن بعدها الجفاف سبع سنين وفي الأخير سيأتي عام فيه مطر ووفرة... في شهر ما من أشهر السنة الثامنة من بعد الجفاف سينزل الماء...
{وَفِيهِ يَعْصِرُونَ}، يستخرجون السوائل من النباتات، للخلّ والزيوت والدبس...

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ{50})
رجع الساقي وأخبر الملك بتفسير الرؤيا، والملك أعجبه التفسير واقتنع به، وقال: {ٱئْتُونِي بِهِۦ}، أحضروا لي الذي فسّر المنام.

{فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ}، عندما جاء رسول الملك إلى النبي يوسف(ع) ليخرجه من السجن ويأتي به إلى الملك، قال النبي يوسف(ع): {ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ}، عُدْ إلى المسؤول عنك، {فَاسْأَلْهُ}، عَبِّرْ له عن إرادتك للحصول على جواب منه: {مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ}؟ هل سمعت بقصّة النسوة اللاتي كُنَّ معاً، وقطّعن أيديهن؟ ما كان يدور في بالهن حين قطعن أيديهن؟

{إِنَّ رَبِّي}، إنَّ المسؤول عني، {بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ}، لأنَّ الله سبحانه يعلم الضرر الذي ألحقْنَهُ بي. هل يعلم ربّك ما سبب وجودي في السجن؟ وهل يعلم قصّتهن حين قطّعن أيديهن؟ أمّا ربي فيعلم.

يبدو أن القصّة تحوّرت كثيراً بين الناس، حيث إنّ تلك النسوة اللاتي حاولن استمالة النبي يوسف(ع) قُمْنَ مع الناس بتأليف قصص كاذبة عن الغرام مع النبي يوسف(ع)، ولم يعد يجد النبي يوسف(ع) شيئاً للدفاع عن نفسه أمام قصصهن التي انتشرت، وتعلّق فقط وفقط بربّه سبحانه الذي يعلم حقيقة براءته.

تلاحظ أن النبي يوسف(ع) فسّر لهم المنام ورفض بعدها الخروج من السجن بأمر ملكي، لأنه أصلاً لم يفعل أي شيء، بل يريد إعلان براءته الحقيقية ولا يريد عفواً ملكياً ليخرج من السجن، وحادثة جرح النسوة لأيديهن مشهورة، فليقم الملك بالتحقيق معهن، ليظهر دليل براءته، وأنه لم يفعل أي شيء معيب وأنهن قطّعن أيديهن من إعجابهن به، وهو لم يستجب لهن، فليحقّق معهن الملك ليرى إن كان يوسف(ع) بريئاً وأنهم رموه في السجن ظلماً.

أكرر لك، رفض النبي يوسف(ع) الخروج من السجن قبل إعلان براءته.

(قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ{51})
قال، الملك بعد أن جمع النسوة: {مَا خَطْبُكُنَّ}، نطلب منكن أن تَقُلْنَ لنا كلاما ونحن مهتمّون بسماعه، {إِذْ رَاوَدْتُنَّ}، حاولتن استمالة، {يُوسُفَ}(ع) {عَن نَّفْسِهِ}؟ فإرادة نفسه أن لا يقاربكن وأنتن حاولتن جعله يخالف إرادة نفسه ليقاربكن؟ فهل استجاب لكن؟ وهل صدر شيء عاطل منه؟ فهناك قصص عن الغرام... فهل هذا صحيح؟

كما ترى صَارَ عند الملك معلومات عن الحادثة، وفهم أن النبي يوسف(ع) بريء ويدّعي أن النسوة راودنه وهو لم يستجب لهن... وبناء على هذه القناعة المبدئية عند الملك سأل بطريقة يتّهم بها النسوة... وهذه القناعة عند الملك نشأت من رفض النبي يوسف (ع) الخروج من السجن قبل ظهور براءته، وطبعا مما علمه من صدقه وأخلاقه العالية من الناس الذين عاشروه(ع)...

{قُلْنَ}، النسوة: {حَاشَ لِلَّهِ}، نَحْلِفُ بالله تعالى بإنكارنا للقول عنه بأنه فعل شيئا سيئا، {مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ}، على يوسف(ع)، {مِن سُوءٍ}، لَمْ نعلم أنه حصل منه أي شيء سيّء.

{قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ}، وهي المرأة التي كان (ع) في بيتها وراودته: {الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ}، كَانَ مندمجا مخفيا مع الأكاذيب عن يوسف(ع) والآن صار محصحصا، تَفَرَّقَ وتميّز الباطل عن الحق، ظهرت الحقيقة، {أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ}، قُمْتُ باستمالته ليخالف الإرادة التي في نفسه حتى يعصي نفسه ويطاوعني، لِأَنَّهُ لم يتحرّش بي بتاتا، {وَإِنَّهُ}، يوسف(ع)، {لَمِنَ الصَّادِقِينَ} لِأَنَّهُ لم يكذب ولا في أي شيء مما قاله عنّا وعما فعلناه به.

(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ{52})
{ذَٰلِكَ}، أقوله عنه، {لِيَعْلَمَ}، يوسف(ع)، {أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ}، وكنت أمينة، {بِالْغَيْبِ}، في غيابه، حَيْثُ هو الآن غائب في السجن ولا يمكنه الدفاع عن نفسه، فليعلم أني التزمت بما هو مفروض منّي بالصدق، {وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ}، وهذا مشابه بشكل ما لقولنا: حبل الكذب قصير. ولكن المرأة صارت الآن تستعمل تعابير دينية كما هو واضح من الآية التالية، وتعتقد بأن الله تعالى لديه قرار بفضح الخيانة.

(وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ{53})
نكمل مع كلام امرأة العزيز: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي}، لَا أقول إنّي لا علاقة لي بالموضوع، ولا أدافع عن نفسي حتى أظهر أمامكم أني بريئة، حَيْثُ اعترفت بأني أنا راودته وحاولت معه بكل الطرق، {إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ}، ونفسي كانت تأمرني بأشياء سيّئة، بالشهوة والرغبة السيئة... لِذَٰلِكَ أنا كنت مذنبة بإرادتي.

كُلُّ شخص يتعرّض لهذه الوسوسة النفسية السيّئة، {إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي}، فهناك أشخاص تنالهم الرحمة، العناية الإلهية من المسؤول عني من مستوى إلهي.

{إِنَّ رَبِّي}، إن المسؤول عني من مستوى إلهي، {غَفُورٌ}، يَتَجَاوَزُ عن الذنب لِذَٰلِكَ أطلب منه المسامحة، وربي، {رَّحِيمٌ}، لَدَيْهِ عناية خاصة بمن آمن به، وأنا أطلب منه أن يشملني بتلك الرحمة.

يظهر بشكل واضح هنا، أن امرأة العزيز آمَنَتْ بكل أو ببعض ما كانت تسمعه من النبي يوسف(ع) حين كان في بيتها.

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ{54}
{وَقَالَ الْمَلِكُ}: {ائْتُونِي بِهِ}، احضروه لي، {أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي}، أجعله خاصا لي، فلا يشاركني به أحد، وَيكون مستشارا لي لوحدي. مِنْ بعدما علم عن عفّته التي لا يمكن تصديقها، وعن أمانته وأخلاقه العالية، وتعبيره للرؤيا التي تعني وجود شيء رباني لديه، ورفضه الخروج من السجن إلا من بعد إظهار براءته... قَرَّرَ الملك أن شخصا بهذه المواصفات يجب أن يكون قريبا منه ولا يفارقه.

{فَلَمَّا كَلَّمَهُ}، عِنْدَمَا تحدّث الملك مع النبي يوسف(ع) وَالتقيا وجرت بينهما أحاديث في شؤون مختلفة، {قَالَ}، الملك:

{إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ}، في زمننا هذا أنت موصوف بأنك متمكّن، أُعْلِنُ أنك من اليوم لديك سيطرة، وعمليا صار لديه (ع) إمكانات متاحة للتصرّف براحة ضمن مملكة الملك، حَيْثُ لَمْ يعد محكوما وصار حاكما، وتعلم من التاريخ المشهور في التاريخ التراثي الديني ومما سيأتي أنه (ع) صار له منصب عال جدا في الدولة.

وإنك اليوم لدينا، {أَمِينٌ}، نأتمنك، وَموصوف بأنك لا تخون ويمكن إخبارك بالأسرار لأنك لن تفرّط بها أو تبوح بها... ويمكن توكيلك بالأعمال مع التأكّد بأنك لن تهملها... وعمليا سَأَسْتَشِيرُكَ وآخذ رأيك في كل شيء حتى في الأمور السرية التي تخصّ المملكة ولا يطّلع عليها أحد غير الملك، وسوف تتوكّل بالقيام بمهام ملكية عالية الأهمية.

نتذكّر، أن النبي يوسف(ع) لم يطلب أي شيء مقابل تفسير المنام، ولم يقبل أن يخرج من السجن بعفو وأمر ملكي، بل طلب أن يجروا تحقيقا في سبب سجنه، وها هُوَ خرج بريئا وصار من أقرب المقربين للملك.

كما تلاحظ من لقاء الملك بالنبي(ع) بِكُلِّ وضوح سَمِعَ الملك كلام شخص غير عادي، عاقل صادق... مرّ بظروف صعبة وتصرّف فيها بكل حكمة... وهذه صفات نادرة جعلت الملك ينبهر بالنبي(ع)، لِأَنَّهُ لم ير من قبل شخصا بهذه الصفات الكاملة لِذَٰلِكَ فَوْراً قرّر جعله (ع) في أعلى منصب مباشرة.

(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ{55})
{قَالَ}، النبي يوسف(ع) للملك:

{اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ}، اجْعَلْنِي مسؤولا عَنْ أماكن التخزين، وسياق الكلام هنا يشير لمخازن الطعام، {إِنِّي حَفِيظٌ}، صائن للمخازن وَلن أسرقها ولن تتلف لأني سأعتني بها، وإني {عَلِيمٌ}، لَدَيَّ علم بما سأفعله للتخزين الصحيح للطعام.

مَا سيأتي من جفاف لسبع سنين هو أزمة ضخمة لا تتحمّل توكيل التعامل معها لأحد غيري، لِأَنَّهُمْ لا علم لهم بما يجب فعله...

بما اسْتَطَعْتُ الاطلاع عليه من مصادر متاحة على الانترنت، حاولت معرفة تاريخ بناء الصوامع في التاريخ المصري، وهو بحث سيفاجئك الاهتمام به من العديد من الباحثين من مختلف الفروع العلمية، وستتفاجأ بالهندسة القديمة لبناء مخازن حبوب بطرق وأشكال متعددة، وللأسف لم أطل البحث كثيرا ولم أصل إلى شيء يقرّبني من تحديد تاريخ لبناء أول مخازن تبدو فجأة ضخمة بالنسبة لما سبقها، أو عددها فجأة أكثر مما سبقها... والتي يمكن الاستفادة منها كمعلومة لتحديد العصر الذي مرّ فيه النبي يوسف(ع) في تاريخ مصر، حَيْثُ تفاجأت بكمية المعلومات الهائلة حول موضوع المخازن، ولم يقع تحت يدي دراسة موثوقة مخصصة لتاريخ بناء المخازن... ولكن خذ علما أن بناء المخازن تحت الأرض أو على وجهها كان هندسة رائجة قديما أكثر من بناء صوامع عامودية.

مُضَافاً لما سبق إنَّ الحضارة المصرية القديمة كانت مساحتها ممتدة من مصر إِلَى مَا يسمّى بالسودان... وكان هناك مدن لم تبق مزدهرة وصارت آثارا حتى بالنسبة للأقدمين... مما يوسّع بشكل هائل في الزمان والمكان نطاق البحث عن مخازن فجأة كبيرة بالحجم، أو فجأة كثيرة العدد... عَلَى ما يبدو أن كل الحكومات المصرية القديمة اعتنت بمسألة التخزين في كل مدنها الكبيرة...

أنت تعلم أن دراستنا هذه لم تقبل بأي شيء موروث من دون دراسته للتأكد من وثوقيته، وبالتالي بِالنِّسْبَةِ لي الزَّمَنُ مفتوح للبحث فيه عن عصر النبي يوسف(ع)، والذي أرجّحه لما قبل الفرعون خوفو الذي رجّحنا بقوة أنه المعاصر للنبي موسى(ع)، أمّا بكم يرجع التاريخ بين النبيين، فَغَيْرُ معلوم من شيء موثوق، مَا في التوراة عنهما قِيمَتُهُ بقيمة الروايات عندنا، وَهِيَ بحاجة لتدقيق وأغلبها غثّ خاصة فيما يتعلّق بالأمور التاريخية القديمة...

(وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ{56})
{وَكَذَلِكَ}، كما أخبرناك أيها السامع لهذا القرآن صَارَ (ع) المستشار الأول للملك.... {مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ}، حَيْثُ صَارَ متمكنا مسيطرا قادرا على فعل أي شيء يريده بحريّة، {يَتَبَوَّأُ}، ينتقل ويستقر بالأمكنة، {مِنْهَا}، من الأرض، {حَيْثُ يَشَاءُ}، وَأَيْنَمَا ذهب فهو سيّد مطاع.

{نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ}، وَأَمَامَهُ تعالى خيارات عديدة وهذه الراحة والسلطة في الأرض هي رحمة إلهية، هي عناية لما فيه مصلحة من يحصل عليها، وَقَرَّرَ سبحانه أن يَتَمَتَّعَ بها العبد المؤمن يوسف(ع).

{وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}، مَنْ كانت أعماله حسنة، فَلَنْ يضيع أجره، وَمَا حددناه أنه يستحقه على عمله الحسن فَلَنْ ينساه الله تعالى ولن يغيّر "قراره"، ولا يمكن لأي أحد منع وصول الأجر لمن قرّر له سبحانه الأجر.

نلاحظ أن يوسف(ع) نبي ورسول، وَلَدَيْهِ مهمّة هداية الناس، وهنا نرى الآيات تتحدّث عن شيء آخر، عن راحة دنيوية لعبد مؤمن محسن في عمله، حَيْثُ لَمْ تتحدّث الآيات عن عمله الرسالي لهداية الناس، لِأَنَّ هَذَا شيء يقوم به النبي يوسف(ع) بشكل طبيعي ولم يحصل فيه أية مفاجآت، ولكن ركّزت الآيات على الراحة والحريّة مضافا لهما السيادة على أرض مملكة مترامية الأطراف ليوسف المحسن (ع).

تذكّر دائما أن ما هو دارج عن معنى "المحسن، محسنين" للذين يتفضلون على الآخرين أو يتنازلون عن حقوقهم، هُوَ من تبعات المعنى الأساسي للكلمة التي تشير لعموم أي عمل حسن.

انْتَبِهْ وضع في بالك كلام القرآن معك مفترضا فيك العقلانية، وَمَعْلُومٌ لك بالبداهة أن الكلام هنا عن تمكينه (ع) في الأرض، يشير للأرض التي تمتد عليها حكومة مصر، ولا يَقْصِدُ كل كوكب الأرض، وهكذا بقية كلام القرآن في مختلف المواضيع، وكمثال مشابه للكلام هنا ما قالته الآية 59 من سورة الشعراء {كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}، وما قالته الآية 5 من سورة القصص {وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}، بِالْبَدَاهَةِ هُمْ لم يرثوا كوكب الأرض، ولا ورثوا أرض حكومة مصر، بل ورثوا الأرض التي بارك تعالى فيها كما صرّحت الآية 137 من سورة الأعراف {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ}.

(وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ{57})
{وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ}، المقابل الذي حدّده تعالى للمحسنين عملا في الحياة التي ستأتي في الْآخِرَةِ بعد تبدّل هذه الدنيا، {خَيْرٌ}، موصوف بأنه جيد، {لِّلَّذِينَ آمَنُوا}، للذين اعتقدوا بدينه تعالى، {وَكَانُوا يَتَّقُونَ}، وكانوا يتجنبون، حَيْثُ كَانُوا يتجنبون السيئات وهي نفسها تجنّبهم غضب وعقاب ربهم سبحانه.

نال المحسن يوسف(ع) أجرا في الدنيا، وكان أجرا رائعا حَيْثُ نَالَ سلطة وراحة ولا أحد فوق رأسه، وَصَارَ معه سلطة مساوية لسلطة الملك، ولكن أجر الآخرة أعظم بكثير للمؤمنين المتقين، والنبي يوسف(ع) منهم، فما سيناله في الآخرة خير مما حصل عليه في الدنيا.

(وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ{58})
{وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ}، سترى من الآية التالية أن القحط عمّ البلاد وأصاب المنطقة التي فيها إِخْوَتُهُ(ع)، لِذَلِكَ جَاءُوا إلى مصر لشراء القمح، {فَدَخَلُوا عَلَيْهِ}، حَيْثُ كَانَ النبي يوسف(ع) في غرفة أو خيمة... ووقفوا أمامه، وكما ترى من سياق الآيات فهو (ع) المسؤول عن مخازن القمح، وبموافقة منه تشتري الناس... {فَعَرَفَهُمْ}، حَيْثُ كَانَ(ع) قديما يعلمهم ولكنه لم يرهم منذ سنين طويلة فمن ملامحهم عرف، "من الاستعراف" أن هؤلاء هم إِخْوَتُهُ، {وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ}، حَيْثُ لَمْ تَتَطَابَقْ في ذهنهم صورة النبي يوسف (ع) على صورة أخيهم يوسف الصغير، لِذَلِكَ لَمْ يعرفوه. وَالْمُنْكَرُ من مقابلته مع "عرف معرفة" يعطي معنى حصول صورة أو مفهوم ونفي تطابقه مع ما لديك، وَهُوَ عموم ما ليس معروفا على الوجه المطروح، كرفض لتصنيفه. وهنا الكلام عن رؤيتهم لأخيهم بأعينهم ورفضهم تصنيفه بأنه أخوهم.

هُمْ لن يخطر في بالهم أبدا أن يكون أخوهم كَبُرَ وصار لديه منصب كبير كمسؤول عن المخازن في مصر، وملامح النبي يوسف(ع) تَغَيَّرَتْ حَيْثُ صَارَ رجلا وَفَارَقَهُمْ وهو صبي، لِذَلِكَ حتى لو كان بشكل ما يشبه أخاهم فهم لن يخطر ببالهم أبدا أنه هو.

إذاً سَبْعُ سنين من الظروف المناخية المناسبة للزراعة مَضَتْ، وبدأت سنوات القحط الذي ضرب كل المنطقة، وَعَلِمَ الناس أن المصريين يبيعون الحبوب، فحضر الناس من مختلف المناطق إلى مصر لشراء الحبوب... والنبي يوسف(ع) مسؤول عن المخازن، ويبدو واضحا من الآيات أنه مسؤول عن البيع أيضا، فجاء إِخْوَتُهُ لشراء القمح فعرفهم وهم لم يعرفوه، وهكذا التقى النبي يوسف(ع) بإخوته، ولم يخبرهم أنه أخوهم.

لاحظ وانتبه أن القرآن لم يستعمل ولا مرّة في حقّه تعالى كلمة "عرف" أو أي من مشتقاتها، لِأَنَّ الْمَعْرِفَةَ من التعرّف وهي العلم بالاعتماد على الْأَمَارَاتِ بطريقة غير مباشرة، عبر مقارنة ما دخل حواسك وتصوراتك ومفاهيمك مع ما في ذاكرتك، وَالْعِلْمُ حديثا بشيء لم تكن تعلمه أو العلم بالتلقين من آخرين لشيء لا تعلمه... هو التعرّف، ولذلك لا يوصف تعالى بالمعرفة ويوصف فقط بالعلم، فَسُبْحَانَهُ لا تغيب عنه أي معلومة حتى يتعرّف عليها أو حتى يقارن بينها وبين ما يعلمه، فعلمه فائق.

(وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ{59})
{وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ}، وعندما حمّلهم ما هو مطلوب أن يكون معهم، وهنا الكلام عن تحميلهم للحبوب، ووزن العمّال لهم الحبوب ووضبوها في أكياس، وصار الإخوة جاهزين للعودة إلى ديارهم، قال لهم النبي يوسف(ع):

{ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ}، حيث حضر الإخوة من دون أبيهم ولا أخيهم الأصغر، وحاولوا شراء حصص تموين من الحبوب لأبيهم وأخيهم كما سترى من الآية 63، ولكن يبدو أن النبي يوسف(ع) لا يبيع الحبوب إلا لمن حضر شخصيا إلى المخازن، ويبدو من القصّة هنا، أنه (ع) سمح بإعطاء حصّة محددة مرة "كل سنة، أكثر أو أقل" لكل شخص، ويبدو أنه كان يتم تسجيل ذلك...

قال لهم النبي يوسف(ع):

{ائْتُونِي}، تعالوا إليّ في المرة الثانية، {بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ}، والذي حاولتم الحصول له على حصّة، فليأت هو ليأخذ حصّته، لأنه عنده عائلة ويحتاج للحبوب، ولكن نحن لا نبيع إلا لمن حضر إلينا شخصيا.

{أَلَا تَرَوْنَ}، ألم تَصِرْ لديكم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفتو. {أَنِّي أُوفِي}، وأعطي بالتمام ولا أخون، {الْكَيْلَ}، الوعاء الذي نقيس فيه الحبوب للبيع، حيث نغرف الحبوب بالكيل ونبيعها، ألا ترون أنني لا أنقص منه أي شيء، وأنتم تحصلون على الكمية التي تشترونها بالتمام من دون نقص، ونحن لم نستغلّ ظروف الناس ولم نرفع الأسعار، وأنا لست أستغل ظروف الناس وحاجتها لأتسلّط عليها بالغش والأسعار...

{وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ}، حيث نزلتم عندنا في مصر، ورأيتم الأمان عندنا ولم تتعرّضوا لأي خطر. يعني فرضا توافرت الحبوب في بلد آخر فأنتم لا سبب لكم حتى لا تأتوا مرّة ثانية إليّ لشراء الحبوب، لأننا لا نغشّ ولم نستغلّ الظروف لرفع السعر، وبلدنا أمان، وتكملة الكلام في الآية التالية حيث يمكن لأخيكم أن يأتي ولا عذر لكم إن لم يَأْتِ.

في بعض الروايات يقولون إنّ النبي يوسف(ع) استضافهم في بيته، ولكن لا يبدو من القصّة هنا أنه (ع) استضافهم بشكل مميّز عن بقيّة الناس، ولا يمكن من كلمة {وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ} أن نفهم منها استضافته لهم في بيته، فهي تعني أن مكان نزولكم المؤقت كان خيرا، كان جيدا، أمانا وراحة، فلا عذر لأخيكم إن لم يَأْتِ بنفسه.

(فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ{60})
{فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ}، أي إن لم تحضروا لعندي في المرة الثانية ومعكم أخوكم، {فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي}، فلن أكيل لكم كلّكم الحبوب ولن أبيع ولا واحداً منكم الحبوب، {وَلَا تَقْرَبُونِ}، ولا تقتربوا مني، كما نقول بالعامية: أصلا ما تجوا.

يبدو واضحا أنهم طلبوا شراء حصّتين لأبيهم ولأخيهم، وسترى ذلك في الآية 63، وسألهم (ع): لماذا لم يحضر معكم أخوكم؟ فقالوا إنّه أخوهم من أبيهم ولكن من أم غير أمهاتهم، ولظروف عائلية لم يحضر معنا... والنبي يوسف(ع) يريد رؤية أخيه الصغير حيا، ونتذكّر أن الإخوة حسدوه هو وأخاه، وفي اليوم الذي رموه في الجبّ نفترض أنهم أخبروه بكرههم له ولأخيه الصغير... ولأنهم تخلصوا منه الآن وسيأتي دور أخيه الصغير لاحقا، يريد (ع) الاطمئنان على حياة أخيه وأن يَراه.

لنعد للآية، حيث طلبتم حصّة لشخص ليس معكم، وتعذّرتم بظروف عائلية، وها أنتم ترون أني أوفي الكيل، فلو أني غشاش لكان لديكم عذر ما... ولكن ها أنتم ترون أنّه إن حضر فسيأخذ حصّته بالتمام، وها أنتم ترون الأمان في نزولكم عندنا، فإذا لم يحضر هذا الشخص في المرّة المقبلة، فهذا يعني أنكم كنتم تكذبون عليّ، وأنّ هذا الشخص غير موجود وتحاولون الحصول على حصّة زائدة لتبيعوها بسعر أعلى في بلادكم... وحتى أصدقكم وأكيل لكم في المرّة المقبلة، فليحضر هذا الذي قلتم إنّه أخوكم من أبيكم، فأنا أوفي الكيل، وبلادي أمان للمسافرين...

سترى بعد آيتين أنه (ع) لم يعطهم حصّة لأخيهم الذي لم يحضر معهم، حيث على ما يبدو أنه كان قانون بيع الحبوب يشترط حضور الشخص بنفسه لشرائها، وبالتحليل نرى أنه (ع) لم يجعل بين البيع والناس واسطة، ولم يبع التجّار بل باع الناس مباشرة، وحتى يتأكّد من أن الحصص تذهب للمستهلكين مباشرة، وأنهم لم يأخذوها ليتاجروا بها، اشترط حضور المشتري عنده ليأخذ حصّة واحدة، ولنقل إنّ الحصة تكفي لعائلة لسنة.

(قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ{61})
{قَالُوا}، الإخوة: {سَنُرَاوِدُ}، سنتحايل ونستميل، {عَنْهُ}، عن أخينا، {أَبَاهُ}، لأنّ أباه متعلّق به ولا يريد تركه ليأتي معنا، ولكننا سنجعله يخالف إرادته ويتركه يأتي معنا في المرّة المقبلة، {وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ}، وهذا شيء حتما سنفعله.

يعني اضطر الإخوة أن يدافعوا عن أنفسهم حتى لا يتهمهم النبي يوسف(ع) بالكذب، وأخبروه أنّ الأب متعلّق بابنه، ولكن من كل بدّ، في المرّة القادمة سيكون معنا حتما.

يجب حتما أن يكون معهم في المرة القادمة وإلا فلن يحصلوا على الحبوب وسيموتون هم وأهلهم من الجوع.

(وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{62})
{وَقَالَ} النبي يوسف(ع) {لِفِتْيَانِهِ}، لمن فيهم وصف الفتوّة، والمقصود الشبّان والرجال العاملون عنده:

{اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ}، أغراضهم التي أحضروها وباعونا إياها ليحصلوا على الحبوب، ضعوها، {فِي رِحَالِهِمْ}، في أغراضهم التي سترحل معهم، في أكياس الحبوب التي اشتروها منّا.

أحضر الإخوة بضائع، أشياء لها قيمة للبيع، وباعوها لحكومة مصر ليشتروا بها الحبوب، والاحتمالات مفتوحة لمعرفة نوع البضاعة، حيث يمكن أن تكون معادن ثمينة أو مصوغات معدنية أو عملة معدنية من بلدان أخرى... أو من

المشغولات الجلدية كما اقترح الكثيرون، أو عسلا أو صمغا، أو قطاف زهور نباتات بريّة... أو مصنوعات يدوية أو جلدية...

اعلم أنّ الجمل "البعير" بحسب حجمه وعمره يستطيع أن يحمل أكثر من 400 كيلو، ولكن يتم تحميله للمسافات الطويلة المجهدة بقرابة الـ 130 كيلو فقط. وتذكّر أنّهم لم يشتروا الحبوب فقط بل هم يحتاجون أيضا لشراء التبن لمواشيهم، والتبن حجمه كبير ووزنه خفيف نسبيا، حيث يمكن بسهولة إخفاء كمية من البضائع فيه.

{لَعَلَّهُمْ}، ومن المتوقع ومن المفروض منهم أن، {يَعْرِفُونَهَا}، لأنها نفس بضاعتهم وستكون في رحالهم، {إِذَا انقَلَبُوا}، إذا تركوا مصر ووصلوا، {إِلَىٰ أَهْلِهِمْ}، حيث من المتوقّع أن يجدوها بين الحبوب ولا تبقى مخفية.

{لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، حيث من المتوقّع منهم أن يرجعوا مرّة ثانية ليشتروا الحبوب.

النبي يوسف(ع) يعلم بفقر أهله، لأنّ لديهم مواشٍ وما يؤمّن لهم حياة كريمة، ولكن ليس لديهم مال، ودفعوا ثمنا كبيرا لكمية كبيرة من الطعام، فردّ إليهم بضاعتهم حتى يتمكنوا من العودة مرة ثانية لشراء الحبوب، وأمر العمّال بتخبئة البضاعة بحيث لا يجدها إخوته على الطريق بل يجدونها بعد وصولهم إلى بلدهم.

سترى من الآيات التالية أنّهم اشتروا الحبوب للمرّة الثانية بالبضاعة التي رجعت إليهم وكان معهم بنيامين... وسترى أنّهم في المرّة الثالثة كانت حالهم تعيسة جدا، حيث لم يكن لديهم شيء له قيمة ليشتروا به حصّة كاملة من الحبوب...

تلاحظ فيما سيأتي أنّهم لم يحتملوا وجود خطأ من العمّال ووقوع بضاعتهم في رحالهم بالخطأ، فالآية هنا تفيد أنّه وبشكل يدلّ على أنّ العمّال تقصّدوا إرجاع البضاعة إليهم، ليعلموا أنّها ردّت إليهم عن قصد، فلنقل فرضا إنّ بضاعة كل واحد منهم وضعها العمّال في كيس الحبوب الخاص به، أو وضعوها تحت كيسه...

(فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{63})
{فَلَمَّا رَجَعُوا}، الإِخْوَةُ، {إِلَى أَبِيهِمْ}، النبي يعقوب(ع)، {قَالُوا} له: {يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ}، لَمْ يعطونا كَيْلًا لأخينا الذي بقي معك، وَسَنُعْطِيهِ من حصصنا وهكذا سنتضايق نحن من قِلَّةِ الطعام، وقالوا لنا في مصر إِنَّهُ في المرّة التالية لن يكيلوا لنا إذا لم نأخذ أخانا معنا، وهذا تعلمه مما سبق من كلام النبي يوسف (ع) معهم حين طلبوا حصّة لأخيهم الذي لم يَأْتِ، وَهَدَّدَهُمْ (ع) أَنَّهُ في المرّة المقبلة إن لم يحضروا أخاهم فهم كاذبون ولا أخ لديهم، ويريدون حصّة زائدة لا حقّ لهم بها، ولن يعطيهم الحبوب...
{فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا}، في المرّة المقبلة أطلقه ليذهب معنا، {نَكْتَلْ}، نشتري له ولنا على الكيل، {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}، صائنون وَلَنْ يحصل معه أي شيء يؤذيه.
من الواضح أن النبي يعقوب(ع) كان يعتقد بقوّة أن أَبْنَاءَهُ مسؤولون عن اختفاء أخيهم يوسف(ع)، فخاف منهم على ولده الآخر الأخ الشقيق للنبي يوسف(ع) "من أمّه وأبيه"، والواقع أيضا تحت نفس تهديد كرههم له، لذلك لم يجعله يرافق إِخْوَتَهُ. من المشهور في كتب التاريخ أن اسم أخيه هذا: بنيامين.

(قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ{64})
{قَالَ} الأب (ع):
في المرّة المقبلة عندما تذهبون وتقولون إِنَّكُمْ له حافظون، {هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ}، هَلْ أجعلكم أمناء مسؤولين لا تفرّطون ببنيامين، {إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ}؟ مِنْ قبل طلبتم مني أن يذهب يوسف(ع) معكم وقلتم إِنَّكُمْ سَتَحْفَظُونَهُ، ولم يرجع، وَهَلْ هو نفس الأمان الذي سيحصل عليه بنيامين؟ وَسَتَذْهَبُونَ به ولن يرجع مثلما حصل مع يوسف؟
{فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا}، لَسْتُمْ أنتم ولا غيركم من اعتمد عليه ليحفظ ولدي، حَيْثُ المخلوقات تحفظ تصون تعتني، ولكن الله تعالى خير حافظا، وَفَقَطْ عليه تعالى اعتمد أن يحفظ لي شيئا، لِأَنَّهُ لَمْ يعد لدي أي ثقة بكم، {وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}، وَإِنْ كان هناك من لديه عناية بالآخرين لما فيه مصلحتهم فالله تعالى أفضل منهم جميعا عندما يعتني بمن يريد، ولذلك أتعلّق بحفظه ورحمته.
لاحظ تذكير النبي يعقوب(ع) لهم بحادثة يوسف(ع) وأنه اختفى ولم يعد، وهم المسؤولون عن ذلك، وَأَنَّهُ يعتقد بأن الله تعالى خير من يحفظ، وأرحم من يرحم، وهنا ننتبه أَنَّهُ إذا كان يوجد قرار إلهي بحفظ مخلوق، فسينحفظ ذلك المخلوق من أي شرّ، ولكن إذا لم يتخذ سبحانه قرارا بالحفظ فلن ينحفظ المخلوق، وننتبه كيف ربط النبي يعقوب(ع) قرار الحفظ بالرحمة الإلهية، وَإِذَا كان الشخص مشمولا بالعناية الإلهية الخاصة، فستلاحقه الرحمة الإلهية، وكما ترى من القصّة

هنا، وَرَغْمَ كل ما حصل مع النبي يوسف(ع) من أناس مجرمين ظلمة من حوله، سَارَتْ حياته بين شرورهم، متضايقا لمدة قليلة، ومسرورا لمدة طويلة جدا، وَكُلُّنَا في حياتنا نتعرض للمشاكل، ولكن المؤمنين ينالون عناية "خفيّة أو جليّة" منه سبحانه حتى تسعد حياتهم.
نَرْجِعُ للآية، وَمَعْنَى كلام الأب: انسوا الموضوع فلن أترك أخاكم يذهب معكم.

(وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَـذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ {65})
{وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ}، فتحوا عموم ما كان معهم ليستفيدوا منه، والكلام عن فتحهم لأكياسهم التي فيها الحبوب "والتبن"، {وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ}، وجدوا الأشياء التي أخذوها معهم وباعوها ليشتروا بها الحبوب، من معادن أو عملات أو مصنوعات جلدية... {رُدَّتْ إِلَيْهِمْ}، أَعَادُوهَا لهم، وَتَتَذَكَّرُ أَنَّ النبي يوسف (ع) أَمَرَ بوضع بضاعتهم في رحلهم بطريقة تدل عَلَى أَنَّ ردّها كان مقصودا، ليفهموا أنه ردّها لهم عن قصد ولم يحصل أي خطأ، وَتَوَجَّهُوا بالحديث مع أبيهم، {قَالُوا}:
{يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي}؟ ماذا نريد بعد أكثر؟ {هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا}، وَيُمْكِنُنَا الذهاب لشراء الحبوب مرّة ثانية بها، لِأَنَّهُ من الواضح أن المصريين ردّوها عن قصد. لِأَنَّهُمْ فَرْضًا لو بالخطأ لردّوا بضاعة واحد منهم، أو اثنين منهم، ولكن كل بَضَائِعِهِمْ وجدوها موزعة على الأكياس.
{وَنَمِيرُ أَهْلَنَا}، نَجْلِبُ لأهلنا الطعام بكمية وافرة، {وَنَحْفَظُ أَخَانَا}، فإذا ذهب معنا سنصونه ولا يحصل معه أي مكروه، {وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ}، وَيَصِيرُ معنا حصّة زيادة لأخينا مما يكيلونه ليحمله جمل، وهي حصّة بنيامين التي رفضوا سابقا إِعْطَاءَهَا لنا.
تذكّر أَنَّ الكيل هو ما يشترونه بالحجم، وَالْكَيْلُ مرّة واحدة هو كيل، والكيل عشرة مرات هو أيضا كيل، واستعملت الآية التعبير بوصف الحصّة التي يحصلون عليها بأنها كيل، لأنها "مكيلة" لِأَنَّهَا حصّة تتحدّد بالكيل. الْبَعِيرُ وصف للجمل أو الناقة إذا كان الكلام عن حمل الأغراض، وإلا فهي كلمة عامة واصفة حتى للغنم والمعز... ولكنها ليست واصفة للخيل والحمير والبغال لأن فضلاتهم ليست بعرا... والكلام يشير إلى أن الحصة للشخص الواحد "مع عائلته" بِمِقْدَارِ حمولة جمل، وَلْنَقُلْ بالحجم إِنَّهَا أربعة أكياس من الحبوب، وحمولة الجمل أو الناقة قرابة المئة وثلاثين كيلو، علما أَنَّ الجمل بحسب عمره وحجمه يستطيع حمل أكثر من 400 كيلو، ولكن من المعتاد تحميله للمسافات الطويلة ما يسمونه بالعربية: وسق. وهو تقريبا 130 كيلو.
{ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ}، حصّة يكيلونها لأخينا ونحصل عليها بسهولة، عِنْدَمَا يذهب أَخُونَا معنا نَحْصُلُ على حصّته. تذكّر أَنَّ النبي يوسف(ع) هدّدهم بأنه لن يكيل لهم في المرّة المقبلة إن لم يحضروا أخاهم معهم، وَفَهِمَ الْإِخْوَةُ أَنَّهُ ردّ لهم بضاعتهم لأنه أشفق عليهم، لأنهم هم أنفسهم يعلمون أنه إذَا استمرّ القحط فلن يتمكنوا مرّة ثانية من جمع بضاعة كافية لشراء الحبوب، ولكن يجب أن يثبتوا لعزيز مصر "يوسف(ع)" أنهم صادقون ولديهم فعلا أخ...
سَتُلَاحِظُ فيما بعد أنهم رجعوا مرّة ثانية مع بنيامين ليأخذوا الحبوب، وَدَفَعُوا ثمنها من مال الرحلة السابقة، وستلاحظ أنهم في المرّة الثالثة كان عندهم مشكلة، حَيْثُ لَمْ يكن معهم مال كاف لشراء الحبوب...

(قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ {66})
قال الأب يعقوب(ع)، وتحت ضغط الحالة التي تجبره على تسهيل حصول عائلته على ما تأكله: {لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ}، لن أسمح له بالذهاب معكم، {حَتَّىٰ تُؤْتُونِ}، حتى تعطوني، {مَوْثِقًا}، شيئاً مُؤَكَّداً مُحْكَماً تَمَّ تأكيده بشدّة، {مِّنَ اللَّهِ}، وتقسمون بالله تعالى بشكل يؤكّد لي أنكم ستلتزمون ولن تتهاونوا أو تتراخوا، {لَتَأْتُنَّنِي بِهِ}، تُؤَكِّدُونَ بالقسم به تعالى أنكم سوف ترجعون به، {إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ}، إلا أن تتم إحاطتكم فلا مخرج لكم، يحصل معكم شيء خارج عن إرادتكم، فيحيط بكم شيء يضرّكم كلّكم وأنتم مع بعض، عندها فقط أفهم أنكم لم تقصّروا في حفظه.

تذكّر أنهم في السابق برّروا لاختفاء يوسف (ع) أنهم غفلوا عنه ولم يكونوا بقربه، هنا يقول لهم الأب، لن أقبل بأي عذر لحصول ضرر مع أخيكم {إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ}، فيصيبكم ما أصابه، فيحيط بكم كلّكم مع بعض شيء ما ويصيبكم ما أصابه، فلا تقولوا أَنَّهُ شرد عنكم أو غفلتم عنه... وحصل له مكروه، لا، لن أقبل بِهَكَذَا عذر، وستقسمون أنكم ملتزمون بذلك.

أعلم أني كررت لك، وسأكررها بعبارة أبسط: إن انجرح أَخُوكُمْ فيجب أن تكونوا أَيْضاً تَعَرَّضْتُمْ لما يجرحكم، وإن قتل فيجب أن تكونوا أنتم تَعَرَّضْتُمْ للقتل...

{فَلَمَّا آتَوْهُ}، عندما أعطى الأولاد لأبيهم، {مَوْثِقَهُمْ}، تأكيدهم الشديد عبر اليمين والقسم الغليظ جِدّاً، قال النبي يعقوب(ع): {اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}، موثقكم صار الآن بوكالة إلهية، بسبب قسمكم به تعالى صار سبحانه مُوَكَّلاً بي وبكم، فإن خالفتم فالاعتماد عليه تعالى أن يجازيكم.

(وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ{67})
مرّت عليهم المهلة المسموح بها لهم لشراء الحبوب من جديد، لِنَقُلْ إِنَّ حكومة مصر سمحت مرّة في السنة لكل شخص بشراء الحبوب منهم، ومرّت السنة وتجهّز الْإِخْوَةُ للانطلاق إلى مصر...

قال النبي يعقوب(ع):

{يَا بَنِيَّ}، يا أبنائي، {لَا تَدْخُلُوا}، إلى مصر، {مِن بَابٍ وَاحِدٍ}، فللمدينة التي أنتم ذاهبون إليها يوجد عدّة مداخل، مدخل من الشرق وآخر من الغرب ومدخل من الجنوب... {وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ}، قَسِّمُوا أنفسكم لمجموعات صغيرة ولتدخل كل مجموعة من باب مختلف، حَيْثُ في المرّة السابقة عندما ذهبتم كنتم عشرة وطلبتم حِصَّةً زَائِدَةً لأخيكم بنيامين، فطلبوا منكم ما يثبت صدقكم عن الحصّة الزائدة... فإذا دخلتم من أبواب مختلفة فلن تلفتوا النظر أنكم أولئك الْإِخْوَةُ العشرة الذين حضروا في المرّة السابقة، فلن ينتبهوا لكم، وتكونوا مثلكم مثل بقية الناس الذين يشترون الحبوب، فكل شخص منكم يقدّم بضاعته لوحده ويأخذ كيله وينصرف...

{وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ}، فإن أراد تعالى حصول شيء معكم فلن ينفعكم اقتراحي لكم بالدخول من أبواب متفرقة، {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ}، فهو الحاكم فيحصل ما يريده هو تعالى، فإذا أراد حصول شيء فإنه سيحصل حتما.

{عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ}، اعتمدت واعتقدت أنه تعالى يسيّر الأمور كما يجب، {وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}، ومن أراد سير أموره كما يجب فليعتمد عليه تعالى.

كلنا نعلم أننا لا يمكننا السيطرة على كل الأمور، بل المؤمن الحقيقي يعلم أنه لا أحد يسيطر على أي شيء، وفقط الله تعالى المسيطر على كل الأمور، فمن يرد التوكّل وَيَعْتَمِدَ على شيء حتى تنجح أموره، فليتوكّل على الله تعالى لأنه وحده المسيطر على الأمور بشكل مطلق، فإذا أراد تعالى فعندها حتما يحصل لك ما تريد.

من الواضح من آيتنا هنا ومن عموم القرآن أن التوكّل عليه تعالى لا يعني ترك الاحتياط وترك التخطيط... وانتظاره تعالى ليقدّم لنا الطعام والرزق ويحلّ مشاكلنا، لا، فكما ترى هنا وفي كلّ القرآن، إِنَّ النبي يعقوب (ع) فكّر في طريقة يضمن بها سلامة أولاده وحصولهم على الكيل بلا مشاكل... وتوكّل عليه تعالى، فهو من الأصل متوكّل عليه تعالى، يَعْتَقِدُ أنه تعالى مسيطر على كلّ الأمور ويسيّرها سبحانه بما هو مناسب، ومع ذلك قام (ع) بما يجب عليه وبما يمكنه فعله لضمان سلامة أولاده.

ما يروونه عن الذي اشتكى للرسول محمّد(ع) حين فقد ناقته، فسأله الرسول إن كانت مربوطة... فقال الرجل إِنَّهُ لم يربطها بالحبل لِأَنَّهُ كان متوكلا على الله بحفظها، فقال له الرسول(ع): اعْقِلْهَا وتوكّل. فهذه المروية تعطيك نفس معنى تصرّف النبي يعقوب(ع)، فهو متوكّل عليه تعالى، ولكنه واقعي في تعامله مع الأمور، فمن غير المعقول ولا المقبول الاستهتار والطلب منه تعالى تَوَلِّي أمورنا...

لَا نفهم من القرآن أن التوكلّ عليه سبحانه يعني حصول ما نراه نحن مناسبا لنا من وجهة نظرنا وتقييمنا، لا، بل ما يراه تعالى مناسبا لنا، ومهما كان ومهما حصل فهو المناسب لنا، وليس على معنى ما يعجبنا، لا، حَيْثُ فِي بعض الأحيان نستحقّ البلاء بشيء مُؤْذٍ بسبب ذنب ارتكبناه... أو بسبب آخرين مصرين على الذنب... وَفِي بعض الأحيان نحتاج لشيء يضرّنا حتى يخفّ تعلّقنا بمحرمات الدنيا...

(وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ{68})

انطلق الْإِخْوَةُ ووصلوا إلى مصر... {وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ}، عندما دخلوا المدينة من أبوابها المختلفة حتى لا يلفتوا الأنظار... {مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم}، ما كان ينفعهم ويسدّ حاجتهم الدخول من أبواب متعددة، {مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ}، لِأَنَّ القرار الإلهي كان أن يعلم النبي يوسف(ع) بدخولهم مصر... ولكن النبي يعقوب(ع) لم يكن يعلم بالقرار الإلهي، فكان دخولهم من أبواب متفرقة لا معنى له ولن يغنيهم من معرفة النبي يوسف(ع) بهم، {إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا}، فما حصل لم يكن ليؤثّر على قراره تعالى إلا أنها كانت شَيْئاً في نفس النبي يعقوب (ع) وقضاها، فقالها وجعلها تحصل، فكان في نفسه أن يدخلوا بشكل خفي، وقضي ذلك فحصل فتمّ ما أراده (ع)، ولكن لم تنفع أمام الإرادة الإلهية...

معنى الكلام أن مخطّط النبي يعقوب (ع) كان سينفع ولن يعلم مسؤولو المخازن بأنهم الْإِخْوَةُ الذين أتوا في السابق... لولا أنه تعالى قرّر أن يعلم مسؤولو المخازن بقدومهم...

{وَإِنَّهُ}، النبي يعقوب(ع)، {لَذُو عِلْمٍ}، لديه علم وليس جاهلا من مستوى فكري منخفض، {لِّمَا عَلَّمْنَاهُ}، فمن التعليم الإلهي حصل النبي يعقوب(ع) على علم، فمسألة دخول الأبناء من أبواب متفرقة لم تكن عبثية، فلو لم يكن هناك أمر إلهي بكشف دخول الْإِخْوَةِ لكانت خطّة النبي يعقوب(ع) ناجحة.

{وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}، أن الأمر الإلهي فوق كل أمر، والإرادة الإلهية فوق كل إرادة، أمّا النبي يعقوب(ع) فيعلم.

سترى من الآيات الآتية أن دخولهم لمصر انْفَضَحَ، وحضروا عند النبي يوسف(ع)... ومن المؤكد أن النبي يوسف(ع) أَمَرَ الموظفين بالانتباه لوصول إِخْوَتِهِ، ونحتمل أن الموظفين علموا بهم من أسمائهم المسجلة سَابِقاً، أو من شيء آخر...

لاحظ، سبحانه يريك أن ما فكّر به النبي يعقوب (ع) لم يكن سَخِيفاً بلا معنى، لا، فهو (ع) لديه علم حتى خطرت له هذه الفكرة السديدة، وهي ناجحة لولا التدخّل الإلهي لفضح دخولهم إلى مصر...

(وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{69})
{وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ}، كما ترى اخْتَصَرَتْ لك الآيات انكشاف أمرهم وانتقلت بك إلى ما حصل بعد ذلك، بَعْدَمَا انكشف أنهم الْإِخْوَةُ الذين أتوا سَابِقاً، أحضروهم إلى النبي يوسف(ع)، ودخلوا عليه... وتتذكّر سَابِقاً أنه (ع) هدّدهم بمنع الكيل إن لم يثبتوا صدقهم بوجود أخ لهم...

{آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ}، بِحِيلَةٍ ما جعل النبي يوسف(ع) أخاه بنيامين يَأْوِي إليه فيجتمع به، وبقية الْإِخْوَةِ بعيدون عنه، لِنَقُلْ احْتِمَالاً أنه(ع) أخذه من بينهم بحجّة التحقيق معه ليتأكّد بأنه أخوهم... وأدخله إلى بيته... سَتُلَاحِظُ من الآيات الآتية أنه (ع) بطريقة ما أَدْخَلَ بنيامين إلى القصر، لأنهم فيما بعد سَيَتَّهِمُونَهُ بالسرقة من القصر... قال النبي يوسف(ع) لأخيه بنيامين، بعد أن انفرد به جَانِباً:

{أَنَا أَخُوكَ} "يوسف" {فَلَا تَبْتَئِسْ}، لا تشعر بالبؤس بالمضايقة، {بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، حَيْثُ قَدِيماً عملوا السوء معي وأنت صرت في حالة سيئة بسبب ذلك، وها أنا أمامك بخير، فلا داعي للشعور بالمضايقة الشديدة التي كنت تعيشها سَابِقاً بسببهم.

أنت تعلم أن الْإِخْوَةَ احتفظوا بسرّ رمي أخيهم في الجبّ، والأخ بنيامين بقي مُتَسَائِلًا عن كيفية اختفاء أَخِيهِ يوسف(ع)، فأخبره (ع) أنهم رموه في الجبّ، وهذا العمل عندما يسمعه بنيامين سيجعله يشعر بالبؤس بالتعاسة بالمضايقة من إِخْوَتِهِ، فيخبره النبي يوسف(ع) أنه لا داعي للتضايق منهم، كَمَا ترى صِرْتُ مَرْمُوقاً في مصر ولم أتضرر من مكيدتهم.

(فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ{70})

{فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ}، عندما قام النبي يوسف(ع) بتأمين الأغراض المطلوبة لِإِخْوَتِهِ، وهنا الكلام عن أكياس الحبوب "والعلف..."، {جَعَلَ السِّقَايَةَ}، جعل وِعَاءً للشرب، {فِي رَحْلِ أَخِيهِ}، في أغراض السفر التابعة لأخيه، ومن سياق الكلام تعلم أن المقصود هو أخوه بنيامين، فوضعوا صُوَاعاً "وعاء للشرب" بين أوعية بنيامين...

{ثُمَّ}، بَعد ذلك، {أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ}، أعلن معلن، قام شخص بإعلامهم فقال لهم:

{أَيَّتُهَا الْعِيرُ}، أيتها القافلة أيتها الجماعة المؤلفة من أناس ودواب تحمل الأغراض، {إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ}، أَخذتم شَيْئاً لا يخصّكم ولا يسمح لكم مالكه بأخذه.

من استعمال الآية لكلمة "عير" التي هي وصف مخصوص للناس الماشين مع دواب تحمل أغراضهم، تفهم أن إِخْوَةَ النبي (ع) تجمّعوا وساروا لمسافة، وبعدها لحقوا بهم ليقول لهم إِنَّهُمْ سارقون.

لَحق بالعير مجموعة من العسكر المصري كما سترى، ولحق بهم النبي يوسف(ع) بسرعة بعدما توقّفت القافلة.

هنا نلاحظ أن القافلة لم تسرق شَيْئاً كما هو واضح، ونرى مشكلة في اتهام النبي(ع) لهم بالسرقة وهم براء منها! ولكن يمكننا تصوّر أَنَّ النبي يوسف(ع) أبلغ عسكره أنه يفقد السقاية، الصواع، آنِيَةً للشرب، وأن آخر من غادر من هنا هو تلك القافلة، فالحقوا بهم... خَرج العسكر وهم يعتبرون أنها سرقة، فاجتهدوا من عندهم وأوقفوا القافلة بتهمة السرقة، وكان مخطط النبي(ع) أن يبدو الأمر كالسرقة... ولكن كَما سترى فلا أثر للاتهام بأي شيء، لَن يحصل أي شيء سَيِّئٍ لبنيامين وما حصل هو مجرد مسرحية انطلت على إخوة النبي يوسف(ع).

ضع في ذهنك وتذكّر أن النبي يوسف(ع) هذه المرّة أخذ منهم بضاعتهم ثَمَناً للحبوب.

(قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ{71})
{قَالُوا}، الإِخْوَةُ، {وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم}، فغيّروا اتجاههم نحو اللاحقين بهم: {مَّاذَا تَفْقِدُونَ}؟ ما الذي لا تجدونه حتى تقولوا إِنَّنَا سرقناه؟

كما تلاحظ، هم مرتاحون ولم يهربوا بل توجّهوا نحو الملاحقين لهم، لأنهم متأكدون أنهم لم يسرقوا.

(قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ{72})
{قَالُوا}، الملاحقون لهم من فتيان النبي يوسف(ع): {نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ}، آنِيَةً للشرب مثل الكوب الكبير وله قاعدة كبيرة مع خصر، وهي للملك، {وَلِمَن جَاءَ بِهِ}، مَنْ أحضر الصواع فله، {حِمْلُ بَعِيرٍ}، فسينال حِصَّةً من الحبوب بمقدار حمولة جمل، قرابة 130 كيلو من الحبوب كجائزة له، {وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ}، تَنْفِيذُ الوعد بإعطاء جائزة حمل البعير لمن يحضر الصواع على عاتقي على ضمانتي، ويبدو هنا أن النبي يوسف(ع) لَحِقَ بهم وصار حَاضِراً في المكان وهو من تكفّل بالجائزة، وسترى في الآية التالية 76 أنه "بدأ" بالبحث عن الصواع في أغراضهم قبل البحث في أغراض أخيه.

يخطر ببالنا عادة أن الجائزة لمن دلّ على الصواع مع من، ولكن يبدو هنا أن الجائزة حتى لمن سرق، فهو عرض مسامحة عن السرقة مع حمل بعير إذا ردّ الصواع.

ننتبه للفرق، فالصاع اسم لآنية لِوِعَاءٍ نستعملها كوحدة كيل للحجم، والصواع هو اسم لآنية لِوِعَاءٍ للشرب، وَمَرَّ معك أنهم جعلوا السقاية في رحله، يعني هو صواع للشرب، تَمَّتْ "سرقته" من المكان الذي استقبلهم فيه النبي يوسف(ع)، ونتوقّع أن يكون ثَمِيناً من الذهب، أو البرونز الذي كان ذا قيمة عالية في حينها، ولكن حتى لو كان من معدن عادي كالحديد، فهي سرقة على كل حال، وعليها عقاب، وكما ترى فهو صواع للملك، فالأغراض التي في المكان الذي حصلت فيه السرقة تعود مِلْكِيَّتُهَا للملك شَخْصِيّاً.

(قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ{73})
قالوا، الإِخوة:

{تَاللّهِ}، نقسم بالله تعالى، نؤكّد كلامنا بمقدار احترامنا لله تعالى، {لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ}، ونحن لم نقصد الخراب في أرضكم، ولا نقصد مخالفة نظامكم وقانونكم، وهدفنا الحصول على الحبوب والخروج من بلدكم، {وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ}، ومن أصله نحن لسنا ممن يأخذ خلسة من الآخرين فالشكّ فينا في غير محلّه.

(قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ{74})
قالوا، فتيان النبي يوسف(ع) "العسكر المصري": {فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ}؟ أنتم تقولون إنه لا يوجد بينكم سارق، فإن كنتم تكذبون وكان بينكم سارق، فما جزاؤه، وما المقابل، وما عقابه برأيكم؟

سألناكم ولم تعترفوا، ولو كان السارق يريد الاعتراف لكان اعترف، وبقي حلّ البحث في رحلكم، فما عقاب من وجدنا معه الصواع؟

يبدو لك السؤال بلا معنى للوهلة الأولى، ولكن سترى أن النبي يوسف(ع) يريد استدراجهم حتى لا يعارضوه حين يجدون الصواع في رحل أخيه، ويلتزموا مسبقا أن السارق المستحق للعقاب سيكون الصاع في رحله، وذلك حتى لا يقول أحد آخر إنه سرقه ووضعه في رحل أخيه ليحمل التهمة عن بنيامين، وفيما بعد اقترحوا أن يجازيَ (ع) واحدا منهم بدل بنيامين كما سترى.

(قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ{75})
قالوا، الإخوة: {جَزَاؤُهُ}، المقابل الذي يستحقّه، {مَن} تجدوا "الصواع" {فِي رَحْلِهِ}، في أغراض سفره، {فَهُوَ جَزَاؤُهُ}، والعقاب لمن تجدون المسروق معه، لأنه سيكون هو السارق، وهذا شيء بديهي.

{كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}، نحن بهذه الطريقة نعامل الذين لم يكن معهم حقّ، وهنا الكلام عن السارق.

أنتم سألتمونا ماذا نفعل لو كنا مكانكم، وهذا ما نفعله نحن مع الظالمين، ومن وجدنا معه الشيء المسروق فهو ينال العقاب على السرقة، وهذا دليل على أنه هو السارق.

لاحظ، لا يمكننا من هذه الجملة الاستنتاج بأن السارق يصير عبدا لمن سرق منهم، ولكن هذا متداول بين المسلمين وأهل الكتاب، وهم يقولون إنه في تلك الحقبة كان الحكم على السارق أن يكون عبدا لمدة سنة لمن سرق منهم، ويصير بنيامين عبدا ليوسف(ع) لمدة سنة، هكذا قالوا، ولكن لا ضرورة لهذه الافتراضات من خارج الآيات، لأنك سترى الآية هنا تقول إنّ النبي يوسف(ع) كان يهدف من الحوار هنا ألا يقوم أحد الإخوة بالتبرّع ليتهم نفسه بالسرقة ويقول إنه وضع المسروقات بين أغراض بنيامين، وهكذا يصير بنيامين بريئاً فلا يتمكن النبي يوسف(ع) من أخذه بالرغم من العثور على الصواع في رحل بنيامين، وسترى لاحقا أنهم طلبوا من النبي يوسف(ع) أخذ أي واحد منهم وليترك بنيامين، ولكن بعد هذا الحديث المنقول هنا، اتفق الجميع على أن السارق يكون محددا إذا وجدوا الصواع معه، ولا يمكنه القول إنه بريء ووضعه أحدهم معي، أو بالعكس، ولا يمكن لأحد إخوته القول إنه هو سرق ولكنه وضع الصواع في رحل بنيامين، وهذا هو المقصود من الآيتين هنا.

بعبارة أخرى، من يكن الصواع بين أغراضه، فهذا دليل إدانة متفق عليه بين النبي يوسف(ع) وإخوته على أنه هو السارق، حتى لو قال أحد من الإخوة إنه هو السارق وأخفى المسروق بين أغراض بنيامين، فقوله مرفوض.

(فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ{76})
{فَبَدَأَ}، بالبحث، {بِأَوْعِيَتِهِمْ}، بأوانيهم بالأكواب والصحون... {قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ}، وعلمت مما سبق أن النبي يوسف(ع) حاضر ويأمر فتيانه...

{ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا}، أخرج الصواع، {مِن وِعَاءِ}، من بين أوانٍ، {أَخِيهِ} بنيامين، فكل مسافر يحمل أوعية لإعداد الطعام وللشرب، فمن الطبيعي أن يبحثوا بين الأوعية عن وعاء للشرب.

{كَذَلِكَ}، بهذه الطريقة، {كِدْنَا} للنبي يوسف(ع)، قمنا بعمل لمصلحته (ع) وهو مُضادّ لمصلحة إخوته، فهم سيتضررون من أبيهم إذا ثبتت التهمة على بنيامين.

{مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ}، في ما يدين به الملك المصري، في القانون والشريعة التي يعتقد بتطبيقها الملك المصري، لم يكن يحق للنبي يوسف(ع) احتجاز أخيه من دون أي تهمة، ولا يريد (ع) كشف هويته أمام إخوته... ولذلك احتال النبي يوسف(ع) على إخوته وعلى القانون المصري، فاتهم أخاه بالسرقة، وأخذه كسجين معه، ولكن بالطبع لم يسجنه، ومن البديهي أنه عامله بأحسن ما يكون.

{مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ}، {إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة وشاء تعالى منها ما يجعله(ع) يأخذ أخاه.

{نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة ويقرّر سبحانه من سيجعله فوق الآخرين في القيمة، وهنا بالتحديد جعله تعالى فوق الآخرين بالعلم، فَتَصَرَّفَ(ع) عن علم حتى يأخذ أخاه بهذه الطريقة التي لا ينتبه لها إخوته ولا تضرّ بأخيه ولا يخالف بها القانون، والعلم يجعل الشخص مرتفعا عن الآخرين، فتكون مرتبته أعلى من مرتبة الآخرين بدرجة أو درجات، وسبحانه بما يراه مناسبا يمنح هذا العلم الذي يسبّب ارتفاع بعض الأشخاص عن الآخرين.

{وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ}، فكل منسوب لعلم، يوجد {عَلِيمٌ} فوقه أعلم منه، ولا واحد من المخلوقات يملك كل العلوم، فأنا عليم بالرياضيات أكثر من الآخرين، ولكنك أعلم مني بالطبّ، وذاك أعلم منّا بالأدوية... ولا أحد من المخلوقات يملك العلم المطلق، بل فوق كل من عنده علم، يوجد عليم أعلم منه حتى نصل إليه تعالى، فعلمه سبحانه فوق كل ما تعلمه كلّ المخلوقات.

نلاحظ أنه تعالى شاء للنبي يوسف(ع) الاحتفاظ بأخيه عن طريق الحيلة على دين الملك المصري، ولكن نلاحظ أن الحيلة لم يتعلمها النبي يوسف(ع) عبر الوحي، لأنّ الآية تتحدث عن حصوله(ع) على العلم الذي رفعه عن البقية، فصار يمكنه التحكّم في الأمور بطريقة لا يعرفها البقية، ونبّهت الآية أنه (ع) لم يتمتع بالعلم المطلق، بل هناك مجالات أخرى وعلوم أخرى، ويوجد أناس آخرون يملكون علما فيها أكثر منه(ع).

لاحظ أن الآيات لم تنقل عن بنيامين أي كلمة، ومن غير المعلوم إن كان متفقا مع أخيه النبي يوسف(ع) على حيلة السرقة حتى يبقى معه في مصر، فبعد كل تلك السنين من الوحدة والغربة عن الأهل، أراد النبي يوسف(ع) أن يكون أخوه مُؤْنِساً له، ولم يرد فضح هويّته أمام إخوته، ربما حتى يندموا على تفكيرهم بقتله وعلى رميهم له في الجبّ، ففي المرّة الأولى قاموا وعن قصد بالتفريط بيوسف(ع)، ولكن في المرّة الثانية لم يُفَرِّطوا ببنيامين، فربما أراد النبي يوسف(ع) أن يستذكروا خطأهم الأول معه، ويتوبوا ويعترفوا...

بقي شيء، أخرج الإيرانيون مسلسلا عن حياة النبي يوسف(ع)، وبالمجمل فهو عمل جيّد بالرغم مما فيه من بعض المخالفات لما ورد في السورة هنا، ولكن كاتب السيناريو لم يخترع أساسيات المسلسل بل اعتمد كثيرا على الروايات، وعلى التفاسير التي اعتمدت بدورها على الروايات، والتي نتج عنها خلافات بينهم حول بعض الأحداث، ومنها قولهم إنّ طفلا نطق على الباب حين استبق النبي يوسف وزوجة العزيز... ومنها قولهم إنّ الإخوة باعوه للقافلة... وفي دراستنا هذه اعتمدنا فقط على ما يظهر من معاني كلمات الآيات، ونتج عن ذلك مخالفة بعض الروايات التي غالبا في مقابلها أيضا روايات أخرى تقدم تفسيرا مختلفا عن الذي في روايات أخرى...

العرض التمثيلي أقوى رسوخا في الذهن من قراءة السورة، وسينتج عن ذلك خلفية معلومات عن النبي يوسف(ع) عند الناس وهي مأخوذة من المسلسل، فحتى لو كانت مخالفة للقرآن فبعد مدة لن ينتبه عوام الناس لذلك، وستستقر في ذهنهم أحداث المسلسل...

اخترت التعليق على المسلسل في آيتنا هنا في مسألة واضحة جدا المخالفة فيها للآية، فهنا الكلام في الآية بالبحث عن الصواع في أوعيتهم، بينما كان التركيز في المسلسل على البحث في أكياس الحنطة، وهذا ليس شيئا خطيرا ولكنه يريك هفوة غير مقصودة، لتنتبه لهفوات أخرى إذا قارنت المسلسل بدراستنا هذه للسورة.

انتبه إلى أني لا أقلل من قيمة هذا العمل التلفزيوني، فالتحديات لإنجازه كبيرة، وعادة المسلسلات للتسلية ولكن يبدو واضحا العمل المضني لجعل هذا المسلسل عملا مفيدا إيمانيا، وبالمجمل ورغم مخالفته لدراستنا هذه في بعض المسائل، مع العلم بموافقة ما فيه لبعض الروايات والتفاسير، فهو عمل مشكور ويوصف بالرائع قياسا بأعمال تلفزيونية وسينمائية دينية كثيرة أخرى تافهة ومبتذلة، فالقليل النادر منها له قيمة لمشاهدته والاستفادة منه...

(قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ{77})

قالوا، الإخوة: {إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ}، تذكّر بداية السورة حين قال الإخوة عن يوسف(ع) وأخيه أنهما أحبّ إلى أبيهم يعقوب(ع) من بقيّة الإخوة، و الإخوة العشرة لا تزال في نفوسهم بشكل واضح، حسد عنيف قديم ليوسف(ع)، وأقلّ منه حسد مستمر لبنيامين، ولا يزالون يعتبرونهما سارقين لحبّ وقلب الأب يعقوب(ع)، وأضاف لحقد الأخوين وحسدهما تراكم السنين من جفاء الأب معهم.

{فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ}، لقد اتهموه بالسرقة، وأبقى ردّة فعله مخفية، ولم يبدها لهم، ولم يظهر ردة فعله لهم، وكان يمكن أن يفلت غضبه عليهم لأنهم رموه في الجبّ... ولكن قال:

{أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا}، حيث الناحية التي أنتم فيها، النفسية والفكر الذي تنطلق منه أعمالكم، يوصف بأنه الأشدّ شرا، وما يصدر منكم مضرّ ومكروه جدا، وظاهر كلام النبي يوسف(ع) موجّه للجميع لأن السرقة ثبتت على القافلة، وبين أغراض واحد منها وجدوا المسروق، وربما هو السارق، وربما غيره سرق وأخفاه بين أغراض بنيامين، وعلى كل حال فأنتم أشرار أو على الأقل بينكم واحد شرير، ولكن لم يبد لهم ردة فعله على اتهام "يوسف الصغير" بالسرقة، ولكن ردّ عليهم بشكل مبطن بما فعلوه من إجرام معه حين رموه في الجبّ، فهم شرّ مكانا، وهذه السرقة التي تحوم تهمتها على بنيامين هي لا شيء أمام رمي أخيهم في الجبّ.

{وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ}، ووصفكم لأخيه بأنه سارق وسبحانه أعلم بصحّة هذا الوصف.

يخطر ببالك سؤال عن صواع الملك كيف اقتنع الإخوة أن بنيامين قد سرقه! ونتذكّر أنه بطريقة ما حين استفرد النبي يوسف(ع) بأخيه بنيامين في بيته أو مكتبه أو مضافته... حين أخبره بأنه أخوه، حيث غاب بنيامين عن إخوته لفترة من الزمن مع النبي يوسف(ع)، وهكذا احتملوا أن السرقة تمّت حين فارقهم في تلك المدّة القليلة، التي نحتمل أنهم ظنّوا فيها أن النبي يوسف(ع) يحقّق مع بنيامين ليتأكّد أنه أخوهم وليسوا يكذبون...

قيل في كتب التفاسير إنّ النبي يوسف(ع) حين ماتت أمّه ربّته عمتّه وتعلقت به، وأراد أبوه استرداده منها، وأرادت العمّة الاحتفاظ به لوقت أطول... حيث اتهمت الطفل يوسف(ع) بالسرقة من منزلها "في مسرحية مكشوفة معروفة للجميع" حتى تحتفظ به (ع) لوقت أطول على أساس أنهم كانوا يستعبدون الذي يسرقهم لمدّة سنة... وبغض النظر عن صحّة هذا الكلام كلّه، فمن الآية لا يظهر أي شيء يدعم هذه القصّة، ومما سبق من كلام السورة لا نجد إلا اتهام الإخوة للنبي يوسف(ع) بأنه أخذ حبّ أبيهم منهم، وبناء عليه وبتعبير آخر، سرق (ع) منهم حبّ أبيهم (ع).

على كلّ حال، ما معنى تفسير الكلام هنا كإهانة ليوسف عبر اتهامه (ع) بالسرقة من عمّتهم حين كان طفلاً، طالما يقولون في رواياتهم إنّ الجميع يعلم بأنه (ع) لم يسرق، والجميع يعلم أنها مجرد مسرحية قامت بها العمّة لتحتفظ به عندها؟

مضافاً لذلك لا داعي هنا لإقحام مسألة جعل السارق عبداً لمدة سنة عند الذي تعرّض للسرقة، حيث اتهام الأخ بالسرقة يعني سجنه لمدّة من الزمن، والنبي(ع) لن يسجنه بل سيحتفظ به في مصر عنده...

(قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ{78})

قالوا، الإخوة: {يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ}، يا من تملك العزّة في هذه البلاد لأنك من الحكّام ولك منصب وسلطة، {إِنَّ لَهُ}، لبنيامين، {أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا}، ووصل أبوه إلى عمر حيث ضعفت قواه الجسدية تماماً، وليس في بداية الشيخوخة بل متقدّم بها، فلن يتحمّل خبر حصول شيء سيئ مع ابنه.

{فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ}، واترك بنيامين، {إِنَّا نَرَاكَ}، حيث حصلت لدينا صورة محدّدة عنك أنك، كما نقول بالعامية: شايفينك. {مِنَ الْمُحْسِنِينَ}، من الذين تصدر عنهم أعمال حسنة، وهذا عمل حسن نطلبه منك.

(قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّـا إِذاً لَّظَالِمُونَ{79})
قال، النبي يوسف(ع): {مَعَاذَ اللَّهِ}، لن أترك اعتقادي به تعالى كملجأ لي، لن أتركه تعالى وأنفّذ كلامكم، {أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ}، ومن كان الصواع "الذي هو من المتاع من الأشياء التي نستفيد منها"، ومن كان الصواع عنده اتفقنا أنه ثبتت عليه تهمة السرقة ومن غير المعقول أن نأخذ شخصا غيره، فإذا أخذنا شخصا آخر، {إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ}، وبالتأكيد سيكون تصرفنا غير عادل ولا منصف، ولن يكون معنا حقّ.

والسارق ينال جزاء ما فعل ولن نقبل بمجازاة غيره، وحين سألناكم عن المسروق، اتفقنا على مجازاة من نجد الصواع بين أغراضه، لذلك نجازيه هو بنفسه ولا أحد غيره "راجع الآية 75".

(فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقاً مِّنَ اللهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ{80})
{فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ}، عندما يَئِسُوا عندما فقدوا الأمل نهائياً من تخليص أخيهم، {خَلَصُوا}، كانوا خالصين وَحْدَهُم ليس معهم أحد، {نَجِيًّا}، يتحدثون براحتهم، وبعدما حاولوا وألحّوا مُصِرّينَ ولم يحصلوا على نتيجة، وعندما صاروا وَحْدَهُم ويمكنهم التحدّث براحتهم، قال كبيرهم:

{أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ}، قلتم لأبيكم شيئاً مؤكداً بقوّة بقسم منكم بالله تعالى، "راجع الآية 66" وأقسمتم أن ترجعوا مع بنيامين، {وَمِن قَبْلُ}، هذه الحادثة، ألم تعلموا، {مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ}، حيث كان بين أيديكم وعاملتموه بسوء، ومن قبل قلتم لأبيكم إنكم ستنتبهون ليوسف(ع) ولكنكم فرطتم بأخيكم فلم تهتمّوا بالعناية به كما وعدتم "ورميتموه في الجبّ...".

{فَلَنْ أَبْرَحَ}، ولن أفارق ولن أغادر، {الْأَرْضَ}، التي نحن فيها الآن، ولن أترك مصر، {حَتَّى يَأْذَنَ}، حتى يسمح، {لِي أَبِي}، حيث وعدته "ووعدناه كلنا" أن أرجع من مصر مع أخي بنيامين، ولن أغادر من دون أخي أو يبعث لي أبي برسالة تقول بأنه يسمح لي بمغادرة مصر، {أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي}، فأنا ملزم بألا أرجع إلا مع أخي بسبب الموثق الذي أعطيته لأبي ولن يكسر هذا الموثق إلا أبي أو الله تعالى بحكم منه، {وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}، لأنه تعالى يرى الصوابية في الأمور وأمره يتنفّذ حتما. وهذه هي الاحتمالات التي أعرفها لحلّ المشكلة ولكني أعلم بوجود حلول أخرى، فإذا أراد تعالى حصول شيء غير الذي خطر على بالي، فأنا أعتقد أنّ حكمه تعالى سيكون خيرا فلن يحصل لي شيء سيئ لأني أتصرّف الآن عن إيمان.

(ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ{81})
{ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ}، يعقوب(ع)، {فَقُولُوا}، له:

{يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ}، أخذ من الآخرين خلسة ما ليس له، {وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا}، ونحن ننقل لك شهادتنا عنه بأنه سرق بما علمنا، ونحن لا ننقل لك خبرا عن سرقة قام بها، بل نحن كنا حاضرين حين اكتشفوا السرقة، لذلك نخبرك عن تثبيت تهمة السرقة عليه وشهدنا استخراج الصواع من متاعه ولم يخبرنا أحد بذلك، فلم نره يسرق ولكن شهدنا إيجاد المسروق معه.

{وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ}، للأمور الغائبة عنّا، {حَافِظِينَ}، صائنين، ونحن لا نعلم الغيب حتى نعلم أن ابنك سيسرق، وهذه المعلومة كانت غائبة عنا ولم نكن نعلمها حين أقسمنا لك بأن نحفظه، فلو علمنا حينها بالغيب بما سيحدث، لما أخذناه معنا، أو لمنعناه من السرقة... ولم نتوقع حصولها وحصلت وصار بنيامين موقوفا في مصر بتهمة السرقة، فماذا نفعل في هذه الحالة؟

(وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ{82})
{وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا}، فإن كنت لا تصدقنا فابعث من تثق به إلى مصر ليسأل أهلها، وأرسل خبراً لحكومة مصر لتتأكّد أنّ ابنك محبوس بتهمة السرقة، {وَاسْأَلِ الْعِيرَ}، القافلة المؤلفة من الناس والدواب التي تحمل أغراضهم، {الَّتِي أَقْبَلْنَا}، جئنا، {فِيهَا}، من مصر، لأنّ الناس في القافلة شهدوا استخراج السرقة من بين أغراض بنيامين، وشهدوا العسكر المصري يأخذه من بيننا، {وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}، ونحن لا نكذب.

نتذكّر أن كلمة قرية معناها قديماً: المكان الذي يعيش فيه الناس كمكان مشترك بينهم، سواء أكان المكان صغيراً أم كبيراً. ونحن الآن نستعملها للدلالة على مكان تجمّع سكاني عدده قليل، ونقول مدينة عن التجمّع السكاني الذي عدده كبير، وهذا اصطلاح جديد.

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ{83})
... وصل الإخوة إلى قريتهم وقالوا للأب ما نقلته الآيات السابقة... قال، أبوهم النبي يعقوب(ع): {بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا}، حيث هناك شيء سيئ قمتم به غاضين النظر عن سوئه، وخطر ببالكم شيء سيئ وفعلتموه، فأنا أتهمكم أنتم على فقدان أخويكم.

{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ}، سأبقى محافظا على تصرفي بشكل واع ومدروس، وهذا تصرّف جميل حسن ولن أثور غضبا، ولن يفلت مني لساني بكلام سيئ، {عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا}، حيث يوجد لدي احتمال راجح غير أكيد أنه تعالى سيحضر لي أولادي الثلاثة "يوسف وبنيامين والأخ الكبير".

{إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ}، فهو يعلم حالي ويعلم حال أولادي وأين هم، ويعلم سبحانه كيف يحضرهم لي إن أراد، وهو {الْحَكِيمُ}، لأنّ قراراته وتصرفاته سبحانه عن صوابية وليست عبثية، وغيابهم عني فيه حكمة إلهية، وإن قرّر تعالى ألا ألتقي بهم فسيكون ذلك أيضا عن حكمة.

نلاحظ أن نفس الجملة {سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا} نقلتها السورة عن لسان النبي يعقوب(ع) عندما اختفى ولده يوسف(ع).

نلاحظ أنه(ع) اتهم الإخوة وألقى عليهم المسؤولية، رغم معرفتنا أنّ هذه المرة لم يكن لهم علاقة بما حصل، ولكن بسبب فعلتهم القديمة مع يوسف(ع) اتهم الأب على الفور أصحاب السوابق، وبالنسبة له في المرّتين: ذهب الأولاد وعادوا من دون يوسف(ع)، ومرة ثانية: ذهب الأولاد وعادوا من دون بنيامين. وسترى فيما بعد أن الأب لم يرفع الاتهام عن أولاده، وطلب منهم البحث عن أخويهم.

(وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ{84})
{وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ}، تركهم الأب وانصرف عنهم باتجاه آخر، وقال:
{يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ}، فقدته وهذا شيء سيئ وكان يمكن أن يبقى معي ولا أفقده. {وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ}، النبي يعقوب (ع) الآن كبير جداً في السن، وعيناه أصلاً في حالة صحيّة سيئة، ومن كثرة البكاء تحوّلت القرنية إلى اللون الأبيض، {فَهُوَ كَظِيمٌ}، كاظم كاتم لحزنه، ويحتفظ به لنفسه.

(قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ{85})
قالوا، الإخوة: {تَاللَّهِ}، نقسم بالله تعالى، {تَفْتَأُ}، ما زلت غير منقطع، {تَذْكُرُ يُوسُفَ}، وتستمر على استحضاره في بالك، وتتأثّر، {حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا}، ضعيف البدن جداً، {أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ}، وتستنفد حياتك وتموت. يعني هو موضوع قديم من المفروض أن تنساه، ولكنك تصر على تذكّره حتى تؤذي نفسك أو تموت من الحزن عليه.
لم ترد كلمة فتأ في القرآن إلا هنا.

(قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{86})
قال، النبي يعقوب(ع):

{إِنَّمَا أَشْكُو}، أخبر فأقول عن تعرّضي لشيء يسوءني، {بَثِّي}، ما أخرجه من داخلي لأنشره، وأشكو، {حُزْنِي}، شعوري المؤلم، {إِلَى اللَّهِ}، فأنا لا أشكو لكم ولا لغيركم، ولست أطلب شفقتكم ولا تدخّلكم ولا تحليلكم لحالتي وسببها... {وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، وسترى من الآية التالية أن النبي يعقوب(ع) كان يعلم أن ولده يوسف(ع) لا يزال حياً، ولكن لا يعلم عنه أي تفاصيل أخرى، ويبدو واضحاً من كلامه أنه مستند إلى علم منه تعالى بذلك، وأبسط شيء نحتمله أنه علم وحياً أن ابنه يوسف(ع) نبي ورسول، وهذا يعني أنه لم يمت ولداً وسيكبر وما زال حيّاً...

(يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ{87})
{يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا}، استعملوا حواسكم، وابحثوا عن أثر حِسِّيّ، {مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ}، يوسف مفقود، وأخوه أخذته الحكومة المصرية ولا تدرون ماذا فعلوا به، فاسألوا عنهما معاً، لربما شاهدهما أحد ما، أو ربما سمع بهما أحد ما...

لاحظ من الآية الآتية مرور زمن بين رجوعهم من دون الأخوين... مرّ زمن استهلكت فيه العائلة الحبوب التي اشتروها من مصر، وهنا الإخوة منطلقون نحو مصر مرّة ثانية لشراء الطعام... وقال لهم الأب إنكم منطلقون إلى مصر، فاسألوا عن يوسف (ع) وبنيامين...

{وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ}، كما نقول رَوَّحَ عن نفسه، وفعل شيئاً يريحه ويزيل همّه، فالله سبحانه يفعل أموراً تريحنا، واليأس وقطع الأمل من الحصول على ما يريحنا إنما يكون من المخلوقات العاجزة التي قد تخذلكم أو لا تهتم بكم، ولكن الأمل الدائم بروح الله تعالى، بانفراج الهمّ وحلّ المشاكل من الطريق الإلهية دائماً متوافر.

{إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ}، فيقطع الأمل باستعادة حالة الانفراج والسعادة من الهمّ بالطريقة الإلهية، {إِلَّا الْقَوْمُ}، إلا الناس الذين لهم كيان الجماعة، {الْكَافِرُونَ}، المنكرون للقدرات وللصفات الصحيحة الحقيقية التي فيه سبحانه، فمن ينكر أنه تعالى قادر سميع عليم رحيم... فسييأس من الذات الإلهية أن تحقق آماله.

ننتبه، كلمة: {رُوح} بالضمّة على الراء تعني جوهر وأساس الشيء من دون إضافات، أما الواردة هنا في الآية بالفتحة على الراء {رَوْح} فهي مشتقة من الراحة، ومن تطبيقاتها انفراج الهمّ.

لاحظ وانتبه، أنت تقرأ القصّة كمراقب، وتعلم أن يوسف (ع) في أحسن حال، وإخوته قابلوه، وتتذكّر بأنهم لم يعرفوه، وتتذكّر بأنهم أصلاً لا يعرفون إن كان حيّاً أو ميتاً... وأرض الله تعالى واسعة، فمن الغريب بالنسبة لهم أن يطلب منهم أبوهم البحث عن يوسف(ع) في مصر! ولذلك ركّز أبوهم على الأمل بالفرج الإلهي، لأن السنين الطويلة مرّت على فقدانهم ليوسف(ع) والأمل مقطوع بمعرفة أي شيء عنه إلا عبر الروح الإلهي.

(فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ{88})
انطلق الإخوة إلى مصر، وتوجهوا مباشرة نحو العزيز...

لما دخلوا على يوسف (ع)، بعدما أخذوا الإذن بمقابلته... قال الإخوة للنبي يوسف (ع): {أَيُّهَا الْعَزِيزُ}، يا صاحب السلطة، {مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ}، شعرنا نحن والمنتمون لنا، أولادنا ونساؤنا، بشكل قوي بتغيّر أحوالنا للأسوأ، بسبب القحط، {وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ}، بأغراض لها ثمن للبيع، {مُّزْجَاةٍ}، وكما يبدو من سياق الكلام أنها أشياء ليست ذات قيمة عالية، و{مُّزْجَاةٍ} وصف لِوَضْعِ الأغراض مع بعضها على أن لها قيمة ومعلوم أنها ليست ذات قيمة، كما نقول: زجّه في السجن، أي وضعه فيما يناسبه ليحتويه، أو كما في قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا. بمعنى: ساق ودفع. هم يقصدون أن الأغراض التي جئنا بها خليط فيه أشياء قليلة القيمة، لنقل إنهم جلبوا أنواعا من صمغ ليس مرغوبا للبخور، أو جلبوا حجارة ملونة شفافة التقطوها من الطبيعة ولكنها ليست مصنفة كمجوهرات ذات قيمة عالية... وقيمة ما جلبوه أقل من ثمن كمية الحبوب التي يحتاجونها، {فَأَوْفِ لَنَا}، أعطنا بالتمام {الْكَيْلَ}، ليكن ما تبيعونه لنا بالكيل بالحجم وافيا، اقبلوا هذه البضاعة التي نعلم أنها لا تهمّكم ولكن اقبلوها وبقيمتها الحقيقية أعطونا الحبوب، {وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا}، أعطنا كميّة من الحبوب من دون أن تطلب ثمنها، {إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي}، يعطي مقابلا، {الْمُتَصَدِّقِينَ}، للذين يعطون الناس المحتاجين.

إذا افترضنا أن إخوة النبي يوسف (ع) صمدوا في أول سنة، أو في أول سنتين أو ثلاث من القحط، فتذكّر أن هذه هي ثالث زيارة لهم لشراء الحبوب من مصر، ولن أطيل عليك لأصوّر لك كيف سيكون وضعهم الاقتصادي بعد أربع أو خمس سنوات من القحط، حيث لا ينتجون أي شيء زراعي أو حيواني، ومن أين سيجمعون مالا أو بضاعة ليشتروا بها الطعام! وانتبه إلى أن هذه الحالة عامّة وأصابت عموم الناس في تلك المنطقة، ومن سيصمد لثلاث سنين من دون أي إنتاج إلا الأغنياء جدا... ولذلك تنقل الآية عنهم طلبين، الأول قبول بضاعتهم الرخيصة علما أنها بضاعة لا تهمّ المصريين، والطلب الثاني أن يتصدّق عليهم بالزيادة، وفرضا قَبِلَ منهم بضاعتهم التي لا تهمّه فثمنها لا يؤمّن لهم ما يحتاجونه، وهم يعلمون أنهم لن يكون معهم أي شيء ليبيعوه في السنة التالية.

لاحظ، لم تنقل لنا الآيات أي سؤال منهم عن يوسف (ع) أو بنيامين، لأن موضوعهما محسوم في نظر الإخوة، فيوسف (ع) لا يعلم إلا الله تعالى إن كان حيّا حتى الآن، وإن كان حيا فلا يعلم إلا الله تعالى أين أراضيه، ولماذا سيسألون عنه بعد تلك السنين، وأما بنيامين فقد سرق ولن يتركه العزيز إلا بعد انتهاء الجزاء... وحاولوا كل ما يمكنهم فعله في المرة السابقة، والآن إذا فتحوا الموضوع مع العزيز فربما يغضب عليهم ويحرمهم من الحبوب...

(قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ{89})
كما يبدو بوضوح أن وضعهم التعيس جدا أحرق قلب النبي يوسف(ع)، وبيده كل مخازن الطعام، وأهله في حالة مزرية... فهل قرّر فضح أمره حتى يساعدهم؟ أم فلتت منه مشاعره فبان عليه الحزن لحالهم...؟ على أي حال قال النبي يوسف(ع) لهم:

{هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ}؟ هل تعلمون نتيجة تصرفكم عن طيش بلا تفكير ودراسة مع أخويكم؟

يبدو واضحا أن الكلام هنا هو حصول ما أوحى تعالى به ليوسف(ع) حين رموه في الجبّ، والذي ورد سابقا في الآية 15 {فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}، حيث أخبرهم بما فعلوه بأخيهم يوسف وهم لا يشعرون بأنه هو يوسف... إلى حين انتبهوا من إخباره (ع) لهم بمعلومات لا يمكن إلا ليوسف معرفتها. وقد يحتملون أن بنيامين أخبره بما يعلمه، ولكنها معلومات قليلة جدا...

(قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ{90})
قال الإخوة: {أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ}.
لا يبدو لنا صريحا من الآيات كيف عرفوه، ولكن بضمّ ما ورد في الآية 15 نرى أنهم من "إنبائهم" برميهم له في الجبّ... وتفاصيل أخرى لا يعلمها إلا هم ويوسف، فلم يعد أمامهم إلا احتمال أنه هو يوسف.
قال: {أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي}، وكما يبدو أن بنيامين كان واقفا إلى جانبه، فأشار إليه وقال: {وَهَذَا أَخِي}. {قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا}، فأعطانا أنا وأخي شيئا يجب أن نعلن الشكر عليه، حيث جمعنا معا رغم كل الحوادث وكل جهودكم للتخلّص منّا...
{إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ}، والكلام عمومي لتجنّب فعل السيئات وهو نفسه تجنب غضب وعقاب ربّه تعالى، {وَيَصْبِرْ}، فلا تنفلت منه أعصابه فلا يقوم بأشياء سيّئة عند الغضب، ويبقى محافظا على تصرفه بشكل واع ومدروس، {فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}، ومن كان عملهم حسنا جيدا فلن يضيع عمله بل سيحصل على أجر، على جزاء، على شيء حدّده تعالى له، وكما ترى صبر النبي يوسف(ع) واتقى، فحصل على الجاه في مصر، واجتمع بأخيه...
ننتبه جيدا، فلولا كثرة العبر المهمّة جدا مما سبق من القصّة لقلنا إنها كلّها أرادت إيصالك إلى هذه النقطة هنا، ومن اتقى وصبر فسبحانه لن يضيع أجره. وينافس ذلك دلالة القصّة على سيطرته تعالى على مجريات الأمور، ولا يمكننا نسيان أهمية التقى الذي مارسه يوسف(ع) واختياره تعالى لذكر قصّته ليكون نموذجا راقيا لنا، وغيرها من الأمور التي يمكن إعادة صياغتها جميعا معا لتكون مزيجا من دروس متصلة مع بعض في نفس الحوادث، لأن كلّ القصّة بكل تفاصيلها هادفة ومن الصعب اختيار شيء منها لتقول إنه الأساسي من بينها.

(قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ{91})

قال الإخوة:
{تَاللَّهِ}، تأكيداً بمقدار إيماننا واحترامنا لله تعالى، {لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا}، لقد فضّلك بتخصيصك بشيء لم نحصل عليه نحن، وها أنت تعيش في الجاه والعزّ والسلطة، وصرت أعلى شأناً منّا بكثير، {وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ}، فعلنا الخطأ حين حاولنا التخلص منك، وصمّمنا ألا تكون أفضل منّا بالتخلّص منك، ولكننا لم نصل إلى هدفنا، ولو تركناك ولم نرتكب إثماً فيك لكان أفضل لنا، وها تبيّن كيف فضّلك تعالى علينا، فعلى كلتا الحالتين، لو تركناك أو رميناك في الجبّ، فأنت مقدّر لك أن تصير أفضل منّا، ومحاولة تخلّصنا منك تبيّن أنها عمل خطأ ولا تبرير له لا على مستوى النتيجة ولا على المستوى الإيماني.

(قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ{92})
قال النبي يوسف(ع):

{لَا تَثْرِيبَ}، لا لوم ولا محاسبة أو توبيخ، {عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ}، ولن أطالبكم بما فعلتم معي، {يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ}، يتجاوز تعالى عن سيئاتكم طبعاً إذا استغفرتم، {وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}، والمؤمن يعامله الله تعالى بالرحمة، بعناية خاصّة لما فيه مصلحته، وإذا قارنت رحمته تعالى مع الرحمة من غيره سبحانه ستجد أن الفرق هائل بين الرحمتين فسبحانه الأرحم لأنه يغفر لمن استغفر حتى لو كان كافراً به تعالى، وأصلاً وبدون مقارنة مطلقاً هو سبحانه الأرحم.

كلمة {تَثْرِيبَ} لم ترد في القرآن إلا هنا.

(اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ{93})
{اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا}، احملوا هذا القميص، هذا الثوب الخاص بي، وهو ثوب يستر الجسد من الرقبة إلى ما قبل الركبة، مع أو بدون أكمام، مع أو بدون رباطات، خذوه، {فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً}، يبدو أنه (ع) يقصد أنكم وقبل أن تخبروه بأي شيء، فاجئوه برمي القميص على وجهه ليشم رائحته، عندها سيعلم أنه قميصي، وأنني حيّ، وتعود إليه القدرة على إدراك ووعي الصور، وتعود الرؤية إلى عيني أبي، {وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ}، ارجعوا إليّ أنتم والمنتمون لكم، وعودوا إلى مصر مع نسائكم وأولادكم وأولاد أولادكم.

سترى من الآية التالية أن الرائحة المميزة التي على القميص تدلّ على أن النبي يوسف(ع) كان يرتديه، وبذلك سيتأكّد الأب أن ابنه حيّ وسيذهب عنه الحزن، ويسترجع بصره، هذا مع العلم بأن الآية تشير إلى حصول آية إلهية عجيبة بعودة البصر للأب لمجرد إلقاء القميص عليه، إذ إنَّ عودة البصر بسبب مرور القميص على العينين ليست حدثاً عادياً، وسيكون كعلامة تأكيدية أن القميص ليوسف(ع).

ستلاحظ من هنا أن مجرى الأمور تغيّر، حيث أذن سبحانه للنبي يوسف(ع) أن يخبر أهله عن حاله، وبأمر إلهي سيرجع البصر للنبي يعقوب(ع).

قيل في بعض التفاسير والروايات إنَّ هذا القميص هو نفسه الذي كان يرتديه النبي إبراهيم(ع) عندما حاول أهل مدينته حرقه بالنار، وقيل إنَّ النبي يعقوب(ع) ورثه من أبيه النبي إسحاق(ع) وألبسه لابنه يوسف(ع) حين أخذه إخوته معه وعادوا بدونه، ولكن هل يتماشى هذا مع عودتهم بقميص يوسف(ع) حين وضعوا عليه الدماء ليتوهّم أبوهم أن الذئب أكله؟ ومن الواضح أنهم نزعوا عنه قميصه قبل رميه في الجبّ، وفرضاً كان يرتدي قميصين هل تاه الإخوة عن قميص جدّهم المميّز المشهور كما يدّعون في الكتب!

في الحقيقة أنا لا أملك إلا التحليل لنفي ما يقولونه، ولا هم يملكون إلا الزعم فيما يقولونه، وهذا النوع من الروايات والتفاسير له خلفية مشتركة مع الكثير من الروايات غيرها التي فيها تقديس لأشياء، وهذه العقلية أفسدت عقول الذين سبقونا من أهل الكتاب، ونفسها أفسدت عقولنا، حيث لديهم قمصان مقدسة، وعِصِيّ مقدسة، ومياه مقدسة، وكأس مقدسة، ورأس رمح مقدّس... ونحن ومن نفس الخلفية لدينا قميص مقدّس وشعرات مقدسة وحذاء مقدس وسيف مقدّس وتربة مقدسة ومياه مقدسة... ومن بعد استلام بني أمية الحكومة الإسلامية درج منهم الاهتمام بمخلفات من النبي محمّد(ع)... وتلقّف ذلك جماعة محبي الأسرار من باطنيين وصوفيين وعرفاء ودراويش... وفي بدايات الحكومة

العثمانية ترى العناية غير العادية بين مختلف مدن المسلمين على تجميع آثار من الجيل الأول من المسلمين... وكان يكفي الدعاية لشيء حتى يصير مقدساً بدون التحقّق من صحّة مصدره...

نعم لا يوجد مانع قرآني من رغبة الاحتفاظ بأثر من الأنبياء أو الصالحين، ولكن هناك مشكلة في اعتبارها أشياء مقدسة، ولها تأثير غير عادي على مجريات حياتنا!

ما ورد في الآية 248 من سورة البقرة {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} فهو حادثة استثنائية، وتعميمها على ما يخترعه الناس من مقدسات هو المشكلة، وخلط ذلك بما في التراث اليهودي عن انتصارهم على أعدائهم كلما أخذوا معهم التابوت إلى الحرب، سيجعلك تتوّهم ما يخالف الواقع، إذ انتصر اليهود قديماً على بعض الشعوب، وحافظوا على وجودهم، ولكن الأكثر منه هزيمتهم من المعادين لهم حتى بقوا مُتَحَجِّمِينَ في منطقة صغيرة لم تتوسّع قليلاً إلا في عهد النبي داوود(ع) وابنه سليمان(ع)، وقبلهما وبعدهما كانوا غالباً خاضعين لملوك آخرين...

(وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ{94})
{وَلَمَّا فَصَلَتِ}، عندما انفصلت وتحرّكت وابتعدت، {الْعِيرُ}، القافلة المؤلفة من أناسٍ ودواب تحمل أغراضهم، بمجرد ما ابتعدت القافلة عن مصر، {قَالَ أَبُوهُمْ}، يعقوب(ع) وهو لا يزال في بلده: {إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ}، أجد رائحته منتشرة في الهواء، {لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ}، فأنتم بالتأكيد ستقولون إنَّ كلامي غير صحيح لأن كل الأدلة تشير بأنه غير صحيح، ولولا ذلك لصدقتموني لأني متأكّد.
هنا ترى أنَّهُ تعالى قرّر إنهاء هذه المأساة، وفرّح قلب نبيّه يعقوب(ع) ليشمّ رائحة ولده يوسف(ع) عن بعد أميال. وفي بداية السورة لم نَغُصْ في التحليل الذي لم تدخل فيه السورة بصراحة، فحالة الحزن غير العادية عند النبي يعقوب(ع) على فقد ولده، عرضتها لك السورة بدون تعليق، فهو نبي رسول وأراد شيئاً لا يتماشى مع الحكمة الإلهية التي مجموعها توصيل يوسف(ع) لمصر ليكون رسولاً هناك، والذي شاء تعالى وصوله إليها عبر تبنّي عزيز مصر له...
أختصر الكلام ولن أدخل في التحليل لما جرى، وسأستعيض عنه بشيء مهم له علاقة بالموضوع، لأننا عادة ننسى تفاهاتنا وسخافاتنا وطفوليتنا... ونفترض في أنفسنا العقلانية والحكمة من مستوى عالٍ لدرجة التعليق على أفعاله تعالى مقترحين حلولاً أخرى "أفضل" مما قرّره تعالى! الله سبحانه وتعالى لو كانت قراراته تتجاهل حالتنا الإنسانية المعلوم ضعفها، لكانت الأمور في غاية الصعوبة علينا، وخذ مثلاً عن العشرين من المؤمنين يغلبون مئتين، وبعدها وبسبب الضعف صار الكلام عن مئة مؤمنٍ يغلبون مئتين، كما ورد في الآيتين 65 و 66 من سورة الأنفال، فالأساس أن الواحد المؤمن يجب عليه معارضة الباطل حتى لو وصلت الأمور إلى حمل سلاحه لوحده ليقاتل، ولكنه تعالى خفّف عنّا بحلول تناسب ضعفنا، فأمر بالهجرة وبالقتال في حال كانت الظروف في احتمال انتصار...
هذا مثال من السهل رؤية تعامله تعالى معنا بحسب ما نستوعبه ونتحمّل فهمه، وبعض الناس يستصعبون فهم تسع آيات لفرعون وآخرها غرقه في البحر، بينما بدلاً من ذلك كان من الأسهل آية حمل بني إسرائيل من مصر إلى حيث يريد سبحانه، ولكن سبحانه أراد جعل فرعون عبرة بتسع آيات عجيبة غريبة ورغم ذلك لم يؤمن إلا حين أيقن بالموت غرقاً، وسبحانه أراد أن يميز الخبيث من الطيّب من بني إسرائيل، وأراد وأراد... فكل من يفترض بذكائه الخارق أن الناس سيؤمنون به تعالى لو فعل سبحانه الآيات لهم، فهو أعمى لا يرى أن الآيات من هذا النوع، والآيات التي نشرها تعالى في خلقتنا وفي خلقة ما حولنا، وهي أبداً لن تنفع الذين قرّروا الكفر من حبّهم للسيئات.
هنا يخطر ببالك حلول لا يحصل فيها ذنب من الإخوة ولا حزن من الأب ولا معاناة ليوسف(ع) من الذين آذوه، ويصير (ع) رسولاً في مصر، فاقترحها وسترى أنها إما لاغية لحرية الإرادة نهائياً من الناس، أو لن تصيب بها كل ما أراد تعالى حصوله، والأهم من ذلك كلّه أنَّهُ تعالى أرادك رؤية تدخله بحيث يبدو أن الأمور تجري بإرادة الناس، بينما هم يحققون ما أراده تعالى، وضمناً فما أراده تعالى ليس لاغياً لحرية الإرادة التي سيتحاسب ويتجازى في الآخرة على أساسها، كل الذين مرّت السورة على ذكرهم.

(قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ{95})
{قَالُوا}، الذين من حول النبي يعقوب(ع):
{تَاللَّهِ}، تأكيداً بالله تعالى، {إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ}، قديماً اعتقدت بأنك على شيء صحيح وتبيّن أنه غير صحيح، وكنت من قبل تعتقد بأن يوسف(ع) ما زال حيّاً وأنك ستلتقي به، ولم يحصل ذلك، وقولك الآن بأنك تشمّ رائحته، فهو نفس ضلالك القديم، والصحيح أنه (ع) مات منذ زمن بعيد أو صار في أرض بعيدة ومستحيل أن يرجع.

(فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{96})
بعد أيام وصلت العير إلى حيث النبي يعقوب(ع)...

{فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ}، في اللحظة التي حضر فيها حامل الخبر السار، الحامل لقميص النبي يوسف(ع)، لم يقل شيئاً، {أَلْقَاهُ}، رمى القميص، {عَلَى وَجْهِهِ}، على وجه النبي يعقوب(ع)، {فَارْتَدَّ}، رجع كما كان {بَصِيراً}، عادت لديه (ع) القدرة على إدراك ووعي الصور، وصار يرى بعينيه من جديد. {قَالَ}، النبي يعقوب(ع):

{أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}؟ قلت لكم إنَّ يوسف حيّ، وهذا قميص عليه رائحته، وأعاد لي بصري، ولطالما قلت لكم إنَّهُ حيّ فلم تصدقوني...

(قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ{97})
قال الإخوة، ولاقوا أباهم من بعد رمي البشير للقميص عليه:

{يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا}، اطلب لنا منه تعالى أن يتجاوز، {ذُنُوبَنَا}، عن مخالفتنا لأوامره تعالى، {إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ}، ارتكبنا خطأً حين رمينا أخانا في الجبّ وحين أخفينا الموضوع عنك.

(قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{98})
{قَالَ}، الأب يعقوب(ع):

{سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي}، سوف أطلب من المسؤول عنّي من مستوى إلهي التجاوز عن سيئاتكم، {إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ}، الذي يسامح فلا يبقى على قرار العقاب، وَهُوَ {الرَّحِيمُ}، لديه عناية خاصة بالمؤمنين أمّا غير المؤمنين فلا ينالون المغفرة.

لاحظ أن الفرحة الفجائية جعلت الأب فوراً ينسى كل المآسي، وكل ما مرّ انتهى بالنسبة له، حيث كان همّه الخبر عن يوسف وبقية الأمور تفاصيل غير مهمّة، وفوراً سامح أولاده واستغفر لهم.

نضيف إلى ذلك أجواء عودة البصر إليه ليرى أولاده فرحين بخبر عثورهم على أخيهم يوسف(ع)، وأنه حاكم في مصر، وأنهم ذاهبون إليه ليعيشوا في الرخاء...

(فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ{99})
{فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ}، من سياق الكلام السابق تعلم انتقال النبي يعقوب(ع) مع أولاده وأهليهم إلى مصر، عندها، {آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ}، أخذهما وجعلهما معه في بيته، وقال لإخوته وأهلهم:

{ادْخُلُوا مِصْرَ}، صيروا في البلد الذي اسمه مصر، {إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ}، لأني عزيز مصر ولدي سلطات نافذة فستكونون آمنين ولا خوف عليكم من أي أحد، فيمكنكم الاستقرار فيها بأمان، فكما نحن في حديثنا العادي نقول: هل ستأتي غداً؟ هل تنتهي من تصليح السيارة غداً... ونجيب: إن شاء الله. ونقصد أن الظروف تشير لتحقّق ما تقول، حيث يبدو أنه لا معوقات لأن آتي غداً، ولا معوقات لتنتهي سيارتك غداً... ولكن نعلّق تحقق هذه الأمور بمشيئته تعالى، لأن القرار النهائي والسيطرة التامة على كلّ الظروف بيده تعالى، فلا ندري فعلاً إن كانت هذه الأمور فعلاً ستتحقّق، وهنا يقول النبي يوسف(ع) نفس الشيء، ومما يبدو له من معطيات وظروف فإنهم سيكونون آمنين، ولكن لا يدري إن كانوا فعلاً سيكونون آمنين لأن الله تعالى فقط يمكنه السيطرة على الظروف لتحقيق ما يريد.

(وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ{100})

{وَرَفَعَ}، النبي يوسف(ع)، {أَبَوَيْهِ}، أمّه وأباه، {عَلَى الْعَرْشِ}، على المنصّة العالية التي عليها كراسي يجلس عليها الحاكم، فجعلهم يجلسون على عرشه هو، فهو من حكّام مصر وعنده عرش، وشعر الوالدان بالفخامة والمكانة العالية التي وصل إليها ابنهما يوسف(ع).

{وَخَرُّوا}، أوقعوا أنفسهم على الأرض، {لَهُ}، للنبي يوسف(ع)، {سُجَّداً}، عبّروا بأقصى تعبير الخضوع والاحترام له (ع)، وقرّبوا وجوههم من الأرض أو وضعوا جباههم على الأرض أمامه، ومن شعورهم بالمكانة العالية التي وصل إليها النبي يوسف(ع) عنده تعالى وعند الناس، ولأنه (ع) نجّاهم من القحط وانتقلوا من حالة خطر الموت هم وأولادهم إلى حالة العزّة والرفاهية بسببه... لم يتحمّلوا إلا أن يحققوا الرؤيا، فسجدوا له (ع).

{وَقَالَ}، النبي يوسف(ع): {يَا أَبَتِ}، أتوجّه إليك يا أبي بالكلام فأقول لك: {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ}، فالصورة المحدّدة التي حصلت لي في منامي من قبل عن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين لي، الآن يتأوّل فيتحقق عملياً منامي، {قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً}، فالمسؤول عنّي من مستوى إلهي جعل التأويل لرؤياي صادقاً، وصار لها تفسير عملي فعلي، فها أنتم سجدتم لي.

{وَقَدْ أَحْسَنَ بِي}، عاملني سبحانه بشكل حسن، {إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ}، ولولا عنايته بي لمتّ في السجن مظلوماً منسياً، وتتذكّر مما سبق أنه تعالى جعل الملك يرى مناماً يعجز المعبّرون عن تأويله... مما دفع الأمور باتجاه تحريك ملف النبي يوسف (ع) المسجون...

{وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ}، أحضركم إليّ من البادية من المنطقة التي لا مدنيّة فيها، فهي مكان بدائي بمساكنه وبنيته التحتية وبالصناعة والعلوم... {مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي}، فالكائن الموصوف بفعل السوء وجعل الآخرين يفعلون السوء دخل بيني وبين إخوتي، بالعامية "يحركش"، فيرمي فتيل الفتنة والخلاف، مما جعلهم يحسدونني ثم يكرهونني ثم يحاولون التخلّص مني...

{إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ}، أمام المسؤول عنّي من مستوى إلهي خيارات عديدة وسبحانه موصوف باللطف حين يختار منها وحين يفعل ما يشاء منها، فتأخذ الأمور مجراها كما يريد سبحانه برقّة بلطافة ومن دون أن ننتبه، حتى تصل الأمور إلى حيث يريد سبحانه.

نتذكّر من هذه القصّة قراره تعالى بوصول عبده يوسف(ع) إلى مصر وأن يلحق به أهله، وحصل ذلك وسارت الأمور بلطفه تعالى، فغلبت إرادته تعالى إرادة الجميع، وفي النهاية سجدوا له(ع) كما قرّر سبحانه.

{إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ}، الذي يعلم كل شيء، فيعلم كل ما حصل، {الْحَكِيمُ}، فيرى الصوابية في الأمور.

إذن أجلس النبي يوسف(ع) أبويه على الكراسي التي على المنصة، ولم يضعهم أمامه حتى يسجدوا ويتحقق حلمه، بل أجلسهم مكانه ووقف بقربهم، ولكن حصل لديهم تصرّف غير إرادي، ونابع عن شعور قوي، إذ استنقذهم من الموت من القحط، وجاء بهم للعيش في العزّ والكرامة، واستحضروا في ذهنهم ما جرى معه(ع) من مصائب حيث تركهم ولداً صغيراً متغرّباً عن أهله في عالم لا يرحم... فكانت النتيجة أن صار يوسف (ع) من الحكام على أقوى بلد في زمنه، وصار الحاكم على مخازن الطعام في زمن القحط... وبطواعية ورغبة منهم عبّروا عن فائق خضوعهم واحترامهم له، فسجدوا له.

نلاحظ في القصّة تفاصيل صغيرة مهملة، فهي غير مهمّة، ولا عبرة إيمانية فيها، وتركها بدون البحث عنها يكون أفضل، لأننا سندخل في عالم الاحتمالات والروايات الضعيفة، مثلاً: ما نفع القول بأن أمّ النبي يوسف(ع) ماتت وهو صغير، وأن التي حضرت مع أبيه إلى مصر هي خالته! فهذا ما نجده في بعض الروايات، ولكن ما نفع هذا الكلام؟ وماذا يقدّم ويؤخّر طالما ليس عليه دليل قوي إلا كلام منقول عن أهل الكتاب، وكلامهم عادة لا أحد يقسم على صحّته.

يقولون إنَّهُ تعالى ردّ امرأة العزيز إلى صباها، وهي أرملة، وتزوّجها النبي يوسف(ع)... وغيرها من الأمور التي لا يمكن لأي أحد أن يقسم يميناً على صحّتها أو كذبها، فمصادرها من كتب أهل الكتاب، الذين سبقونا في تأليف واختراع قصص لأحداث مرتبطة بالأنبياء...

(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ{101})
يتوجه النبي يوسف(ع) بالدعاء: {رَبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ}، أعطيتني مُلكاً غير مطلق فهناك ملك مصري فوقي، ولدي سلطة عالية على أشخاص وأشياء وأتصرّف بها كما أشاء، {وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ}، فمن بعض ما أسمعه من حديث يقوله الناس أعرف ماذا سيحصل عملياً معهم.

ننتبه، استنتجنا سابقاً أن معرفة النبي يوسف(ع) بالتأويل معناها أنه (ع) يعرف عملياً ماذا سيتحقق ويحصل بعدما يسمع حديثاً "كلاماً" يقوله الناس، حيث سيتحدّث الناس عن أشياء يهتمون بها، وسيعرف النبي(ع) ماذا سيحصل بخصوص الذي هم مهتمون به، ومن الحديث العادي ومن الحديث عن المنامات سيعرف النبي يوسف(ع) ماذا سيحصل معهم.
لترى بوضوح معنى كلمة تأويل راجع دراسة الآية 6 من هذه السورة والآية 53 من سورة الأعراف {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ...}.

سبق خلال السورة أن تحدّثنا عن محدودية القدرة البشرية، فمهما علت وانفتح لها مجال ما للاطلاع على الغيب، فهي محدودة ولن تصل إلى حيث تحسم يقيناً معرفة ما سيحصل، ويبدو هذا واضحاً مما حصل مع النبي يوسف(ع) الذي لم يستطع تغيير مجريات الأحداث لتكون أَسْلَسَ عليه، إذ دخل السجن لبضع سنين... أو أننا أمام حالة السير مع ما يريده تعالى؟ أشرت لك سابقاً أن هذا البحث سيأخذنا إلى الترف الفكري، إذ هناك أسئلة كثيرة لا جواب لها لأننا لم نلمس هذه القدرة لنعرف كيف تعمل، ولا ندري بما يحصل مع النبي يوسف(ع) ليعلم بما سيرزقنا به تعالى غداً، هل يرى الأمور مكتوبة أمامه؟ أم يرى حوادث تحصل كصور أمامه؟ أم... لا ندري، وهل ما يراه مرتبط بالمعطيات الحالية التي قد تتغيّر فيتغيّر المستقبل، أم أنه بشكل ما يرى ما سيحدث فعلاً؟ أم احتمال آخر لم يخطر ببالي...

المعلوم اليقيني أنه تعالى وحده القادر على العلم بكل ما سيحدث فعلاً، حيث هناك الكثير الكثير من المعلومات المهمّة وغير المهمّة، وكلها بلا تمييز بينها اسمها غيب المستقبل، فتعرّض حبة رمل للسحق في كوكب من مجرة بعيدة عنّا مليارات السنين... فهو حدث لا يختلف بكونه معلومة عن حدث قتل الحسين في كربلاء، ولا قدرة لأي مخلوق على الامتداد لهذا القدر من السعَة والإحاطة، ولا على تحمّل هذا الكمّ الضخم الهائل من المعلومات، فقط سبحانه يعلم بكل شيء...

طبعاً مع بقاء حدوث ما يحدث معنا مرتبطاً بالمساحة المتروكة لنا لاختيار ما نفعله، حيث نحن لسنا مجبورين على فعل ما يعلمه تعالى، بل تعالى يعلم حتماً ماذا سنختار، وسجّل ذلك، وحصول ما سجّله تعالى مرتبط بخياراتنا نحن متداخلة مع تدخّله تعالى لتسير الأمور بحكمة على رأسها زيادة إيمان المؤمن إيماناً، وظهور حقيقة المنافق...

هذا النوع من البحث عن معرفة الغيب لم يدخل فيه بعمق من سبقنا، وحالياً منتشر بكثرة كفكرة خيالية عن معرفة المستقبل وعن الانتقال في الزمن... والاستيحاء من القرآن ما يرينا واقع ما يمكن معرفته في مسألة معرفة المستقبل، سيكون بحثاً رائعاً، والخوف كل الخوف من الانجرار نحو الجرف، نحو فرض الاحتمالات غير الأكيدة على القرآن لجعل آياته تدل على معانٍ لم يقصدها، لذا انتبه، ونبّه الآخرين، ولا مانع من البحث، ولكن دائماً لا تحمّل القرآن رأيك، وإذا رأيتني سقطت وحمّلته رأيي فلا تفعل مثلي، لأنَّ هذا خطأ وعليه حساب عسير لمن فعله قصداً... فقل ما تريده وليكن عرضه بصراحة كدراسة لاحتمالات مفتوحة...

نرجع للآية، {فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، كوّنها تعالى ولم تكن شيئاً من قبل، وبتعبيرنا الدارج: شقّ سبحانه العدم وأخرج منه السماوات من سماوات الملائكة والجن وكوننا... والأرض، وكلها لم تكن، وأخرجها تعالى من العدم من لا شيء. طبعاً هذه تعابير تقريبية والتعبير القرآني الدقيق أنها لم تكن وصارت، حيث لم تكن شيئاً وصارت، واستعمالنا لكلمة "عدم" لشرح كلامه تعالى للتعبير عن صيران كيان للشيّء من لا شيء، وهذا لو تعمّقت فيه لوجدت فيه مشكلة، وأصلاً لا نجده بهذه الصراحة في القرآن، إذ أصلاً كلمة عدم هي مفهوم سلبي، ولا يمكن تصوّره وأصلاً لا وجود له! ومن ناحية ثانية لا معرفة لنا بطبيعة الخلقة من مستوى بداية الخلقة، ومعرفتنا محصورة بالمادة التي في بيئتنا، وهذه المعرفة أصلاً سطحية إذ إنَّ كل ما نقوله عنها مجرد افتراضات وتخمين يساعدنا على التعامل معها، وأمّا حقيقتها فمجهولة حالياً.

لا أقصد منع الآخرين عن وضع المصطلحات، ولكن استعمالها في تفسير القرآن سيجرّنا إلى حيث سيحصل التعارض بين المفاهيم التي على أساسها وضعنا المصطلحات وبين مفاهيم القرآن، إذ إنَّ المفهوم: خلق من لا شيء. و: خلق من العدم. لن تجدهما صراحة في القرآن وستجد: {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً} كما ورد في الآية 67 من سورة مريم. وستجد {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} كما ورد في الآية 79 من سورة الأنعام.

{أَنْتَ وَلِيِّي}، أنا تابع لك سبحانك وأنت تتولّى شؤوني، {فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}، تتولى شؤوني هنا في هذه الحياة الدنيا، ورأينا ذلك في قصّة حياته (ع) حيث سارت الأمور ليصير (ع) سيداً حاكماً... وفي الحياة التي ستأتي في الآخرة أؤمن بأنك وليي وتعطيني الثواب، وتدخلني الجنة...

{تَوَفَّنِي}، خذ حياتي بالتمام، أمتني، {مُسْلِماً}، وأنا منقاد لك أتبع كلامك.

{وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}، اجعلني ألحق وأنضم للأشخاص الذين كانت أعمالهم صالحة جيّدة.

(ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ{102})
يتوجه النبي يوسف(ع) بالدعاء: {رَبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ}، أعطيتني مُلكاً غير مطلق فهناك ملك مصري فوقي، ولدي سلطة عالية على أشخاص وأشياء وأتصرّف بها كما أشاء، {وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ}، ومن بعض ما أسمعه من حديث يقوله الناس أعرف ماذا سيحصل عملياً معهم.

ننتبه، استنتجنا سابقاً أن معرفة النبي يوسف(ع) بالتأويل معناها أنه (ع) يعرف عملياً ماذا سيتحقق ويحصل بعدما يسمع حديثاً "كلاماً" يقوله الناس، حيث سيتحدّث الناس عن أشياء يهتمون بها، وسيعرف النبي(ع) ماذا سيحصل بخصوص الذي هم مهتمون به، ومن الحديث العادي ومن الحديث عن المنامات سيعرف النبي يوسف(ع) ماذا سيحصل معهم.
لترى بوضوح معنى كلمة تأويل راجع دراسة الآية 6 من هذه السورة والآية 53 من سورة الأعراف {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ...}.

سبق خلال السورة أن تحدّثنا عن محدودية القدرة البشرية، مهما علت وانفتح لها مجال ما للاطلاع على الغيب، فهي محدودة ولن تصل إلى حيث تحسم يقيناً معرفة ما سيحصل، ويبدو هذا واضحاً مما حصل مع النبي يوسف(ع) الذي لم يستطع تغيير مجريات الأحداث لتكون أَسْلَسَ عليه، إذ دخل السجن لبضع سنين... أو أننا أمام حالة السير مع ما يريده تعالى؟ أشرت لك سابقاً أن هذا البحث سيأخذنا إلى الترف الفكري، إذ هناك أسئلة كثيرة لا جواب لها لأننا لم نلمس هذه القدرة لنعرف كيف تعمل، ولا ندري بما يحصل مع النبي يوسف(ع) ليعلم بما سيرزقنا به تعالى غداً، هل يرى الأمور مكتوبة أمامه؟ أم يرى حوادث تحصل كصور أمامه؟ أم... لا ندري، وهل ما يراه مرتبط بالمعطيات الحالية التي تتغيّر فيتغيّر المستقبل، أم أنه بشكل ما يرى ما سيحدث فعلاً؟ أم احتمال آخر لم يخطر ببالي...

المعلوم اليقيني أنه تعالى وحده القادر على العلم بكل ما سيحدث فعلاً، حيث هناك الكثير الكثير من المعلومات المهمّة وغير المهمّة، وكلها بلا تمييز بينها اسمها غيب المستقبل، إذ إنَّ تعرّض حبة رمل للسحق في كوكب من مجرة بعيدة عنّا مليارات السنين... فهو حدث لا يختلف بكونه معلومة عن حدث قتل الحسين في كربلاء، ولا قدرة لأي مخلوق على الامتداد لهذا القدر من الوَسَاعَة والإحاطة، ولا على تحمّل هذا الكمّ الضخم الهائل من المعلومات، فقط سبحانه يعلم بكل شيء...

طبعاً مع بقاء حدوث ما يحدث معنا مرتبطاً بالمساحة المتروكة لنا لاختيار ما نفعله، حيث نحن لسنا مجبورين على فعل ما يعلمه تعالى، بل تعالى يعلم حتماً ماذا سنختار، وسجّل ذلك، وحصول ما سجّله تعالى مرتبط بخياراتنا نحن متداخلة مع تدخّله تعالى لتسير الأمور بحكمة على رأسها زيادة إيمان المؤمن إيماناً، وظهور حقيقة المنافق...

هذا النوع من البحث عن معرفة الغيب لم يدخل فيه بعمق من سبقنا، وحالياً منتشر بكثرة كفكرة خيالية عن معرفة المستقبل وعن الانتقال في الزمن... والاستيحاء من القرآن ما يرينا واقع ما يمكن معرفته في مسألة معرفة المستقبل، سيكون بحثاً رائعاً، والخوف كل الخوف من الانجرار نحو الجرف، نحو فرض الاحتمالات غير الأكيدة على القرآن

لجعل آياته تدل على معانٍ لم يقصدها، لذا انتبه، ونبّه الآخرين، ولا مانع من البحث، ولكن دائماً لا تحمّل القرآن رأيك، وإذا رأيتني سقطت وحمّلته رأيي فلا تفعل مثلي، لأنَّ هذا خطأ وعليه حساب عسير لمن فعله قصداً... فقل ما تريده وليكن عرضه بصراحة كدراسة لاحتمالات مفتوحة...

نرجع للآية، {فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، كوّنها تعالى ولم تكن شيئاً من قبل، وبتعبيرنا الدارج: شقّ سبحانه العدم وأخرج منه السماوات من سماوات الملائكة والجن وكوننا... والأرض، وكلها لم تكن، وأخرجها تعالى من العدم من لا شيء. طبعاً هذه تعابير تقريبية والتعبير القرآني الدقيق أنها لم تكن وصارت، حيث لم تكن شيئاً وصارت، واستعمالنا لكلمة "عدم" لشرح كلامه تعالى للتعبير عن صيران كيان للشيّء من لا شيء، وهذا لو تعمّقت فيه لوجدت فيه مشكلة، وأصلاً لا نجده بهذه الصراحة في القرآن، إذ أصلاً كلمة عدم هي مفهوم سلبي، ولا يمكن تصوّره وأصلاً لا وجود له! ومن ناحية ثانية لا معرفة لنا بطبيعة الخلقة من مستوى بداية الخلقة، ومعرفتنا محصورة بالمادة التي في بيئتنا، وهذه المعرفة أصلاً سطحية إذ إنَّ كل ما نقوله عنها مجرد افتراضات وتخمين يساعدنا على التعامل معها، وأمّا حقيقتها فمجهولة حالياً.

لا أقصد منع الآخرين عن وضع المصطلحات، ولكن استعمالها في تفسير القرآن سيجرّنا إلى حيث سيحصل التعارض بين المفاهيم التي على أساسها وضعنا المصطلحات وبين مفاهيم القرآن، إذ إنَّ المفهوم: خلق من لا شيء. و: خلق من العدم. لن تجدهما صراحة في القرآن وستجد: {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً} كما ورد في الآية 67 من سورة مريم. وستجد {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} كما ورد في الآية 79 من سورة الأنعام.

{أَنْتَ وَلِيِّي}، أنا تابع لك سبحانك وأنت تتولّى شؤوني، {فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}، تتولى شؤوني هنا في هذه الحياة الدنيا، ورأينا ذلك في قصّة حياته (ع) حيث سارت الأمور ليصير (ع) سيداً حاكماً... وفي الحياة التي ستأتي في الآخرة أؤمن بأنك وليي وتعطيني الثواب، وتدخلني الجنة...

{تَوَفَّنِي}، خذ حياتي بالتمام، أمتني، {مُسْلِماً}، وأنا منقاد لك أتبع كلامك.

{وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}، اجعلني ألحق وأنضم للأشخاص الذين كانت أعمالهم صالحة جيّدة.

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ{103})
{وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ}، وليس أَكْثَرُهُمْ، {وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}، ولو بذلت جهدك مع رغبتك ليؤمنوا فلن يعتقدوا بك كرسول إلهي ولن يعتقدوا بدينك.

هذه القصّة من أدل الدلائل على عنايته تعالى بمؤمن، ورسمه سبحانه لما سيحصل رَغْماً عن إرادة الجميع، ومن المفروض أن تجعل من يسمعها يؤمن بدينه تعالى... ولكن ومهما فعلت أيها الرسول(ع) فلن ينفع مع الكثير من الناس ليؤمنوا.

ننتبه لهذا الخبر منه تعالى، ونلاحظ تكراره بشكل مباشر أو غير مباشر في العديد من الآيات، حيث من قبل خلقنا كان يعلم سبحانه وتعالى أن أكثر الناس لن يؤمنوا بدينه تعالى، وهذا ورد صَرِيحاً في الآية 7 من سورة يس {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}، وهنا يبرز السؤال: إن كان سبحانه يعلم أن أكثرنا لن يؤمن، وسيذهبون إلى النار، فلماذا خلقنا؟ وتلاحظ أن المؤمن الحقيقي لن يسأل هذا السؤال، فالمشروع يعجبه فهو يريد الدخول إلى الجنّة، فآمن وأطاع وترك السيئات... وبالنسبة له، خَلْقُنا هو شيء جَيِّدٌ، ولكن من لا يُرِدْ ترك السيئات، فسيطرح هذا السؤال وهو معترض على إخراجنا إلى الحياة.

أما إن كان السؤال معناه: المشروع فاشل لأن الأكثرية ستدخل النار. فمن قال بأن مشروع خلقنا كان يهدف إلى إدخالنا كلنا إلى الجنة؟ فأصل المشروع الإلهي أننا كلنا لدينا القابلية والقدرة على دخول الجنّة، إذا آمنّا وأطعنا، ولكن لم يكن الهدف الإلهي من خلقنا دخولنا كلنا إلى الجنّة، ولم يكن الهدف خروجنا إلى الحياة لنعبده سبحانه، فعبادته واجبة ولكنها ليست هَدَفاً إِلَهِيّاً، راجع تفسير الآية 56 من سورة الذاريات {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، فأصلا لا يوجد

هدف "إلهي" بالمعنى الواسع لكلمة هدف، بل يوجد حكمة إلهية، فيفعل سبحانه الحقّ الصواب، وجعل لمخلوقاته هَدَفاً لهم ليسيروا عليه، فمن لديه هدف يريد تحقيقه هو نحن المخلوقات، لأننا ننتظر الاستفادة من الوصول لهدفنا "الجنّة الخالدة"، ولكن أي استفادة سينالها الإله سبحانه إن خلقنا؟ لا شيء. وأي استفادة إن دخلنا إلى النار أو إلى الجنة؟ لا شيء.

لديه سبحانه وتعالى القدرة على إيجاد المخلوقات، بأشكال متنوعة ولا تخطر على بالنا، فشاء "اختار" خلق الناس "بهذا الشكل والصفات والعقل وحرية الإرادة" بحكمة وليس عن عبث، وتصوّر لو خلقنا سبحانه كلنا مجانين وفي النهاية سيحاسبنا كعاقلين! أو تصوّر أن يكون الإيمان به تعالى وبدينه مُسْتَحِيلاً علينا وسيحاسبنا سبحانه عليه! أو تصوّر أمره سبحانه لنا بطاعته ولكن في يوم الحساب سيكون سبحانه مِزَاجِيّاً فيرمي المؤمن في النار!... وحتى لو تساهلنا في الكلام وقلنا بأن الحكمة الإلهية هي الأعمال الإلهية التي لها غايات سامية محترمة راقية... فلا نجد في القرآن أي شيء يشير إلى هدف أو غاية خاصة بالإله سبحانه، فلن يفرح بخلقنا، ولن يفرح بإيماننا، بل دائما نجد في القرآن أننا لا نؤثّر عليه تعالى أَبَداً ولا بأي شكل، وحتى عندما يغضب سبحانه وتعالى على الكفّار، أو يحب المؤمنين، فالغضب والحب مشاعر وأحاسيس بالنسبة لنا، فيتعكّر مزاجنا أو يتحسّن بسبب المشاعر، ولكن الإله سبحانه يغضب ويحبّ من مستوى إلهي فلا يتعكّر ولا يتحسّن "مزاجه"، وعندما تفصل بين معنى الكلمات التي تتحدّث عن المشاعر "كالحب والود والرضا والكره والبغض والغضب..." وبين ما ينتج عنها من أثر علينا، وتستعملها لوصفه تعالى فستجد أن الإله سبحانه لا يتأثّر "نَفْسِيّاً" ولا يتضايق ولا ينشرح عزّ وجلّ، فالأوصاف التي بالنسبة لنا مرتبطة بالمشاعر تصير بالنسبة له تعالى واصفة لطريقة تعامله مع الكائنات، فيحب أي يعتني بالكائن ويسعده، ويغضب تعني أن الكائن سيتعرّض لما يسيئه.

(وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{104})
{وَمَا تَسْأَلُهُمْ}، لست تعبّر أيها النبي محمّد(ع) عن إِرَادَتِكَ للحصول، {عَلَيْهِ}، على تبليغ القرآن، {مِنْ أَجْرٍ}، من شيء تستحقّه منهم لقاء عملك على تبليغ كلامه تعالى لهم، ولم تطلب منهم مَالاً أو أَرَاضِيَ...

{إِنْ هُوَ}، القرآن، {إِلَّا ذِكْرٌ}، فقط شيء يستحضرونه في عقولهم ومشاعرهم وعملهم، {لِلْعَالَمِينَ}، لكل الناس، فليس تبليغ الرسالة أكثر من وظيفة إلهية ولا يحق للرسول الموظّف الإلهي مطالبة الناس بِأَجْرٍ عن تبليغ الرسالة، والرسالة ليست بضاعة، بل هي شيء إلهي حتى يستحضر الناس الإله ودينه في عقولهم وأنفسهم، فيؤمنوا به ويطيعوه.

ننتبه جَيِّداً، ووصفنا لدين بعض الناس أنه تجارة بالنسبة لهم، هُوَ وصف صحيح، حَيْثُ هناك من لديه مصالح مالية من تديّن الناس أو من إعلانه هو نفسه للتديّن، ليكون له أتباع، أو يكون تَابِعاً لجماعة سيستفيد منها... أو يجبي المال لنفسه باسم الدين، أو يأخذ منهم أَجْراً لأنه يعلّم أو يروّج أو يدافع عن الدين... وهكذا تفهم آيتنا هنا وأشباهها التي ميّزت الرسول الإلهي الحقيقي عن الذين لهم مصالح شخصية من الدين، فبمجرد أن يطلب من الناس شَيْئاً كمصلحة له مقابل نقل الدين لهم، فدينه وتدينه مشكوك فيه.

المشهور من التاريخ أن النبي محمّد(ع) عاش حياة بسيطة جدا جدا، ونقلوا من تاريخه(ع) تأفّف زوجاته من هذه الحياة البسيطة... وتناول القرآن هذه المشكلة في الآية 28 من سورة الأحزاب، والمشهور في التاريخ أنه (ع) حدّد لنفسه مَعَاشاً شَهْرِيّاً من بيت مال المسلمين، وبعد وفاته (ع) واستلام الخليفة الأول للإمارة، عَانَى هذا الأخير من إمضاء كامل وقته لإدارة شؤون المسلمين بالمعاش الذي كان يتقاضاه الرسول(ع) الذي لم يكفه لشؤون حياته، وبعد تدخّل الصحابة، قبل الخليفة الأول أن يَزِيدَهُ لنفسه قَلِيلاً... هذه النماذج وغيرها الكثير تريك أنه (ع) لم يكنز مَالاً، بل لم يكن يملك ما يجعله مَيْسُوراً، فكان يعيش على حافّة الفقر بالرغم من سيطرته التامّة الكاملة وبإجازة منه تعالى للتصرّف ببيت المال بما يراه مُنَاسِباً...

(وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ{105})
{وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ}، كأي وكمثل شيء مميّز من مستوى إلهي، {فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وهذه هي حدود كلّ دنيا المخلوقات، فهي سبع سماوات ويقابل كل سماء أرض أو أَرَاضٍ.

{يَمُرُّونَ عَلَيْهَا}، فيمرّ الذين لا يريدون أن يؤمنوا على أي آية أينما كانت في السماوات والأرض، {وَهُمْ عَنْهَا}، عن الآية، {مُعْرِضُونَ}، لا يعتبرون أنها مهمّة ولا تعني لهم أي شيء!

لَا آية قصّة النبي يوسف(ع)، ولا أي آية من أي نوع، وأينما كانت في كل السماوات والأرض، فسَيَمُرُّونَ عليها وَيُعْرِضُونَ عنها ولن يؤمنوا.

الْكَلَامُ يَبْدُو منه المبالغة، على أساس أن حدود تماسنا مع الدنيا هو مع سمائنا فقط، وهي سماء واحدة من سبع سماوات، لِذَلِكَ تَفْتَرِضُ أن الدقة تستوجب أن تقول الآية: وكأين من آية في سمائهم وأرضهم... ولكن الكلام من وجهين ليس للمبالغة، حَيْثُ عن حقيقة وفرضا لو مرّوا على أي آية وأينما كانت من الدنيا فهم لن يهتموا بها، وَمُضَافاً إليه أننا فعلا وبحسب الآية 33 من سورة الرَّحْمَنِ والآية 17 من المؤمنون فإننا في المستقبل سنتخطّى سماءنا وَسَبَقَنَا الجن لذلك ووصلوا لحدود سماء الملائكة، {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}.

لَا تَنْسَ أنه تعالى دقيق في كلامه وشفّاف، فنحن نستعمل تعبير الدنيا بَدَلاً من السماوات والأرض أثناء تفسير كلامه تعالى، ولكن سبحانه لم يستعمل ذلك لأن كلمة دنيا وصف الدنو لزمان ومكان في مقابل الآخرة التي ستأتي فيما بعد، حَيْثُ سبحانه وبكل شفافية يتحدّث معنا بدقة عمّا خلقه ويراه أمامه، وهو السماوات والأرض، أمّا لو فَرْضاً قال تعالى ما يعبّر عن خلقه للدنيا، فهذا من الناحية النظرية سينفي وجود أي شيء آخر غير السماوات والأرض، حتى لو عن غير العلم به، وسبحانه لا يتحدّث بهذا الشكل، وَبكل شفافية يخبرنا أنه لم يلمس أي أثر لأي كائن غيره، ويخبرنا أنه يعلم من نفسه استحالة وجود كائن آخر مثله كما تقرأ في الآية 11 من سورة الشورى {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ...}، ويخبرنا أنه خلق كل شيء ويتابع كل شيء كما تقرأ في الآية 102 من سورة الأنعام {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}، وكلّه كلام عمّا يعلمه تعالى ويراه...

لَمْ يستعمل سبحانه أي تعبير مبالغ فيه أو مُتَرَاخٍ فيه ليشير إلى شيء من خارج علمه، ففَرْضاً فَرْضاً فَرْضاً كان هناك شيء لا يعلمه تعالى وموجود في الدنيا، فَرْضاً ذلك، فسيكون ذلك الشيء خارج السماوات والأرض لأنه تعالى يعلم بكل شيء فيهن، ولم يلمس فيهن ولا بأي شكل أي أثر لأي شيء لم يخلقه هو سبحانه، وَلم يلمس سبحانه ولا بأي شكل أي أثر إلا لنفسه وللمخلوقات التي خلقها هو سبحانه. وللدقّة وبكل شفافية يخبرنا سبحانه فقط عمّا يعلمه ضمن حدود ما خلقه، ضمن السماوات والأرض.

بالنسبة للتعبير القرآني بالسماوات والأرض، فنحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أَيْضاً على قبّة النجوم التي نراها لَيْلاً ونطلقه أَيْضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه مَعْنَوِيّاً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دَائِماً أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "مَعْنَوِيّاً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إِلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...} وهي إشارة إِلَى وجود سبع أَرَضِينَ مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أَرَاضٍ "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أَرْضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أَرَاضٍ.

عَادَةً نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير وَنستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، فَنَقُولُ: خلق سبحانه الدنيا. أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تَعْبِيراً صَحِيحاً دَقِيقاً بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى}.

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ{106})

سَبَبُ كفرهم بهذه القصّة هنا، أو ببقيّة القصص، أو بالآيات:

{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ}، ولا يعتقد أكثر الناس بالله تعالى إِلَهاً أَحَداً يجب طاعته، {إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ}، فلا يؤمنون بالله تعالى إِلَهاً أَحَداً، بل يؤمنون به تعالى إِلَهاً مع آلهة أخرى، مع أرباب آخرين.

فهم مفروض بهم أن يؤمنوا به تعالى، ويوحّدوه كإله أحد، ولكن الأكثرية تؤمن به تعالى وتجعل أشياء أخرى آلهة معه سبحانه! فإيمانهم به تعالى مغلوط، ولا معنى له ولا قيمة، لأن الشرك وهم فلا وجود لشركاء له تعالى في الألوهية، ولذلك يصير إيمانهم به تعالى بلا قيمة.

الْأَكْثَرِيَّةُ لن يؤمنوا به تعالى، ولو آمنوا فأكثرهم سَيَجْعَلُونَ له تعالى شركاء في الألوهية!

(أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ{107})
المنكرون للتوحيد وللدين الإلهي وللقرآن:

{أَفَأَمِنُوا}، هل لديهم شعور بالأمان باستبعاد حصول ما يسوؤهم، {أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ}؟ عندما أشركوا فعلى أي أساس يشعرون باستبعاد حصول ما يضرّهم منه تعالى؟ عذاب موصوف بأنه غاشية فيغشاهم فينتشر عليهم ويحيط بهم بشكل جزئي أو كلّي؟

أنذرهم سبحانه عبر رسله عن نزول عذاب في الدنيا على من أشرك، فكيف يشعرون بالأمان رغم وجود التهديد؟

{أَوْ}، أمنوا أن، {تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ}، الوقت والزمن المحدد من يوم ما، وسياق الكلام هنا عن ساعة رجوع كل الناس مرة ثانية إلى الحياة الآخرة للحساب في يوم القيامة، {بَغْتَةً}، فجأة من دون أي مقدّمات، {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}، لا يتفاعلون مع شيء يحصل، فهم سَيَكُونُونَ أَمْوَاتاً، وستتبدّل السماوات والأرض أثناء فِقْدَانِهِمْ لوعيهم، وفجأة يفتحون أعينهم ليروا أنفسهم في الآخرة.

ضع في بالك دَائِماً أن كلمة يوم تشير لزمن لحدث رئيسي أساس وينتهي بانتهاء الحدث، فيوم على الأرض هو دورتها حول نفسها دورة كاملة، ويبدأ من الحدث الأساسي الذي تحدّده، فيمكنك القول إِنَّ اليوم يبدأ من منتصف هذه الليلة إلى منتصف الليلة القادمة، كما هو دارج حَالِيّاً، أو يمكنك القول وَاتِّبَاعاً لمراسمنا الدينية إِنَّ اليوم يبدأ من غروب الشمس إلى الغروب التالي... ويتخلّل اليوم ساعات، وهي فترات زمنية تَحْدُثُ فيها أمور فرعية ضمن فترة اليوم، فساعة الفجر وساعات الصباح وساعة الظهيرة...

هذا الاستعمال لكلمة يوم مرتبط بأحداث سببها دَوَرَانُ الأرض حول نفسها وهو مجرد تطبيق لاستعمال كلمة يوم، فهي أعم من ذلك، فنقول: يوم الحرب، وساعة الشدّة، وأيام الفرح وساعات الهناء...

يوم القيامة هو زمن محدد من بداية إعادة الخلق إلى حين حشرهم، فهو يوم قيامنا من الموت، وبعده أيام وصولا لآخر يوم وآخر ساعة عند دخول آخر شخص إلى النار، ويتخلل أيام الآخرة ساعات، أولها بالنسبة لنا ساعة قيامنا من الموت، وهذه أَشَارَ لها القرآن كثيرا حين يقول "ساعة"، وآيتنا هنا نموذج عن ذلك، ويليها أيام فيها ساعات حشرنا وساعات فرزنا زمرا... فساعات وقوف الأشهاد... وساعات المحاسبة الفردية، وساعات للمحاسبة الجماعية... وهكذا إلى يوم وآخر ساعة بالنسبة لنا حيث يرمي تعالى أهل النار في النار ويدخل أهل الجنّة إلى الجنّة.

عَلَى نفس المعنى نفهم الأيام الستّة التي خلق فيها تعالى السماوات والأرض، فهي ست فترات زمنية، وليس بالضرورة أن تكون متساوية، ولكن كل واحدة منها لها بداية لحدث أساسي وينتهي كل يوم منها بانتهاء الحدث الأساسي، وَرُبَّمَا يكون اليوم منها قياسه بمليارات السنين من يومنا الأرضي، وهذا المعنى تفهمه بسهولة حين تتذكّر أن الساعة ستون دقيقة حَالِيّاً، ولكن قَدِيماً لم يكن هذا التحديد لها دَارِجاً أَبَداً، فلم تكن محددة بزمن محدّد بل كانوا يستعملونها لزمن حدث فرعي بغض النظر عن طول زمنه، ولا زلنا نستعملها هكذا فنقول: دقّت ساعة الصفر. ولا نقصد زمنا من ستين دقيقة بل نقصد زمنا لحدث فرعي... ونفس الشيء كلمة يوم فـقَدِيماً وبالأساس لم تكن لخصوص مجموع ليل ونهار، فحتى نهار واحد لوحده إن حدث فيه شيء أساسي ولم يحصل في ليله أي شيء، فلا زلنا نقول: مرّ عليّ يوم صعب. وحتى لو كان مُمْتَدّاً لزمن طويل بالأشهر والسنين فطالما الحدث الأساسي ما زال مُسْتَمِرّاً، فوصف الزمن يوم.

(قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{108})
{قُلْ}، يا أيها الرسول(ع) عبر هذا القرآن:

{هَذِهِ سَبِيلِي}، هذا مسلكي، {أَدْعُو إِلَى اللَّهِ} وأنا {عَلَى بَصِيرَةٍ}، فأدعو وَأُشْهِرُ وأعلن لكم، أن تكونوا على المسلك الإلهي وأنا على بصيرة وأنا على أمور تجعلني أدرك وأفهم الصور التي أراها، فلست على العمى أو على التخمين، بل عن رؤية واضحة للحقّ أدعوكم للإيمان بصاحب الاسم المحدد المميز الله تعالى ولتوحيده وطاعته، {أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي}، أنا ومن كان على كلامي، كلانا على بصيرة، فمن كان على ما أقوله من عقيدة وشريعة وسلوكيات فهو أَيْضاً على بصيرة، وليس على العمى أو على التخمين.

{وَسُبْحَانَ اللَّهِ}، فهو منزّه عن الصفات السيئة التي لا تليق به والتي تحت مستواه الإلهي، فلا هو تعالى موصوف بأمور سيئة ولا أنا أصفه بأمور سيئة، {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، فلست من الذين يقولون بأن لله تعالى شركاء في الألوهية.

نلاحظ الكثير من الآيات التي تنبهنا عن القيمة الحقيقية للوصف بالألوهية، فبغض النظر عن أن أصل الشرك وكونه من خيال المشركين ولا أساس له، تَصَوَّرِ الفرق بين أن يكون الإله وَاحِداً لا شريك له في الألوهية، في التخطيط، في الخلق، في التدبير، وفي القرار والحساب... وتصوّر أن حريّته مقيّدة لأن الشركاء لديهم قرارات مختلفة عن قراراته! ويمكنهم أن يخالفوا قراراته ويفعلوا بعكس ما يريد! وفي مقابل ذلك تصوّر الإله الأحد يمكنه فعل كل ما يريده لوحده. وتصوّر أنه يحتاج لشركاء يستعين بهم ليخطط وَيخلق ويدبّر... فتسبيح الله تعالى هو تنزيهه عن هذا الضعف، وتنزيهه عن الكلام الذي يصفه تعالى نَاقِصاً ضعيف القدرة، فالتنزيه أن لا نعتقد بالصفات والأفكار السيّئة الخطأ عن الإله سبحانه وتعالى.

أَلْفِتُ انتباهك لفكرة وردت في العديد من الآيات، حَيْثُ هناك فرق كبير بين المؤمن بالله الإله الأحد، وبين المؤمن بالله تعالى وبآلهة أخرى معه، فالمشركون يقولون للمؤمنين: الفرق بيننا وبينكم بسيط! فنحن نؤمن بإلهكم وأنتم لا تؤمنون بآلهتنا، فنحن مؤمنون... ولكن القرآن ينبههم بأنهم لا يمكن اعتبارهم مؤمنين طالما هم مشركون، فالتوحيد في جهة مختلفة كُلِّيّاً عن الشرك والفرق ليس بَسِيطاً، ومقياس المشركين للفرق ليس صَحِيحاً، وهذا هو المعنى الذي يعطيه التسبيح، التنزيه عن النواقص والسوء، فلا تسبيح مع الشرك، ورأس التسبيح التوحيد.

بقي شيء، فسبحانه يقول لنا ويخبرنا أن الوصف بالألوهية في حقيقته، لَا يتحمّل أن يكون هناك إِلَهَانِ أو أكثر، فهو الله الموصوف بالألوهية وهو يخبرنا عن طبيعة هذا الوصف، وسبحانه أخبر منّا بذلك، ويقول لنا: لا يمكن أن أكون إِلَهاً حَقِيقِيّاً إن كان هناك كائنات غيري موصوفة بأنها إله.

لَوْ أطلت عليك، فالقرآن دَائِماً يقول بما معناه بمصطلحاتنا بأننا نحن نعيش في عالم "العلّة والمعلول"، السبب وما يسبّبه فينتج عنه، فنحن مخلوقات ولها خالق خلقها... فهذه طبيعتنا نحن، وهذا الكلام لا يجري عليه سبحانه وتعالى لأن طبيعته مختلفة عنّا، فلا معنى للسؤال: من خلق الله؟ أو: كيف وُجِدَ الله؟ أو: متى صار الله؟... فهو سبحانه ينبّهنا أن طبيعته مختلفة كَثِيراً وبعيدة جدا جدا جدا عن طبيعة الكائنات التي خلقها، ولا معنى لهذه الأسئلة عنه سبحانه، فليس كمثله شيء، فليس مَخْلُوقاً وَليس مُرَكَّباً ولا مُؤَلَّفاً من شيء حتى تسأل عمّن خلقه تعالى.

عَلَيْكَ بالتمييز بين إصرارك على السؤال عمّن خلقه تعالى وكيف وُجِدَ... وبين من خلقك وجعلك مُتَعَلِّقاً بهذا السؤال وَمُصِرّاً عليه، لأنه تعالى زرعه فيك لتسأل عمّن خلقك أنت، وبالتالي لتصل إلى معرفته تعالى، ولم يجعله فيك لتسأل عمّن خلقه تعالى، لأنه وكما تعلم فهو أَصْلاً ليس مَخْلُوقاً وَليس مركّبا ولا مؤلّفا من شيء ما، وأخبرك عبر رسله وكتبه أن طبيعته عزّ وجلّ مختلفة جدا جدا جدا عنّا، وأخبرنا تعالى أنه حتى الكائنات التي خلقها سبحانه بقدرات عالية جدا جدا، وهم الملائكة العالية "جبرائيل وميكائيل...(ع)" فحتى هذه الكائنات العالية لا يمكنها فهم حقيقة طبيعته سبحانه وتعالى، وهي في خلقتها في كيانها في طبيعتها بعيدة جدا جدا عن الطبيعة الإلهية، فحتى هذه الكائنات العالية لا يمكنها التعامل معه سبحانه وتعالى بشكل مباشر، بل يوحي سبحانه لها أو يكلّمها من وراء حجاب، وهذا لا يعني أنه سبحانه يضع حِجَاباً حَاجِزاً حتى لا يتمكّنوا من رؤيته أو التعامل معه مباشرة، لا، بل هو تعبير عن واقع حال البعد الهائل بين طبيعتهم وطبيعته تعالى، وأنه سبحانه أَصْلاً بالنسبة لهم بينه وبينهم حجاب كتدرّج لتواصله تعالى معهم عبره.

تذكّر تجليه تعالى للجبل في حادثة النبي موسى(ع)، فهذا المفهوم عن انهيار كيان الكائن، انهيار الجبل، إذا تعرّض للتواصل شبه المباشر معه تعالى، هُوَ نفسه سيحصل مع الملائكة (ع) إذا تعرّضوا للتعامل المباشر معه سبحانه وتعالى، ولذلك يتعامل معهم سبحانه من وراء حجاب أو يوحي إليهم لأنهم لا يمكنهم تحمّل التواصل المباشر معه سبحانه وتعالى.

أطلت عليك يا عزيزي ويا عزيزتي لننتبه لأمور رُبَّمَا تكون مفهومة عندنا بشكل غير صحيح، فالفرق والبعد الهائل بين طبيعة تكويننا وطبيعة تكوين الملائكة(ع)، بحيث لا يمكننا رؤيتهم هنا في الدنيا على طبيعتهم كَمَا هُمْ وبسبب تغيّر تكويننا نحن فَسَنَرَاهُمْ في الآخرة، فإذا استحضرت هذا في بالك، وانتبهت أنهم هم بدورهم بينهم وبينه تعالى فرق وبعد هائل في طبيعتهم، فسترى بسهولة الفرق بين إيمانك به تعالى، وبين سذاجة إيمان من اخترع آلهة شريكة له تعالى في الألوهية، فهم أَوَّلاً اخترعوها من خيالهم، ولا هي أرسلت لهم رسلا "كما أرسل تعالى صاحب اسم هذه السورة "يوسف"، ولا الله تعالى قال إِنَّهَا آلهة... وَثَانِياً هم لم يلتزموا حدودهم كبشر بقدرات محدودة، فيمكننا من النظر في أنفسنا وما حولنا استخراج بَعْضٍ من صفات الذي خلقنا بسهولة، فهو حَتْماً حيّ، حَتْماً قوي، حَتْماً عليم سميع بصير... وَاستقصد سبحانه خلقنا بهذه القدرة على رؤية هذه الصفات له تعالى لنعرفه ونعبده... وإلى هنا تنتهي حدود قدراتنا على معرفته تعالى، وعبر رسله تعالى وكتبه نتعرّف على أمور إلهية تفوق قدرتنا على التصوّر وعلى استخراجها مما نراه، فهو سبحانه وتعالى يصف نفسه لنا، ومن البديهي أنه تعالى يعلم بنفسه وبقدراته وصفاته أكثر منّا، وَأخبرنا مِرَاراً وَتَكْرَاراً أنه من المستحيل أن يكون هناك كائن آخر غيره تعالى وموصوف بأنه إله، مستحيل.

هذا من جانب، ومن جانب آخر، كَانَ سبحانه شَفَّافاً معنا، وقال لنا مِرَاراً عبر رسله وكتبه إِنَّهُ سبحانه لم يجد ولا أي أثر ولا بأي شكل لأي كائن إلّا للكائنات التي خلقها هو سبحانه وتعالى، فيقول سبحانه مِرَاراً وَتَكْرَاراً: هو الله في السماوات والأرض، لا إله إلا هو... في السماوات والأرض... فسبحانه وبكل شفافية يقول: إنَّ كل شيء فهو ضمن السماوات والأرض، فهذه هي حدود كلّ دنيا المخلوقات، وكلّها أنا خلقتها، ولم يحصل ولا مرّة أن لمست تدخلا لأحد غيري فِيهَا، ولا بأي شكل، وأنا أعلم بنفسي وأعلم أنّي لم يخلقني أحد، فطبيعتي مختلفة جدا جدا جدا عن طبيعتكم، ومن المستحيل أن تنطبق عليّ كلمة: مخلوق. لأني لست مركّبا ولا مؤلّفا من شيء، ومن المستحيل أن يكون هناك كائن غيري بصفاتي أو حتى قريب من صفاتي. وهذا هو غَالِباً التسبيح الذي يقصده القرآن، وهو التنزيه له تعالى عن وصفه بشيء أقلّ مما هو تعالى عليه فِعْلاً.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ{109})

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا}، الذين اخترناهم لنقل كلامنا للناس لم يكونوا من الملائكة أو الجن أو غيره، بل كانوا كلّهم رجالاً "ذكوراً" من البشر، {نُّوحِي إِلَيْهِم}، نوصل المعلومات إلى وعيهم وفكرهم بدون كلام مباشر صادر منه تعالى، وللتوسع في معنى كلمة "وحي" راجع دراستنا للآية 102 من هذه السورة، وكانوا رجالاً، {مِّنْ أَهْلِ}، من الذين ينتمون إلى، {الْقُرَى}، إلى تجمعات سكانية، كبيرة أو صغيرة، ونحن الآن نستعمل كلمة قرية لنصف التجمّع السكاني القليل، ونقول مدينة عن التجمّع السكاني بالعدد الكثير من الناس، ولكن هذا استعمال جديد للكلمات، وأما في أصل معنى كلمة قرية فهي تشير لتجمّع أناس مع بعض، قليلاً كان عددهم أو كثيراً.

إذاً فالنبي محمد(ع) مثله مثل الرسل العديدين الذين أوحينا إليهم وحملناهم رسالة للناس، وكانوا كلهم رجالاً عاديين من مجتمعات معروفة، ولم يكن الرسول الإلهي كائناً من غير البشر، ولا رجلاً لا أصل له وغير معروف من الناس، كرجل خلقه تعالى فجأة بين الناس، أو نزل من كوكب آخر... أو ملاكاً أو جنياً على شكل رجل، لا، بل رجل معروف من هو ومن أهله ومن أي قرية.

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا}، فَيُوَجِّهُوا اهتمامهم العام هنا وهناك على البقع المختلفة من الأرض، كما نقول بالعامية: ليشوفوا. {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ}، والكلام عَمَّا عَقَبَ، عَمَّا أتى بعد أعمال، {الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}؟ والسؤال عن الكفّار الذين عاشوا هنا وهناك ولا تزال آثار بيوتهم موجودة، ومن المشهور بين الناس أن هذه القرية أصابها زلزال وتلك

أصابها إعصار وأخرى انخسفت... فلينظروا في القرى المدمّرة، في قرى ثمودَ وعادٍ وفرعونَ... من دمرها؟ ولماذا لم يبق أهلها؟ وأين هم؟

{وَلَدَارُ الْآخِرَةِ}، والمكان الذي تدور فيه أمور حياة الناس في عالم الآخرة بعد عالم الدنيا الأولى، هو، {خَيْرٌ}، فموصوف بأنه حسن جيد، {لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا}، للذين تجنبوا غضبه وعقابه سبحانه، وآمنوا بتوحيده واتبعوا دينه سبحانه، {أَفَلَا تَعْقِلُونَ}، أَلَا يستوعب فكركم هذه المعلومات ويفهمها؟

(حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ{110}) {حَتَّى اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ}، الذين حمّلناهم رسالتنا لينقلوها إلى الناس إذا انقطع أملهم من شيء كانوا يفترضون أنه سيحصل، وَكَانُوا يفترضون أن الناس ستؤمن بهم، ولمّا لم يعد عندهم أمل بإيمان الكفّار، {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا}، استناداً لما يَرَوْنَهُ من أقوال وتصرفات الناس حيث يَرَوْنَهُمْ لم يؤمنوا، واستنادا إلى خبر منه تعالى بأنهم لن يؤمنوا، عندها، {جَاءَهُمْ نَصْرُنَا}، جاء منه تعالى ما يحقّق ما يريده الرسل، وهنا الكلام عن نزول عذاب دنيوي على الكفّار، {فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ}، وَأَمَامَهُ تعالى خيارات عديدة وَأَخْبَرَنَا سبحانه أنه في هذه الحالة قَرَّرَ تخليص المؤمنين من العذاب، {وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ}، فالناس الذين لهم كيان الجماعة وقاموا بأعمال يستحقون العقاب عليها، فإذا قرّر سبحانه إصابتهم ببأس من عنده، بشيء شديد، فلا أحد يمكنه ردّه عنهم.

لا آلهتهم الوهمية يمكنها إنقاذهم، ولا معدّاتهم ولا صلابة أبنيتهم... ولا شيء يمكنه منع موتهم.

نلاحظ من القرآن أن الرسول الإلهي قد يحصل لديه اليأس من إيمان الكفار به، ولكن قرار نزول العذاب في الدنيا على الكفّار هو بيده تعالى، ونعلم من قصّة النبي نوح(ع) أنه جاءه خبر إلهي بأنه لن يؤمن له إلّا من قد آمن من قبل، وسينزل العذاب الدنيوي... راجع الآية 36 من سورة هود {وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}.

يأسُ الرسل من الكفار ليس لوحده سبباً لنزول العذاب، حيثُ قد ييأس الرسل ويكون هناك شخص سيؤمن فيما بعد وهم لا يعلمون، وَمِنَ القرآن نعلم أن يأس الرسل مدعوم بوحي إلهي يؤكد صحّة يأسهم، وهو من أسباب نزول العذاب الدنيوي.

تلاحظ من القرآن أن مشيئته تعالى ليست عبثية، حيث هنا قالت الآية أنه تعالى ينجّي من يشاء، ولكن نعلم من بقيّة القرآن ومن قصص نزول العذاب على الأقوام، أنه تعالى نَجَّى المؤمنين، ونعلم من قصّة النبيين شعيب(ع) وصالح(ع) أنه سبحانه أيضاً نَجَّى بعض الكفّار من قريتهما، وَلَمْ يكن العذاب مبيداً للقريتين بل بقي منهم أحياء، ولكن لم تذكر الآيات سبب نجاة هؤلاء، ونخمّن بناء على ما نقرأه من قصة قوم النبي نوح(ع) عندما أخبرنا القرآن أن قومه لن يؤمنوا، ولن يلدوا إلا كفّاراً كما ورد في الآية 27 من سورة نوح {إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا}، حتى في المستقبل من ذريّتهم لن يخرج شخص مؤمن، وبناء عليه وكما يبدو فسبحانه ينجّي المؤمنين، وينجّي الكفّار الذين سيكون من أولادهم أو أولاد أولادهم... شخص مؤمن، وهذا بناء على ما نستوحيه بشكل شبه صريح من القرآن.

ننتبه، حيث هناك احتمالات متعددة حول معنى الآية تجدها في الكتب، وسببها قولهم عن كلمة "ظنوا" أنها غير مناسبة للرسل، ولكن بمراجعة القرآن والعرب قديماً لاستعمال كلمة ظن، وجدنا أن معناها هو اعتقادك بشيء ما مستندا إلى شيء ما، فإن كان ما تستند عليه صحيحاً كان ظنّك صحيحاً، وهذه حالة المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم سبحانه كما ورد في الآية 46 من سورة البقرة {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، لأنهم مستندون في ظنّهم على آياته وكلامه تعالى. وإن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران {وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ}، واستناداً للحالة الحرجة التي كانوا فيها ظنّوا أنه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء. وبين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند عليها ولكنه ليس مقتنعاً بها، فلا تزال الأمور عنده مرجّحة لاحتمالات أخرى، فهذا ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}، لأنهم

يريدون أن يلمسوا مباشرة حصول ساعة قيامهم من الموت حتى يعتقدوا بها ولا يكفيهم الاستناد إلى معلومات تدلّ عليها، فيريدون اليقين بها عياناً حتى يؤمنوا. وهذه الحالة قريبة جداً من الاصطلاح "في علم المنطق" والدارج لمعنى كلمة ظنّ على معنى وجود عدة احتمالات. وها صرت تعلم المعنى اللغوي الأساسي لكلمة "ظنّ" فانتبه للفرق بينه وبين المعنى الاصطلاحي حتى لا تفسّر القرآن على أساس المعنى الاصطلاحي.

في عموم كتب التفاسير ستجد كلاماً آخر عن الظنّ، ولا ينطبق معناه على كلّ آيات القرآن، حيث ستجدهم لا يثبتون على معنى واحد للظنّ، حيث مرة يرادفونه باليقين، ومرّة بالشك، ومرة بالحسبان... وهي معاني غالباً ستجدها صحيحة لأن الآيات واضحة وتدل على المعنى الذي ذكروه بالشكل العمومي الذي يتحمله الاشتقاق والتدرّج من أصل معنى كلمة ظنّ، ولكنها ليست المعنى الدقيق لكلمة ظنّ، بل كلامهم توصيف لحالة العلم الذي استند إليه الظنّ، وها صرت تعلم معنى الكلمة العام، وأن القرآن دائماً يوضّح لك نوع العلم الذي يستند الظنّ له إن كان صحيحاً أو فاسداً، فلن تضيع في معرفة الظنّ الصحيح من الظنّ الخطأ.

هنا واستناداً لما يراه الرسل من الناس من حولهم "ظنوا" أنهم كذّبوا، وبناءً على ما يرونه اعتقدوا أنه لن يؤمن أي شخص جديد...

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{111})

{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ}، فِيمَا تتبعناه عن الرسل وأخبرناك به، كان فيه، {عِبْرَةٌ}، شيء تعتبر به، شيء تستنتج فتستخرج منه حتى تصير الفكرة الصحيحة ثابتة في الذهن، {لِّأُولِي الْأَلْبَابِ}، للذين عندهم لبّ فعندهم شيء له قيمة في داخلهم، وباستعمال اللبّ يفكّرون ويفهمون الأمور بطريقة صحيحة، فهؤلاء سيأخذون عبرة من تلك القصص ويؤمنون، ومن لم يعتبر فلا لبّ له، ليس فيه ما له قيمة حقيقية، لا فكر ولا عقل ولا فهم له قيمة حقيقية فيه، حتى لو كان يملك عشرين شهادة دكتوراه، فهو يفهم في أمور بعض العلوم ولكن لا قيمة لعلمه حين يرفض رؤية الحقّ الواضح ولا يعتبر من القصص التي ذكرها القرآن.

{مَا كَانَ حَدِيثًا}، الكلام عن الرسل الذي يقوله تعالى عبر هذا القرآن وتسمعونه، لم يكن، {يُفْتَرَى}، لم يكن غير صحيح من أساسه، فقصص الأنبياء التي يرويها القرآن ليست قصصا من الخيال، وليست كذباً ولا واقع لها، فهذه قصّة النبي يوسف(ع) التي فيها الكثير من العبر، وفيها كلام عن مسار الأمور حيث يريده تعالى، وكلام عن مؤمن نال قدرة غير عادية من تأويل الأحاديث... فهي ليست تأليفاً من الحائط والخيال، بل حصلت فعلاً ونقلها لنا القرآن فهي ليست افتراء، {وَلَكِن}، تلك القصص، {تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ}، فالقرآن نقل هذه القصص وهي موجودة في الكتب التي بين يديه مثل التوراة والإنجيل، فهناك مصادر أخرى لهذه القصص، مما يدل على صدقها وعلى تأكيد حصولها فعلاً، ويدل على تماشي هذا القرآن مع ما سبقه من كتب منسوبة لرسله تعالى... وهذا يشير للامتداد التاريخي لرسله وكتبه سبحانه... والقرآن، {تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ}، فكل شيء يهمّ الناس ليهتدوا فهو في القرآن موجود بشكل مفصّل غير مبهم وغير مخلوط بأمور باطلة أو تشوّش الأفكار.

القرآن، {هُدًى}، ففيه الأشياء الصحيحة التي توصلنا للغاية الصحيحة، فتجعلنا نؤمن بالحقّ ونفعل الصالحات، وهي نفسها توصلنا لرضاه تعالى والجنّة، والقرآن، {رَحْمَةً}، عناية إلهية لمصلحة، {قَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة، {يُؤْمِنُونَ}، هم في حالة إعلان اعتقادهم والتزامهم بالدين الإلهي. فالقرآن رحمة معروضة لكل الناس لأنه يضعهم على الشيء الصحيح، ومن آمن به فصار القرآن فعلاً رحمة له، ومن لم يؤمن فهو لم يستفد من تلك الرحمة.

ننتبه جيداً للفرق بين التفصيل والتفاصيل، فالتفصيل هو التحدّث عن النقاط المهمّة بشكل واضح، والتفاصيل هي دقائق الأحداث، كاسم الملك واسم العزيز واسم زوجته... فهذه تفاصيل لم يجد الإله سبحانه من داعٍ لذكرها في القرآن، ولكن كل ما هو مهم ويمكن أخذ العبرة منه، فَفَصَّلَهُ وَذَكَرَهُ القرآن ولم يتركه مبهماً.

بقي شيء ذكرناه هنا وهناك في دراستنا، فهناك جمل في القرآن معناها: شخص مؤمن أصلاً، وهذا القرآن له. مثلما تقول آيتنا هنا، وللوهلة الأولى نرى هذا الكلام لا يتماشى مع فكرة: الشخص لا يكون مؤمناً، ويأتيه هذا القرآن فيؤمن.

فننتبه أن القرآن شرح لنا وقسم الناس نوعين، نوع قلبه سليم وله لبّ ويعقل ويبصر... ونوع قلبه مطبوع عليه غُلْفٌ ولا عقل له ولا لبّ وأعمى... فهم الناس هكذا قبل نزول الكتاب الإلهي عليهم، فمن لم يخترع آلهة وهمية وكان خلوقاً لا يعتدي على الناس... ووصل إلى معرفته تعالى من الآيات التي فيه وحوله... فهذا مؤمن، ومن بعد وصول الكتاب الإلهي إليه، يصير مؤمناً بما فيه لأنه أصلاً يتماشى مع فكره ومشاعره. وبالعكس فمن كان كافراً به تعالى وغير شاكر له... ومخترعاً لآلهة من خياله ويعتدي على الآخرين... فهذا كان كافراً من قبل وصول الكتاب إليه، وسيبقى كذلك ولن يؤمن لأن فكره وتصرفاته وما يهواه لا يتماشى مع ما يقوله الكتاب الإلهي، ولمزيد من التوسّع حول هذا راجع دراسة الآية الثانية من سورة البقرة {ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}.

طبعاً هناك أناس بين بين، بين الإيمان والكفر، بين سلامة القلب في أمور، وبين مرض القلب في أمور أخرى، ويكره بعض الأمور السيئة والتي عليها عقاب، ويحبّ بعض الأمور السيئة... فهذا ينذره القرآن ليتراجع عن سيئاته، ويحذّره من السيئات الأخرى ويبشّره بالجنّة إن استغفر وتاب، وهذا قد يؤمن ويتحسّن، وقد يكفر ويبتعد أكثر، ولذلك فالآيات التي تقول بأن هذا القرآن هدى ورحمة للمؤمنين، فهي لا تقصده مباشرة بل تقصد الجانب المؤمن الذي فيه إن تغلّب على جانب الكفر.

سورة الرعد (13) ص 249

بدأت السورة بمقدمة تلفت الانتباه للقرآن وللظواهر الطبيعية ودخلت منها على المتعجبين لإعادة من صار {تراباً} إلى الحياة في الآخرة، ويريدون آية لإثبات ذلك، وإلا فهم باقون على كفرهم وفعل السوء... وفي مقابلهم المؤمنون الفاعلون للصالحات ومصيرهم في جنات خالدة.

تلفت السورة انتباهنا لما زوّدنا به سبحانه لنتعرّف عليه، بالآيات الطبيعية من حولنا والتي تدل من التفكّر فيها على الإله الخالق وقدراته الفائقة... وينتج عن ذلك المشاعر المتفاعلة مع الظواهر {خوفاً وطمعاً}، ونتعرّف عليه تعالى من اندماجنا مع ظواهر بيئتنا بالأكل منها وبصنع أشياء فيها... والدالة على إله صمّم وخلق ودبّر بإدارة الشؤون... وصولاً إلى كتاب منه تعالى يهدينا فهو آية مضافة لما سبق من آيات لهدايتنا.

إنكارُهُ تعالى أو عبادة غيره هو متعارضٌ بشكل واضح مع دلالة الآيات التي فينا وحولنا على توحيده تعالى، ومضافاً له، الكافرون يطلبون آية كشيء استثنائي وها القرآن آية استثنائية واضحة، وسترى السورة تذهب بك للآيات المنتشرة في السماوات والأرض ثم تأتي لتعيد لفت الانتباه للقرآن، وتختم آخر جملة فيها عن القرآن كدلالة واضحة عليه تعالى بما يحويه من كلام حقّ وصلاح، والقرآن في جانب كبير منه هو كلام الإله عن صفاته وأفعاله... لنتعرّف عليه بشكل صحيح...

دخلت السورة على موضوع الشرك لتخبرنا أنه تيه يسبّب تشويه رؤية دلالة الآيات عليه تعالى، وبالتالي الشرك من موانع الإيمان بقدرته تعالى على إعادتنا من التراب، وهي المسألة التي اختارتها السورة كنموذج عن سخافة الكافرين به تعالى وبقدراته أمام ما يرونه من عظيم أفعاله في خلق السماوات والأرض.

سورتنا هنا مثل سورتي الجاثية والواقعة وهي من السور المناسبة للكلام مع منكري الألوهية من أصله، وباصطلاحنا الحالي نصفهم بالملحدين، حيث القرآن اعتبرهم كاذبين، لأنّ من داخلهم فطرة الإيمان به تعالى، والمعاندون لهذه الفطرة صنفان سيّئان، أحدهما شائع وهم المشركون الذين تماشوا مع ما في فطرتهم مما يعرّفهم عليه تعالى ليؤمنوا به، ولكن اخترعوا آلهة أخرى... وآخرون كذبوا على أنفسهم فأعلنوا أنهم أصلاً لا إيمان داخلي لديهم بأي إله أو آلهة.

على كلا الحالتين، الكلام معهما واحد، فليلتفتوا إلى ما فيهم وحولهم ودلالته على إله واحد أحد، ومضافاً له هذا الكتاب النازل من عنده تعالى.

أيُّ عقيدة تفسّر خِلْقَتَنا وخِلْقَةَ كوننا بغير نسبتها له تعالى فهي عقيدة شرك به تعالى، ولو آمنت بالطبيعة هكذا ككلمة تقولها في الفراغ من دون تحديد معناها... فهي إلهك، ولو آمنت بالصدفة فجعلتَ الصدفة إلهاً، وإن آمنت بكثرة التكرار ونجاح واحدة منها حتى تشكّل الكون، فالتكرار إلهك... والكلام كلّه عن تفسير خلقة كوننا بما فيه، والتفسير الوحيد

الصحيح أنه تعالى صمّمه وخلقه، وأي تفسير آخر هو غير صحيح وبالتالي هو كفر بالحقّ وشرك غير مقبول به تعالى، وسورتنا هذه تصحّح هذا الاعتقاد لمن يريد التصحيح والنجاة من العقاب...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ{1})
المر، هذه حروفٌ نتهجّاها مقطّعةً هكذا: ألف لام ميم راء.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوَّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

نرجع للآية، {المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ}، هذه الأحرف هي أشياء مميزة كانت في الكتاب الرئيسي، {وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ}، فما نزل عليك على شكل قرآن من المسؤول عنك من مستوى إلهي أيها الرسول محمّد(ع) من ذلك الكتاب الرئيسي فهو الحقّ الصواب الصحيح، وليس كذباً أو افتراءً، ونحن نخبرك أن ما ينزل عليك هو من عندنا، ومن عندنا لا يصدر إلا الحقّ.
{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ}، أكثر الناس لا يعتقدون بالقرآن كتاباً إلهياً، وسترى من بقية السورة توجيهها كلامَها لنوع من الناس لا يعتقد بالعودة إلى الحياة من بعد الموت ويعتقد بوجود آلهة متعددة، ولا يرى الظواهر من حوله وفي نفسه أنها تدل عليه تعالى لوحده كإله.

عندما تخبرنا الآية هنا أن القرآن نازل من عند الله تعالى، فهذا هنا مجرد خبر، وأمّا الدليل عليه فورد في العديد من الآيات الأخرى من القرآن، مثل التنبيه على فقدان كل البشر القدرة على تأليف قرآن مثله، وأن النبي محمد(ع) عاش بين الناس لسنين طويلة ولم يسمعوا منه ولا مرّة كلاماً يشبه القرآن، وفجأة صار يقول القرآن، وهو لم يكن أديباً أو شاعراً... بل كان أمّيّاً... والكثير من الأدلة التي تحدّث عنها القرآن... والدليل على إلهية مصدر القرآن أثبته القرآن ذاته بالأدلة العديدة المتنوعة، ولم يكتف بأن يخبرنا فقط بأنه منه تعالى.

سترى في بقية السورة لفت انتباهنا لما في أنفسنا وما حولنا مما يدل عليه تعالى، وتعتمد السورة على هذه الظواهر كشيء مميز كآية كدليلٍ عليه تعالى، وبالتالي المسؤول عن هذه الظواهر لن يتركنا من دون إخبارنا بما خطّطه لنا، وهذا القرآن يتماشى تماماً في كلامه مع ما في أنفسنا "وأبرز نموذج هو تعلقنا بالإله في الشدائد" ومع الظواهر التي من حولنا وكونها تدل على إله واحد أحد.

تلاحظ السورة بدأت بخبر إلهي لنا عن أكثر الناس بأنهم لن يؤمنوا بما يطرحه عليهم القرآن من دين "عقيدة، وشريعة وسلوكيات، إيمان وعمل صالح"، ونجد هذا المعنى في العديد من الآيات القرآنية، وتعرّفنا الآيات أن العطل ليس في

القرآن ولا في الرسول ولا في الدين ولا في الآيات، بل لسبب أو لآخر فهم لا يريدون أن يؤمنوا، وهنا من خلال السورة ستفهم أن الآيات الإلهية منتشرة من حولنا ومضافاً إليها القرآن ككتاب إلهي وكآية عظيمة، ولكن رغم ذلك الأكثرية لن تؤمن لأنها اتبعت هواها وما اخترعته من آلهة.

الخلاصة: في مسألة دينكم "عقيدتكم وشريعتكم وسلوكياتكم" أيها الناس استعمل الإله أحرف نطق لغة من لغاتكم، ونموذج منها الألف واللام والميم والراء، وأنزل كتاباً من عنده، ولكن حتى هذا الأمر الضخم في أهميته، صار معنا كتاب من الإله سبحانه، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون به ككتاب من الإله! وستعرض السورة لفت انتباه لما فعله سبحانه مما يدلنا عليه، وستعرض حالة الذين لا يؤمنون.

(اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاء رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ{2})
بمن يكفرون ولا يؤمنون؟ {اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ} "السبع" فجعلها فوق بعضها البعض، {بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}، هي مرفوعة ولا تحصل لكم صورة عن عمد لها، هي مرفوعة من دون شيء تعتمد عليه كعواميد أو دعائم يمكن رؤيتها. عادة نحن نبني ونرفع الأشياء "كسقف البيت" بواسطة عواميد باطون أو حديد أو خشب... وسبحانه رفع السماوات بعمد بأشياء تستند عليها السماوات لتكون طبقات فوق بعضها، ولكننا لا نرى تلك العواميد، انتبه، صورة العامود "الطويل وقليل العرض" في ذهنك لا تساوي المعنى الحقيقي لكلمة عمد، تَصَوَّرْ أنك بنيت سقفا داخل صخرة كبيرة، فكان السقف معتمدا على جوانب الصخرة، فالصخرة بعرضها وارتفاعها هي عمد للسقف، فلا تتصوّر العمد التي تفصل السماوات على شكل مستطيلات من الباطون أو الحديد... لا، فهناك شيء تعتمد عليه كلّ سماء لتكون مفصولة عن السماء التي تليها، وبعدها عمد لسماء ثانية، ونوع هذه العمد غير مرئي لنا.

بعبارة أبسط، نحن معتادون على رؤية ما تعتمد عليه الأشياء حتى تصير فوق بعضها، مثلاً السقف يعتمد على أسطوانات الخشب أو الباطون أو الحديد، ونسميها عواميد لأنها عمد، والسماوات تعتمد على شيء حتى تنفصل عن بعضها وتصير طبقات، والكلام عن السماوات السبع، حيث السماء التي نراها بنجومها ومجراتها هي سماء واحدة بالنسبة لست سماوات أخريات، سماؤنا مرفوعة من كل الجهات بالنسبة للذي فيها، والسماء التي فوقها كطبقة أخرى أيضاً مرفوعة... وهكذا وصولاً إلى السماء السابعة، حتماً هناك ما تعتمد عليه كل منطقة حتى صارت سماء كفضاء، وهو عمد، ونحن لا نرى تلك العمد.

كلمة سماء اسم وصفي لعموم ما علا من فضاء أو غيره ويقابله أرض، فكل سماء يقابلها أرض، وهذا لا يعني أنها أرض واحدة وترابية، لا، فسطح كوكبنا أرض، وسطح المشتري الغازي أرض، وسطح الشمس أرض... وهكذا فلكل سماء ما يقابلها من أرض أو أراضٍ وهذا ما قالته الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}...

تفهم من عموم القرآن أن عالمنا المؤلّف من المواد التي رتّبناها في الجدول الدوري للعناصر الكيميائية، كان التعبير القرآني عنها أنها الماء والطين، ويلي كوننا في السماء التالية عالم من مواد مختلفة "كثيراً أو قليلاً لا أدري"، بعده عالم من مواد مختلفة... وصولاً إلى سماء لا يمكننا تخطيها لأنها للملائكة(ع) وهذا ما نفهمه من الآية 35 من سورة الرحمن {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ}، وليس معلوماً لنا من القرآن أي سماء هي، فهل هي الثالثة أو الرابعة... أو السابعة؟ غير معلوم.

لاحظ أنك لا يمكنك جعل الفعل {تَرَوْنَهَا} يشير للسماوات كمفعول به، لأننا نرى واحدة فقط، وهي حتماً تشير للعمد لا للسماوات، وليست الجملة هكذا: رفع سماوات ترونها ورفعها بغير عمد. لا بل هي الجملة هكذا: رفع السماوات بعمد ولكن لا ترون العمد، العمد من "غير" النوع الذي ترونه، هناك عواميد ترونها كعامود الباطون والخشب، وأما العمد "ما تعتمد عليه، العواميد" التي رفع تعالى بها السماوات فهي من غير تلك العمد التي ترونها.

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي، مدّةً بعد مدّة نبتلي بعجوز أو شاب خَرِفٍ يدمج القرآن بالعلوم العصرية، فيبرهن أن العمد بين السماوات هي الجاذبية، وأن القرآن سبق العلوم والاكتشافات... ولو جمعت أقوال هذه النوعية من الناس من بدايتها

في التاريخ الإسلامي، لوجدت أن العلوم تغيّرت، وأن تفسيراتهم العلمية للقرآن صارت خطأ بعدما تغيّرت معلوماتنا باكتشاف أشياء جديدة. وكمثال على ذلك أذكر لك تفسيراً علمياً قديماً جداً للقرآن يفسّر السماوات السبع على مدارات الكواكب السيّارة حول الشمس، ففي حينها لم يعلموا بوجود كواكب سيارة أخرى حول الشمس، وفي حينها لم يعلموا أنها تدور حول الشمس وكانوا يعتقدون أنها تدور حول الأرض! فكانت عندهم بالنسبة للأرض كسبع سماوات فوقها... ويكفيك هذا كنموذج واضح عن المحاولات الفاشلة الأولى التي أصرّ قائلوها على كون القرآن كتاباً يطرح نظريات علمية عميقة للمتخصصين في العلوم!

وفي عصرنا هناك إصرار عند العديدين بأن الجاذبية هي العمد التي لا نراها والتي تجعل مكونات الكون تسبح في الفضاء، مع العلم أن الجاذبية ليست شيئاً، بل هي مجرد وصف لحالة نراها، في عمق الفهم للفيزياء، لا يوجد شيء اسمه جاذبية، بل يوجد حالة جذب "ثقالة" بين الأشياء التي لها كتلة أو ما يعادلها من طاقة، فخاصية الكتلة أو الطاقة وخصائص ما يبدو فراغاً بين الأشياء، بينهم علاقة نسميها الجاذبية كوصف رياضي لحركة الجذب، وللمصرّين على تحديد عمد لكوننا، أقرب شيء من عمق ما نفهمه حالياً من الفيزياء الحالية، العمد هي خاصية ما بين الأشياء البعيدة عن بعضها، وهي خصائص ما نسميه بالفراغ والذي يقولون حالياً أنه نوع من الطاقة المعتمة والمادة المظلمة اللتين لا نعرف عنهما إلا أثرهما... وهذا ليس توصيفاً آخَرَ للجاذبية، حيث هناك خصائص كثيرة للمساحة بين الأشياء منها الجذب، ومنها المعاوقة ومنها التوسّع... وصولاً إلى تصور حالة السقوط الحرّ مندفعين بعيداً عن المركز الذي نفترض أن كوننا انبثق منه، حيث حالة السقوط في كل الاتجاهات لكل المجرات والأجرام السماوية، مضافاً إليه حالة التوسّع فهي أقوى بكثير من خاصية الجذب بين الأشياء.

لنعبّر بشكل آخر، لو صدقوا فيما يقولونه حالياً عن توقّعهم لشبكات من الطاقة والمادة من غير نوع المادة المعروفة، وهذه الشبكات منتشرة وممتدة بين المجرات، فهي البديل المستقبلي لنوعية الناس الذين يلصقون بالقرآن ما لا يفهمونه من العلوم والاكتشافات، حالياً هذه النوعية من الناس يفسرون العمد بالجاذبية، وفيما بعد سيأتي آخرون من نفس العقلية، ويفسرون العمد بشبكة الطاقة المعتمة أو المادة المظلمة، وبعدهم سيأتي آخرون يفسرونها بالشيء الجديد الذي اكتشفناه...

في دراستنا هذه استعملنا العلوم الأكاديمية لا لتفسير القرآن بل لتقريب التصوّر، لأن القرآن لم يعرض علينا ما يحتاج لدراسة أكاديمية علمية متخصصة لفهمه، وهنا لا مشكلة لو قلنا إنّ مفهوم الجاذبية يقرّب لنا صورة ما تشير له الآية، ولا مشكلة لو قلنا إنّ شبكات الطاقة والمادة المتشابكة في كوننا تقرّب لنا ما تصوّره الآية من عمد، ولكن المشكلة هي تفسير الآية بالجاذبية أو بتلك الشبكات.

ومن ناحية ثانية ما تطرحه الآية بكلامها مع عامّة وعموم الناس عن عمد غير مرئية للسماوات التي لا نرى منها إلا جزءاً صغيراً من سمائنا، حيث وجهت كلامها لعرب في صحراء قاحلة بالكاد يجيدون الحياكة لما يلبسونه... وإلى مفكرين ومتخصصين من عصرنا وما بعده، بشكل واضح ترى أنه سبحانه قصد منها استفزازنا بشكل تتقبله عقول الناس من مختلف المستويات الثقافية.

بسهولة نرى حجمنا الصغير أمام أمور شكّلت السماوات... بينما نحن نتعاطى مع أمور صغيرة وتافهة من اختراعات واكتشافات، ولنرى حجمنا الصغير أمام خالقها، ولنسأل عن كيفية صيرورتها... لنصل لرؤية خالقها ذي القدرات الفائقة، وعن ذلك التفكّر ينتج محاولة فهمنا لما حدث، والدارج بيننا تحويل المعطيات إلى متغيرات لها قيمة رقمية، فنتعامل معها بالمعادلات الرياضية...

وكما ترى أطلت الكلام ومن المفروض أن نتكلّم بعد أكثر، لأن السورة مشحونة بلفت انتباهنا لما فعله تعالى في الدنيا حتى نتعرّف عليه من التفكير فيما فعله.

نرجع للآية، {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، بعد اكتمال الملك، اكتمال خلق السماوات والأرض برفع السماوات طبقات فوق بعضها البعض كما ورد في الآية 15 من سورة نوح {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}، استوى سبحانه وصار الحال بالتمام كما هو مطلوب من السيطرة والملك، {عَلَى الْعَرْشِ} على وصف الفوقية بالسيطرة على الكائنات،

على السيطرة المركزية وإصدار الأوامر، بعد اكتمال خلق السماوات كلها والأرض، اكتملت هذه المملكة، وسبحانه وكما أخبرنا فهو في كل مكان، وبالتالي فعرشه سبحانه أيضاً في كل مكان.

بالنسبة لكلمة {عَرْش}، العرش الذي نعرفه نحن هو الكرسي الفخم الضخم الموضوع على منصّة ويجلس عليه الملك أو الحاكم، وأصلاً كلمة عرش وصف لعموم ما علا ويقابلها فرش، وعرشه سبحانه تعبير عن الإدارة المركزية من مستوى ربوبي، تعبير عن مركزية السيطرة والقرار لكل ما في الدنيا "والآخرة"، وبما أن سيطرته تعالى ممتدة على كل الدنيا "والآخرة" فعرشه سبحانه ممتدّ بامتداد الدنيا "والآخرة"، على كل ما في الدنيا والآخرة كما هو واضح من تعبير الآية 255 من سورة البقرة {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}.

ولدينا تراث ديني ثقافي يشير البعض منه إلى وجود شيء محدّد كعرش له سبحانه، كشيء مشابه بشكل ما لمكان تتم فيه إدارة شؤون الدنيا، واستندوا على ذلك قرآنياً بالآية 17 من سورة الحاقة {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، وكلامهم خليط من تصوّرات مختلفة، بعضها سببه استعمال لغتنا لتوصيف أمور لا يمكننا نحن البشر تصوّرها، وبالتالي الكلمات التي نستعملها لذلك تنقل نفس المعنى ولكن لأمور مختلفة، فهناك ملك صلب لا يهتز وإدارة إلهية مركزية لما في الدنيا، ولكنه سبحانه واسع محيط، وهناك ملائكة بقدرات عالية خلقها سبحانه ووظّفها لإدارة بعض شؤون ما في الدنيا، وأشهرها وضوحاً من القرآن ملك الموت، وهذه موصوفة "بلغتنا" أنها حاملة للعرش، والكلام القرآني الذي يشير لقوّة الملك ولنواة الحكم والسيطرة لا يشير إلى مكان، ولا إلى شيء، بل إلى حالة، وهذا واضح جداً من تعبير الآية 255 من سورة البقرة بوصفها وساعة الكرسي بوساعة السماوات والأرض.

من السذاجة تصوّره تعالى جالساً على كرسي على منصّة وثمانية ملائكة يحملون المنصّة، ضاربين بعرض الحائط كلامه سبحانه عن نفسه بأنه واسع محيط وليس كمثله شيء فلا يمكن لأي مخلوق تصوّره...

الوصف القرآني لملائكة حافين حول العرش أو حاملين له هو وصف حالة وليس وصف مكان.

بعبارة أخرى، كل السماوات... وهذه الأرض التي نحن عليها، وهي كل ما في دنيا المخلوقات، خلقها كلّها ربنا الله سبحانه، ويخبرنا سبحانه أنه هو بنفسه ولوحده ركّبها وألّفها في ست فترات زمنية، وبعد اكتمالها، لم يتركها سبحانه لغيره ليديرها، بل استوى على العرش وكل شيء صار بالتمام وانبسطت سلطته عليها كلها، ومن دون تهديد من أحد بالقدرة على التدخل.

على الاسمية لكلمة عرش كاسم لشيء، كل السماوات والأرض "كرسيه" عرشه تعالى، وعلى الوصفية للملك القوي والسيطرة والإدارة المركزية والتي بلغتنا البشرية نستعمل لها وصف العرش، سبحانه حالته أن عرش السماوات والأرض منسوب له، {ذُو الْعَرْشِ}، {وَاسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، وهناك ملائكة موظفون منه تعالى بتنفيذ مهمات "رئيسية" فيكون وصف حالتهم كحاملين للعرش وحافّين حول العرش.

{وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ}، جعلهما يعملان لشيء لا منفعة لهما منه ومن دون مقابل لهما ينتفع منهما البشر، وهنا الكلام عن تسخيرهما لنا لينيران لنا في الليل والنهار، ويحدّدان لنا المواقيت، ونحصل على الحرارة ويحصل المدّ والجزر للبحر... وهما الشمس والقمر لا يحصلان على أي شيء منّا بالسخرة نستفيد منهما.

{كُلٌّ}، كل واحد من الشمس والقمر، {يَجْرِي}، يسير بالتتابع، {لِأَجَلٍ}، لوقت زمني، {مُسَمًّى}، محدّد، فلا يجريان بشكل عشوائي أو بدون انتظام، بل يحددان اليوم والشهر والفصول والسنة بحسب ما حدّده سبحانه.

ننتبه، الآيات القرآنية تتحدث مع شخص واقف على الأرض، وبالنسبة له، الشمس تجري من الشرق إلى الغرب، سواء كما نعتقد الآن أن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس، أو كما كانوا يعتقدون قديماً بأن الأرض مستقرّة والشمس تدور حولها، فلا فرق بالنسبة للشخص الواقف على سطح الأرض، في كلا الحالتين فإن الشمس منظرها للواقف على الأرض أنها تجري، وحتى إلى الآن وبعد تأكّدنا من دوران الأرض حول نفسها وجريانها حول الشمس كل الناس من مختلف الثقافات على الأرض إنهم يعبّرون عن جريان الشمس في السماء لأنه الوصف الصحيح لما يرونه، وكلام القرآن جارى وتماشى مع ما نراه من الأرض، فلا معنى لتوصيفه المشهد من الفضاء، لأنه يريد لفت انتباهك للنهار الذي يبدأ من ظهور الشمس من خلف الأفق... وهناك من لم يفهم ذلك وفسّر الآية بجريان الشمس على ذراع المجرّة!

هرباً من اتهام القرآن بأنه يقول عن الشمس تدور حول الأرض، فذهب بعيداً وأخذ القرآن معه إلى ذراع المجرة ليثبت أن القرآن كان يشير لشيء عظيم... لا، الآية تشير للمنظر الذي تراه من الأرض لجريان الشمس، وهو بحدّ ذاته آية، والقرآن عظيم بدون خزعبلات تفسيره العلمي... أين تقف حتى يصف لك تعالى شيئاً عن الشمس؟ ألست على الأرض؟ صفها لنا؟ لو كنت واقِفاً على سطح القمر فلن ترى الأرض تدور حول الشمس، ولو وقفت في الفضاء فوق قطب الشمس فلن ترى الأرض تدور حولها إلا بعد مراقبتها لأيام طويلة، وأين ستقف حتى ترى الشمس تدور مع ذراع المجرّة؟

نعم هذه المعلومات الفلكية تريك روعة وعظمة ما خلقه تعالى، ولكن عموم القرآن ركّز على ما يراه الواقف على الأرض حين تكلّم عن الظواهر، حيث الشمس تجري من مشرقها لمستقر لها خلف الأفق، وكل البشر وإلى الآن وفيما بعد سنصفها هكذا.

{يُدَبِّرُ الْأَمْرَ}، الأمور والأشياء التي في السماوات والأرض هو سبحانه يقوم بتدبيرها بإدارتها واتخاذ القرارات فيها وتسييرها بالنظر لما سيحدث لها ومعها...

{يُفَصِّلُ الْآيَاتِ}، الأمور المميزة من مستوى إلهي فصّلها تعالى فلم يجعلها مجملة مخلوطة مع شيء آخر يشوّش أفكاركم، مما نراه من ظواهر الشمس والقمر هو واضح بدلالته على إله صمّم وخلق ودبّر، {لَعَلَّكُمْ}، من المفروض ومن المتوقّع منكم، {بِلِقَاءِ}، بمقابلة، {رَبِّكُمْ}، المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {تُوقِنُونَ}، تعتقدون بشيء مطابق للواقع والحقّ. يشرح تعالى لكم ويبيّن لكم العلامات التي من المفترض أن تجعلكم معتقدين بوجود آخرة وحساب، حيث ستقفون بين يدي ربكم لتتحاسبوا وتُجَازَوْا، وهذا فعلاً سيحصل.

(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ{3})

وهو الله سبحانه وتعالى، {الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ}، جعل لها سطحاً ممدوداً صلباً، فلم تتكوّن الأرض هكذا لوحدها أو بالصدفة، ولم يصر لها سطح بسبب العوامل الكونية لوحدها من دون تخطيط، بل سار الكون على المخطط الإلهي حتى صار للأرض سطحٌ. سنرى فيما يلي تكملة المخطّط الإلهي لأن هذا المدّ سيصير عليه جبال ومياه جارية ونبات.

ننتبه جيداً، الآيات تتحدّث مع من يعيش على كوكب الأرض، وسيراها ممدودة، منبسطة، ولن يجد مكاناً كحافة وادٍ لا نهاية له، إذ لا يوجد حافّة للأرض بل كلها نراها ممدودةً، أو متصلة بالماء، ولا تقصد الآية أبداً أي شيء أكثر من وقوفك عليها ورؤيتك لها ممدودة، ولا تتحدّث الآية أبداً ولا بأي شكل عن تسطّح ولا عن كروية الأرض ككوكب.

{وَجَعَلَ فِيهَا}، في الأرض، {رَوَاسِيَ}، أشياء ثابتة ولكن قابلة للحركة مثلما ترسو السفن في الميناء، وتكون واقفة ولكن يمكنها التحرك، والرواسي تنطبق أيضاً على الجبال كما فهمنا من الآية 27 من سورة المرسلات حيث قالت: {رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ}. يعني سارت الأرض على المخطط الإلهي وصار فيها رواسي من سطحها وجبال ومرتفعات، وقولنا إنّ الجبال تتشكّل بسبب حركة قشرة الأرض، هو صحيح، ولكن تحرّك القشرة، وسبب تحركها... كل ذلك أصلاً من تصميم الإله سبحانه وتعالى.

معلومٌ لأي إنسان تحرّك سطح الأرض بسهولها ووديانها وجبالها من الزلازل، وهذا ما تلفت الآية انتباهك له بوصف دقيق لعموم سطح الأرض بأنه رواسي، وهو نفس الوصف للسفن الواقفة في المياه، حيث إنها ثابتة وقابلة للحركة.

وجعل في الأرض، {أَنْهَاراً}، مياهاً جاريةً، حيث إنّ طبيعة الماء سائلة، واختلاف ارتفاعات سطح الأرض يسبّب جريان الماء.

{وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ}، من كل نتاج النبات سواء الفاكهة أو الخضروات... {جَعَلَ فِيهَا}، في الأرض، {زَوْجَيْنِ}، نوعين، {اثْنَيْنِ}، وليس ثلاثة أو أربعة أو أكثر، يعني ما نسميه نحن: ذكراً وأنثى، لقاحاً ومبيضاً... وكل ما يمكن أن ينبت على الأرض في هذه البيئة "الأرضية" جرى خلقه بتصميم إلهي. فكّر فيها بعد أن تتذكّر ثمار الجنّة المختلفة جداً

عن ثمار الأرض، لتنتبه إلى أنّ الآية تشير للبيئة هنا على الأرض أنها تنتج هذه الثمار بما تراه بتخطيط إلهي، وهناك بيئة أخرى ينتج عنها ثمار أخرى بطرق أخرى.

{يُغْشِي اللَّيْلَ}، يحيط وينتشر بشكل جزئي أو كلّي على، {النَّهَارَ}، فنرى عتمة الليل تأتي وتنتشر على النهار.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، الذي ذكرناه لكم، {لَآيَاتٍ}، أموراً مميزةً، تدل على خالق خطّط وخلق ودبّر... {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة متفاعلين مع الآيات، {يَتَفَكَّرُونَ}، يفكرون ويستعملون قدرتهم على تحليل الأمور التي يرونها حتى يصلوا إلى نتيجة، ليروها آيات تدل عليه تعالى. أمّا إذا لم يفكّروا فيما يرونه من الظواهر من حولهم، وغلبت عليهم شهواتهم ونزعاتهم ورغباتهم السيئة رافضين الخضوع له تعالى، فهم لن يروا تلك الأمور آيات، حتى لو كان معهم عشرون شهادة دكتوراه في علم النبات والفلك والفيزياء... وهذا لا يعني أنهم يتفكرون، وقد علمنا من آيات عديدة من القرآن أنّ القلوب والعقول المسدودة بسبب الذنوب والشهوات السيئة، لا يمكنها رؤية الآيات الربانية، بل تراها عادية كظواهر طبيعية ولا علاقة للإله بها... لأنهم لا مصلحة لهم بإعلان الإيمان به تعالى، والذي سيعني انحراجهم للالتزام بالصالحات...

ننتبه، هذه أشياء نحن معتادون على وجودها، سماوات نبات ليل ونهار... وأحياناً يخطر على بالنا أن نسأل كيف تكوّنت؟ ومن أين أتت؟ والمؤمن عنده جواب واحد راسخ في ذهنه: هي من تخطيط وصنع الله تعالى عبر طرق ووسائل نجهل أكثرها، ونعرف القليل القليل عنها عبر المراقبة والتجربة واقتراح نظريات علمية... أما غير المؤمن، فيبحث أيضاً عن السبب "الطبيعي" لوجود هذه الأشياء، فإذا علم أنّ الغيوم تتشكّل من بخار الماء، وتهطل بسبب التكاثف، عندها يرفض الإيمان بأن الله تعالى خلقها ودبّرها وسيّرها وأمطرها... ولكن القرآن دائماً يلفت انتباهنا إلى أنّ ما نراه متعلّقاً ببعضه، ومسبّباً لبعضه، هو صحيح ولكنه الظاهر فقط، وهو ما يمكننا لمسه واختباره، وأمّا في الحقيقة فهناك عناية إلهية دائمة تجعل الأمور تعمل وتبدو كما هي عليه، وتقرأ ذلك صريحاً في الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}. ومن ناحية ثانية القرآن ينبّهنا لناحية أخرى غير البحث عن السبب الطبيعي لحصول الظواهر الطبيعية، وينبهنا إلى أنّ هذه الظواهر والأشياء هي "بدعة" أي اختراع إلهي لم يكن موجوداً من قبل ولم يخترعها أحد قبله، وهي مثلما نقول: أفكار جديدة. تَصَوَّرْ أنه لم يكن يوجد ولا شيء بتاتاً، وقرر سبحانه خلق السماوات والأرض، وصمّمها وخطّط لها حتى يكون فيها المخلوقات والظواهر التي نعرفها، وأكثر الأحيان تشير آيات القرآن لهذا المعنى: خلق كائنات وظواهر مبتدعة إلهياً من لا شيء، وتقرأ ذلك في الآية 117 من سورة البقرة {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}.

للسهولة أكثر تَصَوَّرْ نفسك يمكنك أنت خلق الأشياء، وتريد خلق أشياء لا يوجد مثلها، وينتج عنها ظواهر لا يوجد مثلها، وهنا تلاحظ أننا عندما نرسم أشياء خيالية غير موجودة فإن أفكارنا محصورة بما هو حولنا، حيث نرسم إنساناً مع قرون وأجنحة وثماني أيدٍ... ولكن هذه ليست ابتداعاً، بل جمعنا أشياء نعرفها على شكل جديد، ولم نخترع الإنسان ولا القرون ولا الأجنحة... لأنها كانت موجودة وقمنا فقط بجمعها مع بعض، أمّا كل ما نراه من حولنا، من أشياء وظواهر فهو ابتداع إلهي من لا شيء، وهذا ما تشير له العديد من الآيات القرآنية، ومعه تشير لتوافق وتماشي كل الظواهر مع بعضها.

سيأتيك في الآية التالية تصوّرك أنت تخلق بيئة وكائنات لتقارن وتفهم كلامه تعالى... وسيأتيك كلام المنتمين لدينه تعالى والمفسّر لكلامه تعالى بحسب معلوماتهم والتي طرحوها على أنها هي الدين الإلهي، وصارت آراؤهم هي الدين الإلهي في نظر الآخرين، وبناء عليه كان مع الآخرين الكثير من الحقّ فيما هاجموا به دينه تعالى حين هاجموا كلام المنتمين لدينه تعالى...

(وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ{4})

نكمل مع الآيات من حولنا والتي جعل فينا سبحانه قابلية التعرّف عليه بسهولة من خلالها: {وَفِي الْأَرْضِ}، التي نعيش عليها، يوجد {قِطَعٌ}، بقاع أرض، {مُتَجَاوِرَاتٌ}، قرب بعضها البعض، فلو كانت كلّها نفس الشيء لقلنا بأنها قطعة

واحدة، ولكنها مختلفة، فها قطعة صخرية وأخرى رملية، وغيرها ترابية... وهذا سبب تسميتنا له بأنها قطع، وتلفت الآية انتباهنا للاختلاف بينها.

{وَ} في الأرض يوجد {جَنَّاتٌ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين، {مِنْ أَعْنَابٍ}، وهو "شجر" العنب ومن الدارج تسميتها بالكروم والعرائش.

{وَ} في الأرض يوجد {زَرْعٌ}، وهي كلمة مخصصة للنباتات التي تزرع ولا تغرس، كالحشائش والخضراوات وغيرها مثل الخس والورد... وليست للأشجار.

{وَ} في الأرض يوجد {نَخِيلٌ}، وهو شجر النخل والبلح والتمر... {صِنْوَانٌ}، فيتفرّع من الجذر الواحد شجرتان أو أكثر ويكونان صنواً لبعضهما، قرين الشبه لبعضهما، ويوجد نخيل {وَغَيْرُ صِنْوَانٍ}، فيتفرّع جذع واحد من جذر واحد، {يُسْقَى} الصنوان وغير الصنوان، {بِمَاءٍ وَاحِدٍ}، فبذرة النخيل التي خرج منها مرة صنوان ومرة غير صنوان، هي نفس النوعية، وتشرب من نفس الماء، ولكن مرّة ينبت منها جذع واحد ومرّة ينبت منها جذعان أو أكثر، فهذا شيء يلفت الانتباه لخالق صمّمها وخلقها وقرّر حصول هذا الشيء.

ليكن لفت الانتباه هذا نموذجاً لك عمّا نسميه بديهياً، فلا مسار معروف من ناحيتنا ومحدد للبذرة لتنتج فرعاً أو فرعين، فتزرعها وأنت فاقد للقدرة على التنبؤ بما سينتج، فسبحانه جعل في البذرة الخاصيتين وتتفعل واحدة منها لتريك التنوّع...

كما ترى، تعرض الآية علينا نماذج عن أمور ملموسة من نتاج تصميمه تعالى وخلقه، ولا تقصد بتاتاً أن تصنّف النبات، ولا أن تعطي أهمية لهذه الأنواع التي تذكرها لنا، فهي مجرد نماذج، فلا تنجرف خلف إدخال ثقافة الناس في دينه تعالى، فالبلح ليس مقدساً ولا التين، فهما مثل بقية الفواكه، ولهما فوائد ومضار...

{وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا}، بعض هذه النباتات، {عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ}، ضمّة على الهمزة، فوضعنا مواصفات مختلفة للنباتات فصار بعضها مرغوبا في أكله أكثر من النبات الآخر، كالموز والتفاح والمانجو... المرغوب أكله نيئاً أكثر من الباذنجان والقرع والبامية...

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، الذي ذكرناه عن التنوّع والاختلاف في بقع الأرض والنبات، {لَآيَاتٍ}، فهو أمور مميّزة، {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة ومتفاعلين مع الآيات، {يَعْقِلُونَ}، فلديهم عقل، فلديهم قدرة على الفهم واستيعاب ما يرونه. فإذا لم ينتبهوا للخالق الذي خطط وخلق هذه الأشياء بهذه الطريقة، فهم لا يستعملون عقولهم بشكل صحيح، ونفهم من القرآن أن هذه هي حالة الذي تعلّق بالدنيا وشهواتها السيئة فهذا لن يعقل الآيات فلن يراها أمورا مميزة تدل على مستوى إلهي صمّمها وخلقها، وهنا في السورة سيكون التركيز على الذين اخترعوا آلهة من خيالهم، وأنها السبب في منعهم عن عقل ما يرونه دالاً عليه تعالى.

لاحظ أن الآية تشير للتنوّع، وبخاصة لطعم النبات المختلف، والذي يجعلنا نرغب في أكل بعضها أكثر من الأخريات، فهناك خالق مسؤول عن جعلها متنوّعة الطعم، وهو سبحانه ابتدع فكرة تنوّع الطعم وتنوّع الرغبة فيها.

والكثير من الآيات التي تحدّثت عن الظواهر من حولنا تشير من ضمن كلامها إلى التنوّع الهائل والتفاصيل الكثيرة جداً... على أنها أمور قصد سبحانه وتعالى أن تدلّ عليه بكل سهولة ووضوح، وهذا هو تفصيل الآيات، فهو دلالتها بكل وضوح على ذي قدرات وصفات فائقة لمن صمّمها وخلقها. وقارنها مع فرضية أن كل الكون قد تشكّل بالصدفة ولوحده من دون إله صمّمه وخلقه، فلماذا وكيف سينتج عنه هذه الكمية الهائلة من التفاصيل والتنوّع؟

لو أطلت عليك، فالقرآن لا يتماشى مع الفكر الساذج الذي يشير للأمور التي نجهل سببها أنها من تصميمه وخلقه تعالى، لا، وسيأتيك في هذه السورة آية تتحدّث عن علمه تعالى بما في الأرحام، وكان غالبية المؤمنين "قديما" يقولون إنه تعالى وحده يعلم إن كان الجنين ذكرا أو أنثى... وهذا ناتج عن بساطة فهم كلامه تعالى، فبالصور الاشعاعية والصوتية... وبالفحوصات المخبرية صرنا نحن نعلم إن كان الجنين ذكرا أو أنثى... فأنا أعلم ما أفعله وأنت لا تعلم به، وأنت تعلم ما تفعله وأنا في غرفتي أكتب على الكومبيوتر ولا أعلم ما تفعله أنت... ولكنه تعالى عليم خبير سميع

بصير... يعلم ما نفعله كلّنا، وكما ترى فهذا لا يعني أني لا أعلم بما أفعله أنا، وكذلك علمه تعالى بما في الأرحام لا يعني أننا لا يمكننا العلم نحن به، ولم تقل الآية أننا لن نعلمه.

فلو علمنا آلية تساقط المطر، من تكاثف لبخار الماء على الغبار أو ترابطها بفعل اختلاف شحناتها... فهل هذا يعني أنه تعالى لا علاقة له بنزول الماء؟ لا، فالقرآن يحثّنا على التفكير والبحث في الأسباب والآليات الطبيعية للظواهر، ويخبرنا أنه تعالى قد صمّمها وخلقها لتحصل بالشكل الذي نراه، فأنت تتعرّف على آلية فعله تعالى للأشياء بما تسطيع أنت فهمه واستيعابه، وعادة سبحانه لا يذكر لنا آليات فعله للأشياء لأن نظرته تعالى وتعاطيه مع الأمور من مستوى إلهي فلا يستعمل آلة حاسبة لفعلها...

الآن فلنذهب أعمق من ذلك، فلو توصلنا إلى معرفة عمق الأسباب والآليات التي جعلت الظواهر تحصل، إلى عمق يرجع بنا إلى ما قبلما تتشكّل المواد، فنحن أمام احتمالين، إمّا بالصدفة وكثرة التكرار وحصول العديد من التراكيب، نجح واحد منها وتشكّل الكون بمجراته وكواكبه والظواهر والحياة... وإمّا هناك إله فائق القدرات صمّم أصل الكون لينتج عنه بتسلسل ما تشكّل وصيران مجرات برز فيها ظواهر طبيعية وحياة...

وعلى أي حال فالبذرة التي نشأ منها الكون فمن أين نشأت؟ القرآن يقول إنه تعالى صمّم كل شيء، وخلق كلّ شيء، ولم يقل أننا لن نعرف أي شيء، فحتى ما نزرعه بأيدينا وينبت ونعلم الكثير عن ميكانيكية وبيولوجية نموّه، فسبحانه يقول إنه هو زرعه كما تقرأ في الآية 64 من سورة الواقعة {أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}.

ليكون الكلام أوضح سأكرّر لك ما ذكرناه مراراً في دراستنا هذه، فتصوّر نفسك أنك أنت ستخلق كائنات حيّة في بيئة، فقدراتك ستنعكس على ما تصمّمه وتخلقه، فلنقل أنك خلقت أسماكاً في حوض، وجعلت الأسماك تجوع، وقدراتك عالية، فصمّمت وخلقت بيئة الأسماك بحيث ينتج الطعام من البيئة. الآن، هل ستنكر الأسماك الذي صمّمها وخلق بيئتها وأطعمها من بيئتها إلا إذا رأت يدك ترشّ لهم الطعام على وجه الماء؟ هذا بالضبط ما ينبّهك القرآن له، فالتنوّع الهائل والتفاصيل الهائلة قد تقصّد سبحانه أنه تكون هكذا لتراه تعالى بشكل مباشر عبر فهمك لقدراته وصفاته الفائقة التي انعكست فيما خلقه سبحانه، وإن لم يؤمنوا به تعالى لأنهم يرون ترابط الأمور مع بعضها متسلسلة من أول بذرة في الكون، ولن يؤمنوا لأنهم لا يرون يده تعالى ترشّ لهم الطعام، فالقرآن ولا مرّة قال إنه تعالى فعل شيئا من الظواهر بشكل غير مترابط مع بقية الظواهر، فهم حتى يؤمنوا به تعالى يتوقعون أن يصلوا إلى مكان يقولون فيه: لا نرى سببا سبّب هذا، فلا بد أن الإله فعله... فهم بشكل غير مباشر يريدون رؤية يده تعالى ترشّ لهم الطعام، وهذا هو نفسه الإيمان الساذج البسيط الطفولي بكلامه تعالى، فالمطر ينزل ولا نعرف كيف ينزل، فالله تعالى أنزله! صحيح أنه تعالى أنزله ولكن بالأسباب التي كنت تجهلها وربما صرت فيما بعد تعرفها. وهناك ذكر أو أنثى في بطن المرأة، ونحن لا نعلم جنسه، والله تعالى فقط وحده يعلم جنسه! وهذا صحيح حين لم تكن لديك القدرات لتعلمه، وسبحانه لم يقل أنك لن تعلمه.

تسبيحه تعالى والانبهار بصفاته وقدراته ليس عبر العجز عن فهم ما تراه، "وإن كانت الحقيقة أننا عاجزون عن فهم عمق ما نراه"، بل ركّز القرآن كثيرا على ما تفهمه وتراه وتتعامل معه وتختبره وتلمسه... وأخبرك أنه هو تعالى صمّمه وخلقه بهذا الشكل.

(وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ{5})
{وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ}، إن كان تقييمك لما يقولونه بأنه مخالف للتوقعات فهو تقييم صحيح لأن قولهم مخالف للتوقعات، فما يقولونه عن تعجّبهم من حصول الحياة بعد الموت يدعو فعلا للعجب والاستغراب، ومعك حق أن تتعجّب من تعجّبهم، قالوا ما يلي:

{أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا}، متنا وبلينا وصار لحمنا وعظمنا مُتَحَلِّلًا وصار ترابا، {أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ}! سيعاد تأليفنا وتركيبنا من جديد لنرجع إلى الحياة!

الرسول محمد(ع) قال للناس عبر هذا القرآن بأنه تعالى سيعيد إحياءنا وإرجاعنا إلى الحياة حتى يحاسبنا ويجازينا، ومن لم يؤمن بهذا الكلام يتعجّب، كيف سنرجع إلى الحياة بعد أن نموت ويتحلل جسدنا بالكامل! هم يتعجبون وأنت يحق

لك أن تتعجّب من تَعَجُّبِهِم، لأن الإله الخالق لما سبق وذكرته الآيات من نماذج، يقول بأنه سيعيدكم إلى الحياة، لماذا التعجّب!

{أُولَئِكَ}، المتعجبون، هم، {الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ}، هم المنكرون للمسؤول عنهم من مستوى إلهي، حيث أنا ربّ بيتي والمرأة رَبَّةُ مَنْزِلٍ، وذاك ربّ العمل... والذي صمّمكم وخلقكم في هذه البيئة هو ربّكم وهو المسؤول عنكم من مستوى إلهي، وقدراته الفائقة ظاهرة، كيف لا يؤمنون بأنه يمكنه إعادة خلقهم، فعلا كلام عجيب!

{وَأُولَئِكَ}، المتعجبون الكافرون به تعالى، {الْأَغْلَالُ}، القيود**،** الرّباطات من حديد أو من الحبال الثقيلة المزعجة لدرجة الأذية، {فِي أَعْنَاقِهِمْ}، في رقابهم، لأن العنق هو عموم ما كان ضيقا وقبله اتساع، وفي الإنسان هو ما تطاول من الوصلة بين الرأس والجسد، وبالعامية نسميها رقبة، في يوم القيامة وبعد رميهم في النار سيكونون مربوطين من رقابهم بالأغلال.

{وَأُولَئِكَ}، هم، {أَصْحَابُ النَّارِ}، مع بعض في النار طبعا للتعذّب فيها، {هُمْ فِيهَا}، في النار، {خَالِدُونَ}، لا يموتون ولا يفنون ولا يخرجون منها ولا هي تخرب.

السبب للعذاب واضح، لأنهم ينكرون شيئا واضحا يدل على قدرته تعالى، وهذا الإنكار عليه عقاب.

حسناً، كانت مقدمة السورة تتحدّث عن القرآن كآية مثل الآيات المنتشرة حولنا، وتدل عليه تعالى كخالق مُخَطِّطٍ مُدَبِّرٍ... وأبرز ما يكفر به الكفّار هو الكفر بالخالق، والكفر بوحدانيته، والكفر بآياته وهي أفعاله الدالة عليه، وهناك تفاصيل كثيرة يتم اشتقاقها من تلك الإنكارات، كالكفر بالرسول وبالقرآن... ولكن هنا انتقلت الآية للكفر بإعادة بعثنا إلى الحياة، واختارته كأبرز نموذج يختصر الكثير من الكفر ضمنا، تلاحظ في القرآن ربطه للكفر بالخالق وبالآيات مع الكفر بالآخرة، وهذا بديهي، لولا وجود آخرة وحساب وجزاء، فلا أثر علينا من الكفر، نقول: لو آمنا ماذا سيحصل؟ ولو كفرنا ماذا سيحصل؟ لا شيء لأنه لا حساب على الكفر. لذلك ينبهنا القرآن دائما لجزاء الكفر، لعقوبة الكفر الشديدة في تعذيب خالد، وسنرى من الآية الآتية، إشارة لاحتمال تعذيب دنيوي قبل الأخروي بسبب الكفر.

لاحظ آيات أخرى عديدة في القرآن أثبتت عودتنا إلى الحياة بشكل مباشر، عبر لفت الانتباه للخالق القدير الذي تمكّن من خلقنا أوّل مرة، ولم يكن ذلك مستحيلا عليه "ولا صعبا"، بالتالي يمكنه تعالى خلقنا مرّة ثانية، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 78 من سورة يس {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ}، وعبر لفت الانتباه لخروج الحياة من حولنا في كل لحظة وبمختلف الأشكال، يولد الناس، وتنبت النباتات، كما ورد من الآية 9 وما بعدها في سورة ق {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ... رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ}، هذا خروج للحياة من الموت، كيف لا نؤمن بخروجنا نحن إلى الحياة مرّة ثانية مع أننا نرى إنبات الحيوان والنبات من حولنا في كل لحظة... وغيرها من الأدلة، ولكن هنا فقط اكتفت الآيات بالإشارة لعظمة خالق بيئتنا، بعد المقدمة التي وضّحت أن المخطّط الخالق المدبّر للسماوات والأرض هو الله تعالى، انتقلت للتعجّب من الذين ينكرون قدرته تعالى على إعادة خلقهم مرة ثانية، ويتشابه هذا الكلام مع ما ذكرته سور أخرى عن مخططه تعالى لنا للانتقال بالموت من الحياة الدنيا وبعد تبدّلها إلى الآخرة لنتحاسب ونتجازى، وعرضته هنا من زاوية الذي تعجّب من الكلام عن إعادة خلقنا من التراب.

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ{6})

{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ}، يطلبون منك أن تتعجّل بالسيئة، {قَبْلَ الْحَسَنَةِ}، بدل أن يؤمنوا ويطلبوا منك استعجال حصول "الحسنة" الشيء الحسن، وهو الرضا الإلهي عليهم بتنعيمهم في الدنيا أو في جنّة الآخرة، بدل هذا الاستعجال هم يستعجلون بالسيئة، لِيَحْصُلَ الشيء السيّء قبل أوانه المحدّد له وهو العذاب، حيث يطلبون منك أن يأتي العذاب الذي سيصيب الكفّار في الدنيا أو الآخرة الآن بدلا من انتظاره لما بعد الموت والبعث.

{وَقَدْ خَلَتْ}، كانت موجودة وذهبت تاركة مكانها، {مِنْ قَبْلِهِمُ}، في زمن قبل زمانهم، {الْمَثُلَاتُ}، الأشياء التي صارت مضرب مثل للاتعاظ منها، وهو تعذيب من كان قبلهم لماذا يستعجلون بعذاب دنيوي بدل الاتعاظ من المثلات التي جرت مع الذين من قبلهم؟

تضرب أحدا ما ليكون مثلة لغيره، ليكون مثالا عن ضربك حتى يرى الآخرون أنك هكذا تضرب، فَيُطِيعُوكَ أو لا يتعدّوا عليك... وهناك أمم من قبلنا نزل عليهم عذاب هنا في الدنيا، صاروا مثلة، وَمَا سيحصل معنا من عذاب إن كفرنا نُمَثِّلُهُ وَنُشَبِّهُهُ بما حصل مع هؤلاء، فالكفّار يجب أَلَّا يستعجلوا بالعذاب لأن عذابا كثيرا نزل من قبل، ومن المفروض أنها مثلات لهم حتى يتّعظوا وَيَخَافُوا.

ضع في بالك أن القرآن عموما لم يفصل بين عذاب الدنيا والآخرة، حيث اعتبرهما متصلين كعذاب واحد لمن أصاباه، يُوَجِّهُ تهديده بالعذاب الحتمي في الْآخِرَةِ، وإذا حصل عذاب في الدنيا فهو موصول مع حصول عذاب لهم في الآخرة. وكما ترى العديد من الآيات القرآنية لم تفصل في الكلام عن العذابين، وإذا أردت تحديد أي عذاب تقصده، في الدنيا أو في الآخرة، فأحيانا لن تستطيع التمييز لأنها تقصد الاثنين معا. نعم بعض الآيات حصرت تحديد كلامها بصراحة لعذاب الدنيا وَحْدَهُ أو لعذاب الآخرة وَحْدَهُ وتعلم ذلك بسهولة من سياق الكلام.

{وَإِنَّ رَبَّكَ}، إن المسؤول عنك من مستوى إلهي، {لَذُو مَغْفِرَةٍ}، موصوف بأنه يتجاوز عن الذنوب، {لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ}، رغم ظلمهم، رغم تصرفاتهم وأفكارهم التي لم تكن منصفة محقّة، حيث لم يكن معهم حقّ فيما فعلوه وسبحانه لا يجمد على موقف صلب واحد بل يسامحهم، وتعلم من القرآن أنه تعالى يسامحهم فقط إذا آمنوا وتابوا. يا أيها الكفار لا يزال باب التوبة مفتوحا لكم، رغم كل ما فعلتموه من كفر وإجرام، لماذا تغلقون على أنفسكم باب المغفرة بإصراركم على الكفر وتطلبون حصول سيئة العذاب عليكم الآن!

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ}، مَا يعقب وَمَا يأتي بعد كفرهم، لَنْ يكون سهلا ولا يمكنهم تحمّله، فإذا متم على الكفر فتوقعوا عذابا شَدِيدًا جدا.

بعبارة أخرى، لا يأخذ الإله سبحانه موقفا واحدا نهائيا من الناس، فإذا أساؤوا فلا يبقى سبحانه على قرار محاسبتهم على السوء، فإذا آمنوا وعملوا الصالحات سامحهم على السوء مهما كان كبيرا، وإن لم يؤمنوا ويعملوا الصالحات فالعقاب شديد ولا يمكنهم تحمّله، وهذا قراره الواضح تعالى، ومن ناحية الذي كفر فَإِنَّهُمْ يستعجلون بالعذاب رغم وجود المثلات ورغم الفرصة المتاحة لهم للاستغفار والنجاة من العذاب!

تلاحظ سورتنا هذه من أولها لآخرها "وكل القرآن"، ستفهمها بشكل أدق حين تنتبه أنها كلامه تعالى، طبعا أنت تؤمن بأنها كلامه سبحانه، ولكن لِنَنْتَبِهْ جيدا للإله الذي يوجّه الكلام لمن كفر به، لِتَعِيشَ حالة الضخامة والعظمة لإله يلفت انتباهنا لقدراته الفائقة بخلقه وإدارته للدنيا السائرة باتجاه الآخرة، وهناك كائن صغير محدود جدا جدا جدا جعل فيه الإله حرية الإرادة والاختيار، فَكَفَرَ بإلهه!

من هذه النظرة بسهولة تفهم معنى أنه تعالى غفور حتى لأكبر كافر مجرم إن تاب، حيث ترى عظمته تعالى بالفرق الهائل بين قدراته وبين المخلوقات التي لا تؤثّر عليه تعالى ولا بأي شكل.

الكلام يجرّ الكلام، الكافر المجرم الذي قتل واعتدى وسبّب الأذى للآخرين... كيف يقبل سبحانه توبته؟ في القرآن وفي واقع الحياة الذي نعرفه نرى أن هذه النوعية من الناس نادرا جدا ما تابت، ولكن على أي حال تصميم الدنيا يتضمن حياة قصيرة جدا جدا للبشر أمام الخلود في الآخرة، والأحاسيس التي فينا ضعيفة جدا جدا جدا أمام ما تشعر به الأجساد التي ستكون في الآخرة، وهذا واضح من كلامه تعالى عن عذاب شديد غليظ في النار وعن سعادة فائقة في الجنّة، مَا تعرّض له المؤمن المظلوم من عذاب وقهر وألم... هنا في الدنيا، فهو تافه ولا يذكر أمام ما سيتعرض له الظالم من خلود في النار، وفرضا إن تاب الظالم، مَا تعرّض له المؤمن من عذاب فهو تافه ومنسي بسهولة أمام روعة الجزاء عليه في جنّة خالدة.

الكلام يجرّ الكلام، من القرآن نفهم أن كل الخالدين في النار لَوْ عاشوا تريليونات السنين في الدنيا لَنْ يتغيّروا وَسَيَبْقَوْنَ على ظلمهم وكفرهم، ولو ردّهم تعالى من الآخرة إلى عالم جديد فيه تكليف كما كانت حالتهم في الدنيا، سَيَعُودُونَ

لكفرهم وظلمهم، لِأَنَّ خلودهم في النار على كفرهم وسيئاتهم لم يكن بالقياس لمدة حياتهم القصيرة، بل بالقياس إلى قرارهم بالانطباع على الكفر والظلم مهما طال عمرهم، وحتى لو حصلوا على مليون وتريليون تريليون فرصة، لَنْ يتغيّروا، رَاجِعْ في ذلك دراسة الآية 28 من سورة الأنعام {بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}.

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ{7})
{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا}، يقول الذين أنكروا دلالة آياته تعالى عليه وعلى الآخرة:

{لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ}، على النبي محمد(ع)، {آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ}، يَصِلُهُ من المسؤول عنه من مستوى إلهي شيء مميز، نعتبره نحن عَلَامَةً وَدَلِيلًا على صدقه وصدق دينه، كأن يطير في الهواء أو ينزل معه ملك، أو يخرج له كنز من الأرض... وفي سور أخرى من القرآن نجد ذكر اقتراحاتهم للآية التي يطلبونها من النبي(ع)، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 93 من سورة الإسراء {أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ}، وتلك السور ردّت عليهم، أما هنا فالسورة لم تذكر اقتراحاتهم لأنها ركزّت على أنه:

{إِنَّمَا أَنْتَ}، أَنْتَ فقط أيها الرسول محمد(ع)، {مُنْذِرٌ}، تنقل الخبر السيّء عن العقاب الحتمي لمن لم يؤمن فتوافرت فيه شروط الحصول على العقاب، {وَلِكُلِّ قَوْمٍ}، لِكُلِّ أناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة، {هَادٍ}، يُوجَدُ من يهديهم ومن يضعهم على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة.

لَيْسَ من اهتماماته تعالى أن يأتي للأقوام أشخاص تحصل على يديهم الآيات والتي نسمّيها معجزات، كرجال لديهم قدرات خارقة، لِأَنَّ هذا لا معنى له، وسبحانه إن تواصل مع شخص ما من قوم ما، فالهدف سيكون لهدايتهم وَلإنذارهم أولا من حالتهم التي ستوصلهم حتما إلى عذاب شديد.

بعبارة أخرى، كُلُّ قوم حصل وخرج منهم من ينذرهم وكان له تواصل معه تعالى، كَانَ نبيا أو رسولا، وَوظيفته الإنذار وليس القيام بعروض مسرحية أمام الناس عن فظاعاته بقدراته الخارقة، لِأَنَّ اهتمامه تعالى بهداية الناس بالآيات التي يراها تعالى مناسبة، وليس بتزويد هداته بما يراه الناس مناسبا من آيات "خوارق ومعاجز"، وراجع الآية 12 من سورة هود لترى هذا المعنى بشكل أوسع، حَيْثُ قَرَأْنَا نماذج عرضتها الآية عن أناس يطلبون من النبي محمد(ع) كنزا أو ملكا يقوم بالخوارق ليؤمنوا به كرسول إلهي، وهذه هي أحلامهم هم التي يحبّون حصولها معهم...

إِذًا الآية لا تقصد أنه لكل قوم، لكل جماعة من الناس أينما كانت يوجد هاد، لا، لِأَنَّ سياق الكلام عن المقارنة بين محمّد الهادي لقومه وبين عموم أي قوم جاءهم هاد، الْهِدَايَةُ وظيفتهم، والإنذار وظيفتهم، وليس من اهتماماته تعالى أن يزوّدهم بقدرات أو أمور خارقة على مزاج الناس.

بقي شيء، هَذَا كلامه تعالى في القرآن عن الآيات عُمُومِيٌّ، وَهِيَ أمور موصوفة بأنها مميزة، وترى أن أي فعل كان فعله الإله سبحانه فهو آية، تَصْمِيمُهُ وخلقه سبحانه للسماوات والأرض، وهذه هي كل الدنيا، كُلُّهَا من كبيرها لصغيرها ولأي تفصيل أو ظاهرة فيها، فهو عمل إلهي، وهو آية، مُمَيِّزٌ، بتصميمه بخلقه بما ينتج عنه... حتى إبليس آية، لِأَنَّ تصميمه وخلقه عمل يحتاج لقدرة من مستوى فائق، نَتَذَكَّرُ أنه لم يكن هناك أي شيء، وصمّم وخلق سبحانه كل شيء، أَيُّ شيء سيكون فهو نتاج للقدرة الإلهية الفائقة.

وهكذا تَرَى الفرق بين ما ينتج عن إبليس وعنّا من سوء، وبين أساس التصميم والخلقة، فترى أن الآية وصف لعموم ما يفعله تعالى، وما يطلبه الكافرون من آيات ليؤمنوا، لِأَنَّهُمْ تعاموا عن الآيات المنتشرة فيهم وحولهم في كل شيء، ويطلبون شيئا آخر، كُلُّ أفعاله تعالى لم تقنعهم! ولم تدلّهم عليه! مَا الذي سيجعلهم يُؤْمِنُونَ وهم يعلمون أنهم سيئون مخترعون لعقيدة من خيالهم وواضعون لشريعة من هواهم السيّء وسلوكياتهم فاسدة، بِمَاذَا يكفرون؟ وما الدليل الذي يريدونه ليؤمنوا؟

قاربها مع حالة زوجة تمنّن زوجها أنها لم تخنه، بِمَاذَا تمنّنه! أليس من المفروض منها ألا تخونه؟ الْكُفَّارُ رفضوا الإيمان بآياته تعالى والأكثر من كافية ليؤمنوا، من كبيرها الممتد لِسَعَةِ السماوات لصغيرها الذي يعيشون فيه على

الأرض إلى كيانهم وخلقتهم وما فيهم من صفات... واخترعوا عقيدة من خيالهم منكرين لألوهيته تعالى أو مشركين به معارضين بذلك الآيات الواضحة الدالة عليه تعالى لوحده؟

هم في حالة من يستحقّ العقاب على كفرهم بآيات أكثر من كافية ليؤمنوا، كُفْرُهُمْ بآيات فائضة وزائدة عن الحاجة بتنوّعها وكثرتها وضخامتها وبصغيرها... حَيْثُ كفروا بآيات تقصّد سبحانه جعلها هائلة ضخمة وأخرى دقيقة التفاصيل بشكل يجعلنا ننبهر من نماذج تقانة المستوى الإلهي والتي هي لا شيء أمام ما يمكنه سبحانه فعله، والذي سنرى مستوى آخر منه في الآخرة الخالدة بجنّة السعادة الرائعة... كَفَرُوا بكل ذلك ويريدون آية ليؤمنوا! ويتكلمون على أساس أن العطل ليس فيهم فلو تأمّنت لهم آية لآمنوا!

نَحْنُ كمنتمين لدينه تعالى تَشَكَّلَتْ لدينا ثقافة تُسَمِّي أفعاله تعالى وبعض ما فعله الأنبياء بالخوارق والمعجزات، ولم يستعمل تعالى هذه التوصيفات لأفعاله ولا لأفعال الأنبياء، نَتَجَ عن هذه التوصيفات كلام وأبحاث ورطتنا في تفاصيل لم يقلها تعالى.

قَالُوا إنَّ آيات الأنبياء يعجز عن فعلها الناس فَيُؤْمِنُونَ أنها من فعل إلهي، وبالتالي سَيُؤْمِنُونَ بأن فاعلها يتواصل معه الإله، وَيُؤْمِنُونَ بدينه... مع ما قد يبدو من واقعية لهذا الكلام، لَكِنْ فيه تفاصيل غير سليمة، لَا تجد في القرآن ولا حادثة عن آية من هذا النوع جعلت كافرا ما مؤمنا، وما قد يبدو لك من إيمان السحرة بالنبي موسى(ع) من بعدما رأوا تحوّل العصا لحيّة، فراجع الآيات التي تحدّثت عن حالتهم لترى أنهم بالأصل كانوا مؤمنين "بشكل ما" وآية تحول العصا لحيّة أكّدت لهم أن موسى(ع) رسول، وأمّا غير ذلك فلن تجد ولا حالة إيمان من بعد كفر بأي آية قام بها أي نبي.

عِلْمًا أَنَّهُ تعالى أجرى بعض الآيات على أيدي أنبيائه تماشيا مع ما قد يطلبه الناس حتى لا يكون لهم أي حجّة عليه تعالى، وترى أنه تعالى رفض كثيرا التماشي مَعَ مَا يطلبه الناس من آيات، لأنهم لم يطلبوها ليؤمنوا فعلا، ولم يطلبوها عن تفكير بها قبل طلبها لتكون الآية التي تجعلهم يُؤْمِنُونَ، والآيات التي طلبوها كانت نابعة من سخافتهم وتفكيرهم الضيق وأفكارهم الصبيانية... ورغم ذلك تَمَاشَى سبحانه في بعض النماذج مع هَذِهِ العقلية حتى يرى الآخرون أنه تعالى حليم...

تِسْعُ آيات لفرعون وقومه آخرها حادثة فلق البحر ممرات، هِيَ من أبرز النماذج التي أراد تعالى أن تبقى ذكرى عبر التاريخ، وليرى المؤمن أن من قرّر الكفر فلن يؤمن ولا بأي آية ومهما كان نوعها، ويفهم المؤمن أنه تعالى تمتدّ آياته الاستثنائية من الأحجام والأنواع المختلفة، فقبل أن يخطر بباله آية تجعل الآخرين يُؤْمِنُونَ، فَعَلَهَا تعالى أو فعل ما يشبهها، وصولا إلى أمور قد تبدو لا شيء في قيمتها مقارنة بغيرها ولكنها في نظر بعض الناس ضخمة، وفي نظر آخرين أقل من عادية، وطبعا طالما هي من فعله تعالى فمهما كان نوعها فهي آية، لِأَنَّهَا ضخمة بسبب حاجتها لقدرة من مستوى إلهي لفعلها في الدنيا التي تحتاج لمستوى إلهي لتصميمها وخلقها، إِسْرَاؤُهُ تعالى برسوله محمّد(ع) من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ذهابا وإيابا في ليلة واحدة، هو آية، وسيبقى آية حتى لو طرنا نحن من المسجد الحرام إلى الأقصى بالطائرة عشر مرات ذهابا وإيابا في ليلة واحدة، لِأَنَّ أصلا تصميمك للطائرة هو آية إلهية لأنك من تصميمه تعالى الذي جعل فيك القدرة على تصميم وصنع الطائرة.

لِنَتَحَدَّثْ بجفاف وقساوة الوضوح والصراحة، بَعْضُ الناس يعلّقون على الآيات التي كانت استثنائية وفعلها تعالى أو جرت على أيدي رسله، وَيَقُولُونَ إِنَّهَا سخيفة ومستواها طفولي، حَتَّى لو كانت صحيحة وفعلا تحولت العصا لحيّة، فهل هذه الآية التي ستجعلني أؤمن بدين ما؟ فَرْضًا جاء أحد ما الآن وطار في الهواء، أو اختفى وعاد ليظهر، أو حوّل الوردة لحمامة... فهل أؤمن بما يقوله وأصير من أتباعه؟

هو هذا نفس الذي قاله تعالى في قرآنه مرارا وتكرارا وتراه في آيتنا هنا بوضوح، سُبْحَانَهُ اعتمد الآيات في تصميمه وخلقته لما في الدنيا، حَيْثُ الْمَخْلُوقَاتُ والظواهر آياته، وجعل فينا القدرة على التفكير فيها لتكون دالة عليه تعالى، ولم يعتمد سبحانه الآيات الاستثنائية لنؤمن به، كَرَّرَ القرآن مرارا هذا الكلام، ومع ما فينا من قدرة على التفكير، خَلَقَنَا سبحانه بقابلية تمييز الخير من الشرّ، والحقّ من الباطل، وأرانا بوضوح عبر آياته بخلق ما في الدنيا وعبر شعور مزروع فينا للتعلّق به عند الخوف الشديد، وعبر كلام رسله، أن الحقّ هو توحيده، وأن فعل السوء مكروه لنا وعليه عقاب.

هَكَذَا تفهم من كلام الآية هنا عمقها حين تشير للإنذار، مَا هي حالتكم أنتم أيها الطالبون لآية حتى تؤمنوا؟ أَنْتُمْ كفرتم بآية حجمها الدنيا، واخترعتم عقيدة وشريعة سيئة فاسدة، ألم يكن من المفروض منكم بالقابلية التي فيكم على تمييز الحق من الباطل أن تتبعوا الحقّ؟ هَلْ تريدون آية لتصيروا عادلين صالحين؟

كَمَا ترى لَمْ أدخل في متاهات ما ستجده في الكتب من كلام عن الآيات التي وصفوها بالمعجزة، لأن أكثر كلامهم بعيد عن المفاهيم التي طرحها القرآن، لِأَنَّ ذكره وتقويمه سيكون أطول مما أطلت به عليك هنا، صَارَ لديك قاعدة قرآنية صلبة تقوّم بها كلامهم.

(اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ {8})
يريدون منك أيها الرسول آية ليؤمنوا؟ {اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى}، مَا في بطن كل أُنْثَى من الحيوانات، وبالخصوص من الناس، وَأَيُّ نطفة أو جنين في بطنهن فالله تعالى يعلم به، رغم أن الأنثى لا تعرف أنها حامل، ولا تعلم إن كانوا تَوْأَمًا، ولا تعلم إن كانوا ذكورا أو إناثا... وَالْحَمْلُ إن حصل ومع أي أنثى أينما كانت فَيَعْلَمُ تعالى به.

يَعْلَمُ تعالى، {مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ}، ما نزل وغاص في الأرحام في المكان الذي يحصل فيه الحبل لدى الأنثى، مَا يسحبه الرحم إليه من نطفة ويحتفظ به، فَسُبْحَانَهُ يعلمه، وَبِالتَّالِي سُبْحَانَهُ يعلم ما يلفظه الرحم من النطف إلى الخارج ولا يستقبله.

يَعْلَمُ سبحانه، {وَمَا تَزْدَادُ}، الأرحام، عَادَةً تزداد الأرحام بالحجم لأن الجنين يكبر، مِقْدَارُ الزيادة في الجنين الذي في الرحم والذي يسبب زيادة حجم الرحم، فَهَذَا شيء لا يحصل من دون علم إلهي.

يعني، أنتم تطلبون آية لتؤمنوا هَلْ سألتم أنفسكم عن الذي يتابع خلقة الكائنات الحيوانية والتي أنتم منها، والتي تشاركون فيها، وَخُلِقْتُمْ منها، وترونها تحصل فيكم ومعكم وأمامكم، لِأَنَّهَا آية نموذجية عن تصميمه وفعله ومتابعته تعالى لكل شيء، حَيْثُ حُصُولُ كل شيء تحت سيطرته... عَمَلِيَّةُ التلقيح والحمل يعلم بها تعالى، وَمِنْ تقديره تعالى للأمور نتج في الحيوانات عملية التلقيح والحمل.

{وَكُلُّ شَيْءٍ} في الدنيا والآخرة، {عِنْدَهُ} تعالى، {بِمِقْدَارٍ}، لَهُ تحديد لحجمه ولنوعه ولوقته... لَهُ مقدار حدّده له تعالى من كل الجوانب، من التوقيت للحمل، ونوع الجنين، وهل سيثبت أم يسقط، ومقدار نموّه، ومقدار مكوثه في الرحم... كُلُّ الأشياء والظواهر بدون استثناء مضبوطة وتحت المراقبة الإلهية.

كما ترى هَذَا نموذج عن المستوى الإلهي للآيات الدالة عليه سبحانه، وهو مسألة الحبل والولادة، أَيَّ آية تطلبون لتؤمنوا؟ خُذُوا الحمل الذي ينتج عنه كائن حيواني كنموذج، هَلْ من المعقول أن خلقتكم تحصل لوحدها هكذا بالصدفة أو من الطبيعة أو بقدرتكم... أَمْ من الواضح أنها آية إلهية؟

بقي شيء، آيَاتُنَا هنا من نماذج فهمنا غير الصحيح لكلامه تعالى، قَدِيمًا فهموا أنها تشير لحصر العلم بما في الأرحام به تعالى، على أساس أننا مستحيل أن نعلم به، وعندما تطوّرت علومنا بالتصوير الصوتي للرحم وصرنا نعلم نوع الجنين، وقع الْمُتَدَيِّنُونَ في ورطة! وكما ترى الْآيَةُ أصلا لم تنف علمنا ببعض أو كل ما في الأرحام، بل قالت إِنَّهُ سبحانه بإشرافه ومتابعته وإدارته للأمور يحدث كل حمل... وترى هذا المعنى واضحا في الآية 11 من سورة فاطر {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}.

هناك نماذج قرآنية كثيرة لهذا النوع من الفهم غير الصحيح أو غير الدقيق لكلامه تعالى، ومنها ما وقع فيه أهل الكتاب من قبلنا ووقعنا فيه بعدهم من كلامه تعالى عن خلق السماوات في ستة أيام، قَالُوا إِنَّهَا الأيام العادية من الأربع وعشرين ساعة، بينما هي فترات زمنية لمراحل، وراجع في ذلك دراسة الآية 9 وما بعدها في سورة فصلت {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ...}، ومثله تفسيرهم لكلامه تعالى عن خلق آدم(ع) فورا من دون أبوين من تمثال من الطين ونفخ الروح فيه، بينما من الواضح وجود بشر قبله ومعه من كلام الآية 30 من سورة البقرة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...}. ومثله كلام عامّة الأقدمين عن نزول الماء بفعل إلهي مباشر وبدون سبب مترابط للظواهر... ومثله فهمهم للآخرة أنها موجودة الآن، وأن الجنّة في سماء الدنيا الآن، ومن يمت مؤمنا ينتقل إليها فورا...

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ{9})
الله تعالى، {عَالِمُ الْغَيْبِ}، يعلم كل ما غاب عن المخلوقات، في الماضي والحاضر والمستقبل.
الله تعالى {عَالِمُ الشَّهَادَةِ}، يَعْلَمُ ما تشهده مخلوقاته، وما تراه وتسمع وتحسّ به المخلوقات أيضاً يعلمه الله تعالى.
الله، {الْكَبِيرُ}، أكبر من كل شيء في كلِّ شيء، أكبر بالقدرة، أكبر بالعلم... كبير في الصفات الحسنة التي تخطر أو لا تخطر ببالنا، والبقية كلهم صغار.
الله، {الْمُتَعَالِ}، هو أعلى من الجميع، والبقية تحته في كل شيء، ونحن مخلوقات وهو متعال عن أن يكون مخلوقاً، ونحن لدينا قوّة ولكننا ضعفاء أمام أمور كثيرة، وهو متعال عن أن تكون قوّته مثل قوّتنا وأن يكون عنده ضعف، ونحن نعلم ولكنه تعالى عن أن يكون علمه محصوراً بما نشهده مثل علمنا نحن...
تذكّر أنه لولا علمه تعالى بتفاصيل الحمل، لما حصل الحمل أصلاً، لأنه تعالى هو الذي يجعل الأمور تسير، ويجعل الأشياء تعمل، وكل شيء في كتاب... وجانب من هذا تفهمه مما ورد في الآية 255 من سورة البقرة {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ... وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}، من البديهي أن يكون الإله مراقباً متابعاً لكل ما يحصل مع مخلوقاته، بل ومن البديهي أنه يعلم ماذا سيحصل معهم، وإلا لكانت صفاته ناقصة وعنده ضعف، ولم يكن إلهاً بالمعنى الحقيقي لكلمة إله، ولذلك تُنَبِّهُنَا الآية هنا أنه تعالى يعلم كل شيء، وأكبر ومتعال عن كل المخلوقات. بناءً عليه:

(سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ{10})
{سَوَاءٌ مِّنكُم}، مثل بعضها بلا فرق، سيّان، {مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ}، لم يعلن ما يقوله، قاله بينه وبين نفسه، {وَمَن جَهَرَ بِهِ}، ومن أعلن قوله بشكل واضح ومباشر أمام غيره، كلاهما بالنسبة له تعالى سواء، مثل بعض، لأنه تعالى يعلم ما أسررتم وما أعلنتم. مثل بعضها بلا فرق.
{وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ}، يستعمل ستار عتمة الليل حتى يتخفّى عن الأنظار ولا يراه أحد، ومن هو {سَارِبٌ بِالنَّهَارِ}، ينتقل وينتقل ذهاباً خلال فترة الضوء من اليوم، كلاهما سواء، مثل بعضهما بالنسبة له تعالى لأنه يراهما كليهما. بناءً على ما تقدّم من كلام عن علمه تعالى بالتفصيل بما في بطن الأنثى كنموذج، وإلا لم يحصل الحمل ولم يحصل أي شيء...
لفت انتباهكم بأنه تعالى يعلم الغيب وكبير ومتعالٍ عن كل الصفات الناقصة، إذن: قولكم وتحركّكم بالنسبة له تعالى أيضاً معلوم بالتفصيل، وهذا شيء بديهي يمكن استنتاجه بسهولة.
نحن تغيب عنّا أسرار الناس، وتغيب عنّا تحركاتهم في الليل، وحتى تحركاتهم بلا ضجّة أو على جنب الطريق... في وضح النهار قد لا نلتفت لها، أمّا سبحانه فكل الأمور أمامه واضحة مكشوفة معلومة. يعني هي ذاتها كل الأحداث بالنسبة له تعالى، كلها معلومة له تعالى بشكل عادي روتيني، ومتابعته تعالى لكل ما يحدث ومهما كان نوعه وفي كل السماوات والأرض هو عادي، وها لفت انتباهكم لمسألة الحمل لأي أنثى ولتحركاتكم، كنماذج عن علمه تعالى ومتابعته بدقة لكل شيء.

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ{11})
الآن انتقلت الآيات لتربط بين نماذج من متابعته تعالى لما في الأرحام وعلمه بكل شيء، إلى:

{لَهُ}، لعموم الإنسان الذي يجهر أو يسرّ القول أو يستخفي بالليل ليقوم بأعماله أو يقوم بها في النهار أمام الناس، {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ}، أشياء تعقبه تأتي بعده فتتبعه.

من المشهور المنتشر بين المسلمين أن المعقبات هي الملائكة(ع)، وذلك استناداً لآيات تحدثت عن مختلف أعمال الملائكة(ع) المتعلقة بكل شيء، وبالخصوص بالإنسان، كتسجيل أعماله والشهادة عليه...

إذن كل إنسان يعقبه يلحق به، {مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ}، من أمامه، {وَمِنْ خَلْفِهِ}، أي من كل الجهات لديه معقبات، {يَحْفَظُونَهُ}، وما ورد في الآيات 10 و 11 و 12 من سورة الانفطار "وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِرَامًا كَاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ"، يشير

بوضوح لملائكة تحفظ فتصون كل ما نفعله وننويه عبر كتابتها له، {مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}، وليس من أمرها فهي تقوم بعمل من أعمال الشؤون الإلهية، وبعبارة أبسط فهي تقوم بما أمرها به تعالى وليس بما هي قررته. أقول إنها عبارة أبسط لأن كلمة أمر في عموميتها تفيد الشأنية المرادة، وتشير لما يريد حصوله أحد ما، فسبحانه لا يصدر منه أمر لكل ملاك لتسجيل كل عمل نقوم به، بل الملاك موظف لهذا الأمر.

بعبارة أخرى، تصور نفسك تدير العامل بكلامك، وتأمره بكنس الأرض هنا ثم هناك، ثم ليرجع ليكنس هنا من جديد لأن الأرض ما زالت متسخة... أو تأمره بكنس الأرض وتتركه، فيكنسها بأمر منك ومن دون أن تأمره لحظة بلحظة، فهنا التعبير عن أمر إلهي للملائكة، ومتابعتها هي لنا بأمره تعالى من دون تكرار الأمر الإلهي لها لحظة بعد لحظة.

هناك كلام كثير في الكتب حول جملتنا هذه {مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} تعالى، وبعضها موافق لما قلناه، وبعضها في عمقه مخالف لمفاهيم القرآن، حيث قالوا إنّ حوادث سيئة تقتلنا أو تؤذينا وتقوم الملائكة بحفظنا منها، ومبدئياً لا مشكلة في ذلك، ولكن المشكلة في تكملة الجملة {مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}، فكلام بعضهم يشير بشكل مباشر أو غير مباشر لأمور سيئة أمر بها تعالى لتحصل معنا والملائكة تحمينا منها! وهذه متاهة لم ينتبهوا لها، فهذا مستحيل.

المعنى الذي ذكرناه أصوب مما قيل لأنه مدعوم بآيات تفيد نفس المعنى وتستعمل نفس اللفظ "الحفظ"، مضافاً لآيات أخرى تصرح بوظيفة الملائكة لتسجيل كل ما يصدر منا، ومنها الآيات 16 و 17 و 18 التالية من سورة ق "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ".

نرجع لآياتنا هنا: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ}، فالحالة التي فيها الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع أوامره تعالى لا يقوم سبحانه بتغيير حالتهم، {حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}، حتى هم الناس يقوموا بتغيير أنفسهم، ويكفروا أو يشركوا أو يذنبوا أو يؤمنوا ويستغفروا... والحوادث التي تحصل معنا كلها تحت السيطرة الإلهية، وتحصل بأمر منه تعالى، ولكن القرارات التي يأخذها سبحانه وتعالى في الأمور التي ستحصل معنا، تلك القرارات مرتبطة بما نفعله نحن بأنفسنا، فنكفر ويعلم سبحانه بأننا لن نتغير، فيقرر سبحانه إما أن يعطينا الصحة والأمان والنعمة... حتى نكفر أكثر، وإما يجعلنا فقراء... وإما أن يعذبنا... ونعلن إيماننا ويعلم تعالى بمنافقين بيننا، فيمتحننا حتى يظهر المنافقون على حقيقتهم... ونؤمن بحق، ولكن النعمة الغنى الراحة ستفسد إيماننا، فيجعل سبحانه حياتنا عادية... وهذا كله نعرفه من آيات عديدة من القرآن، فكل ما يحصل معنا متعلق بما تكون عليه نفسيتنا، فإذا تغيرت للأحسن عندها ستكون القرارات الإلهية لنا بمساعدتنا على الحفاظ على إيماننا، وإذا تغيرت نفسيتنا للأسوأ فستكون القرارات الإلهية بما سيحدث معنا بحيث يجعل سبحانه من لديه ميل للإيمان أن يؤمن، ومن ليس لديه أي ميل للإيمان أن يكفر... أكثر. راجع في ذلك دراسة الآية 179 من سورة آل عمران "مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ...".

بعبارة أخرى يريدنا تعالى عبر قرآنه دائما أن نفهم أنه تعالى لا يغير عقول ونفسية الناس، فلا يبرمجها لتؤمن أو تكفر غصباً عنها، ونعلم أنه سبحانه وتعالى سمح لنا بحرية الإرادة والاختيار، وهنا الآية لا تقصد هذا الكلام عن أنه تعالى لا يغير نفسية وعقول الناس، مع أنه شيء نفهمه من كل القرآن، ولكن الآية هنا تتحدث عن الحوادث التي تحصل معنا بأنها يجري تغييرها بحسب ما نحن نغير بأنفسنا من كفر وإيمان، وسترى من تكملة الآية أن التركيز هنا على السيطرة الإلهية المطلقة على كل ما يجري معنا من حوادث، وبقرار منه تعالى، ولا أحد غيره يمكنه أن يفعل أي شيء... فالكلام هنا تكملة لما بدأته الفقرة عن طلبهم لآية وأشارت للحمل "الحبل" كنموذج وأكملت مع نموذج آخر يرينا سيطرته تعالى حتى على مجريات حياتنا والحوادث التي تحصل معنا، فهذه أيضاً آية تدل عليه تعالى، وهم يطلبون آية ليؤمنوا؟!

نكرر الكلام لأن الدارج في ثقافتنا عن الجملة هنا أنه تعالى لا يغير "نفسية وفكر" قوم ما حتى يغيروها هم، وهذا مفهوم قرآني صحيح ولكن الجملة هنا لم تقصده، بل تقصد أنه تعالى لا يغير "الأحوال والظروف" التي بالقوم، لا يغير {مَا بِقَوْمٍ}، حتى هم يغيروا {مَا بِأَنْفُسِهِمْ}، والأساس تعامله تعالى معهم بالرحمة والرأفة، ولا يغير تعالى هذه الحالة حتى يتغيروا هم بكفرهم ومعاصيهم فيصيبهم تعالى بالسوء... وبالعكس فتكون حالتهم سيئة بسبب كفرهم ومعاصيهم، فإن تغيروا وآمنوا فسيغير سبحانه حالتهم وظروفهم للأحسن...

لاحظ أن هذا النوع من الكلام القرآني يستند على أن الأمور من المستحيل أن تحدث هكذا لوحدها من دون أن يكون له تعالى دخل فيها، فكيف يمكن أن يحصل شيء ما لوحده؟ ولو أي شيء كان مهما كان نوعه، فكيف يصير موجوداً لوحده؟ وكيف يتحرك لوحده؟ وكيف يتفاعل مع الأمور الأخرى لوحده؟ وكثيرا ما يعيدنا القرآن إلى ما نعتبره عادياً روتينياً فنراه ونتعامل معه كل يوم وكأنه تحصيل حاصل وكنتيجة لوجود الأشياء بصفاتها... لا، فارجع إلى الوراء إلى ما قبل ذلك، وأخبرنا كيف لوحده من دون إله يصير أي شيء موجوداً؟ وأخبرنا كيف يصير لأي شيء صفات من دون أن يصممه إله بتلك الصفات؟ نورنا كيف تترابط الأشياء مع بعضها وتتماشى متناسقة كالشمس بحرارتها ونورها... الضروري لحصول الحياة التي نحن فيها على الأرض... من دون إله صممها هكذا؟

ولو أطلت عليك قديماً فكر فلاسفة اليونان بهذا وأطلقوا عليه تعالى تسمية: المحرك الأول. أول من حرك أول شيء تحرك. ولهذا الكلام معنى عميق لا يزال إلى الآن مطروحاً هو نفسه في الفيزياء الباحثة عن عمق حدوث الأشياء عموماً وسبب حركتها... فتراه في كلامهم الباحث عن نشأة كوننا، واستعمالنا لكلمة قوة وطاقة ما هو إلا تعبير عن جهلنا لحقيقة ما يجري، وهذا ليس كلامي بل كلام المرموقين من علماء الفيزياء، ففي كلامهم العميق ستجد سؤالاً لن يخطر على بالك أنهم يطرحونه، فتعلم أنهم يريدون معرفة آلية نشأة الكون من الصفر، فيصلون إلى سؤال لا جواب عليه: كيف حصلت أول حركة؟ فحتى حين يتعامى البعض منهم عنه تعالى قائلين إنّ بذرة طاقة صغيرة جداً نشأ كوننا منها، ولا يسألون عن أصل منشأ تلك البذرة لأن الجواب سيكون: الله خالقها. هذا فرضاً أن نظريتهم "الانفجار الأعظم" الدارجة حالياً عن نشأة الكون، فرضاً أنها صحيحة، فبغض النظر عن ذلك فالسؤال عن آلية وسبب الحركة الأولى التي حصلت في كوننا، فهو نفسه السؤال الذي طرحه الفلاسفة منذ آلاف السنين. وجوابه: الله هو المحرك الأول.

نرجع للآية:

{وَإِذَا أَرَادَ اللهُ}، قرر سبحانه، {بِقَوْمٍ}، بجماعة من الناس، {سُوءًا}، أراد تعالى شيئاً سيئاً بهم، {فَلَا مَرَدَّ لَهُ}، فلا يمكن رد دفع منع، ذلك الشيء السيئ، فلا أحد يمكنه منع حصول الشيء السيء لهم، فإن أراد تعالى أن يحصل معهم مرض أو فيضان أو حرب... فلا أحد يمكنه منع حصول هذه الأشياء السيئة.

نلاحظ الآية لم تذكر شيئاً عن إرادته تعالى لشيء حسن بالناس... وهذا شيء ذكرته آيات عديدة من القرآن، أما هنا فتركته الآية لأن تركيزها على التخويف لمن أشرك.

{وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ}، وليس للذين أراد تعالى بهم سوءاً من ولي يتبعون له ويعتبرهم تابعين له ليرد عنهم ما أراده تعالى بهم، كما نقول: ذهبتم من دوني. وأقصد أنكم ذهبتم مع غيري وتركتموني، فسبحانه هو الولي الأحد الحقيقي من المستوى الإلهي، فإن تركتم موالاته وواليتم غيره تعالى فقد صرتم من دون ولي من مستوى إلهي، فإن لم يقرر سبحانه صرف السوء عنكم فلن تجدوا من يصرفه عنكم.

بقي شيء، فعادة تسمع في الأدبيات الدينية كلاماً عن القضاء والقدر، وترى آيتنا هذه مقحمة في كلامهم، على أساس أن القضاء هو ما قرر تعالى حصوله، والقدر وصف لما سيحصل مع احتمال أن يتغير إذا تغيرت الظروف. وبناء عليه قالوا إنه تعالى لديه قضاء لنا، فهناك أمور ستحصل معنا حتماً، وهذه لن تتغير، وهناك أمور مقدرة، وقالوا إن الملائكة هنا تتدخل لتحفظنا من قدره تعالى، فيكون مقدراً لنا الموت اليوم، فأمره تعالى كان أن نموت، ولكننا تصدقنا على فقير، فتقوم الملائكة بتغيير مجرى الأحداث لأن الصدقة تدفع البلاء... وهذا الكلام له مستند قرآني، فالاستغفار الجماعي يسبب الرفاهية للمجتمع، ويتدخل سبحانه مبعداً الآفات والكوارث كما تقرأ صريحاً في الآية 96 من سورة الأعراف "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"، والتقى الفردي يجعل التقي تحت عنايته تعالى بحسب درجة تقاه وصولاً إلى حالة تدخله تعالى لنجاة النبي إبراهيم(ع) من النار... ولكن آيتنا هنا لا تتحدث عن هذا الموضوع.

كلمة قدر وقضاء لم يستعملهما القرآن بالمعنى الاصطلاحي الذي يقولونه، فهما كلمتان معناهما عام، فالقضاء لعامة ما يراد حصوله و"حصل"، وخذ مثلاً الآية 23 من سورة الإسراء "وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا..." وبصعوبة في بعض الآيات يمكن أن تفهم منها ما هو دارج بين الناس عن قرارات قررها تعالى أن تحصل

و"ستحصل"، بصعوبة. والقدر عامة تحديد لشيء، كمية أو مدة أو قيمة، ولا من قريب ولا من بعيد استعملها القرآن بالمعنى الدارج بين الناس عن أمور فيها احتمال أن تحصل.

نعم هما كمفهومين منبثقان من الاحتمالات التي قد تنتج عن مختلف القرارات المتاح لنا اتخاذها، فما قررناه حصل، وما لم نقرره بقي احتمالاً لم يحصل مثله مثل بقية الاحتمالات الأخرى، فهذا المفهوم واقعي كوصف، ولا مشكلة فيه، وإنما المشكلة في تصنيف تعامله تعالى مع الأمور بهذا الشكل، فعلمه تعالى بما سيحصل حتمي ودقيق، ومن الصعب جداً جداً تليين هذا ليتماشى مع ما يقولونه عن القدر بمعنى أنه تعالى لم يحسم حصول الأمور فبقيت مرتبطة بما سنقرره.

طبعاً أنت تعلم الفرق بين علمه تعالى بما سيحصل، والذي يتضمن علمه تعالى بما سنقرره ونختاره نحن، فنحن تبدو الأمور المستقبلية ضبابية أمامنا لأن الخيارات مفتوحة، أما سبحانه فيعلم بالدقة ماذا سيحصل. وهكذا ترى أننا لسنا مجبرين على ما سنختاره وترى أنه تعالى يعلم سلفاً ما سنختاره ولم يجبرنا عليه، فعلمه تعالى بشؤون الدنيا والآخرة سجله في كتاب فيه ما سيحصل معنا، مما اخترنا نحن فعله، فلسنا مجبرين على فعل ما هو مكتوب، بل مكتوب ما سنختاره.

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ{12})
تريدون آية لتؤمنوا؟

{هُوَ}، الله سبحانه، {الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ}، تحصل لديكم صورة محدّدة عن الضوء القوي اللامع السريع غير المستمر، الذي يحصل بين الغيوم كظاهرة في الطبيعة، فهل يحصل لوحده؟ من دون إله صمّمه وجعله يحصل؟ وجعل سبحانه فينا من رؤية البرق، {خَوْفًا}، شعوراً بخطر من شيء لا يمكننا السيطرة عليه وهو قوي جداً بالنسبة لنا، ويمكن أن يؤذينا أو يقتلنا، ونراه، {وَطَمَعًا}، نطمع ونرغب ولدينا أمل، طبعاً المقصود الأمل بنزول الماء من بعد البرق، عادةً يحصل البرق وبعدها ينزل الماء، ونحن نحتاج لمياه المطر للشرب والزراعة والاستعمال، في نفس الوقت يحصل لدينا خوف من البرق، وطمع مع أمل بنزول الماء.

{وَيُنْشِئُ}، من شيء موجود يصنع سبحانه، {السَّحَابَ}، نوع من الغيوم، {الثِّقَالَ}، التي فيها ثقل وزن بخار الماء، يجمع بخار الماء بعضه مع بعض حتى يصير سحاباً ثقيلاً من كثرة ما فيه من ماء، وتلاحظ أنه رغم الوزن الثقيل جداً لكميات المياه الضخمة التي تحملها الغيمة، وهي أطنان من ملايين اللترات من الماء، فهي تسبح في السماء.

نلاحظ في القرآن الخوف من عقابه تعالى والطمع بمغفرته وثوابه وهما شبيهان بالطمع والخوف من البرق.

في كلام سابق لفتت السورة انتباهنا لتفضيل بعض أنواع الطعام على الأخرى لأكلها، فما علاقتي أنا بالطعم وبحاسة الذوق التي عندي، وبرغبة الأكل... لا شيء، أنا صرت هكذا، هل هكذا من دون إله صرت هكذا وصار هناك أكل أفضله وآخر لا أفضله! ومثله مثال إنتاج الماشية للحليب الذي نشربه، من بين فرث ودم خرج ما يغذيني وأرغب شربه، وهذا ما لفتت انتباهنا له الآية 66 من سورة النحل "وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ"، هل هكذا لوحده حصل هذا الترابط والرغبة... هنا نفس الكلام من زاوية مختلفة، عن المشاعر الناتجة عن احتكاكنا بالظواهر، الخوف، الطمع، من البرق، هكذا من دون تصميم إلهي صار برق وله ارتباط بنفسيتنا! أصلاً كيف نفسر حالة الخوف والطمع التي فينا من أين جاءت؟

لو تصورت نفسك تصمم كائنات وتخلقها، لفهمت معنى منحهم المشاعر، بغض النظر عن التفسير الكيميائي والفيزيائي، والبيولوجي للمشاعر، وبغض النظر عن معرفة منشئها من هرمونات ونبضات عصبية... هذا بحث عن آلية حدوثها، لو عرفناها بالتفصيل الممل، فالسؤال القرآني ما زال مطروحاً: من صممها لتحصل عبر هذه الآليات؟ هي مشاعر، ولها قيمة، ومؤثرة في حياتنا، وهي من أهم معاني حياتنا، من صممنا لنكون هكذا؟ ومن صممنا لنخاف من البرق؟ ونطمع بالمطر؟

(وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ{13})

{وَيُسَبِّحُ}، ينزّه الإله عن الصفات السيئة التي تقلل من مكانة الإله، {الرَّعْدُ}، الصوت القوي الذي يصدر عن الغيوم، {بِحَمْدِهِ}، بالاعتراف بأن كل شيء حسن صدر منه تعالى، فينزّهه تعالى عن الصفات التي تشير وتعني قيامه تعالى بعمل سيئ، فهذا غير صحيح لأن كل أعماله سبحانه حميدة جيدة.

نلاحظ القرآن يخبرنا بأن كل شيء من حولنا يسبّح لله تعالى ولكن لا نفقه لا نفهم تسبيحهم، فهنا تخبرنا الآية أن الرعد يسبّح ولكن هل للرعد وعي؟ هل نفس صوته هو تعبير عن التسبيح؟... الكثير من الاحتمالات ولكن كلها غير صحيحة حتى لو دخلت في عقلك ورأيت أنها جيدة ومناسبة، لأن القرآن أكد بأننا لن نفقه تسبيحها كما ورد في الآية 44 من سورة الإسراء "تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ..."، وكل الاقتراحات في كتب العلماء هي محاولات لفهم التسبيح الذي لن نفقهه! ما تقوله الآية هنا هو مجرد خبر نقرأه ولا يمكننا فهم حقيقته، ولكننا نسمع الصوت القوي للرعد وهذا بحد ذاته دليل على خالق خطط لحصول هذا الصوت، وحصول الرعد بحد ذاته دليل على تسبيحه تعالى بحمده، فنحن لو فهمنا الرعد كآية سنقول إنّ الرعد دليل على تنزهه تعالى عن الصفات السيئة وعن الأعمال السيئة، ها هي بيئتنا ترعد كظاهرة مرافقة لنزول المياه الحلوة التي نحتاجها بشدة لحياتنا... ولمزيد من التفاصيل حول تسبيح الجمادات والظواهر راجع دراسة الآية 44 من سورة الإسراء.

وتسبّح، فتنزّه، {وَالْمَلَائِكَةُ}، المخلوقات التي أخبرنا عنها القرآن أنها لا تعصي أوامره تعالى، وهي بقدرات عالية، ولا يمكننا رؤيتها، وتقوم بوظائف يحددها تعالى لها... تسبّح {مِنْ خِيفَتِهِ}، من الخوف منه تعالى، فلديها شعور بخطر أكيد لا يمكن تجنبه إن خالفوا أوامره تعالى، فهي تعرف جيداً بأنها مخلوقات ضعيفة أمامه سبحانه، وتخاف من قدرته ومن عقابه الأكيد إذا خالفت أوامره.

نلاحظ تأكيد القرآن المتكرر عن التزام الملائكة(ع) التام بأوامره تعالى وأنها لم تعصه ولن تعصه أبداً، وتنفذ كل ما يأمرها به تعالى بالضبط ومن دون أي تأخير، وأن الملائكة (ع) لا تعارض ولا تناقش الإله، بل أحياناً تستفسر فقط كما ورد في الآية 30 من سورة البقرة "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...".

{وَيُرْسِلُ}، الله تعالى، {الصَّوَاعِقَ}، وهي عموم الأشياء الموصوفة بأنها تحصل بسرعة، وهنا الكلام عن البرق عن الضوء الذي يمتد من الغيوم إلى الأرض، {فَيُصِيبُ بِهَا}، بالصواعق، {مَنْ يَشَاءُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة وإن قرر أن تصيب الصاعقة أحداً ما فلن يستطيع أي أحد رد ذلك، فالصاعقة تقتل أو تعطب أو تؤذي البشر، مع أنها نادرة الحدوث، ولكن وكما ترى، لا قدرة لنا على منعها من ضربنا، ومصائد الصواعق التي نضعها على الأبنية يمكنها حمايتنا إن كنا بقربها، ولكن إذا ابتعدنا عنها فنحن معرضون للضرب بالصاعقة والموت، وإن كانت قوية جداً فلا يمكن لمصائد الصواعق جذبها. وعلى أي حال فالكلام القرآني عادةً عن نماذج، والكلام هنا عن نموذج من فقداننا السيطرة على بعض الأمور.

ضع في بالك أن كلمة "صعق" وصف لعموم أي شيء قوي حصل بسرعة مفاجئة، فالبرق الضارب بالأرض صاعقة، والخبر القوي علينا والمفاجئ أيضاً صاعقة، والزلزال أو العاصفة أو أي شيء قوي لم نتوقع حدوثه فهو صاعقة، وترى هذا الوصف منتشراً في عموم كلام العرب واستعمله القرآن في الآية 13 من سورة فصلت "فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ" فعاد انصعقوا بعاصفة قوية ومفاجئة أبادتهم، وثمود انصعقوا بزلزال قوي مفاجئ أمات الكثيرين منهم.

{وَهُمْ}، بعض الناس، {يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ}! فلا يقتنعون أنه موجود، أو يقولون لديه شركاء، أو يشككون في قدراته... ويحاولون إقناع الآخرين بذلك، {وَهُوَ}، عزّ وجلّ، {شَدِيدُ الْمِحَالِ}، شديد الحول، فقوته وقدرته شديدة، فعندما خلق فبقوة وقدرة شديدة خلق، وعندما يعاقب أو يثيب فبقوة وقدرة شديدة يعذب أو يسعد، فمن العجيب الغريب مجادلتهم في القدرة والقوة الإلهية الظاهرة الفائقة بشكل واضح! فبعد كل ما يرونه من حولهم والذي يدل بشدة على وجوده ووحدانيته وقوته تعالى فهم لا يؤمنون ويجادلون!

نلاحظ اختيار الآيات لظواهر الطبيعة: البرق الرعد والصاعقة. وأننا نخاف منها، ونلاحظ الكلام عن خوف الملائكة (ع) منه تعالى، وصف القرآن الملائكة (ع) بأنها مخلوقات لها قدرات عالية جداً جداً، أكثر بكثير من قدرات الإنس والجنّ، وذكرتها لنا الآيات هنا لننتبه أن تلك المخلوقات القوية جداً، تخاف من عقابه تعالى، فالأجدر بنا نحن البشر أن نخافه تعالى بدلاً من المجادلة في صفاته وقدراته تعالى، بينما نحن نرتعب من البرق والرعد والصواعق!

بعبارة أخرى نحن يرعبنا الرعد والبرق وضرب الصواعق، والأجدر بنا الخوف منه تعالى والتسبيح بحمده كما تفعل الملائكة التي لا يخيفها البرق والرعد ولكنها تعرفت عليه تعالى من آياته، من أفعاله، وكان ذلك كافياً لها لتخافه تعالى بالرغم من القدرات العالية جداً التي تتمتع بها الملائكة.

هذا الكلام لن نفهمه إن كان في بالنا أن الملائكة تراه تعالى، أو تتواصل معه بشكل مباشر، أو قريبة منه تعالى بشكل حسي ما... فكل هذا غير صحيح، فالملائكة يتواصل معها سبحانه وحياً أو من وراء حجاب بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين تكوين الملائكة، وتقرأ ذلك في الآية 12 من سورة الأنفال "إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا...". وفي عدة سور تجد كلاماً عن القدرات العالية جداً جداً للملائكة أمام قدرات الجن الذين قدراتهم عالية جداً بالنسبة لنا، وتجد مدحاً للملائكة لأنها ورغم قدراتها العالية جداً جداً فهي مؤمنة ومطيعة له تعالى، ولا معنى لهذا المدح لو كانت بلا إرادة، ولا معنى لهذا المدح لإيمانها لو أنها تتواصل معه تعالى مباشرة... من ناحية الإيمان به تعالى فالمعطيات المتوافرة لها حتى آمنت هي مشابهة للمعطيات المتوافرة لنا، والاختلاف فقط في طبيعة تكوينها التي تجعلها لا تتأثر بظواهر عالمنا، ولكن للملائكة عالمها وبيئتها المناسبة لطبيعة تكوينها، وهي تتعامل مع مختلف ما في السماوات السبع، وتراه وترى خلقتها آيات دالة عليه تعالى...

بقي شيء، الخبر في الآية عن تسبيح الرعد بحمده تعالى، لا يختلف عن أي خبر أو لفت انتباه قرآني لنا لأي آية من أفعاله تعالى، فالكافر لن يؤمن ولا بأي آية مهما كان نوعها، وخبر تسبيح الرعد بالنسبة له خرافة مثلها مثل بقية خرافات آياته تعالى... وفي المقابل سبحانه لن يحرم المؤمنين من خبر حال تسبيح الرعد، فالمؤمنون من الدرجة العالية قد يصلون لوحدهم إلى معرفة تسبيح كل شيء من مخلوقات وظواهر له تعالى، ولكن المؤمنين من الدرجة المنخفضة يحتاجون لخبر يلفت انتباههم ليعلموا بتسبيح كل شيء له تعالى، وهذا ينتج عنه أفكار ومشاعر مختلفة متنوعة، وكلامي عما تأثرت به أنا من هذا الخبر، سيكون تفسيراً مني لكلامه تعالى، وهذه الحالة عمومية لكل ما فسرت به كلامه تعالى خلال دراستي هذه، فهي انعكاس لدرجة إيماني وعملي الصالح، مخلوطاً مع مهارتي في الدراسة، وهذه ليست حالتي بشكل متميز عن الآخرين، لا، فكلنا هكذا، وهذا موضوع آخر.

لنرجع للخبر القرآني لنا جميعاً عن تسبيح الرعد وبقية المخلوقات التي من ناحيتنا ما هي إلا جمادات وظواهر طبيعية، ما تجده في التفاسير والروايات عن قول الرعد لشيء ما ويترجمونه للغتنا العربية كتسبيح، وما يقولونه عن تسبيح العصافير وصياح الديك وشروق الشمس وهبوب الريح... ما هو إلا محاولة تأويل تعكس بشكل أو بآخر ما فكر وشعر به العارض بالعربية لنا تسبيح الكائنات والظواهر.

خلاصة الكلام، كل القرآن هدى للمؤمن من الدرجة العالية، وفي نفس الوقت لا قيمة له كله للكافرين من الدرجة العالية في الكفر، ويتدرج اعتبار القرآن هدى بحسب تدرج شدة اهتدائنا، فمن الدرجة العالية الفاهمة لمعنى التسبيح، مروراً بنا مستغربين خبر التسبيح ولكن مؤمنين به لأننا نؤمن بكل ما في القرآن، ومروراً بالشك فيما نسمعه محاولين إعادة صياغته بما نراه عقلانياً، فيصير تسبيح الرعد تعبيراً مجازياً... وصولاً إلى إنكار وتكذيب الخبر... وصولاً إلى الاستهزاء به.

انتبه جيداً، هذه الحالات المتدرجة لا تحصل حصرياً أمام مسألة تسبيح الرعد، بل تحصل في كل شيء، ففي أبسط الأمور وأوضحها بالنسبة لك تحصل، فتراها في الساخر من العقاب الإلهي على الغش، وتراها في الساخر من الأمر بالإنفاق على المحتاجين، وتراها في نموذج غير عادي بسخريته من آل النبي لوط(ع) أنهم أناس يتطهرون كما ورد في الآية 56 من سورة النمل "فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ"، ومعلوم لك أن الكلام كان عن حماية النبي لوط(ع) لضيوفه من اعتداء قومه عليهم جنسياً!

(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ{14})

{لَهُ} {دَعْوَةُ الْحَقِّ}، إذا دعوته وأشهرت أو أعلنت له تعالى أنه الإله، فهذا دعاء صحيح، {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ} {مِنْ دُونِهِ}، وأي أحد آخر غير الله تعالى، كالصنم أو الكوكب أو الأشخاص... إذا دعاهم أحد ما، وأعلن وأشهر لهم أنهم آلهة، أو أرباب بقدرات إلهية، {لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ}، فلن يردّوا عليهم بما هو متوقّع ومفروض منهم كآلهة، {إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ}، حيث إنّ حالتهم حين يدعون غيره تعالى ليست إلا مثل حالة الذي يبسط ويمدّ كَفَّيْ يده، {إِلَى الْمَاءِ}، لِيُوصِلَ كَفَّيْهِ الْمَبْسُوطَتَيْنِ إلى الماء، {لِيَبْلُغَ}، ليصل الماء، إلى {فَاهُ}، إلى ما يتفوّه به، إلى فمه الذي يصدر منه كلام الطالب للماء، فهو يريد أن يشرب، {وَمَا هُوَ}، الماء، {بِبَالِغِهِ}، بِوَاصِلٍ إلى فمه، لأنّه بهذه الطريقة لن يصل الماء إلى فمه، إذ إنّ مجرد مدّ كفيه باتجاه الماء لن يجعلها تصل إلى فمه.

شرب الماء باليدين يستدعي أن تمد يدك إلى الماء وتغرف منه وتضعه في فمك، لأنّ هذه الطريقة ستوصل الماء إلى فمك وستشرب، أمّا إن بسطت يديك باتجاه المياه فلن يصل الماء إلى فمك.

{وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ}، أي ما يعلنه ويشهره المنكرون لتوحيده تعالى، وهم الذين يدعون غيره تعالى أنهم آلهة، {إِلَّا فِي ضَلَالٍ}، إذ هم ليسوا على الشيء الصحيح، لأنّ هذا الدعاء فقط وفقط دعاء في الفراغ، ولن يحصل منه أي أثر أبدا ولا بأي شكل.

بالنسبة لكلمة "دعاء" ومشتقاتها، في عموم استعمال العرب الكلمة يائيّةٌ وَواوِيَّةٌ "دعوت ودعيت" مثل "طغوت وطغيت". وهذا في استعمال العرب ولكن كل القرآن استعملها فقط بالواو من الأصل الصرفي "دعو"، ووردت مرتين للمبني للمجهول مع ياء في الآية 12 من سورة غافر {إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ}، وفي الآية 53 من سورة الأحزاب {وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا}، وهذا ممّا جرى به لسان العرب في هكذا حالة، وكما ترى مِنَ الاستعمال لا يمكن حمل الكلمتين "بالواو أو بالياء" على نفس المعنى إلا إذا كانتا على معنى عموم الإشهار والإعلان، وكذا الحال فيما جرى عليه لسان العرب بما ورد مرتين في الآية 4 و 37 من سورة الأحزاب {أَدْعِيَاءَكُمْ}، {أَدْعِيَاءَهُمْ}.

بالنسبة لكلمة "ضلال" كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، إذ إنّها لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيرا أم شرا، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضَلَّ عنك صيدها. استعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، حيث لم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون لأنّه ليس على طريقهم، بل ضالٌّ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

بالنسبة للدعاء له تعالى على معنى الطلب منه تعالى تحقيق شيء لنا، دائماً يطول الكلام في موضوع أدعيتنا لله تعالى وأنها لا تتحقّق، ونطيل الكلام في أسباب ذلك، ونقول إنّه تعالى بحكمته يستجيب بما يراه مناسبا... ولدينا اعتقاد شائع بأن المؤمن من الدرجة العالية تَتَحَقَّقُ أدعيته حتما وَفَوْراً... وأما من عليه ذنوب فَلَنْ يستجيب تعالى لدعائه... وغير ذلك الكثير من الكلام والتحليل.

أولاً ننتبه إلى أنّ أكثر الآيات التي نفسرّها والمشهور في ثقافتنا الدينية أنّها تتحدّث عن الدعاء بمعنى الطلب منه تعالى تحقيق أمور نريدها، راجعها في دراستنا هنا لترى أنها لم تقصد ذلك، لأنّ القرآن كان مُهْتَمّاً بالدعاء على معناه العمومي "الإشهار والإعلان" عن غير تعالى أنهم آلهة، ومن تبعات ذلك أحيانا في سياق الكلام أن نطلب شَيْئاً نريد تحقيقه من إله، ولاحظ العديد من الآيات الصريحة التي نقلت لنا مَشَاهِدَ من الآخرة، وسألت المشركين أن يدعوا آلهتهم لتشفع لهم أو تنجيهم من عذابه تعالى، في تلك الآيات ترى صراحة المعنى للدعاء على عموميته بالإشهار والإعلان عن غيره تعالى أنهم آلهة، وطالما تقولون ذلك عنهم فليستجيبوا لكم بمساعدتكم، ومنها الآية 64 من سورة القصص {وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ}، ومن أمثال الآية 194 من سورة

الأعراف {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ترى عمومية أوضح وشاملة لعموم الإعلان عن غير الله تعالى إلَهاً وإعلان عن طلب شيء لتحقيقه بما أنهم آلهة.

في القرآن كلام صريح عن الدعاء له تعالى على معنى طلب شيء منه سبحانه، ولكنه قليل جدا بل نادر، وأكثر ما هو متداول من الآيات التي يعتبرها الناس تتحدّث عن الدعاء بمعنى الطلب غَيْرُ صحيح. وللأسف إنّ هذه الثقافة غير الصحيحة عن معاني الكثير من الآيات، رَسَّخَتْ مَفَاهِيمَ دينية غير صحيحة لدرجة ربط الإيمان بها على أساس أنني إن آمنت صَارَتْ لي مِيزَةُ استجابته تعالى لدعائي ليحقّق لي ما أريده من طلباتي في الدنيا، والآخرون لن يستجيب تعالى دعاءهم لأنهم ليسوا مؤمنين مثلي بالدين الصحيح، وبالتالي تَصِيرُ أموري ميسرة لأنني أملك سلاح الدعاء لتحقيق طلباتي حين أريد.

هذه ثقافة خطيرة وخطيرة جِدّاً جِدّاً، إذ ليس هذا ما قاله تعالى في قرآنه، ولا هذا ما فعله تعالى أَصْلاً مع أي واحد من خليقته.

حَسَناً، لِنَتَحَدَّثْ عن مسألة استجابته تعالى لدعائنا على معنى الطلب منه تعالى تحقيق شيء نريده في الدنيا، وألفت انتباهك لزاوية أخرى من الموضوع، مُقَارِنِينَ موضوعنا مع حياة الأنبياء. ولكن قبل ذلك لِنُضَخِّمِ الصورة لنراها بوضوح، هَلْ نرى فَرْقاً بين العلاقة معه تعالى وبين العلاقة مع جنّي الفانوس السحري الخرافي الذي يحقّق لنا أي شيء نطلبه؟ إذ كُلُّنَا نريد المال والنجاح والصحّة... والسلطة والشهرة... باختصار نَحْنُ نريد جنّة الآخرة الآن، هذا مع تغاضينا عن بعض الأمور السيئة التي أحيانا نريدها... هَلْ هذا يتماشى مع دنيا نمرّ فيها بامتحانات؟ أَيْنَ البلاء الذي أُبْتَلَى به كامتحان لي وأجتازه بالإيمان والعمل الصالح لأفوز بالجنّة الخالدة إن كان معي الفانوس السحري "الخرافي"؟! هل لاحظت؟ لِذَا لَا معنى للدعاء له تعالى وَتَحَقُّقِ دعاء كل من دعاه تعالى إن كان الدعاء من هذا النوع.

نعم، السلوك الحسن مع الإيمان هنا في الدنيا يؤدّي إلى عناية إلهية لنعيش في أفضل الظروف الممكنة، ومن دون أي دعاء، راجع الآية 96 من سورة الأعراف كمثال {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، وكما ترى إذ إنّ هذه الحالة النادرة أَصْلاً "لو"، وهي تعكس لك مُجْتَمَعاً مُؤْمِناً عَامِلاً للصالحات، حيث إنّ فِيهِ أَصْلاً الأمان الفكري والنفسي والمالي... وَكُلُّهُمْ عَامِلُونَ للصالحات ولا حاجة للكثير من طلباتنا لأنها أَصْلاً مؤمّنة...

الآن نقارن أدعيتنا مع أدعية الأنبياء، الذين عاشوا حياتهم من دون أن يطلبوا منه تعالى أي طلب دنيوي، إلا اللهم ما ندر كطلب واحد في حياتهم، وأحيلك إلى النموذج النبي زكريا (ع) لتقرأ الآيات في أول سورة مريم لترى خجله (ع) من طلب شيء منه تعالى... أمّا نحن فنفهم الدعاء له تعالى بشكل مختلف، حيث نُرِيدُ أن تتحقّق طلباتنا مهما كانت وَفَوْراً، ولو راجعت الغالب الأعم من أدعيتنا لوجدتها نابعة من حبّ الدنيا والتعلّق بها نَاسِينَ للآخرة، ولو انتبهت لرأيت الكثير من الطلبات التي ترجع في جذورها إلى محرمات سيئة، وأدعية أخرى نطلب فيها ما أخبرنا تعالى أَنَّهُ لن يفعله، وكمثال عن ذلك إذْ سُبْحَانَهُ لن يتلاعب بعقل من أحبّ ليجعله مُؤْمِناً...

الخلاصة مما نفهمه من القرآن، أن المستوى الإيماني لكل فرد منّا هو السبب في الاستجابة أو تأخير الاستجابة أو رفض الاستجابة للدعاء، وكلما انخفض مستوانا الإيماني كَثُرَتِ الطلبات وكانت نابعة أكثر من حبّ الدنيا وزينتها... وهذه لن يحققها تعالى من الدعاء له لشخص حَتْماً سيرتكب السيئات... وكلما علا مستوى إيماننا قَلَّتِ الطلبات، لأننا سنفهم أكثر الحكمة الإلهية مما يجري معنا، وسنتصرّف بما تمليه علينا أوامره تعالى من التقوى مع الجدّ والصبر...

هَلْ هذا يعني أن كلام القرآن عن الدعاء له تعالى بلا معنى؟ لا، ولكن يعني أن الدعاء له تعالى ليس مثل الطلب من جنّي الفانوس السحري الخرافي.

هذا الكلام لن يستقر في ذهننا إذا كانت مفاهيم أخرى غير قرآنية مُسَيْطِرَةً علينا، إذ بَعْضُنَا يؤمن بقدرات عالية منحها تعالى لكل المؤمنين من الدرجة العالية، وَبِشَكْلٍ مخالف لصريح القرآن تجد في الكثير من أدبياتنا أَنَّ الأنبياء كلّهم لديهم نفس القدرات المميزة، وَيَقُولُونَ إِنَّ كل الأنبياء يعلمون شَيْئاً من الغيب إن أرادوا، بينما صريح القرآن أَنَّهَا كانت ميزة خاصة للنبيين عيسى(ع) ويوسف(ع)، ومثلها الميزة الخاصة للكلام مع الطير للنبي داوود(ع) وسليمان(ع)... وبعضنا

يؤمن بقدرة فائقة وسيطرة من نوع الولاية للأنبياء والمؤمنين من الدرجة العالية على كل ما في دنيا المخلوقات، بينما صريح القرآن يريك أن النبي سليمان(ع) لم يملك القدرة والمعرفة التي تمتّع بها الذي أحضر عَرْشاً من سبأ إلى قصره، ويريك أن النبي زكريا(ع) والنبي إبراهيم(ع) لم يغيّرا في طبيعة جسد زَوْجَاتِهِمْ لِيَلِدْنَ...

هذا صريح القرآن ولن تجد فيه كَلَاماً صَرِيحاً كالذي يقولونه، بل تجد كلاما صريحا بِأَنَّ الأنبياء دعوه تعالى لطلب شيء ما، وتجد حَثّاً قُرْآنِيّاً على الدعاء له تعالى، ولن تجد ولا أي نوع من الكلام عن إلغاء الدعاء له تعالى لتحقيق شيء ما بسبب الوصول إلى قدرة عالية تمكّن المؤمن من فعل ما يريده.

الأنكى من ذلك الانجرار في الاشتقاق غير السليم من كلامه تعالى وُصُولاً إلى جعل المؤمنين من الدرجة العالية واسطة بيننا وبينه تعالى، وجعلهم بقدرات تتيح لهم تحقيق طلباتنا التي لم يحققوها لأنفسهم حين كانوا أحياء! إذ فِي حياتهم عانى البعض منهم من الفقر والمرض وأذى الناس...

هذه العقيدة المترسخة في العديد من المنتمين لدينه تعالى، لن يروها فاسدة بسبب اندماجها في ثقافتهم وَصَيْرُورَتِهَا النَّظَّارَاتِ التي يرون منها دينه تعالى، وَأَمَامَ صريح القرآن غير الموافق للكثير من اشتقاقاتهم تراهم مقتنعين بأن كلامهم هو صريح القرآن!

مَعْلُومٌ أن الاستغراق في أي فكرة ما سيجعلك ترى كل شيء يتمحور حولها، وهكذا ستفقد رؤية الواضح أمامك لترى خيالك كواقع بَدَلاً من الحقيقة، لِذَا رَاجِعْ دراستنا هذه لترى أَنَّ الكثير من الاشتقاقات والتفسيرات للآيات والتي نسجوا منها عقائد صارت عَلَماً فَارِقاً مَذْهَبِيّاً لجماعة تتميّز عن الآخرين، وستجد أن كلامهم ليس صَرِيحاً من الآيات، بل ولا تشير له الآيات، بل ومخالف للآيات.

(وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ{15})
لماذا إذا تركت الدعاء له تعالى ودعوت غيره فسيكون دعاؤك في ضلال؟ تجيب الآية هنا بأن كل عاقل يمكنه أن يفهم الدعاء، فهو خاضع كرها أو طوعا للسلطة الإلهية، فلا قدرة له على فعل أي شيء من دون سماح إلهي، فلنتابع:

{وَلِلَّهِ}، ولذي هذا الاسم المخصّص المميّز، {يَسْجُدُ}، يعبّر عن خضوعه وشدّة احترامه بأقصى الطرق، {مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وهذا التعبير القرآني يرادف قولنا: كل الكائنات أينما كانت الدنيا. إِذْ كُلُّ المخلوقات الواعية التي تفكر وأينما كانت، فهي خاضعة لله تعالى، وَهِيَ تحت قدرته العظيمة، سواء أدركوا ذلك أَمْ لم يدركوا، سواء آمنوا بذلك أم لم يؤمنوا، سواء عبدوه أم أشركوا به.

يسجدون، {طَوْعًا}، بإرادتهم ورغبتهم، لأنهم مؤمنون به سبحانه ويخافون عقابه... ويسجدون، {كَرْهًا}، بالإكراه غصبا عنهم لأنهم تحت سيطرته وقدرته تعالى، فهم خاضعون له تعالى ولا يمكنهم فعل أي شيء إذا لم يسمح لهم.

{وَظِلَالُهُمْ}، لمن عنده ظلّ فيحجب جسده النور ويصير له انطباع شكل معتم لجسده على الأرض، وَأَيْضاً ظلالهم تسجد أَيْ تخضع للقدرة الإلهية، {بِالْغُدُوِّ}، في غداة كل يوم، من بداية فترة الضوء القوي من اليوم إلى نهايته، والغدو فترة تمتد من بعد إِشْرَاقِ الشمس إلى ما بعد العصر تقريبا، وفي، {الْآصَالِ}، وفي أصيل كل يوم، في عموم فترة خفوت الضوء من كل يوم، وهي عادة ما بعد العصر إلى المغرب. وهذا التعبير بالغدو والآصال مُسَاوٍ للتعبير بالنهار وبعده نهار... ولكن يلفتان انتباهنا أكثر لطول الظل عندما تكون الشمس في بداية شروقها وعند الغروب، ففي الظهيرة يكون الظل قصيرا، والتعبير بالجمع "غدو وآصال" بدل المفرد "غداة وأصيل" يعطينا معنى تكرار الخضوع بالظلّ وَأَنَّهَا ليست حادثة نادرة بل متكررة.

كَمِثَالٍ عن السجود الذي يعني الخضوع اللّاإِرَادِيَّ للكائنات، الْتَفِتُوا إلى ظلّها على الأرض، فهي لا يمكنها التحكّم بظلّها، فغصبا عنها سيكون لها ظلّ، وغصبا عنها سيطول ويقصر.

اَلِاسْتِغْرَاقُ الفلسفي أو الصوفي أو العرفاني في هذه الآية، يجعلنا ننسب لكل الكائنات ظلا غير الظلّ العادي الذي نعرفه، ولكن هذا المثل هنا مضروب حتى يفهمه كل من يقرأ القرآن، وأما أقوالهم الاستغراقية، فلا يَفْهَمُهَا إلا القليلون! وحتى هم أنفسهم غير متفقين على فهمها بالعمق! مِنْ نظرية المثال والظلال، ونظرية الكهف والظلال، وعالم الأرواح

وعالم الأجساد، والنور والانعكاس، وعالم الحقيقة وعالم الخيال، وعالم الغيب وعالم الشهادة، وعالم الملك وعالم الملكوت... فتراهم على راحتهم في اختراع العوالم والتقسيمات المختلفة، ولا يوجد أي مستند إلهي صريح لأكثر ما يقولونه، فأكثرها استغراقات في الأفكار ومن نوع الترف الفكري، ويكفيك من استغراقاتهم التي توصل لأشياء غير صحيحة: عالم الأفلاك والأنفس، حيث بنوا فكرتهم على "سبع كواكب سيّارة حول الأرض"، فهم لم يعرفوا بوجود عدد أكبر من ذلك، وغالبيتهم لم يعرفوا أصلا أنها سيّارة حول الشمس وكانوا يظنون أنها سيّارة حول الأرض! وَقَسَّمُوا لها أعمال التدبير الإلهي مع الأفلاك التسعة... وهو كلام بالتأكيد غير صحيح، وَكَانَتْ له قيمة فيما مضى لأنه كان الكلام الوحيد بلا منافس آخر، وكان متماشيا مع علومهم، أمّا وقد تبيّن الخطأ في أقوالهم، والأهمّ منه تبيّن الخطأ في أصل طريقة تفكيرهم، فلننتبه من الوقوع مثلهم في استغراقات فكرية غير صحيحة ولا يقصدها القرآن، أو أَنْ نَقَعَ في استغراقات علمية ونفسّر عليها آيات القرآن، فدائما نجد التفسير البسيط العادي للآيات والذي يفهمه أكثر الناس هو الصحيح.

إذَن، من تدعوه كإله فيجب أن يكون له وعي، وكل من يمكن أن يعي دعاءك فهو في هذه الدنيا الممتدة على مساحة السماوات والأرض، وكل من فيها وله وعي فهو إمّا ساجد طوعا له تعالى، فيعرف ويؤمن بأنه عبد وليس إلها، وإمّا غصبا عنه ساجد لانه ليس إلها وفعليا واقع تحت حكومته تعالى، وكنموذج عن وقوعهم تحت حكومته تعالى الظلال، التي تنطبع من وقوع الكائنات بين ضوء وخلفية، فهذا نموذج واضح بسيط عن جريان حكومته تعالى على الكائنات حيث هو تعالى صمّمها هكذا...

مِنَ المفيد مراجعة الآية 18 من سورة الحج {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ}، والآية 48 من سورة النحل {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ}، فمنهما ومن الآية هنا ترى أن الكلام عن سجود ما في السماوات والأرض شامل للساجدين طوعا وكرها، والكلام معنا نحن البشر عنهم لنكون معهم من الساجدين طوعا.

(قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ {16})
{قُلْ}، للناس عبر هذا القرآن: {مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}؟ نحن نعرف ربّ العمل، وربّ البيت، وربّة المنزل، وربّ الماشية... فهو المسؤول عنها وعن القرار فيها وتسيير أمورها... مَنِ الربّ المسؤول عن السماوات والأرض؟ هذه هي كلّ دنيا المخلوقات هَلْ هي من دون ربّ يرعى شؤونها؟ هل هي لوحدها هكذا موجودة من لا شيء وتسير فيها الأمور بدون ربّ يجعلها منتظمة وتعمل وتتفاعل وتستمر... مَنْ هو؟

{قُلِ اللَّهُ}، الكائن صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز هو ربّها، هو المسؤول من مستوى إلهي عن كل شيء، وها هو تعالى يخبركم عبر هذا القرآن أن اسم الرب هو: الله، وهذا شيء واضح جدا.

لَا تَنْسَ تاريخا طويلا ممتدا من الرسل والكتب التي أخبرت الناس عنه تعالى، ولا تَنْسَ أن ما سبق من ذكر لظواهر الطبيعة كان للفت النظر لحاجتها إلى من يصمّمها ويخلقها ويجعلها تعمل، حَيْثُ يأتي الكلام الإلهي هنا عن تسميته تعالى "الله" عزّ وجلّ كخبر متكرر كثير منه تعالى لنا أنه هو الربّ من مستوى إلهي، وهذا خبر سبق ووصلنا عبر سلسلة طويلة من الأنبياء عبر التاريخ منذ آلاف السنين.

{قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ}، أَيْ تركتم الله تعالى وجعلتم غيره، {أَوْلِيَاءَ}، لتكونوا تابعين لهم وهم يعتبرونكم تابعين لهم فيعتنون بكم؟ وهؤلاء الأولياء الْمَزْعُومُونَ، {لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا}! إِذْ ليس لديهم القدرة الذاتية على نفع أنفسهم بالاستفادة من زيادة حياتهم أو بالحصول على الخلود أو الصحّة أو الغنى أو القوّة الزائدة... وليس لديهم القدرة الذاتية على إلحاق الضرر بأنفسهم، لِأَنَّهُ لا يمكنهم بقوّة قاهرة جعل حالهم وحالتهم سيّئة إن جعلهم تعالى لا يتضررون. فكيف يَكُونُونَ أولياء لكم لينفعوكم أو يضروكم إن كانوا لا يقدرون على الضرر أو النفع لأنفسهم بقرار ذاتي منهم!

فهناك ربّ واحد من مستوى إلهي في هذه السماوات والأرض، وهؤلاء ليسوا أربابا، بِأَيِّ منطق تَجْعَلُونَهُمْ أولياء لكم لتعبدوهم وتدعوهم!

{قُلْ} عبر هذا القرآن: {هَلْ يَسْتَوِي}، أَيْ هل على نفس المستوى ونفس القيمة والاعتبار، وَهَلْ يتساوى، {الْأَعْمَى}، الذي لا يرى وهنا المقصود الذي لا يرى بفكره وقلبه، {وَالْبَصِيرُ}، الذي يدرك الصور ويعي معناها، وَالَّذِي يرى بفكره وقلبه الحق الواضح هل يتساوى مع الذي لا يرى الحقّ الواضح؟ مَنْ لديه بصيرة يراه تعالى إلها ربّا واحدا أحدا، والأعمى الذي بلا بصيرة لا يراه تعالى، فهل هناك تَسَاوٍ بين البصير والأعمى أم من الواضح أن البصير يرى الحقيقة والأعمى أصلا لا يرى أي شيء؟ ولا تَنْسَ أن الكلام ليس عن تقليل قيمة المعاق بفقدان البصر، إِذْ مَا في سورة عبس من قيمة عالية عنده تعالى للمؤمن الأعمى الفقير، يكفيك لتفهم دائما أن الكلام القرآني عن المقارنة بين فقدان القدرة على الرؤية كمشكلة في مسألة الرؤية، وبالأخص منه الكَلَامُ عن مشكلة فقدان رؤية الحقّ.

{أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ}، العتمات التي تحيط بالشخص من كل الجهات، {وَالنُّورُ}، والانكشاف؟ هَلْ هما من نفس المستوى والقيمة؟ ستجيب: بالطبع لا، لِأَنَّ الظَّلَامَ تختفي فيه الأشياء عن الرؤية، والنور هو انكشاف الأشياء وإمكانية رؤيتها. لِذَا لن تضل وأنت تمشي على النور، وستضلّ حتما إن مشيت في الظلمات وهذا الفرق واضح بين الحالتين.

{أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ}، في الألوهية والربوبية، {خَلَقُوا كَخَلْقِهِ}؟ وَتِلْكَ الشركاء ركّبوا وألّفوا مثلما ركّب وألّف تعالى، حَيْثُ قامت تلك الآلهة والأرباب بخلق مخلوقات مثل المخلوقات التي خلقها الله تعالى، {فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ}؟ وَلَمْ يعرفوا المخلوقات التي خلقها الله تعالى من المخلوقات التي خلقتها تلك الآلهة والأرباب! فهل هذا ما حصل معهم حتى عبدوا الله تعالى وآلهة أخرى معه!

كل المخلوقات التي تعرفونها خَلَقَهَا الله تعالى، من كائنات وظواهر، ولكن جعلتم له شركاء، فلماذا ولأي سبب؟ هَلْ تَدُلُّونَنَا على مخلوقات خلقتها تلك الآلهة والأرباب؟ أم لم تتميّز تلك المخلوقات التي خلقوها عن التي خلقها الله تعالى ولذلك جعلتموها له تعالى شركاء في الألوهية؟

لَاحِظْ وانتبه جيدا، لِأَنَّ الربّ الإله هو الذي يخلق بقدرة ذاتية منفصلة، هَلِ امتزجت مخلوقات الله تعالى بمخلوقات تلك الآلهة حتى قمتم بعبادة الله تعالى وعبادة تلك الآلهة؟ لو حصل هذا لفهمنا السبب الذي جعلكم تقولون بأن لله تعالى شركاء، فهل حصل هذا فعلا؟ طبعا لم يحصل، فماذا خلقت تلك الآلهة؟ أخبرونا؟ وَأَعْطُونَا الدليل، وإن لم تخلق أي شيء فما معنى موالاتها بعبادتها والدعاء لها... واعتبارها آلهة إن لم تخلق أي شيء؟

{قُلِ اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز هو، {خَالِقُ}، مركّب مؤلّف، {كُلِّ شَيْءٍ}، بدون أي استثناء، سواء كان كائنا أو ظاهرة طبيعية... ولا أحد غيره تعالى خَلَقَ أي شيء بقدرة من مستوى إلهي.

الخلق هو تركيب وتأليف الأشياء، مثلما تقوم أنت باستعمال مادة الحديد، لتخلق لتركّب لتؤلّف مسمارا، وَهَذَا ليس عملا إلهيا، بَلْ هذا عمل "خلق" يمكن للمخلوق فعله، مثلما خلق النبي عيسى(ع) من الطين طيورا، وأمّا خلق الأشياء كإله فهو يعني امتلاك القدرة الفائقة على الخلق، فأنت لأن الإله أعطاك القدرة وسمح لك خَلَقْتَ مسمارا، والنبي عيسى(ع) أعطاه تعالى القدرة على نفخ الحياة في الطين، ولكنه (ع) لم يكن يملك قدرة ذاتية ليخلق، بل القدرة ممنوحة له، وأذن له تعالى بذلك، وهكذا نفهم هنا ما تقوله الآيات عن آلهة مزعومة وهمية الألوهية، فماذا خلقت تلك الآلهة؟ لا شيء، وكل شيء خلقه الله تعالى.

ننتبه، لِأَنَّ القرآن تَحَدَّثَ عن الطبيعة البشرية للنبي عيسى(ع)، وأنه مولود، وكان يأكل الطعام... فهو مخلوق حصل على امتيازات منه تعالى، وليس إلها، حَتَّى لو أَحْيَا الموتى ونفخ الحياة في الطين، فكل ذلك حصل بإذن من الإله سبحانه وليس بقدرة ذاتية يملكها النبي عيسى(ع)، ولذلك انتبه جيدا لما تقوله الآية هنا عن القدرة الذاتية التي يملكها الله تعالى، وفقدان تلك القدرة عند غيره.

في طيّ بعض السور تحدثنا عن الإمكانية المتاحة للبشرية حتى ترتقي في قدراتها، حَالِيّاً لدينا القدرة على خلق كائن حيّ من خلية، وَيُمْكِنُ أَنْ نصل إلى مرحلة خلق كائن حيّ مباشرة من المواد، وإن فعلنا ذلك فلن نصير آلهة، مع أنه

بشكل ما تقليد لعمل الإله سبحانه ولكن بآليات مختلفة وبما جعله تعالى فينا من قدرات وبما جعله تعالى من خصائص للمواد.

{وَهُوَ} سبحانه، {الْوَاحِدُ}، الذي لا ثاني له في الألوهية ولا في الربوبية، لِذَا لَا يوجد كائن ثَانٍ فيه الصفات والقدرات الفائقة التي فيه تعالى، ولا يوجد كائن آخر موصوف بأن كلّ شيء تابع له وهو مولى عليهم من مستوى إلهي سواه تعالى.

{الْقَهَّارُ}، الغالب بشكل مطلق، الذي يقهر وَيَغْلِبُ وَتَمْضِي إرادته كَاسِرَةً أي إرادة أخرى، وَمَا يشاؤه وما يريده تعالى فهو ما يصير ويحدث، وإذا أراد أَحَدٌ ما شيئا ولا يريده الله تعالى أن يحصل، فإرادته تعالى تقهر وَتَغْلِبُ إرادة غيره، ويحصل فقط ما يريده تعالى أن يحصل، مَا قيمة الذين توالونهم وتدعون لهم... وتقولون عنها أنها آلهة أو أرباب إن كانت مغلوبة مقهورة وتحت قدرة الله العظيمة!

نلاحظ وجود بحث في الكتب عن خلقه تعالى لكل شيء، ويدرجه البعض تحت آيتنا هذه، فيقولون: كيف يتضمّن ذلك خلقه للشر؟ ولكن من تعريفنا لكلمة "خلق، خالق" نعلم أن سؤالهم بلا معنى، لِأَنَّ الشَّرَّ ليس كيانا ولا ظاهرة وَهُوَ ليس مخلوقا، بل صفة لأفعال وأفكار وأقوال... تقوم بها المخلوقات الواقعة تحت التكليف، وبناء على حرية الإرادة الممنوحة لهم يمكنهم القيام بأعمال الشرّ، وسيتحاسبون وَيُجَازَوْنَ عليها... تَوَسَّعْنَا في هذا الكلام في آيات أخرى منها الآية 62 من سورة الزمر {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}، والآية 21 من سورة سبأ {وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ}.

(أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ{17})

الله تعالى فاعل لما يلي: {أَنْزَلَ}، سبحانه، {مِنَ السَّمَاءِ}، من الفضاء الذي فوقنا، {مَاءً}، سائلاً على شكل مطر، {فَسَالَتْ}، جرت، {أَوْدِيَةٌ}، وصارت الوديانُ المنخفضاتِ بين مرتفعاتٍ، وصارت المنخفضات سيّالةً بالماء، {بِقَدَرِهَا}، فهذا وادٍ سال بالماء القليل، وذاك سال بكمية كبيرة، وآخر سال بقوّة... فكل وادٍ يسيل بقدرٍ بمقدار بكمية مياه مختلفة عن الوادي الآخر، {فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ}، حمل سيل الماء الجاري، وجرف معه، {زَبَدًا}، أشياء تنتج عن تلاطم وجريان المياه، والتي نسميها الرغوة، فزبد مياه البحر هو اللون الأبيض على الأمواج، وزبد السيل يكون بلون التراب الذي جرفه معه، فيكون الزبد بنيّاً أو أحمرَ... والزبد {رَّابِيًا}، يطفو على وجه المياه، فتراه على الأمواج.

يعني، يحصل من سقوط الأمطار بغزارة سيل للمياه، ويحصل من السيل زبد، وسترى تركيز الآية على هذا الزبد كنموذج لأن المطر ليس دائماً، والسيل لا يحصل دائما، والزبد لا يحصل دائما، وفي الأخير لا يبقى الزبد، فتركد المياه ويختفي الزبد...

كلمة زبد هي وصف لشيء ثانوي ينتج من شيء، فزبد غليان اللحم هو الرغوة "الغثوة"، وزبد تحريك اللبن هو كتلة في القعر "يسميها البعض زبدة وآخرون سمنة"، وزبد المحلوب "حليب البقر أو الغنم..." من غليانه فهو القشطة عن وجهه، وزبد البحر هو البياض على الموج، وزبد ذوبان الحجارة والتربة بالحرارة هو نثرات المعادن...

{وَمِمَّا}، ومن الأشياء التي، {يُوقِدُونَ}، يشعلون {عَلَيْهِ فِي النَّارِ}، وسترى أن الآية تتحدّث عن إذابة المعادن، وعادة كان يتم وضع الحجارة التي يرون احتواءَها على المعدن الذي يرغبون به، فيضعونه في وعاء "خزفي أو فخّاري" ويغلقونه من كل الجوانب بالطين، ويضعون الوعاء "في النار" بطريقة تجعل الحرارة مرتفعة بدرجة كافية لإذابة المعدن... يفعلون ذلك، {ابْتِغَاءَ}، يطلبون من هذه العملية، {حِلْيَةٍ}، شيءٍ يتحلّون به، شيءٍ يصيرون به أحلى، يتزينون به، كالخاتم والعقد والقلادة... أو يوقدون ابتغاء، {مَتَاعٍ}، شيءٍ ينتفعون به مثل السكين والمقلاة وحدوة الفرس... فمن الأشياء التي يستعملون النار للحصول عليها، وهي المعادن بأنواعها المختلفة التي تذوب وتتجمّع في البوتقة "الوعاء المخصص" حتى يصنع الناس منها أشياء للزينة أو للاستعمال والاستخدام، {زَبَدٌ مِّثْلُهُ}، مشابه لزبد مياه السيل، فكلاهما زبد، واحد ينتج عن تلاطم المياه والآخر ينتج عن الذوبان بسبب النار.

{كَذَٰلِكَ}، بهذا الكلام عن الزبد، {يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ}، يضرب "يقيم مثلا" عن الفرق بين الحق الصواب الصحيح، وعن الباطل الخطأ غير الصحيح، والملاحظة من هذا المثل: {فَأَمَّا الزَّبَدُ}، فأما الشيء الذي نتج عن تخابط المياه، {فَيَذْهَبُ جُفَاءً}، يتحلّل ولا يبقى له أثر، {وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ}، من زبد المعادن، {فَيَمْكُثُ}، يبقى في الأرض لمدّة، ولا يصير جفاء مثل زبد الماء، فهناك أمور تراها ولكنها في الحقيقة هي سريعة الحدوث وسريعة الذهاب، ولا يبقى لها أثر، مثل زبد مياه السيل، وهناك أمور تحدث ولكنها تبقى لمدة طويلة مثل المنتوجات المعدنية، فهذه تمكث وتبقى وتنتفع منها المخلوقات.

{كَذَٰلِكَ}، بهذا الكلام عن الأشياء التي لا تبقى ولا قيمة عملانية لها، وعن الأشياء التي تبقى ولها قيمة، {يَضْرِبُ اللَّهُ}، يقيم لنا، {الْأَمْثَالَ}، التشبيهات، فهذا القول نضربه نقيمه ونقوله لكم، كشيء تعرفونه ويسهل عليكم فهمه حتى تقيسوا عليه شيئا آخر لا تفهمونه بسهولة. فتوحيده تعالى هو الحقّ الثابت الباقي، وأما الكفر فهو الباطل وهو الزائل، ومن السهل أن تفهموا ما تقصده الآية إن التفتم إلى الزبد الذي منه نوع يبقى وينفع ونوع آخر يزول ولا نفع منه.

نلاحظ أن ماء السيل أيضا يبقى في الأرض كبركة ماء، ولكن الآية لم تشر إليه، لأن كلام القرآن عموما عن نماذج حيث أشار لزبد السيل وزبد ذوبان الفلزات، وبالمقارنة بين هذين الزبدين، فواحد يبقى والآخر يزول.

ننتبه جيدا، فالآية تتحدّث عن النظرة الإلهية للحق والباطل، وليس عن نظرتنا نحن، حيثُ إنَّ أغلب الناس تتبع الباطل، وهو الذي يسود ويحكم، والحقّ متروك، فالآية تنبههم بأنهم تعلّقوا بزبد السيل "بالأشياء الباطلة" الذي نعرف جيّدا بأنه لا قيمة له ولا استمرار، وتركوا المعدن "الحق" الذي نعرف جيدا أنه يدوم لفترة طويلة جدا، وبقيّة الآيات حتى الآية 26 ستقوم بتفصيل الحق والباطل، وستتحدّث عن أثرهما وما يبقى نافعاً وضاراً منهما...

الشرك عمل باطل غير صحيح، ولا قيمة له لأنه ينتج عن أفكار غير صحيحة، وفي النهاية فهو مثل زبد الماء، يختفي ولا يبقى له أثر جيّد، ولن تعطيك تلك الآلهة التي جعلتها شريكة لله تعالى أي ثواب، فعبادتُك لها ودعاؤُك لها ونذوراتُك لها... كلها جفاء حيث لن ينتج عنها أي شيء نافع، ونفس الوصف لكل أفكار الكفر فلن ينتج عنها ما ينفع. وأمّا التوحيد فهو كالمعدن، وله قيمة وينفع وله أثر وثابت ويبقى، وستجد أنّ من كنت تعبده سبحانه أعدَّ لك ثواباً وحسنات، وسترى ذلك من الآية التالية:

(لِلَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْاْ بِهِ أُوْلَـئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ{18})
تطبيق عملي لمثل الزبد الذي يبقى له أثر، وعن الزبد الذي لا ينفع:

{لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ}، دعاهم المسؤول عنهم من مستوى إلهي إلى التوحيد له وأمرهم بطاعته، حيث استجابوا وكان ردّهم بتنفيذ ما طلبه تعالى منهم، لهؤلاء، {الْحُسْنَىٰ}، الشيء الحسن، ونعرف من القرآن أن المقصود هو الآخرة الجيّدة، واتّباع الحقّ سينتج عنه دخول الجنّة.

{وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا}، حيث لم يلبّوا ولم ينفذوا ما طلبه تعالى منهم، {لَوْ أَنَّ لَهُم}، لو كان منسوباً لهم وكانوا يملكون، {مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}، كلّه لهم من مخلوقات ومعادن وأملاك وعقارات... {وَمِثْلَهُ مَعَهُ}، وبعدد وكميّة مساوية، لما في الأرض مرّة ثانية مع ما هو موجود، لو كان كل الذهب في الأرض مليون طن... لو كانوا يملكون هذا، ويملكون مثله معه ويملكون مليون طن آخر من الذهب... {لَافْتَدَوْا بِهِ}، لقدّموه فدية، لدفعوا مليونَيْ طنّ من الذهب وبقية ما يملكونه كفداء كبدل منهم حتى لا يتعذّبوا.

{أُولَٰئِكَ}، العاصون لله تعالى، {لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ}، لأنَّ لله تعالى حساباً معهم لأنهم لم يستجيبوا لأوامره سبحانه، وحسابهم معه تعالى سيكون من النوع السيّء، حيث سيحصلون على العذاب.

{وَمَأْوَاهُمْ}، وهو المكان الذي يبقى فيه هؤلاء العاصون لله تعالى، {جَهَنَّمُ}، المكان الموصوف بسوء ما فيه، لأنه مكان تتأجج فيه النيران، وجهنّم هي، {بِئْسَ الْمِهَادُ}، أسوأ أرضية، أسوأ مكان ليقف أو يجلس أو يستلقي فيه أحد ما. حيث إنَّ

الفراش على الأرض هو مهاد جيّد، ولكن لو فرشت الأرض بالشوك، وأجبرت شخصاً على النوم عليه، فالشوك أيضا مهاد ولكنه سيّء، وفي جهنم أراضٍ وعرة ملتهبة، وهي أيضا مهاد...

إذاً، الشرك والعصيان هو زبد باطل لا قيمة له، مَن عصاه تعالى سيأتي يوم القيامة وليس معه أي شيء نافع، ولو ملك كوكب الأرض بما فيه وما عليه، بل وكان عنده أرض ثانية يملكها، لتخلّى عنها وقدّمها في يوم القيامة ليأخذوها ويتركوه ولا يرموه في النار.

لاحظ، إشارة الآية بشكل غير مباشر إلى قيمة الحسنات، حيث إنَّ الحسنة الواحدة التي تملكها في يوم القيامة، تساوي في قيمتها كل الأرض وما عليها، لأنها ستمسح عنك ذنباً، أو تدخلك إلى الجنّة مباشرة، حيث لا يمكن لأي شيء آخر أن ينفعك هناك إلا الأجر على الحسنات.

(أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ{19})
{أَفَمَن}، هل من، {يَعْلَمُ أَنَّمَا}، أن الذي، {أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}، من المسؤول عنك من مستوى إلهي، الذي أنزل هذا القرآن، هو، {الْحَقُّ}، الصواب الصحيح وليس فيه باطل، فهل هذا الذي يؤمن بأن القرآن حقٌّ، {كَمَنْ}، مثل الذي، {هُوَ أَعْمَىٰ}؟ فهل هو مثل الذي لا يرى القرآن حقّاً فلا يؤمن بأن مصدره إلهي؟

قارن التعبير هنا مع بداية السورة التي قالت: {وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ}. فالقرآن صواب وصوابه مدعوم بأن كل ما يقوله ويفعله الإله سبحانه دائما حقٌّ، والتفت إلى بقيّة القرآن الذي دائما عبَّر بـ: الحق من ربّك. ولم يعبّر ولا بأي طريقة بـ: الحق مع ربّك. لأننا نحن نقول الحق معي، الحق معك. وهذا يعطي معنى أن يكون الحق مرّة معي ومرّة معك، ولكن الله سبحانه دائما يصدر منه فقط الحق.

لاحظ أن الإله هو مَن أنزل هذا القرآن على الرسول محمد(ع)، وجعل سبحانه القرآن يدلّ على نفسه بأن مصدره إلهي، وجعل سبحانه فيه العقيدة والتشريع الإلهي، والأجوبة عن كل أساسيات الاستفسارات الدينية، وسبحانه يعلم كم هي قدرات مخلوقاته، حيث يعلم أن هذا القرآن كافٍ لمن يريد منهم أن يؤمن، ولذلك يحقّ له تعالى أن يصف الشخص الذي لم يعتقد بأن القرآن حقٌّ وصوابٌ، يحقّ له تعالى وصفه بالأعمى، أعمى القلب، أعمى البصيرة، أعمى الفكر.

هل هذا الأعمى الذي كفر بالكتاب الإلهي مثل البصير الذي آمن وتمسّك بالكتاب الإلهي؟ ولا يذهب فكرك إلى أن الآية تتحدّث هنا عن الفرق "بالثواب" بين من آمن وكفر بالقرآن، لأنَّ هناك فرقاً بالثواب تحدّثت عنه الآية السابقة، أما هنا فالتركيز على العمى عن رؤية شيء إلهي موضوع أمامهم! وهو كتاب أنزله الإله وعموا عنه! بأي منطق سيكون هناك مساواة بين من اعتقد بصوابية الكتاب وبين من أنكره. حيث إنَّ الآية هنا على معنى أننا بالقابلية الموجودة فينا لتمييز الحق من الباطل والصلاح من الفساد سنرى أنهم لا يستوون، ومن تبعات ذلك ما حكم به تعالى، حيث إنَّ الإيمان عليه ثواب حسن والكفر عليه عقاب.

استعمال كلمة أعمى هنا ليس مجازيّاً، بل حقيقيّاً، لأنَّ كلمة العمى ليست مخصصة لفقدان النظر بالعينين، بل هي عامة وتقابلها كلمة البصر، التي هي عامة أيضا، وتشمل البصر بالعينين وبالفكر، ولذلك فإنَّ صفة العمى تصيب العينين والقلب "الفكر والنفسية" أيضا.

{إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ}، يستحضر في فكره وقلبه ما في القرآن فقط، {أُولُو الْأَلْبَابِ}، الذين عندهم لبّ، وعندهم شيء له قيمة في داخلهم يجعلهم يفكّرون ويفهمون الأمور بطريقة صحيحة، وهذا القرآن أمام الجميع، ولكن فقط الذين لديهم لبّ يقومون باستحضار المعلومات التي في القرآن في عقولهم ونفسيّتهم.

تذكّر دائما أنَّ شخصاً حاصلاً على خمسين شهادة دكتوراه جامعية، ولا يؤمن بالقرآن، فهو بلا لبّ، بلا شيء له قيمة، بلا عقل حقيقي، حيث إنه يفهم في الاختصاصات التي يعرفها، ولكنه بدون فهم فيما يخصّ العقيدة الحقَّ والشريعة والسلوكيات الصالحة.

(الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ{20})

الذين يَرَوْنَ القرآنَ حقّاً هم الذينَ يهتمّون بما يمكث ولا يهتمون بزبد زائل. البداية مع:

{الَّذِينَ يُوفُونَ}، فيلتزمون بالتمام بدون خيانة، {بِعَهْدِ اللّهِ}، بما التزموا به معه تعالى، من توحيده وطاعته سبحانه والإيمان بدينه... {وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ}، وهو الشيء الموثّق، الشيء المؤكّد بقوّة حيث لا يفسخون الالتزام به، إذ إعلانهم التزامهم بدينه تعالى لا يتراخون ولا يتهاونون به.

تذكّر دائما أنَّ الكلام القرآني عن العهد والميثاق معه تعالى لا يعني "دائماً" أنَّ أحداً ما قال كلاماً يُقسِمُ به أو يتعهّدُ به... بأنه مؤمن ملتزم، لا، حيثُ إنَّه سبحانه أوصل إلينا دينه ويُبيّنُ لنا أنه لا تراخ فيه، لأنَّ دينه تعالى لا يتحمّل إلّا أن يكون ميثاقاً، ومَن أعلن أنه على دينه تعالى فصار تحت ميثاق، تحت شيء لا يتحمّل التهاون فيه، وأيٌّ تهاون سيخرّب على المتهاون صفة الإيمان والتدين.

أنت كمسلم مؤمن أنت تحت ميثاق، ومرتبط بشدّة بلزوم تنفيذ دينه تعالى. تلاحظُ أنَّ الآيات نبّهت على وقوع المؤمن تحت هذا الميثاق وأنَّ هذا لا يجعله مرتبطاً ملتزماً بشيء لا علاقة للآخرين به، على أساس أنَّ مَن كفر فلا علاقة له بالآخرة والحساب... وبالتالي فلن يحصل معه أي شيء... لا، بل الجميع وبدون استثناء سيُحاسبون ويُجازَوْنَ على الالتزام بدينه تعالى، وهناك من أوفى بعهده معه تعالى والتزم، وهذا سيفوز، ونكمل مع صفات الملتزمين.

(وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ{21})
نكمل مع الذين يَرَوْنَ القرآنَ حقّاً ويلتزمون به:

{وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ}، حيثُ أمر تعالى بالصلة بأن لا نقاطع شيئاً ما، وأشهر ما أمر تعالى بوصله هو الأرحام، أي العناية بالأهل والأقارب بالزيارة أو المساعدة... وقَرَنَ تعالى عدة مرات برَّ الوالدين مع توحيده تعالى كأساسٍ أساسٍ لدينه تعالى، وكمثال على ذلك ما ورد في الآية 23 من سورة الإسراء: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}.

{وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ}، إذ عندهم شعور بتوقّع حصول شيء لا يرغبون به كعقاب من المسؤول عنهم من مستوى إلهي إذا خالفوا كلامه تعالى، ويشعرون أنهم يمكنهم تجنب العقاب الإلهي إذا أطاعوه تعالى، {وَيَخَافُونَ}، حيث يشعرون بخطر أكيد سيحصل من {سُوءَ الْحِسَابِ}، وهم متأكدون من حصول العقاب لمن خالف أوامره تعالى، وبسبب هذا الخوف لا يعصونه تعالى.

ضع في بالك أنَّ الخوف هو توقّع حصول خطر لا مهرب منه إن واجهته، أمّا الخشية فهي توقّع حصول خطر يمكن تجنّبه، والمؤمنُ عنده علم بالخطر الناتج عن معصيته تعالى، يخشاه تعالى بتجنّب ما يسبب خطر العذاب، ولديه خوف من الحساب لأنه يعلم أنَّ الخطر لا يمكن تجنّبه إن عصى وسيواجه الخطر حتما حين يحاسبونه على معصيته.

(وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ{22})
نكمل مع الذين يَرَوْنَ القرآنَ حقّاً: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا}، بقوا يتصرفون بشكل واعٍ ومدروس، ولم يغيّروا التزامهم بدينهم رغم المصائب والمشاكل، {ابْتِغَاءَ}، رغبة وطلبا لـ، {وَجْهِ رَبِّهِمْ}، ولم تكن ردّة فعلهم السوء فصبروا حتى يكون المسؤول عنهم من مستوى إلهي متوجّها إليهم، وطبعا سبحانه سيتوجّه إليهم بالرحمة.

{وَأَقَامُوا}، فعّلوا ولم يهملوا ولم يتركوا، {الصَّلَاةَ}، التوجّه والإقبال، والمقصود هو التوجّه بالذكر إلى الله تعالى، وكلمة صلاة صارت مصطلحا دينيا يشير لحركات وكلمات محدّدة نقوم بها خمس مرات في اليوم، ونسمّيها بالصلاة اليومية الواجبة، وتأديتها في أوقاتها وبالطريقة الصحيحة ليس هو الهدف منها، بل التوجّه إليه تعالى هو الهدف من الحركات والكلمات التي نقولها في الصلاة الواجبة وغير الواجبة "النافلة".

والذين، {أَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ}، مِنَ الأشياء التي حصلوا عليها منه تعالى ليسدّوا بها حاجاتهم ورغباتهم، وعلى رأسها ما يحافظون به على حياتهم وهو الأكل أو ما يشترون به الأكل... حيثُ صرفوا من مالهم وطعامهم على المحتاجين،

{سِرًّا}، بالسرّ من دون أن يعرف الناس أنهم يتصدّقون، ولم يُوصِلوا المساعدة للمحتاجين بطريقة تجعل الآخرين يعلمون بأنهم أنفقوا عليهم، حيثُ يضع المساعدة المالية مباشرة وبحركة خفية في يد المحتاج، أو يعطيه إياها وهما لوحدهما، أو يتبرّع لجمعية تساعد الفقراء... {وَعَلَانِيَةً}، بالعلن أمام الناس، فلنقل إنَّ محتاجا أعلن أمام الناس عن حاجته للمساعدة وقام المؤمن أمام الناس بتقديم شيء للمحتاج.

ننتبه، لدينا ثقافة دينية تقول إنَّ الصدقة في السرّ أفضل من الصدقة بالعلن، وهذا صحيح إن كان من تتصدّق عليه سيشعر بالإحراج إن علم الناس بفقره، أو كنت ستخلط بين رضاه تعالى عنك وبين إعجاب الناس بك حين تتصدّق... وكما ترى هنا وفي العديد من الآيات، حتى لا تخترع الناس معايير من عندها، تأتي الآية هنا لتتحدّث بالعموم، وتقول إنَّ الإنفاق بالعلن أو بالسرّ، كلاهما إنفاق. وأمّا التفاصيل عن نفسية من أنفق إن كان ينفق ليراه الناس... والتفاصيل عن أوضاع المحتاج أنَّه يشعر بالإحراج... فهذه تفاصيل يتم مراعاتها بحسب ظروفها.

{وَيَدْرَءُونَ}، يبعدون بطرق مختلفة، {بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ}، لأنَّ السيئة التي فعلوها ولصقت تبعاتها بهم يدرؤونها بالحسنة، حيث يجعلون الشيء السيّء يبتعد ويحيد عنهم بشيء حسن يفعلونه. ونعرف من الآية 114 من سورة هود(ع) نموذجا صريحا عن ذلك، {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ}، لأنَّ الصلاة حسنة تجعل السيّئة تذهب، وبديهي أن الاستغفار والتوبة هما عمل حسن يمسحان السيّئة، والإنفاق حسنة تمسح السيئة كما قالت عدة آيات منها الآية 103 من سورة التوبة {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ}... حيثُ إنَّ أي عمل حسن مقبول سيمحو سيّئة من أعمال المؤمن.

{أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ}، فالدارُ والمكانُ الذي تدور فيه أمور حياتهم، للسكن والراحة... سيكون عَقِباً، سيكون الشيء الذي سيعقب، حيثُ سيأتي نتيجة الإيمان والأعمال التي سبق وذكرتها الآيات.

وما هي تلك الدار التي سيحصلون عليها؟:

(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ{23})
{جَنَّاتُ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها، فيها حدائق وبساتين ومساكن... {عَدْنٍ}، للإقامة الدائمة، فلن يدخلوا إلى الجنّة بشكل مؤقت، أو ستنهار أو يصيبها كارثة، أو... لا، بل يدخلونها ويبقون فيها بشكل دائم "عدن" فلا يموتون ولا يخرجون منها وهي لن يصيبها شيء يخرّبها.

{وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ}، ويدخلها من كان موصوفاً بالصلاح من أبويهم وأجدادهم وأعمامهم، ومن صلح من {وَأَزْوَاجِهِمْ}، ومن صلح من {وَذُرِّيَّاتِهِمْ}، من الذين انفصلوا عنهم "بالولادة أو بغيرها"، أولادهم وأولاد أولادهم... فمن كان من هؤلاء موصوفاً بالصلاح في العقيدة والعمل فسيدخل الجنة ويجتمعون مع بعض.

نلاحظ من الآية 43 من سورة الأعراف {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ}... والآية 47 من سورة الحجر {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ}، أنَّ أهل الجنة يتم نزع الغلّ من قلوبهم، فلا يبقى لديهم نهائياً أي شعور بالكره أو المضايقة من أي مؤمن آخر، فأفراد العائلة المؤمنة ستحبّ الاجتماع مع بعضها في الجنّة حتى لو كان في الدنيا بينهم غلّ سابق.

ننتبه جيداً، فالآية لم تقل إنَّ المؤمن سيسبّب لأهله دخول الجنّة، بل هم أيضا مؤمنون ودخلوا الجنّة بإيمانهم وأعمالهم، ولكن إن كانت درجتك في الجنّة أعلى من درجة عائلتك التي تحبها، فستجتمع معهم في الجنة.

فلنقل إنَّك نلت درجة عالية في الجنة، واجتمعت هناك مع أفراد عائلتك الذين هم أقل منك درجة، حيث فهمنا من الآية 21 من سورة الطور {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}، أنَّ أفراد عائلتك المؤمنين الذين ترغب بعيشهم معك، سيعيشون معك ولن تخسر أنت أي شيء، وهم لن تتغيّر درجتهم حيث انتهى الحساب ونالوا ما يستحقونه وصاروا في الجنّة بحسب ما كسبوه، فلنقل إنَّ جسدك في الجنّة يسبب لك حاسة ذوق أعلى من حاستهم للذوق، فسيأكلون من طعامك ولكنهم لن يشعروا بلذة الطعام بنفس القوّة التي تشعر بها أنت، وهم سيشعرون بلذة الطعام بحسب درجتهم في الجنّة.

يعني هناك أماكن مميزة في الجنّة للمؤمنين من الدرجة العالية، ولكن الأهم من ذلك هو الجسد الذي يتمتعون به، فكما في الجنة درجات في أماكنها المختلفة، حيث إنها كلها رائعة ولكن هناك أماكن أروع من غيرها... فالأهم منه الدرجة بما يشعر به الجسد والفكر والنفسية من سعادة، فيجتمع مؤمنان في الجنّة، ويكونان من درجة مختلفة، ويأكلان من نفس الطعام، فكلاهما سيشعران بالسعادة العارمة، ولن يعتقدا بوجود سعادة أكبر مما هما فيه، ولكن ورغم ذلك فهناك اختلاف في درجة السعادة بينهما، فكل واحد بحسب درجته سيشعر بالسعادة، وأكرر لك، مِن عموم مفاهيم القرآن تعلم أنَّ كل من في الجنّة وحتى لو كان من أقل درجة فيها، فلن يشعر بأن الآخرين أسعد منه.

{وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ}، على تلك العائلات، وليس من كلّ الأبواب، فمرة من هذا الممر يأتون إليهم، ومرّة من ذاك الممر... فالباب هو وصف لعموم أي ممر للانتقال من شيء والدخول في شيء آخر، وليست الكلمة مخصّصة للباب الخشبي أو الحديدي للغرفة، لا، وليست مخصّصة للغرف وأماكن السكن، فهناك باب للخيمة وهو الفتحة في قماشها... وباب للمغارة... وباب للسماء، وباب للعلم وباب للمعرفة وباب لرحمته تعالى...

الآية لا تشير إلى هتك خصوصية المؤمنين في الجنّة وأنَّ الملائكة(ع) تدخل عليهم فجأة وبدون إذن إلى أي مكان يكونون فيه... لا، بل تشير إلى زيارات تقوم بها الملائكة (ع) للمؤمنين، والتعبير بدخول الملائكة من كلّ باب هو الدقّة في التعبير عن دخولهم (ع) على المؤمنين من بعض الأبواب المناسبة للدخول بعلم المؤمنين وسماحهم للملائكة (ع) بالدخول.

من المفيد هنا أن يعلق في ذهننا هذا المشهد، لأنه نادر التكرار في القرآن، وليس منتشرا في ثقافة المؤمنين بشكل عام، إذ إنَّ بعضنا يخطر بباله أنَّ الخلود حتى في جنّة رائعة سيسبّب الملل في النهاية، فتأتي العديد من الآيات لتخبرك بشكل مباشر ومن الإله سبحانه أنَّ هذا لن يحصل أبداً بتاتاً، كالآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}. فلا يفكّر ولا يخطر ببال أي واحد في الجنّة بأنه يريد شيئاً آخر لأنه ليس سعيداً فيها أو لأنه يشعر بالملل فيها... فالجنّة في تجدّد دائم... هذا من جانب، ومن جانب آخر فهناك في الجنّة لن يكون عند أي أحد من المؤمنين شعور سيّء ولو بمقدار شعرة تجاه أي أحد آخر من ساكني الجنّة، بل سيشعرون بمحبّة فائقة لبعضهم البعض، وتعلم ذلك من الآية 47 من سورة الحجر {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ}. وفيما يخصّ آيتنا هنا، فهي تعطيك صورة عن حياة اجتماعية، بين أناس متحابين لا غلّ في قلوبهم لبعضهم البعض، واختارت نموذجاً عاماً عن محبّة الأهل والاجتماع معهم في الآخرة، كنموذج، حيث ربما هنا في الدنيا يوجد مؤمن لديه مشاكل مع كلّ أهله وأقاربه وهم يزعجونه... وربما هناك شخص واحد منهم يحبّه المؤمن... فلا تفترض الآية أننا جميعا نحبّ أهلنا ولا مشاكل بيننا، بل تضرب نموذجاً عاماً عن مؤمن يحبّ مؤمنين آخرين، وعادة فأشد علاقات الحبّ تكون مع أفراد من الأهل، فسيلاقيهم في الجنّة ولن ينفصلوا عن بعض في درجات مختلفة من الجنّة، بل يتلاقون مع المؤمنين الآخرين أيضا إذا أرادوا، ويقيمون الحفلات ويتسلون ويلعبون ويتضاحكون... وتزورهم من وقت لآخر الكائنات الرائعة ذات القدرات العالية جدا والمسمّاة ملائكة...

وهكذا ترى أن ما يسأل عنه بعض الناس الذين بينهم وبين أزواجهم مشاحنات، وربما كره، ويقولون بأنهم لا يريدون لقاء زوجهم أو زوجتهم في الآخرة، مِمَّا ذكرناه مما قاله القرآن يبيّن لك أن الآخرة مختلفة، فإن كان الزوجان من الذين انتهى حسابهما وسيدخلان الجنّة، فسبحانه سيغيّر نفسية كل أهل الجنّة ليحبّوا ويودّوا بعضهم البعض، فالجميع سيكون لطيفا ودودا محبّا عطوفا مهتما... فلا سبب لأي نزاع بينهم لأن كل ما يرغبه أي واحد منهم فسيحصل عليه...

بالنسبة لوصف الجنّات بالعدن، فبعضهم اختلط عليه التوصيف بما ورد في مرويات عن الجنّة التي كان فيها آدم(ع)، ففي التراث الديني لأهل الكتاب، وانتقالا منهم إلى تراثنا، صارت كلمة "عدن" اسم مكان خاص على الأرض، "أو في السماء حاليا كما يقولون"، بينما هي باللغة العربية وصف لأي مكان للإقامة الدائمة بسبب توافر ما تحتاجه فيه ولسعادتك فيه... فوصف القرآن لجنّة الآخرة بأنها "عدن" لا تخلطه مع الموروث الذي سمّى الجنّة التي كان فيها آدم وزوجته بأن اسمها عدن، فالقرآن لم يذكر هذه الصفة لها، بل حصر استعماله لهذه الصفة فقط وفقط بجنّة الآخرة التي ليست موجودة الآن لأننا الآن في الدنيا، وحين تنتهي الدنيا بتبدّل السماوات والأرض، نصير في الآخرة، وتصير جنّة العدن الخالدة.

هل قديما جدا منذ آلاف السنين كلمة عدن "وما يشبهها في اللفظ في اللغات القديمة" كانت وصفا عموميا وصار اسما لمكان ما على الأرض؟ أو كانت اسماً لمكان مرغوبة الإقامة فيه وبعدها صارت وصفا لعموم أي مكان مرغوبة الإقامة فيه؟ وهكذا نفسّر كيف اشتركت الكلمة بين الوصف والتسمية لأماكن هنا على الأرض سمّاها الناس قديما وحديثا "عدن" وهم لا يقصدون الجنّة التي كان فيها آدم، وهكذا نفسّر كيف اشترك الوصف أو التسمية مع الجنّة على الأرض التي كان فيها آدم وزوجته، واشترك الوصف مع جنّة الآخرة التي وصفها عدن لأن الإقامة فيها مرغوبة...

(سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ {24})
{سَلَامٌ عَلَيْكُمْ}، لا تتوقّعوا أيَّ شيء سيئٍ، وهذا ما تقوله الملائكة (ع) للمؤمنين الذين في الجنّة، {بِمَا صَبَرْتُمْ}، بسبب بقائكم تتصرفون بشكل واعٍ ومدروس، وحافظتم على إيمانكم وعملكم الصالح رغم المصاعب والمشاكل التي واجهتموها في الحياة ولم تتصرّفوا بشكل سيئٍ عندما تعرّضتم للضغوط، {فَنِعْمَ}، يا لجودة وحسن، {عُقْبَى الدَّارِ}، الدار الآخرة، والأماكن التي تدور فيها شؤون حياتكم في الجنّة هي عقبى، لأنها شيء أعقب وأتى بعد إيمانكم وعملكم وصبركم عليه، وما أحسنها من نتيجة.

نلاحظ أنها تهنئة ومديح من الملائكة (ع) لأهل الجنة، كزوّار لطفاء. وعليك مقارنتها مع شعورنا هنا في الدنيا بالفرح من مدح الآخرين لنا، فكيف إذا كان المادح من الملائكة (ع).

تذكّر دائماً أن كلمة "صبر" تشير لشيء لا تحبّه وتعلم أنه لن يستمر للأبد، وكل ما يحصل في الدنيا من مشاكل وأزمات ومصاعب سينتهي حتماً، حيث هناك مصاعب تتعرّض لها وتنتهي هنا في الدنيا، وهناك مصاعب تتعرض لها وتموت ولم تتخلّص منها، ولكن موتك كان نهاية لتلك المصائب لأنك مِتَّ، وعلى كلّ حال الدنيا كلّها لن تبقى، وهكذا يكون الصبر في حياتنا على أمور ستنتهي حتماً، والمؤمن الذي كان صابراً لن يتعرّض لأي أذية أبداً بتاتاً في الآخرة، وعلى هذا المفهوم القرآني التفت للآية هنا وسترى معناها بشكل أجمل، حيث حصل شيء يضعك تحت ضغط، ولم تفعل السوء وحافظت على إيمانك، وانتهت حياتك وتحاسبت في الآخرة، ونلت أجراً على محافظتك على إيمانك، فكانت الجنّة الخالدة الرائعة دارك، وهي ما عقب ما أتى كنتيجة لصبرك، وما أجودها وأحسنها من نتيجة.

(وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ {25})
ننتقل إلى الذين التهوا بالزبد الذي لا يمكث:

{الَّذِينَ يَنْقُضُونَ}، الذين قاموا بأعمال تبيّن أنهم خرجوا من الارتباط والالتزام من، {عَهْدَ اللَّهِ}، ففسخوا التزامهم معه تعالى، وعمليا هو الشرك ومخالفة كلامه تعالى، {مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ}، من بعد التشديد والتأكيد بقوّة على العهد. لأنه لم يكن عهداً في موضوع يتحمّل التراخي، مثل تعهّدي لوالدي بسقاية أحواض ورود الزينة، بل عهد موثّقٌ، وهو التزام مشدّد عليه لا يتحمّل التهاون أو التراخي به، وعلى مخالفته عقاب شديد.

وهم أيضاً، {يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ}، حيث أمر تعالى بوصل، بأن لا تقطع شيئاً ما، وأول ما يتبادر هو قطيعتهم للرحم، فلا يهتمون بهم.

{وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ}، فيقومون بأعمال فاسدة في الأرض، فيعملون بأحكام وقوانين سيئة من اختراعهم وعلى هواهم ويتركون الصلاح الذي يأمر به تعالى، فيشعلون الحروب، أو يتعاملون بالربا والرشوة، أو يتعاطون أو يروّجون الزنا والفحشاء والمخدرات والمسكرات، أو يغشّون... ومرّت نفس الكلمات في الآية 27 من سورة البقرة ولكن خاتمتها كانت وصفهم بالخاسرين {الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}.

{أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ}، لهم الطرد من الرحمة الإلهية، {وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}، حيث هناك مكان تدور فيه شؤون حياتهم وأسوأ وأتعس أماكن للعيش والسكن ستكون لهم، وهي جهنم.

تتذكّر دائماً أن العهد الميثاقي معه تعالى ليس بالضرورة أن يكون كلاماً نقوله له تعالى: عهد عليّ أن ألتزم بدينك... لا، فمن عموم القرآن نفهم أننا عبيد له تعالى، وله تعالى حقّ علينا الالتزام بكلامه، ونستحقّ العقاب الشديد إن لم نلتزم، فهذا شيء شديد، هذا ميثاقي فليس فيه رخاوة، وهو شيء علينا الالتزام به لأنه عهد علينا.

بعبارة أخرى هو عهد ميثاقي بواقع الحال، وقارنها مع ابن أو ابنة حالتهم ميسورة وأهلهم فقراء، فعلى الأولاد عهد العناية بأهلهم، فعليهم التزام العناية بأهلهم حتى لو لم يقولوا ذلك بلسانهم، وهذا شيء لا يتحمّل التراخي فيه. وعلى هذا المعنى يقول تعالى عن عبيده أن له تعالى عهداً ميثاقياً عليهم أن يطيعوه حتى لو لم يقولوا ذلك بألسنتهم.

نتذكّر أنه تعالى لا يعرض علينا أشياء جديدة غريبة كدين فيه عقيدة وتشريعات وسلوكيات، بل ينبهنا لاتباع سلامة القلب، ففينا قابلية تمييز الخير من الشرّ، والحسن من السوء، والحقّ من الباطل... فعمق الميثاق معه تعالى هو هذا الذي جعله تعالى فينا كدافع للإيمان بالحق ولترك السوء وفعل الخير، فتكاليفه تعالى لنا عبر كلامه معنا ليست إلا تماشياً مع الحقّ والصلاح الذي من المفروض أننا نحن نراه حقاً وصلاحاً، وكتحصيل حاصل ترى الدافع فينا لفعل الصلاح وهو نفسه ما يأمر به تعالى، وسيجازينا كلّنا على هذا الأساس.

(اللّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقَدِرُ وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ{26})

{اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {يَبْسُطُ الرِّزْقَ}، يجعل الأشياء التي نحتاجها لنسدّ بها حاجاتنا وأهمها التي نأكلها لنحافظ على حياتنا أو نشتري بها ما نأكله، ويجعله تعالى مبسوطاً، ويمدّه ليصير متاحاً بوفرة، {لِمَنْ يَشَاءُ}، أمامه تعالى خيارات عديدة ومن دون أن يفرض عليه أي أحد يقرّر سبحانه بسط الرزق لهذا أو لذاك، {وَيَقْدِرُ}، ويجعل تعالى الرزق لمن يشاء بقدر، محدّداً بمقدار قليل، ويقرّر سبحانه من سيكون رزقه محدّداً وقليلاً.

بعبارة أخرى، هو سبحانه بيده القرار والسيطرة ليجعل من يشاء من مخلوقاته يعيش في بحبوحة تصل لدرجة الثراء الفاحش، وآخرين أغنياء يملكون ما يحتاجونه لمدّة طويلة، وآخرين يصل إليهم مقدار قليل من الرزق يكفيهم ليومهم أو لمدة قليلة.

{وَفَرِحُوا}، وشعروا بحالة نفسية جيّدة، {بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، فهم يعتبرونها شيئاً جيداً وفرحوا بها، حيث بعض الناس الذين شاء تعالى بسط الرزق لهم، فرحوا وشعروا بحالة نفسية جيّدة لأنهم يملكون ما يحتاجون وزيادة، {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ}، ما هو موجود ومتاح لنا في الحياة الدنيا، هو بالنسبة لما في الحياة التي ستأتي في الآخرة، {إِلَّا مَتَاعٌ}، إلا شيء للاستفادة به، كشيء نستفيد منه لنعيش، أمّا ما في الآخرة فهو مخصّص للسعادة، حتى نسدّ جوعنا هنا في الدنيا فإننا نأكل طعاماً ونستلذّ به، ولكن في الآخرة في الجنّة، نأكل فقط لنستلذّ بالطعام، وبمقارنة نوعية الطعام هنا وفي الآخرة، وبالمقارنة مع حاسّة الذوق لدينا هنا وهناك، وبالمقارنة بين أجواء المكان هناك وهنا، والأجواء النفسية، ولا شعور بالجوع من النوع المزعج، ولا تخمة بعد الأكل... ولا أمراض سكري ودهنيات... هكذا يصير أفضل ما يمكنك الحصول عليه في الدنيا مجرّد متاع كشيء تنتفع به بشكل خفيف ومؤقت أمام ما في الآخرة الذي كلّه للسعادة فقط.

تذكّر ما مرّ سابقاً عن الزبد الجفاء الذي لا يبقى منه شيء له قيمة، هنا نرى نفس الكلام بمقارنة ما له قيمة في الدنيا بنظرنا مع ما في الآخرة.

نلاحظ القرآن يصف ما في الدنيا بأنه متاع، ولا مرّة يصف ما في الآخرة بأنه متاع، وهذه إشارة للفرق بين ما نجده في الدنيا من استفادة لسدّ حاجاتنا ورغباتنا مع الخوف من التضرّر ومن فقداننا لحياتنا... أمّا ما في الآخرة فهو حصراً وفقط للسعادة والفرح.

يا أيها التاركون للدين الإلهي انتبهوا لأنكم متعلقون بالدنيا التي تحصلون فيها على المتاع، وهذا لا يحصل بقدرتكم ولا بقدرة غيركم، بل فقط بقدرة ربكم سبحانه، انتبهوا لأنه هو سبحانه يقول لكم أن ما في الدنيا متاعٌ ولا قيمة له أمام ما في الآخرة، وهذا معنى واضح وصريح ومباشر من الآية 64 من سورة العنكبوت {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} فلا تغتروا بالدنيا.

فهمنا من آيات عديدة أن من يعمل فقط للحصول على متاع الدنيا فلن يحرمه تعالى تعبه، وتقرأ ذلك في الآية 20 من سورة الشورى {وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ}، ونعلم من واقع حياتنا ومن القرآن أنه لا يتوفّق كل شخص للحصول على الثروة، على كل حال، لا تريد الآية هنا شرح هذه الأمور، بل تريد لفت الانتباه لما نحصل عليه هنا في الدنيا أنه ليس من الحائط، ولا بالصدفة، بل هو تحت السيطرة الإلهية وبسماح منه سبحانه حصل، فمن فرح بمتاع الدنيا فلينتبه أن هذا المتاع ليس أقصى ما يمكن الحصول عليه، لأنه لا شيء أمام ملذات الآخرة، والخطورة إن لم يعمل إلا للدنيا فسيموت ويتعذّب في الآخرة.

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ{27})
مرة ثانية ترجع السورة للحديث عن طلب بعض الناس لآية غير الآيات المنتشرة في خلقهم وخلق السماوات والأرض وغير القرآن... حتى يؤمنوا، ومرّ ذلك في الآية 7، وأسهبت الآيات السابقة في الكلام عن نماذج متفرقة من الآيات المنتشرة فينا وحولنا ومن ظواهر طبيعية دالةٍ على القدرة والتخطيط الإلهي والسيطرة... وهذا يجب أن يكون "آية" وأكثر من كافٍ لمن أراد الحقّ ليؤمن به، ولفتت انتباهنا للطالبين لآية "من النوع الذي يسمّيه الناس معجزة" ليؤمنوا بماذا، بما هو واضح وحقّ من توحيده تعالى؟ أم يريدون آية ليصيروا صالحين؟ وإن لم تأتهم آية فهل هم معذورون ليكونوا فاسدين...

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا أن هذا القرآن من مصدر إلهي:

{لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ}، على النبي محمد (ع)، {آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ}، شيء مميّز ينزل من المسؤول عنه من مستوى إلهي، طبعاً يريدون شيئاً غير القرآن حتى يؤمنوا بما يقوله الرسول محمد (ع)، حيث يريدون ما يسمّيه الناس بالمعجزة كشيء خارق، {قُلْ}، لهم أيها النبي (ع):

{إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة وعلمنا من القرآن أنه تعالى شاء جعل الكفّار المتعلقين بالدنيا والمجرمين... شاء وأراد لهم ضلالهم عن الطريق الصحيح في تفكيرهم وتصرفاتهم، لأنهم هم اتخذوا قراراً ألا يؤمنوا، ولذلك جرى عليهم القرار الإلهي بإضلال من لا يريد الإيمان.

القرآن أكثر من كافٍ لمن يريد معرفة الحقّ ليؤمن به، ولو نزلت آيات غيره فهم لن يؤمنوا، حيث نفس هذه النوعية من الناس لم يؤمنوا بالنبي عيسى (ع) رغم أنه أحيا الموتى وشفى المرضى... وقبله لم يؤمن فرعون وقومه بالرغم من تسع آيات، والتي تقصّد سبحانه تنويعها والحلم عليهم لسنين حتى يجعلهم نموذجاً فاقعاً يريك عناد الذي لا يريد أن يؤمن، بل أصلاً لم يهدده تعالى بعذاب ليؤمن وكان المطلوب منه فقط ترك بني إسرائيل يغادرون مصر... وقوم ثمود خرجت لهم ناقة من صخرة "كما هو مشهور" ولم يؤمنوا... وهنا السورة لم تتطرّق لهذه النماذج لأنها مكتفية بالإشارة إلى الآيات فينا وفيما حولنا، وتقصد شيئاً آخر سنذكره بعد تكملة الآية.

{وَيَهْدِي إِلَيْهِ}، ويضع سبحانه على الشيء الصحيح الذي يوصل لغاية صحيحة، يوصل إلى الإيمان به تعالى، {مَنْ أَنَابَ}، من لم يكن لديه قراراته الخاصة بشكل منفصل عنه تعالى ورجع في أموره فقط إليه تعالى، فترك الأفكار والأعمال المنحرفة، فهذا شاء تعالى هدايته فأنزل له القرآن ككتاب كافٍ ليهديه ويهدي الجميع، وعملياً فالقرآن آية فقط لمن قرّر الرجوع إلى ربّه تعالى في عقيدته وشريعته وسلوكه ليكون على الأحسن، وأما للآخرين فهو مجرد كتاب أقل من عادي بل كتاب أساطير.

نتذكّر دائماً أنه تعالى صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا بحيث: إذا ولأي سبب قرّرنا الكفر، فقلبنا سينطبع على الكفر، حيث مع التمرّس على إنكار الحقّ سينطبع وسيندمغ قلبنا بالكفر، وهذا ما شاءه تعالى وهكذا خلقنا ولن يتلاعب بعقولنا أو يجبرنا غصباً عنّا على الإيمان، أمّا من قرّر التماشي مع ما يراه حقاً، فهذا لوحده سينيب إليه تعالى، ولن يرفض الآيات الحقّ التي يراها وسيهتدي.

المشكلة ليست في وجود آية تجعلهم يؤمنون، لأن الآيات موجودة ومتنوّعة وأكثر من كافية لمن يريد أن يؤمن، إنما المشكلة فيهم هم، لأنهم لا يريدون أن يؤمنوا، ولديهم قرار عميق راسخ أن لا ينيبوا إليه تعالى، ورافضون أن يكون

كلامه سبحانه مرجعاً لهم، حيث يريدون البقاء على فسادهم وظلمهم وسوئهم... وشاء سبحانه خلقنا بهذه الخاصية التي تخوّلنا اختيار الضلال أو الهدى...

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ{28})
بعكس الذين يريدون آية غير القرآن، وغير لفت انتباههم للآيات الكثيرة المتنوعة المنتشرة فيهم وحولهم، فالمنيبون هم:

{الَّذِينَ آمَنُوا}، فاعتقدوا بما يرَوْنَهُ في أنفسهم ومن حولهم أنها أفعال الله تعالى واعتقدوا بالقرآن أنه منه تعالى، {وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ}، حيث مركز تفكيرهم ونفسيتهم مستقر على الإيمان ويستبعد أي شيء آخر وهو خالٍ من أي تذبذب أو شكّ... {بِذِكْرِ اللَّهِ}، عندما يستحضرون الله تعالى في فكرهم ومشاعرهم، يحصل عندهم شعور الاستقرار الإيماني فلا يشعرون بحاجة لذكر غيره تعالى، ولا يريدون تأكيدات أخرى على صحّة إيمانهم فيكفيهم ما يرونه في أنفسهم ومن حولهم من آيات ويكفيهم القرآن.

{أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}، فعلاً وحصراً وفقط باستحضاره تعالى في القلب، في أساس الفكر والمشاعر، يحصل الاطمئنان، الاستقرار الفكري والنفسي، لأنه الإله الحقيقي، الأحد، الحق... العزيز الحكيم... الذي يفي بوعوده وقادر على تحقيقها، الغفور الرحيم... والكافر به تعالى قلق مضطرب فكرياً ونفسياً.

بعض الأحيان لا ندقّق في الأمور فنقول كلاماً غير دقيق، حيث البعض يقولون إنّ الكافر مطمئن بصحّة ما يفعله وحياته تمام التمام بسبب قناعته بعقيدته، سواء أنكر كلّ الأديان، أو اختار ديناً فيه شرك به تعالى... حتى هو الكافر ذات نفسه يقول بأنه مطمئن مستقر فكرياً ونفسياً وغير صحيح أن الإيمان بهذا الدين وحده يسبّب الاطمئنان. هؤلاء كاذبون، حتماً هناك أناس مطمئنون وذكر لنا القرآن منهم نماذج راقية عالية جداً، وهم الموصوفون بالنبوّة، ومعهم السيدة مريم (ع) كنموذج نسائي، ومعهم لقمان كنموذج من خارج دائرة الأنبياء... وغيرهم ممّن أشار لهم القرآن ولم يذكرهم بالاسم، فهم مطمئنون من أعلى درجات الاطمئنان.

الآن لِنُقَارِنْ طمأنينتهم مع اطمئنانك أنت وأنا، فنحن لسنا من تلك المرتبة العالية مع أننا نصلّي ونصوم و... حيث سقوطٌ واحد مقصود منّا بسيئة ولو صغّرناها، فهو يدل على اهتزاز ولو بسيط في اطمئناننا، هذا ونحن على دين الحقّ، فكيف بالذين اخترعوا آلهة وهمية؟ فأي اطمئنان لديهم؟! ومعهم الذين أنكروا كلّ الأديان، فأي اطمئنان لديهم؟! هل فعلاً لا يقلقون من انتهاء حياتهم بالموت ويستقبلونه باطمئنان؟ وهل مشاعرهم تبقى هادئة بعد وفاة حبيب لهم؟ لأن المؤمن يعتقد بأنه لم يفقد حبيبه نهائياً وأنه سيلاقيه في الجنّة. وهل لا يَأْسَوْنَ على ما فاتهم من متاع الدنيا مثلما المؤمن مطمئن بأن ثواب الآخرة خير وأبقى؟

أطلت عليك لأني قرأت للعديد من الكافرين الكاذبين المعلّقين على كلام القرآن من الذين يقولون بأنهم مرتاحون مطمئنون بكفرهم، وأن التدين بهذا الدين يسبّب القلق! فهم لم يفهموا ولم يعيشوا ولو للحظة في الاطمئنان الإيماني المستمدّ من هذا الدين، فكيف يحكمون عليه!؟ بينما القلق والاضطراب الذي لديهم يسمّونه اطمئناناً.

الآية لم تقل إنّ كل قلب يطمئن بذكر الله تعالى، حيث تكرار التسبيح والحمد... ليس لوحده سبباً للطمأنينة، حيث تكملة جملة: {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}، تقصد: قلوب المؤمنين، كتأكيد على انتفاء وجود طمأنينة للمؤمنين إلّا بذكر الله تعالى، وأنه لا طمأنينة حقيقية إلا بذكره تعالى.

من يشعر بالطمأنينة لأنه قوي أو غني أو بحماية أناس أقوياء أو أغنياء... فهذه طمأنينة زائفة زائلة، كم من قوي صار ضعيفاً، وغني يخاف الفقر وصار فقيراً... والذي يطمئن بحماية آلهته له، كرّر القرآن مراراً أنه في الشدائد سينسى آلهته الوهمية ويدعو الله تعالى وحده... وفي الآيات التي تحدّثت عن هذا الموضوع ستجد تفاصيل عن الاعتماد الزائف على آلهة مزيّفة...

خذ مثلاً بحبوحة العيش مع مدخول شهري ثابت ومبلغ مالي احتياطي وضمان صحّي... فهذا عادة وغالبا يعطينا شعوراً بالاطمئنان ينتشر على كل أفكارنا ونفسياتنا، والكثيرون يتغطرسون بهذه الحالة زهواً وفخاراً... ويرون أنفسهم فوق الدين الإلهي لأنهم مسيطرون على أوضاعهم... حتى رأينا نموذج الكساد العالمي في بداية القرن الواحد والعشرين

والذي دمّر قيمة الأسهم... حيث بعض الشركات التي كان يعتبر بعض الناس أسهمها المالية آمنة واستثمروا فيها، كان اطمئنانهم بصلابة وضعهم المالي شبيهاً باطمئنان المؤمنين بما وعدهم به تعالى من أجر حسن في الآخرة، وشتان بين الاطمئنانين...

نرجع للآية حيث الكلام هنا عن نوعية من الناس لا يطلبون أي آية إضافية حتى يؤمنوا، ويكفيهم ما يرونه في أنفسهم ومن حولهم والقرآن، وبذكره تعالى عبر استحضار ما فعله سبحانه فيهم وحولهم تحصل لديهم طمأنينة إيمانية، فيصيرون في إيمان ثابت لا يهتزّ.

تذكّر دائماً أن القرآن يذكر لك الذي كفر ومقابله الذي آمن، وهنا نرى الذي طلب آية ليؤمن، ومقابله الذي اكتفى بما يراه وآمن، كدليل على أن ما فينا وحولنا والقرآن، يكفون وزيادة لمن أراد أن يؤمن، وهذا شيء قاله القرآن مراراً وصراحةً، وهنا تراه صريحاً.

(الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ{29})
نكمل مع المنيبين، فهم:

{الَّذِينَ آمَنُوا}، اعتقدوا بالله تعالى رباً وبالنبي محمد (ع) رسولاً، وبالقرآن منهاجاً... {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، فقاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، حيث خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، وعملياً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى. وبشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموماً وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، حتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائماً أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به. وهذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو سيئ" فهو في الحقيقة اختراع من البشر وليس أمراً إلهياً.

{طُوبَى لَهُمْ}، فلهم الوصف الجميل على تميّزهم، فما أطيب فكرهم وعملهم، وهذا تعبير عن الرضا الإلهي عن إيمانهم وعملهم، مثلما لو قال لهم: أحسنتم، "برافو"، ما أطيبكم، فلستم خبثاء.

{وَحُسْنُ مَآبٍ}، حيث في الآخرة لهم مكانة ومكان حسن جداً لإيابهم إليه تعالى، فنحن الآن في الدنيا في الحالة الأولى "حالة الذهاب"، وعودتنا إليه تعالى في الآخرة هي حالة الإياب، وعنده تعالى حسن مآب، مرجع حسن وهي الجنّة، وعنده تعالى المكانة الحسنة وهي الاحترام والتقدير لمن آب فعاد إليه تعالى مؤمناً عاملاً للصالحات من بعد الحياة الدنيا.

نلاحظ القرآن دائماً يقرن بين الإيمان والعمل الصالح مع بعض، والنتيجة للاثنين معاً هي دخول الجنة، فلا الإيمان بدون عمل صالح ينفع، ولا العمل الصالح من دون إيمان ينفع، بل كلاهما معاً ينفعان.

لاحظ في بعض أدبياتنا الدينية استعمالنا لكلمة "طوبى" كاسم آخر للجنّة، وهذه الكلمة لم ترد في القرآن إلا هنا، وكما ترى فهي لا تقصد توصيف الجنّة بل تقصد توصيف إيمانهم وعملهم الصالح على معنى: أحسنتم. والتعبير القرآني المشابه: أفلحتم.

إيمانهم وعملهم الصالح ليس بلا قيمة، فهم مَرْضِيٌّ عنهم إلهياً، ودخولهم إلى الجنّة حتمي.

(كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ{30})

{كَذَلِكَ}، هكذا على الحالة التي تعرفها وأنت فيها، {أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ}، في مجموعة من الناس لها امتداد تاريخي ولديها شيء مشترك فيما بينها، ونعرف أنها كانت أمّة متّفقة على الكفر، {قَدْ خَلَتْ}، حيث كانت موجودة وذهبت تاركة مكانها، {مِنْ قَبْلِهَا}، من قبل هذه الأمة، {أُمَمٌ}، فهذه ليست أول أمّة خلقها سبحانه، وليست أول أمّة يرسل لها رسولاً، وليست أول أمّة ينذرها ويرغّبها.

أرسلناك إلى هذه الأمّة، {لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ}، فقراءتك للقرآن الذي أنزلناه على فكرك ووعيك عبر الملائكة (ع) فهي قراءة عليهم عن هذا الاستناد.

أنت تقرأ القرآن على هذه الأمة، {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ}! حيث ينكرون الذي يعتني بهم! الذي صمّمهم وخلقهم وأتاح لهم فرصة الوصول إلى جنّة خالدة وأرسل لهم رسولاً من عنده ليهديهم، وهم ينكرونه أو ينكرون وحدانيته أو ينكرون دينه تعالى!

القرآن عندما يتحدّث عن شيء فعله تعالى مع كل الناس يستعمل صفة "الرحمن" له تعالى، لأنها صفة عامّة لكل المخلوقات التي اعتنى بها تعالى بشكل عامّ، ويقابلها رحمة خاصّة بالمؤمنين، حيث يغفر تعالى لهم ويكفّر سيئاتهم ويضاعف حسناتهم... ويستعمل لها القرآن كلمة "رحيم". فهنا وصف كفرهم بالذي اعتنى بهم من مستوى إلهي لما فيه مصلحتهم، حيث خلقهم ومنحهم الحياة... وخلق بيئتهم... ووعدهم بجنّة خالدة... وهم ينكرونه!

{قُلْ}، لهم عبر هذا القرآن:

{هُوَ رَبِّي}، هو المسؤول عني من مستوى إلهي، {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، فلا يوجد ولا أي كائن آخر موصوف بالقدرات والصفات الفائقة إلا هو، ولا يوجد نصف ولا ربع إله... بل هو وحده سبحانه الإله، {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ}، فاعتقدت أنه تعالى يسيّر الأمور كما يجب، فآمنت به تعالى كقادرٍ قويٍّ حكيمٍ... يكفيني في كل ما ينفعني، {وَإِلَيْهِ مَتَابِ}، فأنا أتوب إليه فأفتح معه تعالى صفحة جديدة لطلب المغفرة إن أسأت، فهو سبحانه فقط يهمّني أن لا أعصيه وأن لا أخالف أوامره.

تذكّر دائماً أننا كبشر جعل سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرّف عليه سبحانه من ملاحظة أفعاله "آياته في خلقه" ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء... وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق بالقوّة الإلهية الفائقة عند الوقوع في الشدائد... فوضعنا كلمة نصف بها الكائن ذا الصفات والقدرات العالية جداً عن قدراتنا، وهي كلمة "إله" كوصف لذي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلّق به عند الوقوع في الورطات...

في الحقيقة الكائن الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة هو الله سبحانه، وتساهل الناس في استعمال كلمة إله لتنطبق على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، فيطلقونها على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أن فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}...

القرآن يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهي، فيقوّم اللغة ككلّ، ويقوّم دقة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة "إله"، يخبرنا أنها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرّج في استعمالها.

المشركون الناطقون باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... استعملوا كلمة إله بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

قارنها مع كلمة "ربّ"، فأنا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... فهذه كلمة تتحمّل التدرّج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهي، فهي لا تتحمّل التدرّج، بل هي حصراً له تعالى ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهي.

كلمة إله في حقيقة معناها لا تتحمّل التدرج لِيُوصَفَ بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، عندما يخبرك أنه خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، وسبحانه وظّف الملائكة (ع) التي خلقها لتنفيذ بعض

أوامره... وهكذا ترى بوضوح أنه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، فماذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدّد له والمميّز "الله" جلّ جلاله فعل كل شيء، فما معنى ألوهية غيره! وهذا ملخّص مبسّطٌ للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

ألفت انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، فحصروا استعمال كلمة إله للإله الكبير، واستعملوا للآخرين وصف الربّ، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربّة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون: إله المطر وإله الحرب... وعلى كل حال القرآن رفض توصيف غيره تعالى بالألوهية والربوبية من مستوى إلهي، لأن المشركين يعتقدون بوجود كائن "ربّ" مسيطر على المطر من مستوى إلهي وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم أنه توصيف لألوهية أربابهم.

من ناحية ثانية لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، يصير الهوى إلهاً كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}... فهي لا تشير لاعتقاد الشخص بأن هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لدين فيه ما يهواه، وعملياً هو يعبد هواه.

بالنسبة لأصل كلمة "الله" فهناك كلام كثير حولها، ويبدو من تتبّع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حالياً بالسامية... أن الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة "إله" ومنها جرى اشتقاق اسم العلم "الله"، وهذا الاسم لم يكن متداولاً في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط لأن للآخرين نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، حيث إن كلمة إله واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات ما يسمّى بأصل اللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة الله من وصف الإله ومتى، هل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قديماً عبر الوحي، فالأرجح عندي "استذواقاً" أنه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك "استذواقاً" لأن المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين بلا مستند صريح لتأكيد كلام ما، فهو بطبيعته يصير استذواقياً لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا ذات نفسي في سياق كلام آخر أستذوق أنه تعالى هو سمّى نفسه، فليس من المعقول ولا من المقبول منك أن تطلب حسماً من الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دليلاً حاسماً، ولا مقبولٌ من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنه الصحّ إلا اللهم إن قدّم دليلاً دامغاً، وهذا لا يبدو ممكناً في مسألتنا هذه.

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ{31})
نتذكر من الآيات السابقة أن بعض الناس رفضوا الإيمان بالقرآن، فلم يعتبروه آية ليؤمنوا بدينه تعالى، وتقول لهم السورة:

{وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا}، لو نزل من عنده تعالى شيء نقرؤه، {سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ}، مشت الجبال من مكانها عندما قرأ النبي محمد(ع) القرآن.

{أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ}، بالقرآن، {الْأَرْضُ}، قطع النبي محمد(ع) المسافات على الأرض عندما يقرأ القرآن، وانتقل بسرعة بلمحة من مكان لآخر.

{أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ}، قرأ النبي محمد(ع) القرآن على الأموات وردوا عليه الجواب.

هل هكذا يكون القرآن آية بنظركم؟

{بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا}، هذه الأمور وغيرها قرار حصولها بيده تعالى، ولم ينزل القرآن على النبي(ع) ليقوم بهذه الأشياء، فإن كنتم تفكرون بأن حصول هذه الأشياء سيكون دليلا على صحة كون القرآن من مصدر إلهي، وبالتالي سيكون دليلا على وحدانية وقدرة الله تعالى، تنبّهنا الآية أن كل الأشياء أصلا تحصل بأمر من الله تعالى.

طلبكم ليكون القرآن مسببا لأمور خارقة حتى تؤمنوا جعلكم ناسين أن كل الأمور بيده تعالى، وتسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى هي نماذج عن أمور بيده تعالى ويمكنه سبحانه فعلها بسهولة، فما معنى طلبكم لحصولها حتى تؤمنوا؟ هل تمتحنونه تعالى إن كان يمكنه فعل ذلك؟! نبّهكم أن كل ما في دنيا المخلوقات فهو من أفعاله تعالى؟! فله تعالى الأمر جميعا وأصلا كل الأمور نتاج لأفعاله تعالى لأنه خالق كل شيء، فما معنى طلبكم لقرآن تسبّب تلاوته بعض الأمور! هذا سيدل على ماذا؟

ضع في بالك دائما المفهوم القرآني التالي: من لديه قرار بالكفر وإنكار الحق لا ولا أي آية ومهما كان نوعها ستجعله يؤمن. لو أنزل سبحانه على نبيه كلاما يجعل الجبال تسير والموتى يتكلمون... فالكفار لن يؤمنوا لأن أصل سؤالهم عن الآيات ليس ليؤمنوا بل نابع من أصل شكهم بل إنكارهم لقدراته تعالى، وهذا ما تعرضه سورتنا عنهم ولفتت الانتباه "لآيات" لنماذج من الظواهر العظيمة التي فينا وحولنا والتي تدل على عظيم صفاته وقدراته تعالى.

بعبارة أخرى، ما سبق من كلام السورة لفت انتباهنا لما خلقه تعالى في السماوات والأرض، فإن لم ننتبه لذلك ولم نتعرف عليه تعالى من هذه الأفعال، ولا من نزول هذا القرآن بكلامه الحق الصالح، فسنطلب أن يحدث أمامنا فعل ما يدل على أنه تعالى فعله لنؤمن به، وعلى هذه النقطة تجيب الآية هنا، أصلا كل ما يحدث فهو نتاج خلقه تعالى للسماوات والأرض، فما معنى طلب حصول شيء أمامهم من فعل إلهي ليؤمنوا؟!

{أَفَلَمْ يَيْأَسِ}، ألم ينعدم الأمل من شيء كانوا يفترضون أنه حاصل حتما، {الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ}، من بين الخيارات العديدة أمامه تعالى كان يمكنه أن يشاء ما يلي: {لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا}؟ لوضعهم كلهم على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، وجعلهم مؤمنين كلهم غصبا عنهم؟ لماذا وبشكل أو بآخر لا يزال لدى المؤمنين أمل أن يهدي تعالى شخصا لا يريد أن يؤمن؟ لو شاء تعالى لهدى الناس جميعا غصبا عنهم، ولكننا نعلم جميعا أن هذا لن يحصل، حيث قرّر سبحانه أن لا يفعل ذلك، لماذا لم ييأس المؤمنون من هذه الآمال التي لن تحصل؟

بعبارة أخرى المعتقدون الملتزمون بهذا الدين والقرآن، وبما يرونه من وضوح للحق، يفترضون أن الكفار يجب أن يهتدوا حتما، ولشدة قوة أملهم هذا يشعرون وكأنه سيحصل فعلا! ويميلون لتأييد طلب الكفار لآية غير القرآن، لا لأن المؤمنين يرون القرآن غير كاف للإيمان، بل لأنهم يريدون أن يؤمن بقية الناس، فلتنزل عليهم الآية التي تجعلهم يؤمنون، وتسألهم آيتنا هنا من بعد تنبيههم على القرار الصلب لمن كفر بأنه لا يريد أن يؤمن حتى لو تحققت الآيات التي يطلبها، تسألهم عن الأمل الزائف بإيمان من كفر، ألم يحن أوان اليأس منهم؟

نبهتنا الآيات السابقة أن آياته تعالى والقرآن تكفي وزيادة لمن يريد أن يؤمن، وهنا تنبه المؤمنين بأن لا ينجروا في التفكير الأعوج مع الكفار، ونبهنا القرآن أنه تعالى قادر على إجبار كل الناس على الإيمان، وبطرق متعددة، ولكنها كلها تنافي وتعارض "حرية الإرادة والاختيار" التي منحها سبحانه للبشر، والتي على أساسها جعلهم سبحانه في الأرض ليمروا بالامتحان، والتي على أساسها سيُحاسَبون ويُجازَون. بعد هذا الكلام تسأل الآية: ألم يحصل عند المؤمنين شعور بفقدان الأمل بإيمان هؤلاء؟ ألم يمسحوا "بشكل شبه نهائي" فكرة البحث عن طريقة تجعل كل الناس تؤمن؟ لأن الفكرة ستبقى تخطر على البال ولكن التفكير العقلاني يجعلها فكرة مستبعدة جدا وأملها ضعيف، لماذا لا تزال قوية عندكم؟ ولماذا توافقون على طلب الكافرين لآية يختارونها حتى يؤمنوا؟ ألم تيأسوا أنهم لن يؤمنوا مهما جاءتهم من آية!

{وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا}، هذه الحالة الدائمة للمنكرين للدين الإلهي، {تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ}، يحصل معهم بسبب كفرهم شيء يضربهم يصدمهم، مثلما حصل مع الأقوام التي أخبرنا القرآن عن نزول عذاب في الدنيا عليهم. {أَوْ تَحُلُّ}، تنزل القارعة الضربة الصادمة، {قَرِيبًا} منهم، على بقعة من الأرض قريبة سواء كان فيها ناس أو كانت خالية، {حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ}، هذه هي حالة الكفار، إما تصيبهم القارعة أو تصيب جيرانهم الكافرين أو لا تصيب أحدا، حتى يأتي ما قاله تعالى أنه سيحصل معهم، ربما يكون دورهم التالي في نزول قارعة عليهم هنا في الدنيا، وربما يكون عقابهم مؤجلاً للآخرة.

{إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ}، فإذا وعد سبحانه بشيء، وقال عن شيء سيفعله سبحانه، فلا ينساه ولا يهمله ولا يتركه "ولا يغير قراره"... فإذا وعدكم بالعذاب فانتبهوا لأن العذاب حتما سيحصل، يُحتمل أن يحصل في الدنيا ولكنه حتما سيحصل في الآخرة.

بعبارة أخرى الأقوام الكافرة السابقة والحالية، حالتهم هي نفسها مستمرة متشابهة، لا تزال تنزل القارعة عليهم أو قربهم ولا يزالون كفارا! فلينتبه المؤمنون لهذا الشيء، وليحصل عندهم يأس من إيمان الكفار الذين لم ولن يؤمنوا ولا بأي شكل.

نلاحظ أن القرع هو الجَبْه بالضرب لشيء لا يمكنه رد الضربة، وكما لا علاقة لمعنى كلمة ضرب بصدور الصوت القرع مثله لا علاقة للكلمة بصدور الصوت، رغم أن فعلي الضرب والقرع يصدر عنهما صوت عادة.

ننتبه جيدا، الآية تقول بشكل صريح إن هذا القرآن كتاب هداية لا أكثر ولا اقل، لا يتم تسيير الجبال به ولا قطع المسافات على الأرض بقراءة القرآن، ولا إحياء الموتى بقراءة القرآن عليهم، وهذا شيء واضح جدا، ولم يحصل من النبي محمد(ع)، لم يحرك(ع) الجبال من مكانها ولا سافر بلمحة ولا أحيا الموتى بهذا القرآن، وإذا شعرت بأن هذا سيقلل من قيمة القرآن فانتبه لأنك في مشكلة! الكفار قللوا من قيمة القرآن ولم يؤمنوا به لأنه لا يمكن أن تفعل به هذه الأشياء، فلا تكن مثلهم، ولا تخترع أشياء غير موجودة وغير صحيحة، كل ما يقوله الكذابون عن قراءة آيات القرآن وحصول أشياء غريبة عجيبة فهو وهم وكذب، الشيء الوحيد الذي يجب أن ينتج عن قراءة القرآن هو الهداية، ولهذا أنزله ربنا عز وجل، فانتبه ولا تنخدع بأي شيء آخر، ولا تكن متدينا سخيفا، وكل ما تسمعه عن الصوفيين والصالحين والعارفين والزهاد... عن قراءة آيات لفعل أمور خارقة، فلا تلصقه بالقرآن وارمه، وكل ما تجده عن تكرار آيات قرآنية مع صوم وبخور... فهو خرافات لن تحصل منها على أي نتيجة، فكّر بشيء واحد حصلت منه نتيجة مثل التي يدعونها وأنت بنفسك شاهد عليها، ولا تعتمد فيها على قال فلان، وسترى أنها كلها أخبار كاذبة ناتجة عن بساطة وتوهم أو عن كذب متعمد، فاخرج من هذه الأجواء المنحرفة الضالة، وارجع إلى الإيمان المستقيم.

بقي شيء، تراه بوضوح ولكن يحتاج لانتباه، ما معنى إسلام عموم كفار الجزيرة العربية في وقت غير بعيد عن نزول سورتنا هذه؟ بعد سنين قليلة انتشر الإسلام ماحيا الكفر.

هنا ننتبه جيدا، آمنوا ليس لأنهم رأوا الآيات التي طلبوها، هنا محور الكلام عن إيمانهم بناء على البرهنة على صحة هذا الدين عبر القيام بأمور خارقة أمامهم، أما إسلامهم فيما بعد فقد حصل لأسباب أخرى، تركهم للشرك حصل بعدما تبين لهم الحق مفروضا عليهم الالتزام به، وحين لم يكونوا مجبورين على الالتزام بالدين فهم فاسقون ومنافقون بأكثريتهم الساحقة، وأبسط نموذج عن هذا ما تجده في كتب التاريخ عن الانتشار السريع جدا جدا للخمارات المتضمنة للمغنيات والراقصات والزانيات في مختلف المدن الإسلامية في الكوفة والشام والمدينة... في وقت قليل جدا من بعد وفاة الخليفة الرابع الإمام علي. وقبل ذلك تجد نموذج انقلاب فرع ربيعة من العرب تحت لواء مسيلمة الكذاب ضد المسلمين، على أساس أن النبي محمد(ع) من فرع مضر... وهذه النعرة العنصرية أخافت الرسول من الدخول في حرب ضدهم ويتم تفسيرها على أنها حرب بين ربيعة ومضر على زعامة العرب... وبقي الحال كذلك حتى توفق الخليفة الأول أبو بكر في فترة حكومته القصيرة بإنهائهم...

(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ{32})
{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ}، الذين وظّفناهم بنقل كلامنا للآخرين تعامل معهم بعض الناس من خلفية الهوان والاستخفاف بهم، واعتبروهم بلا قيمة واستهانوا بهم، ولم يتعاملوا مع كلام الرسل بجديّة، وأنت استهزؤوا بك وبالقرآن الذي تحمله لهم، وهذا ليس شيئاً جديداً، لأنه من قبلك حصل نفس الشيء، {فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا}، لم أعاقب فوراً الذين أنكروا رسالة الرسل وأعطيتهم وقتاً، {ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ}، تناولتهم، هنا في الدنيا، بزلزال أو فيضان... {فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ}؟ ما رأيك بما عُقِّبَ بما أتى بعد كفرهم؟ هل حصل ما وعدتهم به من عذاب أليم لا يمكنهم ردّه؟

يعني، خذوا علماً أيها المؤمنون بما يحصل أو يُحتمل أن يحصل مع الكفّار، وأيها الكفّار انتبهوا من مصير أسود تسمعون أو ترون نماذج عنه.

(أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ{33})

{أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ}، هو في حالة تفعيل، في الحالة التي يكون فيها مُفَعَّلًا، وأبسط صورة لها لنا عندما نقف "قائمين" على قدمينا جاهزين للحركة، وبالنسبة له تعالى قيامه يكون بما يناسبه سبحانه وتعالى، وبتعبير نتساهل فيه جهوزيته عز وجل دائمة، وهنا خصوص الكلام عن جانب من توجهه تعالى، {عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}، هل من يقوم "وهو الله تعالى" فيراقب كل ما يحصل عليه كل فرد "كل واحد كل شخص" مما نتج من أعماله، {وَجَعَلُوا لِلَّهِ}، القائم على كل نفس جعلوا له، {شُرَكَاءَ}؟ من كل النواحي لا معنى للشركاء له تعالى في الألوهية طالما أن كل نفس، كل فرد، هو تحت مراقبته تعالى ليحاسبه ويجازيه، فكيف سيكون هناك إله غيره تعالى طالما الكل تحت المراقبة وكلهم خلقهم تعالى وكلهم يراقبهم تعالى ليحاسبهم ويجازيهم! فما معنى ألوهية الذي تتم مراقبته لمجازاته؟!

{قُلْ}: للذين جعلوا لله تعالى شركاء في الألوهية: {سَمُّوهُمْ}، قولوا لنا أسماء الآلهة الشريكة لله تعالى، من هم؟ ما هي أسماؤهم؟ فالإله "الله" عز وجل، أخبركم باسمه عبر رسله، أما تلك الآلهة فهاتوا أخبرونا أسماءها، أنتم تعلمون أنها أسماء مخترعة ووهمية ولا علاقة لها بالألوهية أصلا وأصلا هي من أوهامكم ولا كيان لها، أو هي أسماء لأشياء أو أشخاص لهم كيان حقيقي ولكن وصفهم بالألوهية من الخيال والتوهم، من الواضح أنهم ليسوا آلهة لأنهم مخلوقات مُراقَبون منه تعالى ليحاسبهم ويجازيهم إن أساؤوا التصرف.

تفهمها بشكل أوضح عندما تتذكر أن المشركين به تعالى مرة يقولون عن شيء له كيان ووعي أنه إله، فيقولون عن الجن أو الملائكة أو أرواح الأجداد أو لأحد من الناس... أنه إله، هذا الكائن تخبرنا الآية أنه تعالى قائم عليه مراقب لما يكسبه... ومرة يقول المشركون عن أشياء لها كيان ولكن لا وعي تفاعلي لها معهم ليتعاملوا معها على أنها إله، كالكوكب والصنم والنار... ومرة يخترعون من خيالهم كائنا لا وجود له أصلا ويقولون إنه إله! كإله الحرب وإله المطر... فإذا وضعت هذا في بالك ستفهم الآيات القرآنية بشكل أوضح، وآيتنا هنا من أبرز وأوضح الكلام معهم، فإن كانت آلهتهم وهمية لا كيان لها أصلا، هؤلاء ما معنى آلهتهم التي اخترعوها من خيالهم! كإله الحرب وإله الخمرة... وإن كانت بدون وعي لقابلية تعاملهم معها، كالكوكب والنار والطبيعة والدهر... فما معنى ألوهيتها وهم غير قادرين على التعامل معها! وإن كانت آلهتهم كائناً له وعي، كجني أو ملاك أو إنسان... سبحانه قائم على كل نفس بما كسبت، فهل يكونون آلهة وهم واقعون تحت مراقبته تعالى لمجازاتهم على ما يفعلونه... بدل الكلام في الفراغ والهواء عن آلهتكم فهاتوا وأخبرونا عن أسمائها لنضعها أمامنا لنرى إن كانت فعلا آلهة.

{أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ}؟ هناك آلهة في الأرض تعلمونها أنتم ولا يعلم بها الله تعالى؟ الله تعالى القائم على كل نفس تغيب عنه معلومة وأنتم تعرفونها فتخبرونه تعالى بما لا يعلمه! الأرض هي حدود ما يمكنكم التواصل معه مباشرة، فهل ترون فيها أو تلمسون أثرا فيها لإله ما، والله سبحانه لا علم له به؟!

{أَم} تنبئونه، تخبرونه تعالى بشيء لا يعلمه، {بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ}، تقولون إن له تعالى شركاء هكذا بظاهر القول من دون أي دليل؟ فقط تقولون هذا الكلام على أساس أن مجرد قولكم له سيجعل له معنى حقيقي! قارنها مع كذاب يقول بأنه قوي جدا ويمكنه حمل سيارة بيديه، فتقول له: هات أرنا ذلك. فيقول: لا داعي لأريك ذلك ها أقوله لك. وهنا تسأل الآية المشركين عن الآلهة التي يعتقدون بها، أين هي؟ وماذا فعلت حتى قلتم إنها آلهة؟ فهل تصير فعلا آلهة لمجرد قولكم عنها إنها آلهة؟ بظاهر من القول تصير آلهة؟

لا قيمة حقيقية لكلامهم، {بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ}، عندما يقول الذين أنكروا التوحيد إنه يوجد آلهة متعددة فهذا مكر، لأنهم إذا اعترفوا بالله تعالى إلها واحدا فيجب عليهم إطاعته وحده عبر ما يقوله لهم رسله، وحتى لا يضطروا لذلك استعملوا المكر، فهم يقصدون الضرر بتشويه دينه تعالى لأنهم لا يريدون أن يبدو حقا ويصير لزاما عليهم الالتزام به، وتزين لهم هذا العمل فرأوه حسنا جميلا لا عيب فيه.

سبحانه خلقنا وفينا رغبة لحب المشتهيات، والدنيا فيها مشتهيات، ومن تعلق بها زيّن تعالى له حب الدنيا، وزين له الشرك حتى لا يكون مضطرا لطاعته تعالى بترك السوء... ومن ناحية ثانية الشيطان يقوم بتحفيز حب الشهوات في

قلب الكافر فيزين له الشرك حتى لا يترك المشتهيات... تزيين الدنيا لنا كان من أصل تصميمه تعالى لنا ولبيئتنا، ومضافا له ما يقوم به الشيطان من وسوسة، وفوق ذلك نفسنا الأمارة بالسوء، ومعهم تزيينُنا نحن للدنيا لبعضنا البعض.

والمشركون، {صُدُّوا} "فعل مبني للمجهول بالضمة على حرف الصاد" {عَنِ السَّبِيلِ}، مكرهم وكفرهم وشركهم صدهم فمنعهم من المشي على المسلك الإلهي، بعكس الذي عنده رغبة في الإيمان فإيمانه "لا يصده" بل يدفعه للسلوك الإيماني.

{وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ}، يجعله على الشيء الخطأ الذي لن يوصله للغاية الصحيحة، {فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}، لن يضعه أي أحد على الشيء الصحيح الذي يوصله للغاية الصحيحة.

كل الناس أعطاها سبحانه حرية الاختيار بين الإيمان والطاعة وبين الكفر والمعصية، فهو سبحانه أعطاهم هذه القدرة، وهم لا يملكونها بقدرتهم الذاتية، فيمكنه سبحانه في أي لحظة سحب هذه القدرة منهم، ويمكنه في أي لحظة إجبارهم على الإيمان والطاعة، ولكن سنصير آلات مبرمجة ولن يبقى أي معنى للثواب والعقاب بالنسبة لنا، فما معنى دخول الجنة لإنسان جعله تعالى مؤمنا غصبا عنه؟ وما معنى دخول النار لإنسان برمجه تعالى ليكون كافرا غصبا عنه؟ هذا من ناحية ومن ناحية ثانية يمكنك بسهولة أن تفهم هذا النوع من الجمل القرآنية هكذا: من صممه وخلقه سبحانه ليضل عن الدين إن تعلق بالدنيا وشهواتها السيئة، فهذا لا يوجد له ولا أي طريقة ليهتدي. وبعمق مختلف يمكنك رؤية الحق واحد وهو فقط وفقط ما يقوله تعالى، ومن ترك هذا فلن يجد من يهديه إلى الطريق الصحيح.

تتذكر دائما من القرآن أنه تعالى عندما يرى إنسانا صادقا مع نفسه ويرغب في الإيمان سبحانه يساعده ويهديه، وعندما يرى سبحانه إنسانا لديه قرار بالكفر أمام الحق الواضح، سبحانه يتركه ينحرف، ويترك قلبه ينطبع بالكفر... بل ويبتليه بما يزيده كفرا...

تذكر دائما أنه تعالى لا يجبر كافرا على البقاء على كفره، فلا تتصور شخصا كافرا يريد أن يؤمن فيقوم تعالى بإضلاله، لا، ولكن القرآن يحدثنا عن كفار لديهم قرار عميق بالكفر، ولن يتغيروا مهما نزلت عليهم من آيات، فهؤلاء سيضللهم تعالى أكثر فأكثر ولن يتدخل بقدرة قاهرة ليهديهم، لأنه خلقهم سبحانه بطريقة تجعلهم يزدادون كفرا مع مرور الزمن.

(لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللهِ مِن وَاقٍ{34})
{لَّهُمْ}، للمشركين، {عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، ذكر القرآن نماذجَ عن ذلك، كقوم عاد وثمود...

لا تستخرج من الآيات التي تعد الكافرين بنزول عذاب دنيوي عليهم، أن نزول العذاب في الدنيا حتمي لكل قوم كافرين، لا، فقد تمر أجيال من الكفر ولا ينزل عذاب دنيوي عليهم لأنهم لم تتحقق فيهم كامل الشروط التي تسبب العذاب الدنيوي، ومنها توافق أكثريتهم على سوء من العيار الثقيل. الآية هنا تتحدث بشكل عام مطلق، للكفار عذاب دنيوي عندما تجتمع فيهم شروط معينة، وعلى كل حال، {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ}، أشد صعوبة وأشد عناء، عذاب عالم الآخرة الذي سيأتي بعد عالم الدنيا سيكون في جهنم.

{وَمَا لَهُم}، وليس للمشركين، {مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ}، لا وقاية لهم ولا حماية لهم ولا بأي شكل ليتجنبوا تعذيبه تعالى لهم.

هذا خبر من المفروض أن يجعلنا نترك الكفر بالحق، وأن يجعل من لديه قابلية إيمان أن يؤمن، ومن كفر فليعلم بما قرره تعالى له حتى لا يقول في يوم القيامة إنه لم يعلم بأن على الكفر عقاباً قاسياً بهذا الشكل، هنا في الدنيا مرت نماذج عن عقابه تعالى لأقوام كفروا وفعلوا السوء.

(مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ {35})
في مقابل العذاب للمشركين ستتحدث السورة عن لمحة موجزة عن سعادة المؤمنين:

{مَّثَلُ}، شبه، {الْجَنَّةِ}، المكان الموصوف بروعة ما فيه من بساتين وحدائق وما يسبب السعادة... {الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ}، التي قال تعالى إنه سيعطيها للذين يتجنبون السيئات وعمليا هو نفسه تجنب غضبه وعقابه سبحانه، وهي للذين يتركون ما حرمه تعالى ويفعلون ما أوجبه، وعدهم سبحانه بجنة في الآخرة، تشبه التالي:

{تَجْرِي مِن تَحْتِهَا}، تسير من تحت تلك الجنة، {الأَنْهَارُ}، والإشارة في الآية لتوصيف منظر المياه الخلاب بتداخله مع الأشجار والمروج، فلا تبالغ لتتصوره كمستنقعات.

{أُكُلُهَا دَائِمٌ}، نتاجها متوافر في كل الأوقات ودائماً فيها نتاج للأكل، وفاكهتها في كل المواسم.

{وَظِلُّهَا}، أيضاً دائما فيها أشجار لم تسقط أوراقها، ودائماً سيكون تحت تلك الجنة ظل.

{تِلْكَ}، الجنة بهذا التشبيه، {عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا}، ما عقب وما جاء بعد تقواهم هو هذه الجنة.

{وَعُقْبَى}، وما سيعقب وسيأتي، {الْكَافِرِينَ}، المنكرين للدين الإلهي، {النَّارُ}، المكان المشتعل.

هنا في الدنيا ليكون عندك حديقة وبساتين من أروع ما يكون يمكنك العمل على هندسة المكان بحيث تزرع فيه أشجاراً ونباتاتٍ لها مواسم نتاج مختلفة، بعضها ينتج في الصيف وآخر في الخريف وآخر في الشتاء وآخر في الربيع، وهكذا يصير أُكُلها دائماً، دائماً فيها نتاج لتأكله على طول السنة، وظلها دائم على طول السنة هناك شجر من النوع الذي لا يسقط أوراقه، ويمكنك جعل المياه جارية تحت الأشجار... هنا في الدنيا هذه الجنة مرغوبة محبوبة، ومثل وتشبيه جنة الآخرة مع هذه الجنة لتقريب الصورة فقط، لأن جنة الآخرة أروع بما يفوق تصورنا الآن، ونتاجها ألذ طعماً بما يفوق تصورنا، وحاسة التذوق لأهل جنة الآخرة أشد من حاسة تذوقنا الآن...

(وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ{36})
{وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ}، الناس الذين صار معهم منه سبحانه كتابٌ من قبل هذا القرآن، ومعلوم مشهور منهم النصارى واليهود، {يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ}، فيشعرون بنفسية جيدةٍ بسبب نزول القرآن، لأن نزوله منه تعالى يشبه نزول الكتب التي معهم.

{وَمِنَ الأَحْزَابِ}، من الناس المتحازبة التي اجتمعت على عقلية وهدف مشترك، والكلام هنا عن جماعات الناس من أهل الكتاب يوجد منهم، {مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ}، فيرى أن بعض القرآن إلهي، وبعضه الآخر ينكره فلا يُصدِّق به.

تحدثت السورة عن إنكار الكفار للقرآن، وردت عليهم... ولكن هناك أناس منتسبون لكتاب إلهي قبل هذا القرآن، وأيضاً بعضهم مثل الكفار لم يؤمن به! بعضهم فرح بالقرآن لأنه مصدِّقٌ لما معهم، وآخرون أنكروا أن يكون القرآن من مصدر إلهي، فسيقول المشرك: إن كان هذا القرآن يقول إنه امتداد لتلك الكتب، وتلك الكتب لها مؤمنون بها، فلماذا لم يؤمنوا بهذا القرآن؟ إذن معي حقٌّ إن أنا كفرت به... لا، البعض من أهل الكتاب فرحوا بنزول القرآن، لأنه مشابه لكتبهم ومصدِّقٌ لها... وهناك جماعات من أهل الكتاب صارت أحزاباً، فجعلت لنفسها عقيدة وشريعة خاصةً بهم لِيَنضَمَّ إليهم أناس آخرون، ومن سياق الكلام ترى أنهم تحازبوا جماعات منفصلة، حزب لديه عقيدة وشريعة وحزب آخر يختلف عن الحزب الآخر ببعض العقائد والتشريعات وحزب آخر... فهؤلاء بتحازبهم هم حتما في حالة ترك التمسك بكتابه تعالى، وهؤلاء اعترفوا بتطابق بعض ما في القرآن مع كتبهم، وأنكروا بعضه الآخر وسنرى لماذا من تكملة الآية.

لكن قبل ذلك، ننتبه جيداً ونضع في بالنا دائماً سبب تكرار ما تجده هنا في مختلف السور، تكون السورة تتحدث مع وعن المشركين وتنتقل فوراً للكلام عن أهل الكتاب، وانتقالها دائما سببه التشابه بشيء بين الكفار وأهل الكتاب، يكون التشابه بينهم في شيء مخالف ويتعارض مع دينه تعالى وتتحدث عنه السورة. وهنا كان الكلام في بعض نواحيه مع وعن المشركين المنكرين لهذا القرآن، والبعض من أهل الكتاب أيضاً منكرون للقرآن، ولهذا السبب انتقلت السورة من الكلام مع المشركين إلى الكلام مع وعن أهل الكتاب، فالمشركون سيقولون: إن كان أهل كتاب إلهي سابق كفروا بهذا القرآن فهل نحن الذين أصلا لم نؤمن بهذا الدين ولا بما سبق منه سنؤمن بالقرآن؟! والسبب الآخر أن القرآن كتاب

هداية للجميع، ومحور الكلام هنا في السورة والذي تضمن الكلام عن القرآن، ليس مخصصاً للمشركين، أهل الكتاب من الذين قصد القرآن أيضاً التوجه إليهم بالكلام لهدايتهم.

ضع هذا في بالك دائماً، ففي سور أخرى في مواضيع أخرى اشترك المشركون مع أهل الكتاب في الكفر بها، بشيء في العقيدة أو التشريع، فإن لم تنتبه لذلك ستظن أن السورة قفزت إلى موضوع جديد لا علاقة له بما سبق من كلامها لتتحدث فجأة عن أهل الكتاب، وهذا غير صحيح أبداً بتاتاً، فلا قفز بالمواضيع بين فقرات نفس السورة، دائماً الانتقال متعلقٌ بما سبق أو بمحور السورة...

{قُلْ}، عبر هذا القرآن لكل الناس من المشركين وأهل كتاب وللأحزاب منهم:

{إِنَّمَا}، حصراً وفقط، {أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ}، هذا القرآن يمنعني التصرف على أني مفروض مني الطاعة لغير صاحب الاسم المحدد المميز الله تعالى، وأمرني أن، {وَلَا أُشْرِكَ بِهِ}، لا أجعل له شركاء في الألوهية أو الربوبية، {إِلَيْهِ أَدْعُو}، أشهر وأعلن للناس أن يعبدوه تعالى وحده فقط، وأن يتبعوا دينه تعالى، {وَإِلَيْهِ مَآبِ}، أنا في حياتي العادية أذهب في أمور متعددةٍ لكن في النهاية إن إيابي ورجوعي من بعد ذهابي فقط إلى الله تعالى، موقفي وإيماني وديني و... كله تحت مظلته تعالى، لا أرجع وأنتسب وأؤمن... بأي جهة أخرى.

معلوم لك أن بعض الجماعات من أهل الكتاب مشركون علناً، كالذين ألهوا النبي عيسى(ع)، وبعضهم مشركون ولا يعترفون بذلك كالذين رببوا القديسين، وهذا شبه بينهم وبين المشركين، وهؤلاء من أهل الكتاب، أي من المنتمين بالاسم لدينه تعالى، ولديهم نفس المشكلة هم والمشركون، كلاهما يكفران بالقرآن لأنه لا يسمح باتخاذ غير الله تعالى إلهاً، بينما هم لديهم قديسون يعبدونهم... سواء عبدوهم علناً معتبرينهم آلهة، أو عبدوهم فعلياً وعملياً مع أنهم لم يُسَمُّوهُمْ آلهة، فجعلوا فيهم صفات ألوهية فهم يشفون ويرزقون وينصرون... أو عبدوهم فعلياً وعملياً حين تركوا كلامه الواضح تعالى واتبعوا كلام علمائهم المخالف لما ورد في كتبه تعالى...

كما ترى، هي نفس النقطة التي كان القرآن يتحدث فيها مع المشركين، وهي موجودة عند أحزاب من أهل الكتاب، كلاهما لم يوحده تعالى حق توحيده بالعبودية الصحيحة. المشكلة ليست في القرآن بل بتحازب أهل الكتاب بعقائد مخالفة للكتب الإلهية التي يعلنون أنهم منتمون لها، وسترى من الآية التالية أن كتبهم كانت تأمر بتوحيده تعالى...

لاحظ أنه ضمنياً من استعمال توصيف بعض أهل الكتاب بالأحزاب، تنتبه لمفهوم قرآني أساسي، سبحانه لا يعتبر هذا القرآن ديناً جديداً، بل هو نفسه دينه تعالى من أول ما تكلفت البشرية من عهد آدم(ع)، هو نفس العقيدة، لأن المعلومات عنه تعالى هي نفسها ولن تتغير، الإيمان بها هو إيمان بالحق، وهذا لا معنى لتغيره، وأما الشريعة فأساسياتها أيضاً واحدة على معيار الحق والخير والصلاح، وبعض التشريعات النادرة جداً حصل فيها تغييراتٌ ليست جوهرية، ولها أسباب تتعلق بنا نحن البشر... ولمزيد من التوسع حول هذه النقطة راجع دراسة الآية 146 من سورة الأنعام {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}.

بناءً عليه أي تغير أساسي في دينه تعالى وينتج عنه تحازب الناس مختلفين عن بعض في أمور أساسية، فهو حتما من تلاعب الناس بدينه تعالى بغياً بينهم، فلا تغيير أساسي في دينه تعالى أبداً بتاتاً، وهكذا ترى الآية هنا تشير للمتحازبين وهم من المنتمين لدينه تعالى، تقول بأنهم ينكرون بعض ما في القرآن، لأن وصفهم بالتحازب يعني أنهم مختلفون عن بعضهم وبالتالي هم مختلفون بشيء ما عن أصل دينه تعالى، وهو ما سيجدونه في القرآن ويرفضونه.

(وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ{37})
{وَكَذَٰلِكَ}، بما نقوله لك عن الأمر بالتوحيد الوارد في الكتب التي سبقت، {أَنزَلْنَاهُ}، هذا القرآن بنفس الكلام الذي ورد سابقاً في كتب أهل الكتاب، {حُكْمًا}، كلام صوابية وحق فلا عبث فيه، {عَرَبِيًّا}، في حالتك أنت أيها الرسول محمد(ع) أنزلنا الكتاب باللغة العربية، وهي لغتك أنت، وهذا منطقي، أنت الشخص المؤهل لنقل الرسالة الإلهية للناس، ولغتك عربية، من الطبيعي أن تنزل الرسالة التي ستنقلها للناس باللغة العربية، هذا هو الفرق الوحيد بين ما نزل عليك وما نزل على من سبقك، اللغة، وإلا فالمحتوى الأساسي هو نفسه.

{وَلَئِنِ}، وإذا، {اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم}، كنت على ما يحبون قوله وفعله وتركت ما نزل عليك، {بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ}، ما نزل عليك أعطاك علماً بالمعلومات الصحيحة عنه تعالى، وصار لديك علم بما يقوله سبحانه وهو علم حقيقي صحيح، فإذا تركته وكنت على ما يقولونه عن ألوهية بعض الأشخاص، أو أشركت بالله تعالى، أو أنكرت قسماً من القرآن... عندها، {مَا لَكَ}، ليس لك، {مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ}، لن تجد من يعتبرك تابعاً له ويعتني بك، لأنه تعالى الإله الأحد وإن تركت كلامه تعالى فلن يعتبرك مواليا له ولن يعتبرك من التابعين له ليهتم بك من مستوى إلهي، {وَلَا وَاقٍ}، وما لك من الله تعالى من أحد يقيك ويجنبك ويحميك من عقابه.

ما سبب ترك توحيده تعالى وعبادة غيره؟ أليس ليكون ذاك الغير ولياً؟ لماذا ترك الولي الحقيقي الأحد واللهث خلف وهم ولاية غيره من مستوى إلهي؟ فما معنى هذا؟ وهذه المشكلة تراها هي نفسها أو بشبه كبير منها عند المتعلقين بالقديسين من المسلمين.

نلاحظ هذا التهديد للرسول محمد(ع)، فهو في الحقيقة تنبيه، ولكنه أيضاً تهديد حقيقي، الرسول (ع) مثلنا وليس له امتيازات، الأوامر التي نزلت عليه (ع)، هي لنا وله (ع)، كما نقول بالعامية: ليس عليه (ع) خيمة زرقاء. وإذا خالفها سيتحاسب، مثلنا مثله، والآيات القرآنية التي فيها تهديد أو تنبيه للرسول(ع) لا تقلل من قيمته المعنوية، لا، بل تتحدث عنه (ع) بواقعية وشفافية، كل من سيكون في موقع ديني هذا لا يعني أي شيء بالنسبة للحساب بين يدي الله تعالى، ونفهم من هذه الآيات جدية الالتزام حرفياً بأوامر القرآن، فلا مجال للتراخي أو التلاعب بها، وإلا فالعقاب بالانتظار لأي كائن مهما كان موقعه.

بالنسبة لنزول القرآن باللغة العربية هذا شيء منطقي، الرسول محمد(ع) من العرب، وهو رسول لكل البشرية، "مثل كل الرسل"، ولكن الرسالة التي تنزل عليه من ربه سبحانه حكماً ستكون باللغة التي يعرفها الرسول الناقل لها، وهذا بديهي وذكرته الآية 4 من سورة إبراهيم {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، الإنسان الذي لا يعرف اللغة العربية لا يحق له أن يقول: محمد عربي، ورسالته بالعربي، فلا علاقة لي به ولا بدينه. لا، سبحانه عبر القرآن يقول له: إن الكلام الإلهي نزل بلغة من لغات البشر، وهذا كافٍ لتصل المعلومات إلى الجميع عبر تناقل معانيه بينهم، ومن الطبيعي البديهي أن تنزل الرسالة باللغة التي يعرفها الرسول الذي نزلت عليه الرسالة، ومهما كانت لغتك فمن واجبك الالتزام بكلام ربك سبحانه.

معلوم لك أن اللغة الأجنبية ليست مشكلة لمن يريد التعلم في الجامعات الأكاديمية حول العالم، الدارج في عصرنا انتشار اللغة الإنجليزية في غالبية جامعات العالم، وقبله كانت الفرنسية والبرتغالية والإسبانية... وقبله كانت اللغة العربية ولمدة طويلة من الزمن مسيطرة على العلوم، وكان الأوروبي والآسيوي من وسطها وشرقها، كانوا قديماً يتباهون بإجادتهم للغة العربية لأنها اللغة العلمية.

كون القرآن عربياً هذا ليس عائقاً ولا عذراً مقبولاً للذين يقولون إنهم لا يجيدون اللغة العربية طالما الكثيرون منهم يتعلمون لغة أجنبية لتعلم أمور أقل أهمية من كتاب نازل من الإله.

معلوم لك أن كثيرين من أهل اللغات الأخرى غير العربية أسلموا بسبب ما علموه من حق وصلاح في هذا الدين، ولم يتعلموا من العربية إلا قراءة سورة الفاتحة وبعض قصار السور، وهذا لا يضر بإسلامهم طالما هم معلنون الالتزام بما في القرآن ويسمعونه عبر متفقه في الدين، ويدعم قولنا هذا ما ورد في الآية 122 من سورة التوبة {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}.

انتبه جيداً لما يقوله عموم القرآن، الفرق الوحيد بين هذا الكتاب وبين ما سبقه من كتب أنها كانت بلغات الرسل التي نزلت عليهم ومحمد (ع) لغته عربية فكان هذا الكتاب بالعربية.

ننتبه أيضاً، لا يوجد خاصية تميز اللغة العربية عن بقية اللغات، فلا يخطر ببالك أنه سبحانه أنزل القرآن باللغة العربية لأنها متفوقة على بقية اللغات في التعبير أو المفردات أو تركيب المعاني... هذا غير صحيح، كل اللغات لديها القدرة على التعبير عن أي معنى بطريقتها الخاصة، وفكّر في اللغة التي نزلت بها التوراة والإنجيل، والتي نزلت بها صحف الأنبياء، لا واحدة منها كانت عربية، فهل كانت تلك الكتب عاجزة عن التعبير بدقة عما يريد تعالى قوله؟ وفكر في اللغة

التي تكلم بها تعالى شخصياً مع كليمه موسى(ع)، فهل هي لغة كانت مقدسة؟ أو صارت مقدسة؟ إذن لا خاصية مميزة ولا مقدسة لأي لغة على أخرى عند ربنا سبحانه وتعالى.

الأسخف منه كلام المسلمين عن لغة أهل الجنة أنها العربية فقط أو الفارسية فقط أو التركية فقط... فما هذه المعارك التافهة لنصرة تميز لغة على بقية اللغات! وما هي لغة أهل النار؟ وبأي لغة سيكون الحساب؟ وطالما افترضوا أنه تعالى سيعتمد لغة واحدة في الآخرة ليزرعها في عقول كل البشر، فلماذا لم يخطر ببالهم لغة جديدة؟ ولماذا يحصرون طرق التواصل أصلاً عبر الطرق التي يعرفونها الآن في الدنيا؟ ولقليل من التوسع حول هذا راجع دراسة الآية 21 من سورة فصلت {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ}...

ننتبه أكثر، القرآن نزل باللغة العربية وبلهجة قريش، وهي القبيلة التي منها النبي محمد(ع)، كل كلمات القرآن كانت مستعملة عند العرب حين نزول القرآن، ولكن هذا لا يعني أن كل كلمات القرآن كانت تعرف معناها قريش، بل ستجد من بقية العرب أقواماً بالتأكيد يعرفون معناها، فكون الإنسان عربياً ملماً بلغته لا يعني أبداً معرفته بكل كلمات اللغة العربية، هناك أسماء لأشياء أصلاً لم يرها ولم يسمع بها وعرب آخرون لديهم اسم لها، وعلى المستوى الإلهي سبحانه غير ملزم باستعمال الكلمات التي يعرفها القرشيون أو المدنيون "اليثربيون"، بل سيستعمل الكلمة العربية الدقيقة الصحيحة التي يعرفها آخرون من العرب.

التفت إلى مكة البعيدة عن البحر، أهلها لا يعرفون الكلمات العربية التي يستعملها العرب الساكنون على البحر، تجد "من الروايات والقواميس" أن المثقفين من أهل مكة والمدينة لا يعرفون معنى كلمة مرجان! وسبحانه أراد في آية من كلامه أن يتحدث عما في البحر، فأي كلمة سيستعمل إن كان غالبية أهل مكة والمدينة لا علم لهم بأسماء بعض ما في البحر؟ ومكة والمدينة لم يكن فيها مدينة صناعية، فهم لا يعرفون صنعة تسفير الكتب، ولا صنعة القماش، وليس لديهم علم باختلاف أسماء الأواني، وأكثرهم لا يعلم صنعة تربية النحل، فلا يعرفون معنى كلمة رحيق... ولذلك تجد أنه حتى أصحاب القواميس يقعون في مشكلة جهلهم للكلمة العربية الخاصة بأهل صنعة أو فن أو حرفة، فيخترعون لها أقرب معنى، ونقع نحن في مشاكل معانيهم المخترعة.

بالنسبة للكلمات القرآنية التي اخترع لها المفسرون معانيَ لا تجد لها أصلاً في اللغة العربية، هذه المشكلة واضحة في القواميس التي اعتمدت على كلام العرب لتحديد معنى كلمة ما، وبعد كلامهم هذا يذكرون لك معنىً مختلفاً ذكره المفسرون للكلمة القرآنية! وهنا وهناك تجد كاتب القاموس يقول لك: ما قاله المفسرون عن معنى الكلمة القرآنية ليس معناها اللغوي بل تطبيق لها على مصداق. وخذ مثلاً عن ذلك تفسير بعضهم لكلمة إثم الواردة في الآية 33 من سورة الأعراف بالخمر... {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ}...

بالنسبة للكلمات الأجنبية عن العربية التي قالوا إنها موجودة في القرآن، كل اللغات تشترك في استعمال الكلمات، والكلمة التي لها أصل أجنبي واستعملها القرآن هذا لا يعني أن الكلمة ليست عربية، عندما يستعملها العرب تصير عربية من أصل أجنبي، ولا مشكلة في استعمال القرآن كلمةً يستعملها العرب وقد وصلت إليهم من لغة أخرى، هذا حال كل اللغات، واللغة العربية ليست استثناءً، فهي لغة لم تخرج من الحائط، بل تولدت مثلها مثل بقية اللغات، من الحاجة لتسمية ووصف الأشياء والحالات... وضع العرب كلمات واستوردوا كلمات من لغات أخرى وورّدوا كلمات للغات أخرى... وحين استوردوا كلمة ما فهم نطقوها بطريقة خاصة في تركيب الكلمات والنطق... بما يناسب لغتهم ولهجتهم...

بصريح العبارة الذين قالوا إن وصف القرآن لنفسه بأنه عربي وصف غير صحيح بسبب ما فيه من كلمات أجنبية "برأيهم"، هؤلاء سخفاء لدرجة التفاهة، والحق ليس عليهم لوحدهم بل على المسلمين الذين أسسوا لهذه التفاهة، لدينا مخزون ضخم من روايات تفسيرية يتبجحون فيها بمعرفتهم للغات أجنبية ويقولون فيها عن هذه الكلمة التي استعملها القرآن أو تلك إنها من أصل أجنبي! وبعض الروايات يقولون فيها إن الكلمة القرآنية الفلانية أصلاً ليست مستعملة عند العرب وهي أجنبية! فهي على لغة طي أو الحبشة أو فارسية... هذا خطأ، ولم يكن عن دراسة، ولو تعمقت بما قالوه لوجدتها افتراضات غير مستندة إلى واقع... وقد تبين لك من هذه الدراسة للكلمات التي يقولون إنها أجنبية، تبين لك

طفولية وسذاجة علمية "غير بريئة" في كثير من الأحيان، بدل أن يقولوا: لا أعلم معنى هذه الكلمات، اقتحموا المجهول!...

فرضاً فرضاً فعلاً كانت بعض الكلمات التي استعملها القرآن ليست عربية، وبالقياس مع ستة آلاف جملة يتألف منها القرآن، فرضاً ما قالوه عن تلك الكلمات كان صحيحاً وفرضاً قبلنا أنها ليست عربية، فكم عددها حتى تمنع وصف القرآن بالعربية!

الأسخف من السخافة تبجح البعض باللغة السريانية، وتفسيرهم لكلمات القرآن بسذاجة التخريف، جاعلين منه كله من أصل سرياني! لدرجة مسحهم للغة العربية من أصلها وكأنها ليست لغة بل لهجة سريانية استعملها الذين اسمهم عرب بشكل رديء! ونتج عن ذلك كتاب القرآن المؤلف بالسرياني الرديء! ولن أطيل الكلام عن هؤلاء وأمثالهم من المتبجحين باللغة الآرامية، والمتبجحين بمعرفة بعض كلمات لغات قديمة كالحميرية والفينيقية... لأن صحتي الجسدية لا تسمح بتحمل الغثيان من تفاهتهم.

القائلون بأن القرآن يكذب نفسه حين يقول بأنه عربي بينما نجد فيه كلمات غير عربية، يقصدون بكلامهم أن هذا القرآن ليس من مصدر إلهي وأن محمداً ألفه، أليس كذلك؟ حسناً، ألا يعني هذا أن محمداً خبير لغات أجنبية؟ وبحسب كلامهم وصحة معاني الكلمات التي استعملها القرآن في دلالتها على المعنى المقصود، ويقولون إنها أجنبية، هذا يعني أن محمداً خبير غير عادي في براعته في استعمال اللغة الفارسية والنبطية والرومية والسريانية والعبرية... وهي اللغات التي تفلسف الجيل الأول والثاني والثالث... من المسلمين وقالوا عن بعض كلمات القرآن إنها من تلك اللغات. فما هذا الكلام! ألا يسمعون أنفسهم؟ فقط يريدون أن يقولوا: هذه الكلمة استعملها القرآن، وأصلها فارسي، فالقرآن لا يمكن أن يقول عن نفسه إنه عربي. أهذا ما يريدون قوله وهم لا يفكرون في معنى كلامهم وأنه يدل على معرفة غير عادية بل معرفة فائقة لمحمد باللغات!

كلامهم يعني أنه يوجد لغة على الأرض لم تأخذ ولا كلمة من أي لغة أخرى! ولا تشبه كلماتها كلمات أي لغة أخرى، وهذه اللغة "التي لم يخبرونا ما اسمها" فقط يحق لها وصف كلامها بأنه صاف ليس فيه كلمات أجنبية، فلو نزل القرآن بتلك اللغة فقط وفقط كان يحق له أن يقول إنه من تلك اللغة! من المفروض وبحسب كلامهم أن تكون اللغة العربية لا تشبه بكلماتها ولا أي لغة أخرى، حتى يحق للقرآن أن يقول عن نفسه بأنه عربي! وها ترى في علم الألسنيات تصنيف اللغات واللهجات على الأرض "حالياً" بِعَدِّهَا بقرابة الستة آلاف، ولا واحدة منها مختلفة عن كل الأخريات، ولا واحدة، وبالتالي وبحسب كلامهم فلا يحق ولا لأي لغة منهم أن تقول عن كتاب لها إنه فرنسي أو ألماني أو صيني... لأن بعض كلماتهم مشتركة أو مستوردة من لغات أخرى!

هناك كلام كثير حول هذا الموضوع، وأحيلك فيه إلى دراستنا هذه في أي كلمة قالوا عنها في كتب التفاسير والقواميس إنها أجنبية أو من أصل أجنبي، لترى مختلف حالات القائلين بين الاستهتار والطفولية والجهل... والخطأ غير المتعمد، والخطأ المتعمد...

هل هذا يعني أن هذه الدراسة فسرت كل الكلمات بطريقة صحيحة؟ لا، ولكنها اعتمدت منهاجاً أقرب للصواب، وإن شاء الله تعالى تكون بذرة ونواة لدراسات أفضل يقوم بها الآخرون ومتخلصةً تماماً من الموروث الثقافي البعيد في أكثره عن الحق.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ{38}) {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ}، أنت لست بدعة، لست أول رسول إلهي حتى يتعجّب الكفّار، {وَجَعَلْنَا لَهُمْ}، لتلك الرسل، {أَزْوَاجًا}، فكانوا متزوّجين مقترنين بأنثى، وجعلنا للرسل، {ذُرِّيَّةً}، فانفصل عنهم بالولادة أولادٌ، فكانوا مثلك من البشر، متزوّجين ولديهم أولاد. يعني الرسل مثل بقية الناس مجرد بشر بقدرات بشرية.

{وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ}، من غير الممكن أن يقوم أي رسول بشيء مميّز، لأنه بشري عادي يتزوّج وينجب الأولاد... وهذا نموذج عن بشريته، فهو يجوع فيأكل ويعطش فيشرب ويتعب فينام... حيث قدراته مثل قدراتكم، فعلى أي أساس تتوقّعون أن يكون لديه قدرة خارقة لفعل أمور خارقة؟ وإن حصلت على يدي رسول ما آية ما فلا يمكن أن

تحصل، {إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}، ولا أحد من الرسل لديه القدرة الذاتية على صنع آية تثبت أنه رسول، بل يحتاج لإذن ومساعدة إلهية ليقوم بشيء غير عادي، فسبحانه يأذن أو لا يأذن أن يحصل شيء غير عادي.

من العديد من الآيات في القرآن نرى تعابيرَ واضحة بأن كل ما فعله الرسل من آيات، كتحويل العصا لثعبان وشفاء المرضى وإحياء الموتى... كلّه كان بإذن الله تعالى، ولا أحد من الرسل كان مختلفا عن الآخرين في بشريّته.

بعبارة أبسط "وبديهية بالنسبة للكثيرين منّا" كلّ الرسل بشر وبقدرات بشرية، وأنت أيها الرسول محمد(ع) مثلك مثلهم، فمن قال إنّك أقل منهم فهو مخطئ، ومن قال إنّ بعض الرسل آلهة فهو مخطئ، ومن يعتقد أنك يجب أن تكون من غير البشر ولديك قدرات فائقة عن البشر فهو مخطئ أيضا، ومن قال بأن وظيفتك كرسول ستجعل فيك قدرات خارقة فهو مخطئ.

الآية التي جاء بها من كان قبلك من الرسل، لم تكن تميّزهم عنك، حتى لو أحيوا الموتى، فهذا لم يحصل بقدراتهم الذاتية، بل بإذن إلهي حصل، والآية التي جئت بها أنت وهي القرآن، هي ليست من عندك، ولا بقرار منك، ولا دخل لك فيها، ولا في نوعها، ولا محتواها، فمن ينكرها فليعلم أنه لا ينكر شيئا فعلته أنت، لأنّك لا دخل لك به، بل ينكر شيئا إلهيا.

{لِكُلِّ أَجَلٍ}، لكل موعد لحصول شيء يوجد، {كِتَابٌ}، كلّ الآجال كل المواعيد لحصول الأشياء هي مكتوبة محدّدة عند الله تعالى، ومن عموم مفاهيم القرآن نعلم بوجود كتاب أساسي سجّل فيه تعالى كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، مما يعني أن آيات الرسل هي أشياء لها مواعيد لحصولها محددة منه تعالى، وليس للرسل أي علاقة بها، حيث بعضهم كانوا موجودين في موعد حصولها، وبعضهم مسجّل عنده تعالى حصول الآية على يديه... لا أكثر ولا أقل.

(يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ{39})
من يحدّد عموم آجال ومواعيد حصول الأشياء؟ {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ}، أمامه تعالى خيارات عديدة وإذا قرر سبحانه محو شيء ما، فيزيله ولا يعود له وجود، لن يحدث، {وَيُثْبِتُ}، ما يشاء، إذا قرر سبحانه أن تكون بعض الأشياء ثابتة فلن تتغير، فهي أشياء ستحصل بالتأكيد، {وَعِنْدَهُ}، سبحانه، {أُمُّ الْكِتَابِ}، هناك كتاب أساسي رئيسي فيه كلّ شيء، مثلما نقول عن المراجع الأساسية إنّها أمّ، فنقول أمّهات الكتب، أمّهات علم الرياضيات...

المكتوب في ذلك الكتاب هو ما شاء تعالى حصوله، والذي لم يشأه تعالى لم يسجّله في ذلك الكتاب.

يمكننا فهم هذه الجملة ببساطة أنّه تعالى حين كتب "من علمه بالغيب" ما سيحصل في السماوات والأرض في الدنيا والآخرة، حين كتب قراراته من الخيارات العديدة التي أمامه سبحانه، محا وأثبت ما يراه حكيما مناسبا... لأنّ المحو والإثبات لأمور لم تحصل بعد، قبل حصولها وحين تسجيله سبحانه لها كان يمحو ويثبت... وهذا معنى يتماشى مع مفاهيم القرآن، وهو كلام عامّ يصدق على كل الحالات، ويؤيد ذلك ما ورد في سورة الحديد {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (22)}. هنا الكلام بالخصوص عن الآيات التي تحصل مع الرسل، قبل أن يخلق سبحانه السماوات والأرض وضمنا قبل أن يكون لأي رسول أي كيان، قديما كتب تعالى ما سيحصل، وهكذا ترى بُعداً عميقا جدا لطلبهم لآية من الرسول، فهو بشري وقبل وجوده بل وقبل وجود كل ما في دنيا المخلوقات سجّل تعالى فيما سجّل، الآيات التي ستحصل.

من ناحية ثانية هذا الكلام عن المحو والإثبات متوافق أيضا مع مفاهيم القرآن التي يقصد بها الأشياء المتغيّرة التي تحصل معنا، لأنّها بالنسبة لنا مفتوحة على احتمالات عديدة، ولكن عنده تعالى كتابٌ فيه قسم يوصف بأنه أمّ، أساس مرجع لكل شيء، حتى عندما تبدو الأمور بالنسبة لنا مفتوحة على احتمالات عديدة، فذلك مذكور في الكتاب ومذكور ما ستستقر عليه الأمور أخيرا.

بعبارة أخرى، نفهم من الآية أن اختيار وتحديد نزول آية ما، لا علاقة ولا بأي شكل لأي رسول في قرار حصولها، لأنّها تحصل بقرار من عنده سبحانه، ومسجّل قبل أن يخلق تعالى السماوات والأرض، حيث هناك قسم في الكتاب

الأساسي يوصف بأنه "أمّ" لبقية الكتب، هذا القسم من الكتاب لا يحصل فيه أي تغيرات، وما سجّله تعالى فيه، فسيحصل بالتأكيد وحتما.

أمّا الأمور التي لأسباب تتعلّق بتغيرات حصلت من البشر، فمن ناحيتنا نحن نرى فيها التغيير، أمّا في الكتاب فمسجّل ماذا سيحصل.

مثلا: في الكتاب الرئيسي يوجد قرار بنزول عذاب في الدنيا على الكفّار المتوافقين على غشّ الناس، وقوم النبي شعيب(ع) كفار غشاشون، ويعلم سبحانه وتعالى أنهم لن يتغيروا، في الكتاب الرئيسي مكتوب بأن العذاب سينزل عليهم في التاريخ الفلاني، وهذا شيء لن يتغيّر، أما هنا في الدنيا فقوم مدين قادرون على التغيّر، ويمكنهم ترك الكفر والغش، وبالنسبة لنا ولهم هنا في الدنيا، إنّنا نرى أن نزول العذاب عليهم ممكن ولكن غير أكيد، حيث يهددهم تعالى بنزول العذاب، إذا تغيّروا لن يحصل العقاب، وإذا لم يتغيّروا حصل لهم العذاب، وهذا "الاحتمال" بالنسبة لنا ولهم، أمّا بالنسبة لله تعالى فسجّل في الكتاب الرئيسي سلفا أن العذاب سينزل على قوم النبي شعيب(ع) في التاريخ الفلاني لأنه تعالى يعلم بأنهم لن يتغيّروا.

مثال آخر عن قوم النبي يونس(ع)، في الكتاب الأمّ كان "مسجلا" أن العذاب لن ينزل عليهم لأنهم سيستغفرون في آخر لحظة مقبول فيها الاستغفار قبل نزول العذاب، هذا من ناحية العلم الإلهي، أمّا من ناحية النبي يونس(ع) فكان متأكدا من نزول العذاب الدنيوي على قومه، وأمّا من ناحية القوم، ففي اللحظات الأخيرة وقبل العذاب استغفروا، حيث لم ينزل العذاب لأنهم استغفروا، وبالنسبة لهم تغيّر مصيرهم، أمّا في الحقيقة فلم يحصل أي تغيير في القرار الإلهي "المسجّل في أمّ الكتاب" لأنه كان تعالى يعلم سلفا بأنّهم سيستغفرون، لذلك أرسل إليهم علامات نزول العذاب حتى يؤمنوا ويستغفروا.

أطلت عليك الكلام لأن الكثيرين فسّروا آيتنا هنا بأنه تعالى الآن يمحو ويثبت، وهذا كلام غير دقيق، لأنّه سبحانه يعلم بكل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، ماذا سيمحو؟ ضع في بالك أن المحو والإثبات حصل قبل أن يخلق سبحانه دنيا المخلوقات، حيث سجّل ما شاء حصوله، والمحو والإثبات نراه نحن من جهتنا لأننا أمام احتمالات مفتوحة.

ننتبه جيدا، لا ولا مرّة أخبرنا القرآن أن الأمور من الناحية الإلهية مفتوحة الاحتمالات، بل دائما يخبرنا بأنها معلومة النهاية، انتبه يا عزيزي عندما تقرأ في الروايات وفي أبحاث المسلمين شيئا عن "القدر" ويوحي بأنه تعالى "غيّر رأيه"، وانتبه لمعنى كلمة قدر في استعمال القرآن، واختلافها عن اصطلاحهم، لكثرة ما وردت كلمة "قدر" ومشتقاتها في القرآن، عندما تستحضرها في ذهنك بشكل ضبابي، تظن أنها بمعنى الشيء المقدّر الذي يحتمل أن يحصل أو يتغيّر، وهذا غير صحيح ولم يرد في القرآن.

تتذكّر أن الكتاب الأم الرئيسي ليس من ورق، ولا مثل قرص الحاسوب، ولا مثل الذاكرة الرقمية... ولا تحاول أن تتصوّر شكله ولا كيفية عمله، لأنّ معلوماتنا قليلة جدا عنه، وقدرتنا على الفهم أقل بكثير من المطلوب حتى نفهم ما هو وكيف هو، وكل ما نعرفه أنه حاوية لمعلومات عن كل شيء خلقه الله تعالى، وتتسجّل فيه بطريقة مرتبطة بالسماوات وأراضيها، حيث إنّ التسجيل فيه ليس كتابة بالأحرف أو بالرموز بل هو حصول الأشياء، وبالتشبيه البعيد جدا جدا نشبّهه بكتابة البرامج على الحاسوب التي ينتج عنها صور متحركة، لأنّ الكتابة الإلهية على الكتاب الرئيسي مرتبطة بالسماوات وليست منفصلة عنها.

بقي شيء، كيف يعلم سبحانه ما سيجري معنا طالما نحن بالإرادة الممنوحة لنا نختار ما سنفعله؟ هل نحن نفعل ما سجّله تعالى لنا أم نفعل ما نحن نقرّره؟ الجواب البسيط عبر مقارنة هذا الموضوع مع أمور نحن بحساباتنا نرى أنها حتمية الحصول، كمشهد لأعمى يسير باتجاه حفرة، حيث بإرادته يسير نحوها، وسيقع فيها بإرادته... وتتوقع أنه بالتأكيد سيقع فيها... لذلك أنت تعلم مسبقا بأنه سيسقط في الحفرة، وهو يسير باتجاهها بإرادته ولا يعلم بأنه سيسقط فيها.

الآن ننظر لما يراه تعالى بصفاته الفائقة، لأنه سبحانه يرى ما سيحصل حتما ولا يتوقّع، وسجّل ذلك في كتاب ويسميه: أمّ الكتاب. وعلى أرض الواقع يتعامل سبحانه معنا بحسب ما منحنا من حرية إرادة واختيار، ينذرنا ويبشّرنا، ونحن نقرّر إن كنّا سنؤمن أو سنكفر، ولكن أي قرار سنتّخذه فسبحانه يعلم به سلفا بسبب علمه الفائق.

أطلت عليك عزيزي ويا عزيزتي، لنذكر شيئا عن الفرق بين علمه تعالى بما سأفعله، وبين تدخّله تعالى فيما سأفعله، حيث منحني سبحانه حريّة الإرادة، وتركني أفعل ما أشاء، ويعلم سبحانه سلفا ماذا سيكون قراري وما سأفعله. وبناء عليه سجّل سبحانه علمه بما سيحصل في كتاب، وخلق السماوات والأرض، وخرجت أنا إلى الحياة، بإرادة حرّة لأفعل ما أشاء، وستكون كل أفعالي متطابقة مع ما هو مسجّل في الكتاب أني سأفعله، ومهما حاولت التحايل على ذلك لأغير رأيي في آخر لمحة بصر وأفعل غير الذي قررته سابقا لأخالف ما سجّله تعالى في كتابه، فلن أنجح لأن آخر قرار وآخر فعل مسجّل أصلا، لأنّه سبحانه لا يتوقّع ما سنفعله بل يعلم ما سنفعله.

إذاً، حين يطلبون آية استثنائية غير القرآن وغير آيات خلق الدنيا... ليؤمنوا، فليأخذوا علما أنه تعالى من قبل أن يخلق ما في الدنيا علم بكل شيء سيحصل، وشاء ما شاء فيه، وسجل ذلك، لأنّ طلبهم لآية منك أيها الرسول محمّد لن يغيّر أي شيء، وأنت لا يمكنك فعل أي آية إن لم يسمح تعالى، وسبحانه لم يقرّر حصول آية يطلبونها هم.

(وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ{40})
{وَإِن مَّا}، وإذا ما، {نُرِيَنَّكَ}، نجعل عندك صورة محدّدة عن، {بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ}، حيث سبحانه يهدّد الكفّار ويقول لهم إنّ العذاب سيقع عليهم، وإذا جعلناك هنا في الدنيا أيها الرسول محمد ترى شيئا من هذا العذاب ينزل عليهم، {أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ}، نأخذ حياتك تماما، وتموت ولا ترى إن كان العذاب نزل عليهم أم لم ينزل، على كل حال، {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ}، أنت لا دخل لك بهذا القرار ووظيفتك هي تبليغ الرسالة فقط وفقط، وليس من شأنك أن تقرّر نزول العذاب أصلا، وليس لك علاقة إن كنت ستراه، ولا دخل لك إن كان سينزل من بعدك... لذلك خذ علما بذلك أنت وهم.

{وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ}، ما يفعلونه يتم تسجيله وتعداده وتقييمه، ومعلوم أنه بعد الحساب يأتي الجزاء.

بناءً على ما سبق مما أخبرنا به تعالى عن علمه بما سيحصل وتسجيل ذلك في كتاب، نزول العذاب على قوم ما أيضاً سُجِّلَ من قبل أن يخلق سبحانه ما في الدنيا، وبالتالي القرار مسجّل من قبل أن يخلقك أنت أيها الرسول، لا معنى لربطهم نزول العذاب بك ولا من أي ناحية ولا بأي شكل، وعلى أي حال حسابهم شيء حتمي ولن يتغير سواء كنت بينهم أو لم تكن، وسواء حاسبهم وجازاهم تعالى في الدنيا أو تركَهُ للآخرة.

(أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ{41})
{أَوَلَمْ يَرَوْا}، ألم تَصِرْ عند الكفّار صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شافوا. ما التفتوا. {أَنَّا}، نحن الإله، {نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا}؟ هذه الأرض التي تعيشون عليها، ألا ترون الناس تموت بكوارث "ننقصها" فينقص عدد سكانها؟ مرّة يموتون من هذا الطرف فتنقص الأرض، ومرّة في جهة أخرى يحصل الموت. حصول عذاب مميت لأعداد كبيرة من الناس معلوم عندكم، وهذا شيء يجب أن تلتفتوا له لتنتبهوا إلى أنّ تهديده تعالى ليس في الفراغ بل حقيقي، ويمكن أن يحصل معكم.

{وَاللَّهُ يَحْكُمُ}، يُصْدِرُ حكمه ويُقَرِّرُ بصوابية ماذا سيحصل، {لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ}، لا يأتي حكم من الآخرين بعد حكمه، ما يقرّره تعالى حقّ وصواب ونهائي فسيحصل، ولا أحد يقول حكما آخر يغلب القرار الإلهي.

{وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}، لأنّه لا يحتاج سبحانه لوقت طويل حتى يحسب ما المناسب ليفعله، وبتعبير نتساهل فيه بأقل من لحظة يعلم سبحانه ما يستحقّونه، ويعلم إن كانت سيئاتهم تسبّب لهم العذاب هنا في الدنيا، أو هي أقل مما يستوجب عذابا دنيويا، حيث يتم تأخير تعذيبهم للآخرة.

بالنسبة لكلمة "حكم" على معنى الحاكمية والحكومة "السلطة"، أصل المعنى البتّ في الأمور بحكمة، بصوابية ضبطها على المطلوب على الحقّ، ومن مشتقات ذلك عموم أي حكومة كفرض شيء على الآخرين. ووصفه تعالى بالحكيم مُتَضَمِّناً "حكمه وحكومته" فهو متطابق مع أصل معنى الكلمة، حيث إنّ قراراته حقّ، أمّا حكم وأحكام وحكومة الناس، فمقصود منها بالأساس أن تكون لضبط الأمور بالحق، وفي التطبيق تحصل عادة مخالفة للحقّ، وتكون الأحكام والحكومة ظالمة، وتعابير القرآن عن ذلك منها ما ورد في الآية 47 من سورة المائدة {وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ

اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}، وأمثالها من التعابير التي لم تغيّر في أصل معنى الكلمة، بل أبقتها على معنى ضبط الأمور على الصواب، ونبّهت إلى أنّ مخالفة أوامره تعالى هي حكومة ليست على الصواب.

(وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ {42})
{وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}، الكفّار الذين في عهد النبي محمد(ع) "وما بعده" خطّطوا للقيام بأعمال يقصدون بها الضرر للدين الإلهي ولم يسألوا إن كانت أعمالهم فيها منفعة أو مضرّة لهم، وهنا الكلام عن تخطيطهم للكفر برسالة النبي محمد(ع) وطلبهم للآية على أساس أنهم سيؤمنون لو جاءتهم الآية التي تقنعهم، فهذا ما ظهر منهم، ولكن هذا مكر والحقيقة أنهم لا يريدون أن يؤمنوا مهما حصل، {فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا}، حيث إنّ الكفّار لا يمكنهم ولا بأي طريقة أن يتلاعبوا مع ربنا عزّ وجلّ، لأنّ حركات المكر والخدعة والتلاعب والمناقشة... لا تمر على ربنا سبحانه وتعالى، والمكر بكل أنواعه يعلم به سبحانه، حيث يظهر سبحانه لهم أنه تركهم على راحتهم، ولكنه تعالى، {يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ}، كلّ ما يحصل عليه أي إنسان كنتاج من عمل قام به فإنّ الله تعالى يعلمه، لذلك مكر الكفّار بلا فائدة أمام من يعلم ما يمكرونه بل ويعلم كل التفاصيل عنهم بل ويعلم ما كسبوه من سيئات على أعمالهم.

{وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ}، الدار هو المكان الذي تدور فيه أمور نشاطات الحياة، وهنا الكلام عن دار للسعادة، لذلك سيعلم المنكرون لدينه تعالى لمن ستكون تلك الدار الرائعة، وهي جنّة الآخرة، هناك في الآخرة عندما يرى الكفّار {عُقْبَى}، ما عقب، ما أتى بعد، ما كان نتيجة الإيمان والعمل الصالح، سيرون دخول المؤمنين إلى الجنّة، وسيعلمون عندها وبعد فوات الأوان لمن كانت هذه الجنّة التي كذّبوا بها، أو احتملوا "بأوهامهم" أن يدخلوها إن كانت موجودة.

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ{43}
{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا دينه تعالى وبالخصوص أنكروا أن يكون هذا القرآن آية من مصدر إلهي يقولون:

{لَسْتَ مُرْسَلًا}، لا نصدّق بأنك رسول إلهي، لأنّك لم تأتنا بآية تقنعنا.

{قُلْ}، لهؤلاء عبر هذا القرآن:

{كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ}، أنا لا تهمني شهادتكم ويكفي أن يشهد الله تعالى أني رسوله، ويكفي أن يشهد سبحانه عليكم أن القرآن منه تعالى وأنه آية كافية لإثبات رسالتي. ومعلوم لك أنه تعالى لم يَكْتَفِ بشهادته على أن القرآن من عنده، بل شحن القرآن بأدلة متنوّعة ومتعددة تدل على أن مصدره إلهي، بل ومن الأساس ألّفه سبحانه بطريقة تريك بسهولة أن مصدره إلهي بسبب تقانة كلامه من مستوى فوق قدرات البشر، والأهم من ذلك من محتواه بعرضه للحق مع أدلته، وعرضه لشريعة صالحة ومعها أدلة صلاحها.

يعني لم يطلب من القرآن أن تؤمن به ككتاب إلهي بسبب هذه الجملة هنا، لأنّ الخبر بأن الله سبحانه يشهد بأن القرآن منه، لم يَأْتِ من فراغ وعليك بقبوله كما هو، بل عليه أطنان من الأدلة المذكورة في القرآن نفسه.

أهمية الخبر لنا وللكافرين بالقرآن أنه تعالى يشهد بأن القرآن منه، يريك في ذات نفسه أن الله تعالى هو المتكلّم مع رسوله محمد(ع)، هذه الطريقة في الكلام القرآني والتي تريك كلاما من مصدر آخر غير محمّد(ع)، لاحظها الكثيرون، وبدل أن تجعلهم يؤمنوا بأن محمدا يتلقى الكلام من كائن آخر، قال بعضهم إنّ محمّدا(ع) لديه انفصام قوي بالشخصية ويتخيّل أن ملاكا يوحي إليه! ومعلوم لك من تاريخ حياته (ع) والتي يعترف بها الصديق والعدو، أنه (ع) كان شخصا رزينا عاقلا حكيما... لدرجة تأسيسه لنواة دولة من أجلف أجلاف ما خلق تعالى من بشر... لذلك قولهم عنه (ع) بتخيّل ملاك، فهذا غير صحيح أصلا لأن نزول القرآن لم يحصل من رؤيته (ع) لملاك يتحدّث معه، وحتى لو وجدوا هنا أو هناك رواية عفنة كاذبة... عن رؤيته (ع) لملاك يقول له شيئا ما من القرآن، فكذبها واضح لأن نزول القرآن استمرّ لقرابة الثلاث والعشرين سنة، ومن المفروض من هكذا زمن طويل أن تجد روايات أكثر عن رؤيته(ع) لملائكة يراهم ويتلون القرآن عليه(ع)، وأصلا من القرآن تعلم بكذب هكذا روايات لأنه (ع) لم يَتَلَقَّ القرآن من أذنيه بل مباشرة في وعيه، وتقرأ ذلك في عدة آيات منها 97 من سورة البقرة {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ

مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ}، ومن ناحية أخرى حين رأى (ع) الملاك جبريل(ع) مرتين فقط، كانت حادثة استثنائية جدا جدا ولها أسبابها ويمكنك مراجعتها حول الآية 13 من سورة النجم {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ}.

نرجع للآية، وأيضا كفى بشهادة بيني وبينكم، {وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ}، اذهبوا لأي شخص لديه فعلا علم بالكتاب الإلهي، لأي شخص موثوق عالم من أهل الكتاب من المنتسبين للتوراة أو الإنجيل أو صحف الأنبياء، وسيشهد بأن القرآن من مصدر إلهي.

عطفاً على ما ورد في الآية 36 منذ قليل {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ}... هناك مسيحيون أو يهود أو صابئة... آمنوا بهذا القرآن وأسلموا، ومنهم من لم يسلم ولكنه يعترف بأن محتوى القرآن يتماشى "مصدّق" مع ما سبق من كتب إلهية، حيث إنّه موافق لأساسيات الكلام الإلهي عقائديا وتشريعيا، أيّ واحد من هؤلاء عنده علم من الكتاب الإلهي، علم من الكتب الإلهية التي نزلت سابقا، وسيشهد بأن هذا القرآن مصدره إلهي.

سيخطر ببالك أن الآية تشير لشخص أو أشخاص من أهل الكتاب "مسيحي أو يهودي أو صابئي..." آمنوا بهذا القرآن ويشهدون للكفّار بأن القرآن من مصدر إلهي، ولكن الآية لا تقصد ذلك، لأنّها أعمّ من ذلك وتشير لأي شخص لديه علم بالكتب الإلهية السابقة، حيث تعرض عليه ما يقوله القرآن، وستجده يشهد بأن كلام القرآن هو ذاته الكلام الإلهي في الكتب السابقة.

ونلاحظ نفس الكلام في الآية 10 من سورة الأحقاف {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}، هناك أشارت لأي شخص من بني إسرائيل، طبعا ويكون عالما موثوقا، سيشهد على إلهية كلام القرآن، هنا في الآية لا تفترض أن الشهيد الذي عنده علم الكتاب هو شخص محدّد تقصده الآية، بل هي لعامّة أي شخص من أهل الكتاب وموثوق ومحترم... ليسألوه وسيشهد بأن هذا القرآن متوافق مع ما سبقه من كتب إلهية، وبالتالي التفسير الوحيد لذلك أن يكون القرآن نازل من نفس مصدر تلك الكتب...

سنفهم كلام الآية بشكل أبسط عندما أتخالف معك في دواء ما لأي علاج هو، وأقول لك: يشهد على كلامي أي صيدلي أو طبيب. وهنا الآية تشير لنفس الشيء، أنتم أيها المشركون لستم علماء بالكتب المنسوبة له تعالى والتي نزلت سابقا، وحتى تروا إن كان كلام هذا القرآن من مصدر إلهي هناك أناس عندهم علم بالكتاب الإلهي، لأنّهم عالمون بالكتب الإلهية التي نزلت سابقا، بعقيدتها وشريعتها والسلوكيات التي تأمر بها... اعرضوا عليهم هذا القرآن وسيشهدون أنه نفس الكلام الذي في كتبهم.

انتبه أن الآية 36 والتي مرّت في هذه السورة وأخبرتنا أن بعض أهل الكتاب يفرحون بهذا القرآن، أخبرتنا أن آخرين منهم أنكروا بعض ما فيه {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ} ...، لأنّهم أنكروا ما في القرآن ممّا يخالف ما أعلنوه كعنوان لتحازبهم في مقابل الأحزاب الأخرى من دينه تعالى، سينكرون ما هو حقّ مخالف لبعض عقائدهم وتشريعاتهم، ولكن حتى هؤلاء سيقولون لك إنّ الأساسيات في دينهم وكتبهم هي نفسها بالذات أو بالعموم مذكورة في القرآن.

الشبه أساسا بالتمام ولكن تحريف كتاب التوراة وتحريف معانيه، والاختلافات المذهبية، هي السبب في بعض الاختلافات عن القرآن، وتذكّر دائما أن الواجبات من صلاة وزكاة وصوم وحجّ و... وعقيدة التوحيد والإيمان بالآخرة... ومحورية ملّة إبراهيم(ع) إماما... هي نفسها بالتمام في التوراة والقرآن.

سأذهب بك إلى أبعد من تاريخ نزول آيتنا هذه، لِنَذْهَبْ إلى ما يقوله العلمانيون عن القرآن في عصرنا وما قبله، وستجد تصنيفهم للقرآن بأنه مع التوراة والإنجيل في نفس الخانة، وهم علمانيون لا يؤمنون ولا بأي دين، ولكن يرون الشبه الواضح بين هذه الكتب، بل تكاد تكون واحدة بالتمام، وأنها من مصدر واحد، حيث يسمونها بالدين الإبراهيمي أو أديان التوحيد الثلاثة. وتجد الكثير من الدارسين للأديان من اليهود والمسيحيين المتدينين أيضا يعترفون بهذا التصنيف ولا يعارضونه. وهؤلاء الباحثون العلمانيون ومعهم الدارسون للديانات من أهل الكتاب، لم يسلموا، والعلمانيون أصلا لم يؤمنوا بأنها كتب من مصدر إلهي، وبالتالي ليس لديهم شيء يقولونه عن الشبه بينها إلا أنها منسوخة عن بعضها "وهذا

تفسير تطبيقي عليهم لكلام القرآن عن نوعيتهم أنهم بلا لبّ، إذ يرون الحقيقة أمامهم والدالة على نزول كتب منه تعالى منذ آلاف السنين، وبدل أن يؤمنوا بها يقولون أي شيء كتبرير للتطابق في الأساسيات، ويقبلون بأسخف الاحتمالات، إلا الاحتمال الأقوى وأنها إلهية المصدر فهم ينكرونه"!

عليك أن تفهم هروبهم كلّهم "علمانيون وأهل كتاب" من بيان كيفية حصول هذا التشابه بين القرآن الذي بينه وبين التوراة آلاف من السنين، لأنّ هذا يدل على أنها من مصدر غير بشري... ومن اقتحم منهم في هذا الموضوع فعليك أن تنتبه لردود القرآن على ما قاله، لأنّ هؤلاء لديهم قرار سابق أن لا يؤمنوا، وعند هذه النقطة بالتحديد يفقدون العقل والمنطق متعلقين بأي عذر يخطر على بالهم أو يسمعون به، وفوراً يستعملونه كمبرر حتى لا يعترفوا بإلهية مصدر هذا القرآن.

ومن قبلهم قال المشركون نفس كلامهم متّهمين النبي محمّد (ع) بنقله لكلام أهل الكتاب لتأليف القرآن... وراجع نماذج من ردود القرآن على ذلك في الآية 103 من سورة النحل {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ}، والآية 16 من سورة يونس {قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}.

بقي شيء، في تراثنا الديني روايات تفسيرية لآيتنا هنا ومنقولة أو منسوبة للجيل الأوّل من المسلمين، وكالعادة حاولوا تطبيق الآية على التاريخ بربطها بأشخاص محددين يقولون إنّها نزلت فيهم، وهذه مشكلة عامّة في الغالبية الساحقة من تفاسيرهم، تعاملت الأجيال المتعاقبة من المسلمين مع تلك الروايات بقداسة، مبررين لقائليها بأنهم إمّا سمعوا ما قالوه كتفسير من الرسول(ع) أو من أحد الصحابة أو هم أنفسهم شهود على ما يقولونه... ولكن لو درست الروايات لوجدت العجب من تعارضها مع بعضها! ولوجدت نفس المفسّر منقول عنه روايات متعارضة مع بعضها! ولو تنحيت عن تقديس الروايات لرأيت بسهولة أنها تفسيرات افترضوها وليس لهم بها علم.

من الواضح في عقلية هؤلاء المفسرين اشتراكهم على فهم القرآن بنظرة ضيقة، وهي نظرة تحصر تفسير الكلام الإلهي على أحداث جرت في عصر نزوله، علماً أنّه وردنا أيضا الكثير من كلامهم عن تطبيق بعض آيات القرآن على أبعد من تاريخ نزوله، وخصوصا في الأحداث الأليمة من تناحر المسلمين مع بعضهم البعض في زمن الإمام علي ومعاوية، حيث طبّقوا بعض الآيات التي تتحدّث عن الظالمين والملعونين والفاسقين والمنافقين... وطبّقوها على أشخاص من بعد انتهاء نزول القرآن... وتلك التفسيرات لم تبتعد كثيرا، وللأسف لم تكن منهاجا دارجا، لأنّه لم تكن القاعدة العامّة الأساسية عندهم أن كلام القرآن استخدم نماذج من عصر نزوله ولم ينزل لتأريخ عصر نزوله.

كنموذج بارز عن ذلك الروايات التي تفسّر آيتنا هذه، بحثوا عن الشخص الذي عنده علم الكتاب، مفترضين ومتأكدين أن الآية تقصد شخصا محدّدا! وهكذا تفهم مختلف كلامهم المختلف عن ذاك الشخص الذي لم يتفقوا على تحديده...

لدينا روايات المغالاة في الإمام علي على أنه هو المقصود هنا، لأنّه حتما عنده علم بالكتاب، ولكنه علم بهذا القرآن وليس بالكتب السابقة، وحتما ليس بالكتاب الإلهي الرئيسي المكتوب فيه كلّ شيء عن الدنيا والآخرة، محمّد بن عبد الله (ع) ذات نفسه لا علم له بما في الكتاب الرئيسي إلا بما يصله وحياً... وهؤلاء المغالون يكفيهم الالتفات إلى نزول هذه السورة في مكّة وحينها كان الإمام علي صبيا أو شابا حدث السنّ، وللأسف كلّ المفسرين المشهورين لا مشكلة عندهم في تقطيع نزول السورة الواحدة على سنين، فيقولون إنّ ما سبق من السورة نزل في مكّة وهذه الآية نزلت بعد سنين لوحدها في المدينة، وبناء عليه صار يمكنهم تحديد الشخص الذي عنده علم من الكتاب من بعد الهجرة، من يهود المدينة أو مسيحي ما... أو بالإمام علي.

على كل حال، هذه الدراسة للقرآن ليست مخصصة لدراسة روايات تفسير القرآن ومناقشتها، واعتمدت على تفسير القرآن بما يقوله هو لوحده، ونادراً بالاستئناس ببعض ما هو مشهور، ويمكنك التمعّن في معنى الآية هنا مع بقية كلام سورتها بمعزل عن الروايات، لترى إن كان ما فهمته منها في دراستي لها عقلانياً منطقياً متماشياً مع بقية مفاهيم القرآن.

في عصرنا لا تزال الآية توجّه كلامها لأي كافر بالقرآن، فليذهب وليسأل المتخصصين من أهل كتب منسوبة له تعالى، ونزلت منذ آلاف السنين قبل القرآن، أو هو نفسه ليقرأها وليقرأ القرآن، وليخبرنا عن النتيجة؟ وكما هو واضح وبديهي جدا، لا شيء جديد في القرآن عن أساسيات العقيدة والشريعة والسلوكيات، لأنّه متكامل مصدّق مؤيّد... لما سبقه من كتب.

سورة إبراهيم (14) ص 255
أهل مكّة القرشيون هم من ذرية النبي إبراهيم(ع) من ولده النبي إسماعيل(ع) اللذين لم يعبدا الأصنام، والفرع الآخر من ذرية النبي إبراهيم(ع) من ولده النبي إسحاق(ع) ومن بعده النبي يعقوب(ع) "إسرائيل"... جاء منهم قوم النبي موسى(ع) "بنو إسرائيل" الذين في حادثة مشهورة جدًّا صنعوا عِجْلاً وعبدوه، وبدأت السورة كلامها مع أهل مكّة أبناء النبي إسماعيل(ع) من دون التصريح بذلك، حيث اكتفت بتوجيه الكلام لهم ليكونوا كنموذج لغيرهم من الكفّار على امتداد الزمن، ولا تكونَ السورة محصورة بهم، وأقحمت آية تشير لنموذجية الكلام وأنها ليست مخصصة لأهل مكّة حين عبّرت السورة عن إرسال الرسل بلسان قومهم، وانتقلت لأبناء النبي يعقوب(ع) ابن النبي إسحاق(ع) عبر نقلها لما قاله لهم النبي موسى(ع)، ثم عادت لتشمل جميع الذريّة بنقلها كلامًا عن النبي إبراهيم(ع) الجدّ الأول لقوم النبي محمّد(ع) ولقوم النبي موسى(ع) وهنا جاءت السورة بالتصريح عن علاقة ذرية النبي إبراهيم(ع) الذين أسكنهم (ع) في مكّة... مع النموذج المخاطب بهذه السورة وهم غالبية أهل مكّة في عصر النبي محمّد(ع).

محور الكلام حول الكفر به تعالى وبالخصوص حول عبادة الأصنام، وبين نقلها لكلام النبي موسى(ع) مع قومه ونقلها لكلام النبي إبراهيم(ع) أقحمت ما يلفت الانتباه لصحة توحيده تعالى وأنذرت وبشّرت.

ركّزت على الأعذار والتبريرات التي تخطر ببال أي كافر يظنّ أنها ستنفعه في الآخرة، وأرته الخاتمة الحتمية السيّئة في الآخرة للكافرين.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ{1})
الر، هذه حروفٌ نتهجّاها مقطّعةً هكذا: ألف لام راء.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ

فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوِّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

نرجع للآية فالأحرف: {الر}، نماذج من الأحرف التي بها تحوّلت المعلومات من الكتاب الرئيسي وصارت: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ}، فصارت القرآن الذي نزل عليك أيها النبي محمد(ع)، وسبب إنزاله عليك: {لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ}، من العتمة المحيطة بهم من كل الجهات، {إِلَى النُّورِ}، إلى الانكشاف إلى الرؤية الواضحة الصحيحة، {بِإِذْنِ رَبِّهِمْ}، فبأمر وسماح من المسؤول عنهم من مستوى إلهي نزل هذا الكتاب عليك ليكون نورًا للناس.
أمر سبحانه الملائكة(ع) بالتواصل معك، وتواصلت معك وهو سبحانه سمح بهذا التواصل، ولم يكن القرار من الملائكة(ع) بالتواصل معك وتنزيل الكتاب عليك، بل قرّر تعالى ما ستوحي به الملائكة لك، وأمرك تعالى بنقل رسالته للناس لتخرجهم من الظلمات، فلا علاقة لك أو لأي أحد بهذا الموضوع، ولا أنت من رأسك كلّفت نفسك بإخراج الناس من الظلمات، بل أمرك سبحانه بذلك وسمح لك بالقيام بذلك.

{لِتُخْرِجَهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}... {إِلَى صِرَاطِ}، إلى طريق رئيسي أساسي منسوب لـ، {الْعَزِيزِ}، وهذا الصراط منسوب للمنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض إرادة الآخرين عليه... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره.... و{إِلَى صِرَاطِ}، {الْحَمِيدِ}، الموصوف بمحمودية كل ما يصدر عنه، فكل ما يفعله تعالى فهو جيّد.

بعبارة أخرى، بالرغم من اتصافه تعالى بكل ما تحمله كلمة عزيز من معنى، يفرض ما يريده، ومع ذلك فهو حميد، فلا يفعل إلا الأمور الجيدة، وهذا مشابه لتكرار وصفه تعالى لنفسه في القرآن بالعزيز الحكيم، وسترى ذلك بعد قليل في الآية الرابعة هنا، وبالرغم من عزّته الفارضة ما يريده تعالى على جميع مخلوقاته فسبحانه حكيم لا يعبث...

إنَّ أساس مسألة إخراج الناس من الظلمات هي إلهية، فخذوا علمًا أيها الناس أن ما يفعله الرسول محمّد(ع) من أساسه هو إرادة إلهية، ولا أحد له علاقة به، بل يحصل بتخطيط إلهي، وبإذن إلهي.

تفهمها إذا قارنت بين ما تقوله الآية هنا عن الأمر الإلهي للملائكة(ع) لتنزيل الكتاب على الرسول(ع) وقيام الرسول(ع) وبأمر إلهي بتبليغ الكلام الإلهي للناس، ودمج ذلك مع إذنه تعالى بالسماح للملائكة(ع) والرسول(ع) بالقيام بما أمر به تعالى، قارن هذا مع ما يقوله الذين يحلّلون شخصية وفكر ونفسية الأنبياء على أنهم مصلحون اجتماعيون لا يختلفون عن المصلحين الآخرين من علمانيين أو من أديان أخرى، حيث يقول بعض هؤلاء من الكافرين بدينه تعالى وبرسله إنَّ النبي محمّدًا(ع) كان في معزله في غار حراء يستغرق في التفكير بالأوضاع الاجتماعية لقومه... وخرج من رأسه بفكرة تغيير دينهم... ونفس الشيء يقولونه عن النبي إبراهيم وموسى وعيسى... عليهم السلام. ويأتي الكلام الإلهي في آيتنا هنا وأمثالها ليؤكّد أن الرسل محمّدًا(ع) وعيسى(ع) وموسى(ع) وإبراهيم(ع) و....لم يخترعوا الدين، بل كانوا سلسلة من الرجال الصالحين، وفعلًا قام البعض منهم وقبل نزول الوحي الإلهي عليه، قام بمعارضة العقائد التافهة والتشريعات الظالمة لقومه، وبعدها تواصل معهم تعالى وأوصل لهم أوامره لينقلوها للناس، وأوامره تعالى هي نفسها ما نراه نحن صالحًا لو حافظنا على سلامة قلوبنا.

الشابّ إبراهيم(ع) وقبل نزول الوحي عليه تحرّك لتصحيح معتقدات قومه ليتركوا التلاعب بما يتعلق بالإله... ولم يخترع دينًا، لأن أصل دينه تعالى هو الإيمان بالحقّ والواقع حيث الله تعالى إله واحد أحد وخالق كل شيء...

بعبارة أبسط وأصرح، لا يوجد بالأصل شيء اسمه "دين الله" كشيء جديد اخترعه أحد ما، بل هو الواقع هكذا، وواقعًا هناك الله تعالى الإله الواحد الأحد الحكيم العليم... والكفر بذلك هو إنكار للحقّ، واختراع آلهة معه تعالى هو الضلال... ونفهم هذا المعنى إذا نظرنا للتشريعات والسلوكيات، لأنه في الأصل لا يوجد شيء اسمه دين الله كدين اخترعه أحد ما، بل هناك الخير والصلاح ومقابلهما الشرّ والفساد، وتأتي تعليمات منه تعالى تصوّب وتقوّم لنا رؤية ما صار ملتبسًا مشوّشًا علينا بسبب فساد في قلوبنا.

أمّا النبي محمّد(ع) فلم ينقل لنا التاريخ إلا التزامه بالتوحيد ورفضه تقديس الأصنام حين كان شابًّا، ولكنه لم يتحرّك دينيًّا ضد المشركين إلا من بعدما نزل عليه الوحي الإلهي.

نعم، يوصف الرسل بأنهم مصلحون اجتماعيون فيما طرحوه من تشريع عادل يعطي كلّ الناس حقوقهم بالتساوي، إذ إنَّ دينه تعالى ليس شيئًا غريبًا عجيبًا نازلًا من الفضاء لنلتزم به على عماه، بل هو دينه تعالى ما فينا من قابلية لتمييز الخير من الشرّ، وبعض الأشخاص كان فيهم الصفات اللائقة ليوظّفهم تعالى لنقل كلامه للناس، ووصلهم كلامه تعالى الذي أصلًا تتماشى معه قلوبهم السليمة، ونقلوه للناس عن قناعة به.

سترى خلال السورة الفرق بين ما عليه الكفّار وبين ما يطرحه الرسل، وسيكون التركيز على الكفر كاختراع لعقيدة لا أساس لها، كظلمات، كأمور باطلة مخالفة للواقع وللحقّ والصلاح، وتؤدّي إلى عقاب خالد، وبين اتباع النور الذي جاء به الرسل وهو الحقّ والصلاح ويؤدّي إلى جنّة خالدة.

كما ترى، فإنَّ تراكم ثقافة تديننا تجعلنا نستعمل تعابيرَ لها مدلول مختلف عن مقصد القرآن، حيث ترى الآية تتحدّث عن الظلمات والنور، ونفسرها بالضلال والهدى، وبالسيئات والمحرمات وبالصالحات، وبمعصيته تعالى وبطاعته... وهذا تطبيقيًّا صحيح ولكن القرآن دائمًا يشير للقابلية التي فينا لتمييز الخير من الشرّ، ويرينا أنه تعالى يعرض علينا في قرآنه ما من المفروض أن نراه نحن خيرًا، والنور الذي يعرضه علينا في هذا القرآن للخروج من الظلمات، هو ليس شيئًا غريبًا جديدًا لا نعلم عنه شيئًا، حيث ترى نماذج من الناس لديهم قلوب سليمة وتماشوا فورًا مع كلامه تعالى، لأن فكرهم ونفسيتهم متعطّشة للنور وللخير وللصلاح... وكارهة للفساد والسوء والشرّ، وهم الأنبياء ويليهم الصالحون.

في الحالة المثالية لسلامة قلوبنا فمن المفروض أن نرى القرآن نورًا يخرجنا من الظلمات، ونكون غير طبيعيين ولا سليمين إن رأيناه يعرض علينا شيئًا غريبًا جديدًا لنلتزم به، وهذه هي حالة الذين كفروا بالقرآن لأنه لا يتماشى مع قلوبهم المريضة.

(اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ{2})
عليك بقراءة الآية على أنها تعريف ولفت انتباه، ففي العادة نقرأ القرآن لنحصل على ثواب القراءة، فأنت كمسلم لا تقرؤه لتؤمن بشيء جديد لم تكن مؤمنا به من قبل، ولكن سيختلف فهمك للآية إذا انتبهت أنها بلاغ للناس، وتذكّر الآية السابقة التي لفتت الانتباه أن هذا الكلام صادر عن إله عزيز حميد، فهنا يكمل سبحانه التعريف عن نفسه: ...{الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللَّهِ}، صاحب هذا الاسم المميّز المحدّد له تعالى، {الَّذِي لَهُ}، فمنسوب له، {مَا فِي السَّمَاوَاتِ}، السبع، {وَمَا فِي الْأَرْضِ}، التي نعيش عليها أو بقية الأراضي في سمائنا أو بقية السماوات.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضًا على قبّة النجوم التي نراها ليلًا ونطلقه أيضًا على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنويًّا على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائمًا أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنويًّا" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماءً" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...} وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراضٍ "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضًا بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراضٍ.

عادة نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير فنستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، فنقول: خلق سبحانه الدنيا. أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيرًا صحيحًا دقيقًا بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى}.

{وَوَيْلٌ}، ومصيبة عظيمة، شيء عظيم سيكون، {لِّلْكَافِرِينَ}، للمنكرين أن الله تعالى منسوب له كل شيء، فيا لعظيم ما سيصيبهم، {مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ}، من شيء يسبّب لهم الضرر وسيكون قويًّا فلن يستطيعوا تحمّله أو الاعتياد عليه.

الويل تعبير عن عموم المصيبة العظيمة، سواء سيصيبك شيء جيّد أو سيّئ، مع أن غالب استعمالها للتعبير عن مصيبة سيئة، وقد وردت في الآية 72 من سورة هود لمصيبة عظيمة حسنة ببشارة ولد للنبي إبراهيم(ع) {قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ...}.

بعض الناس يقولون: لماذا يبدو الله تعالى حسّاسًا من مسألة ألوهيته؟ فلماذا سيعذّب "بشدّة" الذين ينكرون ألوهيته؟ حسن، إذا لم تعترف بأنه سبحانه قد خلقك، فمن خلقك؟ فهل خلقت نفسك؟ أو هل بالصدفة صرت؟ وهل آلهة أخرى خلقتك، أم أن الموضوع لا يهمّك! على كل هذه الحالات وغيرها ستنكر أن الله تعالى إلهك وأنت منسوب له، وتتصرّف على هواك، وهنا المشكلة العملية لإنكار ألوهية الله تعالى، فإنكار ألوهيته سبحانه لها جانبان: فكري عقائدي، ولنتركه الآن جانبًا ولنركّز على الجانب الثاني العملي تشريعي. فرؤية المشكلة فيه تبدو أسهل. فخذ مثلًا إنكارك لسلطة الملك في بلدك، أو إنكارك لسلطة الحكومة في بلدك، فهذا يعني أنك ستخالف القانون أو ستخالف ما يصدر عن الحاكمين لأنك لا تعترف بسلطتهم عليك، حيث إنَّ نفس إنكارك "للحكومة" تعتبره أكثر الدول: جرمًا يعاقبك عليه القانون.

لن أغوص في ذلك وسأتركه لك لتنظر في سبب اعتبارهم إنكار "الحكومة" جرمًا، وانقلابًا على الدولة، وانتهاكًا لتعريف مواطنيتك، وتهديدًا للأمن القومي... وهذا على المقياس البشري، فكيف سيكون مقياس إنكار "ألوهية" الذي خلقك من لا شيء!

تلاحظ بداية السورة بلفت الانتباه لمشكلة الكفر من ناحية فكرية إيمانية "عقائدية" ثم ستنتقل للحديث عن سلوكيات منحرفة ناتجة عن الكفر، وفي البداية ستتحدّث عن سلوكيات منحرفة لقوم موحدين وهم قوم النبي موسى(ع)، ثم عن دعاء النبي إبراهيم(ع) الذي يعبّر عن "أمنية" ونظرة مستقبلية لعقيدة وسلوكيات الشرك والتوحيد...

نلاحظ بشكل متكرر في القرآن أن الإله سبحانه صريح وواضح معنا، فيتحدّث معنا بصراحة وشفافية، فيخبرنا تعالى أنه لا يجد شيئًا في الدنيا المحدودة بالسماوات السبع وما يقابلها من أرض، فلا يرى إلا نفسه ومخلوقاته، فكل المخلوقات منحصرة في "السماوات والأرض"، وهو تعالى يعلم أنه قد صممها وخلقها ويتابعها كلها، فهي منسوبة له، فله ما في السماوات والأرض، فمنسوب تصميمها له، وخلقها، ويملكها، ويديرها... فهي له، وله تعالى حقّ التصرّف بها كيفما يشاء، فيجعل للبشر إرادة حرّة للاختيار بين الكفر والإيمان، ويجعل لهم آخرة ليحاسبهم على اختيارهم... هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فلا يوجد أي كائن غيره تعالى لديه صفة الألوهية، فهو وحده سبحانه الإله، ولو كرّرت لك، فهو تعالى يخبرنا مرارًا عبر القرآن وبكل شفافية أنه ليس لديه سبحانه أي علم بوجود إله غيره، فكل الموجودات هي ضمن السماوات والأرض، ولا يوجد فيها أي إله، وهو سبحانه قد خلقها كلّها لوحده، فإن كان يوجد شيء آخر، إله آخر، وجود آخر... فأين هو؟ وأين أثره؟ وكيف تعلمون به أنتم أيها البشر وهو سبحانه وتعالى لم يعلم به! وقد ورد هذا صريحًا في الآية 18 من سورة يونس {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

بناءً عليه، فمسألة الكفر به تعالى وحساسيتها لدرجة تسبيبها الخلود في جهنّم، لأنها جرم فكري واضح ظلمه بمخالفته للحقّ الواضح المدعوم بآيات من مختلف الأنواع. ومن يستسخف نفسه ولا يرى عظيم سوء الجرم الفكري، فما معنى توافق الناس على المحازبة! أليس لأنهم يرون الصلاح في هذه العقيدة الحزبية أو تلك؟ ولا تركز على المصلحة العملية من دعم تلك الأحزاب متجاهلًا المباني العقلية، فكل الأحزاب تدّعي فلسفة فكرية لمنهاجها، ومثلما لم يكن عند المشركين قديمًا أي مشكلة في احترام الآلهة التي اخترعها الآخرون، لأنهم هم أنفسهم آلهتهم هم اخترعوها، فنفس هذه العقلية تراها في التوافق غير المعلن بين عموم الأحزاب على قبول الأهواء كعقيدة ومنهاج، فيعترفون بحق الآخر في التعبير عن رأيه المخالف لرأيهم، ولكنهم في نفس الوقت يحاولون نشر حزبيتهم وإطفاء الآخرين!

هو نفسه الكلام مع المعترضين على بعض تشريعات دينه تعالى لأنهم يعتبرون أنفسهم رحماء في تشريعاتهم أكثر مما يجدونه في تشريعاته تعالى، فهم بالأساس لا يهمّهم الحقّ والباطل والخير والشرّ، حتى لو كانت كلماتهم وكتبهم تقول غير ذلك، هم بغالبيتهم الساحقة كاذبون، بينما تشريعاته تعالى في قرآنه بالضبط على الحقّ...

خذ مثلًا من القوى الكبرى المسيطرة في عصرنا، التي لها سلطات أتت من انتخابات بغالبية الشعب... أو أتت للسلطة لأن أحزابها قوية فارضة لإرادتها على غالبية الشعب، وعلى أي حال فالفرق ليس شاسعًا بين همجية المنتخبين بالأكثرية من الشعب وبين المتسلطين على السلطة، فكلاهما يصنعان الأسلحة ويبيعانها للذين يعلمون أنهم سيقتلون الأبرياء بها! وكلاهما يعملان على زعزعة استقرار البلاد التي لا مصلحة لهم باستقرارها إلا إذا كانت ستواليهم وتتبع لهم!

كلامنا هنا ليس عن الحكومات الظالمة بل عن الشعوب الظالمة العالمة بما تفعله حكّامها من ظلم وتسكت لأنه يصب في مصلحة رفاهيتها!

لست اتّهم جميع شعوب القوى الكبرى بالظلم، ولكنهم وللأسف وكما يبدو جليًّا، فالظالمون هم الغالبية، وبالدراسة والتدقيق سترى العقلاء الصالحين منهم بقدر مقبول، يميلون ميلًا عظيمًا للفكر الإلهي وللتشريع الإلهي.

الخلاصة من الكلام أن الجريمة ليست فقط بالقتل والسلب والنهب... بل هناك جرائم فكرية، مع العلم بأن الجرائم الفكرية دائمًا لها أثر عملي تطبيقي، وهذا ما ينبّه القرآن منه مرارًا كسبب لما يفعله الكافرون من فساد وسوء عملي، ولكن هو الفكر المجرم لوحده مشكلة كبيرة حتى لو لم ينتج عنه سوء عملي.

(الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُوْلَـئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ{3})
{الَّذِينَ}، كفروا أنكروا ألوهيته سبحانه وتوحيده هم الذين، {يَسْتَحِبُّونَ}، يقيّمون بشكل إيجابي أكثر، {الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى}، الحياة، {الْآخِرَةِ}، ومشكلة العقيدة "الفكرية" عندهم نابعة من مشكلة نفسية، حيث أنكروا ألوهيته سبحانه ووحدانيته لأنهم يحبون الدنيا ومتعلقون بها ولا يريدون إطاعته تعالى بترك الشهوات والملذات السيئة التي فيها، عِلْمًا أنه تعالى لم يمنعهم مما لا يضرّهم من ملذات... وأخبرهم أن الجنّة في الآخرة أفضل بكثير، ولكنهم لم يقتنعوا من شدّة حبّهم للدنيا.

الكافرون، {وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}، ومن يرد سلوك الطريق الإلهي فإنهم يمنعونه، حيث يضعون عقيدة وتشريعًا مختلفَيْنِ عن العقيدة والشريعة التي أنزلها لنا الإله سبحانه، وبمختلف الطرق يجبرون الناس على اتباع ما يقولونه وترك ما يقوله تعالى.

{وَيَبْغُونَهَا}، ويريدون السبيل الإلهي بما فيه من عقيدة وتشريع وسلوكيات، يريدونها أن تكون، {عِوَجًا}، ملتوية! فلا يحبونها وهي مستقيمة صحيحة، ويريدونها أن تتناسب مع حبّهم للدنيا لتبيح لهم اختراع العقيدة التي تجيز لهم التشريع على هواهم السيِّئ.

{أُولَئِكَ}، الكافرون، {فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ}، إذ إنَّ سلوكهم أبعد ما يكون عن الشيء الصحيح.

تلاحظ أن ارتكاب المؤمن لذنب ما، هو ابتعاد عن الحق، ولكن طالما هو مؤمن بأساسيات الحقّ والصلاح، فهو يستغفر، وهو ليس بعيدًا عن الطريق الإلهي، أمّا هؤلاء فبعيدون جدًّا عن الطريق الصحيح، لأنهم لا يعترفون بالسوء فلا يفكّرون أبدًا بالاستغفار والتوبة منه، ومِمَّا يستغفرون إن كانوا لا يرون السوء الذي يفعلونه سيّئًا؟

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{4})
بالنسبة للطريقة المتّبعة لهدايته تعالى للناس عبر كلامه فهي واحدة متكررة: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ}، لم نطلق أي شخص لينقل كلامنا للناس، {إِلَّا بِلِسَانِ}، بطريقة تحريك لسانه بالنطق مثل، {قَوْمِهِ}، مثل الناس الذين لهم كيان الجماعة وهو من جمعتهم، حيث إنَّ كل الذين أرسلهم سبحانه كانوا يتحدّثون بلغة الناس الذين يعيشون معهم، {لِيُبَيِّنَ لَهُمْ}، ليوضّح الرسول للقوم، حيث يوضّح لهم رسالة ربهم سبحانه، وينقلها لهم باللغة التي يفهمونها.

انتبه للفرق بين: ما أرسلنا من رسول إلا لقومه. وبين: ما أرسلنا من رسول إلا بلغة قومه. هنا التركيز على اللغة وليس على شمولية الرسالة، حيث إنَّ الرسالة الإلهية مع أي رسول كان هي عامة شاملة لكل الناس، ولكن في بعض الأحيان يصدر تكليف إلهي للرسول بأن يتوسّع شخصيًّا في نشر الدعوة، كما حصل مع النبي محمد(ع) حين أرسل الرسائل إلى

مختلف قادة العالم التي تمكّن من التواصل معها، وفي بعض الأحيان ينحصر عمل الرسول في بيئة صغيرة ليس لأن الرسالة مخصّصة لبيئة صغيرة، بل لفقدان الظروف المناسبة لتوسيع نشر الرسالة، وذلك بحسب شخصية الرسول وبحسب ظروفه...

بعد بيان الرسول كلامه تعالى للناس، {فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ}، ومن بين خيارات عديدة أمامه تعالى، شاء أن يجعل على الطريق الخطأ بعضًا من الناس، ونعلم من القرآن أن من اتخذ قرارًا بالتعلّق بالدنيا وإنكار الحقّ... فهذا لن يجبره الله تعالى على الإيمان غصبًا عنه، ولا هو نفسه كفر بإرادة قاهرة منفصلة عن الإرادة الإلهية، بل سبحانه تركه لحرية الاختيار، مع أنه تعالى يمكنه أن يجبره. بعبارة أخرى، شاء سبحانه أن يضيع بعض الناس عن الهدى، لأنه هو سبحانه أعطاهم حريّة الإرادة والاختيار، وهو سبحانه لم يجبرهم غصبًا عنهم ليضلّوا، ولم ولن يغيّر إرادتهم ليؤمنوا.

{وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ}، حتى الذي آمن لا يؤمن لأن لديه إرادة منفصلة وقاهرة لإرادة الله تعالى، بل يمكن لله تعالى أن يجعله يضل، ويمكن أن يسحب منه حريّة الاختيار فيجعله مبرمجًا بلا إرادة كالآلة...

تلاحظ أنَّ القرآن يركّز كثيرًا على هذه النقطة، ويلفت انتباهنا لمن كفر أو لمن آمن، أنهما كلاهما تحت القدرة الإلهية، وشاء سبحانه ترك هذا لقراره بالكفر، وشاء ترك ذاك لقراره بالإيمان، ولو شاء تعالى غير ذلك، فلا قدرة للمخلوقات على مقاومة مشيئته تعالى، فلا يفكّر من كفر بالله تعالى أنه شيء مهم، وأنه صاحب إرادة مطلقة، وأنه تعالى يريده أن يؤمن ولكنه قوي وكفر وفرض إرادته، لا، وهذا ما ينبّهنا القرآن منه دائمًا، ولا يفكّر من آمن أنه شيء مهم لأنه آمن، لا، فكلاهما يتصرفان بالإرادة الممنوحة لهما منه تعالى وهما تحت السلطة والسيطرة الإلهية.

{وَهُوَ الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض إرادة الآخرين عليه... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره...

{الْحَكِيمُ}، الذي يرى الصوابية في الأمور، وليس عن عبث خلقنا ومنحنا حريّة الاختيار والإرادة، وليس عن عبث يمتحننا، بل قراراته تعالى وأفعاله كلها حقّ وصواب.

بعبارة أخرى، رغم اتصافه تعالى بكل ما تحمل كلمة عزيز من معنى، فيفرض ما يريده على الآخرين، ولكنه تعالى حكيم، إذ إنَّ كل أفعاله عن صوابية، ومرّ معك في أول آية من السورة نفس المفهوم بوصفه تعالى بالعزيز الحميد.

وننتبه، فإنَّ الآية تتحدث عن شيء منطقي، حيث إنَّ الرسول محمد(ع) من العرب، وقد فهمنا من القرآن أنه رسول لكل البشرية "للعالمين" كما تقرأ في الآية 107 من سورة الأنبياء {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}، ولكن الرسالة التي تنزل عليه من ربه سبحانه، ستكون باللغة التي يعرفها الرسول، وهذا منطقي. والإنسان الذي لا يعرف اللغة العربية لا يحق له أن يقول: محمد عربي، ورسالته بالعربي، فلا علاقة لي به ولا بدينه. لا، فهنا الآية تقول له: من الطبيعي أن تنزل الرسالة باللغة التي يعرفها الرسول، ومهما كانت لغتك فمن واجبك أن تلتزم بما في رسالة ربك سبحانه، ومن الطبيعي أن يقوم الرسول أولًا بهداية من حوله من الناس الذين يتحدثون بلغته، وبعدها ينتشر الخبر عن دينه تعالى إلى الأقوام الأخرى...

بناءً عليه ننتبه جيدًا، فلا توجد خاصية تميّز اللغة العربية عن بقية اللغات، فلا يخطر ببالك أن ربنا سبحانه أنزل القرآن باللغة العربية لأنها متفوقة على بقية اللغات في التعبير أو المفردات أو تركيب المعاني... هذا غير صحيح حيث إنَّ كل اللغات لديها القدرة على التعبير عن أي معنى كان بطريقتها الخاصة، وفكّر في اللغة التي نزلت بها التوراة والإنجيل، والتي نزلت بها صحف الأنبياء، حيث من المشهور أن الأنبياء كلهم كانوا من غير العرب، إلا أربعة أنبياء "كما يقولون" هم: هود وصالح وشعيب ومحمد عليهم صلوات الله تعالى. فهل تقول بأن صحف الأنبياء وكتبهم نزلت بلغة لا تستطيع التعبير عن المعنى! لا، إذ إنَّ كل رسالة نزلت بلغة الرسول الذي ينقلها، وهل تقلل من قيمة اللغة التي تكلّم بها ربنا سبحانه مع كليمه موسى(ع)؟! أو تقدّسها؟! وهذا كلّه كلام تفاهة يتلهى به بسطاء العقول وللأسف يستهوي حتى الفطاحل لأنه يدغدغ حبّ التميّز والفخر والزهو والتكبّر... على الآخرين، وهذا ليس دينًا ولا تديّنًا مقبولًا، فلا خاصية مميزة ولا مقدسة لأي لغة على أخرى عند ربنا سبحانه وتعالى.

لمزيد من التوسّع حول عربية القرآن راجع دراسة الآية 37 من سورة الرعد {وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا...}.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ{5})

نموذج عملي عن رسول يحمل بلاغا إلهيا ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وهم من الفرع الثاني للنبي إبراهيم(ع) لذريته من حفيده النبي يعقوب(ع) ابن ولده النبي إسحاق(ع)، في مقابل أبناء النبي إسماعيل(ع) الذين جاء منهم الرسول محمّد(ع) وكانوا أول من خاطبه تعالى من الناس عبر هذا القرآن:

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا}، أطلقناه لينقل للناس الأمور المميزة المنسوبة له تعالى، وسبب إنزال الآيات عليه وإرساله(ع): {أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ}، فالناس الذين لهم كيان الجماعة وأنت من جمعتهم، أخرجهم، {مِنَ الظُّلُمَاتِ}، من العتمات المختلفة، {إِلَى النُّورِ}، إلى الانكشاف والوضوح، إلى رؤية الحق والمشي عليه، فسبب تحميله تعالى بالآيات للنبي موسى(ع) ليجعل قومه يهتدون فيتركون الجهل والكفر والشرك والشريعة "العلمانية الوضعية" السيئة... لأن كل هذا ظلمات كثيرة، ليخرجوا منها إلى النور وهو واحد، وهو الحقّ الصلاح الخير... وعمليا هو التوحيد وطاعة الله تعالى وطاعة رسوله.

{وَذَكِّرْهُمْ}، فاجعل قومك أيها الرسول موسى(ع) يستحضرون في فكرهم، {أَيَّامِ اللَّهِ}، وسنعرف بعد قليل أنها الأيام التي تدخّل سبحانه فيها مباشرة لمساعدة بني إسرائيل عندما كانوا تحت حكم فرعون، وهي الأيام التي حصلت فيها آية الحيّة واليد والضفادع... وفلق البحر... وقبل ذلك الأيام التي حصلت فيها الآيات التي تدخل تعالى فيها بشكل معلوم مشهور كنجاة النبي إبراهيم(ع) من النار...

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، في التذكير بتلك الأيام، {لآيَاتٍ}، ففيه أمور مميّزة، {لِّكُلِّ صَبَّارٍ}، لكل شخص صبر كثيرا على الأذى من الكفّار والمنافقين والفاسقين، حيث تعرّض للكثير من الأزمات والضغوطات ولكنه بقي يتصرف بشكل واع ومدروس، وفي ذلك لآيات لكل، {شَكُورٍ}، لكل شخص يشكره تعالى كثيرا ويعلن له تعالى عن حصول أمور جيدة منه سبحانه.

التذكير بالأيام التي حصلوا فيها "هم أو غيرهم" على المساعدة الإلهية، من المفروض أن تكون دليلا واضحا لمن صبر على ما مرّ عليه من بلاءات ولم يشكك بدينه تعالى، ودليلا واضحا لمن شكره سبحانه على تلك المساعدة، أمّا من كان ملولا ضجرا شكاكا ناكرا لتلك الأيام، فلن ينفعه التذكير بها، وسيبقى سيئا ولن يؤمن بما يقوله الرسول موسى(ع).

مما نعرفه من القرآن عن الأيام التي مرّت على تاريخ أجدادهم وحصل فيها تدخّل إلهي، نجاة النبي إبراهيم(ع) من الإحراق، والبشارة بجدّهم النبي إسحاق(ع) فضلا منه تعالى، وتدخله تعالى لوصول النبي يوسف(ع) لأعلى سلطة بعد الملك في أقوى حكومة على الأرض في حينها، ونجاة أجدادهم من القحط أيام النبي يوسف(ع)... والعيشة الرغيدة من بعد ذلك... إلى أن تغيّر الحكم في مصر وجرى استضعاف بني إسرائيل، وها أتى رسول وأنقذهم من العبودية وهذا ما ستقرؤه في الآية التالية...

نلاحظ في القرآن أن الانحراف عن توحيده تعالى هو أساس المشكلات التي يعمل الرسل على تصحيحها، وهنا نلاحظ المشكلة في سلوكيات أناس يقولون إنهم تابعون للدين الإلهي، حيث ستتحدث الآيات عن بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر، من حيث الظاهر كلهم مؤمنون بدين النبي موسى(ع) ولكن في الباطن، لدى البعض أو الكثيرين منهم يوجد مشكلة سلوكية نابعة عن مشكلة عقائدية، لأنهم لم يؤمنوا بشكل صحيح بالرسول موسى(ع) ولذلك يقومون بأعمال ظلامية سيئة مخالفة للدين الإلهي وعلى رأسها الشرك به تعالى.

كلام القرآن عن انحرافات بني إسرائيل العقائدية والتشريعية والسلوكية لا يُقصد به إهانتهم للتشهير بهم والتقليل من قيمتهم ورفع قيمتنا كمسلمين مؤمنين بالقرآن والرسول محمّد(ع)، لا، لأن الكلام القرآني عنهم كنموذج ليستفيد منه الذي يريد أن يؤمن، ويبتعد عن أخطائهم. ولا تحتاج لدراسة معمّقة أو تدقيق لترى الشبه الكبير بين التاريخ الإسرائيلي والإسلامي من ناحية الإيمان والفسق والنفاق ومعصية الرسول ومخالفة الكتاب الإلهي... وبأدنى التفاتة ترى الشبه الكبير بينهما في ذلك.

في حين نزول القرآن كان الجيل الأول من المسلمين عددهم قليل ولم يصر لهم تاريخ طويل بعد، ورغم ذلك قلّد البعض منهم وكرّر السلوكيات السيئة التي فعلها بنو إسرائيل، وترى في القرآن هنا وهناك ذكرا لأمور سيئة فعلها مسلمون في عصر النبي محمّد(ع)، كالتخلّف عن الجهاد والإفك والبخل... ويذكر القرآن نماذجَ مشابهة لسلوكيات المسلمين من تاريخ بني إسرائيل للتنبيه والعبرة، ويذكر أيضا سلوكيات حسنة من تاريخ بني إسرائيل.

تلاحظ أن السورة في هذه الفقرة لم تميّز بين المشركين وبين عموم بني إسرائيل، فالرسول موسى(ع) يوجّه كلامه لقوم يعلنون انتماءهم للدين الإلهي، ولكن قسماً منهم منحرفون عنه، وبصراحة وفجاجة، وحالتهم مثل حالتنا نحن المسلمين، إذ إن عددنا يفوق المليار من المعلنين لانتمائهم لهذا الدين الإلهي، ولكن العدد الأكبر منّا منحرفون عن دينه تعالى...

بقي شيء، وهذا القرآن آية نزلت على الرسول محمّد(ع) وهو يخاطب بها محيطه من المشركين من أبناء النبي إسماعيل(ع) ابن النبي إبراهيم(ع)، ويخاطب الإسماعيليين كنموذج ويخاطب كل الناس عموما، ولذلك لا ترى في سورتنا كلاما يحصر الخطاب القرآني مع جماعة ما، وفقرتنا هنا تنقل كلام الرسول موسى(ع) وهو يخاطب قومه من أبناء النبي يعقوب(ع) حفيد النبي إسحاق(ع) ابن النبي إبراهيم(ع)، لأن انتماء بني إسرائيل بالاسم لدينه تعالى ليس كافيا إن لم يكن تطبيقهم لدينه تعالى كاملا، وانتماء الإسماعيليين لإبراهيم(ع) لا يعني أي شيء إن لم يكونوا ملتزمين بدينه تعالى، ونفس الكلام موجّه لنا نحن المسلمين لأن انتماءنا بالاسم لدينه تعالى لا يعني أي شيء إن لم نكن مؤمنين حقيقيين.

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ{6})
{وَإِذْ قَالَ مُوسَى}، فيما قاله لقومه، للناس الذين ينتمي (ع) لجمعتهم:

{اذْكُرُوا}، استحضروا في ذهنكم وقولكم، {نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ}، فتذكّروا النعم، الأشياء الجيدة التي حصلتم عليها منه سبحانه، فاذكروا أيامه تعالى بالنعمة عليكم، {إِذْ أَنْجَاكُمْ}، خلّصكم، {مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ}، من فرعون وأقاربه بالنسب، وحاكم مصر في فترة من تاريخها كان لقبه "فرعون" مثلما كان حاكم الفرس في فترة من تاريخهم كان لقبه "كسرى" وحاكم الرومان كان لقبه "قيصر"...

على زمن النبي موسى(ع) كان الحاكم الملقّب بفرعون هو وأقاربه حاكمين في مصر يفعلون ما يشاؤون بالناس، {يَسُومُونَكُمْ}، فينالكم ويصيبكم منهم، {سُوءَ الْعَذَابِ}، أسوأ أنواع الضرر، من السجن والضرب والعمل بالسخرة والاستضعاف لدرجة الاستعباد باعتباركم مواطنين من الدرجة المنخفضة... {وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ}، فيقتلون الذكور بالسكين والسيف من رقابهم، {وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ}، فيتركون الإناث أحياء ولا يقتلونهن.

نعرف من التاريخ أن فرعون كان كل مدّة يأمر بقتل المواليد الجدد الذكور لبني إسرائيل، ويترك الإناث أحياء، وذلك حتى لا يزيد عدد العبيد الذكور على عدد جيش فرعون الذي يحافظ على الأمن في مصر، لأن الجيش الفرعوني كان يذهب إلى مناطق بعيدة لعدة أشهر ليخوض الحروب، ويبقى في مصر عدد قليل من الجيش للحفاظ على الأمن، ولذلك كانوا يجعلون عدد الذكور من الجنسيات الأخرى محدودا عبر قتل الأطفال الذكور مدّة بعد مدّة، ويتركون الإناث لأنهن لا يشكّلن خطرا عسكريا ويعملن في الزراعة وتربية الماشية...

ما يقولونه في بعض الكتب والروايات عن قتل فرعون للمواليد الذكور من بني إسرائيل بسبب نبوءة ولادة واحد منهم سيهلك فرعون على يديه، فهذا لا من قريب ولا من بعيد يمكنك رؤيته من القرآن، ولا حتى من التلميح، وما ذكرته لك مشهور أكثر كممارسة معتمدة مرّت في التاريخ وفعلها حكّام ظالمون بقتل المواليد الذكور للمستضعفين... بل وحتى التوراة مذكور فيها ما نقلته لك عن قتل الذكور لبقاء عدد بني إسرائيل ضمن قدرة قوات الأمن الفرعونية على حفظ النظام.

{وَفِي ذَلِكُمْ}، في التعذيب والقتل، {بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ}، حيث تركَكم المسؤول عنكم من مستوى إلهي في هذه الحالة ليصيبكم بما يمكن أن يغيّركم.

نلاحظ أنّه تعالى نسب لنفسه أنّه هو ابتلى بني إسرائيل بهذه الأشياء، علما أنّ فرعون وآله هم الذين قاموا بهذه الأعمال السيئة مع بني إسرائيل، فهل تريد الآية القول إنّه تعالى وبطريقة ما أمر آل فرعون بتعذيب وقتل بني إسرائيل؟ لا، فالقاعدة الأولى أنّه تعالى لا يأمر إلا بالعدل والإحسان كما تقرأ صراحةً في الآية 90 من سورة النحل "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ". والقاعدة الثانية أنّه تعالى لا يتدخل في عقول البشر ولا يغيّرها ولا يبرمجها بل يتركها لحريّة الاختيار، وتقرأ ذلك في الآية 99 من سورة يونس "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ". القاعدة الثالثة أنّه تعالى لا يتدخل في الأحداث إلا إذا كان المتضررون مؤمنين حقيقيين، وتفهم ذلك من فحوى العديد من الآيات ومنها الآية 196 من سورة الأعراف "إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ". فهنا ترك سبحانه آل فرعون يعذّبون ويقتلون بني إسرائيل ولم يتدخل، لأن بني إسرائيل في حينها لم يكونوا يستحقون أن يتدخّل سبحانه، إذ إن غالبيتهم انحرف عن دينه تعالى، ولذلك يقول تعالى إنّ ما حصل مع بني إسرائيل هو بلاء إلهي، لأنه تعالى تركه يحصل بسبب انحرافهم عن دينه...

قارنها عبر التاريخ مع حالة مسلمين يتعرّضون للبلاء، وبالتدقيق ستراهم مسلمين بالاسم وانتماؤهم للدين الإلهي بالمظهر فقط، وتسمع الاعتراضات والشكوى من عموم المسلمين الذين يطلبون أن يتدخّل سبحانه لإنجائهم من البلوى... وحالتهم لا تختلف عن حالة بني إسرائيل الذين في مرحلة من تاريخهم لم يبق من انتمائهم للدين الإلهي إلا الاسم، حيث تركهم سبحانه للبلوى إلى أن بحكمته تعالى قرّر خروجهم من البلوى في زمن مناسب...

في أدبياتنا درج القول عن استعباد فرعون لبني إسرائيل، على المعنى الدارج لكلمة استعباد، وتأيّد عندنا ذلك من عبارتين وردتا في الآية 22 من سورة الشعراء ولم يرد في القرآن غيرها "وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ"، والآية 47 من سورة المؤمنون "فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ"، ولكن على المعنى الأساسي لكلمة عبد التي تشير لمن مفروض منه أو عليه الطاعة، وهي مقابل الحرّ وليست مرادفة للمملوك، لأن الملكية من تبعيتها العبودية. وهكذا نصير أمام سَعَةٍ في المعنى في حالة بني إسرائيل تحت حكم فرعون، فالحالة العامة أنّهم كلهم تحت حكمه وسلطته مثلهم مثل بقية المواطنين التابعين لسلطة فرعون، والحالة الخاصة أنّ بني إسرائيل لم يكونوا مواطنين من الدرجة الأولى، إذ إن لدى البعض منهم حياته الخاصّة كطبيب ومهندس وتاجر وساحر... وبعضهم الآخر عمال. وتفهم ذلك من حالة قارون الثري النافذ من بني إسرائيل تحت حكم فرعون، ومن حالة السحرة كنموذج عن مهنة مارسها بعض أفراد بني إسرائيل، ولست أقصد أنهم كانوا مرتاحين أو لديهم حقوقهم كاملة ولم يعمل البعض منهم بالسخرة مقابل وجبة الطعام... بل أقصد أن تشبيه الصورة عن حالتهم كلّهم بشكل مزر فهذا مبالغ فيه، وتصوّرها مثل حالة العيش تحت حكم ديكتاتور تعرفه من عصرك أو سمعت به.

مفهوم الاستعباد في ثقافتنا بعيد كثيرا عن أصل معنى الكلمة ومنطلق من تطبيقات سيئة جدا لها، وهكذا صار لها معنى في بالنا وبعيد عن المعنى اللغوي الذي استعمله القرآن لها، ولا ننتبه لذلك ونفسّر القرآن على ما في بالنا من معنى "تطبيقي سيّء" لكلمة عبد. لغوياً كلمة "عبد" تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة وهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك. وبهذا المعنى استعملها القرآن.

أقول لك هذا لأنني متأثر بخلفية استعباد فرعون لبني إسرائيل على المعنى الدارج في ثقافتنا التاريخية الدينية، وحاولت الابتعاد عن وصفهم بالاستعباد، ورغم ذلك وأثناء المراجعة لهذه الدراسة أجد فلتات مني لوصفهم بالاستعباد، وهذا وللأسف شيء حصل حتى في مواضيع أخرى تقوّمت عندي أكثر بعد دراستها، ولكن فلتات الخلفية الثقافية أسرع وأقوى من استحضار معلومة توصّلت لها عن دراسة.

نرجع للآيات، فتذكّروا يا بني إسرائيل عندما نجّاكم سبحانه من آل فرعون:

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ{7})
{وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ}، أعلن لكم المسؤول عنكم من مستوى إلهي من خلال الرسول:

{لَئِنْ شَكَرْتُمْ}، إذا صدر منكم تصرّف وقول تعبّرون به عن حصولكم على أمور جيّدة منه تعالى، {لَأَزِيدَنَّكُمْ}، فلسوف أزيد من نعمتي عليكم، وسأرعاكم وأتدخل لمساعدتكم أكثر.

{وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ}، إذا أنكرتم توحيدي ونعمتي عليكم، {إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}، فما يصيبكم من ضرر منّي لا يمكنكم تحمّله، وهو العذاب في نار جهنّم في الآخرة.

أدعوكم للإيمان الحقيقي الصحيح، وألفت انتباهكم لما ستحصلون عليه من عناية إلهية إن كان إيمانكم صحيحاً، فإذا شكرتم ربكم سبحانه على نعمه عليكم، فستزيد تلك النعم، وإن كفرتم فأنتم ذاهبون إلى مصيبة كبيرة.

ما تقوله الآية هنا تكرر بعدة صيغ مختلفة في القرآن، ومجموع معناها أن القوم المؤمنين حقاً بدرجة عالية هم تحت العناية الإلهية التي تبعد عنهم الأضرار بسبب صلاحهم ومضافاً لها سبحانه يتدخّل مُبْعِداً حتى الكوارث الطبيعية، وإن كان هذا نادراً جداً في التاريخ، لأن سبب الندرة ليس من ناحيته تعالى بل سببها ندرة المجتمعات المؤمنة من الدرجة العالية. والذين يستغفرون مع ارتكابهم أحياناً للذنوب ينالون المرتبة الثانية من العناية الإلهية الدنيوية، وكلتا الحالتين تجدهما في الآية 96 من سورة الأعراف "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"، والقوم الذين فيهم منافقون وفاسقون ومؤمنون يتم امتحانهم كلّهم وينالون كمجتمع المرتبة الثالثة المنخفضة من العناية الإلهية.

أمّا على المستوى الفردي، فالشخص المؤمن الحقيقي من الدرجة العالية حتى لو كان وحيداً بين كفّار أو منافقين وفاسقين، سينال عناية إلهية دنيوية، تصل في أقصاها إلى ما وصل إليه الرسل من انتفاء قدرة الأعداء على قتلهم، بسبب قرار إلهي بذلك، وتصل في الحالات الحرجة جداً من مجتمع ظالم جداً إلى فوز المؤمن بالشهادة ونيل درجة عالية جداً جداً من الثواب في الآخرة كما حصل مع مؤمن آل فرعون "كما هو مشهور في التاريخ من قتله حرقاً..." ومع السبط حسين شهيد كربلاء...

كما ترى فالكلام موجّه لبني إسرائيل المشابهين لمجتمعاتنا "الإسلامية"، إذ إنهم بغالبيتهم منتمون فقط بالاسم للدين الإلهي.

لا تَنْسَ أن الكلام هنا كنموذج عام، يسمعه ذرية النبي إسماعيل(ع) الذين في مكّة، وهم المفتخرون بانتمائهم لهذا الجدّ ولأبيه النبي إبراهيم(ع)، حيث يسمّون أنفسهم بالإسماعيليين، ويظنون أن هذه التسمية وهذا الانتماء يعطيهم حصانة، وأنهم مهما فعلوا فلن ينالوا عقابه تعالى!

(وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ{8})
قال موسى، فيما قاله لقومه:

{إِنْ تَكْفُرُوا}، إذا أنكرتم العقيدة والشريعة الإلهية، {أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}، {فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ}، مَنْفِيَّةٌ عنه الحاجة لأي شيء، فلا يحتاج لإيمانكم، ولا يستفيد من إيمانكم، ولا يهمّه إن آمنتم أو كفرتم، بعبارة شعبية أبسط مُتَسَاهَلٍ فيها لتقريب الفكرة، لن تنجرح مشاعره تعالى ولن يغتاظ ولن يشعر بالنقص... هذا من الناحية "النفسية" إن جاز التعبير، وأما من ناحية أخرى فلن ينقص ملكه تعالى ولن تأخذوا منه تعالى شيئا ولن تحرموه من شيء... فلا تظنوا أنفسكم مُهِمّينَ له تعالى لأنه يستفيد من إيمانكم، ولا تظنّوا أنكم تقدمون له أي شيء إن آمنتم، فلا تشعروا بأي "تربيح جميل" ولا بأي فضل عليه تعالى إذا آمنتم.

اللَّهُ {حَمِيدٌ}، كل أفعاله تستحق الحمد لأنها كلها حميدة جيدة، ومن ناحية هو مُسْتَغْنٍ عن إيمانكم فلا يضرّه ولا ينفعه، ومن ناحية ثانية يجب عليكم أن تؤمنوا به سبحانه وتشكروه وتطيعوه لأنه لم يفعل لكم إلّا أشياء جيدة، ومن ناحية ثالثة إنْ شكرتم أو لم تشكروا فهو تعالى سيبقى موصوفا بأنه حميد.

بالنسبة لوصفه تعالى بالغني، ليس تفسيره أنه تعالى يملك كل شيء وبالتالي يصير المعنى أنه سبحانه يملك ما يحتاجه، فهذا غير صحيح، فكلمة "غني" تفيد معنى الاستغناء، وهو عموم انتفاء عموم الحاجة لعموم أي سبب، إمّا لأنك لا تحتاج أصلا للشيء، وهذه حالته تعالى "الغني" بالنسبة لكل شيء، وحالة الملائكة بالنسبة لطعامنا... أو غَنِيٌّ لأنك لديك

ما تحتاجه وهذه حالتنا حين نملك الطعام والشراب... أو غَنِيٌّ لأنك تملك ما يمكّنك من الحصول على ما تحتاج، وهذه حالتنا حين نملك المال لنشتري به ما نحتاجه. وترى هذا المعنى للاستغناء بشكل مباشر وواضح لأصل معنى كلمة "غني" في تعبير {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} كما ورد في الآية 97 من سورة آل عمران، بوضوحٍ يشير الوصف بالغني للاستغناء، فلا حاجة له تعالى بهم ولا بإيمانهم ولا يتضرّر منهم مهما فعلوا.

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ{9})
نُكْمِلُ مع كلام النبي موسى(ع) مع قومه:

{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ}، هناك خبر كان غير منتشر بينكم وصار معلوما لكم عن أناس كانوا قبلكم في الدنيا، {قَوْمِ نُوحٍ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة وينتمي لِجَمَاعَتِهِمُ النبي نوح(ع)، ونبأ قبيلة، {وَعَادٍ}، التي كان نبيّها هود(ع)، وخبر قبيلة، {وَثَمُودَ}، التي كان نبيّها صالح(ع)، وخبر الأقوام الذين، {وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ}، كقوم النبي لوط(ع)... وفرعون وجنوده... {لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ}، فهناك أقوام أُخْرَى نزل عليها العذاب ولكننا لا نعلم ماذا جرى عليها، والله تعالى يعلمها، وَالَّذِينَ لا نعلم نبأهم نَقِيسُهُمْ على الذين نعلم نبأهم، فإن كفروا فحتما نَالُوا عقابهم.

ننتبه، لِأَنَّ النبي موسى(ع) يعلم أَنَّ القاعدة الإلهية تقتضي أَنَّ القوم الفاعلين للسوء من عيار ثقيل، بِطَرِيقَةٍ أو بأخرى يصلهم إنذار منه تعالى، فإن لم يستجيبوا، فالعذاب الدنيوي سينزل عليهم إن اكتملت فيهم الشروط لنزوله، ومنها أن من ذريتهم لن يخرج مؤمنون أو معارضون للسوء... وَعَلَى هذا الأساس تنقل عنه الآيات هنا أنه يحتمل بل متأكّد من وجود أقوام لم يسمع بها وَنزل عليها العذاب في الدنيا، ونجد القرآن في مرات عديدة يشير لهذه الأقوام التي ذكرها وَنزل عليها عذاب دنيوي إِلَى أنها نماذج لضرب الأمثلة وهناك أقوام آخَرُونَ حصل مَعَهُمْ نفس الشيء ولم يذكرها القرآن لنا، كمثال عن ذلك ما ورد في الآية 31 من سورة غافر {مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ}.

هَذِهِ الأقوام العديدة، {جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ}، قام أشخاص ينقلون كلامه تعالى بتوصيل الأمور البيّنة الواضحة التي تدل على الحق لأقوامهم، وبدل أن يؤمن الأقوام بما يقوله الرسل قَامُوا بحركات تدل على الاستهجان والاستغراب من كلام الرسل، {فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ}، وَوَضَعُوا يدهم على ما يتفوّهون به بالكلام، أَيْ وضعوا يدهم على فمهم في إشارة إلى شدّة استغرابهم واستهجانهم لكلام الرسل، وهي حركة عفوية أو عن قصد يقوم بها الناس كعلامة على الاستغراب الشديد مما يسمعونه، والآية بهذا التعبير تصوّر لنا نموذجا من مشاهد قام بها أقوام الأنبياء، فلا تقصد أن كل الأقوام وضعوا أيديهم على أفواههم، بل تذكر هذه الصورة كنموذج عن أقصى حركات استغرابهم، وقال هؤلاء الأقوام:

{إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ}، فنحن ننكر ولا نؤمن بما تقولونه، {وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ}، فحتى لو لم نكن مستندين لأي علم فنحن نحتمل كذبكم، وشكّنا، {مُرِيبٍ}، فنحن حتى على مستوى الريبة وهو الشعور مجردا عن أي تفكير، لَا نميل لتصديقكم، وَالِاحْتِمَالُ بصحّة ما تقولونه شبه معدوم لدينا.

الْآيَاتُ هنا من النوادر التي نرى فيها النبي موسى(ع) ينذر بني إِسْرَائِيلَ وكأنه رسول ينذر كفارا، وهناك آيات مشابهة لها بين النبي عيسى(ع) وقومه بني إسرائيل، وكمثال عن ذلك ما تختصره الآية 52 من سورة آل عمران {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ}، وهي مشابهة لما ينقله القرآن من كلام الرسل مع قومهم الكفّار... حَيْثُ تلاحظ الكلام هنا مُوَجَّهٌ لأناس يقولون بأنهم مؤمنون بالدين الإلهي ومنتمون له، ولكن عقيدتهم فيها مشكلة، ومن المشهور جدا ما ذكرته سور أخرى من القرآن أن بني إسرائيل عبدوا العجل! وأنهم تلاعبوا بالشريعة، وحرّفوا كتابهم ودينهم...

اِنْتَبِهْ لهذا دائما لترى كلام القرآن عن أخطاء وسيئات بني إسرائيل أنه موجّه لعموم المنتمين لدينه تعالى، فهو مذكور في كتابه تعالى لننتبه منه ولا نقع فيما وقعوا فيه، فهل انتبهنا؟

(قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَـمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ{10})

تُلاحِظُ آياتٍ عديدةً من القرآن شملت كلام الرسل مع بعض وكأنه تسجيل مكرّر يقوله كل رسول لقومه، وتلاحظ أن كلام أقوام الرسل أيضا كأنه تسجيل مكرّر! وَكُلُّ الرسل قالوا نفس الكلام، وكل أقوامهم ردّوا بنفس الجواب! وهذا شيء لَفَتَ له القرآن في عدة سور، حَيْثُ أخبرنا أن عقلية الكفر ناشئة من أعطال مشتركة منتشرة بين البشر، مِنْ ناحية الرسول الذي يبعثه تعالى لا يوجد أي تغيير في رسالته، وَهِيَ كلام مكرّر يقوله كل الرسل لأقوامهم، ومن ناحية الكفّار رَدُّهُمْ على الرسل أيضا ليس فيه تغيير، لأنهم يرفضون اتّباع الرسل، والحجج هي ذاتها متكررة: أنت من البشر ولست رسولا... أنت تتلاعب بدين أجدادنا... أنت تريد التَّرَؤُّسَ علينا... أنت تريد تخريب حياتنا... هُنَا الآيات عندما تنقل لنا مجمل ما قاله رسل الله تعالى، وتنقل لنا مجمل ما قاله أقوامهم، تَنْقُلُ لنا الأشياء المشتركة التي حصلت بين الرسل والأقوام، لِأَنَّ لُغَاتِ تلك الرسل كانت مختلفة، وطرق تعابيرهم مختلفة، وَالنَّقْلُ هنا ليس نقلا للكلام بالحرف، بل نقل بالمعنى الذي يقصده القائل.

وتلاحظ أَنَّ القرآن يعتمد بشكل كبير على النقل بالمعنى، يَنْقُلُ ما يقصده القائل، وهذا طبيعي ومنطقي، لأن لغات من ينقل لنا كلامهم وتركيب الجمل لديهم، مُخْتَلِفٌ عن اللغة التي يتحدّث بها القرآن، وعندما تختلف اللغة يصير نقل المعنى هو الأصح، لأن كلمات اللغات تختلف في مفاهيمها، وَبَعْضُهَا متشابه تماما في الدلالة، وبعضها متشابه جزئيا في الدلالة ولا يوجد له رديف مماثل تماما في اللغة العربية، وهذا يجعلنا نرى في القرآن محاورة ما جَرَى نقلها هي نفسها في عدة سور ولكن بكلمات مختلفة، لأن اللغة الأصلية التي جرت في بيئتها الحادثة، تِلْكَ اللغة لا تتطابق مفرداتها من حيث الدلالة مع مفردات اللغة العربية، ومن ناحية ثانية الْقُرْآنُ لا يلتزم بالنقل الحرفي للكلام، لأنه تعالى يعلم الضمائر وَيَنْقُلُ لنا ما كانوا يقصدونه...

نَرْجِعُ للسورة، رَدَّتِ الرسل على قومها، وَقَالَتْ رسلهم ردا على شكّهم وريبتهم:

{أَفِي اللَّهِ شَكٌّ}! أنتم تقولون لديكم شك مريب في كلامنا، ونحن ندعوكم لتوحيد الإله سبحانه، فهل شكّكم في أن الإله أحد وهو الله! مِنْ دون أي استناد لأي علم تقولون بِأَنَّكُمْ تحتملون أن الله تعالى غير موجود! أو تحتملون أَنَّ لديه شركاء في الألوهية! وتحتملون أنه لا يتدخل وهناك آلهة أخرى تتدخّل في ما يجري معكم!... وهو، الله تعالى، {فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، بتعبيرنا الدارج: شقّ سبحانه العدم وأخرج منه كلّ شيء، وهذا تعبير غير دقيق لا يتماشى تماما مع مفاهيم القرآن، بِتَعْبِيرٍ أدقّ: هَذِهِ السماوات والأرض، وهي حدود كلّ الدنيا التي فيها المخلوقات، فمن الذي خلقها إن لم يكن الله تعالى الذي أوجدها "ومن قبل كانت لا شيء"؟

لاحظ: نفس خلقكم "تركيبكم تأليفكم" بهذا الشكل يدلّ عليه تعالى، مُنْذُ متى وأنتم موجودون والأرض موجودة والسماوات موجودة؟ لِأَنَّ الدنيا لها بداية، وأنتم لكم بداية، ومن قبلها ماذا كنتم؟ هُنَاكَ من فطركم، وَهُنَاكَ من خلقكم ومن قبل خلقه لكم لم تكونوا، فإن لم يكن الله تعالى فطركم فمن فطركم، فإن لم يكن تعالى هو الذي جعلكم ومن قبل كنتم لا شيء، فكيف صرتم شيئا؟

وهذا السؤال البسيط الأساسي يبقى هو نفسه مُوَجَّهاً لجميع الناس مهما كانت عقيدتهم، وَهُوَ مُوَجَّهٌ للذين أشركوا به تعالى فجعلوا معه آلهة، وموجّه لمن أنكر كل الآلهة وَهُوَ باصطلاحنا الحالي "ملحد"، أَيُّ نظرية عن نشأة كوننا ستتضمّن بداية من شيء ما، من بذرة طاقة، من مادة كثيفة، من انكماش لشيء وعودته للانفجار... من ... إِنَّ معرفتنا أو افتراضنا لآلية لنشأة الكون، فما هو إلا تعرّف على جانب من آلية خلقه تعالى لما في الدنيا وليس إلغاء له تعالى، وعلى أي حال السُّؤَالُ هنا عن الفطر، عن الذي جعل للكائنات والظواهر تَحَقُّقاً وَوُجُوداً لتصير، فمن فطرها؟ اِنْتَبِهْ للفرق بين كيف انفطرت، كيف صارت، والذي يريك آلية نشأة الكون، وبين غضّ النظر عن ذلك والتركيز على النتيجة، حيث صرنا وصار لنا كيان، مِنْ لا شيء صرنا؟ أهكذا لم يكن هناك شيء، وصار لوحده شيء ما، وانفطر الكون منه وصرنا؟ ومن دون تصميم صرنا هكذا إنسانا حيا بوعي وفكر ومشاعر؟

{يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ}، يُشْهِرُ ويعلن سبحانه لكم أن تستغفروه ليتجاوز عن سيئاتكم وهي نفسها مخالفاتكم لكلامه سبحانه، لِأَنَّكُمْ ترتكبون السيئات العقائدية والتشريعية والسلوكية، أَمَرَنَا سبحانه بإخباركم أن تتوجّهوا إليه، لِتَتْرُكُوا السيئات وتطلبوا منه التجاوز عنها فلا يحاسبكم عليها، {وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}، أَنْتُمُ الآن في حالتكم تستحقون العقاب الإلهي، ولكنه تعالى أخّر عقابكم، وَلَمْ ينفّذه الآن، وحدّد له أَجَلاً، وقت ومدّة، مُسَمًّى، مُحَدَّداً غير

مجهول عند الله تعالى، حَيْثُ أَنَّهُ تعالى يعلم متى سيحين موعد محاسبتكم على أعمالكم سواء قرّره هنا في الدنيا أو تركه للآخرة.

يعني، أين منبع شكّكم فينا كرسل وفي كلامنا! وَعَلَامَ ريبكم! في خالق خلقكم ولم تكونوا شيئا! أم في دعوتكم لترك السوء وهو نفسه لطاعة الذي خلقكم واستغفاره، وَأَخَّرَ معاقبتكم على سيئاتكم ليعطيكم مجالا للتوبة؟ أجيبونا وردّوا علينا.

اِنْتَبِهْ جيدا، لِأَنَّ الكلام هنا على سطحه وفي عمقه يشير إلى مفهوم قرآني أساسي متكرّر بكثرة، وبعبارات بسيطة الرُّسُلُ يقولون لأقوامهم: نحن ندعوكم للصلاح للخير، وَنَدْعُوكُمْ لما من المفروض أنكم ترونه حسنا، لِأَنَّكُمْ فيكم قابلية تمييز الخير من الشرّ، فهل أصلا تحتاجون لدعوة لترك السوء أم من المفروض أن تعملوا أنتم على نشر الصلاح والخير بينكم؟ فلا تخترعوا عقيدة من خيالكم ولا تشريعات من هواكم السيّء... وهذا هو أساس كلامه تعالى معنا عبر رسله وكتبه، وَانْتَقَلَ القرآن منه إلى واقع الحال، حَيْثُ أَنَّ النَّاسَ صار عليهم ذنوب، وَصَارُوا في حالة مخالفة كلامه تعالى، وهو نفسه متطابق مع مخالفة الحقّ، وها الرسل يدعوننا إلى المغفرة، أي لنؤمن ونصير تحت مظلة الرحمة الإلهية التي تتجاوز عن مخالفات الذي أعلن أنه ينوي ولديه رغبة سلوك الصراط المستقيم، وَزَلَّتْ قدمه هنا أو هناك... فهذا يستغفر وسبحانه يغفر له.

نُلاحِظُ الرسل يحثّون قومهم على الاستغفار، ويعدونهم بغفران إلهي على ذنوبهم، ولكن الآية قالت: {يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ}. فهل هناك ذنوب لا تغتفر؟ لا، نَعْرِفُ من القرآن أن كل الذنوب يتم غفرانها من التائب، مهما كانت، هُنَا الدعوة للاستغفار هي بترك المحرمات الكبيرة وعلى رأسها الشرك، ويليها إنكار ومعارضة ما يشيع بين الناس من سوء، لِأَنَّ هَذَيْنِ السَّبَبَيْنِ الرَّئِيسِيَّيْنِ لِنُزُولِ عذاب دنيوي على الناس، وفي القرآن نجد أن الذي آمن بالتوحيد نَالَ المغفرة عن الشرك، وصار باب المغفرة مفتوح أمامه للذنوب الأخرى، ولا نجد في القرآن "افتراض" أن من أعلن التوحيد والإيمان بالرسل أنه قرّر ترك كل المحرمات وبالتالي انْغَفَرَتْ كل ذنوبه، لا، هَذَا افتراض نحن افْتَرَضْنَاهُ، فلا تلبسه للقرآن، فإذا شخص كافر قرّر ترك كل المحرمات وتاب منها، فهذا على القاعدة القرآنية انْغَفَرَتْ له كل ذنوبه، وَإِنْ شَخْصٌ كَافِرٌ آمن بالتوحيد وبشكل جزئي بالشريعة ولم ينو التوبة عن بعض المحرمات، فهذا ينال مغفرة بقدر ما قرّر من ترك لأعمال سيئة. وهنا تأتي جملة: {يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ}، لِأَنَّ الكلام هنا عن غفران الذنوب من العيار الثقيل التي يجب تركها ليصير الشخص محسوبا على المؤمنين، وأمّا الذنوب الأخرى فيصير الكلام عنها بعدما يصير الإنسان مؤمنا، كالسرقة والغيبة والكذب... تَنْغَفِرُ له إن تاب منها واستغفر، وإن لم يتب ويستغفر فلن يغفرها تعالى له وسيتحاسب عليها، وإن كان أثرها كسيئات خفيفا، ففي الآخرة تنغفر بالعفو أو بالشفاعة أو بمحوها بسبب حسنة مساوية لها... وهذه صارت تفاصيل تجدها في دراسة آيات أخرى.

قال الأقوام لرسلهم:

{إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا}، أَنْتُمْ تشبهوننا، ولا فرق بيننا وبينكم، فكيف ولماذا ينزل عليكم الوحي ولا ينزل علينا! كيف سنصدّقكم بأنكم رسل إلهية وأنتم لستم مميزين عنّا! لِأَنَّ الرَّسُولَ الإلهي يجب أن يكون مميّزا عن البشر، أمّا أنتم فمجرد بشر عَادِيِّينَ ليس فيكم أي صفات للرسول الإلهي.

بعبارة أخرى أَيُّ واحد منّا يمكنه القول بأنه رسول إلهي، فهل نصدّقه لمجرد قوله! وهو رجل عادي مثلنا مثله!

{تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا}، حَيْثُ أَنَّنَا نريد أن نكون مثل أجدادنا الذين كانوا يتصرفون على أساس أنهم عبيد لتلك الآلهة، وما تقولونه أنتم هو اختراع لا هدف منه إلّا التلاعب بديننا الذي ورثناه من أجدادنا لتصدونا لتمنعونا من البقاء على دين أجدادنا، {فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ}، بشيء له سلطة له قوّة، {مُبِينٍ}، واضح، فَأْتُونَا بدليل يكون قويا جدا وواضحا حتى نترك دين أجدادنا، لِأَنَّ كلامكم لا يكفينا حتى نقتنع.

تذكّر ما قلناه في بداية السورة عن نزول الوحي وقيام الرسول بتبليغه للناس بإذنه تعالى، هُنَا كلامهم عن بشرية الرسول كسبب يمنعهم من الإيمان به كرسول إلهي، فِي جانب منه ينظرون للرسول كمن يريد طرح أفكاره العقائدية والاجتماعية، مثل الذين اخترعوا الأحزاب كماو تسي تونغ، وانطون سعادة، وبرتراند رسل... ومن ناحية ثانية إِنَّ

ادِّعَاءَ التواصل مع الإله، هو ادّعاء ضخم، ولا يرون أمامهم إلا رَجُلاً عَادِيّاً لا يختلف عنهم بأي شيء من القدرات والصفات، بِرَأْيِهِمْ أَنَّ التواصل معه تعالى لا يحصل مع بشري، وإن حصل فمن المفروض أن يحصل تميّز في الرسول لِيَصِيرَ بقدرات عالية...

وَفَهْمُ اعتراضهم بشكل بسيط على كون الرسول من البشر، أنه في نظرهم أَيُّ واحد منهم يمكنه الادّعاء وَيَقُولُ إِنَّهُ رسول إلهي، ويبدأ بعرض أفكاره العقائدية والتشريعية، ولن نميّز إن كان فعلا رسولا من الإله لأنه ليس متميزا عن بقية الناس... طبعا كلامهم هذا يقولونه وهم متعامون عمّا يطرحه الرسل من حقّ بيّن، وهكذا ترى معنى الذي قلناه عن المبدأ القرآني حيث يقول لهم الرسل: نحن ندعوكم للحق للخير للصلاح... وهذا شيء لا يحتاج لأدلة حتى تؤمنوا به، لِأَنَّهُ مِنَ الواضح أن كلامنا كلام منقول عن الإله.

(قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللّهِ وَعلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ{11})
قالت لهم رسلهم:

{إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ}، صحيح نَحْنُ من الكائنات التي لها بشرة ولسنا شيئا آخر، وَنَحْنُ نؤكّد لكم ما تقولونه، فلا تتوقّعوا أن تكون الرسل من مخلوقات غريبة أو ملائكة أو جنّ أو بقدرات فائقة... {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}، وَأَمَامَهُ تعالى خيارات عديدة، ويقرّر سبحانه أي من المخلوقات التي مفروض منها طاعته أن تنال المنّ عليها، حَيْثُ يَنَالَ العبد شيئا يستوجب منه شكره تعالى على ما حصل عليه، وهنا الكلام عمّن شاء تعالى أن يمنّ عليهم فيجعلهم رسلا، وَأَخْبَرَنَا سبحانه أنه شاء "اخْتِيَارَ" رسله مِنْ أصحاب القلوب السليمة من درجة عالية.

إِذَا كنتم تعترضون على كوننا رسلا من البشر، فاعتراضكم هذا هو اعتراض على قرار إلهي.

{وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ}، لَا يمكننا أن نأتيكم بشيء له الغلبة والقوّة، ببرهان قوي، بآية قويّة، بشيء يجعلكم تُؤْمِنُونَ بقوّة كلامنا على كلامكم، {إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}، فإذا سمح تعالى أن ينزل شيء "كبرهان قوي" عليكم فسينزل ونحن لا قرار ولا دخل لنا بذلك، وَإِذَا كنتم تتوقعون منّا أن نتوقّف عن توصيل الرسالة الإلهية حتى نفعل شيئا خارقا أَوْ غير عادي، فاعلموا أنه لا قرار لنا بذلك، لِأَنَّنَا مأمورون بتبليغ الرسالة ولن نتوقّف، وانتظاركم منّا أن نأتيكم بسلطان والكلام عن آية قوية حتى تؤمنوا برسالتنا فهذا شيء قراره ليس بيدنا.

{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}، مَنْ أعلن اعتقاده والتزامه بدينه تعالى فهو يعتقد أنه سبحانه سيقوم بما يناسب. بِالنِّسْبَةِ لرفضكم لرسالتنا وانتظاركم لحصول شيء خارق، فنحن لا نهتم بهذا لأننا نتوكّل وَنَعْتَمِدُ عليه تعالى، وَنَحْنُ نؤمن بأنه تعالى سيفعل ما يراه مناسبا، لِأَنَّنَا قُمْنَا بما أمرنا به، ونعتمد عليه في بقيّة ما سيحصل، فإذا هدّدتمونا أو حاربتمونا أو طردتمونا... أو كفرتم... فنحن نتوكّل عليه تعالى.

(وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ{12})
{وَمَا لَنَا}، وما الذي يجعلنا، {أَلَّا}، أن لا، {نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ}؟! لأي سبب لا نعتمد ولا نؤمن أنه تعالى يكفينا وسيقوم بما هو مناسب؟! {وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا}، وضعنا سبحانه على المسالك الصحيحة التي توصلنا للغاية الصحيحة، فلا عذر لنا في التوكّل على غيره تعالى وعلمنا بصفاته وقدراته تعالى... فالتوكّل عليه تعالى هو الصحّ.

{وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا}، سنبقى نتصرف بشكل واعٍ ومدروس وسوف نتحمّل ما تفعلونه معنا من أذى جسدي أو نفسي ولن نتراجع عن إيماننا، {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}، من كان يريد التوكّل، ويعتمد على أحد ما لتسيير الأمور بما هو مناسب، فهذا يجب أن يتوكّل عليه تعالى ولا يتوكّل على غيره سبحانه.

التوكّل الحقيقي الذي له معنى وفعالية يكون فقط بالتوكّل عليه سبحانه وتعالى لأنه الإله الأحد.

تذكّر دائمًا أن الصبر يكون على أمور لها نهاية، وتنتهي الأمور السيئة أثناء حياتنا في الدنيا، أو تنتهي بموتنا، وبعد ذلك الآخرة، حيث تنتهي كل مصائب المؤمنين.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ{13})
{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، قال الأقوام الذين أنكروا ما يقوله رسلهم:

{لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا}، سنطردكم من الأرض التي تحت سلطتنا، {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}، أو ترجعوا إلى ثقافتنا وعاداتنا، نحن لن نتحمّل بقاءكم معنا وأنتم تخالفوننا.

هل الرسل كانوا على ملّة قومهم حتى يطلب منهم قومهم أن يعودوا إليها؟ لا، هم من وجهة نظرهم يعتبرون الرسول صبأ وخرج عن ملّتهم، لأنهم يتهمونه بالكذب على أساس أنه كان على ملّتهم وتركها واخترع دينًا آخر...

{فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ}، أنزل المسؤول عنهم من مستوى إلهيّ معلوماتٍ مباشرة إلى فكر ووعي الرسل، وتعلم من القرآن أن ذلك يحصل عادة بأمره تعالى للملائكة (ع) أن تتواصل مع الرسل:

{لَنُهْلِكَنَّ}، لسوف نهلك نستنفد، ننهي ونميت، {الظَّالِمِينَ}، الذين لم يكونوا محقّين منصفين حين لم يتبّعوا الرسل وحين خيّروهم بين التهديد بالطرد أو الشرك، فليس معهم حقّ بفعل ذلك وظلمًا قالوه.

كلمة هلك تقال لعموم ما هو مستنفَدٌ بتدرّجات حتى نهايته، كالعمر أو الجسد أو الزرع انقضائه حتى انتهائه أو فساده، ويختلف عن الموت بأن فيه تدرّجًا في استنفاد الحياة والصحة والقوة، ومنه ما ورد في الآية 173 من سورة الأعراف {أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ}، حيث إنّ الكلام عن الهلاك باستنفاد الراحة والأمن والصحّة في النار. وفرق الموت عن الهلاك أن الموت هو حالة فقدان الحياة.

هلك الشخص أو هلك القوم لا تعطي حصريًّا معنى موتهم بل يشمل موتهم ويشمل انتهاءهم بأي معنى كان، وللشخص تشمل انتهاء تأثيره أو انتهاء حكمه كالتعبير في الآية 34 من سورة غافر {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا} حيث وصف هلاكه وصف استنفاد حالة وجود رسول بينهم، واستعمال هلك للقوم تشمل انتهاء أثرهم الفاعل ومنه معنى موتهم، وتشمل انتهاء كيانهم من بعد تشتتهم...

الوحي هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خيرًا أم شرًّا، وبناء عليه كل أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وحيًا لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وترى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}، وحتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ}...

ينطبق فعل الوحي على أي كائن كان "إنسانًا حيوانًا مَلَكًا أو جنًّا" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم، وطرق فعل الوحي أنواعه متعددة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}. ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}، وما ورد في الآية 193 و 194 من سورة الشعراء {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ}. أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ}...، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل كما هو مشهور في تراثنا الديني. ووحي عبر إصداره تعالى صوتًا في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، مضافًا لها الآية 13 من سورة طه {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}، وكلامه تعالى معه(ع) وحي لأن الكلام ليس صادرًا مباشرة منه تعالى فهذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، ليصير وصف الحالة أن كلامي يصلك وحيًا.

هناك وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} حيث في النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

الوحي يصدق على وحي الخير والشر، حيث إنّ الشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}... ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... والوسوسة في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيرًا أو شرًّا فهو وحي.

(وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ{14})
{وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ}، حيث هدّدوكم بالطرد فسوف نُمِيتُهُمْ وتبقون أنتم في الأرض، {مِنْ بَعْدِهِمْ}، من بعد الظالمين الذين سَنُهْلِكُهُمْ.

{ذَلِكَ}، الحديث عن إهلاك الظالمين مُوَجَّهٌ، {لِمَنْ خَافَ}، للشخص الذي يشعر بضرر لا يمكن تجنّبه، {مَقَامِي}، المعنى السطحي: حيث أنا، المعنى الأدق: حالة جُهُوزِيَّتِي عندما أفعل، ما أقوم به من أعمال ما مع أحد ما.

{وَخَافَ، وَعِيدِ}، حيث يستحضر في ذهنه الخطر من وعدي، من كلامي عمّا سأفعله من التعذيب لمن عصاني وكفر بي وبرسلي...

هذا الكلام القرآني غير نافع إلا مع الذين يشعرون فِعْلًا بخطر عقابه تعالى، هذا من ناحية ومن ناحية ثانية الآية تركّز على الخائفين من عقابه تعالى وتخبرنا أنهم تحت عنايته سبحانه.

ضع في بالك أن العرب حين نزول القرآن لم يكونوا يستعملون كلمة {مَقَامِ، مَقَامِي} على معنى مكانتي، قيمتي، مركزي... بشكل صريح مباشر، ولا على معنى تقدير القيمة "بتصريف تقييم" ولا على معنى المسؤولية "بتصريف قيّم"... ولا على معنى المكان أو كاسم مكان، ودرج فيما بعد استعمال هذه الاشتقاقات بهذه المعاني. ولم يستعمل القرآن كلمة {قَوْم} واشتقاقاتها إلا بمعناها كما كان يستعملها العرب حين نزوله: حيث أقوم بعمل ما، وضعي حين أكون مُفَعَّلًا... ما أقوم به من أعمال في مكان ما... والمعنى الجامع لمختلف الاستعمالات: الكون مُفَعَّلًا على ما هو محمود. وكما ترى عمليًّا هذا المعنى سيأخذك إلى الاشتقاقات بالمعاني التي درجت بين الناس، فتصير الكلمة مشيرة لمكان أو قيمة أو مسؤولية...

ما هو دارج عن معنى كلمة {قَيِّم}، قيمة، {مَقَام} كتقدير للشيء، "قيمته عالية"، فهو من مشتقات معنى الكلمة وليس معناها الصريح، حيث إلى حين نزول القرآن لم أجد في أشعار العرب "قبل الإسلام" أي استعمال لهذه الكلمة بهذا المعنى الصريح الذي نعرفه الآن، بل معناها مثل ما تفهمه الآن عندما تقول: تقويم الأسنان، وهذا لا يعني جعلها كلّها متشابهة بالطول أو الانحراف، بل جعلها مُفَعَّلَةً على الأحسن المناسب، {وَالدِّينُ الْقَيِّمُ، دِينًا قِيَمًا}... وصف للتفعيل الذي على الأحسن المناسب. ومن مشتقات المعنى أنّ له قيمة عالية ولكنه ليس أصل معنى الكلمة.

(وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ{15})
{وَاسْتَفْتَحُوا}، استفتح الرسل وتوقعوا فتح ما هو مغلق، حيث بعد الوحي الإلهي لهم بنزول العذاب على الظالمين، شعر الرسل بقدوم الفتح، بانتهاء الحالة المغلقة التي وصلوا إليها مع قومهم الكفار الظالمين.

{وَخَابَ}، ولم يحصل على ما يريده، {كُلُّ جَبَّارٍ}، كل شخص يرى نفسه قاهرًا لغيره ويفرض قوّته وإرادته على غيره، حيث كان يتأمّل أن يستمرّ في جبروته في قهره لغيره ولكنه خاب ولم يتحقق ما يريده، لأن العذاب نزل عليه وأنهاه من الأرض، وخاب كل جبّار، {عَنِيدٍ}، وهو الذي لا يغيّر ما هو عليه حتى لو برهنت له وشرحت وبيّنت، وهنا الكلام عمّن يصرّ على البقاء على كفره وعصيانه ولا يقنعه أي شيء بالتغيّر.

قد يكون شخصٌ ما جبّارًا ويتوب، ولكن هؤلاء كانوا جبّارين عنيدين ولم يتغيّروا، فخاب أملهم في السيطرة الدائمة على الأرض، لأنهم هلكوا بعذاب إلهيّ.

(مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاء صَدِيدٍ{16})
{مِنْ وَرَائِهِ}، من بعد موت كلّ جبّار عنيد يأتي بعده في المرحلة التالية، {جَهَنَّمُ}، المكان الموصوف بسوء ما فيه، حيث فيه النار المتأججة، وهي بانتظارهم من بعد موتهم في الدنيا حيث سيفقدون وعيهم إلى أن تأتي الآخرة ويستعيدون وعيهم ليروا جهنّم بانتظارهم.

{وَيُسْقَى}، يعطش الجبّار العنيد وتتم سقايته، إرواء عطشه، {مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ}، من ماء نتن عفن كريه اللون والطعم والرائحة.

(يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ{17})
{يَتَجَرَّعُهُ}، يشرب الماء الصديد بغير رضاه وبغير راحة وتلذذ، كمن يشرب الدواء المرّ، {وَلَا يَكَادُ}، حتى ولو قليلًا لا يمكنه أن، {يُسِيغُهُ}، ينزل في بلعومه في مريئه، ولشدة ما هو كريه ينزل بصعوبة في مجرى الطعام، لأن من يشربه يشعر بالغثيان "اللعيان" والحاجة للاستفراغ "المراجعة"، فعضلات بطنه وحلقه تتقلّص من شدة الطعم الكريه وتريد لفظ الماء.

حتى للمحة للحظة لا يستسيغه، حيث إنّه عطشان جدًّا، ويشرب من الصديد، فلن يشعر ولو للحظة أن ريقه تبلل أو ارتاح.

أكرر لك لتلتفت إلى الدقة الشديدة في تصوير الإزعاج، {وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ}، تريد أن تعطي معنى أن الاستساغة ولو بالتلميح ولو للحظة لم ولن تحصل، ونعلم من القرآن أن الماء في جهنّم سيكون ساخنًا جدًّا لدرجة تقطيع الأمعاء، وهنا نعرف أنه مقرف جدًّا لدرجة انتفاء الحصول على لحظة من الشعور بالشرب وتبليل الحلق والارتواء.

نلاحظ في الروايات تحديد مصدر المياه أنه من قيح الجراح ومن الجلود المتساقطة من أهل النار ومن فضلات أهل النار... وكما ترى هي تصوّرات لم يذكر عنها القرآن أي شيء، حيث إنّ القرآن ذكر فقط عن شراب أهل النار أنه ساخن لدرجة الحميم ومقرف جدًّا، ويبدو أن ما قالوه هو تحليل واستنتاج وافتراض اشتقاقي تطبيقي على ما يعرفونه من حياتنا الآن.

{وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ}، في المكان الذي هو فيه، يشعر بفقدانه للحياة من كل مكان، سواء من الجهات حوله حيث يتعرّض لنار تحرق وتذيب جلده ولحمه من كلّ الجهات، أو من داخله من بطنه التي تغلي، وأنفاسه التي تكاد تنقطع... {وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ}، فلن يفقد حياته مهما حصل معه، حتى لو شرب من الماء الصديد فلن يموت، بل سيشعر بالقرف وغليانٍ في معدته، وحتى لو ضربته الملائكة(ع) ضربة تطحن عظامه فلن يموت بل سيشعر بالألم الشديد، ويتجدد جسده وهو يتألّم، وحتى لو كان جلده في حالة احتراق دائم، فلن يموت، بل سيتجدد جلده وسيشعر بالألم من الاحتراق ومن تجدد جلده وأعضائه... وهذا ما تفهمه من الآية 56 من سورة النساء {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ}... حيث إنّ ما تقوله الآية هنا مشابه لما نجده في الآية 13 من سورة الأعلى التي قالت عمّن في جهنم {ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى}، دائمًا يشعر بأنه في لحظة الموت، ودائمًا يشعر بأقصى حالة الانهيار الجسدي، وفي نفس الوقت تركّز الآية هنا أنه لن يحصل ولو للحظة على الراحة، فلن يرتاح عندما يشرب ولو للحظة، ولن تمرّ عليه لحظة يموت فيها ليرتاح ولو للحظة من التعذيب.

{وَمِنْ وَرَائِهِ}، بالإضافة لعذاب شرب الصديد بانتظار الجبار العنيد، {عَذَابٌ غَلِيظٌ}، ضرر يصيبه وسيكون قاسيًا شديدًا جدًّا وليس فيه أي نوع من السهولة أو التهاون.

كما ترى مثلما يخبرنا القرآن عن الروائع التي في الجنّة أنها فوق تصورنا، كثيرًا ما يستعمل تعابيرَ لا تذكر ما في الجنّة بل توصّف الشعور والروعة، حيث يخبرنا عن نماذج تشبيهية لما يسبّب السعادة ومن بعدها يعبّر عن السعادة غير العادية لأهل الجنّة بما فيها من دون ذكر ما يحصل هناك لأنه فوق قدرتنا على التصوّر... وبالعكس التعذيب في

جهنم، ما ينقله القرآن عن جهنّم هو مجرّد نماذج وأمّا حقيقة التعذيب وشدّة الشعور بالألم فهي فوق قدرتنا على التصوّر الآن.

(مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ{18})
لماذا هذا العذاب الشديد؟

{مَثَلُ}، شبه حالة، {الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ}، أنكروا ربوبية الله تعالى، وأنكروا أنه تعالى المسؤول الأحد عنهم من مستوى إلهي، ومثلهم تشبيه {أَعْمَالُهُمْ} التي قاموا بها في الدنيا، {كَرَمَادٍ} "كالبودرة" الرمادية التي تبقى بعد اشتعال الفحم والحطب، {اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ}، ضربت الريح ذلك الرماد بشدّة، {فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ}، في فترة زمنية كانت الريح فيها عاصفة وتجري بشدّة.

{لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ}، ما حصلوا عليه مما نتج من عملهم فهم غير قادرين على الاستفادة منه.

بعبارة أخرى الكفّار "ربما" قاموا بأعمال حسنة، فالمؤمن الذي تصدّق على يتيم حصل على ما نتج من هذا العمل، وحصل على توصيف منه تعالى على الصدقة بأنها عمل حسن وله عليها ثواب كأجر حسن، والكافر الذي تصدّق على يتيم، هذا عمل حسن، ويكسب من فعله وصفه بأنه قام بعمل حسن، ولكن لن يقدر الكافر على الحصول على أي شيء من هذا العمل الحسن، ولن يعطيه تعالى ثوابًا حسنًا عليه، والسبب كفره الذي يحبط الأعمال ويجعل كلّ أعماله الحسنة بلا ثواب حسن عليها.

لنتصوّر المشهد مرّة ثانية بالاعتماد على ما نفهمه من عموم القرآن، الكافر على الأقل عندما يطعم أولاده، أو يعتني بأهله... أو عندما يقوم بعمل خدمة "إنسانية" مع شخص آخر، أو عندما يخترع دواء يشفي الناس... فهذا عمل حسن، وربنا سبحانه يقول إنّ كل من عمل عملًا حسنًا فسيراه أمامه في يوم القيامة، ومن المفترض أن ينال عليه ثوابًا من الله تعالى، ولكن من كفر في يوم القيامة يرى الأعمال الحسنة التي قام بها في الدنيا، ولكن سيكون لعمله قيمة وأجر عليه فقط إن كان مؤمنًا، وتتبعثّر وتتطاير أعمال الكافر الحسنة، ولا يبقى منها أي شيء، ولن ينال عليها أي أجر.

وهذا هو معنى حبط الأعمال الذي ورد في سور مختلفة من القرآن وكمثال عن ذلك ما قالته الآية 16 من سورة هود {أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

{ذَلِكَ}، التبعثّر والتطاير للأعمال الحسنة أمام أعين الكفّار، {هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ}، هو الكون على الشيء الخطأ البعيد جدًّا عن الحقّ، قد تسلك الطريق الخطأ، وتتمكّن بعدها من تصحيح مسارك لتصل إلى هدفك، ولكن إذا ضللت وصرت في صحراء قاحلة بلا معالم! ولم يعد هناك أصلًا أي طريق! فهذا ضلال بعيد جدًّا جدًّا عن إمكانية تصحيحه، وهنا الكلام عن الأعمال الحسنة التي طارت وانتثرت ولا يمكن الاستفادة منها، ولا يمكن الإتيان بغيرها، ولا يمكن الرجوع للدنيا لاكتساب غيرها، ولا يمكن أن تكسب حسنات من أعمالك في يوم القيامة فلا عمل هناك...

تلاحظ كفاية قول الآية عن أعمال الكفّار بأنها تبعثرت ولم يبق لها أثر مثل الرماد إذا ضربته ريح قوية، ولكن أرادت الآية إدخال تشبيه يوم القيامة أيضًا، وقالت إنّ الريح هبّت على الرماد {فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ} وهذه إشارة إلى يوم القيامة، حيث تتبعثر أعمالهم من بعد رؤيتهم لها.

نتذكّر دائمًا إشارات القرآن العديدة إلى "حبط" الأعمال، حيث أخبرنا أن الكفر بأنواعه والشرك بأنواعه... وإنكار الرسل وإنكار الرسالة وإنكار الآخرة... تسبب حبط الأعمال الحسنة في يوم القيامة، وتفقد قيمتها، ويراها الكافر ولكنها ستكون بلا وزن ولا قيمة وستتطاير أمامه، ولن ينال عليها ولا أي حسنة.

حبط الأعمال له عدّة أسباب، على رأسها الشرك به تعالى، لا ولا أي حسنة يسجّلها سبحانه لمن أشرك به، مهما فعل حتى ولو أحيا أهل الأرض جميعًا بدواء ما... طالما لم يَنْوِ ما فعله قربة له تعالى، فلماذا سيعطيه تعالى ثوابًا؟ لِيَأْخُذْ ثوابه ممن قام بالعمل لأجله، وحتى لو كان هدفه حبّ الخير المحض، ولم يطلب المال أو الشهرة أو مديح الناس، فليأخذ ثوابه من حبّ الخير... وهذا الموضوع ترى بعض المؤمنين محرجين فيه أمام الآخرين ويبحثون له عن تخريجات،

علمًا أنّ القرآن بكل صراحة ووضوح قال: العمل الحسن يبقى موصوفًا بأنه حسن، ولكن من لم يفعله مع الإيمان به تعالى مثيبًا على الخير، ولم ينوه قربة لله تعالى وطلبًا للثواب منه سبحانه، فهو {كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ}، ويتطاير ولا قيمة له، ولا ثواب عليه، بالرغم من بقاء وصفه بأنه عمل حسن.

هذا قرار أخذه الإله سبحانه كأساس للثواب والعقاب لنا، والشخص الذي يفترض أن قلبه طيّب ويفترض أنه لو كان هو يحاسب الناس لأثاب الكفّار على عملهم الحسن، إذًا هنا في الدنيا لِيُعْطِ المجرمين الذين لا زالوا مجرمين ولم يتوبوا، وليعطهم ما يريدونه من مال وسلطة، وليكن تابعًا لهم لإسعادهم وتنفيذ رغباتهم! وليسامحهم ويحبّهم ويسعدهم... وهم يعذّبون ويقتلون أحباءه واحدًا تلو الآخر... طبعًا سيرفض ذلك، ولن يقبل بتوصيف من يسعد المجرمين بأنه طيّب القلب...

الآن لننظر إلى من كفر من وجهة نظره تعالى، أنت لست إلهًا لتقيّم جريمة الكفر بالإله، وأنت لست من صمّم وخلق وأنعم... لتقيّم جريمة إنكار وجحد منّة فرصة الحياة التي منحها تعالى لك، ولست من عرض الثواب بجنّة خالدة على الناس بشرط توحيده تعالى، وحذّر من عقاب خالد في جهنّم لمن كفر به تعالى... وما معنى الثواب لكافر على عمله الحسن وقد سقط في أساس الامتحان! وسترى في الآية التالية تكملة لكلام الآية هنا...

أخيرًا، يمكن لأصحاب القلوب الطيّبة نسيان كل ما قاله القرآن وأن يفترضوا ما يشاؤون، وليسرحوا في أحلام بإثابتهم "من جيب غيرهم" بالأجر لمن كفر لو كان الأمر بيدهم... فهذا لن يغيّر أي شيء، ولن يحصل من كفر على ثواب حسن أبدًا.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ{19})
{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت.

{أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ}، أن صاحب هذا الاسم المحدّد المميز أَلَّفَ رَكَّبَ، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وهذه هي حدود كل دنيا المخلوقات، {بِالْحَقِّ}، بالصواب، والكلام عمومي وَبِالنِّسْبَةِ لنا نحن البشر المخلوقين من ضمن السماوات والأرض فلا يمكن لأي مخلوق الاعتراض وَيَقُولُ: لماذا خلقتني؟ ولا يمكنك الاعتراض عليه تعالى وتقول: لماذا ستحاسبني. فمن النظرة الإلهية التي يفهمها الفكر البشري الصافي، سترى أن خلق السماوات والأرض ونحن من ضمن ما خلقه تعالى فيهما كَانَ صوابا كان صحيحا، وبالتالي وفيما يخصّنا فالمخطط الإلهي لمحاسبتنا ومجازاتنا هو عمل صائب أيضا.

تُرِيدُ الآية أن تلفت انتباهنا إِلَى أَنَّهُ لا يمكنك الاعتراض في حسابك في الآخرة لأنك لم تختر الخروج إلى الحياة، فلا يمكنك أن تقول: لا يحق لك يا إلهي أن تحاسبني على أعمالي في الدنيا لأني لو خيّرتني بين تركي بدون أن تخلقني وبين أن تخلقني، لربما اخترت أَنْ لا تخلقني، فأنت سبحانك أجبرتني أن أصير حيا مكلّفا حين خلقتني ولم تسألني رأيي وها أنت تحاسبني على أعمالي... فكل هذا النوع من الكلام باطل غير صحيح، وأصلا ذكرتها لك كما يقولها الناس وَتَرَى أنها جملة بلا معنى، فكيف سيسألني عن رأيي إذا كنت أريد أن يخلقني قبل أن يخلقني! فمن سيسأل إن لم أكن مخلوقا! هذا من ناحية فراغ السؤال من أي معنى، ومن ناحية ثانية كَانَ خلقنا عملا يصفه تعالى بأنه حقّ، صائب صحيح، لا يمكن الاعتراض عليه، فليس فيه أي خطأ، والكلام عن اختيارك أن لا تخرج إلى الحياة لو سألوك... هو وهم يخترعه خيالك الآن حتى تدافع عن نفسك "وهميا" لأنك لا تريد الإيمان بالحق ولا تريد الالتزام بالصلاح، فلو كنت مؤمنا صالحا وهذا يعني أنك مُتَمَاشٍ مع كلامه تعالى وتأمّلت بالجنة، فما كان هذا الاعتراض الوهمي سيخطر على بالك، وَالَّذِينَ الآن يخترعون أفكارا وهمية تخيليّة وكأنها ستنفعهم وتغيّر مما سيحصل معهم في الآخرة فليأخذوا علما أنها لن تنفعهم.

بِتَعْبِيرٍ شعبي لما تقوله الآية: سُبْحَانَهُ كان محقًا حين خلق كلّ شيء ولم يكن عمله عبثيا، ومحقّا في نظام الثواب والعقاب الذي يخبرنا عنه، وسياق الكلام هنا مع وعن الذي حبط عمله بسبب كفره، فلا يَتَغَابَ على نفسه ويفترض أنه سينال ثوابا على أعماله الحسنة ولن يضرّه كفره، لا.

بعبارة أخرى نكررها لأن القرآن اعتمدها كمفهوم أساسي لخلقه تعالى لكل شيء، ففكّر في خلق السماوات والأرض، فهل خَلْقَهُمَا كان عملا غير صحيح؟ وَهَذِهِ الضخامة والتقانة كانت عملا عبثيا فاسدا سيئا؟ عن لعب ولهو؟ وهل هناك

تصميم ومخطّط آخر أفضل مما هو موجود الآن؟... وَالْحِكْمَةُ الإلهية نعرفها بالتفكّر ومن القرآن: خلقنا، إخراجنا إلى الحياة مع إرادة حرّة، امتحاننا، إماتتنا، ثم إِحْيَاؤُنَا، ثم محاسبتنا، ومجازاتنا في الجنة أو النار. فهل يوجد شيء آخر تريد افتراضه وله قيمة غير هذا المخطط الإلهي الحق الصواب الصحيح؟ أم تفترض أنه تعالى خلق الدنيا ليلعب ويلهو؟ وبقلبك الطيّب ستسامح من كفر وتثيبه على أعماله الحسنة! وكيف تتماشى الحكمة مع هذا الافتراض!

أم الحقّ أَنْ لا يخلق سبحانه ولا أي شيء؟

طبعا حين تفكّر فيما تقوله الآية نقلا عنه تعالى، لَا تَنْسَ مدى قدرتك على التفكير أمام قدرة الذي خلق فيك القدرة على التفكير، فلنقل أَنَّ كائنا ما دماغه بحجم سيّارة، فحتما هو أذكى منك بملايين المرات، والآن اذْهَبْ إلى العمق، وَتَرْكِيبُ تفكيرك بالقدرات التحليلية والتخيّلية التي فيه، فهي ممنوحة منه تعالى، وَبِغَضِّ النظر عن قدرة تفكيرك، قَبْلَ ذلك نسأل عن نظام تفكيرك الذي جعله سبحانه فيك، وَحَتَّى هذه القدرة فيك على التفكير فهي أقل بكثير جدا جدا مما يمكن أن يزودك به سبحانه، فانتبه لحجمك حين تقول شيئا مقابل كلامه تعالى.

{إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة ولو قرّر فيمكنه تعالى جعلكم تذهبون فتغادرون، فيزيلكم أو يميتكم، {وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ}، فتذهبون من الدنيا ويأتي غيركم إليها.

انتبهت للفكرة؟ هو إله لديه كامل الصفات والقدرات التي تجعله قادرا على خلقنا، وخلق غيرنا أفواجا أخرى من البشر، وَقَادِرٌ على خلق مخلوقات مختلفة عنّا... فما نحن إلا مجرّد مخلوقات صار لها كيان وحياة وفكر... بقرار منه تعالى، فإذا كان لدى أحد منّا فكرة "اعتراض" على خروجه إلى الحياة، فلينتبه أنه لا أهميّة له كشخص، فلا قيمة له إلا إذا خرج وصار له كيان، والإله يمكنه إِزَالَتَهُ والإتيان بغيره، وهذه هي الالتفاتة التي تريدنا الآية رؤيتها من ضخامة وتقانة خلق السماوات والأرض، وَمُسْتَحِيلٌ أن تكون عن عبث، ومستحيل أن نعترض عليها، وبخاصة إذا التفتنا إلى نعمة خروجنا من لا شيء وحصولنا على الحياة، لأن الذي خلقنا قادر على محونا نهائيا من الدنيا، ولو "فرضا" أراد سبحانه إزالتنا لأزالنا، ونحن أصلا باقون على كياننا لأنه تعالى يمسك الدنيا من الزوال كما نقرأ في الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ...}، ولكن بالتأكيد سيخلق سبحانه غيرنا لأن خلق المخلوقات هو عمل حقّ، عمل صائب صحيح.

(وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ {20})
{وَمَا ذَلِكَ}، وليس الذهاب بنا وخلق غيرنا، {عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}، فليس عملا صعبا عليه تعالى أو لا يمكنه فعله لأن أَحَداً ما يمنعه سبحانه... فسبحانه عزيز يفرض ما يريده ويحصل حتما ما يريده، والذهاب بنا وخلق آخرين ليس عملا يمنعه تعالى من فرض ما يريده.

في آيات قرآنية أخرى نجد أن خلق السماوات والأرض كان عملا سَهْلاً جدا جدا جدا... عليه تعالى، فلم يتعب ولم تنقص قوّته... راجع كمثال ما ورد في الآية 38 من سورة ق {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ}. ومن ناحية ثانية نَحْنُ لا نمثّل للإله سبحانه أي قيمة، فهو تعالى أعطانا القيمة حين خلقنا، واعتبر لنا قيمة معنوية، فصار لنا قِيمَةٌ إن كنا محافظين على سلامة قلوبنا، فإذا أزالنا فلن يتأثر سبحانه بأي شيء، وليس لنا أي قيمة عملية ضرورية له تعالى وتمنعه تعالى من محونا...

لاحظ قصد الآيات لفت انتباهنا لصفات وقدرات الإله العالية جدا، وبالتالي الالتفات إلى صغرنا وضعفنا الشديد جدا أمامه تعالى، وهذا شيء يفهمه المؤمن، وينكره الكافر، والآيات هنا تتحدّث مع الِاثْنَيْنِ، حتى يلتفت الكافر أيضا إلى هذا التبليغ الإلهي، فأنت تنكر أو تعترض على أمور إلهية، وأنت مجرّد مخلوق خرج إلى الدنيا بقرار إلهي، فانتبه لمقامك ومكانتك وقيمتك، وخذ حجمك كمخلوق أمام خالق عظيم.

حسن، إن كان الكافر لا يمكنه في يوم القيامة الاعتراض على خلقه، فهناك لن يستطيع أن يقول إِنَّهُ صار في الدنيا غَصْباً عنه، فصحيح أنك لم تختر إيجادك ولكنه أمر واقع لا محالة، فهذا شأن إلهي فَصِرْتَ بقرار إلهي، وثانيا لا يوجد مجال لأن تختار أَنْ لا تخرج إلى الدنيا! قَبْلَ وجودك كنت لا شيء، فكيف ستختار! وهنا نفهم أن القرار الإلهي كان "حقا" كان صائبا بإخراجك إلى الدنيا، ولكن أنت أسأت استخدام هذه النعمة.

لِنُكْمِلَ لنرى بقية الأفكار التي يمكن أن تخطر ببال الكافر للنجاة في يوم القيامة:

(وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ{21})

{وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا}، خرج الكفّار كلّهم بدون استثناء لمواجهة صاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى، وهذا سيحصل في يوم القيامة من الموت، {فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا}، قال الأشخاص الذين لم يكونوا في موقع القرار والرئاسة والزعامة، وهم عامّة الناس العاديين، قَالَ هؤلاء الضعفاء للذين استكبروا للذين كانوا يرون أنفسهم أكبر من بقيّة الناس وهم الزعماء والرؤساء والوجهاء... والكلام هنا عن الضعفاء والمستكبرين الذين لم يتبّعوا دينه تعالى، وانتبه أن الكلام ليس عن المستضعفين خصوصا، بل عن عموم الضعفاء سواء أكان المستكبرون مُتَسَلِّطِينَ عليهم فكانوا مستضعفين، أو كان لديهم قوّة ما ولكنها أقل من الخروج من فلك المستكبرين فهم ضعفاء، فقالوا:

{إِنَّا كُنَّا} "نحن الضعفاء في الدنيا" {لَكُمْ} "أيها المستكبرون" {تَبَعًا}، كنا نتبعكم، كنا على ما تَقُولُونَهُ وتفعلونه، فنفعل ما تأمروننا به، {فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ}؟ في الدنيا سمعنا كلامكم وأطعناكم على أساس أنكم أصحاب الفهم والقرار، وأن ما تفعلونه كان لمصلحتنا جميعا، فبذلنا من مالنا وجهدنا ووقتنا لأوامركم وتوجيهاتكم، ودعمناكم، وكنّا جمهوركم... وتركنا ما يقوله الرسل، وها نحن هنا في الآخرة نتعرّض لما يضرّنا، فهل لديكم خطّة أو لديكم قدرة تجعلنا نحصل على شيء يغنينا من العذاب؟ فنحن نريد شيئا يجعلنا بالغنى عن العذاب، وَيُخَلِّصَنَا منه، فهل لديكم شيء بهذا الخصوص؟

بِالنِّسْبَةِ للتعبير بالغنى عن العذاب، فهو تماما مثل استعمالنا الدارج، فمعي مال كثير وأنا بالغنى عن العمل بجهد ومشقّة... أو أنا أعمل بمشقّة وأريد من يغنيني عنها، وَيُقَدِّمُ لي ما يجعلني أَسْتَغْنِيَ عن العمل بالمشقّة... وسؤال الضعفاء هنا على نفس المعنى: نحن في العذاب وذاهبون لعذاب أكبر، ونحتاج لمن يغنينا عنه، لمن يخرجنا منه، هل يمكنكم أيها المستكبرون إفادتنا؟ ولمزيد من التوسّع حول كلمة "غنى" راجع ما قلناه في الآية 8 من هذه السورة.

قال المستكبرون:

{لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ}، لو وضعنا تعالى على الشيء الصحيح الذي يوصلنا للغاية الصحيحة، على الشيء الذي ينجينا من العذاب، لهديناكم لوضعناكم نحن على الشيء الصحيح الذي ينجيكم من العذاب، ولكن نحن أنفسنا كنّا ضالين وها نتيجة ضلالنا إلى العذاب مثلكم ولا يمكننا النجاة فكيف ننجيكم أنتم؟

{سَوَاءٌ عَلَيْنَا}، فنفس الشيء بلا فرق، {أَجَزِعْنَا}، فأظهرنا خوفنا من العذاب وتصرّفنا على أساسه فصرخنا وبكينا وترجّينا... {أَمْ صَبَرْنَا}، فحاولنا التصرف بشكل عادي وأخفينا ألمنا وخوفنا من العذاب، عَلَى كِلْتَا الحالتين، {مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ}، فليس لنا ولا أي نوع من الحيصة من الحركة التي تمكّننا من الهروب من هنا، فلا يوجد أي فرصة للهرب ولا بأي طريقة، لا بالركض، ولا بالقتال، ولا بالتجمّع بعدد كبير لقتال الملائكة... فكل الحركات لن تنفع.

الصَّبْرُ يكون على شيء تعتقد أنه سينتهي ويذهب، ولكن هناك في الآخرة لن ينتهي العذاب، فحتى لو حاولوا الصبر فالحال لن يتغيّر ولن يصلوا إلى نتيجة أخرى غير العذاب.

إذًا نبّهتنا الآية أن الزعماء والوجهاء وَالرُّؤَسَاءَ من المستكبرين... لن ينفعونا بأي شيء في يوم القيامة، وهذا من الأفكار التي قد تخطر ببال كافر يفكّر من الآن أن أسياده سَيَنْفَعُونَهُ في الآخرة، فليأخذ علما من الآن أن هذا لن ينفعه.

لِنَدْرُسْ هذا الكلام قليلا، فَهَذِهِ المصيبة التي تبدو بعيدة عنك، ربما أنت في منتصفها، هَا وَلِلْأَسَفِ نرى غالبية الزعماء والرؤساء والحكّام والوزراء والنوّاب ورؤساء المحافظات والبلديات... ومعهم جمع ضخم من علماء الدين الفاسدين... نراهم لا يعتبرون دينه تعالى منهاجا، أو يعلنونه منهاجا فقط بلسانهم وفي التطبيق يخالفونه، وهم في مواقعهم لأنك أنت تدعمهم، وأنت جمهورهم، وناخبهم، وداعم لهم بالتصفيق... وها القرآن أمامك يريدك كبيرا أكبر من أن تكون ماشية يقودها العالون على الحقّ، الناهبون للمال العام، الْمُوقِدُونَ للطائفية والمذهبية، الجالسون في مواقع السلطة بدعم مخابرات وجهات تريد تدمير بلداننا بتولية الفاسدين علينا... وبصراحة واقعية فإننا نرى الجمهور الغالب الأعم من

المنتمين لدينه تعالى تحت اسم المسلمين، نراهم رافضين لتطبيق دينه تعالى، وأحيانا لديهم أسباب وجيهة ولكنهم لم يعملوا على حلّها، فعلماء الدين من مختلف المذاهب والطوائف، بغالبيتهم الساحقة، مدمّرون للدين الإلهي، مشوّهون له، بسطاء جهلة متحجّرون... منافقون فاسقون... كافرون في عمقهم بدينه تعالى ينفّذون أوامر السلطان الجائر مُفْتِينَ بقتل الأبرياء ومن يخالفهم في المذهب والطائفة...

هَلْ هذا عذر لنا حتى نكره تطبيق دينه تعالى؟ أم نحن لدينا رغبة في أمور يحرّمها سبحانه ولذلك لا نريد تطبيق دينه الذي سيحرمنا منها؟ فالغشّ في الأعمال والأشغال منتشر، والجميع يقولون لك: إن كنت مستقيما فلن تجني وَلَا قِرْشًا وَلَا فِلْسًا... وتعاطي الحشيش والمخدرات والمسكرات منتشر... والربا منتشر... والدعارة منتشرة... والغيبة والسرقة والنصب والاحتيال... مُنْتَشِرَةٌ...

أقول لك ذلك حتى لا نميّز أنفسنا عن الذين يخاطبهم القرآن من المستضعفين والمستكبرين الكفّار، فما الفرق بين مجتمعاتنا وما يقوله القرآن عنهم؟ الفرق واحد ولا قيمة له، نَحْنُ على البطاقات الشخصية مكتوب أننا مسلمون، وفي الكتب مكتوب أن بلدنا بلد مسلم... فقط مكتوب بلا تطبيق... وتتذكّر بداية كلام السورة عن أهل كتاب سبقونا إلى السوء المنتشر فينا...

الْآنَ تنتقل السورة لتخبرنا عن شيء آخر كنّا نسمع كلامه وأيضا لن ينفعنا في يوم القيامة:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{22})
في الآية السابقة قرأنا عن ضعفاء كانوا تابعين للمستكبرين، يسمعون كلامهم وَيُطِيعُونَهُمْ، وطلبوا منهم العون في الآخرة... في الآية هنا تنتقل السورة للشيطان الذي كانوا يسمعون له ولا يرونه، فتنقل لنا خبره حتى لا يفكر أحد من الكافرين أنه سيستفيد إن لام الشيطان:

{وَقَالَ الشَّيْطَانُ}، قال الكائن الذي يعمل السوء ويحثّ الآخرين على فعل السوء، وَالرُّسُلُ يقومون بالهداية، وهو يقوم بالإضلال، ونعرف من القرآن أن أكبر الشياطين وأوّلهم اسمه "إبليس" عليه اللعنة، وهو من الجنّ، ولم يسجد لآدم(ع) لأنه لم يعترف بأن آدم(ع) وَذُرِّيَّتَهُ الْمُؤْمِنِينَ أفضل منه... وقرّر الوسوسة لآدم(ع) وذريته حتى يَعْصُوهُ تعالى، وهكذا ليبرهن إبليس له تعالى أنهم لا يستحقون أن يسجد لهم...

{وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ}، عِنْدَمَا حصل الشيء الذي كان مطلوبا حصوله، وهنا الكلام عن حصول الآخرة وقيام الكائنات من الموت للحساب... فهذا أمر وَهَذَا شيء أمر تعالى بحصوله، وحين حصل... عندها قال الشيطان:

{إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ}، فقال لكم سبحانه عبر رسله وكتبه وأنبيائه عن شيء سيفعله، فقال تعالى إِنَّ من أطاعه في الدنيا فله الجنّة الخالدة في الآخرة، ومن عصاه في الدنيا فله النار الخالدة في الآخرة وها تحقّق كلامه تعالى، وأمّا أنا، {وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ}، فقلت لكم عن شيء ما أنه سيحصل ولكن لم أصدق معكم فلم ألتزم بتنفيذه، وَوَسْوَسْتُ لكم أنه لا يوجد إله... لا يوجد إله واحد بل هناك آلهة متعددة... لا يوجد آخرة، لا يوجد حساب، لا يوجد جنّة ولا نار... وإذا كان هناك آخرة فهناك ألف عذر لكم لِيُنْجِيَكُمْ من العذاب فلا داعي للإيمان والالتزام بدينه تعالى... ولكن كل كلامي لا ألتزم به، ولن أحققه لأني كذّاب، ولا قدرة لي أصلا على تحقيقه.

وكما ترى فهذا كلام الشماتة من إبليس بالذين اتبعوه وعصوا الله تعالى.

{وَمَا كَانَ لِيَ} "فتحة على الياء" {عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ}، فلم أكن أملك الغلبة والقهر عليكم، وَلَمْ أكن أملك قدرة قاهرة فوق قدرتكم، فكان يمكنكم اختيار مخالفتي، وكل ما فعلته، {إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ}، فأشهرت وأعلنت لكم، ومعلوم أنه يفعل ذلك عبر الوسوسة، وَقَدَّمْتُ لكم دعوة لمعصيته تعالى، {فَاسْتَجَبْتُمْ لِي}، وَحَقَّقْتُمْ وَنَفَّذْتُمْ ما أقول، وتعلم من القرآن "ومن الواقع المعلوم" أن الشيطان لا يمكنه إِجْبَارُ أي أحد على فعل أي شيء، فَقَطْ يمكنه الوسوسة في الفكر، وبعدما نطيعه وننغمس في تنفيذ وسوسته يصير متحكما بنا بإرادتنا، فنحن بإرادتنا نجعله يتحكّم بنا، مثلما بإرادتنا نجعل الزعيم أو

الأب أو العالم الفلاني... يتحكّم بنا، وقد نبّه القرآن على ذلك في الآية 100 من سورة النحل {إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ}.

{فَلَا تَلُومُونِي}، فلا تعتبروني ارتكبت خطأ ليس من المفترض أن يصدر مني، فتقولوا إِنِّي لم يكن معي حق بدعوتكم للباطل لأني أعرف الحقّ، والحقّ عليّ وأنتم بريئون وَأَنَّ ما حصل معكم بسببي، {وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ}، فأنتم كان من المفروض أن لا يصدر منكم هذا الخطأ، وَأَنْتُمْ كان لا يفترض بكم الاستجابة لدعوتي.

{مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ}، فحالتي وكما ترون أَنِّي مثلكم ولا قدرة لي على فعل أي شيء، فلا نفع لصراخكم لكلامكم بأقصى وأقوى صوت لتنادوني لمساعدتكم، {وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ}، ومع وضعي الصعب أرى وضعكم الصعب وأرى أنه لا نفع من صراخي لكم لتساعدوني، فلا أنا ولا أنتم لدينا أي قدرة على مساعدة ونصرة بعضنا هنا.

{إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ}، فحين كنتم في الدنيا كان الواجب عليكم طاعته تعالى لوحده، ولكنكم أطعتموني فجعلتم منّي مشاركا له تعالى، وأنا أنكر أني مشارك له تعالى في الربوبية أو الألوهية أو الولاية عليكم من مستوى إلهي.

{إِنَّ الظَّالِمِينَ}، الَّذِينَ لم يكن معهم حقّ فيما اعتقدوا به أو فعلوه، فظلما كفروا فهم، {لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، فلهم ضرر يصيبهم ولا يمكنهم تحمّله أو الاعتياد عليه.

مَنْ يفكّر أن ينجو بأعماله السيّئة في يوم القيامة مستخدما عذر وسوسة إبليس له، فلن تنفعه تلك الفكرة، كما لن ينفعه الوجهاء والزعماء... فلا أي عذر ينفع هناك، سواء عذر اتباعك لبشر مستكبرين أو لجنّي خبيث، فأنت لديك حرية الاختيار والإرادة وأنت اخترت أن تتّبع المستكبرين والشيطان، وستتحاسب على ذلك.

بقي شيء، فإبليس يسمع هذا الكلام القرآني الذي يخبره عن مصيره الحتمي في الآخرة، فلماذا لا يرتدع ويتوقّف عن الوسوسة لنا؟ انْتَبِهْ ولا تسأل عن إبليس واسأل عن نفسك؟ فأنت أيضا تقرأ هذا الكلام، فهل أنت تقي ورع؟ فنفس السبب الذي يدفعك لمخالفة دينه تعالى مع علمك بما يقوله تعالى عن العقاب، هُوَ نفسه السبب الذي يجعل إبليس لا يتوقّف عن معصيته تعالى بالوسوسة لنا.

بِصُورَةٍ أوضح، كَمْ من نصائح نقولها للآخرين وهي مخالفة لدينه تعالى؟ كم من غيبة نفتح موضوعها أو نشارك من بدأ بها...؟ وكم من تشجيع حفّزنا عليه الآخرون لمخالفة دينه تعالى وارتكاب السيئات من أكبرها لأصغرها... هذا ونحن نقرأ القرآن، أو نعلم بالوعد الإلهي بالعقاب الإلهي على ما نفعله! فلا تسأل عن إبليس ولنسأل عن أنفسنا، وها القرآن يخبرنا بمصيرنا...

مِنْ أبسط وأسهل الأمثلة التي سأذكرها لك، ما هو دارج في عصرنا من تطبيقات وسائط المعلومات "التواصل الاجتماعي" على الهواتف، فحتى بين بعض مجموعات المتدينين يدرج إرسالهم لبعضهم صورا لنساء وشباب غير محتشمين كنوادر "نكات" مضحكة... ألا يعلمون أنها سيئة؟ وننتقل من هذا التساهل والتهاون والذي هو نفسه في الذين يفعلون أعظم من ذلك ويرونه هيّنا، وصولا إلى سيئات فظيعة في سوئها ويبرّر لها فاعلوها وَيَجْعَلُونَهَا تبدو عادية... وهكذا ترى أن الكلام عن إبليس وعلمه بالعقاب على ما يفعله، مَا هو إلا بناء على نفس الأساس الذي منه نقوم نحن بما نعلم بسوئه، فإبليس مُصِرٌّ على البرهنة له تعالى أنه أفضل منّا، فهذا تبريره لإضلالنا، وهو يعلم بأنه تبرير مرفوض، ومثله الضعفاء الناعقون خلف حكّام السوء، والذين يعلمون بسوء ما يفعلونه ويبررون لأنفسهم أنهم يتبعون الوجهاء... وأن إبليس وسوس لهم... بينما هم بكامل إرادتهم فعلوا السوء، وسيتجازون على أفعالهم.

(وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ{23})
في ذلك الموقف حين لا ينتفع الكافرون من الأعذار والتبريرات ولا من المستكبرين ولا الشيطانِ، فهناك شيئان ينفعان:

{وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا} الَّذِينَ اعتقدوا بدينه تعالى، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، عملياً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى. وبشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموماً

وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، حتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائما أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى ويؤمنون به. وهذا الكلام له عمق، حيث لا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خللٌ منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو سيّء" فهو في الحقيقة اختراع من البشر وليس أمرا إلهيا.

هؤلاء في الآخرة سيدخلهم تعالى إلى {جَنَّاتٍ}، إلى أماكن موصوفة بروعة ما فيها، إلى أماكن فيها حدائق وبساتين وأمور تسبّب السعادة... {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، وهذا تعبير عن روعة المنظر الطبيعي للمكان، وطبعاً لا يقصد تصوير منطقة كالمستنقعات، {خَالِدِينَ فِيهَا}، لا يموتون ولا يفنون في تلك الجنّات، {بِإِذْنِ رَبِّهِمْ}، بسماح من المسؤول عنهم من مستوى إلهي جرى إدخالهم إلى الجنّة وبسماح منه تعالى سيخلدون فيها.

{تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا}، يقول أهل الجنّة كلاماً لطيفاً لبعضهم البعض عندما يتلاقون "تحيّة": {سَلَامٌ}. لا ولا بأي شكل يتوقّع أحدهم من الآخر أي شيء سيّئ. وتقصد الآية المعنى الحقيقي لقولهم لبعضهم كلمة سلام، فهنا في الدنيا أحيانا نقولها لبعضنا نفاقاً، ومن داخلنا لا نريد الخير للآخرين، ولا نشعر بالمودّة تجاه من نقولها له، بل ونشعر بالبغض له ونسلّم عليه! أمّا في الجنّة فعن راحة وشعور بالرضا يسلّم أهلها على بعضهم، لأنّه سبحانه ينزع الغلّ من قلوبهم، ويحبّون بعضهم بشدّة كما تقرأ في الآية 47 من سورة الحجر {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ}، وعملياً هذا تعبير عن الشعور الدائم بالراحة والسعادة عند تعامل أهل الجنّة مع بعضهم البعض، حيث لن يسمعوا ولا كلمة مزعجة من الآخرين وهم لن يقولوا للآخرين ولا كلمة مزعجة...

إذًا، لم ينفع طلب المساعدة من المستكبرين ولا التعذّر بوسوسة الشيطان، ونفع الإيمان والعمل الصالح، فلا الإيمان لوحده ينفع، ولا العمل الصالح لوحده ينفع، وقرأنا قبل قليل عن العمل الصالح وأنه مع الكفر مثله مثل الرماد الذي يتناثر ويتبعثر من الريح ولا يحصل الكفّار منه على أي منفعة.

نلاحظ الآية 17 من هذه السورة ذكرت مواصفات الشرب في جهنّم، وهنا نلاحظ التعبير بالأنهار الجارية تحت الجنّات، لأنها متاحة كلما رغبت في التلذذ بالشرب من مختلف أنواع السوائل من خمر ولبن ومياه وتقرأ ما يفيد هذا المعنى في الآية 15 من سورة محمّد {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ}. وتذكّر دائماً أن أهل الجنة يشربون لا لسدّ العطش، بل للتلذّذ بالشرب. أضف إلى ذلك ما قصدته الآية مباشرة وهو روعة المنظر الطبيعي للمياه الجارية تحت الأشجار... ولا تَنْسَ أن الجنّة بسعة السماوات والأرض، فليست كلّها بساتين وأنهار، بل فيها من كل المناظر والتضاريس والبيئة المتنوعة التي يسعد فيها أهل الجنّة، وما يعرضه لك القرآن عادة هو نماذج عن أمور مشتركة الرغبة فيها بين الناس، وإلا فنفترض أن هناك بحاراً ومروجاً... ونفترض أنه حتى لو رغب أهل الجنّة بالثلج والجليد أو الصحراء... فهي متوافرة في مكان ما في الجنّة التي سعتها كسعة السماوات والأرض، ولكن ذكر الصحراء والثلج عادةً ليس محفّزاً عامّاً لكل الناس مثل ذكر الأماكن الخضراء مع الأشجار والأنهار. وترى هذا في ذكر القرآن للخيام في الآخرة، كنموذج عن أماكن تناسب القرب من الأرض والخضرة والأشجار، حيث إنها بعض الأحيان مفضلة على القصور، والقصور مفضلة في أوضاع أخرى على الخيام... وعلى أي حال فكل ما يسعد المؤمنين متوافر هناك...

ننتبه للتعبير عن دخول المؤمنين للجنّة وخلودهم فيها {بِإِذْنِ} ربهم سبحانه، إذ دخولهم إلى الجنّة ليس بقدرة قاهرة مفروضة عليه تعالى، بل هذا قراره هو سبحانه، وإذا تذكّرت كلام السورة عن الكفّار الذين لا يجدون محيصاً ولا أي وسيلة تغلب تنفيذ القرار الإلهي، فستنتبه أن المؤمنين أيضاً لم يدخلوا إلى الجنّة بقوّة أو بقدرة قاهرة ذاتية فيهم، بل بإذن إلهي، بسماح منه تعالى دخلوا إلى الجنّة، ومضافاً إليه المؤمنون لا يصيرون في الآخرة خالدين بقدرتهم الذاتية، بل يخلدون لأنه تعالى سمح بذلك.

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء{24})
{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت.
{كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا}، كيف أقام سبحانه لك شيئاً يشبّه استفادة المؤمنين من الحسنات في الآخرة، ويشبّه حالة انتفاء استفادة الكفّار من أي عمل حسن في الآخرة، وهذا شيء ركّزت عليه الآيات السابقة، والمثل التشبيهي هو:

{كَلِمَةً طَيِّبَةً}، كلمةً جيّدةً حسنةً تقولها، {كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ}، مثلها مثل نبتة جيّدة كبيرة لها جذع وخضراء وتعطي ثماراً... {أَصْلُهَا ثَابِتٌ}، أساسها الذي تحت الأرض، وجذورها ممتدة جيداً في الأرض، {وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ}، لتلك الشجرة جذع تمتدّ منه فروع أغصان باتجاه السماء، فهي شجرة طبيعية وشكلها طبيعي وهكذا تكون الأشجار الموصوفة بأنها جيّدة.

إذًا كما ترى الشجرة الجيّدة أمامك، كذلك الكلمة الطيبة التي تقولها، جعل الله تعالى لها أصلاً فهي ثابتة ولن تطير مثلما تطير أعمال الكفّار، وفرع كلمتك في السماء، حيث سوف يتفرّع عنها وينتج منها حسنات كثيرة، وستتحوّل تلك الأغصان الناتجة عن كلمتك الطيبة إلى أمور رائعة في الجنّات، وأما كلام الكفر فسينتج عنه نارٌ تتأجج...

ننتبه جيداً، فالمثل هنا عام عن مفهوم الشجرة، ولا تقصد الآية شجرة بخصوصها، ولا تشير إلى النخل أو الرمان أو التين... بل هي مثل يمكنك تصوّره عن أي نوع من الشجر.

بالنسبة للكلمة الطيبة ينطبق عليها نفس المفهوم عن العمل الصالح، والقابلية التي فينا لتمييز الخير من الشرّ، نعرف منها الكلام الطيّب من الخبيث، والوصف بالكلمة الطيبة لعموم أي كلمة جيّدة، فأيّ كلمة طيبة سواء قلتها لطفل أو والديك أو نصيحة لأحد ما أو كلمة حقّ أو... كلّها ينطبق عليها وصف الكلمة الطيبة وطبعاً هناك جمل أعلى في الأهمية من جمل أخرى، فكلمة حقٍّ في وجه سلطان جائر قيمتها عالية جداً جداً، وقبلها جملة لا إله إلا الله، فهي أوّل وأهم جملة.

لدينا روايات عديدة تفسّر الكلمة الطيبة بالكلام الحسن للزوج مع والديه وزوجته وأولاده وجيرانه... وتفسّر الكلمة الطيبة بحكم القاضي العادل... وهذه تطبيقات صحيحة يمكن بسهولة قبولها كتفسير عمومي للآية لأنها متماشية مع بقية مفاهيم القرآن، ولكن كلام الآية عمومي لأي جملة طيبة نقولها.

(تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ{25})
تلك الشجرة الطيّبة، {تُؤْتِي أُكُلَهَا}، تعطي الشيء الذي يمكن أكله، تنتج الثمار، {كُلَّ حِينٍ}، عندما يحين موعد خروج الثمر منها فهي تنتجه، فلنقل إنّها شجرة كرز، ففي أول الصيف يحين خروج ثمرها الذي نأكله، وتنتج كل أول صيف، {بِإِذْنِ رَبِّهَا} تعالى، حيث يسمح لها تعالى أن تنتج الثمر، فهي لا تنتج الثمر بقدرتها الذاتية بل سبحانه جعلها هكذا، وتركها تعمل مثلما صمّمها وخلقها، وكذلك الكلمة الطيّبة، ينتج منها الثمر في حينه، والتطبيق العملي لهذا التشبيه هو ما ينتج عن الكلمة الحسنة من بعد قولها.

الآية هنا تبني كلامها على مفهوم قرآني لمضاعفة الثواب على الحسنات، على أساس الأثر الطيّب الذي نتج عنها، خذ مثلاً مساعدة فقير بمبلغ من المال، فهذا عمل واحد، ولكن ينتج عنه حسنات حيناً بعد حين، فكلما قام ذلك الفقير بعمل حسن ونال عليه ثواباً، أنت ستنال حصّة ثواب أيضاً، لأنك أعنته على الاستمرار في حياته فلك ثواب كلما فعل هو حسنة، ولا ينقص من ثوابه أي شيء، وأنت لا تأخذ من حسناته بل لك حسنات خاصة بك ناتجة عن حسناته... وكلمة التوحيد "لا إله إلا الله" عمل واحد، ولكن حيناً بعد حين ينتج عنها حسنات، لأنّ أي عمل عادي تقوم به، فسوف يتم تسجيل حسنات عليه، كالتنفّس وشرب الماء والمشي للعمل والقراءة... كلها تصير أعمالاً عليها حسنات لأنك مؤمن عامل للصالحات... والشجرة عادة عند حلول موسمها السنوي تنتج الثمر لمرة واحدة، وأمّا الحسنات فتنتج ثواباً كلما كان للعمل الحسن علاقة به، فالذي تعلّمه الصلاة، كلّما صلّى فلك ثواب من صلاته، طبعاً لن ينقص من حسنات من صلّى أي شيء ليذهب إليك، لا، فهو يأخذ حسناته كاملة وأنت تأخذ حسناتك من تعليمه للصلاة...

{وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ}، يقول لنا أشياء حتى نفهم أشياء أخرى، مثلما هنا قال لنا تعالى عن الشجرة العادية الجيّدة التي نعرفها حتى نفهم بسهولة كيف يمكن للكلمة الطيّبة إنتاج حسنات كثيرة، فيقول تعالى الأمثال، التشابيه، {لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

يَتَذَكَّرُونَ}، فمن المفروض ومن المتوقّع منهم أن يستحضروا في أذهانهم وعقولهم الشبه بين الشجرة الطيبة والكلمة الطيّبة، وبالتالي يستحضروا في فكرهم أنه من مصلحتهم أن يقولوا كلمة طيّبة ليحصلوا على ثمار هائلة من الحسنات.

(وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ {26})
{وَمَثَلُ}، وشبه، {كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ}، شيء تقوله موصوف بأنّه عاطل فاسد سيّئ، {كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ}، كنبتة لها جذع وأغصان ولكنها فاسدة لا يصدر منها ثمارٌ ولا عليها ورق للتظلل ولا تأكلها الحيوانات... لأنها يابسة ومنخورة بالسوس والديدان... {اجْتُثَّتْ}، اقتلعها أحد ما من فوق الأرض ورماها، {مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ}، لم يكن لها أي ثبات أي ارتباط بالأرض التي كانت تثبّتها في مكانها.

لنقل إنّ أحداً ما نصح الآخرين بترك الصلاة، أو بفعل فاحشة أو بالتعامل بالربا... فهذه خبائث، وبالنظر لما له قيمة، فهذه الخبائث كالشجرة الخبيثة التي نخرتها الديدان ويبست فلا نفع منها.

ضع في بالك أنّ الآية لم تقصد أيّ شجرة بعينها من الأشجار التي نعرفها في الدنيا، حيث إنّ أيّ شجرة لا تنتج ثمراً لأنها عفنة نخرة... فهي خبيثة. عندما تنتبه لمعنى كلمة خبيثة وأنّها غير طيّبة غير جيدة ولا يصدر عنها شيء محبوب، فستنتبه إلى أنّ استعمالنا لكلمة "خبيث" حالياً، يحمل معنىً كريهاً أقوى من الذي يقصده العرب في كلامهم "القديم" وأقوى مما تقصده الآية، لأنّ الخبيث في استعمال القرآن يقارب معنى كلمة "رديء" ومن تبعات ذلك أن يكون مكروهاً، ولذلك لا توجد شجرة نباتية في الدنيا توصف بأنها خبيثة بمعنى أنها مكروهة سيّئةً، حيث إنّ خباثة الشجرة وصف لانتهاء عمرها ونخر الدود والسوس لها... وأنها لم تعد تنتج ثمراً، وهي ليست مرغوبة لتركها في بستان تتوقع منه الثمر.

أنت تعلم أنّ القرآن لا يقصد بكلامه عرض تصنيف غريب علينا عن الطيّب والخبيث، والكلام هنا ليس عمّا يقوله تعالى من حلال وواجب وحرام، إن لم نجد شيئاً يقول القرآن عنه إنّه سيّئٌ فهذا لا يعني أنّه ليس سيّئاً، وصحيح أنّه سيكون مندرجاً تحت عنوان ما ولكن قد لا ننتبه لذلك، والكلام هنا وفي بقية القرآن عن الخير والصلاح والخبث والفساد... فهو عمومي لكل ما فينا قابلية تمييز خيره من شرّه، والذي هو نفسه السوء الذي ينهى تعالى عنه والخير الذي يأمر به.

المتخصصون يسهل عليهم عادة ردّ المصاديق إلى عناوين، إن تسألهم عن شيء ما إن كان حلالاً أو حراماً، فسيلحقونه بعنوان قرآني، لنقل إنّ أحدهم يعلم حدود أرضه، وبنى بيته متطرّفاً آخذاً من أرض جاره، فهذا شيء لم يذكره القرآن صراحةً، ولكن عنوان الاعتداء يشمله، ففي صريح القرآن الاعتداء حرام وعليه عقاب، وهذا معنى تفقّه البعض في دينه تعالى واعتماد الآخرين عليهم في الفتوى الوارد في الآية 122 من سورة التوبة {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}، ولكن هذا التفقّه للبعض لا يلغي أساس ما جعله تعالى فينا من قابلية تمييز الخير من الشرّ، وليس من الطبيعي أن تسأل عن كل ما ستقوله أو تفعله إن كان حراماً أو حلالاً، إذ أكثره تعلمه لوحدك، وليس مقبولاً أن تتلقّف وتبلع كل ما يقولونه لك أنّه أمر إلهي، لأنك ستتحاسب إن لم تفكّر به لتعلم إن كان خيراً أو شرّاً، وإلا فهل عالم السوء، الذي يدّعي أنّه يعلم بدينه تعالى ويفتي من هواه السيّئ، هل يحقّ لنا اتّباع ما يقوله على العمى لأنه متفقّه ويحفظ القرآن ويلبس لباساً تصميمه قديم، من عمامة أو قلنسوة أو عباءة أو ملاية... وبذلك حتى لو فعلنا السوء متّبعين قوله فسبحانه لن يحاسبنا؟ لا.

الكلمة الطيبة معيارها عندك أولاً، وعلى أساسها ستؤمن بقرآنه تعالى الذي ستراه لا يعرض عليك إلا الطيّب كما تقول الآية 24 من سورة الحج {وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ}، وبناء عليه أيّ شخص يقول كلامه مدّعياً أنّ كلامه طيّب ومستخرج من القرآن، فهذا لا يعني أن تعطّل ما فيك من قابلية لتمييز الخبيث من الطيّب لتؤمن بكلامه وتنفّذه، لا.

أطلت عليك لأن علماء المذاهب كلّهم يدّعون أنّ كلامهم طيّب وكلام الآخرين خبيث! وأنت كتابع لهم وغارق في المذهبية بإرادتك ستعطّل قدرتك على تمييز الخير من الشرّ، وصولاً إلى حالة الغباء الأعمى بقبول فتاوى قتل المسلمين الأبرياء...

هنا كلام الآيات مبني على هذا المفهوم، حيث إنّ الكلمة الطيبة والخبيثة معلومة بالأساس، ونصير أمام العمه والتيه عندما ننغمس في حبّ الدنيا وزينتها لدرجة حبّ السيئات، وحبّ التميّز الناتج عنه التمذهب كرهاً بالآخرين... فهو من حبّ الدنيا، وعندها لن نميّز بين الخبيث والطيّب.

(يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ{27})
نكمل مع تشبيه الإيمان بالشجرة الطيّبة:

{يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بدينه تعالى يثبتهم تعالى فيجعلهم مستقرين لا يتغيّرون، {بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، قول الإيمان الذي يقوله المؤمنون هنا في الحياة الدنيا فهو القول الثابت الذي مثل جذور الشجرة الطيّبة، {وَفِي الْآخِرَةِ}، أيضاً يثبّتهم سبحانه بقول ثابت، حيث لا تغيّر في وعوده تعالى لهم بالحسنات والجنّة.

بعبارة أخرى، هنا في الدنيا وصل للناس كلام إلهي ثابت، فعلاً يتوافق مع الواقع وهو حقيقي صادق، من ناحية العقيدة كتوحيده تعالى وصدق رسله وكتبه... وحصول آخرته تعالى... ومن آمن بقوله تعالى فهو مثبّت على شيء فعلاً ثابت، وإذا قارنتها مع الأقوال النابعة عن الهوى وهي كاذبة ولا توافق الواقع... ككلام الكفّار، فسترى أن الثبات على كلام كاذب نتيجته في أحسن الأحوال كرماد اشتدّ به الريح فنثرته، وكشجرة خبيثة لا استقرار لها، وبالعكس، ثبات المؤمنين على كلام ثابت في الدنيا، على الكلام الإلهي الحقّ الصحيح، وفي الآخرة سيكون ثباتهم أيضاً على كلام صحيح حقيقي، لأنهم موعودون منه تعالى بالأجر بالجنّة وبتأكيد إلهي سيحصلون عليها.

{وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ}، الذين لم يكونوا عادلين ولا منصفين حين كفروا، حيث لم يكن معهم حقٌّ أن يكفروا بالدين الواضح أنه صحيح، فسبحانه يضلّهم ولا يضعهم على الطريق الصحيح، وهنا تلاحظ أن أعمال الكفار حتى لو كانت موصوفة بأن البعض منها حسن، كصدقة على فقير أو مداواة مريض... فهي لن توصل الكافر إلى أي نتيجة طيّبة جيّدة، ولن يفيده عمله عنده تعالى.

{وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ}، أمامه تعالى خيارات عديدة، وأخبرنا سبحانه عن اختياره لهذه القرارات، وجملة: يفعل سبحانه ما يشاء، تعني أن هذا الذي تقرأونه فهو قراره تعالى.

لاحظ، أنك لو قطعت جملة "يفعل الله تعالى ما يشاء" عن سياق الكلام الذي حولها وقطعتها عن كل المفاهيم القرآنية، فقد تفهم منها أنه تعالى حرٌّ ويمكن أن يرمي المؤمن في النار والكافر في الجنّة. ولكن هذه الجملة في القرآن غالباً "أو دائماً" كانت في سياق يدلّ على ما شاءه تعالى، حيث لم تكن مطلقة وتقصد أنه تعالى لم يقرر بعد ماذا سيفعل، وقد يفعل هذا أو ذاك العمل، لا، فقد قرّر سبحانه كل ما سيفعله من قبل خلقه لما في الدنيا، ومن بعد ذلك جرت الأمور بحسب ما قرّر سبحانه، والآية هنا مثال عن القرار الإلهي بتثبيت نتائج الإيمان وإحباط نتائج الكفر، وهذا الذي شاءه الله تعالى، وفعل ما شاء، فجعل الكفر حابطاً لأي حسنة والإيمان ثابتاً.

في الكتب تجد كلاماً طويلاً وأبحاثاً عن مشيئته تعالى، وهي بغالبيتها الساحقة من نوع الاستغراق لدرجة الترف الفكري، وأكثر كلامهم الذي يستشهدون له بآيات من القرآن عن مشيئته تعالى، يصير فارغاً من المفاهيم القرآنية حين تلتفت أن كلمة مشيئة ليست إلا وصفاً لخيارات عديدة قرّر تعالى واحداً منها. ضع هذا في بالك وسيغنيك عن ذكري لك ما قالوه مطوّلاً وناقشوا به بينهم عن المشيئة.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللّهِ كُفْراً وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ{28})
{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت، {إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا}! الأشياء الموصوفة بأنها نعمة بأنها نافعة جيّدة والتي أتاحها تعالى للناس، حيث إنّ البعض منهم بدّلوا تلك النعمة بالكفر بالإنكار! والإيمان بالله تعالى هو نعمة لأنه ينتج عنه حسنات، وتبديله بالكفر عمل سيئ لا منفعة منه، ولكن الآية تشير إلى كل نعمة نحن فيها، بداية مع خلقنا وحياتنا ووعينا وفكرنا وجسدنا وأحاسيسنا...

لذا يجب أن يشكروه تعالى على تلك النعم، ولكنهم بدّلوا هذه النعمة الإلهية بالكفر وأنكروا ألوهيته وفضله سبحانه عليهم! وعلى هذا المعنى فهمنا الآية 82 من سورة الواقعة {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}.

{وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ}، وجعلوا الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الدين الإلهي وهم من جمعتهم، جعلوهم في، {دَارَ الْبَوَارِ}، في مكان تدور فيه شؤون حياتهم وهو بائر، غير معمور بما فيه الخير لساكنيه، لا نبات ولا بيوت ولا متاع ولا راحة... وهي جهنّم كما ستقول الآية التالية.

بعبارة أبسط، التفت إلى أناس أنعمنا عليهم بكل شيء، بخلقهم، بجعلهم بشرًا، بإعطائهم الإمكانيات العقلية والجسدية، بمنحهم البيئة الأرضية من حولهم بتربتها ونباتها وحيواناتها... بالهداية إلى عقيدة صحيحة ينبع عنها الالتزام بشريعة صالحة... لذا من المفروض أن يؤمنوا بالإله الذي فعل كل شيء جيّدٍ وأن يشكروه، وعمليا هو التزامهم بدينه تعالى، ولكنهم أنكروا نعمه تعالى عليهم، فكفروا وجعلوا له تعالى شركاء! وبعد أن كان قومهم يعيشون معهم في النعمة الإلهية صار الجميع يعيشون في ديار خربة، وسترى من الآية بعد التالية أن الكفّار الذين أسّسوا الكفر، وأشاعوه، وروّجوا له، جعلوا قومهم كفّارًا وأسكنوهم {دَارَ الْبَوَارِ} وهي جهنم كما ستقول الآية التالية.

(جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ {29})
{دَارَ الْبَوَارِ} هي، {جَهَنَّمَ}، المكان الموصوف بسوء ما فيه، حيث فيها النار المتأججة، {يَصْلَوْنَهَا}، يقفون أمام النار المتأججة، ويتعرّضون لنارها، {وَبِئْسَ}، ويا لسوء وما أسوأ هذا، {الْقَرَارُ}، المكان الذي استقروا به فثبتوا فيه.

الآية هنا والتي سبقتها تقصدان من كان يعيش في "دار" النعمة الإلهية هنا، وكفر بها، فمصيره ومصير من يتبعه ويؤيّده إلى "دار" السوء إلى جهنم، لذا التفت لهذا، وما رأيك! هل هذا جيّد؟

(وَجَعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ {30})
{وَجَعَلُوا}، هؤلاء الناس الذين بدّلوا نعمة الإله بالكفر به وأسكنوا قومهم في جهنّم، جعلوا {لِلَّهِ أَنْدَادًا}، حيث جعلوا مساوين له مماثلين له سبحانه في الألوهية والربوبية! فهو تعالى يقرّر ويخلق... ويقول المشركون إنّه هناك آخرون يقررون شيئًا آخر! واخترعوا له تعالى شركاء أندادًا أي مساوين له تعالى في الألوهية! من الأصنام والملائكة والجن والأرواح... {لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ}، ليجعلوا الناس تضلّ فلا تمشي على المسلك الإلهي.

لاحظ، حيث إنّ الآية على صيغة الاستغراب من تصرّفات الذين اخترعوا آلهة، وهكذا من رأسهم جعلوا لله تعالى شركاء! والهدف هو إضلال الناس! والسورة للفت الانتباه للبلاغ الإلهي الصحيح، وهنا نرى في مقابل البلاغ الإلهي، نرى أناسًا يقومون باختراع آلهة وإبلاغ الضلال للناس!

{قُلْ} لهذه النوعية من الناس:

{تَمَتَّعُوا}، انتفعوا بالدنيا، بالوجاهة بالرئاسة باتباع الناس لكم... {فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ}، لأنّ نهايتكم التي لن تتغيّر وستبقون عليها، {إِلَى النَّارِ}، إلى مكان التعذيب في الآخرة الذي فيه حرارة عالية، وهذا خبر إلهي عن نتيجة الكفر.

يعني هو كلام موجّه للكفّار، فهل تساوي النار الخالدة ما تتمتعون به هنا في الدنيا؟

كثيرًا ما يذهب فكرنا لفهم كلمة {ضَلَّ} كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيرًا أم شرًّا، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فَضَلَّ عنك صيدها. واستعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، ولم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، لذا لن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون لأنه ليس على طريقهم، بل ضالٌّ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردًّا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

بقي شيء، وعادة يحاول قرّاء القرآن التماشي مع معاني الجمل، فيقرؤونه بصوت حزين عند الكلام عن العذاب، وصوت ضخم عند التهديد، وصوت رقيق عن بشارة الجنّة... ولكن بطريقة التجويد الدارجة في عصرنا يستصعبون التماشي مع العديد من أنواع التعابير، لأنّ صيغة السؤال أو التعجّب أو الاستفهام أو الاستهزاء... لها تعابير واضحة في كلامنا العادي، وفي الكتابة نستعيض عنها بالرموز "؟، !...".

في ما يسمّونه بقراءة الترتيل يكون إظهار تعابير الجمل من الصوت أسهل، وأحيلك كنموذج عن ذلك محاولة واضحة من القارئ الطبلاوي لإظهار تعابير الاستفهام والتعجّب و... والاستغراب الوارد هنا في الآية واضح من سياق الكلام، ولكن قد لا يظهر من القراءة غير التعليمية، فلو كنت تتلوها لتعليم الآخرين لتشرح معناها، فبسهولة ستستعمل نمطًا صوتيًّا يفيد الاستغراب، وهذا شيء تسمعه من المدرسين لتفسير القرآن من دون الانتباه له.

(قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ{ 31})

هنا نحن في الدنيا لم نَرَ من الإله سبحانه إلا كلّ نعمة، وإذا حصلت معنا النقمات فهي من الناس ومن تصرفاتنا السيئة، فكيف يكون التصرّف الصحيح لمن يعيش في النعمة الإلهية؟

{قُلْ}، عبر هذا القرآن، {لِعِبَادِيَ}، للذين مفروض منهم طاعتي، قل لعبادي {الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بديني:

{يُقِيمُوا}، يفعّلوا فلا يهملوا أو يتركوا، {الصَّلَاةَ}، التوجّه الإقبال، وسياق الكلام عن العباد فيكون عن توجّههم نحوه تعالى بالذكر، والصلاة بشكل عام هي أي نوع من التوجّه نحوه سبحانه بالكلام للتسبيح والحمد وبالحركات التي تعبّر عن الخضوع والاحترام، ولكن عندما يتحدّث القرآن معنا عن إقامة الصلاة، فهو يقصد ما صار مصطلحا عليه للحركات وللكلمات التي نعرفها باسم: الصلوات اليومية الخمس الواجبة، وهي الفجر والظهرين والعشائين.

وقل لعبادي: {وَيُنْفِقُوا}، يصرفوا، {مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ}، من الأشياء التي صارت معهم منّا ليسدّوا بها حاجتاهم ورغباتهم، وأهمّها الأكل الذي يبقيهم أحياء، والقصد واضح فهو الإنفاق منها على الفقراء والمحتاجين، {سِرًّا}، من دون أن يعرف بها بقيّة الناس، ولينفقوا، {وَعَلَانِيَةً}، أمام الناس فيراهم الآخرون يتصدّقون.

يعني أنفقوا على كل حال، فلا تقولوا: لم ننفق لأننا لم تسنح لنا الفرصة أن ننفق بالسرّ ونحن لا نريد أن ننفق أمام الناس. لأنّ نفسية الذي أنفق "رياء، حبّ ظهور، تكبّر..." هي المشكلة ولا يوجد مشكلة عنده تعالى بالإنفاق علنا.

فليصلّوا ولينفقوا، {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ} لا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ، فليستغلوا الفرصة هنا في الدنيا لاكتساب الحسنات عبر الصلاة والإنفاق، قبل أن يأتي زمن الآخرة من يوم القيامة وما بعده والذي {لَا بَيْعٌ فِيهِ}، وبالتالي لا يحصل فيه شراء أيضا، فلن يبيعك أحد ما حسنات، وليس فيه، {وَلَا خِلَالٌ}، خلّة، وهي محبّة للآخر لدرجة حبّ التواصل معه منفردا، وتقرأ نفس المعنى في الآية 254 من سورة البقرة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ...}، فلو أحد ما هنا كان خليلك، فكان يحبّ الاكتفاء باللقاء بك لوحدك لتنفردا، فهناك حتى خليلك ينساك ولن ينفعك إن لم تكن قد حملت معك حسنات.

على الصعيد الشخصي يمكن هنا فعل ما ينفعك في آخرتك فتصلّي، ويمكنك التعامل مع الآخرين لتحصل على الأشياء الجيدة التي تنفعك في الآخرة، فتنفق على المحتاجين، فاستفد من هذه الفرصة، لأنه سيأتي يوم لا يمكنك الاستفادة فيه من مالك الذي جمعته لأنك في يوم القيامة لن تجد من يبيعك ما تحتاجه وتريده، لا مسكن ولا طعام ولا شراب... للبيع هناك، ولن تتمكّن من شراء الحسنات، ومن ناحية ثانية فلن تنفعك محبّة الناس إن لم تكن لديك حسنات، فلو كان للكافر أولاد كلهم رسل وأنبياء وشهداء، ويحبّهم، فلن ينفعوه في الآخرة، فحتى لو كان الكافر لديه أخلاء من أصدقاء أو أقرباء يحبونه هنا في الدنيا، فلن ينفعوه هناك في الآخرة ولن يكونوا له أخلاّء بل سيكونوا له أعداء كما نفهم من الآية 67 من سورة الزخرف {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ}، فالمتقون فقط يبقون في الآخرة أخلاء لبعضهم.

نلاحظ حديث آيات في سور كثيرة من القرآن عن الإنفاق والصلاة أكثر مما تحدّثت عن الأمور الواجبة الأخرى "التي هي أصلا قليلة كواجبات دينية"، وأحيانا تتحدّث عن الصلاة وتستبدل الإنفاق بالزكاة، وبسهولة ترى قصد القرآن من هذين النموذجين ناحيتين، ناحية انعكاس دينه تعالى على المستوى الفردي، فالصلاة "تقريبا" عمل فردي كشيء خاص بكل واحد منّا، وانعكاس الدين على المستوى الاجتماعي، فالصدقة يستفيد منها الآخرون، وأنت تعلم أهمية التكافل الاجتماعي. وهكذا يعرض سبحانه دائما الناحيتين علينا لننتبه أن دينه تعالى، الإيمان، ليس عملا محصورا بالفرد، بل له آثار على الآخرين.

وتذكّر دائما أن الصلاة والإنفاق مجرد نموذجين يختصران أهم ما في دينه تعالى، فبدل ذكر القرآن لكل ما أوجبه تعالى عليك، يستعيض عنه غالبا بنموذج الصلاة، والإنفاق.

وبالتحليل المدعوم بالواقع، ترى أن الأمور التي يمكن تسميتها بأنها دينية زائدة عن السلوكيات العادية للإنسان، ويأمر بها تعالى، فهي الصلاة والصوم والحجّ، وذكر اسمه تعالى عند ذبح أو نحر الماشية، ولا يخطر ببالي أي شيء آخر أضيفه لهم، وأما بقية الأمور التي يجب فعلها وعلى تركها عقاب، أو التي يجب تركها وعلى فعلها عقاب، فكلها عادية معلومة لنا بما فينا من قابلية تمييز الخير من الشرّ والحقّ من الباطل، وخذ مثلا قتال الأعداء فهي بالأساس ليس أمرا دينيا، بل تعرف لوحدك وجوبه، ولم يعرضه عليك القرآن أصلا كأمر غريب عجيب منه تعالى ومخالف لطبيعتك البشرية لتقاتل الأعداء فقط لأنه أمر إلهي، فهذا معارض لما يقوله القرآن بل أصلا لم يقله بهذا الشكل.

وبالنسبة للزكاة فهي ضريبة دينية، ولكنها من الأمور العادية البشرية والمنتشرة بعناوين وفلسفات متنوعة وتمارسها كل الدول، فتأخذ ضريبة من المواطنين لنسنعين بها على المصاريف العامة ولمساعدة المحتاجين من المواطنين...

وننتبه جيدا، لأنّ ما تجده من كلام حول الزكاة أنها صارت واجبة في المدينة من بعد هجرة الرسول محمّد(ع) إليها، وأن السور التي نزلت قبل ذلك في مكّة فهي تتحدّث عن الإنفاق المستحب، ومنها سورتنا هذه، فهذا خطأ وقع فيه الكثيرون لأنهم لم ينتبهوا أن الصدقة واجبة دائما عندما يوجد محتاج لها وأنت قادر على مساعدته، وما يتحدّث عنه القرآن بالإنفاق والصدقة والزكاة... فهي كلها تعابير عن مساعدة من يحتاج للمساعدة، فالزكاة إنفاق وهي واجبة من العفو والخير... ومضافا لها فمساعدة من يحتاج للمساعدة واجبة دائما حتى من بعدما تدفع الزكاة.
إذن، كل الآيات التي تتحدّث عن الإنفاق فهي لا تتحدّث عن شيء مستحب، بل يجب دائما مساعدة من يحتاج للمساعدة، والزكاة واجبة في دينه تعالى منذ القدم، كحرمة السرقة التي لم تذكرها السور التي نزلت قبل الهجرة، فهل كانت حلالا وصارت حراما بعد الهجرة؟ ونفس الكلام عن الخمر والزنا...

(اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ {32})
الآيات السابقة تحدّثت عن النعم الإلهية المتاحة لنا، والتي يجب أن نشكره تعالى عليها عبر توحيده وطاعته... وقبل قليل تحدّثت الآية عن الأمر الإلهي للمؤمنين بالصلاة والإنفاق، هنا الآية ستلفت الانتباه لكل ما سبق مربوطًا ببعضه كما يلي:

{اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، هو، {الَّذِي خَلَقَ}، ركّب وألّف، {السَّمَاوَاتِ}، السبع، {وَالْأَرْضَ}، التي تقابل كل سماء وصولًا إلى أرضنا، وهذا تعبير قرآني يشير إلى كل ما في دنيا المخلوقات. ولمزيد من التوسع حول تعبير "السماوات والأرض" راجع دراسة الآية الثانية من هذه السورة.

والله سبحانه، {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}، حيث جعل الماء ينزل من الفضاء الذي فوقكم من الغيوم التي تسبح فوقكم، لأنها لم تنزل بالصدفة، ولا أنزلتها الطبيعة كآلة تعمل لوحدها، بل الذي ركّب وألّف الأرض، جعل لها سماء يجتمع فيها بخار الماء ويتكاثف لينزل على شكل مطر، {فَأَخْرَجَ بِهِ}، حيث بالماء النازل من السماء أخرج سبحانه، {مِنَ الثَّمَرَاتِ}، من نتاج النباتات، وما ينتج عن النبات وتتغذّى به عموم الحيوانات، {رِزْقًا لَكُمْ}، أشياء تصير معكم منه تعالى لتسدّوا بها حاجاتكم ورغباتكم، وأهمّها ما تأكلونه لتحافظوا على حياتكم.

{وَسَخَّرَ لَكُمُ}، حيث جعلها لتستفيدوا منها بدون أي مقابل منكم، لأنكم وجدتموها قابلة للاستفادة منها، {الْفُلْكَ}، وهي الأشياء التي تعوم على الماء للنقل والسفر، من المراكب والسفن والقوارب والفلوكة... وأنتم لم تتدخلوا بأي شيء لتجعلوا السفن تعوم على الماء، بل لاحظتم عوم الأشياء على الماء فقط، وبالفكر الذي منحكم الله تعالى إياه خطر على بالكم استخدام ظاهرة عوم وطفو الأشياء على الماء لتصنعوا السفن والمراكب، {لِتَجْرِيَ}، لتنتقل بالتتابع، لتسير الفلك من سفن وقوارب، {فِي الْبَحْرِ}، في تجمعات المياه الكبيرة، {بِأَمْرِهِ}، سبحانه وتعالى.

لم يكن اكتشافكم للطفو على الماء صدفة، ولم يكن شيئًا لم يقصده سبحانه، لذا لنقل إنّه تعالى خلق البحر والخشب، ولكن لم يخطر "بباله" عزّ وجلّ أننا سنصنع من الخشب عوامات على الماء، ونحن بذكائنا "لوحدنا"، مزجنا بين خواص عوم الخشب على الماء لنكتشف شيئًا لم يكن على "بال" الإله عزّ وجلّ، لا، فهذا كلام فارغ يقوله بعض الناس صراحة أو من دون انتباه، أمّا الحقيقة التي يلفت القرآن انتباهنا لها فهي أنّنا لن نكتشف أيَّ شيء جديد لا يعلم بحصوله تعالى، بل استخدام كل ما حولنا بأشكال مختلفة، لأنها إمكانيات لا يعلم بها إلا الله تعالى، ونحن نكتشف شيئًا فشيئًا تلك الإمكانيات، حيث هناك الكثير الكثير من الإمكانيات من حولنا، ونحن "وعلى ما يبدو" إنّنا نستخدم القليل منها، وما جعله تعالى في الطبيعة مما يمكننا استخدامه فعدده هائل جدًّا، ومنذ عهد قريب جدًّا تعلمت البشرية استخدام الطاقة النووية، وقبلها تعلمت استخدام النفط، وقبلها استخدام الفحم، وقبلها استخدام الخشب للنار... والفلك مجرد نموذج عن منشأة أو آلة نصنعها وهي بالأصل نتيجة التخطيط الإلهي لمخلوق أعطاه تعالى هذا الفكر في هكذا بيئة.

{وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ}، المياه الجارية في مسالك، وأشهر استخدام للأنهار أنها مياه حلوة للشرب ولري المزروعات والماشية والاستحمام والتنظيف... وصولًا إلى استعمالها للنقل، وبعده لاستخراج طاقة حركية منها وتحويلها لطواحين للحبوب، وبعدها تحويل طاقتها الحركية لكهرباء... وأنتم لم تصنعوا الأنهار بهذه الخصائص بل وجدتموها هكذا كما هي في بيئتكم وفيكم ما يدفعكم لاستخدام خصائصها.

كلمة "بحر" في اللغة العربية تشمل المياه المالحة وتشمل أي كميّة كبيرة من المياه حتى لو كانت حلوة، كالبحر المتوسط والمحيط الأطلسي ونهر النيل والسان لورون والرين... وكلمة نهر مخصصة للمياه التي تجري فتسير، وتشمل الأنهار الكبيرة والصغيرة.

هذا مثال عن نعمة مترابطة: ماء من السماء لإنبات النبات، ونتاج ثمر نباتي وحيواني... وماء على سطح الأرض للتنقّل ونقل الأغراض وللشرب... لذا يجب أن تشكروه سبحانه على هذه النعم، وأبرز تعبير عن ذلك يكون عبر إقامة الصلاة... وعندما يأمركم سبحانه بالإنفاق من الرزق، فإنما يأمركم بالإنفاق من أشياء هو تعالى منحكم إيّاها.

ننتبه جيّدًا، حيث إنّ القرآن كثيرًا ما أراد لفت انتباهنا لدلالة ما فينا وحولنا على مصمّم قصد ما يحصل معنا، وأنه لا معنى ولا تفسير لما يحصل معنا إلّا أن نراه سبحانه كمصمّم مخطّط خالق لها لتكون هكذا، وما معنى عملية تبخّر المياه لتصير في الفضاء لِتَسْقِيَ النبات الذي ينتج عنه ثمر، نأكله نحن ونتغذّى به؟

تصوّر نفسك أنت قرّرت خلق كائنات، وستجعلها في بيئة مناسبة لها، وكلما كانت قدراتك أعلى كلما زادت التفاصيل في كائناتك والبيئة، وصمّمتها تتكاثر بالتناسل... وتجوع لتتغذّى وتنمو... وهل ستخلق لها الغذاء فورًا أمامها كلما جاعت أم ستجعله ينتج عن بيئتها؟ وفي حالتنا نحن وهل سنجد وجبات الطعام الجاهزة تنبثق في الهواء كلما جعنا، أم سنجدها تنتج من بيئتنا؟ ألا تكون أنت رازق الكائنات إذا جعلت بيئتها ينتج عنها الرزق؟ أم لن تؤمن به تعالى رازقًا إلا إذا وجدت الطعام فجأة وبدون سبب أمامك؟ وهذا ما أراد القرآن لفت انتباهنا له بكلامه عن رزقه تعالى لنا، ومضافًا لذلك أراد لفت انتباهنا لتناسب بيئتنا مع خصائصنا، إذ لا علاقة لفكرنا وقدراتنا بما نجده في بيئتنا، وما علاقتي بعملية حصول ثمار للنبات لآكلها وأتغذّى بها؟ ولأرغبها وألتذّ بطعمها ولونها ورائحتها، وتغذّيني! هذا من جانب ومن جانب آخر وما علاقتي أنا بالفكر والخيال الذي أتمتّع به؟ وهل أنا منحته لنفسي؟ وهل أنا منحت لنفسي ما حولي من مواد وأشياء وخصائص فيها... ومنحت لنفسي قابلية استخدام ما حولي لتسهيل وتطوير أسلوب حياتي؟

بقي شيء، حيث هناك نظرة من الناس عمومًا عن تشجيع الدين على التخلّف، حيث يصوّرونه كدين رجال أجلاف قساة صِلاب... ودين يأمر بلبس الثياب القديمة، ورخي اللحية، وصبغها بالحنّاء... وحمل السيف وركوب الحصان... ووضع المرأة في كيس أسود... بينما نرى القرآن يرتقي بنا إلى عقلية حكيمة في التعامل مع كلّ الأمور الفكرية والعقائدية

والتشريعية والسلوكية، ويلفت انتباهنا لأهم اختراع بشري في تاريخ نزوله، إلى صناعة السفن، وأنت تعلم ببعد مكّة والمدينة عن البحر، وأزيدك علمًا بـكره عموم سكّان عمق الصحراء للبحر، ويأتي محمّد ابن عبد الله(ع) ليلفت انتباههم للسفن التي ولحد علمنا أنّه (ع) لم يركبها في حياته، بل ربما لم يشاهدها، وليس في منطقته ولا في المجال الذي سافر به إلى الشام، نهر تسير فيه السفن... ورغم ذلك يقول بعضهم إنّ محمّدًا مصلح اجتماعي ألّف القرآن! شيء مضحك فعلًا.

إذًا، آيتنا هنا نموذج عن دفعه تعالى لنا لمعرفة آلية حدوث الأشياء، وهذا ما نسمّيه بالبحث العلمي، ويدفعنا إلى تسخير ما حولنا لفائدتنا وما الفلك "السفن" إلا نموذج عمّا يمكننا صنعه، ولو كان في زمن نزول القرآن آليات السيارات والطائرات والقطارات... لذكرها القرآن كنماذج عمّا جعله تعالى لنا.

(وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ{33})
مضافاً لتسخير الفلك في البحر والنهر لكم: {وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ}، هما جرمان "شيئان" في السماء وبعيدان جداً عنّا، ونستفيد منهما بالضوء والدفء، ونحسب أوقاتنا بواسطتهما... ونحن لم نقدّم لهما أي شيء، فلم نصنعهما، ولم نخطط لمسارهما... ونحن فقط نستفيد منهما، حيث في مثال تسخير الفلك، ستقول إننا نحن بنينا السفينة، أمّا في مثال الشمس والقمر، فمن الواضح أننا نحن فقط نستفيد منهما للضوء والحرارة ولم نفعل أي شيء بتاتاً، وستفهم جيداً أن ما حولنا جرى تسخيره لنا عن قصد ونحن في بعض الأحيان تدخّلنا لاستعمال ما حولنا عبر استخدامنا للفكر والخيال اللذين منحهما تعالى لنا ومنهما نصنع الأدوات والآلات.

سخر سبحانه الشمس والقمر لكم، {دَائِبَيْنِ}، بشكل مستمر يقدمان الضوء والتوقيت والحرارة والمدّ والجزر... قارن ذلك مع مصادر الطاقة من الآلات التي نصنعها، والتي تحصل فيها أعطال وتوقّف عن الإنتاج... فالشمس والقمر دائبان في تقديم ما نستفيد منه، ويقدمانه لنا بلا انقطاع.

{وَسَخَّرَ لَكُمُ} أيها الناس، {اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}، ظاهرة فترة العتمة من اليوم "الليل" وظاهرة فترة الضوء من اليوم "النهار" لم تحدثا بالصدفة، وتكرارهما الدائم ليس بالصدفة، وتحرككم بالنهار واستراحتكم بالليل لم يكونا صدفة... وكل ما يتعلّق بما حولنا لم يحصل بالصدفة، فكل شيء معلوم مقصود منه سبحانه، وهناك أشياء نمشي معها ونتعامل معها ونستخدمها دون أن ننتبه لها أحياناً، كالشمس والقمر والمطر والليل والنهار... وهناك أشياء مع الوقت انتبهنا لطرق استخدامها، كبناء السفن وطاقة الرياح والطاقة الشمسية... ويكتفي القرآن بالكلام عن نماذج واضحة جداً، ويمكنك تعميم المفهوم على بقيّة الأشياء التي أنعم بها تعالى علينا، على السيارات والطائرات والآلات الطبية.

(وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ{34})
{وَآتَاكُمْ}، وصار معكم منه سبحانه، {مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ}، عبرتم عن إرادتكم للحصول منه تعالى على بعض الأمور وصارت معكم، حيث سألتم عن طريقة سهلة للانتقال بالبر، فاستخدمتم الدواب، وبعدها اكتشفتم صنع العربات... وسألتم عن الانتقال بسرعة أكبر على البر والبحر، فاستخدمتم النفط والكهرباء...

ننتبه جيداً، الآيات لم تكن تتحدث عن الدعاء والاستجابة، بل عن الحاجات التي نسأل عن تحقيقها عبر استخدام ما حولنا من النعم الإلهية، حيث تسأل عن إمكانية الطيران، وتجرب، فتحصل على الطائرة، وليس كل ما تسأل عنه تحصل عليه، بل "من" كل ما تسأل عنه ستحصل "على" شيء، وهذا معلوم فهو واقع الحال، وعندما تسأل عن إمكانية استخدام وسيلة للانتقال ونقل الأشياء، فتحصل على الجمل والحصان أولاً... وبعد ذلك على العربة... وبعدها على الآلة البخارية... وبعدها على مركبات الاشتعال... وسيأتي في المستقبل ما هو أفضل منها بكثير، فليس من المنطقي أن تحصل على ما سألت أول مرة من الآخر، ولكن ستحصل على الأشياء بالتدرج.

{وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ}، فإذا قررتم تعداد الأشياء الجيدة التي منحكم الله تعالى إياها، فتقول: منحني الحياة والجسد والمشاعر والأحاسيس والغريزة والطعام والشراب والمعرفة... {لَا تُحْصُوهَا}، فلا يمكنكم إحصاؤها ولا يمكنكم الوصول لنهاية تعدادها، لأنها كثيرة جداً جداً، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فهناك نعم تعيشون فيها ولم تلتفتوا لها،

وفوق قدرتكم على الالتفات لها، وتلاحظ أنني لا أستطيع أن أضرب لك مثلاً عن نعمة لا يمكنك إحصاؤها، لأنه بمجرد أني أعرفها استطعنا إحصاءها، ولكن يمكننا أن نفكر في أشياء لم نكن نعرفها من قبل قديماً وعرفناها حديثاً، حيث كانت نعمة مجهولة، كعلوم الطب والدواء والفيزياء والكيمياء والتعدين والهندسة... كثبات الذرة، وثبات بنية المواد، وقوة الجذب والكهرباء والمغناطيس... وثبات الخلية، ومقاومة الجسد للجراثيم... لذلك ننتبه للكثير الكثير من الأمور التي لم نكن نعرفها وعرفناها، وهكذا ننتبه للكثير الكثير من الأشياء التي لا يمكن أن نعرفها كلها الآن لأنها فوق قدرتنا على الفهم.

{إِنَّ الْإِنْسَانَ}، إن الغالب الأعم من البشرية، {لَظَلُومٌ}، فلا ينصف ولا يعدل، فما سمعناه عن النعم الإلهية من المفروض أن يجعل كل الناس تعطيه حقه سبحانه في العبودية عبر الطاعة، ولكن الإنسان ظلوم كثير الظلم، وأمام كثرة النعم الإلهية التي لا يمكننا إحصاؤها إن الغالبية كافرون به تعالى ولا يشكرونه.

{إِنَّ الْإِنْسَانَ} أي الغالب الأعم من البشرية، {كَفَّارٌ}، كثير النكران، لأن الكثير الكثير من النعم التي فينا وحولنا، بدل أن يشكر ويحمد الإنسان ربه تعالى عليها، فإنه ينكر فضله ونعمته تعالى، ولكثرة النعم الإلهية فإن الكفر بها هو كثرة كفر أيضاً ولذلك عبرت الآية بـ {كَفَّارٌ}، وهي صيغة مبالغة تصف كثرة الكفر الناتجة عن كثرة النعم المكفور بها.

ضع في بالك دائماً أن القرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعم من الناس، إما بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموماً ذكراً وأنثى، وأنهم يتناسلون... أو متعلق بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحب المال...

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ{35})

تذكّر توجيه السورة كلامها لعموم الناس عن نموذج كفار من ذرية النبي إبراهيم (ع) وهم إسماعيليو مكة، الذين نزلت هذه السورة بينهم وفي زمنهم فكانوا أوّل من خوطب بها، وفي بدايتها نقلت كلاما قاله الرسول موسى(ع) للفرع الآخر من ذرية النبي إبراهيم(ع)، لبني إسرائيل... فلنرَ ما كان عليه جدّ الإسماعيليين وبني إسرائيل "يعقوب".

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ}: {رَبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ}، هذا المكان الذي له حدود "وعادة له اسم"، {آمِنًا}، فاجعله يصير مستبعداً حصول الأخطار فيه، فيكون مستقراً ليس فيه حروب ولا نزاعات، وستعرف من الآية بعد التالية أن البلد المقصود هو مكة.

سترى بعد قليل أن النبي إبراهيم(ع) أصلاً كان يعلم أن الكعبة لها صفة "البيت الحرام"، فهي لها حرمة كونها بيتاً منسوباً له تعالى وجعل سبحانه لها حرمة في تشريعه فمنع فيها القتال... ومثلما أخبرنا تعالى عن حرمة الخمر والزنا والقتل... ولكنه تعالى ترك الناس على حريّة إرادتها، والبعض منهم يرتكب السوء، كذلك ورغم تحريمه تعالى للكعبة عبر التاريخ حصلت انتهاكات لهذه الحرمة، ولكن أيضاً ومن التاريخ تعلم أن مكة كانت أفضل حالاً بكثير من غيرها من البلدان.

اعتمدت الآيات هنا على معرفتك بأمور مشهورة أشار إليها القرآن في سور أخرى، فأهل مكة كانوا ينعمون بالأمان فيها بسبب تقديس عموم العرب للكعبة، واحترام عموم العرب للنبي إبراهيم(ع)، فتأتي الفقرة هنا لتذكّر الإسماعيليين وعموم العرب والناس، أن للكعبة حرمة دينية ترجع في تاريخها إلى آلاف السنين إلى عهد النبي إبراهيم(ع) الذي له ارتباط بها...

نكمل مع كلام النبي إبراهيم(ع): {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ}، فأبعد عني وعن أبنائي وأبنائهم... {أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ}، فلا نتصرّف على أساس أن المنحوتات من الصخر والمعدن... آلهة أو أرباباً لنا، فجنّبنا أن نتوجّه لها بالذكر وبالنذور والدعاء والمديح.

كما لم يتدخّل تعالى في حريّة الإرادة التي منحها للناس، فلم يمنعهم من الاقتتال في مكة، كذلك لن يتدخّل سبحانه ليمنع "أبناء" النبي إبراهيم(ع) من عبادة الأصنام.

هل هذا دعاء حقيقي؟ فهل فعلاً يطلب النبي الرسول الخليل أبو الأنبياء... إبراهيم (ع) أن يساعده ربّه تعالى على تجنّب عبادة الأصنام؟ نعم هذا دعاء حقيقي، فعندما يرى غالبية الناس من حوله واقعين في هذه المصيبة الكبيرة جداً، فيخاف على نفسه من الوقوع فيها، حتى لو كان الاحتمال بعيداً جداً، ولكن إذا فرضاً توافرت فيه (ع) الشروط التي دفعت الآخرين لعبادة الأصنام، فهناك احتمال أن يعبدها ولو كان احتمالاً بعيداً جداً جداً، فلنقل فرضاً أنه (ع) أحبّ شيئاً سيئاً من متاع الدنيا فتزيّنت له عبادة الأصنام كمخرج له للتفلّت من الالتزام بدينه تعالى، وهذا ما يحصل مع المشركين الرافضين لدينه تعالى بسبب حبّ الدنيا، فالنبي(ع) لا يزال في دار البلاء يجاهد نفسه لتبتعد عمّا حرّمه تعالى... ويخاف (ع) على أبنائه، لأنه يعلم أن العقاب على عبادة الأصنام شديد جداً.

ننتبه، فلولا التشديد الشديد الذي ورثناه من الجيل الأول من المسلمين عن التماثيل والصور، لكنّا قريبين من عبادة الأصنام! فكيف تفسّر وقوف الكثير من أهل الكتاب "المسيحيين" أمام تمثال لشخصيّة دينية، والتوجّه نحوها بالدعاء! فعندما ترى غيرك يفعل شيئاً نافراً عن الدين، فمن المفروض أن تنتبه لنفسك ولا تقع في نفس المشكلة، فالوقوف أمام صنم هو شذوذ واضح عن الدين الإلهي، وكذلك الوقوف أمام تماثيل وصور وقبور الصالحين للطلب منهم مباشرة هو شذوذ واضح عن الدين الإلهي، وها القرآن من أوّله إلى آخره أمامك فراجع فيه أي آية قالوا إنها تجيز لهم ذلك لترى أن كلامهم غير صحيح ولا القرآن يشير إليه، بل العكس فصريح كل القرآن يؤكد على التوجّه فقط وفقط نحوه تعالى.

إذن، إبراهيم (ع) هو شخص عاش "شبه وحيد" في محيط من الناس يعبدون الأصنام، فتصوّر نفسك في محيط من الناس يرتكبون السيئات! فكما تقول: اللهم عافني واجنبني أن أشرب الخمر. وأنت أصلاً لم تشربها في حياتك، ولا تنوي شربها، ولكنك تعلم أنّك معرّض للوقوع في السيئات، فأنت بإمكانك فعلها، كذلك نرى إبراهيم "الإنسان" يطلب منه تعالى المساعدة حتى لا ينحرف، وهكذا ستفهم بعمق الآيات القرآنية التي تحدّثت عن الأنبياء والصالحين، فالصورة التي في بالك عن نزول الوحي على النبي تجعلك تتصوّر بشكل غير صحيح أن النبي يرافقه الوحي دائماً! فمن دون أن تعي تتصوّر النبي مسلوب الإرادة لأن الملاك يرافقه وينبّهه على الكبيرة والصغيرة، فتتصوّر النبي كطفل تحت المراقبة من ناظر لا يتوقّف عن توجيه الملاحظات! ومن دون أن تعي تتصوّر النبي مستجاب الدعاء على الدوام، لاحظ هذه الجملة: دعاء النبي مستجاب حتماً. فهذه جملة صحيحة، ولكن المعنى الذي في ذهننا غير صحيح، فكم من المحن والآفات والأمراض والفشل والمصاعب... تعرّض لها الأنبياء؟ فالقرآن يؤكّد أنهم على المستوى الرسالي لتبليغ الدعوة الإلهية، فهم ينالون الدعم الإلهي بحسب ما هو مناسب لتبليغ الدعوة، لا أكثر، ولا أقل، أما على المستوى الشخصي فكل الأنبياء تركوا الأمور تجري بعينه تعالى من دون أي دعاء لتغيير الأمور إلا اللهم ما ندر.

إذا نظرت لبعض نماذج الأنبياء للاحظت تأخّر حصولهم على ولد! فعليك بالمزج بين ما تعرفه عن الصعوبات التي تعرّض لها الأنبياء، وبين استجابة الدعاء، لترى أنهم ضمن العناية الإلهية التي لا تخرجهم عن الامتحانات التي يتعرّض لها بقيّة الناس، فلو كان النبي يدعوه تعالى لحلّ كلّ مشكلة يتعرّض لها، وسبحانه يستجيب، لكنت قرأت تاريخاً مختلفاً جداً عمّا هو معلوم، فما نعرفه في تاريخ الأنبياء فيه المشاكل والصعوبات والخسارة والفشل وموت الأحبّة...

وهنا بالتحديد ترى دعاءً لم يُستجَب بالكامل، فقد طلب (ع) أن لا يعبد أبناؤه الأصنام، ولكن هذا يتعارض مع حريّة الاختيار التي منحها تعالى للبشر ليمتحنهم، فقريش من أبنائه (ع) حيث عبدوا الأصنام، ولكنه دعاء يتوافق مع أبنائه (ع) الذين كانت عندهم رغبة للإيمان فينالون المساعدة الإلهية لتجنّب عبادة الأصنام.

دعاؤه (ع) نافع وله استجابة مع ذريته المؤمنة.

أكرّر لك لفت انتباهك لدعائه أن يكون البلد آمِنًا، حيث استُجِيبَ له جزئياً، فمكة من البقع النادرة المسكونة على الأرض التي حصل فيها القليل من الاقتتال.

لاحظ وانتبه، فالأنبياء لا يدعون لأمور شخصيّة خاصّة بهم إلا في حالات نادرة، فتذكّر النبي زكريا(ع) حيث وصل إلى الشيخوخة وهو بلا أولاد، ومما نقله القرآن في أول سورة مريم عن النبي زكريا(ع) تعلم أنه خلال حياته كلّها لم يطلب ولداً، وعندما طلبه قدّم العذر مع الطلب، حيث قطع (ع) الأمل من إيمان من حوله من الناس، وخاف أن يبقى قومه بلا نبي بعده لهداية الناس، فطلب أن يكون له ولد يرث النبوّة... وهنا النبي إبراهيم(ع) يتوجّه نحو ربّه تعالى

بالدعاء كشخص عادي ولكنه يحمل همّ نفسه إيمانياً، وهمّ أولاده وذريته، وهمّ مجتمعه، وسبحانه يستجيب بما يراه مناسباً.

على كل حال، فهذا الخبر عنه (ع) موجّه بشكل مباشر لنموذج ذريّته "قبيلة قريش الساكنين في مكة وقت نزول هذا القرآن" حيث عبدوا الأصنام! لذلك تذكّرهم الآية أن جدّهم الذي يفتخرون به، لم يعبد الأصنام، بل كان همّه أن لا يعبد أولاده وذريته الأصنام...

(رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{36})
نكمل مع دعاء النبي إبراهيم(ع): {رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {إِنَّهُنَّ}، الأصنام المنحوتات، {أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ}، فبسببها الكثير من الناس مشوا على الطريق الخطأ تاركين التوحيد.

الأصنام يصنعها البشر، وبعبادتها يضلون عن التوحيد، فلا إرادة للصنم لتضليل الناس، ولكنه كصنم يضلل الناس، مثل اللافتة التي لا تدل على الطريق الصحيح، إذ لا إرادة لها لأنها مجرد قطعة معدن مكتوب عليها الاتجاه، ولكنها تضللك عن الطريق الصحيح إن كانت موضوعة في غير محلّها المناسب.

{فَمَنْ تَبِعَنِي}، من كان على ما أنا عليه من التوحيد مبتعدا عن الأصنام، {فَإِنَّهُ مِنِّي}، سيكون له علاقة بي، بعقيدتي وبسلوكي، {وَمَنْ عَصَانِي}، ولم يطع أمري، ولم يتبّعني في الابتعاد عن عبادة الأصنام، ليس مني حتى لو كان ولدي، وليس منسوبا لي ولا علاقة لي به، {فَإِنَّكَ غَفُورٌ}، تسامح من آمن وطلب المغفرة، {رَّحِيمٌ}، حيث لديك سبحانك عناية خاصة لمصلحة المؤمنين.

استعمل القرآن كلمة {الرَّحْمَنِ} للإشارة للعناية الإلهية العامة الشاملة لكل المخلوقات، واستعمل كلمة {رَّحِيمٌ} للإشارة للعناية الخاصة بالمؤمنين، فالآخرون هم بكفرهم خرجوا من تحت مظلة الرحمة الإلهية والمؤمنون وحدهم ينالون المغفرة والشفاعة ومضاعفة الحسنات...

إنْ أَحَدٌ من ذريتي عبد الأصنام وبعدها آمن فإنك غفور رحيم، فلن تجمد على موقف صلب بل ستسامحه.

بقي شيء، القرآن يذكر دعاء الناس بعضهم لبعض حتى يهتدوا، وهنا ترى نموذجا عن ذلك حيث يدعو النبي إبراهيم (ع) لذريته أن يكونوا مؤمنين، ولا يذكر لنا القرآن بشكل مباشر ما هو تأثير هذا الدعاء، وأنت تعلم أنه تعالى لا يتلاعب بعقول ومشاعر الناس ليجعلهم مؤمنين غَصْبًا عنهم، فما معنى هذا الدعاء إن لم يكن هناك مجال لاستجابته وتحقيقه؟

هنا من الواضح أن القرآن ذكر لنا ما دعا به النبي إبراهيم(ع) كخبر "للنموذج" الإسماعيليين أهل مكّة المشركين، ليخبرهم بالدين الحقيقي لجدّهم الذي يفتخرون به، فهو (ع) كان يدعو ربّه أن تجتنب ذريته عبادة الأصنام، وإلّا فهم ليسوا منسوبين له، وليسوا على دينه.

بعد أن علمنا سبب نقل القرآن لهذا الدعاء، نرجع للسؤال، فما نفع هذا الدعاء؟ وبمراجعة ما ورد من أدعية للنبي إبراهيم(ع) في الآية 124 من سورة البقرة وما بعدها {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ... وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}، نعلم أن الجواب الإلهي على هذا الدعاء أشار لأناس من ذريته (ع) مُصِرّينَ على الظلم، ولن يغيّرهم تعالى غَصْبًا عنهم ليكونوا مؤمنين.

بصراحة ووضوح، لم أجد في القرآن ما يدعم فكرة تحوّل شخص ما إلى الإيمان بسبب دعاء من نبي أو رسول أو مؤمن، وهذا أَصْلًا لا يتماشى مع المفاهيم القرآنية التي تنسب الإيمان لقرار داخلي لكل واحد منّا، وبدون تدخّل إلهي لإجبارنا... وما نقله القرآن من أدعية النبي إبراهيم (ع) لذريته أدل دليل على ذلك، ففي زمن النبي محمّد(ع) كانت الغالبية الساحقة من ذرية النبي إبراهيم(ع) من فرع ولده النبي إسماعيل(ع)، مُشْرِكَةً ومُحَارِبَةً للتوحيد بعنف.

بقي شيء آخر، فما معنى حصر النبي إبراهيم(ع) دعاءه لذريته؟ ولماذا لم يدع لبقية الناس أن يكونوا مؤمنين؟ بالتحليل نقول إِنَّهُ (ع) ربما دعا لكل الناس، والقرآن لم ينقل ذلك لأن التركيز على النموذج المشرك من ذريته (ع) الذين نزل

هذا القرآن بينهم. وبالتحليل نقول إِنَّهُ (ع) عَقْلَانِيًّا وبما رآه من نماذج من حوله افترض أن غالبية الناس مصرّون على الشرك، وأمّا ذريته ففيها أمل أكبر بالبقاء على التوحيد لأنهم سيتوارثون دين التوحيد، وكما ترى إِنَّ فحوى كلامه(ع) يشير لبعد نظر بالخوف من المستقبل البعيد على ذريته من التأثر بالمحيط الجارف من عابدي الأصنام... وهذا ما حصل.

أكرر لك، الجواب عن منفعة الدعاء بالهداية للآخرين، إِنَّهُ لا نفع منه إلا مع الذين فِعْلًا يريدون الاهتداء، فهؤلاء يكون دعاء النبي لهم نافعا، وهو نفسه الدعم الإلهي بالنور والبصيرة وتعلّم الحكمة... لمن لديه رغبة بالاهتداء.

كما ترى، عَمَلِيًّا لا شيء جديد من الدعاء للآخرين بالاهتداء إلا اللهم رغبة الداعي، ولن تجد في القرآن أيَّ أثر لهذا الدعاء غير الذي سبحانه أَصْلًا سيفعله بمساعدة من يرد الاهتداء.

(رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ{37})

{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {إِنِّي أَسْكَنْتُ مِن ذُرِّيَّتِي}، قسم من الذين انفصلوا عني "بالولادة"، من ولدي، والمشهور المعلوم أنه (ع) ترك زوجته المسمّاة هاجر مع ولده إسماعيل(ع) هناك، جعلتهم يسكنون، {بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ}، في منطقة بين عدة جبال وليس فيها براري أو غابات، فليس فيها نباتات موسمية أو مستديمة ليأكلوها، ولا هي منطقة مشجعة على الزراعة، فلا أنهار ولا ينابيع ولا مطر موسمي مستمر... أسكنتهم {عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ}، عند الكعبة التي في مكّة التي أعلنتَ سبحانك للناس عبر رسلك وأنبيائك أنها بيتك "معنويا" وكمنطقة لها حرمة، فيجب احترامها بسبب جعلك لها كبيت "معنوي" لك ليقصده الناس...

كما ترى من سياق الكلام السابق يبدو "بالتحليل" أن تشريعه تعالى لطقوس عبادية في مكان أطلق عليه سبحانه وصف البيت له تعالى، يبدو كبديل حسّي للناس الراغبين في لمس ورؤية شيء له علاقة بما يعبدونه، مع الإبقاء على كل شيء عقائدي ديني أساسي على أصله، فسبحانه لا يسكن في ذاك البيت، وإنما هو رمز ملموس مرئي كمتنفّس لمن يريد رؤية ولمس شيء من إيمانه...

أسكنتهم يا ربي قرب الكعبة، {لِيُقِيمُوا}، ليفعّلوا فلا يهملوا أو يتركوا، {الصَّلَاةَ}، التوجّه والإقبال، والكلام هنا عن توجّههم نحوك بالذكر لك على الطريقة التي أمرتهم سبحانك بها، {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ}، ما يعيه الناس ويدخل إلى فكرهم ومشاعرهم، {تَهْوِي إِلَيْهِمْ}، تميل نحو زوجتي وابني الذين تركتهم هنا في هذه الفلاة، والكلام عن الميل عطفا ورحمة حتى يسكنوا بقربهم ويساعدوهم ولا يؤذوهم.

{وَارْزُقْهُم}، اجعل عند زوجتي وولدي ما يسدون به حاجتهم وأهمها ما يأكلونه ليحافظوا على حياتهم، {مِّنَ الثَّمَرَاتِ}، مما يؤكل من النتاج النباتي، {لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}، عندما ترزقهم فمن المتوقّع منهم أن يعلنوا عن حصولهم على أشياء جيدة منك سبحانك.

من وحي القرآن ومن المشهور جدا في عموم الثقافات الدينية، سبحانه أمر نبيّه إبراهيم(ع) بنقل زوجته هاجر وولدها إسماعيل(ع) من أرض كنعان إلى أرض الحجاز، وبالتحديد إلى مكّة إلى جوار الكعبة، حيث كانت الحكمة الإلهية أن يصير للنبي إسماعيل(ع) أمّة من ذريته تعيش حول الكعبة، وصار فيما بعد من ذريّته(ع) قبيلة قريش، وكما ترى، ظاهر الحال عندما وصل النبي إبراهيم(ع) إلى مكّة ليترك زوجته وابنه هناك، من حيث الظاهر كان المكان غير مناسب لهما للعيش، فلا زرع ولا حياة مدنية بل مكان مفتوح على كل الاحتمالات السيئة لامرأة وطفل لوحدهما بلا أهل أو أقارب... وتعلم أنهما فيما بعد عاشا بأمان واحترام وراحة في مكّة لأن العناية الإلهية شملتهما.

نلاحظ أن الحديث عن قصّة هاجر وولدها إسماعيل(ع) يبدو خارج موضوع السورة، ولكن فلنتذكّر أنه حين نزلت هذه السورة كان أولاد النبي إسماعيل(ع) وهم بالتالي أولاد للنبي إبراهيم(ع) كانوا حينها يعبدون الأصنام! ولذلك تنقل لنا السورة حدثا تاريخيا قديما عن نشأة أهل مكّة في مكّة، حيث نشأت بذرية النبي إسماعيل(ع) بأمر إلهي لتوحيده وعبادته تعالى، سبحانه الذي أمر رسوله إبراهيم(ع) بنقل ولده إسماعيل(ع) ليعيش فيها، وهذه إشارة واضحة على أن عبادة

الأصنام هي مرض ينشره الفاسدون من الناس بسبب استخفافهم لأنفسهم... ووصل بهم الأمر لدرجة وضعهم الأصنام في الكعبة وحولها!

إذًا، فالبلد الذي نزلت فيه هذه الآيات، هذا تاريخها وتاريخ ساكنيها، والغريب ليس دين التوحيد بل الغريب تحوّل أهلها لاختراع عبادة الأصنام.

من الموروث التاريخي عن التوراة أَنَّ سارة هي الزوجة الأولى للنبي إبراهيم(ع)، وبعد مرور السنين الطويلة لم ينجبا أطفالا، ويقولون إنَّ سارة زوّجت النبي إبراهيم(ع) من عبدتها هاجر "القبطية كما وصفتها التوراة وانتقل منها إلى ثقافتنا"، فأنجبت هاجر إسماعيل(ع)، ويقولون إنَّ سارة طلبت من زوجها طرد زوجته الثانية هاجر وابنها، لأن سارة صار عندها ولد "إسحاق" ولم تعد تتحمّل وجود زوجة ثانية لزوجها... وتجد في مختلف كتب أهل الكتاب أَنَّ النبي إبراهيم(ع) استجاب لطلب زوجته سارة، وحمل زوجته هاجر وطفلها ورماهما في الصحراء! وهذا شيء من تحريفات اليهود للتاريخ وجاء تصحيحه في القرآن، فهم وكما يبدو من كتبهم، عندهم حساسية غير عادية من أولاد النبي إسماعيل (ع)، وهي حساسية جعلتهم يرفعون فقط وفقط أبناء يعقوب(ع) فوق الجميع، حتى فوق الموحدين من أبناء إسماعيل(ع)... ولم يعجبهم أن يكون لإسماعيل(ع) الوالد لقبيلة كبيرة من العرب، لم يعجبهم أن يكون له قيمة، وهم حصروا القيمة الدينية بأبناء إسحاق (ع) والد يعقوب(ع)، ويعقوب(ع) والذي له تسمية أخرى "إسرائيل" هو والد الذريّة التي صارت "بني إسرائيل"، واخترعوا كتبرير لذهاب هاجر وإسماعيل(ع) إلى مكّة، أَنَّ سارة طردتهما، ولم يقبلوا أن يكون ذهابهما بأمر إلهي.

(رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء{38})
{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي}، تعلم الأمور التي لا نظهرها، وتعلم، {مَا نُعْلِنُ}، ما نجعله ظَاهِرًا فنقوله أو نفعله علنا أمام الآخرين، ها أنا أدعوك وأطلب منك سبحانك بسبب الهواجس والمخاوف التي أشعر بها من ترك امرأة وطفل في منطقة مرعبة كهذه، ليس فيها سكن، ولا زرع، ولا ماء... يعني أنت يا ربي أمرتني أن أتركهما هنا، وأنا أعلم بأنك ستهتم بهما، ولكن المكان مخيف، وهما زوجتي وولدي، ومشاعري تتأجج عطفا وخوفا عليهما، أعلنت لك عن دعائي لهما بأشياء، وهناك أشياء أخرى أخافها كثيرا لم أعلنها لك وأنت سبحانك تعلمها، كالاعتداء عليهما أو استعبادهما...

نلاحظ أَنَّ ما أخفاه النبي(ع) ولم يعلنه كان من أدبه مع ربّه تعالى، لأنه تعالى هو أمره بأخذهما إلى هناك، فبالتأكيد لن يصيبهما أي نوع من الأذى... وبخاصة لَنْ يصيبهما ما يهينهما... وليس من اللياقة أن يعلن النبي(ع) خوفه عليهما من الاعتداء المهين، ولذلك طلب الاهتمام بهما بشكل يتضمّن خوفه عليهما من كل أنواع المخاطر، فطلب لهما الأمن.

تقطع الآية كلام النبي إبراهيم(ع) لتؤكّد شَيْئًا مُهِمًّا:

{وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}، كُلُّ الأشياء ظاهرة أمامه تعالى وتحت المراقبة، والمرأة والطفل معلوم حالهما عنده تعالى، ومخاوف النبي إبراهيم(ع) المخفيّة أيضا معلومة عنده تعالى، يعني: الأمور تحت المراقبة والسيطرة الإلهية. وهكذا صار، حَيْثُ عاشا في العناية الإلهية بأفضل الحالات.

ننتبه جَيِّدًا، فِي العديد من السور نجد قطعه تعالى نقل الكلام ليقحم جملة تبيّن علمه وسيطرته تعالى على الأمور، كما في قطع كلام امرأة عمران بجملة {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} كما ورد في الآية 36 من سورة آل عمران. وهنا ترى إقحامه تعالى لوصف نفسه بالعلم الفائق كتأكيد على كلام نبيّه(ع).

(الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء{39})
{الْحَمْدُ لِلَّهِ}، كل أعمال صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز حميدة جيدة، وبالتحديد أنا أعلن حمدي له، وَهُوَ {الَّذِي وَهَبَ لِي}، أعطاني من دون أي مقابل منّي، {عَلَى الْكِبَرِ}، بالرغم مِنْ أني صرت كبيرا في السن، وَهَبَنِي ولدين: {إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ} (ع).

{إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ}، إن المسؤول عني من مستوى إلهي يسمع كلام من أعلن وأشهر وتوجّه إليه تعالى. يعني أقول ما أقوله وأنا على يقين أنه تعالى يسمعني.

أكملت الآيات دعاء النبي إبراهيم(ع) حتى أعلنت لنا اسم ولده إسماعيل(ع) الذي سكن مكّة وصار له ذرية كثيرة.

لو كنت من أهل مكّة حين نزلت هذه السورة بينهم، لشعرت بمعنى عميق لهذا الكلام هنا، فهم في حين نزول هذه السورة كانوا عابدين للأصنام! وجدّهم النبي إبراهيم (ع) من أكبر الموحدين! وجدّهم النبي إسماعيل(ع) من الموحدين، فعلى أي أساس يدّعون أن عبادة الأصنام هِيَ دين أجدادهم!

طَبْعًا لا تَنْسَ أن السورة تنقل لك كلام النبي إبراهيم(ع) ذا الأثر على ذريته من ولده النبي إسماعيل(ع) كنموذج، حَيْثُ ترى منذ آلاف السنين واحدا من سلسلة ممتدة قبله لآلاف من السنين أيضا، وكلهم على خط عقائدي واحد، وهكذا ترى الشواذ في نموذج أهل مكّة عن خط التوحيد بعبادتهم للأصنام، وبمقارنة حالهم مع حال أي قوم آخرين لَنْ تجد لأي مشركين امْتِدَادًا تَارِيخِيًّا طَوِيلًا ببعد الامتداد التوحيدي لإبراهيم، ونوح، وآدم عليهم السلام.

(رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء{40})
{رَبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ}، ساعدني لأفعّل فلا أهمل ولا أترك التوجّه والإقبال، وساعدني حتى أتوجّه إليك بالذكر كما أمرتني.

{وَمِن ذُرِّيَّتِي}، مِنَ الذين انفصلوا عنّي "بالولادة"، وهم أبنائي ومنهم إسحاق(ع) وإسماعيل(ع) الذي سأتركه هنا ولن أكون بقربه حتى أنتبه له أن يقوم بالصلاة لك، اجعله مقيما للصلاة، وكذلك أولاد أولادي لِيَكُونُوا من مقيمي الصلاة.

{رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي اقْبَلْ ما أعلنه فلا تردّ ما أقوله لك سبحانك.

نلاحظ مرة ثانية أن تعامل النبي الرسول الإمام القدوة... إبراهيم(ع) مع ربّه سبحانه، هو تعامل شخص عادي مع ربّه سبحانه، نحن بنظرة القداسة ننظر للنبي إبراهيم(ع)، أمّا هو (ع) فينظر لنفسه نظرة عبد ضعيف عادي، يَتَوَجَّهُ بالدعاء نحوه سبحانه ويخاف أن يكون دُعَاؤُهُ عملا خاطئا أو فيه قلّة أدب، وتلاحظ أنه ليس متأكدا من استجابة الدعاء، لا لأنه لا يثق به تعالى، بل لأنه يعلم أنه تعالى يعلم مصلحته أكثر منه، رُبَّمَا تكون الحكمة أن يحصل شيء بعكس ما يطلبه، أو أن ما يطلبه سيسبّب مَشَاكِلَ في المستقبل، أو فيه تعارض مع قراراته تعالى... ولذلك تلاحظ الدقّة في اختيار الدعاء وكلمات الدعاء، قَارِنْهَا مع أدعيتنا الكثيرة المتنوعّة وغير المدروسة، وسترى الفرق، وإن لم تره فإمّا أنك من المؤمنين العارفين بأصول الدعاء، ولم تقع في هذا الخطأ، أو أنك من الغارقين في حبّ الدنيا ولا تفهم أي لغة إلا لغة الاستجابة لطلباتك الدنيوية، وهذه حال أكثرنا، نَطْلُبُ للدنيا وننسى الآخرة...

الكلام يجرّ الكلام، عَلَى وسائل التواصل الاجتماعي نرى أدعية يخترعها الناس وينشرونها... وبغض النظر عن تحليلاتنا لنفسية أولئك الناس، قِرَاءَةُ أدعيتهم تجبرنا على رؤية الكثير من نفسياتهم لنعلم ما يواجهونه من مشاكل في حياتهم ونعلم بما يرغبونه من متاع الدنيا... وهذا ليس مهمّا الآن، بل الانتباه من اختراع أدعية فيها قلّة أدب معه تعالى، أو فيها مخالفة لما يرضاه تعالى، حَيْثُ ترى الكثير من الأدعية لِلرِّزْقِ والصحّة والنجاح والعافية... ولا ترى فيها أي دعاء للمغفرة! ولا لنيل الأجر في الآخرة! هِيَ على غرار ما نبّهت منه الآية 200 من سورة البقرة {... فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ}، هِيَ أدعية دنيوية تتجاهل الآخرة. وأفضل ما في تراثنا الديني من أدعية تجدها في كتاب منسوب للإمام السجاد زين العابدين، ومعه الدعاء المنسوب للإمام علي المسمّى بدعاء كميل، طبعا هناك العديد من الأدعية الأخرى المحترمة ولكن بالخصوص دُعَاءُ كميل من أروع الأدعية عمقا وتماشيا مع مفاهيم القرآن.

(رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ{41})
{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {اغْفِرْ لِي}، تجاوز عن ذنوبي ولا تحاسبني عليها، واغفر، {لِوَالِدَيَّ}، تجاوز عن ذنوب أمي وأبي، واغفر، {لِلْمُؤْمِنِينَ}، أيضا، وهذا الغفران لِنَنَالَهُ منك، {يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}، في الزمن الذي

يَتَفَعَّلُ وَيَحْصُلُ فيه الحساب، والمقصود هو يوم القيامة من الموت، والحساب عمليا له جهتان: إحصاء السيئات التي قمنا بها، وإحصاء الحسنات، وهناك اغْفِرْ لنا وَتَجَاوَزْ عن سيئاتنا لنأخذ الأجر على الحسنات.

هناك خلاف في الروايات والتفاسير حول هذا الشخص الذي يناديه النبي إِبْرَاهِيمُ(ع) في القرآن: {أَبِي}. بَعْضُهُمْ قالوا: هو أبوه الحقيقي "والده الذي أولده". وآخرون قالوا: لم يكن والده بل عمّه، وَرَبَّاهُ منذ طفولته، وَاعْتَادَ النبي إِبْرَاهِيمُ(ع) أن يسميه أبي.

وَرَدَ في التوراة أن اسم والد النبي إِبْرَاهِيمَ(ع): تارخ "تارح". بينما الشخص الذي يتحدث عنه القرآن اسمه: آزر. وَوَرَدَ ذلك في الآية 74 من سورة الأنعام {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ...}، وَيُمْكِنُ الاستنتاج أن الذي ربّاه اسمه آزر، ووالده تارخ، وهذا على ذمّة من كتب التوراة...

لَا تَنْسَ أن العرب ينادون العم بكلمة: أبي. والقرآن استعمل نفس التعبير وكمثال على ذلك حين تحدّث أولاد النبي يَعْقُوبَ(ع) عن آباء أبيهم وذكروا من ضمنهم عمّه النبي إِسْمَاعِيلَ(ع) كما ورد في الآية 133 من سورة البقرة {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...}.

على كل حال فالآية هنا نقلت عن النبي إِبْرَاهِيمَ(ع) دعاءه بالاستغفار لوالديه "وليس لأبويه" حين كان شيخا كبيرا {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}، ونعلم أن النبي إِبْرَاهِيمَ(ع) اسْتَغْفَرَ فعلا لأبيه "آزر"، وكان النبي إِبْرَاهِيمُ(ع) حينها "شَابّاً"، ولكن بعدما تبيّن للشابّ إِبْرَاهِيمَ(ع) أن آزر عدو لله تعالى فَتَبَرَّأَ منه كما تقرأ في الآية 114 من سورة التوبة {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ...}، إِذَنْ كما هو واضح، لَدَيْنَا استغفار حين كان (ع) شَابّاً "لأبيه" لآزر، وبعدها تبرّأ منه، ولدينا استغفار "لوالديه" وَكَانَ كبيرا في السنّ. مما يعني أنه (ع) حين صار شيخا كان يستغفر لوالديه اللذين "ولداه"، فآزر لم يكن "والده" بل عمّه أو أحد أقاربه أو شخص تولّى العناية به وتربيته... ولذلك كان يناديه أبي.

(وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ {42})
تَعْقِيباً على دعاء النبي إبراهيم(ع) عن يوم الحساب، وَتَعْقِيباً على ما قالته السورة عن تبليغ الرسالة الإلهية الآمرة للناس بتوحيده تعالى، وكفر بعض الناس بها:

{وَلَا تَحْسَبَنَّ}، ولا يخطر ببالك هكذا ومن دون أن تفكّر، أيها النبي (ع) وأيها القارئ للقرآن، {اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ}، ما يقوم به الذين لم يكن معهم حقّ وَلَمْ يكن تصرفهم مُحِقّاً وَعَادِلاً حين أشركوا بينما التوحيد هو الدين الصحيح الواضح، وَهَذَا لا يجري من دون انتباهه تعالى، بل هم تحت المراقبة الإلهية.

تَرَى الظالمين يعملون السوء، ويبدون على راحتهم يعيشون ويذهبون إلى أشغالهم ويتزوجون ويصير لهم أولاد... فلا يخطر ببالك أنه تعالى لا يدري بأفعالهم، لا، لِأَنَّهُمْ تحت المراقبة.

{إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ}، لا يحاسبهم سبحانه الآن وترك حسابهم، {لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}، إلى زمن تصير قدرتهم على وعي وإدراك معاني الصور مُرَكَّزَةً، ومن عموم القرآن نفهم أن الآية هنا تشير لأول لحظات قيامهم من الموت، حَيْثُ تشخص أبصارهم، وَتَتَرَكَّزُ قدرتهم على الرؤية على ما تَفَاجَأُوا به وأدهشهم من رجعتهم إلى الحياة.

لاحظ، ولا تخلط بين ما تعرفه وبين ما تتعرّف عليه، فلو كنت لأول مرة تسمع القرآن فأنت تتعرّف على الأخبار الإلهية من المصدر، وهنا يخبرك تعالى أنه ليس غَافِلاً عن أعمال الناس، وهذا خبر، ومن حين وصوله لنا صار لنا علم به، وكذلك النبي محمد(ع) وصله هذا الخبر مثلما وصلك ووصلني، ومن حينها علمنا جَمِيعاً أنه تعالى لا يسهى ولا يغفل، حَتَّى النبي محمد(ع) لم يكن يعرف كل الصفات الإلهية بدقة، وَتَعَرَّفَ عليها عبر الوحي وعبر القرآن، كما نفهم من الآية 52 من سورة الشورى {وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ...} .

إِذَنْ، مرّ الكلام عن أساس دينه تعالى، ومرّ مَحْكِيّاً عن لسان النبي إبراهيم(ع)، وهو شخصية مشهورة جِدّاً بين عموم الناس، وَبِالْخُصُوصِ الكلام هنا عن ومع نموذج من الكفّار، وهم قريش الذين ينتمي النبي محمّد(ع) لهم وبدأ بنشر

كلامه تعالى بينهم، وهم نموذج مُمَيَّزٌ لأنهم من ذرية النبي إِسْمَاعِيلَ(ع) ابن النبي إبراهيم(ع) الذي حارب عبادة الأصنام وكان من دعائه له تعالى: تجنيب ذريّتي من الوقوع في عبادة الأصنام. ولكن مع وصول الزمن إلى عهد النبي محمّد(ع) كَانَتِ الغالبية الساحقة من الاسماعيليين من عُبَّادِ الأصنام.

(مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء{43})
تأخير مجازاة الظالمين ليوم يَكُونُونَ فيه: {مُهْطِعِينَ}، رؤوسهم مُصَوَّبَةٌ موجّهة نحو شيء ما، وتعلم مما ورد في الآية 8 من سورة القمر أنهم في مشهد من مشاهد يوم القيامة وما بعده سيوجّهون رؤوسهم نحو الداعي {مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ}، وهو الملاك الذي يدعوهم للتجمّع للحساب بعد دعوتهم للعودة إِلَى الحياة، {مُقْنِعِي}، رافعي رؤوسهم نحو الدَّاعِي، {لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ}، لا يقدرون على رمش جفنهم، {وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ}، وبتعابيرنا الحالية وَعْيُهُمُ الإدراكي فارغ تائه ضائع، فكرهم سارح لا تركيز فِيهِ من شدّة الدهشة والخوف. هِيَ مثل حالة الصدمة التي تسبب للإنسان فَرَاغاً في ذهنه ومشاعره، وَيَتَوَقَّفُ عن التفكير، وتختفي المشاعر لمدة من الزمن بسبب تعرّضه لصدمة قوية.

هنا الآيات تنقل مشهدا من مشاهد يوم القيامة وما بعده، فليس كل الكفّار في كل الوقت على هذه الحالة، بل هي حالتهم أوائل فترات رجوعهم إلى الحياة، ويبدو أنها فترة تجميع الكفّار مع بَعْضِهِمْ زُمَراً.

مِنَ المناسب هنا لفت الانتباه لتصويب القرآن لدقّة استعمال اللغة العربية، لِأَنَّ هذا شيء حصل بشكل إجباري لأن الإله سبحانه بقدراته الفائقة استعمل لغتنا، وَيَنْتُجُ عن ذلك تصويبها وَدِقَّتُهَا في استعمالها، فِي الآية 10 من سورة القصص ترى وصف أم النبي موسى(ع) بأن {فُؤَادَهَا} أصبح فَارِغاً من بعد رميها للتابوت الذي فيه طفلها في النهر، {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً...}، وهنا نفس التعبير {بِالْفُؤَادِ هَوَاءٌ} وكلاهما يشيران لحالة الفراغ الفكري والنفسي، لفراغ الإحساس بالمكان، لفراغ الإحساس بالذات، وهي الحالة التي تصيبنا عند تعرّضنا لشيء لم نتحمّل تحليله وفهمه، وتصيبنا عندما نسمع خَبَراً ضَخْماً علينا، كما في حالة سماعنا لموت حبيب لنا، أو احتراق أملاكنا...

اسْتَعْمَلَ القرآن كلمة الفؤاد بمعنى مَا يرادف بشكل ما تعبيرنا الحالي: الوعي الإدراكي النَّاشِئَ عن الوعي للذات، فهو قابلية وعي النفس ووعي ما يصل من الحواس. وَبِدُونِ الأفئدة نصير مثل الكاميرا التي تسجّل الصورة والصوت بلا وعي وبلا فهم لما تسجّله، ولكنه تعالى جعل لنا الفؤاد وهو قابلية الوعي لما تستقبله الحواس ولما يدور في الذهن.

(وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ{44})
{وَأَنْذِرِ النَّاسَ}، وانقل لهم الخبر عن شيء سَيِّئٍ قادم حتما وهو العقاب لمن توافرت فيه شروط الحصول على العقاب، أنذرهم، {يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ}، في الزمن الذي يصيبهم فيه الضرر، {فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا}، عندها يقول الذين لم يكن معهم حقّ حين كفروا بالدين الإلهي الواضح، يقولون:

{رَبَّنَا أَخِّرْنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي لا تحاسبنا الآن وَأَعْطِنَا وقتا إضافيا، {إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ}، إلى موعد محدد آخر غير الآن ولسنا نطلب مهلة طويلة، خِلَالَ فترة قصيرة، {نُجِبْ دَعْوَتَكَ}، حَيْثُ خلال المهلة القصيرة التي نطلبها سنجيب فيها بالقبول لما أعلنته وأشهرته لنا عن العقيدة والشريعة، {وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ}، وَنَكُونَ على خطاهم وَنَسْمَعَ كلامهم ونطيعهم.

بتعابير شعبية وأحيانا نراها في كتب بعض العلماء، هُمْ يطلبون رجوعهم إلى الدنيا ليحسّنوا عقيدتهم وسلوكهم، علما أن القرآن لم يستعمل هكذا تعابير بتاتا، حِينَ تأتي الآخرة فالدنيا انتهت، وإن فرضا أعادهم تعالى إلى حياة أخرى كالتي كانوا فيها في الدنيا، حيث كانوا مكلفين... ليس صحيحا أن يكون اسم هذه الحياة "دنيا"، بل ستكون ما بعد الآخرة في حال انتهت الآخرة، ولكن الآخرة لا نهاية لها كما هو معلوم لك.

الجواب عن طلبهم للمهلة سواء بعودتهم إلى حياة كالحياة الدنيا لِيَعِيشُوا فيها مبتلين ويرى تعالى أفعالهم، أو في يوم القيامة يَتَنَحَّوْنَ جانباً ليصلّوا ويصوموا...: {أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ}، وَأَكَّدْتُمْ، {مِنْ قَبْلُ}، حين كنتم في الدنيا، وَقُلْتُمْ: {مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ}، وَلَا انتقال من حال إلى حال، وَلَا انتقال من الدنيا إلى الآخرة، ألم تكونوا تقولون ذلك؟

كَمَا نقول للشمس حين تقطع منتصف السماء في الظهيرة أنها زالت، ونقصد أنها زالت عن النصف الصباحي من النهار وتحولّت للنصف الآخر، هُنَا تقصد الآية أن هؤلاء الناس كانوا يقولون بوجود النصف الأول من الحياة، وهو فقط في الدنيا، ولم يؤمنوا بوجود زوال وَلَا انتقال من الحياة الدنيا لحياة آخرة. وَوَرَدَ نفس المعنى في سورة النحل الآية 38 {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.

يعني، أوصلت لكم خبرا من قبل عن هذا اليوم، بأني سأحاسب من لا يُجِيبُ دعوتي وَيَتَّبِعُ رسلي، وأنتم تركتموها وأقسمتم بأن الحساب لن يحصل! كَانَ معكم خبر عن هذا اليوم وأنتم لم تستعدوا له، فما معنى حصولكم على فرصة ثانية في موضوع كنتم تعلمون به من قبل ولم تصدّقوا به؟

نلاحظ السورة تذكر عذرا تبريريا آخر للكفّار، ذَكَرَتْ من قبل تعذّرهم باتباع الوجهاء والشيطان وردّت عليهم بأن ذلك لن ينفعهم في يوم القيامة، وهنا تذكر بأنهم سيتعذّرون بطلب فرصة ثانية، وَهَذَا أيضا لن يَنْفَعَ، وفيما سيأتي من كلام سترى لماذا لن يحصلوا على فرصة ثانية.

(وَسَكَنتُمْ فِي مَسَـاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ{45})
بعد أن أقسمتم بأن الآخرة لن تأتي:

{وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ}، في الدنيا كان أمامكم نماذج عن حسابي وتعذيبي، هناك مساكن كان يسكنها أناس ظالمون لأنفسهم، لأناس لم يكونوا عادلين ولا محقّين ولا منصفين مع أنفسهم، فالعدل والإنصاف مع نفسي أن لا أترك الحقّ وَأَتَّبِعَ الباطل، وبالتالي أن لا أُسَبِّبَ لنفسي الضرر من عقابه تعالى، وأولئك أناس كانوا ظالمين مع أنفسهم حين كفروا فسبّبوا لها الضرر، حيث نزل عليهم العذاب في الدنيا، وسكنتم في مساكنهم وتعرفون أن عذاباً نزل على هؤلاء الناس وماتوا وأنتم سكنتم مَحَلَّهُمْ.

لا يصح تفسير الآية على السكن المعنوي في مساكن الذين ظلموا، ولا تفكّر بأن الآية تقصد بأنهم كفروا وتصرّفوا مثلهم، بل تقصد حرفياً بأنهم عاشوا في نفس المكان.

الآية تتحدّث مع نموذج من الكفّار، حيث هناك كفّار سكنوا في نفس المكان الذي كان يسكن فيه أناس كفّار من قبلهم، ونزل عليهم العذاب، كمدين قوم النبي شعيب(ع) وثمود قوم النبي صالح(ع)، ولم يَتَّعِظِ الكفّار الجدد من تعذيب الكفّار الأقدمين! فأي معنى لفرصة ثانية يطلبها الكفار وهم بهذه العقلية! فالنموذج من الكفّار والذي سكن في مساكن الذين ظلموا، ألم يكن عملياً في حالة الفرصة الثانية من بعدما أهلك تعالى الذين كانوا يسكنون قبله نفس المكان؟

سَتَرَى في الآية 47 من السورة هنا سبباً رئيسياً آخر لأجله لن يحصلوا على فرصة ثانية.

{وَتَبَيَّنَ لَكُمْ}، وكان واضحاً لكم، {كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ}، حيث كانت مساكنهم مُدَمَّرَةً، وعلمتم بوجود حساب إلهي هنا في الدنيا، وهو إشارة واضحة للحساب للآخرة.

{وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ}، وقلنا لكم التشابيه، عِنْدَمَا كان الرسل يخبرونكم عن تعذيب الأقوام الكافرة، فهذه كانت أمثالاً تشابيهَ حتى تلتفتوا كيف يتدخّل تعالى ويحاسب هنا في الدنيا، مما يدل على حسابه لكم في الآخرة.

يعني كان معكم خبر أكيد عن يوم القيامة وعقابه، بدليل علمكم بنماذج عن عقابه تعالى هنا في الدنيا، ولم تستعدوا للآخرة، فلا يحق لكم أن تطلبوا فرصة ثانية، والكلام على معنى ما ورد في الآية 65 و 66 من سورة البقرة {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ، فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ}، الذين أهلكهم تعالى بسبب الكفر والظلم هم نماذج عن عذاب الآخرة.

نلاحظ القرآن يجيب بعدة أجوبة عن سبب رفض إعطائهم فرصة ثانية، ومنها ما ورد في سورة السجدة الآية 13 أن الكلام الإلهي بمحاسبتكم في يوم القيامة لا رجعة عنه {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}، وما ورد في سورة فاطر الآية 37 بأنكم حصلتم على الفرص خلال عمركم ولم تتراجعوا بل أصريتم على الكفر {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ}، ومنها أنهم حتى لو حصلوا على فرصة ثانية فسيطلبون ثالثة ورابعة... ولن يؤمنوا ويعملوا الصالحات أبداً كما تقول الآية 28 من سورة الأنعام {بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}.

(وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ{46})

الظالمون الذين سكنتم في مساكنهم، {قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ}، خطّطوا لشيء سَيِّئٍ، طبعاً ضد الدين الإلهي، {وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ}، سبحانه يعلم تماماً بمكرهم فلا يمرّ عليه تخطيطهم ونواياهم وسيتعامل معهم بما يناسبه، وكما نعلم عاقبهم سبحانه بتدميرهم.

{وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}، عِلْماً أن مخططاتهم، وحيلهم وقدراتهم على تنفيذ ما يريدونه، كانت قويةً لدرجة أن الجبال تزول وتنمحي من مكرهم، وهذا لم يجعلها تمرّ عليه تعالى لأنه سبحانه يعلم كل شيء ويعلم الخبايا والأسرار والحيل والمكائد... وهو تعالى أحكم وأعلم منهم.

الجبال بسبب ضخامتها حتى تزول وتصير أحجاراً متفتتةً، تحتاج لقوّة عنيفة جداً، أو لبذل جهد قليل ولكن لمدة طويلة جداً جداً، والمقارنة هنا بين "قوّة" المكر، وبين القوّة التي تحتاجها لتزيل جبلاً، ومكر هؤلاء مهما كان "قوياً" فلن يمرّ عليه تعالى.

قارنها مع ما تعرفه من عمل الأجهزة المختلفة لضرب المسلمين بعضهم ببعض، حيث من دون أن نشعر تمر مكائدهم علينا، مُشْعِلِينَ للنعرات الطائفية بيننا، وترانا مقتنعين بأننا مخلصون لإيماننا في معاداتنا ومحاربتنا للمسلمين الآخرين! ويفعّلون الفحشاء بيننا والمنكر... ويروّجون للمخدرات... والدعاية للحرية من الدين... ويجعلوننا نتداول التحريض على بعضنا البعض... ويخربون بلداننا اقتصادياً واجتماعياً وأمنياً... ويشيعون بين الناس أن المسؤولية تقع على حكومات بلداننا التي هي أصلاً بغالبيتها الساحقة فاسدة... فهذا ما يَمْكُرُونَهُ لنا، وكما ترى فهو كيد مدروس بحنكة غير عادية في مستوى تأثيره على المدى البعيد... {لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} من شدّته.

طبعاً الآيات هنا تتحدّث عن مكرهم مباشرة ضدّ دينه تعالى، ولكن ترى مكرهم بسهولة أكبر عملياً عندما تنظر لحالك وما تتعرّض له شخصياً وما يتعرّض له مجتمعك... حيث يمكرون ببث الفساد العقائدي والتشريعي بيننا، ونبلع مكرهم ويصير معروضاً بشكل بريء علينا فنراه نابعاً منّا، وتترسّخ أوساخهم لتجعل انتماءنا للتديّن مجرد مسرحية نرتدي فيها ثياب الإيمان مع فراغ ديني في داخلنا...

بعض الناس يشعرون بقدراتهم الفكرية على أنها يَنْتُجُ عنها أشياء تفوق "أفكار الإله"، وكأن فكرهم صار له طاقة "إلهية"! ناسين أن الفكر البشري محدود، وخاصة أمام العلم الإلهي اللامحدود والمطلق، حيثُ قدرات الإله تفوق تصورنا، وإذا شعرنا بالفخر والزهو والتكبّر بسبب قدراتنا الفكرية لأن الإله "مستواه الفكري" قريب من مستوانا، أو "أقل" لأنه تعالى يتحدّث معنا بلغة بسيطة مفهومة عبر رسله وكتبه، فهذه مصيبة نرى الكثيرين من الكفّار يقعون فيها علناً، ويجادلون في آيات الله تعالى وفي كلامه وشريعته وفي آخرته وحسابه! وهنا تشير الآية إلى هذا النوع من التفكير، فمهما بلغت قدرات الكفّار في المكر، فهي لن تمرّ عليه تعالى، وها ذكر سبحانه لهم هنا في السورة سلفاً الحجج التي سيقولونها في يوم القيامة، وها بيّن سبحانه لهم سلفاً أنها لن تنفع، فما نفع المكر! وما نفع تشغيل فكركم في كل شيء إلا في اتباع ما يقوله الرسل، مع أن اتباع الرسل هو الشيء الوحيد النافع!

(فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ{47})

{فَلَا تَحْسَبَنَّ} ، فلا يخطر ببالك من دون تفكير أن، {اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ} ، وقد قال سبحانه لرسله عن الحساب في الآخرة، وأمرهم بتبليغ هذا الوعد للناس، فلا يخطر ببالكم بأنه تعالى سيخلف ولن يلتزم بهذا الوعد، ولن ينفّذ ما قال إنه سيفعله، بل سبحانه لن ينساه ويتركنا في حالة الموت، ولن يغيّر قراره فيما قاله... ولا يخطر ببالكم أنه تعالى لن يقدر على تنفيذه ويتركه... وبخصوص سياق الآيات هنا فلا يخطر ببالكم أن إنذارات الرسل ستكون كلاماً فارغاً لأنه تعالى سيغيّر قراره. ولن يعذّب ولن يحاسب وسوف يعطي فرصة ثانية بعد الآخرة... لا، فهذا لن يحصل.

حتى تحصلوا على فرصة ثانية بعد الآخرة، يجب أن يخلف تعالى وعده، وهذا شيء لن يفعله تعالى. وهذا الكلام يشبه تماماً ما ورد في سورة السجدة الآية 13 {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} ، فسبحانه لن يغيّر قراره فيما شاءه.

{إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ} ، مَنْفِيٌّ عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض إرادة الآخرين عليه... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... فإذا قال سبحانه بأنه سيعيد إحياءنا ومحاسبتنا فلن يستطيع أي أحد جعله يغيّر قراره أو يمنعه من تنفيذه...

{ذُو انْتِقَامٍ} ، منسوب له تعالى صفة الانتقام، فلا يترك الذي خالف أوامره من دون عقاب، بل يأخذ الحق الإلهي منه ويعاقبه. فمن مات كافراً ولم يؤمن، سينتقم الله تعالى منه ويأخذ الحق الإلهي منه.

هاتان الصفتان هنا في سياق الكلام تشيران لقراره تعالى بالانتقام ممن كفر ولن يستطيع أي أحد تغيير حدوث هذا الانتقام.

الانتقام بالنسبة لنا يرتبط بالمشاعر، فيصيبنا القلق والاضطراب إن لم ننتقم، ولكن بالنسبة له تعالى فهو أخذ الحق منهم، حيثُ كفروا به تعالى، وأهانوا مكانته، واستهتروا بكلامه، وسخّفوا كتبه ورسله... محاسبتهم على هذه الأمور بالتعذيب هو انتقام منهم، فهو العقاب على ما فعلوه من قلّة أدبهم على المقام الإلهي.

ننتبه جيداً لما تقوله الآية، ولنفترض أن الرسل يحملون لنا الآن خبراً عن وجود فرصة ثانية بعد قيامنا من الموت، فهل هذا سيشجّع الناس على الإيمان؟ بالطبع لا، لأنهم وصلهم الخبر عبر القرآن بأنها فرصة واحدة ولم يؤمنوا، فكيف سيكون حالهم إن وصلهم خبر بوجود فرصة ثانية! وهكذا ترى معنى الكلام هنا عن تحقيقه الحتمي لوعده سبحانه بالانتقام من الظالمين بلا فرصة ثانية.

السؤال الأهم: ما معنى وجود فرصة ثانية وانتفاء وجود فرصة ثالثة ورابعة وخامسة...؟ هذا عبث! فمن أراد أن يؤمن فمن المرة الأولى سيؤمن، ومن في المرة الأولى كفر ويريد فرصة ثانية مع علمه الآن بأنه لا توجد فرصة ثانية، فهو سيكفر في الفرصة الثانية ويتأمّل في الثالثة! ولو حصلت الثالثة فسيكفر ويتأمّل بالرابعة! وهكذا...

تذكّر دائماً أنه تعالى يفعل، ولكن لا ينفعل، فوصفه تعالى بالانتقام أو الغضب أو الحبّ... هو استعمال لكلمات من لغتنا التي وضعنا كلماتها مما نتعامل معه نحن بحواسنا، وسبحانه ليس كمثله شيء، فمستحيل أن نتعامل معه مباشرة بسبب الفرق الهائل بين طبيعته عزّ وجلّ وبين طبيعة تكويننا، ولذلك فكلمات لغات البشر التي اخترعناها للتعامل فيما بيننا، حين نستعملها للكلام عمّا لا نتعامل معه مباشرة يجب تجريد الكلمات من الخصائص البشرية.

كلمات لغتنا عند انطباقها علينا تتضمّن تأثّرنا وانفعالنا... أمّا بالنسبة له تعالى فهي تنطبق عليه مع تجريدها من خصائصها الإنسانية، فأنا وجهي يمتقع احمراراً من الغضب، وتفلت أعصابي من الغضب... أمّا سبحانه فغضبه هو وصف تعامله مع الأمور بأنه غير رَاضٍ عنها ولن يمررها أو يسكت عنها. وانتقامي أنا يتضمّن أني سأنفجر إن لم أشف غليلي... أمّا سبحانه فانتقامه هو وصف تبييت نية الضرر كعقاب على حقّ له تعالى علينا ولم نلتزم به. وحبّه تعالى للمؤمنين هو وصف تعامله معهم بما يسعدهم، وكرهه تعالى للكافرين هو وصف تعامله تعالى معهم بما يتعسهم. وهكذا بقية صفاته تعالى نفهمها بما يناسب أنه تعالى ليس كمثله شيء.

(يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ {48})
متى سيكون الانتقام وتنفيذ الوعد الإلهي؟

{يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ}، هذه الأرض التي نعيش عليها الآن ستتبدّل بأرض أخرى مختلفة، {وَالسَّمَاوَاتُ}، السبع، ستتبدّل، وكما نعرف من القرآن فالعالم الذي نعيش فيه نحن المخلوقات الآن، اسمه الدنيا، وحدوده سبع سماوات يقابل كل سماء أرض "أَرَاضٍ"، وأوّل ما ينصرف ذهننا من جملة "تُبَدَّلُ" الأرض، إلى الأرض التي نعيش عليها، إلى كوكب الأرض، ولكنها واحدة من الأراضي التي تقابل سماءنا التي عادة نسمّيها بالكون، وهو سماء واحدة من سبع سماوات يقابل كل واحدة من تلك السماوات أرض أو أراض تناسب طبيعة تلك السماء، حيث كل ما يقابل فضاءً واسعاً هو أرض، فكوكبنا أرض، وسطح القمر أرض، وسطح كوكب الْمُشْتَرِي الغازي أرض... وبما أن تواجدنا على كوكب الأرض، فمن الطبيعي أن ينصرف ذهننا من كلام القرآن عن الأرض التي ستتبدّل لنفهم أنه يقصد كوكبنا.

سَيَأْتِي زمن يبدأ من تبدّل السماوات السبع والأراضي التي تقابلها، لتتشكّل من جديد، وهكذا ينتهي اليوم، وتنتهي المرحلة، وتنتهي الدنيا ويبدأ تشكّل الآخرة بسماوات وأراض مختلفة، وعندها يبدأ يوم القيامة من الموت حين نقوم من موتنا....

ننتبه جيداً، في عامّة أدبياتنا الدينية تَرَاخٍ في دقّة وصف ما سيحصل، حيث عادة يصف الناس يوم تتبدّل السماوات بأنه يوم القيامة، وفي تراث أهل الكتاب يسمّونه يوم الدينونة، وهذا ليس كلاماً دقيقاً، فهناك زمن يتبدّل فيه ما في الدنيا، وبعده تتشكّل السماوات والأرض من جديد، ومن بعد هذا التشكّل يصير اسمها الآخرة، وتتشكّل الجنّة والنار، فهما الآن ليستا موجودتين، وفي وقت ما من بعد تبدّل السماوات والأرض تبدأ عودة الناس إلى الحياة، وهذه بداية يوم القيامة من الموت، وتليه أيام محاسبتنا...

... {وَبَرَزُوا}، فخرج الكفّار من الموت وواجهوا، {اللَّهَ الْوَاحِدَ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز الله، ذَا الكيان الواحد، فلا يوجد اثنان منه تعالى، {الْقَهَّارِ}، الذي غلب بقدرته كل شيء، والبقية كلّهم مقهورون وتحت سلطته تعالى. وهذه القهرية عامّة المعنى فتشير إلى آلهتهم الوهمية وإلى أي كائن اعتبره الكفّار من مستوى إلهي ربوبي، فهو مقهور وتحت سلطته تعالى، ومن ناحية ثانية فلا شيء يمكنه رفض أو مقاومة ما يريده تعالى، وهنا الكلام مع الكفّار الذين لا مصلحة لهم بالرجوع إلى الحياة مرّة ثانية، ولكن لا هم ولا غيرهم يمكنهم المقاومة أو الامتناع عن الخروج إلى الحياة لمواجهة الإله الذي لا إله غيره، والذي سيحاسبهم ويجازيهم برميهم في النار.

بالنسبة لتعبير "الله الواحد"، هناك تعابير قرآنية عن "الإله الواحد" والتي كانت تشير لكونه تعالى نفس الإله للكلّ، وليس إلهاً للعرب لوحدهم أو لساكني منطقة الشرق الأوسط لوحدهم... بل هو تعالى إله للجميع. أمّا التعبير بالله الواحد فيشير إلى أنه لا يوجد كيانان له تعالى، ونفهمها بشكل أوضح بمقارنتها مع ما يقوله بعض المسيحيين عن النبي عيسى(ع) أنه أيضاً هو الله "عزّ وجلّ" وأن الروح القدس أيضاً هو الله "عزّ وجلّ"، فلديهم ثلاثة الله، وبشكل ما فنفس العقلية موجودة عند بعض الكفّار بتوحيده تعالى، فتخبرهم الآية أن الله تعالى واحد، وهو الذي يهدّدهم عبر رسله بالعقاب على كفرهم، وأنهم سيواجهونه هو تعالى حتماً في الآخرة ولن يجدوا "الله" ثانياً، فهم عبدوا غيره تعالى، فلنقل عبدوا صنماً وَأَسْمَوْهُ الله "عزّ وجلّ" ففي الآخرة لن يجدوا إلا الله الواحد.

(وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ{49})
{وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ}، يصير لديك صور محدّدة للذين قاموا بالأعمال التي يستحقون العقاب عليها، حيث كفروا وفعلوا السيئات وقتلوا وغشّوا وزنوا... تراهم، {يَوْمَئِذٍ}، في يوم القيامة من الموت، {مُقَرَّنِينَ}، مربوطين مقيدين، {فِي الْأَصْفَادِ}، بالقيود بالحبال والمعدن التي تربطهم.

(سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ{50})
{سَرَابِيلُهُم}، والسِّرْبَالُ هو عموم ما صار على الجسد من طلي "دهان بأي شيء على الجسم أو على الثياب"، أو لباس كقميص أو عباءة، أو درع... ما يغطي بدن المجرمين، من قَطِرَانٍ، وهي مادة لزجة سميكة حارقة للجلد.

{وَتَغْشَىٰ}، أي: تحيط وتنتشر بشكل جزئي أو كلي على، {وُجُوهَهُمُ النَّارُ}، جسمهم مغطى بِالْقَطِرَانِ ووجههم تغطيه النار، إذ لا توجد نقطة فيهم لا تتعرض للألم.

القَطِرَانُ مادة لزجة مثل الدهان السميك، يتم استخراجها هنا في الدنيا من عدة مصادر، من حرق بعض أنواع أغصان الشجر حتى يحترق السائل فيها ويخرج بلون أسود مائل للبني، أو من النفط. والقطران مادة معروفة بالتصاقها بالجلد وتسبب اهترائه إذا بقيت عليه، ومعروفة باحتفاظها بالحرارة... وعلى كل حال الأرض هناك غير الأرض هنا، والقطران هناك غير القطران هنا، والشبه بينهما هو لزوجته واحتفاظه بالسخونة وتسببه الألم والاحتراق بملامستها للجلد.

(لِيَجْزِي اللّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ{51})
هذا التعذيب للمجرمين الظالمين:

{لِيَجْزِيَ}، ليعطي الله تعالى المقابل على كفرهم وإجرامهم، {اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ}، أي كل شخص منهم، {مَا كَسَبَتْ}، ما حصلت عليه مما نتج عن أعمالها. هذا التعذيب هو ما كسبوه حيث حصلوا عليه مما عملوه، فإجرامهم وكفرهم أكسبهم القطران والنار، وسيعطيهم الله تعالى ما كسبوه. ننتبه جيدا، كرّر القرآن كثيرا أن العذاب بالنار في الآخرة ناتج مما تكسبه الناس، مثلما تعمل هنا في الدنيا لتبني بيتا وحديقة، ويصيران أمامك، فأي عمل مستند على الإيمان أو الكفر فله أثر في الآخرة، وأنت تصنعه، وأنت تكسبه، فلا يمكنك الاعتراض على شدة العذاب في الآخرة لأنك سترى بعينك أنك أنت كسبته لأنه نتج عن أعمالك التي قمت بها في الدنيا.

{إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}، فلا يحتاج سبحانه لوقت طويل حتى يحسب الحسنات والسيئات، فكل كلمة وكل عمل نقوم به، فإنه تعالى مباشرة يحسب ما سنحصل عليه من قولنا وعملنا، ولا يخطئ ولا ينسى ولا يهمل... لاحظ أن الإنسان لديه تفاصيل كثيرة جدا أثناء حياته، بل كمية المعلومات هائلة إذا سجلناها على الورق، أو صوّرناها وأضفنا إليها ما في نفسه من أفكار ومشاعر... وما نتج عنها من آثار... فحساب أعمال كل إنسان بدقة، هو عمل لا يمكن إلا لله تعالى إحصاؤه، فالملائكة(ع) تسجل لنا أعمالنا، ولكن الملائكة(ع) لا قدرة لها على استحضار كل ما فعله كل شخص لترى النتيجة النهائية من حاصل أعماله، وخاصة استحضار المعلومات التي لها ارتباط بالآخرين وعبر الزمن من أثر ما فعله الشخص... فقط الله تعالى يمكنه أن يعلم به كله، وهو تعالى سريع الحساب، فلا يأخذ وقتا ليحسب جزاء ما فعلنا.

نفهم معنى هذا الخبر من أقوال الذين لا يقدرون الله تعالى حق قدره، فيقولون إنه لو عاد الناس إلى الحياة فهم كثر بالمليارات، فهل يستطيع الله التعامل معهم كلهم ومعرفة ما فعلوه؟ فيخبرنا القرآن أنهم لو كانوا بالتريليونات فلا مشكلة لأن قدراته سبحانه فائقة وهو سريع الحساب فلن يحصل أي خطأ أو نسيان أو تشويش أو نقصان... في حساب أحد ما.

والكلام يجر الكلام، فنحن نقيس الأمور على قدراتنا المحدودة بما يمكننا التركيز عليه، وعادة ليست كل معلوماتنا مفعلة في كل ثانية، بل نحضر منها على بالنا ما يهمنا التعامل معه الآن، وتبقى بقية المعلومات غير مفعلة، ففي بيتي لا يمر في بالي ما كان يمر في مكان عملي، وفي وقتي الحاضر لا أستحضر كل ما جرى معي في حياتي إلا حين أركز على شيء محدد منه... ويكفي هذا المقدار من الكلام لتنتبه أنه تعالى حين يصف نفسه يشير إلى قدرات بعضها مشابه لقدراتنا ولكنها فائقة، فأنا أتذكر فأستحضر المعلومات، وشبه مستحيل علي استحضار تفاصيل من مشاهد قديمة من حياتي... ولكنه تعالى دائما كل المعلومات ومهما كان نوعها فهي حاضرة كلها في "وعيه"، بل ويخبرنا تعالى أن كل المعلومات من أول ما خلق الدنيا وإلى ما لا نهاية الخلود في الآخرة، فكل تفصيل صغير أو كبير يعلمه تعالى دائما.

هذا يأخذك إلى الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين تكويننا المحدود، ويتضمن أمورا مستحيلة بالنسبة لقدرتنا على فهمها، فلا تتوافق مع ما يمكننا استيعابه، فما معنى علمه تعالى بما سيحصل مع الخالدين في الآخرة؟ ذاك زمن لا نهاية له، فكيف يمتد علمه تعالى إلى ما لا نهاية؟ وهكذا ترى أن قدراته تعالى فائقة وفوق قدرتنا على استيعابها.

(هَـذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ{52}
هذا، الذي ورد في هذه السورة عن الوعد الإلهي بالحساب لمن خالف كلامه تعالى، {هَٰذَا بَلَاغٌ}، خبر تام كامل يصل، {لِّلنَّاسِ}، حتى يكون لديهم علم بالوعد الإلهي، حتى لا يقولوا: لم يكن معنا خبر بوجود حساب لمن كفر وعصى، ولم يكن معنا خبر بشدة العقاب، ولم يكن معنا خبر أنه لا توجد فرصة ثانية، وأننا إن كفرنا لن ينفعنا أحد هناك... لا،

فالسورة فصلت في كل شيء سيلقاه الناس في الآخرة، وبشكل واضح جدا علمنا منها أن الكفر له نتيجة حتمية واحدة والإيمان له نتيجة حتمية واحدة.

{وَلِيُنذَرُوا بِهِ}، من سمع هذا البلاغ فلينقل للآخرين الخبر عن شيء سيء قادم وهو العقاب الشديد لمن توافرت فيه شروط الحصول على العقاب.

هذا البلاغ عبر هذه السورة، {وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا}، حصرا، {هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ}، فالموصوف بالألوهية، الكائن ذو القدرات والصفات الفائقة هو كائن واحد لوحده ولا يوجد أي كائن آخر لديه صفات وقدرات فائقة مثله تعالى، فلا يوجد إله غيره تعالى، ولا يوجد نصف ولا ربع إله، ولا يوجد أحد بنفحة إلهية، ولا "إله" آخر... فكلنا مخلوقات وهو وحده الإله، وأي مخلوق لديه صفات وقدرات عالية، فهي لا شيء بتاتا أمام صفات وقدرات الله سبحانه. يعني، لا تنكروا ألوهية وربوبية الله تعالى، ولا تشركوا به، وأطيعوه، لأن هذا هو الشيء الوحيد الذي ينفعكم.

هذا البلاغ عبر هذه السورة مضافا لكونه إنذارا فهو أيضا: {وَلِيَذَّكَّرَ}، من أجل أن يتذكر أو يستحضر في فكرهم وضميرهم وعملهم، {أُولُو الْأَلْبَابِ}، الذين عندهم لب، إذ عندهم شيء له قيمة في داخلهم، فيفكرون ويفهمون الأمور بطريقة صحيحة، فمن كان لديه عقل صاف واع، ويستعمله ويكون مسيطرا على غرائزه وشهواته ونزواته السيئة، فستكون هذه السورة ذكرى له، حيث تجعله يستحضر توحيده تعالى في فكره وضميره، فيوحده ويطيعه ويحسب حسابا لآخرته.

بقي شيء، ففي عموم التفاسير تجد تفسيرهم للإنذار بكلمة ما كمرادف، فمرة يفسرونها بالتحذير ومرة بالتخويف ومرة بالخشية... وهذا الخطأ شائع في غالبية تفسيرهم لكلمات القرآن، وقد قام العديد من العلماء بمحاولة تحديد معنى دقيق للكلمات العربية عموما وكلمات القرآن خصوصا، ودراستنا هذه استفادت كثيرا من محاولاتهم وطورتها، وتقييم ما نتج عن ذلك متروك لكم.

أذكر لكم هذا بسبب مشكلة تقديس الموروث، فنادرا ما صادفت من يقبل إعادة دراسة كل ما قيل، ويجبهونك بضبابية قداسة الروايات والتفاسير والقواميس... وكأن تلك الكتب متفقة فيما بينها على معاني الكلمات، ومخالفتها شواذ عن الدين الإلهي، وببحثي فيها أخالف شيئا مثبتا محققا فيه، ونتيجته معلومة محسومة الصحة!

تبيّن لي من مراجعة مختلف القواميس من عدة لغات أجيد بعضها، أن مشكلة تحديد معنى دقيق للكلمة هي مشكلة عالمية في كل اللغات المشهورة، فبالرغم من انصباب المجهود على اللغات الأكثر محكية عالميا، ومنها الإنجليزية، فقواميسها لا تزال بعيدة عن الدقة... ولو درست مختلف اللغات لرأيت الشبه الكبير بين المترادفات في كل لغة كما تجدها في اللغة العربية، ولرأيت بوضوح أن تعريف كلمة ما بالمرادف، لا يقبل أهل اللغة استعماله كبدل للكلمة في كل تراكيب الجمل، وحتى عوام الناس الذين لا يدرسون تعاريف الكلمات والفروقات بينها، تراهم لا يقبلون باستعمال المرادف في جملة ما، حتى مع جهلهم بالمعنى الدقيق المانع من استبدالها بما يبدو مرادفا في جملة أخرى.

هذا شيء منتشر في كل اللغات المشهورة التي تعاملت معها وقرأت عنها، مما يعني أن إيجاد تعريف دقيق لكلمة ما في لغة من اللغات سيكون معينا على تحديد معنى دقيق للكلمات المشابهة في بقية اللغات، كحالة كلمات رؤية ومشهد ومنظر وناحية وبصر...

ظهر لي بشكل واضح أن التشدق بكون القرآن كلام الإله سبحانه والفخر بذلك منا على الآخرين، ما هو إلا راية رفعوها فارغة المعنى في كثير من الأحيان، فمن عقلية حب الانتماء المتميز عن الآخرين مدحوا بلاغة القرآن كدليل على إلهية مصدره أكثر مما استفادوا فعلا من هذه الميزة لغويا، فبدل أن يصير القرآن مصدرا لتقويم لغتنا لأن الإله سبحانه بقدراته الفائقة استعملها ونتج عن ذلك تقويم من مستوى إلهي لاستعمال لغة من لغات البشر، ترى الكثيرين يشوهون هذا التميز بإصرارهم على تميز اللغة العربية بكلماتها التي تحتمل الواحدة منها عشرات المعاني بحسب سياق استعمالها! وهكذا انشحنت تفاسير القرآن بعشرات المعاني للكلمة الواحدة، ولم يعد مبينا، بل ويتسابقون على إضافة معان جديدة!

علما أن بعض العلماء رفضوا هذا وأصروا وعملوا على تحديد معنى دقيق للكلمات من باب استعمال الكلمة المناسبة في موضعها الصحيح، رافضين الترادف التام بين الكلمات وفي نفس الوقت يقبلون بتقارب المعاني، وأنا من هذه المدرسة.

تلك الدراسات الرائعة لتحديد معنى واحد دقيق لكل كلمة، للأسف لم تنجح في الكثير من محاولاتها، ومع مرور الزمن وكثرة التأليفات في هذا المجال صار الكثير من تحديدهم للمعنى استذواقيا أكثر منه علميا، فمع مرور الزمن ترسخت ثقافات موروثة من الروايات والأحكام الفقهية وتفاسير القرآن... فتداخلت هذه الموروثات مع الاستذواقية لينتج عنها في كثير من الأحيان معاني مفردات مشوهة لا تقبل الانطباق على مختلف الجمل التي استعملها القرآن والعرب قديما.

أكرر لك استفادتي من مجهودهم في دراسات الفروقات اللغوية بين الكلمات، وألفت انتباهك أن أكثر الباحثين في هذا المجال يرون نتاجهم أدق وأصوب ممن سبقهم، حتى أن بعضهم يدعي أنه الأول ولم يسبقه أحد في هذا الباب، وأنا منهم أفترض تفوق دراستي على ما سبقها، وأضيف عليهم رجائي أن تكون دراستي هذه بذرة ينميها الآخرون، إذ اعتمدت فيها على استعمال القرآن للكلمات أولا ومستأنسا بأشعار العرب قبل الإسلام ثانيا، ومستفيدا مما ذكروه في التفاسير والقواميس والدراسات من نوادر حين تجمعها تصير باقة مما وجدته أقرب للصواب مما قالوه.

ولتكن كلمة "إنذار" نموذجا لك عما تقدمه هذه الدراسة، فهي الخبر السيء للآخرين بسبب توافر شروط حصول الخطر عليهم، والتحذير يكون من خطر سيحصل إذا توافرت الشروط لحصوله. فتصور شخصا أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، فهنا تحذره من سلوك الطريق السيء، فهو حاليا ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية: {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ}، والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران: {لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}.

أما إذا سلك طريق الخطر، فتنذره، لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. فالإنذار تتوجه به للمتلبس بما سيسبب له حتما ما يضره، فتنذر الكافر حيث هو في حالة ستسبب له العقاب حتما، وقد ورد هذا كثيرا في القرآن. والتحذير تتوجه به لمن لا تريده أن يتلبس بما سيسبب له الضرر، فتحذر المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

ذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، فقد يقوم المؤمن بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، فتنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة النصارى المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف: {وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}، وعموم المؤمنين المشمولين بالتهديد من فكرة فعل السيئات على أساس أن يحمل أحد ما السيئات عنهم: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}، والمشمولين بالتهديد إن لم يتغيروا نحو الأحسن موعودون بالمغفرة كما ورد في الآية: {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}، ونفس المفهوم في الآية 45 من سورة النازعات: {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا}.

سورة الحجر (15) ص 262

السورة تتحدّث عن نوعية من الناس لم تؤمن بدينه تعالى على أساس أنهم قبل أن يناقشوا ما يقوله الدين عن العقيدة والشريعة، لديهم قبل ذلك مسألة: إن كان ما يقوله الرسل حقيقيًّا فهناك طريق أسهل لنؤمن بدينهم، ولنَرَ الملائكة وعندها سيكون الاحتمال أقوى بإيماننا بالدين الذي يطرحه الذين يقولون عن أنفسهم أنهم رسلٌ من الإله.

من هذه النقطة تتوسّع سورتنا هذه، مع العلم أن سوراً أخرى من القرآن تحدّثت عن طلبهم لرؤية الملائكة(ع) وطلبهم نزول الوحي عليهم... وردّت عليهم... ولكن سورتنا هنا فيها شيء مميّزٌ، فهي تتوسّع في الكلام عن حادثة نزلت فيها الملائكة(ع) ورآها الناس، ولها ارتباط بقوم النبي لوط(ع) ثم تتوسّع بقدر ما هو مناسب في قضية قوم النبي لوط(ع)،

وعندها، وانتبه جيّداً، السورة ذكرت قوم النبي لوط(ع) كنموذج بارز جدًّا لسلوك سيّئٍ، فمن فيه ذرّة فهم لن يناقش في بشاعة الاعتداء جنسيًّا على الناس، فهل هذا العمل يحتاج لآيات تدل على حرمته! وفوق ذلك رأوا الملائكة(ع) وقبلهم الرسولان إبراهيم(ع) ولوط(ع) تلاقيا مع تلك الملائكة(ع) ولم يميّزوهم عن البشر، فالسورة تذكر الحادثة للمقارنة بين معنى طلب الكفّار لرؤية الملائكة(ع) مقابل ارتكابهم لأمور شنيعة يرفضها من فيه ذرّة عقل، ولا تحتاج لرؤية الملائكة(ع) للاقتناع ببشاعتها لتجنّبها.

خلال ذلك تدور السورة حول انتفاء تغيّر أي شيء مما قرّره تعالى، فإنكار الكفّار لما يقوله تعالى لن يغيّر واقعنا ولا مصيرنا، فنحن نعيش فيما صمّمه وخلقه تعالى، في عالم البلاء، ويتضمّن بلاؤنا الاحتكاك غير المباشر مع الشيطان المصرّ على إضلالنا... ونهايتنا الحتمية ستصل بنا إلى الآخرة حيث الحساب وبعدها الجزاء بالجنّة والنار.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ{1})
الر، هذه حروفٌ نتهجّاها مقطّعةً هكذا: ألف لام راء.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوَّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوِّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف

مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك..

نرجع للآية. {تِلْكَ}، الأحرف المقطّعة هي، {آيَاتُ الْكِتَابِ}، الأمور المميّزة التي في الكتاب الإلهي، {وَقُرْآنٍ}، كلام مقروء، {مُبِينٍ}، واضح، فكلامه باللغة العربية واضح.

ضع في بالك دائماً أن كلمة "مبين" ليست مرادفاً مساوياً لكلمة "واضح" على المعنى الدارج لكلمة واضح، فكلمة مبين تعني أن ما في القرآن قابل للفهم بوضوح لمن تمعّن فيه، لمن درسه وفكّر فيه، مثله مثل الكتب العلمية فهي مبينة لمن درسها، فالقرآن غير واضح لمن تعامل معه بسطحية، وواضح لمن كان قلبه سليماً فلم يسقط أفكاره وموروثه الثقافي على معاني القرآن، وهذا صعب جدّاً علينا، ولذلك كلّ التفاسير ومنها هذه الدراسة سيسقطون حتماً هنا وهناك في مسألة ما...

إذن، هذه الأحرف هي التي تحوّلت بها المعلومات التي في الكتاب الرئيسي، وصارت آيات فهي مميزة، وها هي بين أيديكم قرآناً، كشيء يمكنكم قراءته وهو واضح لمن درسه وتمعّن فيه "وكان قلبه سليماً".

في القرآن جمل وكلمات قليلة ليست واضحة المعنى من القراءة السريعة، فهي بحاجة لتأنٍّ ودراسة، وبعض الكلمات القليلة جدّاً لا نعلم معناها بسبب ابتعادنا عن اللغة الفصيحة، والتي يبدو أنه سبحانه تقصّد استعمالها لأنها الكلمة الدقيقة التي تعطي المعنى المراد قوله، وَلِنَرَى أن هذا القرآن من تأليف إلهي... ومعلومٌ لك أن تلك الكلمات القليلة جدّاً درسناها في هذه الدراسة وتبيّن لنا معانٍ واضحة إلا اللهم ما ندر، ومعلومٌ لك أنه حتى الجهل بمعنى تلك الكلمات "النادرة" فهو لن يغيّر من أساسيات ما يطرحه القرآن من دين، فلا تأثير لها بتاتاً...

أمّا التباس معاني الجمل والكلمات الناتج عن طرح العديد من الاحتمالات للمعاني، سبب ذلك أننا نلبّس القرآن معلوماتنا ولا نتعامل مع القرآن ككتاب نتعلّم منه، فما في بالنا نفسّر القرآن به بدل رمي ما نعرفه لنتعلّم من القرآن، وهكذا ترى التفاسير عموماً بغالبيتها ترمي علينا عشرات المعاني للآية الواحدة وللكلمة الواحدة... ولديهم تبريرات مختلفة لذلك... شاع بيننا قبول هذه التفاسير المتعددّة حتى صار القرآن مبهماً في غالبيته، بعدها يأتي المعلّقون على القرآن بأنه كتاب غير واضح! نعم معهم حقّ بالنظر إلى كتب التفسير المشهورة بين المسلمين والتي جعلت القرآن مبهماً بدلاً من تفسيره.

أمّا في الحقيقة فالقرآن سيكون واضحاً وكلماته وآياته لها معنىً واضحٌ وصريحٌ، إن تعاملنا معه بالتعلّم منه، ودراستنا هذه تتميّز عن بقية التفاسير بتمسكّها أكثر منهم بالمعاني التي طرحها القرآن عبر اعتماد معانٍ محدّدة للكلمات، من استعمال القرآن لها، ومن الاستئناس بكلام العرب عبر أشعارهم قبل الإسلام، وبعده دراسة ما قيل في القواميس للخروج بتعريف واحد يسري معناه على كل استعمالات القرآن لنفس الكلمة... ولو اعتمد من قبلنا على الطريقة لتفسير الكلمات، لكنّا أمام تفاسير للكلمات والجمل تعطينا معنىً قرآنيّاً بعبارات تخفّف علينا عناء التفرّغ لدراسته من الصفر تقريباً مثلما فعلتُ في هذه الدراسة.

الأهمية لدراسة القرآن ليست لغويّةً بالأساس، بل لفهم معانيه، فمن المفروض أن تقرأ القرآن وتفهمه عبر دراسة ما يقوله، أمّا الدراسات اللغوية للقرآن فليست هدفاً، ومعلومٌ لك أن غالبية كلام القرآن مفهوم وسهل، وتجد فيه بوضوح أساسيات دينه تعالى، وأثناء قراءتك تمرّ عليك كلمةٌ أو جملة لم تفهمها، فتحتاج لمراجعة دراسة ما عنها، والدراسة من المفروض أن تقدّم لك المعنى للآية، وإذا بغالبية تفاسير القرآن تقدّم لك كلّ شيء من أبحاث لغوية وتاريخية وفلسفية واجتماعية... وإعجاز علمي... وخلافات مذهبية... ولا تقدّم لك دراسة عن معنى الآية! فيصير القرآن غير مُبِينٍ بما فعلوه من متاهات.

(رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ{2})
{رُبَمَا} "بدون شدّة على الباء" {يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، هناك شيء مطروح كاحتمال، وهو أن يرغب المنكرون للدين الإلهي، {لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ}، لو كانوا منقادين مطيعين، وهنا الكلام عن انقيادهم لله تعالى عبر اتباع القرآن وما يقوله الرسول(ع).

البعض من الناس الذين في حالة الكفر، هم تحت احتمال أن يكون لديهم رغبة بالإيمان بدينه تعالى، ولكن هناك أشياء تمنعهم من الإسلام له تعالى.

ننتبه، سبحانه يعلم كل شيء كان وسيكون، لا يحسب احتمالات، وهنا الآية لا تشير إلى احتمال من ناحيته تعالى، بل إلى احتمال من ناحية الذين كفروا، حيث يخطر ببال البعض منهم أحيانا أن يؤمنوا لولا الموانع التي تمنعهم، وفي الآية السابعة من هذه السورة سيقولون أنهم ربما آمنوا لو أتتهم الملائكة(ع)، وبعد ذلك ستتحدّث السورة عن موضوع الملائكة(ع)... وتثبت أنه ليس مانعا "وجيها" حتى لا يؤمنوا، ولنكمل لنرى في الآية التالية السبب الحقيقي الذي يمنع تحقّق احتمال إيمانهم.

قبل ذلك، لنتوقّف قليلا هنا بتحليل يتماشى مع مفاهيم القرآن، لأن النماذج التي نراها من الناس من حولنا، ومن دراسة حالتنا نحن، ترينا أن دينه تعالى يطرح أمورا عقلانية ستجعل حياتنا الدنيوية أفضل، بحيث يحرّم السرقة والكذب

والغش والغيبة وأذية الآخرين... حتى لو نحن فعلنا هذه الأمور فإننا لا نحبّ أن يفعلها الآخرون معنا. وهناك أمور نعلم بضررها علينا وعلى المجتمعات، ولكن شهوتنا وغرائزنا وهوانا يغلب عقلنا فيها، كالمسكرات والمخدرات والزنا والحفلات المبتذلة والثياب المنافية للحشمة... وهكذا ترى أنه حتى الكافر حين يستعمل عقله فهو سيعترف بأن ما حرّمه الدين الإلهي له سبب وجيه، في هذه الحالة ربما يودّ لو يكون مسلما خاصة حين يتأذى من السوء...

نفهم هذا بسهولة حين يرى الكافر أن ما حرّمه تعالى سيّئٌ، فنحن نؤمن بأنه تعالى لم يعرض علينا دينا غريبا، بل يعرض علينا تحريم ما سنراه نحن سيئا إذا لم تتحكّم بنا شهواتنا وغرائزنا السيئة، وفي شيء ما سترى كافرا ما يرى عملا ما سيئا ويحرّمه تعالى، فلنقل إنّه يعلم بالضرر الشديد للمخدرات... وهذه حالة من حالات ربما يود فيها الذين كفروا لو كانوا مسلمين.

هذه من جهة، ومن جهة ثانية سبحانه يهدّد بالعقاب بجهنّم على مخالفة أوامره، وهذا شيء حتى لو لم يؤمن به الكفّار، ولم يحسبوا له حسابا في فكرهم وتصرفاتهم، ولكنه بين الحين والآخر يخطر على بالهم ويخافون منها من بعدما يفعلون سيئا يرونه عظيما... وعندما يسمعون بجنّة رائعة خالدة فهم حتما سيتمنّون لو يدخلونها، في هذه الحالة أيضا ربما يودّ الكفّار لو يكونون مسلمين.

نصل إلى حالة الذين نسمعهم من المسلمين الذين يقول بعضهم بأنه لا يزال شابا ويريد التمتع بحياته ولا يريد التقيّد بدينه تعالى المانع من السفور والخمور والزنا... ويقول بأنه حين يكبر في العمر سيحسّن سلوكه حتما ويصلّي ويصير مؤمنا.. وعلى هذا المقياس يمكن أن يفكّر حتى الكافر، فيقول إنّه الآن لا رغبة له بالانتماء لأي عقيدة ولا الالتزام بأي دين، ولكن حين يكبر سيتّزن وسيتخلّى عن الكثير من الأمور السيئة... فهؤلاء ربما يودون لو يكونون مسلمين...

طبعاً ما ذكرته لك هو تحليل يتماشى مع عموم كلام القرآن، وربما يخطر ببالك تحليل آخر أفضل، ويكون له مستند قرآني مباشر. أمّا هنا فالآية تركت الكلام عموميًّا وفيما سيأتي من كلام ربطته بطلبهم لرؤية الملائكة حتى يؤمنوا.

(ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{3})
{ذَرْهُمْ}، انفصل عنهم ولا يعنيك أمرهم، اترك الكفّار، {يَأْكُلُوا}، يستهلكوا الطعام، {وَيَتَمَتَّعُوا}، وينتفعوا بما هو متاح لهم في الدنيا، {وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ}، الأملُ، وهو الشعور بمحبّة حصول شيء جيّدٍ في الدنيا، يسبّب لهم التلهّي فينشغلون عن الآخرة المهمّة، ويهتمّون بالأمل بالحصول على أشياء دنيوية يرغبون بها، {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}، وتكملة الجملة واضحة: سيعلمون أنهم كانوا منشغلين ولديهم الأمل بشيء لا تقارن أهميته بالآخرة التي لم يهتمّوا بها.

نلاحظ أنّ القرآن يصف الحياة الدنيا بأنها متاعٌ لأننا نستفيد مما هو موجود فيها، ولم يصف الجنّة بأنها متاع، بل وصفها بأنها الحياة الحقيقية كما ورد في الآية 64 من سورة العنكبوت {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}، فتركهم يأكلون يعني أنّ الأكل هو أبسط شيء "أساسي" يهتم به الإنسان في الدنيا، لأنّه يسبب له البقاء على قيد الحياة، وتركهم يتمتّعون بما هو متاح لهم في الدنيا "زائد على الأكل" ليس بسعادة حقيقية، بل "متاع" كأشياء نستفيد منها ونستعملها لنعيش، فالأكل هنا في الدنيا شيء أساسي لنحافظ على حياتنا، ويسبّب لنا نموَّ الجسد وطاقةً للحركة، ونلتذّ بطعمه، وكلّ بقيّة المتاع نقوم به لنسد حاجات جسدية ونفسية، وفيها جانب للسعادة، أمّا في جنّة الآخرة فلا يوجد شيء يفعله أهلها إلّا للسعادة، حيث يأكلون فقط للذّة الطعام، ويمضون أوقاتهم فقط للسعادة، لا همَّ مرض ولا همَّ مصاريف... وهم في حالة اطمئنان دائمة من كل الجوانب، لا خوف على الصحّة ولا على سلامة الجسد ولا على فقدان ما حولهم... أطلتُ في هذه النقطة حتى ننتبه إلى أنّ الأكل والتمتع بما في الدنيا هو توصيف إلهي لهذه الدنيا التي هي لعب ولهو في مقابل الآخرة التي هي الحيوانُ، الحياة الحقيقية.

احتمالُ وجود رغبة عند الكفّار أن يسلموا يقابله تمتّعهم بما في الدنيا وحصر آمالهم بما فيها، وعلى هذه الحالة هم لا أمل لهم بالآخرة، ولن يسلموا.

بعبارة أخرى، هم يرون ما في الدنيا كملذات ورغبات لا يمكنهم التخلّي عنها إن حرّم بعضها الدين الإلهي، ويخبرهم تعالى أنّ حياتكم هنا أهمُّها لتعيشوا "الأكل" كنموذج عن بقية الأمور التي تحافظون بها على حياتكم، والأمور الأخرى

متاع، كأشياء تستفيدون منها، وفي الآخرة سوف تعلمون أنّ ما تعلّقتم به كان تافهاً أمام جنّةٍ خالدة لا يفعل من فيها إلّا ما يسعده، حيث هناك يأكل لا ليحافظ على حياته بل ليلتذّ فقط...

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ{4})
{وَمَا أَهْلَكْنَا}، لم نستنفد حياة ونميت، {مِنْ قَرْيَةٍ}، من مجتمع للناس، {إِلَّا وَلَهَا}، للقرية، {كِتَابٌ مَعْلُومٌ}، فلها قرار إلهي مأخوذ سلفاً "مكتوب" عن تحديد وقت إماتتها.

هناك قرى وهي تجمعات بشرية، كبيرة أو صغيرة، ثابتة في بيوت أو في الخيام... وجرى إهلاكها، وقرار إهلاكها لم يكن آنيًّا أو فجائيًّا، بل من أول ما خلق سبحانه الناس حدّد متى سينزل العذاب وعلى من سينزل.

هذه إشارة للعلم الإلهي الواسع جدًّا، وما نراه نحن يحصل، سبحانه يعلم به قبل أن يحصل، وأخذ سبحانه فيه القرار المناسب سلفاً.

هؤلاء الذين لم يسلموا فليعلموا أنهم قد يكونون على لائحة القرى التي سينزل عليها العذاب، وهذا تهديد لهم حتى لا يقولوا إنّنا لم يصلنا تهديد.

ننتبه دائماً للفرق بين ما يعلمه تعالى وبين ما سيحصل، حيث إنّ كثيراً من الناس يفهمون أنّه تعالى قرّر ما سيحصل معي، فأنا مجبور على فعل ما أفعله، وأنا مجبور على فعل السوء... وسبب هذا الوهم هو الفهم الساذج لكلامه تعالى والذي سببه الاستهتار بدينه تعالى والتعلّق بالسيئات وبالتالي تبرير فعلهم لها، وبعدها ينحطّ المستوى الفكري إلى السخافة لتفسير كلامه تعالى بشكل تبريرات للسيئات التي يرتكبونها.

خذ مثلاً عندما ترى تلميذاً مهملاً لدروسه، شارد الذهن في صفّه، يقضي وقته باللعب... فبكل سهولة ستتوقّع رسوبه، ولا علاقة لعلمك برسوبه بما حصل، لأنّ الرسوب حصل من تصرفات التلميذ. ونفس المفهوم ينطبق على ما يقوله تعالى عن علمه الدقيق بما سيحصل معنا، نحن نستصعب فكرة علمه تعالى بما سيحصل معنا قبل أن يخلقنا، وترى بوضوح في القرآن بكلامه سبحانه عن نفسه أنّه تعالى لا يقول لنا احتمالات، بل هو علم أكيد بما سيحصل مع كل واحد منّا، بل ما من غائبة في السماوات والأرض إلّا ويعلم سبحانه بها، بل وسلفاً وقبل أن يخلق سبحانه ما في الدنيا يعلم بما سيحصل، وهذا ما نستصعب فهمه وهذا هو المستوى الإلهي الحقيقي.

أنا بما منحني تعالى من حرية إرادة واختيار أفعل ما أشاء، وسبحانه بعلمه الفائق يعلم بكل ما سأختاره لأفعله، وسجّله في كتاب، لذا أنا لا أسير بشكل إجباري منفّذاً ما في الكتاب، بل انكتبت المعلومات سلفاً بناءً على علمه تعالى بما سأفعله أنا بإرادتي.

الكلام يجر الكلام لنسأل عن حالة حيرتي في مسألة ما وأنا صاحب القرار، فكيف يعلم سبحانه ما سأفعله وأختاره بينما أنا لم أحدّد بعد ما أريد، بل عشوائيًّا اخترت طريقاً من الطرقات...

كما ترى نحن نقيس الأمور على قدراتنا نحن بتوقّع ما سيحدث، ونعلم أنّه كلّما زادت المعطيات عن الطقس أو عن شخص ما أو عن حالة عالمية اقتصادية... كان توقّعنا أدق، وفي العديد من المسائل نحسم حتماً متوقّعين ما سيحصل، كحالة وقوع كوب الزجاج من يدي على الأرض، فمصيره الانكسار حتماً، وفي مسائل أخرى نبقى محتارين لا نعرف النتيجة... ومن الحالات التي نتأكّد فيها بالنتيجة يمكننا أن نفهم أنّه تعالى بقدراته الفائقة حتى بالنسبة لكائن يتمتع بحرية الإرادة والاختيار "الإنسان" يمكنه تعالى العلم بما سيختاره ويفعله.

يمكنك الاستغراق بحثاً وتجاربَ في هذا الموضوع لتتعرّف بقدر ما تتمكّن على الآلية التي تتيح لك توقّع ما سيفعله إنسان ما، محاولاً الاقتراب من علمه تعالى بما سيحصل، ولا مشكلة في ذلك، ولكن الأساس اعتماد ما يقوله تعالى صراحة فلا تخالفه، لأننا لدينا حرية إرادة واختيار في مساحة واسعة لنفعل ما نقرّره سواء مشينا بما قرّره غيرنا أو انفرض علينا فعله... هنا تتداخل الإرادات فارضة بعضها على بعض وليست لاغية لوجود الإرادة الحرة عند المفروض عليه إرادة الآخرين، كحالة الذي يهددني بقتل عائلتي إن لم أشرب الخمر أو أقتل بريئاً... فهذا ليس إلغاءً لإرادتي بل فرضاً لإرادة غيري عليّ.

تحت هذا السقف القرآني يمكنك البحث كيفما تشاء، ويمكنك تحديد ما أتيح لك للاختيار منه وما انفرض عليك، فأنت لا تحدد زمان ومكان ولادتك... ولا وفاتك... ويستطيع الآخرون حرمانك من تطبيق إرادتك باستعبادك... وفي ظروف قاهرة تنسلب منك القدرة على تطبيق حرية الإرادة، ولكنها تبقى موجودة إلّا أنْ يخرب عقلك...

يمكنك البحث عمّا يوجّه خياراتك مما تراكم عندك من تجارب حياتك، ويمكن للآخرين اكتشاف ذلك فيك وتوجيهك لتختار ما هم يريدونه... وهذا شيء ذكره القرآن عن عمل الشياطين من الجنّ والإنس في الآية 112 من سورة الأنعام {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ}، حيث يوحون لبعضهم موجّهين بعضهم البعض لما يرغبونه، وفي النهاية ومهما كانت المؤثرات علينا لتوجيهنا فيما نختاره لدرجة قدرة بعض المتخصصين على توجيه الجماهير والزبائن... نحو شيء محدد، ويفعلونه ظانّين أنهم اختاروه بينما هم موجَّهون، فهذا ليس لاغياً لحرية الإرادة فينا بل معرفة بما يمكّننا من توجيهها...

(مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ{5})
{مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا}، {الْأَجَلُ}، الموعد المحدَّد لإهلاك، {أُمَّةٍ}، مجموعة من الناس لها امتداد تاريخي وتتميّز بشيء مشترك بينها، وهنا الكلام عن أمم الكفر، وهي لا يمكنها أن تسبق أجلها، لا يمكنها أن تهلك قبلما يحين الوقت الذي حدّده سبحانه لهلاكها، لاستنفاد حياتها لإنهائها.

{وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ}، ولا يمكنهم تأخير موعد إهلاكهم، ولا يمكنهم تخطّي الموعد المحدَّد لإهلاكهم ليعيشوا أكثر منه.

نلاحظ أن هذا خبر إلهي يجب أن يلتفتوا إليه جيدا، لأنهم تحت السيطرة الإلهية التامة، والأمل بحصول شيء جيّد في الدنيا الفانية لا معنى له أمام مصير محدَّد سلفا للانتقال لما بعد انتهاء الدنيا للآخرة الخالدة، وربما يكون الانتقال عن طريق تعذيب ينزل عليهم في الدنيا فيصيرون أمواتا بانتظار عذاب الآخرة، وحتى الأمل بالسعادة في الدنيا في المستقبل هو مجرد أمل، كحلم قصير غير واقعي، لأنّ متاع الدنيا يحتاج لصحّة وجسد شابّ للتمتع به، وهذه حالة مدتها قصيرة جدا.

(وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ{6})
بعد طرح وجود احتمال عند الكفّار أن يؤمنوا ونفي حصوله بسبب تعلّقهم بالدنيا ونكرانهم للآخرة، ونكرانهم لعذاب إلهي دنيوي قبل الآخرة ينزل عليهم، ندخل إلى محور السورة.

{وَقَالُوا}، الذين رفضوا أن يسلموا لله تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ}، يا أيها الشخص الذي يقول بأنه نزل عليه شيء يسبب استحضارنا لكلام ربنا سبحانه في فكرنا وضميرنا وعملنا، {إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ}، أنت أكيد لست شخصا عاقلا.

هم لا يقصدون أنه مجنون في كل أمور حياته، كالمجانين المهملين لثيابهم والذين مشيُهم وحركاتهم وكلماتهم غير متّزنة... بل في طرحه للدين الإلهي على أساس أنه ناقل له من الإله سبحانه، فهو كلام مجانين، وهو مثل توصيفنا لبعضنا البعض عندما يقول أحد ما كلاما لا يمكننا تصديقه، فنسأله: هل جننت؟ وسنرى من الآية التالية سبب اتهامهم لرسولهم بأنه مجنون.

(لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{7})
{لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}! أنت يا محمد تقول بأن الملائكة (ع) تنزل عليك لتنقل لنا عبرك رسالة من ربك، فما الحاجة لهذه الدائرة، فلتأتِ الملائكة لتوحي لنا كما توحي لك، أو لنراها، وهكذا سنقتنع فوراً بكلامك، إن كنت صادقاً فعلاً بأن الملائكة تأتيك.

قرأنا هذا الطرح في كتب الكثيرين من "المثقفين والمفكّرين والأدباء..." عبر العصور، وهم يقولون كما تنقل الآية هنا عن أناس كانوا في زمن الأنبياء: لماذا اللف والدوران؟ إن كان الإله يريد هدايتنا، فلماذا لا يستعمل الطريق السهل، وكما نزلت الملائكة على رسله لتكلّمهم، فلتنزل علينا، وسنؤمن بالتأكيد! وكيف لم تخطر على بال الإله هذه الفكرة؟!

تذكّر هذا الكلام جيّداً، فسترى في هذه السورة "الحجر" ردوداً إلهية من جوانب متعددة عليه، بل السورة كلّها متمحورة حول هذه المسألة وما يتعلّق بها.

أول جواب يرد في السورة أن نزول الملائكة يكون بالحقّ، بالصواب، بأمر إلهي حكيم، وليس من الحكمة الإيحاء لهم، لأنهم وبسبب فساد قلوبهم فاقدون لأهلية الوحي إليهم، والذي لن يكون أي منفعة لهم منه لأنهم لن يتماشوا معه... فما الفائدة من سماعهم للكلام الحق في بالهم بدلاً من سماعه في آذانهم طالما النتيجة واحدة وهي رفضه؟

عادةً تنزل الملائكة على هذه النوعية السيئة من الناس لتنفيذ أوامره تعالى بإهلاك السيئين...

ثانيها حفظ الذكر**،** ولو نزلت على مجرم فاجر كذّاب مخترع للآلهة من خياله... فهذا لن يلتزم بمضمون ما يوحى إليه لأنه لا يتماشى مع فكره ونفسيته... ولن ينقله للآخرين بأمانة...

ثالثها أن هذا التكذيب للرسل عادي وفعله الكثير من الأقوام عبر التاريخ، وهذا الاقتراح الذي يبدو نابعاً من ذكاء حادّ وما هو إلا غباء متكرّر ممن لا يريدون سماع الجواب.

رابعها أنهم لو انفتحت أمامهم أبواب السماء ليروا بقية العوالم ومنها عالم الملائكة(ع) لقالوا إنهم تحت تأثير السحر...

خامسها أنه تعالى هو بنفسه واضح عبر أفعاله ولا حاجة لرؤيتهم للملائكة للإيمان به سبحانه.

سادسها أن كائناً اسمه "إبليس" تخطّى فيما سبق كل الحواجز ووصل إلى آخر سماء، وكان يرى الملائكة ويحدّثها... وتواصل معه تعالى من وراء حجاب وبدون واسطة الملائكة، ولم يسلم! بل تكبّر ولم يطعه تعالى...

سابعها أن الملائكة لو نزلت عليهم لتمثّلت على شكل بشر ولن يعرفوا أنها ملائكة**،** وحصل ذلك مع الرسول إبراهيم(ع) وزوجته، ومع الرسول لوط(ع) وقومه.

ثامنها**،** وبناءً على نموذج قوم النبي لوط(ع) وأصحاب الأيكة وثمود، فعقائد وسلوكيات الكفّار التي يهدّد تعالى عليها بالعقاب هي فاسدة بشعة وليست بحاجة لملائكة تنزل حتى نقتنع بسوئها، لأن ذرة عقل واحدة كافية لنؤمن بفساد ما يخالف دينه تعالى، وسترى السورة تعرض تفصيلاً عن ذلك عندما رأى قوم النبي لوط الملائكة وأرادوا الاعتداء عليهم...

(مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذاً مُّنظَرِينَ{8})
أول جواب يرينا لماذا لا تنزل الملائكة(ع) على كل الناس: {مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ}، بالصواب بالصحيح، ومن تكملة الجملة نفهم أنهم ليسوا أهلاً لنزول الملائكة عليهم بالوحي الإلهي، فإن نزلت الملائكة فستنزل لعمل صواب صحيح، {وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ}، فلو نزلت الملائكة(ع) عليهم لحصل لهم الهلاك فوراً ولن يحصلوا على فترة انتظار.

من تكملة السورة مع آيتنا هنا سنفهم أن نزول الملائكة (ع) على الكفّار ليس حقاً، ليس صواباً، فهو عمل عبثي، لأنهم لن يؤمنوا بسببها، وأصلاً لا معنى لنزول الملائكة عليهم لرؤيتها أو لتوحي إليهم بكلام إلهي، وسترى ذلك في الآية التالية.

بعبارة أخرى، لو فرضاً حصل ونزلت الملائكة (ع) على الكافرين، فلو استجاب سبحانه فعلاً لطلبهم بنزول الملائكة عليهم، فلا يوجد سبب لإنزالها إلا لإهلاكهم.

بعبارة ثالثة، اقتراحهم على أساس ذكائهم الخارق الفائق على حكمته تعالى، ما هو إلا غباء، لأن عقيدتهم وشريعتهم أصلاً فاسدة ولا تحتاج لأدلة على سوئها، وسيأتيك عن ذلك نموذج أفعال قوم الرسول لوط(ع)... ووسائل الهداية

المختلفة منتشرة وبكثرة تفوق ما يحتاجونه ليهتدوا، وسبحانه بحكمته لا يرى سبباً وجيهاً لتنزيل الملائكة عليهم، فهم لن يهتدوا من نزولها لأنهم لن يُمَيّزُوا الملائكة عن البشر، ولو فرضاً فرضاً رأوها كما هي على طبيعتها، فَسَيَقُولُونَ إِنَّهُمْ تحت تأثير السحر، وسابقاً هناك إبليس الذي رآهم وعاش بينهم، بل وتحدّث معه تعالى "من وراء حجاب" ولم يؤمن... وهذا ما سيأتي في السورة... إذاً لا يوجد سبب حكيم لنزولها عليهم لأنهم لن يهتدوا، وسيكون سبب نزولها حين يقرّر سبحانه أن تقوم الملائكة بوظيفة إهلاكهم، وعندها يكون انتهى موضوعهم وماتوا بانتظار حسابهم في الآخرة على كفرهم.

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ{9})
{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ}، القرآن الذي يجعل الناس يتذكّرون ربهم سبحانه فيستحضرون عقيدته وشريعته في فكرهم وضميرهم وعملهم بسبب ما نزل، {وَإِنَّا لَهُ}، للذكر، {لَحَافِظُونَ}، راعون صائنون له.

بعبارة أخرى، الملائكة(ع) تنزل بالذكر على الشخص المحدّد بأنه رسول، والملائكة (ع) كائنات قوية جداً وتمنع الشياطين من الاقتراب من السماء التي ينزل منها الوحي الإلهي، وأثناء نزولهم بالوحي يمنعون الشياطين من الاقتراب من الرسول الذي ينزل عليه الوحي، وتقرأ ذلك في الآية 27 و 28 من سورة الجنّ {إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا، لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا}، وهكذا يكون الذكر الإلهي محفوظاً مصوناً من أي تحريف أو تلاعب أثناء نزوله، والوحي ينزل على أشخاص فيهم مواصفات عالية تؤهلهم لاستقبال الوحي الإلهي، وهم لن يخالفوه ولن يتلاعبوا به وسيتماشون مع محتواه لأن قلبهم السليم يتماشى معه، وهكذا يكون الذكر محفوظاً بنزوله على أشخاص لديهم الأمانة لنقله كما هو بالتّمام للآخرين.

بالنسبة لسياق الكلام هنا مع الآية التالية، يبدو أن التركيز أكثر على الصون من ناحية صفات البشري الذي يتلقى الرسالة الإلهية، فعندما اقترحتم أيها الكافرون أن تأتيكم الملائكة(ع) لتؤمنوا، فاقتراحكم يتضمن أن تأتيكم الملائكة(ع) بالذكر، أليس كذلك، فهل أنتم أشخاص لديهم الأهلية لحفظ الرسالة الإلهية؟ فهل ستحافظون على محتواها؟ وهل ستعملون بها؟ ألن تنكروها؟ ألن تتلاعبوا بها؟ ألن ترفضوها؟... فما نفع نزول الذكر عليكم وأنتم منكرون للمنطق والعقل والفهم... ومتّبعون للشهوات السيئة ومجرمون... ولم تتغيّروا من بعد إنذاركم عبر الرسل والكتب فهل ستتغيّرون لو وصلكم الإنذار عبر الملائكة؟

تصوّر نزول القرآن على أبي جهل، ويسمع الكلام الإلهي في فكره، وهو كلام لا يتماشى مع فكر وسلوك ومشاعر أبي جهل، فهل سيؤمن به لمجرد أنه سمعه في وعيه؟ فما الفرق لو سمعه عبر أذنه من فم الرسول محمّد (ع)؟ طبعاً لن يؤمن حتى لو نزل عليه الوحي، وسيرفضه، ويجنّ جنونه إذا تكررت حالة سماعه لهذا الكلام في رأسه، وسيبحث عن حلّ لتتوقّف هذه الحالة عنه... أكّد القرآن أن نزول الوحي على الرسول محمّد(ع) أو أي واحد من الرسل قبله، فإنَّ نزول الوحي عليهم لم يسبّب لهم الإيمان، بل آمنوا لأن مضمون الوحي تماشى مع فكرهم وسلوكهم، وهذا مفهوم أساسي منتشر في كل القرآن ودرسناه في الآية الثانية من سورة البقرة {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، وهذا ما تفهمه من الآية 124 من سورة الأنعام {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...}، وكما ترى فإنَّ هذه الآية تشير لنفس ما تشير له الآيات هنا، لأنه سبحانه ينزل كلامه على شخص فيه الصفات اللائقة ليعمل به ويصونه...

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ{10})
{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ}، أطلقنا أشخاصاً ليكونوا ناقلين للكلام الإلهي، فأنت لست أول شخص يقوم بهذه المهمّة، أرسلناهم، {فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ}، في الناس الذين كانوا أولاً قبلكم في هذه الدنيا وكانوا على شكل أقوام متفرقة وكل جماعة منهم متضامنة وبشكل ما مضادة للآخرين بالاختلاف عنهم، فلم نصبّ اهتمامنا فقط بالمشركين، ولا فقط بالغشاشين... بل أرسلنا في شيع أي لمختلف الأقوام الذين برز لديهم شيء مشترك وعادةً اشتركوا في سيئة تستدعي إرسالنا لرسول لينذرهم.

من قبلك كانت الرسالة أيضاً محفوظة عبر نزولها على أشخاص مثلك نختارهم ليكونوا رسلاً لنا في مجتمعات الناس المختلفة والمتنوعة ولم ننزل الذكر على كلّ الناس. واختيار واحد من الناس لتنزيل الوحي عليه مسألة معتمدة وحصلت من قبل مراراً، وأمّا تنزيل الوحي على كل الناس فليس مسألة معتمدة منه تعالى لأنها لا منفعة منها ولا معنى لها لو حصلت ونزل وحي مباشر على الكافرين...

(وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{11})
{وَمَا يَأْتِيهِمْ}، لتلك المجتمعات، {مِنْ رَسُولٍ}، من شخص نرسله إليهم، {إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، كانوا يتعاملون معه من خلفية الاستهانة والاستخفاف به، ويعتبرونه بلا قيمة.

الكفار في زمانك يستهزئون بك، ويقولون إنَّ كلامك كلام مجنون، وهذا حصل في السابق مع من سبقك من الرسل.

(كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ{12})
{كَذَلِكَ}، كما أخبرناك عن استهزاء الأولين بالرسل الناقلين للذكر، {نَسْلُكُهُ}، نجعل الذكر يسلك يمشي آخذاً طريقه، {فِي قُلُوبِ}، في أساس أفكار ونفسية، {الْمُجْرِمِينَ}، الذين قاموا بأعمال يستحقّون عليها العقاب.

المجرم هو وصف لمن يرتكب الأعمال التي يستحقّ العقاب عليها، وهذا عندما يسمع بكلام ينهاه عن إجرامه، سيرفضه، وقلبه سيرفضه، وأساس فكره ونفسيته سيرفضه، ونفس الشيء سيحصل حتى لو نزل الذكر عليه شخصياً كوحي سيستهزئ به، هذا قلبه، وهذه نفسيته وتفكيره لأنه مجرم، وهو مرتكب للسيئات محبّ للشهوات السيئة.

هنا الآيات تركّز على مضمون الذكر وموقف الكفّار منه، فلو تحدّثت الملائكة(ع) في ذهن الكافر وقالت له: لا تشرك، لا تقتل النفس المحترمة، لا تَزْنِ، لا تشرب الخمر، لا تسرق، لا تَحْتَلْ، لا تَنْصِبْ، لا تكذب... فهل سيؤمن ويطيع؟ الله سبحانه الذي خلقنا يقول إنَّ من قرّر الكفر فلن يؤمن بهذه الطريقة، بل كما قالت السورة في أولها، إنه يزيد احتمال إيمانه لو ترك التعلّق بسيئات الدنيا، وكما ترى فإن لم يؤمن من نزول الوحي عليه مرة واحدة، فهل من المفروض أن تبقى الملائكة(ع) طوال لحظات حياة الكافر تتكلّم معه لتنهاه وتأمره؟ وإذا لم يردّ عليها، فهل من المفروض أن تتلبس الملائكة(ع) بشكل ما وتضربه على يده كلما أخطأ؟ ما معنى طلبهم لنزول الملائكة(ع) حتى يهتدوا!؟ بينما وبكل وضوح هم مجرمون ولا يريدون التغيّر.

حان وقت طرح المفهوم القرآني الأساسي الذي تعتمد عليه السورة هنا وكل القرآن، وتوصيف الآية للكافرين بالمجرمين ترى منه أنهم يقومون بأعمال يستحقون عليها العقاب، وإذا لم تفسّر الكلام من خلفيتك الثقافية الدينية التي تذهب بك إلى تصنيف الأعمال لحرام وحلال وواجب، ونظرت إليها كما يعرضها القرآن من تصنيفها الأساسي كصالحة وفاسدة، كخير وشرّ، كحسن وقبيح... وتنتبه لِمَا مزروع فيك من قابلية للتمييز بين هذه التوصيفات للأعمال، فسترى أنه تعالى وخصوصاً في سياق الكلام هنا، يلفت انتباهنا لما يريدونه ليؤمنوا، ولما هم عليه، هم مجرمون، هم فاعلون للأمور السيئة، وعقائدهم فاسدة، وشريعتهم على هواهم وقياس الأقوياء... وسلوكياتهم لا ضابط لها إلا ما يرونه هم مناسباً لمصالحهم ورغباتهم... فانظر إليهم لترى معنى ما يطلبونه كشرط ليتغيّروا! وخذ مثالاً متطرفاً جداً فجّاً أقول لك: سأقتل الناس ولن أتوقف عن ذلك حتى أرى الملائكة أو تحدثني أو توحي إلي. وفعلاً السورة هنا اختارت نماذج من هذا العيار، وبالنسبة لي أبرزها قوم النبي لوط(ع) الذين كانوا يعتدون جنسياً على الغرباء المارين بقرب قراهم، حين نهاهم الرسول لوط(ع) عن ذلك، حتماً أنذرهم بعقاب إلهي، وحتماً أخبرهم أنه رسول، وحتماً قالوا له إننا لن نتوقّف عن أفعالنا حتى تجعلنا نقتنع بكلامك بأنك رسول، المشكلة عندك ولن نتغيّر لأننا لم نقتنع أنك رسول إلهي. تصوّر نفسك ضحية من ضحاياهم، وتصوّر أنهم لن يتركوك حتى يروا ملاكاً ليؤمنوا... فهل فعلهم السيّء يحتاج لأدلة على سوئهِ؟!

أطلت عليك لأن مفهوماً قرآنياً أعمق مما أُشيرَ له عادةً من تمييزنا للخير والشر وتكليفنا بناءً على هذه القدرة، هناك عمق تحمله في طياتها كلمتا إيمان وكفر، وباختصار الإيمان شبه رديف لمصطلح الاعتقاد الدارج في الكتب "العقائدية"، وبأساس خلقتنا مزروع فينا تمييز الخير من الشرّ، ومزروع فينا رفض فعل الآخرين للشرّ معنا وعلينا،

وبالتالي يصير الاعتقاد مرتبطاً بما نميّزه وبما نرفضه على أنفسنا، ويصير الكفر إنكاراً لذلك، وهو إنكار لتمييز الخير من الشرّ، فاعل السوء ينكر أن الاعتداء على الآخرين سيّء، وهو يقول بأنه يراه حسناً، بينما الحقيقة أنه عمل سيّء، والجانب الآخر أنه يستبدل رفضه اعتداء الآخرين عليه، لا يقول إنه عمل سيّء لأنه يعتبر نفسه يعيش تحت قانون شريعة الغابة حيث القوي يأكل الضعيف، ولكن إذا فعلاً تعرّض للاعتداء، فسيتضرر ويتأذى ويعترض ويترجّى... بينما من قَبْلُ كفر بتصنيف السوء واعتبره حسناً حين كان هو يفعله!

في الغالبية الساحقة من السور لن ترى عرضاً إلهياً لدينه تعالى بشكل منفصل عن توصيف المؤمنين به بالمدح، وعن توصيف الكافرين به بالسوء، ليس لأنهم لم يؤمنوا وصفهم بالسوء، لا تأخذها على معنى المحازبة فمن انتسب للحزب صار معنا، ونحبّه ونمدحه... ومن لم ينتسب فهو ضدنا، وسيّء. بل لأن الإيمان هو نفسه الخير والصلاح، والكفر هو نفسه الظلم والإجرام.

(لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ{13})
{لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ}، المجرمون لن يصيروا في حالة اعتقاد والتزام بالذكر، سواء نزل عليهم مباشرة أو سمعوه من الرسول البشري، {وَقَدْ خَلَتْ}، كانت موجودة وذهبت تاركة مكانها، مرّت قبلهم، {سُنَّةُ}، طريقة تصرّف، {الْأَوَّلِينَ}، الناس الذين كانوا أولاً قبلنا، وما يحصل الآن حصل مع غيرهم ولم يؤمنوا، هذه سنة، وهذه طريقة تصرّف هذه النوعية من الناس، ولن تتغيّر وكلهم يشبهون بعضهم بعضاً.

نلاحظ أنَّ الآيات انتهت من المقارنة بين فكر المجرم ومتن الوحي، أين هو المنطق في اقتراح نزول الملائكة بالوحي؟

كما ترى، الآيات تتحدّث ضمنياً عن أمور مهمّة جداً، مضمون الرسالة هو الدليل على مصدرها الإلهي، إذا التزمت بما هو موجود في القرآن، لعلمت أنَّ الوحي الإلهي هو مجرد كلام يحصل في ذهن "شخص ما"، ولا يسبب له أي شيء نفسي أو فكري، لا يتغيّر "الشخص"، إن كان في حياته صادقاً أميناً خلوقاً حكيماً... فهو سيبقى كما هو، وإن كان كاذباً مفترياً خائناً كريه الخلق عابثاً... فهو سيبقى كما هو ولن يتغيّر، الكفر والشرك واختراع الشرائع الفاسدة... كما تعرف من القرآن، هو شيء افتراه البشر بلا دليل، ونبّه القرآن على كل الأشياء الفاسدة وأعطى الدليل على فسادها، وأعطى الدليل على صدق الوحي الإلهي وأحقيته بالاتباع، وهذا هو مضمون الوحي، وهذا ما يجعل "شخصاً" نزل عليه الوحي يؤمن بأن الوحي كلام إلهي، لأنه هو نفسه الشخص لا يجد صعوبة بالاقتناع بهذا الكلام، لأنه في حياته العادية لم يقبل فكره ولا ضميره أي أفكار مخترعة فاسدة بلا برهان، ولم يلحق بغريزته السيئة حتى تجعله يعلن اقتناعه فقط بما يؤمّن له إشباعها.

اعذرني لو كررت لك، ترسيخ هذا المفهوم القرآني ضروري جداً: لا يؤمن أي شخص بالوحي الإلهي النازل عليه لأن شيئاً في الوحي غيّره، بل يؤمن بالوحي لأن مضمون الوحي متوافق متماشٍ مع فكره ونفسيته، مثلاً لو لم ينزل الوحي على محمّد(ع) ونزل على شخص غيره، طبعاً من المفروض أن يكون في ذلك الشخص صفات الصدق والأمانة... لتجعل محمّداً يصدّق كلامه، في هذه الحالة كان محمّد سيؤمن بما يسمعه من ذلك الشخص، وهذه هي حال المؤمنين الصالحين الذين لم ينزل عليهم الوحي، ولكنهم سمعوه من رجل صادق أمين خلوق... ووجدوا كلامه متوافقاً مع فكرهم ونفسيتهم فآمنوا، وهذا ما يكرره القرآن دائماً ومنه الآية الثانية من سورة البقرة: {ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}.

الوحي الإلهي ينزل على "شخص" لا ليغيّر فكره ونفسيته، بل فقط ليخبره بالمعلومات الحقّ عن الله تعالى، وليخبره بالمخطط الإلهي لنا، ولينير قلبه بردّ إشكالات وتساؤلات الكفّار والتي لم يقتنع بها ولكنه لا قدرة له على الردّ عليها، لأن الإله سبحانه يمكنه أن يردّ ويقول: كل ما هو موجود أنا خلقته، ولم أسمح لكم بعبادة أحد من مخلوقاتي، ولم أسمح لكم باختراع شريعة، ولم أترك أي شيء لأحد غيري ليقرره... ولولا ذلك لا يمكننا نحن الردّ على العديد من كلام الكفّار، لو أنَّ أحدهم قال: حسناً، دينكم صحيح وجيد وكله حسن ولكني سأبقى على سلوكي لأن إلهكم لن يعذّبني لأني لا علاقة لي بدينكم... يأتيه كلام منه تعالى يخبره بأن القرار الإلهي حاسم بالعذاب للذين يكفرون ويجرمون.

الكلام يجرّ الكلام، من أوضح الكذب في تراثنا التاريخي الديني ما رووه عن الخطأ في نزول الوحي على محمّد(ع) وكان يقصد النزول على الخليفة الثاني عمر الذي كان كافراً في حينها. ليكن هذا نموذجاً لك عن كذب المغالين في تقديس بعض الشخصيات من التاريخ الإسلامي، وهذا النوع من المغالاة منتشر في عموم المذاهب والطوائف الإسلامية، وهو مرض مُعْدٍ أصيب به الجميع... إلى الله تعالى المشتكى من كذبهم بمغالاتهم لتفريقهم للمسلمين ولتشويه دينه تعالى ليصدّوا عنه...

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ{14})
{وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ}، على المجرمين، {بَاباً مِنَ السَّمَاءِ}، ممراً من الأرض يعبرون به إلى السماء، ولم يكن بينهم وبين الصعود إلى السماء مانع وحاجز، {فَظَلُّوا}، بقوا في الباب إلى السماء، {يَعْرُجُونَ}، والعروج ومنه اشتقاق التعرجات وأعرج وعرّجت عليه في طريقي، وغلب استعمالها في الصعود، بينما هي وصف عموم الانتقال غير المستقيم بسبب التواء أو انعطاف أو محطات بمعنى ما، أو بسبب اختلاف وسيط الانتقال من الأرض للهواء، أو بسبب اختلاف وسيط السماء، من السماء الأولى للثانية فتكون السماوات كمحطات... والانتقال عبر السماوات ليس انتقالاً في نفس الأجواء لأنها سبع سماوات، ولذلك يناسب وصف الصعود فيها بالعروج. وهنا الآية تشير لحالة لو أنهم أكملوا العروج حتى يصلوا إلى آخر سماء، وتأتي الآية التالية لتكمل الخبر: لقالوا...

نتذكّر أن الكلام في الآيات السابقة كان عن طلب الكفّار لرؤية الملائكة(ع)، هنا تعرض عليهم الآية شيئاً أعظم من طلبهم، حيث تفترض عروجهم هم إلى حيث الملائكة(ع)، وبدل أن تنزل عليهم الملائكة(ع) بالمعلومات، فرضاً لو فتح لهم تعالى باباً وعرجوا إلى حيث الملائكة(ع) فماذا سيقولون:

(لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ{15})
{لَقَالُوا}: {إِنَّمَا سُكِّرَتْ}، تاهت وفقدت التركيز، {أَبْصَارُنَا}، قدرتنا على إدراكنا ووعينا للصور فقدت تركيزها، فبصرنا تعرّض لعوامل جعلته ينقل صوراً غير حقيقية، فنحن نهلوس ونتخيل مثلما يحصل مع السكران الذي يتناول موادَّ تؤثّر على العقل كالخمر والمخدرات، {بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ}، أناس لنا كيان الجماعة المتفاعلة، حتى لو كنّا كُثُراً نشاهد نفس المشاهد فنحن كلّنا، {مَسْحُورُونَ}، تعرّضنا للسحر للتلاعب ببصرنا وعقلنا بخدعة جعلتنا نتصوّر أننا نعرج إلى السماء ونرى السماوات "والملائكة(ع)"، ولكن في الحقيقة نحن لا نزال على الأرض.

ننتبه جيداً، فهذا خبر ممن يعلم تماماً ماذا سيحصل، خبر من الإله سبحانه عن معرفة تامة بمخلوقاته، الآيات تتوسّع في فكرة إتيان الملائكة(ع) للكفّار لِيَرَوْهُمْ أو يوحوا إليهم، فإذا كانت الفكرة أن يروا الملائكة(ع) حتى يؤمنوا، فلو حصل شيء أكثر من ذلك، فلو صار لدى الكفّار القدرة على العروج إلى السماء لرؤية السماوات والملائكة(ع) في سمائها، فماذا سيقولون؟ سيقولون نحن تحت تأثير هلوسة أو تحت تأثير سحر! وسترى في بقية السورة كلاماً عن الجنّ ووصولهم إلى تلك السماء، واحد منهم وهو إبليس، دخل إلى سماء الملائكة وعاش بينهم، وسيأتيك الكلام إن كان ذلك سبّب له الإيمان...

ضع في بالك دائماً أن السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شيئاً غير حقيقي أنه حقيقي. فالساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد بأنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع أنها لم تختف، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر والذي تراه صريحاً في الآية 66 من سورة طه {قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}. وما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتُمَكِّنُهُ تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، فهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية أنها سحر، فهذا كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ{16})
من هنا ترجع بنا السورة إلى ما قبل طلبهم لرؤية الملائكة (ع) ليؤمنوا، وترجع بنا إلى وضوح تعرّفنا عليه تعالى مما فعله، ومستفيدة من سياق الكلام السابق عن فرضية عروجهم إلى السماء... ليبقى الحديث عن السماء وتدخل منه على نماذج بارزة تدل عليه سبحانه بوضوح.

{وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً}، جعل سبحانه فيما فوقنا بُقَعاً من مجموعات نجوم في السماء فهي موصوفة بالبرج، وهذه كلمة نطلقها على عموم ما اتسع في الوصف، للوجه حُسْناً، للبناء طُولاً، للحاجبين وُسْعاً، لزيادة زينة "مكياج" المرأة، لِسَعَةِ نجوم السماء كمجموعة... وتقال للأبنية التي وسّعوا بناءها طُولاً أو عَرْضاً أو سَمَاكَةً لتكون حِصْناً من الأعداء.

التفتنا نحن البشر لتلك المجموعات في السماء وأعطينا لكل مجموعة منها اسماً، حيث صارت المجموعات التي ينتقل فيها القمر بُرُوجاً، ومن الأساس الخالق سبحانه قرّر جعل النجوم ملفتة لانتباهنا، وصمّمها وخلقها تعالى لتبدو لنا على شكل مجموعات، البروج "الميزان، العقرب، الدلو..." لم تتشكّل بالصدفة بهذا الشكل الذي نراه، حتى لو لم نرث من الأقدمين أسماء لتلك المجموعات النجمية، وجلسنا ننظر إليها في الليل، فستلفت المجموعات انتباهنا، حين تصف الآية المجموعات النجمية بالبروج فهي لا تقصد ما ورثناه من تسميات لها. وتلاحظ أن الأمم المختلفة في مكانها على الأرض والمختلفة بالثقافة واللغة والدين... كلها التفتت إلى المجموعات النجمية، وأعطت لها أسماء مختلفة، وجمعتها مع بعض في تصوّرها بأشكال مختلفة.

{وَزَيَّنَّاهَا}، ووضع تعالى في السماء أشياء تجعلها جميلة، {لِلنَّاظِرِينَ}، لمن ينظر إليها، لمن يوجّه اهتمامه العام إليها، حيث فيها التجمعات النجمية المتباعدة، والتجمعات النجمية المتقاربة، والعناقيد، واختلاف في التوهّج، وغيمة درب التبانة...

ننتبه، الآية لا تتحدّث عن خرافات العرّافين وقارئي الطالع والحظ... هؤلاء اخترعوا "عِلْماً" للتنجيم، على أساس أنهم يعرفون منه مستقبل الناس وأمور أخرى... وهذه خرافات، أشار القرآن للشفق، ولاختلاف ألوان الحجارة، واختلاف طعم النبات ولونها وشكلها... وهنا أشار للتجمعات النجمية التي نسميها بُرُوجاً، وهي ليست إشارة مختلفة عن تلك الإشارات السابقة، هي للفت انتباهنا لعظمة الخالق، وليست تَأْيِيداً لخرافات الأبراج والحظ، واستكشاف الطالع والطابع والمستقبل... لا، أَبَداً بَتَاتاً، فاتقوا الله تعالى وتوقّفوا عن الكذب على الناس البسطاء، وعلى الذين لا يريدون حَلّاً إِلَهِيّاً لمشاكلهم ورغباتهم، بالتقوى تنحلّ كل المشاكل، ولكن هذا طريق يرفضه العديد من الناس، ورغبات أكثرهم من أصلها تتعارض مع التقوى! يريدون قوّة خارقة لتحقيق شهواتهم ونزواتهم السيئة، وتوارثوا خرافات كتبها من كان قبلهم من المنحرفين فِكْرِيّاً عن التفكير السليم، وغَالِباً نعرف عن المتعاطين بهذه الأمور أنهم كانوا أَيْضاً منحرفين عن السلوك السليم...

رغم كل ذلك، لا مانع من دراسة تأثيرات كل ما حولنا علينا، ولا مانع من البحث للاستفادة منها، بل كل الأشياء من حولنا خلقها تعالى حتى نتعامل معها، ولكن بمنطق وعقلانية على قدر ما استطعنا، وأمّا اختراع النتائج والتجارب الكاذبة من التنجيم والطلاسم والبروج والأفلاك... فهو حرام حرام، ومرّت البشرية بمجملها في حالات تخلّف فكري بسبب تركها لتبني العقلانية، حيث رأينا نموذجين من المشتغلين بالبحث والتأليف، نموذجاً اشتغل بالمنطق والعقلانية والفكر بالبحث والمقارنة والتجربة... وأفاد البشريّة بالعلوم الطبيّة والفيزيائية والكيميائية وعلم الفلك... ونموذجاً اشتغل بالكذب والوهم، ولم نحصد منه إلا الخرافات وتسخيف عقول الناس بالحظ والطالع والفال ومعرفة المستقبل عبر الجنّ وعبر مواقع النجوم، وتأمين العريس وإيجاد كنز الذهب وكِتَابَةِ "كتبة" الحسد...

(وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ{17})
هذا خبر عن سماء الملائكة(ع) أنها مغلقة على الجميع، حيث إن الآية 14 افترضت لو فتح تعالى لهم أبواب السماء ليروا ما فيها... فحدودهم إلى ما قبل السماء التي فيها الملائكة(ع) فهذه محمية، وليس واضحا من القرآن أي سماء من السماوات السبع هي السماء التي فيها الملائكة(ع) ولا يمكن للجنّ ولا لَنا تخطّيها، وربما هي السابعة أو السادسة أو...

{وَحَفِظْنَاهَا}، رعينا وقمنا بصون السماء، {مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ}، من كل كائن موصوف بالعمل على إضلال الآخرين، {رَجِيمٍ}، يقع عليه فعل الرجم، فعل الرمي من مكان بعيد، ومن عموم القرآن نفهم أن الملائكة(ع) يرجمون بالشهب من يحاول الاقتراب من سماء الملائكة، وتقرأ ذلك في الآية التالية وفي الآية 9 من سورة الجنّ {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا}.

إذًا، على فرض فتح باب للكفار للصعود إلى السماء لرؤية الملائكة(ع) فإنهم لن يقتنعوا وسيقولون: أبصارنا تُهَلْوِسُ ووقعنا تحت تأثير السحر. وعلى كل حال ليس هناك إمكانية لعروجهم إلى سماء الملائكة(ع)، وكما نعرف من القرآن إن الجن سبقونا في النفوذ في أقطار السماوات، ونحن سنصل إلى تلك المرحلة في المستقبل كما ورد في الآية 33 من سورة الرحمن {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}، ولكن حدود الجنّ وصلت إلى حدود سماء الملائكة(ع) وهناك استحالة في تخطيهم لتلك السماء، لأن الملائكة(ع) تمنع الخبثاء من المرور، إذًا أصلا لا إمكانية لعبور الكفّار إلى تلك السماء، وعلى أي حال حتى نحن البشر العاديين في المستقبل سنصل إلى نفس حدود السماء التي لا يستطيع الجنّ تخطيها، وهذا ما تقوله الآية 35 من سورة الرحمن {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ}.

نَنْتَبِهُ، فالقرآن دائما يتحدّث عن منع الشياطين من المرور، والكفار من البشر هم شياطين الإنس، ولكن القرآن تحدّث صراحة عن مرور شخص من البشر لتلك السماء، فعرج النبي محمد(ع) إليها، وتقرأ ذلك حول الآية 13 من سورة النجم {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى}، ومن القرآن لا عِلْمَ صريحٌ لنا عن مرور بشري غير النبي محمد (ع) إلى هناك. وتذكّر الكلام هنا حين ستأتي سورتنا على ذكر إبليس الذي ترقّى حتى سمح له تعالى بدخول سماء الملائكة(ع)... وهناك سقط في امتحان بسيط أظهر ما كان مخفيا من تكبّره... مع أنه كان بين الملائكة(ع)، ولكن لم ينفعه ذلك فكفر.

(إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ{18})
{إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ}، من قام من الشياطين بالاقتراب من سماء الملائكة(ع) العالية، مُسْتَرِقاً السمع، مرَّ مرورا سريعا وبالكاد اقترب بشكل كاف ليسمع شيئا من أحاديث الملائكة(ع) المتواجدة في تلك السماء، وأثناء مروره السريع، هو لا يستطيع التوقّف ليسمع، {فَأَتْبَعَهُ}، كان تابعا له، وكان على نفس مساره، {شِهَابٌ}، شيء مشتعل، {مُبِينٌ}، قاطع، فلو أصابه لأبانه، لقطعه.

نعلم من القرآن عن جِنٍّ مؤمنين لا يقتربون من تلك السماء لأنهم يعلمون بمنع الدخول أو الاقتراب، وتفهم ذلك من فحوى الآية 9 من سورة الجنّ {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا}. وربما هناك جِنٌّ مؤمنون بدرجة عالية ومسموح لهم الدخول ولكن لا تلميح ولا تصريح في القرآن عن ذلك، وهناك جِنٌّ شياطين "خبثاء"، غير مهتمين بالخير والشرّ والمسموح والممنوع، يريدون سماع ما يجري في تلك السماء، ويمرون مسرعين بالقرب منها، ولكن بالكاد يقدرون على السمع لأنهم سيتعرضون للرمي بأشياء مشتعلة ترميها الملائكة(ع) تقتلهم إن أصابتهم.

نَنْتَبِهُ، لو قالت الآية إنّ الملائكة(ع) ترمي الشياطين بالرصاص أو بالبرق، فهل ستتصوّر الرصاص الذي نحن نطلقه نحن من البنادق الحربية سيصيب الجن؟ أو هل تتصوّر البرق الذي يحصل من ظاهرة تفريغ الشحنة الكهربائية سيقتلهم؟ يعني، الشهب التي نراها نحن في السماء، هي شهب، ولكن من قال بأنها هي الشهب التي رمتها الملائكة(ع) على الشياطين؟

ربما من الطبيعي أن نرث عن بعض أوائل المسلمين تفسيرهم هذه الشهب التي نراها في سمائنا بتلك الشهب التي تقذفها الملائكة(ع)، لأنهم لم يكونوا يعرفون أن الشهب التي في سمائنا هي احتراق للأجسام النازلة على الأرض بسبب احتكاكها بالغلاف الجوّي للأرض، ونلتفت إلى أنّ القرآن يؤكّد وكما ورد في سورة الرحمن الآية 33 بأننا في المستقبل وإذا وصلنا إلى ما وصل إليه الجنّ، فسننتقل في السماوات وسنتعرّض لتلك الشهب التي نعرف بأن الملائكة(ع) ترميها، على كل حال ضع في ذهنك دائما بأننا لم نصل بعد لمرحلة اختراق تلك السماوات، حين نصل لتلك المرحلة

سنفهم هذه الآيات بشكل أوضح، وبدل أن تكون مجرّد خبر لم نره، ستكون تجربة نمرّ بها إن حصل في زماننا واستطعنا اللحاق بالجنّ والوصول إلى تلك السماوات.

لا تَنْسَ أنّ كلمة "شهب، شهاب" ليست مخصصة للأشياء التي تنزل من السماء وتحترق في غلافنا الجوّي والتي نراها عادة في الليل، وإذا كانت قوية نراها في النهار أيضا، بل كلمة "شهب" لأي نار أو ضوء متحرك يمتد من شيء ثابت أو متحرك، وأكثر استعمالها لعامّة أي جسم مرمي محترق، النبل المحترق شهب، ومقذوف المنجنيق المحترق شهب، وما يحترق في الغلاف الجوي للأرض شهب، وما يخرج من لهب حرّاق المازوت والزيت أيضا شهب... وما ترميه الملائكة(ع) على الشياطين أيضا شهب، وحادثة رمي الملائكة للشهب تحصل في سماء غير سمائنا، وتلك السماء لم نصل إليها بعد، وسنصل إليها في المستقبل كما يبدو من الآية 35 من سورة الرحمن.

(وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ{19})
هل يطلب الكفّار رؤية الملائكة(ع) أو يريدون أن تنزل عليهم بالوحي ليؤمنوا وهم متجاهلون لآياته تعالى المتنوّعة والمنتشرة وبكثرة؟! فماذا عن البيئة التي هم فيها! أليست آية؟ ومن هنا ستدخل السورة على تصميمه وتخطيطه تعالى لحياتنا ولبيئتنا من العمق والبداية، من خلقنا وعداوة إبليس وخروجنا إلى بيئتنا والبلوى فيها، والحساب في الآخرة.

{وَالْأَرْضَ}، والكلام هنا عن التي نعيش عليها نحن البشر، {مَدَدْنَاهَا}، فجعلنا لها سطحا ممتدا، وهكذا تراها عندما تقف عليها، فتراها ممتدة من كل الجهات.

ننتبه جيدا لتفسير مثل هذه الآيات، لأنها تتحدّث مع شخص واقف على الأرض، وتلفت انتباهه لما حوله، حيث يرى الأرض ممدودة في كل الاتجاهات، وإذا كان هذا المنظر تحصيل حاصل وروتينيا عاديا بالنسبة لك، فتذكّر الفراغ التام الذي لا شيء فيه، ثم التفت إلى أنّ خالقا قرّر خلقنا، وصمّم السماوات والأرض وخلقها متضمنة كوكب الأرض، وجعلك عليه، وها أنت ترى الأرض ممدودة.

لا آيتنا هنا ولا غيرها تتحدّث مع شخص يقف في السماء ويرى الأرض كروية، بل كلامها مع شخص عادي يقف عليها ويراها ممتدة على مدى نظره في كل الاتجاهات.

نفس الشيء كلام القرآن عن حركة الشمس فوقنا من المشرق إلى المغرب، وهكذا نصفها الآن بالرغم من علمنا بأن الأرض هي التي تدور حول نفسها، ولكن المشهد من فوق سطح الأرض يجعلنا نرى الشمس تجري، وما معنى وصف القرآن لهذه المشاهد من السماء؟ ليقول إنّ الأرض كروية وتدور حول نفسها وحول الشمس؟ لأنّ هذا درس في ميكانيكية "حركية" المجموعة الشمسية وليس كلاماً للفت الانتباه لآيات نراها من حولنا.

فرضا كنّا قديما وحديثا يمكننا رؤية دوران الأرض حول نفسها، وحول الشمس، فلنقل إننا وبشكل عادي كنا وما زلنا ننتقل كلنا من الأرض إلى محطة فضائية ونبقى فيها لمدة طويلة كافية لنرى دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس، فعندها يمكنك القول إنّ توصيف مشهد حركة الشمس للذي في تلك المحطة الفضائية لن يكون صحيحا، ولكن كلام القرآن ومن وقت نزوله وإلى الآن هو لتوصيف مشاهد للواقف على الأرض، وهو فقط للفت الانتباه لما خلقه تعالى، وليس لتعليمنا شيئا لا نعلمه، لأنّ كلام القرآن عن جريان الشمس ومدّ وبسط الأرض... ليس مختلفا عن بقية الأمور البسيطة الواضحة التي يعلم بها كل إنسان، ككلامه عن نزول الماء وخروج النبات، وهل هذه المعلومة جديدة؟ لا، ونفس الشيء كلام القرآن عن كل بقية الآيات التي لفت انتباهنا لها، ولم يقصد تعليمنا شيئا جديدا بل هو مجرد لفت انتباه لما تعرفه.

{وَأَلْقَيْنَا فِيهَا}، رمينا في الأرض، {رَوَاسِيَ}، أشياء تبدو ثابتة ولكنها عائمة قابلة للحركة، وهي وجه الأرض والجبال منها كما ورد في سورة المرسلات الآية 27 بوصفها كرواسي شامخات {وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ}، ووصفها القرآن بأنها راسية مثلما ترسو فتقف السفن في الميناء ولكنها غير مثبّتة بل قابلة للحركة، لأنّه معلوم للجميع أن الزلازل تحرّكها، والخسف يحركها، وحاليا وبواسطة أجهزة قياس المسافات نعلم بأنها تتحرّك بسبب تحرّك الصفائح التكتونية...

الآن نسأل عن وصف القرآن للجبال بأنها غير ثابتة بل راسية، وهل هذا درس في الجغرافيا؟ هل هي معلومة جديدة لم يكن يعلمها الناس حين نزول القرآن؟ لا، لأنّ تحرّك الجبال ليس بسبب تحرّك الصفائح القشرية والتكتونية فقط، فالزلازل تسبّب حركة سريعة لعموم وجه الأرض وللجبال فتحركها من مكانها، وهذا شيء يراه ويعلمه كل الناس، ولفت الانتباه لها في القرآن استعمل التعبير العربي الدقيق لحالتها، فهي راسية مثل حالة السفينة الواقفة في الماء، لأنها قابلة للحركة.

{وَأَنْبَتْنَا فِيهَا}، فجعلنا أشياء تنمو وتكبر في الأرض من نبات وحيوان، {مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ}، له مقدار محدّد، وبالنسبة للإله القادر على خلق كل شيء، قرّر أن يكون الخلق على "بيئة الأرض" مناسباً لها، موزوناً، يتناسب بعضه مع بعض، فنبات يعيش هنا ولا يعيش هناك حتى لا يقضي على بقية النباتات، وحشرة أو حيوان يعيش في ظروف مناسبة له ويحتاج لوقت ليتأقلم مع محيط جديد، فلا يقضي على النباتات والحيوانات في البيئة الجديدة، ولتتأقلم كل الكائنات مع مرور الوقت في بيئتها الجديدة...

هذا التوازن يعرفه الناس منذ القدم، حيث يعرفون التربة والمناخ الذي يناسب النبات، ومن النبات والبيئة يتوقعون نوع الحيوانات التي تعيش في بقعة ما.

انتبه دائما إلى أنّ معرفتنا بآلية تشكّل الأرض ونظامها البيولوجي، ليست إلغاءً لإله صمّم وخلق، بل هو تعرّف على الآلية التي صمّمها تعالى لتتشكّل الأرض والحياة عليها، حيث قديما وحديثا لا يزال الكثير من المنتمين لدينه تعالى يفهمون فعله تعالى للأمور بشكل غير صحيح، فإما يفهمون أن الأمور تحصل من كلامه تعالى بالأوامر بشكل عجائبي "سحري"، أو يفهمون أنه تعالى مباشرة يصنع كل شيء بلا ارتباط بينها بالأسباب والمسببات، فقديما ظنّوا أن المطر ينزل لأنه تعالى يأمر بنزوله، فهكذا وفجأة يتشكّل الغيم من لا شيء ويبدأ نزول الماء.

هذا ما درج منهم وصار ملتصقا كمفهوم ينبني عليه الإيمان به تعالى، بحيث إن ثبت خطأ كلامهم، ثبت فساد دينه تعالى! وكما ترى في هذه الناحية كثير من كلام الملحدين صحيح، وكثير من كلام المنتمين لدينه تعالى طفولي ساذج غير صحيح، وها ترى في القرآن كلامه تعالى الصريح الذي فسّره المنتمون لدينه تعالى على قدر المعطيات المتوافرة لديهم، مثلما قديما فسّر المؤمنون التوراة... وصار كلامهم هو الدين! وإثبات خطأ ما يقولونه هو إثبات فساد الدين الإلهي.

بلا طول كلام، فالمنتمون لدينه تعالى يتحملون مسؤولية ما يقولونه وينسبونه لدينه تعالى، ولذلك ترى في دراستنا هذه محاولة الفصل بين التفسير وبين كلامه تعالى، لأنّ ما نعرضه هو دراسة التصقت بالمعاني الأصلية للكلمات بقدر ما تبين لي من أصالتها، ونتج عن ذلك فهم واضح سهل لغالبية كلام القرآن، وتبيّن أن الكثير من التحليلات العارضة لتعدّد معاني الآيات ما هو إلا خلل في دراساتهم...

بالنسبة لتطوّر العلوم وتعرفنا على جانب مهم من آليات حدوث الأمور، حيث صار لدينا فرضيات لنشأة الكون ولنشأة المجرات وكوكبنا والحياة... فهو شيء رائع نتلمّس منه جانبا من روائع قدرته تعالى، فنتعرف على جانب من آلية فعله تعالى للأشياء.

(وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ{20})
{وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ}، أشياء تسبب لكم العيش، البقاء أحياء في الأرض، وفي استعمالنا الحالي للغة كلمة "معايش" ترادف: البيئة ومواردها الطبيعية التي نعيش منها.

{وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ}، وأيضا في الأرض معايش لمن لا علاقة لكم بما يحصلون عليه من أشياء ليعيشوا، حيث إن الحيوانات التي في البراري تعيش من أكل ما لديها في بيئتها، ونحن لا علاقة لنا بتأمين الأكل لها، ونفس الذي منحنا المعايش رَزَقَهَا طعامها وشرابها.

التفت إلى مختلف أنواع الحيوانات التي تعيش وتأكل وتشرب... وهي بهائم ضعيفة الفكر جدا جدا بالنسبة لك، ولكنها تعيش لأن خالقها أمَّنَ لها موارد العيش في البيئة، وأنت مثلك مثلها تعيش في بيئة تتوافر فيها موارد لتعيش منها.

إن كنت تعتقد أنك بذكائك تحصل على رزقك لتعيش مما تقوم به من عناية بالأرض عبر تهيئتها للزراعة ورَيِّهَا... فانتبه لبقية الحيوانات التي تحصل على رزقها مثلك وهي لم تفعل أي شيء، فالأصل والأساس أنكم كلكم في بيئة مصممة لِتُنتِجَ لكم الرزق.

إن لم تر الإله الذي أَمَّنَ لك المعايش على الأرض، فالتفت إلى بقية الحيوانات كيف تعيش؟ هل بذكائها وحنكتها تحصل على طعامها؟ من الواضح إذن أن الذي خلقنا كلنا صَمَّمَنَا وصمم بيئتنا لتناسب عيشنا بالأكل مما فيها.

دائماً انتبه وضع في بالك أن كلام القرآن عن الأكل والطعام والرزق والثمرات وبهيمة الأنعام... سببه ليس الأكل بحد ذاته، بل الكلام عادة عما يجعلك تبقى حياً، فأهمية الوعي والفكر والعلم والمشاعر والعلاقات الاجتماعية... منتشر عنها الكلام في القرآن، ولكن لا واحدة منها بأهمية بقائك حياً، فكلها تنتهي إن مِتَّ.

(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ{21})
{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ}، كل شيء من دون أي استثناء، فخزائنه عنده تعالى، ومَا يصير بين أيديكم فَمَصْدَرُهُ من خزائننا، بقرار مِنَّا يحصل، ومن عندنا يأتي.

{وَمَا نُنَزِّلُهُ}، ولا نُنَزِّلُ أي شيء كان، {إِلَّا بِقَدَرٍ}، إلا بكمية بحساب، {مَعْلُومٍ}، فلا ننزله على التخمين، أو عشوائياً، بل نحن نُحَدِّدُ ماذا سينزل ومتى سينزل وكم سينزل، وبدقة.

بالنسبة لتعبير "خزائن الله تعالى" فهي الأشياء التي يمكن خلقها ولم يخلقها بعد ربنا سبحانه، أو الموجودة ولكنها بحاجة لأمر إلهي لتصير معنا، حيث يُعَبِّرُ عنها القرآن أنها في الخزائن. فالله سبحانه ليس عنده خزائن من حديد أو غرف أو مستودعات، فقدرته سبحانه على فعل أي شيء يريده هي الخزائن بالنسبة له تعالى، فأنا أسحب الماء من خزان المياه، وأسحب الطعام من خزانة الطعام، وأسحب المال من الخزنة الحديدية... أما ربنا سبحانه فَيَأْمُرُ فتسير آليات التنفيذ ليحصل ما أمر به تعالى، وفي الحالات العادية صَمَّمَ سبحانه السماوات والأرض لتصل إلى حيث ستنشأ الأرض ويصير عليها ظاهرة المطر، وهكذا تفهم الحالة العادية لأمره تعالى بنزول الماء حيث تجري آليات ذلك من تَبَخُّرٍ وريح وفرق حرارة وضغط... فينزل الماء... وَأَمَرَ تعالى أن تخرج المخلوقات إلى الحياة فمشى تصميمه سبحانه للسماوات والأرض عبر مراحل وآليات وصولاً إلى نشأة الحياة على الأرض... ويأمر سبحانه أن تَمْحُوَ الملائكة(ع) سيئاتي فَتَمْحُوهَا... وعادة نربط خزائنه سبحانه برحمته، فمن رحمته حصلنا على أشياء من خزائنه، مِنْ رحمته خلقنا ومِنْ رحمته نزل الماء ومن رحمته غفر لنا... عَمَلِيّاً خزائنه هي أوامره سبحانه وتعالى.

بعبارة أخرى سبحانه وتعالى يأمر فتحصل الأشياء، لا يوجد علب أو صناديق أو غرف تخرج منها الأشياء، لِذَا خزائنه عملياً هي أوامره سبحانه وتعالى، وبما أنها جاهزة لتصير فور صدور الأمر الإلهي، مثلما الأشياء في الخزائن جاهزة لإخراجها، فَوَصَفَ تعالى ما يمكن خلقه وإتاحته بأنه في الخزائن.

توصيف نزولها بقدر معلوم له عمق منتشر الكلام عنه في القرآن بِعِدَّةِ تعابير وبصيغ مختلفة، إِذْ لا المطر دائم الهطول ولا خروج النباتات ونُمُوُّهَا مستمر بلا انقطاع... فالتوازن منتشر في تصميمه تعالى لبيئتنا، وصرنا الآن نعلم الكثير عن التوازن البيئي، ونرى مقياس التوازن بالثواني لبعض الأمور وبالساعات والأيام... وبالسنين وبملايين السنين... حيث تتوازن حرارة الأجسام الصغيرة بسرعة وتنتقل الحشرات لبيئة أنسب بالأيام... وقبلها تَشَكَّلَتِ الأرض بما يقارب المليار سنة أو 4,5 مليار سنة...

(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ{22})
{وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ}، يقوم تيار الهواء بتلقيح النباتات، ونعلم أن ذلك يحصل بطريقتين، حيث يحمل الهواء اللقاح من زهرة لأخرى، أو يوقع اللقاح من نفس الزهرة إلى مبيضها، وهذا لا يحتاج لتخصص في علم النبات لمعرفته لِأَنَّ أي مزارع يعلم بذلك، بل حتى حمل اللقاح من شجرة لأخرى ورشّه عليها كان دارجاً بين مزارعي النخيل منذ آلاف السنين.

{فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}، بتصميمنا لبيئتكم وسماح مِنَّا يحصل نزول الماء، {فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ}، جَعَلْنَاكُمْ تشربون من الماء الصالح للشرب... {وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ}، وأنتم لم تُخَزِّنُوهُ لينزل مطراً، فلا علاقة لكم بنزوله من الخزان "الغيوم" التي صممها تعالى.

آيَتُنَا هنا على نفس معنى الآية ما قبل السابقة، حيث تحصلون على الرزق من بيئة أَمَّنَتْ لكم الرزق، وَأَنْتُمْ لا علاقة لكم بتصميم البيئة، فَتُرْبَتُهَا وخصائصها ومناخها وأساس خلق النبات "الحياة البيولوجية"... لا علاقة لكم بِهَا، وكذلك نزول الماء لتشربوه فلا علاقة لكم بتخزينه في الغيوم.

بقي شيء ذكرناه في العديد من السور، ونكرره هنا لنفهم بشكل أبسط ما تقوله الآيات هنا، تَصَوَّرْ نفسك أنت سَتُصَمِّمُ وتخلق كائنات في بيئة، وَبِقَدْرِ صفاتك وقدراتك ستكون مواصفات ما تخلقه، لِنَقُلْ ستخلق أسماكاً في حوض ماء، وصممتها بحيث تجوع فتأكل لتنمو وتتكاثر... فهل سترش لها الطعام على سطح الماء أم تجعل بيئتها ينتج فيها الطعام المناسب لها؟ طبعاً إن كانت قدراتك عالية فستصمم بيئتها بحيث يَتَأَمَّنُ فيها ما تحتاجه الأسماك لتعيش، وفي هذا المثال حصرنا كلامنا عن شيء واحد، عن الرزق، وأنت ترى كمية التفاصيل الهائلة التي يجب أن تترابط مع بعضها لتعيش أسماكك من تنفس وحرارة مناسبة... الآن نسأل: هل ستؤمن الأسماك بخالقها رازقها، أم لن تؤمن به إلا إذا رأت الطعام جاهزاً ينزل عليها من سطح الماء؟ وحتى لو كان الطعام ينزل عليها بشكل متكرر فهل ستؤمن بخالقها أم تريد رؤيته وهو يرش الطعام لها؟ ضع هذا في بالك دائماً وستفهم منه الكثير الكثير من الآيات التي تحدثت عن بيئتنا وأنفسنا وقالت إِنَّهُ تعالى رازقنا وساقينا ومحيينا ومميتنا... وأن كل شيء هو آية تدل عليه تعالى، فَتَوَافُرُ الرزق في بيئتنا من صممه وأتاحه؟ أم لن تؤمن به تعالى كرازق إلا حين ترى وجبات الطعام جاهزة تنبثق أمامك حين تجوع!

مِنْ جانب آخر، مِثَالُ خلقك أنت لحوض سمك، هُوَ بعيد جداً عن حقيقة خلقه تعالى للسماوات والأرض، لأننا في استقرار وجودنا نعتمد عليه سبحانه وتعالى، فإذا تركنا سبحانه فسنزول فوراً، وَفَرْضاً إذا سَهَا عنا سبحانه للمحة فسنزول فوراً... وتقرأ ذلك في الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ...}، وتفهمه من فحوى الآية 255 من سورة البقرة {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ... وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}.

(وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ{23})

{وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ}، نحن منحنا فجعلنا حالة الفعل والانفعال في الكائنات، ونحن نجعل الكائنات تموت فتفقد حالة الفعل والانفعال.

عادة نحن نمر على هذا النوع من الآيات بسرعة، لأننا نعرف معنى الكلمات، ولكن تركيب المواد بشكل ينتج عنه كائنات تفعل وتنفعل "فيها حياة"، وبعد مدة تفقد فعلها وانفعالها "تموت"، هو شيء غير عادي، حَيْثُ من كلامه تعالى تفهم أن حبة رمل واحدة موجودة لوحدها ولا يوجد شيء آخر غيرها، لِأَنَّهُ شيء يحتاج لمن يفطره ويخلقه، وَيَحْتَاجُ لمن يجعل مَوَادَّهُ موجودة وَمُتَرَكِّبَةً، وإن كانت الأمور روتينية عادية متكررة في بيئتنا فهذا لا يعني أنها عادية في خلقتها وتناغمها وتوافقها مع بعضها، وها ترى الفقرة هنا سَاقَتِ الكلام من بعض الظواهر حولنا وُصُولاً إلى السؤال عن الحياة كحالة تتمتع بها الكائنات، فما الفرق بين جثة هامدة وإنسان حَيٍّ؟ وما الفرق بين كومة تراب تجمعت من اهتراء وتفتت جثة مَيِّتٍ وبين المادة التي فيك؟ لا فرق، إلا بطريقة تركيبها، أَنْتَ حَيٌّ تفعل وتنفعل، وكومة التراب لا حياة فيها بالرغم من كونكما مُتَسَاوِيَيْنِ بكمية ونوعية المواد الأساسية، إِذْ فيكما نفس الكمية من الكربون والكالسيوم والحديد...

نَحْنُ لسنا نولد ونخرج إلى الحياة لأن الطبيعة "الأم" خلقتنا وأحيتنا، لِأَنَّ هَذِهِ جملة في الفراغ ولا تشير إلى شيء مفهوم، مَنِ الطَّبِيعَةُ؟ هَلْ هي كائن يصمم ويخطط ويخلق؟ ومن ركب الطبيعة وصممها؟ هَلْ لوحدها انوجدت؟ أو بالصدفة؟ أو بالاحتمال القوي لتكرار الصح والخطأ، واستمرار ما يناسب البيئة؟ أو بالتطور من دون من صمم آليات لحدوث التطور؟... تَطَوُّرُ ماذا الذي يجعل الحياة موجودة؟ وتطور ماذا الذي يأخذ الحياة؟

{وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ}، فكل ما خلقناه وسمحنا لكم باستملاكه، فنحن نرثه في النهاية، وسيصير بلا مالك منكم، لأنكم كلكم ستموتون. كَلِمَةُ ميراث تشير لانتقال الملكية من المالك القديم إلى مالك آخر بلا استرداد، وعادة ينصرف ذهننا لحالة ميت ورث، ولكن الكلمة أعم من ذلك، حَيْثُ إِنَّ أهل الجنة يرثونها كما تقرأ في الآية 11 من سورة الْمُؤْمِنُونَ {الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، وَهُوَ وصف منح ملكيتها لهم بلا استرداد فلن يأخذها منهم أحد.

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ{24})
{وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ}، نعلم الَّذِينَ تقدموا فكانوا في الحياة قبلكم وماتوا، {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ}، الَّذِينَ سيأتون إلى الحياة بشكل مُتَأَخِّرٍ عنكم، من بعد موتكم، وَأَيْضاً نحن نعلمهم.

يعني: نحن نعلم بمن كان ونعلم بمن سيكون، نَحْنُ الخالقون، المسيطرون، المخططون، الْمُدَبِّرُونَ.

كُلُّكُمْ تحت المراقبة:

(وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ{25})
{وَإِنَّ رَبَّكَ}، وَإِنَّ المسؤول عنك من مستوى إلهي، {هُوَ يَحْشُرُهُمْ}، هو يجمعهم بعدما يموتون كلهم بقرار منه سواء قبلوا أم رفضوا، {إِنَّهُ حَكِيمٌ}، لا يعبث ولا يلعب، فعن صوابية خلقهم وحشرهم، وَإِنَّهُ {عَلِيمٌ}، يعلم كل شيء بالتفصيل، وعندما يحشرهم ليحاسبهم فلديه سبحانه علم بكل التفاصيل الدقيقة للأعمال التي قاموا بها، وعن علم فعل ما فعل، ونفهمها بمقارنة الحالة مع جاهل يخطط ويفعل فيما لا علم له به وسيفشل... بينما سبحانه يخبرنا عن علمه لننتبه للمستوى الفائق لقيمة ما يفعله، وعادة أنت كمؤمن لن تنتبه لهذا الخبر ولكن ستنتبه له حين ترى نفسك مُعْتَرِضاً أو مُسْتَغْرِباً أو رَافِضاً... لشيء ما جرى وآذاك كَثِيراً وكنت تفترض تدخله تعالى لمصلحتك، فلو آمنت بعمق بحكمته وعلمه تعالى، لما شعرت بأي شيء سلبي من أي شيء يجري معك، وهذه حالتنا نحن عموم المؤمنين، وهو واحد من الفروق الهائلة بيننا وبين الذين مدحهم تعالى وجعلهم أَنْبِيَاءَ وَرُسُلاً وصالحين من الدرجة العالية ومعهم السيدة مريم(ع)...

إِذَنْ هذه هي نهاية المخطط الإلهي لنا بخلقنا ومرورنا في الدنيا: حشرنا لمحاسبتنا ومجازاتنا.

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{26})
بداية فقرة تدخل على جواب آخر لاقتراح الكفّار لرؤية الملائكة(ع) حيث سنقرأ عن إبليس الذي عاش بين الملائكة(ع) ورغم ذلك كفر... ومن جهة ثانية تدخل الفقرة على واقع حالنا الذي نحن فيه ولن يتغيّر بترهات الكفار، فنحن في حالة بلوى... ومن بعدها حساب... وقبل ذلك كلّه لا تزال السورة تعرض آياته تعالى الواضحة والدالّة عليه تعالى، لتلفت انتباهنا لنسأل عمّن خلقنا، وكيف ولماذا؟

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ}، الغالب الأعم من الناس ركبّناهم ألّفناهم، {مِنْ صَلْصَالٍ}، من نوع يجمد من التراب حين يجف بعد بلله بالماء، وعبّرت عنه الآية 14 من سورة الرحمن أنه كالفخّار {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}، {مِنْ حَمَإٍ}، من شيء موصوف بالحماوة بالسخونة، {مَسْنُونٍ}، متحوّل متغيّر لم يبق على حالته الترابية.

هناك أنواع كثيرة من التراب والرمل، والناس الذين لا يتعاطون معها لا يعرفون أنواعها العديدة لذا يسمونها كلها تراباً كاسم للنوع، وكنظرة عامة، فالذي لا يتماسك حين تخلطه بالماء لأن حبيباته كبيرة اسمه رمل، والذي يتماسك لأن حبيباته ناعمة اسمه تراب، والتراب الذي يتصلّب بعدما يجف من الماء اسمه صلصال، والذي لا يتشقق بعد الجفاف اسمه فخّار... وتوجد أنواع أخرى كالطمي والكثبان... وتوجد أسماء بحسب اللون كالأبيض والرمادي...

على كل حال، التعبير القرآني عن خلقنا من التراب والماء، يشير إلى المواد المنتشرة في الأرض، من حديد وكربون وكالسيوم وهيدروجين... وبداية خلق الناس من تركيب هذه المواد، وأمّا كيف حصل ذلك ومتى، فالقرآن لا يخبرنا عن

تاريخه ولا عن آلية حصوله، فهو كتاب هداية يشير لما خلقه تعالى مشيراً للنتيجة متحدثاً بعض الأحيان عن مراحل الخلقة لما في الدنيا وضمنها كوننا والإنسان.

يمكنك البحث فكرياً وتجريبياً فيما يشير إليه القرآن عن بداية خلق ما في الدنيا، بل يدفعك القرآن للتفكّر عبر البحث عن آليات حدوث الأشياء، وحالياً المقاربة العلمية لخروج الحياة على الأرض تفترض تشكّل "بوليمر" من الطين... لتشكّل "آر إن إيه" بدائي... لتشكل خلية مفردة بآليات عمل ناسخة لنفسها بالانقسام... لتراكم خلايا متعاونة على النمو... وهكذا لملايين السنين... بعدها تشكّل النبات... وبعده الحيوانات التي تتناسل بالمزاوجة... وهذه العناوين الرئيسة لآلية ومراحل نشوء الحياة والتي أشار القرآن إلى بعضها، وتقرأ ذلك من الآية 9 من سورة فصلت {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ}... ومن الآية 7 وما بعدها من سورة السجدة {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}، حيث اكتفى القرآن بالإشارة إلى الأساسيات السهلة الفهم، مشيراً للمواد التي خلقنا تعالى منها، بتعابير مختلفة "تراب، ماء، طين، صلصال، حمأ..." وكلها تشير إلى المواد التي في الأرض من كربون وكالسيوم ونحاس وفوسفور... وهكذا إلى أن تسلسلت هذه الخلقة ووصلت إلى صيران الذكر والأنثى من كائن واحد سابق، حيث صار التناسل بالتزاوج، ولمزيد من التوسّع راجع في ذلك دراسة الآية 7 وما بعدها من سورة السجدة.

لو أطلت عليك، في بعض الأحيان نرفض قبول بعض الأمور لأسباب غير وجيهة، مثل إنكار الكثير من المسلمين العرب لحوادث إحراق بعض اليهود أثناء الحرب العالمية الثانية، حيث لا نعترف بحصولها لأننا لا نريد الاعتراف بكون اليهود كانوا مظلومين، لأنهم الظالمون الآن ولا تركب الصورة في ذهننا أن يكونوا في السابق مظلومين! لذا ننكر حصول المحارق وكأننا نحن المسلمين المسؤولون عن هذه المحارق حتى ننكرها ونتبرّأ منها! وكأن الاعتراف بحصولها سيعطي اليهود الحقّ في التجزير بنا!

بالنسبة لنظرية النشوء والارتقاء المعروفة بين عوام الناس بنظرية التطوّر، لماذا أرفضها وكأنها ستثبت أنه لا يوجد إله!؟ أنا لست عالم أحياء حتى أنكر أو أوافق على صحّتها، ولكننا نرى عموم علماء الأحياء يوافقون عليها، وهذا لا يعني أن نقسم يميناً على صحّتها، إذ لا أحد من العلماء العقلاء يتعامل مع النظريات العلمية بهذه الحدّية، وحالياً هذه هي النظريات التي بين أيدينا ونعمل على أساس فرضياتها، بانتظار بروز تطوّر علمي يحسّنها أو يأتي بأفضل منها... أين المشكلة وأين تتعارض تلك النظريات مع ديننا حتى نقول بأنها ليست صحيحة وكاذبة؟

بالعكس، لو رمينا المخزون الثقافي الديني المتراكم، والتزمنا بما يقوله القرآن، ستجد بصراحة أن بداية خلقنا من الطين، وبعدها تسلسلنا حتى وصلنا إلى مرحلة البشرية... هذه هي الأساسيات البسيطة الواضحة التي طرحها القرآن، وكما ترى هي لا تتعارض إلا مع نظرية تقول بأننا لسنا مخلوقين من تراب، أو لم نتسلسل من مخلوقات من تراب، وأي كلام آخر فلا معنى لرفضه لتعارضه مع القرآن، لأن القرآن لن يتعارض مع أي نظرية تعترف بخلقنا من تراب، وهذا أصلاً لا يحتاج لأي نظرية إذ من الواضح البديهي جداً أننا مخلوقون من تراب.

المشكلة في هذا الموضوع أنه مرّت موجة إلحاد معارضة لكل ما هو ديني مستهدفة أساس الأديان ونافية لوجود الإله من أصله، على أساس أننا فهمنا علمياً آليات حدوث الأمور، ولم نرَ الإله في المعادلة، حيث إن كل شيء مفسّر ومعلوم آليات حدوثه ولو بالتقريب... ولا حاجة لافتراض وجود إله لحصولها.

هذا الكلام بنسخه المختلفة المتعدّدة منتشر منذ القدم بين الناس، وهو كلام طفولي ساذج لم يميّز بين كلامه تعالى وبين كلام غالبية علماء الدين والتراث الثقافي الديني، إذ إن كلامه تعالى لم يدخل عادة في آليات حصول الأشياء، واكتفى بالإشارة إلى مراحلها للفت انتباهنا لحاجتها لمن صمّمها وخلقها، لم يدخل في آليات حصول المطر واكتفى بالإشارة إلى نزوله من الغيوم لنشربه ويسقي زرعنا... ولم يدخل في آليات تركّب المواد لتشكّل الكائنات واكتفى بالكلام عن خلقها من التراب والماء، ودخل في تفصيل صغير حين أشار لتحوّلها لتتناسل بالتزاوج كما تفهم من الآية 189 من سورة الأعراف {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ}... ومقابل هذا الكلام الإلهي لدينا كلام المتدينين لتفسير هذا الكلام، وهنا تقع المشكلة الحقيقية بين الملحدين والدين، وهي مشكلة موجودة ومعهم حقّ فيها، حيث إنها مشكلة في مقابل كلام المتدينين المفسّر لكلامه تعالى، وليست المشكلة مع كلامه تعالى.

ها هو القرآن أمامك، قارن بين ما يقوله وبين ثقافتنا الدينية، وسترى الفرق الهائل في مختلف الجوانب، ففي تراثنا الثقافي أنه تعالى صنع تمثالاً على شكل إنسان ونفخ فيه فصار وتشكّل وتكوّن آدم(ع)، على أساس فورية حصول هذا، وعلى أساس أن آدم(ع) أوّل بشري، بينما وبكل صراحة تجد في الآية 30 من سورة البقرة إشارة إلى وجود بشر قبل آدم(ع) {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ}... وتفهم من عموم كلام القرآن أن آدم(ع) أوّل بشري تأهّل ليكلّفه تعالى بالحلال والحرام والواجب.

بقي شيء، إن الفكرة التي زرعها المتدينون في ثقافتنا عن عمله المباشر سبحانه لحصول الأشياء، كانت تفسيراً طفولياً ساذجاً لكلامه تعالى عن فعله للأمور، حيث فهموا منها أن الأمور غير مترابطة وأنه سبحانه هكذا من لا شيء ينزل الماء، يأمر سبحانه وينزل الماء، متجاهلين كلامه تعالى عن الغيوم وعن سوقها "صرفها" من مكان لآخر... وجاء المتعلمون ليحاربوا الدين بدلاً من توعية الآخرين بالثقافة، لأنهم لسبب أو لآخر لا يريدون الالتزام بالدين الإلهي، ووجدوا عذراً لذلك، بل وجدوا كمية هائلة من الأعذار لذلك، لأن كلام "المتدينين" السخيف والساذج عن تفسير الأمور "العلمية" من نظرة دينية، كان هدفاً سهلاً للملحدين وللكارهين للدين الإلهي وللكارهين للمتدينين... وفي دراستنا هذه تجد الكثير من التنبيهات القرآنية للمتدينين وللناكرين للدين، لافتة انتباه الطرفين لأخطائهم...

(وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ{27})

{وَالْجَانَّ}، وهم نوع آخر من المخلوقات غير الإنسان والملائكة(ع)، {خَلَقْنَاهُ}، حيث ركّب وألّف سبحانه هذا النوع من المخلوقات، {مِنْ قَبْلُ}، من قبل أن يخلق الإنسان، {مِنْ نَارِ السَّمُومِ}، نحن نعرف لهب النار الذي له لون أصفر أو أزرق... ولكن تلك النار التي تركّب منها الجنّ هي سموم حيث إنها ساخنة كثيفة.

أقرب تشبيه لها هي الريح السموم، الريح الحارّة جدّاً التي لا تراها ولكن تشعر بها ككتلة من شيء حار وبتنفسها تشعر بثقل.

تلاحظ أن القرآن استعمل كلمة "جانّ" وكلمة "جنّ" للدلالة على نفس نوع المخلوقات من نار، مثلما استعمل إنسان وإنس للدلالة علينا.

ستلاحظ في الآية التالية أن السورة ستدخل على وجود حريّة إرادة واختيار لدى الجنّ مثلنا، وهم مكلّفون بالطاعة... وإبليس المشهور بوصفه بالشيطان هو واحد منهم، ويبدو كلام الآية هنا إشارة إلى وصول الجنّ قبلنا إلى مرحلة التأهّل لتحمّل التكليف بالأوامر الإلهية... ولكن على أي حال سترى أن الآيات تسلسلت لتدخل على موضوع البشري الكافر الذي طلب رؤية الملائكة أو التواصل معها ليؤمن... وقبل أن نتابع مع الآيات لنتذكّر دائماً أن الكمية الهائلة من المعلومات في تراثنا الديني عن الجنّ، النادر منها صحيح ومتوافق مع القرآن، والبقية كلّه خرافات وأوهام، إذ لم يذكر القرآن أن الناس رأوا الجنّ، حيث إن الآيات التي تحدّثت عن تسخيرهم للنبي سليمان(ع) لم تشر حتى لرؤيته هو (ع) لهم، بينما يدرج في أدبيات المنتمين لدينه تعالى الكثير من القصص عن رؤية البشر للجنّ، وكلّه كلام فارغ، وها في عصرنا مليارات من البشر والكاميرات المسجلة للصوت وللصورة... ولا يوجد لدينا ولا دليل واحد حقيقي عن رؤية أحد ما للجنّ.

هذا لا يعني أننا في المستقبل قد لا نراهم، ولا يعني أن البعض منّا في الماضي رآهم، إذ من القرآن لا نفي ولا إثبات لأي شيء فيما يتعلق بمسألة رؤيتنا للجنّ، لا في الماضي ولا في المستقبل، فافصل بين هذا وبين موروثك الثقافي الديني، ولا تلصقه بدينه تعالى، حيث ورّطنا السابقون من المنتمين لدينه تعالى بقصصهم الخرافية عن الجنّ، فلا تتبعهم، ويكفيك من هرائهم التعاويذ والأقسام والبخور... والتي لم ينتج عنها أي شيء حقيقي، لا نافع ولا ضار، إلا ضرر الترويج لسخافة العقول.

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{28})

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ}، قال المسؤول عنك من مستوى إلهي للمخلوقات الموصوفة بأنها تملك شيئاً ما، حيث تملك صفات وقدرات مميزة، ودرج اشتقاق وتخصيص كلمة "ملك ملاك ملائكة" لنوع من الكائنات التي تطيعه تعالى دائماً وفوراً وبلا تردد، كاسم لها، فقال سبحانه لهم:

{إِنِّي خَالِقٌ}، سوف أركّب وأؤلّف، {بَشَرًا}، مخلوقاً له بشرة ظاهرة ليست مستورة تماماً بالشعر، {مِنْ صَلْصَالٍ}، من تراب يجمد بعد خلطه بالماء ونشفانه، {مِنْ حَمَإٍ}، من شيء موصوف بالحماوة بالسخونة، {مَسْنُونٍ}، تتغيّر تركيبته وخصائصه مع مرور الوقت، قارنه مع توصيف الشيء الآسن، الماء الآسن، الوحل الآسن...

نلاحظ أن القرآن لم يقل: أيها البشر. حين خاطبنا بالتكاليف... وقال: أيها الناس. وهي إشارة لارتباط التكليف بالوصف بالإنسانية لا بالوصف بالبشرية التي تبدو كفارق في شكل ونوع جلدنا وشعرنا عن بقية الحيوانات، وصارت كالتسمية لنا علماً أن بعض الحيوانات قريبة منّا في الوصف بالبشرية من حيث الفراغ في الشعر على جلدها.

ننتبه جيداً، فالكلام أو الحوار بالأصوات أو بطرق أخرى، هو نقل للمعاني من شخص لآخر، ولو نقلت المعنى ذاته بطرق مختلفة، فَلْنَقُلْ باللمس أو بإشارات كهربائية مباشرة إلى الدماغ... فلا مشكلة في وصفه بالكلام طالما هي وسيلة نقل للمعنى الصحيح بدقّة.

كما تعلم، نقل لنا القرآن "باللغة العربية" أحاديث وحوارات من طرق ولغات مختلفة بالتعبير، كطريقة الوحي بين الإله سبحانه وملائكته(ع)، ككلام الأنبياء وأقوامهم التي جرت بلغة أخرى غير العربية، ونقل القرآن لنا كثيراً من الأحيان بصيغ وعبارات مختلفة محصّل وملخّص حوارات عديدة عن نفس الحوار الواحد، ولذلك ترى فروقاً بين الجمل القرآنية عن نفس الحادثة الواحدة، ولكن المعنى لا يختلف، بل بعرض نفس الكلام بأسلوب آخر تظهر منه المعاني الأدق التي يريد القرآن التركيز عليها في سياق الكلام الذي تأتي فيه، حيث نقلت الآيات حواراً لا إمكانية لنا لفهمه حتى لو كنّا هناك وسمعناه "على فرض تمكّنا من سماعه"، لأنه حوار لم يحصل بلغة من لغات البشر، حتى أننا لا إمكانية لنا لسماعه، لأن طبيعة المادة التي تتكوّن منها الملائكة مختلفة عن طبيعتنا... ولذلك ستجد اختلافاً في التعابير العربية لنقل ذلك الحوار، ولكن لن تجد اختلافاً في المعاني، حيث ذكرت الآية هنا: من صلصال... وفي غيرها من طين... وكلها تعابير عن مراحل حصلت أثناء خلقة البشر وصولاً إلى خلقة آدم(ع)، وهنا التركيز على حفنة تراب فيها سخونة وتغيّرت وصارت سوداء ولها رائحة غير محببة كأنها خمجة، آسنة، حتى تريك طاعة الملائكة (ع) وعصيان الجنّ بالسجود لكائن "بشري" مخلوق من هذه المادة الآسنة.

نلاحظ أن القرآن في بعض سوره لم يأت على ذكر الملائكة(ع) وإبليس حينما وجّه كلامه للكفّار، لأنهم قد ينكرون وجود هذه الكائنات من أصله... أمّا هنا فلمناسبة كلام الكفّار عن الملائكة(ع) توسّعت السورة بما هو مناسب لتتحدّث عنهم وعن إبليس، حيث تلاحظ سوراً عديدة اكتفت بالكلام بما فينا وحولنا من ظواهر وكائنات وعن القرآن، متغافلة عن أي شيء يمكن اعتباره كخلفية ثقافية دينية، وتجدها متغافلة عن الملائكة(ع) والجنّ عن قصد لتبدأ من الصفر مع المنكرين لدينه تعالى أو المشركين به تعالى.

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ{29})
نفس الآية وردت في سورة ص في الآية 72.

{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ}، هنا الكلام عن آدم كأوّل بشري تأهّل ليتكلّف، إذ جعلت آدم(ع) سويا، فصار بالتمام بشرا بجسد إنسان بشري تام الخلقة، {وَنَفَخْتُ فِيهِ}، وجعلت في داخله، {مِن رُّوحِي}، منّي شيئا صافيا، {فَقَعُوا}، ارتموا، {لَهُ سَاجِدِينَ}، وعبّروا له عن فائق احترامكم واعترافكم له بأنه أفضل منكم عندي.

تلاحظ أننا لا نعرف الشيء الكثير عن الملائكة(ع)، فإذا حاولنا تصوّر كيف تسجد، فستتصوّرها كإنسان يضع جبهته على الأرض، وهذا تصوّر لشكل بشري، ولكن الملائكة(ع) ليست كذلك، فلا نعرف كيف سجدت، ولا تتعب نفسك في تصوّرها تسجد، فهذا مستحيل الآن، ولكن في عالم الآخرة سيتغيّر جسدك وتركيبتك وستتمكّن من رؤية الملائكة(ع) لأنك ستصير في عالم مختلف عن عالمنا، وهناك ستفهم كيف سجدت، أمّا الآن فنفهم أنها قامت بشيء يعبّر عن فائق خضوعها واحترامها لآدم(ع)، وطبعا لا يعبّر عن عبادتها لآدم(ع) فكلمة سجود ليست مرادفا للعبادة بل هي من أشكال

تعابير العبادة حيث إن أهل النبي يوسف(ع) سجدوا له، وتفهم من ذلك سيادته عليهم وتعبيرهم له عن فائق احترامهم وخضوعهم.

ننتبه جيدا، تعبير: {رُوحَنَا}، يشبه تعبير: رزقنا، رحمتنا... ومثلما نفهم أن تعبير {عَبْدَنَا} يشير لوصفه تعالى لمن مفروض عليه طاعتنا، فكذلك {رُوحَنَا}، و{مِن رُّوحِي}، تشير لشيء صاف منه تعالى نفخه فيه وجعله فيه... إضافة الروح للإله سبحانه بـ {رُوحَنَا}، و{مِن رُّوحِي} لا تعني أن الإنسان حصل على جزء أو قسم من روح الإله سبحانه وتعالى، لا، بل تعني أنه مثلما عبدنا نحن خلقناه ومفروض منه الطاعة، {فَمِن رُّوحِنَا}، أي من شيء صافٍ من عندنا نحن خلقناه وجعلناه في الإنسان.

الروح ككلمة عربية معناها: الشيء الأساسي الخالي من الإضافات، الجوهر، "الإسانس". درج أن يقول العرب قديما "وحديثا" عمّا ينتج من عملية تقطير المواد: روح العنب، روح الزهر، روح النعناع... يعني الشيء الصافي من العنب، ومن الزهر، ومن النعناع... الروح التي فينا، والروح الذي نزل بالوحي، وروح العنب... كلها كلمة روح فيها تعني: شيء خالٍ من الإضافات. وهي وصف لحالة صفاء في هذه الأشياء، وليست الروح شيئا واحدا، بل هي وصف لأي شيء خالٍ من الإضافات. لذا لا تتصوّر أن الملاك الروح الذي نزل بالقرآن، والروح التي نفخها تعالى في آدم(ع) هما نفس الشيء، لا بل مختلفان، ومختلفان عن روح النعناع، ويشترك الجميع بوصفهم بنفس الشيء بالروح، إذ إنهم شيء صافٍ خالٍ من الإضافات.

بناءً عليه، الروح وصف لحالات مختلفة ينتج عنها آثار مختلفة، وهي لا تسبّب الحياة ولا الفكر ولا الوعي... في العنب والنعناع، ولا يعني أنها ليست موجودة في الجنّ أو الحيوانات أو النباتات، علما أن القرآن لم يصرّح بذلك، ولا يعني أنها شيء يبقى بعد أن نموت، لأن القرآن لم يصرّح بذلك أيضا.

بعبارة أبسط، الروح مجرد وصف لحالة، في وصف خلقة آدم(ع) يشير سياق الكلام عن الروح إلى ما جعل آدم(ع) قابلاً للتكليف بالأوامر الإلهية، لأنه عندها صار إنسانا حيّا واعيا مفكّرا... وقبلها كان يتشكّل... وفي وصف الملاك النازل بالوحي بأنه روح يشير سياق الكلام إلى كائن بقدرات وصفات عالية جدا، وفي وصف حبل السيدة مريم(ع) يشير سياق الكلام إلى خلق بذرة جنين في بطنها، وفي وصف النبي عيسى(ع) بالروح مع نسبة الروح له تعالى يشير إلى خلقه (ع) بشكل متميّز عن الآخرين بدون أب، وأنه (ع) ليس إلها، كما ورد في الآية 171 من سورة النساء {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ}.

هكذا ترى أن الروح وصف حالة لأي شيء بلا إضافات، وتسبّب آثارا مختلفة، وهناك أمور لم يدخل القرآن في تفاصيلها ونحن أقحمنا الروح فيها، فقلنا إنها تبقى بعد موت جسدنا، والقرآن لا من قريب ولا من بعيد أشار لذلك.

بقية الكلام الذي تجده في مختلف الكتب الدينية عن الروح، ما هو إلا دراسات تخمينية عنها، وأكثرها مبني على فهم غير صحيح لأصل معنى كلمة روح...

الخلاصة، من سياق الكلام القرآني الذي فيه كلمة روح سنفهم الخاصية المقصودة من وصف الحالة بالروح، لذا لا يوجد شيء واحد ككيان واسمه الروح على أساس أنه مشترك وموجود في كل ما وصفه القرآن بالروح، لا، بل هي آثار مختلفة لأمور مختلفة اشتركت في وصف حالتها بالروح لأنها شيء صافٍ خالٍ من الإضافات.

الآن ننتقل للتعبير عن التسوية، لا تفهم منه الفورية، لأن هذا الفهم البسيط لكلامه تعالى فهمه الذين كانوا قبلنا من أهل الكتاب قديما، وقالوا إن آدم(ع) عجنه تعالى بيديه من تمثال طيني، وصار تمثالا، ونفخ فيه تعالى ليتحوّل إلى لحم ودم... وهذا التصور لا يبدو صحيحاً بناءً على ما نجده في كلام القرآن عن وجود بشر قبل آدم(ع)، وراجع في ذلك دراسة الآية 30 من سورة البقرة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ}، وهذا يشير إلى ولادة آدم من أبوين... ولا يتماشى مع استعمال نفس وصف التسوية كمرحلة وليس كشيء فوري مثلما ورد في الآية 37 من سورة الكهف عن كلام المؤمن مع كافر بنعمته تعالى أنه نسي من "سوّاه" رجلا {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ

رَجُلًا}، وما ورد في الآية 9 من سورة السجدة {ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ}، صريح جدا بكلامه عن مراحل سابقة من الخلق من سلالة من طين وصلت إلى التسوية ونفخ الروح.

طبعاً تتذكّر أن كلمة طين استعملها القرآن كمرادف لما نسمّيه الآن بعناصر الجدول الدوري من كربون وكالسيوم وهيدروجين... لذا، الكلام عن خلقنا من طين يشير إلى هذه المواد التي تركّبنا منها.

يعني دع من بالك فهم الصورة بسذاجة عن تشكيل تمثال من الطين ونفخ الروح فيه ليصير بشراً، لأن تعابير القرآن التي أوحت بهذا التصوّر اختصرت مراحل الخلقة لتذكر الأساسيات، من المادة مع إضافة شيء لها صار بشراً...

أطلت عليك ولنكمل مع مفهوم قرآني أساسي يساعدنا على فهم كلامه تعالى، إذ إن القرآن لم يعرض لنا آليات وتقنيات حدوث الأمور، واكتفى عادة بالكلام عن الأمور كنتيجة لأفعاله تعالى وتراها أمامك، وأقصى ما نجده هو الإشارة لمراحلها، مثل: ريح سحاب مطر. وعن خلق الدنيا على ست مراحلَ فراجع في ذلك ما قبل الآية 12 من سورة فصلت {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا}، ولذلك لا تجد عادة في القرآن لا في هذا الموضوع ولا في غيره كلاماً تفصيليا عن آلية حدوث الأمور، ولم يذكر شيئاً عن فرق حرارة الهواء كسبب لحدوث الرياح... ولا عن فرق كثافة وحرارة بخار الماء عن محيطه ليرتفع إلى طبقة يتعادل معها في الكثافة ليشكّل غيمة... ولا عن تكاثف البخار على الغبار أو اختلاف تعادل شحنة سحابتين... كسبب لتساقط المطر... وكما ترى هذه آليات حدوث الأمور وليس من المفروض أن تجدها في كتاب هداية يشير لحدوث الأمور ودلالتها على الذي خلقها، ما الفائدة من ذكر كيفية حدوثها للهداية؟! وأصلاً، لو شرحها تعالى بالعمق الذي يسبّبها فعلاً من نظرته تعالى هل بإمكاننا فهم الكلام؟ فسبحانه لا يستعمل آلة حاسبة ولا قواعد رياضيات ليخلق...

نفس الشيء عن خلق النبات، الذي تمتص خلاياه الماء والمغذيات لتنمو وتنقسم، وبعضها يتّجه نحو الحرارة والضوء... وبعضها يتجه نزولاً نحو الرطوبة... إلى أن ينتج الثمر... وبعدها يصير حطاماً، وتقرأ ذلك في الآية 21 من سورة الزمر {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}، وبوضوح ترى غالبية كلام القرآن عن مراحل وليس عن آليات حدوث النبات.

نفس الشيء بالنسبة لخلقنا حيث إن المراحل من طين لسلالة من ماء مهين {مِن نُّطْفَةٍ} وتشكّل في بطن حاضن... هي مراحل.

نفس الشيء عن حياتنا وموتنا وإعادتنا إلى الحياة، إذ إن المنتشر في عموم ثقافة الناس أنه شيء ديني جوابه في الكتب الدينية، وهذا خطأ، فسبحانه لم يذكر آليات حدوث أي شيء، ولم يذكر آلية موتنا ولا آلية إعادة إحيائنا، وما هو منتشر في ثقافة المتدينين عن الروح والنفس عموماً، وخصوصاً في موضوع خروج الروح والنفس من الجسد حين نموت... وإعادتهما في الآخرة إلى الجسد... لا مستند قرآنياً له، وهي تفسيرات نابعة من خلفيات أسقطوها على كلام القرآن الذي لم يذكر ولا أي شيء تفصيلي عن آلية حدوث هذا الموضوع، وتركه القرآن مثله مثل بقية الأمور الأخرى لنبحث نحن فيها ونكتشف أسبابها بالتدرج والتقدم في العلوم.

نفس الشيء في كلام القرآن عن رزقه تعالى وعن الشفاء... من السخافة البحث عن دواء للأمراض الجسدية من القرآن، لأن هذا كتاب هداية وليس كتاب طبّ ولا فيزياء ولا فلك... وكلام القرآن عن أمور تتعلّق بهذه الفروع العلمية إنما كان حصراً وفقط للإشارة إلى أفعاله تعالى التي تدلّ عليه كإله عظيم فائق القدرات والصفات صمّم وخلق، ويلفت انتباهك لأمور بسيطة عادية تراها من حولك وتفهمها بالبساطة، ولتتعرّف منها على صانعها، لا أكثر ولا أقل.

ننتبه أيضاً، ما سبب الأمر بالسجود لآدم(ع)؟ مما يبدو من مجمل القرآن أن بني آدم(ع) فيهم متميزون لدرجة تفوق تميّز بقية الكائنات التي خلقها تعالى، إذ فيهم متميّزون أكثر من كلّ الملائكة العالية(ع) ومن كلّ الجنّ.

معلوم لك أننا نحن البشر كائنات مشحونة بالأحاسيس والغريزة والشهوة، ونحن مخلوقات فيها ضعف كبير، ونتأثر بما قبل ولادتنا بجينات أجدادنا، ونتأثّر ببيئتنا... ونتعرّض لمغريات حتى لو كنّا منفردين في وسط صحراء قاحلة... وفي

هذه الظروف التي لا تعيشها الملائكة(ع)، خرجت من البشر نماذج راقية جداً جداً بإخلاصها لله تعالى، وكانت نماذج قاومت كل الإغراءات وأخلصت فكرها ومشاعرها وعملها بحسب ما أمرها ربّها سبحانه، وتقديراً لهذه الكائنات التي ستظهر، كان الأمر للملائكة(ع) بالسجود لآدم(ع)، راجع في دراستنا هذه الآية 31 من سورة البقرة.

بقيت نقطة يجب أن ننتبه لها، حيث إن كثيراً من الناس يتصورون آدم(ع) في السماء وخلقه تعالى هناك، أو خلقه تعالى هنا على الأرض ورفعه تعالى إلى السماء العالية وجرى أمر السجود له وهو هناك... وهذا غير صحيح، لأن آدم(ع) من طين، ومخلوق على الأرض، وعندما تسوّى هنا على الأرض، جرى أمر السجود له من هناك، من السماء العالية، لذا لا تتصوّر آدم(ع) واقفاً هناك بجسده في السماء العالية والملائكة(ع) حوله، لأن هذا تصوّر غير صحيح، مع العلم أن الآيات تشير لعلم آدم(ع) بما يجري من خصام، وترى ذلك من الآية 31 من سورة البقرة، والآية 117 من سورة طه... حيث قام آدم(ع) وبأمر منه تعالى بإنباء الملائكة(ع) بأسماء الطاهرين من ذريّته...

(فَسَجَدَ الْمَلَآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ{30})
نرى في عدة آيات أخرى من القرآن تصريحاً باسم آدم(ع) وأنه بعدما سوّاه ونفخ فيه تعالى:
{فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ}، بدون أي استثناء عبّروا عن خضوعهم واحترامهم لآدم(ع)، كما ورد في الآية 34 من سورة البقرة {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}. أمّا هنا فلم تذكر السورة اسم آدم(ع) لأن تركيزها على رفض إبليس للسجود، وبذلك رفض أمراً إلهياً، بالرغم من أن إبليس كان يرى الملائكة...

(إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ{31})
{إِلَّا إِبْلِيسَ}، وهذا اسم لمخلوق من الجنّ، وهو وحده فقط، {أَبَىٰ}، رفض بشدّة، {أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ}، لذا لم يقم بما يعبّر عن احترامه لآدم(ع).
من الآية 50 من سورة الكهف {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} نعرف أن إبليس كان من الجن، وكما ترى من القرآن كان متواجداً مع الملائكة(ع) حينما صدر الأمر الإلهي بالسجود لآدم(ع)، وترى من الآيات أن إبليس كانت تظهر عليه علامات الإيمان العالية حتى سمح تعالى له بالتواجد في سماء الملائكة العالية(ع)، ولا نعلم إن كان الجني الوحيد حينها أو معه أحد غيره من الجنّ، ولا يهمنا الموضوع، علماً أنه من المشهور في تراثنا الديني أنه الوحيد من الجنّ الذي كان هناك.
ربطاً مع محور كلام السورة، هناك كفّار "من مختلف العصور" طلبوا رؤية الملائكة(ع) حتى يؤمنوا، وهنا السورة تنقل لهم حدثاً وقع مع جنّي كان لا يرى الملائكة(ع) فقط، بل كان يعيش بينهم أيضاً، بل ويتكلّم معه تعالى مثلما يتكلّم سبحانه مع الملائكة(ع)، طبعاً لا يتكلّم معهم سبحانه مباشرة بل من وراء حجاب بسبب استحالة حصول تواصل مباشر معه تعالى بسبب الفرق الهائل جدا جدا بين طبيعة الإله وبين المخلوقات.
حسناً، هل آمن إبليس الذي كان بين الملائكة(ع)؟ وهل أطاعه تعالى؟ لا، بل رفض إبليس إطاعة ربّنا سبحانه! إذن، فربّكم الذي خلقكم لم يظلمكم، ولم يطلب منكم شيئاً مستحيلاً حين أمركم بالإيمان به وبطاعته من دون أن تروا ملائكته(ع)، لأن رؤيتكم لها لن تسبب لكم الإيمان، وها نموذج إبليس أمامكم، ولنكمل لنرى ماذا حصل بعدما رفض إبليس السجود:

(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ{32})
{قَالَ}، الإله سبحانه: {يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ}؟ هل هناك سبب وجيه دفعك أن لا تنفّذ أمري ولم تقم بالتعبير عن الاحترام لآدم(ع)؟

نلاحظ الأدب الإلهي، إذ سبحانه يعلم كل شيء، ويعلم سبب رفض إبليس للسجود، ولكن سبحانه يسأل إبليس ليسمع الجواب منه، حتى لا يقول إني لم يكن هذا قصدي، أو لم أنتبه... ونفس الشيء سيحصل معنا في يوم القيامة، إذ إن الإله سبحانه يعلم كل شيء عنّا بالتفصيل، ولكن يحاسبنا ويجعل الناس وأعضاءنا تشهد علينا...

هذا من جانب ومن جانب آخر تفهم مدى العلو الإلهي من خلال التعامل الحليم مع مختلف الأمور، إذ سبحانه سلفاً يعلم بكل ما سيجري، لذا لا يتفاجأ بأي شيء، ومن الآيتين 20 و 21 من سورة سبأ {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ}، تفهم أن كفر إبليس

كان معلوماً عنده تعالى مسبقاً، ومعلومةً نتيجته المؤدية إلى عمل إبليس على إضلال الناس... إذ سبحانه مسيطر على كلّ شيء بقدراته الفائقة، وبقدرته القاهرة بشكل يفوق تصوّر حتى الملائكة العالية... وأصلاً لن يتضرّر بل أصلاً لا يتضرر من أي شيء مهما كان نوعه... وبناءً عليه فسبحانه وتعالى وبتعابير نتسامح فيها: ليس مستعجلاً ولا قلقاً من أي شيء... وهكذا تفهم هنا كلامه عزّ وجلّ مع إبليس بهذه الطريقة، وتفهم عموم نظرته تعالى للتعامل مع مختلف الأمور بحلم.

(قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ{33})

{قَالَ}، إبليس: {لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ}. لن أفعل هذا أبداً لأنه غير صحيح، فأنا خلقتني من نار وهذا مخلوق من صلصال، أي من تراب وماء يصير قاسياً بعد جفافه، {مِّنْ حَمَإٍ}، من شيء حامٍ ساخن، {مَّسْنُونٍ}، تتغيّر تركيبته مع مرور الوقت، ويبدو أنه يشير إلى صيرورة الطين آسناً قاصداً حالة الخمج فيصير كريه اللون والرائحة، فهو لا قيمة له أمامي، ولن أسجد له لأني أفضل منه.
لاحظ أن إبليس عليه اللعنة لم تنزل عليه الملائكة(ع) بالوحي، بل كان يتواصل من وراء حجاب مع خالقه بدون واسطة الملائكة(ع)، وعصى! الذي يطلب نزول الملائكة(ع) بالوحي عليه ليؤمن هل سيكون حاله أفضل ممن قرر العصيان أمام الإله سبحانه الذي يتكلم معه بدون واسطة! لا، إذ سقط إبليس في التكبّر، وأنتم غالبيتكم تسقطون في متاع الدنيا والأمل فيها والتكبّر عن توحيده تعالى، فلو لم يكن إبليس متكبراً لسجد، ولو لم تكونوا متعلقين بالدنيا والأمل في متاعها ولو لم تكونوا مستكبرين عن توحيده تعالى لآمنتم.
بقي شيء ضعه دائماً في بالك، نحن البشر بالمادة التي تركّبنا منها، لا نختلف عن كل ما يحيط بنا، فجسدنا مركّب من الكربون والكالسيوم والماء والحديد... والصخرة والتراب والحائط والشجرة... مركبات من نفس المواد ولكن بنسب مختلفة، فهذا فيه كربون أكثر من الآخر وذاك فيه ماء أكثر من الآخر... وهكذا... لذا نحن في نظر الجنّ لا نختلف عن الحائط والأرض والكرسي الذي أجلس عليه.
تصوّر بالعكس أنك أنت تنظر للجنّ، فهم مخلوقون من المادة التي في بيئتهم، من نار السموم، فكيان جسدهم وبقية الأشياء التي في بيئتهم كلّها من نفس المادة، وفرضاً، فرضاً، إذا نظرت إليهم، عندها لن تميّزهم عن النار التي حولهم إلا بالشكل، فأنا شكلي يختلف عن شكل الشجرة، ولكن في نظر الجنّ أنا مختلف عنها فقط بالشكل، ولكنني من طين، يعني من المواد المنتشرة في بيئتي، فأنا والشجرة من نفس المواد.
إبليس يرانا كمخلوقات طينية ويرى نفسه أكبر منّا من حيث التكوين، وتفهم تكبّره بتشبيهه بتكبّر أهل بلد ما على الآخرين، بتكبّر الغني بثيابه الفاخرة وبيته الكبير... على الفقير. وها ترى الملائكة(ع) وهي كائنات مختلفة عنّا وعن الجنّ في التكوين، ولم يكن لديها أي اعتراض على تنفيذ أمره تعالى، علماً أن القرآن ذكر لنا صراحة وبوضوح أن بعض الملائكة (ع) لديها قدرات عالية جداً جداً وتفوق قدرات إبليس وبقية الجنّ بكثير، حتى أن العديد من الآيات تحدّثت عنهم لترينا كم قدراتهم عالية فوق قدرات بقية المخلوقات، ورغم ذلك فهم مطيعون له تعالى لأنهم يعلمون بقدراته الفائقة سبحانه، وكمثال عن ذلك ما ورد حول الآية 166 من سورة الصافات {وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ}.
من هذا الكلام وحين تتذكّر أن الملائكة(ع) لديهم حرية إرادة واختيار، ولديهم قدرة رفض السجود لآدم(ع)، وقبل ذلك تتذكّر أنه تعالى يتواصل معهم من وراء حجاب لأنهم لن يتحمّلوا التواصل المباشر معه تعالى، وتفهم ذلك من فحوى القرآن ومن صريح الآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا}، وهكذا ترى أنهم مؤمنون ونفّذوا أمره تعالى وسجدوا لمخلوق من طين، وحالتهم من حيث المبدأ لا تختلف عن حالتنا من ناحية طرق التعرّف عليه تعالى للإيمان به، ولا تختلف عن حالة إبليس، وها ترى عصيان إبليس ليس لأن طرق التعرّف عليه تعالى غير كافية، ولا لفقدانه قدرة التمييز بين الخير والشرّ، إذ فعل السوء بالتكبّر وهو لا يميّز أنه سيّئ، بل مشكلته التكبر على أوامره سبحانه، فكفر تكبّراً...
يعني يمكنك أن ترى من الكلام هنا عمّا فعلته الملائكة وفعله إبليس أن المشكلة في عصيانه تعالى لا علاقة لها برؤية الملائكة، فها إبليس كان بينهم وعصى، بل وحتى الملائكة ذات نفسها لا معنى للإيمان به تعالى بسبب رؤيتها، إذ هي مجرد مخلوقات عادية بقدرات عالية، وهل الملائكة آمنت لأنها تراه تعالى أو تتواصل معه بشكل مباشر؟ لا، لأن هذا مستحيل، فلماذا الملائكة آمنوا ولم يطلبوا رؤية "الملائكة"؟ وأعيد وأكرر لك، ما معنى رؤيتهم كسبب حتى نؤمن به تعالى؟

(قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ{34})

قال تعالى: {فَاخْرُجْ مِنْهَا}، كن خارج هذه السماء المخصصة للملائكة(ع)، {فَإِنَّكَ رَجِيمٌ}، فستتعرّض للرجم، وتعلم من عموم القرآن ومما سبق وورد في الآية 18 من هذه السورة أن الملائكة(ع) تقوم برجم الجنّ برمي الشهب عليهم إذا حاولوا الاقتراب من السماء العالية، ونفهم الكلام هنا أن الملائكة(ع) قامت بطرد إبليس من تلك السماء رجماً بالشهب. طبعاً تتذكّر أن الكلام هنا عن السماء السابعة التي فيها الملائكة العالية(ع)، فهي غير سمائنا، وشهبها تحصل فيها فهي غير الشهب التي نراها في سمائنا...

(وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ{35})
{وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ}، عليك الطرد من الرحمة الإلهية، {إِلَى يَوْمِ الدِّينِ}، إلى اليوم الذي ندينك فيه، إلى اليوم الذي نحاسبك فيه بما لنا عليك، ونحاسبك على تبعات رفضك إطاعة أوامرنا. كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، وهي ليست اصطلاحاً مخصَّصاً كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، وهي عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئاً ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني فأنا مدين له، وخلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعاً بسبب سعة تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... فكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة فهناك ندان بأعمالنا، وما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هي التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضاً يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسباً بحكمته يديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{36})
قال، إبليس: {رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {فَأَنْظِرْنِي}، أعطني فترة انتظار، أمهلني وأخّرني، {إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}، أبقني حيّاً ولا تمتني من الآن إلى الزمن الذي ستبعث فيه الناس وتنهضهم من موتهم لمحاسبتهم.

نعلم من بقيّة الآيات هنا، ومن آيات أخرى من القرآن، أن إبليس أصرّ على موقفه وتكبّره ليبرهن أن البشر لا يستحقون أن يسجد لهم، فطلب منه تعالى أن يبقيه حيّاً حتى يغوي كل الناس من أولهم لآخرهم ليكفروا وبذلك يبرهن أنهم سيئون ولا يستحقون أن يحترمهم عبر السجود لهم.

(قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ{37})
قال، تعالى:
{فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ}، من الذين حصلوا على فترة انتظار، على مهلة، لن أميتك الآن. ولكن:

(إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ{38})
ليس إلى يوم البعث بل إلى: {يَوْمِ}، فترة الزمن، {الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ}، لن نخبرك إلى متى ستبقى، ولكن لن تبقى إلى يوم البعث، فقبل ذلك ستموت.

نلاحظ القرآن لم يذكر حتى متى سيبقى إبليس حيّاً، هل سيبقى حيّاً طوال حياة البشرية إلى أن يموتوا جميعاً؟ أم قبل ذلك؟ لا ندري، والأرجح أنه سيبقى حيّاً ما بقي هناك أحياء من الناس، وسيموت حين تنتهي الدنيا قبل أن تتبدّل السماوات والأرض منتقلة إلى الآخرة، وسيعيد تعالى إحياءه في يوم القيامة. يعني لن يكون حيّاً أثناء مرحلة تبدّل الدنيا منتقلة للآخرة.

على أي حال، فرضاً مات إبليس قبل موت الناس، هل بعد موت إبليس تصير الناس في راحة من الشيطان، ويصيرون كلّهم مؤمنين؟ لا، فهناك شياطين أخرى تكمل عمل إبليس، شياطين من الجن والإنس الكافرة العاصية لله تعالى التي تعمل على إضلال نفسها وإضلال الناس، ونحن أنفسنا الأمّارة بالسوء تكمل معنا بالوسوسة لفعل السيئات، ومنها يصير البعض منّا شياطين ولا حاجة لإبليس ليوسوس لهم.

بعض الناس يعتقدون أننا لولا إبليس لكنّا بألف خير، لا، فنحن نملك حرية الإرادة والاختيار، والشهوات والرغبات، حتى تفهم بأننا نحن لوحدنا ومن دون إبليس نتعرّض للامتحان، فكّر بإبليس نفسه، من وسوس له؟ لا أحد، فهو وسوس لنفسه، وهو تعلّق بتكبّره ونزوته، وكذلك نحن إذا تعلقنا بنزواتنا وشهواتنا السيئة فنصير شياطينَ لأنفسنا وللآخرين، وتلاحظ من القرآن أنه ذكر إبليس كواحد من الأمور التي تجعلنا نكفر، ولكن إبليس ليس المسؤول عن كل شرّ نفعله، بل المسؤولية تقع علينا، وسترى توضيحاً لهذا الكلام في بقيّة الآيات.

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{39})
قال إبليس: {رَبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {بِمَا أَغْوَيْتَنِي}، بسبب تعريضي لشيء جعلني أتصرّف بشكل غير رشيد، وأنا أعلم بأنني يجب أن أطيعك، ولكن هذا الأمر بالسجود أغواني فجعلني أعصيك لأني لم أستطع تنفيذه، ولأجل هذا، {لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ}، سأجعل الأشياء التي على الأرض تبدو جميلة لهم لدرجة ألا يروا الحياة الآخرة بعدها، فيتعلقوا بها ولا يقنعهم أي كلام عن جنّة الآخرة، {وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}، فكلّهم بدون استثناء سوف أجعلهم ورغم علمهم بتوحيدك ووجوب طاعتك، سأغويهم فسأجعلهم يتعلقون بأشياء فاسدة وغير صحيحة فيكفرون بك ويعصونك ظانين أنهم يحسنون صُنْعاً، {أَجْمَعِينَ}، كلهم بدون استثناء.

ننتبه جيداً، الكلام عن إبليس ليس موجَّهاً فقط للكفّار الذين طلبوا رؤية الملائكة(ع) ليؤمنوا، وليس فقط خبراً عن حادثة جرت في أول تكليف البشرية بدينه تعالى، لا، بل هو يتكلّم معنا كلّنا، فنحن الذين نعلن أننا مؤمنون وملتزمون، وأحياناً نعرف بالسوء ونفعله، ونعرف بالخير ونتركه، فننسى هذا ونتعامل مع قساوة الطرد والرجم واللعن لإبليس على أساس أنه لعنه الله كان عاصياً... ونحن أفضل منه!

لن أطيل عليك في هذه النقطة، فكلنا خبراء فيها لأننا خطّاؤون، ولكن ألفت انتباهك لنموذج إبليس الذي يقول بعض المؤمنين إنَّ خطيئته أكبر من خطيئتنا، لأنه كان يرى الملائكة(ع) وكان يتكلّم معه تعالى من وراء حجاب... ونحن لم يحصل معنا ذلك بل آمنّا بهذا الدين بأدلّة أقل مما أتيحت لإبليس... فانتبه، وانتبه جيداً، فهذا هو نفس كلام الكفّار، والردّ عليه كما ردّت السورة على الكفّار، فما كان متاحاً لإبليس لم يسبّب له أن يؤمن بالشكل الصحيح، لأن رؤية إبليس للملائكة(ع) لم تجعله مطيعاً له تعالى، وكذلك لو نحن رأينا الملائكة(ع) فإيماننا لن يزيد، وكلام إبليس معه تعالى لم يجعله مطيعاً... ونزول الوحي علينا بكلام إلهي مباشر إلى وعينا، لن يزيد من إيماننا.

مضافاً لذلك ومن فحوى كلام القرآن تعلم أن الملائكة (ع) ليس متاحاً لها شيءٌ للتعرّف عليه تعالى ويختلف من حيث المبدأ عمّا هو متاح لنا، فنحن والملائكة نتعرّف عليه تعالى من آياته، وهم يرون آيات أكثر مما نرى نحن لأنهم يرون السماوات السبع وما فيها، ويتمتعون بقدرات عالية جداً جداً عن قدراتنا تعكس لهم جانباً من قدراته الفائقة سبحانه، والتي نراها نحن في ضخامة تقانة ما صنعه تعالى... ولكن نحن لدينا أمور نعيشها ونلمسها ونفهمها وهم لا يفهمونها، وهي ناتجة عن خلقتنا من طين، فلدينا أحاسيس الجسد من لذّة التذوّق والشمّ وقشعريرة اللمس ومتعة النظر... وهي تعكس روعة ما أتاحه تعالى لنا وحُرمت منه الملائكة كما هو مشهور في ثقافتنا الدينية ويتماشى مع ما قاله القرآن كما في الآية 70 من سورة هود {فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ} التي تريك أنهم فاقدون للذة الأكل والشبع.

أريد من هذا الكلام لفت انتباهك لو أن الملائكة كفرت وتريد رؤية البشر لتؤمن! فهذا يبدو كلاماً بلا معنى بالنسبة لك، ونفس الشيء ما تقوله السورة هنا، فطلبك لرؤية الملائكة لتؤمن أيضاً كلام لا معنى له، فهم مخلوقات مختلفة بالتكوين والقدرات عنك، ولا شيء آخر، فهم لا يرونه تعالى ولا يتعاملون معه بشكل مباشر، وكما وظّفهم تعالى ببعض المهمّات وظّف البعض من البشر بمهمّة تبليغ كلامه تعالى للآخرين...

(إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{40})
{إِلَّا عِبَادَكَ}، فقط المفروض منهم طاعتك، {الْمُخْلَصِينَ} "فتحة على حرف اللام" أي الذين انفردوا بشيء عن البقية، وهم من الناس ولكنهم تميّزوا عنهم، وسياق الكلام عن التميّز بتصرفهم على أساس أنهم مفروض منهم طاعته تعالى. وهؤلاء لن أستطيع إغواءهم طالما لا يوجد شيء يعكّر إيمانهم، وسأوسوس لهم ولكنهم لن يطيعوني.

يبدو من القرآن أن إبليس هو حشر نفسه مع زمرة الملائكة(ع)، وهو تصرّف كواحد منهم ورافقهم مُدَّعِياً أنه مؤمن مخلص مطيع مثل الملائكة(ع)، وحين صدر أمر إلهي للملائكة(ع) أطاعت كلها، ولكن تبيّن زيف ادّعاء إيمان إبليس وتبيّن أنه ليس من المستوى الراقي، واعتبر الأمر الإلهي لملائكته(ع) بالسجود للمخلوق البشري، اعتبره إبليس موجّها ضده! فاعتبر أنه تعالى أغواه وجعله يترك ما يعرفه صواباً ليتجّه نحو الخطيئة، وإبليس كان يعلم أن إطاعة الأمر الإلهي والسجود للبشري هي شيء طبيعي لمن أعلن أنه مطيع لله تعالى، ولكن تكبّره منعه من السجود، فاعتبر أنه لولا هذا الأمر بالسجود لكان كل شيء على التمام، وأنه كان سينفّذ أي أمر إلهي آخر مهما كان نوعه... إلّا هذا. مع العلم بأن نفسية التكبّر لدى إبليس كانت ستظهر على كل حال، في هذا الأمر أو في غيره، لأن طاعته كانت مزيّفةً ولم تنبع عن إيمان عميق.

هل تتصوّر إبليس يسجد لآدم(ع) تعبيراً عن احترامه للجنس البشري المتمثّل بالنموذج آدم(ع)، مع علم إبليس بتضمّن ذرية آدم(ع) لأناس شياطين على شاكلة الكفّار المجرمين! لأنَّ القلّة القليلة من بني آدم(ع) تستحقّ الاحترام، وأشار إليها إبليس فيما نقلته الآية هنا عنه... وهذا من بعد ما تلا آدم(ع) أسماء المميزين من ذريته على الملائكة(ع) وعلم بذلك إبليس كما يبدو من الكلام هنا ومن عموم ما نقله القرآن عن إبليس بكلامه عن المؤمنين من ذرية آدم(ع) الذين لن يستطيع إغواءهم، حيث علم بهم من تعليمه تعالى لآدم(ع) أسماءهم ثم أمره تعالى لآدم(ع) بتلاوة الأسماء على الملائكة(ع) كما ورد في الآية 31 من سورة البقرة {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ}. وهل تتصوّر صعوبة موقف إبليس بالسجود لأناس لم يسجدوا لله تعالى طواعيةً ولو لمرة واحدة في حياتهم! لمجرمين يرتكبون كل المخالفات التي أمر تعالى بتركها! وهل تتصوّر أن سجود الملائكة (ع) لآدم (ع) كممثّل للبشر مع تضمّن ذريته (ع) لكفّار ومجرمين، هل تتصوّره كان قراراً سهلاً؟ بالتأكيد تراه سهلاً عليهم لأنهم ملائكة، فهم لا يعصونه تعالى، ولكن من القرآن نعلم أنهم لم ولن يعصوه تعالى حتى لو كان الشيء ليس على خاطرهم، وبعدما يأمر به تعالى يصير على خاطرهم، وفوراً وبقرار داخلي منهم، يتخطون مشاعرهم ويلتزمون حرفياً بأوامره تعالى، ويمكنك مراجعة ما ورد في الآية 30 من سورة البقرة عن استفهامهم لسبب اختياره تعالى البشر ليكونوا خليفة له تعالى في الأرض، {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ}... وكما ترى فالملائكة(ع) ورغم رؤيتها لإجرام البشر، سجدوا لآدم(ع) بناء على علمهم بخروج أناس طاهرين من ذريّته(ع)، وأمّا إبليس فرفض.

بالنسبة لكلمة عباد سنتوسّع في معناها في الآية بعد التالية.

(قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ{41})
قال تعالى:
{هَذَا صِرَاطٌ}، ما سأقوله هو طريق أساسي، {عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ}، يوصف بأنه على الأحسن، ولن أقوم بشيء فيه اعوجاج عمّا يلي:

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ{42})
{إِنَّ عِبَادِي}، إن الذين مفروض منهم طاعتي، {لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ}، لا تملك قوّة قاهرة غالبة لإرادة عبادي، ولن أعطيك قدرة ولن أسمح لك بأن تَغْلِبَ على حريّة اختيارهم، ويمكنك فقط أن توسوس لهم، ولكن لا يمكنك أن تجبرهم.

{إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ}، إلّا من كان على ما أنت عليه من السوء، وكان على خطى عصيانك لي، {مِنَ الْغَاوِينَ}، من الذين لا يتصرفون برشد، واتبعوا الشهوة والنزوة السيئة والأمل... وتركوا الفكر والقلب السليم، فهؤلاء سيعطونك القدرة للسيطرة على فكرهم وتصرفاتهم، وهم سيعطونك هذا السلطان بإرادتهم ولن أمنعك عنهم ولن أحميهم منك طالما هم اختاروا اتّباعك.

كلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة وهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، فكأن كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، فكلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، وهي جمع الجمع، وأثناء الكلام بدقّة تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، فتقول الآيات: عبيد. ووردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وتكون لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وتكون لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، وهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخرون جاءهم رسول، وعبيد آخرون... فجمع الجمع "عباد"، فكلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جداً عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

(وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ{43})
{وَإِنَّ جَهَنَّمَ}، وإن المكان الموصوف بسوء ما فيه، وفيه النار المتأججة، {لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ}، وسيلاقونها في وقت لاحق كلهم.

تذكّر أن الكلام هنا خبر منه تعالى عمّا سيحصل حتماً معنا، وأن الكفر بهذا الكلام لن يغيّر أي شيء. شبّهها مع المثل المشهور عن حالة النعامة التي تدفن رأسها في الأرض، على أساس أنها إن لم تر العدو فالعدو لن يرها، بغضّ النظر عن صحّة المثل لأنه غير صحيح، حيث يقولون بأنها تقلّب البيض المدفون في التراب، ولكنه تشبيه لحالة الكفّار في إنكارهم لعذاب الآخرة، فهذا الإنكار لن يغيّر من حتمية حصول العذاب لهم.

(لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ{44})
{لَهَا}، لجهنّم، {سَبْعَةُ أَبْوَابٍ}، كل باب مخصّص لدخول نوعية من الكفّار، من درجة الكفر العالية جدّاً للقتلة... وصولاً لدرجة الكفر الخفيفة.

{لِّكُلِّ بَابٍ}، من تلك الأبواب السبعة، يوجد {جُزْءٌ مَّقْسُومٌ}، مكان خاص عن الأماكن الأخرى.

التعذيب له مستويات مختلفة ولن يكون بدرجة واحدة للجميع، علماً أنه كلّه شديد، ولكن يوجد تعذيب أشدّ من الآخر.

انتبه ولا تتصوّر تلك الأبواب كالأبواب التي تعرفها للغرف، لا، لأنها مداخل وممرات للوصل إلى أماكن، ونعرف من القرآن أنّ جهنّم دركات كطبقات، والطبقة السفلية هي الأشدّ كما تقرأ في الآية 145 من سورة النساء {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا}، ثم طبقة فوقها، وهكذا إلى الأخيرة، حيث إنها مثل وادٍ عميق، مقسوم لسبع طبقات.

نلاحظ القرآن لم يذكر عدد أبواب الجنة ولكن جاء في الروايات أنها ثمانية أبواب، وبالتحليل نقول إنّ كل باب فيها يقابل باباً في النار، والباب الثامن في الجنّة هو للذين لم يخلدوا في النار، حيث هناك الذين يقضون فترة تعذيبهم التي تمتد من لحظة إلى دقيقة إلى ساعة... إلى مليار سنة... وفي الأخير سيدخلون إلى الجنّة من الباب الثامن، وهذا ما نفهمه من الروايات دمجاً مع تحليل قرآني.

في الروايات تجد أسماء لأبواب جهنم والجنّة، وبعضها يبدو منطقياً ومقبولاً، حيث يرتّب طبقات جهنّم بحسب الجريمة الأكبر ونزولاً إلى المجرمين الأصاغر، ولكن تلك الأسماء هي مجرّد تحليلات لما ورد في القرآن في كلامه عن الشرك الذي يعتبر من أكبر الجرائم، والغيبة والسرقة الأقل جرماً بكثير من الشرك... ولكن ترتيب الجرائم من الأخف للأشدّ، لا يبدو له ترتيب صريح في القرآن، مع أننا متأكدون من وجود فرق بين الجرائم وبين شدّة عقابها، وهذا ما تفهمه من الآية 115 من سورة المائدة {قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ

الْعَالَمِينَ}، حيث إنها كانت تهدّد بنوع عذاب مختلف عن عذاب بقية العالمين الداخلين للنار، وسياق الكلام في الآية يشير إلى اختلاف ما سيتعذبون لناحية شدته بدرجة أعلى عن بقية أنواع العذاب. وعلى ما يبدو أنّ القرآن لم يَرَ فائدة في ذكر تدرجات السيئات واكتفى بالإشارة إلى دركاتها.

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{45})
في مقابل من أطاع الشيطان ونزواته هناك المتقون:

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ}، إنّ الذين يتجنّبون شيئاً ما، والكلام عن الذين يتجنبون السيئات وهو نفسه تجنّب غضب وعقاب ربهم سبحانه، فأطاعوه وهم، {فِي جَنَّاتٍ}، في أماكن موصوفة بروعة ما فيها، في أماكن فيها حدائق وبساتين وأشياء تَسُرُّ وتسعد من فيها... {وَعُيُونٍ}، فتحات في الأرض ينبع منها الماء والسوائل المشروبة بأنواعها المختلفة...

هذا تعبير قرآني آخر مشابه لوصف الجنّات بجريان الأنهار من تحتها.

(ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ{46})
{ادْخُلُوهَا}، أيها المتقون انتقلوا لتكونوا في الجنّات، {بِسَلَامٍ}، فلن يصيبكم فيها أي سوء، {آمِنِينَ}، تستبعدون أي خطر، فلا تشعرون ولا بأي شكل باحتمال حصول ما يؤذيكم أو يزعجكم. وسنفهم ذلك أكثر من الآية التالية:

(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ{47})
{وَنَزَعْنَا}، أبعدنا، سحبنا، {مَا فِي صُدُورِهِم}، ما في تفاعلهم الداخلي مع ما يدركونه، {مِّنْ غِلٍّ}، من أي شيء ثقيل، وهنا الكلام عن أي نوع من المشاعر المزعجة بثقلها على الصدر، فأيّ شعور سيّء من كره أو بغض... تجاه الآخرين من سكان الجنّة فنزعناه منهم، {عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ}، حيث إنّ المتقين يستلقون على السرر "مفردها سرير"، وهو نوع من الأثاث "عفش البيت" للاستلقاء عليه للراحة أو النوم، ووجوههم متواجهة قبالة بقية المستلقين على الأسرّة الأخرى.

كما تعلم هنا في الدنيا حتى بين المتقين تحصل بعض الخلافات التي تسبّب شعوراً سيئاً تجاه بعضهم، وربما ينجم ذلك عن سوء في التفاهم، وربما عن تدخّلات من الآخرين لتشويه العلاقة بين المتقين... وربما تنتج عن خطأ ارتكبه تقي لم يكن تقياً في مسألة ما... وهناك في الجنّة سيتم سحب كل تلك المشاعر السيّئة، ويسود السلام والأمان بين الجميع.

ننتبه، إذ دائماً نتصوّر القرآن يتحدّث عن الصالحين والمؤمنين ونتصوّر أنهم من درجة الأنبياء، على أساس أن المتقين هم الذين لم يرتكبوا أي ذنب، لا، بل بشكل واضح ترى من الآية هنا أن "بعض" المتقين هنا في الدنيا صار لديهم غلّ، وكان لديهم شعور سيّء تجاه متقين آخرين، حيث إنّ هناك أتقياءَ من الدرجة العالية، وهناك أتقياءَ من درجة أقل، طالما ابتعدوا عن الكفر والشرك، وابتعدوا عن الكبائر أو تابوا منها، فهم من المتقين... وترى ذلك بشكل أوضح في سورة الصافات حيث تحدّثت عن شخص كان يتعرّض للوسوسة من صديق له في الدنيا، وكاد أن يقنعه بترك الدين... ولكنه التزم بدينه تعالى... ووصفته السورة بأنه من العباد المخلصين، علماً أنه "كاد" ينحرف! راجع من الآية 40 مروراً بالآية 51 من سورة الصافات وما بعدها {إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ... عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ... قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ}، وهذه الصورة القرآنية تتعارض مع الصور التي نخترعها نحن عن المتقين والمخلصين، صحيح أن القرآن عادة يعرض النماذج الراقية جدّاً، كنماذج الذين صاروا أنبياء ورسلاً، ولكنه أيضاً يعرض نماذج يعتبرها مقبولة ومندرجة تحت التقى والإخلاص.

تذكّر دائماً أنّ القرآن يعرض لك نماذج ومشاهد، حيث ليس كل أوقات المؤمنين في الجنّة جالسين على سرر متقابلين، لأنّ هذا مشهد عن التسلية باستئناس المؤمنين ببعضهم البعض مثلما هنا في الدنيا نستأنس في سهرة أو عصرونية... وهذه المشاهد القرآنية النماذج هي أكثر من كافية لنفهم أنه لا ملل ولا ضجر في الجنّة، هناك الحفلات والسهرات والتسالي الجماعية... وهناك الخلوات الخاصة... واختصرت كل ذلك الآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}، فمهما مرّ من زمن فلن يملّوا منها ومن روعتها، وأضف إلى ذلك ما لا نعلمه وسيحصل عليه المؤمنون هناك كما ذكرت عدة آيات منها 35 من سورة ق {لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}، حيث إنّ وسائل الترفيه والسعادة تصير فوق قدرتنا على التصوّر حين نصير قادرين على فعل ما نتخيّله، تتخيّل شيئاً ما وتفعله، ويخرج من

ذلك أشياء أخرى لم تكن خاطرة على البال من قبل، ومضافاً لذلك سبحانه بقدراته الفائقة سيزوّد المؤمنين بما يسعدهم ويسليهم بما لا يخطر على بالهم، نحن هنا في الدنيا مِمَّا صمّمه وخلقه تعالى نتخيّل ونعمل على تحقيق ما في خيالنا مستوحين مما حولنا، ونحلم بالطيران لأننا رأينا الطيور... وهكذا تفهم أنّ شيئاً جديداً مضافاً على بيئتنا سيقدح في بالنا خيالات جديدة، ونحن نتكلّم عن قدرات إلهية فائقة تعدنا بالمزيد والمزيد... فلو هنا في الدنيا اجتمع دِماغَانِ أو عشرة أو مئة... أدمغة في رأس واحد، فالنتيجة من ذلك أمور لن تخطر على بالي وبالك، فما رأيك بما يمكن أن ينتج عن إله فائق القدرات.

بالنسبة لكلمة "صدر، صدور" فإن لم يكن القصد بها لأعضاء الجسد للقفص الصدري وما تحته من أعضاء... استعملها القرآن كما يستعملها الناطقون باللغة العربية وكما هي مستعملة في العديد من اللغات الأخرى، حيث نشير بالصدر للتفاعل الداخلي للإنسان مع ما يراه ويسمعه ويشعر به مما يتعرّض له... ونحن عندما نتعرّض لمختلف الظروف، نشعر بالانقباض أو الانشراح... في صدرنا، لذا استعملنا كلمة صدر لتوصيف حالة تفاعلنا مع الأمور، وحتى لو لم تشعر بأي شيء في قفصك الصدري، من انقباض أو صعوبة في التنفّس أو راحة... فمجرد تفاعلك مع ما تعرّضت له، فإن مختلف اللغات البشرية تعبّر عن هذا التفاعل بأنّ شيئاً حصل في صدرك، وحتى السرّ الذي تخفيه عن الآخرين تعبّر عنه مختلف اللغات بأنه في صدرك، وكلّنا نعلم أن السرّ ليس في القفص الصدري، إذ ليس تحته في الرئة أو القلب أو المريء... بل هو تعبير يشير لحالة تفاعلنا مع ما ندركه سواء بقي مخفياً أو ظهر له أثر حسّي في منطقة الصدر أو على تعابيرنا وحركاتنا.

(لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ{48})
{لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا}، لا يُلْمَسُ ولا يَشْعُرُونَ، ولا يحصل مع المتقين في الجنّة، {نَصَبٌ}، وَهَنٌ في الجسد مع ألم من المرض أو من عمل مجهد... {وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ}، سيبقون فيها دائماً ولن تمرّ عليهم ظروف خارجية تضطرهم للخروج من الجنّة، لأنه سبحانه قرّر أن يبقوا هناك، وسيبقون هناك خالدين.

قارن هذا الكلام مع أي شيء يسعدك في الدنيا، حيث هنا لا يوجد شيء تسعد به إلا وله تبعات تسبّب النصب، خُذْ مثلاً الأكل اللذيذ، حيث إنَّ كثرة السكريات والدهون... تمرضك وتميتك، ومثلها الملح والبهارات وكثرة الأكل... وحتى أي نشاط جسدي ستصل فيه إلى حالة فقدان القدرة على الاستمرار به حتى لو كنت سعيداً به... أمّا هناك في الجنّة، فلا نصب ولا بأي شكل من أي شيء، وهذا من ناحية الجسد، ومن ناحية المكان وهم باقون في الجنّة أبداً.

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{49})
{نَبِّئْ عِبَادِي}، الذين مفروضٌ منهم طاعتي وأخبرهم عن معلومة غير منتشرة بينهم، {أَنِّي}، بالتأكيد، {أَنَا الْغَفُورُ}، أنا الذي يتجاوز عن السيئات، وأنا، {الرَّحِيمُ}، لديَّ عناية خاصة بمن آمن.

تلك الجنة بما فيها للمتقين وهي ليست مستحيلة عليكم، إذ يمكنكم كلّكم أن تكونوا متّقين، حتى لو أذنبتم فسبحانه لا يجمد على موقف صلب منكم، بل يغفر لمن استغفر، لأنه سبحانه رحيم ولديه عناية خاصة لمصلحة المؤمنين وأهمّها مغفرة ذنوبهم التي لا يحصل عليها إلا المؤمنون.

هناك أشياء واضحة جداً في القرآن كأساسيات، حيث إنَّ المغفرة لمن استغفر وكان مؤمناً عاملاً للصالحات، ولديه سبحانه رحمة خاصة بالمؤمنين، منها وأهمها: غفران ذنوبهم عندما يستغفرونه تعالى، وأمّا الكافر فلن ينال أي شكل من أشكال المغفرة، ولا الشفاعة ولا مضاعفة الحسنات... هذه نماذج عن الرحمة الإلهية الخاصّة بالمؤمنين، لأنَّ الآخرين هم خرجوا من تحت مظلة الرحمة الإلهية بكفرهم.

المؤمن الذي يعلم بأنه أذنب ولم يطلب المسامحة ولم يتب، فسوف يتحاسب، ويقف أمام ميزان الأعمال... هذه واحدة من القواعد القرآنية الأساسية، وبعضهم بحث في الآية هنا متناسياً أساسيات المفاهيم القرآنية، واستخرج من آيتنا هذه أنه تعالى يغفر لعباده حتى لو لم يستغفروا! وحتى لو لم يؤمنوا! بينما صريح القرآن المتكرّر بصيغ وعبارات مختلفة يقول إنَّ الإيمان مع العمل الصالح كلاهما معا يجعلان الشخص مؤهَّلاً لنيل مغفرته تعالى إن استغفر.

ننتبه لما تريد هذه الآية وأمثالها قوله، حيث إننا نعرف حكّاماً وأشخاصاً ظالمين، مستبدّين... ونعرف حكّاماً وأشخاصاً عادلين ولكنهم لا يغفرون ولا يسامحون من أساء إليهم، ولا ينسون أي عمل آذاهم أو تعارض مع مزاجهم... وهذه الآية وأشباهها تريد القول بأنه تعالى ليس من هذا النوع، بل سبحانه يسامح الكافر إذا تراجع عن كفره وآمن، حتى من تفوّه بكلام مسيء للحضرة الإلهية واستغفر من داخله وتاب، فسينال المغفرة، لأنه سبحانه لا يجمد على موقف واحد مغلقاً باب التوبة، لا، إلّا أمام مَنْ مات وهو كافر مشركٌ، أو فاسقٌ أو منافقٌ من العيار الثقيل، فهؤلاء لا غفران لأي ذنبٍ من ذنوبهم إن ماتوا ولم يؤمنوا ويعملوا الصالحات.

أوصل هذا الخبر عن مغفرتي ورحمتي لعبادي حتى يعرفوا هذه الصفات لربهم سبحانه، ليستفيدوا منها، ويؤمنوا ويستغفروا ويفوزوا بالجنّة.

لاحظ استعمال الآية للفعل {نَبِّئْ} الذي يشير لخبر غير منتشر، وبالنسبة لك كمسلم لم يعد هذا الكلام خبراً لا تعرفه ليكون لك نبأ، لأنك من ثقافتك الاسلامية تعلمه، ولكنه بالأصل نبأٌ من ناحية جهلنا بقراراته وصفاته تعالى، وها يخبرنا سبحانه عبر قرآنه بشيء كان نبأً قبل نزوله وقبل قراءتنا له وقبل توارثنا للمعلومة، ومثله مثل أي نبأ آخر، حيث إنه حين ينتشر النبأ بين الناس يصير خبراً "إخباراً، إعلاماً" لشيء يعرفه الكثيرون.

لاحظ أننا نسمع الكثير من الناس يسألون: هل يغفر لي تعالى ما فعلته من سيئات؟ وترى البعض منهم مقتنعين تماماً بأن ذنوبهم لا يمكن أن يغفرها تعالى! وهناك تفاصيل كثيرة في هذا الموضوع، ولن ندخل فيها ونكتفي بالنبأ منه تعالى لنا جميعاً أنه غفور لمن استغفر ومهما كان نوع ذنبه، ورحيم ولديه عناية خاصة بمن آمن.

بالنسبة لكلمة {عِبَادِ}، ففي الآية 42 منذ قليل توسّعنا في دراستها.

(وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ{50})
{ وَنَبِّئْ عِبَادِي }: { وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ }، ما أصيب به من ضرر "لمن عصاني" لن يكون عادياً أو محمولاً، بل سيكون موصوفاً بأقصى وصف الألم، تعلم من القرآن أنه ألم لا يمكن تحمّله ولا الاعتياد عليه ولن يخفّ ولو للحظة....

آيتنا هنا وأمثالها تنبّه بعض الذين يفكرون أنهم يمكنهم تحمّل ألم عذاب الآخرة، ويعتبرونه مثل عذاب الدنيا الذي تعتاد عليه ولا تشعر بالألم الشديد بعد مرور مدّة من التعذيب، أو يغمى عليك وتفقد وعيك من شدّة الألم أو تموت... أما هناك في الآخرة فلن يغمى على المتعذبين، ولن يعتادوا على الألم، ولن يموتوا، بل وبحسب التعبير القرآني لن يوصفوا بما تحمله كلمة حياة من معنى، حيث إنهم في كلّ لحظة يعيشون حالة من يكاد يموت من الألم، ويستمر معهم هذا الشعور، حيث لا يموت فيها ولا يَحْيَى كما ورد في الآية 13 من سورة الأعلى ... راجع أيضاً الآية 74 من سورة طه { إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى }.

(وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْراَهِيمَ{51})
ندخل إلى نموذج آخر للفت انتباهنا جميعاً لمسألة رؤية الملائكة(ع)...: { وَنَبِّئْهُمْ }، أخبر عبادي بخبر ليس مُنْتَشِراً بينهم، { عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ }، حيث جاءه أشخاص بصفة: ضيف، كأشخاص صاروا مضافين منضمّين مؤقتاً لمكان يخصّ النبي إبراهيم(ع)، ومن تبعات ذلك تقديم الطعام أو المنامة لهم بشكل مؤقت.

(إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ{52})
{ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ }، دخل الضيوف على النبي إبراهيم(ع)، وصاروا في داره أو بجوارها، حيث بَدَا عليهم أنهم يقصدونه، { فَقَالُوا }: { سَلَامًا }، نعلن لك أننا لا ننوي لك أي سوء. { قَالَ }، النبي إبراهيم(ع): { إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ }، نشعر أن أشياء مخيفة ستحصل منكم، ولست مطمئناً منكم وأتوقّع شيئاً سيّئاً منكم.

تلاحظ السورة هنا لم تذكر تفاصيل القصّة حين وصلوا واستقبلهم النبي إبراهيم(ع) ولم يتحدّث معهم، وذهب مباشرة لإعداد الطعام... وحين وضع الطعام أمامهم ولم يمدّوا أيديهم إليه، فعندها أعلن لهم أنه (ع) وَجِلٌ منهم بسبب إعراضهم

عن الطعام، وخمّن أنهم لا يريدون طعامه لأنهم معادون له، ويريدون أذيّته وأذية أهله... لاحظ، لحدّ الآن لم يعرف النبي إبراهيم(ع) بأن ضيوفه من الملائكة(ع).

{قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ{53}}
{قَالُوا}، الملائكة الضيوف (ع): {لَا تَوْجَلْ}، لا تشعر بتوقّع حصول ما يخيفك، {إِنَّا نُبَشِّرُكَ}، نحمل لك خبراً ساراً، {بِغُلَامٍ عَلِيمٍ}، سوف تلد غلاماً ذكراً، وسيكون عليماً، ونحن بتعبيرنا الحالي نقول: سيكون من العلماء. يعني سيكون الولد مميزاً بعلمه. ونعرف من الآية 71 من سورة هود أنهم بشّروه بالنبي إسحاق(ع)، وفي استعمالهم لكلمة غلام لتوصيف عمر الوليد فيه إشارة إلى أن الأب سيعيش ليرى ولده جاوز البلوغ.

هنا أفصح الضيوف بأنهم ملائكة (ع) عرّجوا على النبي إبراهيم(ع) لتبشيره بولادة ابن له من العلماء...

إذَنْ، هم ملائكة، وأمام نبي، ولم يعرفهم! ولم يميّزهم عن البشر! فما معنى اقتراح الكفّار لرؤية الملائكة(ع) حتى يؤمنوا! أشارت الآيات السابقة إلى انتفاء إمكانية رؤيتنا للملائكة (ع) على حقيقتها كما هي إلا في عالم الآخرة، وأما هنا في الدنيا فكيف يمكن رؤية الملائكة وبأي شكل طالما لا يمكن رؤيتهم كما هم على أصل صورتهم؟ وعادة نحن نستعمل تعبيراً مبسّطاً فنقول إنَّ هذه الملائكة (ع) التي زارت النبي إبراهيم(ع) تحوّلت وصارت على شكل البشر، ولكن هذا التعبير بسيط، والتعبير القرآني الصحيح: تمثّلت وتلبّست بشكل بشر فهي لم تتحوّل، ولم تتغيّر... على كل حال، ما هو الشكل الذي سنفترضه للملائكة حتى نقتنع عندما نراها بأنها فعلاً ملائكة؟ هل حين نرى رجلاً بأجنحة! أو رجلاً نصفه حصان! أو رجلاً قوياً جداً! أو رجلاً يطير! أو على شكل ولد أو بنت أو امرأة... ما هو الشكل الذي ستراه ويقنعك بأنك ترى ملاكاً؟ من الواضح أنه لا يوجد شكل سيقنعك، حتى لو كان على شكل إنسان وطار، واختفى، وفعل العجائب... سيبقى أمامك كإنسان أو كمخلوق شكله غريب يقوم بأمور غريبة، لا أكثر ولا أقلّ.

إذا قارنت هذا مع ما قام به بعض الأنبياء من أمور عجيبة وتذكّرت أن الكثيرين من الناس لم يقتنعوا بأنهم رسل إلهية! واتهموا الرسل بالسحر... وتذكّرت بالخصوص ما جرى على يدي النبيين موسى(ع) وعيسى(ع)، فكل ما فعلاه من أمور غير عادية لم يقنع الكثيرين من الناس ليؤمنوا! ما الذي سيقوم به الشكل الغريب أو العادي "للملاك" ويقنعهم بأنه ملاك!

تلاحظ الكثير من أجوبة القرآن على "إشكالات" الكفّار أنها تجعل "الإشكالات" تبدو سخيفة حين تفكّر بها جيداً، مثل الآية 78 في سورة يس والتي تنقل قول كافر قال: {مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ}؟ قبل أن تذكر قوله سبّقت عليه وقالت الآية: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ}! السؤال عن القدرة التي تعيد الحياة للعظام يبدو سؤالاً وجيهاً للوهلة الأولى، ولكنه سخيف حين تفكّر فيه، إذ أنت قبل أن تصير جسداً حياً وبعدها تصير عظاماً، قبل ذلك ماذا كنت؟ لا شيء، فأين هي الصعوبة على من خلقك "ولم تكن شيئاً" أن يخلقك مرّة ثانية!

هنا في السورة، التفكير في اقتراح الكفّار لرؤية الملائكة حتى يؤمنوا بما يقوله الرسول، يبدو وجيهاً ومنطقياً وعقلانياً للوهلة الأولى، ولكن عند التفكير به سيبدو سخيفاً بلا معنى، هاتِ أخبرنا ما الشكل الذي ستتلبّس به الملائكة ويقنعك بأنك ترى ملاكاً؟ شخص بمكانة الرسول إبراهيم(ع) لم يميّزهم عن البشر! وتحدّث معهم! وكان وجلاً منهم معتقداً أنهم بشر أشرار...!

نلاحظ استعمال القرآن لكلمتي لا تخف ولا توجل في نقله لنفس الحديث عن نفس الحادثة، وهذا يوحي بأن كلمتي "الخوف والوجل" مترادفتان، ولكنهما متقاربتان وليستا مترادفتين في اللغة العربية، وربما في اللغة التي كانوا يتكلمون بها معه (ع) استعملوا كلمة تحمل المعنى المشترك بين كلمتي خوف ووجل وهو: الشعور بالخطر. وربما تردّدت حالة النبي إبراهيم(ع) بين الخوف وهو التأكّد من حصول الخطر منهم، وبين الشعور بتوقّع حصول شيء مخيف، فعبّر القرآن عن الكلام معتمداً على توصيف الحالة، حيث شعر (ع) باحتمال حصول ما يخيف، ومعه شعر بالخوف من الذي يحصل.

بقي شيء ككلام عن عموم طريقة تعامله وكلامه تعالى معنا، من ناحية متانة اللغة ها هو القرآن كلامه تعالى ودقيق، ومن ناحية التعابير والموضوع، ماذا تتوقّع أن تجد في كتاب إلهي؟ لندخل في صلب الموضوع بصراحة وصلابة، هل

تتوقّع كلاماً من مستوى إلهي وموجّه للملائكة؟ أو فلنقل إنه تعالى يخاطبنا كما لو أنه يخاطب نفسه؟ هل تتوقّع هذا المستوى الأعلى بكثير جداً جداً من مستواك لدرجة أنك لا تفهم منه أي شيء!

أقول لك هذا لأن السورة هنا بوضوح بدأت بطلب الكفّار لرؤية الملائكة ليؤمنوا، وبعدها بدأت بمعالجة هذه النقطة من زوايا مختلفة، ولم تستعمل طريقة: قالوا كذا، والردّ عليهم أولاً كذا، وثانياً كذا، وحصل كذا... بل ذكرت لك الأمور المرتبطة بما اختارته كمحور لهذه السورة.

تلاحظ حتى الغالبية الساحقة من كتب التفاسير والدراسات لم يشيروا إلى محور السورة بالذي أشرت إليه هنا في هذه الدراسة، لم يروا تمحورها حول ربط الكفر برؤية الملائكة، والعديد من كبار المفسرين لم يقتنعوا أن السورة هنا "وعموم القرآن" يقفز من موضوع لآخر بلا رابطة بين الفقرات، وحاولوا رؤية الرابط، بل حاولوا رؤية محور كلام كل سورة، وللأسف نتائجهم كانت خجولة لا لأن قدراتهم التحليلية كانت ضعيفة، لا، لا، هناك مفسرون بقدرات عقلية وتحليلية علمية وبمخزون ثقافي علمي وبمهارات فكرية... لم أر لها مثيلاً إلا في طبقة النوابغ في التاريخ من علماء رياضيات وفيزياء وطبّ... وأذكر منهم كأبرز مثال السيد الطبطبائي والسيد الآلوسي "كلاهما من ذرية الرسول محمّد(ع) من ابنته فاطمة"، ولكن مشكلتهما الأساسية كانت أنهما لم يستطيعا التخلّي بالكامل عن موروثهما الثقافي الديني ليدرسا القرآن من الصفر، وكمثال عمّا أقوله هذا محسوب على الشيعة وذاك محسوب على السنّة، وللأسف سترى من كليهما نعرات طائفية مقحمة في تفسيرهما للقرآن!

على أي حال، حين أطرح في دراستي هذه محوراً للسورة، ولم يره كبار من العلماء المتفرغين لدراسة القرآن، كيف ستكون السورة موجهة لكافر حتى تريه خطأه، بينما نحن لم نفهم ولم نر محور كلام السورة؟ كيف سيفهمها الكافر لتكون حجّة عليه في الآخرة أنه تعالى بيّن له؟

كما ترى تشعبّت الأمور، ودخلنا من باب لآخر... أولاً لا يعتبر سبحانه مشكلة كفر الكافر كمشكلة له تعالى ليحلّها، فهي مشكلة للكافر وهو الكافر فليقم بحلّها، وسبحانه يقدّم له الهداية والحق. ويبدو لك من تأليفه تعالى لهذا القرآن اختياره لأساليب مختلفة بالكلام، بعضها صريح ومباشر، وبعضها يحتاج لانتباه لرؤيته، وبعضها يحتاج لدراسة... ولكن لبّ وأساس الدين الإلهي مطروح ببساطة وبعبارات سهلة جداً جداً، فلا إله إلا الله، وفعل السوء عليه عقاب، وفعل الخير عليه أجر، وهناك آخرة للمجازاة على ذلك. نقطة انتهى.

الآن نسأل، ماذا لو ألّف تعالى كتابه محافظاً على الدقة ومستعملاً تعابير بسيطة جداً؟ هل ستكون هذه فرصة أفضل لمن يريد الاهتداء؟ لا، بل سيقولون إنَّ مستوى كلام هذا الكتاب هزيل وضعيف، فكلامه بسيط ويفهمه حتى الأطفال، بكل وضوح هو ليس من تأليف الإله.

حسناً، ماذا لو عقّد سبحانه كلامه ليكون أشد اختصاراً مما هو عليه، وأقحم فيه تعالى أموراً كثيرة لا نفهمها لأنها فوق مستوى قدرتنا على الفهم، فتحدّث معنا عن شؤون إلهية بصفات وقدرات فيه تعالى ولا نفهمها لأننا لا نفهم تطبيقاتها؟ أو حدّثنا تعالى عن كيفية فعله للأشياء بأقصى ما يمكن للغة البشر أن توضّح ذلك، تصوّر قراءتك الآن لقاعدة فيزيائية سيصل إليها البشر بعد ألف سنة؟ ماذا لو كانت قاعدة سيكتشفها البشر بعد خمسين ألف سنة من الدراسات؟ والآن صرت ترى أنه تعالى لو ذكر لنا شيئاً من هذا النوع فلن نفهم أي شيء، حتى لو استعمل تعالى لغتنا ورموزنا ليخبرنا عن آلية فعله للأشياء، فهي مثل لو وصلتك الآن قاعدة فيزيائية اكتشفها البشر بعد مليار سنة من تراكم علومهم واختباراتهم، ماذا ستفهم منها؟

أطلت عليك الكلام حتى تتكوّن لديك خلفية معلومات كافية لترى لوحدك الردّ على انتقادات الناس لكلامه وأفعاله تعالى، لديهم انتقادات لما تنقله كتبه تعالى عن أفعاله عموماً، ولديهم انتقادات على أفعاله تعالى الاستثنائية بتدخلاته سبحانه هنا وهناك في حياة البشر، ينتقدون على أساس أنهم يفهمون ولديهم تعليقات على ما يفعله تعالى، وأنهم لو لديهم قدراته تعالى لفعلوا شيئاً أفضل مما فعله تعالى، يعني هم حكماء وخبراء وعلماء ومحيطون... والإله طفولي في اختياراته وأفعاله وكلامه، وبالتالي كل الموضوع كذبة ولا يوجد إله، بل اخترعه البشر، واخترعوا قصصاً كاذبة بالغوا فيها لدرجة حصول حوادث غير عادية...

هذا النوع من الكلام تقرؤه وتسمعه من أناس لهم جمهور، وجميعهم يعيشون حالة الوهم الجماعي بأنهم مثقفون وعقلاء من الدرجة العالية، بل وأنهم خلوقون وإنسانيون وخيّرون... أكثر من المنتمين لدينه تعالى، يعيشون حالة وهم جماعي بأنهم كالملائكة في سلوكياتهم!

بينما الواقع الواضح أنهم ليسوا كذلك لا هم ولا الكثيرون من المنتمين بالاسم لدينه تعالى، وها القرآن أمامك ينقل لك أبرز تعليقاتهم على أفعاله وكلامه تعالى، ويبيّن لهم ويشرح الحقّ، ولا أحد يريد أن يسمع! بل ويريك حقيقة فكرهم ونفسيتهم عارضاً لها من جذور حب الدنيا لدرجة فعلهم للسيئات، ويريك ضرر عقائدهم وشرائعهم، ولا أحد يريد أن يسمع!

هم مكتفون بإظهار سوء ما يفعله بعض المنتمين لدينه تعالى، ليثبتوا أن الدين الإلهي سيّء!

أما بالنسبة لتعليقاتهم على أفعال طفولية وساذجة تذكرها كتبه تعالى، وبالتالي فهي كتب أقاصيص سخيفة ألّفها البشر من خيالهم... كحادثة تمثّل الملائكة على شكل بشر ومرورهم على النبي إبراهيم(ع)... ورفضهم الأكل... وتبشيرهم له... وبعدها ذهابهم مشياً إلى قرية النبي لوط(ع)... وكلامه (ع) معهم... وما جرى بعدها من هجوم على الدار...

ما مستواهم هم حتى يعلقوا على أفعاله تعالى؟ نحن عموماً وغالباً طفوليون وساذجون، وأكثر الأحيان سيئون في خياراتنا، فتعامله تعالى معنا كان على قياسنا نحن كبشر.

تصوّر لو أنه تعالى يتعامل ويتكلّم مع بشر كلّهم أتقياء، أو تصوّر لو كلّهم من جهابذة في الفكر والمعلومات، أو في كل واحد منهم قدرات فكرية تعادل دماغ ألف إنسان... أو مليون إنسان... وهكذا ترى بوضوح أن كلامه وتعامله تعالى كان على مستوانا وبقدر ما يمكننا استيعابه وفهمه.

لن يرى الكفّار ذلك ولن يفهموه لأنهم بنوا ضباباً من حولهم ويعيشون فيه فيعتقدون بأنهم متحضّرون ومثقفون... وشرائعهم من أفضل ما يكون، ولا تحرمهم من التمتّع بملذات الدنيا ولا تقيّدهم كما يفعل الدين الإلهي. وأنت تعلم أن أفكارهم النيّرة واضحة من قبولهم لسحق المستضعفين بالاستعباد والاستعمار والقتل لامتصاص خيراتهم... ويعيشون حالة وهم الحرية بينما هم عبيد الحملات الإعلامية والدعائية التي توجّههم فيما يصب بخدمة حيتان السلطة والمال...

هناك دراسات عديدة عن العقيدة الدينية لهؤلاء والموازية لبقية الأديان في الفكر والتشريع والسلوكيات، يقولون بأنهم ليسوا متدينين ولا بأي دين، بينما هم لديهم عقيدة وإيمان وشريعة وسلوكيات، وفيها كل مفردات ما يسمّى بالدين، والفرق الوحيد بينهم وبين كتابه تعالى أن عقيدتهم وشريعتهم وسلوكياتهم مطّاطة ومتحركة مع مزاجهم السيّء، وللأسف الشديد جداً جداً، هم في ذلك مشابهون لغالبية المنتمين لدينه تعالى والذين عقيدتهم وشريعتهم حوّرت وحرّفت كلامه تعالى ليصير على مزاجهم، محتفظين فقط بالاسم التجاري بالانتماء لدينه تعالى، ولذلك ترى في قرآنه تعالى العديد بل الكثير من الانتقادات الإلهية للمنتمين إلى دينه تعالى من أهل كتاب، ومن منافقين وفاسقين من المسلمين الذين عاصروا نزول هذا القرآن.

إذَنْ ومن خلفية الإيمان بأن هذا القرآن حتماً كلامه تعالى، فهو كلام إله، ونحن معتقدون بذلك بسبب عشرات الأدلة الأساسية الواضحة جداً جداً، ومن خلفية الإيمان بالله تعالى إلهاً فائق القدرات والصفات، وكل أسمائه حسنى، ومما نعلمه من واقع حال البشر، نقول: تكلّم وتعامل سبحانه معنا بقدر ما نفهم. بعض الأحيان كان المستوى متقدماً قليلاً ويفهمه بعض الناس، وبعض الأحيان كان المستوى متوسطاً، وفيما بعد ذلك تجد أساسيات دينه تعالى معروضة بشكل واضح وبسيط جداً جداً جداً ويفهمه أي إنسان مهما كان مستواه.

ما فعله تعالى من تدخلات استثنائية بفعل أمور غير عادية، كانت مراعية لمستوى فهمنا نحن، بعد تسع آيات غريبة عجيبة لم يؤمن فرعون ولا قومه ولم يفهموا أنه تعالى لا يريد إهلاكهم جماعياً ويريد منهم فقط ترك بني إسرائيل، فأصابهم بأضرار يستحقونها كعقاب على ظلمهم في حكومتهم على الآخرين قتلاً وامتصاصاً لخيراتهم... وآخر آية كانت فلق البحر بمشهد مهيب لنا نحن البشر، ويريك قدرته تعالى مستعملاً أسلوباً يتماشى مع عقولنا نحن، فوصفه تعالى بالآية نسبة لما نراه نحن، وهو فعلاً آية لأنه عمل إلهي.

من دراسة الآيات التسع لفرعون تفهم ويفهم الجميع أنه مهما جاءت من آيات للذي لديه قرار عميق بالكفر فلن يؤمن، وها هو نموذج فرعون وقومه الذين لم يهددهم تعالى بالإهلاك، وجاءهم بتسع آيات، ولم يؤمنوا، هذه الحادثة درس عبر التاريخ للجميع وتطبيق عملي لما قاله تعالى على لسان جميع رسله ونقلته عدة آيات منها الآية 25 من سورة الأنعام {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا...}

هنا في السورة الكافر الطالب لآية ليؤمن، وبالتحديد الطالب لرؤية الملائكة أو تواصلها معه، لو قرأ السورة لانتبه بسهولة هنا في حادثة ضيوف النبي إبراهيم(ع)، ولانتبه في القصّة السابقة عن إبليس، ولانتبه فيما سيأتي من كلام... أن رؤية الملائكة أو التواصل معها لن يقدّم ولن يؤخّر في مسألة الإيمان بكلامه تعالى، وأنه تعالى فيما سبق تعامل معنا بقدر مستوانا، فنزلت الملائكة وتحدّثت مع بعض البشر، ولم يتغيّر أي شيء.

طبعاً تنتبه أنه تعالى نزّل سابقاً ملائكة وتعاطوا مع البشر، ولم ينزلهم سبحانه استجابة لطلب من البشر، بل تماشياً مع مستوانا نحن أمر تعالى بحصول هذه الحوادث لنرى منها أن رؤية الملائكة والكلام معهم ولمسهم... لن يجعلنا مؤمنين ولن يزيد في إيماننا...

أخيراً المفارقة الغريبة أن بعض أصدقائي من متوسطي الثقافة والذين عرضت عليهم نماذج من دراستي هذه، كانوا مسرورين ببساطة ووضوح العبارة، وآخرون من المتخصصين جبهوني بالاعتراض على الأسلوب الركيك للعبارات والتكرار، عالمين بقدرتي على تركيب عبارات أفضل، وعالمين بافتقاري للقدرة على البيان السلس بين التقانة والسهولة كالذي تجده في كتب القصص والروايات، وكان قراري بالتوجّه بهذه الدراسة لأكبر جمهور ممكن، وعالماً بما سأدفعه من ثمن الهجوم على ركاكة التعابير، والتي سينتج عنها توهين وتقليل قيمة هذه الدراسة في أعين بعض المتخصصين. وعند مراجعاتي المتكررة لها كنت أعيد صياغة الجمل لتكون أسهل فأسهل، مزيلاً لأي كلمة أرى قلّة استعمال الناس لها، ومبتعداً عن أي أسلوب معقّد، حتى أني لم أستعمل صيغة الفعل المبني للمجهول، ولولا التي واللتيّا لكنت اعتمدت الإملاء الدارج بين عامة الناس... فلم أحذف أحرف العلة من بعد الجزم...

وهكذا ترى أن هذه العقلية عند العديد من المؤمنين هي نفسها المشكلة عند المعلقين على بعض كلامه وأفعاله تعالى، فتعامله تعالى معنا على قدر مستوانا يتطلب مراعاة العقلاء من الدرجة العالية مروراً بالمتوسطين ووصولاً للبسطاء، وليس مقبولاً صياغة كلامه تعالى بركاكة حتى يستوعبها العدد الأكبر من الناس، حتى هم لن يؤمن أكثرهم به لأنه ركيك ولا يصدر عن إله، ولنفس السبب ليس مقبولاً أن يقوم تعالى بأفعال متكررة متماشية مع العقول الساذجة، بين هذه الخطوط تعامل وتكلّم معنا تعالى عبر التاريخ، ومن لم ير ذلك، فهو من الذين تحدّثت عنهم الآية 91 من سورة الأنعام بشكل صريح ومباشر ورائع: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ}.

(قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ{54})

قالَ النبيُّ إبراهيم(ع) للضيوف: {أَبَشَّرْتُمُونِي}، هل تخبرونني بخبر مفرح، {عَلَى أَن مَّسَّنِيَ}، بعد أن أصابني وحلّ بي، {الْكِبَرُ}، فكبرت في السن، وبعد أن صرت شيخاً كبير السنّ سيكون لي ولد! {فَبِمَ تُبَشِّرُونَ}! فأنا طوال هذا العمر، مذ كنت فتياً إلى الآن، لم أحصل إلا على ولد واحد "وهو النبي إسماعيل(ع)"، وها صرت شيخاً كبير السن، وجسدي ضعف جداً، فكيف سيكون عندي ولد؟

دائماً ننتبه، فالصورة التي في رأسنا عن الأنبياء، تختلف عن الواقع، حيث نتصوّرهم يرون الملائكة (ع) كيفما تحرّكوا، ونتصورهم يسمعون صوت الملائكة(ع) دائماً، ونتصوّرهم والملائكة (ع) ترافقهم وهي توحي إليهم باستمرار... ونتصوّرهم يدعون وكل طلباتهم مجابةً متحققةً، ونتصوّرهم بحياة مختلفة عن الحياة العادية لبقيّة الناس... أمّا القرآن فينقل لنا صورة حياة عادية حصل فيها القليل القليل من الأمور غير العادية، وبالنسبة لنا، نحن نحمل كل الحوادث غير العادية عن كل الأنبياء في رأسنا، ممّا يجعل صورة حياة الأنبياء أضخم مما هي عليه، وهنا النبي

إبراهيم(ع) لا نفترض بأنه لا يؤمن بالقدرة الإلهية على منحه ولداً، ولكن علينا أن ننتبه إلى أنَّ هذا الحدث غير عادي في حياته، ويستدعي الاستغراب.

هنا في طيات الكلام أشياء لن تراها طالما الصورة في ذهنك عن الأنبياء غير واقعية، ولن ترى إشارتها لحياة مؤمن به تعالى يعيش حياته العادية، وهو شخص من أرقى البشر إيمانياً، ولم تنزل عليه الملائكة بطلب منه، ولم تتمثّل على شكل بشر بطلب منه، ولا تقيم الملائكة علاقات جانبية شخصية مع أحد، ولا تستجيب لطلب أحد إلا حين يأمرها تعالى مباشرة... فالصورة عن الأنبياء أن الملائكة في خدمتهم ويتواصلون معهم حين يريد الأنبياء... وها القرآن أمامك من أوّله لآخره ولا ترى فيه أي شيء من هذا، ورغم ذلك شاع في الأدبيات الدينية أن المؤمنين الصالحين قبل النبي محمد(ع) ومن بعده، أنهم يرون الملائكة في عالمها كأنوار، بل ويسمعون صوتها، بل وتأتي وتحدّثهم، بل وهي في خدمة البعض منهم، بل... وهذا كله لم يرد له تأييد مباشر وصريح من القرآن، بل تقرأ العكس في الآية 64 من سورة مريم {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا}.

(قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ{55})
{قَالُوا}، الضيوف الملائكة (ع): {بَشَّرْنَاكَ}، أخبرناك بخبر سار، {بِالْحَقِّ}، بالصواب**،** فهذا الشيء حقّاً سيحصل، ولم نكن نكذب أو نمزح أو نحتمل حصوله، بل نخبرك بالصواب، وسيصير عندك ولد، لأنَّ الملائكة (ع) تنقل هذا الخبر بأمر منه تعالى، إذاً فهذا سيحصل حتماً.

{فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ}، فلا تكن من الذين يفقدون الأمل من بعد طول انتظار، وكما يبدو، طلب أو تمنّى النبي إبراهيم(ع) منذ زمن بعيد أن يكون عنده أولاد، وها تحقّق طلبه، وعندما استغرب حصوله على الولد بعد طول هذه المدة حتى صار شيخاً، تقول له الملائكة(ع): أنت رغبت بأن يكون لك ولد في السابق، ومرّ كل هذا الزمن ولم تحصل عليه، وها نخبرك بأنك ستحصل عليه، فلا تتصرّف على أنك قنطت ويئست من الاستجابة بسبب طول المدّة...

(قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ{56})
أجاب النبي إبراهيم(ع)، وقال: {وَمَن يَقْنَطُ}، مَن يقطع الأمل نهائياً من شيء ما بسبب طول المدّة، {مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ}، من عناية المسؤول عنه من مستوى إلهي لما فيه مصلحته، {إِلَّا الضَّالُّونَ}، إلّا الذين يؤمنون بشيء غير صحيح، فلا يؤمنون برحمته تعالى.

أنا لست قانطاً، فالضالون يقنطون، وأنا أعلم وأؤمن برحمته سبحانه.

يعني لم أستغرب لاستجابة رغبتي فهذا أمر أتوقعه منه تعالى، ولكني أستغرب الاستجابة بعد أن صرت شيخاً وجسدياً لم يعد عندي القابلية لتحيا بذرتي في زوجتي الكبيرة في السنّ.

من المشهور جداً في الثقافة الدينية لعموم أهل الكتاب وعندنا، وهو شيء متوافق مع ما قاله القرآن عن كون الولد الذي تبشّر به النبي إبراهيم(ع) سيُولَد من زوجته "سارة" والتي أيضاً كانت حينها عجوزاً، ونقل القرآن لنا استغرابها أيضاً، راجع الآية 72 من سورة هود {قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ}.

هنا يمكنك قراءة الآيتين بجفاف فتفهم منها تعليقاً ناقداً من الملائكة (ع) للنبي إبراهيم(ع) على استغرابه، ويمكنك أن تقرأها عالماً بمدى احترامهم له مع علمهم بقيمته العالية عنده تعالى، وهكذا تتصوّرهم مبتسمين لائقين بالكلام معه، وهو يعلم بأنهم محترمون ولن يصدر منهم أي كلام مهين أو مؤذٍ، أو حتى كتعليق ناقد.

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ{57})
قالَ النبيُّ إبراهيم(ع):

{فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ}؟ هناك بالتأكيد شيء مهمّ غير بشارتكم لي وأنا مهتمّ بأن تخاطبوني به وتقولوا لي شيئاً عنه. هم عدة أشخاص، ويقولون في الروايات إنهم بين ثلاثة واثني عشر، وذكروا أنَّ بينهم جبريل وميكال وإسرافيل

عليهم السلام في أغلب الروايات، وهذه تفاصيل قفز عنها القرآن لأنَّه لا أهمية لها بتاتاً، وعلى أي حال، لم يرَ النبيُّ إبراهيم(ع) أنَّ نقلهم للبشارة بولد يستدعي هذا العدد وهذا الأسلوب من التواصل، فسأل عن مهمّتهم الأساسية...

(قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ{58})
{قَالُوا}، الملائكة(ع):
{إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ}، أرسلنا سبحانه إلى أناس لهم كيان الجماعة، {مُّجْرِمِينَ}، يوصفون بأنهم ارتكبوا الأعمال التي يستحقون عليها العقاب. ... اختصرت الآيات الحوار، ونقلت نقاطاً قليلة، فهم مرسلون لتعذيب قوم النبي لوط(ع) لأنهم ارتكبوا ذنوباً تستحق أن ينالوا العقاب عليها هنا في الدنيا قبل الآخرة، حيث كانوا شاذّين جنسياً ويعتدون على الغرباء... وتلاحظ اختصار السورة لتفاصيل ذكرتها سور أخرى لأنَّ التركيز فيها على رؤيته (ع) للملائكة(ع) وأنه لم يميّزهم عن البشر.

(إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ{59})
{إِلَّا آلَ لُوطٍ}، الذين بين النبي لوط(ع) وبينهم علاقة نسب، {إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ}، كلهم سنخلصّهم ولن يصيبهم العذاب. وهذا يشير إلى نجاته (ع) مع أولاده فقط، وقيل في كتب المسلمين موروثاً عن أهل الكتاب أنَّه (ع) كان له أولاد بنات فقط، وقيل إنَّ له أصهرة مؤمنين نجوا معه، ولكنَّ التعابير القرآنية المختلفة تتعارض مع ذلك، فالنجاة حصلت حصراً له(ع) ولآله، أي للذين بينه (ع) وبينهم قرابة نسب، أولاده، "وأولاد أولاده إن فرضاً كان لهم أولاد"، وغير معلوم لنا من مصادر موثوقة إن كان عنده (ع) فقط أولاد إناث.

درجت تسمية الشاذين ذكورياً بأنهم لوطيون، ورفض الغالب الأعمّ من علماء المسلمين من مفسرين ومؤرخين ولغويين ارتباط هذه التسمية باسم النبي لوط(ع)، وقالوا إنَّ الشبه مجرد مصادفة، وللأسف كلامهم لا يبدو صحيحاً، وعلى ما يبدو أنَّه عبر التاريخ ومن مختلف المناطق المجاورة لقوم النبي لوط(ع) نسبوا الشاذين إلى قوم النبي لوط(ع)، ومع مرور الزمن اختصروا النسبة لاسم النبي لوط(ع) فصارت النسبة "لوطي"، مثل لبنان لبناني، إبراهيم إبراهيمي، إسماعيل، مسيح مسيحي... فهو عليه السلام وكما تعلم حارب الشذوذ، ولكن التصق اسمه بالفاعلين لهذه الفاحشة بسبب قومه.

انتبه جيداً، ففي مختلف ثنايا هذه الدراسة كررت أسفي لارتباط اسم رسول نبي طاهر... بفعل الشذوذ الذي كان يرتكبه قومه، ولكن هناك فائدة من هذا الارتباط، فهذا بشكل ما دليل رابط على واقع جرى في التاريخ، ونسبة الفعل لقومه (ع) وبعد تناقل القصّة عبر الأجيال نتج الاختصار لنسبة اسمه (ع) إلى الفعل "لوطي"، حتى صارت الكلمة "قبل الإسلام" عربية وتعني الشذوذ الذكوري، وهذا بشكل ما دليل إضافي على حصول حادثة إبادتهم بسبب فعلتهم تلك ووجوده (ع) بينهم، وهذا يكون إنذاراً لكل الشاذين والمؤيدين بأنَّ مصيرهم سيكون العذاب الإلهي في الدنيا قبل الآخرة كمجتمع أو كأفراد.

(إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ{60})
{إِلَّا امْرَأَتَهُ}، إلا زوجة النبي لوط(ع) فهي لن تنجوَ، {قَدَّرْنَا}، حسبنا لها، {إِنَّهَا}، فهي بالتأكيد، {لَمِنَ الْغَابِرِينَ}، من قومها الذين صاروا في خبر كان، من الذين راحوا، من الذين نزل عليهم العذاب فأماتهم وصاروا غابرين، قديماً كانوا هنا، وكانوا أحياء وماتوا، فهي ستكون مع قومها وستموت بالعذاب وتلحق بهم لأنها كانت مثل قومها "الغابرين" كافرة فاسدة.

نلاحظ استعمال القرآن الكريم لكلمة الغابرين سبع مرات فقط لامرأة النبي لوط(ع)، ونعلم من الآية 81 من سورة هود {قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}، وسبحانه قال لنبيه لوطٍ(ع) عبر الملائكة(ع) أنِ اخْرُجْ مع أهلك في الليل من القرية، ولا تلتفتوا للخلف عندما يبدأ نزول العذاب على القرية، وخرجت زوجته معهم أيضاً، ولكنها لم تكن مؤمنة أصلاً، وكان يجب أن تموت مع قومها، وبعد ابتعادهم عن القرية بدأت الحجارة بالتساقط، والتفتت زوجته لتنظر

ماذا يجري على القرية، ونزل عليها حجرٌ وألحقها بهم، وكانت من الغابرين، أي لم تكن من الناجين بل من الماضين الذين مضوا فذهبوا موتا.

انتهت الفقرة التي كان تركيزها الأساسي على لقاء الملائكة (ع) مع النبي إبراهيم(ع)، ولم ينتبه (ع) إلى أنهم ملائكة(ع) حتى هم أخبروه، ولكن عليك بالانتباه أكثر، ويمكن أن يكونوا فعلاً من البشر، وهم يتكلمون بهذه الكلمات التي لا تثبت بأنهم من الملائكة! فلو كنت بدل النبي إبراهيم(ع) فما أدراك أنهم ملائكة(ع)؟ فهل لمجرد أنهم قالوا لك ذلك ستصدّق؟ أم لأنهم قالوا لك سيصير عندك ولد؟ أم لأنهم لم يأكلوا؟ أم لأنهم قالوا إنهم قادمون لتعذيب قوم النبي لوط(ع)... لاحظ بأنهم لم يفعلوا أي شيء خارق للعادة أمام النبي إبراهيم(ع)، ولكنّه (ع) صدّقهم بأنهم ملائكة (ع)، لماذا؟ لأن ما قالوه يتماشى مع فكره ونفسيته (ع)، وبالتحليل نقول إنه (ع) صادق وبالتالي لا يفترض أن يكذب عليه الآخرون إلا إذا لمس ذلك ، ويفترض أنه تعالى لن يتركه ينخدع بأشخاص يدّعون أنهم ملائكة(ع) ويقولون له ما يتماشى مع فكره ونفسيته، فلو عرضوا عليه شيئاً حراماً أو دنيوياً مشتركاً بينهم وبينه... أو أي شيء لا يتماشى مع تديّنه (ع) فعندها لن يؤمن أنهم ملائكة(ع) حتى لو طاروا واختفوا وفعلوا العجائب...

لا تنظر للقصة من عيني مؤمن يبلعها كما هي لأن القرآن قالها، وتنسى أن تنظر إليها من خلال عيني النبي إبراهيم(ع)، وتنسى كيف ينظر إليها الكافر، لأنَّ السورة تتحدّث مع المؤمن والكافر، وبالأخص هي تجيب عن سؤال يطرحه الكفّار، ليكون الجواب حجّة عليهم عند محاسبتهم في الآخرة حتى لو لم يعترفوا بصحّته، هي تردّ على طلبهم لرؤية الملائكة(ع)، وفي نفس الوقت تشرح للمؤمن حتى لا يتشوّش إيمانه، وكما تلاحظ، ليضع الكافر نفسه مكان النبي إبراهيم(ع)، وها حضرت الملائكة(ع)، وها تكلمت معه، فإن كان أساس فكره مُنكِراً للدين الإلهي لأنه متعلّق بالمتاع والأمل بالدنيا، فما فائدة هذه الحادثة لو حصلت معه؟ هل سيقتنع أنهم ملائكة لمجرد تبشيرهم له بولد؟ أو لمجرد إخباره بأنهم مرسلون لتعذيب قوم يرتكبون الفاحشة؟ كما ترى لا شيء سيحصل مع الكافر، ولن يؤمن بأنهم ملائكة لمجرد قولهم كلاماً عن النهي عن القنوط من رحمته تعالى، وعن العقاب على الفاحشة.

سأطيل عليك، فلو كان في مكان النبي إبراهيم(ع) واحد من الذين طلبوا رؤية الملائكة ليؤمن، وحضروا إليه وأخبروه عن إرسالهم لإهلاك فاعلي الفاحشة، فهذا لن يحرّك فيه مشاعر التقوى من الفاحشة، وسيعتقد أن الملائكة شباب سيقومون بعمل عدائي ضد جيرانه، وسيرسل خبراً إلى جيرانه لينتبهوا من هؤلاء الشباب... هذا تحليل منّي لتقريب ما تريد السورة عرضه علينا، وتنبيه للكافر حتى يعيش الحالة ويرى ردّة فعله لو رأى الملائكة... هذا اقتراحه هو ليؤمن من بعد رؤية الملائكة، فهل هو نافع؟

(فَلَمَّا جَاء آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ{60})
ننتقل لجماعة كبيرة من الناس رأت الملائكة(ع) على شكل بشر، وكانت تلك الجماعة تفعل السيئات، فهل معرفتهم بأنهم يرون الملائكة كانت ستجعلهم يتركون السيئات؟

{فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ}، عندما صار المرسلون عند المنتسبين للنبي لوط(ع) بنسب، وصاروا في بيته مع أولاده.

القصّة ذكرها القرآن من عدّة جوانب، وهنا قفزت الآيات عن بداية القصّة حين التقى النبي لوط(ع) بالملائكة في ناحية من أراضي القرية... وحاول تحييدهم عن أهل القرية وأخذهم إلى بيته دون أن يراهم أحد... ونقلت مقطعاً حيث تواجهت الملائكة (ع) مع "آل" النبي لوط(ع)، فماذا حصل في ذلك المقطع بالذات:

(قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ{62})
قالَ النبيُّ لوط(ع): أيها الضيوف، {إِنَّكُمْ قَوْمٌ}، أناس لهم كيان الجماعة، {مُّنكَرُونَ}، لا أعرفكم ولا تبدون لي من قوم أعرفهم؟ والمنكر من مقابلته مع "عرف معرفة" يعطي معنى حصول صورة أو مفهوم ونفي تطابقه مع ما لديك، فهو عموم ما ليس معروفاً على الوجه المطروح، كرفض لتصنيفه.

ننتبه جيداً، فهذه هي النقطة التي أرادت الآيات هنا التركيز عليها، ونبي آخر مرّ عليه نفس الأشخاص، ولم يعرفهم أنهم ملائكة، لا هو ولا آل بيته، ولا القوم.

هذا ردّ من ردود السورة على الذين يطلبون رؤية الملائكة(ع) ليؤمنوا.

(قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ{63})
{قَالُوا}، الملائكة(ع): {بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ}، أنت تأمرهم بترك الشذوذ وهم يمارونك فيقولون كلاماً تافهاً أمام حقيقة دامغة واضحة بسوء ما يفعلونه، ولهذا السبب أتينا.

أنت تعلم أن قوم النبي لوط(ع) كانوا شاذّين جنسياً وكانوا يعتدون جنسياً على الغرباء، وفي حادثة نزول الملائكة وتمثلها على شكل بشر... وذهابهم إلى بيت النبي لوط(ع)، أراد القوم الاعتداء عليهم. وهل الاعتداء جنسياً على الناس يحتاج لدليل وبراهين وآيات لتدل على أنه عمل سيئ من المفروض ألّا يقوم به أي أحد؟ لهذه النقطة بالذات اختارت السورة لقاء الملائكة(ع) مع قوم النبي لوط(ع) لتنقله لنا، فهو نموذج بارز واضح جداً جداً عن حالة كفّار بدينه تعالى، يرفضون طاعة رسوله، ويصرّون على عمل سيئ جداً، وهم يمارون فيقولون كلاماً تافهاً ليبرروا ما يفعلونه وسترى في تكملة القصّة كلامهم التافه مع النبي لوط(ع) حين قالوا إنَّ الاعتداء على الضيوف من حقّهم ولا حقّ لهم بالزواج من بنات النبي لوط(ع)!

لو أطلت عليك، فعادة القرآن يختار نماذج فاقعة واضحة لتقيس عليها بقية الأمور، فرمي شاحنة من الأوساخ في ساحة يمر بها الناس، هو عمل سيئ جداً ولن تجادل في سوئه إلا إن كنت من الممارين، وماذا عن رمي بضعة أكياس من النفايات؟ وماذا عن رمي كيس واحد؟ وماذا عن رمي "محرمة" أو عقب سيجارة؟ فكلّ هذه أعمال سيئة مع الإقرار باختلاف ضخامة سوئها.

الآن لنلتفت إلى ضخامة السوء في الاعتداء جنسياً على الناس، ولو كررت لك ولكنها نقطة لم أجد من التفت إليها في كتب التفاسير عموماً، وهل عملهم هذا يحتاج إلى براهين تثبت سوءه؟ وماذا لو طلب القوم رؤية الملائكة (ع) حتى يؤمنوا بما يقوله لهم النبي لوط(ع)، أو طلبوا آية غير ذلك؟ وهل ستقول إنَّ الحقّ معهم في طلب آية تثبت حقيقة وصحّة نبوّة ورسالة لوط(ع) حتى يقتنعوا وينتهوا عن عملهم السيئ؟

تريدنا السورة هنا والقرآن عموماً أن نعتبر هذا النوع من النماذج التي ذكرها لنا، مثل مسألة رمي شاحنة نفايات على بيوت الناس، كعمل بارز واضح سوؤه، وبعدها نفهم أن بقية الأعمال التي يحرّمها ويمنعها الدين الإلهي فهي متدرجة بالسوء وصولاً إلى الأعمال الصغيرة المخالفة لدينه تعالى والتي في أساسها سيئة ولكنها قد تبدو تافهة لا تستحقّ العقاب عليها، ونفهم من القياس على العيار الثقيل أن الأقل منه أيضاً سيئ ويستحقّ العقاب عليه.

(وَأَتَيْنَاكَ بَالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ{64})
نكمل مع كلام الملائكة(ع)، {وَأَتَيْنَاكَ}، فجعلنا عندك، {بِالْحَقِّ}، بالصواب، نحن ننقل لك ما سيحدث، {وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}، ولسنا نكذب.

لاحظ، مثلما حصل مع النبي إبراهيم(ع) تكرر هنا، فمجرّد رؤية الملائكة (ع) على شكل بشر، حتى لو فعلوا شيئا غير عادي، فهذا لن يدل على أنهم ملائكة (ع) إلا لمن سيتماشى ما يقولونه مع فكره ونفسيّته. وهنا ترى قولهم للنبي(ع) عن عذاب سينزل بقومه الكافرين، والنبي(ع) فورا سيصدّق بأنهم ملائكة لأنه يرى كلامهم كلاماً ملائكياً.

(فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ{65})
{فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ}، فأنتقل باتجاه ما بعيدا عن القرية وخذ معك المنتمين لك، أولادك وزوجتك... {بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ}، في هذه الليلة وقبل الفجر يجب أن تكونوا بعيدين عن القرية، فاخرج الليلة ولكن احسب حساب أن تبتعد مسافة بعيدة عن القرية قبل الفجر، فلتكن القطعة الباقية من الليل كافية لتبتعد عن القرية. ولنقل مثلا إنهم يحتاجون لوقت يُوَضِّبُونَ فيه ثيابهم وبعض الحاجيات، فليكن الوقت الباقي من هذه الليلة والذي ستخرجون فيه من القرية، فليكن قطعة من الليل كافية لتسيروا مبتعدين عن القرية قبل حلول الفجر. ونعرف من الآية 34 من سورة القمر {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ}، أنهم خرجوا في فترة السحر أي بعد منتصف الليل وقبل الفجر.

قال العديدون في كتب التفاسير والقواميس إن الفعل "سَرَى" يشير حصرا للحركة ليلا، ولكن هذا لا يبدو من استعمال العرب لكلمة سريان، ولا يبدو من استعمال القرآن لهذه الكلمة ومشتقاتها، ومنه ما ورد في الآية 24 من سورة مريم {تَحْتَكِ سَرِيًّا}، بل ومن الآية 23 من سورة الدخان {فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ} ومن الآية الأولى من سورة الإسراء {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا}، باستعمال "سَرَى" مع قيد الليل فيهما يَبْدُو أنها ليست كلمة مخصّصة للانتقال ليلا. ويبدو أنها تختلف عن بقية الكلمات الواصفة للانتقال "مشى، انتقل، ركض..." بأنها أقرب منها لمعنى التسلسل والحركة بخفّة بدون جلبة، كحالة وصف سريان الماء.

{وَاتَّبِعْ}، فكن على وامشِ على تبعية، {أَدْبَارَهُمْ}، أعقابهم مؤخّر جسدهم، ظهرهم، فليكن مسيرك بشكل يكون فيه وجهك دائما للأمام باتجاه الذين يمشون أمامك، {وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ}، فلا تدوروا إلى الخلف باتجاه القرية، فَلْيَبْقَ نظركم إلى الأمام مهما حصل، {وَامْضُوا}، فأكملوا مسيركم، {حَيْثُ تُؤْمَرُونَ}، لأنه أمركم سبحانه بالابتعاد عن القرية، فلا تلتفوا حول القرية، فليكن مسيركم دائما باتجاه الابتعاد عن القرية.

معلوم أن الأمر بترك الالتفات للخلف ستخالفه زوجة النبي لوط(ع)، فهي كافرة وبتقديره تعالى يجب أن تموت مع قومها الكفّار، وستخالف أمره تعالى وتلتفت إلى القرية لتموت.

(وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ{66})
{وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ}، أوصلنا قرارنا إلى النبي لوط(ع)، {ذَٰلِكَ الْأَمْرَ}، فذلك التدمير لأهل القرية هو الأمر الذي قرّرنا حصوله، وقضيناه إلى النبي لوط(ع) فأخبرناه بحتميّة حصوله:

{أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ}، فدابر القوم هو بقاء ذريّة لهم بعد موتهم، ولكن هؤلاء القوم دابرهم، {مَقْطُوعٌ}، غير موصول ولن يكون لهم دابر، ولن يكون لهم عقب ولن يبقى من أثرهم أي شيء، لأنهم وأطفالهم سيموتون، {مُّصْبِحِينَ}، عند الصباح، عند أول النهار.

حصل العديد من الكوارث في الدنيا لقوم كفّار، ولكن لم تكن كلها إبادة تامّة، فقوم النبيين شعيب(ع) وصالح(ع) لم تتم إبادتهما بالكامل، حيث حصل زلزال دمّر المنطقة ولكن بقي من الكفّار بعض الأحياء، وراجع في ذلك الآية 79 من سورة الأعراف {فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}، وعبّر القرآن بقطع الدابر للأقوام التي أبيدت بالكامل، كقوم النبي نوح(ع) والنبي لوط(ع).

سؤال: ما ذنب الأطفال حتى يشملهم العذاب؟ أولاً خالقهم الذي منحهم الحياة قرّر أخذها منهم، وهي حالة لا تختلف عن موت الأطفال من المرض أو من الحروب... وتُعدّ الكارثة الطبيعية التي حصلت كعذاب لقوم كافرين، تعدّ من تلك الحوادث، والفرق الوحيد أنها حصلت بأمر إلهي مباشر. ثانياً ومن عموم مفاهيم القرآن نعلم أنه تعالى لو علم أنهم سيؤمنون أو سيكون من ذريتهم مؤمنون لتركهم أحياء، وهذا ما نفهمه من القرآن كسبب لإبادة قوم ما بأكملهم، راجع كمثال على ذلك صريح ما ورد عن إبادة قوم النبي نوح(ع) في الآية 36 من سورة هود {وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ...}، والآية 27 من سورة نوح {إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا}.

(وَجَاء أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ{67})
بعد لفت الآيات تركيزنا على إنكار النبي لوط(ع) للملائكة (ع) حيث لم يعرفهم، رجعت الآيات لتنقل لنا مشهدا آخر حصل قبل المشهد السابق:
{وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ}، الناس المنتمون للمكان الذي فيه بيوت وعمارة والتي يسكنها النبي لوط(ع)، جاؤوا، {يَسْتَبْشِرُونَ}، وهم يتوقعون حصول شيء سار مفرح لهم، هم علموا بوجود ضيوف عند النبي لوط(ع)، فاتجهوا نحو منزله ليعتدوا عليهم!
نلاحظ من الآية 29 من سورة العنكبوت {أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ...}، فقطعهم السبيل يشير لاعتدائهم على الغرباء الذين يأتون إلى قريتهم، أو الذين يمرون على طريق قريتهم، وبدعم وتأييد وموافقة من كل سكان قريتهم! ولذلك استحقوا كلهم أن يتعذبوا.

(قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ{68})
{قَالَ}، النبي لوط(ع) لأهل القرية، ولا تَنْسَ أنه لحد هذه اللحظة لم يكن يعلم بأن ضيوفه من الملائكة(ع)، وما ذكرته الآيات السابقة كان تقديما لما سيحدث بعد أن هجموا على بيته، وسبب تقديم الخبر لننتبه أنه (ع) لم يعرف أنهم ملائكة(ع) فهذا محور السورة.

{إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي}، هؤلاء صاروا مضافين منضمين إليّ، فصاروا محسوبين عليّ وفي حمايتي ومن واجبي رعايتهم... {فَلَا تَفْضَحُونِ}، فيكم شيء معيب فلا تكشفوه أمام ضيوفي، فتجعلوني أبدو قليلَ القيمة وخوّاناً أمام ضيوفي، الذين لا يعرفون بأنكم تعتدون على الناس، وإلا لما مرّوا من هنا، فابقوا الأمر مستورا فاتركوهم وانصرفوا حتى لا ننفضح ولا تظهر نواياكم وأعمالكم السيّئة أمامهم.

(وَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ{69})
{وَاتَّقُوا اللَّهَ}، فتجنّبوا غضبه وعقابه فلا تعتدوا عليهم لأنه تعالى سيعاقبكم على ذلك، {وَلَا تُخْزُونِ}، لأنني سأشعر بالمهانة من قبيح ما تريدون فعله بضيوفي. ومن ناحيتي هم ضيوفي ومن المعيب أن تعتدوا عليهم وهم في ضيافتي، فإن لم تؤمنوا بأني رسول إلهي ولم تؤمنوا بعقابه تعالى، مع أنه شيء خطير جدا عليكم، فعلى الأقل احترموني ولا تعتدوا على ضيوفي.

(قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ{70})
قالوا، القوم:
{أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ}؟ ألم نقل لك أن تترك بشكل نهائي كل الناس ولا تتدخّل؟ ألم نخبرك أن لا تتعاطى أبدًا مع أيّ أحد يمرّ علينا؟ وكلمة {نَنْهَكَ} تعني أنه (ع) في السابق تدخّل ونهوه، ثم كررها... ويبدو أنه (ع) كان يتعمّد التنقّل على الطرقات المؤدية للقرية حتى يُنبِّه الغرباء ويدلّهم على طريق آخر يبعدهم عن قريته.
يعني نحن لم نسمح لك باستقبال الضيوف، حيث أخبرناك بأن لا تتعاطى مع كل من يمرّ من هنا، كائنًا من كان، ولا تنتبّه منّا... وها خالفت أوامرنا وتعتبرهم ضيوفك!

(قَالَ هَؤُلاء بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ{71})
قال، النبي لوط(ع):
هؤلاء بناتي، بدل أن تعتدوا على الضيوف وترتكبوا الشواذ، يمكنكم الزواج من بناتي، فإن كانت مشكلتكم إشباع رغبتكم الجنسية، فهذه بناتي في سنّ الزواج، ولست أمنعكم من الزواج بهنّ، {إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ}، إن كنتم مُقْدِمِينَ على عمل جنسي.
ننتبه جيدًا، لأنّ النبي(ع) لن يعرض بناته على الهاجمين على بيته ليزنوا معهن! لأنّ هذا غير معقول بتاتًا، وعبّرت الآية 78 من سورة هود عن نفس الحادثة بقول النبي لوط(ع): {بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ}. بناته نموذج عن بنات أُخريات في المدينة وهنّ في سنّ الزواج، فلماذا الانحراف في الشهوة طالما أنها ستتنفّس بالطريقة الصحيحة؟
ننتبه أيضًا، لأنّ مختلف السور التي ضربت نماذج عن أقوام فعلوا السيئات، ركّزت أن الصلاح كان متاحًا لهم، ولم يكونوا مضطرّين لفعل السوء، ولا تشتقّ من هذا الكلام أن كلّ مضطر يصير ما هو مضطر له مباح له، لا، حيث تتعلّم من القرآن أن الأساسيات الضرورية للحياة فقط تصير مباحةً في حالة الاضطرار، كشرب الخمر في حالة العطش الشديد عند فقدان الماء مع انقطاع الأمل بالوصول إلى الماء قبل الموت، مباح، وأكل لحم الخنزير في الحالة التي نخاف فيها من الموت جوعًا... مباح. وفصّلت آيات من القرآن عن ذلك ونبّهت من حرمة رمي أنفسنا عن قصد في حالة نصير فيها مجبرين على أكل أو شرب ما هو حرام...
أقول لك هذا لأن بعض من يسمّونهم بالفقهاء يفتون بسقوط المحرمات جميعها تحت الظروف التي يعتبرونها قاهرة، وبعضهم يقول بجواز تنفيس الشهوة الجنسية بأي طريقة كانت في حال لم تكن الزوجة في المتناول، وبعضهم يفتي بقتل الأبرياء بالقصف أو التفجير... إن كانوا بالقرب من عدو... قارن كلامنا هنا مع ما ذكره القرآن "وسيأتي نموذج منه بعد قليل" من كلام النبي شعيب(ع) مع قومه، حين قال لهم إنهم بخير وليسوا بحاجة للغشّ، لأنّ حالتهم المادية ومن دون الغشّ، هي حالة جيّدة... هذا الكلام حتمًا لم يكن يقصد تحليل الغشّ لمن حالته المادية سيّئة.
هنا، الآيات لا تُبرّر فعلهم للاعتداء الجنسي على الآخرين إذا كان لديهم شهوة يقولون إنهم لا يمكنهم تنفيسها إلا بالاعتداء على الآخرين، ونفس الشيء بالنسبة لحالة الشذوذ التي أصلًا كانت شائعة بينهم، فلا يبررها القرآن على أساس أنها حاجة شديدة، لا، لأنّ عرض النبي لوط (ع) بناته عليهم كان عرضًا للزواج منهن، وكان كلامًا عن نموذج

وجود بنات "بناته (ع) أو بنات أخريات من القرية" متاحات للزواج لمن يريد تنفيس شهوته، مما يعني أنه لا يوجد أي مبرر للاعتداء على الغرباء ولا للشذوذ.
بقي شيء، ذكر القرآن قصة قوم النبي لوط(ع) بالاعتداء على الغرباء جنسيًا للإشارة إلى عمل يحرّمه تعالى ونحن البشر عمومًا بالغالبية الساحقة نراه سيئًا مُشينًا مَعيبًا مخالفًا للعقلانية، وذكره القرآن مرارًا كنموذج عن عمل لا نناقش في شدّة سوئِهِ، ورغم ذلك هناك من يصرّ على ارتكابه، وذكر القرآن مرارًا الغشّ في الميزان كعمل سيئ جدًا لا يحتاج لرسول حتى يبيّن للناس مدى سوئِهِ، وذكر قوم النبي صالح (ع) مرارًا كنموذج عن الإسراف في بناء البيوت وأيضًا كنموذج بارز واضح عن سوء استعمالنا للموارد المتاحة لنا...
ما أريد لفت انتباهك له هو تماشي أوامره تعالى مع الطبيعة التي خلقنا سبحانه عليها إن عبدناه ولم نعبد الدنيا والهوى السيّء، لأنه سبحانه خلقنا مع قابلية تمييز الخير من الشرّ، ونهانا عن السوء ووعدنا بالأجر على الصلاح وعلى هذا الأساس سيحاسبنا ويجازينا.
بعض ما حرّمه تعالى أجد نفسي ترغبه، وبعضها الآخر أكرهه، وأنت ربما تحبّ ما أكرهه أنا وتكره ما أحبّه أنا... ففي النقطة التي كان قلبك فيها سليمًا، كرهت أنت ما حرّمه تعالى وفي نفس تلك النقطة عبدت أنا هواي وصرت أراه محبوبًا... هذا ما أرادنا القرآن دائمًا أن ننتبه له، ومضافًا إليه الانتباه من العقاب الشديد في الآخرة لمن خالف التماشي مع القلب السليم، وهي القدرة المزروعة فينا لتمييز الخير من الشرّ، والمتناغمة المتماشية مع دينه تعالى.
بعبارة مباشرة وصريحة: لم يخلقنا سبحانه بطبيعة وعقلية ونفسية لا تتماشى مع أوامره، بل بالعكس متناغمة تمامًا مع القلب السليم، مع أساس الفكر والنفسية السليمة، فالعاقل الرزين لا يحتاج لإقناعه بصحّة أي شيء من كلامه تعالى، لأنه أصلًا يتماشى مع فكره ونفسيته، ونتدرج نزولًا مع الأقل عقلًا ورزانة، وصولا إلى حالة من يرى هذا السيّء محبوبًا وذاك السيّء مكروهًا، فتجد من يرى الغشّ في الميزان محبوبًا له لأنه يزيد من مكاسبه المالية، وهو نفسه يرى السرقة حرامًا ويجب أن يكون عليها عقاب لأنه يخاف على أمواله وبضائعه من السرقة! وهذا الغشاش يرى الشذوذ معيبًا... في موضع الفاحشة الشذوذية نفس الشيء، حيث الشاذ يرى الغشّ سوءًا يستوجب العقاب...
فلسفة الكلام لتبرير الشذوذ وتحليله في تشريعات بعض الدول، ليس سوى نموذج على قياس كبير من عبادة الهوى ومخالفة الطبيعة البشرية "العاقلة الرزينة"، تمامًا كتحليل قوم النبي لوط(ع) للشذوذ.
من المضحك ما يقوله البعض عن ممارسة بقية الحيوانات للشذوذ بحيث تفهم من كلامهم أنه أمر طبيعي منتشر بكثرة في عالم الحيوان ونحن البشر نخالف الطبيعة الحيوانية إذا حرّمناه ومنعناه! وهذا كذب، فهناك بعض الحالات النادرة جدًا لشذوذ بعض الحيوانات التي لا تختلف عنّا في الممارسات الحيوانية السيّئة الأخرى كالقتل والاعتداء... فليكن أيضًا سلوكها العدائي بقتل الآخرين مبررًا للأعمال الإجرامية للبشر! فهو الأكثر انتشارًا بين الحيوانات!
من المضحك ما يقولونه عن تحكّم جيناتنا بسلوكياتنا، وأن البعض منّا محكوم بجيناته التي تدفعه للشذوذ.. وهذا كلام رفضه العلماء الرصينون قديمًا لأنه يعطي مبررًا للمجرمين القتلة على أساس أن لديهم جينات تدفعهم للإجرام... وكلّنا نعلم بأن تركيبتنا الحيوانية هذه، من جينات وقرارات تنطبع عليها نفسيتنا وفكرنابسبب كثرة تكرارها، ومن جسد بشهوات ونفسية برغبات... هي خليط مما يجعلنا "إنسانًا"، هي مجموعة مع بعض تدفعنا لفعل هذا وترك ذاك، فسلوكياتنا محكومة بما معنا وفينا ونتركّب منه، ولكن لا أحد منّا مسلوب الإرادة وغصبًا عنه يقوم بأعمال لا قدرة له على تركها، وإلّا فما معنى القوانين والتشريعات والحقوق والواجبات التي تحاسب عليها الدولة والحكومة؟
هل تجد عاقلًا يمكن أن يقول عن مجرم قتل بريئًا أنه كان مجبورًا على فعلها؟! فلا إرادة له وغصبًا عنه فعلها لأنه ورث جينات الإجرام؟ فهذا غير معقول وغير مقبول، ونفس الشيء بالنسبة للشذوذ الجنسي كسلوك يبرّره البعض ويسمح به للآخرين على أساس أن الشاذّ بعيد عنهم ويقوم بعمل لا ينفعهم ولا يضرّهم، فلماذا سيمنعونه؟ ولكن حين يشذّ ولد لهم سترى أنهم يعيشون المأساة، فدعك من الكلام الفارغ الذي تسمعه عن تطورهم وتحضّرهم وعقلانيتهم... وانظر إليهم حين يشذّ ولدهم أو ابنتهم لترى الإحراج والرفض والممانعة والمقاطعة والنبذ...
في دراسة الآية 166 من سورة الشعراء {وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ}، قلنا كلامًا مشابهًا للكلام هنا فراجعه إن أحببت.

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ{72})
{لَعَمْرُكَ}، يا للغرابة التي يندر أن تسمع بها طوال عمرك، في كل عمرك هل سمعت شيئاً كهذا؟: {إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ}، في حالة فقدان للوعي والفكر، {يَعْمَهُونَ}، حيث لا يختارون وجهتهم عن فكر وعقلانية.

تصرّفهم تصرّف السكران بفكر غير واعٍ، سيطرت عليهم الشهوة المنحرفة وانعمى فكرهم ولم يعودوا يميّزون بين الخير والشرّ، واقتراح النبي لوط(ع) عليهم بالزواج لتنفيس الشهوة، هو منطق سليم لا غبار عليه، وكان يجب أن

يستيقظوا، يا للغرابة التي لم تسمع بها في حياتك، ولم يكترثوا لما يقوله النبي(ع) لهم، وأصرّوا على الاعتداء على الضيوف؟!

ليس من اللائق التفصيل في أمور كهذه، فاعتبر القرآن أنها واضحة ويكفي هذا الحدّ من التصريح، ولكن كدارس للقرآن يعرض دراسته على الآخرين، بعض التفصيل في الكلام يكون ضرورياً، وما تنفيس الشهوة الجنسية إلا مدة قليلة جداً من الزمن، وبنظرة بيولوجية ميكانيكية جافة، هو تحفيز لأعصاب الأعضاء التناسلية بشكل يؤدّي إلى تحفيز بعض الغدد لتفرز موادَّ تنتشر في الجسم مسبّبة للنشوة، ومضافاً لذلك رغبة العواطف "التي أيضاً تنتج عن تفاعلات كيميائية في الجسد..."، وهذا مؤمّن من علاقة بين رجل وامرأة، وما معنى اختيار فعل ذلك بين رجل ورجل؟ ومعلوم ومشهور جداً الأضرار الجسدية الناجمة عن العلاقة الشاذّة، لأن جسدنا غير مؤهّل لذلك، ومشهور ومعلوم جداً أن غالبية الشاذّين جنسياً مرّوا في صغرهم ومراهقتهم بتجارب أثّرت فيهم سلباً واتّجهوا نحو الشذوذ الأسهل للمّ شمل شابين لم تُتَحْ لهما إناثٌ يفرغون معهن حاجتهم الجسدية والعاطفية...

هنا تعرض الآية حالة ما بعد كل التراكمات السابقة التي أوصلت جماعة من الناس إلى حالة الهوس الجماعي، كحالة مجموعة ثارت لقتل جماعة أخرى غير آبهين بأي شيء، حيث يقتلون الأطفال والنساء ومن ليس له علاقة أصلاً بكل الموضوع، وهي حالة كهيجان الثيران الذين لن يتوقفوا عن العدو السريع حتى لو وصلوا إلى جرف وادٍ.

نعلم من الآية 37 من سورة القمر {وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ}...، أنه تعالى تدخّل "والأرجح بأمر منه تعالى للملائكة الضيوف(ع)" حين احتدّ القوم وبدؤوا بالقوة اقتحام الدار... حيث أصابت الملائكة المهاجمين على دار النبي لوط(ع) بالعمى وانصرف المهاجمون... وتوجّه النبي لوط(ع) نحو ضيوفه بالاستغراب الشديد، لأنهم باردون لا يتحركون، وكأن كل الجدل والنقاش لا يعنيهم وليس عنهم! ولم يعلم (ع) أنهم ملائكة حتى اللحظة التي أعموا فيها المهاجمين وأعلنوا له (ع) أنهم ملائكة.

هذا ما أرادتنا الآيات هنا أن نعيشه، لو علم النبي لوط(ع) من الأول حين صادفهم خارج القرية بأنهم ملائكة، لكانت أعصابه أبرد، ولم يحتدم مع قومه في النقاش... وهنا نرجع لمحور السورة: ما نفع رؤية الناس للملائكة(ع) إن كانوا لن يميّزوها عن البشر كما ترى هنا؟

الشيء الآخر الذي أرادتنا السورة فهمه: هل الاعتداء على الغرباء جنسياً، هو عمل يحتاج لرسول أو نبي أو معجزة أو آية أو... ليبرهن لهم أنه عمل سيئ؟ تصوّر قوم النبي لوط(ع) يكذّبونه وينفون أنه رسول من الإله سبحانه، وهو (ع) ينهاهم عن الشذوذ وعن الاعتداء على الناس، وهم يقولون له: نريد دليلاً يثبت أنك رسول حتى نؤمن بأن ما نفعله سيئ ويستحقّ العقاب. وكما ترى السورة طرحت نموذجاً فاقعاً يبرز سوء عملهم الذي يراه شنيعاً أي إنسان فيه ذرة عقل. وليقم بقيّة الكفّار بالقياس بين ما يأمرهم به الرسول الناقل للكلام الإلهي، وبين ما يقومون به من سوء، لأن الرسول واسطة ليعرفوا إلههم الحقيقي، وهم لديهم آلهة اخترعوها وهم يعلمون أنهم اخترعوها من خيالهم! والرسول يأمرهم بترك الفحشاء والمنكر... وبرّ الوالدين والعدل والإحسان... هل هذه أمور تحتاج لرؤية الملائكة (ع) للإيمان بها؟!

(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ{73})
تذكّر ما نقلته الآيات ما قبل السابقة "الآية 65" عن تعريف الملائكة (ع) بنفسها، ونقلها الأمر الإلهي للنبي لوط(ع) بمغادرة القرية...

{فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ}، حيث لم يتركهم الشيء القوي جداً الذي يصل للجميع، {مُشْرِقِينَ}، أثناء شروق الشمس.

الصيحة في استعمالنا العادي هي ما يصل به الصوت لعدد كبير من الناس، وهي غير الصرخة، لأنه حتى يصل إليهم الصوت يجب أن يكون قوياً ينتشر من مصدره، واستعمل القرآن كلمة صيحة بعد تفريغ معناها من كلّ الإضافات واستعمالها على أصل معناها، وهذا الاستعمال منتشر في عموم كلمات القرآن، وبهذه الطريقة لم يضطر القرآن لاستعمال مجاز أو استعارة أو كناية... واستعمل أقرب كلمة للمعنى المقصود، وعامّة أهل اللغات يفعلون ذلك، مثلما نفعل مع كلمة باب، نافذة... حيث في اللغة لا نخصّص هذه الكلمات لمستطيل من الخشب، بل نفرّغها من الإضافات ونستعملها على أصل معناها الوصفي لعموم أي ممر أو إطلالة...

عند توصيفه سبحانه، بالحي القيوم البصير... أحبّ غضب انتقم... يد ووجه الله تعالى... سنفهم هذه الكلمات بشكل صحيح عند تفريغها من الإضافات وتفسيرها على أصل وصفيتها، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لترى كيف استعمل القرآن هذه الكلمات، وإن لم أتوسّع في شرح كلمة منها في آية تعرفها فانظر في آية أخرى... وستجد شرحاً لها.

هنا الصيحة وصف وصول الأمر الإلهي إلى عدد كبير ليموتوا. واستعمل القرآن كلمة صيحة في سور أخرى للتعبير عن أمر برجوع كل الناس إلى الحياة. وكما ترى فرّغها القرآن من التصاقها بالصوت القوي، واستعملها على معنى وصول الأمر الإلهي لعدد كبير من الناس في وقت واحد.

بعبارة أبسط، لا تفهم أنه تعالى صاح بهم بصوت قوي، أو أمر تعالى ملاكاً ليصيح بهم بصوت قوي، لا، بل هو أمر إلهي انتشر على عدد كبير من الناس أن يموتوا، وهذه الحالة نستعمل لها كلمة الصيحة التي توصّف حالة انتشار أمر على كثيرين. وسترى في الآية التالية استعمالاً لكلمة "مطر" على هذا الأساس من تفريغ الكلمة من الإضافات...

(فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ{74})
{فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا}، قلبناها وما كان فوق صار تحت، وتهدّمت الأسقف لتصير مسوّاة بالأرض، {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ}، أنزلنا عليهم بشكل متفرّق وكثيف، {حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ}، واستعمل القرآن كلمة سجّيل عدة مرات فقط للحديث عن حادثتين: عن قوم النبي لوط(ع)، وعن أصحاب الفيل. أخبرنا في الآية 32 و 33 من سورة الذاريات أن الملائكة (ع) عندما زاروا النبي إبراهيم(ع) قالوا له: {إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ، لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ}. ووصف القرآن هنا في السورة كيف تم العذاب على قوم لوط (ع)... فسجّيل هي حجارة من طين ساخن نزلت عليهم بشكل متفرّق وكثيف.

تحدثنا عن كلمة صيحة في الآية السابقة وهنا ترى، ها مثال آخر عن استعمال كلمة "مطر" لوصف نزول الحجارة، فعلى معناها الأساسي هي نزول متفرّق وكثيف لشيء ما، لماء أو حجارة أو... وما يقوله البعض عن تخصيص كلمة مطر للحوادث السيئة بسبب استعمال القرآن لها فقط في هذا المورد فغير صحيح ولا تفهمه من كلام العرب قديماً وحديثاً ولا من الآية 24 من سورة الأحقاف {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ}، لأنهم توقعوا مطراً عادياً لن يؤذيهم.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ{75})
{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، في تعذيب هؤلاء القوم بسبب كفرهم، {لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ}، شيءٌ مميّز للذين يعرفون الأشياء من سماتها من ملامحها، والإشارة هنا إلى رؤية مكان القرية التي تدمّرت، ومن رؤية آثارها، أو العلم بمكانها، أو العلم باندثارها بسبب عقاب إلهي... والمتوسّم الذي يفهم الأمور من سماتها من ملامحها سيرى أنه أمام شيء إلهي مميّز، بعقاب قاسٍ جداً لأناس يستحقونه.

(وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ{76})
{وَإِنَّهَا}، تلك القرية التي نزل عليها العذاب، {لَبِسَبِيلٍ}، في مسلك يسلكه الناس، في طريق، {مُّقِيمٍ}، وهي باقية في محلّها، يعني إلى حين نزول هذه الآيات كان الناس يمرّون عليها، أو يعرفون أنها كانت هناك.

حالياً في البلد الذي يسمى الأردن، توجد منطقة تسمّى غور الأردن، وهي منطقة كانت مسكونة منذ القدم، ويقع فيها البحر الميت، وهو البحر الصغير المشهور بارتفاع نسبة الملح في مائه لقرابة الثلاثين من المئة، ومن المشهور بين المسلمين أنه في زمن النبي لوط(ع) كان في منطقة غور الأردن أربعة تجمعات سكنية، لكل واحدة منها اسم، وهي مذكورة في التوراة ولم يذكرها القرآن وهي: سادوم، عامورة، أدومة، صبييم. وهذه التجمعات هي القرية التي كان فيها النبي لوط(ع). والمشهور في عموم ثقافة المتدينين أن البحر الميت لم يكن موجوداً في عصر النبي لوط(ع) بل كان مكانه واحدة من التجمعات السكنية، "وهذا غير صحيح لأن البحوث الحالية تثبت بأن البحر الميّت عمره بعشرات آلاف

السنين"، ويقولون إنه عندما نزل العذاب على تلك المنطقة حصل زلزال وفوران للحمم من الأرض، وانخسفت قطعة من الأرض وصارت فيما بعد بحيرة كبيرة هي الآن البحر الميت.

كما تلاحظ استعملتُ كلمة "المشهور ويقولون" بسبب وجود الكثير من الاختلافات بين كتب التاريخ حول مكان وأسماء وتواريخ وماذا حصل في تلك المنطقة، ولا يتماشى ما قالوه عن ولادة البحر الميّت من تلك الحادثة مع العمر الذي يقدّره علماء الجيولوجيا له، ربما حصل خسف فعلاً وتوسّع البحر الميّت ليغطي تلك القرى... وربما لا... على كل حال حتى عهد نزول القرآن يبدو أنه كانت هناك آثار ما لتلك القرى وكان مشهوراً بين الناس حصول دمار هناك لقوم سوء كانوا يعتدون جنسياً على الغرباء... حيث أشار القرآن لمعرفة المسافرين من أهل مكّة لمكان قوم النبي لوط(ع) ولقصّتهم، ومعرفتهم تلك لم تكن مستندة لمصدر ديني بل مستندة لما يعرفه الناس عن تاريخ المنطقة، وهذا ما يبدو من الآية 137 من سورة الصافات {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ}، ومضافاً لذلك تسمية فعل الشذوذ بـ "اللوطي" يريك أن قصّتهم أيضاً كانت مشهورة لمدة طويلة جداً سببت اختصار النسبة من "قوم النبي لوط" إلى "اللوطي" للأسف.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤمِنِينَ{77})
{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ}، في الكلام عن قرى مشهورة انطمست بسبب سوء فعلهم، {لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ}، شيءٌ مميّز لمن يعتقد بدينه تعالى، حيث سيعتبرها آية إلهية، وسيأخذ منها العبرة، ويرى أنه تعالى فعلاً يجازي المسيئين.

أمّا غير المؤمنين فكل الآيات في كل ما خلقه تعالى في الدنيا، ومعهم القرآن، فهو لا يعني لهم أيَّ شيءٍ لأنهم مصرّون على السوء.

(وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ{78})
انتهت السورة من موضوع رؤية الملائكة(ع) وأكملت بشكل مختصر جدا جدا مع تعذيب أقوام أخرى لتدل على أن ما حصل مع قوم النبي لوط(ع) لم يكن حدثا فريدا، بل حصل عدة مرات بسبب سيئات ضخمة قام بها الناس ولا تحتاج للبرهنة على سوئها الشديد:

{وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ}، والذين مع بعض منسوبون للأيكة، والمفسرون بغالبيتهم متفقون على أَنَّ الأيكة وصف للشجرة التي لها أغصان كثيرة، كانوا ظالمين، لم يكن معهم حقّ، ونعلم من سورة الشعراء ابتداء من الآية 176 {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ}، أَنَّ أصحاب الأيكة هم قوم النبي شعيب(ع)، وكانوا غشّاشين في التجارة.

في دراستنا هذه للقرآن بسّطت لك المعاني بشكل من المفروض أن يغنيك عن بذل الوقت والجهد لدراسة القرآن، فهو كتاب فيه جمل ومواضيع سهلة الفهم، وفيه جمل ومواضيع بحاجة لدراستها لفهمها، ولن ندخل هنا في سبب وجود كلمات كهذه أو معانٍ صعبة نسبيا... وسألفت انتباهك إلى ما تقوله آيتنا هنا، إذ بقراءتك لهذه السورة لوحدها لن تعرف منها من هم أصحاب الأيكة، لأنه عن قصد مرّر القرآن جملا بحاجة للتوقّف عندها ودراستها ومقارنتها مع بقية السور.

بعبارة أوضح، في عملي هذا أقدّم لك دراسة لتغنيك أو تساعدك وتختصر عليك الوقت والجهد لتفهم القرآن، أمّا سبحانه وتعالى فتقصّد أن يكون القرآن كتابا ندرسه، وأنا حتى أدفعك لقراءة كتابي قمت بتسهيل المعاني... وسبحانه وتعالى اكتفى بطرح ما يريده بشكل واضح وصريح، ونحن نحتاج لدراسته لفهمه، وما يهمّني من تبسيط العبارة لدرجة الركاكة والتكرار حتى تفهم كتابي أنا، فهذا لا يهمّه تعالى إلى هذه الدرجة، لأنَّ أساسيات الدين مطروحة في القرآن وبجمل واضحة وسهلة جدا جدا، وخذ مثلا جملة: لا إله إلا الله، وغيرها الكثير الذي تفهم منه بكل بساطة أننا ذاهبون إلى عقاب شديد إن لم نطعه تعالى بالابتعاد عن السيئات، أو الجمل التي تقول بأننا ذاهبون إلى نعيم خالد إن اتقيناه تعالى... وهناك الكثير من المواضيع التي تمسّ الحياة اليومية لأي إنسان عادي ويفهم ما تقوله الآيات عنها... والدلال الذي تحظى به منّي حتى تفهم كتابي، لا يقصده تعالى مع الكفّار، ويكتفي سبحانه بإنذارهم بشكل واضح ومفهوم.

لو سبحانه تساهل في التعابير حتى يكون القرآن بسيطا، لما اقتنعنا أبدا أَنَّه كتاب من تأليف إلهي، لأنه سبحانه لم يتقصّد تعقيده بل بسّطه تعالى إلى الدرجة التي تتحمّلها اللغة العربية بشكل يعبّر عن المعاني التي يريدنا تعالى أن نفهمها بدقّة...

بقي شيء، حيث إنَّ غالبية المفسرين يقولون أَنَّ كلمة {الْأَيْكَةِ} وصف للشجرة الكبيرة المنتشرة أغصانها، وعموم تفاسير الجيل الأول من المفسرين لكلمات القرآن لم تكن دقيقةً، إذ هناك أسماء لأشياء ذكرها القرآن وكانوا يجهلونها، ويعرفها المتخصصون من الناس، ولكن لم تصل إلينا تفاسير الكلمات من المتخصصين بالصناعات والعلوم والمهن والحرف... المختلفة والذين يستعملون تلك الكلمات، وبدلا منها وصلنا كلام المشاهير من الصحابة والتابعين، وخذ مثلا كلمة مرجان التي لم يعرفوا معناها، وتجد لها تفاسيرَ متعددة منهم، ولو سألوا أحدا من المتخصصين من أهل البحر أو من صائغي الحلي، لعلموا أنها نبات بحري له عيدان متداخلة... "وبعضهم في عصرنا يصنفونها حيواناً"، ونفترض بكل سهولة أن المسلمين من العالمين بمعنى كلمة مرجان، فهموها، ولكن كلامهم لم يستطع اختراق هالة القداسة للمتصدّين لتفسير القرآن، واندثر كلامهم وانتشر كلام النافذين، أو حتى هم أنفسهم ظنوا أن ما يعلمونه عن معنى كلمة مرجان غير صحيح بسبب قوّة تأثير هالة قداسة مفسري القرآن عليهم...!

{الْأَيْكَةِ} ربما تكون اسما وصفيا لنوع من الشجر الكبير ذي الأغصان الملتفة على بعضها، وربما وصف لأي نوع من الشجر الضخم، وهذه ليست مشكلة كبيرة، ولكن ما قالوه في الروايات عن عبادة قوم مدين لتلك الشجرة، فهذا فيه مشكلة، إذ لا أثر لهذا الكلام في القرآن، ولا أذكر أني قرأتها في تراث أهل الكتاب، ويبدو أنهم استنسبوا هذه العبادة من قوم مدين لهذه الشجرة بسبب نسبة القرآن للقوم إلى الشجرة، وما المناسبة لتبديل نسبتهم لمدين بنسبتهم لشجرة؟ لذلك استنتجوا أنها كانت معبودة لهم.

لكن سنستنسب شيئا آخر سنطرحه ولا نقول إنَّه تفسير، بل احتمال، لأنهم كانوا غشّاشين بالتجارة، مما يعني أنهم كان لهم سوق للبيع والشراء، وعادة يبدأ السوق من مكان مناسب، ولنقل إنَّ شجرة كبيرة "أيكة" كانت البقعة التي امتدّ منها السوق ليصير كبيرا، وهكذا ترى بسهولة ومناسبة أكبر للكلام عن غشّهم أن تكون نسبتهم للسوق الذي يغشّون الناس فيه، وهي نسبة للشجرة الكبيرة المميزة التي كان سوقهم عندها. على كل حال هذا افتراض أردت منه أن أريك كيف تعامل المفسرون مع القرآن، وكيف خرجوا باحتمالات مختلفة ولم يقولوا إنَّها افتراضات منهم أو تخمين.

إذن وكما رأيت بسهولة أن الاعتداء جنسيا على الآخرين هو عمل سيّء جدا، وكان من المفروض بهم أن لا يفعلوه، ولا يحقّ لهم أن يطلبوا دليلا على سوئه، ولا أن يطلبوا دليلا على العقاب الإلهي لفاعله حتى ينتهوا عنه، تنتقل بك الآية هنا لتسأل عمّا فعله أصحاب {الْأَيْكَةِ}؟ وستعلم أنهم كانوا غشّاشين، فهل ترى أن الغشّ سيّء جدا؟ أم تحتاج لآية حتى تراه سيّئا؟ أم لن تتوقّف عن فعله لأنك لن تتعرّض للعقاب؟ إذ إنَّ وجهاء القرية غشاشون ويشجعون الآخرين من قومهم على الغشّ!

(فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ{79})
{فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ}، أصحاب الأيكة أخطؤوا وبيّنّا لهم نيّة الضرر بهم فعاقبناهم بسبب ما فعلوه "من الغشّ"، {وَإِنَّهُمَا} كلاهما: أصحاب الأيكة وقوم النبي لوط(ع)، {لَبِإِمَامٍ}، كان لديهم إمام كشخص يوصف بأنه مرجع أساسي ويتبعه الناس، {مُبِينٍ}، واضح أنه مبعوث منه تعالى، ولكنّ القومين تركوا الإمام القدوة الصالحة للاتّباع، وظلموا، فتعذّبوا.

تذكّر دائما أنه تعالى يفعل، ولكن لا ينفعل، فوصفه تعالى بالانتقام أو الغضب أو الحبّ... هو استعمال لكلمات من لغتنا التي وضعنا كلماتها مما نتعامل معه نحن بحواسنا، وسبحانه ليس كمثله شيء، فمستحيل أن نتعامل معه مباشرة بسبب الفرق الهائل بين طبيعته عزّ وجلّ وبين طبيعة تكويننا، ولذلك كلمات لغتنا التي اخترعناها للتعامل فيما بيننا، حين نستعملها للكلام عمّا لا نتعامل معه مباشرة فيجب تجريد الكلمات من الخصائص البشرية.

كلمات لغتنا عند انطباقها علينا هي تتضمّن تأثّرنا وانفعالنا... أمّا بالنسبة له تعالى فهي تنطبق عليه مع تجريدها من خصائصها الإنسانية، أنا وجهي يمتقع احمرارا من الغضب، وتفلت أعصابي من الغضب... أمّا سبحانه فغضبه هو وصف تعامله مع الأمور بأنه غير راضٍ عنها ولن يمررها أو يسكت عنها. وانتقامي أنا يتضمّن أني سأنفجر إن لم أَشْفِ غليلي... أمّا سبحانه فانتقامه هو وصف تبييت نية الضرر كعقاب على حقّ له تعالى علينا ولم نلتزم به. وحبّه تعالى للمؤمنين هو وصف تعامله معهم بما يسعدهم، وكرهه تعالى للكافرين هو وصف تعامله تعالى معهم بما يتعسهم. وهكذا بقية صفاته تعالى نفهمها بما يناسب أنه تعالى ليس كمثله شيء.

نحن كبشر نربط الانتقام "كفعل" بالمشاعر، فننتقم لنشفي غليلنا وغيظنا وغضبنا... ولكن الانتقام هو عموم تبييت الضرر لأحد ما بسبب عمل قام به، ونحن يصيبنا الاضطراب والقلق والتشفّي... أمّا سبحانه فلن يصيبه الاضطراب ولا القلق إذا لم ينتقم، لأنه سبحانه يمكنه في أي لحظة تعذيب العصاة، فالانتقام بالنسبة لله تعالى هو عمليا: أخذ الحق منهم عبر معاقبتهم على معصيتهم. كفروا به تعالى، وأهانوا مكانته سبحانه، واستهتروا بكلامه، وسخّفوا رسله... فمحاسبتهم على هذه الأمور بالتعذيب هو انتقام منهم على سيئاتهم.

(وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ{80})
تنتقل السورة باختصار شديد لنموذج ثالث أساء فجرى تعذيبه: {وَلَقَدْ كَذَّبَ}، لم يصدّق، {أَصْحَابُ الْحِجْرِ}، الذين مع بعض في الشيء المنيع، وهو وصف لمدينة بيوتها حَجَرٌ، أي بيوتها حصينة منيعة، والإشارة هنا إلى قوم ثمود الذين نحتوا بيوتهم في الجبال، ولقد كذّبوا {الْمُرْسَلِينَ}، الأشخاص الذين حمّلهم سبحانه كلامه للناس.

من المشهور أن الحجر هو وصف صار اسماً لمدينة سكانها من قبيلة ثمود الذين كانوا في زمن النبي صالح(ع)، ومن المشهور حالياً أن آثارها ما زالت موجودة لجهة الشمال الغربي من المدينة المنورة، ومن التوصيف في الآية ما بعد التالية لنحتهم البيوت في الجبال نعلم أنهم قوم النبي صالح(ع) لأن القرآن أخبرنا أنهم نحتوا البيوت في الجبال، ربما هناك أناس غيرهم أيضا نحتوا البيوت في الجبال ونزل عليهم العذاب، ولكن القرآن كرّر ذكر بعض أبرز النماذج، وأبرزها قوم النبي صالح(ع)، لذلك هنا لا نرى سبباً يدفعنا لنحتمل أن أصحاب الحجر هم قوم غير قوم النبي صالح(ع)، بل هم المقصودون، إذ عادة القرآن يعتمد نفس الكلام عن نفس النماذج وإلا لأشار لنا أنهم غيرهم، مثل عادة القرآن بقصده من كلمة "فرعون" فقط الفرعون الذي كان معاصراً للنبي موسى(ع).

(وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ{81})
{وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا}، بعض الأمور المميزة المنسوبة له سبحانه حصلت عندهم، حيث حصلت أمور غير عادية وتدلّ على أنه تعالى سيعاقبهم على السوء... {فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ}، غير مهتمين لأنهم لا يعتبرونها مهمّة ولا مميّزة.

جاءهم الرسول صالح(ع) وقال لهم كل الكلام المنطقي المقنع، وفوق ذلك وكما هو مشهور ولم يذكره القرآن طلبوا آية خروج ناقة من صخرة... وخرجت... ولم يؤمنوا.

(وكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ{82})
{وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ}، بدل استعمال صخور الجبال كحجارة لبناء البيوت، قاموا بنحت، بحفر ونقر، بيوت في الجبال، وأزالوا القطع الصخرية بطريقة النحت لتكون مزخرفة بالنقوش، {آمِنِينَ}، وهم يشعرون بالأمان ويستبعدون حصول أي خطر معهم، ويشعرون بالأمان من العقاب الإلهي على بذخهم وترفهم.

من الآية 74 من سورة الأعراف {تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا} نعلم أنهم كانت لديهم بيوتٌ فخمة {قُصُورًا} في السهول، ولكنهم قرروا نحت الجبال لبناء بيوت إضافية فيها ترفاً، لأنهم ليسوا بحاجة لها، وصاروا يغادرون بيوتهم في القرية تباعاً، وأثناء ذلك كان النبي صالح(ع) ينبّههم من العذاب الإلهي على معاصيهم، فلم يهتموا بكلامه، وصبّوا اهتمامهم على الانتقال من القرية إلى البيوت المنحوتة في الجبال.

كما ترى، فالبذخ والترف بهذا الشكل الفاقع، هل يحتاج لبراهين وآيات تثبت لفاعله أنه مسيء؟ عموما لم يدخل القرآن في مصدر تكاليف نحتهم للبيوت، ويخطر ببالنا أنهم حصلوا عليه من أفعال سوء، ولكن لم يذكر القرآن ذلك لأنه حتى لو كان مالهم الذي صرفوه على نحت البيوت من حلال، فما معنى هذا البذخ والترف الذي لا يفيدهم بأي شيء سوى التباهي به أمام الآخرين، كهوس وجنون جماعي في السباق على البذخ والترف فوق بذخ وترف الآخرين.

نحن نحبّ العيش في بيوت مريحة، وجميلة، ومزيّنة، وكبيرة... ولكن أليس لهذا الحبّ حدود؟ إنفاق المبالغ الضخمة على البذخ والترف في الزخرفة والنحت... وإهدار الطاقات في مثل هكذا مشاريع، وتضييع الوقت في أعمال لا نفع منها ولا حاجة لها... هل يحتاج لعبقري ليعلم سوءه؟!

تصوّر نفسك فقيراً جائعاً، أو طفلك يتأذّى من الجوع، أو يحتاج لدواء... وثمن باب خشبي لقصر من قصور الأغنياء يكفيك لسدّ حاجتك لمدة شهر أو سنة، عندها ستشعر بأن ترفهم يتعارض مع أبسط المبادئ الإنسانية، وهي نفسها التي يأمرنا تعالى بالالتزام بها، ويأمرنا مراراً وتكراراً بالصدقة "مساعدة المحتاجين"، فإن قلت إنها أموالهم وهم أحرار في إنفاقها على ما يحبّون حتى لو كان ترفاً، فما معنى فرض الكثير من الدول لضريبة تصاعدية على الأغنياء لتصل أحيانا إلى أخذ أكثر من نصف أرباحهم؟ ومعلوم وواضح جدا أن البلدان تنهار اقتصادياً إن صار المال محصوراً بيد حفنة منهم، ومن غير المقبول تشكيل كيان دولة ومؤسسات حكومية لخدمة حياة مترفة للقلّة وبقية الشعب عمّال يذهب أكثر مجهودهم لفائدة حيتان المال... هكذا ترى أن الترف بشكل فاقع شيء ترفضه الإنسانية لأنه في مقابله فقراء معدمون...

الكلام يجرّ الكلام، سبحانه وتعالى لم يرد التضييق علينا بفرض أنظمة سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية... بل وضع لنا عناوين نرى صلاحها بسهولة، ومنعنا عن أمور نرى فسادها بسهولة، ومن بعد ذلك فالمساحة ذات هامش كبير لنختار ما يناسب الزمان والمكان من أنظمة، ومن الخطأ الشائع تحديد نظام اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي... قرآني إسلامي، لأنّ القرآن لم يعرض علينا أموراً لنأخذها كما هي على عماها، بل عرض علينا ما يتماشى مع ما نراه نحن حسناً...

حتى الزكاة لم يذكر القرآن نسبتها من المال بل حدّدها من العفو شاملاً لها بهذا الوصف مع أي صدقة أو إنفاق وتقرأ ذلك في الآية 219 من سورة البقرة {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ}، والعفو معيار ذو هامش واسع، وترى من السنّة التطبيقية لهذا الحكم أنه من لم يكن يملك مالاً يكفيه لسنة كاحتياط، لا زكاة عليه، ومن ملك ما يزيد عن ذلك بقليل فلا يدفع من ماله ما يجعل الباقي أقل من مؤنة "مصروف" سنة، أمّا الثري ذو الملايين الفائضة، فبضعة ملايين تعتبر عفواً...

هكذا ترى أنه من أساسيات الإنسانية التي أمرنا تعالى بالالتزام بها، أن لا تصل مصاريفنا إلى حدّ الترف، فقوم ثمود كانت لهم قصورٌ في السهول، ولم يعترض عليها النبي صالح(ع) لأنها عادية متماشية مع المقبول في زمانهم كبيوت فخمة جدا... أمّا وقد تمادوا لدرجة إنفاق المال على نحت بيوت أصلاً لا يحتاجونها، وتذهب التكاليف المالية والجهود العمالية على شيء لا فائدة منه أصلاً، فهذا غير مقبول، لأنّ هناك فقراء بحاجة للمساعدة...

لا تفهم أن نحت البيوت في الصخور هو الممنوع، لا، بل اختيارها كبيوت بقصد الترف، وإنفاق تكاليف عالية على نحتها هو المشكلة لأنه في مجتمعهم وفي جوارهم أناسٌ فقراء يحتاجون للمساعدة. لو كان الجميع مرتاحين ولديهم ما يحتاجونه، عندها لا مشكلة في تغيّر حياتهم إلى الترفّه الذي سيبدو ترفاً لو قارنته مع مستوى معيشي آخر.

بعبارة أخرى، لن تجد في القرآن تحديداً للإسراف والترف والتبذير، لأن معياره يختلف بحسب الأزمنة والأمكنة وعادات الناس، إذ لكل زمان ومكان مستوى معيشي مختلف، ولم يحكمك القرآن بمستوى واحد لتطبّقه كل المجتمعات في كل الأزمنة.

من الخطأ إعادة استنساخ المستوى المعيشي للنبي محمّد(ع) لنعيش مثله، ومثله الخطأ في استنساخ عادات زمانه (ع) في الكلام واللباس والطعام وتسريحة الشعر... لأنّ سبحانه لم يقيّدنا بأي شيء، وأصلاً من غير العقلاني تقييدنا لأنفسنا بأمور نسمّيها "سنّة" رسول الله في الأكل واللبس وتسريحة الشعر... فماذا لو خطر على بالنا استنساخ ما كان دارجاً في عهد النبي إبراهيم(ع)! أليس نبيا رسولا وإماما وأمّة...

من هذا الكلام تفهم أن العقاب لثمود لم يكن على شيء عادي في زمانهم، فلو كانوا هم والذين من حولهم كلّهم مستواهم المعيشي مرتفع جداً ومرتاح لدرجة أن نحت البيوت في الجبال ليس مميزاً، وليس نافراً وغريباً، لما عاقبهم تعالى عليه، ولكن المشكلة أنه كان في زمانهم ومكانهم فقراء يحتاجون للمساعدة... والمشكلة الثانية في إرهاق المجتمع برفع مستوى التحدّي في الإنفاق ترفاً وإسرافاً، ومن لم يلحق بهم وكان بيته عادياً فسيشعر بأنه أقل من الآخرين ودونهم في المستوى؟

لو أطلت عليك الكلام لنفهم حالتهم، قارنها مع المجتمعات التي رفعت مستوى تكاليف حفلات الأعراس، حيث صارت تكاليف العرس تساوي ثمن أثاث بيت، وبدل أن ينفقوه على ما يحتاجونه، تراهم مضطرين للتماشي مع ما يفعله بقية الناس ومرهقين أنفسهم بل وواقعين تحت دَيْنٍ! وذلك لمجرد انتشار مستوى مرتفع التكاليف لحفلات الأعراس!

نفس الكلام عمّا فعله بعض قوم ثمود برفع مستوى تكلفة بناء بيت إلى مستوى فلكي بنحته مزخرفاً في الجبل!

(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ{83})
{فَأَخَذَتْهُمُ}، لم تتركهم، {الصَّيْحَةُ} الشيء الذي يصل لعدد كبير من الناس، وراجع الآية 73 السابقة للتوسّع في دراسة كلمة صيحةٍ. {فَأَخَذَتْهُمُ}، {مُصْبِحِينَ}، في فترة الصباح، في أول النهار، أول ما بدأ ضوء الشمس ينتشر.

نعلم من الآية 78 من سورة الأعراف {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} أنّه أصابهم زلزال حطّم بيوتهم، ولكنه لم يُبِدْهُم كلّهم كما تفهم من الآية 79 من سورة الأعراف {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ} حيث كان الكلام موجّها لمن بقي حيّاً منهم من بعد الزلزال.

(فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ{84})
كسبوا وحصلوا على شيء نتج من أعمال قاموا بها، لأنّ أعمالهم السيئة عليها عقاب، ولم تغنهم عن الموت والدمار، بل هي سببت لهم الدمار.

سياق الكلام السابق يريك أن الآية هنا خبر، وإعادة صياغته بعبارة بسيطة على شكل سؤال تكون هكذا: ما كسبوه من سيئات أفعالهم بماذا أغنى عنهم؟ لا شيء لأنهم بحاجة لما يبعد عنهم العقاب الإلهي، وما كسبوه من سيئاتهم لم يغنهم عن العقاب، بل بالعكس هو ما سبّب لهم العقاب.

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ{85})
{وَمَا خَلَقْنَا}، لم نركّب ونؤلّف، {السَّمَاوَاتِ} "السبع" {وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا}، {إِلَّا بِالْحَقِّ}، بالصواب ولم نكن مخطئين ولا عابثين، خلقناهم لنجعلكم فيها وتحيون وبعدها تموتون، وبعدها تعودون لنحاسبكم ونجازيكم، ولا أحد يمكنه الاعتراض ويقول: لماذا خلقتني؟ لو سألتني رأيي لطلبت ألا تخلقني، أو أن تخلقني في بيئة أخرى... لو فكّرت بعقلانية لعلمت أن ما فعله سبحانه كان الحقّ، كان الصواب، ولا اعتراض ولا إشكال عليه، أصلاً قبل أن يخلقك تعالى كيف سيسألك رأيك؟ وبعدما صار لك كيان كإنسان لماذا تعترض وعلى ماذا؟ لا تريد الالتزام بالتكاليف الصالحة، فما معنى حياتك إذن؟ لولا الفتات القليل الباقي في البشرية من الإنسانية لأبادوا بعضهم، هل دينه تعالى إلا الصلاح ونهيه إلا عن السوء؟

تتذكّر أن التعبير القرآني بخلق السماوات والأرض يشير لكلّ شيء. هذه حدود كلّ دنيا المخلوقات.

{وَإِنَّ السَّاعَةَ}، بالتأكيد الوقت والزمن المحدّد القصير من زمن أطول منه، {لَآتِيَةٌ}، حتماً قادمة، وعادة يشير القرآن بالساعة إلى ساعة قيامنا من الموت في الآخرة.

إذن، خلق عموم الكائنات وهذه البيئة وخلقكم... كان عملاً صواباً ولم يكن عبثياً بلا حكمة، وفي الآخرة يوجد ساعة لرجوعكم إلى الحياة لمحاسبتكم، هذا هو معنى الصفات التي فيكم مع حرية الإرادة والاختيار والتي تجعلكم مكلّفين بفعل الخير وتجنّب السوء، وإن لم تلتزموا بذلك فهناك جزاء في الآخرة...

بناءً على ما سبق، {فَاصْفَحِ}، مُرَّ على ما فعلوه من دون الاكتراث به، {الصَّفْحَ الْجَمِيلَ}، إعراضاً جميلاً، لا قبيحاً، ومن عموم القرآن نفهم أن واجب النبي محمّد(ع) تبليغ الرسالة وبعد ذلك من لم يؤمن بهذه الرسالة فأعرض عنه واتركه ولكن بتهذيب، نحن نسمع كلاماً لا يعجبنا ونمرّ عنه فلا نتوقّف عنده ولكن قد نعبّر بالاستهزاء أو بالتأفّف... أمّا الرسول(ع) فهو مأمور بالمحافظة على أخلاقه العالية "بالتهذيب" مع من لا يؤمن، ولا يسبّهم ولا يهينهم ولا يتأفّف...

الآية تريد ربط خلقنا بالحساب، لأنّ هذا المخطط الإلهي لنا هو عمل صائب لا يمكن أن تعترض عليه، خلقك ليمتحنك ويجازيك، والافتراضات الأخرى أن يخلقك سبحانه ويتركك على هواك، وتموت وينتهي كل شيء بالنسبة لك، أو يخلقك ويرسل رسلاً بشريعة وعقيدة، ولا يحاسبك على مخالفتها... كلّها افتراضات تتعارض مع الحكمة ويصير خلقنا عبثاً.

ننتبه، هذه الآيات لا تعني ألا تقاتل الكفّار، لا، هذا موضوع آخر له ظروف مختلفة، ولكنها تتحدّث بغض النظر عن أي ظرف كان، تريدنا أن نفهم أنه مهما حصل، في الأخير يوجد حساب، سواء كنت تهديهم وبينك وبينهم سلم، أو بينك وبينهم حرب، فلا فرق، بالنسبة لكفرهم، اصفح عنهم، مُرَّ عليه، ليس هذا الموضوع من اختصاصك لأننا حدّدنا لهم موعداً لمحاسبتهم، أمّا الحرب مع الكفّار فهو موضوع آخر غير موضوع الهداية، لأنه عداوة وإعلان إرادة الضرر لك وللمؤمنين، والرسول (ع) غير مأمور بالصفح عن الأعمال الحربية التي يقوم بها الكفّار.

نتذكّر دائماً أن كلمة "يوم" تشير لفترة زمنية تبدأ بحدث أساسي وتنتهي بانتهائه، يومنا من ليل ونهار، ومتعارف عليه شرعاً بيننا أن اليوم يبدأ من فترة المغرب إلى حصول المغرب التالي، ومتعارف عليه حالياً بين الناس بأنه من الثانية عشر ليلاً إلى الثانية عشر ليلاً التالية، ويوم خلق الأرض يبدأ من حين بداية تشكّلها إلى انتهائه... ويوم الملحمة يكون من بداية الحرب حتى نهايتها... والساعة هي فترة زمنية يحصل فيها حدث فرعي مرتبط باليوم، كساعة خرجوا للقاء العدو، وساعة لقائه، وساعة قتاله... وصولاً إلى ساعة انهزامه... وهكذا ينتهي يوم الملحمة. كلمة يوم وصف لعموم أي زمن لحدث أساسي، بغض النظر عن طول المدة الزمنية التي بدأ وانتهى فيها الحدث، والساعة وصف زمن حدث فرعي مرتبط بالحدث الأساسي، ومن معرفتك بأن الستين دقيقة كزمن للساعة لم تكن متداولاً بها إلا منذ زمن قريب جداً، قديماً كان يستعملها الناس بصراحة ووضوح لزمن غير محدد ولكن لحدث فرعي.

يوم القيامة هو زمن قيامنا من الموت لمحاسبتنا ومجازاتنا، وأول ساعة فيه هي ساعة قيامنا من الموت، وبعدها إخراجنا من الرفات وتجميعنا وفرزنا زمراً... ويأتي بعده أيام محاسبتنا الفردية والجماعية ووقوف الأشهاد... وصولاً إلى آخر يوم وآخر ساعة فيه حين دخول آخر واحد إلى الجنّة وآخر واحد إلى النار.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائماً أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراض.

عادة نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير فنستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، فنقول: خلق سبحانه الدنيا. أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيراً صحيحاً دقيقاً بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي تصف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى}. سبحانه دقيق في تعابيره ويحدّثنا بدقّة عمّا يعلمه، وكلامه تعالى عن السماوات والأرض هو كلام عن علم بما يراه سبحانه، وهو دائماً يتكلم بشفافية عمّا أمامه فقط، أمّا الكلام عن كلّ ما في الدنيا، فهو كلام عمومي ويشمل "نظرياً" ما هو خارج العلم، ولذلك لم يستعمله تعالى، بينما ترى استعماله في كلام عموم البشر لأننا نتساهل ونتراخى في التعبير.

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ{86})

{إِنَّ رَبَّكَ}، إن المسؤول عنك من مستوى إلهي، {هُوَ الْخَلَّاقُ}، هو الذي يخلق بكثرة، ويركّب ويؤلّف الكثير الكثير من الأشياء، {الْعَلِيمُ}، لأنه عن علم يخلق، بتعبير أبسط: يخلق الكثير الكثير من الأشياء ولكن "وبتعابيرنا نحن" عن دراسة عن تصميم... عن علم.

هنا تخبرنا الآية عن صفة فيه سبحانه، وتصوّر شخصا يخبرك بأنه رسّام، ويرسم بكثرة، وأن هذه صفته، وتصوّر الآن أن الإله الذي لا تتغيّر صفاته، ولا يملّ، ولا أحد يمكنه معارضة إرادته، ولا أحد يمكنه منعه تعالى من تنفيذ ما يريد، ولا تعجزه الوسائل... يخبرك بأنه: خلاّق. يخلق بكثرة. فهل خلق الكائنات الحيّة بحرية الإرادة والاختيار هو شيء جيّد أم عاطل؟ وهل خلقها وتركها بلا هدف شيء جيّد أم عاطل؟ وهكذا نفهم أنه تعالى بالحقّ خلق السماوات والأرض.

التفت إلى أنه سبحانه يقول لك بأنه: عليم. فهل أنت ستعلم أكثر منه تعالى لتعلّمه ما هو الأفضل؟ أم هل تحسب كلامك حين تقول: لو أن الإله خلقنا وتركنا نعيش هنا ونموت بلا حساب لكان أفضل لنا. فهل تتحمّل مسؤولية هذا الكلام؟ فهل أصلا هذا الكلام عن تقديم اقتراح خلقنا وتركنا بلا هدف هو كلام عقلاني؟ فماذا سنفعل ببعضنا إن لم نلتزم فعل الخير وترك السوء؟ وماذا فعلنا ببعضنا؟ أنسيت الحروب والاستعباد والاستعمار... وحيتان المال، والحاكمين والمتسلّطين الذين فوق القانون... والعصابات والمافيات... وجيرانك الذين لا يراعون لك حرمة راحة أو أمان...

إن لم نفهم من قرآنه تعالى أنه لا يعرض علينا إلا ما فيه الخير لنا في الدنيا، ونعارض ذلك ولا نريد الالتزام بما نراه نحن خيرا بقلبنا السليم، فنريد فعل السوء، فنحبّ استغابة الناس وإهانتهم والسخرية منهم للتقليل من قيمتهم ورفع قيمتنا... ونحب الضرر الشديد للآخرين حسدا وبغضا وغيرة... وبأي طريقة كانت نريد ما يملكه الآخرون، فنغشّ ونحتال ونسرق ونكذب... ونؤذي ونقتل... عندها نضطر للكفر بالجزاء في الآخرة على ما فعلناه في الدنيا، بل وسنكره أن يكون ذلك حقيقيا.

أمّا المؤمن العامل للصالحات، فهو سعيد بهذا المخطّط الإلهي، ويرى أن الجميع سيكونون سعداء في الدنيا والآخرة لو أطاعوه تعالى.

(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ{87})
{وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ}، أوصلنا إليك أيها الرسول محمد(ع)، {سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي}، سبعةً من الأشياء المثنيّة المعطوفة على بعضها، لأن كل القرآن مثاني كما ورد في الآية 23 من سورة الزمر "{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ...}"، ولقد وصلك سبعة منها مميّزة، وأشهر سبع آيات هنّ سورة الفاتحة التي نكرّرها في الصلوات الخمس الواجبة يوميا. وكلام القرآن كله مثنّى أي معطوف بعضه على بعض، حيث إن أساسيات الدين هي المشترك بينها كلها، ونجدها متفرّقة في السور، وبعبارات متنوّعة، وفي كل سورة نجد بعض الأساسيات معروضة بطريقة متشابهة مع الأخرى، وليست كل السور تتحدّث عن كل شيء في الدين، فهنا نجد العقيدة كاملة "توحيد نبوة معاد"، وهناك نجد بعضها "توحيد فقط"، وفي أخرى نجد تشريعا، وفي تلك تشريعا لم يرد في غيرها... وفي سورة نجد تناولا لموضوع من ادّعى ولدا لله عزّ وجلّ، وفي أخرى نجد تناولا لموضوع من جعل له تعالى شريكا من الأصنام، وفي غيرها حديثا عمّن أنكر الآخرة...

يعني في نظرة عامة عن كل سور القرآن فهي ذات هدف مشترك: الهداية، الإنذار، التبشير. وحتى سورة الكوثر القصيرة جدا ستجد فيها تنبيها للاعتماد عليه تعالى حيث اعتنى سبحانه برسوله(ع)، والتوجّه نحوه تعالى بالعبادة والنحر... هذا ما نفهمه من عموم القرآن ويتماشى مع تعبير "المثاني".

ورد في الروايات والكتب أن السبع مقصود بها آيات سورة الفاتحة المؤلّفة من سبع آيات، وهذا أبسط وأنسب تفسير، والبعض الآخر فسّروها بالسبع السور الطوال، البقرة آل عمران النساء... وصولا للأنفال "ومعها سورة التوبة"، وآخرون قالوا إنها السور السبع من بعد سورة التوبة، وقيل هي سبع سور تبدأ بالتسبيح... وقيل السبع سور التي بدأت بـ حم... على كلّ حال، فبالتدقيق تجد أن هذه الافتراضات لم تنبع من دراسة عميقة، فالسور التي تبدأ بـ حم نزلت بعد سورتنا هذه، وسورتنا هذه نزلت قبل العديد من السور التي قالوا إنها المقصودة بـ "السبع" الطوال.

نرجع إلى الآية وسياق كلامها، فما تقوله للناس أيها الرسول محمّد(ع) موصوف بأنه مثانٍ، فهو مترابط متناسق مع بعضه، وهناك سبع آيات مميّزة منه، وما يقوله الكفّار هو مجرد كلام لا عن علم ولا عن دراسة.

{وَآتَيْنَاكَ}، {الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ}، الشيء الذي يمكن قراءته وهو موصوف بأنه عظيم بأنه في أقصى درجات التميّز عن الأشياء المقروءة الأخرى. وفي أول آية من السورة ذكرنا ما هو متكرر في دراستنا هذه عن معنى كلمة قرآن... فراجعه.

يعني هو لفت انتباه إلى عظمة هذا القرآن كونه كلاما إلهيا فيه سبع مثانٍ مميزة وهي السورة المسمّاة بالفاتحة، وتجدون في القرآن ما يكفيكم للهداية، وأمّا إشكالات الكفّار على الدين الإلهي، وكنموذج من ذلك كلامهم عن رؤية الملائكة(ع) حتى يؤمنوا، فهي كلام فارغ.

بقي شيء، فما يعرضه تعالى علينا في القرآن ليس أن نؤمن به على عماها، ولا أن نرث الدين ممن سبقنا، بل يعرض علينا الحقّ، وما فينا من قابلية لتمييز الحق من الباطل يجب أن يكون دافعا لنا للإيمان بالحق، وما فينا من قابلية لتمييز الخير من الشر والصلاح من الفساد يجب أن يكون دافعا لنا لتجنّب السوء، وعلى أساس هذه القابلية نحاكم كلامه تعالى فنتماشى معه ونؤمن به... ونحاكم ما ورثناه من الدين من الناس.

غالبية "أو كل" سور القرآن خصّصها تعالى لتسهّل عليك الهداية، وتريك الطريق لتبني عقيدتك وشريعتك وسلوكياتك بشكل صالح، والذي خلقك صمّمك لتهتدي عبر وسائل رئيسية ثلاث، وهذه السبل متكررة بكثرة في القرآن وبصيغ مختلفة، وكلها تعتمد على ما فيك من خاصية لرؤية الحق، وتعتمد على حرية الإرادة الممنوحة لك لتختار الحقّ.

خِلقتك أنت ذات نفسك بما فيها من صفات وقدرات، وتناغمك مع بيئتك بما فيها والمتلائمة مع أوصافك، وخِلْقة بيئتك وخِلْقة السماء والأرض... بما فيهن من كائنات وظواهر... تدل على إلهك الواحد الأحد العظيم ذي الأسماء الحسنى.

هناك أشخاص مميزون بسلوكهم الراقي جدا جدا، ووظّفهم تعالى لنقل كلامه لنا، وأنزل مع البعض منهم كتبا من تأليفه سبحانه وتعالى، وجعل تلك الكتب منارة هداية بما فيها من كلام حقّ عن آياته تعالى وما سيجازينا عليه في الحياة الآخرة. وتلك الكتب تحمل في داخلها الدليل على أنها من تأليفه تعالى.

أخيراً، ما فينا من مشاعر يشير إليه تعالى، فعند الخوف الشديد مزروع فينا التعلّق بقدرة فائقة يمكنها التدخّل لصالحنا لننجو من الأخطار أو لننجح فيما نريد حصوله... وعند السعادة بما نعيشه أيضاً تغمرنا مشاعر شكر ومدح من أتاح لنا ما نحن فيه. وخاصية المشاعر ليست منفصلة عن الفكر الذي يؤمّن ما ستنبني عليه المشاعر، ولذلك ركّز سبحانه في قرآنه على بناء الفكر السليم الموصل لعقيدة سليمة، والمغذّي لنفسية سليمة.

طبعاً هذه خلاصة دراستي للقرآن، وليست تفسيرا له على معنى أنه تعالى يقول ما أنا أقوله، إذ يظهر لك تحليل آخر أصوب من تحليلي، أو قد تضيف عليه أو تحذف منه، وقد ترى سبيلا آخر لم أره، أو تدخل في دراسة أسبقية وهيمنة النفسية بمشاعرها على الفكر أو العكس فتجعل الفكر بانيا لها، أو ترى أنهما متداخلان...

على أي حال، إن الانتماء بشكل عام لأي عقيدة أو دين أو حزب أو جماعة... وفي أي مجال كان سواء أكان دينياً يتضمن ممارسة أو دينياً فكرياً أو سياسي أو اقتصادي أو علمي... فإن أسباب الانضمام لأي جماعة أو تبنّي أي فكر، ستختلف من شخص لآخر، حيث إن بعضهم عن قناعة ينتمي ويتبنّى، وهذا بغض النظر عن فساد أو صلاحيّة قناعته، وبغض النظر عن الحقّ والباطل فيما اقتنع به. وبعضهم عن قليل من القناعة انتمى، وآخرون لا قناعة لهم ولكن يمثّلون دور المقتنعين، وآخرون يعلنون أنهم ليسوا مقتنعين بشيء ولكنهم متماشون مع الموجة وما هو متاح لهم... واحتمالات أخرى عديدة متداخلة مع أمور كثيرة...

الفكرة من هذا الكلام أنّه تعالى يعرض عليك في كلامه القرآني أن تبني عقيدتك بنفسك، حيث لا يقول لك أن تؤمن بأنه "{لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ}"، بل يقول لك إنّه تعالى صمّمك وخلقك لترى هذه الحقيقة بسهولة فآمن بها ولا تجعل ميلك للسوء دافعا للكفر به تعالى... وأنت لوحدك ومما تقصّد سبحانه فعله في خلقك وخلق سماوات وأرض، وبفكرك ونفسيتك ستتعرّف عليه تعالى، وكلامه تعالى المتكرر بكثرة وبأساليب وعبارات مختلفة ومتعددة في قرآنه عن خلق السماوات

والأرض وما فيهن من كائنات وظواهر، كان للفت انتباهك للحقّ بعد أن شرد قلبك عنه بسبب فعلك للسيئات أو حبّك لفعلها.

في القرآن كلام كثير عن إثبات كونه منه تعالى، حيث لم يُنزل سبحانه كتابا وأمرك بالإيمان بأنه من مصدر إلهي من دون البرهنة لك على ذلك، وأراك كيف تبني إيمانك بالقرآن من القرآن.

بعد ذلك يأتي في القرآن القليل القليل جدا من الكلام عن العقيدة والتشريعات والسلوكيات، فلو جمعت آيات الأحكام التشريعية في القرآن لما تجاوزت الثلاث أو الأربع صفحات، ولنقل عشر صفحات، وأعطاك سبحانه الأساسيات وترك لك هامشا واسعا من مرونة التطبيق، على أساس ما فيك من تمييز للصلاح من الفساد.

لو جمعت آيات العقيدة لما تجاوزت بضع صفحات، لأن أكثر القرآن المتحدّث عن العقيدة كان إيضاحا لفساد ما يقوله بعض الناس.

لو جمعت آيات السلوكيات أيضاً ستجدها بضع صفحات، حيث إنّ هذه متداخلة مع أساسيات التشريع، ومداها التطبيقي واسع الانتشار، وهي سلوكياتنا اليومية من أكل وشرب وزواج وتربية أولاد ومعاملة مع الأهل والجيران...

بقية القرآن وعظ بالكلام بالتهديد والترغيب بالآخرة، ووعظ عبر ذكر بعض ما جرى مع نماذج ممن سبقنا من أقوام.

إذن، وبكل وضوح تقصّد سبحانه أن لا يكون كتابه معروضا عليك كشيء تأخذه على عماه، حيث إن الإيمان به تعالى تبنيه بنفسك، وبكل شفافية يتكلّم معك سبحانه ويخبرك بأنه حتى هو ذات نفسه وشخصيا لم يَرَ أي أثر لأي كائن آخر غيره وغير المخلوقات التي هو تعالى خلقها... وكمثال راجع في ذلك دراسة الآية 19 من سورة يونس "{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ...}".

التزامك بأساسيات الصلاح المعروضة في القرآن حيث عرضها سبحانه عليك بكل شفافية، فبعضها سيّء جدا جدا وواضح سوؤه، كالذي ورد في السورة هنا عن قوم يعتدون جنسيا على الآخرين، وبعضها متوسّط السوء ولكن يبقى أثره عظيما كالغيبة، وبعضها سوؤه خفيف وقد ندر ذكره في القرآن...

بعضها كلّه سيّء، وبعضها أحيانا كلّه سيّء... وبعضها فيه القليل من المنفعة والكثير من السوء، فالشفافية المعروضة في الآية 219 من سورة البقرة "{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا...}" تريك أنه تعالى وبكل وضوح لم يحرّم بصلابة الآمر الناهي الديكتاتوري، ولم يعظّم ويضخّم الصغير بل أبقاه على حجمه، وبكل صراحة أخبرك سبحانه عن منافع للخمر والقمار، طبعاً كان الكلام عن عقلانية التعامل معهما، لا عن الإدمان عليهما، ولا عن الإسراف بهما، إذ يتعرض الإنسان لظروف ضاغطة وتخفّف عنه المسكرات الوطأة ولو مؤقتا حتى يتجاوز أو يتأقلم مع المحنة... وما هو دارج من اليناصيب واللوتو بالمشاركة بمبلغ قليل جدا وتافه من كثيرين، وسيراكم مبلغا كبيراً ينتفع منه الرابح من دون إلحاق الضرر ماليا بأحد، فهو قمار فيه منفعة ولكن السوء الناتج عن السكر والقمار، حتى مع محاولة التحكّم بهما عقلانيا، فهو السبب في تحريمهما، فعرضه تعالى لهذا التشريع نموذج عن رفضه تعالى أن تبلع التشريعات أو أن ترثها، بل يصرّ سبحانه على بناء إيمانك بالالتزام بها عن فهم وقناعة.

(لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ{88})
أيها النبي الذي نزل عليه قرآن عظيم:

{لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ}، فلا تنظر إلى البعيد مبعدا نظرك عمّا معك، {إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ}، بعض الأزواج، بعض الأصناف، وسياق كلام الجملة عن بعض الأشخاص من الكفّار الذين متّعهم تعالى فجعلهم يحصلون على متاع، على أشياء ينتفعون منها في الدنيا، من مال وبيوت وأملاك... فلا تمدّ عينيك على ما تمتعوا به، وواضح أن المقصود أن لا ترغب به ولا تشتهيه لأن ما حصلت عليه من قرآن عظيم وسبع مثانٍ فله قيمة أعلى بكثير من متاعهم، ونتيجة الإيمان والعمل الصالح جنّات خالدة يصير أمامها كل متاع الدنيا تافهاً بلا قيمة.

{وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ}، فلا يصيبك شعور مزعج لأنك ترى أن نهاية الكفّار ستكون مأساوية في جهنم، لأن هذا خيارهم، وأنت لم تقصّر في تبليغ الرسالة لهم، وهم بقرارهم تعلقوا بمتاع الدنيا.

{وَاخْفِضْ}، فلا ترفع، {جَنَاحَكَ}، قدرتك، قوّتك، {لِلْمُؤْمِنِينَ}، فلا تتعامل بفوقية أو تسلّط أو استعلاء... مع الذين أعلنوا أنهم مؤمنون معتقدون بهذا الدين.

نلاحظ أن الآية تريد من النبي(ع) أن يحوّل الشعور الرقيق المرهف نحو الذين يستحقونه، فلا تحزن على الكفّار، وكن ليّنا عطوفا على المؤمنين.

تلاحظ الشبه بالأساسيات بين الآية هنا والآية 28 من سورة الكهف "{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}".

استعمل القرآن كلمة "جناح" بمعناها اللغوي الأساسي: الشيء الذي يمنحك القدرة والقوّة على فعل شيء ما. حيث إن العضلة المكسوّة بالريش هي جناح يمكّن الطائر من الطيران، والجناح للملائكة (ع) هو قدراتها، والجناح العسكري للدولة هو قدرتها على الدفاع والهجوم... فخفض الجناح للمؤمنين هو أن لا تظهر قوّتك عليهم، فكن ليّنا معهم.

حسن، بما أن النبي محمد(ع) مات، فلنحذف هذه الآية لأنها صارت من التذكارات ولا تطبيق لها، لا، إذ لا يوجد ولا آية من القرآن لا تطبيق لها أو لا نفع منها، حيث كثيرا ما تعاملنا مع أناس في مناصب القيادة "الدينية والسياسية" وهم أجلاف ومزاجهم عكر... فهؤلاء يرتكبون سوءا نهى القرآن عنه هنا، إذ لا يحق لأي مسلم إظهار قدرته على مسلم آخر، لأن بينهما شريعة الله تعالى ليتقاضَيَا بها إن تخالفا، وأما بخصوص "القادة" من صغيرهم لكبيرهم، فمن الواجب عليهم الانتباه أكثر بسبب كثرة احتكاكهم بالناس، وتصدّيهم لأمور يحتاجها الناس، فلا يحق لهم ولا بأي شكل أن يظهر منهم تسلّط أو استعلاء أو تكبّر... على المؤمنين، لأن القرآن تكلّم مع وعن النبي محمّد(ع) لا لشخصه بل بوصفه مبلّغا لكلامه تعالى وقائدا وإنسانا، فأي تعاليم موجّهة له (ع) فهي موجّهة لمن له منصب قيادي صغير أو كبير، وموجّهة لكل من يعمل في المجالات العامة، ولأي إنسان يتعامل مع الآخرين.

(وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ{89})
{وَقُلْ}، عبر هذا القرآن: {إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ}، الذي ينقل لكم الخبر عن خطر قادم حتما بسبب توافر شروط حصوله فيكم، فأخبركم عن خطر العقاب الإلهي الحتمي بسبب كفركم وفعلكم للسوء، {الْمُبِينُ}، فبشكل واضح أعلن للذين يخالفون كلامه تعالى أنهم حتما سيواجهون عقابه سبحانه.

تذكّر بداية السورة حين طلب الكفّار رؤية الملائكة (ع) ليؤمنوا، حيث تعيد السورة الكلام معهم بأن الرسول (ع) تتواصل معه الملائكة (ع) وأوصلت له هذا القرآن العظيم ليكون نذيرا لكل الناس...

ضع في بالك دائما الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى معانيَ قرآنية رائعة، تَصَوَّرْ شخصا أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، هنا تحذّره من سلوك الطريق السيّء، لأنه حاليا ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ...}، والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران {لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ...}.

أمّا إذا سلك طريق الخطر، فتنذره، لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. الإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتما ما يضرّه، وتنذر الكافر حيث هو في حالة ستسبّب له العقاب حتما، وورد هذا كثيرا في القرآن. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يتلبّس بما سيسبّب له الضرر، حيث تحذّر المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

هذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، فقد يقوم المؤمن بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، وتنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة المسيحيين المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف {وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}، وعموم المؤمنين المشمولين بالتهديد من فكرة فعل السيئات على أساس أن يحمل أحد ما السيئات عنهم {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}، وكحالة المشمولين بالتهديد إن لم يتغيّروا نحو الأحسن والموعودين بالمغفرة كما ورد في الآية {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}، ونفس المفهوم في الآية 45 من سورة النازعات {إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا}.

(كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى المُقْتَسِمِينَ{90})
أعلن أنك نذير، {كَمَا}، مثلما، {أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ}، على الذين قسموا أنفسهم إلى آراء مختلفة، حيث إن القرآن نزل على الرسول محمد(ع)، وعندما نقله الرسول(ع) للناس، صار القرآن نازلا على كل الناس، ونزل على الذين تَقَسَّمُوا حول القرآن، والآية الآتية ستكمل هذه النقطة، واقتسامهم "صيرانهم أقسامًا، انقسامهم" في مقابل المتوحدين حول الكتاب الإلهي الذين لهم رأي واحد: الإيمان بما نزل.

إذًا، كن حاملا ناقلا للإنذار الإلهي مثلما نزل الإنذار على الذين لم تتوحّد كلمتهم حوله، لأن هناك عقاب إلهي دنيوي محتمل، وهناك عقاب أكيد في الآخرة.

(الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ{91})
المقتسمون هم، {الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ}، اعتبروا الوحي الإلهي المقروء الذي نزل، {عِضِينَ}، متفرقا إلى أقسام، فقالوا عن بعض آياته أنها سحر، وعن أخرى أنها أساطير، وعن غيرها أنها كلام مجانين...

يعني، الإله سبحانه أوصل الإنذار للناس، ونزول القرآن على واحد منهم يقوم بنقله للبقية هو كافٍ لإيصال الإنذار، والآيات هنا تقول هذا الكلام بطريقة تبيّن موقف بعض الناس مما نزل، حيث جعلوا القرآن أنواعًا مختلفة، ولا واحد منها يدل على أنه من مصدر إلهي، مرّةً أساطير ومرّةً كلام مجانين... وهؤلاء أنذرهم أن على كفرهم بالقرآن عقابًا.

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ{92})
{فَوَرَبِّكَ}، تأكيد بضمانة المسؤول عنك من مستوى إلهي، {لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}، "جواب القسم"، سوف نعبّر لهم عن إرادتنا للحصول على جواب منهم، حيث ستتم مساءلتهم عن اقتسامهم للقرآن وجعله عضين، وسيتحاسبون كلهم حتما ومن دون أي استثناء على ذلك، لأن هذا شيء قرّره المسؤول عنكَ من مستوى إلهي وسيحصل حتما.

نلاحظ أن القسم هنا لتأكيد حتمية وجديّة الإله سبحانه في إحيائنا بعد الموت لمحاسبتنا، حيث إن القسم "التأكيد" الإلهي لا يكون "مباشرة" لتثبيت صحّة الكلام بل "التأكيد حصول" ما أقسم عليه تعالى، ولن يغيّر سبحانه قراره، ولن يعجزه شيء عن محاسبتنا... لأن هذا حتما سيحصل، وللجميع من دون أي استثناء.

(عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ{93})
{عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} سنسألهم، {عَمَّا}، عن الذي، {كَانُوا يَعْمَلُونَ}، عن أعمالهم التي قاموا بها، حيث أنكروا الدين الإلهي والرسول والرسالة وعصوا... كل ذلك سيتحاسبون عليه.

(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ{94})
{فَاصْدَعْ}، اجعل شَقًّا عميقا بين الحقّ والباطل، وهذا تعبير مشابه للفرقان الوارد بتعابير مختلفة واصفا التوراة وواصفا القرآن كما في الآية الأولى من سورة الفرقان {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}، فكن حاسما، وقل علنا وكن قويا، {بِمَا تُؤْمَرُ}، حيث أمرناك بإنذارهم وتبليغهم ما يصلك منّا، فأعلنه للناس ولا تتردد ولا

تتهاون ولا تخجل ولا تشعر بالإحراج... وهذا موضوع سورة الكافرين بإعلانها الفرق بين دينه تعالى وبين كل بقية الأديان.

{وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}، لا تعتبر أهمية للذين جعلوا لله تعالى شركاء، فأعلن للناس أنك نذير بشكل صادع مبيّنا الفرق بوضوح بين دينك ودين الآخرين، ولا تهتم بمن أشرك إذا لم يؤمن بك، فأكمل طريقك ولا تتوقّف عن الإنذار وتبليغ الجميع.

(إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ{95})
{إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ}، سنتولّى أمر الذين يتعاملون معك من خلفية الاستهانة والاستخفاف بك ويعتبرونك بلا قيمة ويستهينون بك، وسنردّ عليهم، ونفشّل مخططاتهم... وحسابهم علينا...

في نفس الوقت الذي نأمرك فيه بالجهر وبكل ثقة بأنك تحمل الإنذار الإلهي، ها نخبرك بأنك تنال دعما إلهيا ضد المستخفّين بك.

نلاحظ أن الاستهزاء عادة يحطّم أي شخص، تَصَوَّرْ نفسك تتحدّث مع الناس بكلام عقلاني، ولكنهم يستخفّون بك! فهل ستتحمّل؟ نحن ننجرف نحو الغضب والانتقام والكره في تلك الحالة... ونحن لا نتحمّل مرور أحد ما بقربنا ولا يسلّم علينا ونعتبرها إهانة لا تغتفر... تَصَوَّرْ نفسية النبي(ع) حين كان ينقل لهم رسالة من ربّهم سبحانه وهم يستهزئون به! ويظهرون له أن كلامه سخيف، تخريف، جنون، وكذب... ضع نفسك مكان الرسول، فماذا سيصيبك حينها؟ ولهذا نجد في القرآن هنا وهناك تكرارا لخبر إلهي عن دعم للنبي(ع) حتى يستطيع (ع) تحمّل الاستهزاء، لأن الاستهزاء به (ع) كان حالة متكررة وشبه يومية في بداية قيامه بالدعوة لدينه تعالى، وكان هناك أناس خصّصوا وقتهم وجهدهم لملاحقة النبي(ع) والاستهزاء به أينما ذهب وكلما تحدّث مع الناس عن الدين الإلهي، وعلى رأسهم عمّه أخو أبيه، أبو لهب، ومعه أجلفُ جُفَاةِ وقساة العرب كأمثال أبي جهل...

لفت القرآن انتباهنا في العديد من الآيات إلى أنه تعالى لم ولن يحمّل النبي (ع) مسؤولية إيمان الناس أو كفرهم، وأمره سبحانه فقط بنقل الكلام الإلهي لهم، فلم يجعله تعالى مثل مدير معمل للإنتاج، كمسؤول عن كمية ونوعية الإنتاج. ولم يجعله مثل مدير العمّال المسؤول عن كفاءة العمّال... لا، فمهمّته (ع) فقط تبليغ الرسالة، وهنا تحمل الآيات هذا المعنى أيضا، فلا تهتم بهم لأننا سنتولّى أمرهم، ولا تهتم بهم لأنك لست مسؤولا عن إيمانهم حيث كفيناك هذه المسؤولية، لأن الكفاية الإلهية عامة تشمل الوجهين معا، حيث محاسبتهم على كفرهم عليه تعالى ولا علاقة لك بها، ولست مطالبا بإيمانهم أو كفرهم. وتشمل وجها ثالثا ذكره القرآن في عدّة آيات وستذكره الآية التالية:

قبل ذلك بقي شيء، حيث في مختلف التفاسير تجدهم يضيعون في ما يرونه نوعا من التعارض بين الآيات، فهنا الكلام عن الإعراض عن الكافرين يراه البعض متعارضا مع أمره تعالى للرسول بقتال الأعداء منهم، بينما ذاك موضوع وهذا موضوع آخر، لأن الكلام هنا مع كافرين تنذرهم ولم يهتمّوا، فلا تشنق نفسك ولا تتضايق ولا تهتم... فأعرض عنهم لأنك قمت بوظيفتك وليس مطلوبا منك أكثر من ذلك. أمّا الآيات التي تحدّثت عن قتالهم، فأصلا الكثير من المفسرين لم يفهموا أنه تعالى لم يأمر إلا بقتال الكفّار المعادين المقاتلين، ومنع سبحانه من التعرّض بأي نوع من الأذى للكفار المسالمين، وتقرأ ذلك بكل صراحة ووضوح في الآية 8 من سورة الممتحنة {لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، فحالة أمره تعالى للرسول(ع) بقتال الكافرين شيء يحصل من بعدما هم بدؤوا بأعمال قتالية... والإعراض عنهم هنا هو موضوع آخر ولا علاقة له بحالة النشاط العدائي منهم للمؤمنين.

(الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللّهِ إِلـهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{96})
المشركون المستهزئون، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر! وهم يقولون إنه توجد كائنات أخرى لديها صفات وقدرات فائقة فوق صفات وقدرات البقية وليس الله تعالى وحده فائق الصفات والقدرات، فسوف يعلمون، ونتيجة هذا العمل ستكون

معلومة لهم، ومن عموم القرآن نفهم أنهم سيعلمون أن على هذا الكلام حساباً وسيجازون عليه، وسيرون ويعلمون في يوم القيامة أنه لا إله إلا الله تعالى.

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ{97})
{وَلَقَدْ نَعْلَمُ}، تحقق وحصل علمنا، {أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ}، تتفاعل بالضيق والمضايقة، {بِمَا يَقُولُونَ}، بسبب ما تسمعه من المشركين من شرك واستهزاء بك.

بعبارة أخرى: نعلم أنك أحياناً تشعر بالضيق لدرجة شديدة.

تذكَّرْ أن التعبير القرآني بالصدر مُشيرٌ للمشاعر أو إخفاء المعلومات، فلا يقصد حرفياً القفص الصدري، مع العلم أننا عادة نشعر فعلاً في صدرنا بالضيق أو الانشراح أو الانقباض... وبسبب هذه الحالة استعمل الناس كلمة صدر للدلالة على تفاعلنا مع ما نتعرّض له، والتعبير هنا بضيق الصدر يستعمله الكثير من اللغات الأخرى غير العربية للدلالة على الانزعاج الشديد مما تعرَّضْتَ له.

"قد"، استعملها القرآن حصراً لتفيد التحقيق، حيث استعملها قرابة 400 مرة عن تحقق "الفعل، أو الشيء، أو الحالة" في الماضي البعيد أو القريب أو القريب جداً للحظة الحال، إمّا لعلاقة سببية أو المقارنة أو لمجرد الإخبار. ولم يستعملها القرآن للترديد بين شيئين: قد تأكلون وقد تصومون. ولم يستعملها للتوقع مثل جملة: انتبه قد تموت.

نلاحظ استعمال "قد" مع الفعل الماضي كما ورد في الآية 4 من سورة ق {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} ونفهمه بسهولة على معنى أنه تعالى فعلاً علم بهم من الماضي، ولكن يجد البعض مشكلة في فهم استعمال "قد" مع الفعل المضارع كما ورد في الآية 18 من سورة الأحزاب {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ} فيُفْهَم منها أنه تعالى الآن لا يعلم، وربما يحصل لديه علم فيما بعد، أو لا يحصل لديه علم، لتصير الجملة مرادفة لـ: يمكن أن يحصل علم لله بـ...
ولكن القرآن استعمل "قد" مع الفعل المضارع عند كلامه تعالى عن نفسه حتى يشير إلى نفس ما تشير إليه "قد" مع استعمالها في الفعل الماضي، وكما تقول: "قد" حصل لديه تعالى العلم بشيء وقع في الماضي، كذلك تقول: "قد" حصل لديه تعالى العلم بشيء يقع الآن أو سيقع في المستقبل.

نحن البشر لا يمكننا وصف أنفسنا بهذه الطريقة لأننا لا يحصل لدينا علم بما سيقع، بل يحصل لدينا العلم فقط بما وقع في الماضي أو يقع أمامنا الآن، أمّا هو تعالى فهو عالم الغيب، ويعلم ما سيحصل في المستقبل، ولذلك يمكنه تعالى أن يعبّر عن علمه بالمستقبل بـ"قد يعلم"، أمّا نحن البشر فلا يمكننا التعبير بهذه الطريقة عن أنفسنا إلا بخبر علمناه من الإله عالم الغيب، أو بالتقدير والاحتمال القوي من التحليل والتوقّع.

(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ{98})
{فَسَبِّحْ}، قُمْ بتنزيهه تعالى عن الصفات الناقصة والمعيبة التي لا تليق به، {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}، لأنَّ كل أعمال المسؤول عنك من مستوى إلهي حميدة جيّدة، قُمْ بتنزيهه تعالى عن نسبة الأعمال غير الحميدة له، ولا تنسب لربك سبحانه أي صفة تدل على أنه قام بعمل سيئ، ونزِّهْهُ عن الصفات السيّئة عبر إعلانك أن كل أفعاله جيّدة.

مثلاً: عندما يعترض الكفار ويستهزئون بفكرة الرسول الإلهي والدين والقرآن والآخرة والحساب... على أساس أنه تعالى خلقنا وتركنا على هوانا، ولا توجد آخرة ليحاسبنا... فهذا فعلياً عمل غير حميد، لأنه عبثي ولهو ولا حكمة فيه، فهل خلقنا سبحانه بحرية إرادة واختيار ليتركنا نفعل السيئات ولا يحاسبنا؟! فقم بتنزيه ربّك عن هكذا صفات.

عندما يقول الكافر: أنا لا أقبل أن يخلقني الإله حتى يحاسبني، فلو سألني لرفضت أن يخلقني، وبالتالي فهذا الدين غير صحيح ولا توجد آخرة... فهذا الكلام معناه أن الكافر فهيم عليم حكيم أكثر منه تعالى! فلديه رأي في الموضوع أصوب مما فعله سبحانه... وأيضاً نزّهه تعالى عن فعل أي عمل سيئ... حيث خلق سبحانه السماوات والأرض بالحقّ.

التسبيح يتضمّن أنه تعالى لن يكون مميزاً كما هو على حقيقته كإله إن قلت إنه لديه شركاء في الألوهية، علماً أنه تعالى يخبرنا مما يعلمه من نفسه، ويخبرنا وبكل شفافية من طبيعته التي يراها، وأنه من المستحيل أن يكون هناك كائن آخر غيره تعالى وفيه صفات أو قدرات فائقة أو مساوية له تعالى، وبالتالي، فأول تسبيحه تعالى هو تنزيهه عن الشركاء في

الألوهية، والتسبيح بحمده تعالى هو وصفه تعالى بكل الصفات والقدرات الجيّدة، فسبحانه ليس ناقصاً وهناك من يساعده لينجز ما لا يقدر سبحانه على القيام به... وسبحانه لا يحتاج لشريك وأصلاً لا يمكن أن يوجد له شريك... وكما ترى، تفسير التسبيح بالحمد يمكن أن نراه من ناحيتنا بما فعله تعالى ولنا علاقة به، ويمكن أن نرى جانباً آخر من ناحيته تعالى بوصفه كفاعل حتى لو لم يكن لنا علاقة بما فعله.

{وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ}، عَبِّرْ بأشد أنواع التعبير عن الخضوع والاحترام لربك سبحانه، وهذا يكون بتقريب الوجه من الأرض وصولاً إلى وضع الجبهة على الأرض.

أحياناً من كثرة التكرار تصير الكلمات عادية بالنسبة لنا، ولكن يجب أن نتوقّف قليلاً عندها لننتبه، فلو قلت لك أمام الناس: اسجد لي. فهل تسجد؟ ليس عن مزاح، بل عن جدّ، وعن إعلانك الخضوع لي وأني أعلى منك، فهل تسجد؟ فهكذا تفهم أن حركة السجود لله تعالى هي عمل له معنى عميق، وليست مجرّد حركة جسد.

بعد قيامك بإنذار الناس، وعند استهزائهم بك، وعندما تشعر بضيق صدرك، فاتركهم وسبّح بحمد ربك واسجد، و:

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ{99})
{وَاعْبُدْ رَبَّكَ}، أنت عبد للمسؤول عنك من مستوى إلهي، لذلك مفروض منك طاعته فتصرّف على هذا الأساس، وعملياً العبادة عمومية التطبيق وتشمل كل أنواع التصرفات والأقوال والحركات التي تعبّر عن تصرُّفِكَ على أساس أنك عبد له تعالى، وتطيعه تعالى في كلّ ما أمرك.

{وَاعْبُدْ رَبَّكَ}، {حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}، أنت الآن لديك معلومات عن الآخرة والحساب والجنة... وهذا خبر أنت تظن به وتعتقد بصحّته مستنداً على المعلومات التي جاءتك منه تعالى، وتوقن به وهو فعلاً صحيحٌ ومطابق للواقع وسيحصل حتماً، وهكذا يتغيّر اسمه من معلومة إلى يقين، ولكنه لم يأتِ بعد، فـ**{اعْبُدْ}** حتى يأتيك اليقين، حتى يصير أمامك ما هو مطابق للحق والواقع.

مضطرون هنا للإشارة إلى نوع من التفاسير السطحية المستهترة، حيث فسّر بعض الناس هذه الآية بمعنى: صَلِّ حتى يصير عندك يقين بربّك سبحانه، وبعد ذلك يمكنك ترك الصلاة! وهذه سخافة لا يقولها مؤمن حقيقي، بل شخص تلاعب به الشيطان حتى سَفَّهَ عقله، حيث أمرنا تعالى بإقامة الصلاة في العديد من الآيات، وحدّد لنا أوقاتها... وأمرنا بعبادته على كل حال، قياماً وقعوداً وعلى جنوبنا... وقرن الإيمان بالعمل الصالح على أنهما كلاهما معاً يُدْخِلان إلى الجنة، والصلاة على رأس الأعمال الصالحة... وكل الأنبياء أقاموا الصلاة طوال حياتهم كما نقل لنا القرآن، مرّةً عبّر عنهم بالساجدين ومرة أخرى بالعابدين ومراتٍ عديدة بالصالحين... بل ربط مراراً وتكراراً علو الإيمان بإقامة الصلاة، وكلما علا الإيمان اشتدّ الاهتمام بالصلاة ومنه ما ورد في الآية 3 من سورة النمل {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}، وفي الآية 42 و 43 من سورة المدثّر {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ}، حيث توعّد تعالى تارك الصلاة والفاعل لأمور أخرى سيئة جداً بالعذاب في سَقَرَ...

كلمة عبد تشير لمن مفروضةٌ منه وعليه الطاعة وهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك. وما تعارفنا عليه بتسمية العبادة للصلاة والمناجاة... فهذه ذِكْرٌ من تطبيقات العبادة، فهي من تطبيقات طاعته تعالى بذكره وشكره ومدحه، وليست حصريةً فيها لأن العبادة شاملة لكل ما تطيعه به تعالى.

من هنا ترى مشكلة تخصيص تفسيرهم العبادة بالصلاة، لأن العبادة تشمل كل الطاعات، ماذا عن الصوم؟ وهل يتركه من صار عنده يقين بربّه سبحانه؟ وماذا عن الزكاة؟ والحج والجهاد وبرّ الوالدين...؟ وماذا يبقى من الدين إن تركنا كل أشكال العبادة أو بعضها إذا صار عندنا يقين به تعالى؟

بل بالعكس، يؤكّد القرآن وآيتنا هنا بالبقاء على العبادة حتى نهاية حياتك، كلمة يقين بحسب استعمال العرب لها وبحسب استعمال القرآن تعني: معلومة مطابقة للواقع. كمثال: عندي معلومة بأن الخبز في المطبخ. وواقعاً في الحقيقة كان الخبز هناك، فهذه معلومة يقينية لأنها مطابقة للواقع. أمّا لو كنت لسبب أو لآخر متأكداً بأن الخبز في المطبخ، وعندي براهين على ذلك، وفي الحقيقة والواقع لم يكن الخبز في المطبخ، فحالتي لا توصف باليقين لأنها لم تتطابق مع الواقع، وبهذا

المعنى حصرياً استعمل القرآن كلمة يقين، وهي معلومة مطابقة للواقع، وأمّا درجة تأكدي من معلومة ما، فلا تُوصف باليقين إلا إذا طابَقَتِ الواقع، فلو وصفت نفسي بأني متيقنٌ، فتوصفي غير صحيح طالما المعلومة ليست حقيقية.

هنا الكلام عن البقاء على العبادة حتى آخر حياتك، وبعدها تموت، وبعدها يأتيك اليقين حين تصير فيما كنت تؤمن به ولأجله تعبد، حيث صرت في الآخرة.

سورة النحل (16) ص 267
نزلت بعد سورة الأنعام لأنها في الآية 118 تحيل إلى ما حُرِّمَ على {الذين هادوا}... وورد ذلك في الآية 146 من سورة الأنعام.

افتتاحية السورة عن الشرك وأن عليه عقاباً، فمن أنكر التوحيد أشرك به تعالى وأنكر الجزاء في الآخرة ليبقى على راحته في اختراعه لدين يناسب أهواءه، فليعلم أن هذا لن يغيّر أي شيء، لأن الحساب في الآخرة على الشرك وفعل السوء قادم حتما...

ثم تردف السورة بمقدمة طويلة عن الهبات الإلهية الدالّة على "وحدانية" المصمّم الخالق المخطط، مركّزة على ما يمسّنا مما فينا من قابليات وصفات متفاعلة مع بيئتنا، كرؤيتنا لجمال الأشياء...

ثم تدخل بعدها إلى المنكرين لآيات توحيده تعالى، وتنتقل إلى المشركين به تعالى، وإلى السوء الناتج عن شركهم وأولها اختراع آلهة، وثانيها إنكار فضله تعالى عليهم، وثالثها تهجير المؤمنين كفعل تطبيقي سيئ ناتج عن معاداتهم لدين الحقّ... ورابعها نسبة الملائكة والكواكب كبنات له سبحانه، وخامسها قتلهم البنات أيضا كنموذج عمّا ينتج عن الكفر به تعالى... بعدها تعود السورة للفت الانتباه إلى الهبات الإلهية من طريق آخر، لتدل من جديد على وهمية وجود إله آخر غير الله تعالى.

ثم تنتقل في فقرة فيها بعضٌ من أهم تشريعاته تعالى المتعلقة بتنظيم العلاقات فيما بيننا، لتلفت انتباهنا لتصميمه تعالى لنا كمخلوقات اجتماعية، ولترينا أن ما يعرضه علينا تعالى كدين هو ليس شيئا محصورا في علاقة الفرد الواحد مع ربّه سبحانه، بل هو منهاج حياة صالحة سعيدة للجميع، وأوامره تعالى العادلة الحقّة... المنظمة لحياتنا بالخير ولما فيه سعادة الجميع، هي من الأدلة الواضحة على إلهية مصدر هذه التشريعات.

وبما أن كلامه تعالى مع المشركين عبر هذا القرآن، تنتقل السورة إلى شيء قالوه عن هذا القرآن كسبب لرفضهم له، إلى ما يجعلهم ينكرون إلهية مصدره وبالتالي يبرّرون كفرهم بالتوحيد وبما فيه... وتردّ عليهم بالعمق.

بعدها تدخل على تشريعات التحليل للطيبات والتحريم للخبائث... كنتاج لخلقتنا بحرية الإرادة والاختيار متفاعلين مع ما في البيئة التي صممها تعالى لتكون دار امتحان لنا، وعلى أساس أنه تعالى خالقنا ورازقنا فهو أدرى منّا بمصلحتنا لأننا وبسبب فعلنا لبعض ما نراه سيئا تشوّهت قابليتنا لتمييز الخير من الشرّ... وتعرّج السورة بشفافية على موضوع تحريمه الاستثنائي سبحانه لبعض الأشياء على بني إسرائيل بسبب ظلم ارتكبوه، لتعلم أنه تعالى أنزل ديناً تشريعياً واحداً والاستثناء نادر وله سبب.

نلاحظ في السورة تركيزها على تفاعلنا مع بيئتنا، وكنموذج عن ذلك مظاهر الجمال للأشياء والمظاهر من حولنا، وتركيزا حول استخدامنا للظواهر والأشياء بأنه لم يكن وليد الصدفة بل من تخطيط إلهي، إضافة إلى وضوح وجود التخطيط والتدبير من قويٍّ قادر حكيم...

كل ما سبق من كلامٍ عن موضوع السورة، يمكنك اختصاره بتحفيزه تعالى لك عبر هذا القرآن على بناء عقيدتك وشريعتك وسلوكياتك عن قناعة بالخير الذي تَعْرِفُهُ وتميّزه عن الباطل، والذي يساعدك هذا القرآن على معرفته، والانتباه لما تعرفه من تفاعلك مع بيئتك لترى أنك واقع تحت سلطان الذي صمّمك لتكون كما أنت كإنسان... ومضافاً لذلك الخبر ممن خلقك عن الآخرة التي ستتجازى فيها إن لم تلتزم بالصلاح الفكري والسلوكي.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ{1})
{أَتَى أَمْرُ اللَّهِ}، الأمر هو الشيء الذي أراده تعالى أن يأتي، جاء، {فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ}، لأن له وقتاً محدّداً ليأتي فلا تطلبوا حصوله قبل وقته. وهذا الكلام يشير لما يقوله الكافرون به تعالى: متى سيأتي الذي يَعِدُنا به دينكم من حساب وجزاء على عقيدتنا وشريعتنا وسلوكياتنا؟

{سُبْحَانَهُ}، تنزّه، {وَتَعَالَى}، هو أعلى، {عَمَّا}، عن الذي، {يُشْرِكُونَ}، فلا شريك له تعالى في الألوهية، لأنه الإله الأحد.

تسبيحه تعالى بالتوحيد هو مفهوم قرآني يشير إلى خبر من الذي يعلم بنفسه، ويقول إنه من المستحيل أن يكون هناك من يشبهه، فمن المستحيل أن يوجد كائن غيره فيه صفات وقدرات فائقة، وبعبارة أدقّ، إن الصفات والقدرات الفائقة العالية التي فيه تعالى لا تتحمّل الانطباق على كائنين.

سبحانه، هو منزّه عن وصفه بأنّ له شريكاً، فهذا وصف سيئ غير صحيح لأنه الإله الواحد الأحد، وتعالى هو الأعلى من كل شيء، فمهما اخترعتم آلهة بمواصفات عالية، أو فكّرتم في أحد لديه قدرات عالية، فكلّه "منخفض، تحت" الله العلي الأعلى من كل شيء، بل أعلى حتى من أي تصوّر نحن المؤمنين نتصوّره له تعالى، فحتى لو أنت كمؤمن أردت أن تتصوّر صفة له تعالى، واستشعرت بها في أحاسيسك، وارتقيت بها في أعلى قدرات فكرك، فأنت لن تصل أبداً إلى فهم العلو الإلهي الحقيقي.

وصل للمشركين خبر قدوم يوم لمحاسبتهم على الشرك، فلا تستعجلوه لأنه آتٍ لا محالة.

سيأتيك في السورة مختلف أنواع الأدلة "الآيات" الدالة على الإله وأنه واحد أحد، وأن الشرك اختراع باطل من الأوهام...

(يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ{2})
{يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ}، وهي الكائنات الموصوفة بأنها تملك شيئا ما، والتصق بها وصف امتلاكها للقدرات العالية ووصف الطاعة التامّة له تعالى، حتى انتقل وصفهم إلى الاسمية فصار اسمهم "ملائكة"، كحالة وصفية القدح التي انتقلت لتصير اسماً للقدّاحة.

تتذكّر أن كلمة ملائكة هي مؤنّث لفظي وليست مؤنّثا حقيقيا، لأن الكلمة يستنسب العرب التعامل معها بالتأنيث، مثل كلمة: "هذه" شمس وهذه ملعقة... هذه أشياء ليست مذكرة ولا مؤنّثة بل مؤنث مجازي.

{يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ}، {بِالرُّوحِ}، بالشيء الصافي الخالي من الإضافات، {مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ}، أمامَه سبحانه خيارات عديدة وبناء على حكمته تعالى يختار شخصا من البشر لتنزل الملائكة(ع) عليه بالروح، والقرآن أطلق صفة الروح لمخلوق من الملائكة اسمه جبريل(ع)، وتعرف ذلك من الآية 97 من سورة البقرة "قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ..." ودمجها مع الآية 193 و 194 من سورة الشعراء "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ"، والمعنى البسيط بالنسبة لنا أن الملائكة ترافق الروح أثناء نزوله، {مِنْ أَمْرِهِ} تعالى، من شيء يريده سبحانه أن يحصل، بسبب شيء يريده تعالى أن يحصل، {عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}، على من يريد من المخلوقات التي مفروض منها طاعته سبحانه، والكلام هنا عن الرسل.

{أَنْ أَنْذِرُوا}، العباد الذين نزل عليهم الروح بكلامه تعالى، هو الكلام التالي: أنذروا، انقلوا الخبر عن حتمية حصول شيء سيّء لمن توافرت فيه شروط حصول الخطر، وسياق الكلام عن العقاب الحتمي للمشرك، {أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا}، حيث لا يوجد ولا كائن آخر لديه صفات وقدرات فائقة إلا الله تعالى، فمن اعتقد بغير هذا فانقلوا له الخبر عن العقاب الحتمي له، {فَاتَّقُونِ}، تجنبوا غضبي وعقابي، ولا تشركوا بي ولا تعصوا أوامري.

بعبارة أخرى: هناك أمر، وهناك شيء، يريد سبحانه توصيله للناس، حيث يريد سبحانه إنذارهم من العقاب على الشرك به، أمر الملائكة (ع) أن تنزل بالروح، حاملة الإنذار، على من يشاء من عباده وشاء تعالى نزول الإنذار على أشخاص لهم مواصفات تؤهلهم لحمل الإنذار وتوصيله لبقيّة الناس، لأنهم أشخاص صادقون أمينون لا تجعلهم شهوتهم وغريزتهم يتركون الحق... وعندما تنزل عليهم الرسالة منه تعالى يصيرون رسلا، مثل الأنبياء: يوسف، يحيى، عيسى، موسى، محمد... صلوات الله تعالى عليهم، نزلت الرسالة الإلهية على هؤلاء المختارين من بين العباد حتى يخبروا الناس بأن الإله "واسمه الله" واحد أحد لا إله غيره، وليأمروا الناس بتقواه تعالى، وإلّا فهناك عقاب حتمي.

نلاحظ في الآية هنا توصيف نزول الوحي الإلهي على الرسول بنزول الملائكة (ع) بالروح (ع)، ونعلم من الآيتين اللتين في سورة النحل 102، وفي سورة البقرة 97، أن الملاك جبريل(ع) هو الروح، فهو الذي ينزل حاملا الوحي الإلهي على الرسل، ونعلم من الآية 27 من سورة الجنّ "إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا"، أنه حين ينزل الروح حاملا الوحي فهناك ملائكة(ع) ترافقه لطرد الشياطين من طريقه ومن حول الرسول الذي تنزل عليه الرسالة...

ضع في بالك دائما أن العبارة القرآنية: {يَشَاءُ}، {يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}، {يُنَزِّلُ}... {عَلَى مَنْ يَشَاءُ}... تعني أنه تعالى حرّ فيما يفعله، ولكن مع وصفه تعالى بالحكيم البصير العليم... فإنه تعالى يشاء بناء على هذه الصفات، أخبرنا سبحانه أنه شاء نزول الوحي على أناس مميزين بسلامة قلبهم وصفاء عقولهم وأخلاقهم... فلا يوجد سبب يدفعنا للشكّ في صدق أناس بهذه الصفات حين يقولون بأن وحيا إلهيا ينزل عليهم.

بعبارة أخرى، كلام القرآن عادة يفترض معرفة مسبقة ببعض البديهيات التي يعلمها أي إنسان، ويفترض بك أهلية فهم كلامه تعالى عموما، فمن السذاجة أن نفهم من آيتنا هنا أنه تعالى لا معايير عنده للذي ستنزل عليه الرسالة، ربما يختار كافرا لنزول الوحي عليه لأن العبارة تقول إنّه تعالى على من يشاء ينزل وحيه.

هذا المستوى من فهم بعض كلامه تعالى تراه منتشرا هنا وهناك في كتبنا، كالذين فسّروا بعض الآيات برؤية المؤمنين لوجهه تعالى في الآخرة، حيث فسّروها على أنه تعالى له عضو كوجه فيه عينان وأنف وفم...

لعموم المفسرين أبحاث طويلة حول ما يسمّونه بالمشيئة، وغالبية كلامهم فيها من نوع الترف الفكري الزائد عن الحاجة والداخل فيما لا يحمد عقباه، لأن فهم كلمة "شاء" ومشتقاتها بحسب أصل معناها اللغوي يشير إلى خيارات وقرار في اختيار واحد منها، لا أكثر ولا أقل، ومن تبعات ذلك ومشتقاته بالنسبة للحضرة الإلهية أن نتذكّر دائما أنه تعالى حكيم خبير عليم... وبالتالي فما يشاؤه نابع من تلك الصفات حتما، ومضافا لذلك فلا أحاجي "فوازير أو حزازير" في كلامه تعالى، صراحة ومرارا وتكرارا أخبرنا تعالى بما شاءه، حيث شاء إدخال المؤمنين العاملين للصالحات إلى الجنة، وشاء إدخال الكافرين والفاسقين والمنافقين إلى النار. وشاء تنزيل رسالته على الأطهار ذوي القلوب السليمة فقط وحصرا. وأي كلام آخر غير ذلك فهو من سفه الرأي حتى لو جاؤوا عليه بأطنان من الروايات المنسوبة للرسول محمد(ع)، فنرميها بعرض الحائط لأنها مخالفة لصريح القرآن كلام الإله عزّ وجلّ.

كلمة عبد تشير لمن مفروضة منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، حيث كأن كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، كلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، فهي جمع الجمع، وأثناء الكلام بدقّة قد تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، لذا تقول الآيات: عبيد. وردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وربما تكون لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام "وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ"، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وربما تكون لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس "يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ"، فهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخرين جاءهم رسول، وعبيد آخرين... فجمع

الجمع "عباد"، فكلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جدا عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء "وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا".

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ{3})
الآيتان السابقتان أنذرتا من العقاب على الشرك به تعالى، ومن هنا ستبدأ السورة بعرض ما فعله الإله "الله سبحانه" كخبر منه مع دليله الملموس، حتى نرى أن تلك الآلهة "الوهمية" التي يعبدها الناس، لم تفعل أي شيء، ولا علاقة لها بأي شيء، فبأي دليل وبأي حق يقولون عنها: آلهة؟!

{خَلَقَ}، ألّف وركّب، الله تعالى، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وهذه هي حدود كلّ دنيا المخلوقات، لأن هذا التعبير يشير إلى كل شيء، وخلقه تعالى، {بِالْحَقِّ}، بالصواب، فلا أحد يمكنه أن يجد عيبا في هذه الفعلة، بعبارة بسيطة مبسّطة: عمل الخير لا تعليق عليه. وعمل الخير بأفضل طريقة حكيمة متاحة هو ما فعله سبحانه حين خلق، لأن هذا شيء فائق الصوابية لأنه نابع من الإله ذي الصفات والقدرات الفائقة، فهو حق لا باطل فيه ولا عيب.

لا يمكن أن يقول أحد ما: لو سألني الإله رأيي لرفضت الخروج إلى الحياة بهذه الطريقة، لأنني لا أريد أن أَمُرَّ في الامتحان وأتحاسب. لأن هذا كلام مزاجي وليس عن عقلانية تقدّر هبة الحياة التي نتمتّع بها، والامتحان لمدة قليلة وبشكل يمكن تحمّله والذي من بعده آخرة وحساب هو قرار حقّ وليس عبثيا، والعبث هو خلقنا ومنحنا حرية الإرادة وتركنا على حريتنا من دون هدف أو غاية.

من ناحية ثانية، ما الذي في كلامه تعالى ولا يعجبك ولا تريد الالتزام به؟ حيث إنّ الكلام عن توحيده تعالى وسيأتيك في السورة بعضٌ من الكلام عن التشريعات التي اخترعها الناس في مقابل تشريعاته تعالى، وكلاهما العقيدة والتشريع اللذين يعرضهما سبحانه علينا في قرآنه، هما الحقّ، وبالقابلية التي فينا لتمييز الحق من الباطل، لو حافظنا على سلامة قلوبنا لرأينا أو لاعترفنا أن ما يقوله تعالى حقٌّ وصلاحٌ...

من ناحية أخرى، كيف سيسألك تعالى عن رأيك بخلقك قبل أن يخلقك؟!

{تَعَالَى}، هو أعلى، {عَمَّا}، عن الذي، {يُشْرِكُونَ}، لأنه أعلى من قولهم بأن لديه شركاء في الألوهية.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضا على قبّة النجوم التي نراها ليلا ونطلقه أيضا على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنويا على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائما أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنويا" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق هي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ..." وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراضٍ "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها هو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضا بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر هو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراضٍ.

عادة نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير ونستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، ونقول: خلق سبحانه الدنيا. أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيرا صحيحا دقيقا بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم "فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى". سبحانه دقيق في تعابيره ويحدّثنا بدقّة عمّا يعلمه، وكلامه تعالى عن السماوات والأرض هو كلام عن علم بما أمامه سبحانه، لأنه دائما يتكلم بشفافية عمّا أمامه فقط، أمّا الكلام عن كلّ ما في الدنيا، فهو كلام عمومي ويشمل "نظريا" ما هو خارج العلم، ولذلك لم يستعمله تعالى، بينما ترى استعماله في كلام عموم البشر لأننا نتساهل ونتراخى في التعبير.

نرجع للآية، السماوات والأرض هي كل شيء، وهذه كلّ دنيا المخلوقات، وهو تعالى يعلم بأنه هو خلقها لوحده، وكل ما فيها هم مخلوقات وهو تعالى ركّبها وألّفها... ويخبرنا سبحانه أنها لم تكن وهو خلقها من الصفر، وبكل شفافية يخبرنا سبحانه أنه لم يلمس ولم يلحظ أي أثر لأي كائن غيره وغير مخلوقاته، هو وحده من جهة ومن جهة ثانية كل ما هو موجود خلقه تعالى، فما معنى كلام من يقولون بأنه توجد آلهة غيره! وأين هي تلك الآلهة؟ وكيف علموا بها وسبحانه الخالق لكل شيء لم يعلم بها! بل ولم يلحظ أي أثر لها! "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ" الآية 18 من سورة يونس.

(خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ{4})
تلاحظ العديد من آيات سورتنا هذه تتحدّث عن سؤال مطروح من دون ذكر السؤال، لذا نستنبط السؤال الذي كان مطروحاً من كلام الآية. هنا السؤال: من خلق البشر وكيف؟

{خَلَقَ}، ألّف وركّب، {الْإِنْسَانَ}، الغالب الأعم من الناس، {مِنْ نُطْفَةٍ}، من شيء حجمه قليل جداً، وهنا الوصف لحجم الحيوان المنوي "الحييمن"، بداية تركيب وتأليف الإنسان من شيء أقل من نقطة، {فَإِذَا هُوَ}، الإنسان، {خَصِيمٌ مُبِينٌ}! الخصام هو عموم أي خلاف يسبب حالة نفسية بين شخصين من النفور والكره وصولاً إلى العداوة، والكلام هنا عمّن لا يخجل ولا يستحي ولا يواري... متناسياً أنه مجرد مخلوق من نطفة ويخاصم خالقه! حيث إنه بكل وقاحة وعلناً يقول أشياء تخالف ما يقوله الإله الأحد ويقول بأنّه تعالى لديه شركاء! بل ويخاصم في ذلك أيضاً! لأن لديه حالة نفسية من النفور والكره والعداوة لمن يخالفه فيما يقوله.

نلاحظ الفوقية المقصودة من الكلام هنا مع المشرك، ما مستواك أمامه تعالى؟ ألم تلتفت من أين بدأت خلقتك حتى تعرف حجمك قبل أن تتحدّث عن أمور من مستوى إلهي؟! يأتيك الخبر من خالق كلّ شيء بأنه الإله الأحد، ومعه أدلة من خلق ما في الدنيا وخلقك فيها... لِتأتي أنت المخلوق من نطفة لتقول: لا، هناك آلهة أخرى.

بقي شيء ضعه في بالك دائماً، لأن كلمة "خلق" تشير لتركيب وتأليف الأشياء والظواهر من شيء ما، نحن مخلوقون من تراب وماء، من طين، من صلصال... كل هذه التعابير القرآنية تشير لما نسمّيه حالياً بعناصر الجدول الدوري للمواد، من هيليوم ونيتروجين وكالسيوم ونحاس... هذه المواد المتواجدة في سمائنا "كوننا" وخَلَقَنا وركّبنا وألّفنا سبحانه منها، والجنّ مخلوقون من نار، والملائكة مخلوقون من شيء ما... أمّا سبحانه فليس مخلوقاً، ليس مركّباً ولا مؤلّفاً من شيء، ولذلك لا معنى للسؤال عمّن خلقه تعالى.

بالنسبة لكلمة "نطفة" هي وصف لعموم أي شيء صغير الحجم جداً، ونستعمل هذه الكلمة "عادة" لوصف مكونات المني، وحالياً بالعاميّة نستعملها اسماً للحيوانات المنوية، علماً أنها في أساس معناها ليست مخصصة لذلك، لذا يمكنك أن تقول عن أي كمية صغيرة جداً من الماء العادي أو البهار أو الملح أو...: نطفة.

(وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ{5})
{وَالْأَنْعَامَ}، الحيوانات الموصوفة بأنها نعمة نَأْكُلُهَا ونستفيد من جلدها... "الوحشية أو الأليفة" التي أكلها حلال، {خَلَقَهَا لَكُمْ} وَرَكَّبَهَا وألّفها لكم سبحانه، {فِيهَا دِفْءٌ}، حَيْثُ تستعملون وبرها وصوفها وجلدها لتحتموا من البرد، {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}، حَيْثُ تستهلكون لحمها وتشربون لبنها...

لاحظ أننا فيما سيأتي في السورة سنرى أنهم تلاعبوا بالتحليل والتحريم للمأكولات وهم لا علاقة لهم بخلقها وبالتالي فلا علاقة لهم بالتشريع المتعلق بها، وهناك سيتكرر ذكر خلقه تعالى للأنعام، أما هنا فذكرتها السورة لِتَلْفِتَ انتباهنا لما حولنا أَنَّهُ تعالى وحده خلق كل شيء وبهذا الشكل وبهذه الكيفية وبهذه الاستفادة... يعني: لا يوجد شيء خلقه أحد غيره تعالى، ولا يوجد منفعة أو استخدام لشيء إلا وَكَانَ عن تخطيط إلهي، فنحن البشر لم نكتشف إِمْكَانِيَّةَ استخدام صوف الحيوانات لِلُبْسِهَا لتدفئة جسدنا، لا، بل من الأساس خَالِقُهَا خَطَّطَ أن نستخدمها للتدفئة، وكذلك أكلها فهو ليس وليد الصدفة ومن حوادث الطبيعة، لِأَنَّهُ خلق تعالى هذه الحيوانات "الصالحة للأكل" لنأكلها، وَنَرْغَبَ بطعمها وَتُغَذِّيَنَا.

كُلُّ ما ستذكره السورة هُوَ أشياء ومظاهر يدركها أي إنسان عادي، فأي تفسير عميق يحتاج لاختصاص، فهو تفسير مردود على قائله، ولا علاقة لنا به، فأي تفسير عميق فلسفي، فلكي، بيولوجي... فلا علاقة بينه وبين ما تقوله الآيات، حتى لو كان صحيحا، فبالنسبة لك كمتخصص في علم ما، وَتَحَدَّثَتْ آية ما عن شيء له علاقة باختصاصك، فمن الطبيعي أن ترى من خلال كلام الآيات شيئا أعمق مما يراه الآخرون، ولكن هذا شيء خاص بك، لأن القرآن يشير إلى الظواهر والأشياء كما يراها الإنسان العادي "متوسّط الثقافة"، فكيف تتوقّع أن تكون كلمات القرآن هادية لمشرك وهي تتحدّث فقط مع المشركين المتخصصين في الفلك والزراعة والطب...! هَلِ انتبهت أنك تقول عن جمل القرآن أنها تشير لآيات لا يفهمها إلا المتخصصون علميا في مجالها! هَلْ تتحمّل نتيجة كلامك؟ لِذَٰلِكَ ولغيره، لا تتوسّع في الآيات بأكثر من ظاهرها البسيط، لأنك ستقع في النظريات العلمية التي تتغيّر مع مرور الزمن، عِلْماً أَنَّ ما يقوله القرآن ثابت لا يتغيّر، لأنه يتحدّث عن الظواهر والأشياء كما ستراها دائما، وكما سيراها أي إنسان، مهما تغيّرت النظريات.

الكَلَامُ يجر الكلام، فهناك فرق بين تفسير كلامه تعالى على أساس أن ما فسّرناه به مُسَاوٍ في المعنى لكلامه تعالى، وبين دراسة كلامه تعالى على أساس أننا نعرض دراسة بنيت على المعطيات المتوافرة لدينا، عِنْدَمَا يصير تفسيرنا بقيمة كلامه تعالى، نقع في المحظور، وَيَصِيرُ كلامنا نحن مَعْرُوضاً على الآخرين على أنه الدين الإلهي، وهذا شيء خطير جدا جدا وقع فيه الذين سبقونا من المنتمين لدينه تعالى، وتوارثوا وراكموا معلومات من تفسيراتهم وتحليلاتهم واشتقاقاتهم... والفساد له عادة جمهور مؤيّد وللأسف كبير، وَمَعَ مرور الزمن غلب انتشار الفساد العقائدي والتشريعي بين الناس لأن جمهوره المؤيد له عادة قاعدته أوسع من العقلانيين... إلى أن وصلت الأمور إلى الفساد العام شبه الشامل في المنتمين لدينه تعالى تحت اسم حكم الدين... فنفر الكثير من العقلانيين من الدين الإلهي، وبعدهم نفر عامّة الناس من تسلّط المتدينين المنافقين والفاسقين...

مَصِيرُ أمّتنا لم يختلف عنهم، فها التاريخ مشحون بعلماء السوء، ووعّاظ السلاطين الذين يفتون للسلطان على هواه منذرين العامّة من المخالفة تحت طائلة دخول النار...

العُقَلَاءُ من المؤمنين صوتهم عادة غير مسموع! وعادة لا جمهور لهم حتى من الكارهين لفساد الدين والسلطة...

إِذاً فلنفصل بين كلامنا وبين كلامه تعالى، ولنحطّم هالة تقديس الموروث التي بنيت على مساواة قدسيتها بقدسية كلامه تعالى، ولم أقل أن نحطّم الموروث بل نحطّم قدسيته ونعتبره دراسات قابلة للنقاش والتطوير، وَنُنَزِّلُهُ إلى مستواه البشري ليبقى كلامه تعالى وحده المقدّس.

(وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ{6})
{وَلَكُمْ}، أيها الناس، {فِيهَا}، في الأنعام، {جَمَالٌ}، شكل من التناسق في الهيئة واللون وتصرفات الأنعام... {حِينَ تُرِيحُونَ}، حين ترجع الأنعام للمراح أي لمكان استراحتها، يُسْعِدُكُمْ منظرها الجميل وهي ترجع لمسكنها من بعدما كانت سارحة ترعى... ولكم فيها جمال، {حِينَ تَسْرَحُونَ}، حين تكون الأنعام سارحة سائبة متروكة في البراري، لتأكل وتشرب.

وَرَدَ في القرآن تنبيهات عديدة على جمال الأشياء من حولنا، وهنا سنرى تركيزا متكررا في السورة على هذه الناحية، سُبْحَانَهُ شاء وَصَمَّمَ وخطّط أن تكون الأشياء جميلة بنظرنا وقابلة لاستخدامنا لها، ولم يحصل هذا بالصدفة، ولا عن غير قصد، ولا من نواتج الطبيعة لوحدها من دون إله صمّمها هكذا... ولم يكن شعورا وهميا... بل يحصل لدينا شعور حقيقي بجمال الحيوانات بشكلها وتصرفاتها، وَخَطَّطَ الإله لحصول هذا الشعور فينا حين نراها أو نستخدمها.

نلاحظ أن كلمة "جمال" عامة للشكل والتصرفات والهيئة... والحالة: ما أجمل منظر الأغنام وهي تدخل إلى حظيرتها. الشُّعُورُ الذي ينتاب مالكها أو من يراها من محبي الخير، هُوَ شعور بجمالها، شعور السعادة من النظر إليها وهي مجتمعة لتدخل إلى مراحها "مكان استراحتها".

التَّحْذِيرُ من الغوص في معان لم تذكرها ولم تقصدها الآيات يختلف عن التبحّر في دراسة معانيها، غَيْرِي درسها وَقَدَّمَ ما توصل إليه، وأنا أدرسها وأعرضها عليك، وأنت تنتقدني وذاك ينتقدك... لَا مشكلة طالما النص الإلهي لم يُمَسَّ على

معنى صيران كلامي وكلامك مُقَدَّساً، الجُمْلَةُ "الآية" مفهومة على بساطة معنى كَلِمَاتِهَا، وما أبحث فيه يتخطى ذلك محاولا التفكّر فيما تلفت الآية انتباهي له...

تَوَقَّفْ عند مفهوم الجمال قليلا، بِأَيِّ عقل يمكن أن يقبل أحد ما فكرة خلقنا بالصدفة أو بأي طريقة يقولونها، وفي نهايتها نصل إلى تقييمنا لجمال الأشياء؟! وأترك هذه النقطة لك لتفكّر فيها وتدرس ما تقوله الآية من بعدما تضع في بالك أنك لا علاقة لك بخلقك ولا بما حولك، لِأَنَّكَ تحتاج للغذاء لأنك مصمّم هكذا، ولديك حاسّة ذوق لترغب في أكل الأطعمة لأنك مصمّم هكذا، ووجدت في بيئتك ما تأكله وترغبه ويغذّيك لأنك وبيئتك مصمّمون هكذا... وترى الأشياء جميلة لأنك مصمّم على تمييز الأشكال والحالات عن بعضها... وَهَذَا ما تريد السورة لفت انتباهك له، وَبِكُلِّ سهولة سترى المصمّم الخالق... وستوحّده... إنْ كان فكرك ونفسيتك سَلِيمَيْنِ.

إنْ لم تكن من المعجبين بمنظر الأنعام، فالآية تعرض نموذجا للفت انتباهك، رُبَّمَا كنت من محبّي الورود، أو العصافير، أو الطبيعة، أو البحر... أو البشر... فِكْرَةُ رؤية الجمال في الأشكال للكائنات والظواهر هِيَ ما تلفت الآيات انتباهنا له، والفاقد لحس تذوّق الجمال، فهذا مريض أو حالة نادرة ناتجة عن خلل نفسي أو عضوي...

(وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{7})
{وَتَحْمِلُ}، الأنعام، {أَثْقَالَكُمْ}، الأشياء الثقيلة بوزن لا يمكنك رفعه ونقله، أو يجهدك رفعه ونقله، حَيْثُ الحيوانات تنقله، {إِلَى بَلَدٍ}، إلى مكان محدّد على الأرض وعادة له اسْمٌ، {لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ}، لم تكونوا واصلين بتلك الأثقال إلى ذلك البلد إذا لم تحملها الأنعام، {إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ}، بمشقّة بالغة على أنفسكم، بجهد جهيد، وَيُمْكِنُكُمْ حمل أغراضكم "على مراحل بعدة رحلات" ونقلها من بلد لآخر، ولكن من دون الاستعانة بالأنعام، سَيَكُونُ عَمَلاً شَاقّاً صَعْباً عليكم ويستغرق وَقْتاً أطول بكثير.

{إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ}، لِأَنَّ المسؤول عنكم من مستوى إلهي يقدّر حالتكم، وهنا الكلام عن علمه تعالى بضعفكم عن حمل الأثقال لمسافات بعيدة، وَلَمْ يُرِدْ سبحانه أن تشعروا بالشقاء في حمل الأشياء التي تضطرون لحملها لمسافات طويلة، ولذلك خلق الأنعام بقدرة تحمّل على نقل أغراضكم، وإن ربكم، {رَحِيمٌ}، لَدَيْهِ عناية خاصة بالمؤمنين.

تتذكّر أن القرآن يستعمل كلمة رحيم كصفة خاصة للعناية الإلهية بما فيه مصلحة المؤمنين، وَهُمْ لوحدهم فقط ينالون المغفرة والشفاعة والهداية والنور ومضاعفة الثواب... وغيرهم لا ينالها، وَاللهُ تعالى رَحْمَنٌ لكل مخلوقاته ولكن هناك أشياء خاصة للمؤمنين لأن الآخرين بكفرهم وجحودهم لنعمته تعالى خرجوا بإرادتهم من تحت مظلة الرحمة الإلهية الخاصة بالمؤمنين، وَنَنْتَبِهُ هنا أنه تعالى خلق الأنعام لِلدِّفْءِ والأكل والجمال ونقل الأغراض، رحمة بالمؤمنين، وَانْتَبِهْ جيّدا لهذه النقطة، حَيْثُ المشرك يستفيد منها مثلما يستفيد المؤمن منها، ولكنه تعالى لم يخلقها كرامة لعيون المشرك، لأنه بشركه وسوئه خرج من تحت مظلة الرحمة الإلهية، بل كرامة للمؤمن خلقها سبحانه حتى يستفيد منها ويسعد بها وتريحه.

بعبارة أخرى لو فَرْضاً ونظريا كان كل البشر سيكفرون، وسبحانه يعلم بذلك، فهل كان تعالى سيدللهم بخلقهم في بيئة مريحة؟ وَهُنَا الآية تقول بأنه تعالى أتاح لنا روائع تسعدنا وتريحنا على أساس أننا مَفْرُوضٌ منّا أن نشكره، وبقي تصنيف هذه الأشياء أنه تعالى أتاحها لمن سيشكر، وَهِيَ رحمة منه تعالى للشاكرين في هذه الدنيا، أمّا الآخرون فبكفرهم وظلمهم خرجوا من تحت رحمته تعالى، وما زالوا يستفيدون مما أتاحه تعالى للجميع، ولكن فليعلموا أنهم ورغم استفادتهم منها هُمْ لا كرامة لهم ولا قيمة عنده تعالى.

نَنْتَبِهُ أيضا، وَوَسَائِلُ النقل الحديثة، من طائرات وَقِطَارَاتٍ وشاحنات... التي صارت معتمدة بكثرة حاليا لنقل الأثقال، هِيَ أيضا مشمولة ضمن النعمة الإلهية على مخلوقاته، وَرُبَّمَا تفكّر بأننا نحن البشر صنعناها وسبحانه لم يخلقها ولا علاقة له بها، ولكن قارنها مع السفن، نَحْنُ صنعناها، ولكن هناك آيات قالت بأنه تعالى هو سخّر الفلك "السفن" وسيلة لنا للنقل والانتقال عبر البحر، وترى ذلك وأوسع منه صريحا في الآية 32 من سورة إِبْرَاهِيمَ {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ}، وَالسُّفُنُ مثلها مثل الطائرة والسيّارة... وَفِكْرَةُ صنعنا لها لم تكن صدفة، لِأَنَّ الحوافز والدوافع دفعتنا للتفكير

بشيء نستخدمه للنقل والانتقال، وبذرة هذه الفكرة هِيَ منه سبحانه، وما سنتمكن من صنعه كان معلوما عنده سبحانه، لِأَنَّ أفكارنا هي نتيجة الفكر الذي منحه تعالى لنا، عالما سبحانه بما سينتج عن هذا الفكر في هذه البيئة.

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{8})
{وَالْخَيْلَ}، الحيوانات التي تخيّل فتجول في الأماكن وهي الأحصنة، {وَالْبِغَالَ}، الحيوانات المَنْحُولَةِ من الحمير والجياد وهي معروفة بقدرتها العالية على حمل الأوزان أكثر من الأحصنة والحمير، {وَالْحَمِيرَ}، هَذِهِ ثَلَاثَةُ نماذج عن حيوانات تعرفونها، خلقها سبحانه، {لِتَرْكَبُوهَا}، لتعتلوا عليها فتحملكم، أو تجرّكم بالعربة لتنقلكم من مكان لآخر، وخلقها سبحانه، {وَزِينَةً}، حَيْثُ تُزَيِّنُونَهَا وَتَتَزَيَّنُونَ بها، فَيَبْدُوَ شكلكم أحسن وأنتم رَاكِبُونَ عليها وهي مزيّنة.

لاحظ أنك الآن في عصر صارت فيه تلك الحيوانات بعيدة عن المدنيّة بشكل عام، وَهُنَاكَ أناس لم يروها إلا على شاشة التلفاز، أو نادرا ما يرونها أمامهم، وَرُبَّمَا أنت نفسك لا تشعر بجمال الأحصنة والبغال والحمير، وَهَذَا طبيعي إن لم تكن تتعامل معها، أو لم ترها أصلا، لِذَلِكَ اسْتَبْدِلْهَا بأي مخلوق آخر تراه جميلا، بالكلب أو القطّة أو العصفور... لِأَنَّ الحيوانات كثيرة جدا جدا، ومن غير المنطقي أن يذكرها القرآن كلها حتى تجد فيها الحيوان الذي تراه جميلا، بل اكتفى القرآن بذكر نموذج من زمن كان الناس ينظرون لراكب على الفرس المزيّنة كمن هُوَ في عصرنا رَاكِبٌ لسيّارة رياضية كشف بباب واحد...

{وَيَخْلُقُ}، ويركّب ويؤلّف تعالى، {مَا لَا تَعْلَمُونَ}، سُبْحَانَهُ الآن في حالة خلق مستمرّة، وَهُنَاكَ حيوانات أخرى موجودة على الأرض ولا علم لي ولك بها، حَتَّى لو تخصّصت بتصنيف الحيوانات على الأرض، وَعَلَى الورقة تُحْصِيهَا وتسجّلها، ولكن قدرتك على حفظها وتذكّرها محدودة. أقول لك هذا لأن الجملة هنا تعطي معنيين كلاهما مُشْتَقَّانِ من أنه تعالى ما زال يخلق، وأحدهما يشير إلى انتهائه تعالى من تصميم الحيوانات ولم يصمّم شيئا جديدا، وما زال يخلقها... والآخر أنه تعالى ما زال يصمّم حيوانات جديدة والآن يخلقها أو سيخلقها. ولا تجد في القرآن كلاما مباشرا صريحا يشير إلى استمرار خلقه تعالى لحيوانات مختلفة عن الموجودة حاليا، وتجد ما يُوحِي بذلك من بعيد، وَفَسَّرَ بعضهم على هذا المعنى الآية 29 من سورة الرَّحْمَنِ {يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ}، والآية 86 من سورة الحِجْرِ {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ}.

فَسَّرَ البعض هذه الآية هنا بأنه تعالى يتحدث عن خلقه فيما بعد للسيارات والطيارات والقطارات... حَيْثُ فَهِمُوا من الآية أنها تقول عن هذه الحيوانات أنها للنقل والانتقال وهناك أشياء أخرى سيخلقها سبحانه فيما بعد للنقل والانتقال، وهي الطائرات والسائرات "السيارات" والقاطرات... ولكن سياق الكلام هنا عن الأنعام ولا يشير لما سنصنعه نحن. نعم هناك في الآيات العديدة في مختلف السور التي تحدّثت عن الفلك "السفن" يُمْكِنُكَ أن تعتبر الفلك فيها نموذجا عن الآلات والمنشآت التي صنعناها وكانت ضمن المخطط الإلهي للإنسان بهذا الفكر الممنوح لنا في هذه البيئة، وما صنعناه بعد الفلك من سيارات وطيارات... أيضا مشمول تحت عنوان بذرة الفكر والخيال التي منحها تعالى لنا لنصنع الفلك... أمّا هنا فَانْتَبِهْ ولا تعمّم الآية لتفهم منها قصدها أنه تعالى سيخلق فيما بعد نزول القرآن في المستقبل الطيارة والسيارة وغيرها، لا، لِأَنَّ سِيَاقَ الكلام هنا عن الأنعام التي خلقها تعالى وليس عمّا نصنعه نحن مِنَ الآلات والمنشآت...

(وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ{9})
{وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ}، المسلك الذي ستسير عليه أمور حياتكم، لم يتركها سبحانه للطبيعة ولا للصدفة ولا للظروف... ولا لمخلوق من مخلوقاته... ولا لإله آخر مثلما يقول المشركون... بل هناك سبيل إلهي ليقصده الناس، حَيْثُ جَعَلَ تعالى لنا سبيلا "مسلكا" في حياتنا لنقصده فنكون عليه، لِأَنَّهُ سبحانه جعل فينا الفكر، والانتباه لما حولنا، والقدرة على التصوّر، والتصميم، والاختراع...

{وَمِنْهَا جَائِرٌ}، ومن السبل التي تتبعها الناس سبل جائرة، فلا يلتزم الناس بالمقصد الذي حدّده تعالى، مِنَ الواضح أَنَّهُ تعالى خَلَقَ كل شيء عن تخطيط ليدلنا عليه ولتكون حياتنا سعيدة سهلة مما نميّزه من شرّ لنبتعد عنه وهو نفسه نعبّر عنه بالالتزام بدينه تعالى، هَذَا هو السبيل الإلهي الذي رسمه تعالى لنا لنقصده، ولكن يوجد منّا يتبع السبل الجائرة فلا يلتزم بالمسلك الأفضل الذي رسمه تعالى لنا، فيشرك ويكفر...

{وَلَوْ شَاءَ}، مِنْ بين الخيارات العديدة التي أمامه تعالى، لَوْ قرّر واحدا منها، {لَهَدَاكُمْ}، لوضعكم على الشيء الصحيح، {أَجْمَعِينَ}، كلّكم بلا استثناء، حَيْثُ يُمْكِنُهُ سبحانه بالقوّة أن يهديكم للإيمان فتكونوا على الشيء الصحيح مؤمنين غصبا عنكم، ولكن كما ترى، قَرَّرَ سبحانه منحنا حريّة الإرادة والاختيار بين الإيمان والكفر، ولم يشء سبحانه إجبارنا على الإيمان، لِأَنَّ هَذَا لا معنى له لأننا سنصير كالآلات وفاقدين لحرية الإرادة والاختيار، ولم يفعله تعالى مع أي واحد من مخلوقاته، وَلَنْ "يبرمجك" سبحانه لتكون مؤمنا غصبا عنك، وَلَنْ يتلاعب بعقلك حتى تطيعه ولا تشرك به...

كَمَا تعلم إِنَّ الأنعام لا تملك حريّة الإرادة الواسعة التي نملكها نحن، لأن فكرنا أوسع أفقا بالمقارنة من القليل الذي مع الأنعام، لِأَنَّ أكثر تصرفاتها محصورة ضمن الغريزة، وَهَا رَأَيْتَ كيف صمّمها ربنا سبحانه لتكون في خدمتنا، فَكِّرْ لو كان حصان ما يقود مجموعة من البشر لترعى! هل لاحظت؟ لِأَنَّ الحيوانات لا إرادة حرّة لها إلا بمقدار ضيّق جدا، أما نحن فإطلاق حريّة إرادتنا بشكل واسع هُوَ السبب في تميّزنا بفرق كبير عن بقية الحيوانات، وكما ترى لِلْأَنْعَامِ سَبِيلٌ تسلكه في حياتها بحسب غريزتها، ولتكون مطيعة لنا لنروّضها... وهذا ما تحدّثت عنه الآيات السابقة، هُنَا الآية تشير للسبيل الذي رسمه تعالى لنا لنسير عليه ونحن نملك مساحة واسعة من حريّة الإرادة، وهو سبيل الهدى بعقلنا وبالتصرف بأنفسنا وفيما حولنا، ولكن يوجد منّا من هو جائر عن هذا السبيل الإلهي فيختار الضلال.

في هذا الكلام عمق يأخذك إلى ما جعله تعالى فينا من دافع لفعل الخير وتجنّب السوء، حَتَّى لو لم تَكُنْ هناك آخرة وحساب وجزاء، وَلَمْ نؤمن بذلك، لَدَيْنَا أسباب عديدة تدفعنا للتوافق فيما بيننا على الصلاح وإلا لتدمّرت المجتمعات، وهذا ما يحصل عادة معنا، حَيْثُ تحصل الحروب على مقياس دول، وحروب أصغر فأصغر وصولا إلى النزاعات بين الأفراد... وصولا إلى النزاع بين أفراد العائلة الواحدة وبين الزوج والزوجة، وبين الأهل والأولاد...

تَعِيشُ البشرية في عصرنا الحالي عصرها الذهبي بالنظر للتاريخ الدموي منذ فجر تاريخنا، لِأَنَّ الحوادث المريرة الحالية ليست بشيء أمام تاريخنا السابق، حَالِيّاً يوجد بقع كثيرة واسعة فيها أمان مقبول يمكّن الناس من الاستمرار في حياتهم، ومن ناحية الحكومة فالسوء المنتشر في التشريعات والحكومات وأنظمة الإعلام والثقافة... يمكنك اعتباره نَبَوِيّاً قُدْسِيّاً أمام ما سبق من تشريعات وحكومات كانت طاغية على الأرض.

مَا يشير إليه القرآن بمختلف التعابير المشابهة لآياتنا هنا والتي تختصر الإشارة إلى تمييزنا للخير والشر والصلاح والفساد، ووجود دوافع متنوعة عديدة فينا كلّنا لتجنّب السوء، دِرَاسَتُهُ متروكة لنا لتحليل منشئه وسببه، وهذا باب سيبقى مفتوحا لأن المعطيات التجريبية ستتطوّر مع مرور الزمن، والعديد من العِلْمِيّينَ يرون أكبر الأثر لكيميائيات الجسد بغدده الفارزة لِلْهَرْمُونَاتِ... وآخرون يربطونها مع تراكم تجارب أسلافنا ووراثتها منهم جينيا... والنظرة الشمولية منتشرة عند العلماء ومعلومة، لِأَنَّ هُنَاكَ عوامل عديدة أوصلتنا إلى قدرة تمييز الخير من الشر، والرغبة في تجنّب السوء... وَالبَحْثُ في مختلف المعطيات لتحديد جانب من أثرها علينا ومدى هيمنته يشارك فيه العديد من الفروع العلمية من باحثين في علم النفس السلوكي... والبيولوجيا... والآثار...

لَمْ يَبْدُ لي من القرآن إلا فتحه لهذا الباب من دون تحديد آلية السبب والمنشأ، حَيْثُ تَكَلَّمَ تعالى معنا من الآخر، من الحالة التي نحن عليها حاليا، من مساحة كبيرة في حرية الإرادة والاختيار بما يتحمّله دماغنا المرتبط بجسدنا المتعامل مع الآخرين ومع بيئتنا، وَالنَّاتِجُ عنه رغبات وشهوات وغرائز... ناتجة عن الجسد الطيني من جوع وحب اقتناء ومشاعر... لِذَلِكَ لَا يوجد شيء اسمه أننا بإرادة حرة مطلقة بدون أي تقييدات تدفعنا لاختيارات إِجْبَارِيَّةٍ... ولا يوجد شيء اسمه وهم حرية الإرادة لأننا محكومون بما نتأثر به ولسنا فعليا نختار، لا، بل هو خليط بين الاثْنَيْنِ. أَخْبَرَنَا تعالى أنه هو صمّم الدنيا لتصل بنا إلى هنا، وأمّا كيفية وصولنا إلى هذه الحالة فهذا هو التفكير والبحث في آلية فعله تعالى للأشياء بقدر ما يمكننا فهمه واستيعابه.

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ{10})
{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ}، الغُيُومُ لم تتشكّل لوحدها بقدرتها الذاتية، ولا الطبيعة خلقتها ولا الصدفة... ولا إله المطر الوهمي ولا إله غيره تعالى، بل الله تعالى جعل البيئة على الأرض ينتج عنها مَطَرٌ من الغيوم التي في السماء.

{لَكُمْ مِنْهُ}، مما نزل من الماء مما فوقكم "من السماء"، {شَرَابٌ}، حَيْثُ تَشْرَبُونَ منه، {وَمِنْهُ}، من ماء المطر، {شَجَرٌ}، حَيْثُ تَنْبُتُ الأشجار بسبب هطول ماء المطر، {فِيهِ تُسِيمُونَ}، في الشجر تسرحون للأكل من ثمار الأشجار أو للنزهة.

نلاحظ في عموم الأدبيات المنتشرة عند غالبية أهل الكتاب وعند بعض الأجيال الأولى من المسلمين "ومن أتى بعدهم"، نجد فهما طفوليا ساذجا لهذا النوع من التعابير في كلامه تعالى، وَبِنَاءً على المعلومات التي لديهم فَهِمُوا كلمة سماء كوصف أو اسْمٍ لعموم الجهة العلوية، شاملة بذلك "مكانا" فيه الملائكة(ع) بل و"مكانا" فيه سبحانه وتعالى، بل و"مكانا" فيه الجنّة... على أساس أن السماوات السبع يطالها نظرهم، لِأَنَّهَا السماء المليئة بالنجوم ليلا، والتي تبدو لهم ضخمة وَهُمْ لَمْ يعلموا بحقيقة مدى ضخامتها...

فِي كتب أهل الكتاب تعابير من كلامه تعالى مشابهة لآيتنا هذه، وغالبيتهم فَهِمُوا منها "قديما" أن السماء التي يقصدها تعالى بكلامه هي السماء التي فيها تعالى ومعه الملائكة(ع)، وكثيرا ما يستبدلون كلمة سماء بكلمة جنّة، ومن هناك ينزل الماء. بعبارة أبسط فهم يرون نزول الماء مُرْتَبِطاً بالغيوم ولكن لم يعلموا سبب نزوله، لِذَلِكَ فَهِمُوا من كلامه تعالى أنه وبدون سبب، وَبِدُونِ ترابط بين الظواهر، وَبِدُونِ آلية، حَيْثُ سُبْحَانَهُ هكذا فجأة يأمر بنزول الماء فينزل، وفهموا أنه ينزل من عنده تعالى.

لا نزال نعاني من الفهم الطفولي الساذج لكلامه تعالى لأننا وحتى مع التطوّر الهائل في العلوم يُوجَدُ فرق هائل بين كلام الإله الذي خلق سبع سماوات ومنها كوننا بمجراته التريليونية، وكل مجرة فيه تريليونات من الكواكب... وكوننا فقط سماء واحدة من تلك السماوات، والأخريات مركّبة من مواد لا نعرفها... وفيها ظواهر لا نعرفها... وَهُنَاكَ فرق بين كلامه تعالى وبين ملاحظاتنا وتجاربنا لمعرفة آليات وقواعد عمل الأشياء وسبب حصولها. مِنَ الصعب علينا التقاط المعنى العميق لكلامه تعالى من نظرة رؤية آليات حصول الأشياء، لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ يصمّم فيأمر فتنخلق الأشياء لتعمل كما صمّمها سبحانه، وعندما يلفت انتباهنا إلى ما فعله، فَإِنَّهُ لا يهتم بشرح آليات حصول الأمور بطريقتنا نحن على القواعد الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية... ومن ناحيتنا نَحْنُ لَا نستوعب إلا ما تراكم من معلومات تنمو بالشكل الذي يمكننا اسْتِيعَابُهُ، وَمُدَّةً بعد مدة يتحسّن فهمنا لآليات حصول الأمور... ونرى بعض معلوماتنا القديمة غير صحيحة... وبعد مدة يتكرر نفس الشيء... وبعد مدّة يتحسّن فهمنا للأمور ونرى ما في معلوماتنا السابقة من أخطاء... ولهذه الأسباب نقع في تفسيرات ساذجة لكلامه تعالى إذا لم ننتبه أن معلوماتنا دائما في تبدّل للتحسّن ولتقترب أكثر من الواقع البعيد جدا جدا عن وصولنا إلى عمقه العلمي.

تَرَى ما أقوله مَطْرُوحاً قديما وحديثا في نظريات المعرفة، التي في قسم منها تحلّل كيفية تعاملنا علميا مع أنفسنا وبيئتنا بمعلومات تبدو صحيحة أو مقبولة، ولكننا متأكدون أن الكثير منها سنغيّره في المستقبل بعدما تتراكم لدينا تجارب جديدة تبيّن خطأ ما كنّا نعتقده سابقا، لِأَنَّ الواقع أننا نتعامل مع واقعنا بمعلومات نعلم أنها في المستقبل ستبدو غير صحيحة أو ناقصة كثيرا! وَهَا هِيَ النظريات العلمية تتبدلّ أو تتعدّل أو تندرج تحت عنوان أكبر منها لتصير تفصيلا في رؤية أكبر... ولا واحدة من النظريات ثبتت وصمدت بلا تبدل أو تعديل عبر التاريخ.

هَكَذَا ترى أنه تعالى اعتمد في القرآن على المعلومات التي لا نقاش في صحّتها من ناحيتنا ولو بعد تريليون سنة، لِأَنَّ كلام القرآن ليس عن الآليات والتقنيات، بل عن المشاهدات، وَمَا تراه وتفهمه بسهولة فهو كاف لتنتبه لما فعله تعالى، لِأَنَّ نزول الماء يحصل ولا نقاش في ذلك، أمّا كيفية حصول ذلك فمتروك لك لتفكّر فيها متعرّفا بسطحية على كيفية فعله تعالى للأشياء.

هنا من المناسب أن أكرر لك المثال الذي كررته في مختلف السور، حيث تتصوّر فيه نفسك أنت قرّرت خلق كائنات في بيئة، وَصَمَّمْتَهَا لتستمر من دون تدخّل ومتابعة منك كنظام آلي يعمل لوحده، وَكُلَّمَا علت قدراتك كلّما قلّت تدخلاتك لتجعل النظام مُسْتَمِرّاً، وكل ما سيحصل في البيئة ومن المخلوقات فأنت توقعته سلفا، فإن تفاجأت بشيء ما، فهذا يدل على ضعف في قدراتك التي لم تتوقّع ما سيحدث... على كلّ حال، كُلُّ ما سيحدث في تلك البيئة فأنت فعلته، وَهُوَ لم يحصل لوحده، لِأَنَّكَ صمّمته وخلقته...

من هذه النظرة يمكن بسهولة أن تفهم مختلف كلامه تعالى عنّا وعن بيئتنا وعن ارتباط الأمور ببعضها وعن الظواهر التي تحصل، لِأَنَّ نزول الماء في البيئة التي أنت صمّمتها وخلقتها يعني أنك أنت أنزلته، ومخلوقاتك التي صمّمتها بحيث تتكاثر وَجَعَلْتَهَا تجوع لِتَأْكُلَ لتنمو وتتكاثر... وجعلت بيئتها ينتج عنها ما تأكله، فأنت رزقتها، ولو كانت قدراتك ضعيفة لاضطررت إِلَى تحضير الطعام لمخلوقاتك كوجبات طعام جاهزة لأنك لم تصمّم مخلوقات بقدرة استخراجه من البيئة التي لم تصممها وتضع فيها ما يحتاجونه ليأكلوا... وهكذا ترى أنه سبحانه أتاح لنا بيئة ينتج عنها ما نأكله، بل ونرغبه ونلتذّ بطعمه، وأتاح لنا القدرات الفكرية والجسدية التي تجعلنا نحصل على طعامنا من بيئتنا.

من هذه النظرة نفهم بسهولة عموم كلامه تعالى عن خلقنا وخلق بيئتنا، لِأَنَّهُ أنزل الماء، وجعل الليل والنهار يتعاقبان، ورزقنا وَأَطْعَمَنَا، ويميتنا ويحيينا...

(يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ{11})
{يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ}، يجعل سبحانه لكم أيها الناس بالماء ما ينمو، {الزَّرْعَ}، حَيْثُ يجعل النباتات المزروعة تنمو فتكبر، وهي النباتات التي نزرعها فنضعها في التراب تحت الأرض وبسبب ملامستها لرطوبة الماء تنبت، فتكبر وتنمو.

وينبت بالماء: {الزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ}، شجر البلح والتمر، {وَالْأَعْنَابَ}، كروم وعرائش العنب.

{وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ}، من كل نتاج النباتات يجعلها تعالى تنمو من الماء النازل من السماء.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، في نمو النبات وخروج ثمره بسبب هطول المطر، {لَآيَةً}، شيء مميّز، {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة متفاعلة مع ما يحصل، {يَتَفَكَّرُونَ}، حَيْثُ تجول المعلومات في فكرهم وَيَصِلُونَ منها إلى نتيجة أنها آية أنها مميزة وتدل على إله أحد فائق القدرات صمّمها وجعلها تحدث...

هُنَاكَ الكثير الكثير من تفاصيل الظروف والعوامل التي تجعل النبات ينمو، من تركيبة الماء، وقابليته للتبخّر... وتجمّعه كبخار في السماء على شكل غيوم... ونزوله بأسباب متعددة... وامتصاص البذور للماء... وابتداء النمو في البذور... لتصير شتلة أو غرسة... وإنتاج الثمر... أليس في هذا دليل على وجود خالق خطّط لها؟

سَنَفْهَمُ هذا الكلام من النظرة الإلهية بشكل أوضح عندما نتذكّر أن كل ما نراه هو إبداع إلهي، فلم يكن هناك شيء، وصمّم تعالى وخلق، وصار ما تراه من نزول الماء ونمو نبات.

بِالنِّسْبَةِ لاختيار القرآن للزيتون والنخيل والأعناب، ليذكرها، فهو لا يقصد أنها مميزة عن غيرها من الأشجار، فهي مجرد نماذج عن بقية الأشجار.

لاحظ أن القرآن لم يستعمل ولا كلمة من مشتقات النمو، التي تبدو شبه مرادفة لكلمة نبت، مع الفارق بأن النبت يتضمّن خروج وبروز الأشياء مع نموّها مع الكبر في حجمها.

بقي شيء، أَحْيَاناً نجد في نص قديم كلمة لا نعلم معناها نهائيا، كأسماء الأشياء وأسماء أنواع الطعام المطهي... وَنَبْحَثُ في القواميس لِنَجِدَهُمْ لم يفسروها بطريقة نفهمها، لأنهم اعتبروها بديهية ومعلومة، خُذْ كلمة زيتون ونخل وعنب كمثال، لِأَنَّ هَذِهِ الكلمات في كتب النباتات تجد لها شرحا مفصلا... وإذا ذكرته لك هنا فَسَتَسْتَغْرِبُ لأنك تعرف هذه النباتات، ولكن ماذا لو كنت من منطقة لا تعرف هذه النباتات؟ لِأَنَّهَا لا تنمو في كل بقاع الأرض، كالفاكهة والخضروات التي ليست من نباتات منطقتنا ونستوردها من بلدان أخرى، كَالمَانْجُو والليتشي... فعندها ستذهب إلى الكتب لتتعرّف على شكل النبتة وطعمها...

حَاوَلْتُ في هذه الدراسة الاهتمام بكل الكلمات وحتى ما تَعْتَبِرُهُ بديهيا، لِأَنَّ هُنَاكَ من لن تكون بعض الكلمات بديهية له، ومضافا لذلك هُنَاكَ من يعتقدون أنفسهم مُتَعَمِّقِينَ وَأَصْحَابَ نظرة خارقة للظاهر ويرون باطنا من الكلام، مَثَلاً كلمة ليل عندهم لها تفسير باطني بالجهل، وهكذا نصير أمام معان أخرى لكلامه تعالى، وهؤلاء يجعلون كلامه تعالى مطّاطا حَمَّالَ أوجه تصل إلى حدّ التعارض فيما بينها! ويصير كلامه تعالى كالحزازير "فوازير، أحاجي". ولذلك تراني في هذه الدراسة مضطرا لشرح كلمات تعتبرها أنت من البديهيات، والسبب أنهم في بعض الكتب تَجِدُهُمْ ذهبوا بها إلى معان مخالفة لظاهر معناها اللغوي، لتصير رمزية وإشارات لمعان أخرى باطنية يُسَمُّونَهَا تَأْوِيلِيَّةً، وَتَهَابُ رفض

كلامهم لأنهم علماء مشهورون، ويتحدثون في علوم عميقة مستعملين مصطلحات تحتاج لتخصّص طويل لفهمها... وتحتاج لإيمان من النوع العالي جدا جدا... كلا، هذا غير صحيح، لِأَنَّ كلامهم مردود عليهم، وكلامه تعالى الذي تفهمه من الظاهر فهو ما قصدك به تعالى لتفهمه.

نَحْنُ أمام مصيبتين، مصيبة الناكرين لكون هذا القرآن من مصدر إلهي لأنه لم يعرض آليات حدوث الأشياء ولا مراحلها التفصيلية واكتفى بذكر الأمور البسيطة البديهية، وفي نفس الوقت نعاني من تعليقهم على ما مرّره تعالى من بعض الأمور الغريبة، ككلامه عن سبع سماوات سننفذ فيها في المستقبل، وككلامه عن قدرة بعض الناس على إعادة إحياء الموتى، وقدرة أحدهم على نقل الأشياء من مسافات بعيدة بأسرع من لمحة عين، وقدرة أحدهم على تأويل الحديث، وقدرة أحدهم على فهم كلام الطير... فيقولون إِنَّهَا خرافية. وهكذا ترى أنهم لم تعجبهم الأمور المعلومة المفهومة بسهولة التي ذكرها القرآن عن ظواهر الليل والنهار والمطر والنبات... فاعتبروها كلاما ساذجا لأمور نعرفها. ولم تعجبهم الأمور غير المعلومة من النفاذ في سماوات ونقل لأشياء بأسرع من رمشة عين... فاعتبروها خرافية!

مُقَابِلُهُمْ من لم تعجبه بساطة القرآن فعقّدها كلّها لتصير كلمات القرآن فارغة من المعنى اللغوي الظاهري البسيط، وجعل وَاخْتَرَعَ لها عُمْقاً عَمِيقاً يستعمل الكلمات البسيطة ليشير بها إلى معان ومفاهيم عميقة جدا جدا، مدّعيا أننا كلنا بسطاء لم نفهم فعلا حقيقة الكلام الإلهي، وهو وحده مع زمرة قليلة جدا جدا ومعدودة على الأصابع، هُمْ فقط يفهمون المعنى الحقيقي لكلامه تعالى!

هَكَذَا ترى أن الكلام القرآني المفهوم ببساطة بعد دراسته، والذي مرّر فيه تعالى بعض الأمور غير العادية... واجه جبهتين، جبهة خارجية من الكافرين بالقرآن، وجبهة داخلية من المغالين بالقرآن.

(وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ{128})
{وَسَخَّرَ لَكُمُ}، جعلها سبحانه تعمل من دون أي مقابل منكم ولا أي تدخّل، {اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}، فترة العتمة وفترة الضوء من اليوم، {وَالشَّمْسَ}، التي تعطينا النور والدفء.. وتقدير الزمن... {وَالْقَمَرَ}، الذي يعطي جمالا للأمسيات وتقديرا للزمن ويسبّب المدّ والجزر للبحار... {وَالنُّجُومُ}، وهي باستعمال القرآن وفي أشعار العرب قبل الإسلام، حيث هي عموم أي شيء له موضع في السماء سواء أكان منيرا مشعا أو غازيا أو صخريا، وهذه النماذج التي يعرفها أي إنسان عادي، {مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ}، لأنه سبحانه شاء أن تعمل لأجلكم، وتعطيكم النور والحرارة... وتقيسون عليها الزمن... وتعرفون الاتجاهات بالنجوم... كل ذلك حصل بأمره تعالى وهذا أمر، وهذا شيء أراد تعالى أن يحصل وحصل.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ}، أمور مميزة، {لِّقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة معها، {يَعْقِلُونَ}، يستوعبون المعلومات ويفهمونها ويرون أنها مميزة بمستواها الإلهي وتدل عليه تعالى.

{وَمَا ذَرَأَ}، وما نشر تعالى كأشياء منفردة، {لَكُمْ}، أيها الناس، {فِي الأَرْضِ}، التي تعيشون عليها، {مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ}، والتراب والصخر والحيوانات والنباتات... هي ظواهر وأشياء صنعها الله تعالى بألوان مختلفة من الأخضر والأحمر والأصفر...

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، الاختلاف في الألوان، {لَآيَةً}، وهو شيء مميّز، {لِّقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة، {يَذَّكَّرُونَ}، يتذكرون، ويستحضرون في فكرهم هذا التنوّع في الألوان من حولنا ويدركون أنها مميّزة من صنع إله فائق القدرات تقصّد كثرة التنويع في التفاصيل لنستدل عليه تعالى بسهولة.

نلاحظ تكرار لفت الانتباه لمظاهر الجمال والمنظر هنا في السورة، بل التركيز عليه مع لفت الانتباه لوجود خالق قادر مخطط حكيم... بقدرات فائقة واسعة المجال... تَقَصَّدَ لمسة الجمال في الأشياء وتَقَصَّدَ زرع قابلية تمييز الجمال فينا.

معلوم قديما جدا محاولة العلماء البحث في الجمال، عن معناه وسببه ومعاييره وأثره... ولا يزال هذا البحث يبرز هنا وهناك في مختلف فروع العلوم، ويخطر ببالك أنه من اختصاص علماء النفس ولكن هل تصدّق أنه في الرياضيات

والفيزياء العالية كلام كثير عن الجمال! ولا أقصد كلامهم عن رؤيتهم لجمال المعادلات بل لديهم معادلات لجمال الأشياء! عن تناسق أشكالها وألوانها حسابيا...

من أين لنا هذه الخاصية الرائعة؟ هل بدون إله صمّم وخلق صرنا أحياء واعين ومدركين لجمال الأشياء؟ وأكرر لك لتنتبه دائما أن معرفتنا لآلية خلقنا ونشوء ما فينا من صفات، ليس إلغاءً لوجود الإله، بل تعرّفٌ على الآلية التي خلقنا بها سبحانه.

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{14})
{وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ}، الله سبحانه، جَعَلَكُمْ تنتفعون منه وأنتم لا تقدمون له أي شيء ولا تَفْعَلُونَ له أي شيء، وَجَدْتُمُوهُ جاهزا، {لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا}، وَلَحْمُ السمك طري جدا بالمقارنة مع لحم الأنعام، {وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ}، من البحر، {حِلْيَةً}، وهي أشياء نضعها على جسدنا ليصير أحلى، مثل اللؤلؤ والصدف والمرجان، {تَلْبَسُونَهَا}، حيث يَلْبَسُهَا الذي استخرجها أو يلبسها غيره...

{وَتَرَى الْفُلْكَ}، بِحَيْثُ يصير لديك صورة محدّدة للأشياء التي تعوم على الماء، مثل المراكب والسفن والفلوكة... تراها، {مَوَاخِرَ}، تمخر البحر وَتَشُقُّ طريقها في ماء البحر، إِذْ هي لم تعم عليه بالصدفة، ولم نكتشف نحن عوم الأشياء على الماء لصنع السفن بشكل مُفاجِئٍ لله تعالى، لا، لأنه سبحانه جعل فكرنا وهيئة جسدنا... وحاجاتنا... مع البيئة من حولنا... ينتج عنها أن ننتبه لصنع السفن.

سَخَّرَ لكم البحر {لِتَبْتَغُوا}، لتطلبوا، {مِنْ فَضْلِهِ}، من الأمور التي أتاحها لكم من دون أن تكون فرضا واجبا عليه تعالى أن يمنحها لكم، وهناك استخدامات أخرى للبحر قد سخّرها تعالى لكم حتى تستفيدوا منها، وأنتم وجدتم البحر جاهزا للاستخدام، وكل ما تحصلون عليه لم تقدّموا مقابله أي شيء لله تعالى، بل هكذا من فضله سبحانه تحصلون على الطاقة والمياه الحلوة والملح... والسباحة والترويح عن النفس بمنظر البحر، والغطس فيه...

{وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، إِذْ من المفروض والمتوقّع منكم أن تعلنوا وتعبّروا عن حصولكم على أمور جيدة منه تعالى.

(وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ{15})
{وَأَلْقَى}، ورمى، وجعل سبحانه، {فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ}، أشياء راسية، تبدو ثابتة ولكنها قابلة للحركة، مثلما ترسو السفينة، حيث تقف في الماء، ولكنها لا تزال قابلة للحركة، لذا جعل تعالى أشياء في الأرض راسية، {أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ}، حتى لا تتحرّك الأرض وتحرككم معها، حتى يصير لكم مكان تستقرون عليه.

مما يبدو من الآية 27 من سورة المرسلات {وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ} علمنا أن الرواسي أيضا وصف للجبال لأنها الشامخات، وكما يبدو فإن الجبال موصوفة بأنها راسية، ولكن الوصف هنا عمومي لكل وجه الأرض ومن ضمنها الجبال.

وجعل تعالى في الأرض {أَنْهَارًا}، مياهاً حلوةً جاريةً على سطح الأرض وبين الجبال، وجعل تعالى في الأرض {سُبُلًا}، مسالك، وصار فيها ممرات، وليست كلها صخرية جبلية وعرة على السير فيها، بل فيها طرقات طبيعية.

{لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}، إذ من المفروض ومن المتوقّع منكم أن تكونوا على الشيء الصحيح الذي يوصلكم للغاية الصحيحة، وهنا الكلام عن الاهتداء كخاتمة للجملة شَبَهاً بخاتمة الشكر في الجملة السابقة، حيث تشير للاهتداء إليه تعالى لمعرفته بصفاته الفائقة، علماً أن السبل أي المسالك الطبيعية على وجه الأرض، هي أيضاً من العلامات التي تهدينا لمعرفة الطرقات التي توصلنا لأماكن مختلفة، ولكن الآية التالية أصرح وأوضح في دلالة الهدى على الاتجاهات، وآيَتُنَا هنا إشارتها أوضح للهداية إليه تعالى كمصمّم لهذه البيئة ذات المسالك.

فهم الآية هنا بوصف وجه الأرض راسياً هل يحتاج لمعرفة بجيولوجيا الأرض وتحرّك صفائحها التكتونية؟ وأن القياسات للمسافات بين الجبال والقارات تشير لتحرّكها؟ لا، لأن الناس ترى الزلازل تحرّك الجبال ووجه الأرض،

وهذا كاف لنعلم أنها ليست ثابتة، ووصف هذه الحالة باللغة العربية يصير رُسُوّاً، حيث إن بقع الأرض تحتنا "راسية" مستقرة تقريباً، وتصيبها الزلازل بين الحين والآخر فتتحرّك، وهناك ما يجعلها لا تتحرك دائما، لذا وصفت الآية الحالة بالرسو، ولم تصرّح بأنها الجبال، بل نحن بالتحليل "غير الصحيح" وبما لدينا من معطيات "ناقصة" بحثنا عن أقرب فهم بسيط للكلام واخترنا الجبال لتكون المقصودة بالكلام، وقلنا بأن الجبال تثبّت وجه الأرض وتمنعه من الحركة، وهذا غير صحيح ولم تقله الآيات. وما الذي يجعلنا نصف السفينة بالرسو هو نفسه وصف حالة وجه الأرض بالرسو.
والإلقاء في الأرض ما يرسيها لا يشير إلى شيء، بل هو وصف حالة فعله تعالى لتركيب الأرض بِوَجْهٍ رَاسٍ، مثل استعمال وصف الإلقاء في الآية 39 من سورة طه {أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}، إذ من البديهي أنه ليس وصفاً لإلقاء شيء بل وصف حصول حالة.

أقول لك هذا لتميّز بين ما قالته الآيات وبين تفسيرنا لها، لسبب أو لآخر أعجز عن فهم آية ما لأني لست محتكاً بما تقوله، أو لم أوسّع انتباهي لما تقوله وتَحَكَّمَ بي رأي ما تعلّمته من الآخرين... ولنفس السبب غيري قد يعجز عن فهم آية أخرى بينما أنا أفهمها... وهذا شيء طبيعي، ولو تراكم لدينا تفاسير للقرآن أفضل مما هو موجود، لكان البناء عليه للتقدّم في فهم القرآن أسهل، ولكنهم عموماً وبتوسّعهم بمعاني كلمات القرآن، جعلوا فهم الآيات متاهاتٍ وفي كثير من الأحيان غيرَ صالحةٍ للبناء عليها لتطوير وتقويم فهمها.

انتبه ممن فسّر الآية هنا بالجاذبية كمرسى للأرض، لأن الكلام هنا ليس عن الكوكب ككوكب، بل عن سطحه وعن البقع التي نعيش عليها، وإذا توسّعت في فهم آلية ميكانيكية جيولوجيا الأرض، لتعرف آليات عملها وما يسبب استقرارها والهزّات، فهذا شيء رائع، ولكنه اختصاص علمي فلا تقحمه كتفسير للآية، واذكره كدراسة لبحثنا عن آلية ما تشير إليه الآية، لأنها لم تقل شيئاً سوى لفت الانتباه لما نراه ويعرفه أي إنسان عادي من تحرّك سطح الأرض بالزلازل.

للأسف، إن التفاسير غير المتقنة لكلامه تعالى، والمشحونة بمعانٍ أكثرها تافه أو ساذج، والمنتشرة في الكتب وفي منصات التواصل الاجتماعي... جعلتنا نتوه عن فهم ظاهر كلامه تعالى، وصِرنا نتوه حتى في معنى أوضح الواضحات، وأنت تعلم ذلك من محاولتك للرجوع إلى التفاسير لتفهم آية ما، حيث تجدهم أخذوك إلى كل الأماكن إلّا معنى الآية! لتنتهي من قراءة الصفحات ولم تفهم الآية بل صرت حائراً في معناها أكثر!

في هذه الدراسة التي حاولت جعلها مبسطة وفي متناول أكبر شريحة ممكنة من الناس، وتخلّل ذلك كلام دقيق، وفي القليل القليل جداً من الآيات، لم أستطع إلّا تقريب الفكرة، ولم أجد تفسيراً أو دراسة لها عند الآخرين تشفي الغليل، لذا انتبه جيداً لكلامي إذا لم أقل لك صراحة أنه تحليل أو دراسة للآية، حيث قد يبدو لك كتفسير وهو ليس كذلك، لذا دائماً افصل بين معاني الكلمات ومعاني الجمل بناء على معاني الكلمات، لأن هذا ما أرادك تعالى أن تفهمه من كلامه، لذا افصل بينه وبين تفسيرنا نحن لكلامه تعالى بشيء يخالف معاني الكلمات، أو يغيّر من معاني الكلمات، أو يبقي معاني الكلمات على صحّتها ولكن يصيغ الآية بمعنى لم تقصده، والأخطر من ذلك كلّه ما هو منتشر بيننا من تفسير صريح منّا لكلامه تعالى بما يخالف بوضوح معاني الكلمات... وشبيهه في الخطورة التفسير بناء على خلفية معلوماتنا وإسقاطها من دون أن ننتبه على كلامه تعالى... وهذا ما نفعله كثيراً بتفاسيرنا المبنية على عصبية مذهبية وطائفية.

دراستي هذه للقرآن ليست تفسيراً مساوياً في معناه لكلامه تعالى، بل محاولة لعرض معنى دقيق للكلمات التي استعملها تعالى، وبالتالي محاولة فهم الجملة كما هي، وإن ذكرت لك معنى لآية ما، أو ذكرت لك ما أعتقده مفهوماً قرآنياً... وجدته أنت يخالف معاني الكلمات، فارمه، لأنه بمعطيات أحسن عندك قد تفهم من الآية ما لم أفهمه لأني لم أختبر ما تقوله الآية، أو لم ألتفت له، أو لسبب أو لآخر عجز فكري عن رؤيته...

خذ مثلاً كلام القرآن عن لفت الانتباه لخلقة الإبل والذي ورد في الآية 17 من سورة الغاشية {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}، إذ أنا في حياتي لم أَرَ الإبل "الجمال" إلا بضعة مراتٍ ومن بعيد، وماذا تتوقّع مني عند دراستي لهذه الآية؟ وهل تتوقّع معلومات مميزة من خبرتي؟ لا، بل تتوقّع نقلي لكلام الآخرين الذين يعرفون الإبل حقّ المعرفة، ضع هذا في بالك لأن كل الدارسين للقرآن يقعون في هذا الضعف حتى لو كانوا موصوفين بأنهم موسوعيون مطلعون على مختلف العلوم... فلا تتوقّع من هذه الدراسة ولا من غيرها أن تعطيك الكمال في دراسة القرآن، لأن هذا لن يحصل أبداً

بتاتاً لأن معطياتنا تتجدّد وتتحدّث وبالتالي سيتجدّد ويتحدّث معها فهمنا لكلامه تعالى، وكل واحد منّا بارع وخبير في أشياء، وضعيف في أشياء أخرى، حيث بعضنا يفهم بالقضاء وله خبرة فيه، وآخرون يفهمون بالاقتصاد ولهم خبرة فيه، وغيرهم يفهم بشؤون قيادة الناس ولهم خبرة فيها، وغيره يفهم بالشؤون العسكرية وله خبرة فيها، ونفس الكلام عن الفهم والخبرة في مختلف فروع العلوم... وركّز جيداً على الخبرة وممارسة الشيء، لأن هذا مختلف عن القراءة عن الشيء، حيث لاحظت ضعفاً شديداً في الشؤون القيادية والاجتماعية والإعلامية والحربية والعسكرية والاقتصادية... في غالبية التفاسير، ولست أعيبهم بأنهم لم يذكروا دراسات قرآنية عن ذلك، بل ألفت انتباهك أنهم لم يستطيعوا رؤية ما تقوله بعض الآيات التي تتناول هذه المواضيع. وما أتبجّح به هنا من تميّز في دراستي عن بقية التفاسير، فمصيره دراسة أفضل ستأتي وتجعل دراستي هذه تبدو طفولية ساذجة، لأني فهيم خبير ببعض الأمور ولكني ضعيف جداً في أمور أخرى كثيرة، وخبرتي بالقضاء والقيادة والإعلام والاقتصاد... سطحية وضعيفة جداً بالرغم من كثرة قراءاتي في مختلف الشؤون والعلوم، ولكن الخبرة والتمرّس شيء مهم جداً.

(وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ{16})
وعلامات، جعلنا للأرض معالم مختلفة تصير علامات تدلنا على المكان، إذ للجبال منظرٌ مختلف من الجهات المختلفة، فتعرف مكانك حين تراها، وتعرف إلى أين يمكنك الذهاب في أي اتجاه لتصل إلى حيث تقصد... والأنهار معالم، والهضاب والسهول... كلها تدلك أين أنت، وبواسطتها يمكنك معرفة الاتجاه الذي تقصده.

{وَبِالنَّجْمِ}، بشكل عام، وفي أشعار العرب قبل الإسلام كلمةُ "نجم" تشير لعموم الأجرام التي لها مكان في السماء، سواء أكانت منيرة مشعةً أو غازية أو صلبة... {يَهْتَدُونَ}، يكونون على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، فيستدلون على طريقهم وعلى الاتجاهات.

ليس بالصدفة صار للأرض معالم، وليس بالصدفة صارت النجوم معالم، ولا اكتشافنا لاستخدامها لمعرفة الطريق والاتجاهات كان غير مقصود حين أوجدها تعالى؛ لا، بل هو سبحانه قصد وخطط لها أن تكون علامات لنستدل بها على الاتجاهات.

وحين تقرأ أي كلام قرآني عن لفت انتباهنا للمخلوقات والظواهر واستخدامنا للمخلوقات الأخرى والظواهر، ولما فينا من صفات فردية واجتماعية... فتذكر دائما أنه بدعة إلهية، فلم يكن هناك شيء، وصمم وخلق تعالى السماوات والأرض وصولا إلى كل ما نحن فيه وعليه من مخلوقات وظواهر وارتباطات بينها. نحن مما فينا وحولنا نستنبط ونتخيل ونتطور ونخترع... بينما سبحانه من الصفر، من لا شيء، صمم وخلق جاعلا الصفات والعلاقات فيما خلق.

وهنا ترى بوضوح ميزة في عرض سورتنا هنا لعلاقتنا بما حولنا كآية، كشيء مميز يدل عليه تعالى كمصمم خالق.

(أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ{17})
هذه الآية هي أول وأهم إشكال على عقيدة الشرك، فكل ما سبق من أشياء وظواهر، واستخداماتنا وعلاقتنا مع الأشياء والظواهر، كنماذج وأمثلة عن الكثير غيرها، هو خلق الله تعالى:

{أَفَمَن يَخْلُقُ}، الذي يركب ويؤلف، {كَمَن}، وهو مثل الذي، {لَّا يَخْلُقُ}؟ فإذا كان كل شيء قد خلقه هو سبحانه وتعالى، ولا أحد غيره خلق أي شيء، فهل يمكن مقارنته تعالى مع غيره؟ فالذين يعبدهم المشركون لم يخلقوا أي شيء، ولم يصمموا الكائنات والأشياء بحيث تتناغم مع بعضها كحالة تفاعلنا نحن مع بيئتنا، ولا شيء فعله غيره تعالى، فكيف تجعلونهم مماثلين لله تعالى في الألوهية؟

{أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}؟ لماذا لا تستحضرون هذا السؤال وهذه الأمور في فكركم؟ فقبل أن تجعلوا لله تعالى شركاء، ألم يكن الأجدر بكم أن تسألوا أنفسكم: كيف نساوي بين خالق كل شيء وبين من لم يخلق أي شيء؟

أخبرك بشيء، المراجعة بعد المراجعة لسور القرآن أوصلتني لشيء، فالآلهة التي اخترعها الناس أنواع عديدة، منها الآلهة الوهمية التي لا وجود لكائن حقيقي يمثلها أصلاً، كإله من الخيال: إله المطر، إله الحرب، إلهة الحب... ومنها كائنات لها وجود حقيقي ووعي يمكننا التعامل معه فقالوا عنها إنها آلهة، كملاك أو إنسان أو جني... ومنها كائنات

وظواهر لها وجود حقيقي ولكن لا قدرة لنا على التعامل مع وعيها، وقالوا إنها آلهة كالكواكب والنار والدهر... والملاحظة التي استخرجتها أن القرآن في بعض السور والآيات قفز عن الآلهة الوهمية التي لا وجود لكائن حقيقي يمثلها، وقفز عن الكائنات والظواهر التي لا تعامل واع بيننا وبينها، وذلك على أساس أنها من الأصل وهمية ولا حاجة للكلام عنها كإلهة الحب والخمرة، وبعضها الآخر أصلاً لا تواصل منه ولا فعل كالكواكب والنار... وركز على الكائنات التي لها وجود حقيقي وقالوا عنها إنها آلهة.

أطلت عليك لأن عموم ما في كتب التفاسير غالباً يشمل معاً كل أنواع الكفر والشرك في كل جملة قرآنية تتحدث عن آلهة المشركين، بل وعموماً يشملون كل عقائد الشرك معاً أثناء تفسيرهم لآيات عقائدية، علماً أن القرآن وجه بعضاً من سوره نحو شيء محدد، فوجهه على نوع محدد من الشرك، على عقيدة محددة للمشركين... مرة لخصوص عقيدة التوحيد بكلام موجه للمشركين، وأخرى بكلام خصوصاً عن عقيدة إنكار الآخرة، وغيرها لخصوص شكر غيره تعالى...

إذا كانت السورة هنا تدمر عقيدة الشرك به تعالى حيث اعتبر بعض الناس بعض الكائنات الواعية أنها آلهة، فبالطريق تتدمّر معها عقيدة الشرك بالجمادات والظواهر من أصنام وكواكب... ونار وطبيعة... وصدفة وكثرة تكرار... على أساس أنها من الأصل وهمية أو غير واعية أو محدودة أو هي نابعة من أديان لا امتداد تاريخي لها، وبالتالي من الواضح أنها لا أساس إلهي لها؛ لأنه سبحانه من أول ما تأهلت البشرية لتتكلّف تواصل معنا، مكلفاً آدم (ع) منذ آلاف السنين، ومن ذلك الزمان ما يزال تواصله تعالى معنا مستمراً وبنفس الكلام...

بالنسبة للذين لا يؤمنون به تعالى لأنهم تعرفوا على جانب من آليات نشأة الكون، وصار عندهم صورة عامة ولو سطحية عما يمكن أن يسبب نشأة الحياة في كوننا بمجراته التريليونية، وبالتالي وصولاً إلى نشأة الحياة الإنسانية، هؤلاء برفضهم للكلام الديني كان معهم حق في كثير مما قالوه، فهو رفض لكلام المنتمين لدينه تعالى الذين اعتبروا كلامهم مساوياً في القداسة لكلامه تعالى، ففسروا كلامه تعالى واشتقوا منه حتى صار دينهم مختلفاً عن أصل كلامه تعالى، أما ولدينا القرآن كمصدر موثوق لكلامه تعالى، فالمنكرون للألوهية بسبب معرفتهم لجانب من آلية نشأة الكون والحياة، ها سورتنا هنا تتوجه إليهم بالأسئلة، فماذا سيكون جوابهم عليها؟ فهم يعلمون "بناء على النظريات الحالية" كيف نشأ الكون وتطورت الحياة وصولاً إلى ما نحن عليه من تفاعل مع بيئتنا، فهل حصل ذلك لوحده؟ لا، لقد تعرفتم على جانب من آلية صنعه تعالى وخلقه لما في الدنيا بقدر ما يمكنكم فهمه، فالكثيرون من المنتمين لدينه تعالى يقولون بأنه تعالى يخلق ويفعل فجأة بالكلام وبدون أسباب ومسببات وترابط للأمور، بينما كلامه تعالى واضح بخلق ما في الدنيا في ست مراحل {سِتَّةِ أَيَّامٍ}، وراجع كمثال عن ذلك كلام الآيات 9 وما بعدها من سورة فصلت: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، وخلقنا نحن البشر من سلالة من طين، وراجع في ذلك كمثال الآيات حول الآية 8 من سورة السجدة: {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ}.

وننتبه جيداً، القرآن أخبرنا عن النبي عيسى (ع) أنه خلق من الطين طيوراً وصار فيها حياة، فهل هذا يعني أن النبي عيسى (ع) خالق يخلق؟ لا، فقد كرر القرآن كلمة {بِإِذْنِي} حين أخبرنا عن النبي عيسى (ع) وهو يخلق الطير، وقصد بها أن عملية الخلق لم تكن بقدرة ذاتية للنبي عيسى (ع)، بل حصل على إذن إلهي حتى تتم عملية الخلق على يديه، وتقرأ ذلك في الآية 110 من سورة المائدة: {...وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي...}، فهناك خلق من مستوى إلهي بحيث يكون التصميم والتنفيذ من مستوى إلهي بدون مساعدة من أي أحد آخر، لا في التصميم ولا في التنفيذ ولا في استعمال مواد خلقها الآخرون... وهناك خلق من مستوى تحت الإلهي، باستخدام قدرات ومواد وفكر و... منحها لنا الإله سبحانه وبها خلقنا، وهذا ما يمكن للكائنات أن تفعله، وهذا ما فعله النبي عيسى (ع)، وكما ترى ففعل الخلق البشري هذا بعيد كل البعد عن الخلق من مستوى إلهي. فالنبي عيسى (ع) "كمثال" لا يملك أي قدرة ذاتية ولا أي صفة ألوهية، فهو مخلوق، منحه تعالى قدرة عالية عن بقية المخلوقات، ولكنها قدرة مرتبطة بالحصول على إذن إلهي لتتنفذ.

الكلام يجر الكلام، فالقرآن فيه العديد من الأمور الاستفزازية التي من المفروض أن تفتح آفاق رؤيتنا للأمور، فطالما استطاع بشري خلق حيوانات من الطين، فيبدو أن المجال مفتوح أمامنا لتقليد فعل ذلك ولو بطريقة مختلفة عما فعله النبي عيسى (ع)، وإعادة الحياة لميت أيضاً سيكون شيئاً رائعاً لو توصلنا إلى طريقة لذلك، فلا تفهم أبداً بتاتاً من القرآن

أنه يغلق عليك محاولة فعل أي شيء، أو يمنعك من البحث في موضوع ما، لا بل بالعكس تقصد سبحانه استفزازنا بأمور تبدو مستحيلة، كخلق حياة من الطين وإعادة الموتى إلى الحياة والكلام مع الطير ومعرفة جانب من المستقبل ونقل الأشياء من أماكن بعيدة بلمحة... وصولاً إلى كلام سورة الرحمن في الآيتين 33 و35 عن نفوذنا في أقطار السماوات وصولاً إلى حيث سنجد الشهب تحمي سماء الملائكة العالية: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ... يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ}.

وللأسف، فأمام هذه الاستفزازات المحفزة على التقدم العلمي، شعوذها الغالبية الساحقة من الأجيال القديمة من المنتمين لدينه تعالى، فتعاملوا معها بالطلاسم والشعوذة... وصرنا تافهين متخلفين، مع وضوح الرؤية أمامنا بأن كل هذه الخزعبلات والبخور لم توصل أي أحد إلى أي نتيجة! وفي مقابلهم تافهون يسخرون من هذا الكلام عن السماوات والجن والكلام مع الطير وإحياء الميت ونقل أشياء من بعيد بلمحة... على أنه خرافات، وحين حصل واستطعنا رد ميت القلب إلى الحياة باستبدال قلبه، وصرنا بالطائرات ننقل بسرعة هائلة أشياء من مسافات بعيدة، واخترقنا غلافنا الجوي وابتعد مسبار فضائي إلى خارج المجموعة الشمسية... تغير كلام المنتمين لدينه تعالى ولم تتغير عقليتهم في سذاجة وطفولية فهم كلامه تعالى! وتغير كلام الكافرين بكلامه تعالى ولم تتغير عقليتهم بالاستمرار بالإنكار والاستهزاء!

(وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ{18})
هذا الذي ذكرته الآيات السابقة من الأشياء والظواهر التي نستفيد منها ونعرفها هو القليل القليل، وأيضاً هو لا شيء أمام ما نستفيد منه ولا نعرفه:

{وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ}، إذا قررتم أن تقوموا بتعداد الأشياء الجيدة التي منحكم إياها ذو الاسم المحدد المميز "الله" سبحانه، الأشياء الموصوفة بأنها نعمة، فتقول: منحني الحياة والجسد والمشاعر والأحاسيس والغريزة والطعام والشراب والمعرفة... {لَا تُحْصُوهَا}، فلا يمكنكم أن تحصوها ولا الوصول لنهاية تعدادها؛ لأنها كثيرة جداً من ناحية، ومن ناحية ثانية هناك نعم تعيشون فيها ولم تلتفتوا لها، وفوق قدرتكم على الالتفات لها، وتلاحظ أنني لا أستطيع أن أضرب لك مثلاً عن نعمة لا يمكنك إحصاؤها، فبمجرد أني أعرفها فقد استطعنا إحصاءها، ولكن يمكننا أن نفكر في أشياء لم نكن نعرفها في السابق وعرفناها الآن، فكانت نعمة مجهولة سابقاً، كعلوم الطب والدواء والفيزياء والكيمياء والتعدين والهندسة... كثبات الذرة، وثبات بنية المواد، وقوة الجذب والكهرباء والمغناطيس... وثبات الخلية، ومقاومة الجسد للجراثيم... وهكذا ننتبه للكثير الكثير من الأشياء التي لا نزال لا نعرفها، وننتبه للكثير الكثير من الأشياء التي لا يمكن أن نعرفها لأنها فوق قدرتنا على الفهم.

{إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ}، يتجاوز عن السيئات، {رَّحِيمٌ}، لديه عناية خاصة للمؤمنين بما فيه مصلحتهم.

الباب دائماً مفتوح لمن كفر حتى يؤمن وينال المغفرة، حيث تلفت السورة انتباهنا للآيات من حولنا وفينا لنصير مؤمنين وتعدنا بالمغفرة. ولولا ذلك فما النفع من طرحها للهداية والرد على الكفر إن لم تردنا أن نصير مؤمنين وينغفر لنا ما قد مر منا؟ فماذا لو آمنا بالآيات ولا مغفرة لنا، فما النفع؟ عندها سيقول الكافر: سأستمر على كفري فما النفع من إيماني إن كنت سأتحاسب وأجازى بالعذاب على ما سبق من كفري. لا، فسبحانه لا يجمد على موقف واحد بل يغفر لمن آمن وتاب وعمل صالحاً، ويصف سبحانه نفسه في هذه الحالة بالرحيم لأنه تعالى رحمن بكل مخلوقاته، والبعض منهم بكفره وسيئاته يخرج من تحت مظلة الرحمة الإلهية، وهكذا فإن بعض أنواع الرحمة تصير خاصة للذين يستحقونها وهم المؤمنون العاملون للصالحات، فوحدهم ينالون المغفرة ومضاعفة الثواب والشفاعة... ويصير الوصف له تعالى خصوصياً بالرحمة لهؤلاء، واستعمل لهذه الخصوصية صيغة {الرحيم} كوصف أخص من عمومية "الرحمن".

(وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ{19})
والله، وصاحب هذا الاسم المحدد المميز، {يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ}، ما تخفون في داخل عقولكم ومشاعركم ولا تقولونه، ويعلم تعالى {وَمَا تُعْلِنُونَ}، ما لا تبقونه سراً فتقولونه للآخرين.

تصل مدى قدرة خالقكم إلى علمه بما تعتبرونه سراً وإلى ما تعلنونه، وهذا خبر عن واحدة من الصفات التي يجب أن يتصف بها الإله.

وبناء عليه فإن ما سبق من كلام مبني على هذه المعلومة، إذ كلامه تعالى معنا ليس كلاماً ممن يجهل بما لدينا من معلومات وأفكار، كالذي تقصده في موضوع محدد ولكنه يتحدث معك في مواضيع أخرى لا تهمك، أو يبدأ بتعليمك ما أنت به عليم، أو... لا، بل تكلم تعالى معنا وهو يعلم بما نعلم، واختار المواضيع المناسبة بناء على ذلك، واختار طريقة طرح المواضيع بناء على ذلك أيضاً...

وما سبق من كلام السورة لافتاً انتباهنا لتوحيده تعالى والتعرف على جوانب من النعم التي منحها لنا، فسبحانه يعلم إن كنا فهمناها ووجدناها كافية للتعرف عليه، ويعلم إن كنا نجحدها فننكرها عن قصد لأننا لسبب أو لآخر لا نرغب بالإيمان بها...

وآخر سياق في الكلام وربطه بعلمه تعالى؛ ها يخبركم تعالى في الآية السابقة أنه غفور رحيم لأنكم سيخطر ببالكم السؤال عن نفع الإيمان من بعد الكفر، فيأتي الجواب أنه تعالى غفور فلا يجمد على موقف صلب من المشركين والظالمين... فهذا نموذج واضح لك عن شمولية انطباق ما تقصده الآية هنا على كل كلام السورة والقرآن عموماً.

(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ{20})
{وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ}، والذين يشهرون ويعلنون لهم فيتوجهون إليهم بالكلام على أنهم آلهة تاركين توحيده تعالى، كما نقول: ذهبتم من دوني، أي ذهبتم مع غيري وتركتموني، وهنا تعني أنهم تركوا توحيد الله تعالى وتوجهوا نحو غيره على أساس أنهم آلهة؛ فالذين يدعونهم {لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا}، فلا يركبون ولا يؤلفون أي شيء، {وَهُمْ يُخْلَقُونَ}، فهم مخلوقات فمن الواضح أن أحداً ما قد خلقهم.

نلاحظ كلامه تعالى في القرآن مؤكداً أنه سبحانه خالق كل شيء من كائنات وظواهر وعلاقات بينها، وهذا صار واضحاً إلى هنا في السورة بعد المقدمة الطويلة التي قرأناها عما فعله تعالى، فإذا كانت آلهتهم من البشر، أو من الجن، أو من الملائكة... فهذه مخلوقات وليست آلهة، وإن كانت آلهتهم آلهة وهمية لا يوجد لها كيان فلا داعي للحديث عنها لأنها أصلاً وهمية، كإله الخمر وآلهة الحب... وآلهتهم التي يتوجهون نحوها بالدعاء فماذا خلقت حتى يقولوا عنها إنها آلهة؟ فعلى الأقل يجب أن تدلونا على شيء خلقته آلهتكم، وإلا فلا معنى لقولكم عنها بأنها "آلهة" وهي لم تفعل الشيء الذي فعلاً يميزها عن المخلوقات، وهم بالتأكيد مخلوقون قد خلقهم الإله الحقيقي، لأنهم لا يملكون القدرة على خلق أنفسهم.

ولننتبه جيداً، فالله سبحانه وتعالى له طبيعة "إلهية" تجعله خارجاً عن قاعدة السببية، إذ وحده فقط لا تنطبق عليه هذه قاعدة، فأي شيء تراه أو تسمع به، يمكنك أن تسأل: من خلقه؟ من فعله؟ من سببه... وكيف صار؟ أما الله تعالى فلديه طبيعة مختلفة عن المخلوقات، مختلفة عن المركبين المؤلفين من شيء، وهذه الطبيعة الإلهية لا نفهمها، لا نحن ولا بقية المخلوقات، ولن نقدر على فهمها لأنها الطبيعة الإلهية، ونحن مخلوقات محدودة جداً في الفكر والفهم أمام الإله سبحانه، فلن نفهم كيفية وجود الإله، فهناك من يسأل: من خلق الله؟ وكيف صار موجوداً؟... وهذه الأسئلة معناها أن الله عز وجل مخلوق، ولكنه تعالى ليس مخلوقاً، ليس مركباً ولا مؤلفاً، وإذا حاولنا تصحيح السؤال سنقول: كيف صار الإله؟ وحتى هذا السؤال معناه أن الإله لم يكن موجوداً، ثم صار موجوداً، ولكن الله سبحانه كان دائماً موجوداً فلا يمكنك السؤال متى صار وكيف صار، لأنه لم يصر أبداً، بل هو موجود دائماً... وبشكل أدق، فسبحانه ليس مثلنا حتى نسأل متى صار، فطبيعته لا تجري عليها هذه الأسئلة، مثلما طبيعته لا تجري عليها السؤال عمن خلقه.

وكما تلاحظ، فحتى القرآن لم يتحدث عن الله تعالى بهذه الطريقة التي نحن نتحدث بها، بل عبّر بشكل دقيق، فقال عن الإله بأنه حي، قيوم، محيط، واسع... لأن التعبير عنه تعالى بالزمن وتوابعه ومشتقاته: متى، حتى... فهو خطأ، والتعبير عنه تعالى بالمكان ومشتقاته: أين وكيف... أيضاً خطأ، فلم يستعمل القرآن تعابير الأزل والأبد والخلود... عن الله تعالى، لأنها لا معنى لها بالنسبة له تعالى، بل عبّر عنه تعالى بالحي، وعبّر عن انتفاء وجود بداية لوجوده تعالى فقال: كان الله، وهو الأول كما ورد في الآية 3 من سورة الحديد: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

إذاً، كلنا مخلوقات، والله تعالى وحده الخالق، وكلنا محدودون، ووحده الإله، وبفكرنا الصغير لن ندرك ولن نفهم أبداً الطبيعة الإلهية على حقيقتها، بل نتعرف عليه سبحانه عبر ما هو سبحانه يخبرنا به، فلن نفهم أبداً الطبيعة الإلهية إلا إذا صرنا أو كنا آلهة، ولم نكن ولن نصير آلهة، فنحن مجرد مخلوقات مهما كبر فهمنا وقدراتنا.

وكما تعلم فموضوع الطبيعة الإلهية بحث فيه الحكماء والفلاسفة قديماً، ووصلوا إلى اختراع مصطلحات ليصفوا بها طبيعته تعالى، وبعض تلك الكلمات يجب أن تكون مرناً في فهمها لأنها لا تعبر عن حقيقة ما تعنيه الكلمات المستعملة فيها، فقالوا مثلاً إنه تعالى العقل الأول، المحرك الأول، الأسطقس "الأصل البسيط الأول"... وهناك كلمات كانوا بشكل ما يظنون أنها فعلاً تعبر عن طبيعته تعالى، فوصفوه تعالى بالنور، وباللامادي... ووصفوه تعالى بكلمات ضبابية شاعرية بوضوح، فوصفوه تعالى بالمحبة والرحمة والإشراق والفيض...

كل هذا الكلام كان محاولة منا لتقريب الصورة إلى ذهننا المحدود، وبعضنا شطح في ذلك ظانّاً أن فينا شيئاً إلهياً كنفحة منه تعالى، كروح منه تعالى، كشيء منه تعالى... وهذا الشيء يؤهلنا لنلمس من بعيد الطبيعة الإلهية، وبعضهم انتبه أن أبحاثه وتعابيره ستؤدي إلى هذا الظن فنبه من خطورة الانحدار في ذلك.

وبالرغم من موقفي شبه السلبي من كثير مما يقوله الصوفيون والعرفاء، إلا أن كبارهم نبهوا كثيراً من الوقوع في فهم كلامهم بشكل غير صحيح، فوصفهم للعلاقة والاتصال الروحي "كما يقولون" معه تعالى محفوف بمخاطرة الاعتقاد بفهم الكنه الإلهي، بفهم الطبيعة الإلهية... ورغم تنبيهاتهم تلك، فلم أقتنع أبداً بشيء مميز يعلمونه ولا نعلمه، ولا يزال يغلب عليّ الظن أنهم في كثير مما يقولونه يتوهمون، هذا مع احترامي الشديد للعديد منهم من المشهورين بالتقى، فمشكلتي معهم محصورة في تفسيرهم لكلامه تعالى الباطني "التأويلي"، وصيران كلامهم هو الدين الإلهي، وفي نفس الوقت فكم أتمنى لو أن لي تاريخ حياة بعضهم في تقاهم وزهدهم وجهادهم الذي ينقلونه عنهم...

(أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ{21})
{أَمْوَاتٌ}، فاقدون للفعل والانفعال الواعي، إذ تمر عليهم حالة لم يعد لديهم فيها وعي ولا فعل ولا تفاعل، {غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ}، فلا يتفاعلون مع شيء يحصل، {أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}، متى يقومون من الموت؟ فبسبب فقدانهم للوعي لن يشعروا متى سيعودون إلى الحياة، لأنهم سيكونون أمواتاً فاقدين للوعي، وسيمر الزمن الطويل وبعدها يسترجعون وعيهم في اللحظة التي يرجعون فيها إلى الحياة.

هل من يموت إله؟ وهل من يفقد وعيه إله؟ وهل من يتم التحكم به إله؟ وهل من يمشي على مخطط غيره إله؟

نلاحظ، السورة أهملت العابدين للآلهة الوهمية كعابدي إله الخمرة وإله الرعد... وأهملت العابدين لكائنات وظواهر لا وعي تفاعلي لهم معها من الأساس كالذي يعبد الأصنام والكواكب والنار؛ لأن عقيدته ستنهار بكلام أقل من الكلام مع من يعبدون مخلوقات واعية لها حياة، فيبقى الكلام مع الذين يعبدون مخلوقات واعية لها كيان، وكنموذج عنهم الكائنات التي تموت، كمن عبد إنساناً، إذ الآية هنا متماشية مع ما نقرؤه في الآية 26 من سورة الرحمن: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}.

ولا تقصد الآية أن كل من عبدهم الناس هم أموات حين كان الناس يعبدونهم، بل اختارت نموذجاً ولم تفصل فيه، فإن كنتم تعبدون كائناً يموت، فكيف يكون هذا الكائن إلهاً في حين أنه لا يمكن أن يمنع الموت عن نفسه؟ وكيف يكون إلهاً وهناك من يميته ويبعثه؟

(إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ{22})
الخلاصة من الكلام:

{إِلَٰهُكُمْ}، الكائن الذي يملك صفات وقدرات فائقة وأنتم منتسبون له لأنه صممكم وخلقكم، هو {إِلَٰهٌ وَاحِدٌ} لا ثاني معه، فقد تبين من كل ما سبق من آيات السورة التي لفتت انتباهنا أن الخالق لكل شيء من أشياء وظواهر، والمسيطر على كل شيء... هو الله تعالى، وها لفت انتباهكم في السورة هنا لنماذج من أدلة لا يمكنكم إحصاؤها، وهي أكثر من كافية لتتعرفوا عليه كإله واحد أحد، وها يخبركم بشكل مباشر وصريح عبر رسله الناقلين لكتبه أنه الإله الواحد ولا إله غيره، ولا يوجد نصف إله ولا ربع إله... ولا بنفحة إلهية.

{فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ}، الذين لا يعتقدون بوجود حياة ستأتي في الآخر بعد انتهاء الحياة الدنيا الأولى، فهؤلاء {قُلُوبُهُم}، أساس فكرهم ومشاعرهم، {مُّنكِرَةٌ} تنكر ولا تقبل أن الإله واحد، فلو آمنوا بأنه يوجد آخرة وحساب لما تجرأوا على الشرك بالله تعالى، ولكانوا خافوا من عقابه تعالى.

والمنكر من مقابلته مع "عرف معرفة" يعطي معنى حصول صورة أو مفهوم ونفي تطابقه مع ما لديك، فهو عموم ما ليس معروفاً على الوجه المطروح، كرفض لتصنيفه. بعبارة أخرى، هناك حتماً آخرة، وهم لا يؤمنون بها لأنه لا يناسبهم الإيمان بها، حيث لا يريدون تغيير عقيدتهم وسلوكهم، فإذا أعلنوا إيمانهم بالآخرة فعندها يجب أن يتركوا ما عليه عقاب من سوء، ويفعلوا ما يأمرهم به تعالى من الصالحات، وهذا ما لا يريدونه، ولذلك يعلنون "إنكارهم" بكفرهم بالآخرة.

{وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ}، فيرون أنفسهم أكبر من الإيمان بإله واحد، وأكبر من الخضوع وإطاعة الله تعالى.

كثيراً ما نبهنا القرآن عن نفسية المشركين، فقارن بينها وبين المؤمن، فالمؤمن يحسب حساباً للآخرة ولذلك لا يتجرأ على اختراع آلهة، لأن هذا الاختراع عليه عقاب، ويعلن اعتقاده بالإله الأحد بسبب الأدلة "الآيات" الكثيرة المتنوعة والأكثر من كافية ليؤمن، ويطيعه تعالى فيما يأمره لأنه تعالى لا يأمر إلا بالصالحات ولا ينهى إلا عن الفساد... أما المشركون، فهم يخترعون آلهة ويعبدونها، أو يكفرون بكل شيء إلهي... ولا يحسبون حساباً للإنذار الإلهي عن الحساب في الآخرة، إذ لديهم مشكلة في إطاعة الله تعالى فيما يأمرهم بتركه وفعله، فيرون أنفسهم أكبر من أن يطيعوه سبحانه، فهم يحبون بعض السيئات ولا يريدون أن يكونوا صغاراً مطيعين لمن ينهاهم عنها.

قارن ذلك مع ما تراه من حولك في المجتمعات الصغيرة والكبيرة، وعلى قياس الدول، فهم مستكبرون يرون أنفسهم أكبر وأفهم وأعلم وأذكى وأحكم... وأدرى بشؤونهم ومصالحهم مما يجدونه في هذا القرآن، فهذا القرآن يحرم كل أشكال الفساد من كل المستويات، فعلى المستوى الفردي يأمر بالإحسان والعدل وإيتاء ذي القربى والإنفاق على المحتاجين... وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي... وغالباً هي نفسها الأوامر على مقياس الدولة التي تشرع لسعادة مواطنيها، ولكن الحاكمين غير مستعدين للقبول بذلك، فمصالحهم الشخصية أولاً، باختلاس أموال الدولة، واستغلال مناصبهم، وتولية مناصب الدولة لأقاربهم ومعارفهم التابعين والمؤيدين لهم... ومصالح الدولة حتى لو أضرت بغياً بالدول الأخرى فلا يردعهم عن القيام بها إلا الخوف من قوة الآخرين التي إذا فُقدت استعمروها أو فرضوا عليها قراراتهم...

هؤلاء حتى لو كانوا مسلمين يصلون... أو مسيحيين يرتادون الكنائس... أو عابدي أصنام... فكلهم مثل بعض، مشركون به تعالى لا يؤمنون به ولا بآخرته، متكبرون على دينه تعالى...

ونلتفت دائماً للجانب الذي يشير إليه القرآن عن غياب الرادع عن فعل السوء، فالخوف من العقاب في الآخرة رادع لنا حتى لا نفعل السوء الفكري والتشريعي والسلوكي، فإذا فُقد هذا الرادع بسبب التكبر من الذين لا يريدون أن يكون هناك أحد فوقهم سيحاسبهم على فعل السوء، فسيفعلون ما يحلو لهم ويستطيعون فعله...

(لاَ جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِين{23})
{لَا جَرَمَ}، لا شك وبالتأكيد، {أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ}، يَعْلَمُ تعالى ما هو موجود في ضمائرهم ولم يقولوه، ويَعْلَمُ {مَا يُعْلِنُونَ}، ما يقولونه علنًا، عِندما أخبرنا سبحانه عن نفسيّتهم بأنهم لا يريدون أن يطيعوه كفرًا بالآخرة وتكبرًا، لأنه سبحانه يعلم باطنهم ويعلم ظاهرهم وعلى هذا الأساس يخبرنا عنهم خبرًا صحيحًا بالتأكيد.

قارنها مع تحليلنا نحن لأسباب تصرفات الناس، فلو أننا نعلم أسرارهم وما يقومون به علنًا، لكان تحليلنا لسبب أفعالهم صحيحًا، وهذا ما تريد الآية قوله هنا، فهم منكرون للآخرة مستكبرون، فهذا سرّهم وما يعلنونه، ولذلك لا يهمّهم توحيده تعالى.

{إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ}، لديه تعالى تقييم سلبي سيئ للذين يرون أنفسهم أكبر من توحيده وطاعته سبحانه، وعمليًا يعني أنه تعالى لا يهتمّ براحتهم ولا رضاهم ولن يعنيه ضررهم...

ضع في بالك في عموم ما ورد في القرآن أنه تعالى لا يحبّه، وردت حيث لا داعي للكلام القاسي، وخذ مثلًا كلامك معي حيث تريد تحذيري وتنبيهي فتقول: سأكسر عظامك لو فعلت كذا وكذا... فهذه نبرة عالية لا مبرر لها لأنك تعلم أني حاليًا لست ناويًا لفعل السوء، والجملة الأنسب: لا أحب أن تفعل كذا وكذا... وعلى هذا المفهوم جاءت الآيات التي وجّهت كلامها إلى المؤمنين مستعملة عبارةً مشابهة لعبارة "الله يحب أو لا يحب".

كثيرًا ما تكلّموا في الكتب عن تعابير القرآن الواصفة له تعالى بالحبّ، والمشكلة أنها كتعبير الآية هنا، لا تُفْهَمُ منها القساوة للمستكبرين، حيث إنَّ سبحانه لا يحبّهم، لا تعطي معنىً قاسيًا مثلما لو قالت الآية إنّه تعالى يكرههم، فقد يتبادر للذهن أن نفي الحب هنا يعني الكره، وهذا تطبيقياً صحيح لأن القرآن مشحون بتعابير لعنهم والغضب عليهم وكرههم والتوعّد بتعذيبهم بأشدّ أنواع العذاب، ولكن لو نظرنا لوصف نفي حبّه تعالى لهم من نظرة الرحمة، فسترى أنه تعالى لا يعتبر لنفسه موقفًا مسبقًا منهم، فالبداية مع نفي حبّه تعالى لهذه النوعية من الناس، وصولًا إلى كرهه تعالى لهم والغضب عليهم بسبب سوء أفكارهم وأعمالهم، وفي نفس الوقت يبقى الباب أمامهم مفتوحًا لتوبتهم.

نفهمها بشكل أسهل إذا نظرنا للصورة من بعيد، فنرى الإله سبحانه بعظمته والذي لا يتأثّر بأي شيء، ولا يتضرّر ولا ينتفع من كفر أو إيمان مخلوقاته، ويخبرهم بأنه لا يحب الكافرين المستكبرين، حتى ينتبهوا أنه تعالى لا يزال يتحدّث معهم بمنطق الرحمة، حيث سبحانه يتعامل ويتكلم معهم بالقساوة والحلم معًا، وهكذا ورغم قساوة التهديد سيبقى باب الرجعة لهم مفتوحًا ليعودوا إلى تحت مظلة الرحمة الإلهية.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ{24})
{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ}، للمشركين المستكبرين:

{مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ}؟ هناك شيء نزل عليكم من المسؤول عنكم من مستوى إلهيّ، هذا القرآن وما سبقه من كتب نزلت منه تعالى، ماذا تقولون عنها وما رأيكم فيها؟

قال المشركون المستكبرون: {أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}، هو فقط كلام قديم سطّره وكتبه سطرًا بعد سطر الناس الذين كانوا أولًا قبلنا، وهو فقط قصص خرافية وهمية "ميثولوجيا" اخترعها الناس قديمًا، وليس لهذا الكلام أي ارتباط بمصدر إلهيّ. يعني لم نؤمن بأن محمدًا نزل عليه شيء من ربنا، ولا نؤمن بأنه في السابق نزل شيء من ربّنا، لأنَّ الكلام عن نزول شيء من عنده تعالى ما هو إلا كلام فارغ من المعنى، كقصص خرافية للتسلية.

نلاحظ الكلام الذي جاء في القرآن وخاصة في هذه السورة، هل يكفي لإقناع المشركين بأن عقيدتهم باطلة وهمية من اختراعهم؟ وهل كان الإنذار فيها صريحًا وكافيًا بوجود عقاب في الآخرة لمن أشرك؟ طبعًا يكفي، ولكن رفضهم للإيمان بالآخرة والاستكبار يجعل المشركين يرفضون هذا الكلام الواضح، ويبرّرون لأنفسهم بتركهم لتوحيده تعالى وفعلهم للسيئات بالقول عن كلامه تعالى التوجيهي بأنه خرافات.

من ناحية ثانية، السؤال في الآية عن عموم ما أنزله تعالى سابقًا وصولًا إلى هذا القرآن، وهذا امتداد تاريخي لآلاف من السنين لنفس الكلام من نفس الإله، ماذا تقولون عنه؟ يعني بعد لفت الانتباه لأفعاله تعالى "آياته فيما خلقه"، وهو أكثر من كاف لنتعرّف عليه إلهًا واحدًا أحدًا، تأتي الآية هنا بلفت الانتباه لأثر آخر منه تعالى وممتدّ لآلاف من السنين، وهو الكتب التي نزلت منه تعالى على رسله كالتوراة والإنجيل وهذا القرآن، وكلّهم كلامهم الأساسي العقائدي التوحيدي واحد، فما تعليقكم أيها الكافرون على ما نزل من ربّكم؟

(لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ{25})
{لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ}، سيحملون الأشياء الثقيلة المزعجة، وسياق الكلام عن حملهم سيئات قولهم عن كلامه تعالى إنَّه أساطير فسيقعون تحت وزر هذا الكلام، {كَامِلَةً}، كلها بلا أي نقص في {يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، في زمن قيامهم من الموت، فالشرك والاستكبار وقولهم عمّا أنزله تعالى أساطير سيتسجّل عليهم كشيء سيئ، وسيصير اسمه: وزر. له وزن كقيمة سيئة، مثل من يحمل نفايات كيميائية سامة وفيها الجراثيم والبكتيريا القاتلة، ومن يحمل الذهب والفضة، كلاهما يحملان ثقلًا، ولكن واحد له قيمة عالية ولا تنزعج من حمله، والآخر قيمته منخفضة سيئة، وهو مضرٌّ مؤذٍ وحمله مزعج، وهذا

يصير وصفه بالوزر. والكلام هنا ليس عن شيء مادي يحملونه بل مثل الواقع تحت وزر الدين، أو وزر الاتهام بجريمة... هم سيكونون تحت وزر كفرهم وسوء كلامهم وتصرفاتهم، وبتعبير آخر سيحملون سيئاتهم كاملة بدون أي غفران ولو على ذنب واحد، لأنهم مشركون ولا يحصل المشركون أبدًا ولا بأي شكل على مسامحة ولا على أي ذنب ولو بمقدار شعرة.

و{لِيَحْمِلُوا}، {مِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ}، وفوق أوزارهم سيحملون أوزارًا إضافية من الأحمال الثقيلة المزعجة الناتجة عمّا فعله الذين ضللوهم عن جهل. ضلّ وابتعد أناس عن الطريق الإلهي بسبب الأفكار والتصرفات التي قاموا بها، لأنهم اتبعوهم، أو أعجبهم كلامهم وتصرفاتهم، وصاروا مثلهم مشركين مستكبرين، يقوم المشركون الجهّال الذين ليس لديهم علم حقيقي، ويتصرفون عن طيش لأن كل العقلانية في الإيمان بالحقّ وبالعمل الصالح، يقومون بطرح أفكارهم أمام الناس، ويصير الناس مشركين مثلهم، ويحصل أصحاب الآراء على نصيبهم من ذنوب المشركين الجدد، لأنهم هم سبّبوا لهم الشرك، وهم حبّبوا لهم الشرك، وهم كرّهوهم بالإيمان، فسيحملون ما فعلوه وفوقه ما جعلوا غيرهم يفعله، ولن يحملوا كلّ ما فعله غيرهم بل فقط ما كان لهم علاقة به ونتج عن تأثيرهم بالآخرين.

بعبارة أخرى، أنت أحيانًا تستغيب الناس، وترتشي، وتغصب مال الآخرين... أو لديك ميل لفعل ذلك ولكنك ترهب من احتمال وجود آخرة وحساب... وهناك شخص قال لك عن القرآن بأنه خرافات، وأعجبك ما قاله، وأفرغت فكرك من أي خوف من العقاب الإلهي لأنك لم تعد مقتنعًا بما يقوله الدين، وبسببه فعلت السيئات، وارتكبت القتل والزنا... مَنْ قال عن الدين إنَّه خرافات، وأعجبك كلامه، فسينال سيئات مثل السيئات التي نلتها أنت على الأعمال التي أقنعك بأنها لا عقاب إلهيّ عليها، ولن يحصل على ذنوب من الأعمال التي كنت تقوم بها قبل أن تتأثّر بكلامه.

نلاحظ، جملة: {يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ}. معناها أنَّ ما يقوله المشركون ويسبب إضلال الناس، هو كلام لم ينبع عن علم وفهم وحقّ، لا تفهمها أنَّ المشركين وهم لا يدرون يسببون الضلال للآخرين، لا، لم تنظر الآية لهذه الناحية، لأنهم سواء انتبهوا أم لم ينتبهوا، على أي حال سيحملون ذنوبًا مثل ذنوب الذي تسببوا له بالضلال، ولكن الآية تنظر في نفس كلام المشركين أصحاب الآراء والنظريات، والتي إذا سمعتها كمؤمن راسخ الإيمان فلن تجدها منطقية عقلانية، لأنها كلام بغير علم، من دون علم، وبتعبيرنا الدارج هي كلام جهلة، بل هي مجرد كلام منمّق يدغدغ شهواتك ورغباتك السيئة، في مقابل قولهم عن القرآن بأنه أساطير، يصف القرآن كلامهم بأنَّه بغير علم بل عن جهل ولا قيمة له، مَن اقتنع بكلامهم وترك القرآن، فهو يتحمّل المسؤولية لأن كلام المشركين ليس فيه منطق ولا عقلانية ولا حكمة، فكيف اقتنعت به؟

{أَلَا سَاءَ}، ما أسوأ وأتعس، {مَا يَزِرُونَ}، ما يحملون من أمور ثقيلة حملها مزعج، حيث حملوا الذنوب الناتجة عن شركهم واستكبارهم، وفوق ذلك سيحملون ذنوبًا مثل ذنوب الذي سبّبوا له الضلال! فهل هناك حالة أتعس من هذه؟

كثيرًا ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "{ضَلَّ}" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، لأنها لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيرًا أم شرًا، إذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضلّ عنك صيدها. واستعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، لم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، ولن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون لأنَّه ليس على طريقهم، بل ضالٌّ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردًا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ{26})

{قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، المشركون في أي عصر كان ليسوا حالة فريدة، سبقهم أناس مكروا مثلهم، وخطّطوا أمورًا سيئة ضدّ الدين الإلهي وضد المؤمنين، وقبل هؤلاء كان يوجد مشركون، وقبلهم مشركون... {فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ}، حيث تعامل سبحانه مع الأساسات التي بنوا عليها حياتهم ومعيشتهم، {فَخَرَّ}، هبط وانهار، {عَلَيْهِمُ السَّقْفُ

مِنْ فَوْقِهِمْ}، وتدمرّت بيوتهم على رؤوسهم، {وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ}، وجاءهم ما يسبّب لهم الضرر في الدنيا، {مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ}، بطريقة لا يتفاعلون فيها مع ما يحصل، حيث كان وكأنه لن يحصل، من دون سابق إنذار، وفجأة حصل العذاب المدمّر الشديد ولم يكونوا يتوقعونه.

يعني، فليعلم كل المشركين، أنَّهم تحت الخطر من العقاب الإلهي هنا في الدنيا ومن دون أي إنذار بقدوم العذاب.

ننتبه، بعكس كل ما نقوله، القرآن يؤكّد بأن أي كارثة تحصل هنا في الدنيا فهي بسبب فعل الناس للسوء، وهنا نتكلّم عن حالتين من الكوارث**،** الأولى من تدخّله تعالى مباشرة ليجعلها تحدث، وهذا إن كان السوء الذي يفعله الناس من العيار الثقيل جدًا، والحالة الثانية هي الكوارث الطبيعية من فعل تصميمه تعالى للطبيعة، فهذه ستحدث بشكل طبيعي، وإن كان الناس إيمانهم وسلوكهم مقبولًا، فبحسب درجة رضاه تعالى عنهم يتدخّل سبحانه من تخفيف الكارثة وصولًا إلى منع حدوثها أو إبعاد ضررها، وهذا ما نفهمه من عموم كلام القرآن ومنه الآية 66 من سورة المائدة {وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ}، والآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

حتى لو حصلت الكوارث مع المسلمين، فهذا يعني أنهم يرتكبون سيئة عيارها ثقيلٌ سبّبت لهم نزول عذاب دنيوي، بنو إسرائيل "المنتمون لدينه تعالى مثلنا" قديماً نزل على بعضهم عذابٌ هنا في الدنيا، علمًا أن ظاهرهم كان التديّن، ونقل لنا القرآن أبرز نموذج عن ذلك في الآية 65 من سورة البقرة {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}، الحرب والزلازل والبراكين والجفاف... بعضها يحدث بتدخّل إلهي مباشر، وبعضها بسبب سلسلة حوادث طبيعية، ولكن كلها يتركها تعالى تحصل بسبب سيئات الناس، وربما نجد هذا الكلام غريبًا، أو تعميمًا مبالغًا فيه، ولكن ظاهر القرآن يؤكّد عليه وتقرؤه في الآية 41 من سورة الروم {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

بالنسبة للأمم التي تراها أنت كافرة مشركة عاصية... وتراها تعيش في النعيم، فانتبه أنَّ الأمم التي أخبرنا القرآن عن نزول العذاب عليها، نزوله لم يكن فوريًا، ها قوم النبي نوح(ع) استغرق نزول العذاب عليهم قرابة الألف سنة، وهناك أقوام لهم سيئات كبيرة ولهم حسنات أيضًا، حيث سبحانه بحكمته يقرّر إن كانوا وصلوا إلى مرحلة استحقاق نزول عذاب دنيوي عليهم... فلا تتدخّل فيما لا يعنيك، ولا تحدّد للإله من يجب أن يعذّب ومتى، لأنَّ هذا ليس من شأنك، وأمّا المشركون فليعلموا أن العذاب يحوم فوق رؤوسهم، وسيكون فجأة، ولن يعلموا بقدومه حتى حين يأتيهم بغتة.

أكرّر لك، ما ذكره القرآن كإهانات لبعض بني إسرائيل، وعذابات دنيوية أصابتهم، ومنه صيران بعضهم قردة وخنازير، وهذا شيء لم يعذّب به تعالى حتى المشركين الكافرين به، ووعد سبحانه بعض بني إسرائيل بعذاب خالد في الآخرة... فهذا الكلام لم يكن إلا لتعليمك أن الانتماء لدينه تعالى بالاسم لن ينفعك بأي شيء إن لم تكن مؤمنًا عاملًا للصالحات، وما يصيب بلدان المسلمين من كوارث طبيعية لا يتدخّل سبحانه لردّها، أو تصيبهم الكوارث بأيديهم بحروبهم وفسادهم الاقتصادي والأمني والصحّي... فهي من سيئاتهم، وحالهم كحال السيئين من بني إسرائيل الذين عذّبهم تعالى في الدنيا.

الدول التي تعتبرها أنت كافرة وتتنعّم بسعادة ورفاهية دنيوية، وفي مقابلها دول مسلمة تعاني الفقر والمرض والحروب... فلست أبالغ إن قلت لك إنَّنا بغالبيتنا أسوأ منهم كفرًا وسوءًا، ويبدو واضحًا جدًا أننا نستحق ما يحصل معنا من كوارث حروب وضائقة مالية وفلتان أمني وفقدان الاستقرار الاجتماعي... لأنَّ هذا نتاج أفعالنا، ووصفنا لأنفسنا بالمسلمين لا معنى له ولا قيمة له، ولن ينفعنا ليميّزنا تعالى عن الآخرين.

(ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ{27})
{ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، في زمن القيام من الموت في عالم الآخرة، {يُخْزِيهِمْ}، حيث يجعلهم سبحانه يشعرون بالمهانة من قبيح ما فعلوه، حتى لا يخطر ببال الكافرين أن نزول العذاب الدنيوي هو العقاب النهائي، وحتى لا يخطر ببالهم أنهم إذا

لم ينزل عليهم عقاب في الدنيا فهم في الأمان، تقول الآية هنا أنهم سينالون العقاب في الآخرة حتما، ومرّة ثانية بعد العذاب الدنيوي، {وَيَقُولُ} سبحانه لهم:

{أَيْنَ شُرَكَائِيَ}، في الألوهية، {الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ}؟ تدافعون عن عقيدتكم، وتناقشون في صحّة ألوهية آلهتكم لدرجة المَشَاقَّة المخاصمة التي تسبب الشِّقاق الانفصال عما يقوله الله تعالى عبر رسله وكتبه، فأين آلهتكم الآن؟ هل ترونها أم أنكم لا تجدون غيري الإله الأحد؟ ها أنا أُحاسِبُكم وسأعذّبكم، فأين آلهتكم لتدافع عنكم؟

{قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}، كان لديهم علم حقيقي له معنى، وكان لديهم علم بأن الإله واحد لا شريك له:

{إِنَّ الْخِزْيَ}، إن الشعور بالمهانة من عمل قبيح، {الْيَوْمَ}، في زمن القيامة من الموت وما سيليه من المحاسبة، وإن {السُّوءَ}، إن الوصف السيّء، {عَلَى الْكَافِرِينَ}، على المنكرين لوحدانيّة الإله سبحانه والمنكرين لدينه.

لاحظ أن المشركين قالوا عن القرآن: أساطير. وضلّوا وأضلّوا غيرهم عن جهل، هنا تنقل السورة لنا مشهدا من يوم القيامة عن المشركين وعن المؤمنين، ليتبين أن المؤمنين هم لديهم العلم الصحيح، وسيظهر واضحا في يوم القيامة أن الإله الأحد هو الله تعالى ولا إله غيره، وهذا الخبر موجّه للمشركين الآن، بأنكم لن تجدوا أي شيء لتدافعوا به عن أنفسكم في يوم الحساب، فانتبهوا من الآن لعلكم تؤمنون.

ننتبه، لماذا تنقل الآيات كلاما سيقوله المؤمنون للمشركين في الآخرة؟ تنقله حتى يعلم المشركون من الآن أن الذي آمن بما أنزله تعالى لم يكن غبيا، ولم يكن بسيطا، حيث نزل الكلام الإلهي وصار في متناول الجميع، ومن آمن بسبب ما نزل فإيمانه حجّة على من أشرك، لأن ما نزل كان كافيا حتى يجعلكم تؤمنون أيها المشركون، وها هو الدليل أمامكم، ها هم أناس آمنوا، وهذه الآية تتضمّن تنبيها للمشركين الآن، أنكم لا يمكنكم القول في يوم القيامة بأن ما نزل من الإله سبحانه في الدنيا لم يكن كافيا لنؤمن، بل كان أكثر من كاف لأنه يوجد أناس آمنوا به.

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{28})
{الْخِزْيَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ}، {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ}، تأخذ أنفسهم بالتمام حين يموتون، {الْمَلَائِكَةُ}، وهم، {ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ}، حيث لم يكن معهم حقّ فيما فعلوه مع أنفسهم حين أشركوا، وسبّبوا لأنفسهم عذاباً خالداً في الآخرة.

{فَأَلْقَوُا السَّلَمَ}، حيث ظهر من الظالمين بالكلام والتصرفات، السّلم، وأعلنوا الاستسلام والانقياد، هناك لا يناقشون في التوحيد، ولا في الطاعة، ولكن يبررون لأنفسهم، يقولون:

{مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ}، حيث ينكرون قيامهم بأي عمل سيّء ويتصرفون وكأنهم أبرياء، وإلى حدّ هذه اللحظة هم لم يعلموا أنه تعالى سجّل كل ما فعلوه، ولم يروا بعد كتب أعمالهم، ولم تشهد عليهم أعضاء جسدهم... فمن ناحيةٍ هم يبررون لأفعالهم السيئة أنها كانت عادية أو لها تبريرات، ومن ناحية ثانية ينكرون قيامهم بأعمال سيئة.

إذا استحضرتَ المشهد من الآيات المختلفة كالذي ورد في الآية 93 من سورة الأنعام {وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ}، ترى أنهم يتعرضون للضرب والإهانات من أول ما يستعيدون وعيهم في الآخرة، وعندها ينكرون أي عمل سيّء قاموا به، إلى أن تتوزّع عليهم كتب أعمالهم كما ورد في الآية 49 من سورة الكهف {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}، ومن هنا يبدؤون بالاعتذار والتبرير...

{بَلَىٰ}، نفي لقولهم {مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ}، بالتأكيد فعلتم السوء، وقمتم بشيء سيّء، {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، حيث يعلم كل عمل سوء قمتم به.

كما تلاحظ هم لا ينكرون تقييم سوء الأعمال، بل ينكرون أنهم عملوها، وفيما بعد يعتذرون ويبررون. في الآخرة ستكون المعايير واضحة للجميع، لأن الغشّ سيّء والاعتداء على الآخرين سيّء... وهم ينكرون أنهم فعلوا هذه الأعمال السيئة، ولكنه تعالى عليم بما كانوا يعملون.

الكلام يجرّ الكلام، سبحانه لا يستعجل ولا يتصرف بعصبية... ودائماً يتصرف بحكمة، حتى في الآخرة حين يحاسبنا فلن يعتبر تعالى نفسه واضع القانون والقاضي والمدّعي العام والشاهد والجلّاد، بل ما زرعه تعالى فينا من قابلية تمييز الخير من الشرّ هو القانون الذي سنتحاسب على أساسه، والملائكة التي أحصت ما فعلناه تشهد، ونحن نشهد على الآخرين، وأعضاء جسدنا تشهد علينا، وكل سيئة سيكون العقاب عليها بنفس قيمتها بالضبط... والراعي لكل ذلك هو الإله سبحانه وتعالى.

(فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ{29})
{فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ}، هيا إلى المداخل التي توصلكم إلى المكان الموصوف بسوء ما فيه، وادخلوا إلى مراتبكم في المكان الذي ستتعذبون فيه بحسب مستوى كفركم وسيئاتكم، هناك مشركون مرتكبون للجرائم الكبيرة ولهم باب خاص كممر لهم يوصلهم إلى أقصى درجات العذاب، وهناك أبواب أخرى أقل تعذيباً... {خَالِدِينَ فِيهَا}، لا يموتون ولا يفنون في جهنم، ولا يخرجون منها.

نتذكّر وصف القرآن لجهنّم بأنها دركات كما ورد في الآية 145 من سورة النساء {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ}، لأنها على ما يبدو طبقات فوق طبقات من الأسفل الأشد إلى الأعلى الأخف، لا تتصوّر الأبواب مثل أبواب الغرف والبيوت، لا، هي مجرّد مداخل لأماكن، وبتعبير أدقّ جهنّم مكان كبير مقسوم لأماكن مخصّصة لكل نوعية من الناس، والأبواب هي إشارة لمكان رميهم في تلك الأماكن المختلفة.

{فَلَبِئْسَ}، يا بئس ويا لسوء، {مَثْوَى}، مكان إقامة طويلة "غير مملوكة لهم"، {الْمُتَكَبِّرِينَ}، ما أسوأ المكان الذي سيخلد فيه الذين كانوا يرون أنفسهم أكبر من توحيده وطاعته تعالى.

نلاحظ من القرآن، أن من أشرك بالله تعالى فلن ينال أي نوع من المغفرة، لأن العقاب على ذنوبه سيكون دائماً بلا انقطاع مهما كانت ذنوبه صغيرة، ولا نهاية للعقاب عليها لأن العقاب الأساسي الخالد بسبب شركه بالله تعالى.

من فكّر بأن عقيدة الإيمان بالتوحيد غير مهمّة، وأن الالتزام بالصالحات غير مهم، وأنكر الآخرة... وبعضهم قال بأنه تعالى لن يتضرر منه مهما اعتقد أو فعل بنفسه، وقال وقال... فليأخذ علماً من الآن أن هذا الكلام لن يغيّر من مصيره في الآخرة إلى النار، والأمور هناك لن تسير على مزاجه، بل على الأوامر الإلهية، وها أخبركم سبحانه بها بشكل واضح وحاسم.

بالنسبة لكلمة "ثوي، مثوى" درج في أدبياتنا أن نقول: جعل تعالى مثواك الجنّة. ولكن من استعمال القرآن لهذه الكلمة نعلم أن معناها: إقامة شخص في مكان لا يملكه وليس له، كالضيف والسجين والعبد... وهي حالة النبي يوسف(ع) في قصر العزيز كما ورد في الآية 21 من سورة يوسف {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ}، وكحالة النبي موسى(ع) في مدين كما ورد في الآية 45 من سورة القصص {وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا}، وكحالة أهل النار في النار كما ورد مراراً ومنه ما ورد في الآية 12 من سورة محمّد {وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ}.

أهل الجنّة يرثون الجنّة فيملكونها وهي لهم... كما ورد مراراً ومنه الآية 11 من سورة المؤمنون {الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، لغوياً لا يصحّ وصف من في الجنّة بأنه ثاو فيها، ولم يرد وصف كهذا أبداً في القرآن، وأمّا أهل النار فثاوون فيها لأنها ليست ملكاً لهم، لأنهم مسجونون فيها مؤبّداً، لأن السجين لا يملك السجن وليس وارثاً له بل ثاو فيه.

بقي شيء من التاريخ، في فترة نزول القرآن لم يكن دارجاً في مكة والمدينة ولا عند عموم العرب، لم يكن دارجاً إغلاق مداخل بيوتهم بلوح خشبي أو عِصِيّ خشبية... كانوا يضعون قماشاً أو جلد حيوان أو لا شيء على المدخل، وكانوا يعتمدون أحياناً بناء البيوت بممر ملتوٍ بين المدخل الأساسي والغرف الداخلية لحمايتها من إمكانية رؤية ما فيها من المدخل... سريعاً بعد انتشار الإسلام درج بين الناس وضع "رتاج" لبيوتهم قبيل وفاة النبي(ع) بقليل بحسب ما يبدو من التاريخ.

ترى في القواميس فقداناً للدقة في التفرقة بين كلمة باب ورتاج ومغلاق، وكما يبدو واضحاً استسهل الناس التوسعة في استعمال كلمة باب التي هي أصلاً واسعة الاستعمال لتشمل عموم الممر وما يسدّ الممر، وألغوا كلمة رتاج ومغلاق من الاستعمال. وستجد في الأشعار قبل الإسلام وفي بعض ما وردنا من كلام عن الجيل الأول من المسلمين أن بعضهم استعمل كلمة رتاج ليشير إلى ما نسدّ به الباب.

مشكلة هذه الكلمة ليست حالة فريدة، حيث إنّ غيرها من الكلمات لأسماء أشياء لم تكن منتشرة بكثرة بين الناس، تعرّضت لنفس التشويه، سبق وقلت لك إنّ الرتاج لم يكن دارجاً بكثرة بين الناس، ويرونه في القصور والبيوت الكبيرة، ولهذا ظنّ بعضهم أن الرتاج اسم للباب "المغلاق" الكبير فقط، أو للباب "المغلاق" الصغير في الباب الكبير الذي يرونه على مداخل القلاع والحصون، وذكروا ذلك في القواميس.

(وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ{ 30})
الآية هنا تخبرنا أمرين: الأول أن هناك من آمن بما نزل من الإله سبحانه، وهذا دليل على كفاية ما نزل منه تعالى ليقنعنا بدينه تعالى، فلا عذر لمن لم يؤمن به، فلا يمكنه القول إنّ ما نزل لم يكن مقنعا كفاية. وثانياً تريد الآية إخبارنا عن مصير الذي آمن:

{وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا}، الذين تجنبوا وتحاشوا شيئاً ما، وسياق الكلام عن المبتعدين عن السوء الفكري والعملي، وهو نفسه عملياً تقواهم بتجنّبهم لغضب وعقاب ربهم سبحانه فأطاعوه ولم يعصوه، ووحّدوه واتبعوا الشريعة التي أنزلها سبحانه، وفي الآخرة سبحانه مرّةً قال لهم، وقالت الملائكة (ع) لهم مرّةً أخرى، أو قالت مجموعة مؤمنة لمجموعة مؤمنة أخرى:

{مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ}؟ هناك شيء نزل عليكم من المسؤول عنكم من مستوى إلهي، ماذا تقولون عنه، وما رأيكم فيه؟

قال المتقون: {خَيْرًا}، وصفوا ما نزل بكلام خير، وقالوا ما معناه أنه أنزل سبحانه أشياء جيّدةً نافعةً وليست سيّئةً مضرّةً.

تذكّر ما سبق وقالته السورة، مرّ عليك الكلام عن نماذج متنوّعة مما فعله تعالى ويدل بسهولة على توحيده ومعرفته بصفاته العالية سبحانه من الآيات التي فينا وحولنا، ومن كلامه النازل علينا في كتبه... وتذكّر ما تعرفه من القرآن عمّا يأمر به سبحانه، وسترى فيما سيأتي في السورة كلاماً عمّا أنزله تعالى، وأنه يأمر فيه بالعدل والإحسان... هذا هو الخير الذي نزل منه تعالى، من اتقى يراه خيراً، ومن أشرك كان يقول في الدنيا إنّه يرى ما أنزله تعالى أساطير! كما نقلت 24 السابقة.

الآية هنا لا تنقل لنا جواباً حرفياً عن كلام المتقين، ربما فعلاً سيقول بعضهم: {خَيْرًا}. ولكن الآية تقول بأن جوابهم كان كلاماً خيراً عمّا نزل، مثلاً قالوا: أمرنا بالتوحيد وهو الحقّ، وبترك الشرك وهو الباطل، وها نرى يقيناً أنّ هذه العقيدة كانت صحيحة وأنّ نتيجة التوحيد المغفرة والثواب... ونتيجة الشرك حبط الأعمال الحسنة والعقاب على السيئات... وأمرنا بالصلاح من الصلاة وبرّ الوالدين... وها نرى النتيجة ثوابٌ حسنٌ ومحوٌ للسيئات... يعني قالوا أموراً تدل على أن ما نزل كان خيراً وكان جيداً حسناً.

حسناً، وما هي نتيجة التقوى؟ هل يموت التقي والمشرك ولا فرق بين نهايتهما؟ بالطبع لا، كرّر القرآن كثيراً أنّه توجد نهايتان مختلفتان، ونتيجة الإيمان والعمل الصالح هي:

{لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا}، للذين كان عملهم حسناً جيّداً، وهذا الوصف يتماشى عملياً مع طاعته سبحانه، لهم، {فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ}، سينالون هنا في الدنيا من ربهم سبحانه أشياء حسنة، ويساعدهم سبحانه مخففاً أو مبعداً عنهم الكوارث "بحسب درجة إيمان المجتمع"، ويزيدهم سبحانه هدى، وينصرهم على أعدائهم...

كما ترى وصفهم بأنهم أحسنوا مرادف لوصفهم بأنهم عملوا الصالحات، وكلا الوصفين لا تفسرهما بأنهم فعلوا الواجب وتركوا الحرام، هذا عملياً صحيح، ولكن يبقى التوصيف القرآني مصرّاً على وصفهم بالحسن والصلاح، بما فينا من

قدرة على تمييز الخير من الشرّ والحسن من السوء، هم محسنون صالحون، تاركون للسوء وفاعلون للصالح. وتفهمها بسهولة حين يدّعي الآخرون أنهم أفضل من المؤمنين لأنهم لا يفعلون السوء الذي يفعله المؤمنون ويأمرهم به دينهم. وكلام بعضهم للأسف صحيح، وللأسف تهمتهم لدينه تعالى بناءً على ما يقوله المنتمون لدينه تعالى غالبيته صحيح.

ها القرآن أمامك فسّره بعضنا بشكل إجرامي، وآخرون بشكل استهتاري، وآخرون بخلفية عصبية مذهبية بغيضة، وآخرون بتزمّت تحجّري... ونتج عن ذلك فقدان الكثير من الصلاح واستبداله بالكثير من السوء. بينما القاعدة الأساسية في كلامه تعالى أننا نحن إذا حكّمنا أساس فكرنا ونفسيتنا بسلامة وعقلانية، فمن المفروض أن نرى كل كلامه القرآني سبحانه صلاحاً ولا سوء فيه، ولكن المشكلة في تفاسير السوء، وفتاوى السوء، ومن يسمّونهم بعلماء دين وهم مجرمون فاسدون... وكلامنا ليس اتهاماً للجميع بل للغالبية للأسف، ولا عذر لنا في الآخرة من اتباع كلامهم السيئ، لن يقبل تعالى إقفال عقولنا ورمي التهمة على علماء السوء، مبررين لأنفسنا ما فعلناه من سوء لأننا كنّا تبعاً لهم، لا، هذا عذر غير مقبول، وسنتحاسب كلّنا على كل ما فعلناه وكنا نراه سيئاً، أو لم نَرَ سوءه بسبب فساد قلوبنا...

{وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ}، طبعاً تكملة الجملة واضحة: {وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ}، من دار الدنيا. الدار المكان الذي ستدور فيه أمور حياتهم في الحياة التي ستأتي في الآخرة، وهو موصوف بالخير أكثر مما حصلوا عليه في الدنيا، ما في الدنيا كلّه اسمه متاع وهي أشياء نستفيد منها، أمّا ما في الآخرة فكله للسعادة، وفقط للسعادة.

{وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ}، ما أجودها وأحسنها من مكان تدور فيه شؤون حياة الذين اتقوا وتجنّبوا السوء وهو نفسه تجنب غضب وعقاب ربّهم سبحانه، مقابل التقوى هل سينال التقي ما يستحقّه؟ تجيب الآية بهذه الطريقة: يا لجودة وحسن ما سيناله المتقون، ولْنَرَ ما هو من الآية التالية.

بالنسبة لكلمة "خير" في استعمال القرآن كثيراً ما نستنسب تفسيرها على معنى "أفضل"، وأحياناً يصدق هذا المعنى بالتبعية من فحوى الكلام، ولكن بعض الاستعمالات القرآنية لنفس الصياغة تريك أنه لم يقصد بكلمة خير أن تكون رديفاً لكلمة أفضل، وكمثال واضح عن ذلك ما ورد في الآية 16 من سورة العنكبوت {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}، مرادفتها بأفضل في أمثال هذه الآية سيعطيك معانيَ غير دقيقة بل وغير مقبولة إلا إذا حملت معنى الأفضل على عموم المقابلة بين الأسوأ والأحسن، ولكن هذا ليس معناها بل هذا معنى كلمة خير، وكلمة "أفضل" في أشعار العرب قبل الإسلام محصورة بين الحسن والأحسن، لو قلت إنّ الإيمان أفضل لكم هذا يعني أنّ الكفر حسن والإيمان أحسن، لا، الإيمان خير لكم مما يعني ضمناً أنّ الكفر سوء لكم.

لم يستعمل القرآن كلمة أفضل بتاتاً، واستعمل التعبير بالخير وهو أوسع بالمعنى، وهو يقابل الشرّ كما في الآية 11 من سورة النور {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}...، واستعملها بمعنى ما يقابل الحسن والآخر أحسن وليس شرّاً، كما ورد في الآية 271 من سورة البقرة {إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}...، إبداء الصدقة ليس سوءاً وإنما إخفاؤها أحسن، وهنا يمكن استعمال كلمة أفضل.

يعني لا ترادف "خير" بـ "أفضل"، وهما في بعض سياق الكلام يتقاطعان تطبيقياً حيث يكون اللذان تقارن بينهما كلاهما جيدان، عندها يصدق قول خير أو أفضل، ولكن حين يكون الكلام عمومياً يشمل ما كلاهما جيدان ويشمل أيضاً ما أحدهما جيد والآخر سيء، ويشمل الوصف مطلقاً بمقارنة الحسن مع مطلق الوصف بالحسن، حتى لو لم يكن هناك طرف آخر للمقارنة والمقارنة مع مطلق الوصف، كوصفه تعالى بخير الرازقين وخير الحاكمين... وهو تعالى بالمقارنة مع وصف الحسن مطلقاً كرازق وحاكم خير موصوف بذلك، كلمة أفضل ليست وصفاً صحيحاً لهذه الحالات وكلمة خير صحيحة.

(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ{31})
بشكل مختصر وافٍ كافٍ، للمتقين: {جَنَّاتُ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين وما يسبب السعادة، {عَدْنٍ}، للإقامة الدائمة وليست مؤقّتةً، لن تخرب ولن يضطروا لتركها ولا لأي سبب.

{تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، من تحت أشجارها تمر أنهارٌ من مختلف أنواع السوائل، والإشارة هنا لروعة المناظر الطبيعية، علماً أنّها أنهار لذيذة الطعم من مختلف أنواع المشروبات كما تقرأ في الآية 15 من سورة محمد {مَّثَلُ الْجَنَّةِ

الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى}... لا تبالغ في التصوّر وتظن أنّ الجنّة منطقة مستنقعاتٍ، لا، كما في الدنيا نبتهج برؤية الأنهار والجداول مع المروج والأشجار والورود... تقرّب الآية الصورة لنا عن جمال الآخرة بمشهد يعجبنا من مناظر الدنيا.

{لَهُمْ فِيهَا}، للمتقين في الجنّات، {مَا يَشَاءُونَ}، أمامهم خيارات عديدة وأي شيءٍ يطلبونه سيجدونه، ونعلم من آيات أخرى أنّه يوجد المزيد فوق ما يطلبون لأنّ الجنّة في تجدّد دائم كما نفهم من الآية 35 من سورة ق {لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}، مهما سرح خيالهم فهم محدودون في الفكر، أمّا الإله سبحانه فلا محدودية لما يمكن أن يعطيه لمخلوقاته، اكتفت الآية هنا بلفت الانتباه فقط لتحقيق رغبات المتقين، وذلك في مقابل من ترك الإيمان متعلّقاً بتحقيق رغباته "السيئة" في الدنيا حيث في الآخرة سيتعذب ويهان...

{كَذَٰلِكَ}، بالذي ذكرته الآية، {نَجْزِي الْمُتَّقِينَ}، نعطي المقابل للذين تجنبوا السيئات وتحاشوا غضبه وعقابه تعالى وأطاعوا ولم يعصوا.

لاحظ أنّ الآية بكلمات مختصرة بيّنت الفرق الكبير بين ما سيحصل عليه المشركون، وبين ما سيحصل عليه المتقون، ولم تدخل في التفاصيل لأنّ التركيز فيها على الشخص، على ما يرغب، فالبيئة التي حوله هي بساتين وحدائق، ويمكنه التحكّم في كل ما يريده في تلك البيئة، تكلّمت سور أخرى عن قصور وحور... ولكن هنا الآية تريدنا أن نفهم أنّ الأمور مفتوحة، وليست محدودة بأي شيء، هل يريد التقي حفلة من أي نوع كان... وثياباً من تفصيل ولون ما... ويريد بيتاً قصراً كوخاً... بشكل ما في مكان ما... ويريد ألواناً وزخارفَ وتنسيقاً وهندسةً ما... ويريد مملكةً وخدّاماً وحشماً... أكبر تصوّر يمكنك أن تتصوّره سيكون موجوداً هناك، ومن القرآن نعلم أنّه أقصى ما يمكنك تصوّره الآن عن الجنّة، لن يكون أكبر من نقطة بالنسبة للمحيطات.

(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{32})
المتقون، {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ}(ع)، تأخذهم الملائكة بالتمام، {طَيِّبِينَ}، صالحين وليسوا خبيثين وهذا الوصف لهم ناتج عن إيمانهم وعملهم الصالح، {يَقُولُونَ}، يقول الملائكة(ع) لهم:

{سَلَامٌ عَلَيْكُمْ}، فلن يحصل معكم أي شيء سيئ، ولن تشعروا بأي شيء يزعجكم، {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، كنتم تعملون الصالحات وسبّبت لكم الدخول إلى المكان الموصوف بروعة ما فيه.

لا تقصد الآية أنه من لحظة موت التقي سيدخل إلى الجنة، مع أنه على أرض الواقع هذا بالنسبة للمتّقي ما سيحصل، لأنه سيموت، ويفقد وعيه، ولن يدرك ولن يشعر بمرور السنين، وسيفتح عينيه ليجد نفسه في الآخرة، وتقول له الملائكة(ع): سلام عليك... فلا تفهم من الآية قصدها الفوريّة في دخول الجنّة "في الآخرة" بعد موت التقي مباشرة، لا، فالمقتولون في سبيله تعالى يدخلون جنّةً موجودة الآن في الدنيا كما ورد في الآية 169 من سورة آل عمران {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}، فهم مباشرة يدخلون إلى جنّةٍ مؤقتة هنا في الدنيا قبل جنّة الآخرة الخالدة، ولا يحق لنا أن نعمّم من رأينا ونجعل كل المتقين في الجنّة المؤقتة التي تعارف عليها الناس بتسميتها بجنّة البرزخ، هذا شيء لم يقله القرآن، بل تحدّث القرآن بصراحة ووضوح فقط وفقط عن حالة المقتولين في سبيله تعالى أنهم يدخلون إلى جنّةٍ مؤقتةٍ، وأما البقية من البشر، وكما يبدو من القرآن، فهم يموتون ويفقدون وعيهم، كالنائم، ولا يفتحون أعينهم حتى يوم القيامة من الموت.

سياق الكلام في الآيات هنا عن جنّة الآخرة، عن مصير المتقين في الآخرة.

نلاحظ تعبيراً دقيقاً في الآية، فهي تتحدّث عن آخر حالة وصل إليها الإنسان حين مات، فإن كان تقيّاً كل عمره وفسد في آخره، طار كل شيء، ومات خبيثاً. وإن كان مشركاً كل عمره، وآمن وتاب في آخر حياته "قبل اليأس من الحياة مثلما حصل مع فرعون" فهذا مات طيّباً.

بقي شيء نضعه دائماً في بالنا، لدينا في ثقافتنا الدينية تعابيرُ نتساهل فيها بشكل يتعارض مع ما يقوله القرآن، نقول عمّن مات إنّه انتقل إلى الآخرة، علماً أنّ الآخرة تأتي بعد انتهاء الدنيا تماماً، بعدما تتبدّل السماوات والأرض، فتأتي في

الآخر حياة أخرى، وكما ترى كلام الناس الذي يشابك جنّة الآخرة بعالم الدنيا هو كلام غير صحيح، وسأضرب لك مثلاً آخر عن ذلك، في المنامات نرى الصالحين أو الأموات يتنعمون في جنّة الآخرة... وفي بعض الروايات كلام عن رؤية جنّة الآخرة الآن، وأنّ فيها أناساً ماتوا قبلنا ويتنعمون فيها، على أساس أنها موجودة الآن، وهذا غير صحيح، جنّة الآخرة ونارها غير موجودتين الآن، وسيخلقها تعالى حين تنتهي الدنيا وتتبدّل السماوات والأرض، وعندها تصير الآخرة.

آيتنا هنا تتحدّث عن جنّة الآخرة، وتختصر الزمن بين موت التقي حين تتوفاه الملائكة(ع) ويفقد وعيه ولا يشعر بمرور الزمن... وتنتهي الدنيا بتبدّل السماوات والأرض... ونصير في الآخرة، ويبعثنا تعالى ويحشرنا ويحاسبنا... وبعدها: ادخلوا الجنّة.

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ{33}
المشركون ماذا ينتظرون حتى يؤمنوا؟

{هَلْ يَنْظُرُونَ}، فلا يؤمنون الآن وهم في فترة انتظار، {إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ}، فإذا أتت الملائكة(ع) فعندها سيؤمنون!؟ كما قرأت من الآيات السابقة، فالملائكة(ع) تأتي لتتوفاهم، فماذا ينتظرون؟ لماذا التأخير حتى يؤمنوا؟ هل ينتظرون حتى تأتي الملائكة(ع) الموكلة بتوفّي الأنفس ومن بعدها سيؤمنون!

{أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ}، فهل ينتظرون حصول شيء يقرّر حصوله المسؤول عنك من مستوى إلهي، فينزل عليهم عذاب يميتهم ولا يتركهم ليموتوا في الظروف العادية، وهل هذا ما ينتظرونه؟

الملائكة(ع) التي تعمل على توفّي الأنفس مثلها مثلما تقف أنت على آخر آلة تصنع الخبز، فتعرف أن مسار العجين في هذه المدّة وهذه الظروف ستكون نهايته رغيفا، فتقف على آخر الخط لتتناوله، وهكذا تعمل الملائكة(ع) على أخذ الأنفس حين يحين وصول حياتها إلى خطّ النهاية، بالمرض أو بالقتل بحادث... ولكن الملائكة(ع) أبدا لا تقدّم ولا تؤخّر في موت أحد، أمّا الله سبحانه فأحيانا يأمر ملائكته(ع) باستيفاء الأنفس في مواعيد يعلمها هو تعالى لوحده والملائكة(ع) لا يعرفونها، وهذا يحصل حين يأمر سبحانه بنزول عذاب على مجموعة من الناس.

بعبارة أخرى، هل ينتظرون أن تأتي الملائكة(ع) لتتوفاهم في الظروف العادية، أو ينتظرون أن يأتي أمر ربك سبحانه بإنهاء حياتهم بكارثة لتتوفاهم الملائكة(ع) في ظروف خاصة؟ والموت قادم لا محالة، وعلى كلتا الحالتين، فماذا ينتظرون ولماذا تأخير الإيمان؟

{كَذَلِكَ فَعَلَ} "فانتظر" {الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}، المشركون الذين كانوا قبلهم ماتوا ولم يؤمنوا، وطبعا تعلم أن نهايتهم إلى النار فهل يا من تسمع هذا الكلام ستنتظر موتك ولن تتّقيَ الآن.

{وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ}، حين ماتوا وهم على الكفر فهذا شيء غير جيّد وهو ناتج عن عملهم هم وسبحانه لم يمتهم كفّارا وكان عندهم قابلية الإيمان، فسبحانه عادلٌ منصفٌ معهم حين أماتهم، {وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}، لأنهم لم يكن معهم حقّ فيما سبّبوه لأنفسهم، حيث هم بقرار منهم أشركوا ولم يتقوا، وهم سبّبوا لأنفسهم الموت على حالة الخباثة فسببوا لها العذاب، لأنهم كانوا يعلمون أن الموت قادم حتما، ولم يحسبوا حسابا له، ولم يعتبروه نهاية لدنياهم وبداية لآخرتهم كما أخبرهم ربهم سبحانه، فهم يتحمّلون المسؤولية.

ننتبه، كلام القرآن عن رؤية الملائكة(ع) كان له جوانب متعددة، فلا تخلط بينها، حيث سورة الحجر تحدّثت مطولا عن طلب الكفّار لرؤية الملائكة(ع) حتى يؤمنوا، أمّا هنا فالكلام عن انتظار الملائكة(ع) التي تتوفاهم، وبدل أن تعبّر الآية عن انتظارهم للموت حتى يؤمنوا، عبّرت عن انتظارهم لمن سيقوم بتوفّيهم. وتفهمها بعبارة أبسط بمثال تقريبي عمّن يقول بأن الدين جيّد ولكني الآن أستصعب تطبيقه، فعندما أكبر سأصلّي وأصوم وأتوقّف عن الأعمال السيئة... فيكبر ولا ينفّذ ما قاله، فتقول له: ماذا تنتظر لتؤمن، هل تنتظر أن تموت؟ وهنا نفس الكلام مع الكافر، حيث القرآن وضّح له ونبّهه وأنذره، فماذا ينتظر حتى يؤمن؟ هل ينتظر حتى تتوفاه الملائكة أو يأمر تعالى بموته؟

(فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ{34})
على كلتا الحالتين من الوفاة، وهم منتظرون:

{فَأَصَابَهُمْ}، المشركين، {سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا}، لأنهم قاموا بأعمال سيّئة، وهذه ينتج عنها العقاب بالتعذيب، فأصابتهم النتيجة السيّئة لأعمالهم، فلن تمرّ من قربهم، ولن تمرّ عليهم سهلة، بل ستصيبهم ويشعرون بها، {وَحَاقَ}، أي التفّ وأحاط، {بِهِم}، حيث العذاب من كلّ الجوانب ولا يمكنهم التفلّت والهرب من، {مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، حيث استهزؤوا من العذاب، فتعاملوا معه بخلفية الاستهانة والاستخفاف به فاعتبروه كلاما بلا قيمة واستهانوا به، وها قد التفّ عليهم ما وعدناهم به ولا يمكنهم الخلاص منه.

لاحظ وانتبه، نحن عادة وبما نحن مشحونون به من ثقافة دينية، وأثناء تفسيرنا للآيات سنبدّل كلماتها بخلفية تراثنا الثقافي، حيث سنقول إنّ معاصيهم ستصيبهم وتسبب لهم العذاب، وهذا الكلام صحيح، لكنّ كلامه تعالى في كل القرآن يشير لشيء آخر، حيث يشير إلى السوء الذي نعلمه وفعلناه، ولنفهم ذلك بالعمق تصوّر حالة مواطن في بلد لديه قانون أنّ الحق دائما على صاحب السيارة حتى لو كانت مركونة واقفة ووقع عليها شخص من مبنى، فهذا قانون ظالم، حيث إنّ صاحب السيارة يرى أنه لم يرتكب أي سيئة، وأنا وأنت نرى ذلك أيضا، وبالرغم من ذلك سيحاسبونه بحسب قانونهم، وهكذا نفهم كل كلام القرآن المبني على تقييمنا نحن للأعمال السيئة، وحين نتحاسب عليها في الآخرة لن نشعر بأنهم يظلموننا لأننا متفقون معهم على تصنيف ما قمنا به أنّه كان سيئا.

سبحانه جعل فينا قابلية التمييز بين الخير والشرّ، وعلى هذا الأساس سيحاسبنا إن فعلنا ما نعلم أنّه سيّئ، وفي نفس الوقت سبحانه أنزل علينا عقيدة وشريعة مبنية على الحقّ، وهكذا ستتماشى أوامره تعالى مع ما نعرفه من الخير والشرّ، ويصير عمليا فعلنا للسيئات متطابقاً مع معصيته تعالى. لكن إذا فسّرنا كل كلامه تعالى بناء على التطابق بين فعل السيئات والمعصية، ففي بعض الآيات سيضيع المعنى الأساسي للكلام.

مثلاً وكما ترى من القرآن، لا ينقل لك أنّ أحداً ما في الآخرة اعترض على العقاب الذي حُكِمَ به عليه لأن ما فعله لم يكن سيئاً، نعم هم سيدّعون أنهم لم يفعلوا سيئاً، حيث مرّ ذلك معك منذ قليل في الآية 28، حيث سيتبرّأون من أعمالهم وينكرون أنهم فعلوها، مع إقرارهم بأنها أعمال سيئة وإن ثبت أنهم فعلوها فهم لن ينكروا أنها أعمال سيئة.

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ{35})
{وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا}، الذين قالوا إنّ الله تعالى لديه شركاء في الألوهيّة:

{لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة ولو قرّر أن نوحّده في العبادة فنعتبر أنفسنا مفروضاً منّا الطاعة له فقط، فعندها لَما تركنا نشرك به. كما تقول: ذهبتم من دوني. وتقصد أنكم تركتموني وذهبتم مع غيري، هنا يقصدون أنه سبحانه تعالى لو أرادهم أن يؤمنوا لكان أجبرهم على الإيمان، أو فعل لهم أو بهم ما يجعلهم يؤمنون، يعني هو يرانا نعبد غيره فلماذا تركنا ولم يتدخّل ليغيّرنا؟

{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ}، {مَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ}، لم يتركنا نقول عن بعض الأشياء إنّها حرام ممنوعة، لو شاء لكنّا نحرّم فقط ما يقوله هو حرام ولم يتركنا نحرّم ونحلّل كما نريد.

من ناحية العقيدة والتشريع إن كانا مخالفين للحقّ ولأوامره تعالى فهم يلقون اللوم عليه تعالى لأنه تركهم ولم يتدخّل ليمنعهم.

{كَذَلِكَ}، بهذا النوع من الكلام والتصرّف، {فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}، حيث استدلوا على رضاه سبحانه عن تصرفاتهم بأنه تعالى لديه القدرة على تغييرهم إن لم يعجبه ما يدينون به، وبما أنه تعالى تركهم فهو راضٍ عنهم. الآية تردّ عليهم بأنه ليس آباؤهم فقط كانوا مشركين ولم يغيّرهم سبحانه بل هناك قبلهم أمم كثيرة مشركة وهذا ليس دليلاً على رضاه تعالى عنهم، لأنّ الذين كانوا قبلهم أيضا جاءتهم كتب ورسل ولم يتبعوهم وأشركوا، {فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ}، على الذين نرسلهم للناس، {إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}، إلا توصيل الكلام الإلهي بشكل تامّ كامل واضح؟ حيث قام الرسل بتوصيل خبر

منه سبحانه لكم "ولمن كان قبلكم" بأنه لا يرضى عما تفعلونه، ولديه عقاب شديد لمن يشرك... فكيف تقولون إنه ترككم ولم يشء هدايتكم؟ فما معنى الرسل والكتب التي أنذرتكم؟

لاحظ قولهم: الله يرانا نشرك ونخترع شريعة، سبقنا أهلنا أيضاً، ومرّ زمن طويل على هذا المنهاج وهو ليس جديداً، طالما الله يرانا ومنذ زمن بعيد نشرك، فلماذا تركنا؟ لو شاء أن نتغيّر لكان فعل شيئا ما؟! أجابت الآية بأنه تعالى فعلاً بيّن لهم أنه لا يقبل ولن يمرّر ما يفعلونه، بيّن ذلك لهم عبر رسله وكتبه، وركّز على هذه النقطة: جاءكم رسول من الله تعالى. أبلغكم أوامر ربكم بشكل واضح، حيث وصلكم خبر أن ربكم غير راضٍ عن شرككم وتشريعكم، وهذا يكفي حتى تعلموا أنه تعالى لم يترككم لأنه راض عنكم، بل بالعكس لم يترككم، وإلا فما معنى إرساله تعالى رسله ليخبروكم بأنه سيعاقبكم على شرككم وتشريعكم؟

عموم مفاهيم القرآن تركّز على منحه تعالى لنا حرية الإرادة والاختيار وأنه تعالى لن يجبرنا على الإيمان، بل سيتركنا لنختار وبعدها نتحمّل نحن نتيجة ما اخترناه، وبالنسبة للتعابير القرآنية التي تستعمل المشيئة: لو شاء الله... شاء الله... بكلّ بساطة تقصد أنه تعالى أمامه خيارات عديدة، واختار منها. وبربط هذا المفهوم مع بقية مفاهيم القرآن ترى أنه تعالى أخبرنا صراحة وبوضوح أنه حكيم عليم بصير... حين يشاء سبحانه فعن حكمة يشاء وليس عن مزاجية أو عبث. ومن أهم مفاهيم القرآن التي يخبرنا بها تعالى عن نفسه، أنه تعالى صادق في وعوده، ولا يمكن لأي شيء منعه تعالى من تحقيق ما يقوله، وبناء على هذه المفاهيم، فلا معنى لكلام المشركين حين يقولون إنّه تعالى يرانا مشركين ولم يتدخّل ليغيّرنا، ولم يجبرنا على التغيّر، مما يعني أنه راضٍ عن حالنا. لا، نحن في مرحلة الامتحان، وهؤلاء سقطوا فيه، حيث أرسل سبحانه رسله بالبلاغ المبين وأخبر الجميع بأنه سيعاقب من يخالف دينه، فكيف تستنتجون رضاه تعالى عنكم بالرغم من وصول كلام مع رسله ويهدّدكم فيها بالعقاب على الشرك؟

كما ترى المشكلة عند المشركين "وعند العديد من المسلمين" هي في فهم جملة "يشاء الله" بشكل غير صحيح، على أساس أنه تعالى شاء أن نهتدي، رغب فأراد وقرّر أن نهتدي، وعندها من المستحيل أن نشرك، إذن هو تعالى لم يقرّر أن نهتدي. بينما هي جملة تشير لخيارات عديدة أمامه تعالى ولو شاء لجعلنا كلّنا غصباً عنّا مبرمجين على الإيمان كالآلات، ولكنه تعالى لم يشء ذلك.

الآن ننتقل إلى الشقّ الثاني من الكلام، إن كان سبحانه تركنا نختار، فهل حصلنا على تفويض منه تعالى في الاختيار وصار لدينا قدرة قاهرة لقدرته تعالى، حيث تعالى يشاء أن نؤمن ولكن نحن شئنا أن نكفر، وغلبت مشيئتنا مشيئته تعالى؟ وكما ترى الكلام القرآني استعمل كلمة "يشاء الله" كثيراً ليخبرنا أنه تعالى أمامه خيارات عديدة حيث قرر تركنا نكفر إذا نحن اخترنا ذلك، وهذا بموجب قراره السابق سبحانه بمنحنا حرية الإرادة والاختيار، وبموجب قراره السابق سبحانه بمحاسبتنا في الآخرة على ما قررناه، وهذا ما سبق وقالته الآية 9 من هذه السورة {وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}. وعلى نفس المعنى العديد من الآيات منها الآية 99 من سورة يونس {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}.

لن يجبرنا سبحانه على الإيمان ولا على الكفر، ولسنا نملك قدرة قاهرة نفرض فيها إرادتنا عليه تعالى حين نؤمن أو نكفر، لأنه سبحانه خلقنا بهذه الإرادة الحرّة حتى يحاسبنا على اختياراتنا، وفي أي لحظة يمكنه تعالى أن يزيلنا من الدنيا، أو يأخذ منّا حرية الإرادة...

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ{36})

{وَلَقَدْ بَعَثْنَا}، أنهضنا أقمنا، {فِي كُلِّ أُمَّةٍ}، في كل جماعة من الناس لهم امتداد تاريخي ولديهم "آراء وتصرفات، ثقافة" مشتركة، بعثنا، {رَسُولًا}، شخصاً يحمل لهم الرسالة من الله تعالى، ويقول فيها: {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ}، فتصرّفوا على أساس أنكم مفروضٌ منكم طاعة صاحب هذا الاسم المحدّ المميّز الله تعالى، فأطيعوه فكونوا على دينه،

{وَاجْتَنِبُوا}، فلا تقربوا وابتعدوا عن، {الطَّاغُوتَ}، عن الطغيان عن أي نوع من العقيدة أو التصرّف بما لا يحق لكم، فالطاغوت كلمة عامة تشمل الشخص الطاغي الذي ليس في مكانه الصحيح أو لا يتصرّف بشكل صحيح، وتشمل الشريعة والعقيدة والسلوكيات السيئة والتي لم ينزلها سبحانه.

إذن لم يشء سبحانه لكم الشرك بدليل إرساله الرسل لينذروكم من الشرك واجتناب الطاغوت.

بعدما قال الرسل هذا الكلام للأمم: {فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ}، حيث وضعه تعالى على الشيء الصحيح الذي يوصله للغاية الصحيحة، سيكون طيّباً، عبر اتباعهم لرسله سيصلون إلى مرضاته تعالى والجنّة، {وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ}، حيث صدق وانطبق عليه الوصف بأنه على الشيء الخطأ الذي يوصله لنتيجة غير مرغوبة، سيكون خبيثاً، لأنه لم يَتَّبِع الرسل واتَّبَع الطاغوت فانطبقت عليه أوصاف الضلال.

{فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ}، من بعد هذا الخبر عن إرسال رسول في كلّ أمة تحرّكوا وانتقلوا في الأرض، {فَانظُرُوا}، ومن بعد السير وجّهوا اهتمامكم العام، {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ}، ما عَقَبَ، وما كان خاتمة ونهاية أعمال، {الْمُكَذِّبِينَ}، الذين لم يصدّقوا ما يقوله الرسل، ماذا حلّ بهم؟ سترون مدناً خربة هنا وهناك، وتسمعون بقصصهم وأنّ كوارثَ حصلت لهم، أليس هذا كافياً لتنبيهكم من العقاب الإلهي على الشرك واتباع الطاغوت؟ وأنه تعالى لم يشء لكم الشرك به؟

لاحظ أنّ كلمة طاغوت تبدو غريبة بعض الشيء، حيث إنها غير منتشرة الاستعمال، ويبدو أنها اشتقاق قرآني "من الطغيان" وربما لم يسبق أن استعمله العرب، أو ربما استعملوه قبل نزول القرآن ولكن لم يصلنا أثر عن ذلك منهم عبر أشعارهم، ومثلها حالة كلمة إستبرق، من البديهي أنّ أشعارهم قبل الإسلام لم تستعمل كل كلمات اللغة العربية وكل الاشتقاقات من الكلمات.

أشار القرآن بكلمة طاغوت للشخص وللقانون وللشريعة... التي تخالف حدود الحقّ والصلاح وهي نفسها الحدود الإلهية، حيث إنّ أي مخالفة هي طغيان، وهي خروج عمّا حدّده لنا تعالى، فإن اعتبرت نفسك عبداً لإنسان أو لإله غيره تعالى فقد طغيت وعبدت الطاغوت، وإن اعتقدت بعقيدة تخالف العقيدة الإلهية فقد طغيت وعبدت الطاغوت... وهكذا، فالطاغوت صفة عامة لكل أنواع وأشكال الطغيان، والقرآن قصد بها الطغيان على الأوامر الإلهية.

بالنسبة لما تقوله الآية عن بعثه تعالى في كل أمّة رسولاً، فراجع في ذلك دراسة الآية 47 من سورة يونس {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}، وخلاصة الكلام أنّ الأمة هي عموم ما له امتداد تاريخي، والنبي محمد(ع) كنموذج هو رسول لكل الناس من زمنه إلى يوم الدين، وهذه أمّته، وكل الناس في كل القارات هو رسولها إلى انتهاء الدنيا، وقبله الرسل أيضا لكل الناس... ولم يقل القرآن إنّ لكل قوم أو قرية أو بلد رسولاً، بل قال لكل أمّة رسولٌ.

(إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ{37})
{إِنْ تَحْرِصْ}، إن تعمل بطريقة تريد بها ضمان النتيجة التي تريدها، وتعمل بجهد مع رغبتك، {عَلَى هُدَاهُمْ}، على وضعهم على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، {فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ}، فمن أضلّه الله تعالى فوضعه على الشيء الخطأ فلن يهتدي ولن يصير على الشيء الصحيح مهما بذلت من جهد لهدايته، {وَمَا لَهُمْ}، للضالين، {مِنْ نَاصِرِينَ}، فلن يجدوا من يحقّق لهم ما يريدونه، حين سنعذّبهم في الآخرة أو في الدنيا فلن يجدوا من ينجّيهم من العقاب.

نلاحظ أنَّ الآيات السابقة تحدّثت عن البلاغ الإلهي عبر الرسل للناس، وهنا تتحدّث مع الرسول، مع الحامل للرسالة، ومعك كمؤمن، فأنت وظيفتك توصيل كلامه تعالى فقط، وحتى حرصك الشديد على هدايتهم غير مطلوب منك، بل أصلا لن يؤدّي إلى أي نتيجة مع الذين أضلّهم سبحانه، فالضالّ لن يهديه تعالى ولن يجد من يهديه.

ننتبه دائما، فسبحانه وتعالى لا يجبر أحدا على أن يؤمن، ولا يجبر أحدا على أن يَضِلّ، فلا يتلاعب بعقل أي إنسان ليهديه أو ليضلّه غصبا عنه، وهذه قاعدة أساسية ثابتة، وتعابير القرآن المتنوّعة والتي استعملت كلمة "مشيئة"، فكلُّ المعاني سهلة وواضحة إن استبدلت كلمة "مشيئة" بخيارات متعددة يختار تعالى منها ما يشاء. مع الانتباه دائما لكلامه الصريح سبحانه عمّا شاءه. حيث أخبرنا مرارا وتكرارا أنه تعالى شاء إدخال المؤمنين العاملين للصالحات إلى الجنّة، وإدخال الكافرين إلى النار، وأخبرنا تعالى أنه شاء أن لا يجبر أحدا على الكفر ولا على الإيمان، فلا تفسّر أي جملة قرآنية بما يخالف ما أخبرك تعالى أنه شاءه، ومن بعد ذلك فالأمور سهلة.

بعض سياق الآيات يريدك أن تفهم أننا لا نشاء إلا أن يشاء تعالى تركنا نشاء، حيث شاء سامحا لنا أن نشاء. وحرية الإرادة التي منها نشاء، ممنوحة منه تعالى لنا، ونحن لا نشاء بقدرة قاهرة لما يشاءه تعالى، ولو قرّر سبحانه شيئا ما، ونحن في نفس المسألة قررنا شيئا آخر، فسيحصل ما شاءه تعالى. وكمثال على ذلك ما قالته الآية 29 من سورة التكوير {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}.

بعض الآيات تشير لنسبة كل شيء له تعالى، مثلما نصفه تعالى بأنه رازقنا علما بأننا نحن نزرع ونحصد ويصير لدينا رزق، ولكن بما أنه تعالى هو خلقنا ومنحنا القدرة على تجميع الرزق من البيئة التي خلقها تعالى وأتاح لنا فيها الرزق، فمن هذه النظرة فسبحانه رازقنا، ونفس الشيء سبحانه أحيانا علما أننا وُلِدْنَا من الوالدين، وسبحانه أماتنا علما أننا متنا بالمرض أو من حادث أو قتلنا أحد البشر... ونفس الشيء، سبحانه شاء لهذا الضلال ولذاك الإيمان لأنه هو تعالى صمّمنا بحيث إذا أنكرنا الحقّ وأحببنا السوء فسنكون ضالّين، وإذا صدّقنا بالحق وكرهنا السوء فسنكون مهتدين، وبناء عليه، سبحانه مثلما نصفه بأنه رزقنا وأطعمنا وأحيانا... وهدانا وأضلّنا.

إذا حافظت على المعنى اللغوي لكلمة "شاء" ومشتقاتها، بأنها تشير لخيارات عديدة للاختيار منها، فكل الكلام القرآني سهل الفهم، وأمّا أبحاثهم عن المشيئة والتي تداخلت مع اصطلاحاتهم، فلا تفسّر بها القرآن، لأنَّ تلك أبحاث فكرية ولها مصطلحاتها، فلا تجعلها حاكمة على فهمك للقرآن بل حاكم كلامهم انطلاقا مما فهمته أنت من القرآن.

من يفسّر كلامه تعالى على معنى أنه تعالى أجبرني على الكفر أو على الإيمان، فهو من داخل نفسه يعلم بأنه حرّ في اختياراته، وهو فقط يضحك على نفسه بلعبة شيطانية رخيصة ليجد مبررا لارتكابه السيئات على أساس أنه مجبور على فعلها فهو بريء، ويفسّر قوله سبحانه في قرآنه أنه يضلّ من يشاء... وشاء أن يضلّني ولا دخل لي بضلالي... فهل هذا ما يريدون قوله؟ وهل هذا ما يفسرون به القرآن؟ بالتفاهات؟ إذاً فليرتكبوا السيئات، وليضحكوا على أنفسهم وعلى أمثالهم، وليقولوا بأنهم مجبورون، لأنَّ جهنم دائما لديها مكان للزبائن من هذا النوع، فلا يقلقوا، لأنَّ أماكنهم محجوزة.

(وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ{38})
أهلاً بك. لقد قمت بمراجعة النص وتدقيقه لغوياً وإملائياً ونحوياً بدقة، مع الالتزام التام بكافة الشروط الصارمة التي تفضلت بذكرها، وخاصة تقليل حرف "الفاء" وتقليل "قد"، وتحريك الكلمات القرآنية، والحفاظ على بنية الفقرات.

إليك النص المعالج (الكلمات التي طالتها التعديلات مميزة بالخط العريض):

{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ}، أكّدوا به تعالى، {جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ}، بأقصى جهد يمكن أن تصل إليه أيمانهم بأقصى قوّة للتأكيد، مثلاً أقسموا بالله العلي العظيم...: {لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ}، أي إنسان فقد وعيه ولم يعد يفعل وينفعل انتهى ولن يتم بعثه وإنهاضه من جديد إلى الحياة. {بَلَى}، نفي لقولهم إنَّهُ تعالى لن يبعث من يموت، بل بالتأكيد سيتم بعث من يموت، {وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا}، وعد وقال لنا سبحانه إنَّهُ سيبعثنا إلى الحياة من جديد، ولن يخلف في كلامه ولن يتراجع عنه ولن يغيّر قراره. {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}، وتكملة الجملة: أنهم لا يعلمون، أن وعده تعالى حق، يستهترون بما يسمعونه من الرسل، ويقولون: ما هذا التخريف، هل يقول لكم الله تعالى إنَّنَا من بعد موتنا سيعيد إحياءنا!؟

لاحظ، لم تقل الآية إنَّ أكثر الناس ليس لديهم علم بهذا الوعد الإلهي، بل ليس لديهم علم بأنَّ الوعد الإلهي حقيقي، لأنهم ينكرون صحّة ما يقوله الرسل، لديهم الخبر ولكن ليس لديهم العلم بصحّته وهم ينكرونه.

من الآية بعد التالية نفهم أنَّ آيتنا هنا تشير لنفيهم التصديق بالبعث عموماً، من تكذيبهم للكلام المنقول عنه تعالى، برأيهم أنَّ ما يقوله الرسول محمّد(ع) عن بعثنا بعد الموت أنَّهُ كلام منه تعالى، هذا كذب لم يقله تعالى، ومن ناحية ثانية هم لا يصدّقون بإمكانية رجوعنا إلى الحياة بعد الموت.

بالنسبة لمسألة إنكار الكفّار لإمكانية رجوع الميّت إلى الحياة، في الكتب بحوث حول الشيء الذي يصير ممحوّاً بالكامل من الوجود، كيف يرجع؟ الذي سيرجع سيكون نسخة ولن يكون الأصلي لأنَّ الأصلي اختفى، ويقولون إنَّ هذا ما قصده الكفّار هنا، وسواء أكان هذا هو الأساس "الفلسفي" لما يقولونه أم يوجد غيره، فالجواب القرآني واحد: سترجعون حتماً. بكل بساطة الخالق يقول سترجعون، لماذا تتكلمون في موضوع يفوق قدرتكم على الفهم؟ ماذا تعرفون عن كيفيّة الخلق؟

وماذا تعرفون عن موت كل شيء؟ عن فناء كل شيء؟ مَن قال لكم إنَّنَا "ننعدم" عندما نموت؟ ومن قال لكم إنَّهُ تعالى لا يمكنه ردّ المعدوم؟ ولمزيد من التوسّع حول هذه النقطة راجع دراسة الآية 67 من سورة مريم {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}.

معلوم لك أنَّهُ تعالى لم يخبرنا بأي شيء بلا دليل عليه، ومسألة العودة إلى الحياة عليها نماذج ذكرتها سورة البقرة بداية من الآية 243 {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ}، مروراً بالآية 259 {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، والآية 260 {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}. ثم الآية 49 من سورة آل عمران نقلاً عمّا فعله النبي عيسى(ع) {... وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ...}، وبعدها العديد من الآيات التي تلفت انتباهنا للخلق اليومي للناس والحيوانات والنباتات، وإحياء الأرض بعد موتها من هطول المطر وخروج النبات...

هنا يخبرنا سبحانه بأننا سنرجع إلى الحياة، ولم يقل لنا الطريقة "الآلية" حتى تعلّق عليها برأيك الفلسفي أو التجريبي، بل فقط أخبرك، وفقط أخبرك السبب: حتى يحاسبك ويجازيك. وأما كيف وبأي طريقة، فأصلاً القرآن عادة لا يذكر آليات حدوث أي شيء.

لنتحدّث من القرآن عن جانب من موضوع بعثنا، تاركين كتب الفلسفة والتحليلات، كلنا سنموت ويصير جسدنا بلا حراك، ويتحلّل، ولكن المقتول في سبيل الله تعالى إنَّهُ فوراً يدخل إلى جنّة مؤقتة في الدنيا، مع أن جسده هنا أمامنا يتحلّل ويصير تراباً، وتقرأ ذلك صراحة في الآية 154 من سورة البقرة {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ}، يعني بطريقة ما ينقل سبحانه وعينا وذاكرتنا لنتشكّل من مادة مختلفة، والمشهور في عموم الثقافة الدينية للمسلمين ولأهل الكتاب أن الروح أو النفس أو كلاهما معاً، يبقيان بعد موت جسدنا، ويلبسهما تعالى في جسد جديد في الآخرة، ولكن ننتبه جيداً، في القرآن لن تجد لا بالتصريح ولا بالتلميح كلاماً عن الروح أو النفس يفيد ذلك، وهناك بعض الجمل القرآنية التي توحي بوجود شيء غير الجسد واسمه "النفس" ولكن بالتدقيق في كلام القرآن عن استعماله لكلمة نفس، لن تجد توافقاً بين ما قالوه وبين استعماله لها، لأنَّ النفس في مختلف تعابير القرآن تعبّر عن الشخص، الفرد، الواحد من الناس... ولا تعبّر عن كيان منفصل أو مختلف عن الجسد.

أهم شيء يجب تثبيته في فكرنا أنَّ القرآن في مختلف المواضيع التي تحدّث عنها لم يهتمّ بذكر آليات حدوثها واكتفى بذكر مراحل منها، كنزول الماء من الغيوم، ونشأة البشر عبر سلالة من طين، وخلق السماوات والأرض في ستة أيام... وتبدّل السماوات وبعده يوم القيامة... ومثله موتنا وإعادة بعثنا... قديماً وحديثاً ما زال الناس يصرون على بعض العناوين أنَّها دينية وجوابها يجب أن يكون في الكتب الدينية، وهذا مفهوم غير صحيح، وهو سبب لمشاكل كثيرة في فهمنا للكلام الإلهي وتفسيره، لأنَّ هذه الأمور وغيرها لم يذكر تعالى تفاصيل آليات حدوثها، والسؤال عن آليات حدوثها مطروح للبحث فيه لمن يرغب، وليس حكراً على علماء الدين، وليس ممنوعاً على علماء الطبيعة...

نعم، القرآن لم يذكر أي شيء بلا دليل على صحّته، وأهم الأدلة على إعادته تعالى لخلقنا هو نفس خلقنا أول مرة ولم نك شيئاً، ولم يكن ذلك عليه تعالى صعباً ولا سبّب له تعباً، فخلقنا مرّة ثانية لن يسبّب أي مشكلة له تعالى، راجع في ذلك دراسة الآية 15 من سورة ق {أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ}.

الآن يأتي السؤال: كيف سأعود أنا بذات نفسي إلى الحياة بعد أن أموت؟ والجواب غير مذكور آلية حصوله في القرآن، وعليه إشارة من حالة المقتولين في سبيله تعالى الذين يدخلون جنّة مؤقتة قبل الآخرة، حيث نفهم أنَّهُ تعالى يحتفظ لنا بوعينا وذاكرتنا، أمّا كيف، فلم يذكر القرآن ولا أي شيء صريح عن هذا الموضوع، ومن جديد أحيلك في هذا لدراسة الآية 67 من سورة مريم {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}.

انتبه جيداً، لا مانع دينيٌّ من إجراء التجارب على الحياة والموت لمحاولة التعرّف على آلية إعادة خلقنا، ولا مانع دينيٌّ من طرح النظريات عن ذلك، بل وانتبه أكثر، لا مانع دينيٌّ من محاولتنا نحن لإعادة الأموات إلى الحياة، ولو نجحنا فهذا سيكون شيئاً رائعاً، بل وسبحانه استفزّنا لمحاولة فعل ذلك عندما أخبرنا بحصوله على يد النبي عيسى(ع).

ملخّص الجواب القرآني عن إنكار بعض الناس للآخرة سيأتيك في الآية بعد التالية.

(لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ{39})
الحكمة من وعده تعالى ببعثنا:

{لِيُبَيِّنَ لَهُمُ}، ليصير واضحاً للناس، {الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ}، لأنَّ كل جماعة لها رأي غير الجماعة الأخرى، وهم مختلفون غير متفقين، وبعد البعث من الموت سيكون واضحاً لهم مَن معه حق، {وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا دينه تعالى والبعث... أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ، لأنَّهُمْ كذّبوا حين قالوا بأنَّهُ لا يوجد بعث، والله تعالى ورسله صادقون.

لاحظ أنَّ الآية تحدّثت عن الحكمة الإلهية من خلقنا هنا في الدنيا لنموت ويبعثنا ويحاسبنا، ولكن من وجهة نظر مختلفة، حيث إنَّ الكفّار كذّبوا الرسل حين لم يصدّقوا بأنَّهُ يوجد يوم قيامة من الموت، وبالتالي كذّبوا كلام الله تعالى، لأنَّ السبب الرئيسي ليوم القيامة: أن يتحاسب الناس. وهذا ما قالته الآية هنا بوصفها حالة اختلاف الناس بين مؤمنين وكفّار.
وواحدة من الأمور المهمة التي سيتحاسبون عليها، هي تكذيبهم لما قاله الله تعالى عبر رسله بأنَّهُ يوجد يوم للحساب.

(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ{40})
{إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ}، إذا قررنا حصوله، وإذا أردنا أن يحصل شيء ما، {أَنْ نَقُولَ لَهُ}، فقط نقول للشيء: {كُنْ}. تكوّن، صِرْ حاصلاً، تشكّل... {فَيَكُونُ}، فيصير مثلما أمرنا.

ما الذي دفعكم لإنكار عودتكم إلى الحياة مرّة ثانية؟ هل ترونه صعباً على الله تعالى؟ أم ترونه مستحيلاً عليه تعالى؟ خذوا علماً أنَّ أي شيء، ومهما كان نوعه، إذا أراد الله تعالى حصوله فإنه يحصل حتماً.

ننتبه، لأنَّ سبحانه لا يتكلّم مثلما نحن نتكلّم، ولا مثلما تتكلّم الملائكة(ع) أو أي أحد من المخلوقات، بل بطريقة إلهية خاصة به سبحانه وتعالى يقول ويتكلّم عموماً، ومثلما أنت تعبّر عن أبسط طريقة لصدور أمر منك بالقول: كن بيتاً، كن بستاناً... وتبدأ بعمله... فهناك طريقة إلهية ليقول للأشياء كوني كذا...

القول بالفم لإصدار الأوامر ليس الطريقة الوحيدة للقول، حيث بأمر منّي تتحرك يدي بلا قول من الفم، والقول بالفم ليس الطريقة الوحيدة للكلام حيث تكلّم سبحانه من الشجرة مع نبيّه موسى(ع) كما ورد في الآية 30 من سورة القصص {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}.

هنا الآية تتحدّث عن خلقنا من جديد، ويقول سبحانه بأن رجوعكم إلى الحياة يحصل بأمر بسيط منّي، لا يجهدني ولا يتعبني، حيث أقول: كن. فيحصل ما أريد. ولا تقصد الآية أنَّهُ تعالى يقول كلاماً أو صوتاً أو... بل تقصد الإشارة لصدور الأمر.

نحن "غالبية المنتمين لدينه تعالى" لدينا خلفية ثقافية تقبل أن الأمور تحدث بسبب الكلام، مثلاً بمجرد أن نطق النبي عيسى(ع) وقال للميّت: قم. الميّت قام. لاغين بذلك آليات حدوث الأشياء، وهي نفس حالة إيمان الغالبية منّا بأنَّهُ تعالى عجن تمثالاً من طين ونفخ فيه فتحوّل فوراً إلى لحم وعظم وصار البشري آدم(ع)، من دون أي آلية لتشكّله بل فوراً صار. وهذا الكلام غير صحيح، بل هو فهم منقوص لكلامه تعالى، على أساس المفهوم الذي انتزعوه من كلامه تعالى، لماذا أصلاً سيعجن سبحانه الطين على شكل إنسان؟ فليحدث هذا فوراً من لا شيء حين يقول تعالى: كن آدم.

كما ترى هذا المفهوم غير الصحيح منتشر مسبّباً تفاسير غير صحيحة لكلامه تعالى التي تشير للمراحل ولم تشر للفورية.

هنا الآية لم تقل إنَّ الأمر الإلهي يُنَفَّذُ فوراً من دون المرور بمراحل، لا، لأنَّ ما نعرفه من القرآن أنَّ حصول الأشياء يستغرق وقتاً لأنها أشياء مركّبة مؤلّفة من أشياء، لأنَّ طبيعتها مركّبة وتحتاج لوقت لصنعها.

إذاً، لا يحتاج ربنا تعالى لبذل أي جهد حتى يفعل ما يريد، فقط يصدر منه الأمر، والأشياء تبدأ بالتحقّق بالتشكّل، بكل سهولة، لأنَّ البعث ليس صعباً عليه كما يفترضون، بل حين يصدر الأمر الإلهي فبعثنا من الموت حتما سيحصل، وسيكون حتماً، وليس فوراً سيحصل.

نتذكّر ما قالته الملائكة(ع) للسيدة مريم(ع) أنَّهُ تعالى يقول للشيء كن فيكون، حيث شاء أن يكون لك ولد، وتقرأ ذلك في الآية 47 من سورة آل عمران {قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}، وكما تعلم لم تقصد الملائكة(ع) أن النبي عيسى(ع) سيتكوّن كاملاً بلحظة في بطن السيدة مريم(ع) بل سيتكوّن خلال أشهر وسيصير كائناً إنساناً، سبحانه شاء خلقه، ولكن لم يرد تعالى أن يوجده في لحظة، بل أوجده في المسار الطبيعي لتكوّن جسد الأجنّة في بطون أمهاتهم. ونفس الشيء تفهمه من قوله تعالى للسماوات والأرض أن تكون فكانت، وهذا لا يعني أنها فوراً حصلت، بل بدأت بالتشكّل وحتما ستصير، وصارت بعد مرورها بست مراحل يصفها القرآن بستة أيام، وراجع في ذلك دراسة الآية 9 وما بعدها من سورة فصلت {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ}.

(وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ{41})
تحدّثت الآيات السابقة بشكل عام عن عقائد المشركين، وفي الآية 28 تجدهم في يوم القيامة يقولون بأنهم ما عملوا من سوء... والآن ستنتقل السورة إلى نموذج عن سوء فعلوه وكان مبنياً على كفرهم، ونحن المؤمنين أيضاً نقوم بأعمال سيّئةٍ، كالغيبة والكذب أو المبالغة في الكلام والاستهتار في الأعمال الواجبة علينا... ولكنها لا تكون ناتجة عن كفر، أمّا الكافر فسيؤذي المؤمنين لدرجة تهجيرهم من ديارهم، وتأتي الآية هنا لتتحدّث عنه ومعه لنلتفت لنموذج من سوء ما يفعله الكفّار...:

{وَالَّذِينَ هَاجَرُوا}، وتركوا البلاد التي كانوا يعيشون فيها وانتقلوا إلى بلد آخر للعيش فيه، {فِي اللَّهِ}، لأنهم لم يهاجروا للتجارة أو بسبب رداءة الطقس أو بسبب صعوبة الظروف الاقتصادية في بلدهم... بل في الله تعالى هاجروا، وبسبب علاقتهم بالله تعالى، لأنهم بسبب إيمانهم به تعالى والتزامهم بدينه يتعرّضون للسوء من كفّار بلدهم، {مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا}، حيث تعرّضوا للظلم ولم يكن مجتمعهم عادلاً منصفاً معهم، وضايقهم أو منعهم من التوحيد ومن تطبيق الشريعة العادلة، هؤلاء قاموا بترك منازلهم وأملاكهم وأشغالهم... والبيئة التي اعتادوا عليها... وانتقلوا للعيش في بلد آخر فقط حتى لا يجبرهم المشركون على الشرك وعلى معصية الله تعالى، لهذا السبب، {لَنُبَوِّئَنَّهُمْ}، لسوف نجعلهم في مكانة ومركز، {فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً}، حيث سينالون منّا أشياء حسنة جيّدةً هنا في هذه الحياة، {وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}، لأنّ ما حدّده لهم تعالى كشيء حسن يستحقونه في الآخرة على هجرتهم هو أكبر من الأجر الذي نالوه في الدنيا، ونعلم من القرآن أن أجر الآخرة أكبر بشكل هائل من أي شيء تتصوّره هنا في الدنيا، حيث إنّه خلود في جنّةٍ رائعة.

مَن اضطر للهجرة حتى لا يجبره المشركون على الشرك ومعصية الله تعالى، فلا يحسب بأنه سيموت من الجوع وسيفقر وتكون حالته سيّئةً لأنه ترك بيته وماله وعمله... وهاجر إلى بلد لا يملك فيه أي شيء، لا، سينال حسنة وسيحصل على شيء جيّدٍ محدّدٍ منه تعالى، وسيعيش بكرامته، ولن يفقر إن كان مؤمناً حقيقياً، ولا يشطح فكرك أنه سيصير ثرياً، بل ستكون حياته عاديّة مثل حياة الآخرين الذين يصيرون أثرياءَ أو يبقون من متوسطي الحال، ولكن تضمن الآية للمؤمن الذي هاجر في الله تعالى أنه سينال حسنة، وأمّا حجمها، فأقله بأنه سيعيش بكرامته مؤمناً.

نلاحظ من الآية أنها تعطي رخصة في الهجرة لمن تعرض للظلم من المشركين، بل تتحوّل "الرخصة إلى أمر" بشكل فطري، حيث إنّك من نفسك ستعلم بأنك يجب عليك مغادرة البلد الذي يمنعونك فيه من التوحيد وطاعة الله تعالى، فإذا استطعت فيجب المغادرة، وتلاحظ في الآية 97 من سورة النساء {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ

مَصِيراً}، أنّ الاختيار بين الهجرة وبين الشرك لا يحتاج لأمر إلهي، لأنه سَيُحَاسَبُ من استطاع الهجرة ولم يهاجر من بين المشركين "الظالمين"...

(الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{42})
{الَّذِينَ صَبَرُوا}، الذين بقوا يتصرفون بشكل واعٍ ومدروس، فلم يتركوا الإيمان بسبب الضغوط، {وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}، يعتمدون أنّه تعالى سيسيّر الأمور على الأحسن والأنسب، لأنّ البقاء على الإيمان بين مشركين ظالمين يحتاج لصبر، والهجرة للحفاظ على الإيمان تحتاج للصبر على تغيّر الظروف في البلد الجديد، وتحتاج للتوكّل على الله تعالى.

نفس عمل "الهجرة" بنيّة الحفاظ على الإيمان، هو صبر عمليّ، وهو توكّل فعليّ، فلا معنى للصبر وللتوكّل إن لم ينتج عنهما عمل، فإن بقيت على الإيمان ولم تتغيّر عنه، فأنت عملياً صابر متوكّل معتمد على الله تعالى أن يساعدك لتبقى مؤمناً.

أيّ تفسير لهذه الآيات ليربطها ويحصرها بحادثة تاريخية جرت مع المسلمين الأوائل، فهو نوع من تعطيل للقرآن، والصحيح أنّ التوجيهات الإلهية نزلت في القرآن لتكون عامّةً، وتنطبق على أي حالة متكررة عبر الزمن، وأحياناً تستخدم ما جرى مع المعاصرين لنزول القرآن أو ما جرى مع الأقدمين كنموذج. وهنا الكلام عن الهجرة نفّذه بعض المسلمين الأوائل الذين هاجروا من مكّة إلى الحبشة أو إلى أي بلد آخر ليحافظوا فيه على دينهم، وبعضهم الآخر لم ينفّذها ولم يهاجر مع أنّه كان قادراً على الهجرة، وبعضهم لم يقدر وستتحدّث السورة عن حالته فيما سيأتي من آيات، إذاً، في أي عصر ومصر، إذا تعرّض المؤمن للظلم ليترك دينه، وإذا كان بإمكانه المهاجرة، فيجب أن يهاجر، وهذا التصرّف هو الصبر والتوكّل، وما جرى من حوادث في عصر نزول هذا القرآن فهو نماذج تطبيقية لكلامه تعالى وليس كلامه تعالى محصوراً بتلك الحوادث.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ{43})
نرجع للحديث مع المشركين، حيث تقول السورة جواباً لسؤال لم تنقله واكتفت بوضوح علمك بالسؤال من فحوى الجواب:
{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ}، مَن ينقل رسالتنا إلى الناس، {إِلَّا رِجَالاً}، ذكوراً من البشر، {نُّوحِي إِلَيْهِمْ}، حيث نزلت المعلومات من عندنا مباشرة إلى وعيهم، ولم نرسل للناس ملائكة (ع) أو جنّاً أو مخلوقات غريبة... بل رجالاً عاديين، {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ}، عَبِّرُوا للناس المنتمين للذكر الإلهي، من الموحّدين بشكل عام من اليهود والنصارى والصابئة والإبراهيميين... لأنه سبحانه في السابق أنزل وحياً وكتبه الناس وحفظوه، فصار "ذكراً" وصار شيئاً يجعل الناس يستحضرون في فكرهم ما يقوله سبحانه، اسألوا من لديهم معلومات وعبّروا لهم عن إرادتكم للحصول على جواب منهم حول الذين قالوا بأنهم رسل من الله تعالى، {إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}، فإن كنتم أنتم لستم من أهل الذكر، ولم تقرؤوا من قبل كتاباً إلهياً، وليس بينكم أشخاص توارثوا معلومات تاريخية عن دينه تعالى، فاسألوا من وصلت إليه هذه المعلومات، وستجدون أنه يوجد لائحة طويلة من أسماء رجال عبر تاريخ قديم طويل وقالوا بأنهم رسل الله تعالى، ولن تجدوا بينهم أي مخلوق غريب.
لاحظ بأننا رجعنا إلى أجواء ما قاله المشركون بأن الله تعالى لو شاء لما تركهم يشركون ويخترعون شريعة، فأجابت السورة بأنه تعالى لم يكن راضياً أبداً عن شركهم، وأخبرهم عن ذلك عبر رسوله، وإن لم تقتنعوا بأن محمداً(ع) رسول إلهي لأنه رجل عادي، فاسألوا الناس الذين لديهم معلومات دينية تاريخية: من هم الذين عبر التاريخ قالوا بأنهم رسل من الله تعالى؟ هل كانوا مختلفين عن الرسول محمد(ع)؟ ستجدون بأنه ليس بدعةً بل سبقه رسل مثله.
إذن، لا يحق للمشركين أن يقولوا: لم يصلنا أي اعتراض منه تعالى عندما عبدنا غيره. لأنّه وصلكم التنبيه عبر رسول، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي سيصلكم "الاعتراض الإلهي" عبرها، وهذه هي الطريقة الإلهية المتّبعة عبر التاريخ، واسألوا من لديه معلومات عن دينه تعالى لِيُخْبِرَكُمْ بأن هذا الكلام صحيح.
سيأتيك في الآية 68 من هذه السورة كلام عن معنى الوحي.

(بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ{44})
أرسلنا الرجال من قبلك:

{بِالْبَيِّنَاتِ}، بالأشياء التي فيها قابلية الوضوح لمن تمعّن فيها فدرسها وكان لديه قابلية فهمها، وأرسلناهم بـ {الزُّبُرِ}، وهو الكلام المكتوب الذي لم يبق شفوياً بل جرى تدوينه، عندما يسأل المشركون عن الطريقة التي كان الإله سبحانه يوصل بها كلامه للناس، يُجِيبُهُمْ أهل الذكر بأنه تعالى أرسل رجالاً، وهذا الجواب صحيح لأن الإله سبحانه من قبل أنزل أشياء واضحة بيّنةً، حيث أوحى إلى الرسل والأنبياء، وهم نقلوا الوحي الإلهي للناس بشكل مبينٍ واضحٍ، وفي بعض الأحيان كتب الناس الكلام الإلهي فصار مستنداً كوثيقة "زُبُراً" يثبت بأنه تعالى أرسل العديد من الرسل، ومن النادر ألا تكونوا سمعتم عن بعضهم، لأنّ التوراة مشهورة والإنجيل مشهور...
{وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ}، أيها الرسول محمد(ع)، {الذِّكْرَ}، الشيء الذي يجعل الناس يذكرونه سبحانه، ويستحضرون في عقولهم وعملهم ما يقوله سبحانه، حيث أنزلنا إليك هذا القرآن، {لِتُبَيِّنَ}، لتوضح للناس، {مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ}، لأنك تنقل للناس ما ينزل عليك بلغتهم، فيصير الكلام الإلهي بيّناً واضحاً لهم عبر ما تنقله لهم.
وأنزلناه إليك، {لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}، لأنه من المفروض ومن المتوقّع منهم أن يتفكّروا فيه ويدرسوه ويتمعّنوا فيما يقوله، فإن كان منطقياً عقلانياً موافقاً للفكر السليم فمن المتوقّع أن يؤمنوا به، ولكن المنحرفين عن العقلانية والفكر السليم، والمتّبعين للشهوات والنزوات السيّئة، هؤلاء لن يتفكّروا فيه ليؤمنوا، بل سيرفضونه، وإذا تفكّروا فيه، فعن قرار سابق برفضه سيقرؤونه حتى يحرّفوا معانيه، ويشوّهوها، وليخترعوا الإشكالات... وهذا شيء عادي حصل أمام الرسول الذي نزلت عليه الرسالة، وحصل بعدها، ويحصل في كل زمن يوجد فيه أناس لا يختلفون من داخلهم عن الذي نحت الصخرة واعتبرها إلهه وعبدها، فما أسخفه وما أسخف فكر من اخترع آلهة روحيّةً كوكبيّةً... ومثلهم في السخافة من وصل إليه القرآن "الكلام الإلهي"، وأخذ يعلّق عليه! إذ يظن نفسه مفكّراً، ولكنه لا يختلف في سخافته ومكانته الفكرية المنحطّة عمن عجن التمر وصنع منه تمثالاً وعبده! وإذا جاع أكل التمثال!
إذن، شاء تعالى لكم الإيمان بدينه، ولذلك أرسل رسوله مع كتاب.

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ{45})
سؤال: {أَفَأَمِنَ}، هل شعر بالأمان، فشعر باستبعاد حصول الخطر، {الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ}، الذين خطّطوا لأمور سيئة، واخترعوا الإشكالات على دينه تعالى ومنعوا الناس من الإيمان بالدين الإلهي وضايقوا المؤمنين لدرجة دفعهم للهجرة... فعلى أي أساس يستبعدون حصول خطر عليهم؟ {أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ}، يجعلهم سبحانه مطمورين تحت مستوى سطح الأرض، وتنهار من تحتهم وتهدم بيوتهم وتطمرهم، {أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ}، يصيبهم العذاب بشكل لا يتوقّعونه ولم يحسبوا له حِسَابًا!

هم في حالة يستحقون فيها نزول العقاب الإلهي عليهم، بسبب خططهم المعادية لدينه تعالى وللمؤمنين، فكيف وعلى أي أساس لا يشعرون بخطر نزول عقاب إلهي عليهم؟

اختيار الآية لنموذج الخسف يشير إلى توافر فورية العقاب، حيث بينما هم مطمئنون تنهار الأرض فجأة تحتهم وينطمرون... أو يكون للعذاب مقدمات قبله وتحصل تلك المقدمات وهم لا يشعرون بأن ما بعدها عذاب.

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ{46})
{أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ}، هل أمنوا ألّا يتركهم سبحانه أثناء تنقلاتهم في الأرض، في سفرهم ورحلاتهم... كما حصل مع جيش فرعون الذي خرج من مدينته ووقع عليه العذاب في البحر، {فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ}، فأينما كانوا ومهما فعلوا فلا يمكنهم جعله سبحانه عاجزا عن تنزيل العذاب عليهم.

سواء أكانوا في ديارهم أو في أي مكان، فكيف يشعرون بالأمان من عقابه تعالى وهم يستحقون نزوله عليهم وهو سبحانه قادر على تعذيبهم حيثما وكيفما شاء؟

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ{47})
{أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ}

{أَوْ يَأْخُذَهُمْ}، لا يتركهم العقاب الإلهي وهم {عَلَى تَخَوُّفٍ}، وهم يشعرون بقدوم العقاب ويرون أنهم لا يمكنهم الهرب منه.

{فَإِنَّ رَبَّكُمْ}، إنَّ المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {لَرَؤُوفٌ}، لا يركّز على نقاط ضعفكم بل يقدّرها ويتجنّب استخدامها في تعامله معكم، {رَحِيمٌ}، ولديه عناية خاصة لما فيه مصلحة المؤمنين.

ننتبه، هنا ولأول وهلة إن لم ننتبه لمعاني الكلمات بدقّة فسنشعر بأن هاتين الصفتين "رؤوف رحيم" لا تناسبان الحديث عن نزول العذاب، ولكن لو تساءلت: لماذا لا ينزل العذاب على المشركين؟ من عموم كلام القرآن وبالتحليل لانتبهت أن تأخير العذاب عنهم سببه وجود مؤمنين بينهم وهم مستضعفون لا يقدرون على الهجرة، وبسبب وجود أشخاص من الكفّار سيؤمنون فيما بعد، وبسبب أنه سيأتي من المشركين ذرية مؤمنة... الله رَحْمَن لكل مخلوقاته، وأمّا رحيم فهذه صفة خاصة لمعاملة المؤمنين لأن الآخرين بإرادتهم خرجوا من تحت رحمته تعالى بكفرهم، ولأنه رؤوف رحيم يتأخّر أو يُلْغَى نزول العذاب على المشركين طالما بينهم مؤمنون وطالما سيؤمن البعض منهم فيما بعد، وطالما سيخرج من ذريتهم أولاد مؤمنون.

هناك من يستحق نزول العقاب الإلهي عليه الآن وفورا هنا في الدنيا لأنه كفر، فكيف يشعر بالأمان علماً أنه تعالى في مختلف الظروف يمكنه أن يطالهم بالعذاب، فعليهم أَلَّا يشعروا بالأمان لأن السبب الوحيد لتأخير تعذيبهم متعلّق بالمؤمنين الذين بينهم أو الذين سيؤمنون منهم في المستقبل أو سيكونون من ذريّتهم... لأنه سبحانه رؤوف رحيم بهؤلاء المؤمنين.

(أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّداً لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ{48})
لماذا يخرج المشركون عن القاعدة الصحيحة؟ وَلِمَاذَا لا يطيعونه سبحانه؟:

{أَوَلَمْ يَرَوْا}، ألم تحصل لديهم صورة محدّدة كما نقول بالعامية: ما شافوا، ما التفتوا، {إِلَى مَا خَلَقَ}، إلى ما ركّب وألّف، {اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ}، فهناك أشياء خلقها صاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى ويمكنهم رؤيتها، أو لم يروا أن تلك المخلوقات، {يَتَفَيَّأُ}، يصير لها فيء، فيصير خلف جسم الشيء مساحة من، {ظِلَالُهُ}، وهو انطباع خيال أسود على شكل الشيء على الأرض، {عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ}، وَيَتَحَرَّكُ الفيء ويتحرّك الظل معه مرّة لليمين ومرّة للشمال مُتَّبِعاً تحرّك الشمس، {سُجَّدًا لِلَّهِ}، يُعَبِّرُ الشيء وفيؤه وظلّه أنهم خاضعون للإرادة الإلهية التي حكمت عليهم أن يكونوا بهذه الطريقة أَبَداً دَائِماً، لَا ولا مرّة اتجه الفيء في جانب والظل في جانب آخر، ولا مرّة قاومت الأشياء النور ولم ينطبع لها ظِلٌّ، ولا مرة إذا تحرك النور لم يتحرّك الظلّ... {وَهُمْ دَاخِرُونَ}، وهم محكومون لا يمكنهم مقاومة أو ممانعة حصول ذلك.

في حياتنا العادية اليمين والشمال جهتان نسبيتان، ولا يوجد شيء ثابت له يمين وشمال دَائِمَانِ، بل عندما تقف أمامه أنت يصير له بالنسبة لك جهة يمين وجهة شمال، والآية تتحدّث معنا، فعندما نرى ظِلّاً لأي شيء، فسيكون بالنسبة لنا يتمايل الظلّ بين الجهتين، من اليمين إلى الشمال أو من الشمال إلى اليمين.

ظاهرة انطباع الظلّ للأشياء، هي ظاهرة تراها بشكل متكرّر وتحصل كلما تعرضت أجسام الأشياء للضوء، تَلْفِتُ الآية انتباهنا بأن ما تراه بكثرة وتكرار، انْتَبِهْ لقيمته بدل أن يكون مَنْظَراً عَادِياً، لَا تتعامل مع الظواهر من حولك على أنها تحصيل حاصل، على أنها هكذا موجودة، على أنها عادية لا قيمة لها... إِصْدَارُ النور، وطبيعة الضوء، وحجب الأجسام لمرور الضوء، وتشكّل منطقة "فيء" خلف الجسم من الضوء، وانطباع شكل الجسم على الأرض "الظلّ"... حَرِّكْ يدك وانظر لظلّها على الأرض، وفكّر: كيف يحدث هذا؟ ومن خلق هذه الظاهرة؟ ومن صمّم الأشياء لتعمل بهذا الشكل؟ لِيَكُنِ التركيز الأعمق على دوام ظهور وتكرار هذه الظاهرة، فكلما مددت يدك تحت ضوء الشمس فَسَيَصِيرُ لها فيّء وَيَنْطَبِعُ ظلّها على الأرض حتما، لِأَنَّ الأشياء "داخرة" وَتَمْشِي على القواعد والقوانين التي فرضها عليها ربنا سبحانه وتعالى، وهذا ما تلفت الآية انتباهك له.

إذاً، الْمُشْرِكُونَ ألا يرون الظواهر من حولهم مطيعة غَصْباً عنها لما صمّمه وخلقه الله تعالى؟ لِمَاذَا هم لا يمشون معها بالشكل الطبيعي فيكونوا مثلها مُطِيعِينَ للأوامر الإلهية، سَاجِدِينَ مُعْلِنِينَ خضوعهم لما يقوله سبحانه؟

بقي شيء، الْكَلَامُ هنا مع وعن مؤمنين بإله ولكن جعلوا معه تعالى آلهة أخرى، وهو نفس الكلام من حيث المبدأ يتوجّه إلى الَّذِينَ يقولون أنهم لا يؤمنون بِأَيِّ إِلَهٍ، فهؤلاء وبحسب أقوالهم لديهم تفسيرات علمية لحصول الأشياء، وهؤلاء

اعتبرهم القرآن كَاذِبِينَ في ادّعائهم لإنكار الإله، وألفت انتباهك إلى نموذج بسيط عن الشيوعية الإلحادية التي حكمت بيد من حديد ما كان يسمّى بالاتحاد السوفياتي سَابِقاً، نَاشِرَةً بِالْقُوَّةِ العقيدة الإلحادية في المدارس والجامعات وبين مختلف تجمعات الناس... فَجْأَةً انْهَارَ الكيان السياسي لذلك "الاتحاد" وخلال أيام عادت الصلبان والكنائس والمساجد لتنتشر بكثرة! فهم أنفسهم الذين كانوا يُدَرِّسُونَ عقيدة الإلحاد أَكْثَرُهُمْ عاد للإيمان بالإله في أوّل مناسبة!

ذكرت لك هذا المثال لتلتفت إِلَى أَنَّ وصف القرآن للمنكرين للإله بالكاذبين حين شملهم مع الكافرين، وحين لم يذكرهم بصريح العبارة كَمُلْحِدِينَ على المعنى الاصطلاحي الدارج كَمُنْكِرِينَ للإله، فهذا لا يعني أن كلام القرآن عن لفت الانتباه لما خلقه تعالى غير موجّه لهم، لِأَنَّ الكلام هنا مع المشركين هو نفسه موجّه لمن يدّعي أنه لا يؤمن بِأَيِّ إِلهٍ.

مَا سبق من كلام السورة في بدايتها من لفت انتباه لما فعله تعالى بخلقه للسماوات والأرض، فهو أكثر من كَافٍ لنتعرّف عليه سبحانه ونؤمن به خَالِقاً وَاحِداً أَحَداً، ومن بعد هذا يأتي السؤال هنا عن سبب رفض البعض السجود له تعالى، أَيْضاً السُّؤَالُ مُتَضَمِّنٌ للفت الانتباه لظاهرة خلقها تعالى والكل واقعون تحت تأثيرها.

ضع هذا في بالك وسترى العديد من الآيات تقصد هذه النوعية من الناس ضِمْناً مع عموم من كفر، وفي الآيات التالية وبالخصوص من الآية 52 وما بعدها سترى ذلك بوضوح، وترى ذلك بسهولة عند المقارنة بين دينه تعالى وبين ما يدينون به، فهم ينكرون أنهم تابعون لأي دين، والقرآن يلفت انتباههم أنهم متدينون، أَيُّ عقيدة حتى لو كانت الكفر أو الإلحاد، فهي دين، وأي شريعة من اختراع الناس فهي دين، وَهِيَ أمور يعتبرونها تبعات عليهم ويعتبرون أنفسهم ملزمين وملتزمين بها، وهذا هو معنى الدين، وعلى هذا الأساس يتكلّم القرآن عنهم ومعهم أَنَّهُمْ تركوا دينه تعالى واخترعوا دِيناً...

فِي الآية التالية سنتحدّث عن معنى السجود.

(وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ{49})
{وَلِلَّهِ}، ولصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {يَسْجُدُ}، يعبّر عن فائق خضوعه واحترامه، {مَا فِي السَّمَاوَاتِ}، السبع، {وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ}، أَيُّ مخلوق كان من حيوان أو حشرة، يدبّ فيتحرّك على الأرض، على اليابسة أو في الماء، فهو يسجد لله تعالى ولا يمكنه مُخَالَفَةُ التصميم الإلهي ولا القوانين الإلهية، {وَالْمَلَائِكَةُ}، والكائنات الموصوفة بأنها تملك شيئا ما، وهي تملك قدرات عالية جدا وتملك صفة الطاعة التامّة فهي تسجد لله تعالى، {وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}، لَا يرون أنفسهم أكبر من السجود خضوعا لله تعالى، عَنْ طيب خاطر وقناعة تعبّر الملائكة(ع) عن خضوعهم وفائق احترامهم له تعالى.

المشركون لماذا لا يتركون الشرك وَيَسْجُدُونَ طواعية وعن طيب خاطر لله تعالى وحده؟ إن كانوا هم وكل المخلوقات تسجد لله تعالى غَصْباً عنها مثلما ظلّ الكائنات التي لها ظلّ يتشكّل غَصْباً عنها كما ورد في الآية 15 من سورة الرعد "وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ".

نلاحظ جانبين من خضوع الأشياء "الجمادات" لله تعالى، مِنْ وجهة نظرنا نحن، نَقُولُ: الكواكب محكومة بقانون الجاذبية والكتلة والسرعة... وَهِيَ تتحرّك ضمن هذه القوانين، وهكذا نفهم من الآية أن هذه الأشياء تمشي على سنن "قوانين" على تصميم... وضعه سبحانه لها، ولكن ننظر لها على أنها جماد لا قدرة لها على مخالفة ما هي عليه، لِأَنَّهَا ساجدة أي معبّرة عن خضوعها لأوامره تعالى، ولا قرار لها، نَحْنُ لا نتصوّر أن كوكب الأرض يُقَرِّرَ هو من نفسه أن يتوقّف عن الدوران! نحن لا نتصوّر أي وعي للأشياء للجمادات، ولكن ننتبه، القرآن يؤكّد بأن لها "نوعا من الوعي"، ولها نوع من الإرادة، مِنْ ناحيتنا هي جماد لا وعي لها ولا فكر، ولكن من ناحية ربّها خالقها يَتَوَاصَلُ سبحانه معها، لَدَيْهَا نوع من الوعي والإرادة الذي لا نفهمه، بل لا يمكن أن نفهمه ولا بأي شكل، قَالَ لنا القرآن صراحة بأننا لا نفقه تسبيحهم كما ورد في الآية 44 "تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ"، هُنَا الكلام عن السجود للظواهر والأشياء، مِنْ ناحيتنا نراها "جمادات" تسير على المخطط الإلهي، ولكن لا تنس أنها من ناحية ثانية من جانب آخر مطيعة، وبشكل لَا نَفْهَمُهُ ولن نفهمه وهي تسجد.

الكلام هنا نربطه مع الآية السابقة ومع عموم ما ورد في القرآن، لَدَيْنَا تَعَابِيرُ قرآنية تشير إلى خضوع وتماشي جميع الكائنات والظواهر مع أوامره تعالى، غَصْباً عن الجميع تمشي قوانينه تعالى عليهم، وكمثال على ذلك فمن تعرّض للضوء فَسَيَتَشَكَّلُ وراءه فيء وسينطبع له ظلّ، وحتى الكافر بكيانه يعبّر عن أقصى الخضوع له تعالى لأنه لا يمكنه مخالفة القوانين التي تحكم جسده وبيئته، يُمْكِنُهُ بمساحة الإرادة الممنوحة له أن يكفر فينكر دينه تعالى ولكنه لا يمكنه الخروج من تحت السيطرة الإلهية الكاملة على كيانه وعلى بيئته حتى لو كفر وحتى لو فعل ما يحرّمه تعالى... فهو موجود في ملكه تعالى، بل هو مملوك عبد له تعالى حتى لو أنكر ذلك.

الآية هنا لا تشير إلى السجود له تعالى كتعبير إرادي من كل الكائنات والظواهر التي خلقها تعالى، وهذا واضح من الآية 15 من سورة الرعد "وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ"، لِأَنَّ الكافر لا يسجد له تعالى مثلما يسجد المؤمن الذي يضع جبهته على الأرض معبّرا عن الخضوع له تعالى، ولا الشجرة ولا البقرة... تَسْجُدُ بهذا الشكل، ولكننا جميعا كلنا ومهما كان نوعنا، نسجد غَصْباً عنّا في خضوعنا تحت تصميمه تعالى لنا، فحتى أعيش عَلَيَّ أن أتنفّس وأشرب وآكل... وقيامي بهذه الأمور هو سجود "خضوع" إجباري، لِأَنَّهُ تصرّف يعبّر غَصْباً عنّي عن أقصى خضوعي لمن صمّمني وخلقني لأني "أخضع" أمشي غَصْباً عني على التصميم الذي خلقني عليه تعالى.

السجود هو عموم أي تعبير يمتد من أقصى الاحترام إِلَى أقصى الخضوع. سجود الملائكة(ع) لآدم(ع) هو أَقْصَى تعبير الاحترام، والسجود له تعالى أَقْصَى تعبير الاحترام والخضوع. وهكذا ترى أننا نحن البشر نعبّر بجسدنا عن الاحترام والخضوع "عن السجود" بتقريب وجهنا أو ملامسته بالأرض، والملائكة بما يناسب تكوينها تسجد، وبقية الكائنات أيضا بما يناسب تكوينها تسجد، فلا تفهم من كل وصف سجود لكل كائن أو ظاهرة أنه تقريب لوجهها باتجاه الأرض، لا، لِأَنَّ هذه حالتنا نحن البشر بما يناسب تكويننا، ولبقية الكائنات والظواهر ما يناسب وصفها بأنها تَحْتَرِمُ أو تخضع.

لفتت الآية انتباهنا إلى نموذج كائنات واعية "الملائكة(ع)" يسجدون وهم لا يستكبرون، عَنْ رغبة وطواعية يسجدون، وَذَكَرَهُمُ القرآن في عدّة مناسبات معتمدا على ثقافة معلومة بين الناس عن الملائكة(ع) أنهم كائنات بقدرات عالية جدا جدا عن كل بقية المخلوقات التي خلقها تعالى، وَبِمُقَارَنَةِ قدراتهم مع قدرات البشر، نحن أَقَلُّ قُوَّةً منهم بكثير، ورغم ذلك هم مؤمنون مطيعون بل ساجدون طواعية ورغبة ولا يتكبرون، فمن أنتم أيها البشر حتى لا تسجدوا طواعية.

بعبارة أخرى تقصدها عدة آيات مشابهة لآيتنا هنا، كل الكائنات والظواهر تسجد كرها لِأَنَّهَا خاضعة غَصْباً عنها لما جعله تعالى فيها من كيان وخصائص... وبعضها يسجد طواعية منه عَنْ رَغْبَةٍ يسجد لله تعالى، وبعضها لا يسجد طوعا، وهم بعض الكائنات ذات الإرادة الحرة التي نعرف منها الإنس والجنّ. ومن هذا نفهم مختلف الآيات التي أَشَارَتْ لهذا الموضوع، حَيْثُ بعضها كان يخبرنا عن سجود الملائكة وكل بقية الكائنات غير الجنّ والإنس، موجها لنا السؤال عن معنى رفض البعض منّا للسجود له تعالى طواعية؟

(يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ{50})

الملائكة (ع) مخلوقات مُمَيَّزَةٌ جدا، بَعْضُهَا لَدَيْهِ قدرات عالية فوق قدرات كل بقيّة المخلوقات كما هو واضح من بعض ما أخبرنا القرآن عن أعمالها، فَهِيَ بسهولة تمنع الشياطين من الاقتراب من سماء الملائكة، وَتَعْرُجُ بين السماوات وَهِيَ خزنة جهنّم... ولديها فكر ووعي وحريّة إرادة، ولكن ليس لديها جسد مثل جسدنا، لَيْسَ لديها شهوات وحاجات جسدية، ورغم هذه المواصفات العالية، فهم يسجدون ولا يستكبرون:

{يَخَافُونَ رَبَّهُمْ}، يتوقعون حصول الضرر الأكيد إن خالفوا أوامر المسؤول عنهم من مستوى إلهي، {مِنْ فَوْقِهِمْ}، يَشْعُرُونَ بأنه تعالى فوقهم دائما، بمراقبته وقدرته على فعل ما يريده بهم، {وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}، فأي أمر يصدره تعالى لهم فهم يُنَفِّذُونَهُ بلا تردد وبكل أمانة.

الآن ترى بوضوح ما تقصده الآيات، لِنَقُلْ أَنَّ كافرا أو كائنا ما، قرّر أَلَّا يسجد له تعالى، أَلَّا يخضع للتصميم والخلقة التي قررها تعالى له، فماذا سيفعل؟ فعليه أن يبدّل جسده وبيئته حتى يتحرّر من الخضوع له تعالى، وعليه أن يَمْحُوَ

وعيه ويحصل على وعي آخر لم يمنحه له تعالى... ولا يمكن لأي كائن أن يفعل ذلك، وحتى الملائكة(ع) التي خلقها سبحانه بقدرات عالية جدا جدا، فهي لا يمكنها الانفلات من السجود الإجباري له تعالى.

بِرَبْطِ الآية هنا مع الآية 13 في سورة الرعد التي سأذكرها كلها لك لترى فيها تقريبا نفس ما تقوله الآيات هنا ولكن بصيغة مختلفة "وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ"، تَرَى في الآية أن السجود خوفا يشير فقط لسجود الملائكة(ع)، وبقية الكائنات كُلُّهَا تَسْجُدُ بشكل إجباري، والسؤال للكافرين عن سبب رفض تماشيهم مثل الملائكة(ع) والمؤمنين مع حالة هم فيها فعلا، فلماذا لا يتماشون مع سجودهم الإجباري؟! فما معنى أَلَّا يَسْجُدُوا بإرادتهم مثلما تسجد الملائكة(ع)!؟

بعبارة أخرى كَرَّرَ القرآن في العديد من المناسبات الكلام عن الملائكة(ع) لننتبه للفرق الهائل بيننا وبينها بالقدرات، ورغم ذلك فهي تسجد لله تعالى ولا تستكبر، بِقُدُرَاتِهِمْ يمكنهم السيطرة علينا وفعل ما يريدون بنا بل وفعل ما يريدونه بالكون... ولن نفهم ولن نرى ما تقوله الآيات إذا كنّا مشحونين بثقافة غير صحيحة عن الملائكة، عَامَّةُ الناس وبشكل ضبابي يؤمنون بأن الملائكة يؤمنون به تعالى ويطيعونه لأنهم يَرَوْنَهُ، أو يحتكّون به تعالى بشكل مباشر، أو يتكلم معهم تعالى بشكل مباشر، أو... وهذا كلّه غير صحيح، فسبحانه يتواصل معهم من وراء حجاب بسبب استحالة التواصل المباشر بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وطبيعتهم، وتفهم ذلك من الآية 12 من سورة الأنفال "إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا..."، فتواصله تعالى معهم شبيه بشكل ما مع تواصلهم هم مع الأنبياء، أَنْتَ تعلم أن تواصل الملائكة وَحْيٌ في وعي الأنبياء، فهذا ليس السبب لإيمان الأنبياء، بل هم الأنبياء قلوبهم سليمة تتماشى مع ما يسمعونه وحيا...

الْمَلَائِكَةُ مخلوقات قدراتها هائلة بالنسبة لقدراتنا، ولديها حرية إرادة، وَيُمْكِنُهَا اختيار الكفر، ولكنها مؤمنة به تعالى ومطيعة لأنها مثلنا ترى أفعاله تعالى التي تدل عليه تعالى كمصمّم خالق... وَآمَنَتْ، ونحن وهم واقعون تحت نفس أساسيات الظروف، نَرَى ما يدل عليه تعالى، ووصلنا منه تعالى كلام... فما سبب كفر البعض منّا به تعالى؟

خذها على معنى ما قرأته قديما عن لسان أحد العلماء الغربيين، اطَّلَعَ على التراث الإسلامي، وقرأ نهج البلاغة وتعرّف على تاريخ الإمام علي، وخرج بالنتيجة التالية: لو كان محمد كَذَّاباً وليس رسولا، لما انطلت كذبته على رجل بذكاء علي. بِغَضِّ النظر عن صحّة هذا الكلام ولكن المفهوم بشكل ما هو نفسه هنا في الآيات، فَكَائِنَاتٌ في غاية الذكاء وذات قدرات عالية جدا جدا تفوق قدرات كل بقية المخلوقات، آمنت وأطاعت، فما بالك أيها الإنسان تشرك وتعبد الطاغوت!

(وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ فَإيَّايَ فَارْهَبُونِ{51})
قال الله، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز الذي يسجد له كل ما في السماوات والأرض والملائكة(ع)، قال تعالى: {لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ}، ولا تقولوا إنه يوجد كائنان بصفات وقدرات فائقة، {إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ}، حيث أنا أخبركم أنه لا يوجد إلّا كائن واحد بقدرات وصفات فائقة، {فَإِيَّايَ}، أنا الله حصرا، {فَارْهَبُونِ}، لتكن رهبتكم حصرا مني، وليكن عندكم شعور الخوف مني مضافا إليه شعور عجزكم أمامي.

هذا خبر منه تعالى وصل إلينا عبر رسوله، بأنه لا إله غيره، وهو مؤكّد بما نراه فينا ومن حولنا بانتشار سلطة واحدة، وطالما لم يصلنا أي خبر من أي رسول لإله آخر، ولم نر أثرا لأي إله آخر، ولم نلمس تعارضا أو خللا في الدنيا يشير لتعارض بين إلهين... فهذا يؤكّد بأنه لا إله إلا الله تعالى، وعلى طول التاريخ الممتد إلى أوّل بشري تأهّل ليتلقّى التكاليف الإلهية، من آلاف السنين، من آدم(ع) وما بعده، جاء أناس يقولون بأنهم رسل من الله تعالى، ولم نجد أشخاصا يقولون بأنهم رسل من آلهة أخرى ولهم امتداد تاريخي كرسل من نفس الإله، حيث نجد أشخاصا اخترعوا آلهة في هذا البلد، وآخرين في بلد آخر اخترعوا آلهة أخرى، وغيرهم اخترعوا آلهة أخرى... وربما نجد بينهم من كذّب وقال إن الآلهة تتكلّم معه، ولكننا لا نجد قبله أو بعده من يؤيد كلامه! وهكذا يبدو الفرق واضحا جدا بين خط من رسل الله سبحانه ممتدّين عبر التاريخ ويقولون كلاما واحدا متطابقا، وبين مخترعي الآلهة المختلفين في التسميات والصفات والقصص، الذين تجدهم متفرقين مختلفين لا علاقة بينهم، مما يشير بوضوح لاختراعهم للآلهة وكذبهم فيما ينقلونه عنها.

بالعودة للآية، هي تنبّه بأنه لا يوجد تعدد في الآلهة، من اثنين وصاعدا، بل إله واحد، وكل ما يقوله الناس عن آلهة متعددة فهو من اختراعهم، وإذا راجعت الأديان المشركة لوجدت بأدنى تأمّل أنها من اختراع البشر.

تذكّر دائما أننا كبشر جعل سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرّف عليه سبحانه من ملاحظة أفعاله "آياته في خلقه" ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء... وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق بالقوّة الإلهية الفائقة عند الوقوع في الشدائد... لذلك وضعنا كلمة نصف بها الكائن ذا الصفات والقدرات العالية جدا عن قدراتنا، وهي كلمة "إله" كوصف لذي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلّق به عند الوقوع في الورطات...

في الحقيقة الكائن الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة هو الله سبحانه، وتساهل الناس في استعمال كلمة إله لتنطبق على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، حيث يطلقونها على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أن فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}...

القرآن يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهي، ويُقَوِّمُ اللغة ككلّ، ويُقَوِّمُ دقة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة "إله"، حيث يخبرنا أنها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرّج في استعمالها.

المشركون الناطقون باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... استعملوا كلمة إله بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

قارنها مع كلمة "ربّ"، حيث أنا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... وهذه كلمة تتحمّل التدرّج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهي، فهي لا تتحمّل التدرّج، وهي حصرا له تعالى ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهي.

كلمة إله في حقيقة معناها لا تتحمّل التدرج ليُوصَفَ بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، حين يخبرك أنه خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، وسبحانه وظّف الملائكة(ع) التي خلقها لتنفيذ بعض أوامره... وهكذا ترى بوضوح أنه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، وماذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدّد له والمميّز "الله" جلّ جلاله فعل كل شيء، فما معنى ألوهية غيره! وهذا ملخّص مبسّط للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

ألفت انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، وحصروا استعمال كلمة إله للإله الكبير، واستعملوا للآخرين وصف الربّ، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربّة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون: إله المطر وإله الحرب... وعلى كل حال القرآن رفض توصيف غيره تعالى بالألوهية والربوبية من مستوى إلهي، حيث إن المشركين يعتقدون بوجود كائن "ربّ" مسيطر على المطر من مستوى إلهي وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم أنه توصيف لألوهية أربابهم.

من ناحية ثانية لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، حيث يصير الهوى إلها كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}... وهي لا تشير لاعتقاد الشخص بأن هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لدين فيه ما يهواه، لذلك عمليا هو يعبد هواه.

بالنسبة لأصل كلمة "الله" فهناك كلام كثير حولها، ويبدو من تتبّع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حاليا بالسامية... أن الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة "إله" ومنها جرى اشتقاق اسم العلم "الله"، وهذا الاسم لم يكن متداولا في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط حيث إن للآخرين نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، وكلمة إله واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات ما يسمّى بأصل اللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة الله من وصف الإله ومتى، فهل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قديما عبر الوحي، فالأرجح عندي "استذواقا" أنه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك "استذواقا" لأن المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين بلا مستند صريح لتأكيد كلام ما، فهو بطبيعته يصير استذواقيا لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا ذات نفسي في سياق كلام آخر قد أستذوق أنه تعالى هو سمّى نفسه، فليس من المعقول ولا من المقبول منك أن تطلب حسما من الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دليلا حاسما، ولا من المقبول من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنه الصحّ إلا اللهم إن قدّم دليلا دامغا، وهذا لا يبدو ممكنا في مسألتنا هذه.

(وَلَهُ مَا فِي الْسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ{52})

{وَلَهُ}، لله تعالى، {مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وهذه هي حدود كل دنيا المخلوقات وهي منسوبة له تعالى، منسوب له تصميمها وخلقها وملكها وإدارتها... فهي له. للتوسّع في معنى تعبير "السماوات والأرض" راجع دراسة الآية 3 من هذه السورة.

{وَلَهُ الدِّينُ}، الدين هو التبعات التي علينا لأننا له تعالى وهو إلهنا ومفروض علينا الإيمان به وطاعته وشكره... {وَاصِبًا} أي ممتدا بلا نهاية لأنه لن يتغيّر الحال، بما أن كل المخلوقات منسوبة له تعالى إلهيا، فكل المخلوقات "تدين" له، فعليها تبعات له، وله سبحانه حق عليها الآن وفيما سيأتي من زمان، فهو واصب أي لازم ممتد بلا نهاية، وعمليا مِنَ اللزام عليهم أن يعبدوه تعالى طالما هم منسوبون له ولن يتغيّر ذلك ولن يصير لإله آخر أي شيء كتبعات له عليهم.

{أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ}؟ تتجنبون غضب وعقاب أحد غير الله تعالى وأنتم منسوبون لله تعالى وأنتم ملزمون بالدين له بشكل ممتد لن يتغيّر؟ فكيف تخترعون آلهة وتعبدونها وتتقربون إليها اتقاء لغضبها وعقابها؟

ننتبه للتعبير القرآني، حيث مرّة عبّر بخالق كل شيء، وله كل شيء، ومالك كل شيء... ومرّة عبّر بخالق السماوات والأرض، وله السماوات والأرض، ومالك السماوات والأرض... لذا عليك أن تنتبه أن الله تعالى يتحدّث، ويقول إنَّ كل شيء موجود فهو محصور في "منطقة" السماوات والأرض، وبتعبير بسيط: لا يوجد أي شيء خارج هذه "المنطقة". وإذا كان الأمر كذلك، وأنا الله أعلم أني خلقت كل ما ضمن هذه "المنطقة"، فكلهم منسوبون لي لأنهم من تصميمي وخلقي وأنا أملكهم وأدير شؤونهم... إذن بكل وضوح وشفافية بالنسبة لي لا ألمس أي أثر ولا بأي شكل لإله غيري، ولا أحد يملك أي شيء غيري، وبكل صراحة ووضوح أخبركم أني لا أجد إلها غيري ولا أجد له أثرا، وهذا المعنى تجده صريحا في الآية 33 من سورة الرعد {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ}...

انتبه، استعملتُ تعبير "منطقة" السماوات والأرض وهذا تبسيط، لا يذهب فكرك بأنها علبة كبيرة أو كرة كبيرة، لا، ولا يذهب فكرك بأن الكلام الإلهي يحتمل أن يكون هناك مناطق أخرى هو لا يعلمها، لا، لا تَنْسَ أن طبيعة الإله مختلفة جدا عنّا، حيث إنّ المكان والزمان مفهومان وصفيان لهما معنى بالنسبة لنا كمخلوقات، وأما بالنسبة له سبحانه وتعالى فلا معنى للمكان والزمان، لأنّ طبيعته سبحانه مختلفة جدا عنّا وعن أي مخلوق، لذا لا معنى لأن نقول عنه تعالى أي شيء له علاقة بالمكان والزمان، أنا في البيت، والهواء يلف كل الأرض... والذرات ومركباتها في كل الكون "سمائنا"، وحقل الجاذبية منتشر في الكون "سمائنا"... لذا كل هذا الكلام وأشباهه، وكل التصورات لا تنطبق على الطبيعة الإلهية، فكل ما تتصوّره كصورة كمفهوم عن الإله فهو على الأقصى تقريبي إذا كان صحيحا، وقدرتنا تتحمّل فقط ما يخبرنا به سبحانه عن نفسه بأنه محيط واسع أَوَّلٌ آخِرٌ... ونفهمها كخبر يصف به تعالى نفسه، ونؤمن بها مما نراه من آيات دالة على عظمته سبحانه، أمّا أن نفهمها فلا، لأن هذا يعني أننا سنفهم الطبيعة الإلهية وهذا مستحيل.

كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، وهي ليست اصطلاحا مخصّصا كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، وهي عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، حيث أنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئا ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني لذا أنا مدين له،

وخلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعا بسبب سَعَةِ تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... وكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة هناك نُدَانُ بأعمالنا، حيث إنّ ما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هي التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضا يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسبا بحكمته قد يديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُون{53})
{وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ}، أي نعمة أي شيء جيّد حسن بكم، فيكم أو معكم، {فَمِنَ اللَّهِ}، فهو الخالق الأحد، وهو المالك المسيطر، وأي شيء جيّد بكم فمنه تعالى، حيث أعطاكم كيانكم بحياتكم وخصائصكم وبيئتكم... أكلكم وشربكم ومعيشتكم... كلها منه تعالى، {ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ}، إذا تغير حالكم وما حولكم للأسوأ، فمرضتم أو تلفت مزروعاتكم أو انقطع المطر لفترة... {فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ}، فتدعون دعاء من انقطع أمله وصار صوته متغيّرا تماما من شدّة تَأَثُّرِهِ أثناء دعائه، فيصدر عنكم صوت غير عادي في نغمته، وتنسون الآلهة الوهمية التي اخترعتموها، لأنكم تعلمون بأنها وهمية، وتتوجّهون حصرا بصوت الجأر... نحو الإله الحقيقي.

تفسير الجأر بما له علاقة بالصوت دارج بين المفسرين، ونقلوه عنهم في القواميس، ويبدو أن المعنى الأساسي للكلمة هو تطاول الشيء في اتجاه، حيث تَجْأَرُ بعينك هو وصف لإطالة النظر باتجاه محدّد، ويَجْأَرُ النبات وصف لِتَطَاوُلِهِ وارتفاعه، وتَجْأَرُ بصوتك وصف لإطالة الصوت متوجها به نحو شيء.

كما ترى فالكلام هنا بظاهره مع وعن مشركين، ولكنه نفسه ينطبق على الذين يدّعون أنهم لا يؤمنون بأي إله. أقول لك هذا لأن الدراسات الباحثة عن أصل ومنشأ وبداية إيمان البشر بإله، وبعضهم يسمّيه ببداية اختراع الإنسان القديم للإله، تلك الدراسات تقاطعت نتائجها مع ما تقوله أمثال آيتنا هذه، فسبحانه يقول لنا إنَّهُ صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا بخاصية التوجّه إليه عند شعورنا بفقدان القدرة على التحكم بالظروف القاهرة، والمخيفة أو المسببة لضرر كبير... فنرى أنها تحتاج لقوّة فائقة قادرة على تغييرها، فنتوجّه نحو الإله. والعلمانيون من الدارسين لهذا الموضوع اعتبروا أنهم اكتشفوا منشأ اختراع البشر للإله، وبالتالي بعضهم قال إنَّهُ لا يوجد أصلا إله واخترعناه لأننا خفنا مما لا قدرة لنا على دفع ضرره، فاخترعنا الإله لينقذنا...

سبحانه عبر قرآنه يقول إنَّ حالة التعلّق به سبحانه عند الشدائد ليساعدنا مجعولة فينا كواحدة من الطرق للتعرّف عليه تعالى، فمن بعدما يتراكم لدينا مخزون عن خلقتنا وما حولنا أَنَّهُ مصنوع بقدرة فائقة، وبعد التفكّر بآياته تعالى تعرّفنا عليه وآمنّا به، وصرنا بحيث إذا عشنا في ظروف تحتاج لقوة فائقة للتدخّل وتحسين الحال، نتوجّه نحو الصور التي في ذهننا للكائن ذي القدرات الفائقة الخالق للدنيا.

وإلا فكيف سنتعرّف عليه تعالى؟ فإن لم يجعل فينا الفكر لنتأمل الخلق ونتعرّف على الخالق، ولم يجعل فينا بذرة لنتوجّه إليه عند الشدائد بعدما تَخَزَّنَ لدينا معلومات عن قدراته الفائقة... ولم يرسل لنا رسله وكتبه لنتعرّف بالدراسة عليه تعالى، فكيف سنؤمن به تعالى؟

نسأل الملحدين المدّعين لاختراع الإنسان للإله من المشاعر، هل المشاعر سابقة على الفكر؟ أم من التفكّر بما فعله تعالى تعرّفنا عليه ونشأ من ذلك مشاعر التعلّق به سبحانه؟ ها هو القرآن مشحون بلفت انتباهنا لما خلقه تعالى من كائنات وظواهر تشير حتما وبكل سهولة لإله صمّم وخلق ودبّر... وبعد ذلك يلفت انتباهنا القرآن لشعورنا بالتعلّق به تعالى لمساعدتنا في المصائب، ويخبرنا بأنه تعلّق صحيح.

الآية 22 من سورة يونس {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}، وأمثالها العديد من الآيات كآيتنا هنا، تؤكّد فقط صحة الاعتقاد بإله قادر على التدخّل في الورطات لتحسين الحال، أمّا منشأ هذا الاعتقاد فينا فله آلية، مثلما هناك آلية بدأت من خلقة ما في الدنيا وصولا إلى خلق الأرض، وصولا إلى نشأة الحياة البشرية... فهناك أيضا آليات ومراحل أدّت إلى نشوء الفكر والوعي والمشاعر... وبفكرنا نتعرّف عليه تعالى مما فعله، وينتج عن ذلك مشاعر الحبّ والخوف... والتعلّق به سبحانه عند الشدائد.

تلك الدراسات عن نشأة الاعتقاد بإله عند الإنسان القديم، رائعة لو تعاملنا معها بعقلانية علمية رصينة، وليست هي ولا أي نوع من الدراسات ممنوعة دينيا، بل البحث عن آليات حدوث الأشياء ما هو إلا محاولة فهم كيفية فعله تعالى للأشياء، ومنه البحث عن نشأة الحياة، ونشأة صفاتنا، ونشأة أفكارنا... ونشأة إيماننا به تعالى.

أمّا بالنسبة للمنفعة من هذا الجأر له تعالى فتكملته في الآية التالية:

(ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ{54})
{ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ}، إذا رفع وأزاح سبحانه عنكم ما يضرّكم وتغيّر حالكم السَّيِّئُ إلى حالة أحسن، {إِذَا فَرِيقٌ}، مجموعة من مجموعات، {مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ}! فيقولون إنَّ آلهة أخرى غير اللهِ المسؤولِ عنهم من مستوى إلهي، هي كشفت عنهم المرض أو الجفاف...!

نلاحظ أنَّ كشف الضرّ كاستجابة للدعاء، حَصْرًا بيد الله تعالى، وبما أنَّهُ سبحانه خالق كل شيء، والمخطط المدبّر لكل شيء، حتى شفاء المشرك الكافر من المرض، بيد الله تعالى، ومنه تعالى، ولكن ليس عن طريق استجابة الدعاء بل بما أتاحه الله تعالى لعباده في هذه البيئة، إذًا، في كِلْتَيْ النتيجتين، الشفاء عبر تدخله تعالى استجابة للدعاء، أو عبر ما أتاحه تعالى لنا في البيئة الطبيعية للتداوي، كلاهما من الله تعالى، ومرّة يكون الشفاء عبر الحدّ الأقصى من استجابة الدعاء ويحصل عبر تدخّل إلهي فوق البيئة العادية، ومرة عبر استجابة الدعاء عبر البيئة العادية، حيث لم يتدخل سبحانه مباشرة بشكل غير عادي بل يكون تدخّله تعالى عبر كونه الخالق المخطط الذي جعل الأشياء تفعل وتنفعل، وحصل الشفاء من المرض بدواء اخترعناه من فكرنا وبيئتنا اللَّذَيْنِ خلقهما تعالى.

بَقِيَ شيء، نحن رغم هذا الخبر الإلهي عن نفسية وداخلية المشركين، ربما نصرّ ونقول إنَّ البعض منهم سيدعو آلهته ولن يدعوَ الله سبحانه وحده حتى في أشدّ الظروف، نخمّن هذا من الخارج، وربما نكون محقّين بسبب ما نراه أو نسمعه من تعلّق الناس بشخصياتهم الدينية في حالات الشدّة، لا أدري، لأنَّ هذا شيء من داخل الناس، وأنا من نفسي لا يمكنني معرفة حقيقة نفسيات الناس، ولكن لو فرضنا أنه يوجد فِعْلاً هكذا نماذج، فالآية لم تتحدّث عنهم لأنهم من نوع الواهمين لدرجة تصديق الكذبة التي هم اخترعوها، وهذا شيء موجود ومعروف في الدراسات عن السلوك البشري، حيث مَنْ يخترع وَهْمًا ويتعايش معه لمدة طويلة، فإنه يدمن الوهم، ويصير الوهم جُزْءًا من إدمانه الفكري، ويلتصق الوهم مع فكره الواعي لكثرة تكراره! يمكنه ترك الوهم والرجوع إلى الحقيقة، ولكنه يصير إدمانًا فكريًّا يحتاج لمقاومة وقرار قوي لتركه، مثله مثل الإدمان الجسدي على المخدرات والمسكرات.

بناءً عليه يمكن اعتبار الكلام القرآني عن جأر المشركين له تعالى في الشدّة، ككلام عن نماذج للغالبية الساحقة منهم، ولكن عموم مفاهيم القرآن تشير إلى حقيقة حصول ذلك مع جميع المشركين، حتى لو أنكروا وقالوا إِنَّهُمْ من داخلهم لا يجأرون له تعالى عند الشدائد، فالقرآن يؤكّد بأنهم كاذبون.

(لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ{55})
{لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ}، لينكروا ولا يؤمنوا بما صار معهم من نعمة منه تعالى ومن كشفه للضرّ، حيث يشركون به تعالى ويقصدون أَنْ لا ينسبوا الفضل والنعمة له تعالى! {فَتَمَتَّعُوا}، استفيدوا مما حصل معكم، {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}، وماذا سيعلمون؟ مثلما نقول لشخص يسيء التصرّف أَنْ ينتبه ولكنه لا يتوقّف فنقول له: افعل كما تشاء ففيما بعد ستعلم. سيعلمون نتيجة كفرهم بنعمة الله تعالى، حيث سيتحاسبون وينالون العقاب.

من أمثال هذه الآيات نفهم سبب العقاب الشديد الخالد على الكفر والشرك، لأنهم يعلمون بوهمية آلهتهم، ويعلمون أَنَّ الإله الأحد هو الله تعالى، ويعلمون أَنَّهُ هو تعالى وحده كاشف الضرّ، ورغم ذلك يصرّون على الشرك!

(وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ{56})
{وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ}، يجعل المشركون لشيء لا يَعْلَمُونَهُ لأنهم اخترعوه من أوهامهم وليس حقيقيًّا، {نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ}! حيث الإله الأحد رزقهم وأتاح لهم الأشياء التي يحتاجونها لسدّ حاجاتهم ورغباتهم وأهمّها ما يَأْكُلُونَهُ حتى يحافظوا على حياتهم، ولكن المشركين قالوا عن آلهة أخرى بأن لها نَصِيبًا، فلها حصّة كقسمة محدّدة من الذي رزقناهم، فيقولون: هذا الإله أنزل الماء وذاك الإله الآخر أنبت الزرع وآخر بارك المواشي... وهم لا يعلمون عِلْمًا حقيقيًّا إِنْ كانت تلك الآلهة فعلا فعلت أي شيء لترزقهم، فألوهيتها وهمية وليست حقيقةً.

{تَاللَّهِ}، تأكيدًا بذات الله تعالى، {لَتُسْأَلُنَّ}، سوف يتم التعبير لكم عن إرادة الحصول على جواب منكم، وتعلم أَنَّ هذا سيحصل في الآخرة فيما بعد يوم القيامة، {عَمَّا}، عن الذي، {كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ}، قلتم بأن آلهة ما رزقتكم، وهذا افتراء أي كذب لم يحصل، لذا سوف نسألكم في الآخرة عن هذا الكلام، لماذا قلتموه؟ ولماذا افتريتم؟ ولماذا لم تعترفوا للإله الحقيقي لوحده بالفضل؟

بالنسبة للافتراء فهو نسبتك كَلَامًا أو عَمَلًا... للآخرين، وتلفّقه وتلصقه بالآخرين وهم لم يفعلوه أو لم يقولوه... وقد تلصق بهم شَيْئًا ويتبين لك فيما بعد أنهم فعلا قالوه أو فعلوه، فتكون فقط مُفْتَرِيًا لأنك اخترعته ونسبته لهم من دون أن تعلم بأنه صحيح، وقد تلصق بهم شَيْئًا لا علاقة لهم به حيث أَصْلًا لم يفعلوه ولم يقولوه وهذا هو الافتراء الكاذب.

لاحظ هنا أَنَّ آلهتهم أصلا لم ترزقهم، فالمشرك به تعالى حين يقول بأن آلهته رزقته فهو يفتري، فهو يقول كَلَامًا يخترعه من خياله، ولو استعملنا لتوصيف حالته كلمة "كذب" فقط، لكان التوصيف صَحِيحًا ولكن سيبقى هناك احتمال أَنَّهُ لديه دليل على ذلك، أمّا حين تصفه بالافتراء، فهذا الوصف يعني أنه يكذب ويؤلّف الكلام من خياله ولا دليل عنده.

نتذكّر أَيْضًا ما مرّ في الآية 28 عن المشركين أنهم في يوم القيامة سيقولون إِنَّهُمْ ما عملوا من سوء، والآية هنا في الدنيا تخبرهم من الآن عن النعمة التي منحها تعالى لهم وهم نسبوها لغيره، فهذا سوء وعليه عقاب.

(وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ{57})
{وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ}، يقول المشركون إِنَّهُ تعالى عنده أولاد بنات إناث! وبعضهم يقول إِنَّهُ تعالى خلقهن منه، وبعضهم يقول بِأَنَّهُ تعالى متزوّج وله بنات، وبعضهم يقول إِنَّهُ تعالى حدّد من مخلوقاته بنات له... {سُبْحَانَهُ}، تنزّه، فصفات الألوهية التي فيه تعالى ليس من ضمنها ولا تتحمّل ولا يمكن أن يكون عنده أَوْلَادٌ، أو أن يعتبر من مخلوقاته أَوْلَادًا له، فهذا الكلام لا ينطبق عليه سبحانه ولا بأي وجه ولا بأي صورة ولا بأي شكل ولا بأي احتمال...

{وَلَهُمْ}، للمشركين، {مَا يَشْتَهُونَ}! هم يشتهون فتتحرّك أحاسيسهم بشكل إيجابي للحصول على الذكور، وهذا ما ستفهمه من سياق الكلام في الآية التالية، فكيف ينسبون لله تعالى البنات! فعلى الأقل كانوا نسبوا له تعالى الصبيان فقط مثلما هم يشتهون أن يكون عندهم أولاد صبيان! يعني: لماذا الخالق لم يخلق لنفسه صِبْيَانًا إن كنتم أنتم تفضلون لأنفسكم الحصول على الصبيان ولا ترغبون بالحصول على البنات! وهكذا يظهر بوضوح أن كل الموضوع وهم وسخافة.

نعلم من التاريخ أن مشركي العرب ومشركي الرومان واليونان وغيرهم... قالوا بغالبيتهم عن الملائكة(ع) أَنَّهَا بنات لله تعالى، أو قالوا عن كائنات وهمية أَنَّهَا آلهة بنات له تعالى، مع أنهم بشكل عام والعرب خُصُوصًا مجتمع "ذكوري"، فهم مجتمع يفضّل الأولاد الذكور.

ننتبه جَيِّدًا، فالله سبحانه وتعالى لم يميّز في تعامله مع البشر بين الذكر والأنثى، ولم يعتبر الذكور أَفْضَلَ، بل جعل التقوى هي المعيار، فالأنثى التقيّة أفضل من الذكر العاصي، وللمؤمنة التقيّة قيمة عالية عند ربّها سبحانه، ولا يوجد في القرآن أي أفضلية للذكر على الأنثى من ناحية الإيمان والحساب والثواب، نعم في بعض النواحي التشريعية القليلة تجد فَرْقًا بَسِيطًا، ولا نبالغ حين نقول بأن الخالق أراد للمرأة أن تتحمّل الناحية الأهم في حياة المجتمعات، فَحَمَّلَهَا مسؤولية تربية الأولاد والعناية بعائلتها، ورفع عنها بشكل رسمي: قتال الأعداء، والعمل للنفقة على العائلة،... ولم يرد أن يقحمها

في الشؤون العامة مثل المنازعات والقضايا... فجعل شهادة امرأتين مساوية لشهادة رجل واحد حتى تبتعد قدر الإمكان عن الشؤون العامة، ولم يردها أن تتحمّل مسؤولية العائلة المالية، فجعل حصّتها في الميراث أَقَلَّ من الذكر، وأوجب على الزوج النفقة عليها، ودفع المهر، وحقوق النفقة...

الآيات التي تتحدّث عن أفضلية الذكور على الإناث عند المشركين، تريد أن تبهتهم فتصدمهم، فطالما أنتم "كنموذج من المشركين" تتمنون الحصول على أولاد ذكور، فلماذا اخترعتم لله تعالى بنات!؟ مما يدل على أن نسبة عموم الأولاد له تعالى هِيَ مُجَرَّدُ اختراع لا صحّة له.

كما ترى فالآية تعرض عليك أبرز وأوضح نَمَاذِجَ من خزعبلات واختراعات الكفّار وأفكارهم الوهمية العبثية.

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ{58})
{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى}، إذا قيل لأحد ما من المشركين خبر عن ولادة زوجته لبنت، {ظَلَّ}، بقي من حين ما أخبروه، {وَجْهُهُ مُسْوَدًّا}، مُمْتَقِعًا باللون الأسود من شدة الحنق، وَيَمِيلُ لون بشرة وجهه إلى السواد بسبب احتقان الدم من غيظه، {وَهُوَ كَظِيمٌ}، وَيُلَازِمُهُ الشعور بالانزعاج، وَلَا يذهب عنه شعور المضايقة بل يلازمه في داخله.

كان يستبشر وَيَتَوَقَّعُ خَبَرًا مُفْرِحًا بولادة صبي، ولكن البشرى جاءت ببنت، فمن حين ما أخبروه اسْوَدَّ وجهه وبقي كذلك "لمدة طويلة".

الكلام هنا عن النموذج المشرك الذي كان مُعَايِشًا لنزول هذا القرآن، والذي كان بغالبيته يكره أن يكون عنده أولاد بَنَاتٍ، ويحبّ الصبيان، وفي نفس الوقت يقول بأن الله تعالى عنده بنات! حَيْثُ أَصْلًا سبحانه وتعالى ليس عنده أولاد، لا بنات ولا صبيان ولا من أي نوع، ولكن وبناء على كلام "غالبية" المشركين في زمن نزول هذا القرآن "كنموذج"، فلو كان الذكور أفضل من الإناث فلماذا لم يخلق سبحانه ذُكُورًا كَأَوْلَادٍ له؟ فأنتم بغالبيتكم يمتقع وجهكم وتكظمون غيظكم إن ولدت زوجاتكم بنات!

نتذكّر مدح القرآن للسيدة مريم(ع) بشكل بارز لأنها تقية، وَوصولها إلى مرحلة من العناية الإلهية بها بشكل لم يحصل عليه العديد من الأنبياء الآخرين، وَرِزْقُهَا كان يأتيها منه تعالى، وتحدّثت مع الملائكة(ع)... وَذَكَرَهَا القرآن كنموذج بارز عن النساء التقيات، يعني لا تُفَكِّرْ ولا بأي طريقة أنه تعالى يفضّل الذكور على الإناث.

انتبه جَيِّدًا لنفسك، فإن كنت تميل إلى أن يكون عندك أولاد صِبْيَانٌ وتكره البنات فأنت في ورطة أمامه تعالى، وإن كنت من السخفاء الذين يتمنون للعرسان الجدد أَوْلَادًا صِبْيَانًا، فأنت في ورطة حساب عسير، فأي ملاحظة توجّهها أو رأي تبدي به، ويفيد بأنك تفضّل الصبيان على البنات، فانتظر حِسَابًا عَسِيرًا في آخرتك، لِأَنَّكَ مَرِيضٌ بنفس مرض الكفّار المشركين به تعالى.

(يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ{59})
المشرك الذي جاءته بنت، {يَتَوَارَى}، يتحاشى اللقاء، يتجنب، {مِنَ الْقَوْمِ}، من الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع إنجاب امرأته لأنثى، فلا يريدهم أن يروه، {مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ}! هو باعتقاده أن الخبر عن ولادة بنت له هو خبر سَيِّئٌ، ولا يريد أن يلتقي بأحد من القوم لأنهم كلهم "عموما" على هذه العقلية الكارهة للبنات، وسيشعر هذا الأب المشرك بقلّة القيمة والمهانة في نظراتهم وكلامهم!

{أَيُمْسِكُهُ}، هل يحتفظ المشرك بما ولد له، {عَلَى هُونٍ}؟ هل يتركه حَيًّا ويعيش معه وهو يعتبر أن ما حصل عليه هو شيء مهين بلا قيمة، وَهل يمسكه على هونه على قلّة قيمته، وَهل يحتفظ بالبنت وهي بلا قيمة؟ {أَمْ يَدُسُّهُ}، أم يجعل ما حصل عليه مُحَاطًا بشيء يخفيه، وَيدفن ما حصل عليه، {فِي التُّرَابِ}؟ هل يقتل البنت ويدسّها في التراب، أو يدسها في التراب فيدفنها وهي حيّة؟ وهذه جريمة كانت عادية عند مجتمعات المشركين وبخاصة عند العرب إلى حين نزول هذا القرآن! صحيح أنه لم يكن الجميع يفعلونها، ولكنهم بغالبيتهم لم يعترضوا على فاعلها، فلديهم تشريعات على مزاجهم، ومزاجهم لم يجعل عِقَابًا لقاتل البنت!

{أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}، ما أَسْوَأَ ما حكموا به، كلا الحكمين القرارين بحق البنت هُوَ حكم كقرار سَيِّئٍ، فقتلها جريمة فظيعة، وَإِبْقَاؤُهَا حيّة مع النظرة إليها بالمهانة أيضا جريمة فظيعة.

نلاحظ أن كلمة "بشرى" هي سماعك لخبر جيد عن شيء يهمّك، كشيء حصل ولم تعلم به وتريد معرفة خبره أو سيحصل وتريد معرفة خبره، فأثناء انتظار الخبر تستبشر وَتريد أن يكون مُوَافِقًا لما تحبّ، وعندما نستعملها لخبر سَيِّئٍ نقصد بالتبشير الصدمة بخبر معاكس عمّا نرغب به. وهنا الْوَالِدُ يستبشر، ويحبّ أن يكون الخبر بولد ذكر، ولكن البشرى جاءت بأنثى... فأبقت الآية على وصف الخبر أنه بشرى، وأكملت كلامها عن المشرك الكاره لهذه البشرى.

تذكّر ما مرّ سَابِقًا في السورة من نقل لقول المشركين في يوم القيامة أنهم ما عملوا من سوء، فما هو توصيف كراهة البنت والشعور بالمهانة منها، وما توصيف قتلها، وما توصيف أن لا يعترض القوم كقوم على قتلها؟... فهذا شيء نتج عن شركهم وكفرهم بالآخرة وإلا لما تَجَرَّؤُوا على قتل البنات...

بَقِيَ شيء، حَيْثُ القرآن عادة يشير في عموم كلامه إلى نماذج، فمن المعلوم أن بعض العرب المشركين دفنوا بناتهم وليس الجميع، والنادر منهم اعترض على ذلك كما ينقلون في التاريخ، ولكن الصفة الغالبة لكل مجتمعهم كانت الموافقة على قتل البنات، أو على الأقل كان مُنْتَشِرًا بينهم التوافق على كره أن يكون لهم بنات.

(لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{60})
{لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ}، للذين لا يعتقدون بالحياة التي ستأتي في الآخر بعد انتهاء الدنيا، {مَثَلُ السَّوْءِ}، لهم التشبيه بشيء سيّء، حيث فضحتهم الآيات عندما أرتنا مَثَلًا تَطْبِيقِيًّا لكفرهم بكرههم البنات لدرجة قتلهن.

{وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى}، له تعالى التشبيه بشيء عالٍ له قيمة عالية فوق أي قيمة تتصوّرها، فتسألني عن صفاته تعالى وتطلب مَثَلًا عنها، فأقول لك: مَثَلًا هو حكيم لأنه دائما يرى الصوابية في الأمور... وفيما سبق من كلام نجد بعض المشركين لديهم أقوال عنه تعالى ومثل منها نسبتهم له تعالى بنات، بينما سبحانه إذا أردت أن تقول عنه شَيْئًا مَا مَثَلًا ففي الحقيقة كلّها ستكون أمور مستواها عالي.

{وَهُوَ الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض إرادة الآخرين عليه... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره...

{الْحَكِيمُ}، وكلمة حكمة ومشتقاتها تشير لعموم ضبط الشيء على المطلوب: على الصوابية على الحقّ... وعلى نفس المعنى الأساسي نقول: أحكم الوثاق، حكم بالعدل، حكومة على الناس... وتفسير الحكمة بالأهداف والغايات السامية هو من تبعات تطبيق صوابية الحقّ، ووصفه تعالى بالحكيم يشير لصوابية نظرته في الأمور وأن قراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب بَلْ قراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول بأن أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فلا يفعل لغاية له سبحانه.

ليس من الحكمة أن يتّخذ سبحانه أَوْلَادًا من مخلوقاته، ومن الحكمة جعله لكم البنات والصبيان.

وهاتان الصفتان معا "العزيز الحكيم" تكررتا في القرآن مرارا وكانتا في سياق معنى: قرّر وشرّع... تعالى كذا وكذا، ومع العلم بِأَنَّهُ العزيز الذي يفرض ما يريده على مخلوقاته ولكنه في نفس الوقت حكيم، فيقرّر ويشرّع ويأمر... بما هو على الأحسن، من الصوابية في رؤية الأمور.

ونفهمها بسهولة بمقارنتها مع بشري عزيز ولنقل كملك أو رئيس بصلاحيات مطلقة كديكتاتور، فهذا يتمتّع بسلطة قاهرة يفرضها، وقد يحكم بتشريعات وقرارات السوء والفساد فَارِضًا لها على المواطنين وعلى الآخرين... أمّا سبحانه فيمكنه فرض ما يريده، وَها ترى هنا كَمَثَلٍ أنه تعالى قرّر عِقَابًا للكارهين للبنات وللقاتلين لهن، وَها ترى بسهولة الحكمة في ذلك، وترى في مقابله ما شرعه عَمَلِيًّا الكافرون بدينه تعالى والناكرون لآخرته، فهناك نموذج من مجتمعاتهم كان لا يمنع من قتل البنات، وكان مُنْتَشِرًا بينهم عقلية ونفسية كره ولادة بنات لهم.

ومعلوم لك استحالة أن يلد الله تعالى، أن يخرج منه ولد، أن ينقسم منه ولد... فكل ذلك مستحيل، ولكن يمكنه أن يتّخذ سبحانه وَلَدًا، فيحدّد واحدا من مخلوقاته ويقول: هذا بالنسبة لي ولدي. ولكن من القرآن نعلم أَنَّهُ تعالى لم يتّخذ وَلَدًا، ولا بأي شكل، وتقرأ ذلك صَرِيحًا في العديد من الآيات ومنها الآية 92 من سورة مريم {وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا}، فسبحانه حكيم فكل ما يفعله صواب وحقّ، واتخاذ الإله وَلَدًا من مخلوقاته فهذا عمل غير حكيم، وقد أخبرنا سبحانه بذلك مِرَارًا عبر القرآن.

وتلاحظ هنا أن كلمة "مثل" بوضوح تدل على معنى التشبيه بنموذج فهي مثلما نقول لشخص ما أنه عاطل، ويسأل لماذا تصفني هكذا؟ فنقول له أن أعمالك عاطلة. فيقول أعطني مَثَلًا عن ذلك. فتقول: مَثَلًا أنت تكره أن تلد زوجتك بِنْتًا... وفي المقابل نقول إن الإيمان به تعالى ينتج عنه الخير. فتقول: أعطني مَثَلًا. فنقول: مَثَلًا سبحانه يأمر بتقويم النفسية المريضة الكارهة للبشرى بالبنات.

سأطيل الكلام عليك لأن هذا الاستعمال لكلمة مثل قد لا يبدو بهذا الوضوح في مواضع أخرى من الكلام القرآني، فهناك كتب ومقالات شحنتنا بأبحاث ودراسات عن أمثال القرآن، على معنى الأمثال الشعبية التشبيهية، وهذا غير صحيح دائما. وكما تعلم فغالبية التفاسير ستجد فيها لمعات للمفسّر تظهر لمعنى كلمة ما في آية ما، حيث السياق ساعده على الانتباه لمعنى دقيق لم ينتبه له في سياق كلام قرآني آخر، وقد سجّلت تلك اللمعات الرائعة، ودرستها وقوّمتها... وحاولت نشرها على كل الكلمات الأخرى في القرآن، ولكن هذا لم يكن مَطْلَبًا سَهْلًا أبدا، فبالرغم من براعتي المقبولة في استخدام برامج الكومبيوتر لأقحم معاني الكلمات تحت الآيات التي وردت فيها الكلمة أو اشتقاق منها، وهذا كان سَهْلًا نِسْبِيًّا في بداية دراستي للقرآن، ولكنه فيما بعد صار مُتَعَذِّرًا وصعبا جدا بعدما صار ما كتبته في دراسة الآيات طَوِيلًا، ورغم ذلك حاولت بقدر ما استطعت إعادة إقحام المعاني التي توصلت إليها مرّة ثانية وثالثة... في الآيات التي وردت فيها، فكلما تقوّم معنى الكلمة راجعت ورودها في كل القرآن لتقويم ما كتبته سَابِقًا.

وقد راجعت هذه الدراسة مِرَارًا من أولها لآخرها، ولم تكن مراجعة بالمعنى الحقيقي بل في كل مرّة كانت إعادة من جديد لصياغة كل شيء، فكلما راجعت وجدت تَقْوِيمًا أدق للكلمات وللمفاهيم، وصرت مُضْطَرًّا لإعادة تقويم كل ما له علاقة بذلك، وهذا مرهق جدا جدا، ويحتاج لذاكرة قوية جدا حتى أبقى مُسْتَحْضِرًا للتقويم الحديث للعديد من الكلمات والمفاهيم.

ومن هذا بدأت آخذ حجمي الصغير جدا جدا أمام كلامه تعالى، فحين قرّرت كتابة هذه الدراسة لم يخطر ببالي إلّا أني سأخرج بدراسة حاسمة لكل شيء، ولن أتراجع عن أي تدقيق حتى أنهي الموضوع تماما حَسْمًا، وتبيّن أن هذا غير مقدور عليه لبشري، فدقة الكلمات تتخطّى حسمها بالاعتماد على القواميس وكلام العرب، فهي أعمق من ذلك بكثير لأننا أمام تقويم من مستوى إلهي للغة من لغات البشر، فسبحانه استعملها مُقَوِّمًا لها لتصير شديدة الدقة، فنحن البشر لدينا توافق عامّ على معاني الكلمات، ولكن في التدقيق ستجد أننا مختلفون في التفاصيل كثيرا، وفاقدون للقدرة على وضع تعاريف دقيقة للكلمات التي نتحدّث بها يوميا مع أننا نجيد استعمالها، فنقبل تبديل كلمة بأخرى في جملة ما، ونرفض نفس التبديل لنفس الكلمة بنفس الكلمة الأخرى في جملة مختلفة! مما يدل على معنى ما مُحَدَّدٍ للكلمة ولكننا عاجزون عن وضع تعريف دقيق لها، وهذه حالة عامّة تصيبنا حتى في التعامل مع المفاهيم وتقييم الأشياء الفكرية...

ملخص الكلام، فهذه دراسة أؤمن بأنها متطوّرة عن بقية الدراسات في جوانب عديدة، وكنت آمل أن تكون النهائية، ولكن وكما ذكرت لك، فهناك أسباب عديدة منعت حصول ذلك، وأهمها أني مشحون بتراث ثقافي موروث سيقهرني ليفلت ويظهر غصبا عني مهما حاولت جاهدا كبته، فما توصّلت إليه من الدراسة للقرآن ومخالف لشيء من موروثي الثقافي، فبعضه لم يثبت في ذهني ليصير من مخزون ذاكرتي الفعّالة... فهذا شيء يحتاج لاستعمال المعلومات بتكرار واستعادتها أثناء البحث بما له ارتباط بها... ليصير خلفية ثقافية...

وفي نفس المستوى فأنا واقع تحت تأثير نفسيّتي وموقفي الشخصي من الأمور، وبتعابير القرآن فمدى سلامة قلبي "فكري ونفسيتي" ستنعكس على ما أكتبه حتما، فأنا ما أنا عليه من سوء وصلاح، وبطريقة أو بأخرى سيجد هذا الحال طريقه لينعكس على شيء ما أكتبه...

وأخيرا وبنفس الأهمية المؤثرة هو القدرة البشرية على التذكّر وصبّ الاهتمام، فحتى لو وصلت لمعنى دقيق أو مفهوم جديد أو دقيق، فنحن نتحدّث عن الآلاف منها من خليط معاني الكلمات ومعاني الجمل والمفاهيم، ومستحيل على بشري حصرها لتحضر في باله دائما... والحلّ بالاستعانة بالكتابة لكل شيء جديد تحت الآية التي لها علاقة به، فهذا صعب جدا جدا جدا، ومرهق جدا.

لذلك سترى في دراستي هذه العديد من المحطات التي أذكر لك فيها آخر ما توصّلت إليه أثناء آخر مراجعة، وهكذا في المراجعة التالية سأعود وأذكر لك آخر ما توصلت إليه، وسينتج عن ذلك حتما أن تجد اختلافا في هذه الدراسة بين مفهومين أحدهما أدق أو حتى مختلف ولو قليلا عن الآخر.

في بدايات دراستي هذه كنت قاسيا جدا مع الدارسين الآخرين للقرآن، وناقدا لهم بكلام صلب، لأني كنت جاهلا بمدى صعوبة ما يواجهونه، إلى أن صدمني واقع ضعفي البشري أمام كلام دقيق من مستوى إلهي، وأمام مفاهيم عميقة كثيرة ومتداخلة تحتاج من الأساس لتكون متربيا عليها لتصير مخزونك الثقافي، لترتاح من الكثير من الجهد للتفكير فيها كلما مرّت عليك، وأشير بذلك خصوصا إلى التراث الثقافي الديني الفاسد بشكل واضح ومتعارض مع القرآن، فالكثير من ذلك منتشر في تراثنا الديني، ومهما جاهدنا للتخلّص منه فسيبقى منه أثر يمنع من رؤية الحقّ بوضوح...

أكتفي بهذا المقدار من التبريرات حتى لا تقسو عليّ حين تجد تخالفا في دراستي هذه، فقراري الأخير كان أن لا أتراجع عن هذه الدراسة من بعدما صدمني مدى الجهد الذي تحتاجه لتكون جيدة، وصرت مؤمنا بأنها على الأقل ستكون بذرة يبني عليها الآخرون دراسات أفضل.

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ{61})

{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ}، يعاملهم ويحاسبهم كما يستحقون، {بِظُلْمِهِمْ}، بتصرفاتهم وأقوالهم غير العادلة ولا المنصفة، فلو عاملهم تعالى على أساسها، {مَا تَرَكَ عَلَيْهَا}، على الأرض، {مِن دَابَّةٍ}، ما ترك من يدب ويتحرّك على سطحها على يابستها أو في مائها، والحديث هنا موجّه للدابة الإنسان، وموجّه بالخصوص للظالمين، فتصير الجملة بشكل أبسط هكذا: لو يؤاخذ تعالى الناس الظالمين بظلمهم، عندها ما ترك سبحانه على الأرض أي إنسان ظالم، بل حاسبه فوراً.
لأنهم بسبب ظلمهم بسبب مخالفتهم للإنصاف بالتصرف والكلام، بالشرك واختراع التشريعات السيئة، بالكذب على الله تعالى، بشكر غيره... بتهجير المؤمنين، بقتل البنات... فهم يستحقون أن يتم إنهاء حياتهم فور قيامهم بأي عمل من هذه الأعمال الظالمة.

و{الدَّابَّةُ} وصف لكل ما فيه حياة ويدبّ ويتحرك مغيراً مكانه على أرضٍ، وهذا بالأساس يشمل كل الكائنات الحية من عائلة الحيوان من الحشرات والزواحف وذوات الأرجل والطيور والأسماك، وندر استعمالها في كلامنا لتشمل الحشرات والأسماك، عِلماً أن القرآن استعملها للحشرات كما في حالة الحشرة "السوسة أو غيرها" التي أكلت العصا التي كان يتّكئ عليها النبي سليمان(ع) كما ورد في الآية 14 من سورة سبأ: {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ...}، واستعملها شاملاً بها الزواحف كما في الآية 45 من سورة النور: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ...}، واستعملها بمعناها الأعم لتشمل كائنات حية من غير عالمنا كما في الآية 29 من سورة الشورى: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ}.

كما ترى، فإن الآية لا تقصد أن تتم إماتة كل أنواع الدواب من حيوانات وحشرات، ولكنها استعملت تعبير {الدَّابَّةِ} للإشارة إلى كل الجنس البشري الذي تتحدّث الآية عن ظلمه، وكما ترى، لا معنى لكلامهم في الكتب ونقاشهم إن كانت الإماتة تشمل الأنبياء والرسل... فهؤلاء ليسوا ظالمين، والآية تقول: {لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ}، سبحانه لو آخذ الظالمين لما ترك من الظالمين من دابّةٍ، فلو كان هذا قراره تعالى، لم يكن ليترك الظالمين يدبّون على الأرض، وفوراً حين يرتكبون الظلم يميتهم. وهكذا ترى بهذا التفسير البسيط للآية أن كل النقاشات والتفريعات التي ذكروها في الكتب حول الآية لا معنى لها، ويؤكّد ذلك تكملة الجملة حيث إنَّ عموم القرآن تحدّث عن التأخير لتعذيب الظالمين... وتكملة الآية: {وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ}... بصراحة ووضوح تفهم منها تأخير عذاب الظالمين. وعلى نفس المعنى ما ورد في الآية 45

من سورة فاطر: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا}، فالكلام عمّا كسبوه من سوء وهذا لا يشمل الصالحين.

{وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ}، يتركهم سبحانه لوقت آخر، {إِلَىٰ أَجَلٍ}، إلى حيث ينتهي الوقت، {مُّسَمًّى}، مذكور بالتحديد كتاريخ، في وقت كذا. وهذا ما تراه من واقع الحال فالظالمون والصالحون يكملون حياتهم ولا ترى أنه تعالى يميت أي واحد منّا فوراً عندما يفعل السوء، فلكل واحد منّا أجل لموته، وسيعيشه حتى لو فعل السوء. وواضح لك أن الآية هنا لا تتحدّث عن الأقوام الفاعلة للسوء من العيار الثقيل والذين يستحقون عليها إهلاكهم هنا في الدنيا، ورغم ذلك فهؤلاء أيضاً يمهلهم سبحانه ولا يميت الواحد منهم فوراً بعدما يفعل السوء، فإذا اجتمعت فيهم شروط نزول عذاب عليهم هنا في الدنيا، يأتي أجلهم ويموتون.

{فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ}، وانتهى وقت الانتظار لموت الظالمين فعندها، {لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً}، فلا يمكنهم أن يؤخّروا موتهم ولو لساعة، لأي فترة قصيرة محددة من الزمن، {وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}، فلا يمكنهم أن يجعلوا موتهم يحصل قبل موعده المحدّد له.

كلمة {أَجَلٍ} تقال لعامة أي زمن لانتهاء شيء، كأجل مدة عقد إيجار شقة، وكأجل الموت، وأجل للحساب... وسياق الكلام هنا عن أجل لموتهم على معنى ما ورد في الآية 145 من سورة آل عمران: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا...}.

تذكّر دائماً أن كلمة {سَاعَةً} المتعارف عليها بمساواتها لستين دقيقة من بعد تقسيم اليوم لأربع وعشرين ساعة، فهذا ليس المعنى اللغوي الأساسي لكلمة ساعة، بل هي لعموم أي فترة زمنية مهما كان طولها وحصل فيها حدث فرعي من شيء أساسي، واليوم هو عموم أي زمن مهما كان طوله ويتضمّن حدثاً أساسياً تتخلله تفريعات، والتفريعات تحدث في ساعات.

(وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ الْنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ{62})
{وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ}، هناك نماذج من المشركين يكرهون أن يكون لهم أولاد بنات، وفي نفس الوقت يقولون إنّ الله تعالى له بنات!

{وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ}، عندما يصفون ويتحدثّون عن بنات الله تعالى، ويقولون هذا الكلام بلسانهم فهم يكذبون لأنه سبحانه لا بنات له ولا صبيان.

{أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ}، كيف ولأي سبب سيكون لهم شيء حسن؟! بعد افترائهم الكذب على ربهم سبحانه فكيف سيحصلون على شيء حسن منه؟! {لَا جَرَمَ}، حتمًا وبالتأكيد، {أَنَّ لَهُمُ النَّارَ}، وليس الحسنى، وحتماً وبالتأكيد، {أَنَّهُم مُّفْرَطُونَ}، حيث سيتم التعامل معهم بالتفريط بهم، لأنهم بين يديه تعالى ولن ينالوا الاهتمام الإلهي، وسيدخلون إلى النار ليتعذّبوا ولن يهتمّ سبحانه بشعورهم بالألم، ولن يكترث لهم، ولن تصيبهم أي رحمة.

من آيتنا هنا صار واضحاً لك أن الفقرة السابقة كان تركيزها على الردّ على كلام سيقوله المشركون في الآخرة، حيث سيقولون إنهم ما عملوا من سوء (راجع الآية 28 من السورة)، وها تبيّن لهم هنا وقبل الآخرة أن هذا الكلام غير صحيح، فهم أشركوا ونتج عن ذلك أن بعضهم آذوا المؤمنين وبعضهم قتلوا البنات وبعضهم نسبوا كذباً له تعالى البنات...

(تَاللّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{63})
{تَاللَّهِ}، قسماً تأكيداً بالله تعالى، قسماً بنفسي، بمكانتي العالية كإله أحد، {لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ}، حدّدنا من ينقل رسالة منّا إلى مجموعات من الناس كان لديها عقيدة وتصرفات مشتركة ولها امتداد تاريخي من قبلك، فأنت لست أوّل رسول، وقومك ليسوا أوّل مشركين، {فَزَيَّنَ}، جعل جميلاً، لتلك الأمم، {الشَّيْطَانُ}، الكائن الموصوف بفعل السوء وعمله على إضلال وإبعاد الناس عن دينه تعالى، زيّن لهم، {أَعْمَالَهُمْ}، حيث أعمالهم السيّئة جعلها الشيطان جميلة في نظرهم، {فَهُوَ وَلِيُّهُمُ}، فهم تابعون له وهو مرجع لهم، بسبب أفكارهم وأعمالهم السيّئة التي زيّنها لهم الشيطان كفروا به

تعالى وكفروا برسله، حيث صار الشيطان وليّهم لأنهم يسمعون وسوسته ويطيعونه، {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، لهم ضرر يصيبهم لا يمكنهم الاعتياد عليه ولا تحمّله.

الشيطان صار وليّهم، {الْيَوْمَ}، لأنَّ الأمم السابقة مضت أيامها، وهذه الأمّة هذا يومها، وصار الشيطان وليّها اليوم، أي في هذا الزمن. بعبارة أخرى الشيطان ولي لكل الذين كانوا مثلهم، والسابقون أمثالهم ماتوا، حيث اليوم في هذا الزمن حين نزول هذا القرآن الشيطان ولي للمعاصرين لك.

نلاحظ أن كلمة شيطان تشير لمن يقوم بالسوء ويعمل على إضلال الآخرين عن دينه تعالى عن قصد، واستعملها القرآن كصفة لمن يقوم بعمل مضاد لعمل الأنبياء، فمن يضلل الناس، كائناً من كان، فهو شيطان، سواء أكان من الجنّ أو الإنس، ولكن عندما يتحدّث القرآن عن الشيطان من دون تحديد، فهو يقصد الجنّي الذي اسمه إبليس لعنه الله تعالى، لأنه رأس الوسوسة والشيطنة وكرّس حياته وجهده لذلك.

(وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{64})

{وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ}، لم ننزل عليك القرآن أيها الرسول محمد(ع)، {إِلَّا لِتُبَيِّنَ}، لتوضّح، للناس، {الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ}، فصارت عقائدهم وتشريعاتهم مختلفة متنوّعة، لأنهم سابقاً لم يلتزموا بالعقيدة والشريعة الإلهية، فلم يتوارثوها، والقرآن فيه العقيدة والشريعة الصحيحة التي تبيّن الحق فيما اختلفوا فيه.

وأنزلنا عليك القرآن، {هُدًى}، فيه ما يضع الناس على الأشياء الصحيحة التي توصلهم لغاية صحيحة، ومع أن القرآن من المفروض أن يهدي الناس كلهم ولكن وكما نعلم فإن قسماً من الناس لم يهتدِ به! ولذلك فالقرآن: {رَحْمَةً} عناية إلهية لمصلحة الناس، {لِّقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة، {يُؤْمِنُونَ}، في حالة الاعتقاد والالتزام، فلن يكون القرآن رحمة لمن كفر به، لأنَّ هذا لم يتبعه وسينال جزاءه.

عادةً القرآن يصنّف الناس بسلامة أو مرض القلب، بالعمى أو البصيرة، فهم هكذا موصوفون في حياتهم العادية بمعزل عن موضوع التديّن المعروض عليهم منه تعالى، وبعدها يصفهم لنا بعدما سمعوا كلامه تعالى، فاهتدوا به أو بقوا على ضلالهم...

الكثير من العبارات القرآنية تجعل فكرنا يذهب إلى نزول الكتاب الإلهي وإيمان بعض الناس به على أساس أنهم من قبل لم يكونوا مؤمنين، ولكن هذا غالباً توصيف غير صحيح ولم يقله القرآن، ونفس الشيء نفهم العبارات التي تتحدّث عن المتقين أنهم صاروا متقين من بعدما آمنوا بهذا القرآن، وهذا غالباً غير صحيح.

يكون الشخص سليم القلب ولو بنسبة مقبولة في الأساس، وهذا يعني أنه لن يخترع إلهاً من هواه وخياله، ولن يقبل بوراثة عقيدته من الناس إن لم يَرَ العقلانية فيها... ولن يقبل بشريعة سيئة... فهو هكذا من الأساس، وفي هذه الحالة يصفه القرآن بالمؤمن التقي الصالح، حيث قبل وصول الكلام الإلهي إليه عبر رسول أو نبي أو كتاب، فهو موصوف بالتقى والإيمان والصلاح بنسبة ما عالية أو منخفضة مقبولة.

من كانت حالته كذلك فهذا حين يُعرَض عليه الكلام الإلهي، سيتماشى معه، ومن لم تكن حالته كذلك فلن يتماشى مع الكلام الإلهي وسيكفر به، أو يعلن إيمانه بينما هو منافق أو فاسق.

الآية هنا والآية الثانية من سورة البقرة: {ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}، نموذج من العديد من الآيات التي تقصد المعنى الذي نقوله، فأكثر كلام القرآن ليس عن شخص كان كافراً أو مشركاً مجرماً ظالماً... وبعدما وصله الكلام الإلهي آمن واتقى وصلح عمله... لا، بل عن وصول كلامه تعالى إلى الذين لديهم أهلية الإيمان به، فهم بالأصل والأساس مؤمنون أتقياء صالحون بدرجة ما، وبسهولة يتماشون مع كلامه تعالى ولا يرفضونه ولا يعترضون عليه لأنه هو نفس هواهم ورغبتهم.

نفهم هذا بسهولة حين ننتبه أنه تعالى لا ينزل علينا كتاباً يعرض علينا فيه ديناً نازلاً من عنده كشيء غريب عجيب في عقائده وتشريعاته وسلوكياته، لا، بل ما جعله تعالى فينا من قدرة على تمييز الحق من الباطل والخير من الشرّ، فهو

دينه تعالى، لأنّ كلامه تعالى يأتينا متماشياً مع قابليتنا على تمييز الصالح من الفاسد، فينزل علينا منه تعالى ما مفروض أن نراه نحن صالحاً.

هناك تفاصيل عديدة تتفرّع من هذا الكلام، وأهمها أن سلامة قلبنا درجات مختلفة، حيث إنّ بعضنا نقي طاهر، وآخرون وسط، والبقية متعلقون ببعض الأعمال السيئة... لذلك لسنا كلّنا محافظين على سلامة قلوبنا وبالتالي لسنا كلّنا محافظين على سلامة قدرتنا على تمييز الخير من الشرّ، وهنا يأتي كلامه تعالى مقوّماً لعقيدتنا وشريعتنا وسلوكياتنا، فنؤمن به ونتّقي ونصلح عملنا على أساسه، فنهتدي بهدى كلامه تعالى، فكلامه تعالى هدى للمتقين بهذا المعنى، لأنه يعرض عليهم الحقّ الصافي.

غير ذلك، إنَّ الكثير الكثير منّا لا يتحسّن إيمانه بسبب تعلّقه بأمراض نفسية وفكرية، فينافق ويفسق ويغالي ويتمذهب ويفتي مشتقاً من كلامه تعالى بهواه السيّء...

(وَاللّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ{65})
كما بدأت السورة بلفت الانتباه لما حولنا، هنا تعود لنفس الالتفاتات ولكن بطريقة أخرى، وهذه نماذج عن الهداية التي في القرآن، والتي تدل على توحيد الإله، وطاعته وحده...

{وَاللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}، عبر المطر، {فَأَحْيَا بِهِ}، بالماء، {الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}، وترى قطعة أرض ليس فيها حياة، حيث تكون مجرد رمال وتراب، ولكن تخرج منها النباتات عندما يتساقط عليها المطر.

لاحظ وجود حالات تحصل فيها حياةٌ للأرض بعد سقوط هطلة مطر واحدة، حيث في الصحراء توجد بذور لنباتات تنمو على كمية قليلة من المطر، ويكفيها سقوط المطر لساعة واحدة لتنمو بعدها... ورغم ذلك الآية لا تقصد فورية حصول حياة في الأرض بعد نزول الماء لساعة، بل الكلام على عموميته، وتقارنه مع الأرض التي مرّ عليها جفاف لفترة طويلة وتراها ميتة بلا نبات، وتلتفت لأرض فيها حياة لأنها غير محرومة من تساقط الأمطار.

نلاحظ كلام القرآن عن خلقتنا من طين، من ماء وتراب، كتعبير مرادف لخلقنا من المواد الموجودة في التراب والماء، من كالسيوم وكربون وهيدروجين... ويبدو أن تعابير القرآن عن خروج النبات من الأرض تشير إلى نفس المعنى، لأن النبات مخلوق من مواد الأرض، وحين ينزل الماء فإن البذور وبقايا الجذور والفسلات... تترطّب وتبدأ بالنمو، ويمكن أن نفهم الإشارة لبعثنا من الموت من نظرة تكوّن النبات من المواد التي في الأرض، وهكذا تكون الآية ناظرة إلى تماهي واختلاط البذور والجذور مع الأرض على أنهما نفس المواد.

نفهمها بشكل أبسط بالمقارنة مع ما نعرفه من كواكب سطحها ترابي ولا حياة نباتية عليها، ولو تَهَيَّأَ لها غلاف جوي يمدّها بالمطر، لتحركّت العملية الفيزيائية الكيميائية لتنتج حركة بيولوجية نباتية... وهكذا وبنظرة بسيطة للآية التي تشير لأرض ميتة، جرداء، حيث تراها مجرد رمل وتراب، ولا تميّز البذور والجذور فيها، لأنها في أساسها مكونة من التراب والرمل، وتصير حيّة لمجرد نزول الماء عليها.

{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ}، في خروج الحياة النباتية من الأرض بسبب هطول المطر، {لَآيَةً}، لأنه شيء مميّز، {لِّقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة، {يَسْمَعُونَ}، تدخل هذه الجمل من أذنهم إلى فكرهم، ومن يسمع القرآن يلفت الانتباه لهذه الظاهرة فيجب أن ينتبه لهذه الآية التي تدل بكل وضوح على وجود خالق خطّط ودبّر لهذه الظاهرة.

ليس من المعقول أن تتشكّل الحياة هكذا لوحدها بالصدفة، حيث إنَّ أي إنسان بسيط يعلم بأن التفاصيل الكثيرة جدا تتشارك في خروج النبات ليصير مكان ما على الأرض فيه حياة نباتية، وكيف تتصوّر أن يكون كل ذلك حصل بالصدفة! أو كيف تتصور أن إلهين أو أكثر تشاركا على هذا التخطيط والتدبير! أو ما معنى استبداله تعالى بالطبيعة قائلين إنها خلقتنا!

بقي شيء، حيث إنَّ مختلف سور القرآن ساوت بين خلقتنا وخلقة النبات، وجعلته دليلا على قدرته تعالى على إعادة إحيائنا في الآخرة، ها أرض ليس فيها حياة نباتية، وبعملية بسيطة بنزول الماء عليها، تدبّ الحياة فيها، وإعادة خلقتنا مشابهة لذلك، راجع الآية 17 و 18 من سورة نوح لقليل من التوسّع في هذه النقطة {وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا}. وراجع دراسة الآية 11 من سورة ق {رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ}.

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ{66})
{وَإِنَّ لَكُمْ}، أيها الناس، {فِي الْأَنْعَامِ}، في عامّة الحيوانات الموصوفة بأنها نعمة وهي التي أكلها حلال سواء أكانت أليفة أو وحشية، وهنا سترى أن المقصود هي الأنعام الحلوبة كنموذج، حيث فيها، {لَعِبْرَةً}، فتعتبرون منها وتستخرجون من الكلام عنها ما يفيدكم، وهنا الكلام عن الاعتبار منها لتؤمنوا.

{نُّسْقِيكُم}، نؤمّن لكم ما تشربون، {مِّمَّا}، من الذي، {فِي بُطُونِهِ}، في داخل الأنعام، {بَيْنِ فَرْثٍ}، بين طعام مفتت هضمته الدابة، و**{دَمٍ}**، فهذا ما يوجد في باطن البقرة أو المعزاة... طعام مهضوم مخلوط بأسيد وبكتيريا من معدة الحيوان، ودم ينقل المغذيات من الطعام إلى الغدد التي تفرز الحليب، ومنه نشرب: {لَّبَنًا} "محلوب، حليب" {خَالِصًا} من الدم والفرث، كما نقول: من خلاصة التعامل "التفاعل" بين الدم والفرث. وَخرج من بينهما اللبن كخلاصة، فمواد اللبن "المحلوب" كانت بين الدم والفرث، وبعملية ما خَلَصَ اللبن منهما. {سَائِغًا}، يَمْشِي بسلاسة في الحلق والمريء، فقبل صيرانه لبنا كان فرثا ودما فلم يكن سائغا شرابه وبعدها صار، {سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ}، لمن يرغب بالارتواء من شرب اللبن.

كلمة لبن هي الكلمة للسائل الذي يخرج من ثدي الحيوان، ويتم استخراجه بفعل "الحلب"، لِيصير وصفه "محلوب" ولكن صار دارجا عند بعض العرب أن نقول له "حليب"، وأن نقول له بعد تخميره "لبن". ونلاحظ أنهم قديما كانوا معتادين على شرب الحليب نيئا أو مغليا، مثل عصرنا الحالي. وتلاحظ أن الآية لم تقل إنَّ الحليب سائغ لكل الناس، بل للشاربين لمن يشربه وهو طبعا يكون راغبا بشربه.

قرأت لواحد من جهابذة الذكاء في التعليق على القرآن قائلا إنَّهُ لا يحبّ شرب الحليب، لَا الآية هنا صادقة ولا الآية 15 من سورة محمّد صادقة {مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ...}، فهناك تحدّثت عن أنهار من لبن واشمأز من جنّة فيها نهر من الحليب، وفات ذكاءه الخارق أنه رَضِعَ الحليب حين كان طفلا، وفاته أن كلام القرآن عن نماذج لا تقصد التعميم، حَيْثُ استعملت الآية تعبير لذّة الشرب للشاربين وليس لكل الناس، وفاته أن ما ذكره القرآن عن الجنّة أَنَّهَا نماذج تقريبية، وفاته... لا لم يفته ذلك، بل هو نموذج عن الساخرين من كلامه تعالى الذين استيقنت أنفسهم آياته ولكنهم جحدوا بها.

الآية هنا والتالية تلفتان الانتباه للمشروبات، وهنا لو فكّرت في اللبن "الحليب"، وانتبهت للبقرة وهي تشرب الماء وتأكل العلف، وانتبهت إِلَى أنه سيتحوّل إلى حليب، لاعتبرت وَتحرّك ذهنك ليصير عندك فكرة عن أن تجمّع الحليب في ضرع البقرة هو عملية رائعة، حَيْثُ إِنَّ تكوين جسد الحيوان، والتحويل من طعام وماء بتخثّر عبر الدم والغدد إلى حليب، ليكون صالحا للشرب... فهذه التفاصيل الكثيرة التي نهايتها أشياء مترابطة مع بعضها... تنتهي بلذّة شربك له وتغذّيك منه... أليس وراءها خالق خطط ودبّر! وهذه هي العبرة.

ننتبه للآية هنا وما سيأتي عن العسل، وَتلاحظ أن التعابير القرآنية جاءت بسيطة، ولا تحتاج لمتخصص في علم الحيوان ولا بتربية النحل ليفهمها، لِأَنَّ أي إنسان عادي سيفهمها، ولو قرأت محاولات الأقدمين للتفسير "العلمي" للآيات، بما هو خارج النص الظاهر البسيط المفهوم من الآية، لوجدت أشياء مضحكة بالنسبة لمعلوماتك الحالية، ولو أمعنت جيدا فيما قالوه لوجدته بعيدا جدا عما تقوله الآيات، وأنت الآن يا عزيزي، احتفظ بمعلوماتك "القيّمة" وافهم الآية كما يفهمها أي إنسان عادي، ولا ترتكب نفس الخطأ الذي ارتكبه من سبقك، هَا الدابة أمامك، وهي تشرب وتأكل، وفي بطنها طعام مهضوم، مرتبط بشرايين الدم بالضرع، ويخرج من ضرعها اللبن، وهذا بكل بساطة ما تقوله الآية، وهو كاف لأي إنسان لينتبه لهذا الحدث "العادي" أنه رائع التصميم ومذهل ويتكرر بسهولة مع كل الثَّدْيِيَّاتِ...

لا يفتك التركيز على رغبتك بشرب اللبن وتغذّيك منه، أَيُّ تفسير لذلك؟ هَلْ أنت لك أي علاقة بذلك؟ مَا علاقتك بتصميم البقرة لينتج عنها محلوب يغذّيك؟ وكيف تفسّر هذه النتيجة مستثنيا وجود إله صمّم وخلق؟

نكرر المثال الذي تتصوّر فيه نفسك أنت وَقرّرت خلق كائنات في بيئة، وصمّمتها تجوع وتنمو وتتكاثر... وَتحتاج لطعام، فهل ستخلق لها الطعام من الفراغ أم ستجعله متاحا في بيئتها؟ فإن جعلته في بيئتها متوافرا، ألا تكون أنت رازقها؟ أم لن تؤمن بك الكائنات كخالق مصمّم رازق إلا إذا انبثق الطعام أمامها من الفراغ عندما تجوع؟

معلوم من نفسية الجاحدين الكافرين بشكره تعالى على ما رزقهم أنهم حتى لو انبثق الطعام أمامهم من الفراغ حين يجوعون، فهم لن يؤمنوا به تعالى، وسبحانه خلقنا في بيئة مرنة مترابطة، حَيْثُ أصلا ليس عاديا أن تحصل الأشياء من دون آليات لحدوثها، وَهناك حالات استثنائية قليلة جدا فعل فيها تعالى بعض الأمور بشكل غير عادي، وهي ما نسميها بالمعجزات، كفلق البحر لبني إسرائيل، ولكن ومما نفهمه من القرآن أنه حتى هذه الأمور الاستثنائية غير العادية، لَمْ تحصل كالسحر بمعناه الخرافي، بل حصلت بطرق غير الطرق العادية التي عادة تحصل فيها الأشياء.

نحن متاح لنا القدرة على التعرّف على آليات حدوث الأمور، ومنذ القدم كان لدى الناس نظريات عن ذلك، وقديما كانت المعطيات قليلة وطفولية، وعقلية التعاطي مع كوننا كانت غالبا طفولية، حَيْثُ المؤمنون بدينه تعالى كانوا يعتقدون أَنَّ لديهم نظريات دينية تفسّر كل شيء، وكانت تفاسيرهم مهيمنة لأنها الوحيدة تقريبا، وَالآخرون لم يكن لهم قديما نَظَرِيَّةٌ تُفَسِّرُ نشأة الحياة... وهيمنت نظريات المتدينين بسبب سلطتهم القاهرة لأي كلام آخر قد يكون صحيحا...

المشكلة التي نشأت من ذلك أن المنتمين لدينه تعالى قمعوا الآخرين من البحث العلمي مُتَّهِمِينَ إِيَّاهُمْ بمخالفة كلامه تعالى! بينما هم المخالفون لكلامه تعالى بتفسيرهم لكلامه سبحانه بسذاجة وطفولية.

البحث عن آلية حدوث الأشياء، من نَشْأَةِ كوننا وصولا إلى نشأة الحياة على الأرض، وضمنا ما نتج من ترابط بين الكائنات والظواهر... هُوَ هذا كل كلامه تعالى عن آياته الدالة عليه كمصمّم خالق، حَيْثُ إِنَّ التعرّف على آلية نشأة الكون ما هو إلا محاولة التعرّف على ما نستطيع فهمه من كيفية خلقه تعالى للكون، وإلا فكيف تتوقع أن يكون سبحانه خلق الكون؟ هَلْ بكلمة سحرية قالها تعالى نشأ الكون وتكوّن فورا في ستة أيام من أيام الأسبوع؟! وبكلمة سحرية خلق سبحانه آدم(ع) فورا... وهذا هو التفسير لكلامه تعالى الذي نشره المنتمون لدينه تعالى، بينما كلامه سبحانه واضح عن مراحل ست لخلق ما في الدنيا، وعن إنباتنا من الأرض، وعن خلقنا من سلالة من طين... بِوُضُوحٍ هناك آليات لحدوث الأشياء، والتعرّف عليها ليس لاغيا لإله صمّم وخلق، بل تعرّف على جانب من آلية فعله تعالى للأشياء، وهذا شيء لم يفهمه قديما المنتمون لدينه تعالى، والمنتمون الجدد "المسلمون" كانت الأجيال الأولى من علمائهم مُحَفَّزَةً بكلام القرآن الاستفزازي عن الأمور العادية والأمور العجيبة، ولم يفهموا من القرآن أي تقييد لهم، ولم يستخرجوا منه نظريات علمية، ولم يروه متعارضا مع أي فكرة... حتى جاء بعدهم الكثير من الساذجين والطفوليين ومعهم السَّخِيفُونَ... على نفس منوال الأقدمين، محاربين ومعارضين لبعض النظريات العلمية متهمينها بأنها إلحادية! كنظرية التطور وأصل الأنواع.

لست بصدد نفي أو إثبات أي نظرية علمية، لِأَنَّ هذا من شؤون المتخصصين في العلوم، ولكن ألفت انتباهك إِلَى أَنَّ العلوم ما هي إلا بحث عن آليات حدوث الأمور، ومحاولة تقليد ما يحصل بطريقة وبوسائل نتمكّن نحن من فعلها، وأين ذلك من المخالفة مع كلامه تعالى أو الكفر به تعالى؟

للأسف، أَكْثَرُ ما يقوله العِلْمَانِيُّونَ الملحدون به تعالى كردّ على الدين الإلهي، صَحِيحٌ، ولكنه ليس ردا على كلامه تعالى، بل ردّ على كلام المنتمين لدينه تعالى الذين يعرضون كلامهم على أنه دينه تعالى، وها دراستنا هذه لكلامه تعالى تريك كلامه سبحانه لوحد، وكلامنا نحن لوحد، وهكذا تفصل بين قدسية كلامه تعالى وبين كلامنا الدراسي، حَيْثُ سيأتي من سيدرس كلامه تعالى بأفضل مما فعلناه نحن، وسيتطور فهمنا لكلامه تعالى كلما تحسّنت معطياتنا العلمية اللغوية والتجريبية والفكرية... ونبتعد أكثر فَأَكْثَرَ عن السذاجة والطفولية، والحماقة، في التعامل مع كلامه تعالى.

لا أقصد التشجيع على تفسير كلامه تعالى بناء على معطيات علمية بمعنى التفسير العلمي للقرآن، لا، لَيْسَ صحيحا هذا المنهاج، بل أقصد تطوّر فهمنا للكلام الذي يطرحه القرآن بطرق علمية رصينة ومدروسة.

(وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ{67})
{وَمِن ثَمَرَاتِ}، من نتاج، {النَّخِيلِ} "البلح والتمر والرطب"، ومن نتاج {الْأَعْنَابِ}، "العنب الكرمة والزبيب"، {تَتَّخِذُونَ} من الثمر، {سَكَرًا}، شرابا يسبب السُّكْرَ مِمَّا يسبب فقدان العقل، وتتخذون من الثمار {رِزْقًا حَسَنًا}، حَيْثُ يَصِيرُ لديكم ما تستهلكونه للأكل، وَتصنعون سوائل لذيذة تغذّيكم كالعصير والدبس والخلّ... وهي مشروبات حسنة جيّدة، وليست كالمسكرات.

{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً}، لهو شيء مميّز، {لِّقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة، {يَعْقِلُونَ}، يستوعب فكرهم هذا الشيء.

لاحظ الآية السابقة لفتت انتباهنا إلى إِنْتَاجِ سائل اللبن من الحيوان من بين فرث ودم وهو لذيذ ومغذّ... وهنا تلفت انتباهنا لإنتاج السوائل من ثمار "النخيل والعنب"، حَيْثُ من بين تراب وماء يخرج المسكر وَتَخْرُجُ الأشياء الحسنة الجيّدة من ناحية أخرى، كالعصير والخلّ والدبس...

ننتبه، فالآية لا تشير إلى حليّة شرب المسكرات، لا، فهي تتحدّث بشفافية لما خلقه تعالى عموما ويمكن استخراج المسكرات منه، وَفصلت بين الرزق الحسن والرزق غير الحسن، وَكما تلاحظ فَإِنَّ المسكر خارج الرزق الحسن، لأنه مشروب محرّم تناوله في الحالات العادية.

بعبارة أصرح وأوضح، سبحانه أتاح لنا نباتات يمكننا استعمالها بشكل سَيِّئٍ، مثلما أتاح لنا جسدا وشهوات ورغبات يمكننا استخدامها بشكل سَيِّئٍ، فما معنى حرية الإرادة والاختيار المتاحة لنا إن لم نتعرّض لما نختار منه؟ وأمره تعالى للملائكة بالسجود لآدم(ع) كان سببه الواضح أَنَّنَا كِلَيْنَا، نحن والملائكة، نتمتع بحرية الإرادة والاختيار، ولكن خلقتنا تتضمّن مجالا أكبر من الاختيارات الصعبة وذلك بسبب خلقتنا من طين النَّاتِجِ عنها شهوات ورغبات لا تفهم الملائكة معناها، ولكنها تعلم بأنها ظروف صعبة كامتحان، وَلذلك عبّرت عن فائق احترامها بالسجود للبشر الذين سيتخطون بلواهم بنجاح. ومن تبعات خلقتنا من طين أيضا أن نمتاز بالجائزة بجنة فيها ملذات لا تقدر الملائكة على الشعور بها ولا فهمها.

هَكَذَا ترى معنى خلقنا في بيئة فيها ما يمكننا استخدامه لفعل السوء، وإلا فما معنى خلقنا بجسد وفي بيئة لا يمكننا فعل السوء بها؟ فما معنى حرية الإرادة والاختيار؟ وما معنى الفوز بالجنّة؟ فلو لم يُتِحْ تعالى استخراج المسكرات "خمر ومخدرات..." من النباتات، فستجرّ السبحة لنسأل عن قابليتنا نحن لفعل السوء بأنفسنا، لماذا لم يخلقنا تعالى بحيث لا خيارات أمامنا لفعل السوء بكل أنواعه وأشكاله؟ وَكما ترى لَا معنى لهذا الكلام من مخلوق تركيبته تتضمّن إمكانية فعله للسوء والصلاح، وبشكل ما هو اختار ذلك، ولمزيد من التفاصيل راجع الآية 72 من سورة الأحزاب {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}.

مِنْ ناحية ثانية، تذكّر أن المسكرات كانت الطريقة الوحيدة لتخدير المرضى لمدة طويلة جدا من الزمن قبل استبدالها بمركبات أخرى... ولا تزال المسكرات تستعمل إلى اليوم في الأدوية كوسيط ناقل للدواء الفعال مع جزيئات الكحول... ولا تزال بعض أنواعها ضرورية جدا لمعالجة بعض الأمراض كَالاكْتِئَابِ والآلام... فكل ما تقوله الآية هو التنوّع في استخراج المشروبات من الثمار، وهذا شيء رائع، مِنْ ناحية هو "روتيني" متكرّر عادي، لأنه يحصل بكل سهولة، وَمن ناحية التفكير بأساس تصميم المنظومة التي ينتج عنها لبن من بين فرث ودم ولحم... ومن التراب والماء نبتة لها ثمر تصير خلّا ودبسا... فهي منظومة رائعة تدل على خالق أبدع الصنع.

أكرر لك، إِنَّ المسكر بكل أنواعه وأشكاله حرام قطعا في صريح القرآن في الآية 90 من سورة المائدة {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ}، وهنا فصلت الآية المسكر لوحده عن بقيّة المشروبات من الثمار، حَيْثُ إِنَّ بقيّة المشروبات هي رزق حسن، والمسكر ليس كذلك، فهو مشروب معروف عند الناس، وَحرّمه الإسلام إلا للمضطر في حالة الاستشفاء.

قِيلَ في بعض الكتب كَلَامٌ لتخريج "السَّكَرَ" من الآية عن معنى ما يسبّب السُّكْرَ، على أساس أنها كلمة لا تشير للمسكرات الخمرية... حَيْثُ قيل إِنَّ السَّكَرَ هو الخلّ، وَقيل إِنَّهُ المشروبات الحلوة، ولكني وفيما لدي من مصادر لم أجد دليلا على ذلك في كلام العرب قبل الْإِسْلَامِ ولا في أقدم الكتابات القريبة من عهد نزول القرآن. ولو انتبهوا لمعنى كلامه

تعالى لما شعروا بالحرج من ذكره تعالى للمسكر المستخرج من النبات الذي خلقه تعالى، فهذا واقع، وهذا نموذج عما جَعَلَهُ تعالى ليمتحننا ولا داعي لتغيير معنى كلمة "سكر". وَبتعابيرنا الحالية يصير كلام الآية لفت انتباه لما جعله تعالى من خصائص كيميائية في عصير النبات، والذي يسبب السُّكْرَ نحتاجه للتداوي، وغيره هو الرزق الحسن للأكل والشرب منه.

فِي حين نزول القرآن كَانَتْ مَعْلُومَةً التَّحَوُّلَاتُ الكيميائية لعموم السوائل، حَيْثُ كانوا يستخرجون المسكرات من لبن "حليب" الأحصنة أيضا، وواضح لك أن الآيات أصلا تتحدّث عن نماذج وَلا تحصر استخراج ما نريد فقط من النخيل والأعناب، حَيْثُ حصرت المسكر في جهة والرزق الحسن مقابله لعموم أي شيء آخر ليس مسكرا.

على كلّ حال، فليكن التركيز على تحوّل الماء والتراب إلى نبتة وبعده إلى ثمر وأخيرا إلى مشروب لنا، هَلْ هذا يمكن أن يحصل من دون تصميم إلهي؟! ولمزيد من التوسّع راجع ما ذكرناه في ذيل الآية 10 من هذه السورة.

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ{68})
أول مشروب تحدثت عنه هذه الفقرة كان اللبن، ثم عصير النبات، وننتقل هنا لمشروب ثالث:

{وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ}، وأوصل المسؤول عنك من مستوى إلهي إلى نوع حشرة النحل معلومات حتى تتصرف على طريقة محددة، ونحن نسمي تصرفاتها "غريزة"، والوحي للنحل كان: {أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا}، اصنعي بيوتك في الجبال، {وَمِنَ الشَّجَرِ}، أيضا اصنعي بيوتا، {وَمِمَّا يَعْرِشُونَ}، من عموم ما كان لجهة فوق، من أسقف البيوت أو مما يرفعه الناس من النباتات كعرائش الكروم... وكما تعلم أَنَّ النحل يصنع بيته من الشمع في المغائر والتجاويف وعلى الأشجار وفي الأسقف... وفي العلب والصناديق التي يصنعها الناس، ويبدو أن عبارة "ما يعرشون" وصف للطريقة التي كانت سائدة لتربية الناس للنحل في زمن نزول هذه الآية، وَحاليا يبني المربّون صناديق لتربية النحل فيها، ومن كلام الآية تَبْدُو طريقة أخرى كانت معتمدة قديما عبر صنع عريش، صنع شيء مرتفع لتربية النحل فيه...

نلاحظ أن ما نسمّيه نحن "غريزة" للحيوان "وَالحشرة" أَسْمَتْهُ الآية هنا وحيا، وفي عمق الدراسات عن سلوكيات عموم الحيوانات تجد كلاما عميقا عن "نمط" حياة، بدلا من توصيف تصرفات الحيوانات بالغريزة، حَيْثُ إِنَّ نمط حياتنا مختلف وأوسع عن نمط حياة النحلة، وبالنظرة السطحية المتساهل فيها والدارجة بيننا نُوَصِّفُ ما تفعله النحلة على أنه غريزة، كبرمجة لها للتصرّف بهذا الشكل، وبناء عليه سَتُفَسِّرُ الوحي لها بأنه زرع إلهي لهذه الغريزة فيها، وهذا تفسير تطبيقي لمعلوماتك على القرآن، وليس تفسيرا ملتزما بمعاني كلمات القرآن التي تصف الحالة بالوحي، بوصول المعلومات ليس عن طريق كلام مباشر منه تعالى.

والوحي هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خيرا أم شرّا، وبناء عليه فكل أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وحيا لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وترى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}، وحتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...}.

وينطبق فعل الوحي على أي كائن كان "إِنْسَانًا حيوانا ملكا أو جنّا" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم، وطرق فعل الوحي أنواعه متعددة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم {فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}. ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}، وما ورد في الآية 193 و 194 من سورة الشعراء {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ}. أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ...}، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل كما هو مشهور في تراثنا الديني. ووحي عبر إصداره تعالى صوتا في شجرة كما تقرأ

من الآية 30 من سورة القصص {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، مضافا لها الآية 13 من سورة طه {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ}، فكلامه تعالى معه(ع) وحي لأن الكلام ليس صادرا مباشرة منه تعالى فهذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، فيصير وصف الحالة أن كلامي يصلك وحيا.

وهناك وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة أو كقابليات، كحالة النحل كما ورد في الآية هنا حَيْثُ فِي النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

والوحي يصدق على وحي الخير والشر، حَيْثُ إِنَّ الشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا...} ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... وَالوسوسة في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيرا أو شرا فهو وحي.

وكما ترى أَنَّ كلمة وحي لا تتضمّن صراحة أي معنى للبرمجة الغريزية، حَيْثُ تَكُونُ من مشتقات أو تبعات بعض أنواع الوحي، وهذا ما أحاول دائما لفت انتباهك له في دراستنا هذه لتؤسّس قاعدة أصيلة صحيحة لفهم القرآن، ولتميّز بين معانيه وما قصده وبين ما تجده من تفاسير أسقطت معلوماتنا على القرآن لِيَصِيرَ القرآن مفسّرا على معلوماتنا وليس على ما يريد تعالى قوله، وَلَفَتُّ انتباهك لما وقع فيه الآخرون في تفاسيرهم وَهَا أطلب منك أن تنتبه لما وقعت فيه أنا في دراستي هذه، وَحَاوَلْتُ جاهدا الفصل بين تحليل الكلام وتفسيره على معلوماتنا، مشيرا إلى كونه تَحْلِيلًا أو افْتِرَاضًا، ولكني حتما سقطت فيما سقطوا فيه وفسّرت كلامه تعالى بناء على معلوماتي، فانتبه من ذلك.

بقي شيء، حَيْثُ إِنَّ الدراسات الحديثة فيها نظرة متطورة عن الكلام القديم، فلا تعامل الكلام القديم بقدسية التعامل مع الكلام الإلهي، وَالمنتشر في غالبية الكتب عن الغريزة والفطرة كوصف لتصرفات الحيوانات ومنها الإنسان، تَطَوَّرَتِ النظرة فيه كثيرا، وصرنا نعلم أننا لم نفسّر الكثير من تصرفات بقية الحيوانات بشكل صحيح، وصرنا نعلم كم نحن أيضا محكومون فيما نفعله، وصرنا نرى اشتراكا كبيرا في المؤثرات بيننا وبين بقية الحيوانات، حتى صرنا نفهم أن لها مساحة من الاختيار المزاجي الذي ليس بعيدا في معناه وسببه عن اختيارنا المزاجي نحن.

صحيح أن هذا الكلام ليس مرتبطا بشكل مباشر بالتفسير، ولكنه معين كخلفية نفهم منها سلوكيات البشر لنفهم بعض العمق من كلامه تعالى المستند على ذلك.

بَعْضُ الناس ذهبوا بعيدا وصاروا بضبابية يؤمنون بأننا لا حرية إرادة واختيار لنا فيما نفعله، وَبرأيهم كله ناتج عن تأثرنا بكيمياء جسدنا وما حولنا، وَأفعالنا مجرد ردّة فعل وليست اختيارية... وَقالوا ذلك بسبب وضوح التأثّر الكبير لبقية الحيوانات بالتفاعلات الكيميائية... وآخرون يربطون ذلك بالجينات الموروثة كمتحكّم بكل ما نفعله... وغيرهم وغيرهم، ولكن العقلانية تقول إِنَّ مختلف أنواع التأثيرات لها جزء مهم من التحكّم أو توجيه قراراتنا.

وبالنسبة لوصف الوحي للنحلة فيما تفعله، فهو بشكل ما نَفْسُهُ وَصْفٌ لما جعله تعالى فينا من دوافع لما نفعله، مع بقاء مساحة واسعة لنا لنختار ما سنفعله، وكذلك النحلة، حَيْثُ إِنَّ الدراسات بيّنت بعضا من التصرفات المزاجية وَنَوْعًا من المزاح والتسلية عند العديد من أنواع الحيوانات التي تمّت دراسة سلوكياتها في نمط حياتها.

(ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ{69})
نكمل مع ما أوحى لها سبحانه:

{ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ}، استهلكي من كل نتاج النباتات، وثمار النبات بالنسبة للنحلة هو رحيق الأزهار والإفرازات الحلوة لجسم النبتة ولحشرة المنّ التي تمتص الغذاء من النبتة... {فَاسْلُكِي}، فاتبعي في مسارك، في طيرانك، {سُبُلَ رَبِّكِ}، المسالك التي جعلها لك المسؤول عنك من مستوى إلهي، {ذُلُلًا}، فهي طرقات مذلّلة مسهّلة لك كما ترغبين، يعني بكل سهولة تعرف النحلة طريق الحقول وطريق الرجوع لبيتها.

{يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا}، من داخل النحلة، {شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ}، وهو العسل بألوانه المختلفة بحسب اختلاف الزهر والدبق... الذي رعته النحلة، حَيْثُ إِنَّ زهر الليمون ينتج عنه عسل فاتح اللون، ومنّ الصنوبر ينتج عنه عسل قريب من السواد... ومن المعروف حاليا أن النحلة تمتص السوائل من "ثمار النباتات من أزهارها، ومن إفرازات الشجر والمنّ..."، تعالجه في بطنها وتفرغه من فمها كمادة شمعية لتبني به البيت أو تفرغه من فمها عسلا في خلايا البيت.

{فِيهِ}، في شراب العسل، {شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ}، خلاص من الأمراض، {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ}، في خروج سائل للشرب من عملية "نحل... واستهلاك الثمر... بيت... زهر... طيران..." {لَآيَةً}، لهو شيء مميّز، كعلامة كدليل على وجود خالق خطّط وصمّم ونفّذ، {لِّقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة، {يَتَفَكَّرُونَ}، يحللون المعلومات وَيَصِلُونَ إلى نتيجة.

كَيْفَ يمكن أن توجد هذه الحشرة مع ما تفعله من تحويل للرحيق وغيره إلى عسل صالح للشرب وطعمه مرغوب لنا وفيه شفاء لنا؟ لو ركّزت على أي نقطة ستنتبه إِلَى أنه يوجد تصميم إلهي قصد جعلنا نلتفت إلى عظمته عبر خلقه للنحلة وما تفعله.

لاحظ كيف ركّزت الآيات على ثلاثة أنواع من الأشربة، وكل واحدة منها مختلفة تماما عن الأخرى، فَلَبَنٌ من الثَّدْيِيَّاتِ، وَرِزْقٌ حَسَنٌ من النباتات، وَعَسَلٌ من حشرة.

ننتبه، فَالعَسَلُ {فِيهِ} شفاء، فهو ليس شفاء من كل الأمراض بل شفاء للبعض منها، ونلتفت إِلَى أن العسل ألوان، يعني تركيبته تختلف "قليلا" بين عسل من زهر الليمون وعسل من زهر الصعتر... وهناك فوائد خاصة لكل لون من العسل، ولكن للأسف فإن مستوى المتعاملين بصنعة "الأدوية الطبيعية" من غير الأَكَادِيمِيِّينَ منخفض الدقّة، وفيه الكثير من المبالغة والكلام غير المجرّب... وَلَنْ تحصل من كلامهم على معرفة علمية بمنافع مختلف أنواع العسل.

نلاحظ ورود المشروبات الثلاثة بنفس الترتيب في الآية 15 من سورة محمد(ع) على أنها أنهار في الجنّة {مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ... وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ... وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى...}.

ننتبه لما وقع فيه الأقدمون والمحدثون عندما أدخلوا "الاكتشافات العلمية" وألصقوها بالقرآن، حَيْثُ في الكتب القديمة ستجد معلومات ساذجة حول النحل وطعامه والعسل وكيفية تشكّله وفوائده... وستخرج من كلامهم بالقليل من الفوائد الحَقِيقِيَّةِ للعسل، وستجدهم فيما كتبوه لَا يعلمون ماذا تأكل النحلة ومن أين يخرج العسل منها... وراجع معنى كلمة نحل ورحيق وعسل في القواميس القديمة، وراجع التفاسير القديمة لآيتنا هذه. لِذَٰلِكَ انتبه كيف اكتفى القرآن بكلمات قليلة لا تسبب الخلاف مع أي وجهة نظر عن النحل، وهذه الكلمات القليلة كافية للفت الانتباه لكيفية إِنْتَاجِ هذا المشروب، يعني إذا توسّعت في شرح الآية فلا تلصق بها أي نظرية أو اكتشاف علمي حديث، لأن الآية تلفت الانتباه فقط وفقط لما يمكن أن يراه أي إنسان عادي في أي عصر.

(وَاللّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ{70})
{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ}، ركّبكم وألّفكم أيها الناس، {ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ}، يأخذ الحياة منكم تماما، فتموتون، {وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ}، البعض منكم يتوقّف عن التقدّم وتتراجع قدراته الجسدية والعقلية قبل أن يموت، وَهُوَ يَتَقَدَّمُ بالعمر، {لِكَيْ لَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا}، حَيْثُ كان يعلم أشياء، وعندما ردّه الله تعالى لأرذل العمر صار لا يعلم شيئا، طارت المعلومات التي في رأسه. من الدارج وصف هذه الحالة في أقصاها بالخرف والزهايمر... وقديما كانوا يصفونها بالذهان.

{إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ}، يعلم كل شيء، وهنا القصد مقابلة علمه الواسع سبحانه بعكسكم أنتم الذين كنتم لا تعلمون أي شيء قبل أن يخلقكم، وتتوقفون عن العلم بعد موتكم، أو تصيرون في مرحلة الضياع الفكري بعد التقدّم بالعمر، {وَاللَّهُ قَدِيرٌ}، حَيْثُ يُمْكِنُهُ فعل أي شيء يريده، وبالمقابلة معكم فهو سبحانه بقدرته القوية خلقكم، وبقدرته القوية أماتكم، وبقدرته القوية حكم عليكم بمروركم بهذه المراحل في حياتكم، وأنتم قدرتكم محدودة جدا جدا.

بقي شيء، حَيْثُ قرأت تعليقا منتشرا هنا وهناك على توصيف القرآن لحالة التقدّم بالعمر بأنها أرذل العمر، على أنها إهانة للناس، وأن الثقافة الغربية المحترمة تحترم كبار السنّ وتصفهم بأوصاف جميلة، بالعمر الفضي والذهبي...
والصراحة أن منّا من يصل إلى مرحلة التخريف والضياع التامّ، وتوصيفه بأجمل الأوصاف لن يغيّر من حقيقة الحالة

الأرذل، ومن ناحية ثانية إنَّ أصحاب هذا التعليق لا تَهُمُّهُمُ الحقيقة، إذِ اعتمدوا على مخزون ثقافتهم لتفسير كلمة "أرذل" بالمعنى الدارج وليسوا مستعدين للبحث عن معناها اللغوي، علما أنها في قواميس اللغة تعني: عموم الدونية مع رداءة بمقابلة شيئين. حَيْثُ إنَّ الفقير موصوف باللغة العربية بأنه أرذل من الغني، يعني هو أقل منه ماديا، هو دونه ماليا مع حالة مادية رديئة فهو أرذل، والخرف أرذل من العاقل، والضعيف جسديا أرذل من القوي... وعلى هذا المعنى استعمل القرآن كلمة رذيل في الآية 111 من سورة الشعراء {قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ}، فأين الإهانة في هذا التوصيف لمن تقدّم في العمر؟!

(وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاء أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ{71})

من ناحية الرزق أيضاً نحن تحت السيطرة الإلهية: {وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ}، في الأشياء التي تصير معكم لتسدّوا بها حاجاتكم ورغباتكم وأهمّها الطعام لتحافظوا على حياتكم، قرّر الله تعالى أن لا يكون الناس كلهم متساوين فيما معهم، وأتاح لبعضهم أن يملك أرزاقاً من ماشية وأراضٍ زراعية وأموال... أكثر من البعض الآخر، وهذا الرزق هو فضل منه تعالى أتاحه تعالى لنا ليصير معنا وليس واجباً عليه سبحانه أن يجعله معنا بل بفضله تعالى صار معنا. وللتوسع راجع ما ذكرناه في ذيل الآية العاشرة من هذه السورة.

{فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا}، ليس الذين حصلوا على الفضل بالحصول على كميّة أكبر من الرزق، {بِرَادِّي رِزْقِهِمْ}، لن يردّوا الرزق الذي حصلوا عليه ليتحوّل إلى {مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ}، إلى من هم تابعون لهم وتحت قوّتهم "سلطتهم المعنوية"، ملك اقتدار، والدارج تسميتهم بالعبيد، أصحاب الرزق وعبيدهم، {فِيهِ}، في الرزق، {سَوَاءٌ}، بلا فرق متساوون، فيصير الكل بنفس مستوى المعيشة، فهذا لا يحصل.

جعل تعالى الناس في خِلقة وبيئة سينتج عنها اختلاف في كميّة الرزق الذي يحصلون عليه، ولن يكسر الناس هذه القاعدة، ولن تجد الأغنياء يوزعون أموالهم على الفقراء حتى يتساووا في الملكية ويصير الجميع بنفس مستوى المعيشة، وضربت السورة مثالاً متطرفاً لنفهم ما تقصده بسهولة، ولن يقوم الأغنياء بتقاسم أملاكهم مع عبيدهم حتى يصيروا كلهم متساوين.

{أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}! من الواضح أن النعمة أن الأشياء الحسنة الجيّدة رزقهم الله تعالى إياها، فهل ينكرون هذا الشيء الواضح!

كما ترى، الآية تشير لنموذج فاقع بارز، فهناك أناس فقراء، وأناس أغنياء، وهناك أناس واقعون تحت ملك الاقتدار فهم مملوكون وفقراء، حيث تتحدّث الآية عن الذي جعله في الناس وبيئتهم مما ينتج عنه فرق فيما يملكونه من رزق، فواقع الحال وجود فرق في الغنى والفقر، وصولاً إلى درجة الفقر مع ملك اليمين "العبودية" التي كانت دارجة قبل وحين نزول هذا القرآن وإلى عهد غير بعيد.

علينا أن نفهم الآيات على نفس فهمنا لسياق الآيات السابقة، فما علاقتي ببقرة أو نبتة أو نحلة، لأحصل منها على لبن وعصير وعسل، ألتذّ بطعمه ويغذّيني؟ لا علاقة لي. كيف حصل ذلك؟ مَن صمّمني وصمّم بيئتي ليحصل ذلك؟ وهنا الكلام على نفس المفهوم، مَن صمّمنا بحيث يحصل تفاوت في الرزق بيننا؟ وإن لم تؤمن بإله فعل ذلك فاشرح لنا كيف وصلنا إلى هذه الحالة، بالصدفة أم من الطبيعة أم من ماذا؟

الكلام هنا وفيما سيأتي ينتقل من نماذج عن علاقتنا الوثيقة ببيئتنا إلى العلاقات بيننا كبشر، إلى ما نتج عن خلقنا من حياة اجتماعية، ولن نرى ما تقوله الآيات إن لم نخرج من صورة التكرار "الروتين" لما نراه، حيث إنّ الآيات تقول إنّه تعالى خلقنا ونتج عن ذلك شربنا للعصير... وأن تكون كمية الأرزاق متفاوتة... ففكّر فيها كما هي معروضة عليك ومعلومة عندك ولكن بنظرة لا تتعامل مع ما هو موجود كأنه تحصيل حاصل، ففكّر فيها هكذا: فراغ، لا شيء، لا كون، لا سماوات ولا أراضٍ... بعدها انتقل إلى ما تراه محاولاً استحضار النماذج التي تذكرها السورة، فهذه التفاصيل الهائلة الواصفة للمخلوقات والظواهر والعلاقات بينها، مَن الذي اخترعها؟

بعبارة أسهل تقريبية، لو قمت برمي الحجارة من مكان لآخر، ثم قمت برميها ثانية إلى مكان آخر، وهكذا كرّرت رميها وكرّرت، فهل تتوقّع أن ينتج عن رمي الحجارة بيت؟ لو رميتها تريليونات المرات لن ينتج عنها بيت بأرضية وحيطان وسقف وغرف وأبواب...

أمّا لو كان في الحجارة خاصية ما تجعلها تتراصف على تصميم محدّد، فلنقل إنّ لها وجهاً ممغنطاً لا يتلاءم إلا مع حجر واحد من بقية الحجارة، فالآن لدينا فرصة أعلى لترابط الحجارة على التصميم المتماشي مع تنسيق ترابط الحجارة لتشكّل بيتاً.

ماذا لو كانت الأرض والفضاء أيضاً فيهما خاصية مساعدة على ترابط الحجارة لتشكّل بيتاً؟ من الواضح أن الفرصة ستكون أكبر، أمّا لو كانت خاصية كل المكان موجهة ليسير رمي الحجارة نحو تشكيل بيت؟ حتماً سينتج بيت، وبهذه الطريقة خلق سبحانه ما في الدنيا كما يبدو مما نعرفه، ومما يقوله القرآن عن خلقها على ست مراحل مترابطة، وراجع في ذلك الآية 9 من سورة فصلت وما بعدها {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ}.

الآن صرت ترى بوضوح ما تقوله السورة هنا، فهي تلفت انتباهك لما أنت فيه الآن حتى تلتفت أنّه نتج عن خلق مقصود نتج عنه أنت بكيانك الحي وبعلاقتك مع بيئتك ومع بقية الناس.

نحن خلال مسيرة حياتنا البشرية صرنا نعطي العناوين لمفاهيم منتزعة مما فينا وحولنا، فلدينا عنوان التكامل البيئي، والنظام البيئي... وهذا ما كانت الآيات السابقة تشير له، والنظام الاقتصادي الذي تشير له الآية هنا، والحياة الاجتماعية التي تشير لها الآية التالية... فهذه عناوين واصفة للأوضاع التي نعيش فيها، لذا حاول أن تخترع وصفاً جديداً لأوضاع ليست موجودة.

هل حاولت؟ وما النتيجة؟ وهل انتبهت أنّك بحاجة لإجراء تغيير في شيء من تصميم الدنيا حتى تخترع خصائص جديدة ينتج عنها توصيفٌ لحالة غير موجودة الآن؟ وهكذا ترى معنى كلامه تعالى عمّا أنت فيه أنّه من تصميمه وخلقه ولم يحصل لوحده ولا بالصدفة ولا من كثرة التكرار ولا من خاصية في المواد الأولية التي نشأ منها الكون بمعزل عن إله صمّمها وخلقها بهذه الخصائص، فمن أين أتت البذرة التي تشكّل منها الكون؟ ومن أين حصلت على خصائصها التي سينتج عنها كونٌ تمشي فيه الأمور لتنتج حياة إنسانية فيها ما تراه من ترابطات؟

أكرر لك، القرآن عموماً يريك أنّ كل ما تراه وصل إلى هذه الحالة بسبب تخطيطه وتصميمه تعالى للدنيا حتى ينتج عنها ما تراه.

بالنسبة للعبودية، على مرّ التاريخ اختلفت نظرة الناس للعبودية، حيث كانت العبودية دارجة قديماً في غالبية الأمم، ومنذ مدّة قليلة في القرن العشرين صار دارجاً النفور من العبودية، فنسي الجميع ما كان دارجاً متعارفاً عليه أنّه مقبول لدرجة جعلت المفسرين والفقهاء والمفكرين المسلمين في عصرنا يشعرون بالحرج من الآيات التي تتحدّث عن العبيد، وتراهم مباشرة يغيّرون الموضوع ويشيرون لعدالة الإسلام، ومسحه للعبودية عبر تحرير العبيد وعتقهم ومكاتبتهم، وجعل تحريرهم فِدْيَةً كتكفير عن بعض السيئات...

كلامهم صحيح، ولكن الصحيح أيضاً أنّ العبودية كانت منتشرة، ولها تشريعات في القرآن، ولست بوارد نفي أفضلية كون جميع الناس أحراراً، فإن كان المزاج العام للناس الآن مضاداً للعبودية، فأين المشكلة! في حين نزول هذا القرآن وإلى زمن غير بعيد لم يكن هذا المزاج العام، بل كانت العبودية واقعاً منتشراً بين الناس، فإن وقع المسلمون تحت الأسر من أعدائهم كان مصيرهم العبودية، فلم يكن المسلمون وحدهم يَسْتَعْبِدون...

لننظر لأحكام العبيد في القرآن، لن تجد فيه حكماً أو تشريعاً يأمر باستعباد أحد، وأقصى ما ستجده عن تقييد الحرية فهو عن أسر الأعداء المحاربين فقط، وما فعله الرسول محمّد (ع) من استعباد للأسرى "كما نقلوا في التاريخ" كان حكم الأمر الواقع بسبب اعتماد الطرف الآخر له، وبسبب الخيارات الأخرى الضيقة، فإما قتل أسرى الأعداء أو تركهم أحراراً وفي ذلك خطر إعادة تشكيل قوّة معادية، أو سجنهم ليموتوا في السجن أو سجنهم لمدة طويلة جداً وهذا ليس حلاً عملياً للسجين أو للساجن له، أو استعباد الأسرى.

قونن النبي محمّد (ع) هذا الواقع بناءً على مبادئ القرآن، بتحرير أسرى الأعداء من بعد أسرهم إن كانت الأمور تشير لاستبعاد الخطر منهم، أو استعبادهم وتفريقهم إن كان هناك خطر من تجمّعهم من جديد كمعادين مقاتلين.

علماً أنّنا لا نجد في التاريخ سوى "زعم بعضهم" استعباده (ع) لبعض أعدائه، بينما لا تجد أي أثر في التاريخ بعد ذلك لأولئك الذين قيل عنهم مُسْتَعْبَدين! فلا تجد ولو اسماً واحداً لرجل أو امرأة من الأقوام الذين قيل عنهم إنّ الرسول (ع) استعبدهم ولا يزالون عبيداً، فيبدو واضحاً أنّ كلامهم عن استعباد الرسول (ع) لبعض أسرى أعدائه كان في حدّه الأقصى لمدة قصيرة جداً لا تتعدّى الأيام، وبعدها يُطلَق سراحهم، ولكن أصحاب العقلية الإجرامية تعاموا عن ذلك مبيحين استعباد الآخرين واغتصاب نساءَهم...

أكرّر لك لتنتبه جيداً، رغم ما قاله البعض عن استعباد الرسول (ع) لأعدائه، ورغم التعارف على ذلك أنّه من المسلّمات التاريخية، بأدنى نظرة عقلانية لكل التاريخ ستجد أنّ هذا الزعم كاذب، والدليل عليه واضح لأنك لا تجد في الروايات ولا اسماً واحداً لعبد في المدينة من الذين أسرهم الرسول (ع)، ولا تجد ولا اسماً واحداً لأي طفل منهم صار بعد ذلك مسلماً، علماً أنّ كفّار العرب كلّهم أسلموا بعد مدة قليلة من الزمن، ولا تجد في التاريخ اسماً ولو لابن واحد من أبناء الصحابة ولّدته عبدة مأسورة من الأعداء، نعم تجد في التاريخ زواجاً من مملوكات وتجد أولاداً منهنّ، وكمثال على ذلك إبراهيم بن النبي محمد (ع) من مارية القبطية التي أعتقها (ع) ثم تزوجها...

كل الكلام المنتشر عن حالات استعباد الرسول (ع) لأسرى الأعداء لمدة طويلة، وعن استعباد واغتصاب نساء الأعداء، هو كذب من أوهام المسلمين المجرمين، ومن أحلامهم بالبقاء على دين الجاهلية...

هذا ما تراه من تاريخ تطبيق الرسول محمّد (ع) للقرآن، فلم يكن له (ع) عبيد سوى ما قالوه عن زيد بن حارثة الذي اشترته السيدة خديجة ولداً صغيراً ووهبته للرسول الذي ربّاه كولد له وليس كعبد، وبلال بن رباح الذي قالوا عنه في كتب التاريخ إنّ أبا بكر اشتراه لتحريره من ظلم أمية بن خلف ويقولون إنّه وهبه للرسول (ع)، ومعلوم من التاريخ أنّ بلالاً لم يعش بين المسلمين كعبد، ولم يعمل عند الرسول (ع) أصلاً لا في بيته للخدمة ولا كعبد في وظيفة ما...

بالنسبة للنساء، كلّهن أعتقهن النبي (ع) وتزوجهن، فلم يقارب ولا واحدة منهن وهي مِلك يمين "عبدة أو أمة".

بحسب ما نقلوه في كتب التاريخ، حالات تسريح الرسول محمّد (ع) للأسرى أو فدائهم أكثر بكثير من حالات استعبادهم "التي زعموها ولا تجد لها بعد ذلك أثراً في التاريخ"، وأشهرها طلقاء مكّة من بعد الفتح، وبعدهم تسريح هوازن من بعد معركة حنين، وقبلها فداء أو تسريح حصل لمختلف جماعات يهود المدينة وخيبر... وهكذا ترى أنّه تعالى ترك لنا هامشاً واسعاً في القرار المناسب لمختلف الظروف والأزمنة والمجتمعات... لاستعباد الأعداء أو سجنهم أو مفاداتهم أو قتلهم "إن ثبتت عليهم جرائم...".

أكرّر لك لتنتبه أشدّ الانتباه مما يقال عن إبادة الرسول (ع) لكل ذكور بعض أعدائه، ولما يقال عن سماحه (ع) لأصحابه باستعباد نساء الأعداء ومعاشرتهن غصباً عنهن... فهذه أكاذيب ألّفها مجرمون مشابهون في إجرامهم لبعض المعاصرين للرسول (ع)، أولئك بقوا على عقليتهم الإجرامية القديمة بلا ناموس ولا قرآن، واستمرّ الحال هذا من بعد الرسول عملياً وإفتائياً مخالفاً لكلام القرآن الصريح حتى صار من المتعارف عليه والمنتشر فتاوى تبيح اغتصاب العبدات "ملك اليمين"، وقد درج ذلك بين المسلمين! وصار منتشراً في ثقافتنا الحريم والجواري...

التصرفات المشهورة عن الرسول (ع) هي وحدها العاكسة لدينه تعالى، وأمّا تصرفات كل بقية المسلمين وفتاواهم فهي عاكسة لدينهم هم، فهو (ع) لم يكن له عبيد يخدمونه، ولا قارب أنثى "أمة عبدة ملك يمين" قبل أن يتزوجها، وما ينقله البعض من أخبار شاذّة عن ذلك، وما قاله البعض كفتوى تجعل اغتصاب المملوكة رغماً عن إرادتها حلالاً، فما هو إلا انعكاس لعقليتهم الذكورية الإجرامية.

ما قاله القرآن يساوي بين الزوجة وملك اليمين من ناحية حلّيّة المقاربة كما ورد في الآيتين 6 من سورة المؤمنون والآية 30 من سورة المعارج {إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ}، فلمقاربة مملوكتك لا تحتاج لعقد قران عليها ويكفي موافقتها، وإن رفضت وطلبت الزواج من مالكها حتى تسمح له بمقاربتها، أو طلبت الزواج من أي أحد آخر حراً كان أم عبداً، فهي وشأنها، وهذا واضح من كل كلام القرآن الذي عليك بإعادة قراءته من دون أفكار

"ذكورية إجرامية" مسبقة عن هذا الموضوع، وسترى بوضوح أنّ للعبدة "الأمة المملوكة" حرية اختيار من تقاربه ومن تتزوجه، وهذا واضح وصريح من الآية 25 من سورة النساء {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ...}.

نعيد فنقول إنّ القرآن لم يذكر من موضوع تشريع تقييد الحرية إلا الأسر للأعداء، فلم يذكر أي شيء عن الكيفية التي تبيح استعباد الآخرين، ومن ناحية ثانية كان الأمر الواقع المنتشر بين الناس استعبادهم للشعوب الضعيفة من أي دين أو عرق كان، فهل تشريعات القرآن التي تضمّنت كلاماً عن العبيد وملك اليمين قصدت واقع الحال هذا، أو قصدت فقط الهامش المسموح التحرّك به في حالة استعباد الأسرى من الأعداء المقاتلين من غير المسلمين؟

من عموم القرآن وبالخصوص من سورة الممتحنة وبالأخص من الآية 8 منها {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، تجد منعاً قرآنياً بكل أشكاله من التعرّض بالأذى لأي إنسان كان مهما كان عرقه أو دينه إلا إذا كان معادياً محارباً، وأي آية قد يفسّرها أحدهم ويقول بأنها تشرعن استعباد المسالمين من الكفّار أو من أهل الكتاب، فراجع دراستنا هذه لترى معناها، وسترى أنّ كلامهم غير صحيح. أمّا ما في الروايات عن هذا الموضوع ومخالف لصريح القرآن فمصيره الرمي والإهمال وتكذيب ناقليه عن الرسول (ع)...

ننتقل الآن إلى واقع الحال الذي كان عليه الناس في عصر النبي محمّد (ع)، حيث كانوا يشترون ويبيعون العبيد المسالمين المخطوفين من مختلف الجنسيات ومختلف الأديان، فهل في عهده (ع) تعامل المسلمون بذلك أم انحصرت تعاملاتهم في العبيد من الأعداء؟

طبعاً حين نقول "المسلمون" نقصد المؤمنين الحقيقيين منهم، فقد اشتهر في عهده (ع) بعض المسلمين "المنافقين والفاسقين" الذين يجبرون عبداتهم على الزنا، ومنعهم النبي (ع) من ذلك بأمر إلهي كما ورد في الآية 33 من سورة النور {... وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا...}، ومن منطوق الآية بكلامها عن الإحصان تفهم أنّه حتى مالكها لا يحقّ له مقاربتها إن لم تقبل، وبالتالي لا يحق له السماح للآخرين بمقاربتها غصباً عنها... ويحقّ لها اختيار زوجها مع موافقة أهلها ومن ضمنهم مالكها...

أكتفي بهذا المقدار الذي فيه الأساسيات القرآنية لترى نظرة قرآنية مختلفة عن العبيد مما هو دارج في مختلف الكتب المسمّاة إسلامية.

ما تجده في القرآن عن العبيد وما تجده في كتب التاريخ من تصرفات المؤمنين الحقيقيين مع العبيد والإماء، كتطبيق عملي للإيمان في التعامل مع الآخرين، ترى فيه فرقاً عمّا تجده في الكثير من كتب الفقه عند كلّ المسلمين، التي بعضها كتبها فقهاء مجرمون، يحلّون استعباد أي إنسان ليس من طائفتهم أو مذهبهم! بل يهدرون دم وعرض الآخرين! حتى المسلمين المسالمين! وقد اعتمدوا في ذلك على روايات كاذبة رواها مجرمون أمثالهم، واعتمدوا على سيرة مجرمين من المسلمين اتخذوا منهم منارة للدموية، فها القرآن أمامك، وها دراستنا له، فراجع أي آية قالوا إنّها تدعم كلامهم لترى أنّهم كاذبون ومجرمون.

بالنسبة لتعبير ملك اليمين، معنى كلمة ملك: هو عموم أي شيء يرجع إليك أمره فيتبع لك مع التحكّم به والسيطرة عليه. وكلمة يمين لعموم التعامل مع أي شيء براحة واقتدار وقوة وتحكّم. فيصير تعبير ملك اليمين يعني: السيطرة مع اقتدار. فهو شخص تتصرّف به فتأمره بقوة اقتدارك عليه. وكلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

من هذا المعنى اللغوي الأساسي للكلمات ترى أنّ استعمال القرآن لها للتعبير عمّا يقصده بعيد كل البعد عن الممارسات السيئة للناس مع المملوكين ملك يمين والمستعبدين، فقارن معنى كلمة "ملك يمين وعبد" مع خادم أو خادمة أو عامل أو عاملة مقابل المبيت والطعام، وسترى أنّ القرآن يقصد هذا المعنى حصرياً، أمّا ممارسات "المسلمين" ورواياتهم وفتاواهم فهي تمثّلهم هم ولا تمثّل دينه تعالى المطروح في قرآنه.

(وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ{72})
{وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا}، حالة اقتران الذكر والأنثى ليست وليدة الصدفة، وليست من اكتشافنا، بل من أوّل تصميمنا وخِلقتنا كان يقصد تعالى صيران ذكر وأنثى من الناس ليتزاوجوا.

فكّر فيها بالمقارنة مع ما تسمعه من كلام عن الصدفة والطبيعة الأم التي خلقتنا، فما هذه الصدف ذات التفاصيل الهائلة لدرجة نتاج ذكر وأنثى ورغبة بالزواج بالاقتران بينهما مع محبّة وشهوة ومودّة...

{وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ}، عندما يقترن ذكر وأنثى يصير لهما، {بَنِينَ}، أبناء، أولاد، {وَحَفَدَةً}، وأبناء أبناء.

لاحظ مرة ثانية أنّ الآية تلفت الانتباه لأمور قد لا نفكّر فيها لأنها تحصيل حاصل معنا ومن حولنا، فالزواج بين ذكر وأنثى من البشر، وحصولهما على أولاد، وفيما بعد على أولاد أولاد... فهو أمر طبيعي عادي روتيني، ولكن هذا لم يحصل بالصدفة، ولا لوحده... بل حصل فقط وفقط لأن إلهاً صمّمه وخلقه هكذا عن قصد.

فكّر في هذا الموضوع لو كنت أنت مسؤولاً عن تصميم من الصفر لمخلوقات في بيئة، ففكّر بهذا وأنت لم تر أي نموذج عن أي مخلوقات وبيئة، فعليك أن تصمّم المخلوقات والبيئة ومصيراً لتلك المخلوقات بشكل مختلف عمّا هو حولك، مختلفاً في مواصفات المخلوقات، والبيئة، والتوالد... حيث إنّ الآية اختصرت تفاصيل كثيرة ولكن تضمنتها كلماتها، من تناسب الذكر للأنثى للزواج والتوالد، للرغبة...

فكّر فيها بالتفاصيل الهائلة التي تراها، وأول ما يخطر ببالي كمثال لأقابله مع هذا الكلام، أننا لو فرضنا أننا مخلوقون بالصدفة أو هكذا من لا شيء أو... فأول ما يخطر ببالي أننا بلا ألوان، وبلا مشاعر، وبتركيب بسيط جداً، وبلا حواس ولا فكر ولا وعي ولا غريزة... وبلا تناغم مع ما حولنا، ومختلف الكائنات غير متوافقة مع بعضها... فإذا كان هناك نبات فلا علاقة لنا بشكله وطعمه... وإذا كان هناك نحلة، فلا علاقة لي بما ينتج عنها... هذا ببساطة ما يخطر بالبال بشكل ضبابي مع أنه غير صحيح.

بعبارة صريحة ومباشرة، حين أحاول أن أكفر بالله تعالى نافياً أنه المصمّم الخالق المدبّر، أجد صعوبة ثم أصل إلى نتيجة الاستحالة، وتذهلني روعة ما نحن فيه وما أتاحه تعالى لنا، ويؤلمني ما نفعله من سوء مدمّر لهذه الروعة، فأنا كيان واعٍ مفكّرٌ وبمشاعر ورغبات... وألتذّ بكل شيء في كل لحظة، فتغمرني السعادة بقدراتي على الرؤية واللمس... باستذواقي... برغباتي... وتتدمّر سعادتي مما أفعله ويفعله الآخرون من سوء، وعندها أفهم معنى كلامه تعالى معنا عبر رسله وكتبه، وأفهم ما تقوله السورة هنا، وأرى كم نحن أغبياء مصرّون بإرادتنا على تدمير حياتنا بتركنا للحقّ وفعلنا للسوء...

بالنسبة لمحاولة الكفر الفاشلة فالقرآن ركّز على استعمال كلمة "خلق" كوصف من لغتنا لحالة كل ما في دنيا المخلوقات ليؤكّد أن كل ما عداه تعالى فهو مخلوق فحتماً له خالق، حتى لو كان حبة رمل فوق حبّة رمل أخرى، حتى لو ذرّة فوق ذرة ولا شيء آخر غيرها في الدنيا، فهذه كائن لا يمكن أن ينوجد لوحده، إلا الله تعالى الكائن المختلف كلياً عنّا، فوحده غير مخلوق ولا مركّب ولا مؤلّف... ولا يمكن وصفه تعالى بهذه الكلمات ولا بأشباهها...

الآن فكّر لو أنك أنت قرّرت خلق كائنات، ما هي المواصفات التي ستضعها في الكائنات، هل ستخلقها تنبثق فجأة من لا شيء، أم ستصمّم بيئة ينتج عنها مخلوقاتك؟ وسيكون لما نتج قدرة على التكاثر لإنتاج مزيد من المخلوقات، وستجعلها تجوع لتأكل لتنمو وتتكاثر... وستجعلها ترغب لون ورائحة ومذاق الطعام حتى تنجذب له... وستجعلها تنجذب للجنس الآخر حتى يحصل التزاوج...

الآن أعد النظر في حالنا انطلاقاً من أي نظرة تفسّر ما نحن عليه، وسترى أن معرفتك ببعض آليات "ميكانيزم" وعلاقات المواد المفسّرة لنشأتنا كذكر وأنثى، والمفسرة للمشاعر والرغبات... والتلقيح والولادة... ما هي إلا تعرّف على الآلية التي صمّمها تعالى ليحصل منها ما نحن عليه، حيث كثيراً ما يخلط الناس بين معرفتهم لآليات حصول

الأشياء مع نفي إله صمّمها، وكما ترى فهي مجرد معرفة بآلية ما صمّمه تعالى، فهي تفسّر كيفية حصول الأشياء، ولكن هناك حتماً من صمّم هذه الآلية.

بعبارة أخرى، من دون آليات لحصول الأشياء، ومن دون ترابطها لينتج عنها نحن بصفاتنا وبيئتنا بصفاتها، فكيف تتوقّع أن ننوجد؟ حتى يؤمنوا بإله خلقنا هل يتوقّعون أن ننبثق من الفراغ فجأة كرجل وامرأة؟... للأسف فكرة الانبثاق من الفراغ اللاغية لترابط الأمور، كانت رأي الغالبية الساحقة من المنتمين لدينه تعالى، وبه فسّروا كلامه تعالى، وكلامهم صار معروضاً على الآخرين أنه هو كلامه تعالى...

نرجع للآية، {وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ}، جعل سبحانه معكم أشياء للأكل توصف بأنها طيّبة بأنها مرغوبة محببة لكم، فلم يجبركم على أكل وشرب أشياء تكرهونها، ولاحظ أنّ الآية تكمل على نفس العمق، فأنت تجوع وتعطش، ومضطرٌ للأكل لتنمو ولتحافظ على حياتك، وبهذه البيئة التي أنت فيها فأنت تشتهي الطعام وتجده لذيذاً، الآن، فكّر لو كان كل شيء كما هو ولكنك لا تشعر بطعم الطعام! وفكّر فيه بطريقة متطرفة كما طرحتها الآية، فماذا لو كان الطعام والشراب كلّه كريهاً تنفر منه! فستأكله كل حياتك غصباً عنك لأنك تشعر بالجوع وستموت إن لم تأكل، ولن تعتاد عليه وستجده كريهاً كلما أكلته أو شربته، فماذا لو كان الوضع هكذا! فهل انتبهت إلى أن الخالق صمّم ونفّذ ما تراه من حولك بطريقة ملائمة.

{أَفَبِالْبَاطِلِ}، هل بالأشياء غير الصحيحة الفاسدة، بالأشياء التي لا تعمل جيّداً، {يُؤْمِنُونَ}، يعتقدون بها، {وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ}، بالأشياء الجيدة التي منحها تعالى لهم، {هُمْ يَكْفُرُونَ}، ينكرون فلا يؤمنون بأنها منه تعالى!

استعمل القرآن كلمة "باطل" للدلالة على الأشياء غير السليمة والمعطلّة التي لا تعمل جيّداً، وهنا كما ترى فهي وصف غير مباشر للآلهة التي اخترعوها، فها سبحانه يخبرنا بأن كل النعم من حولنا صمّمها وخلقها ونفّذها هو لوحده سبحانه وتعالى، فكيف ينكرون نعمته ويؤمنون بأشياء عاطلة فاسدة لا يمكنها إنتاج ما يعيشون فيه؟

مرّة ثانية وثالثة... ألفت انتباهك لتتصوّر نفسك مسؤولاً عن ابتكار مخلوقات وبيئة، وسترى كم من ملايين التفاصيل تحتاج لبيئة كاملة لتكوّن مخلوقات تحاكي أو تقارب ما نعيش فيه نحن، وستنتبه لوجود تفاصيل لا يمكنك فهمها، وأن ما غاب عنك أكثر بكثير مما انتبهت له... وهكذا تنتبه لحتميّة وجود إله أحد خالق لك ولما حولك.

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ{73})
{وَيَعْبُدُونَ}، يعتبر المشركون أنفسهم مفروضةً عليهم طاعةٌ، {مِنْ دُونِ اللَّهِ}، مثلما نقول: ذهبتم في رحلة من دوني. وتقصد أنهم ذهبوا مع غيرك وتركوك، هنا تقصد الآية أنهم تركوا عبادة الله تعالى لوحده وعبدوا غيره، فاعتبروا غيره مفروضةً منهم طاعته، ويعبدون {مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا}، ولا أي شيء يتعلّق بما لديكم لتأكلوه تملكه تلك الآلهة الوهمية، لا في السماوات ولا في الأرض، فليس لهم ملك أي شيء في كل الدنيا من أولها لآخرها، {وَلَا يَسْتَطِيعُونَ}، وتكملة الجملة تعرفها لوحدك: ليس لديهم القدرة على منح الرزق للآخرين أيضاً. من ناحية لا أحد غير الله تعالى يملك أي شيء، ومن ناحية ثانية لا أحد يمكنه أن يرزق من يشاء، فلم يمنح سبحانه أي أحد تفويضاً بتقسيم الأرزاق وتوزيعها، ففقط الله سبحانه يملك الرزق ويملك القرار في توزيع الرزق.

ضع في بالك أن بعض المشركين يؤمنون بالله تعالى إلهاً كبيراً معه آلهة أصغر منه، وبعضهم يؤمن بأن الله خالق كل شيء ولكن هناك إلهاً صغيراً مخصصاً لشيء ما، حيث هناك إله للمطر وإله للرعد وآخر للبرق وغيره للزرع... تأتي أمثال آيتنا هنا لتقول بصريح العبارة إنّ كل ما يسمّى رزقاً فهو ملكه تعالى، ونحن بحاجة ماسّة للرزق لنبقى أحياء، والبعض منّا اخترع من خياله إلهاً "غير الله تعالى" ومسؤولاً عن توزيع الأرزاق... فعبده شاكراً له على الرزق أو متقرباً منه ليمنحه الرزق...

للأسف، هذه العقلية المشركة تجد طريقها بثوب آخر لتدخل على إيمان المنتمين لدينه تعالى، أمام كلام إلهي صريح كالذي تقرؤه هنا، تجد عند المنتمين لدينه تعالى قدّيسين من ملائكة أو بشر، ويؤمنون بأن لهم علاقة بالرزق من مستوى إلهي كمؤثرين أو مفوضين على توزيع الأرزاق، فتجد شفيعاً أو قديساً للرزق، أو تجد ولياً صالحاً مجرّبةً زيارة قبره للحصول على الرزق!

الدرجة الأقل سوءاً إيمانياً الاعتقاد بالدعاء بكلمات مخصّصة "سرية" لله تعالى تجلب الرزق! وكأنه يوجد سرّ لا يعلم به إلا القليلون من المؤمنين من الدرجة العالية من الناس المتميزين... فلديهم دعاء سرّي، تدعو به فيأتيك الرزق حتماً! هذه ترهات تجذب البسطاء والغارقين في مشاكل لم يتعاملوا معها بالعقلانية التي زوّدنا بها تعالى، واستبدلوها بالهراء والخرافات.

الرزق المتاح للجميع هو متوافر ليعيش الجميع بكرامة، ولكن ننتبه للتكاليف العالية للحياة التي فرضناها على بعضنا البعض، فصرنا بحاجة للثراء للوصول إليها، فكلنا نطلب الرفاهية بحيث تصدر منّا الأوامر والآخرون يعملون لنا كأُجراء، وينتج المال الوفير الفائض عن الحاجة العادية... فنقيم أعراساً وحفلاتٍ وعزائمَ ومناسبات... بمبالغ تكفي الواحدة منها لتعيش منها عائلة لأشهر... ونريد أثاث بيوتنا باهظ الثمن بصالونات خشب حفر فاخر لا نستعمله إلا مرة في السنة أو لا نستعمله لسنين!

أقول لك هذا لتميّز بين عبادته تعالى معترفين بفضله وشاكرين له على الرزق، وبين طلبنا للرزق لنعيش بكرامة، وبين طلبنا للرزق لدرجة الثراء، وطلبنا للرزق لدرجة الثراء الفاحش.

(فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ{74})
{فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ}، لا تقولوا أشياء تريدون أن تُمَثِّلُوا بها لله تعالى، ولا تقولوا: الإله الفلاني أشكره لأنه فعل معي العديد من الخير، ومثلاً عن ذلك منحني الإله الفلاني التوفيق في تجارتي بعد أن دعوت له... ولا تقولوا: إنَّ الظواهر المتعددة تشير لوجود آلهة متعددة متخصصة، حيث لكل ظاهرة إلهٌ متخصص بها، للمطر إلهٌ، وللدواب إلهٌ وللزرع إلهٌ... قال لكم الله سبحانه إنَّهُ هو وحده الخالق المسيطر، وكل هذه الأقوال حتى تُمَثِّلُوا لله تعالى عن شيء آخر مغاير لكلامه تعالى، ولتثبتوا فيها أنَّ آلهتكم فعلت شيئاً ما، فلا تضربوا هذه الأمثال الكاذبة الباطلة وغيرها له تعالى لتبينوا أنَّ آلهتكم حقيقية.

{إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}، أنتم تخترعون وتتحدّثون عن شيء لا تعلمونه، وهو الإله وهو يخبركم أَنَّهُ لا إله غيره، وأنتم بشر، فكيف تتحدّثون عن شؤون إلهية مقابل ما يقوله تعالى! فما أدراكم بالشؤون الإلهية حتى تتحدّثوا بها وتقولوا كلاماً مغايراً لكلام الله تعالى! والأمثال التي تضربونها ليست عن علم بالحقيقة، فأي شيء تقولونه عن أفعال آلهتكم فهو ليس قولاً عن علم، بل تخمين وتوهّم وظنٌّ... غير صحيح.

بعبارة أخرى نتوسّع فيها قليلاً، المشركون في مكّة لهم آلهة مختلفة عن مشركي الطائف، ومشركو الطائف لهم آلهة مختلفة عن آلهة مشركي يثرب، وكل من سبق لهم آلهة مختلفة عن آلهة المجموعات المشركة الأخرى... لِيُسَمُّوا شيئاً فعلته آلهتهم، وهكذا سيرون أَنَّهُ لا معنى لآلهة مخصّصة لبقعة ما، فمن الذي فعل الأشياء المشتركة بين الجميع على كل بقاع الأرض؟ وكما ترى ما ذكرته السورة من أفعاله تعالى فهي أمور تحصل مع كل الناس أينما كانوا ومهما كانت عقيدتهم، وبناء عليه، أيَّ مثل يقولونه كنموذج عن أفعال آلهتهم، فهو غير صحيح، سيقولون إِنَّهَا رزقتهم أو وفّقتهم في تجارتهم أو منحتهم الأولاد... وإنَّ فلاناً رآهم في المنام... وهذه ترهات.

(ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{75})
هو الله تعالى يضرب لكم الأمثال فيقول لكم التشابيه كنماذج حتى تنتبهوا أَنَّهُ الإله الواحد الأحد:

{ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا}، قال لكم شيئاً تَشْبِيهِيّاً كنموذج حتى تفهموا منه شيئاً آخر:

{عَبْداً مَمْلُوكاً}، إنساناً مفروضاً عليه طاعة غيره ويملكه إنسان آخر، {لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ}، فمهما عمل وزرع وحصد... فليس له شيء لِأَنَّهُ عبد وما سينتج عنه سيكون لسيّده، هذا من جهة، ومن جهة أخرى هناك، {وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً}، فهناك إنسان رزقه تعالى فصار معه أشياء ليأكلها "أو يشتري أو يبادل بها ما يأكله..."، وكان الرزق حسناً من نوعية وكميّة جيّدة، ففاضت عن حاجته، {فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ}، يصرف من الرزق "مما يؤكل أو نَشْتَرِي به ما

يؤكل" على غيره من الناس، {سِرّاً}، بشكل خفي غير علني، {وَجَهْراً} بشكل علني وواضح ومباشر، يُعْطِي الفقراء علنا ويراه الناس أَنَّهُ ينفق أو ينفق بالمخفي فلا يعلم بقيّة الناس أَنَّهُ أعطى الفقراء.

{هَلْ يَسْتَوُونَ}؟ هل هما في نفس مرتبة التقييم وهل يتساوون؟ وهل العبد الذي لا يملك ما ينتج عن عمله مثل الحرّ الذي يملك ما ينتجه ويمكنه أن يعطيه لمن يشاء سرّاً أو علناً؟ يَسْرِقُ العبد من مال سيّده ويعطيه للفقراء ولكنه لن يتجرّأ على الإنفاق علنا، أمّا الحرّ فيمكنه الإنفاق من ماله سرّاً أو علناً، وهل هما بنفس الاعتبار ومثل بعضهما؟

يعني، الإله المالك لكل شيء، الذي يمكنه الإنفاق كيفما يشاء وعلى من يشاء ومتى يشاء... وأمّا الآلهة التي اخترعها المشركون فماذا تنفق وَمِمَّ وما هي بالنسبة له تعالى؟ فإن لم تكن آلهتهم خيالية كإله الرعد وإله المطر وإله الحرب... وكانت ملاكاً أو جنّيّاً أو إنساناً... فهي مخلوقات تابعة لله تعالى، وهي تحت ملكه وحكمه وسيطرته؟ وما تنتجه أو يبدو أَنَّهَا تملكه فهو ليس لها بل لسيّدها الإله الأحد الحقيقي. وبالتشبيه لتقريب الفكرة، قارنوا المسألة مع الحرّ الذي يمكنه الإنفاق سرّاً أو جهراً، وبين العبد الذي فرضاً لو أنتج شيئاً ما فهذا الشيء ليس له بل لسيّده مالكه.

كيف تساوون بين الإله الأحد الخالق المالك لكل شيء، وبين مخلوقات قلتم إِنَّهَا آلهة وهي لا تملك أي شيء ولا تملك حتى القرار بالإنفاق على من تشاء؟

ننتبه، السورة لا تتحدّث عن المشركين عبّاد الأصنام، ولا عن عبّاد آلهة وهمية لا وجود لها، لِأَنَّ هذه الآلهة أصلاً لا وجود لها للكلام عنها، تحدّثت السورة مع وعن مشركين عبدوا مخلوقات لها كيان، عَبَدُوا من البشر أو الجنّ أو الملائكة(ع)...

{الْحَمْدُ لِلَّهِ}، كُلُّ أعماله وقراراته حميدة جيّدة، هُوَ الرازق، وَالْأَشْيَاءُ الحميدة تصدر منه سبحانه لا من غيره، لأنهم كلّهم عبيد له تعالى وكلهم ينالون الرزق مما أتاحه تعالى لهم، فلا يقدرون على منح أنفسهم الرزق فكيف يمنحونه لغيرهم؟

{بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}، عن جهل ينسبون الفضل بالرزق ويحمدون غيره سبحانه.

ننتبه جيّداً، الآية لم تقلل من قيمة العبد كإنسان، ولكن الواقع أَنَّ العبد المملوك لا يملك ما ينتج عن عمله، وهذا الواقع مثل وصف المشركين لبعض الكائنات أَنَّهَا آلهة وهي لا تملك نفسها ولا أي شيء، وَلا يمكنها الإنفاق لا سرّاً ولا علانية بالخفاء عن الإله الذي يعلم كل شيء، العُبُودِيَّةُ كانت أمراً واقعاً في حياة البشر وَرُبَّمَا تعود، وبالنسبة لكلامه سبحانه عن العبيد تَعَامَلَ مع الأمر الواقع، وأجرى له تشريعات تكفل حقوق المستعبد، ومن التاريخ نرى أَنَّ الرسول(ع) استعبد أعداءه، بَدَلَ قتلهم بعد انهزامهم في الحرب، وبدل حبسهم، قيّد (ع) حريّتهم في العمل أو الانتقال... وصاروا تابعين للمسلمين... وهو نفسه الاستعباد، لَسْتُ أرى سبباً لتلطيف هذه الحالة هرباً من جملة: الإسلام يجيز استعباد الآخرين. وهذا صحيح لأن واقع الحال يفرض نفسه في حالات التعادي لدرجة حصول نشاط عسكري ينتج عنه انهزام الأعداء... وَنَقَلَ لنا التاريخ عنه (ع) إطلاقه لسراح قبائل بأكملها ولم يستعبدها، وحالات الاستعباد كانت نادرة جدّاً... لن تجد في كلامه تعالى شيئاً صريحاً يجيز استعباد الناس، ولكنه واقع حال كأفضل حلّ في بعض الظروف، والرسول محمّد(ع) تماشى مع واقع الحال أيضا بما رآه مناسباً في الظروف التي حصل فيها عداوة واقتتال، قَتَلَ البعض أحياناً، واستعبد آخرين أحياناً وأطلق سراح أقوام بأعداد كبيرة في بعض الأحيان.

تُلاحِظُ الآية 221 من سورة البقرة والتي أشادت بالعبدة المؤمنة وحضّت على الزواج منها، وحرّمت الزواج من مشركة، واعتبرت العبدة المؤمنة أفضل من المشركة ولو كانت المشركة أجمل منها... ضع هذا في بالك لتفهم أَنَّ العبودية كانت أمراً واقعاً حتى عهد قريب جدّاً من التاريخ البشري، ولم يصنّف سبحانه قيمة الناس عنده على أساسها بل على أساس التقوى. وبالرغم من الفارق المعنوي الكبير بين الخادم والغني، وبين العبد ومالكه، عَمَلِيّاً الفرق غير كبير، لا تتحسّس كثيراً من استعمال القرآن لكلمة عبد، وحاسبه على الأحكام التي قالها عن عموم الناس وستجد أَنَّهُ تعالى لم يشرّع استعباد الناس وشرّع للمعاملة مع المستعبدين كواقع حال مفروض على المسلمين، لِذَا انتبه للعناية المفروضة لهم في القرآن... ولا تحاسبه على استعباد الناس للآخرين بالظلم والقهر... لِأَنَّ هذا لا علاقة له بشريعته تعالى، وما تجده من تفاصيل في كتب الفقهاء فهو اجتهاد منهم لمحاولة وضع قانون لحقوق المالك والعبد، وما هو إلا

رأيهم الذي يظنونه مُتَمَاشِياً مع كلامه تعالى، لا تتعامل معه على أَنَّهُ كلامه وتشريعه تعالى، لا، بل هو الهامش المتروك لنا لنقونن بما نراه مناسباً، حيثُ الظروف تختلف، ومزاج الناس باختلاف بلدانهم يختلف، ومع مرور الزمن أيضاً يختلف مزاج الناس، ولذلك لا تجد في القرآن إلا الأساسيات التي لا يقبل تعالى تغييرها "فهي الأساسيات"، وهي قليلة جدّاً جدّاً، والباقي متروك لنا كهامش نتحرك به بما نراه مناسباً مُراعِينَ الحدود العامّة التي رسمها تعالى، وليكون تشريعنا مَبْنِيّاً على الأساسيات التي تعلمناها من كلامه تعالى ومما نراه نحن ونميّزه من صلاح وفساد، وهذا ليس شيئاً حَدِّيّاً دائماً، بل في جوانب عديدة اسْتِذْوَاقِيٌّ لأن المزاج العام للناس ليس ثابتاً.

خذ مثلاً الفرق بين البلوغ الجسدي للفتاة حيث تصير قابلة للزواج، وبين تزويجها، يَجُوزُ تزويجها بما يتضمّن الإنجاب من بعدما تبلغ جَسَدِيّاً، ولكن هل قال تعالى أَنَّهُ يجب تزويجها عند أوّل بلوغها؟ لا. لِأَنَّ هذا الهامش متروك للمزاج العام للناس بما يرونه مناسباً، وهكذا تفهم نصائح الرسول محمّد(ع) بتزويج الإناث صغيرات أَنَّهُ (ع) كان يرى ذلك مناسباً لمجتمعه، وقليلاً ما زوّجوا الإناث في أوّل بلوغهن في ذلك العصر، وعادة يحصل الزواج من بعد السنة الثانية عشرة وصاعداً، وهذا كان دارجاً إلى زمن قريب فيما يسمّى بالعالم الغربي، في أوروبا وأميركا الشمالية، حيثُ إلى ما يقارب زمن الحرب العالمية الأولى كانت الفتيات عندهم نادراً ما تتجاوز سن الرابعة عشرة عزباءَ...

أقول لك هذا لأنه أسهل على الهضم من الكلام عن المزاج العام للاستعباد، وانتبه دائماً أَنَّ الرسول محمّد(ع) بتصرفاته المتقيّدة بكلامه تعالى، فهو يمثل تطبيق الهامش المتروك لنا، حيثُ إِنَّهُ (ع) لم يستعبد إلا المعادين المقاتلين، وتعامل مع العبيد المسلوبين الحرية بالاختطاف من أقوام ضعيفة، تَعَامَلَ معهم كواقع حال، وكانت المعاملة معهم بحسب أساسيات شريعته تعالى كمعاملة الأجير... بل أمر تعالى بالزواج منهم وتزويجهم... ومنحهم حريتهم أو جعلهم يشترونها...

لِمَزِيدٍ من التفصيل عن العبد وملك اليمين راجع ما ذكرناه منذ قليل في ذيل الآية 71 من هذه السورة.

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{76})
{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا}، قال شيئاً تشبيهيّاً حتى تفهموا ما يريده:

{رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ}، لا يتكلّم، {لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ}، سياق الكلام هنا أَنَّهُ لا يمكنه التواصل مع غيره، لا يمكنه إفهام الآخرين ماذا يريد، ولا يمكنه أن يسمعهم، الأبكم هو من فقد القدرة على السمع منذ الطفولة ولم يتعلّم الكلام مع أن أعضاء النطق عنده سليمة، لأنه لا يسمع ولذلك لا ينطق أيضاً. وهذا الأبكم، {كَلٌّ}، عالة كحمل ثقيل، {عَلَى مَوْلَاهُ}، على من يتولّى وَيُتَابِعُ أموره، على أبيه على أمّه... لأنه لا يتمكّن من تدبير أموره في تعامله مع الناس ويحتاج للمساعدة دائماً... {أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ}، أينما يرسله مولاه ليقوم بعمل، {لَا يَأْتِ} هذا النموذج الأبكم، {بِخَيْرٍ}، لأنه لا يستطيع سماع ما يقولونه، ولا يستطيع أن يقول لهم ماذا يريد.

ضع في بالك أَنَّ القرآن يختار عادة أبرز النماذج المتطرفّة لنفهمها بسهولة، هنا من تكملة الكلام ترى أَنَّهُ لو أرسلت الأبكم ليكون رسولك إلى قوم لِيَهْدِيَهُمْ، أو ليكون قاضياً بينهم... فأي خير سيأتي منه؟ لا شيء. طبعاً ليس بالضرورة أن يأتي منه شرٌّ ولم تقل الآية ذلك، إنما نفت الحصول على نتيجة جيّدة من إرساله ليتعامل مع الناس بالكلام، والمثال سهل الفهم جدّاً حيثُ عادة لن يخطر ببالنا تكليف أبكم بالتواصل مع الناس لأننا لن نتوقّع الحصول على النتيجة المطلوبة من ذلك.

{هَلْ يَسْتَوِي هُوَ}، هل الأبكم في نفس مستوى واعتبار، {وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ}؟ مع شخص يتكلّم ويأمر بالعدل بالإنصاف يَتَوَجَّهُ بالكلام نحو الناس ويأمرهم بإعطاء الحقوق لغيرهم وَيَقْضِي بينهم، ويتدخّل لحلّ النزاعات ويبادر بتوجيه الكلام للظالمين... وهو الذي يتكلّم ويسمع، {عَلَى صِرَاطٍ}، على طريق أساسي، {مُسْتَقِيمٍ}، يوصف بِأَنَّهُ على الأحسن، عندما يأمر بالعدل فهو على المقياس الإلهي يأمر بالعدل، هُوَ مثال عن شخص من أفضل نماذج الآمرين بالعدل، فهل يَتَسَاوَى مع من لا يمكنه السماع والكلام؟ بالطبع لا، والله تعالى إله سميع عليم يأمر بالعدل، وآلهتكم الوهمية كالأبكم أمامه تعالى.

ننتبه جيّداً، الآيات لا تقلل من قيمة الأبكم كإنسان، ولكنها تتحدّث عن حقيقة واقعية، تتحدّث عن أبكم لم يطوّر قدراته لدرجة أَنَّهُ عاجز عن فعل أي شيء، وتشبّه آلهة المشركين به، فهي غير قادرة على فعل أي شيء، فلا ينجرح شعورك على الأبكم لأن الآية لم تهنه ولم تقصده بالإهانة، بل قصدت إهانة المتغابين العابدين لآلهة وهمية، وأمّا الأبكم وعموم المعاقين فلا يوجد دين أو شريعة أو ناموس على الأرض عامله مثلما عامله الإسلام، أمرنا جميعاً بالعناية به، وهدّد بالعقاب لمن يسخر منه في وجهه أو في غيبته أو يتركه بلا عناية... وراجع سورة عبس كنموذج عن القيمة العالية جدّاً عنده تعالى للمؤمن الفقير الأعمى البسيط...

(وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {77})
بعد الأمثلة السابقة التي دلّت على الفرق الشاسع الواسع بين الإله الحقيقي وبين آلهة المشركين الباطلة، هناك شيء آخر عن الله تعالى خذوا علماً به:

{وَلِلَّهِ}، لاحظ الكلام بالاسم المحدّد المميّز {لِلَّهِ}، له تعالى، {غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وتتذكّر أَنَّ التعبير القرآني بالسماوات والأرض يرادف قولنا: كلّ شيء، كل ما في الدنيا. ما غاب عن المخلوقات في أي مكان أو زمان، لله تعالى، أشارت الآيات السابقة إلى نسبة ما نعلم ونرى، له تعالى، وهنا تضيف الآية عليه ما لا نعلم ولا نرى، في الماضي والحاضر والمستقبل، وفي أي مكان كان، وبالتحديد هناك غيب مميّز لا يعرفه أي مخلوق:

{وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ}، ليس الشيء الذي نريده أن يحصل في وقت قصير كحدث فرعي، لِأَنَّ الساعة زمن محدّد لحدث فرعي من يوم أطول فيه ساعات، ومن سياق الآيات وعموم مفاهيم القرآن تعلم أَنَّ الكلام عن الساعة عادة يقصد ساعة قيام الناس من الموت في أول يوم من أيّام الآخرة، {إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ}، بسرعة فائقة يصدر الأمر بحصولها، استعادتنا لوعينا ستحصل خلال ساعة ولكن صدور الأمر لهذا الحدث لن يستغرقه تعالى وقتاً طويلاً، بِمُدَّةٍ كسرعة اللمح بالبصر يصدر الأمر وتبدأ عملية استعادة جميع البشر وعيهم رغم ضخامة عددهم، ورغم ضخامة إعادتهم كلهم إلى الحياة دفعة واحدة، هذا الأمر سهل جدّاً جدّاً عليه عزّ وجلّ.

نحن نستغرق وقتاً طويلاً لنخطّط لما نريد حصوله، وكلما كان ضخماً مُعَقَّداً ما نريده، كلما احتجنا لوقت أطول للتخطيط له، وأخيراً يصدر الأمر بتنفيذ ما نريده. هنا يصف سبحانه نفسه أمام عمل هائل بإعادة كل الناس إلى الحياة، بأسرع من لمح البصر يصدر الأمر الإلهي مُتَضَمِّناً كيفية حصول استعادتنا لوعينا بجسد جديد...

من ناحية الإنسان العادي إِنَّ أسرع شيء يشعر به هو سرعة لمحه للأشياء، وهي سرعة وقوع صورة أمام نظره وإدراكها، أغلق عينيك وافتحهما، زمن أول ما تراه اسمه "اللمحة"، بسرعة أول ما يلمحه بصرك سيكون الأمر الإلهي صدر بعودتنا إلى الحياة، {أَوْ هُوَ أَقْرَبُ}، لمح البصر أسرع شيء يشعر به الإنسان العادي، ولكن للدقّة إِنَّ هذا الأمر، هذا الشأن هذا الشيء الذي يريده سبحانه أن يحصل، أمره سيستغرق وقتاً أقرب من وقت لمح البصر.

الكلام هنا مثلما ورد في الآية 147 من سورة الصافات {وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}، مئة ألف هو العدد الكبير، وللدقة هم يزيدون قليلاً جدّاً عن المئة ألف، التَّرْدِيدُ بالعطف ليس لنقص المعلومات بل لزيادة الدقة، وهنا السرعة مثل لمح البصر "أو" أقرب، يعني للدقة هي أسرع بقليل.

{إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، يُمْكِنُهُ فعل أي شيء يريده بأي شيء، رُجُوعُ كل الناس إلى الحياة هو عمل ضخم، ولكنه سهل بالنسبة له تعالى وسيستغرق الأمر ما يقارب أسرع من لمح البصر، يَبْدَأُ الناس بالعودة إلى الحياة كلّهم مع بعض، وبدون أي خطأ أو نسيان لأحد منهم.

هنا تتحدّث الآية عن حدث سيقع في ساعة، في زمن محدّد بحدث واحد فرعي، ولدينا الآيات العديدة التي تحدّثت عن النفخ في الصور أول مرّة، فتموت الكائنات، ثم تبدّل السماوات والأرض، وبعدها النفخ في الصور مرّة ثانية، وخروج الناس كالجراد وكالفراش... وراجع في ذلك الآية 68 من سورة الزمر {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}، وهكذا نفهم أَنَّ الأمر الإلهي يصدر وبلمح البصر أو أسرع من ذلك، وبعدها سنستعيد وعينا وجسدنا، واستعادة جسدنا سَتَسْتَغْرِقُ الوقت المناسب لتتكوّن الأشياء، وهذا ما نستفيده من الآية 259 من سورة البقرة {... فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ

لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا...}. ليس من الواضح لي بشكل صريح إن كان استعادتنا لوعينا سيحصل فوراً وبعده يستغرق وقتاً أطول استعادتنا لجسدنا، أو كلاهما سيحصلان معاً فوراً، أو الفورية فقط لإصدار الأمر، واستعادة الوعي والجسد تستغرق وقتاً قصيراً... هذا كلام عن تفاصيل آلية حدوث البعث ومفتوح البحث فيه...

المحسوم أَنَّهُ تعالى يأمر فتحصل الأشياء حتماً، وهذا ما تفهمه من الآية 117 من سورة البقرة {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}، والمعلوم أَنَّ شؤون تعامله تعالى مع الدنيا تحصل بآليات مترابطة متسلسلة تستغرق وقتاً، خلق ما في الدنيا في ستة أيام، والخلاصة من كل ذلك أَنَّ الأمر منه تعالى يصدر بوقت قصير جدّاً، وما صدر سيحصل حتماً، وما نعلمه عن أفعاله تعالى في دنيانا أَنَّها تستغرق وقتاً، حَتْماً تحصل ولكن بعدما تأخذ وقتها لتحصل.

هنا في مسألة رجوعنا إلى الحياة، الأمر بلمحة يصدر، وحتماً سيحصل، ولكن ما نسأل عنه إن كان فوراً سيحصل استعادة وعينا وجسدنا معاً، أو فوراً نستعيد وعينا وبعدها نستعيد جسدنا، أو كلاهما سيستغرقان وقتاً ولو قصيراً حتى يعودا. وكما ترى أيُّ احتمال من الاحتمالات لا أثر له على فهمنا للآية هنا، نحن نحاول استخراج مزيد من المعلومات الفضولية منها عن آلية البعث من الموت.

ورد التعبير بسرعة لمح البصر مرتين في القرآن، هنا وفي الآية 50 من سورة القمر، وهنا مرّت الآية مستقطعة بين آيات تتحدّث عن بداية وما سيجري في يوم القيامة من الموت، كِلْتَاهُمَا تتحدثان حصراً عن موضوع استعادتنا لوعينا في الآخرة.

بناءً عليه، اشتقاق معان وأبحاث مبنية على قطع جملة "كلمح بالبصر" عن سياقها، لتصير على معنى تنفّذ ما يريده تعالى بأسرع من لمح البصر، هذا أدّى بنا إلى كلام تحليلي افتراضي عن أفعاله تعالى، وهي أمور لم يذكرها القرآن، عَمَّمُوهَا لتوصيف عموم أفعاله تعالى ونتج عن ذلك تفريعات... لا بأس بها كأبحاث ودراسات افتراضية احتمالية، ولكن تثبيتها وترسيخها في ثقافتنا على أساس أَنَّهَا من أساس الدين الإلهي، هذه مشكلة سبّبت لغطاً في تفسير القرآن بسبب اعتمادها كمفهوم ديني جرى تعميمه وإسقاطه على العديد من آيات القرآن، فقالوا إِنَّ كل الأمور تحدث وتتحقّق بلمح البصر، خلق ما في الدنيا حصل بلمح البصر، ويبررون لخلق ما في الدنيا في ستة أيام أَنَّهَا من ناحيتنا نحن استغرقت وقتاً ولكن من ناحيته تعالى حصلت فوراً!

فَصَلُوا بين كونه تعالى لا يجري عليه التوصيف بالزمان والمكان، فَصَارَتْ كل تعاملاته تعالى خارج إطار الزمان والمكان، بينما نحن نتعرّض للزمان فنرى الأمور تستغرق وقتاً لتحصل وبالنسبة له سبحانه فهي تحصل فوراً.

هذه دراسة تحليلية وليست مبنية على كلام قرآني صريح، وهو كلام عن الشؤون الإلهية، فما أدرانا كيف يرى سبحانه الأمور؟ وما معنى حصول الأمور فوراً بالنسبة له تعالى؟ نعم يبدو من كلامه تعالى عن نفسه أَنَّ طبيعته خارج نطاق التوصيف بالزمان والمكان، ولكن الخطورة بتعميم جملة "لمح البصر" مضيفين لها تعميم "كن فيكون" على معنى الفورية، ومن الواضح جدّاً أَنَّ كن فيكون على فهمها البسيط الواضح تعطي معنى الحتمية وليس الفورية، ما يقول له تعالى: كن، حَتْماً سيكون، وليس بالضرورة أَنَّهُ فوراً سيكون. ولمح البصر تعطي معنى سرعة التصميم والتخطيط وصدور الأمر، تَحْصُلُ بعض الأمور فوراً، ولكن عموم القرآن يتحدّث عن زمن لحدوث الأشياء.

نُلاحِظُ استعمال القرآن لكلمة "يوم" القيامة، للدلالة على زمن محدد لإعادة البشر إلى الحياة "البعث"، وبعده أيام من حشرنا ومحاسبتنا وصولاً إلى آخر يوم وآخر ساعة فيه دخولنا إلى النار أو الجنة، واستعمل تعبير "الساعة" كزمن محدّد من ساعات يوم القيامة، وَغَالِباً يقصد بها ساعة بداية إعادة إحيائنا. وفي عموم اللغات تجد استعمال كلمة يوم لما هو أعمّ من النهار والليلة، فهي كلمة تشير إلى زمن لحدث أساسي يتخلله ساعات تحصل فيها أحداث فرعية.

لا يذهب فكرك من كلمة ساعة إلى الستين دقيقة، لِأَنَّ هذا تعريف جديد وليس المعنى اللغوي للكلمة.

(وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{78})

{وَاللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا}، تلدكم أمهاتكم أطفالا فارغي الذهن من المعلومات، لا صور في ذهنكم ولا كلمات ولا أفكار، {وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ}، تدخل الأصوات عبر الآذان وبقية الأعضاء المتصلة بها ويعيها فكركم، {وَجَعَلَ لَكُمُ}، {الْأَبْصَارَ}، صارت لديكم القدرة على إدراك ووعي الصور التي ترونها عبر الأعين وبقية الأعضاء المتصلة بها، {وَجَعَلَ لَكُمُ}، {الْأَفْئِدَةَ}، بتعبيرنا الدارج: الوعي الإدراكي الناشئ عن الوعي للذات، وهو قابلية وعي النفس ووعي ما يصل من الحواس. ما يصلكم من الصوت والصورة وبقية الحواس من الشمّ واللمس ومعرفة الاتجاه "من السائل في الأذن..." و... صرتم مدركين له.

جعل تعالى لكم ذلك، {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، فمن المتوقّع ومن المفروض منكم أن تعبّروا وتعلنوا عن حصولكم على أشياء جيّدة منه تعالى.

انتبه جيدا، تصوّر لو أنك فتحت عينيك على الحياة الآن في عمرك الآن، ووجدت نفسك وعليك ثياب، من دون أي تردّد ستقول في نفسك: أحدٌ ما أعطاني هذه الثياب المناسبة لجسدي لتعطيني الدفء، وإذا تعرّفت عليه فسأشكره. لأنك سترى الثياب فيها تصميم وصناعة وبالتأكيد هناك من صمّمها وخاطها لتناسبك. الآن التفت إلى السمع والبصر ووعيك الإدراكي لما تراه وتسمعه ولبقية ما يصلك من بقية الحواس، وقارنها مع كاميرا تسجّل الصوت والصورة، حيث إنّ أصلا تسجيل الصوت والصورة شيء غير عادي وليس من المعقول حصوله هكذا لوحده، فماذا سنقول عن وعي الصوت والصورة. أليس من المفروض أن تشكر مَن أعطاها لك؟ أم أنك حصلت على السمع والبصر والفؤاد بالصدفة من الحائط ومن لا شيء! وهل تقارنها بالثياب لترى أنها تحتاج لتصميم وتنفيذ من مصمّم ومنفّذ بقدرات عالية؟ خذ علما عبر القرآن أن "الله" صاحب هذا الاسم، هو بالتحديد، ولوحده، صمّمك وخلقك بهذا الشكل وهذه القدرات، وسترى من الآية التالية تكملة لهذا النوع من الالتفاتة.

لا تنسَ أبدا أن الكلام في هذه الآية يلفت انتباهك أيضا إلى أنك تحت سيطرة الإله الذي يتحكّم بشكل مطلق فيك، في خلقتك، في طريقة تعاملك مع بيئتك، فأنت مخلوق، والإله "الله" يعرّفك على نفسه، ويلفت انتباهك لقدرة الذي خلقك أوّل مرّة والقادر على تكرار خلقك مرّة ثانية.

بقي شيء، مَن يعمل في مجال الذكاء الاصطناعي وفي مجال الأعصاب والدماغ ومجال علم الإدراك والمعرفة... يعلم تفاصيل كثيرة معقّدة بشكل هائل عن الرؤية والسمع وإدراكهما، حيث يحاولون فهمها لتقليدها ولحلّ مشاكل الإعاقة المتعلقة بها عند البعض... وفهم الآية بالعمق الذي يفهمه المتخصصون ليس مطلوبا منّا لنؤمن بعظمة المصمّم الخالق، وأصل كلام الآية يشير إلى شيء أعمق، ولا يقصد لفت الانتباه لتعقيد وكثرة تفاصيل السمع والبصر والإدراك ليستفزّك لتفكّر فيها فقط، بل يشير إلى أصل حصولها، ولأصل وجودها وتصميمها وصيرورتها...

سأضرب لك مثلا ساذجا، تصوّر أنك تحمل علبة فيها رمل، وقمت برجّها لدقيقة من الزمن، أو لساعة، أو لسنة أو لأكثر من ذلك، وفي النهاية فتحت العلبة، فهل تتوقّع أن تجد فيها هاتفا خلويا؟ لأنّ كل المواد المطلوبة لتأليف الهاتف موجودة في الرمل، فلماذا لا تتوقّع أبدا أن تجد في العلبة هاتفا ولو بعد مرور تريليونات من السنين؟ طبعا لا تتوقّع ذلك لأنك تعلم أن حبّات الرمل ليس في تصميمها قابلية صنع هاتف لوحدها، وها القرآن يخبرك أنه تعالى خلق السماوات والأرض وما فيهما من تصميمه تعالى للمادة بحيث يكون فيها قابلية تكوين بيئتنا وتكويننا نحن...

هذا جانب بسيط من الموضوع، والجانب الأعمق هو ما زاد عن تَرَكُّب الأشياء مع بعضها، لنقل إنّ العين بطريقة ما تركّبت ولكن رؤيتك للصورة من أين حصلت عليها؟ والأعمق من ذلك السؤال عن تسجيلك للصورة، والأعمق منه السؤال عن وعيك وتفاعلك مع الصورة كفرق بينك وبين الكاميرا التي لا تعي ما يجري أمامها فلا فؤاد لها.

أطلت عليك لأن غالب الكلام الذي نسمعه ونقرؤه في الكتب الدينية يركّز على الخلق، على التركيب والتأليف لجسدنا وبيئتنا، وسورتنا هنا تذكر ذلك، ولكنها وبشكل لافت تركّز على الخصائص الناتجة عن التركيب، على شربك لمحلوب من البقرة التي أكلت النبات وصار فرثا محاطا بلحم ودم... وتشربه أنت وتتغذّى منه، فما علاقتك أنت بمحلوب البقرة؟ وما علاقتك بشيء تنتجه حشرة النحل؟ وكيف صار لديك صورة وصوت ووعي لهما؟ من البديهي الواضح جدا وجود مصمّم قرّر وصول الأمور إلى ما فينا وحولنا من تفاصيل هائلة مترابطة متماشية مع بعضها...

كلمة {فُؤَاد} بحسب استعمال العرب لها، ومن تقويم دقة الاستعمال القرآني لها، تشير لِمَا تعيه مما تدركه، وهي الفكر الواعي لما يصلك، وبتعابيرنا الحالية فهو الوعي الإدراكي الناشئ عن الوعي للذات، وهو قابلية وعي النفس ووعي ما يصلك. وعادة تصلك المعلومات عبر الحواس، عبر عينك جلدك أنفك أذنك لسانك... ولديك قابلية وصول المعلومات مباشرة إلى فكرك بدون وسيلة الحواس، كالوحي مباشرة في الوعي، وحيث تصل تلك المعلومات إلى وعيك الإدراكي لها فهذه حالة الفؤاد.

خذ مثلا عندما تتعرّض لشيء قوي جدا كخوف شديد أو فقد حبيب... يَطيش فكرك، ولا تَعُد تسمع ولا ترى ما حولك رغم عمل عينيك وأذنيك بشكل طبيعي، وحصل هذا مع أم النبي موسى (ع) حين ألقته (ع) في اليمّ كما ورد في الآية 10 من سورة القصص {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا}...، أو عند تعرّضك لسؤال في موقف حرج، أو كما يحصل مع بعض الطلّاب عند تعرّضهم للامتحانات... تطير المعلومات من رأسك في تلك اللحظات... والحالة التي تصيبك من تلك المواقف ونسميها "فراغاً ذهنياً" هي حالة فراغ الفؤاد بالتعبير العربي الذي تقوّم معناه بدقّة الاستعمال القرآني له، وعند استعادتك للانتباه لِمَا تلتقطه حواسك، فؤادك عاد للعمل.

(أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{79})
{أَلَمْ يَرَوْا}، ألم تحصل لديهم صورة محدّدة كما نقول بالعامية: ما شافوا، ما التفتوا. {إِلَى الطَّيْرِ}، إلى ما ينتقل في الجو، الطيور، {مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ}، في حالتها وهي تطير في الفضاء بين الأرض والسماء مسخرات حيث تنجز عمل الطيران وهي لم تصممّ نفسها لتطير، ولم تصمم البيئة التي يحدث فيها الطيران... {مَا يُمْسِكُهُنَّ}، تلك الطيور وهي معلّقة لا تسقط، {إِلَّا اللَّهُ}، لأنه هو صمّم لها بيئتها التي تسمح لها بالطيران.

لفتت الآية السابقة انتباهك إلى نفسك كشخص مدرك واعٍ، وهنا تلفت انتباهك إلى مخلوق تراه يطير، فهل للطير أي علاقة بفعل الطيران؟ هل خلق نفسه كحيوان يطير؟ أم هل صمّم البيئة التي تسمح له بالطيران؟... لا تفهم أن الطير هو نفسه مسخّر لنا، بمعنى أنه يطير "لنا" من دون أن نتدخل نحن، فهو لا يطير "لنا" وليس بطيرانه مسخّر "لنا"، بل الله تعالى يمسكها فتطير ولا تقع عبر تصميم شكل الطير وعبر البيئة التي صمّمها لها، طيرانها هو نفسه عمل "سخرة" لم تقدّم له الطيور أي شيء، مثل سمعك وبصرك وفؤادك، فأنت لم تقدّم أي شيء لتحصل عليها.

{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ}، في طيران "السخرة" للطير، {لَآيَاتٍ}، لهي أشياء مميزة، {لِّقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع المشهد، {يُؤْمِنُونَ}، في حالة الاعتقاد، مَن اعتقد بأنه يوجد إله خالق صمّم ونفّذ هذه الظاهرة، فبكل سهولة سيرى الطيران شيئاً مميّزاً يدل على الإله الخالق. أمّا من لم يؤمن بالله تعالى، فمشهد الطير الطائر بالنسبة له سيكون مشهدا ناشفا جافا عاديا... لأنه كبت دلالتها عليه تعالى لدرجة استبداله روعتها الدالة على عظمة خالقها بروعة الطبيعة الخلّاقة! وكأن الطبيعة كائن له وعي ويصمّم ويخلق!

لاحظ اندهاش الناس عند رؤيتهم لاختراع ما لأول مرّة، حيث يتحيّر فكرهم فيه وفي كيفية صنعه، أناس كثيرون أدهشهم الراديو، ثم التلفاز، والطائرة، والهاتف المحمول... وبناء الأهرامات وناطحات السحاب... والدواء الذي يشفي من مرض مؤلم... والكثيرون أدهشهم كيفيّة وضع حبّة اللّوز في السكاكر "الملبّس"! ولكن الظواهر الطبيعية من حولنا أشدّ في ضخامتها وتقانتها من أي اختراع بشري، فنحن أنفسنا اختراع إلهي باهر، والطير بطيرانه اختراع إلهي رائع، ولكنْ ذو القلب السليم فقط سيراه رائعا وسيرى عظمته تعالى تماما مثلما يرى الناس روعة ألعاب الفيديو الثلاثية الأبعاد! كما تؤمن بأن إنسانا أو مجموعة من الناس اخترعت ونفّذت هذا الشيء الرائع، ويبهرك، فإنّ المؤمن يرى طيران الطير رائعا مبهرا يدل على خالق عظيم.

تحوّل الأمور إلى الروتينية العادية لا يلغي قيمتها، في عصرنا وبلمسة على الهاتف المحمول نتواصل بالصوت والصورة مع آخرين في قارات أخرى، وفي البداية كان هذا شيئا مذهلا، ومع مرور الوقت نسينا روعته وصار عاديا روتينيا نتأفف إن كانت جودة الصوت والصورة رديئة... ونفس الشيء لخلقتنا وبيئتنا، فهي روائع إلهية يلفت القرآن انتباهنا لها...

كلمة {الطَّيْرِ} هي اسم نوع من الحيوانات التي لديها القدرة على التنقّل في الجوّ، كالحمام والدوري والبلبل والنسر... ونحن غالبا نستعمل بدلا منها كلمة: طيور. مثل كلمة: نَهَر، بفتحة على النون والهاء، ونستعمل غالبا كلمة أنهار، الآية لا تقصد الإشارة إلى صنف محدّد من الطيور، بل تقصد كل أنواع الحيوانات التي تطير، وهي: طير.

(وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ{80})
{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ}، من الأماكن التي تبنونها لتبيتوا فيها، تحويكم، {سَكَنًا}، مكانا تسكنون فيه وتهدؤون فيه وترتاحون وتنامون... فيه، حيث إنّ البيت يؤمّن الحماية من الحشرات والحيوانات وعوامل الطقس، ويؤمن حاجزا بينكم وبين الآخرين... وأنتم لم تبنوا البيوت من ذكائكم الخارق كشيء منفصل عنه تعالى، بل من فكركم الذي زوّدكم تعالى به ومن البيئة التي خلقها سبحانه من حولكم، وهذا ما أوصلكم إلى بناء البيوت لتسكنوا فيها، حين خلقكم سبحانه قدّر لكم أن تتعرّفوا على فكرة بناء البيوت.

لاحظ أنك تنظر للحشرات والحيوانات التي تبني البيوت على أنها تتصرّف بدافع من غريزتها لا من دافع تفكيرها وتحليلها واكتشافها من بنات أفكارها لبناء البيوت، الآن، انتبه لنفسك، وأنت في هذه النقطة مثلها بالضبط! سبق في الآية التي تكلّمت عن النحل أن أشرنا لما نسميه نحن غريزة في الحيوانات بينما هو في الحقيقة نمط حياة... لو كانت الحيوانات هي التي تراقبك وتكتب عنك دراسة، لقالت بأنك حيوان لديه سلوكيات متكررة، حيث دائما يصنع بيتا ويسكن فيه. هل انتبهت لما تريد الآية قوله؟ كما تنظر أنت للحيوان يصنع بيتا، بشكل مختلف عن بقيّة بيوت الحيوانات، فبيت العنكبوت مختلف عن بيت النحل والنمل والذئب... وتقول إنّ كل نوع يمشي على غريزته على برنامج واحد، أنت بالنسبة لله تعالى مثلك مثلهم، تمشي على البرنامج الإلهي الموضوع فيك عندما تبني بيتا، مَن جعلك هكذا؟

{وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا}، حيث تصنعون الخيم من جلود الحيوانات التي تأكلونها، {تَسْتَخِفُّونَهَا}، تجدونها خفيفة، {يَوْمَ ظَعْنِكُمْ}، في الزمن الذي ترتحلون فيه، تنتقلون فيه لتغيير مكان المبيت، وتفككون الخيم حين تقررون الظعن، حين تتركون المكان وتريدون الانتقال لمكان آخر، وتحملونها لأنها خفيفة، وتستخفونها، {وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ}، في الزمن الذي تقررون فيه الإقامة أي البقاء في مكان لتقوموا بأمور تهمّ حياتكم، ستجدون الخيام خفيفة للتركيب، حيث إنّ شخصاً واحداً يمكنه تركيبها وبكل سهولة وسرعة. هناك بيوت من الحجارة أو الخشب وهي ثقيلة علينا لفكّها ونقلها معنا لتركيبها في مكان آخر، وهناك بيوت خفيفة... والخيام منها.

انتبه مرّة ثانية، أنت تلاحظ بعض الحيوانات تصنع بيتا وتحمله معها، وحيوانات تنتقل وتستعمل ما تجده في البيئة من حولها لتصنع بيتا... ولاحظ سلوك البشر بأنه ليس مختلفا جذريا عن سلوك بقيّة الحيوانات، حيث إنهما في أساس فكرة البيت يشتركان، وبالنسبة لفكرة البيت الخفيف لمن يضطر للتنقّل، كالرعاة القاصدين للعشب والماء والدفء... لأنهم لم يخترعوا الفكرة من لا شيء، وهم مثلهم مثل بقيّة الحيوانات تزوّدوا بما يلزمهم من خالقهم حتى يصنعوا بيوتا يحتاجونها.

{وَمِنْ أَصْوَافِهَا}، من صوف الأنعام كالضأن "الخروف والنعجة" وهو "الشعر" على جلدها، {وَأَوْبَارِهَا}، كوبر الجمل وهو "الشعر على جلده"، {وَأَشْعَارِهَا}، كشعر الماعز "معزاة وتيس"، تتخذون، {أَثَاثًا}، أغراضا منزلية من هذه الأشياء كالبسط والسجّاد وستائر الحيطان... وتتخذون، {وَمَتَاعًا}، أمتعة أشياء تنتفعون بها، كاللباس والفرش والأغطية... {إِلَىٰ حِينٍ}، حيث كلّها تبلى وتهترئ، ومن ثمّ تعيدون صنع أثاث ومتاع من جديد، وهذا معلوم ولكن تبدو الإشارة إلى حبّنا للتغيير، حيث نملّ من نفس المنظر ونغيّر الأثاث والثياب للتجديد...

بقي شيء، منذ عهد قريب من تاريخ البشرية تحكّم العلمانيون بالمراكز الأكاديمية، وبنوا منهاجا بحثيا على التجربة ومحاكاة الواقع، مبتعدين بذلك عن النظريات الدينية الصلبة والتي لا تقبل النقاش حول الطبيعة والشريعة والعقيدة... وحتى الكثير من المتدينين من العلماء الأكاديميين فصلوا الدين عن العلم والدولة، وكان معهم حقّ، لأن المنتمين لدينه تعالى لم يعرضوا دينه تعالى كما هو، بل اعتبروا كلامهم هم في كل الشؤون الدينية العقائدية والعلمية الطبية والفلكية والتشريعية... هو دينه تعالى، فصار لكلامهم قدسية كلامه تعالى، بينما هم في أحسن الأوصاف دارسون وليس ممنوعاً على أي آخر غيرهم دراسة كلامه تعالى الذي لا علاقة له إلا بما يخصّ الهداية للحق وفعل الصلاح.

وفيما يخص الآيات هنا فإنّ الدارسين لتاريخ سلوك الإنسان الاجتماعي، عرضوه علينا من نظرة تجعلنا نرى الإنسان يتطوّر بالاكتشاف والتحسين، وكأنها إنجازاته الناتجة عنه وحده من دون إله صمّمه وزرع فيه بذرة الاكتشاف... في الحقيقة أنا لست من مشجعي طريقة إقحام الكلام الديني في الدراسات العلمية التجريبية والفكرية... كإقحام آية ما أو حديث أو مفهوم... يدعم أو يفسرونه على أنه يدعم النظرية التي يقترحونها، لا، بل فليعرضوا دراساتهم الباحثة عن نشأة الأشياء وأساسها وترابطها وما سينتج عنها... بكلام يعرض النتائج كما هي، لأنها دراسات وستأتي بعدها دراسات تحسّنها وتقوّمها وتغيّرها وتأتي بأفكار جديدة لم تكن خاطرة على البال.

وكما ترى فإنّ المشكلة انتقلت من المتدينين إلى العلمانيين، فصاروا يحللون الأبحاث ويفرضون علينا الإلحاد! بينما كان المتدينون يفرضون علينا الإيمان والنظريات الثابتة التي يقولون إنها من كلامه تعالى.

الآن تحت حكم العلمانيين صرنا مجبورين على الإلحاد! أو على اتباع دين مشوّه علماني فيه بقية قليلة من التراث الديني الإلهي ويتعلقون بالدين فقط كتراث كعادات تؤمّن لهم الترابط كمجتمع يتميّز عن الآخرين، وتسدّ لهم حاجة الانتماء لشيء قوي مماثل لما ينتمي إليه الآخرون، مثلاً هذا مجتمع علماني ولكن كاثوليكي، وآخر بروتستانتي...

أقول لك هذا لأن نفس المعلومات الواردة في الآيات هنا ستجدها كعناوين في الأبحاث عن تاريخ الإنسان، والآيات هنا لا تقدّم أكثر من لفت الانتباه لنماذج مما نحن فيه من تصرفات وسلوكيات، والدراسات شيء آخر، فهي باحثة عن تأريخ التأقلم والتحضّر... وباحثة عن دوافعها... وآليات حصولها.... والنتائج التي يصلون إليها لا علاقة لها بالدين الإلهي إلا حين يحلّلونها دينيا بطريقة تعكس فكرهم ونفسيتهم، فلو حلّلوها بالحقّ لانتبهوا أنها آيات تدل عليه تعالى.

سبحانه منذ قليل في السورة لفت انتباهنا للنحل وبيته، وها يلفت انتباهنا هنا للإنسان وبيته، وفصل بين الحالتين بوصف الوحي للنحل ووصف الجعل للإنسان كإشارة إلى تمتّعنا بما يجعلنا قابلين للتغيّر بينما النحل لا يغير بيته مُحْدِثاً له بالسرعة التي نفعلها نحن.

وهذا هو الفرق الأساسي بين الإنسان وبقية الحيوانات حيث إنها ليس لديها القابلية الكاملة التي نملكها من توارث المعلومات والخبرات والتصرّف على أساسها لتغيير السلوكيات، وانتقلنا من العراء إلى الشجر إلى الكهوف فالبيوت من خشب ومن حجر أو طين...

نحن كمؤمنين نرغب برؤية آية من القرآن في كل بحث علمي، وهذا غير سليم إلا إن كان البحث معنيّاً بمقاربة كلامه تعالى مع اكتشافاتنا، وهنا تبرز خطورة الاشتقاق من كلامه تعالى لتثبيت صحة نظرية علمية ما، وبهذا تسير الأمور نحو المشكلة القديمة فتصير لدينا نظريات علمية مدعومة دينيا، وتصير النظريات الأخرى كافرة، وهذا هراء فلا نظريات علمية دينية في كلامه تعالى، بل توصيف من النظرة الإلهية لما جرى ويجري في الدنيا ومعنا، وبعرض واقع ما يحصل، أمّا كيفية حصوله، آليات حصوله، فهي متروكة لنا للبحث فيها كروعة من روائع خلقته تعالى لنا محبّين للاكتشاف والابتكار، مع استفزازه تعالى لنا بما في بيئتنا، حيث نريد أن نطير، وأن نغطس وأن نخترق السماء لنخرج إلى الفضاء... ومع استفزازه تعالى لنا بجعله البعض منا يحيي الموتى ويتكلم مع الطير... ونحاول محاكاة ذلك...

(وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ{81})

{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ}، من الأشياء التي ركّبها وألّفها، {ظِلَالًا}، لها ظلّ تحتها، ينطبع على شكلها سواد هو عتمة ناتجة عن حجب الأشياء للضوء. صحيح أنه سبحانه جعل لكم البيوت، ولكن أيضا هناك الأشكال البسيطة من المأوى المنتشرة على الأرض، من الأماكن التي تتظلل بها وتحجبك عن الضوء، عن رؤية الآخرين لك، عن المطر، عن حرارة الشمس... كظلال أوراق الشجر، وتجاويفها، وغيضات النبات... {وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا}، أماكن تكنّون إليها، مثل حبة اللؤلؤ في الصدفة فهي مكنونة في الصدفة، حيث تقصدون تجاويف الجبال ومغاراتها لتكنّوا فيها هربا من المطر أو للنوم في مكان آمن من الحيوانات المؤذية... وهي ليست كالبيت والمسكن الذي تصنعه حيث تريد وكما تريد.

{وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ}، عموم ما يغطّي الجسد، رداء للجسد، قميصا أو عباءة أو سروالا "بنطالاً" أو جلبابا... {تَقِيكُمُ الْحَرَّ}، حيث تتجنبون بها حرارة الشمس العالية. حاليا لدينا تحديد لكلمة حرارة كتصنيف لحالتي السخونة والبرودة معا، فنقول إنّ الحرارة عالية مرتفعة ساخنة... ونقول إنّ الحرارة منخفضة باردة... وهذا اشتقاق من كلمّة "حرّ"، وقديما وحديثا وفي استعمال القرآن إنّ كلمة "الحرّ" مخصصّة للسخونة، راجع كمثال الآية 81 من سورة التوبة {... وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا...}.

بطبيعة الحال تقي الثياب من الحرّ ومعلوم أنها تقي من البرد أيضا، وتركت الآية ذكر ذلك ليكون الكلام لافتاً يدفعك لتحريك فكرك للسؤال عن البرد...

{وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ}، والسربال هو عموم ما صار على كل الجسد أو بعضه من طلي "دهان بأي شيء على الجسم أو على الثياب"، أو لباس كقميص أو عباءة، أو درع... تتجنبون بها بأسكم وهو الشيء الشديد الذي تفعلونه على الجسد، فعندما يقوم أحدكم بشيء مؤذٍ لجسد شخص آخر، يمكنكم استخدام السرابيل للحماية من هذا البأس، والكلام هنا عن الدروع الجسدية على الصدر أو الأكتاف أو الأرجل... من الخشب أو جلد الحيوان السميك أو المعدن أو... للحماية من الضربات حين الاقتتال...

{كَذَٰلِكَ}، بهذه الاستخدامات الثانوية للسرابيل التي تصير أساسية في بعض الحالات، {يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ}، حيث إنّ هناك لائحة طويلة عريضة من النعم من الأشياء الجيدة التي منحها لنا سبحانه، وهي مستمرة لم تنقطع، أضف إليها النعم غير الأساسية من حياة البشر، إذ يمكنك العيش من دون سرابيل تقيك الحرّ أو القتال، ولكن حين تضطر للتنقّل في الشمس الحارقة، وحين تقع في ظروف القتال، يمكنك استخدام السرابيل لتساعدك في تلك الظروف.

{لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ}، من المفروض منكم ومن المتوقّع أن تسلموا وتنقادوا للإله الذي منحكم هذه الأمور وأتاحها لكم وجعلها فيكم...

مثلما انتبهنا في مسألة بيوتنا للشبه مع بقية الحيوانات، أيضاً في مسألة السربال الشبه كبير، لَمْ تستعمل الآية كلمة لباس الأخص من سربال، بل استعملت الوصف العمومي لكل ما نستر به جسدنا لسبب ما غير ستر العورة، إلى حدّ علمي لا تهتم بقية الحيوانات بستر عورتها، بل بعضها تتسربل واضعة على جسمها قوقعة فارغة أو حبات بحص أو عيدان خشب... للاستتار أو للحماية من الحيوانات الأخرى، كما يدهشك ما تفعله الحيوانات بتسربلها كذلك تريدك الآية الالتفات لما تفعله أنت حين تتسربل لغاية ما، وهذا أيضاً مدهش.

كما تلاحظ من الآيات السابقة أنّ لها نَفَساً واحدا في لفت الانتباه لنفسك لحواسك لفكرك لمشاعرك لمعيشتك... لبيتك... لردائك، وهي أشياء لها أهميّة بالغة إن انتبهت إلى أنها لم تأتِ من الحائط، من المفروض أن تسلم وتنقاد وتكون مطيعاً للإله الذي منحك هذه النعم، وأما الشرك به تعالى، فصار واضحا أنه جريمة وظلم بشكل فظيع أمام روعة تصميمنا وخلقنا وما هو متاح لنا.

(فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ{82})

{فَإِن تَوَلَّوْا}، فإن ذهبوا باتجاه آخر ولم يسلموا لله تعالى، {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}، فقط مطلوب منك تبليغهم لِتوصل الرسالة الإلهية إليهم بشكل تام إلى نهايتها، وبشكل واضح.

نلاحظ تكرُّرَ هذا الكلام في القرآن، حيث إنّ آيات عديدة تقول للرسول محمد(ع) إنّه مطلوب منه فقط تبليغ الرسالة بالتمام وبشكل واضح، وتلك الآيات مرّة كانت تتحدّث مع النبي(ع) حتى يكتفي بإيصال الرسالة وإهمال من يكفر بها، ومرة حتى لا يشعر هو بمسؤولية كفر الناس، ومرة حتى يفهم الناس أن النبي ليس مسؤولا عن إيمانهم ولن يطالبه ربه سبحانه إلا بِـتبليغ الرسالة، ومرة تعطينا معنى أن الرسول لا يحتاج إلى جمهور أتباع من المؤمنين، فلو كفر كل أهل الأرض فهذا لا يهم، ومرة تفهمنا أن الرسول لا يسعى وراء الرئاسة ولا المال وفقط يقوم بوظيفته... وهنا كما تلاحظ، الآيات الإلهية واضحة، ومن المفروض أن يسلم الناس لربهم سبحانه، فإن لم يسلموا فلا مشكلة، وأنت أيها الرسول قم بما عليك، وفي الآية بعد التالية سنرى نتيجة كفرهم.

(يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ{83})
عليك فقط البلاغ لأنهم:

{يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ}، الأشياء الجيدة التي حصلوا عليها منه تعالى هم يعرفونها، واختارت السورة نماذج من النعم التي يعرفها أي إنسان عادي في حياته اليومية، {ثُمَّ يُنكِرُونَهَا}، ورغم معرفتهم بها يرفضون تصنيفها والاعتقاد بأنها نِعْمَةٌ منه تعالى! مثل المتخالف مع الآخرين على مسألة مالية أو اجتماعية أو أخلاقية... وهو يعرف الحقّ ولكنه يرفضه لأنه لا يناسب هواه السيّء. فهذه النعم من أين حصلوا عليها؟ وفوق كونها تدل عليه تعالى لوحدها كآية، حيث أبلغهم سبحانه بكلام يصلهم عبر رسوله أنها منه سبحانه.

المُنْكَرُ من مقابلته مع "عرف معرفة" يعطي معنى حصول صورة أو مفهوم ونفي تطابقه مع ما لديك، فهو عموم ما ليس معروفا على الوجه المطروح، كرفض لتصنيفه.

{وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ}، حيث إنّ الناس عددهم كبير، وأكثرهم موصوفون بأنهم ينكرون ولا يؤمنون بالنعم الإلهية، وبالتالي هم لا يؤمنون بدينه تعالى ورسله وآخرته...

ما تقوله للناس عن النعم الإلهية عبر هذا القرآن، الناس يعرفونه ولكنهم ينكرون أنه من الله تعالى أو ينكرون دلالتها عليه تعالى، ولذلك نقول لك إنّ عليك البلاغ فقط، لأننا نعلم بفكرهم ونفسيّتهم ونزيدك علما بأن أكثر الناس كافرون لا يؤمنون، ونخبرك "ونخبرهم" بما سيجري معهم بسبب كفرهم:

قبل أن نكمل لاحظ وانتبه أنّ القرآن لم يستعمل ولا مرّة في حقّه تعالى كلمة "عرف" أو أي من مشتقاتها، لأنّ المعرفة من التعرّف وهي العلم بالاعتماد على الأَمَارَاتِ بطريقة غير مباشرة، عبر مقارنة ما دخل حواسك وتصوراتك ومفاهيمك مع ما في ذاكرتك، والعلم حديثا بشيء لم تكن تعلمه أو العلم بالتلقين من آخرين لشيء لا تعلمه... هو التعرّف، ولذلك لا يوصف تعالى بالمعرفة ويوصف فقط بالعلم، إذ لا تغيب عنه أي معلومة حتى يتعرّف عليها أو حتى يقارن بينها وبين ما يعلمه، لأنّ علمه فائق.

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ{84})
{وَيَوْمَ}، وفي الزمن الذي، {نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ}، من كل جماعة من الناس لها امتداد تاريخي، نبعث، {شَهِيدًا}، شخصا يشهد عليهم، وهذا الحدث كما نعرف من بقيّة القرآن أَنَّهُ سيحدث في عالم الآخرة فيما بعد يوم القيامة من الموت، والشهيد يَكُونُ رسولا، حَيْثُ يَشْهَدُ بأنه أوصل لهم الرسالة الإلهية بشكل واضح وهم كفروا، أو يكون مؤمنا عاديا، حَيْثُ يَشْهَدُ بأنه سمع بالرسالة الإلهية وَآمَنَ لأنها كانت واضحة وكافية لمن يريد أن يؤمن، أو شخصا اتبع سلامة قلبه وَفَهِمَ الآيات التي فيه ومن حوله وَأَنَّهَا دالة عليه تعالى ووصل إلى رؤية فساد عقيدة وشريعة أمّته المشركة...

{ثُمَّ}، بعد قيام الشهيد والإدلاء بشهادته على الكافرين، {لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا}، لا يحصل من لم يؤمن على الإذن بالكلام من بعد كلام الشهيد، وتعلم من عموم القرآن أَنَّ الجملة هنا تقصد أنهم ليس مسموحا لهم تبرير كفرهم أو تكذيب الشهيد... فحتى لو برّروا واعتذروا فلن ينفعهم ذلك من بعدما يشهد عليهم الشهيد بكفرهم في الدنيا، {وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}، حَيْثُ لا يقول لهم أحد كلاما يعاتبهم فيه، لأن العتاب يكون كلاما لشخص تحترمه وتحبّه وَقَامَ بعمل سيّء وَتَلُومُهُ عليه حتى يندم وتسامحه، أمّا هؤلاء فلا أحد يحبهم ولا أحد يحترمهم وَلَنْ يستعتبهم أي أحد على ما فعلوه من سيئات ليعتذروا ويسامحهم... وعمليا لَنْ يسامحهم سبحانه على ذنوبهم.

نلاحظ نفس المعنى في سورة المرسلات الآية 36، حيث قالت {وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ}. وَهِيَ على معنى: أخطأت ولن نأذن لك لتتكلّم وتعتذر لنعفو عنك. لا، لن يحصل هذا.

تُلَاحِظُ نقل الآيات القرآنية لمشاهد حساب جماعي في الآخرة، ومرة تنقل مشاهد حساب فردي لكل شخص وَحْدَهُ، ومرّة تنقل مشهد حساب قوم من زمن واحد، ومرة تنقل حساب أقوام من أزمنة مختلفة ولكنهم يشتركون في نفس السوء...
وَهَذِهِ الأمور ستحصل في أيام مختلفة من الآخرة التي تبدأ من يوم القيامة ويليها أيام من محاسبتنا، والعديد من الدارسين للقرآن لم يلحظوا ذلك وضيّقوا نظرتهم لما سيحصل في يوم القيامة، وَهكذا صرت من كلامهم ترى تعارضا في كلام

القرآن، لِأَنَّهُمْ لم ينتبهوا أَنَّ الآخرة أيام من الحساب الفردي والجماعي ووقوف الأشهاد ويتخلل ذلك عرض ما في الكتب المسجلة فيه أعمالهم وشهادة أعضاء جسدهم عليهم... حَيْثُ مرّة لا ينطقون ومرة يسمح تعالى لهم بالكلام فيعتذرون ولا يقبل تعالى عذرهم... ومرة عُمْيَانًا ومرة يبصرون... أَضِفْ إلى ذلك الكلام عن نماذج، حَيْثُ إِنَّ بعضهم يتعرضون للضرب دائما بلا توقّف حتى حين محاسبتهم إلى أن يرميهم تعالى في جهنّم بعد انتهاء حساب الجميع... وبعضهم سيئاته أقل، وأقل وصولا إلى المرغوب من سيئاته وتقصيره ويحتاج للشفاعة حتى يدخل الجنّة... فلا تجمد على المشاهد التي يعرضها القرآن عن الآخرة، لِأَنَّهَا تعرض نماذج مختلفة لحالات مختلفة في أوضاع وأيام مختلفة، وهكذا ترى التعابير التي تَبْدُو متخالفة أَنَّهَا ليست متخالفة، بل تعرض مشاهد ونماذج مختلفة لأنواع مختلفة من الناس، وفي أزمنة ومشاهد متنوّعة...

(وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُواْ الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ{85})

{وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ}، الذين لم يكن معهم حق ولم يكونوا عادلين ولا منصفين بكفرهم وتركهم للدين الصحيح الواضح، فإذا حصلت لديهم صورة محدّدة للعذاب الإلهي على ظلمهم، {فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ}، حيث إنّ العذاب دائم مستمر على نفس المستوى بلا تخفيف، {وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ}، حيث لا يتم إعطاؤهم أي مهلة، ولا يوجد أي فترة استراحة.

(وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَـؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ مِن دُونِكَ فَألْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ{86})

{وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ}، الذين جعلوا لله تعالى شركاء في الألوهية، ينفي تعالى شراكتهم له في الألوهية ويصف من عبدهم أنه هو كان بينه وبينهم شراكة إله وعبد، وحين يصير عند الذي عبدهم صورة محدّدة لهم في الآخرة، {قَالُوا رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا}، حيث تبيّن هنا في يوم القيامة وبكل وضوح أنك الإله الأحد لا شريك لك، وتبيّن أن آلهتنا المزيّفة كانت شريكة لنا وَحْدَنَا في علاقة "عبد معبود، إله ومخلوق..." ولم تكن شريكة لك. {هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ}، حيث كنا نتركك ونعلن ونشهر أنهم آلهتنا، ونعتبر أنفسنا ونتصرّف على أساس أننا عبيد لهم ونتوجّه نحوهم بالدعاء والمديح والشكر... يعني يحاولون الدفاع عن أنفسهم بالإشارة إلى المخلوقات التي عبدوها، ونعلم من القرآن أنهم سيطلبون البراءة لأنفسهم وأن تتحاسب "آلهتهم" عنهم! وسيطلبون تخفيف العذاب عن أنفسهم وأن تأخذ "آلهتهم" حصّة من تعذيبهم... وخذ مثلا عن ذلك ما ورد في الآية 38 من سورة الأعراف: {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ}.

{فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ}، فقال المشركون لتلك الآلهة المزيفة: {إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ} لأنكم لستم آلهة، وتورطنا في عبادتكم...

نتذكّر آيات أخرى من القرآن نقلت بعضا من تخاصم المشركين مع آلهتهم، أما هنا اختَصَرَتْ الكلام حتى تركّز على المشركين في يوم القيامة وهم يعلنون البراءة من ألوهية أي أحد سوى الله تعالى... وتذكّر أنهم الآن في الدنيا يرفضون الاعتراف بوحدانية الله تعالى، ويجادلون ويناقشون، وينكرون الآيات الربانية... أمّا هناك، فمحسوم لديهم أن الإله واحد أحد.

ننتبه ونتذكّر دائما أنّ المشركين أنواع عديدة، فهناك من اخترع آلهة لا وجود لكائن لها أصلا، حيث إِنَّهُ من خياله اخترع اسْمًا لشيء غير موجود أصلا وجعله إلها، كإله المطر وإله الرعد وإله الحرب... وهذا النوع من الشرك تحدّثت عنه سور عديدة في القرآن وردّت عليه باختصار أنّ آلهتهم أصلا وهمية... هنا السورة قفزت عن الآلهة التي لا وجود لكائن يمثّلها أصلا، وتحدّثت عن الكائنات التي جعلها المشركون آلهة، حيث إنّ المشهد عن مشركين يشيرون إلى شخص أو أشخاص من الجنّ أو من الناس اعتبروهم آلهة.

أقول لك هذا لأن عامّة تفاسير القرآن أطالت الكلام وشطحت لتبرير إقحام عابدي الأصنام في مثل هذه المشاهد، فهل الصنم سيكون له كيان واع في يوم القيامة ويراه المشركون ويقولون له وعنه كلاما...؟ لا، لأنّ عابد الصنم طارت آلهته الوهمية من قبل، وحين تبدّلت السماوات والأرض انمحت آلهته المركَّبة من تراب، لأنها أصلا ليس لها كيان واع،

واخترعوها تخريفا من خيالهم وأوهامهم، ولا داعي لشمل هذه النوعية من الناس في تفاسير الآيات المشابهة لآيتنا هذه، فمن اخترع إلها من خياله، فإنه في يوم القيامة أصلا لن يجد إلهه، وهكذا نفهم كلام القرآن في مثل آيتنا هنا مع مشركين عبدوا كائنات لها وجود حقيقي.

إذا بحثت عن نموذج لتنطبق عليه الآية، ستجده نموذجا نادرا ونادرا جدا، لأنّ غالبية المشركين عبدوا آلهة لا كيان حَقِيقِيَّ لها، أو عبدوا أشخاصا من البشر أو الجنّ أو الملائكة، وأصلا هؤلاء الأشخاص لم يَدَّعُوا الألوهية، وهكذا ترى أنّ ما يستحقّ الكلام عنه من عقائد المشركين للكلام عن آلهتهم، للبحث في عقيدتهم، هُوَ حالة نادرة جدا، فعن ماذا ستتحدّث؟ عن آلهة وهمية؟ عن صنم؟ عن النار؟ عن الطبيعة؟ عن الصدفة؟... وهكذا تفهم أنه ورغم سخافة الشرك به تعالى فإنّ للشرك جماهير! والقرآن ردّ على كل أنواع شركهم وركّز على الأشخاص الذين لهم كيان حقيقي وادَّعَى المشركون أنهم آلهة، لأنه على الأقل هناك شيء ملموس ليتحدّث عنه القرآن مع المشركين.

(وَأَلْقَوْاْ إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ{87})
{وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ}، في يوم القيامة وما بعده، {السَّلَمَ}، "فتحة على حرف السين واللام"، حَيْثُ عبّروا بالكلام والتصرفات عن انتفاء محاربتهم ومعاداتهم له تعالى، بل العكس هُمْ يعبّرون عن الانقياد والطاعة والاعتراف بكل صفة ألوهية لله تعالى فقط، لِأَنَّهُمْ شاهدوا آلهتهم التي كانوا يعبدونها وتيقنوا أنها آلهة مزيفة ولا مكانة ألوهية لها، فأعلنوا انقيادهم التام لله تعالى، {وَضَلَّ عَنْهُمْ}، عن المشركين، {مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}، حَيْثُ كذبوا عن قصد وقالوا إِنَّهُ يوجد شركاء لله تعالى، وَهذا الافتراء ضلّ عنهم في يوم القيامة، وَلم يجدوا منه نتيجة توصلهم لما يَرْغَبُونَهُ.

ننتبه لشدّة التعبير، حَيْثُ إِنَّهُمْ هنا في الدنيا كانوا مثل رأس التيس، رأسهم مثل الحجر، لا يقتنعون بأي شيء، ومتمسكون بشركهم، أما هناك في يوم القيامة فكل افْتِرَاءَاتِهِمْ ستضل عنهم، وَلن يتحدّثوا بها وعنها، وستتغيّر طريقة كلامهم.

تُرِيدُكَ الآية أن تفهم أنهم يتحدثون بطريقة تدل على أنهم أشخاص مختلفون جدا جدا عما كانوا عليه في الدنيا، حَيْثُ إِنَّ كل كلام الافتراء ضلّ عنهم! لا طريق له إليهم! لا علاقة لهم به! لا يوصلهم لأي نتيجة يرغبون بها! لِأَنَّ كلام الافتراء بالشرك في مكان، وكلامهم الآن في مكان آخر، وَأعلنوا السلم بالانقياد التام لله تعالى! وكما ترى فَوَحْدَكَ ستكمل كلام الآية وتستنتج أنهم تأخرّوا كثيرا في إعلانهم الإيمان.

كثيرا ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، لِأَنَّهَا لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيرا أم شرا، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فَضَلَّ عنك صيدها. وَاستعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، حَيْثُ لم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، وَلن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون لِأَنَّهُ ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ{88})
{الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا آياته تعالى فلم يؤمنوا بتوحيده، {وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، فمن يُرِدْ سلوك الطريق الإلهي منعوه من المشي عليه، حيث منعوا الناس عن الإيمان بالله سبحانه ومنعوهم عن طاعته تعالى، بالقوّة الجسدية، بالتهديد، أو بطرح الإشكالات الكاذبة المضلّلة، بالإغراء... هؤلاء، {زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ}، في نهاية حسابهم على أعمالهم السيئة التي ارتكبوها، هناك عذاب إضافي، {بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ}، بالذي فعلوه من أمور فاسدة ينتج عنها ما يوصف بأنه سيئ. لأنهم على المستوى الشخصي كفروا، وجعلوا الآخرين يكفرون، وبالطرق المختلفة جعلوا الناس يتركون الطريق الإلهي، وهناك عقاب خاص منفرد على هذا العنوان، وهو عقاب ينتج عنه عذاب إضافي، ويُترجم

عمليا هذا العذاب الإضافي بزيادة حرارة النار التي تحرقهم، وبزيادة شعورهم بالألم، وبزيادة الإهانات والتعذيب النفسي...

من عموم مفاهيم القرآن ترى أن ما ينتج عن العمل السيئ نُحاسَب عليه أيضا، فلو شجّعتك على الغيبة، وبررتها لك وزيّنتها لك... وقمت أنت بالاستغابة بسببي كليا أو جزئيا، فأنا أنال نفس السيئات التي نتجت عن قيامك أنت بالغيبة، وهذا وزر مع أوزاري، وراجع في ذلك الآية 25 من هذه السورة {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ}، وهنا ترى الآية تُسمّي صدّ المشركين لبقية الناس عن سلوك دينه تعالى، وهذا فساد، لأنه عمل باطل غير صحيح، وهم سيحملون سيئات مَنْ بسببهم ترك سبيله تعالى، حيث إنه بسببهم سيفعل السوء، ويكسب سيئاته، وهم سيكسبون مثل سيئاته، لأنهم السبب في فعله للسوء والذي عبّرت عنه الآية بصدهم عن سبيله تعالى، فسبحانه يأمر بالصلاح وهم عارضوا ذلك وجعلوا الآخرين يعارضونه أيضا... ولذلك سيكون لهم عذابٌ فوق العذاب، لهم عذاب على سيئاتهم التي ارتكبوها مباشرة، ولهم عذاب آخر على سيئة صدّ الآخرين عن سبيله تعالى، وعذابٌ من سيئات الذين صدّوهم عن السبيل الإلهي...

لاحظ كيف يصير الوصف بالصدّ عن سبيله تعالى عمومياً، فلو استبدلته بالصدّ عن الإيمان بدينه تعالى، لكان عنوانا ضيّقا، لأن الصدّ عن سبيله تعالى يشمل حالة منع الآخرين من الإيمان بدينه تعالى ويشمل ترك الكافرين لمن أعلن الإيمان بدينه تعالى طالما لم يفعل ما يتعارض مع ما لا يرغبونه، فيصدّونه عن الصلاة، أو عن الزكاة، أو عن نصرة المستضعفين أو...

بقي شيء، صيغة دراسة الآية هنا مشابهة في تفسيرها لما هو دارج في عموم الكتب، ولكن ضع في بالك دائما أننا نعيد صياغة الآيات كتفسير منا لها، حيث نُعيد الصياغة بناء على مخزون ثقافتنا لتصير متماشية مع ثقافتنا، ويصير تفسيرنا لعبارة {بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ} بما كانوا يفعلونه من مخالفة لأوامره تعالى، وتصير عبارة الصدّ عن سبيله تعالى صدّاً عن اتباع أوامره تعالى، وهذه التفاسير صحيحة ولكنها ليست دقيقة، لأن القرآن لا يعرض علينا اتباع سبيله تعالى كشيء نجهله أو كشيء جديد مختلف أو كشيء علينا أن نقبله كما هو... بل يعرض تعالى علينا ما من المفروض أن نراه نحن خيرا وصلاحا، وبالتالي هؤلاء كانوا يفسدون أي كانوا يقومون بأعمال غير صالحة، وبالأساس نحن وهم نراها أعمالا غير صالحة لو كان فكرنا ونفسيتنا سليمين.

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَـؤُلاء وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ{89})
{وَيَوْمَ نَبْعَثُ}، وفي الزمن الذي نقيم فيه، {فِي كُلِّ أُمَّةٍ}، في كل مجموعة من الناس كانت مشتركة في العقيدة ولها امتداد تاريخي، وهذا شيء سيحصل فيما بعد يوم القيامة في الآخرة، حيث يبعث سبحانه في كل أمّة، {شَهِيدًا}، شخصاً يشهد عليهم، شخصاً كان حاضرا رأى وسمع ما حصل، ويكون، {مِنْ أَنْفُسِهِمْ}، واحدا منهم، يكون رسولا أو نبيا أو صالحا.

مثلا، هناك جماعة من الناس لها امتداد تاريخي من الأجيال الذين عبدوا بوذا، في يوم القيامة سيبعث سبحانه فيهم شهيدا عليهم من أنفسهم، شخصا كان يعيش معهم ويشهد بأنهم أشركوا مع أن الآيات الواضحة تدل على وحدانيته تعالى.

{وَجِئْنَا بِكَ}، أنت أيها الرسول محمد(ع)، {شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ}، فالناس الذين في عصرك وما بعده، ستشهد أن الآيات كانت أكثر من كافية للإيمان بتوحيده تعالى، ومضافا لذلك أوصلت لهم الرسالة الإلهية بشكل واضح.

{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ}، وهو القرآن، {تِبْيَانًا}، توضيحا، {لِكُلِّ شَيْءٍ}، فأي عقيدة حقّ وأي تشريع حقّ صار واضحا بسبب هذا الكتاب، فلا حجّة لهم أن لا يؤمنوا، وستشهد أنت كحامل ناقل لهذا الكتاب بأنه وصلهم كاملا واضحا، وهم يتحمّلون مسؤولية كفرهم أو إيمانهم.

مضافاً للآيات المتنوّعة الكثيرة في خلقهم وخلق بيئتهم... والدالة عليه تعالى، من بعد إرسالك بهذا القرآن صار لا يحقّ لهم أن يقولوا: لم يكن معنا خبر.

وهذا الكتاب وهو القرآن نزّلناه، {هُدًى}، ففيه ما يضعنا على الأشياء الصحيحة التي توصلنا للغاية الصحيحة، فيقول الأشياء الصحيحة، مثل التوحيد والبعث والحساب... التي توصلنا لغاية صحيحة فنؤمن بالحق وهذا ما يرضاه تعالى فندخل الجنّة... ونزّلناه، {رَحْمَةً}، عناية إلهية لمصلحة المؤمنين لأنهم هم وحدهم سيستفيدون من القرآن فسيهتدون به.

ونزّله تعالى، {بُشْرَى}، فيحمل الخبر السار، {لِلْمُسْلِمِينَ}، للذين أعلنوا أنهم منقادون مطيعون لله تعالى، لأن القرآن أخبرهم بأنهم سيدخلون إلى الجنّة الخالدة.

ضع في بالك دائما نقل القرآن لمشاهد مختلفة عن الشهداء في يوم القيامة، حيث نقل مشهد شهيد على قومه الذين كان يعيش معهم، وفي الآية 116 من سورة المائدة كمثال تجدها نقلت شهادة النبي عيسى(ع) على أمّة النصارى كلها، من الذين كانوا في عصره إلى الذين أتوا بعد مماته {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}. ولمزيد من التفاصيل عن الشهيد على الأمة والرسول لكل أمّة راجع دراسة الآية 47 من سورة يونس {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}.

انتبه، لا تخلط بين تسميّة ديننا بالإسلام، وبين استعمال هذه الكلمة في القرآن حيث قصد بها عموم الانقياد، وخصوص الانقياد والطاعة لله تعالى، لأن كل من سبقنا من المؤمنين من البشر، من آدم(ع) وما بعده، فهو مسلم، فهو منقاد مطيع لله تعالى، ونحن إن شاء الله تعالى مسلمون، منقادون مطيعون لله تعالى، عبر الالتزام بما جاء به القرآن، وتسمية الإسلام ليست خاصة بنا، بل تنطبق على كل من أسلم لله تعالى في أي عصر كان وتحت أي تسمية كان، فالنصارى الحقيقيون هم مسلمون، والمؤمنون من اليهود مسلمون... وسترى بعد قليل في الآيات إشارة إلى النبي إبراهيم (ع) الذي أطلق هذه التسمية "مسلم" على نفسه وعلى المؤمنين.

بعبارة أصرح، لا يوجد أصلا في القرآن كلام عن أي قيمة للمنتمي لدينه تعالى بالاسم، لأن التسجيل على بطاقة الهوية الشخصية أنني مسلم، أو اسمي مماثل لاسم شخصية مسلمة "محمد علي عمر..."، أو والداي مسلمان، أو أعلن أني مسلم... كل ذلك لا قيمة له بدون شيئين مع بعض: إيمان وعمل صالح. وكل ما هو متداول بين الناس عن أفضلية المسلم على الآخرين من بقية الأديان، فهو كلام فارغ إلا عن المسلمين المؤمنين العاملين للصالحات، فهؤلاء فقط قيمتهم عالية عنده تعالى.

ننتبه أيضا حين يقول القرآن عن نفسه أنه تبيان أو بيّن أو بيان... لكل شيء، فهذا يعني أن كل ما تحتاجه في أساسيات العقيدة والشريعة والسلوكيات فهو موجود فيه، ولا يعني أنه كتاب فيه كل التفاصيل وتفاصيلها التطبيقية، فإذا قارنت تشريعه مع كتب الفقه، لوجدت أكثر ما في كتب الفقه أموراً عقلائية افترض القرآن أنك تعلمها فترك التفصيل فيها، وترى ذلك في مثال اختصاره كل مواصفات الشهداء في القضايا وعلى العقود بجملة {مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ}، بالغاً عاقلاً عادلاً مهتمّا ويفهم بما يشهد عليه... وافترض ذلك في معاملات البيع والشراء والإجارة... وافترض حليّة الماء لك حين تستعمله في أمور حياتك كلّها، كي لا يكون مسروقا أو مغصوبا... وليس في ماء الوضوء فقط...

وتجد الكثير من التشريعات التي تركها أصلا سبحانه مع قابلية المرونة فيها لتتماشى مع مختلف الثقافات الناتجة عن ابتعاد الناس عن بعضهم جغرافيا، ولتتماشى مع الحالات المنفردة المختلفة عن الأخريات، كما في حالة ميراث الزوجة من العقار أو إعطائها قيمة حصّتها منه...

وعلينا أن نميّز بين كتاب إلهي فيه تفصيل التفاصيل التي تحكم كل تفاصيل أمورنا من دون أي مرونة تتماشى مع مختلف الثقافات والعادات، وبين كتاب فيه تفاصيل الأساسيات مع مرونة وهامش. وخذ مثلا المعاملات التجارية بين الناس، لا تجد في القرآن إلا أساسياتها فقط بتحريم الربا والغش... ولن تجد فيه فرض نظام مالي علينا، ما معنى فرضه علينا التعامل بالذهب والفضّة؟ وهل يحرم عندها تعاملنا بالصكوك البنكية المسماة بالعملة الورقية؟ أو يحرم التعامل بالعملة الإلكترونية التي لا تلمسها وهي مجرد أرقام في الحواسيب "الكومبيوترات"؟

حين يقول القرآن إن فيه تبيان كلّ شيء فهو يقصد أن فيه أساسيات ما يكفي الناس في العقيدة والشريعة مضافا إليه افتراض العقلانية فينا.

عملياً نلاحظ الغالبية العظمى الساحقة من علماء المسلمين اعتمدوا الروايات "عن النبي(ع) وعن الصحابة والتابعين والأجيال الأولى من المسلمين..." وتركوا القرآن كمصدر للتشريع! ويذكرون آياته في كتب الفقه بشكل خجول! حتى إننا نجد في مختلف فقههم خلافا لظاهر القرآن! ولا أقصد الاستهانة أو التسخيف لمجهودهم، ولكن الغرق في التفاصيل الكثيرة التي كتبوها عن الشريعة صنع صورة ضبابية تشير إلى نقص في القرآن، فصار عندنا فكرة "بشكل ما" أن القرآن ليس تبيانا لكل شيء لأنه لا يشمل التفاصيل التي يذكرونها في كتب الفقه، وصرت تعلم أنها تفاصيل تركها تعالى عن قصد لأن غالبيتها افترض القرآن فينا القدرة على اشتقاقها ببساطة بالعقلانية، وترك بعضها الآخر لتكون مرنة تتماشى مع مختلف الثقافات والعادات والأزمنة، كحالة تركه لتحديد نسبة الزكاة، وحالة تركه لقيمة ديّة الجروح والمقتول...

وصف القرآن بالمبين لا يعني أنه واضح على معنى نفي الحاجة للتأمّل والتمعّن والدراسة فيه كلّه، لا، بل يعني أن فيه قابلية الوضوح لمن تمعّن فيه ودرسه، فبعض القرآن واضح وسهل جدا فهمه، وبعضه يحتاج لتأمّل، وبعضه يحتاج لدراسة، ومن بعد التأمّل والدراسة فهو مبين.

للأسف، بتفاسيرنا المعتمدة على الروايات المتخالفة، وبتفاسيرنا المتوافقة على تعدّد معاني الكلمات والجمل، والمتوافقة على التفسير بالباطن، والمتوافقة على تعدد قصد الآيات، والمتوافقة على الاختلاف في التشريعات... جعلنا القرآن شبه مستحيل على الفهم، حيث تراجع مختلف التفاسير لترى معنى كلمة أو آية، والنتيجة أسوأ من حالتك السابقة!

سوف تلاحظ في بقيّة السورة إكمالها الحديث عن أساسيات الدين الإلهي، وستشير لبعض التفاصيل "غير الأساسية" مع ذكر تبرير تغيير تشريعها، وفي الآية التالية أبرز نموذج عن أساسيات الدين الإلهي:

(إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ{90})
تعقيباً على توضيح كل شيء في هذا القرآن، إليكم العناوين الرئيسية للشريعة الإلهية:

{إِنَّ اللَّهَ}، إن صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ}، بما يعدل فيكون مساوياً أو مكافئاً بالإنصاف، وتطبيقيا عبر إعطاء الناس ما يستحقونه منك بالحقّ، فلا تتملّص أو تتهرّب مما يتوجّب عليك للآخرين، ولا تستغلّ القوّة والنفوذ لفرض أحكام جائرة على الآخرين... ويمكنك مراجعة ما قاله القرآن عن أحكام القضايا بين الناس لترى الأحكام العادلة التي فرضها وشرح أسباب تشريعها، وبوضوح ترى أنه تعالى يأمر بتطبيقها على الجميع بالتساوي.

يأمر سبحانه، {بِالْإِحْسَانِ}، أن تحسن للناس، أن تقوم بأعمال حسنة جيّدة مع الناس، من أقصى الإحسان فتتفضّل عليهم، متنازلاً عن حقّك لتعطيهم ما لا يستحقون، وصولاً إلى التعامل معهم بشكل حسن، فلا تختصر معنى كلمة إحسان بالتفضّل على الآخرين، لأنها ليست مخصّصة لذلك، لا هي ولا كلمة محسنين، وترى ذلك بسهولة من استعمال الآية 100 من سورة التوبة لهذا التصريف {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ}...

نرجع للآية، مثلاً إذا حصلت جريمة قتل عن عمد، فالله تعالى يأمر بالعدل ويمكن لولي المقتول المطالبة بقتل القاتل، ولكن إن تاب القاتل فالله تعالى يأمر بالإحسان "بالعمل الحسن" عبر العفو عن القاتل، ولو قال لنا القرآن إنه سبحانه فقط يأمر بالعدل، لكان واجباً علينا أخذ حقوقنا كاملة من الناس وأن لا نسامحهم حتى نأخذ حقّنا بالكامل، ولذلك نجد في القرآن أمراً بالإحسان إلى جانب العدل، حيث بعد صدور الحكم لصاحب الحق، يمكنه المطالبة بحقه كاملاً، وأمّا إذا كان هناك مجال للإحسان "العمل حسن" فيدفعنا سبحانه نحو الإحسان، ومن هنا نجد القضاة المسلمين دمجوا الإحسان "على معنى التفضّل كأعلى درجة من العمل الحسن" في أحكامهم، فمَنْ كان لك عليه مال، ولا يملك إلا بيته الذي يسكن فيه، أو لا يملك إلا سيارته التي يعمل عليها ليعيش... ففي شرعه تعالى لا يحق لك أخذ بيته، ولا سيارته...

مثال آخر، مَنْ كان وريثاً بحصة في بيت يسكن فيه، ولا بيت آخر له ولا قدرة له على تغيير مسكنه، وله حصّة ميراث فيه وللآخرين حصّة فيه، وللآخرين بيوت... فالعدل أن يأخذوا حصّتهم من البيت ليسكنوا فيها أو يؤجّروها أو يبيعوها... ولكن الإحسان يفرض على الورثة أن يتركوا البيت للفقير الساكن فيه، أو على الأقل يمنحوه حق السكن مع بقاء ملكيتهم لحصتهم... أو أن يجدوا حلاً يشمل تأمين مأوى لائق له...

يأمر سبحانه، {وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى}، الذي بينك وبينه قرابة، من عائلتك من أقربائك، "نسباً أو سبباً"، فيجب أن تعطيه من مالك ومن طعامك ومسكنك... إن كان بحاجة للمساعدة، والآية كما تلاحظ لم تتحدّث عن مساعدة الفقراء بشكل عام بل خصصّت حديثها عن مساعدة الأقارب، مع العلم أننا نجد الكثير من الآيات التي تأمر بمساعدة كل أنواع المساكين، ونجد العديد من الآيات التي تأمر بمساعدة اليتيم وابن السبيل والأسير والمهاجرين... ولكن هنا اختارت الآية الحديث فقط عن مساعدة الأقارب كنموذج بارز، ولا تَنْسَ أن السورة تتحدّث "مع وعن" مشركين، فمن الصعب أن تجد مشركاً يناقشك في وجوب مساعدة أقاربه المحتاجين، وعلى الأقل سيحسبها أنهم سيساعدونه إن هو دار عليه الزمن واحتاج للمساعدة...

سبحانه، {وَيَنْهَى}، يأمر بترك شيء بشكل نهائي وبلا عودة، {عَنِ الْفَحْشَاءِ}، عن العمل الجنسي السيئ من زنا أو شذوذ...

ينهانا سبحانه عن، {وَالْمُنْكَرِ}، عن الأشياء التي ينكرها ولا يقبلها الدين الإلهي ولا عقلاء المؤمنين، فيأمرنا بالابتعاد نهائياً عن الكذب والمبالغة والنصب والاحتيال والغش والسرقة والسكر وتعاطي المخدرات والقمار...

المنكر من مقابلته مع "عرف معرفة" يعطي معنى حصول صورة أو مفهوم ونفي تطابقه مع ما لديك، فهو عموم ما ليس معروفاً على الوجه المطروح، كرفض لتصنيفه. والقرآن استعمل كلمة "المنكر" في مقابل كلمة "معروف" حين أشار لأمور تحدّد الناس العاقلة إنكارها أو معرفتها، مستندين إلى ما يعرفونه من تمييزهم بين الخير والشر والصلاح والفساد، فالأفعال السيئة معروفة ولن يخترع الناس "المتدينون العقلاء" شيئاً ينكرونه ولا ينكره الدين الإلهي، فمثلما حدّد سبحانه بكلامه الفاحشة وأخرج منها ما يفعله الزوج والزوجة، كذلك الناس العاقلة تعرف الفاحشة ولا يدخل عند الناس في الفاحشة ما يفعله الزوج والزوجة، والمنكر أيضا حدّده الدين، وتجد وصف بعض الأمور بالمنكر "بغير المعروف بغير المقبول"، حيث لا الله تعالى يقبل به كشريعة، ولا الناس العاقلة تقبل به، لأن الإشارة في القرآن كانت دائماً بأن ما ينكره تعالى تنكره الناس العاقلة، وهذا أساس يبيّن كل شيء، ويصدر عنه تفريعات تشريعية كثيرة يمكن للمؤمنين العقلاء اشتقاقها، كحرمة فصل الرضيع عن أمّه التي تطلّقت وترغب بإرضاع ولدها...

ينهانا سبحانه عن، {وَالْبَغْيِ}، عن فرض أشياء جائرة على النفس وعلى الآخرين، وهنا بما أن الحديث في الآية عن التعامل مع الناس، فالنهي عن البغي على الآخرين هو منع عن أخذ حقوقهم أو تسخيرهم...

{يَعِظُكُمْ}، فيقول سبحانه لكم أشياء يحدّد لكم فيها ما تفعلونه وما تتركونه حتى لا تقعوا في المشاكل أو حتى لا تفعلوا الأمور السيئة، {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}، فمن المفروض أن تستحضروا في فكركم ونفسيتكم هذه المواعظ.

تتذكّر أن السورة تتحدّث عن ومع المشركين، فإذا التفت المشرك إلى ما ينهى الله تعالى عنه، فمن المفروض أن يتذكّر هذا مستحضراً في عقله ونفسيته هذه الأمور الرائعة التي يأمر بها سبحانه، والتي لا نقاش في منفعة البشرية منها، وأنها هي الشريعة التي يجب أن يمشي عليها الناس حتى تكون حياتهم سعيدة، وكذلك المؤمن إذا التفت لهذه المواعظ واستحضرها في عقله ومشاعره، سيجدها متوافقة متماشية مع قلبه السليم.

نلاحظ السورة بعد لفتها انتباهنا لخطورة اختراع عقيدة، نراها تطرح الشريعة الإلهية حتى ننتبه لخطورة اختراع شريعة، لأن العقيدة القرآنية ممتازة لأنها الحقّ، والشريعة القرآنية ممتازة لأنها الصلاح، فلماذا تخترعون عقيدة باطلة أو شريعة سيئة رافضين ما يعرضه تعالى عليكم من حقّ وصلاح؟! تلاحظ الآية ركّزت على "توصيف" ما حرّم الله تعالى وما أمر به، حيث كلمة "عدل" واحدة، ولكن تفاصيلها كثيرة جداً، وكلمة "منكر" واحدة ولكن تفاصيلها كثيرة جداً، وعندما تراجع "أساسيات" التشريع وتفاصيله في القرآن ستجد شرحاً لكل حرام وحلال، وستجد تعليله وسببه.

أخيراً لا بد من الانتباه لما قالته الآية هنا والذي يدل على أنه كلام تشريعي صدر من الإله عزّ وجلّ، فإذا نظرت في تشريعات المشركين ستجد عجباً من الأحكام الفاحشة المنكرة الظالمة، وبأدنى تأمّل ستعلم بأنها تشريعات صدرت عن بشر يميلون إلى غرائزهم وشهواتهم السيئة أكثر بكثير من الميل إلى العقلانية.

بقي شيء عن عموم استهتار الناس بالدين الإلهي، مرّة يقولون إن الدين شأن فردي وليس لحكومة الجميع به، فهو صلاة وصيام ودعاء... ويجب إبعاده عن الحكومة حتى لا يكون حاكماً بتشريعاته علينا، ومرّة يقولون إن الدين معاملة،

ويقصدون أن الدين وحقيقة الاتصاف بالإيمان لا يتحدّد من القيام بالصلاة والصوم وإرخاء اللحية والحجاب... فهذه أمور ثانوية لا أهمية لها، وجوهر الدين معاملة الآخرين بشكل حسن... وإن سألتهم عن المعاملة الحسنة ما هو تفصيل تشريعها؟ تراهم يرفضون أن يكون الدين كاملاً ويحذفون منه ما يخالف هواهم السيئ!

الآية هنا تخطّت الأمور التي بشكل ما سيعتبرها المشرك أموراً دينية على المستوى الفردي، فتخطّت الصلاة والصيام والحجّ... وذكرت ما سيلفت انتباه الجميع لأمور تمسّ حياتنا وتعاملاتنا مع بعض، وكثيرا ما تكرّر هذا الشيء في القرآن حين ألصق التوحيد مع برّ الوالدين، وأقحم الصلاة مع الصدقة أو الزكاة... عارضاً الجانب الذي تراه كشيء ديني فردي "الصلاة كمثال"، وجانباً آخر دينياً "الزكاة كمثال" يمسّ حياة الآخرين.

(وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ{91})
تكملةً لما يأمر به سبحانه وكما ترى أفردت السورة آية لتنظيم العلاقات بيننا بضمانة إلهية.

{وَأَوْفُوا}، ليكن تاماً ولا تخونوا، {بِعَهْدِ اللَّهِ}، بالاتفاق الذي يضمنه إيمانكم المبني على التزامكم بأمر الله تعالى، {إِذَا عَاهَدْتُمْ}، إذا أعلن أحدكم أو كلّكم أو قبلتم أن تحفظوا أو تنفّذوا شيئاً. لأن الأصل في كل الاتفاقات والعهود أن تتفق مع شخص مُفترِضاً التزامه بما اتفقتم عليه، وكونه تعالى أمرنا بالالتزام بالعهود، فعامة أي عهد نبرمه هو عهد الله تعالى، وهو عهد من المفروض ضمان الالتزام به بسبب الأمر الإلهي لنا بالالتزام بالعهود، والاتفاقات بيننا على زواج أو بيع وشراء أو شراكة... كلها نتفق عليها بضمانة أني أنا وأنت نؤمن بعقاب من الله تعالى لمن خان.

{وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ}، لا تخالفوا وتفسخوا الأشياء التي لها قوة، وهنا الكلام عن قسم اليمين، {بَعْدَ تَوْكِيدِهَا}، بعد تأكيدها، فإذا أكّدت بالطريقة المشهورة فقلت: يمين الله عليّ أن أفعل كذا... أو بما يساويها: والله سوف أفعل كذا... ولم تكن مازحاً بل جدياً، فالتزم بما أعلنته ولا تتراجع عمّا أكّدت أنك ستفعله. وكما أن هناك عهداً بدرجات متفاوتة فهناك يمين بدرجات متفاوتة، لنقل إنَّ شخصاً وضع أغراضاً عاديةً في محلّك، وطلب منك حفظها له لمدة قليلة وسيرجع ليأخذها، وقلت له إنك ستنتبه لها بقدر ما تستطيع ولكنك لن تجلس طوال الوقت لحراستها لأنك مشغول... هذا عهد من الدرجة الخفيفة جداً، ولا مسؤولية عليك إذا سرق أحدهم تلك الأغراض، ولكن لو قلت له إنها بعهدتك، بأمانتك، فهنا يرتفع العهد ليصير مؤكداً ويجب عليك الوفاء به. وكذلك اليمين البسيطة الخفيفة التي لا يجب الالتزام بها مثل اليمين على أمور بسيطة التي لا حرام نهائيا في ارتكابها، مثلما تقولين لزوجك: والله لن أتغدّى حتى تأتي. وهذا ليس يميناً مؤكداً تتحاسبين عليه إذا أكلت قبل أن يأتي زوجك. لاحظ أني ضربت لك أمثلة بسيطة سهلة، ولكن هناك أمثلة أخرى خطيرة جداً عن العهد واليمين.

لا تخونوا العهد ولا تنكثوا باليمين، {وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا}، بضمانة إلهية بينكم لالتزامكم بالعهد واليمين توافقتم، لأني إذا عهدت لك بعهد الله تعالى، أو أقسمت لك بالله تعالى، جعلتك تعتقد بأني لن أخالف ما أقوله لأن الله تعالى يضمنه، وأُعلن لك عن إيماني بأنه تعالى سيحاسبني إن لم ألتزم بعهدي أو يميني، والله سبحانه هنا يخبرنا بأنه لا يقبل أن تعاهد أو تقسم باسمه ولا تلتزم.

{إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}، فإن كان عهداً مؤكداً أو يميناً مؤكدةً وخنتم فأنتم تحت المراقبة الإلهية.

أنت تعلم أن الأمانة والصدق موضوع بالغ الأهمية في حياتنا، وصارت الأخلاقيات الضامنة لصدقنا وأمانتنا مستبدلةً بالخوف من عقاب الدولة التي صار فيها تفاصيل لتشريعات لا تزال تمتدّ في تفاصيل تفاصيل كل أشكال تعاملات الناس مع بعضهم لتضمن حقوق الناس من الخيانة والكذب والاعتداء... والعاملون في هذا المجال يعلمون أن الخوف من عقاب الدولة لن يمنع النافذين والأقوياء من مخالفة القانون لأنهم ضامنون لنجاتهم من العقاب، ولن يمنع الذين يجدون طريقة للنجاة من العقاب... لذلك هناك حاجة لرادع قوي ذاتي يمنع الناس من مخالفة القانون... والكلام القرآني يركّز على عقاب الآخرة الشديد جداً جداً لمن خالف أوامره تعالى، كرادع تنبيهي شديد اللهجة لمن يفعل السوء.

قرأتُ دراساتٍ تختصر أهم الصفات التي يجب أن يتحلّى بها الناس لبناء مجتمع مرفّهٍ اقتصادياً واجتماعياً، وقالوا إنها النزاهة والصدق، لأنهما عاملان رئيسيان لتطور كل شؤون حياتنا نحو الأحسن، وكما ترى الآية هنا تؤكد على ما يساعدنا لتكون حياتنا أسهل وأفضل في كل علاقتنا مع بعض اجتماعياً واقتصادياً...

(وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ{92})

{وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا}، ما غزلته، وما فتلته من صوف وصار خيطاً قويّاً ونقضته وفسخت رباطه، {مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا}، تشتّتَ ولم يعد فيه قوّة الغزل، حيث فكّكت وفرّقت ما غزلته بالمغزل أو البلبل، وكم هو غريب مشهد امرأة قامت بغزل الصوف حتى صار خيطاناً قويّةً، ثم قامت بفكّ تلك الخيطان! حيث غزلتها بالعكس وعادت الخيطان قطناً منكوثاً غير مترابط ولا قوّة فيه! هل هذا تصرّف معقول ومقبول!؟ وهكذا نقض العهد واليمين بالله تعالى، فهو تفكيك لشيء له قوّة، وليس تصرفاً معقولاً مقبولاً أبداً ولا تحت أي ذريعة.

{تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ}، تَجْعَلُونَ ما أكدتموه بقوّة، {دَخَلًا بَيْنَكُمْ}، شيئاً داخليّاً بينكم، شيئاً خاصّاً بينكم، على أساس، {أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ}، مجموعة من الناس لها امتداد تاريخي وتشترك في شيء مختلف عن مجموعة أخرى، {هِيَ أَرْبَى}، حيث فيها شيء زيادة، فهي أفضل ومتميّزة عن أمة أخرى، يعني: تعاهدون وتقسمون اليمين، ولكن لا تلتزمون بهما إلا فيما بين أمّتكم، على أساس أن أمتكم أربى فهي متميّزة وهي أفضل من الأمم الأخرى، فلا تجدون أنفسكم ملزمين بالوفاء مع الأمم الأخرى، فالكافر لا يجد نفسه ملزماً بالوفاء مع متدين أو مع كافر من ملّة أخرى، والمسلم لا يجد نفسه ملزماً بالوفاء مع الكافر أو اليهودي أو المسيحي... وكذلك اليهودي لا يجد نفسه ملزماً بالوفاء مع بقيّة الأمم... فكل واحد من الأمم يرى أن بقيّة الأمم أقل منه لأنها تفقد ما يُوصَف به هو، فهو أربى منها ولا قيمة للعهد أو اليمين مع الأمم الأخرى! لا فهذا ممنوع.

كما ترى فإنّ العهد واليمين بالله تعالى لا معنى له أن يكون الالتزام به حصريّاً بين جماعتك ونقضه مع الجماعات الأخرى حيث أكّدت للآخرين كلامك بالله تعالى، فصار واجباً عليك الالتزام لأن الطرف الآخر وثق بك بضمانة إلهية على كلامك، إذ وثق بك بضمانة احترامك لله تعالى.

{إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ}، يصيبكم سبحانه بما يمكن أن يغيّركم، ويختبركم ويمتحنكم سبحانه بهذا الشيء، حيث ترككم على هواكم فتفرقتم أمماً مختلفة، ولم يجبركم غصباً عنكم أن تكونوا أمّة واحدة، وهكذا صار اختلافكم أمماً بلوى لكم، فهل سينتج عن تفرقكم ترككم التزامكم بالعهد واليمين؟ ومن لم يلتزم فقد سقط في الاختبار.

{وَلَيُبَيِّنَنَّ}، سوف يوضّح لكم، في {يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، في الزمن الذي تقومون فيه من الموت في الآخرة، وسيوضّح سبحانه لكم، {مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}، حيث صرتم أمماً مختلفة وسيبيّن سبحانه لكم هناك في الآخرة من هي الأمّة التي كان معها حق في هذا الجانب، وأخطأت في ذاك الجانب، وتلك الأمة مثلها... سبحانه أخبر كل الناس من أولهم لآخرهم أنه يريدهم أمّة واحدة على صراط واحد، ولكنّ الناس قاموا باختراع الأديان والطوائف والمذاهب، وسوف يحاسبهم تعالى على هذا الاختلاف.

كلام القرآن عن تبيان الاختلاف "الخلاف" لا يعني أن أمّتك "مذهبك**،** طائفتك**،** حزبك..." على حق، بل أمّة المؤمنين الصالحين الممتدة عبر التاريخ من ثلة من الأولين وقليل من الآخرين هي الأمّة التي على الحقّ.

بعبارة أبسط، الآية تلفت انتباه جميع أنواع الناس، من متديّن أو مشرك إلى ضرورة الالتزام بالعهد الإلهي واليمين الإلهي، فهذا شيء له علاقة بالله تعالى ولا علاقة له باختلافاتكم.

نلاحظ أنّ كلمة "{دَخَلًا}" وردت مرّتين في القرآن وفي هذه السورة فقط، وكل اشتقاقات "دخل" كان معناها واضحاً واحداً: وصول شيء مادي إلى حيّز شيء، أو اندماج معنوي في شيء. ومعنى جملة "{دَخَلًا بَيْنَكُمْ}" يكون بتعبيرنا الحالي: شأناً داخليّاً خاصّاً بكل أمّة. وفسّروه بالخيانة ولكن هذا ليس معنى الكلمة بل هو ما ينتج عن اعتبار العهد واليمين شأناً داخليّاً، حيث تلتزم بالعهد واليمين فقط مع المسلمين من مذهبك وطائفتك، وتخون العهد واليمين مع الآخرين من غير مذهبك وطائفتك ودينك.

نعيد تصوّر المثال، حيث من المشهور تاريخيّاً أنّ عمل النسيج اليدوي كان عملاً نسائيّاً، والهدف منه صنع الخيطان لحياكتها قماشاً فيما بعد، فما معنى فتل القطن بالمغزل ليصير خيطاً متيناً وبعد ذلك إعادة فتله بالعكس ليتفكّك ترابطه؟

وهكذا العهد واليمين، حيث إنّهما شيء مؤكّد متين، فما معنى التفلّت منه واعتباره بلا قيمة؟ وفي جوهر ذلك الاستهانة به تعالى الضامن للعهد واليمين، فالطرف الآخر صدّقك بسبب تأكيدك لكلامك به تعالى.

أخذت الآية سبباً من الأسباب التي يبرّر فيها الناس نقضهم للعهد واليمين وركّزت عليه، كنموذج فاقع عن أبرز تبرير متعارض مع أوامره تعالى ولا معنى له، لأنّنا نحن الناس بحاجة لتصديق بعضنا بعضاً، إذ كلنا بحاجة للوثوق بالآخرين وإلّا لتوقّفت التعاملات بيننا وعطّلناها لأننا لا نضمن التزام الآخرين بما يقولونه، وهذا دمار وفساد لحياتنا الاجتماعية بكل جوانبها، فأي معاملة بين اثنين، أو أكثر، من زواج أو عمل أو إجارة أو نقل أغراض... أو اتفاقية تجارية أو شراكة أو تعاون... فهي بجوهرها تعتمد على خلفية اعتماد الطرفين على صدق ونزاهة الطرف الآخر في التزاماته.

ها ترى في الآية تبرير بعض الناس لنقضهم العهد واليمين أنهم أجروه مع شخص من أمّة مختلفة عن أمّتهم! كمشرك مع مؤمن، أو مسلم مع مسيحي، أو يهودي مع مسلم... لذا لا يجد نفسه مضطرّاً للالتزام! علماً أنّ أصل الضمانة لصدقه والتزامه من الله تعالى! حيث إنّ الطرف الآخر وبناء على ضمانة إلهية صدّقك! فهل تكذب وتخون لتفسخ ضمانة من الله تعالى! وعندها ما معنى إيمانك به تعالى! وأي احترام له تعالى!

لمزيد من التفاصيل راجع دراسة الآية 75 من سورة آل عمران إذ تعتمد على نفس المفهوم القرآني المذكور في الآية هنا {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}.

بقي شيء، حيث إنّ هناك روايات وتفاسير مسخت الآية لتجعلها تشير إلى امرأة محدّدة يعرفها الناس في عهد نزول هذه الآيات وكانت تغزل وتنكث... مركّزين على ذلك تاركين عمق المثال ومعناه، علماً أنّ الآية لا تقصد امرأة محدّدة، ولا معنى لقصدها ذلك، إذ هو مجرد مثالٍ للفت الانتباه، وليكن هذا نموذجاً لك عن بعض الروايات المفسّرة للقرآن والتي يقدّسها الناس فلا يدرسون القرآن بل يأخذون بالروايات على عماها...

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{93})
{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ}، أمامه تعالى خيارات عديدة ولو قرّر، {لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً}، لكان أجبركم غصباً عنكم أن تكونوا كلكم مشتركين على رأي واحد في كل شيء على امتداد تاريخكم، ويتلاعب بعقولكم ويبرمجها لتكون كالآلات... أو تشعرون بالألم عند أي كلام أو تصرّف سيّئ، أو... {وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ}، أمامه تعالى خيارات عديدة وأخبرنا سبحانه أنه سيترك الإنسان الذي قرّر أن يضلّ فلن يمنعه، وهو سبحانه {يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}، حيث يضع على الأشياء الصحيحة الموصلة للغاية الصحيحة من يشاء من خيارات عديدة أمامه سبحانه، وأخبرنا سبحانه أنه سيهدي الذي قلبه سليم.

{وَلَتُسْأَلُنَّ}، لسوف يتم التعبير لكم عن إرادة الحصول على جواب منكم، والكلام هنا عن سؤال موجَّه لهم في يوم الآخرة، {لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا}، عن الذي، {كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، فكل عمل قمتم به سوف نسألكم عنه، لماذا فعلت كذا وهو سيِّئ فاسد؟ لماذا تركت فعل كذا وهو حسن صالح؟ فستتحاسبون.

دائماً القرآن لا يترك لك مجالاً لتظن أن الناس لديها قدرة فوق قدرته تعالى، فهذا موضوع حسّاس جدّاً، وتجد الكثير من الآيات التي تبيّن أن ما يفعله الناس من سيئات أو حسنات ليس فوق القدرة الإلهية، بل هو سبحانه منحهم هذه الإرادة، ولو شاء أن يجبرهم على الإيمان فالطرق أمامه سبحانه كثيرة لذلك، إذ يمكنه تعالى أن يبرمجهم كالآلات فلا يعصونه أبداً ويكونون كلّهم أمّة مؤمنة واحدة، ولكن بهذه الطريقة أو بأي طريقة أخرى لن يبقى للحساب والمجازاة أي معنى! فما معنى المساءلة "للحساب" إن أجبرنا سبحانه غصباً عنّا على الإيمان أو على الكفر وصرنا كالآلات! فكيف سيجازيني بجنّة خالدة أتنعّم بها وأنا كنت مبرمجاً على الصلاة والصوم...!

يعني، أنتم أمم متفرقة، وهذا لا يجيز لكم تفلّتكم ونقضكم للعهد واليمين، حيث صرتم أمماً متفرقة وسبحانه غير راضٍ عن هذا الاختلاف العقائدي والتشريعي والسلوكي البعيد عن الحقّ، ولكن هل كان سبحانه يريد جعلكم أمّة واحدة وأنتم لديكم قوّة تفوق قدرته تعالى فاختلفتم ولا يمكنه سبحانه جعلكم متفقين؟ لا، فلو شاء تعالى لجعلكم غصباً عنكم أمّة واحدة، ولكنكم أنتم صرتم أمماً مختلفة، فلا تجعلوا الالتزام بالأيمان والعهد دَخَلاً كشيء داخلي خاص بينكم.

(وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ الْسُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{94})

{وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ}، لا تجعلوا الشيء الذي تعبّرون عنه بقوّة، قسمكم عهدكم إيلاءكم... أي شكل قوي كتأكيد قوي بالله تعالى، {دَخَلًا بَيْنَكُمْ}، شيئاً داخليّاً خاصّاً بكم حيث تلتزمون باليمين فقط مع الأشخاص الذين من ملّتكم أو من بلدكم أو من مدينتكم أو من مذهبكم أو من عائلتكم... {فَتَزِلَّ}، فلا تثبت وتتحرّك من مكانها، {قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا}، الثبات هو أن يعتبر الجميع اليمين "الكلام المؤكّد بقوّة" شيئاً نلتزم به، فنقف كلنا ونكون ثابتين على أقدامنا "معنويّاً" على قاعدة الالتزام باليمين، وعند جعل اليمين ملزماً لي فقط مع الذين أتفق معهم في العقيدة أو لأنهم من مذهبي أو من عائلتي... هذا يشبه تزلزل الأقدام وفقدانها لاستقرارها، فلا نستطيع الوقوف على أقدامنا، والبداية مع الآخرين فلا ثبات منكم لهم لاحترامه تعالى، ولا ثبات لإيمانكم به تعالى، ولا ثبات لاحترامكم لكلامكم ولا لوثوقكم ببعضكم ولا لمعاملاتكم مع بعضكم...

بعبارة أخرى، إن شاع بين الأمم أن كل أمة من الناس لن تلتزم مع أمّة أخرى بأي يمين، فكيف ستثبت الأشياء وعلى أي أساس ستتمكّن الناس من التعامل مع بعضها البعض؟ في عصرنا الحالي نعتمد على الوثائق المكتوبة حتى لا يتلاعب الناس بالتعاملات بينهم، فنشتري ونبيع بضمانة الشيكات ووثائق البيع والاتفاقات، وبضمانة الدولة التي تسجّل الاتفاقات "كاتب عدل أو محامٍ..." أو بضمانة اتفاقات العلاقات الدولية إذا كان التعامل بين جهات من دول مختلفة... ونسمع ونرى كثيراً من الخيانة من الناس، حيث تتفق مع أحدهم على شيء ولكنه لا يلتزم! وتشتري وتدفع مالك ولا يعطونك البضاعة... وهذا الشيء يشعر بخطورته الشديدة كل من تعامل مع الآخرين وخانوه، سواء تعامل معهم بالتجارة أو الإجارة أو الشراكة... وهنا الآيات تبيّن لنا خطورة ركاكة الالتزام بالعهد واليمين على تعاملاتنا هنا في الدنيا، {فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا}، فلا يعد هناك أساس للتعاملات بين البشر، والكل لا يأمن على البيع والشراء، ولا الزواج ولا الإجارة... وتنبّه الآية على الحساب على هذا في الآخرة.

{وَتَذُوقُوا السُّوءَ}، تتحسّسون الأشياء السيّئة الناتجة عن جعل اليمين خاصّاً بأمتكم، حيث إنّ بقية الأمم سوف تردّ عليكم بالخيانة مع أفراد أمتكم، أو ستقطع تعاملها معكم، وفيما بعد حين تصير الخيانة عندكم فلن تستطيعوا التعامل أنتم مع بعضكم، {بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، بسبب منعكم أنفسكم والآخرين من اتباع المسلك الإلهي، وبخيانتكم لليمين والعهد جعلتم بقيّة الناس يخونون اليمين التي يقولونها لكم، إذ تصيرون سبباً في جعل بقيّة الناس خونة، وتكونون منعتموهم من المشي على المسلك الإلهي السليم. ومع هذا عقابٌ إلهيٌّ دنيويٌّ يصيب الجميع إن شاعت الخيانة بين الناس كما حصل مع قوم مدين الغشاشين في التجارة.

{وَلَكُمْ} "في الآخرة أو الدنيا" {عَذَابٌ أَلِيمٌ}، ضرر يصيبكم لا يمكن تحمّله ولا الاعتياد عليه لأنكم خنتم وجعلتم الآخرين يخونون.

الآية هنا وما قبل السابقة "92" مع ما تقرأه في الآية 75 من سورة آل عمران، ترى الفرق بين ظاهر ما يقوله القرآن بوضوح مقارنة مع ما يقوله البعض في كتب الفقه عن جواز خيانة المسلم للأمم الأخرى {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}.

بقي شيء، إذ إنّ العذاب منه تعالى على سيئة ما، لا يختلف من تعذيب يحصل هنا في الدنيا أو في الآخرة، وحتماً هناك عذاب في الآخرة لبعض الناس، ويحصل لهم عذاب في الدنيا قبل الآخرة، ولذلك ترى العديد من الآيات لا تميّز بين العذابين على أساس أن كليهما عذاب مع اختلاف التوقيت، وهنا في الآية وكما ترى هي نموذج واضح عن سياق الكلام الذي لم يهتم بتوقيت العذاب إن كان سيحصل في الدنيا أو الآخرة، إذ إنّ التركيز فيها على العقاب الإلهي على سيّئة نقض العهد واليمين.

أطلت عليك الكلام لتجعله في بالك دائماً لأنك في مختلف التفاسير وغالبيتها ترى تركيزاً منهم على تحديد توقيت العذاب إن ورد ذكره في آية ما، ويختلفون في تحديد التوقيت الذي تشير له الآيات، وصرت تعلم أن تلك الآيات المشابهة في كلامها لآيتنا هنا، في سياق كلامها لا يهمّها التوقيت، إذ لا فرق بين عذاب سيحصل هنا في الدنيا ويكون موصولاً

بعذاب سيحصل في الآخرة، وبين عذاب سيحصل في الآخرة فقط، وبناء عليه لذا لا معنى للتفاسير المختلفة المتخالفة على تحديد توقيت العذاب في الآيات المشابهة لآيتنا هنا، لأن الآية دمجت العذابين معاً.

(وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{95})
{وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا}، أنتم لديكم العهد الإلهي وهو إعلانكم الالتزام بشيء ما بضمانة إيمانكم، أو بضمانة ذكركم لله تعالى عليه، مثلما تقولون، والله كذا... عهد الله كذا... وهذا شيء له قيمة عالية، فلا تبيعوه وتشتروا شيئا آخر ثمنه أقل، لأن أي شيء ستحصلون عليه من الخيانة لن تكون قيمته مساوية لقيمة العهد الإلهي، حتى لو حصلتم على مليارات من المال، فقيمتها لا تساوي قيمة الوفاء بالعهد الإلهي، {إِنَّمَا}، إن ما، إن الذي، {عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}، إن الذي عنده تعالى موصوف بأنه جيد لكم، {إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، إن وصلكم علم بما يحصل عليه الأمين للعهد في الآخرة، فستعلمون الفرق الشاسع بين ما تحصلون عليه هنا من الخيانة، وبين ما ستحصلون عليه في الآخرة من الوفاء. حتى لو حصلتم هنا في الدنيا على القصور والمليارات من الخيانة... فكلها بلا قيمة وزائلة ومتاع أمام الثواب في جنّة خالدة في الآخرة.

نتذكّر دائما أن كل الكلام هنا عن اليمين والعهد الإلهي، موجّه لكل الناس، للمشرك وللمتديّن.

بالنسبة لكلمة {خَيْر} في استعمال القرآن كثيرا ما نستنسب تفسيرها على معنى أفضل، وأحيانا يصدق هذا المعنى بالتبعية من فحوى الكلام، ولكن بعض الاستعمالات القرآنية لنفس الصياغة تريك أنه لم يقصد بكلمة {خَيْر} أن تكون رديفا لكلمة أفضل، كمثال واضح عن ذلك ما ورد في الآية 16 من سورة العنكبوت {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، فمرادفتها بأفضل في أمثال هذه الآية سيعطيك معانيَ غير دقيقة بل وغير مقبولة إلا إذا حملت معنى الأفضل على عموم المقابلة بين الأسوأ والأحسن، ولكن هذا ليس معناها بل هذا معنى كلمة {خَيْر}، وكلمة أفضل في أشعار العرب قبل الإسلام محصورة بين الحسن والأحسن، فلو قلت إن الإيمان أفضل لكم فهذا يعني أن الكفر حسن والإيمان أحسن، لا، لأن الإيمان {خَيْرٌ لَكُمْ} مما يعني ضمنا أن الكفر سوء لكم.

لم يستعمل القرآن كلمة أفضل بتاتا، واستعمل التعبير بالخير وهو أوسع بالمعنى، فهو يقابل الشرّ كما في الآية 11 من سورة النور {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}، واستعملها بمعنى ما يقابل الحسن حيث الآخر أحسن وليس شرا، كما ورد في الآية 271 من سورة البقرة {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}، لأن إبداء الصدقة ليس سُوءًا وإنما إخفاؤها أحسن، وهنا يمكن استعمال كلمة أفضل.

يعني لا ترادف {خَيْر} بـ أفضل، لأنهما في بعض سياق الكلام يتقاطعان تطبيقيا حيث يكون اللذان تقارن بينهما كلاهما جَيّدَيْنِ، فعندها يصدق قول {خَيْر} أو أفضل، ولكن حين يكون الكلام عموميا يشمل ما كلاهما جيدان ويشمل أيضا ما أحدهما جيد والآخر سَيِّئٌ، ويشمل الوصف مطلقا بمقارنة الحسن مع مطلق الوصف بالحسن، حتى لو لم يكن هناك طرف آخر للمقارنة والمقارنة مع مطلق الوصف، كوصفه تعالى بـ {خَيْرِ الرَّازِقِينَ} و{خَيْرِ الْحَاكِمِينَ}... فهو تعالى بالمقارنة مع وصف الحسن مطلقا كرازق وحاكم، هو {خَيْرُ} موصوف بذلك، لذا كلمة أفضل ليست وصفا صحيحا لهذه الحالات وكلمة {خَيْر} صحيحة.

(مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{96})
تكملة لتوضيح الثمن القليل الناتج عن الخيانة: {مَا عِنْدَكُمْ}، من مال وبيوت وذهب وفضّة وسيارات وشركات...
{يَنْفَدُ}، تستهلكونه وينتهي ولا يدوم، {وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ}، لا ينفد ولا ينتهي، فما ستنالونه من الخيانة لا قيمة له بتاتًا بالقياس مع ما وعدكم به سبحانه من جنّات خالدة.

{وَلَنَجْزِيَنَّ}، وبالتأكيد سوف نعطي في المقابل، {الَّذِينَ صَبَرُوا}، الذين بقوا يتصرفون بشكل واعٍ ومدروس وبقوا على الوفاء باليمين والعهد، وتحمّلوا ولم يغرّهم ما سيحصلون عليه من الخيانة من مكاسب، ولم يخونوا، سوف نعطيهم {أَجْرَهُمْ}، أَجْرَهُمْ، الشيء "الحسنات الثواب القصور البساتين..." الذي حددناه سلفًا لنعطيه لمن صبر، {بِأَحْسَنِ مَا

كَانُوا يَعْمَلُونَ}، كما نقول: ما أحسن عملك. ولا نقصد الإشارة إلى حسن هذا العمل بالقياس إلى أعمالك السابقة، بل نقصد قياس حسن العمل مطلقًا، ولا تشير الآية إلى الحسن والأحسن، بل تشير مباشرة إلى الأحسن ويقابله الأسوأ، وهم بشكل عام قاموا بأعمال عديدة، وتلك الأعمال يوصف بعضها بأنه حسن، والآخر بأنه سيِّئٌ، وأجرهم لن يكون على كلّ أعمالهم، حيث فيها أعمال سيِّئَةٌ، بل سينالون الأجر على أحسن أعمالهم، وتعلم من القرآن أن أعمالهم السيئة التي تابوا منها سيتم غفرانها، وهذا موضوع آخر فصّلت فيه آيات أخرى وهنا لم تتوسّع السورة فيه حتى يبقى التركيز على الفرق بين ما عنده تعالى وبين ما نحصل عليه هنا من الخيانة.

كما ترى، من المفروض اعتبار البيع والشراء والعقود التجارية والأمانة... أشياء عادية، ولكن الآية هنا قالت إنّ "الصبر" على الالتزام بالمعاملات على الوجه الصحيح، عليه أجر، وتجد عامّة الآيات في القرآن تتحدّث عن أجر عن أي عمل نقوم به بشكل صحيح، وكما على الخيانة عقاب، فعلى الأمانة والوفاء والالتزام بالاتفاقات... أجر، والآية التالية ستطرح المفهوم العام للعمل الصالح.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{97})
قاعدة عامّة عن الجزاء: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا}، من قام بعمل جيد حسن، {مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى}، {وَهُوَ مُؤْمِنٌ}، وسياق الكلام بالبداهة يشير لمن يعتقد بالله تعالى إلها واحدا، وبرسله وكتبه وآخرته... وهذا شرط أساسي منتشر في كل القرآن كشرط أساسي للحصول على الثواب في الآخرة، لأن الكافر والمشرك والفاسق والمنافق تحبط أعمالهم ولا ينالون أي ثواب على أعمالهم الحسنة، وهذا كلام عام لكل الحالات، والكلام هنا في سياقه القريب عن الوفاء بالعهد واليمين، حتى لو التزم الكافر أو المنافق أو الفاسق بعهده ويمينه لا قيمة لعمله إن لم يكن مؤمنا. فرضا هو مشرك، لأن الشرك يجعل كل الأعمال الحسنة بلا قيمة ولا يعطيه تعالى ثوابا عليها، أو فرضا هو موحّد ولكن لا يؤمن بالآخرة لأنه لم يؤمن بكتبه تعالى التي تتحدّث عن الآخرة، وبالتالي لم يجعل من كلامه تعالى قاعدة لعقيدته وشريعته وسلوكياته، وهذا أيضا تحبط أعماله، لذا لا نفع من الإيمان ببعض دينه تعالى والكفر ببعضه الآخر.

المؤمن العامل للصالحات، {فَلَنُحْيِيَنَّهُ}، سوف نجعله واعيا يفعل وينفعل، لِيَحْيَا ويعيش، {حَيَاةً طَيِّبَةً}، لا رداءة ولا شيء سيِّئٌ فيها، ونعرف أنها جنّة الآخرة حيث لا مرض ولا خوف ولا قلق... ولا تنتهي ولا تبلى الأشياء الرائعة التي هناك.

{وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ}، سوف نعطيهم مقابلا على عملهم الصالح، {بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، كما نقول: ما أحسن عملك. ولا نقصد الإشارة إلى حسن هذا العمل بالقياس إلى أعمالك السابقة، بل نقصد قياس حسن العمل مطلقا، لأن كل الحسن من هذه النوعية هو الأحسن ويقابله الأسوأ.

أعيد عليك ما ذكرته في الآية السابقة بعبارة أخرى، حيث إنّ البعض يقولون إنّ المؤمن يقوم بأعمال حسنة مختلفة في قيمتها، وبعضها أحسن من بعض، وهذا صحيح على مقياس ما، لأن نيّة القربى منه تعالى تكون أقوى أو أخفّ... والتصدّق على الفقراء قد يكون من أكثر ما يحبّ أو من الأقل منه... لذلك قالوا إنّه تعالى سيحسب للمؤمن كل حسناته على الأحسن، حيث إنّ الأجر على الحسنة ذات القيمة المنخفضة يتم تحويله إلى أجر أعلى مُسَاوٍ لأجر على عمل أحسن قام به... هذا ما قالوه، ولا يبدو من القرآن دَعْمٌ مباشر لهذا الكلام، إلّا اللهم مضاعفة الثواب ومحو السيئات، وهذا عمليا رفع لمستوى كل الحسنات التي قام بها المؤمن وليس فقط لذات القيمة المنخفضة منها، حتى أعماله الممتازة تتضاعف قيمتها... ولكن المجازاة بـ {أَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، كجملة لوحدها، تجعل كل الأعمال الحسنة المرتفعة القيمة أو المنخفضة القيمة، تجعلها موصوفة مع بعضها بالأحسن في مقابل الأسوأ، لأن مجموع ما عمله المؤمن من أعمال موصوفة بأنها أحسن من أعمال أخرى سيئة، وسيجزيه تعالى عليها الثواب الحسن.

ننتبه لتأكيد القرآن بانتفاء الفرق بين الأجر على العمل الصالح الذي تقوم به أنثى مؤمنة، وبين ما يحصل عليه ذكر مؤمن، لأن الميزان عنده سبحانه هو الإيمان والعمل الصالح، ولا قيمة لكون العامل المؤمن: ذكراً أو أنثى، كبيراً أو صغيراً، أسودَ أو أبيضَ، هاشميًّا أو هنديًّا أو صينيًّا أو أوروبيًّا... وكلّه لا تأثير له على الثواب، لا بالزيادة ولا بالنقصان. نعم، ننتبه إلى أنّ موقع الشخص يؤثّر حتما على عقابه وثوابه، فأبو لهب بما أنه عمّ النبي محمد(ع)، وكان

يمشي خلفه ويقول للناس: هذا ابن أخي وهو كذّاب وليس رسولاً... لو سمعته لقلت: عمّه أعرف الناس به، إذن محمد كذّاب حتما! ولذلك نال أبو لهب عقابا شديدا لم نعرف أحدا قبله أو بعده نال مثله، لأنه حين كان حيا واقفا على رجليه، سمّاه القرآن باسمه وقال له إنك ستدخل النار حتما كما ورد في سورة المسد.

تتذكّر ما ورد في الآية 56 وما بعدها عن تقليل المشركين لقيمة البنت لدرجة قتلها... لذا قارنه هنا مع شمله تعالى للذكر والأنثى بالقيمة عنده على التساوي في الإيمان.

بقي شيء تلاحظه منتشرًا في القرآن حين يتحدّث عن العاملين للصالحات، إذ عادة نفسّر هذا الكلام على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إنهم صلّوا وصاموا... وهذا عمليا صحيح، ولكن بالأصل، الكلام هو أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة، حيث خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، وعمليا هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى. وبشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموما وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، حتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائما أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به.

هذا الكلام له عمق، إذ لا توجد حالة نقول فيها: لست مقتنعا ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. وهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّا لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلا سيّئ" سيكون في الحقيقة اختراعاً من البشر ألصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمرا إلهيا.

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ{98})
السور القرآنية طرحت أشياء تبيّن لنا الخط الإلهي، وتصحّح لمن ضلّ عن الطريق، ولكن أثناء قراءتنا لها يحصل لنا خلل!:

{فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ}، اطلب منه تعالى أن يمنعك من فعل السوء على معنى أن يحميك، {مِنَ الشَّيْطَانِ}، من الموصوف بأنه يفعل السوء ويعمل على إضلال الآخرين، {الرَّجِيمِ}، المرجوم، حيث طردته الملائكة(ع) من السماء العالية بالرجم برميه بالشهب. وهو إبليس الذي أطلق عليه سبحانه صفة الشيطان التي يتشارك فيها مع أي كائن يعمل السوء ويعمل على إضلال الآخرين، وخصّص سبحانه إبليس بصفة الرجيم، كما ورد في الآية 34 من سورة الحجر {قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ}.

ضع في بالك أن كلمة قرآن صفة لأي شيء يمكننا قراءته، وصارت اسمًا خاصًا للوحي الذي نزل على النبي محمد(ع)، حيث تحوّلت المعلومات التي كانت في الكتاب الرئيسي إلى معلومات باللغة العربية، وصار بإمكاننا نحن البشر قراءتها، فهي قرآن، وعلى هذا فالسورة الواحدة قرآن وكل الكتاب قرآن، والآية قرآن...

إذا قرأت القرآن لن يقوم الشيطان بتغيير الكلمات، بل سيقوم بالوسوسة في عقلك بأن ما تقرؤه غير صحيح، أو يجعلك تفسّره بغير معناه حتى يصير معناه مناسبًا لهواك السيّئ... ولذلك انتبه واطلب منه تعالى الحماية من هذا الخبيث، واطلبها قبل أن تقرأ وأثناء القراءة، بأن تقول أي جملة تفيد الاستعاذة: أعوذ بالله، أعوذ بالله من الشيطان، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... ولكن الكلام لوحده يبقى مجرّد كلام، ولن تحصل على الملجأ إن لم ينتبه ذهنك وشعورك من الكلام، ومجرّد أن تستحضر في ذهنك الاستعاذة فهذا كافٍ لطلبك لها من دون أن تقول أي شيء بلسانك.

ننتبه، فالآية تتحدّث معنا جميعًا، حيث سبحانه يعلم أن هذا القرآن كله صحيح، وأما نحن فنؤمن بذلك لأننا نجد قسمًا كبيرًا من القرآن واضحًا وسهلًا للفهم وليس فيه أي التباس، حيث فيه البراهين عن التوحيد والبعث... وتبرير التشريعات التي كلها حسنة... فهي واضحة الدلالة على أن إلهًا أنزلها، وهناك آيات تتحدّث عن أشياء غريبة جدًا علينا، كحديث النبي سليمان(ع) مع نملة وهدهد، وهنا السورة تتحدث عن المشركين، حيث إذا قرؤوا القرآن سيتدخّل إبليس ويوسوس في عقولهم، ويجعلهم يرفضون الأمور الواضحة التي تبيّنها السورة، فهؤلاء لن يطلبوا منه تعالى أن يحميهم

من الشيطان، أما المؤمنون وعلى رأسهم النبي محمد(ع) كنموذج فسيطلبون منه تعالى أن يهديهم للحق، وبالتالي سيطلبون أن تتم حمايتهم من الوسوسة الشيطانية، ولذلك نبّهت الآية أي شخص يقرأ القرآن من الوسوسة الشيطانية التي تجعله لا يقتنع ببعض ما يقوله القرآن.

أمّا بالنسبة لما يحصل أثناء نزول القرآن من السماء على النبي محمد(ع)، فالحماية من الشياطين حتى لا يتلاعبوا بالوحي، تكفّل بها سبحانه وتعالى، وتكررت الإشارة لذلك مرارًا في القرآن، وكمثال عن ذلك راجع دراسة الآية 27 وما بعدها من سورة الجنّ {إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا}، لذا لا داعي في هذه المرحلة أن يقوم النبي (ع) بالاستعاذة، لأن لدينا ضمانة إلهية بوصول الوحي تمامًا كما أراد تعالى، ومن الواضح حديث الآية هنا عن مطلق أي إنسان يقرأ ما صار بين أيدينا من وحي، لأن الشيطان سيحاول جعله يرفض ما يقرؤه لينكره أو يكفر به، وسيحاول جعله يفسّر ما يقرؤه بطريقة سيئة...

(إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{99})
يمكنك التخلص من وسوسة الشيطان إذا طلبت الاستعاذة من الله تعالى لأنه: {إِنَّهُ}، الشيطان، {لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ}، ليس لديه قوّة قاهرة وإرادة غالبة، {عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا}، على الذين اعتقدوا بهذا الدين، وفي نفس الوقت، {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}، يعتمدون على المسؤول عنهم من مستوى إلهي أنه يفعل وسيفعل ما هو مناسب، فإذا اعتمدوا على ربّهم سبحانه فلن يكون للشيطان سيطرة عليهم.

التوكّل عليه سبحانه بدايته أن تقول بينك وبين نفسك إنك معتمد عليه تعالى ليحميك من الشيطان، ولكن لتتعرّف على هذا الشعور الذي لن نفهمه حتى نعيشه، لِنُقَارِنْهُ مع توكّلك على شخص ثري جدا وعدك بالمساعدة المالية متى تشاء وبالقدر الذي تريد، فإذا آمنت فعلا بصدق وعده، فستشعر بالاطمئنان، وستتصرّف على راحتك بلا هموم مالية... ومثله الشعور بالاطمئنان المالي من معاش يصلك كل آخر شهر من الدولة الغنية... وهذا توكّل حقيقي، وطالما لم نشعر بمثل هذا مع ربنا سبحانه، فنحن لم نصل إلى درجة التوكّل الحقيقيّة، نَتَوَكَّلُ عليه سبحانه بدرجة خفيفة، وأخف، حتى نصل إلى آخر شعرة دقيقة من التوكّل، وهي آخر شعرة من درجات الإيمان، وبعدها نصير منقادين لوسوسة الشيطان.

ننتبه جيدا، حيث طالما وقع المفسرون في كلمة {آمَنُوا} وحاروا فيها، فإن كانت تقصد وصفه تعالى للأشخاص بالإيمان، فهذا يعني أنهم أشخاص جيّدون حتما، ولكن هذا يتعارض مع عدّة آيات توجّه انتقادات حادة وتهديدات للذين آمنوا! كمثال عن ذلك الآية 278 من سورة البقرة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، والآية 102 من سورة آل عمران {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}، وغيرها الكثير وخصوصا الآية 11 من سورة الحجرات {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ}...

أمّا في دراستنا هنا ففهمنا أنه سبحانه يقصد كل من أعلن أنه يعتقد بهذا الدين، لذا سيخاطبه سبحانه: أيها المؤمن، الذين آمنوا، المؤمنون... وهذا يعني: يا أيها الذي أعلن أنه معتقد وملتزم بهذا الدين.

هنا كما ترى، إبليس ليس له سلطان على الشخص الذي يتحقق فيه شرطان: الإيمان والتوكّل. قد يعلن أنه يعتقد بهذا الدين ولكن ليس لديه توكّل وليس معتمدا على ربّه سبحانه، حيث ربما لديه اعتزازٌ بنفسه بأن الشيطان لن يقدر عليه، وربما يعتمد على الأولياء الصالحين لحمايته، وربما لا يلعن إبليس حتى يتركه بحاله... وربما لديه ميول لما يوسوس به الشيطان، ويكون متعلقا بسوء ما، ولا يتوكّل على الله تعالى لأنه لا يريد ترك ذلك السوء... كل هذه النماذج تنطبق على {الَّذِينَ آمَنُوا} ولكن لا تنطبق على {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}.

ضع في بالك أن وصف القرآن لبعض الناس بـ {الَّذِينَ آمَنُوا}، وأشباهها من التعابير، تفهمه بوضوح من الآية 9 من سورة الحجرات {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا}... لأن الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بدينه تعالى يخاطبهم سبحانه بوصفهم بالإيمان لأنه من المفروض أن يكون وصفهم بالإيمان سببا لالتزامهم بكلامه تعالى، فإذا لسبب أو لآخر اقتتلوا، فعلى أي أساس ستصلح بينهم إن لم يكن هناك قاعدة مشتركة بينهم ليرجعوا إليها ليقبلوا بحكمها؟ وهكذا يخاطبهم القرآن بوصفهم بالإيمان الذي يفرض عليهم قبول ما يقوله هذا الدين.

نفس الشيء بالنسبة لبقية كلام القرآن مع من يصفهم بالمؤمنين، لأن التزامهم بكلامه تعالى نابع من هذا الوصف، وبناء عليه يخاطبهم تعالى ليلتزموا بكلامه. ونفس الشيء هو المفروض بنا والمتوقّع منّا في تعاملاتنا مع بعض أننا منتمون لدينه تعالى، ونُصَحِّحُ أخطاء بعضنا ونوجّه بعضنا ونطالب بعضنا... بناء على انتماء الجميع للإيمان به تعالى، وبالتالي بناء على قبولهم لحكمه تعالى...

نلاحظ الآية هنا تتحدّث عن واحد من الأسباب الرئيسية التي تجعل من يقرأ القرآن لا يقتنع به، حيث إن المشرك المصرّ على الشرك المحبّ للسوء لن يقتنع بما يقوله القرآن لأن الشيطان سوف يوسوس له، وسترى من الآية التالية توضيحا لذلك:

(إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ{100})
{إِنَّمَا}، فقط وحصرًا، {سُلْطَانُهُ}، سيطرة وغلبة الشيطان، {عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ}، على الذين جعلوا الشيطان وليّهم مرجعًا لهم والمسؤول عنهم فهم تابعون له، واستعمل القرآن كلمة "ولي" ليشير إلى من تطيعه وتكون تابعًا له، لو سمعت كلمة واحدة من أيٍّ كان، صِرْتَ عمليا تابعًا له، وصار عمليا وليّك، مسؤولًا عنك، لأنك تطيعه، فأنت تعطيه السلطان عليك بإرادتك حيث تطيعه، والشيطان لن يرحمك لأنه عدوّك، سيعمل على تكبير طاعتك له حتى يتحكّم بك بالكامل لتضلّ أكثر فأكثر...

{وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ}، بالشيطان، {مُشْرِكُونَ}، الطاعة يجب أن تكون حصرًا لله تعالى، ولكن هناك قسم من الناس يطيعون الشيطان علنًا وعن معرفة، حيث يجعلون الشيطان شريكًا لله تعالى في الطاعة، وهذا لا يعني أنهم مَرَّةً يطيعون الله تعالى ومرّة يطيعون إبليس، لا، بل افهمها هكذا: هم مشركون لأنهم أطاعوا غير الله تعالى، ولو لمرة واحدة، وبماذا هم مشركون؟ الجواب: هم بالشيطان مشركون. للشيطان سلطان عليهم، له غلبة وله سيطرة عليهم ولو في موضوع واحد.

عندما نفكّر في موضوع وسوسة الشيطان كما تحدّث عنه القرآن، سنجد أن إبليس يوسوس لكل الناس، بلا أي استثناء، حتى للرسل والأنبياء، ولكن مع الذين لا يطيعونه تصير وسوسته بحدّها الأقصى مجرد لمحات عابرة، ومع الذين يطيعونه تصير الوساوس جزءًا من حياتهم، ومن كثرة تكرار فعلهم للسيئات، أيُّ لمحة وسوسة من إبليس ستجعلهم يطيعونه ويفعلون السوء، ويصير إبليس مسيطرًا عليهم، ولكن لا يمكنه برمجة عقولهم ليسلبهم حريّة الإرادة، إذ في أي لحظة لديهم القدرة على مخالفة أوامره، وكما تعلم أنّ الغالبية من الناس ليس لديهم أي اعتراض على ما يوسوس به إبليس لأنه موافق لهواهم السيِّئ...

(وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ{101})
{وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً}، شيء مميّز، وهنا الكلام عن جملة من جمل القرآن، الموصوفة بأنها مميزة لأنها كلام إلهي، بدّلناها، {مَكَانَ آيَةٍ}، وهذا شيء لم يحصل، إذ إنّ آيات "جمل" القرآن بقيت كما هي من أول ما نطق بها النبي(ع) أول مرّة إلى حين مماته ولم يحصل عليها أي تعديل، {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ}، لأنه تعالى بنفسه يشرف على اختيار ما ستنقله "وحيا" الملائكة(ع) إلى وعي النبي(ع)، لذا لا احتمال لأي خطأ أو سهو في محتوى ما ينزل، وبناء عليه لن يحصل أي تبديل نهائيًا، ولو حصل تبديل عندها، {قَالُوا}، المشركون: {إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ}، أنت تخترع الكلام وتنسبه له تعالى، وتخترع القرآن وتقول هو من عند الله تعالى بينما سبحانه لم يقله لك.

من أدلة صحة "إلهية" مصدر هذا القرآن أنه لم يحصل فيه تبديل ولا تغيير، حيث لم يتراجع النبي محمد(ع) ولا عن أي آية، ولم يقل للناس أن يبدلوا أي آية نزلت. أيُّ إنسان يؤلّف كتابًا، سيقوم بتنقيحه وتعديله مع مرور الوقت، أمّا القرآن، فلم يقم النبي محمد(ع) ولا مرّة بتعديل أو تبديل أو تغيير أي آية منه، مع العلم أن القرآن مرّ عليه أثناء نزوله قرابة العشرين سنة من حياة النبي(ع)، ولو حصل أي تبديل لكان دليلًا على تأليف النبي محمد(ع) للقرآن، ولكن طالما لم يحصل أي تبديل، فهذا دليل على إلهية مصدر القرآن.

حتى نفهم الآية هنا جيدًا علينا النظر إلى هذا الموضوع مثلما طرحته الآية، من منظور إلهي، لأن الإله سبحانه هو نزّل القرآن بإشراف مباشر منه سبحانه، والنبي(ع) الذي يتلقّى القرآن لن يقوم بتبديله، وأصلاً لو لم يكن عند النبي(ع)

المواصفات المناسبة للأمانة بنقل القرآن للناس كما يصله تمامًا، لن يختاره تعالى لينزّل عليه القرآن، إذًا، من ناحيته سبحانه أيُّ تبديل سيحصل في القرآن سيكون من عنده سبحانه وليس من النبي(ع)، ولو أجرى سبحانه أي تبديل في آيات القرآن لقال المشركون: ها بوضوح أثبتنا أن محمدًا مُفْتَرٍ. وهم أصلاً يقولون إنّ القرآن من تأليف "محمد(ع)"، وها صار لدينا الدليل على ذلك، سَهَا أو أخطأ... وقام بتبديل آية لتعديل المعنى ليتناسب مع المفاهيم أو الحقائق التي استجدّت وليتناسب مع بقية قرآنه... وعندها يكون معهم حق، لأن الإله لن يبدّل كلامه، ولكن هذا لم يحصل، إذن نحن أمام دليل واضح بأن القرآن من تأليف الإله سبحانه لأنه وحده يملك القدرة على تأليف كتاب بدون أن يضطر لتبديل جمله "آياته" فيما بعد.

كمثال افتراضي عن ذلك لنقل إنّ القرآن تحدّث عن تشريع ما، وبعدها تبين سوء أو تعارض ذلك التشريع مع تشريع آخر، لو حصل تبديل في آية سابقة لإزالتها واستبدالها بآية تتماشى مع المعطيات الجديدة، لتبين بوضوح أن المؤلّف ليس إلهًا عليمًا.

أو فرضًا ذكر القرآن شيئًا من قصّة ما، وبعدها جاء كلام عن نفس القصة في سورة أخرى بشكل متعارض مع ما ورد سابقًا، لو حصل تبديل للآية السابقة أو الحالية، لتبين بوضوح أن المؤلّف ليس إلهًا عليمًا.

المعنى هنا مشابه لما تحدّثت عنه الآية 82 من سورة النساء {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}، هنا الكلام عن فرضية كون القرآن من تأليف محمّد، وعندما ينتبه "محمّد" لمخالفة كلام القرآن مع بعضه، سينقّح الكلام بتعديل آية ما لتتناسب المعلومات مع بعضها، وهذا لم يحصل، ولم يطلب النبي محمّد(ع) من الناس حذف أو تبديل آية ما، وهكذا ننتقل للآية 82 من سورة النساء، وندرس القرآن ولا نجد فيه أي اختلاف، ولو كان من عند غيره تعالى لوجدنا فيه الكثير من الاختلافات.

النبي محمد(ع) ليس مُفْتَرِيًا أبدًا، {بَلْ أَكْثَرُهُمْ}، أكثر المشركين، {لَا يَعْلَمُونَ}، ويتعاملون مع موضوع الرسول والقرآن كشيء غير معلوم الصحّة، كخبر يمكن أن يكون كاذبًا، لأن العلم الحقيقي يحصل لديك عندما تقتنع بما تسمعه أو تراه، وأمّا إذا لم تقتنع بما تراه أو تسمعه فلم يحصل لديك "العلم" بل إما حصل لديك تكذيب أو احتمال الصحّة... وهؤلاء أكثرهم لم يقتنعوا أصلاً بإلهية مصدر القرآن ولا برسالة محمد(ع) لأنهم لا يعلمون أن القرآن من عنده سبحانه ولا علاقة للنبي محمد(ع) به.

ننتبه جيدًا، قال غالبية المفسرين إنّ الآية تتحدث عن النسخ، وهم يقصدون تبديل الأحكام التي في القرآن من الحرام إلى الحلال، أو بالعكس من الحلال إلى الحرام، ويقصدون أنه فعلاً حصل تبديل في الآيات بسبب تغيير الأحكام، علمًا أننا في دراستنا هذه للقرآن لم نجد أي نوع من هذا "النسخ" الذي يتحدثون عنه ويجعلونه من المسلمات بينهم! وأرجوك أن تراجع أي آية تعتقد أنها "منسوخة بالمعنى" فراجعها في دراستنا هنا قبل أن تحكم عليها بالنسخ بالمعنى المتعارف عليه بين المفسرين والفقهاء، وسترى أن النسخ بالمعنى الذي يقولونه غير موجود بتاتًا في القرآن.

للإنصاف هناك قلة قليلة من المفسرين "وأهمّهم الطباطبائي والآلوسي" لم يقتنعوا بغالبية ما يقوله الآخرون عن الآيات المنسوخة، ورفضوا غالبيتها رغم الروايات التي تدعمها لأنهم لم يروا التعارض الذي رآه من قال عن الآيات إنها منسوخة...

الأغرب من مسألة النسخ للأحكام، ورد في الروايات أشياء لا أدري كيف أصفها، حيث إنها روايات تتحدّث عن محو سور من القرآن بالكامل! وهو نسخ للفظ القرآن! ويتذكّر "بعض الناس" أنها نزلت، وأحيانًا يتذكرون آيات منها، ولكن بقيّة الناس لا يتذكرونها! وهي غير مذكورة في القرائين المكتوبة! وقام بعض "العلماء" بتحليل هذه الظاهرة ليخرجوا بنتيجة: نسخ التلاوة! وهناك روايات عن نقص في الآيات، وزيادات! بأي حائط يجب ضرب هذه الروايات وأمثالها وهي تعارض ظاهر القرآن؟ بل حتى إنّ البعض فسّر آيتنا هنا بأنها دليل على حدوث التبديل في القرآن! يا إلهي! إذ إنها نفس الآية التي تنفي حصول أي تبديل، وتقول بأنه لو حصل التبديل لكان دليلًا على انتفاء إلهية مصدر القرآن، وهي نفسها الآية استعملوها لتأكيد حصول تبديل في القرآن! لأن تقديسهم للروايات وصل بهم إلى عرض القرآن عليها، فإن لم يوافقها ضربوا القرآن بعرض الحائط!

ها الآية أمامك، انظر إليها لوحدها ماذا تقول، وانظر إلى كلام المفسرين ورواياتهم، ومن بعدها فأنت وسلامة قلبك، إمّا أن تستعذ بالله تعالى وتطيعه تعالى في أوضح كلامه، أو توالي الشيطان ليكون له عليك سلطان يجعلك ترفض الواضح من كلامه تعالى.

(قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ{102})
الإله سبحانه بنفسه اخْتَارَ ما سينزل، ولن يحصل أي تبديل لأن المؤلّف هو الإله الذي لا يَسْهُو ولا ينسى ولا يخطئ... وعلمه واسع محيط يصل إلى العلم بغيب الآخرة... وبالنسبة لمن نقل القرآن ونزل به من عند الإله وأوصله إلى وعي النبي محمد(ع):

{قُلْ}، {نَزَّلَهُ}، نزّل القرآن عليك، {رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ}، وهو الملاك جبريل(ع) "جبرائيل" كما ورد صراحة في الآية 97 من سورة البقرة {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}، فهو نفسه بتعبير الآيتين الذي نزّل القرآن وكان الناقل له من عنده تعالى إلى وعي النبي محمّد(ع)، وهو موصوف بأنه روح لأنه كائن صَافٍ، فهو مخلوق من شيء خالص من دون شوائب أو إضافات، ويبدو أن وصف الملاك جبريل(ع) بالروح يتضمّن الإشارة إلى قدراته العالية جِدًّا الناتجة عن كونه "روح"، فهو من الملائكة ولكن فصله عنهم بوصف الروح يشير إلى تميّزه، وبضمّ ذلك مع ما ورد في الآية الأولى من سورة فاطر {جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ} التي تصرّح بفرق في القدرات بين الملائكة، نَسْتَوْحِي أن الوصف بالروح لملاك منها يتضمّن إشارة إلى ما ينتج عن هذا الوصف من قدرة تجعل كل بقية الملائكة والمخلوقات الأخرى ضعيفة جِدًّا أمامه.

من المشهور في تراث المنتمين لدينه تعالى أن ملائكة أخرى مثل الملاك جبريل(ع) تُعَدُّ روح وهي قوية جِدًّا، والمشهور بينهم أن عددها قليل جِدًّا تحت الثلاثين، حيث بعضهم يقول ستة وآخرون يقولون أكثر من ذلك... ويساعد على وصف ملائكة أخرى بالروح ما ورد في القرآن عن الملاك ميكال (ع) في الآية 98 من سورة البقرة {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ}، حيث قرنتهما مَعًا بالتساوي أو التشابه، ويساعد على ذلك الإشارة بدون تسمية إلى ملائكة أخرى بقدرات عالية جِدًّا، كالإشارة إلى ملك الموت الذي ورد الكلام عنه في الآية 11 من سورة السجدة {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}، وهذا مشهور اسمه بين الناس بعزرائيل (ع)، والإشارة إلى ملاك مسؤول عن نار الآخرة كما ورد في الآية 77 من سورة الزخرف {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ}.

الروح ككلمة عربية معناها: الشيء الأساسي الخالي من الإضافات، الجوهر، "الإسانس". دَرَجَ أن يقول العرب قَدِيمًا وحديثا عَمَّا ينتج من عملية تقطير السوائل: روح العنب، روح الزهر، روح النعناع... يعني الشيء الصافي من العنب، من الزهر، من النعناع... ومنه وصف بعض المشروبات بأنها مشروبات روحية على أساس أنها نتجت من التقطير الذي يصفّيها من الشوائب. وبناء عليه، فَإِنَّ الروح التي نفخها تعالى في آدم(ع) والروح الذي نزل بالوحي وروح العنب... لَيْسَتْ نفس الشيء، لأن الروح هي فقط كلمة لوصف النقاوة والخلو من الشوائب والإضافات.

لمزيد من التوسع حول كلمة روح، راجع ما ذكرناه في دراسة الآية 91 من سورة الأنبياء {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ}.

الملاك جبريل (ع) موصوف بالقدس أي بالاعتبار والمكانة العالية لارتباطه بشيء إلهي، وهذا الارتباط طَبْعًا ليس ارْتِبَاطًا تَكْوِينِيًّا أو مُشِيرًا لشيء من الطبيعة الإلهية فيه، حيث ورد في القرآن وصف بقاع على الأرض بالقدس كما ورد في الآية 21 من سورة المائدة {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ}، إذ هناك شيء مميز بحسنه وله علاقة به تعالى، ولن يخطر ببالك أن ارتباط البقعة من الأرض به تعالى تَكْوِينِيٌّ بل مَعْنَوِيٌّ بسبب شيء حصل فيها، واستنسبنا في الآية 21 من سورة المائدة أن يكون وصف القدس للأرض بسبب من مرّ فيها من أنبياء وما حصل فيها من أمور ذات صلة بالشؤون الإلهية...

من بعد وصفه الملاك بالروح التي تشير لتميّز في طبيعة الخلقة مع قدرات عالية، الوصف بالقداسة يكمل ما يتضمّن أهم الصفات المتعلقة بموضوع توصيل القرآن منه تعالى إلى رسوله، وهي الأمانة والالتزام التامّ بالأوامر الإلهية وقبلها الإيمان بكل ما يقوله تعالى... وهذا هو المقصود عَمَلِيًّا من وصف الملاك الروح بالقدس.

لا يبدو أن الجملة تريد إعْطَاءَكَ الوصف من تركيب من الكلمتين، كروح النعناع وروح العنب... لِيَكُونَ المعنى: الشيء الصافي من القدس، لا، لأن القرآن استعمل وصف الروح مُنْفَرِدًا مُشِيرًا إلى طبيعة الخلقة لهذا الملاك "ولأقرانه"، ولا نجد في القرآن اسْتِعْمَالًا مركبا للقدس مع شيء آخر.

أنزل الملاك جبريل(ع) صاحب هذه الصفات العالية، أنزل القرآن، {بِالْحَقِّ}، بالصواب فكله صحيح، وليس في القرآن أي شيء خطأ أو سَيِّئٌ. يعني التركيز على من حمل القرآن من عند ربنا سبحانه إلى وعي النبي محمد(ع) حتى نفهم استحالة حصول أي تشويش فيما أنزله، لأن من حمله لديه صفة "روح القدس"، والتي عَمَلِيًّا ترادف بالمفهوم وصف الآية 193 من سورة الشعراء بالأمين {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ}، لِيَنْزِلَ القرآن على النبي محمد(ع) تَمَامًا مُطَابِقًا لما أراده سبحانه لأن ناقله قوي أمين... وعطفا على الآية السابقة، هذا تأكيد أننا لن نجد في القرآن كَلَامًا غير صحيح بحاجة لتبديل لأن المؤلّف إله والنازل به لنقله روح قدس، يعني بقدرات هائلة بسبب تكوينه الموصوف بالروح وهو أمين بوصف وصفه بالقدس. طَبْعًا لاحظت تركيزي فقط على صفتي القوة والأمانة لأنهما الْمُهِمَّتَانِ في نظري لما تتحدّث عنه الآيات هنا، وإلا فالوصف بالروح القدس يحمل في طياته العديد من الصفات.

سبب نزول القرآن: {لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا}، فهذه هي الحكمة من تنزيله تعالى للقرآن، فالذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، سيكون القرآن مثبتا لهم على الإيمان فلا يحيدون عنه ولا يميلون لأنهم يجدون في القرآن كل ما يركّز ويُثَبِّتُ إيمانهم.

والقرآن، {وَهُدًى}، فيه الأشياء الصحيحة التي توصل لغاية صحيحة، وفيه العقيدة الحقيقية والشريعة والسلوكيات الحسنة، وهذا ما نحتاجه ليكون سبحانه رَاضِيًا عنّا، وهذا ما يوصلنا إلى الجنّة، وتكملة الجملة ستشير لذلك بالبشرى، وفي نفس الوقت هو ما يؤمّن لنا عيشة سعيدة في الدنيا بقدر ما هو متاح فيها من سعادة.

القرآن، {وَبُشْرَى}، خبر سار مفرح، {لِلْمُسْلِمِينَ}، للذين أعلنوا الاستسلام، الانْقِيَادَ، الطاعة، وسياق الكلام القرآني عادة عمن أسلم لله تعالى فهذا سيدخل إلى الجنّة الخالدة.

نتذكّر دَائِمًا أن صفة "الإسلام" تشير لعامّة من أَسْلَمَ فانقاد مُطِيعًا له تعالى، وذلك من أوّل ما كلّف سبحانه البشرية إلى آخرها، وصَارَتْ اسْمًا خَاصًّا مُشْتَقًّا من هذا الوصف لمن آمن بدينه تعالى من بعد نزول القرآن، في مقابل المسيحيين واليهود... وهنا، عَمَلِيًّا، سيكون من آمن من بعد القرآن مَوْصُوفًا بأنه مسلم، مثل الذي كان من آلاف السنين قبل نزول القرآن وآمن بدينه تعالى فهو مسلم.

هكذا تَتَبَيَّنُ حتمية تأليفه تعالى لكل القرآن، وأنه نزل سَلِيمًا كما هو على النبي(ع)، إذ من المستحيل أن يكون من تأليف محمد(ع) أو غيره، وإلا لقام (ع) مع مرور الزمن بتنقيحه واستدراك الأخطاء وتغيير رأيه... طَبْعًا بالأساس سبحانه جعل فينا قدرة تمييز الحق من الباطل والصالح من الفاسد، وأَسَاسُ الدليل على إلهية مصدر هذا القرآن هو كلامه الحقّ والصالح، مُضَافًا لأدلة عديدة أخرى، وسيأتيك فيما يلي بَعْضٌ منها.

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ{103})
{وَلَقَدْ نَعْلَمُ}، حَصَلَ لدينا العلم، أن المشركين يقولون: {إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ}، يلقّن النبي محمد(ع) هذا الكلام الذي اسمه القرآن، {بَشَرٌ}، هُنَاكَ شخص أو أشخاص من الناس يعلّمونه (ع) هذا الكلام.

كلمة "قَدْ" اسْتَعْمَلَهَا القرآن حصرا لتفيد التحقيق، وَاسْتَعْمَلَهَا قرابة 400 مرة عن تحقق "الفعل، الشيء، الحالة" في الماضي البعيد أو القريب أو القريب جدا للحظة الحال، إما لعلاقة سببية أو المقارنة أو لمجرد الإخبار. ولم يستعملها القرآن للترديد بين شيئين: قد تأكلون وقد تصومون. ولم يستعملها للتوقع مثل جملة: انتبه قد تموت.

نُلَاحِظُ استعمال "قَدْ" مع الفعل الماضي كما ورد في الآية 4 من سورة ق "قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ" ونفهمه بسهولة على معنى أنه تعالى فعلا عَلِمَ بهم من الماضي، ولكن يجد البعض مشكلة في فهم استعمال "قد" مع فعل المضارع كما ورد في الآية 18 من سورة الأحزاب "قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ..." يُفْهَمُ منها أنه تعالى الآن لا يعلم، وقد يحصل لديه علم فيما بعد، وقد لا يحصل لديه علم، وَتَصِيرُ الجملة مرادفة لـ: يمكن أن يحصل علم لله بـ... ولكن القرآن استعمل "قد" مع الفعل المضارع عند كلامه تعالى عن نفسه حتى يشير إلى نفس ما تشير إليه "قد" مع استعمالها في الفعل الماضي، كَمَا تقول: حَصَلَ لديه تعالى العلم بشيء وقع في الماضي، كَذَلِكَ تقول: حَصَلَ لديه تعالى العلم بشيء يقع الآن أو سيقع في المستقبل.

نحن البشر لا يمكننا وصف أنفسنا بهذه الطريقة لأننا لا يحصل لدينا علم بما سيقع، بل يحصل لدينا العلم فقط بما وقع في الماضي أو يقع أمامنا الآن، أمّا تعالى فهو عالم الغيب، وَهُوَ يَعْلَمُ ما حصل في الماضي وما يحصل الآن وما سيحصل في المستقبل، ولذلك يمكنه تعالى أن يعبّر عن علمه بالمستقبل بقد يعلم، أمّا نحن البشر فلا يمكننا التعبير بهذه الطريقة عن أنفسنا إلا بخبر علمناه من الإله عالم الغيب، أو بالتقدير والاحتمال القوي من التحليل والتوقّع.

فِي كلام القرآن معلومات عن قصص الأنبياء، وعن العقيدة والجنة والنار... والتشريعات... وهذه المعلومات ليست منتشرة في مجتمعه (ع)، لَمْ يكن (ع) يعرفها ولا هي منتشرة بين قومه ليتعلمها منهم، ولا يمكنه أن يعرفها هكذا لوحده فجأة، وَالْكُفَّارُ الْمُعَاصِرُونَ له "كنموذج" لَمْ يؤمنوا بأن وحيا إلهيا نزل عليه (ع) بها، إذاً هناك واحد أو عدّة أشخاص من البشر يتعلّم منهم هذا الكلام، لأنهم متأكدون تماما أن محمدا لا يملك هذه الثقافة ولا هذه المعلومات، ولم يؤمنوا بأنه سبحانه يوحي إليه بهذه المعلومات.

حتى نفهم كلامهم من دون الإشارة لما سبق من نظرة دينية ضيقة، لَدَيْنَا موروث ثقافي ديني مبني على اصطلاح لكلمة "دين" يجعلها بشكل ما بعيدة عن مفاهيم القرآن، نَحْنُ نختصر المعنى الواسع لكلمة "دين" لنحصرها في معناها العملي لتشير إلى العقيدة والتشريع، غافلين عن المعنى القرآني الأوسع، وَالْأَخْلَاقُ دين، والإحسان على معنى التفضّل دين، والتقييم الشخصي للأمور المختلفة من نظرة الحسن أو السوء، دين... وَهُنَا لِنَقُلْ إِنَّ المشركين ينظرون فقط إلى جوانب تنظيم مجتمعهم بالتشريعات والأخلاقيات المتعلقة باختراع كتاب ونسبته للإله حتى يُلْزِمُوا الآخرين باحترامه.

تنتبه لما أريد استخراجه من الآية إذا قارنت هذا الكلام مع الدراسات العلمانية عن الأديان والتي لا يؤمن كاتبوها بكتبه تعالى، حَيْثُ يَقُولُونَ عن الأنبياء والرسل إِنَّهُمْ: مصلحون اجتماعيون، درسوا سيئات وعيوب مجتمعاتهم وخلصوا بنتيجة لتقييم الأوضاع عبر طرح تشريعات يرونها تنظّم مجتمعاتهم لتكون فاضلة، رَاقِيَةً عَادِلَةً مُوَزِّعَةً السعادة والهناء على الجميع... طبعا من نظرة ما يراه المصلح الاجتماعي مناسبا... وحتى يلتزم الناس بتلك التشريعات فلا بد من التخويف والتحفيز، يُخَوِّفُونَهُمْ من قدرة فائقة، من الإله، الذي يعذّب من يخالف العقيدة والتشريع، ويحفّزونهم على الالتزام بها بالبشرى بالوعد بجنّة خالدة في الآخرة...

هنا الآية بعد ما سبقها من كلام عن تنظيم المجتمع رَابِطَةٌ لتلك التشريعات بالاعتقاد به تعالى وبالبشرى بالجنّة والإنذار من جهنّم، لَا ردّ على هذا الكلام الذي يبدو لوحده دليلا على إلهية مصدره، لَا ردّ عليه إلا بالقول عن عموم أي رسول وهنا الكلام بالخصوص عن الرسول محمد(ع) أَنَّهُ مجرد مصلح إجتماعي استطاع تكوين "دين" يصلح عيوب المجتمع...

الآن تطبيقيا على حالة "المصلح الاجتماعي" محمّد(ع) من نظرة مشركي عصره، مَا يقوله عبر هذا القرآن يتخطّى قدراته العلمية التي يعرفها المعاصرون له، حَيْثُ ولد بينهم، ووصل إلى سنّ الأربعين، ولم يسبق له أن تحدّث بهذا العمق عن هذه الأمور التي تتناول مختلف جوانب الشؤون البشرية من إيمان وتشريعات وسلوكيات، ومعلوم لك الكم الهائل من التفاصيل المتعلقة بهذه العناوين والتي ركّز القرآن على أساسياتها وَعَنَاوِينِهَا... وأصلا هو النبي محمّد(ع) لَمْ يكن من الملأ في قومه، لَمْ يكن من المشاركين في اجتماعات النافذين والحاكمين في مجتمعه ليتفتّح فكره على مواضيع ذات نظرة اجْتِمَاعِيَّةٍ، سِيَاسِيَّةٍ أو دينية وعسكرية واقتصادية...

الجواب: {لِسَانُ}، لغة ونطق، {الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ}، الشخص الذي يميلون وَيُشِيرُونَ إليه كمصدر لتعليم محمّد(ع)، لسانه {أَعْجَمِيٌّ}، طريقة نطقه وتركيب جمله ليست عربية، وَالْكُتُبُ المتوفرة والتي تتحدّث عن نفس مواضيع القرآن

هي: الإنجيل، والتوراة، وكتب أخرى من التراث الديني لأهل الكتاب... وهي كتب لم تكن منتشرة بترجمة عربية "تعريب" في زمن نزول هذا القرآن، وَالْمُتَوَفِّرُ منها في حينها بين الناس كان مكتوبا باللهجة الآرامية للتوراة والإنجيل مع وجود نسخ بالسريانية والعبرية للتوراة... وبعد انتشار الإسلام تمّ تعريب "ترجمة إلى العربية" للعهدين القديم والجديد "التوراة والإنجيل".

{وَهَذَا}، القرآن، {لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}، كَلَامٌ عربي واضح، وَالْأَعْجَمِيُّ لَنْ يصل مستواه إلى المستوى اللغوي العربي لهذا القرآن، وبتعابيرنا الحالية لَنْ يصل مستواه إلى مستوى فصاحة القرآن، وبشكل أعمق لَنْ يصل مستواه لا هو ولا غيره من المخلوقات إلى مستوى هذه الدقة في استعمال اللغة العربية.

إذاً، كَيْفَ وبأي دليل تقولون أَنَّهُ (ع) نقل جمل القرآن عن شخص أو أشخاص ينقلون المعلومات له (ع) من كتب لسانها غير عربي! أو من أشخاص لسانهم ليس عَرَبِيّاً أَلَّفُوا له (ع) القرآن!

عليك أن تستحضر في بالك الآية ما قبل السابقة التي لفتت انتباهنا لانتفاء حصول أي تبديل في آيات القرآن، فلو كان من تأليف البشر لعدّلوا عليه لتصحيح الأخطاء والمتخالفات... وكدليل إضافي أن القرآن ليس من تأليف محمّد (ع) ولا من تأليف غيره من البشر، إذْ أقرب الكتب في محتواها للمعلومات التي ذكرها القرآن هي التوراة والإنجيل، فلو اعتمد محمّد(ع) على أحد ما لتعليمه ما في الكتابين لنقله للناس، لظهرت طريقة تركيب جمل الكتابين في هذا القرآن، وكما ترى وَالْفَرْقُ اللغوي واضح بين القرآن وبين تلك الكتب التي كانت في عهده (ع) بلغة أخرى غير العربية.

كما ترى، لَا يَزَالُ الكافرون في عصرنا وما قبله يطرحون إشكالات على القرآن، يَفْتَرُونَ ويرمون الكلام بلا تدقيق ولا تفكير فيه، حَيْثُ استحوذ عليهم الشيطان ليفتروا الكذب لدرجة أن أحد الجهابذة نسب القرآن إلى ورقة بن نوفل! وهذا الشخص مات في أوّل سنوات البعثة! مَنْ ألّف بقيّة القرآن يا شيطان؟ والأغرب منه من قال بأن سلمان الفارسي علّم النبي محمد(ع) عن الديانات والتشريعات، وقام النبي بتأليف القرآن! ومشهور جدا ومعلوم أن النبي محمد(ع) تعرّف على سلمان في مدينة يثرب بعد مرور قرابة العشر سنين من بداية نزول القرآن! مَنْ علّمه (ع) القرآن قبل تعرّفه على سلمان يا شياطين؟ ونضيف أن السورة هنا نزلت، ونقلت الاتهام، وكان النبي(ع) في مكّة لم يلتق بسلمان ولم يره ولم يسمع به! وهكذا لا نزال في كل العصور نجد افْتِرَاءَاتٍ شيطانية، واهية سخيفة.

ننتبه، إذْ إنَّ الآيات ترجع بنا إلى العصر الذي نزل فيه القرآن في مكّة، فإذا خطر ببالك الآن أن شخصا مثقفا كان مطلعا على الكتب القديمة، عَلَّمَ النبي محمد(ع) المشهور بِأَنَّهُ أمي لَا يجيد القراءة ولا الكتابة، فاسمع هذه الدعوى ممن كانوا في عصر النبي محمد(ع)، وَأَهْلُ مكّة يعرفون الأشخاص الذين يعيشون في مجتمعهم، وَلَا أحد منهم لديه القدرة على تأليف سورة مثل سور القرآن، لا من ناحية المحتوى، ولا من ناحية نظم ونسق الكلام، وهم يعرفون بقيّة العرب، فلو كان بين بقيّة العرب مثقف بارع في اللغة، وكان بينه وبين النبي محمد(ع) أي تواصل، لاعتبرها المشركون فضيحة للنبي(ع)، ولكن هذا لم يحصل، وحينما أرادوا الإعابة على النبي(ع) لَمْ يجدوا إلا أن يقولوا: حسن، محمد غير بارع في الشعر نهائيا، ولا في النثر، ولا في الأقصوصة، ولا في المعلومات... وهو أصلا أميّ... إذاً هناك شخص من العجم "أجنبي عن العرب" يعلّمه هذا الكلام... لاحظ، نَسُوا أن القرآن كلام عربي فصيح بليغ، وركّزوا على المعلومات التي في القرآن بأنها من خارج مجتمعهم، وَنَسَبُوهَا لشخص أجنبي، وتناسوا أن القرآن لا يمكن لأجنبي تأليفه معتمدا على كتب سابقة وناقلا عنها بسبب وضوح فصاحة ودقة كلام القرآن عربيا، ولو كان القرآن من تلقين أجنبي بالمعلومات للنبي محمّد(ع) الذي قام بصياغتها بالعربية لكان كلامه (ع) العادي فيه جمل تشبه القرآن الذي ألّفه، ولكان (ع) قبل ادّعائه للنبوة يركّب جملا مشابهة لجمل القرآن، وَمِنْ غير المعقول أن يصير (ع) فجأة قادرا على تأليف سور تختلف عن طريقة كلامه العادية المعروفة، وهذا شيء لفتت انتباهنا له الآية 16 من سورة يونس "قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" رَاجِعْهَا لمزيد من التفاصيل، وفوق ذلك لَقَامَ (ع) حتما بتنقيح القرآن عبر الزمن لتصحيح الأخطاء التي نقع فيها نحن عادة، إذْ مستحيل على بشري طرح هذه الكمية الهائلة من المعلومات الواردة في القرآن من دون تنقيحها لتصحيح المتخالفات والأخطاء، وأصلا يستحيل على بشري أو غيره استعمال اللغة العربية بالدقة التي استعملها تعالى، لِأَنَّ الْبَشَرِيَّ كان حتما سيبدّل كلمة ما بدل أخرى تبيّن له أنها أنسب وأدق...

بِالنِّسْبَةِ للكلام الفارغ غير المدروس والذي يرميه الكفّار كيفما كان، حَيْثُ ركّز القرآن على نقله وبيان سخافته، قَارِنْ كلامهم الفارغ عن القرآن هنا مع الآية 78 من سورة يس "وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ"، يَتَسَاءَلُ عن القدرة التي يمكنها إعادة الحياة إلى العظام، ونسي أنه هو نفسه كان أصلا لا شيء وصار موجودا! كَيْفَ نسي أن من قدر على خلقه أول مرة من لا شيء، فهو قادر على خلقه مرّة ثانية من العظام! كيف هذا! وهنا نفس المنطق الأعوج، قَالُوا إِنَّ المعلومات التي في القرآن جاءت من شخص وكتاب غريب عن العرب، كَيْفَ يُمْكِنُ لشخص غريب عن العرب أن يؤلّف كتابا عربيا فصيحا مثل القرآن! وأين هو، وما هو الكتاب المشابه للقرآن في كلامه العربي حتى ينقل عنه محمّد(ع) سورا كاملة؟

ننتبه جيدا، حَيْثُ إِنَّ القرآن نزل خلال فترة تزيد على العشرين سنة، ولم نسمع أبدا بوجود شخص عربي فصيح بليغ ويملك معلومات دينية تَوَاصَلَ مع النبي(ع) طوال فترة نزول القرآن، رُبَّمَا تسمع عن أشخاص التقاهم (ع) في سفره، أو في مكة، أو في المدينة، ولكن لم يترافق أي شخص بهذه المواصفات مع النبي محمد(ع) في كل أماكنه وحياته التي كان يقول فيها القرآن، وَمِنَ الواضح جدا من التاريخ استحالة أن يكون شخص ما أَلَّفَ القرآن للنبي محمد(ع).

تَذَكَّرْ أَنَّهُ يوجد العديد من السور التي تتحدّث عن مواضيع ساخنة حصلت في وقتها، مثل حالة الآية الأولى من سورة المجادلة "قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ"، وبعدها بقليل نزل الوحي لحلّ مشكلة المرأة... وَمِنَ المستحيل أن يقوم شخص بتأليف القرآن سلفا قبل حدوث الحوادث التي تحدّث عنها القرآن، ومن المستحيل أن يتواجد شخص بقرب النبي(ع) ويقوم بتأليف القرآن طوال ثلاث وعشرين سنة ولا نعرفه أو لا يشعر به الناس أو هو نفسه لا يعلن بأنه ألّف القرآن، أو نجد له كلاما مرويا مُشَابِهاً لكلام القرآن...

هناك سؤال: مَنْ هو الشخص الأعجمي أو الأشخاص الذين قال عنهم المشركون إِنَّهُمْ ألّفوا القرآن للنبي محمد (ع)؟ وما اسمه وجنسيّته ودينه...؟ هَلْ تريد جوابا لذلك؟ إِذاً أَنْتَ لم تفهم الآية! وَمَنْ أطلق هذا الافتراء، فهو أطلق الكذبة ولا يهمّه تفاصيلها، وَالْمُشْرِكُونَ أصلا لم يحدّدوا من هو الأجنبي، وَأَبْقَوْا الخيارات كثيرة ومفتوحة ليبقى الاتهام ضبابيا بدون أي إمكانية على ردّه، فإن لم يكن هذا فذاك، وإلا فشخص آخر... حَيْثُ كان في مكّة سكان وعبيد من مختلف الجنسيات والأديان، ومن اخترع هذه الفرية لا يهمّه تحديد الأجنبي، وَكُلُّ ما يهمه أن تنطلق الكذبة وتنتشر بين الناس، وبعدها لِيَخْتَارَ كل كافر من يراه مناسبا ليركب مع الفرية، أو تبقى المسألة ضبابية وَهَكَذَا يقولون: هناك أجنبي ألّف له القرآن، وليس المهم تحديده ومعرفته لأن الموضوع لا يهمّنا إِذْ نَحْنُ لن نؤمن بهذا القرآن.

بقي شيء مهم، بِالنِّسْبَةِ للكلمات الأجنبية عن العربية التي قالوا إِنَّهَا موجودة في القرآن، فهذا هراء، لأن كل اللغات تشترك في استعمال الكلمات، والكلمة التي لها أصل أجنبي واستعملها القرآن فهذا لا يعني أَنَّ الكلمة ليست عربية، عِنْدَمَا يستعملها العرب تصير عربية من أصل أجنبي، ولا مشكلة في استعمال القرآن لكلمة يستعملها العرب وَوَصَلَتْ إليهم من لغة أخرى، وَهَذَا حال كل اللغات، واللغة العربية ليست استثناء، إِذْ إِنَّهَا لغة لم تخرج من الحائط، بل تولّدت مثلها مثل بقية اللغات، من الحاجة لتسمية الأشياء، وصار لها طريقة خاصة في تركيب الكلمات والجمل والنطق بالأحرف... وأخذت وأعطت من بقية اللغات، وكل الهراء الذي تقرؤه عن كلمات لم يفهمها حتى الجيل الأول من المسلمين وقالوا بأنها حبشية أو نبطية أو فارسية أو بلغة طي... وَهَذَا هراء واضح، لِأَنَّهُمْ مجرد أشخاص عاديون لا يملكون كل المعرفة بكل اللغة، لَمْ يكونوا يعرفون معنى كلمة مرجان التي يعرفها أي بحّار، ولم يعلموا معنى كلمة دسر التي يفهمها أي نجّار، ولم يعلموا معنى كلمة رحيق التي يفهمها أي متخصص بالزهور... ومن عمل على تحديد معاني للكلمات سيدرك صعوبة تحديد المعنى الأساسي للكلمة رغم أنه يستعملها في كلامه، وسيدرك بأننا نتوسّع في استعمال الكلمات وأننا في حياتنا العادية بعيدون جدا عن استعمال الكلمات المحددة المخصصة بدقة، وَتَخُونُنَا الذاكرة والعبارة وقلة المعرفة، وَنَتَوَسَّعُ في معاني الكلمات التي نتداولها عادة حتى نعبّر عما نريد، وفي عصرنا نجد الكثيرين يفهمون لغة الأفلام الإنجليزية، ولكن نفس تلك الجمل "العاميّة"، لو استبدلتها بالكلمات المتخصصة "الفصيحة الإنجليزية" لوجدت الغالبية من الإنجليز أنفسهم لَا يَفْهَمُونَهَا! مثلما يحصل معك أنت العربي عندما تقرأ القرآن ولا تفهم بعض جمله، بل وبعض كلماته، ومثلما يحصل معك عند قراءة قصائد أشعار عربية قديمة... وَهَذَا كان حال المسلمين الأوائل، وحال الذين من بعدهم وحالنا نحن.

حَاوَلْتُ في هذه الدراسة التوصّل لمعاني دقيقة للكلمات، وكما ترى، خَالَفْتُ الكثير مما هو مشهور في القواميس، ولكني استندت بقوة إلى أقوى مستند عربي، وهو القرآن الكلام الإلهي الدقيق الذي لا يتوسّع في معاني الكلمات، ويستعملها بدقّة، وَتَتَبَّعْتُ القرآن لأصل إلى الكثير الكثير من المعاني الدقيقة للكلمات، واستعنت بأشعار العرب قبل الإسلام، واستأنست بما طرحوه في القواميس... ولا يزال الباب مفتوحا لتحسين أو تصحيح ما توصّلت إليه، حَيْثُ مَهَّدْتُ لك طريقا لا تتصوّر كم أنهكني تعبيده.

لِمَزِيدٍ من التوسّع حول وصف القرآن بالعربية، راجع دراسة الآية 37 من سورة الرعد "وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا...".

(إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{104})
{إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}، لا يعتقدون، {بِآيَاتِ اللَّهِ}، بالأمور المميّزة المنسوبة له تعالى، وهنا المقصود جمل القرآن، وَالَّذِينَ لم يعتقدوا بالقرآن أنه إلهي، ولم يقتنعوا بما يقوله لهم، وقالوا إِنَّهُ من تأليف البشر... بالرغم من أنه لم يجر عليه تبديل مما يدل على علم فائق لمن ألّفه، ورغم وُضُوحِ تميّز كلامه بمعانيه ومواضيعه...، ورغم وضوح دقّة وتقانة استعمال اللغة العربية فوق مستوى البشر... وأمور عديدة أخرى تدل على مصدره الإلهي، فهؤلاء، {لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ}، فلا يضعهم على الشيء الصحيح الذي يوصلهم لغاية صحيحة، وَلَنْ يبرمج سبحانه عقولهم غضبا عنهم ليصيروا كالآلات ويؤمنوا، ولن يتسامح معهم ويرضى عنهم ويدخلهم الجنّة معتبرا ما فعلوه من سيئات صحيحا، وَلَنْ يغطّي سبحانه مخالفتهم للقرآن ليعطيها صفة شرعية، وَلَنْ يعتبر ما عليه الكافرون مسموحا به، {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، حَيْثُ لهم ضرر يصيبهم لا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه.

لَاحِظْ كيف تتحدّث الآية: هذه الآيات القرآنية كافية لتؤمنوا، فإن لم تؤمنوا بها وعبرها، وعبر الآيات التي في خلقكم وخلق ما حولكم، فلن يقوم الإله بهدايتكم بطريقة أخرى، ولن يعتبر مسموحا به ما أنتم عليه من عقائد وتشريعات وسلوكيات باطلة، فسوف تتعذبون عليه بشدّة، نقطة وانتهى الموضوع وأنتم تتحملون كافة ما ينتج عن قراركم بالكفر بالقرآن.

بِالنِّسْبَةِ لكلمة "آمن" لَمْ أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الْإِسْلَامِ أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، حَيْثُ آمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كلاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأُوْلـئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ{105})
{إِنَّمَا يَفْتَرِي}، يخترع كلاما ويلصقه به تعالى، {الْكَذِبَ}، كلاما أَصْلاً لم يقله ولا يوافق عليه تعالى، {الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}، الذين لا يعتقدون، {بِآيَاتِ اللَّهِ}، بالأمور المميزة المنسوبة له تعالى، وهنا المقصود بالآيات جمل القرآن، وهذا نوع من الدفاع عن النبي محمّد(ع)، فهو لن ولم يَفْتَرِ لأنه يؤمن بكلامه تعالى.

{وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ}، هم الموصوفون بالكذب بكل ما تعنيه كلمة كذب من معنى، حَيْثُ إِنَّ الْمُشْرِكِينَ اتهموا النبي(ع) بالافتراء، وهم أَصْلاً الكاذبون، لِأَنَّهُمْ أصل الكذب ومعدنه وأساسه، وَهُمْ لا يقولون كلاما صحيحا.

مِنَ الواضح أن القرآن مصدره إلهي فهو آيات لأنه مميز لأنه كلامه تعالى ذو الصفات الحسنى والقدرات الفائقة، وحتما سيكون كلامه تعالى آيات "مميّز". وهم يقولون إِنَّهُ من تأليف محمّد(ع)، ويتهمونه بأنه ينسب له تعالى كلاما لا يوافق عليه سبحانه، فكلامهم هو الكذب بعينه.

مَعْلُومٌ لهم سيرة محمّد(ع) الذي ليس من خصاله الكذب، بينما هم في حياتهم العادية يكذبون حين يجدون ذلك مناسبا لهم، وَهُنَا مِنَ الواضح أن هذا الكلام القرآني إلهي المصدر، وَوَصَلَ لوعي شخص صفاته الفكرية والنفسية عالية،

وبسبب ذلك سيتماشى هذا الشخص مع ما يصله من وحي، لأنه سيجده حقّا صالحا خيرا... ومن بعد ذلك فمن غير المتوقّع منه أن يؤلّف من عنده كلاما وينسبه لله تعالى، وهذا هو الافتراء، ومن غير المتوقّع منه أيضا أن ينسب له تعالى أَصْلاً لم يقله تعالى لا له(ع) ولا لغيره، وهذا الافتراء الكاذب، لِنَقُلْ إِنَّهُ من أفكاره استنسب أن ينسب له تعالى قولا ما، فَقَالَ إِنَّ المسلم لا يخلد في النار حتى لو فعل الكبائر التي توعّد عليها القرآن بالخلود في النار. فهذا افتراء لأنه تعالى لم يقله، وهو كاذب لأنه غير صحيح.

بِالنِّسْبَةِ للافتراء فهو نسبتك كَلَاماً أو عَمَلاً... للآخرين، تُلَفِّقُهُ وَتُلْصِقُهُ بالآخرين وهم لم يفعلوه أو لم يقولوه... وَرُبَّمَا تلصق بهم شيئا ويتبين لك فيما بعد أنهم فعلا قالوه أو فعلوه، فتكون فقط مُفْتَرِياً لأنك اخترعته ونسبته لهم من دون أن تعلم بأنه صحيح، وَرُبَّمَا تلصق بهم شيئا لا علاقة لهم به وَأَصْلاً لم يفعلوه ولم يقولوه وهذا هو الافتراء الكاذب.

لَوْ أنا قلت إِنَّهُ تعالى يوحي إليّ، فأنا أَفْتَرِي عليه تعالى لأنه لم يُوحِ إليّ، ولو قلت مَفَاهِيمَ مغايرة لما قاله تعالى مدّعيا أنه تعالى قالها، أو قلت عنه تعالى بأنه سيفعل شيئا وفي الحقيقة سُبْحَانَهُ لن يفعله، ففي هذه الأمثلة أنا أفتري الكذب عليه تعالى لأنه أَصْلاً لم يقل هذا الكلام، وَأَصْلاً لن يفعل ما قلت أنا إِنَّهُ تعالى سيفعله.

الآن نأتي للآخرين الكافرين، وَهُمْ يكذبون أحيانا حين يرون ذلك مناسبا لهم، فاتهامهم له (ع) بالكذب مُفْتَرِياً ما هو إلا وصف لهم هم، ومقدمة سورة القلم تحدّثت حصرا عن هذه النقطة "ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (6) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (7) فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15)".

(مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَـكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{106})
فيما سبق طرحت السورة أهمّ النقاط التي تَدْعُو المشركين إلى الإيمان، وتحدّثت عمن بقي مشركا ولم يؤمن، وتحدّثت عمّن آمن... ومن هنا سَتَتَحَدَّثُ عن نموذجين آخرين، سَتَتَحَدَّثُ عمّن آمن ثم كفر، وعمّن آمن وأكرهوه على الكفر:

{مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ}، من أنكر ولم يعتقد به تعالى، ومن سياق الكلام تعلم أن المقصود من أنكر الله تعالى ربا إلها أحدا، وَكَفَرَ، {مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ}، من بعد إعلانه أنه معتقد ملتزم بهذا الدين الإلهي، وستأتي جملة مستقطعة وبعدها تكملة الجملة عمّن آمن ثم كفر فعليه غضب منه تعالى... {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ}، استثناء فقط الذي أكرهوه غَصْباً عنه أجبروه على إعلان الكفر، {وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ}، بينما أساس فكره ونفسيته يعطيانه الشعور بالاستقرار بسبب ما فيهما من إيمان... مِنْ داخله وفي أساسه هو لا يزال معتقدا بدينه تعالى ولكنهم أجبروه على إعلان الكفر...

إذاً تتحدّث الآية عن شخص أو أشخاص أعلنوا أنهم معتقدون ملتزمون بهذا الدين الإلهي، ثم أعلنوا الكفر، فهم نوعان: نوع هو من داخله قرّر الرجوع إلى إنكار الدين الإلهي، ونوع أكرهه مجتمعه وَأَجْبَرَهُ على إعلان تركه للدين الإلهي ولكنه من داخله بقي مؤمنا، وَصَارَ يَتَّقِي الكفّار، وَهَذَا لا يعتبره سبحانه من الكفّار، وسيأتي الكلام عنه في الآية 110.

{وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا}، يشعر بأن صدره بأن مركز تفاعله مع الأمور منشرح مرتاح غير منقبض من الكفر، وَيَشْعُرُ بالارتياح حين ينكر دينه تعالى، فهذه النوعية، {عَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ}، سَيَخْرُجُونَ من معاملته معهم بالرحمة والمسامحة وسيعاملهم بغضبه وَلَنْ يمرّر لهم أعمالهم السيّئة وسيردّ عليها بقسوة، وَسَتَحْبَطُ أعمالهم ولن ينالوا الشفاعة... {وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} كبير، يَشْعُرُونَ بالألم الشديد الناتج عن الضرر الذي سيتعرضون له.

الآية تتحدث عن مصير من أعلن إيمانه ثم كفر، فهذا لن ينال أي تخفيف من العذاب، حتى لو أعلن إيمانه لعشرات السنين، وفي الأخير كفر، لَا يوجد شيء اسمه: مؤمن سابق. وبالتالي سيفترض لنفسه معاملة خاصة، لا، كُلُّ فترة إيمانه قبل الكفر تذهب مع الريح، ولا تنفع بأي شيء وله عذاب عظيم، ولكن من آمن ثم أكرهه من حوله وَأَجْبَرُوهُ على ترك الدين الإلهي، وهو من داخله لا يزال مؤمنا، وَهَذَا مثله مثل بقيّة من أعلن أنه معتقد ملتزم بالدين، وَأَعْمَالُهُ الصالحة تحدّد مصيره.

كما تعلم من عموم القرآن أَنَّ الكفر تحت الضغط يبرّر للكفر العلني مع محاولة تطبيق دينه تعالى قدر الإمكان إلى أن يتمكّن من الهجرة إلى مكان يستطيع فيه إعلان وممارسة تدينه، وإن لم يهاجر مع علمه بأن الظروف في مجتمعه لن تتغيّر وأنه سيبقى مجبورا على كتم إيمانه، فهذا لا يعتبره تعالى مؤمنا، وسيأتيك الكلام عن ذلك في الآية 110.

نَفْهَمُ الآية هنا بتعبير "شرح الصدر بالكفر"، وتعبير الآية 125 من سورة الأنعام "بضيق الصدر" "فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ..."، نفهمه بمثال بسيط، شَخْصٌ تحدّثه عن كسب المال السريع بالسوء من الغش أو النصب والاحتيال أو الربا... أو تحدثه عن الزنا والحفلات وشرب الخمر والمخدرات... يَنْشَرِحُ صدره لهذه الأحاديث، وهو نفسه تحدثه عن تقواه تعالى بترك السوء خوفا من العقاب في الآخرة، يَنْقَبِضُ صدره من هذا الحديث.

بالنسبة لكلمة "صدر، صدور" فإن لم يكن القصد بها لأعضاء الجسد للقفص الصدري وما تحته من أعضاء... اسْتَعْمَلَهَا القرآن كما يستعملها الناطقون باللغة العربية وكما هي مستعملة في العديد من اللغات الأخرى، حَيْثُ نشير بالصدر للتفاعل الداخلي للإنسان مع ما يراه ويسمعه ويشعر به مما يتعرّض له... نَحْنُ عندما نتعرّض لمختلف الظروف، نشعر بالانقباض أو الانشراح... في صدرنا، لِذَلِكَ استعملنا كلمة صدر لتوصيف حالة تفاعلنا مع الأمور، وحتى لو لم تشعر بأي شيء في قفصك الصدري، من انقباض أو صعوبة في التنفّس أو راحة... مُجَرَّدُ تفاعلك مع ما تعرّضت له، فإن مختلف اللغات البشرية تعبّر عن هذا التفاعل بأن شيئا حصل في صدرك، وحتى السرّ الذي تخفيه عن الآخرين تعبّر عنه مختلف اللغات بأنه في صدرك، وكلّنا نعلم أن السرّ ليس في القفص الصدري، إِذْ ليس تحته في الرئة أو القلب أو المريء... بل هو تعبير يشير لحالة تفاعلنا مع ما ندركه سواء بقي مخفيا أو ظهر له أثر حسّي في منطقة الصدر أو على تعابيرنا وحركاتنا.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ{107})
{ذَلِكَ}، العذاب العظيم بلا تخفيف ولا اعتبار للفترة التي كان فيها مؤمنا:

{بِأَنَّهُمُ}، بسبب أنهم، {اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}، كان عندهم حبّ ورغبة بالحياة التي نعيشها الآن، {عَلَى الْآخِرَةِ}، على الحياة التي ستأتي في الآخرة بعد الحياة الأولى، وَعَدَهُمْ سبحانه بحياة رائعة في الآخرة لمن آمن، ولكنهم أحبوا الحياة الدنيا وفضّلوها على الآخرة، فكفروا حتى لا يطيعوا ما يأمرهم به ربّهم سبحانه وحتى يتمتّعوا ببعض الأعمال السيئة هنا في الدنيا.

مِنَ الأسباب الرئيسية لمن يكفر من بعد إيمانه أنه متعلّق بشيء سيّء يحبّه في الدنيا، وهذا الشيء يقول عنه تعالى إِنَّ عليه عِقَاباً، ويعده تعالى بالحصول على أعلى السعادة في الآخرة إن ترك السيئات، ولكن هذا الشخص فضّل الحصول على السعادة من الأشياء السيئة هنا في الدنيا، فكفر بالدين الإلهي وفعل ما يحبّه من سوء، لِذَلِكَ سينال عذابا شديدا ولن يحصل على أي تخفيف بسبب الفترة التي كان فيها مؤمنا، حَيْثُ لَنْ تنفعه.

{وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي}، لا يضع "غضبا عنهم" على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة، {الْقَوْمَ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع دينه تعالى، {الْكَافِرِينَ}، المنكرين لدينه تعالى، فمن قرّر أن ينكر الدين الإلهي ولا يلتزم به فلن يضعه تعالى غضبا عنه على الطريق الصحيح، ولن يعتبر أفعاله السيئة مقبولة أو يعتبرها غير ذات أهمية وَيَتَغَاضَى عنها، لا بل حتما لن توصله إلى نتيجة مرغوبة في الآخرة.

لَاحِظْ، أَرْسَلَ سبحانه رسولا، وأنزل على رسوله رسالة، والرسالة هي القرآن، والقرآن شرح كل ما نحتاجه حتى نؤمن كلنا، ولكن من كفر، فلن يهديه الله تعالى، وَلَنْ يجبره على الهداية، ولن ينير له قلبه، ولن يحبّب له الإيمان في قلبه... قَارِنْهَا مع ما قاله القرآن عن المؤمنين، فمن أعلن أنه مؤمن فسينال دعما إلهيا حتى يزداد إيمانه، ولكن هذا الدعم الإلهي يختلف من شخص لآخر باختلاف النيّة التي ينتج عنها التصرّف، وكمثال من مجتمع المسلمين، نَحْنُ كمؤمنين، كأشخاص أعلنوا أنهم معتقدون ملتزمون بهذا الدين الإلهي، نَوَايَانَا مختلفة وتصرفاتنا مختلفة، وَأَكْثَرُ آفّة منتشرة نراها في مجتمعاتنا هي الغيبة والاستهزاء بالناس، عِنْدَمَا نشارك في الأحاديث ونريد البروز بتسلية الآخرين، أو بالزهو والفخر... نَقُومُ بالتحدّث عن معايب في الناس! يُلْهِمُنَا تعالى بطريقة ما أننا يجب أن نتوقّف ولا نكرّر هذه الفعلة،

وَنَرْفُضُ هذا الإلهام ونستحبّ التسلية بالغيبة، وَنُكَرِّرُهَا، ونكرّرها... وبعدها لا نشعر بأي ذنب من الغيبة! وَهُنَا أيضا نحن في حالة الابتعاد عن الهداية الإلهية، لِذَلِكَ لَنْ ينير تعالى قلبنا لنتقدم في فهمنا للأمور الصالحة، ولن يجعلنا نحبّ الإيمان أكثر... ولكن من حاسب نفسه على الغيبة والاستهزاء، يُسَاعِدُهُ ربنا سبحانه، وإذا أخذ قرارا بالتوقّف فعلا عن السيئات، فهذا حَصَلَ على الدعم الإلهي واستفاد منه...

وَالْكَافِرُ، حَصَلَ مثله مثل بقيّة الناس على القرآن، فإن قرّر أن يؤمن، فحسنا ما فعل، وأمّا إن قرّر أن يكفر، فكيف سيهديه ربنا سبحانه؟ هَلْ يجبره؟ وهل يقوم له بأشياء غريبة عجيبة حتى يؤمن؟ لا لن يهديه بأي طريقة أخرى غير هذا القرآن والآيات التي في خلقته وفي خلقة ما حوله.

وَلَا تَنْسَ أن الآية هنا والتي سبقتها تستهدف الذي آمن ثم كفر وصدره منشرح بالكفر، حَيْثُ لَمْ يكفر لأن الآخرين أجبروه غصبا عنه وبالتهديد... بل من طيب خاطره كفر، وَهَذَا يَخْطُرُ بباله أن الفترة الزمنية التي آمن فيها ستؤمن له حماية من العقاب في الآخرة، لا، والآية هنا تريك سبب تركه للإيمان وعودته للكفر، لِأَنَّهُ تعلّق بشيء سيّء في الدنيا ولم يؤمن بالآخرة، وكل من كانت هذه حالته فله عذاب أليم في الآخرة ولن تنفعه الفترة التي آمن فيها.

بقي شيء، مَا سبق وقلناه في ذيل الآية 97 مفيد هنا، حَيْثُ هُنَاكَ مدح إلهي للعاملين للصالحات، وهنا تهديد لمن كفر مستحبا الحياة الدنيا، وفي المقابلة بين التعبيرين نفهم أن الكافر أحبّ شيئا ليس صالحا، أو أحبّ ترك شيء صالح يجب فعله... وبناء على ما فهمناه من تعابير القرآن عن الصالحين، نفهم أن الكافر أحب فعل سوء ما حتى كره الإيمان المانع عن فعل السوء.

(أُولَـئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ{108})
{أُولَئِكَ}، الذين كفروا بعد إيمانهم بقرار منهم بلا ضغوطات قهرية من الآخرين، أو من بعد ضغط الآخرين كفروا ولكنهم كانوا مرتاحين للكفر... {طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ}، قُلُوبُهُمْ، أَسَاسُ فكرهم ونفسيتهم صار عليه طبع، وَصَارَتْ طَبِيعَتَهُ، حَيْثُ صار مترسّخا فيه شيء ما، وكما ترى صَارَتْ طبائعهم رفض الدين الإلهي، فَيَرْفُضُونَ الإيمان لأنه يخالف فكرهم وشعورهم ولا يرتاحون له، وطبع تعالى على، {سَمْعِهِمْ}، حَيْثُ صار مدخل الأصوات إلى إدراكهم أيضا له طبيعة ترفض قبول كلام الهداية، فَيَسْمَعُ كلام القرآن وكلام المؤمنين ويرفضه ويقبل فقط كلام الكفر، وطبع تعالى على، {أَبْصَارِهِمْ}، حَيْثُ صارت قدرتهم على إدراك ووعي الصور مطبوعة بطبيعة غير الإيمان، وَأَيُّ شيء يرونه ويدلّ على الإيمان فَبَصَرُهُمْ لا يدركه وَلَا يعيه ولا يستوعب دلالته على الإيمان لأنه مخالف لطبعه، ومخالف لما ترسّخ فيه، يَرَى آياته تعالى فيما خلقه سبحانه، ولكنه لا يراها آيات دالة عليه سبحانه.

مِنَ المشتقات الدارجة من معنى الطبع أن تطبع يدك على الطين، أو تطبع على الشمع الذائب، ولكن أصل المعنى هو الطبيعة وهو ما يصير عليه الشيء مترسّخا كصفة لا تنفصل عنه.

{وَأولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}، الذين لا ينتبهون لشيء يحصل، حَيْثُ إِنَّ الْمَشَاعِرَ الإيمانية والكلام الإيماني ومشاهد الإيمان، تحصل وتمرّ أمامهم وهم غافلون عنها لا ينتبهون لها، لأنهم رفضوها، ورفضوها مرة ثانية، ورفضوها... حتى صار قلبهم وسمعهم وبصرهم يرفض أي شيء إيماني وَلَنْ ينتبه له.

لِنَتَصَوَّرْ حالة الطبع بتعبير بسيط متساهل فيه، وَلْنَتَصَوَّرْهُ مثل حالة قوالب البلاستيك، وَالَّذِي شكله مثلث لن يدخل فيه شكل مربّع من نفس الحجم، تَصَوَّرْ وجود باب على قلبك "فكرك ونفسيتك"، وأنت ترفض مرور مشاعر وأفكار الإيمان إلى قلبك، وتسمح بمرور الكفر، وَمَعَ التكرار، صار لباب قلبك قَالَبٌ، شَكْلٌ مُحَدَّدٌ، يسمح بمرور الكفر فقط، وَخَلَقَنَا الإله سبحانه بحيث أننا وبقرار منّا نرفض الإيمان، ومع تكرار رفضنا، جَعَلَ سبحانه طبيعة قلبنا تَنْطَبِعُ مُتَشَكِّلَةً، لِيَنْطَبِعَ قلبنا وسمعنا وبصرنا بطبعة الكفر. وبالعكس لَوْ قرّرنا رفض الكفر، فَسُبْحَانَهُ جَعَلَ قلبنا قابلا للانطباع بطبعة الإيمان وَلَا يمرّر الكفر.

بِكَلَامٍ من دراسات عصرنا، الْعَصَبُونَاتُ التي في دماغنا والتي عدد روابطها مع بعضها بالتريليونات، هَذِهِ في قسم كبير منها تتشكّل روابطها بناء على قراراتنا وما اخترناه، ومن كثرة تكرار نفس القرارات والأفعال، تترسّخ روابط عصبية على أساسها، وَالَّذِي يتمرّن على مهنة حرفية بيديه، ستزيد عنده المهارة الحركية للفعل الذي تمرّن عليه، لِنَقُلْ إِنَّهُ يرسم

على الورقة دائرة لا اعوجاج فيها، وَهَذَا يحصل لأنه كرّر رسم الدائرة مرارا وتكرارا، مِمَّا رَسَّخَ فِي دِمَاغِهِ الروابط العصبية المسؤولة عن حركة يده والمربوطة بصور عن الدائرة في ذهنه.

نفس الشيء يحصل في دماغنا من تكرارنا لأي فعل أو قرار نأخذه، وَيَصِيرُ طبيعة فينا، مَنْ يكذب لتسلية الآخرين أو ليبرز بعلومه أو ليظنوا أنه مهمّ... أَوَّلَ مرة يكذب ويأنّبه ضميره ولو قليلا، وبعدها يكرّر الكذب، ويكرّره، حتى يَنْمَحِيَ من فكره أي تأنيب ضمير على الكذب، حَيْثُ إِنَّ الرَّوَابِطَ الدماغية التي كانت تنهاه عن الكذب طغت عليها روابط الطبيعة الجديدة التي ترسّخت من كثرة التكرار، وبعضهم يصل إلى مرحلة لا يَعُودُ يميّز فيها هو نفسه بين الكذب والحقيقة، وَيُصَدِّقُ الأكاذيب التي يخترعها من خياله!

الْكُفْرُ والإيمان ليسا شَيْئَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ عن أي شيء آخر يتعامل معه دماغنا، وَلَيْسَا مُخْتَلِفَيْنِ عن المهنة والحرفة والدراسة وحفظ المعلومات... كُلُّ هذا يصير من طبيعتنا من كثرة التكرار والتمرّس عليه والرغبة فيه... وكذلك الإيمان والعمل الصالح والكفر وفعل السوء مِنْ كثرة التكرار يترسخان ويصيران طبيعتنا...

(لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ{109})
{لَا جَرَمَ}، حتما وبالتأكيد، {أَنَّهُمُ}، المطبوعون بالكفر، {فِي الْآخِرَةِ}، في الحياة التي ستأتي في الآخر بعد انتهاء الحياة الأولى الحالية، {هُمُ الْخَاسِرُونَ}، حيث فقدوا شيئا له أهمية وكان يمكنهم الحصول عليه، إذ كان بإمكانهم الحصول على الرحمة الخاصة بالمؤمنين، وبالتالي الحصول على المغفرة والثواب الحسن ومضاعفته... وعلى الجنّة، ولكنهم سيخسرون كل هذا.

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ{110})
نرجع لحالة من آمن في مجتمع يريد إكراهه على الكفر التي ذكرتها الآية 106 السابقة.

{ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ}، إن المسؤول عنك من مستوى إلهي، {لِلَّذِينَ هَاجَرُوا}، الذين تركوا بلدهم بالمرّة، {مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا}، من بعدما تعرّضوا لشيء أجبرهم على التغيّر، وسياق الكلام عن فتنتهم من مجتمعهم الكافر بالتهديد أو الترغيب ليجبرهم على الكفر، فصاروا مجبورين إمّا على الهجرة أو الكفر، وهاجروا وتركوا بلادهم ليتخلصوا من الفتنة ويبقوا مؤمنين، {ثُمَّ جَاهَدُوا}، حيث قاموا بعمل فيه جهد، ولم يكن سهلا، يعني سبّبت لهم الهجرة تعبا وعناء، هناك أناس لديهم بيوت وأملاك وأقارب وأصدقاء في عدة بلدان، فإن ترك بلدا فيه كفّار يجبرون الناس على الكفر، وعاش في بلد آخر لا يتعرّض فيه للمشاكل، فهذا حالته عاديّة، ويكسب أجرا منها، ولكنها عادية، وليست مثل الذي اضطر للهجرة إلى بلد ليس له فيه بيت ولا أملاك ولا أقارب ولا أصدقاء... فهذا يعلم أنه مهاجر إلى الجهاد، إلى مكان سيكون متعبا شاقّا عليه، {وَصَبَرُوا}، بقوا يتصرفون بشكل وَاعٍ ومدروس بعد فقدانهم بيتهم وتجارتهم وأملاكهم... فلم يتركوا دينهم ولم ييأسوا ولم يتأفّفوا ولم يقوموا بتصرفات سيّئة...

ننتبه، القرآن في عدّة آيات بيّن لنا أن الهجرة أمر ضروري طبيعي يستنتجه أي عاقل، حتى لو لم يصلك أمر عبر القرآن بالهجرة للمحافظة على دينك إن كنت في مجتمع يجبرك على الكفر، فأنت من نفسك تعلم بوجوب الهجرة، يعني عندما تقرأ الآيات التي تشبه آيتنا هنا، صياغتها ليست صيغة أمر بالهجرة بل صيغة تأكيد على صحّة القرار بالهجرة في هذه الحالة، وتفهم منها أنك من دون أن ينزل قرآن يأمرك بالهجرة، من نفسك تدرك وجوب الهجرة، وستتحاسب إن لم تهاجر وكفرت. وتقرأ ذلك صريحا في الآية 97 من سورة النساء: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}. علما أن هذه الآية يصير منطوقها حاليا بالنسبة لنا عندما نسمعها منقولة عن الحساب في الآخرة، تصير أمرا إلهيا واضحا بالهجرة خوفا على الإيمان.

{إِنَّ رَبَّكَ}، إن المسؤول عنك من مستوى إلهي، {مِنْ بَعْدِهَا}، من بعد الهجرة والصبر، {لَغَفُورٌ}، لديه صفة الغفور، يتجاوز عن السيئات، ويخصّص لهم بسبب هجرتهم التي كانت قاسية عليهم، وبسبب صبرهم، يخصّصهم سبحانه بالمغفرة على السيئات التي تَصْدُرُ عنهم، وربك {رَحِيمٌ}، لديه عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، وهذا شيء أخبرنا عنه القرآن مرارا وتكرارا، سوف ينالون عناية إلهية خاصة، متى؟:

(يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ{111})
سينال المهاجرون الصابرون المغفرة والرحمة الخاصة:

{يَوْمَ}، في الزمن الذي، {تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ}، يحضر كل شخص، {تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا}، حيث لا أحد يدافع عنها ولا هي تدافع عن غيرها بل تحاول إقناع الذي يحاسبها بأنها بريئة أو تطلب التجاوز عن سيئاتها... وهذا سيحصل في يوم القيامة من الموت وما بعده في عالم الآخرة، حيث كل نفس فعلت السوء ستبرّر وتعتذر عن أفعالها السيّئة، وتعرض الملائكة(ع) الأدلة ويشهد الشهود... ويحصل أخذ وردّ بين الملائكة(ع) والإنسان الذي يتحاسب... ونقلت الآية 27 من سورة ق نموذجا عن ذلك {قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ}، وسياق الكلام هنا عن المؤمن المهاجر للمحافظة على إيمانه، وهذا ما يعده به تعالى من مغفرة في اليوم الذي يحتاج فيه بشدّة للمغفرة، وهو اليوم الذي تجادل كل نفس... المهاجر وبسبب هجرته انغفرت له ذنوب يحتاج لمغفرتها له في ذلك اليوم.

وهو نفسه يوم، {تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ}، تحصل بالكامل على، {مَّا عَمِلَتْ}، على عموم ما دخلت فيه سواء نوته أو باشرت فيه أو أنجزته، {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}، حيث لن ينقص من عملهم شيء ولن يَزيدَ تعالى عليه شيئاً، فبالعدل والإنصاف سينالون بالتمام ما عملوه.

إذن، في هذا اليوم الصعب جدا، سينال المهاجرون الصابرون، مغفرة تمسح ذنوبهم، ورحمة إلهية خاصة تضاعف لهم حسناتهم، حين يقف الشخص لمحاسبته، عن سيّئاته سيسألونه، ويجادل مع الملائكة(ع) للدفاع عن نفسه، والمهاجر الصابر، سينال المغفرة فلن يقف ليجادل عن سيّئاته لأنها انمسحت، وفي الآخرة يُعطونك كل ما عملته من خير أو شرّ بالتمام، ولكن المهاجر الصابر سيحصل على الرحمة الإلهية الخاصة، ستتضاعف حسناته وسينال الشفاعة...

نلاحظ تعبيرا دقيقا في الآية، لن أجادل عنك ولن تجادل عني هناك في يوم الحساب، ما فيك يكفيك، وتلاحظ تركيز الآية هنا على هذه النقطة، حتى يتبيّن لك أنه في هذا الموقف الشديد جدا سيقف سبحانه إلى جانب المؤمن المهاجر الصابر.

يعني، كل نفس عملت سوءا ولم تنل الرحمة بسبب الكفر فسوف تجادل عن نفسها، ومعلوم لك أنه لا نفع من جدالها، وأمّا المؤمن الذي لديه أعمال سيّئة وكان استغفر منها وحافظ على تديّنه، وكنموذج هنا ذكرت الآيات السابقة المهاجر للمحافظة على إيمانه، فهذا سينال الرحمة وعمليا يعني ذلك مسامحته عن ذنوبه، فلن يجادل عن نفسه، الآية تحفيز للمؤمن حتى يحافظ على تديّنه وينال الرحمة وينجو من الحساب، مترفّعا عن متاع الدنيا الفانية الذي خسره بسبب هجرته.

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ{112})
{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا}، فقال لنا عبر هذا القرآن شيئا تشبيهيا: {قَرْيَةً}، أناس مجتمعون مع بعض، بعدد كبير كالمدينة أو صغير كالبلدة، {كَانَتْ}، القرية، {آمِنَةً}، في حالة الأمان في حالة الشعور بالخلو من الأخطار من عدو أو كوارث، {مُّطْمَئِنَّةً}، تشعر بالاطمئنان، تتوافر لديها معطيات استبعاد الخطر والاضطراب، {يَأْتِيهَا رِزْقُهَا}، تحصل على الأشياء التي تحتاجها لتسدّ حاجاتها ورغباتها وأهمّها الأكل الذي يحافظ على استمرار حياتهم، {رَغَدًا}، لا تحمل الهمّ من نوعية الرزق لأنه جيّد، ولا همّ الوفرة لأنه يكفيهم، ولا همّ تزاحم الآخرين عليها وعلى رزقها... {مِّن كُلِّ مَكَانٍ}، من مختلف طرق وجهات تحصيل الرزق المتاحة لهم يأتيهم الرزق رغدا، حيث يسافر أهلها إلى الأماكن الأخرى ويحضرون الرزق، ويأتي التجّار يحملون الرزق، وهم يزرعون هنا أو هناك، والماء متوافر والبيئة مناسبة... ويبيعون هنا أو هناك... ولا مشاكل. {فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ}، أنكرت الأشياء الجيدة التي أعطاها الله تعالى لهم، لم يعتقدوا أنه هو سبحانه أعطاهم هذا الرزق الرغيد، واعتقدوا بأن آلهتهم أعطتهم الرزق، أو بقدرتهم الذاتية حصلوا على الرزق.
{فَأَذَاقَهَا اللَّهُ}، جعل القرية تتحسّس، {لِبَاسَ الْجُوعِ}، حلّ عليهم الشعور بالحاجة للأكل، ما معهم من رزق ليس كافيا لسدّ جوعهم، صار الجوع حالتهم وكانوا من قبل يتلبسون بحالة الرغد، وأذاقهم سبحانه لباس {وَالْخَوْفِ}، ذهب

الاطمئنان ولبسوا حالة الشعور بالخطر الذي لا يمكنهم تجنبّه من القحط والكساد أو الجفاف... {بِمَا}، بسبب الذي، {كَانُوا يَصْنَعُونَ}، نتج متحققا عن كفرهم شيء، تحقق شيء وهو عاطل، ولذلك حرمهم سبحانه من النعمة وأصابهم بالجوع والخوف.

من هي هذه القرية؟ هذا سؤال في غير محلّه، الآية تضرب مثلا تشبيهيا، ونعرف عدة قرى مشابهة لهذه القرية تحدّث عنها القرآن وقرى أخرى لم يذكرها القرآن ونعلم أنها أبيدت أو تعرّضت لكارثة كما نفهم من الآية 164 من سورة النساء: {وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا}، والآية 17 من سورة الإسراء: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}، اختر أي واحدة منها، وستكون مثلا عن هذه القرية، كقرية عاد أو ثمود أو مصر في عهد النبي موسى(ع)...

هل في التاريخ المعاصر نعرف نموذجا مشابها؟ نعم، كل مجتمع من الناس يعيش في ضائقة مادية ومشاكل أمنية فهو حتما كافر بأنعمه تعالى، حتى لو كان بلدا مسلما. وهذا لا يعني أن كل بلد مرتاح فهو مؤمن أو سبحانه راض عنهم، لديه سبحانه مقياس للتعامل مع مختلف حالات القرى، وشروط العقاب الجماعي من العيار الثقيل كالإبادة هو قيام الغالبية بسوء جماعي من العيار الثقيل ويتوافقون عليه كلّهم، وأن ينقطع الأمل من إيمانهم أو توقّفهم عن ذاك العمل... وبعد ذلك العقاب بحسب درجة السوء ودرجة انتشاره... لا نحلّل دينيا برأينا ونخرج بنتيجة من عندنا وعلى مقاييسنا وشروطنا لنستغرب تنعّم دول غير مسلمة بالأمن والرفاهية، ونستغرب سوء حال دول مسلمة، الانتماء للإسلام بالاسم لا قيمة له بدون تطبيق، وهذه حالة قرية من قرى بني إسرائيل المنتمية بالاسم لدينه تعالى والتي أصابها عذاب مهين كما ورد في الآية 65 من سورة البقرة: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}.

الكلام يجرّ الكلام، أكثر كلام القرآن عن السيئات والفساد والسوء والشرّ... يبنيه على كفر الناس به تعالى وبالآخرة وبالتعلّق بمتاع الدنيا السيّء طبعا، ومن ناحية أخرى كلامه في مقابل ذلك عن الحقّ والأعمال الصالحات... أقول لك هذا لأننا عادة نعتقد أن الكفر به تعالى هو السبب الوحيد لنزول عذاب دنيوي، أو لوحده سبب كاف لنزول عذاب دنيوي، وهذا بالعموم غير دقيق ولا صحيح، في النماذج التي طرحها القرآن عن الأقوام التي نالها العذاب المباشر منه تعالى تلاحظ أنها كلها فعلت السوء وذكرته السور، فرعون لحق ببني إسرائيل ليقتلهم، وثمود وعاد طغوا في البلاد، وقوم النبي لوط(ع) فعلوا الفاحشة، ومدين غشّاشون، ولم يكتف القرآن بذكر ما فعلوه من سوء بل أكّد أنه منتشر بينهم كلّهم أو بكثرة كما في حالة ثمود ومدين، ولدينا المنتمون لدينه تعالى "الموحدون" والذين فعلوا السوء المستحق لنزول عذاب دنيوي عليهم كحالة اليهود في القرية التي كانت حاضرة البحر وصاروا قردة كما ورد في الآية 163 وما بعدها من سورة الأعراف... ويبقى لدينا حالة قوم النبي نوح(ع) الذي لم يذكر القرآن صراحة وبالتحديد ما السوء الذي فعلوه غير كفرهم، يبدو أن سوءهم كان عموميا من مختلف أنواع السوء ولم يكن هناك شيء سيّء واحد محدّد منتشر بينهم، وهذا ما نفهمه من الآية 52 من سورة النجم: {وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ}.

كلام القرآن يؤكّد أن أكبر سيئة هي الشرك به تعالى وعقابها في الآخرة الخلود في النار، وبعدها يذكر أفعالاً نحن نقوم بها وتسبب الخلود في النار، كقتل الأبرياء... ولكن لا تجد كلاما صريحا يهدّد بالعذاب الدنيوي على الشرك به تعالى فقط، ولا على سيئة ليست منتشرة بين القوم، وحالة قوم النبي إبراهيم(ع) الذين حاولوا إحراقه ولم ينزل عليهم عذاب إلهي، ترى فيها أنهم مشركون وحاولوا قتل رسول إلهي، ولم يقرّر تعالى تعذيبهم، ولم ينقل القرآن عنهم أي عمل سوء منتشر بينهم سوى الشرك.

هنا في الآية الكلام عن إصابة بالجوع والخوف لمن كفر بأنعمه تعالى له وجهان يبدوان من كلام القرآن عن تعذيب الأقوام، الجوع والخوف عذاب دنيوي لهم على كفرهم بنعمته تعالى عليهم، وأنت تعلم أن الخوف يأتي من الأعداء أو الفلتان الأمني الداخلي... والكوارث، والجوع يأتي من سوء الأحوال البيئية أو من الاحتكار والفساد... هناك عوامل تنتج عن الطبيعة من حولنا لنصير في حالة الخوف والجوع، وعوامل تنتج عن البشر مسببة للخوف والجوع.

كلام القرآن واضح، هناك كوارث حدثت بتدخّل إلهي، كطوفان قوم النبي نوح(ع) وزلزالي ثمود ومدين... وهناك كارثة أوقفها التدخّل الإلهي وهي المذكورة في الآية 98 من سورة يونس: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ}، ولدينا كلام صريح عن تدخله تعالى

لمنع الكوارث من الحدوث للقرى المؤمنة المستغفرة، كما ورد في الآية 96 من سورة الأعراف: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} ولدينا في الآية 16 من سورة سبأ كلام صريح عن حصول كارثة مع قرية سبأ سببه إعراضهم عنه تعالى: {فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ} ومعلوم أنهم كانوا يحتمون من السيول بالسدود، جاءهم سيل لم تتحمّله سدودهم.

من معطياتنا العلمية ومجمل هذه الآيات نفهم أن الكوارث تحدث بشكل طبيعي هي من طبيعة الأرض المتجددة، ولكنها بالنسبة للحيوانات كوارث لأنها تميتهم أو تدمّر بيئتهم، ونفهم من الآيات السابقة أنه تعالى يتدخّل في حالات خاصة لمنع حدوث الكوارث الطبيعية كما في حالة قوم النبي يونس(ع)، وفي حالة أي قوم يستغفرونه سبحانه... وفي حالات أخرى سبحانه يترك الكوارث تحدث، وفي حالات أخرى هو تعالى يأمر بحصولها كما في حالة قوم النبي نوح(ع)...

ليس كل كارثة طبيعية من أمره تعالى استثنائيا بحصولها، البعض منها حصل استثنائيا بأمر منه تعالى، والبعض منها يتدخل تعالى لمنع حدوثها أو التخفيف من ضررها، هذا متعلق بمدى سوء ما تفعله الأقوام ومدى انتشاره بينهم.

ليس كل كارثة ناتجة عن الكفر به تعالى كسبب لها لوحده، وإلا لأباد تعالى قوم النبي إبراهيم(ع) وغيرهم الكثيرين... وليس كل قوم كافرين حتما سيصيبهم كارثة بأمر إلهي، إن لم يكن مقطوع الأمل بإيمانهم أو إيمان أحد من ذريتهم فعندها حالتهم مثل حالة قوم النبي يونس(ع) الذين استغفروا فرفع تعالى عنهم العذاب، وإلا فحالتهم مثل حالة قوم النبي نوح(ع) الذين لن يلدوا إلا فاجرا كما ورد في الآية 27 من سورة نوح: {إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} ولذلك أبادهم سبحانه بكارثة.

بقي عندنا حالة الكوارث الطبيعية وغيرها التي يساهم فيها البشر بحصولها، وهذا ما نفهمه من العديد من الآيات ومنها الآية 41 من سورة الروم: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}. من فساد البشر لم يبنوا سدوداً مناسبة للمكان الذي اختاروه ليعيشوا فيه، ومن فسادهم بنوها سيئة بمواصفات رديئة، ومن فسادهم لم يقوموا بصيانتها، ومن فسادهم أصلاً لم يبذلوا جهداً لتغيير تضاريس الأرض، ومن فسادهم اختاروا أماكن غير صالحة لأن أرضها رخوة ومعرّضة للانجراف...

هكذا فهمنا مختلف عناوين حالات حصول كوارث في الدنيا على الجميع، حصولها ليس حكراً على الكافرين علناً، بل تحدث أيضاً على المنتمين لدينه تعالى إن كانوا فاسدين، ويمكن للكافرين الاتقاء من الكوارث الطبيعية إن لم تكن أنظمتهم فاسدة، ولكن لا يمكن لأي أحد الاتقاء من كارثة تحصل بأمر إلهي إلا بالاستغفار...

الجانب الآخر الكوارث التي تحدث من الناس، كالحروب والفلتان الأمني وانتشار الأمراض... هذه يتركها تعالى تحدث إن لم يكونوا يستحقون تدخله تعالى لمنعها أو التقليل من ضررها... ولدينا آيات نسبت هذه الأمور له تعالى مع أنها من أفعال البشر، وفهمنا أنها قصدت تركه تعالى لها تحصل، وأنه تعالى من الأصل صمّم الدنيا وفيها قابلية حدوث هكذا أمور، ولذلك ينسب حصولها لنفسه سبحانه، وفهمنا أنه تعالى وبتدخلات لا نراها أيضاً يتلاعب بمجريات الأحداث حتى تسير كما يريد سبحانه، ومن ناحيتنا لا نرى تدخله تعالى، وهذا شيء عرضته سورة يوسف بكلامه عن مجريات أحداث من حياة النبي يوسف(ع) جرت من أفعال أبيه وإخوته، وكانت النتيجة وصول الولد يوسف إلى مصر ليترعرع فيها ويكون رسولها... وهذا ما أراده تعالى كما تقرأ من الآية 21 من سورة يوسف: {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.

الآية 41 من سورة الروم صريحة وواضحة: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، ونفهمها بدون تعقيدات عندما نفهم أن دينه تعالى أصلاً ليس غير الخير الذي من المفروض أن نراه نحن خيراً لنا جميعاً لدنيانا ولآخرتنا، حين يتحدّث تعالى معنا عن مشكلة الشرك، يرينا أنه اعتقاد باطل غير صحيح حيث كل الأدلة تشير لتوحيده تعالى، ومن جانب آخر يرينا أن هذا الكفر سينتج عنه حتماً فساد في التشريع والسلوكيات، وستكون حياتنا في الدنيا جهنم قبل الآخرة، حتى لو كنّا منتمين بالاسم لدينه تعالى وللتوحيد.

(وَلَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ{113})
{وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ}، لم ينزل من الفضاء ولم يكن من الجنّ ولا من الملائكة(ع)، بل واحد من الناس، ويتحدّث بلغتهم، {فَكَذَّبُوهُ}، فلم يصدّقوا ما يقوله لهم، وبالتحديد نظرا لموضوع السورة، كذّبوا بتوحيد الإله وأنّ كل النعم منه تعالى.

{فَأَخَذَهُمُ}، تناولهم ولم يتركهم، {الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}، لأنه لم يكن معهم حق بإنكارهم النعمة الواضحة عليهم أنّها منه تعالى، ولم يكن معهم حقّ في تكذيب رسوله تعالى، فظلما كفروا وكذّبوا.

لاحظ أنّ نفس النقطة التي يعترض عليها الكفّار "الرسول من البشر" يعتبرها القرآن هي نفسها الصحيحة والتي يجب أن تكون دافعا لهم ليؤمنوا. لِنُبالغْ ولْنَقُلْ إنّ مخلوقا من الفضاء نزل بسفينة فضائية، وشكله غريب، وقال للمشركين إنّه رسول منه تعالى، بالنسبة لهم، هذا دين جديد لا علاقة لهم به لأنه دين من الفضاء، وبالنسبة لهم هذا مخلوق فضائي لا يعرف همومهم ولا يشعر بمعاناتهم... وبالنسبة لهم هو مجرد مخلوق غريب وغرابته ليست دليلا على أنه رسول إلهي... وهكذا عندما يعترضون على الرسول البشري فهم لم يلتفتوا لما كانوا سيعترضون به على الرسول النازل من الفضاء أو لو كان الرسول من الملائكة فنفس الشيء.

عليك بالنظر للموضوع من عيون الكفّار لتفهمه، لأنّك الآن مؤمن بدينه تعالى وبقرآنه وبرسوله(ع)... ولو أتاك شخص من الفضاء ليخبرك عن دين مختلف، ففورا ستتهمه بالكذب وستساويه مع الناس على الأرض الذين اخترعوا دينا... ولو قال لك إنّه مرسل منه تعالى، فستقارن ما يقوله مع ما لديك، فإن وافقه صدّقته، وإن لم يوافقه كذّبته، ليس لأنك متمسّك متعصّب على العمى بما لديك، لأنّ ما لديك يتماشى مع القلب السليم، مع الفكر والنفسية السليمة، حيث فيه التوحيد والبرّ والإحسان... وهذا شيء ركّزت عليه سورتنا هنا وسور عديدة من القرآن حين أمرتنا بالمقارنة بين أوامره تعالى وبين العقائد والشرائع الأخرى.

الآن، كافر أتاه شخص من الفضاء، وفعلا كان رسولا منه تعالى، بالنسبة للكافر الذي اخترع دينه ويعرف أنّ دينه من اختراع الناس، فأول ما سيقوله عن الزائر الفضائي إن ما جاء به هو دين اخترعه أهل الفضاء!

كما ترى، حين يلفت القرآن انتباهنا لرسول من بيننا، فهو يشير لأفضلية هذا الرسول على أي رسول يمكن أن يكون من غير البشر، لأنّ هذا الرسول البشري واحد منّا، يعيش معنا، ونعرفه، ويتحدّث عنّا وعن ثقافاتنا وعاداتنا وتاريخنا... ودينه لا يتناول أمورا لا علاقة لنا بها... وهو يعيش بيننا ويعرف بهمومنا ومشاكلنا واهتماماتنا، لذلك هو يمثلنا كأفضل نموذج إنساني عن الفكر والنفسية السليمة، فما معنى طلب المشركين رسولاً من غير البشر؟!

(فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً وَاشْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ{114})
{فَكُلُوا مِمَّا}، استهلكوا من الذي، {رَزَقَكُمُ اللَّهُ}، من الأشياء التي صارت معكم منه تعالى لتأكلوها، {حَلَالًا}، بحريّتكم فلا عقاب عليها، {طَيِّبًا}، حيث أتاح سبحانه لكم ما هو طيّب محبوب مرغوب، فلو لم يكن الطيّب متوافراً لكان معكم عذر في التوجّه نحو الخبائث التي ستذكرها الآية التالية.

{وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ}، وأعلنوا أنكم حصلتم على أمور جيّدة منه تعالى، {إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}، إن كنتم فعلاً تعتبرون أنفسكم مفروضاً منكم طاعته تعالى، فإن اعتقدتم وتصرّفتم على هذا الأساس فستشكرونه تعالى على ما رزقكم وتعتقدون وتعبّرون وتعترفون أنكم عبيده وأنه سبحانه اعتنى بكم فأتاح لكم عموم الأشياء الجيدة.

الآية تربط الاعتقاد بالعبودية له تعالى مع الشكر له سبحانه، فأي شكر لغيره تعالى على الرزق الذي حصلنا عليه، فهذا يتنافى مع عبادته تعالى، وهو يتنافى مع الاعتقاد بأننا مفروض منّا طاعة الذي رزقنا. وتركيز الكلام في السورة "مع وعن" المشركين، فهم أبرز نموذج لمخالفة عبادته تعالى لأنهم شكروا غيره سبحانه، حيث شكروا آلهتهم، ولكن يبقى كلام الآية عمومياً متوجّهاً إلى كل من لم يشكره سبحانه، سواء شكر غيره أو لم يشكر أحداً، وسواء اعتقد بآلهة غيره تعالى أو بالطبيعة أو بالصدفة...

لاحظ أنّ السورة فيما سبق كان تركيزها على العقيدة وبعدها تشريعات إلهية للسلوكيات المتعلقة بالمعاملات بيننا... وهنا الآيات ستدخل على جانب التشريع للطعام والشراب من هذه المقدمة:

(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{ 115})

{إِنَّمَا}، حصراً، {حَرَّمَ عَلَيْكُمُ}، جعل سبحانه حراماً وعليه عقاب، ومنعكم عن: {الْمَيْتَةَ}، وهي الحيوان الذي يجوز أكله ولكنه مات من دون ذبح أو نحر أو صيد، حيث مات من المرض، أو لأنه وقع عن جبل أو لأن حيواناً آخر آذاه أو من الضرب أو الخنق... راجع في ذلك الآية 3 من سورة المائدة "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ..."

حرّم عليكم، {الدَّمَ}، شرب الدم بعد تجميعه وهو حرام من كل الحيوانات، حتى الحيوانات التي يجوز أكلها كالبقر والغنم، فتجميع دمها وشربه لوحده حرام، وأمّا ما بقي في العروق واللحم فيجوز استهلاكه مع الأكل أو الطهي.

حرّم عليكم، {لَحْمَ الْخِنْزِيرِ}، فالعضلات وبقية الأعضاء حرام، أما العظم والظفر والجلد... فعادة الناس لا تأكله فلا معنى لأن تقول عنه الآية بأنه حرام أكله.

هذا الافتراض يشبه ما افترضته الجملة السابقة عن حرمة الميتة، لأن الكلام عن ميتة الأنعام وافترضت معرفتك بذلك ولم تذكره، حيث لا تقصد حرمة ميتة الأسد والذئب... بل حرمة ميتة ما هو حلال أكله كالبقر والغنم... لأن تلك الحيوانات لا تأكلها الناس عادة، ومعلوم حرمة أكلها...

حرّم عليكم، {وَمَا أُهِلَّ بِهِ}، وقيل عليه كلاماً استهلالياً كمقدمة للذبح، كلاماً يسبق الذبح أو النحر أو الصيد، {لِغَيْرِ اللَّهِ} تعالى، للآلهة التي يعبدها المشركون... كأن يقول الذابح: شكراً للقمر، أو باسم الكواكب، أو باللات والعزّى... أو لا يقول الذابح أي شيء ولا ينوي أي نية... لأنه من المفروض أن يستهلّ ويسبق الذبح أو النحر أو الصيد بكلام أو نيّة يذكر فيها اسم الله تعالى الذي أجاز لنا إنهاء حياة الحيوان وأكله، فسبحانه خلق هذه الحيوانات لنأكلها، وهو سبحانه سمح لنا أن نقتلها لنأكلها، ويجب أن نذكر اسم الله تعالى عند القيام بذبح الحيوانات التي سنأكلها كما نفهم من عدة آيات منها الآية 121 من سورة الأنعام "وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ...".

هذه الأشياء حرام ولكن، {فَمَنِ اضْطُرَّ}، ودفعته الظروف غصباً عنه وبدون رغبة منه لأكلها، حيث لم يكن يوجد لديه خيارات أخرى، وهو جائع ولا يمكنه الحصول إلا على هذا الطعام المحرّم، كالسجين عند الكفّار الذين يقدمون له لحم خنزير، أو كالذي في الغابة أو الصحراء ووجد حيواناً ميتاً ولم يجد نباتاً أو فاكهة أو حيواناً حلالاً ليأكله... فهذا مضطر أن يأكل وإلا سيموت من الجوع، فلا بأس عليه بالأكل منها، ولكن بشرط أن يكون، {غَيْرَ بَاغٍ}، غير فارض ذلك على نفسه، ويكون راغباً فيه أصلا ويستقصد تهيئة الظروف التي ستدفعه لأكل الحرام، فمثلاً: يرغب أحدهم في أكل لحم الخنزير، ويذهب من دون طعام إلى مكان بعيد يوجد فيه فقط خنازير، ويبقى هناك حتى يجوع، ويصطاد خنزيراً ويأكله، لأنه لا يجد طعاماً غيره! فهذا باغ، وهو سيتحاسب على ما أكل مع أنه مضطر ولكنه باغ.

يأكل من هذه الأشياء عند الاضطرار بشرط أن لا يكون، {عَادٍ}، مُعْتَدٍ، فلنفرض بأنه سافر ليقتل أو يسرق أناساً أبرياء، فهو مُعْتَدٍ، وفي الطريق انقطع من الطعام، فاضطر لأكل لحم الخنزير، وهو سيتحاسب لأنه أكل حراماً مع أنه مضطر ولكنه عادٍ.

إذا كان مضطراً غير باغ ولا عاد: {فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ}، حيث ارتكب حراماً يعلم بحرمته ولكن لن يتسجّل عليه ذلك، ولن يعاقبه تعالى على ذلك.

{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ}، يغفر ويتجاوز عمّا فعله المضطر، {رَّحِيمٌ}، حيث لديه تعالى عناية خاصة بالمؤمن لما فيه مصلحته، فيسمح له بأكل هذه الأشياء إن كان مضطراً ولا يحاسبه عليها. أمّا الكافر، سواء الذي علم بتحريمه تعالى لهذه الأنواع من الطعام أو لم يعلم ولم يسأل لأنه غير مهتمّ، فسيتحاسب على أكله لها في الحالات العادية، وسيتحاسب أيضاً حتى لو اضطر لأكلها ولم يكن باغياً ولا عادياً، لأن مغفرته تعالى فقط للمؤمنين.

إذاً، من بين كل الرزق فقط هذه الأمور حرّمها تعالى لأنها خبيثة، والإله الخالق هو وحده يحقّ له أن يحلّل ويحرّم، وها يخبركم بسبب التحريم لبعض الأشياء، لأنها خبيثة، وهو تعالى يعلم بأنها خبيثة ليست جيدة لكم، وأمّا أنتم أيها المشركون، فبأي منطق وبأي سلطان تحللون وتحرّمون؟ وهل لديكم علم بالخبيث لتحرّموه أو لديكم قاعدة أخرى للتحليل والتحريم:

(وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـذَا حَلاَلٌ وَهَـذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ{116})

{وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ}، أنتم تصفون بألسنتكم بهذا العضو الذي جعله تعالى في فمكم لتتكلموا به أيها المخلوقون، تصفون الرّزْقَ بأوصاف كاذبة وتقولون: {هَذَا حَلَالٌ}، هذا الرزق مسموح أكله وشربه، كالميتة والدم، {وَهَذَا}، الرزق، {حَرَامٌ}، ممنوع أكله أو شربه، كالبحيرة والسائبة... إنما هو مجرد كلام من اللسان بلا قيمة، {لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ}، وتنسبون له تعالى أموراً لم يقلها لكم، فأنتم بألسنتكم حللتم وحرمتم أشياء لم يقل لكم سبحانه بأنها حلال أو حرام، وتقولون بأنه تعالى حرّمها وهذا افتراء، وأيضا بعض ما حَرَّمْتُمُوهَا لم يحرمه تعالى أصلا، فنسبتم له تعالى افتراءً كاذباً لم يقله أصلا.

{إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ}، يقولون أموراً غير صحيحة "كاذبة" وينسبونها له تعالى "افتراء"، {لَا يُفْلِحُونَ}، لا يوصفون بأنهم أفلحوا، حيث لم يكونوا مجيدين فيما عملوه.

بالنسبة للافتراء فهو نسبتك كلامٍ أو عملٍ... للآخرين، وتلفّقه وتلصقه بالآخرين وهم لم يفعلوه أو لم يقولوه... وقد تلصق بهم شيئاً ويتبين لك فيما بعد أنهم فعلا قالوه أو فعلوه، فتكون فقط مفترياً لأنك اخترعته ونسبته لهم من دون أن تعلم بأنه صحيح، وقد تلصق بهم شيئاً لا علاقة لهم به فهم أصلاً لم يفعلوه ولم يقولوه وهذا هو الافتراء الكاذب.

إذن أنتم تحللون وتحرّمون من عندكم! فبأي حق تفعلون هذا؟ وها نخبركم بأنه عمل لن نتغاضى عنه وليس فالحاً، إذ بعضكم يقول بأنه تعالى لا تعنيه هذه الأمور الخاصّة بنا، فما نراه نحن مناسباً لتحليله أو تحريمه فلن يهتمّ به تعالى، لا.

من هنا سنطيل الكلام كثيراً مبتدئين بمقدمة تمهيدية تتناول عناوين معلومة، بعدها ننتقل إلى عمق غير منتشر الكلام عنه عادة في ثقافتنا الدينية، والبداية مع الكفّار أو بعض المسلمين والمسيحيين واليهود...الذين يعلنون استغرابهم من دخول الدين إلى تفاصيل الأكل والشرب، ويفترضون أنها أمور لا يجب أن يتدخّل فيها الإله سبحانه، على أساس أنها أمور خاصّة بنا وليست من مستوى الإله حتى يتدخّل فيها، فهي لا أهميّة لها بالنسبة له ويجب أن يتركنا على راحتنا ولا معنى لهذا التضييق علينا بالحلال والحرام للمأكولات والمشروبات...

حسناً، لنترك ما قاله تعالى جانباً ولننظر إلى نماذج من الكفّار الذين حرّموا ذبح وأكل البقرة التي ولدت ثلاثَ أو أربعَ... بقرات على التوالي! وراجع في ذلك ما ورد في الآية 103 من سورة المائدة "مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ"، ولننظر أيضاً لمن في عصرنا ويحرّمون أكل لحم الحيوانات كبعض أتباع البوذية، ولننظر إلى العلمانيين الذين لا يستعملون تعابير حرام وحلال، ويستبدلونها بمسموح وممنوع، لأن المأكولات التي تسبّب ضرراً على الصحّة ممنوع بيعها واستيرادها... حتى بعض الدول تمنع استيراد زيت الزيتون ذي الحموضة العالية! وتعاقب على محاولة إدخاله بالغرامات... وآخرون يمنعون استيراد وبيع الفستق ذِي الغلاف الخشبي "المشهور في منطقتنا باسم الفستق الحلبي" على أساس أن عفونته تسبّب السرطان... حتى أن سنغافورة في عصرنا تمنع إدخال العلكة "مستكة المضغ" بسبب رمي الناس لها على الطريق! والعديد من الدول تمنع أكل الحيوانات القابلة للانقراض... فهذه نماذج عمّا يفعلونه هم من تحليل وتحريم ومنع... وفي نفس الوقت لا يقبلون أن يحرّم سبحانه!

من الدارج بين الكثير من المنتمين لدينه تعالى فكرة الضرر الجسدي مما حرّمه تعالى، ويعتبرونها من القواعد التي على أساسها يحصل التحليل والتحريم، ولكنها ليست القاعدة الأساسية، فلا ضرر جسدي من الحيوان المذبوح بدون تسمية، إنما الضرر معنوي، نفسي وفكري "إيماني". حيث إن بعض الناس لسبب أو لآخر يكرهون طعم اللحم، وآخرون تأتي صورة الحيوان على بالهم فلا يتحملون أكل لحمه... وبعض الناس يرون أو يشعرون بضرر لجسدهم من

أكل اللحم... إذ سبحانه أجاز لنا أكل اللحم ولم يجبرنا عليه، وهؤلاء أحرار في امتناعهم عن أكل اللحم، ولكن سبحانه حرّم علينا قتل الحيوانات من دون سبب، وحرّم علينا قتلها لأكلها من دون ذكر اسمه قبل قتلها، على اعتبار أنه إنهاء لحياة ونحتاج لأخذ الإذن ممن خلقها قبل إنهاء حياتها، والعبارة المشهورة المتوارثة عن الثقافة الدينية الإلهية منذ آلاف السنين: سبحان من حلّلك للذبح. والتي نستعملها عادة كتسمية قبل الذبح، إذ هي في نفسها تتضمّن المعنى الجوهري من فرضه تعالى علينا التسمية قبل الذبح، فهو سبحانه حلّل لنا ذبحها، لأنه خالقها مالكها وقد أجاز لنا قتلها، لأن الحيوانات لم تأت من الفراغ، ولا من خلقة الطبيعة والصدفة... بل لها مالك منحها الحياة وأنت تأخذها منها.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن القواعد المتبعة في المسالخ من طبيب مختص يفحص الحيوان قبل وبعد قتله ليتأكد من خلوّه مما يضرّ بنا، إذ هو نفسه بشكل ما الأمر الإلهي لمنع أكل الميتة، لـتصير القاعدة معرفة حالة الحيوان قبل موته... ويمكنك افتراض حالة حيوان سليم جهّزته للذبح وأثناء ذلك نطحه حيوان آخر وقتله وهذه حالة نحن متأكدون فيها أن الحيوان المنطوح صالح للأكل، ولكن فَقَدَ شرط التزكية بالتسمية، وأي مسلخ يتبع القواعد فلن يجيز لك بيع لحم الميّت المنطوح... ولست أتحدّث عن مسلخ تابع لقواعد المسلمين بل عن أي مسلخ في دولة تلتزم بالقوانين، فلو أحضرت بقرة ميتة للمسلخ وقلت لهم أنها ماتت من نطح الثور لها، فحتى لو صدّقوك وكنت صادقاً، ولكنهم يعتبرونها ميتة وغير معترف بصلاحيتها للأكل لأنها لم تمت في المسلخ... فالقاعدة التي نلتزم بها نحن: ما لم نذبحه "بالتسمية عليه"، لا نأكله. وهذه القاعدة تجعلك مترقياً كملتزم بدينه تعالى لديك قواعد للتعامل مع الأشياء، فيثق بك الآخرون أنك لن تتهاون ولن تطعمهم من جيفة وجدتها ميتة.

أمّا تجميع الدم وشربه، فتصرّف تنفر منه عموم الناس، ويريدك تعالى مترقياً عن أفعال تنفر منها الناس.

أمّا تحريم الخنزير فهو حيوان معلوم أكله لكل ما يقع تحت فمه، حيث يأكل الحيوانات الميتة ويأكل فضلات الإنسان، ورائحته نتنة وهو حي، وبعد ذبحه رائحته أنتن.

كما ترى، من بين هذه المحرمات الثلاث، من المعلوم أن الحيوان الذي مرّ عليه زمن طويل على موته، وتعرّض لحرارة الشمس، لحمه يسبّب التسمّم فوراً لمن لم يعتد على الأكل منه منذ صغره، وعلى كلّ حال إذ يسبّب ضرراً على المدى البعيد حتى للمعتادين على أكله منذ صغرهم، وشرب الدمّ فيه خطورة كبيرة لانتقال مكونات مضرّة من الدمّ كالبكتيريا والفيروسات... وقد تكون قاتلة، والخنزير من الحيوانات القريبة منّا "جينياً" ونشترك معه في التأثّر بنفس الأمراض وبالتالي أكله فيه احتمال كبير لانتقال أمراض فتّاكة منه إلينا...

على كل حال، وصف حرمة هذه الأشياء بأنها خبيثة يشير لعموم رداءتها، لأن كلمة خبيث تشير لعامّة الرداءة فيما هو مفروض أن يكون حسناً على المواصفات. وكلام العرب والقرآن لم يضمّن الكره في معنى كلمة خبيث، فشجرة خبيثة وبلد خبيث هو وصف الرداءة مفصول عن المشاعر تجاهه، وما هو دارج من توسّع بكلمة خبيث ليطال ما نكرهه فهو من توابع الاستعمال وليس من مشتقات معنى الكلمة.

لا يبدو صريحاً من الوصف بالخبيث حرمتها لخصوص ضررها الجسدي بنا، وما يبدو أكثر من تحريمها هو الترقّي. وأنت تعلم أن دينه تعالى ترك مساحة كبيرة للناس للتعامل مع الأمور بحسب طبائع مجتمعاتهم، حيث هناك مجتمعات تأكل اللحم النيء ومجتمعات أخرى تشمئز منه، وهناك مجتمعات ترغب في شرب الدمّ والأكثرية يشمئزون منه، ومجتمعات تشمئز من الخنزير لمعرفتهم بأكله للقاذورات، ومجتمعات أخرى تأكله وتربّيه على القاذورات ومواد الصرف الصحّي... ومجتمعات تأكل الجرذان والصراصير ومجتمعات تشمئز منها...

هكذا ترى أن المساحة الواسعة التي تركها تعالى في تشريعه كانت للمرونة التي لا تقيّد حياة الناس، إذ أكل اللحم حلال وليس واجباً، وأكل اللحم النيء حلال وليس واجباً... ولكن فرض تعالى محرّمات اعتبرها لا تتحمّل المرونة، كمنعه لنا من شرب الدم وأكل الحيوانات المفترسة والقوارض والخنزير... والأهم من ذلك كلّه يبدو أنه تعالى اعتبرها قاعدة أساسية لترقّي المجتمعات عن التصرفات والسلوكيات ذات المستوى المتدنّي. فما معنى وصول مجتمع ما إلى درجة أكله للجرذان والصراصير؟

دعنا نذهب بعيداً عمّا هو منتشر في الكتب وفي ثقافتنا عن تبريراتهم للحلال والحرام، لنذهب إلى الترقّي، ولنسأل عن الفرق بين الإنسان وبقية الحيوانات؟ فإن كان الإنسان كالقوارض يأكل كل شيء، ويأكل الميتة والحشرات والفضلات... وبلا ثياب، ومتخلٍ عن الروابط الاجتماعية، ومتحللٌ من الأخلاقيات... فهذه الحالة ترفضها حتماً، لأنها مدمّرة لمعنى الإنسانية، ومدمّرة لفكرك ونفسيتك ومشاعرك لأنها ستعطّلها، ومدمّرة للميزة التي تجعل لكل واحد منّا شخصيته الفريدة، الفريدة في طريقة تفكيرها وفي حساسية عواطفها أمام مختلف الظروف، الفريدة في تقييمها للجمال في الشكل والثياب والحركات... الفريدة في تذوّقها للطعام والشراب...

الآن صرنا نفهم معنى الترقّي، وهي حرية الإرادة التي تصقل إنسانيتنا، بفكر وسلوك مختلف عن بقية الحيوانات، وهذا ما فهمناه من كلامه تعالى في الآية 30 من سورة البقرة عندما أعلن سبحانه عن جعله من البشر خليفة له تعالى، لذلك استغربت الملائكة(ع) لأن البشر في حينها كانوا تحت مستوى الأهلية للتكليف بتشريعات راقية "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ...".

الآن لنبدأ بتعداد ما يجعلنا مترقين عن بقية الحيوانات، وسترى أن أي وصف ستذكره ستجد أناساً ولو بعدد قليل ليسوا موصوفين به! ووصف آخر ستجد مجتمعات بعدد كبير موصوفين به ومجتمعات أخرى بعدد كبير أيضاً وليسوا موصوفين به! ولست أشير إلى ثقافات وعادات وتقاليد خاصّة بكل مجتمع، ولا أشير إلى الاختلاف بالثياب المطرّزة الملونة والعصرية والقديمة وعلى الموضة... بل أشير إلى عناوين كبيرة من قياس الأمور التي تعتبرها المجتمعات من أساسيات الوصف بالإنسانية، وخذ عنواناً بارزاً جداً عن ذلك حرمة قتل الآخرين، فهل الجميع متفقون على أساسيته في إنسانيتنا؟ لا، إذ إن غالبية المجتمعات لا يتحرّك فيها ذرة من الإحساس عند سماعهم بقتل أبرياء في مجتمعات بعيدة عنهم ومخالفين لهم باللون أو الدين! حسناً، إن لم تكن هذه مشكلة، فالكثير من المجتمعات تتجاهل مشاركتها الفعلية في قتل الأبرياء من بيع الأسلحة للقتلة! وأكثر من ذلك حيث إن الكثير من المجتمعات لا مشكلة لديها في قتل الأبرياء من المجتمعات الأخرى لأنهم لا يرون لهم قيمة!

الآن أعتقد أنك صرت ترى ما رأته الملائكة(ع) حين استغربت من جعله من البشر خليفة له تعالى، والآن صرت ترى معنى الترقّي الذي نفقده وفي نفس الوقت وكلّ واحد منّا يدّعي أنه ربّ الرقي.

الآن صار لعموم كلامه تعالى عن العقيدة والشريعة والسلوكيات معنى، وصار للحساب والعقاب والأجر معنى.
وأفترض أني شرحت بإسهاب ممل الرؤية التي افترض منها تحريمه تعالى للميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله تعالى، فلم أنكر أنها قد تحمل لنا ضرراً جسدياً، ولكن عمق الحرمة من القرآن لا يبدو من هذا السبب، بل من إرادته تعالى لنا للترقّي فكرياً ونفسياً وسلوكياً عن الحيوانات الأخرى.

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{117})
{مَتَاعٌ قَلِيلٌ}، شيء قليل تنتفعون به من تحليلكم وتحريمكم، فأنتم تحللون وتحرمون ما يناسب منافعكم، كتحليلكم أكل الميتة وشرب الدم... وتحريم البحيرة والسائبة على النساء... ولكنها استفادة قليلة، فهي أولاً زائلة لا تدوم لأنكم ستموتون، وثانياً هي أصلاً قليلة بالنظر لما يوجد في جنة الآخرة.

للمحلّلين والمحرّمين على هواهم، {عَذَابٌ أَلِيمٌ}، ضرر يصيبهم ولا يمكن تحمّله أو الاعتياد عليه.

كما تلاحظ فإن الآية لم تفترض المنفعة لهم في كلّ ما حرّموه وحلّلوه، ولكن ما الداعي للكلام مع من حلّل وحرّم عبثياً ولم يفترض منفعة له من ذلك؟ لأنه عبثي من الأصل ولا نفع للكلام معه، لذلك قفزت الآية عنه وانتقلت لمن حلّل وحرّم وله منفعة "متاع" في ذلك، وأخبرته أنه متاع قليل هنا وعليه عذاب أليم، كالقصّابين "اللحامين" الذين يشترون الحيوانات الميتة من المرض في المزارع بثمن قليل، ويبيعونها للناس بثمن الذبيحة السليمة المعافاة... لأن المتاع القليل لا يستحقّ اقتحامه إذا كان مقابله عذاباً أليماً.

هنا يبرز سؤال: أليس قاسياً العذاب الأليم لبعض أنواع ما حلّله أو حرّمه بعض الناس مخالفين كلامه تعالى؟ نعم سيكون قاسياً زيادة عن اللزوم إذا لم يكن متفاوتاً في قساوته بحسب نوعية المخالفة ونيّة المخالف... ومعلوم أن العقاب الإلهي

درجات متفاوتة، حيث لدينا الخلود في العذاب لبعض أنواع السيئات، والعذاب لأولئك الخالدين فيه متفاوت أيضاً، ولدينا ما تحت الخلود وهو أيضاً درجات متفاوتة.

المشكلة بهكذا مسائل الضبابية المستهترة بالدقّة، إذ هناك من يتصوّر شخصاً كاملَ الأوصاف بالصلاح، وفقط شرب الدم، فهل هذا سيكون له عذاب أليم؟ وكما ترى فإن تحويل ما في الذهن إلى كلام يجعل الأمور أوضح، لأن الكلام هنا عن الذين حرّموا وحلّلوا بناءً على شركهم أو كفرهم به تعالى وبرسله وبكتابه هذا... وصار لهم سلوكيات سيئة منها تحريمهم وتحليلهم لأمور يقولون إنها دينياً محرمة أو محللة، وهنا لبّ المشكلة معهم.

هنا الكلام عن عذاب أليم موجّه لمن حرّم وحلّل كدين، وليس لمن منع أو أباح بحسب ما يراه من مصلحة، وطبعاً فإن المصلحة تكون ضمن الهامش الذي تركه تعالى لنا لنتحرك فيه بما نراه مناسباً...

معلوم وواضح جداً جداً من كلامه تعالى أن بعض الخطوط حمر ولا عفو عن تخطيها، وبقية كل الأمور الباقية يمكن مخالفتها عند الاضطرار، حيث أجاز سبحانه إعلان الكفر خوفاً من الموت أو الأذى الكبير... وأجاز شرب الخمر وأكل الميتة... عند الاضطرار... ولم يُجِزْ قتل البريء ومهما كان دينه ولا تحت أي ظرف كان.

صار واضحاً أمامك أن ما حرّمه تعالى من طعام وجعل عليه عقاباً، وكنت لسبب أو لآخر بحاجة له، فمسموح لك أكله، وأقول لك هذا لأن العقلانية مفقودة في كثير من أدبيات المنتمين لدينه تعالى، حيث إن بعضهم حرّم التبرّع بالدمّ! وبعضهم حرّم تناول حبوب منع الحمل! وبعضهم حرّم زرع أعضاء من الخنزير في جسم الإنسان! وللأسف فإن اللائحة طويلة من ترهات يعتقدون أنها دينه تعالى، بينما هي دينهم هم.

هكذا ترى الفرق بين المنع والسماح منّا لبعض الأمور ضمن الهامش الواسع الذي فتحه تعالى أمامنا، وبين الحالة العادية التي لا حرج فيها من الالتزام بما حرّمه وحلّله تعالى، وبين مزاجي مستهتر يخترع من هواه تحليلاً وتحريماً ويقول للآخرين إن كلامه دين إلهي، وهي نفس بركة الوحل التي وقع فيها المنتمون لدينه تعالى، حيث حلّلوا وحرّموا ونسبوا ذلك له تعالى، وهم مخالفون لصريح كلامه تعالى! فلهم عذاب أليم على مقياس جريمتهم، فمن مات بسبب فتواهم بحرمة أخذ الدم من الآخرين، فهم قتلوه...

(وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ{118})

{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا}، في القواميس العبرية المرموقة نجد كلمة "يهود" واشتقاقها من هَادَ هُدْنَا "هداية"، وتطبيقيًّا فسروها على معنى الإنابة والحمد له تعالى "المنيبين الحامدين"، وفي اللغتين العربية والعبرية هي في الأساس نفس الكلمة بنفس المعنى من الاهتداء "الهداية"، وعندما تشتق منها تسمية أو فعل مباشر يصير تصريفها مثل قول النبي موسى (ع) المنقول في الآية 156 من سورة الأعراف {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ...} نعتبر هدايتنا نحوك، وترى ذلك في استعمال اشتقاق فعل منها عدة مرات في القرآن ومنها ما ورد في الآية 62 من سورة البقرة {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى...}.

{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا}، منعنا عنهم وقلنا إنَّ عليه عقابًا، {مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ}، حيث في سورة الأنعام الآية 146 تعرّفنا على أشياء حرّمها سبحانه على اليهود {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}، يعني مضافًا لما ورد في الآية 115 من هذه السورة من محرمات فهناك أشياء حرّمناها خصوصًا على {الَّذِينَ هَادُوا} "اليهود".

{وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ}، لم نكن غير عادلين حين حرّمنا عليهم الحيوانات التي لها ظفر، وشحوم الحيوانات، بل {كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}، إذ لم يكونوا عادلين ولا منصفين مع أنفسهم لأنهم ارتكبوا أشياء أغضبته تعالى عليهم، فضيّق سبحانه عليهم بتحريم أشياء ينزعجون من تحريمها.

لاحظ، الآية تريد إفهامنا أنه سبحانه حرّم على الناس بعض الأشياء لسبب حكيم يتعلّق بشكرنا له تعالى وبترقّينا عن بقية الحيوانات وبضررها... ولكن هناك أشياء حرّمها سبحانه أيضًا لسبب حكيم كعقابٍ لبعض الناس على ظلمهم، وهنا السورة تتحدّث "مع وعن" المشركين، فتريد أن تبين لهم أنه سبحانه وحده له الحق في التحليل والتحريم، وهناك أشياء

كان حرّمها تعالى وصارت الآن حلالًا، والإله سبحانه ليس مزاجيًّا، بل كان هناك سبب حتى حرّم على اليهود بعض شحوم الحيوان... بعبارة أبسط، سبحانه لا يتلاعب بالشريعة مثلما أنتم تتلاعبون عن مزاجيّة، بل هناك سبب حكيم للتحليل والتحريم.

إنْ قال المشركون للمؤمنين: لماذا تأكلون ما حرّمه ربّكم على من سبقكم من أهل الكتاب؟ ألستم تقولون إنَّ دينكم واحد ممتد من التوراة إليكم فلماذا تأكلون ما هو محرّم عند اليهود؟ الجواب: حرّم تعالى بعض الأشياء على اليهود كعقابٍ لهم على شيء سيّئٍ جدًّا فعلوه.

هنا نسأل شيئًا لم تتطرّق له الآية، وإنْ كانوا أصلًا ارتكبوا سوءًا سبّب لهم تحريمه تعالى عليهم بعضًا من المأكولات الحلال، وعمليًّا سيلتزم المؤمنون الحقيقيون فقط بالامتناع عمّا تَحَرَّمَ حديثًا، وغيرهم لن يلتزم، عمليًّا يبدو عقابًا سيتضايق منه المؤمنون فقط. لا، المؤمنون سيتعاملون مع الموضوع بشكل عادي، وغيرهم سيأكل مما حرّمه تعالى وسيتحاسب عليه، فهو يعيش في مجتمع يفرض عليه الالتزام ببعض الأمور الدينية، ولديه مساحة خاصّة به "مثلًا في بيته" ويمكنه فيها فعل السوء، فيأكل الشحوم... لذا استهدفه سبحانه في تلك المساحة، وحرّم عليه ما هو متاح له وسهل مخالفته حتى يظهر على حقيقته المنافقة أو الفاسقة... وعلى كلِّ حالٍ كان التحريم مؤقّتًا، وها أمامك صراحةً انتهاؤه، لذا نحتمل أن النبي عيسى (ع) من قبل حين حلّل لهم بعض ما حرّم عليهم كما ورد في الآية 50 من سورة آل عمران {وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ...} نحتمل التحليل لتلك الشحوم في تلك الفترة أيضًا.

كما ترى، تشريع التحريم لم تستعمل له الآية التعبير بالتحريم على بني إسرائيل، بل {عَلَى الَّذِينَ هَادُوا}، وهذا يأخذك إلى تعميم التشريع على بني إسرائيل وعلى عموم المؤمنين الملتزمين بالتوراة من بقية الناس من غير بني إسرائيل، حيث في بعض الآيات فهمنا الكلام عن "بني إسرائيل" أنه لم يختصر اليهود فيهم، وإنما كان الكلام عن حوادث جرت معهم هم وحدهم، أو كانوا الأكثرية فيها، أو توجّه تعالى لهم بالكلام على أساس أنهم نواة الدين المنتمي له تعالى ولكتاب التوراة، وأن عليهم مسؤولية أكبر من غيرهم... وأن علماء الدين اليهود "لسبب أو لآخر" كانوا بغالبيتهم الساحقة من بني إسرائيل.

بقي شيء، حيث رأى المفسرون الارتباط الواضح لبعض السور في كل ما تطرحه، وفي العديد من السور لم يروا ارتباط كلامها، فاعتبروا فقراتها قفزًا، وهنا ألفت انتباهك لما تراه قفزًا للسورة في انتقالها من الكلام مع وعن المشركين إلى الكلام عن اليهود، إذ صار واضحًا لديك أن السورة لم تقفز لموضوع جديد لا علاقة له بما سبق من كلام، لأنَّ الكلام السابق عن تشريعات الكفّار بالتحليل والتحريم بألسنتهم... في مقابل تشريعاته تعالى، وللدقّة والشفافية عرّجت السورة على تحريمه تعالى سابقًا لشيء كان حلالًا، وفيما بعد أعاد تعالى تحليله، لتخبرنا عن السبب، وذلك حتى لا يحتجّ الكفّار على هذا الدين قائلين إنَّه لا قواعد واضحة لما حرّمه وحلّله، وطالما هي متغيرات غير ثابتة فهذا يعني أنَّه لا أهمية لثبات التشريعات ونحن أيضًا يحقّ لنا التشريع، لا، بل لظروف استثنائية ناتجة من تصرفات الناس حرّم سبحانه سابقًا عليهم أشياء، وأعاد سبحانه تحليلها فيما بعد عند تغيّر ظروف الناس...

هذه الطريقة بالكلام بشفافية في قرآنه تعالى منتشرة في السور، حيث يكون الكلام عن عقيدة أو تشريع أو سلوك فاسد للكفّار، وبكل شفافية تعرّج السورة على نفس العقيدة أو التشريع أو السلوك الفاسد للكفّار وفعله منتمون لدينه تعالى، لتريك أن الخطأ هو نفسه... وتراه في العديد من السور التي تحدّثت عن الشرك به تعالى مشيرة لشرك بعض أهل الكتاب، ولاتّخاذهم القديسين أربابًا... وتراه في البخل عن الصدقة، والكفر بشكره تعالى... وغيرها من الأمور التي فعلها الكفّار وفعلها منتمون لدينه تعالى، لذا يشير القرآن لهما بكل شفافية ويهددهما كلَيْهما بالعقاب ليريك أن الانتماء بالاسم لدينه تعالى ليس غطاء شرعيًّا لفعل السوء...

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ{119})
{ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ}، وبعد ذلك فإنَّ المسؤول عنك من مستوى إلهي، {لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ}، للأشخاص الذين قاموا بعمل سيّئٍ، {بِجَهَالَةٍ}، عن جهل عن طيش لم يفكروا بالموضوع، ولم يتعاملوا مع الأمور بعلم وانتباه، فمثلاً: أكلوا الميتة

وهم يدرون بأنَّها حرام ولكن استهتروا ولم يفكّروا بأنَّها حرامٌ عليه عقابٌ، مثلما نسمع من يقول: هل سيرميني الله تعالى في النار لأنِّي أكلت من الميتة؟ لا، فهذا غير معقول، وهذا كثير.

هم سمعوا الدين الإلهي يقول عن الميتة إنَّها حرام، ولكنهم كانوا جهلة يتصرّفون عن طيش ولم يقتنعوا بما يقوله الدين لأنَّهم لم يفكّروا فيه واستهتروا، {ثُمَّ تَابُوا}، ففتحوا صفحة جديدة، فنووا أنَّهم لن يكرروا عمل السوء، فلن يأكلوا ما يقول الدين عنه حرام، ولن يحللوا أو يحرّموا من رأسهم، {وَأَصْلَحُوا}، فصار عملهم صالحًا، فتركوا ما يرونه سيِّئًا، وسبحانه لا يحرّم إلا ما هو سيِّئٌ، عمليًّا تركوا ما يحرّمه تعالى، في هذه الحالة، {إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا}، إنَّ المسؤول عنك من مستوى إلهي من بعد توبتهم وصلاحهم، {لَغَفُورٌ}، فلا يجمد على موقف صلب ليعذّب من أساء حتى لو تاب وأصلح، لا بل يتجاوز عن السيئات، {رَحِيمٌ}، لديه عناية خاصَّةٌ بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم.

لاحظتَ يا عزيزي كثرة ما ورد في القرآن عن المغفرة ولصقها بصفة الرحيم، لأنَّه تعالى رحمنٌ لكل مخلوقاته، ولكن المؤمنين ينالون عناية خاصَّةً، وعبَّر عنها القرآن بصفة "رحيم" وينتج عنها أشياء كثيرة على رأسها: مغفرة الذنوب. الكافر والمشرك والمنافق والفاسق لا يحصل على العناية الخاصة، ولا يحصل على المغفرة، ويتحاسب حتمًا عن كل ذنب يرتكبه، لأنَّه بإرادته خرج من تحت رحمته تعالى. ومن القرآن علمنا أنَّ الرحمة الخاصة بالمؤمنين تشمل أيضًا زيادة الحسنات، والشفاعة...

نلاحظ القرآن يشدّد على اقتران الإيمان بالعمل الصالح، وأنَّهما معًا ينجيان من النار ويسببان دخول الجنّة، وأي واحد منهما وحده لن يسبب دخول الجنّة، وهنا استبدلت الآية التعبير عن الإيمان، بالانتقال من الجهالة إلى العلم، وهي تعبير آخر عن آمن، وبعدها قالت: {أَصْلَحُوا}. وهكذا قرنت بين الإيمان والعمل الصالح.

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{120})
{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ}، هذا الإنسان المعترف به بشكل واسع منتشر بين الناس وخصوصًا بين مشركي العرب وبالأخص بين مشركي مكّة فهو (ع) جدّ لغالبيتهم، {كَانَ أُمَّةً}، كان يوصف بشيء أساسي له امتداد تاريخي، له عقيدة وسلوك "ثقافة إيمانية" لها امتداد تاريخي، وأهم ما تميّز به (ع) أنه كان: {قَانِتًا}، معلنًا أنه تحت أوامر وطاعة الله تعالى، {حَنِيفًا}، حيث كان مائلًا عن كل شيء ومتوجِّهًا فقط نحو الدين الإلهي، وكان مستقيمًا باتجاه طاعته تعالى. {وَلَمْ يَكُ}، "لم يكن"، {مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، لأنه لم يجعل معه تعالى إلهًا آخرَ، لا من البشر ولا من الجنّ ولا من الملائكة (ع) ولا من الكواكب ولا من الأصنام...

نلاحظ السورة تنقلنا إلى شخص من البشر كان نموذجًا في عقيدته وشريعته، وهو معروف جدًّا لدى غالبية الناس، وهو النبي إبراهيم (ع)، واعتبره القرآن دائمًا مرجعًا للبشر حيث وافق الإله سبحانه على عقيدته وسلوكه.

ننتبه، بعض مشركي العرب، وعامّة مشركي قريش كانوا يعلنون أنهم من أتباع النبي إبراهيم (ع)، ومعهم اليهود والنصارى، ولكن محور كلام السورة هنا مع المشركين من غير أهل الكتاب، وهنا عادت السورة للتذكير بأساس ما تمحور عليه كلامها، حيث عادت إلى الكلام عن التوحيد والشرك من باب التذكير بالجدّ الأكبر للنموذج الذي سمع هذه السورة أول ما نزلت، وذكّرته بأن إبراهيم (ع) لم يكن مشركًا.

في دراسة الآية التالية سنتوسّع أكثر بالكلام حول طبيعة إيمان النبي إبراهيم (ع).

(شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{121})
النبي إبراهيم (ع) كان: {شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ}، يعلن بالمديح لما حصل عليه من أمور جيّدةٍ منه تعالى.

{اجْتَبَاهُ}، اختاره سبحانه واعتبره من الخواص، كما تجتبي شخصًا فتعتبره من المقربين منك، وهكذا اعتبر سبحانه النبي إبراهيم (ع) متميّزًا عن بقيّة الناس ومن المقربين جدًّا جدًّا، حيث سبحانه لا يختار شخصًا بشكل عشوائي أو على المزاج ويوحي إليه ويجعله نبيًّا أو رسولًا، لا، إذْ إبراهيم (ع) كان مميَّزًا ولذلك اجتباه تعالى.

{وَهَدَاهُ}، فوضعه سبحانه على الشيء الصحيح الذي يوصله للغاية الصحيحة، {إِلَى صِرَاطٍ}، إلى طريق أساسي، {مُسْتَقِيمٍ}، يوصف بأنَّه على الأحسن فلا اعوجاج ولا انحراف فيه.

كلمة صراط وصف لشيء مادي كطريق أساسي للمشي عليه بالرجلين والسيارة... أو معنوي كالعقيدة والتشريعات والسلوكيات، وتكون للمسار الإجباري ويكون أساسيًّا يوصل إلى وجهة واحدة، سواء أكانت موصلة للهداية أو الضلال. وارتباط وصفه بالمستقيم ينبهك أنَّ الكلمة في أساسها لا تحمل معنى الاستواء.

لولا الخوف من قلّة الاحترام للأنبياء منّي بالتعبير، لاتَّبعتُ كلام القرآن ولم أسبق أسماءهم بوصف النبي، وهكذا ستنتبه بشكل أوضح أنَّ "إبراهيم" الإنسان العادي المماثل لك ولي، تميّز بقلبه السليم عنك وعني، وبعدها أوحى تعالى إليه وهكذا صار نبيًّا، وعندما أصفه بالنبوّة في مثل دراستي لآيتنا هنا، سيطير من بالنا أنَّه إنسان متميّزٌ بما اعتقد به وفعله... وسيذهب فكرنا إلى ما هو منتشر في ثقافتنا الدينية بشكل ضبابي عن تميّز الأنبياء باختيار إلهي غير مسبوق بطهارة عالية منهم، وهذا غير صحيح.

بعبارة أوضح، بعض الناس عندما تقول لهم: إبراهيم فعل الواجب وترك الحرام... سيقولون: هو نبي ومن الطبيعي أن يكون كذلك. على أساس أنَّه تميّز بالنبوّة التي فرضت عليه أن يكون مطيعًا له تعالى، أو على أساس أنَّه تعالى خلقه نبيًّا... أو على أساس أنَّه تعالى يمنعه بالقوة من ارتكاب السيئات... لا، إذْ هو شخص عادي أتيح له ما أتيح لك ولي، ولكنه أخلص فكره ونفسيته والتزم بهما فلم يتبع هواه وشهوته وغريزته السيئة، وبهذا تميّز وعندها اختاره تعالى ليكون نبيًّا رسولًا.

سيذهب فكرك إلى النبي عيسى (ع) الذي قبل أن يولد أخبرنا تعالى عن نبوّته ورسالته وأنطقه في المهد... وهو (ع) والنبي يحيى (ع) كانا استثناءً، ومعهم النبي موسى (ع) بالعناية به مذ كان طفلًا، حيث وبعلمه تعالى بما سيكونون عليه، عاملهم سبحانه قبل ولادتهم ومنذ طفولتهم على أساس أنَّهم سيكونون طاهرين فيما بعد، ولا يحق لي الاعتراض قائلًا: لماذا اختاره تعالى وميّزه من قبل أن يولد ولم يخترني ويميّزني أنا؟ لأنَّه بعلمه تعالى بالغيب يعلم ماذا سأكون عليه ولم يجدني مناسبًا للنبوّة... وبعلمه تعالى بما سيكون عليه عيسى ميّزه قبل أن يولد...

فرضًا نلت أنا العناية قبل ولادتي وبعدها كما حصل مع هذه النماذج الفريدة من الناس، فهل سأصير أرقى إيمانًا عمّا أنا عليه الآن؟ لا، وألف لا، بل قد أكفر، وهذا شيء نقله القرآن عن لسان النبي سليمان (ع) حين رأى مدى القدرات غير العادية المسخرة له، وتقرأ ذلك في الآية 40 من سورة النمل {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}.

نتذكّر دائمًا، حيث من القرآن نعلم أنَّ النبي إبراهيم (ع) لم يقلّد أي أحد من محيطه، بل فكّر فيما يفعله قومه من شرك، وحلّل الموضوع بقلب سليم بعيدًا عن الغريزة والعصبية والشهوة السيئة والمصلحة... وهذه القدرة موجودة لدينا جميعًا، وهي تهدي للطريق المستقيم، وهكذا نفهم الهداية الإلهية بأبسط طريقة، فلم يجبر سبحانه "إبراهيم" أن يهتدي ويسير على الطريق المستقيم، لا، ولكن أمّن له "ولنا" كل ما يلزمه من الآيات في خلقته وخلقة ما حوله حتى يهتدي، واتّبع "إبراهيم" قلبه السليم، فكره ونفسيته السليمة، فارتقى حتى صار نبيًّا رسولًا خليلًا.

لذلك دائمًا يركّز عليه القرآن ويختاره كأبرز نموذج عن الإنسان الراقي الذي بقلبه السليم خالف قومه وعارضهم ولم يتعرّف على توحيده تعالى ممن حوله من الناس وفي حينها لم يكن ينزل عليه وحي كما تبين في دراستنا هذه، وكل كلام القرآن عنه من حوارات مع أبيه وقومه وصولًا إلى محاولتهم إحراقه، لم يشر القرآن فيها إلى نزول وحي عليه (ع)، وراجع في ذلك دراسة الآية 75 من سورة الأنعام {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}.

بقي شيء مهمّ، حيث إنَّ اعتبار القرآن لإبراهيم شخصًا مميّزًا في تاريخ البشرية بسبب وصوله بالتفكّر في آياته تعالى إلى التوحيد، له نماذج مشابهة في بعض فلاسفة اليونان، وأشهرهم سقراط وأفلاطون وأرسطو، وهؤلاء لا تجد في كتبهم "وبحسب اطلاعي عليها" لا تجد أي احتكاك لهم مع كتاب إلهي "التوراة أو صحف الأنبياء"، ولا تلمس أي

احتكاك لهم مع مُنْتَمٍ لدينه تعالى، وكما يبدو أنَّهم لم يتعلّموا التوحيد من مصدر له ارتباط بوحي إلهي، ورغم ذلك بتفكّرهم بالآيات وصلوا إلى التعرّف عليه تعالى، وإلى توحيده بشكل يخالف عقيدة قومهم، حتى إنَّ التاريخ ينقل عن قتل القوم لسقراط لأنَّه وحّده تعالى.

ما أريد لفت انتباهك له، أنَّ كلام القرآن عن إبراهيم الشاب، مختلف عمّا هو منتشر في ثقافتنا عنه وعن بقية الأنبياء، لأنَّ كل كلامه تعالى معنا مبني على القدرة التي جعلها تعالى فينا لتمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، ومن دون أي تواصل بالوحي منه تعالى معنا، نحن فينا قابلية التعرّف عليه سبحانه، وتوحيده، والتعرّف على الكثير من صفاته المنعكسة فيما خلقه سبحانه، لأنَّه حيّ حتمًا وإلا لما خلق أحياءً، وهو قيوم حتمًا وإلا لكان هناك إله فوقه، وهو خالق ورازق... ورحمنٌ... وبصير وسميع... وهذه الصفات نستخرجها مما نراه من أفعاله تعالى...

هذا المفهوم له ارتباط وثيق بالكثير من الكلام عن حسابنا في الآخرة، فالذين لم يصلهم كتابه تعالى، ولا تواصلوا مباشرة مع مُنْتَمٍ لدينه تعالى، هم مزوّدون بالقدرة على التعرّف عليه تعالى بسهولة من آياته في خلقهم وخلق ما حولهم، وقادرون على الوصول لمعارف كثيرة من التفكّر بالآيات، وإبراهيم النموذج القرآني عن ذلك، ومعه بقية الأنبياء والصالحين بدرجات متفاوتة "قليلًا" في عمق الإيمان وعمق المعرفة.

مما يبدو من القرآن أنَّ إبراهيم توصّل بالتفكّر وبدون وحي، لمعرفة ضرورة حصول آخرة وحساب وجزاء كما نقلت الآية 81 من سورة الشعراء {وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ} فراجعها وراجع ما قبلها وبعدها لترى سببًا واضحًا لاختياره تعالى لمدحه بشكل مميّز عن كل بقية الأنبياء، حيث من دون وحي إلهي ولا تواصل ولا من أي شكل، تقرأ عن لسانه أساسيات دينه تعالى كاملة تامّة بكل عناوينها الأساسية. وهذا شيء لم يصل إليه سقراط وأفلاطون وأرسطو، وهؤلاء كنماذج مشهورة عن الفلاسفة الموحدين من خارج دائرة المنتمين بالاسم لدينه تعالى، ولا أذكر من كتبهم أي كلام عن الحساب والجزاء في الآخرة...

الكلام يجرّ الكلام، وبغض النظر عن التاريخ العملي لهؤلاء النماذج من الفلاسفة، والذي يبدو جيّدًا بشكل ما، هم على المستوى النظري كان لديهم نظريات في الصلاح، والعديد منها تركّز بشكل ما على العدالة والمساواة، وأقول لك هذا لترى الجانب الآخر من المسألة، إذ تكلّمنا عن إبراهيم وعنهم من ناحية ما يسمّى بالعقيدة، ولكن في مسألة صلاح الأعمال يرد نفس الكلام أيضًا.

نعيد ونكرر سبب ذكري لبعض فلاسفة اليونان، لأنَّهم نماذج ترينا أننا كلنا وبقدر مقبول لدينا القابلية للتعرّف عليه تعالى من التفكّر في آياته تعالى فيما خلقه، تمامًا مثلما يقول هذا القرآن، والوصول إلى مرحلة عالية من فلسفة التوحيد ليس مقصدي، وهذا علم تتعلّمه وتخصّص له وقتًا طويلًا وتمرُّسًا على المصطلحات... هكذا ترى ما تقرؤه في القرآن نقلًا عن إبراهيم، ترى البساطة والسهولة للتعرّف عليه تعالى من الآيات، وهذا هو طريق الإيمان الأساسي، وترى المدى الواسع العريض لما يمكننا الوصول إليه من معارف تطال حتى التعرّف على الآخرة من التفكّر بما في الدنيا.

كلام الفلاسفة الموحدين لا شيء في القيمة بالمقارنة مع الحقّ الصافي والواسع العمق الذي وصل إليه النموذج إبراهيم، والذي ببساطته لفهمه لا تحتاج منك لمجهود دراسي كالذي تحتاجه دراسة علم الفلسفة...

(وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ{122})

{وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً}، حصل إبراهيم (ع) على أشياء جيّدةٍ هنا في الدنيا بسبب إيمانه، حيث نجّاه سبحانه من الحريق، ومنحه الأولاد المؤمنين، وجعل رزقه وفيرًا...

{وَإِنَّهُ}، النبي إبراهيم (ع)، {فِي الْآخِرَةِ}، في الزمن الذي سيأتي في الآخر بعد انتهاء الدنيا، {لَمِنَ الصَّالِحِينَ}، فهناك سيتم وصفه بأنَّه من الذين صلح عملهم ولم يَقُمْ بأشياء سيّئةٍ، وهذا عمليًّا يعني بأنَّه سيدخل الجنّة.

حَسَنًا، هذا هو "إبراهيم" بعقيدته وسلوكه:

(ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{123})

{ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ}، ومعلوم أنَّ هذا حصل عبر الملائكة (ع) التي نقلت كلامه تعالى لك أيها الرسول محمّد (ع)، {أَنِ اتَّبِعْ}، كن على، {مِلَّةَ}، عقيدة سلوك وثقافة، {إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا}، حيث كان (ع) مائلًا عن كل شيء ومتوجِّهًا فقط نحو الدين الإلهي، فاتَّبعه ولا تحد عنه.

{وَمَا كَانَ}، النبي إبراهيم (ع)، {مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، لأنَّه لم يجعل مع الله تعالى آلهة أخرى.

تذكَّر أنَّ السورة تركيزها على الشرك بالله تعالى، وتذكَّر أنَّ القرآن كرّر عدة مرات كلامه عن النبي إبراهيم (ع) على أساس أنَّه شخصية مركزية في الدين الإلهي، لدرجة أنَّ الإله سبحانه جعل سلوكه وعقيدته (ع) نموذجًا لكل من سيأتي بعده، وخذ مثلًا طقوس الحجّ، إذْ غالبيّتُه تقليد لشيء حصل مع النبي إبراهيم (ع)، أقول غالبيّته لأنَّ كل ما عدا الطواف حول الكعبة فهو مرتبط بما حصل معه (ع) حين ترك زوجته مع الطفل إسماعيل (ع) هناك، فالطقوس من سعي بين الصفا والمروة كما فعلت "هاجر" بحثًا عن الماء كما هو مشهور في تراثنا الديني، ورجم، رمي الحجارة كما فعل النبي إبراهيم (ع) حين تمثّل له إبليس كما هو مشهور في تراثنا الديني، ونحر، بتقديم أُضْحِيَّةٍ، وهذا شيء له أثر من القرآن في الآية 107 من سورة الصافات {وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ}... جعله سبحانه واجبًا على كل الناس من بعد النبي إبراهيم (ع)، ولا معلومات لدينا إن كان الطواف حول الكعبة أيضًا مرتبطًا بتلك الحادثة، ربما هو أساس طقوس الحجّ وبعد حادثة تركه (ع) لزوجته وطفله، حصلت زيادات، وبعد حادثة أمر ذبح ولده... حصلت زيادات.

إذًا، أنت أيها النبي محمد (ع) لم نُوح لك بأشياء جديدة على مستوى العقيدة والتشريع والسلوكيات، بل أوحينا إليك بما يتوافق مع عقيدة وسلوك النبي إبراهيم (ع) أنت لست بِدْعًا، ولم تتلق دينًا جديدًا، لأنَّ دينك له امتداد لآلاف السنين وصولًا إلى آدم (ع) إلى أوّل ما تأهّل بشريٌّ ليتكلّف بالأوامر الإلهية، مرورًا بالمحطة المميزة إبراهيم (ع) لذا كل ما تفعله فهو من سلوكيات تلك الشخصية المميّزة عنده تعالى والمشهورة المعتبرة عند الناس الذين سمعوا به.

تتذكَّر الآيات السابقة التي نبّهت على وجود محرمات "في الأطعمة" على اليهود وهي ليست من أساس الدين، بل هي وليدة الظروف... والآية التالية أيضًا ستلفت الانتباه لهذا، لأنَّ العقيدة من أول نبي إلى آخر نبي هي نفسها واحدة لا تتغيّر أبدًا، أمّا التشريع فيحصل فيه تغيّرات بسبب ظروف خاصة.

إذًا بين ما يقوله النبي محمد (ع) عن العقيدة وبين ما يقوله النبي إبراهيم (ع) يوجد تطابق، أمّا في الشريعة فهناك بعض الاختلافات سببها ظلم الناس كما رأيت سابقًا وسترى لاحقًا، وسبحانه وتعالى دائمًا يعرض علينا الأمور بشفافية كما هي، ولا يتغافل عن شيء فعله تعالى أو فعله المنتمون لدينه...

لمزيد من التوسّع حول كلمة وحي راجع دراسة الآية 68 من هذه السورة {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ...}.

(إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ{124})
{إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ}، من المشهور تحريمه تعالى على اليهود العمل في يوم السبت، هنا الآية تنبّه على تحريم العمل فيه أنَّه ليس من أساس الشريعة، حيث من الواضح أنَّ العمل في السبت لم يكن حرامًا في شريعة النبي إبراهيم (ع)، ولكن جعله سبحانه حرامًا على الذين اختلفوا فيه، ولم يختلف اليهود مع المشركين حول أحكام "العمل أو العطلة" يوم السبت، ولا مع النصارى، بل هم فيما بينهم اختلفوا فيما يجب فعله وتركه في يوم السبت.

بعبارة أخرى، كما أنَّ الآية التي وردت في هذه السورة ذكرت أنَّه على الذين "هادوا" حرّم تعالى بعض الأشياء، هنا استعملت الآية تعبيرًا مختلفًا لتشير إلى حصريّة حرمة العمل في السبت على الذين اختلفوا فيما هو حرام أو حلال في السبت، يعني حصرًا على اليهود ولا امتداد لهذا التشريع، حيث ذكر القرآن أن البعض منهم قام بنصب شباك الصيد في يوم الجمعة، لِيعلق السمك فيها يوم السبت، ويجمعونه في يوم الأحد، راجع في ذلك دراسة الآية 163 من سورة الأعراف، وهؤلاء اختلفوا عن غيرهم في هذا العمل، لأنَّه تحايل على الحرام، وفيما بعد صار بعضهم يجلس طوال يوم السبت بلا أي عمل إطلاقًا، ويعتقد بحرمة ضغط مفتاح الكهرباء لإضاءة اللمبة! ولا يضغط على الهاتف ليردّ على المكالمة الهاتفية... حتى لو كان شخص يموت أمامه فلا يساعده... وهناك آخرون بآراء مختلفة، وهؤلاء الذين تعرفون اختلافهم في يوم السبت هم حصرًا حرّم عليهم العمل يوم السبت.

{وَإِنَّ رَبَّكَ}، وإنَّ المسؤول عنك من مستوى إلهي، {لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ}، سوف يقول تعالى ما هو صائب صحيح بين المختلفين، وهذا سيحصل في، {يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، في زمن القيام من الموت، فيحكم سبحانه، {فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}، حيث صار لكل جماعة منهم رأي خاصٌّ في الدين الإلهي، ولكل فرقة عقيدة وشريعة خاصّة، فصاروا فِرَقًا وطوائفَ ومذاهب ومدارس وجماعات... وفي يوم القيامة سيتحاسبون على ما اختلفوا فيه لأن الحقّ كان واضحًا أمامهم.

نلاحظ الآية تبرّر تشريع تحريم العمل في يوم السبت، لأنَّه تشريع كان في الديانة التي سبقت النبي محمد (ع)، وهذا القرآن يقول إنَّ النبي محمد (ع) على نفس خط الأديان السابقة المرتبطة بالله تعالى، فمن المفروض أن يكون العمل في يوم السبت حرامًا، ولذلك قالت الآيات إنَّ الأساس في الدين الإلهي هو عقيدة وسلوك النبي إبراهيم (ع)، وكل تشريع يختلف عن ذلك فله سبب، وتحريم العمل يوم السبت لم يكن في عهد النبي إبراهيم (ع) بل حصل بعد موته وله سبب، والآن رفع سبحانه هذا الحكم عن الناس، فأباح العمل يوم السبت.

ننتبه جيّدًا إذِ القرآن كلّه لم يرد فيه أي تعديلات على العقيدة، بل ورد فيه تصحيحات لما تلاعب به الناس، وهنا السورة لم تعرض ما تلاعب به أهل الكتاب من عقيدة، ولا من شريعة، حيث كان تركيزها على الحديث "مع وعن" المشركين، وانتهت من عقيدة المشركين بالخصوص، وانتقلت للتشريع، ونبّهت على ما يعرفه أو يعلم به المشركون من بعض فروقات بين تشريع القرآن وتشريع اليهود، وأخبرتنا السورة أنَّ سبب الاختلاف ظلم ارتكبه بعض اليهود فاستحقّوا العقاب بالتضييق عليهم بتحريم بعض الأشياء، ولم تستمر حرمة تلك الأشياء لأنَّها كانت أحكامًا مؤقّتةً، وأسبابها معروفة، فلا تتهموا النبي محمد (ع) بأنَّه اخترع هذا الدين وألصقه بدين النبي إبراهيم (ع)، ها شرح لكم سبحانه سبب اختلاف بعض الأحكام وأنَّ التحريم والتحليل صدر منه تعالى.

بقي شيء، ها نحن المسلمين أمام نص قرآني صريح بترك العمل يوم الجمعة في وقت أداء صلاة الظهر مع سماع كلمة دينية وعن شؤون المسلمين... وراجع في ذلك سورة الجمعة، وها ترى اختلافنا فيه، حيث بعضنا على مستوى الفتوى يوجبها وآخرون لا يوجبونها؟ وأمّا على مستوى التطبيق فبعضنا ملتزم والغالبية الساحقة مستهترة! ومن هذا ترى ما يفيدك في فهم آيتنا هنا.

(ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ{125})
{ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ}، ليكن إشعارك وإعلانك للناس ليسلكوا المسلك المنسوب للمسؤول عنك من مستوى إلهي، {بِالْحِكْمَةِ}، بالصوابية لضبط الأمور على المطلوب، بالأقوال والأفعال الصائبة للصلاح والحقّ.

هذا الدين يعرض نفسه على الناس على أساس أنه حكيم، على الصوابية فهو صالح وحقّ في عقيدته وشريعته والسلوكياتِ، على أساس أن في الناس قابلية تمييز الخير من الشرّ والصلاح من الفساد... ونفس هذا التمييز مع الأوصاف للأمور هو الدافع لكره السوء وحبّ الخير، وبناء عليه فمن المفروض أن يؤمنوا بدينه تعالى من نوع التماشي معه إن كانوا من قَبْلُ قلوبهم سليمةٌ، أو فيها السلامة الكافية، وكانوا يميّزون الخير ويرغبونه ويميّزون الشرّ ويكرهونه...

قارن آيتنا هنا مع ما يفعله بعض الناس تحت عنوان الدين الإلهي، حيث يدعو بعضُهم الآخرين إلى الاقتناع والالتزام بالدين الإلهي عن طريق الكذب والخداع والمبالغة والعواطف...

ادعُ الناس بـ {الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ}، فقل لهم ما يحدّد لهم ما هو الصحيح الحسن ليفعلوه حتى لا يقعوا في المشاكل، وهي التنبيهات من قيامهم بالأعمال السيئة التي ينتج عنها تعاسةُ دنياهم وآخرتهم، والتنبيهات ليفعلوا الصالحات وفيها خيرهم...

أيضاً قارنها بالمواعظ التي يقولها بعض الناس باسم الدين الإلهي وهي سيّئة، كالشماتة بالناس، وأحاديث المنامات لتفسيرها ومعرفة الغيب منها... وأحاديث خرافات العجائز عن حضور أعراس الجنّ ورؤية الملائكة والقديسين والصالحين... وتركيبات القصص السخيفة والمبالغ فيها بل والملفّقة عن معجزات حصلت ليبدو أن دينهم عظيمٌ، والتفرقة بين الناس مذهبياً وطائفياً وعرقياً... والدعوة لإطاعة الحاكم الفاسق المنافق...

{وَجَادِلْهُم}، فحاول إقناعهم، {بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، بأفضل طريقة للجدل، فابذل جهدك حتى تنتبه لأفضل جدل محترم عقلاني تردّ به على من يحاورك، فلا تتكلّم بطريقة سيّئة، ولا تكن عنيفاً، ولا تمنع غيرك من الكلام والتعبير عن رأيه وعن طرح أسئلته... ولا تستعمل طرقاً ملتويةً في الجدل كأن تستعمل كلمات لا يعرفها المجادل ولا يفهمها، أو براهين لا يفهمها، أو تسخر من قلّة معلوماته...

{إِنَّ رَبَّكَ}، إن المسؤول عنك من مستوى إلهي، {هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ}، فيعلم سبحانه الذي ليس على المسلك المنسوب له تعالى، {وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}، فيعلم سبحانه بالذين هم على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة.

المطلوب منك كرسول ينقل الرسالة الإلهية للناس، ألا تكون عابثاً تخترع الكلام غير الصحيح عنه تعالى، أو قاسياً في الحوار، ولا تعتمد طرقاً ملتويةً لهداية الناس، بل اعتمد ما زودناك به من الحكمة، والموعظة الحسنة، وكن لطيفاً في الحوار، وما بعد ذلك فليس من شأنك إن لم يهتدوا، إذ لا أحد يعلم أكثر من ربّك سبحانه بمن ضلّ أو اهتدى، وطالما الإله يعلم بهم، فهو لم يطلب منك ولا من غيرك إلّا أن تتبع الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن لتعرض عليهم دينه تعالى ليهتدوا.

بعبارة أخرى، لا يوجد أحد يعلم بأحوال الناس أكثر من ربّك سبحانه، ولا يوجد أحد أعلم منه تعالى بالهدى والضلال لأنه هو تعالى يعلم ما هو الهدى وما هو الضلال بحكمته، فقم بما عليك واترك الباقي، ولا تتبع طرقاً أخرى غير التي قلناها لك، ولا تفكّر بطرق أخرى لتهدي من ضلّ، لأنها ستكون طرقاً ملتويةً غير مقبولة.

نلاحظ أنَّ بعضهم قال عن الآية إنها تعرض ثلاثَ طرق مختلفة للتعامل مع الناس، فطبقة المتعلّمين المثقفين تتحدث معهم بالحكمة، وعامّة الناس بالموعظة بالتخويف من النار والترغيب بالجنّة، ومن يحب الجدل فجادله بالتي هي أحسن، وهذا غير صحيح، لأنَّ الحكمة واجبة دائماً، والموعظة الحسنة بدلاً من الترهات والكذب واجبة دائماً، والجدل بالتي هي أحسن حتى مع المتعلمين والمثقفين وعامة الناس واجبٌ أيضاً.

(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ{126})
{وَإِنْ عَاقَبْتُمْ}، إن قمتم بعمل يعقب، يأتي من بعد شيء، وهنا الكلام عن قيامكم بعمل عَقَبَ شيئاً ما، وسياق الكلام عمّا أتى من بعد عمل سيّء قام به المشركون ضدّكم، {فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ به}، فليكن ما تفعلونه ضد المشركين مماثلاً لما فعلوه معكم، فإن عادوكم عادوهم، وإن قاطعوكم قاطعوهم، فإذا قرّرتم معاقبتهم فلا تزيدوا عمّا فعلوه معكم.

ننتبه جيداً، لأنَّ الآية تريد أن تبيّن الفرق بين المؤمن وبين غيره، فالمؤمن يعمل على ضوابط الشريعة الإلهية، ويلتزم بالعدل، وهذا ما تقوله الآية هنا، وهي لا تجيز لنا تقليد المشركين في أي شيء يفعلونه بنا، إذ هناك أمورٌ حتى لو فعلوها ضدّنا فمن غير المسموح أن نفعلها معهم، ولنقل إنك تشاجرت مع مشرك، وبعدها اغتال أباك، فلا يحق لك اغتيال أبيه أو أي شخص آخر من عائلته... بل تعاقبه بقتله هو، وإذا صفعك على وجهك فلا يحق لك قتله، بل تصفعه كما صفعك... ولنفرض أنه شتم أمّ مؤمن ما، فلا يحق للمؤمن شتم أمّ المشرك إن كانت مؤمنة أو مسالمة للمؤمنين، ويحقّ للمؤمن شتم الكافر الذي شتمه...

أطلت عليك الكلام لأن عامّة الناس يبرّرون ما يفعلونه من سوء مع الآخرين على أنه كان رداً بالمثل على ما فعله الآخرون معهم، ولنقل إنَّ أحدهم سبَّ وشتم أمّه وأخته... فيردّ عليه بسبّ وشتم أمّه حتى لو كانت لا ترضى بما فعله ابنها! وهذا شيء لم تُبِحْه الآية هنا ولا أي آية في القرآن تبيحه، بل تشتمه هو إن أردت الردّ عليه.

{وَلَئِن صَبَرْتُمْ}، بقيتم تتصرفون بشكل واعٍ ومدروس، {لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ}، وهو موصوف بأنه عمل جيد للذين لم يختاروا الردّ بشكل سيئ. حيث تتحدّث الآيةَ عن الأفعال السيئة التي يقوم بها المشركون ضدّكم لأنكم مؤمنون، إذ يؤذونكم بسبب إيمانكم، وفي هذه الحالة يمكنكم الردّ عليهم بمثل ما فعلوه معكم، وتشجعك الآية على البقاء صابراً حتى عندما تردّ.

لا يريد سبحانه إلغاء المشاعر والانفعال من المؤمن، بل يريده أن يتحكّم بها، وفي نفس الوقت يوجّهه نحو الترقّي والعلو في السلوك، عُلُوّاً في الصبر بالرد بشكل مدروس عن وعي لا عن غضب وانفعال، ويصل العلو بالصبر إلى

درجة السكوت إن كان السكوت أفضل من الردّ، حتى يبقى الفرق واضحاً بين أخلاق المؤمن العالية وبين سفالة وتفاهة المشركين.

من المعيب علينا كمتدينين أن نجد مشركاً خلوقاً مهذباً عادلاً منصفاً... أكثر من المؤمنين، لذا تأمرك الآية بالابتعاد عن سلوك العصابة والاستقواء على الآخرين والجلافة والفظاظة والظلم... حتى مع المشركين.

بقي شيء، فالسورة لم تتحدّث أبداً بتاتاً عن أحكام الحرب والصلح مع المشركين، بل تتحدّث "حصراً" عن دعوتهم إلى الدين الإلهي، حيث تتحدث مع هادٍ يهديهم وهو يعيش بينهم، وهو النموذج الرسول محمّد(ع)، فإذا تعرّض للأذية منهم بسبب إيمانه، يمكنه الردّ، ولكن ضمن حدود الصبر في الردّ أو الاحتفاظ بحقّ الردّ أو بقرار السكون إن كان أفضل من الردّ. وهنا الآيات "والسورة" لم تتحدّث عن مشركين يعلنون الحرب بالقتال على الرسول والمؤمنين، ولم تتحدّث عن أي شكل من العنف الذي يؤدّي إلى القتل، وتحدّثت عن الأذية والمضايقة والضغط... ومرّ معك ذلك حين نبّهت على وجوب الهجرة في حالة الخوف على الإيمان... لذا لا معنى لكلام من قارن بين الآية هنا وبين آيات أخرى من القرآن تأمر بقتال المشركين، حيث قال بعضهم إنَّ الآية هنا منسوخة، ملغية، والحكم القرآني الأخير كان بقتال المشركين لا الصبر عليهم!

ليكن ما قالوه عن الآية هنا نموذجاً لك تقيسه على بقية ما قالوه من نسخ وتفسير للقرآن، إذ هذا تعامل جاف مع كلامه تعالى، حيث يفترضون أن الظروف والأحوال لا تتغيّر ويجب أن يكون الحكم الإلهي واحداً دائماً، وهو قتال المشركين وإلغاء أي كلام قرآني آخر على أساس أنه منسوخ. لا، فدائماً هناك ظروف مختلفة يعيش فيها المؤمن، فمرةً يعيش بين كفّار مسالمين، ومرّة بين كفّار مزعجين، ومرّة بين كفّار يضايقونه بشدّة... ومرّة يكون كل مجتمع الكفّار ضدّه، ومرّة يكون فقط البعض منهم ضدّه... وصولاً إلى العداوة بمنعه من ممارسة إيمانه، وصولاً إلى أقصى العداوة بإعلان العداوة لقتله... وكما ترى فهذه ظروف مختلفة لا يمكن أن يكون حكمه تعالى واحداً في التعامل معها كلّها، وعلى هذا الأساس نفهم كلام السور المختلف لمختلف الحالات، إذ الكلام عن نماذج من الحالات.

سورتنا هنا من بدايتها تعرض حالة مؤمن يعيش في مجتمع كافر، وينذرهم ويهديهم ويبيّن بطلان دينهم... وختمت كلامها معه بأن يبقى على الصراط الإلهي عندما يتعرّض لمضايقات وضغوطات وألا يتعامل معها بالعنف الغريزي، بل يبقى صابراً... ولا علاقة لها لا من قريب ولا من بعيد بحالة مشركين محاربين للمؤمنين.

تفسيراتهم لآيتنا هذه بأنها منسوخة هو نموذج عن قطعهم وسحبهم الكلام الإلهي عن سياقه، وهو نموذج عن ضيق رؤية العديد منهم لمواضيع أوسع وأشمل من تفكيرهم ورؤيتهم للأمور...

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ{127})

{وَاصْبِرْ}، لا تنفعل وتتصرف بشكل غير واعٍ أو مدروس، ولا تفكّر في الردّ على الاعتداءاتِ بطريقة سيّئة، {وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ}، إذْ طالب الصبر منك هو الله تعالى ليبقى الموضوع على هذه القيمة، وأنت إذا صبرت فبسبب تحفيزه تعالى لك على الصبر، وهذا له معنى كبير فحافظ عليه، وقارنها مع شخص لا يؤمن به تعالى، وصبر على أذية ما وتصرّف بحكمة، فهذا شيء جيد له، الآن قارنها مع مؤمن تعرض لأذية، وفار غضبه ولكنه صبر عندما تذكّر أنه تعالى يأمره بالصبر، هكذا يصير صبره بالله تعالى، عنوانه أنه صابر لأنه تعالى يحبّ هذا التصرف منه، وعلى هذا المعنى تنسب الآية صبر المؤمن بأنه لله تعالى حتى يفهم القيمة العالية لقراره وتصرفه إن كان كما يأمر ويرضى سبحانه، ليصير منسوباً فعلُهُ لله تعالى، وهي على نفس مفهوم حالة التعبير في الآية 17 من سورة الأنفالِ {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى...} حيث تبنّى سبحانه أفعال المؤمنين.

{وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ}، لأنهم مشركون ومصيرهم إلى النار، ولا تشعر بأي مضايقة عليهم، لأنَّ هذا اختيارهم هم.

{وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ}، أي لا تشعر بالمضايقة، {مِمَّا}، من الذي، {يَمْكُرُونَ}، لأنهم يخطّطون لأمور سيئة ضدّك وضدّ دينك فلا تتضايق من ذلك، لأنك لست وحيداً متروكاً:

(إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ{128}
{إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ}، مع الذين تجنَّبوا وتحاشوا، والكلام عمومي للذين تجنّبوا السوء وهو نفسه تجنّب ما ينهى عنه تعالى وهو نفسه تجنّب غضبه وعقابه تعالى، وسبحانه مع {الَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ}، مع الذين أعمالهم موصوفة بأنها حسنة.

طالما أنت تتقي وتتجنّب غضب وعقاب ربّك سبحانه وتطيعه فيما أمرك بفعله أو تركه، وطالما لم تقم بأعمال سيّئة وكانت أعمالك حسنة جيّدة، فهو سبحانه معك. وعملياً هذا يعني أنه تعالى سينصرك ويؤيّدك بما يراه مناسباً.

تذكّر دائماً أنَّ وصف القرآن للمؤمنين بالمحسنين لا يشير إلى المعنى الدارج على معنى المتفضلين على الآخرين، بل يشير لعموم الذين عملوا حسناً، إذ يشير لعموم الأعمال الموصوفة أنها حسنة، والتفضّل على الآخرين من الأعمال الحسنة.

سورة الإسراء (17) ص 282
كانت قديماً تسمى سورة بني إسرائيل.
محور السورة حول ما يعرضه تعالى في قرآنه وما عرضه سابقاً عبر كتبه ورسله من حقّ وصلاح، وهذا من المفروض أنه لا يحتاج لأي شيء آخر لنكون عليه، بينما الكثيرون يشترطون آية غريبة عجيبة ليؤمنوا بالحق ويلتزموا بالصلاح!
محورُ تناولها للمواضيع أقرب ما يكون إلى علم الاجتماع بِنَظَرِهِ للجماعة والفرد ولكن من نظرة "الحقّ والصلاح" كنظرة دينية بحتة، وترى فيها تداخلَ تصرفات الأفراد على مصير الفرد والمجتمعات.
بدايةُ الكلام فيها مع الجماعة لسلوكهم الفردي المؤدي إلى نتائج حتمية في الدنيا والآخرة، على معنى: حركة التاريخ في المجتمعات بناءً على حركة أفرادِهِ. وكل السلوكيات تختصرها السورة باتخاذه تعالى وكيلاً كمحور للأثر الناتج من سلوك أفراد اعتبروه تعالى وكيلاً "فهم مؤمنون صالحون" وآخرون لم يعتبروه وكيلاً "حتى لو كانوا منتمين بالاسم لدينه تعالى"، وما نتج وسينتج عن ذلك في الدنيا والآخرة على المجتمعات التي يعيش فيها الأفراد المتوكلون عليه تعالى أو المعرضون عنه تعالى.
هذه الوكالة بتدرجاتها من الشرك الذي ركّزت عليه السورة بتكرار الكلام فيه من جوانب متعددة، إلى بقية التفاصيل الأساسية وكلها من السلوكيات الفردية المؤثرة على كتابة تاريخ المجتمعات، حيث ترى دينه تعالى تطبيقياً مؤثراً على سعادة الفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة، بدمج المصلحتين معاً كنتاج من عنوان طاعته تعالى.
مقدمة كلام السورة ربط بين هذا القرآن مع كتاب نزل من آلاف السنين، وذلك الكتاب فيه تشريعات يعيد القرآن تكرارها، والالتزام بتلك التشريعات الموجّهة للفرد هو عملياً اتخاذه تعالى وكيلاً، وبتركها سيخرج من وكالته تعالى، وضربت السورة بني إسرائيل كنموذج ومثال عن ذلك... وانتقلت منهم إلى ذكر التشريعات التي كانوا ملزمين بها ونحن بدورنا مأمورون بها... وفي أثناء ذلك ركّزت السورة على أساس كل شيء يقوله تعالى، على توحيده والإيمان بالآخرة...
مرَّ فيها التنبيه على إبليس العامل على تخريب الأفرادِ والمجتمعات...
خلالَ الكلام ركّزت على ما يعرضه تعالى من حقّ وصلاح ويرفضه البعض متّبعين الشيطان وطالبين لآية ليؤمنوا بما هو حقّ واضح وليلتزموا بما صلاحه واضحٌ.
قبلَ آخرها دخلت على ما نسمّيه بالعبادة من صلاة لترينا ضرورتها كتطبيق عمليٍّ للتوكّل عليه تعالى والالتزام بدينه.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ{1})
{سُبْحَانَ}، مُنَزَّهٌ، ليس عنده أي صفة ناقصة أو معيبة أو سيئة، وهنا بالتحديد بالنسبة لبقية كلام السورة سبحانه منزّه عن أن يكون له شريك في الألوهية، {الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ}، نقل المخلوق الذي المفروض منه الطاعة باتجاه، ومن المشهور جدا أن العبد هو النبي محمد(ع) وأنه تعالى نقله، {لَيْلًا}، في فترة العتمة من اليوم، {مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، من الباحة التي حول الكعبة التي في مدينة مكة، وهي باحة كبيرة وتمتد حتى الصفا والمروة، وزمزم... ولأن الكعبة لها صفة: بيت الله تعالى، فإن الباحة حولها لها حرمة ولها احترامها، ولذلك يقال لكل الباحة: المسجد الحرام، أي المكان

الذي له حرمة وهو مخصّص للتعبير بالسجود "كأبرز نموذج" عن الخضوع له تعالى، مما يعني أن فيه ممنوعاتٍ نابعةً من نسبة البيت له تعالى فيحرم فيه الصراخ والجدال والمنازعات... والمسموح هو العبادة بالدعاء والمناجاة...

قال كثيرون في كتب التفاسير والقواميس إن الفعل "سرى" يشير حصرا للحركة ليلا، ولكن هذا لا يبدو من استعمال العرب لكلمة سريان، ولا يبدو من استعمال القرآن لهذه الكلمة ومشتقاتها، ومنه ما ورد في الآية 24 من سورة مريم {تَحْتَكِ سَرِيًّا}، بل ومن الآية 23 من سورة الدخان {فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ} ومن الآية الأولى من سورة الإسراء {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا...}، فباستعمال "سرى" مع قيد الليل فيهما يبدو أنها ليست كلمة مخصّصة للانتقال ليلا، وإلا لما كانت هناك حاجة لإضافة الليل لها. ويبدو أنها تختلف عن بقية الكلمات الواصفة للانتقال "مشى، انتقل، ركض..." بأنها أقرب منها لمعنى التسلسل والحركة باتجاه ما بخفّة بدون جلبة، كحالة وصف سريان الماء.

نرجع للآية، فالمنزّه عن العيوب في الصفات والقدرات الذي نقل عبده ليلا من المسجد الحرام، {إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى}، إلى المسجد البعيد، والمشهور جدا أنه المسجد الذي في فلسطين، وبالتحديد إلى المسجد الذي في مدينة القدس. ومن المعروف في حين نزول هذه السورة أنه كان على الأرض يوجد مسجدان أساسيان فقط لعبادة الله تعالى، المسجد الحرام، والمسجد الآخر في فلسطين وهو المعروف باسم: بيت المقدس. ويبدو من التاريخ أنه من بعد نزول هذه السورة بوصف بيت المقدس بالمسجد الأقصى، توارث المسلمون هذه الصفة وصارت اسماً للمكان، بالإضافة لتسميته ببيت المقدس.

{الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ}، حول المسجد الأقصى، سابقاً أعلن سبحانه رضاه عن تلك البقعة وما يجاورها مباشرة من قرى، وعمليا هو رضاه تعالى بدرجة عالية عن بعض ما جرى في بقعة المسجد وما حوله حيث عاش فيها أنبياء كُثُرٌ وكانت قبلة للصلاة...

هناك كلام حول مدى امتداد المساحة المباركة حول المسجد الأقصى، ولا نجد في القرآن ما يساعدنا على تحديد تلك المساحة التي عُبِّرَ عنها بأنها {حَوْلَهُ}، وبالاعتماد على الثقافة التاريخية الدينية، فالمسجد الأقصى ضمن ما كان يسمّى قديماً: بلاد الشام، التي حالياً تضم ما يسمّى بسوريا ولبنان وفلسطين والأردن وبعضاً من السعودية من جهة الأردن، ولا ندري إن كانت البركة تقصد هذه البقعة كلَّها وهي مشهورة بحياة العديد من الأنبياء فيها، أو تقصد ما جاور المسجد الأقصى مباشرة، على كلّ حال فالقدر المتيقن هو البركة لما يمكن أن نسميه مدينة القدس، والزيادة عن ذلك تحتاج إلى دليل.

إذاً، بقدرة إلهية جرى نقله (ع) في مدّة قليلة "في جزء من ليلة" بين المسجدين، وانتبه، بالنسبة للإله سبحانه لا يوجد شيء صعب، ولكن بالنسبة لنا فهذا الإسراء مُلْفِتٌ غريب، مَنْ خلق السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن، فإن الإسراء بعبد عنده تعالى هو عمل عادي جداً جداً، ولكن، هل الآلهة التي يعبدها المشركون قادرة على فعل شيء كهذا؟ نحن الآن قادرون على السفر بالطائرة بسرعة عالية من مكان لآخر، وربما نكتشف طريقة أسرع منها في المستقبل، وهذا لا يعني أن الإسراء المذكور هنا سوف تقل قيمته، لأنه حينما حصل كان عملاً غير عادي ومن الواضح التدخّل الإلهي لحصوله.

أقول لك هذا لأن تعبير الآية بـ {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى}... يشير إلى مدح ذي القدرة على الإسراء بعبده، صحيحٌ أن هذا عمل أقل من عادي بالنسبة لمن خلق سبع سماوات، ولكنه يبقى عملاً من مستوى إلهي تعجز عن فعله المخلوقات "في حينها"، والأهم من ذلك تعجز عن فعله الآلهة الوهمية التي يعبدها الناس، وفي حينها كان عملاً يدل على تدخّل إلهي مباشر لحصوله، وهذا حتى لو كان عملاً عادياً بالنسبة له تعالى لكنه في نفس الوقت عمل إلهي، فإذا فهمنا التسبيح على معنى مدحه تعالى لنفسه على عمل الإسراء، فهو مدح حقيقي لا تقل قيمته لأننا الآن يمكننا الإسراء بالطائرة بين المسجدين، لأن هذا العمل في حينها كان فوق قدرة الناس وحدث بالفعل.

قارنها مع رسول يأتي الآن في عصرنا، ويخبرك "بالدليل الحسّي" أنه أُسْرِيَ به ليلاً إلى مجرة "أندروميدا"، وجاء كلام منه تعالى يقول: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} إلى مجرّة... الآن بالنسبة لنا سيكون هذا العمل خارقاً فوق قدرتنا على فعله وسيكون دليلاً على تدخّل إلهي، وستقول: سبحان من فعله... ولكن بعد ألف سنة، أو ألفين أو... ربما يتمكّن

البشر من فعل ذلك، فهل تذهب قيمة العمل الإلهي الإسرائيّ السابق؟ لا. ونفس الشيء بالنسبة لذاك الإسراء بين المسجدين ولوصولنا لاستعمال الطائرة بعد أكثر من ألف سنة لفعل نفس الشيء.

بالنسبة لكلمة مسجد، حالياً يذهب فكرنا إلى صورة بناء له قبة ومئذنة، وهذا التصور سببه أن كل المساجد التي نعرفها حالياً هي بهذا الشكل، أمّا قديماً، فكانت الكعبة بناءً مربعاً، وحولها باحة ترابية من دون أي سور أو جدران، وتلك الباحة الترابية مع الكعبة هي المسجد الحرام. وكذلك كان بيت المقدس، كان هضبةً مفتوحة، ومع الوقت بنى الناس حول الهضبة سوراً، والصخرة المشهورة في تراثنا الديني والتي يقولون إنه وقف عليها النبي محمّد(ع) وصعد منها إلى السماء، كانت مكشوفةً وكانت أعلى نقطة في الهضبة، وبعد ذلك بنى المسلمون على الصخرة بناءً يُسَمَّى: مسجد قبة الصخرة. ومع الوقت لم يعد دارجاً تسميته بذلك حيث من بعد نزول هذه الآية درج تسميته بالمسجد الأقصى حتى من القريبين منه من المسلمين.

في عصرنا تنتشر بين الناس صورة لبناء متعدّد الأضلاع وله قبّة صفراء، ويشيرون إليه بالقدس، ولكن الصحيح أنه حالياً بقربه وفي نفس الباحة يوجد بناءٌ صغيرٌ بلا زخارف وله قبّة خضراء، وذاك هو مسجد قبّة الصخرة وهو أساس التسمية للمكان وهو الذي تشير إليه الآية هنا.

سبب إسراء، نقل النبي محمد(ع) من المسجد الحرام، إلى المسجد الأقصى: {لِنُرِيَهُ}، حتى يصير لديه (ع) صورة محدّدة مِنْ {آيَاتِنَا}، فيرى بعض الأمور المميزة من مستوى إلهي. حينها كانت الرحلة تستغرق من مكة إلى فلسطين حوالي الشهر على الدواب، أمّا هذه الرحلة ذهاباً وإياباً فَتَمَّتْ في ليلة واحدة، وهذه آية، حيث إنَّ هذا أمرٌ مميزٌ من مستوى إلهي.

{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ}، الذي يسمع كل شيء، {الْبَصِيرُ}، الذي يدرك "بمستوى إلهي" ويفهم معنى صورة ما يحصل، ولأنّ هذا الإسراء حصل بإشرافه تعالى.

من الواضح أنه تعالى أرادنا من هذه الحادثة رؤية الرابط التاريخي للرسول محمّد(ع) والقرآن مع آلاف من السنين من تاريخ الأنبياء السابقين، ولنرى ربطاً بين المسجدين "الأساسيين" الوحيدين على الأرض في حينها "المسجد الحرام والمسجد الأقصى". ومن الواضح من الكلام التالي عن بني إسرائيل ربطه تعالى لرسوله محمّد(ع) وللمؤمنين الجدد مع المؤمنين السابقين، وذلك عبر الكلام عن حادثة الإسراء كمقدمة للكلام عن بني إسرائيل المنتسبين دينياً وتاريخياً لذلك المسجد.

في الروايات وكتب التاريخ يقولون إن الملاك جبريل(ع) أحضر دابة اسمها: براق، حجمها أكبر من حجم الحمار بقليل، وأقصر من الحصان... ولها جناحان... وركب عليها النبي(ع) وطارت به من مكة إلى فلسطين... وجاء في الروايات أن النبي(ع) التقى في بيت المقدس ببقية الأنبياء، وصلّى فيهم جماعة... وهناك تفاصيل في تلك الروايات تتعارض مع مفاهيم القرآن، حيث إنَّ فيها أن جنّة الآخرة ونارها موجودتان الآن... وتلك الروايات مشكوك في رواتها عند العلماء المحققين، لأنَّ من رويت عن لسانهم لم يكونوا موجودين وقت الحادثة، "أبو هريرة، وغيره..."، ومن الغريب أن ينفردوا برواية أحداث الإسراء بالتفاصيل التي يقصّونها وهناك معاصرون لحدث الإسراء ولم يصلنا منهم ولا كلمة تفصيلية عن الموضوع! إذ ورد عنهم فقط حصول حادثة الإسراء من دون أي تفاصيل أو شبه بالتفاصيل التي ينسبون رواياتها لأبي هريرة وآخرين!

لدينا في القرآن آيات تحدّثت عن تعامل مباشر من النبي محمد(ع) مع أمور في السماء العالية "نحتمل عادة أنها السابعة" وحدث ذلك على الأقل مرتين، وراجع في ذلك دراسة سورة النجم، ومن الدارج في تراثنا الثقافي الإسلامي تسمية ذلك بالعروج علماً أن هذا الوصف القرآني لم يرد لهذه الحادثة، وفي الروايات تجد جمعاً بين حادثة الإسراء مع ما يسمونه بالمعراج على معنى صعود النبي محمّد(ع) إلى السماء... فلا تربط ما في تلك الروايات مع ما يقوله القرآن، حيث بشكل ضبابي يعتقد الناس بأن ما في تلك الروايات مذكور بشكل ما في القرآن، وهذا ليس صحيحاً، لأنَّ أكثر ما يقولونه ليس مذكوراً في القرآن.

هناك بحث في الكتب حول الإسراء وحول ما يسمّونه بالمعراج إن كان حصل بجسده (ع) أو بروحه أو في منامه... ومن دراستنا هذه يظهر لك أن إقحامهم للروح "بالمعنى الاصطلاحي الذي يقصدونه في كلامهم"، وهو اصطلاح بينهم لا يستند صراحة إلى أي شيء قرآني، وأصلاً هم ليسوا متفقين على اصطلاح واحد لكلمة روح، وبالنسبة للإسراء من الواضح هنا من ظاهر الكلام القرآني انتقاله (ع) بجسده، حيث لا تجد في الآيات أي إشارة تفيد غير ذلك إلا عبر إقحام افتراض بعيد عن الوهلة الأولى من فهم الكلام، وبالنسبة لما يسمّونه بالمعراج، يمكنك مراجعة الآيات التي تحدّثت عن تعامل الرسول محمّد(ع) مع أمور في السماء العالية لترى أنه لم يحصل انتقال مادي "ولا روحي" بل انفتحت قناة كوسيلة اتصال مباشرة بينه(ع) وبين سماء الملائكة(ع)... ولمزيد من التفاصيل راجع دراسة سورة النجم.

ننتبه دائماً لكل الأبحاث التي نتجت عن روايات الإسراء والمعراج، والتي لا علاقة لها بتفسير الآيات القرآنية، وهي مجرّد أبحاث روائية استخرجوا منها أحكاماً شرعية وعقائدية وكلامية وفلسفية وصوفية وعرفانية... لذا انتبه دائماً كونها أبحاثاً مبنيّةً على روايات، ولا تدمجها مع القرآن، إذ أقل من واحد بالمائة منها يتقاطع مع القرآن، وبقية ما تحدّثت عنه هو خاص بالروايات ولم يذكره القرآن، وأُنبّهك على هذا لأن أكثر الناس عَلِقَ في ذهنها روايات الإسراء والمعراج وصار جزءاً من ثقافتهم الدينية وبشكل ضبابي يعتقدون أن ما في ذهنهم عن الإسراء والمعراج ذكره القرآن! بل وحتى العلماء تلاحظهم ينجرفون بالروايات والأبحاث حول الإسراء والمعراج أكثر مما ينجرفون في مواضيع أخرى، ولدرجة إلصاق أبحاث تشريعية وتاريخية وعقائدية وسلوكية من تلك الروايات التي وكأنها ثابتة الصحّة وكأنها مدعومة قرآنياً... ويفسرون بعض آيات القرآن على أنها تشير لشيء حصل فيما يسمونه بالمعراج ومنها الآية 45 من سورة الزخرف {وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ} ولمزيد من الاستفادة راجع دراستها كنموذج عن الآيات الأخرى التي يدّعون أن لها علاقة بالإسراء والمعراج.

لا تأخذ كل ما تسمعه من تلك الروايات على أنه مذكور أو مؤيّد من القرآن، حيث ذكر القرآن فقط حصول حادثة إسراءٍ وحادثة تواصل النبي محمّد(ع) مع أمور في السماء العالية، ولم يذكر بتاتاً ماذا حصل في الإسراء، وذكر في سورة النجم وصفاً لما رآه النبي محمّد(ع) في السماء العالية، ويمكنك مراجعة أي آية من القرآن فسّروها على روايات الإسراء والمعراج لتقارنها مع ما ذكرناه لك في دراستنا هذه لترى الفرق بين التفسيرين...

(وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً {2})
بعدما ذكرت الآية السابقة المسجد الأقصى، وَمَشْهُورٌ أنه مقدّس عند اليهود المنتسبين للرسول موسى(ع)، ومعترف به عند المسيحيين، وربطته الآية بالمسجد الحرام وبالرسول محمّد(ع) عبر الإسراء به(ع) بين المكانين، تأتي آيتنا هنا:

{وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ}، وهو التوراة، {وَجَعَلْنَاهُ}، كتاب التوراة، {هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ}، ففيه ما يضعهم على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، وخلاصة خلاصة ما في التوراة: {أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي}، من دونه تعالى، {وَكِيلًا}، فقط اعتقدوا بأنه تعالى يسيّر أموركم كما يجب.

هذا التوكّل هو محور كلام السورة، فلنتكلّم قليلاً في معنى التوكّل عليه تعالى، عملياً حصر التوكّل عليه تعالى يعني الاعتقاد به تعالى إلهاً أحداً قادراً حكيماً عليماً... وكل البقية مخلوقاته وهي بقدرات واهنة جدا بالمقارنة معه تعالى، وبناء عليه، بين التوكّل على نفسي أو على مخلوق قوي غني... وبين التوكّل عليه تعالى من الواضح الفرق الهائل، كيف بمن توكّل على غيره سبحانه معتقداً أن ذاك الغير إله! وبقدرات فائقة! تاركاً الإله الأحد!

بعد قليل سترى السورة تشير إلى خروج بني إسرائيل من العناية الإلهية، لأنهم تركوا ما في التوراة... وهذا مشابه لحالة الكفّار بشكل عام لأنهم الخارجون من العناية الإلهية المميزة بسبب كفرهم الناتج عنه اتخاذهم غيره تعالى وكيلاً، ستخبرنا السورة عن العقيدة والتشريع والسلوكيات التي تجعلنا على طريق الحقّ، والخروج عنها هو الضلال، مهما كان اسمك أو صفتك، إنْ توكلت "اعتمدت" على أحد غير الله تعالى فأنت خارج من عنايته سبحانه.

ضع في بالك أن ما سيأتي في السورة من الآية 23 وبعدها مُطَوَّلاً، هي أوامره تعالى المشابهة تماماً لما ورد في الكتاب الذي آتاه تعالى للنبي موسى(ع)، واشتهر بين الناس اختصار أوامره تعالى التي وردت في التوراة بتسميتها بالوصايا

العشر، وعلى كلّ حال الشبه واضح جدا جدا بين ما ستجده في هذه السورة من تشريعات وبين ما يقولونه عن الوصايا العشر. وهكذا ترى أن الالتزام بالوصايا الإلهية هو عملياً اتخاذه تعالى وكيلاً، ونتيجته سعادة للناس في الدنيا والآخرة.

بنو إسرائيل، هم أبناء وأبناء أبناء... النبي يعقوب(ع)، الذي له اسم ولقب أو اسمان: يعقوب، وإسرائيل. ومع مرور الزمن اشتهرت ذريته باسم بني إسرائيل.

بقي شيء، ما يسمّى الآن بالتوراة هو مجموعة كتب جمعها أحبار اليهود على مرّ التاريخ، وتوراة النبي موسى(ع) بقي منها الشيء القليل في التوراة الحالية، ويقولون إنَّ الأسفار الخمسة الأولى الموجودة الآن في كتاب التوراة، هي التوراة المنسوبة للنبي موسى(ع) وبقية الأسفار من تأليف أنبياء آخرين ومن تأليف الأحبار، ولكن بمراجعة الأسفار التي ينسبونها للنبي موسى(ع) ستجد أن غالبيتها الساحقة مقولة عنه (ع) وليست مقولة منه ولا مقولة من الله تعالى، وهذا شيء لا ينفيه اليهود الذين يقرّون بأنَّ كتب التوراة أُحْرِقَتْ وَتَلِفَتْ في زمن سبي البابليين لبني إسرائيل، وَكَتَبَهَا من جديد الكاهن "عزرا" ممّا يتذكّره منها "وما أعجبه مما تذكّره"، وكتبها قبل ميلاد السيد المسيح(ع) بحوالي خمسمئة عام، وهذه النسخة هي المعتمدة حالياً والمنتشرة بين الناس، وطبعاً مضافاً لها ما أضافوه من بعد موت الكاهن عزرا.

(ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً{3})
بنو إسرائيل الذين منهم النبي موسى(ع) هم: {ذُرِّيَّةَ}، هم انفصلوا "بالولادة"، فهم أبناء أبناء، {مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ}، وتعلم من القرآن ومما هو مشهور أن النبي إبراهيم(ع) حفيد متصل بأحد أولاد النبي نوح(ع) الذي ركب مع أبيه (ع) في السفينة التي نجّتهم من الطوفان، والمشهور المنتشر في عموم ثقافات أهل الكتاب أن اسمه "سام". وكما ترى لم نفترض أن بني إسرائيل من أبناء المؤمنين الآخرين الذين كانوا على السفينة لأن الآيات القرآنية العديدة تؤكّد كون بني إسرائيل يرجعون بنسبهم إلى يعقوب(ع) "المشهور بلقب إسرائيل"، بن إسحاق(ع) بن إبراهيم(ع) وهو من ذريّة النبي نوح(ع)، وراجع في ذلك الآيتين 33 و34 من سورة آل عمران ... {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ}...

{إِنَّهُ}، النبي نوح(ع)، {كَانَ عَبْدًا}، مفروضاً منه طاعته تعالى، {شَكُورًا}، يداوم على شكره تعالى كثيراً، ويعلن أنه حصل على أشياء جيّدة منه تعالى، وسياق الكلام يقصد بالتحديد أنه لم يتّخذ (ع) من دونه تعالى وكيلاً.

هكذا ارتبط مكانان مباركان وسلسلة من الأنبياء بالنبي محمّد(ع)، وهذا المدخل لموضوع السورة يشابه كثيراً كلامنا حول علم الاجتماع لتاريخ المجتمعات، وطبعاً سيكون الكلام القرآني في السورة عن ذلك ولكن من نظرة دينية بحتة. أقول دينية بحتة لأنها ستعرض التاريخ من نماذج لها ارتباط بدينه تعالى، ليكون نموذجاً لبقية المجتمعات، فسبحانه يعرض علينا الهداية في قرآنه، وحينما يذكر شيئاً عن المجتمعات وتاريخها، فلا بد أن يكون له علاقة بالهداية، وهذا يستدعي حصر الكلام التاريخي عن مجتمعات كان فيها مؤمنون بدينه تعالى كممثلين للهداية، وإلا فما النفع من الكلام عن مجتمعات كانت كافرة واستمرت على هذه الحال؟ وما النفع من الكلام عن مجتمعات كافرة وتطورات الأحداث في تاريخها من خلافات أو حكومات... لا علاقة لها بالهداية ولا بالصلاح؟ حين يدخل مؤمن على الخطّ، وينذر قومه من الكفر أو السوء، فعندها يصير معنىً لنقل القرآن لهذا النوع من الأحداث، لنتّعظ منه.

(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً{4})
{وَقَضَيْنَا}، هناك أمر قرّر سبحانه حصوله، وهنا الكلام عن شيء قرّر تعالى "تركه" يحصل، {إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ}، مُسَجَّلٌ أنه سيحصل معهم، {فِي الْكِتَابِ}، الرئيسي الذي فيه تسجيل عن كل شيء في الدنيا والآخرة، حَيْثُ سجّل سبحانه في الكتاب الذي يتحقّق ما هو مكتوب فيه، وَسيتنفّذ ما يلي:

{لَتُفْسِدُنَّ}، سوف تقومون يا بني إسرائيل بالفساد بالأعمال السيئة المضادة للصلاح، وعمليا فهي أعمال مخالفة لأوامره تعالى، {فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ}، في فترتين زمنيتين مختلفتين. وكلمة فساد عمومية على كل عمل مضاد للصلاح، وَتشير لعموم ما هو غير صحيح من ناحية رفضه من جهة حدّدت ما هو مطلوب ومقبول، وما حصل مخالف للمطلوب المقبول فيصير موصوفا بالفساد، ومجال ذلك واسع من الفساد العقائدي أو التشريعي أو السلوكي، سواء على مستوى

تصرفات الفرد أو المجتمع، وهنا الكلام عن نتيجة فساد ستنعكس على الأرض، يعني الكلام هنا عن فساد قام به المجتمع، فالمجموعة المنتسبة لإسرائيل ستقوم بفساد يظهر أثره على الآخرين.

وفي المرتين، {وَلَتَعْلُنَّ}، تَسْتَعْلُونَ يا بني إسرائيل، {عُلُوًّا كَبِيرًا}، وَسَتَصِيرُونَ عالين على الآخرين، أغنياء وأقوياء مسيطرين... على مقياس كبير عن الآخرين. وينتشر في بعض الأدبيات فهم علوّهم على كل أهل الأرض، ولكن الكلام التالي سيبين لك أنه محدّد لفسادهم في منطقة محددة، فهم عالون بالخصوص في المنطقة التي فيها المسجد الأقصى، وهذا لا ينفي علوّهم في مناطق أخرى ولكن الآيات بوضوح تشير لخصوصية العلو في بقعة، ولمزيد من الدقة راجع دراسة الآية 112 من سورة آل عمران {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}، فلا تنجرف في الدعاية المكبّرة لسيطرتهم على دول العالم، فهم في عصرنا لهم تأثير ولكنهم في أكثر المواقف لعبة بيد الآخرين ولا يرون أنفسهم لعبة ويظنون أنفسهم اللَّاعِبِينَ، فلو كانت لديهم القوّة التي يبالغ بعض الناس بوصفها لهم من السيطرة على الدول الكبرى، لفرضوا أحلامهم ورغباتهم على كل الآخرين، ولمسحوا وأبادوا الشعوب من حولهم... وَطبعا سيكون لهم قوّة وعلو حتى يفسدوا مستندين إلى نوع من التأثير والسيطرة على مفاصل في بعض الدول القوية لتدعمهم وتغطّي أفعالهم... ولكن لا تعطهم أكبر من حجمهم.

قبل دراسة الآية ضع في بالك دائما أن كلمتي "قدر وقضاء" لم يستعملهما القرآن بالمعنى الاصطلاحي الذي ستجده في الكتب، فهما كلمتان معناهما عام، فالقضاء لعامة ما يراد حصوله و"حصل"، خذ مثلا الآية 23 من سورتنا هذه {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...}، وبصعوبة شديدة في بعض الآيات يمكن أن تفهم منها ما هو دارج بين الناس عن قرارات قرّرها تعالى أن تحصل و"ستحصل"، بصعوبة. والقدر عامّة تحديد لشيء، كمية أو مدّة أو قيمة، ولا من قريب ولا من بعيد استعملها القرآن بالمعنى الدارج بين الناس عن أمور فيها احتمال أن تحصل. ولمزيد من التوسّع حول ما يسمّونه بالقضاء والقدر راجع دراسة الآية 22 من سورة المرسلات، وراجع دراسة الآية الأولى من سورة القدر {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}.

مِنْ عموم القرآن تعلم بوجود كتاب مسجل فيه تفاصيل كل ما سيحدث في الدنيا والآخرة، وهو ليس من ورق، وليس مثل الكومبيوتر... بل هو شيء مختلف جدا، ولا يمكننا تصوره، فهو كتاب مرتبط بما في الدنيا كلها، وكل ما يحدث مع كل المخلوقات فهو حصول لِمَا هُوَ مسجّل في الكتاب، لحظة بلحظة.

نُلَاحِظُ أَنَّ الآية تخبرنا عن شيء مسجّل في الكتاب الإلهي، ولكن لاحظها تتحدّث معنا على أساس أن بني إسرائيل معهم خبر بذلك، {قَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ}، فيبدو واضحا أن هذا الخبر وَصَلَهُمْ من قبل عبر رسلهم وأنبيائهم وربما تسجّل في كتبهم، وها يخبرنا به تعالى عبر القرآن.

إذًا، بدأت السورة بكلامها عمّا يشابه كلامنا نحن عن حركة تاريخ المجتمعات، واختارت أمّة سيمر عليها في تاريخها ترك التوكّل عليه تعالى، فهم كمجتمع سيخالفون أوامره تعالى التي يعرفونها والمكتوبة في التوراة التي نزلت على النبي موسى(ع)، وَسَيَكُونُونَ عالين في الأرض مرتين، وَسَيَكُونُونَ حاكمين نافذين مسيطرين... وسيفسدون في المرتين، وسنرى ماذا سيحدث معهم في المرتين فيما سيلي من آيات...

كِنْ قبل ذلك انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي، تَطْبِيقُ هذه الآيات على ما ورد في الروايات التي ربطت هذه الحوادث مع ظهور الإمام المهدي والدجّال... فلا علاقة له أبدا بما يقوله القرآن، والمشترك فقط بين القرآن والروايات أن حربا ستحصل، وكل ما عدا ذلك فلا تخلط بينه وبين القرآن بشكل ضبابي في فكرك فتعتقد أن القرآن ذكره... وكل ما تقرؤه عن تطبيق هذه الآيات على حوادث جرت في التاريخ القديم سواء في عهد نبوخذ نصر، أو كورش، أو الرومان، أو اليونان... وما تقرؤه عن تطبيق الآيات على حرب خيبر... وما تقرؤه عن تطبيقها على حرب العرب مع الإسرائيليين... فهو غير صحيح، أولا لأنه لا ينطبق تماما على الآيات، وبخاصة على دخول "المؤمنين" المسجد مرتين، وثانيا لأن طريقة الكلام في الآيات تَدُلُّ على حدث سيقع بعد نزولها، ولا يدل على حدث وقع في الماضي، وما قاله البعض عن استعمال الآيات التالية للأفعال بصيغة الماضي وبالتالي فهي تتحدّث عن شيء حصل في الماضي، فهذا اشتباه منتشر في عموم التفاسير لمختلف سور القرآن، وسببه أننا لم نصغ قواعد تظهر استعمال الماضي والمضارع أثناء الحديث عن

المستقبل، وتجد لغات أخرى "كالفرنسية والإنجليزية والفارسية والألمانية..." تجد فيها "قواعد" عن استعمال أزمنة الأفعال للدلالة على الاستمرار والانقطاع، وتجد فيها قوننة التعبير بلفظ الماضي في أثناء الحديث عن حدث في المستقبل... وهذه أشياء نستعملها نحن كعرب أثناء كلامنا بلغتنا العربية، ونعرفها جيّدا، ولكننا لم نصغ لها قَوَاعِدَ. خذ مثلا قولنا: غدا سأنصب كمينا للثعلب، فإذا جاء "فعل بصيغة الماضي" ولم أَلْتَقِطْهُ وهرب "فعل بصيغة الماضي" فالثعلب لا يقع في الفخ مرتين. وهكذا ترى مثالا بسيطا عاديا عن استعمالنا الكثير لصيغة الماضي لحدث سيقع في المستقبل.

اِنْتَبِهْ للفرق بين ما تريد السورة قوله عبر ذكرها لما سيحصل مع بني إسرائيل الذين تركوا التوكّل عليه تعالى وأفسدوا... وبين ما تجده في الروايات التي لم تهتمّ أصلا بمسألة النظرة الإلهية لحركة تاريخ المجتمعات من نظرة دينية بكلامها عن نموذج من المنتمين لدينه تعالى، والتي تركّز عليه السورة، وصبّت الروايات اهتمامها على إنهاء الظلم وحكومة المؤمنين وملاحم الحرب...

مِنْ خارج تفسير الآيات وتعليقا على الروايات التي وردت لتفسيرها أسألك: ماذا تستفيد من معرفة توقيت ظهور المهدي أو السيد المسيح؟ وقبل ذلك أسألك: لماذا تريده أن يظهر؟ فلو حلّلت الأسباب الدافعة لخوضك في هذا الموضوع لرأيت أنك تريد تحقيق العدالة والعيش بالأمان في ظلّ حكومة إلهية تؤمّن لك متطلبات حياتك الشخصية، ناسيا أو متناسيا أنك ستبقى كما أنت "إيمانيا" ولن تتغيّر حتى لو عاد الرسل كلّهم إلى الحياة وعشت معهم، وَكثيرا ما نسمع الناس يقولون إِنَّنَا سنكون في وضع أفضل حين يظهر المهدي والمسيح... فعن أي وضع أفضل يتكلمون؟ عن الوضع الإيماني على أساس أن تدينهم سيتحسّن حينها! فعلى أي أساس يفترضون ذلك! وهل يعني ذلك أن كل من مات ولم يعش في عصر المهدي فقد فاتته فرصة تحسين إيمانه! أم يتكلمون عن تحسّن الوضع الأمني والاقتصادي والاجتماعي... وعن الغنى ورغد العيش؟ فهل هذا هو الحلم بظهور المهدي؟ وقبل قبل قبل ذلك كلّه لِنَسْأَلِ السؤال الجوهري: أليس تكليف كلّ مؤمن في كلّ عصر أن يحارب الفساد والمفسدين في الأرض؟ وقبل ذلك أليس تكليفنا لكل فرد منّا أن نعمل على شحذ تقوانا؟ فما معنى رمينا لكل ذلك وتعليقه على ظهور المهدي أو المسيح؟

لا تفهم من كلامي أَنِّي لا أؤمن بظهور المهدي "أو المسيح"، فهذا موضوع آخر، بل لا أؤمن بالانسحاب مما كلّفني به تعالى حين أرفع عن نفسي تكليف تطبيق شريعته تعالى، وأتركه لغيري "للمهدي أو المسيح" ليقوم به، وكأنه تكليف له وأنا ليس مطلوبا منّي إلا انتظاره!

بقي شيء، هَلْ سبحانه قرّر وسبّب أن يقوم بنو إسرائيل بالإفساد؟ وهل قرّر حصول حرب بينهم وبين المؤمنين؟ وَهَلْ هذا ما تقوله الآية وتقصده بتعبير قَضَائِهِ تعالى في الكتاب؟ لا، بل هي مجريات إجبارية للأحداث، وبعلمه تعالى بالغيب، بكل ما سيحدث، سجّل ذلك، ويسمّيه قضاء، يعني سيحصل لأنه تعالى قرّر تركه يحصل، فهناك أمور أخرى تدخّل سبحانه لتغيير مجرى الأحداث فيها، وأمّا هذا الحدث فيخبرنا تعالى أنه لن يتدخّل لإيقافه.

أَنَا وأنت حين نرى شابا طائشا مسرعا بسيارته، نحتمل بقوّة أنه سيتسبب بحادث... وحين نكون واقفين على سطح مَبْنًى نرى منه سيارتين مسرعتين من شارعين متعاكسين، والسائقان لا يريان بعضهما بسبب الأبنية الفاصلة، فمن معرفتنا بمسار السيارتين نحتمل بقوة عالية جدا حدوث تصادم، ومثله إطلاق الصَّوَارِيخِ إلى الفضاء لتتلاقى السواتل "الأقمار الصناعية" مع مسار كوكب ما بعد شهرين أو ثلاثة من سفرها في الفضاء...

هذا على مقياسنا نحن، أمّا على مقياسه تعالى فهو لا يخمّن ولا يحتمل، بل يعلم سلفا بالتفاصيل كل ما سيحدث في الدنيا والآخرة، ولسبب ما سَجَّلَ تعالى كل ذلك في كتاب، وما أفهمه من هذا التسجيل أنه ارتباط بشكل ما لتلك المعلومات بما في الدنيا، والكلام أكثر من ذلك فهو مجرد تحليل يحتاج لكثير من الدقة إذا كنّا سنحاول إنطاق آيات القرآن بأكثر مما اكتفت وقالته.

لِنُعِدْ صياغة الكلام معتمدين على مفاهيم القرآن، فسبحانه قرّر خلق ما في الدنيا، ونستوحي تعبيرا قرآنيا عن السرعة في ذلك بوصفها بأسرع من لمح البصر حين صمّمها تعالى وعلم بكل ما سيحدث فيها بالتفصيل، ولكن الوصف بلمح البصر في هذه الحالة غير دقيق لأنه تعالى الأوّل فلا معنى للكلام عن الزمن في تلك الحالة، ولذلك لم يماثل القرآن ما

يفعله تعالى بسرعة لمح البصر بل قرّبه وشبّهه بشيء سريع جدا نعرفه... على أي حال خَلَقَ سبحانه بناء على علمه الفائق كتابا يُسَجَّلُ فِيهِ كل شيء سيحدث، وقال لها تعالى كوني، فحتما ستكون وها صارت الدنيا وأنت فيها...

نعود ونستعمل تعبيرا تقريبيا وَنَقُولُ بأنه في الفترة المقاربة زمنيا للمحة من البصر كأسرع ما يمكننا لمس سرعته العالية، والتي علم تعالى فيها بكل ما سيحدث، قرّر تعالى أن يتدخّل في بعض المجريات التي بالأساس متروكة للأسباب والمسببات، فهناك كوارث طبيعية ستحدث بشكل طبيعي ناتج عن تصميمه تعالى للأرض حيوية ومتغيّرة متجدّدة... وسبحانه يمنع حدوث بعضها لسبب حكيم، كرحمة منه تعالى لمؤمنين، ومن القرآن نرى أنها تدخلات نادرة، ومثلها أيضا تدخلات نادرة قرّر فيها تعالى أن تحدث بعض الكوارث الطبيعية لإهلاك أقوام كافرين...

هُنَاكَ أحداث ستقع نتيجة المساحة الحرة التي منحها تعالى لبعض الكائنات، وسيتركها تعالى تحدث، ويتدخل في النادر منها، كإنجاء النبي إبراهيم من الحرق(ع) وإنجاء النبي عيسى(ع) من الصلب...

هنا الكلام عن حوادث يعلم تعالى أنها ستقع حتما نتيجة حرية الإرادة والاختيار التي منحها للبشر، فهم على مسار سيؤدي إلى هذه النتيجة حتما.

نحن نستصعب بل مستحيل علينا معرفة ما سيحدث مع البشرية بعد مئات السنين، ونعتبره تكهنا وتخمينا، ونعتقد أن ظروفا لا نعرفها ستحصل وتغيّر مجريات الأحداث نحو شيء لم نتوقّعه. أمّا سبحانه وتعالى فيعلم بتفصيل التفصيل بكل ما سيحدث في كل الدنيا وصولا إلى الآخرة...

ما هو دارج في الأدبيات الدينية عن كلام آيتنا هنا وعن أمور أخرى، حيث تفهم منها أنها ستحصل بقرار إلهي مفروض على البشر وسيحصل غصبا عنهم وهم لا إرادة لهم بتغييره، فهذا غير صحيح أبدا بتاتا ومخالف لصريح ما قاله القرآن وكرّره عن تركه تعالى لنا أَحْرَارًا بإرادتنا لنفعل ما نشاء، وعلى أساس ذلك سيحاسبنا في الآخرة على ما اخترنا فعله، وسيأتيك بعد قليل في الآية السابعة إشارة لحرية الإرادة لبني إسرائيل لتغيير الأحداث ولكنهم سيختارون ما يعلمه تعالى سلفا، {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا}، فبإرادتهم يمكنهم التصرف بشكل حسن وسينتهي الموضوع هنا بلا قتال جديد، ولكنهم سَيُسِيئُونَ ويحصل القتال...

نَحْنُ ذاهبون إلى هذه الحرب بإرادتنا وقراراتنا، والآيات هنا فقط تخبرنا عن علمه تعالى بحصول ذلك، وأنه تعالى قرّر تركها تحصل.

الآن ستسأل: لماذا قرّر تعالى تركها تحصل؟ فمن هنا وصاعدا لا مشكلة في التحليل طالما لا تتهمه تعالى بجرّنا غصبا عنّا إلى الاقتتال، وطالما فهمت أنه تعالى يخبرنا عن حتمية مسارنا نحو الاقتتال بسبب عقليتنا ونفسيتنا. فنَحْنُ المسؤولون عن حصولها وليس سبحانه.

نَفْسُ السؤال ترى صيغا مختلفة منه أمام حوادث مختلفة، فلماذا يترك سبحانه الجزّارين يقتلون الأطفال ولا يتدخّل لمنعهم؟ الجواب أن تدخّله تعالى في ذلك سيعني تدخله تعالى في منعنا من تطبيق حرية الإرادة والاختيار، وبعدها ستسأل عن تركه تعالى لقتل الكبار لبعضهم البعض، وستسأل وستسأل وصولا إلى سبب تركه تعالى لجارك يؤذيك بالضجيج والموسيقى والصراخ... وهذا يأخذك إلى ما قالته الآية 61 من سورة النحل {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى...}.

(فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً{5})
{فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ}، إذَا حان وقت حصول ما قلنا إِنَّهُ سيحصل، {أُولَاهُمَا}، حَيْثُ جاء أوّل الإفسادين، وَقام بنو إسرائيل بأول إفساد في الأرض، وعادة يذهب فكرنا من ذلك إلى قهرهم ظلما للآخرين من المجاورين لهم، وهذا شيء يدعمه سياق الكلام هنا عن حرب، عندها، {بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ}، أنهض سبحانه عليهم، {عِبَادًا لَّنَا}، مجموعة من الذين مفروض منهم طاعته سبحانه وهم يتصرفون على هذا الأساس فَيَنْسِبُهُمْ سبحانه لنفسه، يعني هم من المؤمنين، وهؤلاء العباد هم، {أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ}، موصوفون بنسبة القدرة على تسبيب ما ليس محمودا للآخرين وبشكل قوي على الآخرين، وسياق

الكلام هنا عن القتال، فلديهم القدرة على القتال بقوة شديدة، حَيْثُ عندهم مهارة حربية وعزم واستبسال... ونتيجة المواجهة الحربية سيكون النصر للعباد والهزيمة لبني إسرائيل، وبعد انهيار القوة العسكرية الإسرائيلية، {فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ}، مَشَى العباد منتشرين متوزعين بين الأماكن التي تدور فيها الشؤون الحياتية لبني إسرائيل، يعني سَتَحْصُلُ سيطرة كاملة على كامل قرى ومدن الإسرائيليين.

{وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا}، هذا التخلّل للديار الذي نقول عنه إِنَّهُ سيحصل فهو مَفْعُولٌ أي فعلا سيحصل.

لَاحِظْ وانتبه، فمن الواضح أن الآيات لا تتحدث عن حدث تاريخي حصل في الماضي قبل نزولها، بل عن شيء سيحصل في المستقبل من بعد ما نزلت الآيات. لَمْ يسجل التاريخ أي نشاط حربي للإسرائيليين من وقت نزول هذه الآيات حتى تاريخنا الحالي، إلا ما جرى في منتصف القرن العشرين، حيث استولى اليهود على فلسطين، وخاضوا حروبا وانتصروا فيها، وهم يفسدون في فلسطين، "وفي بعض نواحي العالم أيضا"، حيث إِنَّهُمْ مع الكثيرين غيرهم من المفسدين لا يهمهم الحقّ والعدل... يَتَعَامَلُونَ مع الأمور من منطلق القوة المالية والإعلامية والانتخابية والعسكرية والأمنية... التي تفرض على الآخرين ما يصبّ في مصلحة المفسدين فقط.

من الواضح أن عصرنا الحالي يحصل فيه أول حالة إفساد إسرائيلي في الأرض، وهم في حالة سيطرة على المسجد "الأقصى"، وحين أركز كلامي على المسجد الأقصى أَعْتَمِدُ على الآية بعد التالية التي جاءت على ذكر المسجد... وسيأتي يوم يسيطر فيه اليهود على المسجد الأقصى بالكامل ويمنعون المؤمنين من دخوله ويسمحون فقط للخونة المتعاملين معهم من المسلمين بدخوله... وسيأتي بعد هذا الإفساد حرب يخسر فيها الإسرائيليون، ويدخل المنتصرون إلى مدن الإسرائيليين، وإلى المسجد الأقصى كما سترى من الآية بعد التالية، ولكنها لن تكون خسارة "إبادة" كما هو واضح من الآيات، بَلْ ستكون خسارة كسر شوكة. ولا ندري هل ستحصل عن قريب أم لا؟

نَنْتَبِهُ، نَحْنُ دائما نفترض أن هذه المعارك ستحدث في فلسطين، حَيْثُ من الآيات الآتية ستجد إشارة إلى دخول المنتصرين على الْإِسْرَائِيلِيِّينَ إلى المسجد، وهذا دائما يوحي لأي قَارِئٍ بأنه سيكون مسجد قبّة الصخرة والقدس في فلسطين... وما نجده في كتب أهل الكتاب يشير إلى حدوث معركة "هرمجدون، سهل مجيدو" في منطقة القدس وحولها... ولا أنصحك بالقراءة حول هذا الموضوع، فلا فائدة فيه، لأنه خليط من القليل القليل جدا مما هو صحيح، مع الكثير الكثير من الكذب الذي اخترعه الناس وما خمّنوه من مختلف الأهواء.

نَنْتَبِهُ جيدا، جَرَّ القلم مع الكثيرين وتحدّثوا عن إبادة جماعية لبني إسرائيل في هذه الحرب الأولى، وهذا مخالف لما ستقوله الآيات فيما يلي عن حرب ثانية، عَلَى ما يبدو من الآيات أنه لن تحصل إبادة، ولكنها حرب يخسرها بنو إسرائيل ويبقون في فلسطين...

بِالنِّسْبَةِ لمعنى كلمة عباد سَنَتَوَسَّعُ في دراستها في الآية 17 من هذه السورة.

(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً{6})
بعد إفساد بني إسرائيل أول مرة، تدور الحرب، ويخسرون، ثم بعد ذلك:

{ثُمَّ رَدَدْنَا}، أعاد سبحانه، {لَكُمُ}، يا بني إسرائيل، {الْكَرَّةَ}، العودة إلى نفس ما كانوا عليه، {عَلَيْهِمْ}، على أعدائكم، فمرة ثانية ترك سبحانه بني إسرائيل يصيرون أقوياء على الذين غلبوهم أوّل مرّة، {وَأَمْدَدْنَاكُمْ}، بِشَكْلٍ مستمر أعطى سبحانه لبني إسرائيل فدعمهم، {بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ}، أي الأولاد الذكور لِيَكُونُوا جنودا في الحرب، {وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا}، فَالذين ينفرون فيتحركون من بني إسرائيل باتجاه ما، وهنا الكلام عن التوجّه للحرب، سَيَكُونُونَ أكثر من عدوّهم، فسيكون عدد حملة السلاح من بني إسرائيل أكثر من عدد عدوهم.

يَكُونُ عددهم "كبارا وصغارا، ذكورا وإناثا" قَلِيلًا بالمقارنة مع عدد عدوهم، ولكن عند النفير، وهنا سياق الكلام عن نفير يتضمن حمل السلاح والاستعداد للحرب، فإن المشاركين من الإسرائيليين عددهم أكبر من عدد أعدائهم، فكل من يقدر على القتال سيقاتل.

خلاصة المعنى: سبحانه ردّ الكرّة لبني إسرائيل فجعلهم يستعيدون قوتهم وينتصرون على عدوهم.

ننتبه جَيِّدًا، مَا تقوله الآية هنا لا يتماشى أبدا مع ما يقولونه عن تفسير الآيات السابقة والتالية بتطبيقها على سبي البابليين أو الفرس لليهود في حادثتين حصلتا قبل ميلاد النبي عيسى(ع)، حَيْثُ في حينها تسرّح اليهود من السبي ولم يستعيدوا قراهم بأكثرية من نفر منهم للقتال، فكلام تلك الروايات والتفاسير متعارض وبصراحة مع ما تقوله آيتنا هنا.

نَنْتَبِهُ أكثر لما سيأتي، ففيه إشارة إلى أن المؤمنين الذين دخلوا المسجد أول مرة، سيصيبهم شيء يضعفهم، وخلال ذلك يتحسّن حال بني إسرائيل "عسكريا"، حَيْثُ سَنَفْهَمُ من الآية التالية أن بني إسرائيل لديهم فرصة لِيُحْسِنُوا، ومن انتصر عليهم ساء حاله... فعادت القوة من جديد لبني إسرائيل، ولكنهم من جديد أَسَاءُوا استخدامها بالظلم وعاد المؤمنون ليدخلوا المسجد مرة ثانية...

يُمْكِنُكَ تشبيه ذلك بما نعلمه من تاريخ فتوحات الأمويين لشمال أفريقيا وجنوب أوروبا، ففي البداية كانوا حكومة وجيوشا يدا واحدة وحققوا الفتوحات، وبعدها ولأسباب عديدة تناحروا على الملك وَبَدَأُوا بالخسارة تلو الأخرى...

(إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً{7})
{إِنْ أَحْسَنْتُمْ}، إن كان تصرفكم جيدا حسنا يا بني إسرائيل بعد انتصاركم على عدوّكم، وَلم تفسدوا، {أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ}، فأنتم المستفيدون، فهذا شيء يرضاه تعالى وبسببه لن تتعرّضوا لحرب جديدة، {وَإِنْ أَسَأْتُمْ}، أمّا إن تصرفتم بشكل سَيِّئٍ، فأفسدتم في الأرض مرة ثانية، {فَلَهَا}، أَسَأْتُمْ لأنفسكم، فالضرر سيقع عليكم، وسترى أنهم بفسادهم الثَّانِي سيسببون من جديد انتفاض المؤمنين عليهم، وَمن جديد سينتصر المؤمنون عليهم.

أَنْتُمْ أحرار ومخيّرون في التصرف، فاختاروا إن شئتم الأعمال الحسنة، وسيكون النفع لكم، وَسَتَعِيشُونَ بأمان، واختاروا إن شئتم الأعمال السيئة، وسيكون الضرر لكم أيضا، حَيْثُ من جديد سينتفض المؤمنون لقتالكم...

مِنْ تكملة الجملة سنرى أن الإسرائيليين سيختارون: إساءة التصرف. وهذا يريك أنه تعالى بعلمه للغيب يعلم ماذا سنختار، فسجّله عنده في كتاب، وعلى أرض الواقع مسجل ما سنفعله ولكننا لسنا مجبرين على فعله، حَيْثُ ترى الآية هنا تخبرنا أن بني إسرائيل لو أحسنوا لاستقرت الأوضاع بلا حروب، ولكنهم سَيُسِيئُونَ بإرادتهم، وسيتحقق ما يعلم به تعالى سلفا...

يبدو واضحا أن أول مرّة شعروا فيها بالقوّة، أَفْسَدُوا، فهم لم يقنعهم هذا الكلام القرآني الموجّه لهم، ولنتماشى مع ما بَدَا لنا من تطبيق جزئي للآيات على عصرنا، فهم في حالة قوّة وما زالوا في مسار الإفساد... وهذا الكلام موجّه لهم لينتبهوا، ولكنهم لم ولن يقتنعوا... وبعدما يتحقّق ما تنبأت به الآيات هنا، وتعرّضهم للخسارة مِنَ المفروض أن ينفعهم التنبيه، ولكن وكما سترى، لَنْ ينفعهم التنبيه!

تُلَاحِظُ أن الكلام عن حالتهم لا يصفهم هنا بأنهم كلّهم فاسدون، بل فيما بعد سيكون الأغلبية وأصحاب القرار فَاسِدِينَ، وتفهم منه من وحي المعطيات التي في عصرنا، أنهم من جديد سَيَعُودُونَ لظلم من وقع تحت يدهم وسلطتهم، وَسَيَعُودُونَ للاعتداء على جيرانهم... وكأنه تطبيق جديد لأحلامهم القديمة ببناء دولة مترامية الأطراف وصولا إلى مصادر المياه والطاقة والأراضي الخصبة وذات الموارد... محاولين السيطرة عليها بطرق فاسدة...

{فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآَخِرَةِ}، حَانَ وقت حصول الوعد الثاني، وَحَانَ زمن ما قلنا إِنَّهُ سيحصل مرّة ثانية، والوعد هو قيام بَنِي إسرائيل بالإفساد في الأرض مرتين، فإن حربا ثانية ستقع، {لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ}، سوف يسوء الرابحون وجوه بني إسرائيل، أي سيجعلون السوء من أنواع القهر والحزن في وجوههم، طبعا كنتيجة لخسارة بني إسرائيل في الحرب، {وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ}، سوف يدخل العباد إلى المسجد الأقصى، كما دخلوه في الحرب الأولى، {وَلِيُتَبِّرُوا}، كما نقول للقطع الصغيرة من معدن الذهب إِنَّهَا تبر، سوف يُتَبِّرُ فيكسر المنتصرون المنهزمين حتى يصيروا موصوفين بالتفتّت، {مَا عَلَوْا}، ما علا به الإسرائيليون، {تَتْبِيرًا}، بكل ما تحمله كلمة تتبير من معنى، سَيُدَمِّرُونَ القوة المالية والعسكرية "والعمرانية" الإسرائيلية بالكامل لتصير مفتتة.

ننتبه، مِنَ الواضح أن هذه الحرب الثانية ستكون أعنف من الأولى على الإسرائيليين، حيث ستنهي قدراتهم المالية والعسكرية تماما.

بقي شيء، فِي عموم التفاسير والكتب التي تحدّثت عن هذه الآيات، تجد إصرارا على إظهار هذه الحرب التي ستحصل على أنها حرب دينية، وأن الإسرائيليين أعداء دِينِيُّونَ للمسلمين، ولا تجد في كلامهم ما يتماشى مع كلام الآيات هنا عن اعتبار بني إسرائيل شبه مساوين دينيا لمن سيفسدون فيهم وَيُحَارِبُونَهُمْ، فِي ثقافتنا وعلى المستوى النظري في الكتب، نحن نعتبر أنفسنا كمسلمين أننا المتدينون المؤمنون وأننا وحدنا نمثّل الخطّ الإلهي الصحيح، فهل هذا صحيح؟ لا، ففينا الملتزمون بدينه تعالى وهم قلائل، وفينا المصلّون الصائمون المزكّون... مع الكثير من الذنوب، وهم قلائل أيضا، وفينا المنتمون للدين الإلهي بالاسم فقط، وهؤلاء هم الأكثرية، هذا واقع حال كلّ المجتمعات الْإِسْلَامِيَّةِ من عهد النبي محمّد(ع) وصولا إلى عهدنا، وهذا هو نفسه حال اليهود والمسيحيين، وهذا لن يتغيّر على ما يبدو...

سأقولها لك بصراحة وحلّل من عندك معنى الكلام، فِي نظرته تعالى لنا لا يرى فرقا دينيا هائلا بين التزامنا والتزام بَنِي إسرائيل، ضع جانبا أنهم ليسوا مؤمنين بالرسولين عيسى(ع) ومحمّد (ع) وستجد أن باقي الأمور متشابهة تماما بيننا وبينهم، فَالقرآن لم يجعلهم ولا مرّة خارجين عن الوصف بالانتماء ولو بالاسم لدينه تعالى، حتى حين شرح لهم بالحسنى وبالتهديد بالعقاب على الكفر بهذا القرآن وبالرسول الناقل له، وحتى حين نبّههم من سلوكياتهم الدينية المنحرفة عن دينه تعالى... سبحانه أبقاهم موصوفين بالانتماء لدينه تعالى، كأهل كتاب كفّار بالقرآن وبالرسول الناقل له، كأهل كتاب فَاسِقِينَ، مُنَافِقِينَ... وهذه أوصاف يشترك معهم فيها غالبية الحاملين لوصف المسلمين، إلّا مسألة الكفر بالقرآن والرسول "على المستوى النظري"، حَيْثُ إِنَّ القلّة القليلة النادرة من حاملي وصف المسلمين يكفرون بها "نظريا"، لأنهم عمليا أغلبهم منافقون فاسقون فلا يطبقون كامل كلامه تعالى.

نحن في أدبياتنا رسّخنا فكرة الحرب الدينية بين المسلمين وَالْإِسْرَائِيلِيِّينَ والمسيحيين على أساس أنها أمر إلهي، وها الآيات هنا أمامك تريك أن محاربة الإفساد هو الأمر الإلهي، وهذا ليس موجّها ضد بني إسرائيل أو المسيحيين خاصّة، بل ضد عموم من أفسد كائنا من كان، وَضَاعَتْ هذه البوصلة الدينية بمساهمة فعّالة من توجيهات غالبية علماء الدين والسياسيين ليتم اختراع أعداء وهميين من المسلمين الآخرين المخالفين في المذهب... وجرى استغلال العداوة مع الْإِسْرَائِيلِيِّينَ إعلاميا فقط للتغطية على فساد عموم حكّام مجتمعاتنا من أصغرهم لأكبرهم.

رَاجِعِ الآيات جيدا، عِبَارَةُ {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ}، واضحة وتساوي بيننا وبينهم، فإن لم تقبل أنت أن فيهم مؤمنين من الدرجة العالية حتى لو كانوا نادرين، سَتَقْبَلُ بوصفهم بالفسق والنفاق من الدرجة المنخفضة وصولا إلى الدرجة العالية، ولكن هذه هي نفسها حال غالبية المسلمين، حَيْثُ ليس في كل القرآن أمر إلهي بإعلان الحرب على الآخرين المسالمين حتى لو كانوا كفّارا، ومن البديهي أن أهل الكتاب أقرب إلى دينه تعالى من الكفّار، فإن كانوا مسالمين فالأمر الإلهي لنا بالمسالمة معهم.

حتى إِنَّ الآيات هنا وبكل صراحة تريك أن المؤمنين في الحرب الأولى لم يقتلوا كل اليهود، بل فقط كسروا شوكتهم القتالية، وتركوهم في ديارهم، وهذا تطبيق لمفاهيم القرآن بالحرف، بينما في الحرب الثانية ترى عنفا أكبر لأن اليهود كانوا يَمْلِكُونَ قوّة عنيفة أكبر من المرّة الأولى...

أَطَلْنَا الكلام لِنُكْمِلَ مع أحداث مذهلة من عصرنا، حيث دول مسلمة تعلن السلام مع الإسرائيليين، بل وتعلن الصداقة بل والحميمية! والتعاون مع الإسرائيليين ضدّ مسلمين آخرين! وهذا يؤكّد ما أقوله لك عن أن عنوان الإفساد ليس محصورا بالإسرائيليين، وأن الحرب ليست في جوهرها الحقيقي خِلَافًا دِينِيًّا، وأن العنوان الذي نتغطّى به كـ "مسلمين" صالحين ليكون اليهود أشرارا سيئين، فهو كلام ضبابي في الفراغ وليس صحيحا... هَذِهِ الآية تقول: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ}. فِيهِمْ صالحون بالحدّ المقبول، ولكن سيطغى الفاسدون.

في طيات الكلام قلنا عن الأخبار هنا أنها لا تتحدّث عن إبادة لِلْإِسْرَائِيلِيِّينَ حين انهزامهم، ولا عن إبادتهم هم للمهزومين، وهذه بذرة صلاح في الطرفين، ولا أقصد بذلك أن البعض منهم لن يرتكبوا المجازر، لا، ولا أقصد أن الحرب ستكون ليّنة، لا، ولكن لا تبالغ في التصورات غير الواقعية المدفوعة من الكره الأعمى...

(عَسَى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً{8})
{عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ}، من المرجّح غير الحتمي حصوله أن يعتني بكم يا بني إسرائيل المسؤول عنكم من مستوى إلهي لما فيه مصلحتكم، وَلن تنالوا العناية الإلهية بكم إلا إذا توقفتم عن الإفساد والتزمتم بدينه تعالى وهذا متعلّق بكم، فإذا فهمتم أن سبب دمار دياركم هو الإفساد وَانْتَهَيْتُمْ عن هذا نهائيا، عندها يرحمكم ربكم سبحانه في الدنيا والآخرة، فالرحمة متوقفة على سلوككم.

{وَإِنْ عُدْتُمْ}، إِذَا أفسدتم مثلما سابقا أفسدتم، فتكرر منكم الإفساد مرّة ثالثة، {عُدْنَا}، سيعود سبحانه لتدميركم مرّة أخرى، وكما يبدو من الآيات فَإِنَّ سبحانه سيرسل عليهم عبادا له عليهم لهزيمتهم عسكريا إن عادوا وأفسدوا مرّة ثالثة... {وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ}، جعلنا المكان الموصوف بسوء ما فيه من النار المتأججة والتعذيب جعلناه، {لِلْكَافِرِينَ}، وسياق الكلام عن الذين لم يؤمنوا بدينه تعالى وخصوصا في مسألة الابتعاد عن الإفساد، {حَصِيرًا}، مكانا يتم حصرهم به، فَيَكُونُونَ محاصرين في جهنّم لا يمكنهم الخروج منها، يعني في الأخير هناك عقاب نهائي في عالم الآخرة، فمهما حصل في الدنيا من حوادث ففي الأخير هناك الآخرة والنار للكافرين.

وردت في القرآن كلمة "حصير" ست مرات على معنى الحصر، أي شمل الأشياء كمجموعة لا تفلت.

رَبْطٌ على بداية السورة حيث مرّ عليك أن بني إسرائيل نزل عليهم أمر إلهي صريح بالتوكّل عليه تعالى فقط، وهنا الآيات تحدّثت عن الفساد الذي ارتكبوه، فهذا هو عمليا تركهم للتوكّل عليه سبحانه فلم يعودوا يعتبرونه سبحانه إلها واجب الطاعة، فتركوا أوامره وأفسدوا، ولذلك وصفتهم الآية بالكافرين: الذين ينكرون وجوب طاعته سبحانه فأفسدوا...

انتهت الفقرة التي تحدثت عن بعض أحداث مستقبل بني إِسْرَائِيلَ، وكمؤمنين نستفيد من قصتهم المستقبلية أن لا نفعل مثلهم ونفسد، حتى لا يكون مصيرنا مثل مصيرهم. أمّا بالنسبة لعموم الإسرائيليين، فأصحاب القرار وَالْحَاكِمُونَ بغالبيتهم لن تقنعهم هذه الآيات وسيفسدون مرتين.

تُلَاحِظُ أَنَّ آيتنا هنا تركت باب الأحداث مفتوحا لما بعد الإفساد الثاني، فلم تخبرنا بما سيحدث، فربما سَيُفْسِدُونَ مرة ثالثة وربما لا، ولكن أكّدت أَنَّهُ لن تستمر فترة إفسادهم وسيأتي من يتبّرها.

في الأخير ألفت انتباهك لأمور متشابكة ضبابية في ثقافتنا تدفعنا لفهم الكلام القرآني بشكل غير صحيح، فمن تلك الأمور مسألة انتهاء الدنيا، والآخرة، فتجد في عموم الكتب الدينية تَعَابِيرَ مختلفة عن حصول معركة ضخمة... وبعدها انتهاء الدنيا... وتجد فيها ربط ذلك بالآيات هنا... وظهور المهدي والمسيح... على أساس أنها أحداث قريبة جدا... وبعدها الآخرة.

كَمَا ترى من الآيات هنا، فهناك مجال زمني واسع مفتوح غير محدّد لنهاية الدنيا نظرا لحادثة الإفساد وما يتبعها، بل ترى بصراحة مساحات زمنية من إفساد فهزيمة فإفساد فهزيمة، مَعَ إمكانية حصول إِفْسَادٍ وهزيمة...

فِي نفس السياق تجد كلاما عن قرب الآخرة في تفسيرهم لآيات تشير بظاهرها لاقتراب الآخرة، ويمكنك مراجعة تلك الآيات في دراستنا هذه لترى أنها لا تشير لتحديد زمني لقرب حصول الآخرة كما تتصوّر، حَيْثُ إِنَّ العديد من الآيات أشارت للفرد أنه يموت فيفقد وعيه ويفتح عينيه في الآخرة، فزمن حصول الآخرة بالنسبة له سيكون قَرِيبًا جدا جدا، فهنا أغمض عينيه حين مات، وفتحهما ليجد نفسه في الآخرة وهو يشعر بأن ساعة أو يوما أو أكثر بقليل قد مرّ عليه... فهذا بالنسبة له ستكون الآخرة قريبة جدا جدا. والآيات الأخرى التي نفهم منها قرب زمن حصول الآخرة تُشِيرُ إلى ما بقي من الحياة الدنيا بالنظر إلى الزمن الطويل جدا الذي مرّ سابقا على وجودها، فمرّت آلاف السنين الكثيرة وبقي أقل من ذلك بكثير، أو مرّت الملايين وبقي أقل من ذلك بكثير، أو مرّت المليارات من السنين وبقي أقل من ذلك بكثير... ولدينا كلام قرآني عن نفوذنا في أقطار السماوات ووصولنا إلى حيث يصل الجنّ إلى ما قبل سماء للملائكة العالية(ع)، راجع الآية 33 والآية 34 من سورة الرَّحْمَنِ {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ... يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ}، وهنا لدينا آيات تتحدّث عن زمن طويل من الإفساد والحرب...

كما ترى فالآخرة قريبة جدا جدا بالنسبة لي حين أموت، فأفقد وعيي، ثم أستعيده بعد زمن طويل لا أشعر بمروره لأجد نفسي في الآخرة، والآخرة قريبة جدا جدا بالنظر إلى الزمن الطويل جدا الذي مرّ على وجود ما في الدنيا، فما بقي منها ونحن أحياء ليس طويلا، وأمّا المدّة المتبقية قبل انتهاء الدنيا وموت البشرية فغير معلومة، فربما بمئات السنين أو بالآلاف أو الملايين أو المليارات منها، لا ندري.

إلَى هنا انتهت السورة من مقدمة حركة التاريخ الاجتماعية المستقبلية لتاريخ بني إسرائيل من نظرة دينية محورها ترك التوكّل عليه تعالى الَّذِي ينتج عَنْهُ الإفساد، وذكرت عقابه في الدنيا والآخرة، وننتقل الآن إلى المخاطبين بهذا القرآن من المؤمنين به خصوصا.

(إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً{9})
{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ}، هذا الكلام الذي يمكنكم قراءته، والإشارة هنا إلى ما نزل من عنده تعالى وحياً على رسوله محمّد(ع)، إن الذي نزل عليك والذي كان في الكتاب الأساسي في السماء العليا، وتحولت المعلومات منه إلى اللغة العربية، فصارت المعلومات: قرآناً، أي قابلة أن نقرأها نحن البشر، سواء كانت سوراً أو سورةً أو آيةً...

هذا القرآن، {يَهْدِي}، يضع على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}، للمستقيمة التي توصف بأنها على الأحسن، إلى الفكر الحقّ والسلوك الصالح وإلى نهاية في الجنّة خالدة... التي على الأحسن، فلا اعوجاج ولا انحراف فيها، فمن اتبع القرآن سيمشي على الحقّ والصلاح وهذا خط يوصله إلى ما يرغبه ويسعده وفي نفس الوقت يكون سبحانه راضياً عنه، وسيدخل إلى الجنّة الخالدة.

هذا القرآن، {يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ}، فيقول الخبر السار المفرح للذين أعلنوا أنهم معتقدون ملتزمون بهذه الرسالة الإلهية، {الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ}، فيقومون بالأعمال الموصوفة بأنها صالحة جيّدة، فخلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، فعملياً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادةً نُفسّر {عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إنهم صلّوا وصاموا... وهذا عملياً صحيح، ولكن بالأصل الكلام أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموماً وحتى بين المؤمنين، أنّ الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائماً أنّه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأنّ القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به.

هذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلاً سيئٌ" فسيكون في الحقيقة اختراعاً من البشر لصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمراً إلهياً.

المؤمنون العاملون للصالحات يبشّرهم القرآن، {أَنَّ لَهُمْ أَجْراً}، فهناك مقابل حدّده تعالى على الإيمان والعمل الصالح، وسيكون، {كَبِيراً}، ضخماً، ونعرف من عموم آيات القرآن أنّ الأجر كبير لدرجة مهولة، فالجنات عرضها كعرض السماوات والأرض، وكل ما فيها يتجدّد ومن فيها بسلام وأمان واطمئنان وسعادة خالدة...

إذاً في مقابل التوراة التي مرّت على ذكرها الآية الثانية من هذه السورة، والتي خلاصة ما فيها التوكّل عليه تعالى كأساس لحركة المجتمع المتأثر بحركة الفرد، فالقرآن على نفس الخط، فهو يدعونا جميعاً للهدى للحقّ والصلاح.

ضع في بالك دائماً أنّ كلام القرآن عن الهدى وبناءً عليه إيماننا وفعلنا للصالحات، ليس عرضاً علينا لشيء غريب، بل الهدى هو نفسه ما فينا من قابلية لتمييز الحقّ من الباطل والصحّ من الخطأ والفاسد من الصالح، فنؤمن بما هو حق ونفعل ما هو صالح، وهذا هو الهدى، وهو نفسه ما يعرضه علينا تعالى، فكلمة هدى تشير لما نسير عليه لنكون على

حالة مرغوبة عند العقلاء طبعاً وتوصلنا لحالة مرغوبة، وهو هذا نفسه الالتزام بكلامه تعالى، وهكذا يكون هذا القرآن هُدىً.

انتبه دائماً للتعابير القرآنية المختلفة عن حصول المؤمنين العاملين للصالحات على جنّة خالدة فيها ما يسعدهم، فكل التعابير تشير لحصولهم على الجنّة كفضل كمِنّة منه تعالى، فهم ليس لهم فرض واجب عليه سبحانه ليعطيهم الجنّة لأنهم آمنوا وعملوا الصالحات، بل هي أجر لهم، فهي شيء حدّده تعالى كاستحقاق لهم على إيمانهم وعملهم للصالحات، فصاروا يستحقونها لأنه تعالى هو قرّر ذلك، وليس هذا الأجر فرضاً واجباً عليه تعالى، بل بحكمته ورحمته قرّر هذا الأجر لهم وإلّا فهم لا شيء لهم عنده حتى لو كان كل الناس كالملائكة في إيمانهم وتصرفاتهم، فهم من المفروض بهم أن يكونوا هكذا بسبب ما جعله تعالى فيهم من تمييز للحقّ والخير وبالتالي حبّهم له، وتمييز للباطل والشرّ وبالتالي كرههم له، ومن بعد ذلك يأتي كفضل ومنّة منه تعالى تحديد أجر لنا على الإيمان بالحقّ وفعل الصالحات.

(وأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً{10})
ذكرت لنا الآية السابقة الترغيب للناس حتى يؤمنوا ويعملوا الصالحات، وهنا تذكر لنا الترهيب والتخويف:

ورد في هذا القرآن الهادي، أن الذين لا يؤمنون بالآخرة، يقولون: لا يوجد حياة ستأتي في الآخر بعد موتنا، وعملياً فهم لا يعتقدون بوجود حساب ومجازاة، فلماذا سيقيدون أنفسهم بالإيمان بالحقّ وبفعل الصالحات عبر اتباع تعاليم الدين الإلهي؟ ويقولون: فلنتمتع بحياتنا، ولنفعل ما نريد حتى لو كان سيئاً لأننا بعد موتنا سننتهي ولن نعيش مرة ثانية.

هؤلاء، {أَعْتَدْنَا}، أعددنا وجهّزنا لهم، {عَذَاباً أَلِيماً}، ضرراً يصيبهم لا يمكن تحمّله ولا الاعتياد عليه.

(وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً{11})
هذا القرآن يهدي ويبشرنا بالجنّة، فهل فهم الناس هذا وتعلّقوا بالآخرة أم ماذا؟

{وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ}، الغالب الأعم الأكثر من الناس يشهرون ويعلنون له تعالى بما يضرهم، {دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ}، ففي نفس اللحظة التي يدعون فيها بالخير هم فعلياً يدعونه تعالى بطلب أمور غير جيّدة.

ضع في بالك دائماً أنّ القرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموماً ذكراً وأنثى، وأنهم يتناسلون... أو متعلقٍ بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

{وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً}، بشكل عام الأغلبية الساحقة من الناس يستعجلون، فالأشياء التي يرغب بها يريد حصولها الآن ولا يحب الانتظار لوقتها المحدّد لها، وهنا الكلام عن الاستعجال بالدعاء بالإعلان عمّا يريده وأنه لا يتوقّف للتفكير إن كانت مصلحته فعلاً في هذا الدعاء.

يدعو الإنسان ربّه أن يعطيه الخير الآن في الدنيا، ولا ينتبه للآخرة، مع أنّه مقصّر في الإيمان، ومقصّر في الواجبات الدينية، ويفعل السيئات! ولكنه لا يزال يدعو ويطلب الصحة من المرض، والتخلص من الألم، والتوفيق في التجارة والشغل، والعافية للأولاد... كل ذلك لا يزال يطلبه من ربه سبحانه، وأحياناً يكون ذلك زيادة في الشرّ عليه، فالكثير من الناس إذا كثر مالهم كثرت السيئات التي يرتكبونها بالمال، فيصرفونه في الحرام، ولا ينفقون منه الصدقات... وإذا كانت صحتهم جيدة، فإنهم يستعملونها في ارتكاب السيئات... ففي هذه الحالة يدعو الإنسان على نفسه بالشرّ إذا طلب المال والصحّة لأنّ فعله للسوء سيزيد... وبالتالي عقابه في الآخرة سيزيد.

ننتبه جيداً، فما تقوله الآية جوهري جداً، لأنّ أغلب الكافرين بالدين الإلهي سيقولون إنهم لا يؤمنون به لأنهم يدعون ولا يستجيب الله تعالى دعاءهم، حيث يطلبون المال، والنجاح والصحّة... ولا يجدون أي إجابة... وتراهم مقتنعين جداً بما يقولون، حتى إننا نسمع كلاماً خجولاً مشابهاً من بعض المؤمنين، ولا عجب من هؤلاء، فهم محقّون من جانب عدم

رؤيتهم للاستجابة الإلهية لدعائهم، ومن جانب آخر فلو سألوا أنفسهم عن حال البشر لو كان كل دعاء مستجاباً، وفوراً كما يحبون، فماذا سيحصل؟

تصوّر الاستجابة الفورية لطلبات كل شخص! حسناً، ربما تقول إنّي ذهبت إلى المبالغة، ولكن ما هو الحد الأدنى المعقول الذي تحت المبالغة؟ أنا أسألك؟ فهل تستطيع منطقياً أن تحدّد الطلبات التي يجب أن تتم الاستجابة عليها فوراً، والطلبات التي يمكن أن تتسامح في التأخير عن استجابتها، والطلبات التي تتسامح في استجابتها أو تركها؟ فهل يمكن أن يحدّد هؤلاء للإله سبحانه ما يجب أن يستجيبه لهم حتى يؤمنوا به؟ فكلما وقع أحدهم في ورطة، يجب أن ينجيه سبحانه منها، وإلا فلا إله ولا دين؟ وكلما هاج إنسان متوحّش ليقتل الأبرياء فيجب أن يتدخل سبحانه، وفي كل حادث سيّارة أو طائرة أو قطار... يجب أن يتدخّل سبحانه، وفي كل ضائقة مالية يجب أن يتدخّل سبحانه... وهكذا: لا أحد يمرض، ولا أحد يجوع، ولا أحد يخاف... ولا أحد يموت! وعندها سيؤمنون بالإله وبدينه! وكأننا لم نفهم أننا عبيد لا نقرّر كيف تكون الحياة، وأنّه تعالى حكمنا بهذه الحياة التي نعيش فيها على السنن، على ما نسميه نحن: قوانين الطبيعة. فالدعاء والاستجابة هو تدخّل إلهي ضمن السنن الإلهية، فأولاً كلنا في دار بلاء، وثانياً هناك الحكمة الإلهية للتدخل لصالح دنيا وآخرة المؤمنين... وإذا انتبهت فكل همّ تحمله من هموم الدنيا فهو سخافة أمام همّ الآخرة ونارها، فتدعو لشيء تظنّه خيراً لك، ويكون في الواقع شرّاً عليك، فأغلب أدعية الناس لأمور دنيوية، ولكن ما هي قيمتها طالما كلنا سنموت، وننتقل إلى عالم لا نموت فيه أبداً؟ يعني بعكس ما يقولون عن التمتّع بما في الدنيا لأننا سنموت ولن نعود إلى الحياة، فلنستفد بأقصى طاقتنا من سعادة الدنيا، فبالعكس طالما ستموت وهناك آخرة خالدة فليكن اهتمامك مصبوباً على تأمين سعادة لك هناك.

هل فهمت من كلامي أنّ القرآن تحدّث عن استجابة الأدعية كلها وأنا أقنعك بأنّ هذا غير صحيح؟ لا، فالقرآن حقاً تحدّث عن استجابة كل أنواع الأدعية، ولم يتحدّث عن الاستجابة لكل الناس، فلم يتحدّث عن تحقيق كل الأدعية من نوع طلب أمور دنيوية، وهناك شرط لتحقيق الأدعية بحيث لا تكون مضرّة لآخرة المؤمن الذي يدعو، ولكن لا تنسَ أبداً أنّ القرآن تحدّث عن استجابة حتمية لدعاء "المؤمن العامل للصالحات" إذا كان دعاؤه لا يتضمّن إجبار الناس على الإيمان، وأما ما سوى ذلك، فاستجابة الدعاء مرتبطة بدرجة صدق إيمانك ليس في اللحظة التي تدعو فيها فقط، بل في سلوكك العام في الحياة، فلا ترتكب مختلف أنواع السيئات وعندما تقع في ورطة تبدأ بالدعاء، وتعلن التوبة في تلك اللحظة، فهذا إعلان كاذب ناتج عن مصلحة تريد الآن بناءها معه سبحانه، وبعد دقائق أو يوم على الأكثر، سترجع إلى ما كنت عليه من السيئات، فهل نضحك على الإله عزّ وجلّ! ونريد أن يستجيب لطلباتنا ويحققها لأننا ولمدة دقائق دعوناه وكنّا متّقين؟!

الأنكى من ذلك ما نسمعه من الناس حول الفقراء الجياع الذين يموتون من القحط، والأطفال الأبرياء الذين يتم ذبحهم... فأين الإله؟ أنا لا أفهم ماذا يتوقعون أن يفعل الإله؟ فهل يجب أن يمنع الإله حصول أي ضرر على البشرية؟ فهل يريدون الجنّة الآن وهنا؟ لا تقل بأنّني أبالغ، بل فكّر بالتفصيل في الطلبات التي يريدونها وسترى أنها مواصفات الجنّة! وهل يريدون النار الآن ليعاقب سبحانه كل من قرّر فعل سيئة ما؟

يبرز من هذا الكلام سؤال بديهي، أين أنت والآخرون من القيام بواجباتهم بنشر الحقّ والصلاح حتى لا يستحكم الظالمون؟! أم على نسق ما قاله بنو إسرائيل ونقلته الآية 24 من سورة المائدة {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} !

لو كان كل البشر "أو حتى مجتمع صغير" من المؤمنين بالدرجة المنخفضة جداً، والتي وصفها القرآن بأنهم يعلنون الاستغفار، حيث يعلنون بأنهم حتى لو خالفوا أوامره سبحانه فإنهم لا يخالفونها بنيّة الكفر والعناد، وكانوا لا ينتشر بينهم المنكر، ويأمرون بالمعروف، فهذا المجتمع سينال عناية إلهية، راجع في ذلك الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...}، ولو كانت كل البشرية على هذا المنوال فلن يتعرّض أحد لورطة إلا للحوادث العاديّة، كالمرض، والشيخوخة، وحوادث العمل ووسائل النقل... تقريباً مثل حال الناس في البلدان التي فيها استقرار مالي وأمني، فهذه هي الحياة الدنيا، وهذا من أقصى مستوى السعادة فيها، ومهما ارتفع فلن يرتفع أكثر من ذلك، فهو سبحانه خلقها هكذا لتكون دار امتحان للآخرة، ومن لم يعجبه، فليعترض، وما أكثر الحيطان، فليتعارك معها، فلن يتغيّر أي شيء مما قرّره تعالى.

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً{12})

{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ}، فترةَ العتمة وفترة الضوء من اليوم مميّزتين، فمن غير المعقول أن تحدث هاتان الظاهرتان من لا شيء أو بالصدفة، فالتفاصيل الكثيرة جدّاً واللازمة لحصول ليل ونهار بهذه الضخامة بحجم الكرة الأرضية، تدل على وجود مصمّم خالق لها، صمّمها، ونفّذها، ودائماً لا تنسَ تركيز القرآن على التصميم، وبخاصّةٍ مع كلمة "جعلنا" التي تدل على معنى مختلف عن "خلقنا"، ولاحظ تركيز الكلام هنا ليس على القدرة الإلهية، بل على ما قرّر سبحانه حصوله، وهاكم أيها الناس مثالاً عن شيء قرّره سبحانه فصمّمه ونفّذه، ويتكرر يومياً معكم.

{فَمَحَوْنَا}، محا فأزال ومسح سبحانه، {آيَةَ اللَّيْلِ}، فأزال فترة العتمة من اليوم وهي ظاهرة مميزة، {وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً}، فظاهرة فترة الضوء من اليوم فيها إمكانيةُ فهم ووعي الصور، وذلك بسبب الضوء.

تشير الآية لارتباط الإبصار بالضوء، فأية ظاهرة تقلّب فترتين في اليوم، واحدة مضيئة والأخرى معتمة، فهذه منفصلة في حصولها عن قدرتنا على الإبصار، وارتباطهما معاً هو ما تشير إليه الآية، بعبارة أبسط، فلو كانت الدنيا وعلى أي افتراض مهما كان نوعه، فلو كانت غير مصمّمة مخلوقة منه تعالى، فما معنى وصول الأمورِ إلى ارتباط الضوء والعتمة بإبصارنا للأشياء؟ قبلَ ذلك عليك أن تسأل نفسك عن الضوء كظاهرة تكشف الأشياء لمن لديه قدرة على البصر، فكيف حصل ذلك؟

صمّم سبحانه هاتين الآيتين: {لِتَبْتَغُوا}، لتطلبوا، أيها الناس الذين يعيشون ضمن الليل والنهار، {فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ}، فأتاح لكم المسؤول عنكم من مستوى إلهي أن تعيشوا وتعملوا وتسترزقوا وتتمتعوا وترتاحوا... متأقلمين مع الليل والنهار، وهذه الحالة فضل منه تعالى وليس من الواجب عليه سبحانه خلقنا في هذه البيئة ومنحنا ما نحن فيه من نعمة.

الليلُ والنهار هما فضل منه تعالى علينا لأننا لم نقدّم له تعالى أي شيء حتى يخلقنا في هذه البيئة، ولكن الآية تركيزها على مَن صمّم هذه الظواهر حتى تتمكنوا من الاستفادة من فضله من أشياء أخرى منحها لكم تعالى وليست فرضاً واجباً عليه، ومن سياق ما سبق من كلام فتركيز الآية على أنه سبحانه لم يخلقكم في هذه البيئة حتى تبتغوا الباطل والسوء.

نتذكّر الآيات السابقة التي تحدثت عن الذي ينكر الآخرة ولا يعمل الصالحات، فهؤلاء لا يستفيدون من الليل والنهار بالشكل الصحيح، فهم لا يطلبون فضلاً من ربهم سبحانه، بل يستعملون ما خلقه تعالى لهم لفعل السيئات.

محا سبحانه الليل وجعل بعده النهارَ مبصراً: {لِتَعْلَمُوا}، أيها الساكنون ضمن هذا النظام، {عَدَدَ السِّنِينَ}، فتعلموا كم اثني عشر شهراً مرّت، ولتعلموا، {وَالْحِسَابَ}، فتحسبون للأشياء بناءً على عدّكم للسنين، فتحسبون لمواعيدكم، لزراعتكم، لرحلاتكم، للصيف والشتاء... فأعمل عندك لشهر وتعطيني معاشي آخر الشهر، وتتعاقد أنت مع الشركة لسنة... فيمكننا معرفة متى انتهى العقد، ومتى انتهى الشهر ومتى التاريخ المحدّد... وربما يبدو لك هذا سخيفاً أو عادياً، ولكن انتبه جيّداً، فلولا هذا النظام لم تكن عندنا قدرةٌ على تحديد مواقيت محددة. والرزنامة الورقية التي في بيوتنا وعلى هواتفنا... مستخرجة من النظام الذي صنعه سبحانه، من الليل والنهار والفصول والأشهر...

تذكّر دائماً "التصميم"، حيث كان بإمكانه تعالى تصميمنا بطريقة مختلفة، فيجعلنا نرى دائماً في كل الظروف، ولا حاجة لشمس ولا لقمر... ولكن ترى الترابط في تصميمه تعالى بين الإبصار والعتمة والعمل والراحة... ومعرفة الزمن...

{وَكُلَّ شَيْءٍ}، يتعلق بالتعداد والحساب، {فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً}، فلم تكن مبهمة وغامضة، فيمكنكم أن تحتسبوا للأشياء من أقل من الثانية ولأكثر من ملايين السنين.

نلاحظ أنّ الآية ذكرت الليل والنهار فقط كوسيلة لمعرفة عدد السنين، والناس منذ القدم يعرفون نوعين من السنين: السنة التي تعتمد على شكل القمر وموقعه بالنسبة لبقية النجوم وهذه السنة القمرية، والسنة التي تعتمد على رجوع الأرض إلى مكانها بعد مرور قرابة 365 يوماً من دورانها حول الشمس، فنستنتج أن الآية تميل أكثر إلى الإشارة إلى

تعداد الأيام "ليل ونهار" لتحديد زمن رجوع الأرض إلى موقعها من بعد دورانها حول الشمس، فيظهر من الآية إشارتها لمعرفتنا للسنة الشمسية.

أيضاً ترى ترابط أمورنا مع الظواهر التي لا علاقة لنا بوجودها أو تصميمها، فكيفما افترضت أنّها حصلت، فإن رفضت ربطها به تعالى كإله صمّمها ونفّذها فكيف يمكنك الربط بيننا وبينها؟ وكيف تناسبت مع حاجاتنا؟ وضمن ذلك عليك أن تجيب: كيف صرنا نحن نحسب ونعدّ الزمن؟

فكّر في كل الأمور من مفاهيم وكائنات وصفات فيها وظواهر... وعلاقات بينها، فكّر فيها من الصفر حيث لا شيء، وبعده صارت هذه الأشياء الهائلة العدد بشكل لا يمكننا إحصاء ما نعلمه، وأكثر منه ما لا نعلم ولم نفهمه بعد ولم ننتبه أصلاً لوجوده. فما يلفت له القرآن انتباهك مما خلقه تعالى من كائنات وصفاتها والظواهر والعلاقات بينها، ستفهمه عندما تلتفت أنّه كلَّه بدعة، فلم يكن وكان، وحتى لو استغرق مليارات السنين ليكون، وعبر مراحل وآليات، نعرف بعضها ونخمّن بعضها الآخر ونجهل بعضها... فهذا ليس هو السؤال، بل السؤال عمّا هو موجود كما هو الآنَ وتعرفه، فمن جعله؟ من بدع ما فيه من صفات وخصائص وترابط؟ من اخترع البصر والرؤية بالعينين والضوء والعتمة والسنين والحساب...

هكذا ننتقل لشيء كان التركيز عليه أكبر في سور أخرى، فمعرفتنا أو افتراضنا لآلية لخلق كوننا متسلسلاً مترابطاً وصولاً إلى نشأة النظام الشمسي والأرض ونشأة الحياة... فما هو إلا محاولة منّا للتعرف على آليات خلقه تعالى لما في الدنيا، والسؤال النابع من الآية هنا وغيرها العديد من آيات القرآن، فها النتيجة التي أنتم فيها كبشر في بيئة متوافقة مع حواسكم وقدراتكم... فالسؤال عمّا نحن فيه كنتيجة، فمن صمّمه ليصير هكذا؟ ومن خلقه عبر الآليات التي قسمها تعالى إلى مراحلَ ستٍ سمّاها بالأيام الستة لخلق السماوات والأرض؟...

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً{13})
فقرة تبين أنه سبحانه خطّط لحساب عادل لكل فرد منّا في يوم القيامة على ما آمنّا به وفعلناه:

{وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ}، حيث قرّر سبحانه أنه يجب أن يكون طائره الطِّيَرَةَ الفألَ السيئَ ربطاً بشيء آخر لا علاقة حقيقية بينهما وبتعبيرنا الدارج: النحس. {فِي عُنُقِهِ}، في رقبته، حيث إنّ العنق هو عموم ما كان ضيقاً وقبله اتساعٌ، وفي الإنسان هو ما تطاول من الوصلة بين الرأس والجسد، وبالعامية نسميها رقبة، والشؤم والمصائب، هي شيء سيئ، وليست آتيةً على الإنسان من الخارج ولا علاقة له بها، وهذا هو المعنى الأساسي لكلمة "طيرة"، بل هي ناتجة عن الأعمال السيئة للإنسان وسبحانه سيربطها به ليتحاسب عليها.

الطِّيَرَةُ هي ربط حصول شيء سيئ بشيء آخر أصلاً لا علاقة مباشرة بينهما، وهذا هو معنى الكلمة بغض النظر عن قناعتك بها، فعندما قال الكافرون إنهم يتطيرون من المؤمنين قصدوا أنه أصلاً لن يحصل عقاب إلهي لمن كفر، لأنّ كلام المؤمنين عن الإنذار غير حقيقي، ولكن مجرد كلام المؤمنين عن شيء سيئ قادم سيسبّب حصول شيء سيئ، مثلما أتوقّع أن تقع عن الدراجة، وأكرر قولي هذا... فتصيبك حالة توقّع حصول ذلك، وهذه تسمّى "طيرة"، وعندما تقع ستقول إنك وقعت بسبب قولي لك إنك ستقع، علماً أنّه لا ربط حقيقي بين كلامي ووقوعك.

بعبارة أخرى إن كان هناك شيء تتطيّر منه "تتنحس منه" أيها الإنسان فتتشاءم بحصول شرّ وسوء عليك منه، وأنت لا علاقة لك به، فسبحانه جعل ما سيصيبك في الآخرة من أعمالك ملتصقاً بك، في عنقك، فتطيَّرْ "فاشعر بالنحس" مما تفعله أنت نفسك من سوء لأنه لن ينفكّ عنك في الآخرة. والتعبير بـ "كلّ إنسان" هنا يشير إلى كل من عمل سيئاً، والاستثناء واضح للذين لم يقوموا بأي عمل سيئ، فالأساس أنّ الكل مثل بعض، فأي واحد منهم قام بعمل سيئ فليتطيّر منه لأن بسببه سيصيبه ضررٌ، ومعلومٌ أنّ البعض لن يقوموا بالسيئات، فلو قاموا بها فهم مثل البقية فطائرهم في عنقهم.

الربط في العنق تعبير يشير إلى نفي مفارقة الشيء، وليس تعبيراً عن الربط الفعلي بحبل بالرقبة، وهذا ليس تعبيراً مجازياً بل حقيقياً على معنى صلاحية العضو الذي تحت الرأس ليكون مربطاً، مثل إطلاقنا الحقيقي لكلمة عنق على: عنق القنينة... لذا يكون المعنى هنا إشارةً للارتباط بلا انفكاك للسيئات عمّن فعلها.

الآية تقول: كل إنسان ارتكب عملاً سيئاً، ففي يوم القيامة يعود ذلك الشخص وما نتج عن عمله في رقبته، فالإنسان مرتبط بلا انفكاك عن نتيجة العمل السيئ، كما نقول: المال الذي أخذته منك هو دين في رقبتي. يعني صار الدين متعلقاً بي لا يفارقني.

{وَنُخْرِجُ لَهُ}، لكل من قام بالعمل السيئ، في {يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، في زمن قيامنا من الموت، {كِتَاباً}، شيئاً مسجلاً فيه ما قام به، كتاب أعماله الذي فيه تسجيل لكل شيء فعله، فكل عمل أو قول أو غمزة أو... كلها مسجلة في هذا الكتاب. والكتب ستكون في مكان، ويتم إخراجها، وتوزيعها علينا في يوم القيامة.

وسوف {يَلْقَاهُ}، فيتواجه ويرى الإنسان كتاب أعماله، {مَنشُوراً}، فقد كان كتاب أعماله كامناً وجرى عرضه ليكون علنياً موزّعاً معروضاً، فكل الأعمال التي قام بها "غالبية" الناس، سيتم توزيعها عليهم بشكل علني "مرئي مسموع ملموس...". ومعلوم لك أنّ الكلام عن الإهانة بالفضائح والتوبيخ لفاعلي السيئات عبر نشر أعمالهم السيئة، أمّا المؤمنون فحالهم مختلف فهم يفرحون بما في كتبهم، وبطريقة أو بأخرى يكفّر ويستر سبحانه سيئاتهم حتى لا يراها الآخرون، وحتى أنه تعالى يمحوها من كتاب سيئاتهم...

ننتبه جيداً، فهذا الكتاب ليس من ورق، وليس شاشة تُعرض عليها الأعمال، وعلينا الاقتناع بأننا الآن لن نفهم ما هو هذا الكتاب، وأننا لن نستطيع تصوّره، لأنّ عالم يوم القيامة مختلف عن عالمنا الحالي، ويمكننا فقط أن نتخيّل لنقرّب الصورة، فنتصور الكتاب بناءً على تكنولوجيا عصرنا أنه مثل مجموعة من الشاشات الشفافة الثلاثية الأبعاد، أو مثل مجسمات الهولوغرام التي تعرض مشاهد ما حصل... ولكن كل هذه التصورات وأمثالها هي غير صحيحة، بل للتقريب.

(اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً{14})
أيها الإنسان: {اقْرَأْ كِتَابَكَ}، فالكتاب المخصّص لك والذي فيه كل ما قمت به في حياتك الدنيا، ها هو أمامك، انظر فيه، واقرأه بنفسك فسترى فيه كل شيء.

{كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ}، في هذا الزمن لا تحتاج لشيء آخر غير نفسك لتكون {عَلَيْكَ حَسِيبًا}، احتسب نفسك واكتفِ بنفسك وهي كافية. بعبارة أخرى، لن تحتاج لمن يشرح لك السيئات التي ارتكبتها وكم عقابها، حين تقرأ كتابك ستجد كل شيء فيه بشكل واضح.

لشدة وضوح الكتاب، ولشدة وضوح الحوادث، ولشدة وضوح ما يستحق من عقاب على كل عمل سَيِّئ، ولشدة وضوح ما يستحق من ثواب على كل عمل جيّد، بكل سهولة يمكن لكل شخص أن يعرف نتيجة أعماله، ويعرف إن كانت أعماله تجعله يدخل إلى النار أو تجعله يدخل إلى الجنّة.

ننتبه، رغم وضوح الكتاب وكفايته للحساب، إن القرآن أخبرنا مرارا عن كل الأشخاص المذنبين أنهم يكذبون ويبررون ويعتذرون... في يوم القيامة، ويودون لو يرمي تعالى أعزّ أحبائهم في النار بدلا عنهم من شدة خوفهم ورعبهم... وعندها يأتي الشهداء من الملائكة والناس ليشهدوا على ذنوب الآخرين... وتشهد أعضاء الجسد...

ورد نفس التعبير في سورة الأحزاب الآية 39، ربما تشعر هنا بأن كلمة {حَسِيب} تعني من يحسب، فيكفيك أن تحسب لنفسك، وهذا المعنى صحيح بغضّ النظر عن الآية، أمّا المعنى الأساسي لكلمة {حَسِيب} فهو مثلما تقول: حسبي الله. أي لا أريد أحدا آخر معه فهو تعالى يكفيني. وهنا نفس المعنى، فلا تحتاج لأحد مع نفسك لتقرأ الكتاب، لأن نفسك تكفيك أصلا لقراءة كتاب الأعمال لمعرفة حالتك.

بالنسبة لقراءة الكتاب، لا تتصوّر كتاب الأعمال مكتوبا بالأحرف والكلمات على ورق والناس يقرؤونه، لا، لأن القراءة تعبير لعموم استخراج المعلومات من مصدر لِمُتَلَقٍّ، وهذا بغض النظر عن طريقة الاستخراج، حيث لدينا التعبير بقراءة وجوه الناس، أو قراءة المكتوب أو المسموع... والكتاب لعموم أي معنى متنه "نصّه" محدّد، سواء كان محفوظا على الورق أو على الكومبيوتر أو في الذاكرة... وهكذا ترى المعنى واسع التطبيق ويشمل مشاهدة ما حصل مصوّرا بالكاميرا، لأنها قراءة للمشاهد.

(مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً{15})

{مَنِ اهْتَدَى}، من صار على الشيء الصحيح الذي يوصله للغاية الصحيحة، {فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ}، لأن النفع يرجع له، والكلام هنا عن أنه سيدخل إلى الجنة.

{وَمَنْ ضَلَّ}، من لم يكن على الطريق الصحيح، وكفر بالحق وفعل السوء، وعمليا لم يطع ربّه سبحانه، {فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا}، على نفسه، الضرر الناتج عن الضلال سيكون عليه، والكلام هنا عن وصوله للحساب وبعده العقاب في جهنم، ولن يتحمّل عنه أي أحد أي شيء، قرر ربنا سبحانه:

{وَلَا تَزِرُ}، لا تحمل حملا ثقيلا مزعجا حمله، {وَازِرَةٌ}، نفس وازرة، نفس حاملة لأشياء ثقيلة مزعجة، حاملة لأعمالها السيئة التي فعلتها في الدنيا، لا تحمل، {وِزْرَ}، حملا ثقيلا لـ، نفس، {أُخْرَى}.

الوزر مادي ومعنوي للحمل والثقل المزعج حمله أو تحمّله، ماديا مثل الحقيبة والخرج والشنطة الثقيلة... ومعنويا مثل وزر الدين ووزر الاتهام... وهنا الكلام عن السيئات، ولا أحد في يوم القيامة سيحمل ذنوبا عن أحد، حيث إنَّ كل واحد سيحمل أعماله ولن يجد من يحمل عنه، لأنه أصلا لن يتبرع ليحمل ذنوبا عن غيره، ولا الآخرون مستعدون للتبرع بحمل وزره، لأن كل واحد يحمل وزره الشخصي.

{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ}، ما كان سبحانه سيسبّب ضررا للناس في يوم القيامة، {حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}، ننهض ونقيم بينهم من عندنا هنا في الدنيا من يخبرهم بما هو ممنوع وحرام وعليه عقاب، وبما يجب أن يقوموا به وعليه ثواب حسن.

هذا طبيعي جدا، كيف سيحاسبني سبحانه على شيء فعلته، وأنا لا أعلم أنه يوجد عقاب عليه؟ إذن: يرسل سبحانه رسولا ليخبرنا بما هو مسموح وما ممنوع، وبعد ذلك يحاسبنا.

عادة تجد هذه الآية يذكرونها لتطبيقها على عذاب يحصل هنا في الدنيا، يقولون إنَّه تعالى لا يعذّب قرية ما هنا في الدنيا إلا من بعدما يبعث فيهم رسولا، بينما كلام الآية هنا عن العذاب الإلهي في الآخرة.

معلوم لك أننا من بعد الرسول محمّد(ع) كلّنا يعتبرنا تعالى أرسل لنا رسولا، لأن كل الناس في جميع القارات والأزمنة من بعد الرسول محمد(ع) هو (ع) رسولهم، والمحطة السابقة رسول للسابقين، وقبله رسول للسابقين، ولمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 47 من سورة يونس {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}.

ننتبه، الأوزار التي أحملها تنتج عن أعمالي الشخصية التي قمت بها أنا بنفسي، والأوزار تنتج أيضا عن أعمال الآخرين التي سبّبتها أنا، وبهذا الشكل، يكون لي حصّة من الذنب الذي فعله غيري، أنا لا أحمل عنه ذنوبه، ولكن أحمل حصتي من الذنب الذي جعلت غيري يفعله، عندما أقنعته بأن الحلال حرام، والحرام حلال، وعندما شجعته على السوء، وعندما جعلته يكره الدين الإلهي... أنا لي حصّة من السيئات التي قام بها ولا أحمل عنه من سيئاته، ورد هذا المعنى في الآية 12 و 13 من سورة العنكبوت {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ، وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ}.

هنا الكلام واضح جدا، لا يضحك أحد على نفسه ويقول: إذا فرضنا وقع الحساب في الآخرة، فأنا لن أتحاسب على سيئاتي، بل سيتحاسب عني الذين أقنعوني بها، أنا بريء وهم يتحملون المسؤولية، لا، هذا وهم.

نلاحظ القرآن يُسمّي ما يحمله الناس في يوم القيامة من ذنوب بأنها "وزر" لأنها ثقيلة على من يحملها، ويشعر بالتعب منها، وأمّا الحسنات فلم يعبّر عنها القرآن بالوزر أبدا، ولم يعبّر عنها حتى بالحمل، وعلى كل حال لا تتصوّر أكياسا فيها السيئات "الثقيلة المتعبة" يحملها الناس، ولا أكياس حسنات خفيفة، لا، لأننا هنا في الدنيا نضع الأحمال في مستوعبات، وهناك أوزار معنوية نعيش تحت ضغطها كالعيش تحت وزر الدين، وزر الاتهام، وزر الإهانة... الأعمال والنيّات والأقوال السيئة هي الوزر، هي الشيء الثقيل المزعج حمله، كوزر همّ الدين وهمّ تأمين المال للمصاريف.

بقي شيء، في ثقافتنا الدينية تجد تفسيرا مختلفا لجملة {لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}، يأخذونها على معنى ألا تحاسب أنت شخصا على شيء فعله غيره، كحكم شرعي لا يجيز لك مثلا محاسبة الأب على ما فعله ابنه... هذا المعنى مشتق من الجملة وليس معناها الذي تقصده الآية.

نرجع للآيات، الكلام في الآيات السابقة كان عن الحساب في الآخرة، ماذا عن الحساب الذي يحصل في الدنيا؟:

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً{16})
الآية السابقة تحدّثت عن حساب الفرد وعقابه في الآخرة، وهنا في الدنيا هناك حالات يحصل فيها عقاب إلهي:

{وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ}، أن نستنفد حياة، أن نميت، {قَرْيَةً}، مجموعة من الناس تعيش مع بعضها، {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا}، وهم الأشخاص الذين لديهم عادة إشباع رغباتهم وشهواتهم السيئة ومحبّون للسلطة... بطريقة مبالغ فيها لدرجة الفساد، ومعلوم بالبداهة أنَّه تعالى يأمرهم بترك الترف.

لا يذهب ذهنك للمترفين أنَّهم فقط الأغنياء الأثرياء أو الرؤساء، لا، لأنَّ كل شخص كان عنده عادة الانحراف إلى السوء في إشباع حاجاته وشهواته فهو مترف، حتى لو كان فقيرا، لأنَّ كلمة ترف وصف لحالة التصرفات الزائدة عن حدّها من بعد الاكتفاء أو الاستغناء.

{فَفَسَقُوا فِيهَا}، خرج المترفون في القرية على أوامره سبحانه المعلومة والواضحة، حيث أمرهم سبحانه بشكل واضح وصريح بترك السيئات ولكنهم لم يلتزموا، {فَحَقَّ}، تحقق، وصدق، وانطبق، {عَلَيْهَا}، على القرية، {الْقَوْلُ}، سبحانه قال: القرية التي تقوم بعمل سيّئ جدا، وأبعث لها منذراً "رسول أو نبي أو مؤمن" أو كتاب... ليأمرها بالصلاح، ولا تسمع الكلام، فسوف أهلكها هنا في الدنيا.

{فَدَمَّرْنَاهَا}، غيّر سبحانه هيئة المكان وصار خرابا لا نفع فيه، وصارت غير صالحة للعيش فيها، وأمات أهلها وخرّب ديارهم... {تَدْمِيرًا}، بكل ما تعنيه كلمة تدمير من معنى فهو ينطبق على الفعل الإلهي فيهم، يحصل الدمار بالمقدار الذي قرّره تعالى لإنهاء قدرتهم على الإفساد.

لاحظ أنَّ الآية تركت فراغات في الكلام، وهذه الفراغات واضحة ويمكنك فهمها بسهولة، لا تفهم من الآية أنَّه سبحانه أمر المترفين بارتكاب الفساد حتى يدمرهم، لا، لأنَّهم أصلا موصوفون بأنهم مترفون، أصلا مفسدون، إذن يكون الأمر الإلهي لهم بترك الترف، لأنَّه سبحانه يأمر بالعدل والإحسان و...

كلمة هلك تقال لعموم ما هو مستنفد بتدرجات حتى نهايته، كالعمر أو الجسد أو الزرع بانقضائه حتى انتهائه أو فساده، ويختلف عن الموت بأن فيه تدرج في استنفاد الحياة والصحة والقوة، ومنه ما ورد في الآية 173 من سورة الأعراف {أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ}، حيث إنَّ الكلام عن الهلاك باستنفاد الراحة والأمن والصحّة في النار. وفرق الموت عن الهلاك أن الموت هو حالة فقدان الحياة.

هلك الشخص أو هلك القوم لا تعطي حصريا معنى موتهم بل تشمل موتهم وتشمل انتهاءهم بأي معنى كان، للشخص تشمل انتهاء تأثيره أو انتهاء حكمه كالتعبير في الآية 34 من سورة غافر {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا...} وصف هلاكه وصف استنفاد حالة وجود رسول بينهم، واستعمال هلك للقوم تشمل انتهاء أثرهم الفاعل ومنه معنى موتهم، وتشمل انتهاء كيانهم من بعد تشتتهم وضياع كيانهم أو انقطاع نسلهم...

كما ترى، السورة تعرض علينا أساس حركة تاريخ المجتمعات من نظرته تعالى لها، وكدليل على صحة تنفيذ التعذيب هنا في الدنيا:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً{17})
{وَكَمْ أَهْلَكْنَا}، كم استنفدنا حياة، أمتنا، {مِنَ الْقُرُونِ}، من الناس المجتمعة مع بعض في زمن واحد، {مِنْ بَعْدِ نُوحٍ}، لحدّ معلوماتنا القرآنية والتاريخية، نحن لم نسمع بتعذيب جماعي حصل قبل النبي نوح(ع)، لأنَّ كل ما نعرفه من تعذيب

للأقوام الفاسدة حصل من بعد النبي نوح(ع)، أهلك سبحانه العديد من المجتمعات بسبب سوء تصرفها، مثل أقوام الأنبياء: نوح، هود، صالح، شعيب، لوط...

{وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}، المفروض منهم وعليهم طاعته سبحانه لأنهم تحت مراقبة المسؤول عنك من مستوى إلهي وهو كافٍ ليعلم كل السيئات "المخالفات" التي يقوم بها عبيده "المفروض منهم طاعته"، لأنه تعالى أخذ القرار بإهلاك البعض منهم، هل كان هناك مجال لمناقشة قراره تعالى المبني على معلومات تفيد بأنهم أفسدوا للدفاع عمّن جرى إهلاكهم؟ لا، وكفى به تعالى، {خَبِيرًا}، لديه كل الأخبار والتفاصيل لكل ما حصل مع كل الناس، والكلام هنا عن خبره تعالى بما فعلوه من سوء، وكفى بربك، {بَصِيرًا}، يدرك "يعي بمستوى إلهي" معنى صورة ما يحصل، لأنَّ آلة التصوير تسجّل الحوادث ولكنها آلة ولا تعلم بما تسجّل، أمّا سبحانه فيرى ويعي، فيعلم ما يرى.

عن علم من مستوى فائق يعلم تعالى بما يفعله الناس، وبما يستحقونه جرى أخذ القرار بإهلاك البعض منهم.

كلمة عبد تشير لمن مَفْرُوضٌ منه وعليه الطاعة وهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، كأنَّ كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، كلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، لأنها جمع الجمع، أثناء الكلام بدقّة تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، فتقول الآيات: عبيد. وردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. تكون لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وتكون لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، لأنها تشير لعبيد جاءهم رسول، ولعبيدٍ آخرين جاءهم رسول، ولعبيدٍ آخرين... فجمع الجمع "عباد"، كلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، كمثال واضح جدا عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

(مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً{18})
{مَنْ كَانَ}، منكم أيها الناس، {يُرِيدُ}، مقصده ورغبته، {الْعَاجِلَةَ}، الحصول على الأشياء التي يرغب بها ويعتقد أنها تسعده ويريد السعادة قبل أوانها المناسب ويريدها هنا في الحياة التي نعيشها الآن ولا يريد الانتظار للآخرة، {عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا}، أتحنا له فرصة تنفيذ إرادته بالحصول على ما يريده الآن، لأنَّهُ وعدنا تعالى بالسعادة وتحقيق أمانينا في جنّة الآخرة والبعض منّا يريد ذلك الآن، يُتيح سبحانه له هنا في الدنيا الحصول على ما يراه الشخص سعادة له، {عَجَّلْنَا لَهُ مَا نَشَاءُ}، لأنَّ هناك خيارات عديدة أمامه تعالى، الإنسان يطلب الصحّة والمال والسعادة والشهرة... وسبحانه يشاء لهذا الصحّة ولذاك المال... {لِمَنْ نُرِيدُ}، لن يحصل كل من أحبّ العاجلة على كل ما يريده، ليس كل شخص قرّر التعلق بالدنيا سيجعله سبحانه ثريا أو بصحة جيدة أو... لا، بل يعجّل سبحانه لمن يريد، وطبعا تعلم أنه تعالى يفعل ذلك بحكمة... ذكرت تفاصيل ذلك سور أخرى من القرآن، أمّا هنا فالتركيز في الكلام على استعجالنا بما نرغب حتى لو كان يوصلنا إلى الفساد.

{ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ}، لمن أراد العاجلة، {جَهَنَّمَ}، المكان الموصوف بسوء ما فيه، بعد انتهاء الدنيا جعل سبحانه لهذا الشخص الذي يريد العاجلة ولا يريد الآجلة، جعل له جهنم وهي اسم مكان مشتق من الوصف بجهنم الذي يشير لسوء كل ما في المكان، لأنَّهُ وصف للأنواع المختلفة مما فيها ويسبب العذاب، فيها النار وفيها الضرب وفيها طعام كريه... وتفهم أنها اسم مكان من فحوى الآية 49 من سورة غافر {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ...}. جعلها تعالى له، {يَصْلَاهَا}، يقف أمام نارها كما نُصْلِي الفروج "الديك" ولحم الماشية على النار، {مَذْمُومًا}، حالته حالة الموصوف بأوصاف سيئة بسبب ما فعله من سوء، {مَدْحُورًا}، والدحر هو عموم نقل الشيء من مكان لآخر مع مهانة، نقول: انْدَحَرَ الأعداء. أي

أرجعهم أحد ما هربا مع الإهانة والإذلال. وهنا الكلام عن وصف حالة المنقول من رحمته تعالى التي كانت متاحة له في الدنيا إلى العذاب مع الإهانة، عن إبعاده من الاحترام والاهتمام، ليكون مرميا في جهنم بلا قيمة.

في الآية 20 التالية سيأتيك الكلام صراحة عمن يسعى للدنيا للحصول على المال أو المنصب أو السلطة أو الشهرة أو... بشكل سَيِّئ، سبحانه لن يعرقل له مساعيه، بل تجري الأمور بشكل طبيعي ويحصل هذا الساعي للدنيا على ما يريده إذا توافرت الظروف المناسبة، والآيات بعد التالية ستفصّل أكثر عن هذا، ولكن الصَّابَّ اهتمامه على الدنيا لن يحصل على أي شيء في الآخرة لأنه لم يعمل لها.

نلاحظ الآية التي وردت في هذه السورة عندما وصفت الإنسان بأنه عجول، وهنا تتحدّث الآية عن العجول الذي يريد التمتّع الآن بما هُوَ متاح له حتى لو كان سيئا، ولا يريد انتظار الآخرة ليسعد هناك، لأنه أصلا لم يؤمن بها.

(وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً{19})
الاختيار الجيد بيدكم أيضا أيها الناس:

{وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ}، من قرّر منكم أن يحصل على ما في الآخرة التي ستأتي في الآخر بعد انتهاء الدنيا، {وَسَعَى لَهَا}، تحرّك وفعل وقال وهو يقصد الآخرة، {سَعْيَهَا}، والتزم فعلا بما يوصله إليها، ولم يضحك على نفسه ومثلا يقول: الإيمان بالقلب والابتعاد عن أذية الناس... ولا داعي للصلاة والصوم والزكاة... والصدقة على مزاجي حين أريد وعلى من أريد... بل سعى وتحرّك فعلا على ما يوصله للفوز بالآخرة، {وَهُوَ مُؤْمِنٌ}، معلن اعتقاده بربه وبرسله... هذه الجملة {وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا} عمليا ترادف جملة: عمل الصالحات. ومع هذا فهو مؤمن، {فَأُولَئِكَ}، الساعون للآخرة المؤمنون، {كَانَ سَعْيُهُمْ}، كان تحرّكهم بعملهم الذي قصدوا به الآخرة، {مَشْكُورًا}، سنعلن لهم أنهم قاموا بعمل جيّد، وترجمة وصفه تعالى لعملهم أنه جيد هو إدخالهم إلى جنّة خالدة.

(كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُوراً{20})
الآيات السابقة تحدثت عن شيء حتمي قرّره سبحانه لما سيحصل في الآخرة، من عمل لها حصل عليها، أمّا ما يحصل هنا في الدنيا من تمتّع وحرمان من خيرات الدنيا، فسبحانه يفتح المجال للجميع:

{كُلًّا}، كل واحد، {نُمِدُّ}، لا نقطع بل نعطي ونمنح، ونتيح، {هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ}، وسياق الكلام عن مجموعتين يشير لمجموعة العاملين للدنيا فقط، ومجموعة المؤمنين العاملين للدنيا والآخرة، {مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ}، كل ما هو موجود في الدنيا من مال وأملاك وخيرات... فهو من عطاء المسؤول عنك من مستوى إلهي، سواء كان إتاحةً أو هبةً أو فضلاً أو إحساناً... كلّه متاح لهؤلاء وهؤلاء، لمن آمن ولمن كفر. المدد هنا هو البيئة والظروف المتاحة المتوافرة للجميع ليعملوا بالحلال أو بالحرام، بجدّ أو بكسل... توافقهم الظروف أو لا توافقهم...

{وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا}، ما يعطيه تعالى للجميع ليس ممنوعا على أحد من الناس. لم يقرر سبحانه جعل كل الكفّار أغنياء، ولم يقرر جعل كل المؤمنين فقراء، ولم يقرر حرمان الكفّار من التمتع بما في الدنيا... بل فتح سبحانه المجال أمام الجميع بالتساوي، نجد شخصا كافرا اجتهد وتعب وفكّر كثيرا... ثم صار غنيا وثريا، ونجد شخصا كافرا تسلط على الناس، وأخذ من أموالهم بالقوة، النتيجة الطبيعية أن يصير غنيا ويتمتع ببهارج الدنيا. لم يحظر أو يمنع سبحانه عن هؤلاء أن يصيروا أغنياء لأنهم كفار، على أساس أنهم لا يستحقون التمتع ويستحقون العقاب، لا، بل ترك سبحانه الفرصة للثروة والشهرة والسلطة ... وحتى بالطرق السيئة فهي مفتوحة أمام الجميع.

بالعكس، لم يحرم سبحانه المؤمن من إمكانية التمتع بالدنيا، على أساس أنه سيتمتع بالآخرة فلا داعي لتمتّعه بالدنيا، لا، بل فتح له المجال ليصير غنيا موفورا...

بعبارة أخرى، هذه الآيات تكمل الآيات السابقة: في الآخرة لا يوجد مجال لأي فرصة، لأنَّ الدنيا انتهت وما فعلناه فيها سنتجازى عليه، المؤمن يحصل على السعادة، والكافر على التعاسة. أمّا هنا في الدنيا، فالمؤمن والكافر متاح لهم نفس فرص الاستفادة من متاع الدنيا، بالخير أو بالشرّ.

بقي شيء من خارج موضوع السورة هنا ولكنه متصل بها، راجع دراسته في الآية 32 من سورة الأعراف {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، سعي المؤمن للسعادة في الآخرة ليس معارضا لسعيه للتمتّع بما في الدنيا ضمن إيمانه والعمل الصالح، بل بالعكس فهو أحقّ بالتمتّع بها من الكافر.

(انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً{21})

{انْظُرْ}، وجّه اهتمامك العام أيها النبي محمد(ع) وأيها المؤمن، بسبب إمدادنا لهؤلاء وهؤلاء من عطائنا هنا في الدنيا، وبسبب إِتَاحَتِنَا للفرصة أمام الجميع، {انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ}، فخصّص سبحانه بعض الناس بالتوفيق ليحصلوا على ما يريدونه في الدنيا، فيكونوا أغنياء، والبعض الآخَر لم يجعله يتوفّق، رغم أنهم تعبوا وحاولوا، ولكنهم بقوا فقراء، وعلى كل حال فلا يجب عليه تعالى أن يمنح أي أحد أي شيء، وهكذا جرت الأمور وصار الناس مُخْتَلِفِينَ في حالتهم المادية والاجتماعية...

هذا التفضيل يوجد مثله في الآخرة ولكن بشكل ضخم جدا:

{وَلَلْآخِرَةُ}، والتي ستأتي في الآخر بعد الدنيا الأولى، {أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ}، فالفرق هناك كبير جدا بين الذي فوق والذي تحته بالقيمة، حيث إنّ الفرق كبير بين السعيد والشقي، إذ إنّ الفرق بين الغني والفقير هنا في الدنيا ليس كبيرا، لأنّ الفقير يشرب الماء، ويلبس، وينام... أمّا في الآخرة، فالفرق كبير جدا جدا، فالذي في جهنم، فهو في عذاب نفسي وجسدي في كل ثانية، والذي في الجنة فهو في سعادة نفسية وجسدية في كل ثانية.

{وَالْآخِرَةُ}، {أَكْبَرُ تَفْضِيلًا}، فما يعطيه سبحانه هناك لمن هم في الجنة فضلا منه، أي من دون أن يكون فرضا واجبا عليه تعالى، ففيه فرق كبير، حيث هناك درجات في الجنّة وما سيتفضّل به تعالى على الدرجات الأعلى سيكون أكبر فرقا بكثير من الفروقات التي تراها بين الناس السعداء هنا في الدنيا.

كلمة أفضل وتفضيل تجدها في القرآن وفي أشعار العرب قبل الإسلام تشير حصرا لأمور جيدة، إذ هي ليست للمقابلة بين السيّء والجيد، بل للمقارنة بين الحسن والأحسن منه، للجيد والأجود منه، ولذلك فهمنا عبارة {أَكْبَرُ تَفْضِيلًا} بأنها فقط للذين في الجنّة.

ننتبه، إنّ أقل درجة في الجنة هي رائعة، وأقل درجة في الجنة تساوي الملايين والملايين من سعادة الدنيا، لأنّ السعادة النفسية والجسدية دائمة فيها، إذ في كل ثانية يتمتعون بصحة ونشاط وأمان... ولكن الدرجة الأعلى في الجنة، يشعر فيها المؤمن بسعادة أكبر بكثير مما يشعر به من هم أقل منه. ولكن تذكّر دائما أننا من عموم مفاهيم القرآن نفهم أن من في أقل درجة في الجنّة، فهذا لن يخطر على باله وجود شخص آخر في الجنّة أسعد منه، وخذ مثلا تلذّذنا بالطعام، فطالما لا أزال على نفس الإحساس بلذّة الطعام المناسبة لعمر جسدي الفتي فلن أقتنع بأن شخصا آخر يلتذّ أكثر منّي بطعم الطعام، إلى أن نشعر بأن لذّة الطعام صارت أخفّ، عندها نتذكّر بأننا كنّا نلتذّ أكثر، ونفهم أن غيرنا الآن يلتذّ بالطعام أكثر منّا، حيث إنّ أعلى درجة من الشعور بلذة الطعام كانت معنا، فهي المعيار لدينا لأقصى درجة شعور بلذّة الطعام... وفي الجنّة يلتقي المؤمنون من الدرجة العالية مع المؤمنين من الدرجة المنخفضة، ويأكلان من نفس الطعام، وكلاهما يَلْتَذَّانِ به مع فارق كبير بالشعور، وفي نفس الوقت وكلاهما يعتقدان أن ما يشعران به هو أقصى شعور بلذّة الطعام، إذ إنّ المؤمن في الدرجة المنخفضة في الجنّة لن يشعر بأن ما لديه من حدائق وبيوت... أقل قيمة مما لدى الآخرين، لأنّ ما لديه بالنسبة له أقصى السعادة ولا يعني له أي شيء آخر مع الآخرين أي شيء.

بقي شيء، فسبحانه ينسب لنفسه تفضيل بعض الناس عن الآخرين في الدنيا، وإن لم نفهم معنى كلمة تفضيل بدقة سنظن أن هذا صار غنيا من فضله تعالى وذاك صار فقيرا لأنه حُرِمَ من فضله تعالى، ولكن الكلام عن التفضيل، عن شيء يعطي معنى أنه تعالى أتاح للجميع الخير، وبعضهم نال قسما أكبر منه، وليس عن إفقاره تعالى لبعض الناس، فهذا ليس شيئا يفعله تعالى الذي يمدّ هؤلاء وهؤلاء {وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا}.

سنفهم كلام الآية عن التفضيل على حقيقة معناها إذا رأيناه من نظرة المتكلّم، من نظرته تعالى للأمور، فهو تعالى صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وصمّم بيئتنا، وصمّم النتائج التي ستحصل مما نفعله ببيئتنا. ومن

تصميمه تعالى للدنيا نتج غنى وفقر بين البشر، تَصَوَّرْ تصميمنا في بيئة مختلفة ينتج عنها الثراء للجميع، فوراً سيخطر ببالك أن هذا ليس تصميما مناسبا لنا، فلا أحد سيعمل لإنتاج الطعام ولا أحد سيبتكر ويخترع... فهذا كلام مُشَابِهٌ لوصف جنّة الآخرة التي صمّمها تعالى لسعادة كل من فيها، والتصميم لذلك يشمل كل تكوين طبيعة الجنّة ومن فيها، إذ إنّ أهلها ليسوا بحاجة للطبابة ولا للعمل ولا... لأن تصميم الجنّة مقصود منه سعادتهم فيها فقط، وفيها خدم يخدمونهم... أمّا تصميم الدنيا فيحتاج لتعديلات كثيرة حتى يصير كجنّة الآخرة. أقول لك هذا لننتبه أنّ الدنيا لن تبقى على معناها كدار بلاء إن تغيّر تكوينها لنصير كلّنا أغنياء، لأنها بشكل ما ستصير جنّة الآخرة...

نضيف على ذلك أنّ علمه السابق تعالى بما سيحدث معي، لا يعني تحكّمه سبحانه بي بتغيير مجريات حياتي، لأنّ بعلمه بما سيحصل معي، من أوّل ما صمّم الدنيا وقال لها كوني، فهو علم بما سيحصل معي من خليط الظروف التي سأمرّ بها ولا اختيار لي فيها، كمكان ولادتي وزمنه وصفات جسدي... مع خلط ذلك بما أقرّر أنا فعله بالمساحة الممنوحة لي منه تعالى لأختار بحرية إرادتي، وما سيحصل معي مسجّل في كتاب، وسيحصل ما هو مسجل حتما، لأنه مكتوب لا عن تخمين أو احتمال، بل عن علمه الفائق سبحانه وتعالى نتج علمه بكل تفاصيل ما سيحدث في الدنيا والآخرة.

إذن، تفضيله تعالى لبعضنا على بعض، هو نتاج خلقته تعالى لنا في بيئة تسير بنا حتما نحو حصول اختلاف بيننا فيما نتمتّع به. سينتج عنها أصحاء ومعتلون ومعاقون... وسينتج عنها فقراء وأغنياء وأثرياء... ومن المسؤول عن التصميم الذي أدّى لذلك؟ الله سبحانه، ولذلك ينسب تعالى لنفسه تفضيله لبعضنا على بعض فيما نتمتّع به.

الكلام يجر الكلام، لأنّ الموضوع أكبر من هذا الملخص، وتراه في مختلف السور التي خرجت عن موضوع سورتها لتتناول الجوانب المتعلقة بالموضوع، إذ سبحانه لم يقرّر خلق ما في الدنيا بمسار إجباري يلغي حرية الإرادة والاختيار للبشر، لأنّ حرية الإرادة لنا سينتج عنها حتما سوء في الدنيا كان يمكن تجنّبه لو توجّهت إرادتنا نحو الخير.

نكتفي بالإشارة للآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، ومنها سنفهم أنّ التفاوت الهائل بين الناس في التمتّع بالدنيا، هو ناتج عن فعلنا للسوء بحقّ بعضنا، والذي ينتج عن كفرنا أو فسقنا أو نفاقنا، ولولا ذلك لكان الجميع سعداء بمقدار ما تتيح لنا الدنيا من السعادة، وسيبقى التفضيل بيننا ولكنه لن يكون هائلا كالذي تراه في بعض المجتمعات من فقر وجوع وتشرّد...

نرجع للسورة حيث انتهت فقرة ما قرّره سبحانه من الفرق بين نهاية الذي أطاعه وعصاه، وفيما يلي نكمل مع لائحة بما قرّره سبحانه لنا من واجب وحرام، ومن يلتزم بها فقد تصرف بحكمة:

(لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَـهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً {22})
أيها النبي الذي نوجّه له الكلام كنموذج لأي إنسان يقرأ أو يسمع أو يصله معنى هذه الآيات، إليك عرض إلهي للمعلومات الحقّ ولأفعال الصلاح، لِتُقَوِّمَ رؤيتك للأمور وتصرفاتك على أساسها.

{لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ}، ولا تعتقد بأنه يوجد غير الله تعالى كائن لديه قدرات وصفات فائقة فوق الآخرين، وعمليا لا تؤمن بغيره تعالى إلهاً ولا تعبد غيره، ولا تدع غيره، ولا تطع غيره... بعبارة أخرى: كن معتقدا أنه لا إله إلا الله تعالى.

وإذا جعلت مع صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" إلهاً آخر فعندها، {فَتَقْعُدَ}، فلن تتحرّك بإعلانك غيره تعالى إلهاً وبعبادتك أو بدعائك أو بنذرك... إلى أي نتيجة، {مَذْمُومًا}، غير ممدوح على ما فعلته بل توصف بأنك سيّءٌ.

سَتَقْعُدَ {مَخْذُولًا}، لأنك كنت تتوقع من تلك الآلهة أن تستجيب لعبادتك ولدعائك، ولكنها ستخذلك ولن تستجيب لك، وبالمقارنة مع ما يفعله تعالى فإنها لن تعطيك ثواباً على عبادتك، ولن تحقّق لك دعاءك، ولن تغفر ذنوبك... ولن تدخلك الجنّة.

ضع في بالك دائما أن الناس عموما يتراخون في استعمال الكلمات، والقرآن لا يمكن أن يتراخى مثلهم في معانيها، لِذا حدّد القرآن معنىً دقيقاً للكلمات بما يتناسب ويتماشى مع استعمال العرب للغتهم، وبالنسبة لكلمة إله، وبالدقّة القرآنية تعني: كائناً ذا صفات وقدرات فائقة فوق صفات وقدرات المخلوقات. ولو تماشى القرآن مع التراخي في استعمال

العرب لهذه الكلمة "وغيرها"، لصار كلامه جدلياً بلا أساس، لأن معاني الكلمات تصير مِزاجيَّةَ الانطباق على ما أريده وأقصده أنا، وما تريده وتقصده أنت، وبناء عليه أَمُطُّ كلمة إله وأجعلها تناسبني وأصف بها نفسي مثلما فعل فرعون كما ورد في الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي}... وهو مثل كلام عامّة الناس الذين لا يتكلّمون بدقّة، ولا يستعملون كلمات دقيقة، لذا تحتاج لفهم قصدهم حتى تقوّم كلماتهم، بدل أن تفهم قصدهم من كلماتهم...

ستسمع مشركاً يقول عن حجر إنّه إلهٌ، ومشركاً آخر يقول عن إنسان ما إنّه إلهٌ، وآخر من وهمه وخياله يخترع كائناً وينعته بالألوهية، وآخر سيقول إنّ الجنّ آلهة، وغيره سيقول عن الملائكة (ع) آلهة... فهذا النوع من التراخي والتساهل في استعمال الكلمات هل يمكنك أن تفسّره؟ هل يمكن أن تشرح كيف يصير الحجر إلهاً؟!

هذا الكلام من صلب مقاصد القرآن، حيث إنّ الذين قالوا عن الحجر إلهٌ، هم عرب، من قدماء العرب، من أقحاح العرب، ومن فصحاء العرب... فهل هذا يعني أنهم استعملوا الكلمة بشكل صحيح؟ لا، لأنهم قصدوا بها كائناً قدراته عالية تفوق قدراتهم هم، ولكنهم تراخوا بمعنى الكلمة حتى صارت تنطبق على تمثال من خشب! إذ إنهم ليسوا آلهة ليعلموا فعلاً ما معنى كلمة إله كتطبيق فعلي حقيقي، ولم يكرّروا كلاماً قاله إله حقيقي لهم، ولم يستعملوا عقولهم بشكل سليم حتى يستخرجوا صفاته تعالى من أفعاله كما فعل النموذج الأبرز إبراهيم (ع)، وبذلك تفهم كلامه تعالى عبر هذا القرآن أنه كلام إله حقيقي يخبرنا عن نفسه، ويخبرنا أنه الوحيد الموصوف فعلاً بهذه الكلمة بشكل حقيقي، لأنه وحده صفاته وقدراته فائقة فوق الجميع والبقية كلّهم مخلوقات له، وبعض المخلوقات منحها تعالى قدرات أعلى من الآخرين، ولكنهم بذلك لا يصيرون آلهة ولا أولاداً له عزّ وجلّ.

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً{23})

{وَقَضَىٰ رَبُّكَ}، هناك شيء يريد حصوله وحصل فَحَتَمَ المسؤول عنك من مستوى إلهي بشكل لا يقبل التبديل، {أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}، ممنوع أن تعتبروا أنفسكم مَفْرُوضاً منكم طاعة أحد من مستوى إلهي غيره تعالى، فلا يفكر أي أحد بأنه سبحانه يسامحه إذا عبد غيره، لا، لا تُوجَدُ مسامحة على هذا أبدا بتاتا ولا بأي شكل، وتعرف من القرآن أن العقاب على الشرك هو الخلود في جهنّم في أقصى أنواع العذاب وكمثال عنه ما ورد في الآية 48 من سورة النساء {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ}...

قبل أن نكمل ضع في بالك وانتبه للفرق بين معنى كلمة "قضى" المستعملة هنا بوضوح لمعنى لا يتماشى مع ما هو مشهور منتشر بين الناس كاصطلاح يذكرونه مقابل كلمة "قدر"، وسأكرر لك ما ذكرناه في دراسة الآية 4 من هذه السورة، فَكَلِمَتَا "قدر وقضاء" لم يستعملهما القرآن بالمعنى الاصطلاحي الذي ستجده في الكتب، فهما كلمتان معناهما عام، فالقضاء لعامة ما يراد حصوله و"حصل"، خذ مثلا الآية هنا التي لا يمكن استبدال كلمة قضى الواردة فيها بالمعنى الذي يذكرونه كاصطلاح، وبصعوبة شديدة في بعض الآيات الأخرى يمكن أن تفهم منها ما هو دارج بين الناس عن قرارات قرّرها تعالى أن تحصل و"ستحصل"، بصعوبة. والقدر عامّة تحديد لشيء، كمية أو مدّة أو قيمة، ولا من قريب ولا من بعيد استعملها القرآن بالمعنى الدارج بين الناس عن أمور فيها احتمال أن تحصل.

نرجع للآية، فثاني الأوامر الإلهية الحكيمة الملصقة بالتوحيد:

{وَقَضَىٰ} فأمر سبحانه، {بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}، أن تكون معاملتك للأب والأم بشكل حسن لا سوء فيه، بالمعاملة وبالكلام اللطيف، وبتأمين ما يحتاجان، حتى لو كانا كافرين، حتى لو أَسَاءَا إليك. وهذا أيضا مقضي محسوم فلا يغفر تعالى مخالفته.

الدارج بين الناس أن كلمة "إحسان، محسن" تشير للتفضّل على الآخرين، ولكنها ليست كذلك إذ هي وصف لعموم أي عمل حسن، ومن ضمنه التفضّل على الآخرين، راجع كمثال الآية 100 من سورة التوبة {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ}... فهي نفس الكلمة بنفس الاشتقاق والتصريف والمعنى، لأنها لا تشير للتفضّل.

{إِمَّا}، فعندما أو في حالة، {يَبْلُغَنَّ}، فيصلان، {عِندَكَ الْكِبَرَ}، فيكبران في العمر فيهرمان ويشيخان وهما عندك في بيتك في كفالتك وتحت مسؤوليتك، لأنك الوحيد، أو الكبير بين إخوتك والعادة في مجتمعك أن يهتمّ الكبير بأهله، أو كنت الصغير بين إخوتك والعادة في مجتمعك أن يسكن الصغير مع أهله، أو هما جيرانك في السكن... فبلغا الكبر، {أَحَدُهُمَا}، فالأم لوحدها بقيت حيّة وشاخت، أو الأب بقي حيّا لوحده وشاخ، {أَوْ كِلاَهُمَا}، بقيا على قيد الحياة معا وهما شيخان يحتاجان للعناية، والخدمة، وربما خفّ عقلهما... {فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ}. فلا تعبّر عن انزعاجك منهما ولو حتى بنفخ الهواء البسيط من فمك تأففا، لأنّ أُفٍّ هي أقل كلمة تنتج عن صوت خروج الهواء من فمك كتعبير عن انزعاج مع ضجر، فإذا كانت "أفٍ" أقل صوت يمكنك التعبير به عن الانزعاج منهما ممنوعة، فأي كلمة أو صوت آخر يدل على الانزعاج منهما أيضا ممنوع.

{وَلَا تَنْهَرْهُمَا}، فلا تقل لهما كلاما قاسيا ليسكتا إذا لم يتوقفا عن الكلام، أو إذا امتنعا عن الاستحمام أو الطعام... لأنّ الكثير من الكبار في السن تصير عقليتهم صعبة، فلا يقتنعون بالمنطق، ويصيرون مثل الأطفال الصغار.

{وَقُل لَّهُمَا}، لوالديك، {قَوْلًا كَرِيمًا}، كلاما أو ألفاظا محترمة لائقة، فلا تسخر منهما أو تَسْتَهْزِئْ بهما أو تقل لهما كلاما مهينا...

من مشتقات الآية وكلام القرآن فالولد "أنثى أو ذكر" يجب عليه الاهتمام بوالديه، ولا يجب ذلك على زوجة الولد، أو على زوج البنت، فهما مأموران بالعناية بوالديهما هما وليس بوالدي أزواجهما، وكثيراً ما نجد في المجتمعات الإسلامية أن عِبْءَ الاهتمام بالوالدين يرميه الولد المتزوّج على زوجته، وهذا حرام، إلا إذا هي من خاطرها تبرّعت للعناية بهما.

(وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً{24})
ما يزال الأمر مُتَوَجِّهاً لكل ولد للعناية بأهله وليس لواحد من الأولاد.

{وَاخْفِضْ لَهُمَا}، لوالديك، {جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ}، فالجناح هو قوتك وقدرتك، فذللها لهما فاجعل قدرتك منقادة تابعة لهما، فتجعل قوتك البدنية والمالية والاجتماعية... تحتهما وبتصرفهما، وتفعل ذلك، {مِنَ الرَّحْمَةِ}، من العناية بهما لما فيه مصلحتهما، حيث هناك من يضرب أمّه أو أباه، وهناك من يحرمهما من الحاجيات، وهناك من يعاملهما بصلابة وقساوة ولؤم... هنا الآية تنبهنا من كل ذلك.

بعد أن تحسن لهما وتحترمهما وتؤمّن لهما ما يَحْتَاجَانِهِ، قل:

{رَّبِّ ارْحَمْهُمَا}، المسؤول عني من مستوى إلهي اعْتَنِ بهما لما فيه مصلحتهما، {كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}، مثلما اعتنيا بي حتى كبرت فأمّنا احتياجاتي عندما كنت صغيرا لما فيه مصلحتي.

صحيح أن أمر الإحسان بالوالدين أمر إلهي، ولكن الآية تلفت الانتباه إلى أنّ الولد يردّ الجميل لأهله حين ربياه صغيرا يَتَحَمَّلَانِ أعباء العناية به... فهذا نوع من تبرير التشريع.

ننتبه جيدا جدا، حيث بدأت الفقرة هنا بأمر واحد تصنيفه ديني عند "العلمانيين" وهو توحيده تعالى، وبقية ما ستذكره السورة هي أمور لها علاقة بنا في تعاملنا مع بعضنا البعض، وفي العديد من السور نجد تكراراً لهذه الأوامر الفردية المؤثّرة على حياة المجتمع، حيث نجد القرآن يعرضها كأوامر إلهية دينية ومعرفتنا بحسنها دليل على كونها من مصدر إلهي حكيم عليم... لو قارنتها مع الشرائع الأخرى لوجدتها رائعة ومقنعة وتتماشى مع العقل والنفسية السليمة، وهي دليل واضح جدا على الفرق الهائل بين تشريعاته تعالى وبين عموم التشريعات الأخرى التي وضعها البشر. تلاحظ فيها وفي عموم القرآن وبشكل ملفت جدا جدا ربط توحيده تعالى ببرّ الوالدين ومساعدة المحتاجين على أساس أنه تعالى لا يعرض علينا ديناً غريباً عجيباً، بل يرينا المعلومات الحقّ وبالأدلة لنؤمن بها، ويرينا التصرفات الصالحة لنفعلها.

(رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً{25})
{رَبُّكُمْ}، المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ}، لا أحد غيره تعالى لديه علم تفصيلي بكل ما فيكم سِرًّا أو عَلَنًا، {إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ}، إذا كنتم موصوفين بالصلاح في عقيدتكم وعملكم، {فَإِنَّهُ} سبحانه {كَانَ

لِلْأَوَّابِينَ}، كان لمن كانوا في حالة مخالفة لأوامره تعالى "حالة الذهاب" فتركوها وآبوا ورجعوا ليكونوا صالحين، وتركوا العمل السَّيِّئَ ورجعوا "آبوا، إياب" نحو العمل الصالح قربة لله تعالى، فلهؤلاء كان سبحانه، {غَفُورًا}، فيسامحهم على الذنب، فسبحانه ليس صُلْبًا قَاسِيًا لَئِيمًا يجمد على موقف واحد ممن أساء، لا، فباب التوبة دَائِمًا مفتوح.

إذًا، الحالة المثالية لمعاملة الوالدين تكون بالحسن والرحمة وخفض الجناح... والآية هنا تشير إلى أنه يَصْدُرُ منك عمل مخالف لهذه الحالة المثالية، فتقول لك الآية: إن كنت من داخلك صَالِحًا لا تقصد فعل السوء، وَأُبْتَ إلى ربّك سبحانه فتركت العمل السَّيِّئَ الذي فعلته مع والديك ورجعت إلى أوامره سبحانه، ففي هذه الحالة سيغفر لك فيتجاوز سبحانه عن العمل السَّيِّئِ الذي قمت به مع أهلك. والمغفرة ليست مخصّصة لهذه الحالة فقط فهي عامّة ولكن فسّرناها بهذا الشكل لأن سياق الكلام يشير إلى بعض تعقيدات الحياة التي تَدْفَعُ أَحَدًا ما لمعاملة أهله بشكل سَيِّئٍ، كما يحصل عادة عندما يُخَرِّفَانِ وَيَتَصَرَّفَانِ بطفولية أقرب إلى الجنون... وَأَحْيَانًا تَصْدُرُ منهما أقوال وأعمال تحتاج إلى صبر غير عادي لتحمّلها...

(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً{26})

تكمل السورة مع أوامره تعالى لنا على المستوى الفردي والمؤثّرة على المجتمع: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى}، الموصوف بأنه قريب لك، من أقربائك كأخيك أو أختك... أعطه {حَقَّهُ}، ما له عليك من واجب المساعدة، فإذا كان مُحْتَاجًا للمساعدة، فَرَضَ تعالى عليك مساعدته، وَبِأَمْرٍ إلهي صار لقريبك المحتاج حق عليك في مساعدته مَادِّيًّا، سواء بالمال أو الطعام...

وَأَعْطِ {الْمِسْكِينَ} حقّه، الذي أوضاعه المالية متعثرة أو معدومة "فقير"، فله حقّ عليك من مالك أن تساعده، فَقَدْ يملك سيارة وَمَحَلًّا تِجَارِيًّا... ولكن ظروفه متعثّرة ويحتاج للمساعدة، وَيَحْتَاجُ للطعام أو اللباس أو الدواء... فساعده حتى لو لم يكن من أقاربك.

وَأَعْطِ {ابْنَ السَّبِيلِ} حقّه أَيْضًا، وهو الشخص الذي يمرّ عندكم على الطريق وهو مسافر، والذي لسبب ما لم يعد معه مال، حَتَّى لو كان غَنِيًّا في بلده الأصلي، ولكنه الآن في بلدك وَانْتَهَتِ الأموال التي كانت معه، ولا يستطيع جلب أموال من بلده، فساعده بما يحتاج حتى يستطيع العودة إلى بلده أو حتى يستطيع البقاء حيث هو.

{وَلَا تُبَذِّرْ}، لا تصرف مالك على أشياء لا فائدة فيها، وَلَا تصرف مالك في ما لا تحتاجه، {تَبْذِيرًا}، بشكل موصوف بالتمام أنه تبذير وكأنك ترميه هنا وهناك على ثياب لا تحتاجها ولن تلبسها... أو على طعام لن تأكله...

ننتبه، فبعض الناس يرون الإنفاق على المحتاجين: تَبْذِيرًا! وليس إِسْرَافًا، وَتَكُونُ قد رميت مالك بلا أي فائدة إن أعطيته للمحتاجين، والآية هنا فصلت بين التبذير والإنفاق على المحتاجين، حَيْثُ سمّت الإنفاق على المحتاجين: حَقًّا عليك. وَلَمْ يعد تَبْذِيرًا للمال، لأنه صار وَاجِبًا عليك مثلما يجب عليك أن تصرف على نفسك وعيالك... وفي نفس الوقت أشارت لحرمة التبذير سواء على مصروفك الشخصي أو أثناء إنفاقك على الآخرين وأنت تعلم أنهم لا يحتاجون للمساعدة.

إذًا انتبهت أن الإسراف هو صرف المال بشكل زائد عن الحاجة، فهو أقل من التبذير الذي هو صرف المال فيما لا تحتاجه ولا منفعة منه أَصْلًا، فسترى الآية هنا تشير إلى نظرة بعض الناس إلى الإنفاق على المحتاجين أنه تبذير للمال، رمي للمال بلا فائدة، مثل إحراق للمال.

نُلَاحِظُ الآيات التالية ستنبهنا أَلَّا نعطي المحتاجين كل ما نملك ونصير نحن محتاجين لمن يعطينا، لِأَنَّ الآية هنا تريد تنبيهنا لأمرين، الأول: التبذير حرام على كل حال، سواء على نفسك أو على غيرك. والثاني أن الإنفاق على المحتاجين ليس تَبْذِيرًا.

بقي شيء، فِي غالبية التفاسير تجدهم يفسرون أمثال آيتنا هنا أنها تشير إلى الزكاة، وهذا غير صحيح، لِأَنَّ عموم أوامر القرآن بالإنفاق كانت تشير إلى وجوب الإنفاق على المحتاجين حتى لو كنت دفعت الزكاة، وذكر القرآن الزكاة كفريضة "كضريبة" يجب دفعها كلما حصلنا على كميّة فائضة جِدًّا من الرزق، وذلك لصرفها على المحتاجين وعلى الشؤون العامّة للمسلمين، ومنهم الْمُوَظَّفُونَ في الشؤون العامّة لأمور المسلمين.

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً{27})
{إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ}، إن الذين يصرفون أموالهم على ما لا يحتاجونه، في أي تصرف كان، سواء عندما يصرفونها على الفقراء بشكل غير مقبول، كأن يشتري للفقير ثيابا فاخرة ليست مناسبة للفقير ولن يلبسها... أو على أولادهم أو على أنفسهم، فيشترون أشياء ليسوا بحاجة لها، فهؤلاء، {كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ}، كانوا مشاركين للموصوفين بقيامهم بأعمال مضادة للإيمان، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ يأمر بالتبذير، فلا تأمر نفسك ولا الآخرين بالتبذير حتى لا تكون أخا للشياطين، مشاركا للشيطان بالوصف في ارتكاب عمل سَيِّئٍ.

{وَكَانَ الشَّيْطَانُ}، الكائن الموصوف بفعل الضلال لنفسه وللآخرين، وعادة يشير القرآن بالشيطان بالمفرد للشيطان الأساسي وهو إبليس عليه اللعنة، كان، {لِرَبِّهِ كَفُورًا}، نَاكِرًا لحقّ المسؤول عنه من مستوى إلهي بالطاعة. يعني لا تكن مثله.

نَتَذَكَّرُ دَائِمًا أن كلمة شيطان تنطبق على الذي يعمل أشياء خبيثة سَيِّئَةً، مع إصراره على المعصية، ومعرفته بأنه يعصي ربه، سواء أكان إنسانا أو جنيا، فهو شيطان.

ملاحظة: لم أجد في القرآن كلمة تبذير أو إحدى مشتقاتها إلا في هذه الآية والتي سبقتها.

(وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً{28})
{وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ}، لَمْ تهتمّ بمساعدة أقربائك والمسكين وابن السبيل، {ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ}، في حالة طلبك للعناية بك لما فيه مصلحتك من المسؤول عنك من مستوى إلهي، {تَرْجُوهَا}، وَتُحِبُّ حصولها وتتوقّع حصولها، يعني كنت في حالة تحتاج فيها لرحمة من ربّك، وَتَتَوَقَّعُ الحصول على رزق منه تعالى لأنك الآن لا تملك ما تنفقه على المحتاجين ولذلك أعرضت عنهم.

{فَقُلْ}، لقريبك وللمسكين ولابن السبيل، {قَوْلًا مَيْسُورًا}، كَلَامًا غير معسور، قَوْلًا يدل على أن الأمور ستكون يسيرة سهلة وغير صعبة أو عسيرة، قَوْلًا يبعث على الأمل، مثلا: إنْ شاء الله سأساعدك فيما بعد، إنْ شاء الله تنفرج علينا وعليك...

بعبارة أخرى: إذا طلب منك المساعدة شخص محتاج، ولكنك كنت لا تملك المال لمساعدته، وَكُنْتَ في حالة الرجاء للحصول على رزق منه تعالى... فلا تقل له أَنَّ الدنيا سوداء وليس فيها أشغال، وَأَنَّكَ عمّا قريب ستدور على البيوت تستعطي وتطلب المساعدة... لا، بل قل له بما معناه أَنَّ الأمور ستتحسن فيما بعد بإذن الله تعالى وسأساعدك... وسيرزقنا الله تعالى أنا وأنت من فضله...

بقي شيء، فِي عَامَّةِ التاريخ الذي نعرفه هُنَاكَ من يمتهن التسوّل، حَيْثُ يَكُونُ معه مال يكفيه لشهر أو لسنة أو أكثر، ولكنه لا يتوقّف عن استعطاء الناس بالطلب منهم أن يعطوه من مالهم! قَدْ يَكُونُ فِعْلًا عنده إعاقة تمنعه من العمل للكسب، ولكن هذا ليس عُذْرًا لتكديس فائض من المال يكفيه لسنين. وهناك الْقَادِرُونَ على العمل ولكنهم محتالون يدّعون بأنهم معاقون، وهناك عصابات متخصصة في إدارة فريق من الصغار والكبار للتسوّل. أقول لك هذا لأن أمره تعالى لنا بالصدقة على المحتاجين لا يسمّى صدقة ولا أجر منه لو فعلته مع الأغنياء أو المحتالين أو العصابات.

الدَّارِجُ بين الناس قَدِيمًا وَحَدِيثًا أَنَّنَا نتصدّق قربة لله على هَؤُلَاءِ الناس حتى مع علمنا بأنهم لا يستحقون الصدقة ولكننا مؤمنون من الدرجة العالية وَمُنَفِّذُونَ لأمره تعالى بالصدقة، وهؤلاء الكاذبون هم يتحملون مسؤولية كذبهم، ونحن طَالَنَا الأجر، لا، لا أجر على هكذا فعل لأنه ليس صدقة بل هو التبذير بعينه، بل عليه حساب بسبب تشجيع هؤلاء على الاستمرار في التسوّل طالما هناك من يعطيهم.

من معلوماتي عن مجتمعي، لا أذكر مصادفتي لفقير يتسوّل وهو محتاج فِعْلًا للمساعدة، فكل ما أذكره أَنَّهُمْ كاذبون يملكون المال الكثير، أو أنهم تابعون لعصابات تأخذ منهم ما يجمعونه، فهل بالتوقّف عن الصدقة على هؤلاء لم يعد لدينا مجال لفعل الصدقة؟ لا، لِأَنَّنَا بالأساس لم نفهم كلامه تعالى والذي نَادِرًا ما ذكر الفقير "خمس مرات فقط" للصدقة عليه بينما أكثر من ذكر المسكين، والمسكين عنوان واسع لكل من ظروفه المالية متعثرة حتى لو كان يملك بَيْتًا أو سَيَّارَةً أو

مَحَلًّا تِجَارِيًّا... فإن كان لا يملك ما يمكنه الاستغناء عنه، كقطعة أرض لا يستعملها، أو شقة لا يستعملها... فهذا يستحق الصدقة عليه، بل يأمرنا تعالى بمساعدته، وهكذا ترى أن من حولك أُنَاسًا لا يتسوّلون، ويعيشون بكرامتهم، ولكن عندهم تكاليف حياة من مستوى حياة مجتمعهم، وهم غير قادرين على تأمينها، كتسجيل أولادهم في المدارس وَشِرَاءِ قِرْطَاسِيَّةٍ... وَمَلَابِسَ لَائِقَةٍ... وَطَعَامٍ لَائِقٍ...

(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً{29})
{وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً}، يدك التي تستعملها للإنفاق على الآخرين لا تجعلها مُقَيَّدَةً ثابتة لا تَتَحَرَّكُ، {إِلَى عُنُقِكَ}، إلى الوصلة التي بين رأسك وجسدك، إلى رقبتك، لِأَنَّ الْعُنُقَ هو عموم ما كان ضَيِّقًا وقبله اتساع، وفي الإنسان هو ما تطاول من الوصلة بين الرأس والجسد، وبالعامية نسميها رقبة، لا تتصرف وكأن يديك مَرْبُوطَتَانِ مُلْتَصِقَتَانِ برقبتك ولا يمكنك تحريكهما، وكأنك لا قدرة لك على مساعدة المحتاجين، حيث ترى من يحتاج ولا تمدّ له يد المساعدة مع أنك تملك المال لمساعدته.

{وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ}، وَالْبَسْطُ وصف لعموم ما كان مَطْوِيًّا أو مُوَضَّبًا أو... وصار كالصفحة مَفْتُوحًا يظهر وجهه أو قفاه كَامِلًا، وهنا الكلام تصوير لليد التي تعطي ولا يغلقها صاحبها، حَيْثُ مِنْ دونِ أَيِّ قَيْدٍ تصرف مالك كله على مساعدة الناس، فلا تفعل ذلك دائما لأنك إذا لم يَبْقَ لديك مال، {فَتَقْعُدَ مَلُومًا}، وَقَعَ عليك اللوم، فأنت ليس من المفروض أن يصدر منك هذا الخطأ، فَتَصِيرَ مَوْصُوفًا بأنك تَصَرَّفْتَ بشكل غير صحيح وأنت بالذات لا يفترض بك الوقوع بهذا الخطأ، لِأَنَّكَ جعلت نفسك فَقِيرًا مُحْتَاجًا من بعدما بَسَطْتَ يدك بكل ما تملك لمساعدة الآخرين، وتقعد، {مَحْسُورًا}، تتحسر لِأَنَّكَ فعلت شَيْئًا كان بإمكانك فعل ما هو أفضل منه، إِذْ صرفت كلّ مالك، وصرت أنت بحاجة للمساعدة! وكان بإمكانك إبقاء ما تحتاجه من المال.

خَيْرُ الأمور أوسطها، فلا تبخل عن الصرف مما معك على المحتاجين، بل اقض حاجة المحتاج بقدر ما يحتاج وَلْيَبْقَ معك بقدر ما يكفيك لتكمل حياتك تصرف على شؤونك ولتعمل...

ورد في التاريخ الإسلامي أن بعض الأشخاص خرجوا من مالهم، وَتَصَدَّقُوا به. نَفْهَمُ بأنهم تصدقوا بكل مالهم ولم يَبْقَ معهم شيء! فلننتبه جَيِّدًا، فِي الحقيقة هم كانوا يقسمون كل مالهم وأغراضهم بالنصف، ويتصدقون بنصفه، وكانوا يقولون عمّن فعل هذا: خرج من ماله. وبحسب كلام القرآن فحتى الصدقة بأكثر من نصف ما نملك لا مشكلة فيها طالما لن تتغيّر حياتنا عن نمطها المقبول في مجتمعنا وما نحن مُعْتَادُونَ عليه من معيشة بالمعروف.

نَنْتَبِهُ، مَنْ غلّ يده ولم ينفق، فهو يملك عقلية ونفسية البخيل الذي لا يؤمن بالثواب في الآخرة، ولن يلوم نفسه أو يتحسّر إذا لم ينفق، بل بالعكس، فلو أنفق سيلوم نفسه ويتحسر على المال الذي فقده، ولذلك لم تتحدث عنه الآية باللوم والحسرة، بل تحدثت عمن أخطأ بإنفاق الكثير من ماله وصار هو نفسه بحاجة للمال.

نُلَاحِظُ من هذه الآية أنها تُرِيدُ منّا التعامل بواقعية الدنيا، وأن تكون حساباتنا وتصرفاتنا مدروسة، فلا نبخل بالمساعدة إن كنا نستطيع، ولا نستهتر ونقول: بما أني أساعد المحتاجين فإن ربي سيعطيني مالا أكثر هنا في الدنيا، أو سيعطيني أجرا كبيرا في الآخرة... فلأوزع مالي كله على المحتاجين، لا فهذا غير مقبول.

اَلْآيَةُ التالية ستكمل الشرح:

(إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً{30})
{إِنَّ رَبَّكَ}، إِنَّ المسؤول عنك من مستوى إلهي أيها النبي(ع) وأيها المؤمن، {يَبْسُطُ}، يمدّ وَيُعْطِي بوفرة، {الرِّزْقَ}، الأشياء التي تصير معكم لتسدّوا بها حاجاتكم ورغباتكم وأهمها الأكل الذي تحافظون به على حياتكم، {لِمَنْ يَشَاءُ}، أَمَامَهُ تعالى خيارات عديدة وهو وحده تعالى يقرّر لمن سيعطي الرزق الوفير، {وَيَقْدِرُ}، يُعْطِي سبحانه بقدر، وَيُقَلِّلُ الرزق لمن يشاء.

{إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ}، كان بالذين مفروض عليهم ومنهم طاعته، {خَبِيرًا}، يَعْلَمُ كل الأخبار والتفاصيل، وَكَانَ، {بَصِيرًا}، يدرك "بمستوى إلهي" معنى صورة ما يحصل، حَيْثُ يَرَى كل شيء ويعي ما يجري، وَلَيْسَ مثل الكاميرا التي لا تعي

معنى ما يحدث أمامها، وبما أنه تعالى لديه أخبار كل شيء، ويرى كل شيء، فإنه سبحانه يأخذ القرار المناسب للبسط أو التقدير.

نَنْتَبِهُ للعمق الذي تطرحه الآية، حَيْثُ يَقُولُ الْكَثِيرُونَ إِنَّهُمْ لو ملكوا المال لوزّعوه على الفقراء من حولهم ليسدّوا حاجاتهم، وسبحانه يأمرنا بالإنفاق مع قدرته على إغناء الجميع، فلماذا هناك فقراء؟! الجواب في آيتنا هنا، لِأَنَّهُ سبحانه الخبير البصير قرّر هذا التفاوت بالرزق بين الناس لحكمة، وتعليل هذا مذكور في الآية 27 من سورة الشورى، لأن الناس سيبغون إن كان رزقهم مَبْسُوطًا "وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ".

(وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءاً كَبِيراً{31})
{وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ}، في حال صرتم تتوقعون الضرر من الإملاقِ، من الفقرِ لدرجة الموت جوعا، فلا تتجنبوه بإنهاء حياة أولادكم، فإن كنتم تتوقعون ظروفا صعبة، وتتوقعون أنكم لن يَعُدْ بإمكانكم تأمين الطعام لأولادكم، فلا تقتلوهم على أساس أنكم ستخلصونهم من عذاب الجوع، أو أنه سيبقى طعام يكفي لكم إذا تخلّصتم منهم...

الله {يَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ}، الله تعالى يجعل معكم ما تأكلونه أنتم وأولادكم، حيث جعل تعالى في البقع المختلفة من الأرض خيرات كثيرة، ويمكنكم الانتقال من بقعة سيئة إلى بقعة جيدة، ويمكنكم الاقتصاد... وجعل سبحانه لكم القدرة على السيطرة على خيرات الأرض، بحفر الآبار لاستخراج المياه، وبناء البحيرات والسدود... وبالزراعة وتربية الحيوانات الصالحة للأكل...

{إِنَّ قَتْلَهُمْ}، إن إنهاء حياة أولادكم خوفا من الموت جوعا، {كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا}، لأن حساباتكم وتفكيركم خطأ وليست صوابا، وحتى لو كانت نيتكم أن تخلّصوا أولادكم من الموت جوعا، فقتلهم خطأ وليس الحلّ الصحيح.

الخلاصة: إذا كنتم تعيشون فعلا أو تتوقعون التعرض لظروف مادية صعبة لدرجة الموت جوعا، فليس الحلّ أن تقتلوا أولادكم، حيث هناك دائما حلول أخرى، وإسقاط الجنين خوفا من الحالة المادية الصعبة، هو عمل سيّء، وترك الأولاد ليموتوا في الصحراء أو الغابات أو على المزابل... عمل سيّء.

نلاحظ أن القراءة المشهورة "خِطْئًا" بكسر الخاء، ويبدو لغويا أنها مثل كلمة "سِقْط" كوصف للجنين الذي نزل قبل اكتمال نموّه، أو نزل ميتا، والتي قرأها العرب بالضمة أو الفتحة أو الكسرة على حرف السين، بلا أي فرق في المعنى من تغيير الحركة.

هل الآية تقول أنه لا أحد سيموت من الجوع لأنه تعالى سيؤمن له الطعام؟ لا، بل تقول إنّه تعالى أتاح الرزق وفي حال تعثّر الحصول عليه حيث أنت، فقم بحلّ هذه المشكلة حيث أنت بمقاومة الظالمين والمحتكرين والمتسلطين... وبالتعاون مع الآخرين لبناء مجتمع صالح... أو بالانتقال إلى مكان آخر فيه طعام... أو... ولكن لا يكن الحلّ أبدا بقتل الأولاد.

مشكلة المجاعات معلوم سببها من فساد الناس، إذ إن الجفاف والفيضان وبقية الكوارث الطبيعية تجعل الرزق شحيحا، ولكن المجتمع الصالح بحكومته ومواطنيه، يمكنهم تخطّي ذلك بسهولة، هل تتوقّع منه تعالى تنزيل وجبات جاهزة على الجائعين وهم لا تكليف عليهم قبل حصول المجاعة ولا بعدها؟ المتوقّع منه تعالى مفعول، حيث أتاح سبحانه الأرزاق في الأرض بوفرة فائضة بكثير عن حاجات الناس، ولكن بفسادهم تَحْصُلُ الأزمات الاقتصادية، ولو أنهم آمنوا واستغفروا، وكانوا صالحين، لكان هذا وحده يعني تنظيمهم لشؤون حياتهم بما يضمن الراحة أو حتى الرفاهية للجميع، ومضافا إلى ذلك، فإنه سبحانه يتدخّل لمنع الكوارث الطبيعية أو تخفيف أثرها على هكذا مجتمعات.

(وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً{32})
{وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى}، ابتعدوا ولا تقاربوا فعل العلاقة الجنسية من دون عقد "نكاح"، {إِنَّهُ}، الزنى، {كَانَ فَاحِشَةً}، كان عملا جنسيا سيّئا، {وَسَاءَ سَبِيلًا}، وهذا العمل الجنسي السيّء مسلك سيّء لتنفيس الشهوة وإشباع الرغبة، أو للتكسب المادي...

العلاقة من دون زواج بين رجل وامرأة: زِنًا. وموصوف بأنه فحش، لأنه عمل جنسي سيّء، ولا يعتبر البعض الزنا فيه مشكلة، ولا يراه معيبا ولا سيّئا، لذلك ننتبه إلى أن سلامة القلب عند الناس هي التي تجعلهم يرون ويميّزون الصحّ من الخطأ، والصالح من الفاسد، ومرض القلب سيجعلهم يرون الفاسد صالحا، خلقنا سبحانه مع قابلية تمييز الصالح من الفاسد، وعلى هذا الأساس كلّفنا بأوامره التي من المفروض أن يتماشى القلب السليم معها فيرى أنه تعالى حرّم ما هو سيّء وأمر بما هو صالح.

تلاحظ أن الآية وصفت الزنا بأنه مسلك سيّء، فهناك حاجة لإشباع الرغبة الجنسية، وهناك الزواج لتحقيق ذلك، وفي مقابلها العلاقة الجنسية بدون زواج... وكعادتنا في هذه الدراسة حيث لا نطرح المواضيع بجفاف الدراسات، ونطرحها بالكلام العملي، فإن غالبية المجتمعات "الشرقية" في عصرنا وما قبله، تعيب الزنا على المرأة المتزوجّة أو العزباء، ويصل بهم الأمر إلى قتلها حتى على الشبهة ومن دون دليل... ويغضّون الطرف عن الرجل الزاني المتزوج أو الأعزب، بل يفتخرون برجوليته! وكثير من المجتمعات "الغربية" تعيب الزنا مع المتزوجين ومع الممتهنين للزنا، ويرفضون أن يكون هناك تجريم كعقاب للزاني حتى مع تصنيفهم له عموما بأنه عمل سيّء... ويبيحون العلاقات من دون رابطة الزواج للعزّاب... هناك تفاصيل كثيرة لمختلف سلوكيات وأخلاقيات المجتمعات لسنا بصدد تعدادها ويكفينا فقط الالتفات لها، ومنها سننطلق للأسباب التي تجعل الناس لا يرون الزنا فاحشة، أو يبررونه مع علمهم بأنه سيّء... فالتعبير الذي ورد في الآية عن الزنا كسبيل سيّء، يشير إلى حاجتنا للعلاقة الجنسية وأن الزنا ليس الطريقة المناسبة، لِيَبْقَى الزواج كطريق صالح لذلك، وهنا يبدأ الكلام عن دوافع الزنا.

لدينا أولا الوعي الجنسي المبكر في عمر ليس مناسبا للارتباط بزواج وإنجاب أولاد، وهذا العمر في عصرنا صار مبكرا جدا بسبب المواد الإباحية المنتشرة بالصوت والصورة... وبسببها ينضج الأولاد ويتفتحون باكرا على الرغبات الجنسية، وهكذا ترانا منقسمين، بعضنا يراه أمرا واقعا لا يمكن تغييره فيتركونه على حاله، وآخرون يرونه خطيرا بحاجة لمعالجة...

بعدها ننتقل إلى عمر المراهقة الطبيعي للتعرّف على العلاقة الجنسية، ومن دون محفزات من المواد الإباحية من الصور والأفلام والكلام... سيتأخّر الفتى والفتاة عن التعرّف على شهوة الجنس، وسيعيشون حالة طبيعية من الميل للجنس الآخر، وهي ما يسميه الناس بحالة الحبّ والودّ...

كلا العمرين من أول البلوغ المبكر الجنسي للجسد والفكر، وحالة الشباب، هناك معوقات مانعة من الارتباط بزواج، معوقات نقصان الأهلية للارتباط بسبب نقص في خبرات التعامل مع الحياة والآخرين... ومعوقات الحالة المالية... والمعوقات الاجتماعية الرافضة للزواج المبكر... وهذه تفاصيل تحتاج لبحث طويل فيها لذلك سنقفز عنها لنبسّط المشكلة ونرجع إلى جذور نشوئها.

لو التزمنا أساسا بأخلاقيات وسلوكيات عقلانية، لما وصل بنا الحال إلى النقاش في أسباب الزنا التي تتفرّع لتصير شائكة متداخلة تحتاج لكتب لاحتواء مختلف حالاتها وأسبابها ونتائجها... وسبل معالجتها...

إن توافر المحفّزات الجنسية للأولاد والشبّان، هو من أهم الأسباب لبكورة الرغبة الجنسية عن العمر المناسب للارتباط، وتلك المواد لن تتوافر لو التزمنا بأخلاقيات وسلوكيات عقلانية، وقبل إلقاء اللوم على المواد المرئية المصورة والمتحركة، فهناك الاستهتار بالكلام عن العلاقات الجنسية بشكل مباشر أو إيحائي وانتقاله من البالغين إلى الصغار، حيث إنه من النادر جدا جدا أن يستطيع الفتى أو الفتاة اكتشاف ما يسمّى بالعادة السرية من دون تعليمهم إياها، وأنا أرتكب خطأً بذكرها هنا، وأنصحك بشدّة أن لا تشرح معناها للفتية الذين يسألون عنها إلا بعد تأكدك من احتمال تعرّفهم عليها من الآخرين الذين سيشجعونهم على فعلها، ومن بعد تأكدك من قدرتك على إقناعهم بسوئها...

هناك الاستهتار بالحشمة باللباس في البيوت وفي الأماكن العامّة... فهذه محفزات جنسية دافعة لاستمرار هذه الأفكار تدور في البال...

هذا الانتقال للثقافة الجنسية لتعريف الأحداث "صغار السنّ" عليها، يتضمّن نقل الأفكار والنفسيات لهم وللآخرين البالغين، كفكرة تعدّد العلاقات، وفكرة اللذّة من العلاقات الممنوعة بتفوقها على اللذة من العلاقات المشروعة، وفكرة الأنوثة والرجولة الكاملة التي يتم إثباتها بمقدار عدد الذين نغويهم...

كما ترى فنحن لم نتحدّث عن الموضوع من نظرة دينية، إذ لم نتطرّق للعقاب الديني على الزنا، فالآية مع تضمّنها للعقاب الإلهي بناء على مخالفة أوامره التي تنهى عن الزنا، فإنها أرادت التركيز عليه كفاحشة وسبيل سيّء لتنفيس الشهوة أو تحصيل المال، وها قد اختصرنا الموضوع بشكل مشوّه غير مرتب، ولكنه كافٍ ليريك أن سبب الزنا وتبريرات أسبابه ليست عقلانية، فمن يسأل عن السبيل لتنفيس الشهوة معترضا على تحريم الدين للزنا، قبل ذلك فليسأل السؤال الصحيح عن سبب نشوء ثقافة وبيئة دافعة للزنا، وَلْيَرَ حجم مسؤوليته عن ذلك قبل أن يضع نفسه في موقع الضحية... فإن كان هو ضحية من سبقه فما دوره هو مع الآخرين؟

يبرز سؤال: هل نحتاج لكلام نثبت فيه أن الزنا سلوك اجتماعي سيّء؟ لا، فحتى المنحطون أخلاقياً في أسفل سافلين، والمجاهرون بالفحشاء، ومع أن عددهم قليل بالنسبة لعدد البشرية، فحتى هؤلاء لديهم مواقف من الوفاء والحبّ والإخلاص... علماً بأنهم بتفلتهم الأخلاقي يدغدغون مشاعر الكثير من الناس الراغبين بلذّة يتوهمونها مفقودة من حياتهم... ولذلك ترى دعماً خفياً أو علنياً للفاسدين من المستقيمين الراغبين بالحصول على أقصى ملذات الدنيا، ولذلك ترى رفض الغالبية لوضع عقاب على الزنا.

هذا الموضوع نفسه في جوهره النفسي والفكري ينسحب على مختلف الأمور الفاسدة الأخرى، كالمخدرات والمسكرات والقمار... لأن الجميع يعلم بفسادها وضررها على الفرد وعلى المجتمع، ولكن الرغبة اللاعقلانية فيها دفعت مجتمعات إلى غضّ النظر عنها أو تشريعها.

إذن، لا يحتاج وصف الزنا بأنه فاحشة إلى كلام كثير لإثبات سوئه، وكذلك لا يحتاج سوؤه كسبيل لتنفيس الشهوة إلى كلام كثير، إنما تحصل كثرة الكلام في أسبابه ودوافعه من الأساس.

بقيت مسألة ما يسمّى بالمصاحبة من دون عقد زواج، فهو زِنًا، وله آثار سلبية كثيرة وبخاصة على الإناث اللاتي يَفْقِدْنَ حقوقهن المحفوظة بعقد زواج يضمن استمرار العلاقة ولا يتبع لمزاجية الرجل، حيث يتضمن عقد الزواج مهراً "مقدّماً ومؤخّراً"، ونفقةً، وتأمينَ المسكن، واعترافاً بالأولاد، وإجبارَ الزوج على تحمّل مسؤولية تربية الأولاد ونفقات معيشتهم...

ترى المجتمعات الغربية حالياً تقونن المصاحبة لتفادي وقوع الأنثى ضحية استهتار الرجل بها وبأولادها منه، فحتى لو لم يوقّع الطرفان على عقد زواج، وتصاحبا، فقد وضعوا قانوناً افتراضياً لهذه الحالة يضمن بعض حقوق الأنثى وكأنهما وقّعا على عقد زواج، فصار للصاحبة حق في منزل صاحبها وفي ماله، وحق نفقة على أولادها منه...

كما ترى، فالقرآن يطرح ضرورة قوننة العلاقة بين رجل وأنثى بعقد، وغير ذلك يسمّيه زِنًا، فارِضاً علينا الزواج ومضيّقاً على العلاقات العابرة، فيمكننا الزواج والطلاق بعد دقائق، ولكن حتى هذا الحال محكوم بعقد فيه حفظ لحقوق الطرفين.

بعد انتشار المصاحبة والعلاقات العابرة في المجتمعات الغربية، وجدوا آثاراً تضع الإناث في ظروف صعبة، ولذلك وضعوا قانوناً للمصاحبة ينطبق بالإجبار على كل المتصاحبين حتى لو لم يوقّعوا على أي عقد مهما كان نوعه.

هكذا ترى رجوعاً إلى ما فرضه تعالى علينا من قوننة بعقد لعلاقة معاشرة بين ذكر وأنثى.

(وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً{33})
تكمل السورة مع أمر إلهي للفرد وله علاقة بمجتمعه:

{وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ}، لا تنهوا حياة الإنسان الذي حَرَّمَ ومنع تعالى إنهاء حياته، {إِلَّا بِالْحَقِّ}، قتله ظلما وبالباطل حرام ممنوع أمّا بالحقّ فمسموح، مثلا: إذا كان هناك شخص يهجم عليك يريد قتلك، عندها يجب أن تدافع عن

نفسك وتقتله. بالبداهة تعلم أنه يوجد أشخاص يحقّ لنا قتلهم: مثل قتل الأعداء في حالة الحرب، وحالة قتل القاتل لنفس بريئة... أمّا غير ذلك، فلا يجوز قتل أي إنسان.

نلاحظ من الآية أن أساس الحكم الإلهي لأي نفس كانت "مسلماً أو غيره" حَرَّمَ الله تعالى قتلها. والاستثناء: قتلها بالحقّ. وذكرت آيات أخرى من القرآن الحالات التي يجيز فيها سبحانه لنا قتل الآخرين، وهنا ستذكر نموذجا عن قتل نفس بالحق.

{وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا}، إذْ قتله أحد ما وهو مظلوم لأنه لم يرتكب أي جريمة، {فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ}، جعل سبحانه لمن كان الميّت تابعا له، للشخص المسؤول عن المطالبة بمعاقبة القاتل، إذ جعل له سبحانه {سُلْطَانًا}، حجّة قويّة، حيث صار معه رخصة ليقتل القاتل، ولا يحق للناس منعه.

مَنْ أعطيناه السلطان حيث أعطيناه أمرا إلهيا قاهرا فوق أوامر البشر ليقتل القاتل، {فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ} {إِنَّهُ} "بحجّة" {كَانَ مَنْصُورًا}، من ربنا سبحانه، هل يقتل كيفما كان بحجّة أنه سبحانه أعطاه إجازة بالقتل؟ لا، فلا يحق له استعمال الإجازة بالقتل ليقتل من يشاء، ولا يحق له أن يقتل إلّا القاتل، كما لا يحق له قتل أقرباء القاتل أو عمّاله أو أحباء القاتل...

ننتبه، مِنَ التعليقات التي يبديها الناس على القرآن مسألة إجازته للقتل، وبعضهم يصوّر لك الموضوع وكأن القرآن يجيز قتل الأبرياء! وبعضهم يعترض حتى على قتل القاتل على أساس أن قتله لن يعيد الميّت، وأن قتله يجعلنا من مستواه الإجرامي فلا يعد هناك فرق بيننا وبينه... هذه العناوين وغيرها كتعليقات على الدين الإلهي ما هي إلا دعاية كاذبة، حيث ترى آيتنا هنا والعديد غيرها تحرّم قتل الأبرياء، من المسلمين وغيرهم، وتجيزه في ظروف محدّدة، وكما ترى أجازت ولم تأمر بالقتل في الحالات التي يكون فيها الموضوع شخصياً، فولي المقتول ظلما له الحقّ في قتل القاتل أو العفو عنه كما ورد في الآية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

أمّا في حالات القتل تحت عناوين أخرى، فتلك الدول التي تتبجّح بالحضارة والإنسانية لَنْ تتوانى عن قتل أي عدو يهجم عليها، بل وغالبيتهم لا مشكلة لديهم ببيع السلاح لِمُتَقَاتِلِينَ، بل يقدمونه مجانا ليتقاتل الآخرون مع بعضهم مع تحفيزهم على ذلك... ومع علمهم بأنهم يقتلون الأبرياء... وذلك للاستفادة من بيع السلاح أكثر، وللاستفادة من خيرات تلك البلاد بالتسلّط عليها من بعد فساد حكوماتها...

(وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً {34})
أيها الناس، {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ}، "الذي لم يبلغ أشدّه"، ابتعدوا عن أمواله وكل ما له قيمة مالية كالأملاك من أرض وبيت... {إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، بالاقتراب من ماله بأحسن طريقة، بأفضل طريقة، حيث من المفروغ منه أن النصب والاحتيال والسرقة... حرام مع كل الناس، ولكن بالنسبة لإدارة الأموال والأملاك عبر تشغيلها واستثمارها... يجب أن لا تستهتروا ولا تغامروا بأموال اليتيم، بل تديروها بأحسن بأفضل طريقة، {حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ}، حتى يصل اليتيم إلى مرحلة نَصِفُهُ فيها بأنه اشتدّ فكره، حيث صار بإمكانه اتخاذ القرارات بشكل مناسب، ففي هذه الحالة تتوقفون عن إدارة ماله إلا بإذنه، وإذا أذن لكم بإدارتها وهو بالغ فكرياً يُمكنكم إشراكه في التجارات والمعاملات التي فيها مغامرة "معقولة".

تنبيه الآية من أخذ المال من اليتيم يشمل الأجرة على إدارة مال اليتيم، مثلاً: أخذت اليتيم بسيارتك إلى الطبيب، فيحق لك أخذ أجرة التوصيل من مال اليتيم "الغني"، ولكن لا يحق لك احتساب الأجرة أكثر مما تدفعه الناس عادة.

ننتبه، لم تمنع الآية من تشغيل مال اليتيم بالتجارة أو الشراكة ضمن حدود الابتعاد عن المخاطرة غير العقلانية، ولكنها تحدثت حصراً عن المغامرة أو الاستهتار بمال اليتيم، وعن بدل الأتعاب المبالغ فيه على العناية باليتيم وبأملاكه، وبالخصوص تشير للتسلّط على مال اليتيم للتصرّف فيه وكأنه لا صاحب له لأن اليتيم ضعيف ولا يمكنه الاعتراض.

لا تريد الآية أبداً منّا ترك إدارة مال اليتيم على أساس أن تركه أفضل من إدارته، لا، بل يجب على المؤمنين إدارة مال اليتيم الذي لم يبلغ الأشدّ، ومثلما يوجد عقاب على التهاون والاستهتار والاختلاس... من أموال كل الناس، فإن الآية تشير إلى شدّة العقاب على التهاون والتلاعب والاختلاس... من أموال اليتيم.

لا يوجد معيار بالعمر "بالسنين" لمرحلة بلوغ الأشدّ الفكري، والعقلاء من العاملين في مجال الأعمال والتجارة يمكنهم تحديد حالة كل يتيم ليروا إن بلغ مرحلة البلوغ العقلي المالي، وعادة في عصرنا الحالي يتم اعتبار سن الثامنة عشرة معياراً عاماً ينطبق على الكثير من الناس لنقول بأنه بلغ أشدّه، ولكن يمكن أن يصل اليتيم قبل هذه السنّ إلى البلوغ الفكري المناسب لإدارة أمواله، خاصّةً إن كانت قليلة وتشعباتها محدودة، ويمكن أن يتأخّر عن هذه السنّ خاصة إن كانت الأموال تتضمّن شركة كبيرة أو مصالح شائكة...

ليكن هذا مثالاً لك عن المرونة التي تركها الدين الإلهي في التشريعات ولم يقيّدنا بتحديدها، إذ ترك لنا تحديد العمر المناسب لكل حالة لوحدها وبالنظر لخطورة ما سيتولّى اليتيم إدارته، حيث هناك فرق كبير بين تحديد الرشد لإدارة شركات ضخمة وبين رعي نعجة يمكن لشاب صغير إدارة شؤونها...

هناك فرق شاسع بين البلوغ الجنسي، وبلوغ الأشدّ الفكري المناسب للإدارة المالية، حيث يحصل البلوغ الجنسي من السنة التاسعة للبنت، ويحصل للصبي قبل الرابعة عشرة، وعلاماته: الاحتلام ونبات شعر العانة "والدورة الشهرية للأنثى..."، وهذا يعني أنه صار بالغاً جنسياً ومكلّفاً، فصار واجباً عليه وعليها تطبيق الواجبات الدينية التي يمكنه أو يمكنها القيام بها بالنظر إلى حالته الجسدية والمادية والعقلية، كالصلاة والصوم والحجّ... أمّا بلوغ الأشدّ لإدارة المال فهو مختلف، إذ من لا خبرة له بالإدارة المالية قد يصل لسنّ العشرين وأكثر ولا يصل للمستوى المطلوب لإدارة المال، وعادة يقوم القاضي أو الوصي بامتحان اليتيم الشابّ "أو الشابّة" حتى يتأكدوا أنه سيحسن التصرف بما ورثه، ومن الأفضل أن يقوم بهذا الاختبار أناس من المؤمنين العاملين في مجال التجارة والأعمال.

ما تجده في الكثير من كتب الفقه بتفسير آيتنا هنا أنها تشير بالأشدّ للبلوغ الجسدي الجنسي، تسع سنين للأنثى وأربع عشرة سنة للذكر... فهو غير صحيح، وما تجده في تشريعات العلمانيين عن تحديد بلوغ الأشد بثماني عشرة سنة، أيضاً غير صحيح، حيث ترك لنا سبحانه تحديد حالة الوصول للأشدّ بما يتناسب مع مختلف الحالات الفردية، ولم يحدّده بعمر وترك تحديده للعقلاء الذين يختبرون أهلية اليتيم ليروا مناسبته لإدارة الأموال التي ورثها...

نرجع للآية: {وَأَوْفُوا}، كونوا أوفياء، وليكن تاماً ولا تنقصوا أو تخونوا، {بِالْعَهْدِ}، بما أعلنتم للآخرين أو قبلتم من الآخرين أن تحفظوه أو تنفذّوه، {إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا}، لأن كل عهد مهما كان نوعه، كل ما عهد به الآخرون إليك، وكل ما صار تنفيذه عليك، إذا قبلت به، سيسألك سبحانه عنه، وسيطلب منك جواباً: هل التزمت به؟ وهل أتممته كما التزمت؟

الالتزام بالعهد واجب بشكل عام، ولكن الآية هنا تشير إلى العهد بالمعاملة في أموال الأيتام، عندما تولّيتَ إدارة شؤون مال اليتيم، صار ماله في عهدتك، وصار الحفاظ عليه وإدارته عهداً عليك، وستتعرض للأسئلة عن عهدك، يعني أن هناك حساباً وجزاءً على مخالفة أي عهد كان، وبالخصوص هناك جزاء على سوء التصرّف بمال اليتيم.

ضع في بالك دائماً أن كلمة "سأل" معناها الأساسي: عامّة التعبير عن إرادة شيء ما من أحد ما. وبهذا المعنى فهي مرادفة تقريباً لكلمة "طلب" كما نستعملها، ومن سياق الكلام يتحدّد المطلوب: جواباً أو غرضاً أو فعلاً أو استعلاماً أو استفهاماً أو تعجباً... ومن الدارج بيننا استعمال اشتقاق كلمة "مسؤول، مسؤوليتي..." بالمعنى الذي تعرفه، وهذا من اشتقاق استعمال كلمة "سأل" على أساس أن الشخص ستتوجّه له الأسئلة عن شيء ما، والكلمة التي استعملها القرآن بهذا المعنى الدارج لكلمة "مسؤول، مسؤوليتي" هي "وكيل، حفيظ".

(وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً{35})
تُكْمِلُ السورة مع أوامره تعالى لكل فرد منّا بالأمور التي لها تأثير على مجتمعنا:

{وَأَوْفُوا الْكَيْلَ}، كونوا أوفياء في الكيل وليكن تامّاً، ولا تخونوا فيه، وأعطوا الكيل حقّه، {إِذَا كِلْتُمْ}، وتكملة الجملة واضحة: إذا كنتم تتعاطون مع الآخرين بمعاملة فيها مكيال. الكيل هو الوعاء الذي نقيس فيه الأشياء بالحجم، مثل اللتر والغالون والتنكة، والدارج في منطقتنا شراء الزيت والبنزين و... باللتر. تأمرنا الآية أن لا نغشّ بحجم الكيل، إذْ يُمْنَعُ أن نصنع كَيْلاً حجمه أكبر من الكيل الصحيح، ونشتري من الناس بهذا الكيل، أو نصنع كَيْلاً حجمه أقل من الكيل الصحيح، ونكيل به ونبيع الناس، لأن هذا غِشٌّ وهو خيانة.

{وَزِنُوا}، قوموا بوزن الأشياء، {بِالْقِسْطَاسِ}، بالطريقة وبالآلة التي تعطي القسط، ما للآخرين بالضبط، {الْمُسْتَقِيمِ}، الذي يوصف بأنه على الأحسن، الذي يعطي الوزن بالضبط بدون تلاعب وبدون غش، حيث إنَّ نفس الآلة والطريقة الدارجة والمتعارف عليها بين الناس يجب أن تستعملها من دون تغييرها عند البيع أو الشراء، ويجب استعمال آلة نصفها "بالقسطاس" لتكون دقيقة جدّاً حين نزن بها لتعطي الآخرين قسطهم، ما لهم بالضبط. لا تتلاعبوا بالميزان حيث تضع تسعة كيلوات على الميزان ولكنه مغشوش ليؤشّر أن الوزن عشرة وتعطيه للناس.

{ذَلِكَ}، الالتزام بالوزن والكيل الصحيحين، {خَيْرٌ}، فيه مصلحتكم ومنفعتكم، {وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}، لأن هذه أفضل طريقة لترجمة المعاملة بشكل صحيح، لمعرفة الوزن والكيل الصحيحين، حيث إن بعض الناس تبيع "شلفة، على النظر، بالتقدير"، وهذه الطريقة تصيب وتخطئ، وليست الطريقة الحسنة للتأويل، لأنك تريد معرفة الحجم أو الوزن بدقة، والكيل والميزان هما التطبيق الصحيح لمعرفة الوزن أو الحجم.

مثلاً نحن أمام قفص تفاح، وعادة هذا القفص يتّسع لخمسة كيلوات، نتأوّل الوزن، ونقول: وزن القفص خمسة كيلوات. وهذا التأويل تخميني غير معتمد على شيء ثابت كمرجع، ويمكن لشخص آخر أن يقول: هذا التفاح نوعيته إسفنجية، ولا يزن مثل التفاح المملوء بالماء، لذلك، أنا أرى أن هذا القفص وزنه أقل من خمسة كيلوات. هنا الآية تقول: المكيال والوزن الذي اتفق عليه الناس، هو من أفضل الطرق "للتأويل"، للترجمة العملية لمعرفة الحجم أو الوزن الصحيح، ولا يهم إذا كان الحجم بالغالون أو اللتر، أو بالباوند أو الكيلو، المهم هو استعمال ما اتفق عليه الناس في منطقتهم.

معلوم لك أنك إذا تراضيت مع بائع قفص التفاح، وقبلت بشراء القفص كما هو من دون أن تزنه، فالشراء صحيح، لأنه حصل برضاك ورضا البائع، وأنتما تعلمان أن الشراء لقفص تفاح، ليصير حجم القفص كوحدة مكيال لقياس الحجم. ما أريد قوله لك هو أن القرآن يؤكّد علينا التعامل بوحدات القياس، والابتعاد عن التقديرات، والحرص على أن يأخذ كل واحد قسطه، وراجع كلمة قسط في استعمال القرآن لتجدها تعني: ما له بالضبط.

(وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً {36})
تعقيباً على الآية السابقة، عندما تأوّل الوزن أو الحجم بالتقدير تاركاً التأويل باستعمال الآلات، قد تخطئ، ويترتب على خطئِكَ نتائج سيئة، ليدفع المشتري أكثر من اللازم، أو يأخذ البائع أقل من حقه، وانتبه، ولتكن قاعدةً عامةً في كل شيء، وإذا شاهدت أو سمعت أو شعرت بشيء، أو قمت بشيء:

فـ {لَا تَقْفُ}، ولا تقم بالقفو بالتعقيب بالكلام على شيء، قافيةً، {مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}، مثلاً يحصل أمامك شيء ومن بعده تقول كلاماً لست متأكداً من صحّته، وكمثال من سياق الآيات: ترى قفص تفاح وأنت لست خبيراً في تقدير الأوزان فتقدّر وزنه وعلى أساس تقديرك تضع سعراً له، قافيتك، وما قلته من بعد رؤيتك للقفص كان تقديراً عن جهل، لذلك لا تفعل ذلك واعتمد إتباعَ أي حدث بكلام عن علم. وكمثال آخر في تقدير سعر الأراضي والعقارات، وفي أمور الدين وفتاوى الشريعة، وفي نقل الأخبار والحوادث، في الشهادة على الاتفاقيات والعقود... لا تقف ما ليس لك به علم، وفكّر في كلامك وكن دقيقاً ولا تقل شيئاً على التخمين أو عن استهتار...

كلام الآية عموميٌّ شاملٌ يمنعنا من الكلام في أي موضوع لا علم لنا به، ويشمل ذلك الشهادة على الأحداث والقضايا، حيث ترى بعض الناس مستهترين يروون لك حدثاً ما مع خليط أوهام اخترعوه من خيالهم! وترى الكثيرين لا ينقلون الأحداث كما حصلت بل كما هم حلّلوها، وهذه مشكلة كبيرة خاصة في النزاعات والخلافات بين الناس، حيث ترى الشهود يتلاعبون بالوقائع لأنهم مستهترون بدقّة النقل...

{إِنَّ السَّمْعَ}، إن القدرة على إدراك وفهم معاني الأصوات، {وَالْبَصَرَ}، والقدرة على إدراك ووعي الصور، {وَالْفُؤَادَ}، وعيك الإدراكي عموماً ولما تسمعه وتراه وتلمسه وتشمّه وتذوقه... {كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً}، حيث سوف يتم توجيه الأسئلة لك بناءً على هذه القدرات التي فيك، حيث سيتم التعبير لك عن إرادةِ جواب منك عمّا قلته إن كان بناءً على ما سمعته وبصرته ووعيته. فإذا سمعتني أتكلم، وقفّيتَ وأتبعتَ ما سمعت مني فنقلت عن لساني شيئاً غير صحيح للآخرين، مع أنَّكَ لديك حاسة سمع سليمة، فسيسألك سبحانه عن ذلك.

لاحظ أن آيتنا هنا أعمّ بكثير مما هو مشهور ويقولونه عن الوصايا العشر المذكورة في التوراة، حيث هناك وصية تمنع شهادة الزور، وهنا في الآية منع عن القفو بما لا علم لنا به، وهذا أعمّ وأشمل من المنع عن قول الزور.

كلمة {تَقْفُ}، مثل كلمة قافية الشعر، كوصف لآخر حرف من البيت، حيث تقول الجملة الشعرية، وتقفو بعدها في الآخر حرفاً، وتُتْبِع كلامك الشعري بقافية، وهنا بعد أي حدث، وبعد أي كلام سمعته أو شيءٍ رأيته... لا تقم بتقفيته بشيء عن جهل، عن شكّ، عن وهم... لأنَّ لديك حواس "سمع وبصر مع فؤاد" كفيلة بتزويدك بالعلم، وإذا قفوت بجهل فستتحاسب على ذلك.

بعبارة أخرى، نحن سنتحاسب عندما نقوم بنقل ما حدث بشكل مخالف للواقع لأننا نملك السمع والبصر، وهما ليسا فينا مثل الكاميرا التي ترى وتسمع ولا تعي، لا، بل لدينا الفؤاد الذي يجعلنا نعي إدراكاً ما نراه ونسمعه، وعلى هذا الأساس سيطالبنا سبحانه إن لم نلتزم بقول ما علمناه وقلنا بدلاً منه شيئاً آخر...

مشكلة القفو بما لا علم لنا به هي نفسها حين تشهد على الحوادث، وحين تستنبط وتنقل الفتاوى الشرعية للآخرين، وحين تبحث في العقيدة... وكمثال واضح ما هو دارج قديماً وحديثاً بين الناس من كلام عن فوائد الفاكهة والخضار والمبالغة والكذب في ذلك، حتى جعلوا الفاكهة بديلاً عن الدواء... وصارت التفّاحة تعالج من عشرات الأمراض! لذلك لا تتحدّث عن احتمال وعن وهم وجهل، ولا نقلاً عن جهلة، ولا نقلاً عن الآخرين من دون دراسة... بل في كل المواضيع قل ما تأكّدتَ منه فقط.

إذا تحدثت أو جادلت أو كتبت عن الدين والشريعة والعلوم... فالتزم بما أنت متأكد منه، بشرط أن تكون فكّرت فيه جيداً، وكنتَ اتقنته... لذلك لا تصف دواءً لمريض وأنت لم تدرس الطب، ولا تُعطِ نصائح في الزراعة والماشية والعمارة... وأنت غير متخصص فيها ولا علم لك فيها... وهكذا الكثير من مجالات الحياة التي يجب أن نزن كلامنا قبل أن نقوله حتى لا نسبّب ضرراً لأنفسنا وللآخرين.

ضربت لك أمثلة متنوعة وأطلت الكلام لأننا جميعاً نقع في القفو بما ليس لنا به علم، وإذا درّبنا أنفسنا على الانتباه والالتزام بقول الصدق، وقول ما نظنه صحيحاً فقط، وتدربنا على ترك الكلام الفارغ، والتحدث فيما لا نعلم... فنحن كأفراد سنترقّى بالقيمة والاتزان والحكمة... والمجتمع سيترقّى مبتعداً عن التفاهة والسفاهة والخبل...

مشكلة القفو بما ليس لنا به علم لا يمكن تجنّبها إلا بالصدق في كل ما نفعله، وبدايتها الصدق مع أنفسنا في كل شيء وبدون أي استثناء، في أمور حياتنا العادية اليومية نكذب أو نبالغ أو نتلاعب بالكلام لوصف الأمور بعكس ما هي عليه... أو نتماشى مع كلام الذين نشرب معهم القهوة حين يقللون من قيمة الناس ويستغيبونهم ويروون قصصاً غير دقيقة عنهم... هذه الأمور التي تبدو تافهة هي التي تقولب سمعنا وبصرنا وفؤادنا لأنها تدريب، ومن كثرة تكراره سيتحكّم بنا، وننتقل إلى الكذب والمبالغة... في بقية الأمور، ونكذب أو نبالغ في الدين، أو نكذب أو نبالغ في السياسة والشهادة والتجارة والأعمال المطلوبة منّا...

سأطيل عليك بعد، لأن القرآن ركّز على القلب السليم كشرط أساسي للإيمان بما يقوله تعالى، لأنَّ الذي قلبه مريض لن يقبل بكلامه تعالى ولن يصير مؤمناً حقيقياً، وكرّر القرآن مراراً وبتعابير مختلفة كلامه عن الطبع والدمغ والعمى... للقلب والبصر والسمع... أوّل ما يجب عليّ فعله قبل التفكير ودراسة ما يقوله القرآن، عليّ بالعمل على تصفية فكري ومشاعري من الكذب والمبالغة والاستهتار... ومن قفو ما ليس لي به علم... في كل أمور حياتي، حتى في معاملتي مع طفل صغير يجب أن أكون صادقاً معه ودقيقاً ومهتماً بما أقوله له، فتصرّفٌ واحد مني، ومهما كان تافهاً، سيؤثّر على فكري ونفسيّتي، وبشكل أو بآخر سيمنعني من التماشي مع الكلام الإلهي الراقي، وصولاً في سوء الحالة ليجعل الكلام

الإلهي المبين مبهماً مشوّشاً، وآيتنا هنا درس عملي للتدرّب على سلامة القلب، وليست محصورة في الأمور الدينية على معنى التديّن الخاص بالفرد في شؤونه الخاصّة، إذ أصلاً الفقرة كلّها "من برّ الوالدين ومساعدة المحتاجين..." تحدّثت عن تصرفاتنا الفردية المؤثرة على المجتمع من حولنا وربطتها كلّها فقط وفقط مع شيء واحد عقائدي وهو توحيده تعالى، فلنتدرّب على السكوت في ما لا نعلمه، فلنفكّر عشرين مرّة قبل أن نقول شيئاً ما... وبعدها مع التدريب سنفكّر أقل ونصل إلى نتيجة أفضل، وبعدها نفكّر مرتين فقط... وبعدها يصل الإنسان إلى حيث وصلت النماذج الراقية التي مدحها القرآن، ويصل إلى الصدق التامّ، إلى مستوى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد... صلواته تعالى عليهم.

أتمنّى عليك التأمّل والتوسّع في هذا لترى في نفسك ما أنت عليه، فمارس الصدق وسترى أثره فوراً، حيث سترى أموراً كثيرة كانت خافية عنك... وسترى الفرق الهائل الشاسع بينك وبين النماذج الراقية، وهذا الفرق يمكن تقليله بترك القفو بما ليس لنا به علم.

أخيراً معلومٌ في كتب علم الاجتماع والقانون والنفس... أن رفاهية المجتمعات لا يمكن أن تحصل إلا بالالتزام فيما تقوله الآيات هنا، وبعض تلك الدراسات تختصر العناوين بعنوانين: المصداقية والوثوقية. والآيات هنا سمّت لنا أبرز المعاملات بيننا، وطرحت عناوين، كالوفاء بالعهد والنهي عن القفو بما ليس لنا به علم، وهكذا ترى الكلام هنا من نظرة أخرى غير التي شحنت بها نفسك، لأنَّ قراءة القرآن بالنسبة لنا هي قراءة كلامه تعالى، قراءة أوامر إلهية حقّة وحكيمة من عليم خبير... ولكن هذا فيه جفاف مخالف لكلام القرآن الذي نبّهنا لما فينا من قابلية لتمييز الخير من الشرّ، وأنه كلامه تعالى كلّه خير ومن المفروض أن نراه نحن هكذا. وبناء عليه، فما تقرؤونه هنا هو أبرز عناوين عملية ضامنة لسعادتنا في الدنيا، ومضافاً لذلك كجائزة إضافية، الالتزام بها عليه فوز بجنّة خالدة.

كلمة فؤاد بحسب استعمال العرب لها، ومن تقويم دقة الاستعمال القرآني لها، هي تشير لما تعيه مما تدركه، وهي الفكر الواعي لما يصلك، وبتعابيرنا الحالية وهو الوعي الإدراكي الناشئ عن الوعي للذات، وهو قابلية وعي النفس ووعي ما يصلك. وعادة تصلك المعلومات عبر الحواس، عبر عينك جلدك أنفك أذنك لسانك... ولديك قابلية وصول المعلومات مباشرة إلى فكرك بدون وسيلة الحواس، كالوحي مباشرة في الوعي، وحيث تصل تلك المعلومات إلى وعيك الإدراكي لها فهذه حالة الفؤاد.

خذ مثلاً عندما تتعرّض لشيء قوي جداً كخوف شديد أو فقد حبيب... عندها يطيش فكرك، ولا تعد تسمع ولا ترى ما حولك رغم عمل عينيك وأذنيك بشكل طبيعي، حيث حصل هذا مع أم النبي موسى (ع) حين ألقته (ع) في اليمّ كما ورد في الآية 10 من سورة القصص {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا}، أو عند تعرّضك لسؤال في موقف حرج، أو كما يحصل مع بعض الطلّاب عند تعرّضهم للامتحانات... وتطير المعلومات من رأسك في تلك اللحظات... والحالة التي تصيبك من تلك المواقف ونسميها "فراغاً ذهنياً" هي حالة فراغ الفؤاد بالتعبير العربي الذي تقوّم معناه بدقّة الاستعمال القرآني له، وعند استعادتك للانتباه لما تلتقطه حواسك، ففؤادك عاد للعمل.

(وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً{37})

{وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا}، لا تمشِ بحالة اللامبالاة وكأنك غير مهتمّ بأي شيء، والوصف هنا لحالة أنك مسيطر على كل أمورك، فاعرف حجمك لأنك في الحقيقة محدود في قدراتك، ومحدود في السيطرة على ما يجري معك وحولك، فإذا كنت تشعر بالعظمة بالقدرة والسيطرة، وتشعر بالتكبّر والزهو والافتخار فانتبه أنَّكَ، {لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ}، فلن تنزل قدماك في الأرض نزولاً، ولن يمتدّ طولك نزولاً، {وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا}، ولن يمتدّ ارتفاعك ليصير أعلى من الجبل.

إذا كنت تشعر بأنك كبير بهيئتك أو ثيابك أو أملاكك أو بسلطتك... فشعورك غير صحيح، فانتبه لحجمك وخذ حجمك الطبيعي كإنسان.

عادةً نحن نميل إلى تنبيه المتكبر والمزهو والمفتخر... بالانتباه إلى قصر قامته مع مقايستها بما هو أطول منها، ولكن الآية ذكرت كلا الجانبين، فمن تحته لن يمتد طوله مخترقاً الأرض، ومن فوقه لن يمتد طوله ليعلو على الجبال. وهناك

تعابير مختلفةٌ نستعملها اليوم، مثلاً: شايف حالك، وما حدا قدّك، راسك مش حاملك... وهي تعابير تدل على أنك ترى نفسك مسيطراً على كل أمورك، وقدرتك عظيمة...

ينتج عن هذا المرح، عن حالة اللامبالاة مع الاطمئنان بالسيطرة على الأمور: التكبر واستصغار الناس، الافتخار واحتقار الناس، الزهو والشماتة بمصائب الناس، توجيه الانتقادات الجارحة للناس، ترك التزام أدب الكلام مع الناس... وينتج عن ذلك ترك الالتزام بأوامره تعالى، والمناقشة فيها...

ننتبه، فالآية لا تأمرك أن تكون حزيناً كل الوقت، والآية لا تنهى عن الفرح والمرح، ولكنها بالتحديد تنهى عن المرح مع الشعور بالعظمة بحيث تنسى حدودك كعبد وترى نفسك مسيطراً على الأمور وأكبر أو أعلى أو أفضل... من الآخرين.

كما ترى فالسورة تكمل مع التنبيهات على تصرفاتنا الفردية المؤثّرة على المجتمع، ففي قوانيننا المدنية نجد حماية لجسدنا من اعتداءات الآخرين، فمن آذاك يمكنك الشكوى عليه وينال عقابه الذي نصّ عليه القانون، ومن شتمك يمكنك الشكاية عليه أيضاً... وأمّا الدين الإلهي فيذهب بنا إلى ما هو أعمق من ذلك، فيحرّم علينا نظرة الازدراء للآخرين، ويحرّم مشية التكبّر والزهو... على الآخرين، ويحرّم كلام التبجح والفخر على الآخرين...

(كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً{38})
{كُلُّ ذَلِكَ}، الذي ذكرته الآيات بداية من الأمر بتوحيده تعالى ومن بعده سلسلة طويلة من التنبيه على التصرفات الفردية المؤثرة على المجتمع، {كَانَ سَيِّئُهُ}، كان السيئَ الناتج عنه، كالشرك به تعالى وعقوق الوالدين وترك مساعدة المحتاجين... كان، {عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا}، كان عند المسؤول عنك من مستوى إلهي غير محبوب.

صحيح أنه سبحانه يكره "الشخص" المشرك والكافر، ويكره "الشخص" الذي يؤذي والديه، ويكره "الشخص" الذي لا يساعد المحتاجين... ولكن هنا الآية تقول: ربك يكره الشيء السيئ الناتج عن الكفر، ويكره "ما ينتج من سوء" من أذية الوالدين، ويكره "ما ينتج من سوء" من القول بلا علم...

عندما تخالف ما يأمرك به سبحانه من الاعتناء بوالديك، وينتج عن ذلك شيءٌ سيئٌ، حيث يعاني والداك من الجوع والوسخ والمرض والألم والأذية النفسية... فسبحانه يكره هذه النتيجة، كما يكره تركك لهم وأذيتك لهم.

بعبارة أخرى: سبحانه يقول لنا أوامره، حتى نطبّقها، وحتى لا تحصل تلك الأشياء السيئة التي يكرهها ربنا سبحانه.

ننتبه جيداً، حيث سبحانه يخبرنا بأنه هو شخصياً يكره الأشياء السيئة، ويخبرنا بأنه يرى مخالفة هذه الأوامر ينتج عنها أشياء سيئة بنظره تعالى، وفي القرآن مبدأ أساسي يعتمد عليه دائماً، إذ إنَّ الشيء السيئ لا يتغيّر وصفه، ويبقى سيئاً مهما كانت الظروف، حتى قتل الأعداء يبقى وصفه سيئاً لأنه قتل، ولكن لن يعاقبنا تعالى عليه لأنهم أعداء يريدون قتلنا... وسبحانه لا يأمر بالسوء أبداً، ومن يقول إنَّهُ تعالى إذا أمر بالسوء فإن ما هو سيئٌ سيتغيّر ويصير حسناً، فهذا حتى تفهم فكره ونفسيته يمكنك مراجعة ما قلناه مطولاً تحت الآية ما قبل السابقة، لأنَّهُ من الذين يقفون ما ليس لهم به علم.

في كلام الآية هنا عمق حُسْنٍ وقُبْحٍ اللذين بحثوا فيهما في الكتب، وملخص كلام القرآن وضوح ثبات قيمة معنوية للأمور، فالسيئ دائماً سيئٌ ولا يتغيّر توصيفه، والخير يبقى دائماً خيراً ولا يتغيّر توصيفه، وما يحصل من خلاف في التوصيف بيننا فسببه فساد في قلوبنا أدّى إلى فساد قدرتنا على تمييز الخير من الشرّ، وأدّى إلى فساد حكمتنا وما عدنا نرى الأمور بصوابية، وهنا يأتي دور كتابه تعالى المقوّم لنا الأمور لنقوّم نظرتنا لها.

بالأساس تصنيف الأمور من خير وشرّ، يستند إلى صفاته الفائقة سبحانه، حيث صفاته تعالى التي نتج عنها خلق كل شيء، هي المعيار والمرجعية لتوصيف الأمور خيراً أو شرّاً، فسبحانه حي قيوم عزيز غني قدير... مما يعني أنه تعالى حكيم لأنه لا سبب لديه لفعل السوء، وبالتالي هو رحمانٌ ورؤوفٌ وغفورٌ وحليمٌ... لأنه لا سبب لديه حتى يستعجل أو يجمد على موقف صلب أو...

سبحانه خلقنا جاعلاً فينا قدرة على تمييز الخير من الشرّ، وهذه القدرة تراها مفعّلة وسليمة في الأنبياء، وبدرجات أقل في الآخرين... وصولاً إلى حالتنا نحن حيث تلتبس علينا الأمور لأن تصرفاتنا وقراراتنا من أول وعينا على الحياة، قولبت قلوبنا وأفسدت فيها... ويصل الفساد في بعضنا لدرجة رؤية الخير شرّاً وبالعكس!

أيُّ دراسة أو نقاش أو ... حول حسن وسوء الأمور، وحول الخير والشرّ... فانتبه للخائضين فيه ما هو مستوى سلامة قلوبهم حتى تنطّحوا للبحث في مسألة لن ترى فيها الحقّ إلا إن كنت من المحافظين بدرجة مقبولة على سلامة قلبك.

بعدها ترى قيمة كتاب من الإله لتقوّم عليه أفكارك، وحتى هذه فيها مشكلة إذ لن نستطيع فهم كلامه تعالى بالحقّ وسنفسّره بالسوء المتماشي مع درجة سوء قلوبنا، فالبداية مع السوء الذي نعرفه سيئاً، حتى لو كان تافهاً، فنتركه، وبعد التمرّس على ذلك سنتمكّن من رؤية سوء آخر لم نكن نراه سوءاً من قبل، فنتركه... ونترقّى... إلى أن نصل إلى قلب استعاد قبوله للحقّ، ومن هنا يمكننا رؤية السوء في الأمور حتى لو كنّا نفعلها، وحتى لو لم نتب منها، فأول وأهم مرحلة هي رؤية السوء وتمييزه والاعتراف بوصفه سوءاً حتى لو كنّا نفعله، وحتى لو كنّا مبدئياً لا ننوي تركه، فطالما اعترفنا بسوئه فهناك أمل بالتوبة منه، وأمّا غير ذلك فلا أمل بأي شيء، والحالة تصير نفاقاً وفسقاً.

(ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً{39})
{ذَلِكَ}، الذي ذكرناه لك مما يجب عليك فعله ومما يجب تركه، {مِمَّا}، من الذي، {أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ}، حيث تم نقله إليك عبر الملائكة(ع) من المسؤول عنك من مستوى إلهيّ، {مِنَ الْحِكْمَةِ}، من الصوابية في الأمور، فهي ليست عبثية أو من دون دراية وعلم، لا، بل صدرت عن ربنا الحكيم...

كما بدأت هذه الفقرة بالقضيّة المركزية الأساسية، هنا يعود التركيز على القضية المركزية الأساسية: توحيد الإله سبحانه. وكل ما سبق ذكره من تصرفات فردية مؤثّرة على المجتمع، لا يمكن ولا بأي شكل الالتزام بها كلّها إلا لمن آمن به تعالى إلهاً واحداً أحداً، لأنه سيؤمن بالآخرة ويتّقي... وإن التزم بأكثرها ولم يوحّده تعالى فلا أجر له عليها منه تعالى.

{وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ}، فلا تعتقد أو تتصرف على أساس أنه يوجد كائن لديه صفات وقدرات فائقة غير صاحب الاسم المحدّد المميّز الله عزّ وجلّ، فإذا جعلت معه تعالى إلهاً آخرَ، {فَتُلْقَى}، حيث يتم إلقاؤكَ رميك، {فِي جَهَنَّمَ}، في المكان الذي كلّ ما فيه سيئٌ جداً، في المكان المتأجج بالنيران وفي التعذيب... {مَلُومًا}، لأنك ارتكبت خطأً ليس من المفروض أن يصدر منك أنت بالذات، وتكون في جهنم، {مَدْحُورًا}، مبعداً عن رحمته تعالى ومرمياً فيها مع الإهانة وبلا اهتمام بما يحصل معك من عذاب.

هنا في الدنيا تذهب إلى السجن بسبب جرم ارتكبته، ولكن يُحتمل أن يصدر عفو عنك، أو يتدخل أحد ما لتخفيف العقوبة... أو تموت، أمّا من أشرك بالله تعالى، فيتم رميه في جهنم مدحوراً فلا يفكر أحد في التخفيف عنه، ولن يغيّر سبحانه قراره فيه، ولن يخفف عنه العذاب، وسيخلد في جهنم وهو يتعذّب جسدياً ونفسياً.

الوحي هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خيراً أم شرّاً، وبناءً عليه فكل أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وحياً لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، حيث ترى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}، وحتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...}.

ينطبق فعل الوحي على أي كائن كان "إنساناً حيواناً ملكاً أو جنّاً" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم، وطرق فعل الوحي أنواعه متعددة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}. ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}، وما ورد في الآيتين 193 و 194 من سورة الشعراء {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ}. أو الوحي بالمنام...

كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ...}، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل كما هو مشهور في تراثنا الديني. أو الوحي عبر إصداره تعالى صوتاً في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، مضافاً لها الآية 13 من سورة طه {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}، فكلامه تعالى معه(ع) وحي لأن الكلام ليس صادراً مباشرة منه تعالى فهذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، فيصير وصف الحالة أن كلامي يصلك وحياً.

هناك وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} ففي النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

الوحي يصدق على وحي الخير والشر، حيث إنَّ الشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا...} ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... فالوسوسة في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيراً أو شرّاً فهو وحي.

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً{40})
نموذجٌ سخيفٌ جداً من الشرك به تعالى:

{أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ}، هل اختار لكم المسؤول عنكم من مستوى إلهيٍّ شيئاً مميزاً، {بِالْبَنِينَ}، بالأولاد الذكور! أولئك الذين يفضّلون أن يكون أولادهم بنينَ "ذكوراً" ولا يحبون أن يكون أولادهم بناتٍ، وهم يعتقدون بأن الذكور أفضل، وهل تعتقدون أنه تعالى اختار ما ترونه مميزاً فأعطاكم صبياناً، {وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا}؟! وتكملة الجملة تعرفها لوحدك: وهل خلق سبحانه الملائكة (ع) إناثاً كبناتٍ له؟

{إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا}، ما تقولونه عن خلقه تعالى للملائكة (ع) إناثاً واعتبارهم بناتٍ له، فهو ليس قولاً عادياً يمكن المرور عنه وإهماله.

الآية تنبهنا إلى سخافة تفكير هذه نوعية من الناس المشركةِ به تعالى، فهم يحبّون أن يكون أولادهم من الذكور، ولكنهم في نفس الوقت قالوا: الملائكة بناتٌ لله سبحانه وتعالى عن ذلك.

تقول لهم الآية: الله تعالى أساساً ليس عنده أولاد، فالملائكة (ع) ليسوا أولاده، وليسوا إناثاً أصلاً، والله تعالى لا يفرّق بين الذكر والأنثى، فكلاهما عنده بنفس القيمة، والاختلاف يكون بمدى إيمانهم والتزامهم بطاعته تعالى، فلو كان تفضيلكم للذكور على الإناث صحيحاً وله معنى وقيمة، فما معنى أن يعطيكم ربكم الصبيان، ويكون عنده أولاد من البنات فقط يا سخفاء! فلو كان للصبيان قيمة أعلى من البنات، ألم يكن "وبحسب تفكيركم السخيف" ألم يكن من الأفضل أن يخلق سبحانه الملائكة (ع) ذكوراً ويجعلهم أولاده!

وننتبه، إذ إنَّ أصلاً الملائكة (ع) ليسوا من الذكور ولا من الإناث، حيث إنهم مخلوقاتٌ لا تتكاثر، ولا تتزوج. ولكن كلمة ملائكة مؤنثة لفظاً، حيث نقول بالمؤنث: هذه الشمس. وبالمذكر: هذا القمر. ومعلوم أن الشمس ليست بنتاً أنثى، ولا القمر صبيّاً ذكراً، بل اللفظة صوتها باللغة العربية يناسب التأنيث أو التذكير، وفي لغات عديدة أخرى غير العربية يوجد تذكير وتأنيث لفظي ومجازي، وكلمة ملائكة مؤنثٌ لفظيٌّ ولا يشير إلى أنوثة حقيقية، فطبيعتهم مختلفة عنّا وليسوا ذكوراً ولا إناثاً.

وننتبه أكثر، من يفهم من آيات القرآن التي تتحدّث عن الذكور والإناث، ومن بشكل أو بآخر يفهم منها تفضيله تعالى الذكور على الإناث، حيث إنَّ هذا الشخص عنده مشكلة تفضيل الذكور على الإناث، وينعكس ذلك على فهمه للقرآن، نعم، إذ إنَّ القرآن كلّه من أوّله لآخره لم يفضّل الذكور على الإناث كما يتصوّر "العنصريون الذكوريون"، بل أعطى دوراً للرجل فيه اختلاف عن دور المرأة في الحياة بسبب الاختلاف الجسدي والنفسي... بينهما، وأنَّ الأنوثة بما تحمله من معنى اللطافة والرقّة والحنان... ليست عيباً بل كمالاً للمرأة، والرجولة بما تحمله من معنى القوّة والحزم والعزم

واقتحام المخاطر... ليست صفات جيدةً إذا كان كلّ أفراد المجتمع موصوفين بها فخلا المجتمع من الأنوثة، وبحسب تصميمه تعالى لنا بهذا الشكل نتج فروق في التكاليف والتشريعات التي وجّهها تعالى لنا، حيث أسقط الجهاد بالنفس على المرأة وأوجبه على الرجل، وأوجب المهر والنفقة على الرجل وبشكل عامّ أسقطه عن المرأة... فمن هو في مشاعره يفضّل أن يكون له أولاد ذكورٌ، ويكره أن يكون لديه أولاد إناثٌ فلينتبه لنفسه، إذ آخرته في خطر، وحسابه عسيرٌ، وسخر القرآن من الذين يفضّلون الذكور "ككائن" على الإناث، إذ فضّلهم سبحانه على بعض بالتقوى، وراجع في ذلك العديد من الآيات منها ما ورد في الآية 195 من سورة آل عمران {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ}.

وتلاحظ اختيار السورة لنموذج من المشركين الذين قالوا أنَّ الملائكة بناتٌ له تعالى وآلهةٌ، إذ إنَّ هؤلاء يظنون أنفسهم أرقى فكرياً ممن عبد الحجر "التمثال" أو الكوكب... ويظن نفسه أرقى منهم فكرياً من جعل له تعالى أولاداً بناتٍ وذكوراً، فيأتي المثل هنا ليبين بوضوح السخافة، ومن فيه عقل لم يفسد سيفهم، وهذا ما ستقوله الآية التالية:

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً{41})

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا}، حوّلنا نشرنا ووزّعنا، واخترنا أشياء مهمة وجعلناها، {فِي هَذَا الْقُرْآنِ}، في هذا الشيء الذي يمكنكم قراءته، {لِيَذَّكَّرُوا}، ليتذكروا ليستحضروا في فكرهم وقولهم وسلوكهم، حيث إنَّ الآية السابقة نبهت على سخافة تفكير المشركين الذين قالوا إنَّ الملائكة بناتٌ لله تعالى، وهذا التنبيه هو من الأشياء التي صرّفها سبحانه في القرآن وذكرها هنا وفي سور أخرى، ولكنه سبحانه لم يترك شيئاً له علاقة بالعقيدة والإيمان من دون أن يصرّفه في القرآن، وذكره في مكانه المناسب، حتى يستحضر المشركون في فكرهم سخافة شركهم به تعالى، وكمثال بارز عن ذلك قول بعضهم إنَّ الملائكة (ع) بناتٌ لله تعالى.

لكن، ورغم ما ذكّر القرآن به الناس من توحيده تعالى وإظهار سخافة معتقداتهم المعارضة لكلامه تعالى، {وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا}! وبدل أن يقتربوا من الإيمان فإنهم ينفرون منه ويبتعدون عنه متوجّهين نحو شيء آخر! وعندما يسمعون ما في القرآن، وهي أمور مقنعة واضحة جلية بأنها صحيحة، ينفرون منه لأنهم لا يريدون سماعه ولا الالتزام به، لأنهم متعلقون بأفكارهم السخيفة، وكنموذج واضح جداً من تلك الأفكار قولهم عن الملائكة(ع) إنهم إناثٌ وبناتٌ له تعالى.

(قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً{42})

أيها النبي(ع) قل عبر هذا القرآن للجميع: لو كان معه آلهة، لو كان كلام المشركين صحيحاً ويوجد فعلاً كائنات فيها قدرات وصفات فائقة فوق المخلوقات غيره تعالى، {إِذًا لَابْتَغَوْا}، لطلبوا وسَعَوْا لتلك الآلهة، {إِلَى ذِي الْعَرْشِ}، إلى الموصوف بنسبة العرش له، إلى صاحب مكانة السلطة والحاكمية والسيطرة المركزية، {سَبِيلًا}، مَسْلَكاً، فنازعوا من يملك الملك والسيطرة، وعارضوه وفعلوا شيئاً يُرِيدُونَهُ هم، أو قَيَّدُوا حُرِّيَّتَهُ أو قاتلوه... وحاولوا السيطرة على العرش.

ما معنى أن يكونوا آلهة وهم لا يتمتعون بأي سلطة تنفيذية إلهية؟ لو كانوا فعلاً آلهة لكان لديهم سلطة ما ولو على شيء واحد، وإلا فما معنى إله بلا سلطة! وبلا أثر فعلي! لأنه لم يقم بأي شيء! كيف تَعَرَّفُوا عليه وجعلوه إلهاً! والآية 22 من سورة الأنبياء تَحَدَّثَتْ عن حصول فساد في الدنيا لو كان يوجد إلهان أو أكثر {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}، لأن الإله حتى يكون إلهاً حقيقياً وموجوداً فعلاً وموصوفاً بالألوهية، أي موصوفاً بالقدرات والصفات الفائقة، فيجب أن يكون هو المسيطر ولو في مسألة ما، ولا معنى لإلهين مسيطرين إن كان كلاهما في نفس الوقت سَيُدِيرانِ كل ما في الدنيا، فستتكرّر الأشياء وتتعارض...

انتبه للآية هنا أنها لم تتحدّث عن الفساد بسبب تعدّد الآلهة، وركّزت على التنازع على السلطة، ما تقصده الآية هنا: إذا قلتم عن غير الله تعالى أنّه إله، فما معنى ألوهية آلهتكم إن لم تكن تفعل أي شيء؟ وما معنى ألوهيتها إن لم تكن مسيطرة لفعل ما تشاء؟ وما معنى ألوهيتها إن كانت تحت إله يسيطر على العرش؟ وعرش الله تعالى هو كل الدنيا، فما معنى ألوهية تلك الآلهة التي تقولون عنها إن لم تكن لها أي سيطرة ولا أي سلطة على إصدار أي قرار؟

بالنسبة لكلمة {عَرْش}، فالعرش الذي نعرفه نحن هو الكرسي الفخم الضخم الموضوع على منصّة ويجلس عليه الملك أو الحاكم، وأصلاً كلمة عرش وصف لعموم ما علا ويقابلها فرش، وعرشه سبحانه تعبير عن الإدارة المركزية من مستوى ربوبيّ، تعبير عن مركزية السيطرة والقرار لكل ما في الدنيا "والآخرة"، وبما أن سيطرته تعالى ممتدة على كل الدنيا "والآخرة" فعرشه سبحانه ممتدّ بامتداد الدنيا "والآخرة"، على كل ما في الدنيا والآخرة كما هو واضح من تعبير الآية 255 من سورة البقرة {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}.

لدينا تراث ديني ثقافي يشير البعض منه إلى وجود شيء محدّد كعرش له سبحانه، كشيء مشابه بشكل ما لمكان تتم فيه إدارة شؤون الدنيا، واستندوا على ذلك قرآنياً بالآية 17 من سورة الحاقة {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، وكلامهم خليط من تصوّرات مختلفة، بعضها سببه استعمال لغتنا لتوصيف أمور لا يمكننا نحن البشر تصوّرها، وبالتالي الكلمات التي نستعملها لذلك تنقل نفس المعنى ولكن لأمور مختلفة، فهناك ملك صلب لا يهتز وإدارة إلهية مركزية لما في الدنيا، ولكنه سبحانه واسع محيط، وهناك ملائكة بقدرات عالية خلقها سبحانه ووظّفها لإدارة بعض شؤون ما في الدنيا، وأشهرها وضوحاً من القرآن ملك الموت، وهذه موصوفة "بلغتنا" بأنها حاملة للعرش، الكلام القرآني الذي يشير لقوّة الملك ولنواة الحكم والسيطرة لا يشير إلى مكان، ولا إلى شيء، بل إلى حالة، وهذا واضح جداً من تعبير الآية 255 من سورة البقرة بوصفها وساعة الكرسي بوساعة السماوات والأرض.

من السذاجة تصوّره تعالى جالساً على كرسي على منصّة وثمانية ملائكة يحملون المنصّة، ضاربين بعرض الحائط كلامه سبحانه عن نفسه بأنه واسع محيط وليس كمثله شيء فلا يمكن لأي مخلوق تصوّره...

الوصف القرآني لملائكة حافِّينَ حول العرش أو حاملين له هو وصف حالة وليس وصف مكان.

بعبارة أخرى، كل السماوات... وهذه الأرض التي نحن عليها، هي كل ما في دنيا المخلوقات، خلقها كلّها ربنا الله سبحانه، ويخبرنا سبحانه أنه هو بنفسه ولوحده رَكَّبَها وألّفها في ست فترات زمنية، وبعد اكتمالها، لم يتركها سبحانه لغيره ليديرها، بل {اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ} كل شيء صار بالتمام فانبسطت سلطته عليها كلها، ومن دون تهديد من أحد بالقدرة على التدخل.

على الاسمية لكلمة عرش كاسم لشيء، كل السماوات والأرض "كرسيه" عرشه تعالى، وعلى الوصفية للملك القوي والسيطرة والإدارة المركزية والتي بلغتنا البشرية نستعمل لها وصف العرش، سبحانه حالته أن عرش السماوات والأرض منسوب له، {ذُو الْعَرْشِ}، واستوى على العرش، وهناك ملائكة موظفون منه تعالى بتنفيذ مهمات "رئيسية" فيكون وصف حالتهم كحاملين للعرش وحافّين حول العرش.

نسبة العرش لربنا سبحانه ليست مثل نسبة العرش للملوك والرؤساء، بل السماوات والأرض كلها عرش ربنا سبحانه، فتصدر أوامر الملك الخالق من كل نقطة من دنيا المخلوقات، وسيطرته منبسطة على كل نقطة فيها.

لو كان فعلاً هناك آلهة أخرى، فكيف يتركون الله سبحانه يسيطر على كل شيء؟ إذن لكانوا بحثوا عن سبيل، عن طريقة ليصلوا إليه تعالى لينتزعوا منه السيطرة ولو على نقطة ما في السماوات والأرض ولو في مسألة ما. وإن لم يحصل ذلك فما معنى قول المشركين عنها أنها آلهة؟ وماذا فعلت حتى توصف بالألوهية.

كما ترى، الكلام السخيف عن وجود آلهة غيره تعالى، يردّ عليه سبحانه من وجهة نظره هو سبحانه، فهو الله سبحانه مسيطر على كل شيء، وهؤلاء الناس السخفاء يقولون بأنه يوجد الكثير من الآلهة، ولكن لو كان هذا الكلام صحيحاً، فكيف يَكُونُونَ آلهة وهم تحت سيطرة الله سبحانه الذي يرى نفسه المسيطر بشكل مطلق على العرش؟ يعني، هذا كلام صادر عن الله تعالى كما يرى هو تعالى الأمور، وليكن هذا نموذجاً لك عن عموم كلام القرآن من وجهة نظره تعالى، وسترى الفرق الهائل بين كلام هذا القرآن الصادر من وجهة نظره تعالى للأمور وبين أي كلام ألّفه الناس ونسبوه له تعالى، وستختفي عندك فكرة وجود ولو احتمال ضئيل لقيام أحد ما من المخلوقات بتأليف هذا القرآن.

إذن هكذا فقط تقولون عنها آلهة، وهي لا قدرة لها على فعل أي شيء؟ وأصلاً لم تلمسوا أثراً لفعلها لأي شيء، فما هذه السخافة!

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً{43})
{سُبْحَانَهُ}، تَنَزَّهَ عن أقوالكم وتفكيركم فيه، فوجود شركاء في الألوهية له تعالى يعني وجود نقص في قدراته وصفاته لدرجة وجود آخرين مماثلين له وليسوا تحته، وهو منزّه عن قولكم عنه أنَّ لديه بنات...

{وَتَعَالَىٰ}، هو أعلى في صفاته وقدراته وكل البقية منخفضون بالنسبة له، وبالتالي مقامه ومكانته أعلى، {عَمَّا يَقُولُونَ}، عن الذي يقوله هؤلاء المشركون.

تعالى ربنا عن قولهم، {عُلُوًّا كَبِيرًا}، الفارق بين حقيقة ربنا العظيمة جداً جداً، وبين التصوّر الذي في عقل هؤلاء المشركين عنه تعالى، الفارق كبير جداً جداً.

تَذَكَّرْ دائماً أننا نجد في عموم سياق كلام القرآن عن تسبيحه تعالى، نَجِدُ الكلام يشير إلى تعارض حقيقته تعالى مع وجود آلهة أخرى، فمن وجهة نظره تعالى وهو أعلم بنفسه منّا، يُخْبِرُنا أن طبيعته بصفاته وقدراته لا يمكن أن تكون كما هي عليه لو كان هناك آلهة أخرى. بعبارات فيها تسامح وتبسيط في التعبير: هو سبحانه يعلم طبيعته ويخبرنا أن طبيعته وتكوينه لا يتحمّل أن يكون هناك كائن آخر مثله أو قريب منه، حَتْماً هو واحد أحد، والبقية مخلوقاته. هذا ما نفهمه من وصفه تعالى بالسبّوح، سبحانه تَنَزَّهَ عن وجود صفات ناقصة أو معيبة أو سيئة فيه، لأن وجود آلهة أخرى يعني أنه ناقص غير متميّز وعادي مثله مثل غيره، ومن بهذه الصفات فلن يكون إلهاً حقيقياً...

لو كَرَّرْتُ لك، حين يسبّح سبحانه نفسه نافياً وجود إله غيره، تفهم منه ومن عموم كلام القرآن أنه تعالى وبالنظر إلى نفسه يخبرنا بكل شفافية أن ما يراه ويعلمه عن نفسه من صفات ذاتية، يستحيل أن يتواجد كائنان بنفس تلك الصفات. من ناحية ثانية أخرى مختلفة وداعمة لهذه المعلومة، يخبرنا سبحانه وبكل شفافية أنه لم يلمس ولا بأي شكل ولا أيَّ أثر لكائن آخر غير الذين هو سبحانه خلقهم، حيث يرى تعالى نفسه من جهة، والمخلوقات التي خلقها هو سبحانه، ولا أثر لأي شيء آخر، وبالتالي لا إله غيره تعالى، والبقية كلهم مخلوقاته.

(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً{44})
هؤلاء المشركون قالوا أشياء غير صحيحة عنه سبحانه، حيث قالوا بأنه ليس لوحده الإله، أجابتهم الآيات السابقة، وبيّنت سخافة تفكيرهم، هنا تخبرنا الآية عن تكملة لتسبيحه تعالى:

{تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ}، وهذه هي كلّ دنيا المخلوقات، ومن تكملة الجملة حين تقول لنا أننا {لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} تعلم أن كلامها موجّه لمن لا يُسَبِّحُهُ تعالى، تخبره أن بقية الموجودات كلها وبكل أنواعها، من حجر ورمل وماء... من كواكب... وما في بقية السماوات من كائنات ذات وعي... كلها تُسَبِّحُ تُنَزِّهُ ربنا سبحانه، هنا الكلام عن أنها لا تجعل معه تعالى شريكاً في الألوهية، فما بالك أيها المشرك شاذّاً ولا تسبّحه تعالى؟

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائماً أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، لذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر أرضٌ بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراض.

عادةً نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير ونستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، نقول: خلق سبحانه الدنيا. أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيراً صحيحاً دقيقاً بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة

النجم {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى}. سبحانه دقيق في تعابيره ويحدّثنا بدقةٍ عمّا يعلمه، وكلامه تعالى عن السماوات والأرض هو كلام عن علم بما أمامه سبحانه، سبحانه دائماً يتكلم بشفافية عمّا أمامه فقط، أمّا الكلام عن كلّ ما في الدنيا، فهو كلام عمومي ويشمل "نظرياً" ما هو خارج العلم، لذلك لم يستعمله تعالى، بينما ترى استعماله في كلام عموم البشر لأننا نتساهل ونتراخى في التعبير.

نرجع للآية، ويسبّح له تعالى، {وَمَن فِيهِنَّ}، من في السماوات والأرض، من مخلوقات عاقلة غير الإنس والجن، كالملائكة (ع) وبقية التركيبات التي نعرفها من عالمنا "كالنبات والحجر..." والتي لها وعي بعيد عن قدرتنا على التعامل معه مباشرةً، وستذكره تكملة الجملة:

{وَإِن مِّن شَيْءٍ}، فكل شيء بدون استثناء، {إِلَّا يُسَبِّحُ}، فَيُنَزِّهُهُ تعالى عن الصفات الناقصة والسيئة والمعيبة، {بِحَمْدِهِ}، فَيَعْلَمُ ويؤمن بأن كل الأشياء الحميدة الجيدة هي منه سبحانه، فالتسبيح بالحمد يعني تنزيهه تعالى عن أي عمل سيّء، فَيُعَبِّرُ عن أنه تعالى لا يقوم بعمل سيّء. بعد أن جمعت الآية بكلامها كل الموجودات، هنا تشير إلى الظواهر معهم، شملت البرق والرعد والمطر والكواكب والحيوانات والنباتات... هذه الظواهر والأشياء أيضاً تسبّح بحمده تعالى، وتقرأ ذلك في الآية 13 من سورة الرعد {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ}.

{وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}، حتى لو فكّرتم فيه فلن تفهموا ولن يدخل إلى قناعتكم تسبيحهم، حيث لا يوجد طريقة تجعلكم تقتنعون بأنهم بطريقتهم الخاصّة يسبّحون، حتى لو سمعت أو رأيت شيئاً وهو في الحقيقة تسبيحهم، ولكنه نهائياً لن يدخل إلى قناعتك أن هذا الفعل تسبيح، فلن تفهمه ولا بأي طريقة.

{إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا}، بتعبيرنا الدارج: طويل البال. فلا يمكن استفزازه عبر مخالفة أوامره، وسياق الكلام هنا أنه تعالى لا يغضب بسرعة على الذين لا يسبّحونه، ولا يغضب بسرعة على الذين ينسبون له صفات ناقصة، بل يعطيهم فرصة ليتراجعوا عن شركهم.

إنه كان {غَفُورًا}، فيتجاوز عن كفر الذي كان لا ينزّهه إذا تغير وآمن، فلا يثبت ولا يجمد سبحانه على موقف صلب بحكم العقاب لمن أشرك به، بل باب المغفرة مفتوح طالما نحن أحياء في الدنيا.

نلاحظ الآية تتحدّث معنا كلنا بعد أن تحدّثت الآيات السابقة عن ومع المشركين، فهي لم تذكرنا نحن ضمن الذين يسبّحون، بل تخبرنا عن بقيّة المخلوقات والظواهر، كلّها بدون أي استثناء تسبّح، إلا البشر والجنّ، بعضهم مؤمن يسبّح والبعض الآخر لا يسبّح.

لو كرّرت لك، فالآية تتحدّث مع المؤمن ومع المشرك، وتخبرهم أن بعضهم يسبّحون وبعضهم لا يسبّحون، فخذوا علماً أن كل بقية ما في السماوات والأرض يسبّحونه تعالى، وإن لم تسبّحوه تعالى فأنتم الشواذ.

ننتبه، نحن نصنف المخلوقات من حولنا، نقول: مخلوقات عاقلة، كالإنسان والملائكة والجن، ومخلوقات بغريزة كالحشرات والحيوانات. ونقول جمادات غير عاقلة، كالحجر والشجر... ولكن هذا تصنيفنا نحن، وليس تصنيف ربنا سبحانه. تؤكد لنا الآية بأن تصنيفنا صحيح من وجهة نظرنا نحن، بحسب قدرتنا نحن على التواصل والفهم، فإننا نرى الحجارة لا تفعل شيئاً، ولا تتحرك لوحدها، ولا تقوم بأي عمل أو إنتاج... نراها جامدة بلا وعي وبلا أي إدراك أو شعور. أمّا ربنا سبحانه الذي خلقها، فهو يخبرنا بأنها تسبّحه، ولكن نحن لن نفقه فلن نفهم ولن ندرك كيف تسبّحه.

ننتبه جيداً، طالما أنَّ الآية تقول: لن نفقه لن نفهم تسبيحهم، فما معنى كلام الذين يحاولون أن يشرحوا لنا كيف تسبح تلك المخلوقات؟! يقولون بأنها تسبّح بلسان حالها، أو بوجودها، أو تسبّح بكيانها، أو أنها من ينظر إليها نظرة إيمان فهو سيسبّح ربّه لأنه سيرى أن الذي خلقها عظيم، وبالتالي هي سبب التسبيح... أو أن لها لغة خاصة لا نفهمها، أو أن سباحة الكواكب في فلكها هو تسبيح، أو أنها لا تسبّح ولكنه تعبير مجازي!... كل هذا الكلام لا علاقة له بما تقوله لنا الآية، لأنها صراحة تقول بأننا لا نفقه تسبيحهم، فكيف يُحَاوِلُونَ أن يشرحوا لنا تسبيحها! وعندما أخبرتنا الآية بأن هذه الأشياء والظواهر تسبّح، فهذا فقط خبر منه سبحانه، مثل الخبر عن وجود الآخرة التي لا يمكننا أبداً أن نتأكد من وجودها بطريقة أخرى غير الاعتماد على قوله سبحانه، طبعاً الدلائل على حصول الآخرة كثيرة جداً ولكن اختبار حصولها غير ممكن إلا حين نصير فيها...

نتابع مع الآية: الله كان {حَلِيمًا غَفُورًا}، للشخص الذي عنده قرار باتباع الحقّ، أما من قرر البقاء على الضلال:

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً{45})

{وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ}، إذا تَلَفَّظْتَ بِكَلِمَاتِهِ، {جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ}، بينك وبين الذين لا يعتقدون بوجود حياة ستأتي في الآخرة بعد انتهاء الحياة الأولى، وبالتالي هم لا يعتقدون بوجود حساب هناك، جعل سبحانه بين هؤلاء وبين سماعهم لقراءتك للقرآن: {حِجَابًا}، ما يحجبهم ما يمنعهم عن سماعه، وعملياً هو ما يمنعهم من الإيمان بما تقول، وهذا الحجاب، {مَّسْتُورًا}، غير مكشوف فليس ظاهراً، فلا يرون الحجاب ولا يدركون بأنه موجود.

نلاحظ في الكثير من الآيات التي نبهتنا عن السبب العميق للكفر والشرك وابتعاد بعض الناس عن الالتزام بالدين الإلهي، أنهم لا يؤمنون بالآخرة، ولذلك فهم لا يخافون من المحاسبة والجزاء، فيقولون ويفعلون ما يريدون، ولا يقتنعون بأي كلام حقّ لأنهم غير مضطرين لتغيير أفكارهم وتصرفاتهم طالما لا يؤمنون بحساب وجزاء عليها، هذا من جانب ومن جانب آخر وَسبب رفضهم الاقتناع بأي كلام حقّ عقلاني هو انغماسهم في حبّ متاع الدنيا حتى لو كان سيئاً وانطباعهم على الكذب ورفض الحقّ.

وننتبه، الآية لا تقول بأن هؤلاء لا يؤمنون بالآخرة وسبحانه لا يريد لهم أن يؤمنوا وَوَضَعَ حاجزاً حتى يمنعهم من الاقتناع بالقرآن، لا، بل تقول بأن هؤلاء عندهم قرار نهائي صلب بأن لا يؤمنوا بالآخرة بالرغم من كل الإجابات عن كل أسئلتهم، ورغم كل الأدلة التي يسمعونها من القرآن، وبسبب قرارهم هذا، وعلمه سبحانه بأنهم وصلوا إلى مرحلة ميؤوس منها في الكفر، ولذلك جَعَلَ تعالى سداً بين وعيهم وبين ما يقوله القرآن، فلن يؤمنوا.

بعبارة أبسط، سبحانه صَمَّمَنَا وخلقنا بطريقة تجعلنا نحن نصنع حاجزاً بين وعينا وبين كلام القرآن إذا قررنا أن لا نؤمن، من ناحية يكون هو سبحانه الذي جعل هذا الحاجز بقرار منه لمن قرّر الكفر، ومن ناحية ثانية فإنَّ الكافر بنفسه وبقرار منه يصنع الحجاب بينه وبين كلام القرآن.

كما تتوافر المواد والإمكانيات حتى أبني حائطاً أو جداراً، فكذلك تتوافر لدينا الإمكانيات لبناء حاجز بيننا وبين سماع ما يقوله القرآن عندما نقرر أن نكفر. وهذا الحاجز الذي يبنيه الكافر بأعماله وأقواله وقراراته... موجود أمامه ولا يراه فهو مستور بسبب اعتياد الكافر على الشرك والسيئات وإنكار الدين الإلهي فإنه لا يرى أي خطأ في هذه الأشياء لكثرة اعتياده عليها، فهذا هو الحاجز الذي يمنع القرآن من الدخول إلى فكره للاعتقاد به، وهو لا يرى هذا الحاجز، لأنه أصلاً لم يعد يشعر بأي مشكلة في إنكاره للحقّ والصلاح وهو نفسه كفره بالدين الإلهي، وهذا ما أرادت الآية الإشارة إليه حين قالت إنَّ الحجاب مستورٌ.

وبالنسبة لعموم تعابير القرآن التي تشير للكفر بالآخرة كسبب لمخالفة الناس لدينه تعالى، فضع في بالك أنها حالة مثل حالة أي شخص لا يجد سبباً ملزماً ليكون عقلانياً أو لطيفاً أو مهذّباً... حيث ترى نفسك وسلوك الناس من حولك في غالبيته سيتغيّر لو كنّا تحت ضابطة تجبرنا على الالتزام بالأخلاقيات العالية، فالذي ترى نفسك أعلى منه مالياً أو سلطوياً أو علمياً أو اجتماعياً... ولا تحتاجه، فلا ترى نفسك مضطراً لاحترامه ولا لتكون لائقاً مهذّباً معه! بينما الذين ترى أنك بحاجة لهم، فستحترمهم وتوقّرهم وتعمل على راحتهم... ونفس الشيء مع الذين تخاف منهم، فتتجنّب أي شيء يزعجهم حتى لا يؤذوك... وللأسف هذه سلوكيات منتشرة بين الناس، وكمثال ترى بعض المخطوبين يدللون بعضهم لأن كلا الطرفين لم يربط الآخر بعقد زواج، وأمّا بعد الزواج فالغالبية يتحوّلون إلى أصلهم ويكشفون عن حقيقتهم، فلا الزوج يَعُودُ تعجبه زوجته ولا يرى نفسه مضطراً لتدليلها... وكذلك الزوجة، فهما أساساً بلا أخلاق ولا يحترمون ولا يلاطفون إلّا من اضطروا لاحترامه وملاطفته لأنهم بحاجة له أو يخافون منه... ومن هذا المثال كنموذج نفس الشيء يسري على معاملة الولد لوالديه والوالدين للولد، وللعامل مع صاحب العمل وصاحب العمل مع العامل... ونصل إلى العبد والإله، سبحانه وتعالى وبالرغم من الفرق الهائل جداً جداً جداً بيننا وبينه في القدرات، إلا أنه سبحانه وتعالى يتعامل معنا بصدق واحترام وشفافية وصبر وحلم ورحمة... فهذه صفاته سبحانه، وهذا معنى ما يروونه عن الوصية لنا بأن نتخلّق بأخلاقه تعالى.

وفي مقابل صفاته الحسنى سبحانه في تعامله معنا، ترانا لا نكترث ولا نحترم كلامه سبحانه! وكما صرت ترى هناك جانبان في الموضوع، الجانب الأوّل أننا نحن لسنا محترمين، أساساً ليس لدينا الأخلاق العالية المحترمة ولذلك نقلّل الأدب معه سبحانه، ومن ناحية ثانية نحن مستهترون فلا نخاف من عقابه سبحانه ولذلك نجد الجرأة على مخالفة أوامره.

أطلت عليك لأن هذا المفهوم القرآني منتشر في السور بصيغ وعبارات مختلفة تشير إليه الآيات ضمناً في كلامها.

كلمة قرآن وصف لما نزل منه تعالى بلغتنا وصار مقروءاً، وهكذا يكون كل ما نزل هو قرآن، والسورة الواحدة قرآن والآية الواحدة قرآن.

(وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً{46})
{وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ}، على أساس فكر ونفسية هؤلاء الكفار المشركين جعلنا، {أَكِنَّةً}، فصار قلبهم مَكْنُونًا، وصار داخل شيء ما، مثل حبة اللؤلؤ في الصدفة وهي مكنونة في الصدفة، {أَن يَفْقَهُوهُ}، وهذا الكِنُّ هو السبب المانع من دخول القرآن إلى قناعتهم، حيث تصل معلومات القرآن إلى عقلهم ولكن قلبهم "مركز فكرهم ونفسيتهم" مسدود مغلّف بحاجز، فلا يقبل الحق، لأنه متعلق بالباطل.

من الواضح أن الآية لا تقصد بالقلب العضو الذي يضخ الدم، حيث استعمل القرآن كلمة قلب على عموم معناها اللغوي لما يشير إلى الداخل الأساسي للشيء، وهكذا استعملها العرب، وهكذا يستعملها الكثير من أهل اللغات الأخرى، حيث نقول في كلامنا الدارج: قلب المحرّك، قلب الأرض، حبّك في قلبي... واستعملها القرآن في كلامه عنّا للإشارة إلى أساس فكرنا ونفسيتنا، إلى ما نستند عليه كأساس فينا ومنه ننطلق، مثلما تتكلّم مع شخص ما في مسألة ما وأنت تعلم أنه لن يقتنع وسيرفض كلامك، فأنت تعلم بوجود فكر ونفسية أساسية عنده تمنعه من قبول ما تقوله له، فلنقل إنّه مقتنع أَنَّ ابنته لا يجب أن تتزوّجَ قبل إنهائها لشهادتها الجامعية، حتى لو تقدّم لها عريس مناسب جدا، فهذا في قلبه "في أساس فكره ونفسيته" هناك فكرة أساسية تجعله يرفض أي كلام يسمعه. هنا تصف الآية هذه الحالة للمشرك الذي في قلبه "في أساس فكره ونفسيته" ما يمنع دخول كلام القرآن إليهما. ولمزيد من التوسّع حول كلمة قلب راجع دراسة الآية 127 من سورة التوبة {... صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ}.

جعل سبحانه، {فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا}، جعل في وعيهم لسماع الكلمات ثقلا في السمع، يسمعون ولكنهم لا يفهمون ما يسمعون، مثل الذي عنده صعوبة في السمع، حيث تتحرك طبلات أذنه، ولكنها حركة ميكانيكية جافة، والمعلومات لا تصل إلى فهمه ووعيه.

{وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ}، فقلت كلاما يجعلك ويجعل السامع يستحضر المسؤول عنك من مستوى إلهي، {فِي الْقُرْآنِ}، فيما هو مقروء، فيما نزل عليك ويمكن قراءته، فذكرته تعالى، {وَحْدَهُ}، فلم تذكر آلهتهم، {وَلَّوْا}، توجّهوا باتجاه آخر، {عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ}، حيث يديرون قفاهم ظهرهم لك، {نُفُورًا}، مبتعدين عنك قاصدين لِوِجْهَةٍ أخرى، فأي شيء آخر غير كلامك سيتوجّهون إليه.

بعبارة أخرى، إذا قرأت عليهم شيئا من الذي نزل عليك، وكان يتحدث عن الله تعالى وحده، ولا يتحدث عن آلهتهم، فإنهم يتركونك ويديرون ظهرهم لكلامك متوجّهين إلى ما هم متعلقون به، إلى آلهتهم وأفكارهم، ولا يريدون منك أن توضّح لهم، ولا يريدون كلام الحقّ...

(نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً{47})
{نَحْنُ}، ربك أيها النبي(ع)، {أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ}، نعلم بأي طريقة يسمع المشركون كلامك عندما تقرأ القرآن، سبحانه يعلم ما يسمعون وهذا يشير إلى ما دخل إلى وعيهم وهم متوجّهون إليه ليفكّروا فيه بعقلانية واهتمام... و{مَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ}، تعبير يشير هنا إلى أنهم يسمعونه من دون اهتمام بمحتواه، ففي آذانهم وقر وغشاء تصلهم المعلومات ولكن لا تدخل إلى قناعتهم، {وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ}، حين يكونون بين بعضهم على انفراد فيما بينهم ويتحدثون براحة وبصراحة، {إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ}، حين يكونون لوحدهم يقول الذين لم يكن معهم حقّ حين كفروا بالدين الإلهي الواضح

أنه حقّ، يقولون: {إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا}، وهذا نصف الجملة، وما قبلها تعرفه لوحدك: إن اتبعتم هذا الرجل فأنتم فقط تكونون على خطى رجل وقع تحت تأثير السحر، لأنه يقول تخريفات وكلاما لا يدخل في العقل، فهو يقول إنَّ الإله واحد! والآلهة التي نعبدها ليست آلهة! وما يقول هذا الكلام إلا رَجُلٌ مَسْحُورٌ، رجل يهلوس ويرى الوهم حقيقة...

السحر هو ما يجعلك ترى الوهم حقيقة، حيث تعلم أن الساحر لم يُخْفِ الأرنب في القبعة، مع أنك ترى اختفاء الأرنب، وأنت تعلم أنه خدعك بطريقة ما ليجعلك تعتقد أنَّ الأرنب اختفى، وهنا يقولون إنَّ النبي محمّدًا(ع) واقع تحت تأثير السحر عليه، لأنَّ هناك من سحره وجعله يتوهّم أن الإله واحد وأن آلهتنا ليست آلهة.

بمعنى آخر، انتبه أيها النبي(ع)، هؤلاء المصرون على الكفر، عندما يجلسون معك ويسمعون القرآن، فلا تظن أَنَّهُ دخل إلى عقولهم ويقتنعون به، لا، لأنهم يجلسون معك وهم يعتقدون أَنَّكَ مضروب في عقلك وتتوهّم، وتقول الخرافات.

بقي شيء، الدارج في الثقافة الشعبية أن السحر تعبير عن قوّة خارقة، عن شخص يمكنه فعل أمور حقيقية بطريقة لا يبدو فيها منطق معلوم لحصولها، حيث يجعل الأشياء تختفي، وتنبثق الأشياء من يده... وهذا المعنى لم يَتَمَاشَ معه القرآن لأنه غير صحيح، والعقلاء أيضا لا يعتبرونه صحيحا، فلا وجود لقوّة خارقة لفعل الأشياء من دون وسائل وبلا أسباب، ولذلك حدّد القرآن استعمال كلمة سحر على معنى أنها فعل يجعلك تتوهّم شيئا ما والحقيقة غير ذلك، والعقلاء يستعملون كلمة سحر لهذا المعنى حصرا. هنا وصف الكافرين للرسول(ع) بأنه مسحور، المقصود به أن الحقيقة مختلفة عمّا يقوله (ع) وهو يتوهّم أن الإله واحد، وأنه متأثّر بشيء ما جعله يتوهّم ذلك.

عندما يصفونه بأنه (ع) ساحر كما ورد في آيات أخرى، فهم يقصدون أنه بكلامه (ع) يجعلهم يتوهّمون أن معه حَقًّا بينما هو يخدعهم...

أمّا من سحره(ع) حتى صار مسحورا، متعرضا لما يجعله يتوّهم الوهم حقيقة؟ فغير مهم، لأنَّ الكافرين لم يحدّدوا من سحره، ولم يقولوا لماذا سحره، ولم يخبرونا إن كان في التاريخ أو في مجتمعهم هناك شخص ساحر يمكنه فعل ذلك، ولم يخبرونا إن كان في التاريخ أو في مجتمعهم شخص مسحور كما يقولون عن النبي محمّد(ع)، حيث معلوم أنهم يرمون الكلام كيفما كان فقط للتشويش وتضييع الموضوع بكلام فارغ...

ضع حالة رمي الكلام الفارغ في بالك لأن الغالبية الساحقة من كلامهم هذا مستواها، وما نقله القرآن عنهم لست بحاجة للبحث فيه تاريخيا لتفهم تفاصيله، هل يخطر ببالك البحث عن ساحر سحره(ع)؟ وهل أصلا أنت عاقل بالدرجة الكافية لتفهم أن الكفّار يقولون عن القرآن وكلام الرسول عن الإيمان والعمل الصالح أنه كلام رجل واقع تحت تأثير السحر! هم لا يقصدون أن الرسول يقول كلاما غير الذي تسمعه في هذا القرآن عن الهداية والتبشير والإنذار، بل يقولون إنَّ كلامه هذا هو كلام مسحور؟! هل ستبحث في التاريخ عن الساحر الذي قصدوا أنه سحره(ع) أم انتبهت أنهم يرمون الكلام الجزافي الفارغ والترهات؟!

نفس الشيء أقوالهم الأخرى التي نقلها القرآن ومنها حين قالوا ما نقلته الآية 103 من سورة النحل {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}، لأنهم لم يهتموا بتحديد الشخص الذي يتهمون النبي بالتعلّم منه هذا القرآن، فقط قالوا: أجنبي ما علّمه المعلومات التي لا نعلمها...

(انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً{48})
{انظُرْ}، وجّه اهتمامك العام، كما نقول بالعامية: شوف. التفت، {كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ}، هم قالوا عنك بأنك مثل المسحور، حيث مثّلوا بك، شبّهوك بحالة المسحور الذي تعرّض للتلاعب بعقله وصار يتوهّم! {فَضَلُّوا}، هذا التمثيل لك بالمسحور يجعلهم على الطريق غير الصحيح، وابتعدوا عن طريق الحق، {فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا}، فلا يمكنهم بعد هذا الكلام الذي قالوه أن يصلوا إلى مسلك الحق، وسيبقون على شركهم.

(وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً{49})
من الأشياء التي ينقلها النبي(ع) للناس عبر القرآن، واعتبرها المشركون كلاما يصدر عن مسحور: {وَقَالُوا}، قال المشركون فيما قالوه، {أَئِذَا} متنا، هل إذا فارقنا الحياة، {وَكُنَّا عِظَامًا}، حيث تحلل اللحم وبقي العظم لأنه يبقى لمدّة أطول، {وَرُفَاتًا}، حيث تحوّلت العظام إلى الهشاشة وصارت تتفتت لتصير ترابا، وبعدما نموت يتحلل لحمنا، وبعده

يتحلل عظمنا، وتصير أجسادنا ترابا، {أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا}! هل سيتم إنهاضنا من الموت وخلقنا من جديد! وهل سيعود التراب لتنبعث وتنبض فيه الحياة مرة ثانية، ونصير خلقا مركبا جسدا جديدا بعد أن تحلّل لتراب!
نلاحظ العديد من الآيات التي نقلت لنا هذا الاستغراب من المشركين، وهناك العديد من الردود المتنوعة في الآيات عليهم، لأن هذا هو أصعب شيء عند المشركين، حيث معناه العملي أنهم سيتحاسبون ويُجَازَوْنَ بعد خلقهم مرة ثانية.

(قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً{50})
أنتم لا تؤمنون بقوله سبحانه عن إعادتكم من التراب إلى الحياة، وتقولون: {أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا}... {قُلْ}، لهم:

{كُونُوا حِجَارَةً}، وهي أصلب من التراب، {أَوْ حَدِيدًا}، إشارةً إلى مادة صلبة شديدة الصلابة مهما كان نوعها.

أنتم من لحم وعظم وبعد موتكم تتحوّلون إلى تراب، خذوا علما أنكم لو كنتم الآن أحياء مكوّنين من الحجارة أو من معدن صلب. وتكملة الكلام في الآية التالية... ضع في بالك أن العرب حين نزول القرآن لم تكن كلمة "حديد" عندهم اسْمًا لمعدن محدّد من عناصر الجدول الدوري للمواد، بل هي وصف لعموم أي شيء حادّ قوي صلب... ومنه النظر الحادّ كما استعملتها الآية 22 من سورة ق {... فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}، ومنه المعدن الصلب، وغيره من تطبيقات الوصف على أمور مادية ومعنوية.

كانوا يستخدمون الحديد والنحاس والزنك والرصاص والتنك والفضّة والذهب... وأي خليط من هذه المعادن يصير صلبا يصفونه بالحديد فهو وصف مشتقّ من كلمة حادّ وحدّة، وبعد ذلك مع مرور الزمن تخصّص الوصف ليصير اسْمًا لمعدن محدّد من عناصر الجدول الدوري...

(أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً{51})
{أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ}، لنفترض أنكم الآن وأنتم أحياء مُكوَّنون مُركَّبون من مادة تشعرون بها في مركز تفاعلكم مع الأمور أنها أكبر شيء بالنسبة للمتانة والصلابة والاستمرارية، ربما تعاملتم مع مادّة ما أو تخيّلتم مادة ما وصار في مركز تفاعلكم اعتقاد بأنها مادّة صلبة جدا جدا لا تتغيّر مع مرور الزمن، لنأخذ مثلا الماس "ألماز" وافترضتم أنكم مخلوقون منه، ومتّم وبقي جسدكم كما هو فلم يتحلّل.

{فَسَيَقُولُونَ}، من بعد هذه الافتراضات: {مَن يُعِيدُنَا}؟ من يمكنه أن يجعلنا أحياء كما كنّا؟

يعني أنتم ترون حالة تحوّل جسدكم لتراب بعد موتكم، وتستغربون إعادة تشكيل التراب مرّة ثانية لتعودوا أحياء، ولكن حتى لو كان جسدكم من صخر أو معدن أو أي شيء آخر صلب ودائم، ومتّم، وبقي جسدكم كما هو لأنه صخرة أو معدن أو شيء تتصوّرون أنه يبقى كما هو، نفس الشيء، ستقولون: {مَن يُعِيدُنَا}. يعني انتبهوا أن المشكلة عندكم ليست في تحلّل جسدكم لتراب وإمكانية إعادة خلقه، حتى لو كان جسدكم من مادة لا تتغيّر من بعد موتكم، أنتم حتى في هذه الحالة ستنكرون إمكانية بعث الحياة فيه من جديد! على أي حال ومهما كانت الأحوال أنتم ستنكرون البعث، والجواب الإلهي عن تساؤلكم سيبقى هو نفسه... {قُلِ} أيها النبي(ع) لهؤلاء عبر القرآن:

{الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ}، لأنكم كنتم لا شيء، بلا كيان، وصار لكم كيان، والذي في أوّل مرة جعل لكم كيانا كأحياء وقبله كنتم لا شيء، يقول بأنه سيعيدكم إلى الحياة بعد أن يتحوّل جسدكم إلى تراب أو حتى لو تبخّر جسدكم، أو حتى لو كنتم مخلوقين من مادة لا تتغيّر، فلا فرق بذلك عند الذي خلقكم أوّل مرة من لا شيء.

أنتم الآن لكم كيان تكوّن في زمن محدّد وصرتم بشرا، وقبل ذلك كنتم جنينا، وقبله... لم يكن لكم كيان أصلا، وآباؤكم نفس الشيء، ولكل واحد منهم بداية مثل بدايتنا، وقبل ذلك البشرية كلّها لها بداية، سواء عبر النشوء والارتقاء "التطوّر" أو عبر أي شيء آخر تعتقدون به، حيث هناك زمن لم يكن لكم فيه أي كيان، وأصلا لم يكن هناك سماوات وأرض، وبعدها صار لكم كيان، من فطركم؟ ومن جعل لكم كيانا؟ ومن صمّمكم وخلقكم أطوارا لتصيروا؟ وهو نفسه الذي فطركم أوّل مرّة يمكنه وبكل سهولة أن يخلقكم مرّة ثانية، أين المشكلة إن تحلّلتم إلى تراب أو تبخّرتم، أو حتى لو كنتم مكوّنين من مادة لا تتغيّر، قبل أن يصير لكم كيان من تراب "أو من غيره" أصلا كنتم لا شيء وخلقكم سبحانه،

وبديهي أن مع تراب من جسدكم السابق أو مع بقاء جسدكم السابق كما هو، المسألة هي ذاتها بالنسبة للذي خلقكم أوّل مرة ولم يكن هناك تراب كبقايا من جسدكم.

كلامهم عن استحالة عودتنا إلى الحياة لأننا لا نعلم آلية تعيد للميت حياته من تراب أو إذا تبخّر... يردّ عليه تعالى بأنه قبل خلقه لما في الدنيا لم يكن هناك أصلا أي شيء، وأنتم لم تكونوا أصلا لكم كيان، وجعل لكم تعالى كياناً حيّاً، وهو يقول بأنه سيعيد إحياءكم مرّة ثانية، لنفترض أنكم متّم ولم يبق أي شيء نهائيا بتاتا من جسدكم، أين المشكلة في بعثكم؟ لأنه خلقكم سبحانه أوّل مرة من لا شيء، وبالتالي يمكنه إعادة خلقكم من لا شيء.

حاليا لدينا فرضيات ونظريات علمية تجريبية لآلية نشأة الحياة، وهي نظريات وفرضيات قابلة للتغيّر، ولدينا فرضيات ونظريات عن إعادة "نسخة" عن الميت من الخلايا الجذعية أو من الحمض النووي "دنا"... ولكن على أي حال ليس لدينا فرضيات ونظريات لآلية إعادة الميّت إلى الحياة إذا تبخّر محترقا، أو تحوّل لطاقة، أو لشيء أوّلي آخر... وكما تعلم المنتمون لدينه تعالى لديهم نظريات عن آليات عودتنا إلى الحياة عبر حفظ كياننا بشيء غير جسدنا بعدما نموت، يقولون: بعد موتنا تبقى روحنا "أو نفسنا" وهي التي فيها وعينا وذاكرتنا، وسيعيد تعالى تفعيلها بعد وضعها في أي جسد جديد... سواء من التراب الذي كان قديما يشكّل جسدنا أو من تراب آخر أو من مادة أخرى... لا يهم طالما الجسد مجرد وعاء والوعي والمعلومات باقية مع روحنا أو نفسنا.

وبغض النظر عن صحّة أو خطأ هذا الكلام الذي لا تجده بهذه الصراحة في القرآن، لاحظ أنه لو لدينا فرضيات أو نظريات تجريبية أكاديمية عن إمكانية عودتنا إلى الحياة، وفرضا لو استطعنا إعادة ميّت ما إلى الحياة من بعدما صار ترابا، أو من بعدما تبخّر، هل تعتقد أن الكافرين سيؤمنون بالآخرة؟

لا، لن يؤمنوا بها، لأن المشكلة معهم ليست هنا كما يبدو لك، وهذه الآية هنا فيها نفس القوّة التي تظنّها في قوّة إقناعهم بالحياة في الآخرة لو فرضا استطعنا نحن إعادة ميّت إلى الحياة بعدما تبخّر، قبل أن يكون لك كيان قبل خلق ما في الدنيا، ماذا كنت؟ لا شيء نهائيا بتاتا، لا تراب ولا روح ولا نفس ولا جوهر ولا... ولا أي شيء مما يقولونه في أي نظرية أو فرضية... وها أنت لك كيان، ومن البديهي أن أحدا ما صمّمك وخلقك، وهو نفسه يقول لك بأنه سيعيد إحياءك حتى لو تبخّر جسدك، وحتى لو لم يعد لك أي بقايا من جسدك، مِنْ قبل خلقك سبحانه لم يكن لك كيان، وها هو يقول بأنه سيخلقك مرّة ثانية، أين المشكلة؟

بعد هذا الكلام الحقّ، هؤلاء لن يقتنعوا، وهم جاهزون لمزيد من المناقشة العقيمة:

{فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ}، وهذه الكلمة لم ترد إلا هنا في القرآن ومن سياق الكلام تفهم أنهم يحركّون رؤوسهم بطريقة تبيّن استغرابهم وتعجّبهم وفقدانهم القدرة على الردّ بالرغم من رفضهم لما تقوله، تثبت أجسامهم ويمدون رقبتهم باتجاهك بشكل يدل على أنهم لم يقتنعوا بما تقول، فالنغض للرأس يبدو وصفاً لتعبير حركي كردّة فعل على شيء، مثل الأوصاف للتعابير الحركية المتوزعة هنا وهناك في سور القرآن ومنها كمثال ما ورد في الآية 22 من سورة المدّثر {ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ}.

{وَيَقُولُونَ} لك: {مَتَىٰ هُوَ}؟ متى سنعود إلى الحياة بعد الموت؟ في أي زمان سيحصل؟

{قُلْ}، أيها النبي(ع):

{عَسَىٰ}، على الأرجح المحتمل غير الأكيد، {أَن يَكُونَ}، هذا الموعد لرجوعكم، {قَرِيبًا}، ليس بعيدا.

سنرى في الآية التالية، أن سؤالهم عن موعد يوم القيامة لا معنى له، وأنه مهما كان بعيدا إنه بالنسبة لكل شخص لوحده، قريب، وقريب جدا كما سنرى من الآية التالية.

لمزيد من التوسع حول حالة الموت والحياة وإعادة الحياة، راجع دراسة الآية 67 من سورة مريم {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}، مع التذكّر دائما أن ما أقحموه في كتبنا الإسلامية بكلامهم عن الروح والنفس لتفسير ما قاله القرآن عن البعث، وكأجوبة عن أسئلة المنكرين للبعث، القرآن لم يذكره لا من قريب ولا من بعيد، ودائماً أجوبة القرآن كانت مشابهة لما قالته الآيات هنا.

(يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً{52})
الجواب عن {مَتَىٰ هُوَ}: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ}، في الزمن الذي يُشْهِرُ ويُعْلِنُ ويُوَجِّهُ لكم سبحانه كلامه، وسياق الكلام يقصد أنه تعالى سيأمركم بالرجوع إلى الحياة مرة ثانية، {فَتَسْتَجِيبُونَ}، تتجاوبون مع أمره وندائه تعالى، {بِحَمْدِهِ}، مع حالة عملية تطبيقية بأن كل شيء يفعله تعالى فهو حميد جيّد، ومَنْحُكُم الحياة مرّة ثانية عمل جيّد، بمجرد أن يأمركم أن تعودوا إلى الحياة، ستعودون، وهذا بالأصل عمل جيّد، لأنه منح للحياة، وعندها ستعرفون أن الله تعالى هو الذي منحكم الحياة وبعثكم من موتكم.

لا تتصور الناكرين للآخرة عندما سيعود إليهم وعيهم في يوم القيامة أنهم سيحمدونه تعالى عن خاطرهم بقولهم وتعابيرهم وفكرهم... الحمد لله ليست مرادفة للشكر لله، بل الحمد لله هي اعتراف أو وصف حالة بأن ما حصل كان حميدا جيدا حتى لو لم يكن على خاطرك، وإعطاء الحياة هو شيء جيّد أساسا، وإعطاء الحياة الخالدة أروع، ولكن من ناحية الإنسان الكافر لن يكون شاكرا لما سيحصل معه بعد عودته إلى الحياة، ولن يعلن أنه هو حصل على شيء جيّد، ولكنه سيبقى معترفا بأن منح الحياة هو "بحدّ ذاته" عمل إلهي حميد حتى لو تمنّى أنه لم يحصل عليه.

قارنها بالمعترض على أبويه لأنهما أنجباه إلى هذه الدنيا، حصوله على الحياة شيء له قيمة عالية، شيء حميد، والظروف القاسية التي يمرّ بها المعترض، هي شيء تقييمه منفصل عن تقييم قيمة حصوله على الحياة، وهو غير شاكر لهما لأنه لا يرى حصوله على حياة جيّدة سعيدة، ولكن بالأصل لا تجد عاقلا يعترض على حصوله على الحياة، وطبعا معه حقّ إن تضايق من الظروف الصعبة واعترض على حياة في ظروف صعبة...

{وَتَظُنُّونَ}، في تلك اللحظة التي عدتم فيها إلى الحياة يصير لديكم اعتقاد يستند إلى فقدانكم لوعيكم حين كنتم أمواتا بأنكم، {إِن لَّبِثْتُمْ}، فقط مرّ عليكم زمن في حالة الموت، {إِلَّا قَلِيلًا}، مدة قصيرة من الزمن، لأنكم متّم وفقدتم وعيكم ولم تعودوا تشعرون بمرور الزمن، والزمن كالمتوقّف بالنسبة لكم، كحالة النائم الذي لا يشعر بمرور الوقت، استناداً إلى شعوركم من لحظة إغماض أعينكم حين متّم، وبعدها استعادتكم لوعيكم، ستعتقدون أنكم مباشرة وبزمن قصير جدا صرتم في يوم القيامة من الموت.

هكذا نفهم الآية السابقة التي قالت لمنكري الآخرة بأنه عسى أن يكون يوم القيامة قريبا جدا، أنتم بمجرد أن تموتوا، المرة الثانية التي ستحيون فيها، لن تشعروا بأنها كانت بعيدة، بل قريبة، وقريبة جدا، أغلقتم أعينكم هنا، وفقدتم وعيكم، وبعد قليل، ستفتحونها لتروا يوم القيامة.

(وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً{53})
{قُلْ}، عبر هذا القرآن، {لِّعِبَادِي}، للذين مفروضةٌ منهم وعليهم طاعتي:

{يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، ليتركوا التي هي أسوأ وليقولوا فقط ما هو موصوف بأنه حسن، وهذه قاعدة عامّة يجب الالتزام بها، وكما نقول بالعامية: إذا ما عندك كلمة حلوة فاسكت. تتذكّر من استعمال القرآن لكلمة "أحسن" أنها لا تشير للحسن والأحسن، بل هو وصف للأحسن مطلقا مقابل الأسوأ مطلقا، لا تقصد الآية أن نترك الكلمة الحسنة لنقول الأحسن، لا، لأن كل الكلام الحسن هو الأحسن في مقابل كل الكلام السيئ.

مِن تكملة الجملة تعلم أنها تشير لكلامنا مع بعضنا، لنبتعد عن عموم ما يؤذي ويسيء للآخرين، ومضافا إليه الآية "بشكل ما" تحفّزنا على قول الكلام الحسن، قد تسكت ولا تقول الكلام السيئ، وهذا جيّد، ولكن تحفّزنا الآية على النطق بالكلام الحسن أيضا.

{إِنَّ الشَّيْطَانَ}، إن الموصوف بقيامه بأعمال الضلال لنفسه وللآخرين، {يَنزَغُ} بينكم، بوسوسة خفيفة محفزّة يغريكم لتتخالفوا وتتنازعوا وتتعادوا... بسبب قولكم الكلام السيئ لبعضكم البعض.

{إِنَّ الشَّيْطَانَ}، إن الكائن الذي يعمل على إضلالكم، وحين يستعملها القرآن بالمفرد عادةً يشير إلى إبليس عليه اللعنة، {كَانَ لِلْإِنسَانِ}، كان بشكل عام لكل الناس، {عَدُوًّا}، كارها لهم ويريد ضررهم وفسادهم وأذيتهم، {مُّبِينًا}، بشكل

واضح في عداوته لهم لأنه لا يتستّر وأعلن صراحة أنه عدو لنا، ومن الواضح عداوته لنا من خلال النزغ، أي الوسوسة بالأشياء السيئة في عقولنا لنفعل السوء وليسبّب لنا الضرر.

كما تعلم أكثر مشاكل الناس بين بعضهم من كلام السوء مع وعن بعضهم، في حضورهم أو في غيابهم، وهذه ثقافة ننمّيها ونحفّز الآخرين عليها ونتوارثها، حيث تجد مجموعات من مختلف الأهواء، بعضهم ينتشر فيهم كلام السوء عن الآخرين بالغيبة والإعابة والتسلّي بقصص الناس... بعضهم ينتشر بينهم تحقير الناس، وآخرون معتادون على تفشيل الآخرين مهما فعلوا... وآخرون يتناجون بالإثم فحديثهم عن السيئات التي يفعلونها أو ينوون فعلها أو يحبّون فعلها... وآخرون حديثهم العدوان على الآخرين بكلام العصبية والعصابات والمرجلة الفارغة من المعنى الحقيقي للرجولة... وآخرون يتحدثون بمعصية الرسول أو القائد أو المؤمنين المتولين للشأن العام...

كما ترى، العنوان الذي تطرحه الآية عامّ جدا، وهي لا تنهانا فقط عن قول السوء بل تحفّزنا لتنمية ثقافة القول الحسن، وللأسف يصل انخفاض مستوى الكثير من الناس إلى درجة فقدانهم لمواد الكلام إلا بالأسوأ، وعندما تنهاهم عن كلام السوء يعترضون عليك على أساس أنك تطلب منهم أن يبقوا ساكتين! ولست تطلب منهم السكوت ولكنهم لا يجدون كلاما حسنا يتسلّون به لأنهم ليسوا معتادين على ذلك! وكما ترى هذه هي الثقافة التي تريد الآية منّا تنميتها، حيث هناك الكثير من الكلام الحسن للتداول فيه، وليس بالضرورة حصره بالكلام عن الدين لتعلّمه أو عن التاريخ الديني لرواية قصص منه... لا، تداول عموم شؤون الحياة وهمومها وأفراحها... والتداول بخبرات الحياة واقتراحات تحسينها... والتداول بمعلومات مفيدة... والتسلية بما هو حلال... وهذه الثقافة إن فُقِدَت ترانا لا نجد إلا السوء لنتحدّث به.

الكلام يجرّ الكلام، سورتنا هنا في الآية 36 منعتنا من القفو بما ليس لنا به علم، وبدمجها مع آيتنا هنا المانعة من قول السوء والمحفّزة على القول الحسن، ترى بوضوح منهاجا راقيا يدلّك وَحْدَهُ على أن الكلام القرآني صادر عن إله عظيم.

(رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً {54})
{رَّبُّكُمْ}، المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {أَعْلَمُ بِكُمْ}، لديه علم عنكم وعن أحوالكم وما يحيط بكم... أكثر مما تعلمونه عن أنفسكم، لا أحد أكثر منه تعالى يعلم بعقليتكم ونفسيتكم وحاجاتكم وقدراتكم على الالتزام بكلامه... {إِن يَشَأْ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة ولو قرّر يمكنه تعالى أن {يَرْحَمْكُمْ}، أن يعاملكم بما فيه مصلحتكم، ولا يوجد شيء يمكنه منعه سبحانه من الرحمة بكم، لأنه تعالى غير مجبور على الرحمة بنا.

{أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة ويمكنه أن يختار تعذيبنا ولا يمكن لأحد منعه ولا أن يفرض عليه تعالى تعذيبنا.

أخبرنا سبحانه في القرآن مرارا وتكرارا بأنه شاء أن يرحم المؤمنين وأن يعذّب الآخرين.

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا}، أمرناك بنقل كلامنا إلى الناس ولكننا لم نجعلك وكيلا عليهم كمسؤول عن تسيير أمورهم كما يجب، لست مسؤولا عن هدايتهم ولن نطالبك إن لم يهتدوا. أنت لست كمدير لمصنع أو وكيل مسؤول عن الإنتاج أن يكون جيدا، لم نوكلك بأن يكونوا مؤمنين، فقط أوكلنا إليك مهمة تبليغ الرسالة، وبعدها، فمن آمن برسالتك فهو المستفيد، وشئنا أن نرحمه بسبب إيمانه، ومن كفر فهو المتضرر وشئنا أن نعذّبه بسبب كفره، ولن نطالبك أنت أيها الرسول بأي شيء، قُمْ فقط بتبليغ الرسالة.

يقول بعض الناس: ما هذا الرسول الفاشل الذي لم يقدر على جعلنا نهتدي! أو يخطر ببال الرسول(ع) بأن مهمته كرسول تتضمن أن يتكفّل هو أمام ربنا سبحانه بهداية الناس. أو يتصرف الرسول بطريقة غير عادية، ويقضي وقته مع الأشخاص الذين يناقشون ويجادلون... والرسول يصرّ على محاورتهم، والإجابة عن أسئلتهم مرة ومرتين وعشرين... لأنه يريد بأي طريقة صحيحة أن يَهْدِيَهُمْ، حتى لو تبين له مماطلتهم وأنهم لا رغبة لهم بالإيمان... ونلاحظ عدة تنبيهات في القرآن من ربنا سبحانه لرسوله(ع) ليتوقف عن هذا الجهد والاهتمام الزائد، وليكتفي بتبليغ الرسالة بشكل واضح، لأنه ليس وكيلا منه تعالى على هدايتهم، وبتعبيرنا الدارج: ليس مسؤولا عنهم إذا لم يؤمنوا.

هذا الكلام لم نفهمه نحن المؤمنون لأننا لدينا رغبة أن يؤمن الآخرون، ونفكر بشكل أو بآخر بطرق هدايتهم عبر التواصل معهم بالكلام والمقالات والمحاضرات المصورة... فإن كانت هذه الأفعال على طريقة التبليغ، فهذا ما يأمرنا به تعالى، أمّا إن كانت على طريقة جعل الآخرين مؤمنين بإقناعهم بالإصرار عليهم وحتى لو بطرق ملتوية، فهذه مخالفة لما يأمر به تعالى، بل لو اهتدى أحد ما بأسلوب تضمّن طرح معلومات فيها مبالغة أو كذب، فلا أجر لمن هداه، بل له عقاب على المبالغة والكذب.

(وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً{55})
{وَرَبُّكَ}، المسؤول عنك من مستوى إلهي، {أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، لأنه سبحانه أكثر من يعلم كلّ شيء عن كل الموجودات، والتعبير القرآني بالسماوات والأرض يشير إلى كل ما في دنيا المخلوقات، وهو سبحانه المتابع المراقب لكل شيء، وأنت مهمّتك تبليغ كلامه فقط.

تصورها مثل حالة ضابط يأمر جنديا بفعل شيء محدد، والجندي تخطر بباله أمور أخرى يعتقد بأهميتها، وينوي فعلها، حيث يخطر بباله أن المسؤول عنه لا يعلم بها، أو غافلٌ عن أهميتها وضرورتها... الآية هنا وبقية الآيات العديدة المشابهة هي خبر منه تعالى لرسوله(ع) ولنا، بأنه حين أمرنا تعالى بالتبليغ فقط، فإنه سبحانه يعلم بكل شيء، ويعلم حتى بما يخطر ببالكم من أمور أخرى غير تبليغ كلامه تعالى، ويعلم بما في أفكار ونفسية الآخرين.

بناء عليه، أيُّ أفكار تخطر ببالكم أو عمل أو جهد ترونه مناسبا لهداية الآخرين، ولا يكون منطلقا من كلامه تعالى بالحرف، فهو ضلال.

بعبارة أخرى، هناك أناس لديهم نية الاهتداء ويحتاجون لتبليغهم كلامه تعالى ليروه أنه حق وصلاح، وليروا أن الإشكالات التي في بالهم تم توضيحها... هؤلاء بتبليغ كلامه تعالى يَهْتَدُونَ، أمّا بقية الناس المصرين على الكفر فلن يهتدوا مهما فعلت معهم، ولو بطريقة أو بأخرى تحايلت عليهم أو جعلتهم يضطرون لإعلان إيمانهم، هؤلاء بأحسن الأحوال سَيَصِيرُونَ منافقين أو فاسقين.

نرجع للآية، ومن تبعات علمه الواسع سبحانه:

{وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ}، بعض الأشخاص الذين يصلهم "نبأ" أو خبر غير منتشر علمه بين الناس، ويصير وصفهم "نَبِيًّا"، بعضهم منحهم تعالى أشياء لم يمنحها للأنبياء الآخرين، وهذه المنحة ليست فرضا واجبا عليه تعالى، وكمثال عن التفضيل بين الأنبياء(ع): {وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}، أعطيناه كلاما جرت كتابته ولم يبق شفويا، حيث لم يحصل كل الأنبياء على كتاب مثل القرآن أو التوراة أو الزبور أو الإنجيل.

قارنها مع تعاملك مع من حولك بجمل متفرقة متنوعّة، وقارنها مع جمل تقولها لهم وتقصد أن تكون كتابا لهم، كإرشادات في موضوع ما، كل الأنبياء يوحي سبحانه لهم، ولكن الوحي عادة يكون جملا من التعاملات العادية بينه تعالى وبينهم، أمّا بعض الأنبياء حَصَلُوا منه تعالى على جمل محدّدة ككلام منه تعالى في موضوع محدّد، وكمثال على ذلك ما نزل على النبي داوود(ع)، وسمّاه القرآن بالوصف "الزَّبُورِ"، لأنه مزبور أي مكتوب مسجّل، لذلك هو زبور. وهذه الكلمة شبه منقرضة في استعمالنا الحالي للّغة العربية.

المشهور بين الناس أن الزبور هو كتاب فيه أدعية ومدائح على وزن وقافية "وموسيقى صوتية"، كالشعر والقصيدة. ونجد في التوراة كتابا منسوبا للنبي داوود(ع) اسمه المزامير، ويحوي على أدعية وابتهالات فيها وزن وموسيقى صوتية، ولا ندري إن كانت هي الزبور ولكن نحتمل ذلك لأننا لحدّ الآن لا نعرف كتابا آخر منسوبا للنبي داوود(ع) غير المزامير، وهذا لا يعني أنهم لم يحرّفوها، ما وافق القرآن نقبله منها وما تعارض مع القرآن فهو محرّف.

كما ترى للوهلة الأولى تبدو الآية هنا غريبة عن سياق ما سبقها وما تلاها، ولكن إن بحثت عن سؤال لها يسبّب قوله تعالى لها هنا، سَتَفْتَرِضُ أنها جواب لقول المشركين: أنت يا محمّد بدعة وَأَتَيْتَنَا بدين جديد. أنت بدعة بِكِتَابِكَ الديني. أنت بدعة بكلامك عن تشريعات إلهية... وبكلامك عن الحياة في الآخرة...

الجواب: أنت أيها النبي محمّد(ع) امتداد لتاريخ طويل سبقك من الأنبياء، بعضهم نزل عليه كتاب، وبعضهم كتبهم مشهورة كالتوراة والإنجيل، وآخرون كتبهم غير مشهورة كالزبور. ومن الآية التالية سترى أن آيتنا هنا تشير للامتداد التاريخي لدينه تعالى...

(قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً{56})
{قُلْ}، أيها النبي(ع) عبر هذا القرآن للذين إذا سمعوك تذكر الله تعالى وحده {وَلَّوْا نُفُورًا}:

{ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ}، اتركوه تعالى وأشهروا وأعلنوا بالكلام عن الذين زعمتم وادّعيتم أنهم آلهة وكنتم أنتم فقط لوحدكم مقتنعين بألوهيتهم، مثلما نقول: ذهبتم إلى الرحلة من دوني. أي تركتموني وذهبتم. حين تعلنون وتشهرون أيها المشركون لما زعمتم أنهم آلهة تاركين الإعلان والإشهار عن الإله الحقيقي، فادعوهم، {فَلَا يَمْلِكُونَ}، أي ليس لديهم قدرة ولا استطاعة على {كَشْفَ الضُّرِّ}، فالضرر هو الشيء المؤذي لكم حين يكون ساترا لحالتكم العادية وتريدون ذهاب الضرر ليظهر الخير، والذين زعمتم ودعوتم وأعلنتم وأشهرتم لهم أنهم آلهة ليس لديهم القدرة على إزاحة الضرر عنكم، فإذا أصابتكم أحوال سيّئة نتجت عن أمور تحصل معكم في الحياة من الضائقة المالية أو الصحيّة أو البيئية... فتلك الآلهة التي تعبدونها لن تستطيع فعل أي شيء لكم لأنها ليست آلهة حقيقية.

الزعم هو وصف حالة القائل لشيء ولا يستند على صحّته بدليل، بل مجرد قوله له هو الدليل، فهذا زعم، وهذه هي حالة الذين يقولون عن غيره تعالى أنهم آلهة، فهذا زعم، وهذا شيء لا يستند إلا على قولهم. وطبعا هذا لا يعني أن كل زعم هو غير صحيح، ولكن حين لا يكون للكلام مستند إلا قول قائله فهو موصوف بالزعم.

{وَلَا} يملكون لكم {تَحْوِيلًا}، فآلهتكم لا تستطيع تحويل الضرّ، أو إبعاده عنكم إلى ناحية أخرى أو تحييدكم أنتم عنه، فلنقل مثلا لتقريب الصورة إنَّ عاصفة قادمة باتجاهكم فتلك الآلهة التي تدعونها لا تستطيع تحويل مسار العاصفة لتذهب في اتجاه آخر بعيد عنكم. وبعبارة أدق فإن كانت الظروف تسير باتجاه حصول ضرر لكم، وأنتم لستم قادرين على صرفه عنكم، وفي هذه الحالة صرفه عنكم يحتاج لقدرة إلهية، فالذين تزعمون أنهم آلهة من دونه تعالى، وتعلنون وتشهرون أنهم آلهة، هم فعليا وفي الحقيقة لا قدرة لهم على فعل أي شيء من مستوى إلهي. سواء طلبتم من آلهتكم المزعومة كشف الضرّ، أو اعتقدتم أن آلهتكم وبناء على إيمانكم بها ستتدخّل لكشف الضرّ، فلن يحصل شيء من مستوى إلهي منها.

نتذكّر وجود أنواع كثيرة من المشركين، فبعضهم يعبد الكواكب، وآخرون يعبدون النار أو الطبيعة أو الأرواح أو الأصنام أو أشخاصا مقدّسين... والآية هنا لم تحدد مع أي نوع تتكلّم لأنها تقصدهم كلهم يزعمون ويدعون ويشهرون ويعلنون عن آلهة غير الله تعالى.

لنتوسّع بالكلام عن الدعاء، فحين نقرأ آيات تذكر كلمة "دعاء" ومشتقاتها، فعادة ينصرف ذهننا لتفسيرها على معنى طلب تحقيق شيء لنا، علما أن هذا نادر في القرآن بعكس الكمّ الهائل المنتشر بيننا لتفسير العديد من الآيات على هذا المعنى غير الصحيح لكلام القرآن.

استعمل القرآن كلمة "دعاء" ومشتقاتها على معناها العمومي: الإعلان والإشهار. وواحد من تطبيقات هذا المعنى أن تعلن وتشهر عن شيء تريده وترغب من الآخرين تحقيقه لك. ولكن غالبية كلام القرآن ومنه آيتنا هنا، لم يقصد المعنى الاشتقاقي بل قصد صراحة الإعلان والإشهار عنه تعالى أنه الإله الأحد، أو الإعلان والإشهار عن غيره تعالى أنهم آلهة.

الآن أعد قراءة آيتنا هنا، محاولا نزع معنى كلمة دعاء على معنى الطلب من فكرك، وسترى أن الآية تشير لما قلناه.

للأسف أنا مثل غالبية المنتمين لدينه تعالى متشرّب بثقافة غير صحيحة تجعلني مثل الآخرين أفسّر كلامه تعالى من خلفية ثقافتي، وفي هذه الدراسة المعتمدة على ظاهر كلام القرآن تبيّن لي السوء في الكثير من أساسيات وتفاصيل أمور منتشرة بين كل المسلمين، وسأحصر الكلام هنا عن السوء في فهم الآيات القرآنية التي استعملت كلمة دعاء، وما نتج عن ذلك من ثقافة وأبحاث...

بعكس ما هو منتشر بيننا، سبحانه وتعالى في قرآنه لم يرد أن نبني تديّنا على أساس الطلب منه تعالى وتحقيق ما نريده، ونؤمن بدينه ونصلّي ونصوم... ويصير لدينا منحة من هذا، وندعو طالبين منه تعالى تحقيق أمور نريدها، وحتما يستجيب تعالى لطلباتنا لأننا مؤمنون ملتزمون بدينه... لا، فهذا ليس الإيمان والتديّن الذي طرحه القرآن، وهذا ليس إيمانا به تعالى، بل إيمان مختلف بشيء مختلف، وأقرب ما يكون للإيمان بجني الفانوس السحري الخرافي، الذي تطلب منه فيحقّق لك ما تريد.

ما طرحه علينا تعالى في قرآنه هو المعلومات الصحيحة عنه تعالى وعن قراراته، مدعومة بالأدلة "الآيات"، لنؤمن بها لأننا سنراها حقّا إن كنّا محافظين على سلامة قلوبنا بدرجة مقبولة، ويعرض علينا الصالحات في الشريعة والسلوكيات، مع تبريراتها لنرى صلاحها ونرى فساد ما ينهى عنه تعالى، ونتّخذ كلامه تعالى شريعة وسلوكا لأننا نراه صالحا إن كنّا محافظين على سلامة قلوبنا بدرجة مقبولة.

أمّا ما يقوله الناس عن أمور أخرى، ومنها أن نؤمن ونلتزم بدينه تعالى ليرضى عنّا ونصير من أتباعه ويعتني بنا... بغض النظر عن الحقّ والصلاح، أو حتى يصير لدينا سلاح الدعاء لتحقيق ما نريده بمجرد الطلب منه تعالى، فهذا ليس دينه تعالى بل دين آخر مختلف.

الكثيرون من الناس يعتقدون أن التديّن بدين ما يجب أن يحقّق لنا هذه الخاصية، فيصير لنا دعوة مستجابة لتحقيق ما نريد هنا في الدنيا، وإن لم يحدث ذلك من تديّننا، فهذا الدين لا قيمة له...!

حتى العديد من المؤمنين العاملين للصالحات بدرجة مقبولة "في نظري"، تراهم في خلفيتهم الثقافية يعتقدون بأن المؤمن لديه سلاح الدعاء الذي إن أراد استخدامه، فسبحانه سيحقّق له حتما أي شيء يريده، ويعتقدون بأن الذي لا يشعر بذلك، أو لم يصل إلى هذا المستوى من الطلب وتحقيق ما طلبه، فهذا في إيمانه ضعف! بل بعضهم يعتقد بأن الإيمان العالي يجعل لدى المؤمن قدرات ليفعل أي شيء يريده! فيقول للشيء كن فيكون! علما أن صريح القرآن لسيرة الأنبياء مرّت فيها نوادر من فضله تعالى على بعض الأنبياء وفي ظروف خاصة جدا، حيث أجرى تعالى على أيديهم بعض الآيات، وأمّا بقية سيرة حياة الأنبياء المذكورة في القرآن فهي خالية من أي شيء مما يقوله الناس عن قدرات غير عادية يحصل عليها المؤمن كتحصيل حاصل من إيمانه العالي...

أكرر لك الخلاصة من الكلام والذي سيغنيك عن ذكر ما قاله الناس من مفاهيم غير صحيحة ومن تفاسير غير صحيحة لكلامه تعالى، فالدعاء منه تعالى طلبا لتحقيق شيء نريده هنا في الدنيا، ليس شيئا أساسيا من أساسيات دينه تعالى ولا إجباريا كنتاج من الإيمان به تعالى، بل هو حالة استثنائية جدا جدا. وهذا لا يعني أنه تعالى لا يعتني بشكل خاص بالمؤمنين العاملين للصالحات، ولا يعني أنه تعالى لا يستجيب لهم إن طلبوا منه، لا، ولكن ما حصل من استجابة وتحقيقه تعالى لبعض طلبات بعض المؤمنين، فهو حالة خاصة رأى تعالى بحكمته مناسبة تحقيقها...

الآية هنا بكلامها العمومي أيضا تتضمّن حكما أن دعاء المشركين لآلهتهم لتحقيق نفع أو كشف ضرّ، أيضًا لا نفع منه، وهذا من تبعات الكلام وليس المعنى المباشر لكلام الآية.

انتبه جيدا من أي آية استعملت كلمة دعاء ومشتقاتها، فلا تفسرها على معنى الطلب لتحقيق شيء، فهذا أقل وأندر ما استعمله القرآن، وانتبه من أي كلام أو مقال أو كتاب... يفسّر كلمة دعاء في آية ما على معنى الطلب منه تعالى، وراجعها في دراستنا هذه، بل وقوّم معناها أنت بناء على ما قرأته هنا لترى إن كنت أنا ذات نفسي غفلت وانسابت مني خلفيتي الدينية لتحكمني مفسرا كلامه تعالى بغير معناها الظاهر من الكلام الصريح.

(أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً{57})

{أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ}، من سياق الجملة تعلم أنها تشير للذين حقّا يعلنون ويشهرون لإلههم الحقيقي، وبالتالي لدعائهم قيمة فهو حقيقي لأنهم يدعون ويعلنون ويشهرون أن الله الإله الواحد الأحد، وهؤلاء، {يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ}، يبحثون ويجتهدون فيما يكون كطريقة للوصول إلى رضا المسؤول عنهم من مستوى إلهي، {أَيُّهُمْ أَقْرَبُ}، يفكّرون ويبذلون جهدهم متنافسين بين بعضهم ليكونوا الأقرب إلى مرضاته تعالى، {وَيَرْجُونَ}، يتوقّعون شيئا يرغبون به،

{رَحْمَتَهُ}، عنايته تعالى بهم لما فيه مصلحتهم، {وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ}، حيث لديهم شعور بأن الضرر الإلهي بهم لا يمكن تجنبه إذا صدر قرار إلهي بحصوله.

{إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ}، فعلا إن الضرر الذي يصيب الناس من المسؤول عنهم من مستوى إلهي، {كَانَ مَحْذُورًا}، ويجب الانتباه منه والابتعاد عمّا يسبّبه.

لاحظ وانتبه دمجا مع الآية السابقة وعموم كلام القرآن، الآية هنا لا تقصد أنهم يدعون ويطلبون منه تعالى تحقيق شيء لهم، بل تقصد أنهم يعلنون ويشهرون أنه إلههم الواحد الأحد، ويعملون جهدهم للتقرّب منه وحده تعالى، ويرجون رحمته ويخافون عذابه.

وبناء عليه ابتغاؤهم الوسيلة ليس كلاما عن وسيلة ليحقّق لهم تعالى طلباتهم، وهذا شيء لا ترى له أي أثر في القرآن، بل كلام عن السبق في الإيمان كما ورد في الآية 12 من سورة الزمر {وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ}، وعن المسارعين في الخيرات كما ورد في الآية 61 من سورة المؤمنين {أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}، فهذا هو العنوان وأمّا الطرق فهو فعل كل ما هو صالح.

بعض التفاسير تقول بأن الآية هنا تقصد بالوسيلة أشخاصا كواسطة بيننا وبينه تعالى، سواء واسطة للتقرّب منه تعالى أو واسطة ليستجيب لنا تعالى أدعيتنا ويحققها لنا. وكما ترى من كلّ القرآن من أوّله لآخره وبشكل صريح جدا جدا: لا يسمح الله تعالى ولا بأي شكل من الأشكال أن ندعو ونعلن عن غيره تعالى إلها، سواء اعتبرناه إلها أو مقدّسا أو وليا صالحا... ونقل القرآن عن بعض المشركين أنهم يعبدون آلهتهم لتقرّبهم إلى الله تعالى، كما ورد في الآية 3 من سورة الزمر {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى...}، وساوى بهم بعض أهل الكتاب الذين جعلوا قديسيهم أربابا كما ورد في الآية 31 من سورة التوبة {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، ومعلوم أنهم قالوا فقط عن النبي عيسى(ع) أنه إله ولم يقولوا عن قديسيهم أنهم آلهة، ولكنهم ربّبوهم، وأعطوهم صفة ربوبية من مستوى إلهي، حيث صار لديهم قديس شفيع للمرضى وآخر للجرحى وغيره للمعاقين، وذاك للسفر والآخر للتجارة...

أقول لك هذا لأن بعض المسلمين أعاد إحياء تربيب القديسين بنسخة منقحة، ودعموها بآيات من القرآن منها آيتنا هنا، وما ورد في الآية 35 من سورة المائدة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ...}، وفسروا الوسيلة إليه تعالى بأنها الدعاء والنذور والصدقات... عن روح الصالحين، وفسّروها بزيارة قبور الصالحين... بل بعضهم ينذر ويدعو طالبا مباشرة للصالحين!

سأنقل لك ما ذكرناه في دراسة الآية 35 من سورة المائدة:

في بعض ثقافتنا الدينية تجد من يقول عن الوسيلة هنا أنها أشخاص يجب التقرّب منهم ويكونون وسيلة لك إليه تعالى، وهذا معنى يرفضه القرآن بل ويحاربه، ويأمرنا من أوّله وآخره بالعمل على التقرّب منه تعالى لوحده، مع التأكيد على حبّ وولاية المؤمنين، ومع التأكيد على أن حبّ المؤمنين وولايتهم شرط من شروط الإيمان... ومن بعد ذلك هم ليسوا وسيلة إليه تعالى على معنى كون التقرّب منهم شرطا للتقرب منه تعالى، ولا على معنى أنه تعالى يستجيب لأدعيتنا بشكل أسرع وأضمن إن اعتبرناهم وسيلة لنقل أدعيتنا إليه تعالى.

لا من ظاهر القرآن ولا من وحيه يمكن أن تفهم منه ما يقولونه عن التقرّب إليه تعالى عبر أشخاص، بل من الواضح جدا جدا تنبيهه تعالى وتحذيره وإنذاره من هذه السلوكيات.

هل هذا يعني أن زيارة قبور الصالحين ممنوعة؟ لا، لأنّ زيارة القبور مستحبة لتذكّر الموت وهناك أدعية مأثورة واستحباب لقراءة القرآن عند القبور... والممنوع اتخاذهم الصالحين أربابا، أو شرطا كأبواب وممرات إجبارية للوصول إليه تعالى، أو التوجّه إليهم بأي شكل من أشكال الدعاء الذي حصره القرآن بالتوجّه إليه تعالى... من شفاء وطلب للرزق...

تلاحظ أشهر الأدعية الموثوق صدورها عن النبي (ع) كالجوشن، وعن العليين الإمام علي بن أبي طالب وحفيده علي السجاد، بالدعاء المسمّى باسم ناقله كميل، وبصحيفة أدعية تسمى بالسجادية، تلاحظ أنها بعيدة كل البعد عمّا تراكم من

ثقافة الكثير من المؤمنين من التعامل مع الصالحين بالتقديس كوسائل إليه تعالى لدرجة لا ترى فيها فرقا عن ممارسات المسيحيين مع قديسيهم... ولبعض المسلمين قديسون من الصوفيين والعرفاء والدراويش... ولديهم ثقافة من الأدعية والحركات والأفعال... التي ليست مشهورة كديدن سلوكيات للأنبياء، والقليل النادر مما يفعلونه تجد له مصدرا ما ينسبه لنبي ما، ولكن تلك السلوكيات كما جمعوها لتصير مذهبا، لن تجد نبيا فعلها والتزم بها كما يفعلون هم!

(وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِك فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً{58})
{وَإِن مِّن قَرْيَةٍ}، لا يوجد أي مجتمع من الناس، كثيرًا كان أو قليلًا، مؤمنين أو مشركين، {إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا}، مستنفدون حياتها، وسنميتها، {قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، لن يَبْقَ أحد على قيد الحياة حتى زمن القيام من الموت، فالكل سيموتون قبل ذلك.

الآية تتحدّث عن المجتمعات البشرية بشكل عام، وكما تعلم من حولك عن الشعوب التي ماتت، وعن أجدادك الذين ماتوا... فهذا ما تقصده الآية، وهي تتحدّث بطريقة الجمع لأنها تتحدّث عن أي مجتمع كان، مؤمنًا أو كافرًا، ونحن نعلم أن كل نفس ستموت كما تكرر في القرآن ومنه الآية 57 من سورة العنكبوت {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}، والآية هنا تقول نفس الشيء ولكن التركيز على مجتمع من الناس، قرية. فلا يذهب فكرك أن الآية تتحدّث عن أشياء تحصل قبل يوم القيامة بقليل، لا، فهي تتحدّث عن كل تاريخ المجتمعات البشرية من أولها لآخرها، فهذه حالها، فكلها ستموت بالهلاك باستنفاد حياتها، بانتهاء حياتها، سواء بالمرض أو الحرب أو الشيخوخة...

إمّا أن تنتهي حياة بعض المجتمعات بشكل طبيعي، {أَوْ مُعَذِّبُوهَا}، نقرر أن نعذّب القرية، ونحكم على بعض القرى بحصول ضرر يهلكهم هنا في الدنيا لأنها كانت تقوم بعمل سيئ جدا، ويعذبها سبحانه، {عَذَابًا شَدِيدًا}، بشكل لا يمكنهم ولا بأي طريقة الاتقاء أو النجاة منه، كالضرب بزلزال مدمّر أو بركان عنيف أو إعصار قوي...

{كَانَ ذَٰلِكَ}، الموت بالإهلاك أو العذاب، {فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}، هناك كتاب رئيسي أساسي مسجّل في أسطره ما سيحصل معنا، فما سيحصل فهو محدّد ومعلوم سلفًا عنده تعالى.

نعرف من القرآن بوجود كتاب رئيسي مسجّل فيه كل شيء، وفيه ما سيحصل في المستقبل، فتخطيط وقرارات وأوامر ربنا سبحانه، كلها مسجلة في ذلك الكتاب، وهو ليس من ورق ولا مثل جهاز الكومبيوتر... بل هو مستوعب وحاوية تحتفظ بالمعلومات والتعليمات الإلهية، وتقوم الملائكة (ع) بالاطلاع عليه لتنفيذ أوامره سبحانه كما افترضنا توسّعًا من الآية 79 من سورة الواقعة {لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} التي كانت تشير لنقل الملائكة للقرآن من ذلك الكتاب وتنزيله على النبي (ع). وأي تصور يخطر ببالك عن شكل أو نوعية... ذلك الكتاب، فهو غير صحيح، فلا قدرة لنا على فهم كيفية تسجيل الكتاب لأوامر ربنا سبحانه، وكل شيء يتعلق بنا فهو مذكور في ذلك الكتاب، وكل ما نفعله مسجّل فيه "ويتسجل فيه بشكل خاص"، وكل ما سيحصل معنا فهو مسجل أيضًا... وحتى القرآن والتوراة والإنجيل... هي من ذلك الكتاب.

بالنسبة لكلمة "قرية" فهي تشير لأي مجتمع من الناس، سواء أكانوا كُثرًا أو قلّةً، لديهم بيوت أو خيم، على الساحل أو في الجبال... ونحن الآن لدينا تصنيفات مختلفة لكلمة قرية التي نشير بها لعدد قليل من البيوت، ونشير بكلمة مدينة للعدد الكبير من البيوت، وبلد لمكان شاسع يحوي عدّة قرى أو مدن... ولكن كلّ ذلك في أساس اللغة العربية اسمه: قرية. مجتمع من الناس، وللمدينة والبلد معانٍ عربية قديمة أصلية ليست بالضبط هي نفسها في استعمالنا الحالي.

نلاحظ وجود فكرة غريبة في الكتب ومنتشرة بين عامّة المسلمين، حيث غالبية المسلمين "وغالبية أهل الكتاب" يعتقدون بأنه قبل يوم القيامة ستحصل كارثة عظيمة مهولة تميت كل الناس، والغريب أن ترسّخ هذه الفكرة جعلنا ننحرف في فهم آيات القرآن، فصار ذهننا يصوّر لنا كل آية تتحدّث عن موت جماعي، أو كارثة، أو حدث ضخم... أنها قبل يوم القيامة بيوم أو ساعة...! ودائمًا الصورة في أذهننا عن حدث مرعب سيحصل... والناس تعيشه وهي مرتعبة... والدمار... والموت... وبعده يوم القيامة... علمًا أن كل الآيات التي استوحوا منها هذا المشهد، لم تتحدّث عن وجود أناس أحياء أثناء تبدّل السماوات والأرض! والغريب أن آيتنا هنا، شرد فيها ذهن الكثير من المفسرين ولم يستطيعوا إلا أن يربطوها مع دمار الأرض قبل يوم القيامة! مع أنها تشير إلى كل التاريخ قبل يوم القيامة، من أول التاريخ البشري إلى آخره، ولم تشر إلى آخر الأيام بالمعنى المنتشر بين الناس عن آخر أيام الدنيا.

بقي شيء، فهل وجود كتاب مسجّل فيه كل ما سيحصل معي يعني أني مجبور على تنفيذ شيء مسجّل سلفًا؟ لا، حيث إننا نتوقّع ونحتمل حصول الأشياء وتحصل، وأحيانًا نحسم حصولها بسبب إحاطتنا بالكثير من المعلومات التفصيلية الحاسمة، ويحصل فعلًا ما حسمنا وتوقعنا حصوله. ولتبسيط الفكرة تصوّر نفسك واقفًا على مرتفع ترى منه سيارتين مسرعتين ستلتقيان على مفترق طرق وهما لا يريان بعضهما بسبب الأبنية، والطريق ضيّق، فمن المحسوم عندك أنهما سيصطدمان ببعضهما. الآن نستحضر في بالنا علمه الواسع المحيط سبحانه وتعالى، ونستحضر القدرة الفائقة التي نرى نماذج تطبيقية منها من حولنا في التفاصيل الهائلة جدا جدا من حولنا وفي أنفسنا من جسد ومشاعر وفكر وألوان وظواهر... وضخامة... فسبحانه وتعالى لا يتوقّع ولا يخمّن، بل حسمًا وحتمًا يعلم سبحانه سلفًا ما سيحصل معنا، وسجّله سبحانه في كتاب.

بمثال تقريبي بسيط، عندما ترى كومة أحجار وعمّال... تحتمل بقوّة أنهم سينجزون مبنىً، أمّا سبحانه وتعالى فلا يحتمل ولا يخمّن، من أوّل ما قرّر سبحانه خلق السماوات والأرض، فهو سبحانه سلفًا يعلم أين وكيف ستسير كلّ الأمور فيهما، وبالتفصيل الدقيق الدقيق جدا، حتى الإرادة التي أتمتّع بها لأختار ما سأفعله، سبحانه سلفًا يعلم ماذا سأختار، وحتى لو كنت أنا لا أعلم ماذا سأختار، وحتى لو تعاميت واخترت شيئًا ما وأنا مغمّض العينين... فسبحانه يعلم سلفًا ماذا سأختار.

علمه تعالى بما سيحصل لا يعني بتاتًا إجبارنا ولا بأي شكل على تنفيذ ما كتبه سلفًا، وعلمك سلفًا بالاصطدام الحتمي للسيارتين لا تأثير له على قرار السائقين بالإسراع في طريق ضيّق، فبعلمك بما سيحدث مما تراه أنت لم تجبر السائقين على الاصطدام.

لنتذكّر محور السورة عن حركة تاريخ المجتمعات من نظرته تعالى، وها أنت أمام آية قبلها وبعدها آيات تتحدّث عن حركة المجتمعات وقبل ذلك ركّزت السورة على حركة الأفراد المؤثّرة على حركة المجتمعات.

(وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً{59})

بما أنه تعالى قرّر إهلاك المجتمعات بشكل عادي أو عبر عذاب، فمن الأسباب التي تؤدّي إلى حصول عذاب هو إنكار الحقّ بالكفر به تعالى وبفعل السوء بمخالفة كلامه تعالى، فهل نزول الآيات كان سيسبّب إيمان المجتمعات وبالتالي سيهلكون من دون حصول إهلاك لهم بسبب أمر منه تعالى عبر عذاب يحصل لهم هنا في الدنيا؟

{وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ}، فلا مانع لديه سبحانه من إحداث أمور مميزة من مستوى إلهي، والكلام هنا عن آيات ليؤمن الناس بسببها به تعالى ويلتزموا بدينه، {إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ}، حيث حصلت الآيات "أمور مميزة خارقة للعادة" في الماضي، والناس الأولون الذين كانوا أولا قبلنا قالوا إنها كاذبة وليست مميزة ولا تدل على صحّة دينه تعالى، وبدل أن يهلكوا بشكل عادي، تسبب لهم إنكار الآية بعذاب فوري في الدنيا.

كمثال: {وَآتَيْنَا ثَمُودَ}، حيث صار عند قبيلة ثمود التي كان يعيش معها النبي صالح(ع)، {النَّاقَةَ}، أنثى الجمل، {مُبْصِرَةً}، فيها إمكانية جعلهم يدركون ويفهمون معنى الصورة التي يرونها، حيث يرون الناقة الآية بأعينهم ويفهمون منها معنى الآية التي يلمسونها ويرونها يوميا بينهم تأكل وتشرب وتمشي...

كما تعرف من الآية 154 من سورة الشعراء {مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}، طلب الكفار من قبيلة ثمود حصول شيء مميز يثبت لهم أن صالحا (ع) رسول إلهي، ومن المشهور في الكتب أنهم حدّدوا للنبي صالح(ع) صخرة كبيرة، وطلبوا منه خروج ناقة من تلك الصخرة، والناقة هي أنثى الجمل، وقالوا: إذا تحقق طلبنا فنحن سنؤمن، آتاهم الله تعالى تلك الآية التي طلبوها مبصرة، حيث يرونها أمام أعينهم بشكل واضح، لو كانت نوعا من السحر أو الوهم، لكانت اختفت، ولكنها بقيت أمامهم... وبدل أن يؤمن الذين طلبوا حصول الآية، إنهم بالعكس، {فَظَلَمُوا بِهَا}، لم يكونوا عادلين ولا منصفين بتلك الآية، ولم يكن معهم حقّ بتكذيبها والقول عنها إنها لا تدل على كون نبيّهم صالح(ع) رسولًا منه تعالى، وأنكروها ولم يؤمنوا! بل قتلوا الناقة!

تذكّر دائما أن مسألة خروج الناقة من صخرة لم يقلها القرآن بل هو مشهور بين المنتمين لدينه تعالى، والقرآن لم يعارض هذا المشهور ونعتقد بأنه ضمنا موافق على القصة.

{وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا}، سبحانه حين يجعل الأمور غير العادية والمميزة تحدث، لم يقصد منها أن يؤمن الناس، لأن من يرد الإيمان لا يحتاج لآية من هذا النوع الخارق للعادة تكفيه الآيات التي في خلقته وفي خلقة ما حوله، ويكفيه تماشي فكره ونفسيته السليمتين مع كلامه تعالى، ولكنه سبحانه يقصد من الآيات تخويف الناس من العقاب، يصير عندهم شعور بخطر لا يمكنهم تجنّبه لأن الذي فعل الآية سيكون بقدرة غير عادية، وبالتالي من المفروض أن يخافوا من تهديده لهم بالعقاب.

في ذيل الآية 45 من هذه السورة أطلنا الكلام عن الفكر والنفسية الغالبة عند الناس الذين لا يجدون أنفسهم مضطرين ليكونوا مهذبين لائقين إلا مع الذين يحتاجونهم ويخشونهم، وأن نفس هذه العقلية والنفسية تجعلهم غير مضطرين للإيمان بدينه تعالى والالتزام به إلا إذا خافوه تعالى، وهكذا نفهم آيتنا هنا بأنه تعالى يرسل بالآيات لتخويف الناس من القدير الذي فعل الآية ليروا كم هم عاجزون أمامه وبالتالي ليخافوا من عقابه.

لا تفهم من الآية هنا أنها تشير لفعله تعالى لآيات مخيفة مرعبة، لا، إنَّ إحياء النبي عيسى(ع) للموتى آية، ونفخه (ع) في تماثيل الطير لتدبّ فيها الحياة، أيضا آية... وليست آيات مخيفة بذات نفسها، ولكن دلالتها مخيفة، لأنَّ الذي فعلها أراد أن يريهم بعضا من قدرته من خارج الروتين مما فعله تعالى بخلقهم وخلق بيئتهم، وحين يخوّفهم بالعذاب عليهم أن يخافوا منه لأن التخويف صادر من قوّة قاهرة لا يمكنهم معارضتها أو مقاومتها.

هناك شيء ذكرناه في دراسة الآية 111 من سورة الأنعام {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ}، وأذكره لك هنا، في كلّ القرآن لن تجد فيه أن شخصا ما آمن لأن آية غير عادية حصلت أمامه، طبعا الآية التي نتكلّم عنها هي غير الآيات التي من الأصل أتاحها تعالى لنا، والمنتشرة في خلقتنا وخلقة بيئتنا، نحن نتحدّث عن آية من نوع الآية التي تتحدّث عنها الجملة هنا "خروج الناقة من صخرة" والتي يسميها الناس بالمعجزة، كفلق البحر وتحويل العصا لحيّة أو إرجاع الأموات إلى الحياة أو اخراج الماء من الصخرة... من لم يؤمن بالآيات، بالأفعال الإلهية المميزة في خلق ما في الدنيا وظواهرها وخلقتنا... كما آمن النموذج إبراهيم(ع) وبقية النماذج التي ذكرها تعالى لنا في القرآن من الأنبياء والصالحين، وأراد شيئا خارقا للعادة وغير مألوف حتى يؤمن، فهذا لن يؤمن حتى لو جلبت له كل شيء لأمامه وبين يديه.

لدينا حالة كنت أظن أنها تكسر هذه القاعدة، وهي حالة إيمان السحرة الذين جلبهم فرعون لتحدّي النبي موسى(ع)، ولكن هذا حدس ضبابي غير صحيح، لأنَّ كلام السحرة حين "أعلنوا" إيمانهم برب موسى وهارون، يريك أنهم "أعلنوا" أشهروا أفصحوا عن إيمانهم، ومن الواضح من كلامهم أنهم من قبل كانوا "بشكل ما" مؤمنين، وعاندوا إيمانهم بسبب إغراءات وتهديدات فرعون لهم ليغلبوا النبي موسى(ع)، وتقرأ ذلك صراحة في الآية 73 من سورة طه {إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ}، حيث طفح الكيل حين رأوا آية تأكّدوا أنها إلهية وتثبت أن موسى(ع) رسول، ولم يعد الوضع يتحمّل المعاندة وأشهروا إيمانهم.

هذا مفهوم قرآني يجعلنا نفهم عمق كلامه تعالى عن الآيات التي يطلبها الناس معترضين أو رافضين للإيمان عبر الآيات التي أتاحها تعالى للجميع، هم لم يؤمنوا من معرفتهم بأفعاله تعالى فيما خلقه في الدنيا ويطلبون شيئا آخر، هؤلاء هذا مستواهم، ولن يتغيّر، ولن يؤمنوا ولن يتغيّروا عن كفرهم مهما حصل، وها هو التاريخ حول آياته تعالى وإيمان الناس، لن تجد فيه ولا شخصًا آمن لأن "معجزة" لأن شيئا غير عادي حصل أمامه أو سمع به، من الأصل يكون عند الشخص إيمان، أو ميول للإيمان، أو بذرة بياض إيمانية في قلبه... فهذا ستساعده الآية على تنمية إيمانه، أمّا الآخرون مرضى القلوب من العيار القوي، فلم ولن تجعلهم الآيات يؤمنون لأنهم لديهم قرار عميق صلب أن لا يؤمنوا، وأن يتعاموا ويصمّوا عن الآيات مهما كان نوعها.

بقيت نقطة سنتوسّع فيها قليلا، فرضا لو لم تحصل ولا آية من تدخّل إلهي غير عادي عبر كل التاريخ، وجاءنا منه تعالى فقط كلامه عبر رسله وكتبه، فمن سيؤمن؟ صرت تعلم أن الأمور غير العادية "المعاجز" لن تجعل أحدا مؤمنا، وتعلم أن من لديه قلب سليم بدرجة كافية، فهذا سيؤمن من مجرد سماعه للكلام الحقّ، ولن يطلب آية ليؤمن، يكفيه

تمييزه للحق من الباطل والخير من الشرّ والصلاح من الفساد... ليرى أن كلامه تعالى عبر رسله وكتبه، كلام حقّ، ويكفيه ما يراه في خلقته وخلقة الدنيا كدلالة على الإله الواحد الأحد ذي الصفات الحسنى والقدرات الفائقة، ويكفيه ما هو مزروع فيه من تعلّق به تعالى عند الوقوع في حالات حرجة يحتاج فيها للمساعدة من قدرة إلهية...

الآن نسأل، ما هي الآية التي سيطلبها الناس ليؤمنوا؟... فكّر فيها قليلا وسترى أنهم إما سيطلبون شيئا شبيها بما فعله تعالى ومذكورًا في كتبه، كالطوفان وتحويل العصا لحيّة أو انشقاق البحر أو مبيت أحدهم في بطن الحوت... أو سيطلبون شيئا لم ولن يفعله تعالى لأنه لا معنى عقلاني له، فيطلبون جعل الدنيا في بيضة دجاجة أو أن يصنع تعالى دائرة مربعة... أو يطلبون أمورا مستحيلة كرؤية الملائكة الآن... أو يطلبون رؤية الآخرة... لأنَّ طبيعة تكوين الملائكة لا تتيح لنا رؤيتها الآن، والآخرة أصلا ليست موجودة الآن.

أو سيتذاكون ويطلبون شيئا خارقا لم يفعله تعالى، ويريدونك أن تطير أو تختفي أو...

فكّر قليلا بذلك وسترى أن المشكلة ليست في الآيات أو نوعها، هم سيصيرون كالأطفال في تخيلاتهم وطلباتهم، ولكن المشكلة في العقلية التي تمنعهم من قبول الحقّ، هل يريد آية ليتوقّف عن الغش والكذب والتعدي على الآخرين...! يقول لا، هذه أمور أؤمن بأنها حقّ، ولكن حتى أؤمن بدينك وقرآنك أريد آية... نسأل من جديد: ما الذي لم تؤمن به من القرآن؟ ألم يكفك خلق ما في الدنيا وتريد عملا مختلفا لتؤمن بقوّة فائقة وتثبت لك أنه الإله؟...

يمكنك إكمال الكلام من عندك في بقية التفاصيل التي تعلم أنه تعالى لم يأمرنا بها إلا لمصلحتنا وسعادتنا في الدنيا وبعدها والأهم هي نفسها لسعادتنا في الآخرة.

ها هي صارت عندك صورة كاملة عن الموضوع، وصرت ترى أن الآيات "المعاجز" التي فعلها تعالى، كتحويل العصا لحيّة..." لم يقصد منها سبحانه أن يؤمن الكفّار من الناس، لأنه تعالى يعلم أنهم لن يؤمنوا، ولكن قصد منها أن نرى ونأخذ علما بأثرها علينا، حيث إنها لن تنفع من لا يريد أن يؤمن.

من جانب آخر هناك من يصف كلام القرآن عن بعض الأمور الغريبة بأنه كلام أساطير لم تحصل في الحقيقة، من يستطيع البقاء في بطن الحوت لثلاثة أيام كما قيل عن النبي يونس(ع)؟ وهل ينفلق البحر أم تتحوّل العصا لحيّة! ما هذه الخرافات التي تريدوننا أن نؤمن بها!

لاحظ وانتبه، لو سبحانه من الأوّل لم يأت للبشرية بأي آية، لقالوا: نريد آية. علما أن الذين أتتهم الآية لم يؤمنوا، والذين لم تأتهم الآية قالوا إنها أساطير، وإذا سألتهم عن رأيهم عن نوع الآية التي لو حصلت لآمنوا، لأعادوا عليك اقتراح حصول الآيات السابقة أو حصول شيء يشبهها أو طلبوا شيئا مستحيلا حصوله لأنه ليس عقلانيا.

حين تقول لهم عن آية حصلت سابقا، سيكفرون بها مستهزئين لأنها لا تدخل في الرأس. هي نفس النقطة يدورون حولها، ويريدون شيئا عجيبا ليؤمنوا، وإن حصل، لن يؤمنوا، وإن سمعوا بحصوله قالوا إنه كذب لأنه مستحيل!

هكذا ترى معنى كلامه تعالى حين أخبرنا مرارا وتكرارا أنه عادة لا يستجيب لطلب الناس لآية لأنهم لن يؤمنوا حتى لو حصلت، ولأن الآخرين حين يسمعون بها سيقولون عنها أساطير.

الآيات "المعاجز" القليلة التي حصلت، هي غالبا على مستوانا نحن، ما يقولون إنه كلام سخيف طفولي أسطوري... هو عقليتنا نحن ورغبتنا نحن وليس من فعله تعالى بناء على إظهار قدرته لنا، لأنَّ خلقه تعالى لما في الدنيا أكثر من كاف لإثبات ذلك.

(وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً{60})
تعقيبا على حالة أنّه تعالى لن يرسل بالآيات "المعاجز" لأنها لا تغيّر الناس ليؤمنوا، وما جرى بعد الآية التي حصلت معك أيها الرسول محمّد بإسرائك هو نموذج...

{وَإِذْ قُلْنَا لَكَ}، أيها النبي محمد(ع): {إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ}، إنّ المسؤول عنك من مستوى إلهي أحاط بهم بعلمه وبسيطرته عليهم، وحرفيا معناها أنّه سبحانه موجود في كل الجوانب من حولهم، ونفهمها أنّه سبحانه يعلم ويراقب ويسيطر على كل شيء، ولذلك أخبرك سبحانه سابقا وهنا أنّه قرّر أن لا يرسل بالآيات "وبتعبير عاميّ هي المعاجز، الخوارق كما يقولون"، لأنها لا تنفع مع من لا يريد أن يؤمن ولا يحتاجها من يريد أن يؤمن.

{وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ}، فالصورة المحدّدة التي حصلت معك، كانت فتنة للناس، وكانت شيئاً يتعرضون له ويحصل لهم تغيّر بسببه، وهي امتحان واختبار لهم، وفي أوّل السورة علمنا أنّ النبي (ع) أسرى به سبحانه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ولم يكن مغمَّض العينين، بل رأى المسجد الأقصى، وعندما عاد(ع) إلى مكّة أخبر الناس بما رآه، وهكذا صار ما رآه فتنة للناس، فبعضهم اشتدّ إيمانه، وبعضهم زاد كفره وتكذيبه، {وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ}، حيث إنّ هناك أناساً متفرّعين من بعضهم البعض بالكفر فهم شجرة، وهم ملعونون مطرودون من الرحمة الإلهية، ولعن القرآن بعض اليهود ولعن الكفّار والمشركين والمنافقين والفاسقين، وهم كلّهم شجرة، وأصلها إبليس كما ستعرف من الآية التالية، وفرعها بقيّة الشياطين من الجنّ والإنس المشركين والمنافقين والفاسقين، وهذه الأفرع من هذه الشجرة وقعت في الفتنة أي سقطت في هذا الاختبار.

هذه آية حصلت معك، وهي آية الإسراء، وأردنا منها فتن الناس، تعريضهم لما يغيّرهم، حيث هناك من سيؤمن بها وهناك من سيكفر بها، و{الشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ}، طبعاً ستكفر بآيتك.

{وَنُخَوِّفُهُمْ}، فنعرض على هؤلاء الناس أشياء تسبب لهم الشعور بحصول خطر أكيد، بالتعذيب هنا في الدنيا، وبالتعذيب بالنار في الآخرة، ولكن التخويف بدل أن يجعلهم يؤمنون، بالعكس، {فَمَا يَزِيدُهُمْ}، التخويف، {إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا}، تعدّياً وتجاوزاً لأوامر الله تعالى، فيطغون بشكل كبير! بشكل مفرط في العصيان! وسبحانه يرسل بالآيات تخويفا كما قالت الآية السابقة، ولكن حتى هذا له مفعول عكسي مع من لا يريد أن يؤمن، مما يزيد طغيانهم!

إذن، هذا الإسراء نموذج عن آية، وحصل معك ونقلته للناس، ولكن لم يؤمنوا! ونستنتج أنّ النبي(ع) برهن للناس أنّه فعلاً ذهب إلى المسجد الأقصى، فهم يعرفون النبي محمد(ع) جيّداً، ويعرفون أنّه لم يسافر في حياته من قبل أبداً إلى هناك، ويبدو أنّه (ع) وصف المسجد والمكان لهم... وبرهن لهم أنّه كان هناك، ولكن لم تنفع هذه الآية مع {الشَّجَرَةِ الْمَلْعُونَةِ}.

هناك روايات كثيرة عن منام رآه النبي(ع) عن قردة يصعدون وينزلون عن منبره... وفسّروا الآية هنا بتلك الرؤيا، فانتبه حيث إنّ هذه السورة نزلت في مكّة والمنبر بناه المسلمون فيما بعد بعدّة سنين في المدينة، وفي دراستنا هنا لم نركّز على دراسة الروايات من حيث صحتها أو سقمها، معناها وقصدها، تفسيراً أو تطبيقاً للقرآن... ورفضنا في دراستنا هنا أي تقطيع للسور، فرفضنا ما قالوه عن نزول آيات السورة الواحدة بشكل متداخل متفرّق مع سور أخرى، وأكّدنا أنّ السورة تنزل وبعد انتهائها بالكامل تبدأ سورة أخرى بالنزول، لأنّه وكما ترى من نموذج آيتنا هنا، القول بتداخل نزول آيات السور فيما بينها سيجعلنا نفقد معنى السورة، ونفقد التركيز على موضوعها الأساسي.

وهذا الكلام لا يعني تكذيب رواية رؤيته (ع) لمنام يريه المستقبل عن فسقة فجرة سيتولّون حكم المسلمين من بعده، ولكنّه فصل لتلك الروايات عن كونها سبباً لنزول آيتنا هذه.

نرجع للسورة، حيث ستنقلنا الآيات مباشرة إلى قصّة أساس {الشَّجَرَةِ الْمَلْعُونَةِ} التي تنبع منها هذه النوعية السيئة من الناس المكذّبة للآيات:

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً{61})
بعد حديث السورة من أولها إلى هنا عمّا قضاه سبحانه... ووصلت في الكلام إلى شجرة "من الناس" ملعونة، مطرودة من الرحمة الإلهية لأنها رافضة للحقّ وفاعلة للسيئات، لنرى كيف تَأَسَّسَتْ هذه الشجرة الملعونة، ومتى بدأ التكليف للبشر بما قضاه تعالى لهم من توحيده و{وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}... وقبله نرى نَمُوذَجاً بَارِزاً عن الذي قرّر الكفر بالرغم من رؤيته للملائكة والعيش معهم...:

{إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ}، قال سبحانه لكائنات موصوفة بأنها تملك شيئاً، ومن القرآن نعلم أنها تسمية لكائنات مختلفة في تركيبتها وتكوينها عن البشر، ولديها حريّة إرادة، ولا تَعْصِي الله تعالى أَبَداً، وَتُدَاوِمُ على التسبيح والتحميد لله تعالى... وليس لديها غرائز وشهوات الجسد البشري، وهي أنواع عديدة، وبقدرات مختلفة... وَيَمْلِكُونَ هذه الصفات ويملكون قدرات عالية منحها تعالى لهم... قال سبحانه لهم:

{اسْجُدُوا لِآدَمَ}، عَبِّرُوا عن فائق احترامكم وتقديركم للإنسان الذي اسمه آدَمُ(ع).

كما تعلم فالإنسان لديه شهوات وغرائز تدفعه لتلبية حاجاتها، فهو بحاجة للطعام والملبس والمسكن والزوج... فإذا أمره تعالى بترك فعل هذا النوع من الطعام أو ذلك النوع من الشراب، أو تلك العلاقة الجنسية... فهذا الأمر سيصطدم برغبات وشهوات الإنسان، فإذا أطاع الإنسان ربه، وترك تلك الممنوعات، فهو يحارب شهواته طاعة لربه، أمّا الملائكة(ع) فلن يحصل معها شيء "كهذا"، لأنه لا يوجد لديها الشهوات أو الرغبات التي لدينا والنابعة من جسدنا الطيني... ولذلك، وَلِمَعْرِفَةِ ربنا سبحانه أنّ هذا المخلوق من نوع البشر والذي اسمه آدم، وبعض ذريته، سَيُطِيعُونَهُ سبحانه في ظروف صعبة... وَلِذَلِكَ فَضَّلَهُمْ سبحانه ورفع قيمتهم فوق قيمة الملائكة(ع)، وأمر الملائكة(ع) بالسجود لآدم(ع) بشخصه وبما يمثّله من أُنَاسٍ طَاهِرِينَ سيولدون منه كما فهمنا من الآية 31 من سورة البقرة "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ".

لا نزعج أنفسنا كثيراً لفهم أو تصوّر كَيْفِيَّةِ سجود الملائكة(ع)، نَحْنُ نَسْجُدُ عندما نقرّب أو نضع جبهتنا على الأرض، كترجمة عملية لمعنى السجود الذي هو تعبير متدرّج من الخضوع إلى فائق الاحترام والتقدير، ولكن الملائكة(ع) لا يُشْبِهُونَنَا في مادة خلقتهم ولا في شكلهم كما نعلم، وطالما لا يمكننا رؤية الملائكة(ع) الآن، ولن نعلم كيف شكلهم، فيكفينا العلم بقيامهم بحركة أو تعبير بما يسمى سُجُوداً بالنسبة لهم، وهي حالة يُعْلِنُونَ من خلالها تقديم احترامهم لأمره سبحانه عبر السجود لآدم(ع).

{فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ}، لَمْ يَسْجُدْ.

نَعْلَمُ من الآية 50 من سورة الكهف أنّ إبليس من الجنّ وليس من الملائكة(ع) "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ..."، ولم يكرّر القرآن ذكر ذلك لأنه معلوم... وإبليسُ قلّد الملائكة(ع) في التفرغ لعبادته تعالى في كل وقته، وَوَصَلَ إلى مرتبة عالية، وصار يقضي وقته مع الملائكة(ع) العالية في سمائها في عبادة الله تعالى، ونعلم من القرآن أنّ الجنّ يمكنهم التواصل مع الملائكة(ع) ويمكنهم الدخول إلى السماوات العالية... وعندما صدر الأمر من ربنا سبحانه بالسجود، وَفِي حينها كان إبليس بين الملائكة(ع)، ولكنه لم يسجد، ليس لأنه من الجنّ والأمر بالسجود متوجّه للملائكة(ع)، فهذا تبرير منطقي لرفضه السجود، سَأَلَهُ ربنا سبحانه كما تعلم من آيات أخرى: لماذا لم تسجد إذ أَمَرْتُكَ؟ وَأَنْتَ هنا تعيش بين الذين يطيعون أوامري ولا يعصوني على أساس أنك مثلهم، فلماذا لم تطع أمري؟ وكما ترى مما نقله القرآن لنا من جواب إبليس فهو لم يقل بأنه من الجنّ وأمر السجود متوجّه للملائكة(ع) لأنه يعلم أنه حيث هو فهو مشمول بأي أَمْرٍ إلهي يصدر لكل الملائكة(ع).

أطلت عليك الكلام لأنه في أدبيات أهل الكتاب منتشر بينهم أنّ إبليس من الملائكة، وَدَخَلَ ذلك على بعض أدبياتنا وتبناه البعض من المسلمين، وفسروا الآية 50 من سورة الكهف بغير ظاهر الكلام منها، فجعلوا لنسبته إلى الجنّ معان أخرى... هَذَا غير صحيح أَبَداً بَتَاتاً ومتعارض مع صريح القرآن الذي مدح مراراً وتكراراً الملائكة بوصفها كائنات لديها حرية الإرادة ولكنها لا تَعْصِيهِ تعالى أَبداً، خذ مثلاً ما ورد في الآية 50 من سورة النحل {يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}.

{قَالَ} {أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا}! أنا المخلوق من مادة النار، فهل من المعقول أن أسجد لآدم المخلوق من عجنة التراب بالماء! من المواد التي ليس لها قيمة؟

رَأَى إبليس نفسه أكبر من هذا المخلوق من طين، بل كان يرى أنّ هذا المخلوق يجب أن يسجد له، لا العكس! فكأنه يرى أنّ البشر مصنوعون من مادة رديئة لا قيمة لها، فَتَصَوَّرْ شخصاً مصنوعاً من المخلفات والنفايات، فهكذا كان ينظر لنا إبليس.

كما نعرف من آيات أخرى، مِنْ بَعْدِ هذه الحادثة طرد سبحانه إبليس من سماء الملائكة، ولعنه فَأَبْعَدَهُ عن رحمته، سَيَتْرُكُهُ يعيش ويعصي، ليحاسبه ويجازيه في يوم القيامة.

هَذَا هُوَ أَسَاسُ {الشَّجَرَةِ الْمَلْعُونَةِ}، وهو إبليس المتكبّر الذي ظهرت حقيقته السيئة عند الفتنة. وكذلك الناس السيئة، الذين هم فروع لشجرة إبليس، وتظهر حقيقتهم عند الفتنة والامتحان، حَيْثُ يأتيهم رسول من ربهم سبحانه، فتظهر حقيقة نفوسهم الخبيثة، فَيُجَادِلُونَ وَيُعَادُونَ وَيَسْخَرُونَ وَيُحَارِبُونَ الرسول الإلهي... وهم بنفس عقلية ونفسية إبليس.

بقي شيء، عَبَّرَ القرآن عن المادة التي خلقنا سبحانه منها بأنها {طِينٍ}، وهذا تعبير يرادف قولنا: من المواد التي على الأرض. فنحن نتألّف من كربون وهيدروجين وكالسيوم وحديد... وفي نظر الجنّ والملائكة(ع) نَحْنُ لا نختلف عن التراب والحائط والثياب والكرسي والشجرة... فنحن من ناحيتنا نرى فرقاً بيننا وبين ما حولنا، أمّا الكائنات المختلفة في مادّة تكوينها عنّا، فهي لا ترى فرقاً بيننا وبين أي شيء من حولنا مركّب من نفس مادتنا، لَاحِظْ أنّ الكثيرين منّا يستغربون للوهلة الأولى عندما تقول أمامهم بأننا مركّبون من كالسيوم وحديد وكربون وهيدروجين... ويذهب فكرهم للمعارضة لأننا من لحم وعظم ودم وأعصاب... الجنّ والملائكة (ع) يروننا تقريباً مثلما نحن نرى المنحوتات الثلجية، فحتى لو لونتها بثلج ملوّن، فكلّها متشابهة، فكلّها من ثلج. بِنَاءً عَلَيْهَا إِبْلِيسُ فِعْلاً يرانا كَتَمَاثِيلَ مُتَحَرِّكَةً من {طِينٍ}، ويتكبّر علينا لأنه مخلوق من {نَارٍ}، وفي رأيه أنّه أرقى منّا بتكوينه... راجع الآية 12 من سورة الأعراف {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}.

(قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً{62})
قال إبليس عليه اللعنة:

{أَرَأَيْتَكَ}، الصورة المحدّدة التي عندك يا ربي عن {هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ}، جعلت له ولذريته قيمة عالية ومقرّباً محترماً عندك أكثر مني حتى أمرتني بالسجود له، {لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، إذا لم تمتني وأبقيتني حيّاً طالما ذريته أحياء حتى يأتي زمن القيام من الموت، {لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ}، سأسيطر وأستملك بالكامل على الذين سينفصلون عن آدم(ع) "بالولادة أو بغيرها"، {إِلَّا قَلِيلًا}، القليل منهم لن أستطيع السيطرة عليهم، وهم الذين سيكونون من المؤمنين المخلصين.

يعني اتركني حيّاً حتى آخر لحظة من حياة آخر واحد من ذرية آدم(ع) وسأبرهن لك أنّهم لن يطيعوك وسيكونون تابعين لي، وهكذا أبرهن لك أنّه هو وذريته ليسوا أفضل مني وسأبرهن لك أنّ معي حقّاً برفضي السجود لهم.

نتذكّر الآية 31 وما بعدها من سورة البقرة، ومنها علمنا أنّ إبليس "على ما يبدو" كان موجوداً أثناء حادثة إنباء آدم(ع) بالأسماء أمام الملائكة(ع)، ومن هناك علم بوجود أناس مخلصين لله تعالى وهم أصحاب الأسماء، وعلم إبليس أنّه لن يستطيع إضلالهم.

مِنَ الآيات 36 و 37 و38 من سورة الحجر {قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}، {قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ}، {إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ}، علمنا أنّ إبليس لن يبقى حيّاً إلى يوم القيامة، فعلى ما يبدو أنّه سيبقى حيّاً حتى آخر إنسان حيّ في الدنيا ولكنه سيموت قبل تبدّل السماوات والأرض، قبل يوم القيامة.

نَتْنَبِهُ، هذه المحاورة بين ربنا سبحانه وبين إبليس لم تكن باللغة العربية، بل بطريقة تعبير لا يمكننا فهمها، وهذه المحاورة نقلها لنا القرآن بعد تحويل مغزاها وفحواها إلى اللغة العربية، فلا يخطر ببالك أنّ إبليس استعمل كلمة: {أَحْتَنِكَنَّ}. لا، ولكنه قصد وعبّر بما يعطي معنى سيطرته على تصرفات البشر، وجرى تعريب ما قاله بالمعنى، ولذلك ترى نقلاً مختلفاً بالعبارات للمحاورات التي نقلها القرآن عن عموم الحوادث التاريخية، حيث في كلّ سورة كان ينقل منها ما يقصده القائل مع التركيز على جانب مما قصده ويتناسب مع موضوع السورة...

نَتْنَبِهُ دائماً للفرق الهائل بين طبيعته تعالى وطبيعة مخلوقاته، حيث يستحيل الكلام معه تعالى مباشرة، وما تنقله الآيات هنا هو كلام منه تعالى من وراء حجاب مع إبليس ومع الملائكة(ع)، والكلام بالنسبة لنا أصوات، ومعلوم لك أنّها ليست الآلية الوحيدة لنقل المعلومات، وغير معلوم لنا تكوين الجنّ ولا الملائكة(ع) لنعلم كيف يتكلمون وكيف يسمعون،

وبالتالي كلامه تعالى معهم من وراء حجاب سيكون بما يناسب تكوينهم، وبالتقريب لما نعلمه نحن سنقول إنّه تعالى يخلق الصوت في شيء ما ليتكلم معهم مثلما خلق تعالى الصوت في الشجرة ليتكلم مع نبيّه موسى(ع).

أمّا بالنسبة لحذف ياء المتكلّم من الفعل {أَخَّرْتَنِ}، فلا باللفظ ولا بالمعنى له تأثير، وكتبوا الكثير من كلمات القرآن بحذف ياء المتكلم، وخاصّةً من كلمة "قوم" وما كان في آخر الآيات من كلمات عديدة، وبمراجعة بعض ما ذكرناه في هذه الدراسة عن كتابة القرآن والفروقات عن الإملاء الحالي، وكمثال عنه مسألة التاء الطويلة في كلمة "امرأة ورحمة وشجرة..."، والتي درسناها في الآية 56 من سورة الأعراف {إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ}، والآية 38 من سورة الأنفال {وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ}، والآية 8 من سورة المجادلة {وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ}...

بَعْدَ قراءة ما درسناه سيتبين لك في مسألة حذف ياء المتكلم من بعض الكلمات، أنّ المعاصرين لنزول القرآن كانوا يستنسبون في بعض الأحيان حذف رسم ياء المتكلم في عموم كتاباتهم، لأنّ الكثير من الكلمات مع ياء المتكلم حين تقف عليها وتنهي الجملة، فعادةً تُسَكِّنُ آخر حرف لاغياً ياء المتكلم حتى لو كانت مرسومة، ولهذا حذف بعض كتّاب القرآن ياء المتكلم من بعض أواخر الآيات...

بِهَذَا النوع من التحليل ستجد تبريرات لما رسموه وخاصّةً انتشار حذف ياء المتكلم من كلمة قومي وربّي... بل ربما تجد تخالفاً في رسم نفس الكلمة بالرغم من تشابه المورد، وهذا شيء تجده أيضاً في عموم بقية الكلمات التي اختلف رسمها في مواضع متنوّعة. وأنت تعلم أنّ هذا لا يعني أي شيء، حيث إنّ المسلمين الأوائل اعتمدوا على حفظ القرآن من لسان إلى أذن، واستعانوا بالكتابة لتنشيط الذاكرة... وكان معلوماً لهم صعوبة قراءة بعض كلمات القرآن بدقة من الرسم لوحده لأنّ آليات الرسم حينها كانت غير كافية، حيث كانت بلا نقاط ولا حركات...

مَا تجده من اختلاف الرسم القديم عن طريقتنا الحالية في رسم الكلمات، فلا تحكم منه على تسمية رسم القرآن بالأخطاء الإملائية، لأنّه خطأ إملائي على معايير عصرنا وليس على معايير العصور السابقة، وبخاصّةٍ ليس على معايير أول زمن رسم القرآن، وحتى ما ورد من رسم متخالف في القرآن لنفس الكلمة وفي نفس المورد فهو نتيجة بداية تطوير علم للكتابة، وبعد اهتمام المسلمين بكتابة القرآن وقراءته، انفجرت علوم اللغة العربية وصار في زمن قصير جدّاً باحثون فيها بالعشرات ثم بالمئات بشكل ربما غير مسبوق في تاريخ البشرية.

خلاصة الكلام أنّ اختلاف رسم القرآن عن القواعد الإملائية لعصرنا سببه تطوّر علوم اللغة حيث من قبل كانت بدائية في عصر نزول القرآن، وبذل الجيل الأول من المسلمين جهداً جبّاراً لرسم القرآن بأقرب طريقة مساعدة على اللفظ، واعتمد جمهور المسلمين على تعلّم القرآن من السماع مما غطّى على مشكلة ضعف الرسم حينها عن إظهار اللفظ الصحيح.

أمّا بعض التبريرات غير اللغوية لفروقات الرسم والتي تجدها منتشرة في الكتب والمقالات والمحاضرات... كتبريرات بلاغية أو عقائدية أو مفهومية... لرسم كلمة ما في القرآن بما يخالف قواعدنا الحالية أو القديمة للرسم، مع العلم بأنّه حين دوّن الجيل الأول القرآن كانت رسوماته مقبولة عندهم، فتلك التبريرات ما أنزل الله بها من سلطان، ولا معنى لها، وليست قاعدة تنطبق على بقية ما ورد... وهي من نوع الترف الإسرافي الخيالي، ومن المعيب هذا المستوى من التعاطي مع كتابه تعالى، وسأنقل لك نموذجاً مما قيل في آيتنا هنا لتنتبه من هكذا نوع من التعامل مع كلامه تعالى: {لَئِنْ أَخَّرْتَنِ} هُوَ التَّأْخِيرُ بِالْمُوَاخَذَةِ لَا التَّأْخِيرُ الْجِسْمِيُّ فَهُوَ بِخِلَافِ قَوْلِهِ {لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ} لِأَنَّ هَذَا تَأْخِيرٌ جِسْمِيٌّ فِي الدُّنْيَا الظَّاهِرَةِ. وكما ترى فلا معنى لهذا الكلام لأنّه مجرّد ترف وزخرف، فهل نزل القرآن مكتوباً منه تعالى حتى صار لرسمه خصائص لها معانٍ؟! أم من البديهي الواضح المعلوم أنّ الجيل الأوّل من المسلمين رسم القرآن بما رآه أنسب للّفظ، فهل فيما رسموه قصدوا هذا النوع من المعاني الغريبة العجيبة؟! حين يخترع البعض هكذا معاني وتبريرات لرسم كلمات القرآن ألم يَنْتَبِهْ ماذا يفعل؟

(قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُوراً{63})

قال تعالى لإبليس:

{اذْهَبْ}، امضِ لشأنك وإلى ما اخترت فعله، {فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ}، من صار من ذرية آدم(ع) على ما تقوله وعصاني وأطاعك، وأشرك بي وخالف كلامي، {فَإِنَّ جَهَنَّمَ}، إنَّ المكان الموصوف بسوء كل ما فيه، وهو المكان المتأجج بالنيران وفيه التعذيب بالضرب والإهانات... {جَزَاؤُكُمْ}، المقابل المعادل على معصيتكم لي، {جَزَاءً مَوْفُورًا}، معادلٌ مساوٍ بالتمام وعلى قدر معصيتكم بدون أي نقصان، وكل عمل سيئ تقومون به سوف تنالون العقاب الشديد عليه، وهذا شيء متوافر في جهنّم. والآية على معنى: لا تشغل بالك فالعقاب الشديد جداً على السيئات الكبيرة جداً هو متوافر في جهنّم. افعل ما شئت من سيئات والعقاب الشديد جداً بانتظارك.

الآن نسأل: إن كان إبليس يسمع هذا الكلام منه تعالى "وحياً أو من وراء حجاب..." عن تهديده بجهنّم، فلماذا لم يتراجع؟ انتبه جيداً، فالوضع لا يختلف عن سماعنا نحن لتهديده تعالى لنا عبر هذا القرآن، ورغم ذلك تجد الكثيرين منا لا يؤمنون، وذكرت سور القرآن مراراً ما فعله إبليس كنموذج لكائن كان يرى الملائكة(ع) في سمائها العالية ويعيش معها ويتواصل "وحياً أو من وراء حجاب" معه تعالى، وعصى، فمن منّا نحن البشر يطلب رؤية الملائكة(ع) ليؤمن حيث أخبره القرآن عن إبليس وما فعله، ومن منّا يطلب نزول الوحي عليه ليؤمن، حيث أخبره القرآن عن إبليس الذي تواصل معه تعالى وحياً أو من وراء حجاب بسبب استحالة قدرة أي مخلوق على تحمّل التواصل المباشر معه تعالى... ولم يؤمن إبليس بوجوب طاعته تعالى وعصى، فلنسأل أنفسنا نحن لماذا لا نطيعه تعالى حيث وصلنا خبر عن عقابه لمن خالف؟!

(وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً{64})
{وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ}، استنهض وحمّس لمعصيتي عبر وسوستك لذرية آدم(ع) من استطعت من البشر، حيث يمكنك المحاولة معهم جميعاً، {بِصَوْتِكَ}، بوسوستك في عقلهم بعموم كلام السوء من الكفر والشرك باختراع آلهة... أو اختراع شريعة باطلة أو السلوكيات السيئة.

{وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ}، وافعل الجلبة الضجيجَ على آدم(ع) وذريته، {بِخَيْلِكَ}، بالذين يركبون وسائل النقل كالخيل "الأحصنة"، {وَرَجِلِكَ}، الرَّاجِلِ، المشاة على الأرجل والأقدام... والتجمعات التي يحدث فيها الضجيج، بأشكاله المختلفة التي تحمّس وتحفّز الجماهير على فعل السوء، كالعروض العسكرية، والحفلات، والحملات الإعلامية... فاستعملها يا إبليس لغواية الناس.

{وَشَارِكْهُمْ}، ليكن لك حصّة من أتباعك، {فِي الْأَمْوَالِ}، حيث يصرفونها بالسوء كما تأمرهم أنت، فتكون أنت بباطلك شريكهم في صرفهم لأموالهم بالسوء.

وشاركهم في {الْأَوْلَادِ}، عندما يربّون أولادهم تربية عاطلة، على الكفر والمعصية، فإنما هم يربونهم بحسب أوامر إبليس.

{وَعِدْهُمْ}، قل لهم عن أمور يرغبون بها أنها ستحصل، مع أنها وعود كاذبة ولن يحصل ما تقوله لهم، ولدينا العديد من التعابير القرآنية التي تترجم هذه الوعود إلى أمانٍ وآمال عندنا بالحصول على السعادة في الدنيا وطول العمر فيها مع السيطرة... {وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا}، في الواقع ما يقوله لهم أنه سيحصل لن يحصل، ولكن بسبب رغبة الناس بما يسمعونه من إبليس فهم ينخدعون به ويرونه كأنه واقع وسيحصل.

نلاحظ استعمال الآية تعابيرَ عسكرية قتالية، حيث اعتبر سبحانه أن إبليس أعلن الحرب على ذرية آدم(ع)، وكما يتم تجييش وتحميس الغوغاء من الناس بالاستفزاز بالخطابة الحماسية، وبأصوات الآلات الحربية، وباستعراض الفرق العسكرية... يتحمسّون للقتال، وهم مندفعون بغرائزهم نحو القتال، ولا يفكّرون بعقولهم بالحقّ أو الباطل، فهذه هي صورة وحقيقة أتباع إبليس في حروبهم ومعاركهم. وفي حالة السلم، إنَّ إبليس يجعل الكثير من الناس يصرفون أموالهم على السيئات، ولا يدفعون ما أمرهم تعالى به من صدقة أو زكاة. ويحصلون على المال من السيئات، من الربا والتسلط والغصب والنصب والغشّ والسرقة... فهذا المال بما أن مصدره ومصرفه سيئٌ فاسد، فإبليس هو الشريك لهؤلاء في

التحصيل وفي الصرف. وبشكل عام، وعود إبليس وتغريره للناس، بحيث يجعلهم ينسون الآخرة، ويتأمّلون ويتوقّعون الحصول على السعادة فقط في الدنيا، فهي وعود تغريرية ولا شيء منها حقيقي.

هذه حالة إبليس في مهمة إضلال الناس، وبذلك تنطبق عليه صفة الشيطان، لأن كلمة شيطان يقولها القرآن عن الذي يقوم بالعمل المضاد والمعاكس لعمل الأنبياء.

ملاحظة: وردت في هذه السورة كلمة الاستفزاز ثلاث مرات، ولم ترد في بقية القرآن، والاستفزاز هو: تعريض شخص ما لظروف حماسية تجعله يغيّر تصرفاته. وهنا يوسوس الشيطان للإنسان العادي فيستفزّه ليخرجه عن حالته العادية العقلانية فيعصي ويقتل ويزني...

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً{65})
...افعل ما شئت، {إِنَّ عِبَادِي}، إنَّ المنسوبين لي بأنهم مفروض عليهم ومنهم طاعتي، وسياق الكلام عن المؤمنين الذين يطيعونه تعالى، {لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ}، فلا يمكنك السيطرة عليهم غصباً عنهم بقدرة قاهرة، ونفس الكلام ورد في الآية 42 من سورة الحجر مع تكملة تركتها الآية هنا لمعرفتك بفحوى الكلام {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}.

إبليس في الأصل ليس له سلطان "السيطرة الغلبة" على أي أحد، ولكن هم يعطونه السلطان على أنفسهم، والمؤمنون لا يطيعونه فلا يعطونه السلطان فليس له عليهم سلطان، والآخرون من تكرار اتّباعهم لوسوسة إبليس، يصيرون تحت سيطرته فيصيرون منقادين له، باختيارهم أولاً، ومع كثرة التمرّس على طاعة إبليس تصير السيطرة التامة للشيطان عليهم، رغم بقاء حرية الإرادة عند البشر، ولكنهم بإرادتهم يصيرون مطيعين وبرغبة منهم لوسوسة إبليس.

بعبارة أخرى، يريدنا سبحانه أن نفهم أنه تعالى لم يجعل لإبليس سيطرة علينا، بل إبليس يعرض علينا السوء، ونحن الذين نسمح لإبليس بالسيطرة علينا، بإرادتنا نطيع إبليس، وبإرادتنا نعطي إبليس القدرة على التحكّم بنا وإدارتنا كيفما يشاء، إلا العباد الحقيقيين فهؤلاء لا يسيطر عليهم إبليس لأنهم لا يطيعونه.

{وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا}، فالمسؤول عنك من مستوى إلهي يكفيك لتسيير الأمور كما يجب. أمّا من لا يتوكل عليه تعالى، فسيكون بتصرّف إبليس.

إذن فالأنبياء وصالح المؤمنين... هم في حماية ربنا سبحانه من وسوسة وإغواء إبليس، أما نحن المؤمنون العاديون، ففي حماية أقل، لأننا نحن لا نملك الإيمان والشعور القوي بالتوكل عليه سبحانه، ونقوم بالسيئات بين الحين والآخر، فكلما قصّرنا بالتزامنا الديني، ابتعدنا عن حماية ربنا سبحانه من وسوسة إبليس.

نتذكر، أن هذه الآيات تحدثت عن أساس الشجرة الملعونة التي تخالف أوامره تعالى، فإبليس كما رأيت في هذه الفقرة هو الأساس، والفروع هم الكفار والمشركون والمنافقون والفاسقون.

بقي شيء، حيث ورد في أول السورة تنبيه على ربط حركة تاريخ المجتمعات بـ"التوكّل" عليه سبحانه، مع أنها كلمة وردت مراراً في القرآن ولكن ورودها هنا في الآية وفي بداية السورة متميّز بالنظر لمحور السورة.

لمزيد من التوسّع حول كلمة "عباد" راجع دراسة الآية 17 من هذه السورة.

(رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً{66})
أخبرتنا الآيات السابقة أنه يوجد كائن مصمّم على إضلالنا للشرك والكفر به تعالى، وتنتقل السورة فوراً لترينا ما فعله تعالى لنا كتنبيه مضاد لوسوسة إبليس الذي يريدنا أن ننسى فضله تعالى علينا:

{رَبُّكُمُ}، المسؤول عنكم من مستوى إلهي أيها الناس، هو {الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ}، حيث تدخل في البحر الفلك وهي وسائل النقل التي تعوم على الماء، كالمراكب والسفن والفلوكة... كما نقول: زجّه في السجن. على معنى وضعه فيما يناسبه، سبحانه هو الذي يجعل الفلك تدخل جرياناً في البحر، حيث صمّم وخلق ما في الدنيا لينتج عنها

ذلك، {لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ}، لتطلبوا الحصول على أشياء أعطاكم إياها سبحانه وليس واجباً عليه سبحانه أن يعطيكم إياها، من صيد الأسماك، والانتقال إلى أماكن بعيدة، ونقل الفلك لأغراضكم... والتجارة... فكل ذلك هو من ربكم سبحانه.

{إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا}، يعتني بكم لما فيه مصلحتكم، ويؤمّن لكم الوسائل التي تجعل حياتكم أسهل وأفضل.

لا تنسَ أن القرآن استعمل صيغة "رحيم" لخصوص المؤمنين، وصيغة "رحمان" لعموم الناس، إذن، أساس عامّة الأمور المتاحة لنا، وكمثال بارز واضح عنها جعل المراكب تسير في البحر لطلب الفضل الإلهي، وأساس جعلها هكذا، كان كرامة للمؤمنين، واستفاد منها بقيّة الناس بالتبعية.

عادةً لفهم أمثال آيتنا هنا يضرب العلماء مثلاً عن قيام الملائكة(ع) بتنفيذ أمره سبحانه بسحب الأنفس من الأجساد عندما نموت، ونقول بأن ملك الموت(ع) فعل ذلك، والملائكة(ع) المُعيَّنين له فعلوا ذلك، ولكن ربنا سبحانه في نفس الوقت يقول إنَّهُ هو من سحب تلك الأنفس. بنفس طريقة فهمنا لعملية سحب النفس من الجسد، أنها حصلت في نفس الوقت من ملك الموت، ومن أعوانه، ومن ربنا سبحانه، هنا نفهم أن جريان المراكب في البحار، سببه "قوانين الفيزياء" لطفو الأشياء على الماء، ومن نظرة ثانية سببه الخالق الذي جعل هذه الخاصيّة في الماء والأشياء.

لكن لدينا تقريب أبسط وأقرب لمعاني الآيات المشابهة لآياتنا هذه، تصوّر نفسك أنت قمت بتصميم وخلق كائنات في بيئة، وكان لديك القدرة على الإكثار من التفاصيل في مخلوقاتك وبيئتهم، وجعلت في الكائنات فكراً وخيالاً... وجعلت بيئتهم فيها قابلية تنفيذ الأفكار والتصورات... بالنسبة للكائنات سيرون أنهم هم صنعوا المركب وقطعوا به المسافات في البحار، وبالنسبة لك أنت من الأساس صمّمتهم وصمّمت بيئتهم وأنت تعلم أنهم سيلاحظون ما حولهم وسيخطر ببالهم صنع الفلك وسيساعدهم على ذلك القدرة التي منحتها لهم والخاصية التي جعلتها في الماء والخشب... هكذا نفهم بسهولة الآيات التي تتحدّث معنا من نظرته تعالى لنا ولما نصنعه ولما حولنا... سبحانه هو سخّر لنا الفلك ونحن لم نفاجئه تعالى بصنع الفلك بل من الأساس جعل تعالى فينا وفي بيئتنا ما سيوصلنا إلى صنعنا للفلك.

ننتبه دائماً إلى أنَّ "الفلك، السفن، المراكب..." هي نموذج عن بقية المنشآت والآلات التي نصنعها، نحن توصلنا إليها عبر قابلية في تفكيرنا وعبر البيئة التي حولنا وليس من ابتداعنا لها من لا شيء، بل عن تخطيط إلهي مسبق لما يمكننا نحن صنعه بهذا الفكر وهذه البيئة، والفلك مجرد نموذج، ويمكنك تعميمه بكل سهولة على الطائرات والسائرات "السيارات" والقاطرات... وكلها بالنظرة العميقة هي من إنتاج إلهي، ونحن ولا بأي شكل يمكننا ابتكار شيء لا يعلمه الإله "أو لم يخطر على باله تعالى"، لا، بل جعل سبحانه فينا القدرة على الابتكار لأشياء معلومة عنده تعالى، وهو سبحانه منحنا بذرة التفكير بها، ومنحنا البيئة التي يمكننا أن نستخدمها لتنفيذ أفكارنا...

لا يَغِبْ عن بالك أن الفلك نموذج من زمن قديم لآلة تحتاج لهندسة وعمل متقن لإنتاجها، فإن كانت في بالك صورة عن السفينة ككومة من خشب تعوم على الماء، فهناك تفاصيل كثيرة واختصاص لصنع السفن كحاوية متحركة بالريح... وخذ مثلاً العارضة تحت السفينة والتي كانت سبباً في صيران الفلك وسيلة نقل فعّالةً للمسافات الطويلة لأنها تمنع السفينة من الانجراف جانبياً... ومعلوم لك الاستفادة الكبيرة للبشرية من استعمال الفلك للصيد وللسفر ولنقل الأغراض... فهي أمور لها أهمية بالغة في حياة البشر إلى يومنا هذا.

(وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً{67})
{وَإِذَا مَسَّكُمُ}، حدث معكم شيء وشعرتم بـ، {الضُّرُّ}، فتغيّر حالكم للأسوأ، ومن تكملة الجملة ترى إشارتها إلى حالة ضرّ وهم في البحر، حيث حصلت عاصفة أو خلل بالسفينة... وفي هذه اللحظة التي أنتم فيها في البحر، وتيقنتم من موتكم، عندها: {ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ}، والكلام هنا مع المشركين الذين كانوا في حياتهم العادية يدعون فيشهرون ويعلنون عن غيره تعالى أنهم آلهة، وفي حالة الوقوع في ورطة يظهر فعلا أنكم لوحدكم وآلهتكم لا يمكنها فعل أي شيء لكم، {إِلَّا إِيَّاهُ}، إلا هو سبحانه وتعالى حيث يمكنه أن يتدخّل لكشف الضرّ، لأن هذا شيء بالنسبة لكم يحتاج لقدرة عالية جدا لا تملكونها للتخلّص من الورطة، {فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ}، سواء بتدخله تعالى أو بتركه الأمور تحدث والتي

لم يكن مقررا منها نهاية أجلكم بالغرق... وعندما أخرجكم سبحانه من خطر الغرق وصرتم على اليابسة، {أَعْرَضْتُمْ}، فاعتبرتم الذي نجّاكم غير مهمّ!

{وَكَانَ الْإِنْسَانُ}، وكان الغالب الأعم من الناس، {كَفُورًا}، ناكرا، وهنا الكلام عن نكرانهم لعمله تعالى عندما نجّاهم من الغرق.

نلاحظ في عصرنا الحالي حالة المسافرين في الطائرة، وكيف يشعر أكثر الناس بضعف شديد، لأنهم معلّقون بين الأرض والسماء، وأي حادث بسيط، يمكن أن تكون نتيجته السقوط والتحطم، فالآية تتحدث عن هذا الشعور بالضعف وقرب الموت.

كثيرا ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، لأنها لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيرا أم شرا، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضلّ عنك صيدها. استعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، حيث لم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون لأنه ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

من المفيد مراجعة ما درسناه في الآية 56 من هذه السورة حول استعمال القرآن لكلمة دعاء ومشتقاتها، وحول الفرق بين ما أرادنا تعالى بناءه كإيمان، وبين ما انتشر بين الناس من ثقافة الدعاء على معنى الطلب منه تعالى لتحقيق ما نريد.

لم يستعمل القرآن تعابير محفّزة للاعتماد على الأدعية بمعنى الطلب منه تعالى لتحقيق أمور نريدها هنا في الدنيا من النجاح والمال والصحّة... وأخبرنا عن طلبات استجاب سبحانه لها وحقّقها لبعض الأنبياء، كطلب النبي زكريا(ع) لولد(ع)، وطلب النبي سليمان(ع) لملك لن يحصل بشري آخر عليه... ولكن بقية كلام القرآن كان عن التوكّل عليه تعالى، وأمّا ما في بالنا من آيات كثيرة نظنّها محفزّة على الدعاء له تعالى بمعنى طلب ما نريد من أمور دنيوية، فهذه فكرة ضبابية غير صحيحة، لأن أكثر الآيات بل غالبية الآيات لم تقصد ما نفسّرها به.

هنا الآية مثلها مثل الغالبية الساحقة من آيات القرآن، حيث إنها لم تقصد الدعاء على معنى الإعلان والإشهار لغيره تعالى أن ينجيهم من الغرق، بل قصدت الإشارة إلى الذين كانوا يدعونهم آلهة، وكانوا يعلنون ويشهرون أنهم آلهة، وهؤلاء ليسوا آلهة فلا قدرة لهم من مستوى إلهي للتدخّل لمنع كارثة يعجز المشركون عن التعامل معها للخلاص منها...

على أي حال، من تبعات الحادثة أنهم ربما يتوجّهون نحو آلهتهم بالدعاء على معنى الطلب منها لإنجائهم، ولكن حتى هذا المعنى لم يرد تعالى جعله واضحا من الكلام، لأن بقية كلامه تعالى الواصف لحالتنا عند الوقوع في الورطات، تشير لتوجّهنا نحوه تعالى فقط ناسين أي شيء آخر.

ضع هذا في بالك وادرس بقية الآيات المشابهة لآيتنا هذه، وسترى أن النموذج الذي ركّز عليه القرآن هو نموذج الداعين له تعالى وحصلت استجابة منه تعالى، أو أصلا لم يكن أجلهم مُنتَهِياً... ولكن الآلهة الوهمية أصلا لا دور لها في الموضوع، وأن الغالبية الساحقة من الناس في أصعب الأوقات وأشدّها قبل الموت، ينسون كل شيء ويتعلّقون به تعالى.

هناك آيات في القرآن تخبرنا أن الملحد والمشرك في حال أصابهما خطر شديد، فإنهما يتوجّهان نحو الله تعالى بالدعاء، وهنا الآية تعطي نفس المعنى، ولكنها بشكل أدق تخبرنا أن أي آلهة أخرى، تضلّ عن الذي تعرّض للخطر، فإذا دعاها فلن تستجيب له، لأنه لا يوجد إله إلا الله تعالى، فلا أحد في تلك الحالة الحرجة يمكنه أن يفعل شيئا "إلهيا" إلا الله تعالى.

ولكن هذا لا يعني أن كل من وقع في ورطة ودعا الله تعالى فسينجو! لا، لأنه من البديهي أن الناس تموت من الحوادث رغم توجهها بالدعاء نحو الله تعالى، حيث إن الآية هنا نموذج عن حالة شاء فيها تعالى النجاة لأناس يتعرّضون لخطر شديد، وهناك حالات شاء فيها سبحانه أن يموتوا، لذلك أشارت الآية لنموذج الذين شاء تعالى لهم النجاة.

بعبارة أخرى، الإله الحقيقي لديه القدرة على التدخّل في ما يحصل في حياتنا، والله سبحانه يرى نفسه الإله الوحيد في الدنيا كلّها، ويرى أنه وحده يمكنه التدخّل بقدرة من مستوى إلهي في الحوادث، وهو سبحانه يخبرنا هذا الشيء عبر الآية هنا وأمثالها من الآيات، فأي إله آخر كنتم تدعونه إلها، وربما تدعونه ليساعدكم حين تكونون في ورطة، فهو ضالّ عنكم، فلن يصلكم منه شيء يفيدكم لأن الإله الحقيقي فقط لديه القدرة على سماع دعائكم والاستجابة بقدرته الفائقة، وأكرر لك، هذا لا يعني أنه يجب عليه تعالى أن يستجيب إذا دعوته طالبا النجاة من الغرق، لا، بل بحكمته تعالى يقرّر ما هو مناسب. ولاحظ أنه يمكنك من الآية بعد التالية استنتاج هذا المعنى الذي ذكرناه هنا.

بقي شيء، مما يبدو من كلامه تعالى عنّا، ومن القرآن ترى أنه تعالى أمّن لنا ثلاثة طرق رئيسية للتعرّف عليه وللإيمان به كإله واحد أحد، حيث صمّم وخلق ما في الدنيا بحيث يبهرك ما فعله سبحانه، فترى بوضوح أن خالقا فائق القدرات خلقها... وينتج عن ذلك فينا شعور التعلّق به تعالى عند الشدائد، وأرسل تعالى لنا رسله وكتبه... .

في دراسات عن علم النفس تجد تحليل البعض لمسألة إيماننا بالإله أنها من جذور الإنسان البدائي الذي كان يجهل كيفية حصول الأمور من حوله ويرى أنها من أفعال مباشرة للإله الذي يأمر بنزول الماء فينزل، حيث لم يعلم بآليات نزول الماء من تبخّر فتكاثف... فمطر.

كان يخاف من البيئة بظواهرها ومن الحيوانات المفترسة والنار... فاخترع من خياله الإله ليساعده فيما لا قدرة له على التعامل معه.

هو نفس هذا الكلام يذكره القرآن كخاصية جعلها تعالى فينا لنتوجّه نحوه تعالى عندما نفقد القدرة على التعامل مع ظروف صعبة، لأن ما نراه ونتعامل معه من حولنا يدلّ على قدرة فائقة صمّمته وخلقته وجعلته يعمل... وسواء علمنا بآليات ترابط حصول الأمور، أم لم نعلمها ونظرنا إليها ببدائية طفولية ساذجة، فقلنا إن المطر ينزل لأنه تعالى أمر بنزوله وليس بسبب تراكم البخار وتكاثفه... فسيبقى الدافع هو نفسه فينا للتوجّه نحو قدرة فائقة لمساعدتنا في الورطات.

في سور أخرى أطلنا الكلام عن الفرق بين الإيمان الطفولي الساذج به تعالى، واللاغي لترابط الأسباب والمسببات، والمتعارض مع كلامه تعالى الذي أخبرنا فيه عن مراحل لخلق الدنيا في ستة أيام، ولمزيد من التوسّع راجع دراسة الآية 9 وما بعدها من سورة فصلت {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ}...، ومراحل لخلق الإنسان كما تقرأ من الآية 7 وما بعدها من سورة السجدة {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}...، ومراحل لنزول الماء كما تقرأ في الآية 9 من سورة فاطر {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ}... .

ضع هذا في بالك دائما لتنتبه أن المعلّقين على الإيمان به تعالى كانوا يردّون على الإيمان الساذج الطفولي الذي أعلنه المنتمون لدينه تعالى، وقالوا إنه تعالى يقول كلامهم، وها صريح القرآن أمامك مختلف عن تفاسير الكثيرين ممن سبقنا من أهل الكتاب لكلامه تعالى، ومختلف عن الكثير من تفاسيرنا نحن المسلمين له.

المشكلة القديمة المتجددة هي خلط كلام المنتمين لدينه تعالى مع كلامه تعالى، فيصير كلامهم مقدسا، ويصير كلامهم هو دينه تعالى، وهذه مصيبة دمّرت إيمان الناس وشوّشت عقولهم.

ما تقوله بعض الدراسات الباحثة عن نشأة إيمان البشر بالإله، ففيها الكثير من الصحّة التي تتماشى مع أمثال ما تقوله آيتنا هنا، حيث صمّمنا تعالى لنتفاعل مع بيئتنا لنتعرف عليه، وهذا على مستوى التفكير العقلاني، حتى لو كان بدائيا في عقلانيته، وسينتج عن ذلك تفعّل الطرف النفسي فينا، وبسبب تراكم الأفكار سيتولّد لدينا شعور التعلّق بالقدرة التي اعتقدنا أنها فائقة لأنها خلقت ما في الدنيا، فسنتوجّه إليها حين نفقد الأمل بتغيير الصعوبات بقدراتنا لوحدها، ونحتاج لقوّة أكبر قادرة على تغيير ما نحن فيه من سوء.

هذا شيء أكّده القرآن مرارا وتكرارا، وأكّد صحّة دلالته، فليس نتيجة وهم، بل نتيجة تصميمه تعالى لنا بهذا الشكل لنتعرّف عليه. وإلا فكيف تقترح أن نتعرّف على إلهنا؟

(أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً{68})
هذه حوادث ربما تحصل معكم أيها الناس في البحر وأنتم في حالة من الضعف والخوف من الغرق، ولكن:
{أَفَأَمِنْتُمْ}، هل شعرتم بالأمان، باستبعاد حصول الخطر، {أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ}؟ حيث من جانب البحر تقعون في ورطة ومن جانب البرّ، على اليابسة على الأرض الصلبة يجعلكم سبحانه تقعون في ورطة، فمن أين لكم هذا الشعور بالأمان من الخطر! أليس من الممكن أن يخسف تعالى بهبوط في الأرض، لتصيروا تحت الأرض وتطمركم!
{أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا}، حيث من الجوّ يأتيكم الخطر منه تعالى عبر الحجارة المتطايرة، وهنا المقصود الحجارة المتطايرة من البراكين أو الرياح القوية.
{ثُمَّ}، بعد حصول كارثة من هذين النوعين أو من أي نوع آخر، {لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا}، لا تجدون من تعتمدون عليه لتخليصكم من أمثال هذه الكوارث إذا قرّر تعالى حصولها.
يعني، ليس فقط في الأماكن أو الأوضاع التي تشعرون فيها بالخطر عليكم ترك آلهتكم الوهمية، وتقومون بالدعاء بالإعلان والإشهار لله تعالى وحده أنه الإله، حتى وأنتم في أماكن تعتبرونها آمنة، فمن أين لكم هذا الشعور بالأمان منه تعالى من حصول الحوادث الخطيرة حتى تشعروا براحتكم في الكفر به تعالى؟

(أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً{69})
{أَمْ أَمِنْتُمْ}، شعرتم بالأمان، باستبعاد حصول الخطر، {أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ}، في البحر، {تَارَةً أُخْرَى}، يتكرّر سفركم في البحر مرة ثانية، {فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ}، الهواء القوي الذي يقصف فيكسر الأشياء بسبب سرعته وقوّته، فتتكسر سفينتكم أو تقلبها الريح في الماء، {فَيُغْرِقَكُمْ}، فتموتوا اختناقا بالماء، {بِمَا كَفَرْتُمْ}، بسبب إنكاركم لربكم الحقيقي الأحد.
{ثُمَّ}، بعد غرقكم، {لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا}، لا تجدون على الله تعالى بتلك الحادثة، {تَبِيعًا}، لا تبعات عليه سبحانه بما فعل بكم، لا أحد يحاسبه سبحانه، ولا يمكنكم لا أنتم ولا أحد غيركم مطالبته ومساءلته سبحانه: لماذا أغرقتنا؟
لاحظ الآية فرّقت بين حادث يحصل في ظروف عادية مما صمّمه تعالى لبيئتنا، وبين حادث من تدخّل إلهي خارج عن الظروف العادية أمر تعالى بحصولها، لأن الحوادث تحصل مع كل الناس، حتى مع المؤمنين، لذلك تلفت الآية هنا انتباهنا للحوادث التي يقصدها سبحانه أن تحصل حتى تميت شخصا أو أشخاصا كفّاراً، لا تَنْسَ أن القرآن تحدّث عن المجتمع المؤمن الذي يداوم على استغفار ربّه سبحانه وقال عن هذا المجتمع أنه سيرتاح من الكوارث، حيث سيتدخّل سبحانه بحكمته لمنع حدوثها أو التخفيف من ضررها... ونفهم ذلك من الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}، أما المجتمع المسلم بدرجة ضعيفة، فسيتعرّض للحوادث العادية ويتدخّل سبحانه بحسب درجة إيمانهم وعملهم... بل يتدخّل سبحانه ليصيبهم بكارثة من أمره إن كان منتشرا بينهم سوء من العيار الثقيل...
ضع في بالك دائما دائما أن هذا النوع من الآيات هو نماذج عن حوادث، حيث لا تقصد الآيات أن كل من كفر سيتعرّض لحادث ويموت غرقا، لا، ولا تقول بأن المؤمن لا يتعرَض للحوادث، لا، بل تلفت انتباهنا إلى نماذج عن حوادث طبيعية تحصل معنا وترينا النظرة الإلهية لتلك الحوادث، حيث أصلا من تصميمه تعالى لما في الدنيا تحصل كل الحوادث، ولذلك ينسب تعالى حصولها لنفسه، ولدينا سور عديدة دخلت في تفاصيل أسباب حصول عموم الحوادث مع الجميع، وهناك نقرأ أنها بلاء للمؤمن وحتى يميّز سبحانه الخبيث من الطيّب... وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 155 من سورة البقرة {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}.
أمّا هنا فسياق الكلام عن فقدان أي أحد آخر غيره تعالى القدرة والسيطرة على الأمور من مستوى إلهي، وبالتالي لا إله إلا هو، ويجب اتخاذه وحده وكيلا، ولا معنى للشرك به تعالى.
بعبارة أخرى، إن الحوادث الطبيعية من كوارث الزلازل والفيضان والعواصف... ناتجة من تصميمه تعالى لهذه البيئة بهذا الشكل، وكما يتدخّل سبحانه أحيانا ويأمر بحصول كوارث ليست من النتاج العادي للأسباب الطبيعية من البيئة، كحالة فلق البحر ليغرق فيه فرعون وجيشه، فهذه وبحسب معلوماتنا، لن تحصل بشكل طبيعي لو لم يأمر سبحانه بحصولها، وبالعكس أيضا يحصل تدخّل إلهي لمنع الكوارث الطبيعية، وهذا ما نفهمه من الآية 96 من سورة الأعراف وغيرها من الآيات التي تحدّثت عن عنايته تعالى بالمجتمع المؤمن، ولدينا أمثلة أخرى عن تدخله تعالى لمنع إحراق النبي إبراهيم(ع)... ليست كل الكوارث تحصل بأمر إلهي لحدوثها متخطية الأسباب الطبيعية، بل تصميم الطبيعة

يتضمّن حصول حوادث كارثية بالنسبة لنا، وبعض الأحيان يتدخّل سبحانه ليمنع حدوثها أو التخفيف من ضررها، وبعض الأحيان يأمر تعالى بحصول كوارث...

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً{70})
{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ}، جَعَلْنَا لأبنائه وأبناء أبنائه... شأنا وقيمة، وَمَرَّ معنا في الآيات السابقة أمره سبحانه لملائكته(ع) كلهم، بما فيهم الملائكة الحاملة للعرش(ع)، والملائكة العالية المقام جدا جدا كجبريل وميكال وإسرافيل... عليهم السلام... أمرهم بالسجود لآدم(ع) ولمن سيولد من آدم(ع)، فهكذا تكون قيمة آدم(ع) وذريته المؤمنين عَالِيَةً، وأعلى من الملائكة العالية، وهذا التكريم منه سبحانه كان بالتبعية للجميع، ويبقى على هذه الكرامة من حافظ على كرامته، وأما من كفر أو أشرك أو فسق أو نافق... فلا قيمة له ولا كرامة، بل هو مهان محتقر...

{وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}، خَلَقَنَا سبحانه بطريقة تجعلنا نسيطر ونستخدم ما حولنا، حَيْثُ خَلَقَ لنا البيئة التي تلائم تنقّلنا محمولين في البر على ظهر الأحصنة والسيارات... وفي البحر بالسفن والمراكب... وبعد ذلك في الجو بالطائرات...

{وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ}، وَجَعَلَ تعالى معهم الأشياء التي يأكلونها وهي موصوفة بأنها من الطيبات من الأشياء المرغوبة المحببة لهم، وَنَحْنُ نشتهي وَنَلْتَذُّ بالطعام، مع أنه سبحانه كان يمكن أن يخلقنا من دون حاسة ذوق للطعام والشراب.

{وَفَضَّلْنَاهُمْ}، مَنَحْنَا بني آدم(ع) أمورا جيدة من دون أن يكون فرضا واجبا علينا منحها لهم، {فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}، خَلَقَ وَرَكَّبَ وألّف سبحانه العديد من أنواع المخلوقات، وبنو آدم(ع) بشكل أكبر حصلوا على أمور جيدة مميزة أكثر من غيرهم من المخلوقات، حَيْثُ فِينَا الفكر والخيال والذاكرة وقابلية التعلم.... وخلق تعالى الحيوانات وجعلنا مسيطرين عليها فهي في خدمتنا ولطعامنا... ولمتعة نظرنا واستكشافنا... وخلق سبحانه النباتات وجعلها لذيذة للأكل وللزينة... وخلق سبحانه الملائكة(ع) وجعلها تعمل بعض الأفعال لأجلنا... حَيْثُ أَتَاحَ سبحانه كل ما حولنا في بيئتنا مُسَخَّراً لبني آدم(ع)، ولم يجعلنا محكومين مُسَخَّرِينَ لأي مخلوق آخر، وميّزنا بالعقل والخيال والشعور والغريزة... عن الكثير من بقية المخلوقات، وهذا كلّه تفضيل واضح جدا على أكثرية بقية المخلوقات.

نرجع لمحور السورة، فهل من فعل ذلك معكم يستحقّ منكم التوكّل عليه أم يستحق الشرك به والتوكّل على غيره؟

(يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَـئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً{71})
بعد هذا التفضيل في الدنيا للبشر كلهم "للمؤمنين بالأساس وللآخرين بالتبعية"، هناك يوم قيامتهم من الموت ومحاسبتهم ومجازاتهم، فهل حافظنا على الكرامة والتفضيل؟ أم ضيّعناها؟

{يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ}، هناك زمن نعلن فِيهِ للجميع أن يأتوا ومعهم مرجعهم الأساسي، مع قدوتهم ومن كانوا يتبعونه، حَيْثُ كُلُّ شخص هنا في الدنيا كان عنده أناس يتبعونه فيما يقول أو يفعل فهو إمام لهم، سواء كان نبيا أو رئيسا مهتديا أو ضالا أو عالما ربانيا أو عالم ضلال أو رئيس عشيرة أو رئيس بلد أو مُمَثِّلاً أو مُغَنِّيَاً أو رَبَّ بيت... وَسَتَسْحَبُ الملائكة(ع) هؤلاء الأئمة كلهم، من كل الأنواع، من الإمام الذي لحق به فقط شخص واحد، إلى الذي لحق به مليارات البشر، من السيئين أو من الصالحين، وَتُنَادِي الملائكة(ع) لإحضار كل من اتبعه. مثل نداء: يا أمة محمد(ع). وَيَتِمُّ جمع كل من كان إمامه الحقيقي النبي محمد(ع)، وهكذا كل مجموعة من الناس يدعوها تعالى عبر ملائكته(ع) باسم إمامها.

طبعا تتذكّر أن أيام الحساب كثيرة وطويلة، فلا تفهم الكلام القرآني بجمود على مشهد واحد، فهناك سيحدث الحساب الفردي، والحساب الجماعي، وفي الدنيا يتّبع الناس إمَاماً واحدا أو أَئِمَّةً مُتَعَدِّدَةً، وَفِي مختلف ظروف حياتهم يَتَغَيَّرُ إمامهم... وفي الآخرة سيتحاسب مع إمامه أو أئمته، وَمَرَّةً يَحْشُرُونَهُ مع هذا الإمام لِيُحَاسَبَ على ما فعله وعلى ما له حصّة فيه من دعمه والتحاقه... بهذا الإمام، ومرة أخرى يُلْحِقُونَهُ بالإمام الآخر الذي أيضا والاه وكان من أتباعه لِيُحَاسِبُوهُ... وهكذا يطول الحساب بالسوء على السيئين... ويكون نزهة رائعة للمؤمنين الفخورين بأئمة الهدى الذين يَحْشُرُونَهُمْ معهم...

تلك المجموعات نوعان، الأول: {فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ}، الكتاب المسجّل فيه أعماله التي فعلها في الدنيا من حسنات أو سيئات، وَأَعْطَتْهُ الملائكة(ع) كتابه، {بِيَمِينِهِ}، بالاقتدار، بشكل ميسّر ومحترم وسهل، حَيْثُ أَكْثَرُ الناس تستعمل يدها اليمين لتناول الأشياء، والمصافحة باليد اليمين، والمناولة للأشياء عادة باليد اليمين... فلا يذهب فكرك أن الملائكة(ع) تناول المؤمن كتابا من ورق بيده اليمنى، لا، لِأَنَّ كِتَابَ الأعمال ليس من ورق ولا من أي شكل يمكننا تصوره الآن، لأن فيه مشاهد كل ما فعلناه في حياتنا من كبير أو صغير أو همسة أو نظرة... وفي الكتاب قيمة الأعمال الحسنة ظاهرة مع العمل الحسن، والعقاب على العمل السيّء ظَاهِرٌ مع الفعل أو القول السيء الذي قمنا به... فهذا الكتاب الذي لا ندري كيف شكله ولا مما هو مؤلف، وإنما نعلم أن فيه تَسْجِيلاً لكل شيء، فالملائكة (ع) ستعطيه للمؤمن باليمين بالاقتدار بالاحترام بالتسهيل...

{فَأُولَئِكَ}، الذين حصلوا على كتابهم باليمين، {يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ}، يتفحّصون أعمالهم الحسنة التي قاموا بها، {وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً}، حَيْثُ أَصْغَرُ عمل حسن مهما كان تافها فهو مسجّل وَسَيَنَالُونَ عليه الحسنات ولن يتجاهله سبحانه، وَالْفَتِيلُ هُوَ عموم أي شيء مفتول مبروم كخيط، والكلام هنا عن شيء صغير، فلو فركت أصابعك ببعضها ونتج من ذلك شيء انفتل بين أصابعك من الجلد الميّت أو الغبار فهو فتيل، ويقولونها أيضا كوصف للخيط الصغير الموجود في شقّ بذرة التمر، "في نواة البلح".

هناك تعبير قرآني آخر مُشَابِهٌ ورد في عدة آيات منها الآية 7 من سورة الزلزلة {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ}، وَلَا يَظْلِمُهُمْ سبحانه باحتساب حسناتهم على الأعمال الصغيرة ولو كانت ذرة أو فتيلا، ولو لشيء تافه وصغير جدا، وَطَالَمَا هي في قانون ربنا سبحانه عليها ثواب، فسيجد المؤمن كل تلك التفاصيل الصغيرة مسجلة ومحسوبة له، ومن البديهي أن الأعمال الكبيرة أيضا سينالون الحسنات عليها.

كما ترى فالآية تتحدث عن حساب جماعي لمجموعة من المؤمنين كانت تتبع إماما مؤمنا هداهم للحقّ، وهم يتلقون الحساب عن إيمانهم الجماعي إضافة لعمل كل واحد منهم الخاص به، لِأَنَّ العمل الجماعي حسابه مختلف، وَهُمْ لأنهم التقّوا حول إمام مؤمن وكانوا أتباعه، صَارَ لإمامهم سلطة قوية لتنفيذ أحكام الله تعالى، فإذا فعل الإمام أي شيء جيد، كالإصلاح بين الناس، وإنهاء الخلافات... فأنت لأنك أعلنت تأييده، والإمام صار قويا بسببك وبسبب أمثالك، فأنت ستنال حسنات عن كل فعل يقوم به الإمام وهو ناتج عن تأييدك له، وحتى لو لم تكن تعلم بما فعل من خير، وَحَتَّى لَوْ كَانُوا بحاجة لك ولم تشارك في الإصلاح بين الناس وكنت في بيتك وأصلا لا تعلم بما يعملون من خير... فستحصل على حصّتك من الحسنات ولو كانت بمقدار فتيل.

تلفت الآية انتباهنا أنه مهما قلّت قيمة أي عمل حسن، فستجد حتى هذا القليل من الحسنات مُسَجَّلاً في الكتاب، وَرَشَّةُ الملح على الطعام الحلال عليها ثواب، والابتسامة في وجه الأهل والأصدقاء والجيران... عليها ثواب... وَحَتَّى لو كان ثوابا قليلا فهو مسجّل في كتاب الأعمال.

وَعَمَلُ الصالحات هو القيام بفعل صالح، وأيضا هو ترك العمل السيّء، وَكُلُّ الأعمال السيئة التي لم يفعلها المؤمن، ولن يفعلها حتى لو أتيح له فعلها، فله على تركها ثواب مثلما له على فعلها عقاب ومثلما له على فعل الخير ثواب. وَكَمَا على الطعام المسروق والمغصوب ومن مال الغشّ ومن الربا... عقاب، فبالعكس على الطعام الحلال ثواب.

(وَمَن كَانَ فِي هَـذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً{72})
الذي حصل على كتابه بيمينه وكان من أتباع إمام مؤمن سَيَنَالُ أجره، وفي مقابله: {وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ} الدنيا {أَعْمَى}، في حياته هنا لم يَرَ الطريق الصحيح وَاتَّبَعَ إمام ضلال، وَكَانَ قلبه وفكره مَعْمِيّاً، {فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى}، في الحياة التي ستأتي في الآخر بعد انتهاء الحياة الأولى سيكون قلبه وفكره مَعْمِيّاً. قارنها هنا في الدنيا مع حالة شخص تعرّض لظروف صعبة حَيْثُ صَارَتْ تصرفاته هوجاء، نَقُولُ: صار أعمى القلب.

في الآخرة هو {أَضَلُّ سَبِيلاً}، أكثر ضَلَالاً في مسلكه، حَيْثُ مهما تصوّرت شخصا هنا في الدنيا صارت تصرفاته طائشة بعيدة عن الصواب ويرتكب الكثير من الأخطاء لأن قلبه مَعْمِيٌّ من ظروف صعبة ضايقته... ففي الآخرة سيكون الكافر قلبه مَعْمِيّاً أكثر بكثير.

الآية 19 من سورة الرعد استعملت الوصف بالعمى لمن يرى بعينيه ولكنه أعمى عن رؤية الحقّ وَاتَّبَعَ الضلال، {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ}، فلا يذهب فكرك أن الآية هنا تتحدّث عن أعمى البصر المكفوف، لا، بل عن أعمى الفكر والنفسية، فهو هنا أعمى وفي الآخرة أعمى وَلَنْ يهتدي إلى ما ينفعه لأنه لم يجمع ويحمل معه إلى هناك ما ينفعه. لِمَعْرِفَةِ قيمة المؤمن الأعمى العينين عنده تعالى راجع سورة عبس.

عادة يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لِتَاهَ وَضَاعَ، ولكن معناها أوسع من ذلك، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تحضر معك البندقية التي ترمي إلى مسافات بعيدة، ومرّت الطيور من أَمَامِكَ على مسافات بعيدة، فَضَلَّ عنك صيدها. وَاسْتَعْمَلَ القرآن هذا التعبير لوصف من عبد آلهة ما وفي يوم القيامة ضَلَّ عنهم وَضَلَّتْ عنه، فلم تقصد أنهم ضاعوا ولم يجدهم، بل قصدت أنهم ليسوا آلهة ولن يفيدوه بشيء، وهنا وصفه بالعمى والضلال يشير إلى فقدانه ما يوصله إلى مسلك جيّد، إلى فقدانه لما ينجيه من العقاب ويوصله إلى الجنّة، لِأَنَّهُ لَيْسَ معه حسنات لتنفعه.

(وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً{73})

{وَإِنْ كَادُوا}، المشركون بقي لهم القليل، {لَيَفْتِنُونَكَ}، يعرّضونك لما يغيّرك، {عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ}، عمّا نزل منه تعالى على وعيك بلا كلام مسموع من الأذنين، ولمزيد من التوسع حول كلمة وحي راجع دراسة الآية 39 من هذه السورة. {لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ}، لتؤلف كلاما غير القرآن الذي وصلك منّا وتقول إِنَّهُ من عند الله تعالى، ويكون الكلام موافقا لما يريده الكفار.

{وَإِذاً}، {لَاتَّخَذُوكَ}، جَعَلُوا منك، {خَلِيلاً}، محبوبا يفضلونك على الآخرين لدرجة الاكتفاء بك إذا كنت معهم.

بعبارة أخرى، حَاوَلَ الكفّار إقناع النبي محمد(ع) بترطيب الأجواء والمسايسة، حَيْثُ لَمْ يُعْجِبِ الكفّار كلام القرآن عن التوحيد والآخرة والجنة والنار وتسفيه الأصنام وآلهتهم وتشريعاتهم التي على مزاجهم... وكما يبدو من عموم القرآن تَحَدَّثَ بعض الكفار مع النبي محمد(ع) أَنْ لا يعرض عليهم كلّ دينه كما هو، لأن الناس ستنفر منه، ولن تتبعه، وَلْيَقُلْ كلاما يوافق بعض ما يعتقده الكفّار، مثلا: لِيَمْدَحْ ولو إلها واحدا من آلهتهم، فما الضرر؟ أو لِيَنْسَ الكلام عن الشرك والكفر وَلْيَطْرَحْ عقيدته كخيار متاح من الخيارات... أو لِيَقُلْ إِنَّ ربّه لا علاقة له إلّا بأتباعه وبقية الناس حسابها عند آلهتها... أو لِيُقَوْنِنْ دينهم وَلْيَجْعَلْهُ مترابطا بدلا من طرح دين مختلف... أو يُوَافِقَ على بعض التشريعات المتعارف عليها عندهم، كظلم الضعيف وأكل حقوق الناس والغارات على الضعفاء... وهكذا لن يكون هناك عداوة بين دينك وبين الناس... وَسَتَصِيرُ خليلا عند الناس محبوبا لا ينفرون منك بل بالعكس يسعدون بالجلوس معك وسماع كلامك... وهكذا تكسبهم بالملاينة والمسايسة والمسايرة... وبعدها يَصِيرُونَ من أتباعك، وتغييرهم سيصير أسهل.

ولكن القرآن ينزل من عند الله تعالى، وتغييره بإخفاء قسم منه أو الْإِنْقَاصِ منه أو التلاعب بقسم منه... وَهَذَا يعني أن يقوم النبي(ع) بالافتراء على الله تعالى باختراع الكلام من رأسه ونسبته له تعالى، وَيَنْسُبُ له تعالى شيئا مدّعيا أنه تعالى قاله.

بسبب ما ترسّخ في ثقافتنا الدينية مما تراكم لدينا من معلومات عن تاريخ النبي محمد(ع) كشخصية نموذجية للإيمان العالي، ننسى أنه إنسان مثلنا مثله، وننسى أنه في بداية نزول هذا القرآن كان (ع) يتعلّم الدين الإلهي بالتدرّج، والفرق بيننا وبينه (ع) بمستوى سلامة القلب العالية التي تحكم تصرفاته (ع).

فعليا لن يفتري (ع) عليه تعالى الكذب بتغيير أو تبديل أو تحريف القرآن، وذلك بسبب سلامة قلبه، حَيْثُ لَا يَقْبَلُ فكره ولا نفسيته الكذب والافتراء، ولكن من كلام المشركين معه ستخطر الفكرة على باله (ع) لأنه يفكّر كيف سيستميل الناس ويجذبهم إلى دينه تعالى، وهذه هي الفتنة بأقل درجة، والأعلى منها هو الدخول عمليا في التَّغْيِيرِ والقيام بالافتراء عليه تعالى، وسترى من الآية التالية أنه (ع) حتى أقل درجة من الافتتان لم تحصل له(ع)، لِأَنَّهُمْ كادوا يفتنونه، وأقل درجة من "كاد" تعطي معنى أنه (ع) على شعرة كان سيقتنع ببعض كلامهم ولكن هذا لم يحصل كما سترى من الآية التالية.

حَتَّى نتصوّر ما حصل معه (ع) لِنَقُلْ إِنَّهُ مقتنع بتبليغ الناس كل ما وصله وحيا ليصيروا مؤمنين، واقترح عليه المشركون أن لا يكون صلبا مباشرا في الهجوم على عقيدة وشريعة متجذّرة فيهم، لِيَقُمْ بعرض دينه بالتدرج، والابتعاد

مبدئيا عن الأمور التي يعتبرها الناس حسّاسة، ورويدا رويدا مدة بعد مدّة وَلْيَطْرَحِ الأمور بالتدرج، وليسايرهم في بعض ما يخالفهم به وَلْيُوَافِقْ على بعضه أو لِيَتَغَاضَ عنه... وهكذا سيكون حظّه في النجاح أكبر... وردت أشباه هذه الأمور في آيات متفرقة بما يتناسب مع سياق كلام سورتها، كالذي ورد في الآية 12 {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} و 17 {فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ} و 109 {فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ} من سورة هود، وما ورد في سورة الكافرون وغيرها...

فكرة المسايرة والتغاضي تبدو مقنعة لأي كان، لِأَنَّهُ (ع) لن يتراجع عن عمله كرسول، وفي النهاية سيوصل إليهم كل ما نزل عليه، وهناك احتمال أن يهتدي عدد أكبر بهذه الطريقة... لا، لم يقبل سبحانه بهذا وأمر رسوله(ع) بالنقل الفوري المباشر لكل ما ينزل منه تعالى إلى الناس.

بقي شيء، حَيْثُ مِنَ الشائع بين بعض الناس الترويج لدينه تعالى بأي طريقة كانت، حتى بالكذب، وسأضطر للدخول في اتهامات وتحليلات فكرية ونفسية لهؤلاء، لِأَنَّ السخافات التي يقولونها عن الإعجاز القرآني العلمي الطبّي والفيزيائي والفلكي والكيميائي... والعددي والرياضي... والتأثير "السحري" لقراءة الآيات لشفاء المرض وجلب الغائب وردّ الحبيب ومعرفة السارق... وَمِنْ وضوح سخافة كلامهم ترى دلالة على خلل في إيمان هؤلاء، حيث لم يكفهم بيان القرآن ودلائله وذهبوا خلف أهوائهم، هؤلاء لم يفهموا آيتنا هذه وأمثالها التي تهدّد عموم من ينحرف عن كلامه تعالى، ولم يفهموا أن كلامه تعالى الحقّ ويدعونا للحق، وهناك حساب عسير على الكلام الباطل حتى لو كان القصد منه إقناع الناس بدينه تعالى، لِأَنَّ هَذَا ممنوع وعليه عقاب، ولا أجر لفاعله إن آمن أحد ما على يديه، لِأَنَّهُ كسارق رغيف الخبز ليتصدّق به على فقير، فلا أجر له على الصدقة وله على السرقة عقاب.

(وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً {74})
{وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ}، لولا أن اعتنى بك سبحانه حتى لا تتغير ولا تغيّر أي شيء في الدين الإلهي، وَأَمَرْنَاكَ بالبقاء على ما أُوحِيَ إليك، ولم نُحَمِّلْكَ مَسْؤُولِيَّةَ إيمانهم أو كفرهم... وَزَوَّدْنَاكَ بكل المعلومات الصحيحة الواضحة... وَضَرَبْنَا لك الأمثلة التقريبية والتشبيهية للتوضيح... وَرَوَيْنَا لك ما حصل مع الأنبياء من قبلك... وَنَبَّهْنَاكَ من مكائد الكفار وخداعهم... فلولا كل هذا:

{لَقَدْ كِدْتَ}، بَقِيَ لك القليل حتى، {تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً}، حَيْثُ إِنَّ فِكْرَةَ المسايسة والمداهنة وتطرية الأجواء مع الكفار، هي فكرة جميلة، ولولا التثبيت الإلهي لكان (ع) ركن إليهم فاقتنع بما يقولونه واعتمده، شَيْئاً قَلِيلاً، في بعض ما يقترحونه.

النَّبِيُّ(ع) لن يوافق على التلاعب بالقرآن، ولكن فكرة تطرية الأجواء كوسيلة لهداية الناس، لِنَقُلْ عبر التخفيف من طرح ما يعارضهم به والتركيز على ما يتوافقون عليه... فهي فكرة مغرية ولمّاعة، ولكن لولا أنه سبحانه ثبّته (ع) بما بيّن وشرح له أن المداهنة مع هؤلاء، وبالطريقة التي يقترحونها، هي خَطَأٌ، وغير مسموح بها، لكاد النبي(ع) أن يقتنع ببعض كلامهم.

بعبارة أخرى، لم يَرْكَنْ النبي(ع) ولم يَمِلْ لأنه سبحانه ثبّته فبيّن له كل ما يتعلّق بالدين، وبيّن له مخاطر مسايرة الناس عبر التلاعب بالوحي أو إخفاء بعضه أو تأجيل تبليغه... وَبِذَلِكَ انتهى الموضوع والتزم النبي(ع) بالوحي بالتمام.

هنا كلام عن عصمة الأنبياء، حَيْثُ إِنَّ الْكَثِيرَ من العلماء يُفْهَمُ من أقوالهم أَنَّ الأنبياء مجبورون على ترك المعاصي، حَيْثُ يَعْصِمُهُمْ وَيَمْنَعُهُمْ سبحانه بالإجبار من فعل المعصية... وهناك من يحدّد هذه العصمة في خصوص تبليغ الرسالة وَيَقُولُ إِنَّهُ (ع) في حياته العادية قد يرتكب الممنوع... وهناك بعكسه من يعمّم العصمة عن أي خطأ في كلّ شؤون حياته (ع) حتى في أمور حياته الشخصية... ومن القرآن نفهم شيئا قريبا مما يقوله البعض عن "العصمة الذاتية"، فَهُوَ شَخْصٌ يَتَمَتَّعُ بمواصفات تردعه عن مخالفة أوامره تعالى، وَاعْتَمَدْنَا في دراستنا هذه استعمال التعبير القرآني بسلامة القلب للإشارة إلى الرادع الداخلي "الفكري والنفسي" للمؤمنين عن فعل السوء.

بعبارة أخرى، مَنْ قلبه سليم من الدرجة العالية، كالأنبياء، فهذا لن يقوم بأي عمل سيّء لأن فكره ونفسيته تَرْفُضُهُ، والله سبحانه وتعالى لا يغيّر أي إنسان ليصير قلبه سليما، ولا يمنع أي إنسان من ارتكاب السوء، وَحَتَّى لو "قرّر" النبي فعل السوء فسبحانه لن يمنعه، عِلْماً أَنَّ هذا لا يمكن أن يحصل، ولكن فرضا لو حصل فسيعذّبه تعالى أشد العذاب فورا بشكل يبيّن للناس أنه لم يعد يمثّله تعالى... راجع الآية 44 و 45 من سورة الحاقة {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ}، وهذا ما ستراه من الآية التالية.

نعم، يتدخّل سبحانه وتعالى مباشرة فيمن عيّنهم كناقلين لكلامه حتى يضمن وصول كلامه سبحانه إلينا تماما بالضبط كما هو، حَيْثُ يَتَدَخَّلُ سبحانه فيما يقوله النبي نقلا عنه سبحانه ليضمن لنا أننا نسمع كلامه تعالى، ولسنا نسمع كلاما ظنّ النبي أنه كلام إلهي أو نسيه النبي وينقله بالمعنى... راجع الآية 17 من سورة القيامة {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}، والآية 6 من سورة الأعلى {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى}.

يتدخّل سبحانه مباشرة فيما يفعله النبي حين يكون فعله نابعا من مركزه كخليفة عيّنه تعالى، وهذا ما حصل مع النبي داوود(ع)، راجع دراسة الآية 21 وما بعدها إلى الآية 26 من سورة ص {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}.

من هذا الملخّص ترى أن أكثر كلامهم عن العصمة لا معنى له.

لَكِنْ، فرضا تلاعبت بالقرآن! وركنت إلى الكفار! فماذا سيحدث؟:

(إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً{75})
إذا افتريت أو ركنت إلى الكفّار، {إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ}، لجعلناك تشعر وتلمس، {ضِعْفَ الْحَيَاةِ}، وبما أن الكلام عن التهديد فالمقصود هو تعذيبه (ع) هنا في الدنيا بشكل مضاعف عن العذاب الذي عادة يُعَذِّبُهُ تعالى للكفار، ضعف العذاب هنا في الحياة، ولأذقناك، {ضِعْفَ} "العذاب" في {الْمَمَاتِ}، فبعد أن تموت وتأتي الآخرة سيتم مضاعفة عذابك عن الآخرين لأنك ستكون رَسُولاً خَائِناً.

{ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً}، ولا أحد سينصرك علينا، فلا أحد يمكنه أن يحقّق لك ما تريده للخلاص من العذاب الذي نُقَرِّرُهُ لك.

نلاحظ أَنَّ الآية لم تذكر كلمة "عذاب" ولكنها واضحة أنها المقصودة، فأي كلمة أخرى لن تخطر على البال عند التهديد.

هذا التهديد الشَّدِيدُ اللهجة للنبي (ع) هل يقلّل من قيمته؟ لا، بل يؤكّد لنا أنه تعالى ليس لديه مُحَابَاةٌ ولا وَسَائِطُ ولا اتفاقيات جانبية... مع أي إنسان، وكما نقول بالعاميّة: لا أحد فوق رأسه خيمة زرقاء. حتى رُسُلُهُ تعالى ملتزمون بالتمام وإلا سينالون عقابهم، هكذا يفهم الذين حول الرسول(ع) ومن سيأتي بعده أنه تعالى لا يسمح بالتلاعب بدينه ولا بأي شكل من الأشكال.

حَسَناً، تحدثت الآيات عن محاولة بعض المشركين إقناع النبي(ع) بالتلاعب بكلام ربه سبحانه، وفيما يلي سنرى قيامهم بمحاولة من نوع آخر معه (ع) للانتهاء من دينه:

(وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً{76})
بعد أو مع محاولتهم إغراء النبي(ع) بالتلاعب بالقرآن، يأتي تهديدهم له وإزعاجه: {وَإِن كَادُوا}، بقي لهم القليل، على شعرة، {لَيَسْتَفِزُّونَكَ}، يقومون باستفزازك باستنهاضك، {مِنَ الْأَرْضِ}، التي أنت فيها حاليًا، والكلام أثناء نزول هذه السورة في مكّة، حيث تتعرض لظروف تدفعك لترك مكّة، {وَإِذًا}، إذا حصل أن أخرجوك أيها النبي محمد(ع) من موطنك بغير إرادتك، {إِذًا لَّا يَلْبَثُونَ}، لا يمرّ عليهم زمن لبقائهم في الأرض، {خِلَافَكَ}، خَلَفًا لك، من بعد تركك لهم، {إِلَّا قَلِيلًا}، زمن قصير، ومن عموم القرآن تفهم أنه تهديد بنزول عذاب إلهي عليهم يميتهم إذا أخرجوه (ع) بغير إرادته.

ننتبه، حيث إن هذه الآيات نزلت والنبي(ع) كان لا يزال في مكة ولم يهاجر بعد إلى مدينة يثرب، ونعلم بأن النبي(ع) قرّر الذهاب إلى مدينة يثرب لأن العديد من أهلها أسلموا وعرضوا عليه القدوم إلى مدينتهم، وتعاهدوا معه أن يكونوا أنصارًا لدينه... ونال موافقة ربنا سبحانه على الهجرة إليهم كما يظهر من سورة الأنفال في الآية الخامسة {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ}، وهناك فهمنا أنه سبحانه هو المخطّط الأساسي لخروج النبي(ع) من مكة، وعندما اكتملت الظروف، سمح سبحانه لنبيّه(ع) بمغادرة مكّة، ومن تلميحات القرآن ومن التاريخ المشهور بين المسلمين نعلم أن أهل مكة عندما علموا بتخطيط النبي(ع) لمغادرة مكة، قرروا قتله بالسر، أو منعه من المغادرة... ولكنه سبحانه نجّاه... وفي تلك الحادثة بات الإمام علي في بيت النبي(ع) وخرج النبي(ع) ليلًا من البيت، فظنّ المشركون أن الإمام علي خرج وأن النبي(ع) بقي وحيدًا في بيته...

تذكّر أن كلمة الاستفزاز وردت ثلاث مرات في القرآن وفقط في هذه السورة، قبل آيتنا هنا في الآية 64 من هذه السورة، وبعد ذلك في الآية 103، والاستفزاز هو تعريض الشخص لظروف حماسية تجعله يغيّر تصرفاته، وهنا الكلام عن تعريض النبي محمد(ع) لظروف تستفزّه فتجعله يترك مكّة هربًا من القتل أو هربًا من الحبس {يُثْبِتُوكَ} كما ورد في سورة الأنفال الآية 30 {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ...} .

يعني من جانب الرسول فهو لن يفتري ولن يداهن ولن يتوقّف عن توصيل كلامه تعالى، ومن جهة الآخرين فلو استطاع قومه استفزازه ليخرج رغمًا عن إرادته من بينهم تاركًا تبليغ كلامه تعالى، لكان سبحانه أنهاهم بإهلاكهم.

(سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً{77})
الهلاك والدمار للقرية التي تستفز رسولها وتجعله يخرج من قريته هو:

{سُنَّةَ}، طريقة وعادة ما يجري، وهو شيء يفعله سبحانه عادة مع، {مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا}، أنت لست أولَ رسول يتعرّض للاستفزاز ليغادر قريته، وقراره سبحانه عادة في مثل هذه الحالات هو: القرية التي تستفز رسولها وتطرده فإنها ستهلك وتتدمر من بعد خروجه. وبما أنه قرار دائم لذلك يسمى "سنة".

{وَلَا تَجِدُ}، أيها النبي(ع)، {لِسُنَّتِنَا}، للشيء الذي يفعله سبحانه عادة، لا تجد، {تَحْوِيلًا}، تغييرًا عن مسار حصوله، لأنه شيء سيحصل ولن يستطيع أي أحد جعله سبحانه يغيّر قراره أو يمنعه من تنفيذ قراره.

(أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً{78})
في القسم الأول من السورة جرى ذكر تعاليم ربانية لنا، بداية مع التوحيد، يليه البر بالوالدين... وبقية أمور عن تصرفات فردية مؤثّرة على المجتمع من حولنا، هنا استأنفت الآيات تعاليمه سبحانه بفقرة تتحدث عن السلوكيات الخاصة بالفرد، وسنلاحظ أنها ستتدرج من العبادة الواجبة المفروضة، للنافلة، للدعاء.

{أَقِمِ}، فعّل فلا تهمل ولا تترك، {الصَّلَاةَ}، التوجّه والإقبال، وهنا الكلام عن التوجّه بالحركات مع الكلام الذي يعبّر عن عبادتك لله تعالى، وهي الصلاة التي نسمّيها بالصلوات اليومية الخمس، قم بالصلاة، {لِدُلُوكِ الشَّمْسِ}، من حين تميل الشمس أثناء طريقها في السماء لجهة الغرب، أي عند الزوال، عند بداية الظهيرة، وهذا يشير إلى صلاة الظهرين.

...لِدُلُوكِ الشَّمْسِ، {إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ}، إلى أن يشتد ظلام الليل، وستعلم من الآية الآتية أن غسق الليل هو منتصف الليل، فما بعد منتصف الليل هو وقت النافلة كما سترى، وعند غسق الليل ينتهي وقت صلاة العشائين الواجبة.

بالإضافة للوقتين السابقين أضف، {قُرْآنَ الْفَجْرِ}، قراءتك للقرآن عند الفجر عند بداية انتشار ضوء الشمس من جهة أفق الشروق وقبل أن يظهر قرص الشمس. ولأن الصلاة في أساسها هي ذكر لله تعالى وتتضمن قراءة القرآن، عبّرت الجملة عن الصلاة عند الفجر بقراءة القرآن "في الصلاة" عند الفجر.

{إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ}، إن الصلاة التي تحتوي على قراءة القرآن ويتم إقامتها عند الفجر، {كَانَ مَشْهُودًا}، كان حدثًا وعملًا تتم مشاهدته ومراقبته.

تعلم بأن المشاهدين للصلاة هم في العادة: ربنا سبحانه وملائكته(ع). ولكن خصّصت الآية صلاة الفجر بأنها مشهودة لأن الكفّار لديهم فكرة عن آلهتهم أنها تنام، وتسهو، وتستريح...! لذلك سبحانه يذكّر الجميع أنه يشهد ويكون حاضرًا في كل الأوقات واللحظات، ويستقبل الصلاة من عباده حتى عند الفجر.

ربما يبدو لك كمسلم مثقف دينيًا، أن هذا ليس شيئًا مهمًا، فمن المحسوم عندك أنه سبحانه مراقب في كل لحظة لكل شيء في كل مكان، ولكن لنتذكر أن القرآن يخاطب كل أنواع البشر بمختلف عقلياتهم وعقائدهم، قد يخطر ببال أحدهم: لماذا أقوم من النوم وأصلي الفجر بينما الإله ربما يكون نائمًا! ونتذكر الآية 255 من سورة البقرة التي علّمتنا أنه سبحانه لا ينام {اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ...}.

في هذه الأوقات الثلاثة التي ذكرتها الآية تعلمنا من النبي(ع) أن نصلي عند الظهيرة أربع ركعات ونسميها صلاة الظهر، وأربع ركعات أخرى ونسميها صلاة العصر، وهاتان الصلاتان يبدأ وقتهما من دلوك الشمس أي من الظهيرة، وبعد غروب الشمس نصلي ثلاث ركعات نسميها صلاة المغرب، وأربع ركعات أخرى نسميها صلاة العشاء، وهاتان الفريضتان يبدأ وقتهما من الغروب حتى غسق الليل أي حتى منتصف الليل. وعند الفجر وهو بزوغ نور الشمس واقتربت من 16 إلى 18 درجة تحت الأفق، بحسب اختلاف المنطقة على الأرض، نرى ضوءًا لجهة الشرق ولا يزال قرص الشمس غير ظاهر، وهذا هو الفجر، ونصلي فيه ركعتين ونسميهما صلاة الفجر أو صلاة الصبح.

ننتبه، لا يوجد في القرآن تقسيم لصلوات الظهر والعشاء، بل يتم ذكرهما دائمًا مع بعض، ودائما القرآن يذكر ثلاثة مواقيت للصلاة الواجبة، ومن سنة النبي(ع) سمينا صلاة الظهرين: ظهرًا وعصرًا. وصلاة العشائين: مغربًا وعشاءً. ومن سنّة النبي(ع) في آخر أيامه علمنا صراحة الإجازة بجمع صلاة الظهرين مع بعض من دون تأخير لإحداها حتى وقت العصر، وكذلك علمنا بجواز جمع صلاتي العشائين مع بعض من دون تأخير إحداها حتى وقت العشاء، حيث صلّاهما النبي(ع) جماعة في المسجد مع بعض، وهذا يتماشى مع آيتنا هنا وعموم بقية الآيات التي أشارت لثلاثة مواقيت للصلاة الواجبة.

تحديد وقت الظهر بالدلوك يتم بالظلّ الذي ينتج عن تحرّك الشمس، حيث إن ظل الشمس يكون طويلًا عند الصباح ثم يقصر تدريجيًا، وفي الزمن الذي يبدأ فيه الظلّ بالتمدد من جديد هي لحظة بداية الظهيرة. وهذه اللحظة لبداية الظهيرة في بعض الشهور وبعض البلدان تختلف عن احتساب الوقت من الشروق إلى الغروب وتقسيمه بالنصف، وهي تختلف عن وصول الشمس إلى منتصف المسافة بين النقطة التي أشرقت فيها وبين النقطة التي ستغرب فيها. والسبب هو ميلان الأرض عن محور دورانها، وتمايلها أثناء دورانها، فإذا رسمنا خطًا وهميًا "على وجه الكرة الأرضية" لحركة الشمس في السماء فإنه لن يكون نصف دائرة، بل متموجًا.

بقي شيء، في بعض المناطق القريبة من القطبين الشمالي والجنوبي، تمر أوقات في السنة ولا تتحقّق فيها مواقيت اليوم، مرة يستمر الليل لأيام وبعدها لأيام يحصل فجر لمدة قصيرة جدًا، وبعدها بأيام يحصل شروق لقرص الشمس لمدة قصيرة، وتدريجيًا مع الأيام تطول المدة... إلى أن تأتي أيام يحصل فيها فجر وشروق وظهر ومغرب، ثم يطول النهار حتى تمر أيام بلا ليالٍ...

هؤلاء كيف يلتزمون بمواقيت الصلاة؟ ونفس السؤال عن الصوم إن أتى شهر رمضان في زمن لم يكن عندهم فيه غروب وفجر.

قبل الكلام في ذلك نعود للأساس لنسأل عن سبب فرضه تعالى علينا للصلاة، وطالما سبحانه لا يستفيد بأي شيء من أي شيء، فما الذي نستفيده نحن من الصلاة حتى أمرنا تعالى بها؟ وكل الكلام عن العلاقة والقرب منه تعالى، وأن الصلاة تعبير عن تقدير لما فعله تعالى بخلقنا وإتاحة الفرصة لنا بالحياة والوعي والرقي... ودخول جنة خالدة... كل ذلك تلخصّه بالاستفادة لنا من أداء الصلاة، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 114 من سورة هود {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ}، لأن الصلاة فعل حسن يذهب بالسيئات التي قمنا بها فيغفرها تعالى لنا بسبب إقامتنا للصلاة...

الآن بعد ترسيخ أهمية الصلاة لنا، والقناعة بأن تركها ضرر لنا، فبعد ذلك يأتي الكلام عن مسألة مواقيتها لأدائها في أماكن ليس فيها مواقيت، ومن خلفية أهمية الصلاة لك، ستجد الحلول لأدائها، مثل خلفية الحاجة الملحّة لأي شيء آخر في الحياة، ولن تستسلم طالما هناك حلول لتحصل على ما تريد.

من الحلول المطروحة اعتماد المواقيت الفلكية لحركة الشمس باعتبار نقطة مرجعية لها عندما تمرّ المنطقة في زمن تتحقّق فيه المواقيت، أو اعتماد مواقيت أقرب بلد مجاور، أو اعتماد مواقيت مكّة... ولحد الآن لم أر بحثًا مستخرجًا من القرآن بشكل صريح وحاسم لهذه المسألة، وربما الحلّ مطروح في طيات آية ما، ولكن وكما ترى هذه ليست مشكلة بحدّ ذاتها طالما أداء الصلاة والصيام ممكن باعتماد أي حلّ من الحلول.

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً {79})
انتهينا من الصلاة المفروضة علينا منه سبحانه، وننتقل إلى شيء إضافي:

{وَمِنَ اللَّيْلِ}، من فترة العتمة من اليوم، {فَتَهَجَّدْ}، اترك النوم وقم بشيء، والكلام عمومي ويشمل قراءة القرآن والدعاء... وهنا سياق الكلام عن الصلاة في الليل، {نَافِلَةً}، زيادة إضافية، وبهذا التعبير بعد كلام الآية السابقة عن الصلوات الواجبة نفهم أن الكلام هنا عن شيء نافلة هو كلام عن صلاة زيادة على الصلاة الواجبة، وهي صلاة الليل، والمسلمون يستعملون توصيف "الصلاة المستحبة" كرديف لصلاة النافلة. والليل يبدأ من غروب الشمس إلى الفجر، والآية السابقة حدّدت وقت صلاة العشائين إلى غسقه، ونفهم أنه منتصف الليل، فيبقى ما بعد منتصف الليل لصلاة النافلة التي تذكرها الآية هنا.

{عَسَىٰ}، من المحتمل المرجّح غير الأكيد، بقيامك بهذه الصلاة الإضافية غير الواجبة، {أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ}، أن يقوم المسؤول عنك من مستوى إلهي بإنهاضك من همود، وسياق الكلام عن إرجاعك من الموت في يوم القيامة، {مَقَامًا}، المعنى السطحي: حيث ستكون، المعنى الأدق: حالة جهوزيتك عندما تفعل، ما تقوم به من أعمال، ويوصف بأنه، {مَّحْمُودًا}، جيدًا ممدوحًا، لأن فيه الراحة والأمان والطمأنينة... وسنفهم معنى المقام المحمود بشكل أفضل إذا سمّينا مقام الكفار بالمقام الممقوت التعيس السيئ.

إذا بقيت مؤمنًا ملتزمًا قائمًا في الليل حتى انتهاء حياتك بهذا الشكل فسيبعثك تعالى مقامًا محمودًا، ولكن بسبب دقة تعابير القرآن التي تريدك أن تفهم أن النبي(ع) كان لا يزال حيًا حين خاطبته هذه السورة، ولا تريد أن تعطيه ضمانة الحصول على المقام المحمود في حين أن الاحتمالات الأخرى لا تزال ممكنة، لأن بإمكانه (ع) إساءة التصرّف... لذلك عبّرت الآية بـ{عَسَىٰ}، التي تعني أنك إذا استمررت على ما أنت عليه الآن فمن الأكيد حصولك على مقام محمود، ولكنه الآن مرجّح محتمل غير أكيد، لأنك لم تمت وأنت على هذه الحال، وقد تغيّر تصرفاتك وتفعل شيئًا يحرمك من المقام المحمود.

نفهمها بشكل أسهل إذا أخذنا حالة شخص يقوم بسيئات من عيارات ثقيلة ولكنه يصلّي صلاة الليل! مع أنها حالة غريبة ولكن مثل، هل هذا مضمون له البعث مقامًا محمودًا؟ لا، بل هذا قد يذهب إلى جهنّم خالدًا فيها، ولذلك عبّرت الآية هنا بـ {عَسَىٰ}، لأن هناك أمورًا أخرى مرتبطة بالشخص حتى ينال مقامًا محمودًا وصلاة النافلة منها، فهي لوحدها لا تؤمّن الوصول للمقام المحمود.

ضع في بالك أن العرب حين نزول القرآن لم يكونوا يستعملون كلمة "مقامي" على معنى مكانتي، قيمتي، مركزي... حيث درج فيما بعد استعمالها بهذا المعنى، ولم يستعملها القرآن إلا بمعناها كما كان يستعملها العرب قديمًا: حيث أقوم بعمل ما، وضعي حين أكون مفعَّلًا... ما أقوم به من أعمال في مكان ما... والمعنى الجامع لمختلف الاستعمالات: الكون مفعَّلًا على ما هو محمود.

بعبارة أخرى، إن القيام بالصلاة الواجبة المفروضة علينا من ربنا سبحانه تنجينا من النار، وتدخلنا الجنة، ولكن يوجد في الجنة درجات، والصلاة بالليل نفلًا: زيادة، تطوعًا واستحبابًا وتقربًا إليه سبحانه، توصل من يصلّيها إلى المقام المحمود، الذي قد يبدو كدرجة في الجنّة ولكن الأسهل فهمها على أنها الجنّة. والوصف بالمحمود لمكان ما يعني أن كلّ ما فيه حميد جيد من تفاصيله الصغيرة للكبيرة، مميّز جدًا جدًا، وهذه حالة كل الجنّة.

إذًا تحدثت الآيتان عن الصلاة من الظهيرة وحتى منتصف الليل، ومن منتصف الليل إلى الفجر بالصلاة المستحبة، ثم صلاة الفجر. وننتبه أن فترة الصباح من بعد شروق الشمس إلى الظهيرة متروكة للمعاش والعمل، فلا صلاة واجبة أو مستحبة في هذه الفترة إلا في يومي العيدين الأضحى والفطر، حيث اشتهر بين المسلمين سنّة صلاة النبي(ع) فيهما.

نلاحظ أن الآية عبّرت عن صلاة الليل للرسول بالنافلة، مما يوحي بأن صلاة الليل حتى على الرسول زائدة غير واجبة بالأصل. وأنت تعلم أن توجيه الكلام الإلهي للنبي محمّد(ع) عبر هذا القرآن، هو توجيه الكلام لنموذج، فالكلام موجّه لكل من يقرؤه، وبالتالي أنت أيضًا معروض عليك التهجد من الليل بنافلة عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا.

بقي شيء، كلام الآية عن نافلة أي عن شيء غير واجب ولكنه مفيد جدًا للتقرّب منه تعالى وبالتالي لمغفرة الذنوب واكتساب المزيد من الحسنات... متى وقتها؟ من كلام الآية هنا والسابقة نفهم أنه من بعد منتصف الليل إلى الفجر. وكم ركعة صلاة الليل؟ لم يحدّد القرآن، ومن مجموع ما تخرج به مما وصلنا من سنّة النبي(ع) أن أقلّها ركعتان كصلاة الصبح، وأفضل منها ركعتان كصلاة الصبح وركعة واحدة منفردة ويسميان بالشفع والوتر، وأفضل منها إحدى عشرة ركعة، عشرة منها كصلاة الصبح، وفي الأخير ركعة وتر. وبعد ذلك مفتوح المجال لمن يرغب بمزيد من الصلوات.

كما ترى هذه المرونة معلوم سببها، لأن بعض الناس أشغالهم متعبة جدًا ولا يقدرون حتى على صلاة ركعتين بعد منتصف الليل... هل فاتهم الحصول على المقام المحمود؟ وهل هم أقل درجة إيمانية ممن يصلّي صلاة الليل...؟ لا، لأن هذا لم تقله الآية ولا يقوله كل القرآن، بل تعبير الآية هنا أصلًا لم يحصر البعث مقامًا محمودًا بهذه الصلاة النافلة، بل وصفها بـ {عَسَىٰ}، فهي من الأمور المساعدة على ذلك. وطبعًا في الأيام التي يستطيع فيها المؤمن إقامة صلاة الليل، هي فرصة له لتأمين حسنات موازية في قيمتها للحسنات التي يحصل عليها من الصلوات الواجبة، ومن هذه النظرة سترى صلاة الليل تفضلًا إلهيًا علينا، حيث إن ما بعد شروق الشمس إلى الظهيرة متروك للعمل والمعاش والدراسة... وبقية الأوقات من الظهر للمغرب، ومن المغرب لمنتصف الليل، ومن الفجر للشروق، فيها صلوات واجبة، وأهميتها معلومة لك... وبقي من منتصف الليل إلى الفجر، فسمح تعالى لنا بإقامة صلاة فيها، وتفضّل علينا باعتبارها حسنة بقيمة الصلوات الواجبة.

من هذا الكلام ترى أن الصلاة الواجبة أهميتها تأتي أولًا، وأما صلاة الليل فنافلة، وسبحانه تفضّل علينا بإعطائها قيمة عالية لنزيد من حسناتنا.

الكلام يجرّ الكلام، حيث قد نملّ من صلاة أربع ركعات ونفضّل لو كانت ركعتين، أو ركعة واحدة، أو جملة قصيرة... فهذا تفكير من لم يفهم أنه هو المستفيد من الصلاة لاحتساب حسنات له ومحي سيئات عنه، وفي الحقيقة لو كانت الصلوات أطول لكانت لمصلحتي بسبب الكمّ الهائل من الذنوب التي عليّ، فلنقل إني شرد ذهني في الركعة الأولى، واستعدت تركيزي على ما أقوله في صلاتي في شيء من الركعة الثانية، ثم فقدت تركيزي واستعدت شيئًا منه في الركعة الرابعة... من هذا الكلام نرى معنى الصلاة بأنها توجّه وإقبال إليه تعالى بالحمد والشكر والاستغفار... وترى أن الأربع ركعات فرصة مقبولة لضعفاء الإيمان أمثالي ليخرجوا من الصلاة ولو بسجدة شعروا فيها بالخضوع له تعالى، لتحتسب لنا حسنة تمحو عنّا سيئات...

بعد هذه الحالة يأتي المستوى الأعلى الذي لم يفرضه تعالى واجبًا علينا، وهو صلاة ركعتين بعد منتصف الليل، ولسنا كلنا من هذا المستوى، بل بعضنا للأسف يفهم المسألة بالعكس، فيظن أن صلاة الليل هي البداية بالمستوى العالي إيمانيًا! بينما الأساس هو الأهمية العالية للصلاة الواجبة بإقامتها في أوقاتها وبتركيز وشعور بمعنى الكلمات والحركات، وبعد ذلك تصير النافلة موازية في الأهمية. وهذا الكلام لا يلغي أهمية النافلة لأمثالي من ضعفاء الإيمان، بل يساعدهم على فهم أهمية الصلاة الواجبة، وتساعدهم النافلة على اكتساب حسنات هم بأمس الحاجة لها لمحو السيئات...

(وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً{80})
انتهينا من الصلاة الواجبة والنافلة وننتقل للدعاء:

{وَقُلْ}، أيها النبي(ع) وليكن دعاؤك هو التالي:

{رَّبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ}، في كل أموري اجعلني أدخل في الأمور والأعمال والأقوال التي هي صدق ليس فيها كذب وضلال وافتراء... بل بالحقّ، ومن تبعاته فعلي ودعمي للعدل والإحسان...

{وَأَخْرِجْنِي}، من الأمور التي أدخلتني فيها أيضًا، {مُخْرَجَ صِدْقٍ}، لأن كل كلام أو عمل أو أي شيء مما يحصل معنا في حياتنا له نهاية، سواء انتهى وأنا حيّ، أو انتهى لأني مِتُّ، وكما طلبت منك يا ربي أن تتحكم في دخولي في الأمور، كذلك أطلب منك أن تتحكم في خروجي منها بأن تكون بصدق.

بعبارة أخرى، كما نقول: دخل في الحزب، وخرج من الحزب. ونقصد أنه انتمى وانتسب للحزب، وأعلن أنه معهم ويؤيدهم وسيلتزم ببرنامج عملهم... وخرج من الحزب وتركهم ولم يعد معهم، هنا الآية تلفت انتباهنا إلى أن نطلب منه تعالى أن يوفقنا لاختيار الأمور الصادقة التي ندخل فيها بكل أنواع الأمور التي ندخل فيها، فإذا دخلنا في عقيدة أو تشريع أو حزب أو جماعة أو محاكمة أو عمل أو شهادة أو زواج... ندخل فيما هو صدق لا فيما فيه كذب وافتراء وسوء... وأن يوفقنا للخروج بصدق من الأمور الكاذبة السيئة الباطلة. وسترى من الآية التالية أن الدعاء هنا يشير أولًا إلى التوفيق في الدخول إلى الدين الصادق.

{وَاجْعَل لِّي} يا رب، {مِن لَّدُنكَ}، منك ومن عندك أنت لا من غيرك، كائنًا من كان لا أريده، إنما أنت يا رب من عندك، اجعل لي {سُلْطَانًا نَّصِيرًا}، قوّة تأييد تحقّق لي ما أريده، سلطنة سلطة قوية مع سيطرة على تحقيق ما أريده، لأنجح وأحقّق أهدافي.

من أبسط نماذج النصرة التي يطلبها المؤمن هي أن يستطيع ممارسة دينه من دون ضغوط تعارضه أو تمنعه.

نلاحظ أنه سبحانه يعلّم نبيه(ع) ويعلّمنا هذا الدعاء، ولكل الحالات، صحيح أن الآيات تتحدث عن مشكلة النبي(ع) في دعوته الكفار أن يؤمنوا، ولكن هذا الدعاء عام، ويشمل دخولك في مشروع عمل، أو زواج أو امتحان مدرسي...

ننتبه للتعبيرين، {مُدْخَلَ} و{مُخْرَجَ}، بالضمّة على حرف الميم. فأنا من يتم إدخاله وأنا من يتم إخراجه. أي أنت تحكم بي يا رب، أدخلني... وأنا أطلب أن أصير أداةً وأن تتحكم بي وبمجريات حياتي، لأصير أنا شيئًا تدخله أنت فيما ترضاه وتخرجه مما لا ترضاه، وأعطيك التحكم بنفسي، ونفهمها بسهولة بمقارنتها مع سلطان الشيطان على أتباعه، حيث سلّموه رقابهم وصار يسوقهم للسوء، والمؤمن يسلّم أموره له سبحانه طالبًا العون على الاستقامة.

(وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً{81})
{وَقُلْ}، أيها النبي(ع) للمؤمنين وللكفار: {جَاءَ الْحَقُّ}، جاء الصواب الصحيح، وأنا أنقل لكم كلامه تعالى عن العقيدة والتشريع والسلوكيات الحقِّ الصحِّ الصالحِ، وليس باطلاً غير سليم أو فاسد، وليس سيئاً أو كذباً أو توهماً واختراعاً... وجاء وصار حاضراً، وعطفاً على الآية السابقة حيث أنا أطلب منه تعالى أن أُدْخَلَ حصراً في هذا الحق الذي جاء، ولن أركن إلى كفركم.

سترى من الآية التالية أن الآية هنا تشير تطبيقياً بمجيء الحقِّ إلينا عبر القرآن.

المجيء يصح كوصف لمجموع الحدث من ابتداء مقدماته وقبل تمام حصوله إلى حصوله، و"أتى" تشير لتمام حصول الحدث، وبناءً عليه فالخبر عن تحرك القادم من بعيد أنه جاء، حيث تصفه بالمجيء حتى قبل وصوله، وبعد وصوله وللتعبير عن أنه لم يكن من قبل وانتقل من مكان ما إلى هنا فأيضاً تصفه بالمجيء، وكلمة "أتى" لخصوص وصف وصوله وصيرانه حيث أنت. وبناءً عليه فـ {آتَى الزَّكَاةَ} وصف صيران الزكاة مع المحتاج، فوضعها جانباً لإعطائها فيما بعد للمحتاج ليس إتياناً، والتعبير في الآية 66 من سورة هود {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً...} يريك أن الكارثة تَقَرَّرَ حدوثها وبدأ التنفيذُ، وقبل حدوثها خرج النبي والمؤمنون، حيث توصف الكارثة بأنها جاءت.

{وَزَهَقَ}، أي خرج قهراً وغصباً عنه، {الْبَاطِلُ}، أي شيء ولسبب ما فهو لا ينتج عنه خير، فهو العاطل السَّيِّئُ غير الصحيح.

الكفر والشرك والتسلط بالسوء على الآخرين والعبثية في العقيدة والتشريعات... بين الناس، كل ذلك هو باطل وليس حقاً، وكان منتشراً بين الناس، ولم يكن الحقُّ معروفاً، أمّا الآن، بعد أن أرسلك ربك للناس أيها النبي(ع) بهذا القرآن، فقد {جَاءَ الْحَقُّ}، {وَزَهَقَ الْبَاطِلُ}، حيث خرج وظهر سوؤه.

{إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً}، فهو لن يثبت لأن الحقَّ بالقوة سيجعله يخرج من الصورة ليصير بلا قيمة، ومن غير الممكن أن يغلب الباطل على الحقّ.

عادة يذهب فكرنا إلى التطبيق العملي للآية على انتصار المؤمنين على الكافرين، وبالتالي انتشار الحق بتطبيقه وزهوق الباطل بترك الناس له. ولكن كلام الآية هنا وعموم كلام القرآن عن النور والظلمات والحقّ والباطل... لا يشير عادة إلى التطبيق بل إلى أصل توصيف الأمور، خذ مثلاً كلمة الباطل في العقيدة بالكفر به تعالى، فالحقُّ واضح ناصع الوضوح في آياته تعالى بخلقنا وخلق ما حولنا، حتى لو كفر به تعالى كلّ الناس، فالباطل زاهق لأن الحقَّ واضح.

نتعمّق مع الآية هنا إلى أساس معيار تصنيف الأمور، ما الذي يحدّد أيهما حقٌّ وأيهما باطلٌ؟ وهل الباطل يفرض نفسه كحقٍّ؟ كشيء يجب تنفيذه أو اتباعه أو التقيُّد به لأنه صحيح؟

القرآن حسم أساس هذه المعرفة كخاصية متاحة لنا منه تعالى رابطاً لها بالقلب، أي بأساس الفكر والنفسية، فإن كان قلبنا سليماً، فسنعرف الحقّ ولن يتشوّش بالباطل، وإن كان قلبنا مريضاً، فبحسب درجة المرض سنرى السوء خيراً والخير سوءاً، وصولاً إلى استفحال المرض الفكري والنفسي، فلا نعود نرى السوء في أي شيء نفعله، بل تنعكس الأمور ونرى الخير سوءاً.

بكلامه تعالى عبر قرآنه، صار بين أيدينا مرجع واضحٌ للحقّ، و{زَهَقَ الْبَاطِلُ}، وصار واضحاً بطلانه وسوؤه.

هكذا ترى معنى عموم كلام القرآن عن الظلمات والنور والصلاح والفساد والحق والباطل... حيث انتصار الخير على الشرّ ليس محصوراً معناه في انتصار المؤمنين ليصير لهم حكومة مسيطرة، بل هو أعمّ، ونفهمه بسهولة من الآية 18 من سورة الأنبياء {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ}، ولو كل الناس كفروا واتّبعوا الباطل، فالباطل زاهق إذا كان الحقّ معلوماً، حتى لو لم يلتزم أي أحد بالحقّ.

إن كان في يدك جوهرة وقال الناس إنَّها حجرة، وهم كان في أيديهم حجارة قالوا إنَّها جواهر، فهل سيصير لون ولمعان ورونق ما في يدهم أفضل مما في يدك؟ لا، ولكن تصير القيمة للحجر عندهم أعلى من قيمة الجوهرة الحقيقية التي معك، وهذا لن يغيّر من الحقيقة أي شيء، كحال اعتداء قوم النبي لوط(ع) جنسياً على الغرباء، حيث كانوا يقولون إنَّه من حقّهم فعل هذا وليس فيه أي خطأ، وكلّ القوم متفقون على ذلك كما نفهم من الآية 79 من سورة هود {قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ}، وهل إذا اعتدوا عليك ستقول: كلهم يقولون بأنه عمل صحيح، إذن لا حقّ لي على الاعتراض.

لا، لن تفقد الأشياء قيمة الصفات التي فيها إن قلّلت أنت من قيمتها، لأنَّ الجوهرة تبقى جوهرة حتى لو رفض الناس إعطاءها قيمة عالية في مقابل حجرة.

هذا ما يقوله القرآن عن الحقّ والباطل والظلمات والنور. وللأسف ورغم النور المبين في كلامه تعالى، إنَّنا لن نراه كما هو، بل سنراه من فكرنا ونفسيتنا، لأنَّ أي مرض فيهما سيجعلنا نخلط الباطل بالحقّ...

لمزيد من التوسّع حول مرجعية تصنيف الخير والشرّ راجع دراسة الآية 11 من سورة البقرة {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}، ودراسة الآية 38 من سورة الإسراء {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً}.

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً{82})
كيف جاءنا الحقّ منه تعالى؟:

{وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ}، ننزّل من الأشياء التي يمكنكم قراءتها، لأنَّ المعلومات التي في الكتاب الرئيسي لا نستطيع نحن البشر قراءتها، وبأمر منه تعالى تحوّل قسم منها إلى اللغة العربية ونزل على النبي محمد(ع)، حيث صار يمكننا

قراءتها، وصار اسمها: قرآن. أي مقروءة، يمكن قراءتها، وكل ما نزل وحياً على النبي محمد(ع) هو القرآن الذي بين أيدينا اليوم، وأثناء نزوله متفرقاً على قرابة العشرين سنة كان ينزل أيضاً اسمه قرآن، فالكل قرآن، والسورة قرآن والآية قرآن والكلمة قرآن.

يُنزّلُ سبحانه من القرآن، {مَا هُوَ شِفَاءٌ}، ما يسبّب للمؤمنين انتهاءَ المرض، وهنا الكلام عن مرض القلوب عن الأفكار والمعتقدات والنفسيات المريضة الباطلة، حيث يعرض علينا القرآن ما نقوّم عليه قلوبنا لتصير سليمة. وعندما يسمع المؤمن كلمات القرآن التي تقول الحقّ وتبيّن فساد الكفر والشرك... وسوء بعض التشريعات والسلوكيات، فإن القرآن يشفي قلبه من اختلاط توصيف الأمور بالخير والشرّ، فيرى الحقّ والصلاح واضحاً، ويرى الباطل والسوء واضحاً.

يُنزّلُ سبحانه من القرآن ما هو {رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}، وهو التطبيق العملي للعناية بالمعتقدين الملتزمين بدينه تعالى لما فيه مصلحتهم، حيث يؤمّن لهم سبحانه طريق الهداية للحقّ والصلاح، وهو نفسه طريق الوصول إلى الجنّة الخالدة باتباع التعاليم التي ذكرها القرآن.

هذا القرآن، {لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً}، لأنَّ الذين لم يكن معهم حقّ ولم يكونوا منصفين ولا عادلين بمعارضتهم للحق القرآني الواضح المبين، وظلماً تركوه وكفروا به، فالقرآن سيزيدهم خسارة، حيث سيفقدون أُموراً لها أهمية شيئاً فشيئاً وصولاً إلى فقدانهم التام لكل المغفرة والثواب، وكلما ازدادوا ظلماً ازدادت خسارة أنفسهم لقيمتها، حتى تصير أنفسهم بلا قيمة نهائياً عنده سبحانه.

نلاحظ الدقّة في التعبير، إنَّ الآيات التي تدل وتوضّح العقيدة الحقّ وأسباب التشريعات الإلهية، والآيات التي توضّح ما وراء الظواهر مثل الآيات التي تتحدّث عن نفسية الكفر والنفاق وترك الجهاد والبخل عن الإنفاق والأخلاق السيّئة... هذا البيان يسبّب للمؤمن راحة نفسية وفكرية، ويذهب عنه أي شكّ ويصير الحقّ واضحاً أمامه... وقصد الإله سبحانه أن تكون هذه الآيات شافية، ولكن هناك آيات أخرى لا علاقة لها بالشفاء من العقائد المنحرفة، مثل الآيات التي هي مجرّد خبر: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ...} {فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً...} {فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى...} الحروف المقطّعة في أوائل السور... ولذلك عبّرت الآية عن بعض القرآن أنه شفاء، ولكن عبّرت عن كل القرآن أنه لا يزيد الكافرين إلا خساراً، فأي آية من القرآن لن تكون نافعة إيمانياً للكافر، لأنه لن يعترف بها ككلام حقّ من الإله...

لا تَنْسَ أن القرآن استعمل تعبير {الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} ولم يقصد به فقط الكفّار أو المنافقين أو الفاسقين، بل قصد به أيضاً أُناساً مؤمنين ببعض الدين الإلهي ولكن عندهم شكوك في بعض الأمور الأخرى، وهذه الشكوك وصفها القرآن بالمرض، وهكذا يبدو لنا وجود أمراض إيمانية من درجات مختلفة، حيث إنَّ بعض المؤمنين تشفيهم بعض آيات القرآن من بعض الاستفهامات والاستفسارات والشكوك، وبعض المؤمنين تسبب لهم بعض الآيات زيادة في الشكّ كما ورد في الآية 31 من سورة المدثّر عن موضوع عدد الملائكة(ع) التي تتولّى تعذيب الناس في جهنّم، {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً... وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ...}.

بعبارة أخرى مباشرة، من حيث المبدأ، كل من فعل سوءاً ولو صغيراً عن قصد، حتى لو كان مؤمناً عاملاً للصالحات، فهو في تلك الحالة التي فعل السوء فيها موصوف بالفسق أو النفاق أو حتى بالكفر إن كان فعله للسوء مبنياً على إنكار طاعته تعالى في هذه المسألة الصغيرة، وهذا من حيث المبدأ توصيف بأقل درجة من الفسق أو النفاق "أو حتى الكفر"، ومن هنا نتدرج صعوداً في كمية ونوعية السوء الذي نفعله، وصولاً إلى غلبة توصيف عموم أعمالنا بالسوء، وهكذا نصير موصوفين بتمام الفسق والنفاق. ومرض القلب هو هذه الحالة من التدرج من الأقل سوءاً، إلى الأشدّ سوءاً، والقرآن شفاء للذين حالتهم قابلة للشفاء من الذين لا إصرار عندهم على فعل السوء...

الآية لا تقصد أبداً لا من قريب ولا من بعيد، أنَّ القرآن يشفي من الأمراض الجسدية، كقولهم إنَّ الآية الفلانية تشفي من الصداع، والآية الفلانية من العقم... ومن تكملة الآية عن الخسران للكافرين يظهر بوضوح أن الشفاء بالقرآن هو التخلّص من أمراض الفكر والنفسية المتعلقة بمعرفة الحقّ والخير والاقتناع به والتماشي معه... والروايات التي تحدثت عن الشفاء من الأمراض الجسدية بالقرآن، فإذا صحّ نقلها، وثبت أن النبي(ع) قالها، فهي ليست أكثر من توجيه للمريض حتى يتعلق بربه سبحانه، ويطلب الشفاء منه. لأنَّ المؤمن يبحث عن الدواء مع توكله على الله تعالى، ومع

إيمانه بأنه بعين الله تعالى، فإذا حصل الشفاء شكر ربه تعالى عليه، وإذا لم يحصل الشفاء، يحتسب أمره إلى ربه معتقداً بأنه سبحانه أراد للأمور أن تسير هكذا.

بعبارة أوضح، ليس من سننه تعالى شفاء أمراض الجسد والإصابات والإعاقات من قراءة القرآن أو أي كلام آخر، بل ليس من سننه تعالى مداواة الناس من الدعاء له تعالى ليشفيهم، وها القرآن أمامك ولن تجد فيه كلاماً صريحاً مثل الذي يتداوله الناس عن ميزة الإيمان بهذا الدين ليصير للمؤمن مميزات حماية من الأمراض والجراثيم... وميزة قدرته على الشفاء من الأمراض إذا دعاه تعالى طالباً منه الشفاء، لا، وهذه ليست ثقافة قرآنية، بل أحلام وأوهام وأماني الناس لبّسوها لكلامه تعالى، لذا راجع دراستنا هذه لأي آية تظن أنها تدعم تلك الأفكار لترى أنها ليست صحيحة.

لا ننسى أن قراءة القرآن مهمة جداً في كل حالاتنا، في المرض أو الصحة أو الفقر أو الغنى... ومع البحث عن الدواء للشفاء من المرض الجسدي، نقرأ معه القرآن للتقرب إلى الله تعالى وللتوكّل عليه لتسيير أمورنا بما فيه مرضاته وعافيتنا في الدنيا والآخرة.

على اختلاف الأزمنة نجد أُناساً يحرّمون أخذ الدواء بنيّة أنه يشفي، ويعتبرونه شركاً بالله تعالى! لأنهم يقولون إنَّ الله تعالى وحده الشافي، والاعتقاد بأن الدواء يشفي هو شرك! علماً أنَّ القرآن أشار إلى العسل بأنه شفاء لبعض الناس من بعض الأمراض! وتقرأ ذلك في الآية 69 من سورة النحل {ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}. ونعلم من سيرة عقلاء المسلمين عبر التاريخ أنهم كلّهم تناولوا الدواء بل واخترعوه أو وصفوه لغيرهم، ونفهم من القرآن أننا لا يحق لنا قتل أنفسنا وترك التداوي هو قتل للنفس وإضرار بها، وهذا حرام حرام، بل يجب علينا العناية بسلامة الجسد وسنتحاسب على إهماله وعلى تسبيب الضرر له.

نرجع للسورة، ومن الأمثلة العملية لزيادة الخسارة للظالمين:

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً{83})
{وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ}، صرنا من فضله مما أتاحه تعالى لنا في حالة النعمة الموصوفة بأنها جيدة للغالب الأعمّ من الناس، وصار معه المال أو الصحة أو الأمان أو النجاح... {أَعْرَضَ}، حيث لم يهتمّ بالشكر لله تعالى لأنه لم يؤمن بأنها نعمة متاحة لنا منه تعالى، {وَنَأَى بِجَانِبِهِ}، فذهب مبتعداً عن جهة الشكر لله تعالى إلى جانب آخر، إلى جانب الكفر والتكبّر ونكران النعمة الإلهية عليه.

بعبارة أخرى، بشكل عام، الغالبية من الناس يتيح سبحانه لهم نعمة تسبب لهم الراحة والسعادة، وبشكل عام عندما تصيب الناس هذه النعمة، هم ينسون ربهم سبحانه، بل ويبتعدون عنه للتوجّه لعموم أي جهة أخرى! فلا يؤمنون بأنه هو سبحانه منحهم النعمة، بل هم بجدارتهم حصلوا عليها، أو بسبب الظروف المناسبة، أو الحظّ... أو من آلهتهم المزعومة.

{وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ}، إذا تعرض لمكروه كالمرض والفقر والفشل و... {كَانَ يَؤُوساً}، حيث يصيبه اليأس، وينقطع عنده الأمل باستعادة ما كان فيه من نعمة، ولا يصبر على فقدانه النعمة، ومن سياق الكلام تعلم أنه ييأس منه تعالى، لأنه الآن وفوراً يريد منه تعالى إنهاء الشرّ عنه، ويريد منه تعالى الآن وفوراً إصلاح الضرر الذي وقع... وإلا فهو سيقطع الأمل من ربّه ولن يؤمن به ولن يلتزم بدينه!

يعني على كلا الحالتين يوجد نتيجة سيّئة من الغالب الأعم من الناس، فإذا حصلوا على النعمة ابتعدوا عن ربهم سبحانه، وإذا تعرّضوا لمكروه يئسوا من ربهم سبحانه.

ننتبه، هناك أناس لا يتغيّر إيمانهم عند حصولهم على النعمة أو وقوعهم في شرّ، وبيّن القرآن بشكل مكثّف متكرر أن هذه النوعية عددها قليل، جداً قليل، ولذلك عبّر بالإنسان ليشير للغالب الأعم من الناس.

ضع في بالك دائماً أنَّ القرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموماً ذكراً وأنثى، وأنهم يتناسلون...

أو متعلقٍ بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

بالنسبة لعقلية الإنتاج وإدارة الموارد والمشاريع، قد تخرج بفكرة فشل المشروع الإلهي لأن أكثرية مخلوقاته تعالى من الناس هم عصاة له، ولكن الإله سبحانه من ناحيته أخبرنا أنَّ التصميم الأساسي للإنسان ليس فيه عيوب، والدليل أنَّ البعض من الناس وصلوا لمراتب إيمانية عالية، وهم لا يختلفون في تكوينهم عن بقية الناس التي انحرفت، حيث إنَّ المشكلة في اختيار غالبية الناس للطريق المنحرف عن الحقّ والصلاح، لأنهم بحريّة الإرادة الممنوحة لهم منه تعالى اختاروا الانحراف نحو السوء.

إذا أعدت صياغة الاعتراض وقلت: إن كان سبحانه يعلم أن الأكثرية مصيرها إلى جهنّم، فلماذا خلقهم؟ الجواب الإلهي أنَّهم هم بإرادتهم اختاروا الطريق المؤدّي إلى جهنّم، حيث إنَّ ذنبهم على جنبهم ولا مسؤولية على الذي خلقهم، وقبلها هم اختاروا حمل الأمانة، راجع الآية 72 من سورة الأحزاب {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً}.

على كل حال سواء أعجبك ما حصل وسيحصل أو لم يعجبك، أقنعك أم لم يقنعك، فأنت كإنسان مخلوق لست بمستوى الإله علماً وبصيرة، لأنك تفكّر على مستوى منخفض ينطلق من رغبتك في جنّة الآخرة وتريدها الآن، ومن رغبتك المحسومة بما بين يديك من شهوات الدنيا وتتعلّق بها، لو كنت مؤمناً مطيعاً لما كان عندك أي اعتراض على خلقك، ولكنت غير مهتم بدخول غيرك إلى النار لأنك تعلم يقيناً بأنهم باختيارهم وإرادتهم مجرمون ظالمون ويستحقون العقاب.

أعتذر سلفاً عن إقحامك في حديث طويل من خارج القرآن، ولكن ستجد في كتب المسلمين بحوثاً عن الخير والشرّ ذكروا فيها آيتنا هنا، حيث فكّروا أنَّه تعالى خالق كل شيء، فإذا قلنا عن شيء ما أنَّه شرّ، فنقع في مشكلة أنَّه تعالى خالق للشر، وهذا استنتاج غير صحيح ولا يتماشى مع صفات الله الرحمن السلام الرؤوف... النور الحميد... حيث إنَّ كل هذه الصفات لا يمكن أن تجتمع مع خلقه تعالى للشرّ، بل سبحانه فقط يخلق ما فيه الخير، ولذلك ذهب المسلمون إلى تخريج مسألة "وجود الشرّ" وقالوا إنَّه مجرّد توصيف ولا وجود لشيء اسمه شرّ، أو إنَّه موصوف بالشرّ بالنسبة لشيء آخر مع أنه لوحده ليس شرّاً... كسمّ العقرب للإنسان، حيث إنَّه شرّ للإنسان وخير للعقرب الذي يميت فريسته ليأكلها... ووجدتُ البعض من المسلمين انتبه للمستوى المنخفض لكلام الكثيرين عن هذا الموضوع، ولكن أثناء ردّهم وتقويمهم لهذه الطروحات، دخلوا من جديد مع الباقين في المتاهة!

بكل بساطة، اتفقنا أنَّه تعالى خالق لكل شيء، وكل ما يفعله هو سبحانه وكل ما ينتج عمّا يفعله "هو" سبحانه كلُّه حميد وخير للمؤمنين، حيث فقط للناس المؤمنين الحقيقيين يحصل كل خير لمصلحة آخرتهم، وهذا فقط ما أكّده القرآن، وأكّد القرآن أنَّ الكفّار والمشركين والمنافقين والفاسقين يكيد لهم ربنا سبحانه حتى يزدادوا كفراً وشركاً ونفاقاً وفسقاً لأنهم من داخلهم لديهم قرار ثابت وهو أنَّهم لا يريدون التغيّر للإيمان والصلاح، كما ترى، وكما قال القرآن إنَّ ربّك سبحانه يريد أن يحصل مع هؤلاء أشياء توصف بأنها "شرّ" لا خير فيها لآخرتهم، حيث إنَّ كل الصفات الإلهية التي تعطي معنى الرحمة والتي تدل على أنَّه تعالى لا يفعل إلا الخير، فهي مخصوصة للمؤمنين من عباده، وكل الصفات الإلهية التي تدل على أنَّه تعالى يفعل شرّاً فهي مخصوصة لمن عصاه من عباده، وبتعابير القرآن سبحانه لا يحبّهم ويغضب عليهم ولا يكلّمهم وينتقم منهم ويعذّبهم عذاباً شديداً خالداً... يعني كل تركيبات الكلام التي ستجدها في الكتب هي مجرد ترف فكري لا علاقة له بأي واقع، وفيها مسلّمات وفرضيات ونتائج عن الأبحاث بالمقارنة والاستدلال والقياس... ولكن لا معنى لها سوى أنَّها ترف فكري بعيد عمّا يقوله القرآن، بل ومخالف لما يقوله القرآن، لأنَّ ربنا سبحانه وتعالى يفعل الضرّ "السوء" مع الأشرار، ومن لم يعجبه ذلك، فالدنيا مليئة بالحيطان فليتناطح معها.

نسأل عن معاقبة المجرم على إجرامه فهل هذا شرّ؟ وهكذا ترى بعداً آخرَ لمعنى كلمة شرّ، إذ إنَّ سبحانه أصلاً لا يفعل الشرّ بالمعنى المضاد للخير كعمل لا حقّ له تعالى بفعله، أو عمل ظلم، أو عبث... لأنَّ كل أعماله تعالى حميدة حتى معاقبة الكافر بالخلود في النار هو عمل حميد لأنَّ هذا ما يستحقه الكافر.

أمّا بالنسبة لدخول الكوارث والأمراض والعاهات... على خطّ البحث، والسؤال عمّن سبّبها طالما أنَّه تعالى يفعل كل شيء، فها هو فعل أشياء شريرة لأناس أبرياء؟! ولهذا السؤال دخل المسلمون في البحث وخرج الباحثون منهم

بدراسات مختلفة متنوّعة، ولكن القرآن ذكرها قبلهم، حيث إنَّ المجتمع المؤمن "الحقيقي" سيكون في حماية إلهية من الكوارث، والمجتمع الأقل منه إيمانياً سيكون محمياً من بعض الكوارث... وصولاً إلى حالة مجتمع فعل سوءاً من العيار الثقيل ويريد سبحانه تعذيبه، ومجتمع يريد سبحانه تدميره بالكامل، حيث إنَّ ظاهر القرآن صريح بهذا الكلام، وإن تركنا الأفكار المنحرفة من رأسنا، وقرأنا ما يقوله سبحانه، لفهمت أنك أنت لا تقرّر من هو المجتمع الذي يستحق نزول العذاب أو العناية على ما تراه أنت مناسباً، واسأل نفسك إن كنت حقاً وصدقاً مؤمناً، وانظر لمن حولك من الكذّابين المستغيبين الغشاشين المستهترين بالحلال والحرام... أنت مجرد عبد يلاحظ ما حوله فكن صادقاً حين تلاحظ، فهل يستحقّ المسلمون الحاليون كلّهم عناية إلهية دائماً؟ ولماذا؟ ألمجرد أنهم مسلمون! لا، لأنَّ المؤمنين الحقيقيين فقط يستحقون نيل العناية الإلهية، وبقية الناس تنال العناية بقدر إيمانها وبقدر تركها لبعض أنواع السيئات...

لم نَنْسَ الأطفال والنساء والعجائز الذين تصيبهم الكوارث، فهل هؤلاء الأبرياء يصيبهم شرّ فعله الإله سبحانه؟ فهل هذا معقول؟ نعم معقول، لو كان فيهم خيرٌ لكان سبحانه اعتنى بهم "جزئياً" ولكنهم جزء من مجتمع أساء التصرّف فاستحقّ نزول العذاب، ولو كان فيهم جنين أو رضيع سيؤمن أو سيلد مؤمناً، لنجّاه تعالى، وهذا ما تعلمناه من القرآن حين تحدّث بشكل صريح عن قوم النبي نوح(ع) في الآية 27 من سورة نوح {إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً}، وهذه إرادة ربّك خالق كل شيء، وإن لم يعجبك وكان لك رأي آخر في أفعاله تعالى، فاعلم أنك لن تغيّر أي شيء بأقوالك وأبحاثك لأننا كلنا "كعبيد" محكومون لما قرّره الإله عزّ وجلّ.

بقي شيء لم يكن واضحاً فيما سبق، إذ لا يوجد شيء اسمه: خلق تعالى الشرّ. إبليس شرير، وسبحانه خلق إبليس، ولا يوجد شيء "مخلوق" مركّب مؤلّف اسمه شرّ، بل يوجد كائنات خلقها تعالى وهي تفعل الشرّ. والاعتراض أو الاستفسار عن خلقه تعالى لإبليس الذي لا يفعل إلا الشرّ للآخرين، هو اعتراض لا معنى له، حيث إنَّ بيننا من لم يفعل إلا الشرّ في حياته، أو فعل شرّاً من العيار الثقيل... ونعلم أنَّه تعالى خلق الإنسان {فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} كما ورد في الآية 4 من سورة التين، وهو الإنسان بقرار منه يختار أن يكون {أَسْفَلَ سَافِلِينَ} وراجع في ذلك دراسة الآية 5 من سورة التين {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}، ونفس الكلام عنّا ينطبق على الجنّ، حيث إنَّ إبليس وأمثاله منهم اختاروا أن يكونوا أسفل سافلين، وفرعون مثله وأبو لهب وأبو جهل وعبد الله بن أُبَيّ بن أبي سلول... وعموم الطغاة مثله...

إبليس ليس حالة شاذة لنسأل عن خلقه تعالى لكائن كلّه شرّ، لا، لأننا نحن البشر وأنا وأنت من حيث المبدأ مثل إبليس، لدينا القابلية والقدرة على فعل الخير، ولدينا القابلية والقدرة على اختيار فعل الشرّ، لو فعلنا الشرّ هل يصير تعالى خالقاً للشرّ؟

نعم للكلام معنى لو كان سبحانه خلق كائناً مجبوراً على فعل الشرّ، ولكن معلوم لك أنَّ هذا لم يحصل، حيث إنَّ إبليس مثلنا ممنوح له حرية الإرادة والاختيار، وهو بإرادته اختار إضلالنا...

لمزيد من التوسّع عن الخير والشرّ راجع أيضاً دراسة الآية 62 من سورة الزمر {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}.

(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً{84})
{قُلْ}، أيها النبي(ع) للناس عبر هذا القرآن:

{كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ}، كل واحد منكم أيها الناس يعمل على سجيّته على سنخيّته، على الشكلية التي هو عليها من ناحية العقلية والنفسية والأخلاق والتصرفات، فإذا كانت تركيبته النفسية والفكرية كافرةً، فسيكون عمله على شاكلتها أي على شبهها على شكلها، فإذا أصابته نعمة أو نقمة، فسيتصرف بحسب شاكلته الكافرة، فيبتعد عن ربه سبحانه أو ييأس، وإذا كان فكره ونفسيته مؤمنةً، فسيكون عمله على شاكلتها، فإذا أصابته نعمة فسيشكر ربه سبحانه، وإذا أصابته مصيبة فسيصبر ويتوكل على ربه سبحانه.

أنتم تصرّفوا على شاكلتكم، {فَرَبُّكُمْ}، أي المسؤول عنكم من مستوى إلهي أيها الناس المختلفون في الشاكلة، {أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً}، حيث يعلم سبحانه من طريقة سلوك الفرد وتفكيره إذا كان على الشيء الصحيح الذي يوصله للغاية الصحيحة، إذ لا أحد يعلم أكثر منه تعالى مَنْ منكم يمشي على الطريق الصحيح، يعلم سبحانه مَنْ منكم شاكلته مؤمنةٌ أو

منافقةٌ أو كافرةٌ... لأنَّنا كُلَّنا في حياتنا في حالة المشي، وأمامنا خط الهدى وخط الضلال، والسبيل "المسلك" الذي نمشي عليه هنا في الدنيا سيكون على شاكلتنا وسيوصلنا في الآخرة إمّا إلى الجنّة أو إلى النار، وربنا أعلم منّا، بل وأعلم من الكلّ، حيث يعلم إن كنا نمشي على "شاكلة" الهدى، على الطريق الصحيح.

لاحظ تعابيره تعالى وتفسيرنا لها من خلفياتنا، لأنَّه بسبب مخزون ثقافتنا يذهب فكرنا من التعبير بسبيل الهدى إلى الالتزام بدينه تعالى والوصول إلى جنّة الآخرة، وهذا تطبيقياً صحيح، ولكن عموم كلام القرآن كان أعمّ من ذلك، ونفهمه بسهولة لو اعتبرنا أنفسنا على دين غير دينه تعالى، وَعُرِضَ علينا القرآن، ولو كنّا مهتمين بمعرفة الحقّ واتباعه فأول ما سنفكّر به إن كان كلام القرآن حقّاً، لنرى ما يعرضه علينا هل يأمر بشيء سيّئٍ؟ وهكذا يمكنك رؤية التعبير بالهدى يشير لمعيار الحقّ والخير بمعزل عن النتيجة التي تؤدّي إلى الجنّة والنار...

نلاحظ أنَّ الآية عامّة، حيث إنَّها تُوصِّفُ كل الناس بأن لهم شاكلة وعلى أساسها يفكّرون ويتصرفون، إذ هناك أساس فيهم، في طريقة تفكيرهم، في اتخاذهم القرارات، في طريقة تصرفاتهم في أخلاقهم... في كل ذلك يوجد أساس منبع، وهو الشاكلة: السجيّة الخلق العقلية النيّة... ولذلك نجد في عموم القرآن تعميماً وامتداداً لهذه الشاكلة، حيث إنَّ الذي شاكلته الكفر، بشكل مديد سيستمر في الكفر، ويتعمّم ذلك على كل حياته، حتى لو مات ووصل بعدها إلى الآخرة ثم جرت إعادته إلى حياة كحالة الدنيا التي كان فيها، فهو لديه شاكلة ولن يتغيّر عنها وسيعود كافراً كما كان، والمؤمن الكامل سيعود مؤمناً كاملاً كما كان، والمتوسّط الإيمان سيعود كما كان... ولذلك يخلد أهل النار في النار لأنهم وبقرار منهم جعلوا شاكلتهم "طبيعتهم" كافرةً أبداً ولن تتغيّر، ويخلد أهل الجنّة في الجنّة لأنهم وبقرار منهم جعلوا شاكلتهم "طبيعتهم" مؤمنةً مطيعةً لربها سبحانه ولن تتغيّر، وهذا اشتقاق واستنتاج من الآية هنا ويتوافق مع عموم بقية مفاهيم القرآن. لمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 28 من سورة الأنعام {بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}.

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً{85})
{وَيَسْأَلُونَكَ}، يعبّرون لك أيها النبي محمّد(ع) عن إرادتهم لجواب منك، {عَنِ الرُّوحِ}، وكما يبدو فإن السائلين من عموم الناس، من المؤمنين والكافرين، فهو في نفس الوقت سؤال استيضاح من المؤمنين ومن الكافرين، حيث إنّ النبي(ع) قال للناس عبر القرآن إنّ الروح هو الواسطة بينه وبين ربه سبحانه، لأنّ الروح هو الذي يسلّمه القرآن بطريقة خاصة من نوع الوحي.

هم يريدون معرفة شيء عن هذا الذي تقول عنه بأنه يَنْزِلُ عليك بالقرآن، من هو، ما هو، ما صفاته...؟ وأمّا إذا خطر ببالك أن السؤال عن الروح يشيرون به لشيء آخر، فها سياق الآيات السابقة والآيات التالية أمامك، ومن الواضح جدا أن الكلام عن نزول القرآن، وبالتالي فمن البديهي أن الآية هنا ليست خارجة عن سياق الكلام، لأنّ السؤال فيها عن الذي ينزل بالقرآن.

{قُلِ}، أيها النبي(ع) لهؤلاء السائلين عن الروح:

المخلوق الذي وصفه الروح، والذي ينزل عليّ بالقرآن، هو {مِنْ أَمْرِ رَبِّي}، من الشؤون والأمور التابعة للمسؤول عنّي من مستوى إلهي، ولسبب ما لا يريد سبحانه إعطاءكم أي تفاصيل عنه، {وَمَا أُوتِيتُمْ}، ولم يَصِرْ معكم معلومات منه سبحانه "أيها السائلون عن الروح"، لم تحصلوا {مِنَ الْعِلْمِ} بما يخصّ الروح، {إِلَّا قَلِيلًا}، حيث لديكم معلومات قليلة جدا غير كافية حتى تفهموا ما هو الروح. أنتم تظنون أنفسكم على مستوى عالٍ من العلم، لأنكم تعرفون معلومات عن بعض الحيوانات وسلوكياتها... وعن بعض مواقع النجوم والاستدلال بها على فصول السنة والاتجاهات... وبعض التواريخ والأحداث عن الحروب والناس والمجتمعات البشرية... والذي قرأ منكم الكتب يعرف شيئا عن الملائكة(ع) والجنّ والأخبار القديمة... أمّا في الحقيقة، فهذا الشعور لديكم بأنكم متقدمون علميا ومعرفيا، وبناء عليه يمكنكم استيعاب وفهم طبيعة الروح، فهذا الشعور غير صحيح، لأن العلم الذي لديكم لا يؤهلكم لمعرفة الكثير عن الروح.

كلمة الروح معناها في اللغة: أساس الشيء، جوهر الشيء، خلاصة الشيء، عندما نغلي العصير ونقطّره نحصل على روح العصير، روح النعناع، روح العنب... وعلى ما يبدو فإن تسمية بعض المشروبات المسكرة بالمشروبات الروحية

سببه عملية التقطير للحصول على مشروب " صافٍ "، ومن الدارج استعمال الكلمة الأجنبية "إسّانس" عند وصف هذه الأشياء كمرادف لكلمة روح... واستعمل القرآن كلمة روح كصفة وليس كاسم خاص لشيء، فلا تظن كلما قرأت كلمة روح في القرآن بأنها تقصد شيئا له كيان محدّد، لا، بل تقصد صفة لشيء، حيث إنها مرّة صفة للملاك جبريل(ع)، ومرّة صفة لشيء خاص حصل عليه الإنسان "وبخاصّة آدم وعيسى عليهما السلام".

إذًا، هناك نوع من المخلوقات يوصف بأنه روح، لأنه صافٍ، خالٍ من الإضافات ولا يتألف من عدة أشياء، بل من شيء واحد جوهري أساسي، ونعرف منها بالتأكيد الملاك جبريل(ع) "جبرائيل"، حيث سمّاه القرآن باسمه "جبريل" كما ورد في الآية 97 من سورة البقرة {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ...}، لأنه ناقل الوحي للنبي محمد(ع)، ومرّة ثانية سمّاه بوصف "الروح" كما ورد في الآية 193 من سورة الشعراء {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ}.

ونلاحظ الآية 98 سورة البقرة {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ}، حيث فصلت الملائكة عن جبريل وميكال عليهما السلام، والآية 4 من سورة التحريم {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ}، أيضا فصلت جبريل(ع) عن الملائكة، ونلاحظ فصلا في بعض الآيات للروح عن الملائكة كما في الآية 4 من سورة المعارج {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}، وفي الآية 4 من سورة القدر {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ}، ونلاحظ العديد من الآيات التي اكتفت بذكر الملائكة كما ورد في الآية 285 من سورة البقرة {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ...}، والآية 56 من سورة الأحزاب {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...}. وبشكل واضح نفهم من الآيات أن كلمة ملائكة تشمل جبريل وميكال عليهما السلام، وفي نفس الوقت هما وغيرهما من الملائكة موصوفون بالروح، حيث يوجد أصناف من الملائكة وبينها درجات من الاختلاف في القدرات كما نفهم من الآية الأولى من سورة فاطر {... جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ...}، ومنها ملائكة مميّزة جدا كالملاك جبريل (ع) وهو روح.

بسبب ما ورد في عدة مواضع من القرآن من ذكر "الملائكة، الروح، وجبريل(ع)" بعد الحديث عن نزول القرآن، وبسبب سياق الآيات السابقة والتالية، يتأكّد هنا أنهم يسألون عن الروح الذي نزل بالوحي.

من الشائع بين الناس استعمالهم لكلمة الروح بأنها يتم سحبها من جسدنا عند الموت، حيث يقولون: خرجت روحه، وطلعت روحه، وزهقت روحه... ولكن لا يوجد أي شيء في القرآن يقول هذا، بل يستعمل القرآن دائما تعبيرا واحدا، وهو: سحب واسترجاع "النفس" أي الفرد الشخص... وإرجاع "النفس" الفرد الشخص الواحد منّا... إلى الحياة مرة ثانية في يوم القيامة من الموت. ولذلك، فمن غير الممكن أن يكون السؤال هنا في الآية عن الروح التي يعتقد الكثيرون منّا "ومن دون مستند قرآني" بأنها هي الحياة، أو العقل أو... لأنّ كل هذه الأقوال غير مستندة إلى شيء صريح في القرآن، فلننتبه لهذا، ومن الأفضل أن نلتزم بما يقوله القرآن، وننتبه بشكل خاص عند دراستنا لهذه الآية أنّها سؤال من أناس كانوا في عهد النبي محمد(ع)، فأي شرح فلسفي أو كلامي أو علمي على معايير نظرياتنا الحالية... وباستعمال مصطلحاتنا الحالية، كجواب لهذا السؤال فهو شرح غير صحيح، فيجب الانتباه إلى أنّ من سأل هذا السؤال هم أشخاص عاديون، فأي شرح فيه تعقيد فهو غير صحيح، لأنه بالتأكيد لم يصدر عن السائلين إلا سؤال بسيط يفهمه أي إنسان عادي. أقول لك هذا لأن الآية على شكل سؤال، وهو صادر ممن كان حول النبي(ع)، وما ذكروه في بعض التفاسير من شرح للآية يجعل السؤال صادراً عن فيلسوف أو عرفاني أو صوفي...

حسناً، فلنرجع للآية التي كانت تأمر النبي(ع) بالإعلان بأنه هو شخصيا لا يمكنه ولا يقدر على تزويد من يسأله بمعلومات عن الروح الذي يتواصل معه، حيث إنّ النبي(ع) يمكنه توصيف شعوره وإحساسه عندما يتواصل معه الروح، ولكن كما يبدو فإن هذا التواصل لا يتيح للنبي(ع) معرفة شيء عن الروح. وسبحانه لن يزود من يسأل عن الروح بأي معلومات، لأنكم أيها الناس لا تملكون علما كافيا يؤهلكم لتتعرفوا أكثر على الروح.

هل نحن الآن بعد ألف وبضع عشرات من السنين من نزول هذه الآية، هل نملك علما يؤهلنا للتعرف على الروح؟ أو هل سنملك في المستقبل هذا العلم؟

هذا السؤال لا معنى له، لأن ربنا سبحانه هو المصدر الذي يمكنه تزويدنا بالمعلومات، أو أن نتواصل نحن مع الروح لنختبرها... وهذا لن يحصل بحسب معلوماتي من دراستي للقرآن، وكما هو واضح من الآية هنا، فإن لم يزودنا سبحانه بالمعلومات هنا في القرآن عن الروح، فمن أين سنحصل عليها؟!

إذًا، كل الناس، في كل العصور، لن تعرف شيئا تفصيليا عن الروح النازل بهذا القرآن، أمّا في يوم القيامة فسيكون الروح حاضرا كما قالت الآية 38 من سورة النبأ {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا}، وهناك سنتعرّف عليه لأن تكوينا نحن سيختلف، حيث سيصير لنا جسدٌ خالدٌ وبأحاسيس مضاعفة...

شردنا كثيرا في توضيح هذه الآية، وكان تركيزنا على شيء نحن نعتبره مهما، أما الآية فكانت تشير لجوانب أخرى أكثر أهمية سنراها من الآيات التالية، لأنّ النبي(ع) لا يوجد لديه أي نوع من التحكم بأي شيء فيما يخصّ ما ينزل عليه، ولا يتحكم بمن يتواصل معه من عند ربه سبحانه، ولا بمحتوى ما سينزل عليه... ولا حتى بتوقيت متى سينزل عليه، بل ولا يتحكم بالاحتفاظ في ذاكرته بما ينزل عليه كما سنرى:

(وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً{86})
{وَلَئِنْ شِئْنَا}، أمامه سبحانه خيارات عديدة ولو قرّر، {لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ}، إذا شاء سبحانه أَلَّا تبقى معك المعلومات التي أنزلها على فكرك فلن تبقى، ومثلاً يمكنه تعالى محو القرآن من ذاكرتك، ومن هذا الخبر فَلْيَعْلَمِ الجميع بأنك لا تملك أي قدرات تجعلك متميزاً ومنفصلاً وخارجاً عن سيطرة ربك سبحانه.

{ثُمَّ}، إذا قرّر سبحانه أَلَّا يبقى القرآن في ذاكرة النبي(ع) فبعد ذلك، {لَا تَجِدُ}، أيها النبي(ع) {لَكَ بِهِ}، بذهابه، {عَلَيْنَا وَكِيلًا}، حيث لن تجد من يسيّر وييسّر أمورك من مستوى إلهي، ولن تجد من يفرض علينا تسيير أمورك كما ترغب، ولن تجد من يمنع ذهاب القرآن أو استرجاع ما ذهب أو للاستمرار بتلقي قرآن جديد من ربك سبحانه.

تركيبة جملة: {ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا}، تبدو معقدّةً علينا، ولكن من اعتاد استعمال اللغة العربية الفصيحة سيجدها جميلة في التعبير.

ننتبه للتعبير بـ {لَنَذْهَبَنَّ}، حيث يخطر ببالنا محو المعلومات من الذهن ليكون النسيان من النتائج، ولكن بغض النظر عن الآلية عَبَّرَتِ الآية بعموم ما يسبب ذهاب المعلومات، وقد لا تجد هذا التفصيل مهمّاً ولكن لو كنت من الدارسين لفرع المعرفة من علوم النفس والدماغ... لانتبهت لدقة تعبير الآية بالذهاب بالمعلومات من دون الإشارة لآلية حصوله لأن لها طرقاً عديدة.

(إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً{87})
إذا قرر سبحانه الذهاب بالوحي "محوه من ذاكرتك" وإيقاف تنزيله عليك فلا وكيل أو معين أو أي أحد قادر على التدخل، {إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ}، عناية المسؤول عنك من مستوى إلهي لما فيه مصلحتك وحدها تسبّب احتفاظك بالقرآن في ذاكرتك وبنزول الوحي عليك، فرحمته سبحانه معناها: عنايته تعالى بما فيه مصلحة عباده، وعملياً، أعلى عناية هي تأمين ما يحتاجونه ليهتدوا، وهم يحتاجون للقرآن، فلا أحد يؤثّر عليه أو يجبره أو يضغط عليه سبحانه حتى ينزّل القرآن على النبي(ع) بل فقط بسبب الرحمة التي عنده سبحانه ينزل القرآن.

{إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا}، أنت كمخلوق بشري، حيث جعلك ربك تتواصل مع الروح، وتصلك رسالة ربك، وتهتدي بها وتهدي الناس... وهذه أمور كبيرة جيدة حصلت عليها وليست واجبة عليه تعالى منحها لك.

حتى لو كان النبي(ع) طاهراً عفيفاً إنسانياً مهتماً بخير البشرية... وتميّز بالصفات الرائعة عن كل البشر، وكان الأفضل بينهم، فلا يخطر ببالنا أنه بسبب مواصفاته العالية يستحق أن تتنزل عليه الرسالة، فمعناها: أنّ تميّزه يفرض على ربنا أن يجعله الرسول، لا، لأنّ رحمته سبحانه لعباده هي السبب ليرسل لهم من يهديهم، لأنه هو سبحانه في نفسه رحيم.

لنفكّر بالآية بطريقة أخرى، ولنقل إنّ شخص النبي محمد(ع) متميّز عن غيره، فهل من أحد يفرض على ربنا سبحانه أن يعطي شيئاً لهذا الإنسان المتميّز ليجعله رسولاً؟ لا. إنما رحمة ربنا سبحانه هي السبب بتفضّله على هذا العبد المتميّز لجعله رسولاً.

الآية هنا والسابقة تلفت انتباهك للقيمة العالية للقرآن وأهميته بالنسبة لنا، لأننا نحتاج للمعلومات الصحيحة، وللشريعة والسلوكيات الصالحة، وعبر الكلام الإلهي "القرآن" نقوّم إيماننا وشريعتنا وسلوكياتنا، حيث إنّ كلام الآيات هنا عن فضله ورحمته تعالى يشير لأهمية توافر القرآن لنا كمصدر لتقويم ديننا.

(قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً{88})
{قُلْ}، أيها النبي محمد(ع) لكل الناس عبر هذا القرآن:

{لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ}، كان النوع الإنساني كله مع بعض، {وَالْجِنُّ}، المخلوقات من نار، فاجتمعوا كلهم الجنّ والإنس معاً موحّدين كل قدراتهم، {عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ}، بشبه التمام لهذا الشيء المقروء، سواء حاولوا الوصول إلى مصدره في الكتاب الرئيسي وتنزيله، أو سواء حاولوا تأليف مثله في دقة معلوماته، أو مثله في الاحتواء على معلومات عن عالم الآخرة، أو عن أحوال الدنيا حالياً وفي السابق... {لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ}، لأنّ الجنّ والإنس لا قدرة لهم على إحضار أو تأليف شبيه للقرآن، {وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}، حتى لو كانوا كلّهم متعاونين مع بعض، حتى لو تعاون الجنّ والإنس على الإتيان بكلام مثل كلام القرآن فهم لن يستطيعوا.

هذه نظرة ربنا سبحانه للقرآن ولنا، حيث إنّه بعلمه الواسع الشامل يعلم مدى قدرة مخلوقاته على تأليف الكتب، ويرى القرآن ككتاب نازل من عنده، وبالمقارنة الإلهية بين تأليفه هو عزّ وجلّ لكتاب وبين قدرات مخلوقاته على تأليف كتاب، يخبرنا سبحانه أنّ الفرق كبير جدا جدا، ويخبرنا بأنه من المستحيل أن يستطيع البشر والجنّ تأليف مثله حتى لو "تظاهروا" وتعاونوا مع بعض. من ناحيته سبحانه هذا الأمر واضح جدا، أمّا من ناحيتنا نحن فالأمر مختلف! وكما أن مسألة توحيده تعالى بالألوهية أمر محسوم وواضح بالنسبة له تعالى لأنه لا يرى إلها غير نفسه، وفي مقابل ذلك نجد من الناس عبّاداً لأشخاص من الناس! أو الأصنام! أو الكواكب!... بل نجد من ينكر الإله من أصله مدّعياً أنّ أي شيء خلق ما في الدنيا إلا الإله! كذلك مسألة إلهية مصدر القرآن محسومة وواضحة ولكن يوجد من لا يؤمن بها، بل هناك من قام بتأليف كتب وقال عنها بأنها من مصدر إلهي! مثلما قام الناس باختراع آلهة وهمية وتركوا التوحيد، فلا فرق بين العقليتين.

يستطيع أي واحد منّا تأليف كتاب ولو صغيراً، ويقول: هذا نزل عليّ من الإله. أو أن يقول: قرآن محمد لم ينزل عليه من الإله لأني ألّفت مثله. ولكن، عماذا يتحدث هذا الذي جرى تأليفه؟ وما هو محتواه؟ ما هو هدفه؟ وما هي قيمته المعرفية والقانونية والتشريعية والعقائدية والتاريخية...؟ وما هي قيمته اللغوية من حيث الدقّة؟

هذه الجوانب وغيرها، هي التي تجعل الشخص الذي يبحث عن الحقّ، عندما يقرأ القرآن، تجعله يتأكّد بأنه من مصدر إلهي. وسورتنا هنا مثال واضح على ذلك، وبخاصّة ما قالته عن السلوكيات الفردية المؤثّرة على المجتمع، وبخاصّة التوحيد وبرّ الوالدين ويليه مساعدة المحتاجين... كأوامر تشريعية حقّة خيّرة تدل على إلهية مصدر الكلام.

ننتبه جيداً، حيث إنّه يخبرنا باستحالة إتيان البشر والجنّ بـ "مثل هذا القرآن"، وهذه الاستحالة من جوانب متعددة، أولها وأهمها الكلام الحقّ، سواء أكان عن العقيدة أو التشريع أو السلوكيات، وهذه أهم شيء، لأننا على أساسها نؤمن بأن هذا الكلام الحقّ الصالح حتما هو كلام إلهي، ولو كان فيه خلل لانتبهنا فوراً أنه كلام شيطاني أو كلام من خلفية فكرية غير سليمة...

كلام القرآن موجّه لنا لنفهمه بالقدرة الممنوحة لنا لتمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ والصلاح من الفساد... سنرى فيه ما يجعلنا نؤمن أنه من مصدر إلهي، حيث سنرى رقياً عالياً فكرياً وتشريعياً وأخلاقياً...

كلام الآية هنا موجّه لنا بالقدرة التي لدينا لتمييز وملاحظة اختلاف القرآن عن كل الكتب والقصائد والنثر والأمثلة... التي ألّفها البشر، لأنه مختلف بشكل واضح في مواضيعه وطريقة طرحها، وفي الكلام من نظرة إلهية للأمور... وفي

تركيب الكلمات والجمل، وفي تنسيق الجمل، وفي طرح المواضيع وفي معالجتها، في دقة التعابير واستعمال اللغة، في وضوح تفصيل بعض النقاط، في تعمّد تعقيد بعض النقاط، في تفريق بعض النقاط والمواضيع بين السور حفاظا على محورية السور... الخلاصة: القرآن مختلف في نظرته للأمور وفي دقّته ونظم وتنسيق كلماته وجمله ومواضيعه... عن كل بقية الكتب البشرية بشكل واضح.

نتذكر ما وجدناه في السور المختلفة في القرآن من إجابات عن شبهات الكفار حول ظنّهم بأن النبي محمد(ع) ألّف القرآن، وأجاب القرآن وذكّرنا بأنه (ع) أميّ لا يعرف الكتابة ولا القراءة، فمن أين له الحصول على المعلومات التي في القرآن؟ وقال بعض الكفار إنّ النبي(ع) لا بد أنه تعلم هذه المعلومات من شخص آخر، وأجابت الآيات بأن النبي(ع) وصل إلى عمر الأربعين وهو يعيش بينكم، فهل من المعقول أنه طوال الأربعين سنة لم يتكلم ولو بجملة تشبه في تركيبها آيات القرآن، وفجأة يبدأ بتأليف كلام بهذا الشكل والمحتوى! راجع في ذلك الآية 16 من سورة يونس {قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}، أضف إليه أنه طوال العشرين سنة التي نزل فيها القرآن، من أول آية نزلت إلى آخر آية، بقي القرآن كما هو، ولو كان من تأليف النبي(ع) لكان أجرى عليه تعديلات، فكيف كل البشر تجري تعديلات على ما تؤلّفه إلا هذا الشخص! ولعشرين سنة لم يحتج أن يعدّل في كتابه لتقويم جمله أو تصحيح أخطائه! السبب واضح، لأنه كتاب من مصدر إلهي... وراجع في ذلك الآية 101 من سورة النحل {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}، وغير ذلك العديد من الأدلة على إلهية مصدر هذا القرآن ومنها ما ورد في الآية 82 من سورة النساء {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}.

بقي شيء، لسبب أو لآخر سرى بين عموم مختلف الطبقات الثقافية من المسلمين، حصر إعجاز القرآن ببلاغته، على أساس أن أسلوبه البلاغي فوق قدرة المخلوقات ويعجزون عن تأليف كلام بليغ مثله، وهذا صحيح على معنى أن البلاغة هي التعبير الدقيق للمعنى الذي يريده القائل، أمّا على معنى البلاغة التي وضعوا لها القواعد، فكلامهم غير صحيح، حيث شطحوا إلى الهاوية في قواعد بلاغية على مقياس البشر حين ألبسوها لكلامه سبحانه، وصاروا يحاسبون كلامه تعالى على قواعد بلاغية هي أصلا استذواقية وليست قواعد حقيقية لاستعمال اللغة، ومن ضعفهم جعلوا القرآن مشحوناً بالمجاز والاستعارة والكناية والتشبيه... ومن ضعفهم حكموا على بعض الآيات باستعمال كلمات فيها لمناسبة اللحن والقافية... ولم يفهموا الكلام القرآني على بيانه وذهبوا إلى عريكة تخريجات كلامه ليتناسب مع قواعدهم البلاغية، وكمثال أحيلك إلى دراسة الآية 65 من سورة الصافات {طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} لترى نموذجاً بارزاً عن خزعبلات البعض منهم... ولن أطيل عليك هنا حيث يمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي كلمة أو جملة قالوا عنها كلامهم البلاغي، لترى أن كلامهم بغالبيته الساحقة غير صحيح، ولترى أن مستوى دقّة كلام القرآن في استعمال إلهي للغة من لغات البشر، كان فوق مستواهم، لدرجة أنهم حين أرادوا البرهنة على عظمة القرآن بتطبيق قواعدهم عليه، برهنوا على عظمته فعلاً بالبعد الشاسع الواضح بين مستواه ومستواهم...

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً{89})
{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا}، نشر ووزّع سبحانه، {لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ}، في هذا الشيء الذي نزل وحياً على الرسول محمّد(ع) ويمكنكم قراءته "قرآن" ففيه من كل الأشياء التشبيهية التقريبية، حيث إنّ كل الأسئلة الدينية العقائدية الأساسية التي تخطر على البال تحدّث عنها القرآن، وذكر لها أمثالاً، وذكر لها جواباً ودليلاً توضيحياً مشابهاً، حتى يقرّب ويسهّل لنا لنفهم ما يقوله سبحانه.

لا يذهب فكرك إلى ما ضربه القرآن من أمثال فقط، ... ضرب الله مثلاً رجلين... مثل الذين حمّلوا التوراة كمثل... فهذه أمثال، وعموم تقريبات القرآن الفكرية والتشريعية أيضاً أمثال حتى لو لم يذكر القرآن كلمة مثل فيه، والآية السابقة هي نوع من المثل، حيث قالت لنا إنّ القرآن من مصدر إلهي، وكدليل على ذلك، حاولوا مثلاً أن تأتوا بكتاب يشبهه.

أقول لك هذا لأنه درج في أدبياتنا الإسلامية استخراج "الأمثال" من القرآن على أساس أنها مثل الأمثال الشعبية، بينما الكلمة عامة وتشمل أي تشبيه أو توضيح، و"خذ مثلاً" سياق الآية 48 من هذه السورة، وها ترى المعنى حين قلت لك "خذ مثلاً"، فلم أحلك إلى شيء كالمثل الشعبي بل لشيء تشبيهي.

رغم الأمثلة العديدة الواضحة التي ذكرها القرآن، والتي تؤكد على التوحيد والنبوة والبعث، {فَأَبَى}، رفض بشدّة، {أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا}، إلا إنكاراً، حيث إنّ الأكثرية بقوا مصرّين على الكفر بها ومصرين على إنكار صحتها ومصدرها الإلهي.

سنفهم من الآيات التالية أنه يوجد نموذج من الناس لا يفهم بالمنطق ولا بالعقل ولا بالأدلة، رغم وضوح إلهية مصدر القرآن، لأنه لا يمكن للبشر والجن أن يأتوا بمثله، ورغم كل الأمثلة التي ضربها القرآن والمتماشية مع الفكر والنفسية السليمة، فإنها لم تقنعهم وأصرّوا على الكفر، ويطالبون بـ:

(وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً{90})
رغم كل الكلام المنطقي البرهاني والأمثلة التي ذكرها تعالى للكفار عبر القرآن، والتي من الواضح أنها كلام حقّ وصلاح، قال بعض الكفار للنبي(ع):

{لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ}، لن نعلن اعتقادنا بدينك حتى تخرج لنا بقوّة، {مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا}، نبعاً من الماء، وتخرج وتستمر المياه بالجريان، ونريد منك الإشارة بيدك إلى نقطة ما على الأرض ليتفجر منها الماء ويخرج بقوّة، ويستمر الماء بالسيلان، وبما أنك تقول بأنك تتواصل مع الإله، فهذا يجب أن يكون سهلاً عليك.

كما تعلم، هذه المحاورة جرت في مكة، وهي بقعة صحراوية جافة شبه خالية من المياه، وهم لا يقترحون على النبي(ع) أن يأتيهم بآية من ربه سبحانه، بل هكذا: أنت تقول بأنك تتواصل مع الإله، قم وأخرج لنا من هذه الأرض الصحراوية ينبوعاً من الماء، لأنّ القرآن لم ولن يقنعنا بأنك رسول إلهي، ونريد رؤيتك تقوم بأعمال تؤكد بأنك على تواصل مع الإله، عندها سنؤمن لك.

لماذا نذهب إلى الأماكن البعيدة لنحفر الآبار ونستخرج المياه ونحملها إلى بيوتنا؟! وطالما أنت لديك قوة أو صفات مميزة جعلتك تستطيع التواصل مع الإله والملائكة، أخرج لنا الماء.

لنراجع الآيات: هناك نوعية من الناس لا تؤمن بكلام القرآن الصحيح الحقّ الخيّر... المبرهن عليه، والذي عليه أمثلة "أدلّة توضيحية"، وهذا القرآن متميز بشكل واضح عن كتب البشر ولا يمكن للمخلوقات الإتيان بمثله... حيث إنهم تعاموا عن كل ذلك ولحقوا الصورة المشوّهة التي في رأسهم، لأنّ من يتواصل معه الإله يجب أن يكون مميزاً، ويجب أن يكون عنده قدرات وصفات خارقة حتى يستطيع التواصل مع الإله، أو بسبب تواصله مع الإله تميّز ويجب أن يتميّز بأمور خارقة، أو على الأقل هي حالة مثل حالة الذي تواصل مع جّني الفانوس السحري "الخرافي"... وهم يطلبون من النبي محمد(ع) أن يقوم بأعمال تبرهن لهم بأنه متميزٌ، وعلى الأقل، ليكن بقدرتك جعل الماء يخرج من الأرض، أو أن تستفيد من تواصلك مع الإله لينفّذ لك طلباتك...

ننتبه جيداً لهذا النوع من التفكير، لأن الناس بشكل عام من كفار ومتدينين، يفكرون بهذه الطريقة! حيث إنهم يتركون الكلام المنطقي العاقل الواضح أنه حقّ وصلاح، ويفكرون بطريقة عوجاء، ونجد الكثير من المنتمين لدينه تعالى رفعوا أشخاصاً عن درجة البشرية! ونسبوا لهم صفات تفوق صفات البشر العاديين! والجذور لهذا التفكير مشتركة بين عموم الناس، لأنها نابعة من فكرة أن هذا الشخص والرمز الديني متميّز، وتتوسع الفكرة ليتميّز هذا الشخص بشكل عجائبي، ووصل التقديس للأشخاص لدرجة أن جعلوهم آلهة أو أرباباً من مستوى الألوهية! ولبعضهم درجة أقل من ذلك وجعلوهم بطبيعة إلهية، أو بقرابة إلهية، أو بحلول وتقمّص إلهي، أو مزوّدين بسلطة مطلقة من الإله، أو بولاية من مستوى إلهي على الطبيعة... كل هذا الكلام وأشباهه تنفيه الآيات هنا، فلا قدرة للنبي محمّد(ع) على إخراج نبع من الماء إلا بالطرق العادية المتاحة لأي إنسان يحفر في الأرض... وحين نصل إلى آخر هذه الفقرة من الآيات هنا سيتبين لنا الجواب بشكل صريح، لنتابع.

(أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً{91})
{أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ}، يكون لك مكان كل ما فيه يوصف بالروعة، وبدل أن تطلب خروج المياه لتصنع جنّة تعيش فيها وتستفيد من إنتاجها... حوّل فورا مكاناً ما إلى جنّة، {مِّن نَّخِيلٍ}، وهي الأشجار التي ثمارها البلح والتمر والرطب...

{وَعِنَبٍ}، وهي العرائش والكروم التي تنتج عناقيد فيها حبّات... قم حالا وفورا بأمر قطعة أرض بالتحوّل إلى جنّة عليها أشجار النخيل وعرائش العنب... {فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ}، فتخرج المياه الجارية بقوة وكثرة، {خِلالَهَا}، بين أشجار الجنّة، {تَفْجِيرًا}، بأتم مواصفات التفجير، بأتم وصف لقوة وكثرة جريان الماء.

المزارع يفهم تماما ما يقترحونه، الماء ضروري جدا لنمو النبات، وكثرة الماء ضرورية جدا لينتج عن النبات ثمار كثيرة وكبيرة، وتوافر الماء هو حلم المتعاملين بالزراعة، ولو توافر فاستغلاله سهل جدا بزرع الأشجار المثمرة وتمرير المياه خلال الأشجار، وإن كنت من سكّان المدن ومحيطك بعيد عن هموم الزراعة فمن العادي ألّا يعنيك ما يقولونه، ولكن فكّر فيه مُتَلَبِّساً هموم المزارع لتشعر بأهميته، أو فكّر فيها من ناحية روعة مكان تسكن فيه ويكون جنّة بروعة مناظره وثماره...

(أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً{92})
أو حتى نؤمن لك، {تُسْقِطَ عَلَيْنَا السَّمَاءَ كِسَفًا}، ينزل منها ما يكسف فيحجب ما خلفه، لِتَنْزِلَ قطع من فوق من السماء وتسقط علينا، وهم يقصدون سقوط ما يقتلهم، {كَمَا زَعَمْتَ}، مثلما ادَّعَيْتَ وكان دليلك يستند إلى ما تقوله فقط، حيث قلت سابقا إنَّ عذاب ربك ينزل على الكفار ليقتلهم في الدنيا، فليحصل ذلك وليسقط شيء من السماء على رؤوسنا.

أو حتى نؤمن لك، {تَأْتِيَ لَنَا بِاللَّهِ وَبِالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا}، قبالتنا وأمام أعيننا لنراهم. كما ترى فهم وقحون ويقولون كلاما اعتباطيا، وحالتهم مثل حالة الذي تتحدّث معه عن الحق والباطل والصلاح والفساد... يقول لك: لا أريد أن أتألّم بتحريك عقلي فيما تقول، لا أريد أن أفكّر، وَرُدَّ فقط على كلامي، وَحَقِّقْ ما أطلبه وعندها سأفكر بالإيمان.

هذه العقلية هي نفسها عقلية المتعلّق بشيء يريده، ولا يهمّه الحق والباطل، بل يهمّه فقط ما يريده، ولو خرجنا عن كلام الآية فلنتوسّع قليلا لنفهم عقلية هؤلاء الناس، فهم معهم ما يرغبونه، حيث إنَّ فكرهم ونفسيتهم يناسبان ما يفعلونه وحتى لو كانوا يعلمون يقينا أنه سيئٌ فلن يتركوه، أو هم يرغبون بشيء سيئٍ لم يحصلوا عليه، ويسمعون من هذا القرآن أنَّ ما يرغبون به عليه عقاب إلهي، ففي كلتا الحالتين هم يرفضون الإيمان بدينه تعالى لأنه يمنعهم من سوء يرغبونه.

أقول هذا حتى لا يخطر ببالك أنَّ السورة تنقل كلام أناس محترمين يفكّرون ويريدون إثباتات ليؤمنوا، لا، بل هذه الآيات تنقل لنا نماذج عن كلامهم لترى مدى سفاهتهم وسخافتهم واستهتارهم... إذ يريدون رؤيته تعالى شخصيا ليؤمنوا! وحتى إنَّ الجملة يمكن أن تعطي معنى أوسع من ذلك وأسوأ، لتعطي معنى: فليأتِ الله شخصيا ويقابلنا ليقنعنا بدينه.

نلاحظ من الآية 65 من سورة الحج إشارتها إلى أنَّه سبحانه يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وكانت الآيات هناك تتحدّث عن أشياء يعرفها كل الناس لأنها تتحدث مع الكفّار والمؤمنين، حيث لم تتحدّث عن شيء يؤمن به المؤمنون فقط، كالآخرة والجنّة والنار... والشيء الوحيد الذي نعرفه عن سقوط شيء من السماء العالية هو سقوط النيازك والشهب، وهنا من الواضح أنهم يطلبون أن تنزل قطع من السماء عليهم، ويقصدون الشهب والنيازك. وتكرر نقل كلام الكفار عن إسقاط كسف من السماء في سورة الشعراء 187 {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}.

ضع في بالك ما عبّرت عنه الآية 44 من سورة الطور {وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ}، حيث يبدو أنَّ الوصف بهذه الكلمات يشير لما هو أعم من النيازك والشهب، كما يدخل فيها ما تطاير من الأرض وارتفع ليسقط، وطبعا حتى يوصف بالكسف فهو ضخم أو صغير ولكن بأعداد كبيرة على مساحة كبيرة، لنقل كتطاير صخور كبيرة من انفجار بركان، أو تطاير حجارة كثيرة من انفجار بركان.

يعني خذ معنى كلامهم على بساطته وظاهره، إذ إنَّ السماء فوقهم، وأي شيء ينزل منها فهو نازل من السماء، سواء أكان نيازكَ أو شهبا أو حجارة من انفجار بركان... والنازل عليهم موصوف بأنه كاسف للسماء، فسيحجب الرؤية لما خلفه، كما نقول عن كسوف الشمس حين يحجبها القمر عن الرؤية. وهذا لا يعني اعتقادهم أنَّ السماء قطعة واحدة ويقترحون تكسيرها ونزول قطع منها، لا، فهم يعرفون بسقوط النيازك والشهب من السماء على الأرض، ويعرفون بتطاير الحجارة من البراكين... ويقترحون سقوط أحجام كبيرة من السماء عليهم لتقتلهم.

بهذا المعنى وجدت استعمال كلمة {كِسَفٍ} في أشعار العرب قبل الإسلام، ولم أجدهم يستعملونها بمعنى القطعة من الشيء كما هو دارج في التفاسير.

على أي حال، الآية تنقل لنا شيئا قالوه ويدل على قصدهم للضخامة، لنقل إنَّك تهددني بضربة بالسوط، أو بحجر صغير، أقول لك مستهترا ومتحديا: اضربني بالمدفع وبصاروخ. هنا اختار سبحانه من كلام الكفّار هذه الجملة ونقلها لنا كنموذج عن أشياء أخرى قالوها ويقصدون بها الاستهتار والتحدّي...

(أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً{93})

أو، حتى نؤمن لك، {أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ}، مكان تبيت فيه وليس عاديا مثل بيوتنا بل فليكن، {مِّن زُخْرُفٍ}، منمّق مزخرف، فتكون حجارته منقوشة بالأشكال، وحيطانه وأبوابه وأثاثه مُطَعَّمَة بالخشب المحفور بالنقوش، وَمُطَعَّمَة بالذهب والفضة...

أو، حتى نؤمن لك، {أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ}، تصعد وترتفع أمام أعيننا إلى السماء، {وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ}، فحتى لو رأيناك أمامنا ترتفع فلن نعتقد بأنك وصلت إلى السماء التي فيها الإله، {حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ}، فأنت تقول إنَّ الوحي ينزل عليك بالكتاب، وهذا ما لا نصدّقه، فاصعد إلى السماء أمام أعيننا ونزّل الكتاب على صفحات بيدك لنقرؤه ونعرف أنه نزل من السماء وليس من تأليفك.

طبعا كلامهم مبني على تصوّراتهم التي يتحدّد فيها وجود الإله ككائن له كيان في السماء، وكلامهم فيه دمج بين معتقداتهم وبين ما قاله النبي (ع) لهم، إذ قال (ع) إنَّ القرآن ينزل عليه من السماء، كتعبير عن إلهية مصدر القرآن وأنه ليس من مصدر على الأرض، لذا دمج الكفّار هذا مع اعتقادهم بأن الإله موجود في السماء ويمكن الوصول إليه عبر الارتقاء في السماء، فصارت الصورة في بالهم مثل ذهابي إلى الدكّان لإحضار علبة فول، فارتقِ يا محمّد في السماء وأحضر لنا كتابا من هناك.

الجواب عن كل هذه الطلبات هو أن تقول أيها النبي (ع) لهؤلاء بطريقة الاستغراب التي تبين سخافة هذه الطلبات:

{سُبْحَانَ رَبِّي}، منزّه المسؤول عني من مستوى إلهي، إذ الذي يستطيع تحقيق شيء من هذا هو إله، وربي هو وحده الإله، وعلاقته معي ليست مثل العلاقة مع جنّي الفانوس السحري الخرافي، فأنا عبده وطلباتي ليست أوامرَ... وهو سبحانه بحكمته يقرّر ما يراه مناسبا... فإذا فعلت ما تطلبون منّي بقدرتي الذاتية فأنتم تطلبون منّي القيام بأعمال إلهية، وسبحان ربّي لذا أنزهه عن الصفات الناقصة المعيبة، لأنكم تفترضون أني مشارك له تعالى في القدرات الإلهية، أو أنه عزّ وجلّ تحت أمري... ولكن ربّي هو الإله الأحد وليس تحت أمري ولا تحت أمركم...

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، يمكنه سبحانه فعل بعض هذه الأمور "إلا رؤيته ورؤية الملائكة"، ولكنه تنزّه عن أن ينزل في مستوى التعامل معكم إلى درجة الاقتراحات الطفولية العبثية السخيفة التي لا توصل إلى أي نتيجة وبعضها أحلام اليقظة ولا علاقة لها بالهدى...

{هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا}، كائنا عاديا من نوع الكائنات التي لها بشرة، لست إلها أو بطبيعة إلهية أو بقدرات إلهية حتى أنفّذ ما تطلبون، أو لأفرض على الإله تنفيذ ما تطلبون، لأنني مجرد مخلوق من نوع البشر.

وهل كنت إلا، {رَّسُولًا}، هذا أنا، رسول ناقل لكلامه تعالى لكم ولست أي شيء آخر، وليس من مهماتي ولا من أشغالي ولا من واجباتي... تنفيذ مطالبكم واقتراحاتكم.

لا يمكنكم إحراجي إن لم أفعل ما تطلبونه، إذ أنا مجرد رسول ناقل لكلامه تعالى لكم، لا أكثر ولا أقل، أقوم بهذه المهمّة ومن بعدها أنتم وشأنكم، تؤمنون أو تكفرون.

نلاحظ من الآية التالية أنَّ كل هذه المطالب "وأشباهها" ترجع في أساسها إلى شيء واحد:

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً{94})
يكمل ربنا سبحانه كلامه تعليقا على طلبات الكفار: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى}، هناك شيء يقولون إِنَّهُ لولاه لكانوا اعتقدوا بالشيء الصحيح الذي وصلهم والذي يوصلهم إلى الغاية الصحيحة، هنا الكلام عامّ عن عموم الناس عبر التاريخ والذين لم يؤمنوا بما جاءهم، {إِلَّا أَن قَالُوا}: {أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا}! الرسول الإلهي في رأيهم يجب أن يكون متميزا بخلقته، بقدراته، بصفاته... أمّا كونه رجلا عاديا من الكائنات التي لها بشرة، فلهم جلد لا شعر كثيف عليه، فهذا غير منطقي برأيهم ويقولون إِنَّهُمْ لهذا السبب لن يؤمنوا.

إِذًا الاِقْتِرَاحَاتُ المختلفة التي نقلها لنا القرآن عن المشركين حتى يؤمنوا، وَرَدَّ على البعض منها بما يناسبه، وأمّا هنا فَجُمِعَتِ الآيات مجموعة اقتراحات كنماذج، ولم تردّ عليها واحدة واحدة، لأن نوعيتها تنبع من أساس واحد، من إنكار كون الرسول من البشر، مِنَ الآية التالية نفهم أن الكفّار يقولون: على الأقل فليرسل الإله واحدا من ملائكته ليكون رسوله، وسيقوم الملاك بالأشياء العجيبة التي نطلبها وَبِكُلِّ سهولة سنؤمن به.

نلاحظ أنهم لو فقط فكّروا عمليا كيف سيكون الرسول حتى يقتنعوا، لما كانوا استغربوا من الرسول البشري، فإذا كانوا يتوقعون ملاكا أو شَكْلاً غَيْرَ بَشَرِيٍّ للرسول، فكيف سيكون شكله الخارجي؟ هَلْ يقنعهم رسول بشري له أجنحة؟ أو ينفخ نارا؟ أو له أربعة أرجل؟... أو هل يقنعهم رسول غير بشري له شكل غريب؟ كل هذه الاقتراحات وغيرها لا معنى لها لو فكّروا فيها، لِأَنَّ أي شكل غريب للرسول لن يقدّم ولن يؤخّر، بل فقط سيكون شكله غَرِيباً، وبالأساس، وكما قال القرآن في عدّة آيات، فإن مهمّة الرسول فقط وحصرا: نقل الرسالة. لا أكثر ولا أقل، وسترى من الآية الآتية جوابا يحوي كل ما قلناه وأكثر:

قبل أن نكمل، ألفت انتباهك لما ركّز عليه القرآن مرارا وتكرارا، سُبْحَانَهُ عبر رسله ماذا يعرض علينا؟ حَيْثُ إِنَّ ما سبق من كلام هذه السورة نموذج عمّا يعرضه تعالى علينا لنؤمن به ونلتزم به، حَيْثُ عَرَضَ علينا التوحيد وبرّ الوالدين والصدقة على المحتاجين... هَلْ هذه الأمور تحتاج لأكثر من لفت الانتباه لها لترى حسنها وأنها كلام حقّ وَأَنَّ مصدرها إلهي؟ هل تحتاج لآيات غريبة عجيبة حتى تؤمن بالحقّ وتلتزم بالصلاح؟

نعم، ليس من السهل عليهم أن يروا أمامهم رجلا مثله مثلهم، ويقول إِنَّهُ رسول الإله، فهذا يعني أنه تميّز عن الجميع بشيء غير عادي، حَيْثُ تَوَاصَلَ معه الإله، وهذا ادّعاء ضخم، وَصَارَ له اعتبار غير عادي فوق الجميع لأن الإله يتواصل معه. ولكن، وكما ترى، السورة ركّزت على المعروض عليهم منه تعالى، وعلى نتيجته عليهم في الدنيا والآخرة، قَبْلَ الكلام عن طلباتهم وإشكالاتهم، فلنرجع للوراء حيث السورة عرضت نماذج وعناوين من دينه تعالى، هَلْ تحتاج لآيات غريبة عجيبة لتؤمن وتلتزم بها أم من المفروض بكل عاقل أن يؤمن بها لأنها حقّ واضح، وأن يلتزم بها لأنها صلاح واضح؟!

مِنْ نَقْلِ القرآن لنماذج مما يطلبه الكفّار ليؤمنوا بدينه تعالى نتذكّر التعليقات الساخرة من الآيات "من نوع ما يسميه الناس بالمعاجز والخوارق" كفلق البحر وتحوّل العصا لحيّة... وَتَرَى الناس يطلبون آية ليؤمنوا، وسجّل ما يطلبونه وانظر فيه، فستراه لا يختلف عمّا جرى سابقا من آيات، بل حتى يَطْلُبُونَ تكرار الآيات السابقة أمامهم، وفي نفس الوقت يقولون عن الآيات إِنَّهَا خرافة وسخافة بل لا قيمة لها لأن مستواها مستوى كذبة طفولية ساذجة؟

هل لاحظت، هُمْ يطلبون آية ليؤمنوا، وحين تسألهم عن الآية يقترحون عليك أمورا طفولية وساذجة، كالحصول على كنز وخروج نبع والطيران في الهواء... وحين تذكر لهم أَنَّهُ تعالى تعامل مع الناس من هذه النوعية سابقا بحسب عقليتهم وأجرى بعض الآيات... وَيَسْخَرُونَ من الآيات بِأَنَّهَا خرافات طفولية...

بعبارة أصرح، سُبْحَانَهُ بالأساس وكما هو واضح وصريح جدا في كل القرآن، الْأَسَاسُ أن خلقه تعالى للسماوات والأرض وما فيهن وما بينهن من كائنات وظواهر، هو الآيات الأكثر من كافية لنتعرّف عليه كإله واحد أحد فائق القدرات وبصفات حسنى، نقطة انتهى. ولا حاجة ليفعل سبحانه أي شيء آخر كآية حتى يؤمن الناس، وصريح القرآن يقول إِنَّ الذي لم يذعن وَكَفَرَ رغم وضوح الآيات في خلقه وخلق ما حوله، فهذا لن يؤمن ولا بأي شكل، ولا حتى بآية يطلبها هو، ولو حصلت أمامه ولمسها وعاش معها... وكنموذج عن ذلك ناقة ثمود.

سُبْحَانَهُ فَعَلَ سابقا آيات طلبها الناس أو هو تعالى قرّر فعلها لتكون نماذج تاريخية للجميع أن هذا النوع من الآيات "المعاجز والخوارق" ومهما كان نوعه، فلن يَجْعَلَ الكافر يؤمن.

بِالنِّسْبَةِ لمسألة بشرية الرسول فنحن كمؤمنين ورثنا الدين من أهلنا ومجتمعنا، تتحرّك فينا الأسئلة الشكّاكة أو الاستفسارية... وصولا إلى إنكار بعضنا لبعض ما يقوله تعالى في كتابه، وصولا إلى كفر بعضنا بالمجمل والأساسيات... وهكذا سيختلف فهمنا لما تقوله الآيات هنا نقلا عن كفّار بالقرآن والرسول، حَيْثُ إِنَّ بعضنا من تفكير عقلاني ثبّت إيمانه بالرسول والقرآن، وهؤلاء من الصعب عليهم استرجاع الصورة من الصفر، إِذْ محسوم عندهم القيمة العالية للرسول وللقرآن، وَلَا يفهمون ما تنقله الآيات هنا عن استغراب الكفّار لكون الرسول بَشَرِياً، وَأَصْلاً لا يعنيهم الموضوع لِأَنَّهُمْ ثبّتوا إيمانهم بدينه تعالى لأنه كلام حقّ وصلاح يتماشى مع فكرهم ونفسيتهم...

آخَرُونَ بالمجمل مؤمنون، ولكن تبقى صورة النبي محمّد(ع) عندهم لمّاعة لأنه يخصّهم وهم منتمون له، وَبِدَافِعِ العصبية يرفضون أي تعليق عليه، وهؤلاء لن يقبلوا بالاعتراض على كونه رسولا من البشر، ولن يفهموا الاعتراض لأنهم فورا يرفضون أي هجوم على شخصيتهم الدينية الخاصّة بهم والمميزة لهم عن بقية الناس...

آخَرُونَ لديهم شكوك كثيرة... وصولا إلى منتمين بالاسم لدينه تعالى ولا يؤمنون به، ومعهم الكافرون بالدين الإلهي من أصله، وَهَؤُلَاءِ يفهمون ما تقوله الآيات هنا، وترى ذلك حين يقولون عن الأنبياء إِنَّهُمْ مصلحون اجْتِمَاعِيُّونَ، وحين تراهم يعظّمون كلاما قاله بعض الناس من الحكماء والفلاسفة أكثر مما يعظّمون كلام الإله عبر هذا القرآن!

(قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً{95})
{قُلْ}، أيها النبي(ع) لهؤلاء الناس: {لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ}، يقضون عليها وقتهم بدلا من البشر، {يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ}، يَتَنَقَّلُونَ ذهابا وإيابا باطمئنان لِأَنَّهُمْ ملائكة ولا يعصونه تعالى وَتَتَوَافَرُ لديهم معطيات بأنهم لن يصيبهم أي سوء... {لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم}، على هؤلاء الملائكة، {مَلَكًا رَّسُولًا}، لينقل لهم كلامه سبحانه، مِنْ جنسهم سيكون الرسول الإلهي.

الآية هنا تطرح شيئا آخر غير الذي طرحته الآية 9 من سورة الأنعام، حَيْثُ لفتت انتباهنا لشكل الملائكة لو نزل منها واحد ليكون رسولا للبشر، فَسَيَكُونُ شكل الملاك بشريا {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ}، هنا نتذكّر أولا معنى كلمة "ملاك ملائكة" لِأَنَّهَا اسم وصفي لكائنات تملك شيئا، وإطلاقها على الكائنات التي لا تعصيه تعالى هُوَ وصف لامتلاكها لهذه الصفة، واطمئنانهم يشير إلى توافر معطيات استبعاد أي نوع من الأذية أو الخطر عليهم لأنهم لا يعصونه تعالى، وبالتالي لَا معنى لفتنتهم أو بلائهم بالأمور السيئة، فَرْضاً لو كانوا على الأرض يمشون عليها بدلا من كونهم في السماء العالية، لَنَزَلَ عليهم واحد من جنسهم ليكون رسولا إلهيا لهم، ليتواصل معهم سبحانه.

لا معنى لاعتراضكم على رسولكم أَنَّهُ من البشر، لأنه لا معنى لإرسال رسول لكم من الجنّ أو من الملائكة، لِأَنَّ مهمّة الرسول أن ينقل لكم كلامه تعالى، وأي تصورات واقتراحات أخرى فَاحْتَفِظُوا بها لأنفسكم لأنها ليست حكيمة ولا مفيدة ولا علاقة لها بهدايتكم.

طبعا تتذكّر أن الملائكة لا تتواصل معه تعالى مباشرة، بل وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل تعالى رَسُولاً أوحى له أو كلمه من وراء حجاب، وذلك بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وطبيعة الملائكة، ولهذا السبب يستحيل على أي مخلوق كان أن يتواصل معه تعالى مباشرة.

هُنَا الكلام عن إرسال رسول ملاك للملائكة لو فرضا كان الملائكة يعيشون على الأرض، هو تقريبا مثل حالتهم وهم حيث هم، وكمثال افتراضي من وحي كلام القرآن، سُبْحَانَهُ يأمر ملك الموت بتوفي الأنفس، عبر الكلام معه من وراء حجاب أو عبر وحي أو عبر اطلاع ملك الموت على جانب مما في الكتاب الرئيسي الذي فيه كل المعلومات عن الدنيا والآخرة... وملك الموت بدوره ينقل كلامه تعالى للملائكة الموظفين معه لتوفّي الأنفس.

هكذا تكون الآية افترضت شيئا له شبه تقريبي مع حالة الملائكة حيث هم حاليا يصلهم كلامه تعالى عبر رسول ملاك، وواضح من تعابير الآية أنها لم تفترض أي تغيّر في طبيعة الملائكة ليصير لهم تكاليف مثل التي نحن البشر مُكَلَّفُونَ

بها، حَيْثُ إنَّ جسدنا من طين، وفيه من الشهوات والغرائز ما لا يمكن للملائكة فهمه لأن كيانها المختلف عن كياننا ولا يؤمّن لها ما نشعر نحن به...

(قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً{96})
{قُلْ}، أيها النبي(ع) لهؤلاء الكفار: {كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز لوحده يكفيني ولا أحتاج لغيره أن يكون شهيدا {بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ}، حَيْثُ يَشْهَدُ سبحانه عليّ بأني رسوله لأنه هو أرسلني ويشهد عليكم أنكم لم تؤمنوا بي، {إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ}، بالذين مَفْرُوضٌ منهم طاعته، كان سبحانه، {خَبِيراً}، لَدَيْهِ تفاصيل كل أخبارهم، وكان سبحانه، {بَصِيراً}، يدرك "بمستوى إلهي" ويعي معنى صورة ما يحصل، لَيْسَ مثل كاميرات المراقبة التي تسجّل الأحداث ولكنها لا تعي ما يجري، وليس مثلنا نشرد فَنَفْقِدُ تركيزنا وَأَحْيَاناً لا نعي ما يجري أمام أعيننا.

إذاً، أنا أقول لكم إنّي رسول الإله سبحانه، وأنتم تنكرون، وها أَمَرَنِي سبحانه أن لا أهتمّ بما تقولونه لأنه هو يشهد بأني رسوله، فَالْمِصْدَاقِيَّةُ على وصفي بالرسول لست آخذها منكم بل من الذي أرسلني. وَصَلَكُمْ عن طريقي كل ما يلزمكم حتى تؤمنوا بي كرسول وهو تعالى لديه خبر بكل شيء ويرى ويسمع ويعي كل ما أفعله أنا وأنتم، فَكُلُّنَا تحت المراقبة.

طبعا سلخ هذه الآية عن بقية القرآن سيعني أن الدليل الوحيد على كونه (ع) رسولا محصور في شهادته تعالى على ذلك، وهذا غير صحيح، لِأَنَّ القرآن مشحون بالأدلة على كون محمد (ع) رسولا إلهيا، ولكن الآية هنا مشابهة لطريقة كلامهم هم، أَمَامَ شخص عنيد رأسه يابس ويرفض العقلانية والحقّ الواضح، ويرمي بالكلام التافه لدرجة أنه يريد منه تعالى شخصيا أن يقابله... تَأْتِي آيتنا هنا كآخر الكلام معه، فَاكْفُرْ وافعل ما تشاء، لِأَنَّ هذا لن يغيّر من واقع كون محمّد(ع) رَسُولاً إِلَهِيّاً، حَيْثُ سبحانه يشهد بذلك.

من ناحية ثانية ترى فيها قوّة الاستناد للحقّ، لَوْ كانت شخصيتك قوية وكذّبك الناس، فَسَتَقِفُ جامدا شامخا وتقول: أنا أقول الصدق. ومع الفارق الهائل بيننا وبينه تعالى الإله ذي القدرات الفائقة، تَرَى في القرآن الكبرياء الإلهي مُنْعَكِساً في أمثال آيتنا هنا، اللَّهُ عزّ وجل يشهد، فَاعْرِفُوا قدركم وقيمتكم ومع من تتعاملون وبمن تكفرون.

لِمَزِيدٍ من التوسّع حول كلمة "عباد"، راجع دراسة الآية 17 من هذه السورة.

(وَمَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاء مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً{97})
{وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ}، مَنْ يَضَعْهُ تعالى على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة، فهو يكون فِعْلاً على الأشياء الصحيحة التي توصل فِعْلاً للغاية المرجوة للعقلاء، وأي شيء غير ما يقوله تعالى فسيدخل فيها حتماً أمورٌ سيئةٌ ولن توصل لغاية مرغوبة عقلانية. {وَمَنْ يُضْلِلْ}، مَنْ يَضَعْهُ تعالى على الشيء الخطأ الذي لن يوصله للنتيجة المطلوبة، {فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ}، سبحانه يقبل فقط باعتبار المهتدين تابعين له، والضالون لن يكون تعالى ولياً لهم، ولن يجدوا أحداً من مستوى إلهي ليعتبرهم تابعين له.

الكلام فيه عمق نراه بسهولة من نظرة الذي لا يرى دينه تعالى هدى، ويرى عقيدته وشريعته مناسبة له لتوصله لغاياته التي يريدها، ونفهمه أكثر عندما نتلبّس في فكره، فهو يقول: ما معنى هذا الكلام القرآني عن أمور لا أحبّها ولا أريد الالتزام بها؟ ليوافق الإله على ما أنا عليه، وليتركني على عقيدتي وشريعتي ويقول عنها بأنها هدى وهكذا أصير موصوفاً بأني مؤمن بدينه، ومُهْتَدِياً. من هذا العمق نفهم مختلف العبارات التي ذكرها القرآن عن هداه تعالى أنه حصرياً الهدى، ولن يوافق سبحانه على أي شيء آخر غير ما ورد في هذا القرآن، لأن كلامه تعالى وحده الحقّ والخير، وأي شيء آخر سيكون ضلالاً، سيكون فساداً وشرّاً، ولن يوصلنا إلى غاية مرغوبة بناء على ما فينا من عقلانية تدفعنا نحو الحق والخير، وعملياً لن يوصلنا لمرضاته تعالى ولا إلى الجنّة.

{وَنَحْشُرُهُمْ}، يجمعهم سبحانه بقرار منه سواء قبلوا أم رفضوا، {يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، في زمن قيامهم من الموت، {عَلَى وُجُوهِهِمْ}، فلا يكونون واقفين باحترام، بل يتم سحبهم وجرّهم على وجوههم، {عُمْيًا}، كما نقول بالدارج: قلبهم معمي.

علماً أنهم وبشكل ما أيضاً عُمْيَانٌ بالعينين أيضاً لأنهم لن يتمتّعوا بالرؤية الواضحة، على كلّ حالٍ، الكلام يشير إلى أنهم لن يروا طريقاً أو طريقةً تنجيهم من العذاب.

{وَبُكْمًا}، حيث لا يمكنهم التكلم كما كانوا هنا في الدنيا يناقشون ويجادلون براحتهم، ولن يجدوا كلاماً مفيداً ينجيهم من العقاب.

{وَصُمًّا}، حيث لا يسمعون ما يفيدهم وينجيهم من العقاب.

ضع في بالك دائماً أن العمى وبقية الأعطال في الحواس والتي يذكرها القرآن عن حالة الكافرين في الآخرة، غالباً تُشِيرُ إلى فقدان حقيقة ما هو مطلوب من الحاسّة، فما معنى الرؤية بالعينين إن لم تنفع للاهتداء إلى الطريق الصحيح؟ وما معنى الرؤية إن لم تر إلا ما يرعبك ويؤذيك؟ ما معنى القدرة على الكلام إن كان لن ينفع في تبرير ما فعلوه والاعتذار منهم غير مقبول... ونجد في القرآن تعابيرَ تشير إلى حرمانهم من أبسط أنواع الراحة والمتعة بأي حاسّة، لأن الرؤية بشكل واضح تسبّب الراحة "نوعاً ما"، وهم لن يتمتّعوا بهكذا رؤية.

لا ننسى تنوّع حالاتهم في يوم القيامة والأيام التي تليه من محاسبة، فمرّةً يتم إخراسهم حين يكذبون وينكرون... ومرّةً يسمح لهم تعالى بالنطق، ومرّةً يسمعون ومرّةً لا يسمعون... فليس هناك حالة دائمة لتعطيل الحواس ولا حالة دائمة لتفعيل عمل الحواس، فلا تفهم من كل توصيف لحالتهم في يوم القيامة وما بعده أنه توصيف مطلق لحالة دائمة، أنت تعلم أن القرآن نقل لنا مشاهد عن الحساب حيث يقوم فيها المشرك بإنكار قيامه بالأعمال السيّئة، فيتم إخراسه وإنطاق أعضاء جسده ليشهدوا عليه كما تقرأ في الآية 65 من سورة يس {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، وتدمج ذلك مع ما ورد في الآية 21 من سورة فصلت {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، فترى مشاهد مختلفة لمواقف متنوعة في الآخرة حيث مرّةً يتم إخراس الكافر في مرحلة ما، وتركه يتكلم فيما بعد، ثمّ إخراسه وبعدها إنطاقه... وهكذا...

تأكيداً على صحّة تفسير العمى بعمى القلب في بعض الآيات، الآية 19 من سورة الرعد استعملت توصيف العمى لمن يرى بعينيه ولكنه لم ير الحقّ الذي نزل على النبي محمد(ع) {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى}... وفي الآية 171 من سورة البقرة وفي آيتنا هنا نجد وصفهم بالبكم والصمّ مضافاً إلى العمى.

{وَمَأْوَاهُمْ}، والمكان الذي سيبقون فيه، مسكنهم، {جَهَنَّمُ}، المكان الموصوف بسوء ما فيه، حيث تتأجج النيران والعذاب، {كُلَّمَا خَبَتْ}، كلما خفّ تأجج جهنّم، {زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا}، زاد سبحانه لهم اشتعالها وتأججها. وهذا لا يعني مرور فترات راحة في جهنم، بل في كل الوقت التعذيب مستمر بالحريق، ولكن يشتد التعذيب للدرجة القصوى، وينزل لأقل منها بقليل، ثم يشتدّ من جديد.

ننتبه، من المستحيل أن يكون هناك شخص يريد أن يؤمن ولكن الله تعالى يقرر إضلاله، فهذا مستحيل، وبما أن هذا واضحٌ جداً، الآية تقول إنّ من يضلّه ربنا سبحانه ولا يرشده للطريق الصحيح الموصل إلى الجنة، فهذا الشخص لن يهتدي أبداً، وهذا الشخص من الواضح أنه لم يكن يرغب أبداً في أن يكون مؤمناً، ولذلك سبحانه يتركه يضل. بعبارة أخرى، الشخص الذي قرّر أن لا يؤمن، سبحانه لن يجبره على الإيمان أبداً، ولذلك من المستحيل على هذا الشخص أن يتبع طريق الحقّ والصلاح أو أي طريق يوصله إلى جنة الآخرة، لأن طريق الحقّ والصلاح واحد، وهو نفسه الطريق إلى جنة الآخرة، وهو الطريق الذي يرسمه ربنا سبحانه، وهذا الشخص قرّر أن لا يتبعه. وكما ترى استعملت لك تعبيراً تطبيقياً عن الهدى وأنه الموصل إلى الجنّة، وإلا فالكلام عن أساس توصيف الهدى والضلال كوصف حالة من يكون على الشيء الصحيح الحقّ الصالح... ومن هو على الباطل والفاسد...

من ناحية ثانيةٍ، ما سبق وذكرناه عن رفضه تعالى لأي دين غير دينه، هذا عملياً يعني أن هداه تعالى، كلامه تعالى الهادي، هو فقط وفقط المقبول ليرضى تعالى عنه كعقيدة وشريعة، وهو السبيل الوحيد لدخول الجنّة، وأي شيء آخر فليس هدىً. وأيضاً ترى تسهيل معنى الكلام بالتطبيق لدخول الجنّة، وإلا فالكلام في أساسه ليس عن ذلك، بل عن الكون على الصحّ أو الخطأ، على الحقّ أو على الباطل.

ترى ما أقصده لو تصوّرت من يدعوك لدينه، ويقول لك: الْتَزِمْ به وسيرضى عنك الإله وستدخل جنّةً رائعةً خالدةً. فهل ستسأل عن حسن أو سوء ما ستلتزم به؟ أم ستلتزم به كيفما كان طالما سيرضى عنك الإله وستدخل الجنّة؟

هذا الكلام هو لبّ القرآن وجوهر دينه تعالى الذي لا يبرّر لك أي سوء، ويأمرك فقط بالخير، وصرنا بعيدين عن هذا المفهوم متعصبين لديننا على العمى ولا نميّز بين كلامه الحقّ سبحانه وبين كلام الناس حيث نعتبر قدسية لكلام الناس مساوية بل فوق كلامه تعالى، وبداية هذا المرض مع التقديس الأعمى للمرويات والموروث، وصولاً إلى اعتمادها متعامين عن مخالفتها لكلامه تعالى، وصولاً إلى قبولنا بالسوء متعامين عنه ومعتبرين أننا مؤمنون من الدرجة العالية لأننا على العمياني نلتزم بما نعتقد أنه دينه تعالى!

من هذه العقلية لن نفهم كلام القرآن المشابه لآيتنا هنا، بل لن نفهم دينه تعالى ولن نكون مؤمنين حقيقيين، لأن الدارج بين العديد من المنتمين لدينه تعالى أنهم يلتزمون بما يقوله لهم العلماء كتفسير للقرآن وكفتاوى، حتى لو لم يقتنعوا به! حتى لو كانوا يرونه سيئاً سيلتزمون به لأنه دينه تعالى!

هذا يا عزيزي هو دين الناس، أمّا دينه تعالى فليس فيه سوء، وإن وجدت فيه سوءاً فاترك هذا الدين، ولكن من بعد التأكد أن السوء من كلامه تعالى وليس من التفسير الإجرامي والفاسد والمنحرف والمذهبي لكلامه تعالى في قرآنه هذا، لأن هذا القرآن هو المصدر الأوّل لدينه تعالى وتُعْرَضُ عليه الروايات والفتاوى والموروث الثقافي... فإن وافقته أخذنا بها وإلا فَأَهْمِلْهَا وَارْمِهَا كَائِناً من كان قائلها.

تتذكّر أنه تعالى خلقنا بقابلية تمييز الحقّ من الباطل وترك لنا حريّة الاختيار بين الكفر بالحقّ أو الإيمان بالحقّ، ونتحمّل نحن مسؤولية ما اخترناه... حيث لا يجبرنا سبحانه غصباً عن إرادتنا على الإيمان أو الكفر، ولا يتلاعب بعقولنا ولا يسلبنا حريّة الإرادة، ومثلما تعلم أن اقتراب الخشب من النار سيسبّب احتراقه، فمن قرّر الكفر وفعل السوء وتمرّس عليه فسيصير على قلبه غلاف يمنعه من الإيمان، وهذا هو جانب من المعنى الذي تقصده الآيات حينما تقول بأن الله تعالى أضلّ شخصاً ما، لذا عليك بالنظر لتلك الآيات بالعين الإلهية، إذ إنه سبحانه عنده القدرة والسيطرة المطلقة على فعل ما يريد، وعندما يتركهم سبحانه يَضِلُّونَ مع قدرته تعالى على هدايتهم غصباً عنهم بالتلاعب بعقلهم أو بأي طريقة أخرى، فالتعبير الدقيق: هو تعالى أضلّهم. لأنه تركهم مع الضلال الذي اختاروه.

(ذَلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً{98})
{ذَلِكَ}، التعذيب في جهنم هو، {جَزَاؤُهُمْ}، هو المقابل المساوي لأعمالهم، {بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا}، بسبب إنكارهم للأمور المميّزة المنسوبة له تعالى، الأمور المميّزة التي تدل على توحيده تعالى وأنه أرسل لنا رسله وأنه سيبعثنا من الموت للمحاسبة...

قال هؤلاء الكفار المنكرون للبعث من الموت:

{أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا}، بعد أن متنا وتحلّل لحمنا وبقي العظم، وكنا بعد ذلك، {رُفَاتًا}، العظام البالية أيضاً تفتّتت وصارت تراباً، فهل نحن بعد هذه الحالة، {أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا}! هل سيتم إنهاضنا من موتنا وتركيبنا من جديد مرّة ثانية! ونعود إلى الحياة؟

(أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إَلاَّ كُفُوراً{99})
ردّاً على استغرابهم من إعادتهم إلى الحياة من بعد تحلّل جسدهم لتراب: {أَوَلَمْ يَرَوْا}، ألم تحصل لديهم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شافوا، ألم يلتفتوا، {أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ}، ركّب وألّف، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وهذا كل ما في دنيا المخلوقات بضخامتها الهائلة بسبع سموات، وما نسميه نحن بكوننا المشحون بمليارات المجرات ما هو إلا سماء واحدة من تلك السماوات... أو لم يروا أنه تعالى، {قَادِرٌ}، لديه القدرة ويستطيع، {عَلَى أَنْ يَخْلُقَ}، على أن يركّب ويؤلّف، {مِثْلَهُمْ}، خلقاً مساوياً لخلقتهم مرة ثانية!؟

الذي خلق من لا شيء ما في هذه الدنيا الضخمة جداً، ألا يمكنه إعادة خلقكم! ما الدافع لكفركم بالكلام عن خلقكم مرة ثانية طالما ترون نموذجاً ملموساً عن القدرة العظيمة للذي يقول ذلك! وتقرأ في الآية 27 من سورة النازعات مقارنة صريحة بين ضخامة خلق السماوات والأرض مع خلقنا البسيط جداً بالمقارنة معها {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا}.

الآية هنا من أوضح الجمل القرآنية التي تلفت انتباهنا لضخامة ما خلقه تعالى ليكون لنا آية تجعلنا بكل سهولة مؤمنين بقدرته الفائقة سبحانه، لأن الذي خلق هذه الضخامة الهائلة بهذه التفاصيل المهولة، أليس بقادر على إعادة خلقنا مرّة ثانية؟ أليس بقادر على جعلنا خالدين في جنّةٍ رائعةٍ...

{وَجَعَلَ لَهُمْ}، وجعل سبحانه لهؤلاء الكفار المنكرين للبعث، {أَجَلًا}، زمناً لانتهاء شيء ما، وهنا الكلام عن زمن موتهم، {لَا رَيْبَ فِيهِ}، فلا يوجد حتى احتمال ضعيف أن هذا الأجل لن يحصل، لأن هذا الزمن لانتهاء حياتهم بالتأكيد وحتمًا سيحصل ولن يبقى ولا أي إنسان حيّاً إلى الأبد في هذه الدنيا، وهذا ملموس مما نعرفه من تاريخ البشرية.

موتكم حتمي وبعثكم مثله أمر حتمي، لأنكم محكومون حين قرّرنا خلقكم، ومحكومون بحتمية موتكم، وأيضاً محكومون بإعادتكم إلى الحياة. من هذه الناحية أنتم محكومون بما قرّره تعالى، ومن ناحية ثانية ينطرح سؤال: لماذا تموتون؟ مَنْ الذي صمّمكم هكذا؟ ولماذا لستم تخلدون في الدنيا؟

{فَأَبَى}، رفض بشدّة، {الظَّالِمُونَ}، غير العادلين وغير المنصفين، الذين لم يكن معهم حقّ عندما رفضوا الإيمان رغم وضوحه، حيث أبوا، {إِلَّا كُفُورًا}، نكراناً لموضوع قدرته تعالى على خلقهم من جديد.

تركيز المنكر للبعث مرّة ثانية ينطلق من استحالة إعادة تركيب وتجميع الجسد بعد اختلاطه بالتراب، وتلاحظ دائماً الردّ القرآني على نفس الموجة: الإله يمكنه إعادة خلقكم مرّة ثانية مهما حصل معكم وأينما كنتم ومهما تبعثرتم... وتجد في كتب عامّة المسلمين كلاماً حول هذا الموضوع يختلف عن الردّ القرآني، فيقولون بأن الجسد لا علاقة له بنا، بل نفسنا "روحنا" هي شيء آخر ولا علاقة لها بالجسد، ونفسنا أو روحنا هي نحن في الحقيقة وليس الجسد، ونفسنا أو روحنا يتم سحبها عندما نموت، والاحتفاظ بها فيما يسمّونه بعالم البرزخ، وفي يوم القيامة ترجع النفس إلى جسد يخلقه تعالى... وبناءً على قولهم هذا، فلا يهمّ الجسد طالما هو مجرّد وعاء للنفس أو الروح وهما فكرنا ووعينا وذاكرتنا وأحاسيسنا... فأينما وضعتهما في أي جسد كان فهذا يعني أنك رجعت إلى الحياة... وبضبابية يَتَأَيَّدُ شيء من كلامهم هذا بالآيات 10 و 11 من سورة السجدة {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ}...، وَيَتَأَيَّدُ من حالة المقتولين في سبيله تعالى في الآية 169 و 170 من سورة آل عمران {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}...، ولكن مع التنبيه دائماً أن التفاصيل التي ذكروها عن النفس والروح لم يذكرها القرآن صراحةً.

لا ولا مرّة ذكر القرآن أي شيء عن الروح كشيء له علاقة بالحياة أو بتوفيها لنموت، واستعمال القرآن لكلمة نفس بعيد كل البعد عن اصطلاحاتهم التعريفية لها، إذ القرآن استعملها كمرادف للفرد للشخص للواحد منا... وليس ليشير بها إلى شيء فينا بل ليشير بها إلى الفرد منّا، واستعملها تعالى لتوصيف نفسه في العديد من الآيات وكمثال ما ورد في الآية 28 من سورة آل عمران {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} جرّب انطباق تعاريفهم ومصطلحاتهم لكلمة نفس عندما يستعملها تعالى لنفسه وسترى الفرق الهائل بين المعنى اللغوي لكلمة نفس وبين تعاريفهم الاصطلاحية والتي فسّر بعضهم بها القرآن!

لمزيد من التوسّع حول ما يقولونه عن مسألة الروح والنفس راجع دراسة الآية 67 من سورة مريم {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}.

استغراب الكفّار لإعادة خلق جسدنا، جوابه في الكثير من الآيات عن سهولة إعادة خلق الجسد، مهما كانت حالته، فهناك تركيز من الكفّار على الجسد واندثاره والردّ القرآني أيضاً كان بشكل ما عن إعادة تجميع "جسد"، وترى ذلك بوضوح في الآية 78 و 79 من سورة يس {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}. فإن كان في نظرك أن الجسد لا أهميّة له، وأن النفس أو الروح، أو كِلَاهُمَا معاً هما جوهرنا والجسد مجرد وعاء، فانتبه أن القرآن ركّز على إعادة خلق جسد نعود فيه إلى الحياة، ومثّل مراراً بالتشبيه لعودتنا إلى الحياة بحالة عودة الحياة للأرض الميتة بخروج النبات، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 11 من سورة ق

{رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ}. طبعاً من تبعات تبدّل السماوات والأرض تعلم أن الجسد في الآخرة سيكون مختلفاً عن جسدنا هنا، فهناك يتمتع المؤمنون بجسد لا يصيبه أي ضرر ويكبّر أحاسيس السعادة... وَالْكَافِرُونَ بجسد يتجدّد بعد إحراقه ويكبّر أحاسيس الألم...

انتبه لشيء ربما لم أذكره في بقية الدراسات لأمثال آيتنا هذه، كلام القرآن عن إعادتنا إلى الحياة بجسد، بأي جسد كان، ولا يخطر ببالي تحديده إعادة خلقنا من جسدنا السابق، لأن سؤال الكفّار عن بقايا الجسد وكيف ستعود إليها الحياة، وجواب القرآن يشير لبقايا الجسد كمواد، لا فرق بين تراب جسدي وتراب جسدك بعدما يتحلّل تماماً لمواده الأولية من حديد وكربون وكالسيوم... حيث كلام القرآن عن إعادة خلقنا من عموم التراب من بعدما اندثر جسدنا، فإن لم يبق من تراب جسدي أي شيء من بعد حرقه لدرجة تحويله لبلازما من العناصر الأولية للطبيعة، فهل في هذه الحالة لا بعث لي؟ لا، لأن كلام القرآن عن الرفات والتراب تماشى مع كلام الكفّار، واكتفى بالقليل الذي نفهم منه أن قدراته تعالى واضحة من خلقنا أولَ مرةٍ من لا شيء، وبالتالي مرةً ثانيةً يمكنه خلقنا تعالى أيضاً من لا شيء، وهذا ما درسناه في الآية 67 من سورة مريم فراجعه.

بقي شيء، هل البحث في موضوع إعادة خلقنا ديني؟ لا، لأنه موضوع عامّ يحقّ للجميع البحث فيه، وفي معناه، وفي آليات حصوله، وفي محاولة تقليده، ومحاولة محاكاته... وفي فهم كيفية عودتنا إلى الحياة نحن بوعينا وذاكرتنا وفكرنا ونفسيتنا... ومن أكبر الأخطاء منع الآخرين من البحث في هذا الموضوع على أساس أنه ديني وجوابه في القرآن والروايات وهي من اختصاص علماء الدين، وحرام ممنوع على الآخرين البحث فيه من خارج التراث الديني، لا، هذا غير صحيح، إذ القرآن عادة لا يدخل في أي موضوع ليذكر آليات وتقنيات حصوله، واكتفى بذكر مراحل أو جانب من ترابط الأحداث، وراجع كمثال الآيات حول الآية 10 من سورة فصلت عن خلق ما في الدنيا في ستة أيام {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ}، والآية 7 من سورة السجدة كنموذج عن كلام القرآن عن بداية خلقتنا {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}.

في كلا النموذجين، خلق ما في الدنيا وخلقنا، ترى القرآن يذكر بعض المراحل ولا يذكر آليات حصولها، وأنت تعلم أن العلوم النظرية والمخبرية توصّلت إلى فرضيات رائعة لشرح آلية خلقة كوننا وخلقتنا فيه، وربما هي فرضيات صحيحة أو جزئياً صحيحة وهو الأرجح، وعلى أيٍّ، بنفس النظرة يجب التعامل مع موضوع إعادة خلقنا، من نظرة علمية نظرية ومخبرية، ومن يدري فلربما توصّلنا إلى إعادة خلق من مات، أو لنقل فكره وذاكرته إلى آلة أو جسد جديد... استفزّنا سبحانه عبر منح قدرة للنبي عيسى(ع) لإحياء الموتى، ربما أمكننا تقليد ذلك بطرق تحاكي ما فعله النبي عيسى(ع)، وسيكون رائعاً لو استطعنا ذلك... وللأسف حينها لن يتغيّر الكفّار للإيمان، وسيقولون إنّ كلام القرآن عن إعادة خلقنا ليس شيئاً محصوراً بقدرة إلهية، نحن صار بقدرتنا إعادة الحياة للأموات ولن نؤمن بالإله... وهي نفس النقطة التي تسبّب لهم الكفر الآن، لو هم بأيديهم استطاعوا فعلها من بعدما كانوا يكفرون بقدرته تعالى على فعلها، فسيبقون على كفرهم قائلين إنها شيء سهل يمكننا فعله ولا نحتاج للإيمان بإله يمكنه فعلها.

(قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُوراً{100})
للذين تساءلوا عن خلقهم وعن إعادة خلقهم مرّةً ثانية فقل لهم عبر هذا القرآن: {قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي}، الخزائن الإلهية هي الأشياء التي يمكن خلقها ولم يخلقها المسؤول عني من مستوى إلهي، وعادة يخلقها رحمةً أي عناية بكم لما فيه مصلحتكم، أو هي موجودة ولكنها بحاجة لأمر أو إذن إلهي لتصير معنا، فلو كنتم تملكون تلك الخزائن، {إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ}، فلم يخرج منها شيء للآخرين، {خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ}، رغم ضخامة الخزائن الإلهية فبسبب ضخامة الإنفاق منها على المخلوقات لصار عندكم شعور ضرورة تجنّب الإنفاق بكثرة.

{وَكَانَ الْإِنْسَانُ}، كان الغالب الأعمّ من الناس، {قَتُورًا}، لا ينفق كميات ضخمة على الآخرين، فيضيّق ويعسّر معيشة غيره إذا شعر بأنه أعطاهم الكثير فيتوقّف عن إعطاء المزيد.

بعبارة أخرى، ما فعله تعالى بخلق ما في الدنيا كبيئة وخلقكم فيها أنتم وبقية الكائنات، وخلق ما فيها من ظواهر... وما سيفعله بإعادة خلقكم، فهذا من خزائن رحمته تعالى الذي لا يخشى الإنفاق بسبب قدراته الفائقة على الخلق بشكل دائم،

لأن الآية السابقة لفتت انتباهنا لقدرته الفائقة سبحانه، لذا إعادة خلقنا شيء عاديٌّ جداً وسهل... بالنسبة له تعالى، ومن ناحية ثانيةٍ سبحانه لن يفقد ولن يخسر ولن ينقص... أي شيء منه ولا من ملكه ولا من قوّته... أنتم حين تواجهون أمراً يحتاج للإنفاق غالبيتكم سينفقون بقتر، بينما سبحانه ينفق بقدر، أي بما هو مناسب ولا يهمه الكمية ولا النوعية.

طبعاً سنفهم بشكل أوضح ما تقوله الآية هنا عندما نستحضر في بالنا التفاصيل الهائلة لما في الدنيا من كائناتها وظواهرها، وسترى أنه تعالى "أنفق" فتفضّل علينا بشكل هائل بكميات ضخمة ونوعية عالية، حيث تقيس كلام الآية مع إنسان "كريم" جواد معطاء... يقدّم ماله وطعامه و... للآخرين، وتقارنها مع ما منحه تعالى لنا، سترى أن الآية تشير للغالب الأعم من الناس أنهم لو هم بإمكانهم خلق كائنات، وقرّروا فعل ذلك، فَسَيَصِلُونَ إلى مرحلة يقولون فيها: هذا يكفي فهذا كثير جداً. فيقترون، أمّا سبحانه فبقدر يخلق، وبما يراه مناسباً يتفضّل، وترى النتيجة أمامك وفيك، إذ تفضّل سبحانه علينا بما لا يعدّ ولا يحصى من النعم، لذا يمكن دمج الآية هنا مع الآية 18 من سورة النحل {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}.

بالنسبة لتعبير "خزائن الله تعالى" فهي الأشياء التي يمكن خلقها ولم يخلقها بعد ربنا سبحانه، أو الموجودة ولكنها بحاجة لأمر إلهي لتصير معنا، لذا يعبّر عنها القرآن أنها في الخزائن. الله سبحانه ليس عنده خزائن من حديد أو غرف أو مستودعات، حيث إنّ قدرته سبحانه على فعل أي شيء يريده هي الخزائن بالنسبة له تعالى، أنا أسحب الماء من خزان المياه، وأسحب الطعام من خزانة الطعام، وأسحب المال من الخزنة الحديدية... أما ربنا سبحانه فَيَأْمُرُ فتسير آليات التنفيذ ليحصل ما أمر به تعالى، وفي الحالات العادية صمّم سبحانه السماوات والأرض لتصل إلى حيث ستنشأ الأرض ويصير عليها ظاهرة المطر، وهكذا تفهم الحالة العادية لأمره تعالى بنزول الماء حيث تجري آليات ذلك من تبخّر وريح وفرق حرارة وضغط... فينزل الماء... وأمر تعالى أن تخرج المخلوقات إلى الحياة فمشى تصميمه سبحانه للسماوات والأرض عبر مراحل وآليات وصولاً إلى نشأة الحياة على الأرض... ويأمر سبحانه أن تمحو الملائكة(ع) سيئاتي فتمحوها... وعادة نربط خزائنه سبحانه برحمته، إذ من رحمته حصلنا على أشياء من خزائنه، ومن رحمته خلقنا ومن رحمته نزل الماء ومن رحمته غفر لنا... عملياً خزائنه هي أوامره سبحانه وتعالى.

بعبارة أخرى سبحانه وتعالى يأمر فتحصل الأشياء، حيث لا يوجد علب أو صناديق أو غرف تخرج منها الأشياء، لذا خزائنه عملياً هي أوامره سبحانه وتعالى، وبما أنها جاهزة لتصير فور صدور الأمر الإلهي، مثلما الأشياء في الخزائن جاهزة لإخراجها، وَصَّفَ تعالى ما يمكن خلقه وإتاحته بأنه في الخزائن.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَونُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً{101})

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ}، أنتم طلبتم من الرسول محمّد(ع) آيات تدل على رسول إلهي، فطلبتم أن يفجّر ينبوعاً أو يكون له جنّة... من قبل أعطينا الرسول موسى(ع) تسعةَ أمورٍ مميزة بمستواها الإلهي، {بَيِّنَاتٍ}، واضحات لا شك في صحتهن وأنهن من مستوى غير عادي، فمن الواضح أنهن من ربنا سبحانه. {فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ}، عبّر للمنتسبين إلى النبي يعقوب(ع) عن إرادتك لجواب منهم، {إِذْ}، حين، {جَاءَهُمْ}، النبي موسى(ع) بتلك الآيات وشاهدها الجميع، حيث جرى تسجيل تلك الحوادث في كتب بني إسرائيل فاسألهم عنها، وسياق الكلام عن أن تسع آيات لم تنفع الأشخاص الذين قرروا الكفر، فلا هم ولا غيرهم سيؤمنون بسبب الآيات "التي يسميها الناس بالمعجزة" حتى ولو جاءتهم ألف آية.

إذ جاء النبي موسى(ع) إلى بني إسرائيل وفرعون وعرض عليهم الآيات، {فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ}، قال صاحب أعلى سلطة في ذلك الزمان والمكان: {إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا}، استناداً لما أراه أمامي فأنت واقع تحت تأثير السحر فهناك من تلاعب بعقلك وجعلك تظن بأنك مرسل من الإله.

الظنّ هو عموم الاعتقاد المستند لعلم، فإن كان العلم صحيحاً فالظن سيطابق الواقع، وإن كان خطأ فالظن لن يطابق الواقع فلن يكون صحيحاً، وفي الآية التالية سنتوسّع في معنى كلمة ظنّ.

لاحظ، حين حصلت الآيات التسع نقل لنا القرآن عن فرعون في الآية 109 من سورة الأعراف أنه قال عن النبي موسى(ع) إنه ساحر {قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ}، وهنا نقلت لنا قولاً آخر قاله فرعون، حيث قال عن النبي موسى(ع) إنه مسحور، وتلاحظ نفس الشيء قيل عن النبي محمد(ع) مرّةً قالوا عنه ساحر، ومرّةً أخرى قالوا

عنه مسحور، أي واقع تحت تأثير السحر، ورد ذلك في الآية 47 من سورتنا هذه فراجعها لمزيد من التوسّع حول كلمة سحر.

تركيز الآية هنا على إنكار تسع آيات وليس عن إنكار آية واحدة، وهي آيات واضحة في دلالتها على كون موسى(ع) رسولاً إلهياً، لأن القول عنه (ع) بأنه ساحر عندما جاء بالآية الأولى فعلى الأقل فيها وجهة نظر، وفي الآية الثانية فمن المفترض أن يكون الشكّ أخفّ، وبعدها أخفّ... فهنّ تسع آيات، أمّا اتهامه (ع) بأنه هو شخصياً واقع تحت تأثير السحر فما معناه؟! وهذا ما أرادت الآية أن ننتبه له من كلام فارغ يرميه الكفّار بدون التفكير فيه.

تريد الآية أيضاً لفت انتباهنا بأن الكفّار في أي عصر كانوا، فإنهم لم يؤمنوا عندما قام الرسول بأي عمل يفوق قدراتهم، فالنبي موسى(ع) كان يلقي العصا فتتحوّل لثعبان، ويده كانت تتحول إلى اللون الأبيض الناصع ثم تعود كما كانت، وتحول ماء نهر إلى دم... فالخلاصة: أن الكفّار الذين في عصر النبي موسى(ع)، والذين في عصر النبي محمد(ع) والذين في عصرنا، أو في أي زمان كانوا، فهم متشابهون، فلا يؤمنون بالآيات رغم أنهم يطلبون حصولها كشرط ليؤمنوا.

بالنسبة للآيات التسع التي حصلت مع النبي موسى(ع) فهي: العصا التي تحولت لحيّة، اليد التي تتحول لبياض شديد، فيضان النهر حتى غمر بيوت قوم فرعون، هجوم أسراب الجراد على المحاصيل ومخازن الحبوب، انتشار القمل بشكل كثيف بين قوم فرعون، انتشار الضفادع بشكل كثيف في مساكن قوم فرعون، تحول مياه النهر إلى دم، وتقرأ ذلك في الآية 133 من سورة الأعراف {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ}...، والسنين وهو الجدب في المحاصيل فتصير بلا إنتاج وتنقص الثمرات فيخرج الزرع ولكن بإنتاج ضعيف كما تقرأ في الآية 130 من سورة الأعراف {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ}، وأخيراً آية فلق البحر، فانفلق أمام فرعون وجنوده ورغم ذلك لم يؤمنوا واقتحموه لقتل وأسر بني إسرائيل.

تتذكّر أن كلمة فرعون لقب، وفي فترات متقطّعة من تاريخ مصر كانوا يطلقونه على أعلى حاكم فيها، مثل لقب كسرى عند الفرس ولقب قيصر عند الرومان...

(قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُوراً{102})
قال النبي موسى(ع) لفرعون رداً على اتهامه بأنه مسحور: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ}، أنت متأكّد يا فرعون أن هذه الآيات لم يُنْزِلْهَا إلا {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، إلا المسؤول من مستوى إلهي عن كل ما في دنيا المخلوقات، لأني لست واقعاً تحت تأثير السحر لأنخدع وأظن أني رسول إلهي، حيث معي آيات تراها أنت ومن الواضح أنها ليست من صنعي، ولا من صنع ساحر غيري، وليست سحراً أصلاً، بل حقيقة.

أَنْزَلَهَا سبحانه {بَصَائِرَ}، أمور تجعلك تفقه الصورة، وتجعل وعيك يدرك معنى الصورة، حيث إن كل واحدة منها تجعل الباحث عن الهدى يرى صورة واضحة للطريق الصحيح.

أنت تقول عني بأني مسحور، {وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا}، استناداً للمعطيات التي أمامي أعتقد أنك ستصاب بالثبور وستتعرض للمصائب من النوع القوي. عملياً ستتعرض لعقاب منه سبحانه على كفرك بإنكارك للآيات التي تهدي للحق.

{الظَّنُّ} هو اعتقادك بشيء ما مستنداً إلى شيء ما، فإن كان ما تستند عليه صحيحاً كان ظنّك صحيحاً، وهذه حالة المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم سبحانه كما ورد في الآية 46 من سورة البقرة {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، لأنهم مستندون في ظنّهم على آياته وكلامه تعالى. وإن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران {وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ}، حيث إنه استناداً للحالة الحرجة التي كانوا فيها ظنّوا أنه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء. وبين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند عليها ولكنه ليس مقتنعاً بها، فلا تزال الأمور عنده مُرَجَّحَةً لاحتمالات أخرى، وهذا ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}، حيث يريدون أن يلمسوا مباشرة حصول ساعة قيامهم من

الموت حتى يعتقدوا بها ولا يكفيهم الاستناد إلى معلومات تدلّ عليها، ويريدون اليقين بها عياناً حتى يؤمنوا. وهذه الحالة قريبة جداً من الاصطلاح في علم المنطق، والدارج لمعنى كلمة ظنّ على معنى وجود عدة احتمالات. وها صرت تعلم المعنى اللغوي الأساسي لكلمة ظنّ، فانتبه للفرق بينه وبين المعنى الاصطلاحي حتى لا تفسّر القرآن على أساس المعنى الاصطلاحي.

في عموم كتب التفاسير ستجد كلاماً آخر عن الظنّ، ولا ينطبق معناه على كلّ آيات القرآن، إذ ستجدهم لا يثبتون على معنى واحد للظنّ، حيث مرةً يرادفونه باليقين، ومرةً بالشك، ومرةً بالحسبان، وهي معانٍ غالباً ستجدها صحيحة لأن الآيات واضحة وتدل على المعنى الذي ذكروه بالشكل العمومي الذي يتحمله الاشتقاق والتدرّج من أصل معنى كلمة ظنّ، ولكنها ليست المعنى الدقيق لكلمة ظنّ، بل كلامهم توصيف لحالة العلم الذي استند إليه الظنّ، وها صرت تعلم معنى الكلمة العام، وأن القرآن دائماً يوضّح لك نوع العلم الذي يستند الظنّ له إن كان صحيحاً أو فاسداً، فلن تضيع في معرفة الظنّ الصحيح من الظنّ الخطأ.

(فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعاً{103})
{فَأَرَادَ}، قَصَدَ فرعون عن رغبة، {أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ}، لبني إسرائيل، {مِنَ الْأَرْضِ}، لأنهم كانوا في طريقهم للخروج من مصر وابتعدوا عنها، ولكن فرعون وجنوده لحقوا بهم ليقتلوهم إن لم يستسلموا وبذلك يستفزّونهم ويحركونهم من مكانهم ليردّوهم إلى مصر أو يقتلوهم.

{فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ}، مَاتَ تحت الماء فرعون وجنوده، {جَمِيعًا}، كلّهم غرقوا.

نتذكر أنه تعالى أمر رسوله(ع) بعرض الدين الإلهي على فرعون وقومه فقط، والآيات لم تكن تهديداً لفرعون وقومه ليؤمنوا بل حصلت فقط لإقناع فرعون بأنه سبحانه هو الآمر بترك بني إسرائيل يغادرون مصر، حيث حصلت الآيات لتقنع فرعون بتركهم... ورفض... وبعد سنين وفي ليلة ما خرج بنو إسرائيل، ولحق بهم فرعون، وكانوا وصلوا إلى البحر، فَلَقَ سبحانه البحر وصار فيه ممرات، ومشى فيها بنو إسرائيل، وعندما خرجوا من الناحية الثانية من البحر كان فرعون وجنوده وصلوا، ودخلوا في الممرات المائية، فأطبقت عليهم وأغرقتهم جميعاً.

تذكّر أن كلمة الاستفزاز وردت ثلاث مرات في القرآن فقط في هذه السورة، قبل آيتنا هنا في الآيتين 64 و 76 من هذه السورة، والاستفزاز هو تعريض الشخص لظروف حماسية تجعله يغيّر تصرفاته، وهنا الكلام عن تعريض بني إسرائيل لظروف تستفزّهم فتجعلهم يتركون الأرض التي وصلوا إليها ليرجعوا إلى مصر حيث كانوا مستضعفين مسخّرين عند فرعون.

(وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً{104})
{وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ}، قال سبحانه من بعد إغراق فرعون، {لِبَنِي إِسْرَائِيلَ}، للمنتسبين إلى النبي يعقوب(ع) من ذرية أولاده وأولادهم:

{اسْكُنُوا الْأَرْضَ}، أنتم لم تعودوا تحت حكم فرعون، ولن يستفزّكم بعد الآن لأنه انتهى، فارتاحوا في سكنكم واستقراركم وتمضية حياتكم في الأرض.

{فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ}، إذا جاء وقت تحقّق ما قاله تعالى أنه سيحصل، {جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا}، أحضرناكم من كل جانب ومن كل بقعة من الأرض وجمعناكم في مكان واحد.

كما ترى بدأت السورة بالكلام عن بني إسرائيل وتسلسلت الفقرات بالكلام وصولاً للآيات التي يطلبها الكفار ليؤمنوا، ووصلت إلى التذكير بتسع آيات جرت أمام فرعون ولم يؤمن، ومنه عادت ودخلت على الكلام عن بني إسرائيل.

عطفاً على بداية السورة، سيأتي زمان يجتمعون فيه عند المسجد الأقصى من بعد تفرّقهم في بقاع الأرض، والوعد بذلك لا تقطعه عمّا ذكرته بداية السورة من تهديدهم بما سيحصل حتماً من إفسادهم... فلا يعني أنهم موعودون بشيء جيّد، وهو مثل وعده تعالى للكافرين بجهنّم كما ورد في الآية 63 من سورة يس {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ}، وهناك من

يقول بأنه تعالى في القرآن وعد بني إسرائيل بالأرض المقدّسة، وأنها من حقّهم، ولكن هل حصولهم عليها بالفساد هو الطريقة الصحيحة التي وعدهم تعالى بها؟! بقتل المسلمين الأبرياء والاستيلاء على أراضيهم؟! وهل طوّبها لهم سبحانه كملك لهم ممنوع على الآخرين المساس به حتى لو أفسد بنو إسرائيل؟ لا، فهذه الحالة عليها عقاب إلهي ببعثه تعالى عليهم عباداً أولي بأس شديد ليكسروا شوكة بني إسرائيل...

(وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً{105})
خاتمة السورة وخلاصتها:

{وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ}، هذا القرآن من ناحيته سبحانه أنزله بالحقّ وليس بالباطل، ولأنَّ نزول هذا القرآن كان عملاً صائباً، ومَنِ اعترض على التدخّل الإلهي في العقيدة والشريعة والسلوكيات لأنه تعالى أنزل له كتاباً فيه دين، ويقول: من دون هذا الكتاب لكان حالنا بخير فلدينا عقيدة وشريعة وسلوكيات على مزاجنا وتعجبنا... فهو مخطئٌ، لأنه سبحانه محقّ في تنزيل كتاب من عنده، فهو إلهنا خالقنا ونحن عبيده وله الحقّ في التدخّل في شؤوننا، مضافاً إلى ذلك:

والقرآن، {بِالْحَقِّ نَزَلَ}، لأنَّ محتواه ليس عبثياً أو كذباً أو باطلاً، وبعلمه الواسع وحكمته سبحانه تألّف هذا القرآن، وبمقارنته مع أي كلام آخر هل يستطيع أي كلام آخر الصمود أمام كلامه تعالى ليكون أفضل منه؟!

هناك سور أخرى تحدّثت عن الضمانة الإلهية لوصول القرآن إلينا بالتمام كما أراد سبحانه، ولكن هنا الكلام عن محتوى القرآن من بعدما وصلنا كما هو، حيث إن كلامه ليس فيه عبث أو كذب...

أمّا بخصوص الذي نزل عليه القرآن، فهل مطلوب منه فعل الخوارق والمعاجز؟ لا:

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ} للناس {إِلَّا مُبَشِّرًا}، حاملاً الخبر السار لمن يؤمن، فهو سيدخل إلى الجنة، وأرسلناك {نَذِيرًا}، ناقلاً للخبر السيئ عن العقاب بدخول النار لمن هو في حالة الكفر.

ضع في بالك دائماً الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى معانيَ قرآنية رائعة، تَصَوَّرْ شخصاً أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، هنا تحذّره من سلوك الطريق السيئ، لأنه حالياً ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية: {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ}، والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}.

أمّا إذا سلك طريق الخطر، فتنذره، لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. والإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتماً ما يضرّه، حيث تنذر الكافر حيث هو في حالة ستسبّب له العقاب حتماً، وورد هذا كثيراً في القرآن. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يتلبّس بما سيسبّب له الضرر، حيث تحذّر المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

وهذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، إذْ قد يقوم المؤمن بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، حيث تنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة المسيحيين المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف: {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}، وعموم المؤمنين المشمولين بالتهديد من فكرة فعل السيئات على أساس أن يحمل أحد ما السيئات عنهم: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}، والمشمولين بالتهديد إن لم يتغيّروا نحو الأحسن موعودون بالمغفرة كما ورد في الآية: {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}، ونفس المفهوم في الآية 45 من سورة النازعات: {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا}.

(وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً{106})

{وَقُرْآنًا}، شيء يمكن قراءته، وكما تعلم حيث هناك معلومات كانت في الكتاب الرئيسي في السماء العالية وبأمر منه تعالى تحوّلت تلك المعلومات إلى اللغة العربية وأنزلتها الملائكة(ع) على فكر ووعي النبي محمّد(ع) وصارت قرآناً، وصارت شيئاً يمكننا قراءته، لأنَّ أي كلمة منه هي قرآن، والآية قرآن والسورة قرآن، {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ}، أنزله تعالى مُفَرَّقاً ولم ينزل كلّه دفعة واحدة، {لِتَقْرَأَهُ}، أيها الرسول، {عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ}، على فترات زمنية في أمكنة مختلفة، حيث ينزل القرآن وتقرؤه للناس، وتمكث ويتوقف النزول مدة من الزمن ثم ينزل من جديد وتقرؤه على الناس في مكان وزمان آخر وهكذا... وهذا واضح من الحوادث التاريخية المتحرّكة في عصر النبي محمّد(ع) والتي تابعها القرآن، إذْ لم يجلس النبي(ع) في مكان واحد وزمان واحد وتلا القرآن، بل على مكث، حيث مكث هنا وقرأ ومكث هناك وقرأ سورة أخرى... إذْ في ذاك المكان والزمان قرأ سورة ما، وفي مكان وزمان آخر قرأ سورة أخرى وهكذا...

{وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا}، لأنَّ نزوله كان على أتمّ مواصفات النزول على دفعات.

كما تعلم فإن القرآن نزل على النبي محمد(ع) في مدة تقارب العشرين سنة، وخلالها بقي الفرق هائلاً بين كلام الرسول(ع) مع الناس وفي خطبه ومكاتيبه... وبين القرآن، وترى الفرق في طريقة تناول المواضيع، وفي عمق المواضيع، وفي النظرة الإلهية للمواضيع... وفي طريقة الكلام، وفي دقّة استعمال الكلمات...

بالنسبة لما تجده في بعض الكتب عن الفرق بين كلمتي نزل وتنزيل، فكلاهما وصف لعموم الانتقال من علو "مادياً أو معنوياً" إلى مكان منخفض مادياً أو معنوياً. ومعنوياً نقول: نزلت رتبته العسكرية. وكلتا الكلمتين "نزل وتنزيل" تتحملان معنى النزول دفعة واحدة أو على دفعات، ويتحدّد ذلك مما تتكلّم عنه، وتتحملان النظر للفاعل لوحده، أو للمفعول لوحده، أو للحالة. فلا فرق بالمعنى بين الأصل "نزل" وبين الاشتقاق "تنزّل تنزيل نزول..."، خصوصاً فيما يقولونه عن الفرق بينهما في نزول القرآن دفعة واحدة أو بالتدريج على دفعات.

ما تجده هنا وهناك في ثقافتنا عن نزول القرآن كلّه من السماء السابعة إلى السماء الرابعة... ومن الرابعة جرى تنزيل القرآن "ونزل" على دفعات على الرسول(ص)، وبهذا التفصيل "وأشباهه" يقصدون تفسير كلمتي نزل وتنزيل بتوصيف مختلف للفعل، وهذا تفصيل لا ضرورة له وأصلاً لا دليل قرآنيٌّ عليه، ويمكن فهم نزول القرآن تدريجياً على دفعات ونزوله كلّه كوجهين لعملة واحدة، حيث إن بعضه نزل "تنزّل" في ليلة القدر، ثم نزل "تنزّل" بعضه في زمن بعدها... وبالنظر للقرآن كلّه جَرَى تنزيله "نزوله" على دفعات استمرت لقرابة العشرين سنة حتى وفاة الرسول(ص).

يبدو أن الفهم الضبابي لكلمة "قرآن وكتاب" دفع بالكثيرين للبحث عن فرق بين التنزيل والإنزال بالمعاني التي ذكروها، حيث فهموا أن كلمة قرآن تشير لكل ما بين الدفتين، لكل القرآن من أوله لآخره، وفهموا كلمة كتاب كذلك أنها تشير لكل القرآن من أوّله لآخره، وبناءً عليه أرادوا تبرير الآيات التي تذكر نزول "كتاب القرآن" على أساس أنها تشير لنزول كتاب القرآن كلّه من أوّله لآخره دفعة واحدة، ومن المعلوم أنه كلّه لم يكن نازلاً على الرسول(ص) حين جاءت الآيات التي تقول إن القرآن نزل...

بناءً على فهمهم هذا، بدأت تبزغ الآراء المختلفة لتبرير الموضوع، حيث قال بعضهم إنه كلّه من أوّل مرّة نزل على الرسول(ع)... وبعدها عاد ونزل عليه (ع) على دفعات. وآخرون قالوا: لم ينزل أولاً كلّه على الرسول(ع) وإنما نزل كلّه من السماء السابعة إلى الرابعة، ومن هناك صار ينزل على دفعات على الرسول(ع)... وغيرها من التبريرات التي لا داعي لها، فالآية الواحدة قرآن، والسورة قرآن، والسورتان قرآن... ولأن كلمة قرآن وصف إمكانية قراءتنا لما نزل منه تعالى، فإن أي تعبير يشير لنزول أو تنزيل "القرآن" فهو لا يعني أكثر من نزول شيء يمكن قراءته، فلا داعي لنفهم أن التعبير يشير إلى نزول كلّ القرآن.

كلمة كتاب تشير لعموم أي موضوع تامّ، إذ إن السورة الواحدة كتاب، والفقرة أو الآية الواحدة من السورة إن كانت تامّة الموضوع فهي كتاب، وكلّ القرآن كتاب، وهكذا عندما تجد آية تتحدّث عن نزول القرآن أو نزول الكتاب فهي ليست بالضرورة تشير إلى نزوله كلّه، حيث لو نزلت آية فهي قرآن، ولو نزلت آية موضوعها تامّ فهي نزول لكتاب...

(قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً{107})

{قُلْ}، للناس أيها النبي(ع): {آمِنُوا بِهِ}، أعلنوا اعتقادكم بصحّة القرآن وأنه من مصدر إلهي، {أَوْ لَا تُؤْمِنُوا}، وأنكروا أنه من مصدر إلهي، {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ}، الذين كانوا من قبل نزول هذا القرآن لديهم علم، لأنهم ليسوا جهلة، {إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ}، حيث تتم قراءة القرآن عليهم "عن مستند مكتوب أو محفوظ في الذاكرة"، {يَخِرُّونَ}، يقعون نسبياً بسرعة أعلى من العادة كردّ فعل فوري، {لِلْأَذْقَانِ}، حتى تصير ذقونهم التي في آخر وجههم حيث تنبت اللحية عادة، {سُجَّدًا}، في حالة سجود، وهو نزول بكامل الجسد إلى الأرض بحيث تقترب الذقن من الأرض كتعبير عن شدّة خضوعهم واحترامهم لكلامه تعالى.

بعبارة أخرى هناك أناس لا يريدون أن يؤمنوا بالقرآن، وأناس يفكرون في الموضوع، ولكن هناك أناس محسوم عندهم قيمة القرآن العالية بمجرد سماعهم له، وبمجرد أن يسمعوه تصيبهم حالة الخشوع الشديدة لأنه يتوافق مع العلم الذي لديهم، فيعبّرون عن فائق خضوعهم واحترامهم لربهم الذي أنزل القرآن هدى ورحمة.

يخطر ببالك أن التعبير بـ"{أُوتُوا الْعِلْمَ}" يشير إلى أناس جاءهم كتاب إلهي قبل نزول هذا القرآن، فتقول إنها تشير إلى أشخاص من اليهود أو النصارى... ولكن القرآن استعمل غالباً لهؤلاء عبارة "{أُوتُوا الْكِتَابَ}"، واستعمل جملة "{أُوتُوا الْعِلْمَ}" ليشير إلى نوعية محدّدة من الناس يفكرون بطريقة صحيحة، إذ إن عقليتهم تعمل من دون أن تتحكّم الغرائز والعصبية السيئة فيهم، فمن اعتاد على التفكير بطريقة ملتوية، واعتاد على الكذب، واعتاد على اتباع شهوته وغرائزه... فهذا جاهل، حتى لو كان يحمل شهادات جامعية، وحتى لو كان له منصب سياسي أو عسكري أو ديني أو اجتماعي... طالما علمه منحرف عن الحقّ، فهو جاهل، ونفهم من القرآن أن المؤمن الصافي الحقيقي هو العالم، وهو من ذوي الألباب، وهو من الذين يعقلون، حتى لو كان لا يجيد القراءة ولا الكتابة، وحتى لو كان بسيطاً في حياته وأشغاله.

تتذكّر مفهوماً قرآنياً عن الموصوفين بالعمى وصلابة القلب ورينه ودمغه... وفي مقابلهم البصير الذي يعقل وذو اللب... وهذا توصيف لحالة أناس بغض النظر عن وصول كلامه تعالى إليهم، حيث كثيراً ما وصف تعالى بعض الناس بالإيمان والتقى من قبل وصول كلامه تعالى إليهم، وأنهم اهتدوا بكلامه تعالى لأن فكرهم ونفسيتهم تتماشى مع كلامه تعالى، وتقرأ ذلك كمثال في الآية الثانية من سورة البقرة: "{ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}"، لأنهم موصوفون من قبل بالتقى، وبعد وصول كلامه تعالى إليهم يهتدون به، ولمزيد من التوسّع في هذه النقطة راجع دراسة الآية الثانية من سورة البقرة.

في الآية هنا التوصيف مبني على هذا المفهوم، والذين أوتوا العلم، أولو الألباب، الذين يعقلون... كلها توصيفات لنفس الحالة، وهي توصيف المحترمين فكرياً ونفسياً، لأن هدفهم الحقّ ولا تتحكّم بهم أفكار أو نفسيات سيئة، وهؤلاء حين يسمعون كلامه تعالى تصيبهم الخشية.

طبعاً لا تبالغ وتتصوّر الآية تقصد أنهم كلما سمعوا القرآن خرّوا سُجّداً، لأن هذا معلوم أنه لم يحصل حتى مع النبي محمّد(ع)، بل انظر إليها مثلما تنظر لعموم كلام القرآن عن نماذج، حيث حصلت وتحصل معهم هذه الحالة، وصارت كأبرز سمة وعلامة لهم، كوصف علي بن الحسين بالسجّاد.

نلاحظ أننا كمسلمين معتادون على السجود في الصلاة بوضع الجبهة على الأرض، لذلك عادةً يحصل لدينا اشتباه في معنى جملة {يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ}، ونستصعب تصوّر السجود على الذقن لأنه تعبير غريب عما اعتدنا عليه، بينما السجود في أساسه اللغوي هو أقصى تعبير ممكن عن الاحترام الشديد أو الخضوع، وبالنسبة لنا نحن البشر يكون عبر تقريب الوجه من الأرض أو ملامسة شيء من الوجه بالأرض، وليس المقصود من الآية هنا لمس الأرض بالذقن إذ إن مجرد تقريبها من الأرض هو سجود.

(وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً{108})
{وَيَقُولُونَ}، هؤلاء الذين أوتوا العلم: {سُبْحَانَ رَبِّنَا}، تنزّه المسؤول عنّا من مستوى إلهي عن صفات العيب والسوء والنقص، {إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا}، فبالتأكيد ما يقول عنه المسؤول عنّا من مستوى إلهي أنّه سيحصل فعلًا سيحصل.

سياق الكلام في الآيات السابقة يشير إلى وعده تعالى لنا بإعادتنا إلى الحياة من بعد الموت.

بنظرة شاملة للسورة يصير الكلام عمّا سيحصل مع بني إسرائيل دليلًا ملموسًا على صدق كلامه تعالى عمومًا، وخصوصًا عن وعده تعالى لنا بالحياة في الآخرة، وهذا الكلام التحليلي مشابه لما قلناه في دراسة سورة الروم، فراجع مقدمتها.

(وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً{109})

هؤلاء المؤمنون بما في القرآن، {يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ}، تحصل عندهم حالة سقوط على الأرض كردِّ فعل عفوي أو عن قصد بشكل فوري، ويقرّبون وَجْهَهُمْ من الأرض أو يلامسونها به، وبالتالي تصير ذقنهم قريبةً من الأرض، كتعبيرٍ عن شدة خشوعهم وإعلانهم لخضوعهم وتذللهم وطاعتهم ومسكنتهم وحاجتهم لربهم سبحانه. وفي الآية قبل السابقة توسعنا في شرح السجود للأذقان.

{يَبْكُونَ}، يعبّرون عن حزنهم لدرجة نزول دموعهم.

{وَيَزِيدُهُمْ}، سبحانه، {خُشُوعًا}، فشعورهم بفقدان القدرة أمامه تعالى يزيد كلما سجدوا.

هذا هو الجانب المهم من نزول القرآن، لفائدة هذه النوعية من الناس التي سيكتمل إيمانها واقترابها من ربها سبحانه عبر التعبير عن خضوعهم له تعالى بأقصى ما يمكنهم.

(قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً{110})

{قُلْ}، أيها النبي(ع) للناس عبر هذا القرآن: {ادْعُوا اللَّهَ}، أشهروا أعلنوا لصاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" تعالى، وسياق الكلام عن الإعلان أنَّه تعالى إلهكم، {أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ}، أو أشهروا وأعلنوا للموصوف بالعناية بمخلوقاته لما فيه مصلحتهم، {أَيًّا مَّا تَدْعُوا}، سواء قلتم يا الله، أو يا رحمن، {فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}، فله تعالى الأسماء الموصوفة بأنها حسنة جيدة، فلا مشكلة في تعاملكم معه تعالى بذكر أسمائه الحسنى بدلًا من ذكر اسمه الله.

درج بين المتدينين قديمًا أن لا ينادوه تعالى باسمه "الله" احترامًا منهم له تعالى حتى لا تتلفّظ ألسنتهم باسمه تعالى وهم يقولون بها كلامًا سيئًا بذيئًا... ودرج بينهم مناداته تعالى بصفة الرحمن، حتى صاروا يعتبرون التلفّظ بكلمة "الله" من قلّة الأدب بحقّه تعالى، وحتى المشركون تماشوا مع هذه الثقافة وابتعدوا عن التلفظ باسم "الله" مستبدلينه بكلمة ربّ ورحمن...

خذ مثلًا عن هذه الحالة ما نفعله نحن عند تعاملنا مع أناس نوقّرهم، فلا نناديهم بأسمائهم بل بكنيتهم أو بألقابهم أو بصفات نطلقها عليهم، كحضرة وسعادة وسمو وأبي فلان والحاج...

معلوم أن التلفظ بالاسم "الله" سهل على الناطقين باللغات السامية، ونفترض أن مؤمنين به تعالى من الناطقين باللغات التي لا يسهل بها التلفظ بكلمة "الله" كما ينطقها الساميون، فهؤلاء يستعملون كلمة مرادفة من لغتهم لمعنى كلمة الرحمن، وتصير عندهم كاسم علم له تعالى.

بالتحليل نفترض تعليقات سمعها المسلمون من الآخرين حول ذكر القرآن لكلمة "الله" سبحانه، وحول استعمال المسلمين لكلمة "الله" سبحانه في كلامهم العادي، فاتهموهم بقلّة الأدب معه تعالى، وهذا التحليل نبنيه على ما نعرفه من تراث اليهود الذين استبدلوا ذكر اسمه تعالى بصفة الرحمن، وبالإشارة إليه تعالى بـ : يا هو. التي اندمجت لتصير ياهو، و يهوه... وهذا شيء منتشر في كتبهم.

نرجع للآية، فبمناسبة الحديث عن الدعاء عن الإعلان والإشهار أنَّه تعالى إلهك، أيها النبي(ع) أثناء قيامك بنوع من أنواع الدعاء لربك سبحانه أنَّه إلهك عبر حركات وكلمات الصلاة، {وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ}، فلا تتكلم بصوت عالٍ مباشر يسمعه البعيدون عنك أثناء توجّهك إليه تعالى، {وَلَا تُخَافِتْ بِهَا}، فلا تخفض صوتك جدًّا حتى يصير بالكاد مسموعًا، {وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ}، فليكن مقصدك بين الجهر والإخفات، {سَبِيلًا}، مسلكًا، فلا عالٍ ولا منخفض.

نلاحظ أن نبرةَ صوت بين الجهر والإخفات هي التي تتكلّم بها بالصوت العادي مع شخص بقربك، فالأستاذ أمام التلاميذ يجهر بالصوت حتى يسمعه كل من في الغرفة، وتتكلّم بإخفات حتى لا يسمعك إلّا من كان قريبًا منك كثيرًا "كالوشوشة في الأذن"، أمّا ما بين الجهر والإخفات فهو حديثك العادي مع شخص بقربك.

المشهور المنتشر بين عموم المسلمين أنهم يجهرون بصلاة الصبح والعشائين "وصلاة الجمعة" كمن يتحدّث مع جماعة من الناس، ويخفتون صوتهم في صلاة الظهرين حتى لا يكاد يسمعهم من بقربهم، ويعبّرون عن شرط الإخفات أن لا يظهر جوهر الصوت مع القدرة على سماع الذي بقربك له، وكما ترى فالآية هنا لا يبدو منها أنها تقول: صلِّ مرّةً بالجهر ومرّةً بالإخفات. بل دائمًا فليكن صوتك بنفس القوّة بين الجهر والإخفات.

بعض الناس يفكّرون بأنهم إذا كان صوتهم منخفضًا فسبحانه لن يسمعهم ولذلك يصلّون ويدعون بصوت عالٍ، فتنبههم الآية أنَّ هذا غير صحيح، فأصول الدعاء "الإعلان والإشهار" والصلاة من تطبيقاته، تكون بالصوت العادي.

فلندمج آيتنا هنا مع الآية 37 التي مرّت في هذه السورة {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا...}، ومع الآية 18 من سورة لقمان {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}، مع الآية 63 من سورة الفرقان {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا}، مع غيرها من الآيات التي تلفت انتباهنا للتصرف بشكل عادي طبيعي، فنعمل على تطويع سلوكياتنا لتصير طبيعتنا التصرّفَ بشكل عادي، فبعضهم يظن أن المشي بأكتاف معكوفة ورأس ينظر للأرض... هو من أعلى درجات الإيمان! وهذا غير صحيح، والغالبية من عوام المسلمين لا يعيرون اهتمامًا للسلوكيات التي ينبّهنا القرآن منها، فيمشون مرحًا بالفخر والزهو...

بمثل ما تقوله آيتنا هنا عن نبرة الصوت في الصلاة، وما تقوله آيات أخرى عن طريقة المشي والكلام... فمن المفروض أن لا ترى تعقيدًا في دينه تعالى لسلوكيات يجب مراعاتها وكأنها أمور مرهقة بكثرتها ودقّتها، بل ترى فيها توجيهنا نحو التصرف العادي الذي من المفروض أنه الطبيعي، حيث ينبهنا تعالى لنبرة الصوت أن تكون عادية في صلاتنا، وبالتالي أن تكون عادية في بقية طريقة كلامنا مع الناس.

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً{111})
وقل، أيها النبي(ع):
{الْحَمْدُ لِلَّهِ}، الاعتراف له تعالى بأن كلّ ما يفعله سبحانه موصوف بأنَّه حميد جيد، وأبرز ما فعله تعالى من الأمور الحميدة، {الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا}، لا ذكرًا ولا أنثى ولا غيره، فلم يحدّد كائنًا من مخلوقاته على أنَّه ولد له عزّ وجلّ. فمن المحسوم أنَّ ربنا سبحانه لا يلد، فلا يخرج منه نسخة مشابهة له "وتكبر لتصير مثله" كما يحصل معنا نحن البشر، وإضافة لذلك، سبحانه لم يتّخذ من مخلوقاته أولادًا بشكل اعتباري، فكلّهم مخلوقاته وعبيده ولا أحد منهم مميّز بأنَّه ولد بالتبني أو بالاعتبار له سبحانه، وهذا عمل إلهي محمود.

ننتبه جيدًا، ففي التوراة والإنجيل تعبير متسامح به كثيرًا، حيث يوصف المؤمنون بأنَّهم أبناء الله تعالى، وقصدوا به الاعتبارية للمكانة العالية للمؤمنين عنده تعالى عن بقية الناس الكافرين والمشركين، على أساس انتسابهم لدينه تعالى لوحدهم والبقية ينتسبون لأديان أخرى. ولا تجد هذا النوع من التعبير في أدبيات المسلمين، وعلى ما يبدو فإن اللغة التي كانوا يستعملونها في تلك الكتب تعطي لكلمة "ابن" معنى عامَّةِ الانتساب بشكل أوضح مما تعطيه نفس الكلمة في أدبيات مستعملي اللغة العربية، فكلمة أب في لغتنا لا تزال تعطي معنى الانتساب، ونسب القرآن ابن الأخ لعمّه بالأبوّة كما في حالة أبناء النبي يعقوب(ع) بن إسحاق(ع) حين نسبهم للنبي إسماعيل(ع) أخي النبي إسحاق(ع) على أنَّه "إسماعيل" من آبائهم.

لو أطلت عليك، فبمراجعة النسخ المختلفة للإنجيل تجد بينها اختلافًا في التعابير المنسوبة للنبي عيسى(ع) عندما أشار لمكانته (ع) من الله تعالى، وإذا ترجمناها إلى العربية تكون الجمل: أبي، سيدي، ربي، مولاي... فبعض الذين ترجموا الإنجيل إلى لغتهم فهموا أنَّ الكلمة الآرامية التي تعطي معنى الابن أو المنتسب، لا يناسب ترجمتها بكلمة "ابن" في لغتهم، ففي لغتهم أو استعمالهم الدارج هذه الكلمة ليست واسعة المعنى لعموم الانتساب بل مخصصة لمن تولّد...
وغالبية علماء المسيحيين الذين اعتقدوا بتميّز النبي عيسى(ع) عن كل بقية المخلوقات، فهم ولحدّ الآن في كتبهم

التخصصية لا يقولون بأنَّ النبي عيسى (ع) ابنٌ فعليٌّ له تعالى مثل بنوَّة الإنسان للإنسان، فلديهم فلسفة لهذا الموضوع تجعل من كلمة ابن تعطي معنى الانتساب المميّز جِدًّا، ولا تعطي معنى الولادة ولا الانشقاق، فهذا النوع من الاعتقاد الساذج عن البنوَّة الحقيقية للنبي عيسى(ع) وكونه ولدًا حقيقيًّا له تعالى دارج بين بعض عوام المسيحيين، وبين بعض المتّصفين بصفة عالم الدين وهم متعصبون ويستجلبون الناس ليكونوا أتباعًا لخطّهم بعصبية المغالاة لشخصياتهم الدينية حتى تصير فائقة على شخصيات الأديان الأخرى...

على كلّ حال، نفى القرآن بشكل باتٍّ قاطعٍ أن يكون أي كائن له صلة به تعالى غير صلة الخالق والمخلوق، الإله والعبد، ولم يسمح القرآن ولا بأي شكل استعمال تعابير متسامح أو مبالغ فيها لتوصيف أي نسبة بينه تعالى وبين أي أحد من مخلوقاته.

ردَّ القرآن على هذا النوع من الأقوال بنقل الخبر الوارد منه تعالى بنفي وجود أي ولد أو كائن منتسب له تعالى ولا بأي شكل إلا انتساب المخلوق إلى الخالق، فهم عبيده، مخلوقاته... ونبّه بالخبر منه تعالى لنا عن الفرق الهائل جِدًّا جِدًّا بين طبيعته تعالى وطبيعة كل أي شيء غيره سبحانه، مع التأكيد دومًا ومنه تعالى بأنَّه سبحانه لوحده في جانب كإله وكل البقية وبدون أي استثناء خلقهم هو سبحانه ولا يختلفون عن بعضهم من هذه الناحية.

{وَلَمْ يَكُن لَّهُ} تعالى {شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ}، فالله تعالى هو الملك الوحيد، ووحده يملك كلّ شيء ووحده يأمر وينهى ويقرّر... من مستوى إلهي على مخلوقاته.

تُفهم هذه الجملة بشكل أبسط عند مقارنتها بما يعتقد به المشركون من وجود كائنات مشاركة له تعالى في الملك، فهذا إله للمطر يأمر بنزول الماء، وذاك إله للحرب يأمر بخسارة هؤلاء... فآلهتهم ملوك من مستوى إلهي ولديهم قرارات تصدر وتتنفّذ في المخلوقات والبيئة... وهذا غير صحيح بتاتًا. ومثله أي كلام عن أي قدّيس أو صِدّيقٍ أو شخصية دينية مرموقة... فالمخلوقات تكون ملوكًا على بعضها ولا يمكن أبدًا أن تكون ملوكًا من مستوى إلهي.

{وَلَمْ يَكُن لَّهُ} تعالى {وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ}، فمن له ولي فهو تابع له، وهذا ذلٌّ، فهذا انقياد للآخر، وسبحانه ليس له وليٌّ، فلا يتبع سبحانه ولا بأي شكل لأي أحد ولا في أي شيء.

{وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا}، فاعتقد وأعلن بأنَّه سبحانه أكبر من كل شيء بكل ما يحمله معنى كلمة أكبر، فالبقية أصغر في كلّ شيء ومن كلّ النواحي مع فارق هائل بينهم وبينه تعالى، فسبحانه أكبر من أن يكون له ولد، أو شريك، أو ولي... أكبر في الصفات والقدرات... أكبر في القرارات والسلطة...

عطفًا على أول السورة فهذه صفات من يعرض عليك أن تتوكّل عليه وأن لا تتخذ من دونه وكيلًا.

سورة الكهف (18) ص 293
محور كلام السورة عن الانبخاع من الكفر بالأحاديث التي يذكرها الدين الإلهي، حيث بين الناس خبر عن قصص أهل الكهف وصاحب الجنتين وذي القرنين وصاحب النبي موسى(ع)، كنموذج عن أحداث لها علاقة بالدين الإلهي، وتعليقات الكفّار كانت ساخرة من هذه القصص ويسخرون من النبي محمد(ع) لأن دينه يتضمّن هذه القصص.

تأتي سورتنا هذه لتثبّت صحّة تلك القصص وتقوّم سردها بدون الإضافات والحذف التي أجراها الناس، ولتشير لسبب حصولها بعيدًا عن كونها قصصًا للتسلية، فهي حصلت لحكمة إلهية ستتبين من رواياتها بطريقة صحيحة...

اعتمدت السورة قصصًا مختلفة ليكون لكل قصّة منها أبعادٌ مختلفة عن الأخرى، فكل واحدة منها تتناول موضوع تدخّله تعالى في شؤوننا من زاوية مختلفة، فيمكن اشتقاق دروس وعبر مختلفة من كلّ قصّة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا{1})

{الْحَمْدُ لِلَّهِ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز "الله" موصوف بأنَّ كل أعماله حميدة جيّدة، {الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ}، وهذا نموذج عن أعماله الحميدة سبحانه حيث أنزل من عنده على عبده محمّد(ع) المفروض منه طاعة ربّه هذا القرآن، وكلّه موصوف بأنَّه كتاب، وما فيه من مواضيع كلّ واحدة من المواضيع كتاب، فكلُّ القرآن كتاب، والسورة كتاب، والفقرة من سورة ما وموضوعها تامّ المعنى هي كتاب. {وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ}، للقرآن، {عِوَجًا}، التواءً فيه عن الاستقامة، وهذا تعبير آخر يوصّف كل ما في القرآن بأنَّه مستقيم. ومن الآية التالية نفهم سبب وصف القرآن بأنَّه لا عوج فيه حتى يكون صالحًا للتبشير والإنذار به، ومن الآيات التالية سنفهم أن ما يذكره القرآن من أمور يكفر بها بعض الناس، فتلك الأمور صحيحة وليس كلامًا "أعوج".

نفهم هذا التعبير الواصف للقرآن كما نقول عن شخص ما أنَّه يتكلم بكلام أعوج، ونقصد أن كلامه ليس مضبوطًا، حيث فيه مبالغة أو تحوير أو إضافات أو إنقاص... فسبحانه يقول الحقّ، ولم يجعل أي شيء يؤثّر على وصول كلامه تعالى إلى عبده فوصل كما هو، فلا من عنده تعالى صدر كلام أعوج، ولا من أي كائن آخر تدخّل فحصل عوج فيما نزل، لا. وعمليًّا الإشارة للعقائد والتشريعات والسلوكيات التي يأمرنا بالإيمان بها وفعلها، واردة في القرآن مستقيمة، وهنا سياق السورة عن قصص منسوبة لدينه تعالى كقصص دينية، لأنها نابعة من أحداث تدخّل فيها تعالى بشكل مباشر ليغيّر في مجرياتها، أو كانت غير عادية لأنها جرت مع أناس منتمين لدينه تعالى وتصرفوا على أساس ما يأمر به تعالى وحصلت معهم أمور غير عادية.

ما ذكره القرآن كلّه حقّ، وبعض ما هو منسوب لدينه تعالى ومتداول بين الناس من أمور غير عادية، ما قاله القرآن عنها هو الصحيح، وها سورتنا هنا تأتي لتذكر قصصًا كانت متداولة "بشكل ما" بين الناس، ولها ارتباط بدينه تعالى، مما استدعى تثبيت صحّة البعض منها وأنها ليست خرافات، واستدعى روايتها بالشكل الصحيح.

خذ مثلًا قصة أصحاب الكهف التي تداولها الناس، وأجروا عليها تعديلات، وهي قصّة غريبة لها علاقة بدينه تعالى، وطبعًا سمعها بعض الكفّار، وطبعًا سيتساءلون إن كان دين محمّد يصادق على هذه القصص الغريبة والأقرب للخرافية منها للواقعية. ومن ناحية ثانية المؤمنون سيتساءلون أيضًا إن كانت واقعية، وما هو الصدق فيها، لأنَّ الأحداث التاريخية عادة يتناقلها الناس مع تحوير وإضافات وحذف، فما الصحيح من تلك القصص وما الأعوج منها؟

هكذا تأتي سورتنا هنا لتختار بعضًا من القصص التي لها علاقة بدينه تعالى والمتداولة بين الناس، وترويها لنا كما جرت، وتعطينا مداليل الهدى فيها كسبب حتى تدخّل سبحانه في مجرياتها لتصير غير عادية، حيث من قصة أصحاب الكهف تلمس دليلًا عمليًّا على إعادة الحياة لنا في الآخرة... وهكذا بقية العبر الأخرى المستخرجة من بقية القصص...

(قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً{2})
جعل سبحانه القرآن، {قَيِّمًا}، يوصف بأنَّه على الأحسن، والوصف هنا لكلامه الصحيح، ففيه أخبار صحيحة، وفيه شريعة صحيحة... فتصوّر لو أنَّه سبحانه وضع في القرآن معلومات غير أكيدة أو محتملة أو لم تحصل في الماضي أو لن تحصل في المستقبل... فذلك سيجعل القرآن غير قيّم.

سترى من تكملة السورة في كلامها عن بعض الحوادث أن قصصها ليست خرافية ولا مبالغًا فيها، وليست للتسلية فهي قيّمة.

الكتاب لا عوج فيه وقيّمٌ: {لِيُنذِرَ}، ليقوم العبد الذي نزل عليه القرآن بنقل الخبر السيئ عن شيء سيحصل في المستقبل لمن توافرت فيه شروط الحصول على العقاب الإلهي، {بَأْسًا شَدِيدًا}، ينذر من التعرّض لشيء غير جيّد ويلحق الضرر بهم بشكل شديد لا يمكن تحمّله أو الاعتياد عليه، وهو العذاب الإلهي في جهنم، {مِّن لَّدُنْهُ}، من عنده سبحانه، فهو سبحانه سيقرر درجة التعذيب وكيفية التعذيب.

من هو في حالة استحقاق للعقاب لأنَّه لم يؤمن فسينقل له الرسول(ع) عبر هذا القرآن الخبر السيئ عن مواجهته للبأس الشديد الذي سيقرّره له سبحانه وتعالى.

{وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ}، فيقوم العبد الذي نزل عليه القرآن بتبشير المؤمنين فينقل لهم الخبر المفرح عن شيء قادم، والمؤمنون الذين ستصلهم البشرى هم، {الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ}، فيقومون بالأعمال الصالحة الجيدة، حيث خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، فعمليًّا هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادةً نفسّر "عملوا الصالحات" على أنَّهم أطاعوه تعالى، ونقول إنَّهم صلّوا وصاموا... وهذا عمليًّا صحيح، ولكن بالأصل الكلام أنَّهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عمومًا وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائمًا أنَّه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به.

هذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعًا ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنَّه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبًّا لشيء فاسد، أو أنَّ ما ظننت أنَّه أمر إلهي "وهو فعلًا سيئ" فسيكون في الحقيقة اختراعًا من البشر لصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمرًا إلهيًّا.

نرجع للآية فالبشرى لهم: {أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا}، فهم آمنوا وعملوا أعمالًا صالحة، والأجار والشيء الذي حدّده تعالى لهم أنَّه يستحقونه على إيمانهم وعملهم سيكون حسنًا جيّدًا.

نلاحظ دائمًا القرآن يقول: الإيمان والعمل الصالح كلاهما معًا يجعلان الشخص يدخل الجنّة، فلا الإيمان لوحده يحميك من العذاب ولا العمل الصالح بلا إيمان ينجيك من العذاب.

تذكّر دائمًا أن العرب حين نزول القرآن لم يستعملوا كلمة "قيّم قيمة..." بالمعنى الصريح الذي نقصده الآن عن تقدير عالٍ أو منخفض للشيء، قيمتي عالية، شيء له قيمة... بل على معنى الذي يوصف بأنَّه أحسن، وهكذا استعملها القرآن، ومن مشتقات هذا المعنى أنَّه لا انحراف فيه، أنَّه جيّد، وما نفهمه بتعبيرنا الحالي: له قيمة عالية، هو اشتقاق تطبيقي من المعنى الأصلي.

ضع في بالك دائمًا أن تعابير القرآن لا تشير إلى فرض واجب عليه تعالى بإدخال المؤمنين إلى الجنّة، بل تنفيه أن يكون فرضًا واجبًا، وبالتعبير الدقيق حيث شاء "قرّر" تعالى إدخال المؤمنين العاملين للصالحات إلى الجنّة، وبتعبير متساهل فيه ودارج ولكنه غير دقيق، حيث أوجب سبحانه ذلك على نفسه وبالأصل فهو ليس واجبًا عليه.

سبحانه لا يستفيد منّا بإيماننا وعملنا الصالح، ولا يتضرّر إن لم نؤمن، فالأجار لنا ليس على شيء له علاقة به تعالى كمنفعة له منّا.

بالأساس نحن لا نستحقّ منه تعالى أي شيء كفرض واجب عليه لأننا آمنا وعملنا الصالحات، فإيماننا هو الاعتقاد بالحقّ وعملنا الصالح هو العمل الصالح، وليس أمرًا لنا بالإيمان بشيء غريب عجيب غير عادي... وليس أمرًا لنا بفعل السوء وما نجبر أنفسنا على قبوله لأننا بالعقلانية والحكمة سنرفضه، لا. ونفهمها بمثال بسيط عنّي أني أطالبك بأجار مالي لأني لم أفعل معك شرًّا، فلم أسرقك ولم أُهِنْكَ... فأنا من المفروض منّي أن أكون هكذا معك، ولم أفعل شيئًا غير عادي معك لأطالبك بأجار عليه.

كلمة "أجار وأجر وأجرة..." لعموم استحقاق أخذ شيء مقابل شيء بسبب تحديد قيمة الاستحقاق سلفًا، ومنه التجارة التي صارت وصفًا لحالة ابتغاء الربح. فبالنسبة لاستعمالنا نحن لها فيما بيننا تتضمّن أنك تعمل لي ويجب عليّ دفع الأجار لك، أمّا بالنسبة له تعالى فمن فضله حدّد أجارًا لمن آمن وعمل الصالحات، فحدّد ما سينالونه على ذلك، وبعد هذا القرار الإلهي يصير وصف الحالة أنهم سينالون ما يستحقونه مما حدّده تعالى، فلهم أجار، أجر... فليس واجبًا عليه تعالى ولا بأي شكل مجازاتهم بالجنّة ولا بأي شيء آخر، ولهذا المعنى جاء التعبير "بغير حساب" في عدة آيات حتى لا نفهم أن لهم حسابًا فرضًا واجبًا عليه تعالى، كما في الآية {لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ

مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}، وترى هذا المعنى بوضوح في وصف دخولهم الجنة من فضله تعالى كما في الآية 35 من سورة فاطر {الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ}...

(مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً{3})

المؤمنون العاملون للصالحات سينالون أجرًا حسنًا: {مَّاكِثِينَ فِيهِ}، باقين في الأجر الذي نالوه وهو دخولهم إلى الجنة، فسيلازمهم الأجر في المكان والزمان، {أَبَدًا}، فلن يتغيّر حالهم ولن يخرجوا منه ولن يموتوا فيه... فمهما جاء من زمن فهم باقون في الجنة كمكان وإلى الأبد من ناحية الزمان.

لاحظ أن المكوث لوحده لا يتضمّن معناه البقاء لمدّة طويلة، ولذلك ولدقّة التعبير أضافت الآية "أبدًا" إلى المكث ليصير مرادفًا للخلود زمنًا في ذلك المكان الذي هو أجرهم.

(وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً{4})

الذي نزل عليه القرآن، {يُنذِرَ}، فيوصل الخبر بوجود خطر أكيد لمن كانت فيه شروط حصول الخطر، وهم، {الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}. فقالوا إنَّه يوجد كائن منسوب له تعالى بالاعتبار، فحدّد تعالى من مخلوقاته كائنًا ما واعتبره ولدًا له، فهؤلاء ذاهبون حتمًا إلى شيء سيئ وهو الخلود في جهنّم.

كما ترى فأبرز وأسوأ شرك به تعالى هو نسبة الولد له عزّ وجلّ، فهذا يمكن أن يتلبّس بلباس دين التوحيد، حيث يقولون إنَّ نسبة الولد له تعالى ليست شركًا به، فهناك إله كبير، وهناك كائن مقرّب منه تعالى، كإله صغير، فأين المشكلة؟

مما نستوحيه من أجواء السورة حيث إنَّها ستنقل قصصًا دينية، ومن الأكيد أن تلك القصص انتشرت بسبب تداولها من المنتمين لدينه تعالى، فإذا صادق عليها القرآن فهذا لا يلغي أهمّ أساس في دينه تعالى وهو التوحيد، فإن كان الناقل لتلك القصص ينسب ولدًا له تعالى، فتثبيت القرآن لصحة القصص لا يعني تثبيت عقيدة الشرك لمن سبق وتداول تلك القصص.

أيضًا تبقى مسألة توحيده تعالى هي القضية الأساسية، فنزول القرآن متأسس عليها في كلامه معنا لنلتزم بدينه تعالى، والقصص التي لها ارتباط بدينه تعالى أيضًا سيكون ارتباطها الديني فيه فرق عن بقية الحوادث التي جرت مع الناس وصارت قصصًا، فالقصص المرتبطة بدينه تعالى تتمحور حول توحيده وطاعته والإيمان بكلامه تعالى. ولذلك افتتحت السورة هنا كلامها عن المسألة الأساسية "التوحيد" قبل الدخول في تناول قصص "دينية" لأخذ العبرة منها...

ضع في بالك دائمًا أن التحذير توجّهه لمن لم تتوافر فيه شروط الوقوع في الخطر بعد، فتحذّره من سلوك الطريق الذي فيه لصوص وقطّاع طرق... وهو لم يسلكه بعد. أمّا الإنذار فتوجّهه لمن هو فعلًا في حالة إن بقي عليها فهو حتمًا سيتواجه مع الخطر، فهو فعلًا يسير على الطريق الذي عليه لصوص وقطّاع طرق. فمن قال إنَّه تعالى له ولد، فهذا فعلًا على شيء سيؤدّي به حتمًا إلى جهنّم، فهذا تنذره، والبقية الذين لم يقولوا ذلك تحذّرهم من أن يقولوا ذلك حتى لا يصيروا في حالة الاستحقاق لدخول جهنّم. وهذا هو الفرق الدقيق بين التحذير والإنذار فضعه في بالك أثناء قراءتك للقرآن لترى نموذجًا رائعًا عن الدقّة العالية لاستعمال القرآن لكلمات اللغة العربية من مستوى الدقّة الإلهية.

بالنسبة للذين يقولون بأنَّه تعالى عنده ولد، فبعضهم يقول بأنَّه تعالى يلد، فشيء منه يصير ولدًا، كما نلد نحن الأولاد، وبعضهم يتفلسف فيقول: له تعالى ولد ولكنه تعالى لا يلد بل حدّد من مخلوقاته مخلوقًا مميّزًا واعتبره ولدًا له. وهذا ما يشير له القرآن بالتعبير باتخاذه تعالى ولدًا. وبعضهم يقول إنَّه تعالى حدّد كائنًا وحلّ سبحانه وتعالى فيه فصار مميزًا كولدٍ له تعالى... ولكل من قال هذا الكلام الفارغ ينقل لهم النبي محمد(ع) الإنذار عبر هذا القرآن، فإن لم يتراجعوا عن هذه الأقوال فهم حتمًا سيتعذبون في الآخرة.

لاحظ الآية تتحدّث بشكل عام عن كل من قال بأنَّه تعالى اتخذ ولدًا، من المشركين الذين قالوا إنَّ الملائكة (ع) بنات له تعالى، وبعض المسيحيين واليهود الذين قالوا بأن له تعالى ولدًا...

مما سيأتي سترى أن أوّل قصّة تنقلها السورة سبب حدوثها هو شرك بعض الناس به تعالى، وعلى ما يبدو بالتحليل أنَّهم مسيحيون يعتبرون النبي عيسى(ع) إلهًا، والقدّيسين أربابًا...

(مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً{5})
{مَّا لَهُم بِهِ}، ليس لديهم به بهذا القول عن الله تعالى، {مِنْ عِلْمٍ}، فهم لا يعلمونه، حيث ليس لديهم دليل على أنَّه تعالى اتخذ ولدًا، {وَلَا لِآبَائِهِمْ}، علم به، فقولهم عنه تعالى أنَّه اتخذ ولدًا هو مجرد كلام فارغ، وقبلهم آباؤهم قالوه هكذا من خيالهم، عن اختراع وكذب، فسبحانه لم يَتَّخِذْ ولدًا من مخلوقاته ولا من نفسه ولا بأي طريقة كانت، ولم يقل إنَّه فعل ذلك، ولا دليل عندهم على حصول ذلك، وها صراحةً يخبرهم سبحانه أنَّ هذا غير صحيح... وإذا قالوا بأنَّهم يتبعون آباءهم معتقدين بأنَّ آباءهم كان لديهم دليل على صحة هذا الكلام، فهذا غير صحيح لأن آباءهم أيضًا عن جهل جعلوا لله تعالى ولدًا.

{كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ}، عندما تكلّموا وقالوا إنَّه تعالى اتّخذ ولدًا، فهذه كلمة كبيرة جدًّا مما يتفوّهون به، أي ما يقولونه من فمهم، فهي كلمة ليست سهلة يمكن التغاضي عنها وتناسيها، {إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا}، فلا صدق في قولهم ولا بأي شكل.

مهما حاولوا فلسفة قولهم وتنميقه وتلميعه... فهو كذب، ولا صحّة له، ولن يمرّره سبحانه بل سيحاسبهم ويجازيهم عليه.

ننتبه جيّدًا، حيث إنَّ الغلو في الشخصيات الدينية لدرجة رفعها كثيرًا عما هي عليه، وجعلها قريبة من الإله سبحانه بالألوهية، هو شيء خطر جدًّا وعليه عقاب، حيث ينجرف الناس في تفكيرهم وكلامهم حتى يبالغوا، ويبالغوا، إلى أن تتراكم المبالغة وتزداد حتى يلامسوا الشرك به تعالى وهم يستسهلونه، وبعدها يصلون إلى الشرك به تعالى فيجعلون له ولدًا وهم لا يشعرون بأنَّهم يشركون! بل مقتنعون أنَّهم مؤمنون مخلصون! فالآية هنا تنذرهم، أنَّ أي نوع من هذا الكلام، ومهما كان منمَّقًا فعليه عقاب شديد.

نلاحظ نوعًا من التحدّي بين عموم ثقافة أهل الديانات لرفع قيمة ومكانة شخصياتهم الدينية لتكون أعلى من الشخصيات الدينية عند الآخرين، فيطلقون ألقابًا عالية على تلك الشخصيات وينسجون الحكايا المبالغ فيها... وأقصى ما يصل إليه المنتمون لدينه تعالى في المبالغة أن يقولوا إنَّ شخصيتهم الدينية هي الله شخصيًّا، وبعد ذلك يفلسفون الأمور بكلام يضحكون به فقط على أنفسهم ولا يخدع أحدًا، فمن لم يشعر بالانتماء العصبي لمجموعتهم، فلن يبلع كلامهم السخيف... كالمرببين للنبي عزير (ع) وللنبي عيسى(ع) وللإمام علي(ع)...

(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً{6})
إليك النص بعد المراجعة اللغوية والنحوية والإملائية الدقيقة، مع تطبيق كافة الشروط المطلوبة، ووضع التعديلات بالخط العريض:

{فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ}، لربما تفترض أنّه من الطبيعيّ شُعورُكَ بوقوعك تحت الأسف لأنهم لم يفعلوا ما تتأمّله منهم بسبب رفضهم لرسالتك، {عَلَىٰ آثَارِهِمْ}، على ما تتركه أفعالهم وأقوالهم، على نتائج ما قاموا به من إنكار لرسالتك، فهذا يترك أثر السيّئات والذنوب لهم، وبالتالي العقاب لهم، {إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا}، إذا لم يعتقدوا، {بِهَذَا الْحَدِيثِ}، بهذا الكلام الذي تقوله ويسمعونه وهو القرآن، {أَسَفًا}، فتشعر بالأسف عليهم وتشعر بفوات شيء جيّد عليهم وهو الإيمان واستبدالهم له بشيء سيّئ وهو الكفر.

لنعد تركيب الجملة بشكل أبسط: إنْ لم يؤمنوا {بِهَذَا الْحَدِيثِ} عن توحيده تعالى ولم يؤمنوا بالعذاب لمن أشرك، {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ} {أَسَفًا} {عَلَىٰ آثَارِهِمْ}! هل تفترض أنّه من الطبيعيّ أن ينتج عن كفرهم شُعورُكَ أنت بالوقوع تحت الشعور السيّئ لأنهم استبدلوا الإيمان بالكفر!

الآية تتوجّه بالاستغراب لحامل الرسالة للنبي محمد(ع)، حيث نحن كبشر نعتبر أنّ الشعور بالانبخاع طبيعيّ بعد تكذيب الناس لنا ورفضهم ما نقوله، وتنبّه الآية النبي(ع) إلى أنّك تعتبر من الطبيعيّ شُعورَكَ بالانزعاج من إنكارهم لرسالتك، وهذا غير صحيح، فلا تنزعج ولا تتضايق ولا تشعر بأنّك مبخوع ولا تتأسّف فكل شيء واضح أمامهم وهم اختاروا ألّا

يؤمنوا، وسترى من الآية التالية أنّه تعالى هو جعل الناس في بيئة الامتحان، فبالتأكيد هناك من سيكذّبك ولا يؤمن بك، فلا داعي للشعور بأنهم بخعوك.

سترى أنّ السورة اختارت قصصاً للحديث عنها، وجرياً على تكذيب الكفّار سابقاً لعموم ما يقوله (ع) المخالف لدينهم، فمن المتوقّع تكذيبهم بقصص دينيّة يسمعون بها، فخذ علماً أيها الرسول أنّه لا سببَ وجيهٌ لتشعر بالانبخاع منهم والأسف عليهم إذا كذّبوك وكفروا بتوحيده تعالى وبعقابه، وإذا كذّبوا القصص الدينيّة التي ستذكر السورة هنا بعضاً منها.

مع أنّ سياق آيتنا يشير بكلمة {الْحَدِيثِ} لما سبق من نفي الولد له تعالى... فهي تشير أيضاً لما سيأتي من قصص عن أهل الكهف وصاحب النبي موسى(ع) وذي القرنين، وفي تراث العرب كلام متداول عن هذه القصص ومنقول من تراث أهل الكتاب، وبمراجعة كتب أهل الكتاب ستجد التلاعب بهذه القصص وتحريفها، وبعد ذلك جاء تلاعب العرب بها لإعادة صياغتها بما رأوه مناسباً لتتماشى مع ذوق المستمع العربي... وترى آثار ذلك في الروايات التي جاءتنا عن الأجيال الأولى من المسلمين حين توسّعوا في هذه القصص، واستقدموا بعض التفاصيل من تراث أهل الكتاب ومن التراث الشعبيّ العربيّ، وأعادوا صياغة القصص من جديد مع لمسة إسلاميّة لتصير جذّابة للمستمع المسلم...

تأتي سورتنا هذه لتتناول بعضاً من القصص التي لها أصل دينيّ ويتداولها الناس، لتصحيح روايتها ودلالتها.

بقي شيء، وكلمة {بَاخِعٌ} وردت مرتين في القرآن، هنا وفي الآية 3 من سورة الشعراء {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}، وفي عموم التفاسير حملوها على معنى قتل النفس قهراً، وهذا ليس المعنى المباشر للكلمة بل من تطبيقاتها، إذ في كلام العرب في بداية الإسلام وفي عموم أشعار العرب بعد الإسلام "لم أجدها فيما لديّ من مصادر في الشعر قبل الإسلام"، فهي تعني: إرادة الرفض مفقودة بأقصى أشكالها وسيحصل شيء بليغ ولا يمكن مقاومته. وتختلف عن القهر بأنّ المقهور لا قدرة له على ردّ ما فُرض عليه مع وجود إرادة رفض، أمّا البخع فلا توجد إرادة رفض. وبهذا المعنى الأساسيّ ينطبق البخع على استعمالات كثيرة من اشتقاقات التطبيق، كبخع الذبيحة الذي يعني وصول سكّين الذبح إلى قفا الرقبة، بخع الناس بالسلطة، بخع النفس بالقتل، بالأسف، بالحزن، بالتماشي مع ما يقوله الآخرون... وصولاً إلى المعنى الدارج للبخع حين لا يتماشى الآخرون مع ما تقوله لهم ويصدّوك... حيث يمشي ما أرادوه ولا يمشي ما أردته لهم، وهذا هو المعنى الذي تقصده الآية هنا.

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً{7})

{إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا}، فسبحانه عن قصد جعل الأشياء التي على الأرض تجعلها جميلة، {لِنَبْلُوَهُمْ}، لنصيبهم بما قد يغيّرهم، {أَيُّهُمْ}، أي واحد فيهم، {أَحْسَنُ عَمَلًا}، ونرى أي واحد من الناس سيكون عمله حَسَناً جَيِّداً، فلا يتعلّق بالزينة لينجرّ بسببها لأفعال سيّئة.

لا داعي لشعورك بالأسف على بخعهم لك، لأنّهم تركوا رسالتك وتعلقوا بالدنيا المُزَيَّنَة، وسبحانه جعل الدنيا مُزَيَّنَةً لتبدو جميلة ليبلونا حتى يرى من سيتعلق بها ويكفر بالحقّ وَيَفْعَلَ السوء، ومن سيؤمن بالحقّ ويلتزم بالصلاح الذي في رسالتك.

تعبير الآية يشبه التعبير بـ: حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة. وهذا المعنى متكرّرٌ كثيراً في القرآن بعبارات مختلفة، منها: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ}... {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}... {رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا}... {مَتَاعُ الدُّنْيَا}...

البلوى وصف عموم الإصابة بشيء من المحتمل أن يُغَيِّرَكَ، من مرض أو كارثة أو عدو... سأبْلِيكَ: سأصيبك بما قد يُغَيِّرُكَ.

الفتنة هي عموم التأثّر وتغيّر الحال "معنويّاً أو ماديّاً" بعد التعرّض لشيء ما، وتتدرج من أعجبه وتعلق به وتغيّر بسببه، إلى أجبروه عليه وتماشى معه وتغيّر بسببه، أو تعرّض للشيء ولم يتغيّر، حيث افتتن ولم يتغيّر.

(وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً{8})

{وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا}، على الأرض، {صَعِيدًا}، حيث يرجع للحالة الطبيعيّة للأرض ولا يبقى عليها أي شيء مشغول كبناء أو منشأة... {جُرُزًا}، ولا يبقى عليها أي نبات. استعمل القرآن كلمة جُرُزٍ مرتين هنا وفي الآية 27 من سورة السجدة، {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ...}، وهناك كان من الواضح دلالتها على خلو الأرض من النبات.

المخطط الأساسيّ أن نخلقهم هنا على الأرض في بيئة مُزَيَّنَةٍ حتى نمتحنهم، وبعد ذلك لن تبقى هذه الزينة التي تعلقوا بها وستزول.

طبعاً ستكمل مما تعرفه من القرآن ماذا سيحصل بعد تبدّل الأرض، وتعلم أنّه يأتي يوم القيامة والحساب والجنة والنار... ولكن الآيات لم تكمل الحديث، لأنها أرادت التركيز على سبب رئيسيّ لمن أنكر رسالتك وجعل لله تعالى ولداً، فهو تعلّق بالدنيا المُزَيَّنَةِ، والآية هنا تلفت انتباههم إلى أنّها ستزول.

(أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً{9})
تبدأ السورة بأوّل قصّة ستذكرها لنرى أنّ توحيده تعالى هو المسبّب الرئيسيّ لحصول أحداثها، وستعرض جانب تدخّله تعالى بالأحداث، وبعدها العبرة من تدخّله تعالى حيث ستكون قصّتهم دليلاً على أنّ التوحيد حقّ، إذ تدخّل ربّ مجموعة من الموحدين وجعلهم آية... وجعلهم دليلاً على بعثه تعالى لنا في الآخرة:

{أَمْ حَسِبْتَ}، فهل خطر في بالك من دون تفكير بالموضوع أو بدون الاعتماد على مصدر... {أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ}، الذين مع بعض متواجدين في فجوة جبليّة، {وَالرَّقِيمِ}، وهم أيضاً موصوفون بأنهم أصحاب الرقيم، فهم مع بعض في العلامة المدموغة، الكتابة، أي اجتمعت أسماؤهم على شيء مرقوم أي مكتوب، فهل خطر في بالك أنهم {كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا}، من الأمور المميّزة المنسوبة له تعالى، {عَجَبًا}، فكان تقييمك لقصّتهم أنّها مخالفة للتوقعات وتدعو للاستغراب! فها نخبرك أنّ ما حسبته عنهم كان صحيحاً تماماً.

يبدو واضحاً أنّه قبل نزول هذه السورة وصل خبر للنبي محمد(ع) من بعض الناس عن قصّة أصحاب الكهف المنتمين لدينه تعالى، وأنّهم ناموا لمدّة طويلة... بسبب توحيدهم وشرك قومهم الذين حاولوا قتلهم... وليس لديه (ع) مصدر يؤكّد صحّة ذلك، فخطر في باله أنّ قصّتهم عجيبة، ولكن لم يكن حصل على تأكيد بصحّة القصّة، فتقول الآية للنبي محمّد(ع) ولنا: خطر في بالك أنّ قصّتهم آية ربّانيّة عجيبة، إن صدقت القصّة، وهي صادقة وها سنخبرك بها...

قصّة أصحاب الكهف كانت معروفة في عهد النبي محمد(ع) على ما يبدو، وربما لم تكن مشهورة بين كل الناس، ولكن البعض يعرفونها، وسترى ذلك واضحاً من اختلاف آراء الناس بعدد الفتية وعدد سنين رقادهم... ومن مراجعة أهم كتب التراث اليهوديّ لم أجد أي إشارة لهذه القصّة عندهم، ولكن المسيحيين لديهم قصّة مشابهة، فعلى ما يبدو أنّ الحادثة وقعت من بعد النبي عيسى(ع).

بناءً على ما حلّلناه للسورة وخصوصاً مقدّمتها، بدا لنا أنّ هذه القصص سأل المشركون عنها النبي محمّد(ع) إن كان يؤمن بها وإن كانت متضمّنة في دينه، فهم يعتبرونها قصصاً شعبيّة خرافيّة...

هكذا بدأت السورة بكلامها عن نفي العوج عمّا يرد في هذا القرآن، وبالتالي إن صادق على قصّة أصحاب الكهف وذكرها، فستكون كما ذكرها بواقعيّتها، وبعدها بدأت السورة بموجز عن التوحيد ونفي الولد له تعالى كمدخل لسبب حصول حادثة نوم الفتية في الكهف، وهنا بدأت الفقرة بالحديث عن أصحاب الكهف لأنّهم مجموعة من الموحدين هربوا من قومهم المشركين... ورقدوا في الكهف... وحدّدتهم بأنّهم أصحاب الرقيم، فعلى ما يبدو أنّ أسماء الأشخاص الذين رقدوا في الكهف مكتوبة على لوح أو على حائط مدخل الكهف أو في داخل الكهف، وكل هذه الأقوال هي احتمالات، والأرجح كما سترى من بقيّة القصّة أنّ أسماءهم كتبها الحاكم أو الملك الذي فرّوا منه، مثلما تتم كتابة أسماء المطلوبين للدولة، وبعد مرور وقت طويل على رقادهم ورجوعهم كان الرقيم "الكتاب الذي عليه أسماؤهم" محفوظاً في سجلات الدولة في منطقتهم.

الآن أنت تعتبر فرارهم له قصّة لأنّهم رجعوا بعد قرابة الثلاثمئة سنة، ولكن الذين كانوا في زمانهم لم يهتموا بعدد سنين غيابهم، حيث اعتبروهم مفقودين، وعادة بعد مرور السنين التي يموت فيها الإنسان العادي، اعتبروهم موتى... يعني لا تتوقّع أن تكون أسماؤهم معلومة بالتفصيل لدى كل الناس بعد مرور ثلاثمئة عام، فأنت نفسك كإنسان عاديّ لا تعلم من كان الحاكم في منطقتك قبل ثلاثمئة عام، ولا تعلم كل المعارك التي مات فيها أجدادك والتي دارت في منطقتك قبل ثلاثمئة عام، ولذلك أشارت الآية إلى الرقيم، فعلى ما يبدو أنّه السجّل المحفوظ في "أرشيف" القصر أو الدولة، والأسماء فيه مكتوبة بالضبط، وسترى من بقيّة الآيات أنّ الفتية عندما عثر عليهم الناس بسبب النقود القديمة التي كانت مع أحدهم، فالدليل الدامغ على هويتهم لا بد أنّه كان الرقيم في السجلات القديمة المنسية والذي فيه أسماؤهم بدقّة.

لاحظتُ أنّ كلمة رقيم معناها في اللغتين السريانيّة والعربيّة: الكتابة بالدمغ بالحبر أو بالنقش.

هناك مشكلة بين الباحثين في تحديد مكان الكهف والتاريخ الذي حصلت فيه الحادثة، فهناك عدّة أماكن منتشرة في البلدان ويقولون بأنّها هي التي وقعت فيها الحادثة! في فلسطين، الأردن، سوريا، تركيا والأندلس... وهذا النوع من الاختلاف في تحديد الأماكن التاريخيّة سببه استخفاف الناس بالدقة "العلمية" عند إبداء آرائهم، فيرون كهفاً في منطقتهم لا يعرفون غيره، "ولا يبحثون عن غيره" وتكون الجغرافيا ضيّقة في عقولهم وهم لا يشعرون، فلا يتصوّرون الكهوف المنتشرة على الأرض، فيحكمون بأنّ هذا الكهف مناسب لأن يكون موقع الحدث لقصة أهل الكهف! فتنتشر هذه المعلومة غير الصحيحة بينهم، وتصير مع مرور الزمن من المسلمات لدى الأجيال التي أتت بعدهم... وهذا الخلط والاشتباه منتشر بكثرة في الكتب القديمة وبين الناس في مختلف الأمور التاريخيّة، ففي كتب "دينية" كثيرة قرأنا أنّ القلعة التي في مدينة بعلبك بناها الجنّ للنبي سليمان(ع)! وحتى العديد من أهل تلك المنطقة "ومنذ عهد قريب" كانوا يقولون هذا الكلام! علماً أنّها قلعة رومانيّة ولا علاقة لها لا من قريب ولا من بعيد بالنبي سليمان(ع) ولكن ضخامتها وانقطاع أهل المنطقة "والزوّار" عن التاريخ المكتوب لتلك القلعة جيلاً بعد جيل، أوصلهم ليقولوا بأنّها من نتاج الجنّ! لأنّهم سمعوا فقط بقصّة الأبنية الضخمة التي بناها الجنّ للنبي سليمان(ع)...

مثلها الآثار المحفورة في الجبال التي بناها العرب الأنباط في وادي البتراء "بترا" في الأردن، ولحد الآن لا يزال اسم تلك المنطقة مدائن صالح! لأنّ سكان المنطقة "والزوّار" علق في ذهنهم أنّ كل بناء منحوت في جبل فهو أثر للمدينة التي بناها قوم النبي صالح(ع)، وهناك الكثير الكثير من هذه النماذج التي اخترعها الناس من دون دليل، وستجد العجب إن نظرت في الكتب عن مكان رسو سفينة النبي نوح(ع)، وليس العجب من المسلمين فقط، بل ممّا قاله اليهود والمسيحيون، فهم سبقونا بنشر المعلومات الزائفة غير الدقيقة، وأكمل المسلمون الطريق بالزيادة على المعلومات الزائفة التي لم تنتج عن تدقيق وبحث علمي حقيقيّ... وللأسف فإنّ عقليّة الاستخفاف هذه منتشرة في كل المجالات، في الطب الشعبي، في قراءة الطالع، في تفسير ظواهر الطبيعة، في تفسير الأحلام، في تفسير الكلمات التي استعملها القرآن، في الحوادث التاريخيّة... ولذلك فعليك برمي كل ما قالوه عن مكان الكهف وتاريخ الحادثة، وتبحث بنفسك من جديد في كل شيء، ميدانياً وفي المكتوبات، ولا أضمن لك الخروج بنتيجة صحيحة لأنّك حتماً ستقع في مشاكل التزييف في الأماكن والتواريخ، وهو تزييف ناتج عن استخفاف وقلّة دراية الناس بأهميّة التدقيق في كلامهم، والحكم عليهم متروك إلى الله تعالى.

ستجد في الكتب قصصاً متنوّعة عن أهل الكهف، عن عمرهم ونسبهم ووظيفتهم وأسمائهم... وملكهم ومدينتهم... وللأسف فكل ما ستجده في الكتب "بحدود اطلاعي على مختلف الكتب التي تناولت الموضوع" فكلامهم مشكوك في صحّته، وستجد في طيّات الآيات بعض الإشارات المساعدة لتحديد تاريخهم وأين كانوا، فلدينا صفات موقع الكهف، وأنّ على بابه مسجد "مبنى يسدّ المدخل"، وأنّ القوم مشركون من المسيحيين "على الأرجح"، وأنّ عملتهم فضيّة، وأنّ المدينة التي كانوا فيها ضخمة جدّاً على مقياس المدن القديمة.

(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً{10})
{إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ}، ذهبوا إلى مكان ليبقوا فيه، والفتية "مفردها فتى وفتاة"، وهي وصف لحالة جودة الجسد وعادة تقال للذين أعمارهم فوق البلوغ وتحت الأربعين، أووا، {إِلَى الْكَهْفِ}، إلى فجوة في جبل، وستعرف من بقيّة الآيات أنّهم هربوا من قومهم المشركين.

{فَقَالُوا}، الفتية: {رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهيّ، {آتِنَا مِن لَّدُنكَ}، أوصل إلينا من عندك أنت لا من غيرك، {رَحْمَةً}، عنايتك بنا لما فيه مصلحتنا، {وَهَيِّئْ لَنَا}، أعدّ لنا وَجهّز لنا، {مِنْ أَمْرِنَا}، من الشيء الذي نحن فيه، {رَشَدًا}، حتى نعلم كيف نفكّر وماذا سنفعل حتى لا نتصرف بشكل سيّئ.

كما يبدو أنّهم هربوا واختبأوا في الكهف، وهم معرّضون لخطر القتل أو التعذيب أو الحبس، ويطلبون الرحمة من ربهم سبحانه حتى ينجيهم من المشركين، ويطلبون أن يرشدهم سبحانه لأنّهم حائرون لا يعلمون ماذا سيفعلون بعد مرحلة الهروب إلى الكهف، فهل يبقون فارين، أم يذهبون لمدينة ثانية... وتلاحظ أنّهم في دعائهم يحدّدون ويطلبون من "الدنه" من عنده شخصيّاً سبحانه، حيث سترى أنّ قومهم أشركوا بالله تعالى وكانوا يطلبون من غيره، والفتية هاربون من قومهم لهذا السبب، لذلك يطلبون المساعدة منه تعالى شخصيّاً لأنّهم لا يؤمنون بآلهة غيره.

تتذكّر دائماً أنّ مختلف الكلام الذي قيل بلغات غير عربيّة أو قيل بالعربيّة، فالقرآن ينقله بالمعنى، ناقلاً لنا جانباً ممّا قصده القائل، ولا يهتم سبحانه بنقل الكلام حرفيّاً، بل يعطينا المعنى الذي قصده القائل. ومن المشهور بين الناس أنّ أصحاب الكهف لم يكونوا من العرب، وإن صحّ هذا فالجملة هنا صياغة منه تعالى بالعربيّة لما قصدوا قوله بلغتهم.

(فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً{11})
{فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ}، فجعلنا حاجزاً مانعاً على آذانهم، فلم يعودوا يتجاوبون مع الأصوات، والمقصود أنّهم ناموا نَوْماً عَمِيقاً، {فِي الْكَهْفِ}، في فجوة من جبل، {سِنِينَ عَدَدًا}، العديد من السنين المحدّدة، فلم نجعلهم ينامون من دون تحديد لزمن قيامهم بل هناك عدد "رقم" من السنين نعلمه وجعلناهم ينامونه.

مثلما نقول: ضرب خيمته. ونقصد بناها، أقامها، فهنا {ضَرَبْنَا} تعني أقمنا، فعلنا "شيئاً" على آذانهم، ومن الواضح أنك تستنتج أنّه شيء منعهم من الاستجابة للأصوات، وهو إمّا شيء يمنع وصول الصوت لوعيهم، وإمّا تعطيل أداة السمع أو تعطيل الوعي... على أي حال فهم لا يتجاوبون مع أي صوت، وبتعبير أبسط: ناموا نَوْماً ثَقِيلاً جِدّاً.

تلاحظ الآيات لم تستعمل كلمة: ناموا. ولا: سبتوا. ولا: ماتوا... بل وصفت حالتهم بالرقاد، فهم غير واعين لما يجري حولهم ولا للزمن الذي يمرّ، وسترى في الآية 18 أنّ حالتهم لمن يراهم تثير الرُّعْبَ، فتحسبهم مستيقظين لأنّهم يتقلبون بينما هم راقدون...

(ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً{12})
{ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ}، أنهضنا أصحاب الكهف، فأرجعناهم من حالة الرقود، {لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ}، فهناك جماعتان من الناس وكل جماعة لها عنوان مختلف عن الجماعة الأخرى، حيث تشترك في عقيدة وتصرفات مختلفة عن الأخرى، ويبدو أنّهم حزب المشركين وحزب الموحّدين، وَأراد سبحانه أن يعلم أيّهما، {أَحْصَىٰ}، فقام بإحصاء بتعداد دقيق من البداية للنهاية، {لِمَا لَبِثُوا}، للذي مرّ على أصحاب الكهف من زمن في حالة رقود، {أَمَدًا}، لمدة لها انتهاء.

هناك حكمة إلهيّة من جعل هؤلاء الفتية رقوداً لمدّة طويلة، وسترى في بقيّة السورة أنّه سبحانه أراد من اختفاء هؤلاء الفتية الموحدين لمدّة طويلة من الزمن أن ينتبه الناس بعد سنوات طويلة أنّ ربّ هؤلاء الموحدين تدخّل، وبالتالي فالتدخل الإلهيّ دليل على أنّهم كانوا على حقّ في توحيدهم، وَأنّه تعالى قادر على بعث الناس في يوم القيامة.

يبدو أنّ هرب الفتية كان حدثاً مميّزاً في مجتمعهم، وصار يوماً تتذكّره الناس جيلاً بعد جيل، وأراد سبحانه أن يقوم الناس بالانتباه لمدّة حصول تلك الحادثة، وبسبب طول المدّة حصل خلاف في عدد سنوات اختفائهم، وفي عددهم وأسمائهم... والآية هنا لا تقصد أنّه تعالى يهمّه إحصاء الناس بدقّة لمدّة لبثهم، فهذا ليس امتحاناً في التاريخ، بل الكلام يشير إلى قصده تعالى أن يكون عند الناس سؤال عن سنوات طوال من اختفاء الفتية، وسيبدو لك من تكملة القصة أنّ حِزباً موحِّداً لله تعالى لم ينسَ مسألة اختفاء الفتية، إذْ اعتبروها ذكرى يجب ألّا تُنْسَى... وتابعوا إحصاء المدّة التي مرّت على اختفاء الفتية، وهي مدّة طويلةٌ جدّاً، وهناك حزب من غير المؤمنين، فهم على عقليّة المطاردين للفتية قديماً، فهم مشركون ويعتبرون الفتية مجرد مجموعة من الضالين... وفيما سيأتي سترى هذه النوعية من الناس بشكل واضح حين

اقترحوا إغلاق باب الكهف من دون أي علامة مميزة عليه حتى لا يكون مَعْلَماً دينيّاً للتوحيد، لأنّهم لا يريدون الترويج للدين الإلهيّ التوحيديّ...

بقي شيء، سبحانه يعلم سلفاً بكل شيء سيحصل في الدنيا والآخرة، ولكنّه علم بالغيب، ولا يصير عِلْماً مُتَحَقِّقاً إلا إذا حصل، فالتعبير بـ "لنعلم" هنا يشير إلى حصول امتحان بمسألة غياب الفتية، ومن بعده يتحقّق علمه تعالى فعليّاً حين يقوم الناس باتخاذ قراراتهم.

نفهمها بشكل أبسط حين تعيش أجواء الحادثة، فقارنها مع شخصيّة مهمّة جِدّاً بالنسبة لك ولمجتمعك، وقامت بعمل مميّز، فمن شدة اهتمامكم تؤرخون لليوم والشهر والسنة، وقد تصنعون نُصُباً تَذْكَاريّاً للحدث، وتجعلونه ذكرى يتم إحياؤها كل سنة، أو تجعلونها مناسبةً وطنيّةً ويوم عطلة... فهنا كلام الآية عن نفس هذه الأجواء، فالفتية كانوا من الموحدين وأعلنوا توحيدهم في دولة يحكمها المشركون، وربما بسببهم انتفض الموحدون وأعلنوا توحيدهم، وربما بعد مدّة تغيّر الحكم وجاء من يسمح للموحدين بإعلان توحيدهم... فعلى أي حال، حَادِثَةُ هرب الفتية كانت حدثاً كبيرَ الأهمية في مجتمعهم، ويعتبرها تعالى حادثة من المفروض أنّ المؤمنين لن ينسوها، وسيحافظون على ذكراها...

انتهت السورة من المقدّمة للقصّة وستدخل في بعض أهمّ التفاصيل:

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى{13})
من بعد بعث الفتية "الفتيان" إلى ما قبل نزول هذه السورة حصل بين الناس اختلاف حول السنين التي رقدوا فيها، وحصل خلاف في عدد الفتية... وحتى يؤكّد القرآن صحّة ارتباط القصة بدينه تعالى سيشير إلى بعض ما اختلف الناس فيه حولهم مع التركيز على الهدف الأساسي لجعله سبحانه لهم يرقدون.

{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ}، نخبرك أيها النبي محمّد(ع) عبر هذا القرآن بتفاصيل أحداث، {نَبَأَهُمْ}، خبرهم الذي ليس منتشراً معروفاً، {بِالْحَقِّ}، لا يوجد في كلامنا أي شيء باطل، وكلّ ما نقوله سيكون صحيحاً:

{إِنَّهُمْ}، الذين رقدوا في الكهف، {فِتْيَةٌ}، فتيان، وهذا وصف لحالة صحّة وقوة الجسد ونطلقه على الذين أعمارهم بين البلوغ إلى ما تحت الأربعين، {آمَنُوا بِرَبِّهِمْ}، صاروا على الاعتقاد بالمسؤول عنهم من المستوى الإلهي، {وَزِدْنَاهُمْ هُدًى}، حيث فوق ما لديهم من إيمان بربّهم سبحانه وهو شيء صحيح، أيضاً وضعناهم على الأشياء الصحيحة الأخرى التي توصلهم لغاية صحيحة، عبر إنارة قلوبهم وبصيرتهم... كما سترى من الآية التالية.

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً{14})
{وَرَبَطْنَا عَلَى}، لم نجعلها تفلت وأمسكنا، {قُلُوبِهِمْ}، أساس فكرهم ونفسيتهم، حيث تعرّضوا لضغوطات وتهديدات حتى يتركوا عقيدة التوحيد ولكن الله تعالى ربط على قلوبهم وشجّعهم وأعطاهم القوّة المعنوية والصبر على ترك أهلهم وأحبائهم... حتى لا يفلتوا عن توحيده تعالى كما سترى من تكملة الآية، {إِذْ قَامُوا}، حين صاروا في حالة تفعيل، في حالة حركة، {فَقَالُوا}:

{رَبُّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، هو المسؤول من مستوى إلهي عن كل ما في دنيا المخلوقات، عن كلّ شيء. {لَنْ نَدْعُوَ}، لن نعلن أو نشهر أو نتوجّه، {مِنْ دُونِهِ}، لغيره، فلن نتركه وندعو غيره، {إِلَهاً}، كائناً نقول عنه إنّه لديه قدرات وصفات فائقة عن صفات وقدرات المخلوقات، ولو قلنا عن غيره تعالى إنّه إله، {لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً}، قلنا شيئاً مبتعداً عن الحقّ، فالإيمان به تعالى بداية صحيحة والشطط هو الابتعاد عن ذلك بالشرك بعد أن كانوا على الشيء الصحيح.

(هَؤُلَاء قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً{15})
{هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا}، الناس الذين لهم كيان الجماعة ونحن من جمعتهم، {اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً}، حيث جعلوا له سبحانه شركاء في الألوهية، ووصفوا غيره تعالى بالقدرات والصفات الفائقة الخاصّة به عزّ وجلّ، ولاحظ أنَّ القرآن دائما يعبّر عن المشركين الذين جعلوا مع الله تعالى آلهة أخرى بأنّهم تركوه واتخذوا غيره آلهة، فلو لمرة واحدة توجهوا بعمل

عبادي أو دعاء أو طلب من غيره سبحانه، فتركوه تعالى ولو لمرة واحدة، وهذا كاف حتى يقول سبحانه إنَّ المشركين تركوه وقالوا عن غيره إنَّه إله، فهناك مشركون يعتقدون بالله تعالى إلها ولكن أحيانا كثيرة أو قليلة يقومون بالتوجّه نحو غيره بالطلب والدعاء والنذور والصلاة...

{لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم}، على تلك التي زعموا أنَّها آلهة، {بِسُلْطَانٍ}، بشيء قوي، بشيء يغلب توحيدنا، بدليل قوي، {بَيِّنٍ}، واضح، يثبت بأنَّها آلهة. فكل الأدلة المتوفرّة تدل على إله واحد، وهؤلاء يقولون بتعدد الآلهة، ولكن من دون دليل، فلو كان لديهم دليل قوي واضح لصدّقناهم.

{فَمَنْ أَظْلَمُ}، مَن هو أكثر ابتعادا عن الحق والعدل والإنصاف، {مِمَّنِ}، من الذي، {افْتَرَى}، لَفَّقَ، {عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}، واخترع أشياء كاذبة عن الله تعالى حين قال بأنَّه تعالى لديه شركاء في الألوهية وهو يعلم أنَّه كاذب ويعلم بأنَّه تعالى ليس لديه شركاء ويعلم بأنَّه تعالى لم يقل بأنَّ له شركاء، فمن أكثر من هذا ابتعادا عن الإنصاف؟ هذا ليس معه حقّ فيما فعله، وفعل شيئا عظيما.

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً{16})
بعد إعلان الفتية لتوحيدهم لله تعالى، اختصرت الآيات ما جرى من تفاصيل ويمكنك بسهولة استنتاج ما جرى من بقية الآيات، حيث هربوا إلى الكهف خوفا من قومهم، وبعدما قاموا من الرقود خافوا من الوقوع في أيدي قومهم، فهم لا يدرون بمرور مئات السنين...

{وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ}، إذا ابتعدتم منفصلين أيها الفتية عن القوم المشركين، واعتزلتم، {مَا يَعْبُدُونَ}، وكنتم منفصلين عن الآلهة التي يعبدها قومكم، والتي يعتبر قومكم أنَّهم عبيد مفروض عليهم الطاعة لتلك الآلهة، {إِلَّا اللَّهَ}، فبقيتم فقط على عبادة الله تعالى من بين كل الآلهة التي يعبدها قومكم.

{فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ}، فليكن التجويف في الجبل مكانا لتبقوا فيه، ويبدو من هذه الآية أنَّ اختباءهم في الكهف كان بتوجيه إلهي عبر إيحاء فكرة الاختباء في الكهف في بال أحدهم على الأقل، فهذه الآية تتكلم من منظوره سبحانه لحالتهم، وبعد الاختباء في الكهف، {يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ}، فهناك عناية إلهية لما فيه مصلحتكم وسيتم نشرها، توزيعها، بشكل واضح فتظهر عليكم، لأنَّ المشركين لن يجدوكم ليعذّبوكم أو يقتلوكم أو يردّوكم إلى الشرك... {وَيُهَيِّئْ لَكُم}، يجهّز ويعدّ سبحانه لكم، {مِّنْ أَمْرِكُم}، من موضوع الفرار، {مِّرْفَقًا}، موضعا مكانا مريحا، فسيؤمّن سبحانه لكم حتما مكانا تكونوا فيه مرتاحين من المشركين حيث لا يعارضكم أحد في إيمانكم...

قديما بعد نزول القرآن وتطوّر حياة الناس استعمل العرب كلمة "مرفق" لأماكن الاستراحة الملحقة بالأماكن الأساسية، كالحمّامات والمغاسل... وبعد ذلك صرنا نقصد بها عموم الأماكن التي فيها تسهيلات كالمطار للسفر، والميناء ومحطات الكهرباء... وكما ترى فهذا مثال عن تغيّر استعمال الكلمات مع بقاء رابط مع أصل المعنى.

هنا ترى أنَّ حكّام قومهم كانوا مشركين، وترى أنَّ التوحيد مكبوت مضطهد، والفتية جهروا بالتوحيد، وأعود وأكرّر لك أنَّ المؤشرات من الكتب التاريخية النقلية عن المحدّثين، وشيئا ما من كلام الآيات يوحي بأنَّ الحادثة جرت في مجتمع من المسيحيين العابدين للنبي عيسى(ع) وربما للقديسين أيضا...

من خارج تفسير القرآن ألفت انتباهك لما هو مشهور عن الفيلسوف اليوناني سقراط، حيث حكم عليه قومه بالموت بإجباره على شرب السمّ لأنَّه لم يعترف بآلهتهم وَوَحَّدَهُ تعالى، وقومه لم يكونوا مسيحيين. أقول لك هذا ليبقى احتمال مكان وزمان حادثة أصحاب الكهف مفتوحا، مع الترجيح لكون القوم مسيحيين.

(وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً{17})
{وَتَرَى}، ويصير لديك صورة محدّدة عن، {الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت}، إذا ظهرت من وراء الأفق من جهة الشرق بعدما كانت مستورة، {تَّزَاوَرُ}، وهذه الكلمة لم ترد إلا هنا في القرآن، حيث يصل شعاعها بشكل غير مباشر، {عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ}، من ناحية اليمين، {وَإِذَا غَرَبَت}، نزلت الشمس تحت الأفق واستترت، {تَّقْرِضُهُمْ}، وهذه الكلمة أيضاً لم

ترد إلا هنا في القرآن، تطالهم بآخر ما تطاله، بأطراف أشعتها وليس مباشرة، {ذَاتَ الشِّمَالِ}، من جهة الشمال، {وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ}، فالكهف فيه عمق وهم في مكان داخلي من الكهف، يعني لا تصل الشمس إليهم ولا في أي وقت من اليوم ولا في أي فصل من السنة.

فتحة الكهف ليست مواجهة للشرق ولا للغرب، وإذا وقفت على باب الكهف وجعلت موضع شروق الشمس على جهة يدك اليمين، وموضع الغروب على جهة يدك الشمال، ولم يضرب شعاع الشمس وجهك مباشرة، لا في الشروق ولا ظهراً ولا في الغروب، فالكهف في القسم الشمالي من الكرة الأرضيّة ومدخله باتجاه جهة الشمال، والشمس تسير من شروقها إلى غروبها للجهة الخلفية لمدخل الكهف، فلا تدخل أشعة الشمس إلى داخل الكهف ولا في أي وقت من السنة.

{ذَلِكَ}، الذي حصل مع الفتية من عناية بالرحمة وإرشادهم إلى هذا الكهف، ورقودهم فيه لمدة طويلة، {مِنْ آيَاتِ اللَّهِ}، من الأمور المميزة المنسوبة له تعالى، فنحن في عصرنا تمكّنا من تجميد الخلايا وإنعاشها بعد مدةٍ، ووجدنا خلايا وبكتيريا وفيروسات مجمّدة في الطبيعة وتعود إلى النشاط بعد تغيّر ظروف بيئتها... وسبحانه جعل أصحاب الكهف يرقدون لثلاثمئة سنة وبعدها يقومون من رقادهم، وهذا يدلّ بوضوح أنَّه تدخّل إلهي مميّز وليس صدفة ولا حدثاً عادياً، لأنَّه لم يحصل من قبل "ولا من بعد لحدّ الآن".

{مَن يَهْدِ اللَّهُ}، من يضعه تعالى على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة، {فَهُوَ الْمُهْتَدِ}، فهو سيكون فعلاً على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة، {وَمَن يُضْلِلْ}، لا يضعه سبحانه على الأشياء الصحيحة التي توصل للنتيجة الصحيحة، {فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا}، لن تجد من يعتبره تابعاً له يَلي أموره ويَدُلُّه على التفكير والتصرّف الصحيح.

بعبارة أخرى، هؤلاء الفتية آمنوا فقط بالله تعالى إلهاً، وحصلوا على التوجيه الإلهي، وكان تعالى وليّهم وأرشدهم ليذهبوا إلى الكهف، وأمّا من اعتقد بغير الله تعالى إلهاً فلن ينال أي مساعدة من تلك الآلهة لترشده إلى الطريق الصحيح، لأنَّه لا إله إلا الله تعالى.

بقي شيء، يبدو من الآية أنَّه تعالى يعطينا علامة فارقة للكهف الذي رقدوا فيه، وهذه علامة ليست محصورة بكهفهم وحتماً هناك العديد من الكهوف التي تنطبق عليها هذه الصفة، ولكن الكهوف التي قيل عنها تاريخياً أنَّها لأصحاب الكهف يمكن مقارنة صفاتها على ما تقوله الآية.

(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً{18})

{وَتَحْسَبُهُمْ}، ويخطر في بالك من دون تفكير وبمجرد رؤيتهم أنَّهم، {أَيْقَاظًا}، يَقِظُونَ واعون غير نائمين، حيث من يراهم للوهلة الأولى لا يعتقد أنَّهم نيام، وربما أعينهم كانت مفتوحة، أو يقومون بحركات يقوم بها المستيقظ... ولكنهم في الحقيقة، {رُقُودٌ}، بلا حركة، فهم في حالة تشبه السبات كنوم عميق، {وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ}، حيث مرّة يدور جسدهم إلى جهة يدهم الشمال، ومرّة أخرى يدور إلى جهة يدهم اليمين، وهكذا يتكرر تَقَلُّبُهُمْ وكأنهم يقومون به بحركة إراديّة لأنك تحسبهم مستيقظين.

نلاحظ أنَّ الغالبية الساحقة من المفسرين علّلوا هذا التَّقَلُّبَ بأنه ضروري لحفظ أجسام الفتية من البلى بسبب طول تماسّها مع الأرض، حيث قالوا إنَّ الآية تشير إلى حركة أجساد الفتية حتى لا تتحلّل أجسادهم وثيابهم من رطوبة وبكتيريا الأرض، ولكن الآية حَدَّدَتْ أنَّ الكلب لم يكن يتحرّك مع أنه مثل الفتية معرّض للرطوبة والبكتيريا! وهكذا نخمّن أنَّ تقليبهم هو حركة لا إرادية منهم، مثلما نحن نتقلّب أثناء نومنا من دون وعي منّا، ونسبة التقليب إلى الله تعالى مثل نسبة إنزال المطر وتحريك الرياح وجري السفن وخروج النبات... لأنَّها بالأساس كلها ترجع إليه تعالى لأنه صمّمها على هذا الشكل.

انتبه دائما أنَّ القرآن لم يعبّر عن حالتهم لا بالنوم ولا بالسبات، بل قال: {رُقُودٌ}. ويبدو من التعبير عنهم بأنَّهم {رُقُودٌ}، أنَّهم على الأرض مُسْتَلْقُونَ بلا حركة ولكن ليس على هيئة النائم، فلنقل كالمستلقي، أو المتكئ، وهم فاقدون للوعي بما يجري حولهم لا يستجيبون للأصوات ولا لما يجري حولهم، ولذلك سيخطر في بالك حين تراهم بأنَّهم مستيقظون.

{وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ}، وكان مع الفتية كلب رقد معهم أيضاً في الكهف، مُسْتَلْقٍ على بطنه ويدَاهُ ممدودتان إلى الأمام، وهو بالوصيد بالممر، فإذا دخلت إلى الكهف سيكون الكلب في طريقك قبل الوصول إلى الفتية.

{لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ}، أنت الآن لم ترهم لأن الحادثة قديمة جدا، ولو رأيتهم في حينها وهم في تلك الحالة، {لَوَلَّيْتَ}، لوجّهت حركتك، {مِنْهُمْ}، من أصحاب الكهف، {فِرَارًا}، ابتعادا عن القرب منهم بسبب خوفك مما رأيت، {وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا}، وصار لديك أقصى درجات الشعور بالخطر الشديد جدا.

يعني مثلما نرى في أفلام الرعب طفلاً يقوم بإدارة رأسه دورة كاملة حول جسده، فهذا منظر لا يستوعبه عقلك، وتشعر بخطر لا وجود له في الحقيقة لأن الطفل بحجمه الصغير لن يتمكّن من أذيّتك، ولكن تشعر بضرورة الابتعاد عن هذا المنظر، وهكذا هنا الحال عند رؤية أشخاص "احتملنا أن" أعينهم مفتوحة يتقلّبون كأنهم مستيقظون ولكنهم لا يَسْتَجِيبُونَ لأي صوت مهما كان قوياً!

قيل إنَّ الرعب منهم سببه طول أظافرهم وشعرهم، وهذا لا يتماشى أبداً مع ظاهر الآية التالية التي يبدو فيها أنهم قاموا مثلما رقدوا ولم يلحظوا أي تغيّر في هيئة بعضهم البعض.

(وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً{19})

{وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ}، أنهضناهم من همود، أقمناهم من الرقود، ليتساءلوا ليطرحوا الأسئلة على بعضهم، فيعبّروا لبعضهم البعض عن إرادتهم لجواب عن مدّة مكوثهم.

لاحظ أن تصريف "التساؤل" من "سأل" ورد في القرآن للتعبير عن توجيه العديد من الأسئلة، وليس حصرا لمعنى الاستفهام، فالاستفهام في أصل اللغة العربية لا يتحدّد من تصريف الكلمة بل من سياق الكلام، وهنا تريدنا الآية أن نفهم أنَّه لا واحد منهم كان لديه علم بما جرى فالجميع لديهم نفس السؤال التالي، والجواب تخميني.

{قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ}، سائلاً: {كَمْ لَبِثْتُمْ}؟ كم مرّ عليكم من زمن في حالة "النوم" هنا في الكهف؟ فهم لا يعلمون أنَّهم كانوا رقوداً ويظنون أنَّهم ناموا كما ينام أي إنسان عادي.

{قَالُوا}، الفتية الآخرون: {لَبِثْنَا}، مرّ علينا زمن مقداره ونحن نيام، {يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ}. يعني هم ناموا في فترة من اليوم، واستيقظوا في فترة أخرى من اليوم وليست بعيدة عن الفترة الأولى، فلنقل ناموا صباحاً واستيقظوا بعد عدّة سنوات عند الظهر، وشعورهم بالنوم العميق يدل أنَّهم ناموا أكثر من يوم كامل، ولكن بسبب فقدانهم للوعي أثناء الرقاد لم يعلموا بمرور السنين، فهناك احتمال أنَّهم "ناموا" فقط من الصباح حتى الظهيرة، أو ناموا من الصباح حتى الظهيرة من اليوم التالي، فالجواب صدر منهم على التخمين بحسب ما يتوقعونه، وطبعاً لم يخطر ببالهم أنَّهم ناموا لمئات السنين.

ننتبه، تكرر في القرآن هذا الكلام صراحةً وتلميحاً، فمن يفقد وعيه بالنوم أو بالموت... لن يشعر بمرور الزمن ولو لمليارات السنين، وكلام أصحاب الكهف هنا يشابه كلامنا حينما سنرجع نحن إلى الحياة في يوم القيامة من الموت، فلن نشعر بمرور السنين، وسنحتمل أنَّنا نمنا لمدة يوم أو على الأكثر ليومين أو نشطح بالتقدير ونقول عشرة.

{قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ}، المسؤول عنكم من مستوى إلهي أعلم منكم بالزمن الذي مرّ عليكم وأنتم نيام، فربما هناك أمور رأوها من حولهم وتدل على تغيرات تحتاج لأكثر من يوم لتحدث، فلنقل مثلاً أنَّهم وجدوا الكثير من بيوت العنكبوت حولهم أو عليهم... ولكن أبداً لم يخطر ببالهم نومهم لأكثر مما يحصل عادة مع الناس، فالمرهق التعبان ينام نوماً كاملاً، وهذا أكثر ما خطر ببالهم...

على كل حال، {فَابْعَثُوا بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ}، بما لديكم من ورق "بكسرة على حرف الراء"، لغوياً الوَرِقُ هو الاسم العربي القديم للفضة، ويبدو أنَّ الإشارة هنا إلى العملة المصنوعة من الفضّة، فليذهب أحدنا إلى المدينة ويأخذ معه المال، {فَلْيَنظُرْ}، بعد وصوله إلى المدينة فليوجّه اهتمامه العام، {أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا}، أي أكل له طعم في المدينة هو أزكى فهو لائق، خالٍ من الخبث والفساد، أصلح شيء للأكل لنا، فأهل المدينة فيهم مشركون ولا نريد شراء طعام حرام، حيث إنَّ المشرك لا يذكر اسمه تعالى على الذبيحة، أو يذكر اسم آلهته الوهمية عند ذبح الحيوان، أو يذبح حيواناً

حراماً أكله كالخنزير... {فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ}، مَن سيذهب إلى السوق فليرجع بشيء نحصل عليه لنأكله، ويختاره ليكون، {أَزْكَى طَعَامًا}، شيء له طعم ويكون موصوفاً بأنه زاكٍ، ويكون لائقاً بالمؤمنين أن يأكلوه، ولا يكن من الخبائث كالحشرات والزواحف... {وَلْيَتَلَطَّفْ}، لتكن حركته لطيفة خفيفة، ولا يأخذ ويعطي مع الباعة عند بحثه عن الطعام الزاكي، ولْيَنْتَقِ الأغراض من دون لفت أي انتباه، {وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا}، ولا يجعل أهل المدينة ينتبهون أنَّه من الفتية الذين فرّوا.

الفتية لحدّ الآن لم يعلموا أنَّهم رقدوا لسنوات طوال، ولا يعلمون أنَّ أجيالاً مرّت على المدينة، بل يعتقدون أنَّ المشركين ما زالوا يلاحقونهم، لذلك ينبّهون الذاهب منهم إلى السوق ليشتري الطعام أن يتجنّب ملاقاة الناس الذين يعرفونه، حتى لا يقبض المشركون عليهم...

نلاحظ الآية تلفت انتباهنا للنقود التي أخذها أحدهم ليشتري الطعام، ونحن نعلم أنَّه قديماً كانت العملة المعدنية هي الدارجة بين الناس، من الفضّة أو النحاس أو الذهب... وكانت تلك المسكوكات تتغيّر كلما تغيّر الملك أو الحاكم، حيث يقوم بجمع المال من الناس، وإذابتها وإعادة سبكها كعملة جديدة عليها نقش صورة وجه أو اسم الملك أو الحاكم الجديد، أو اسم الدولة... وبعد أكثر من ثلاثمئة عام من مكوث الفتية في الكهف، فإنَّ العملة التي معهم ستكشف لمن يراها من الناس في السوق أنَّهم من عصر حاكم أو ملك مختلف...

(إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً{20})
{إِنَّهُمْ}، إنَّ المشركين، {إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ}، إن تعاونوا ليغلبوكم، وهم أكثر منكم عَدَدًا وقوّة، فعندها، {يَرْجُمُوكُمْ}، فَيَرْمُونَكُمْ من بعيد، وعادة هذا الوصف يشير إلى الرمي بالحجارة حتى تموتوا، وهذه الطريقة من أفظع طرق القتل، {أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ}، فَيَجْعَلُونَكُمْ تَتْرُكُونَ التوحيد وَتَرْجِعُونَ إلى ملّة ثقافة وعقيدة الشرك، وإذا أجبروكم على الشرك، {لَن تُفْلِحُوا}، لن تكون أعمالكم فالحة، لن تكونوا أَجَدْتُمْ فيما عَمِلْتُمْ، {إِذًا أَبَدًا}، فمهما عشتم على حالة الشرك ومهما فعلتم وأنتم مشركون فكله لا يوصف بالفلاح ولا بأي شكل، لِأَنَّ ربّكم سبحانه سيحاسبكم ويجازيكم بالعذاب ولن يسامحكم أَبَدًا.

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً{21})
{وَكَذَلِكَ}... بهذه الطريقة حين ذهب أحدهم إلى المدينة ورأى أنَّها تغيّرت والسكان تغيّروا، وعلم أنَّ من كانوا يلاحقونهم ماتوا وتغيّر الحاكم... وعلم بمرور زمن طويل جداً على مكوثهم في الكهف، فأخبر الناس بحالته ومن هو... وقصتهم "على ما يبدو" كانت لا تزال في ذاكرة أهل المدينة...

{أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ}، جعلنا الناس يعثرون عليهم فَيَجِدُونَهُمْ بعدما كانوا يسألون عنهم وعن مكان اختفائهم في أول مدة، ثم صاروا من الذكرى... فلو فكّر الفتية في الخروج من الكهف والهرب إلى مكان بعيد عن مدينتهم ولا يعرفهم فيه أحد... فقصّتهم ستنتهي من دون أن يعلم أحد بأنَّهم لبثوا سنين طويلة في الكهف، ولكن الله تعالى خطّط لهم أن ينكشف أمرهم في المدينة التي يسكنها أهلهم وأولادهم وأقاربهم وأولاد أولادهم... وكلمة {أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ} فيها إشارة أنَّ الناس كانوا لا يزال في بالهم البحث عن مصير الفتية الذين اختفوا...

السبب في جعله سبحانه ينكشفون أمام الناس بعد تلك الفترة الطويلة، {لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ}، فإذا قال سبحانه بأنَّه سيفعل شيئاً ما فإنَّه سبحانه حتما سيفعله، ومن تكملة الجملة تفهم أنَّ الكلام عن وعده تعالى لنا بالرجوع إلى الحياة بعد الموت.

{وَأَنَّ السَّاعَةَ}، الفترة القصيرة، والكلام عن الفترة التي سنعود فيها إلى الحياة في يوم القيامة من الموت، {لَا رَيْبَ فِيهَا}، فلا يوجد حتى احتمال ضعيف في أنَّها لن تحصل، فحتما وبالتأكيد سيأتي الزمن الذي نرجع فيه إلى الحياة.

كما ترى فمشهور بين الناس أنَّ الفتية هربوا إلى الكهف لأنَّهم موحدون والحكومة في قومهم مشركون يريدون قتلهم، ورقادهم لقرابة الثلاثمئة عام حدث غير عادي، وبالتالي فمن الواضح تدخّله تعالى لجعلهم يرقدون، وبالتالي فمن الواضح قدرته تعالى على إعادة إحياء الموتى في الآخرة.

كما ترى فما تقوله الآية هنا يريك أنَّ المشركين كان عندهم مشكلة عقائدية مع البعث في الآخرة، فلو صدق ما يقولونه عن أنَّهم مسيحيون مشركون بتربيب النبي عيسى(ع) أو القديسين... فنحن أمام نوع جديد من المسيحية المنكرة للبعث، ولكن لو كان الكلام عن مشركين لا ينتمون لدينه تعالى، لكان سياق الكلام هنا أوضح انطباقا عليهم، فعادة ينكر البعث غير المنتمين لدينه تعالى، وبتحليلي أجد صعوبة في قبول كونهم مسيحيين مشركين بعبادة النبي عيسى(ع) والقديسين وفي نفس الوقت منكرين للبعث، وبخاصة أنَّ السورة لم تشر لا من قريب ولا من بعيد لذلك، واستقرب فكرة مشركين ليسوا منتمين لدينه تعالى، والآخرون موحدون سواء أكانوا منتمين لدينه تعالى فقد يكونون من الموحدين المسيحيين مع أنَّ كل كلام السورة لم يشر لذلك، وقد يكونون فقط موحدين من دون أي تواصل مع كتاب منه تعالى أو مع نبي، وهذه الحالة ليست غريبة على التاريخ فلدينا حالة إعدام الفيلسوف سقراط لأنَّه موحّد، ولدينا تلامذته ومنهم أفلاطون وتلامذته ومنهم أرسطو وتلامذته... فهؤلاء أضربهم لك كمثال لأنَّهم كانوا موحدين وكانوا قبل النبي عيسى(ع) ولا يبدو من كتبهم أي أثر لأي تواصل منهم مع كتاب إلهي أو نبي، فربما حالة أصحاب الكهف مشابهة.

نرجع للآية... {إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ}، حيث عثر أهل المدينة على الفتية، وعلموا أنَّهم لبثوا سنين طويلة في الكهف، وعلى ما يبدو عاد الفتية إلى الكهف، ويبدو أنَّهم رقدوا من جديد، ويبدو أنَّ الناس حاولوا إيقاظهم ولم يستجيبوا... أو انتظر الناس استيقاظهم لعدّة أيام... ولم يستيقظوا... فعندها تنازع الناس فصار لهم آراء متعددة في أمرهم، في موضوع الفتية الراقدين، {فَقَالُوا}، قسم من الناس: {ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا}، أغلقوا مدخل الكهف ببناء حائط يغلقه، أو بناء عادي، {رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ}، فنحن محتارون لا ندري ماذا نفعل الآن، ونحن نخمّن أنَّهم قالوا الاحتمالات التالية: فهل سيعودون من رقادهم قريبا أم سيبقون هكذا؟ وإذا تركنا باب الكهف مفتوحا قد تأكلهم الحيوانات المفترسة، أو أثناء رقودهم قد يفعل بهم أحد ما شيئاً... فالأفضل إحكام إغلاق المكان فالمسؤول عنهم من مستوى إلهي الذي جعلهم يرقدون طوال المدّة السابقة فهو سبحانه يعلم ماذا سيفعل بهم، ومن تكملة الكلام تعلم أنَّ هذا القسم من الناس يريد إنهاء الموضوع هنا، فهذا حجمه ولا يريدون انتشار خبرية رقاد هؤلاء الفتية في الكهف لمدة طويلة، فهم لم يؤمنوا بالمغزى مما حصل وأنَّه دليل على البعث من الموت... فلنغلق باب الكهف، ولننسى أمرهم، فربهم أعلم بما سبّب رقادهم لمدة طويلة... يعني وكأن الفتية لم يهربوا من المشركين وكأنها حادثة عادية... فلنغلق الموضوع هنا...

أكرر لك لنتذكّر كلام الآية عن السبب الذي من أجله جعل تعالى مكوث الفتية مدّته طويلة جدا، فجعله تعالى شيئاً يلفت انتباه الناس إلى قدرته تعالى على تحقيق وعده بإحياء الموتى ليحاسبهم، وهناك فريق من الناس أراد طمس هذه الآية بإغلاق باب الكهف ببناء حائط أو بناء عادي يجعل الناس ينسون أمرهم... وهم طبعا لم يقولوا هذا علنا بل برّروا له بتبريرات.

{قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ}، فهذا الأمر الذي يتحدثون فيه وهو القرار بما سيفعلونه بالكهف، كانوا غالبين عليه، فكانت كفّة اتخاذ القرار في الموضوع مائلة لهم، فيمكنهم فعل ما يريدون، وقد قرروا: {لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا}، سوف نجعل مكان الفتية مكانا للتعبير عن الخضوع والاحترام له تعالى، مكانا للعبادة، حتى يكون معلما دينيا يدل على هذه الآية العظيمة.

ننتبه لكلمة مسجد، فنحن الآن ينصرف ذهننا إلى بناء مغلق له قبّة ومئذنة وفيه محراب، ولكن كلمة مسجد أعمّ من ذلك، فهي أي مكان يتم تخصيصه للعبادة والصلاة... سواء أكان باحة أم غرفة أم بناء كبير فيه قبّة ومئذنة، ويبدو من سياق الكلام أنَّ ما قصده هؤلاء الناس هو بناء مكان على شكل أماكن العبادة المتعارف عليها في زمنهم.

بقي شيء ذكرناه في بداية القصة، كيف علم الناس بأنَّ هؤلاء الفتية هم الذين اختفوا منذ ثلاثمئة عام؟ فلنبدأ بالتحليل، فحالة هروبهم لأنَّهم موحدون لله تعالى يبدو واضحا أنَّها علقت في أذهان الناس، فهروبهم يشير إلى حصول تعقيدات أدّت إلى ملاحقتهم من السلطة الحاكمة المشركة، وتغيّر الحال بعد ثلاثمئة سنة ليصير الحاكمون في قومهم موحدين يشير إلى اعتبار الفتية أبطالا دينيين عند الموحدين، فالفتية اختفى أثرهم، فهل صار من بعدهم ثورة باتهام السلطات بقتلهم... أو هم كانوا باختفائهم سببا للصحوة الدينية أم... على كلّ حال، فوصفهم في بداية الفقرة بأصحاب الكهف والرقيم، يشير إلى مستند مرقوم مكتوب عليه أسماؤهم، فهل هو "فرمان" مكتوب صدر من السلطات يأمر القوم بالمساعدة على إيجادهم... أو فيه وعد بجائزة لمن يعثر عليهم... أو هو كتاب محفوظ في سجلات الدولة ومرقوم فيه

حكم بحقّ هؤلاء الفتية ومذكور "مرقوم" فيه أسماؤهم... أم أنَّ الموحدين حين بنوا المسجد على الكهف علّقوا لوحة عليها أسماء المتواجدين داخل الكهف... أم شيء آخر...

للأسف الأخبار المتواجدة في الكتب لا تعطيك أي جواب شاف عن ذلك، فالناس يفعلون العجائب باستهتارهم بعامّة الأمور، فيقتحمون المجهول ولا يسكتون عمّا لا يعلمون، وهكذا يتشوّه التاريخ والدين والتاريخ الديني... وسترى في الآية التالية كلاما عن ذلك:

(سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاء ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً{22})
{سَيَقُولُونَ}، سيقول الناس فيما بعد الابتعاد عن تاريخ الحادثة:

الفتية كانوا، {ثَلَاثَةٌ}، فتية، {رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ}.

{وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ}، فتية، {سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ}.

{رَجْمًا}، رميا للكلام، {بِالْغَيْبِ}، بما غاب عن علمهم، بدون أن يكون لديهم علم بالحقيقة، فهذه المعلومة "غيب" غائبة عن هؤلاء، ولكنهم بدل أن يسكتوا ويقولوا لا نعلم، فإنهم رجموا ورموا كلاما، بالغيب بدون أن يكون معلوما عندهم.

{وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ}، فتية، {وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ}.

ننتبه أن عدد الأشخاص الذين رقدوا في الكهف صار مجهولا مع مرور الزمن، وكما يبدو فإن ما علق في ذهن الناس أن عددهم بالمفرد ورشّحوا الأرقام " 3، 5، 7 "، وبدل أن يسكت الذي لا يعلم كم عددهم بالضبط فإنه رجم بالغيب! وهذه مشكلة منتشرة في كل شيء، من بداية البشرية، وحتى عصرنا، ولا أظنها ستختفي، وطالما هناك كاذبون مستهترون محبّون للشهرة وادعاء العلم والفهم... فستجد معلومات غير دقيقة وغير صحيحة في كل مجالات المعلومات، وإذا راجعت عشرات الروايات الموجودة في الكتب عن فتية الكهف، لانتبهت لانتفاء وجود روايتين متطابقتين! ولرأيت كيف يقوم الناس "وبكل سهولة" بطرح أقوالهم من دون دراسة، ومن دون تدقيق!

نلاحظ الآية نسبت الرجم بالغيب للرأيين الأولين " 3 و 5 "، ولم تقل شيئا عن الرأي الثالث "7"، فيبدو أنهم "7" والكلب ثامنهم. وأمّا من قال بأن الآية ذكرت ثلاثة احتمالات وقفزت عن احتمال " 6 " أشخاص، واحتمل أنهم ستّة، فنسي أن الآية قفزت عن احتمال " 4 " أشخاص أيضا، فلماذا لم يتردد بين الأربعة والستة؟

{قُلْ}، عبر هذا القرآن: {رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم}، فسبحانه أكثر علما من أي أحد آخر بعدد الفتية، وأن الناس ليس لديهم علم حقيقي، فهم لم يكونوا في حينها، ووصلت إليهم المعلومة نقلا عن آخرين أو هم اخترعوها. {مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ}، القليل من الناس فعلا يعلمون عددهم، فهؤلاء نقلا عن مصدر موثوق يعلمون العدد الصحيح، ولكن رأيهم غير مسموع لأن الذين لا يعلمون طرحوا أعدادا انتشرت بين الناس حتى صار الناس يعتبرون كل من يقول عدداً ما فهو مثله مثل البقية مجرد تخمين.

للأسف سأضرب لك مثالا خطيرا جدا عن نفس الحالة والعقلية، ها لدينا روايات قراءات للقرآن، وكأن الكل متساوون! وقيمة قراءاتهم متساوية! مع العلم أن البعض منهم وبصراحة يقول بأن قراءته هي رأيه التصحيحي لكلمة ما لأنها لا تتماشى مع ما يراه هو مناسبا! وبعضهم يغيّر كلمة ما وعلنا يقول بأنه لا يستند إلى أي رواية... وترى لهؤلاء جمهورا يحترم رأيهم! بل ويثبت قراءاتهم ويجعلها صحيحة! وأنها حتما منسوبة للرسول! وبدل رمي قراءات الشواذ قاموا بإثباتها ونسبوها للرسول محمّد(ع) نفسه، وهكذا صار للقرآن وعن لسان الرسول(ع) عدة قراءات! فما رأيك بهذا؟!

{فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ}، فلا تشارك في الكلام حول عددهم ووصلك منه تعالى نفي قاطع للعددين ثلاثة وخمسة، لأن عددهم " 7"، ومعك حق حتما لأن الأعلم أخبرك، والأخذ والردّ مع من يعترض على كلامك "الصحيح الأكيد" هو المماراة، هو الكلام الفارغ التافه أمام حقيقة يقولها تعالى، فلا تدخل في نقاش معهم، {إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا}، لأن الكلام في هذا الموضوع صار مستواه منخفضاً "المماراة"، فإذا اضطررت للكلام عن عدد الفتية، واضطررت للدخول في موضوع

مستواه من المماراة، فادخل فيه وأنت ظاهر، وأنت حاسم في كلامك لأنك مدعوم بدليل إلهي، وتكلم عن ثقة ولا تفتح مجالاً لمناقشتك، {وَلَا تَسْتَفْتِ}، ولا تطلب جوابا، {فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا}، ففي عدد الفتية لا تسأل أي أحد منهم عن رأيه.

لاحظ الحسم في هذا الموضوع، لأنه مجال واسع للجدل، والقليل من الناس لديهم علم أكيد، وأمّا أنت أيها النبي(ع) فوصلك علم من الأعلم، ومن يماريك فشرحنا لك أنه مثله مثل غيره، يرجم بالغيب، فلا تتكلّم معهم في هذا النقاش لأنه مماراة.

لاحظ أن عموم المجتمعات يأتيهم مدّة بعد مدّة شيء يتسلّون به فينشغلون به كلّهم أو غالبيتهم، ومرّة في موضوع الزلازل وخطرها على منطقتهم... ومرّة عن الشتاء واحتمال انقطاع المطر عنهم... ومرّة عن القمح ونفاده من الأفران... ومرّة عن ارتفاع سعر الدولار... هنا عندما نزلت هذه السورة بالكلام عن أهل الكهف فسيحصل بين الناس كلام عن الموضوع، أو قبل نزول السورة صار هذا الموضوع متداولا بين الناس... وكل من لديه معلومة ولو صغيرة عن الموضوع فسيعطي لنفسه أهمية "أبو العرّيف" وسيتحدّث وكأنه خبير تاريخي... وغيره سيشارك ويقول بأنه سمع من أحدهم أن عددهم كذا... وغيره سيخترع رقما مختلفا... ويصير الموضوع للمماراة، لذلك تأتي الآية هنا آمرة للرسول(ع) أن يكون كلامه حاسما، فهم سبعة فتية وثامنهم كلبهم، وانتهى الموضوع.

تلاحظ التعبير بشكل يفصل الكلب عدديا عن الفتية، إذ إن هناك مجتمعات درج فيها اعتبار الكلب كفرد من العائلة، ومجتمعات تعيب ذلك... ومجتمعات تعيب التعبير "ثمانية من ضمنهم كلب" أو "ثمانية مع الكلب"... لذلك فصل سبحانه تعدادهم عن الكلب ليبقى التعبير موقرا لهم على كلّ الاحتمالات.

(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً{23})
أيها القارئ لهذا القرآن: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا}. وَإِذَا أردت أن تفعل شيئا ما في المستقبل، حتى لو كان في المستقبل القريب "غدا" في اليوم التالي أو بعده بقليل، فلا تقل بالحسم والتأكيد أنك ستقوم به.

(إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً{24})
{إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا}

{إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ}، فدائما قل عن شيء ستفعله أنه سيحصل ويتحقق وسأقدر على القيام به... إن شاء الله تعالى، فإن لم يَشَأْ تعالى حصوله، فإنه لن يحصل، لِأَنَّ أمامه تعالى دائما خيارات عديدة لتغيير مجرى الأمور، وما تراه أنت سيحصل ولو كنت أنت ستقوم به، فلا تحسم حصوله وتذكّر أن فوقك من قد يختار مسارا آخر للأمور.

يعني، كما رأيت من قصّة فتية الكهف، توجّهوا بالنيّة والدعاء الصحيح لربّهم تعالى، وَاعتمدوا عليه كليا أن ينزّل عليهم رحمته ويجهّز لهم حلّا لمشكلتهم، ورقدوا على أساس أنهم في ورطة كبيرة والحلّ بيده تعالى، وما حصل بعد ذلك لم يكن يتوقّعه أحد، إذْ كانت مشيئته سبحانه أن يكونوا مثالا عن تدخّله تعالى بقدرة إلهية مما يريك أن بقية الذين يعتبرهم الناس آلهة هُمْ لا يقدرون على فعل شيء كهذا، ويريك قدرته تعالى على إحياء الناس في يوم القيامة، فما كان يبدو للفتية أنه اليوم الثاني على هروبهم، ولا يعلمون كيف سيحلّون هذه المشكلة، تبيّن أنه ليس اليوم الثاني، بل اليوم بعد قرابة الثلاثمئة سنة.

بعد بيان قدرته تعالى على إحيائنا بعد موتنا عبر نموذج رقاد فتية الكهف، يأتينا هنا درس آخر من قصّتهم تذكره الآيات هنا قبل لفت انتباهنا لعدد سنين مكث الفتية في الكهف، دائماً وأبدا فليكن في بالك أَنَّ مشيئته سبحانه قد تختلف عن مشيئتك، فأنت تشاء فعل شيء ما، وربما يشاء سبحانه شيئا آخر، فكونك من التابعين له تعالى، وحتى يكون إيمانك صحيحا، فانتبه أن تتذكّر دائما فوقية مشيئته سبحانه الغالبة على مشيئتك.

{وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ}، حيثُ صرت تعلم أن مشيئته تعالى فوق مشيئتك، فإذا غاب هذا عن بالك، وظننت أَنَّهُ يمكنك حسم حصول شيء ما، وعدت واستحضرت في فكرك أن مشيئته تعالى فوق مشيئتك، فعد من جديد وَامْشِ على هذه المعلومة، وَقُلْ: {عَسَى}، فمن المرجّح المحتمل غير الأكيد، {أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي}، أن يضعني المسؤول عنّي من مستوى

إلهي على الأشياء الصحيحة التي توصلني للغاية الصحيحة، {لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا}، لأقترب من هذا العمل الذي أنوي فعله، {رَشَدًا}، فأفكّر وَأَتَصَرَّفَ بشكل صحيح فلا يكون فيه غي أو ضلال.

أصلاً يجب أن تعتقد أن مشيئتك تحت المشيئة الإلهية، فإن شاء سبحانه حصول ما تنوي تحقيقه فعندها سيحصل، وإن لم يَشَأْ سبحانه فلن تقدر على فعل أي شيء، إِذْ بقدرتك الذاتية لا يمكنك فعل أي شيء لِأَنَّ قدرتك ممنوحة منه تعالى، هذا أولا، وثانيا، عندما تنوي القيام بأي عمل، فاطلب منه سبحانه هدايتك لعمل رشيد، لِأَنَّ العمل الذي تنوي فعله قد تتضرر منه فيما بعد، أو في طريق تحقيقك لما تريد قد تتضرر، فاطلب التوجيه الإلهي لعملك.

لاحظ استعمال كلمة "عسى" في الآية، فليس من المحسوم إن دعوته تعالى أن يرشدك لعمل كلّه من أوّله لآخره لمصلحتك، لأن هذا متعلّق بدرجة إيمانك وبنيّتك الصافية وبعملك الصالح... وبظروف بيئتك... فَادْعُ وأنت تتمنّى أن تكون مواصفاتك مطابقة للشروط الإلهية التي تجعلك تحصل حتما على التدخل الإلهي لإرشادك في عملك ولا يحصل لك ضرر.

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً{25})
{وَلَبِثُوا فِي}، مرّ على الفتية زمن "وهم رقود" في، {كَهْفِهِمْ}، في فجوة من الجبل، {ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ}، {وَازْدَادُوا تِسْعًا}، يعني لبثوا "309" سنين.

سأختصر لك الكلام الآتي لألفت انتباهك أن الآية ذكرت مدّة لبثهم لترى أنهم لم يختفوا لعشر سنين وعادوا، ولا لخمسين سنة وعادوا، فهذه الأزمنة قد نعتبرها عادية لشخص هرب واختبأ ثم عاد، فهم اختفوا وعادوا بعد زمن من المفروض أنهم لن يعيشوه وأنهم ماتوا قبل ذلك وعظامهم صارت مكاحل كما نقول بالعامية.

لو علم الناس أن الفتية لبثوا ثلاثمئة سنة على التقريب، "بدل أن يتفلسفوا ويقولوا عددا من عندهم إن لم يكونوا يعلمون العدد الصحيح"، فهذه المدّة الطويلة كافية للفت الانتباه للقدرة الإلهية على إعادة بعث الموتى في يوم القيامة، ولذلك فإن الدقّة في تحديد السنين غير مهمّة أساسا، ويكفي الإشارة إلى المئات الثلاث، وفكّر فيها لو تساءلت بعد التسع سنين كم شهراً؟ وبعدها تساءلت: وكم يوماً؟ وبعدها: كم ساعة وكم دقيقة... فهذه الأزمنة القليلة جدا بالنسبة للثلاثمئة غير مهمّة إطلاقا، وعلى سبيل الزيادة في الدقّة أشارت الآية إلى السنوات التسع الزائدة عن العدد ثلاثمئة.

وربما، أقول ربما، هذا الرقم بشكل ما في المستقبل سيساعدنا على التحقّق عن طريق آخر على تحديد مكان وزمان أصحاب الكهف، وربما، أقول ربما، لهذا الرقم علاقة ما ببيولوجيا الجسم البشري وقدرته على تحمّل حالة الرقود... أقول "ربما" فلا تحفظ هذه الاحتمالات على أنها تفسير، بل أفتح الأفق أمامك لترى بعدا في الآية ربما يجد أحد ما ربطا له بشيء آخر غير الذي قلناه...

أمّا الكلام المنتشر هنا وهناك حول عدد السنين الذي ورد في الآية، فأكثره كلام لا قيمة له ولا معنى مفيد، ولا دليل عليه، وأكثر ما يلفت الانتباه هو قول من قال: إن الازدياد "ازدادوا" هو الإشارة للفرق بين التقويمين القمري والشمسي، فقالوا إن العدد ثلاثمئة لوحده يشير إلى السنة الشمسية، وازدادوا تسعا يشير إلى معادلة الثلاثمئة سنة شمسية بالقمرية فتصير ثلاثمئة وتسع سنين قمرية على أساس أنها بهذه الزيادة تصير مساوية لثلاثمئة سنة شمسية. ولكن لا يوجد ولا إشارة في الآية ولا في عموم القرآن تؤيّد ذلك، وأكرر لك فهذا الكلام لا من قريب ولا من بعيد يظهر من الآية، ولا تشير له الآية، ولا معنى له أصلا...

القرآن عموما اعتمد على السنة القمرية في مختلف كلامه عن الأشهر، فنفترض بقوّة أن الآية تقول الرقم بالتقويم القمري هكذا: لبثوا ثلاثمئة وفوقها تسعة، يعني ثلاثمئة وتسع سنين بالتقويم القمري، كطريقة في التعبير لإظهار معرفة الوقت بدقة، مع الإشارة لانتفاء أهمية ما هو أقل من التسع سنين، لأن العدد بالمئات الثلاث هو المهم، ويليه التسع سنين، أمّا الأشهر والأيام والساعات والدقائق فلا تظهر قيمتها كمدة طويلة أمام مئات السنين. ويماثله تقريبا في التعبير القرآني: "فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما" كما ورد في الآية 14 من سورة العنكبوت، فهناك لم يقولوا إن العدد ألف بالسنين القمرية وتصير معادلة لألف سنة شمسية بإنقاص خمسين عاما! أو بالعكس... حيث الأرقام بعيدة كثيرا عن بعضها، أمّا هنا فالتسع سنين قريبة نسبيا من الفرق بين التقويمين ولذلك اقتحموا الكلام فيها بتعامي مقصود ومن دون

تدقيق. ومثلها أيضا: "وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون" كما ورد في الآية 147 من سورة الصافات، حيث العدد الكبير مئة ألف هو المهم، والقليل الباقي حتى لو كان شخصا واحدا أو مئات الأشخاص، لأن الآية لا تتحدّث عن إحصاء سكّاني للقرية، وفقط تشير للعدد الكبير.

على كل حال فلنأتي للأرقام، فثلاثمئة سنة قمرية تعادل 290 سنة شمسية وشهراً، وإذا زدنا تسع على الثلاثمئة وتسع سنين قمرية، فهي تعادل 298 سنة شمسية وعشرة أشهر، ولا تعادل ثلاثمئة سنة شمسية كما يقولون. الآن أخبرونا كيف تقصد الآية الإشارة إلى التقويمين؟ وأصلا ما سبب وما معنى إشارتها لتقويمين؟ فبحسب قولهم إن الثلاثمئة قمرية تزيد عليها تسع سنين أخرى فتصير ماذا؟ تصير ثلاثمئة سنة شمسية؟ فما معنى هذا الكلام وما المقصود منه! وهو أصلا غير صحيح لأنه لو أردت جعل الأشهر القمرية الزيادة لتساوي ثلاثمئة شمسية فعليك بزيادة عشر سنين، هذا مع غضّ النظر عن الأشهر.

وهذه الحسابات مبنية على تولّد القمر "خروجه من المحاق"، فإن خطر ببالك أن الحسابات ستختلف بتحديد بداية الشهر من رؤية القمر، فانتبه أن الفرق لن يحصل إلا في بداية الشهر الذي بدأت العدّ فيه وفي الشهر الأخير، فعلى الأقصى سيكون الفرق ببضعة أيام وليس بالأشهر.

ومع أني لا أرجح إلا الظاهر من كلام الآية فهم لبثوا ثلاثمئة وتسع سنين قمرية، ولكن هناك احتمال بعيد أذكره فقط من باب الفضول التاريخي، إذ عبر التاريخ تغيّرت النقاط المرجعية لتقاويم الناس، والدارج حاليا التقويم الميلادي الشمسي الذي نقطته المرجعية زمن اعتبروه تاريخ ولادة النبي عيسى(ع)، ومعلوم لدى الباحثين أن تاريخ ولادته (ع) مختلف عن النقطة المرجعية التي اعتمدوها، وبعضهم يرجع بها إلى مئتي سنة قبل الميلاد المتداول بين الناس كتاريخ نقوّم عليه فنقول: من بعد الميلاد. وتذكّر أن أمم شرق آسيا كالصين واليابان...، وجنوبها الشرقي كالهند...، وإيران...، وجنوب أميركا... لديهم تقاويم قديمة مختلفة عن التقويم الميلادي المنتشر والذي يسمّى بالغريغوري.

وبما أننا لا نعلم زمن حصول حادثة أصحاب الكهف، فلا ندري إن كان مجتمعهم حصل فيه تغيير في التقويم أثناء فترة رقاد أصحاب الكهف، فاختلفت النقطة المرجعية وبالتالي حصلت زيادة بتسع سنين على الورق على الثلاثمئة الفعلية.

لماذا أقحمك في احتمال لا أرجّحه؟ حتى ينفتح الأفق دائما على المعطيات ولا نجمد على ظاهر ما نفهمه من النص بناء على معطيات قد لا تكون صحيحة، فكلام القرآن عن خلق ما في الدنيا في ستة أيام وكلامه عن خلق آدم(ع)... كلام إلهي دقيق، ولكن المشكلة في فهمنا له المبني على المعطيات المتوافرة لدينا لإعادة صياغة المفاهيم مربوطة بمعطياتنا.

ترى هذه المشكلة "الفكرية" مطروحة بوضوح في مسلسلات وأفلام الخيال العلمي التي تطرح معلومات نبوءات عن المستقبل، وفي كلام المتعاملين بكتب التنبؤ بالمستقبل، وهو أيضا نوع من الخيال، فتلاحظ الضياع في فهم النبوءة لأن المتكلّم يوصّف بحسب معطيات زمانه والسامع يحاول التفسير بحسب معطيات زمانه، فيحتار في التطبيق.

فرضا لو إنسان ما كان يعيش من ألفي سنة واستطاع رؤية المستقبل، وإنسان آخر من ألف سنة قرأ ما تسجّل من ألفي سنة والمكتوب فيه أنه سيأتي زمن تتحادث فيه الناس وترى بعضها من مسافات بعيدة عبر لوح في يدهم، فماذا سيفهم؟ الآن أنت تفهم أنه يقصد الهواتف المحمولة، ولكن من ألف سنة سابقة لن تفهم كلامه مع أنه توصيف دقيق وصحيح.

انتبه جيدا، فتعاملنا مع كلامه تعالى شبيه لحدّ كبير بهذه الحالة الافتراضية الخيالية، فكلامه تعالى دقيق وصحيح في توصيفه لكل شيء، ولكن المشكلة في المعطيات المتوفرة لدينا والتي على أساسها نحاول تطبيق كلامه تعالى، ومن هذه الدراسة علمت بوضوح وقوع المنتمين لدينه تعالى في مشاكل فهم كلامه تعالى عن خلق ما في الدنيا في ستة أيام، فقالوا إنها الأيام من الأسبوع من اليوم الواحد "الأحد" إلى اليوم السادس "الجمعة"... وغيرها العديد من التفاسير غير الصحيحة لكلامه تعالى، كتفسيرهم لنزول الماء بأمره تعالى بلا أسباب، وخلق آدم(ع) فورا...

(قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً{26})

{قُلْ}، عبر هذا القرآن بعد إعلانك عن لبثهم 309 سنين "قمرية": {اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا}، سبحانه أكثر العالمين بالمدة التي مرّت عليهم في الكهف وهم رُقُودٌ، {لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، فكل ما غاب عن المخلوقات ولم يكونوا حاضرين ليروه أو يسمعوه، وأينما حصل ضمن حدود دنيا المخلوقات وهي السماوات والأرض، ومع أي كائن أو شيء حصل، فسبحانه يعلمه ويراه ويسمعه، فكيف سيعلم الناس أكثر منه تعالى كم سنة لبث الفتية في الكهف؟!

مثلما حدث اختلاف بين الناس حول عدد فتية الكهف، فهناك اختلاف بينهم حول المدّة التي رقدوا فيها، وها نقل لنا القرآن في الآية السابقة من الإله سبحانه أن الفتية رقدوا "309" سنين، وَأيضاً لا تُمَارِ مع الناس الذين يقولون أكثر أو أقل من ذلك، لأنَّ من قال لك مدّة مكثهم يعلم غيب السماوات والأرض، والمخالفون لك ماذا يعلمون؟ وَهل يعلمون أكثر منه سبحانه وتعالى!

{أَبْصِرْ بِهِ}، أشر إليه تعالى، إلى علمه بغيب السماوات والأرض، ليصير عندهم صورة عن فائق قدراته، {وَأَسْمِعْ}، قُلْ كَلَاماً يسمعه الآخرون عن علمه الفائق سبحانه، بعبارة أخرى بكل فخر وجرأة ووضوح ليكن كلامك عنه تعالى عن ثقة أنه الأعلم، ومن جهة ثانية في نموذج فتية الكهف ترى بوضوح أنه تعالى تدخّل وغيّر مجرى أحداث حياة الفتية، وَهل آلهة المشركين فعلت ذلك أو يمكنها أن تفعل ذلك؟

{مَا لَهُمْ}، ليس للناس، {مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ}، فإذا تركوه تعالى ووالوا غيره فغيره لن يكون وَلِيّاً من مستوى إلهي حتى يلي أمورهم ويكونوا تابعين له، تَوَهُّماً سيوالون من يعتقدون بأنهم تابعون له وهو يتابع شؤونهم من مستوى إلهي إن تركوا ولايته تعالى ووالوا غيره. وأيضاً ترى من نبأ فتية الكهف كيف اعتبروا أنفسهم تابعين له تعالى وحده وكيف اعتنى بهم سبحانه.

{وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا}، لا، ولا أي أحدٍ يشاركه تعالى في الحكم في اتخاذ القرارات وتنفيذ ما يريد، فوحده تعالى يقرّر، ووحده ينفّذ ولا يشاركه أي أحد كائنا من كان، وهذا بشكل عام، وهنا كنموذج عن حكمه المنفرد سبحانه من مستوى إلهي فهو تعالى قرّر في مسألة الفتية كم سيمكثون في الكهف، لأنَّ الحادثة لم تحصل لوحدها وَسبحانه كان يشاهد ونقل لنا عدد السنين، لا، بل سبحانه هو قرّر وَحكم كم سيمكثون.

احتمال الكذب أو الاشتباه أو الخطأ... وارد في كل المعلومات التي نحصل عليها من الناس، أما المعلومات التي نحصل عليها منه سبحانه فهي صحيحة حَتْماً ولا مقارنة أَصْلاً بين معلومة وصلتنا منه سبحانه وبين معلومة وصلتنا من غيره، خُذْ مَثَلاً الناس أنفسهم، حيثُ إنَّ الكثير من الناس قبل تدوين السجلات لدى دوائر حكومية، كانوا لا يدرون في أي سنة ولدوا! وأنت تعلم أن الأجيال القديمة كلّها في الغالب الأعم لا يعلمون كم عمرهم بالضبط! بل على التخمين وعلى ربط حدث ولادتهم مع حدث آخر، كحرب أو معركة أو نزول الماء...! فكيف تتوقّع أن يعلم الناس كم رقد فتية الكهف في كهفهم من دون خبر إلهي! أو من دون تسجيلات موثّقة؟ وحتى لو افترضنا أن من كان في زمن انبعاث الفتية من الكهف، قام بالتدقيق لمعرفة تاريخ لبثهم بدقة، فغيره من الناس سيقوم برمي المعلومات باستهتار، وسيطرحون تَوَارِيخَ تقديرية على التخمين وغير مدروسة، وسيضيع التاريخ الدقيق بين مجموعة التواريخ التي رماها الناس المستهترون، وهذا ما يحصل عادة.

مِثْلُهُ حالة معرفة معاني بعض كلمات القرآن التي لم يكن دَارِجاً بين كل العرب استعمالها، حيثُ هناك كلمات دقيقة واصفة لأمور يعرفها فقط الأثرياء من أسماء الأواني والأثاث والعمارة... وهناك كلمات دقيقة واصفة لصناعات وحرف... وغيرها من العناوين التي من الواضح جهل العديد من الجيل الأول من المسلمين لمعناها لأنهم لا يستعملونها في حياتهم العادية، مثلما نحن نجهل معاني الكثير من الكلمات العربية لأننا لا نعرفها ولا نستعملها... وَخُذْ مَثَلاً أسماء أزاميل النحت، وأسماء من مهنة الزراعة من مجرفة ورفش وغزيّلة وثلم وتركيع وتربيض وتقليم وتطعيم... وللأسف لم يسكت الذين لا يعلمون حتى يصلنا كلام الذين يعلمون، واشتهر أشخاص بتفسير القرآن حتى صار كلامهم طاغيا على أي كلام آخر، وهكذا، حتى لو قال أحدهم المعنى الصحيح للكلمة، فلن يسمعه الناس ولن يهتموا بكلامه لأن المفسّر العظيم الصحابي الجليل الفلاني، يقول شَيْئاً آخر.

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً{27})

{وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ}، اقْرَأْ مُسْتَنِداً إلى ما وصل إلى وعيك، وهو وحي منه تعالى عبر الملائكة(ع)، {مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ}، حيثُ هناك كتاب أساسي فيه كل شيء، ومن ذلك الكتاب يختار المسؤول عنك من مستوى إلهي معلومات لينزلها على النبي(ع)، فيصيغها تعالى باللغة العربية فتصير كِتَاباً قُرْآناً، لِذَا هذه المعلومات اقْرَأْهَا مُسْتَنِداً إلى ما نزل عليك، وهذا هو معنى التلاوة: القراءة عن مستند.

{لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ}، لا أحد يمكنه إجراء أي تبديل على ما يقوله تعالى، فما يقوله تعالى فهو إمّا حصل فِعْلاً، أو سيحصل.

{وَلَنْ تَجِدَ} "أصلاً" {مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً}، لو حِدْتَ عنه تعالى "لتلتحد إلى غيره" فلن تجد من تتحوّل إليه دونه تعالى، وَعَمَلِيّاً لن تجد مكانا تكون فيه غير الأماكن التي تتبع له ويطالك فيها سبحانه، لِأَنَّكَ الآن في ملكه، ولا يمكنك أن تلتحد عن ملكه فلا يمكنك التحوّل عن ملكه إلى ملك غيره، فأين ستذهب وكل السماوات والأرض ملكه تعالى.

تذكّر محورية السورة حول ذكر قصص عن تدخّله سبحانه في حياتنا كَلَفْتِ انْتِبَاهٍ لكونه تعالى الإله الأحد، هُنَا آيتنا تعطيك معنى يشير إلى نموذج قصّة الفتية وتحقّق كلامه تعالى فيهم، ويظهر بوضوح أنه تعالى الملتحد الأحد من مستوى إلهي، طَبْعاً تتذكّر أنهم فتية آمنوا بربّهم... ولم يشركوا به أَحَداً... فمن الواضح أن ما حصل معهم كان من ربّهم الذي يؤمنون به، وأمّا آلهة المشركين فلا يوجد لها ولا أي أثر لأفعال من مستوى إلهي.

عَطْفاً على أوّل السورة فلا تَبْخَعْ من تكذيبهم لك، وبكل ثقة وبكل قوّة اتْلُ عليهم كَلَامَهُ تعالى الحاوي لقصص يُكَذِّبُ بها بعضهم لأنها دليل ملموس على وحدانيته تعالى في الألوهية ودليل ملموس على إعادة بعثنا في الآخرة.

الوحي هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خَيْراً أم شَرّاً، وبناء عليه فكل أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وَحْياً لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وترى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}، وحتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...}.

ينطبق فعل الوحي على أي كائن كان "إِنْسَاناً حَيَوَاناً مَلَكاً أو جِنّاً" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم، وطرق فعل الوحي أَنْوَاعُهُ مُتَعَدِّدَةٌ، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً}. وَوَحْيُ وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً}، وما ورد في الآية 193 و 194 من سورة الشعراء: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ}. أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ...}، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل كما هو مشهور في تراثنا الديني. وَوَحْيٌ عبر إصداره تعالى صَوْتاً في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص: {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، مُضَافاً لها الآية 13 من سورة طه: {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}، فكلامه تعالى معه(ع) وحي لأن الكلام ليس صادرا مباشرة منه تعالى فهذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، فيصير وصف الحالة أن كلامي يصلك وَحْياً.

هناك وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} ففي النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

الوحي يصدق على وحي الخير والشر، فالشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً...} ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... فالوسوسة في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خَيْراً أو شَرّاً فهو وحي.

{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً{28}}

{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ}، واجعل نفسك تصبر فتتصرف بعقلانية ووعي في مختلف الظروف الصعبة أو المزعجة، {مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ}، فكن مع الذين يشهرون ويعلنون وَيَتَوَجَّهُونَ... إلى المسؤول عنهم من مستوى إلهي، {بِالْغَدَاةِ}، في الفترة التي يكون فيها ضوء الشمس مُنْتَشِراً، وهو النهار من فجره إلى قبيل مغربه "بعد العصر بقليل"، {وَالْعَشِيِّ}، حين يكون الضوء خَفِيفاً أي من المغرب إلى المساء. فَاقْضِ وقتك مع هؤلاء الذين يدعونه تعالى حتى لو شعرت بأنك تميل لتركهم، فلا تتركهم واصبر على البقاء معهم لِأَنَّهُمْ، {يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}، يطلبونه تعالى ولا يطلبون غيره، حيثُ يَتَوَجَّهُونَ إليه تعالى حتى يتوجّه إليهم، وَعَمَلِيّاً هُمْ يريدون أن يتوجّه إليهم سبحانه برضاه عنهم وبإعطائهم الأجر وبالمغفرة... {وَلَا تَعْدُ}، ولا تَتَخَطَّ، {عَيْنَاكَ عَنْهُمْ}، عن هؤلاء المؤمنين، فلا تذهب بنظرك وَاهْتِمَامِكَ عن المؤمنين باتجاه آخر، وَلا تلتفت إلى أناس آخرين لا يدعونه تعالى ولا يهتمون برضاه، والسبب الذي سيدعوك لِتَعْدُوَ لِتَتَخَطَّى المؤمنين الحقيقيين لتلتحق بغيرهم سيكون أنك: {تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، حيثُ هناك أشياء تجعل الدنيا تبدو جميلة، كالمال والسلطة والشهرة وإشباع الشهوات... تريدها، فهل لذلك ستترك معاشرة المؤمنين وستلحق بالذين يركضون وراء زينة الدنيا ولا يهتمون بالتقرّب إليه تعالى ولا بالخير ولا بالشرّ.

{وَلَا تُطِعْ}، لا تنفّذ كَلَامَ، {مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ}، من جعلنا أساس فكره ونفسيته لا ينتبه لأمور مهمّة، لِذَا أَغْفَلْنَا قلبه، {عَنْ ذِكْرِنَا}، عن استحضاره تعالى في فكره ومشاعره وقوله وعمله، {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ}، حيثُ كان على ما يهواه من مشتهياته ونزواته ورغباته، {وَكَانَ أَمْرُهُ}، شؤونه التي يهتم بها، {فُرُطاً}، إِهْمَالاً للأشياء المهمّة التي بين يديه، وَيَهْتَمُّ بأمور تافهة تاركا الأمور المهمّة.

كما قالت الآية السابقة، هُنَاكَ دين ينزل عبر هذا القرآن وَحْياً منه تعالى، وهناك من آمن بهذا الدين، وهناك من كفر به، فاختر معاشرة ومصادقة المؤمنين، حتى لو ضغطت على نفسك، فإذا كنت تميل إلى الآخرين، فسبب الميل سيكون تعلقك بالدنيا، لِأَنَّ أحاديثهم عن تحصيل المال حتى لو بالسوء، وعن إشباع الشهوات والنزوات حتى لو بالسوء... وَهَذِهِ أحاديث الكفّار لأنهم غافلون عن ذكر الله تعالى، وَهُمْ لا يدرون أَصْلاً بحالة ابتعادهم عن إلههم ولا يهمهم الموضوع من أساسه، لِأَنَّهُمْ قرّروا أن يكونوا هكذا، والله تعالى جعل تصميم خلقتنا هكذا: من تعلّق بمتاع الدنيا حتى السيّء منها وترك الدين الإلهي فقلبه سيصير غَافِلاً عن الله تعالى، وَبِهَذِهِ النظرة سترى أنه تعالى جعل قلبه غَافِلاً، فهذا هو المعنى العملي لجملة {أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ}.

فَكِّرْ فيها لو كنت تكتب برنامج لعبة على الكومبيوتر، ووضعت في شخصيات اللعبة خاصية معيّنة، كاللهث عند الركض، ومن بعده انخفاض في سرعة الراكض، فلو لم تضع هذه الخاصية فإنها لن تحصل. هنا وفي الآيات المشابهة من القرآن مثل طبع القلب، ختم القلب، الغفلة... هِيَ خاصيّة خلقها سبحانه فينا، حيثُ إِنَّهُ تعالى صمّمنا أن نغفل عنه إن تركنا ذكره ولحقنا بزينة الدنيا، ولذلك ينسبها سبحانه لنفسه أنه سبحانه أغفل قلبهم وأعمى بصيرتهم وأضلّهم...

نلاحظ تعبير الآية عن الفترة التي ستقضيها مع المؤمنين، حيثُ لم تقل: اصبر نفسك في اليوم. ولم تقل: في الليل والنهار. بل عبّرت بالفترة التي عادة تكون فيها تتعامل مع الآخرين، في النهار حتى المساء، وَاسْتَثْنَتِ الليل لأنه عادة للراحة وللنوم وللخلوة من الناس...

انْتَبِهْ، لِأَنَّ الآية لا تأمرنا بقضاء وقتنا في العبادة مع كل مؤمن نجده يعبد! لا، بل تشير إلى حصر صداقاتنا وموالاتنا بالذين نراهم يتوجّهون بالعبادة له تعالى، ونراهم يقومون بأعمال التقرّب إليه تعالى.

نلاحظ أنه ورد في القرآن عدّة مرات تعبير: وجه الله تعالى. وَلَا تَنْسَ أنه تعالى ليس كمثله شيء كما ورد في الآية 11 من سورة الشورى، حيثُ لا شيء يشبهه سبحانه لا من قريب ولا من بعيد، وأينما التفتّ فإن وجه الله تعالى أمامك، وَمَا يتوجّه به تعالى ليس مَحْصُوراً في جهة، لأنه تعالى يرى ويسمع ويعي... بنفس المستوى في كل نقطة من الدنيا، لِذَا هُوَ مُتَوَجِّهٌ بالرؤية والسمع و... إلى كل شيء.

عَادَةُ القرآن يشير بتعبير "وجهه تعالى" كما تقول: هذا رجل ليس لديه شيء لوجه الله تعالى، بل له مصلحة شخصية في كل شيء يفعله. وَهُنَا المقصود أن المؤمنين يقومون بأعمال خالصة للتقرّب إليه تعالى، لوجهه، له فقط، كالدعاء والصلاة والصدقة... هذا بتعبير بسيط، وبتعبير دقيق، حيثُ إنَّنِي أتوجّه إلى وجهة ما، وما يقابلني هو وجهها، وجه الريح، وجه النهار... وَعِنْدَمَا أتوجّه إليه تعالى ويقابلني وجهه تعالى، أَيْ يقابلني ما يتوجّه به تعالى عليّ، وَعَمَلِيّاً أَنَا من دعائي وصلاتي أتوجّه إليه تعالى ليوجّه اهتمامه بي برحمته ومغفرته.

(وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقاً{29})
{وَقُلِ}، عبر هذا القرآن: {الْحَقُّ}، الصواب الصحيح، {مِن رَّبِّكُمْ}، من المسؤول عنكم من مستوى إلهي، وغير ذلك فهو باطل، والكلام هنا عن عموم ما جاء به القرآن مما نسميه عقيدة بالمعلومات عنه تعالى وعمّا فعله وسيفعله ككلامه عمّا سيحدث في الآخرة، وما جاء به من تشريعات... وبالخصوص الكلام هنا عن القصص التي يذكرها القرآن كقصة أصحاب الكهف فهي حقّ.

{فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن}، أمامكم خياران، مَنْ يُرِدْ منكم لِيُقَرِّرِ الاعتقاد بالحقّ، {وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}، لِيُقَرِّرْ إنكار ما جاء من الحقّ، ولكن هناك عواقب لكلا الخيارين: {إِنَّا أَعْتَدْنَا}، أعدينا جهّزنا حضّرنا، {لِلظَّالِمِينَ}، الذين لم يكونوا عادلين ولا منصفين، وَلَمْ يَكُنْ معهم حقّ باختيار الكفر الواضح سُوءُهُ وترك الإيمان الواضح أنه حقّ، جهّزنا لهم، {نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا}، حيطانها العالية محيطة بهم من كل الجوانب، فلا مجال للهرب منها ولا مجال للاحتماء من لهيب النار فهي من كلّ الجوانب حولهم. ولم ترد كلمة "سُرَادِق" إلا هنا في القرآن.

{وَإِن يَسْتَغِيثُوا}، يَطْلُبُونَ الغوث المساعدة للنجاة من وضعهم الحرج، {يُغَاثُوا}، تَتِمُّ استجابة استغاثتهم، {بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ}، كتموجات سائل ثخين شديد الحرارة، كالزيت المغلي، {يَشْوِي الْوُجُوهَ}، وَمَنْ يشرب منه يتعرّض وجهه لحرارة عالية تسبب احتراق لحم وجهه، {بِئْسَ الشَّرَابُ}، لأنَّ المهل هو أَسْوَأُ سائل للارتواء منه، {وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا}، والنار مكان سَيِّئٌ جدا لترتفق به، ما أَسْوَأَهَا من مكان لترتاح فيه، وَعَادَةً لن نختار مكانا سيئا لنكون فيه بل سنختار مرفقا لنرتفق فيه لنكون مرتاحين، وهؤلاء ما أَسْوَأَ ما اختاروه ليكونوا فيه. قابلها مع ما سيأتي في الآية بعد التالية من حسن مرتفق الجنّة.

إذًا خَلَقَنَا تعالى وأعطانا حريّة الإرادة لنختار ما نريد، وَلَمْ يبرمجنا غصبا عنّا لا على الإيمان ولا على الكفر، ولكن هناك عواقب تنتج عن اختيارنا للكفر به تعالى، حَيْثُ سَنَدْخُلُ إلى النار.

لاحظ تعبير الآية عمن كفر بأنه ظالم، لأنه لم يكن منصفا عادلا حين اختار الكفر، لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَمَّنَ لنا كل ما يجعلنا نؤمن به وزيادة، وَمَنْ كفر فظلما كفر ولم يكن معه حقّ في ذلك.

نُلاحِظُ، لَوْ كَانَ اختلاف وجهات النظر بيننا نحن لقلنا: الحقّ معي، أو الحقّ معك. ولكن القرآن دائما يعبّر بشكل مختلف يَقُولُ: الحق من ربّك، الحق من ربّهم. ولا يقول أبدا: الحق مع ربّك. هُنَاكَ فرق كبير بين القولين، وَعِنْدَمَا تقول: الحقّ معي، هَذَا يتضمّن إمكانية أن يكون الحق مع غيرك، ويتضمّن أَنَّ هذه المرّة الحقّ معك وربما في مرة أخرى يكون مع غيرك، أمّا التعبير القرآني فكان دائما يقول: الحق "من" ربّك، لأنه تعالى لا يصدر عنه إلا الحق دائما.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً{30})
مِنْ ناحية ثانية، في مقابل من كذّب كلامه تعالى وكفر به: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا}، والكلام عن الذين اعتقدوا بالحقّ بتصديق المعلومات الصحيحة عنه تعالى وعن أفعاله، وهو نفسه ما وصلهم عبر هذا القرآن، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، فقاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، وَلِمَزِيدٍ من التوسّع حول تعبير "عملوا الصالحات" راجع دراسة الآية الثانية من هذه السورة.
{إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا}، مَنْ حَسُنَتْ أعماله فله أجر، له مقابل حدّدناه سلفا على عمله وسيجده حتما. وَلَنْ يعمل على أساس أن له أَجْرًا وفي النهاية لن يجده، لا، بل حتما سيجده لأنه تعالى وعده بالأجر.

نتذكّر تنبيه القرآن دائما على الإيمان مع العمل الصالح فكلاهما يسببان الحصول على الأجر الذي ستذكره الآية التالية، حيث لا الإيمان وحده يكفي، ولا العمل الصالح من دون إيمان يكفي، بل كلاهما معا مطلوبان.
بِالنِّسْبَةِ لكلمة "آمن"، لم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الْإِسْلَامِ أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وَبِمُرَاجَعَةِ استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، فآمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كلاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وَتَمَاشِيكَ معه.
بقي شيء، بِغَضِّ النظر عن تحديدنا للسبب الدافع لنا من داخلنا لفعل ما نراه خيرا وترك ما نراه سوءا، لِأَنَّ تَصْنِيفَنَا للأمور خيرا هو نفسه الدافع لفعلها، وتصنيفنا لها بالسوء هو نفسه الدافع لتركها... ولكن بغض النظر عن هذا، وبغض النظر عن تعليل فعل الخير وترك السوء بالمصلحة العامّة لحياة المجتمعات البشرية... وَبِغَضِّ النظر عن ذلك ترى كلامه تعالى في أشباه آيتنا هنا واضحا بالتحفيز لنا على فعل الصالحات بسبب الوعد بالأجر الإلهي، وترى في عموم القرآن كلامه الواضح سبحانه بالوعد بالعقاب الشديد على فعل السوء.
حُكَمَاءُ عقلاء البشرية حاولوا عبر التاريخ طرح فلسفات مُحَفِّزَةٍ للناس على فعل الخير، لأنهم في باطنهم يشعرون بمسؤولية إنسانية للمساعدة على تأمين السعادة لنوعنا البشري، وفي مقابلهم المجرمون من حاكمين ومتسلطين ونافذين... من الذين برّروا بوسائل متنوعة فعل الفساد والسوء ونتج عن ذلك ويلات للبشرية من حروب وفقر وأمراض... مع أننا بغالبيتنا الساحقة نميل إلى أن يكون الآخرون صالحين حتى لا نتضرّر من شرورهم، فإننا نستصعب إيجاد سبب يجبرنا على أن نكون نحن صالحين إذا لم نر أننا سنتأذّى نحن من فسادنا، أو سنتأذى من ردّ فعل الآخرين، وفوق ذلك إِذَا كنّا نرى من فسادنا استفادة لنا، كاحتكارنا لسلعة أساسية وبيعها بأسعار عالية تردّ علينا أرباحا عالية... فنستصعب لدرجة الاستحالة إيجاد سبب ذاتي يمنعنا من فعل السوء، مع العلم أننا نراه سوءا لو فعله الآخرون معنا وكنّا نحن الأضعف.
لن أدخل هنا في طرح الفلسفات الدافعة لنا لفعل الخير وترك السوء، لِأَنَّهُ موضوع متعدّد التفرعات، وبدايته مع وجود تقييم ذاتي داخلي فينا يميّز بين الخير والشرّ، سواء نظرت لهما كمفهومين عاكسين لحالتي السعادة والتعاسة لنا وللآخرين، ومن ذلك فَلْسَفْتَ سبب وجوب التزامنا بالخير وترك الشرّ، أو اكتفيت بالقيمة المعنوية وجعلتها ميزة إنسانية محدّدة لمعنى الإنسانية وسيفقد صفة الإنسانية من لا يَلْتَزِمُ بها... أو... وأو... وَبِغَضِّ النظر عن كل هذا تراه تعالى يكرّر كلامه عن الأجر لمن آمن وعمل الصالحات، وليس أجرا عاديا بَلْ هُوَ خلود في جنّة، والعقاب على كبائر السوء ليس عقابا عاديا بَلْ هُوَ خلود في النار.
لَسْتُ أقلل من أهمية الأبحاث الفلسفية والاجتماعية والقانونية... في موضوع المدينة الفاضلة، بل أؤكد على أَهَمِّيَّتِهَا، ولكن أشير إلى جانب مُسَاوٍ في الحلّ، لِأَنَّ قَوَانِينَ تشريعاتنا لا قيمة لها إن لم تتضمّن العقاب على مخالفتها، لأنها ستصير مجرد حبر على ورق ولن يلتزم بها إلا من له مصلحة بها... وهذا كلام ترى معناه بوضوح حين تفكّر بإنشاء مجتمع أو مدينة، أو إنشاء دولة، وَلَنْ يستقيم أي مجتمع بلا قانون يحكم علاقات الناس وتصرفاتهم، ولن يلتزم الناس بالقانون إن لم يكن هناك عقاب على المخالفة...
من هذه الزاوية يمكنك رؤية معنى كلامه تعالى عن إنشاء كائنات بِحُرِّيَّةِ إرادة، وَبِالتَّالِي لَهُمْ حرية الاختيار بين فعل الخير أو الشرّ، لَا معنى لخلقهم بلا إمكانية فهمهم وتمييزهم للخير من الشرّ، ولا معنى لتركهم بلا قانون مبني على تمييزهم للخير من الشرّ، ولا معنى لِتَرْكِهِمْ بلا عقاب وثواب على التزامهم بالقانون.
هَذَا كله ضمنا مبني على الرغبة الموجودة فينا بالسعادة بما هو متاح لنا من ميزات وقدرات وحواس... تترجم برغبات وشهوات... وما فينا من كره للتعرّض للضرر الجسدي والنفسي... وهكذا تكتمل الصورة القرآنية التي يعرضها تعالى علينا عبر العقاب الفكري والنفسي والجسدي على السوء، وبالثواب الفكري والنفسي والجسدي على الإيمان وعمل الصالحات.
الخلاصة عن هذا أن كلامه تعالى عن العقاب هو ما يثير حساسية عِنْدَ الكافرين بدينه الكارهين الالتزام بالصلاح، وحتى نحن ضعاف الْمُؤْمِنِينَ الفاعلين لبعض السيئات والراغبين في تكرارها أَيْضًا لا نرتاح لفكرة العقاب الإلهي على ما فعلناه من سوء. والمشكلة هِيَ التعاطي مع هذه المسألة وكأن العقاب على فعل السوء شيء غريب لا يوجد إلا في دينه تعالى، بينما العقاب منتشر في كل قوانين وتشريعات البشر.
نعم العقاب الإلهي أشد وأدوم، وَبَعْدَ الاتفاق على ضرورة وجود عقاب على فعل السوء، وخاصة السوء من العيار الثقيل، كقتل الأبرياء وتعذيبهم وإتعاس حياتهم وَتَرْوِيعِهِمْ... ننتقل إلى الكلام عن شدة العقاب، فهذا شيء آخر، وأختصر لك الكلام القرآني عنه أنه تعالى لن يعذّب أحدا كان سيؤمن أو يحسّن سلوكه لو أتيحت له فرصة ثانية، بل نموت حين يأتي أجلنا متضمنا أننا لن نتغيّر عما متنا عليه، وَبِالتَّالِي مَهْمَا طال عمرنا فَسَنَبْقَى كما نحن، وسنكرر ما فعلناه من

سوء، ولذلك كان العقاب للمجرمين خلودا في النار، وراجع في ذلك دراسة الآية 28 من سورة الأنعام {بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}.

(أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً{31})
{أُولَئِكَ}، المؤمنون العاملون للصالحات، {لَهُمْ جَنَّاتُ}، لهم أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين وقصور... {عَدْنٍ}، فهي للإقامة الدائمة لأنها لا تخرب ولا تتهدّم ولا تزول...

{تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ}، لا تبالغ وتتصوّر المكان كالمستنقعات، لا، بل الإشارة إلى جمالية المكان ومنظره، لِأَنَّ الأنهار منتشرة بكثرة، وتلك الأنهار من مختلف الألوان والنكهات كما ترى في الآية 15 من سورة محمد {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى}...

{يُحَلَّوْنَ فِيهَا}، الحلي الذي يضعه الْمُؤْمِنُونَ في الجنّة، {مِنْ أَسَاوِرَ}، الزينة التي توضع حول اليد، {مِن ذَهَبٍ}، وهو معدن معروف عنه هنا في الدنيا أنه لا يتغيّر لونه المتدرّج من الأصفر إلى الأحمر الفاتح المائل للصفار.

{وَيَلْبَسُونَ}، يضع المؤمنون على جسدهم، {ثِيَابًا خُضْرًا}، طرية الملمس، لِأَنَّ الوصف بالخضرة في غالب استعمال العرب يشير للنعومة وليس للّون، ولباسهم، {مِّن سُندُسٍ}، من ثياب ذات لون نقي، وَ {إِسْتَبْرَقٍ}، من قماش له لمعان ويعكس الضوء. ولم أجد مصدرا يثبت كون السندس والاستبرق نَوْعَيْنِ من الحرير، رقيق وغليظ كما قال بعضهم، سوى ما ادّعوه في بعض الكتب بلا إثبات ولا دليل، وَوَرَدَ في استعمال العرب قديما لكلمة "سندس" كوصف لنقاوة اللون الأسود للجلد أو القماش، ولم أجد فيما لدي من مصادر قديمة استعمالهم لِكَلِمَةِ الاستبرق "كَاسْمٍ"، مما يشير إِلَى اشتقاق القرآن لها من البرق، وحاليا نقول قماش برّاق، كوصف لانعكاس الضوء عليه.

تذكّر دائما أن كل الآيات التي تتحدّث عمّا في الجنّة إنما هِيَ نماذج تقريبية للأشياء التي لا نهاية لها هناك، ولا يمكننا تصوّر روعتها الآن، وتلاحظ ذلك من انتشار رغبة الناس في الحليّ الذهبية هنا في الدنيا، لِذَلِكَ اختارته الآية كنموذج معروف لنا عن الحليّ في الآخرة، وأمّا في الحقيقة، فما في الجنّة من أنواع الزينة فهو يفوق قدرتنا على التصوّر الآن. ولهذا تجد الآية هنا بالدقّة تعبّر عمّا في جنّة الآخرة بالمثل بالتشبيه {مَثَلُ الْجَنَّةِ}...

{مُّتَّكِئِينَ}، جالسين بحالة اتِّكَاءٍ بإسناد جسدهم على جنبهم، {عَلَى الْأَرَائِكِ}، ومفردها أريكة وهي الكلمة العربية لكنبة أو صوفا ولها جنب للاتكاء عليه، حَيْثُ تُصَوِّرُ الآية حالة رفاهية أهل الجنة، وَهُمْ في قسم من وقتهم مُسْتَلْقُونَ على جنبهم في راحة تامّة وسعادة.

{نِعْمَ الثَّوَابُ}، هذا أحسن وأفضل شيء يرجع عليهم من الإيمان والعمل الصالح، فلا يوجد شيء أفضل من ذلك يمكن أن يرجع للمؤمنين العاملين الصالحات، {وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا}، فهي مكان حسن للارتفاق فيه، للاستراحة فيه، فإذا اخترت مكانا للبقاء فيه ليكون مريحا، واخترت الجنّة بإيمانك وعملك الصالح، فقد اخترت مَكَانًا حَسَنًا.

تلاحظ العديد من التوصيفات القرآنية المتنوعة لما في الجنّة، من أماكن فيها أشجار وأنهار... ولباس وزينة... وأمام ذلك تجد الإفراط والتفريط، حَيْثُ تجد من غيّر معنى دلالة هذه التعابير ليجعلها مجازية تمثيلية للسعادة الفكرية على أساس أنه لا يوجد في الجنّة ملذات لها علاقة بالجسد الطيني الحيواني الذي يلتذّ بالأكل والنظر والسمع... وَبِحَسَبِ زعمهم هذه ليست سعادة، وخلاصة كلامهم تعني أنه تعالى اضطر لاستعمال تعابير خادعة عن ملذات جسدية حتى يُحَفِّزَنَا على الإيمان والعمل الصالح لأن غالبيتنا لن يفهم معنى الوعد بثواب السعادة الروحية التي لا جسد فيها...

في مقابلهم لدينا الْمُسَخِّفُونَ لهذه الوعود، الذين يعتبرونها مغرية للفقراء والبسطاء، فهم ليسوا مستعدين للتخلّي عن متاع الدنيا لأجل وعد زائف لن يتحقّق، وَيَسْخَرُونَ ممن ترك ملذات الدنيا التي يقول عنها الدين الإلهي إِنَّهَا سيئة، كَتَرْكِ المخدرات والزنا والكحول... وإعطاء الآخرين حقوقهم... إِذْ إِنَّ هَذَا يفعله الأحمق أو البسيط الساذج الحالم بجنّة لن يحصل عليها تاركا متاع الدنيا وزينتها...

بين هذين النوعين من الناس، الأوّل المدّعي للإيمان من الدرجة العالية، والثاني المعلن لكفره بالكلام الإلهي، يبقى أمامك صريح ظاهر كلام القرآن، وإيمانك به يجعلك ساذجا بسيطا في نظرهم، فلا تهتم وأعرض عنهم، وقل سلام، فسيكفيكهم الله، ومن أصدق من الله قولا، والله أحكم الحاكمين.

سأنقل لك هنا كلاما ذكرته في دراسة الآية 33 من سورة فاطر: قال الراغب الأصفهاني في كتاب المفردات إنَّ كلمة "إسوارة، سوار" معرّبة من الأصل الفارسي "دستواره"، ومن بعده كُتُبُ التفاسير نقلت جملته هذه ونشرتها. وحاليا لدينا معايير لإرجاع الكلمات لأول شعب وضعها لنسبة تلك الكلمة لهم، وَمِنْ تلك المعايير أن نجد مستندا تاريخيا استعملت فيه الكلمة عند شعب ما قبل الآخرين، أو تكون التسمية لشيء ما هم اخترعوه قبل الآخرين، أو نجد اشتقاقات من تلك الكلمة مستعملة بِمَعَانٍ قريبة... فلو وجدنا مستندا باللغة الفارسية، يذكر كلمة "دستواره" وهذا المستند أقدم من أي مستند عربي، لاحتملنا أن يكون أصل الكلمة فَارِسِيًّا وتعرّف عليها العرب من الفرس، ولو وجدنا في الآثار أن العرب لم يعرفوا الإسوارة في تاريخهم، واخترعها الفرس قبلهم، لاحتملنا أن العرب تعرّفوا على الإسوارة وعلى الكلمة الخاصّة بها من الفرس، وأن العرب أعادوا صِيَاغَةَ الكلمة بما يناسب تلفظهم للكلمات... ولكن الراغب وغيره من اللغويين القدماء كانت معاييرهم رخوة أكثر من المقبول، فمعيارهم هو تشابه لفظ الكلمة العربية مع الفارسية، فَيَحْكُمُونَ أن أصل الكلمة فارسي! والعجيب أنهم لم يحكموا أن أصل الكلمة عربي! فما هذا المعيار! وَاخْتَرْتُ هذه الكلمة بالتحديد لأبين لك أن أكثر ما قالوه عن أصل الكلمات العربية الواردة في القرآن أنها أجنبية هُوَ مجرد تخرّصات بلا دليل، وهنا كمثال الْأَسَاوِرُ من أقدم ما اخترعه الإنسان، فهي منتشرة في آثار كل الحضارات القديمة، وتشابه اللفظ بين اللغتين لنفس الشيء، يشير "ولا يحتّم" إلى أصل واحد للكلمة، فلماذا لا يكون عربيا؟ أو آراميا؟ أو حتى سريانيا وهي لغة يبدو أنها أقدم من العربية والفارسية؟ ولماذا لا تكون كلمة "إسوارة، سوار..." عربية ولدينا كلمة "أسير" التي تحتمل الاشتقاق بسبب "تكبيل" يدي الأسير!

لا أريد البرهنة لك أن أصل كلمة إسوارة عربي، ولكن ألفت انتباهك إلى أكثر ما قالوه في التفاسير والقواميس عن أصل بعض الكلمات العربية أَنَّهُ كان تخمينا، وبلا دليل، ونتج عنه كلام غير صحيح لتفسير معاني بعض الكلمات... وللأسف فإن من يعيد دراسة ما قالوه متّهم في علمه! لِأَنَّ الناس يقدسون القديم، وكأن القديم لم يكن جديدا حين قالوه!

لِمَزِيدٍ من التوسّع حول هذا الموضوع راجع دراستنا للآية 21 من سورة الإنسان {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ}...، والآية 47 من سورة الصافات {لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ}، والآية 3 من سورة الزخرف {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}.

سَيَأْتِيكَ في الآية 107 من هذه السورة كلام لغوي من نفس الأجواء.

(وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً{32})
من هنا تدخل السورة على نموذج من الشرك "الخفي" عبر قصّة حصل فيها تدخّل إلهي مباشر:

{وَاضْرِبْ لَهُم}، أقم للناس عبر هذا القرآن، {مَّثَلًا}، وقل لهم شيئا للتشبيه التقريبي، حتى يفهموا الفرق بين المؤمن الحقيقي وغيره، وبين التوحيد والشرك، وبين نتيجة عمل ونيّة هذا وذاك، وبين من تعلّق بالدنيا ومن تعلّق بالآخرة...:

{رَّجُلَيْنِ}، {جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا}، لرجل منهما، {جَنَّتَيْنِ}، قطعتي أرض موصوفتين بروعة ما فيهما، وتكملة الآيات عن حدائق وبساتين ومزروعات... {مِنْ أَعْنَابٍ}، وهي النبتة التي تعطي ثمار العنب وبالتجفيف تصير زبيبا، ونسمي بستانه بالكروم والعرائش، {وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ}، حيث جعلنا على حافةٍ، على جانب الجنتين شجر النخيل الذي يعطينا ثمار البلح والتمر... {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا}، بين الجنتين، {زَرْعًا}، حيث توجدُ مزروعات من الخضار بين الجنتين، وعلى الأرجح مما نشاهده من المزارعين الذين يزرعون بين الكروم ليستفيدوا من ظلالها لحماية الخضراوات من الشمس الحارقة، أن يكونَ بين أشجار العنب زرعٌ بقوليات...

يعني: أحد الرجلين لديه بستانانِ من العنب مفصولانِ عن بعضهما، وعلى حدود كل بستان يوجد صف من شجر النخيل، وبين كروم العنب توجدُ مزروعات من الخضار كالبندورةِ والخس...

ملاحظة قبل إكمال الكلام، هل هذه قصّة تشبيهية لم تحصل؟ أم حصلت فعلا؟ من مراجعة أمثال القرآن نجد أنها تعرض مجموعة صور لأحداث واقعية حقيقية، ولا تتكلّم عن خيال لم يحصل، ولا تبالغ فتذكر أشياء غير واقعية لا يمكن أن تحصل، وضرب المثل في القرآن مشابه لضربنا نحن للمثل، حيث نجمع فيه أشياء غير روتينية لا تتكرّر كثيرا، ولذلك فإن سماع الناس لها يجعلها مؤثّرة، ويكون فيها نوع من الغرابة، والتأثير هو الهدف من ضرب المثل.

مرّة نقصد بالمثل حادثة محددة معروفة، وهكذا استعمل القرآن الأمثال، ومرّة مثّل بحادثة حدّدها كما في سورة يس عندما ضرب مثلا عن {أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ}، ومرّات كثيرة لم يحدد الحادثة، كما في الأمثلة في سورة النحل كما ورد في الآية 75 {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ}...، وعلى كل حال، إنّ المثل الواقعي الحقيقي الذي يقوله القرآن يختلف عن الأمثال التي نقولها نحن من خيالنا ولا يكون لها أي ارتباط بالواقع، وأثناء قراءتك للأمثال القرآنية عليك أن تنتبه دائما للنظرة الإلهية للأمور، لأنّه من تلك النظرة سترى واقعية الأمثال، والمثل عن ذهاب النور عمن استوقد نارا والذي ورد في الآية 17 من سورة البقرة، غير واقعي من نظرة غير المؤمن، وواقعي من نظرة المؤمن من نظرة إلهية، حيث هناك لم نبحث عن اسم الشخص الذي أوقد النار، ولا عن زمنه، لأننا انتبهنا "بكل سهولة" أن المثل هناك ينطلق من نظرة إلهية للأمور، وينطبق على عموم الحوادث المشابهة، ولكن البعض في فقرتنا هذه بحثوا عن اسم وتاريخ الرجلين، وحصل هذا معهم في مختلف الأمثلة القرآنية، ومرّة تركوا البحث عن تاريخها البشري لأنها لم توح لهم بعلاقتها بالواقع، ومرّات أصرّوا على وجود أشخاص يتحدّث عنهم المثل! علما أنه لا أهميّة مطلقا لما بحثوا فيه واقترحوه واحتملوه وشبّهوه وقاربوه... لأنّ المثل هو مثل، وهو للاستفادة من معانيه، ولم يضربه سبحانه إلا لذلك، ولم يرد منّا إلا الاعتبار من المثل، وهذا الإصرار على معرفة الرجلين وزمنهما ومكانهما يحصل معنا إذا ضرب أحد ما لنا مثلا ولم نصدقّه، وقلنا عن مثله أنه محض خيال لا واقعية له، لذا أنا لا أتهم المفسرين بهذا، ولكن أنبّهك ألا تقع فيه، لأنّ المثل هو المثل، وهو للعبرة، والمثل منه سبحانه يكون "دائما" واقعيا من منظوره سبحانه كالذي {اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ} كما ورد في الآية 17 من سورة البقرة.

(كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً{33})
{كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ}، كلا المكانين الموصوفين بروعة ما فيهما من مناظر طبيعية، {آتَتْ أُكُلَهَا}، حيثُ أنتجت ما نأكله منها، {وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا}، وبالإنصاف أنتجت، حيثُ حصلت النباتات على التربة المناسبة والطقس المناسب والماء والعناية... فكانت النتيجة عادلة لأن النباتات أعطت ثمارا بالتمام كما هو مفروض، {وَفَجَّرْنَا}، فأخرجنا بقوّة، {خِلَالَهُمَا}، بين الجنتين، {نَهَرًا}، مياهاً جاريةً بكثرة، حيثُ يجري الماء الغزير بين الجنتين فيمكن استخدامه لسقاية النبات حتى يكتمل نمو الثمر وينضج.

لاحظ الآيتين تعبّران عن "الجعل" الإلهي، وتعبّر الآية هنا عن تفجيره تعالى للنهر، حيثُ تنسب كل العمل له سبحانه، صحيحٌ أن المثل عن رجل يعمل بالزراعة ولديه عمّال قاموا بالعناية بالجنتين، ولكن التصميم الإلهي هو الذي يجعل الأشياء والظروف ينتج عنها نجاح الزراعة، والتفجير الإلهي للنهر إشارة واضحة لنموذج عن عمل لا علاقة لصاحب الجنتين به، ومثله خلقه تعالى لنوعية التربة المناسبة للزراعة وتصميمه تعالى للنبات... وسترى بعد قليل أن العبرة من هذه القصّة تركيزها على توحيده تعالى في تصميم الأشياء وخلقها لتنجح وتنتج، وأن قرار نجاحها بيده سبحانه، وسترى أنه تعالى يمكنه جعلها فاشلة، ومهما حاول المزارع ومساعدوه فلن يستطيعوا جعل الجنتين تنتجان إن قرّر تعالى فشلها...

(وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً{34})
{وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ}، كان لهذا الرجل صاحب الجنتين نتاج من النباتات التي في الجنتين. وسترى من تكملة الكلام أنه لم يحصد ثماره حيثُ ما زال على الأشجار والزرع...

{فَقَالَ}، هذا الرجل، {لِصَاحِبِهِ}، لشخص آخر يعمل في مجال الزراعة أيضا، {وَهُوَ يُحَاوِرُهُ}، حيثُ حصل حوار بينهما ومرّة هذا يتحدّث ومرّة يتحدّث الآخر، وجرى حديث بينهما حول الزراعة وما نتج عنها وما يتعلّق بها... وقال صاحب الجنتين:

{أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا}، حيثُ لديّ أشياء لها قيمة أكثر مما لديك، وأنا {أَعَزُّ نَفَرًا}، حيثُ لديّ أنفار، أشخاص ينفرون ويتحركون للعمل، وأنا أعزّ منك لأنك تقود وتأمر أنفاراً أقل مما أنا أقود وآمر، لذا أنا لديّ قوّة عمّالية أكثر من قوّتك العمّالية. وسنرى من بقية الفقرة حين يتكلّم الرجل الآخر أنّ لصاحب الجنتين عمّالاً أكثر وأيضا لديه أولادٌ أكثر من الرجل الآخر.

لاحظ أن كلام هذا الرجل صاحب الجنتين مثل كلام المسلمين غير الملتزمين، الذين يحتملون وجود إله، ويحتملون وجود آخرة، حيثُ ستجد أنه لم يكن من المشركين عبدة الأصنام أو الأشخاص أو الكواكب... بل ستجد أنّه سبحانه اعتبره أشرك حين نفى قدرة وسيطرة الله تعالى، ووضع مكانها قدرته هو وسيطرته هو على نجاح زراعته... وهذا هو لبّ هذه القصّة: الشرك به تعالى بنفي قدرته وسيطرته تعالى على الأمور. إنّ الآية هنا تشير إلى اعتزازه على صاحبه بقدرته المالية والعمّالية التي أنتجت له هذه الثمار... مثلما يتبجّح الأغنياء على الفقراء ويقولون لهم: فكرنا وحنكتنا التي نتميّز بها عنكم جعلتنا ننجح في أشغالنا وصار لدينا أموالٌ وشركات وعمّال... وأنتم فاشلون.

(وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً{35})

{وَدَخَلَ جَنَّتَهُ}، هذا الرجل صاحب الجنتين دخل في يوم ما إلى المكان الموصوف بروعة ما فيه، وهما الجنتان المتجاورتان من أعناب ونخيل وزرع، ودخلها، {وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ}، حيثُ لم يكن عادلاً منصفاً مع نفسه، ولم يكن معه حقٌّ فيما فعله بنفسه، وسنفهم من الجملة التالية كيف ظلم نفسه حيثُ {قَالَ}:

{مَا أَظُنُّ}، بحسب استنادي لعلمي وما أراه ولا أعتقد، {أَن تَبِيدَ}، أن تصير كالبيداء أو تموت، {هَذِهِ}، الجنّة، {أَبَدًا}، مهما جاء من زمن.

لاحظ، أنه لم يَرَ قدرة فوق قدرته، حيثُ لم يَرَ إلهاً متحكماً بالأمور، بل رأى نفسه يتحكّم بكل الأمور، وأنّها كلها تحت السيطرة.

كما ترى، توصيف الجنتين يدل على أنهما محميتان من العواصف بأشجار النخيل القويّة التي تحيط بهما، والزرع محميٌّ من حرارة الشمس تحت الأعناب، والماء نهر للسقاية ويمكن تحويل مجاريه... وللرجل عمّال مناسبون يقومون بالعناية بالجنتين، فحسابات هذا الرجل مبنيّة على هذا الأساس، حيثُ نسي قدرة الإله التي فوق قدرته... ولم يشكره تعالى على ما أعطاه... لذا لم يكن معه حقٌّ بذلك وظلماً لم يشكر من منحه ذلك الرزق.

هذا الرجل نموذج عن حالة عامّة تصيب غالبية الناس، حيثُ إنّ حالة الراحة والاطمئنان من توافر الرزق، يتبعها الشعور بدوام الرزق، يتبعها الشعور بالسيطرة والعظمة، وأخيرا ينتج عنها وهم أن الحال لن يتغيّر، فننسى أننا معرّضون للأمراض وأننا حتما سنشيخ ونموت... وننسى الأزمات التي تدمّر الثروات... وننسى الكوارث التي تدمّر البلدان... وننسى الحروب التي تجرف معها من لا علاقة له بها... وننسى الأوبئة... فكلام صاحب الجنتين عن دوام جنته أبداً ليس عن مبالغة، بل أوهام يتخيّلها حقيقةً! وهذا ما جعله ينكر الآخرة كما سترى من الآية التالية.

من جملة "ظلم نفسه" عادة ينصرف ذهننا أنه ظلمها لأنه سبّب لنفسه شيئاً سيّئاً، وهذا صحيح، ولكن الآيات القرآنية عادة تشير إلى نفي الإنصاف والعدل، حيثُ هنا مثلاً، حصلت أيها الرجل على جنتين رائعتين، ومن الإنصاف أن تشكر الذي أعطاهما لك، ومن الظلم نسيان فضله عليك، لذا ليس معك حقٌّ بإنكار فضله، وهذا المعنى هو المقصود غالباً في القرآن. والمعنى الثاني، أن تظلم نفسك حين تسبّب لها الضرر، حيثُ لم تكن منصفاً عادلاً مع نفسك لأنك اخترت لها الضرر، وهذا المعنى التطبيقي قصده القرآن بآيات أقل بكثير مما قصده بالمعنى الأوّل، ودائماً على كل الحالات فالظلم يقابله الابتعاد عن الإنصاف والعدل، فمن لم يكن معه حقٌّ فهو ظالم، وتطبيقياً إن سبّب لنفسه الضرر فهو ظالم لنفسه لأنه من المفروض به العناية بها لإبعاد الضرر عن نفسه، لذا لم يكن معه حقٌّ في تسبيب الضرر لنفسه.

(وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً{36})

نكمل كلام المحاورة بين الرجلين: {وَمَا أَظُنُّ}، حساباتي التي بين يدي والتي أقتنع بها واستنادا للمعلومات التي عندي، لا تجعلني أعتقد أنّ، {السَّاعَةَ}، الفترة من الزمن، وعادة يشير القرآن بهذه الساعة إلى الفترة التي سنقوم فيها من الموت من يوم القيامة، لا أظنها، {قَائِمَةً}، مفعّلة فهي معطّلة ولن تحصل.

أوّل يوم بالنسبة لنا من الآخرة هو يوم قيامتنا من الموت، وأول ساعة هي ساعة قيامنا من الموت، ونسمّي ذلك اليوم بيوم القيامة من الموت، ويليه أيام من حشرنا وحسابنا جماعياً وفردياً... وعرض الأشهاد... وصولاً إلى آخر يوم، وآخر ساعة فيه هي ساعة دخول آخر واحد إلى النار أو إلى الجنة خالدين. ومن بعد تبدّل السماوات والأرض التي في الدنيا فكل الزمن التالي هو الآخرة، مروراً بيوم القيامة وأيام الحساب ووصولاً إلى الخلود في الجنة والنار.

إذن فهذه الجنّة التي أملكها لن تبيد، أبداً، فلا يهمّني إن كان هناك آخرة وجنّة فيها، لذا أنا مكتفٍ معتزٌّ مفتخرٌ مزهوٌّ... بجنّتي. وكما ترى حيثُ تولّد لديه وهم بأنّ جنّته لن تبيد ولن تخرب. ولن أطيل عليك الكلام لترى حالته المشابهة لحالة متوسطي الدخل المرتاحين في بلدان مستقرة مالياً وأمنياً، وحالة الأغنياء بثراء فاحش، لأنّ هؤلاء بسبب النعمة التي يعيشونها يفقدون اهتمامهم بالآخرة، حيثُ هنا بين أيديهم الملذات التي يشتهونها، ممّا جعلهم بالغنى عن الآخرة...

{وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي}، حيثُ بعد موتي لم أبق على حالة الموت وجرت إعادتي حيّاً إلى المسؤول عنّي من مستوى إلهي، وحصلت الساعة ولم يصدق ظنّي بكفري بالساعة، وقمت فعلاً من الموت لأقف بين يدي ربي، {لَأَجِدَنَّ}، حيثُ سوف أجد بالتأكيد، {خَيْرًا مِّنْهَا}، أفضل من جنتي هذه، {مُنقَلَبًا}، حيثُ في المقلب الآخر، في الناحية الثانية، في الحياة الثانية في الآخرة إن كذب ظني وكانت الآخرة موجودة، فعلى الأكيد سأحصل على جنّة خيراً منها، أفضل من جنتي الدنيوية هذه.

تلاحظ أنك بكل سهولة ستتعجّب من تفكيره! ولكن انغماس الناس فيما بين أيديهم من قدرات ومال وعزّ... وشعورهم بالسيطرة التامة على ما حولهم، وهذا شيء ركّزت عليه الآيات حين وصفت لنا شعور هذا الرجل بالقدرة التامة والسيطرة المطلقة على نجاح أعماله الزراعية، فهذا الشعور "بالعظمة" ونسيان الخالق يجعل هؤلاءِ الناس يتخيّلون أنهم في العظمة الدائمة مهما حصل، وأنها جزء منهم لا ينفصل عنهم مهما تغيّرت العوالم، حتى في المنقلب الآخر! في عالم الآخرة! وتلاحظ تركيز القرآن على هذه النفسية في العديد من الآيات، منها التي توصّف المنحرفين من أهل الكتاب حين يعلنون أن الجنة في الآخرة لهم حصراً وحتماً مهما فعلوا! كما ورد في الآية 80 من سورة البقرة {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، ومنها ما ورد في توصيف الكفّار الأغنياء حين يعلنون أنه إذا صدق الرسل وحصلت الآخرة فهناك الوضع لن يختلف عن الحال في الدنيا، فالغني هنا سيكون غنيّاً هناك! كما ورد في الآية 50 من سورة فصلت {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ}، وهي هذه النفسية المتعالية من الشعور بالقدرة المطلقة للسيطرة على الأمور والتميّز عن الآخرين بدليل ما هم فيه من غنى ووفرة ونجاح في الأعمال والتجارة... هنا في الدنيا.

وبالنسبةِ لكلمةِ "ظنّ" فهو اعتقادك بشيء ما مستنداً إلى شيء ما، فإن كان ما تستند عليه صحيحاً كان ظنّك صحيحاً، وهذه حالة المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم سبحانه كما ورد في الآية 46 من سورة البقرة {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، فهم مستندون في ظنّهم على آياته وكلامه تعالى. وإن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران {وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ}، استناداً للحالة الحرجة التي كانوا فيها ظنّوا أنه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء. وبين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند عليها ولكنه ليس مقتنعاً بها، حيثُ لا تزال الأمور عنده مرجّحة لاحتمالات أخرى، فهذا ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}، حيثُ يريدون أن يلمسوا مباشرة حصول ساعة قيامهم من الموت حتى يعتقدوا بها ولا يكفيهم الاستناد إلى معلومات تدلّ عليها، فيريدون اليقين بها عياناً حتى يؤمنوا. وهذه الحالة قريبة جدّاً من الاصطلاح "في علم المنطق" والدارج لمعنى كلمة ظنّ على معنى وجود عدة احتمالات. وها صرت تعلم المعنى اللغوي الأساسي لكلمةِ "ظنّ" فانتبه للفرق بينه وبين المعنى الاصطلاحي حتى لا تفسّر القرآن على أساس المعنى الاصطلاحي.

في عموم كتب التفاسير ستجد كلاماً آخر عن الظنّ، ولا ينطبق معناه على كلّ آيات القرآن، حيثُ ستجدهم لا يثبتون على معنى واحد للظنّ، حيث مرة يرادفونه باليقين، ومرّة بالشك، ومرة بالحسبان... وهي معانٍ غالباً ستجدها صحيحة لأن الآيات واضحة وتدل على المعنى الذي ذكروه بالشكل العمومي الذي يتحمله الاشتقاق والتدرّج من أصل معنى كلمة ظنّ، ولكنها ليست المعنى الدقيق لكلمة ظنّ، بل كلامهم توصيف لحالة العلم الذي استند إليه الظنّ، وها صرت تعلم معنى الكلمة العام، وأن القرآن دائماً يوضّح لك نوع العلم الذي يستند الظنّ له إن كان صحيحاً أو فاسداً، فلن تضيع في معرفة الظنّ الصحيح من الظنّ الخطأ.

تذكّر الآيات التي سبقت هذه الفقرة حيث كانت تتحدّث عن مشكلة معاشرة المؤمنين لغير المؤمنين الحقيقيين، وهذه الفقرة تتحدّث عن مثال لرجل ليس من المؤمنين الحقيقيين، وكيف يفكّر، وماذا يقول، لأنه تعلّق بزينة الدنيا وغفل قلبه عن الإله سبحانه... وَلْنَرَ كيف يفكّر المؤمن وماذا يقول:

(قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً{37})
نكمل المحاورة بين الرجلين: {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ}، تحدّث الرجل الآخر الذي لديه أيضاً مزروعات وشجر ولكنها ليست ناجحة مثل نجاح صاحب الجنتين، {وَهُوَ يُحَاوِرُهُ}، والكلام يدور بينهما حيثُ مرّة هذا يتكلّم ومرة أخرى الآخر يتكلّم:

{أَكَفَرْتَ}، هل أعلنت اعتقادك بإنكار، {بالَّذِي خَلَقَكَ}، الذي ركّبك وألّفك، {مِن تُرَابٍ}، من المواد "كربون كالسيوم أوكسجين..."، {ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ}، حيثُ ركّبك من شيء حجمه قليل جدّاً، من نقطة مني، وتعلم حالياً أنه حيوان من الحيوانات المنوية التي لا تُرى بالعين المجردة، {ثُمَّ سَوَّاكَ}، حيثُ جعلك بالتمام متناسباً مع وصفك، {رَجُلًا}، إنساناً ذكراً تام المواصفات الإنسانية للذكر، فهل كفرت به سبحانه؟

فَهِمَ من كلام صاحب الجنتين إنكاره لوقوعه تحت السيطرة الإلهية ونسيان كونه مخلوقاً من تراب... حيثُ في مرحلة خلقه كان فاقداً للسيطرة ويظهر بوضوح سيطرة التصميم الإلهي الذي جعله رجلاً وهو ليس له أي سيطرة على هذه العملية، ونفس الشيء بالنسبة للجنتين لأنهما نتاج تصميمه تعالى وسيطرته وليستا من قدرتك وسيطرتك الذاتية المنفصلة عنه تعالى.

بعبارة أخرى، إن رأيت نفسك مسيطراً على نجاح الجنتين، ولم تعد تَرَ الإله الذي خلقها وسوّاها، فهل كنت المسيطر على نجاح خلقتك عبر المراحل المختلفة؟ ومن سوّاك ومن خلقك أنت أيها الناجح المعتز؟ لذا بالتأكيد يوجد إله خلقك، فكيف أنكرت وجوده وسيطرته عليك وعلى كلّ شيء؟

بقي شيء، حيثُ في عدة آيات أحلت القارئ لآياتنا هنا بكلامها عن التسوية، وما ورد في القرآن صراحةً عن تسوية آدم(ع) في الآيتين 29 من سورة الحجر والآية 72 من سورة ص {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}، وما ورد في غيرها من الآيات من تعابير حيثُ فسرها غالبية المفسرين بالفورية في خلق آدم(ع) من دون أبوين، وآيتنا هنا استعملت التعبير بالتسوية ومعلوم أنها لم تقصد الفورية، ولا الكلمة معناها يتضمّن الفورية ولا استعمال القرآن لها مخصّص لما كان فورياً، وبالتالي الكلام عن تسوية آدم(ع) لا يظهر من تعابير القرآن أنها حصلت فوراً.

(لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً{38})
{لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي}، أنا بعكسك أعلن وأعتقد أنّ صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" تعالى هو المسؤول عني من مستوى إلهي، {وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا}، ولا أجعل مع المسؤول عني من مستوى إلهي أي شريك.

انتبه جيّداً، لم يقل صاحب الجنتين أي كلام علني عن كفره بالإله سبحانه، ولم يقل إنّه يجعل لله تعالى شريكاً، ولكن عندما قال إنّه هو نفسه المسيطر على نجاح الجنتين، والإله لا دخل له بنجاحهما، فمعنى كلامه إنكار ربوبيته تعالى، ومن شدّة فخره واعتزازه بجنّتيهِ تناسى الآخرة ولم تعد تهمّه، حيثُ أنزلها لمستوى الظنّ بأنها لن تأتي!

إذن نحن أمام النوع الثاني من الشرك بعد عرض السورة في قصّة أصحاب الكهف للنوع الأول الصريح من الشرك حين نقلت لنا أنّ قومهم كانوا يعبدون غيره تعالى، وهنا نجد منكراً لسيطرته تعالى على الأمور ومستبدلاً سيطرته تعالى بسيطرته هو على نجاح جنّتيه.

تلاحظ أيضاً أنّ قصة أصحاب الكهف لم تشر لانتمائهم بالاسم لكتاب إلهي أو نبي... وهنا نفس الشيء، وهذه لفتة أراها مهمّة جدّاً وبخاصة عند استذكاري لحالة الشاب إبراهيم الذي لم يكن تعلّم الدين لا من كتاب ولا من نبي ولا حتى سمعه من شخص منتمٍ لدينه تعالى، حيثُ بعد محاولة قومه إحراقه... ومهاجرته من مدينتهم صار نبيّاً، وعند استذكاري لبعض فلاسفة اليونان المشهورين جدّاً الموحدين في قوم غالبيتهم مشركون.

بعيداً عن الروايات وأقوال المفسرين والتزاماً بالنص القرآني لوحده، نحن أمام قصتين تكونان قد وقعتا في مجتمع ليس فيه منتمون بالاسم لدينه تعالى، وفي تحليل هو الأرجح بالرغم من استعمال القرآن لكلمة "الله" في الكلام عن الإله، فهذا لا يعني أي شيء، لأن القرآن عادة ينقل ما يقصده القائل ولا ينقل ترجمة حرفية أو نقلاً حرفيّاً لما قاله القائل، وبالتالي التعبير بـ "الله" يكون منقولاً بالمعنى الذي قصده القائل واصفاً الإله الأحد بأي كلمة من كلمات لغته.

(وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاء اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تُرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً{39})
{وَلَوْلَا}، بدل إنكارك للنعم الإلهية عليك، {إِذْ}، حين، {دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ}، هذه الجنة حصلت لأن الله تعالى شاء، وأمامه تعالى خيارات عديدة وقرّر منها أن تحصل على جنّتك، {لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ}، لا قوّة أخرى مهما كان نوعها هي قوّة حقيقية قادرة على إنجاح هذه الجنّة إلّا القوّة الإلهية.

{إِنْ تَرَنِ}، إذا صار لديك صورة محدّدة لي، كما نقول بالعامية: إذا شفتني، {أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا}، أملاكي أقل من أملاكك، وأولادي أقل من أولادك، فيجب عليك شكر الذي منحك مالاً وأولاداً أكثر منّي.

بعبارة أخرى، أنا أريد أن يكون لدي الكثير من الأموال والأولاد، وحاولت، ولم أنجح، لأنّ هناك قوّة أقوى منّي لم تشء لي الثروة وكثرة الأولاد، وشاءت لك الثروة وكثرة الأولاد. ولو كان الموضوع يتغيّر بقدرتك الذاتية، فأنا أيضاً بقدرتي الذاتية كان من المفروض أن أقدر على تغيير حالي ليكون الأفضل، ولكنّي أنا وأنت تحت قدرة من يقرّر ماذا سيحصل معنا.

(فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً{40})
{فَعَسَى رَبِّي}، هناك احتمال مرجّح غير أكيد من المسؤول عني من مستوى إلهي، {أَنْ يُؤْتِيَنِ}، أن يعطيني، {خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ}، وأنا أحبّ أن يكون لدي جنّة ناجحة أنجح من جنّتك ولكن لا أدري إن كان سبحانه بالنظر لحكمته سيمنحني جنّة ناجحة، وربما أنا لا أستحقّ بسبب ذنوبي، وربما لم يعطني حتى لا يتراجع إيماني... ولكنّي مؤمن به سبحانه ولذلك أتوقّع وأحتمل أن يرزقني، وفي المقابل، {يُرْسِلَ} على جنّتك {حُسْبَانًا}، شيئاً محسوباً، {مِنَ السَّمَاءِ}، عقاباً محدّداً منه سبحانه لمن كفر وأشرك به، {فَتُصْبِحَ}، أوّل ما تصير عليه جنّتك بعد إصابتها بشيء إلهي، {صَعِيدًا}، على طبيعة الأرض العادية، ترجع أرضاً عاديةً مثل أي أرض أخرى بلا أبنية ولا منشآت، {زَلَقًا}، ليس عليها شيء، ويمكن أن تصير بلا شجر ولا مزروعات.

قيل إنّ كلمة {حُسْبَان} معناها حبّات البرد، وقيل الصواعق وقيل النار، ولكنها وردت في الآية 96 من سورة الأنعام بمعنى: محسوب، مقدّر لحركة الشمس والقمر، {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}، وهنا نفهم قصدها الأشياء المحسوبة المقدّرة من الحوادث الطبيعية التي يأتي القرار بها منه تعالى، وعملياً يمكن أن يكون ذلك حبّات برد أو نار أو...

يعني، إن كنت ترى نفسك مسيطراً على بعض الأمور، فهل أنت مسيطر على الظروف المناخيّة أم الإله سبحانه؟ وهناك عقاب إلهي محسوب لمن يكفر ويشرك به وأنت في حالة استحقاق لنزول العقاب الإلهي عليك، أمّا أنا فأحاول أن أكون مؤمناً ولذلك فأنا مرجّح لي أن يزيد تعالى من فضله عليّ...

انتبه، لأنّ هذا الرجل المؤمن لا يقصد الدعاء بالشرّ على الرجل الآخر، وعندما يقول: عسى أن يصيب الخراب جنّتك... كلمة {عَسَى} لا تعني أبداً أنّه يتمنّى، ونحن في الاستعمال العادي لكلمات: عسى، لعلّ، يا ليت... لا نكون دقيقين، ونخلطها مع بعض، ويمكنك مراجعة الاستعمال القرآني الصحيح الدقيق لهذه الكلمات في دراستنا، وسترى أننا حقّقنا فيها إنجازاً جيداً في تحديد معناها الدقيق المستخرج من دقّة استعماله سبحانه للغتنا. وهنا ترى أنّ المؤمن رجّح حصول خراب للجنتين بناءً على كفر صاحبهما وفي نفس الوقت هو غير متأكّد إن كان سبحانه سيأخذ هذا القرار أو سيتركه يغنى أكثر.

كلمة {أَصْبَحَ} الواردة هنا سندرسها في الآية التالية.

(أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً{41})
{أَوْ}، عسى هناك احتمال مرجّح غير أكيد أن، {يُصْبِحَ}، أول ما يصير الحال من بعد القرار الإلهي بخراب جنّتك، {مَاؤُهَا}، ماء النهر الذي يعبر جنّتك، {غَوْرًا}، يغور في الأرض، وينزل فيها ولا يَعُودُ هناك ماء على السطح لتسقي منه الشجر والمزروعات، {فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ}، للماء، {طَلَبًا}، تطلبه للحصول عليه بالحفر ولا تستطيع لأنّ الماء غار ونزل عميقاً في الأرض، فعندها ماذا ستفعل؟ هل لديك السيطرة على مثل هذه الظروف التي يمكن أن تحصل؟ أم أنها تحت سيطرته سبحانه وتعالى؟

بالنسبة للتعبير بـ {أَصْبَحَ}، الكلمة في أصل اللغة مجعولة لتوصيف الصيرورة لأول حالة بعد حدث، مشابهة بذلك الإصباح لأول ما يستقبلك من النهار من بعد الليل. وهي أوّل حالة من بعد حالة سابقة، وخذ مثلاً حالة أم النبي موسى(ع) التي أصبح فؤادها فارغاً كما ورد في الآية 10 من سورة القصص {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا}، لأنّ الذهول بتوقّف وجمود فكرها ومشاعرها هو أول حالة أصابتها بعد إلقائه (ع) في النهر. وترى هذا المعنى بوضوح في الآية 103 من سورة آل عمران {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا}. كلمة {أَصْبَحَ} ليست مخصّصة لزمن أول طلوع الشمس بل لعامّة أول حالة من بعد حدث ما، وهي ليست مقابل أمسى على معنى ربطها دائماً في أي جملة بزمن أوّل النهار، وهي أيضاً ليست مرادفة لكلمة صار.

(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً{42})
... {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ}، وقف في أرضه في الجنّة مُحَاطاً بالثمر من حوله على الأرض، ومن الواضح أن كارثة أصابت الجنتين وتحطّمتا ووقع الثمر على الأرض قبل أن ينضج، والناضج منها خرب، ولم تذكر الآيات ما الذي سبّب خرابها لأنه غير مهمّ، سواء خربت من ريح قويّة أو من ريح حارّة أو باردة أو من حبّات البرد... لا يهم، المهم أنها خربت من شيء يفوق قدرة صاحب الجنتين على تجنّبه. والمشهد تصوّره الآية والرجل واقف في جنّته يتفقّدها والثمر من حوله تالف.

{فَأَصْبَحَ}، أوّل ما صار معه أنه، {يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ}، ويضربهما ببعض، ومرّةً اليمنى من فوق ومرّةً اليسرى من فوق، كحركة حسرة، {عَلَى مَا أَنْفَقَ}، على الذي صرفه، {فِيهَا}، في جنّته. يعني قام بضرب كفّي يديه ببعض، وهو ما نسميه تصفيقاً، ومرّةً تنزل الكفّ اليمين من فوق لتضرب الكفّ اليسار، ثم يقلبها، ويرفع اليسرى وتنزل على اليمنى، وهكذا... ويقوم بحركات بيديه تدل على أسفه على المال والجهد الذي صرفه على إنجاح الجنّة المقسومة لجنتين.

{وَهِيَ خَاوِيَةٌ}، والجنّة فارغة من داخلها، {عَلَى عُرُوشِهَا}، على ما ارتفع منها، ولا يزال يظهر أساس وجود جنّة، وترى الشجر والأغصان وحدود المزروعات... هذه العروش ولكن خاوية فارغة ولا ثمر فيها، لأنّ الثمر تساقط على الأرض عفِناً أو ممزّقاً أو يابساً... لا ندري، ولكن على كلّ حال لم يبق فيها ثمر صالح للأكل.

أثناء حركات الندم والأسف والحسرة، يقول:

{يَا لَيْتَنِي}، أرغب بشيء فاتني ومن المستبعد حصوله الآن، لو أنّي، {لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا}، لم أجعل أي أحد شريكاً للمسؤول عني من مستوى إلهي، لأنّي أنكرت ألوهيته وسيطرته على الرزق وعلى البيئة، وأعلنت نفسي المسيطر على أمور الزراعة في أرضي، وجعلت نفسي شريكاً له تعالى في الربوبية.

ننتبه جيّداً للمعنى الذي تطرحه الآيات هنا، وكما فهمنا من القرآن أن مجرد تنفيذك لكلمة واحدة تسمعها من غير الله تعالى، وتكون مخالفة لأوامره تعالى، فسبحانه يعتبرك واليت غيره وتركت ولايته، وهنا تبيّن الآيات أن أي نوع من الاعتقاد بانتفاء وجود سيطرة إلهية على أي شيء كان، والاعتقاد بوجود سيطرة لغيره تعالى، فهو اعتقاد معناه الشرك به تعالى، ومجرّد القول بأني أنا باجتهادي وشطارتي وفكري لوحدي حصل النجاح، ولم أعتقد بوجود سيطرة إلهية فوق قدرتي، فهذا معناه أنني جعلت نفسي أملك قدرة إلهية، لأنّي نفيت القدرة الإلهية وأعلنت قدرتي الذاتية، وجعلت نفسي شريكاً له تعالى في الألوهية...

هذا من المعاني المرعبة التي يشرحها القرآن بكثرة ولكننا لا نلتفت لها، بل في كثير من الأحيان نعتبر أن هذا النوع من الاعتقاد بالسيطرة الإلهية على كل شيء، هو نوع من الإيمان العالي الذي يشعر به الرسل والأنبياء وصالح المؤمنين، وليس مطلوباً منّا هذه الدرجة العالية من الإيمان، وأمّا في الحقيقة فهو الإيمان العادي الذي يجب أن نؤمن به كلّنا، وإن لم نكن كذلك فنحن مشركون ولا ندري بذلك.

تذكر الآية 8 من هذه السورة حيث أشارت أن زينة الدنيا ستصير صعيداً جُرُزاً، فمن تعلّق بها فقد تعلّق بشيء زائل أساساً.

(وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً{43})
{وَلَمْ تَكُنْ لَهُ}، لصاحب الجنتين، {فِئَةٌ}، مجموعة لها تصنيف يميّزها عن الآخرين، وهنا الكلام عن مجموعة لديها قوّة يمكنها ردّ الضرر عن الجنتين، {يَنْصُرُونَهُ}، يحققون له ما يريد، {مِنْ دُونِ اللَّهِ}، كما نقول: ذهبتم من دوني. أي ذهبتم مع غيري، وهنا تقول الآية أنَّهُ لم يجد أي شخص أو أشخاص يمكنهم ردّ الضرر عن جَنَّتَيْهِ أو أن يساعدوه حتى يسترجع جنتيه، {وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا}، أصلاً لن يحصل على أي تأييد أو مساعدة لتحقيق ما يريد لو طلب من غير الله تعالى.

أمامَ قرار إلهي بضربه في رزقه على ما أشرك به، من المستحيل أن يقدر أحدٌ ما على منع حصول ذلك.

(هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً{44})
هناك، في تلك الحالة التي يتبين فيها العجز التام عن فعل أي شيء أمامه تعالى، {الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ}، فالولي الذي يلي الأمور من مستوى إلهي وهي تابعة له هو صاحب الاسم المميّز المحدّد "الله" عزّ وجلّ، وَوحده القادر على فعل ما يريد.

هو تعالى، {خَيْرٌ ثَوَابًا}، لأنَّ ما يرجع على من والاه تعالى موصوف بأنه خير، وهو تعالى، {خَيْرٌ عُقْبًا}، أي ما يعقب، وَما يأتي، وَما يحصل بعد، أي حادث فإنّ من والاه تعالى يحصل على ما هو موصوف بأنه خير، وَهناك عقبى وَهناك شيء يعقب الحوادث فيحصل بعدها، ومن والاه تعالى سيحصل على عقبى جيّدة.

نعلم من القرآن أن أي شيء يحصل مع المؤمن الموالي حصرا لله تعالى، أي شيء مهما كان، عليه ثواب في الآخرة، والثواب: جنّة خالدة فيها ما يفوق تصوّرنا. وهي {خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا}.

لم يرد في القرآن تصريف "الولاية" إلا مرة واحدة في هذه الآية فقط.

بقي شيء، هل أصابت الجنتين كارثة طبيعية من نتاج العوامل البيئية أم سبحانه بِتدخل منه غيّر بالعوامل ووقعت الكارثة؟ كما ترى، من الآيات هنا تعلم أن الإرادة الإلهية حصول خراب للجنتين، ولدينا حادثة مشابهة روتها سورة القلم من الآية 17 وما بعدها، {إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ}، وهناك حصلت كارثة للجنة ليلا بعد تثبيت أصحابها للنية السيئة بأنهم لن يتصدقوا من محاصيلهم على المساكين... وهذا النوع من

التوقيت يشير إلى تدخّل إلهي لحصول الكارثة، أمّا هنا فليس لدينا إلا التلميح القوي بالتدخّل الإلهي بأمر مباشر بحصول كارثة، حيث نقلت لنا الفقرة توقّع صاحب الجنة الأقل مالا وولدا لحصول كارثة من تدخّل إلهي أو طبيعي.

أقول لك هذا لأن ما نسميه بالكوارث الطبيعية يحصل بالشكل العادي من تصميمه تعالى لبيئتنا المتحركة المتجدّدة، وليكون في بالنا دائما أن قدرة فوقنا حكمتنا في واقعنا الذي قد يصير هشّا ليتدمّر بكارثة لا يمكننا ردّها، وهكذا نعلم أنه تعالى فوقنا... إذ يترك سبحانه الكوارث تحدث أو يتدخّل ليخفّف أو يمنع حدوثها، إذ ليست كل كارثة طبيعية من فعله المباشر وبقرار تدخّل مباشر منه تعالى ليحدث شيء ما لم يكن ليحدث في الحالة العادية لجريان الظروف الطبيعية، وَالبعض منها كذلك، وأشهرها انفلاق البحر وإطباقه على فرعون وجيشه، لأنَّ هذه أصلا حادثة لا تحصل في الحالة العادية من الطبيعة، وبقية الآيات التي جرت قبله من فيضان وجراد وقمل... على المصريين مِنَ الواضح من كلام القرآن أنها حصلت بتدخل إلهي مقصود غيّر في البيئة. ومنها ثمانية أيام من ريح صرصر عاتية دمّرت مدينة إرم التي فيها أناس من قبيلة عاد...

البعض الآخر من الكوارث الطبيعية كان يمكن للناس ردّه لو أنهم لم تفسد حكوماتهم، وهذا مما وليس كلّ ما تشير إليه الآية 41 من سورة الروم {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

بعض الكوارث الطبيعية يتدخّل سبحانه لمنعها أو تخفيف ضررها، أو يتجنبها الناس بسبب صلاح حكوماتهم وهذا مما تشير له الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

يعني ليست كل كارثة طبيعية تحدث من أمر إلهي بتغيير شيء في الظروف المناخية والبيئية لتحصل، وليس كل هلاك لقوم من تدخّل إلهي لتغيير البيئة لِيَحْصُلَ، إذ إنَّ بعض الكوارث علينا هي من نتاج تصميمه تعالى للأرض والسماوات، وسبحانه يتركها تحدث أو يتدخل ليمنع حدوثها أو يخفّف من ضررها، وذلك بحسب مستوى إيمان وصلاح المتعرضين للكارثة. وهناك كوارث من أمره المباشر تعالى تحدث بتغيير في الطبيعة، وحتى لو بدت لنا كأنها كارثة طبيعية كثوران بركان أو زلزال أو طوفان.

أمّا معيار تدخله تعالى لمنع أو تخفيف الكوارث الطبيعية، ومعيار الأمر بهلاك قوم بكارثة من أمره تعالى، فخلاصته أن إيمان الناس وصلاحهم له جانبان، الأول مدى رضاه تعالى عنهم لِذَا يتدخّل سبحانه بقدر ما يستحقون من اهتمام، والثاني ناتج من صلاحهم، حتى لو كانوا كفّارا به تعالى ولكن حكومتهم وقانونهم فيها مستوى مقبول من الصلاح فهؤلاء سينتج عن صلاحهم خير لأنفسهم بتفادي الكوارث بجهودهم الصالحة، وهذا ما نفهمه من تعبير {بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ}، إذ إنَّ الفساد ناتج عن أفعالهم السيئة، وبالعكس وَالصلاح ناتج عن أفعالهم الصالحة بغض النظر عن كفرهم.

الكفر والشرك به تعالى، ومع أنه من أكبر السيئات، إلا أنه ليس السبب الوحيد لإهلاكه تعالى لأي قوم هنا في الدنيا، إذْ لن تجد في القرآن حالة إهلاك قوم فقط لأنهم مشركون، بل ستجد دائما أنهم مفسدون وَيرتكبون سيئات من العيار الثقيل جدا، وستجد تركيزاً على شركهم على أنه أكبر السيئات. وخذ حالة فرعون مثالا حيث ادّعى الألوهية وهذا لم يكن سببا كافيا ليهلكه تعالى، إذْ تركه سبحانه وجنوده وملأه، وخوّفهم بجبال الممرات في البحر، ولم يرتدعوا بسبب حلمه السابق تعالى عليهم، ولم يؤمنوا حتى من هذا المشهد غير العادي... فدخلوا فيها لقتل وأسر مؤمنين... وَعندها ولهذا السبب أهلكهم تعالى.

(وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً {45})
{وَاضْرِبْ لَهُمْ}، وأقم للناس عبر هذا القرآن، {مَثَلَ}، شيء للتشبيه: {الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، الحياة التي تعيشونها الآن وتوصف بأنها دنيا على معنى "الدنو" القريبة وذلك في مقابل الحياة التي ستأتي في الآخرة ويسميها تعالى بالحياة الآخرة، {كَمَاءٍ}، مثل ماء، {أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ}، بالماء، {نَبَاتُ الْأَرْضِ}، شَرِبَهُ وَنَمَا به... {فَأَصْبَحَ}، أَوَّلَ

ما يصير النبات، ومن تكملة الكلام ترى أن الوصف لما بعد انتهاء نموّه، {هَشِيمًا}، محطما لم يعد على كيانه السابق، {تَذْرُوهُ}، تجعله منفصلا مشتتا، {الرِّيَاحُ}، يضرب الهواء القوي الهشيم ويحمله من مكان إلى مكان، مثلما نراه يحصل عادة في فصل الخريف من طيران الأوراق والحشائش.

{وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا}، لديه كامل الصفات التي تجعله يستطيع فعل كل شيء يريده، وهنا الإشارة أَنَّهُ تعالى أراد أن تكون الحياة الدنيا متغيّرة زائلة لا تدوم، وهو قادر على ذلك، حيثُ صمَّمها وخلقها كذلك، بل وقادر على كل شيء يريده.

تعقيبا على مثل صاحب الجنتين الذي ظنّ أنه بقدرته الذاتية وبسيطرته على الأمور نجحت زراعته... الآية هنا تتحدّث عن تغيّر حال النبات من الحياة إلى اليباس، ولا تبقى أي قوّة فيها، لتحملها الرياح وترميها على أماكن متفرقة من الأرض، كمثال تشبيهي عن سير كل ما في الدنيا بحسب تصميمه تعالى وتحت سيطرته، وأن كل ما فيها سيفقد الحياة، وسيتحوّل ويزول... فلا تتعلقوا بها.

لاحظ أن التعلّق بزينة الدنيا يجعلنا ننسى أنها زائلة، وهذا المثل عن موت النبات تراه يتكرر بكثرة أثناء حياتنا، وَمِنَ المفروض الانتباه له كدليل على أنه لا بقاء لأي شيء من الدنيا على حاله، إذْ كُلُّهُ زائل، وما تراه من صيرورة النبات هشيما هُوَ نموذج واضح جدا عن زوالها.

ننتبه جيدا يا عزيزي للفعل كان، لأنَّ اللغة العربية ليس لديها كلمة خاصة للدلالة على "استمرار" أو "انقطاع" الفعل، وَدلالات الزمن "ماضي مستمر وماضي منقطع..." والتي نجدها في كتب قواعد اللغة الإنجليزية والفرنسية والفارسية والألمانية وغيرها من اللغات، إنَّ تلك الدلالات ليست حكرا على تلك اللغات، إذْ إنَّ كلّ اللغات لديها طريقتها في التعبير عن تلك الدلالات الزمنية للحدث، وهنا الآية نأخذها كمثال عن دلالة التعبير عنِ "الماضي المستمر" باللغة العربية، حتى لو لم نجد في كتب قواعد اللغة العربية تصنيفا لهذه الدلالة، ها هو المعنى واضح الدلالة أمامك سواء في هذه الجملة أو في الكثيرات غيرها، إذْ سبحانه كان "في الماضي" ولا يزال "في الحاضر" وسيبقى "في المستقبل" مقتدرا، وَهذه الدلالة معلومة، والاستعمال مشهور، ولكن علماء اللغة العربية لم يضعوا في قواعدهم تصنيفا لدلالة "الماضي المستمر" والسبب يعود إلى كون هذه الدلالة في اللغات الأخرى لها تصاريف وتراكيب أصرح وأوضح دلالة من اللغة العربية على أزمنة غير قياسية، أزمنة غير الماضي والحاضر والمستقبل، إذْ إنَّهَا خليط منها...

على أي حال، هناك أوصاف حصرية له تعالى بسبب طبيعته الإلهية المختلفة كثيرا عن طبيعة مخلوقاته، وحده تعالى يوصف بالأول والآخر، وبالتالي كان الله حكيما عليما عزيزا خبيرا... فقط في حالته تعالى نقول إنَّهُ كان ولا يزال وسيبقى، ولن تجد كائنا آخر هكذا.

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً{46})
{الْمَالُ}، من الأموال النقدية كالذهب والفضة والمجوهرات والعملة الورقية والإلكترونية... وبقية الأشياء التي لها قيمة تبادلية يمكن تسييلها لعملة نقدية "أموال عينية" كالبيوت والأراضي... {وَالْبَنُونَ}، الأولاد، هُمَا {زِينَةُ}، أشياء مجمّلة تحسّن، {الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، الحياة التي نحن فيها الآن، إذِ المال والبنون يَجْعَلَانِ الحياة أجمل.

{وَالْبَاقِيَاتُ}، الأشياء التي تبقى، {الصَّالِحَاتُ}، الموصوفة بأنها صالحة جيّدة، وواضح من القرآن أنها الإيمان مع الأعمال الصالحة، {خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ}، موصوفة عند المسؤول عنك من مستوى إلهي بأنها جيدة، {ثَوَابًا}، لأنَّ ما يرجع من عند ربّك سبحانه من الباقيات الصالحات التي نفعلها هُوَ خير، {وَخَيْرٌ أَمَلًا}، شيء جيد تتأمّل به، شيء تحبّ أن يحصل معك.

بعبارة أخرى، أَبْرَزُ نماذج عمّا يجعل الدنيا جميلة: المال بنفسه وبكل ما يمكن أن تشتريه به وتحصل عليه بالمال... والأبناء من صبيان وبنات، ولا ينفي القرآن وصفها بالجيّدة، لَكِنَّهُمَا يزولان وَلا يبقيان، وَنفهم من القرآن أَنَّهُ في الآخرة لا تحمل معك أي شيء من المال والأملاك، وأمّا الأولاد الذين تحبّهم هنا في الدنيا، فبكل سهولة ستقدّمهم فِدَاءً ليرموهم في النار بَدَلًا عنك إن كنت من أهل النار، وتقرأ ذلك صَرِيحًا في الآية 11 من سورة المعارج {يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ}.

مَا قال عنه سبحانه إنَّكَ ستحمله معك في الآخرة وينفعك فهو {الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ}، وَهُوَ إيمانك وأعمالك الصالحة، وَهذا الذي يبقى معك وينفعك هناك، والأمل بما سينتج عن الإيمان والأعمال الصالحة هو خير أمل لأنه حقيقي وسيحصل، إذْ إنَّ الأمل من المال والأولاد بِأَنَّهُمْ سيحققون لك السعادة، هُوَ أمل مشكوك فيه، وعلى أي حال هُوَ زائل بموتك، وأمّا الأمل بتحقيق السعادة من الباقيات الصالحات فهو {خَيْرٌ أَمَلًا} لأنه سيتحقق حتما وهو خالد.

ننتبه، إذْ دائما ربط القرآن بين الإيمان الصحيح، والعمل الصالح بِأَنَّهُمَا كلاهما معا يسببان الدخول إلى الجنّة، وَهنا بما أَنَّ الآية قالت إنَّ الباقيات "الأشياء التي تبقى معك في الآخرة" ستسبب الثواب الجيّد، وما يبقى معك هو إيمانك وعملك، فالباقيات حتما هي الإيمان الصحيح وكل العمل الحسن الذي قمت به، إذْ إنَّ تركك للشرك، وتوحيد الإله... وتركك للسيئات، وفعلك للخير... هُوَ ما سيبقى وتحمله معك في يوم القيامة.

بقي شيء كررناه مرارا في دِرَاسَاتِنَا، إذِ الدارج في ثقافتنا الدينية أن الالتزام بدينه تعالى هو الصلاح، وهذا صحيح، ولكن دائما يعرض القرآن نظرتنا نحن للأمور، لأنَّ الذي قلبه سليم سيرى الأمور الصالحة ولن ينخدع ليرى الفاسد صَالِحًا، وبناء عليه سيرى الإيمان بالمعلومات الصحيحة صَالِحًا، وسيرى الأعمال الصالحة ويقوم بها، وبما أنه سبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، فعمليا سيتماشى ما يراه صَالِحًا ذو القلب السليم مع ما يأمر به تعالى.

أقول لك هذا لأننا أَحْيَانًا نجد شيئا لا يعجبنا وَهُوَ منسوب لدينه تعالى، لِذَا نقول إِنَّنَا سنلتزم به أو لن نعترض عليه مع أنه لا يعجبنا، إذْ لسنا نراه صَالِحًا ونرى شيئا آخر خَيْرًا منه. وَهذه حالة تشير إمّا إلى أن الذي لم يعجبنا لَيْسَ أَصْلًا من دينه تعالى ودخيل عليه، كفتوى فاسدة بتحليل قتل الأبرياء... أو أن قلبنا غير سليم ويرفض شيئا سَلِيمًا، وهنا الكلام، لأَنَّهُ سبحانه مستحيل أن يأمر بشيء فاسد، ونحن مأمورون بترك كل ما هو فاسد على أساس أننا نحن "بقلب سليم" سنراه فَاسِدًا وسنرفض القيام به.

بِالنِّسْبَةِ لكلمة "خير" في استعمال القرآن كَثِيرًا ما نستنسب تفسيرها على معنى "أفضل"، وَأَحْيَانًا يصدق هذا المعنى بالتبعية من فحوى الكلام، لَكِنَّ بعض الاستعمالات القرآنية لنفس الصياغة تريك أَنَّهُ لم يقصد بكلمة خير أن تكون رَدِيفًا لكلمة أفضل، وكمثال واضح عن ذلك ما ورد في الآية 16 من سورة العنكبوت {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، إذْ إنَّ مرادفتها بأفضل في أمثال هذه الآية سيعطيك مَعَانِيَ غير دقيقة بل وغير مقبولة إلا إذا حملت معنى الأفضل على عموم المقابلة بين الْأَسْوَأِ والأحسن، لَكِنَّ هذا ليس معناها بل هذا معنى كلمة خير، وكلمة "أفضل" في أشعار العرب قبل الإسلام مَحْصُورَةٌ بين الحسن والأحسن، لَوْ قلت إنَّ الإيمان أفضل لكم فهذا يعني أَنَّ الكفر حسن والإيمان أحسن، لا، لأنَّ الإيمان خير لكم مما يعني ضِمْنًا أَنَّ الكفر سوء لكم.

لم يستعمل القرآن كلمة أفضل بَتَاتًا، وَاستعمل التعبير بالخير وهو أوسع بالمعنى، إذْ يقابل الشرّ كما في الآية 11 من سورة النور {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...}، وَاستعملها بمعنى ما يقابل الحسن حيثُ الآخر أحسن وليس شَرًّا، كما ورد في الآية 271 من سورة البقرة {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...}، إذْ إنَّ إبداء الصدقة ليس سُوءًا وإنما إخفاؤها أحسن، وهنا يمكن استعمال كلمة أفضل.

يعني لا ترادف "خير" بـ "أفضل"، إذْ إِنَّهُمَا في بعض سياق الكلام يتقاطعان تَطْبِيقِيًّا حيث يكون اللَّذَانِ تقارن بينهما كلاهما جَيِّدَيْنِ، عِنْدَهَا يصدق قول خير أو أفضل، وَلَكِنْ حين يكون الكلام عُمُومِيًّا يشمل ما كلاهما جَيِّدَانِ ويشمل أَيْضًا ما أحدهما جيد والآخر سَيِّئٌ، ويشمل الوصف مُطْلَقًا بمقارنة الحسن مع مطلق الوصف بالحسن، حَتَّى لو لم يكن هناك طرف آخر للمقارنة والمقارنة مع مطلق الوصف، كوصفه تعالى بخير الرازقين وخير الحاكمين... فهو تعالى بالمقارنة مع وصف الحسن مُطْلَقًا كرازق وحاكم، خير موصوف بذلك، لِذَا كلمة أفضل ليست وَصْفًا صَحِيحًا لهذه الحالات وكلمة خير صحيحة.

(وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً{47})
متى الثواب الإلهي؟ ومتى تنفع الباقيات الصالحات؟: {وَيَوْمَ}، وفي الزمن الذي فيه، {نُسَيِّرُ الْجِبَالَ}، نجعلها تتحرّك من مكانها، ونعلم من القرآن أنها ستتحرك لسببين، الأول بسبب التزلزل وتصدّع الأرض تحتها كما تفهم من الآية 1

من سورة الزلزلة {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا}، وثانيا لأن موادّها الصلبة ستفقد تماسكها وتنهار كأنها جبل غبار ناعم كما تقرأ في الآية 5 و 6 من سورة الواقعة {وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا، فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا}.

ويوم، {تَرَى}، يَصِيرُ لديك صورة محدّدة لـ، {الْأَرْضَ}، التي ستقف عليها، {بَارِزَةً}، تَرَاهَا كلها أمامك بلا جبال ولا تلال ولا منخفضات... {وَحَشَرْنَاهُمْ}، جَمَعْنَا الناس بقرار منّا سواء قبلوا أم رفضوا، {فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا}، جَمِيعُهُمْ بدون أي استثناء سنجعلهم يحضرون، كَمَا تقول عن شخص إِنَّهُ: غادر الاجتماع. سَيَتِمُّ اسْتِدْعَاؤُنَا من الموت إلى الحشر، ونحن لا قدرة لنا أصلا على المغادرة، وسبحانه لن يغادر أي أحد منّا، وَلَنْ يترك ولا واحد منّا في حالة مغادرة للحشر، إِذْ كُلُّنَا سيجعلنا سبحانه نحضر لمحاسبتنا سواء قبلنا أو رفضنا.

الْآيَةُ كما ترى هِيَ تتحدّث عن زمن الآخرة، وهو يبدأ من زمن تتبدّل فيه السماوات والأرض، ثم بعده وأثناءه يحدث يوم قيامتنا من الموت، وأول ساعة فيه هي ساعة قيامنا من الموت، ويلي ذلك أيام الحشر والشهود والحساب الفردي والحساب الجماعي... وينتهي كل ذلك بيوم آخر ساعة فيه دخول الناس إلى الجنّة والنار. وهنا الآية اختارت من حوادث الآخرة مشهد تغيّر الأرض لأن السورة في الكلام السابق ركّزت على زوال زينة الأرض.

نَنْتَبِهُ دائما لتعابير القرآن التي تؤكّد أَنَّهُ سبحانه لن ينسى ولن يهمل أي إنسان، بلا أي استثناء، إِذْ إِنَّ كل الناس سيقومون من الموت لمحاسبتهم.

بقي شيء مهم جدا جدا، إِذِ الدارج بشكل أو بآخر في عموم التراث الثقافي عندنا وعند أهل الكتاب، أَنَّ الآخرة موجودة الآن، وَأَنَّ من يموت ينتقل إليها الآن، إلى جنّتها أو إلى نارها، لِذَا نقول عمّن مات إِنَّهُ انتقل إلى الآخرة... وهذا غير صحيح بحسب كل كلام القرآن الصريح، إِذْ نحن الآن في الحياة الأولى، في الدنيا، وسيأتي زمن تتبدّل فِيهِ هذه السماوات والأرض الموجودة الآن، وبعد التبدّل تأتي الحياة الآخرة، فَتَتَكَوَّنُ الجنّة والنار حينها.

رُبَّمَا للوهلة الأولى ترى أَنِّي أتحامل على التراث الثقافي الديني، ولكن لدينا مخزون هائل من الروايات التي تشير إلى جنّة ونار الآخرة أَنَّهَا موجودة الآن، وكنموذج عنها ما يسمّونه بروايات المعراج... ومقابل ذلك لدينا كمّ هائل من الروايات الواضحة في دلالتها على كون الآخرة ليست موجودة الآن وستأتي بعد تبدّل الدنيا، وهذا مطابق لكلام القرآن.

فِي كتب التفاسير بشكل عام تجد تَسَرُّباً فِكْرِيّاً عند البعض بحيث تتداخل الآخرة مع الدنيا، كما في كلام الكثيرين عن "الجنّة" التي كان فيها آدم(ع)، إِذْ يقولون إِنَّهَا نفس الجنّة الخالدة التي وعدنا بها تعالى في الآخرة!

(وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً{48})
{وَعُرِضُوا} "فعل ماضٍ مبنيّ للمجهول" {عَلَى رَبِّكَ}، جرى عرض الناس كونهم موضع اهتمام لمحاسبتهم، جرى عرضهم ليكونوا أمام المسؤول عنك من مستوى إلهيّ، حيث وضعتهم الملائكة(ع) أمامه تعالى كما تفهم من الآية 93 من سورة الأنعام "... وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ..."، {صَفًّا}، مجموعين على شيء واحد، فلا تتصوّر أنّ كلمة صفّ تعني: واقفون على خط مستقيم. هذا من بعض تطبيقات استعمالاتها، بل معناها أنهم مجموعات كل مجموعة على شيء واحد، مثل صفوف "غرف" تلاميذ المدرسة، فهم ليسوا متفرّقين منتشرين بدون انتظام، بل كل صف لمستوى دِراسيّ محدَّد. ومثله ما ورد في الآية 4 من سورة الصف "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا..."، فلا يعني أنهم يقفون في الصف على خط واحد بل مجموعون على هدف واحد وهو القتال. وهنا المشهد عن الصفوف في الآخرة فالمؤمنون من كل الأزمنة والبلدان وبقاع الأرض في صف واحد، والكافرون في صفّ واحد، وضمن كل صفّ صفوف لمختلف الأنواع من درجات الإيمان أو الكفر...

بعد عرضهم عليه تعالى يكون وصف حالهم كما يلي:

{لَقَدْ جِئْتُمُونَا}، حضرتم إلينا، {كَمَا}، مثلما، {خَلَقْنَاكُمْ}، ركّبناكم وألّفناكم، {أَوَّلَ مَرَّةٍ}، سابقاً خلقكم تعالى في الدنيا وها للمرة الثانية يخلقكم تعالى مثلما خلقكم في المرة الأولى. والكلام هنا مثل كلام القرآن في مواضع عديدة عن جواب إنكار الكافرين لإعادة خلقنا في الآخرة، حيث كان الجواب القرآني أن الذي خلقكم أوّل مرّة يقول بأنه سيخلقكم مرّة

ثانية، فكما فعلها تعالى أول مرة وكنتم لا شيءَ وخلقكم فجعل لكم كياناً حيّاً، فما المانع من فعله تعالى لها مرّة ثانية. وترى هذا المعنى صريحاً في الآية 79 من سورة يس الشبيهة بالتعبير "قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ"، وفي الآية 51 من سورة الإسراء "... فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ...".

{بَلْ زَعَمْتُمْ}، قلتم شيئاً لا يستند في صحّته إلّا على ما تقولونه، {أَلَّن}: أَنْ لَنْ، {نَّجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا}، قلتم وأنتم في الدنيا أنّه لا يوجد موعد، فلا يوجد وقت محدَّد للقائكم مع خالقكم لمحاسبتكم، وها أعادكم لتتحاسبوا.

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً{49})
{وَوُضِعَ الْكِتَابُ}، سياق الكلام عن إحضار الكتاب المسجّل فيه كل الأعمال التي قام بها البشر في الدنيا، حيث صار الكتاب أمام الناس، وهو كتاب ليس من ورق، ولا يشبه أي شيء يمكنك أن تتصوّره الآن، لأنه كتاب ينطق ويعرض الحوادث وَالنَّفْسِيَّة وَالْعَقْلِيَّة لكل واحد منّا... وكلمة كتاب تعني أنه شيء فيه موضوع أو مواضيع مسجلة، أمّا كيف شكله وكيف يعرض تسجيلاتها، فلا يمكننا تصوّرها الآن.

{فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ}، حيث يصير لديك صورة محدّدة للأشخاص الذين قاموا بالأعمال التي يستحقون عليها العقاب، تراهم، {مُشْفِقِينَ}، وهم يشعرون بمعايشة حالة الضرر التي ستصيبهم، {مِمَّا فِيهِ}، من الذي في الكتاب من أعمال سيّئة قاموا بها، لأنهم سيتعرّضون للعقاب على الأعمال المسجّلة في الكتاب، {وَيَقُولُونَ}:

{يَا وَيْلَتَنَا}، يا مصيبتنا العظيمة، {مَالِ هَذَا}، مثلما نقول: مالي كلما قلت صَلُحَتْ سريرتي وَقَرُبَ من مجالس التوابين مجلسي، عرضت لي بلية أزالت قدمي... {مَالِ هَذَا الْكِتَابِ}، غريب حال هذا الكتاب، {لَا يُغَادِرُ}، لا يترك، {صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً}، من الأعمال والأفكار والمشاعر... وارتباطها بأمور أخرى وما نتج عنها... {إِلَّا أَحْصَاهَا}، فسمّاها كلّها بالتمام، وَسجّلها كلّها بلا نقصان.

{وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا}، حيث إنَّ كل ما فعلوه أو باشروا بفعله أو نووا فعله فهو عمل وسيجدونه أمامهم، لأنَّ الحساب لن يكون على أشياء غيابية، يعني مثل الفرق بين محاكمة قاتل على جريمته مع تسجيلات فيديو واضحة تبيّن جريمة القتل بوضوح ومن دون أي شكّ، وبين محاكمته بالأدلة الضعيفة "الظرفية" المستندة على إثبات كونه في مكان الحادثة حين وقعت، فالفرق كبير. حيث هناك في ذلك الكتاب تسجيلات دقيقة، ويعرض الأعمال كما حصلت بدقة لا يمكننا تصوّرها الآن، لأنَّ مشهد جريمة القتل على الكاميرا لن ينقل لك مشاعر ونيّة وتفكير القاتل، أمّا كتاب الأعمال فينقل لك الحدث وكل ما يتعلّق به من مشاعر وأحاسيس وأفكار...

{وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}، حيث لا واحد من الناس سيتعرّض لحساب غير منصف ولا عادل، وَحتى أشد الناس كفرا وإجراما ستتم محاسبتهم بالعدل والإنصاف، لأنَّ الكتاب دقيق جدا جدا، لا ينقص ولا يزيد ولو مقدار حبّة خردل.

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً{50})
عطفاً على الضلال عن الحقّ الذي وقع فيه بعض الناس حين أشركوا بشكل صريح مباشر بعبادتهم لغيره تعالى، بعبادة القدّيسين كما هو منتشرٌ في الكتب في حالة المعاصرين لأصحاب الكهف، أو عبادتهم لأي شيء آخر غيره تعالى... أو الآخرين الذين أشركوا بشكل غير صريح وغير مباشر حين اعتقدوا أنهم بقدرتهم الذاتية وبسيطرتهم يحصلون على ما يريدون كما في قصّة الرجل صاحب الجنتين... فمن أين أساس الوسوسة بهذا التفكير؟:

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ}، في حين ما قال تعالى للملائكة(ع) وهي مخلوقات مختلفة في تكوينها عنّا والبعض منها لديهم قدرات عالية جداً... وهم لا يعصونه تعالى... قال تعالى لهم:

{اسْجُدُوا لِآدَمَ}، عبّروا عن طاعتكم لي عبر تعبيركم عن فائق احترامكم وتقديركم لآدم(ع). وكما تعلم أنَّ الملائكة(ع) ليس لها جسد مثلنا، حيثُ طبيعة تكوينها مختلفة عنّا، ولذلك لا تتصوّر سجودها بأنها وضعت جبهتها على الأرض، فهذا غير صحيح، بل فعلت شيئاً بما يناسب تكوينها بشكل يعبّر عن فائق احترامها.

تلاحظ ربطنا للسجود بالعبادة، على أساس إذا سجدنا لأحد ما فهذا يعني أننا نعبده، وهذا ما يجعلنا نحتار في معنى الآيات التي فيها أمر إلهي للملائكة (ع) بالسجود لآدم(ع)، فضع في بالك أن السجود ليس دائما تعبيراً عن العبادة، بل السجود تعبير يتدرّج في معناه من أقصى درجات الخضوع المساوي للعبادة ويتدرج نزولاً أقل من ذلك إلى التعبير عن فائق الاحترام والتقدير، كما في حالة سجود أهل النبي يوسف(ع) له كما ورد في الآية 100 من سورة يوسف "وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا..."، حيث من الواضح أنه سجود تعبير عن فائق الاحترام والتقدير وليس سجود عبادة، مع العلم أن تراثنا الديني يمنعنا من السجود لغيره تعالى حتى لو كان تعبيراً عن الاحترام فقط.

ربطُ السجود بالحركة التي نقوم بها نحن البشر بوضع جبهة وجهنا على الأرض، أيضاً يجعلنا نحتار في كيفية سجود الملائكة(ع)، فضع في بالك أنهم عبّروا عن فائق الاحترام بطريقة مناسبة لكيانهم هم، حيث إنَّ كياننا وبيئتنا يكون فيها أقصى التعبير الجسدي بتقريب وجهنا من الأرض وصولاً إلى ملامسة جبهتنا على الأرض، والملائكة (ع) بحسب كيانهم وبيئتهم لديهم تعبير يناسبهم ويعبّر عن سجودهم.

تذكّر دائماً أننا في دراستنا هذه لم نطلق لقب "نبي" على آدم(ع) مع العلم أنه أوحي إليه، والسبب أن القرآن لم يصرّح ولا مرّةً أنه نبي، حيث على أصل الأساس اللغوي لكلمة نبي التي تشير لمن تنبّأ وَوصله خبر لم يصل للآخرين وليس منتَشِراً بينهم، فهو نبي لأنه أوحي إليه بأمور ما... وعلى أصل الأساس اللغوي لكلمة "وحي" فهي ليست مختصّة بالأنبياء، وبخصوص استعمال كلمة نبي في القرآن لمن توظّف بنقل ما وصله من أنباء منه تعالى إلى الناس، فهذا ما لا نجد تأكيداً قرآنياً عليه في حقّ آدم(ع) ولذلك وَالتزاماً بما ورد في القرآن لم نطلق عليه صفة نبي.

{فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ}، حيث إنَّ الملائكة سجدوا ولكن المسمّى إبليس وهو من المخلوقين من النار ولم يكن من الملائكة(ع)، فلو كان من الملائكة (ع) لسجد حتماً لأن الملائكة (ع) مخلوقات مطيعة دائماً له سبحانه، ولكنه من الجنّ وعاش في سماء الملائكة العالية المطيعة له تعالى والتي تعبده تعالى بأشد أنواع العبادة وباستمرار... وحين صدر أمر السجود لآدم(ع)، حيث كان إبليس بين الملائكة(ع) على أساس اعتباره لنفسه في مرتبتهم العالية بالطاعة له سبحانه، ولكن عندما أمر تعالى بالسجود لآدم(ع) تبيّن أن إخلاصه مزيّف غير حقيقي... {فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ}، حيث خرج عن طاعته تعالى في أمر علني منه تعالى وَلم يطع ما أمر به المسؤول عنه من مستوى إلهي، حيث أمره تعالى أن يسجد ولم يسجد.

حَسَنٌ، هذا ما فعله سبحانه من القيمة العالية التي أعطاها لكم أيها البشر، حيث أمر الملائكة بالسجود لكم، وهذا ما فعله إبليس حيث رفض اعتبار أي قيمة لكم، {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ}، تجعلون منه وتجعلون من ذريته من الذين انفصلوا عنه "بالولادة أو بغيرها"، من أولاده الشياطين مثله، وَتعتبرونهم، {أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي}؟! تعتبرون أنفسكم تابعين لهم وَتتركون اعتبار أنفسكم تابعين لي لوحدي فقط؟! وَتسمعون كلامهم وَتطيعونهم وَتتركون كلامي، {وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ}، حيث يتجاوزون حدودهم قاصدين بأفعالهم الشرّ لكم؟! فبأي منطق تسمعون وَتنفّذون كلامه وكلام بقية الشياطين وهم يكرهون أي شيء فيه خير لكم بل ويعملون على إلحاق أقصى الضرر الإيماني بكم؟!

{بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا}، يا لسوء البديل الذي استبدلتم به ولايته تعالى، حيث قد توالي من لا يريد الضرر بك ولكنه جاهل لمصلحتك... أمّا اختيار الناس لموالاة الذي علناً هو عدو لهم ويريد لهم الضرر بأقصى أنواعه، فهذا بئس البدل عن موالاته تعالى وهم في هذه الحالة موصوفون بأنهم ليس معهم حقٌّ باستبدال طاعته تعالى والتي فيها خيرهم بطاعة إبليس وذريته المعادين.

محور السورة حول الشرك به تعالى بالطرق المختلفة، وكل من أشرك وبأي طريقة كانت فهو موالٍ لإبليس، الذي وكما تعلم من عموم القرآن أنه قرّر البرهنة له تعالى أن آدم(ع) وذريّته لا يستحقّون أن يُسجَدَ لهم لأنه أفضل منهم، وسيبرهن ذلك عبر إضلالهم ليشركوا به تعالى... وأنهم سيطيعونه في ذلك...

لاحظ الآية هنا لم تفصّل عن الوسوسة الشيطانية التي يفعلها إبليس وأولاده بنا، فهي معروفة ومشروحة في مختلف آيات القرآن، ومن سياق ما سبق من كلام السورة عن الشرك، لوحدك ستفهم أن موالاتهم معناها كل شيء يخالف الأوامر الإلهية، من التعلّق بزينة الدنيا ونسيان الآخرة، إلى الشرك ونكران الآخرة.

يا من تشرك به تعالى وبأي شكل كان، خذ عِلماً أنك بشركك توالي عدوّك إبليس الذي يعمل على إضلالك.

بقي شيء تكرر لفت الانتباه له في القرآن، حيث إنّ إبليس عدو لكل الناس، للمؤمنين وللكافرين، للذين يحاولون أن يكونوا صالحين حيث يوسوس لهم ليضلهم، وللآخرين الراغبين بالسوء، فهو عدو لهم حيث يوسوس لهم قاصداً بأن تكون نهايتهم إلى النار.

(مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً{51})
{مَّا أَشْهَدتُّهُمْ}، إبليس وذريّته لم يحضروا ويشاهدوا، {خَلْقَ}، تركيب وتأليف، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وهذه هي حدود كل دنيا المخلوقات وهم لم يكونوا موجودين حينها، {وَلَا}، أشهدتهم، {خَلْقَ أَنفُسِهِمْ}، وهذا بديهي وهم لم يكونوا حاضرين بأي طريقة يمكن تصوّرها حين ركّبتهم وَألّفتهم، حيث لم يكن لهم وعي وبعد خلقي لهم صار لهم وعي، بعبارة أخرى إبليس وذريّته هم مجرد مخلوقات، لا علاقة لهم بخلق أي شيء، وَأصلاً لم يكونوا موجودين حين خلق سبحانه كلّ شيء، وبالتالي على أي أساس توالونهم وتتركون ولايته تعالى؟!

من البديهي أنهم لن يكونوا قبل أن يُخْلَقُوا، لأنَّه لن يكون لهم وعي قبل أن يُخْلَقُوا ويصير لهم وعي، أليس كذلك، طالما هذا بديهي ومن أوضح الواضحات ما معنى اعتبارهم مساوين له تعالى لتوالوهم؟ بأي شيء هم مساوون له تعالى لتوالوهم!

انتبه أَنَّ بعض كلام الناس يتضمّن مخالفة لهذا الواضح الذي تقوله الآية هنا، حيث إِنَّ بعض الناس يقول إِنَّه لو سأله تعالى رأيه لما وافق على خلقه. فكيف سيسأله تعالى عن رأيه قبل خلقه؟!

{وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ}، أصلاً لن أعتبر أحداً من الذين يقومون بإضلال الناس عن طريق الحقّ، {عَضُدًا}، أعتمد عليهم كمساعدين، حيث إِنَّ الملائكة(ع) يوظفهم سبحانه ببعض الأعمال لأنهم مطيعون وَأُمَنَاء... أمّا إبليس وذريّته، فلا يأمرهم سبحانه بتنفيذ أي عمل له.

هناك أناس يقولون إِنَّ الله تعالى هو إله الخير، وإبليس هو إله الشرّ، والله تعالى خلق كل شيء خير، وإبليس خلق الأشياء الشرّيرة... هنا الآية تنبّه من يفكّر بهذه الطريقة، حيث هناك إله واحد فقط، وَأصلاً لم يكن إبليس موجوداً حين خلق الله تعالى السماوات والأرض والجنّ، حيث إِنَّ إبليس ليس إلهاً، ولا علاقة له بأي شيء يتعلّق بخلق ما في الدنيا. ثانياً: الله سبحانه لم يوظّف إبليس بأي مهمّة، حيث هناك من يقول بِأَنَّ مهمّة إبليس إضلال الناس، وأنه سبحانه أوكله أو وظّفه بها ليمتحن الناس! وهذا غير صحيح.

هناك فرق بين علمه سبحانه بما سيحصل، وبين إجباره مخلوقاته على معصيته أو طاعته، حيث أخبرنا القرآن أنه سبحانه يعلم كل شيء، حين قرّر أَنْ يَخْلُقَ ما في الدنيا، بأسرع من لمح البصر اتخّذ القرار والتصميم وطريقة التنفيذ... وبأسرع من لمح البصر علم مصير كل صغيرة وكبيرة في الدنيا... تتذكّر دائماً أَنَّ التعبير التشبيهي للسرعة بلمح البصر ورد لوصف حالة قراره تعالى بإعادتنا إلى الحياة في الآخرة، وهو ليس وصفاً صحيحاً لحالة قراره وتصميمه تعالى لخلق ما في الدنيا، حيث في حينها كان تعالى ولم يكن معه شيء، ولا يصحّ وصف تلك الحالة بأي شيء له علاقة بالزمان والمكان، ولكن لتقريب الفكرة اسْتُعْمِلَ شيءٌ يشير للسرعة العالية.

يعني انتبه حين تسأل: إن كان سبحانه يعلم بأن إبليس سيضلّ الناس فلماذا خلقه... لأنَّ علمه تعالى بما سيحصل هو حالة دائمة له تعالى، ولو لم يخلق سبحانه إلا من سيطيعه، لكان خلق الملائكة (ع) فقط، ولو افترضت أنه تعالى أيضاً سيخلق فقط المؤمنين من البشر، بالتحليل المستند لمفاهيم القرآن تعلم أَنَّ الطبيعة البشرية تفرض وجود مؤمنين وكافرين ووسط بين الحالتين، حيث إِنَّ تزويدنا بحرية الإرادة والاختيار مع جسد طيني، هذا التصميم سيتضمّن اختلافاً مما سينتج بالنسبة للصلاح والفساد من العقيدة والعمل، ولو خلق تعالى فقط المؤمنين من البشر ولم يخلق الآخرين، فعليك أن تعيد تصميم كل ما في الدنيا التي سيخرج عنها كائنات بالتسلسل والترابط من الأحداث التي صمّمها تعالى... وستكون النتيجة أن هؤلاء المؤمنين ملائكة متمثّلين على شكل بشر من دون أي معنى لبشريتهم، وَسيكونون خالين من الشهوات والرغبات الناتجة عن تكوينهم من طين... حتى يُتَضَمَّنَ أنهم لن يعصوه تعالى... ولن يكون لخلقهم في الدنيا

أي معنى، فهي مصمّمة كدار امتحان، وَلَكَانَ سبحانه خلقهم مباشرة في الجنّة الخالدة، وهذا لا معنى له كثواب لهم لأنهم لم يمرّوا بامتحان للحصول على ثواب.

فعلاً هناك كائنات سيخلقها سبحانه في الجنّة الخالدة، من الحور والولدان الخدم... ولكنها تختلف عنّا، فهي ليست كائنات بشرية بالميزات التي فينا...

ضع في بالك دائماً أَنَّ الإله سبحانه وتعالى، خلق هذه الكائنات والبيئة "والتي بالتساهل نسمّيها الدنيا" التي نعرف بعضها "ما نسميه بالكون" ونسمع عن بعضها الآخر "عن ست سماوات أخرى"، وفي اللحظة التي بدأت عملية الخلق، علم سبحانه بكل ما سيحصل، حيث إِنَّ إبليس سيعصي، وسيعمل على إضلال الناس... لذلك لم يتفاجأ سبحانه عزّ وجلّ حين عصى إبليس، وراجع في ذلك الآية 20 و 21 من سورة سبأ "وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ" ، ولم يجبر عزّ وجلّ إبليس على المعصية كما هو واضح، ومن الواضح أنه تعالى لن يستعين بإبليس ليمتحن الناس، حيث لن يوكل لإبليس مهمّة امتحان الناس، ولن يوكل إليه أي مهمّة أخرى مهما كان نوعها، وهذا ما نبّهت عليه الآية هنا.

تسأل: إن لم يكن إبليس مخلوقاً، فسنكون بألف خير ومن المؤمنين الطائعين. لا، هذا غير صحيح ولم يقله القرآن ولم يشر إليه، فاسأل نفسك: إن كان الشرّ يأتي من الوسوسة الخارجية فقط، فمن وسوس لإبليس؟ يعني هي نفس العقلية والنفسية التي جعلت إبليس يتكبّر هي موجودة فينا، ونحن نُقَرِّرُ أن نعصي أو نطيع، وإبليس يقدّم لنا الاقتراحات السيئة عبر الوسوسة، وسبحانه جعل فينا عقلاً وَفهماً يقدّمان لنا الاقتراحات، وأنت وأنا نختار، ولا سلطة لإبليس علينا، إلى أن نعطيه نحن السلطة.

نحن من دون إبليس فينا نفس القابلية التي في إبليس لنصير شياطينَ من دون وسوسة إبليس، وهذا ما ذكره القرآن عن النفس الأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي في عدة آيات منها الآية 8 من سورة الشمس "فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا"، وما قالته عدة آيات صريحة بوصف بعض الناس بالشياطين والوسوسة بالإيحاء كما تقرأ في الآية 112 من سورة الأنعام "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ".

إذن نحن أمام نوع آخر من الشرك به تعالى عبر موالاة إبليس وذريته حتى لو كنّا لا نراهم ولا نشعر بهم، فطاعتهم شرك به تعالى، وَعَمَلِيّاً طاعة أفكار السوء التي تأتي على بالنا هي طاعة لإبليس وجنوده، وطاعة للهوى، حيث يتقاطع الكلام هنا مع اتخاذ الهوى إلهاً كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان "أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا".

(وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقاً{52})
{وَيَوْمَ يَقُولُ}، الإله سبحانه، وسياق الكلام عن زمن الحساب في الآخرة:

{نَادُوا شُرَكَائِيَ}، يقول سبحانه للناس الذين جعلوا له تعالى شركاء في الألوهية، فيأمرهم أن يتوجّهوا بالكلام إلى الذين جعلوهم شركاء له تعالى في الألوهية، {الَّذِينَ زَعَمْتُمْ}، فقلتم عنهم آلهة شريكة لي استنادا لقولكم فقط، وأنتم من رأسكم اخترعتم آلهة شريكة لله تعالى، ونادوها وتكلموا معها حتى تلفتوا انتباهها لكم، لتحضر لتساعدكم أو تنفعكم بشيء...

{فَدَعَوْهُمْ}، وفعلا أعلنوا وأشهروا كلّهم أو البعض منهم لآلهتهم، {فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ}، ولكن لم يردّ أي أحد عليهم، فهم ليسوا آلهة حتى يستجيبوا لمن يناديهم ويعلن أنهم آلهة.

{وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ}، حيث جعل تعالى بين المشركين وبين من يدعونهم من الآلهة المزعومة {مَوْبِقًا}، وما صار بينهم سيّئٌ لا خير فيه، كالذي نقول عنه: دخل الموبقات، ونقصد صيرانه فيما لا خير له فيه. بغضّ النظر عمّن كانوا يدعون، فالحالة بينهم وبين آلهتهم تصفها الآية بأنها موبق فلا خير فيها، وتصور العكس، فمن كان يدعو الله سبحانه فحالته نيل المغفرة والرحمة ومضاعفة الحسنات... أمّا المشرك فبينه وبين من دعاه موبقٌ فلا خير سيصله ممن كان يدعوه.

لاحظ أنك بالتفكير العقلاني ستحتار في عقيدة المشركين، وسترى أن كلام القرآن عن نماذج من الشرك، والتي يمكن بشكل ما الحديث عنها، لأن الشرك كلّه سخافة وأوهام، فبماذا سترد على هكذا أفكار؟ حيث هناك مشركون يعبدون آلهة أصلا لا كيان حقيقي لها، وهي مجرد أسماء من خيالهم كإله الحرب وإله البحر وإله الرعد وإلهة الحبّ... فهؤلاء ماذا ستقول لهم لتريهم سخافة عقيدتهم وهم أصلا يتكلمون بالأوهام من خيالاتهم ولم يلمسوا أثرا فعليا ولا جاءهم رسول من آلهتهم...

ننتقل لمن عبد تمثالا صنما صنعه بيده من نحت حجر أو تشكيل معدن، وقال إن الصنم إلهه! فهذا ماذا ستقول له؟

ننتقل لمن عبد كائنات حقيقية وقال إنها آلهة، حيث عبد كوكبا أو النار أو الماء... فهذا لم ير تفاعلاً معه ولا بأي شكل من هذه الكائنات التي من الواضح أنها محدودة وأشياء، فهذا ماذا تقول له؟

بقي المشركون العابدون لكائنات واعية يمكنهم التعامل معها، وخذ مثلا عبادتهم للملائكة والجنّ، والذين عبدوهم لم يحصل بينهم وبين الملائكة والجنّ تواصل مباشر، ولا عبر رسول، ولا عبر كتاب... ولكن على أي حال الكلام مع هذه النوعية من المشركين ممكن في شيء ما، وتقول لهم إن وصف الألوهية لا يجتمع مع وصف المخلوقية، طالما أن الذين تعبدونهم تعلمون أنهم مخلوقون ولم يخلقوا أنفسهم، فهم ليسوا آلهة.

ننتقل للمشركين العابدين لإنسان ما، فهؤلاء نفس الكلام معهم مثل الكلام عن عابدي الملائكة والجن، علما أن عابدي البشر حين كانوا أحياء بينهم فهؤلاء على الأقل يتعاملون مع كائن يتفاعل معهم.

من هذا المختصر ترى أن كلام القرآن عن مشاهد مما سيحصل في الآخرة أثناء محاسبة المشركين، وهي تتحدّث عن نماذج من المشركين الذين على الأقل يوجد شيء ملموس للكلام معهم فيه. والمشكلة أن الشرك باطل بوضوح، وسخيف وتافه... ورغم ذلك هناك كمّ هائل من المشركين!

حين تقرأ أمثال آيتنا هنا ستحاول البحث عن أمثلة تطبيقية، وتقول إن الكلام مع كل المشركين من كل الأنواع، وبعض الأحيان تتحمّل الآية الناقلة للمشهد من الآخرة أن ينطبق كلامها على كل أنواع المشركين، وحتى العابدين لآلهة وهمية لا كيان لها ولا تمثال... وبعض الأحيان ترى كلام الآيات يناسب قصدها عابدي الملائكة أو الجنّ أو البشر، وبعض الأحيان لا يناسب شملها عابدي الكواكب والأصنام... فانتبه أنه لا يوجد مشكلة، فهذا هو الواقع، لأن الكلام عن شيء أصلا ليس واقعيا ولا عقلانيا، وبالتالي حتى الكلام عن عابدين لبشري هو ادّعى الألوهية، فهو حالة نادرة أو قليلة من تاريخ البشر، ولكن هو الحالة الوحيدة التي يمكن للقرآن الكلام عنها حين يتكلّم عن مشركين عبدوا مخلوقا قال لهم إنّه إلههم.

هكذا صرت ترى أن عموم كلام القرآن عن نماذج، وأحيانا ينطبق الكلام على كل المشركين وأحيانا على البعض منهم، وأحيانا على النادر منهم لأن الكلام عن الشرك من الصعب أن تجد فيه شيئا عقلانيا لتتحدّث عنه، فلا تفسّر كل آية تحدّثت عن المشركين أنها تقصدهم كلّهم، لا، فغالبا كلام القرآن عن نماذج، وصرت تعلم السبب.

(وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً{53})
{وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ}، الذين قاموا بأعمال يستحقون عليها العقاب صار لديهم صورة محدّدة للنار، وهم لا يزالون يتحاسبون ولكنهم يرون النار من بعيد، {فَظَنُّوا}، استناداً إلى سوء أعمالهم التي يعلمونها ويجدونها مسجّلة في كتاب أعمالهم... اعتقدوا {أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا}، سوف يقعون عليها، وسيكونون فوق النار، {وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا}، ولا توجد أيّ طريقة تجعل طريقهم يتحوّل باتجاه آخر غير النار، لأنهم يتحاسبون على جرائمهم، ويعلمون أن العقاب سيكون حتما بدخولهم إلى النار، ونفسيا يشعرون بحتمية دخولهم إلى النار وانتفاء وجود طريق آخر لهم.

تتذكّر دائما أنّ الظن هو عموم الاعتقاد مستنداً إلى معطيات، فإن كانت المعطيات صحيحة وإشارتها صحيحة فظنّك صحيح، وإن كانت المعطيات غير صحيحة ودلالتها غير صحيحة فاعتقادك لن يكون صحيحا، ولمزيد من التوسّع حول كلمة "ظن" راجع دراسة الآية 36 من هذه السورة.

هنا في الدنيا عند بعض الناس تصوّرات عن الآخرة إن حصلت، حيث يخطر ببالهم أنه تعالى سيسامح الجميع بعفو عام، أو يسامحني أنا بشكل خاص لأني مميّز، أو سأهرب وأختبئ، أو... وتأتي أمثال آيتنا هنا لتخبرهم أن عمل الإجرام عليه عقاب حتمي ولا مهرب من نار الآخرة ولا بأي شكل.

بحسب عموم كلام القرآن عن الحساب في الآخرة قبل دخول المؤمنين الجنّة والآخرين إلى النار، فالواقف مواجهاً للجنة والنار سيكون على جهة يمينه أهل الجنّة بالقرب من الجنّة، وعلى جهة الشمال حفرة تتصاعد منها النيران وتتغيّظ ومن جهتها أهل النار، ومع اقتراب انتهاء الحساب تقترب الجنّة والنار من الجهتين، حتى يصير أهل النار بالقرب من حافة جهنّم، وفي آخر الحساب يبدؤون بالتساقط فيها.

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً{54})
{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا}، وزّع وحوّل سبحانه، {فِي هَذَا الْقُرْآنِ}، في هذا الكتاب الذي يمكن قراءته، صرّف ووزّع فيه سبحانه، {لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ}، من كل تشبيه تقريبي، وعن المعلومات عن التوحيد ضرب أمثلة، وعن نفع الإيمان بالتوحيد ضرب أمثلة، وعن خلقنا وإعادة خلقنا... وعن زوال الحياة الدنيا، وعن الحساب في الآخرة، وعن الجنة والنار... وكلّ الأمور الأساسية اختار لها تعالى أمثلة وضربها لنا، ولم يضرب كل الأمثلة الممكنة، حيث هناك مئات الأمثلة التي يمكن ضربها عن التوحيد، والمئات عن الخلق وإعادة الخلق... فاختار سبحانه {مِنْ كُلِّ مَثَلٍ} ما رآه بحكمته مناسبا وقاله سبحانه لنا، ووزّع سبحانه الأمثلة في القرآن بحسب موضوع كل سورة، حيث إنّ السورة القرآنية التي تتحدّث مع المشركين ضربت لهم أمثلة تنبههم من خطأ عقيدتهم، وأمثلة تنبّههم من الخطر في الآخرة... والسورة التي تحدّثت عن تاركي الدين الإلهي بسبب نكرانهم للآخرة، ضربت لهم أمثلة تناسبهم، وللمنافقين أمثلة تفضحهم...

وردت عدة آيات شبيهة بآيتنا هذه عن الأمثال القرآنية، ولا يذهب فكرك فقط إلى ما سبق وقالت قبله آية ما في القرآن إنّه مثل فهو فقط مثل، مثل الأمثال الشعبية، لا، فقصّة أصحاب الكهف مثل، والكلام عن الظواهر الطبيعية من ليل ونهار... مثل...

{وَكَانَ الْإِنْسَانُ}، كان الغالب الأعم من الناس، وحسب طبيعة خلقتهم هناك شيء غالب فيهم، كان، {أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}، حيث يقول سبحانه له شيئا، فيجادل الإنسان ويقول شيئا آخر، فيردّ سبحانه عليه، ولا يسكت الإنسان بل يردّ بكلام آخر... ومن بين كل المخلوقات التي خلقها تعالى، الغالب الأعم من الناس يكثرون الأخذ والردّ في مقابل الكلام الإلهي، وهنا تقول الآية إنّه رغم كثرة الأمثلة التي قالها سبحانه في القرآن، ورغم تنوّعها شاملة كلّ النقاط الأساسية في العقيدة، فبدل الإذعان لها عبر إعلان الناس الاقتناع بها فإن الغالبية منهم يجادلون في كلامه تعالى!

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً{55})
هذا الجدل من الإنسان في أمثاله تعالى التي في هذا القرآن كان يمكن حسمه:

{وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا}، منعهم من إعلانهم اعتقادهم، {إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى}، حين صار عندهم الذي يضعهم على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، {وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ}، ويطلبوا من المسؤول عنهم من مستوى إلهي أن يتجاوز عن سيئاتهم، {إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ}، حتى تصل إليهم طريقتنا في التصرّف التي قمنا بها مع، {الْأَوَّلِينَ}، الناس الذين كانوا أولا، وعادةً الكافرون من الدرجة العالية بالكفر يصيبهم تعالى بكارثة هنا في الدنيا، فهل ينتظرون أن تصيبهم الكارثة مثل الأولين حتى يؤمنوا؟ {أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا}، قبالتهم أمامهم، وتشير الآية بذلك إلى ما سبق وذكرته السورة في الآية قبل السابقة عن رؤيتهم للنار وظنّهم أنهم مواقعوها، فهل حين يواجهون نار الآخرة سيؤمنون؟

بعبارة أبسط هم جاءهم ما يضعهم على الشيء الصحيح الصالح، ومن المفروض أن يعلنوا اعتقادهم والتزامهم به، لأنّ فيه خير الدنيا والآخرة لهم، فما الذي يمنعهم من اتباع الهدى؟ ألن يؤمنوا به إلا أن يصيبهم عذاب إلهي ككارثة فعندها يؤمنون به تعالى أنّه يعاقبهم على ضلالهم؟ أو سيؤمنون حين يواجهون النار في الآخرة؟

لاحظ وانتبه دائما، لأنّه سبحانه لا يعرض علينا دينا غريبا لا نفهمه أو سيئا فيه شرّ، بل يعرض علينا ما من المفروض أن نرى فيه الخير، فما معنى رفضنا له ومخالفته وهو الهدى، وهو الشيء الصحيح؟ فهل سيبقى الكافرون على كفرهم

رافضين اتباع الهدى إلى أن تصيبهم كارثة كما حصل مع الكافرين الأولين؟ أو سيبقون كافرين ويموتون بلا كارثة وسيؤمنون حين يعودون إلى الحياة في الآخرة وهم مواجهون للنار ويعلمون أنهم واقعون فيها حتما؟ فليؤمنوا الآن في حياتهم الدنيا قبل فوات الأوان.

{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً{56}}

{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ}، لا نُحدِّد أشخاصاً لنقل كلامنا للناس مثل نوح وموسى وعيسى ومحمد... عليهم السلام، {إِلَّا مُبَشِّرِينَ}، فقط نرسلهم للناس حاملين للخبر السارّ، ومعلوم أنه خبر الدخول إلى الجنّة لمن آمن وأطاع، {وَمُنْذِرِينَ}، ناقلين للخبر السيئ عن العقاب الأكيد للذين توافرت فيهم شروط الحصول على العقاب، فهذه هي فقط مهمّة الرسل.

{وَيُجَادِلُ}، يردّ الكلام ويتحدّث، {الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا ما يقوله الرسل، يجادلون، {بِالْبَاطِلِ}، فيردّون على كلام الرسل بكلام غير سليم وفاسد، {لِيُدْحِضُوا}، ليدفعوا ويردّوا، بجدالهم، {الْحَقَّ}، الصواب!

هذا الكلام يأخذك إلى عمق ما يطرحه تعالى علينا عبر رسله وقرآنه، لو كان فيه شيءٌ سيئٌ لكان مع الناس حقٌّ أن يكفروا به، ولو شيءٌ سيئٌ واحد، ولذلك ترى القرآن مشحوناً بأدلة على ما نسمّيه بالعقيدة، وهي المعلومات عنه تعالى وعن أفعاله وقراراته، يطرحها مع أدلتها "آياتها" لنؤمن بها، ومشحوناً بالأدلة على فساد العقائد الأخرى، ومشحوناً بتبريرات للتشريعات والسلوكيات التي يأمرنا تعالى بالالتزام بها، ومشحوناً بالشروحات عمّا اختلط على الناس شرّه من خيره، كالربا والمسكرات والقمار... ومشحوناً بمختلف الأمثلة عن السوء الذي تفعله الأقوام ولا نرى بعضه سوءاً لأننا منغمسون فيه أو محبون له أو مستهترون به أو نجهل سوءه لأننا لا نعرفه... وترى ذلك من الأمثلة المتكررة عما فعله فرعون من استضعاف لبني إسرائيل، وما فعلته مدين من غشّ، وما فعله قوم النبي لوط(ع) من الاعتداء جنسياً على الغرباء...

بما جعله تعالى فينا من قدرة على تمييز الخير من الشرّ والصلاح من الفساد، فمن المفروض أن نرى الهدى الذي يصلنا عبر رسله سبحانه، وبناء عليه فأي كلام آخر فهو كلام باطل، والمعنى الحرفي لكلمة باطل يشير إلى حالة الذي يجعل شيئاً ما لا يعمل نهائياً أو جزئياً كما هو مفروضٌ، وترى معنى كلمة باطل عند استعمالها في جملة "أبطل مفعوله"، فهناك شيء كان يعمل كما يجب، وحصل شيء أوقفه عن عمله أو عطّله جزئياً. وعملياً بالنسبة لاستعمال كلمة باطل في مقابل الصالح، فالباطل وصف حالة الشيء الذي لا يمكنه تأمين سير أمور حياتنا الدنيا والآخرة كما يجب، بل يجعل سير الأمور الجيدة متوقفاً أو منحرفاً عن مساره.

{وَاتَّخَذُوا آيَاتِي}، اعتبروا وجعلوا الأمور المميزة المنسوبة له تعالى، و{مَا أُنْذِرُوا}، ما قلناه لهم عن حتمية الوصول إلى نتيجة سيئة بسبب ما هم عليه من سوء، اتخذوهم {هُزُواً}، تعاملوا مع الآيات والإنذار من خلفية الاستهانة والاستخفاف، واعتبروه كلاماً بلا قيمة واستهانوا به، ولا اقتنعوا بالآيات الإلهية الواضحة الصحيحة، ولا أخافهم الإنذار ولا شجعتهم البشارة بالجنّة!

العمق الذي تطرحه الآيات فيه عمق تراه متواصلاً مع الأبحاث عن فلسفة الأخلاق والقانون والتشريع والأخلاقيات... والمواطنية والأهلية والحرية الفردية... فالعاقلون من الناس يسعون لترسيخ الأفكار التي تضمن سير حياتنا بسعادة، ولا معنى لأفكارهم إن لم يقتنع الناس بالالتزام بها، لذلك يسعى المفكّرون لإيجاد قاعدة يستند عليها الناس ليلتزموا، وكمثال بسيط يقولون لمجتمعاتهم إنكم إن لم تعلنوا كلّكم عن التزامكم بالقانون، فستصير حياتكم جحيماً من اعتدائكم على بعضكم البعض... ولن ندخل في تفاصيل تلك الأبحاث، وسنركّز على ما تعرضه الآية هنا وعموم القرآن.

المتخصصون في عنوان واحد سيرون ما لا أراه أنا من تفريعات عميقة يمكن استخراجها من الآية، ولكن الظاهر البسيط من كلامها هو أكثر من كافٍ لنهتدي، لأنَّ الكلام موجّه لنا لنهتدي وليس لنستخرج منه أبحاثاً في فلسفة علم الاجتماع...

بكل بساطة، هات أخبرنا عن شيءٍ سيئٍ ورد في كلامه تعالى ولذلك ترفض الإيمان بهذا الدين الإلهي؟ وسأحيلك إلى الآية 90 من سورة النحل والتي تختصر أساسيات دينه تعالى {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى

عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}، وأحيلك إلى أوسع منها بقليل إلى الآية 151 من سورة الأنعام {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، فهل ستقول إنه لا يهمّك الخير والشرّ والصلاح والفساد وستفعل ما يحلو لك؟ إذن أنا أيضاً سأفعل ما يحلو لي وفرعون سيفعل وبقية الطغاة المجرمون... فهل هذا ما تدعونا إليه حضرتك؟

كما ترى، الالتزام بكلامه تعالى ضمانة لنا جميعاً بحياة سعيدة في الدنيا، وفوق ذلك وعد بدخول جنّة خالدة في الآخرة.

الآن عدنا إلى عمق آخر لا نلتفت إليه عادة، فسبحانه لا يأمرنا بترك ملذات الدنيا حتى نحصل على جنّة في الآخرة، فهذه الفكرة المشوهّة يقولها العديد من المنتمين لدينه تعالى، ويستعملها الآخرون كسلاح لتشويه دينه تعالى، وأمّا الحقيقة فسبحانه صراحة قالها في مناسبات عديدة ومنها الآية 32 من سورة الأعراف {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ}... لأنه سبحانه يريد لنا السعادة في الدنيا، وشرط حصول ذلك تركنا للسيئات، فحرّم تعالى السيئات والخبائث وجعل عليها عقاباً في الآخرة، وجعل تعالى على صلاحنا فوزاً في الآخرة بجنّة خالدة.

أمّا الأفكار الضبابية عن أفعال يأمرنا بها الدين وننفّذها على عماها حتى لو لم يكن لنا أي مصلحة دنيوية منها، كأمره تعالى لنا بقتال الأعداء حتى نموت وندخل الجنّة، وكأننا ننفّذ أمراً إلهياً لا علاقة لنا به ولا منفعة لنا منه سوى دخول جنّة الآخرة... فصياغة الفكرة ليست هكذا في القرآن، حين نصير في وضع أمام عدو محارب يريد قتلنا، فالخير والصلاح في قتاله لأنه سيفرض علينا عقيدة وشريعة فاسدة باطلة إن استسلمنا له، ومن التزم بهذا الضروري، ومات، يعده تعالى بجنّة الآخرة. وهذا فرق كبير عن فكرة رمي أنفسنا على الموت لنفوز بجنّة الآخرة، فلا يوجد أي تعبير قرآني يشير لذلك ولا بأي شكل.

الأفكار الضبابية عن تشريعات تحرّم ما نحبّه، بالعقلانية والحكمة شرح القرآن سوء ما حرّمه تعالى لذا راجع دراستنا هذه لأي آية فيها شيء حرّمه تعالى وسترى تبريره تعالى للتحريم.

أمّا ما ستجده في الروايات وكتب الفقهاء والتراث الديني عن محرمات وواجبات لم يذكرها القرآن، فعلى الذي قالها تقع مسؤولية التبرير، وأنت لست ملزماً باتباع إلا ما يقوله القرآن صراحة، أو ما هو نابع من قواعد قرآنية.

التعليقات على بعض العقائد والتشريعات المنسوبة لدينه تعالى، راجعها إن كانت قرآنية، وراجع ما قاله القرآن عنها، وبعدها قل إنَّ القرآن قال شيئاً سيئاً، لأنَّ نسبة ما في تراثنا وكتبنا له تعالى، ومحاكمة دينه تعالى على أساس ما قاله المنتمون لدينه تعالى، فهذا ظلم حتى لو كان منسوباً لرواية منقولة عن الرسول محمّد(ع)، حيث نحن لسنا أمام رواية متأكدون بصدورها عن الرسول محمّد(ع)، ولا ندري إن وصلتنا بالحرف كما قالها (ع)، ولا ندري بقية الظروف المحيطة التي قيل فيها كلامه (ع)، ولا ندري إن كان ما رآه الرسول(ع) واتّخذ قراراً فيه كان نابعاً عن معطيات شافية ووافية...

هذا بالرغم من اعتقادي بأن كلام الرسول محمّد(ع) له قيمة عالية، لا تصل طبعاً إلى قيمة كلامه تعالى، ولكن تشريعياً نحن مأمورون بالاستفادة مما شرّعه الرسول(ع)، مع الأخذ بعين الاعتبار أنه تعالى ترك هامشاً مرناً لنتحرّك فيه تشريعياً في مختلف الظروف، وغالب التشريعات الواردة عن الرسول (ع) كانت ضمن الهامش المتروك للمرونة، وكانت مستندة على ما رآه الرسول(ع) كأفضل تشريع، وهذا الواقع تراه جلياً فيما قالته الآية 79 من سورة الأنبياء {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا}... لذا راجع دراستها لترى حكمين صادرين من نبيين، وحكم سليمان(ع) كان الأفضل...

بالتالي، المرونة متاحة لنا أيضاً فيما نراه مناسباً ولا يتعارض مع الأساسيات التي طرحها القرآن، وكمثال عن ذلك مقدار الزكاة ومن أي الأشياء...

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً{57})

{وَمَنْ أَظْلَمُ}، من هو الشخص الأشد ظلماً وابتعاداً عن العدل والإنصاف، {مِمَّنْ}، من الذي، {ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ}، ذكّرناه، وجعلناه يستحضر في فكره الأمور المميزة المنسوبة للمسؤول عنه من مستوى إلهي، {فَأَعْرَضَ عَنْهَا}، لم يعتبرها مهمّةً، {وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ}، لم يتذكّر الشرك والإجرام الذي قام به. كما نقول: قدّمتُ لك الطعام. هنا ما قدّمتْ يدا الكافر هي الأعمال السيئة التي قام بها هو نفسه شخصياً، قدّمها لنفسه وأخّر الأعمال الحسنة التي تنفعه فلم يقم بها.

الذي ذكّرناه بآياتنا التي تجعله يستحضر في فكره العقاب الإلهي على السيئات فأدار لها ظهره، ناسياً كفره وشركه ومعاصيه، وكان يجب عليه التوقّف عندما أنذرناه من العقاب على السيئات، وأتته آيات إلهية تذكّره ليترك السيئات، فهل يوجد أحد لم يكن معه حقٌّ أكثر من هذا الإنسان؟ هل يوجد أظلم منه!

{إِنَّا} نحن {جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ}، على أساس تفكير ونفسية هؤلاء الناس، {أَكِنَّةً}، صار قلبهم مكنوناً، وصار في داخل شيء ما، مثل حبة اللؤلؤ في الصدفة فهي مكنونة في الصدفة، {أَنْ يَفْقَهُوهُ}، وهذا الكنّ هو السبب المانع لهم من دخول هذا القرآن إلى قناعتهم، فتصلهم المعلومات التي في القرآن ولكن لا تدخل إلى فكرهم ونفسيتهم فيرفضونها ولا يقتنعون بصحّتها، و{فِي آذَانِهِمْ وَقْراً}، ثقلاً في السمع، صعوبة في السمع، فيسمعون ولكن مثل الذي يسمع الصوت بشكل مشوّهٍ، فلا يفهمه ولا يحصل على المعلومات، فهؤلاء يسمعون القرآن ولكن يدخل إلى عقلهم مشوشاً كأنه كلام مبهم غير مفهوم.

{وَإِنْ تَدْعُهُمْ}، إذا دعوتهم فأعلنت وأشهرت ما لديك لهم، {إِلَى الْهُدَى}، ليكونوا على الأشياء الصحيحة التي توصلهم للغاية الصحيحة الحقّة العقلانية الصالحة، {فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَداً}، مهما مرّ من زمن فلن يكونوا على الشيء الصحيح، طبعاً بسبب الأكنّة التي على قلوبهم والتي هم بإرادتهم حين اختاروا الضلال جعلوا قلوبهم في أكنّة صارت مانعة لهم من قبول الهدى.

ننتبه جيّداً، إذا قمنا بحساب مدّة الحياة التي عاشها أكبر مجرم كافر، ولنقل إنها مئة سنة من الكفر والإجرام، فهل من المعقول أن يكون العقاب خلوداً لا ينتهي في جهنّم! هنا الآية وغيرها العديد من الآيات تشير إلى أن الكافر المجرم مهما عاش من زمن في الدنيا فإنه إلى الأبد كافر مجرم، ولذلك يستحق عقاباً خالداً في جهنّم، ولمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 28 من سورة الأنعام {بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}.

نلاحظ القرآن يقول مراراً إنّه تعالى غلّف قلوب الكفّار والمجرمين، وأغلق على بصرهم وسمعهم، ولكن هل كانوا أناساً عاقلين محترمين وتجنّى واعتدى سبحانه عليهم فاختارهم هكذا ظلماً وعدواناً وطبع وغلّف "أكنّ" على قلوبهم على أساس فكرهم ونفسيتهم حتى لا يؤمنوا؟ بالطبع لا، فكما ترى من الآية هنا ومن غيرها من الآيات، فالإنسان هو يختار نسيان جرائمه، وهو بإرادته يدير ظهره للكلام الإلهي... ونتيجة لذلك، يصير قلبه كارهاً للإيمان نهائياً أبداً.

السؤال: من خلقه بهذه الطريقة؟ من جعله ينطبع قلبه إذا كرّر الأفكار والأعمال؟ حيث كانت طبيعته بيضاء حين خلقه الإله سبحانه كما هو واضح من عدة آيات منها الآية 4 من سورة التين {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}، وبعدها بإرادته صارت طبيعته الكفر والإجرام من كثرة تكراره للكفر والإجرام، فمن خلقنا هكذا؟ الله سبحانه خلقنا هكذا، لأنَّ الآيات القرآنية تشير إلى انتفاء وجود قدرة ذاتية "منفصلة عن قدرة الإله سبحانه" على الكفر، وعلى الانطباع بالكفر، وهذه لفتة مهمّةٌ جداً، نكرّر الحديث عنها في دراستنا هنا لأن القرآن كرّرها كثيراً، فأساس هذه الفكرة أن نقرّر نحن شيئاً ولا يقدر الإله سبحانه على تغييره، فنقرّر أن نكفر، ونعتقد أنه سبحانه لا يمكنه إجبارنا على الإيمان، أو نقرّر الكفر ونعتقد بامتلاكنا قدرة ذاتية على الكفر، كقدرة نحن نملكها ولم نحصل عليها منه سبحانه، كأننا أشباه آلهة، أو خلقنا سبحانه ولكنّنا حصلنا على هذه القدرة هكذا من الحائط... أو أنه تعالى يريدنا أن نهتدي ونحن أقوى مما يريده فنكفر... فهذا ما تريد الآيات الكثيرة تنبيهنا منه، فأنت تؤمن لأنه سبحانه زوّدك بالقدرة على الإيمان، حيث سبحانه جعلك "قابلاً" لأن تؤمن، وتكفر وتصير منطبعاً بالكفر، لأنه سبحانه خلقك تنطبع من كثرة التكرار، فلا قدرة ذاتية لك ولا بأي شكل منفصل عنه تعالى.

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً{58})
{وَرَبُّكَ}، والمسؤول عنك من مستوى إلهي، {الْغَفُورُ}، ليس صلباً قاسياً لا يغيّر موقفه بل يلغي العقاب على الذنب، حيث يسامح من طلب منه المسامحة، وربّك، {ذُو الرَّحْمَةِ}، موصوف بالعناية بما فيه مصلحة مخلوقاته وهنا الكلام عن العناية الإلهية الخاصّة بمن آمن.

قارنه تعالى بالناس الذين لا ينسون ولا يسامحون من أخطأ معهم وأساء لهم، ويعاقبونهم حتماً حتى لو تابوا وطلبوا العفو، فهؤلاء لا رحمة عندهم، أمّا سبحانه فأخبرنا كثيراً في القرآن أنه يغفر لمن استغفره مهما صدر منه من كفر وشرك وإجرام وسوء، فإن آمن وطلب العفو فسيحصل عليه حتماً.

{لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ}، لو يسجّل عليهم ويحاسب الناس، {بِمَا كَسَبُوا}، بما حصلوا عليه مما نتج من أعمالهم، {لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ}، وعاقبهم على ما فعلوه حالاً وفوراً قبل الانتظار للموعد المحدّد للعقاب، ولو كان سبحانه لا يغفر ولا يرحم، لكان عاقب فوراً هنا في الدنيا كل إنسان يرتكب عملاً مخالفاً لأوامره تعالى. تذكّر ما قلناه عن الذين لا يسامحون ولا يرحمون ويعاقبون من أخطأ معهم مهما استرحم، ولو كان لديهم القدرة على المعاقبة الفورية لمن يريدون عقابه، لما كانوا أمهلوه، ولعاقبوه فوراً وانتقموا منه، أمّا سبحانه فيخبرنا عن نفسه أنه لديه القدرة على تعذيب من يعصيه فوراً، ولكنه لا يفعل ذلك بل يعطي مهلة.

{بَلْ لَهُمْ}، للناس العصاة يوجد، {مَوْعِدٌ}، زمن محدد قلنا عنه لمحاسبتهم ومعاقبتهم، وكما تعلم لأنه يوم القيامة من الموت وما بعده، {لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً}، لأنهم ذاهبون حتماً إلى محاسبتهم ومجازاتهم ولن يجدوا موئلاً، ملجأً للهرب من ذلك، ولن يستطيعوا ترك موعد العقاب ليذهبوا إلى مكان أو زمان آخر، لأنه حتميٌّ أكيد.

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً{59})
{وَتِلْكَ الْقُرَى}، تلك المجتمعات البشرية من مدن وبلدان... التي تحدّث القرآن عن بعضها، {أَهْلَكْنَاهُمْ}، استنفد سبحانه حياتهم وأمتناهم، {لَمَّا ظَلَمُوا}، عندما صاروا غير عادلين ولا منصفين وكفروا بالحقّ وعملوا السيئات وهذا شيء ليس معهم حقٌّ بفعله، لأنهم ظلماً فعلوه، {وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ}، لاستنفاد حياتهم لإماتتهم، {مَوْعِداً}، وقتاً محدداً قلناه لهم.

نلاحظ أنَّ الآيات السابقة تحدّثت عن أنه لا فورية عقاب إلهي لمن كفر وفعل السوء، ولكن القوم الذين انطبعوا بالمعصية لمدة طويلة، وكانت معصيتهم من النوع الكبير، كالشذوذ والغش واستعباد وظلم الناس... هؤلاء يصلون إلى مرحلة انقطاع الأمل من إيمانهم عندها لا يتركهم سبحانه، بل يميتهم، وأصلاً كان إهلاكهم له موعد محددٌ.

سبحانه لا يعمل وفق الظروف التي نحدّدها نحن، بل يعمل ضمن السنن التي حدّدها هو تعالى، فلا تتصوّر أنه تعالى خلقنا وكان يتأمّل أن نؤمن ونطيعه، وقمنا نحن بتخريب مخططه وكفرنا به وعصيناه، "عندها" قام بإهلاكنا، كأنه تعالى تفاجأ من تصرفنا، لا، لأنه تعالى يعلم بكل شيء سيحصل، وبسبب علمه مسبقاً بما ستصل إليه الأمور سلفاً حدّد سبحانه موعداً لإهلاك بعض القرى هنا في الدنيا...

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً{60})
في قصّة أصحاب الكهف كان التدخّل الإلهي لصالح المؤمنين ليجعلهم عبرة، وفي قصّة صاحب الجنتين كان التدخّل الإلهي مضاداً لمصلحة المشرك ليجعله عبرة، هنا تكمل السورة مع ناحية التدخّل الإلهي من دون أن يعلم الناس بحصوله، فمحور القصص الواردة في هذه السورة حول الشرك به تعالى والآخرة والجزاء، وهكذا تكون محورية القصص المرتبطة بدينه تعالى... ووصلت بنا السورة حيث الإله الأحد صاحب القدرة والسيطرة يخبرنا عن تدخّله بطريقة لا نشعر بها وبالتالي من جعل له تعالى شريكاً فليفهم أن آلهته المزعومة لا تفعل أي شيء من مستوى إلهي لا بطرق مباشرة ولا بطرق غير مباشرة...

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ}، قال لِذَكَرٍ في عمر الفتوّة في مرحلة القوة الجسدية، وهي عادة بعد سنّ البلوغ وقبل الأربعين سنة، ومن بقية الآيات نستوحي أنَّ الفتى كان يخدم النبي موسى(ع)، ولم يقل القرآن ما اسمه، وليس مهماً معرفة اسمه، ويقولون إنّه "يوشع بن نون" وهذا غير مؤكّدٍ ولكنّهم رجّحوه بسبب ثقافتهم التاريخية الدينية عن كون يوشع وصيّاً

للنبي موسى(ع) فافترضوا أنّه الشخص الأعلى مكانة من بين بني إسرائيل ليصطحبه النبي (ع) معه... قال له النبي(ع):

{لَا أَبْرَحُ}، لا أفارق هذه المنطقة للرجوع إلى قريتي، {حَتَّى أَبْلُغَ}، حتى أصل إلى، {مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ}، المكان الذي يجتمع فيه بحران، كميتان كبيرتان من المياه، {أَوْ أَمْضِيَ}، أسير متقدّماً، {حُقُباً}، لفترات زمنية، أستريح ثم في فترة زمنية أكمل البحث، ثم أستريح وفي فترة زمنية أخرى أكمل البحث... وهكذا.

يعني مضى عليهما زمن طويل يسيران ويبحثان عن مكان محدّدٍ، ويبدو أن الفتى تساءل عن المدة التي سيقضيانها في البحث، هل سنقضي عمرنا نبحث عن المكان الذي تقصده أيها النبي؟ وهذه الآية جواب عن ذلك السؤال. وهذه الطريقة التي ترك فيها القرآن السؤال وأعطاك الجواب لتستنبط السؤال بنفسك، هي طريقة منتشرة في عموم القرآن.

كما سترى من القصّة إنَّ النبي موسى(ع) وهو النبي المشهور الذي تحدّث عنه القرآن مراراً كرسول إلى فرعون ليتركه يأخذ بني إسرائيل من مصر... وعلى ما يبدو، النبي موسى(ع) وصله "خبر إلهي" عن وجود شخص يملك علماً مختلفاً عن علوم البشر، وهذا العبد العالم يتواجد في منطقة يجتمع فيها البحران... فقرّر النبي موسى(ع) الالتقاء به، وانطلق إلى تلك المنطقة، ويبدو أنه بوحي إلهي جرى تنسيق موعد ومكان اللقاء على أساس أن ينتظر العبد الصالح وصول النبي موسى(ع) إلى منطقة مجمع البحرين.

مجمع البحرين مكان يصبّ فيه نهر حلو في بحر مالح، أو بحر مالح يلتقي ببحر مالح، أو نهران من مياه حلوة يلتقيان، أو نهر مياه حلوة ببحيرة... أو نهران يصبّان في بحيرة... وهناك العشرات من النقاط تنطبق عليها صفة "مجمع بحرين" في منطقة الشرق الأوسط حيث كان يعيش النبي موسى(ع)، حيث إنَّ فيها العديد من الأنهر التي تصبّ في بحر، والعديد من التقاء نهرين... فلا معنى لتحديد تلك النقطة بالنسبة لنا اعتماداً فقط على توصيفها بمجمع البحرين، إلا إذا توصّلنا لدليل تاريخي يشير إلى حصر تسمية "مجمع البحرين" بموقع واحد في زمن النبي موسى(ع).

مما سيأتي سترى بوضوح أن النبي موسى(ع) إمّا أنّه كان يجهل تحديد نقطة اللقاء، لأنه وصل لـ {مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا} وغادره باحثاً عن العبد الصالح، فمن المفروض أن يبقى في نقطة اللقاء منتظراً العبد الصالح، وإمّا أن نقطة اللقاء واسعة جداً، حيث وصل (ع) لـ {مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا} ثم انطلق في المنطقة باحثاً عن العبد الصالح، وبالتحليل هذه الحالة تصدق على وصوله إلى بحيرة كبيرة يصبّ فيها نهران، فكلمة "مجمع" أفهم منها بشكل ما مكان استقرار للمياه من بحرين، حيث وصلها ودار حولها باحثاً عن العبد الصالح.

ستلاحظ الكثير من العبر في القصة التي ستأتي، حيث سترى شخصاً يملك علماً مختلفاً عن علم الرسول موسى(ع)، وسترى الصبر عند التعلم من مصدر إلهي موثوق، وسترى العناية بالمؤمنين، والأهمّ من ذلك كلّه سترى تدخّل الإله الأحد بشكل غير ملحوظ من الناس، وسترى العمل بالغيب... وهذا هو المغزى الأساسي من القصّة.

يمكننا أن نستوحي من الآيات أن النبي موسى(ع) وفتاه كانا يمشيان بمحاذاة نهر، ويمشيان حتى يصلا إلى نقطة التقائه بنهر آخر أو ببحر... وطال المسير كثيراً...

(فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً{61})
{فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا}، وصلا حيث النقطة التي يحصل فيها اجتماع "التقاء" البحرين، استراحا كما سترى فيما سيأتي، وهناك، {نَسِيَا حُوتَهُمَا}، انطلقا وغابت السمكة الكبيرة عن فكرهما، وقبل ذلك، {فَاتَّخَذَ}، الحوت "السمكة"، {سَبِيلَهُ}، مسلكه، {فِي الْبَحْرِ سَرَباً}، سرب في الماء، وذهب وذهب متقدّماً، وسبح كما تسبح الأسماك، ولم يبق في مكانه واستمر بالحركة. يعني عادت له الحياة ولم يسحبه الماء بل هو سلك في الماء متقدّماً حيث ذهب.

لاحظ أننا الآن نقول "حوت" للسمكة الضخمة الكبيرة جدّاً جدّاً، وعلى ما يبدو من كلام العرب قديماً كلمة حوت مخصصة للقياسات الكبيرة من السمك، وليس للضخمة فقط، حيث إنَّ السمكة بطول الذراع "مثلا" يقولون لها حوت.

يعني، وصلا إلى مجمع البحرين، واستراحا هناك، ومن تكملة الآيات سترى على الأرجح أنهما اصطادا سمكة كبيرة هناك، واحتفظا بها لتكون طعاماً لهما على الطريق... أو كانت معهما سمكة مملّحة أو مقدّدة... ونام النبي موسى(ع)

وبقي الفتى مستيقظاً... وشاهد الفتى السمكة تعود إلى الحياة وتسبح في الماء، ونحتمل أن الفتى بعد ذلك نام من التعب... لأننا سنقرأ بعد قليل عن النبي(ع) يسأل فتاه أن يعطيه من السمكة ليأكلا...

هناك كلام كثير بين الناس عن الماء الذي عاد الحوت فيه إلى الحياة، ويسمونه "ماء الحياة" و"عين الحياة"، على أساس أن من يشرب منه، أو يغتسل به، فإنه لا يموت، انتبه إلى أن القرآن لم يقل إلّا أنّ الحوت رجع إلى الحياة، وعاد ليسبح في الماء، وهذا ما نفهمه كسبب لتعجّب الفتى مما حصل مع الحوت، لو كان حيّاً وقفز ليرجع إلى الماء، فلن يكون للتعجّب أي معنى، وأي كلام آخر عن خاصية غير عادية لذلك الماء فهو من الروايات، لا تخلطه مع القرآن، من دون الروايات يمكنك افتراض عودة الحياة لتدبّ في الحوت من دون افتراضك أنَّ السبب هو ملامسة الحوت للماء. مثلما لم تبحث عن الحجر الذي ضربه النبي موسى(ع) بعصاه وانفجر منه الماء، لأنك تعلم أنك حتى لو وجدته، ووجدت العصا، وضربت العصا بالصخرة، فلن يخرج الماء، هنا لا يحق لك أن تستنتج من الآيات أن ذلك الماء يعيد الحياة للأموات، أو يعطي عمراً طويلاً للأحياء، هل الأسماك في تلك المياه تتكاثر إلى الآن ولا تموت! والحشرات والطير التي تشرب منه أيضاً لم تمت ولا تموت!

كيف تفترض أن النبي والفتى لم يلمسا مطلقاً ذلك الماء! على الأقل ليغسلا أيديهما! وأنت تعلم أنهما ماتا!

انتبه من خلط معلوماتك عن هذا الماء مع معلوماتك عن النبي الخضر(ع)، لأن الناس يقولون بأنه لا يزال حيّاً إلى الآن لأنه شرب أو اغتسل من ذلك الماء، وهذه أمور لم يذكرها القرآن، ولا ندري صحّتها من سقمها، حيث إنَّ الروايات فيها متشابكة متداخلة متخالفة جدّاً جدّاً، ولا يمكن الاعتماد على كلامهم كمصدر لعلم يقيني حقيقي، وبمتابعة تلك الأخبار والروايات لمحاولة استخراج شيء مفيد منها، سيضيع علينا ما تريد الآيات هنا قوله.

(فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً{62})
استيقظا صباحاً، ولم يأت أحد، وانطلقا...

{فَلَمَّا جَاوَزَا}، عندما اجتازا وعبرا مجمع البحرين، ابتعدا عن تلك المنطقة، وصار الوقت قريباً من الظهيرة كما سيبدو من تكملة الكلام، قال النبي موسى(ع) لفتاه:

{آتِنَا غَدَاءنَا}، أعطنا طعام الغداء، الطعام الذي سنتناوله في فترة الغداة، {لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا}، لقد حصل معنا من قطعنا للمسافات، {نَصَباً}، تعباً شديداً. يعني: جعنا وتعبنا من كثرة المشي ولنجلس لنأكل.

نلاحظ أن كلمة "غداء" صار من المتعارف عليه حالياً أنها اسم لوجبة الطعام في فترة ما بعد الظهيرة، علماً أنها في أصل اللغة: وجبة الطعام طوال فترة الغداة، وهي فترة النهار من أوله لآخره، وستجد بعض التشابك في معاني هذه الكلمة بسبب عدم اعتياد غالبية الناس القدماء على نفس فترات الطعام التي صارت شبه متعارفة في عصرنا: فطور، غداء، عشاء. حيث إنَّ اختلاف عاداتهم بين بعضهم في مواقيت الطعام سبّب اختلافهم في تحديد نفس الكلمات لنفس توقيت الوجبة، وبمراجعة التاريخ سترى أن الفقراء كانوا يعيشون على وجبة العشاء فقط، أو على وجبتين: فطور وعشاء، مع تأخير وتقديم في مواعيد الوجبتين بحسب أنشطتهم التي سيشعرون من بعدها بالجوع... وربما يتخلل ذلك بعض الطعام الخفيف... أمّا الأغنياء ففي طيّات الكتب ستجد أنهم كانوا يتناولون ثلاث أو أربع أو خمس أو ستّ وجبات يومياً... وهنا يمكننا أن نستوحي من القصّة أن الغداء كان بعد مسير سبّب التعب الشديد، إن كانوا ناموا "قرب الصخرة" واستيقظوا للمسير من أوّل الشروق... ومشوا حتى تعبوا، فعادةً قبل الظهر يحصل الجوع والتعب، وإن تناولوا الفطور قبل الانطلاق ففي وقت الظهيرة سيحصل الجوع... على كلّ حال فالاحتمالات مفتوحة لحالات أخرى ولا فائدة من الدخول فيها.

(قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً{63})
{قَالَ} الفتى: {أَرَأَيْتَ}، تذكّر الصورة المحدّدة، كما نقول بالعاميّة: شفت. {إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ}، "شفت" عندما جعلنا الصخرة مأوى لنا ووضعنا أغراضنا بقربها واسترحنا ونمنا في ظلّها، {فَإِنِّي نَسِيتُ} "ما جرى مع" {الْحُوتَ}،

فكان من المفروض أن أتذكّر ما حصل، ولكني نسيت وذهب عن بالي، {وَمَا أَنْسَانِيهُ}، وما أذهب عن بالي ما حدث مع الحوت، {إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ}، قرّرت أن أخبرك بما حصل عندما تستيقظ ولكني نمت أو انشغلت بأمور أخرى جعلتني أهمل هذا الموضوع المهم، وأرمي اللوم على الشيطان، لأنَّ انشغالي بأمر آخر جعلني أنسى الأمر المهمّ، {وَاتَّخَذَ}، الحوت، {سَبِيلَهُ}، مسلكه طريقه، {فِي الْبَحْرِ عَجَباً}، بشكل مخالف لتوقعي وبشكل غريب عاش وسبح في الماء!

نتذكّر من كلام النبي موسى(ع) في بداية القصّة، أن الفتى المرافق كان متسائلاً عن طول الرحلة وصعوبتها، والنبي موسى (ع) نفسه بدأ يشعر بالتعب من هذه الرحلة... وإضاءة الآيات على هذه النقطة تجعلنا نشعر أن أهميّة هذا السفر هي النقطة التي دخل منها الشيطان ليجعل الفتى ينسى حادثة السمكة، فهذا السفر المتعب الطويل، واحتمال أن يطول كثيراً، خاصة بعد أن وصلا إلى مجمع البحرين ولم يجدا العبد الصالح(ع)، واستيقظا لينطلقا من جديد، فهذا الوضع جعل الفتى يفكّر بالسفر الطويل المتعب، وكم سيستمر... وهكذا نسي حادثة عجيبة غريبة، فاستيقظ من النوم ناسياً ما حدث مع الحوت وانطلقا... ونخمّن بالتحليل أن الفتى يشعر بالملل والتعب والنعاس... ولذلك نسي ما جرى مع الحوت ولم يتذكّر حتى سأله النبي موسى(ع)...

لاحظ تعبير الفتى عن العجب مما حصل مع الحوت، فهو يدل على حدث عجيب غريب غير مألوف، وبالتالي الاحتمال الأرجح لشيء غير مألوف وعجيب، أن تسبح السمكة في الماء بعد أن كانت ميتة، أمّا إذا وصل مدّ الماء إلى السمكة وسحبها، فهذا شيء لا يدعو للتعجّب، وكون السمكة من النوع الذي يعيش لعدة ساعات خارج الماء، فأنت ستراها تتنفّس خارج الماء أثناء تلك المدّة، وستعلم بأنها لا تزال حيّة، وتحركّها ونزولها إلى الماء على هذه الحالة هو أيضاً ليس شيئاً عجيباً، إذن أقوى وأوضح الاحتمالات أنَّ السمكة كانت ميتة وعادت إلى الحياة، وسبحت في الماء.

(قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً{64})
قال النبي موسى(ع): {ذَلِكَ} المكان هو {مَا كُنَّا نَبْغِ}، ما كنّا نريد حصوله من سفرنا، فهذه الحادثة العجيبة هي إشارة للمكان الذي كنّا نبحث عنه.

{فَارْتَدَّا}، توقّفا عن التقدّم وسارا بالاتجاه المعاكس، ورجعا {عَلَى آثَارِهِمَا}، على ما نتج من مشييهما من آثار على الأرض مُتَقَصِّصَيْنِ العلامات والمسالك والصخور... التي سبق أن مرّا بها، والمقصود أنهما عادا على نفس الطريق الذي جاءا منه، {قَصَصًا}، يَتَقَصَّصَانِ يَتَتَبَّعَانِ الأثر. لأنهما انطلقا من مجمع البحرين حيث عاد الحوت إلى الحياة، ومشيا مسافة طويلة، والآن يريدان العودة إلى نفس المكان الذي انطلقا منه، حيث إنها منطقة كبيرة ولا يريدان البحث فيها كلّها، وتقصصا وبحثا وتتبعا الأثر، آثار أقدامهما والممرات والعلامات... التي سارا فيها على الطريق، حتى يرجعا بالضبط إلى نفس المكان الذي كانا فيه.

(فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً{65})
رجعا إلى المكان الذي نزلت فيه السمكة إلى الماء...

{فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا}، مخلوقاً من المخلوقات الذين من المفروض منهم طاعتنا، وهذا العبد، {آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا}، نال عناية منه تعالى لما فيه مصلحة العبد، {وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا}، من عندنا "شخصياً"، {عِلْمًا}، موصوفاً بأتم ما لكلمة علم من معنى، وسترى أن المعلومات التي حصل عليها تتخطّى وتفوق المعلومات التي يمكن الحصول عليها بالطرق العادية، حيث حصل على علم إلهي غير متوافر ولا متاح بالطرق العادية لبقية البشر.

القرآن لم يذكر اسم هذا الشخص، ولا أي معلومة مباشرة عنه، والمشهور بين الناس أنه الخضر(ع)، وبعضهم يقول إنه نبي وآخرون يقولون إنه عبد صالح وليس نبياً... ودائماً الناس في كلامهم وكتابتهم يسمونه "الخضر" مع أل التعريف، فلا يسمونه: خضر، بل: الخضر. ويقولون إنه عاش زمناً طويلاً، وإنه لا يزال حيّاً إلى الآن... وهذه معلومات من مصادر روائية وخبرية، فلا تعطها موثوقية ويقين المعلومات التي يقدمها القرآن، لأن تلك الأخبار متخالفة بكثرة فيما بينها، ومن غير المنطقي أبداً محاولة استخلاص معلومات مفيدة من تلك الروايات بسبب شدّة اختلافها... وعلى كل

حال، لو نظرت بعين العقل إلى تلك الروايات، لما وجدت فيها الفائدة التي يقدّمها القرآن، بل لوجدت هوَساً بشرياً للبحث عن وسيلة للعيش لمدّة طويلة بالشرب من ماء الحياة...

نلاحظ أن الآية تتحدّث عن علم إلهي خاص حصل عليه ذلك العبد(ع)، وسوف ترى في القصّة أننا ولا بأي طريقة عادية يمكننا أن نعلم ما يعلمه، حيث لا يوجد بين أيدينا وسائل تمكننا من معرفة ما يعرفه، ولا يمكننا اتخاذ القرارات التي اتخذها...

كلمة {عَبْد} تشير لمن مفروضةٌ منه وعليه الطاعة، فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، فكأن كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإلهٍ، ولكن هذا غير صحيح، فكلاهما بـنفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عَبِيداً جمع عبد، وعِبَاداً جمع عبيد، فهي جمع الجمع، وأثناء الكلام بدقّة يمكن أن تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، فتقول الآيات: عبيد. ووردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. ويمكن أن تكون لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. ويمكن أن تكون لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، فهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخرين جاءهم رسول، وعبيد آخرين... فجمع الجمع "عباد"، وكلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جداً عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً{66})

{قَالَ لَهُ مُوسَىٰ}، قال النبي موسى(ع) للعبد العالم(ع): {هَلْ أَتَّبِعُكَ}، هل أكون معك، هل أقضي وقتاً معك، {عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا}، أنت تعلمت التفكير والتصرف بشكل صحيح، "بعلم خاص منه تعالى كما قرأنا في الآية السابقة"، فهل تعلمني منها فأصير رشيداً مثلك، فيصير عندي فكر ورجاحة عقل أكثر، فأستدل على المعرفة الصحيحة الجيّدة النافعة. فهل تقبل أن تكون معلّمي؟

النبي موسى(ع) يعلم بتميّز هذا العبد الصالح(ع) من خبر إلهي سابق على ما يبدو، وقرّر التعلّم من ذلك العبد، والانطلاق للقاء العبد الصالح(ع) لم يكن عن اتفاق مسبق بينهما ليتعلّم منه كما هو واضح، حيث لم يحصل بينهما تواصل مباشر من قبل، بل عبر خبر وصل للنبي موسى (ع) عن تواجد العبد العالم عند مجمع البحرين... وقصده ليطلب منه التعلّم، ومما ستراه من قدرات معرفية لذاك العبد الصالح(ع) ستحتمل أنه علم برغبة النبي موسى(ع) بالتعلّم منه وانتظره ليتحدّث معه، أو تلقّى وحياً إلهياً يخبره برغبة النبي موسى(ع) باللقاء معه ليتعلّم منه أو...

النبي موسى(ع) كليم الله تعالى كما تعلم، ورغم ذلك لم يحصل على العلم الذي اختصّ به تعالى ذلك العبد الصالح(ع)، وشبه ذلك، الذي عنده علم من الكتاب القادر على إحضار عرش من سبأ بأسرع من رمشة عين، وهذه قدرة لم يملكها النبي سليمان(ع) رغم المكانة العالية للنبي سليمان(ع) عنده تعالى... وسترى من القصّة أن النبي موسى(ع) لم يحصل على القدرة العلمية التي يملكها ذلك العبد الصالح(ع)، ولكنه حصل على العلم بنماذج من التدخل الإلهي عبر طرق مخفيّة عن الناس... يخطر ببالك أنه يريد أن يتعلّم ليصير مثل العبد الصالح ولكن من سياق الكلام والآيات ترى أن النبي موسى (ع) لم يقصد ذلك، وقصد أن يرى التدخّل الإلهي عبر توظيف إنسان كيف يحصل عملياً، مثلما نحن الآن بقراءتنا لهذا النصّ نتعلّم.

(قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً{67})

قال العبد الصالح(ع) مُجِيباً: {إِنَّكَ}، أيها النبي موسى(ع)، {لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا}، لن تبقى تتصرّف بشكل واعٍ ومدروس، ولن تنتظر حتى يحين موعد الشرح لك.

كما سترى من القصّة فهذا ما حصل فِعْلاً، ولم يستطع النبي موسى(ع) السكوت حتى انتهاء مدّة المرافقة.

يبدو واضحاً أن العبد الصالح لم يتبرّع لتعليم النبي موسى(ع)، ولم يصل إلى العبد الصالح(ع) أمرٌ إلهيٌّ بتعليم النبي موسى(ع)، ولم يَتَلَقَّ أَمْراً بملاقاته وانتظاره، فهذا متروك له (ع) ليقرّره... وهذا ما يدل عليه كلام النبي موسى(ع) أنه سيبحث عنه حتى لو استغرقه حُقُباً...

كما ترى، القدرة العلمية عند هذا العبد بدأت تظهر من أول كلام قاله، حيث سَلَفاً أخبر النبي موسى(ع) أنه لن يصبر وهذا ما حصل.

(وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً{68})
يكمل العبد الصالح(ع):

{وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا}؟ إن لم يكن عندك خبر من كل الجوانب عمّا سيحدث، وكنت بلا معطيات، فكيف ستصبر ولا تعترض؟ سوف ترى بعد قليل أن العبد الصالح(ع) محقّ تماماً، لأن النبي موسى(ع) سيرى حوادث لا يعرف عنها إلا ما يراه بعينيه، وتلك الحوادث تخفي شيئاً آخر لم يَتَمَكَّنْ من رؤيته إلّا العبد الصالح(ع).

(قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً{69})
قال النبي موسى(ع):
{سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا}، لن أقول أو أفعل أي شيء غير عقلاني ردّاً على ما أراه ولم أفهمه، وسأتصرف بشكل واعٍ ومدروس ولن أعترض، حتى يحين موعد شرحك لي، {وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا}، وأطيعك في كل الشؤون، وفي كل ما تقول. لحدّ الآن لم يعلم النبي موسى(ع) أي شيء عمّا سيلاقيه، فلنكمل:

(قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً{70})
قال العبد الصالح(ع): {فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي}، إذا كنت معي، ومشيت معي لتتعلّم، {فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ}، ولا تعبّر لي عن إرادتك للحصول على جواب مني عن أي شيء يحصل، لا لماذا ولا كيف... وليبقى الحال هكذا، {حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ}، حتى أجعل يحدث لك، {مِنْهُ}، من الشيء الذي حصل، {ذِكْراً}، فأذكر لك أنا من وجهتي ما حصل، فانتظر حتى أحدّثك أنا عمّا حصل.

بعبارة أخرى: لا تسألني عن أي شيء يحصل معنا حتى أنا أخبرك. ولكن التعبير القرآني يتضمّن معاني أدق وأعمق، حيث نفهم منه أن العبد الصالح(ع) لن يشرح كل شيء عمّا سيحصل، وخذ مثلاً إذا كنت أنت خبيراً بصناعة الحلوى، وعلّمتني، فمن المفروض أن أصير أنا قادراً على صناعة الحلوى، أمّا قصّتنا هنا، فهي مختلفة، وكما سترى النبي موسى(ع) لن يتعلّم ليصير مثل العبد الصالح(ع)، لأنه لن يستطيع النبي(ع) القيام بما يقوم به العبد الصالح(ع)، ولكن سيتعلّم أن الأمور لها ظاهر وباطن، وأنه تعالى يتدخّل بما يراه مناسباً من دون أن يشعر الناس بتدخّله سبحانه...

(فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً{71})
{فَانْطَلَقَا}، بدأ النبي موسى(ع) والعبد الصالح(ع) يمشيان مغادرَيْنِ لمكانهما باتجاه هدفهما، وبدأت رحلة التعلّم للنبي موسى(ع) ورحلة الحياة اليومية العادية للعبد الصالح(ع)، ويبدو من بقيّة الآيات أن الفتى الذي كان مع النبي موسى(ع) لم يرافقهما. ... مشيا...

{حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ}، صارا فوقها، {خَرَقَهَا}، جعل العبد الصالح(ع) فيها خرقاً، انتزع أو كسر جزءاً من خشب السفينة فدخل الماء إليها.

قال النبي موسى(ع): {أَخَرَقْتَهَا}، هل جعلت في السفينة فتحة، {لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا}، ليموت المنتمون للسفينة اختناقاً بالماء؟ {لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً}، قمت بشيء، {إِمْراً}، عملاً كبيراً، ولم تقم بعمل يمكن غضّ النظر عنه، بل كان عملاً كبيراً.

كما ترى انطلقت السفينة وحين صارت في عمق البحر "بحر مالح أو نهر كبير أو بحيرة كبيرة" جرى تخريبها، ومن بعد المسافة عن الشاطئ هناك احتمال قويّ أن يموت ركّابها غرقاً.

مما لا شكّ فيه أن تخريب السفينة عمل سيّئ، وهناك احتمال أن يغرق من فيها وهو أسوأ، فكيف سيسكت النبي موسى(ع) عن هكذا عمل سيّئ! وفعلاً لم يسكت، ولكنه بقي محترماً مهذّباً مع أستاذه، ولم يستعمل كلمات اعتراض تشير لقلّة الأدب، ولم يقل له إنك سيّئ مجرم... واستبدلها بكلمة تعطي معنى أنك قمت بعمل كبير.

هذا الاعتراض على خرق السفينة الذي سيؤدّي إلى إغراق ركّابها في البحر، يشير إلى إمكانية تدخّل النبي موسى(ع) لإصلاح السفينة، لأن الماء يدخل إليها، وإن تركها بدون إصلاح فهناك احتمال أن يغرق الركّاب... هناك أمر يجب أن تنتبه له، حيث أنت تعرف هذه القصّة، وحين تقرؤها لن تتفاجأ، أمّا النبي موسى(ع) فلم يخطر بباله أن هذه الفعلة السيّئة هي من ضمن الدرس، وما حصل معه كان مفاجئاً، واعتراضه كان طبيعياً، وإن خطر ببالك أنك لو كنت مكانه لما اعترضت، فأنت أنت، وموسى موسى، لأنه (ع) لا يتحمّل رؤية السوء والسكوت عنه.

(قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً{72})
قال العبد الصالح(ع):
{أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً}، أخبرتك أنك إن رافقتني لن تصبر على ما ستراه وستعترض وتمنعني من عملي وتطلب تفسيراً فورياً لما تراه.
هذه الفورية في الاعتراض من النبي موسى(ع) تدل على أنه لو أخبره العبد الصالح(ع) سلفاً بما ينوي فعله لكان النبي موسى (ع) تدخّل لمنع العبد الصالح(ع) من خرق السفينة، وكان سيقترح حلولاً أخرى... والعبد الصالح(ع) هذا عمله، فهو يرى الأمور بشكل مختلف عنّا ويتلقى أوامرَ إلهية مختلفة عنّا، فهو مكلّف بالعمل بالباطن، بخفايا الأمور، ولديه معلومات عمّا سيحصل في المستقبل مع الناس الذين يراهم، وبناءً عليه يتوجّه للتدخل في حياتهم، وهذا فرق جوهري بينه وبين النبي موسى(ع) الرسول المكلّف بالعمل بظواهر الأمور، حيث الاحتمالات مفتوحة، لأن الحقيقة نعرفها فقط إن وصلتنا كافة المعلومات الصحيحة، والعبد الصالح(ع) يرى أمامه الناس، ويرى مستقبلهم كما سترى من القصص الثلاث، وأمّا النبي موسى(ع) فلا يرى أكثر مما نراه نحن... فكيف سيسمح له بتخريب السفينة لأن فيها ركّاباً سيغرقون!

(قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً{73})
قال النبي موسى(ع):
{لَا تُؤَاخِذْنِي}، لا تأخذ عليّ مأخذاً، لا تسجّل علي ما فعلت لتطالبني به، {بِمَا نَسِيتُ}، نسيتُ وذهب عن بالي الاتفاق الذي بيننا على أن أسكت وأنتظرك حتى تشرح لي، فلا تسجّل عليّ انفعالي وتعتبرني أخلَلْتُ بالاتفاق، فأنا أريد أن أكمل معك لأتعلّم. {وَلَا تُرْهِقْنِي}، لا تجعلني أصاب بحالة سيئة "العسر"، {مِنْ أَمْرِي}، من شؤوني من تعلّمي منك، {عُسْراً}، صعوبة بحيث لا أكون مرتاحاً.
بعبارة أبسط: أمري شأني بالتعلّم منك، لا تجعله مرهقاً لي من عسرته، لأن الأشياء الصعبة من الطبيعي أن تكون مرهقة، وما حصل كان صعباً عسيراً وأرهقني، فخفّف عني وكن سهلاً معي. عاد الهدوء إلى النبي موسى(ع) حين تذكّر أنه يرافق عبداً صالحاً لن يرتكب السوء، وتذكّر أنه في حالة تعلّم، وفهم أن هذه الحادثة من التطبيقات العملية لعلم العبد الصالح(ع).

(فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً{74})
... على ما يبدو أن أصحاب السفينة عالجوا موضوع الخرق بالترقيع والإسراع نحو الشاطئ... بعدها:

{فَانْطَلَقَا}، ونزلا من السفينة حين رست ومشيا باتجاه هدفهما الجديد... {حَتَّى إِذَا لَقِيَا}، التقيا، تواجها مع، {غُلَامًا}، ولدا بين سنّ التمييز والبلوغ، يعني هو في بداية عمر تمييز الأمور الجيدة من السيّئة، {فَقَتَلَهُ}! هكذا ومن دون أي مقدمات، وجدا هذا الغلام وأنهى العبد الصالح(ع) حياة الغلام! ولم يفعل الولد لهما أي شيء! ولا يبدو أن الولد يعرف العبد الصالح(ع) ولا العبد الصالح يعرفه.

{قَالَ}، النبي موسى(ع):

{أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً}، لائقة بالحياة ليست خبيثة ولا فاسدة فهو مجرد غلام بريء، قتلته، {بِغَيْرِ نَفْسٍ}؟! لو كان الغلام قتل نفسا من قبل، لكان خبيثا ولقلنا إنّك قتلته مقابل تلك النفس، ولكننا التقينا به منذ لحظات، ولم نره يقتل أحدا، ولا يبدو أنك تعرفه... هو غلام لم يقم بأي جرم يجعل نفسه خبيثة، {لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا}، قمت بعمل، {نُكْرًا}، منكرا غير معروف، شيئاً ينكره العقلاء من الناس؟! والمنكر من مقابلته مع "عرف معرفة" يعطي معنى حصول صورة أو مفهوم ونفي تطابقه مع ما لديك، وهو عموم ما ليس معروفا على الوجه المطروح، كرفض لتصنيفه. وهنا الكلام عن فعل قتل مرفوض تصنيفه بالجيد.

ننتبه، من الاعتراض نحتمل بقوّة أن النبي موسى(ع) حاول إنقاذ الغلام من الموت ولكن موت الغلام كان سريعا... لأنه لن يعترض ويقف متفرجا على غلام لا يعلم له ذنبا ليموت أمامه، وهكذا نفهم أن العبد الصالح(ع) لو أخبر النبي موسى(ع) عن نيّته قتل الولد، فإن النبي(ع) كان سيتدخل ويمنعه، وإن شرح العبد الصالح(ع) السبب الدافع لقتل الغلام، فالنبي(ع) كان سيقترح حلولا أخرى غير القتل... وسيؤخّر تنفيذ المهمة... ونحن كقرّاء للقصة إننا نتعامل معها ببرودة تختلف عمّن كان هناك يرى الغلام يموت... وكلامنا هذا عن الحلول الأخرى الممكنة لا يعني أننا نعترض، فالله تعالى أعلم بشؤون عباده، ولكن حلّ القتل يبدو قاسيا من ناحية النبي موسى(ع) ولن يبلعه بسهولة، وأصلا لم يبلعها واعترض وعاد وسكت عندما تذكّر أن العبد الصالح(ع) أخبره مسبقا عن صعوبة مرافقته، وأنه لا يعمل بأمر منه بل بأمر من الله تعالى.

(قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً{75})
{قَالَ}، العبد الصالح(ع): {أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا}!

هذه هي المرّة الثانية التي تعارضني فيها ولا تضبط فيها نفسك، وتسألني قبل أن أبادرك بالجواب.

لو كنت تقرأ هذه القصّة لأول مرّة لسألت عن سبب إخفاء العبد الصالح(ع) عن النبي موسى(ع) سبب ما فعله من بعدما فعله، لأنه انتهى ولا خوف من تدخّله، وبالتحليل اعتماداً على ظاهر الآيات نفهم أن درس الصبر للنبي موسى(ع) اندمج مع درس العلم الإلهي الذي يتمتّع به العبد الصالح(ع)، والذي عملياً يُطبَّق بالتدخّل في حياة الناس وهم لا يعرفون سبب ما حصل، وهكذا يعايش النبي موسى(ع) شعور الناس الذين وجدوا الخرق في السفينة ووجدوا الغلام مقتولاً وهم لا يعلمون من فعل ذلك ولماذا.

هذه حالتنا نحن الآن، وهذا لا يعني أن كل حادث لا نعلم من فعله سيكون العبد الصالح(ع) فعله، لا، فما نعلمه وما لا نعلمه كلّه تحت السيطرة الإلهية ولا يحصل إذا لم يتركه تعالى يحصل، وبحكمته سبحانه وبطرق مباشرة وغير مباشرة يتدخّل بما يراه سبحانه وتعالى مناسباً، وهذا درس للمؤمنين من هذه القصص.

بعبارة أبسط، هناك حكمة إلهية من عموم الحوادث التي تحصل، وبعضها يمكننا معرفته من تحليل المعطيات، وبعضها لا يمكن أبداً معرفته، فما هو التحليل الذي سيؤدّي بنا إلى تأكّدنا من معرفة ما سيفعله الغلام من سوء حين يكبر؟ والأمور التي تحصل معنا ومع من حولنا والتي نسمع بها، ما هي إلا حوادث بعضها يتدخّل فيها سبحانه ليغيّر مجراها، والأخرى تسير إلى حيث قرّر سبحانه سلفاً أن تسير... وهكذا نفهم هدفاً من إخفاء المعلومات عن النبي موسى(ع) حتى يعيش حالتنا العادية، حيث تحصل الأمور ولا نرى الحكمة من حصولها، فهناك حكمة نفهمها ونصيبها من تحليلنا للأمور، وأخرى نحتمل لها مبررات، وما عرضته السورة من حوادث لا يمكن ولا بأي شكل فهمها إلا بعلم ما سيحدث في المستقبل، لأن المعطيات المتوافرة لا تشير إلى أي احتمال، وهكذا تريدنا الفقرة أن نفهم حكمته تعالى مما نفهمه ومما لا نفهمه، ومما لا يوجد له معطيات لنفهمه ونحتمل له حكمة إلهية نجهلها.

(قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً{768})
{قَالَ}، النبي موسى(ع):

{إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا}، إن عبّرت لك عن إرادتي للحصول على جواب منك عمّا حصل، {فَلَا تُصَاحِبْنِي}، لا تكن بصحبتي ويمكنك الذهاب وتركي ولا تكمل تعليمي، {قَدْ بَلَغْتَ}، وصلت لآخر لأقصى ما يمكن الوصول إليه، {مِنْ لَدُنِّي}، منّي شخصياً، {عُذْرًا}، سبباً لتركي ولا لوم أو عتب عليك، إن عدت وسألتك تكون وصلت مما فعلته معك إلى أقصى مخالفتي لما اتفقنا عليه، ويصير لديك "عذر" كسبب حتى تتركني لأني لم أصبر ولم ألتزم بالشرط الذي بيننا من السكوت، وأنت لم يصدر منك أي مخالفة للاتفاق.

(فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً{77})

{فَانْطَلَقَا}، مشيا باتجاه هدفهما الجديد، {حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ}، وصلا إلى مكان فيه أناس يعيشون فيه، "وكانا جائعين"، {اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا}، وطلبوا الأكل من أهل القرية، من المنتمين لذاك المجتمع السكاني، {فَأَبَوْا}، رفض أهل تلك القرية بشكل قاطع، {أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا}، أن يصيرا مضافين عليهم ويقدّموا لهما الطعام مجانا، فإن لم يدفعا ثمن الطعام فلن يحصلا عليه.

{فَوَجَدَا}، النبي(ع) والعبد الصالح(ع) في تلك القرية، {جِدَارًا}، بناء من الطين أو الطوب أو غيره يكون سمكه قليلاً جدا بالنسبة لارتفاعه وعرضه، وإذا أحاط بشيء ما يصير اسمه حائطاً، {يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ}، وصف حالة الجدار: الانقضاض بعد حين، فسيقع حتما إن بقي من دون تصليح، وسيتهدّم لأنه مائل أو لأن أساسه مضروب... والتعبير بـ: {يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ}، هو التعبير الأدق، لأنه من غير المعلوم متى سيقع، ولكنه حتما سيقع، فلا يمكن القول: سينقضّ، يكاد ينقضّ، بعد حين سينقضّ... ولذلك نسبت الآية إرادة الانقضاض للجدار على أساس أنها وصف حالة، وليس على أساس قرار اتّخذه الجدار، لأنه من المعلوم أن هذا شيء لا معنى له لأن الجدار لا يتحكّم بنفسه بل نحن والظروف نتحكّم به، وإذا بقي من دون تصليح فحتما سيقع فيما بعد. {فَأَقَامَهُ}، جعل العبد الصالح(ع) الجدار قائما، وأصلحه حتى صار مستقرا ولن يقع.

لاحظ أن العبد الصالح(ع) يعمل على إصلاح الجدار لوحده، والنبي موسى(ع) جالس يشاهده ولا يساعده.

{قَالَ}، النبي موسى(ع):

{لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ}، على إصلاح الجدار، {أَجْرًا}، أجراً بدلا ماليا يحدّده الناس عادة على هكذا عمل، فكلانا مفلسان ولا نملك المال لشراء الطعام، وأهل القرية لم يستضيفانا ولم يقدموا لنا الطعام بالمجّان، وقالوا لنا أن نعمل لنحصل على المال ونشتري به طعاما، وها أنت قمت بإصلاح هذا الجدار بالمجّان، وكان بإمكانك العمل لأهل القرية أي عمل ليعطونا المال لنشتري به الطعام.

عليك أن تتصوّر النبي موسى(ع) جالسا يشاهد العبد الصالح (ع) يعمل بالمجّان على جدار بيت يكاد يقع، لم تطاوعه نفسه المشاركة في عمل بلا أي مغزى ولا معنى، وعلى ما يبدو أنه كان ينتظر في كل لحظة توقّف العبد الصالح(ع) عن إضاعة الجهد والوقت، وهما جائعان... ولكن العبد الصالح(ع) لم يتوقّف حتى أنجز العمل بالتمام، وحينها لم يتمالك النبي موسى(ع) نفسه وأبدى شدّة استغرابه من عمل متعب بلا فائدة.

ننتبه لبعض معاني الكلمات، كلمة "أهل" معناها عامّة الانتماء لشيء، لشخص لعائلة أو لمكان... وكلمة قرية معناها المكان الذي يجتمع فيه مجموعة من الناس، كبيرا كان التجمّع أو صغيرا. وكلمة مدينة هي المكان الذي يعيش فيه الناس وفيه أبنية ثابتة. نحن الآن نستعمل هذه الكلمات بشكل مختلف عن معناها اللغوي الأساسي القديم، نقول قرية للمكان الذي فيه بيوت قليلة، ونقول مدينة عن المكان الذي فيه بيوت كثيرة، أمّا في أصل اللغة، فالقرية هي أي مكان فيه مجموعة من الناس، سواء عددهم قليل أو كثير، وسواء لديهم بيوت في ذلك المكان أم بالعراء، وسواء لديهم خيم أو أبنية... فكل هذه الحالات هي قرية، وأهلها هم الناس المنتمون لها، وسترى الآيات بعد قليل تقول عن المكان الذي وصل إليه النبي(ع) والعبد الصالح(ع) أنه مدينة، مما يعني أن المكان قرية فيها مبانٍ والناس مستقرون فيها.

نلاحظ في المصاحف القديمة بالخط العثماني أنهم كتبوا كلمة "لاتخذت" بدون ألف لهمزة الوصل، كتبوها هكذا "لتخذت"، كتبوها بحسب اللفظ لأن الهمزة هنا في اللفظ همزة وصل، لأنّ أصل الفعل "أخذ"، ولا أوافق اللغويين والنحويين الذين قالوا بوجود فعل ثلاثي أصله "تخذ" مثل "تبع"، على ما يبدو أنهم قالوا ذلك دفاعا عن رسم الكلمة في

القرآن، وكان أسهل عليهم تبرير رسمها تبعاً للّفظ، وهذا موجود مثله في عموم القرآن المرسوم بما يسمّى بالرسم العثماني، كرسم كلمة عالمين بدون ألف تبعاً للفظها في لهجتهم من دون مدّ طويل "علمين"، وكحذف الياء من كلمة "نبيين" لأنها غير ملفوظة ومعوّض عنها بالشدّة على ياء واحدة...

لا تنسَ الجهد الجبّار الذي بذله الجيل الأول من المسلمين محاولين رسم كلمات القرآن بأقرب ما يكون للفظها، في حينها كانت قواعد الكتابة "الرسم" مختلفة عن قواعدنا الحالية، هذا إن جاز تسميتها بقواعد لأنها بدائية جدا، ولم يكن هناك تخصصات لغوية بينهم، وفيما بعد تطوّرت علوم اللغة العربية سريعا بسبب اهتمام المسلمين بالقرآن... ولا تنسَ أنهم حافظوا على نقل القرآن حفظاً من الفم للأذن، لأن الكتابة كانت معينة على تذكّر الكلمات فقط، في بداية تدوين القرآن في زمن النبي محمّد(ع) لم تكن الكتابة معتمدة لتعلّم القرآن، بل كان الحفظ من السماع هو المعتمد، وهكذا وصلنا حفظاً من المجموع العام لذاكرة المسلمين الجماعية جيلاً بعد جيل، واختار العلماء لهذا المجموع العام ممثلا وهو القارئ حفص، وهي القراءة التي اعتمدها الناس لكتابتها بعد تطوّر علوم رسم القرآن وتنقيطه وتحريكه واعتماد التصاريف... وبقية القراءات ليست قراءة جمهور المسلمين، بل حصل فيها اختلاف من السهو والنسيان والتحريف المقصود عبر تغيير البعض عمداً لبعض كلمات القرآن بما رأوه مناسباً بحسب رأيهم...

(قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً{78})
{قَالَ}، العبد الصالح(ع):

{هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ}، لن تصاحبني بعد الآن، لأنك سألتني والشرط بيننا ألا تسألني حتى أنا أشرح لك، {سَأُنَبِّئُكَ}، سأخبرك بشيء لا تعلمه، {بِتَأْوِيلِ}، بالمعنى العملي التطبيقي التنفيذي، {مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}، اتفقنا ألا تسألني ولكنك لم تتحمّل وتصرّفت بعكس ما اتفقنا عليه فسألتني واعترضت عليّ، والحوادث الثلاث التي لم تستطع السكوت عنها، سأخبرك بمعناها العملي.

من ناحيتك كان لها معانٍ سيئة، ولكنها في الحقيقة تحمل معانيَ جيّدة لم ترها أنت، وسأخبرك عنها.

بالنسبة لكلمة تأويل بالاستعمال العربي القديم وكما استعملها القرآن فهي تشير لما تؤول إليه الأمور، وإذا كان بناءً على قول كالتعبير بـ "تأويل الأحاديث" فهو الترجمة العملية لما قيل، ومثله ما جاء في الآية 53 من سورة الأعراف {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ...}، كلامه تعالى عن الآخرة سيأتي تأويله فسيتحقّق. وأمّا المعاني الأخرى لكلمة تأويل فهي اشتقاقات مستحدثة أو من تبعات المعنى، كقولهم إنه بمعنى التفسير، فهو صحيح فقط على معنى تفسير الكلام بالواقع، وهو تفسير الكلام بترجمته إلى حدث.

(أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً{79})
{أَمَّا السَّفِينَةُ}، "التي خرقتها ودخل الماء إليها" {فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ}، لمجموعة أشخاص بحاجة للمساعدة لأن وضعهم المالي متعثّر، {يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ}، فمصدر رزقهم من النقل البحري والصيد، وحالتهم تعيسة مادياً رغم أنهم يملكون سفينة، {فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا}، قصدت أن أجعل في السفينة عيباً، نقصاً في المواصفات، خرقتها وصار الماء يدخل إليها فصارت خربة، {وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا}، هناك ملك "وراءهم" يسعى خلف، السفن، أمر رجاله بأخذ السفن من الناس غصباً عنهم بغير إرادتهم، وبالقوّة يأخذ السفن لتصير له ولا يدفع ثمنها ولا يستأجرها.

الآن بعد أن خرقتها، وصارت السفينة فيها عيب فلن يرغب بها الملك وسيعتبرها مهترئة قديمة فيها مشاكل... وسيتركها، والمساكين سيصلحونها ويعملون عليها... لو أني لم أثقبها لكان الملك أخذها ولفقد هؤلاء المساكين مصدر رزقهم الوحيد.

نلاحظ من هذه الآية أن المسكين بالتعبير القرآني هو عموم الذي أوضاعه المالية متعثّرة وبحاجة للمساعدة المالية، سواء الذي يعمل في مهنة أو يملك شيئاً يعمل به، ويملك أرضاً أو سيّارة أجرة أو دكّاناً... ولكن بالكاد يكفيه ما ينتجه. أمّا الفقير فهو من حالته أشدّ سوءاً، فلا يملك المال أو الأملاك أو أي شيء يمكن أن يسترزق منه.

ننتبه، هل لو وصلني أنا خبر "من الناس" عن ملك سيغصب سفينة لمساكين، وعلمت أنهم لن يقتنعوا مني أن يخرقوها حتى لا يأخذها الملك، فهل يحق لي أو هل يجب عليّ أن أخرقها أنا لأحميها من الغصب؟ لا، لا يحقّ لي من دون إذن أصحابها، لأن النبي موسى(ع) وبناء على ما يعلمه من حلال وحرام وصف خرق السفينة بأنه {إِمْرًا}، عملاً عظيماً، لأنه إفساد لأملاك الناس، وهذا حرام، وفي نهاية هذه القصّة سترى أن العبد الصالح(ع) يقول بأنه حتى لو وصلته كامل المعلومات، فإنه لن يفعل أي شيء من رأسه، بل فقط سيتحرّك بأمر إلهي، ومن يقول بأنه يحقّ لي التدخّل، فتح باباً على تدخّل الناس في أموال بعضهم البعض، وسيحرق أحدٌ ما سيّارتك لأن ابنتك أو ابنك متهوّر في القيادة وحتما سيقتل نفسه أو يقتل أحداً ما من الناس! فلنحرق السيارة لأنك لم تمنع ولدك من قيادتها، فهل هذا جائز؟ بالطبع لا، هناك طرق أخرى كثيرة لمنع الولد من القيادة، ولمنع الأب من إعطائه المفاتيح... وهذه حالتنا وهذه كانت حالة النبي موسى(ع) أمام هذا النوع من المواقف، وهذا هو تكليفنا.

(وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً{80})
{وَأَمَّا الْغُلَامُ}، الذكر الذي عمره بين سنّ التمييز والبلوغ الذي قتلته، {فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ}، أمّه وأبوه معتقدان بالدين الإلهي، {فَخَشِينَا}، شعرنا بوجود خطر حتمي عليهما ويمكن تجنّب الخطر، {أَنْ يُرْهِقَهُمَا}، أن يصيبهما بحالة سيئة فوق قدرتهما على التحمّل، {طُغْيَاناً}، بسبب طغيانه عليهما بتعديه لحدوده معهما، ولن يحترمهما وسيعاملهما بقسوة ويؤذيهما... ويرهقهما، {كُفْراً}، إنكارا للدين الإلهي، ويعارضهما في تدينهما، ويسخر من دينهما ويمنعهما من واجباتهما الدينية... لذا خشيتنا أن يسبب لهما أذيّة كبيرة جدًّا وكان حلّها بقتله.

لو لم نقتله لكانت حياتهما تعيسة جدًّا جدًّا وسيمنعهما من ممارسة تدينهما... لذا تدخلنا لصالح الأهل المؤمنين.

تعلم من قصّة النبي إبراهيم(ع) أنّه سبحانه طلب منه (ع) "حصريًّا" قتل ابنه، ولم يطلب سبحانه ذلك عبر التاريخ من غيره (ع)، ولن يطلب سبحانه ذلك منك ولا منّي، فتلك حالة خاصّة لها هدف خاص، وهنا الحالة الأولى والثانية من الحوادث الثلاث حدثت بأمر إلهي، ولا يحق لنا نحن ولا بأي حال القيام بمثل هذه الأعمال، وحتى النبي موسى(ع) لم يتعلّم كيفية القيام بمثل هذه الأمور، بل تعلّم "عمليًّا" كيف يتدخّل سبحانه بشكل لا تلاحظه الناس ولا تعرف سبب المدى البعيد من التدخّل الإلهي فيه.

أصلاً العبد الصالح(ع) يقوم بأعمال خاصّة جدًّا، تخالف الظاهر الذي نراه، وهنا قتلُ الغلام يدفعك للتفكير في هذه الفعلة، فأقصى عمر تعطيه كلمة غلام هو سن البلوغ، أي ما يقارب أربعَ عشرةَ سنة، هذا بغض النظر عن تساهل العرب في استعمالها لتشمل الرجال الخدم أو العبيد. فكيف يُحكم بالقتل على ولد لم يرتكب أي جريمة؟! إذ إنّ الآيات تقول إنّه سيسبب التعب الشديد لأهله "المؤمنين" وسيمنعهما من ممارسة تدينهما، وركّزت على أن سبب قتله هو حماية أهله منه، وكما ترى فهذا شأن إلهي محض، ولا أيُّ مخلوق يحقّ له أن يقرّر قتل الغلام في هذه الحالة.

تذكّر دائمًا أننا عبيد مملوكون له تعالى، كما منحنا سبحانه الحياة، فلا يحقّ لنا الاعتراض عندما يقرّر سبحانه سحبها منّا، وقتل الغلام بأمر إلهي، مع أنه حالة خاصّة، ولكنه مندرج تحت أخذه تعالى ما هو أصلاً له، والشيء نفسه ينطبق على الأقوام الذين نزل عليهم العقاب الإلهي وفيهم أطفال، صحيح أن القرآن صرّح بأنّ هؤلاء الأطفال لو كان واحد منهم سيصير مؤمنًا، أو من ذريّته سيخرج مؤمن، لنجّاه سبحانه، وهذه حالة قَوْمَي النبي شعيب(ع) وصالح(ع) حيث لم تتم إبادة القومين بالكامل بل بقي منهما أحياء، ورغم هذا التبرير، فقبله وأساسًا حياةُ هؤلاء الأطفال ليست ملكًا لهم، ويحقّ له تعالى أخذها عندما يقرّر ذلك.

(فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً{81})
{فَأَرَدْنَا}، كان مقصدنا، {أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ}، أفضل من هذا الغلام، فيحصلان على ولد آخر أفضل منه، {زَكَاةً}، لائقًا بهما كمؤمنين، {وَأَقْرَبَ رُحْماً}، لأنّ ذاك الغلام كان قاطعًا لصلة الرحم لأمّه وأبيه، والولد الجديد سيكون أقرب لأرحامه لأقاربه، وهنا الكلام بالخصوص عن أمّه وأبيه فهما أقرب أرحامه وهما المقصودان بالكلام، والولد سيكون قريبًا منهما بالمعاملة الحسنة كما هو مفروض بالولد لأرحامه أمّه وأبيه.

لاحظ طريقة التعبير في الحوادث الثلاث، حيث أشارت الحادثة الأولى للعبد الصالح(ع) أنّه هو "أردت بالمفرد" أن أعيب السفينة حتى لا يأخذها الملك غصبًا، وهنا "خشينا، أردنا" بالجمع، وفي الحادثة التالية سترى تعبيرًا بالمفرد عنه سبحانه أنّه أراد... لذا لاحظ أن كل التعبيرات في أصلها لا تختلف، كما عبّر القرآن عن استيفاء الأنفس بثلاثة تعبيرات: الإله سبحانه يتوفى الأنفس كما ورد في الآية 42 من سورة الزمر {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...}، الملائكة (ع) تتوفّى الأنفس كما ورد في الآية 37 من سورة الأعراف {... حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ...}، وملك الموت (ع) يتوفى الأنفس كما ورد في الآية 11 من سورة السجدة {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ...}. وهنا الشيءُ نفسُه، فالأمر بالأساس إلهي، والتنفيذ بالأساس إلهي، لأنّه تعالى هو أعطى للملائكة (ع) القدرة على استيفاء الأنفس، والمسؤول عن تلك الملائكة هو الملاك الذي وكّله تعالى بهم "ملك الموت (ع)" وهنا، تصدر الأوامر عنه سبحانه، ويتلبّس العبد الصالح(ع) بالأمر الإلهي فيصير هو يريد تنفيذ ما أمر به سبحانه، ونفترض أن الملائكة(ع) لها تدخّل أيضًا، فإنّ تدخلها تحصيل حاصل لأنّها على الأقل ستنقل الأوامر منه سبحانه إلى العبد الصالح(ع)، كما أنّ الملائكة أيضًا تتلبّس بإرادة تنفيذ الأمر الإلهي، ولذلك يمكننا القول عن الحادثة نفسها: سبحانه أراد كذا... وبعد ذلك العبد الصالح(ع) أراد كذا... والعبد الصالح والملائكة (ع) أرادوا كذا...

طبعًا هذا الافتراض يتضمن أن الملائكة(ع) لهم دور ما في هذه الحوادث، وهذا غير ظاهر من كلام القرآن، وربما بطريقة ما يمكن للعبد الصالح معرفة ما يأمر به تعالى من دون نقل الملائكة لأوامره تعالى، ولنقل بالتشبيه إنّها مثل حالة النبي يوسف(ع) عند علمه بتأويل الأحاديث، إذ بدون وحي ولا تدخّل للملائكة كان يؤوّل.

(وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً{82})

{وَأَمَّا الْجِدَارُ}، الحائط الذي كان سيقع، {فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ}، لولدين لم يبلغا مرحلة الفتوّة، عمرهما بين سنّ التمييز والبلوغ، {يَتِيمَيْنِ}، مات أبوهما، واليتيمان في المدينة، {فِي الْمَدِينَةِ}، في القرية المبنيّة، في المكان الذي فيه مجموعة أناس يعيشون في البيوت الثابتة. وهو المكان الذي أصلحنا فيه الحائط وكان أبوهما ميّتًا وهما الآن صغيران، {وَكَانَ تَحْتَهُ}، تحت الجدار، {كَنْزٌ لَهُمَا}، كميّة مراكمة من المال الكثير لهما لأنهما الوريثان الوحيدان للأب، {وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً}، موصوفًا بالصلاح، حيث كان اعتقاده وعمله جيّدَيْنِ على مقياس الدين الإلهي، {فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا}، أن يصلا إلى، {أَشُدَّهُمَا}، إلى مرحلة يصيران فيها شديدين قويين، {وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا}، من تحت الجدار، كي لا يسلبهما الناس كنزهما وهما صغيران، وهذا التدخّل، {رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ}، عناية لما فيه مصلحة الغلامين من المسؤول عنك من مستوى إلهي.

الأب كان رجلًا مؤمنًا وعمله صالحٌ، وكرامةً لهذا الرجل المؤمن، أراد سبحانه أن يحصل أولاده على المال الذي تركه أبوهما لهما، الآن الولدان صغيران فلو وقع الجدار وانكشف الكنز، لأخذه الناس واستولوا عليه، ولكن حين يصير الولدان قَوِيَّيْنِ بما فيه الكفاية، سيستخرجان الكنز ولن يسلبه الناس منهما.

في بعض الكتب وعموم ثقافة المتدينين ستجد كلامًا عن حرمة كنز المال، نعم هو حرام إن لم تدفع منه الزكاة ولم تتصدّق منه على المحتاجين، أمّا من بعد ذلك فلا حرمة من كنز المال، من مراكمته، من تجميعه، وهذا هو معنى كلمة كنز، لذا لا تستغرب من توصيف الآية للرجل أنه صالح، إذ إنّ صلاحه لا يتعارض مع تجميعه للكنز. وهذا الكلام له دعم صريح بتعبير الآية 20 من سورة النساء {وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً}، والقنطار يشير للعدد الكبير جدًّا ويقارب أربعةَ آلاف دينار من القطع الذهبية، وكما ترى فإنّ الكلام عن كميات ضخمة من المال ولن تجد في كل القرآن ما يعيب تجميع المال مهما بلغ مقداره طالما تُدفع منه الزكاة والصدقة.

نرجع للآية ونكمل مع كلام العبد الصالح(ع): {وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي}، صحيحٌ أني بنيته بالمجّان، ولم أخالف أي شريعة، ولكن رغم ذلك، لم أفعله عن أمري بل بأمر من الله تعالى، {ذَلِكَ}، الذي قلته لك شارحًا عن أسباب الأعمال التي قمت بها، هو {تَأْوِيلُ}، تفسير عملي لحقيقة، {مَا لَمْ تَسْطِعْ}، الأمور التي لم تستطع، {عَلَيْهِ صَبْراً}، وتكلّمت معترضًا ولم تنتظر الشرح منّي.

ننتبه جيّدًا، حتى لو علم العبد الصالح(ع) بما سبق من غصب السفينة وإرهاق الأهل وانكشاف الكنز، لم يكن ليتدخّل، بل تدخّل فقط بناء على أمر إلهي، ونتذكّر أن النبي موسى(ع) وصف الخرق والقتل بأنهما عملان "من حيث الظاهر" مخالفان للشريعة إذ وصفهما بـ: {إِمْراً} و {نُكْراً}، ولكنّ العمل الثالث "من حيث الظاهر" لم يكن مخالفًا للشريعة، ولكن رغم ذلك أجاب العبد الصالح(ع) بأنه بناه بأمر إلهي.

بقي شيء، تاريخُ حياة النبي موسى(ع) فيه مرحلتان نفترض فيهما حصول هذه الحادثة، الأولى مرحلة ما بعد تكليفه بالرسالة وقبل الخروج من مصر، والمرحلة الثانية ما بعد خروجه من مصر. وما يدفعنا لقول ذلك لفت الانتباه لما نراه من الحوادث الثلاث من الاهتمام الإلهي بأناس من غير بني إسرائيل، إذ لا المساكين ولا الأبوان ولا الولدان منهم، ورغم ذلك نالوا العناية الإلهية بتدخّل مباشر، وهذا شيء لا نلتفت إليه عادةً، لأنّ المنتشر في عموم ثقافتنا أنه في فترة النبي موسى(ع) كان اهتمامه تعالى منصبًّا على بني إسرائيل كونهم المؤمنين الوحيدين على الأرض، وها ترى أن ذلك غير صحيح.

تتذكّر القصتين عن أصحاب الكهف وصاحب الجنتين، حيث لم تشر السورة لا من قريب ولا من بعيد لكونهم من المنتمين بالاسم لدينه تعالى أو من التابعين لأي نبي أو كتاب إلهي. والشيءُ نفسُه يُقال في الكلام الآتي عن ذي القرنين.

العديدُ من الأسئلة التي طرحناها في سورة يوسف لدراسة حالة علم النبي يوسف(ع) بتأويل الأحاديث، هي نفسها تُطرح هنا، لأن الحوادث الثلاث هنا مبنية على علم الغيب والتصرف لتجنّب السوء في مسارها لو جرت الأمور بدون تدخّل، وفي دراسة حالة النبي يوسف(ع) لاحظنا محاولة النبي يوسف(ع) التدخّل في مجريات الأحداث لتجنّب السوء الذي يعلم أنه سيحصل، ورأينا ذلك في الآية 42 من سورة يوسف {وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ}، ورأينا هناك أن القرار الإلهي كان بحدوث ما علم النبي يوسف (ع) بحدوثه في المستقبل، والنتيجة هناك في النهاية كانت وصول النبي الرسول يوسف(ع) لأعلى سلطة في أقوى دولة في زمنه... ولا مجال لتغيير ما أراد تعالى حصوله، وهنا نرى أنه تعالى أراد جريان الأمور لما في مصلحة مؤمنين، وليس للمؤمنين قدرة على تجنّب سوء ما سيحدث معهم لولا تدخّله تعالى.

(وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً{83})

{وَيَسْأَلُونَكَ}، يعبّرون لك أيها النبي محمد(ع) عن إرادتهم للحصول على جواب منك، {عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ}، عن الموصوف بانتساب قرنين له، بانتساب شيئين مقرونين مجتمعين مع بعض له، ومن تطبيقات معنى القرن ما نراه على رأس الثور والجاموس والأيل والتيس... وأوّل ما يخطر ببالنا من هذا الوصف أنه رجل يضع خوذة عليها قرنان من معدن أو قرون مأخوذة من حيوان، وصار لقبه بين الناس: ذو القرنين. وإلى حين توافر معطيات أخرى تشير لمعنى آخر، فسنبقى على هذا المعنى الذي يتحمّله الوصف من الجملة، وتلاحظ نفس الحالة في بعض الأمور التي ذكرها القرآن والتي لسبب أو لآخر لم يرد تعالى إعطاءنا مزيدا من التفاصيل، وبالنسبة للأمور التي تناولت حوادث تاريخية لا علاقة لتفاصيلها بالهدى، كحالات معرفة تاريخ وأسماء أصحاب الكهف... والملكين هاروت وماروت من هما... وآلية خلق ما في الدنيا وخلق الحياة... فأشباه هذه الأمور سيتغيّر فهمنا للجمل القرآنية لها عند توافر معطيات جديدة عنها، والفهم الجديد لن يغيّر في مداليل الهداية في كلامه تعالى، فستبقى جمله آياتٍ هادية بشكل كافٍ من ظاهر المعنى بدون تفاصيل زائدة على كلامه تعالى.

هنا الرجل موصوف بذي القرنين في زمنه، وأمّا سبب وصفه بذلك فلحدّ الآن غير معلوم لنا، ولدينا احتمالات عديدة، ومعرفة السبب لن تقدّم ولن تؤخّر في مدلول الهداية الذي قصدته الفقرة من ذكر بعض ما جرى من حوادث معه.

{قُلْ}، عبر هذا القرآن لمن يسألك عن ذي القرنين:

{سَأَتْلُو عَلَيْكُم}، سأقرأ من مستند عليكم، فاستنادا لهذا الوحي الإلهي القرآني سأقول لكم، {مِّنْهُ}، من خبر ذي القرنين، {ذِكْرًا}، شيئاً أستحضره أمامكم عن حياته وأفعاله.

ستلاحظ، نحن أمام موضوع كان بين الناس كلام عنه، عن ذي القرنين، ولهم قصص عنه وعن أفعاله... وسألوا النبي محمد(ع) إن كان لهذا الشخص علاقة بدينه تعالى، وهذا السؤال لمحمّد(ع) على أساس أنه نبي، فهل هذا الدين يذكر

شيئا عن ذي القرنين؟ وتتذكّر أن أجواء السورة عن قصص غريبة عجيبة يتداولها بعض الناس، وغير المؤمنين بدينه تعالى يعتبرون أنفسهم أمام قصص أسطورية خرافية مبالغ فيها، فجاء كلامه تعالى عنها هنا في السورة ليخبرنا بالحقيقة عن تلك القصص وليؤكّد أنها صحيحة وغرابتها فعلاً سببها علاقة مجرياتها بدينه تعالى... فقل سأخبركم بشيء عن ذي القرنين مستندا إلى التالي الذي أوحاه تعالى لي.

بالنسبة لتحديد شخصيته وزمانه، فإن ما بين أيدينا من التاريخ المعروف يؤيد "بشكل قوي" ما ذكره "محيي الدين أبو الكلام آزاد" في دراسته عن ذي القرنين، حيث قال إنّ قورش "كوروش أو سيروس وهو من ملوك المملكة الفارسية في القرن السادس قبل الميلاد"، هو ذو القرنين بسبب تاريخه الممتد شرقاً وغرباً، وشهرته ببناء سد "داريا باس: داريال" مستعملاً المعادن في منطقة بين بحر قزوين والبحر الأسود، وله تمثال وعلى رأسه قرنان... ومدح اليهود لقورش لأنه خلّصهم من الأسر وأعادهم إلى القدس... وفي الدراسة تقريب بين كلمة يأجوج مأجوج، ياجوج ماجوج، غوغ ما غوغ... التي كان يطلقها الناس على المغول... فهي دراسة جديرة بالاهتمام لما فيها من شواهد منطقية، ورغم وجود بعض الإشكالات الطفيفة حول شخصية قورش "كورش" أن يكون هو ذو القرنين، إلا أنها حالياً وبالنظر للمعلومات التي بين أيدينا، تعطي الأرجحية العالية أن يكون قورش هو ذو القرنين. ولم أطّلع مباشرة على دراسة "أبي الكلام" التي أول من أشار لها بالاحترام من المفسرين الكبار هو السيد الطباطبائي في تفسير الميزان، واطلعت على ترجمات مجتزأة للدراسة ذكرت لك خلاصتها.

كما ترى، بهذا الاحتمال صرنا أمام أربع قصص، ثلاث منها لا تصريح لارتباط أشخاصها بانتماء بالتسمية لدينه تعالى، والقصة السابقة عن العبد الصالح والذين جرت الأحداث معهم "فيهم" أيضاً لا ارتباط لهم بالتسمية بدينه تعالى.

(إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً{84})
{إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ}، صار ذو القرنين متمكّناً منها، مسيطراً بثبات وقادراً على فعل ما يريده بحريّة.

{وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا}، الأسباب، الطرق والوسائل التي يحتاجها أثناء عمله متوافرة له، ولم يتوافر له كلّ شيء، بل توافر له ما يحتاجه.

مما سيأتي سنرى أن ذا القرنين قام بحملة عسكرية استكشافية، وأثناء ذلك يحتاج لشيء حتى يقتل أعداءه، ويحتاج لشيء يسبب له الانتقال لمسافات طويلة... فوفّرنا له ما يحتاج... عبر تعليمه كيفية الحصول على ما يحتاج، وتيسير الحصول عليه، وليس عبر تنزيل الأشياء والأغراض من السماء، فهذا لم يحصل، وتلاحظ أن نفس التعبير القرآني "آتيناه" و"أوتيت"، "من كل شيء"، ورد عن النبي سليمان(ع) وعن ملكة سبأ كما ورد في الآية 23 من سورة النمل "إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ"، مما يعني أنهم ليس لديهم كلّ شيء بل توافرت لديهم الوسائل لتنفيذ ما يريدون، حيث لديهم المال والعلماء والجنود والمعدّات...

(فَأَتْبَعَ سَبَباً{85})
{فَأَتْبَعَ سَبَبًا}، وكان على الأسباب المتاحة له، حيث حصل ذو القرنين على سبب، على وسيلة، تمكّنه من الوصول إلى مكان محدّد يريده، فاستعمل الطريقة وسار نحو هدفه، وسترى من الآيات التالية أنه كان يستهدف اتجاهات محددة من الأرض، لأنه أراد استكشاف الأرض بقدر ما يستطيع، بقدر ما تمكّنه الأسباب التي معه، واستهدف محيطاً جغرافياً محدداً، وغطّى سفره جهاتٍ ثلاثاً، شرقاً وغرباً وجهة ثالثة "جنوبية أو شمالية" لم تحدّدها الآيات.

التعبير بـ "السبب" بهذا الاستعمال في الآيات على معنى: ما يسبّب شيئاً، ما يجعل شيئا يحدث، كوسيلة أو أداة أو طريقة... التي تتبعها أو تستعملها لتحقيق ما تريد. فهذا المعنى غير دارج حاليا في كلامنا، إلا حين نصيغها على اشتقاق: مسبّب. ما يسبّب وصولي في وقت مناسب إلى المدينة البعيدة هو السيّارة، فإذا ركبت فيها فقد اتّبعت سبباً. وهنا في الكلام عن شخصية قديمة سنتصوّر أشياء قديمة كأسباب اعتمدها لتحقيق ما يريد، وربما تعلّم صنع العربة ذات الدواليب أو وسيلة نقل أخرى التي تمكنه من حمل مؤنة "ماء وطعام" جيشه لمسافات بعيدة، أو ربما تعلّم كيف يحدّد

الجهات لاستكشاف جغرافيا الأرض... أو ربما تتبّع الأماكن التي يحتمل أنها مسكونة... أو ربما تمكّن من صنع سلاح متفوّق في حينها... على أي حال، وبما هو متاح له من وسائل للقيام بحملة عسكرية واستكشافية، استخدمه وانطلق...

ولا تَنْسَ قبل ذلك الأسباب التي تجعله قادرا على تجميع جيش، كعدد كبير من المطيعين له... مما يحتاج لتنظيم ومؤنة ومعاشات...

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً{86})
سار، {حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ}، أي لم يستطع التقدّم أكثر، وهذا ما يعطيه معنى كلمة بلغ التي تشير لوصول الشيء للآخر أو لأقصى ما يمكن الوصول إليه مادياً ومعنوياً، ومن تكملة الجملة سترى أنه وصل إلى طريق لا يمكنه التقدّم إلى ما بعده في نفس الاتجاه، والكلام يشير لوصوله إلى بحيرة كبيرة حولها جبال، والشمس تنزل تحت أفق تلك البحيرة، {وَجَدَهَا}، الشمس هناك، {تَغْرُبُ}، تذهب وتغيب تحت الأفق، {فِي عَيْنٍ}، في مكان فيه كمية كبيرة من الماء النابع، {حَمِئَةٍ}، موصوفة بالحماوة فهي ساخنة.

إذن، وصل إلى مجمع ماء ساخن، ورأى الشمس تغيب فيه، مثلما تقف أنت على شاطئ البحر وترى الشمس تغيب في البحر.

في الآيات الآتية تعبير عن بلوغه "{مَطْلِعَ الشَّمْسِ}" وهنا بلغ مغرب الشمس، يعني الوصف له وهو واقف على الأرض، مثلما ننظر للأفق ويطلع البدر علينا.

{وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا}، أناساً لهم كيان الجماعة، {قُلْنَا}:

{يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ}، فتصيب هؤلاء القوم بالضرر، بالتجويع أو بالضرب أو بالقتل، {وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا}، فتعاملهم معاملة حسنة، فلا تتركهم واختر واحدة من الطريقتين للتصرّف معهم: تعذيب، أو معاملة حسنة. وسنفهم من الآية التالية بالتفصيل معنى هذا الأمر الإلهي، فالقصد سيبدو واضحاً: من كفر فعذّبه، ومن آمن فأحسن معاملته.

لاحظ وصول أمر إلهي لذي القرنين، حيث نزل عليه شخصياً الوحي، أو إلهام، أو نزل وحي على شخص كان يرافقه... لا ندري، ولكن على كل حال، وصله توجيه إلهي.

بقي شيء، حيث هناك كلام كثير لتبرير معنى آيتنا هنا لأن الفهم الساذج لها يشير إلى نزول الشمس "في" تلك البحيرة، علماً أن التعبير الوارد في الآية بغروبها، هو نفسه التعبير الذي نستعمله عادة نحن الناطقون باللغة العربية لوصف غروب الشمس "في" نقطة ما من الأفق، فالكلام هنا يشير إلى نزولها خلف الأفق "في" موقع خلف العين الحمئة، وليس "فيها"، فالآية تعبّر كما نحن نعبّر عن وصف غروب الشمس حين نقول إنها تغرب "في" البحر، ولا نقصد أنها تنزل في البحر.

تفلسف البعض وقالوا إنّ العرب في حين نزول هذا القرآن لم يكونوا يعلمون بكروية الأرض، فكانوا يظنون أنها تنزل "في" البحر... وبناء عليه فإنّ معلومات "محمّد" مؤلّف هذا القرآن "بحسب قولهم" اعتمدت على هذه المعلومات وألّف قرآنه...

هذا كلام في غاية السخافة، لأن تعابيرنا إلى الآن لا زالت تشير إلى غروب الشمس "في" البحر، على أساس أنها آخر نقطة "في" الأفق، ومثله كلامنا عن وصف الشمس وجريانها من المشرق إلى المغرب مع علمنا أن دوران الأرض هو السبب وأن الشمس لا تدور حولنا... فهي تعابير وصفية من مشاهد واقف على الأرض، ولا أحد في العالم في حديثه العادي يقول: الشمس لا تغرب بل تدور الأرض حول نفسها وتصير الشمس خلف أفق رؤيتنا لها. فهذا وصف لها من الفضاء وليس من واقف على الأرض.

ضع هذا في بالك دائماً عندما تقرأ كلام القرآن عن وصف أي مشهد، فكلامه مع الواقف على الأرض وليس مع شخص في الفضاء، ومن يقف على الأرض سيصف حركة الشمس بجريانها من المشرق إلى المغرب، وسيصف غروب

الشمس "في" البحر، بغضّ النظر عن المعلومات الفلكية، وهكذا تكلّمت الناس قديماً، ولا زلنا نتكلّم بنفس الطريقة إلى الآن، وليس في كلام الآية هنا أي مشكلة، حيث إنّ ذا القرنين وصل إلى حافة بحيرة كبيرة جداً، ووجد الشمس تغرب فيها. ولم تقل الآية إنه وجد الشمس تسقط فيها، تنزل فيها... بل تغرب فيها.

وأنت تعلم من نفسك أنك في المناطق الجبلية ترى الشمس تغرب خلف جبل، وإذا سرت وتخطيت الجبل غرباً، فسترى الشمس تغرب خلف جبل آخر... وهكذا إلى أن تصل إلى بحر أو بحيرة كبيرة، أو إلى بحيرة محاطة بجبال، فسترى الشمس تغيب خلفها. ولو ركبت البحر باتجاه غروب الشمس فلن تصل إلى الشمس، ولن تصل إلى مكان تجد فيه الشمس تسقط في الأرض... وهذه معلومات عادية بسيطة ترى منها أن تعبيرنا بالغروب لا يشير إلى سقوط قرص الشمس في الأرض، والآية عبّرت بالغروب.

بقي شيء، فهل استنتج ذو القرنين ومن معه أنهم وصلوا إلى حافّة الأرض؟ حيث إنّ غالبية عوام الناس قديماً كانوا يعتقدون بأن الأرض مسطحة، وهل هم استنتجوا أن سخونة البحيرة ناتجة عن تماس الشمس بها؟ ما لدينا من مصادر تاريخية علمية تشير لمعرفة العديد من العلماء القدماء منذ آلاف السنين لكروية الأرض ولبعد كبير للشمس عنّا، ولكنها معلومة بقيت محصورة بين العلماء ولم يبلعها عوام الناس.

أقول لك هذا لأنك ربما تجد أثراً تاريخياً يشير لاكتشاف أحد ما لحافّة الأرض "بحسب اعتقاده" وتحديدها ببحيرة ساخنة، وربما تجد أثراً لخريطة مرسومة تشير لذلك، فالاحتمالات مفتوحة عن جهل ذي القرنين أو معرفته بكروية الأرض، وأكرر لك أنّ تعبير الآية عن لسان حاله "{وَجَدَهَا}" وعن وصف المشهد "{تَغْرُبُ}" لن تفهم منه إن كان هو يعتقد بسقوط الشمس فعلاً في البحيرة، أو الوصف باق على عموميته بغروبها خلف البحيرة بغض النظر عمّا كان يعتقده ذو القرنين.

(قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً{87})
قال ذو القرنين: {أَمَّا مَنْ ظَلَمَ}، من لم يكن منصفاً عادلاً، حيث عرضنا عليه الإيمان ورفض فهذا ليس معه حقّ برفض الدين الإلهي الصحيح، وظلماً سيرفضه، {فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ}، حيث سيتعرض لما يضرّه، {ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ}، ومن مفاهيم القرآن نعلم أن الكلام يشير إلى ردّهم إلى المسؤول عنهم من مستوى إلهي في يوم القيامة ليحاسبهم، {فَيُعَذِّبُهُ} سبحانه، {عَذَابًا نُكْرًا}، على معنى: فعل معه منكراً. لأنّ العذاب لم يكن معروفاً له أنه سيكون بهذه الشدّة، والمنكر من مقابلته مع "عرف معرفة" يعطي معنى حصول صورة أو مفهوم ونفي تطابقه مع ما لديك، فهو عموم ما ليس معروفاً على الوجه المطروح، كرفض لتصنيفه. يعني هو عذاب شديد جداً ولم يكن على بال الظالم، لأنه لم يكن معروفاً للظالم أنه سيكون بهذه الشدّة.

التعبير عن "تعذيب" من كفر هنا في الدنيا، يبدأ من تقييد الحرية بفرض نظام فيه عقاب شديد لمن خالفه، إلى الاستعباد، إلى التعرّض للألم من الخفيف إلى الدرجة التي تسبّب الموت.

(وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً{88})
{وَأَمَّا مَنْ آمَنَ}، أعلن اعتقاده بالدين الإلهي، {وَعَمِلَ صَالِحًا}، قام بالأعمال الصالحة الجيّدة تاركا الأعمال السيّئة، وعمليا هو ترك ما حرّمه تعالى وفعل ما أوجبه تعالى، {فَلَهُ جَزَاءً}، له مقابل معادل على إيمانه وعمله، {الْحُسْنَى}، مقابل حصول الكافرين على السوء حيث إنّ هؤلاء ينالون ما هو موصوف بأنه حسن. وعموم كلام القرآن لا يشير بالحسنى إلى الأحسن على معنى الحسن والأحسن منه، بل يشير لعموم ما هو حسن مهما كانت درجة حسنه، لأنه أحسن من السيّئ.

{وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا}، من شأننا مما يختص بنا، {يُسْرًا}، الكلام الذي يدل على تيسير تسهيل حياته، ولن نعسّر عليه، ولن نستعبده أو نستخدمه سخرة أو نهينه... بل سنعامله بكل ما ييسّر ويسهّل له حياته.

نحن الآن موجودون معهم فسينال المؤمنون أفضل معاملة، أو سنضع رئيساً مؤمناً عليهم ونتابع شؤونهم... أو لن نأخذ منهم طعاماً للجيش... أو لن نفرض عليهم ضرائب ترهقهم...

هذا الكلام المختصر جداً فيه عمق، فعرض الدين الإلهي على الآخرين ليلتزموا به، هو عرض لما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة، فالدين الإلهي لا يطرح إلا ما هو حقّ وصالح، ويحرّم ما هو فاسد وسيّئ، فيمنع الشرك به تعالى ليحصر العبادة به سبحانه لوحده، وبالتالي يلتزم الناس بما يقوله تعالى، وتشريعه سبحانه المذكور في هذا القرآن كنموذجٍ معلومٌ حسنه، ويأمر ببرّ الوالدين والإحسان إلى عموم الناس ومساعدتهم... ويحرّم كلّ أشكال أذية الآخرين... وكما ترى في الكلام هنا من عرض الدين الإلهي على "الآخرين"، فهو نفس العرض المطروح في القرآن، فهو عرض فعل الصالحات، المبني على ما هو موجود فينا من تمييز للصالح من الفاسد، فإن التزموا بالصلاح في العقيدة والشريعة بقدر ما يعلمون فلن يعودَ هناك "آخرون"، فالكلّ مؤمنون، وسيتساوون في الحقوق والواجبات، وينتج عن ذلك حياة دنيوية سعيدة للجميع، وأيضاً يتكفّل ضمان السعادة للجميع في الآخرة.

لا معنى لسرد القصّة هنا في القرآن إن لم ننتبه لفحوى تتعلّق بالهداية من سردها، فالقرآن ليس كتاب تاريخ يذكر الأحداث مهما كان نوعها، لا بل كتاب مقصود منه هداية الناس، ونحن أمام نموذج عملي لرجل لديه القدرة على نشر الهدى، و{سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا}... وأمّا القصص التي يرويها الناس عن ذي القرنين فلا قيمة لها إن لم يكن فحواها عن الهداية، حتى ولو فرضاً كانت القصص روايات لأحداث صحيحة عن ذي القرنين.

(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً{89})
{ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا}، فاستعمل الوسيلة التي تمكّنه من السير برحلته العسكرية الاستكشافية إلى المناطق المختلفة. بالقدرات التي تمكّنه من السير بجيشه ومن معه تمكّن من إكمال مسيره الاستكشافي بقدر ما يمكنه...

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً{90})
سار، {حَتَّى إِذَا بَلَغَ}، وصل إلى، {مَطْلِعَ الشَّمْسِ}، المكان الذي تطلع منه الشمس، تذكّر تعبيرنا بـ: طلع البدر علينا. أنتَ لستَ تقصد منه خروج البدر من الأرض، وهنا نفس الشيء، حيث وصل إلى بحر أو محيط أو مكان فيه جبال شاهقة أو صحراء أو غابة لا يعرف حدود نهايتها... ولم يعد يستطيعُ التقدّم أكثر، أو وصل إلى نهاية ما يعرفه من خريطة الأرض حينها، {وَجَدَهَا}، وجد ذو القرنين الشمس، {تَطْلُعُ}، فتطلّ من مكان كانت مستورة خلفه، {عَلَى قَوْمٍ}، على أناس لهم كيان الجماعة وهم مجموعون في زمان ومكان واحد، {لَّمْ نَجْعَل لَّهُم}، لهؤلاء القوم، {مِّن دُونِهَا}، الشمس، {سِتْرًا}، حيث لا شيء يخفيها عنهم، يبدو أنهم لا يبنون البيوت ولا الخيام ويعيشون في العراء، وأيضا يبدو أنهم لا يستترون بلباس كامل للجسد، وبما أن ذا القرنين لم يقم معهم بأي عمل، فيبدو أنهم أناس مسالمون ولكنهم بدائيون جدا.

(كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً{91})
{كَذَلِكَ}، كما نخبرك، {وَقَدْ أَحَطْنَا}، لدينا إحاطة، من كل الجوانب، {بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا}، وكل الأخبار التي عنده فهي عندنا. يعني القومَ البدائيينَ جدا الذين وصل إليهم، هو تفاجأ بهم، وتعرّف عليهم حديثا، أما سبحانه فلديه إحاطة بأخبارهم، ومن يراهم سيقول: هؤلاء قوم منسيون في هذه البقعة النائية من الأرض ولا يحتكّون بأي حضارة إنسانية... أمّا سبحانه فلديه إحاطة بأخبار هؤلاء الناس وليسوا غائبين عن علمه ومراقبته.

(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً{92})
تركهم ولم يفعل شيئا معهم، {ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا}، وسار خلف سبب خلف وسيلة، واستعمل الطريقة التي تمكّنه من الانتقال من مكان لآخر لإكمال رحلته العسكرية الاستكشافية...

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً{93})
سار... {حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ}، حيث وصل إلى مكان فيه سدّان فيه ما يتعارض مع متحرّك، كسدٍّ كمانع للماء من التقدّم، أو مانع للعدو من التقدم... وسترى من الآيات التالية أنهما جبلان بينهما ممر، وهناك، {وَجَدَ} من دون السدّين، خارج السدّين، {قَوْمًا}، أناساً لهم كيان الجماعة، {لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا}، حيث إنّ ما يقوله لهم لا يدخل إلى قناعتهم، فلولا القليل الذي فهموه لكانوا نهائيا لا يفقهون ولا يفهمون ما يقوله لهم.

يبدو بالتحليل للآية أنّ هناك قوماً بينهم وبين مرور يأجوج ومأجوج إليهم سدّان، جبلان بينهما ممر، فوصل ذو القرنين لما بين السدّين، لمنطقة الممر، ومن دونهما، مما بعد السدّين ومن خارجهما يوجد قوم "يأجوج ومأجوج" وهم الذين لا يكادون يفقهون قولا، وحاول التواصل للتفاهم معهم ولكن لم يصل إلى نتيجة بسبب تخلّفهم وبدائيتهم.

من الآية التالية سترى بوضوح أن الوصف بانتفاء الفقه هو لقوم يأجوج ومأجوج، فذو القرنين لا يعرفهم، وحاول التعاطي معهم بالكلام فوجدهم غوغائيين همجيين لا يفهمون الكلام عن الشؤون العامة والعلاقات بين الناس... وسيبدو لك أنهم معتادون على التعدّي على الآخرين بالضرب والقتل... والسلب... بدلا من الاعتماد على أنفسهم لبناء حياة فيها من عناوين الزراعة والتجارة والمهنية والحرفية...

ربما يخطر ببالك أن ذا القرنين واجه مشكلة لغوية معهم، فلغتهم مختلفة تماما عن لغته، ولكن هذه ليست المشكلة كما سيبدو لك من تكملة الآيات الواصفة لهم بالفساد، فمن استعمال القرآن لكلمة فقه، نعلم أن المشكلة هنا كانت في فهم معاني ما يقوله لهم عن أمور اجتماعية أو قانونية... حاول ذو القرنين التحدّث معهم عن العقيدة والشريعة والسلوكيات، ولكنهم لم يفهموا الكثير من كلامه، فمستوى تعاطيهم مع الأمور وعاداتهم السلوكية أقل بكثير مما يسمعونه من كلام ذي القرنين، ولولا القليل الذي رآه عن بعض الضوابط أو القوانين التي يعتقدون بها وتشبه "بشكل ما" ما يقوله ذو القرنين، لكانوا نهائيا لا يفهمون منه ولا كلمة.

يعني هم مجتمع بدائي ولا يتعاطون بالكثير من التعقيدات الناتجة عن التطوّر الاجتماعي والاقتصادي... ومن الآية التالية سترى أنهم لم يكونوا مسالمين بل كانوا مفسدين...

حسناً، كيف نتصوّر جغرافية المنطقة التي وصل إليها ذو القرنين؟ سترى أنك ستتأثّر بالشخصية وبالأماكن التي ترجّحت في بالك عن ذي القرنين، وها أنا رجّحت أن يكون قورش هو ذو القرنين، "رجّحت ذلك بناء على دراسة أبي الكلام ولست متيقنا"، وهكذا سأطبّق توصيف جغرافيا المكان على مكان مرّ فيه قورش، فيكون مكان السدّين هو الممر الواقع بين سلسلة الجبال الممتدة بين بحر قزوين والبحر الأسود "داريال باس".

بقي شيء، في دراستنا هذه استنتجنا من المعطيات المتوفرة حاليا لدينا، موجّهين فهمنا للقرآن بناء عليها مستأنسين بها، وقلنا إنّ آدم(ع) لم يكن أول بشري، وراجع في ذلك دراسة الآية 30 من سورة البقرة، وقلنا إنّ آدم(ع) أوّل بشري تأهّل ليتكلّف بدينه تعالى، وهنا ترى بوضوح شيئاً معيناً على هذا الفهم، فنحن أمام بعض أقوام لم تتأهّل للتكليف بأوامره تعالى، ففي آخر ما وصل إليه ذو القرنين غربا وجد أناسا فيهم قابلية التكليف البدائية جدا، فإما أن تعذّب أو تتخذ فيهم حسنا بناء على موقفهم وتصرفهم مما تعرضه عليهم من هدى، وفي آخر ما وصل إليه شرقا وجد أناسا مسالمين وبدائيين جدا لدرجة أنهم لم يصلوا إلى مرحلة بناء بيوت...

هنا في منطقة ما وجد أناسا بدائيين "يأجوج ومأجوج" ولكنهم همجيون مفسدون، بالكاد يفهمون عليه ما يقوله لهم عن الهدى، فهم بدائيون من الناحية الفكرية لدرجة صعوبة قبولهم لكلام متقدّم في الحضارة الاجتماعية المدنية... والحادثة المذكورة هنا ليست بعيدة عنا تاريخيا لدرجة وصولها إلى الإنسان من العصر الحجري، ونفترض أنها جرت مع أناس مشابهين للأقوام القليلة التي لا تزال في عصرنا تعيش العزلة عن المدنية في غابات... فهم ليسوا متخلفين فاقدين للقابلية العقلية، بل متخلفون في تراكم ثقافة حضارية لديهم، فلو أخذت طفلا منهم وعلّمته التحضّر لوجدته كبقية أطفال المتحضرين واعيا لكل ما يمكننا نحن فهمه واستيعابه بلا فرق، أقول لك هذا مستندا على دراسات منشورة تؤكّد "تشابهاً كبيراً" في تركيبة دماغ كل الجنس البشري الحالي، ومستندا على تجارب ملموسة للفرق بين أطفال من تلك المجموعات البدائية تربّت في بيئة حضارية فنمت متحضرة فكريا عن أهلها، وكانت مثلها مثل أي طفل آخر من مجتمعاتنا الحضرية.

(قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً{94})
{قَالُوا}، أهل تلك المنطقة مشيرين إلى القوم من دون السدّين، إلى الذين خارج الممر بين السدّين: {يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ}، وهو اسم لهؤلاء القوم الذين تحدّثت معهم ووجدتهم لا يكادون يفقهون قولا، {مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ}، يخرّبون فيها ويسرقون الثمار والخضار والماشية وأغراض الناس... يضربون ويقتلون الناس... فهم يفهمون الكلام

ولكن لا يريدون التحاور معك لأنهم مفسدون ولا يريدون تغيير طريقة حياتهم. وبتوصيفاتنا الحالية فهم بدائيون همج وعدوانيون. {فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا}، نخرج لك ونقدّم لك من أموالنا وأملاكنا، {عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا}، شيئا يسدّ الطريق بيننا وبينهم فلا يصلون إلى مناطقنا.

ستفهم من الآيات أن يأجوج ومأجوج كانوا يعيشون في منطقة فيها جبال عالية لها منحدرات قوية جدا تشكّل حاجزا طبيعيا يمنعهم من المرور بسرعة وخفّة للإفساد في المناطق المجاورة والهرب بسرعة، وهناك ممر بين سدين بين حاجزين مانعين للحركة، وهما جبلان شاهقان كانوا يمرّون منه... وعلى كل حال فالملخّص أنه يوجد سدان بينهما ممر يخرج منه قوم يأجوج ومأجوج ويهجمون على الناس وعلى أرزاقهم... وأهل تلك المنطقة يقترحون على ذي القرنين مساعدتهم على بناء سدّ يسدّ الممر بين السدّين مانعين بذلك مرور يأجوج ومأجوج.

ربما تتصوّر أنّ السدّين يحجبان جهة من الأرض عن جهة أخرى، فلا يتمكّن يأجوج ومأجوج من العبور بتاتا ولا من أي مكان إلى الجهة الثانية من الأرض، ولكن هذا التصوّر غير ضروري، بل يكفي منعهم من سهولة المرور، ويصيرون بحاجة لقطع مسافات طويلة جدا للهجوم على الناس بعد الالتفاف حول السدّين، وعلى ما يظهر فإن يأجوج ومأجوج لم يكونوا في حينها جيشا منظما، بل مجموعة "عصابات" تقوم بضربات خاطفة وليس لديهم القدرة على مواجهة جيش.

نلاحظ من بقيّة الآيات أن قوم يأجوج ومأجوج سيتم حشرهم في يوم القيامة لمحاسبتهم، مما يعني أنهم لم يكونوا معاقين فكريا، بل همجيين مفسدين عن وعي كافٍ لمحاسبتهم بقدر ما يميزون بين الخير والشرّ.

من هم قوم يأجوج ومأجوج؟ أين كان مكانهم وزمنهم؟ لا ندري بالضبط، ولن أطيل عليك وأحيلك مرّة ثانية إلى أفضل دراسة حول هذا الموضوع قام بها "محيي الدين أبو الكلام آزاد"، وهذا لا يعني أن دراسته تامّة يقينية، ولكنها على الأقل تستند لأشياء يمكن التحقق منها، وفي دراسته قارب بين يأجوج ومأجوج وبعضٍ من قبائل المغول...

ننتبه جيدا، هل لديك شكّ في صحّة ما يقوله القرآن وتريد دليلا ملموسا واضحا عن ذي القرنين وعن يأجوج ومأجوج والسدّين؟ هل تبحث عن الدليل لتؤكّد لنفسك أو لغيرك صحّة ما يقوله القرآن؟ كلّ ما ذكره القرآن عن إثبات مصدره ككتاب إلهي لم يكفِك! انتبه أن تمتحن الكتاب الإلهي الذي لم يترك ولا دليلا دامغا صحيحا عن إلهية مصدر القرآن إلا وذكره لنا، وبالتالي فكل ما سيرد في القرآن فهو صحيح حتما، واعلم أن شخصيّة عظيمة كشخصية السيدة مريم(ع) غفل عنها كتّاب التاريخ بالكامل، وإلى الآن لا أثر لها على الأرض يثبت وجودها، وابنها النبي العظيم عيسى(ع) ورد ذكره تلميحا في أقل من سطرين في كل الوثائق التي وصلتنا عن الرومان! وأيضا لا يوجد أي أثر من حياته على الأرض، فلا قبر ولا نصب ولا لوحة... من زمنه، لولا الإنجيل والقرآن كمستندين تاريخيين، لكانت هذه الطاهرة وابنها مجهولين بالتمام عن كل البشرية، حتى لو لم نجد أي أثر عن ذي القرنين والسدّين ويأجوج ومأجوج فهذا لن يقدّم ولن يؤخّر فيما أراد القرآن الإشارة إليه، فنحن نؤمن بصحّة كل ما يقوله القرآن مستندين على إيماننا بإلهية مصدره، مستندين بذلك على الأدلة العديدة المتنوّعة التي وردت فيه والأكثر من كافية لتأكيد إلهية مصدره.

هذه القصّة هنا غرضها الإشارة إلى التدخّل الإلهي عبر "ذي القرنين" في حياة أقوام من الناس، وهذا ما أراد القرآن قوله لنا، فقومٌ عرض عليهم الدين الإلهي، وقوم تركهم لأنهم بدائيون جدا ومسالمون، وقوم بدائيون ولكن مفسدون "يأجوج ومأجوج" حصرهم في منطقة من الأرض حتى لا يخرجوا منها ويؤذوا الناس.

نلتفت لورود ذكر يأجوج ومأجوج مرة ثانية في القرآن في الآية 96 من سورة الأنبياء {حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ}، فراجعه هناك لترى أن الآية تتحدّث عن خروجهم من الموت في زمن الآخرة.

(قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً{95})
قال ذو القرنين: {مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي}، الذي أتمكّن من فعله وحصلت عليه من المسؤول عني من مستوى إلهي، {خَيْرٌ}، موصوف بأنه جيد، وسياق الكلام عن شيء معي "أفضل" من اقتراحكم ومن خرجكم، حيث اقترحوا عليه بناء سدّ، وأخبروه أنهم سيقدمون له مالاً ليساعدهم على بنائه، فأخبرهم ذو القرنين أن ما حصل عليه من ربّه سبحانه يجعله مستغنيا عن أموالهم ويمكّنه من فعل ما هو أفضل وأنجح من السدّ.

في الآية 46 من هذه السورة توسعنا في دراسة كلمة "خير" فراجعه.

{فَأَعِينُونِي}، ساعدوني بجهدكم، وضعوا يدكم معي، {أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ}، يأجوج ومأجوج، {رَدْمًا}، أضعُ أكواماً من الحجارة بدلاً من بناء سدّ، فهو أسرع وأكبر وأمتن، بالطريقة التالية:

(آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً{96})
ننتبه قبل أن نكمل، لأنّ الآيات تنقل لنا أساسيات بناء الردم المعدني الزلق الصلب، ولم تنقل لنا تفاصيل تقنية بنائه:

{آتُونِي}، اجلبوا لي، {زُبَرَ}، قطعاً منفصلةً، {الْحَدِيدِ}، وهي صفة لأي شيء صلب، وحاليا هو اسم لنوع محدّد من المعادن، ولكن قديماً كانت كلمة عامّة تشمل المعدن الصلب الذي نعرفه الآن وتشمل أي شيء صلب "حادّ"،
ونستصعب أن يكونوا جمعوا كميات ضخمة من معدن الحديد في وقت قصير كالذي تصوّره الحادثة هنا، والأرجح أنهم جمعوا الحجارة الطبيعية من منطقتهم والتي فيها خامة معادن صلبة، فعلى الأرجح أن ذا القرنين لم يستخرج الحديد من الحجارة بل ردم المكان بالحجارة التي فيها خامة معدن "حديد، صلب"، {حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ}، بين جانبي الجبلين، ووضع الحجارة التي فيها زبر الحديد فوق بعضها حتى تساوت وتناسبت بالتمام، بالارتفاع، وتوازت في ارتفاعها إلى ارتفاع جانبي الجبلين، {قَالَ انفُخُوا}، حيث جمع الحطب أو "الفحم الحجري، أو النفط السائل..." على زبر الحديد وأشعلها وأمرهم بالنفخ على النار، والنفخ في النار يجعلها تصدر عنها حرارة مرتفعة قادرة على إذابة بعض المعادن التي في الصخور، والنفخ على النار في هكذا أمور كان يتم بمنافخ الهواء المصنوعة من الجلود... {حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ}، وجعل المنفوخ عليه، {نَارًا}، وتوهّجت الزبر وارتفعت الحرارة كثيرا، {قَالَ} ذو القرنين:

{آتُونِي}، اجلبوا لي، أحضروا لي، {أُفْرِغْ عَلَيْهِ}، أصبّ على الردم، {قِطْرًا}، وبعد بحثي في مختلف الكتب القديمة تبيّن لي أن القطر "كسرة على القاف" هو النحاس الكبريتي، فهو مادة النحاس في حالته الطبيعية وليس خام النحاس. وورد في الآية 12 من سورة سبأ أيضاً كلام عن عين القطر في زمن النبي سليمان(ع) {... وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ...}.

كما تلاحظ، التركيز في الآية على: ردم من قطع منفصلة حديدية، تمّ رفع درجة حرارتها، بعدها صَبَّ على الردم قِطْراً، وستعرف المواصفات النهائية لهذا الردم من الآية التالية، حيث لم تشرح الآيات كل التفاصيل التقنية للبناء، ومن المستبعد عندي صنعهم لقالب من حجارة كلسية أو طينية، والأرجح أن وجه حائط الردم كان أملسَ مائلاً وصبّوا عليه كبريتات النحاس وأحرقوها فالتحم المعدن الذائب في الحجارة الحديدية... وهذه تفاصيل تقنية لهندسة العمارة ولم تذكرها الآيات واكتفت بالإشارة إلى القدرة العلمية العالية لذي القرنين حتى استعمل المعادن لبناء سد من ردم صلب زلق، وربما بخبرتك الهندسية أو بأثر تاريخي يتبين لك تصوّر آلية بناء مختلفة عن الذي اقترحته هنا، إذ إنّ فهمي لمعاني الكلمات لا يعني فهمي لما تصوّره الكلمات، حيث إننا نقرأ كتب المتخصصين في الرياضيات والفيزياء والطبّ... ونفهم معنى الكلمات فيها ولكن لا نفهم ماذا يقصدون من كلامهم لأننا لم ندرس تلك العلوم، وهذا ما يصيبني أحيانا حين أقرأ آيات تتحدّث عن أمور لم أختبرها فلا أفهمها مثلما تفهمها أنت إن كنت متخصصاً في مجالها، وكمثال عن ذلك الآيات التي تتحدّث عن الحكومة والفساد الاجتماعي والأمني والاقتصادي... كالآيات العديدة التي تتحدث عن قبيلة عاد الطغاة، فإن لم تعاصر دولة طاغية مستبدة تفسد في اقتصاد وأخلاق وأمن مجتمعك، أو كنت تابعاً لدولة طاغية مستفيداً من طغيانها ببحبوحة العيش... فلن ترى معنى كلام القرآن عن طغيان عاد علماً أنّ الكلام القرآني صريح وواضح في وصفه لسوئهم ولكنك قد لا تراه... وهنا نفس الشيء، فالكلام عن بناء شيء، حتى لو كنت أفهم معنى كل كلمة لوحدها، فلن أفهم الجملة بشكل صحيح أو دقيق إن لم يكن عندي معطيات عن الأبنية، ولكن سأفهم المجمل من الصورة أنه بناء مانع للمرور.

كما تلاحظ، هنا كلام مساعد على تحديد زمن ذي القرنين، لأنّ النفخ في النار لرفع درجة حرارتها لتذيب المعادن الصلبة، يجعل تحديد تاريخه لا يرجع كثيراً إلى الوراء، وأي أثر لسدّ قديم مبني بالردم وسبك النحاس على وجهه فسيكون معيناً على تحديد التاريخ المقارن لاكتشاف هذه التقنية في بناء السدود.

(فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً{97})

بعد الانتهاء من بناء السدّ، {فَمَا اسْطَاعُوا}، فلم يستطع قوم يأجوج ومأجوج، {أَن يَظْهَرُوهُ}، أن يتسلقوا على ظهر الردم لأنه مرتفع جداً وأملس، {وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا}، فلم يتمكنوا من نقبه بجعلِ منفذ فيه للمرور عبره، فلم يتمكنوا من ثقبه.

إذاً فالمواصفات النهائية للردم، حائط طويل "وربما مائل" بوجه من طبقة معدنية، لا يمكن ثقبه أو حفره بسهولة بأدوات بدائية كالمطارق والحجارة، وله وجه أملس زلق، فلا يمكن تسلقه.

وهكذا حصروا قوم يأجوج ومأجوج في منطقة خلف الجبال فلا يتمكنون من عبور الممر بين السدّين، وصاروا بحاجة لقطع مسافات طويلة حول الممر المردوم للإغارة على الناس في الجهة الثانية.

(قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً{98})
{قَالَ} ذو القرنين بعد الانتهاء من بناء الردم: {هَٰذَا}، الردم الذي فعلناه، {رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي}، عناية لما فيه مصلحة الناس من المسؤول عني من مستوى إلهي، فلولا القدرة العلمية والتقنية التي منحها تعالى لنا لما استطعنا بناءه لتتخلّصوا من شرّ يأجوج ومأجوج.

{فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي}، فحين يأتي الموعد الوقت الذي حدّده ربي سبحانه، {جَعَلَهُ}، الردم، {دَكَّاءَ}، فيهدمه، {وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا}، فأنا أعلم من خبر إلهي أن هذا الردم الصلب له موعد لينهار فيه وسيحصل ذلك فعلاً، فهو بناء ضخم صلب ويعطي شعورا بالقوّة، ولكنه في النهاية سينهار.

نلاحظ أن الآية لم تذكر موعد الدكّ، وتلاحظ أن ذهننا ينصرف إلى موعد تدمير كل الأرض قبل يوم القيامة، ولكن هذا يعني أن السدّ سيبقى صامدا حتى يحين موعد دمار الأرض، مما يعني أنه إلى الآن لا يزال موجودا كما هو، ولدينا روايات تؤكّد ذلك، ومن ناحية أخرى لدينا روايات تقول بأنّ هذا الموعد لدمار الردم مرتبط بظهور الإمام المهدي(ع)، ولدينا روايات تقول بأنّ الردم سيصمد حتى يوم القيامة نفسه... وكما يبدو فإن كل هذا الكلام غير صحيح، لأننا الآن لا نجد السدّ قائما، ويبدو أنّ ذا القرنين نبّه من حوله من الناس، أنّ هذا الردم المعدني لن يصمد إلى آخر الدهر كما يبدو لكم، بل هناك موعد لزمن حتمي لدماره.

نلاحظ أننا إذا أكملنا دراسة "أبي الكلام آزاد" ورجّحنا أن يكون المغول "والتتار" هم يأجوج ومأجوج، فمن التاريخ نعلم أنهم في القرن الثالث عشر ميلادي انتشروا بشكل واسع واحتلوا الشرق الأوسط بأكمله مع شرق ووسط آسيا وأوروبا الشرقية... واشتهروا بدمويتهم وإجرامهم، فعلى أساس صحّة كون يأجوج ومأجوج هم المغول والتتار، فالإشارة في الآية هنا أنّ هذا الردم لن يردع هؤلاء المفسدين إلى آخر الزمن، بل هذا الردم سينهار، وهؤلاء المفسدون سيعبرون من هذا الممر ومن بقية الممرات والأراضي.

(وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً{99})
{وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ}، في يوم انتهاء بناء الردم، {يَمُوجُ فِي بَعْضٍ}، بعبارة أبسط في زمن انتهاء بناء الردم، تركنا يأجوج ومأجوج يموجون، فصار منظرهم وهم يحاولون نَقْبَ أو تسلّق الردم مثل تلاطم موج البحر، مما يدل على همجيّتهم العنيفة من التدافع والتسلّق فوق بعضهم...

{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ}، كما تعلم من بقية القرآن في زمن ما من بعد انتهاء الدنيا سيتم النفخ في شيء يسبّب عودة كل الناس إلى الحياة، وهذا الحدث هو بداية يوم القيامة من الموت، {فَجَمَعْنَاهُمْ}، يأجوج ومأجوج، {جَمْعًا}، فجعلناهم مجموعين كلّهم في مكان واحد، لأنهم سيتحاسبون على إفسادهم في الأرض.

يعني، لم تنتهِ قصّة يأجوج ومأجوج عند الردم، بل سيتحاسبون في يوم القيامة على إفسادهم في الأرض. كما تلاحظ بدايةَ سرد الفقرة عن قوم فيهم إمكانية لهدايتهم، وبعدهم بدائيون مسالمون، وبعدهم بدائيون عدوانيون، وأكّدت الآيات السابقة على التعامل مع الجميع بقدر ما تأهلوا لتمييز الخير من الشرّ، فهناك حساب على فعلهم للسوء، وهنا نفس الكلام مدموجٌ بين الدنيا والآخرة، حين انتهى بناء السدّ وحاولوا عبوره "بهمجية" الموج "التدافع والتسلّق فوق بعض"،

فقصتهم لم تنته هنا، فلهم حساب إلهي على سوئهم، والذي سيحصل حين النفخ بالصور يوم يعيد تعالى كل الناس إلى الحياة الآخرة لمحاسبتهم...

بالنسبة للنفخ في الصور، من الآية 68 من سورة الزمر {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}، علمنا أنّ حادثة النفخ في الصور ستحصل مرتين، وأوّلُ نفخة ستسبّب موت كلّ المخلوقات في الدنيا "إلا من شاء تعالى"، وثاني نفخة ستحصل بعدما تتبدّل الدنيا وتأتي الآخرة، وهذه النفخة ستسبّب عودتنا إلى الحياة، ويسمّيها القرآن بالساعة لأنها بالنسبة لنا هي أول ساعة من يوم قيامنا من الموت.
المشهور بين المسلمين أنّ ملاكاً اسمه إسرافيل(ع) يقوم بالنفخ في الصور، تذكّر دائما أنّ القرآن لم يذكر اسم النافخ ولم يقل أصلا إنّه ملاك، لكن اشتقاقا من عموم ما نفهمه من القرآن عن توظيفه تعالى للملائكة للقيام بهكذا أعمال، ومما هو مشهور في عموم ثقافة المنتمين لهذا الدين الإلهي من اليهود والمسيحيين، سنقول إنّ ملاكاً اسمه إسرافيل هو النافخ في الصور.

الصور في اللغة هو الشيء الذي نستعمله لنصدر صوتا قويا، ليسمعه عدد كبير من الناس، كالبوق قديما، وكمكبر الصوت حاليا. طبعاً الصور الذي تتحدّث عنه الآية هنا ليس بوقاً مصنوعاً من خشب أو من معدن، وليس مكبّراً للصوت، لكنه شيء يستعمله "الملاك إسرافيل(ع)" حيث ينفخ فيه، ويجعل في داخله "شيئاً لا نعرفه"، مثلما نجعل نحن الهواء داخل البوق "أو البالون"، مما يُصدر من الصور "شيئاً" يسبّب قيام كل الناس من موتهم، دفعة واحدة.

وصفُ النفخ في الصور مثل الوصف بالصيحة الوارد في العديد من الآيات ومنها الآية 53 من سورة يس {إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ}، وأمام عدد هائل من المخلوقات الميتة، يصدر أمر إلهي بإعادة هذا العدد الهائل إلى الحياة بنفخ "الملاك" في شيء ينشر الأمر الإلهي على عدد كبير، ونفس الحدث يوصف بالصيحة كتعبير عن أمر إلهي سينتشر على عدد كبير، إذ هي ليست صرخة "علما أنّ كلمة صرخة أصلا غير مناسبة لوصف الحالة"، ولا الصيحة مسموعة بالصوت، بل التعبير بالنفخ في الصور وبالصيحة هو وصف لانتشار الأمر الإلهي على عدد كبير ليتنفّذ.

النفخ في الصور ليس كما ننفخ نحن البالون بالهواء، حيث إنّ كلمة "نفخ" استعملها القرآن مراراً لتوصيف حالة سريان الحياة في المادة الجامدة مثل التراب، والآيتان 29 من سورة الحجر و72 من سورة ص تنسبان النفخ له سبحانه في آدم(ع) فصار حيّاً، والملائكة(ع) نفخت في بطن السيدة مريم(ع) فصارت حبلى، وراجع في ذلك الآية 19 من سورة مريم {قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} مع الآية 12 من سورة التحريم {وَمَرْيَمَ} ... {فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا}...، والنبي عيسى(ع) كان ينفخ في الطين ليصير طيراً، كما ورد في الآية 110 من سورة المائدة ...{وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي}...، وهنا ينفخ الملاك في الصور لنتشكل نحن من التراب ونعود إلى الحياة.

صرت تعلم أنّ استعمال هذه الكلمات على معناها الوصفي الحقيقي وليست تعابيرَ مجازية، لكنّ تصوّر حصولها غير ممكن لنا حاليا لأنها توصّف شيئاً من عالم آخر، من عالم الملائكة التي لا يمكننا رؤيتها الآن، ففي عالمها صور "بوق" يناسب تكوينه تكوين الملائكة، والنفخ فيه فعل يناسب تكوين الملائكة، ونحن لدينا رئتان ننفخ منهما، والملائكة تكوينها مختلف، لكن لديها فعلٌ توصف فيه بأنها تنفخ. ونفس الشيء الكلام عن الشهب التي ترجم بها الملائكة لتبعد الشياطين عن السماء العالية، فالشهب توصيف لشيء يناسب تكوين تلك السماء، إذ ليست شهباً من المادة التي يتشكّل منها كوننا "سماؤنا"... ونفس الشيء وصف سجود الملائكة بتعبير يناسب تكوينها...

بقي شيء، من عموم القرآن نفهم أنّه سيأتي زمن تنتهي فيه حياة البشرية، وبعدها يحصل تبدّل في السماوات والأرض، لتنتهي الدنيا وتبدأ الآخرة، وبعدها "النفخ في الصور" ليعود الناس إلى الحياة. عندما يترسّخ ذلك في ذهننا نرى الخلط الذي يقع فيه بعضهم حين يقولون ببقاء بعض الناس أحياء من حياتهم الدنيا ليشاهدوا حصول يوم القيامة، ومن هذا الخلط نفهم سبب تفسير البعض لآياتنا هنا دمجاً بين الدنيا والآخرة، على أساس أنّ يأجوج ومأجوج سيبقون أحياء إلى يوم القيامة، وهذا غير صحيح، على كلّ حال هناك بشكل عام تساهل وبساطة وأخطاء في الكثير من الكتب التي تحدّثت عن أحداث لها علاقة بتسلسل أحداث انتهاء الدنيا والانتقال إلى الآخرة، فانتبه له.

(وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضاً{100})
{وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ}، وجرى إظهار المكان الموصوف بسوء ما فيه، حيث فيه النار المتأججة والعذاب، {يَوْمَئِذٍ}، في زمن عودة الناس إلى الحياة بعد النفخ في الصور، عرضنا جهنّم، {لِّلْكَافِرِينَ}، للمنكرين للدين الإلهي، {عَرْضًا}، بكل ما تحمل كلمة عرض من معنى، والتعبير القرآني المشابه لهذا {ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ} كما ورد في الآية 7 من سورة التكاثر، ولن تكون مخفية ولا عن أي واحد منهم، لأنّ كلّ الكافرين حتما سيرون جهنّم في يوم القيامة.

لاحظ أنّ هذه الآية وما سيليها لم تتحدّث عن التعذيب، وأشارت فقط لحتمية رؤية الكافرين لجهنّم، الجاهزة التي تنتظرهم.

ضع في بالك دائماً أنّ القرآن استعمل كلمة عرض ومشتقاتها كتعبير عمّا يظهر بشرط أساسي أن تعتبره مهمّاً، ومن أعرض عن شيء، يعني: ظهر له شيء ولم يعتبره مهمّاً. قارنها دائماً مع بائع يعرض بضاعته التي يعتقد أنّ من يراها سيهتم بها، لأنّ العرض لا يعني فقط إظهار الشيء أمام الآخرين بل يتضمّن أهمية ما يظهر.

(الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً{101})
الكافرين، {الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي}، وأمّا الأشياء التي تجعلهم يَذْكُرُونَهُ فَيَسْتَحْضِرُونَهُ تعالى في عقلهم وفكرهم وعملهم، فإنّ أعينهم كانت مغطاة وكان عليها ستار حاجب حاجز، لذلك لم تَرَ الأشياء التي تذكّرهم به سبحانه، وعمليّاً لم يرتدعوا عن فعل السيئات التي سَيُحَاسِبُهُمْ عليها.

{وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا}، لذلك لم يتمكنوا من سماع الأشياء التي تُذَكِّرُهُمْ به سبحانه.

تذكّر ما قاله القرآن مراراً عديدة، إذ هم ليسوا عُمْيَاناً ولا طُرْشاً، لأنّ أدوات حواسّهم للرؤية والسمع تعمل، ولكن لا تعمل فقط حين يرون أو يسمعون شيئاً يذكّرهم به تعالى! حيث تتحرّك طبلة أذنهم ولكن لا يقبل فكرهم ما يسمعونه.

(أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً{102})
{أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، هل خطر في بال الذين أنكروا الدين الإلهي ومن دون أن يفكّروا بالموضوع، {أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ}؟! فيسمعوا كلام العبيد، كلام الذين المفروضة منهم طاعتي ويتركوا كلامي! وتكملة الجملة تُفهم بالبداهة، هل خطر ببالهم أن يفعلوا ذلك وأتركهم بلا عقاب؟!

لاحظْ أنَّ الآيات انتهت من القصص وعادت للحديث عن العقيدة والإيمان المتعلّقة بتلك القصص، ومن آخر كلام عن يأجوج ومأجوج دخلت الآيات على محاسبة الفاعلين للسيئات وعلى رأسها الكفر به تعالى وإطاعة غيره، وأبرز نموذج واضح عن سوء ذلك ترك ولايته تعالى وموالاة عبيده تعالى!

القرآن يعتبرك موالياً لغير الله تعالى حتى لو لمرّة واحدة تركت كلامه تعالى وسمعت كلام غيره ونفّذته. هنا تشير الآية إلى كل أنواع "الكفر" الإنكار للدين الإلهي، لأنها كلّها ترجع لترك ما يقوله سبحانه، والعجب من اتباع السوء الذي يقوله بعض عبيده تعالى!

{إِنَّا أَعْتَدْنَا}، حضّرنا وجهّزنا، {جَهَنَّمَ}، المكان الموصوف بسوء ما فيه، {لِلْكَافِرِينَ}، للمنكرين للدين الإلهي، {نُزُلًا}، مكاناً ينزلون فيه بعد رحلتهم في الحياة الدنيا، وبعد رحلتهم في حساب الآخرة.

لاحظْ أنَّ الآية على شكل سؤال نصفه الآخر متضمّن في الجواب: هل يحسب الكفّار أن يتركوا كلامي ويسمعوا كلام عبيدي؟ وهذا السؤال ينقصه: فأتركهم ولا أعاقبهم؟ ومن بقّية الآية نرى تكملة السؤال مع الجواب في نفس الوقت. وهذا أسلوب قرآني منتشر في العديد من السور.

بقي شيء، تذكّر دائما أنّ القرآن كثيرا ما قفز عن كل أنواع الآلهة التي عبدها الناس، وركّز على الذين لهم كيان حقيقي وعبدهم الناس، لنقل إنّهم عبدوا ملاكاً أو جنّياً أو إنساناً أو كوكباً أو بقرة... لأنّ هذه كائنات موجودة "لها كيان حقيقي"، وهناك آلهة عبدها الناس ولا يوجد لها كائن محدّد حقيقي، كإله الرعد والبرق والحرب والمطر... لذلك قفزت الآية هنا

وعموم القرآن عن هذه الآلهة التي هي أصلا وهمية من الخيال ولا كيان لها، وغالباً حصر الكلام عن كائنات لها وجود حقيقي وواعية واعتبرها الناس آلهة. ضع هذا في بالك وسترى أنّه ليس كل آية ذكرت آلهة المشركين قصدت كل أنواع آلهة المشركين، حيث تفهم من سياق الكلام من هو المقصود، حتى إنّه لدينا آيات تحدّثت عن كائنات مؤمنة لم تدّع الألوهية ولا علاقة لها بالشرك وعبدها بعض الناس، ومن سياق الكلام تفهم ذلك، حيث تلاحظ ترك الآيات للتفصيل اعتماداً على ما تفترض أنك تعرفه وستعرفه من سياق الكلام.

هنا الاستغراب التعجّبي واضح من طرح عقيدة شرك به تعالى مبنية على ترك كلام الخالق واتّباع كلام مخلوقين عبيدٍ للخالق؟!

كلمة عبد تشير لمن مفروضةٌ منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، حيث كأنّ كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، إذ كلاهما بنفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، فهي جمع الجمع، وأثناء الكلام بدقّة قد تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيءٌ خاصٌ مشتركٌ، حيث تقول الآيات: عبيد. وردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وقد تكون لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وقد تكون لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، فهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخرين جاءهم رسول، وعبيد آخرين... لذا جمع الجمع "عباد"، فكلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جدا عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً{103})
تعقيباً على الحديث عن الذين اتخذوا من العباد أولياء وتركوا الولاية لله تعالى:

{قُلْ}، عبر هذا القرآن للناس:

{هَلْ نُنَبِّئُكُمْ}، هل أخبركم بشيء غير منتشر علمه بينكم، {بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا}؟ هل تريدون أن أخبركم من هم الذين أعمالهم خاسرة أكثر من غيرهم؟ حيث هناك أعمال خاسرة لا ربح فيها، مما يسبّب فقدان أمور لها أهمية، لكن هناك أعمال تسبّب خسارة أكبر، حيث يفقد من قام بها أموراً لها أهمية أكبر، لذا لنتابعْ لنرى من هم:

(الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً{104})
الأخسرون أعمالاً هم: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، حيث إنّ حركتهم فيما قصدوا فعله في الحياة الدنيا التي نعيشها الآن، لم يجدوا منها نتيجة، لأنهم في الآخرة لم يلاقوا من عملهم شيئاً نافعاً لهم، {وَهُمْ يَحْسَبُونَ}، حيث يخطر ببالهم ومن دون أي دليل أو تفكير عميق، {أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا}، إذ ما يصنعونه، وما تحقّق عن أفعالهم "السيئة" يخطر ببالهم أنه حسن جيّد.

سترى من الآية التالية أنهم اخترعوا عقيدة وشريعة مخالفة ولو جزئياً للدين الإلهي، وفعلاً كان لهم أعمال حسنة، ويحسبون أن عملهم جيّد، وهذا شيء تراه بوضوح في بعض العقلاء من الأكاديميين من أساتذة الجامعات المحاضرين في فلسفات التشريعات والقوانين... إذ كلامهم فيه دافع رغبتهم في تسيير حياة البشرية نحو سعادة ورفاهية الجميع... والبعض منهم يقول إنّه إذا كان هناك آخرة فإنّهم يحسبون أنهم سينالون ثواباً على عملهم، وإن لم يكن هناك آخرة فهم إنسانيون، وأفراد صالحون في المجتمع، ومواطنون صالحون... لكنّ كل هذا السعي من الحركة والفعل الواعي الذي يقصدون أن يكون حسناً، في الحقيقة سيضلّ عنهم ولن يجدوا له نتيجة لها قيمة حقيقية، وسنرى السبب في الآية التالية.

كمثال عن مخالفتهم لكلامه تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، تحليلهم للربا والقمار، حيث إنّ النظام الربوي أمّن لمتوسطي الدخل شراء بيوت... ونظام البورصة "القمار" أمن لهم مراكمة مداخيل نامية مستقبلية، ومعلوم تاريخياً سوء هذين النظامين أمام النظام التكافلي والتساهمي والاستثماري على مبدأ الشراكة، لأنّ ظاهره الحفاظ على طبقة اجتماعية حالتها الاقتصادية وسطى، بينما في أساسه هو ترسيخ لربط مصير غالبية الناس بوحوش الرأسمالية بالربا والقمار، وما الكساد العالمي للعام ألفين وثمانية إلا نموذج عن ذلك، والأكاديميون يعلمون ذلك لكنّهم يتغاضون عنه.

مثله تشريعهم للمخدرات والشذوذ...

لا نقطع الآيتين السابقتين عن الآية التالية ونستنتج أنّهما تشيران للمؤمنين أيضاً، ونقول إنّه يوجد مؤمنون ضلّ سعيهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، لا، لأنّ القرآن مشحون بالوعود بالجنة للمؤمنين العاملين للصالحات، لذا الآيات لا تقصدهم.

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، لكنّ معناها أوسع من ذلك، إذ هي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شرّاً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضلّ عنك صيدها. استعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، إذ لم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنّه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، ولن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون حيث إنّه ليس على طريقهم، بل ضالٌ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردّاً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً{105})

الْأَخْسَرُونَ {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ} بالجهد الذي بذلوه في الدنيا، فلم ينتج عنه أي شيء جيّد لهم في الآخرة:

{أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ}، أنكروا الأمور المميّزة المنسوبة له تعالى والتي تدلّ على توحيده ووجوب طاعته تعالى... {وَلِقَائِهِ}، فلم يعتقدوا بوجود يوم قيامة من الموت للقاء ربّهم سبحانه ليحاسبهم، ولهذين السببين "الكفر بالآيات وباللقاء"، {فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ}، ففقدت قيمتها، ومن عموم القرآن نفهم أنّ هذا التعبير يشير إلى أنه حتى أعمالهم الحسنة تفقد قيمتها ولن يحصلوا منها على أي أجر منه تعالى.

{فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ}، لا نفعّل لهؤلاء الحابطة أعمالهم، {يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، زمن القيام من الموت، {وَزْنًا}، بتعبيرنا الحالي: لا قيمة لأعمالهم حتى نزنها، حيث في يوم القيامة سنتحاسب، وستوزن أعمالنا الحسنة لنحصل على الأجر منه تعالى عليها، وهؤلاء حبطت أعمالهم ففقدت قيمتها، فلا حاجة لوضع ميزان "قياس" للحسنات أمامهم.

مثلما تزن الأمور بعقلك، وتصرّفك يكون متّزناً، وتزن تصرفات الناس... كذلك ميزان الأعمال في يوم القيامة، فهو ليس ميزاناً للكيلو والغرام، بل ميزان لقيمة الأعمال، خذ مثلا التصدّق على فقير بوجبة طعام واحدة من أموالك وأنت غني جدا، لنفترض أنها في الميزان الإلهي تساوي قصراً في الجنّة، ولكن التصدّق على فقير بوجبة طعام واحدة من مالك وأنت لست من الأغنياء، والمال ليس فائضاً عنك، ففي الميزان الإلهي ستساوي عشرات القصور في الجنّة. يعني ميزان الأعمال ليس آلة مصنوعة ولها شكل، بل نفس الأعمال التي قمنا بها في الدنيا، فهي "الأعمال" وبحسب مجموع قيمتها كحسنة أو كسيئة، فستتحوّل إلى ثواب حسن أو سيّئ، إلى نار... وقصور...

الذي كفر بالآيات الإلهية وباليوم الآخر، فسيحضر في يوم القيامة، والأعمال الحسنة التي قام بها ستحضر معه، ولكنها ستكون كالخيال هباءً منثوراً فاقدة للقيمة كما ورد في الآية 23 من سورة الفرقان {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}.

ضع في بالك دائماً أن العمل الحسن يبقى وصفه عملاً حسناً، والعمل السيّئ يبقى وصفه سيّئاً، فهذا مفهوم قرآني أساسي وعليه جاء كلّ الكلام الإلهي، فالمؤمن حتى ولو بالخطأ وعن غير قصد ارتكب عملاً سيّئاً، فعليه الاستغفار منه،

وسيغفره تعالى له، ويبقى العمل موصوفاً بأنه سيّئ، والكافر إذا ساعد فقيراً، فهذا عمل حسن، ولكنه فاقد للقيمة فلا أجر للكافر على هذا العمل عنده تعالى.

(ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً{106})
{ذَلِكَ}، الضلال والحبط للأعمال، {جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ}، المقابل المعادل الذي حصلوا عليه سيكون مكاناً موصوفاً بسوء ما فيه، {بِمَا كَفَرُوا}، بسبب إنكارهم للعقيدة والشريعة الإلهية، {وَاتَّخَذُوا آيَاتِي}، وبسبب جعلهم واعتبارهم الأمور المميزة المنسوبة له تعالى، واتخذوا، {رُسُلِي}، الذين وظّفتهم بنقل كلامي لهم، {هُزُوًا}، فتعاملوا معهم من خلفية الاستهانة والاستخفاف، فاعتبروهم بلا قيمة واستهانوا بهم.

الحكم الإلهي على الأعمال الحسنة للمستخفّين بآياته وآخرته هو: مجازاتهم بالاستخفاف بعملهم فيصير بلا قيمة.

ضع هذا في بالك وسترى أن الكلام الكثير الذي يقولونه عن العدل الإلهي وهم يحاولون تلميع صورته تعالى كإله رحمن عادل يعطي الكافر والمشرك والمنافق والفاسق... ثواباً على الأعمال الحسنة التي قام بها، كمحاولة منهم لتلميع صورة الإسلام في أعين غير المسلمين... مقدّرين بذلك الجهود الإنسانية لهؤلاء المخترعين للأدوية والعاملين في مجال المساعدات الإنسانية، والباذلين حياتهم وجهدهم لمساعدة الناس... فهذا الكلام عن حسن أعمالهم لم ينفه القرآن بتاتاً، ولكنه نفى الأجر الإلهي عليه، فمن فعل خيراً مع البشرية ولم يقصد بفعله نيل ثواب منه تعالى، في الآخرة فليذهب وليأخذ أجره من البشرية والإنسانية.

هناك حالة نقبل بها كلّنا وهي مشابهة لما نتحدّث عنه هنا، كلّنا كمتدينين نقبل بفكرة سقوط قيمة ثواب المرائي، من صلّى حتى يراه الناس ويقولوا عنه إنّه مؤمن، فهذا لا ثواب له على صلاته، لأنه لم يقصد بها التوجّه إليه تعالى، وقصد مدح الناس له، وبالتالي فليأخذ أجره من الناس... وكما ترى، مع أنه يصلّي إننا نقبل بفكرة حبط ثوابه على الصلاة، ونفس الشيء بالنسبة لمن ليس موحّداً مؤمناً بالآخرة ولم يسع لها سعيها، فهذا تفقد أعماله الحسنة قيمتها. الذنب ذنبه وها القرآن يقول له أن ينتبه، والآيات الإلهية منتشرة من حوله وفيه ليؤمن، ولكنه استهزأ بالإيمان به تعالى وبآياته وبأجر الآخرة... أين التقصير الإلهي؟! أين الظلم الإلهي؟ لأنه استهزأ بآياته تعالى وبرسله ولم يؤمن بأجر الآخرة، لماذا أنتم أيها المسلمون تبررون له وتحاولون تغيير كلامه تعالى الواضح الصريح بأنه لن يعطي أجراً إلا للمؤمنين به! الذنب ذنب الذي كفر مستهزئاً بآياته تعالى وبرسله، وبالتالي يستهزئ تعالى به وبعمله حتى لو أحيا الناس جميعاً.

كما تلاحظ بضبابيةٍ تعامل العديد من علماء ومثقفي المسلمين مع هذا الموضوع، وصاروا يشعرون بالإحراج من صريح ما يقوله القرآن عن حبط الأعمال الحسنة لغير المنتمين لدينه تعالى، حيث معلومٌ أنه يوجد أناس منهم سلوكياتهم أفضل من سلوكيات المنتمين لدينه تعالى، والمعلوم أيضاً أنه ليس الانتماء لدينه تعالى فقط وفقط يبقي للأعمال الحسنة قيمة في الآخرة، هناك المنافقون والفاسقون من المنتمين لدينه تعالى والذين يصل انحرافهم عن دينه تعالى إلى درجة مساواة عقابهم بالكافرين المجرمين، وكمثال صريح جداً عن ذلك ما ورد في الآية 145 من سورة النساء {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا}.

بضبابيةٍ نقيس البعض من الإنسانيين من غير المنتمين لدينه تعالى مع عموم كل المنتمين لدينه تعالى، وكأن القرآن قال إنّ كل المنتمين لدينه تعالى سيدخلون الجنّة! بينما هذا شيء منتشر بين عموم المنتمين لدينه تعالى وليس من كلامه تعالى، حيث إنّ اليهود والنصارى قالوا إنّه لن يدخل الجنّة إلا هم، وردّ القرآن عليهم صريحاً في العديد من الآيات منها الآية 111 من سورة البقرة {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، ونفس الفكرة منتشرة بيننا عن المسلم إنّه لن يخلد في النار مهما فعل لأنه مسلم، بل وبعض المسلمين يؤكدون أنهم لن يدخلوا إلى النار مهما فعلوا لأنهم من أتباع فلان وفلان من الناس... بينما القرآن مشحون بالكلام عن المعيار الإلهي المنجي من النار وهو فقط وفقط الإيمان والعمل الصالح.

نعم نواجه مشكلة فكرية ونفسية أمام حالة بعض الأشخاص من غير المنتمين لدينه تعالى ومن غير المؤمنين بآياته ورسله وكتبه، فنراهم مسالمين وحتى لو كانت أفكارهم مخالفة لكلامه تعالى تراهم يحاولون الوصول إلى سعادة كل

الإنسانية، منهم المناهضون للحروب ولاستغلال الشعوب الضعيفة... ويعملون على الحرية والعدالة والمساواة... وحرية الدين والمعتقد...

هؤلاء بعضهم يخفي إيماناً من نوع ما في باطنه، إن كان لتوحيده تعالى بذرة عندهم، فلم يكونوا مشركين، وفرضاً كانوا مبتعدين عن الكبائر "من قتل لنفس بريئة أو الموافقة على قتلها، أو الزنا، أو الفساد في الأرض من العيار الثقيل، كالترويج لحلية الربا والمخدرات..."، إن كانوا مبتعدين عن الكبائر فقد توعّدهم القرآن بالعذاب على السيئات مثلنا تماماً، ولكن لم يتوعدهم بالخلود في النار، وستحبط أعمالهم الحسنة التي ليس فيها ولا أي نية قربى له تعالى، ولنفترض أنهم لهم عمل واحد قربة له تعالى فهو كافٍ لدخولهم الجنّة ولو فيما بعد قضائهم زمناً في النار، وأيضاً هم في ذلك مثلنا تماماً.

الفرق الجوهري بين المنتمين لدينه تعالى من المقبول درجة إيمانهم وعملهم الصالح، إيمانهم متوسّط، وبين الآخرين، أن المنتمين لدينه تعالى يتوبون، حتى لو فعلوا الكبائر فهم يستغفرون منها وقد يموتون تائبين منها، وفرضاً تاب الآخرون أيضاً، في هذه الحالة نحن أمام حالة مؤمن من الدرجة المنخفضة جداً جداً ولسنا أمام كافر صافٍ بالكفر بالله تعالى وآياته.

أقول لك هذا لأنه تعالى ركّز في كلامه كثيراً وغالباً على نموذجين من أقصى الإيمان وأقصى الكفر، كعلامتين واضحٍ جداً الفرق بينهما، أمّا ما بينهما من تدرجات في الإيمان نزولاً وصولاً إلى أقل درجة كفر، فقد اختصره القرآن بسبب كثرة الاختلاف بين الحالات، وأعطانا معايير عامّة عن محاسبته تعالى لهم، وتفهمُه من كلام القرآن عن وزن الأعمال، وعمّن يعمل مثقال ذرة خيراً يره... هؤلاء وبحسب وزن أعمالهم الحسنة والسيئة تكون نتيجتهم.

أنا وأنت قبل أن نبحث عن براءة لغير المنتمين لدينه تعالى لأننا نراهم إنسانيين وفيهم صلاح أكثر من العديد من المنتمين لدينه تعالى، فلنرَ إن كنّا نحن أصلاً من الناجين، بمحاسبة أنفسنا بصدق، وعلى معيار كلامه تعالى، وليس على معيار موروثنا الديني، سترى أننا نحن بحاجة لآيات تعطينا الأمل بالنجاة من النار، فلا توزّع شهادات حسن سلوك على الآخرين رافضاً حبط أعمالهم، ربما أنت قمت وتقوم بعمل سوء من العيار الثقيل، وأعمالك حابطة بسببه، وخذ مثلاً حالة الفرعونية، والتي كررها القرآن مراراً وتكراراً بكلامه عن فرعون النبي موسى(ع)، إن لم نفهم منها أن كلامها موجّه لنا، فلسنا من المنتمين لدينه تعالى بحقّ، حيث إنّ ذاك الفرعون امتدت سلطته على جماعة كبيرة من الناس، وأنا وأنت سلطتنا ممتدة على زوجتنا وأولادنا وأهلنا والذين تحت سلطتنا والعمّال والموظفين... والزوجة سلطتها ممتدة على زوجها وأولادها والأهل... هل نتصرف بفرعونية أم بما يرضيه تعالى؟ وها القرآن أمامك لست أبالغ إن فهمت منه أن فرعون النبي موسى(ع) نموذج عن أطغى متسلط حاكم، والبقية فراعنة صغار ولهم نفس العقاب، لو امتدت سلطتهم على كثيرين لكانوا فراعنة عليهم أيضاً.

أطلت عليك حتى تنقشع الضبابية وترى بوضوح أن حرجك من حبط أعمال الإنسانيين ليس المشكلة التي يجب عليك صبّ الاهتمام بها، هل أنت أصلاً من الناجين حتى تشفق على الآخرين؟ ولتبرّر لهم ليدخلوا الجنّة معك!

ولا تنسَ أنهم الآن هم مستهترون مستهزئون بآياته تعالى وكلام رسله عن الآخرة والجنة والنار، لماذا تتبرع بالدفاع عنهم وتلوي كلامه تعالى عن حبط الأعمال لتجعل لهم أجراً! إن لم يكونوا كذلك وكان عندهم بذرة إيمان واحترام لدينه تعالى، فهم مثلهم مثل بقية المنتمين لدينه تعالى، ويتحاسبون كما نتحاسب نحن، ما فعلناه طلباً للأجر منه تعالى فسننال عليه أجراً...

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً{107})
{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا}، أعلنوا اعتقادهم بهذا الدين الإلهي، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، فقد خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، فعمليا هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادة نفسّر "عملوا الصالحات" على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إنهم صلّوا وصاموا... وهذا عمليا صحيح، ولكن بالأصل الكلام أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

وبشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموما وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائما أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به.

هذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعا ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّا لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلا سيّء" فسيكون في الحقيقة اختراعاً من البشر لصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمرا إلهيا.

{كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ}، الأماكن الموصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين وقصور... {الْفِرْدَوْسِ}، المكان الذي تتمتّع بما فيه، يسعدهم ما فيه، {نُزُلًا}، محطّاً مكاناً ينزلون به بعد رحلتهم في الحياة الدنيا.

نلاحظ القرآن دائما يقرن بين الإيمان والعمل الصالح مع بعض، والنتيجة للإثنين معا هي دخول الجنة، فلا الإيمان بدون عمل صالح ينفع، ولا العمل الصالح من دون إيمان ينفع، بل كلاهما معا ينفعان.

بالنسبة لكلمة فردوس بحسب استعمال العرب لها فهي كلمة لوصف مكان تتمتّع بما فيه، والجنة وصف لمكان موصوف بالروعة، وما قيل عن أصل كلمة فردوس بأنه فارسي أو رومي أو سرياني أو عبري... ربما يكون صحيحا، فهذه الكلمة مستعملة في كل هذه اللغات، ولكن هذا لا يعني أي شيء، فلا يعني أن القرآن قد استعمل كلمات غير عربية، ولا يحق له وصف نفسه بأنه عربي كما ورد في الآية 2 من سورة يوسف {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، فهذه سخافة يريد البعض منها التقليل من قيمة القرآن، فكل اللغات على الأرض تستعمل كلمات من لغات أخرى، وخاصة الكلمات التي تعطي معنى محددا بدقة لشيء لم يعطه أهل اللغة كلمة محددة له بدقّة، وتصير تلك الكلمة مدموجة مع لغتهم، أمّا أصلها فلا يهمّ طالما استعملها العرب.

أقول لك هذا لأن بعض الأغبياء يريدون "الإيحاء غير الصحيح" بأن القرآن استعمل كلمات أجنبية مع وجود كلمات عربية تفيد نفس المعنى، مما يجعل القرآن ضعيفا من الناحية اللغوية! ولكن إذا كان العرب في زمن النبي محمد(ع) "وقبله" قد استعملوا هذه الكلمات للدلالة على أشياء محدّدة، فماذا تريد أن يستعمل القرآن! فلو سحبت من اللغة العربية "ومن أي لغة أخرى" الكلمات المنحولة والمنقولة فماذا يبقى فيها؟ لا أحبّ أن يكون في دراستنا هنا كلام جارح عن أي أحد، ولكن بعض من تكلّم بهذا الموضوع "بغضّ النظر عن نواياهم"، فهم شديدو الغباء لدرجة لا يمكن تحمّلها، فألّفوا كتبا عن الكلمات السريانية التي استعملها القرآن، وكتبا عن الكلمات الآرامية، وكتبا ومقالات عن الكلمات الفارسية واليونانية والروميّة والنبطية والحبشية... ولم تكن دراستهم عن اللغات، بل للتقليل من القيمة اللغوية للقرآن! وكأن أحدا ما قد قال لهم أننا نؤمن بأن اللغة العربية قد جاءت من الحائط، أو من السماء، وهي لغة منفردة متفردة لم تأخذ أي شيء من أي لغة أخرى، وهكذا: فتح العرب أعينهم في لحظة من الزمن وهم يجيدون اللغة العربية! وهي ليست منحولة أو متطورة أو منقولة من أي لغة أخرى! ولم يستورد العرب ولا كلمة أجنبية من غيرهم!

ما هذه السخافة! ما هذا الغباء! ففي قديم الزمان كان أهل منطقة الشرق الأوسط يتكلمون بلهجات مختلفة وليس بلغات مختلفة، مثلما تجد الآن لهجات مختلفة من العراق إلى الخليج واليمن، ومصر وفلسطين والأردن وسوريا ولبنان... السريانية والآرامية والنبطية... نسميها الآن لغات، وقد كانت مجرّد لهجات. وخذ علما أن علماء الألسنية يقولون عن اللهجات العربية المختلفة أنها لغات مختلفة، فقد اعتبروا اللغة العربية الفصيحة مثل اللغة اللاتينية، وهكذا مثلما صارت لغات أوروبا التي من أصل لاتيني فصارت كل واحدة منها لغة "فرنسية إيطالية إسبانية..."، فهكذا اعتبروا لهجات الدول العربية لغات منفصلة.

نرجع لأولئك المعلّقين على استعمال القرآن لكلمات استوردها العرب من لغات أخرى، فماذا يتوقّعون أن يستعمل القرآن، أي كلمات؟ فقد استعمل كلمات يستعملها العرب أو مشتقة من كلمات يستعملونها، فكيف لا يكون عربيا؟

لقد ذكرت لك سابقا مشكلة وصلتنا من الروايات التي فسّرت القرآن، فبدل اعتراف البعض بجهلهم لمعاني بعض الكلمات الدقيقة التي استعملها القرآن، قاموا بنسبتها للغة أخرى، ومن سياق الآيات خمّنوا لها معنى رأوه مناسبا

للسياق... نعم لقد أكّدوا بذلك "للأغبياء المغرضين" أن القرآن استعمل كلمات غير عربية وغير مستعملة عند العرب! وقد ضيّق علينا أولئك المفسرون الباب لمعرفة المعنى الدقيق للكلمات القرآنية، لأن كلامهم عن تفسير القرآن العظيم، أعطى هالة وصف العظمة لكلامهم هم! فلم نفرّق بين القرآن العظيم وكلامهم هم العادي! فصارت المعاني "العظيمة" التي طرحوها متداولة ومنتشرة في الكتب، وغابت المعاني الحقيقية، لأن الروايات العظيمة المقدسة أقوى! فبسبب قلّة انتشار استعمال بعض الكلمات بين الناس، واستعمال القرآن لها للدقّة في التعبير، وجهل بعض مفسري القرآن بمعانيها، واختراعهم أو افتراضهم أو تخمينهم... لمعنى ما لها، أو قولهم عنها أنها أجنبية وليست عربية كتبرير لجهلهم بمعناها، وبسبب تقديس كلامهم انتشر قولهم لنتوارثه في الكتب، وانطمست أي محاولة لتقويم كلامهم المقدس... فأكثر الكتب العربية تأليفا كانت عن العلوم الإسلامية التي أشاعت تلك الروايات المفسّرة للكلمات، فكانت النتيجة: صعوبة إيجاد المعنى الأصلي للكلمات ممّن يعلمها من غير المتعاطين بالتفسير.

حسن، ما هي الكلمة العربية التي ترادف معنى كلمة فردوس "الأجنبية كما يقولون" حتى نستبدلها في الآية أيها المتذاكون؟ أقرب كلمة هي "جنّة"، وهذه الكلمة وصف للمكان الرائع، وليست وصفا للتمتّع بما فيها وهو هذا المعنى الذي تعطيه كلمة فردوس.

الآن من جديد، أخبرونا عن كلمة عربية بهذا المعنى لنضعها بدلا من الكلمة التي قلتم أنها فارسية؟ ما أسخفكم، فقد افترضتم النبي محمد(ع) جاهلا باللغة العربية وضليعا بالعديد من اللغات الأخرى! فما أسخفكم حين ادعيتم أن محمدا ألّف القرآن واستجلب كلمة دقيقة جدا جدا لوصف التمتّع بالمكان الرائع من اللغة الفارسية! محمد الأمي يستجلب كلمات دقيقة المعنى من لغات أخرى ليؤلّف القرآن! من النبطية والرومية والسريانية والفارسية... وهي كلمات دقيقة وتطابق المعنى المطلوب! كلمات غير عربية، ولم يستعملها العرب، ومعناها دقيق! يعني هو خبير غير عادي باللغات العالمية! ما أسخفكم.

ولا أدري ماذا أقول عن المسلمين الذي أسّسوا لهذا الكلام، والمسلمين الذين شايعوا هذا الكلام، فلا أتهمهم كلّهم بنواياهم، فبعضهم لا تاريخ معلوم له بالنفاق أو الفسق أو الكذب عن عمد، فهؤلاء ندعو لهم بالمغفرة، وأما الآخرون من أصحاب النوايا السيئة، والمستهترين ومحبّي الشهرة... فأمامهم الحساب.

(خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً{108})
{خَالِدِينَ فِيهَا}، لا هم يموتون ولا هي ستخرب ولن يأتي عليهم ظرف يجعلهم يخرجون من جنّات الفردوس، والأهم من ذلك كلّه:

{لَا يَبْغُونَ عَنْهَا}، لا يقومون بعمل تكون نتيجته عن الجنّة، {حِوَلًا}، تحويلا إلى مكان آخر، فهم مسرورون فيها ولا يريدون مغادرتها.

ننتبه جيّداً، فالخلود يبدو للوهلة الأولى كفكرة مرعبة، حيث يخطر ببالنا أن الملل والضجر سيصيب أهل الجنّة، ولكن القرآن في عدّة آيات نبّهنا أن نرمي هذا التصوّر من بالنا، من يدخل إلى جنّة الآخرة فهو لا يرغب في الخروج منها ولا تغييرها كما تقول الآية هنا، لأنه لن يملّ ولن يضجر أبداً، بل سيبقى في سعادة دائمة.

وهذا خبر من الإله عزّ وجلّ، وتصديقه لدرجة الأمل به يعتمد على إيماننا بأن قدراتنا الفكرية ضئيلة جداً أمام قدراته تعالى الذي يخبرنا سلفاً بأن الجنّة رائعة لدرجة تفوق تصوّرنا الآن، وأنه لا ملل ولا كلل ولا ضجر فيها، حيث في كلّ لحظة يعيش أهلها أقصى درجات السعادة.

عادةً نرى الناس لا ينتبهون لما قاله القرآن عمّا في الجنّة، ولذلك تخطر على بالهم فكرة الملل فيها، حيث في الجنّة التجدّد والتغيّر الدائم بقدرة الذي خلق السماوات والأرض، وأهلها متحابّون بأشد ما يمكن تصوّره، ويزورون بعضهم البعض، ويقيمون الحفلات... أضف إلى ذلك بقية ما تعرفه من الملذات الجسدية... وما شمله القرآن باختصار في كلمة واحدة وردت في الآية 35 من سورة ق {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}، وهو تعبير بسيط يشير إلى ضخامة روعة ما لا يمكننا فهمه الآن لو قاله القرآن لنا. وسترى من الآية التالية ما يشير إلى عظيم قدرته تعالى وضخامة ما يمكن أن يفعله سبحانه، وبالتالي وعده لنا بجنّة رائعة خالدة لا ملل فيها، هو وعد من ذي قدرات فائقة.

(قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً{109})
{قُلْ}، للناس عبر هذا القرآن حتى يفهموا لماذا لا يبغي المؤمنون عن الجنّة حولا، {لَوْ كَانَ الْبَحْرُ}، الماء الكثير جداً، {مِدَادًا}، وتكملة الجملة بالكتابة تشير لافتراض البحر يمدّ القلم بسائل للكتابة كالحبر، {لِكَلِمَاتِ رَبِّي}، للأمور التي يأمر بها المسؤول عنّي من مستوى إلهي سبحانه، ولأقواله تعالى حين يريد أن يخلق أو يفعل شيئاً ما، {لَنَفِدَ}، لانتهى بالتمام ماء البحر، {قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ}، قبل أن تنتهي بالتمام، {كَلِمَاتُ رَبِّي}، {وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ}، وأتينا ببحر آخر مشابه له في كثرة الماء، {مَدَدًا}، ليمدّ البحر الذي نفد.

يعني، لو أخذت قصبة أو ريشة أو قلماً... واستعملت ماء البحر كحبر للكتابة، وبدأت بكتابة ما قاله وسيقوله سبحانه من أوامر لخلق الكائنات ولفعل الأشياء، لانتهى ماء البحر من استعمالك له كحبر، وحتى لو جئنا ببحر آخر يعطي الماء للبحر الذي نفد منه الماء، أيضاً البحر الآخر سينفد منه الماء ولن تستطيع الانتهاء من كتابة كلمات ربّك سبحانه، لأنها كثيرة جداً جداً ولا نهاية لها.

نلاحظ ورود نفس المعنى في سورة لقمان 27، وهناك كان التعبير بالكثرة بسبعة أبحر "وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ..."، وهنا التعبير بـ{لَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} يشير إلى بحر ومثله بحر ومثله بحر... وهكذا مدداً بعد مدد، فينتهي البحر ونأتي ببحر آخر وهكذا...

يعني، وبالنظر لآخر ما تحدّثت عنه السورة من جنات الفردوس التي لن يرغب سكانها أبداً بمغادرتها، ولا بشيء آخر غيرها، لأنها دائماً رائعة، فهنا تشير الآية إلى القدرة الإلهية اللانهائية لخلق الأشياء، فالخلود في الجنّة مع أي نوع من السعادة نحن نتصوّره مُتَكَرِّراً وسيسبّب الملل في النهاية، ولكن الآيات السابقة نبّهتنا لضمانه سبحانه للمؤمنين من الآن أنهم لن يشعروا ولو للحظة بالملل أو فقدان الرغبة بالجنّة، والدليل على ذلك أنه تعالى كلماته لا يمكن الانتهاء من كتابتها ولو كانت البحار حبراً للكتابة، حيثُ دائماً سيتفاجأ أهل الجنّة بأشياء جديدة يخلقها لهم سبحانه، وبعدها أشياء جديدة.

ننتبه ولا ننسى دائماً أنه سبحانه يقول ويتكلّم ولكن ليس مباشرة منه لمخلوقاته، حيثُ فهمنا من العديد من آيات القرآن، أنه لا يمكن لأي مخلوق التواصل بشكل مباشر معه سبحانه، حتى الملائكة "المقرّبة" (ع) يوحي إليها سبحانه ولا يمكنها التواصل معه بشكل مباشر، ليس لأنه تعالى يمنع مخلوقاته من التواصل المباشر، بل لاستحالة التواصل المباشر معه تعالى من شدّة عظمته... راجع في ذلك دراسة الآية 51 من سورة الشورى "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ". إذنْ سبحانه كلماته هي أوامره وما يريده أن يحصل، وليست أحرفاً ينطقها عزّ وجلّ وتخرج من فمه، فهذا مستحيل.

نتذكّر شيئاً آخر، ما لدينا من حواس في جسدنا هو ناتج عن تصميمه تعالى لنا بجسد من طين، والملائكة يفتقدون لهذه الحواس البشرية لأن خلقتهم ليست من طين، وخذ مثلاً حواسّنا التي تتفاعل مع الأكل من تذوّق وشمّ ولون... وخذ مثلاً حاسة اللمس... الملائكة ليس لديهم هذه الحواس وبالتالي هم لا يعرفون حتى معناها، ومن هذا نفهم أنه يوجد حواسٌ عند بعض الكائنات ونحن لا نفهم معناها، بل ويوجد حواسٌ يمكن أن يخلقها تعالى فينا ولا تخطر حتى على بالنا لأننا لا نفهم معناها.

أقول لك هذا لأن التجدّد لما في الجنّة للمؤمنين ليسعدوا به، هو ليس مرتبطاً فقط بالحصول على أشياء جديدة، لأنّ كلام القرآن عمومي ويشير حتى لحواس جديدة فينا.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً{110})
{قُلْ}، عبر هذا القرآن للناس: {إِنَّمَا}، فقط وبالتحديد، {أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ}، أنا من الكائنات التي لها بشرة وأنا لا أختلف عنكم ولا بأي شيء في تكويني، {يُوحَى إِلَيَّ}، تصلني معلومات إلى وعيي منه سبحانه، وتعلم من القرآن أنها تصل عبر الملائكة(ع)، يعني لست أختلف عنكم إلا بنزول المعلومات على وعيٍ من الإله سبحانه، والتي تقول: {أَنَّمَا}،

حصراً وفقط، {إِلَهُكُمْ}، الكائن ذو الصفات والقدرات الفائقة عن المخلوقين وأنتم تابعون له، هو، {إِلَهٌ وَاحِدٌ}، فلا يوجد كائنان أو أكثر غيره تعالى بالصفات والقدرات الفائقة، ولا يوجد حتى نصف إله أو ربع إله أو كائن ما بنفحة إلهية. {فَمَنْ كَانَ}، منكم أيها الناس، {يَرْجُو}، يحب ويتوقّع، {لِقَاءَ رَبِّهِ}، أن يتواجه مع المسؤول عنه من مستوى إلهي، وتعلم أن هذا سيحصل في الحياة الآخرة حيث يجازيه تعالى، {فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا}، فليقم بالأعمال الحسنة الجيدة تاركاً الأعمال السيّئة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، عملياً ما جعله تعالى فينا من قدرة "بقلبنا السليم" من تمييز الخير من الشرّ سيتماشى مع ما يأمر به تعالى، ويصير تطبيق جملة "عملوا الصالحات" أن نترك ما حرّمه تعالى ونفعل ما أوجبه تعالى. {وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}، فلتكن عبادته لربّه الحقيقي صافية، فلا يعتبر نفسه مخلوقاً مملوكاً لغير الإله الأحد، فلا يطيع غيره، ولا يدعو ولا يصلّي ولا ينذر... لغير الله تعالى.

نلاحظ الآية تطرح أصول الدين الثلاثة: {أَنَا بَشَرٌ يُوحَى إِلَيَّ}: "النبوّة". {إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ}: "التوحيد". {يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ}: "المعاد". وتطرح الالتزام بالعمل الصالح وهو ما نسمّيه نحن: فروع الدين، مع توابعه من بقيّة التشريعات والسلوكيات. وتركّز على توحيد العبادة بكل أشكال العبادة التي يجب أن تكون فقط للإله سبحانه، على أساس أن هذه أوامر إلهية ولا يتهاون سبحانه مع الذي يستهتر بها.

تذكّر دائماً أننا كبشر قد جعل سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرّف عليه سبحانه من ملاحظة أفعاله "آياته في خلقه" ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء... وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق بالقوّة الإلهية الفائقة عند الوقوع في الشدائد... فوضعنا كلمة نصف بها الكائن ذَا الصفات والقدرات العالية جداً عن قدراتنا، وهي كلمة "إله" كوصف لذي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلّق به عند الوقوع في الورطات...

في الحقيقة الكائن الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة هو الله سبحانه، وتساهل الناس في استعمال كلمة إله لِتَنْطَبِقَ على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، فيطلقونها على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أن فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي...".

القرآن يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهي، يُقَوِّمُ اللغة ككلّ، ويقوّم دقّة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة "إله"، يخبرنا أنها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرّج في استعمالها.

المشركون الناطقون باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... استعملوا كلمة إله بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

قارنها مع كلمة "ربّ"، فأنا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... فهذه كلمة تتحمّل التدرّج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهي، فهي لا تتحمّل التدرّج، وهي حصراً له تعالى ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهي.

كلمة إله في حقيقة معناها لا تتحمّل التدرج لِيُوصَفَ بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، حين يخبرك أنه خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، حيثُ سبحانه وظّف الملائكة(ع) التي خلقها لتنفيذ بعض أوامره... وهكذا ترى بوضوح أنه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، فماذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدّد له والمميّز "الله" جلّ جلاله فعل كل شيء، فما معنى ألوهية غيره! هذا ملخّص مُبَسَّطٌ للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

ألفت انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، فحصروا استعمال كلمة إله للإله الكبير، واستعملوا للآخرين وصف الربّ، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربّة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون: إله المطر وإله الحرب... وعلى كل حال القرآن رفض توصيف غيره تعالى بالألوهية والربوبية من مستوى إلهي، لأنّ المشركين يعتقدون بوجود كائن "ربّ" مسيطر على المطر من مستوى إلهي

وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم أنه توصيف لألوهية أربابهم.

من ناحية ثانية لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، يصير الهوى إلهاً كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان "أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ..."، فهي لا تشير لاعتقاد الشخص بأن هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لدين فيه ما يهواه، عملياً هو يعبد هواه.

بالنسبة لأصل كلمة "الله" فهناك كلام كثير حولها، ويبدو من تتبّع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حالياً بالسامية... أن الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة "إله" ومنها جرى اشتقاق اسم العلم "الله"، وهذا الاسم لم يكن متداولاً في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط حيثُ للآخرين نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، إذْ كلمة إله واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات ما يسمّى بأصل اللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة الله من وصف الإله ومتى، فهل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قديماً عبر الوحي، فالأرجح عندي "استذواقاً" أنه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك "استذواقاً" لأن المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين بلا مستند صريح لتأكيد كلام ما، تصير بطبيعتها استذواقيةً لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا ذات نفسي في سياق كلام آخر أستذوق أنه تعالى هو سمّى نفسه، لذا ليس من المعقول ولا من المقبول منك أن تطلب حسماً من الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دليلاً حاسماً، ولا مقبولٌ من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنه الصحّ إلا اللهم إن قدّم دليلاً دامغاً، وهذا لا يبدو ممكناً في مسألتنا هذه.

سورة مريم (19) ص 305

ستتحدث السورة عن ثلاث حالات لوهب ولد: يحيى لزكريا، عيسى لمريم، ولإبراهيم إسحاق ويعقوب وإسماعيل... عليهم صلاة الله وسلامه. وعليه سيتمحور كلامها عن استمرارية سلسلة النبوّة بتدخّل إلهي لوهب أولاد ليكونوا أنبياء تستمر بهم سلسلة النبوّة من ذرية واحدة. وطبعاً ليس الهدف حفظ النسل بل استمرار نقل الكلام الإلهي عبرهم...

خلال كلامها نجد وهب هارون (ع) نبياً لموسى (ع) في شبه بين ذلك وبين الأنبياء الذين طلبوا أولاداً... ثم الحديث عن النبي إدريس (ع) الذي رفعه سبحانه عندما توفاه كما رفع النبي عيسى (ع) عندما رفعه وتوفاه، وكلاهما ليس لهما قبر هنا على الأرض، وهذا الكلام مرتبط مع ما قاله بعض النصارى عن ألوهية النبي عيسى (ع) وأنّ من الأدلّة على ذلك ارتفاعه... وأخيراً فقرة عن الذين قالوا إنّه تعالى له ولد، فالبشر لهم أولاد وليس سبحانه...

تعرض السورة جانباً من التاريخ المتشابه لبعض الأنبياء، والذي يعطيك صورة نمطية عنهم، حيث ترى فجاجة ووضوح شواذّ ما قاله بعضهم عن جعله تعالى ولداً لنفسه من هؤلاء الطاهرين، فهذا الكلام وبكل وضوح نشاز ولا يتماشى مع تاريخ الدين الإلهي الممتد لآلاف من السنين.

أيضاً كلام السورة المختصر الموسّع بعمقه عن السيدة مريم وابنها عليهما السلام، يؤمّن لنا صورة حقيقيةً لبعض ما جرى معهما، داحضاً بذلك الكلام الكاذب الذي يتناقله الآخرون عنهما...

أيضاً كلام القرآن عن أكثر الشخصيات قداسة عند المسيحيين يرينا ويريهم أنهم على دين إلهي ليس محصوراً بهم، وهم امتداد لما سبق، ونحن امتداد لما سبق ومن ضمنه الإيمان بكل كتبه وأنبيائه السابقين سبحانه، والنبي عيسى (ع) وأمّه الطاهرة (ع) ليسا خاصَّيْن بالمسيحيين، بل هما موقَّران ومحترمان في عينه تعالى وبالتالي في عين كل مؤمن بدينه تعالى ومن ضمنهم نحن، بل المؤمنون من المسلمين مثلهم مثل المؤمنين من المسيحيين وهم معاً أولى بالانتساب للنبي عيسى (ع) من المسيحيين المنافقين والفاسقين، وذلك جرياً على مفهوم الآية 68 من سورة آل عمران { إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ }.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(كهيعص{1})
هذه حروفٌ نتهجّاها مقطّعةً هكذا: كاف ها يا عين صاد.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوَّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض

المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف

الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

(ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا{2})
{ ذِكْرُ }، شيء يجعلك تستحضر، { رَحْمَةِ رَبِّكَ }، العناية التي يوليها المسؤول عنك من مستوى إلهي، والنموذج عن ذلك، { عَبْدَهُ زَكَرِيَّا }، والحديث عن النبي زكريا (ع) الذي هو عبد ومفروض منه وعليه طاعته سبحانه، وهو حديث يسبّب لك استحضار رحمة ربّك سبحانه في فكرك.

النبي زكريا (ع) من أنبياء بني إسرائيل، ومن المشهور أنه زوج خالة السيدة مريم (ع)، والمشهور أن الغالبية من قومه لم يؤمنوا بأنه نبي، ومن المتعارف عليه أن النبي زكريا (ع) كان يشعر بقرب زمن ولادة الرسول الذي وعدهم الله تعالى به "المسيح". ولسبب ما، كانوا في حينها يتوقّعون أن يكون الرسول سيأتي من ذريّة النبي عمران (ع)، وعندما مات النبي عمران (ع) وزوجته حامل، توقّعوا أنها حامل السيد المسيح، وبعد ذلك أنجبت السيدة مريم (ع)، وهي أنثى، وهكذا لم يعد النبي زكريا (ع) يتوقّع أن يكون الرسول الموعود من نسل "ذكور" النبي عمران (ع)، والنبي زكريا (ع) لم يكن عنده أولاد... هذا ما نعرفه من التاريخ.

مما نفهمه من القرآن أنه في وقت سابق شاهد النبي زكريا (ع) الطعام الذي نزل من السماء على السيدة مريم (ع)... وتشجّع على طلب ولد منه تعالى يكون زكيّاً طاهراً رضيّاً ينال العناية الإلهية مثل السيّدة مريم (ع)، وتقرأ ذلك في الآيتين 37 و 38 من سورة آل عمران ... { كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا }...، { هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً }... وعلى أساس أن يكون هذا الولد هو الرسول "المسيح" الذي ينتظرونه أو يكون هادياً للناس، كما نفهم من الآيتين 5 و 6 من هذه السورة { وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ }...، ولم يكن يعلم النبي زكريا (ع) أنه سبحانه سيجعل المسيح (ع) يولد من السيدة مريم (ع).

كما ترى هذا تحليل لا يبدو له أهمية سواء صحّ أو لم يكن صحيحاً، لأنّ العبرة بوهب الولد والكلام عن استجابته تعالى لتحقيق دعاء يتضمن طلباً... لنتابع القصة.

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيّاً{3})
{ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ }، توجّه النبي زكريا(ع) بكلام إلى المسؤول عنه من مستوى إلهي، { نِدَاءً خَفِيًّا }، لا يظهر، أي بصوت خافت جدّاً، مما يدل على خجله أثناء دعائه.

النداء هو عموم إصدار صوت ضعيف أو قوي نتوجّه به إلى سامع محدّد. ومن مشتقاته: يريد المنادي من السامع الالتفات للكلام، أو يعلن المنادي للسامع أنه متوجّه إليه حصراً بكلامه.

مما سيأتي ستفهم نفسيّة هذا النبي العظيم(ع)، فطوال سنين حياته لم يطلب منه سبحانه التدخّل ليرزقه ولداً، فهو راضٍ بالمشيئة الإلهية، ويتجنّب أن يبدو من دعائه أي قلّة أدب مع ربنا سبحانه، فلنتابع:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً{4})
{ قَالَ }، النبي زكريا(ع):

{ رَبِّ }، المسؤول عني من مستوى إلهي، { إِنِّي وَهَنَ }، صار فاقداً للقدرة، { الْعَظْمُ مِنِّي }، هيكلي الأساسي من جسدي فقد قدرته لأني كبيرٌ جدّاً في السن، وصارت أصابعي وظهري وقدمي ورقبتي... ليس فيها القدرة لأقوم بما كنت أقوم به سابقاً من الحركات للعمل... { وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا }، كما تمشي النار في الهشير "العشب اليابس" مشى الشيب في رأسي وصار شعر رأسي كله أبيضَ من شدة تقدمي في السنّ. ومن بعد كل هذا العمر حتى صرت شيخاً لم أدعك لأطلب منك ما سأطلبه الآن.

{ وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا }، ما أتوجه به وأعلنه لك أيها المسؤول عني من مستوى إلهي لم أفعله لأسبّب لنفسي التعاسة، لأنّ الشقي من أصابه الشقاء، وهو التعيس الذي توجّه بالدعاء لغيرك لأنه لن ينال إجابة، وأنا بتوجهي إليك أعلم أن دعائي مستجاب ولن أكون شقيّاً ولن يصيبني الشقاء من الدعاء لمن لا يسمع ولا قدرة لديه على تحقيق ما أريد.

بعبارة أخرى، النبي زكريا(ع) سيطلب ولداً من ربه سبحانه، وهو يعلم بأنه سبحانه يرى كل شيء، فلو كان هناك مصلحة بأن يكون له ولدٌ لأعطاه سبحانه، والنبي(ع) كان مقتنعاً بهذه الفكرة طوال عمره، وهنا يتحدث النبي(ع) وهو خجل مع ربه سبحانه، ولا يريد أن يبدو من دعائه أنه يقترح على ربنا سبحانه شيئاً فيه رحمة له وسبحانه لم يفعلها، ويعلم(ع) أن دعاءه سيستجاب إذا رأى سبحانه مصلحة في ذلك، ولا يريد(ع) أن يبدو مستغلاً لمكانته كمؤمن به تعالى حين يدعو، ولذلك يقول في افتتاحيّة دعائه أنه مرّ عليه العمر حتى صار على حافّة قبره ولم يطلب أن يكون له ولدٌ، ويعلن له تعالى عن إيمانه بالمنفعة من الدعاء له تعالى، لأنّ الدعاء لغيره تعالى شقاء لأنه لا يوصل للنتيجة المطلوبة.

لكن النبي زكريا(ع) يرى سبباً وجيهاً حتى يطلب منه سبحانه أن يرزقه ولداً، وهو التالي:

(وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً{5})
{ وَإِنِّي خِفْتُ }، شعرت بخطر أكيد من، { الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي }، فالموالي هم الناس الذين أنا من المفروض أني مسؤول عنهم أمامك وهم تابعون لي "دينياً"، والكلام عن بني إسرائيل وعموم اليهود، فمن ورائي أي من بعد موتي أشعر بخطر أكيد عليهم من الضلال.

بعبارة أخرى، أنا النبي الوحيد بينهم، وها صرت عجوزاً على حافّة قبري، وإذا أنا متّ، أخاف عليهم من الضلال والانحراف أكثر مما هم فيه الآن.

{ وَكَانَتِ امْرَأَتِي }، المرأة المنسوبة لي، زوجتي، { عَاقِرًا }، فيها عطل جسدي منعها من إنجاب الأولاد. أمّا كيف علم (ع) أنها هي العاقر وليس هو؟ فهناك علامات عند النساء تدل على عقرهن، فمثلاً اللواتي بدون عادة شهرية لن يحبلن.

{ فَهَبْ لِي }، أعطني من دون مقابل منّي، { مِن لَّدُنكَ }، منك من عندك أنت، هكذا هبة منك سبحانك لي، فلا مجال بالشكل الطبيعي أن يكون عندي ولد، فإذا استجبت دعائي فلا بد أن تعطيني إياه من لدنك، منك، بتدخّل منك أنت يا رب.

وهذا الولد يكون، { وَلِيًّا }، يتبع له الناس، فعملياً هو (ع) يطلب ولداً ليكون مسؤولاً دينياً عن هؤلاء الناس "الموالي" ليرشدهم الولد إلى الهدى.

(يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً{6})
وهذا الولد الولي على قومي من بعدي، أطلب منك يا رب أن تجعله:

{ يَرِثُنِي }، ينتقل إليه منّي بلا استرداد، وهنا الكلام عن الوظيفة الرسالية التي أحملها فتصير عنده، { وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ }، النبي يعقوب(ع) هو نفسه اسمه "لقبه" إسرائيل، وهو الجدّ للقوم الذين يعمل النبي زكريا(ع) على هدايتهم، والنبي زكريا(ع) من نسل النبي يعقوب(ع)، وهو (ع) من ضمن سلسلة الأنبياء الذين حملوا وظيفة النبوة، والنبي زكريا(ع) يطلب أن يرث ابنه النبوة التي يحملها هو والتي هي ممتدة منذ زمن النبي يعقوب(ع) إلى زمنه عبر الآل "عبر أقارب من نفس العائلة بالنسب".

بعبارة أخرى، هناك مسؤولية هداية آل يعقوب "بني إسرائيل"، وعلى طول التاريخ كان يحملها الأنبياء، وأنا حملتها وأطلب أن يحمل ابني ما وصلني، وهي نفسها المسؤولية التي مرّ عليها أنبياء من آل النبي يعقوب(ع)، ونفس المعنى تقريباً عندما طلب النبي موسى(ع) أن يكون أخاه مساعداً له فاستجاب تعالى له كما سيرد في السورة هنا في الآية 53 { وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا }.

{ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا }، ليكن همّه رضاك فسلوكه وكلامه يكون مقبولاً محبوباً لك، مطيعاً لك، عبداً صالحاً لك همّه إرضاءك.

ضع في بالك أن كلمة ميراث ومشتقاتها تعني: عموم انتقال الملكية "المادية أو المعنوية" بلا استرداد. فهي ليست حصراً بين حيّ وميّت، وعلى هذا المعنى يرث المؤمنون الجنّة، فتنتقل ملكيتها لهم منه تعالى بدون استرداد.

هناك كلام مذهبي طائفي حول الإرث في هذه الآية، وهو موضوع يتعلّق بفدك، وهو اسم لقطعة أرض قد سحبها الخليفة الأول من السيدة فاطمة بنت النبي محمد(ع) بعد وفاة أبيها(ع)، بحجّة أن الأنبياء لا يورثون الأموال... علماً أن ما بين أيدينا من مصادر تشير لتملّك الرسول(ع) لفدك، وأن نتاجها كان بتصرفه الشخصي، ولم أجد ولا أي إشارة تفيد بأن الخليفة الأول ظنّ أن فدك من أموال المسلمين التي تحت عناية الرسول(ع)، فكل الكلام عن الموضوع يشير لعلمه بتملك شخصي للرسول(ع) لفدك...

للأسف العصبية العمياء قد جعلت المتجادلين في هذا الموضوع بعيدين عن الإنصاف، فلا يمكن أبداً الاستدلال من القرآن على أن الأنبياء لا يرث أبناءهم أموالهم، بل بالعكس، القرآن لم يخصّص الأنبياء بأي إشارة تفيد أنهم لهم حكم بالميراث يختلف عن بقيّة الناس، فمثلهم مثل بقيّة الناس، فيرث أولادهم الأموال والأملاك، وأحياناً الحكم والولاية... هذا من جانب ما يتعلّق بالقرآن، أمّا بما يتعلّق بالرواية التي قيل إن النبي(ع) قالها، والتي تفيد بأن الأنبياء لا يورّثون أولادهم الأموال وأن ما تركوه صدقة، فحسبك شهادة الخليفة الثالث في هذه الرواية عندما جاءته السيدة عائشة وهي إحدى زوجات النبي(ع) لتطالبه بنفقتها كأرملة للرسول(ع) من بيت مال المسلمين... فأجابها بما جعلها تدعو عليه بالقتل!... فراجع هذه القصّة وهي تكفيك لتعلم إن كان الحديث عن ميراث الأنبياء صحيحاً، ولا أقصد هنا الانتصار لمذهب على آخر بالعموم، بل أقصد لفت انتباهك لتداخل الخلافات المذهبية المؤثّرة على فهم القرآن...

ها النصّ القرآني أمامك وترى فيه خطأ من كلا الطرفين في التعاطي مع تفسير القرآن.

على أي حال، الخلافات بين الجيل الأول من المسلمين ومن تلاهم من الأقدمين، لا يجب أن تكون مصدراً وسبباً للفرقة بيننا، ولكنها كذلك لأن الأمراض الفكرية والنفسية العصبية الإجرامية... كانت ولا تزال ستجد طريقها لتبرز من سبب ما أو من آخر، فحتى لو فرضاً لم تقع هذه الحادثة الخلافية أو تلك، فغيرها ستقع، فهذا هو تاريخ البشر الذي لن يتغيّر،

والمرضى فكرياً ونفسياً سيجدون دائماً ملايين الأسباب لمعاداة الآخرين والتمايز عنهم، وسيجدون مليون سبب لكرههم... وسيتعامون ولن يروا ولا سبباً واحداً للألفة! فمهما حاولت معهم لتريهم سوء ما يفعلونه من تمذهب وتفرّق وكراهية وحقد... والعقاب الإلهي الشديد المذكور صراحة في العديد من الآيات لمن جعل دينه تعالى شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون... فلن يقتنعوا معك ولا بأي شكل لأنهم مرضى.

(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً{7})
استجاب ربنا سبحانه لدعاء نبيه، مرسلا الملائكة (ع) لتوحي إليه، فنادته الملائكة (ع) ناقلة كلامه تعالى كما ورد في الآية 39 من سورة آل عمران "فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ":

{يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ}، نحمل لك خبرا سارا سيأتيك ولد، وستعيش لتراه صار غلاما وستراه يكبر وصار قريبا من مرحلة البلوغ، {اسْمُهُ يَحْيَى}، أي يعيش، {لَمْ نَجْعَلْ}، لاسم هذا الغلام، {مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا}، فهذه أول مرّة يتم استعمال هذا الاسم فيها.

لنتصور التالي: النبي زكريا(ع) يطلب أن يكون له ولد، واستجاب سبحانه لدعائه، فقال سبحانه: يَحْيَى وَلَدٌ لزكريا، أي ليخرج إلى الحياة، ليكن حيّا وَلَدٌ لزكريا.

نلاحظ أن النبيين إسحاق ويعقوب عليهما السلام أيضا جرت تسميتهما من الله تعالى، ولا ندري إن كان الاسمان متداولين من قبل، ولكن هنا أكّدت الآية أن الاسم "يحيى" يتم استعماله لأول مرّة.

من المشهور أن اللغة الآرامية كانت الشائعة بين الناس للكتابة والكلام في زمن ومحيط حياة النبي زكريا(ع)، بالإضافة للغة العبرية التي كانت بعض الكتابات اليهودية مكتوبة بها، ولا تَنْسَ أن اللغتين هما كلهجتين من نفس اللغة، حيث في ذلك الزمان كانتا قريبتين جدا من بعضهما، واللغة العربية والسريانية لم تكونا بعيدتين أبدا عنهما لا في اللفظ ولا في معاني أكثر الكلمات ولا في الكتابة، ونلاحظ أن من اعتنق المسيحية من الناس تخلّى عن اللغة اليهودية كتابة وكلاما، واعتمد الآرامية واليونانية... وليس هذا موضوعنا، وكلامنا عن الاسم "يحيى"، الذي نقلته الآيات هنا بالعربي المتعارف في زمن نزول القرآن، حيث أشرنا لمعناه من اللغة العربية علما أن الحدث وقع في لغة أخرى، ولذلك أحببت أن أذكر لك أن الاسم في اللغات الأخرى من لغات المنطقة، أيضا يحمل نفس المعنى: جعلناه حيّا، ليكن حيّا، صار حيّا. وكما كان الاسم "يحيى" يعني في اللغة التي تكلّم بها النبي زكريا(ع) فهو نفس المعنى الذي نستفيده منه في اللغة العربية.

في الكثير من مجتمعاتنا لم يعد شائعا تسمية الأولاد ربطا بحدث أو مناسبة، وصرنا شبه ملتزمين بمجموعة أسماء نرثها أو نستوردها، خُذ مثلا تسمية النبي إسحاق(ع) التي جاءت من مناسبة الضحكة التي صدرت من أمّه حين بشّروها به، وكانت التسمية من اشتقاق تلك اللغة المحكية من النبي إبراهيم(ع) لمعنى الضاحك أو الضحوك، وراجع في ذلك الآية 71 من سورة هود "وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ"، وهي في تلك اللغة كلمة مشتقّ منها كلمة إسحاق "الضحوك أو الضاحك"، وهذا الكلام متوارث في القواميس العبرية، والأوضح منه بالنسبة لنا تسمية يعقوب، الذي عقب إسحاق، أتى بعده، كما ورد أيضا في الآية 71 من سورة هود، وكما ترى أن التسمية لهما جاءت من مناسبة الحدث، وهنا تسمية النبي يحيى أيضا من مناسبة الحدث، لِيَحْيَا ولد لك...

بقي شيء، وبناء على المشهور في تراث أهل الكتاب من توقّعهم لولادة نبي موصوف بالمسيح، ولسبب أو لآخر حلّلنا توقّع النبي زكريا(ع) أن يكون المسيح ولده... نرى جانبا من سبب تسميته تعالى لولد زكريا بـ"يحيى"، حتى يعلم الجميع بأنه ليس المسيح، وهذا تحليل لما ورد في القرآن مدموجا مع المشهور في تراث أهل الكتاب.

(قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً{8})
النبي زكريا(ع) لم تسعه الفرحة، ها هو يحصل على ولد بمجرد أن طلب منه سبحانه! وَقال النبي(ع) وهو في حالة اندهاش الفرحة من استجابة دعائه:

{رَبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ}؟! كيف يكون لي ولد؟! وفي استعمال كلمة {غُلَامٍ} إشارة أن الوالد سيعيش ويرى ابنه يكبر... وَالأسباب العادية للحصول على الولد مفقودة، {وَكَانَتِ امْرَأَتِي}، زوجتي، {عَاقِرًا}، في جسدها عطل ولا تنجب، هذا من ناحيتها ومن ناحيتي، {وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا}، حَيْثُ وصلت في عمري تقدما إلى أقصى ما يمكن أن أصل إليه من تقدم العمر، بحيث "عَتَوْتُ" فأعضاء جسدي صارت ضعيفة جدا وصارت قريبة من الانهيار والموت بالشيخوخة. أَنَّى، كَيْفَ وبأي طريقة سأحصل على الولد!

لا تَسْتَوْحِ من هذا الكلام أن النبي زكريا(ع) استغرب استجابة دعائه على أساس أنه ليس متيقنا من استجابته تعالى للأدعية "الطلبات"، أو استغرب من القدرة الإلهية على منحه وَلَدًا، فإذا شعرت بذلك فأنت في بالك صورة عن الأنبياء (ع) ناقصة أو غير واقعية على الناحيتين من تنزيلك لهم عن مقامهم العالي، أو المبالغة لِمَا فَوْقَ ما هم عليه، حَيْثُ تتصوّر أن الأنبياء (ع) ترافقهم الملائكة(ع) وتحدّثهم في كل وقت... وَتتصوّر أن الأنبياء دُعَاؤُهُمْ "طلباتهم" حتما مستجاب ويتحقق فورا... وأن الأنبياء يعلمون بكل ما سيحصل معهم ومع غيرهم... وَهذه صور مبالغ فيها عن الأنبياء وليست واقعية، وَالنبي يعيش حياته العادية مثله مثل بقيّة الناس، وحين يرى سبحانه ضرورة للتدخّل في شيء يتعلّق بالدين، فعندها ينزل وَحْيٌ على النبي.

تصوّر نبيا ما إذا مرض فإنه فورا سيشفى لأنه سيدعو الله تعالى أن يشفيه! وتصوّر أنه لن يتعرّض لمشاكل مالية لأنه سيدعوه تعالى أن يرزقه وأن يوفّقه في تجارته... وَهذه أمور لم تحصل "بهذا الشكل" عادة مع الأنبياء "وهناك بعض الاستثناءات النادرة"، والفقرة هنا تنقل لَنَا حالة من الحالات العديدة التي نقلها لنا القرآن عن الأنبياء لنفهم أن علاقتهم مع ربّهم سبحانه هي علاقة عبد مع إلهه، علاقة الطامع بِرِضَا إلهه، وليست كالعلاقة مع جني الفانوس السحري الخرافي الذي تطلب منه ويحقّق ما تطلبه... وَالنبي يعلم أن دعاءه مستجاب وسيتحقق حتما إن كانت مصلحته الإيمانية لا تتعارض مع ما طلبه، وهنا إن شعرت أنك لن تقول ما قاله النبي زكريا(ع) لو كنت مكانه لأنك تؤمن بالقدرة الإلهية ولن تستغرب، فاعلم أن النبي زكريا(ع) يؤمن أكثر منك بالقدرة الإلهية، ولكنه اندهاش إعجاب من استجابة الإله لدعاء من عبد، فمن أنا زكريا وما قدري حتى يستجيب سبحانه لدعائي ويتدخّل في الطبيعة ليغيّرها ويصير عندي ولد!

(قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً{9})
أجاب أحد الملائكة(ع) الذين نزلوا على النبي زكريا(ع) وقال:

{كَذَلِكَ}، ما أخبرناك به، {قَالَ رَبُّكَ}، قال المسؤول عنك من مستوى إلهي: {هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ}، فهبة الولد شيء سهل وليس بالشيء العظيم كما تعلم. وَجوابا عن استفهامك وأنت بحالة الاندهاش، يجيبك ربّك سبحانه أن ما بشّرناك به هو سهل على ربّك سبحانه.

لاحظ نفس العبارة سترد في الآية 21 من السورة هنا نقلا من كلام الملائكة (ع) مع السيدة مريم(ع).

{وَقَدْ خَلَقْتُكَ}، ركّبتك وألّفتك يا زكريا، {مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}، فلا تندهش، حَيْثُ أَنَا ركبتك من المواد وأخرجتك إلى الحياة وكنت لا شيء، وهكذا من المواد سوف أركّب وَأُؤَلِّفُ لك ولدا.

يظهر بوضوح من الجواب أن الملائكة (ع) تماشت مع حالة النبي زكريا (ع) فلم تسخّف فرحته، تَصَوَّرْهَا أنت كفرحة والد بنجاح ولده المجتهد، فتقول له: عادي كل الْأَوْلَادِ ينجحون... ولدك أصلا كان متوقعا له النجاح ولا مفاجأة في ذلك... وَهذا تفشيل للفرحة، ولم تفعل الملائكة (ع) ذلك مع علمها بأن النبي زكريا (ع) يعلم ويؤمن بأنه تعالى يخلق بسهولة... فتماشت مع فرحته.

بقي شيء، حَيْثُ فِي الآية 39 من سورة آل عمران نجد نفس الحادثة منقولة باستعمال كلمات مختلفة عمّا ذكرته الآيات هنا، "فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ". وهذا شيء منتشر في القرآن لأنه لم يعتمد على النقل الحرفي للأحداث، ولم يعرّب حرفيا كلام المتكلمين حين نقله لنا بالعربية، بل اعتمد على ما يقصده المتكلّم فصاغ مقصده بعبارة تشير إلى ما يريد القرآن إخبارنا به مما قصده المتكلّم، وقبل ذلك لا تَنْسَ أن الجمل القرآنية المختلفة عن نفس الحادثة ليست متعارضة وليست بحاجة للتوفيق

بينها، حَيْثُ عِنْدَمَا تجمعها مع بعض تجد إِضَاءَاتٍ مختلفة على جوانب مختلفة من الحادثة في كل جملة، والكلّ على سياق واحد.

نفس الشيء تراه في نقل القرآن لأحداث يوم القيامة والعذاب في جهنّم والنعيم في الجنّة... فهي جمل تعطيك جوانب مختلفة لأمور ستحصل هناك...

نحن البشر في نقلنا للحوادث لا نعتمد على نقل الكلام حرفيا إلا إذا كان النقل حرفيا يشير فقط إلى ما قصده القائل بالضبط، وعادة ننقل ما اعتقدنا أن القائل يقصده بكلامه، طبعا مع الفارق الهائل بين نقلنا اعتمادا على ما نظنّه، وبين نقله تعالى العالم بما في أنفسنا، فيعلم ما نقصده بكلامنا، وعلى هذا الأساس يقفز القرآن عن النقل الحرفي للكلمات ليعطينا ما قصده القائل في كلامه، وَمَا يريد الإضاءة عليه بما يناسب سياق الكلام وموضوع السورة يختارهُ سبحانه من الكلمات التي ينقلها من حادثة.

ضع هذا في بالك لأننا في دراستنا هذه بيّنا أن كل فقرة مرّت في سورة ما عن نبي ما، سَبَقَ أَنْ وجدنا فقرة في سورة أخرى تتحدّث عن نفس النبي والحادثة... بيّنا أن كل فقرة منها في سورتها كانت تشير إلى شيء محدّد من تلك القصّة يتناسب مع موضوع السورة التي تنقله.

هُنَا من محاور السورة الكلام عن التدخّل الإلهي لوهب أولاد صالحين لأناس صالحين ليبقى امتداد النبوّة من ذرية بعضها من بعض... فبدأت بكلام منه تعالى موجّه للنبي زكريا(ع) ردّا على سياق الكلام بتوجّهه (ع) بالدعاء إليه سبحانه، علما أن الملائكة (ع) هي التي نقلت كلامه سبحانه، ثم عادت الآيات لتنقل الكلام عن لسان الملائكة التي كانت واسطة بينه سبحانه وبين عبده.

بالنسبة للتعبير بالخلق ولم يَكُ شيئا، سَيَأْتِيكَ في دراسة الآية 67 من هذه السورة تَوَسُّعٌ في ذلك.

(قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً{10})
قال النبي زكريا(ع)، {رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {اجْعَلْ لِي آيَةً}، شيئا مميّزا، ومن تكملة الكلام ترى أنه (ع) طلب شيئا مميزا يدلّ الآخرين أن شيئا مميزا حَصَلَ كعلامة على حصوله (ع) على الولد بأمر إلهي.

قَالَ ربنا سبحانه للملائكة(ع)، وقالت الملائكة للنبي(ع):

{آيَتُكَ}، الشيء المميّز الذي سيكون لك، {أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا}، حَيْثُ كُلَّمَا حاولت التكلم فصوتك لن يخرج وَفقط يخرج الهواء من فمك، وتبقى هكذا حتى مرور ثلاث ليال كاملة بالتمام.

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً{11})
{فَخَرَجَ}، النبي زكريا(ع)، {عَلَى قَوْمِهِ} على الناس الذين لهم كيان الجماعة، {مِنَ الْمِحْرَابِ}، من الغرفة الخاصة، وهنا الكلام عن الغرفة الخاصّة بالعبادة، ومن المتعارف عليه في ثقافة أهل الكتاب "وتراثنا الثقافي الديني المنقول عنهم" أن هذا المحراب الذي حصلت فيه الحادثة كان في المعبد اليهودي الكبير في مدينة القدس، ويقولون إن الحادثة حصلت في يوم عيد خاص عند اليهود... وعندما خرج النبي زكريا(ع) من المحراب وسلّم عليه الناس الذين كانوا هناك، ردّ عليهم السلام ولكن صوته لم يخرج! وكلما حاول الكلام لم يخرج أي صوت، فاستغربوا!

{فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ}، أَوْصَلَ (ع) لقومه معلومات بطريقة غير الكلام المسموع، بالإشارة باليدين وبوجهه... ومفاد تلك الإيحاءات: {أَنْ سَبِّحُوا}، نزّهوا ربكم سبحانه عن كل صفة ناقصة، {بُكْرَةً}، في أول الوقت، في الصباح الباكر، {وَعَشِيًّا}، في آخر الوقت آخر النهار عندما يصير الضوء خفيفا من قبيل المغرب حتى المساء، فطالما هناك نهار يتوالى في فترة نشاطكم ووعيكم فداوموا على التسبيح، وَالتَّعْبِيرُ مثلما نحن نقول عن دوام واستمرار شيء، مثلا: بقي يعمل من الصبح للمساء، بقي يدرس من الصبح للمساء...

دَرَجَ مُنْذُ زَمَنٍ المحرابُ الذي نراه الآن في المساجد كتجويف صغير في الحائط، ويقف فيه إمام المسجد للصلاة، ولكن المحراب هو عموم أي غرفة خاصة، سواء كانت تجويفا "كبيرا" في حائط أو كَانَتْ غرفة كبيرة، وسواء كانت في بيتك

أو في المسجد. ومن المتعارف عليه تاريخيا أن النبي زكريا(ع) كان في الغرفة الخاصّة للعبادة لكبار علماء اليهود في المعبد الكبير في القدس، وراجع في معنى كلمة محراب دراسة الآية 21 من سورة ص "وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ".

الْوَحْيُ هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خيرا أم شرّا، وَبِنَاءً عليه فكل أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وحيا لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وَتَرَى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ"، حَتَّى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال "إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...".

يَنْطَبِقُ فعل الوحي على أي كائن كان "إِنْسَانًا، حَيَوَانًا، مَلَكًا، أو جِنًّا" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم، وَطُرُقُ فعل الوحي وَأَنْوَاعُهُ متعددة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم "فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا". ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا"، وما ورد في الآية 193 و 194 من سورة الشعراء "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ". أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات "فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ..."، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل كما هو مشهور في تراثنا الديني. ووحي عبر إصداره تعالى صوتا في شجرة كما تقرأ فِي الآية 30 من سورة القصص "فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ"، مُضَافًا لها الآية 13 من سورة طه "وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى"، فكلامه تعالى معه(ع) وحي لأن الكلام ليس صادرا مباشرة منه تعالى فهذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، فيصير وصف الحالة أَنَّ كلامي يصلك وحيا.

هُنَاكَ وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ" ففي النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

الْوَحْيُ يصدق على وحي الخير والشر، فالشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا..." وَمَعْلُومٌ أنهم يوحون بالشرّ... فالوسوسة في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيرا أو شرا فهو وحي.

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً{12})
ننتقل في الزمن الآن إلى حيث خرج النبي يحيى(ع) إلى الحياة وصار صبيا، يعني لم يبلغ سنّ التمييز، في عامه السابع تقريبا.

أَوْحَى إليه ربنا سبحانه: {يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ}، وسياق الكلام يشير لأمر بتنفيذ ما في التوراة بقوة، وَمَنْ يفعل من الناس شيئا مخالفا للتوراة فقف في وجهه وقل له: أنت تفعل الحرام، وعليك واجب كذا...

هَذَا هو الميراث الذي تحدّث عنه النبي زكريا(ع) في دعائه حين طلب ولدا يرثه ويرث من آل يعقوب(ع)، حَيْثُ استجاب سبحانه لدعائه وها هُوَ صار الولد صبيا، وها نَحْنُ حَمَّلْنَاهُ وظيفة النبوّة وتنفيذ الرسالة فأمرناه بالتحرّك بين الناس وتنبيههم من السوء وهدايتهم للصالحات كما هو مكتوب في التوراة.

{وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ}، حَيْثُ صار حكيما وَجَعَلَهُ تعالى يرى الصوابية في الأمور وهو لا يزال، صبيا، لم يبلغ سنّ التمييز، في أجواء السبع سنين تقريبا.

كَلِمَةُ "حُكْمٍ" وصف لعموم ضبط الأمور كما هو مطلوب على الصواب، وعندما تكون صفة أو وصف فعل له تعالى فهي تحمل الناحيتين من معناها، حَيْثُ تحمل معنى صوابية الأمور التي قرّرها وفعلها تعالى فهي حقّ، وتحمل معنى الحكومة الدارج بيننا وهو معنى اشتقاقي من الحكم ويشير إلى تنفيذ ما حكم به، وَتُشِيرُ للسلطة على تنفيذ الحكم.

الْحُكْمُ على معنى الحاكمية والحكومة "السلطة"، وَأَصْلُ المعنى البتّ في الأمور بحكمة، بصوابية ضبطها على المطلوب على الحقّ، ومن مشتقات ذلك عموم أي حكومة كفرض شيء على الآخرين. ووصفه تعالى بالحكيم متضمنا "حكمه وحكومته" وَهِيَ متطابقة مع أصل معنى الكلمة، فقراراته حقّ، أمّا حكم وأحكام وحكومة الناس، فمقصود منها بالأساس أن تكون لضبط الأمور بالحق، وفي التطبيق يحصل عادة مخالفة للحقّ، وَتَكُونُ الأحكام والحكومة ظالمة، وتعابير القرآن عن ذلك منها ما ورد في الآية 47 من سورة المائدة "وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ"، وأمثالها من التعابير التي لم تغيّر في أصل معنى الكلمة، بل أبقتها على معنى ضبط الأمور على الصواب، ونبّهت أن مخالفة أوامره تعالى هي حكومة ليست على الصواب.

بِنَاءً عليه فَإِنَّ الناس بحاجة لسلطة، ومن كان حكيما فمن المفروض بين العقلاء أن تكون له السلطة، وليس بالضرورة سلطة على كل شيء كالملك أو الرئيس، لِأَنَّ واقع الحال يُشِيرُ أَنَّ شخصا واحدا لن يتمكن من إدارة كل شؤون المجتمع حتى لو كانت سلطته مطلقة، وَمِنَ البديهي توزيع المهام على أشخاص متعددين ولهم صلاحية وهامش يتخذون فيها القرارات التي يرونها مناسبة، وهم ليسوا بدرجة حكمة من افترضناه الأكثر حكمة بينهم، وهكذا نفهم أن السلطة للحكيم كافية على مستوى الإرشاد للمسؤولين.

أقول لك هذا لأن ما ورد في القرآن من أمثال آيتنا هنا والواصفة لبعض الأنبياء بإتيانه تعالى لهم الحكم، حَيْثُ احتار عدة مفسرين في معناها، إِذْ مِنَ الْمَعْلُومِ أن القليل من الأنبياء كان لهم سلطة على الناس، وَتَفْسِيرُ حكمهم بالسلطة دفع العديدين لتفسيرها كمنصب إلهي معطّل من الناس، على أساس أنه تعالى عيّنهم للحكومة "السلطة" وبقي توصيفهم بالحكم ولكنه متعطّل من رفض الناس لذلك.

آخَرُونَ من المفسرين أرجعوا كلمة حكم لمعناها الأصلي للحكمة للصوابية، وَقَالُوا إِنَّ أمثال آيتنا هنا تشير لكون الأنبياء حكماء، ولكنهم لم يدمجوا بين الصوابية وبين السلطة "الحكومة" كتطبيق عملي للصوابية كما فعلنا.

هَكَذَا ترى أن إتيانه الحكم وصف لحالة علمه ورؤيته (ع) للصوابية في الأمور، وبالتالي فهو مؤهل للسلطة أو كمرشد لأصحاب السلطة، وسواء عطّل الناس سلطته أو دعموها، فهو يبقى موصوفا برؤيته للصوابية في الأمور، وَيَبْقَى موصوفا بالحكم.

نتذكّر الآيات السابقة التي نقلت الوعد للنبي زكريا(ع) أن يعيش حتى يرى ابنه غلاما، وهنا في مرحلة الصبا وقبل أن يصير غلاما حَمَلَ الولد إرث النبوة وكان أبوه لا يزال حيا يراه.

بقي شيء، حَيْثُ نرى هُنَا صبيا صار نبيا، وفي دراسة الآية 33 من هذه السورة سنتوسّع قليلا حول هذه النقطة، وهنا سأختصر لك الكلام مشيرا إلى علمه تعالى بغيب السماوات والأرض في الدنيا والآخرة، وبناء على علمه تعالى بما سيكون عليه يَحْيَى(ع) من سلامة القلب، نبّأه تعالى منذ الصبا، ونفس الكلام عن إنطاق النبي عيسى(ع) في المهد... فلم يختارهما تعالى عشوائيا أو مزاجيا ولم يَخْتَرْكَ أو يَخْتَرْنِي، بل بعلمه تعالى بما سَيَكُونَانِ عليه من سلامة قلبيهما بدرجة عالية اعتنى بهما بشكل مميز وبدأ بالتواصل معهما منذ صغرهما. ولمزيد من التوسّع حول هذه المسألة راجع دراسة الآية 40 من سورة النمل "... قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ...".

هُنَاكَ شيء آخر نلاحظه كفرق بين الأطفال من بداية طفولتهم، حَيْثُ نُلَاحِظُ فرقا واضحا في التصرفات، وتصير أوضح كلما كبر الأطفال، إِذْ هَذَا هادئ وذاك حركي والآخر عصبي... وَمِنَ الواضح أن حرية الإرادة والاختيار مفعّلة فينا منذ الولادة، باستثناء حالات نادرة جدا لأولاد معاقين... ومن الواضح أن مختلف الأطفال تحت نفس الظروف لديهم ردود فعل مختلفة، مَجْمُوعَةٌ لا مبالية وأخرى تريد شدّ الانتباه وغيرها ضاحكة دائما...

يعني ما تقوله الآية هنا عن صبي صار نبيا يحمل الكتاب بقوّة، فهو ليس بسبب برمجته تعالى للنبي يَحْيَى(ع) غصبا عنه ليكون صالحا، بل بما رآه تعالى من صلاحه وظّفه بأخذ الكتاب بقوّة منذ صباه، لِأَنَّهُ حالة راقية متميّزة بسلامة القلب والحكمة منذ صباه.

(وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً{13})
يَحْيَى(ع)، {حَنَانًا}، تعبير عن التعامل آخِذًا بعين الاعتبار حساسية مشاعر الآخر وما يسعده، فهذا ما ناله يَحْيَى(ع) منه تعالى، {مِنْ لَدُنَّا}، منه تعالى، والوصف يصدق على ناحيتين حَيْثُ إنَّ النبي يَحْيَى (ع) خلقه تعالى هبة كحنان منه تعالى للنبي زكريا(ع)، فمن حنانه سبحانه وهب له (ع) هذا الولد بهذه الصفات الرائعة، ويتضمن ذلك أن الولد حصل على منحه الحياة وفيه صفات حسنة أيضا من حنانه تعالى. ويمكنك تقديم الأخيرة فتقول إنَّهُ تعالى من حنانه خلق يَحْيَى(ع) ومن حنانه وهبه لزكريا(ع).

{وَزَكَاةً}، حَيْثُ كان الولد بالصفات اللائقة وَلم يكن خبيثا ولا فاسدا، والوصف عمومي لِأَنَّ الولد لائق، وَهو حامل لصفات عالية، وبالتالي فهو لائق معه تعالى ومع والده الذي طلبه.

{وَكَانَ}، النبي يحيى(ع)، {تَقِيًّا}، ومن سياق الكلام نفهم أنه (ع) كان يتجنّب السيئات وترجمتها عمليا تجنّبه لمخالفة أوامره تعالى، ومن ضمنها التزامه (ع) ببرّ والديه كما سيأتي في الآية التالية.

التعبير بالحنان الإلهي هنا والذي لم يرد في القرآن إلا في هذه الآية، نفهمه مثلما نفهم التعابير القرآنية التي تنقل وصف ما نسميه نحن بالمشاعر لنا ونصفه عزّ وجلّ بها، فنفهمها مع الفارق الهائل بين تطبيقها عليه سبحانه وعلينا بتدرجات وبسحب الخصائص البشرية منها، مثل تطبيق بقية أوصافه تعالى، كوصف الحياة الذي بالنسبة للنبتة هو انفعالها وتفاعلها غير الواعي، وبالنسبة لنا يعني الفعل والانفعال الواعي، وبالنسبة له تعالى يعني الفعل فقط، لِأَنَّهُ سبحانه لا ينفعل، وَالحبّ والكره والانتقام والحنان... التي هي بالنسبة لنا مشاعر يُوصَفُ بها سبحانه مع الفارق الهائل بينه تعالى وبيننا في تطبيق الوصف، إِذْ إِنَّهَا بالنسبة لنا مشاعر ينتج عنها تصرفات... أمّا بالنسبة له تعالى فهي وصف حالة فلا تتضمّن التأثير فيه عزّ وجلّ لأن هذا مستحيل، وعمليا هِيَ لا تتضمّن تصرّفه تعالى بشكل مخالف للحكمة مثلما يمكن أن يحصل معنا...

(وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً{14})
كان النبي يحيى(ع)، برّا بوالديه، بارا واصلا لهما ولا قطيعة بينه وبينهما، ويفعل كل ما على خاطرهما، ويعمل على خدمتهما وإسعادهما. لم يكن جبارا، حيث لم يجبر العجوزين على فعل أي شيء، ولم يقهرهما ويفرض عليهما إرادته، بل بالعكس كان مطيعا لإرادتهما. لم يكن مع والديه، عصيا، ولا يعصي كلامهما، بل كان مطيعا وينفّذ ما يطلبانه منه. لاحظ شدة اهتمامه تعالى ببرّ الوالدين في عموم القرآن، حيث مرارا قرن توحيده تعالى ببرّ الوالدين.

(وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً{15})
{وَسَلَامٌ عَلَيْهِ}، من ناحيته تعالى لا يوجد أي شيء سَيِّئ يمكن أن يحصل مع النبي يحيى(ع) من {يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً}، في الزمن الذي ستتم إقامته فيه من الموت في يوم القيامة. يعني من أول لحظة في حياته(ع) وحتى مماته، ثم بعد عودته إلى الحياة في يوم القيامة في كل تلك الفترات هو (ع) في حالة سلام منه تعالى. هكذا انتهت الفقرة الأولى من السورة التي تحدثت بشكل مختصر عن النبيين زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، وليس لدينا من القرآن أي تفاصيل أخرى عن حياتهما، سوى ما جاء عن كفالة النبي زكريا(ع) للسيدة مريم(ع) في الآية 37 وما بعدها من سورة آل عمران، وكل ما نجده بين أيدينا غير ما ذكره القرآن، يرجع في أصله إلى كتب وروايات أهل الكتاب واستنسخه المسلمون مع بعض اللمسات والتعديلات... يمكنك استخلاص العبر من هذه القصّة، عن أدب الدعاء، عن نفسيّة الداعي... عن الاستجابة الإلهية... ولكن ضع في بالك أن هذه السورة ركّزت على موضوع الأولاد المميزين الذين ولدوا بتدخّل إلهي، وكانوا نموذجا راقيا من الإيمان، وكان لهم دور ديني... بقي شيء، حيث عادة يذكرون في التفاسير قصصا عن حياة النبيين زكريا(ع) ويحيى(ع)، ويقولون إن ملكا اسمه هيرودس قتل النبي يحيى(ع)... وهذا حدث قتل

لرسول إلهي ولا إشارة له في القرآن، بل لا يتماشى حدوثه مع ما فهمناه من عموم القرآن عن حماية إلهية لرسله، وإذا تتبعت القصة من مصادر متنوعة لرأيت أن الناقلين لتاريخ تلك الحقبة من المنتمين للمسيحية، وللأسف لم يكونوا ناقلين أمينين للتاريخ مثلهم مثل الجم الغفير من المسلمين المستهترين بالدقة في نقل الأحداث التاريخية، والذين يقحمون تخميناتهم بشكل تظنه حقائق!

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً{16})
{وَاذْكُرْ}، واستحضر، {فِي الْكِتَابِ}، الذي ننزله إليك وهو القرآن، اذكر السيدة، {مَرْيَمَ}، ومشهورٌ جدا أنها ابنة النبي عمران(ع) وتفهم ذلك صريحا من الآية 35 وما بعدها من سورة آل عمران {إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا...، فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ... وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ...}، فقررنا التحدّث عنها في القرآن، فاتلُ على الناس من خبرها ما أنزلناه عليك.

{إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا}، حين ابتعدت منعزلة من بين الذين تنتمي لهم، {مَكَانًا شَرْقِيًّا}، حيث انتقلت لتصير منفردة من بين أهلها إلى مكان لجهة الشرق. ستفهم من الآية التالية أنها عاشت في المعبد في مكان منعزل عن بقية الساكنين في المعبد من طلاب العلوم الدينية، وكان لجهة الشرق، حيث بنوا لها محرابا "غرفة خاصة لها"...

اختصرت لنا السورة قصة ولادتها وطفولتها، وانتقلت بنا مباشرة إلى حيث سكنت في المعبد كما هو مشهور بين الناس، وجانبٌ من قصّة ولادتها مذكورٌ في سورة آل عمران من الآية 35 وما بعدها، وسننقل منه المعنى هنا، حيث بعد عمر طويل "كما يقولون في الكتب" من زواج النبي عمران(ع) لم تحمل زوجته، وحين حملت مات زوجها(ع)، فنذرت الزوجة ما في بطنها ليكون لله تعالى، ونستعمل لذلك تعبير أن يكون في خدمة دينه تعالى وخدمة أماكن العبادة... ليدرس العلوم الدينية ويعمل على خدمة الدين الإلهي، ولكنها وَلَدَتْ أنثى "السيدة مريم(ع)"، وليس من عادة اليهود أن تخدم فتاة في المعبد، لكن سبحانه يسّر أمر دخول السيّدة مريم(ع) إلى المعبد، وتكفل النبي زكريا(ع) برعايتها، ولأنها الأنثى الوحيدة في المعبد بنى لها النبي زكريا(ع) محرابا أي غرفة خاصة لها بعيدة عن الجميع. وكما تقول الآية هنا، سكنت في المعبد في ناحية نائية منعزلة لجهة الشرق.

بقي شيء، فمن الأدبيات المميّزة التي لاحظها البعض، هو تحدّث القرآن عن السيدة مريم(ع) وذكرها بالاسم مرارا وحدها من دون ذكر أي اسم لأي أنثى أخرى في كلّ القرآن، وبالمدح لها (ع) بما يفوق مدح أي أنثى أخرى أشار لها القرآن، وخذ مثلا مدح القرآن لزوجة فرعون كما ورد في الآية 11 من سورة التحريم {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}، وهذه ليست الملاحظة المميزة الوحيدة، فالسيدة مريم (ع) شخصية تاريخية بالنسبة للنبي محمّد(ع)، ونقلوا عن أحد ما وهو من غير المسلمين، نقلوا قوله عن توقّعه حين يقرأ القرآن أن يجد فيه كلاما عن نساء النبي(ع) أو ابنته أو أقاربه... يمدحهم فيه، ويذكر اسمهم... فالمفاجأة له كانت بالتركيز الشديد على السيدة مريم(ع) بالمديح بشكل يجعل بقية إشارات القرآن في كلامه عن نساء النبي محمّد(ع) غير ملحوظة. وسواء أكان هذا النقل عن هذا الشخص صحيحا أم مخترعا، فهي ملاحظة جديرة بالتوقّف عندها. وأترك لك تحليلها والتوسّع فيها لترى أن هذا الكتاب إلهي من مصدر إلهي ولم يتداخل فيه أي شيء من الحياة الخاصّة للنبي محمّد(ع) والتي لا علاقة لها بالدين الإلهي، وأن القليل النادر بالنسبة لستة آلاف آية قرآنية، مَرَّ في بضع آيات شيء عن حياة النبي محمّد(ع) الخاصة، وكانت نماذج أشار إليها القرآن لسبب تشريعي وسلوكي... لنتعلّم منه التعامل مع المتولّين لقيادة المسلمين والشؤون الدينية.

(فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً{17})
{فَاتَّخَذَتْ}، السيدة مريم(ع) في الجهة الشرقية التي انتبذت فيها، {مِن دُونِهِمْ}، أهلها وهم الناس من بني إسرائيل وهي (ع) تنتمي إليهم، حيث كان لهم أماكن يقضون وقتهم فيها، وهي صار لها مكان منعزل عنهم، واتخذت في مكان انعزالها عن أهلها، {حِجَابًا}، شيئا يحجبها عن بقية ساكني المعبد، ونعلم من الآية 37 من سورة آل عمران أنه كان لها محرابٌ "غرفة خاصة لها" تحجبها عن بقيّة سكان وزوّار المعبد، {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا}، وفي ذلك المكان:

{فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا}، إلى السيدة مريم(ع)، {رُوحَنَا}، مخلوقنا المميّز في خلقته فهو مؤلَّف من شيء صافٍ لا إضافات فيه، وليس مركبا من مواد مختلفة، وعادة القرآن يشير إلى الملاك جبريل(ع) بوصفه بالروح، وهذا هو أيضا المشهور في التراث الديني للمسيحيين أن الملاك جبريل (ع) هو الذي تمثّل لها... {فَتَمَثَّلَ لَهَا}، حيث تشبّه الملاك أمامها بصورة، {بَشَرًا}، فرأت الملاك وكأنه رجل من البشر، {سَوِيًّا}، بالتمام بما يتناسب مع وصفه كبشري، من دون أي علامة مميزة حتى تعرف أنه من الملائكة (ع)، ورأته واقفا قبالتها في غرفتها الخاصّة التي عادة لا يدخلها أحد.

ننتبه، فتمثل لها الملاك على صورة رجل، أي ظهر لها كأنه رجل، ولكن الملاك لم يتحوّل من ملاك إلى بشري، لا، بل تمثّل وتلبّس بشكل بشري لتراه السيدة مريم(ع)، ولم تتغيّر طبيعة الملاك بل بقي كما هو روحا، فالملائكة (ع) لا تتحول لبشر ولا يمكنها أن تتحول، وبمجرد قولنا إنها تحولت لبشر فهذا يعني أنها صارت تشعر بالجوع والألم... ونعلم من لقائهم مع النبي إبراهيم(ع) أنهم بقوا فاقدين للقدرة على الأكل عندما قدّم لهم طعاما ليأكلوا، لأنهم تمثلوا ولم يتحولوا، ونرى هذا جليا في الآيتين 69 و 70 من سورة هود {قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ، فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ...}.

أقول لك هذا لأن التراث الديني الثقافي لليهود والمسيحيين مشحون بقصص عن ملائكة صاروا بشرا بالتمام، وصار لديهم رغبة وشهوة... ويعيشون بيننا... وهذا غير صحيح فهو من خيالاتهم المشابهة للكثير من الخيالات التي نجدها في رواياتنا...

نلاحظ أن تعبير: {رُوحَنَا}، يشبه تعبير: {عَبْدَنَا}، ومثلما نفهمها أنها تشير للعبد للمخلوق الذي مفروضٌ منه وعليه الطاعة، فكذلك {رُوحَنَا} تشير لمخلوق من روح نحن خلقناه، وإضافة الروح للإله سبحانه لا تعني أنه جزء أو قسم أو من روح الإله سبحانه، لا، بل تعني أنه مثلما {عَبْدَنَا} نحن خلقناه ومفروضٌ منه الطاعة، {فَرُوحَنَا} أي نحن جعلناه روحا.

بقي شيء، وكما استعمل القرآن لقب فرعون حصرا ليشير للفرعون الذي كان على عهد النبي موسى(ع)، وبناء عليه اكتفى بذكره من دون الإشارة لتحديده بذكره مع ما يشير أنه يقصد الفرعون الذي عاصره النبي موسى(ع)، فجريا على هذه العادة القرآنية نقول بأن الملاك الروح الذي تمثّل للسيدة مريم(ع) هو جبريل(ع) حيث هو نفسه ذكره القرآن بالاسم في الآية 97 من سورة البقرة كناقل للوحي للرسول محمد(ع) {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ...}، وهو نفسه وصفته الآية 193 من سورة الشعراء بأنه الروح الذي نزل بالقرآن {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ}، ولو كانت الإشارة لغيره من الملائكة الموصوفة أيضا بأنها روح، لافترضنا أن القرآن لن يترك التنبيه على ذلك. أقول نفترض لأنني لست أنا من يحدّد أهمية هذا التفصيل أو ذاك لذكره، بل افترضنا ذلك جريا على عادة القرآن التي نراها كنموذج في كلامه عن فرعون الذي عادة هو نفس الفرعون الذي مات غرقا في زمن النبي موسى(ع).

(قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً{18})
عندما رأت السيدة مريم(ع) رجلا غريبا في غرفتها المغلقة المنعزلة عن الناس، خافت أن يكون شريرا، قالت:

{إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ}، أمتنع بالذي يعتني بي لما فيه مصلحتي من تعرّضك لي بشرّ، أصير منيعة بحمايته تعالى منك، {إِن كُنتَ تَقِيًّا}، إن كنت رجلا تتجنّب غضب وعقاب الرحمان.

يعني هي تهدده بالله تعالى إن كان يفهم التهديد، فإن كنت تقيا تتقي فتتجنّب السوء، وعمليا تتجنّب عقاب ربك سبحانه على السوء، فانتبه فأنا أطلب منه الحماية حتى لا تعتدي عليّ أو تؤذيني.

هذا يعني أنه تمثّل على شكل رجل، وبغض النظر عن سنّه ففيه قابلية القدرة على الاعتداء عليها، ولذلك هدّدته بالله تعالى إن حاول الاعتداء عليها.

نلاحظ من الآيات هنا ومن الآية 45 من سورة آل عمران وما بعدها {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ...}، أن ملاكا واحدا تمثّل أمام السيدة مريم(ع) على شكل بشر، حيث إن تكملة الكلام في تلك الفقرة عاد ليصير بالمفرد في الآية 47 {قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ...}، حيث

صدر أمر إلهي للملائكة بهذه المهمّة، وتوظّف الروح بها وتمثّل على شكل بشري... وهي مثل حالة جندي قام بمهمة ما، ونوصّف الحالة بأن القائد أمر جنوده بالمهمّة ففعلوا كذا وكذا، بينما الفاعل جندي واحد.

بالنسبة للفرق بين كلام الملائكة هنا وبين كلامهم الذي نقلته سورة آل عمران عن نفس الحادثة فراجع ما ورد تحت الآية 9 من هذه السورة.

(قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً{19})
{قَالَ}، الملاك الروح:

{إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ}، أنا فقط أرسلني المسؤول عنك من مستوى إلهي، {لِأَهَبَ لَكِ}، لأعطيك من دون مقابل منك، {غُلَامًا}، ولدا ستعيشين معه لتريه قارب مرحلة البلوغ، {زَكِيًّا}، بالصفات اللائقة، ليس فيه خبث ولا فساد، فكل ما يصدر عنه فهو صالح طاهر أيضا.

(قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً{20})
بعدما تأكدت السيدة مريم(ع) أنه من الملائكة(ع) تعجّبت وقالت:

{أَنَّى}؟ كيف بأي طريقة؟ {يَكُونُ لِي غُلَامٌ}؟ {وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ}، فلحدّ الآن لم يمسّني لم يلامسني أحد من الناس "ملامسة زواج"، مثلما يتلامس الزوج والزوجة، فلم تحصل معي الأسباب المعروفة التي تسبّب الحمل، {وَلَمْ أَكُ}، ولم أكن، {بَغِيًّا}، لم أطلب فعل الحرام! فعلى كلتا الحالتين: لم يلمسني أحد لأني لست متزوّجة من أحد، ولن أدع أحدا يلمسني بالحرام، فلا من الحلال يمكن أن أحصل على الولد لأني لست متزوجة، ولا من الحرام "زنا" لأني لم أفعله، فمن أين سأحصل على الولد؟

السيدة مريم(ع) لم يخطر ببالها أن يكون حبلها بتدخّل إلهي ومخالفًا لطرق الحبل العادي.

(قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً{21})
قال الملاك (ع) للسيدة مريم (ع):
{كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ}، هكذا قال المسؤول عنك من مستوى إلهي، فمن دون أن يمسسك بشر سوف تحبلين، {هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ}، إذ هو عمل سهل لا يؤثر علي ولا يتعبني وليس صعباً... أن أجعل جنيناً في بطنك. وردت نفس العبارة من قبل في الآية التاسعة التي نقلت كلام الملائكة (ع) مع النبي زكريا (ع).
وقال سبحانه: {وَلِنَجْعَلَهُ}، ونجعل المولود بهذه الطريقة الخاصة، {آيَةً}، شيئاً مميزاً، {وَرَحْمَةً مِّنَّا}، عناية منا لما فيه مصلحة الناس، لأنه سيرشدهم إلى الهدى، ونفس المعنى متضمن في الآية مئة وسبعة من سورة الأنبياء في كلامه عن إرسال النبي محمد (ع) "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ".
حصول الأنثى "مريم" على ولد سيسبب لها مشاعر السعادة وهي من مظاهر رحمته تعالى، ولكن سياق الكلام يشير لرحمته تعالى بالناس عبر إرسال هاد لهم.
{وَكَانَ}، هذا الموضوع، {أَمْرًا}، شيئاً قررنا حصوله، {مَّقْضِيًّا}، منتهياً مقرراً بشكل نهائي وسيحصل حتماً، إذ هذا قرار من الله تعالى أن تحبلي بهذه الطريقة.
من الآية 91 من سورة الأنبياء "وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا..."، والآية 12 من سورة التحريم "وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا..."، نعلم أن الملاك (ع) نفخ في بطنها (ع) فحبلت، راجع هناك لمزيد من التفاصيل.
بقي شيء، قديماً اتهم غالبية اليهود السيدة مريم (ع) بالزنا، على أساس أنه من المستحيل أن تحبل امرأة بلا مني من رجل، وطبعاً معهم في هذا الإنكار بقية غير المنتمين لدينه تعالى من الكفار، وانضم إليهم لاحقاً فساق ومنافقو المسيحيين، وترى ذلك من إيمان الكثيرين منهم بأنه (ع) ابن يوسف النجار...
سبحانه لم يجعل هذا الحدث خبراً ليؤمن الناس به كما هو مع وجود احتمال أن تكون (ع) أقامت بالسر علاقة مع رجل، حيث فيما سيأتي من آيات سترى أن الطفل الحديث الولادة تكلم أمام جمع غفير من الناس، وهو قال لأمه بأن كلامه معهم سيكون دليلاً على براءتها، فهي من مجتمع يهودي متعصب ذكوري، وكما يقولون في كتب التاريخ إن علماء

الدين اليهود من قومها كانوا أساساً من الكارهين للسيدة مريم (ع) لأن الناس كانوا يحبونها... فلماذا لم يقتلوها رجماً بسبب تهمة الزنا كما كان دارجاً عندهم؟!
الجواب تيقنهم من كلام الطفل أنه آية إلهية، فاستيقنتها أنفسهم، ولكن جحدوها فيما بعد فلم يؤمن أكثريتهم بالنبي عيسى (ع)... وهذا موضوع آخر.
ننتقل لآخرين يعتبرون أنفسهم فطاحل ذكاء وفطنة، فقالوا إن السيدة مريم (ع) أتقنت فن الكلام بدون تحريك الشفاه، وكأن هذا شيء لدينا منه نموذج يرينا إمكانية حصوله فعلاً ليخدعنا، بينما وبحسب ما نشاهد من الممارسين لفن الكلام من دون تحريك شفاههم أنهم يسلوننا ولسنا ننخدع بهم إذ من الواضح جداً أن الكلام يصدر منهم.
لا تنس أن المشهد كان أمام جمع غفير من الناس والعديد من علماء اليهود الكارهين للسيدة مريم (ع) والذين يريدون أي حجة لقتلها، حتماً لن تمر عليهم خدعة الكلام بدون تحريك الشفاه، والتي عن قرب سيبدو واضحاً جداً أنها خدعة، وخاصة مع طفل يحرك شفتيه ويأخذ نفساً ليتكلم، ولم تصدر منه أثناء كلامه أصوات أخرى كالتي تصدر عادة من الأطفال "كالبكاء والمكاغاة..."، حيث إن ممارسي لعبة الكلام بلا شفاه يحملون لعبة من قماش بين أيديهم وليس طفلاً حياً...
ننتقل إلى زمن قريب من عصرنا حيث استطاع العلماء توليد نعجة "وربما إنسان بالسرّ" من خلية جذعية، "ستيم سل"، وهي خلايا عددها قليل بالمقارنة مع بقية خلايا الجسم ومنتشرة فيه في أماكن مختلفة، اقرأ عنها لمزيد من المعلومات، وكما يقولون فهي عدة أنواع، حيث بعضها يحمل خريطة تأليف عضو ما من جسم الإنسان، وبعضها يحمل خريطة لبناء كل جسم الإنسان.
هكذا صار المنكرون لآية ولادة النبي عيسى (ع) من دون أب، صار لهم حجة جديدة للكفر بالآية! حيث انتقلت هذه النوعية من الناس من الكفر بالآية على أساس استحالة ولادة طفل من أم بلا أب، لتسخيفها أنها حدث غير عادي ولكن يمكن أن يحصل بدون تدخل إلهي، وأنهم هم استطاعوا فعل ذلك، ومشهور بيننا النعجة التي أسموها "دولي" كأول نموذج لحيوان مخبري يتولد من خلية جذعية من الأم بدون نطفة من أب.
كما ترى، إن العقلية والنفسية الرافضة المعاندة للواضح البسيط جداً من آية عليها أدلة من آيات أخرى عديدة، حيث الأم حبلت من دون أب، وهذا الطفل تكلم في المهد، وحين كبر فعل العجائب حتى أنه أحيا بعض الموتى... ورغم ذلك ففي عصره لم يؤمن الكثيرون ممن شاهدوا بأم أعينهم هذه الآيات.
المشكلة بوضوح في المصرين على الكفر لأنهم متعلقون بسوء ما ولا يريدون تركه تحت ضغط إعلانهم الإيمان بدينه تعالى الذي يأمرهم بترك السوء الذي يحبونه، فيضحكون على أنفسهم باختراع إشكالات للمماراة بالآيات، ويسخرون من كل آياته تعالى على أساس أنها أساطير ومستحيلة، وحين يتبين أن البعض منها قابل للمحاكاة لتقليده، ينتقلون إلى محو صفة الآية عنها لأنهم هم صاروا قادرين على فعلها! إذا سألتهم عن الآية التي ستجعلهم يؤمنون لو حصلت أمامهم، فستراهم يذكرون لك ما فعلاً طلبه الناس سابقاً، وفعله تعالى، أو سيطلبون أموراً شبيهة لها جداً، وإن حصلت فهل سيؤمنون؟ لا، تاريخياً ولا واحد من هذه النوعية من الناس سيؤمن حتى لو من الصباح إلى المساء ويومياً أغرقته بالآيات مستنفداً كل ما يخطر على باله وبالك... وتقرأ هذا تصريحاً منه تعالى كخبر من الخبير في العديد من الآيات منها الآية مئة وإحدى عشرة من سورة الأنعام "وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ"، إذ المشكلة ليست بالآيات إنما بالعقلية والنفسية المتعلقة بسوء ما ولا تريد تركه.

(فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً{22})
حبلت السيدة مريم (ع)، فحملته، وانتقلت ومعها جنينها، فانتبذت، أي ابتعدت واعتزلت بولدها الذي في بطنها، {مَكَانًا قَصِيًّا}، مكاناً بعيداً جداً عن الناس. ومن الآية التالية تعلم أنها (ع) عندما رأت بطنها تكبر خافت من اتهام الناس لها بالزنا، لذا ابتعدت عنهم إلى أقصى ما يمكنها الابتعاد... ويبدو من تكملة الكلام أنها ذهبت إلى البراري.

(فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً{23})
{فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ}، أعراض الولادة جعلتها تجيء، {إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ}، إلى الاتكاء بجسدها على شجرة بلح، إذ أحست بتغيرات في جسمها تشير إلى قرب حصول الولادة، وهي تحركات وتقلصات في العضلات حول الجنين، دفعها هذا الشعور بقرب الولادة فجعلها تجيء، فجاءت إلى شجرة البلح لتسند نفسها عليها.

بالنسبة لما عبرت عنه الآية بأل التعريف {النَّخْلَةِ}، فهو لتعريف نوع الشجر الذي ينتمي إليه الجذع، مثل: النبي محمد (ع) القرشي، وعمود الكهرباء... فليس هناك نخلة معروفة مشهورة تشير إليها الآية. والتعبير بـ {أَجَاءَهَا}، يشير إلى ما دفعها لتذهب إلى الاتكاء على جذع النخلة، وهذا التصريف من المجيء ليس دارجاً في كلامنا ولكنه الأدق للوصف.

ما قيل عن ابتعادها (ع) عن منطقة الكنعانيين "فلسطين وما يجاورها" ووصولها إلى منطقة أخرى فيها نخل لأن منطقة الكنعانيين ليس فيها نخيل، حتى قيل إنها وصلت للعراق، فليس كلاماً دقيقاً، ولا داعي له لأن منطقة الكنعانيين ليست مشهورة بكثرة زراعة النخيل ولكن فيها أشجار نخيل، حيث إن أريحا في فلسطين تُلقب بـ "مدينة النخيل" منذ العصور القديمة، ومثلما العراق ليس مشهوراً بزراعة التين والزيتون ولكن فيه أشجار من هذا النوع، فالأرجح أنها ابتعدت بعيداً جداً عن قومها باتجاه مكان لا يذهبون إليه، من ضمن أرض الكنعانيين. الكلام عن تواجدها وتواجد قومها في فلسطين التي كانت من ضمن ما يسمى قديماً بأرض الكنعانيين فهو يستند لما هو مشهور جداً في كتب التاريخ ويؤيده كلام القرآن عن محراب لها (ع) في معبد، فلا نعلم معبداً مشهوراً لليهود إلا في فلسطين.

أقول لك هذا الذي يبدو لك بديهياً ولا داعي لذكره، وقلت لك مثله في البداهة في هذه الدراسة ومستدلاً عليه بآيات قرآنية بشكل قد يبدو لك من نوع الكلام البديهي بلا طائل من ذكره، لأن أحداً ما قد قال شيئاً مخالفاً، فلن تصدق ما ستجده في بعض الكتب من كلام غريب عجيب وكثير من الأحيان سخيف... عن مكان المحراب ومكان ولادة النبي عيسى (ع)... بشكل يخالف الظاهر الصريح الواضح لكلام القرآن.

{قَالَتْ يَا لَيْتَنِي}، أرغب بشيء قد فاتني ومن المستبعد حصوله الآن، {يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا}، فقدت حياتي قبل أن أحبل وألد، {وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا}، فلو مت قبل هذا لكان الناس نسوني من بعد موتي وانتهيت، أما الآن فسأصير موضوع اهتمامهم وكلامهم عني بالسوء...

السيدة الطاهرة تحسب الآن حساب ما بعد الولادة، فستضع ابنها، وستعود به إلى أهلها، وماذا ستقول لهم؟ من أين جاءت بهذا الولد وهي ليست متزوجة؟ فسيتهمونها بالزنا... ولذلك تتمنى لو أنها ماتت قبل أن تلد هذا الطفل...

(فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً{24})
{فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا}، الرضيع الذي تمنت لو أنها ماتت قبل إنجابه، ناداها متوجهاً إليها (ع) بالكلام وهو من تحتها، من أول ما خرج منها وصار على الأرض:

{أَلَّا تَحْزَنِي}، ليس هناك أي داع للشعور بالمضايقة، فلن يحصل معك أي شيء يسبب لك المضايقة من إنجابي، {قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا}، جعل المسؤول عنك من مستوى إلهي الماء تسري، أي تنتقل وتجري قرب قدميك.

نلاحظ أننا من الآية ستة وأربعين من سورة آل عمران "وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ" نعلم أن السيدة مريم (ع) كان لديها خبر بأن جنينها سيتكلم مع الناس وهو في المهد، إذ أخبرتها الملائكة (ع) مسبقاً بذلك، ولكنها (ع) لم تفهم أهمية هذا الخبر في حينها، فلم تنتبه أن كلام الرضيع أمام الناس سيكون دليلاً على التدخل الإلهي في حملها، وحينها لن يستطيعوا اتهامها بالزنا.

كلام طفلها المولود حديثاً معها سيسليها لأنه حدث غير عادي بتاتاً، ولفت انتباه الطفل لها للماء الذي نبع الآن أيضاً سيسليها حتى لا تشعر بأنها منعزلة في ورطة ولوحدها بدون عناية.

هنا الكلام القرآني من النوع الذي يجب أن تعايش فيه الحدث لتشعر بما يحصل، فنحن نستسهل ما هي (ع) فيه لأننا نعلم أنها تحت رعايته تعالى ولن يحصل لها سوء فيما بعد، أما هي (ع) فمؤمنة أنها تحت رعايته تعالى ولكنها لن تتحمل اتهام الناس لها بالزنا.

بقي شيء، حيث في بعض الكتب كلام عمن تكلم من تحتها ويقولون إنه الملاك جبريل (ع)، وكما ترى، فإن أول ما يتبادر إلى ذهنك من متكلم {مِن تَحْتِهَا} سيكون الطفل الذي ولدته، ولا تنس أن تعالى أراد تسليتها عن همها وتشجيعها بجعل الطفل يتكلم معها، ومعلوم أن الطفل سينطق فيما بعد أمام القوم... فمن البديهي هنا أن الكلام عن كلام الطفل من تحتها.

تلاحظ أن أهمية الماء تتخطى الحاجة لشربه، حيث بعد قليل سيسليها الطفل بالإشارة لهذا الماء لتشرب منه، ولكن هناك جانب آخر، إذ إن الضغط النفسي الذي شعرت به السيدة مريم (ع) قد زاد عليه الاتساخ بما يصيب المرأة من بعد

الولادة، وحاجتها لغسل مخلفات الولادة عن جسدها. ولتقريب الصورة تصور شخصاً نظيفاً على جسده وملابسه، ومتضايقاً جداً نفسياً من شيء ما، وفوقها صار يحتاج للاستحمام مما صار على جسده فجأة، ولا ماء حوله.

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً{25})
يكمل الرضيع كلامه: {وَهُزِّي إِلَيْكِ}، فبيديك رجرجي، {بِجِذْعِ النَّخْلَةِ}، ضعي يدك على بدن شجرة النخلة وهزيها فحرّكيها لترتج، وبسبب هذا الفعل، {تُسَاقِطْ عَلَيْكِ}، فيسقط ويقع من النخلة عليك، {رُطَبًا}، العديد من حبات البلح الناضج الطري، {جَنِيًّا}، تجنيه فتحصلي عليه كلما هززت النخلة، فهو مقطوف حديثاً، بتعبيرنا الدارج نقول الآن: مقطوف "طازة". ما سيسقط عليك ليس رطباً كان عالقاً على النخلة بل مباشرة من رأس النخلة تجنيه "طازة".

بالنسبة لكلمة {رُطَبًا} فهي ليست نوعاً من البلح بل وصف للبلح حين ينضج على الآخر ويصير طرياً جداً، وعادة يصير لونه أسود أو بنياً غامقاً، وقارنيه مع حصرم العنب والعنب الناضج، ومع الزيتون الأخضر الذي حين ينضج يصير أسود...

معلوم أن كل أنواع شجر النخل صلب متين جداً ولا يمكن لعدة رجال أن يهزوا جذعها حتى يتساقط ثمرها، وهنا نحن أمام مشهد فيه السيدة مريم (ع) تهز النخلة بقوة خفيفة لأنها في هذه اللحظة قد أنجبت، وقواها البدنية ضعيفة، ويتساقط ثمر النخلة! إن هذا التركيب الكلامي للجملة الذي جاءت الآية على نسقه يفيد هذا المعنى، فلم يقل الطفل (ع) لها: احملي قصبة أو عصاً طويلة واضربي الثمار حتى تسقط عليك، أو قال: راشقيها بالحجارة... ولم يقل: تناولي الرطب لأن الشجرة قزمة... فلم يقل: هزي سعف النخلة... بل قال: {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ}.

كما تلاحظ فقد حصلت أربعة أمور غير عادية لتسبب الراحة النفسية للسيدة مريم (ع)، فأولاً: تكلم الرضيع، وثانياً: نبع الماء من تحت رجليها، حيث ليست مضطرة للانتقال لشبر لتصل إلى الماء، وثالثاً: جذع النخلة الضخم الثابت في الأرض صار رخواً، ورابعاً: تساقط عليها الرطب.

تتذكر أن السيدة مريم (ع) كان ينزل عليها الرزق من السماء وهي في المحراب، ومن السهل توقعك أنها الآن سينزل عليها رزق من السماء إن جاعت، وإن كانت بحاجة للرطب فمن السهل أن ينزل عليها من السماء حاضراً أمامها كما جرى معها فيما سبق، وهذا واضح من الآية سبعة وثلاثين من سورة آل عمران "كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا"، ولكن شاءت العناية الإلهية أن تريها شيئاً يسليها، حيث بيدها الضعيفة يمكنها هز النخلة ليتساقط الرطب، فانتبه لهذا الشعور المسلي حين تقوم هي (ع) بإسقاط الثمر، مثلما الناس عادة يحبون قطف الثمر بأنفسهم عن الشجر، إذ إن هذا التخفيف للجذع إنما هو لتسلية السيدة الطاهرة من هم الاتهام بالزنا.

بقي شيء منتشر في عموم ثقافتنا الدينية، لا يبدو خطيراً لأول وهلة ولكنه قد يصل إلى مستوى الخطورة أحياناً حين تصير النصائح غير الدينية جزءاً من الدين الإلهي بدلاً من إبقائها كأدبيات لمجتمع ما، إذ إن فاكهة البلح ليست منتشرة على عموم الأرض إلا بعدما صار التنقل فيها سريعاً بالقطارات والطائرات، والمجتمعات الأخرى البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط لديها فاكهة خاصة بمناطقها بما يناسب بيئتها ومناخها، وما ذكره القرآن من فاكهة الجنة فمن البديهي أن يذكر فاكهة يعرفها المحيط الذي يصله الكلام الإلهي، وليس صحيحاً القول عنها أنها فاكهة الجنة، على معنى أن بقية الفواكه التي لا تنبت في شبه الجزيرة العربية ليست من فاكهة الجنة.

وبالتالي لا معنى لتمييزنا دينياً لفاكهة منطقة الجزيرة العربية عن فواكه بقية المناطق، مثلما لا معنى لتمييز اللغة العربية عن بقية لغات العالم، حيث تميزت اللغة العربية باستعماله تعالى لها بكلامه القرآني، وإلا فهي كلغة، ليست متميزة عن بقية اللغات ولا بأي شيء، وليست لغة أهل الجنة الحصرية، فإن كان الجدل في هذا الموضوع مستواه متدنٍ بلا أي عقلانية، فلماذا لا تكون اللغة التي تكلم بها تعالى شخصياً مع نبيه موسى (ع) هي اللغة المقدسة؟ وكما ترى ما الداعي لجعله تعالى في نبيه موسى (ع) القدرة على فهم لغة أخرى غير اللغة التي يفهمها (ع) طالما الهدف منها هو التواصل، ولغته (ع) كافية للتواصل؟ فمن البديهي أن يكلمه تعالى باللغة التي يفهمها (ع)، ونفس الشيء بوحيه تعالى لبقية الأنبياء بلغتهم، ونفس الشيء بتواصله تعالى مع نبيه العربي بالعربية.

لا الرطب مميز دينياً، ولا الرمان ولا التين ولا الزيتون... ولا اللغة العربية... وإن كانت الحامل تعاني من حساسية ما من الرطب، فيسبب لها الإسهال أو ظهور البثور على الجلد أو ارتفاع نسبة السكر في دمها وهي تعاني من ذلك... فهي ليست كافرة يرفض جسدها فاكهة مقدسة! إذ يمكنها استبدال الرطب بمغذيات يقبلها جسدها.

عامة الناس وينجرف معهم قسم كبير من العقلاء، يضخمون الأمور ويجعلون لها مستنداً دينياً وتصير من الدين، كاستحباب أكل الرطب، الذي فيه فوائد للجسد لا تحصى ولا تعد، وأن على أكله ثواباً... وكأن أكل الموز والتفاح والكيوي والمنغا... عليها عقاب؟ أو ليس عليها ثواب؟ أو ليست مستحبة؟ أو ليست مفيدة للجسد؟

هذا الموضوع ليس دينياً، وليس البحث عنه من اختصاص كتب الدين، بل هو مجال المتخصصين بالتغذية مضافاً إليهم ما ورثنا فوائده ومضاره وأثبتته التجربة، ولا ننتقل لمتخصصي التغذية لنقدس كلامهم كما كنا نقدس تراثنا الشعبي "الديني"، فلا تقديس إلا لكلامه تعالى، وبقية كلام كل المخلوقات محط دراسة وتدقيق، إلا كلام الرسل فيما نقلوه عنه تعالى أو اشتقوه من كلامه تعالى وأمضاه سبحانه بلا تدخل لتصحيحه لأنه متوافق مع أساسيات دينه تعالى، ووصلنا ونحن متأكدون من صدوره من الرسل، فهذا على الرأس والعين. أما كلام الرسل عن عادات من زمنهم في الأكل والملبس والكلام والعطر والحنة والاكتحال... فهي عادات زمانهم المعلوم تغيرها بين نبي وآخر، وللأسف خلط المنتمون لدينه تعالى عادات قديسهم بدينه تعالى! حيث صرت ترى عادات "دينية" عند اليهود موروثة من عادات نبي ما، ومختلفة عن عادات المسيحيين "الدينية" والمختلفة عن عادات المسلمين الدينية. وخذ مثلاً عن ذلك موروث اليهود عن عادات أنبيائهم برخي سالف الشعر قرب الأذنين، وفتح القميص ورخي ربطاته... فهذه أمور فعلها بعض أنبيائهم، ونحن نوقر كل أنبيائه تعالى، ولكن نعتبر قدسية خاصة لعادات النبي محمد (ع)، ونعتبره شذاذاً إن مسلماً قلد في لباسه وقصة شعره نبياً من أنبياء بني إسرائيل!

كما ترى، فقد صار لدينا تقديس لشيء يسمونه "سنة" النبي محمد (ع) بتقليده بما فعله من عادات في قصة شعره ولباسه وعطره وطريقة أكله... كانت مناسبة لزمانه (ع)، وبعضنا يعتبر تقليده (ع) بتلك العادات واجباً! أو يعتبرونه على الأقل كعلامة على الإيمان العالي!

من هذه الترهات التي صارت دينية صرنا سخرية للآخرين بعرضنا على الناس التزامهم ببعض العادات من الزمن القديم، كالأكل باليدين بلا ملاعق، ولحس الأصابع بعد الأكل، والحنة الحمراء كصبغة لشعر الرجال وذقونهم...

(فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً{26})

{فَكُلِي}، من الرطب الذي يسقط عليك، {وَاشْرَبِي}، من الماء الذي يجري تحتك، {وَقَرِّي عَيْنًا}، فتثبت عينك على ما أنت فيه ولا ترغبي بشيء آخر، اهنئي بما حصلت عليه.

{فَإِمَّا}، فإذا حصل و، {تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا}، فيصبح لديك صورة محددة، كما نقول بالعامية: "بتشوفي"، أي واحداً من الكائنات الذين لهم بشرة، من الناس، وطبعاً سيسألك من أين لك هذا الولد؟ {فَقُولِي}، بالإشارة بيديك: {إِنِّي نَذَرْتُ}، أوجبت على نفسي، {لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا}، توقفاً عن شيء، {فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا}، فأي واحد من الإنس فلن أكلمه، بمعنى أن تشيري للآخرين أنك صائمة عن الكلام.

لا تصومي الآن عن الكلام، بل قولي نذرك للصوم عن الكلام أول ما تقع عينك على أحد من البشر. بعد قليل سترى أن السيدة مريم (ع) أشارت للناس أنها صائمة عن الكلام، ولكنها أشارت للناس أن يوجهوا الكلام إلى الطفل، لأنه قبل الحمل وكما علمنا من الآية ستة وأربعين من سورة آل عمران "وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا..."، فإن الملائكة (ع) أخبرتها أنه وهو في المهد سيكلم الناس، والآن هو (ع) يحدثها مباشرة بعد ولادته، فلا تنس ذلك.

نلاحظ استعمال السيدة مريم (ع) لكلمة "الرحمن" عندما تحدثت مع الملاك (ع)، ونلاحظ هنا أن ابنها (ع) يستعمل كلمة "الرحمن"، حيث يبدو أنه من شدة احترامهم لربنا سبحانه كان دارجاً في الثقافة الدينية في حينها مناداته تعالى بصفته "الرحمن" بدلاً من اسمه "الله" عز وجل.

نلاحظ ورود الصوم عن الكلام مرتين في هذه السورة، في حالة النبي زكريا (ع) وهنا في حالة السيدة مريم (ع)، وفي القرآن لم يرد عن أشخاص آخرين هذا النوع من الصوم عن الكلام، فلا تخلط بين نذر الصوم عن الكلام وبين وجوب الصوم عن الطعام "في شهر رمضان"، إذ إن الكلام هنا في السورة عن صوم نذر، ومعلوم عمومية إمكانية نذر أي شيء له قيمة مادية أو معنوية، ونذر الصوم عن الكلام ليس مشهوراً في تراثنا الديني، ولا الكلام عنه منتشر بكثرة في كتب أهل الكتاب.

بالنسبة لكلمة {فَقُولِي} التي شملت هنا إيصال المعنى بالإشارة، فقد استعملها القرآن لعامة إيصال المعنى بأي طريقة، فالله سبحانه يقول... ونحن نعلم أنه تعالى لا يصدر عنه الصوت مباشرة فهذا مستحيل، ويقول سبحانه لأنبيائه، ونعلم أن المعاني تصلهم عبر الملائكة (ع)، وتقول الملائكة (ع) للأنبياء وحياً، ونعلم أنها تضع المعاني في وعيهم... وهنا إشارات السيدة (ع) اعتبرتها الآية قولاً، فالقول هو أي معنى يصل إلى الآخرين وبأي طريقة كانت. وهنا كتطبيق يكفي أن تضع السيدة مريم (ع) يدها على فمها وتشير إلى السماء ليفهم من يراها أنها في حالة صوم عن الكلام من نذر نذرته له تعالى.

الرائج بين العديد من المسيحيين أن شاباً اسمه يوسف النجار قد رافق السيدة مريم (ع) في رحلتها، وأنها أنجبت النبي عيسى (ع) في حظيرة للأغنام في بلدة الناصرة... وهذه الروايات تشبه ما وصلنا من روايات عن يهود أسلموا في الزمن الأول من عهد النبي محمد (ع) وما بعده بقليل، فيمكننا أن نفهم عندما تحدث هؤلاء "اليهود الذين أسلموا" عن أمور "مكتوبة" في كتب اليهود، وبغض النظر عن صحتها، وبغض النظر عن دقتهم في النقل، ولكني لم أفهم كيف يتحدثون عن النبي عيسى (ع) بتفاصيل جرت مع أمه ومعه! بينما لا يوجد أي اهتمام في التراث اليهودي بهاتين الشخصيتين سوى اتهام السيدة مريم (ع) بالزنا، وأن ابنها كان دجالاً! فمن أين يتحدث يهودي أسلم بتفاصيل حياة شخصين كان منكراً لقدسيتهما سابقاً! فلو كان مسيحياً لاستوعبنا حالته! من الواضح أن هؤلاء الرواة "اليهود سابقاً" كانوا يسمحون لأنفسهم بالاستنتاج والاستنباط وتقريب المعلومات، وتحويل الاحتمالات إلى وقائع، ورووها للناس على أساس أنها وقائع حدثت فعلاً! ومن أبسط الأمثلة ما تراه هنا أن الطفل تكلم مع أمه بينما تجد في روايتهم أن الملاك قد تكلم معها! وأن حملها من أوله لآخره كان في ساعة واحدة! أو يوم واحد!

الرائج حالياً بين العديد من عوام المسيحيين يخالف بعض ما يقوله القرآن، كالكلام هنا الذي يشير بوضوح أنها (ع) كانت وحدها وليس معها أحد، لأنهم حصلوا على المعلومات من أناس ليس عندهم أي مشكلة في اختراع القصص، ونفس الشيء قد حصل معنا، فلدينا فيما يسمونه بالروايات الكثير من التخريفات والاختراعات والأوهام... التي صارت جزءاً من ثقافتنا الإسلامية "في العقيدة والشريعة والسلوكيات"، فلا تلومن المسيحيين على ما وصلوا إليه ونحن أحدث عهداً منهم بخمسمئة عام تقريباً، ولدينا كتاب إلهي كمستند خالٍ من التحريف، ورغم ذلك لم ننجُ مما وقعوا فيه من القصص المحورة المزيفة، إذ إن أحد مصادرنا عن السيدة مريم (ع) يهودي أسلم، وقبل ذلك بقليل كان يعتقد أن السيدة مريم (ع) زانية! فإذا به يروي لنا تفاصيل دقيقة عن حياتها وقد حصل فيها عجائب وغرائب من تدخلات إلهية! وقبل قليل أصلاً لم يكن يؤمن بطهارتها (ع) ولا بنبوة ابنها (ع)!

(فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً{27})
{فَأَتَتْ بِهِ}، بالطفل إلى {قَوْمِهَا}، إلى الناس الذين تنتسب لجمعتهم، فدخلت إلى القرية وهي {تَحْمِلُهُ}، وطفلها بين ذراعيها أو في قماط مربوط بأكتافها...

{قَالُوا}، الذين شاهدوها من قومها: {لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا}! إن قلت إنه ابنك من زواج فهذه فرية واضحة لا جدال فيها، فهذه معلومة تلفيقية لا أساس لها، إذ أنت لست متزوجة ومن الأكيد أن هذا الطفل جاء من علاقة غير شرعية.

(يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً{28})
تكمل السورة نقل نماذج من كلام القوم الهجومي معها (ع):

يا أخت النبي هارون، حيث إن اسم مريم كان مشهورا لأخت النبيَّيْنِ موسى وهارون عليهما السلام، وكانت مريم تلك مرافقة دائمة لأخيها هارون(ع) كما هو مشهور في التراث اليهودي، وتجد في التوراة تسمية الناس لها في زمنها بالنبية لشدة تقواها، وهنا الناس يسخرون من السيدة مريم(ع) التي اسمها مثل اسم تلك المرأة، وكلتاهما اسمها: مريم بنت عمران... واخترنا تفسير الكلام هنا بتشبيههم لها (ع) بتلك المرأة، لأنه مما هو مشهور جدا من التاريخ ويدعمه كلام القرآن عن امرأة النبي عمران (ع) حين كانت حاملا وظنّت أنها تحمل ذكرا... حيث إن السيدة مريم(ع) ليس لديها إخوة، وليس لها أخ اسمه هارون.

يسخرون منها وينادونها: يا مريم ابنة عمران أخت هارون، يا طاهرة يا عفيفة...

{مَا كَانَ أَبُوكِ}، النبي عمران(ع)، {امْرَأَ سَوْءٍ}، لم يكن رجلا سيئا، بل كان رجلا صالحا وكان من المفروض بك أن تتأثري به ولا ترتكبي السوء.

{وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا}، أمّك لم تقم بعمل تطلب به السوء، بل كانت امرأة صالحة عفيفة! فبمن تشبّهت وتأثرت حتى ارتكبت الزنا؟!

(فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً{29})
{فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ}، وجّهت إصبعها أو يدها نحو الطفل أو أومأت برأسها إلى الطفل، مما سبق نفهم رفضها الكلام وأشارت لهم أنها صائمة عن الكلام، وبما أنها(ع) سبق وتحدّث معها وليدها، وهي تعلم بأنه سيتحدّث مع الناس، حيث أخبرتها الملائكة (ع) بذلك كما عرفنا من الآية 46 من سورة آل عمران، والطفل أيضا أخبرها ألا تتكلّم مع الناس...

أشارت إلى ابنها أن كلموه هو.

نتصوّر أنهم اجتمعوا بكثرة حولها وهم مستغربون، و{قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا}! كيف نكلم صبيا حالته مثل حالة مَن لم يتمكّن بعد من المشي بل هو لا يستطيع الجلوس لأنه لا يزال في حالة الأطفال الذين نضعهم في المهد في أرضية مهيأة للنوم أو للبقاء فيها، وهنا المقصود في أصغر سرير يوضع فيه الرضيع، وهو في فترة الطفولة المبكرة جدا وقبل أن يكون هناك احتمال لنطقه بشكل طبيعي، فكيف نتكلم معه؟

تلاحظ في بعض الأحداث التي نقلها القرآن جريانها وصولا إلى حالة حصول جمهور كبير، كحادثة تحدّي النبي موسى(ع) للسحرة في يوم الزينة، وحادثة اشتراك مدينة النبي إبراهيم(ع) بإحراقه، وهنا تجمهر الناس حول الفتاة التي اشتهرت بطهارتها...

(قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً{30})
تحدّث الطفل(ع) مدافعا عن أمه الطاهرة(ع) وقال:
{إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ}، أنا مخلوق مفروض منّي وعليّ طاعة الله تعالى. {آتَانِيَ الْكِتَابَ}، ومعلوم أنه الإنجيل وهو الرسالة الإلهية لأنقلها للناس. {وَجَعَلَنِي نَبِيًّا}، وحدّدني كشخص يصله النبأ، فيصلني خبر غير منتشر علمه بين الناس لأنقله منه تعالى لهدايتهم.
بهذه الجمل، يكون الطفل بيّن أن أمّه طاهرة، حيث ولدت نبيا ومعه كتاب، فهذا الطفل الناطق لا بد أنه ولد عن طريق المعجزة وأمّه السيدة مريم(ع) بالتأكيد لم تقم بأي سوء.
سيأتيك في الآية 33 توسّع في الكلام عن معنى جعله تعالى لعيسى(ع) نبيا منذ طفولته.

(وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً{31})
{وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ}، كيفما تحركت فأنا مبارك، عملي حسن لدرجة الممتاز وليس فيه أي شرّ بل كلّه خير. إن كنت بين من يعرفني أو بين غرباء أو لوحدي، فدائما أقوم بأعمال يرضى عنها تعالى.
{وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ}، صار التوجّه نحوه تعالى بالعبادة أمرا مطلوبا منّي الالتزام به، وكلمة صلاة عادة تشير للمصطلح الديني عن الكلمات والحركات التي نقوم بها في أوقات محددة من اليوم لعبادته تعالى، وكان اليهود لهم صلاة مشابهة تماما لصلاتنا نحن المسلمين وفي نفس الأوقات، وبعضهم يوجب صلاة ما بعد منتصف الليل، وكلامه (ع) هنا يشير إلى الصلاة الواجبة خمس مرات يوميا...

وما هو دارج حاليا بين الغالبية الساحقة من المسيحيين من الاكتفاء بجملة كلام قصيرة يعتبرونها الصلاة الواجبة، إنما هو مسخ للصلاة المعلومة المشهور وجوبها عليهم كصلاتنا...
{وَأَوْصَانِي بِالزَّكَاةِ}، وهذه الكلمة مصطلح ديني يشير "للضريبة" الدينية المحدّدة التي ندفعها من أموالنا وأملاكنا...
{مَا دُمْتُ حَيًّا}، طوال عمري سأعبده تعالى وأزكّي.
كلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، حيث تشير لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكية، مال زاكٍ، طعام زاكٍ..."، ومنذ القدم صارت مصطلحا دينيا يشير إلى دفع نسبة محدّدة من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ...}، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، يدفع منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة {...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...}، حيث تكون نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.
دَرَجَ في غالبية كتب تفاسير القرآن اعتمادهم على فكرة وجوب الزكاة على المسلمين بعد هجرة النبي محمّد(ع) إلى يثرب "المدينة"، وقالوا إنها قبل ذلك لم تكن واجبة، وبناء عليه فسّروا القرآن النازل قبل الهجرة والذي فيه كلام عن الزكاة والصدقة والإنفاق... فسّروه بأنه لا يشير للزكاة الواجبة. كلامهم هذا غير صحيح، فالسرقة جاء حكمها في القرآن بعد الهجرة فهل كانت حلالا قبل الهجرة؟!
إذن، هذا الدين الإلهي بامتداده التاريخي لم يعرض علينا عبر القرآن تشريعات جديدة، بل أعاد علينا ذكر تشريعاته سبحانه، وترى الزكاة واجبة من عهد النبي عيسى(ع) وقبلها كانت واجبة من عهد النبي موسى(ع).

(وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً{32})
وجعلني سبحانه، {بَرًّا بِوَالِدَتِي}، لا أعقّها، لا أقاطعها بل دائما أحافظ على صلتي معها بالأعمال الجيّدة، أطيعها وأخدمها وأحسن إليها... {وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا}، لا أقهرها ولا أَسْتَقْوِي عليها، ولا أجبرها على شيء ما، ولا أفرض عليها إرادتي، فلست جبارا لا على أمي ولا على غيرها من الناس.

ولم يجعلني {شَقِيًّا}، لا أفعل الأشياء التي تسبب تعاستي أو تعاسة الآخرين.

للمرة الثانية في هذه السورة ترى أهمية برّ الوالدين في دينه تعالى، حيث في الآية 14 وهنا ترى اختياره تعالى لبرّ الوالدين كميزة وسمة لاصقة بالمؤمنين من الدرجة العالية، وتكرر لصق القرآن للتوحيد كنموذج عن الإيمان مع برّ الوالدين كأبرز نموذج عن عمل الصالحات وكمثل عن ذلك الآية 36 من سورة النساء {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...}.

(وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً{33})
{وَالسَّلَامُ عَلَيَّ}، من الله تعالى لن يحصل معي أي شيء سيئ، {يَوْمَ وُلِدْتُ}، من أول ما خرجت إلى هذه الحياة بالولادة من أمّي، و{السَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ أَمُوتُ}، في الزمن الذي أخرج فيه من هذه الحياة وأيضا لن يصيبني أي سوء منه تعالى، {وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}، وفي الزمن الذي يعيدني فيه تعالى لأصير حيا من جديد، وهذا سيحصل في يوم القيامة، وأيضا سأكون بسلام ولن يحصل معي أي سوء.
تصوَّرْ لو هذا التوصيف لمراحل حياة كافر، فالتعاسة والشؤم عليه يوم ولد لأنه سيبدأ بفعل السيئات، والشؤم عليه يوم يموت لأنه فارق الحياة حاملا آثامه، والشؤم والتعاسة عليه يوم يبعث حيا لأنه سيُحاسَب أشد الحساب ومصيره إلى جهنم.
بقي شيء نطرحه بكلام بسيط: لماذا لم يخترني سبحانه أنا لأكون من المهد ناطقا ونبيا... حيث من عموم القرآن نفهم أنه تعالى لم يميّز أي أحد من الناس عن أحد إلا بالتقوى، وأن الفرص كلّها متساوية أمام عموم خلقه سبحانه وبحسب ما أتاحه لهم سبحانه من قدرات وصفات إنسانية، فلا حظوظ فيما يتعلّق بالإيمان لأن كل الناس فيهم قابلية الوصول لأعلى درجات الإيمان بما يناسب قدراتهم العقلية، ونفهم من القرآن أنه سبحانه لا يعقد أي اتفاقات جانبية مع أحد، ولا يكسر سننه في التعامل مع الناس ليميّز أحدا ما بشيء عن الآخرين إلا بما يستحقّه كل واحد من تقواه أو عمله... وهذا الطفل، لماذا منحه تعالى وعيا أكبر من عمره وجعله نبيا وهو لم يدخل بعد إلى بلاءات الحياة ليستحقّ النبوّة عن جدارة إيمانه؟ ونفس السؤال مطروح على حالة النبي يحيى(ع)؟

نفهم من القرآن أنه تعالى في حالات عديدة تعامل معنا بما يعلمه سلفا أنه سيحصل، خذ مثلا عنايته تعالى بالطفل موسى(ع)... سلفا كان يعلم سبحانه ما سيصير عليه هذا الطفل من إيمان عالٍ فاعتنى به... وقبل أن يولد كان يعلم سبحانه كل تفاصيل مسار حياته وأنه سيكون مؤمنا صالحا... وأصلا من أوّل ما قرّر سبحانه خلق ما في الدنيا علم بكل تفاصيلها... وعلم بأن هذا الكائن "موسى (ع)" سيكون مؤمنا صالحا...

نفس الشيء في تعامله المميّز سبحانه مع النبي عيسى(ع)، حيث لم يختره تعالى عشوائيا ليعتني به ويجعله نبيا، لا، بل اعتمادا على ما يعلمه تعالى مسبقا عن هذا المخلوق، قرّب سبحانه الميّزات التي يحصل عليها المؤمنون الصالحون ومنحها له (ع) من طفولته. وفرضاً لم تكن هناك ظروف تستدعي ولادته (ع) من دون أب، وفرضاً لم تكن هناك ظروف تستدعي نطقه منذ الطفولة، فهو (ع) كان سيكبر كأي طفل عادي، مع تميّزه منذ طفولته بأفكاره وتصرفاته التي تستند إلى قلبه السليم، وسيكون من أرقى المؤمنين.

هذا الكلام يأخذنا إلى الكلام عن الوعي المحدود لاتخاذ القرارات منذ طفولتنا، وأنه على مقياس مصغّر من وعينا لاتخاذ القرارات في أمور ذات أهمية أكبر عندما نكبر. بعبارة أبسط، يمكن للطفل أن يكون بريئا في طفولته، وعادة الأطفال هم كذلك في الكثير من تصرفاتهم، ويمكن للطفل أن يبدأ باتخاذ قرارات سيئة منذ طفولته، طبعا في أمور على مقياس الطفولة...

لن أطيل عليك أكثر وأحيلك إلى الدراسات الكثيرة التي تحدّد مستوى وعي الأطفال لترى أنهم نسخة مصغّرة عن الكبار في تصرفاتهم ضمن بيئتهم الطفولية، إذ يعتدون على بعضهم أو يكسرون أغراض الآخرين... أو يقدمون ألعابهم للآخرين... على كلّ حال هذا الكلام ليس من صلب تفسير الآيات هنا ولكنه يلفت انتباهك إلى تميّز الأطفال على المقياس السلوكي بشكل مشابه للكبار، وهكذا ترى الفرق بين أي نبي حين كان طفلا بسلوكياته المحافظة على القلب السليم، وبين أي طفل آخر...

هذا لا يعني أن كلّ المجرمين منذ طفولتهم كانوا مجرمين، لا، بل قلناه لنفهم تميّز الطفل عيسى(ع) عني وعنك حين كنّا أطفالا، حيث إن سبحانه لم يميّزه مزاجيا، بل هو (ع) كان مميزا، وبعلمه تعالى بما سيكون عليه من تميّز بقلبه السليم حين يكبر، لذلك عامله تعالى مسبقا بعناية مختلفة حين كان طفلا.

ستقول بشكل ضبابي إن النبي عيسى(ع) جرى خلقه بطريقة مميزة مختلفة عن خلقي، فهذا تميّز له لم يحصل معي، ومن هذا التميّز في الخلقة حصل على تميّز إيماني. لا، صحيح أنه (ع) تميّز في طريقة خلقه، حيث لم تكن عادية كحالتك وحالتي، ولكنها لا تعني أي شيء، إذ هو مخلوق طيني مثلي ومثلك، بالتمام والكمال، وفقط طريقة خلقه مختلفة، والقدرات التي منحها تعالى له ليست نابعة من طريقة خلقه، بل منحة منه تعالى لأسباب حكيمة، عبر تأييده بروح القدس كما يبدو من الآية 110 من سورة المائدة {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي...}.

هل أتوقّع أنا أن أكون مثله(ع) لو ولدتني أمي بدون أب؟ أو هل سأصير مؤمنا أكثر لو تأيّدت بروح القدس أحيي الموتى وأشفي المرضى...؟ لا، وترى هذا الجواب بالنفي واضحا من لسان النبي سليمان(ع) في الآية 40 من سورة النمل، راجع دراستها لمزيد من التفاصيل {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ...}، فالقدرات غير العادية المسخرة للنبي سليمان(ع) كانت مصدر خطر عليه إيمانيا، لأنها امتحان "بلاء وفتنة" أكبر من المعتاد علينا، حيث إنني بتلك القدرات سأنزل إلى مستوى التكبّر والزهو والافتخار... وسأشعر بعظمة لا تسمح لي بتحمّل أي سوء من أي أحد حتى لو لم يقصد السوء، وسأصير فرعونا بقدرات خارقة...

هذا محسوم بالنسبة لي بالنظر للقدرات الضعيفة جدا بالسلطة على أهل بيتي والذين من حولي، والتي كثيرا ما تعاليت فيها متفرعنا فارضا ما أريده على الآخرين حتى لو لم يكونوا هم يريدونه... ولست أمدح نفسي بإهانتها لأبدو متواضعا، لا، هذه هي حقيقتنا كلّنا بتعاطينا مع الأمور عند اختلاف وجهات النظر إذ نفرض على الأضعف منّا ما نريده نحن، ماذا نفعل لو كانت قدراتنا أعلى؟ هل سيزيد إيماننا وعملنا الصالح؟ لا، بل الاحتمال الأكبر إن لم يكن حتما أن نصير أسوأ.

(ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ{34})

{ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ}، هذه قصّته وهذا ما جرى معه، وهذه حقيقته، وهذا هو، {قَوْلَ الْحَقِّ}، الصواب الصحيح، {الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ}، حيث هناك كلام حقّ واضح وصريح وهناك من يقول كلاما سخيفا تافها كاذبا مخالفا للكلام الحق.

بعض الناس قالوا إنّ أمّه(ع) بغيٌّ، وآخرون قالوا إنّه (ع) ابن يوسف النجّار، وآخرون قالوا إنّه (ع) ابنٌ لله تعالى...

ننتبه هنا لتركيز القرآن الكريم على تسمية النبي عيسى(ع) هكذا: "عيسى ابن مريم". ورد في تاريخ اليهود الكثير من الشخصيات المهمّة التي تحمل اسم عيسى، أكثر من عشر شخصيات، وكلهم يحملون الاسم عيسى، ولهذا الاسم عدة تصريفات في اللغة العبرية والآرامية، ومنها: عيسو، يسوع، يشوع، جشوا، يشوا... وكلها بالنسبة للعرب ترجع في اللغة العربية إلى الاسم عيسى، مثل أحمد ومحمد ومحمود وحميد... ولذلك وحتى يتميز ويتحدّد النبي عيسى ابن مريم عليهما السلام بالضبط عن هؤلاء، وحتى يتميز عن الأشخاص المزيفين الذين ادّعوا قبله وبعده أنهم المسيح، يسميه القرآن باسم أمه التي ولدته من دون زواج، وهذه ميزة واضحة جدا.

بقي شيء من الاستنباط والتحليل، فلماذا اختار سبحانه ولادة النبي عيسى(ع) بهذه الطريقة؟ مما سبق تعلم أنه تعالى أراد أن تكون طريقة ولادته (ع) آية، شيئاً مميّزاً يلفت انتباه الناس إلى تدخّله تعالى. فعلى ما يبدو أنّ بني إسرائيل عموما وعلماءهم خصوصا وصلوا إلى مرحلة أقصى القساوة والجلافة ضدّ الأنبياء، وتمرّسوا على الكفر بهم ومعارضتهم باستعمال مناصبهم الدينية لإبعاد الناس عن الأنبياء... وبعث نبيٍّ بالطرق العادية لم يكن سينفع مع الناس... ولذلك كانت ولادته (ع) مميّزة، ونطقه في المهد... وبقية الأمور غير العادية التي قام بها (ع) من نفخ الحياة في الطين وإحياء الموتى...

هناك أمور أخرى في طيات الكلام القرآني أشار إليها ولم يركّز عليها، وأهمّها وأكثرها وضوحا، إرادته تعالى إظهار عظمة عبدته الصديقة الطاهرة مريم(ع)، فمن بين كلّ النساء ذكرها القرآن في سورة الأنبياء مع سبعة عشر شخصا من أعظم عظماء الإيمان عبر تاريخ البشرية، فمنها لوحدها ومن دون زوج أنجبت رسولا من أرقى المواصفات، فانتسب الولد فقط لها لوحدها، كمقارنة مع تميّز الأنبياء الرجال بولادة أنبياء منهم... فلا نرى تميّزا لزوجاتهم إلا بإشارة إلى زوجة النبي إبراهيم(ع) التي ولدت النبي إسحاق(ع) عبر سلامه تعالى عليها كونها من أهل بيته (ع)... وغير ذلك لا نجد ولا أي تميّز لامرأة أخرى، أمّا مريم (ع) فمن نسلها منها لوحدها صار ولدٌ (ع) من أرقى مخلوقاته تعالى.

(مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ{35})
{مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ}، ما معنى أن يحدّد عزّ وجل من مخلوقاته واحدا منهم كولد له، أو نصف ولد، أو كائناً بشكل ما يوصف بأنه ولد... بينما كلّ الكائنات مخلوقاته! وما معنى هذا حتى يفعله تعالى؟

{سُبْحَانَهُ}، تنزه، والكلام هنا عن تنزّهه عن خلوّه تعالى وابتعاده عن الوصف باتخاذه ولدا، ومعلوم أن صفاته الألوهية أعلى من أن يكون له ولد بالولادة منه عزّ وجلّ، أو أن يتّخذ فيختار ويعيّن من مخلوقاته ولدا، حتى لو قالوا إنه تعالى لا ينفصل عنه ولد... وحتى اعتباره تعالى لكائن من مخلوقاته ولدا له، فهذا لا يتماشى مع صفاته الألوهية سبحانه وتعالى.

{إِذَا قَضَى أَمْرًا}، قرّر سبحانه شيئا، وأراد أن يحصل أمرٌ ما، {فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ}، للشيء الذي يريده أن يحصل: {كُنْ فَيَكُونُ}. وما معنى أن يكون له سبحانه ولد! نحن إذا أردنا أولادا نتزوّج، ويصير هذا المولود ولدا لي، وأولاد بقية الناس ليسوا لي، ولكنه سبحانه يقول لأي شيء يريد، يقول له: كن، فينخلق هذا الكائن ويصير موجودا حتما.

بعبارة ثانية، كل المخلوقات بالنسبة له تعالى متشابهة، حيث كلها صنعها هو، وبنفس الطريقة الأساسية، فالسماوات قال لها: كوني، فصارت موجودة. والبشر قال لهم: كونوا، فصاروا موجودين. وكذلك للنبي عيسى(ع) قال له كن موجودا، فولدته أمه وصار موجودا. لماذا سيعتبره سبحانه ولدا له؟!

نكرّر الكلام بصيغة مختلفة، إن أراد سبحانه اتخاذ ولد كما يقولون، فلا يوجد إلا طريقة واحدة لخلق هذا الولد، وهي أن يقول له سبحانه: كن. وهذه هي الطريقة نفسها الوحيدة التي كل المخلوقات تخرج فيها إلى الحياة لتصير موجودة، هل كل الكائنات أولاده سبحانه! لماذا قلتم عن النبي عيسى (ع) إنه ولد لله عزّ وجلّ؟! وما معنى هذا الكلام؟!

نعم النبي عيسى(ع) متميز، حيث خلقه سبحانه من دون أب، ومنحه تعالى قدرات عالية... ولكن هذا لا يعني أن للنبي عيسى(ع) طبيعة إلهية! وسبحانه يقول إنه خلق النبي عيسى(ع) مثلما خلق آدم(ع) حيث إن كليهما من تراب أي من المواد الطبيعية المنتشرة على الأرض، كما تقرأ في الآية 59 من سورة آل عمران {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}، وكلاهما مثل بقيّة المخلوقات تكوّنا بأمر إلهي، فلماذا يكون النبي عيسى(ع) ابنا أو ولدا لله عز وجل ولا تكون أنت والآخرون أبناءَهُ عزّ وجلّ!

بالنسبة للتعبير القرآني عن قوله تعالى لإيجاد الأشياء: {كُنْ فَيَكُونُ}، نتذكّر العديد من الآيات التي تقول عن كل الأشياء إنه سبحانه قال لها: كوني. فصارت موجودة، يعني كلها متساوية بالنسبة له سبحانه، وكلها مخلوقات، ويتحكّم سبحانه بها، حيث أمر أن تتكون أنت من أب وأم، وأمر أن يتكون النبي عيسى(ع) من دون أب وأمر أن يتكوّن ما في الدنيا...

لا تقصد الآية القول إن كل الأشياء تحصل "فورا" فتكون فورا حين يأمر بها الله سبحانه، حيث إن بعض الأشياء تحصل فورا، وبعض الأشياء تحصل بعد حين، ولكن بالتأكيد ستحصل لأن الله تعالى أمر بحصولها، فتكون، حتمًا تحدث وتصير. كما في حالة ولادة النبي عيسى(ع) حيث حصلت بحبل السيدة مريم(ع) لعدة أشهر.

كما ترى هناك فرق بين فورية حصول الأشياء وبين حتمية حصول الأشياء، والتعبير عن قوله تعالى للشيء: {كُنْ فَيَكُونُ} لا يقصد فورية حصول الأشياء، بل حتمية تكوّن الأشياء تماما كما أمر سبحانه، حيث قال: كوني سماوات وأرض... فمرّت ست مراحل زمنية... وبعدها كانت السماوات والأرض تماما كما قال سبحانه.

(وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{36})
بعد قطع الآيات لنقل كلام النبي عيسى(ع) عادت وأكملته لنا:

يقول النبي عيسى(ع) في مهده أو بعد أن كبر: {وَإِنَّ اللَّهَ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز له عزّ وجلّ، {رَبِّي وَرَبُّكُمْ}، هو المسؤول عني وعنكم من مستوى إلهي، {فَاعْبُدُوهُ}، تصرفوا على أساس أنكم مفروض منكم طاعته، وهذا التوحيد في العبادة له تعالى: {صِرَاطٌ}، طريق أساسي، {مُسْتَقِيمٌ}، يوصف بأنه على الأحسن فلا اعوجاج فيه، فهو الطريق الصحيح والذي يوصل لرضاه تعالى ولنهاية سعيدة لكم في الجنة.

تُفهم الآية بشكل واضح بالنظر للعقائد المتنوّعة التي انتشرت بين المسيحيين، حيث بعضهم أَلَّهَ وآخرون ربّبوا النبي عيسى(ع)، واعتبروه من مستوى إلهي مفروض طاعته.

بالأساس، نحن يجب علينا طاعته تعالى وحده فقط، ونطيع الرسل لأنهم ناقلون لأوامره تعالى، ولا نطيعهم فيما يريدونه هم شخصيا، حيث إن هذا شأن آخر إذا رغب أحد ما أن يكون عبدا أو خادما... لرسول ما، والكلام هنا عن الطاعة على اعتبار مستوى إلهي وربوبي من مستوى إلهي للرسول.

بوضوح ترى خطورة عقيدة عبودية النبي عيسى(ع) من مستوى تربيب الألوهية، على اعتباره إلها وربّا، ولكن هناك خطورة أخرى لا تقل أهمية عن ذلك، وهي الطاعة العمياء لإنسان ما، حيث إن المنتمين لدينه تعالى وعبر التاريخ القديم ووصولا لتاريخنا، لدى البعض منهم ممارسات في الطاعة لمخلوق وهي لا تقل خطورة عن عبادة بشكل رسمي لمخلوق.

طاعة الرسول أمر إلهي لنا ويجب علينا الالتزام به، وكمثال عن ذلك قول الآية 32 من سورة آل عمران {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}، ولكن هذه الطاعة ليست أبدا بتاتا ولا بأي شكل لاغية لرؤيتنا لحسن ما يأمر به الرسول، وإلا وفرضاً رأينا سوءاً فيما أمر به الرسول، فلا طاعة.

هذا الأساس هو نفسه في تعاطينا مع ما يصلنا منه تعالى، فلو وجدنا سوءاً في هذا القرآن، لكفرنا به، وإلا لكنّا ندين بدين سوء، وهذا أهم أساس في تميّز كلامه تعالى معنا عارضا علينا المعلومات عنه وعن أفعاله وقراراته وشريعته لنؤمن ونلتزم، حيث إنه يعرض الحقّ والصلاح، وعلى هذا الأساس يحذّرنا وينذرنا من المخالفة ويبشّرنا إذا أطعنا...

طبعاً لسنا كلنا متمتعين بسلامة قلب كافية لتمييز كل الأمور حقّها من باطلها وصلاحها من فسادها، حيث يمكن أن نرى السوء خيراً بسبب مرض في قلوبنا وهو ناتج في البداية عن رغبتنا بشيء سيئ وتعلّقنا به ورفضنا تحريمه... ولكن هذه تفاصيل أخرى للبحث فيها لمعرفة أسباب أمراضنا... من بعد التأكيد على الأساس.

لماذا نقول هذا الكلام؟ لأن من سبقنا من المنتمين لدينه تعالى عانوا من هكذا مشاكل عقائدية ولم يتخطوها بنجاح، حيث قدّسوا شخصياتهم الدينية وقدّسوا كلامهم، وأغمضوا أعينهم عن الأساس، ولم يعودوا يفكّرون فيما فهموه أو وصلهم من كلامه تعالى ومن كلام القدّيسين وصاروا يلتزمون به على عماه مغمضين غاضّين الطرف متعامين عمّا يرونه سيئاً! ويقنعون أنفسهم أنهم هم خطأ وما فهموه أو وصلهم "من سوء" هو الصحّ! وأن هذا النوع من التسليم هو الإيمان

العالي! وهذا هو التأليه والتربيب بنسخته الأولى، وبعده يأتي التأليه والتربيب بنسخته الثانية بإعلان مستوى إلهي للقدّيسين... وكلّ ذلك ليس دينه تعالى بل دين الناس.

المشكلة في تربيب وتأليه بعض المسيحيين للنبي عيسى(ع) أو لأمّه (ع) أو لبعض شخصياتهم الدينية، هي مشكلة إيمان بالدرجة الأولى، حيث من المعلوم لك أن غالبية المسيحيين مثل غالبية المسلمين هم منافقون وفسّاق ومنتمون فقط بالاسم لدينه تعالى، وهؤلاء مع أو بدون تأليه للنبي عيسى(ع) هم أصلاً ليسوا ملتزمين بشريعته تعالى، وصار لهم شريعة ممسوخة يدّعون أنها دينه تعالى، ولم يبق فيها أي شيء مما له قيمة من دينه سبحانه، فلا برّ الوالدين ولا الصلاة ولا الزكاة... أمور أساسية، وهذا الاستهتار أساسه الاستهتار بالتوحيد، ومن بعد ذلك تكرّ السبحة ليصير كل شيء مرتبطاً بدينه تعالى مزاجياً...

أقول لك هذا لأن نفس العطل الاستهتاري منتشر بيننا بنسخة مختلفة، حيث إن تعطيل الفكر عن قصد للإيمان بأي شيء ولفعل أي شيء، هذا ليس دينه تعالى حتى لو كان مكتوباً في كتاب منسوب له تعالى، وحتى لو كان من رواية منسوبة لرسول، وحتى لو كان رأياً تقرؤه أو تسمعه من عالم دين. إذ إن العطل القوي عند المسيحيين بدأ من علماء الدين عندهم، وبعدها انتشر كعقيدة وشريعة وسلوكيات مثبتة على أنها دينه تعالى لأنها صادرة عن أعلى مرجعية مسيحية وهي الكنيسة وعلماء الدين.

(فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ{37})
{فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ}، بعد كلام النبي عيسى(ع) انفصل الناس لمجموعات كلّ مجموعة لها اسم خاص بها يجمعهم على شيء مشترك بينهم... لم يتّفقوا على ما قاله النبي عيسى (ع) لهم، حيث إنهم أصلا كانوا أحزابا ومختلفين عن بعض ومنقسمين، وكل مجموعة من بينهم لها رأي مختلف، واختلفوا أيضا في الاعتقاد في النبي عيسى(ع)!

بعضهم قال: عيسى(ع) نبي مثل بقية الأنبياء. آخرون قالوا: عيسى(ع) مميز عن بقية الأنبياء... غيرهم قالوا: عيسى(ع) ابن لله عز وجل... غيرهم قالوا: عيسى والروح القدس والله تعالى هم واحد وليس بينهم اختلاف!... وآخرون كفروا به من أصله أن يكون نبيا...

{فَوَيْلٌ}، مصيبة عظيمة، {لِلَّذِينَ كَفَرُوا}، للذين أنكروا الحقيقة وقالوا عن النبي عيسى(ع) إنه ابن لله تعالى، أو أنه إله... أو قالوا عن السيدة مريم(ع) شيئا سيئاً... فالويل لهم، {مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، حيث لهؤلاء الكافرين زمن يشهدون فيه شيئا عظيما ضخما، فيه إرجاع كل الناس إلى الحياة، وفيه محاسبة كل الناس بكتاب لا يغادر كبيرة ولا صغيرة، وفيه العذاب النفسي والجسدي، وفيه رؤيتهم لكل ذلك وللنار من بعيد تشهق وتزفر بألسنة اللهب...

ضع في بالك دائما أن العذاب الأليم لهذه النوعية من الناس كان بسبب كفرهم وتلاعبهم بالحقّ واختراعهم لأمور دينية من أوهامهم وافترائهم عليه تعالى... ولا تأخذ أنت الأمور بجديّة لدرجة العذاب الأليم على شيء تعتبره عاديا، تستسهل تلاعب الناس بالدين الإلهي... ولا تراه يستحقّ هذا التعذيب العظيم... لا تَنْسَ أن كلّ أمور حياتنا نحن من ناحيتنا متعلقّة بما كفروا به أو تلاعبوا به وحرّفوه، وما لدينا الآن من أديان من المنتمين لدينه تعالى أو من العلمانيين، وما لدينا من أحزاب دينية أو علمانية تتناحر وتعمل على الضرر بالآخرين... هو من نتاج الكفر والتلاعب بدينه تعالى، بداية من الخلاف العقائدي وانتهاء بالتشريع الذي يبيح لهم "الاعتداء وقتل وأذية..." بعضهم البعض، وهذا من ناحيتنا، أمّا من ناحيته تعالى، فلا يسمح سبحانه أبدا بتاتا بالمسّ بمقام الألوهية والربوبية، ويؤكّد لنا أنه تعالى زوّدنا بكل ما يلزم وزيادة لمعرفة الحقّ حتى لا نخترع آلهة أو ننسب له تعالى ولدا، وجعل سبحانه الأمور سهلة بسيطة علينا للوصول إلى توحيده سبحانه، وأن كلّ مخالفة لتوحيده تعالى هي اعتداء كاذب افترائي عدواني باغٍ على مقامه تعالى، ومن أوّل تكليفه تعالى لنا بعث لنا من يخبرنا بالعقاب الشديد على ذلك، ومن لا يزال مصرا أن الموضوع ليس ضخما لهذه الدرجة، فويل له من مشهد يوم عظيم إن كان من الكافرين أو المتلاعبين بدينه تعالى.

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{38})

هؤلاء المنكرون ليوم القيامة المخترعون لأقوال مختلفة كلّها كفر: {أَسْمِعْ بِهِمْ}، قل عنهم كلاما يسمعه الآخرون ويفهمونه عن حالتهم، {وَأَبْصِرْ}، وقل عنهم كلاما يجعل الآخرين يدركون ويعون صورة حالتهم، وهذا تعبير آخر عن الويل العظيم الذي سيحدث معهم، {يَوْمَ يَأْتُونَنَا}، في الزمن الذي يجيئون فيه إلينا، وهو زمن القيامة من الموت حيث نحاسبهم وبعدها نجازيهم.

{لَكِنِ الظَّالِمُونَ}، الذين لم يكن معهم حقّ ولم يكونوا عادلين ولا منصفين حين تركوا الحقّ الواضح واختلفوا فيه واخترعوا تاريخا ودينا كاذبا لا علاقة له بالسيد المسيح(ع)، الظالمون، {الْيَوْمَ}، في حياتهم الآن في الدنيا لا يأبهون للتهديد بيوم القيامة، هم، {فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}، بشكل واضح هم على الشيء الخطأ الذي لا يوصلهم للنهاية الجيدة.

بعبارة أخرى هنا في الدنيا "اليوم" تخبرهم عبر هذا القرآن بالحقّ عن النبي عيسى(ع) فيرفضونه، وهم ليس معهم حقّ بذلك، ظُلْماً يرفضون الحقّ الواضح، قُلِ الكلام عن عذابهم الشديد الذي سيلاقونه في الآخرة، بينما هم هنا في الدنيا يعيشون حالة الضلال الواضح عن الحقّ لدرجة استهتارهم بالكلام عن العذاب الشديد الذي ينتظرهم.

(وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ{39})
يا أيها النبي محمد(ع)، {وَأَنْذِرْهُمْ}، الذين يقولون أشياء غير صحيحة عن النبي عيسى(ع) انقل لهم الخبر عن شيء سيّء أكيد سيحصل معهم بسبب توافر شروط حصوله فيهم، {يَوْمَ الْحَسْرَةِ}، زمن الشعور بمرور فرصة كان يمكنهم الاستفادة منها وفاتتهم، في زمن القيام من الموت سيرون نهايتهم الحتمية إلى النار وفاتهم الإيمان والعمل الصالح الذي كان سينجّيهم منها، {إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ}، انتهى الشيء الذي أراد تعالى حصوله، ها هم في الحساب على كفرهم، أَنْذِرْهم من اليوم الذي سيحصل ما قرّر تعالى حصوله وسيكونون في حالة الحسرة حيث لا ينفع الندم لأنه فات ما فات.

{وَهُمْ} "الآن في الدنيا" {فِي غَفْلَةٍ}، غير منتبهين لحتمية حصول قضاء الأمر الإلهي برميهم في النار في الآخرة، {وَهُمْ} "الآن في الدنيا" {لَا يُؤْمِنُونَ}، لا يعتقدون بحصول العذاب لهم في الآخرة.

كما ترى هو وصف استهتارهم، هم في غفلة ولا يؤمنون، وهذا لن يغيّر أي شيء من مصيرهم حيث سيلاقون حتما العذاب في الآخرة.

ضع في بالك دائما الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى معانيَ قرآنية رائعة، تصور شخصا أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أيّاً منهما بعد، هنا تحذّره من سلوك الطريق السيّء، هو حاليا ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ}، والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}.

أمّا إذا سلك طريق الخطر، فتنذره، لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. الإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتما ما يضرّه، تُنْذِرُ الكافر حيث هو في حالة ستسبّب له العقاب حتما، وورد هذا كثيرا في القرآن. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يتلبّس بما سيسبّب له الضرر، تُحَذِّرُ المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

هذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، حيث يقوم المؤمن بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، تُنْذِرُهُ من العقاب الحتمي عليه كحالة المسيحيين المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}، وعموم المؤمنين المشمولين بالتهديد من فكرة فعل السيئات على أساس أن يحمل أحد ما السيئات عنهم {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}، والمشمولين بالتهديد إن لم يتغيّروا نحو الأحسن والموعودين بالمغفرة كما ورد في الآية {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}، ونفس المفهوم في الآية 45 من سورة النازعات {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا}.

(إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ{40})
{إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا}، كلكم ستموتون أيها الناس، وكل ما أعطيناكم ستتركونه، ويعود كل شيء لمالكه الأصلي ولا يبقى لكم أي شيء، يرثكم سبحانه ويأخذكم أنتم إليه حين تموتون، ويرث كل ما على الأرض حيث إن واقع الحال أنه لم يَبْقَ ولا حيّ عليها ليملك شيئا ما منها. سياق الكلام هنا عن صورة ضيّقة وإلا فسبحانه يرث كل ما في الدنيا كما ورد في الآية 180 من سورة آل عمران {وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}.

{وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ}، سيتم إرجاعهم إلينا من بعدما يموتون، لن تموتوا وتنتهوا ولن يحصل شيء بعدها، لا، بل هناك حياة أخرى بعد الموت، وسترجعون لتقفوا بين أيدينا لنحاسبكم ونجازيكم.

أين تذهبون في فكركم وعملكم وأنتم تعلمون أنكم في الأخير ستموتون؟ ها نخبركم أنه لن يبقى ولا واحد منكم حيّاً، وأنتم وكلّ ما لديكم سيأخذه تعالى وتفقدون أي ملكية، ولن تتبخّروا ولن تنتهي قصّتكم ولن تنتقلوا إلى عالم ليس تحت سيطرته تعالى ولن ولن... بل إليه تعالى سترجعون من الموت إلى الحياة، ليحاسبكم ويجازيكم، خذوا علما بذلك لتتصرّفوا على هذا الأساس.

تذكّر دائما أن الوراثة وصف حالة انتقال الملكية بلا استرداد، ومن تطبيقاتها وفاة من كانت له الملكية وانتقلت منه لحيّ، كما هي الحالة هنا بالنسبة لما على الأرض بعد وفاتنا جميعا وبقائه تعالى حيا... ولكن هذا تطبيق شائع وليس التطبيق الوحيد للوراثة، حيث إنَّ المؤمنين يرثون الجنّة كما ورد في بعض السور وفي الآية 63 من هذه السورة {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا}، سينقل تعالى لهم ملكية الجنّة بلا استرداد، وستبقى لهم وهم خالدون وهي خالدة.

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً{41})
{وَاذْكُرْ}، واستحضر، {فِي الْكِتَابِ}، في القرآن الذي ينزل عليك أيها النبي محمد(ع) وتحدث عن {إِبْرَاهِيمَ}، قررنا أن يكون له ذكر في القرآن، فاتلُ ما أنزلناه عنه(ع) للناس.

{إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا}، دائما لا يكذب في أي شيء، والكلام هنا بالخصوص عن إيمانه، وسترى في هذه الفقرة أنه(ع) لم يسمح للشيطان ولا لرغباته وشهواته أن تتلاعب به حتى يكذب ليعبد آلهة وهمية، لا، كان صادقا ولهذا السبب وصل إلى التوحيد بسهولة متماشيا مع سلامة قلبه، وكان {نَبِيًّا}، كان ينزل عليه نبأ، خبر غير منتشر علمه بين الناس من الله تعالى لهداية الناس.

من هنا ستكمل السورة مع شخصية بارزة جدا في تراث دين التوحيد، مع شخصية موقّرة جدا من اليهود والمسيحيين والمسلمين، ودائما يطرحها القرآن كنموذج عن أساس دين التوحيد للذين يرون أنفسهم مرتبطين دينيا بالنبي إبراهيم(ع)، وكما ترى من كلام السورة عن جانب من قصص الأنبياء، حيث تعرض تناسق الخط الإلهي التوحيدي، ومن خلاله ترى شواذّ الشرك به تعالى من الذين ادّعوا للنبي عيسى (ع) الألوهية أو كونه (ع) ولدا له تعالى أو حلولا إلهيا فيه(ع)... كيف يفسّرون محاربة النبي إبراهيم(ع) للشرك وفي نفس الوقت اختراعهم ولدا إلهاً له عزّ وجل!

انتبه جيدا، من بقية كل كلام القرآن عن النبي إبراهيم(ع) لا تجد تصريحا بنبوته أو بأي نوع من التواصل الإلهي معه من طفولته إلى ما بعد محاولة قومه حرقه، ما تقوله الآية هنا عن كونه نبيا، هذا نفترض بقوّة أنه توصيف لما بعد محاولتهم إحراقه، لأنه قبل ذلك لم يكن نبيا كما استظهرنا من عموم كلام القرآن عنه (ع)، والله أعلم.

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً{42})
استحضر فيما تتلوه على الناس من هذا القرآن ما حدث معه(ع): { إِذْ قَالَ }، النبي إبراهيم(ع)، { لِأَبِيهِ }، { يَا أَبَتِ }، أتوجّه إليك يا أبي بالكلام وأقول لك: { لِمَ تَعْبُدُ }، لماذا تتصرّف على أساس أنك عبد ومفروض منك وعليك طاعة، { مَا لَا يَسْمَعُ }، لشيء ليس لديه القدرة على إدراك وفهم الأصوات، { وَلَا يُبْصِرُ }، حيث ليس لديه القدرة على إدراك ووعي الصور؟! أبوه كان يعبد الأصنام المنحوتة من الخشب أو الحجارة، وهي لا تسمع ولا تبصر! هذه

الأشياء التي لا تسمع ولا تبصر لماذا تعتبرها آلهة وتتصرّف على أساس أنك عبد لها وهي مالكة لك؟! ما تعبده، { وَلَا يُغْنِي عَنْكَ }، يا أبي من الله تعالى، { شَيْئًا }، فإذا أراد سبحانه أن يفعل بك أي شيء فهي لن تغني عنك ولن تؤمّن لك ما تحتاجه ولن تنفعك، فإذا أراد تعالى أن يضرّك فهذه الأصنام لا يمكنها حمايتك، وإذا أراد تعالى أن ينفعك فهذه الأصنام لا يمكنها أن تضرّك. مثلما نقول: معي مال كثير فأنا غني، لأنني بمالي يمكنني تحقيق ما أريد. ولكن لو كنت في الصحراء وعطشت ومالي معي، ولا أجد ماء لأشتريه، مالي لم يُغْنِ عني شيئا. وهنا ما يعبده أبوه لا يغنيه عن الإله الحقيقي، وبالعكس فإذا عبدت الإله الحقيقي فأنت غني لأنك صرت في حالة تأمين ما تحتاجه.

هناك خلاف في الروايات والتفاسير حول هذا الشخص الذي يناديه النبي إبراهيم(ع) في القرآن: أبي. بعضهم قالوا: هو أبوه الحقيقي "والده الذي أولده". وآخرون قالوا: لم يكن والده بل عمّه، ورباه منذ طفولته، واعتاد النبي إبراهيم(ع) أن يسميه أبي.

ورد في التوراة أن اسم والد النبي إبراهيم(ع): تارخ. بينما الشخص الذي يتحدث عنه القرآن اسمه: آزر. وورد ذلك في الآية 74 من سورة الأنعام { وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ }، يُمْكِنُ الاستنتاج أن الذي ربّاه اسمه آزر، ووالده تارخ، وهذا على ذمّة من كتب التوراة...

لا تَنْسَ أن العرب ينادون العم بكلمة: أبي. والقرآن استعمل نفس التعبير وكمثال على ذلك حين تحدّث أولاد النبي يعقوب(ع) عن آباء أبيهم وذكروا من ضمنهم عمّه النبي إسماعيل(ع) كما ورد في الآية 133 من سورة البقرة { أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ }.

على كل حال، الآية 41 من سورة إبراهيم(ع) نقلت عن النبي إبراهيم(ع) دعاءه بالاستغفار لوالديه "وليس لأبويه" حين كان شيخا كبيرا { رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ }، ونعلم أن النبي إبراهيم(ع) استغفر فعلا لأبيه "آزر" ، وكان النبي إبراهيم(ع) حينها "شابا"، ولكن بعدما تبيّن للشابّ إبراهيم(ع) أن آزر عدو لله تعالى تبرّأ منه كما تقرأ في الآية 114 من سورة التوبة { وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ }، إذًا كما هو واضح، لدينا استغفار حين كان (ع) شابا "لأبيه" لآزر، وبعدها تبرّأ منه، ولدينا استغفار "لوالديه" وكان كبيرا في السنّ. مما يعني أنه (ع) حين صار شيخا كان يستغفر لوالديه اللذين "ولداه"، حيث إن آزر لم يكن "والده" بل عمّه أو أحد أقاربه أو شخصاً تولّى العناية به وتربيته... ولذلك كان يناديه أبي.

بقي شيء، الألوهية بمعناها الحقيقي كما يُوصَفُ بها تعالى، لا تتحمّل أن يكون الكائن إلهاً ولا يضر ولا ينفع، ولا يسمع عبيده ولا يبصرهم، حتى يستطيع الكائن ذلك يجب أن يكون إلهاً، ولا معنى لألوهية كائن محدود لا يمكنه سماع كلّ الكائنات... ولا يمكنه تقرير مصيرهم كلّهم... وهكذا من كلام النبي إبراهيم(ع) الهجومي على آلهة أبيه، ترى انطباق نفس الكلام عن عبادة النبي عيسى(ع) واعتباره إلهاً، هل النبي عيسى(ع) يقرّر ضرّ أو نفع كلّ الكائنات؟ وهل يسمعهم ويبصرهم كلّهم؟ سواء حين كان حيا أو بعدما توفّاه تعالى، هل يستطيع فعل ذلك؟

قبل ذلك لنسأل عنه (ع) قبل أن تلده أمّه، هل كان إلهاً من قبل وله كيان ما؟ ولماذا لم يعبده النبي إبراهيم(ع)؟

كما ترى نحن نفسّر الآيات بناء على الفائدة من ذكر السورة لها من بعد كلامها عن النبي عيسى(ع)، حيث إنها مذكورة هنا للفت انتباه من يعبد النبي عيسى(ع) ليقايس عقيدته مع كلام النبي إبراهيم(ع) الذي يعتبره المسيحيون ركيزة أساسية في تاريخ دينه تعالى.

(يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً{43})
يكمل النبي إبراهيم(ع)، {يَا أَبَتِ}، أتوجّه إليك بالكلام يا أبي وأقول لك: {إِنِّي قَدْ جَاءَنِي}، أتاني ووصلني، {مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ}، ومن فحوى عموم الكلام القرآني عن هذا الموضوع نفهم إشارته (ع) إلى علمه "بقلبه السليم" بأن الإله واحد أحد، وأن المشركين اخترعوا آلهتهم عن ضلال وتزيّن الدنيا لهم...

{فَاتَّبِعْنِي}، كن على ما أنا عليه، وكن مؤمنا موحّدا، واسمع كلامي، {أَهْدِكَ}، أضعك على الشيء الصحيح الذي يوصلك لغاية صحيحة، {صِرَاطًا}، طريقا أساسيا، {سَوِيًّا}، بالتمام متناسبا مع ما هو مطلوب.

فرضا لو سمح سبحانه للناس بعبادة الأصنام، فإن طبيعة الأصنام لن تتغيّر، فهي لا تسمع ولا ترى ولا يمكنها أصلا فعل أي شيء، وليس فيها أي شيء يسكنها، ولا يعني تمثيلها للإله الحقيقي أو الأرواح أو الملائكة... أي شيء... من هذه الناحية لا يوجد أي منطق في عبادتها، ومن ناحية ثانية سبحانه لم يسمح بالتلاعب بموضوع الألوهية والعبادة، ولم يترك للناس حريّة اختراع إله، بل زوّدهم بما يدلّهم على توحيده تعالى ونبههم سبحانه منذرا لهم بالعقاب على الكفر والشرك، وهكذا تفهم من الآيات أن النبي إبراهيم(ع) كان ينقل لأبيه كلا التصوّرين: الأصنام هي أصنام، لا تنفع ولا تضر، والإله الحقيقي سبحانه لم يسمح بعبادتها بل هناك عقاب لمن يعبدها.

طبعا في هذا الكلام عن توحيد العبادة عمق، ففي هذه المسألة إن لم نوحّده تعالى سنكون ظالمين مخالفين لحقيقة واضحة، وهذا يعكس عقليتنا ونفسيتنا التي سينتج عنها فيما بعد شرائع وسلوكيات ظالمة، وهكذا ترى ارتباط توحيده تعالى بالحقّ في العقيدة مع الحقّ والصلاح في الشريعة والسلوكيات، وهذا ما نبّه عليه القرآن مرارا مُتَضَمَّناً في عبارة: آمنوا وعملوا الصالحات.

(يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً{44})
نكمل مع النبي إبراهيم(ع)، ونصل إلى زبدة الفقرة:

{يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ}، وبسبب قلّة المعطيات عن نوع عبادة الأب فلهذا الكلام وجهان، حيث إنك بعبادتك لهذه الأصنام تعتبر نفسك عبداً لها، تاركا توحيده تعالى وفي العمق أنت تعبد وتعتبر نفسك عبداً مطيعاً لكائن موصوف بالشيطنة لأنه يقوم بأعمال السوء بإضلال الآخرين، وتطيعه حين يوسوس لك لتشرك به تعالى، وهذا المعنى منتشر في القرآن وتشير إليه كل الآيات، ووجه آخر أنهم ربما كانوا يعبدون الشيطان مباشرةً كالذين يعبدون إله الشرّ، وعلى أي حال فهذه تفاصيل لا أهمية لها لأن العابد للأصنام هو في العمق عابد للشيطان لأنه يطيعه في الشرك به تعالى.

{إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً}، إن الكائن الموصوف بالعمل الفاسد لنفسه وللآخرين كان ممتنعاً عن طاعة الذي يعتني بالناس لما فيه مصلحتهم.

من جانب هناك دينه تعالى وفيه عناية بالناس بما فيه مصلحتهم في الدنيا والآخرة، وهناك الشيطان الذي لا يطيع أوامره تعالى ويفسد ويعمل على جعل الناس يخالفون كلامه تعالى ليتضرّروا في الدنيا والآخرة، وهو من يوسوس لك لتشرك به تعالى...

ننتبه جيداً، حيث في عموم كلام القرآن عن النبي إبراهيم (ع) في فترة شبابه، لا نجد في القرآن أيَّ كلامٍ صريحٍ عن نزول الوحي عليه(ع)، إلا إشاراتٍ تحتمل حصول تواصل إلهي معه (ع) كالإشارة السابقة في الآية 41 أنه كان {صِدِّيقاً نَبِيّاً}، والإشارة في الآية 75 من سورة الأنعام {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}، فهل أراه تعالى ملكوت السماوات أو رآها (ع) كمعرفة توصّل إليها بقلبه السليم من تحليل ما يراه؟ وهكذا احتملنا بقوّة في دراستنا هذه أنه (ع) لم يحصل معه في هذه الفترة من شبابه أيُّ تواصل بالوحي، لأن سياق الكلام القرآني عنه (ع) كان دائماً يشير إليه كنموذج وصل إلى الإيمان العالي فقط بقلبه السليم ومن دون وحي إلهي.

في آيتنا هذه نسأل إن كان (ع) علم من الوحي بقصة إبليس "الشيطان" العدو المجتهد في العمل على إضلالنا وأخبر أباه عنه؟ وبالتالي نفترض تعرّف أبيهِ على الشيطان من كلام النبي إبراهيم(ع)، أو في تراثهم الثقافي كانوا يعلمون بكائن يعمل على إضلال الناس، كالذين يؤمنون بإله الشر؟ أو هم فعلاً كان في ديانتهم عبادة مباشرة للشيطان، كالذين يعبدون إله الشرّ حتى يتركهم ولا يؤذيهم؟ كما ترى فالاحتمالات المطروحة عقلانية وممكنة ولكن أرجحها "بحسب هذه المعطيات" معرفة النبي إبراهيم(ع) وأبيهِ المسبقة بالشيطان مما هو منتشر في مجتمعهم، وخذ مثالاً عن ذلك السابقين والمعاصرين للنبي محمّد(ع) من العرب قبل نزول القرآن، ففي كلامهم استعمال لكلمة شيطان كوصف لعموم أي شرير، واعتمد القرآن على ما يعرفونه كأساس ليخبرهم عن الفرق بين كلامه تعالى في قرآنه هذا والذي بوضوح هو

كلام حقّ وصلاح في مقابل فكرة أن يكون من وحي شيطاني، والعديد من الآيات تحدّثت عن ذلك ومنها الآية 21 من سورة النور {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ...}.

(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً{45})
يكمل النبي إبراهيم(ع):

{يَا أَبَتِ}، أخاطبك يا أبي، {إِنِّي أَخَافُ}، أشعر بضرر أكيد لا يمكن تجنّبه في حالتك، {أَن يَمَسَّكَ}، أن يطالك وتشعر به، {عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ}، فالذي يعتني بك لما فيه مصلحتك وبسبب عبادتك للأصنام سيصيبك بضرر، فهو رحمان بك ولكنك أنت بسبب تصرفاتك هذه فلن يعاملك تعالى برحمته، {فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً}، فيتركك سبحانه كما أردت أنت، موالياً بإرادتك للشيطانِ وتابعاً له.

الشيطان لن ينفعك بتاتاً، وهذا محسومٌ معلومٌ لي ولك، فبأي صورة صوّرتها لنفسك عن الشيطان حتى عبدته تاركاً الرحمان فالنتيجة أن يتركك من يعرض عليك رحمته لتكون تابعاً لمن لن يعمل إلا على ضررك.

(قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً{46})
أجاب آزر قائلا:

{أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ}؟ أترغب عنها حيث لست ترغب فيها، ولا تطلب نفسك ما أعتبره أنا من مستوى فائق وتطلب نفسك عبادة إله آخر؟!

نلاحظ تفكير هذا الرجل، حيث إنَّ بقية الشعوب من حولهم كانت تعبد آلهة غير آلهتهم، وفهم من كلام النبي إبراهيم(ع) بأنه يريد عبادة آلهة مختلفة ويترك آلهة أهل مدينته.

تصور نفسك تعيش في العاصمة وتشجّع فريق كرة قدم مدينة أخرى، فيقول لك أبوك: كيف تترك فريق مدينتنا وتشجع فريق المدينة الغريبة؟ هنا هكذا يتكلم آزر مع إبراهيم(ع): أتترك الآلهة التي أعبدها وتعبد آلهة أخرى؟ لماذا؟ فهذه آلهتنا الخاصة فلا تخوننا وتعبد غيرها.

أنت تعلم أن المشركين عامّة لا يسفّهون آلهة المشركين الآخرين، بل يعتبرون لكل قوم الآلهة الخاصّة بهم.

{لَئِن لَّمْ تَنتَهِ}، وإذا لم تتوقف نهائياً بلا رجعة عن عبادة إلهك، {لَأَرْجُمَنَّكَ}، فسوف أرميك بالحجارة، وعادة المقصود بهذه العبارة الرمي بالحجارة حتى الموت، وهذا تهديد بأفظع أنواع القتل، {وَاهْجُرْنِي}، وابتعد عني وغادرني، {مَلِيّاً}، لفترة ممتدّة طويلة جداً جداً. فإن لم تتوقّف عن تسفيه آلهتي فسأرميك بالحجارة حتى أقتلك أو تغادرني ولا ترجع حتى تغيّر أقوالك.

(قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً{47})
أجاب النبي إبراهيم(ع) فقال:

{سَلَامٌ عَلَيْكَ}، منّي لن يحصل معك أي ضرر، ولأنك تهددني بالرجم والطرد وأنا بالمقابل مني شخصياً لا أهددك بشيء، وهذا الكلام مثلما نحن لا نوافق على كلام شخص ما، ونضرب له التحية ونقول "السلام عليكم" وننصرف... كتعبير لائق محترم عن اعتراضك على ما تسمعه، وأنك لا تريد الخوض في جدال مع جاهل...

{سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي}، سأطلب من المسؤول عنّي من مستوى إلهي أن يتجاوز عن سيئاتك، {إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً}، مهتّماً بشكل مميّز، مثلما نقول: استقبله بحفاوة، أي باهتمام وإكرام مميّز. لأنه سبحانه يسمع دعائي عندما أدعوه ويهتم بدعائي لأنه تعالى يهتم بي.

ننتبه، كيف يستغفر النبي(ع) لشخص كافر! الجواب: أن النبي(ع) لا يزال يحاول هدايته، ولم يقطع الأمل من ذلك. ولكن عندما انقطع الأمل تبرأ منه، ولم يعد يستغفر له كما جاء في سورة التوبة الآية 114 {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ...}.

ما معنى أن تستغفر لشخص آخر؟ إن لم يعلن توبته واعتذاره عن ارتكاب السيئة فما معنى أن تطلب منه تعالى التجاوز عن ذنوبه حتى لا يعذّبه؟ علماً أنه تعالى لن يغفر لمن كفر حتى لو استغفر لهم النبي محمّد(ع) سبعين مرة، كما ورد في الآية 80 من سورة التوبة {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}. فطالما حتماً لن يغفر سبحانه لكافر فما معنى استغفار المؤمن لكافر؟

من عموم مفاهيم القرآن نفهم أنه لا مغفرة لكافر إلّا أن يؤمن ويستغفر عن ذنوبه، ولكن يبقى شيء، لأنَّ أي ذنب نرتكبه فله ارتباط على فكرنا ونفسيتنا وبقية مجرى حياتنا، ومن فعلنا لأي سوء ففكرنا ونفسيتنا سيتغيّران ولو بشكل بسيط، ومع التمرّس على السوء وتكراره ننتقل إلى مرحلة إيجاد التبريرات له، وبعدها ومن كثرة التكرار لا نعودُ نراه سيئاً... بتحليلي فهي هذه النقطة الوحيدة التي يمكن أن تفسّر معنى استغفارنا لأنفسنا وللآخرين، لأنَّ الأثر الناتج علينا من الذنب هو ما نطلب تغييره مع مسح العقاب عن الذنب، وبالنسبة لحالة الكافر، فلا مسح للعقاب عن الذنب، ولا إنارة للقلب لأنه بإرادته قراره الكفر، وبناء عليه فاستغفارنا للآخرين ينفع الآخرين المؤمنين منهم فقط، والطالبين منه تعالى مساعدتهم بإنارة قلوبهم للهدى، مثلما نطلب ذلك لأنفسنا.

الاستغفار للآخرين نوع من تطبيقات الشفاعة، ومعلوم لك أن الشفاعة في الآخرة تكون من المؤمن من الدرجة العالية لمؤمن من درجة أقل، بينما هنا في الدنيا استغفار ضعاف المؤمنين لبعضهم البعض هو أدبيات دينية لا تجد في القرآن ما يعطيها المعنى والأثر القوي، لأن الحري بالمؤمن الضعيف الاستغفار لنفسه فكرامته عنده تعالى ليست بالمستوى الذي يؤهّله ليكون شفيعاً لغيره.

بعدها نسأل عن معنى الاستغفار لمن مات؟ كالاستغفار للوالدين، لأنهما بموتهما خرجا من حالة طلبنا منه تعالى أن يهديهما، فأي سيئة سيتركانها وهما ميّتان! هنا ننتقل لمفهوم آخر، فإن كانا لا سمح الله تعالى ماتا كافرين، فلا معنى للاستغفار لهما بل هو ممنوع، وإن كانا مؤمنين فالاستغفار لهما هو من نوع الشفاعة لهما، من نوع التدخّل "الوساطة" الذي يسمح به تعالى من المؤمن بدرجة عالية لمساعدة مؤمن آخر ليس لديه حسنات كافية لمسح ذنوب عليها عقاب أكيد...

(وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيّاً{48})
{وَأَعْتَزِلُكُمْ}، لا أشاركم بل أفارقكم، {وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ}، مثلما نقول: ذهبتم من دوني. حيث تركتموني وذهبتم. هنا يقول النبي إبراهيم(ع) إنكم تدعون وتشهرون وتعلنون عن آلهة من دون الله تعالى، حيث تركتم الدعاء الإعلان الإشهار له كإله لوحده، ودعوتم وأشهرتم وأعلنتم لغيره أنهم آلهة، ولن أشارككم في ذلك، سأعتزلكم، {وَأَدْعُو رَبِّي}، وأعلن وأشهر فقط للمسؤول عني من مستوى إلهي.

{عَسَى}، من المحتمل المرجّح غير الأكيد، {أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً}، فأنتم أشقياء تسببون لأنفسكم التعاسة لأن الذين تدعونهم آلهة ليسوا آلهة، فلا قيمة ولا منفعة من دعائكم بل العكس فأنتم تسببون لأنفسكم الشقاء لأنكم تشركون، وأمّا ربي، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، فإله حقيقي واحد أحد، ولكن أنا لا أدري عن نفسي إن كان سبحانه سيعتبر دعائي له بالألوهية إيماناً ذا قيمة، فربما ليس إيماني خالصاً بالدرجة الكافية... ولكن لأني مؤمن به فعندي احتمال قوي مرجّح أني لن أكون شقياً إذا دعوته تعالى، حيث سيعتبرني مؤمناً به.

عادة ينصرف ذهننا من كلمة "دعاء" ومشتقاتها، إلى أن القرآن يقصد بها طلبنا لأمور نريد منه تعالى تحقيقها لنا، ولكن الغالبية الساحقة من كلام القرآن استعملت هذه الكلمة بمعناها العمومي عن عموم الإشهار والإعلان وخصوصاً الإعلان عنه تعالى أنه إلهنا.

بناء عليه، هنا لا يزكّي (ع) نفسه بالقول إنه مؤمن من الدرجة العالية، وبالتالي حين يدعو، حين يعلن أن الله تعالى إلهه الأحد، هو يرجّح ولكن لا يؤكّد بأن الله تعالى سيعتبره مؤمناً مخلصاً. ونفهم ذلك بسهولة حين نتذكّر أنواع الكفر

والشرك به تعالى غير الإعلان بشكل صريح عن آلهة أخرى، وخذ مثلاً صاحب الجنّتين المذكور في سورة الكهف التي اعتبرته كافراً به تعالى حين نسب لنفسه السيطرة من مستوى إلهي على الأمور حتى صار له جنتان رائعتان، وتجد ذلك في كلام صاحبه معه في الآية 37 من سورة الكهف {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً}، وخذ مثالاً آخر عن عبادة الهوى الوارد في الآية 43 من سورة الفرقان {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً}.

ننتبه دائماً للصورة الخيالية التي نصنعها نحن عن الأنبياء، وفرقها عن الصورة الحقيقية الواقعية، فهنا الشابّ إبراهيم(ع) يقول ما يتضمّن أن ربّه سبحانه كامل الصفات الحسنة، فإذا دعوته إلهك الواحد الأحد فأنت تدعو إلهاً حقيقياً، ولكن درجة إيمانك به تعالى هي التي تُحَدِّدُ قيمتك وليس مجرد الإعلان عنها.

تصوّر العكس، حيث تصوّر لو أن إبراهيم(ع) يقول: إيماني كامل تامّ ولي قيمة عالية ودعائي "إعلاني وإشهاري" لإلهي سيعتبره تعالى ككلام من مؤمن من الدرجة العالية. كما ترى فهذا النوع من الكلام فيه تعالٍ أو ثقة زائدة أو قلة أدب، قارنها مع الأخلاق الحقيقية للمؤمنين من الدرجة العالية حين يدعونه تعالى، فهم لا يمثّلون مدّعين التواضع والمسكنة طالبين المغفرة، بل هو هذا الإيمان العالي، ومرّ معك في بداية هذه السورة نموذج واضح جداً من دعاء النبي زكريا(ع) طالباً الولد، وهناك رأيت أنه لم ينطلق بالدعاء معتبراً نفسه مؤمناً من الدرجة العالية وله قيمة عالية، وبناء عليه سيحقق له تعالى طلبه... لا، بل اندهش حين استجاب تعالى لطلبه وعندها شعر بأن له قيمة عالية عنده سبحانه...

{عَسَى}، ليست من ناحيته تعالى على أساس مزاجيته تعالى في اعتبارنا مؤمنين به، بل العسى من ناحيتنا نحن، فهل أنا فعلاً لي قيمة إيمانية ولست كافراً أو مشركاً عابداً للهوى وشاعراً بالسيطرة من مستوى إلهي على أموري...

(فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً{49})
{فَلَمَّا}، عندما، {اعْتَزَلَهُمْ}، فارق قومه... حين كسّر الأصنام... وحاولوا إحراقه بالنار... وفارق قومه، وفارق ما يعبدون من دون الله، وفارق الآلهة التي يتصرفون على أساس أنهم عبيد لها... واختصرت الآيات ما جرى معه(ع)، ومهاجرته من مدينته... وحين تزوّج من هاجر وأنجبت النبي إسماعيل(ع)، وأمره سبحانه بنقلها مع ولدها إلى مكّة... بعد ذلك:

{وَهَبْنَا}، أعطينا من دون أي مقابل لإبراهيم(ع)، {إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ}، فالنبي إسحاق(ع) بشّرت به الملائكة(ع) وبشّرت بيعقوب(ع) من بعده، ونقل القرآن ذلك في الآية 71 من سورة هود.

{وَكُلًّا}، وكل واحد، من إسحاق(ع) ويعقوب(ع)، {جَعَلْنَا نَبِيًّا}، فكلاهما كانا يصلهما النبأ، الخبر غير المنتشر بين الناس لهدايتهم.

لاحظ كيف قفزت الآيات في الكلام عن النبي إبراهيم(ع) من مرحلة الشباب إلى مرحلة الشيخ الكبير، فمن الواضح أنها بعد انتهائها من التركيز على دين التوحيد تريد التركيز على الولد وولد الولد اللذين حصل عليهما بتدخّل إلهي مثلما كانت السورة سابقًا تتحدّث عن النبي زكريا وولده يَحْيَى والسيدة مريم وولدها عيسى عليهم السلام.

حالة ولادة النبي إسماعيل(ع) كانت عادية لأنَّ أمّه "هاجر" كانت سليمة جسديًّا للحبل، ولكن حالة ولادة النبي إسحاق(ع) لم تكن عادية لأن أمّه "سارة" كان عندها مشكلة ما، ولذلك كرّر القرآن مسألة ولادة النبي إسحاق(ع) لأنها حصلت بتدخّل إلهي.

سؤال، إن كان النبي عيسى(ع) يمكن عبادته ولو بأي شكل من الأشكال التي يبررها المسيحيون العابدون له (ع)، فكيف يتماشى ذلك مع عقيدة الموحّد النبي إبراهيم(ع)؟ هذه المشكلة منتشرة في عموم الأديان التي تَعْلَقُ عند مرحلة زمنية من تاريخها ولا ترى الامتداد التاريخي السابق واللاحق، والمشكلة في المتدينين بدينه تعالى وهم على هذه العقلية هي مشكلة أكبر حيث لديهم مرجع إلهي ككتاب يهديهم للحقّ، ولكنهم لا يتبعونه! وهذا الخط الممتد من آلاف السنين لسلسلة أنبياء، على عقيدة واحدة، فكيف على نفس الخط تأتي عقيدة مختلفة وتكون صحيحة؟! هو هذا ما تريده السورة من كلامها عن النموذج التوحيدي البارز إبراهيم (ع)، الذي لم يعبد "عيسى (ع)" ولا "الروح القدس (ع)" ولم يعتقد

بهما آلهةً، بل حارب الشرك بِهِ حتى رموه في النار ونجّاه تعالى، ولم ينجّه لا النبي عيسى(ع) ولا الروح القدس(ع)، ووحده تعالى وهبه (ع) الأولاد والذرية الأنبياء التي تسلسلت حتى وصلت إلى النبي عيسى(ع)... وكما وهب تعالى لمريم(ع) ولدًا وقبلها زكريا(ع) وهبه تعالى يَحْيَى(ع) وقبلهم إبراهيم(ع) وهبه تعالى إِسْحَاقَ(ع)...

ها كل الدين الإلهي بتاريخه أمامكم وليس فيه تدخّل من مستوى إلهي إلا لله سبحانه وتعالى، فما معنى إدخالكم لعقيدة جديدة على هذا الخطّ!

لِنُطِلْ بالكلام طارحين الأسئلة البسيطة، فلو لم يهب تعالى إسحاق ويعقوب لإبراهيم عليهم السلام، فعمران لن يأتي ولن تأتي مريم ولا ابنها عليهم السلام، لأنهم ذرية من بعض، فهل سيقولون إنَّ عيسى(ع) كان سيبقى بطبيعته الإلهية؟ نسأل: لماذا لم يعبده إبراهيم(ع)؟!

من أبسط مفاهيم القرآن هو تركيزه تعالى على تعرّفنا عليه عزّ وجلّ بالقلب السليم، ودائمًا طَرَحَ لنا إبراهيم (ع) كأبرز نموذج عن شخص عادي وصل لأرقى الإيمان فقط وفقط عبر قلبه السليم، فإن لم يكن هناك مجال للقلب السليم من التعرّف على عيسى "الإله"، فما معنى ألوهيته؟! وإن لم يكن لعيسى (ع) أي علاقة بأي شيء في الدنيا قبل أن تلده أمّه، فما معنى ألوهيته؟! والادّعاء بأنه (ع) له علاقة بالدنيا من بعد وفاته، حيث يدعوه الناس ويستجيب لهم، كما يدّعي بعض المسلمين ذلك لشخصياتهم الدينية، فما معنى نسيانهم للشخصيات الدينية القديمة؟! عِلْمًا بوجود نفس عقلية التقديس عند آخرين لشخصيات دينية بدأ وتوقّف التاريخ الديني لديهم عندها، إذْ هناك من قدّس موسى وداوود... وتوقّف عندهم، وهناك من قدّس يَحْيَى وتوقّف عنده ناسيًا ما قبله، وهناك من قدّس عيسى وأمه وبولس... وتوقّف عندهم ناسيًا لمن قبلهم... وهناك من قدّس مُحَمَّدًا وعَلِيًّا وأَبَا بَكْرٍ وعُمَرَ... ناسيًا من سبقهم!

بشكل ما وبسبب الابتعاد عن جوهر دينه تعالى، صارت الدعوة الدينية للآخرين لينضمّوا إلى هذا الدين أو ذاك، دعوة لترك تقديس ما يقدّسه الآخرون لتقديس ما تقدّسه هذه الجماعة أو تلك، وهي عقلية مشابهة في عمقها لتشجيع فريق من فرق كرة القدم، حيث إنَّ كل الفرق لها مشجعوها، ولن تجد أي معنى عقلاني منطقي لسبب انقسام الناس في تشجيعهم للفرق المختلفة! لأنَّ الفرق تمر بمرحلة الذروة ومرحلة الحضيض ويبقى المشجعون المخلصون مع فريقهم على السرّاء والضرّاء! ونفس الشيء تُوصَفُ به الأديان ومذاهبها وطوائفها وأحزابها وجماعاتها... ولهذا لفت القرآن انتباهنا لضرورة أن لا نفرّق بين أحد من رسله تعالى كما ورد صراحة في الآية 285 من سورة البقرة {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ}... وفي هذه الآية والكثير غيرها ترى الأصل والأساس لمعنى كلامه تعالى معنا أن لا نخترع إلهًا أو ربًّا خاصًّا بنا مختلفًا عن ربّ وإله الآخرين، لأن الإله واحد أحد.

(وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً{50})
{وَوَهَبْنَا لَهُمْ}، وأيضًا أعطى سبحانه للنبي إبراهيم(ع) وولده وحفيده من دون أي مقابل منهم، {مِنْ رَحْمَتِنَا}، من عنايتنا لما فيه مصلحتهم، وهنا الكلام عن وهب الأولاد الصالحين لهم، وهم أيضًا حصلوا على صبيان وبنات صالحين.

{وَجَعَلْنَا لَهُمْ}، للنبي إبراهيم(ع) ولأبنائه وأبناء أبنائه... {لِسَانَ صِدْقٍ}، فكلامهم الذي يصدر من لسانهم من كلامهم بلغتهم لا يستند على الكذب، ولسان الصدق، {عَلِيًّا}، مثلما التعبير بـ: كلمة الله تعالى هي العليا، فهي صحيحة صادقة متحققة حتمًا... أعلى من غيرها بمستواها، فكذلك مَا يقولونه هم "الأنبياء والرسل" عَالٍ في مستواه الصادق، فهو صحيح مئة بالمئة لأنه يستند إلى قلبهم السليم المتماشي مع وحيه تعالى لهم.

بعد قليل ستعود الآيات لتشير إلى ولد نبي من أولاد النبي إبراهيم وهو النبي إسماعيل(ع)، وَفَصَلَتْهُ السورة في هذه الفقرة ليكون التركيز على أجداد النبي عيسى(ع)، فمن ادَّعَى أن عيسى (ع) إلهٌ، فليتذكّر أن هؤلاء هم أجداده، وهو من صلبهم، وليس من صلب الله عزّ وجل وتعالى عن هذا التعبير، ولا معنى لاتخاذه ولدًا لأنَّ مثله مثل العديدين الذين وهبهم تعالى لأهلهم وكانوا مميزين جدًّا مثل النبي عيسى(ع) في الإيمان.

الكلام يجرّ الكلام، هل تميّز أنت بين إبراهيم وعيسى في الإيمان؟ في القيمة المعنوية؟ في أي شيء فِعْلًا يجعل عيسى أعلى أو أرقى أو... من إبراهيم؟ فإن ذهب ذهنك إلى القدرات التي منحها تعالى لعيسى (ع) من إحياء الموتى و... فأنت

لم تفهم معنى القيمة الحقيقية عنده تعالى، لأنَّ الإيمان والعمل الصالح فقط وفقط هما معيار القيمة عنده تعالى لعبيده، حيث إنَّ القدرات الخارقة ومعرفة الغيب وتأويل الرؤيا وإحياء الموتى... ليست دائمًا انعكاسًا لقيمة أعلى عنده تعالى لمن حصل عليها، ها النبي سليمان (ع) لم يملك قدرة إحضار العرش من سبأ وعفريت من الجنّ كان قادرًا على ذلك، فهل العفريت الجنّي أشدّ إيمانًا من النبي سليمان(ع)؟

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً{51})
{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى}، واستحضر أيها النبي محمد(ع) في القرآن شَيْئًا عن النبي موسى(ع)، فَقَرَّرْنَا أن يكون في القرآن ذكر عنه(ع) وها أَنْزَلْنَاهُ عليك، فاقرأه على الناس.

{إِنَّهُ}، النبي موسى(ع)، {كَانَ مُخْلَصًا}، من المُخْلَصِينَ من الصفوة، وَكَانَ خَالِصًا لربه سبحانه من بين عباده، من الفئة المنفردة بالتميّز عن غيرها، وكان {رَسُولًا}، نَاقِلًا لكلامه تعالى للناس، وكان، {نَبِيًّا}، تصله الأنباء، تصله الأخبار غير المنتشر علمها بين الناس، والنبوة صفة صارت منذ القدم مُصْطَلَحًا دِينِيًّا كوصف للذي يصله النبأ منه تعالى لهداية الناس.

(وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً{52})

{وَنَادَيْنَاهُ}، وَجَّهَ سبحانه الكلام إلى نبيه موسى(ع)، {مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ}، من الجانب الأرضي الأيمن من الجبل، والمشهور تَارِيخِيًّا في الكتب أن هذا الجبل كان من سلسلة جبال منطقة سيناء.

هذه الحادثة تحدّثت عنها آيات مختلفة من القرآن ولم تذكر اسم الجبل، ونعلم منها أن النبي موسى(ع) كان عَائِدًا من مدين إلى مصر، ويبدو لنا أن الطريق إِجْبَارِيٌّ في منطقة جبال سيناء... وَرَأَى نَارًا على طريقه من الجانب الأيمن من الجبل، يعني كل من يمر في ذلك الممر، ومن خلفه الطريق إلى مدين ومن أمامه الطريق إلى مصر، فسيصير للجبل جهتان بالنسبة له، يَمِينٌ وَشِمَالٌ، وفي وادي طُوًى على جبل من جهة اليمين، ناداه سبحانه وكلّفه بحمل الرسالة...

{وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا}، جَعَلَهُ تعالى من المقرّبين الذين يتحدثون معه تعالى بحديث خاص.

نلاحظ تعبير الآية عن علاقة النجوى "الحديث الخاص براحة" بينه سبحانه مع نبيّه موسى(ع)، وهذا يشير إلى مكانته (ع) العالية جِدًّا عند ربّه سبحانه، وهذا من الأمور التي أرادت السورة الإضاءة عَلَيْهَا، حيث إنك في ذهنك تحسم المكانة العالية الحتمية للأنبياء والرسل، وبالنسبة لك هي تحصيل حاصل ولا جديد فيها، ولكن انتبه كيف صاروا كذلك، إذْ سبحانه أعطاهم مكانة القرب منه، حيث جعل عبده موسى(ع) نَجِيًّا، ومن ناحية العبد موسى(ع) تَقَرَّبَ إلى الإله تعالى، ولكنه من ناحيته كعبد مستواه بعيد كل البعد عن الإله تعالى، فعندما يقبل سبحانه تقرّبه، ويتحدّث معه بشكل خاص "نجوى"، فهذه منحة عظيمة، لأنَّ المعلومات الثابتة التي في ذهنك عن الأنبياء قَدْ تَفْقِدُ قيمتها الحقيقية إن صارت عادية وتحصيل حاصل، وهنا كُلُّ السورة تتحدّث عن وصف لعبيد تواصل معهم سبحانه وتدخّل في حياتهم وصاروا أَنْبِيَاءَ وَرُسُلًا ومعهم أنثى صدّيقة كنموذج عن الْإِنَاثِ الصالحات ذوات القيمة عنده تعالى.

لاحظ تكملة السورة باختصار وهي تختار قفزات من محطات الرسل عبر التاريخ، وَانْتَقَلَتْ من النبي الرسول إبراهيم(ع) إلى ثاني أبرز محطّة في تاريخ الرسل، إلى النبي الرسول موسى(ع) والسورة تفترض بنا معرفة عامّة عن تاريخه المشهور جِدًّا جِدًّا، وَهَا ترى الامتداد التاريخي لآلاف من السنين لدينه تعالى، وسترى بسهولة شُذُوذَ اعتبار أي أحد من رسله تعالى وَلَدًا له عزّ وجلّ.

كما ترى وَصْفَ الآية للمناجاة من الطرفين وأحدهما إلهي، يُعْطِيكَ فكرة عن عظمة الإله العظيم الذي اعتبر لمخلوق من مخلوقاته قيمة بسبب علو سلامة قلبه لدرجة جعله نَجِيًّا، وإلا فما مستوى كل المخلوقات أمام صفاته وقدراته تعالى؟ لا شيء، وبالمبالغة لتقريب الصورة أكثر نقول إنَّ الصفر كثير علينا لوصف صفة أو قدرة فينا بالمقارنة مع صفاته وقدراته تعالى، ورغم ذلك تَفَضَّلَ سبحانه علينا باعتبار قيمة عالية لنا إن كانت قلوبنا سليمة لدرجة اعتبار واحد منّا نَجِيًّا.

مِنَ المفروض أنك لاحظت سبب ذكر ذلك هنا، لأنَّ سبحانه كلّم عبده موسى(ع) واتّخذه نَجِيًّا يكلّمه على انفراد... وَاعْتَبَرَهُ تعالى ذَا قيمة عالية جِدًّا، وهذا الكلام والنجوى لم يحصل مع النبي عيسى(ع)، مما يجعلك ترى أنهم كلّهم عبيد وَتَمَيَّزَ بعضهم عن بعض بأمور لم تكن مشتركة بينهم، إذْ لا نعلم ولا من أي مصدر ديني أن أَحَدًا من الأنبياء حصل معه ما ذكرته سورة النجم وحصل مع النبي محمّد(ع) مما تعارفنا على تسميته بالعروج إلى السماء، ويبدو لي هنا أن السورة اكتفت بالإشارة اللطيفة مبتعدة عن الفجاجة في إظهار فروقات بين الأنبياء، وَاكْتَفَتْ بالقدر الكافي لترى أنه لا معنى لقول البعض عن النبي عيسى أَنَّهُ تعالى اتّخذه وَلَدًا.

بَقِيَ شَيْءٌ، مِنْ ضمن السموم التي يرميها شياطين الإنس بيننا، قرأت لأحدهم مُعَلِّقًا على آيتنا هذه أَنَّ القرآن كلامه سخيف وأقل من طفولي، لأنَّ الجبل ليس له يمين ولا شمال، فإن وقفت في أي بقعة، وهو أمامك، فسيكون له جهة بالنسبة ليديك، ولو درت حول الجبل إلى الجهة المقابلة، فَإِنَّ الجهة التي كانت يَمِينًا ستصير شِمَالًا بالنسبة لك... فلا معنى لقول القرآن عن جانب الجبل بأنه أيمن، لأني إذا درت للجهة الثانية فستكون هي نفس الجهة شمالية... وَأَقْحَمَ هذا الفهيم في كلامه مصطلح النسبية للمكان على أساس أن ثقافته العالية متوسعّة لحدود النظرية النسبية الفيزيائية... ما شاء الله على هذا الذكاء الخارق! فلو لم يخبرنا بذلك لكانت كل البشرية في حالة ضياع لا تعلم يمينها من شمالها، ولكن للأسف تركنا ضائعين ولم يخبرنا بذكائه الخارق كيف نوصّف اتجاهات الأماكن؟! لأنَّ جهة اليمين من الطريق تصير جهة الشمال للقادم من الجهة الأخرى، فإن كنّا مثقفين عقلاء فممنوع علينا استعمال توصيف اليمين والشمال للأشياء والاتجاهات... وَبِحَسَبِ ذكائه الخارق فَإِنَّ التعبير عن يمين وشمال للشارع هو تعبير سخيف طفولي ساذج يعكس جهلنا وقلّة اطلاعنا على الحقائق العلمية! وَهُوَ بهذه الأوصاف اتّهم النبي محمّد(ع) الَّذِي من الواضح بالنسبة له تأليفه للقرآن بناء على معلوماته الساذجة، والدليل أن الجبل ليس له جهات! وها في الجملة هنا يقول محمّد إِنَّ للجبل جهة يمين بينما الجهات نسبية. فِعْلًا ذكاء خارق نتج عنه دليل دامغ أن هذا القرآن من تأليف محمّد!

(وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً{53})

{وَوَهَبْنَا لَهُ}، أعطينا للنبي موسى(ع) من دون مقابل منه لنا، {مِنْ رَحْمَتِنَا}، من عنايتنا به لما فيه مصلحته، {أَخَاهُ هَارُونَ}، وَجَعَلَهُ تعالى، {نَبِيًّا}، مثل النبي موسى(ع) يصله النبأ منه تعالى لهداية الناس.

هارون(ع) كان رَجُلًا صَالِحًا جِدًّا، ولكنه لم يُعَيَّنْ من ربّنا سبحانه نَبِيًّا، وبعدما طلب النبي موسى(ع) منه سبحانه جَعْلَ أخاه هارون(ع) وَزِيرًا كَمُسَاعِدٍ له في إخراج بني إسرائيل من أرض مصر، استجاب سبحانه لطلبه وجعل هارون(ع) نَبِيًّا، حيث يَنْزِلُ عليه وَحْيٌ بأنباء من عنده تعالى.

السورة في فقراتها الثَّلَاثِ السابقة كان تركيزها على هبة الولد النبي بتدخل إلهي، وأول حالة كانت من طلب النبي زكريا(ع) لِوَلَدٍ، وبعدها حالة هبة وَلَدٍ من دون طلب من السيدة مريم(ع)، حيث في البداية أطاعت بالقبول لأنه أمر إلهي، وفيما بعد كلامه في المهد وإثبات طهارته فَنَفْتَرِضُ أنها كانت سعيدة به، وبعدها حالة هبة وَلَدٍ من دون طلب للنبي إبراهيم(ع)، وبعدها حالة هبة النبوّة لهارون(ع) بطلب من أخيه النجيّ موسى(ع).

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً{54})

{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ}، تَحَدَّثْ أيها النبي محمد(ع) في القرآن وَاسْتَحْضِرْ شَيْئًا عن النبي إسماعيل(ع)، حيث قَرَّرْنَا أن يكون في القرآن ذكر عنه(ع) وَهَا أَنْزَلْنَاهُ عليك، فاقرأه على الناس.

{إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ}، فإذا أعطى وَعْدًا وَقَالَ كَلَامًا عن شيء سيفعله فكان لا يتراجع عنه، {وَكَانَ رَسُولًا}، ينقل الكلام منه تعالى للناس، وكان {نَبِيًّا}، يصله النبأ، حيث تَصِلُهُ الأخبار منه تعالى لهداية الناس.

في القرآن وَرَدَتْ أَسْمَاءٌ للعديد من الأنبياء، ولا معنى لورود نفس الاسم لنبيين متشاركين بالاسم من دون الإشارة إلى كونهما نبيين مختلفين، وَهُنَا أوّل ما يخطر ببالك أن "إسماعيل" هو ابن النبي إبراهيم(ع)، وهذا صحيح، لأنه هو المشهور وهو الذي ذكره القرآن عدة مرّات، ولأن سياق الكلام السابق عن أبيه وَإِخْوَتِهِ(ع)، فحتى لو كان هناك نبي غيره يحمل نفس الاسم، فالآيات هنا لا تتحدّث عنه، بل تتحدّث عن ابن النبي إبراهيم(ع)، أقول لك هذا بسبب ورود

بعض الروايات التي تقول بأن المقصود بإسماعيل(ع) هنا هو شخص غير ابن النبي إبراهيم(ع)، وكالعادة وفي نفس الوقت لدينا روايات تقول بأنه هو نفسه ابن النبي إبراهيم(ع)! وهذا التناقض شيء عادي في الروايات!

نلاحظ مما نعرفه من القرآن، أن العطل "العقم أو شيء آخر" لم يكن في النبي إبراهيم(ع) بل كان في زوجته "سارة"، ولم تنجب أَوْلَادًا وَصَارَا شَيْخَيْنِ، وعندها تزوّج النبي إبراهيم(ع) من "هاجر"، وأنجبت إسماعيل(ع)، وأمر سبحانه النبي إبراهيم(ع) بنقلهما إلى مكّة... وبعدها حملت سارة وأنجبت أَوْلَادًا... ولذلك رأينا الآيات السابقة تَحَدَّثَتْ عن تدخّل إلهي لوهب الأولاد من "سارة"، حيث أَنْجَبَتِ النبي إسحاق(ع) الذي أنجب النبي يعقوب(ع) وآخرين، الذي أنجب النبي يوسف(ع) وآخرين، ومن ذريّة إخوة النبي يوسف(ع) خرج الكثير من الأنبياء، وصار اسم هذه المجموعة: بنو إسرائيل، وهذا لَقَبٌ للنبي يعقوب(ع)...

هنا في الآية الإشارة إلى الفرع الثاني من ذريّة النبي إبراهيم(ع)، إلى الفرع العربي، حيث على ما يبدو من القرآن ومن الروايات، أَنَّنَا لا نعرف أنبياء من بعد النبي إبراهيم(ع) إلا من ذرية النبيين إسحاق(ع) ابن إِبْرَاهِيمَ(ع) عن طريق ابنه يعقوب(ع)، ومن إِسْمَاعِيلَ(ع) ابن إِبْرَاهِيمَ(ع)، إِذْ فِي بعض كتب التاريخ يقولون إِنَّ النبي إبراهيم(ع) كان له أولاد آخرون ولم يكونوا أنبياء ولا من ذريتهم خرج أنبياء، والنبي إسحاق(ع) كان له أولاد غير النبي يعقوب(ع) ولم يكونوا أنبياء ولم يصر من ذريتهم أَنْبِيَاءُ. إِذًا تَبْدُو الإشارة القرآنية هنا بالحديث عن النبي إسماعيل(ع) إلى الفرع الثاني من النبي إبراهيم(ع) الذي خرج منه أنبياء أشهرهم النبي محمد(ع).

بقي شيء، حيث هُنَاكَ تحليلات في الفراغ بلا قيمة وترى لها آثَارًا في كلام بعضهم، إِذْ فِي المشهور تَارِيخِيًّا عند اليهود أن "هاجر" والدة النبي إِسْمَاعِيلَ(ع) كانت أَمَةً "عبدة" للزوجة الأولى للنبي إبراهيم(ع) "سارة"، ولن ترى من القرآن أَثَرًا لذلك ولست أقصد بذلك نفي الخبر، بل أقصد تنزيل قيمة الخبر إلى حيث مكانه الأصلي هذا إن كان الخبر بالأساس صَحِيحًا، فلا أهمية له بَتَاتًا، والكلام التوراتي عَنْ تزويج سارة لعبدتها هاجر للنبي إبراهيم(ع) حتى يصير له ولد... وعن انفجار غيرة سارة على هاجر وابنها وفرضها على زوجها نفيهم بعيدا عنها... وهكذا صار لدينا أولاد سِتٍّ "سارة" وأولاد جارية "هاجر"، فهذا الكلام يريك العقلية المريضة عند كاتبي هذا الكلام وَدَسِّهِ في التوراة، فهو رأيهم ومزاجهم الشخصي بالموضوع للتقليل من قيمة الآخرين والإبقاء على القيمة العالية فقط وفقط لأبناء إسرائيل "يعقوب(ع)"، حيث إِنَّ أبناء إِسْمَاعِيلَ(ع) وبالرغم مِنْ أنهم أبناء النبي إبراهيم(ع) ولكنهم أقل قيمة لأنهم أبناء جارية سارة.

(وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً{55})
{وَكَانَ}، النبي إسماعيل(ع)، {يَأْمُرُ أَهْلَهُ}، الناس الذين ينتمون له، زوجته وأولاده، كَانَ يأمرهم، {بِالصَّلَاةِ}، بالإقبال والتوجّه، وهذه الكلمة صارت مُصْطَلَحًا دِينِيًّا يشير لخصوص التوجّه والإقبال نحوه تعالى بكلمات وحركات محدّدة نسمّيها الصلوات اليومية الواجبة.

{وَالزَّكَاةِ}، كان يأمر أهله بها، وهي حصة ومقدار قليل "من العفو" مفروضة على المال والأملاك أوجبها ربنا سبحانه على "الأغنياء" ليدفعوها للفقراء والمحتاجين وَحَاجَاتِ المسلمين...

لمزيد من التوسع حول الصلاة والزكاة راجع ما ورد في دراسة الآية 31 من هذه السورة.

{وَكَانَ}، النبي إسماعيل(ع)، {عِنْدَ رَبِّهِ}، عند المسؤول عنه من مستوى إلهي، {مَرْضِيًّا}، حيث سبحانه كان رَاضِيًا عنه وَيَقْبَلُ بمحبّة ما يصدر عنه.

ضِمْنًا، هذا المديح للنبي إِسْمَاعِيلَ(ع) يعني أن الكلام القرآني المتكرر عن ولادة النبي إسحاق(ع) كان بسبب التدخّل الإلهي لولادته، وأن هذا لا ينفي تميّز أَخِيهِ إِسْمَاعِيلَ(ع) بالإيمان والعمل الصالح من الدرجة العالية.

ضِمْنًا يريك تفريعات لأنبياء لم يكن عندهم عقيدة تأليه أو تربيب النبي عيسى(ع)، حيث مِنْ عموم كلام القرآن ترى أن أي عقيدة دينية يجهلها الآخرون ومعرفتها متعلقة بجغرافيا ضيقة وتاريخ خاص ببعض الناس، فهي ليست من دينه تعالى، إِذْ إِنَّ بروز عقيدة جديدة ما في مجتمع ما، هُوَ حَتْمًا ليس من امتداد دينه تعالى، هَا الفرع من النبي إِسْمَاعِيلَ(ع)

البعيد جُغْرَافِيًّا وَثَقَافِيًّا عن الفرع من النبي يعقوب(ع) الذي منه وفي بيئة منتمية له وُلِدَ النبي عيسى(ع)، وَصَارَتْ عند بعض الناس من المسيحيين عقيدة تأليه أو تربيب أو... شَاذَّةٌ عن البقية من المُنْتَمِينَ لدينه تعالى، إِذْ لم تكن معلومة عند الفرع الآخر المنتمي لدينه تعالى من ذرية النبي إِسْمَاعِيلَ(ع)، ألا يشير ذلك بوضوح إِلَى أَنَّهَا عقيدة مخترعة مضافة لدينه تعالى؟

بَقِيَ شَيْءٌ، حيث تلاحظ أنك ولا بأي شكل يمكنك رؤية شخصنة إسماعيلية في القرآن، إِذْ إِنَّ النبي محمّد(ع) وقبيلته والكثير من العرب هم من نسل النبي إسماعيل(ع)، فلا في كلام النبي محمّد(ع) تلمس تَعَصُّبًا للعروبة أو لِلْإِسْمَاعِيلِيَّةِ أو لِلْمُضَرِيَّةِ... ولا في القرآن أي أثر لذلك نِهَائِيًّا، حتى إِنَّ ذكر ومديح النبي إسماعيل(ع) في القرآن جاء في الحدّ الأدنى مقارنة مع الْأَنْبِيَاءِ نوح وَإِبْرَاهِيمَ وصالح وشعيب وهود... ليس لِأَنَّ مرتبته أدنى بل من الواضح جِدًّا بتحليلي الشخصي أنه تعالى أراد بوضوح أن نرى ابتعاد القرآن عن أي شخصنة إِسْمَاعِيلِيَّةٍ يمكن أن يتّهم بها أحد ما النبي محمّد(ع).

نَادِرًا ما تجد كَلَامًا يتهمون فيه النبي محمّد(ع) بتصرفه بِنَاءً على قومية عربية أو إِسْمَاعِيلِيَّةٍ أو مكيّة أو قرشية أو هاشمية... والسبب أَنَّ القليل النادر من كلامه(ع) ومن أفعاله والذي قد يفسّره أحد ما بأنه نوع من العصبية أو القومية، هُوَ مَرْدُودٌ عليه بالنظرة العامّة لسلوكياته(ع) طوال حياته.

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً{56})
{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ}، وتحدث أيها النبي محمد(ع) في القرآن واستحضر شيئاً عن النبي إدريس(ع)، حيث قررنا أن يكون في القرآن ذكر عنه(ع)، وها أنزلناه عليك، فاقرأه على الناس.

{إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا}، لا يكذب في أي شيء، فهذه عادته والطريقة التي تَمَنْهَجَ عليها فكره وسلوكه، وبالتالي سينعكس هذا الصدق على إيمانه وكلامه، وكما ترى من القرآن فإن صفة الصدق التي وصف بها عدّة أشخاص تشير لارتباط منهجهم في الصدق بسهولة وصولهم إلى العقائد السليمة وصلاح عملهم، وفي أقصاها وصولهم إلى درجة النبوة والرسالة.

وكان {نَبِيًّا}، يصله النبأ، يصله منه تعالى الخبر غير المنتشر علمه بين الناس لهدايتهم به.

نلاحظ القرآن لم يذكر أي تفاصيل عن النبي إدريس(ع) سوى ورود اسمه في الآية 85 من سورة الأنبياء {وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ}، وما قالته الآيات هنا عنه(ع)، ومن الروايات "وكالعادة" نجد أشياء متضادة لا يمكن الاعتماد على صدق واحدة منها ولا الجمع بينها إلا برمي الأجزاء المتعارضة، لأنها إمّا مدسوسة من كذب وتخريفات من كان قبل الإسلام، أو تخريفات وأوهام وافتراضات جاءت من بعد الإسلام بلا أي استناد إلى مصادر موثوقة، ولذلك أنصحك ألا تهتمّ بالبحث عن حياة هذا النبي الموقّر من الروايات إلا بعد دراسة مصدرها ومتنها بعناية وبعقلانية، فلو استطعنا الوصول إلى قصّة صحيحة لحياة أي نبي من الأنبياء، فحتما ستكون فيها العبر الرائعة، ولكن بالاعتماد على الروايات فهذا شيء نادر للأسف، وأكثر القصص التي ستجدها ملعوب فيها، فتركها أفضل خوفا من نشر الأكاذيب، حتى لو كانت أكاذيب جميلة هادفة يبدو أنها لا تخالف الدين الإلهي، لكن الكذب هو الكذب، وترك نشره واجب علينا، فدينه تعالى لا يحتاج لقصص كاذبة حتى نروّج له، فهو لوحده كما عرضه القرآن نقلا عن الإله سبحانه، هو إمّا أن يكفيك لتهتدي، أو تجد نفسك بحاجة لأشياء أخرى إضافية لتهتدي فأنت في هذه الحالة لست مهتديا من أصله.

أختصر لك بعضاً مما يمكن أن تخرج به من الروايات عن النبي إدريس(ع)، فالأكثرية يقولون إِنَّه(ع) من أجداد النبي نوح(ع) ويقولون إِنَّ اسمه في التوراة "أخنوخ"، وبعضهم جعله (ع) مقحما في الثقافة اليونانية باسم وصفة فلسفية علمية يونانية، وجعلوه قريب العهد من النهضة العلمية الإغريقية بل جعلوه سببا لها وأساسَها وأسموه "هرمز"... وقيل إنَّه (ع) أول من استعمل القلم للكتابة، وقيل إنَّه أول من خاط الثياب... وقيل إنَّه تعالى رفعه إلى السماء الرابعة أو غيرها... وكل هذا الكلام عنه (ع) على عهدة قائله، فلا دليلَ تاريخيٌّ على أي شيء منه وليس مستنداً على مصادر موثوقة.

(وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً{57})
{وَرَفَعْنَاهُ}، رفع سبحانه النبي إدريس(ع)، {مَكَانًا عَلِيًّا}، ويتبادر إلى الذهن من هذه الجملة معنيان، إمّا في حياته رفعه تعالى إلى مكانة عليا، فصار له (ع) مكان مرموق كرجل محترم موقّر... وهذا المعنى بعيد نسبياً عن التعبير في الآية بكلمة "مكان"، وإمّا نفهمها بسحبه سبحانه كيانه (ع) من الأرض، فبجسده رفعه تعالى من الأرض، مثلما رفع سبحانه نبيه عيسى(ع) عندما توفاه، وهذا شيء نقرؤه في الآية 55 من سورة آل عمران "إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ..."، فالنبي إدريس(ع) أيضاً رفعه ربنا سبحانه عندما توفاه، وهكذا سيبدو لنا أن الكلام يشير إلى أنه تعالى لم يترك جسده على الأرض.

ننتبه جيداً، في نظرنا نرى أن أبرز ما تناولته السورة هو ولادة النبي عيسى(ع) بلا أب، وتأليه بعض الناس له، وقولهم عنه (ع) ولداً للإله سبحانه وتعالى... ومما سبق ترى عرض السورة للعقيدة الأصلية للدين الإلهي التي كان عليها النبي إبراهيم (ع) وهي لا تتضمّن إلا تأليهه عزّ وجلّ وحده... وعرضت السورة عليك أجداد النبي عيسى(ع) لتريك أصله البشري، وهنا يمكنك مماثلة موضوع رفع النبي إدريس(ع) مع رفع النبي عيسى(ع) حين توفّاه تعالى، فالرفع لم يكن حدثاً يستوجب جعل النبي عيسى(ع) مختلفاً عن بقية العبيد المخلوقات المميزين بالنبوة والرسالة، فالنبي إدريس(ع) رفعه سبحانه أيضاً، فما معنى القول عن النبي عيسى(ع) إنَّ طبيعته إلهية وتلبّست بجسد بشري لتخليص البشرية، وحمل خطاياهم بالتعرّض للتعذيب بدلاً عنهم، بالجلد والصلب... بدليل أنه عاد لطبيعته الإلهية واختفى جسده! فلا النبي عيسى(ع) جُلِدَ ولا صُلِبَ ولكن شُبِّهَ لهم كما ورد في الآية 157 من سورة النساء "وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ..."، ولا هو بطبيعة إلهية ولا ربع إلهية ولا بنفحة إلهية، بل عبد مخلوق، وها رفع سبحانه من قبله عبداً اسمه إدريس(ع).

هكذا تلاحظ القرآن لا ينزل إلى مستوى ما "تفلسف" به بعض الناس واخترعوه من عقائد وتشريعات، فأجاب عمّا اخترعوه ولكن بتعالٍ، حيث تجد الإجابات القرآنية على الكفّار والمتلاعبين عن قصد بالدين، تجدها أحياناً مقرونة بالسخرية والاستهزاء، وتجد الأجوبة عن كل أنواع الأسئلة، مع التأكيد القرآني على إظهار أن أصل إشكالات الكفار والمنافقين والفاسقين والمتلاعبين بالدين... لم يكن بريئاً مبنياً على منطق، بل حتى لو بدا لك منطقياً للوهلة الأولى، فيركّز القرآن على إظهار سخافته، راجع كمثال الآية 78 من سورة يس "وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ"، فلا منطق ولا عقلانية لأي عقيدة أو تشريع غير ما يقوله الإله سبحانه، وتجد الرصانة في لفت الانتباه للعقائد الصحيحة، وللآيات الإلهية... وتجد الملاينة والاستمالة والترغيب للمؤمنين لترك السيئات وفعل الصالحات...

هنا نجد نقطة من النقاط العديدة التي جعلت بعض الناس ينسبون النفحة الإلهية للنبي عيسى(ع)، وهي رفعه (ع) إلى السماء كدليل على عودته إلى طبيعته الإلهية! وهو كلام في غاية السخافة، أجابت عنه الآية هنا حتى من دون أن تعطي أي قيمة لمن استعمل هذه النقطة لدعم أفكاره السيّئة، وهكذا تفهم مكانة النجوى للنبي موسى(ع) كردٍّ مباشر وغير مباشر على من جعل للنبي عيسى(ع) قرباً منفرداً من الإله سبحانه، وتفهم المعاناة غير العادية للنبي إبراهيم(ع) مع قوم مشركين من أولهم لآخرهم إلا قليلاً "سارة والنبي لوط(ع)"! حتى إنَّ قومه حاولوا قتله... فظروفه إن لم تكن مشابهة فربما أشد صعوبة من الظروف التي تعرّض لها النبي عيسى(ع) لمحاولة صلبه.

الكلام يجرّ الكلام، فمن خارج سورتنا يخطر ببالي ما هو مشهور في التراث اليهودي عن اختفاء النبي موسى(ع) في أحد الجبال بعدما أخبر الناس أنَّ أجله آتٍ، فصعد على جبل ما ولم يعد له أي أثر، ولست بصدد دعم ما ليس بصريح من القرآن، ولكن تلك الحادثة مدعومة بانتفاء وجود قبر للنبي موسى(ع)، ولا أحد يدري سبب اختفائه (ع)، فهل رفعه تعالى أو دفنه بلا معلم على وجه الأرض؟ لا نعلم.

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً{58})
{أُولَئِكَ} الأشخاص الذين تحدثت عنهم السورة "زكريا وابنه يحيى، عيسى، إبراهيم وأبناؤه إسحاق ويعقوب وإسماعيل، موسى وأخوه هارون، وإدريس" عليهم السلام، هم {الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ}، هذا نموذج عن

أفضال الله تعالى على النبيين على الأشخاص الذين يصلهم النبأ، والكلام عن وصول الأخبار منه تعالى لهم لهداية الناس، حيث هؤلاء حصلوا على أشياء جيّدة منه تعالى، بعضهم حصل على الولد، والنبي إسماعيل كان هو نفسه النعمة الإلهية، وأنعم تعالى على النبي موسى(ع) بجعل أخيه هارون(ع) نبيًّا، والنبي إدريس(ع) أنعم عليه تعالى حيث رفعه.

أولئك الأنبياء كانوا {مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ}، من الذين انفصلوا عن آدم(ع) "بالولادة أو بغيرها"، وكل الأنبياء من ذريته(ع)، وثانيا كانوا {وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ}، سبحانه حمل في سفينة النبي نوح(ع) أولاده وبعض المؤمنين وكان الأنبياء من بعد ذلك من ذريّة أولاد النبي نوح(ع)، {وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ}، ومن ذرية ابن ابنه، {وَإِسْرَائِيلَ}، وهو نفسه النبي يعقوب(ع) كما هو مشهور في التاريخ وواضح من سياق العديد من آيات القرآن.

بحسب ما نعرفه من القرآن "مدعوما بتراثنا الديني"، لا يوجد أنبياء إلا من ذريّة آدم(ع) وهذا شيء كرّره القرآن مرارا، حيث بقية سلالات البشر لم يصل منهم أحد لأهلية صيرانه نبيًّا، ويقولون في الروايات إنَّ من ذريته النبي إدريس(ع) ومن ذرية إدريس(ع) النبي نوح(ع) وبعدها لا يوجد أنبياء إلا من ذريّة النبي نوح(ع)، وانحصار النبوّة في ذرية النبي نوح(ع) شيء تكرر قوله في القرآن، وامتدّت الفترة الزمنية وصولا إلى النبي إبراهيم(ع) وبعدها وبحسب القرآن لا أنبياء إلا من ذرية النبي إبراهيم(ع)، من الذين انفصلوا عنه "بالولادة"، ومنهم النبيان الأخوان إسحاق وإسماعيل عليهما السلام، ونقرأ ذلك في الآية 33 و 34 من سورة آل عمران "إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ...". وبعد ذلك كان الأنبياء "على ما يبدو من القرآن وبحسب الروايات" حصرا من ذرية النبي إسماعيل(ع) ومن ذرية النبي يعقوب:إسرائيل(ع)، حفيد النبي إبراهيم(ع) من ولده النبي إسحاق(ع)، ومن العمّ وابن أخيه تولّد الكثير من الأنبياء ومنهم موسى وهارون، وزكريا ويحيى، وعيسى، ومحمّد عليهم السلام.

أولئك الأشخاص، {وَمِمَّنْ هَدَيْنَا}، ممن وضعنا على الأشياء الصحيحة التي توصل لغاية صحيحة، وأولئك الأشخاص ممن {وَاجْتَبَيْنَا}، اخترناهم من الناس وجعلناهم مميزين منسوبين إلينا، حيث البعض اجتباه تعالى بالنبوة والرسالة كالأنبياء الذين تحدّثت عنهم السورة، والبعض الآخر من المهتدين المجتبين كالصديقة مريم(ع)، وهكذا شملتها الآية هنا كشخص رديف للمميزين الذين تحدّثت عنهم السورة ومن الذين نالوا العناية الإلهية غير العادية.

أولئك الأشخاص، {إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ}، إذا سمعوا الكلام المميّز المنسوب له تعالى تتم قراءته من مستند إلهي، {خَرُّوا}، سقطوا كردّ فعل، وقعوا من شدة احترامهم لربهم سبحانه، {سُجَّدًا}، قربوا وجههم من الأرض أو لامسوا بوجههم الأرض، {وَبُكِيًّا}، تنزل دموعهم، يعبّرون عن حزنهم من سيئاتهم أو تقصيرهم أو خوفا من العقاب... أو خشوعا وتأثرا بما يعلمونه عنه تعالى من صفات حسنى.

تذكّر دائماً أنَّ التوصيف هنا عن نمطية تصرفات هؤلاء، فالكلام ليس عن حالة دائمة لهم بالسجود والبكاء، وطبعا ليس للمبالغة في وصفهم، بل عن حالات تحصل لهم.

إذًا، لم يتميّز أولئك الأشخاص بالنعم الإلهية عن عبث، فكلّهم كان لديهم صفة هامة مشتركة بينهم سبّبت حصولهم على العناية الإلهية الخاصة، كانوا يسجدون ويبكون عندما يسمعون عن الغضب الإلهي لمن خالفه تعالى، وعندما يسمعون عن النعيم الرائع لمن أطاعه، ويبكون خشوعاً عندما يسمعون الكلام عن أفعاله الحميدة سبحانه في الدنيا والآخرة...

هذه هي سلسلة مترابطة من تاريخ دينه تعالى، وأي شيء آخر سيظهر شواذه لمن كان قلبه سليماً، والكلام هنا في السورة بالخصوص عمّن جعل النبي عيسى(ع) ولداً له تعالى.

لتقريب الفكرة ألفت انتباهك لما نحويه من معلومات تهمّنا ممّا نسمّيه ثقافة إسلامية، عن تاريخ النبي محمّد(ع) وأهله وفترة صباه... وأصحابه وحياته الخاصّة... عن الخلفاء والصحابة... والحوادث التاريخية من حكم الأمويين والعباسيين... على أساس أن هذا كلّه اسمه: ثقافة إسلامية. نختصر تاريخ دينه تعالى بتاريخ "ديننا" وكأنه دين بلا امتداد! ويبدأ من حيث نحن حدّدنا أنه مهم، وأن ما قبله أقل أهمية أو معدوم الأهميّة...

قارن هذا مع ثقافة المسيحيين الدينية، التي ليس فيها شيء من ثقافتنا، حيث تتمحور حول النبي عيسى(ع) وأمّه (ع) ومن حوله... وقارن هذا مع الثقافة الدينية لليهود، التي توقّفت في أبعد حدودها عند النبي يحيى (ع) ولم تشمل النبي عيسى(ع)، هذه الثقافة المشحونة بتسجيلات عن أنبيائها وقدّيسيها وأبطالها وحوادثها التاريخية...

لاحظ الفرق بين ثقافة القرآن، وثقافتنا "الإسلامية"، وربما تظنّ في كلامي مبالغة لأننا نحترم الأنبياء السابقين ونهتمّ بقصصهم... ولكني ألفت انتباهك إلى من كان في محيط أولئك الأنبياء من صحابة... فهل في ثقافتنا كلام عنهم بقدر ما عندنا كلام عن صحابة النبي محمّد(ع) والتابعين والخلفاء والملوك... لا، وستقول بأن السبب واضح، لأن هؤلاء الأقرب عهدا لنا، وحياتهم متداخلة مع نبيّنا والقرآن والإسلام... ولكن هو هذا نفس الكلام يقوله المسيحيون، ويقوله المعمدانيون أتباع النبي يحيى(ع)، ويقوله اليهود...

من عموم القرآن ترى تركيزاً على الخطّ الإلهي الممتدّ لآلاف من السنين عبر الأنبياء والرسل من آدم(ع) وهو أول بشري تأهل ليتكلّف بدينه تعالى، وها القرآن جاءك بالامتداد التاريخي بحيث لا تشعر باختصاص القرآن بزمن النبي محمّد(ع) ولا بشخصه ولا بأمّته... بل تشعر بأنه امتداد لتاريخ دينه تعالى، وسورتنا هذه من أبرز الأمثلة على ذلك من كلامها الافتتاحي عن النبيين زكريا (ع) ويحيى(ع) وبعدهما الصدّيقة مريم (ع) وابنها(ع)، وبعدهما إبراهيم (ع) وأولاده(ع)...

لن ترى الخط التاريخي للدين الإلهي الذي تقصد السورة به لفت انتباه المسيحيين الذين قالوا عن النبي عيسى(ع) إنَّه ولدٌ له تعالى إذا لم تكن أنت على الخطّ، وأقل ما أقوله لك عن ذلك هو ربطك للإيمان والالتزام الديني الصحيح، ربطه بتقديس الآخرين للشخصيات الدينية الخاصّة بمذهبك، ولشخصيات من تاريخ المعاصرين للنبي محمّد(ع).

هذا الكلام يبدو من خارج أغراض السورة ولكنه نابع من فحواها، فتقديس المسيحيين لرسولهم ورفعه فوق بقيّة الرسل حتى درجة الألوهية، هو نفسه وللأسف ما أصاب اليهود من قبل وأصابنا نحن من بعد... وكانت بنسخ متطابقة بتأليه مباشر لشخصيات، أو غير مباشر بتربيب الشخصيات، أو مختلفة قليلاً بتقديس الشخصيات بصفات مساوية أو أعلى من صفات الأنبياء!

(فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً{59})

{فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ}، أتى من خلف أولئك الأنبياء، من بعد أولئك الذين أنعم الله تعالى عليهم، جاء أناس من بعدهم، {أَضَاعُوا الصَّلَاةَ}! فكانت بين أيديهم ولكنهم لم يهتمّوا بالتوجّه لله تعالى فتركوها، فذهبت من بين أيديهم.

عادة يشير القرآن بالصلاة إلى ما صار مصطلحاً دينياً للحركات والكلمات التي فرضها تعالى علينا لنقوم بها خمس مرات في اليوم كنوع من تطبيقات العبادة، وتعبّر الآية عن تضييعهم لها لأنه تعالى فرض علينا الصلاة لاستفادتنا نحن منها، وخذ مثالاً عن ذلك حاجتنا لها كفعل حسن نقوم به لتذهب عنّا سيئاتنا كما ورد في الآية 114 من سورة هود "وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ"، فأضاعوا هذه الفرصة في فعل حسنة من مستوى عالٍ جداً وهم بأمسّ الحاجة لها لتنغفر ذنوبهم.

تذكّر استبدال اليهود والمسيحيون للصلاة المؤلفة من وقوف وركوع وسجود "مثل صلاة المسلمين"، بصلاة بلا حركات أو بالاهتزاز للأمام والخلف، وفيها كلمات من اختراعهم، هذا إن صلّوا، لأن الغالبية لا يقومون حتى بهذه الطقوس المختصرة للصلاة.

{وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ}، كانوا على ما يشتهونه، على ما تتحرّك نحوه رغباتهم وأحاسيسهم للتماس معه، من الأعمال والأقوال التي يرغبونها، وسياق الكلام عن الشهوات السيئة، فإذا اشتهوا شيئاً فرغبوه فإنهم يقومون به حتى لو كان سيئاً، وبالتالي فهم يتركون الصالحات إذا لم يشتهوها، فيتركون الصدقة والزكاة وبرّ الوالدين...

{فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا}، سيلاقون ويكون بانتظارهم أعمالهم العاطلة الفاسدة، فالغيّ هو نفسه وصف لأعمال الغواية أي الأعمال غير الرشيدة وغير العاقلة، وفي نهاية طريقهم بعدما يقومون من الموت في يوم القيامة سيلاقون أعمالهم، {غَيًّا}، لا رشد فيها فلا حسنات فيها، فهي أكوام من السيئات، وهذا يشبه ما ورد في الآية 68 من سورة الفرقان حين

قالت إنَّه يلق أثاماً "وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا".

إذًا، كنّا أمام نموذج راقٍ من البشر وصل لمراتب عالية في العلاقة مع إلهه سبحانه، وحصلوا على العناية الإلهية في الدنيا وسينالون الجنّة في الآخرة، وها تعرّفنا الآيات هنا على النماذج الأخرى العاطلة التي تركت الصلاة ولحقت بالشهوات السيئة ففي الآخرة سيلاقون سيئات ما فعلوه.

لاحظ سياق الكلام في السورة وصل إلى الذين شذّوا عن التاريخ الطويل للدين الإلهي الممتدّ عبر سلسلة طويلة من الأنبياء، وهذا واضح من تعبير {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ}، فالكلام موجّه لمن هم منتمون بالولادة لأولئك الأنبياء، وللمنتمين دينياً لأولئك الأنبياء، والذين أضاعوا الصلاة، وهذا التعبير يشير لتوقّفهم عن الصلاة له تعالى، ويشير أيضاً لصلاتهم لغيره تعالى، كالصلاة للقديسين، والصلاة لمن يعتبرونهم آلهة أو من مستوى إلهي كشبه بعبادة المشركين للأصنام... وهذا ما سبق وكررته لك، وأعترف بتكراره المملّ، فالسورة لبّها الإشارة للامتداد التاريخي لدينه تعالى ووضوح الشواذ عنه بعبادة غيره تعالى من الشخصيات الدينية أو من الملائكة(ع)...

(إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً{60})
{إِلَّا مَنْ تَابَ}، الذي أقلع عن السيئات وفتح صفحة جديدة فهو المستثنى فقط من ملاقاة الغي "السوء" في الآخرة، {وَآمَنَ}، فاعتقد بهذا الدين الإلهي، {وَعَمِلَ صَالِحًا}، فقام بالأعمال الموصوفة بأنها صالحة جيّدة، وعمليا ترك ما حرّمه تعالى وفعل ما أوجبه تعالى، {فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ}، حيث سيصيرون في المكان الموصوف بروعة ما فيه، وتعلم أنه في الآخرة وفيه الحدائق والبساتين والمشتهيات... {وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا}، فأي شيء حسن فعلوه حتى لو كان صغيرا فهم سينالون الثواب عليه، ومن جانب آخر، ما فاتهم من شهوات الدنيا بسبب إيمانهم سيجدون أروع منه في الآخرة، ومن ناحية ثالثة أساسية إيمانهم وعملهم الصالح لن يذهب هباء، ومن ناحية رابعة بالمقارنة بينهم وبين من كان من الأساس مؤمنا عاملا للصالحات فهم مرّت عليهم فترة من حياتهم قاموا فيها بمعصية الله تعالى، ولكن بعد التوبة والإيمان والعمل الصالح، سينالون من الأجر كما ينال غيرهم بالحق والإنصاف فلا يظلمهم سبحانه من الثواب ولن يكون ثوابهم أقلّ.

يعني التوبة تمسح كل ما سبق من الذنوب مسحا تاما، ومن بعد ذلك الثواب الذي سيناله التائب من أعماله الحسنة سيكون مثله مثل ثواب أي شخص آمن منذ صغره، فلا يوجد ثواب من الدرجة الثانية أو الثالثة لأنه "كان" مذنبا، لا، بل "نظريا" يمكنه القيام بالأعمال الحسنة منتهيا عن كل السيئات حتى يدخل إلى درجة الأنبياء في الآخرة.

نلاحظ دائما ربط القرآن للإيمان بالعمل الصالح، حيث لا الإيمان لوحده يسبب دخول الجنّة، ولا العمل الصالح بدون إيمان يسبب دخول الجنة.

نلاحظ دائما أن باب التوبة مفتوح حتى لآخر لحظة من حياتنا، ولكن من القرآن ومن أرض الواقع نعلم أيضا أن من أخّر التوبة واستمرّ في فعل السيئات فقلبه سينطبع بالتعلّق بالسيئات ومن شبه المستحيل عليه تركها، وسيعتاد على ترك الحسنات ومن شبه المستحيل عليه فعلها...

نعلم من القرآن أن التوبة هي قرار بترك السيئات مع شعور جدّي حقيقي بأنها سيئة، وبالتالي الندم على فعلها، وبالتالي الندم على فعل ما يغضبه تعالى، فهذه هي التوبة الصافية من مستواها العالي وليست مجرّد كلام باللسان، فمن قال: أتوب إلى الله تعالى، فهذا الكلام بلا تطبيق يكون مجرّد كلام فارغ ولن يسبّب مسحا للذنوب إلا إذا فعلاً توقّف عن فعل السوء. ومن هنا نصير أمام حالتين، حالة ترك فعل السوء والالتزام بالصالحات مع حبّ لبعض السيئات، أو مع كره لكل السيئات. الأخير توبته تنطبق عليها كامل أوصاف التوبة، والمحبّ لبعض السيئات سينال المغفرة على ما تركه من سيئات ولم يعد يفعلها بالرغم من رغبته في فعلها، ولكن لن يكون أجره مماثلا للتائبين الحقيقيين، وعلى كلّ حال أقل درجة في الجنّة هي أروع من كل ما في الدنيا من سعادة، وأصلا لا أحد في الجنّة سيشعر بأن سعادته أقل من سعادة الآخرين، حيث لن يرى ولن يخطر بباله أن الرسل سعيدون أكثر منه لأنه يشعر بأقصى ما يمكنه الشعور به من سعادة.

(جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً{61})
الجنة التي سيدخل إليها من آمن وعمل صالحا، ومن تاب وآمن وعمل صالحا: {جَنَّاتِ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها، {عَدْنٍ}، للإقامة الدائمة، ولن يخرج منها من بعد دخولها، ولن يموت فيها، ولن يضطر لتركها... ولا هي ستخرب، ولن يفكر هو في تركها ولن يدفعه أي شيء لتركها...

تلك الجنات العدن هي، {الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ}، الذي يعتني بالذين مفروض منهم طاعته حيث قال إنه سيجعل المؤمنين العاملين للصالحات في تلك الجنات. وهذا وعد، {بِالْغَيْبِ}، فنحن الآن لا نرى الجنة ولكننا نؤمن بها وهي بالغيب أي غائبة عنا، و{كَانَ وَعْدُهُ} سبحانه {مَأْتِيًّا}، آتيا، وبالتأكيد سيحصل الوعد ويكونون في الجنّة.

من الناحية الإلهية، هو تعالى قادر على تنفيذ ما قرّره ولن يمنعه أي شيء عن إدخال المؤمنين العاملين للصالحات إلى جنات عدن، ومن ناحية ثانية يخبرنا سبحانه أنه لن يغيّر قراره أبدا.

لاحظ الآيات هنا وفي غيرها من السورة، مرّة تقول جنّة ومرة تقول جنّات، حيث إن كل المكان الرائع الذي سيدخل إليه المؤمنون اسمه: جنّة. وفي تلك الجنّة يوجد جنّات، وفي كل جنّة من تلك الجنات يوجد أيضا جنّات، ولا تَنْسَ أن الجنّة عرضها كعرض السماء والأرض كما ورد في الآية 21 من سورة الحديد {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...}، فإذا نظرت إلى السماء ورأيت فقط بعينك مدى سعتها، وأنت تعلم الآن أنها أوسع مما تراه بعينك بكثير، ففيها بتقديراتنا الحالية تريليونان من المجرات التي في كل مجرة منها مئات المليارات من الكواكب، فتصوّر مثلا أن هذه المساحة الهائلة هي الجنّة، وفيها جنات ولنقل إن كل مجرة جنّة، وفي الجنات جنات وجنات... ولنتصوّر كل كوكب جنّة، وكل كوكب عليه جنّات... وبهذا التقريب سيذهب فكرنا إلى كواكب جنّات، ولنقل إن للمؤمن الواحد جنة خاصة له "مجرة أو مجموعة كواكب..."، وفيها جنات، ولذلك يعبّر القرآن عن الجنة كاسم للمكان الهائل بالسعة، وعن الجنات في داخله. طبعا كلامي عن المجرات الجنّات هو لتقريب الفكرة ولا علم لي بتفصيل سماوات وأرض الآخرة، وخاصة إذا تذكّرنا أن ما نسميه بكوننا بمجراته التريليونية هو سماءٌ واحدةٌ من سبع سماوات، والمثال التقريبي الذي قلته لك عن المجرات، لم يشمل النظر لبقية السماوات التي لا نعرف أي شيء عن طبيعتها ونوعية تكوينها، لأن جنة الآخرة بسعة السماوات السبع الحالية.

الكلام يجر الكلام، فمن معطيات عصرنا عن حجم الشمس الهائل، تعلم أنها لو فرضا ولتقريب الفكرة قلنا إن شيئا مثلها في الآخرة سيكون نار جهنّم، فرضا ولتقريب الفكرة، فأنت تعلم الآن أنها وبسبب ضخامتها ستبدو فارغة حتى لو رميت فيها تريليونات من البشر على سطحها. وهذا التقريب التشبيهي صار من البديهيات لنا لمعرفتنا بضخامة كوننا، أمّا قديما فاستغرب الناس سائلين عن المكان الكبير الذي سيكون جهنّم ليسع الكافرين، لأنهم كثر فأي مكان سيسعهم؟ وتجد كلاما قديما سائلا عن مكان النار إن كانت الجنّة بسعة السماوات والأرض، وها صرت تعلم من المثال التقريبي عن المجرات والشمس... أن كوكبا واحدا أكثر من كاف ليسع الكافرين بل وبتعبير القرآن سيبقى قابلاً لاستيعاب المزيد كما ورد في الآية 30 من سورة ق {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ}.

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً{62})
في تلك الجنات العدن:

{لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا}، كلمة لغو يناسبها في استعمال القرآن بتعبيرنا الحالي: الكلام الفاضي، كلام بلا طعمة، كلام كيف ما كان، شربحة وحكي فاضي، هراء. ويتدرج من الأسوأ وهو الكذب وتكذيب الحق، مرورا بالتعليقات والانتقادات غير المحقّة والمعيبة على الدين الإلهي أو على الناس، وصولا إلى المبالغة بالكلام والمزاح الثقيل... في الجنّة لا يسمعون الشتائم ولا الإهانات ولا حتى زلات لسان بكلام سيّء... {إِلَّا سَلَامًا}، يسمعون فقط كلاما نابعا من سلام، من إعلان الآخرين عن انتفاء أي نيّة لأي نوع من الأذى لأن كله كلام طيب وحسن وليس فيه أي شعور بالحقد أو البغض... بل كله محبة وفرح...

{وَلَهُمْ}، لسكان الجنة، {رِزْقُهُمْ فِيهَا}، تصير معهم الأشياء التي يأكلونها، {بُكْرَةً}، في أول الوقت من اليوم، {وَعَشِيًّا}، في آخر الوقت، والعشي هو الفترة التي يكون فيها الضوء خفيفا من دون ظل وتمتد من قبل المغرب حتى ما قبل العتمة التامّة.

لا تقصد الآية أن الطعام في الجنّة وجبتان فقط، واحدةٌ في الصباح وواحدةٌ قبيل المغرب، لا، بل تقصد أنه طالما تتوالى وتتكرر بُكْرَةٌ وَعَشِيٌّ في الجنّة فإنهم يحصلون على رزقهم بشكل مستمر بلا انقطاع. وهذا النوع من التعبير متكررٌ في القرآن للإشارة إلى المداومة على ذكره تعالى، بكرة وعشيا، بالغدو والآصال... على طول.

كما يبدو من الآية هنا، في الجنّة توجد فترات مختلفة من الإضاءة في اليوم، يوجد صباح وعشي، ونستنتج من ذلك أنّ في الجنّة ليلاً ونهاراً، حيث إن كلمة عشي تختلف عن كلمة عشاء، لأن العشي هي الفترة التي يكون الضوء فيها خفيفا، أما العشاء فبعد غروب الشمس من حين ما يختفي الضوء تماما، والآية تحدّثت عن العشي لا عن العشاء، فلا تأكيدٌ ولا نفيٌ قرآنيٌ صريحٌ لوجود ليل في الجنّة. ورد في القرآن عن عرض الكافرين على النار في يوم القيامة غُدُوًّا وَعَشِيًّا وذلك قبل انتهاء يوم القيامة ودخولهم في النار، ونجد ذلك في سورة الأحقاف 20، 34، الشورى 45، غافر 46، ولا يخطر في بالي أي إشارة في القرآن لوجود غدو وعشي في النار من بعد انتهاء يوم القيامة.

طبعاً الكلام عن الرزق والذي أهمّه الأكل والشرب هو نموذج عمّا يسعد به أهل الجنة، وفي بعض الآيات التي ذكرت نماذج أخرى عمّا في الجنّة من متاع جنسي، ستجدنا توسّعنا في دراسة تعليقات بعضهم على القرآن متهمين إياه بأنه كتاب فيه تعابير جنسية معيبة، فراجع أي آية من تلك الآيات التي هي أصلاً قليلة جدا، وسترى كلاما مفيدا في دراستنا لها رداً على الكافرين بالقرآن. وهنا أيضا للكافرين بالقرآن مشكلة، حيث قال بعض المدّعين للفهم منهم إن القرآن يستجلب جمهور الفقراء بوعدهم بالطعام اللذيذ في الجنّة والذي يفتقدونه هنا في الدنيا حتى يؤمنوا به، ولم أفهم إن كان الاتهام موجّها له تعالى، أو موجّها للنبي محمّد(ع) بأنه ألّف القرآن ليستميل الفقراء ليؤمنوا به بسبب وعده لهم بالطعام في الجنّة، ماذا عن الآيات الكثيرة جدا والأكثر بكثير من الآيات التي تحدّثت عن الرزق في الآخرة وكانت داعية للصدقة والزكاة والإنفاق والإيتاء... هل هذه كانت موجهة للفقراء أم للأغنياء ليؤمنوا بدينه تعالى؟ طبعاً السؤال قبل ذلك عن دينه تعالى الممتدّ لما قبل النبي محمّد(ع) بآلاف السنين إلى أول بشري تأهّل ليتكلّف إلى آدم(ع)، منذ ذاك الزمان الغابر وعد تعالى المؤمنين العاملين للصالحات بالجنة، هل محمد ألّف القرآن واخترع الوعد بالجنّة أم من الواضح أنه وعد إلهي منذ آلاف السنين؟

هؤلاء الكافرون بالقرآن الممارون الجاحدون اللاغون الخائضون... المدّعون للفهم، ليخبرونا عن شيء سيّء قال لنا القرآن عنه أن نفعله في مقابل وعده لنا بدخول جنّة الآخرة؟ أو ليخبرونا عن شيء واحد جيّد منعنا عنه القرآن ووعدنا في مقابل تركه بدخول جنّة الآخرة؟ هم تعاموا عن هذا ورموا تعليقاتهم السخيفة لتبرير كفرهم النابع من تعلّقهم هم بفعل بعض السيئات وترك بعض الصالحات.

ما العيب بوعده تعالى بالطعام والشراب اللذيذين كأجر على فعلنا للصالحات؟ أو الوعد بمتاع جنسي في الآخرة؟ أنا كمؤمن حتى لو كنت من الدرجة المنخفضة فلدي رغبة وطمع بذلك، أمّا هم فمما يعلمونه من وعد لهم بالنار بسبب كفرهم وسوء عملهم، يسخرون الآن من الجنّة وما فيها لأنها ليست معروضة لهم ليدخلوها، لأنها للمتقين فقط كما ستقرأ في الآية التالية، لذا فإن كل تعليقاتهم عليها مشابهة لتعليقات المثل عن الثعلب الذي يقول عن العنب اللذيذ العالي إنه حصرم، لأنه لا يستطيع نيله ولذلك يسخّف قيمته بأنه أصلاً حامض.

(تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً{63})
{تِلْكَ الْجَنَّةُ}، تلك الأمكنة الموصوفة بروعة ما فيها، {الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا}، فالبعض من الذين مفروض منهم وعليهم طاعته تعالى سيرثون تلك الجنّة، لتصير ملكيتها لهم بلا استرداد منهم، {مَنْ كَانَ تَقِيًّا}، من كان من عبادنا يتحاشى ويتجنب، وسياق الكلام عن تجنّب السيئات وهو نفسه تجنّب مخالفة كلامه تعالى، وعمليا فهو لا يفعل الحرام ولا يترك الواجب.

ستجد في بعض الكتب تفاسيرَ للآية تنطلق من المعنى العالق في ذهنهم عن التوريث، على أساس أنه حصرا لانتقال الملكية من ميّت، أو من بشري، حيث قال بعضهم إنّ كل الناس لهم حصّة في الجنّة، ومن كفر فقد انتقلت حصته وورثها المؤمنون... وهو كلام آخر لا داعي له، لأن التوريث في أساس معناه يشير إلى عموم انتقال أي شيء بلا استرداد، سواء من ميّت أم من حيّ، فسبحانه ورّثها لهم، ونقل ملكيتها منه تعالى لهم بلا استرداد وبقرار نهائي بأنه تعالى لن يأخذها منهم.

كلمة عبد تشير لمن مفروضةٌ منه وعليه الطاعة وهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، حيث كأن كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، إذ كلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، وهي جمع الجمع، وأثناء الكلام بدقّة تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، حيث تقول الآيات: عبيد. ووردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وتكون لكل العبيد بكل أنواعهم حيث تقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وتكون لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، إذ تشير لعبيد جاءهم رسول، ولعبيد آخرين جاءهم رسول، ولعبيد آخرين... لأن جمع الجمع "عباد"، لذا فإن كلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جدا عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً{64})
{وَمَا نَتَنَزَّلُ}، لا ننزل من السماوات العالية إلى السماوات التي تحتها، {إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ}، إلا لننفذ أمرا شيئا يريده المسؤول عنك من مستوى إلهي.

يبدو واضحا جدا أن الكلام هنا نقلٌ عن الملائكة(ع)، فهم الناقلون لهذا القرآن، وها ينقل القرآن عنهم كلامهم لنعلم شيئا مهمّا عنهم، فهم لا ينزلون لأمورهم الخاصة، بل لأمور لأشياء يريدها الله سبحانه أن تحصل، والملائكة (ع) عندما تنتقل من سماء إلى سماء نزولا إلى سماء عالمنا تتنزل لتنفيذ ومتابعة شيء قرره ربها سبحانه.

بعبارة أخرى هم ليسوا آلهة بل أصلا لا يتحركون من مكانهم ولا يفعلون أي شيء إلا فقط وفقط بما يأمرهم به سبحانه، وهذا الكلام يأخذك ضمنا إلى اعتبار بعض المسيحيين الملاك الروح جبريل(ع) إلها أو بشكل ما إلها...

مناسبة نقل حديث الملائكة(ع) هنا لها ارتباط بما ذكرته السورة عن المجتبين وما جرى معهم وثواب من آمن وعذاب من كفر... فهم الملائكة ينقلون للنبي محمّد(ع) هذا القرآن، فهو (ع) لا يحصل له تواصل مباشر معه تعالى بل عبرهم يصله الكلام الإلهي، وها يصرّحون له (ع) ولنا أنهم أصلا لا ينزلون من سمائهم إلا بأمر منه تعالى، وبالتالي هذا القرآن النازل عليك، لا علاقة لهم بمحتواه نهائيا، ولا علاقة لنا بتوقيت نزوله عليك...

{لَهُ}، لربّك سبحانه، {مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا}، فكل أمورنا الحالية والسابقة ومن أي جهة كانت ومهما كان نوعها هي له تعالى وتحت أمره وقراراته تعالى، فلا قرار لنا بالتصرف بالقدرات التي معنا، ولم تمُرَّ علينا أيّة فترة نملك فيها حريّة التصرّف كما نشاء في أي موضوع مهما كان نوعه، لأننا فقط وفقط بأمره تعالى نعمل.

ننتبه، لو التفتّ إلى التراث الديني اليهودي والمسيحي، وإلى بعض روايات المسلمين، لرأيت فيها بعض الملائكة(ع) تقوم ببعض الأعمال على مزاجها! وأكّد القرآن مرارا وتكرارا أن الملائكة(ع) أبدا نهائيا لا تقوم بأي عمل إلا بأمر من ربّها سبحانه وتعالى، وهنا تنقل لنا الآية عن لسان الملائكة(ع) أنهم لم تمُرَّ عليهم أيّة لحظة ليتصرّفوا فيها بقرار خاص هم اتخذوه، إذ لم يتكلموا مع الأنبياء والسيدة مريم(ع) من رأسهم، ولم يتدخلوا في حياة الناس من رأسهم... وواقع الحال يشهد أن كل تدخلاتهم في حياة البشر كانت فقط وفقط لتنفيذ شيء أمر به تعالى، فلسنا نرى تعارضا فيما يجري من

شؤون الدنيا، ولسنا نرى قدرة عالية مثل القدرة التي تتمتّع بها الملائكة، ولسنا نراها تفعل أي شيء متعارض أو مخالف لما نعلم أنه من الأمور الإلهية.

إذا تذكّرت ما يقوله بعض المسيحيين عن روح القدس أنه من الثالوث المقدّس "الله عيسى روح القدس"، وتذكّرت من القرآن "ومن تراث المسيحيين" أن الروح القدس هو الملاك جبريل(ع)، لانتبهت إلى أن الآية هنا ضمنا تنفي أي قرار خاص يتخذّه أي ملاك، فحتى الروح القدس (ع) فقط وفقط يقوم بتنفيذ ما يأمره به ربّه سبحانه.

نرجع للآية لنكمل مع كلام الملائكة(ع): {وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا}، فعندما نتنزّل لنقوم بأي عمل، فهو سبحانه يبقى متابعا معنا ماذا نفعل وماذا يحصل، ولا ينسانا، فلا يأمرنا بالذهاب وينسى أمرنا، بل يتابعنا لحظة بلحظة.

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً{65})
نكمل مع كلام الملائكة(ع):

الذي نتنزّل بأمره هو: {رَبُّ}، المسؤول من مستوى إلِهِيٍ عن، {السَّمَاوَاتِ} السبع التي تشمل سماء الملائكة(ع) وصولا إلى سماء عالمنا نحن... وَربّ، {الْأَرْضِ}، فهذه حدود الدنيا التي فيها الكائنات المخلوقة، وهذا التعبير القرآنيّ مرادف لـ: كلّ شيء. ولدينا تعبير: كلّ الوجود. وهو تعبير لم يستعمله القرآن بسبب فقدانه للدقّة اللُّغَوِيَّةِ وَاصطلاحا هو شبه مرادف لجملة "السماوات والأرض".

{وَمَا بَيْنَهُمَا}، ما بين السماوات والأرض من فضاء ومخلوقات لِأَنَّهُ سبحانه أيضا رَبُّهُم، وبناء على هذه الرُّبُوبيَّةِ المطلقة لربّنا سبحانه حيث لا ربّ غيره، فتصرّف على أساس أنك مفروض منك وعليك طاعته، {وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ}، فمهما حصل معك فصبّر نفسك وتصرّف بشكل واع ومدروس فلا تَتَخَلَّ عن التصرّف على أنك عبد مفروض منك طاعته تعالى.

{هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}؟ هل هناك من يشبهه سبحانه بالاسم؟ وَهل تعلم أحدا غيره اسمه: ربّ السماوات والأرض وما بينهما؟

لا داعي لتفسير الجملة هنا بأنها تسأل إن كان هناك كائن آخر اسمه "الله"، لِأَنَّ التعامل مع هذه الكلمة على أنها اسْم، حَيْثُ يُمْكِنُ أن يتسمّى بها أيّ أحد غيره تعالى، وحتّى لو كان ذلك سَيِّئاً، وَمثله مثل وصف الصنم بأنه إله خالق رازق... ولكن الكلام هنا عن حقيقة التسمية، وسياق الكلام عن تسمية أحد ما بأنه ربّ السماوات والأرض، كمسؤول عنهما من مستوى إلَهِيٍّ، فهذا واقعا وفي الحقيقة تسمية منفردة لواحد أحد هو الله تعالى.

نعم، كما فهمنا أَنَّ الوصف بِالْأُلُوهِيَّةِ في حقيقة معناه لا يُوصَفُ به غير كائن واحد، فلا يتحمّل وصف كائنين به، وللتقريب التَّشْبِيهِيّ لِنَقُلْ إِنَّ الوصف بِالْأُلُوهِيَّةِ يتضمّن الوصف بالهواء، حَيْثُ في فضاء ما يوجد هواء، فلا معنى للقول إِنَّهُ يوجد في نفس الفضاء هواء آخر، وَسبحانه واسع محيط لطيف... فأين سيكون الإله الآخر؟ وبناء عليه فَإِنَّ اشتقاق اسمه تعالى "الله" من الْأُلُوهِيَّةِ، يعني أَنَّ حقيقة التسمية بـ "الله" لا تتحمّل أن يتسمّى أحد آخر بنفس الاسم. وَتَصَوَّرْها كحالة مناسبة تسمية يعقوب كعاقب لأبيه إسحاق عليهم السلام، فأيّ ولد آخر لأيّ أب آخر، فهو عاقب، وَيمكن تسميته على الْوَصْفِيَّةِ بيعقوب، ولكن تسمية "الله" المشتقّة من الْأُلُوهِيَّةِ، فلا يمكن انطباقها بالحقيقة على أحد غير الكائن الإله الحقيقيّ، وهو واحد.

هكذا ترى أَنَّ الكلام هنا لا يزال يدور في فلك الردّ والتنبيه لمن سمّى غيره تعالى إلَهاً، كما فعل بعض المسيحيين بتسمية النبي عيسى(ع) إلَهاً.

ضع في بالك دائما أَنَّ التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، فلا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أَنَّ الأرض تُرَابِيَّة، أو كوكب... لا، لِأَنَّ عموم أيّ جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}، وذلك في إِشَارَة إلى وجود سبع أَرَضِينَ مقابل سبع سماوات حَيْثُ لم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كلّ سماء، بل إِشَارَة لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كلّ واحدة منها

عموم ما هو تحتها فهو أرض، فكوكبنا التُّرَابِيّ أرض بالنسبة لسمائنا، ومثله سطح القمر فهو أرض لسمائنا، وسطح المشتري الغازيّ أرض لسمائنا... ولبقيّة السماوات ما يناسبها من أرض.

نلاحظ شيئا لَافِتاً متكرّراً في القرآن، حَيْثُ هنا الملائكة (ع) تتحدّث عن السماوات والأرض وما بينها، وكذلك تحدّث سبحانه في كلّ القرآن، فلم نسمع منه تعالى عن أيّ شيء خارج هذه المساحة، حَيْثُ حتّى سبحانه كان دقيقا جدا في كلامه معنا، لِأَنَّ كلّ ما في دنيا المخلوقات محصور في السماوات السبع والأرض وما بينهما، وَحتى بالنسبة له سبحانه عندما ينظر لمخلوقاته فهذه هي كلّ ما في الدنيا، وَكلّ ما خلقه تعالى فهو هناك فيها، فإن لم يكن فيها إله إلّا الله تعالى، إذاً، الله سبحانه هو الإله الوحيد، وهنا الملائكة (ع) تستعمل نفس التعبير الدقيق، لِأَنَّ كلّ "الوجود" بحسب ما تعرفه الملائكة (ع)، وَكلّ ما في الدنيا فهو مؤلّف من السماوات السبع والأرض وما بينهما، ولم يجدوا في كلّ الدنيا "التي يَعْرِفُونَهَا" رَبّاً غير الله سبحانه، ولذلك يؤكّدون أنّه الإله الأحد، الربّ المطلق، المالك لكلّ شيء، وَيُخْبِرُونَنَا أنّه من الْحَرِيّ بنا وبناء على هذه المعلومات الْأَكِيدَةِ، أن نتصرّف على أساس أنّنا عبيد لهذا الربّ سبحانه، فنطيعه مثلما هم يفعلون.

ننتبه جيدا، لِأَنَّ القرآن أبدا لم يستعمل تعبير "كلّ الوجود" بل استعمل تعبيرا يشير إلى كلّ الوجود الذي فيه كائنات مخلوقة، وأمّا سبحانه وتعالى فلا يحدّه أيّ وجود، وسبحانه وتعالى فوق هذه التعابير، فلا يمكن ولا بأيّ طريقة شمله سبحانه وتعالى مع الكائنات عند الحديث عن الوجود والمكان، لأنه واسع محيط لطيف، وليس كمثله شيء، فلا شيء يشبهه لا من قريب ولا من بعيد، وَلن نفهم ولن نعرف لا نحن ولا الملائكة(ع) الْمُقَرَّبُونَ ولا أيّ أحد، لن نفهم كيف نَصِفُ وجوده سبحانه وتعالى لِأَنَّ الفرق كبير جدا جدا بين طبيعته سبحانه وبين طبيعة كلّ مخلوقاته.

(وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً{66})
{وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ}، الغالب الأعم من الناس يقولون: {أَإِذَا مَا مِتُّ}، إذا فارقت الحياة، {لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا}؟! حيث وصلنا كلام منه تعالى يقول بأننا سنعود إلى الحياة لنتحاسب ونتجازى، ولكن الغالب الأعم من الناس لا يؤمنون بإمكانية عودة الحياة إلينا بعد الموت، وتعرض الآية ذلك بصيغة السؤال والاستغراب!

ضع في بالك دائما أن القرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو كونهم ذكرا وأنثى، وأنهم يتناسلون... أو مُتَعَلِّقٍ بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

تُلَاحِظُ مرارا ربط القرآن لإنكار شيء من دينه تعالى مع إنكار العودة إلى الحياة بعد الموت، على أساس أن الذي أنكر الآخرة فهذا ليس لديه شيء يمنعه من مخالفة دينه تعالى، وَسيفعل ما يحلو له لأنه لا يؤمن بالحساب والعقاب، وهنا الكلام عمومي مع المشركين والكافرين والملحدين... وللمنتمين بالاسم لدينه تعالى الذين في عمقهم ليسوا مؤمنين بالآخرة بشكل مقبول.

فكّر فيها لو كنّا نؤمن بالآخرة ونتوقّعها بالصورة التي يخبرنا بها القرآن عنها، من حسابها وعذابها وجهنّم... عندها لما تجرّأنا على ارتكاب أي سيئة حتى لو كانت صغيرة، وَنحن كمتدينين نؤمن بالآخرة ولكن بدرجات مختلفة... وصولا إلى الاستهتار بها... ومن هنا يبدأ المنتمون لدينه تعالى بالاستهتار بالعقيدة والشريعة الإلهية... وصولا إلى إعلان ولد له تعالى، ومن هنا شملتهم الآية مع نفس عقلية المشركين من ناحية الكفر بالآخرة والشرك به تعالى.

وَيأتيهم الجواب:

(أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً{67})
{أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ}، قبل أن يسأل عن إعادة خلقه في الآخرة، لِمَاذَا لا يستحضر الإنسان "الغالب الأعمّ من الناس" في باله، {أَنَّا خَلَقْنَاهُ}، حَيْثُ ركّبناه وألّفناه من المواد، {مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً}! ولم يكن له كيان، وَالآن للإنسان كيان،

وسيموت وبعضهم لا يؤمن بأنه تعالى سيعيد خلقهم، وَمِنْ قبل الآن، من قبل أن يلدني أهلي ويصير لي كيان، ماذا كنت؟ لا شيء، وخلقني تعالى وصار لي كيان، فَكَيْفَ أَسْتَبْعِدُ ولا أؤمن بأن من خلقني أوّل مرة يمكنه أن يخلقني مرّة ثانية؟!

نُلَاحِظُ أَنَّ القرآن يشير إلى مسألتين، المسألة الأولى أننا لم نكن مخلوقين وصرنا مخلوقين، فأين المشكلة بِتَكَرُّرِ ذلك مرّة ثانية؟ والمسألة الثانية أننا الآن لدينا كيان بعد أن صرنا مخلوقين، فكيف نستغرب إعادتنا إلى الحياة مرّة ثانية وَكان لنا كيان سابق في الدنيا؟ إِذْ أوّل مرّة لم نكن شيئا، ويصف القرآن ذلك بحالة فقدان الحياة "الموت" كما تقرأ في الآية 28 من سورة البقرة {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، حَيْثُ كنا لا شيء وخرجنا إلى الحياة، ومتنا، وفي المرّة الثانية لن يكون خلقنا من الصفر، لِأَنَّهُ كان لنا كيان سابق، وبالتالي كيف نستغرب إعادتنا إلى الحياة مرّة ثانية من كيان ميّت أو من التراب؟ وهذا المعنى تراه في الآية 28 من سورة البقرة {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا} ...، وتراه في الآية 15 من سورة ق {أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ}.

ننتبه جيّدا، حَيْثُ نحن نستعمل كلمة "وجود" للدلالة على خروجنا إلى الحياة، حَيْثُ نقول: أوجدنا الله تعالى. ونقول عن الكون أنه الوجود، ونقول عن السماوات والأرض إِنَّهَا الوجود... ونقصد أن الوجود نقيضه العدم "اللاشيء". وَانتبه جيدا، لِأَنَّ هذه المعاني لم يستعملها القرآن أبدا بتاتا، إِذْ إِنَّهَا "اصطلاحات" تختلف عن المعنى اللغوي لكلمة وجد موجود، ويبدو واضحا أن القرآن ليس متوافقا مع مفهوم معنى كلمة "وجود" كما نستعملها نحن الآن، لِأَنَّ المعنى الذي يستعمله الفلاسفة ليس من أصل اللغة، وهو غير دقيق ولا يتماشى مع مفاهيم القرآن، وخذ مثلا الآية هنا، حَيْثُ بتعبير الفلاسفة تصير: أوجدناك ولم تكن موجودا. أوجدناك وكنت معدوما. وهذه تعابير تجدها منتشرة في عموم تفاسير القرآن، عِلْماً أَنَّ القرآن يستعمل "خلقناك" يعني ركّبناك وألّفناك من المواد، حَيْثُ لا يقول القرآن: كنت معدوما. بل يقول: لم تكن شيئا لم تكن مخلوقا لم تكن حيّا لم تكن مركبا. يعني: كل ما سيجعلك كيانا فَهُوَ متوفّر وجاهز، ونحن خلقناك فركّبناك وألفناك، وَفي مرّة ثانية أيضا سيكون مُتَوَفِّراً وَجَاهِزاً كل ما سيجعلك كيانا مركبا.

يبدو لك الفرق بسيطا بين ما يقوله القرآن وبين ما يقوله الفلاسفة، ولكن إذا دقّقت فستجد فرقا كبيرا، لِأَنَّ القرآن دقيق جدا في كلماته، وَقال لنا إِنَّنَا أولا لم نك شيئا، لأن ما في الدنيا أصلا لم يكن مخلوقا، وبعد ذلك أخرجنا تعالى إلى الدنيا عبر تركيبنا من المواد، وعندما نموت لا نصير عدما، وَلا يختفي "وجودنا" ونصير معدومين، بل ينهار تركيبنا، ويعيد سبحانه تركيبنا مرّة ثانية في عالم الآخرة.

مُضَافاً إلى ذلك نتذكّر أنه تعالى بعلمه الفائق يعلم بكل التفاصيل التي ستحدث في الدنيا والآخرة، وَقبل أن يخلقني "يركّبني ويؤلفني من المواد" من أهلي... كان سبحانه يعلم بكل شيء عنّي، حَيْثُ لم يكن لي كيان ولكن كامل المعلومات عني من بداية تركيبي وصفاتي... إلى موتي وما بعده... معلومة له تعالى، وَأنا لم أكن شيئا ولكن كل المعلومات عني كانت عنده تعالى، وهذا كلام تستخرجه بسهولة من مفاهيم القرآن بكلامه عن علمه الفائق بالغيب سبحانه وتعالى.

استبدل الفلاسفة والحكماء الْمُسْلِمُونَ نفس هذا المفهوم بعبارات ومصطلحات لم ترد في كلامه تعالى بشكل صريح ومباشر، وَاستوردوا الكثير من ذلك ممن سبقنا من المنتمين لدينه تعالى من يهود ومسيحيين ومن فلاسفة وحكماء "يونان وغيرهم..."، حَيْثُ قالوا إِنَّ لكل واحد منّا شَيْئاً جَوْهَرِيّاً ليس من عالم المادة التي على الأرض، وهذا الشيء الأساسي هو كياني الحقيقي، وجسدي هو لباس ووعاء لجوهري، لروحي، لنفسي... وَقبل أن أتكوّن من طين كنت روحا أو نفسا أو... وبعدما يموت جسدي الطيني تبقى روحي أو نفسي، وهي التي يعيد تعالى وضعها في جسد جديد في الآخرة. وهذا الكلام لا مستند قرآني صريح له، وعلى الأكثر فَإِنَّهُ اشتقاقات بعيدة جدا جدا عن كلام القرآن وليست صريحة منه ولا بأي شكل، فراجع دراسة أي أية تظنّها تعطي ذاك المعنى لترى أن الصورة ضبابية والحقيقة غير ذلك.

طبعا لا أقصد أننا ممنوعون من البحث ووضع الفرضيات والنظريات عن آليات خلقنا وإعادة خلقنا، فَلْيَقُولُوا مفترضين ما يشاؤون، ولكن فَلْيَفْصِلُوهُ عن كلامه ودينه تعالى، حتى لا يصير كلامهم في نظر الآخرين هو دينه تعالى وبقيمة كلامه سبحانه، مِمَّا يُصَيِّرُ كلامهم عقيدة دينية، لِأَنَّ هذه هي المشكلة.

أشار القرآن إلى إخراجنا إلى الحياة "الوجود" بطريقته الخاصة، حَيْثُ استعمل كلمة "فطر" للدلالة على صيرورة الأشياء، ولم يستعمل تعبير الإخراج من العدم، ولهذا معنى عميق جدا، وأريدك أن تركّز جيدا، لِأَنَّ الإله عزّ وجلّ هو الواسع المحيط، حَيْثُ كان ولم يكن شَيْءٌ قبله ولا معه، إذْ هُوَ الأول، وبطريقة من المستحيل أن نفهمها، جعل سبحانه "كيانات"، وبالتعبير القرآني إذْ سبحانه نور السماوات والأرض، وسنتوقّف هنا لِأَنَّ الكلام لأبعد من ذلك هو متاهات لا طائل منها طالما لم يصلنا تفاصيل منه تعالى عن آلية خلقه سبحانه لما في الدنيا، لِأَنَّ هذا المستوى من الكلام يحتاج لتوضيح من الإله عزّ وجلّ ومن المستحيل أن نفهم التوضيح لأن "طبيعته" سبحانه فوق قدرتنا على الفهم...

إذاً، عندما نموت لا نصير معدومين، بل ينهار كياننا، وليس من الغريب أن يعيد سبحانه تركيب كياننا، بناء على معلوماته تعالى عن كل واحد منّا، عن ذاكرته وطبيعة تفكيره ونفسيّته... وهكذا يلفت سبحانه انتباهنا إلى ما قبل أن يكون لنا كيان، حَيْثُ خلقنا سبحانه وصار لنا كيان، وبالتالي فما معنى استغراب إعادة خلقنا!

وَلْنَعُدْ إلى أوّل ما قرّر سبحانه خلق ما في الدنيا، فهل خلق بذرتها مع إمكانية تشكّلها لسماوات سبع وأرضين وفيهما كائنات وظواهر... ولم يعلم بما سيحدث فيها؟ وَلنقل مفترضين أنه تعالى صمّم بذرة هذا الكون وهو يعلم بأنه في الأخير ستتشكّل سماؤنا "كوننا بمجراته" وسيصير فيها كوكب تخرج منه مركّبات فيها حياة... ويصير البشر... وأخرج أنا إلى الدنيا، فهل سبحانه "بالمجمل" كان يعلم ذلك ولا علم "تفصيلي" عنده بمن سيخرج إلى الحياة؟ أم يعلم سبحانه "بدقّة" ماذا سيحصل ومن سيصير له كيان؟

كما تعلم من القرآن أَنَّهُ سبحانه وتعالى يعلم بأدق تفاصيل ما سيحدث من أوّل ما قرّر خلق ما في الدنيا، وَسجّل كل ذلك في كتاب... راجع كمثال الآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

وبناء عليه، حَيْثُ من أوّل ما قرّر سبحانه خلق ما في الدنيا صمّمها وعلم بما سيحدث فيها بالتفصيل لكل نقطة فيها، وَأنا محدّد منذ تلك المرحلة، أنا والملاك والجنّ والحيوانات والنباتات... معلوم عنده تعالى كياننا بحياة من فيه حياة، وبوعي من له وعي، وبمشاعر من له مشاعر... وَمُسَجَّلُونَ في كتاب، وحينها لم نك شيئا نهائيا بتاتا، حَيْثُ لم نك مخلوقين، وَكنّا أمواتا "فاقدين للحياة" كما تصف الآية 28 من سورة البقرة {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}.

مَن يقول بأن الروح أو النفس هي جوهري وَهي أساسي وهي جذوري وهي كياني الحقيقي... فليدلّنا عليها في تلك المرحلة التي لم يكن فيها شيء وبعدها قرّر تعالى خلق ما في الدنيا؟ ولن يستطيع لأنه تعالى كان ولم يكن معه شيء نهائيا بتاتا، وقرّر خلق السماوات والأرض، وَصمّمها، وعلم بما سيكون فيها، وَأنا صرت "معلومة" عنده تعالى، وَأنا بفكري ونفسيتي وكياني صرت معلوما عنده تعالى، وسيخلقني ويصير لي كياني، وَأحيا من بعدما كان وصفي ميتا لأني وبكل بساطة لم أكن حيّا، وبعدها صرت حيا متمتعا بحرية الإرادة والاختيار، وَأكوّن فكري ونفسيتي، وَتَجْرِي أحداث حياتي... وكل ذلك معلوم عنده تعالى من أوّل ما قرّر خلق ما في الدنيا.

وعندما أموت، سينهار كياني "جسدي"، ولكن سبحانه الذي قرّر إعادة خلقي في الآخرة بعد تبدّل الدنيا، إذْ سبحانه محتفظ بكامل المعلومات عني، وَسيخلقني من جديد وَسيعيد تركيبي، وَسيعيد بنائي على المعلومات الخاصة بي.

هكذا نفهم كلام آيتنا هنا وغيرها العديد من الآيات التي لم تقل لا بالإشارة ولا بالتلميح إنَّ روحي أو نفسي أو جوهري... كشيء سيبقى من بعد موت جسدي، ولم تقل إنَّ جسدي مجرد وعاء وسيخلق سبحانه جسدا جديدا ويضعني فيه، لا لم يقل القرآن ذلك أبدا بتاتا ولا مرّة لا بالإشارة ولا بالتلميح.

مُضَافاً له تماشت العديد من الآيات مع السائلين عن إعادة خلقنا من تراب جسدنا ورفاتنا، وَأشارت للتراب بأننا سنعود منه، وطغى علينا خَلْفِيَّةٌ ثَقَافِيَّةٌ جعلتنا لا نرى من تعابير القرآن أن كلامه تعالى عن التراب عموما، كمادة لإعادة خلقنا منها، وأن كلامه ردّا على أسئلة الكافرين بالبعث كان على قدر ما يفهمونه كنموذج حين أشاروا لبقايا التراب من جسدنا الميّت، ولولا هذا فسترى كلام القرآن عُمُومِيّاً ولا يهتم بما بقي من جسد الميّت لإعادته منه إلى الحياة.

هكذا لا معنى للكلام عن طبيعة النفس والروح الذي يقولونه، ولا معنى لكلامهم عن النقاش في إعادة المعدوم، حَيْثُ وضعوا اصطلاحات للكلمات وصار لها معان عندهم... وهذا لن يغيّر من الواقع أي شيء، لِأَنَّ المعلومات عنّي موجودة دائما عنده تعالى، وَأنا لم أكن معدوما بالمعنى الاصطلاحي الذي سينتج عنه العديد من المشكلات الفكرية، إِذْ في الواقع إِنَّهُ تعالى خلقني "أنا" ولم أك شيئا، لا روح ولا نفس ولا جوهر... وسيعيد خلقي أنا بناء على معلوماته تعالى عنّي.

الآن نسأل إن كان الكلام الباحث عن آليات حصول إرجاعي أنا بذات نفسي إلى الحياة مَمْنُوعاً؟ وهل السؤال عن كيفية احتفاظه تعالى بفكري ونفسيتي ووعيي وذاكرتي... مَمْنُوعٌ؟ لا، لِأَنَّ كل ذلك مسموح وليس حكرا على علماء الدين، حَيْثُ في تفسيرنا لكلامه تعالى ترى نسفا لنظرياتهم عن النفس والروح، وقبل ذلك إِذْ إِنَّهُمْ أصلا لديهم آراء مختلفة متخالفة حول هذا الموضوع، وَنحن لم ننسف بنيانا صلبا عليه توافق منهم.

نعم هم متفقون بغالبيتهم على وجود شيء يحدّد كياننا وهو مختلف عن جسدنا، حَيْثُ أسموه بالروح أو النفس "أو خليط من الِاثْنَيْنِ معا"، ونحن نتّفق معهم "بشكل ما" على ذلك، ولم نسمّه الروح أو النفس... إِذْ لدينا حالة المقتولين في سبيله تعالى الذين بقيت لهم حَيَاةٌ بعد موت جسدهم، كما تقرأ في الآية 169 من سورة آل عمران {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}، حَيْثُ إِنَّ هؤلاء وبصريح عبارة القرآن، وَهم الآن يتمتّعون في جنّة قبل جنّة الآخرة، نسمّيها اصطلاحا مستندين على فحوى كلام القرآن بجنّة البرزخ، وهذا الفحوى وارد في الآية 100 من سورة المؤمنون {لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}. أمّا الفرق بين كلامي هنا وكلام الفلاسفة هُوَ أَنَّنَا التزمنا بكلام القرآن ولم نحدّد الروح أو النفس أو الجوهر... كأساس لكياننا لأن القرآن لم يذكر ذلك، وَلم نحلّل ونخمّن ونفترض... ونلصقه بكلامه تعالى أو بدينه تعالى، بل التزمنا حرفيا بكلامه تعالى.

وتفسيرنا لحياة الأحياء في "جنّة البرزخ" بدون استعمال مصطلحات الفلاسفة والروايات للروح والنفس والجوهر... واعتمادا على القرآن، سيكون تفسيرنا ببساطة أنه تعالى أعاد تكوينهم مستعيدا وعيهم وذاكرتهم ونفسيتهم... من مادة مختلفة عن الطين، فَأَيْنَ المشكلة في ذلك؟

لنأخذ الكلام إلى منحى آخر مرتبط بما سبق، وَهل محاولة إرجاعنا نحن الْمَيِّتَ إلى الحياة ممنوعة؟ لا، بل من الرائع توصّلنا لآلية تعيد الحياة للأموات لو استطعنا ذلك، حَيْثُ سيكون لدينا دليل حسّي ملموس لنا بأيدينا عن إعادته تعالى لنا إلى الحياة في الآخرة، وَسبق أن أشار القرآن لحوادث متفرقة حصلت فيها إعادة الحياة للأموات كدليل ولفت انتباه لقدرته تعالى على إعادتنا إلى الحياة في الآخرة، والفقرة من الآية 258 من سورة البقرة قصدت الكلام عن ذلك، حَيْثُ فيها ستجد قوما أعاد تعالى لهم الحياة، وستجد شخصا أماته تعالى مئة عام، وستجد رؤية النبي إبراهيم(ع) لإعادة الحياة لأربعة طيور قطّعها ونشر قطعها ووزّعها على مناطق بعيدة عن بعضها... وإحياء النبي عيسى(ع) للموتى كان الهدف منه إظهار دليل ملموس للناس عن إمكانية إعادته تعالى الحياة للأموات... ومثله حادثة أصحاب الكهف كما وصفتها الآية 21 من سورة الكهف {وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا}...، وكلّ ذلك دليل وفي نفس الوقت استفزاز لنا لنحاول فعله، وسيكون رائعا لو نجحنا بفعله، سواء عبر إعادة ترميم ما تعطّل في الدماغ، أو إعادة تكوين ما كان في الدماغ عبر وضعه في مستوعب آخر عضوي أو رقمي... أو...

ولكن هل لو أعدنا نحن الحياة إلى الميّت فسيؤمن كل الناس بالآخرة؟ لا، بل سيقول المصرون على الكفر إِنَّ كلام القرآن عن قدرة الإله على إعادة الحياة للأموات سخيف، إِذْ ها نحن نستطيع فعل ذلك...

(فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً{68})
{فَوَرَبِّكَ}، تأكيدًا بالمسؤول عنك من مستوى إلهي، أستند أنا ربّك إلى نفسي في تأكيد صدق كلامي، عمّا سأفعله، {لَنَحْشُرَنَّهُمْ}، لسوف نجمع الناس بقرار منّا سواء قبلوا أو رفضوا، {وَالشَّيَاطِينَ}، وسنحشرهم مع كائنات موصوفة بقيامها بأعمال سيئةٍ ضالّةٍ لأنفسهم وللآخرين.

سيجمع سبحانه الذين ينكرون العودة إلى الحياة مرة ثانية مع الشياطين الذين وسوسوا لهم بذلك، ثم {لَنُحْضِرَنَّهُمْ}، نجعلهم حاضرين واقفين مواجهين، {حَوْلَ جَهَنَّمَ}، حول المكان الموصوف بسوء ما فيه، ففيه النار المتأججة والعذاب، {جِثِيًّا}، مستندين على ركبهم، وهذا تعبير عن حالة الذلّ والمهانة التي سيكونون فيها، فلن يكونوا واقفين أو جالسين براحة واحترام، بل سيكونون على الأرض على ركبهم ويواجهون حرّ النار المتأججة التي سيسقطون فيها.

من آياتٍ أخرى من القرآن نعلم أن أول ما سيلاقيه المنكرون للآخرة هو رؤيتهم للنار التي وعدهم تعالى بها من بعيد، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 12 من سورة الفرقان {إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا}، وستقترب منهم رويدًا رويدًا... حتى يصيروا على حافّتها... ويقال لهم كنموذج ما ذكرته الآية 14 من سورة الطور {هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ}...

(ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً{69})
بعد جُثُوِّهِم على ركبهم أمام النار:

{ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ}، سينزع أي سيسحب ويأخذ سبحانه، {مِن كُلِّ شِيعَةٍ}، من كل مجموعة كانت تشايع بعضها، وكانت توافق بعضها في رأي، وهنا الكلام عن شيعة الضلال، حيث سيسحب الشخص أو الأشخاص، {أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا}، الذين بالغوا في المعاندة فوصلوا لأقصى درجة من الشدة في مخالفة الذي يعتني بهم لما فيه مصلحتهم.

الآن في الدنيا يعتبر بعض الكافرين أنفسهم جبارين أقوياء بسلطتهم بمالهم بعسكرهم بعصابتهم بجماهيرهم... أو بقوتهم البدنية أو بقوتهم على مجادلة الحق ليلبسوا به الباطل... فتصوّر الآية لنا مشهدًا من يوم القيامة يشابه ما نقوله بالعامية: مين البطل مين القبضاي فيكم؟ فأكبر رأس بينكم سيتم تكسيره...

تلاحظ أن التعبير بشدة التعذيب مع صفة الرحمن يبدو غريبًا، ولكن لو لاحظت أنه تعالى كان "رحمنًا" معهم في الدنيا، حيث اعتنى بهم وخلقهم ورزقهم وهداهم... وعرض عليهم البقاء تحت مظلّة رحمته لتستمر معهم إلى الآخرة... ولكنهم عتوا فبالغوا في المعاندة أمام من كان يعاملهم برحمته، حيث كان يعاملهم بعنايته لما فيه مصلحتهم وهم رفضوا ذلك وكفروا به بل وعارضوه تعالى وسخروا...! فالآية تشير إلى قرارهم هم بالخروج من تحت مظلّة الرحمة الإلهية التي كانت متاحة لهم.

اعكس الكلام وتصوّر لو كان الإله عزّ وجلّ لئيمًا معهم هنا في الدنيا، لوجدت لهم عذرًا في عُتِيِّهِم، ولكن بالعكس كان سبحانه رحمنًا معهم، وعتوا عليه! ولذلك يستحقون أشدّ العذاب في الآخرة.

(ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً{70})
ثم، بعد أخذ الأشدّ عُتِيًّا لمحاسبتهم، الباقون من الجاثين، {لَنَحْنُ}، ربك، {أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ}، نعلم بمن لهم الأولوية فيستحقّون، {بِهَا}، بجهنم، {صِلِيًّا}، متوجّهين ليتعرّضوا لنارها.

لا يوجد ولن يحصل أي نوع من الخطأ أو الظلم، فسبحانه أعلم بالذين يستحقون ذلك العذاب.

(وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً{71})
{وَإِن مِّنكُمْ}، كل واحد منكم أيها الناس، {إِلَّا وَارِدُهَا}، سيحضر إلى جهنم حتمًا، تصوّر جهنّم كبقعة ماء، وَرَدْتَ عليها، يعني وقفت قريبًا منها، وهكذا نحن البشر، كلنا من دون أي استثناء، سنحضر ونقف بالقرب من جهنّم، أو نمرّ فوقها أو بجنبها أثناء مرورنا على الصراط على الطريق لدخول الجنّة. سترى في دراسة الآية التالية تفاصيل أكثر عن هذا التوصيف.

كلمة "ورد" لا تعني الدخول بل الاقتراب، وهذا المعنى نراه جليًّا في الآية 23 من سورة القصص، حيث ورد النبي موسى(ع) ماء مدين وصار بقربها وعلى حافتها ليشرب منها ولم يدخل في الماء ليسبح فيه، {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ}...

{كَانَ}، هذا القرار بورود كل الناس إلى جهنّم، {عَلَىٰ رَبِّكَ}، على المسؤول عنك من مستوى إلهي، {حَتْمًا}، محسومًا لا تراجع عنه، {مَّقْضِيًّا}، قرّر سبحانه حصوله، فقضاه حتمًا، فحكم بحصوله وسيحصل حتمًا بالتأكيد، فلن يمنعه سبحانه أحد من تنفيذ قراره تعالى، وهو نفسه تعالى لن يغيّر قراره.

(ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً{72})
ثم بعد الورود إلى جهنّم:

{نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا}، قبل وقوع الخطر نقوم بإخراج الذين تجنّبوا وتحاشوا، والكلام عن الذين لم يكونوا عاتين، حيث كانوا لا يفعلون السوء متجنبين غضبه وعقابه سبحانه، ننجي الذين أطاعوا، {وَنَذَرُ}، نترك ولا يعنينا أمر، {الظَّالِمِينَ}، الذين لم يكن معهم حقّ، الذين لم يكونوا عادلين ولا منصفين حين كفروا تاركين الحقّ الواضح، يذرهم تعالى، {فِيهَا}، في جهنّم، {جِثِيًّا}، متكئين على ركبهم، يحترقون بالنار ولا يهتمّ سبحانه بألمهم.

طبعًا نعلم من القرآن أنهم لن يبقوا كل الوقت في جهنم {جِثِيًّا} على ركبهم، ولكنها الحالة الوصفية النموذجية العامّة للتعبير عن حالة الذلّ فهم لن يكونوا واقفين ولا جالسين باحترام بل جاثين أي في وضعية تدل على قهرهم وإذلالهم، وبعد ذلك سيتعرّضون للتقليب والضغط والضرب والركض... بين الحمم والنار...

تعابير القرآن التصويرية للمشهد تشير إلى كون جهنّم حفرة سحيقة، ولها حافّة، وجميع من في يوم الحساب يرى ألسنة اللهب تتطاير ارتفاعًا من الحفرة، ومن ناحية الحفرة يحشر تعالى الظالمين الأشدّ ظلمًا، وبعيدًا عن الحفرة ولناحية الجنّة يحشر تعالى المؤمنين، وبين الجماعتين تدرجات الظالمين والمؤمنين من الدرجة الخفيفة...

بعد انتهاء الحساب يمر المؤمنون من الدرجة العالية بالقرب من حفرة النار باتجاه الجنّة، وتعبير الآية هنا يشير لحتمية اقترابهم منها لدرجة وصفهم بورودها، وأمّا كم هي المسافة بينهم وبينها؟ فهي لدرجة أنهم لا يتأذّون منها، فلا يشعرون بأي ألم.

ثم هناك المؤمنون الآخرون من الدرجة الأقل، وكلما كانت درجتهم أقل سيكون طريق مرورهم أقرب إلى النار، وبعضهم محكوم عليه بأن يشعر بحرارة جهنم... فيتعذب كحساب على ذنوب لم تغتفر ولكنها لم تسبّب له الخلود في جهنم، حيث تسبب له ثانية أو ساعة أو سنينَ من الحريق، وهكذا حتى نصل إلى جهة الشمال حيث يختفي الطريق إلى الجنة بهاوية كَوَادٍ سحيق يقترب ويقترب من الظالمين من بعد دفع الملائكة لهم باتجاه الهاوية، حتى أحاطت بهم جهنم... فَيَقَعُونَ فِيهَا.

بعبارة أخرى، الكل سيردون إلى جهنّم، والظالمون سيسقطون فيها ويبقون هناك، والمؤمنون سيتم إبعادهم عنها.

كما ترى الآية لم تصرّح بسبب هذا القرار الإلهي، وتركته لنا لتحليله، لِنُحَلِّلْ سبب ورود الجميع إلى جهنم، حيث فهمنا أنه اقتراب منها، والمتقون من الدرجة العالية لن يشعروا بأي ضرر جسدي منها لأنهم سَيَكُونُونَ على مسافة كافية تقيهم من أذاها، والأقل إيمانًا وعملًا صالحًا سيشعرون بحرارتها وهكذا نتدرّج وصولًا إلى الذي ستلفحه بنارها... إلى الذي ستحرقه لساعة... إلى الذي ستحرقه ليوم... أو لسنة أو لسنين... وصولًا إلى الذين سيسقطون فيها.

بالتحليل نقول إنه لا يوجد إنسان لم يفعل ولا أي سوء حتى لو عن غير قصد، فالمؤمنون من الدرجة العالية أصلًا يكرهون فعل السوء، ففكرهم ونفسيتهم تكره الأفعال السيئة بمعزل عن فكرة الخوف من عقابه تعالى للفاعل للسوء، ولكن عن غير قصد وبدون انتباه قد يكون لهم علاقة بسوء حصل، وبعض الأمثلة عن ذلك سهلة الفهم، لِنَقُلْ إنَّ نَبِيًّا عيّن أحدهم قاضيًا بين الناس، وفي مسألة ما هذا القاضي لم يحكم بالحقّ، فالنبي له علاقة بهذا السوء الذي وقع لأنه هو عيّن القاضي، وعليه بالاستغفار من هذا من بعدما يعلم بحصوله... أو لِنَقُلْ إنَّ النبي عيّن قائدًا عسكريًّا وهذا القائد قتل أبرياء عن عمد أو بالاشتباه، لولا الصلاحية التي أعطاها له النبي لما استطاع قتل أبرياء، فالنبي يتحمّل مسؤولية تعيينه، وعليه بالاستغفار من السوء الذي له علاقة به...

من هذا المثال نخمّن أن كل البشر وحتى الأنبياء هم حتمًا ارتكبوا سوءًا ما، ولو عن غير قصد، ولذلك قضى تعالى على النوع البشري بأنه كلّه سيمرّ بالقرب من جهنم، وينجّي تعالى المتقين...

ينبثق عن هذا التحليل معرفتنا كمؤمنين لقدرنا حتى لا نزهو أو نفتخر ونشعر بشكل ما باستحقاق دخولنا الجنّة، بينما من فضله تعالى حدّد أجرًا للمتقين، وبفضله نجّاهم من العذاب والنتيجة ذكرها القرآن بعبارات متنوّعة منها ما تقوله الآية 35 من سورة فاطر {الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ}.

التحليل الثاني أن رؤية النار عن قرب مشهد لا يمكن نسيانه، سيبقى في ذاكرة أهل الجنّة ليشعروا دائمًا بالسعادة بالنجاة منه بإيمانهم وعملهم الصالح، وليشعروا بفضله تعالى عليهم في الجنّة الرائعة...

الباب مفتوح للتحليل لأن الآية تركته لنسأل عنه محاولين معرفة الجواب من أنفسنا.

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً{73})
{وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ}، عبر هذا القرآن كمستند نازل من عنده تعالى، تتم عبره قراءة الأمور البيّنة الواضحة المميّزة المنسوبة له تعالى على الناس. من تكملة الآيات ستعلم أن الآيات المقصودة بتلاوتها على الناس هنا هي الآيات التي تقول إن الكفّار مصيرهم في الآخرة إلى جهنم والمؤمنينَ إلى الجنة... حيث يسمع الكفار الآيات وعندها، {قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا صدق آياته "كلامه" تعالى وقالوا إنها كلام كاذب، قالوا، {لِلَّذِينَ آمَنُوا}، للذين اعتقدوا بصدق آياته تعالى:

{أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ}، هل مجموعة الكفّار أم مجموعة المؤمنين، {خَيْرٌ مَّقَامًا}، أيهما له مكان يفعّلون فيه أمور حياتهم موصوف بأنه جيد، أي مكان إقامة هنا في الدنيا موصوف بأنه جيد؟ هل أنتم أيها المؤمنون تقيمون على الأرض بشكل أفضل من إقامتنا؟ هل تعيشون هنا أفضل منا؟

{وَأَحْسَنُ نَدِيًّا}؟ هل نادي المؤمنين أفضل من نادينا؟ نوعية الناس الذين تتعاطون معهم في حياتكم بين بعضكم، هل هي أفضل من جمعاتنا؟ في نادينا الأقوياءُ ماديًّا وجسديًّا، وفي نادينا من لديه رجال أقوياء يقاتلون بأمر منه...

ضع في بالك أنه في الآية بعد التالية سترى مقارنة بين: مقامًا ومكانًا، نديًّا وجندًا.

لاحظ الآيات هنا تنقل لنا نموذجًا عن حالة متكررة كثيرًا في حياة البشر، فالقرآن أكّد لنا أنه في غالبية تاريخ البشر، كان الظالمون إقامتهم وناديهم أفضل من بيوت ومعيشة ومجالس وصحبة المؤمنين، طبعًا ليس كل ظالم ستكون حالته الدنيوية أفضل من أي مؤمن، لا، فهناك كفّار فقراء، وهناك مؤمنون أثرياء، وعموم الآيات القرآنية تختار لنا نماذج بارزة، تختار الكلام عن المشركين الأغنياء الميسورين أصحاب النفوذ... حيث يقولون هكذا: تقول آياتكم إنكم أنتم مصيركم إلى الجنّة ونحن مصيرنا إلى النار، وهذه أحلامكم، والواقع أننا نحن هنا مرتاحون ماديًّا واجتماعيًّا... وأنتم حالتكم تعيسة وضعفاء... فقوتكم المالية والاجتماعية والعددية... ضعيفة أمامنا.

بعبارة أخرى نحن لسنا بحاجة لجنتكم لأن حالتنا هنا جيدة جدًّا، وأنتم تحلمون بها لأن حالتكم هنا تعيسة.

بقي شيء نضعه في بالنا دائمًا عن مسألة "النماذج" التي اعتمدها القرآن في كلامه، فالأنبياء الذين اختارهم تعالى ليتحدّث عنهم في القرآن، هم نماذج من عشرات وربما من مئات وربما من آلاف الأنبياء، وهنا وفي العديد من السور قفزت الآيات عن الكفّار الفقراء واختارت نموذج الكفّار الأغنياء الذين يرون أنفسهم مميزين ومرتاحين وليسوا بحاجة للإيمان بجنّة الآخرة لأنهم هنا يعيشون في راحة... هذا النوع من الكلام القرآني يترك لك النماذج الأخرى لتحلّل وضعها من مقابلتها مع كلامه تعالى، فأيها الكافر الفقير التعيس في حياته، فهمنا أن الغني كفر لأنه يشعر بالراحة هنا في الدنيا فتعلّق بها، أمّا أنت أيها الكافر الفقير فبماذا تعلّقت حتى كفرت! هؤلاء النافذون والرؤساء وأصحاب المال والسلطة... مشكلتهم مع الدين الإلهي في جانب كبير منها أنه يحرمهم من شهوات يحبونها ويحرّمها لأنها سيئة، ويحرمهم من سلطة حرام، ومن مال حرام... وأنت أيها الفقير تتبعهم في معارضتهم للدين الإلهي ولست مستفيدًا من ذلك إلا الفتات القليل القليل!

لو أطلت عليك، فهذا ليس شيئًا من خارج القرآن، بل افترض سبحانه بنا انتباهنا له، وبخاصّة عندما نقل لنا تخاصم التابعين مع الرؤساء والزعماء في يوم القيامة... فهناك ترى بوضوح أن الفقراء والذين يقولون عن أنفسهم مستضعفون... ماتوا وهم تابعون لمن كان متمتعًا بالسلطة والمال والشهرة... وهم عاشوا على فتات متاع الدنيا القليل

بالنسبة لما تمتّع به الوجهاء والنافذون والمشهورون، وكمثال عن ذلك ما قالته الآية 47 من سورة غافر {وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ}.

على أي حال، النموذج يكون واسعًا ليشمل طبقة الذين نسمّيهم متوسطي الدخل، وحاليًّا هي حالة المقيمين في بعض الدول التي لا تتبنّى دينه تعالى كعقيدة وتشريع، فهؤلاء حالتهم أفضل بكثير ومن نواحٍ عديدة بالقياس مع حالة الكثير من شعوب الدول التي تدّعي أنها إسلامية، ومعلوم أن "الدول الإسلامية" الحالية، أبعد ما يكون عن الإسلام تطبيقًا للتشريعات، وبعض الدول غير المسلمة مرتاحة اقتصاديًّا لأنه يتطبّق فيها الكثير مما يقوله تعالى من تشريعات، وبخاصة التشريعات الحامية للمواطنين من الفساد الحكومي... طبعًا في تلك الدول عيوب ولكنها بالمجمل عيوب لا تقارن في سوئها مع عيوب حاكمي ما يسمّى بالدول الإسلامية.

تلك الدول "الكافرة" ستقول لنا نفس الكلام، حيث يقولون إننا نؤمن بدينه تعالى لأن حالتنا هنا تعيسة ويعدنا بالجنّة في الآخرة، بينما هم هنا حالتهم جيدة ولا يجدون دافعًا يدفعهم لترك ملذات الدنيا المتاحة لهم هنا على أمل أن ينالوها في الآخرة.

من ناحية ثانية كلام الكافرين فيه نوع من الاستدلال على فساد دينه تعالى، فلو كان الإيمان به نافعًا، لكان نفع المؤمنين به هنا في الدنيا، ولكان كل مَنْ آمن ستصير حالته المادية والصحية... جيدة.

للأسف ترى لهذه العقلية جذورًا حتى في المنتمين لدينه تعالى، حيث تراهم يفترضون أن المؤمن دعاءه مستجاب لتحقيق أمانيه في الدنيا، وأن الإيمان العالي يؤمّن قدرات عالية في مجالات مختلفة، فبحسب قولهم يصير بعض المؤمنين مكشوفًا لهم الغيب فيرون المستقبل والماضي، وبعضهم يستطيع تحويل التراب لمعدن الذهب...

كلا الطرفين ينظران بضبابية لنفس المسألة ويخرجان بنتيجة مختلفة ومبنية على نفس العقلية، فالكافر يسألك عمّا سيستفيده هنا في الدنيا من الإيمان بدينك، والمؤمن يجيبه بالاستفادة بكل الأمور وصولًا إلى حصوله على قدرات خارقة!

كما ترى هي نفس العقلية، بينما سبحانه يخبرنا أن عنايته تعالى بعباده كأفراد متعلقة بدرجة إيمانهم، ولم يعدهم تعالى بقدرات خارقة بسبب إيمانهم العالي، فهذه حالات نادرة حصلت لترينا أنه تعالى له أثر فعلي من خارج أفعاله فيما خلقه في الدنيا، بينما آلهة المشركين لا أثر لها في أي شيء.

بالنسبة لعنايته تعالى بنا كمجتمعات فهو أيضًا مرتبط بدرجة إيماننا وعملنا الصالح، لوحدنا ومن دون تدخّل إلهي وبسبب صلاحنا سنكوّن مجتمعًا مثاليًّا في سعادته، وفوقها سننال عناية إلهية بتدخله تعالى مانعًا الكوارث الطبيعية عنّا، وتجد هذا صريحًا في عدة آيات من القرآن منها الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

تسمية المجتمعات والدول بأنها منتمية لدينه تعالى كإسلامية ومسيحية ويهودية، التسمية لا تنفع بأي شيء، بل التطبيق العملي للتسمية ينفع.

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً{74})
{وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم}، كم استنفدنا حياة، كم أمتنا قبل هؤلاء الكفار، {مِّن قَرْنٍ}، من أناس كانوا مقرونين، كانوا مع بعض لزمن طويل، وانتهت حياتهم بشكل عادي من شيخوخة أو أمراض أو كارثة... كم أمتنا من مجموعات كثيرة كافرة قبلهم، {هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا}، يملكون أغراضًا وبيوتًا مفروشة أحسن من بيوتهم، {وَرِئْيًا}، صورتهم المحدّدة، مظهرهم منظرهم أحسن، وثيابهم وزينتهم والراحة في حياتهم كانت أفضل.

أنتم أيها الكفار تفكرون بطريقة غير صحيحة، صحيح أن بعض جماعاتكم أو مجتمعاتكم حاليًا ظروفها أفضل من ظروف المؤمنين، كان قبلكم أناس حياتهم أفضل من حياتكم هنا في الدنيا، وأخذ تعالى حياتهم، فكيف تقارنون بين جنّة الآخرة الخالدة، وبين حياة مرفّهة ولكن مؤقتة هنا في الدنيا؟ إذا لم تكونوا تشعرون بأنكم ستموتون وتفقدون الحياة

الدنيا، فالتفتوا إلى أناس كانوا قبلكم هنا في حياة رغيدة أفضل بكثير من حياتكم وهلكوا! فما معنى التعلّق والتبجّح بزينة حياة لن تدوم لكم!

بعبارة أخرى لو كان كلامكم عن حياة رغيدة دائمة، لكان معكم حقٌّ في البقاء على كفركم، ولكنكم وبأقل التفاتة تعلمون من التاريخ أن من سبقكم من كفّار كان بعضهم مرفّهًا أكثر منكم، وفي النهاية ولسبب أو لآخر انتهت حياتهم، وأنتم مثلهم سيأتي زمن وتنتهي حياتكم، وبعدها ماذا؟

هل ستتركون وعده تعالى لكم بجنّة خالدة لأجل حياة قصيرة؟

(قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَداً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً{75})
{قُلْ}، للكفّار أيها النبي محمد(ع) عبر هذا القرآن: {مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ}، في الطريق الخطأ الذي لا يوصل للشيء المطلوب المرغوب، {فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا}، فالموصوف بالعناية به يعطيه بشكل مستمر غير منقطع هنا في الدنيا رِزْقًا وَاسِعًا والكثير من الأموال والأراضي وَعُمْرًا... {مَدًّا}، بكل ما لكلمة مدّ "استمرارية" من معنى.

توقّف هنا وتذكّر ما قلناه قبل قليل عن النماذج التي يختارها القرآن للحديث عنها، فالجملة هنا لا تقول إنَّ كُلَّ من كان ضَالًّا فسيمدّ له تعالى في عمره ويجعله غَنِيًّا وذا منصب... لا، بل من أبرز الضالين نَمُوذَجًا هم الممدود لهم، على أساس أنهم يعتقدون بشكل أو بآخر أنهم مميزون عن الآخرين، حيث يعتقدون أنهم مميزون عنده تعالى أو مميزون بصفاتهم وقدراتهم الشخصية، وتتذكّر أن الآيات قفزت عن فقراء الكفّار بسبب غباوة تعلّقهم بالدنيا وهم أَصْلًا ليسوا من المرتاحين فيها أو هم راغبون في متاع وشهوات ستبقى أَحْلَامًا لن يحصلوا عليها...

{حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا}، حتى إذا حصلت لديهم صورة محدّدة، "فشافوا"، {مَا يُوعَدُونَ}، ما قاله تعالى أنه سيفعله، {إِمَّا الْعَذَابَ}، هنا في الدنيا فيصيبهم ضرر عبر كارثة طبيعية مقصودة منه تعالى كزلزال أَوْ فيضان أو إعصار... {وَإِمَّا السَّاعَةَ}، إمّا الوقت المحدّد لحدث جزئي من يوم فيها ساعات تحصل فيها أحداث أخرى، وغَالِبًا يقصد القرآن بالساعة أوّل زمن من رجوعهم إلى الحياة في يوم القيامة من الموت، {فَسَيَعْلَمُونَ}، حين يحصل لهم عذاب في الدنيا أو حين يقومون من الموت، {مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا}، فهناك ناحية توصف بِأَنَّ فيها شَرًّا شَدِيدًا فالضرر منها كبير، وعندها سيعلمون من ناحيته أشدّ ضَرَرًا له، وسيعلم الكفار من هو، {وَأَضْعَفُ جُندًا}، حيث إنَّ الملائكة(ع) حين تنزل هنا في الدنيا عليهم بالعذاب هل يستطيعون ردّها؟ وفي الْآخِرَةِ حين تجرجرهم الملائكة(ع) إِلَى النار هل يستطيعون ردّها؟ فالملائكة(ع) هم جنده سبحانه فيأمرهم ويَقُومُونَ بتنفيذ كافة المهمّات، فهل تستطيع جنودكم منع حصول العذاب لكم؟

هكذا ردّت الآية على كلام الكفّار الوارد في الآية ما قبل السابقة حين تباهوا بمقامهم وناديهم هنا في الدنيا.

حتى حالة الراحة التي يعيش فيها الكفّار هنا في الدنيا، فهي من مدد إلهي، من عطاء وإتاحة إلهية للموارد لهم، وليست من لا شيء، وليست من قدرتهم الذاتية، بل هي بلاء كامتحان يعيشون فيه وستنتهي هذه الراحة بهلاك كما قالت الآية السابقة، وهذا يشمل موتهم العادي، وإمّا بهلاك عذاب هنا في الدنيا إذا وصلت الحالة إلى حيث استحقاق نزول العذاب عليهم... أو بعذاب في الآخرة سيصيبهم حَتْمًا.

ضع في بالك دَائِمًا أن الآخرة أيّام، وأولها بالنسبة لنا هو يوم القيامة، يوم قيامتنا من الموت، وأوّل ساعة فيه هي ساعة قيامنا من الموت، ويلي ذلك أيام إلى آخر يوم وآخر ساعة بدخول آخر واحد إلى النار أو الجنة، وهكذا ينتهي مجموع ما يسمّى بيوم القيامة المؤلّف من أيام حشرنا زُمَرًا... بعدها سحب الأشهاد... والحساب الفردي... حتى آخر ساعة عند انتهاء يوم القيامة ودخول آخر واحد إلى النار.

لا يذهب فكرك من كلمة يوم للأربع وعشرين ساعة، وللساعة من ستين دقيقة، لا، في عموم اللغات وفي اللغة العربية وفي استعمال القرآن، كلمة يوم تشير لزمن يتحدّد بحدث أساسي يحصل فيه، وتَتَخَلَّلُهُ أحداث فرعية، وكل حدث فرعي هو ساعة من ذلك اليوم، فلا علاقة لطول المدة وقصرها في تحديد كلمة يوم أو ساعة، حيث خلق تعالى ما في الدنيا في

ستة أيام، وحينها كانت الأرض تتشكّل، فلا معنى لتحديد اليوم بفترة دورة الأرض الكاملة حول نفسها وهي لم تتشكّل بعد، تَشَكُّلُ الدنيا في أيّام يشير إلى مراحل مختلفة بدأت وانتهت وَانْتَهَى اليوم، وبدأ حدث أساسي آخر وهكذا...

لو أطلت عليك، فتحديد معنى كلمة يوم الواردة في كلامه تعالى بسذاجة طفولية، أَوْرَثَنَا "كمتدينين" تُرَاثًا ثَقَافِيًّا سَاذَجًا طُفُولِيًّا، حيث إنَّ اليهود قالوا إِنَّهَا أيّام الأسبوع وأنه تعالى في اليوم السابع، في يوم السبت، استراح سبحانه وتعالى... ونفس الفهم الطفولي الساذج بتفسير كلامه تعالى عن خلقة آدم(ع) من طين فَوْرًا بلا أبوين، ونفس الشيء عن فهم التعبير بخلق منها زوجها حيث فسّروه بخلق حوّاء من ضلع آدم(ع)...

هذه سذاجة طفولية عاكسة لمعطيات ضعيفة وناقصة بنينا عليها فهمنا لكلامه تعالى، ووقعنا فيها كمتدينين بسبب تفسيرنا لكلامه تعالى اعْتِمَادًا على المعلومات التي لدينا، واعْتِمَادًا على تحليلات رأيناها منطقية عقلانية... حيث طبقناها على كلامه تعالى، وهذه ليست المشكلة الكبرى، حيث وقعنا سَابِقًا في ذلك ولا نزال، ولكن المشكلة حين يصير كلامنا هو الدين الإلهي، ولا نميّز بين فهمنا وتفاسيرنا وبين الكلام الإلهي، فلا نفصل بين الأصل وبين ما فهمناه، ونجعل ما فهمناه هو الدين.

هذه المشكلة لم نتخلّص منها، لا في تفسير كلامه تعالى، ولا في تطبيقات تشريعاته، والمشكلة الأكبر ادّعاء الغالبية الساحقة من علماء الدين أنهم على حقّ، دَائِمًا! بالرغم من اختلافاتهم المتعارضة المتباينة وُصُولًا إلى درجة التضاد والتناقض! حيث يعرضون تشريعاتهم وعقائدهم ويصير لهم أتباع متوحشون في الدفاع عن كلام يعتبرونه من مرتبة الكلام الإلهي في تقديسه!

كما ترى حَاوَلْتُ في دراستي هذه عرض المعنى الدقيق للكلمات والجمل القرآنية، فَاصِلًا بين دلالتها اللغوية الأساسية وبين ما نفهمه نحن منها بِنَاءً على الخلفيات التي تحكمنا، وحَتْمًا لم أنجح بذلك تَمَامًا، واستعملت عبارات تنبّهك للفرق بين المعنى وبين ما استنتجناه منها وبين ما افترضناه... حتى ينفصل كلامنا عن كلامه تعالى، ويبقى المجال مَفْتُوحًا لتفاسير أفضل مبنية على رؤية أفضل.

أَخِيرًا كَثِيرًا ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خَيْرًا أم شَرًّا، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضَلَّ عنك صيدها. واسْتَعْمَلَ القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، فلم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضَالٌّ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} رَدًّا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَّرَدّاً{76})
في مقابل الكفّار الذين مدّهم تعالى في الدنيا...:

{وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى}، كل من كان على الشيء الصحيح سوف يضيف تعالى له أمورا صحيحة أخرى ليكون عليها ليوصله تعالى للغاية الصحيحة، وينير سبحانه قلوبهم وبصيرتهم ليكرهوا السيئات ويحبّوا الصالحات....

{وَالْبَاقِيَاتُ}، الأمور التي تبقى، {الصَّالِحَاتُ}، الموصوفة بأنها صالحة جيّدة، وهي الإيمان والأعمال الصالحة التي يقوم بها المؤمنون وهي الباقية ولا تزول مع زوال الدنيا، بل نجدها معنا في الآخرة ولا نجد أي شيء آخر ينفعنا، لا المال ولا الأولاد، وهي {خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا}، حيث ما يرجع من عند المسؤول عنك من مستوى إلهي على من كان له باقيات صالحات فهو موصوف بأن تقييمه أعلى من مدد الدنيا، {وَخَيْرٌ مَرَدًّا}، لأن ما سيتم ردّه عليهم من صلاحهم تقييم حسنه أعلى، وهو شيء يُرَدُّ إليك وعليك بالفائدة وسيكون "أفضل" شيء يردّونه إليك في يوم القيامة، لأن كل ما في الدنيا ستفقده ولن ينفعك في الآخرة إلّا الإيمان والعمل الصالح، وهما يبقيان، وهما الباقيات الصالحات، والثواب

عليهما كبير، وعندما يردّونك للحياة ويردّون معك ما حملته من إيمانك وعملك فستجد أنهما أفضل ما يمكن ردّه معك، وباقي الأمور كالمال والجاه والسلطة... فلا نفع فيها ولن تجدها.

إذًا، ما تعيشون فيه أيها الكفّار هنا في الدنيا، والكلام مع نماذج المرتاحين منهم، تبيّن لكم أولا أنه ليس بدائم، حيث قبلكم هلك من كان أغنى ومُتَنَعِّمًا أكثر منكم، وثانيا هذه ليست نعمة لكم، بل مدد إلهي حتى تنغمسوا في الضلالة أكثر، حيث أنذركم من الكفر ولم تسمعوا، وثالثا مصيركم إلى العذاب حتما.

من ناحية ثانية، سبحانه يدعم المؤمنين ليزدادوا هدى، لأن الأولوية ليست لراحتهم هنا في الدنيا ذات العمر القصير، بل لجعلهم يحملون معهم ما ينفعهم في الآخرة، وهي الباقيات الصالحات التي تعطيهم الثواب في الآخرة.

ما نقلته الآيات السابقة عن تفاخر نموذج من الكفّار على المؤمنين بمقامهم ومظهرهم، تردّ عليه آيتنا هنا بأن الباقيات الصالحات هي التي لها قيمة حقيقية ونافعة، حيث عليها ثواب في جنّة الآخرة الخالدة، وأنتم أيها الكفّار بعد حياتكم القصيرة في الدنيا ستذهبون إلى عذاب لا ينتهي.

بالنسبة لكلمة {خَيْر} في استعمال القرآن، كثيرا ما نستنسب تفسيرها على معنى "أفضل"، وأحيانا يصدق هذا المعنى بالتبعية من فحوى الكلام، ولكن بعض الاستعمالات القرآنية لنفس الصياغة تريك أنه لم يُقْصَد بكلمة {خَيْر} أن تكون رديفا لكلمة أفضل، وكمثال واضح عن ذلك ما ورد في الآية 16 من سورة العنكبوت: {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، حيث إن مرادفتها بأفضل في أمثال هذه الآية سيعطيك معانيَ غير دقيقة بل وغير مقبولة إلا إذا حملت معنى الأفضل على عموم المقابلة بين الأسوأ والأحسن، ولكن هذا ليس معناها بل هذا معنى كلمة {خَيْر}، وكلمة "أفضل" في أشعار العرب قبل الإسلام محصورة بين الحسن والأحسن، لأنك لو قلت إن الإيمان أفضل لكم فهذا يعني أن الكفر حسن والإيمان أحسن، لا، لأن الإيمان {خَيْرٌ} لكم مما يعني ضمنا أن الكفر سوء لكم.

لم يستعمل القرآن كلمة أفضل بتاتا، واستعمل التعبير بالخير وهو أوسع بالمعنى، حيث يقابل الشرّ كما في الآية 11 من سورة النور: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...}، واستعملها بمعنى ما يقابل الحسن حيث الآخر أحسن وليس شرا، كما ورد في الآية 271 من سورة البقرة: {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...}، لأن إبداء الصدقة ليس سوءا وإنما إخفاؤها أحسن، وهنا يمكن استعمال كلمة أفضل.

يعني لا ترادف {خَيْر} بـ "أفضل"، لأنهما في بعض سياق الكلام يتقاطعان تطبيقيا حيث يكون اللذان تقارن بينهما كلاهما جيّدَيْن، فعندها يصدق قول {خَيْر} أو أفضل، ولكن حين يكون الكلام عموميا يشمل ما كلاهما جيدان ويشمل أيضا ما أحدهما جيد والآخر سيّئ، ويشمل الوصف مطلقا بمقارنة الحسن مع مطلق الوصف بالحسن، حتى لو لم يكن هناك طرف آخر للمقارنة والمقارنة مع مطلق الوصف، كوصفه تعالى بـ {خَيْرِ الرَّازِقِينَ} و {خَيْرِ الْحَاكِمِينَ}... فهو تعالى بالمقارنة مع وصف الحسن مطلقا كرازق وحاكم فهو {خَيْرُ} موصوف بذلك، لأن كلمة أفضل ليست وصفا صحيحا لهذه الحالات وكلمة {خَيْر} صحيحة.

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً{77})
{أَفَرَأَيْتَ}، أسألك أيها النبي(ع) وأيها المؤمن لو حصلت عندك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: لو شفت. فالتفت إلى، {الَّذِي كَفَرَ}، الذي أنكر ولم يؤمن، {بِآيَاتِنَا}، بالأمور المميّزة المنسوبة له تعالى، فلم يؤمن بما يسمعه من قرآن عن التوحيد والآخرة وعذابها وجنّتها... وقال: {لَأُوتَيَنَّ}، وسيكون عندي، {مَالًا وَوَلَدًا}، أموال كثيرة وأولاد كثيرون.

تذكّر الآيات السابقة التي نقلت كلاما عن كفّار قارنوا بين مسكنهم ومعشرهم هنا في الدنيا وبين معيشة المؤمنين، وهنا تكمل الآية كلام هذه النوعية من الناس الذين يقولون إننا بتركنا لدينكم وما يقوله سنحصل على الأموال والأولاد في الدنيا، وإن كانت هناك آخرة فأيضاً سنحصل عليها هناك، وهذا المعنى ذكرته آيات عديدة في القرآن.

تلاحظ أن الكافر بالدين الإلهي لا يؤمن بحياة آخرة، ولا بحساب ولا بجنة ولا بالنار، ولكن القرآن نقل لنا عن الكفّار قولهم: إن كان فعلاً هناك آخرة وجنّة ونار، فكما نحن هنا أغنياء أقوياء ولدينا أولاد... فهناك سيكون الوضع نفس

الشيء، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 50 من سورة فصلت {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ}، والآية 36 من سورة الكهف {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا}. وسترى من بقيّة الآيات هنا أن الإشارة في كلام الكفّار إلى حصولهم على المال والولد بشكل خاص في الآخرة، ولم يذكر القرآن أبداً أن الناس في الآخرة سيحصلون على أولاد، فلا نعلم إن كان سيحصل شيء كهذا لأهل الجنّة أم لا.

يوجد مثل شعبي قريب جداً من قول هذا النوع من الكفار: صم وصلِّ يركبك الفقر. للأسف عقلية الكفر هذه لم تنقطع وهي موجودة حتى عصرنا هذا، بل نجد قناعة عند الغربيين أن التدين يجلب الفقر بدليل أن بلدانهم علمانية لا تعترف بالدين كقانون، ورغم ذلك فهم في بحبوحة وراحة، أما البلدان المسلمة فهي في مشاكل سياسية وأمنية واقتصادية...

هذا النوع من النفسية والتفكير هو الذي تتحدث عنه الآيات هنا، وتشير لسخافة هذا التفكير غير المستند على أي أساس، لأن بلداننا إسلامية بالاسم فقط وبدون أي تطبيق لتعاليمه إلا اللهم ما ندر، وبلدانهم تحمل شعار رفض الدين ولكن قوانينهم الأساسية عادلة متماشية مع دينه تعالى... وبشكل مقبول تخلّصوا "بشكل ما" من الطبقات الحاكمة المصّاصة لخيرات بلدانهم وبشكل عامّ وظّفوا المتخصصين... بينما نحن حكّامنا بغالبيتهم من المستهترين مصّاصي خيرات بلادنا ودمائنا...

إذاً لا تزال السورة تركّز على من اخترع ديناً مختلفاً عن دينه تعالى، ومعه من اخترع في دينه تعالى، وترينا أنهم أناس متعلقون بالدنيا مستغنون عن الآخرة ولذلك تتوقّع منهم الكفر وصولاً إلى اختراعهم ولداً له تعالى، فاختارت السورة الكلام بالعمومية عن الكفر ليكون أشمل لأن الحالة عامّة، وسيأتيك بعد قليل تخصيصها للكلام مع من اخترع آلهة أو جعل له تعالى ولداً إلهاً.

لا تخصّص كلام الآيات هنا لمن عبد الأصنام أو الأرواح أو الكواكب... فهي لعامّة من كفر بالآخرة، حتى لو كان من المنتمين لدينه تعالى بالاسم، وحتى لو كان في كلامه يتحدّث عن الآخرة كمؤمن بها، فلو آمن بها فعلاً لما اخترع له تعالى ولداً.

(أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً{78})
{أَطَّلَعَ الْغَيْبَ}؟ هل هو مطّلع متعرّف على ما غاب عن الناس؟ هل احتكّ بما هو مستور وصار عنده علم بما سيحصل في المستقبل؟ حتى يتأكد أنه سيكون غنياً وعنده الكثير من الأولاد في الآخرة؟

{أَمِ اتَّخَذَ}، أم كان له، {عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا}، فكان له عند الموصوف بالعناية به التزاماً بأن يعطيه المال والولد في الآخرة؟ هل قال له ربنا سبحانه: اكفر وافعل ما شئت فأنت مميّز وأعدك بأن أعطيك الكثير من الأموال والأولاد في الآخرة؟ أو قال تعالى إنّ الغني هنا في الدنيا سيكون غنياً في الآخرة؟

يعني، هناك طريقتان لتأكيد كلام الكافر الذي يقول بأنه سيحصل على الأموال والأولاد في الآخرة وهو كافر بدينه تعالى، إمّا أن يكون رأى ما سيحصل في المستقبل، وعلم أنه سيحصل على الأموال والأولاد، وإمّا أن يحصل على وعد من الإله سبحانه بإعطائه الأموال والأولاد، وكلاهما لم يحصلا، فكيف يتفلسف ويقول بأنه حتماً وهو بحالة الكفر سيكون غنياً ولديه أولاد في الآخرة!

في حياتنا العادية نتعامل أحياناً مع بعض المسائل من خلفيات تجعلنا نرفض العقلانية، وخذ مثلاً حالة الذي يدّعي الفهم في الزراعة ونصحه آخرون بأن لا يزرع بذور نباتات شتوية في الصيف، وركب رأسه "جكارة" نكاية بالناصحين، وزرع. هذه الحالة تصيب غالبيتنا في بعض المسائل، وبعضنا تصيبه هذه الحالة في العديد من المسائل، ونفس الشيء موقفنا من العقائد والتشريعات والسلوكيات، فترى أناساً عقلانيين في العلوم أو في التجارة أو في الزراعة... ولكنهم لسبب أو لآخر يرمون كلاماً غير مدروس واستهتارياً بلا معنى في مواضيع دينية، وما تقرؤه هنا في الآية السابقة نموذج عن ذلك.

الجواب في الآية هنا والتالية عن تلك الحالة يريك أنهم لا عذر لهم في حماقتهم، وسينالون العقاب على كفرهم، وهذا يستند على قدرتهم على تمييز الفاسد من الصالح، حيث إننا أحياناً في مواقف كهذه نراهم مقتنعين بما يقولونه، ونعتبر قناعتهم تبريراً لأقوالهم فنعذرهم، ولكن في المحاكمات أمام القانون، لا يوجد شيء اسمه لا أدري، سواء كنت تعلم أو لا تعلم، وكان ما فعلته مخالفاً للقانون، فستتحاسب عليه، وقد يرحمونك بتخفيف العقاب، ولكن إن كانت مخالفتك للقانون في مسألة يمكن لأي إنسان عادي تمييز خيرها من شرّها، فلن يرحموك.

هكذا ترى أنه تعالى في كلامه معنا عبر القرآن، يعتبر أساسيات العقيدة والشريعة والسلوكيات، من البديهيات الواضحة التي يمكن لأي إنسان عادي تمييز خيرها من شرّها، ورغم ذلك برّرها تعالى على معنى توضيح الأدلة عليها، حيث تجد الكلام الكثير عن توحيده تعالى مع مختلف أنواع الأدلة، وكلاماً عن الآخرة مع مختلف أنواع الأدلة... ونفس الشيء في التشريعات، وكمثال على ذلك الصراحة الواضحة والشفافية في تحريم المسكرات والقمار في الآية 219 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا...}، ففيهما نفع، ولكن تحريمه تعالى لهما لأن الضرر أكبر بكثير من المنفعة.

أطلنا الكلام لأن العديد من الناس تجدهم مزاجيين أمام بعض المسائل الدينية، وكأن الأمور ستتغيّر قيمتها وتصير حسنة إن قالوا إنهم مقتنعون بشيء ما ولن يتغيّروا عنه! لا، فلو كان فاقداً للقدرة على تمييز الخير من الشرّ، أصلاً فلن يعاقبه تعالى إن فعل الشرّ، ولكنه يعلم بسوء ما يفعله، ويرفض الاعتراف بسوئه، ولذلك ترى خالقه الأعلم بالظاهر والباطن يخبرنا عن العقاب الحتمي لكل من فعل السوء عن قصد ولم يتب منه.

(كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدّاً{79})
{كَلَّا}، لم يطّلع على الغيب ليعلم بما سيحصل، ولم يعده سبحانه بالجنّة بالرغم من كفره. {سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ}، سبحانه سيسجّل ما يقوله هذا النوع من الكفّار، {وَنَمُدُّ لَهُ}، باستمرار بلا انقطاع، {مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا}، فبدل أن يمدّه تعالى في الآخرة ويعطيه من الأموال والأولاد كفضل إلهي، سوف يجعل سبحانه عذاب الكافر ممدّداً بلا نهاية، بكل ما تحمل كلمة مدّ من معنى.

إذاً، أيها الكافر لم ولن تحصل على المال والولد في الدنيا بسبب الكفر، بل إن حصلت عليهما فبمدد إلهي ليبتليك لتغرق في كفرك أكثر فأكثر، وهذا شيء ذكرته السورة من قبل وستذكره مرّة ثانية، وفي الآخرة ها نخبرك أنك ستحصل على عذاب ممدّدٍ.

تذكّر الأشياء المحسومة التي ذكرها القرآن: التوبة والاستغفار محسوم بعدهما تجاوزه تعالى عن السيئات، ومن مات مؤمناً صالحاً فمحسوم دخوله الجنّة. من كفر فمحسوم دخوله النار... وهنا تعرض الآيات نوعية من الكفّار يخترعون أموراً حاسمة من عندهم: سأحصل هنا على المال والولد حتماً ولن أعمل للحصول على جنتكم التي في الآخرة، وإن كانت توجد جنّةٌ في الآخرة كما تقولون فأنا أيضاً هناك سأحصل على المال والأولاد. أما المؤمن فيقول: هنا في الدنيا لا أدري إن كتب لي سبحانه الرفاهية والولد، ولكني أؤمن بوعده لي بالسعادة في الجنّة. فالآيات تنفي علاقة الحتمية السببية بين الكفر والحصول على المال والولد، حيث ربما يقرر سبحانه إمداد الكافر بالمال والولد هنا في الدنيا وربما لا، وتؤكّد حتمية العذاب في الآخرة لمن كفر.

من المفيد مراجعة سورة الفجر التي تخصّصت من أولها لآخرها بهذا الموضوع.

(وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً{80})
{وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ}، ونجعل الكافر يرث ويملك بلا استرداد ما قاله عن حصوله على الأموال والأولاد، لأن هذا عمل سيّئٌ سنجعله مِلكاً له ولا نستردّه منه، بعبارة أخرى، هذا القول عليه عقاب شديد، وبعكس المؤمن الذي وصل إلى الآخرة مع أعماله الصالحة "الباقيات"، والكافر وصل إلى الآخرة وورث من حياته الدنيا الأقوال التي تسبّب له العذاب، وسيجعلها تعالى ملازمة له لا تنفكّ عنه.

{وَيَأْتِينَا}، ويحضر إلينا ذلك الكافر، {فَرْدًا}، وحيداً ليس معه شيء من مال وغنى وأملاك الدنيا ولا الأولاد.

بعبارة أخرى، الآيات تقول: كان بعض الكفار أغنياء، وعندما يموتون سيرثون أفعال الكفر في الآخرة. وبعض المؤمنين كانوا فقراء، وعندما يموتون سيرثون الأعمال الصالحة.

لنتصور المشهد حيث عاد الكافر من موته إلى الحياة، ولن يجد ماله ولا شيئاً من أملاكه معه، ولن يحصل على المساعدة من أولاده، بل سيقف ليتحاسب وحيداً فريداً، وسيقولون له: أنت كنت تقول إنّ الكفر يجلب السعادة والمال والأولاد... والآن ماذا ترى؟ وهل جلب لك الكفر بالآيات الإلهية السعادة؟ وها أنت واقفٌ لوحدك بلا مال ولا أولاد لتتحاسب.

نتذكّر أنّ الكافر لا تنفعه أي شفاعة، وحتى لو كان عنده ولدٌ مؤمنٌ وعالمٌ ربّانيٌّ ومقتولٌ في سبيل الله تعالى، فلن يشفع له حين يراه مشتعلاً بكفره، وحتى لو طلب الأب من ولده الشفاعة فلن ينالها... ووردت العديد من الآيات الصريحة في القرآن عن انتفاء إمكانية حصول أي كافر على أي شفاعة من أي كان ومهما كان نوعها أو مقدارها، بل فرداً يقف بلا خليل ولا صديق ولا قريب... وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 70 من سورة الأنعام {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا...}.

(وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً{81})

{وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً} ! كما نقول: ذهبتم من دوني. ونقصد أنكم ذهبتم وتركتموني، هنا المقصود أنهم تركوا توحيد الإله الحقيقي، واتخذوا واعتبروا آلهة معه تعالى! {لِيَكُونُوا}، تلك الآلهة التي اخترعوها، {لَهُمْ}، لمن اخترعها، {عِزًّا}، تعزّهم، وتفرض حصول ما يريدونه، وتنصرهم وتؤيدهم وتعطيهم القوة... ويقولون: آلهتنا في الدنيا حتماً تعطينا العزّة لأننا منتصرون أقوياء بسببها، وإن كانت هناك آخرة فأيضاً ستكون آلهتنا إلى جانبنا وتعطينا العزّة!

تذكّر دائماً أننا أمام حالة من كلام عادي يقوله الكفّار بلا أي دليل ولا أي دراسة، هكذا يخترعون آلهة وهمية، ويشعرون بشكل وهمي بالانتماء لشيء له قيمة إلهية ويعطيهم العزّ في الدنيا! وإن كانت هناك آخرة فأيضاً ستعطيهم آلهتهم العزّ هناك!

(كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً{82})

{كَلَّا}، هذا غير صحيح، ولن تكون تلك الآلهة الوهمية مصدر عزّ أبداً، بل تلك الآلهة الوهمية، {سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ}، سينكرون أي علاقة بمن تصرّف على أساس أنه عبد لهم، فأيّما شخص تصرّف على أساس أنه عبد لهم وأنهم آلهته فلن يعترفوا له بقبولهم لتصرّفه، لأنهم ليسوا آلهة، وهو ليس عبداً لهم ليعبدهم فكيف سينفعونه في الآخرة وكل ما قام به هو وهم بوهم لا حقيقة له.

نعلم من القرآن أنه في يوم القيامة يضع سبحانه الكفّار أمام الآلهة التي كانوا يعبدونها، ويسألهم: هؤلاء كانوا يعبدونكم هل يمكن أن تقدموا لهم أي شيء ينفعهم، وسيقولون: نحن أصلاً لسنا آلهة، ولا معنى لعبادتهم لنا.

{وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ}، على من عبدهم، {ضِدًّا}، ويضادّونهم بدل أن يكونوا عزّاً يساندهم.

ننتبه جيداً، فالمشركون أنواعٌ عديدة في عقائدهم، ومنهم من يعبد الأصنام أو الكواكب أو أرواح الأجداد أو الجنّ أو الملائكة أو الأشخاص المقدسين كالأنبياء أو غيرهم... فمن كان من تلك الآلهة التي يزعمونها له كيان ويمكنه التكلّم في يوم الآخرة فسيردّ على من عبده ويكفر بعبادته ويطلب له التعذيب الشديد... ويمكن أن يخترع المشركون آلهة من الفراغ وليس لها وجود أصلاً، كإله الخمرة وإله المطر وإله الحرب... وفي يوم الآخرة لن تحضر أي كيانات لتمثيل تلك الآلهة الوهمية التي أصلاً لا كيان لها، وأمّا المشركون العابدون لكائنات لها وجود حقيقي كالعابدين لأشخاص من الناس، أو ملاكٍ أو جنّيٍّ أو روحِ أجدادهم... فهؤلاء لهم كيان وفي الآخرة سينكرون أنهم آلهة...

والقرآن في هكذا حالات عادة يقفز عن الآلهة الوهمية التي لا وجود لكائن يمثّلها أصلاً، وحصر كلامه كثيراً عن الكائنات التي قال عنها الناس إنها آلهة، وهذا شيء منتشر في القرآن، ومن سياق الكلام تعلم إن كان الحديث عن مؤمنين جعلهم الناس آلهة، حيث يتبرّأ المؤمنون ممن عبدهم كما في حالة النبي عيسى (ع) الذي في يوم القيامة سيتبرّأ

ممن عبده، كما ورد في الآية 116 من سورة المائدة {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ...}، وبطبيعة الحال فالملائكة(ع) تتبرّأ ممن عبدها... وهناك حالات مثل حالة فرعون الذي أمر الناس أن يعبدوه، فهذا أيضاً يتبرّأ ممن عبده في يوم القيامة، فماذا سيفعل لهم؟ وبماذا سيفيدهم إن كان هو نفسه مهاناً محقّراً معذّباً...

هنا الآية عمومية شاملة لكل من قيل عنه إنّه إله، فهو لن يساعد من عبده بل سيكون ضدّه، والمؤمن حتماً سيكون ضدّ من عبده، والكافر سيكون ضدّ من عبده ويتبرّأ منه ويهرب منه... بل سيطلب أن يرموا عابديه في النار بدلاً منه، وفحوى كلام الآية 166 من سورة البقرة نموذج عن ذلك {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ}.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً{83})
{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت. {أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ}، أطلقنا الموصوفين بقيامهم بأعمال السوء وبإضلال الناس، {عَلَى الْكَافِرِينَ}، على المنكرين للدين الإلهي، {تَؤُزُّهُمْ أَزًّا}، حيث تقوم الشياطين بحثّهم بدفعهم، أزّاً دفعاً على الكفر، وتشجعهم أكثر على زيادة الكفر. وكما تُؤَزُّ النار أزّاً عبر زيادة الوقود لتشتعل أكثر، فالشياطين تضيف أفكاراً ومشاعر سيئة في عقول ومشاعر الكفار لتؤزهم لتجعلهم يكفرون أكثر فأكثر، أزّاً، بكل ما تحمل كلمة أزّ من معنى.

كما أرسلنا الأنبياء للمؤمنين ليهدوهم وبالعكس أرسل سبحانه الشياطين ليزيدوا الكفّار كفراً.

الشيطان هو أي مخلوق يقوم بأعمال الضلال، ورئيس الشياطين إبليس، وهنا الآية تشير إلى شياطين الجنّ أعوان إبليس، حيث سمح لهم سبحانه بالتسلّط على الإنسان الذي قرّر الكفر.

يعني، عندما يقولون كلاماً غير مدروس ولا عقلانيّ ولا علاقة له بالواقع، ويمشون على أساسه، مثلما قالوا إنهم سيحصلون على المال والولد وأن آلهتهم ستكون لهم عزّاً في الآخرة، فمصدر هذا الكلام شيطاني، وسبحانه أعطى الشياطين القدرة على التلاعب بعقل الذي قرّر الكفر، ويأزّ هذه الأفكار الضالّة في أفكار ونفسيات الكافرين.

(فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً{84})
{فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ}، أيها النبي(ع) وأيها المؤمن، فلا تستعجل، حيث قبل أوانه في الآخرة تريد الآن رؤيتهم ينالون ما يستحقّون من تعذيب، {إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا}، ونزيد رقماً على رقم، سنةً سنتين ثلاثاً... فلا تستعجل لأن لهم وقتاً محدّداً سيتعذبون فيه وهو آتٍ بالتأكيد حيث إننا نعدّ لهم أيامَ وسنيّ حياتهم التي في الأخير ستنتهي وسيصلون إلى الآخرة والحساب والعقاب، فلا تستعجل.

(يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً{85})
عندما ينتهي تعداد أيام الكفّار التي كانوا فيها بأمان من عذاب الآخرة:

{يَوْمَ}، هو الزمن الذي، {نَحْشُرُ}، نجمع بقرار منّا، {الْمُتَّقِينَ}، الذين كانوا يتقون ويتحاشون، والكلام عن المتجنبين للسيئات وعملياً هم المتجنبون لغضب ربهم سبحانه، سنجمعهم، {إِلَى الرَّحْمَنِ}، إلى الذي يعتني بمخلوقاته لما فيه مصلحتهم، {وَفْدًا}، مجموعةً مرتبةً محترمةً مكرّمةً إلى ربهم سبحانه، ويستقبلهم سبحانه بالثواب الجميل.

كلنا ذاهبون إلى الآخرة للقاء الرحمن، ولكن بعضنا بسيئاته خرج من شموله بالرحمة الإلهية، وآخرون "المتقون" عملوا على بقائهم مشمولين بالرحمة الإلهية. بعبارة أخرى بانتظارنا في الآخرة لقاء مع رحمن، وليس مع لئيم عابث... ومعروض علينا كلنا رحمته تعالى، وسينالها التقي، أمّا الآخرون المجرمون:

(وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً{86})

هو نفس اليوم حيث، {نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ}، الذين قاموا بأعمال يستحقّون عليها العقاب ونحرّكهم من مكانهم إلى حيث نريد، {إِلَى جَهَنَّمَ}، إلى المكان الموصوف بسوء ما فيه، {وِرْدًا}، ليردوها وتتّجه المجموعات نحو جهنّم، هنا التعبير عن حركتهم باتجاه جهنّم، كما تعبّر عمن يتجّه نحو الماء وتقول: وارد الماء. وهذا يعني أنك تصف ذهابه باتجاهها وهو لم يدخل فيها بعد، وهناك آيات كثيرة جداً تكمل ما سيحصل بعد ورودهم إلى جهنّم فهم سيدخلون فيها ويمكثون هناك، ولكن قبل دخولهم إليها سيردون عليها، وسيقفون بالقرب منها لاستكمال حسابهم... ولمزيد من التفاصيل حول وصف الورود راجع دراسة الآية 71 من هذه السورة {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا}.

(لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً{87})
الذي طرحته الآيات السابقة هو مصير محتوم للمتقين والمجرمين كنتاج لأعمالهم، ولكن هل يمكن تغيير مصير المجرمين عبر الشفاعة؟ عبر التوسّط لهم؟ كِلا المتقين والمجرمين، بل وكلّ الكائنات:

{لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ}، ليس لهم قدرة التدخّل مستخدمين قيمتهم المعنوية أو السلطوية لتغيير ظروف أحد ما للأحسن، وهنا الكلام عن التدخّل لإنقاذ أحد ما من جهنّم، وهم لا يملكون هذا، {إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا}، من كان لديه التزام صادر من الذي يعتني به لما فيه مصلحته، فهذا ينال الشفاعة.

هنا في الدنيا عَهِدَ ربنا سبحانه إلينا أن نؤمن به ونطيعه ووعدنا بالجنّة، وهذا عهد منه تعالى، وهذا التزام منه تعالى بما سيفعله مع المتقين، فمن آمن به وأطاعه سبحانه صارَ من ضمن هذا العهد، وصار من ضمن هذا الالتزام الإلهي، ومن ضمن العهد صار له حق الحصول على الشفاعة في الآخرة، حَيْثُ إِنَّ بعض المؤمنين من الدرجة المنخفضة عليهم ذنوب تمنعهم من دخول الجنّة، إذْ خلطوا أعمالا صالحة بأخرى فاسدة... فهؤلاء، عبر القرآن، يعلمون أنه تعالى تعهّد بأنهم وبسبب إيمانهم وأعمالهم الصالحة بدرجة مقبولة، سَيَسْمَحُ للمؤمنين من الدرجة العالية وللملائكة بالشفاعة للمؤمنين من الدرجة المنخفضة، وأيضا هو سبحانه سيشفع...

أما الكافر الظالم المجرم، فهو خارج هذا العهد الإلهي، ولم يعهد له سبحانه بالشفاعة.

الآية هنا تتحدّث عن المؤمن الذي التزم بدينه ولكنه قام ببعض المخالفات، فهذا عندما يسمع بالآيات التي تتحدّث عن الشفاعة، وهي تعده بالحصول على الشفاعة لمسح ذنوبه، ففي يوم القيامة سيطلب الشفاعة التي وعده بها سبحانه، لِأَنَّهُ الذي {اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا} بحصوله على الشفاعة.

بعبارة أخرى، هَلْ يمكن للمجرمين أن يقفوا ويقولوا للمؤمنين: اشفعوا لنا لأنه سبحانه عهد إلينا أننا سَنَنْجُو إن شفعتم لنا. لا، فلم يعهد سبحانه لهم بذلك، وإنما أعطى سبحانه عهده هذا لمن التزم في الدنيا بعهد التوحيد والدين الإلهي، وَحَصَلَتْ منه تقصيرات ومخالفات يمكن مسحها بالشفاعة، والكافرون لم يكونوا من ضمن المعهود لهم.

نتذكر ما قاله الكفار: إذا كان يوجد يوم للقيامة فآلهتنا ستكون لنا عزّا وتنصرنا وتشفع لنا. وهنا تقول الآية: لا، لِأَنَّهُ فقط من كان من ضمن العهد الإلهي يمكنه الحصول على الشفاعة، وأنتم أيها الكافرون المجرمون الظالمون لستم من ضمن هذا العهد.

الشفاعة هي عموم استخدام القيمة المعنوية أو السلطوية لتغيير الظروف نحو الأحسن، والآيات القرآنية التي تحدّثت عن الشفاعة تناولتها من عدّة جوانب أهمّها نفي الشفاعة لأي مخلوق كحقّ مفروض ملزم "مرغم" للإله سبحانه وتعالى، كحقّ النقض "الفيتو"، وتقرأ ذلك في الآية 255 من سورة البقرة {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}، فلا تتصوّر أن ملاكا أو شخصا من خيرة المؤمنين يملك حقّ الشفاعة وسيفرض تنفيذها على مجرم لينقذه من العذاب، ويضرب رجله بالأرض "يحتجّ معترضاً" ويقول: معي حقّ الشفاعة وأريد أن يدخل فرعون إلى الجنّة. هذا شيء لا يمكن أن يحصل لأنه لا أحد يمكنه فرض أي شيء من أي نوع عليه تعالى.

هناك آيات أخرى أكّدت على وجود شفاعة من الملائكة (ع) والمؤمنين من الدرجة العالية للمؤمنين من الدرجة المنخفضة، وكمثال عن ذلك الآية 28 من سورة الأنبياء {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}، فالشفاعة تُـنَـفَّـذُ بعدما يسمح الإله سبحانه بها، وضمن القرار الإلهي الأساسي يوجد أشخاص على ميزان العدل المستقيم

يجب أن يتعذّبوا حتما، ولكن القرار الإلهي فيه رحمة، فمن ابتعد عن الشرك والكبائر كقتل الأبرياء والزنا... قَرَّرَ له تعالى أن يكون له مخرج من العذاب، وسمح بالشفاعة له، أمّا المشركون والمرتكبون للكبائر من السيئات فلا تنفعهم الشفاعة كما ورد في الآية 123 من سورة البقرة {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ}، فنفي الشفاعة هنا يقصد نفي فعلنا لما نريد من سيئات واعتمادنا على شفاعة أحد ما لنا في الآخرة.

لا تَنْسَ أن الشفاعة لا تعني دائما أنها للنجاة من النار، بل التخفيف من عذابها أو التخفيف من وقت المكوث فيها هُوَ أيضا من آثَارِ الشفاعة.

الجانب الثالث من الشفاعة الذي تجده في بعض الآيات هو نفيها عن الآلهة التي اخترعها المشركون، فآلهتهم الوهمية التخيلية كإله الحرب وإله الخمرة... أو التي لها كيان كملاك أو إنسان أو جنّي، لَا قدرة لهم حتى على الوساطة عنده تعالى للعفو عمّن عبدهم، وعادة، سِيَاقُ كلام هذا النوع من الآيات يريك أنه تعالى وحده الإله وأن الآخرين ليس لهم سلطة من مستوى إلهي بل حتى ليس لديهم القدرة على فرض قيمتهم المعنوية عليه تعالى، وكمثال عن ذلك الآية 51 من سورة الأنعام {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}، فسبحانه وحده بسلطته يشفع ويسمح بالشفاعة. ومثال آخر الآية 13 من سورة الروم {وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ}، إِذْ كان الكلام عن الذين أشركوهم معه تعالى في الألوهية، وسبحانه لا شريك له، حَيْثُ إِنَّ بينهم وبين آلهتهم شراكة وهمية بين عبد وإله، ولا قدرة لها لتشفع لهم... ومثال آخر الآية 43 من سورة الزمر {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ}، وهذه شاملة لكل أنواع الآلهة التي اخترعوا ألوهيتها، حَتَّى لو كان لها فعلا كيان ولم تكن وهمية كإله الخمرة وإلهة الحبّ، أَوْ كانت ملاكا أو إنسانا أو جنيا، فهؤلاء لا يملكون شيئا من مستوى إلهي.

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً{88})
{وَقَالُوا}، بعض الناس: {اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا}! الموصوف بعنايته بمخلوقاته لما فيه مصلحتهم قَالَ عنه بعض الناس أَنَّهُ اعتبر واحدا من مخلوقاته ولدا "بنتا أو صبيا" لنفسه! المشهور هو قول بعض المسيحيين هذا الكلام عن النبي عيسى(ع) إِنَّهُ ابن الله عزّ وجلّ، ولكن لَا تَنْسَ أَنَّ هناك آخَرِينَ غيرهم قالوا إِنَّهُ تعالى له ولد، حَيْثُ إِنَّ هناك مُشْرِكِينَ قالوا إِنَّ الملائكة (ع) بنات الله عزّ وجلّ، وَذكرت ذلك الآية 100 من سورة الانعام {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ}، وبعض اليهود قالوا عن النبي عزير(ع) إِنَّهُ ابن الله عزّ وجلّ كما ذكرت الآية 30 من سورة التوبة {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ}.

يعني، لم ترد السورة أن يكون كلامها حصرا للمسيحيين الذين قالوا عن النبي عيسى(ع) إِنَّهُ ابن الله عزّ وجلّ، بل أرادت أن تجعلهم مشمولين بالكلام مع أي واحد ومهما كان دينه وَفعل مثلهم.

ضع هذا في بالك مع الآية 81 التي سبقت وقالت إِنَّهُمْ باختراع الآلهة الشريكة له تعالى يقصدون منها العزّة لهم، وَهناك كان الكلام عموميا وهنا لا يزال كذلك، وَتُفَسِّرُهُ على المسيحيين الذين قالوا عن النبي عيسى(ع) إِنَّهُ ولد له تعالى، على أساس أنهم يريدون العزّة. إِذْ جَعَلُوا شَخْصًا خَاصًّا بِهِمْ في أعلى مرتبة، في مرتبة الألوهية، منطلقين من نفس التفكير الذي انطلق منه المشركون الَّذِينَ اخترعوا آلهة خاصّة بهم وأقوى من آلهة الناس الآخرين!

بقي شيء، حَيْثُ استعمل القرآن تعبيرين، أحدهما يشير إلى قولهم أَنَّهُ تعالى "اتّخذ" ولدا، والآخر يشير إلى قولهم بـ "تولّد" كائن إلهي منه تعالى، كما ورد في الآية 151 و 152 من سورة الصافات {أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ، وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}، وتعبير يشير إلى نسب ابن له تعالى كما ورد في الآية 30 من سورة التوبة {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}.
وكان سياق الآيات المختلفة يشير إلى أنواع مختلفة من عقائد الشرك به تعالى عبر نسب كائن له تعالى كولد أو ابْنٍ، مَرَّةً ترى نفي القرآن لإمكانية تولّد شيء منه سبحانه، ومرّة ترى نفي "اتخاذ" ولد على معنى اعتبار كائن ما متميّز كولد له تعالى، ومرة نفي نسب الِابْنِ له تعالى على معنى تميّز كائن عن البقية بما يشبه التبنّي...

أنت تعلم أن المخترعين له تعالى ولدا لَهُمْ عقائد مختلفة، حَتَّى إِنَّ الْمَسِيحِيِّينَ القائلين بأن النبي عيسى(ع) ولد له تعالى، لَيْسُوا مُتَّفِقِينَ على تفاصيل معنى ذلك، لا على مستوى علماء طوائفهم ولا على مستوى عوام الناس المنتمين للمذاهب المختلفة، ولذلك ردّ القرآن بمختلف العبارات على مختلف أنواع عقائدهم، إِذْ بَعْضُهُمْ يقول بأن النبي عيسى (ع) بشري وَحلّ فيه الإله، وآخرون يقولون إِنَّهُ (ع) تميّز بنفحة إلهية، وَمنحه تعالى قدرات إلهية... وآخرون يقولون إِنَّهُ الإله بذات نفسه تمثّل على شكل النبي عيسى(ع) فَصَارَ القالب بَشَرِيًّا والمضمون إِلَهِيًّا، ولمزيد من التفاصيل راجع دراسة الآية 73 من سورة المائدة {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ}. وآخرون قالوا إِنَّهُ ولد فعلي حقيقي له تعالى بالانشقاق عنه تعالى، وَأَنَّ النبي عيسى(ع) هو اختار حمل الخطايا عن المؤمنين فَقَرَّرَ النزول إلى الأرض ليصير بشريا ويتعذّب ليحمل خطايا المؤمنين به... وكما ترى لَنْ تفهم تبريراتهم الفلسفية والفكرية لما يقولونه أمام تكذيبه تعالى لكل كلامهم، وأمام تعارضهم مع بعضهم البعض!

الملفت أَنَّ بعض المسيحيين يرفعون النبي عيسى(ع) فوق جميع كلّ بقية المخلوقات ويعتبرونه ابنا له تعالى على معنى التميّز لا على معنى البنوّة الحقيقية، وهؤلاء يقولون إِنَّهُ (ع) فقط متميّز وَأَنَّنَا كلنا أبناء له تعالى. ولكن حتى هذه العقلانية بالمقارنة مع المسيحيين الآخرين هِيَ مَرْفُوضَةٌ منه تعالى.

أَلْفِتُ انتباهك للمقارنة بين مختلف الأناجيل المتداولة، وبالخصوص الالتفات للتعابير التي اعتمدوا عليها لتأكيد بنوّة النبي عيسى له تعالى، وسترى أَنَّ بعض الأناجيل نقلت عنه (ع) قوله عنه تعالى: أبي. ونفس الجملة عبّرت عنها أناجيل أخرى بترجمة أخرى: سيدي. وأخرى بـ: إلهي، وربّي. إِذْ هِيَ نفس الجمل استعملوا فيها هذه التعابير المختلفة في أناجيل مختلفة. وأناجيل الكنيسة الكاثوليكية الْمُهَيْمِنَةِ على بقية المذاهب المسيحية انْتَشَرَتْ أناجيلها، وفيها استعمال لعبارة "أبي"، علما أَنَّ العديد من الجمل في تلك الأناجيل وعن لسانه (ع) تصفه وتصف الناس بنفس النسبة له تعالى، بتعبير: أبي وأبيكم. والصلاة المسيحية المشهورة تعبّر عن أبوته تعالى للجميع: "أبانا" الذي في السماوات لِيَتَقَدَّسِ اسمك...

إِذًا نحن أمام مغالاة لرفع شخصيات دينية خاصّة لتصير فوق الشخصيات الدينية لكل الآخرين، وَبِذَلِكَ يصير النبي عيسى(ع) بالقيمة فوق أي رسول مهما كان، ومتفوّق على إبراهيم وموسى وداوود... عليهم السلام، وَمَهْمَا رفع الناس من قيمة هؤلاء فَقَدْ رفع المسيحيون قدّيسهم إلى مرتبة الولد له تعالى، وإلى مرتبة اتحاده معه تعالى وتساويهما... وهم يريدون بذلك تدمير أي قدّيس تابع للديانات الأخرى، سواء للديانات المنتسبة له تعالى كاليهودية، أو للديانات الأخرى...

(لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً{89})
أيها القائلون بأنه سبحانه اتخذ ولدا:
فقولكم الذي جئتم به إدا أي ضخم في غرابته!

(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً{90})
{تَكَادُ السَّمَاوَاتُ}، بَقِيَ القليل للسماوات السبع حتى {يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ}، فَتَتَشَقَّقُ ويخرج منهن شيء ما بسبب ما يقوله هؤلاء عن وجود ولد لله تعالى، {وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ}، وتكاد الأرض تتصدع ويصير فيها شقوق، فَتَنْهَارُ وتصير قطعا... {وَتَخِرُّ الْجِبَالُ}، إِذْ تكاد الجبال تتهاوى وتنهار، {هَدًّا}، فَتَنْهَدُّ ولا تَعُودُ واقفة.

كَمَا أَنَّنَا عند سماعنا لشيء فظيع لا نتحمله، نَقَعُ ولا تحملنا أرجلنا، كَذَلِكَ السماوات والأرض والجبال تَكَادُ تُصَابُ بالانهيار من فظاعة قول من قال إِنَّ ربنا سبحانه عنده ولد.

اَلْآيَةُ لا تحصر هذا التفطر بالملائكة(ع) الذين هم سكان السماوات، بل تتحدث عن نفس السماوات كمكان، إِذِ المكان يكاد يتفطّر من شدة فظاعة ما يقولونه، وكذلك الأرض والجبال تكاد تنهار، ولا تريد الآية أن تشرح لنا حتى نفهم كيف يمكن للسماوات والأرض والجبال أن تتفاعل وتشعر بفظاعة نسبة الولد لله تعالى، بل فقط تريد أن تخبرنا أَنَّهَا ككائنات نعتبرها نحن جامدة بلا عقل أو إحساس، أَنَّهَا رغم هذه المواصفات بالنسبة لنا لَمْ تَتَحَمَّلْ هذا الكلام الكبير على ربنا سبحانه، وَهِيَ بالنسبة له تعالى لَهَا نوع من الْوَعْيِ ويتواصل سبحانه مَعَهَا بطريقة تفوق قدرتنا على فهم نوعها.

نلاحظ أَنَّ القرآن كرّر عدّة مرات أن السماوات والأرض وجبالها والكواكب... هي كيانات، لا نتمكّن نحن من التفاعل معها ككيانات لها وعي ما، وَلَا نفهمها، ولا نعتبرها أصلا مخلوقات واعية، أمّا الإله سبحانه فقد أخبرنا عدّة مرات في القرآن أنها كيانات لها نوع من الوعي وسبحانه يتواصل معها، وهذه فكرة بعيدة جدا عن قدرتنا على فهمها، ولذلك ترى الكثير من المسلمين يقولون إِنَّ الآيات التي يبدو منها أن السماوات والأرض لها وعي، يَقُولُونَ إِنَّهَا تعابير مجازية، أو كناية عن كلام من يسكنها من الملائكة(ع) والجنّ والبشر، وهذا مخالف جدا لظاهر العديد من الآيات القرآنية الواضحة التي تنسب "وعيا" ما لهذه الكيانات، وَصَارَ واضحا لك أننا كبشر عاديين لِحَدِّ الآن لم نتمكّن من التواصل التفاعلي مع الأرض والسماوات، ولكن القرآن نقل لنا عن النبي داوود(ع) تفاعل الجبال مع تسبيحه كما ورد في الآية 10 من سورة سبأ {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ}.

لاحظ أننا من حيث خلقتنا من المادة نَحْنُ وكل الأشياء في بيئتنا مشتركون في المادة التي نتكوّن منها، وتلاحظ التدرّج في الحياة "الواعية التفاعلية" من طبقة الحيوان الذي يستجيب لك ويطلب منك أن تستجيب له، إلى النبات الذي تَخِفُّ جدا درجة تفاعله معنا، لتصير التفاعلات ميكانيكية فيزيائية بيولوجية، حَيْثُ تتحرّك أوراق النبتة باتجاه الضوء، وتتحرّك جذورها باتجاه الرطوبة... وصولا للحجارة والرمل التي تتفاعل كيميائيا وفيزيائيا مع محيطها، وهذا شيء نعتبره نحن تفاعلا جافًا بلا وعي، لأنه يتكرّر كلما تكررت الظروف من دون أي مفاجآت، وصولا إلى النجوم والمجرّات التي تتفاعل مع بعضها فيزيائيا وأيضا نعتبر تفاعلها جافًا لأنه متكرر بتكرر الظروف ولا مفاجآت فيه، إِذْ لَا شيء يدلنا على تصرّف واع منها...

لا أريد أن أشرح لك عن "وعي" كل الكائنات بالطريقة التي تتفاعل فيها معه سبحانه، لِأَنَّنِي لا أعرف شيئا عن هذا التفاعل إلا فيما يخصّ الكائنات التي يمكنني أنا التعامل مع وعيها، ولكن أريد التوضيح لك أننا نحن من وجهة نظرنا بقدراتنا الحسية والتجريبية والعلمية، نحكم على الأشياء حكما نابعا من وجهة نظرنا، وهي وجهة نظر ضيّقة بالنسبة لما يمكن للإله سبحانه وتعالى أن ينظر به للأشياء، إِذْ رَأَيْتَ أن كل الأشياء لها تفاعل مع بعضها، ونحن لدينا تصنيف من وجهة نظرنا لهذا التفاعل، نُصَنِّفُ قسما منه بأنه واع، وَقِسْمًا آخَرَ بأنه آلي روتيني محكوم بقواعد ويتكرر بتكرر القواعد. هل لاحظت أن تصنيفنا ضيّق؟ لأننا نحن بلا أدنى شكّ من وجهة نظره سبحانه أيضا محكومون بقواعد لا نحيد عنها، وتصرفاتنا بالنسبة له سبحانه متكررة ولا مفاجآت فيها، هَلْ نحن بلا وعي تفاعلي؟! لا، بل كل شيء بالنسبة له سبحانه له وعي تفاعلي، يُخَاطِبُهَا تعالى وَتُجِيبُهُ بشكل يناسب طبيعة تَكْوِينِهَا.

الكلام يجرّ الكلام، إِذْ إِنَّ نوعية الوعي التفاعلي الذي فينا ليس هو النوع الوحيد، وَلْنُشَبِّهْهَا بالتقريب مع الألوان التي يراها البشر، إِذْ مِنَ الْمَعْلُومِ لنا الآن وجود ألوان تراها حيوانات أخرى ولا نراها نحن، وشبّهها مع الجنّ فهم مخلوقون من نار، وَهُمْ أحياء ولكن حياتهم ليست من نوع بيولوجيا البشر الكربونية المائية، وَلَدَى الجنّ حواس وقدرات لا يمكننا فهمها.

حاول اختراع حاسة جديدة لنا لم نسمع بها من قبل، إِذِ النظر مختلف عن السمع المختلف عن اللمس... لِذَلِكَ حاول اختراع حاسة نضيفها للبشر ولم نَرَ مثلها في بقية الحيوانات، أو لم يسمع بها أحد ما، وستجد صعوبة تصل إلى درجة الاستحالة، مِنْ هذه التشبيهات ترى محدودية ما يمكننا فهم معناه بسبب محدودية المدخلات التي نتمتع بها، ومن هذا نتوقّع وجود أنواع وأشكال أخرى من الحياة، ومن الوعي، ومن الحواس... وليس لدينا قدرة على فهمها.

(أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً{91})
تكاد الجبال والسماوات والأرض تَنْهَارُ، {أَنْ}، بسبب أن بعض الناس، {دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا}، أشهروا وَأعلنوا أن الموصوف بالعناية بمخلوقاته لما فيه مصلحتهم له ولد.

بالنسبة لكلمة "دعاء" ومشتقاتها، في عموم استعمال العرب اَلْكَلِمَةُ يَائِيَّةٌ وَوَاوِيَّةٌ "دَعَوْتُ وَدَعَيْتُ" مثل "طَغَوْتُ وَطَغَيْتُ". هَذَا في استعمال العرب ولكن كل القرآن استعملها فقط بالواو من الأصل الصرفي "دعو"، ووردت مرتين للمبني للمجهول مع ياء في الآية 12 من سورة غافر {إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ}، وفي الآية 53 من سورة الأحزاب {وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا}، فهذا ممّا جرى به لسان العرب بإضافة الياء في هكذا حالة، وكما ترى مِنَ الاستعمال لا

يمكن حمل الكلمتين "بالواو أو بالياء" على نفس المعنى إلا إذا كانتا على معنى عموم الإشهار والإعلان، وَكَذَلِكَ الحال فيما جرى عليه لسان العرب بما ورد مرتين في الآية 4 و 37 من سورة الأحزاب {أَدْعِيَاءَكُمْ}، وَ {أَدْعِيَاءَهُمْ}.

ضع في بالك دائما أن أكثر الجمل القرآنية لم تقصد استعمال كلمة دعاء على معنى الإعلان عن طلب تريد أن يحققه لك تعالى، بل قصدت العمومية، كما ورد في الآية 5 من سورة الأحقاف {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ}، فقصدت أنهم يعلنون عن غيره تعالى أنهم آلهة، ولن يجدوا ردّا من تلك الآلهة على هذا الإعلان، فهذا أساس ما تقوله الجملة. لِذَلِكَ ضع هذا في بالك دائما لأن أكثر استعمال القرآن لكلمة دعاء ومشتقاتها قَصَدَ ذلك ولم يَقْصِدِ الدعاء على معنى طلب الأمور والأشياء منه تعالى لتحقيقها لك.

(وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً{92})
{وَمَا يَنْبَغِي}، لا يوجد دوافع ولا مقوّمات ولا أي دَاعٍ، {لِلرَّحْمَنِ}، للموصوف بأنه يعتني بمخلوقاته لما فيه مصلحتهم، {أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا}، أن يعتبر ذكرا أو أنثى أو غيره من مخلوقاته كولد له.

بعبارة أخرى، طالما هو تعالى الإله من جانب، والبقية كلهم مخلوقاته، فلا يوجد أي سبب أو دَاعٍ ليحدّد سبحانه لنفسه ولدا من مخلوقاته، فلا معنى لهذا الكلام، لأنهم كلّهم مثل بعض أمامه سبحانه، إِذْ بِمَاذَا سيتميّز أي مخلوق عنده تعالى إلا بإيمانه وطاعته له تعالى، وَمَا معنى أن يعتبره تعالى ولدا له!

الآن نستجمع ما صار ثقافة قرآنية لدينا، إِذِ الْقُرْآنُ قفز مرارا عن كلام تافه جدا يقوله بعض الناس، واعتبره تحت مستوى الردّ عليه، وتلاحظ ذلك جليا في الآيات التي قفزت عمّن عبد آلهة وهمية لا يوجد لها كيان يمثّلها ولا لَهَا أي أثر ولا بأي شكل، وَقفزت كثيرا عن الحجر والخشب والمعدن... المنحوتة لعبادتها... وقفزت عن إله الحرب وإله الرعد وإله المطر وآلهة الجمال... إِذْ مَا هي إلا أسماء لكائنات وهمية كما ورد ضمنا في الآية 40 من سورة يوسف {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ}، وما ورد ضمنا في الآية 23 من سورة النجم الشبيهة بالآية السابقة {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى}.

هنا وفي غيرها من الآيات التي عبّرت عن قولهم بأنه تعالى "اتّخذ" ولدا، قفزت عن سخافة من قال إِنَّهُ تعالى يلد، مكتفية بالردّ بما ورد في الآية 171 من سورة النساء {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}، وفي الآية 101 من سورة الأنعام {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، وفي الآية 3 من سورة الجنّ {وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا}، إِذْ إِنَّ هذه آيات نافية للولد والصاحبة التي ستنجب الولد... وانتقلت إلى من قال بأنه تعالى اتّخذ "اعتبر" واحدا من مخلوقاته كولد له، ولم تدخل الآيات بالردّ على تبريراتهم الفلسفية لهذا الموضوع، واكتفت بالإشارة إلى كونه تعالى من جهة وحده الإله، والبقية كلّهم بالتساوي وبلا أي فرق هم مخلوقات، وسترى نموذجا عن ذلك في الآية التالية، وبهذا الردّ المختصر تطير كل فزلكاتهم.

إِنْ تميّز مخلوق ما، وَرآه تعالى متميّزا، فبماذا سيراه متميّزا عن الآخرين؟ بعبارة أخرى، إِذْ سبحانه الخالق كيفما شاء، وَخَلَقَ سبحانه كائنات بقدرات عالية جدا جدا وهم الملائكة(ع)، وَهُوَ تعالى المانح للقدرات، إِذَنْ مَا معنى أن يخلق كائنا بقدرات وصفات ليعتبره ولدا له تعالى! كولد قويّ! كما ترى إِنَّ هذه سخافة وبساطة تافهة في التفكير، وَأَخْبَرَنا سبحانه عن تمييزه للمخلوقات التي تطيعه سبحانه، وَمدحهم سبحانه ولكن لم يتّخذهم أولادا ولا أبناء، لِذَلِكَ لَا معنى لذلك كما تقرأ في الآية 26 من سورة الأنبياء {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ}.

المشكلة مع المسيحيين المربّبين للنبي عيسى(ع) لها وجه آخر عند اليهود وعندنا، إِذْ سبحانه في كلامه الأخير عبر هذا القرآن، أخبرنا بتميّز الأنبياء عن المؤمنين الصالحين، وبتميّز الرسل عن الأنبياء، وبتميّز خمسة من الرسل عن الجميع، حَيْثُ ميّز سبحانه نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى وَمُحَمَّدًا صلواته تعالى عليهم كما تفهم من الآية 70 من سورة الأحزاب {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا

غَلِيظًا}، والآية 13 من سورة الشورى {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى}، وكما ترى مَيَّزَهُمْ تعالى بأنهم نزل عليهم تشريعات كاملة كمفاصل في تاريخ البشرية ليكون بين أيدي الناس مرجع عقائدي وتشريعي وسلوكي.

المشكلة أن المنتمين لدينه تعالى في حقبات تاريخية مختلفة كانوا تابعين لأقرب رسول إلى زمنهم، حَيْثُ رَفَعُوهُ في القيمة عن بقية الرسل! إِذْ رفع اليهود موسى(ع) فوق إبراهيم(ع) ونوح(ع)، ورفع المسيحيون عيسى(ع) فوق كل من سبقه، ورفع المسلمون محمدا(ع) فوق كل من سبقه! وَجعلوه الأقرب منه تعالى من بين جميع خلقه، بينما صريح القرآن لا يشجّع على ذلك بل يمنعه كما ورد في الآية 285 من سورة البقرة {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}.

هَذِهِ العقلية هِيَ سبب دمار الإيمان الحقيقي الأصيل، وهي شخصنة الدين الإلهي، ليصير شيئا خاصا شخصيا بمجموعة من الناس، بدلا من تركه كما هو ممتدا كدين واحد من أوّل ما تكلّفت البشرية من عهد آدم(ع) إلى محمّد (ع) آخر نبي.

أَلْفِتُ انتباهك لأثر من ذلك التمييز المتجذّر بيننا، حَيْثُ نستعمل عبارة الصلوات عند ذكر "نبيّنا" مُحَمَّدٍ، وتعبير "عليه السلام" عند ذكر الأنبياء الآخرين، على أساس أن الصلوات تعبير أعلى من تعبير "عليه السلام"، وهذا شيء لم يكن دارجا بين الجيل الأول من المسلمين، وصار في الجيل الثاني دارجا السلام على "محمّد" أثناء كلامهم عنه، وأكثر الكتب القديمة كانت تذكر النبي محمّد مع السلام عليه، وبعدها درج تمييزنا له بالصلاة عن الأنبياء السابقين، وعند إعادة طباعة الكتب القديمة جرى استبدال أكثر تعابير السلام عليه بالصلاة عليه، تاركين التعبير بالسلام للأنبياء الآخرين!

نعم، الله سبحانه وتعالى أمرنا بالصلاة على مُحَمَّدٍ، كما ورد في الآية 56 من سورة الأحزاب {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}، ولكن ليس لنميّزه عن بقية الرسل والأنبياء بِحَيْثُ نصلّي عليه ولا نصلّي عليهم، بل على معنى تماشي احترامنا له بالتساوي مع من سبقه من أنبياء، إِذْ كُلُّهُمْ صلوات الله تعالى عليهم.

مِنْ عقلية شخصنة دينه تعالى رفع بعض المسيحيين رسولهم إلى درجة أعلى من كل الرسل، وشطحوا إلى حيث لا يمكن للآخرين اللحاق بهم! على معنى: إِنْ كانت رسلكم مميزة فرسولنا ليس بشريا بل وَلَدٌ للإله، أو إله حلّ ببشري، أو اتّخذه تعالى ابنا له...

عَلَى نفس عقلية شخصنة دينه تعالى سار المسلمون معتبرين رسولهم أفضل الرسل! وصحابته أفضل الصحابة! وأمّته أفضل أمّة! وشخصياتهم النسائية أفضل نساء العالمين! وحتى أفضل من السيدة مريم(ع)! متجاهلين متعامين عن قصد صريح كلامه تعالى الوارد في الآية 42 من سورة آل عمران {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ}، ومفسرين له بهواهم التعصّبي التمذهبي تماما كما فعل المنحرفون عن دينه تعالى ممن سبقنا من أهل الكتاب، ومتمسكين بِمَرْوِيَّاتٍ فيها الشيء ونقيضه مختارين منها ما يوافق هواهم... تماما كما فعل الْمَسِيحِيُّونَ... وكأن السيدة مريم رَمْزٌ أُنْثَوِيٌّ خَاصٌّ بالمسيحيين وسنكون في موقف ضعيف أمامهم إن اعتبرناها مصطفاة على نساء العالمين! ويدفعنا هوانا لاختراع قديسة أنثى لنا وتكون خاصة بنا!

هِيَ نفس عقلية رفض اليهود الإيمان بالنبي محمّد(ع) لأنه ليس من بني إسرائيل، إِذْ هُوَ للآخرين وليس خاصا بهم، والاعتراف به دمار لما هو خاصّ بهم...

(إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً{93})
{إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، كل المخلوقات في الدنيا من ملائكة وجنّ وإنس وغيرهم... بلا أي استثناء، {إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا}، كلهم في الآخرة سيأتون عبيداً موصوفين بالمفروض منهم وعليهم طاعة الموصوف بأنه يعتني بهم لما فيه مصلحتهم، فلا أحد منهم يملك صفة "ألوهية" مميزة، بل كلهم مثل بعضهم مخلوقون مملوكون له تعالى وبالتالي فهم عبيد مفروض منهم وعليهم طاعته تعالى، فما معنى أن يكون أحدهم ولداً لربنا سبحانه؟

لاحظ الآية عبّرت عن مجيء كل من يقولون عنهم بأنهم أولاد لله تعالى، حيث سيأتون كعبيد لله تعالى في يوم القيامة وما بعده، لأن بعض الناس الآن في الدنيا يقولون بأن الإله عزّ وجلّ عنده ولد، ونقل الأنبياء لنا خبراً منه سبحانه بأن هذا غير صحيح، وفيما بعد يوم القيامة يصير هذا الخبر واقعاً ملموساً يقينياً لا شكّ فيه، والذين قالوا عنهم أولاداً له تعالى سيظهر في يوم القيامة أنهم مجرد عبيد للإله سبحانه وتعالى، خاضعون لأوامره تعالى ولا رأي لهم ولا قرار في أي شيء من مستوى إلهي...

(لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً{94})
{لَقَدْ أَحْصَاهُمْ}، كل مخلوقاته سبحانه من أولهم لآخرهم سيكونون مذكورين معروفين حاضرين ولن يترك ولن ينسى سبحانه منهم ولا واحداً، {وَعَدَّهُمْ عَدًّا}، فواحداً بعد واحدٍ سيكون له معلوماً، فلنقل إنّ عددهم تريليون تريليون... فلا مشكلة فواحداً واحداً سيتم تعدادهم، {عَدًّا}، بكل ما لكلمة عدّ من معنى ولن يفلت منهم أي أحد.

لاحظ الآية تعرض صورة أخرى عن الاختلاف الهائل بينه تعالى من جهة وبين كلّ بقية المخلوقات، فهم عبيده كما قالت الآية السابقة، وهنا هو تعالى يعدّهم كلّهم، فهم بالنسبة له تعالى مجرد مخلوقات، مجرد عدد، حيث كلّهم أمامه سبحانه مثل بعضٍ مخلوقاتٌ، هذا مخلوق وذاك مخلوقٌ وهكذا... وبالتقريب نقول: هذا مخلوق رقم واحد، وذاك مخلوق رقم اثنين.. وعيسى(ع) مخلوق رقم كذا.

بقي شيء، فالعدّ هو ذكر رقمي أو اسمي أو كمّي... للأشياء، وتفيد بحسب سياقها إن كانت لمجرد التعداد أو التعداد بالكامل لنهاية المعدود. والعرب الأوائل لم يُقَسّموا لحروف وأرقام، بل حروف وأعداد. والعدة هي الزمن المُحْصَى، وبـ"أل" التعريف هي زمن متفق عليه ومحدد سلفاً ومعروف.

الإحصاء يعني أن كل فرد يتم ذكره أو يتم عدّه ولا يفلت، فهو تمام العدّ أو تسمية الأشياء شاملاً لكل المجموعة، وعلى نفس المعنى هو نهاية القيمة عدداً أو زمناً أو تسميةً.

كما ترى، نحن بسّطنا التعبير القرآني بتفسير الآية على معنى إعطاء رقم واحد واثنين وثلاثة... للكائنات، ولكن تسميتها كلّها باسمها هو أيضاً إحصاء بالتعداد، والإشارة لكل واحد منها لوحدها أيضاً هو إحصاء بالتعداد. وأقول لك هذا لأنه تعالى لا يقصد في كلامه تعداد مخلوقاته بالأرقام من واحد إلى الأخير، بل يريدنا أن نفهم أن علمه واسع محيط شامل بكل مخلوقاته، وبتعبير آخر أبسط نتساهل فيه كثيراً، فكل المخلوقات على "باله" تعالى ولا ينسى منهم أحداً.

(وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً{95})
{وَكُلُّهُمْ}، كل من في السماوات والأرض، {آتِيهِ}، قادم لربه سبحانه في {يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، في زمن القيام من الموت، {فَرْدًا}، لوحده.

بالأصل والحقيقة إنّ كل شيء هو ملك له تعالى، لأنه هو خالق كل شيء، ولكن هنا في الدنيا سمح سبحانه لنا أن نملك أرضاً وبيتاً وسيارةً ومالاً... ركّزت الآيات القرآنية العديدة على يوم القيامة بأنه اليوم الذي نفقد فيه كل ما كنّا نملكه في الدنيا، إلا نتائج أعمالنا، فإن كان واحد من الكائنات ولداً إلهاً له تعالى كما يقول بعض الناس، فهذا يعني أن هذا الولد الإلهي لن يكون وضعه مثل بقية الكائنات التي فقدت كل شيء في يوم القيامة، وسيحضر وهو يملك القدرة على خلق شيء خاص له، ويملك القوّة حتى يمنع الله تعالى من محاسبته ورميه في جهنّم، أو يملك القدرة على خلق جنّة له ولمن عبده... لأنهم يقولون عنه بأنه له طبيعة إلهية أليس كذلك، فأي شيء يمكنك تصوّره فهو يمكنه فعله إن كان فعلاً ولداً إلهياً، ولكن هذا غير صحيح بتاتاً! بل كل الكائنات التي ستتحاسب، بلا أي استثناء، حيث سيأتون شخصاً شخصاً فرداً فرداً، لوحدهم ليقفوا بين يدي ربّهم سبحانه ليحاسبهم ولا شيء معهم، لا شيء، فلا معنى لكلام المشركين عن وجود ولد له تعالى.

بالنسبة للنبي عيسى(ع) نقل القرآن لنا مشهداً كنموذج عن محاسبته في الآية 116 من سورة المائدة {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}، وطالما هنا في الدنيا كان

المخلوق عيسى(ع) بشرياً له كيان ووعي وحرية إرادة واختيار، ففي الآخرة أيضاً سيكون له كيان مثل بقية البشر، ومسألة تحديده (ع) بكيان منفصل عنه تعالى، مما يدلّ على أنه مخلوق وليس إلهاً، وحتى فلاسفة المسيحيين المؤلّهين له(ع) فإنهم عاجزون عن تبريرها، وهي مسألة الثلاثة في واحد "الله وعيسى والروح القدس"، ونهاية كلامهم أنها مسألة من مستوى إلهي ولا نقدر على فهمها ويجب أن نؤمن بها كما هي معطّلين عقولنا لأننا لن نفهمها ولا بأي طريقة!

هذا هو الدمار للتديّن بدينه تعالى الذي انْبَنَى على ما جعله تعالى فينا من قدرة على تمييز الحقّ من الباطل، فإن كنّا سنؤمن بشيء لا نميّزه أنه حقّ ولا نفهمه، فعلى هذه القاعدة يمكن أن تؤمن بأي دين آخر فيه ما يرغبه هواك، وتقول إنه دين جيّدٌ حتى لو فيه أمور تبدو غير عقلانية وسيئةٍ، فقدرتي العقلية لا يمكنها فهم ورؤية الصلاح والحقّ.

تجد عند المسلمين أيضاً نفس الفكرة لأمور أخرى، وتراها باطلة أو سيئة، يقولون لك إنّ دينه تعالى لا يقاس بالعقول. وهذا غير صحيح، فالصحيح أن العقول والنفسيات المريضة لا يمكنها فهم كلامه تعالى، والصحيح أن ما في المرويات والعادات والتراث... من باطل وسوء فهو مخالف للقرآن، والصحيح أن التفاسير السيئة للقرآن فيها باطل وسوء.

أمّا قرآنه تعالى فقد أعطانا الأدلة على صحّة كل ما قاله، وأعطانا التبريرات لكل التشريعات والسلوكيات التي أمرنا بها وأرانا حسنها، فراجع دراستنا هذه لترى معنى كلامه تعالى بعيداً عن التفسيرات الإجرامية أو المذهبية...

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً{96})
{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا}، اعتقدوا بالله تعالى وبرسله وأنبيائه وبيوم الحساب... {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، لأنه خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفةً بالصلاح وحسنةً جيدةً، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، فعملياً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادةً نُفَسِّرُ "عملوا الصالحات" على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إنهم صلّوا وصاموا... وهذا عملياً صحيح، ولكن بالأصل الكلام أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحةً جيدةً.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموماً وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائماً أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به.

هذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلاً سيئٌ" سيكون في الحقيقة اختراعاً من البشر لصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمراً إلهياً.

المؤمنون العاملون للصالحات، {سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا}، حيثُ إنّ الموصوف بالعناية بهم لما فيه مصلحتهم سيجعل لهم المودة وكل ما هو على خاطرهم سيحصل. وعملياً سيعاملهم سبحانه معاملة حسنة، وسيدخلهم إلى الجنة.

بالطبع هذه المعاملة بعكس معاملة من نسب لله سبحانه ولداً، فهذا له جهنّم.

(فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً{97})
{فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ}، لم نجعله صعباً بل سهّلنا قراءة هذا القرآن، {بِلِسَانِكَ}، بلغتك العربية والهدف من التيسير، {لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ}، لتنقل الخبر السار المفرح بالقرآن للذين يتجنّبون، والكلام عن الذين يتجنبون السيئات وهو نفسه يُجَنِّبُهُمْ لغضب وعقاب ربهم سبحانه، {وَتُنْذِرَ بِهِ}، فبهذا القرآن تنقل الخبر السيئ لمن توافرت فيه شروط الوقوع الأكيد في الخطر، {قَوْمًا}، أناساً لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع دينه تعالى، {لُدًّا}، أشدّاءَ في الخصومة، فلا يقنعهم المنطق والحجّة، فعبر هذا الكلام الواضح بلغة من لغة البشر تخبرهم بالعقاب في جهنم إن بقوا على هذه الحالة من الكفر.

قد يخطر ببالنا أن القرآن معقّد وفهمه غير سهل، فكيف تقول الآية إنه ميسّر! ننتبه جيداً فالقرآن هو قسم من كتاب أكبر منه بكثير، وذلك الكتاب ليس بلغة البشر، فيختار سبحانه منه ويحوّله إلى اللغة العربية ويأمر ملائكته(ع) بتنزيله على النبي محمد(ع) فتصير تلك المعلومات قرآناً أي قابلة للقراءة، لأنها تحوّلت إلى لسان "لغة" الرسول حامل الرسالة. وهذا هو المقصود هنا من تيسير القرآن وجعله على شكل ألفاظ عربية ميسّرة يمكن قراءتها وفهمها.

انتبه لما قد يخطر بالبال عن تعقيد في القرآن، وعن صعوبة فهمه، علماً أن الآية لم تتحدّث عن هذا الموضوع فلم تشر لتيسيره بمعنى سهولة فهمه "الدرجة الطفولية" بل بمعنى إمكانية قراءته وفهمه من بعد دراسته، فالقرآن مؤلّف من آلاف الآيات، فهل كلها معقدّة ولا يمكن فهمها؟ لا، فبكل سهولة يمكننا فهم أساسيات العقيدة والتشريع، وستقع في صعوبة فهم الآيات التي ليست من اختصاصك أو ليس لديك خبرة فيها، كآيات الميراث والآيات التي تتحدّث عن العقائد المختلفة المتنوعة الكثيرة جدا للكفّار، والآيات التي تتحدّث عن نفسيات الكفار والمشركين والمنافقين والفاسقين...

إذاً القرآن كتاب إلهي، من مستوى إلهي، وسنرفض الإيمان بذلك لو كانت صياغته مبسّطة لدرجة الركاكة، مثل صياغة هذه الدراسة التي تساهلت في التعابير لتكون سهلة على الفهم، أمّا سبحانه فقد تقصّد "بشكل عام غالب" البساطة مع المحافظة على دقّة التعبير بقدر ما تتحمّله اللغة العربية، وهذا الكلام من ناحية اللغة وفهم العبارة، أمّا من ناحية المضمون، ففيه بعض المعلومات التي تحتاج لدراستها، ففهمه ميسّر باللغة العربية لدراسته... ولمزيد من التفاصيل راجع دراسة الآية 156 من سورة الأنعام {أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ}.

نعم لدينا مشكلة في فهم القرآن سبّبناها نحن حين فسّرنا الآيات خارج سياقها، وحين فسّرنا الكلمات بغير معناها، وحين اقترحنا معنى للكلمات التي نجهلها بدل تركها لمن يعلم معناها، وحين فسّرنا القرآن بالمجاز والكناية والاستعارة فأخرجنا كلمات القرآن عن معناها الأصلي، وحين سبّب كل ذلك أن نقترح معاني للآيات تخالف ظاهرها، وحين لم نجد أي مشكلة في جعل الكلمات والآيات تتحمّل عشرات المعاني وقلنا إنها كلّها معانٍ صحيحة! والأخطر من ذلك كلّه حين لم نقرأ القرآن لنتعلّم منه، بل لنسقط ما نعلمه على القرآن! فصارت أفكارنا العلمية والمذهبية والتاريخية والجغرافيّة والاجتماعية... هي الأساس، والقرآن تابع لأفكارنا نديره معها بدل أن ندير أفكارنا لما يقوله هو! فنفسّره على هوانا ونحن لا نشعر بأننا نغيّره! وهكذا فعلاً جعلنا القرآن في نفس الوقت الذي نفسّره لنفهمه، جعلناه معقّداً عصياً على الفهم!

لو عكست ما قلناه سابقاً، فالتزمنا بظاهر ما يقوله القرآن، والتزمنا بالمعنى الدقيق لكلماته، وركّزنا على سياق آيات السورة الواحدة، وتركنا ما لم نفهمه لمن يفهمه، لما كان لدينا أي مشكلة في فهمه.

سترى أنك إن تعلّقت بما تعلمه وأصريّت على إسقاطه على القرآن فإن دراستنا هذه لن تعجبك، ليس لأني نجحت تماماً في الخروج من ثقافتي وتراكم معلوماتي الخاصّة بي وقدّمت لك تفسيراً صحيحاً بالتمام، لا، بل لأني حاولت ما استطعت أن ألتزم بما يقوله القرآن مبتعداً عن الروايات والمأثور وهذا لا يعجب غالبية الناس، وعلمت يقينا أن من ترك ما يعلمه وقرأ القرآن ليتعلّم منه، فإنه سيفهمه، وتبقى مشكلة بسيطة في بضعة كلمات قلائل، لا بد أن نجد لها مصدراً يشرحها من خارج ما نجده مطروحاً في كتب التفاسير، فلو ترك الأقدمون ما جهلوا معناه لغيرهم لكنّا في راحة من التشويش الذي سبّبه النقل المتكرّر المنتشر بكثرة للكلمات غير الصحيحة التي فسّروها، والتي اتّخذت هالة القداسة مانعة وصول التفاسير الصحيحة من مصادر أخرى "غير مقدّسة" كرجل عادي نجّار أو حدّادٍ أو بحّارٍ... يعلمون المعنى الحقيقي للكلمات...

لو ترك الأقدمون النقل عن الكتب المحرّفة لأهل الكتاب، ولم يسقطوه على القرآن لكنّا في راحة من تحريف الحقائق، ولو ترك الأقدمون إرسال أقوالهم على هوانها لما كان لدينا هذا الكمّ الضخم من التاريخ المتناقض المغلوط الذي يصل إلى حد الخرافات وحلوم الأطفال.

أخيراً، لو تنبّه الأقدمون للدساسين الكذابين الوضّاعين، ولم يستعينوا بأحاديثهم التي توافق عصبيتهم المذهبية، لكنّا في راحة من الأكاذيب، ولكن هيهات هيهات، ففي كل عصر كان وسيكون منافقون وفسقة ومشركون وكفّار في ثوب الأطهار، وسيكون بسطاء الفكر والسذّج في ثوب علماء الدين.

بالنسبة لنزول القرآن باللغة العربية فهذا شيء منطقي، فالرسول محمد(ع) من العرب، وهو رسول لكل البشرية، "مثل كل الرسل"، ولكن الرسالة التي تنزل عليه من ربه سبحانه فحكما ستكون باللغة التي يعرفها الرسول الناقل لها، وهذا بديهي وذكرته الآية 4 من سورة ابراهيم {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...}، فالإنسان الذي لا يعرف اللغة العربية لا يحق له أن يقول: محمد عربي، ورسالته بالعربي، فلا علاقة لي به ولا بدينه. لا، فسبحانه عبر القرآن يقول له: إنّ الكلام الإلهي نزل بلغة من لغات البشر، وهذا كاف لتصل المعلومات إلى الجميع عبر تناقل معانيه بينهم، ومن الطبيعي البديهي أن تنزل الرسالة باللغة التي يعرفها الرسول الذي نزلت عليه الرسالة، ومهما كانت لغتك فمن واجبك الالتزام بكلام ربك سبحانه.

معلومٌ لك أن اللغة الأجنبية ليست مشكلة لمن يريد التعلّم في الجامعات الأكاديمية حول العالم، فالدارج في عصرنا انتشار اللغة الانجليزية في غالبية جامعات العالم، وقبله كانت الفرنسية والبرتغالية والاسبانية... وقبله كانت اللغة العربية ولمدة طويلة من الزمن مسيطرة على العلوم، وكان الأوروبي والآسيوي من وسطها وشرقها، كانوا قديما يتباهون بإجادتهم للغة العربية لأنها اللغة العلمية.

كون القرآن عربيا، هذا ليس عائقا ولا عذرا مقبولا للذين يقولون إنهم لا يجيدون اللغة العربية طالما الكثيرون منهم يتعلمون لغة أجنبية لتعلّم أمور أقل أهمية من كتاب نازل من الإله.

معلومٌ لك أن كثيرين من أهل اللغات الأخرى غير العربية أسلموا بسبب ما علموه من حقّ وصلاح في هذا الدين، ولم يتعلموا من العربية إلا قراءة سورة الفاتحة وبعض قصار السور، وهذا لا يضرّ بإسلامهم طالما هم معلنون الالتزام بما في القرآن ويسمعونه عبر متفقّه في الدين، ويدعم قولنا هذا ما ورد في الآية 122 من سورة التوبة {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}.

انتبه جيداً لما يقوله عموم القرآن، فالفرق الوحيد بين هذا الكتاب وبين ما سبقه من كتب أنها كانت بلغات الرسل التي نزلت عليهم، ومحمّد (ع) لغته عربية فكان هذا الكتاب بالعربية.

وننتبه أيضاً، فلا يوجد خاصية تميّز اللغة العربية عن بقية اللغات، فلا يخطر ببالك أنه سبحانه قد أنزل القرآن باللغة العربية لأنها متفوقة على بقية اللغات في التعبير أو المفردات أو تركيب المعاني... فهذا غير صحيح، فكل اللغات لديها القدرة على التعبير عن أي معنى بطريقتها الخاصة، وفكّر في اللغة التي نزلت بها التوراة والإنجيل، والتي نزلت بها صحف الأنبياء، فلا واحدة منها كانت عربية، فهل كانت تلك الكتب عاجزة عن التعبير بدقّة عمّا يريد تعالى قوله؟ وفكّر في اللغة التي تكلّم بها تعالى شخصيا مع كليمه موسى(ع)، فهل تلك اللغة كانت مقدسة؟ أو صارت مقدسة؟ وهكذا ترى أنه لا خاصية مميزة ولا مقدسة لأي لغة على أخرى عند ربنا سبحانه وتعالى.

الأسخف منه كلام المسلمين عن لغة أهل الجنة أنها العربية فقط أو الفارسية فقط أو التركية فقط... فما هذه المعارك التافهة لنصرة تميّز لغة على بقية اللغات! وما هي لغة أهل النار؟ وبأي لغة سيكون الحساب؟ وطالما افترضوا أنه تعالى سيعتمد لغة واحدة في الآخرة ليزرعها في عقول كل البشر، فلماذا لم يخطر ببالهم لغة جديدة؟ ولماذا يحصرون طرق التواصل أصلاً عبر الطرق التي يعرفونها الآن في الدنيا؟ ولقليل من التوسّع حول هذا راجع دراسة الآية 21 من سورة فصلت {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ...}.

القرآن نزل باللغة العربية وبلهجة قريش، وهي القبيلة التي منها النبي محمد(ع)، فكل كلمات القرآن كانت مستعملة عند العرب في حين نزول القرآن، ولكن هذا لا يعني أن كل كلمات القرآن كان يعرف معناها كل قرشي، بل ستجد من بقيّة العرب أقواماً بالتأكيد يعرفون معناها، فكون الإنسان عربياً ملمّاً بلغته لا يعني أبداً معرفته بكلّ كلمات اللغة العربية، فهناك أسماء لأشياء أصلاً لم يرها ولم يسمع بها وعرب آخرون لديهم اسم لها، وعلى المستوى الإلهي فسبحانه غير ملزم باستعمال الكلمات التي يعرفها القرشيون أو المدنيون "اليثربيون"، بل سيستعمل الكلمة العربية الدقيقة الصحيحة التي يعرفها آخرون من العرب.

فالتفت إلى مكة البعيدة عن البحر، فأهلها لا يعرفون الكلمات العربية التي يستعملها العرب الساكنون على البحر، فتجد "من الروايات والقواميس" أن المثقفين من أهل مكّة والمدينة لا يعرفون معنى كلمة مرجان! وسبحانه أراد في آية من

كلامه التحدّث عمّا في البحر، فأي كلمة سيستعمل إن كان غالبية أهل مكّة والمدينة لا علم لهم بأسماء بعض ما في البحر؟ ومكّة والمدينة لم يكن فيها مدينة صناعية، فهم لا يعرفون صنعة تسفير الكتب، ولا صنعة القماش، وليس لديهم علم باختلاف أسماء الأواني، وأكثرهم لا يعلم صنعة تربية النحل، فلا يعرفون معنى كلمة رحيق... ولذلك تجد أنه حتى أصحاب القواميس يقعون في مشكلة جهلهم للكلمة العربية الخاصة بأهل صنعة أو فن أو حرفة، فيخترعون لها أقرب معنى، ونقع نحن في مشاكل معانيهم المخترعة.

بالنسبة للكلمات القرآنية التي اخترع لها المفسرون معاني لا تجد لها أصلاً في اللغة العربية، فهذه المشكلة واضحة في القواميس التي اعتمدت على كلام العرب لتحديد معنى كلمة ما، وبعد كلامهم هذا يذكرون لك معنىً مختلفاً ذكره المفسرون للكلمة القرآنية! وهنا وهناك تجد كاتب القاموس يقول لك: ما قاله المفسرون عن معنى الكلمة القرآنية فهو ليس معناها اللغوي بل تطبيق لها على مصداق. وخذ مثلاً عن ذلك تفسير بعضهم لكلمة إثم الواردة في الآية 33 من سورة الأعراف بالخمر... {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ...}.

بالنسبة للكلمات الأجنبية عن العربية التي قالوا إنها موجودة في القرآن، فكل اللغات تشترك في استعمال الكلمات، والكلمة التي لها أصل أجنبي واستعملها القرآن فهذا لا يعني ان الكلمة ليست عربية، فعندما يستعملها العرب تصير عربية من أصل أجنبي، ولا مشكلة في استعمال القرآن كلمة يستعملها العرب وقد وصلت إليهم من لغة أخرى، فهذا حال كل اللغات، واللغة العربية ليست استثناء، فهي لغة لم تخرج من الحائط، بل تولّدت مثلها مثل بقية اللغات، من الحاجة لتسمية ووصف الأشياء والحالات... فوضع العرب كلمات واستوردوا كلمات من لغات أخرى وورّدوا كلمات للغات أخرى... وحين استوردوا كلمة ما، فهم نطقوها بطريقة خاصة في تركيب الكلمات والنطق... بما يناسب لغتهم ولهجتهم...

بصريح العبارة الذين قالوا إنّ وصف القرآن لنفسه بأنه عربي فهو وصف غير صحيح بسبب ما فيه من كلمات أجنبية "برأيهم"، فهؤلاء سخفاء لدرجة التفاهة، والحقّ ليس عليهم لوحدهم بل على المسلمين الذين أسّسوا لهذه التفاهة، فلدينا مخزون ضخم من مرويات تفسيرية يتبجّحون فيها بمعرفتهم للغات أجنبية ويقولون فيها عن هذه الكلمة التي استعملها القرآن أو تلك إنها من أصل أجنبي! وبعض المرويات يقولون فيها إنّ الكلمة القرآنية الفلانية أصلاً ليست مستعملة عند العرب وهي أجنبية! فهي على لغة طي أو الحبشة أو فارسية... هذا خطأ، ولم يكن عن دراسة، ولو تعمقت فيما قالوه لوجدته افتراضات غير مستندة إلى واقع... وقد تبيّن لك من هذه الدراسة للكلمات التي يقولون إنها أجنبية، تبيّن لك طفولية وسذاجة علمية "غير بريئة" في كثير من الأحيان، فبدل أن يقولوا: لا أعلم معنى هذه الكلمات. اقتحموا المجهول!...

فرضاً فرضاً فعلاً كانت بعض الكلمات التي استعملها القرآن ليست عربية، وبالقياس مع ستة آلاف جملة يتألّف منها القرآن، ففرضاً ما قالوه عن تلك الكلمات كان صحيحا وفرضاً قبلنا أنها ليست عربية، فكم عددها حتى تمنع وصف القرآن بالعربية!

الأسخف من السخافة تبجّح البعض باللغة السريانية، وتفسيرهم لكلمات القرآن بسذاجة التخريف، جاعلين منه كلّه من أصل سرياني! لدرجة مسحهم للغة العربية من أصلها وكأنها ليست لغة بل لهجة سريانية استعملها الذين اسمهم عرب بشكل رديء! ونتج عن ذلك كتاب القرآن المؤلّف بالسرياني الرديء! ولن أطيل الكلام عن هؤلاء وأمثالهم من المتبجحين باللغة الأرامية، والمتبجحين بمعرفة بعض كلمات لغات قديمة كالحميرية والفينيقية... لأن صحّتي الجسدية لا تسمح بتحمل الغثيان من تفاهتهم.

القائلون بأن القرآن يكذّب نفسه حين يقول بأنه عربي بينما نجد فيه كلمات غير عربية. هم يقصدون بكلامهم أن هذا القرآن ليس من مصدر إلهي وأنّ محمّدا قد ألّفه، أليس كذلك؟ حسن، ألا يعني هذا أن محمّدا خبير لغات أجنبية؟ وبحسب كلامهم وصحّة معاني الكلمات التي استعملها القرآن في دلالتها على المعنى المقصود، ويقولون إنها أجنبية، مما يعني أن محمّدا خبير غير عادي في براعته باستعمال اللغة الفارسية والنبطية والرومية والسريانية والعبرية... وهي اللغات التي تفلسف الجيل الأول والثاني والثالث... من المسلمين وقالوا عن بعض كلمات القرآن أنها من تلك اللغات. ما هذا الكلام! ألا يسمعون أنفسهم؟ فقط يريدون القول: هذه الكلمة استعملها القرآن، وأصلها فارسي، فالقرآن لا يمكن أن يقول

عن نفسه إنه عربي. أهذا ما يريدون قوله وهم لا يفكّرون في معنى كلامهم وأنه يدلّ على معرفة غير عادية بل معرفة فائقة لمحمّد باللغات!

كلامهم يعني أنه يوجد لغة على الأرض لم تأخذ ولا كلمة من أي لغة أخرى! ولا تشبه كلماتها كلمات أي لغة أخرى، وهذه اللغة "التي لم يخبرونا ما اسمها" فقط يحق لها وصف كلامها بأنه صاف ليس فيه كلمات أجنبية، فلو نزل القرآن بتلك اللغة فقط وفقط كان يحق له أن يقول إنه من تلك اللغة! من المفروض وبحسب كلامهم أن تكون اللغة العربية لا تشبه بكلماتها ولا أي لغة أخرى، حتى يحقّ للقرآن أن يقول عن نفسه بأنه عربي! وها ترى في علم الألسنيات تصنيف اللغات واللهجات على الأرض "حاليا" بقرابة الستة آلاف، ولا واحدة منها مختلفة عن كلّ الأخريات، ولا واحدة، وبالتالي وبحسب كلامهم فلا يحق ولا لأي لغة منهم أن تقول عن كتاب لها إنه فرنسي أو ألماني أو صيني... لأن بعض كلماتهم مشتركة أو مستوردة من لغات أخرى!

هناك كلام كثير حول هذا الموضوع، أحيلك فيه إلى دراستنا هذه في أي كلمة قالوا عنها في كتب التفاسير والقواميس إنها أجنبية أو من أصل أجنبي، لترى مختلف حالات القائلين بين الاستهتار والطفولية والجهل... والخطأ غير المتعمّد، والخطأ المتعمد...

هل هذا يعني أن هذه الدراسة فسّرت كل الكلمات بطريقة صحيحة؟ لا، ولكنها اعتمدت منهاجا أقرب للصواب، وإن شاء الله تعالى تكون بذرة ونواة لدراسات أفضل يقوم بها الآخرون ومتخلّصة تماماً من الموروث الثقافي البعيد في أكثره عن الحقّ.

نعد للسورة التي كانت تختتم بالتوضيح للجميع بأن القرآن فيه الأجوبة عن أسئلة الكفار وفيه شرح وتصحيح للعقيدة الهادية، فهو من جانب بشارة لمن آمن، ومن جانب آخر إنذار لمن خاصم وعاند ولم يؤمن، وأخيراً فلينتبه ذلك اللدّ:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً{98})
{وَكَمْ أَهْلَكْنَا}، كم استنفدنا حياةً، كم أمات سبحانه قبل هؤلاء اللدّ المخاصمين، {مِنْ قَرْنٍ}، من مجموعاتٍ كبيرةٍ من الناس كانت مقترنةً تعيش مع بعضها، حيثُ هلكوا كما تهلك الناس جيلاً بعد جيلٍ من الشيخوخة أو المرض أو الكوارث... {هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ}؟! فهل تشعر بأنهم ما زالوا موجودين؟! هل تراهم، هل تلمسهم... {أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ}، لهؤلاء الذين أهلكناهم، {رِكْزًا}، وهذه الكلمة لم ترد في القرآن إلا مرةً واحدةً، هل تسمع لهم ولو صوتاً خفيفاً من حركةٍ ما أو عملٍ يقومون به؟! لا، لأنهم ماتوا وانتهوا من الدنيا، وستراهم في الآخرة.

من ناحيته سبحانه بيّن لهم العقيدة والشريعة الصحيحة، وأنذرهم، ولم يقتنعوا، فماذا بعد؟ هل غيّروا أي شيء؟ وأين هم؟ ألم يموتوا؟ حيثُ انتقلوا حتماً وغصباً عنهم إلى حالة الموت التي من بعدها قيامهم من الموت في الآخرة، ألم يكن من الأفضل لهم لو آمنوا وعملوا الصالحات؟

سورة طه (20) ص 312
تتمحور حول تكليفه تعالى لنا كلِّنا مثل بعض بالالتزام بدينه تعالى، وتحميل البعض منّا مهمّة الرسالة ليس المقصود منه تسبيب الشقاء لحامل الرسالة، وقارنها مع الواجبات التي عليك في دراستك ونجاحك في امتحاناتك كعبء عليك، وقارنها مع مسؤوليات العمل والعائلة... وقارنها عندما تقع تحت الضغوط وتسأل عن سببها... حيث وقع الرسول محمّد(ع) تحت ضغوط تكذيب ومعاندة وعداوة وأذيّةِ الكفّار له بسبب قيامه بمهمّة الرسالة، مما يجعل فكرة حالة الشقاء التي هو فيها مرتبطة بمهمّته كرسول التي لولاها لربما عاش حياته مثل باقي الناس...

تأتي سورتنا هنا لتذكّره بتكليفه مثلنا بالالتزام بدينه تعالى، وأن ما يتعرّض له ناتج عن فعل الآخرين للسيئات ورفضهم الصلاح، وعمليّاً هو نفسه معارضة الآخرين لدينه تعالى، ولهم حساب عسير في الآخرة على ذلك.

أتت على ذكر نوعين من المعاناة الضخمة جدّاً التي نجح في أحدهما النبي موسى(ع)، ولم يستطع مجاراته النبيُّ هارون(ع) وذلك في حادثة عبادة قومهما للعجل، وسقوط آدم (ع) في فخِّ وسوسة إبليس... لنفهم أن المعاناة ليست ناتجة عن التكليف بحدّ ذاته بل نتاج فعلنا أو فعل الآخرين للسيئات...

سترى توسُّعاً في الكلام عن عنايته تعالى برسوله موسى(ع) منذ الطفولة، وهي عناية للحفاظ على حياته من سوء ما يفعله الآخرون، فقبل تكليفه بالرسالة ومنذ ولادته تعرّض لخطر الموت، وهكذا ترى فصلاً بين الشقاء الذي نتعرّض له وبين أمره تعالى لنا بالصالحات، فالإيمان ليس سبب الشقاء بل سوء ما يفعله الآخرون هو سبب الشقاء.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(طه{1})
بعض سور القرآن بدأت بحروف نقرأها بشكل مقطع، أي حرفاً حرفاً، مثل {طه}: طا ها. وقال بعضهم عن هذين الحرفين إنّهما تسمية إلهية للرسول محمّد(ع)، وبعد وفاة الرسول محمد(ع) بزمن طويل درج بين بعض المسلمين تسمية الرسول محمّد(ص) بـ: {طه}. وهذا شيء لا تجد له أثراً في أدبيات الأجيال الأولى من المسلمين! حيث لا واحد منهم ناداه (ع) بـ: طاها! ولا أشار له(ع) بهذه التسمية!

قال آخرون إنّ هذين الحرفين من لغة أجنبية وبالعربية هي نداء لإنسان، يا إنسان... وبدون مستند رموا هذا الكلام! حيث بأقل نظرة في كلام العرب والقواميس سترى أنّ كلامهم غير صحيح... ونكتفي بهذا القدر عن الذي قالوه لترى نماذج عن تفاسير مزاجية ساذجة لتفسير القرآن...

الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوَّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع)

لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوِّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري...

لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

(مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى{2})
الطاء والهاء حرفان من الأحرف المستعملة لتحويل الوحي الإلهي إلى لغة يفهمها البشر، ليصير الوحي قرآناً، قابلاً للقراءة، و:

{مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ}، لم ننقل إليك أيها النبي محمد(ع) من السماء، {الْقُرْآنَ}، المعلومات التي كانت في الكتاب الرئيسي وحوّلناها إلى اللغة العربية فصارت قرآناً يمكنك قراءته على الناس، فلم ننزله عليك، {لِتَشْقَى}، لتتسبّب لنفسك التعاسة من عملك كرسول ناقل للقرآن للناس.

بعبارة أخرى، إن تسبّب لك نزول القرآن عليك بشكل أو بآخر بأي نوع من الشقاء، من التعاسة من الأذى والمضايقة من الآخرين، فهذا شيء لا نقبل به ولم نقصده، ومن بقية السورة سترى أن الشقاء حصل للرسول لأن الآخرين فعلوا السوء، وهم مصرّون عليه وبالتالي فهم مخالفون بذلك ما قاله سبحانه وتعالى، وها نخبرك سبب نزول القرآن:

(إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى{3})
لم ننزله، {إِلَّا تَذْكِرَةً}، حتى يستحضر ربّه سبحانه في فكره وقوله وعمله، {لِمَنْ يَخْشَى}، لمن لديه شعور بحصول ضرر يمكن تجنُّبه باستحضار كلامه تعالى القرآن والعمل على أساسه لتجنُّب العقاب الإلهي.

الذي يشعر بأنّه سيتعذّب إن لم يؤمن ويُطِع ربّه سبحانه، فلهذا الشخص أنزلنا عليك القرآن لتنقله له، ليستفيد منه فيهتدي ويمشي على الطريق الذي يوصله إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

هذا هو سبب نزول القرآن عليك، وأي أذى تتعرّض له، فسببه الناس الذين لا يخشون ربّهم سبحانه، فيكفرون بالحقّ ويفعلون السوء، ولذلك سيؤذونك ويشتمونك ويعادونك ويحاربونك...

ضع في بالك دائماً أن خشية عقابه تعالى مبنية على عقابه تعالى لمن فعل السوء، فليس هناك شيء اسمه: طاعة عمياء لكلامه تعالى حتى لو كنّا نرى الأمر سيّئاً. لأنه سبحانه لا يأمر بالسوء، وإن رأينا أمراً من الأمور الإلهية سيّئاً، فهذا يضعنا أمام احتمالين لا ثالث لهما، فإمّا قلبنا مريض لا يرى حسن ما يأمر به تعالى بسبب حبّنا ورغبتنا بشيء سيّئ، ولم نَرَ أو لم نفهم السوء فيما نهى تعالى عنه، ولم نَرَ ولم نفهم حسن ما يأمر به تعالى، أو أنه تعالى أصلاً لم يأمر بذلك، فما نظنّه أمراً إلهيّاً فهو من الفهم الفاسد لكلامه تعالى ومما قاله الناس.

هذا المفهوم أساسي لكل كلام القرآن معنا، حيث سبحانه يعرض علينا الحقّ والخير والصلاح وما فيه سعادتنا في الدنيا والآخرة، وتختصر الآية هنا ذلك كلّه بالتعبير عنه بخشيته تعالى، وآيات أخرى عبّرت عنه بالتقوى، وأخرى بتجنّب فعل السوء، وغيرها بعمل الصالحات... وهو نفسه كل هذا مرادف لتجنّب عقابه تعالى.

لا معنى لكلامه تعالى عن دعوتنا لدينه إن لم نَرَ فرقاً بين دينه تعالى وبين الأديان الأخرى، ومنحنا تعالى القدرة على تمييز الخير من الشرّ والصلاح من الفساد كما تقرأ في الآية 8 من سورة الشمس {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}، ودعانا لدين الحقّ، وعرض علينا معلومات صحيحة وشريعة وسلوكيات صالحة. وفرضاً فرضاً لم نكن نملك القدرة على تمييز الخير من الشرّ، فما الذي سيدفعني للالتزام بدينه تعالى؟ وفرضاً فرضاً في دينه تعالى فساد وكنت أميّز الخير من الشرّ، فهل أنا مأمور من إلهي باتباع كلامه الفاسد؟

هكذا صرت ترى أصل وأساس معنى عقابه تعالى للمسيئين حتى لو لم يصلهم كلامه تعالى ولم يصلهم كلام أنبيائه، فالفاعلون للسيئات يعلمون بسوئها، وبعد ذلك ننتقل لمسألة تكرارهم وإصرارهم على السوء حتى يصلوا إلى مرحلة الاقتناع بحسن سوء ما يفعلونه، وهذا موضوع آخر تناولته العديد من السور.

كما ترى سيصير القرآن بالنسبة لنا كمرجع لتقويم ما فسد من أفكارنا ونفسيتنا بسبب أمراض قلوبنا الناتجة عن هوانا الفاسد المحبّ لبعض السيئات.

(تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى{4})
{تَنْزِيلاً}، نقلاً من السماء إليك، {مِمَّنْ}، من الذي، {خَلَقَ}، ركّب وألّف من المواد، {الْأَرْضَ}، التي تقف عليها، {وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى}، من سمائنا العالية وصولاً للتي أعلى من سمائنا. حيث إنّ مؤلّف القرآن هو خالق كل ما في هذه الدنيا الضخمة.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائماً أنّ التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أنّ الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من

فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...} وهي إشارة إلى وجود سبع أَرَضِينَ مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهي أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراضٍ.

عادةً نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير ونستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، حيث نقول: خلق سبحانه الدنيا. أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيراً صحيحاً دقيقاً بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى}. حيث إنّه سبحانه دقيق في تعابيره ويحدّثنا بدقّة عمّا يعلمه، وكلامه تعالى عن السماوات والأرض هو كلام عن علم بما أمامه سبحانه، لأنه سبحانه دائماً يتكلم بشفافية عمّا أمامه فقط، أمّا الكلام عن كلّ ما في الدنيا، فهو كلام عمومي ويشمل "نظرياً" ما هو خارج العلم، ولذلك لم يستعمله تعالى، بينما ترى استعماله في كلام عموم البشر لأننا نتساهل ونتراخى في التعبير.

نرجع للآية، حيث إنّ الإله سبحانه الخالق للسماوات والأرض، نزّل عليك كلامه لتذكير الناس بقراراته تعالى التي تمسّ مصيرهم... فأين الخطأ في ذلك! لأنّ إلههم خالقهم نزّل كتاباً، وبعد ذلك أليس من البديهي والمفروض منهم اتّباعه؟ فإن حصل لك شقاء من تصرفات الناس بسبب نزول الكتاب الإلهي عليك، فهذا شيء ناتج عن سوء ما يفعله الناس وليس بسبب نزول كتاب هداية من إلهكم.

بالنسبة لما تجده في بعض الكتب عن الفرق بين كلمتي نزل وتنزيل، فكلاهما وصف لعموم الانتقال من علو "مادياً أو معنوياً" إلى مكان منخفض مادياً أو معنوياً. حيث معنوياً نقول: نزلت رتبته العسكرية. وكلا الكلمتين "نزل وتنزيل" تتحملان معنى النزول دفعة واحدة أو على دفعات، ويتحدّد ذلك مما تتكلّم عنه، وتتحملان النظر للفاعل لوحده، أو للمفعول لوحده، أو للحالة. لذا لا فرق بالمعنى بين الأصل "نزل" وبين الاشتقاق "تنزّل تنزيل نزول..."، خصوصاً فيما يقولونه عن الفرق بينهما في نزول القرآن دفعة واحدة أو بالتدريج على دفعات.

ما تجده هنا وهناك في ثقافتنا عن نزول القرآن كلّه من السماء السابعة إلى السماء الرابعة... ومن الرابعة جرى تنزيل القرآن "ونزل" على دفعات على الرسول(ص)، حيث بهذا التفصيل "وأشباهه" يقصدون تفسير كلمتي نزل وتنزيل بتوصيف مختلف للفعل، وهذا تفصيل لا ضرورة له وأصلاً لا دليل قرآنياً عليه، ويمكن فهم نزول القرآن تدريجياً على دفعات ونزوله كلّه كوجهين لعملة واحدة، إذ إنّ بعضه نزل "تنزّل" في ليلة القدر، ثم نزل "تنزّل" بعضه في زمن بعدها... وبالنظر للقرآن كلّه حيث جرى تنزيله "نزوله" على دفعات استمرت لقرابة العشرين سنة حتى وفاة الرسول(ص).

يبدو أنّ الفهم الضبابي لكلمة "قرآن وكتاب" دفع بالكثيرين للبحث عن فرق بين التنزيل والإنزال بالمعاني التي ذكروها، حيث فهموا أنّ كلمة قرآن تشير لكل ما بين الدفتين، لكل القرآن من أوله لآخره، وفهموا كلمة كتاب كذلك أنها تشير لكل القرآن من أوّله لآخره، وبناء عليه أرادوا تبرير الآيات التي تذكر نزول "كتاب القرآن" على أساس أنها تشير لنزول كتاب القرآن كلّه من أوّله لآخره دفعة واحدة، ومن المعلوم أنه كلّه لم يكن نازلاً على الرسول(ص) حين جاءت الآيات التي تقول إنّ القرآن نزل...

بناء على فهمهم هذا، بدأت تبزغ الآراء المختلفة لتبرير الموضوع، فقال بعضهم إنّه كلّه من أوّل مرّة نزل على الرسول(ع)... وبعدها عاد ونزل عليه (ع) على دفعات. وآخرون قالوا: لم ينزل أولاً كلّه على الرسول(ع) وإنما نزل كلّه من السماء السابعة إلى الرابعة، ومن هناك صار ينزل على دفعات على الرسول(ع)... وغيرها من التبريرات التي لا داعي لها، لأنّ الآية الواحدة قرآن، والسورة قرآن، والسورتان قرآن... حيث إنّ كلمة قرآن وصف إمكانية قراءتنا لما نزل منه تعالى، لذا أي تعبير يشير لنزول أو تنزيل "القرآن" فهو لا يعني أكثر من نزول شيء يمكن قراءته، مما يعني أنه لا داعي لنفهم أنّ التعبير يشير إلى نزول كلّ القرآن.

كلمة كتاب تشير لعموم أي موضوع تامّ، لأنّ السورة الواحدة كتاب، والفقرة أو الآية الواحدة من السورة إن كانت تامّة الموضوع فهي كتاب، وكلّ القرآن كتاب، وهكذا عندما تجد آية تتحدّث عن نزول القرآن أو نزول الكتاب فهي ليست بالضرورة تشير إلى نزوله كلّه، لأنه لو نزلت آية فهي قرآن، ولو نزلت آية موضوعها تامّ فهي نزول لكتاب...

(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى{5})
صفة الذي أنزل عليك القرآن:

{الرَّحْمَنُ}، الموصوف بالعناية بمخلوقاته لما فيه مصلحتهم، {عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، على الإدارة المركزية والسيطرة صار بحال التمام المناسب. يعني هو تعالى وحده في مركز إصدار القرارات الإلهية ولن يتدخّل أي أحد معه في إدارة ملكه.

الآيات لا زالت تكمل مع الصفات العالية لمن نزّل القرآن لتؤكّد أن نزول كلام صاحب هذه الصفات والقدرات على رسول لينقله الرسول بدوره إلى الناس، فلا معنى لربط شقاء الرسول بسببه، فالشقاء يحصل للرسول من ظلم الناس، وليس مما ينزل عليه من ربّ العرش...

بالنسبة لكلمة "عرش"، فالعرش الذي نعرفه نحن هو الكرسي الفخم الضخم الموضوع على منصّة ويجلس عليه الملك أو الحاكم، وأصلاً كلمة عرش وصف لعموم ما علا ويقابلها فرش، وعرشه سبحانه تعبير عن الإدارة المركزية من مستوى ربوبي، تعبير عن مركزية السيطرة والقرار لكل ما في الدنيا "والآخرة"، وبما أنَّ سيطرته تعالى ممتدة على كل الدنيا "والآخرة" فعرشه سبحانه ممتدّ بامتداد الدنيا "والآخرة"، على كل ما في الدنيا والآخرة كما هو واضح من تعبير الآية 255 من سورة البقرة {... وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}.

لدينا تراث ديني ثقافي يشير البعض منه إلى وجود شيء محدّد كعرش له سبحانه، كشيء مشابه بشكل ما لمكان تتم فيه إدارة شؤون الدنيا، واستندوا على ذلك قرآنياً بالآية 17 من سورة الحاقة {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، وكلامهم خليط من تصوّرات مختلفة، بعضها سببه استعمال لغتنا لتوصيف أمور لا يمكننا نحن البشر تصوّرها، وبالتالي فالكلمات التي نستعملها لذلك تنقل نفس المعنى ولكن لأمور مختلفة، حيث هناك مُلْكٌ صلب لا يهتز وإدارة إلهية مركزية لما في الدنيا، ولكنه سبحانه واسع محيط، وهناك ملائكة بقدرات عالية خلقها سبحانه ووظّفها لإدارة بعض شؤون ما في الدنيا، وأشهرها وضوحاً من القرآن ملك الموت، وهذه موصوفة "بلغتنا" أنها حاملة للعرش، لذا فإنَّ الكلام القرآني الذي يشير لقوّة الملك ولنواة الحكم والسيطرة لا يشير إلى مكان، ولا إلى شيء، بل إلى حالة، وهذا واضح جداً من تعبير الآية 255 من سورة البقرة بوصفها وساعة الكرسي بوساعة السماوات والأرض.

من السذاجة تصوّره تعالى جالساً على كرسي على منصّة وثمانية ملائكة يحملون المنصّة، ضاربين بعرض الحائط كلامه سبحانه عن نفسه بأنه واسع محيط وليس كمثله شيء فلا يمكن لأي مخلوق تصوّره...

الوصف القرآني لملائكة حافِّينَ حول العرش أو حاملين له هو وصف حالة وليس وصف مكان.

بعبارة أخرى، كل السماوات... وهذه الأرض التي نحن عليها، هي كل ما في دنيا المخلوقات، حيث خلقها كلّها ربنا الله سبحانه، ويخبرنا سبحانه أنه هو بنفسه ولوحده ركّبها وألّفها في ست فترات زمنية، وبعد اكتمالها، لم يتركها سبحانه لغيره ليديرها، بل استوى على العرش وكل شيء صار بالتمام وانبسطت سلطته عليها كلها، ومن دون تهديد من أحد بالقدرة على التدخل.

على الاسميةِ لكلمة عرش كاسم لشيء، فإنَّ كل السماوات والأرض "كرسيه" عرشه تعالى، وعلى الوصفية للمُلْكِ القوي والسيطرة والإدارة المركزية والتي بلغتنا البشرية نستعمل لها وصف العرش، فإنَّ حالته سبحانه أنَّ عرش السماوات والأرض منسوب له، ذو العرش، واستوى على العرش، وهناك ملائكة موظفون منه تعالى بتنفيذ مهمات "رئيسية" فيكون وصف حالتهم كحاملين للعرش وحافّين حول العرش.

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى{6})

{لَهُ}، مَنسُوبٌ لله تعالى، {مَا فِي السَّمَاوَاتِ} "السبع"، {وَمَا فِي الْأَرْضِ}، فهذه حدود دنيا المخلوقات، توسعنا منذ قليل في دراسة التعبير بالسماوات والأرض في الآية 4، وله، {مَا بَيْنَهُمَا}، ما بين السماوات والأرض من مساحة ومخلوقات، وله، {مَا تَحْتَ الثَّرَى}، ما تحت وجه الأرض، وهناك تعبير متداول عن مواراة المَيّتِ تحت الثَّرَى، وهو تعبير عن دفنه تحت سطحها، وهنا الآية تشير إلى ما على وجه الأرض وإلى ما تحته.

ملكهم وتبعيّتهم والسلطة عليهم... منسوبة لله تعالى. وإلى هنا صرت ترى علو الذي نزّل القرآن حتى ننتبه لقيمتنا ومن نحن أمام كلام وصلنا منه سبحانه. نحن بين بعضنا نوقّر كلاما صادرا من إنسان نعتبره ذَا قيمة عالية، فكيف بكلام صادر ممن خلق كل ما في الدنيا ولم يوكل مخلوقاته بإدارتها بل ما زال يتابع شؤونها بنفسه، فهو على العرش، ومن خلفية ملكه لنا وكوننا عبيدا له فنحن تحت أمره، ولأنه رحمان فسيعتني بنا ويؤمّن لنا ما نحتاجه لنكون سعداء، ولهذا نزّل لنا كتابا يمكننا قراءته لنهتدي به.

تلاحظ سُوَراً أُخْرَى عرضت نفس الموضوع من زوايا مختلفة وبتعابير مختلفة، وورد ذلك في الآية 105 من سورة الإسراء {وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا}، فتلك الآيات تشير للحقّ الإلهي بتنزيل توجيهات لعبيده ليمشوا على أساسها، وأنها توجيهات حَقٌّ لا باطل ولا سوء فيها، وهنا في هذه المقدمة للسورة ترى تَضَمُّنَهَا لهذه المعاني فهو خالقنا ورحمان واستوى على العرش، ولكن ترى بشكل أبرز تركيزها على معرفة قدرنا ومن نحن أمام الذي نزّل هذا القرآن.

من هذا نفهم كلامه المتعالي سبحانه مع عموم الناس الذين سيرون أنه تعالى نزّل كتابا على رسول لأنه مهتم بهم ليؤمنوا، فَيَتَكَبَّرُونَ وَيُعْطُونَ لأنفسهم قيمة عالية، فخاطبهم تعالى بكلام قَاسٍ جدا مبيّنا لهم سوءهم وعارضا عليهم التوبة وإلا فالعذاب الشديد بانتظارهم، ولنفس السبب لم يدلل تعالى المسلمين كما تفهم من الآية 17 من سورة الحجرات {يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}.

(وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى{7})

{وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ}، إذا تكلمت بصوت واضح ومباشر يسمعه عموم من حولك، {فَإِنَّهُ}، ربك سبحانه، {يَعْلَمُ السِّرَّ}، يعلم ما لم تعلن عنه جهرا، وَيَعْلَمُ الذي لم تتكلم به مما في داخل عقلك ومشاعرك ونفسيتك، ويعلم ما هو، {أَخْفَى}، أشدّ استتارا من السرّ، وَيَعْلَمُ باطن عقلك "اللاوعي" وباطن فكرك وباطن نفسيّتك التي أنت لا تعرفها.

هناك معلومات ننساها وتذهب عن بالنا، وهناك أساسيات فكرية ونفسية مُخَزَّنَةٌ فينا ولا نستحضرها دائما، وَهِيَ منسية وَنَتَذَكَّرُهَا أو تتفعّل إذا تعرّضنا لظروف لها علاقة بها، وَهَذِهِ أخفى من أسرارنا التي نعيها وننتبه لها، حَيْثُ تلك ننساها وتغيب حتى عَنْ بالنا... وسبحانه يعلم بها.

بعبارة أخرى إنْ قلت أيها الرسول أو لم تقل بأنك شعرت بالشقاء من حملك لهذه الرِّسَالَةِ، فإن ربّك سبحانه يعلم ما تجهر به وما تخفيه ويعلم عنك ما لا تعلمه أنت عن نفسك، ولذلك أجابك سبحانه عن هذا الشعور بهذه الآيات ليبيّن لك من ناحيته تعالى لماذا أنزل عليك القرآن، وليبيّن لك أن الأمور لم تفلت مِنْ سيطرته تعالى.

بقي شيء، هَلْ هذه السورة موجّهة فقط للرسول محمّد(ع) لتتحدّث عن شقائه من الناس المعارضين له؟ لا، لِأَنَّهُ (ع) نموذج عن أي مؤمن يتعرّض للشقاء من الآخرين بسبب إيمانه والتزامه، وهذا يأخذنا إلى عمق معنى كلامه تعالى معنا عبر رسله، مَاذَا يعرض علينا سبحانه حتى يرفضه بعض الناس ويعارضوا الذي آمن والتزم؟ قرأت في الآيات السابقة أنه تعالى يعرض علينا {تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى}، وتفهم منها الخشية من العقاب على السيئات، وسيأتيك في الكلام عن النبي موسى(ع) أنه تعالى أمره بالذهاب إلى فرعون {إِنَّهُ طَغَى}، ولديك كمّ هائل من الآيات التي تريك الفرق بين كل الحقّ والخير الذي يأمر به تعالى، وبين كل الباطل والسوء الذي ينهى عنه تعالى، حتى أنه سبحانه اختصر كل ذلك بوعده بالجنّة للموصوفين بأنهم مؤمنون "بالحقّ" عاملون "للصالحات".

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى{8})

{اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، وحده فقط لديه صفات وقدرات فائقة تفوق صفات وقدرات كل المخلوقين، وَحْدَهُ الخالق لكل شيء، ووحده المالك لكل شيء، ووحده المخطّط المدبّر المسيطر المدير لكل شيء... وحده الحي الذي لا يموت، وحده الأول والآخر، وحده عالم كل الغيب... وَفَهِمْنَا كل ذلك بوضوح من الآيات السابقة. {لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}، له تعالى الأسماء الجيدة المحمودة، لَيْسَ لديه ولا اسم سَيِّئٌ بل كل أسمائه جيّدة.

يعني هذا هو ربّك سبحانه، ومن غير المنطقي أن يقصد تسبيب الشقاء لك، الَّذِي حَمَّلَكَ رسالته للناس. ومرّة ثانية ألفت انتباهك لتركيز الآيات على ما يخصّ الجانب الإلهي، فبعض الناس هم الذين سبّبوا الشقاء لحامل الرسالة، وتحدّثت سور عديدة من القرآن عن هذه الحالة، وهنا أكرّر لك تركيز الآيات على أنه سبحانه لم يقصد حصول الشقاء مع رسوله (ع)، وطبعا أنت تعلم أني أحاول تبسيط الآيات، وَسُبْحَانَهُ يعلم بكل ما سيحصل، وَيَعْلَمُ حتما أن الأذى والضرر سيصيب رسوله (ع) بسبب نزول الرسالة عليه، ولكن هو تعالى لم يقصد ذلك، ففكّر دائما بالآيات هنا كيف وصفته تعالى بطريقة تشبيهية "كمن يدفع عن نفسه التهمة" ولكن ليس بطريقة الدفاع بل بطريقة الشرح لمواصفاته وقدراته العالية التي من المستحيل أن ينبع عنها هدف وقصد ومشيئة لحصول الشقاء مع الرسول...

لاحظ أنه سبحانه له اسم علم "على ما يبدو" مُشْتَقٌّ من الألوهية وهو "الله"، وَيَكُونُ الاسم "الله" مُشْتَقّاً من صفة "الألوهية"، وستتساءل عن الفرق بين الاسم والصفة بالنسبة لله تعالى، فإذا انتبهت أنه تعالى سمح لك بمناداته بصفاته "يا رَحْمَنُ، يا كريم، يا رازق، يا غافر..." فالمناداة تجعل الصفة اسْماً حقيقيا له تعالى، لأنه فعلا عنده صفة الكرم وأنت تناديه بهذه الصفة فتصير الصفة اسْماً حقيقيا له تعالى، نَحْنُ نُسَمِّي شخصا ما: كريم، عادل، سلام... فهذا اسم له فقط، وأمّا إن كان حامل هذا الاسم فعلا كريم عادل سلام... فعندها يكون الاسم صفة له في نفس الوقت، وهكذا بَدَا لك واضحا الفرق بين نِسْبَةِ الِاسْمِ والصفة للإله سبحانه وللبشر، رَبُّكَ سبحانه لديه كل الصفات الحسنة، وكلها تصير أسماء حقيقية له تعالى عندما تناديه بها، وليس هناك أي صفة سَيِّئَةٍ فيه تعالى حتى يصير له اسم سَيِّئٌ، بل كل صفاته تعالى من أحسن الصفات وتصير أسماؤه من أحسن الأسماء.

يعني في اللغة هناك أسماء مشتقة من صفات، كيعقوب الذي تسمّى بوصف عقبه "سيأتي بعد" إسحاق، وهذا الحال بغض النظر عن أصل وضع الكلمات تاريخيا في زمن أول اختراع البشر للغة، وبغض النظر عن صَيْرُورَةِ أسماء الأشياء صفة أوسع لتشمل أشياء أخرى لها نفس الصفة، كاليد، يَدِي من لحم وعظم، ويد الرجل الآلي من معدن، ويده تعالى ليست وصفا لعضو بل لما يفعل به، تعالى، "القدرته"...

أَسْمَاؤُهُ تعالى هي أوصاف له، وَهِيَ أسماء مشتقة من صفات، وكلامه تعالى بتسمية نفسه ليس مثل تساهلنا نحن في تسمية أولادنا بصفات ليست فيهم، نُسَمِّي ثُرَيَّا وَنَجْمَةً وَآسِيَا... وَعَفِيفَةً وَطَاهِرَةً وَسَاجِدَةً... وَكَرِيماً وَأَسَداً وَغَضَنْفَراً وَحُسَاماً... فهذه مجرد أسماء ليس بالضرورة اتِّصَافُ الناس بها، أمّا سبحانه فأسماؤه أوصاف حقيقية له.

وما هو منتشر بين الناس عن الأسماء التِّسْعَةِ وَالتِّسْعِينَ له تعالى بناء على ما نسبوه من كلام للرسول (ع)، فلن نبحث هنا إن كان كلامهم فعلا مستندا إلى كلام صدر عن الرسول أو لفقوه للرسول، سواء عن قوله (ع) بما يعطي معنى حصرية الأسماء بِتِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ، "وبعدها الاسم الْأَعْظَمِ فَتَصِيرُ مِئَةً كما يقولون"، أو بما يعطي معنى الكثير من الأسماء الحسنى وَتَحْفِيزاً للتفكير بها... وَبِغَضِّ النظر عن صحة الأحاديث أو صحة الاستنباط منها، فهم لم يتوافقوا على الْأَسْمَاءِ التِّسْعَةِ وَالتِّسْعِينَ! حَيْثُ سَتَجِدُ في الكتب العديد من الصيغ التي في بعضها ما لا تجده في الْأُخْرَيَاتِ من أسماء.

ونسأل إن كان كلام القرآن عن أسماء حسنى له تعالى يشمل اشتقاق أوصاف من أفعال العقاب ومواقف من الكافرين، وَيَكُونُ لدينا صفات المعاقب الغضوب الكاره الكائد اللاعن... بالبداهة ستقول بأنها ليست أسماء حسنى حتى لو كانت أوصافا لأفعاله تعالى كنتيجة للسوء من الآخرين، وهذا بناء على أنه تعالى الحميد دائما، إذْ عذابه للمجرمين عمل حميد... وهكذا ترى أن ما يتحدث عنه القرآن بالأسماء الحسنى له تعالى يقصد الوجه الآخر غير موقفه ومعاملته تعالى مع المجرمين... وهذا واضح مما تقوله الآيات التي ذكرت جملة "الأسماء الحسنى" والتي وردت في الآية 180 من سورة الأعراف {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، وفي الآية 110 من سورة الإسراء {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}...، والآية هنا {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}، والآية 24 من سورة الحشر {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}...،

وَسِيَاقُ الآيات يشير إلى توجهك نحوه تعالى بذكر أسمائه كإعلان منك عن تعرّفك عليه تعالى بهذه الأسماء الحسنى، أو تعريف منه تعالى لك بأن أسماءه سبحانه حسنى.

وعلى أبحاثهم عن الأسماء الحسنى تعليقات عديدة لا نفع في ذكرها لأن كل الموضوع في النهاية لا يعدو كونه كلاما ثقافيا تراثيا، ويجب حصره بالعديد من التنبيهات وإلا فالنتائج سيئة، هَا هُمْ أَحْصَوْا لنا التِّسْعَةَ وَالتِّسْعِينَ اسْماً لله تعالى، بل وهناك عدة لوائح بذلك، ومنها محصورة بما ذكره القرآن وعددها يختلف عن التِّسْعَةِ وَالتِّسْعِينَ... فلنقل أَنَّكَ قرأتها كلّها وحفظتها غيبا فهل هذا ضمان لك لتدخل الجنّة كما ورد في أحاديثهم؟ لا، لِأَنَّ التَّقَاطُعَ بين الحديث والقرآن يشير إلى معرفتك بمعنى تلك الأسماء والإيمان العميق بها الناتج عنه فعل الصالحات، وَهَذَا طريق يوصل إلى الجنّة، وهكذا يمكن حمل الحديث المنسوب للنبي(ع) بدخول الجنّة للذي يحصي 99 اسْماً له تعالى على معنى أن فهم الكثير "99" من أسمائه تعالى هو طريق يؤدّي إلى الجنّة، هذا إن صدقت نسبة الكلام للرسول.

أَخِيراً كُلَّمَا خطر ببالك -لا سمح الله- شَيْءٌ سَيِّئٌ عن ربنا سبحانه، ففكر بهذه الآية، بأنه لا يوجد أي فعل سَيِّئٍ يمكن أن يفعله سبحانه معك، وَلَا يُمْكِنُ أن يقصدك وأنت مؤمن بأن تشقى، لأنه يقول عن نفسه أن كل أَسْمَاءَهُ حسنى، رَبُّنَا كريم وليس لئيما، وغفور وليس حقودا، ورحمان وليس مهملا لمخلوقاته... ونحن الذين نخرج من معاملته معنا بأسمائه الحسنى لنستحقّ العقاب بكفرنا وسيئاتنا...

فَكِّرْ فيما فعله تعالى هو، هَلْ فعل هو معك شَيْئاً سَيِّئاً؟ أم نحن الناس نفعل السوء مع بعضنا؟ حَتَّى الولادات المشوّهة من أيدينا، والكوارث غالبيتها من فسادنا وإهمالنا من الوقاية منها، والحرب معلوم أنها من أفعالنا، والحوادث من إهمالنا...

(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى{9})
{وَهَلْ أَتَاكَ} أيها الرسول محمّد(ع) كلام سمعته عن النبي موسى(ع)؟

هو شخص سَمِعْتَ به قبل أن ينزل عليك الوحي، وبعدها عبر الوحي أَخْبَرْنَاكَ بعض ما جرى معه في حياته، ولكن بخصوص حمله للرسالة التي حملت مثلها أنت، وشعورك بالشقاء، فهل وصلك ما سنخبرك به هنا؟ فسبب وحينا إليك بهذه السورة أن نوضّح النظرة الإلهية لك ولأي قارئ للقرآن ولأي مؤمن، وسنخبرك بما حدث مع النبي موسى(ع) من هذا الجانب، وسترى تعرّضه للشقاء منذ طفولته بسبب سوء ما يفعله الناس، وسترى العناية الْإِلَهِيَّةَ به منذ طفولته أيضا، وهكذا ترى بوضوح أن تكليفه بالرسالة ليس السبب في شقائه بل سوء ما فعله الناس هو السبب.

(إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى{10})
{إِذْ رَأَى}، النبي موسى(ع)، {نَاراً}، فصارت عنده صورة محدّدة لشيء يشتعل، {فَقَالَ لِأَهْلِهِ}، قال(ع) للذين ينتمون له، والمشهور في التاريخ أنهم امرأته وأولاده حين كان راجعا من مدين باتجاه مصر عبر صحراء سيناء. فقال لأهله:

{امْكُثُوا}، ابقوا هنا في هذا المكان لفترة، {إِنِّي آنَسْتُ نَاراً}، عندي اطمئنان بأني رأيت نارا، فلمحت ضَوْءاً يبدو لي بشكل أكيد أنه نار، وسأذهب إليه، {لَّعَلِّي}، مِنَ المتوقّع والمفروض أن، {آتِيكُم مِّنْهَا}، فأجلب لكم من تلك النار، {بِقَبَسٍ}، أَقْتَبِسُهَا وَآخُذُ شيئا من تلك الموقدة، وَأَجْلِبُ معي حطبة مشتعلة لِنُوقِدَ منها موقدا لنا لنتدفّأ به. {أَوْ} لعلي مِنَ المفروض ومن المتوقّع، أن، {أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى}، أجد ما يضعني على الشيء الصحيح الذي يوصلني لغايتي الصحيحة، وَأَجِدُ الناس الذين حول النار لِيَهْدُونِي على الطريق الذي يوصلني حيث أريد، ومشهور في التاريخ ومما نفهمه من القرآن أنه (ع) كان راجعا إلى مصر بعدما قتل المصري وهرب إلى مدين وبقي فيها لثمان سنين على الأقل كما نفهم من الآية 27 من سورة القصص {عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ}، وبعدها حصل معه ما تذكره الآيات هنا.

نلاحظ، النبي موسى(ع) فقط {آنَسَ}، لاحظ شيئا كأنه نار، فلم يرها نارا بالتأكيد بل لمح ضوءا، والمصدر الوحيد المعروف لإصدار الضوء في حينها كَانَ النار فقط، أما أهله فلا يبدو أنهم لاحظوا أي شيء، وهذا ما تستوحيه من جملة: {إِنِّي آنَسْتُ نَاراً}.

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى{11})
{فَلَمَّا أَتَاهَا}، صَارَ النبي موسى(ع) قرب النار، {نُودِيَ}، ناداه سبحانه، وجّه سبحانه الكلام له(ع) وقال: {يَا مُوسَى}.

وَصَلَ النبي(ع) إلى مصدر الضوء، وكما نعرف من آيات أخرى، وَصَلَ (ع) إلى شجرة يصدر منها شعلات ضوء ولكن أغصانها وأوراقها غير مشتعلة كما نفهم من الآية 30 من سورة القصص {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، أَصْدَرَ سبحانه الصوت من الشجرة المشتعلة حتى يتكلّم مع النبي موسى(ع).

افْتِتَاحِيَّةُ الفقرة عن جانب من حياة النبي موسى(ع) والبداية من ساعة تكليفه بحمل الرسالة، وسترى أن اختيار السورة الابتداء بالكلام عنه (ع) من هنا سَبَبُهُ إِضَاءَتُهَا على ما توقّعه النبي موسى(ع) من مصاعب "شقاء" ستنتج عن تكليفه بالرسالة...

(إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى{12})
{إِنِّي أَنَا رَبُّكَ}، أنا المسؤول عنك من مستوى إلهي. كَلِمَةُ رَبٍّ وصف لعامة من كان مسؤولا عن آخرين، كربّ البيت وربّة المنزل وربّ العمل... وتنطبق هذه الكلمة عليه تعالى بمستوى إلهي، فهو مسؤول عن مخلوقاته من مستوى إلهي.

{فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ}، انْزِعْ ما له نعل، وهذا ما تضعه الناس عادة في أقدامها "ونسميها حاليا: حذاء، صندل..." ليحمي أسفل القدمين من تحت من الحرارة وَوُعُورَةِ وَأَشْوَاكِ... الأرض، فَكُنْ حَافِيَ القدمين، {إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ}، بالمكان العميق بين جبلين أو بين جبال والذي له اعتبار وَمَكَانَةٌ عالية، الذي اسمه: {طُوًى}.

لاحظ أننا نصلي حفاة ونطوف حول الكعبة حفاة، ونخلع أحذيتنا للدخول إلى المساجد، هَذَا نوع من التعبير عن احترام للمكان الذي ندخله بما يمثّله من مكان للعبادة نَسْجُدُ فيه، وكما تلاحظ هنا الْإِلَهَ سبحانه أمر نبيّه موسى(ع) أن يظهر احتراما للمكان الذي يقف فيه، لِأَنَّهُ مكان يقع فيه الآن حادث كلام الإله سبحانه مع عبده(ع)، ولا ندري إن كان وقع في هذا الوادي قبل ذلك حَدَثٌ جعل المكان مميزا "مقدّسا" من قبل، أو أن الإله سبحانه اعْتَبَرَهُ مميزا من قبل لأنه تعالى حَدَّدَهُ كمكان سيتكلّم فيه مع نبيّه موسى(ع)، فما بين أيدينا من معلومات لا يفيدنا بشيء عن هذا الموضوع.

مَا ستجده في التفاسير عن سبب الأمر بخلع النعل، غير ما ذكرناه، فلا يمكن ولا بأي شكل فهمه من الآيات، قَالُوا إِنَّ النعل كان من جلد حيوان غير مذكّى... وقالوا أمورا أخرى تجعل التعبير يشير إلى تخلّيه (ع) عن الدنيا وعن زينتها وعن الأنا... وهذا النوع من التفسير الذي يسمّونه بالتفسير بالباطن، أو الصوفي أو العرفاني... أو بحسب قولهم فهو ما يفهمه ذوو القلوب السليمة عالية الإيمان... مَعَ احترامنا لبعض الذين قالوه، حَيْثُ بَعْضُهُمْ مشهور بالتقى والعمل الصالح، هَذَا القرآن ليس كتاب أسرار كما يدّعون، وليس فيه أحجيات، وتلاعبهم بمعاني وَمَدَالِيلِ الكلمات بشكل مزاجي مطّاط مدّعين أن القرآن له بطون ولتلك البطون بطون... هَذِهِ طامّة كبرى فتحت المجال على مداه لتعدّد تفسير نفس الجملة الواحدة من كلامه تعالى بِعِدَّةِ مَعَانٍ! وبسبب هالة القداسة لأصحاب التفسير الباطني، وهالة القداسة للمرويات، وللكتب القديمة، صَارَ مُتَعَارَفاً عليه بين عموم غالبية المسلمين أنه من الطبيعي والعادي وجود العديد من التفسيرات للآية الواحدة! ودراستنا هذه التي حاولت فيها التماشي فقط وفقط مع ما يقوله القرآن، وخرجت بنتيجة المعنى الواحد للكلمة والجملة، فأكثر ما ستعانيه ويجعلها مرفوضة هو هذا التراث الثقافي الديني المتجّذر فينا بتقديس ما وجدنا عليه آباءنا، ولو كانت الإحالة إلى ما ورد في الآية 170 من سورة البقرة تبدو ثقيلة {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ}، فهي الوصف الدقيق لحالتنا مع الكثير من تراثنا الديني.

(وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى{13})
{وَأَنَا}، ربّك، {اخْتَرْتُكَ}، من بين الناس الكثيرة قررت أن ينزل عليك أنت الوحي، {فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}، أَصْغِ جيدا لما أقوله لك. يعني اخترتك لتحمل رسالتي إلى الناس فاسمعها جيدا.

معلوم لك أنه تعالى لا يختار عبثا أو عشوائيا أو مزاجيا، بل يختار الصالحين من ذوي القلوب السليمة من الدرجة العالية ليجعلهم رسله، فَهُمْ سَيَصِيرُونَ حاملين لوصف الخليفة لله تعالى في الأرض، كما نفهم من الآية 30 من سورة البقرة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}...، والآية 26 من سورة ص {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ}...

الْوَحْيُ هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خَيْراً أم شَرّاً، وبناء عليه فكل أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وحيا لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وترى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}، وحتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ}...

يَنْطَبِقُ فعل الوحي على أي كائن كان "إِنْسَاناً، حَيَوَاناً، مَلَكاً أو جِنّاً" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم، وطرق فعل الوحي أنواعه متعددة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم {فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً}. وَوَحْيُ وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً}، وما ورد في الْآيَتَيْنِ 193 و 194 من سورة الشعراء {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ}. أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ}...، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل كما هو مشهور في تراثنا الديني. ووحي عبر إصداره تعالى صوتا في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، مضافا لها الآية 13 من سورة طه {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}، فكلامه تعالى معه(ع) وحي لأن الكلام ليس صادرا مباشرة منه تعالى فهذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، فيصير وصف الحالة أن كلامي يصلك وحيا.

هُنَاكَ وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل {وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} ففي النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

الْوَحْيُ يصدق على وحي الخير والشر، فالشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً}... ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... فالوسوسة في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيرا أو شرا فهو وحي.

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي{14})
{إنني أنا الله}، أنا صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز {الله}، {لا إله إلا أنا}، لا يوجد كائن غيري ليس مخلوقا، ولا يوجد كائن غيري بالصفات والقدرات الفائقة التي عندي، فأنا لوحدي لدي صفات فوق صفات المخلوقات، وأنا وحدي خلقت المخلوقات، ولوحدي أدير شؤونها... {فاعبدني}، لأنه مفروض منك وعليك طاعتي فتصرّف على هذا الأساس، {وأقم}، ولا تَتْرُكْ بل فعّل، {الصلاة}، التوجّه والإقبال، وتوجّه إليّ بالذكر والحركات المعبّرة عن عبادتي، {لذكري}، لتستحضرني أنا فقط في فكرك ومشاعرك وكلامك وحركات جسدك، فلا تُصَلِّ لغيري.

إذًا نحن أولاً أمام تكليف النبي موسى(ع) بما نحن كلُّنا مُكَلَّفُونَ به كبشر، فلنبالغ ولنقل إنّ النبي موسى (ع) كان لوحده على الأرض وليس معه بَشَرٌ غيره، فسيأتيه خبر منه تعالى يأمره بالتصرّف كعبد وأن يُصَلِّيَ... يعني قبل أن نذهب بفكرنا إلى تكليفه (ع) بنقل الكلام الإلهي للآخرين، وحصول شقاء من ذلك، فهو (ع) أولاً مكلّف بالالتزام بدينه تعالى.

كلمة صلاة صارت مُصْطَلَحًا دِينِيًّا منذ القدم، وتشير للكلمات والحركات التي نقيمها كل يوم، ومن التراث اليهودي تعلم أن صلاتهم مشابهة تماما لصلاتنا في وضوئها وأوقاتها وحركاتها... وبعضهم جعل صلاة الليل واجبة... واسْتَغْرَقَنِي

جُهْدٌ بَلِيغٌ لأرى وضوءهم وصلواتهم اليومية مصورة بالفيديو لأتأكّد بأنها مثل وضوئنا وصلاتنا، وما تراه من حركات تمايل بعضهم للأمام والخلف، فهذه يسمّونها صلوات مثلما يسمّي المَسِيحِيُّونَ جملة قصيرة من الكلام أنها صلوات، فبالأساس التسمية صحيحة لُغَوِيًّا لأنها توجّه وإقبال، ولكن عَادَةً سياق الكلام القرآني مثل الوارد في آيتنا هنا يُشِيرُ للصلوات الخمس الواجبة يوميا المتضمنة لقراءة وركوع وسجود.

تذكّر دَائِمًا أننا كبشر جَعَلَ سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرّف عليه سبحانه من ملاحظة أفعاله "آياته في خلقه" ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء...وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق بالقوّة الإلهية الفائقة عند الوقوع في الشدائد... فوضعنا كلمة نصف بها الكائن ذَا الصفات والقدرات العالية جدا عن قدراتنا، وهي كلمة {إله} كوصف لذي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلّق به عند الوقوع في الورطات...

في الحقيقة، الكائن الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة، والذي ليس مَخْلُوقًا هُوَ الله سبحانه، وتَسَاهَلَ الناس في استعمال كلمة {إله} لتنطبق على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، فيطلقونها على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أن فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}.

القرآن يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهي، فَيُقَوِّمُ اللغة ككلّ، ويُقَوِّمُ دقة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة {إله}، يُخْبِرُنَا أنها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرّج في استعمالها.

المشركون الناطقون باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... اسْتَعْمَلُوا كلمة {إله} بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

قَارِنْهَا مع كلمة {ربّ}، فأنا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... فهذه كلمة تتحمّل التدرّج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهي، فهي لا تتحمّل التدرّج، وهِيَ حَصْرًا له تعالى ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهي.

كلمة {إله} في حقيقة معناها لا تتحمّل التدرج لِيُوصَفَ بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، حين يخبرك أَنَّهُ خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، وسبحانه وظّف الملائكة(ع) التي خلقها لتنفيذ بعض أوامره... وهكذا ترى بوضوح أنه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، فماذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدّد له والمميّز {الله} جلّ جلاله فَعَلَ كل شيء، فما معنى ألوهية غيره! وهذا ملخّص مبسّط للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

أَلْفِتُ انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، فحصروا استعمال كلمة {إله} للإله الكبير، واستعملوا للآخرين وصف {الربّ}، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربّة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون: إله المطر وإله الحرب... وعلى كل حال القرآن رفض توصيف غيره تعالى بالألوهية والربوبية من مستوى إلهي، لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَعْتَقِدُونَ بوجود كائن {ربّ} مسيطر على المطر من مستوى إلهي وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم على أَنَّهُ تَوْصِيفٌ لألوهية أربابهم.

من ناحية ثانية لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، فيصير الهوى إِلَهًا كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}، فهي لا تشير لاعتقاد الشخص بأن هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لدين فيه ما يهواه، لذا عَمَلِيًّا هو يعبد هواه.

بالنسبة لأصل كلمة {الله} فهناك كلام كثير حولها، ويبدو من تتبّع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حاليا بالسامية... أن الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة {إله} ومنها جرى اشتقاق اسْمِ العلم

{الله}، وهذا الاسم لم يكن متداولا في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط حيثُ إنَّ للآخرين نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، وكلمة {إله} واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات ما يسمّى بأصل اللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة {الله} من وصف الإله ومتى، هل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قديما عبر الوحي، فالأرجح عندي اسْتِذْوَاقًا أنه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك اسْتِذْوَاقًا لأن المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين بلا مستند صريح لتأكيد كلام ما، تَصِيرُ بطبيعتها اسْتِذْوَاقِيَّةً لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا ذات نفسي ففي سياق كلام آخر أَسْتَذْوِقُ أنه تعالى هو سمّى نفسه، لذا ليس من المعقول ولا مِنَ الْمَقْبُولِ منك أن تطلب حسما من الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دليلا حاسما، ولا مقبول من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنه الصحّ إلا اللهم إن قدّم دليلا دامغا، وهذا لا يبدو ممكنا في مسألتنا هذه.

(إِنَّ السَّاعَةَ ءاَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى{15})
عليك أن تُوَحِّدَهُ تعالى، وَتَعْبُدَهُ لوحده، وَتُصَلِّيَ له تعالى لوحده... فهناك حساب لمن ترك هذا التصرّف السليم فأشرك به تعالى وعبد غيره ولم يتوجّه بالصلاة له تعالى:

{إن الساعة}، إن الفترة الزمنية القصيرة لحدث فرعي من يوم، وغالبا يشير بها القرآن إلى الوقت الذي يرجع فيه كل الناس إلى الحياة مرة ثانية، فهي أول ساعة من يوم قيامتنا من الموت، وهذه الساعة، {آتية}، قادمة، {أكاد أخفيها}، لَمْ أُخْفِهَا أسترها بالتمام وَلَكِنْ بَقِيَ القليل حتى تختفي بالتمام ولا تظهر، فلا يعلم أحد "متى" ستقع بالضبط، والساعة آتية، {لتجزى كل نفس}، لتحصل كل نفس على مقابل ما فعلته، {بما تسعى}، بالذي قصدت فعله أو قوله، أَيُّ شيء فعلته أي نفس أي ذات أي شخص أي واحد، "سعيا" عن قصد من خير أو شرّ، فسوف نجازيها عليه وَنُعْطِيهَا ما تستحقّه مقابل عملها.

لَا تَحْصُرْ كلمة يوم بالليل والنهار، ولا بِالْأَرْبَعِ وَالْعِشْرِينَ ساعة، ولا الساعة بالستين دقيقة، حَيْثُ في عموم لغات الناس لم تكن هذه الكلمات مخصّصة لهذا المعنى، وَلَا في لغة العرب الذين ورد في كلامهم القديم تعابير بتسمية مدّات زمنية طويلة باليوم، وترى ذلك في تسمية الحروب والمعارك بيوم كذا ويوم كذا... لِأَنَّ اليوم هو عموم أي زمن ومهما كان طوله أو قصره، ويقع فيه حدث أساسي، وبهذا المعنى وصف تعالى خلق ما في الدنيا في ستة أيام، وراجع في ذلك دراسة الآية 9 وما بعدها من سورة فصلت {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ...}، وَتَتَخَلَّلُ اليوم أحداث فرعية تحصل في ساعات، وَحَيْثُ يوم القيامة يبدأ من ساعة قيامنا من الموت، وبعده أيّام حشرنا وفرزنا زُمَرًا وحسابنا الفردي والجماعي وعرض الأشهاد... وصولا إلى آخر يوم وآخر ساعة حيث يدخل آخر واحد إلى النار أو الجنّة والتي أشارت لها الآية 46 من سورة غافر {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}.

تُلَاحِظُ آيَاتٍ عَدِيدَةً أشارت لتوقيت ساعة ويوم قيامنا من الموت كسؤال عن عموم توقيت الآخرة، لِأَنَّ الناس سألوا عن توقيت حصول الآخرة، وسبحانه تحدّث عن توقيتها، وَالْخَبَرُ الإلهي يحسم أنها ستحصل، ولكن متى؟ وَأَجَابَتْ آيات عديدة أَنَّ الله تعالى فقط يعلم متى ستحصل، وحتى الملائكة(ع) لا يعلمون ولكن لديهم توقيت تقريبي غير دقيق، كما تفهم من عمومية كلام الآية هنا عن إخفائها عن جميع خلقه سبحانه، ونفس المعنى تجده في عدة آيات أخرى منها الآية 187 من سورة الأعراف {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.

السَّبَبُ واضح، فَإِنْ كنّا نحن سنفقد وعينا عندما نموت هنا في الدنيا، وسيمرّ علينا زمن طويل بالملايين أو بالمليارات من السنين أو سيمر زمن قصير بالآلاف أو المئات من السنين حتى تأتي ساعة القيام من الموت، فلا قيمة للزمن بالنسبة لنا، لأنه فعليا سيكون كشعورنا بمرور ساعات قليلة من النوم بسبب فقداننا لوعينا أثناء موتنا، وتقرأ ذلك في العديد من الآيات منها ما ورد في الآية 113 من سورة الْمُؤْمِنونَ {قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ}.

غَيْرُ معلوم لنا إن كانت الملائكة(ع) ستموت أثناء تبدّل الدنيا، وراجع في ذلك دراسة الآية 68 من سورة الزمر {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ...}، وَغَيْرُ معلوم لنا من سيتم اسْتِثْنَاؤُهُ من الموت، ونخمّن أنهم سَيَكُونُونَ الملائكة أو بَعْضًا منهم، ولا ندري إن كانوا أيضا سيموتون فيما بعد بسبب آخر أو سيبقون أحياء حين يجري تبدّل السماوات والأرض.

فَرْضًا بقي بعض الملائكة وَاعِينَ، فهم الآن لا قدرة لهم على تحديد موعد دقيق لتبدّل السماوات والأرض الدنيا، وعلى أي أساس سيحسبون الزمن إن لم يبق شيء مرجعي للزمن؟ وَحِينَ تُبَدَّلُ السماوات والأرض يبدو أنه لن يبقى شيء ثابت لنقيس عليه الزمن، ولذلك، لن يتمكّن أي مخلوق عادي من معرفة توقيت يوم القيامة، ويمكن للملائكة العالية (ع) تقريب حصولها تقريبيا، أمّا بالنسبة لنا فتوقيتها مخفيّ تماما رغم وجود أدلّة كثيرة على حدوثها حتما، لِأَنَّ علامات حدوثها شيء مختلف عن تحديد توقيت حدوثها، وبالنسبة للملائكة (ع) فلديهم توقيت تقريبي لحصولها، وعلى قدر الشعرة يظهر لهم هذا التوقيت وَلَيْسَ واضحا لهم، ولولا هذا الخيط الرفيع لكان توقيت الساعة مختفيا بالتمام عن كل المخلوقات، وهذا ما أشارت إليه الآية هنا بتعبير {أكاد أخفيها}.

(فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى{16})
{فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا}، أنت تؤمن بالساعة فلا يمنعك من الإيمان بها، {مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا}، من لا يعتقد بساعة رجوعنا إلى الحياة مرّة ثانية في الآخرة فلا تجعله يؤثّر عليك، {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ}، وكان على ما يهواه، والكلام عن الذي مشى على ما تقوله له شهواته ورغباته السيئة، فإذا صدّك من لا يؤمن بالساعة والذي اتّبع هوى السوء فعندها، {تَرْدَى}، تَقَعُ مُتَضَرِّرًا، وَتَقَعُ في المصيبة لأنك ستقع في جهنم لتتعذّب إذا سمعت كلاما غير كلامه تعالى.

مهما كان عدد من لا يؤمن بها، ومهما كانت حالتهم... فلا تجعل أي واحد منهم يصدّك عن التديّن، لِأَنَّهُ حتما متبع لهواه السَّيِّئِ، وَإِنِ اتبعته فحتما سترد ى ولا يوجد بعد ذلك أي حلّ.

إلى هنا انتهى الكلام عن تكليف "موسى (ع)" كإنسان مثله مثل غيره، وهو هذا التكليف نفسه مُوَجَّهٌ لِمُحَمَّدٍ (ع) كَتَعْلِيمَاتٍ له كمكلّف بالإيمان والالتزام بالدين الإلهي مثله مثل غيره من الناس.

نَرَى فيما سبق ملخّص أساسيات الدين الإلهي من التوحيد والتصرف على أننا عبيده تعالى لوحده، والصلاة له تعالى يوميا في أوقات مخصصة، وطاعته فيما يقوله لنا سبحانه لأنه يوجد حساب وجزاء في الآخرة، ولا نستمع لأقوال من لا يُؤْمِنُ بالآخرة ويلحق هواه السَّيِّئَ تاركا التوحيد والعبادة والصلاة... فنقع في المصيبة.

تُلَاحِظُ أن الخطاب موجّه أولا للنبي موسى(ع) ليلتزم بهذا الدين الْإِلَهِيِّ، وفي الفقرة التالية سترى بداية الأمر الإلهي بنقل هذه التوجيهات إلى بقيّة الناس، وقبل ذلك تبدأ السورة من موضوع تزويد النبي موسى(ع) بدليل يثبت أنه يحمل رسالة إلهية:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى{17})
يَسْأَلُ ربنا سبحانه نبيه موسى(ع):

{وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ}، ما الذي تَحْمِلُهُ بيدك اليمنى، {يَا مُوسَى}؟

سبحانه يعلم ما هي ولكنه سبحانه يريد من نبيه(ع) الالتفات إلى الْعَصَا التي كانت في يده ويحملها منذ مدّة طويلة من الزمن قبل هذا اللقاء.

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى{18})
قَالَ النبي موسى(ع)، ولم يخطر بباله أي شيء غير عادي: {هِيَ عَصَايَ}، {أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا}، فألقي وزني عليها حين أمشي أو حين أقف، فهي كالعكاز. {وَأَهُشُّ بِهَا}، بِالْعَصَا، {عَلَى غَنَمِي}، فأضرب أغصان الأشجار ليتساقط الورق على غنمي ليأكله. {وَلِيَ فِيهَا}، في هذه الْعَصَا، {مَآرِبُ}، أمور أقصد فعلها بها، حاجات، {أُخْرَى}، فألكز الماشية

لتسير، وَأَضْرِبُ بها الذئاب أو الكلاب التي تهجم على الغنم... إذًا هي عصاه التي يحملها منذ زمن، وسبب حمله لها ليستعملها لِلِاتِّكَاءِ والهش... فهي عصا عادية.

لاحظ وانتبه، حَيْثُ في الآيات التي تحدّثت عن عرض شيخ مدين على النبي موسى(ع) الزواج من بنته على أن يعمل أجيرا عنده... كما ورد في الآية 28 من سورة القصص، فهمنا هناك ما هو متعارف منذ القدم عن شراكة الأجير في نتاج الماشية التي يرعاها، مَثَلًا يأخذ نصف الْإِنْتَاجِ من مواليد وألبان... ويبدو من الكلام هنا أن النبي موسى(ع) أخذ حصّته من الأغنام حين سار بأهله باتجاه مصر.

(قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى{19})
قَالَ سبحانه لنبيه(ع): {أَلْقِهَا}، فأفلتها من يدك لتقع على الأرض، {يَا مُوسَى}.

(فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى{20})
{فَأَلْقَاهَا}، فأفلت النبي موسى(ع) العصا على الأرض، وهو لا يتوقع حدوث أي شيء، فهي مجرد خشبة.
{فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ}، الحيوان الزاحف الذي بعض أنواعه سامّ، {تَسْعَى}، تتحرّك عن قصد، يعني لم تَتَلَوَّ في مكانها بل تحركّت كما تتحرّك الحيّة تَمَامًا، وعلى ما يبدو من آيات أخرى كالآية 31 من سورة القصص، فإن النبي(ع) رماها فاهتزّت وتحوّلت لحيّة وسارت باتجاهه... {وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ}.
مَا قيل عن أن الثعبان هو الحية الكبيرة، ووصفها بالجان الوارد في الآية 31 من سورة القصص {وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ...} يشير لحية صغيرة، على أساس أن نفس العصا تغيّر حجم الحيّة التي تحوّلت إِلَيْهَا، هو كلام تخميني لم أجد له مَصْدَرًا في الكلام قَدِيمًا لاستعمال العرب لكلمتي ثعبان وجانّ، وَالْأَرْجَحُ الواضح من الكلام القرآني أن العصا تحوّلت دَائِمًا إلى حية بنفس حجم العصا، والاستنتاجات لمعاني الآيات بناء على معانيهم الافتراضية لكلمات حية وثعبان وجانّ يبدو لَطِيفًا ولكنه ليس صَحِيحًا.
كَلِمَةُ "جانّ" ليست من أسماء أو صفات الحيّات فِي أشعار العرب قبل الْإِسْلَامِ "فيما لدي من مصادر"، ووجدت استعمالا كثيرا لكلمتي أفعى وحيّة واستعمالا نادرا لكلمة ثعبان، ولا يظهر منه أي تمييز لهذا الوصف أو التسمية عن الحيّة والأفعى إلا من ناحية تذكير اللفظ وتأنيثه، وبتحليل الشعر القديم وكلام الفراهيدي في كتاب العين، وكلام تاج العروس ستجد أن العرب القدماء يقصدون بالأفعى اسْمًا لنوع من الحيات، وسيبدو لك بوضوح أنها تسمية غير متفق عليها بين العرب، حَيْثُ هناك العديد من أنواع الحيّات، وكل جماعة منهم تقصد بالأفعى نَوْعًا ما... ويبدو أن الغالبية يسمون بالثعبان الحية الطويلة غير السامة المشهورة بأكلها للفئران. وتعابيرهم عنها أنها ضخمة فهي على مقاييس حيّات المنطقة العربية التي يعرفونها، ولا يقصدون الضخامة من قياس حيّة الأناكوندا التي لا يعرفونها ولا تتواجد في مناطقنا.
بِنَاءً عليه لم يستعمل القرآن كلمة أفعى لأن العرب استعملوها بضبابية كاسم لنوع من الحيّات، واستعمل كلمة ثعبان لترى منه أن طول العصا هو نفسه صار طول الحيّة..

(قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى{21})
قال سبحانه لنبيه(ع) الذي ركض من الحيّة: {خُذْهَا}، وَاحْمِلْهَا، {وَلَا تَخَفْ}، لَا تشعر منها بالخطر الذي لا يمكنك تَجَنُّبُهُ، لَنْ تَعَضَّكَ أو تُسَمِّمَكَ، وبمجرد أن تلمسها، {سَنُعِيدُهَا}، سنعيد الحيّة إلى {سِيرَتَهَا الْأُولَى}، عِنْدَمَا كانت في يدك وسألناك عنها قلت سيرتها قصّتها وما يتعلّق بها... أنها عصا تتوكأ عليها وتهش بها... هِيَ هكذا كانت معك منذ زمن طويل، وسنعيدها لتلك السيرة سَتَرْجِعُ عصا من خشب لتتوكأ عليها ولتهشّ بها، سَنُعِيدُهَا عصا كما كنت تراها وتتعامل معها في السابق.

نَنْتَبِهُ لشيء مهم هنا، لَا يخطر ببالك أنك لو كنت مكان النبي(ع) وتتحدث مع ربك سبحانه، فأنت لن تخاف من الحيّة كما خاف النبي موسى(ع)، لا، لِأَنَّ الآية تبين لنا أن العصا "ومن دون سابق إنذار" تَحَوَّلَتْ لحيّة ومشت باتجاه النبي موسى(ع)، فهرب منها خوفا من هجومها عليه وكان الحدث سريعا لم يمهله (ع) وقتا لِيُحَلِّلَ ما حصل وأنه من فعله تعالى.

على كل حال كان يمكن لربنا سبحانه جعلها تتحول على مهل، وجعلها لطيفة تتحرك على مهل، ولكن على ما يبدو سُبْحَانَهُ أراد أن يجعلها مفاجأة مخيفة حتى يعلم النبي موسى(ع) بأنها كما أخافته فإنها حتما ستخيف فرعون وملأه.

بقي شيء، قِيلَ تعليقا على هذه الحادثة لإفراغها من كونها من تدخّل إلهي، إنَّ الحيّة إذا تجمّدت من البرد تصير كالعصا، وإذا ارتفعت حرارة محيطها فإنها تعود لتتحرّك، وبناء على هذا وبضبابية قال المنكرون للآيات الإلهية إنَّ هذا ما حصل مع موسى الساحر المخادع، الذي تعلّم السحر من كاهن مدين... واعتبروا أن ما قالته التوراة والقرآن عن العصا والحيّة، أَنَّهُ مُبَالَغَاتٌ لسحر بسيط حصل، فأضاف المنتمون لدين موسى البهارات على القصّة لتضخيمها...

صَرَاحَةً لست ألومهم كثيرا على ذلك، لأن غالبية المنتمين لدينه تعالى لم يفهموا آياته تعالى، حَيْثُ بعضهم صار يبالغ ويكذب ويخترع والآخرون يَبْلَعُونَهُ بناء على إيمانهم بحصول آيات عجيبة غريبة من تدخل إلهي، فصاروا يصدقون أي شيء ومن دون السؤال عن دليله... وهذا جعلنا كمؤمنين نبدو كبسطاء ننتمي لدين خرافات...

أولئك الذين يسخرون مما ذكره القرآن من تدخلات إلهية حدث منها بعض الأمور العجيبة، تَرَكُوا كل شيء قاله تعالى عن الحقّ والباطل والصلاح والفساد وركّزوا على العجائب، تماما كما فعل فرعون والآخرون من الكافرين عبر التاريخ، لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ أخبرنا مرارا وتكرارا أن هذه الأفعال العجيبة لن تقدّم ولن تؤخّر، وَلَنْ تجعل الكافر مؤمنا، وراجع في ذلك دراسة الآية 59 من سورة الإسراء {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا}، وَالْمُنْكِرُونَ لدينه تعالى ينسون أن المسألة ليست في عرض العضلات والقدرات... بل في الدعوة لعقيدة حقّ صحيحة، وشريعة صلاح عادلة... وسلوكيات صالحة، وكدليل إضافي على آياته تعالى فيما خلقه في الدنيا، يقرّر سبحانه أحيانا إجراء آيات من التي تعارف الناس على تسميتها بالمعجزات والخوارق، وذلك بناء على رغبة الناس بحصولها، حَيْثُ سُبْحَانَهُ يعلم أنها لن تجعل الكافر مؤمناً، ومثلها مثل أي آية أخرى للذي في قلبه ميل قوي للإيمان فبسببها سيزيد هداه.

اَلْمُنْكِرُونَ للآيات يعلّقون ساخرين على الآيات غير العادية أنها لو حصلت أمامهم فهم لن يؤمنوا لأن مستواها طفولي، نَحْنُ الْمُنْتَمِينَ لهذا الدين بعقلنا الطفولي الساذج اخترعنا تلك القصص وأقحمنا الإله فيها، وَصَارَ الإله مقحما في قصص طفولية ساذجة، وَحَوَّلَ العصا لحيّة وفلق البحر... بينما لو كان فعلا هناك إله، وسيتدخّل ليهدي الناس، لفعل أمورا أخرى غير تلك الطفولية الساذجة التي يذكرها المتدينون...

هاتوا أخبرونا بنموذج عن مستواكم الفكري الراقي العالي، قُولُوا لنا شيئا تقترحون حصوله فيكون آية تدل على تدخّل إلهي وأنكم سَتُؤْمِنُونَ من بعدها؟ قُولُوا أي شيء له معنى، وَلَا تقولوا أن يبرمج الإله عقولكم لتؤمنوا غصبا عنكم، لِأَنَّ هَذَا سيلغي ما فينا من حرية إرادة واختيار، واقترحوا أي شيء ممكن حتى لو كان مستحيلا في نظركم ولكن لا تقولوا كلاما بلا معنى، كأن تطلبوا أن يصنع تعالى دائرة مربعة، أو أن يضع سبحانه العالم في بيضة دجاجة من دون تصغير العالم ومن دون تكبير الدجاجة... لِأَنَّ هَذِهِ أصلا جمل لا معنى لها، مثل قولي: سأقوم بدعوتك على الغداء البارحة. فالكلمات وتركيب الجملة لا خطأ فِيهِمَا، ولكنها جملة بمعنى فاسد.

بعد التفكير في اقتراحاتكم، والتي نقل القرآن نماذج متنوّعة منها، وكمثال على ذلك ما ورد في الآية 12 من سورة هود {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ...}، والآية 93 من سورة الْإِسْرَاءِ {أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ...}، سَتَرَوْنَ أنه ليس سبحانه الذي مستواه منخفض، بل نزل سبحانه في المستوى تماشيا مع مستوى أمثالكم، هَا القرآن مشحون بكلامه تعالى عن آياته في خلق السماوات والأرض بما فيها من كائنات وظواهر، وأنها من أهم وأوّل الدوافع نحو الِالْتِفَاتِ إلى الإله سبحانه، حَيْثُ سُبْحَانَهُ جعل فينا وحولنا ما يعرّفنا عليه، وزرع فينا رغبة التوجّه إليه بالمشاعر القوية عند الخوف والأمل... وعبر وحيه تعالى للبعض من ذوي القلوب السليمة منّا دعانا لعقيدة وشريعة وسلوكيات حق وعقلانية وفيها صلاحنا وسعادتنا. ومن خليط ما سبق نتج العديد من الأدلة على صحّة هذا الدين الإلهي، وَصَارَ له امتداد من آلاف السنين بأنبياء ورسل وكتب كلّها على نفس الخطّ...

رَاجِعِ القرآن من أوّله لآخره ولا تحكم عليه بضبابية وستجد أن غالبية كلامه عمّا ذكرته لك، والقليل النادر من كلامه عن أمور غير عادية تدخّل فيها سبحانه كدليل إضافي يزيد الَّذِينَ اهتدوا هدى.

هنا ترى بوضوح أن موضوع طغيان فرعون هو المسألة المهمّة، فهل أصلا يحتاج أي إنسان عاقل لأدلة على عقاب إلهي ليتوقّف عن استضعاف الآخرين والاستهتار بحياتهم لدرجة قتل الأبرياء منهم بكلمة يقولها لجنوده؟ أليس فينا ما يجعلنا نميّز بين أفعال السوء لنتجنّبها وبين أفعال الصلاح لنفعلها؟ وهذا ما عرضه أولا النبي موسى(ع) على فرعون، وَطَلَبَ منه إطلاق سراح قوم مستضعفين مقهورين، وَرَفَضَ فرعون مصرا على التحكّم بحياة الآخرين كما يشاء، تَصَوَّرْ لو أنت كنت محكوما تحت سلطته مستضعفا لتعمل بأوامره وممنوعا من اتخاذ أي قرار في حياتك وتصرفاتك ومكان إقامتك... ومهددا بالقتل رخيصا بلا قيمة مِمَّنْ يَقْتُلُكَ أنت أو أهلك لأتفه الأسباب أو حتى مزاجيا...

من بعد هذا انظر للقصة لترى أنه ليس تعالى الذي مستواه طفولي ساذج في أفعاله، بل سبحانه تماشى مع صلابة وعناد فرعون الرافض للعقلانية، وجعله نموذجا لنا لنرى أنه لا حلّ ولا بأي شكل مع هذه النوعية من الناس، طَالَمَا هم لديهم القوة والسلطة فلن يتراجعوا عن كفرهم وظلمهم.

لن أطيل عليك للكلام عن الآيات التي يختارها الناس كتدخّل إلهي لتحصل ويؤمنوا، وأحيلك إلى سورة الفرقان التي عالجت هذا الموضوع رَاجِعْ دراستها لترى المستوى الساذج للكافرين وأنه تعالى وبقدر الإمكان تعامل معهم بما يبقي المستوى مرتفعا وفي نفس الوقت يتماشى مع اقتراحاتهم وما يَقُولُونَ أنه لو حصل لآمنوا... وَحَصَلَ الكثير منه ولم يؤمنوا!

(وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى{22})
يكمل سبحانه كلامه مع نبيه(ع): {وَاضْمُمْ يَدَكَ}، ضُمَّهَا وَقَرِّبْهَا، {إِلَى جَنَاحِكَ}، لجهة إبطك وكتفك، وَأَدْخِلْهَا من جانب رقبتك لتحت ثيابك لجهة كتفك، ثم أخرجها، {تَخْرُجْ بَيْضَاءَ}، يصير لون جلد يدك مثل بياض الثلج، أو مثل قطعة الرخام الأبيض شديد النصاعة، {مِنْ غَيْرِ سُوءٍ}، مِنْ دون أي ضرر عليك ستصير يدك بيضاء، وَيُمْكِنُكَ تحريك أصابعك، ولمس الْآخَرِينَ بها.

{آيَةً أُخْرَى}، شيء مُمَيَّزٌ آخر مُضَافٌ لآية تحوّل العصا لحيّة، حَتَّى لا يبدو أمام الناس أن تحوّل العصا لحيّة نوع من السحر، زَوَّدَهُ تعالى بشيء تتغير فيه طبيعة العصا، وشيء آخر تتغيّر فيه طبيعة عضو من جسده (ع).

لَا يبدو لك الآن أهمية آية تحوّل اليد لبياض، لأن الصورة في بالنا مشابهة لحالة تغطيس اليد في دهان أبيض، ولكنه تعالى لن يختارها لو لم تكن ستبدو مهمّة في حينها، وترى أهميتها حين قام السحرة بسحر يجعل الناس ترى الحبال والعصي كأنها أَفَاعٍ، ولكنهم لم يستطيعوا فعل سحر للردّ على تحوّل اليد إلى بياض بسرعة ثم عودتها بسرعة كما كانت مثلما تحولت يد النبي موسى(ع).

(لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى{23})
فعل سبحانه لك هذين الشيئين، {لِنُرِيَكَ}، لنجعل لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: حتى تشوف. {مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى}، من بعض الأمور المميزة المنسوبة له تعالى ذات المستوى غير العادي.

تَحَوُّلُ الْعَصَا إلى حيّة، من خشب إلى حياة، وبالعكس تحوّل اليد من لحم ودم إلى بياض شديد! فهاتان آيتان لا يمكن أن يفعلهما إلا المسيطر على كل شيء، وبالنسبة لنا مِنَ المستحيل تحويلنا الخشب إلى حياة تامّة ومن ثمّ إِعَادَةُ تحويلها إلى خشب في ثانية وبالسرعة التي فعلها تعالى.

أكرر لك الكلام، نَحْنُ نتعامل مع "حالة" الحياة المنتشرة في الحيوانات وكأنها شيء عادي، وفي عصرنا نبحث عن الحياة على كواكب أخرى... وبعضنا يعتقد أن الحياة تحصيل حاصل وشيء عادي وجوده في الكون بسبب ضخامته الهائلة وتنوّع البيئات والظروف بشكل هائل... حَتْمًا وبكل سهولة ستجتمع الظروف المناسبة لتشكيل الحياة في مكان ما على كوكب ما من هذا الكون الهائل الضخامة بتريليونات المجرات... وبعضنا يعتقد أننا لوحدنا في كوننا في المجرات ككائنات ذكية من الكربون والماء وبقية المواد...

لَكِنَّهُ سبحانه دائما يلفت انتباهنا لعظيم قدرته المانحة للحياة، لِأَنَّ أصل تصميمه تعالى للدنيا وقراره تعالى بخلق كائنات تتمتّع بالحياة، هُوَ عمل من مستوى إلهي، وهنا آيتنا تشير لذلك، لِأَنَّ المادة لوحدها لا يمكن ولا بأي شكل أن ينتج عنها

حياة إن لم يكن في أصل تصميمها إمكانية تشكّل حياة منها، قَدْ يكون على كواكب أخرى حياة مشابهة أو مماثلة لحياتنا، وقد يكون هناك أشكال مختلفة عن الحياة في كوننا "غير الجنّ والملائكة" ولا تخطر على بالنا الآن...

نَحْنُ هنا أمام نموذج عن تحوّل الخشب إلى لحم وعظم وعصب... تدبّ فيه الحياة فورا في لحظة، وفي لحظة أخرى ترجع الحيّة إلى خشبة، وَالْآيَةُ الكبرى هِيَ خلق الحياة، كلفت انتباه للحياة التي فينا وأنها منحة ممّن جعل الحياة تدبّ في هذه الْعَصَا.

يعني بالنظر لانتشار أشكال الحياة المتنوّعة من حولنا، فَتَحَوُّلُ العصا إلى حية لَا تراه عملا خارقا، أو لا ترى معنى وصف الإله له بأنه آية كبرى، لَكِنَّهُ فعلا عمل خارق، ونموذج عن خلقه تعالى لكلّ أشكال الحياة.

لَوْ أطلت عليك، صَمَّمَ سبحانه الدنيا بحيث تصل إلى مرحلة تخرج فيها كائنات حيّة واعية، وَخَرَجَتْ قبلنا الملائكة(ع) وبعدها الجنّ ومن ثمّ نحن، وهذا ما تفهمه من الآية 27 من سورة الحجر {وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ}، وبين ذلك خرجت كائنات حيّة أخرى كالنباتات... وسارت الدنيا على المخطّط الإلهي... وصار عاديا بالنسبة لنا انتشار الحياة بأشكالها المتنوعّة من حولنا، حَيْثُ بسهولة يحصل تكاثر الحيوانات... وهذه هي النظرة التي تريد الآية منّا أن نعيد النظر فيها عبر آية تحويله تعالى الخشبة إلى حيوان، لِأَنَّهَا نموذج عن جعله تعالى للحياة، ليعيد نظرتنا إلى الأمور لنرى إلها خالقا مانحا للحياة، وها نموذج الخشبة والحيّة لإعادة التذكير.

خَلْقُ الذبابة آية كبرى وخلق ما في الدنيا أيضا آية كبرى بلا فرق، لِأَنَّ كِلَيْهِمَا عمل مميّز يحتاج لقدرة من مستوى فائق لفعلهما، ونتوسّع بالكلام لترى الفرق الهائل بين كلامه تعالى وكلامنا نحن، وليكن وصف تحوّل العصا لحيّة بالآية الكبرى نموذجا لك ترى منه أن كلام هذا القرآن صادر عن الإله سبحانه، لِأَنَّهُ سبحانه يرى عمق ومعنى أفعاله، وَيَرَى القيمة العالية للحياة ويعلم بحاجتها لقدرة من مستواه هو فقط سبحانه لفعلها، أمّا نحن فللوهلة الأولى نراها شيئا عجيبا ولكن لا نلتفت لكونها فِعْلًا كَبِيرًا، وَخَلْقُ المجرات بالنسبة لنا آية كبيرة لأننا لسنا الفاعلين للخلق لنلتفت لضرورة تمتّع الفاعل لتحوّل العصا لحيّة إلى قدرة من مستوى إلهي وهي نفسها المطلوبة لخلق ما في السماوات والأرض.

نعم، أصحاب القلوب السليمة فورا سينتبهون أن أي عمل إلهي هو آية كبرى، وحين يرون تحوّل العصا لحيّة فهم لا يتعرّفون على قدراته تعالى، لِأَنَّهُمْ أصلا مؤمنون بها ويعرفونها من خلقه لما في الدنيا، ولكن ستكون دليلا على تدخّله تعالى في هذه الحادثة، فَيَزْدَادُونَ هدى.

الآن نسأل: هل كل من فعل شيئا عجيبا يجب علينا تصديق ما يقوله ونصير على دينه؟ لا، لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لم يقصد ذلك من الآيات التي تحدث من تدخله تعالى، بل جعلها دليلا ولفت انتباه على تدخّله لحصولها، ولم يجعلها الدليل الوحيد للتصديق بدينه، لِأَنَّ الْأَسَاسَ هو ما عرضه تعالى علينا من معلومات حقّ "عقيدة" لنؤمن بها، وما عرضه علينا من شريعة وسلوكيات صالحة لنسير عليها، وَالْقُدْرَةُ التي فينا للتعرّف على الحقّ وعلى تمييزه من الباطل هي الأساس، حَيْثُ رُسُلُهُ يدعوننا إلى الهدى، إلى العقلانية والصالحات، وبعضهم تزوّد بالآيات ليس ليؤمن الناس بهم، فهذا معلوم من القرآن أنه لم ولن يحصل، ولكن تزوّدوا بالآيات حتى تكون حجّة إلهية على الكافرين الذين سيرونها ويعلمون أنها حصلت من تدخّل إلهي، ورغم ذلك لن يؤمنوا، وهذا ما تفهمه من عدة آيات منها الآية 59 من سورة الْإِسْرَاءِ {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا}.

بعبارة أخرى هِيَ تَمَاشٍ إلهي مع مستوى هؤلاء الرافضين للعقيدة الحقّ العقلانية، والرافضين للشريعة العادلة الصالحة.

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى{24})
بهاتين الآيتين العصا واليد، {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ}، وهو لقب الشخص الذي كان حاكما على مصر والمناطق المجاورة في زمن النبي موسى(ع)، وبقية الشعوب لديها ألقاب أخرى لحكّامها، ككسرى للفرس والقيصر للرومان والملك عند العرب...

{إِنَّهُ}، فرعون، {طَغَى}، تعدّى حدوده، حيث أعلن أنه إله، واستضعف المؤمنين الموحدين وهم بنو إسرائيل(ع) كما سنرى في الآيات التالية.

نرجع إلى محور السورة، فإن كنت أيها النبي محمّد(ع) تشعر أو خطر ببالك أو احتملت أو قدّرت... بأن نقلك الرسالة الإلهية سبب لشقائك من أجلاف العرب الكفّار الذين آذوك، فسبحانه لم يقصد أن تشقى، وفقط أرسلك للتبليغ ولا مسؤولية عليك وليس الموضوع شخصيا لك... وها نخبرك عن رسول من قبلك أرسلناه إلى أطغى طغاة الأرض عبر تاريخ البشرية من أولهم لآخرهم، لتقارن وضعك مع الطغاة من حولك ووضع النبي موسى(ع) مع أطغى طاغية على مرّ التاريخ.

ضع في بالك أن القرآن يعتبر الفرعون الذي عاصر النبي موسى(ع)، يعتبره أبرز نموذج عن الطغيان، وتقارنه مع طغاة مرّوا عبر التاريخ، وتقارنه مع القوى النووية العظمى وتريليونات الدولارات وأطنان الذهب... والجيوش المليونية... في عصرنا، ولكن كلّ هذا لا شيء أمام شخص أعلن أنه إله، لذا لا يرى نفسه مضطرا ليعيد كلامه مرتين، ولا لمفاوضة أحد، وكان يقتل أياً كان وبأي عدد من دون أن يتجرّأ أحد على الاعتراض...

طغيان فرعون على بني إسرائيل هو سبب إرسالك له بالآيات، حيث ستحاول معه بالمنطق والعقلانية أن تريه سوء طغيانه، وسيرفض، فاعرض عليه الآيتين ليرى أنك مرسل من الإله سبحانه...

معلوم لك أن فرعون لن يؤمن، ومعلوم أنه سيزيد طغيانه، ولكن لا تجعل هذا حاكما على مجريات الأحداث لتقول إنه لا معنى لإرسال رسول مع آيات لفرعون طالما أنه معلوم أنه لن يؤمن، لأنه معلوم عنده تعالى من أوّل ما قرر خلق ما في الدنيا أن فرعون سيطغى ومصيره في الآخرة جهنّم، فهل سيخلقه تعالى في الآخرة ويرميه في جهنّم متخطيا مرور فرعون في مراحل الدنيا؟ وهكذا لا حاجة أصلا لخلق ما في الدنيا ونفتح أعيننا لنجد أنفسنا في النار أو الجنّة لأنه تعالى يعلم بمصيرنا... وهكذا ترى بسهولة ووضوح أنه لا معنى لهذا الكلام، حيث سبحانه قرّر التعامل معنا ومحاسبتنا ومجازاتنا بما فعلناه بحرية الإرادة والاختيار الممنوحة لنا، وعاملنا على أساسها، لذا خلقنا في الدنيا لنمر بالبلاء وصولا إلى الآخرة حيث الجزاء، وهذا موضوع آخر تناولته سور أخرى منها الآية 2 من سورة الملك {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}.

(قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي{25})

قال النبي موسى(ع) لربه سبحانه: {رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {اشْرَحْ لِي صَدْرِي}، تفاعلي مع الأمور فليكن منشرحا مرتاحا، ويقصد أنه يريد القدرة على تحمّل الصعاب من مخالفتهم وتكذيبهم له. ونعلم من الآية 13 من سورة الشعراء {وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ} أنه (ع) عبّر بهذه الجمل عن حالة ضيق الصدر التي تسبّب له ألا ينطلق لسانه، فتخونه العبارات التي تساعده على تقوية موقفه.

لا تنسَ أن النبي موسى(ع) كان يعرف فرعون جيّدا، حيث تربّى في قصره، ويعلم أنه شخص متكبّر متعالٍ ويتمتّع بقوة عسكرية... ولن يكون إقناعه بالعقلانية والمنطق سهلا أبدا، وفعلا مرّت سنوات طوال وفرعون يعاند، وكان يتّهم النبي موسى(ع) بكل أنواع الاتهامات: مجنون، كذّاب، ساحر... فلم يرفض (ع) ولم يعترض على المهمّة التي يراها شبه مستحيلة، بل طلب العون لتنفيذها، وهذا يأخذنا إلى تماشي الأمر الإلهي مع رغبةٍ عنده (ع) في إيجاد حلّ لمأساة قومه الذين تحت حكم فرعون الاستضعافي لهم... ونفهم هذه النقطة بمقارنتها مع وصف القتال في سبيله تعالى مع العلم أنه قتال للذين يريدون قتلنا نحن، فالنبي موسى(ع) يريد حلا لمشكلة قومه المستعبدين وهو نفسه يتماشى مع الإرادة الإلهية.

بقي شيء، في أدبيات أهل الكتاب كلام عن عصبية النبي موسى(ع) في تعاطيه مع الأمور، وأحيانا يصورونها بشكل سيئ، ولكن واستنادا إلى الصورة العامّة التي يطرحها القرآن عن الأنبياء، فسنرفض أي وصف سيئ لواحد منهم كوصف لحالة دائمة له، حيث مدحهم تعالى مرارا لصلاحهم، ولكن لدينا حالات شاذّة علّق عليها تعالى وأدّب أنبياءه... كحالة النبي يونس(ع) إذ ذهب مغاضبا كما ورد في الآية 87 من سورة الأنبياء {وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}.

إذا دخلت في تحليل شخصية الأنبياء فسترى فرقا واضحا بينهم من حيث قوّة الشخصية وبعد النظر والليونة والقساوة والإدارة... وهذا شيء سنتكلّم في جانب منه بعد قليل لترى الفرق بين شخصية النبي موسى(ع) وشخصية النبي هارون(ع)... وبالتحليل سترى بوضوح الفرق الهائل بين شخصية النبي محمّد(ع) وبقية الأنبياء، حيث استطاع النبي محمّد(ع) تكوين نواة دولة تطبّق دينه تعالى من أرضية جرداء لا مؤمنين فيها، وفيها أجلف وأقسى خلقه تعالى، وغالبيتهم كانوا بلا ناموس ولا ذمّة... بينما لم يستطع فعل ذلك ولا واحد من الأنبياء قبله، فالنبي موسى(ع) وداوود(ع) وسليمان(ع) من أمثالهم من أنبياء بني إسرائيل، حيث أداروا قوما هم بالأساس من المنتمين لدينه تعالى، طبعا هم وغيرهم واجهوا صعوبات بالغة في ذلك، ولكن يبقى الفرق ظاهرا بين شخصية النبي محمّد(ع) في إدارته وتعاطيه مع من حوله لتشكيل نواة دولة من لا شيء.

أقول لك هذا حتى لا تتماشى مع أي وصف بالعصبية السيئة للنبي موسى(ع)، وفي نفس الوقت حتى لا تنسَ أن النبوة لا تلغي تميّز شخصيات الأنبياء عن بعضهم البعض، وهنا يبدو واضحا من وصف النبي موسى(ع) لنفسه أنه يرى نفسه يضيق صدره وتخونه العبارة أمام من يعاند الكلام الحقّ.

(وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي{26})
اجعل أموري ميسّرةً سهلة تمشي براحة، ولا تجعلها صعبة، وذلّل لي العقبات.

كما تعلم، في الأخير تحقّقت رغبة النبي موسى(ع) بخروج بني إسرائيل من تحت حكم فرعون، ومرّت صعوبات قاسية، واستجابته تعالى لما طلبه النبي(ع) من تيسير الأمور، لم يُلْغِ ضرورة مرور بني إسرائيل في صعوبات لتكون درساً قاسياً لهم، وللأسف لم يستفيدوا منه!

تصوّر لو تدخّل سبحانه لإخراج بني إسرائيل من تحت استضعاف فرعون لهم بطريقة سهلة سَلِسَةٍ جدا وعلى خاطر بني إسرائيل، ولنقل مثلاً إنّه تعالى أنام كل الآخرين لأيام، وخرج بنو إسرائيل بهدوء وعلى راحتهم إلى حيث يريدون، أو اقترح أي شيء آخر، طبعاً لا تقترح أن يجعل سبحانه فرعون مؤمنا غصباً عنه بتغيير "بإعادة برمجة" فكره ونفسيته، فهذا لن يفعله تعالى لأنه يلغي حرية الإرادة والاختيار فينا...

حسناً، ولنفرض أن الأمور تيسّرت بالكامل على كيف بني إسرائيل، وخرجوا من مصر، ومرّوا على قوم يعكفون على عبادة أصنام، وطلبوا من نبيّهم صنع صنم لله سبحانه وتعالى... وبعدها وفي أول فرصة سنحت لهم فهم فعلاً صنعوا تمثالاً وعبدوه...

في هذه الحالة ستقول: لو أنهم عانوا للحصول على حريّتهم من فرعون، ورأوا ولمسوا أنه تعالى وعبر الرسول موسى(ع) تدخّل مراراً لإجبار فرعون على تركهم يرحلون، لتعلّقوا به تعالى وبرسوله وكانوا من أحسن المؤمنين.

وهكذا ترى أنه تعالى من تسع آيات متنوّعة أرادنا رؤية عناد فرعون كنموذج عن عناد كل المصرّين على الكفر حيث إنهم لن يؤمنوا مهما جئتهم بآية كما ذكرت عدة آيات من القرآن منها الآية 111 من سورة الأنعام {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ}.

أرادنا تعالى أن نرى أن الدلال لبني إسرائيل بالعناية بهم بشكل استثنائي، بتفضيلهم بالعناية الإلهية على العالمين بما جرى معهم من حوادث قديماً ولم تجرِ مع الآخرين، وهنا الكلام عن تسع آيات لمساعدتهم للنجاة من طغيان فرعون، أن نتيجته شرك غالبيتهم به تعالى فوراً بلا مهلة طويلة من بعد صيرانهم أحراراً حاكمين لأنفسهم! حيث أرادوا صنع تمثال لهم ليعبدوه، وهذا شيء لم يكونوا يجرؤون عليه تحت حكم فرعون!

خلاصة الكلام أن طلب النبي موسى(ع) منه تعالى تيسير أموره في مهمّة إخراج بني إسرائيل من مصر، وقد حصل التيسير بالمقدار الذي لا يجعل بني إسرائيل يشعرون بأنهم كلّهم مدلّلون عنده تعالى، فلو كانوا كلّهم مؤمنين من الدرجة العالية، لكان تدخّله تعالى مختلفاً بشكل يجعل الأمور أسهل بكثير عليهم، ولكن فيهم فسقة ومنافقون كثر، وكدرس لهم وحجّة إلهية عليهم، أراهم تعالى تسع آيات، وجعلهم يعانون بالقدر الكافي لنيل حرّيتهم ليشعروا ويتأكّدوا أنها حصلت

بتدخّل إلهي... ولم ينفع ذلك معهم حيث عبدوا العجل، وهكذا صاروا درساً لنا حين نقع في المصاعب ونطلب تدخّله تعالى، فلو تدخّل تعالى كما نطلب، فنحن ماذا سنكون بعدها؟ وهل سنبقى مؤمنين أم سنطغى؟

(وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي{27})
{وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي}، من الآية 13 من سورة الشعراء {وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ}، فهمنا أنه(ع) عندما كان يضيق صدره ويتضايق ويغضب كانت العبارات تخونه ولا يعبّر عما يريده بشكل صحيح.
ولذلك طلب منه سبحانه أن يساعده، ويفك هذه العقدة التي تربط لسانه عندما يغضب أو يتضايق، حتى:

(يَفْقَهُوا قَوْلِي{28})
حتى أستطيع أن أعبّر لهم بشكل سليم عمّا تريدني أن أقوله لهم، ليربطوا المعلومات بشكل سليم بدلاً من قولي لهم كلاماً غير متناسق بسبب ضيق صدري وعندها لن يستطيعوا استيعاب كلامي غير المتناسق.

كما يبدو من عموم القرآن لم يكن هناك مشكلةٌ في أجهزة النطق عند النبي موسى(ع) ولكنه(ع) عندما كان يتضايق كانت تصيبه حالة "تلعثم، أو انقطاع النفس، أو ارتباك في اختيار الكلمات والجمل..."، على كل حال، وما نفهمه من الآيات أنه (ع) لم يكن يعبّر بطريقة سليمة عندما يتضايق.

وما تجده في الروايات من كلام عن علّة في جهاز النطق عنده (ع) فلا دليل عليه من القرآن، ولا تجده صريحاً في أدبيات أهل الكتاب.

(وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي{29})
{وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا}، مساعداً لي، يساعدني في حمل ونقل كلامك إلى الناس وفرعون، ويكون الوزير، {مِّنْ أَهْلِي}، من الذين ينتمون لي وأنتمي إليهم.

الوزر هو عموم الأمور المادية والمعنوية الثقيلة على الحمل أو التحمّل، ومنه الوزير كحامل.

(هَارُونَ أَخِي{30})
من الآية 53 من سورة مريم {وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا} فهمنا أن هارون لم يكن نبياً لذا لم يكن يصله نبأ منه تعالى، وبعد طلب النبي موسى(ع) صار أخوه هارون نبياً، وتلاحظ من الآية 13 من سورة الشعراء {وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ} صراحة طلب النبي موسى(ع) أن يصير أخوه نبياً حيث طلب أن يتواصل سبحانه وحياً مع أخيه ليصير رسولاً مثله إلى فرعون...

ومن عموم مفاهيم القرآن عن الذين يجعلهم تعالى أنبياء نعلم أن هارون (ع) كان فيه الصفات الإيمانية المناسبة لجعله نبياً، ولكن فقدانه السيطرة في حادثة عبادة بني إسرائيل للعجل أثناء غياب النبي موسى(ع)... تُريكَ أنه كان يفقد شيئاً ما، وبعد قليل سنتحدّث عن ذلك، وغير معلوم لنا إن كان تعالى سيجعله نبياً حتى من دون أن يطلب النبي موسى (ع) ذلك.

(اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي{31})
{اشْدُدْ بِهِ}، بأخي هارون(ع)، {أَزْرِي}، وبمؤازرته لي أصير أشدّ، وبمساعدته أصير أقوى، لذا اجعل يا رب أزري، ما يمكن أن يساعدني به الآخرون، مشدوداً بأخي، لتتضاعف قوتي في تبليغ الرسالة عندما يساعدني أخي.

(وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي{32})

اجعل أخي هارون (ع) شريكاً لي في الأمور التي أمرتني بها، ليعمل معي على تنفيذ الأشياء التي أمرتني بها.

ننتبه جيداً ونضع في بالنا أن النبي موسى(ع) لا يعلم بتاتاً بما سيحصل معه، ونحن نعلم لأننا قرأنا القصّة من قبل، أمّا هو(ع) فلا يعلم أي شيء، وعندما وصله أمر إلهي بحمل رسالة منه تعالى إلى أقوى قوّة بشرية على الأرض في عصره، استهاب النبي موسى(ع) من صعوبة نقل الرسالة إلى فرعون المتكبّر المتعالي البطّاش المدّعي للألوهية، ويريد (ع) أن ينجح، ونراه هنا في الآيات يطلب المساعدة بالأمور التي يظنّ أنها ستساعده لينجح، وأكرر لك أنه (ع) كان محقاً في توقّع الصعوبة الشديدة التي ستواجهه، حيث من بعدها وعلى مدى سنين عديدة عانى هو وبنو إسرائيل من فرعون وجنوده، الذين لم يؤمنوا ولا بأيّ طريقة...

وسيأتيك في تكملة القصّة شيء يشير إلى أن المنفعة "المتوقّعة" لم تحصل من طلب النبي موسى(ع) جعل أخاه وزيراً له، وسترى ذلك واضحاً عندما عبد بنو إسرائيل العجل، وستعرّج السورة على ذلك لترى أن مجرى الأحداث لم يكن ليتغيّر "كثيراً" سواء أكان النبي موسى(ع) لوحده أو أخوه (ع) معه.

(كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً{33})

{كَيْ}، حتى، {نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا}، نقول الكلمات والجمل التي تنزّهك عن الصفات السيّئة، مثلاً نكرر ونقول: يا عظيم. وهذا تسبيح "تنزيه" أن يكون سبحانه ضعيفاً... وهكذا بقية الأسماء والصفات الحسنة للإله سبحانه... وعمليا تسبيحه تعالى هو تطبيق دينه تعالى، فلا معنى لنفي الصفات السيئة عنه تعالى باللسان فقط، لأن الإيمان والعمل هما التطبيق لفعل التسبيح، فمن بعد الخلاص من قوّة كافرة ظالمة حاكمة تفرض الكفر على بني إسرائيل، بعدها سيسبّحانه تعالى عبر ممارسة تامة لإيمانهما.

نلاحظ أنه سبحانه أمر عبده بنقل الرسالة إلى فرعون، وكلّمه تعالى عبر الشجرة، وزوّده بآيتين، ولكن النبي موسى(ع) طلب الأمور التي ذكرتها الآيات هنا لأنه ظنّ أنها تساعده على توصيل الرسالة والنجاح في جعلها مطبّقة، ولكن هل اشترط عليه سبحانه استجابة طلباته حتى ينقل الرسالة؟ طبعاً لا، ولذلك اختتم (ع) طلباته بعبارتين {كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا}، و{نَذْكُرَكَ كَثِيرًا} حتى يوضّح أن ما طلبه يساعده ويساعد أخاه على تسبيح أكثر وذكر أكثر، ولم تكن شروطاً لقبول نقل الرسالة، وسوف تلاحظ من الآيات الآتية أن وحياً نزل على النبي هارون(ع) يبلغه بما جرى في هذه المحاورة بين الإله سبحانه وبين رسوله موسى(ع)، فيبدو منها أن النبي هارون(ع) تبلّغ أنه ومن ضمن ما هو مطلوب منه كوزير لحامل الرسالة مطلوب منه التسبيح والذكر بكثرة. وأنت تعلم أنهما (ع) لم يكونا غريبين عن الدين أو تديّنا بعد أن صارا نبيين، لا، فهما أصلاً متدينان من بني إسرائيل.

لو كررت لك لـنتنبه جيداً، هل ما قدّمه سبحانه لرسوله(ع) كان كافياً لتوصيل الرسالة أم تحسّن الوضع بسبب الأمور التي طلبها النبي موسى(ع)؟ وهل تغيّر أي شيء في التاريخ بسبب استجابة طلبات النبي موسى(ع)؟ لا، حيث بقي فرعون على عناده الذي استمرّ لسنوات طوال ولم يؤمن ولم يترك بني إسرائيل يرحلون! لذا تريد الآيات هنا لفت انتباهنا للأمر الإلهي لرسوله وتزويده بما يحتاج لنقل الرسالة، ولفت انتباهنا لما ظنّه الرسول من عوامل مساعدة إضافية إذا حققها له الله سبحانه، وحقّقها تعالى له (ع) علماً أنها لن تقدّم ولن تؤخّر بشكل فعّال فيما سيحدث.

الآن نرى جانباً سيفهمه الرسول محمّد(ع) من هذه الآيات، ونفهمه نحن، حيث كثيراً ما يخطر ببالنا ونقول: لو حصل كذا لما كان الحال كذا... ولو يحصل كذا فسيحصل كذا... كاقتراحات لأمور رأينا أنها لو حصلت لتغيّر الحال إلى الأحسن، وكأنه تعالى لم يعلمها، أو يعلمها ولم يخترها لأنه عزّ وجلّ لم "يفكّر" فيها مثلنا، أو ... وهذه من الأفكار التي تعبّر عن ضعف إيمان من تخطر بباله، وهنا ترى نموذجاً عن طلبات ظنّ النبي موسى(ع) أنها ستعينه، وأنت تعلم أنها لم تغيّر الشيء الكثير مما سيحدث، ولذلك من الأصل سبحانه لم يعتبرها ضرورية ليؤمّنها لرسوله ولكن استجابة لرغبة رسوله جعل أخاه نبياً...

(وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً{34})

إذا استجبت سبحانك لي وأيضاً: {نَذْكُرَكَ}، أنا وأخي، {كَثِيرًا}، سنستحضرك في قولنا وعملنا، ونجعل الناس تستحضر توحيدك وعبادتك وطاعتك، لأننا سنكون اثنين لنقل الرسالة وهذا أفضل من واحد، طبعاً هذا من وجهة نظر النبي موسى(ع).

(إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً{35})
{إِنَّكَ}، يا ربّ، {كُنتَ بِنَا}، أنا وأخي، {بَصِيرًا}، حيث تدرك "بمستوى إلهي" وتعي معنى صورة ما يحصل معنا، ولديك الدراية التفصيلية والعلم التفصيلي مع وعي لما يجري، لذا ترى كل شيء وتعي ما يجري. نحن لا نرى إلا مجالاً قليلاً مما أمام أعيننا، ولا نعي إلا القليل مما نراه، وأحياناً يشرد ذهننا ولا نعي حتى ما يجري أمامنا وتراه أعيننا، لنصير مثل الكاميرا التي لا تفهم ما يحصل أمامها، أمّا سبحانه فبصير، حيث يعي ويدرك كل ما يحصل. لذا أعتمد عليك سبحانك في استجابة طلباتي، مع علمي بأنك الأعلم بما هو أنسب نظراً لوصفك بالبصير الذي يتابع كل شيء ولديه دراية وعلم بكل شيء، واقتراحاتي ما هي إلا ما أعتقد أنه سيساعدني في مهمّتي وأنت سبحانك أدرى بما هو أنسب.

(قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى{36})
قال ربنا سبحانه: {قَدْ أُوتِيتَ}، أعطيناك، {سُؤْلَكَ}، ما سألت، ما عبّرت عن إرادتك للحصول عليه منّا، {يَا مُوسَىٰ}، حيث سوف أحقق لك ما سألتني وسأستجيب لطلباتك، لذا سيكون أخوك وزيرك وسأشرح لك صدرك...

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى{37})
هل هذه هي المرّة الأولى التي يمنّ بها تعالى على عبده موسى(ع) حين استجاب له ما سأله؟ لا، حيث قبلها منّ تعالى عليك كثيراً: {وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ}، أعطيناك أشياء من دون أي مقابل منك وهي أمور تستحق أن تشكرنا عليها، {مَرَّةً أُخْرَىٰ}، حيث قبل الاستجابة لهذه الطلبات الآن مننّا عليك في السابق.

تذكّر دائماً، أنّ السورة تريد أن تبيّن لنا أنه تعالى لا يكلّف أي رسول بحمل الرسالة حتى يشقى ويتعب ويشعر بالمضايقة... لأن هذا ليس هدفاً إلهياً مقصوداً، بل بالعكس من المفترض بالناس أن يحترموا الرسول ويقدّروه ويشكروه لأنه ينقل لهم ما يهديهم. وهنا ترى أنه تعالى وبعلمه بالغيب بما سيكون عليه الطفل موسى(ع) من إيمان، منّ عليه منذ صغره بالعناية... نضع في بالنا دائماً الفرق بين مختلف الكلمات التي تعبّر عن حصولنا على شيء منه تعالى، حيث إن المنّة تفضّل يستوجب الشكر، وهي ليست مرادفاً لهدية أو فضل أو صدقة... ولم يعبّر القرآن ولا مرّة بالمنّة على المؤمنين بإدخالهم إلى الجنّة، أو بالمنّة لما سيحصلون عليه في الجنّة، لأنه أصلاً لم يوجب سبحانه عليهم ولا أي شيء هناك، لا صلاة ولا صوم ولا تسبيح... وحتى شكره سبحانه لم يوجبه عليهم كما هو صريح عدة آيات منها الآية 8 من سورة فصلت {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}. وما تقرأونه من نقل القرآن لجمل شكر أهل الجنّة له تعالى، كما ورد في الآية 10 من سورة يونس {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} هو صادر منهم بعفوية بسبب النعمة الرائعة التي يعيشون فيها...

(إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى{38})
تعرض الآية المرّة الأولى التي منّ سبحانه فيها على رسوله(ع) بشيء مميّز عن بقية الناس، عندما ولدته أمّه كان صدر أمر من فرعون بقتل كل المواليد الذكور الجدد لبني إسرائيل، وسنتحدّث عن سبب ذلك في الآية التالية، فتدخّل سبحانه لحماية الطفل موسى(ع)، وهذه منّة، لأن الطفل لم يقدّم أي شيء له سبحانه حتى ينقذه من القتل، ويجب عليه شكره تعالى على تدخّله، ولاحظ أنها منّة على النبي موسى(ع) في أوّل يوم أو أيام من خروجه إلى الحياة.

{إِذْ أَوْحَيْنَا}، أوصل سبحانه معلومات إلى وعي، {أُمِّكَ}، يا موسى، {مَا يُوحَىٰ}، جعلنا في فكرها وذهنها الفكرة التالية لتنفّذها عن قناعة تامّة:

قبل أن نكمل، الوحي، منه الإيحاء، وهو توصيل المعنى بأي طريقة كانت غير الكلام المسموع مباشرة من القائل، سواء من الإشارة باليدين أو من وضع المعلومات مباشرة في الذهن، وحتى وسوسة الشيطان تصدق عليها كلمة وحي، وحتى المعلومات التي في ذهن الحيوان والتي يمشي عليها بما يسمّيه البعض بالفطرة أو الغريزة، من بناء بيت بشكل ما من مواد ما، والعناية بأولاده، والبحث عن طعام محدّد... هو وحي.

لمزيد من التوسع حول كلمة "وحي" راجع دراسة الآية 13 من هذه السورة.

(أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي{39})
تلقّت أمّ الطفل موسى(ع) وحيا إلهيا، فصار في قناعتها أن تفعل ما يلي:

{أَنِ اقْذِفِيهِ}، ارميه بقوة، وضعيه بسرعة تمهيدا لإبعاده عنك، {فِي التَّابُوتِ}، في الصندوق، في العلبة المصنوعة من الخشب أو القصب، بعدما تأكدت الأم أن جماعة فرعون قادمون لقتل الطفل، جعل سبحانه قناعة في عقلها أن تضعه بسرعة في شيء يعوم على الماء وهو التابوت، ارمي التابوت بقوة بسرعة، {فِي الْيَمِّ}، في الماء الذي كميته كبيرة، في مستنقع "بركة" أو نهر كبير، والمشهور بين الناس أنها وضعته في نهر النيل.

التعبير بـ {اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ} بدل ضعيه في التابوت، يشير إلى إلهامها بأن تبعد الطفل عن الخطر "بسرعة" فلا مجال للوداع، وشاع في عصرنا استعمال "قذيفة" في الأسلحة التي يتم رميها لتصل إلى مكان بعيد، من الرصاصة "المقذوف" إلى الأجسام الكبيرة "القذيفة" وهو نفس المعنى الحقيقي للكلمة: رمي شيء بسرعة.

بعد ذلك، {فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ}، لِيَرْمِ الماء بجريانه التابوت، {بِالسَّاحِلِ}، إلى حيث يلتقي الماء باليابسة، على ضفّة الماء، سيصير التابوت مستقرا على الأرض وينحسر الماء من تحته، وهذا ما أفهمه من استعمال كلمة ساحل هنا بدلا من شاطئ، وهذا سيحدث بتدخّل إلهي، وهناك وأيضا بتدخّل إلهي، سوف، {يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي}، لأنه لا يطيعني ولا ينفّذ أوامري ويعمل بعكسها، وهو نفسه، {وَعَدُوٌّ لَّهُ}، لموسى (ع) أيضا، حيث صدر الأمر بقتل الأطفال من نفس الشخص الذي سيربّي هذا الطفل، في حينها لم تكن نفس العداوة مشتركة بينه تعالى والنبي موسى(ع) من جهة وفرعون من جهة أخرى، لأن النبي موسى(ع) في حينها لا يزال طفلا ولا عداوة بينه وبين فرعون بسبب خلاف عقائدي، لذلك لم تعبّر الآية بـ "عدو لي وله"، بل عبّرت بـ {عَدُوٌّ لِّي} من ناحية، و {عَدُوٌّ لَّهُ} من ناحية أخرى لأن فرعون يريد قتله لأنه طفل من بني إسرائيل، وهذا قبل أن ينوي قتله لأنه رسول إلهي.

{وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ}، رميت وجعلت عليك، وأنت طفل، {مَحَبَّةً مِّنِّي}، جعلتك محبوبا، كل من يراك سيحبك، {وَلِتُصْنَعَ}، لِتَكْبُرَ وتنمو، {عَلَىٰ عَيْنِي}، تحت نظري، تحت مراقبتي، لن أتركك ليتحكّموا بتربيتك وإجبارك على ممارسة الكفر أو الشرك أو المعصية... حيث يمكن أن يحصل تهديدهم لك بالقتل وأنت صبي أو شابّ إن لم تعلن عبادتك لآلهتهم، وسأتدخل في مجريات الأمور حتى لا يحصل ذلك.

من الآية 9 من سورة القصص {وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}، علمنا أن زوجة فرعون التقطت التابوت وأحبّت الطفل وطلبت من زوجها ألا يقتله بالرغم من علمهم أنه من بني إسرائيل، فاحتفظت به بموافقة زوجها الفرعون...

بقي شيء، مِنْ عموم القرآن ومن التراث اليهودي نعلم أن فرعون كان مدّة بعد مدّة يأمر بقتل المواليد الذكور للمستضعفين تحت حكمه، وذلك حتى لا يزيد عددهم ويشكّلوا خطرا على حكمه، ويسيطر فرعون على مقدار عددهم بحسب قدرات القوى الأمنية التي تدير شؤون المواطنين والعبيد، لِنَقُلْ مثلا إنّ الموكلين بإدارة الأمن والحفاظ عليه ألف جندي، ومثلا يستطيعون السيطرة على أربعة آلاف شابّ، لذلك كان فرعون يأمر بقتل المواليد الذكور الجدد من أبناء المستضعفين حتى يحافظ على عدد الأربعة آلاف، ويترك المواليد الإناث لأنهن لا يشكّلن خطرا عسكريا.

إلى هنا وصلنا إلى حيث الطفل موسى(ع) صار عند عدوّه، وهو بحاجة للرضاعة، فأرسلت زوجة فرعون خدمها ليحضروا مرضعة، وأحضروا لها مرضعة ولكن الطفل رفض الشرب منها، وبقي على صراخه، وهكذا أرسلت زوجة

فرعون خدمها لإحضار مرضعة ثانية وثالثة... بناء على ما ورد في الآية 12 من سورة القصص {وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ}.

(إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى{40})
{إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ}، باتجاه الباحثين عن مرضعة للطفل، ومن الآية 11 من سورة القصص {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}، نعلم أن الأمّ أمرت ابنتها بمتابعة التابوت وما سيحلّ بالطفل، فتابعته... إلى أن رأت عمّال القصر خرجوا منه ليبحثوا عن مرضعة، وعلمت أن أخاها صار بين أيديهم وهم بحاجة لمن يرضعه، وسبحانه حرّم ومنع على الطفل كل المراضع لأنه سيرفض أي رضاعة من غير أمّه، {فَتَقُولُ} لهم الأخت: {هَلْ أَدُلُّكُمْ}، هل أرشدكم، {عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ}؟ فأنا أعلم أناسا لائقين بالاهتمام بما يحتاجه الطفل، ليس من الرضاعة فقط بل بالعناية بالنظافة والتربية، فهل يهمّكم هذا العرض؟

وهكذا دلتهم على منزل أمها... وأرضعته، وسكت معها، وبذلك:

{فَرَجَعْنَاكَ}، حيث جعلك سبحانه ترجع وتعود {إِلَىٰ أُمِّكَ}، {كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا}، تثبت عينها على ما معها ولا ترغب بشيء آخر، وتفرح بابنها، {وَلَا تَحْزَنَ}، ولا يصيبها شعور محزن على فراقه.

لاحظ أن المنّة على الطفل بنجاته من القتل، بل بالعكس، فالذي كان سيقتله صار راعيا له! والمنّة على الطفل أيضا بإسعاد أمّه به...

أيضا من المرات التي مننّا عليك فيها من قبل عندما {قَتَلْتَ نَفْسًا}، وهذه حادثة ذكرتها الآية 15 من سورة القصص حين كان النبي موسى(ع) لسبب أو لآخر يتنقّل بين مساكن بني إسرائيل، وشاهد ظلم جماعة فرعون لبني إسرائيل، وتدخل في حادثة مشاجرة بين إسرائيلي وآخر من جماعة فرعون، حيث قام بضرب الفرعوني وقتله (ع) عن غير قصد... {فَنَجَّيْنَاكَ}، حيث خلّصك سبحانه، {مِنَ الْغَمِّ}، من الشعور المزعج الثقيل الناتج عن تهمتك بالقتل العمد وملاحقتهم لمجازاتك، لأنك صرت مطلوبا بتهمة القتل لرجل من التابعين لفرعون.

{وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا}، عرّضناك لأمور تماشيت معها كامتحانات، {فَلَبِثْتَ}، حيث مرّ عليك زمن، {سِنِينَ}، سنوات عديدة، {فِي أَهْلِ مَدْيَنَ}، في المنتمين لمكان اسمه مدين، بين سكّان قرية مدين، وتعلم من الآية 28 من سورة القصص {قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ}... أنه تعالى عرّض نبيّه لفتاة أعجبته وأبوها قدّم له عرضا جيدا للزواج بابنته والسكن في قريتهم بشرط أن يعمل عنده... فهذه هي الفتنة التي تماشى معها النبي موسى(ع) وجعلته ينسى همّ ملاحقة فرعون له لقتله...

الفتنة هي عموم التأثّر وتغيّر الحال "معنويا أو ماديا" بعد التعرّض لشيء ما، وتتدرج من أعجبه وتعلق به وتغيّر بسببه، إلى أجبروه عليه وتماشى معه وتغيّر بسببه، أو تعرّض للشيء ولم يتغيّر، حيث افتتن ولم يتغيّر. وكما تعلّم كان في بلد غريب ولا يملك طعاما ولا ثمنه، وفي زمن لا يتجاوز النهار من بعد وصوله لمدين عُرِضَ عليه(ع) الزواج من فتاة أعجبته وأعجبها، وأن يعمل بأجر عال عند رجل محترم.

{ثُمَّ جِئْتَ}، إلى هذا الوادي لأتكلم معك وأكلّفك بالرسالة، {عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ}، على حساب وتخطيط إلهي وليس بالصدفة وصلت إلى وادي طوى في هذا الوقت، بل كنت تمشي على المخطّط الإلهي طوال حياتك حتى وصلت إلى هذا الوادي وتَكَلَّمْتُ معك.

هنا نستذكر السورة التي روت قصّة النبي يوسف(ع) والتي تخصّصت بعرض التدخّل الإلهي في مجريات الأحداث التي تبدو أنها تسير وَحْدَهَا من قرارات اتّخذها البشر... بينما هي أحداث تسير على ما خطّطه تعالى.

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي{41})
أخيرا نصل لأعظم المنن التي منّ بها عليه(ع):

{وَاصْطَنَعْتُكَ}، جعلتك ككيان، تتشكّل وتنمو وتكبر، {لِنَفْسِي}، لي أنا، عمليا تفسيرها: لأرى كمال المواصفات الإنسانية فيك. وهذا مرادف تقريبا للتعابير القرآنية عن اصطفاء الأنبياء(ع) واصطفاء السيّدة مريم(ع) من بين الناس، فهم مُخْلِصُونَ "بالكسرة على حرف اللام" لربهم سبحانه وهو سبحانه اعتبرهم مُخْلَصِينَ "بالفتحة على حرف اللام" أي صافيين له، وتعبير {اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي} ليس مختلفا عن الاصطفاء بل أقوى منه، لأنه يدل على أنه من أساس "صنعه" تكوينه (ع) ميّزه تعالى واختاره لنفسه، وتعبير اصطفيتك يدل على الاختيار من بين الناس، والكلام عن اختيار أشخاص بسبب ميزة سلامة قُلُوبِهِمُ العالية.

ننتبه، أكثر البشر هم نماذج سيئة رديئة، والنبي موسى(ع) يملك مواصفات نفسية وفكرية رائعة، وإخلاصا صافيا لربّه سبحانه رغم أنه تربّى في بيت فرعون الذي يدّعي بأنه إله، حيث إنّ الذين في ذلك البيت هم فوق القانون، ورغم كلّ المغريات والمشتهيات المتاحة فإن هذا الإنسان "موسى" لم يرتكب أي سيئة.

من الطبيعي أن ينال هذه المرتبة العالية عنده سبحانه لدرجة أن يقول سبحانه عنه: {اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}. صنع ربنا سبحانه كل البشر وغالبيتهم قرّروا أن يكونوا سيئين، ولكن موسى(ع) لمع من بين المصنوعين كنموذج راقٍ فقال عنه سبحانه إنّ المطلوب من البشر أن يكونوا مثل هذا النموذج، وصَنَعْتُكُمْ لتكونوا كهذا. هذا النموذج المثالي الراقي موسى(ع) صنعته لنفسي وأما البقية العاطلة فَلَمْ أصنعها لنفسي بل صنعتها لأنها يمكن صنعها، وبعد ذلك تتحمل مسؤولية اختيارها كيف ستكون: جيدة كموسى(ع) أو عاطلة كفرعون.

لا تَنْسَ أنه تعالى هنا يخبرك عن تعاطيه مع الأمور من علمه بالغيب، لأنه يعلم سبحانه ما سيكون عليه موسى من سلامة قلب، ولذلك يصفه بأنه من المصنوعين لنفسه تعالى، ولذلك اعتنى به، ونفس المسألة بالنسبة للنبي عيسى(ع)، مِنْ علمه تعالى بالغيب بما سيكون عليه هذا المخلوق، اهتمّ به منذ صغره...

فرضا أنني أنا ولسبب أو لآخر ألهم تعالى أمي... والتقطني آل فرعون ليربوني ونجوت من القتل، ورفضت المراضع ورجعت إلى أمي... وبعدها صرت فتى يعيش في قصر فرعون، كيف سيكون سلوكي؟ هل سأترك المغريات المتاحة في تلك القصور وأَكُونُ صالحا؟ وهكذا ترى أن أي كلام عن تمييزه تعالى لعبده موسى(ع) عنّي وعنك بالعناية، هو كلام ضبابي، وبالدقّة مِمَّا يعلمه تعالى عن موسى أنه سيكون مميّزا بقراراته وتصرفاته، لذلك ميّزه سبحانه بالعناية، وترك بقية الأطفال يقتلهم فرعون...

(اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي{42})
بعد إخباره سبحانه لنبيه(ع) بالمنن عليه منذ ولادته وحتى وصوله إلى هذا الوادي، نعود إلى مسألة تكليفه بالرسالة:

{اذْهَبْ} أنت، يا موسى، {وَأَخُوكَ}، هارون، {بِآيَاتِي}، بالأمور المميّزة المنسوبة لي، وهي العصا التي تصير حيّة واليدّ التي تصير بيضاء، {وَلَا تَنِيَا}، لا تتوانيا ولا يصيبكما الفتور والكسل والضعف... لأي سبب كان، {فِي ذِكْرِي}، في استحضاري في فكركما وقولكما وعملكما، لذلك لا تتركا ذكري الكثير لأي سبب كان من ضعف أو كلل أو ملل.
هذا من جانب، ومن جانب آخر حمل الرسالة هو نشر لذكر الله تعالى بين الناس، والإشارة أيضا في نفس الوقت ألا يَتَوَانَيَا في ذكره تعالى عند فرعون وجماعته، وعند بني إسرائيل، فقوما شخصيا بذكري كثيرا وقوما بتبليغ ما أمرتكما به لفرعون وملئه بلا توان.

إلى هنا كان الحديث مع النبي موسى(ع) وَحْدَهُ في وادي طوى في منطقة سيناء.

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى{43})
من الآية التي بعد التالية سنعرف أن النبي موسى(ع) غادر وادي طوى واجتمع بأخيه هارون(ع)، وتحدثا في موضوع الذهاب إلى فرعون والطلب منه ترك بني إسرائيل يغادرون مصر... وتحدثا مطولا... وبعد ذلك أوحى إليهما معا ربنا سبحانه بما يلي:

{اذْهَبَا}، أنت وأخوك، {إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ}، حيث تجاوز حدوده لدرجة كبيرة جدا. وتعلم من بقية القرآن أن فرعون هذا أعلن نفسه إلها، واستضعف بني إسرائيل الموحدين له تعالى.

نتذكر من القرآن أن النبي يوسف(ع) كان نشر دين التوحيد في مصر بشكل رسمي، و"الملك" الذي كان في زمنه كان آمن ووحّد الله تعالى على ما يبدو من فحوى منحه للنبي يوسف(ع) سلطات عالية... والنبي يوسف(ع) كان أحضر كل إخوته وأصهاره وبقية بني إسرائيل ليسكنوا في مصر، وبعد موت النبي يوسف(ع) حصل انقلاب في مصر، وتغيّرت الحكومة من الملوك إلى سلسلة فراعنة، كما يبدو من وصف سورة يوسف لأعلى حاكم في زمن النبي يوسف بالملك كما تقرأ في الآية 54 من سورة يوسف {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ}، وبعدها أعاد الحكّام الفراعنة عبادة الأصنام واستعباد الناس، وبعد حوالي "عشرات أو بضع مئات من السنين من موت النبي يوسف(ع)"، جاءت ولادة النبي موسى(ع)، وبعدها بحوالي أربعين سنة "كما يقولون في الروايات" أرسله سبحانه إلى هذا الفرعون ليحرّر بني إسرائيل من العبودية...

(فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى{44})
{فَقُولَا}، أنت وأخوك، {لَهُ}، لفرعون، {قَوْلًا لَّيِّنًا}، لا هجوم فيه ولا تهديد، {لَّعَلَّهُ}، ومن المفروض إن تكلّمتما معه بشكل ليّن أن {يَتَذَكَّرَ}، يستحضر الله تعالى في فكره وقوله وينتبه لتصرفاته لأنه مراقب من الله تعالى، {أَوْ}، من المفروض، أن {يَخْشَىٰ}، يصير لديه شعور بحصول ضرر يمكن تجنّبه، إذا توقّف عن السيئات متجنّبا غضبه تعالى عليه.

ننتبه، حيث إنّ سبحانه يعلم بأن فرعون لن يتذكّر ولن يخشى، ولكن لم يخبر النَّبِيَّيْنِ بذلك، وبالرغم من طغيان فرعون وإعلان نفسه كإله، واستضعافه للموحدين، وقتله للأنفس البريئة... فإنّ سبحانه أمر رسولَيْهِ بالتحدث معه باللين، هل هذا شيء خاص بفرعون؟ وهل فرعون ذاك كان شخصية مهمّة في اعتباره سبحانه ولذلك أمر رسولَيْهِ(ع) بالتحدّث معه بلين؟ لا، لأنّ كل الرسل أمرهم سبحانه بنقل رسالته بالحكمة والموعظة الحسنة وباللين أولا لكل الناس، والتهديد بالعذاب يأتي في المرحلة الثانية.

تذكّر دائما أنّ السورة تبين لك أن حمل الرسالة الإلهية ليس من المفروض أن يسبب الشقاء لحاملها، فلم يأمر تعالى رسوله(ع) بمحاربة فرعون، بل أمره بنقل الكلام عن الصلاح بلين.

لنتوسّع قليلا في ذلك، حيث من عموم القرآن نفهم أنه تعالى لم يجعل من أهداف إرساله للنبي موسى(ع) العمل على هداية المصريين، واكتفى سبحانه بأمر رسوله بإنذار المصريين من الشرك، والهدف كان إخراج بني إسرائيل من الاستضعاف، وهذا الكلام يأخذنا إلى عمق تعامله تعالى مع الأمم، لأنّ سبحانه يعلم سلفا أنه لا أمل من إيمان فرعون وملئه، إلا اللهم زوجته وواحداً من أقارب فرعون، وبكل ثقة وبالاعتماد على مفاهيم القرآن نقول: لو أن شخصا ما سيؤمن لسبب ما، وأينما كان هذا الشخص، وفي أي زمان، فسبحانه وتعالى سيؤمّن له تلك الظروف التي ستجعله يؤمن.

ستلاحظ في عدة سور نقلت جوانب من هذه القصّة، أن فرعون اتّهم النَّبِيَّيْنِ موسى(ع) وهارون(ع) بمحاولة الاستيلاء على الحكم بدلا منه ومن ملئه، وكمثال عن ذلك ما قالته الآية 110 من سورة الأعراف {يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ}، ضع هذا في بالك وسترى معنى كلام الآية هنا عن أمره تعالى للرسولين بالكلام باللين مع فرعون، فهو يتضمّن إعلاناً منهما له بأنهما لا يعلنان العداء له ولا للمصريين ولا نية لهما أصلا بالبقاء في مصر...

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى{45})
{قَالَا}، النبيان موسى وهارون عليهما السلام:

{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {إِنَّنَا نَخَافُ}، نشعر بخطر أكيد لا يمكننا تجنبّه، وهو، {أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا}، فنحن بين يديه وسيعاملنا بسوء، ويحبسنا ويعذّبنا أو يقتلنا مباشرة، لأنّ التفريط وصف لشيء مهم أو له قيمة كان بين

يديه وعامله بسوء أو إهمال. {أَوْ}، نخاف، {أَن يَطْغَىٰ}، حيث يزيد عدوانه وتعدّيه لحدوده كعبد لك، ويأمر بني إسرائيل بعبادته أو يزيد في معاملتهم بالسوء.

ربطاً بمحور السورة وافتتاحيتها لاحظ خوفهما من الإصابة بالشقاء بسبب الرسالة التي سيبلغانها لفرعون.

لاحظ أنهما لم يرفضا المهمّة ولكنهما يسألان عن حلّ، لأنهما متأكدان أنّ المواجهة مع فرعون لن تأتي إلا بنتيجة سلبية بقتلهما أو تعذيبهما أو تعذيب بني إسرائيل.

ضع في بالك أنهما شخصان من الأساس يحملان همّ المأساة التي يعيشها قومهما، ولديهما رغبة في فعل شيء ما بهذا الخصوص، ولكن لا حيلة لديهما على فعل أي شيء أمام فرعون الحائط الصلب الفولاذي في طغيانه وقوّته العسكرية، وجاء الأمر الإلهي بالمواجهة مع فرعون مباشرة، وعرض الدين الإلهي عليه بلين... لذلك توقّعا أن تكون النتيجة سيئة جدا من هذه الطريقة، ولكنها السنّة الإلهية في التعامل مع عباده، حيث يدعوهم إلى الحقّ باللين ويجيب عن أسئلتهم ويصحّح عقيدتهم... وبعد ذلك تأتي التدخلات الإلهية من النوع القاسي... وصولا إلى تعذيب من كفر هنا في الدنيا...

(قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى{46})
{قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ}

{قَالَ}، سبحانه لِلنَّبِيَّيْنِ(ع):

{لَا تَخَافَا}، لا تشعرا بحصول خطر لا يمكنكما تجنّبه، {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ}، ما يقال، {وَأَرَىٰ}، حيث عندي صورة محدّدة لما يحدث معكما، فأنتما تحت المراقبة ولن أسمح لفرعون بأذيتكما.

(فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى{47})
{فَأْتِيَاهُ}، اذهبا لتقابلا فرعون، {فَقُولَا}:

{إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ}، شخصان مهمّتنا نقل كلام المسؤول عنك من مستوى إلهي، {فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}، اتركهم لنأخذهم من مصر، {وَلَا تُعَذِّبْهُمْ}، توقّف عن استضعافهم ومعاملتهم كمواطنين من الدرجة الثانية...

{قَدْ جِئْنَاكَ}، يا فرعون، {بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ}، بشيء مميّز من المسؤول عنك من مستوى إلهي، وهي العصا التي تتحول إلى حيّة، ويد النبي موسى(ع) التي تصير بيضاء.

{وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ}، حيث لا نيّة منه تعالى لأي عمل سيّء ضدّ من مشى على الأمور الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة، وبالعكس فلا سلام لمن اتبّع الغوى والهوى.

نلاحظ أنه سبحانه يعلّم نَبِيَّيْهِ كيف يَتَحَدَّثَانِ بلين مع فرعون، ونلاحظ أنّ آيتنا المختصرة تشير لجملة مختصرة: رسالتنا كذا وكذا، ودليلنا كذا وكذا، والسلام على من اتبع الهدى، نقطة انتهى. هذا ما تريد الآية الإشارة إليه.

جملة {وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ} تعطي معنى: نقطة انتهى. لَيْسَ مطلوبا منكما أكثر من ذلك وتعطي معنى الترغيب على حصرية السلام منه تعالى لمن اهتدى كتهديد مبطّن لمن لا سلام له إن لم يهتد، وسيأتي في تكملة الكلام تهديد شبه مباشر وغير الـمُوَجَّهِ بصراحة لفرعون.

لاحظ أنه سبحانه يتعامل مع الموضوع كما نقول "بأريحية"، حيث مِنَ المَعْلُومِ أنه سبحانه لا يتأثّر ولا بأي شكل من أي شيء، لذلك لا يستعجل ولا يقلق... في النهاية وأمام تعامله تعالى مع كائنات منحها حرية الارادة والاختيار لتفعل ما تريد، فإنّ ما يريده سبحانه سيحصل، وهكذا ترى هنا أنه تعالى وتماشيا مع عقولنا نحن أمر رَسُولَيْهِ بالتحدّث باللين مع فرعون، وبشكل يجعل فرعون يشعر بأن أهميته محفوظة كحاكم ذِي قيمة عالية، لأنّ ربّه أرسل له رسولين، وآيتين.

سترى ما تقصده الآية لو أن الرسولين وبكل صلابة وجلافة قالا: أنت عبد لا قيمة لك وتسلّطت على الناس وربّك يأمرك بأن تنفّذ ما نقوله وإلا سيعذّبك...

بعض الأحيان تنصح الناس بترك السوء وفعل الصالح، فَيَقُولُونَ إِنَّكَ لم تستعمل معهم الأسلوب اللين ولذلك لم يسمعوا كلامك، علما أنّ هذا ليس بعذر لهم ليفعلوا السوء، ولكنه طبع بشري راعاه تعالى في تعامله معنا، وترى الآية هنا تأمر الرسولين بالتعامل باللين مع فرعون ليشعر بأن له قيمة، لا لأن فرعون له قيمة واعتبار عنده تعالى، ولكنه تَمَاشٍ إلهي مع الطبع البشري، حيث بكل أدب ولين وعقلانية نقل الرسولان كلامه تعالى، ومعهما آيَتَانِ تثبتان أنهما رسولان...

(إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{48})
اختصرت الآيات الزمن، وانتقلت بنا إلى حين تواجه النبيان(ع) مع فرعون وقالا له: {إِنَّا}، أنا وأخي، {قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا}، وَوصلتنا معلومات منه تعالى، {أَنَّ الْعَذَابَ}، الضرر، سينزل ويحلّ، {عَلَىٰ مَن كَذَّبَ}، لَمْ يصدق ما نقول، {وَتَوَلَّىٰ}، وَأَدَارَ ظهره لما نقول ولم يهتم. تلاحظ أنهما لم يوجّها التهديد مباشرة لفرعون بل جعلاه كخبر عمومي، والمعنى واضح فانتبه يا فرعون من عواقب القرار الذي ستأخذه.

(قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى{49})
قال فرعون: {فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ}؟ عرّفاني بالمسؤول عنكما من مستوى إلهي؟ إذًا لم تعتبراني ربّا لكما، وكان لكما ربّ غير أرباب المصريين، فقولا لي من هو ربكما الذي تدعواني لعبادته؟ فأنا لم أره، ولم أر تمثالا له، ولم أر جيشه...

نلاحظ في كتب التفاسير اقتراحات لعقيدة فرعون التي ابتنى عليها في سؤاله هنا، وهي اقتراحات تفترض أن فرعون "أو أعوانه" درس العقائد واختار واحدة منها، ولكن هذا كلام لا معنى له، لأن القرآن يعرضه كمتكبر متجبّر يفرض كلامه على من حوله، وانطلاقا من هذا ففرعون لا يحتاج لأي منظومة فكرية أو عقائدية أو فلسفية أو كلامية ليثبت صحّة كلامه، لِأَنَّ سلطته على قوّة عسكرية ومالية ضخمة، وتأييد من حوله له، كافيان له حتى يقول ما يشاء، فإذا دقّقت في الكلام الذي ينقله عنه القرآن فهمت هذا، لَفَهِمْتَ أنك أمام من لا يسأل عن المنطق والعقلانية، بل أمام جبّار عنيد متكبّر لدرجة جنون العظمة وادعاء الربوبية بل الألوهية! راجع الآية 24 من سورة النازعات {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ}، والآية 29 من سورة الشعراء {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}.

(قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى{50})
قال، وسيبدو لك من الآية 57 أَنَّ القائل هو النبي موسى(ع): {رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ}، تَرْكِيبَ تأليف أي شيء، حيث إنّ المسؤول عنّا من مستوى إلهي أعطاه هذا التركيب والتأليف، حيث هناك المادة التي تتركّب منها الأشياء، وسبحانه أعطى التكوين من الجسم والشكل والهيئة... لكل شيء، {ثُمَّ هَدَىٰ}، وَضَعَهُ تعالى على الشيء الصحيح الذي يوصله للغاية الصحيحة، حيث بعض الكائنات زوّدها بفكر ومجال واسع لِلْإِرَادَةِ والأخرى بمجال أقل... وهكذا فلكل مخلوق مسار صحيح لتسير عليه حياته.

فرعون كان يقول عن نفسه إِنَّهُ ربّ الناس وإلههم، فهل يقول بأنه خلقهم؟ وهل خطّط لهم مسار حياتهم وتكوينهم؟

بَعْضُ المخلوقات "كالحيوان" يأكل ويشرب لينمو ويتزوّج ليتوالد، وبعضها "كالنبات" يشرب ويمتص المغذيات من التربة لينمو ويتلاقح ليتوالد، وبعضها كالحجارة يتفتت أو تنضم إليها بالضغط مواد أخرى ليكبر حجمها... والإنسان مثل بقية المخلوقات له هدى، وهو مخلوق يميّز بين الخير والشرّ، ومفروض عليه اختيار الخير... فهل أنت يا فرعون فعلت ذلك حتى تقول عن نفسك بأنك ربّ أو إله؟ أم تؤمن بربّ فعل ذلك؟ فنحن رسولان من هذا الربّ المصمّم الخالق لكل شيء.

(قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى{51})

قال فرعون: {فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى}؟ أنتما الآن جِئْتُمَانِي تُخْبِرَانِنِي وتعرضان عَلَيَّ عبادة رَبِّكُمَا، وتقولان إنَّ العذاب الإلهي سيصيب من كذّب وتولّى، {فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى}؟ ومَاذَا تقولان عمّن سبقنا من الناس حول هذا الموضوع؟ ومَاذَا تقولان عن {الْقُرُونِ}، عن الناس التي كانت مقترنة مع بَعْضٍ وعَاشَتْ في زمن واحد وماتت وجاء غيرها وماتت وجاء غيرها... من قبلنا؟ حيث إنَّ أَغْلَبَهُم لم يؤمنوا بِرَبِّكُمَا، فما تقولان عنهم ومَاتُوا؟

بعبارة أخرى، دِيَانَةُ الآلهة المتعددة للأقوام المتعددة هي ديانة قديمة آمن بها الناس بأشكال مختلفة، ومَاتُوا على هذه الديانة، فما تقولان عن مصيرهم وقد ماتوا على هذه العقيدة؟

نتذكّر أن مصر في زمن سابق نَشَرَ فيها النبي يوسف(ع) دين التوحيد، وهذا لا يعني أن كل أهل مصر وحّدوا الله تعالى، بل البعض منهم آمن بالتوحيد... ومرّت السنوات وتغيّر نظام الحكم، وعَادَ الناس إلى ديانة الشرك، وهذه الفترة القصيرة التي انتشر فيها التوحيد في مصر، ثم اختفى وبقي محصورا في بني إسرائيل "المَجْبُورِينَ حاليا على اعتبار فرعون ربّا لهم"، وفرعون يسأل، بغضّ النظر عن فترة النبي يوسف(ع) التي أنا وأنت نعتبرها حدثا مهمّا، أمّا فرعون فَيَعْتَبِرُهَا شاذّة، وهي فعلا لا شيء "كمدّة زمنية" بالمقارنة مع تاريخ طويل من الشرك في مصر.

الجواب عن سؤال فرعون معروف: كل من كفر فأعماله مسجّلة وسَيُجَازَى عليها بالعذاب في الآخرة، وَلْنُتَابِع:

(قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى{52})
قال النبي موسى(ع): {عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي}، نحن لا شيء في بالنا عن تلك القرون من الناس التي كانت قبلنا، حيث أَنَا مجرّد رسول ولا أعلم بحالهم، وما فعلته تلك القرون فعلمه عند المسؤول عني من مستوى إلهي، {فِي كِتَابٍ}، حيث كُلُّ ما قاموا به مدوّن ومسجّل في كتاب تتسجّل فيه أعمال وأقوال وأفكار وأحاسيس كل البشر، {لَّا يَضِلُّ رَبِّي}، لا يضيع أو يشرد سبحانه عن أولئك الناس، لِأَنَّهُ كان يراقبها كلّها وهو سبحانه يعلم ماذا فعلت، {وَلَا يَنسَى}، إذ إنَّهُ تعالى يرى ما فعلوا ويبقى ما علمه عنهم حاضرا لديه، ومهما مرّ من زمن فلا تذهب تلك المعلومات منه تعالى، ومهما حصل من حوادث فتلك المعلومات لن تذهب.

ننتبه أن الجواب الصريح عن سؤال فرعون هو: القرون الأولى الكافرة المشركة فمصيرها إلى النار. ولكنَّ النَّبِيَّيْنِ أجابا بشكل غير صريح، لأن سؤال فرعون ملغوم وفيه فخّ، إذ إنَّ الجواب الصريح يقول إِنَّكَ أنت وأهلك وأجدادك كلكم إلى النار، وفوقكم بقية الأمم التي مثلكم في الشرك. وهكذا يتحوّل الحوار إلى العنف... الجواب الآخر الذي لا معنى له: ربّنا تركَكم تفعلون ما تشاؤون ولن يحاسبكم، ويمكنكم أن تعبدوا ما تشاؤون. والجواب الثالث هو ما طرحته الآية هنا: ربنا سَجَّلَ ما فعل الناس، وهو سيتصرّف معهم بما يراه مناسبا. وهذا جواب فيه لِينٌ ومسايسة.

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى{53})
الآيات هنا قطعت نقل الحديث السابق بين النبيين(ع) وفرعون لتنتقل لنا ما يلي عن سؤال: من ربكما؟ وهذا القطع للكلام متكرر في القرآن، حيث ينقل لنا حدثا ما، وتَقْطَعُهُ الآيات لِتُقْحِمَ كلاما ضروريا يجب أن ينتبه إليه القارئ، ثمّ تُكْمِلَ الكلام عن الحدث، مثل {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ} كما ورد في الآية 36 من سورة آل عمران كجملة قطعت نقل كلام زوجة النبي عمران(ع) لضرورة لفت انتباه القارئ إلى أنها لم تكن تخبره سبحانه بما لا يعلم.

ربّ موسى وهارون عليهما السلام هو: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ}، أيها الناس، {الْأَرْضَ}، التي تعيشون عليها، {مَهْداً}، أرضية مهيئة لتمشوا وتقفوا وتجلسوا وتناموا... عليها، ولَمْ تكن كلها وعرة، ولم تكن كلها رخوة مائية، ولم تكن غازية... بل لها سطح صالح للعيش والزراعة والتنقل برا وبحرا...

{وَسَلَكَ لَكُمْ}، ومَرَّرَ في الأرض، {سُبُلاً}، مسالك طرقات، تقريبا كما نقول: شق الطرقات. والسُّبُلُ المسالك الطرقات التي يمكننا السير عليها لنقطع المسافات على الأرض سَلَكَهَا سبحانه لنا.

ننتبه لهذين التوصيفين للأرض، حَتَّى هذه الأشياء التي عادة لا ننتبه لها، ونعتبرها تحصيل حاصل لأنها موجودة ونتعامل معها "وعادة" لا نفكّر في كيفية حدوثها، سُبْحَانَهُ خطّط لها أن تكون هكذا، إِذْ لَمْ توجد الأرض لوحدها بهذه

المواصفات هكذا من دون تخطيط أو بالصدفة، وتَصَوَّرْ لو كانت الأرض مليئة بالشقوق العميقة التي تمنعك من المرور من جانب إلى الآخر، أو تصورها كلها جُزُراً صغيرة من الماء، أو جُزُراً من المرتفعات...

{وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}، وهو المطر، وهذه الظاهرة الطبيعية لم تحدث لوحدها، ولا بالصدفة، ولا خطّط لحصولها إله أو كائن غيره تعالى، {فَأَخْرَجْنَا بِهِ}، بذلك الماء من الأرض، {أَزْوَاجاً}، أنواعا وأصنافا عديدة، {مِّن نَّبَاتٍ}، من أشياء تنبت وتَنْمُو، {شَتَّى}، متفرقة بتنوعّها، أنواع مختلفة، حيث نَبَتَ الكثير من الأنواع المختلفة.

النباتات عائلة ضخمة، وبحسب التصنيف الحديث، تبدأ النباتات من طحالب مائية بسيطة، ثم الحزازيات فالسرخسيات، وصولًا إلى النباتات البذرية الأكثر تعقيدًا وتنوعًا وهي مئات آلاف الأنواع... وقد ظَهَرَتْ على الأرض من اختلاط الماء النازل من غيوم السماء بالتراب.

معلوم للجميع وجود نباتات بحرية تعيش على المياه المالحة، وهِيَ ليست من النباتات التي تحتاج لهطول المطر، والكَلاَمُ في الآية هنا من الواضح أنه عن النموذج الذي يخطر بالبال سريعا، وهُوَ النباتات المنتشرة بيننا على اليابسة.

(كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى{54})
{كُلُوا}، استهلكوا أيها الناس من تلك النباتات، {وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ}، وأطعموا الحيوانات التابعة لكم والموصوفة بأنها نعمة، والحَيَوَانَاتُ الأليفة التي تربونها كالبقر والغنم... لِتَرْعَ ولْتَأْكُلْ من تلك النباتات.

مِنَ الأساس كان التخطيط لنزول ماء المطر، وخروج النبات بأنواعه المختلفة حتى تأكلوا أنتم وحيواناتكم الأليفة من تلك النباتات، وفيما بعد تأكلون منتوجات حيواناتكم الأليفة التي تغذّت على النباتات.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، في تمهيد الأرض وسلك السبل فيها ونزول الماء وخروج النبات وأكلكم من النبات ورعي أنعامكم منها، {لَآيَاتٍ}، أُمُوراً مُمَيَّزَةً، تدل على خالق قدير خطط لكل هذا، {لِّأُوْلِي النُّهَى}، للذين النهى تابع لهم، وسياق الكلام يشير بالنهى إلى القدرات العقلية والنفسية التي تنهى وتُوقِفُ وتمنع الإنسان عن الكفر بالحقّ وعن معصية ربه سبحانه بفعل السوء.

الإِنْسَانُ عندما يشاهد هذا الخلق المتنوع، ويشاهد التخطيط الرائع، عِنْدَهَا يخطر بباله إمّا أن يطيع من خلق التنوع الهائل وخطّط بشكل واضح لكل شيء، لِيَكُونَ من أصحاب النهى، وإمّا لا يكون من أُولِي النهى حَيْثُ لَيْسَ لديه ما ينهاه لِيَبْقَى على كفره وعصيانه لربه إِذْ لاَ عقله ولا مشاعره نهياه عن الكفر وفعل السوء.

هناك مثل بسيط جدا كررناه في دراستنا هنا لتقريب فكرة خلقه وتصميمه تعالى لنا، تَصَوَّرْ نفسك أنت تريد خلق كائنات في بيئة، وَلْنَقُلْ إِنَّكَ خلقت أسماكا في حوض ماء، وإذا كانت قدراتك الفكرية والعملانية عالية، فَسَتَزِيدُ في تفاصيل كائناتك وبيئتها، وَتَجْعَلُهَا تتكاثر وتجوع لِتَأْكُلَ وتَنْمُوَ... إِمَّا أن ترشّ لها الطعام على سطح الماء لتأكل، أو تجعل بيئتها تنتج لها الطعام... وبعض الناس بدل أن يروا مما حولهم عظمة من صمّمهم وخلقهم، لَنْ يؤمنوا حتى يرشّ لهم سبحانه الطعام جاهزا من السماء! بينما نفس وجودهم وبيئتهم بالصفات التي يرونها، هُوَ نَفْسُهُ "آية" شيء مميّز يدل على ربّ ذي قدرات وصفات فائقة صمّمهم وخلقهم. ولكن من "لم يكن من أولي النهى" وَكَانَ فاقدا لما ينهاه عن الكذب وعن الافتراء وعن التعلّق بالشهوات السيئة... فَهَذَا لن يقبل بوجود إله فوقه يحاسبه على أعماله لأنه لا يريد التقيّد بالصلاح، ولا يريد أن ينهاه أي شيء عمّا يهواه من سيئات... وهذا لن يرى نفسه وما حوله آية، وحتى لو انبثق الطعام أمامه جاهزا كلّما جاع فلن يؤمن بأنه منه تعالى، مثلما لم يؤمن بأنه تعالى أتاح له الشراب والطعام في بيئته.

(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى{55})
{مِنْهَا}، من الأرض، {خَلَقْنَاكُمْ}، ألّفناكم وركبناكم من المواد التي فيها من "كربون وحديد ونحاس وهيدروجين..."، {وَفِيهَا}، في الأرض، {نُعِيدُكُمْ}، حيث تَمُوتُونَ وتَتَحَلَّلُونَ وتَعُودُونَ ترابا إلى المواد الأساسية التي تركبتم منها، {وَمِنْهَا}، ومن الأرض، {نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى}، حيث مَرَّةً ثانية سنجعلكم تخرجون منها عبر تركيبكم من موادّها "بعدما تتبدّل الدنيا" وذلك في يوم القيامة من الموت.

نَنْتَبِهُ جيدا، حيث تَحَدَّثَتِ الآيات السابقة عن خروج النباتات من الأرض... وفي العديد من السور التي ورد فيها ما يشبه هذه الآيات هنا، نرى تَأْكِيداً لنا أَنَّ رجوعنا إلى الحياة هو بنفس طريقة إخراج النبات من الأرض، وراجع في ذلك الآية 11 من سورة ق {رِزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ}، والآية 17 من سورة نوح {وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}. عِنْدَمَا نموت، فإننا نتحلل ونصير ترابا، وكذلك النبات عندما يموت يتحلل ويصير ترابا، ولكن بعد نزول الماء، فإنه يعيش من جديد، وكذلك نحن بآلية مشابهة نرجع للحياة. وعِنْدَمَا يموت الجميع، وتتبدّل السماوات والأرض، وينفخ "الملاك إسرافيل(ع)" في الصور، فإننا سنعود إلى الحياة، وبشكل يشبه كثيرا طريقة عودة النبات إلى الحياة، حيث سَيُعِيدُ سبحانه تركيبنا من المواد.

عَلَى كل حال، سَوَاءٌ علمنا بالضبط آلية خروجنا أم لم نعلم، فعلى الأقل نحن نرى كيف تكون الأرض جرداء بلا نبات، أي ميتة، وعندما ينزل الماء يصير فيها حياة، وهذا يتكرر دائما، إذاً، وكما يقول سبحانه الذي يخلق النبات في كل لحظة من أرض ميتة، فَإِنَّهُ سبحانه يقول إنَّ عودتنا إلى الحياة سهلة عليه أيضا، حيث بِنَظَرِهِ سبحانه، إنَّ الحياة النباتية والحياة الإنسانية هي نفسها، "حياة"، وكلاهما تركيب من المواد.

حَسَناً، عَرَّفَنَا سبحانه على نفسه بشكل حاسم، فلا الإنسان خلق نفسه ليكون ربّا لنفسه، ولم يخلق الإنسان "بقدراته الذاتية" غيره ليكون الإنسان ربّا لغيره، ولم يخلق الإنسان "بقدرات ذاتية" أي شيء مما حوله، بل كما قال النبيان (ع) لفرعون، إنَّ رَبَّهُمَا أعطى كل شيء خلقه ثمّ هدى، وبقية ما قالته الآيات هو شرح تفصيلي لإعطاء كل شيء خلقه وهداه، من تمهيد الأرض وجعل السبل فيها ونزول الماء وخروج أنواع النبات وأكلنا منها... وحياتنا عَلَيْهَا وموتنا فيها وخروجنا منها.

(وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى{56})

{وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا}، وجعلنا عند فرعون صورة محدّدة للأمور المميزة المنسوبة له تعالى، كما نقول بالعامية: شافها. حيث حصلت لفرعون صورة محدّدة من كل أنواع الأمور المميزة، من تمهيد للأرض... وخلق وإماتة وخلق من جديد للنبات... ورأى العصا واليد، وفيما بعد رأى القمل والدم والضفادع... ولكنه رغم التنوع في الآيات التي هي علامات وأدلّة وبراهين، {فَكَذَّبَ}، لَمْ يؤمن بصدقها، {وَأَبَى}، رَفَضَ بشدّة أن يقتنع بها.

ننتبه جيّدا، هَلْ المشكلة في الآيات حتى لم يؤمن فرعون؟ لا، لأنَّ في الأصل نحن وما حولنا آيات تدل على الإله المصمّم الخالق، ويكفي وصول رسالة منه تعالى حتى نطيعه، لأن محتوى الرسالة المنطقي العقلاني سيدل على إلهية منبعها، أمّا في حالة فرعون فَـركب رأسه، وسيطر عليه عناده، وَتيقّن من داخله بأن ما يحصل أمامه هو آيات ربانية إلهية، ولكنه لم يعلن أبدا إيمانه بها ورفض إطاعة الرسول "حتى ما قبل آخر لحظة من غرقه"، كما ورد في الآية 90 من سورة يونس {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ}.

سنطرح هنا شيئا طرحه واحد من المتذاكين في قصّة أَلّفها نَحَلَتْ هذا الدين الإلهي إلى ميثولوجيا حيث قال: لماذا لم ينزل الوحي الإلهي أيضا على فرعون؟ وَبذلك سيتلقى الأوامر الإلهية مباشرة، وسيطيعها، ولن تحصل أي مشاكل! بل لماذا لا ينزل الوحي الإلهي علينا كلّنا حتى نتأكّد مما تأكّد منه الأنبياء، ونحصل كلّنا على اليقين بالإله سبحانه والملائكة (ع) والآخرة والحساب... ونحصل كلّنا على التوجيهات الإلهية مباشرة، وسيكون هذا نجاحا باهرا للمشروع الإلهي لأن كل البشر سيدخلون إلى الجنّة! وَقال ما قاله في كتابه عن سخرية جعلت المجتمع الغربي يعتبره رمزا للعقلانية لأنه عربي مسلم يسخر من الإسلام، وحَبَوْهُ بجائزة نوبل للآداب...

حَسَنًا، يبدو هذا الكلام فيه منطق عقلاني وسليم لمن لم يؤمن من الأساس بأنه عبد لإله خالق، لمن أصلا لم يعتبر ما حوله من سماوات وأرض وما بينهما آيات ربّانية تدل على إله خالق مدبّر مخطّط مسيطر... وقفز من أساس الإيمان بالتوحيد إلى الإشكال على حكمة الإله سبحانه! على أساس إمّا أنه هو نفسه أذكى من الإله عزّ وجلّ! لأنه وجد حلا بسيطا سهلا يجعل كل الناس مؤمنين وَغاب هذا الحلّ عن الإله عزّ وجلّ، أو أنه أصلا لا يوجد إله وكل هذا الكلام عن الوحي هو وهم نفسي وقع فيه بعض الأشخاص وصنعوا الدين!

يا عزيزي القارئ ويا عزيزتي، اخترت لكم آيتنا هنا لأبيّن أن القرآن ردّ على هذه التفاهات بشكل مباشر وغير مباشر، لأنَّ الوحي هو مجرد معلومات تصل إلى الوعي من دون الكلام عبر الأذن، ولا يغيّر الوحي في طبيعة أي شخص أبدا، وَلا يجعله مؤمنا غصبا عنه، وَمن ينزل عليه الوحي يصير نبيا حاملا للخبر الإلهي إلى الناس، لا أكثر ولا أقل، وَلن يتغيّر أي شيء فيه، وَإن كان الإنسان كذّابا أو عنيدا، أو متكبرا جبارا، مجرما غشاشا... فالمعلومات التي تنهاه عن ذلك إذا وصلته إلى وعيه لَـن تغيّر فيه أي شيء إن هو لم يقرّر التغيّر، لأنَّ تأثيرها مشابه لسماعه لنفس المعلومات عبر الأذن، وَما معنى قولهم: لو نزل عليّ الوحي لكنت مؤمنا. مُؤْمِنًا بماذا ستصير؟ وما الفرق بين سماعي للكلام من أذني أو مباشرة في وعيي؟

الله سبحانه يختار أصحاب القلوب السليمة لينزل عليهم الوحي لأنهم سيتماشون مع محتوى الوحي، حيث إنهم بالأصل فكرهم ونفسيتهم سليمة، ولا يؤذون الآخرين، وحقوق الآخرين عندهم مقدّسة... لم يستسخفوا أنفسهم ويخترعوا آلهة من أوهامهم... وبسلامة قلبهم رأوا ما حولهم وفي أنفسهم آيات تدل على إله واحد أحد... وَهؤلاء حين تصل المعلومات الإلهية إلى وعيهم "وحيا" لَا يستغربون محتواها، ولا يَرْفُضُونَهُ بل يتماشون معه لأنها متماشية مع فكرهم ونفسيتهم.

بعبارة أبسط، لَوْ نزل هذا القرآن على أبي جهل، فسيجنّ أبو جهل إن بقيت هذه الجمل تتكرّر في رأسه، لأنه رافض لها ولا يريد التماشي معها، وسيبحث عن علاج لهذه المشكلة للتخلّص منها... وَما معنى الاقتراح العظيم لإنجاح المخطّط الإلهي عبر توصيل الوحي للجميع؟ وكما ترى أَنَّهم من سخافتهم لم يفكّروا مرتين بالموضوع، وأصلا لا يريدون التفكير فيه، ورموا الكلام هكذا بلا معنى... وربما اخترعوا فهما للوحي أنه تغيير في برمجة فكر من يصله، على أساس أن الوحي الإلهي يَمْحُو فكري ونفسيتي السيئة ويعيد كتابتها لأكون كالملاك الطاهر... ما هذا الكلام السخيف!

سأطيل عليك هنا لأنبّهك على منشأ الخزعبلات، لأنَّ أي تعليق اخترعوه على الدين الإلهي، لم يكن بريئا نابعا من بحوث علمية رصينة تريد إظهار الحقيقة، لا، بل نابع عن خباثة واضحة، حيث طرح القرآن العقيدة بشكل واضح لمن كان فكره وضميره وَاضِحًا وَسَلِيمًا، وأمّا الكذّاب أو المتعلّق بالشهوات السيئة والمحبّ لما حرّمه سبحانه، أو المحبّ للشهرة وللمال والسلطة... فطالما هم كذلك فمن المستحيل أن يدخل الكلام الإلهي إلى عقولهم وقلوبهم، وهذا الفرعون طرحه القرآن كأبرز نموذج لهذه النوعية من الناس، ويبدو واضحا جدا من القرآن أن الإله سبحانه وتعالى تَـعامل مع فرعون بطريقة خاصّة، لا لأن الإله سبحانه احْتَرَمَ فرعون الحاكم القوي على الأرض، لا، بل ليظهر لنا نموذجا عن التساهل الإلهي "المقصود" لسنين عديدة مع إنسان عنيد جبّار متعلّق بالسلطة لدرجة لا توصف، وبتسع آيات حصلت خصيصا له! ولم يؤمن! وآخرها آية انفلاق البحر أمامه ولم يؤمن! فخذ علما أيها المؤمن أن بقيّة الفراعنة الصغار، الْمُنْكِرِينَ لآيات ربّهم سبحانه، هُـم في الحقيقة فراعنة كبار من طبقة فرعون النبي موسى(ع)، ولكن لم تتح لهم الفرصة ليجلسوا على نفس كرسيّ ذاك الفرعون، لأنَّ الآيات أمامهم واضحة، ولكن يرفضونها ويخترعون عليها الإشكالات النابعة من تصورات هم اخترعوها، مثل اختراعهم لمعنى للوحي من أفكارهم وتعليقهم به على الدين الإلهي، وتصير الآيات التي أنزلها الإله سبحانه ليست طريقة صحيحة لإقناع الناس بِالْإِيمَانِ بالحق! والأنكى من ذلك كلّه الأمور التي شرحها وفصّلها القرآن ولكنهم حوّروها! لِذَلِكَ راجع في دراستنا هنا أي مفهوم ديني أو آية استعملوها للتعليق على الدين الإلهي، وستجد أنهم خبثاء تَـلاعبوا بمعاني الآيات.

(قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى{57})
قال فرعون: أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى!؟ حوّلت العصا لحيّة وحولت يدك للبياض، وتريد بسبب هاتين الخدعتين، أن تخرجنا من أرضنا، فيثور عليّ قومك من الداخل أو يخرجوا ويتجهزوا للحرب ويهجموا عليّ من الخارج؟ وَتريد أن تستلم الحكم أنت وقومك وتطردنا؟

ضع في بالك دائما أن السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شيئا غير حقيقي أنه حقيقي. فالساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد بأنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع أنها لم تَخْتَفِ، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر والذي تراه صريحا في الآية 66 من سورة طه {قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}. وما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، تُمَكِّنُهُ تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية،

وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، فهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية أنها سحر، فهذا كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

كما ترى، مَا نقله القرآن عن لسان فرعون يشير إلى أنه ليس من الذين يؤمنون بالسحر كقوّة خارقة، بل كخدعة...

(فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَاناً سُوًى{58})
يكمل فرعون تحدّيه للنبيين(ع):

{فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ}، سَـوف نحضر لك من يقوم بخدع، {مِثْلِهِ}، يشابه سحرك "خدعتك"، {فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا}، قُلْ لنا عن زمن نتّفق عليه، {لَا نُخْلِفُهُ}، لَا نتخلّف عنه وَلا نتهرب منه، {نَحْنُ وَلَا أَنْتَ}، وليكن، {مَكَانًا سُوًى}، مكانا يتّصف بالتناسب وَيكون مستويا كساحة كبيرة، لِـيتمكّن الناس من مشاهدة ما يحصل.

يبدو من مختلف الآيات المنتشرة في السور أن النبيين عَرَضَا الآيتين على فرعون في مجلسه بِـحضور أعوانه، وحصل نقاش بين النبيين وفرعون، وبعد ذلك تحدّث فرعون مع مستشاريه واتخذوا قرارهم بِتَحَدِّي النبي موسى(ع) بالسحر، ويبدو أنه في وقت لاحق حصل تواصل بين فرعون وبعض السحرة، وتوصّل فرعون إلى نتيجة كون السحرة قادرين على فعل سحر يجعل العصا تبدو كأنها حيّة... ويبدو واضحا من بعض الآيات أنه هدّدهم إن فشلوا وأغراهم بالمال إن نجحوا... وبعدها حصل اجتماع آخر بين فرعون والنبي موسى(ع) حيث قال فرعون وبكل ثقة: اختر يا موسى الزمان الذي يناسبك حتى نتحداك، ولكن لنا شرط واحد وهو أن يكون المكان "سوى" وَيكون أرضا منبسطة مثل الساحة الكبيرة حتى يتمكن أكبر عدد من الناس من مشاهدة التحدي.

يعني عن ثقة يتحدّث فرعون بأنه سينهي موضوع آية العصا التي تصير حيّة، وبهذا يسكت النبي موسى(ع) نهائيا وأمام الجميع، وهذا يعني أنه شاهد نماذج عمّا يمكن للسحرة فعله، وصار واثقا بأنهم سَيَفْعَلُونَ مثلما فعل النبي موسى(ع).

(قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى{59})
النبي موسى(ع) متوكّل على ربه سبحانه، فقال(ع) لفرعون: أنتم عندكم في الأيام المقبلة عيد، فليكن، {مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ}، فلنقل إنَّنَا سنتواجه في اليوم الذي تضعون فيه الزينة، ما يزيّنكم، ما يجعلكم تبدون أجمل، وهي الثياب الجديدة والجميلة والحلي والألوان الزاهية والتبرّج للعيد، حِينَهَا يكون كل الناس في عطلة، {وَأَنْ يُحْشَرَ}، يَتِمَّ جمع الناس لمشاهدة التَّحَدِّي، وبالتحديد يكون جمعهم في زمن الـ {ضُحًى}، في فترة الضوء القوي من النهار حيث الشمس مناسبة لمشاهدة الناس للحدث.

نلاحظ أن مجرى الأحداث أَوْصَلَ الحال إلى حضور عدد كبير جدا جدا من الناس، وبرغبة وإصرار من فرعون الذي كان متأكدا من النصر ويريد عددا كبيرا من الناس لمشاهدة انتصاره، وتابعه النبي موسى(ع) في هذه الرغبة لأنه (ع) أيضا متأكّد من النصر.

لاحظ أنه تعالى وبعلمه السابق أَوْصَلَ الأمور إلى جمع عدد كبير من الناس لرؤية ما سيحدث، لتكون حدثا بحضور جماهيري كبير لإلقاء الحجّة عليهم جميعا، مثلها مثل حادثة تركه تعالى لقوم النبي إبراهيم(ع) عندما قرروا قتله حرقا، وَتَرَكَهُمْ سبحانه حتى شارك الجميع في إشعال نار عظيمة وحضروا لمشاهدة عقاب من كسّر آلهتهم... وأمام الجموع الغفيرة خرج النبي إبراهيم (ع) من النار سليما مُعَافًى... ومثلها حادثة تعرّف الناس على النبي عيسى(ع) بتجمهرهم واهتمامهم بالسيدة مريم (ع) العزباء التي تحمل طفلا... وَنَطَقَ وهو في المهد...

(فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى{60})

{فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ}، ذَهَبَ عن النبي موسى(ع) وَتَرَكَهُ ولم يَتَعَاطَ معه، {فَجَمَعَ كَيْدَهُ}، اشْتَغَلَ بإحضار كل السحرة الذين يتمكّن من إحضارهم للكيد، للعمل المضاد الذي سيجعل آيات النبي موسى(ع) تفقد قيمتها كآيات ربانية، وستظهر على أنها مجرّد سحر، مجرّد خدعة يمكن أن يقوم بها أي شخص يتعلّم السحر.

{ثُمَّ أَتَى}، جَاءَ فرعون بكيده، وَحَضَرَ بالسحرة في الموعد إلى مكان اللقاء.

تَعْلَمُ أن فرعون أرسل جنده إلى مختلف المدن لإحضار السحرة... وجاء بهم إلى موعد اللقاء كما تقرأ في الآية 111 و 112 من سورة الأعراف {قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ}.

(قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى{61})
جاء يوم الزينة، واجتمع الناس ضُحًى، وحضر السحرة والنبي موسى(ع) إلى وسط الساحة، وتوجّه النبي موسى(ع) نحو فرعون وجماعته ونحو السحرة بشكل خاص، وقال لهم:

{ وَيْلَكُمْ }، يا لمصيبتكم العظيمة، وانتبهوا لما تفعلونه لأنه سيسبّب لكم شيئًا عظيمًا جدًّا، { لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا }، ولا تلفّقوا كلامًا غير صحيح وتنسبوه إلى الله تعالى، وأنا لم أحوّل العصا لحيّةٍ، وأنتم لا تتحدوني أنا، بل تحاولون جعل آية حقيقيةٍ إلهية تبدو على أنها سحر، فتفقد قيمتها كآية إلهية عبر خداعكم الناس بسحركم على أساس أنكم حوّلتم العصا فِعْلًا لحيّةٍ، وأنتم تعلمون أنكم تخدعونهم وأن التحوّل لم يحصل، وأمّا فيما يفعله تعالى فهو يحصل بالحقيقة وفِعْلًا.

بعبارة أخرى آيتي إلهية حقيقية، وأنتم افتراءً تقولون إنّه تعالى لم يفعلها، وتلفّقون وتنسبون له تعالى إنّه لم يفعلها، وأنتم كاذبون في ذلك، وويلكم من ذلك.

لا تفتروا عليه سبحانه، { فَيُسْحِتَكُمْ }، يطحنكم يمسحكم، { بِعَذَابٍ }، بضرر يصيبكم، وانتبهوا لأنكم لا تتحدوني أنا، بل تتحدون ربكم سبحانه وتفترون عليه.

{ وَقَدْ خَابَ }، ولن يحصل ما يأمل ويتوقّع حصوله، { مَنِ افْتَرَى }، من لفّق واخترع شيئًا ليس حقيقيًّا، وهنا الكلام عن فعله تعالى لهذه الآيات وهم يقولون إنّه تعالى لم يفعلها، وأملكم بالحصول على منفعة من الافتراء ستقابله خيبة حتمية ولن تحصلوا على أي منفعة بل بالعكس، ولا تدخلوا في مشروع فاشل حتمًا فيصيبكم العذاب حتمًا، وهذه خيبة أنبّهكم منها.

(فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى{62})
{ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ }، جماعة فرعون حصل بينهم نزاع وأيضًا جماعة السحرة، والأمر أي الموضوع الذي هم فيه من تحدّي النبي موسى(ع) صار مُتَنَازَعًا بينهم، وقِسْمٌ اقتنع بالتهديد ويقول: فلنتراجع، وقسم ينزع الموضوع لرأي آخر ويقول: فلنكمل التحدّي وسننتصر عليه... يعني لم يتفقوا على رأي محدّد وتخالفوا.

{ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى }، ولم يعلنوا أمام الناس أنهم متخاصمون حول التراجع أو الإقدام، بل بصوت منخفض تحدثوا مع بعضهم براحتهم في طرح آرائهم بحيث لا يسمعهم الجماهير.

بعبارة ثانية، هم يعرفون أن ما سيفعلونه هو خدعة وليس عن حقيقة ستتحول العصا لحيّةٍ، فخاف بعضهم من التهديد لأنه سيتحدى الله تعالى إن صدق موسى(ع) وكان فِعْلًا يملك آية إلهية.

(قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى{63})
{ قَالُوا }، نعلم من آيات أخرى من القرآن أن فرعون قال في هذا الموقف كلامًا، ومما يبدو واضحًا أنّ غيره من المعاونين ومن السحرة الذين قرروا الدخول في التحدّي أيضًا قالوا نفس الشيء، ومن مجموع أقوال فرعون وأعوانه والسحرة كانت الخلاصة:

{ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ }، ما موسى وهارون إلا ساحران، يقومان بخدعة، وهما ليسا مُرْسَلَيْنِ منه سبحانه، { يُرِيدَانِ }، مقصدهما، { أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا }، ومخططهما الرئيسي هو إخراج بني إسرائيل من مصر، { وَيَذْهَبَا

بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى }، حيث إنّ طريقتكم في التصرّف والتفكير أنتجت لكم الأمان والطعام والمسكن... في مصر، وهذه هي الطريقة المثلى وهي أحسن ما يكون، وما يعرضه عليكم موسى أن تتركوا هذا، ولكن إلى أين؟ أيّ مكان أو بلد سيؤمّن لكم ما تتمتعون به في مصر.

كما ترى، تهمة إخراج المصريين لها وجهان، مِنْ ناحية يتّهم فرعون النبيَّيْنِ أنهما يريدان السيطرة على مصر عبر إزاحة فرعون وملئِه عن الحكم... ومن ناحية ثانية يوجّه الكلام للمواطنين المصريين بأن مسألة خروج بني إسرائيل من مصر لن تؤمّن لهم ما تؤمّنه لهم حكومة مصر.

بعبارة أخرى، أنتم المصريون وصلتم إلى أرقى ما يمكن من المدنية والعمارة والحكومة والقوّة العسكرية... بجهودكم وتفكيركم وقوّتكم... وكل هذا سينتهي إن خضعنا لسحر هَذَيْنِ السَّاحِرَيْنِ، وفي النهاية سيطردوننا من بلدنا الذي نحن جعلناه هكذا معمورًا غنيًّا قويًّا...

للتوسّع في معنى كلمة سحر، راجع ما ذكرناه في الآية 57 منذ قليل.

قال بعضهم إنّ جملة { إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ } خطأٌ مخالفٌ لقواعد الكلام العربي، على أساس أنّ الحرف المشبّه بالفعل "إن" يدخل على الجملة الاسمية، فينصب المبتدأ، فتصير الجملة: إنّ هَذَيْنِ لساحران. وعلّق بعضهم بهذا الكلام على القرآن أنه من تأليف النبي محمد(ع) وأخطأ في هذه العبارة! يا ويلهم من هذا الافتراء، ألم يكفهم محتوى عقيدة وشريعة القرآن ليدلَّهم على أنه إلهي؟ أليست واضحةً سخافة عبادة الأصنام والأرواح والأجداد... لوضوح وجود خالق خطّط ونفّذ ويدير... لوضوح إلهية الشريعة التي تأمر بالتوحيد وبرّ الوالدين ومساعدة الناس وبكل خير...

ألم يكفهم أنّ القرآن سلسلة من كتب نزلت قبله توافقه في أساسيات ما يقول، ولو لم يحرّفوها لما وجدت أي فرق في العقيدة بين كل تلك الكتب؟ ألم يكفهم أنّ الرسول وكتابه ليسا بدعة، حيث سبقهما رسل وكتب عديدة؟ ألم يكفهم أنّ محمدًا أميٌّ، فمن أين جاء بهذه العقيدة والشريعة والقصص؟ وبالأخص القصص التي صحّح فيها القرآن ما ورد من تحريفات وقعت في الكتب الدينية السابقة؟ ولا نعرف أحدًا ممن كان مع النبي(ع) وعلى طول العشرين سنة التي استغرقها نزول القرآن، ولم نعرف أحدًا منهم رافقه في تلك المدّة ويملك هذا النوع من المعلومات، ألم يكفهم أنه(ع) لم يغيّر ولا حرفًا واحدًا، ولم يعدّل على ما قاله من قرآن للناس طوال أكثر من عشرين سنة؟ لو كان من تأليفه لكان نقّحه وغيّر فيه مثل أي بشري آخر. ألم يكفهم أنه(ع) بلغ الأربعين من عمره ولم يكن معروفًا عنه لا الشعر ولا السجع فمن أين جاء بهذا القرآن؟ ألم يكفهم أنّهم مهما حاولوا فلن ينجحوا في تأليف قرآن مثل هذا القرآن بمحتواه عن أخبار الخلق وما خطّطه سبحانه لهم وعن الشريعة وعمّا سيحدث بعد الموت...

هذا والكثير الكثير من الأدلّة التي لم تكفهم للإيمان بإلهية القرآن حتى "تناسوا عن قصد لا عن جهل" أنّ الحرف المشبّه بالفعل المخفّف عطّله العرب عن عمله في كلامهم، وحتى لو استعملها القرآن مُلْغَاةً عن عملها فقط هنا في هذه الآية، فالقرآن لم يستعمل كل تراكيب اللغة العربية بكل مفرداتها حتى تفرض عليه استعمال "إن" بهذا الشكل في آية أخرى لنستدل على أنّه ليس من تأليف محمد(ع)، وهذا التعليق على القرآن لا يقل سخافة عن التعليقات اللغوية أو البلاغية الأخرى التي تخرّصوا بها، وها أنت في المكان المناسب لترى اتهام النبيَّيْنِ بالسحر مع أنهما يحملان آية إلهية! وهذا القرآن آية إلهية واضحة جِدًّا اتهموها بأنها من تأليف محمّد(ع) زورًا وبهتانًا وتخريصًا وافتراءً وكذبًا وغباءً واستغباءً... وهم يفترون على الله سبحانه الكذب، فويلهم.

بقي شيء، حيث كرّر القرآن نقل اتهام فرعون وقومه للنبيَّيْنِ أنّهما يريدان إخراجهم من أرضهم، وتفهمه بالنسبة للسلطة والحاكمين أنهم لا يرون البراءة فيما يطلبه النبي موسى(ع) من ترك بني إسرائيل يغادرون مصر، ويرونه مخطَّطًا لانقلاب على حكم فرعون أو مخطَّطًا للخروج من مصر والاستعداد للهجوم عليها. وتلاحظ أنّ هذا الاتهام قاله فرعون موجِّهًا كلامه لحاشيته وأيضًا لبني إسرائيل، على أساس أنّ بني إسرائيل في نظره مواطنون مؤمّن لهم المسكن والحماية والطعام، ومحاولة إخراج النبي موسى (ع) لهم من مصر هو إخراج لهم من أرضهم. وسترى هذه الصورة إن نظرت للموضوع من وجهة نظر فرعون، وإن قلت إنّ بني إسرائيل لن يبلعوها فانتبه إلى أنّهم ليسوا كلّهم على المستوى المطلوب من الوعي، حيث فيهم همج، وفيهم من لم يستقرّ على رأي محدّد... وترى ذلك جليًّا فيما نقلوه عنهم فيما كتبوه في التوراة من تحسّرهم على الأيام الجميلة في مصر!

انتبه من تعميم صورة العبودية لبني إسرائيل بقساوة للجميع، فقارون منهم وكان ثريًّا جِدًّا، مما يشير إلى كونهم مواطنين من الدرجة الثانية، مستضعفين، حيث استعمل القرآن مرتين وصفًا من مشتقات كلمة "عبد" لبني إسرائيل في مصر، كما ورد عن لسان النبي موسى(ع) في الآية 22 من سورة الشعراء { وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ }، وفي الآية 47 من سورة المؤمنين { فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ }، وفي بقية الكلام استعمل وصف استضعافهم، ولم يكونوا عبيدًا بالمعنى التطبيقي القاسي لكلمة عبد، بل كان مفروضًا منهم وعليهم الطاعة، مثلهم مثل أي مواطن مصري، ولكن كانوا من الدرجة الثانية، فقسمٌ منهم مهنيّون حرفيّون، ومنهم السحرة، وقسم قليل جِدًّا تجّار ومدراء...

حالهم كحال أي جماهير في أي مكان يحرّكهم السياسيّون بخطابات كاذبة تبدو للبسطاء أنها في مصلحتهم، بينما هي فقط وفقط في مصلحة الحاكمين، وبالعقلانية ستقول إنّ مصلحتهم الخروج من مصر ليحكموا أنفسهم بأنفسهم، إذْ كانوا فيها مواطنين من الدرجة الثانية وبعضهم من الدرجة الثالثة ويقتل أولادهم فرعون كلما رأى أنّ عددهم زاد عن الحجم الذي يمكن للقوى الأمنية المصرية السيطرة عليه. ولكن هذه العقلانية من نظرة العاقل وليست منتشرة بين أكثرية بني إسرائيل الذين ما زالوا يتأثرون بخطابات فرعون وقادتهم... ويخافون من المصير المجهول إن خرجوا من مصر...

هذا ما تراه في بعض المجتمعات التي تسير خلف ناعق سياسي أو ديني يحرّكهم فيما لا مصلحة لهم به، فهم فقراء ويحتاجون لكل شيء من مقومات الحياة، ويدفعهم الناعق باتجاه الحروب والمعاداة للآخرين... ويبقون على حالهم السيّء، وهم متأثرون بكلام الناعق متعامون عن واقعهم السيّء.

(فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى{64})
نكمل مع أقوال فرعون وأتباعه على اقتحام التحدّي: { فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ }، ليكن عملكم المضاد لموسى موحَّدًا، { ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا }، كونوا مجموعة واحدة مع بعضكم ولا تتفرّقوا، { وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ }، أجاد عملًا، { مَنِ اسْتَعْلَى }، من كان الأعلى، من غلب وانتصر، فهذا يوم حاسم يتحدّد فيه الذي كلامه فوق كلام الآخر.

لا يذهب فكرك لكلمة صف أن يقف السحرة وراء بعضهم على خطوط، بل صفًّا أي مع بعض متحدين في الهدف، وعمِّم هذا المعنى لكل استعمال كلمة صفّ في القرآن، فالمقاتلون يقفون صفًّا، والملائكة (ع) صفًّا... يعني مُتَّحِدُونَ على أهدافهم.

(قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى{65})

{ قَالُوا }، السحرة: يا موسى، { إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ }، ترمي عصاك أنت أولًا، { وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ }، نحن، { أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى }، فنرمي قبلك؟ نحن حاضرون جاهزون وبانتظارك لتجهز. لاحظ أنهم يتحدثون بكل ثقة!

(قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى{66})
{ قَالَ }، النبي موسى(ع): { بَلْ أَلْقُوا }، ارموا أنتم أولًا. ألقى السحرة ما حضّروه، { فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ }، إلى النبي موسى(ع)، { مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى }، تتحرّك وتقصد المشي لوحدها! فتخايل (ع) أنها فِعْلًا صار فيها حياة ووعي الحيوان! بينما في الحقيقة هي لم تصر حيوانًا. السحر هو انخداع حواسنا لنرى أشياء ليست حقيقية ولكن تظهر لنا أنها حقيقية، كما ننخدع فنرى الساحر يخرج حمامة من المحرمة ولكنه في الحقيقة يخرجها من كمّ يده. ولمزيد من التوسّع حول كلمة سحر راجع دراسة الآية 57 من هذه السورة.

(فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى{67})
خاف النبي(ع) أن ينخدع الناس بهذه الحبال والعصي الزائفة، فهو يعرف بأنه يتخايل وهي سحر ولم تتحول فِعْلًا لحيّاتٍ، ولكن كل من يراها سيقول بأنها تحولت! حتى هو نفسه(ع) لم يميّزها عن الحيّات الحقيقية! { فَأَوْجَسَ }،

تحدث في نفسه، { خِيفَةً }، خاف فشعر بالضرر الأكيد الذي لا يمكن ردّه، فتحدث مع نفسه بأفكار نابعة من الخوف، فلو رمى العصا التي معه الآن فماذا سيحدث؟ لا شيء! فهي ستتحوّل إلى حيّة وهؤلاء السحرة حولوا العصي والحبال لحيّاتٍ، فسيكون مثله مثلهم، ولن يصدّقه الناس بأنه مرسل من ربه سبحانه! فهذا ما كان يدور في بال النبي(ع)... ولكن لم يظهر خوفه على وجهه (ع)، فقط كان يحدّث نفسه(ع) بهذا الخوف.

(قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى{68})
أوحى سبحانه لنبيه في وعيه وقال سبحانه له: { لَا تَخَفْ }، لا داعي لشعورك بالخطر والضرر الذي تعجز عن التعامل معه، { إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى }، فلا أحد أعلى منك، فأنت فوقهم وأنت المنتصر. تذكّر أن موضوع السورة حول أنه تعالى لم يقصد حصول الشقاء للرسول بسبب الدعوة، فكل ما يعرفه النبي موسى(ع) أنه يحمل رسالة وزوّده ربّه سبحانه بدليل على صدقه عبر تحوّل العصا إلى حيّة، وها هو يقف في مشهد صارت فيه آيته بلا قيمة! فالسحرة استطاعوا خداع الناس ليظهر أنهم حوّلوا العصي إلى أفاعٍ! فهل هناك شقاء، حالة أتعس، من الحالة التي يقف فيها الآن النبي موسى(ع) إن تساوت آيته مع سحر السحرة!

(وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى{69})
{وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ}، ارم عصاك التي تحملها، {تَلْقَفْ}، تلتقط بسرعة ما ألقوه، {مَا صَنَعُوا}، الذي صنعه السحرة، ما فعله السحرة وصار أمام الناس.

{إِنَّمَا صَنَعُوا}، فقط ما صار أمام الناس من تحرّك الحبال والعصي كأنها أفاعٍ، هو، {كَيْدُ سَاحِرٍ}، هو عمل مضاد لك على شكل حيلة وخدعة يقوم بها ساحر وليس بحقيقة، {وَلَا يُفْلِحُ}، لا يوصف بأنه فالح، لم يكن مُجِيداً في عمله، {السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى}، أينما حضر، سواء علم الناس أن عمله خدعة أو لم يعلموا، فهو مخادع وعمله غير جيّد أينما ذهب لأنه لن يحقّق له أمورا جيدة في النهاية.

نلاحظ الآية هنا اختصرت ما جرى لأنه صار واضحا، رمى النبي موسى(ع) عصاه، وتحولت لثعبان، ومشت باتجاه السحرة وأخذت تلتقط الحبال والعصي التي رماها السحرة. وخاف السحرة والناس وفرعون وحاشيته، وبقي النبي موسى(ع) واقفا منتصرا، وأمسك الثعبان وعاد وتحوّل إلى عصا.

كما ترى، حتى النبي موسى(ع) نفسه لم يخطر بباله أي حلّ، وتصوّر أنه تعالى سيكتفي بتحويل عصاه إلى حيّة، وتصوّر (ع) أنه سيكون حاملا لآية حقيقية ولكن لا قيمة لها أمام آيات خادعة! تصوّر نفسك مكانه، كيف سيكون شعورك؟ ولكنه سبحانه جعل الحيّة تنطلق باتجاه الحبال والعصي وتلتقطها مثلما تهاجم الحيّة الحقيقية، وهكذا صار واضحا أن ما يقدّمه النبي موسى(ع) هو فعلا آية ربّانية.

من موروثنا الثقافي الديني ورثنا أن حيّة النبي موسى(ع) بلعت تلك الحبال والعصي، ورغم حذري من الوقوع في الموروث تاركا ظاهر ما يقوله القرآن، وَقَعْتُ كثيرا فيه، وبمراجعة بعد المراجعة لهذه الدراسة كنت أنتبه لذلك وأقوّمه...

التلقّف وصف لعموم التقاط سريع لشيء جرى إلقاؤه، وَلَيْسَ مُخَصَّصاً للبلع الذي أحيانا هو من تبعات المعنى، ويمكن أن يحصل تلقف من دون بلع، ولا داعي لتصور حيّة النبي موسى(ع) تبلع حبالهم وعصيّهم، بل يبدو أن المشهد سيكون أقوى لو تصوّرنا حيّة النبي موسى(ع) تهاجم وتتصرّف كما تتصرّف الحيّة عندما تهجم على حيّة أخرى، فتعضّها، وهذا هو الالتقاط، وحصل هذا منها بسرعة كهجوم على ما ألقاه السحرة، والكلمة العربية لوصف ذلك هِيَ التلقّف.

هكذا ظهر بوضوح أن حيّة النبي موسى(ع) حقيقية وتتصرّف على طبيعتها الحقيقية كحيّة تهاجم الحيّات، بينما حيّات السحرة مجرد حبال وَعِصِيٍّ تتلوّى بميكانيكية آلية من تمدّد أو تقلّص للمواد من حرارة الشمس أو من تفاعلها الكيميائي... أو بسبب آخر، بلا أي حركة إرادية لأنها لم تصر حيوانا، حين اقتربت منها حيّة النبي موسى(ع) بقيت على حركتها اللاإرادية بلا تفاعل مع حية النبي موسى(ع) التي تتأمّلها وتتصرّف كما تتصرّف الحية حين تهاجم...

وحين التقطتها حيّة النبي موسى(ع) أكملت تحركها الآلي أو خربت وتبيّن بوضوح أنها ليست حيوانا، ورمتها حيّة النبي موسى(ع) واتجهت باتجاه الأخرى التي أيضا لم تتغيّر حركتها الآلية لتتفاعل مع حيّة حقيقية، وهكذا الحيّة "الآية" سعت بحركة الحيوان الإرادية ليرى الجميع الفرق بين عصا صارت حيوانا حقيقيا وبين السحر "الخدعة".

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى{70})
انذهل السحرة بما شاهدوه، وعلموا أن هذه حقيقة وليست خدعة مثل خدعتهم.

{فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا}، وقعوا ساجدين لله تعالى على الأرض، وقرّبوا وجوههم من الأرض كثيرا أو لامست جباههم الأرض، {قَالُوا}:

{آمَنَّا}، نعلن اعتقادنا، {بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى}، بالمسؤول عنهما من مستوى إلهي.

نتذكر أن النبي موسى(ع) خطب فيهم وحذّرهم أنهم يتحدّون الله تعالى، ولذلك شعر السحرة بالخوف الشديد وأعلنوا إيمانهم مباشرة.

كما ترى، السحرة أهل الاختصاص، وهم أعلم الناس بالخدعة وتمييزها عن الحقيقة، وعلموا يقينا أن قدرة فائقة حوّلت فعلا العصا لحيّة، فأعلنوا إيمانهم فورا.

بعد ثلاث آيات سنتحدث أكثر عن سبب الإيمان الفوري للسحرة لأنهم من قبل كانوا من المنتمين "بشكل ما" لدينه تعالى.

بالنسبة لكلمة "آمن"، لم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإسلام أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، وآمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كلتاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى{71})
قالَ فرعون للسحرة ممتصا الخسارة في التحدّي التي فوقها إعلان السحرة لإيمانهم:

{آمَنْتُمْ لَهُ}، أعلنتم اعتقادكم لموسى، {قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ}، قبل أن أسمح لكم! وتصرفتم من عندكم قبل أن تنتظروا قراري؟! أنا أحضرتكم لتكونوا إلى جانبي في هذا التحدّي، وأنا أقرّر من الذي انتصر ومن معه حقّ.

حسناً إذن، فهذه خديعة ومسرحية، {إِنَّهُ}، موسى، {لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ}، أنتم اتفقتم معه على هذه المسرحية لتخدعوني وتخدعوا الناس، علّمكم كيف تحوّلون العصي والحبال لحيّات، واتفقتم معه على أن تسحرونا فيحوّل عصاه لحيّة تلقف حيّاتكم. من غير المعقول أنكم هكذا وفجأة تعلنون إيمانكم من دون اتفاق مسبق بينكم وبينه.

{فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ}، سأقطع اليد اليمنى بكاملها من الكتف، وأقطع أيضاً من الجهة المخالفة الرجل اليسرى بكاملها من الورك. أو أقطع اليد اليسرى وبخلافها من الجهة الثانية أقطع الرجل اليمنى. مِنْ خلاف أي من جهة مخالفة للجهة الثانية.

{وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ}، أربطكم، {فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}، أربطكم على عامود خشب شجرة النخل ليشاهدكم كل الناس.

عندها، {لَتَعْلَمُنَّ}، أيها السحرة، {أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا}، ما أسبّبه أنا من ضرر لكم أشدّ أم خوفكم من عقاب ربّ موسى،

{وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا} {أَبْقَى}، أدوم، أنتم وقفتم إلى جانب موسى لنرى إن كان "سيبقى وسيدوم" لكم هو أو أي إفادة منه، لو بقيتم إلى جانبي لبقيت إلى جانبكم بقوّتي ومالي، ولحصلتم مني على بقيّة تبقى لكم، على شيء يدوم لكم، من سلطتي

ومالي، أما وقد تركتموني لأجل موسى فسأريكم أنني أنا لدي العطاء والمنع، وأنا لدي العذاب والسعادة، أنا المتحكّم بمصيركم وليس ربّ موسى.

نلاحظ أنَّ السحرة آمنوا وفرعون وأعوانه لم يؤمنوا؟! وهذا مشابه لحالة المعاندين الآخرين للآيات، تذكّر قوم النبي صالح(ع) الذين خرجت ناقة من صخرة أمام أعينهم كما هو مشهور في التاريخ، وبقيت الناقة بينهم لأيام تشرب وترعى، ولم يؤمنوا! ليست المشكلة في الآية، بل المشكلة في العناد والتكبّر والاستعلاء...

لاحظ أن السحرة أمام من لا يرحم ولديه القدرة على فعل ما يريده بهم ولا مهرب لهم من سلطته، أعلنوا إيمانهم ولم يتراجعوا، لو كانت آية تحويل العصا لحيّة غير كافية لفرعون ليؤمن، فكيف كانت كافية للسحرة؟ لأنهم بخبرتهم بالسحر علموا أن آية النبي موسى (ع) ليست سحرا، وبإيمانهم بها "وهم أهل خبرة" من المفروض أن يتشجّع فرعون وملؤه ويؤمنوا.

بقي شيء، ما حصل في هذه الحادثة الجماهيرية الحاشدة كان معلوما عنده تعالى من قبل، ويبدو واضحا أن اختياره تعالى لآية تحوّل العصا لحيّة كان مقصودا منه جرّ فرعون إلى هذا التحدّي وجرّ السحرة معه وأمره بتجمهر الناس على أساس أن تحويل العصا أو الحبل لحيّة شيء مقدور عليه، وكانت النتيجة ظهور الحقّ.

(قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{72})
قال السحرة لفرعون: {لَنْ نُؤْثِرَكَ}، لأجل رضاك ولِمَا يمكن أن تُقَدِّمَهُ لنا، لن نترك الشيء الجيّد المعروض علينا من الإيمان، {عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ البَيِّنَاتِ}، وهي آية تحوّل العصا فعلاً لحيّةٍ بشكل "بيّن" واضح وابيضاض اليد الحقيقي بشكل واضح، وكل ذلك يُبَيِّنُ بأنّ ربَّ موسى(ع) هو الحقّ، ولن نؤثرك على {الَّذِي فَطَرَنَا}، لأجلك ولأجل ما يمكن أن تُقَدِّمَهُ لنا لن نترك الذي أوجدنا وقبل أن يوجدنا لم نَكُ شيئاً، وبتعبير أبسط "غير دقيق": الذي أخرجنا من العدم. وهذا تعبير غير دقيق لأنه يستعمل اصطلاح كلمة "عدم" الذي لا يعبّر عن واقع، والتعبير القرآني الدقيق المرادف لِـ {فَطَرَ} هو الخلق ومن قبل ولم يكن شيئاً.

{فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ}، قرّر ما تريد حصوله، افعل ما تشاء وأصدر حكمك كما تشاء، {إِنَّمَا تَقْضِي}، تُحَتِّمُ علينا وتتحكم بنا في {هَذِهِ الحَيَاة الدُّنْيَا}، وتكملة كلام السحرة معروفة، لأنّ هذه الدنيا فانية وستزول وأمّا في الآخرة الخالدة فسبحانه هو الحاكم وسيجازينا بالجنة.

يعني تهددنا بالعذاب لأننا استبدلنا ما كان يمكننا الحصول عليه منك بما يعدنا به ربّ موسى(ع)، فلا يَهُمُّنَا، لأن قدرتك علينا محصورة بحدود زمن حياتنا القصيرة في هذه الحياة، ومقابلها الآخرة الخالدة من الثواب الإلهي لمن آمن.

(إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى{73})
{إِنَّا}، نحن السحرة، {آمَنَّا بِرَبِّنَا}، نعلن اعتقادنا بالمسؤول عنّا من مستوى إلهي، {لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا}، ليتجاوز عن الأشياء غير الصحيحة والسيئة التي قمنا بها، وآمنا ليغفر لنا، {مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ}، ما أجبرتنا على القيام به من السحر منذ قليل إذ تحديناه سبحانه وتحدينا رسوله.

قبل قليل وبعد أن خطب فيهم النبي موسى(ع) تنازعوا فيما بينهم، فلو تركهم فرعون وأعوانه لتراجعوا عن تحدي النبي(ع)، ولكن تدخل فرعون وحاشيته وأظهروا السلطة والقوّة في خطابهم مع السحرة، وهذا ما جعل السحرة يقبلون بالتحدي خوفا من عقاب فرعون وطمعا في المال والسلطة.

هناك عدة آيات من القرآن تناولت هذه الحادثة من منظور مختلف، وعرضتها بجمل مختلفة، حيث بحسب موضوع كل سورة كانت الآيات تعرض لنا زاوية من هذه الحادثة بما يناسب موضوع السورة، وهنا ركّزت الآيات على أن تريك أن السحرة تحت الضغط أظهروا ولاءهم لفرعون وتحدّوا النبي موسى(ع)، ولم تكن تلك إرادتهم الكاملة، فلا تفهم من الآيات أنهم كانوا مؤمنين حقيقيين وأجبرهم فرعون على السحر، ولا تفهم منها أنهم كانوا كافرين بالتمام ولديهم رغبة بتحدي موسى(ع)، أو كانوا حياديين وأجبرهم فرعون على السحر، لا، فهم كانوا بين ذا وذاك، ولكن لم يكن أصلا

بإمكانهم رفض أوامر فرعون بالتحضير لتحدّي النبي موسى(ع)، وهذا ما اعتبروه إكراها لهم من الأساس، واستمرّ هذا الإكراه إلى هذه اللحظة.

نضع في بالنا أيضا أنهم تماشوا مع هذا الإكراه ليستفيدوا منه، وطلبوا من فرعون المال والسلطة إن غلبوا النبي موسى(ع)، وهذا لا يتعارض مع إكراه فرعون لهم، ولكن يبيّن أنهم وهم تحت الإكراه نجحوا في الاستفادة من الموقف الحسّاس أمام جماهير الناس... وفرضوا على فرعون مطالبهم أو سيتراجعون وينتصر موسى(ع)... قد يبدو لك تضادّ في الآيات التي نقلت هذه الحادثة، أمّا بتوسيع فهمك لها فستراها تعرض مشهدا متنوعا بين إكراه السحرة وبين استغلال السحرة للموقف للاستفادة من مال وسلطة فرعون، وراجع أيضا دراسة الآيات 41 و 42 من سورة الشعراء {فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ، قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}. فهم لو لم يتحدّوا النبي موسى(ع) لكان فرعون قتلهم، واستغلّوا حاجته الآن لهم، وطلبوا المال والسلطة، فهم مُكْرَهُونَ على التحدّي واستطاعوا إجبار فرعون على وعدهم بالمال...

{وَاللَّهُ خَيْرٌ}، فإنّ تقرّبنا منه تعالى ورضاه عنّا موصوف بأنه جيّد، والكلام يشير لأفضلية رضاه تعالى عنهم في مقابل رضا فرعون عليهم، {وَأَبْقَى}، فأنت يا فرعون في النهاية ستموت، ولن يستمرّ عطاؤك لنا، أمّا سبحانه الحيّ الذي لا يموت فسوف يعطينا جنّة خالدة.

نلاحظ كيف هدّدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل ثم الصلب، وأنذرهم بأن عذابه أشدّ من عذاب ربّ النبي موسى(ع) وأنه كحاكم له سلطة القوة والمال أبقى مما سيبقى لهم من ربّ النبي موسى(ع)، فأجابوه بأن ثواب ربّ النبي موسى(ع) خير من ثوابه، وربّ النبي موسى أبقى لهم.

قد يبدو من الآيات أن هؤلاء السحرة آمنوا بربّ موسى(ع) في تلك الساعة، ولكن المعلومات التي يقولونها عن المغفرة وعن بقاء ثوابه تعالى "عن دخول من آمن بالله تعالى إلى جنة الخلد في مقابل من يكفر ودخوله لنار خالدة..." من أين علموا به؟ وهذا حتما شيء علموه من قبل، ربما كلّهم أو بينهم أشخاص من بني إسرائيل، وربما من احتكاك بقية سكان مصر ببني إسرائيل يعلمون عقيدتهم، وربما معلومات ما زالت متداولة بين الناس من رواسب الإيمان على زمن النبي يوسف(ع)...

على أي حال، من عموم مفاهيم القرآن علمنا أن الذي لم تَكْفِهِ آية خلق ما في الدنيا، ولم يَكْفِهِ كلامه تعالى الواضح أنه حقّ، فهذا لن يؤمن ولا بأي شكل حتى لو جرت أمامه مليون آية، أما ما نسمّيه بالمعجزات التي تحصل على أيدي الأنبياء، فمِنَ الواضح جدا من القرآن أنها ليست أسلوبه "سنّته" تعالى لهداية الكفّار، لأنها غير نافعة لهم، ونافعة فقط مع من لديه بذرة إيمان.

بناء عليه، وبناء على ما نقرؤه من كلام السحرة المتضمّن لمعرفة بدينه تعالى، فهم على الأقل مؤمنون سابقون من الدرجة الخفيفة بدينه تعالى، وحين رأوا آية الحيّة أعلنوا إيمانهم بها، وأعلنوا التزامهم بإيمانهم وبدينه تعالى.

بقي شيء كررناه في دراستنا هذه عن فرق التعابير القرآنية الناقلة لنفس الحادثة، حيث في السور المختلفة نجد نقل جمل مختلفة عن نفس الأشخاص وعن نفس الحادثة، لأن القرآن لم يعتمد النقل الحرفي للكلام، واعتمد نقله بناء على ما يقصده الذي قاله، ولم يترجم "يعرّب" لنا من المصري القديم إلى العربية، بل من علمه تعالى بمجموع مقصد ما قاله عموم السحرة نقل لنا ما قالوه بما يتناسب مع ما تريد السورة الإضاءة عليه.

(إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى{74})
من هنا يكمل سبحانه الكلام عن السحرة ويشرح لنا كتأكيد مباشر منه تعالى لما يقوله السحرة الذين آمنوا:

{إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ}، أي شخص يحضر بين يدي المسؤول عنه من مستوى إلهي، وسياق الكلام عن الذي يأتيه تعالى في يوم القيامة، {مُجْرِماً}، فاعلا للأمور التي تستحق العقاب، {فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ}، له المكان الموصوف بسوء ما فيه، {لَا يَمُوتُ فِيهَا}، لا يفقد حياته ووعيه في جهنم، {وَلَا يَحْيَى}، ولا يكون موصوفا بأنه حي بما تحمله كلمة حيّ من معنى، يحترق ولكن لا يموت، ويبقى حيا ولكن في حالة الذي يموت.

الذين في جهنم هم دائما في حالة الذي يكاد يموت من الألم، في حالة الذي سيموت بعد لحظة من شدّة العذاب ولكنه لا يموت.

هذا التعبير القرآني المرعب متكرر بعدّة معان في القرآن وورد بشكل مشابه لآيتنا هنا في الآية 13 من سورة الأعلى {ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى}.

(وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى{75})
{وَمَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُؤْمِناً}، يصير عند المسؤول عنه من مستوى إلهي في يوم القيامة وهو معتقد به تعالى وبرسله وبكتبه وبحسابه وثوابه... {قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ}، وقام بالأعمال الموصوفة بأنها صالحة جيّدة، حيث خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وباشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، عمليا هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادة نفسّر {عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إنهم صلّوا وصاموا... وهذا عمليا صحيح، ولكن بالأصل الكلام أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون التي يرونها هم صالحة جيدة.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموما وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، حتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائما أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فَيُؤْمِنُونَ به.

هذا الكلام له عمق، لا توجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. هذا يعني إمّا أنّ في قلبك خللاً مَنَعَكَ من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّا لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلاً سيّء" سيكون في الحقيقة اختراعاً من البشر أَلْصَقُوهُ بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمرا إلهيا.

{فَأُولَئِكَ}، لهم {الدَّرَجَاتُ العُلَى}، لهم الرتبة الموصوفة بأنها العالية فوق الآخرين.

من الآية التالية ترى أن {الدَّرَجَاتُ العُلَى} إشارة لكل درجات الجنّة، فهي ليست تقصد الإشارة للدرجات العالية التي في الجنّة مقابل الدرجات المنخفضة، لا، بل كلّها درجات عالية، لأنّ جنات عدن والأنهار فيها والخلود هي وصف لكل درجات الجنّة من الأقل للأعلى.

تذكّر دائماً اقتران الإيمان بالعمل الصالح لضمان دخول الجنّة، فلا الإيمان لوحده يكفي، ولا العمل الصالح بدون إيمان يكفي، بل كلاهما معا يعطيان نتيجة الدخول إلى الجنّة.

(جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى{76})
تلك الدرجات العلى هي: {جَنَّاتُ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها، حيث فيها كل المسرّات وما يسبّب البهجة من قصور ودور وبساتين ووسائل تسلية وراحة... وتلك الجنات، {عَدْنٍ}، حيث هي جنات إقامة دائمة لا يخرجون منها، ولا هي تخرب ولا هم يضطرون لتركها...

{تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، تسير السوائل من هنا ومن هناك كمنظر جميل، ونعلم من الآية 15 من سورة محمّد "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى..."، أنها أنهار السوائل من لبن أو عسل أو خمر أو عصائر أو... للشرب وأيضا تعطي للمكان رونق جمال الطبيعة، فلا تبالغ لتتصوّر الجنّة منطقة مستنقعات، بل الكلام عن نموذج منطقة خضراء رائعة بجمال الأنهار فيها.

{خَالِدِينَ فِيهَا}، لا يموتون ولا يخرجون من تلك الجنّات، {وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى}، فهي المقابل لمن عمل ليكون لائقا على المواصفات الإيمانية بحسب ما أمر به تعالى.

إن أحببت التوسّع في روعة الخلود في الجنّة فراجع دراسة الآية 108 من سورة الكهف "خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا".

(وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَّا تَخَافُ دَرَكاً وَلَا تَخْشَى{77})
لم يؤمن فرعون، ومرت عدة سنوات... وحصل الكثير من الحوادث... إلى أن:

{وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى}، فأوصلنا المعلومات التالية إلى وعيه، ولمزيد من التوسّع حول كلمة وحي، راجع دراسة الآية 13 من هذه السورة:

{أَنْ أَسْرِ}، فَامْشِ بحركة سير باتجاه، {بِعِبَادِي}، بالذين مَفْرُوضٌ منهم وعليهم طاعتي، والمقصود بَنُو إسرائيل، وتعلم أنه تعالى أخبر نبيّه سلفا بالوجهة التي سيقصدها، فَأَخْرَجَ بهم لخارج مصر بالاتجاه المحدّد... وتعلم مما هو مشهور ومنتشر في القرآن أن فرعون لحق بهم وحصرهم من خلفهم وصار البحر من أمامهم...

{فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا}، فاضرب بعصاك البحر ليصير فيه طَرِيقٌ يَابِسٌ لعبادي ويمكنهم المشي عليه في البحر لأنه ليس موحلا، وتعلم أن البحر انشقّ وصار فيه حيطان عالية جدا من الماء وبينها طرقات، وتقرأ ذلك في الآية 63 من سورة الشعراء "فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ"، {لَّا تَخَافُ دَرَكًا}، فلا تشعر بخطر أكيد لا يمكن تجنبه من إدراك فرعون وجنوده لك، ولن يصل إليك وأنت تسير في الممر بين الماء، ولا تخف أن يصلوا إليكم، {وَلَا تَخْشَى}، ولا تشعر بقدوم خطر عليك القيام بشيء لتجنّبه.

نعلم من آيات أخرى أن بني إسرائيل حملوا أغراضهم وَانْطَلَقُوا في الليل، وبعد ذلك علم فرعون بأنهم خرجوا، فجهّز جيشه وعند الفجر انطلق، وفي وقت شروق الشمس كان رأى من بعيد بني إسرائيل يمشون بمحاذاة البحر "الأحمر أو نهر النيل"، وَبَنُو إسرائيل رأوا الجيش قادما من بعيد يمشي باتجاههم، فشقّ لهم ربنا سبحانه البحر، حيث ضربه النبي موسى (ع) بالعصا... ومشوا في الممرات إلى الناحية الثانية، على أرض يابسة، مع أنه من المفروض أن تكون طينية موحلة لأنها كانت تحت الماء... ووصل فرعون مع جيشه إلى الماء وسلكوا في الممرات، وَمَا إِنْ خرج بنو إسرائيل كلهم من الماء، ودخل كل جيش فرعون في الماء حتى انطبقت عليهم أطنان من الماء وقتلهم ضغطها وماتوا غرقا.
وتقرأ تفاصيل ذلك من الآية 60 وما بعدها من سورة الشعراء "فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ".

بالنسبة لوصف الطريق بأنه "{يَبَسًا}" يُحْتَمَلُ أنه منطقة في قاع البحر فيها بحص، ولكن كلمة اليباس لا تصدق إِلَّا على ما كان رطبا وجفّ، وأمّا كيف حصل الجفاف لقعر البحر ولم يبق طينيا بعد انحصار الماء عنه؟ فنحن أصلا أمام تدخّل إلهي لفلق البحر ليصير كحيطان مائية فيها ممرات، وبتدخّل إلهي يبس قاع البحر ربما عبر ريح قوية أو حارة جدا أو... دخلت في الممرات.

بقي شيء نستوحيه من عموم ما نقله القرآن عن حادثة انشقاق البحر، حيث تقصّد سبحانه حصول الانشقاق من بعد ضربة النبي موسى(ع) للبحر بالعصا "{فَاضْرِبْ لَهُمْ}"، حتى لا يخطر ببال أحد ما أن ما حصل كان صدفة أو لسبب طبيعي أو من تدخّل أحد غيره سبحانه... فمن مكان الضربة بدأ البحر بالانشقاق.

كلمة بحر تشير لتجمّع كبير للمياه، سواء أكان حلوا أو مالحا، جاريا أو راقدا، وبما أن الكلام عن انشقاق البحر حصل في مصر فالمرشحان للحادثة هما البحر الأحمر ونهر النيل، حيث كلاهما لغويا تصدق عليهما كلمة بحر.

من غير المؤكّد إن كانت حادثة إغراق فرعون وجيشه جرت في النيل أو الأحمر، ولمزيد من التفاصيل راجع دراسة الآية 63 من سورة الشعراء "فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ".

(فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ{78})
{فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ}، لحق بهم فرعون وأمر جنوده بالدخول معه إلى الممرات المائية التي مرّ بها بنو إسرائيل، {فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ}، أحاط بهم وانتشر بشكل جزئي أو كلّي من اليمّ من الكمية الضخمة من الماء، {مَا غَشِيَهُمْ}، ما أحاط بهم وانتشر عليهم.

الناس يمكن أن يغشاهم الماء بشكل خفيف لطيف، إذا غطسوا في الماء أو سبحوا، ولكن تلفت الآية انتباهك بجملة "{مَا غَشِيَهُمْ}" وأنت تعلم أن ما غشيهم كان جبلا من الماء انهار عليهم.

لاحظ تركيز الآية على التعبير بأن فرعون عبر الممرات المائية مع جنوده، وتذكّر أن الممرات في الوسط وعلى طرفيها مرتفع مائي عالٍ، ومن نواحٍ كثيرة يمكنك أن تقف لتفكّر في هذه الحادثة، فما هذا العناد منه ومن جنوده وهم أمام ممر حيطانه مائية كالطود في ارتفاعها! فمن فعل هذا؟ أليست آية إلهية واضحة! على الأقل لكان بعث جنوده أمامه واستهاب خوفا من الممرات، ولكنه هو وجنوده دخلوا في الممرات.

(وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى{79})
{وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ}، الناس الذين ينتمي فرعون لجماعتهم وضعهم فرعون على الشيء الخطأ الذي يوصلهم للنتيجة الخطأ، حيث نزل عليهم العذاب في الدنيا وبعده سيصيبهم عذاب في الآخرة، {وَمَا هَدَى}، لم يضعهم على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة.

هذه النتيجة بغرقهم تبيّن بشكل واضح أن ما أمرهم فرعون به كانت نهايته سيئة جدا عليهم.

كثيرا ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، حيث إنها لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيرا أم شرا، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فَضَلَّ عنك صيدها. استعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، حيث لم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون لأنه ليس على طريقهم، بل ضالٌّ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى{80})
الآيات السابقة كان تركيزها على فرعون الذي سبّب الشقاء للرسول الإلهي، وأوصلتنا إلى حيث غرق فرعون وجنوده، وهنا تنتقل بنا للحديث عن بني إسرائيل الذين سبّبوا الشقاء للرسول موسى(ع):

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}، يا أيها الجماعة المتوالدة من النبي يعقوب(ع)، {قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ}، خلّصناكم، {مِنْ عَدُوِّكُمْ}، من الذي لا يريد لكم الخير وهو فرعون. بالمقاييس البشرية كان من المستحيل لهم التخلص من الاستضعاف بكونهم مواطنين من درجة منخفضة في مصر، حيث إن الجيش الفرعوني عدده كبير ومدرّب ومدجّج بالأسلحة، ولكن سبحانه نجاهم. وبعد قليل سترى أنهم وبعد نجاتهم بقليل أشركوا به تعالى فعبدوا العجل!

{وَوَاعَدْنَاكُمْ}، قُلْنَا لكم عن شيء أننا سنفعله، {جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ}، في الجانب اليمين للجبل، حيث هناك ممر إجباري في سلسلة جبال سيناء بحيث يصير في مقابلك جهة يمين ويسار إجبارية للجبل، وعلى جهة اليمين كان الموعد، وتعلم من الآية 142 من سورة الأعراف أنه تعالى أمرهم أن ينتظروا هناك على جانب الجبل لمدّة ثلاثين يوما حتى يأتيهم النبي موسى(ع) بكتاب إلهي "وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي...". الكلام هنا عن نزول كتاب إلهي لهم.

{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى}، أثناء مسيركم في الصحراء حيث لم يعد معكم طعام كَافٍ، أَنْزَلَ سبحانه عليكم المنّ والسلوى.

المنّ هو إفرازات صمغية صالحة للأكل من بعض أنواع الأشجار، إذ أغلب الشجر يعطي إفرازات نسميها عادة بالصمغ، ولكن ليست كل الأنواع صالحة ومحبّذة للأكل، وإفرازات الشجر نوعان، الأول: نوع صمغي، مثل المعجون. ومن المعروف أن إفراز شجرة البلوط صمغي ويصنعون منه الحلوى إلى الآن، ويسمونها في العراق "من السما".

ونوع الإفراز الثاني: سائل. وشجرة القيقب التي ورقتها مرسومة على علم كندا من أشهر الأشجار لاستخلاص هذا السائل، حيث يتم ثقب جذع الشجرة ووضع أنبوب في الثقب وَتَنْزِلُ منه القطرات ويتم تجميعها... وهناك شجر يخرج منه سائل المطّاط...

أما السلوى فهو اسم لفصيلة من الطيور تشمل السمّان والفرّي والحجل...

جعل سبحانه الأشجار التي حولهم تفرز الصمغ أو السائل الصالحين للأكل، وجعل فصيلة طيور السلوى تحطّ بالقرب منهم بحيث يمكن اصطيادها بسهولة.

ننتبه أن كلمة "أنزلنا" لا تعني سوى أن المنّ والسلوى خلقها الله تعالى وأتاحها لهم، ولكن تعبيره تعالى بالإنزال ناظر لخروج المنّ والسلوى من خزائنه، حيث عبّر القرآن عن كل شيء أنه صدر من خزائن الله تعالى، وَفَهِمْنَا أن الخزائن ليست مستودعات بل هي قدرته تعالى على خلق ما يريد، وهي هذه القدرة يصفها تعالى بلغتنا أنها خزائن، لأنها قادرة على تزويد أي شيء بأي شيء، مثل المخزن بالتمام، وَعَبَّرَ القرآن عن خروج أي شيء من خزائنه تعالى بـ "أخرجنا، أنزلنا، أعطينا...".

ما هو دارج في أدبياتنا عن حصر طعامهم بالمنّ والسلوى فهو غير صحيح، حيث سبحانه دعمهم بذلك مضافا لما لديهم من حنطة ولبن ماشية... ووفّر لهم أرضا واسعة آمنة وَمَاءً ليسكنوها ويزرعوها، ولكنهم فسدوا دلالا طالبين منه تعالى تأمين البقول والحصاد لهم بدون أي جهد منهم... ولمزيد من التوسّع راجع في ذلك دراسة الآية 47 من سورة البقرة "يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ".

هذه المقدمة هنا كصورة عامّة للعناية الإلهية ببني إسرائيل قبل الدخول فيما فعلوه من سيئات ضخمة، وما فعلوه من أذى للنبي موسى(ع)، حيث سبق وعلمنا معاناة الرسول(ع) مع فرعون وقومه، ومن هنا تلفت السورة انتباهنا للمعاناة التي عاناها الرسول(ع) مع الذين كان همّه إنقاذهم من الاستضعاف ليكونوا مؤمنين أحرارا في تطبيق دينه تعالى... حيث إن الشقاء يحصل من الكافرين وأيضا يأتي من المنتمين لدينه تعالى، طبعا من المنافقين والفاسقين والذين في قلوبهم مرض، فلنتابع.

(كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى{81})
{كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ}، المنّ والسلوى رزق، وهي أشياء تحصلون عليها لتأكلوها، وهي موصوفة بأنها طيّبات، لأنها مرغوبة محبوبة.

{وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ}، فلا تتعدوا حدودكم التي رسمها تعالى لكم في هذا الطعام، ولا يكن توافر النعمة سببا لكم لتفعلوا أمورا سيئة، وكما نعلم من آيات أخرى أنَّ هذا الطعام لم يكن مؤبّدا عليهم، ولم يمنعهم تعالى من الأطعمة الأخرى، ولكنها مساعدة مؤقّتة حتى يصلوا إلى المكان المحدّد لهم، والتنبيه ألا يتأففوا منه أو يطلبوا غيره، أو يتدلّلوا عليه تعالى ليوفّر عليهم العمل على طبخها... {فَيَحِلَّ}، يصيبكم وينزل، {عَلَيْكُمْ غَضَبِي}، لأنه لن يمرّر سبحانه لهم أعمالهم السيّئة بل سيردّ عليها بقسوة، {وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى}، سقط وصارت نهايته عاطلة، ولن ينال الرحمة ولا المغفرة وسيتعذّب.

يعني، بشكل واضح مننّا عليكم بهذه الأمور الثلاثة، "النجاة من تحت حكم فرعون الظالم، والمواعدة جانب الطور لنزول كتاب إلهي، والمنّ والسلوى"، حيث بشكل واضح نلتم رعايتي وعنايتي، ولكن انتبهوا من غضبي إن خالفتم أوامري، ولا يصيبكم شعور بأنكم مُدَلَّلُونَ ومهما فعلتم فلن ينزل عليكم غضب إلهي، لا، لأنَّ العناية بكم لها أسبابها الخاصة، وها أحذّركم ألا تخدعوا أنفسكم بأفكار غير صحيحة، حيث لا زلتم مثل بقيّة الناس، وستتحاسبون على أعمالكم السيّئة والحسنة مثلكم مثل غيركم.

في آيات أخرى من القرآن نعرف أنهم عبدوا العجل بعد نجاتهم من فرعون، وطلبوا رؤيته تعالى بالعين، وتأففوا من المنّ والسلوى وطلبوا منه تعالى إنبات الخضار لهم...

منذ القدم قالوا عن أنفسهم إنهم أبناء الله تعالى وأحباؤه كما ورد في الآية 18 من سورة المائدة، ولا يزالون إلى الآن يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار المدلّل... ولن تمسّهم النار إلا أياما معدودات مهما فعلوا! كما ورد في الآية 80 من سورة البقرة، ونبّههم القرآن كثيرا من هذه العقلية التي لن تغيّر من الواقع أيَّ شيءٍ، من يطغى، كائنا من كان، فسيحلّ عليه غضبه تعالى.

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى{82})
{وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ}، الذي تاب وفتح صفحة جديدة تاركا ما سبق من سيئات ولا يريد تكرارها، لأنه سبحانه لا يجمد على موقف واحد صلب بل يغفر له ما سبق، ويتجاوز عن السيئات ولا يحاسب من تاب منها، {وَآمَنَ}، أعلن اعتقاده بالله تعالى ورسله وكتبه... {وَعَمِلَ صَالِحًا}، كانت أعماله موصوفة بأنها صالحة جيدة، وترك السيئات كالقتل والسرقة والزنا... وفعل الواجبات من صلاة وزكاة وبر الوالدين... {ثُمَّ اهْتَدَى}، كان على الأشياء الصحيحة التي توصله للغاية الصحيحة.

لاحظ أنَّ الآية لا تشير بالهداية لشيء آخر إضافي غير التوبة من السيئات والإيمان بالحقّ والعمل الصالح، بل تصوّرها كشخص يريد قطع مسافة بعيدة ليصل إلى هدفه، واشترى سيارة وتعلّم القيادة... واكتملت الظروف المناسبة لانطلاقه ووصوله إلى هدفه. وهنا الكلام على هذا المعنى، حتى تصل إلى غاية صحيحة، حتى تهتدي، إلى رضاه تعالى والجنّة، تحتاج لمقومات هي التوبة والإيمان والعمل الصالح، وعندها يصير وصفك أنك مهتدٍ، من تلك الصفات والتصرفات صرت على الشيء الصحيح الذي يوصلك للغاية الصحيحة.

ننتبه لهذا البلاغ الإلهي الذي نراه منتشرا بكثرة في القرآن، من ارتكب مخالفة عقائدية أو تشريعية، فلا يعتقد أنه علق في عداوة دائمة مع ربّه سبحانه، لا، لأنه سبحانه غفور ولا يجمد على موقف صلب، ودائما باب التوبة مفتوح، ويمكن الرجوع عن الخطأ إلى الصلاح دائما، بشرط أن ترجع إلى ربّك سبحانه بشكل صحيح، وتجمع بين الإيمان والعمل الصالح، عندها تحصل على مغفرته على ذنوبك ويسامحك سبحانه عليها ويعطيك ثواب إيمانك وعملك الصالح، وهكذا تصير مهتدياً.

تذكّر أن السورة تركّز على أنه تعالى لم يقصد شقاء الرسول الإلهي من حمله للرسالة، ومن بداية حديث السورة عن الرسول موسى(ع) تبيّن أن فرعون وأعوانه وجنوده كانوا سببا لشقاء الرسول(ع) رغم اعتناء الإله سبحانه بتزويد رسوله بكل أنواع الآيات المناسبة لإقناع فرعون وجماعته، حيث بقوا على عنادهم! والآيات الثلاث السابقة التي انتقلت بنا للحديث مع بني إسرائيل هي مدخل لشقاء تعرّض له الرسول (ع) منهم رغم المنن الإلهية العظيمة عليهم! فلنتابع:

(وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى{83})
اختصرت الآيات هنا ما هو معلوم مشهور من آيات أخرى من القرآن، حيث سبحانه قال لنبيه موسى(ع) أن يقول لبني إسرائيل إنّه (ع) سيصعد إلى الجبل لتنزل عليه التوراة في مدة ثلاثين يوماً، ولكن سبحانه في الحقيقة كان جعل الموعد في أربعين يوماً، ثلاثين لنزول التوراة، وعشرةً زيادةً، وذلك حتى يمتحن بني إسرائيل في غياب النبي موسى(ع) في عشرة أيام زيادةٍ عما أخبرهم به النبي(ع)، لأنه سبحانه كان يعلم أنهم في تلك الفترة الامتحانية سيرسب الكثير منهم، وسيظهر كفرهم الذي كان مُخْتَبِئاً، وراجع في ذلك الآية 142 من سورة الأعراف {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً...}.

مضت الثلاثون يوماً، وبعدها مرّت عشرة أيام أُخَر، فطلب النبي(ع) من ربنا سبحانه العجلة في النزول من الجبل، على ما يبدو كانت هناك أعمال لم تُنجَزْ بعد وتحتاج لوقت أطول فطلب النبي(ع) حصول نزوله قبل إتمام تلك الأعمال... فسأله سبحانه:

{وَمَا أَعْجَلَكَ}، لماذا العجلة ولماذا تريد النزول قبل انتهاء ما تفعله، {عَنْ قَوْمِكَ}، عن الناس الذين تنتمي لجماعتهم، {يَا مُوسَى}؟ لماذا العجلة للنزول لتلاقي قومك يا موسى قبل انتهائك مما تفعله هنا على الجبل؟ وسبحانه يعلم سبب العجلة، ولكن يسأل رسوله حتى يسمع الجواب منه، مثل علمه تعالى بتكبّر إبليس عن السجود ولكن حتى يسمع الكلام

منه سأله، ومثل علمه تعالى بحالتي وما سأكون عليه ورغم ذلك خلقني وخضت في بلائي... وتركني ليحاسبني في الآخرة ويسألني عمّا فعلته في حياتي...

بناءً على ما هو مشهور جداً في التراث الثقافي الديني، النبيُّ موسى(ع) كان على الجبل يدقّ على ألواح صخرية الكلمات الإلهية التي تُوحَى إليه، حيث كان يكتب التوراة، طبعاً تتذكّر أن ما يسمّى الآن بالتوراة هو تسمية لكتاب يحوي كتاب النبي موسى(ع) وكتباً منسوبة لأنبياء آخرين، وكتباً ألّفها علماء اليهود. على كلّ حال، أولُ ما يتبادر إلى ذهننا من مخزون تراثنا الثقافي الديني أن الثلاثين يوماً قضاها النبي موسى(ع) في الكتابة، ولم يَنْتَهِ، واستمر بعدها لعشرة أيام يكتب، ولا يدري متى تنتهي التعاليم الإلهية، فانشغل باله على قومه وصار يستعجل... فسأله تعالى عن سبب استعجاله...

(قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى{84})
النبي موسى(ع) كان يشعر أنَّ مشكلة ما ستحصل إن تأخر عن الثلاثين يوما، فقومه سيظنونه مات أو حصل معه مكروه، لأنه تأخر عنهم عشرة أيّام زيادة عن الفترة التي أخبرهم أنه سيغيب فيها.

{قَالَ}، النبي موسى(ع): {هُمْ أُولَاءِ}، أولئك قومي، {عَلَى أَثَرِي}، على ما بقي منّي خلفي، وبقوا تابعين لخطّ أوامري، بانتظاري لشهر، حيث تركتهم وصعدت باتجاه هذا الجبل وهم خلفي بانتظاري على اتفاقي معهم أن ينتظروني ثلاثين يوما لأحضر لهم التوراة، وها مرَّ أربعون يوما على انتظارهم، {وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ} يا ربي، طلبت العجلة في إنهاء ما أفعله، {لِتَرْضَى}، لتبقى راضيا عني، لتقبل بمحبّة ما أفعله، لأنَّ هناك عمل آخر ترضى عنه سبحانك، وهو عنايتي بقومي حتى لا يضلّوا، وأنا أراه مهمّا جدا لرضاك، وأنا لا هدف شخصيٌّ لي لا من البقاء ولا من النزول، فقط مرضاتك هدفي في كلّ حال، وأرى أن نزولي بأسرع وقت ممكن فيه رضاك...

قال بعضهم إنَّ هذا الاستعجال للنزول كان مع حادثة السبعين رجلا الذين اختارهم النبي موسى(ع) لسماع كلام الله تعالى، وفسّروا كلمة {عَلَى أَثَرِي} أنَّهُ (ع) كان يقصد السبعين رجلا الذين اختارهم للقاء ربّهم سبحانه، أنهم على أثره خلفه على مشيته باتجاه قمّة الجبل وهو (ع) سَبَقَهُمْ... ولكن لدينا آيات أخرى من القرآن واضحة وتربط عبادة بني إسرائيل للعجل مع نزوله (ع) حاملا الألواح من الجبل، كما تقرأ في الآية 150 من سورة الأعراف {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ...}، والآيات واضحة أنَّ الموعد كان لثلاثين ليلة وأتمّها تعالى بعشر، وواضحة أنها لإعطائه (ع) التوراة، وفي تلك الأثناء عبد قومه العجل، وأمّا آيات اختيار السبعين رجلا لميقات الله تعالى فتلك حادثة أخرى لا علاقة لها بالحادثة هنا، وراجع دراستها في الآية 155 من سورة الأعراف.

بقي شيء نلتفت له جيدا، فنحن أمام رجل يحمل همّ العناية بقومه من كلّ النواحي، حيث سابقا حمل همّ نجاتهم من ظلم فرعون لهم... وبعدها حمل همّ هدايتهم ورأى منهم سلوكيات دينية لا تبشّر بالخير، حين انتهوا من فرعون بغرقه مع جيشه... طلبوا من النبي موسى(ع) أن يصنع لهم تمثالا ليعبدوه كما تقرأ في الآية 137 من سورة الأعراف {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ...}، والسورة هنا افتتحت كلامها عن معاناة النبي محمّد(ع) مع قومه الكفّار فتأتي الآيات هنا لتريه نموذجا عن أناس اعتنى بهم تعالى بشكل غير مسبوق، وأعلنوا أنهم مُتَدَيِّنُونَ، ولكن فعلوا نفس ما يفعله المشركون!

القصّة هنا عبرة غير عادية، لأنها عن رسول إلهي اجتهد في سبيل قومه لينجّيهم من الظلم على أساس أنهم موحدون مؤمنون مظلومون... والنتيجة، أن أكثريتهم ليسوا مختلفين عن عموم المشركين في فكرهم ونفسيتهم... حيث عبدوا العجل! ونحن كمتدينين يحصل معنا الهمّ من حالات نرى فيها أبناء ديننا يتعرضون لظروف قهر... ويصير تركيزنا على صورة مظلوميتهم وننسى بل نتناسى التفاصيل عن تدينهم الحقيقي، وعن تديننا نحن، فنعتبر أنفسنا كالملائكة (ع) في الطهارة لمجرد مرور خمس دقائق علينا من دون أن نرتكب السوء، ونطلب منه تعالى التدخّل لنصرتنا... وأكتفي بهذا القدر وأنت تعلم أنَّ الكثيرين منتمون لهذا الدين بالاسم فقط بلا تطبيق... وهذا لا يعني أني مسموح لي ألا أهتمّ بهم

وألا أنصرهم... لا، بل هذا واجب علينا جميعا، وهو وظيفتنا وتكليفنا الذي يثبت أننا فعلا مُتَدَيِّنُونَ، وأمّا التوجّه نحوه تعالى ليتدخّل بحسب ما نحن نراه مناسبا، فهذا لن يحصل لأنه تعالى يتدخّل بما يراه هو مناسبا.

من مراجعة التاريخ ومما أثبته القرآن تعلم أن معاناة الرسول محمّد(ع) من الكفّار لم تكن أشدّ من معاناته ممن أعلنوا إسلامهم، وحادثة الخسارة في "أحد" والتي فصّلتها سورة آل عمران بداية من الآية 121 هي مجرد نموذج واضح عن ذلك... وهكذا نرى الآيات هنا بكلامها عمّا فعله بنو إسرائيل مع رسولهم(ع)، نراها عَرْضاً لجانب آخر من الشقاء للرسول من الذين أعلنوا الإيمان به...

(قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ{85})
قال ربنا سبحانه لنبيه(ع): {فَإِنَّا فَتَنَّا قَوْمَكَ}، الناس الذين تنتمي لجمعتهم عَرَّضْنَاهُم لشيء يعجبهم ويرغبونه ويغيّرهم، {مِنْ بَعْدِكَ}، من بعد صعودك إلى الجبل، {وَأَضَلَّهُمُ}، وَضَعَهُم على الخطأ، شخص لقبه {السَّامِرِيُّ}، ومن تكملة الآيات تعلم أن السامري جعلهم يعبدون العجل. يعني لا داعي للعجلة، ففي بالك أمور تخشى حصولها أثناء غيابك عن قومك، وها حَصَلَ أفظع ما يمكن أن يخطر ببالك.

نتذكر من سورة الأعراف كيف نجا بنو إسرائيل من فرعون، وحالما وصلوا إلى الشاطئ رأوا أقواما يعبدون الأصنام، فطلبوا من النبي موسى(ع) أن يصنع لهم تمثالا لله عز وجل ليعبدوه! حينها نَهَرَهُم النبي(ع) ووضّح لهم أن هذا ممنوع وعليه عقاب شديد... راجع الآية 138 من سورة الأعراف، في أوّل فرصة غاب عنهم (ع) صنعوا تمثالا وعبدوه.

نلاحظ للمرّة الثانية في السورة نفس الأمر الملفت حَصَلَ مع النبي موسى(ع)، ففي بدايتها حين كلّفه تعالى بحمل الرسالة وزوّده بآيتين، تَصَوَّرَ النبي موسى(ع) أنه يحتاج بَعْدُ لأمور أخرى حتى ينجح في مهمّته... ولكن كما ترى فالأمور التي طلبها من شرح الصدر ووزارة أخيه... لم تقدّم ولم تؤخّر، وهنا نفس الالتفاتة، حَيْثُ تَمَّتِ الأيام الثَّلاثُونَ، ولم يصدر أمر إلهي للرسول بالنزول من الجبل، ومرّ بعدها عشرة أيام ولم يصدر أي أمر للرسول بالنزول، فطلب النبي(ع) إذنا للمغادرة على أساس تصوّره (ع) أن نزوله الآن سيقدّم أو سيؤخّر في مستقبل بني إسرائيل، ولكن أيضا طَلَبُهُ لم يقدّم ولم يؤخّر في أي شيء، ولنكمل مع الآيات لنرى ماذا حصل في هذه الأيام العشرة.

(فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي{86})
{فَرَجَعَ} النبي موسى(ع)، عاد من الجبل، {إِلَى قَوْمِهِ}، إِلَى الناس الذين ينتمي لجمعتهم، {غَضْبَانَ}، مما أخبره به تعالى عن قومه، وَلَنْ يمرّر لهم عبادتهم للعجل بدون ردّ قَاسٍ، {أَسِفًا}، لِأَنَّ هذا التصرّف اللاعقلاني كان بإمكانهم أن لا يفعلوه ويفعلوا شيئا آخر أفضل، أو على الأقل لِيَنْتَظِرُوهُ حتى ينزل من الجبل.

{قَالَ}، النبي موسى(ع): {يَا قَوْمِ}، يا أيها الذين أنتمي لجمعتهم، {أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا}؟ ألم يقل لكم المسؤول عنكم من مستوى إلهي أن اثبتوا على توحيدي وطاعتي فسأكون دائما إلى جانبكم، في الدنيا والآخرة؟

{أَفَطَالَ}، هل صار طويلا ممتدا، {عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ}، الالتزام الذي أعلنتوه لربكم سبحانه؟ هَلْ مرّت مدة طويلة من حين عاهدتم ربكم سبحانه على طاعته وطاعة رسوله؟ عَاهَدْتُمُوهُ منذ أربعين يوما مضت فقط!

{أَمْ أَرَدْتُمْ}، هَلْ مقصدكم، {أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ}، يُصِيبَكُم، {غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ}، لِتَنْتَقِلُوا من رحمته ومغفرته إلى حيث لا يمرّر أي شيء سَيِّئٍ تقومون به وَيَرُدَّ تعالى على أعمالكم السيئة بقسوة، ولذلك، {فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي}! أَنْتُمْ وعدتموني بالالتزام بما تعرفونه ريثما أرجع إليكم بكتاب منه تعالى، وَمَا معنى إخلافكم، تركم الالتزام بذلك، إلا أن تتعرّضوا لغضبه تعالى، هَلْ هذا ما تقصدونه وتريدونه؟!

يبدو من الآية أن أول كلام سمعه النبي موسى(ع) من الناس: أنك تأخّرت عن الموعد. وكما ترى إِنَّ إجابة النبي موسى(ع) غيّرت سخافة كلامهم عن التأخّر عن "الموعد" كتبرير لعبادة عجل، واستبدله بالحديث عن الوعد الإلهي بالعناية بهم، وعن الوعد من قومه بالالتزام بما يعرفونه من الدين الإلهي وإلا فالغضب الإلهي عليهم. مَا معنى أن تأخّري سبب لعبادتكم لِعِجْلٍ! ما هذه السخافة والتفاهة!

بقي شيء مهم نتذكّره من الآية 80 السابقة التي تَحَدَّثَتْ عن فضل إلهي عليهم بمواعدتهم جانب الطور، إذْ النبي موسى(ع) تركهم ليأتي لهم بكتاب إلهي، وهذا شيء غير عادي، وَمِنَ المفروض أن يكونوا متلهفين لنزول الكتاب الإلهي، ولكن وكما ترى غَالِبِيَّتَهُم كانوا ميّالين لعبادة الهوى السَّيِّئ ولا رغبة لهم بنزول كتاب إلهي عليهم...

(قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ{87})
قال بنو إسرائيل وهم يبرّرون ما فعلوه ويتملصون من ذنب عبادة العجل، ويبدو أن الكلام هنا للوجهاء ولمن شارك في اتخاذ القرار وصنع العجل والترويج له، قَالُوا: {مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا}، لم نخالف ما قلناه لك أننا سنفعله "بالبقاء على دينك" بإرادتنا التي نملكها، وَقَعْنَا في ظروف أخرجتنا عن قرارنا، {وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا}، أشياء حملها ثقيل، {مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ}، مما يستعملونه ليجعلهم يبدون أجمل، من العقود والأقراط والأطواق والأساور... المصنوعة من الذهب أو النحاس أو غيره... التي كانت للناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع صناعة العجل.

يعني صرنا أمام أمر واقع عليه إجماع كبير لدرجة تبرّع الناس بأغراض الزينة لدرجة تكدّسها وصيرانها أوزارا، أثقالا، {فَقَذَفْنَاهَا}، رَمَيْنَاهَا بقوّة عنّا، لِأَنَّهَا كميّة كبيرة احتاجت لقوة لحملها ولرميها في النار لتذوب ونصنع منها العجل... {فَكَذَلِكَ}، أَيْضًا، {أَلْقَى السَّامِرِيُّ}، الشَّخْصُ الملقّب بالسامري رمى شيئا... ونعلم من الآية التالية أن ما رماه السامري سبّب صدور صوت من التمثال.

بعبارة أُخْرَى هُمْ يقولون: نحن أبرياء ولم نقصد الكفر، وَحَصَلَتِ الأمور هكذا من دون تخطيط! أَحَبَّ بنو إسرائيل أن يصنعوا تمثالا للإله، وهذا صار مزاجا عامّا لا يمكن مقاومته لدرجة أنهم تبرّعوا بزينتهم الغالية لإذابتها وصنع التمثال بحيث صارت التبرعات بالأكوام. وفوق هذا قَامَ السامري برمي شيء جعل التمثال الذي على شكل عجل، جعله يخور كأن فيه حياة، وكما ترى تَحْتَ هذه الظروف عبدنا العجل.

بقي شيء، مِنَ المعلوم تاريخيا أن عموم مختلف المعادن كانت تصاغ منها الزينة، وَأَشْهَرُهَا قديما الذهب، علما أن أكثر المصوغات للزينة قديما كانت من البرونز "نحاس مع شوائب"، فلا يذهب فكرنا هنا بالزينة إلى معدن الذهب حصرا، فهذا غير صحيح. أَلْفِتُ انتباهك لأمر غير صحيح شائع بين الناس، فِي بالنا أن كميات الذهب التي كانت متوافرة بين أيدي الناس قديما، كانت ضخمة، وبناء عليه تجد الناس في مختلف المناطق التي فيها آثار قديمة، تجدهم يعتقدون بوجود كنوز مَدْفُونَةٍ بالأطنان هنا وهناك... وهذا غير صحيح، ويمكنك مراجعة المصادر التاريخية والتقديرات لكميات الذهب عبر التاريخ لترى أنه لم يكن معدنا متوافرا بكثرة بين أيدي الناس، وَالكَلَامُ هنا عن زينة القوم والذي احتملنا بقوّة أن يكون مما معهم ومما التقطوه من جنود فرعون الغرقى، مَا هو إلا النحاس والحديد والقصدير... وربما القليل جدا من الذهب.

(فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ{88})
نربط الآية هنا بما قبلها، وَكَانَ الكلام من الذين يبررون عبادتهم لتمثال العجل أنها حصلت كتيّار جارف ولم يستطيعوا مقاومته! وهنا تنقل الآية أنهم هم أنفسهم الذين يبررون الآن فِي السابق فعلوا شيئا آخر... لنتابع:

{فَأَخْرَجَ لَهُمْ}، السامري، {عِجْلًا جَسَدًا}، ذكر البقرة مصنوعا من معادن الحلي والزينة، {لَهُ خُوَارٌ}، يَصْدُرُ منه صوت كصوت العجل.

انْتَبِهْ للتعبير عن تمثال العجل بأنه جسد، فَهُوَ تنبيه أنه من كل مواصفات العجل كحيوان حقيقي، يشترك معه هذا التمثال في الجسد وإصدار الصوت، وَلَمْ يكن يأكل ولا يشرب ولا يتحرّك، وعلمنا من الآية أنه مصنوع من الزينة فكان جسدا معدنيا.

{فَقَالُوا}، المشاركون في صناعة العجل والترويج لعبادته: {هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى}، هذا هو الكائن ذو القدرات والصفات الفائقة وأنتم تابعون له وموسى تابع له أيضا، {فَنَسِيَ}، لِسَبَبٍ أو لآخر غاب هذا الإله عن ذاكرة موسى ولذلك لم يعرّفكم عليه.

يعني لم يعلنوا الخروج عن عبادة إله النبي موسى(ع) ولكن حرّفوا العقيدة لتناسب ما يهوونه، وَلَا تَنْسَ ما ورد في القرآن أنهم من قبل هذه الحادثة طَلَبُوا من النبي موسى(ع) أن يصنع لهم تمثالا ليعبدوه! وراجع في ذلك الآية 138 من سورة الأعراف، هُنَا وكما ترى، فِي أوّل فرصة سنحت لهم صنعوا تمثالا ليعبدوه! ولديهم تبرير لذلك أَنَّهُمْ على حقّ وأن موسى(ع) نسي أن هذا إلهه! وَبِرَأْيِهِمْ هم مَا زَالُوا يعبدون إله موسى(ع) بعبادتهم للعجل!

(أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً{89})
{أَفَلَا يَرَوْنَ}، كما نقول بالعامية: "ما شافوا" بنو إسرائيل، {أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا}؟ إِذَا سألوا العجل أو تحدثوا معه فهو لن يردّ عليهم! هُوَ مجرد تمثال! ولن يبعث لهم برسول ولن يأتيهم بآيات...

وأن العجل، {لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا}، لَا يمكنه تغيير حالهم نحو الْأَسْوَأِ بحرب أو مرض أو زلزال... {وَلَا}، يملك لهم، {نَفْعًا}، لَا يمكنه أن يفيدهم بأي شيء، وَلَا يمكنه أن يرزقهم ولا يشفيهم ولا يطعمهم... لِأَنَّهُ مجرد تمثال لا يمكنه فعل أي شيء.

لِنَتَوَقَّفْ هنا قليلا، مَا أسخف وأتفه عبادة صنم، والفلسفات لتبرير عبادته أسخف وأتفه، هُنَاكَ من يعتبر نفسه مُثَقَّفًا مُخْتَلِفًا عن عوام الناس الذين يعبدون التمثال، هُوَ أرقى من هذه السخافة لأنه لا يعبد التمثال بل يعبد ما يمثّله التمثال، تَأْتِي الآيات هنا لترجعه إلى مكانه مع الذين اعتبرهم بُسَطَاءَ عابدين للتمثال، أَنْتُمْ اخترعتم هذه العقيدة من هواكم وخيالكم وسبحانه لم يسمح بها، ولا معنى بالنسبة له تعالى بتمثيله بشيء ملموس، مَعَ التمثال أو بدونه سُبْحَانَهُ واسع محيط سميع بصير خبير... يعلم السرّ وأخفى... ويعلم الغيب... مَا معنى تمثيله بشيء؟ والأنكى من ذلك مَا معنى تمثيله عزّ وجلّ بعجل!

أحد أصدقائي لديه مقاربة لطيفة عن هذا الموضوع، هُنَاكَ أناس تفّهوا وسخّفوا أنفسهم في تفكيرهم وسلوكهم لدرجة جعلت إبليس يقنعهم بأتفه التفاهات للكفر به تعالى والشرك، وها أَنْتَ ترى نموذجا غير عادي عن قوم يعلمون بسوء ما يفعلونه ورغم ذلك مثّلوه عزّ وجلّ بعجل! أمّا مع المتذاكين فلإبليس أساليب أخرى لإقناعهم، ليس لأن كلامه مقنع، بل لأن أي بذرة تفاهة وسخافة فينا هِيَ كافية لجعل إبليس يدخل منها لِنُشْرِكَ أو نكفر مع اعتقادنا بأننا مؤمنون! وهنا ترى أيضا نموذجا عن متذاكين يقولون: مَا زِلْنَا نعبد إلهك يا موسى ولم نشرك به، ورأينا أن نتماشى مع موجة عارمة انتشرت بين الناس لتمثيل إلهك...

تَرَى في عموم ثقافات المدّعين للتديّن نسخا مختلفة عن هذه التفاهات، تَنَاوَلَهَا القرآن من مختلف الجوانب وأبرزها ما ورد في الآية 31 من سورة التوبة {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، هَا هُوَ القرآن أمامك من أوّله لآخره ولن تجد فيه أَيَّ تصريح بجواز التوجّه بالدعاء أو النذور أو الطلب... ولا بأي شكل من الأشكال وفي أي موضوع كان... إلا له ومنه تعالى.
وأكتفي بهذا القدر من الكلام وأتركك لتراجع تديّنك لترى إن كان إبليس اسْتَطَاعَ إقناعك بغير ذلك وبطرق جعلتك تعتقد أنك من أشد المتعلقين بدينه تعالى، ولا تَنْسَ ما قاله عَابِدُو العجل عن عجلهم أنهم لا يزالون على دينه تعالى...

(وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي{90})
قَالَ لهم هارون من قبل: {يَا قَوْمِ}، يا جماعة الناس الذين أنتمي لجمعتهم، {إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ}، تَعَرَّضْتُمْ بسبب هذا العجل لشيء يمكن أن يعجبكم وأن يغيّركم، وكان من المفروض أَلَّا تنجرّوا لهذا لأنه خطأ، لِأَنَّ هذا مجرد كتلة من المعدن وليس إلها، {وَإِنَّ رَبَّكُمُ}، المسؤول عنكم من مستوى إلهي الحقيقي هو، {الرَّحْمَنُ}، الذي يعتني بكم بما فيه مصلحتكم.

{فَاتَّبِعُونِي}، كُونُوا على ما أقول، {وَأَطِيعُوا أَمْرِي}، أَنَا بصفتي نَبِيًّا آمركم بترك عبادة هذا العجل.

ننتبه جيدا، لِأَنَّ السُّوَرَ الأخرى التي تناولت نفس الحادثة من زوايا مختلفة، لا تجد فيها صراحة ما تقوله الآية هنا عمّا فعله النبي هارون(ع) لمحاولة إقناع قومه بالتوقّف عن مشروع صنع وعبادة العجل.

(قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى{91})
{قَالُوا}، الذين عبدوا العجل: {لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ}، سَنَظَلُّ ولن نتغيّر على العجل، {عَاكِفِينَ}، ملازمين ومداومين على عبادته، {حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى}، من الجبل. طَالَمَا لم يرجع أخوك فنحن لن نترك عبادة العجل، وإن رجع ولم يوافق على عبادة العجل فلكل حادث حديث، أمّا حاليا فهذا إلهنا الذي نعبده، فأنت لا قيمة لكلامك عندنا.

(قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا{92})
نعود الآن لوقت نزول النبي موسى(ع) من الجبل حيث سحب أخاه هارون من شعر رأسه ومن لحيته وأخذه إلى مكان تراه جموع بني إسرائيل، كما ورد في الآية 150 من سورة الأعراف والآية بعد التالية، وقال النبي موسى(ع) لأخيه النبي هارون(ع): {يَا هَارُونُ}، {مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا}؟ ما الذي صدّك عن التصرّف وَإِنْهَاءِ عبادة العجل، {إِذْ}، حين، رأيتهم، صَارَ لديك صورة محدّدة لهم، "شفت"، {أَنَّهُمْ ضَلُّوا}، حين صاروا على الشيء الخطأ الذي لا يوصلهم للغاية الصحيحة.

تَذَكَّرْ أن النبي موسى(ع) طلب تعيين أخيه هارون (ع) وزيرا له واستجاب سبحانه لطلبه (ع)، وها ترى أنه تعالى لم ير من الأساس حاجة لتوزير هارون(ع)، وها ترى أن النبي هارون (ع) لم يستطع حلّ هذه المشكلة لوحده، وهذا يأخذنا إلى الكلام عن الاختلاف في شخصيات الأنبياء والرسل، بَعْضُهُمْ لديه شخصية قيادية قوية أكثر من الآخرين، وهذا يأخذك إلى الفرق بين الرسل الذين استطاعوا تكوين مجتمع متدين ودولة... والذين لم يستطيعوا ذلك... ويأخذك إلى بروز النبي محمّد(ع) الذي استطاع بصبره وحلمه وطيبة قلبه... أن يؤسّس من أجلاف مشركي العرب نواة أمّة متدينة، وهناك دراسات تصنيف لأبرز شَخْصِيَّاتٍ مُؤَثِّرَةٍ إيجابيا عبر التاريخ، تضع الرسول محمّد(ع) الأول أو من الأوائل، ومعه الرسول موسى(ع)...

(أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي{93})
{أَلَّا تَتَّبِعَنِ}؟ ما منعك أن تكون على ما أنا عليه حين رأيتهم ضلّوا؟ {أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي}؟ قبل غيابي أخبرتك بأوامري، وعصيتها وخالفت أوامري التي قلت لك فيها أن ترعى القوم؟

تذكّر دائماً أن السورة تريد عرض "الشقاء" الظروف الصعبة التي تعرّض لها النبي(ع)، حتى تركه لأخيه (ع) لينوب عنه في غيابه لم ينجح، وها تراه (ع) يقف أمام قومه الذين دمّروا التوحيد بعبادتهم لتمثال! فهل هذا الشقاء سببه حمل الرسالة أم أراجيف وخزعبلات بني إسرائيل؟

تذكّر الهمَّ الذي كان يحمله النبي موسى(ع) لنجاة قومه "الموحدين" من تحت عبودية فرعون، وها هم يعبدون العجل محطمين أساس الدين الذي قوامه التوحيد...

(قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي{94})
قال النبي هارون(ع): {يَا ابْنَ أُمَّ}، يا أخي من أمي، {لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي}، لا تجرني وتشدني من شعر لحيتي ومن شعر رأسي وتهينني، لأنني أخوك وأنت تعرفني جيّداً لذا لا تُهِنِّي بهذه الطريقة، {إِنِّي خَشِيتُ}، وصار لدي شعور عن خطر يمكن تجنّبه، {أَنْ تَقُولَ} عنّي إنّي {فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}، حيث اختار أكثريتهم عبادة العجل، ونفهم ذلك من الآية 150 من سورة الأعراف {قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي...}، وهذا يشير لكونهم أكثر من المؤمنين، وإن عارضتهم فسيتفرّقون ويتقاتلون، لذا اخترت تركهم. وخشيت أن تقول لي: يا هارون، {وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}، أغفلتَ ولم تعتنِ بما قلته لك عن الانتباه لهم أثناء غيابي من الفرقة والانقسام والاختلاف، وخشيتُ إن منعتهم من عبادة العجل أن تحدث مشكلة أكبر، لأن القتال كان يحتاج فقط إلى دفعة صغيرة من التشنج حتى يبدأ، لذلك خفت أن تأتي وتقول إنّي فرقت بين بني إسرائيل وأوقعت الحرب والقتال بينهم، وإنّي لم أسمع كلامك حين أمرتني أن يبقوا متحدين مجموعين.

علينا ألا ننسى أن بني إسرائيل كانوا عدّة أسباط، أي عدة جماعات كعائلات ترجع في نسبها إلى ولد من أولاد النبي يعقوب "إسرائيل" (ع)، وبين هذه الجماعات أساساً خلافات، ولكن للأسف اتفقوا بأكثريّتهم على عبادة العجل! ولو أن النبي هارون(ع) تدخل بالقوة ليمنعهم لتفرّقوا وتقاتلوا...

لا تَنْسَ أن النبي هارون(ع) كان متأكّداً من عودة أخيه(ع)، وأن أخاه سيجد حلاً لهذه المشكلة، ويبدو هذا واضحاً من كلامه (ع) هنا بأنه لم يتدخّل بسبب خشيته من اتخاذ قرارات غير مناسبة لأنه متأكّد من عودة النبي موسى(ع) الذي سيجد الحلّ المناسب.

بقي شيء، ما فعله النبي موسى(ع) من جرّ أخيه النبي هارون(ع) من شعره لم يكن مسرحيّةً، بل هو النبي موسى(ع) من شدّة غضبه لم يتمالك نفسه من مطالبة المسؤول الأول عن القوم في غيابه، وهذا التصرّف مع ما تعرفه من ضربه (ع) للذي من شيعة فرعون وقتله بالخطأ، ومرة ثانية تدخله بعنف وأيضاً في حادثة شجار بين واحد من جماعة فرعون مع واحد من بني إسرائيل، وراجع في ذلك الآية 15 وما بعدها من سورة القصص... وما ندمجه من القرآن مع الروايات التي تحدّثت عن تدخّله (ع) بقوّة وعنف لسقاية ماشية الفتاتين اللتين صدّهما الرجال عن الماء... نفهم حين طلب النبي موسى(ع) منه تعالى توزير أخيه هارون لأنه يعرف من نفسه التحوّل إلى القوّة تحت الضغط. وبكلامنا هذا لا نقصد أن نتّهمه (ع) بالتهوّر، ولا بارتكاب المعصية تحت الضغط، لا، ولكنه (ع) وكما يبدو من تحليل سيرته كان يختار الحلول القاسية حين يتعرّض للضغط.

بقي شيء لفتنا إليه مراراً خلال دراساتنا هذه، الصورة التي لدينا عن الأنبياء، أكثرها غير صحيح فيما يتعلّق بقدراتهم واتصال الوحي بهم، وها ترى النبي هارون(ع) احتار ماذا يفعل، ولم ينزل عليه وحي يخبره ماذا يفعل... لذا هو متروك لتكليفه بما يمكنه فعله بشخصيته وفكره وقدراته... وخشي من اتخاذ أي قرار تكون نتائجه غير محمودة على المدى البعيد، لذا فضّل ترك قومه يعبدون العجل بانتظار النبي موسى(ع). وكما ترى، النبي موسى (ع) شخص واحد، نزل من الجبل، وفرض إرادته على القوم، والنبي هارون(ع) كان بينهم ولم يستطع فعل أي شيء...

(قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ{95})
قال النبي موسى (ع):

{فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ}؟ قل لي وأنا سأسمعك، ومن سياق الكلام تعلم أنه (ع) يسأل عن كيفية جعل العجل يصدر صوتًا.

بالنسبة لهذا الشخص {السَّامِرِيّ}، من القرآن لا يبدو لنا أي شيء عنه إلا لقبه {سَّامِرِيّ}، أو اسمه المنحول من لقب {سَامِرِيّ}، إمّا نسبةً لشيء، أو للكلمة معنى آخر في اللغة التي كانوا يتكلمون بها، ولم أجد في التراث اليهودي والروايات الإسلامية أية معلومات ذات شأن ومفيدة عن {السَّامِرِيّ}، واكتفى القرآن بذكر اسمه فيما يتعلّق خصوصًا بما فعله، لا أكثر ولا أقل، ولا تبدو فائدة من معرفة تفاصيل أكثر عنه.

(قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي{96})
قال السامري:

{بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ}، صار عندي إدراك ووعي لشيء ما، وغيري من بني إسرائيل لم يَصِرْ عندهم نفس الوعي والفهم لما رأيته أنا، ومن عموم القرآن لاستعمال كلمة بصر ومشتقاتها نفهم أن بني إسرائيل رأوا ما رآه السامري ولكنهم لم يفهموا ولم يعوا ما يحدث عنه من أثر. {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً}، أخذت بيدي شيئًا، {مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ}، من شيء ذهب الرسول وتركه خَلْفَهُ وراءه، {فَنَبَذْتُهَا}، رميت ما أخذته، والكلام يصير إلى رميه الشيء في جوف تمثال العجل، وبسبب ما رميت صار تمثال العجل يخور! وسيأتي الكلام عن الخوار في الآية 88 من هذه السورة.

{وَكَذَٰلِكَ}، هكذا، {سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي}، أعلم أنه عمل سيئ ولكني تعاميت عن سوئه، أنا أمام فرصة لأتميز بين الناس بعمل لا يقدرون على فعله، لدي ما يجعل التمثال يصدر صوتًا وهم لا يعلمون كيف فعلت ذلك، وسأصير رجلًا مهمًّا... والنتيجة شركهم به تعالى وأنا أعلم ذلك ولكني تعاميت عنه.

لا نجد في القرآن أي شيء يساعدنا لنعرف من هو الرسول الذي يتحدث عنه السامري، أو لنعرف ما هو الشيء الذي قبضه السامري في يده، ويبدو أنَّه سبحانه لم يردنا أن نعرف أكثر من أن السامري أخذ بيده شيئًا غير محدّد من أثر رسول غير محدد، ورمى به في داخل تمثال العجل فصار يصدر منه صوت خوار، فالآيات فقط تريد إفهامنا أن الصوت الذي يصدر من العجل كان له سبب عادي، وصار معروفًا، فلم يكن الصوت يصدر لأن العجل إله، أو حلّ فيه الإله.

في الكتب احتمالات عديدة حول تحديد الرسول وما قبضه السامري من أثره، وبالتحليل وجدت شيئًا أرجح عندي ولا أظنهم احتملوه في الكتب، فالرسول المقصود ليس الرسول موسى(ع) لأنه هو المخاطب، فلو كان هو المقصود لقال السامري: قبضت من أثرك. ولا هارون لأنه واقف معهم، ولا نعرف رسولًا من البشر غيرهما كان حيًّا حينها واحتك به بنو إسرائيل حتى يمكن للسامري رؤية أثره، فبقي أن نفترض أنه من أثر الرسول جبرئيل(ع) كما افترض الغالبية، حيث قالوا إنَّ الملاك جبرئيل(ع) كان على فرس، والسامري قبض بيده قبضة من التراب التي داس عليها الفرس، لأن التراب كان يتحرّك... وهذا الرأي نابع من روايات فيها الكثير من التناقضات والمخالفة لمجريات الأحداث... ولكن لماذا لم نلتفت إلى أثر من الرسول يوسف(ع)؟ فالمشهور بين أهل الكتاب أن بني إسرائيل حملوا رفات النبي يوسف (ع) معهم حين خرجوا من مصر، ورفاته وما معه في قبره هو أثر لرسول، وهذا مجرد احتمال أطرحه لا أدري إلى أين يوصلنا، ولكنه أقرب ما ظهر لي من مراجعة التاريخ الديني.

(قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً{97})
قال النبي موسى (ع) للسامري:

{فَاذْهَبْ}، لن أسمح لك بالبقاء معنا، {فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ}، طالما أنت حي، {أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ}. لا تلمسوني، فإمّا أنه إذا لمسه أحد ما فإن السامري سيموت، أو سيشعر السامري بألم شديد. {وَإِنَّ لَكَ}، يا سامري، {مَوْعِدًا}، وقتًا محددًا "قاله تعالى" لتموت، {لَنْ تُخْلَفَهُ}، لن تتأخر ولن تتقدم عن موعد موتك، يعني سوّلت لك نفسك المشاركة في صناعة العجل بشكل مميّز حتى تنال الشهرة والعلو عند الناس، ها أخبرك بأن العقاب الإلهي لك أن تنفر من الناس، فإذا لمسك أي واحد منهم فسيصيبك مكروه أو تموت، لم أقتلك الآن وتركتك على هذه الحالة ولكنك في النهاية ستموت وتنال عقابك في الآخرة.

{وَانْظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ}، وجّه اهتمامك العام إلى الذي قلت عنه إنَّ فيه صفات وقدرات فائقة فوق صفات وقدرات المخلوقات، وجّه اهتمامك العام إلى العجل الذي جعلته إلهك، {الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ}، الذي بقيت عليه، {عَاكِفًا}، ملازما لعبادته، {لَنُحَرِّقَنَّهُ}، سنجعله في النار الحارقة حتى يذوب، {ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ}، نرميه قطعًا صغيرة، {فِي الْيَمِّ}، في الماء، {نَسْفًا}، بكل ما تحمله كلمة نسف من معنى، سنرميه قطعًا صغيرة جدًا ومتناثرة حتى لا يبقى له أي أثر.

لاحظ أن تمثال المعدن إذا أذبته فسيصير كتلة واحدة من المعدن إذا أذبته في بوتقة، فجعلته في حاوية، ولكن الإذابة بدون حاوية ستجعله متناثرًا مختلطًا مع الرماد والتراب فلن تَعُودَ فيه كتل، وهكذا نثروا قطعه مثل الرمل والحصى في نهر أو بحر حتى اختفى أثره نهائيًا.

على ما يبدو فإن الطبيعة البشرية العامّة فينا من حبّ التذكارات، تدفع أحدًا ما للاحتفاظ بقطعة من ذاك التمثال، من ناحية عندما فتّته النبي (ع) ونثره سيعلم الجميع أنه مجرد تمثال، ومن ناحية ثانية حتى يختفي أثره نهائيًا من حياتهم.

(إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً{98})
يقول سبحانه للجميع عبر كلّ رسله وعبر هذا القرآن:

{إِنَّمَا}، فقط وحصرًا، {إِلَهُكُمُ}، الكائن ذو الصفات والقدرات الفائقة فوق الجميع هو، {اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، الذي لا يوجد كائن غيره لديه القدرات والصفات الفائقة، فالصفات الألوهية من تخطيط وخلق وتدبير وقوة وقهر وحكمة وعلم للغيب وسمع... بمستوى فائق فقط وفقط محصورة في الله تعالى.

{وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا}، ما حصل ويحصل وسيحصل، يعلمه تعالى، فلا يغيب عنه أي شيء أبدًا.

الذي صنع تمثالًا ليمثّل ربنا عز وجل حتى يعبده، هو في فكره الضيق لم يستوعب أن الإله "الطيف واسع محيط..." في كل الدنيا، هنا تخبره الآية أنك لست بحاجة لتمثال حتى تتحدث معه تعالى وحتى تعبده وتدعوه... ربك {وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا}، يعني "بشكل لا نفهمه عمليًا لأنه من مستوى فوق قدرتنا على التصوّر" وهو تعالى عندما يعلم بكل شيء يعني هو تعالى غير محصور في مكان، فكيف تتصور أن تحصره في تمثال! ما معنى حاجتك لتمثال لتتوجّه نحوه لتشعر بأنك تتعامل مع الإله سبحانه! التمثال في مكان مثل بقية الأمكنة، ومع التمثال أو بدونه فالإله سبحانه إله واسع محيط بكل شيء.

لا ولا بأي وجه، ولا بأي فلسفة، ولا بأي طريقة، أبدًا بتاتًا، لا يسمح الله تعالى بأن تصنع شيئًا لتمثيله، ومهما برّرت، ومهما تفلسفت، ومهما قصدت، فبمجرد أن تعتبر أي شيء تمثالًا أو تمثيلًا أو رمزًا أو حلولًا أو... فأنت أشركت وانحرفت عن الإله الحقيقي.

(كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً {99})

{كَذَلِكَ}، بهذا الذي قلناه لك، {نَقُصُّ عَلَيْكَ}، نتتبّع حَدَثًا حصل ونقوله لك أيها النبي محمد(ع)، {مِنْ أَنْبَاءِ}، من أخبار غير منتشرة بين الناس، {مَا قَدْ سَبَقَ}، ما مرّ سابقًا من حوادث في التاريخ، {وَقَدْ آتَيْنَاكَ}، أعطيناك، {مِنْ لَدُنَّا}، من عندنا، {ذِكْرًا}، أمورًا تستحضرها في فكرك وعملك، مِنّا نحن تسمع هذا الذكر، لأنَّ هذا القرآن بما فيه منقول منه تعالى.

هكذا تكون السورة انتهت من عرض جوانب من قصة الرسول موسى(ع)، وبالنسبة للنبي محمد(ع) "وبالنسبة لمن يعمل في تبليغ الرسالة الإلهية" ففيها أنه سبحانه لم يكلّفهم بتبليغ الرسالة حتى يصيبهم الشقاء، بل الظروف الناتجة عن عناد بعض الناس والتكبّر وحبّ المال والشهوات السيئة والسلطة والاستغباء... تفرض المعاناة على حامل الرسالة، أمّا أصل الدعوة فيجب أن يكون سهلًا، بل يجب أن ينال الرسول احترامَ وتوقير الناس...

نضيف على ذلك ما نراه سببًا لاختيار السورة عرضها لقصّة عبادة العجل، لو اكتفى الرسول بنقل الرسالة، وهذا ما هو مطلوب منه، ولم يقحم نفسه بشكل شخصي في حياة من حوله ومصيرهم، فإن آمنوا، بها ونعمت، أهلًا وسهلًا، وإن كفروا فذنبهم على جنبهم، كما يقولون، وإن توافر مع الرسول من يؤمن ليشكّلوا قوّة عسكرية تدافع عن المؤمنين، فعندها ينتقل تكليف الرسول من التبليغ فقط إلى الدفاع والهجوم على المعادين للدين الإلهي وللمؤمنين... وهذا موضوع آخر، وما أريد لفت انتباهك له، أن الشقاء كشعور بالتعاسة بالسوء من عمل قمت به، قد يكون ناتجًا عن شيء لا يستحقّ اهتمامك به، كاهتمام النبي موسى(ع) بقومه لإخراجهم من الاستضعاف على أساس أن لهم قيمة كموحدين له تعالى، ليتبيّن فيما بعد أن أكثرهم وفي أول فرصة أشركوا بعبادة تمثال!

لا أقصد أن المؤمن لا يجب عليه أن يحمل همّ المتدينين لما فيه مصلحتهم، ولكن المشكلة في الغرق في همّهم بينما هم فقط مظهرهم التدين بدون التزام حقيقي به، وهذا ما نبّهت عليه السورة، والغرق في همّ تحويل المشركين إلى مؤمنين لن يأتي بنتائج مضمونة بإيمانهم الحقيقي، حيث هنا بنو إسرائيل من المنتمين لدينه تعالى أصلًا، وها ترى أنهم كانوا بشكل عام موحدين تحت حكم فرعون، وبشكل عام رافضين عبادة آلهة حكّامهم... وعندما انفلتوا من الاستضعاف، وعاشوا الأمن بحكم ذاتي، نسوا أساس دينه تعالى! وفعلوا ما لم يكونوا يفعلونه وهم تحت حكم فرعون الذي أجبرهم بالقوّة أن يعبدوه ويعبدوا آلهته! تحت ضغط فرعون كانوا ميّالين للتوحيد، وحمل النبي موسى(ع) همّ تخليصهم... وعندما صاروا أحرارًا أشركوا!

(مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً {100})

نكمل مع الذكر الذي نزل على الرسول محمّد(ع):

{مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ}، من اعتبر هذا الذكر الإلهي غير مهمٍ، فلم يؤمن أنه سبحانه يرسل رسله للناس ولم يؤمن بالآيات التي قام بها الأنبياء... ولم يؤمن بأنه سبحانه لا يقبل بعبادة غيره ولو كان قصدنا التقرب منه عبر تمثال أو عبر شيء آخر... فإن هذا الذي أعرض فإنه: {يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، في الزمن الذي يقوم فيه الناس من الموت، يوم يعود الناس إلى الحياة مرة ثانية، سيحمل، {وِزْرًا}، أشياء ثقيلة حملها مزعج، وسيحمل الذنوب التي نتجت عن إعراضه عن الذكر الإلهي، وستكون ثقيلة، وسيتحاسب عليها. وعمليا هو سيحمل كتابًا مسجَّلةً فيه سيئاته، وجسده وبيئته تعكس سيئاته، وهو تحت وزر معنوي نفسي ومادي ناتج عن سيئاته، مثل وزر الاتهام بشيء سيئ لم تفعله، ووزر الدَّيْن "أخذ مال من الآخرين لردّه فيما بعد ولست قادرًا على ردّه".

نلاحظ القرآن سمّى ما يحمله الناس في يوم القيامة من ذنوب أنها "وزر" فهي ثقيلة ومزعج حملها والعيش تحت وطأتها، ويشعر بالتعب والألم... منها، وأمّا الحسنات فلم يعبّر عنها القرآن بالوزر أبدًا، ولم يعبّر عنها حتى بالحمل، وعلى كل حال فلا تتصوّر أكياسًا فيها السيئات "الثقيلة المتعبة" ويحملها الناس، ولا أكياس حسنات خفيفة، لا، هنا في الدنيا نضع الأحمال في مستوعبات، ولكن أيضًا لدينا أوزار معنوية نعيش تحت ضغطها كالعيش تحت وزر الدَّيْن، ووزر الاتهام، ووزر الإهانة... والأعمال والنيّات والأقوال السيئة لها أوزار معنوية تطبيقية، وفي الآخرة ستكون هي البيئة التي تبني جسدك وتبني محيطك من أول ما تفتح عينيك من الموت في الآخرة، وكما عبّرت الآيات عن الإيمان والعمل الصالح أنه حسنات، فرح، عطاء إلهي... فهذا لا يصحّ وصفه بالوزر ولا بالحمل، أمّا السيئات، فيعيش من قام بها تحت وطأتها، تحت أثر عذابها وآلامها، فيحملها معه كوزر كحمل ثقيل يلازمه ويعذّبه ولا يفارقه، علمًا أنَّه يحمل كتاب أعماله أيضًا كحمل ثقيل مؤلم مزعج.

إذًا إنَّما أرسلناك مذكِّرًا لا لقصد الشقاء لك، وها نخبرك بالشقاء الحقيقي لمن عاندك وعارضك.

(خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً{101})
المعرضون عن الذّكر:

{خَالِدِينَ فِيهِ}، ملتصقين بالوزر بشكل مؤبَّدٍ فلا ينفصلون عن أثقالهم الناتجة عن أعمالهم السيّئة التي قاموا بها في الدنيا، لأنهم لن يموتوا، والوزر سينتج عنه نار متأججة، وسيعيشون في النار خالدين لا يموتون ولا تخرب النار ولن يخرجوا منها أبدًا.

{وَسَاءَ لَهُمْ}، ما أسوأ وأتعس وزر المعرضين، {يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، زمن قيامهم من الموت، {حِمْلًا}، شيئًا يحملونه معهم، ما أسوأ وأتعس الحمل الذي سيحملونه في يوم القيامة من الموت.

ما فعلوه من سيئات سيكون وزرًا لهم خالدين فيه لا ينفكّ عنهم، وسيعيشون فيه وما أسوأه من حمل. كما نقول: حِمْلي ثقيل. ونقصد مثلًا أني مسؤول عن رعاية وتأمين حاجيات عائلة كبيرة. معنويًّا "نفسيًّا وفكريًّا" مؤلم ما هم فيه، وماديًّا سينتج عن سيئاتهم كتاب أعمال مؤلمٌ حمله، وسينتج أيضًا نار وضرب وإهانات...

هناك كلام فلسفي عن تجسّد الأعمال، وخلاصة أقوالهم بعبارات بسيطة أن أفعالنا هنا في الدنيا سيصير لها أثر ناتج عنها في الآخرة بنفس الأثر الناتج عن إشعال النار هنا في الدنيا بأيدينا، مثلًا سينتج عن الكلمة السيئة التي أقولها هنا في الدنيا حطبة مشتعلة في الآخرة، وتلازمني تلك الحطبة المشتعلة لأحترق بنارها.

كلامهم هذا يتماشى بشكل ما مع كلام القرآن من ناحية التأكيد على أن ما سنتعرّض له في الآخرة هو ما كسبناه في الدنيا، وهذا يعني أننا نصل إلى الآخرة وقبل حصول أي شيء من حساب، سيكون جسدنا وما حولنا متناسبًا مع ما نتج من أعمالنا في الدنيا، وهذا أيضًا يتماشى مع كلام القرآن.

لكن كلامهم عن عالم المُثُل أو أي كلام آخر عن عالم البرزخ وما يشبهه، كعالم تتحوّل فيه أعمالنا وأفكارنا إلى أشياء، تصير في الآخرة ما سنتعذّب به، على نحو السببية، فهذا لا ينفيه القرآن ولكن لم يقله صراحةً، وتعابير القرآن أكثر من

كافية لنرى منها أننا سننال ما كسبناه، فهي كلمة "كسب" كافية لنفهم منها أننا في الآخرة لن يظلمنا تعالى لأننا سنجد ما فعلناه من حسنات أو سيئات.

(يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً{102})
يوم القيامة من الموت الذي ستظهر فيه تعاسة الوزر الذي يحمله المعرضون هو: {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ}، في الزمن الذي يتم وضع شيء يعيد الناس إلى الحياة، في شيء ينشره على عددهم الكبير، {وَنَحْشُرُ}، ويجمع سبحانه الناس بقرار منه سواء قبلوا أو رفضوا، {الْمُجْرِمِينَ}، الذين قاموا بأعمال يستحقون عليها العقاب، يجمعهم سبحانه يوم القيامة، {زُرْقًا}، لون جلدهم أزرق من شدة الخوف، من الضرب، من الاحتراق، من الدخان الساخن.

بالنسبة للنفخ في الصور، من الآية 68 من سورة الزمر "وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ"، عَلِمْنَا أن حادثة النفخ في الصور ستحصل مرتين، وأوّل نفخة ستسبّب موت كلّ المخلوقات في الدنيا "إلا من شاء تعالى"، وثاني نفخة ستحصل بعدما تتبدّل الدنيا وتأتي الآخرة، وهذه النفخة ستسبّب عودتنا إلى الحياة، ويسميها القرآن بالساعة لأنها بالنسبة لنا هي أول ساعة من يوم قيامنا من الموت.
والمشهور بين المسلمين أن مَلَكاً اسمه إسرافيل(ع) يقوم بالنفخ في الصور، وتَذَكَّرْ دائما أن القرآن لم يذكر اسم النافخ ولم يقل أصلا إنّه مَلَكٌ، ولكن اشتقاقا من عموم ما نفهمه من القرآن عن توظيفه تعالى للملائكة للقيام بهكذا أعمال، ومما هو مشهور في عموم ثقافة المنتمين لهذا الدين الإلهي من اليهود والمسيحيين، سنقول إنّ مَلَكاً اسمه إسرافيل هو النافخ في الصور.

الصور في اللغة هو الشيء الذي نستعمله لنصدر صوتا قويا، فيسمعه عدد كبير من الناس، كالبوق قديما، وكمكبر الصوت حاليا. وطبعا الصور الذي تتحدّث عنه الآية هنا ليس بوقا مصنوعا من خشب أو من معدن، وليس مكبرا للصوت، ولكنه شيء يستعمله "المَلَك إسرافيل(ع)" فينفخ فيه، فيجعل في داخله "شيئا لا نعرفه"، مثلما نجعل نحن الهواء داخل البوق "أو البالون"، فيصدر من الصور "شيء" يسبّب قيام كل الناس من موتهم، دفعة واحدة.

وصف النفخ في الصور مثل الوصف بالصيحة الوارد في العديد من الآيات ومنها الآية 53 من سورة يس "إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ"، وأمام عدد هائل من المخلوقات الميتة، يصدر أمر إلهي بإعادة هذا العدد الهائل إلى الحياة بنفخ "المَلَك" في شيء ينشر الأمر الإلهي على عدد كبير، ونفس الحدث يوصف بالصيحة كتعبير عن أمر إلهي سينتشر على عدد كبير، فهي ليست صرخة "علما أن كلمة صرخة أصلا غير مناسبة لوصف الحالة"، ولا الصيحة مسموعة بالصوت، بل التعبير بالنفخ في الصور وبالصيحة هو وصف لانتشار الأمر الإلهي على عدد كبير ليتنفّذ.

النفخ في الصور ليس كما ننفخ نحن البالون بالهواء، فكلمة "نفخ" استعملها القرآن مرارا لتوصيف حالة سريان الحياة في المادة الجامدة مثل التراب، الآيتان 29 من سورة الحجر و72 من سورة ص تنسبان النفخ له سبحانه في آدم(ع) فصار حيا، والملائكة(ع) نفخت في بطن السيدة مريم(ع) فصارت حبلى، وراجع في ذلك الآية 19 من سورة مريم "قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا" مع الآية 12 من سورة التحريم "وَمَرْيَمَ ... فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا..."، والنبي عيسى(ع) كان ينفخ في الطين فيصير طيرا، كما ورد في الآية 110 من سورة المائدة "... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي..."، وهنا ينفخ المَلَك في الصور فنتشكّل نحن من التراب ونعود إلى الحياة.

صِرْتَ تعلم أن استعمال هذه الكلمات على معناها الوصفي الحقيقي وليست تعابيرَ مجازية، ولكن تصوّر حصولها غير ممكن لنا حاليا لأنها توصّف شيئا من عالم آخر، من عالم الملائكة التي لا يمكننا رؤيتها الآن، ففي عالمها صور "بوق" يناسب تكوينه تكوين الملائكة، والنفخ فيه فعل يناسب تكوين الملائكة، فنحن لدينا رئتان ننفخ منهما، والملائكة تكوينها مختلف، ولكن لديها فعل توصف فيه بأنها تنفخ. ونفس الشيء الكلام عن الشهب التي ترجم بها الملائكة لتبعد الشياطين عن السماء العالية، فالشهب توصيف لشيء يناسب تكوين تلك السماء، فليست شهبا من المادة التي يتشكّل منها كوننا "سمائنا"... ونفس الشيء وصف سجود الملائكة بتعبير يناسب تكوينها...

(يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً{103})
المجرمون، {يَتَخَافَتُونَ}، فيتحدثون بصوت منخفض فيما بينهم وَيقولون لبعضهم البعض: {إِنْ لَبِثْتُمْ}، فَقَطْ مرّ عليكم زمن، والكلام هنا عن مدة لبثهم في حالة الموت، {إِلَّا عَشْرًا}، بَقِيتُمْ عشرة أيام فقط لا أكثر.

هم كانوا في الدنيا لا يؤمنون بيوم القيامة، ويقولون متى سيحدث؟ ولكن عندما يقومون من موتهم فهم منصدمون مرعوبون، وَيتحدثون مع بعضهم بصوت منخفض: متى حصل كل هذا؟ متى عدنا إلى الحياة؟ وكم هي المدّة التي مرّت علينا في موتنا؟ وَيقولون: على الأكثر عشرة أيام.

ضع في بالك أن اليوم هو المدّة الزمنية لحدث أساسي، وَاليوم القياسي على الأرض هو دورتها الكاملة حول نفسها، وسبحانه اعتبر تشريعيا هذا اليوم مِنْ أول غروب الشمس إلى الغروب التالي، وحاليا نعتبر اليوم من منتصف الليل إلى منتصف الليل التالي... ولكن هذا وغيره من الاعتبارات هو مجرد تطبيق لمعنى كلمة يوم، وَهي ليست مخصصة لذلك ولا للأربع وعشرين ساعة، بَلْ هي لعموم أي فترة زمنية لحدث أساسي وتنتهي بانتهاء الحدث الأساسي، مثل الأيام الستة لخلق ما في الدنيا، وَهي مراحل نعلم الآن أنها ممتدة لِمِلْيَارَاتٍ من السنين، وفي كل مرحلة حدث شيء أساسي، ويوم القيامة يبدأ من أول قيامنا من الموت وَتَلِيهِ أيّام حتى دخول آخر واحد إلى الجنة أو النار، والساعة زمن من اليوم ويقع فيها حدث فرعي من ضمن أحداث اليوم، وَيوم القيامة يبدأ من ساعة قيامنا من الموت وبعده فرزنا زمرا، بعدها أيّام الحساب الجماعي والحساب الفردي... وقبل أن تبدأ محاسبتنا، تعرض علينا السورة هنا مشهدا من أحاديث المجرمين بين بعضهم.

نلاحظ أَنَّ القرآن دائما يريدنا أن نفهم من هذا النوع من الآيات أن يوم القيامة قريب جدا جدا، وَبَعْدَ فقداننا للوعي بالموت، وفتح أعيننا في يوم القيامة، فَإِنَّ الزمن الطويل الذي قَضَيْنَاهُ أمواتا فاقدين للوعي، لَنْ نشعر به، وَالآن من يرى يوم القيامة بعيدا، فليعلم أنه قريب جدا جدا بالنسبة له، وليس أكثر من إغلاق عينيه حين الموت وفتحهما ثانية في يوم القيامة بلا أي شعور بمرور مليارات من السنين.

الآية تنقل كلامهم المشوّش عن تقديراتهم لمدّة فقدانهم لوعيهم، حَيْثُ يرون يوم القيامة حَصَلَ وهم فيه، مَتَى جرى كلّ هذا التغيّر للدنيا؟ ولم نشعر بمرور وقت طويل بين مغادرتنا للدنيا وبين ما نحن فيه، وَهل بقيت البشرية من بعدنا عشرة أيام وَفَنِيَتْ؟

عَلَيْكَ أَلَّا تذهب بعيدا في فهم كلامهم على حرفيته وكأنهم كلّهم قالوا هذا الكلام، إِذْ مِنَ الآية التالية ومن عموم القرآن ترى أن كلاما مختلفا صدر منهم، وَقَدْ يقول أحدهم: صحيح أنني لم أشعر بمرور الوقت، ولكن ما أراه من تغيّر في الأرض والسماء يحتاج على الأقل لملايين السنين ليحصل... وَعموم القرآن ركّز على نقل تقديراتهم بالنظر إلى فقدانهم لوعيهم وفقدانهم للشعور بمرور الزمن، وليس بالنظر إلى تقديراتهم النظرية لما يرونه من تغيّرات من حولهم.

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً{104})
هم يتحدّثون بصوت منخفض ولكن سبحانه أعلم بما يقولون، وَلا يغيب عنه تعالى ما يقولونه، وَهُمْ يخفتون صوتهم حتى لا يسمعهم أحد، لأنهم في الدنيا كانوا منكرين لهذا اليوم، وها حَصَلَ، وَيُحَاوِلُونَ أَلَّا يسمعهم أحد، ولكن الله تعالى يسمعهم.

{إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً}، أَفْضَلُهُمْ، أَحْسَنُهُمْ في طريقة الحساب، يَقُولُ: {إِنْ لَبِثْتُمْ}، فَقَطْ مرّ عليكم زمن في حالة الموت، {إِلَّا يَوْمًا}، فَقَطْ يوم واحد مرّ عليكم وليس أكثر من ذلك.

كما ترى، الآيات من الآن تنقل لنا مشاهد ساخرة عن حالتهم هناك، هُمْ هنا كفروا وأعرضوا وأجرموا... وَاسْتَهَانُوا وسخروا من كلامه تعالى ومن المؤمنين وسبّبوا للمؤمنين الشقاء... وَفِي يوم القيامة سَيَكُونُونَ سخرية، وَبَعْضُهُمْ سيقول: لم أشعر بمرور الزمن مُتُّ وها فتحت عيني هنا، وَبَيْنَ موتي ويوم القيامة مجرد لحظة، وآخرون سيقولون مَرَّتْ ساعة، وغيرهم سيقدرونها بشعورهم أنه يوم، وآخرون بيومين... وغيرهم بعشرة أيام... وأنت تعلم أن كل تقديراتهم غير صحيحة، مَرَّ زمن طويل استغرقه تبدّل السماوات والأرض، ولكن فقدانهم للوعي أثناء موتهم سبّب لهم

شعورا بقرب الزمن بين موتهم وقيامهم منه، وَنَقَّلَ القرآن لنا مختلف تقديراتهم ليرينا الفرق الهائل بين استبعادهم وإنكارهم الآن لحصولها، وبين تقديراتهم لزمن حصولها بعدما يَصِيرُونَ فيها.

مِنْ هذا نفهم أن غالبية كلام القرآن عن الآخرة هو كلام عن نماذج من حالات مختلفة، وَحِينَ تشعر بتعارض بين مشاهد الآيات فانتبه أنها نماذج عن مشاهد الآخرة، إذْ هُنَاكَ مليارات من البشر، وظروفهم مختلفة، وحتى الواحد منهم تمرّ عليه ظروف مختلفة، مَرَّةً يَعْمَى بصره ومرّة يَيْبَسُ من الألم، ومرّة يركض، ومرّة يزحف...

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً{105})
{وَيَسْأَلُونَكَ}، يعبّرون لك أيها النبي محمّد(ع) عن إِرَادَتِهِمْ للحصول على معلومات منك، {عَنِ الْجِبَالِ}، على أساس أنها كيان ضخم قوي جدا، وَالسائل الذي يريد جوابا من النبي محمد(ع) يرى أن الأرض مستحيل أن تتدمر، بدليل هذه الجبال الضخمة القوية الثابتة... التي يرى نفسه صغيرا جدا أمامها... وَالأرض دائمة ولن يصيبها أي شيء، والحياة ستستمر عليها ولن تنتهي، وما هذا الكلام السخيف عن انتهاء الحياة على الأرض، والحياة للبشر بعد موتهم! وَأي حياة أخرى ستأتي ونحن أصلا لا نرى أي نهاية لهذه الحياة على الأرض! وهذا ما يبدو من سؤالهم عن الجبال ومن عموم كلام القرآن عن انهيارها، ولكن يبدو أيضا إشارة إلى اعتبارهم الجبال كمساحة ضخمة نائية يمكن الاختباء فيها، على أساس أنهم سيهربون إليها في يوم القيامة "إن حصل" ولن يجدهم أحد هناك، وهذا المعنى ترى إشارات له في القرآن حين يركّز كلامه على حشرهم جميعا وأنه تعالى لن يغادر منهم أحدا، كما ورد في الآية 47 من سورة الكهف "وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا".

{فَقُلْ} لهم أيها النبي(ع): {يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا}، فَالمسؤول عني من مستوى إلهي يعرّض الجبال لشيء يجعلها مفتّتة بكل ما تحمل كلمة نسف من معنى فتزول كياناتها تَمَاماً كما سترى من الآيات التالية.

نلاحظ وجود تعابير تقريبية يقولها علماء الفلك في عصرنا عن مستقبل الأرض مما يَتَوَقَّعُونَهُ من بعد توسّع شمسنا حين تفقد وقودها... بحيث ستزيد كميّة الحرارة التي تتعرّض لها الأرض، وَيَقُولُونَ "بحسب النظرية الدارجة حاليا" إنَّ الجبال ستنهار وتذوب مثل بقية سطح الأرض، وَانْتَبِهْ جيدا، فهذا تقريب نستعمله هنا لفهم تقريبي لما تقوله الآية، أمّا في الحقيقة فلا ندري إن كان تغيّر الأرض سيحصل بهذه الطريقة أو بغيرها، فلا تربط أبدا بين نظريات العلوم وما يتوقّعونه مع الآيات، وإلا ستسبب لنفسك ولغيرك مشكلة عويصة في فهم آيات القرآن، لِأَنَّ نظريات وتوقعات الفيزيائيين الفلكيين متغيّرة دائما، وما هو متعارف عليه اليوم بينهم لم يكن معروفا بالأمس، وفي المستقبل سيتعارف العلماء على نظريات وتوقعات مختلفة لم تخطر ببالنا الآن، وهذا التغيّر في النظريات محسوم محتوم، فلا تستخفّ بعقلك وتأخذ النظريات الحالية على أنها آخر ما سنتوصّل إليه، أو أنها الحقيقة النهائية، فهذا فخّ يقع فيه عوام الناس عادة، والتاريخ يشهد بأن كل النظريات العلمية تَعَرَّضَتْ للتبدّل والتغيّر، بل الكثير من الفرضيات تتعرّض للرفض والحكم ببطلانها فيما بعد، وهذا ما يعلمه العلماء الرصينون علميا، فاترك الآيات على معناها اللغوي ولا تلصقها بنظريات علمية إلا لتقريب الفكرة فقط.

(فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً{106})
{فَيَذَرُهَا}، يتركها على حالةٍ، {قَاعًا صَفْصَفًا}، أسفل الجبل اسمه قاعٌ، فبسبب النسف تنهار الجبال إلى القاع وتصير صفصفًا أي مستوية على وجه الأرض، فتصير الجبال ووجه الأرض بنفس المستوى ويتركها تعالى على هذا الشكل.

(لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً{107})
في يوم القيامة، {لَا تَرَى} لا يحصل لديك صورة مُحَدَّدَةٌ، {فِيهَا}، في سطح الأرض، {عِوَجًا}، التواءً منخفضًا، من حفر وأودية، {وَلَا أَمْتًا}، ولا ترى التواءً مرتفعًا من تلال أو جبال. في يوم القيامة لا منخفضات ولا مرتفعات فيها.

كما ترى الكلام عن وصف الأرض التي سنقف عليها يشير إلى تواجد الجميع في ساحة، فلا أماكن للتستّر خلفها أو فيها.

(يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً{108})
{يَوْمَئِذٍ}، بعد أن تستوي الأرض التي يقف عليها الناس بعد قيامهم من الموت، {يَتَّبِعُونَ}، يكونون على، يسيرون خلف، {الدَّاعِيَ}، الذي يدعوهم الذي يعلن لهم فيقول لهم أمر الحضور للحساب، {لَا عِوَجَ لَهُ}، لا اعوجاج لاتّباعهم للداعي، فلا يشرد منهم ولا واحد، حيث صارت الأرض بلا منخفضات ولا مرتفعات وكل الناس تسير بشكل ظاهر على الأرض، ولا أحد يختفي في حفرة أو خلف مرتفع... وتعلم أنهم في مشيهم خلف الداعي يذهبون إلى أماكن يكونون مفروزين فيها كأقوام وكأحزاب وكأديان... والمؤمنون العاملون للصالحات إلى جهة والآخرون إلى جهة أخرى.

{وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ}، كل الأصوات في حالة خشوع، وتعبّر عن ضعف وانسحاق قدرتهم أمام الموصوف بأنه يعتني بمخلوقاته لما فيه مصلحتهم، فلا عنفوان، ولا رجولية، ولا عنتريات... {فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا}، لا أحد يرفع صوته، وإذا تحدثوا فهم يتحدثون همسًا بصوت خفيف جدًا جدًا جدًا.

الكلام هنا عن حالة المجرمين الذين يمشون خلف الملائكة(ع) التي تسوقهم لتجمعهم في ناحية بعيدة عن المؤمنين، فهؤلاء في حالة همس، أمّا المؤمنون ففي فرح وضحك...

(يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً{109})
{يَوْمَئِذٍ}، في ذلك الزمن، لا تنفع الشفاعة، لا تنفع الوساطة، {إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ}، فالموصوف أنه يعتني بمخلوقاته لما فيه مصلحتهم إذا سمح فالشفاعة تنفع، {وَرَضِيَ لَهُ}، لطالب الشفاعة، {قَوْلًا}، فإن لم يرض تعالى عن أقواله ولم يقبلها بمحبّة فلن يسمح له بنيل الشفاعة.

الآيات تنقل لنا باختصار كل صورة يوم القيامة وما بعده من حساب، فهناك كفّار ومجرمون أعمالهم ستؤدّي بهم إلى النار، فلم يبق لهم حلّ إلا الشفاعة منه تعالى أو من المؤمنين أو من الملائكة(ع)، كواسطة لهم للتخلّص من العقاب، أخبرنا سبحانه عبر هذا القرآن أنه لن يشفع فيهم، ولا يمكن لأحد أن يشفع لهم، أو حتى أن يطلب من ربنا سبحانه تخفيف العذاب عنهم، فموضوعهم محسوم لأن جرائمهم كبيرة.

هناك أشخاص لم يكفروا بربهم سبحانه ولم يقتلوا الأبرياء... حيث لم يفعلوا سيئات من العيار الثقيل، ولم يعلنوا معاداتهم له تعالى ولدينه، ولم يكن همّهم إضلال الناس... ولكنهم لم يلتزموا بالدين الإلهي كما يجب، فهؤلاء ليسوا مجرمين، ولكن عليهم ذنوبٌ بسبب تقصيرهم في الصلاة وفي الزكاة وفي الصوم... وقاموا أحيانًا بالغيبة... فهؤلاء يأذن لهم تعالى بأن تنفعهم الشفاعة، بناء على أنه تعالى رضي عمّا يقوله الشافع فيهم، حيث طلب الشفاعة لمن يمكن تطبيقها عليه، وطلب المغفرة والعفو لمن أعماله ليست خطيرة جدًا...

نعلم من القرآن أن كلّ المذنبين سيسترحمونه تعالى في الآخرة ليخلّصهم من العذاب، ولكن المجرمين لن يروا إلا الغضب الإلهي، وأمّا الموحّدون المقصّرون في أعمالهم وواجباتهم، فيسترحمونه تعالى، وسبحانه أساسًا لديه قرار بالرحمة لهم، ويتدخل المؤمنون أو الملائكة للتوسط لهم "للشفاعة"، ويشفع بهم تعالى ويخفف عنهم العذاب ويقصر مدّته، أو يعفو عنهم، وأنت تعلم أنه يوجد تفاصيل كثيرة بسبب تنوّع الأعمال السيئة، وتداخلها مع نواياهم وإن كانوا استغفروا منها وعادوا إليها... وكل حالة تختلف عن الأخرى... وربما ينال هذا شفاعة لتخفيف شدة العذاب لأن سيئاته لا تتحمل العفو عنها، فيبقى في النار مع تخفيف للعذاب أو تقليل مدّته... وربما ينال ذلك عفوًا عن سيئاته ويدخل الجنّة...

الشفاعة هي عموم استخدام القيمة المعنوية أو السلطوية لتغيير الظروف نحو الأحسن، والآيات القرآنية التي تحدّثت عن الشفاعة تناولتها من عدّة جوانب أهمّها نفي الشفاعة لأي مخلوق كحقّ مفروض ملزم "مرغم" للإله سبحانه وتعالى، كحقّ النقض "الفيتو"، وتقرأ ذلك في الآية 255 من سورة البقرة "... {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}..."، فلا تتصوّر أن ملاكًا أو شخصًا من خيرة المؤمنين يملك حقّ الشفاعة وسيفرض تنفيذها على مجرم لينقذه من العذاب، ويضرب رجله بالأرض "يحتجّ معترضًا" ويقول: معي حقّ الشفاعة وأريد أن يدخل فرعون إلى الجنّة. هذا شيء لا يمكن أن يحصل لأنه لا أحد يمكنه فرض أي شيء من أي نوع عليه تعالى.

هناك آيات أخرى أكّدت على وجود شفاعة من الملائكة (ع) والمؤمنين من الدرجة العالية للمؤمنين من الدرجة المنخفضة، وكمثال عن ذلك الآية 28 من سورة الأنبياء "... {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}"، فالشفاعة تُنفَّذ بعدما يسمح الإله سبحانه بها، وضمن القرار الإلهي الأساسي يوجد أشخاص على ميزان العدل المستقيم يجب أن يتعذّبوا حتمًا، ولكن القرار الإلهي فيه رحمة، فمن ابتعد عن الشرك والكبائر كقتل الأبرياء والزنا... قرّر له تعالى أن يكون له مخرج من العذاب، وسمح بالشفاعة له، أمّا المشركون والمرتكبون للكبائر من السيئات فلا تنفعهم الشفاعة كما ورد في الآية 123 من سورة البقرة "{وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ}..."، فنفي الشفاعة هنا في الآية ينبهنا ألا نفعل ما نريد من سيئات معتمدين على شفاعة أحد ما لنا في الآخرة، فهذا طريق يؤدي إلى فعل سيئات لا تنفع معها الشفاعة.

لا تنسَ أن الشفاعة لا تعني دائمًا أنها للنجاة من النار، بل التخفيف من عذابها أو التخفيف من وقت المكوث فيها فهو أيضًا من آثار الشفاعة.

الجانب الثالث من الشفاعة الذي تجده في بعض الآيات هو نفيها عن الآلهة التي اخترعها المشركون، فآلهتهم الوهمية التخيلية كإله الحرب وإله الخمرة... أو التي لها كيان كملاك أو إنسان أو جنّي، فلا قدرة لهم حتى على الوساطة عنده تعالى للعفو عمّن عبدهم، وعادةً سياق كلام هذا النوع من الآيات يريك أنه تعالى وحده الإله وأن الآخرين ليس لهم سلطة من مستوى إلهي بل حتى ليس لديهم القدرة على فرض قيمتهم المعنوية عليه تعالى، وكمثال عن ذلك الآية 51 من سورة الأنعام "{وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}"، فسبحانه وحده بسلطته يشفع ويسمح بالشفاعة. ومثال آخر الآية 13 من سورة الروم "{وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ}"، حيث كان الكلام عن الذين أشركوهم معه تعالى في الألوهية، وسبحانه لا شريك له، إذ بينهم وبين آلهتهم شراكة وهمية بين عبد وإله، ولا قدرة لها لتشفع لهم... ومثال آخر الآية 43 من سورة الزمر "{أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ}"، وهذه شاملة لكل أنواع الآلهة التي اخترعوا ألوهيتها، فحتى لو كان لها فعلًا كيان ولم تكن وهمية كإله الخمرة وإلهة الحبّ، وكانت ملاكًا أو إنسانًا أو جنيًا، فهؤلاء لا يملكون شيئًا من مستوى إلهي.

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً{110})
{يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ}، يعلم سبحانه ما يحصل ويجري أمامهم وما يعلمونه، ويعلم سبحانه {مَا خَلْفَهُمْ}، ما حصل أو يحصل أو سيحصل وهم لا يعلمون به، وهم {لَا يُحِيطُونَ بِهِ} تعالى {عِلْمًا}، فهو تعالى محيط بما يعلمون وبما لا يعلمون، وهم يعلمون أشياء بسيطة يعلمها تعالى ولكن من المستحيل أن يحصل لديهم علم بكل ما يعلمه تعالى، وحتى لو جُمِعَ ما تعلمه كل المخلوقات، فمعلوماتهم لن تكون مساوية أو متفوّقة على ما يعلمه تعالى، بل هي لا شيء وأقل من نقطة في بحر علمه تعالى.

بعبارة أخرى، عندما يتدخل ملاك أو مؤمن ما ليشفع لأهله ولأحبائه من ضعاف الإيمان، فسبحانه يعلم إذا كان المؤمن يعرف ماذا فعل أهله، ويعلم سبحانه ما لا يعرفه المؤمن، ولا أحد أبدًا يمكنه أن يعلم ما يعلمه سبحانه.

يعني الشفاعة لا تكون لأن المؤمن تدخّل وسبحانه لم يكن يعلم أن هذا الشخص يستحقّ الشفاعة، فلا نفكر بأنه سبحانه انتظر هذا المؤمن ليقول له: سامح أبي فهو لم يرتكب الكفر بك ولا القتل ولا الزنا... فسامحه يا رب عن تقصيره والقليل من ذنوبه... لا، فسبحانه من الأساس يعلم ولا يحتاج للفت النظر، ولكن سبحانه يجعل للمؤمن كرامة الشفاعة، وأساسًا جعل سبحانه الشفاعة مَخْرَجًا للذين يمكن العفو عن بعض أعمالهم السيئة...

(وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً{111})
{وَعَنَتِ الْوُجُوهُ}، بَدَا عليها المعاناة، وصارت في حالة يبدو منها أنها تحت شيء شديد، فلا تجبّر ولا تكبّر ولا زهو... {لِلْحَيِّ}، الذي يوصف بأنه يفعل وله أثر، {الْقَيُّومِ}، القيّم بذاته على ذاته، فلا يوجد قيّم عليه، فلا يوجد من يُؤَمِّن له أي شيء حتى يبقى حيّاً أو حتى ينفّذ ما يريد، وهو أصلاً لا يحتاج لأي شيء، ولا يحتاج لأي أحد، ولا لأي أداة أو آلة... حتى يكون موجوداً وفعّالاً لما يريد، فهو تعالى قيوم علينا، فلولاه لما صرنا موجودين ولما حصلنا على الحياة والوعي

والحواس والأكل... أمّا هو تعالى فقيوم بذاته فلا يُؤَمِّن أي أحد أي شيء له، وبسبب صفة الحي الذاتية له تعالى فهمنا أن صفة قيوم ذاتية له تعالى أيضاً فلا تشير هنا إلى قيوميته تعالى على مخلوقاته، مع أنه تعالى لا قيّوم غيره من مستوى إلهي على مخلوقاته إلا أن سياق الكلام هنا يشير لوصفه تعالى بالنسبة لنفسه، فلا قيوم عليه سبحانه.

{وَقَدْ خَابَ}، فأصابته الخيبة فلم يحصل على شيء جيّدٍ، {مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا}، وعندما علم بالدين الإلهي رفضه وخالفه فهذا التصرّف ظلم فلم يكن معه حَقٌّ بذلك، لأنه تعالى عرض علينا وبشكل واضح معلومات حَقٍّ "عقيدة" وتشريعاً صالحاً، ولا يوجد أي مُبَرِّرٍ حتى نرفض كلامه تعالى، فمن تصرّف بظلم تجاه الدين الإلهي، وصدر عنه كلام وأفعال مخالفة للدين الإلهي، ففي يوم القيامة من الموت سيأتي حاملاً لأعماله وأقواله وهي ظلم، فلو كان لديه أي مُبَرِّرٍ مُقْنِعٍ لترك الدين الإلهي، فسنصف تصرفاته التي خالفت الدين بأنها منصفة صحيحة، ولكنه من دون أي سبب وجيه أو منطقي أو عقلاني... خالف دينه تعالى، فهذا ظلم، فهذا شيء ليس معه حَقٌّ به، وكل ما نتج عن هذا الظلم من تصرفات فإن من قام بها سيحملها معه في يوم القيامة ليتحاسب عليها، وبعدها يُجازَى عليها.

تلاحظ أن من حمل ظُلماً سيقف أمام الحي القيوم ليحاسبه، فالمُحاسِب لن يموت، ولن يضعف ولن يهرم ولن يأتي أحد بدلاً منه... فهنا في الدنيا إذا وقفت بين يدي حاكم ليحاسبك، فربما تقول: سيحتاجني في يوم ما هذا الحاكم أو الحاكم الذي سيأتي بعده ويُطلق سراحي... أو ربما تقول: في النهاية سيموت هذا الرئيس ويأتي غيره فيُطلق سراحي...

أمّا أمامه سبحانه، فهذه الاحتمالات غير واردة، فهو حيٌّ، قيّومٌ.

بالنسبة لكلمتي "الحي القيوم" فالحياة مستويات مختلفة، وفي نظرنا فهي محصورة بما يمكننا التعامل معه مباشرة بين عالم النبات وعالم الحيوان، وعبّر عنها القرآن بأنها كلها جعلها سبحانه حيّة وخلقها من الماء والتراب كمكوّن أساسي لها، فإذا فُقِدَ الماء أو التراب ماتت الحيوانات والنباتات، وهذا يعطي معنى خاصاً للحياة، يتعلّق بالماء والتراب كما ترى، أمّا في نظرة الإله سبحانه فكل ما خلقه حيّ، من الملائكة (ع) والجنّ والسماوات والأرض والجبال... هو تعالى يمكنه التعامل معها، فيخاطبها تعالى وتجيبه، فهي حيّة ولها وعي بالنسبة له تعالى، ولا تموت من دون الماء، فبهذه النظرة للمخلوقات وبأعمق منها، يكون للحياة معنى أعمّ من حياة الحيوان والنبات، وأمّا حين نقول عن كل ما سبق أنه حيّ "له وعي" "نبات حيوان ملائكة (ع) جنّ جبال..." ونقول عن الإله سبحانه أنه حيّ، فنحن أمام معنى لكلمة "حي" يفوق قدرتنا على الفهم والتصوّر، بحيث سيكون من شبه المستحيل أن نضع تعريفاً نهائياً صحيحاً لكلمة "حياة" لينطبق على كل شيء، وهذا شيء لا يخص كلمة "حياة" فقط، فمثلها كلمة سميع بصير واسع محيط... ولذلك ترى في دراستنا هنا أن أي كلمة "صفة أو فعل" تنطبق علينا، فسنسحب منها الخصائص الإنسانية ليتناسب انطباقها عليه سبحانه وتعالى، فحتى الملائكة (ع) ليس لديها أدوات كأعيننا للرؤية، فهي ترى ولكن بطريقة مختلفة جذرياً عنّا، وبدورها الملائكة العالية (ع) لا يمكنها أبداً أن تفهم حقيقة رؤية الإله سبحانه وتعالى للأشياء...

كما ترى وصلنا لنتيجة البساطة في تعريف الكلمات لتتحمّل تدرجات وتصير قابلة للانطباق عليه تعالى وعلى مخلوقاته، فبنظرة سطحية على الكون من حولنا نعلم أن من خلق كل شيء لا يمكن أن يكون أَصَمَّ جامداً محدوداً مخلوقاً... وكل صفة حصلنا عليها فهو بالتالي لديه سبحانه نفس الصفة ولكن بشكل يناسب عظمته، وإلا فكيف سيمنحنا البصر وهو لا يبصر؟ وكيف سيمنحنا الحياة وهو ليس حيّاً؟! وهكذا نفهم أنه تعالى حي حتماً، ونبدأ من أقل صفة تجعلنا نشعر به تعالى حيّاً، فقد خلقنا، ففعل شيئاً لا يمكن أن يصدر عن أَصَمَّ جامد بلا وعي، وهذا أبسط فهم صحيح منّا لحياته تعالى، وننتقل لكلمة "القيّوم" التالية المقترنة تماماً بكلمة حياة، فكل الكائنات تعتمد في حصولها على الحياة منه تعالى، وأمّا هو سبحانه فقيوم، قائم بذاته فلا يحتاج ولم يحتج لأي أحد أو أي شيء ليكون حيّاً، وهو تعالى قيّوم في كل صفاته وأفعاله، بالبصر والسمع والخلق والتخطيط والتدبير... فلن ولم يحتج لأي شيء ولا لأي مخلوق ولا لأي واسطة ولا لأي آلة... ليبصر ليسمع ليعلم... بل قيّوم ففي نفسه كل القدرة والقوة والصفات... والحياة.

حتى يقترب مفهوم القيّومية من ذهننا، فتخيّل تمثالاً من رمال البحر، وصببت عليه الماء، فسينهار. الآن تخيّل أن هذا التمثال الرملي عنده قدرة ذاتية على المحافظة على تماسك حبّاته "قائم بذاته"، فلن ينهار مهما صببنا عليه من ماء. التفت إلى وجودنا نحن، فإذا تقطّعت أعضاؤنا فإننا نفقد حياتنا، وإذا لم تعد المادة التي نتألف منها متماسكة فإننا نفقد كياننا، وإذا اختفت الذرات فإننا سنختفي... فنحن نحتاج للكثير من "المقوّمات" ولسنا قائمين بأنفسنا، فإلهنا سبحانه هو

الذي يمسك كل شيء، ويجعل كل شيء قائماً، موجوداً، حيّاً، له كيان... وتقرأ ذلك صريحاً في الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ}، أمّا الإله سبحانه فهو قيّوم لا يحتاج لأي أحد، أو لأي شيء حتى يبقى حيّاً موجوداً بالصفات التي فيه، فهو بنفسه حي موجود بهذه الصفات والقدرات.

بالنسبة لصفة الحيّ، فأي تعريف للحياة نحاول فيه إخراج الآلات "رجل آلي، كومبيوتر موصول بآلة..." فسيكون التعريف ناقصاً لأن الحيوانات والنباتات لا تختلف في تكوينها المادي عن الآلات التي تتصرّف مثلها، وأيَّ تعريف يشمل الإله عزّ وجلّ فسيكون التعريف ناقصاً فيما يتعلق بالمادة من نمو وتكاثر، فلذلك كان أقرب تعريف:

يفعل ويتفاعل، بتدرجات التطبيق تبدأ من القصدية بقدرات هائلة للتحكّم والفعل "مستوى إلهي" الذي يفعل ولا ينفعل، وصولاً إلى أقل وصف للحياة، الانفعال بلا فعل مقصود، وهذا ينطبق على الآلية "الأتمتة" البحتة لخصائص المواد "تفاعل كيميائي فيزيائي"، وبين الحالتين هناك الكائنات التي تفعل وتنفعل مثل الحيوانات. فيتراوح تعريف الحياة بين القصدية من مستوى إلهي بقدرات فائقة فيفعل ولا ينفعل، مروراً بقصديتنا المحكومة بالرغبات والحاجات والبيئة... فنفعل وننفعل، وصولاً لقصدية كيميوبيولوجية للنمو والتكاثر عند النبات، التي تنفعل ولا تفعل عن قصدية. ويتضمن هذا التعريف القصدية المبرمجة للآلات، والتفاعلية البحتة كرد فعل بحت من النار والهواء... فهو أبسط أشكال الحياة، وتلاحظ أننا اختصرنا الكلام على ما نعلمه من بيئتنا، وعليه سبحانه، فما لا نعلمه من أنواع الحياة عند الكائنات الأخرى لم ندخل فيه.

ترى في الكثير من الأدبيات العلمية وصف البيئة المتغيرة للكواكب بأنها حياة الكوكب، فكوكب بلا نواة حارة ولا غلاف ولا حركة في طبقاته... فهو ميّت جيولوجياً بشكل ما، وبعكسه الكوكب النشط جيولوجياً، فهو موصوف بالحياة في الأدبيات العلمية، وهذا يتماشى مع ما اقترحناه لمعنى كلمة حياة.

أخيراً، فبالموت يفقد الإنسان حياته الإنسانية بصفاتها المميزة، وتبقى حياة الجسد كجسد بيولوجي تنفعل وتتفاعل خلاياه ولا علاقة للجسد بعد الموت بالإنسان الذي كان عليه سابقاً ككائن حيّ.

(وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً{112})

{وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ}، حيث خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهو باشر بالتصرفات التي يراها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، عملياً هو تركه لما حرّمه تعالى وفعله لما أوجبه تعالى. عادةً نفسّر "عملوا الصالحات" على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إنهم صلّوا وصاموا... وهذا عملياً صحيح، ولكن بالأصل الكلام أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحةً جيدةً.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموماً وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائماً أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به.

وهذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلاً سيئٌ" فسيكون في الحقيقة اختراعاً من البشر لصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمراً إلهياً. والذي بهذه الصفات، {لَا يَخَافُ ظُلْمًا}، ففي يوم القيامة من الموت لن يشعر بأي خطر أكيد من معاملته بظلم، لأن الإنصاف الإلهي أن يعطيه ما وعده من الثواب على إيمانه وعمله الصالح، وهذا في يوم القيامة سيشعر بأنه سينال الثواب حتماً، ولا يخاف، {هَضْمًا}، فلا يشعر بأن حقه مهضوم أخذوه منه ولا يمكنه فعل أي شيء، فلا يشعر أنه لم ينل ما يستحقّ مما وعد تعالى به.

أيّ عمل صالح حسن ومهما كان نوعه، فإن صدر من أي شخص ما لا عن إيمان بأن الإله سبحانه سيثيبه، فسيحبط عمله فلا ثواب حسن له، ومن عمل صالحاً عن إيمان بتوحيده تعالى وبكتبه وبالآخرة... حتماً سينال الثواب، والآية

تشير إلى شعور المؤمن العامل للصالحات في يوم القيامة، وهو الشعور بالاطمئنان والراحة مما هو قادم، حيث وعده سبحانه بالثواب والإنصاف منه تعالى أن يعطيه الثواب من بعدما وعده به، ومن الظلم أن يحرمه تعالى مما وعده به، فسيكون شعور المؤمن خالياً من أي خوف من ظلم كهذا، فلن يغيّر سبحانه قراره، ولن يستطيع أي شيء منعه تعالى من الوفاء بوعده، ولن يستطيع أي أحد أن يأخذ أو يقلّل أو يتلاعب بثواب المؤمن، فمن كل هذه النواحي يشعر المؤمن بالاطمئنان.

تصوّر في الآخرة أن يقولوا للمؤمن العامل للصالحات: متأسفون، غيّر ربنا سبحانه قراره ولن يعطيك أي شيء، أو لن يعطيك الجنّة الخالدة، بل متاعٌ عاديٌّ مثل متاع الدنيا، أو غيّر سبحانه قراره ويريد رمي المؤمنين العاملين للصالحات في النار! لا، وألف لا، فهذا لن يحصل، وأكّد عليه القرآن مراراً وتكراراً.

في خضمّ أحداث يوم القيامة وما بعده هناك مليارات من البشر قاموا من الموت، وكما نقول بالعامية: لن تضيع الطاسة. والآية هنا تركّز على شعور المؤمن بأنه يشعر بالتأكّد من حصوله على ثواب رائع منه تعالى، فشعور الاطمئنان تنقله الآية ويقابله شعور الآخرين بالعذاب حتماً، فهم في حالة خوف وقلق دائم...

بقي شيء تجده في بعض الكتب، حيث قالوا إنه تعالى يفعل ما يريد ويشاء، فلو قرّر رمي المؤمنين في النار وإدخال الكافرين إلى الجنّة، لفعل، وبعضهم يقصد بذلك الافتراض حتى يبيّن أنه تعالى يفعل ما يريد، ولكن العديدين ممن قالوا هذا الكلام ذهبوا به إلى مخالفة صريح ما يقوله القرآن، وكنموذج عنه ما تقوله آيتنا هنا، فلم يفترضوا بل قالوا إنه تعالى قد يفعل ذلك، وقال بعضهم أيضاً إنه تعالى لو فعل ذلك فمعايير الحسن والخير والعدل والإنصاف... ستتغيّر، لأن ما يفعله تعالى دائماً هو الخير، حتى لو نكث بوعده ورمى المؤمنين في النار وأدخل الكافرين إلى الجنّة، فعندها سيصير هذا التصرّف حسناً لأنه تعالى فعله!

هؤلاء بعضهم يظن بهذا الكلام أن إيمانه ومعرفته به تعالى أرقى وأعلى من إيمان ومعرفة الآخرين! بنظره الآخرون قيّدوه تعالى وصار لا يفعل ما يريد، بينما هم يؤمنون بأنه تعالى يفعل ما يريد، بل ويصير ما أراده تعالى هو الخير حتى لو كنّا نحن نراه فاسداً، فيجب أن نراه حسناً حتى يكون إيماننا به تعالى صحيحاً.

يعني، وبحسب إيمانهم العالي، فإذا قضيت حياتك هنا في الدنيا تقياً على أكمل وجه وموعوداً في كلامه تعالى بكل صراحة ووضوح وتكرار بأنه سيجعلك في الجنّة، وجاء يوم القيامة، وأدخلك تعالى النار، ففي النار عليك أن تفهم أن الخير هو ما فعله تعالى بك! أو أن معيار فهمك للخير سيتغيّر وستشعر بأنه تعالى لم يظلمك...!

لا أدري ماذا أقول لك وأنقله لك في هذه الدراسة من أمثال هذا الكلام التافه، ستشعر في العديد من دراستي للآيات أن كلامي مطوّلٌ ومكرّرٌ، وأنت قد لا تعلم بما ذكروه من كلام فارغ كثير حول الآية في كتب التفاسير، ولا تعلم أني بتكرار كلامي بعبارات وصيغ مختلفة أحاول شرح الآية كما هي، وفي نفس الوقت أردّ على التفاهات.

لست أقصد أن كل كلام المفسرين تافه إلا إذا وافق كلامي، لا، لأن بعضهم بذل جهداً رائعاً يظهر منه بوضوح محاولته رضاه تعالى، وهؤلاء حتى لو خالفت كلامهم فاحترامهم على الرأس والعين، وسيأتي من بعدي من يخالف كلامي لأنه دقّق ودرس وصار لديه رؤية أفضل، فهل سيسخّف كلامي ويعتبره بلا قيمة؟ أو يتّهمني بالسوء؟

هل أكون قاسياً إن تكلمت بالسوء عن علماء السوء الذين يسمّون بعلماء السلاطين، وهم الذين يقولون ما يرضي الحاكم مخالفين صريح كلامه تعالى، حيث تعاموا عن عشرات الآيات الصريحة كآيتنا هذه، وقالوا للناس إنه تعالى قد يجعل حاكمهم الظالم الفاسق شارب الخمر قاتل النفس المحترمة... في الجنّة ويجعل النبي محمّد(ع) في النار! أمثال هؤلاء أقصد بأصحاب الكلام التافه.

(وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً{113})
{وَكَذَٰلِكَ}، وبهذا التوضيح عن الثواب والعقاب، {أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا}، نزلت هذه المعلومات باللغة العربية المقروءة، ويمكن لأي شخص يفهم اللغة العربية أن يقرأها، "ويمكن ترجمتها من العربية لأي لغة أخرى فيفهمها الجميع".

{وَصَرَّفْنَا فِيهِ}، نشرنا ووزعنا بين آيات هذا القرآن، {مِنَ الْوَعِيدِ}، من أمور قال تعالى إنه سيفعلها، وسياق الكلام هنا عن التهديد بالتعذيب، {لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}، فمن المتوقّع والمفروض منهم أن يتجنبوا ويتحاشوا غضبه وعقابه سبحانه.

{أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا}، حيث يعرض القرآن شيئاً جديداً عليهم يجعلهم يذكرون فيستحضرونه تعالى في فكرهم وقولهم ومشاعرهم وعملهم، فمن هو مُتَّقٍ من الأساس فسيكون هذا القرآن له ذكراً فيذكّره بربّه سبحانه فيبقى على تقواه، فليست كل الناس مطيعة خوفاً من العقاب، فبعضهم مطيع تقي محبّة بالثواب، وبعضهم مُتَّقٍ محبّة بخالقه سبحانه.

نتذكّر دائماً أن كلمة قرآن تعني: الشيء القابل للقراءة. ففي الكتاب الرئيسي "السماوي" لم تكن المعلومات التي فيه قابلة لأن نقرأها نحن البشر، وقسم منها جرى تحويله للغة العربية وصار قابلاً للقراءة، فصار قرآناً. ولذلك ننتبه أن الآية الواحدة وصفها قرآنٌ، والسورة وصفها قرآنٌ، فلا يذهب فكرنا بأن كل الكتاب الذي بين أيدينا فقط اسمه قرآن.

بالنسبة لنزول القرآن باللغة العربية فهذا شيء منطقي، فالرسول محمد(ع) من العرب، وهو رسول لكل البشرية، "مثل كل الرسل"، ولكن الرسالة التي تنزل عليه من ربه سبحانه حكماً ستكون باللغة التي يعرفها الرسول الناقل لها، وهذا بديهي وذكرته الآية 4 من سورة إبراهيم {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، فالإنسان الذي لا يعرف اللغة العربية لا يحق له أن يقول: محمد عربي، ورسالته بالعربي، فلا علاقة لي به ولا بدينه. لا، فسبحانه عبر القرآن يقول له: إن الكلام الإلهي نزل بلغة من لغات البشر، وهذا كافٍ لتصل المعلومات إلى الجميع عبر تناقل معانيه بينهم، ومن الطبيعي البديهي أن تنزل الرسالة باللغة التي يعرفها الرسول الذي نزلت عليه الرسالة، ومهما كانت لغتك فمن واجبك الالتزام بكلام ربك سبحانه.

معلوم لك أن اللغة الأجنبية ليست مشكلة لمن يريد التعلّم في الجامعات الأكاديمية حول العالم، فالدارج في عصرنا انتشار اللغة الإنجليزية في غالبية جامعات العالم، وقبله كانت الفرنسية والبرتغالية والإسبانية... وقبله كانت اللغة العربية ولمدة طويلة من الزمن مسيطرة على العلوم، وكان الأوروبي والآسيوي من وسطها وشرقها، كانوا قديماً يتباهون بإجادتهم للغة العربية لأنها اللغة العلمية.

كون القرآن عربياً فهذا ليس عائقاً ولا عذراً مقبولاً للذين يقولون إنهم لا يجيدون اللغة العربية طالما الكثيرون منهم يتعلمون لغة أجنبية لتعلّم أمور أقل أهمية من كتاب نازل من الإله.

معلوم لك أن كثيرين من أهل اللغات الأخرى غير العربية أسلموا بسبب ما علموه من حقّ وصلاح في هذا الدين، ولم يتعلموا من العربية إلا قراءة سورة الفاتحة وبعض قصار السور، وهذا لا يضرّ بإسلامهم طالما هم معلنون الالتزام بما في القرآن ويسمعونه عبر متفقّه في الدين، ويدعم قولنا هذا ما ورد في الآية 122 من سورة التوبة {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}.

انتبه جيداً لما يقوله عموم القرآن، فالفرق الوحيد بين هذا الكتاب وبين ما سبقه من كتب أنها كانت بلغات الرسل التي نزلت عليهم ومحمّد (ع) لغته عربية فكان هذا الكتاب بالعربية.

لا توجد خاصية تميّز اللغة العربية عن بقية اللغات، فلا يخطر ببالك أنه سبحانه أنزل القرآن باللغة العربية لأنها متفوقة على بقية اللغات في التعبير أو المفردات أو تركيب المعاني... فهذا غير صحيح، فكل اللغات لديها القدرة على التعبير عن أي معنى بطريقتها الخاصة، وفكّر في اللغة التي نزلت بها التوراة والإنجيل، والتي نزلت بها صحف الأنبياء، فلا واحدة منها كانت عربية، فهل كانت تلك الكتب عاجزة عن التعبير بدقّة عمّا يريد تعالى قوله؟ وفكّر في اللغة التي تكلّم بها تعالى شخصياً مع كليمه موسى(ع)، فهل هي لغة كانت مقدسة؟ أو صارت مقدسة؟ إذاً لا خاصية مميزة ولا مقدسة لأي لغة على أخرى عند ربنا سبحانه وتعالى.

الأسخف منه كلام المسلمين عن لغة أهل الجنة أنها العربية فقط أو الفارسية فقط أو التركية فقط... فما هذه المعارك التافهة لنصرة تميّز لغة على بقيّة اللغات! وما هي لغة أهل النار؟ وبأي لغة سيكون الحساب؟ وطالما افترضوا أنه تعالى سيعتمد لغة واحدة في الآخرة ليزرعها في عقول كل البشر، فلماذا لم يخطر ببالهم لغة جديدة؟ ولماذا يحصرون طرق التواصل أصلاً عبر الطرق التي يعرفونها الآن في الدنيا؟ ولقليل من التوسّع حول هذا راجع دراسة الآية 21 من سورة فصلت {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ}...

ننتبه أكثر، فالقرآن نزل باللغة العربية وبلهجة قريش، وهي القبيلة التي منها النبي محمد(ع)، فكل كلمات القرآن كانت مستعملة عند العرب في حين نزول القرآن، ولكن هذا لا يعني أن كل كلمات القرآن كانت تعرف معناها قريش، بل ستجد من بقيّة العرب أقواماً بالتأكيد يعرفون معناها، فكون الإنسان عربياً ملماً بلغته لا يعني أبداً معرفته بكلّ كلمات اللغة العربية، فهناك أسماء لأشياء أصلاً لم يرها ولم يسمع بها وعرب آخرون لديهم اسم لها، وعلى المستوى الإلهي فسبحانه غير ملزم باستعمال الكلمات التي يعرفها القرشيون أو المدنيون "اليثريبيون"، بل سيستعمل الكلمة العربية الدقيقة الصحيحة التي يعرفها آخرون من العرب.

التفت إلى مكة البعيدة عن البحر، فأهلها لا يعرفون الكلمات العربية التي يستعملها العرب الساكنون على البحر، فتجد "من الروايات والقواميس" أن المثقفين من أهل مكّة والمدينة لا يعرفون معنى كلمة مرجان! وسبحانه أراد في آية من كلامه أن يتحدّث عمّا في البحر، فأي كلمة سيستعمل إن كان غالبية أهل مكّة والمدينة لا علم لهم بأسماء بعض ما في البحر؟ ومكّة والمدينة لم يكن فيها مدينة صناعية كالتي كانت في بعض المدن المتحضرة التابعة للرومان والفرس واليونان، فسكّان المدينتين لا يعرفون صنعة تسفير الكتب، ولا صنعة القماش، وليس لديهم علم باختلاف أسماء كل أنواع الأواني، وأكثرهم لا يعلم صنعة تربية النحل، فلا يعرفون معنى كلمة رحيق... ولذلك تجد أنه حتى أصحاب القواميس يقعون في مشكلة جهلهم للكلمة العربية الخاصة بأهل صنعة أو فن أو حرفة، فيخمّنون أو يخترعون لها أقرب معنى، ونقع نحن في مشاكل معانيهم التخمينية والمخترعة معتقدين أننا أمام مصدر موثوق رصين علمياً!

بالنسبة للكلمات القرآنية التي اخترع لها المفسرون معانيَ لا تجد لها أصلاً في اللغة العربية، فهذه المشكلة واضحة في القواميس التي اعتمدت على كلام العرب لتحديد معنى كلمة ما، فبعد كلام أصحاب القواميس عن المعنى اللغوي لكلمة ما، تراهم يذكرون لك معنىً مختلفاً ذكره المفسرون لنفس الكلمة التي وردت في القرآن! وهنا وهناك تجد كاتب القاموس يقول لك: ما قاله المفسرون عن معنى الكلمة القرآنية فهو ليس معناها اللغوي بل تطبيق لها على مصداق. وخذ مثلاً عن ذلك تفسير بعضهم لكلمة إثم الواردة في الآية 33 من سورة الأعراف بالخمر... {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ}...

بالنسبة للكلمات الأجنبية عن العربية التي قالوا إنها موجودة في القرآن، فكل اللغات تشترك في استعمال الكلمات، والكلمة التي لها أصل أجنبي واستعملها القرآن فهذا لا يعني أن الكلمة ليست عربية، فعندما يستعملها العرب تصير عربية من أصل أجنبي، ولا مشكلة في استعمال القرآن كلمة يستعملها العرب وقد وصلت إليهم من لغة أخرى، فهذا حال كل اللغات، واللغة العربية ليست استثناءً، فهي لغة لم تخرج من الحائط، بل تولّدت مثلها مثل بقية اللغات، من الحاجة لتسمية ووصف الأشياء والحالات... فوضع العرب كلمات واستوردوا كلمات من لغات أخرى وورّدوا كلمات للغات أخرى... وحين استوردوا كلمة ما فهم نطقوها بطريقة خاصة في تركيب الكلمات والنطق... بما يناسب لغتهم ولهجتهم...

بصريح العبارة فالذين قالوا إن وصف القرآن لنفسه بأنه عربي فهو وصف غير صحيح بسبب ما فيه من كلمات أجنبية "برأيهم"، فهؤلاء سخفاء لدرجة التفاهة، والحقّ ليس عليهم لوحدهم بل على المسلمين الذين أسّسوا لهذه التفاهة، فلدينا مخزون ضخم من روايات تفسيرية يتبجّحون فيها بمعرفتهم للغات أجنبية ويقولون فيها عن هذه الكلمة التي استعملها القرآن أو تلك إنها من أصل أجنبي! وبعض الروايات يقولون فيها إن الكلمة القرآنية الفلانية أصلاً ليست مستعملة عند العرب وهي أجنبية! فهي على لغة طيّء أو الحبشة أو فارسية... فهذا خطأ، ولم يكن عن دراسة، ولو تعمقت بما قالوه لوجدتها افتراضات غير مستندة إلى واقع... وقد تبيّن لك من هذه الدراسة للكلمات التي يقولون إنها أجنبية، تبيّن لك طفولية وسذاجة علمية "غير بريئة" في كثير من الأحيان، فبدل أن يقولوا: لا أعلم معنى هذه الكلمات. اقتحموا المجهول! وهذا ما أقوله عنهم حاملاً لهم على محمل حسن...

فرضاً فرضاً فعلاً كانت بعض الكلمات التي استعملها القرآن ليست عربية، وبالقياس مع ستة آلاف جملة يتألّف منها القرآن، ففرضاً ما قالوه عن تلك الكلمات كان صحيحاً وفرضاً قبلنا أنها ليست عربية، فكم عددها حتى تمنعنا وصف القرآن بالعربية!

الأسخف من السخافة تبجّح البعض باللغة السريانية، وتفسيرهم لكلمات القرآن بسذاجة التخريف، جاعلين منه كلّه من أصل سرياني! لدرجة مسحهم للغة العربية من أصلها وكأنها ليست لغة بل لهجة سريانية استعملها الذين اسمهم عرب بشكل رديء! ونتج عن ذلك كتاب القرآن المؤلّف بالسرياني الرديء! ولن أطيل الكلام عن هؤلاء وأمثالهم من المتبجحين باللغة الآرامية، والمتبجحين بمعرفة بعض كلمات لغات قديمة كالحميرية والفينيقية... لأن صحّتي الجسدية لا تسمح بتحمل الغثيان من تفاهتهم.

القائلون بأن القرآن يكذّب نفسه حين يقول بأنه عربي بينما نجد فيه كلمات غير عربية. فهم يقصدون بكلامهم أن هذا القرآن ليس من مصدر إلهي وأنّ محمّداً قد ألّفه، أليس كذلك؟ حسناً، ألا يعني هذا أن محمّداً خبير لغات أجنبية؟ وبحسب كلامهم وصحّة معاني الكلمات التي استعملها القرآن في دلالتها على المعنى المقصود، ويقولون إنها أجنبية، فهذا يعني أن محمّداً خبير غير عادي في براعته في استعمال اللغة الفارسية والنبطية والرومية والسريانية والعبرية... وهي اللغات التي تفلسف الجيل الأول والثاني والثالث... من المسلمين وقالوا عن بعض كلمات القرآن إنها من تلك اللغات. فما هذا الكلام! ألا يسمعون أنفسهم؟ فقط يريدون أن يقولوا: هذه الكلمة استعملها القرآن، وأصلها فارسي، فالقرآن لا يمكن أن يقول عن نفسه إنه عربي. أهذا ما يريدون قوله وهم لا يفكّرون في معنى كلامهم وأنه يدلّ على معرفة غير عادية بل معرفة فائقة لمحمّد باللغات!

كلامهم يعني أنه توجد لغة على الأرض لم تأخذ ولا كلمة من أي لغة أخرى! ولا تشبه كلماتها كلمات أي لغة أخرى، وهذه اللغة "التي لم يخبرونا ما اسمها" فقط يحق لها وصف كلامها بأنه صافٍ ليس فيه كلمات أجنبية، فلو نزل القرآن بتلك اللغة فقط وفقط كان يحق له أن يقول إنه من تلك اللغة! فمن المفروض وبحسب كلامهم أن تكون اللغة العربية لا تشبه بكلماتها ولا أي لغة أخرى، حتى يحقّ للقرآن أن يقول عن نفسه بأنه عربي! وها ترى في علم الألسنيات تصنيف اللغات واللهجات على الأرض "حالياً" بعدّها بقرابة الستة آلاف، ولا واحدة منها مختلفة عن كلّ الأخريات، ولا واحدة، وبالتالي وبحسب كلامهم فلا يحق ولا لأي لغة منهم أن تقول عن كتاب لها إنه فرنسي أو ألماني أو صيني... لأن بعض كلماتهم مشتركة أو مستوردة من لغات أخرى!

هناك كلام كثير حول هذا الموضوع، وأحيلك فيه إلى دراستنا هذه في أي كلمة قالوا عنها في كتب التفاسير والقواميس إنها أجنبية أو من أصل أجنبي، لترى مختلف حالات القائلين بين الاستهتار والطفولية والجهل... والخطأ غير المتعمّد، والخطأ المتعمد...

هل هذا يعني أن هذه الدراسة فسّرت كل الكلمات بطريقة صحيحة؟ لا، ولكنها اعتمدت منهاجاً أقرب للصواب، وإن شاء الله تعالى تكون بذرة ونواة لدراسات أفضل يقوم بها الآخرون ومتخلّصة تماماً من الموروث الثقافي البعيد في أكثره عن الحقّ.

(فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً{114})

{فَتَعَالَى اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز "الله" أعلى، وهو {الْمَلِكُ}، يتبع له كل ما في الدنيا ويحكمها ويسيطر على كل شيء، {الْحَقُّ}، لأنه وحده تعالى موصوف بالملك من مستوى إلهي، وهذا هو الحقّ، وأي كلام معارض لهذا فهو باطل وليس صحيحا، وفي عدة آيات لم نَرَ فرقا في وصفه تعالى بالحقّ بما يتعلق بشيء محدد، ونراها صفة عامّة تشير في الآية هنا كمثال أنه تعالى فعلا وفي الحقيقة هو الملك من مستوى إلهي لما في الدنيا، وتشير بالصراحة أو ضمنا أن قراراته تعالى فيما يفعله بملكه هي قرارات وأفعال حقّ، ولا يظلم ولا يعبث...

{وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ}، لا تحاول أيها النبي محمّد(ع) ولا بأي طريقة أن تستعجل القراءة قبل أن تتم، ولا تحاول استباق الكلمات، {مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ}، حيث يتم إخبارك بإنهاء {وَحْيِهِ}، لأنه ممنوع أن تستعجل ولا بأي شكل قبل أن ننتهي من إيصال المعلومات "القرآن" إلى وعيك.

الآية هنا على معنى الآية 16 وما بعدها من سورة القيامة {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ}، حيث أحيانا حين تنزل آية يبدأ (ع) بترديدها حتى يحفظها، وهنا الآية تلفت الانتباه أنه يحاول استباق الكلمات، مَثَلًا يكمل الكلمة بعد سماعه لأول حرف منها... لذلك تنبّهه الآيات أن لا يفعل هذا، بل انتظر حتى تنزل كل الآيات بالتمام.

{وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا}، توجَّهْ للمسؤول عنك من مستوى إلهي طالبا منه أن يزيدك من المعلومات التي تصلك منه تعالى، لأنك أيها الرسول(ع) بنزول الوحي عليك تتعلّم أمورا جديدة، ولا تستبقها فتخالف قواعد التعلّم، بل انتظر لتتعلّم، ولا تعتمد على علمك في تكملة الكلمات أو الجمل، واطلب الازدياد في المعلومات منه تعالى.

نلاحظ أن الخبر عن عجلة النبي(ع) أثناء نزول القرآن، والتنبيه عليه هنا، هو خبر لنا لنعلم أن الكلام الذي وصلنا "القرآن" هو إلهي بالتمام والكمال، ولم يَزِدْ ولم يَنْقُصْ منه النبي(ع) ولو حرفا واحدا وذلك بضمانة إلهية، وتجد هذا المعنى عن الضمانة في الآية 6 من سورة الأعلى {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى}.

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً{115})
الشقاء لا يحصل من التكليف بحمل الرسالة بل من الناس، وهذا ما ركّزت عليه القصتان السابقتان كنماذج من حياة النبي موسى(ع)، مَرَّةً من المعاناة مع فرعون، وَمَرَّةً أخرى من المعاناة مع قومه، والآن تنتقل السورة لنوع آخر من الشقاء الذي يسببه سقوط المكلّف في فخّ الشيطان:

{وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ}، مثلما عهدنا إليك أيها الرسول محمّد(ع)، حيث من قبل أمرنا آدم بالالتزام بشيء، {فَنَسِيَ}، فَذَهَبَ عن ذهن آدم(ع) ما عاهدنا عليه، {وَلَمْ نَجِدْ لَهُ}، لآدم(ع)، {عَزْمًا}، شدّة قويّة في الالتزام بالعهد.

ستعرف من بقيّة الفقرة أنه تعالى أمر آدم(ع) أن يعاهده بأن لا يطيع إبليس، وأن لا يأكل من شجرة محدّدة من الجنّة ستسبّب له ضررا... ولكنه (ع) أطاع إبليس وأكل من الشجرة... مخالفا بذلك أوامره تعالى، ولم يكن شديدا في الالتزام الذي التزم به.

ضع في بالك دائما أن آدم(ع) أوّل بَشَرِيٍّ تأهّل ليتكلّف بالأوامر الإلهية بحسب ما نفهمه من الآية 30 من سورة البقرة، التي تشير لتواجد بشر غير آدم في زمنه {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ}...، فَرَاجِعْ دِرَاسَتَهَا لمزيد من التوسّع.

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى{116})
{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ}، حيث قال سبحانه للملائكة(ع): {اسْجُدُوا لِآدَمَ}، عبّروا عن شدّة احترامكم له، {فَسَجَدُوا}، كلهم، {إِلَّا إِبْلِيسَ}، فقط الذي اسمه إبليس، {أَبَى}، فَرَفَضَ بشدة، وامتنع قطعيا عن السجود، ولم يعبّر ولا بأي طريقة عن احترامه لآدم(ع).

من مجمل الآيات القرآنية، وبخاصة من الآية 30 وما بعدها من سورة البقرة، نستنتج أن البداية كانت حين قال سبحانه للملائكة(ع) إنه تعالى جاعل في الأرض خليفة، فَاسْتَغْرَبَتِ الملائكة(ع)... وبعدها عرض سبحانه "كائنات" مميزة عليهم، ولم يعرفوها، وسبحانه علّم آدم(ع) أسماءها، وفهمنا أنهم البشر المؤمنون من نسل آدم(ع) الذين يستحقون أن تعبّر الملائكة لهم عن فائق احترامها... وصدر الأمر الإلهي للملائكة(ع) بالسجود، وإبليس من الجنّ كما ورد في الآية 50 من سورة الكهف {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ}...، والجنّ عادة غير مسموح لهم بالصعود إلى سماء الملائكة العالية(ع)، وكان إبليس حالة استثنائية مع الملائكة(ع) في سمائها العالية بسبب ادِّعَائِهِ شدّة محبّة التقرّب منه تعالى... وَمُفْتَرِضًا نفسه من أشدّ المقربين إلى الله تعالى مثل الملائكة (ع)، وعندما صدر الأمر الإلهي بالسجود، سجدت الملائكة(ع) ورفض إبليس.

لا تتعب نفسك لفهم كيفية سجود الملائكة (ع)، لِأَنَّنَا نسجد بتقريب وجهنا من الأرض أو ملامسة شيء من وجهنا للأرض وعادة نضع جبهتنا على الأرض، ولكن الملائكة(ع) وكما تعلم لا تشبهنا في شكلها ولا في تكوينها، وطالما لا يمكننا رؤية الملائكة الآن، ولا نعلم كيف شكلها وتكوينها، فَيَكْفِينَا أن نعلم أنها قامت بحركة أو بشيء ما، وهو يوصف بأنه تعبير عن شدّة احترامها لآدم(ع)، وبلغة البشر هذا التعبير الشديد وصفه: سجود.

السجود تعارفنا عليه في ثقافتنا الدينية أنه تعبير لا نقوم به إلا لله تعالى على أساس أنه تعبير عبادة، ولكنه بالأساس تعبير متدرّج من فائق الاحترام والتقدير مرورا بالخضوع وصولا إلى ما يسمّى بالعبادة، ومن التعبير عن الاحترام سجود أهل النبي يوسف(ع) له كما نقلت الآية 100 من سورة يوسف {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا}...

(فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى{117})
الآيات هنا اختصرت الحوار الذي دار بينه تعالى وبين إبليس... {فَقُلْنَا}، فقال سبحانه:

{يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا} "إبليس" {عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ}، لِأَنَّهُ لا يريد لكما الخير أبدا، {فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ}، لِذَلِكَ انتبه أن يجعلك تقوم بعمل يسبّب لك الخروج من هذا المكان الموصوف بروعة ما فيه، {فَتَشْقَى}، فَتُسَبِّبَ لنفسك التعاسة، لأنك ستصير مضطرا للعمل وبذل الجهد للحصول على المسكن والطعام والماء... وستفقد الأمان... وهذا ما نفهمه من الآية التالية.

يعني حذّره تعالى من إبليس ولم يترك سبحانه آدم(ع) على عماه، حَيْثُ حذّره تعالى أن إبليس سيحاول إخراجه هو وزوجته من الجنّة لأن مصلحتهما البقاء فيها وإبليس لا يريد لهما الخير، فإذا نجح إبليس فسيتحمّل آدم(ع) نتيجة ما يحصل لأنه سبّب لنفسه التعاسة.

نَنْتَبِهُ إِلَى أن تواصله تعالى مع آدم(ع) كان وحيا ولم يكن بشكل مباشر لِأَنَّ هذا مستحيل، بِسَبَبِ الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين طبيعة مخلوقاته، وحتى الملائكة العالية كجبريل(ع)، لِذَلِكَ لا يمكن لأي مخلوق التواصل مباشرة معه تعالى، لِأَنَّ هذا مستحيل، وراجع في ذلك الآية 51 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}.

اَلْجَنَّةُ التي كان فيها آدم(ع) ليست جنة الآخرة، لِأَنَّ جنة الآخرة ستتشكّل بعد انتهاء الدنيا أي بعدما تتبدّل السماوات والأرض، وَهي في وقت آدم(ع) لم تكن موجودة أصلا، ولا الآن هي موجودة، وستوجد في الآخرة بعد تبدّل الدنيا، وكل كلام القرآن يشير لذلك ومنه الآية 20 من سورة الشورى {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ}، والآية 48 من سورة إبراهيم {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}.

إِذَنِ الجنة التي تتحدّث عنها الآية هنا هي مكان "حدائق وبساتين أو غابة..." في الدنيا، وفيها زرع وماء وأمان... وهي في مكان ما على الأرض، ولا يهمّنا معرفة موقعها الجغرافي لِأَنَّ هذا لن يقدّم ولن يؤخّر في فهمنا للعبرة من قصّته (ع). وَتَذَكَّرِ استعمال القرآن مرارا لكلمة جنّة لوصف أي مكان رائع، سواء في الآخرة أو الآن، وكمثال قرآني عمّا ورد من وصف لأماكن هنا في الدنيا على الأرض أنها جنّة، ما ورد في الآية 91 من سورة الإسراء {أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا}، والآية 15 من سورة سبأ {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ}، والآية 32 من سورة الكهف {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا}، وغيرها من الآيات التي وصفت أماكن هنا على الأرض بأنها جنّة.

نَنْتَبِهُ جيدّا للتعبير {تَشْقَى} حَيْثُ يردّنا إلى أوّل السورة، حينما أخبرتنا أنه تعالى لا يقصد تسبيب الشقاء للرسل، وهنا تبيّن أنه تعالى لم يكن هدفه الشقاء لآدم(ع) حين كلّفه وَعَهِدَ إليه، وَحَذَّرَهُ تعالى من الشقاء من عدو سيحاول جعله يفعل السوء، وحذّره تَعَالَى من عمل سيّء وهو الأكل من الشجرة التي ستسبّب له ضررا... وكانت النتيجة أن وسوس له إبليس فَخَالَفَ أمره تعالى وأكل من شجرة سبّبت له أن يتعرّى كما ستقرأ في الآية 121 الآتية.

تَذَكَّرْ دائما أن القرآن لم يذكر اسم زوجة آدم(ع)، والمشهور بين الناس أن اسمها "حوّاء"، لِأَنَّ المرأة الوحيدة التي ذكر القرآن اسمها هي السيدة الطاهرة الصدّيقة مريم(ع).

(إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى{118})
يكمل سبحانه كلامه مع آدم(ع):

{إِنَّ لَكَ}، نَضْمَنُ لك، يا آدم في هذه الجنّة، {أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا}، حَيْثُ لَنْ تفقد الطعام إن شعرت بالحاجة إليه، لأن الأكل متوفّر بكثرة في الجنّة، {وَلَا تَعْرَى}، ونضمن لك أن لا تصير فيها بلا مأوى في العراء، لِأَنَّ فيها أماكن صالحة للسكن والمبيت.

(وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى{119})
{وَأَنَّكَ}، في هذه الجنة، {لَا تَظْمَأُ}، حَيْثُ لَا تشعر بالعطش، لأن الماء متوفّر، {وَلَا تَضْحَى}، حَيْثُ لَسْتَ مضطرا للتنقّل فيها أو الانتقال منها بسبب حرارة الشمس القوية من النهار، لِأَنَّ هذه الجنة فيها الظلال متوافرة، ومناخها مناسب، والطعام والشراب مُتَوَفِّرَانِ فيها ويمكن الحصول عَلَيْهِمَا بكل سهولة.

مَعْلُومٌ لك أن أسباب فقدان الطعام والشراب وَالمأوى... عديدة، منها البيئة الصعبة بمناخها غير المناسب... ومنها وُجُودُ حيوانات مفترسة، ومنها تواجد بشر عَدَائِيِّينَ...

(فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى{120})
المجاهدة الظاهرة من التعامل مع الناس يقابلها مجاهدة مع وسوسة الشيطان وهي أخطر، لِأَنَّ المعاناة من الناس ليست أعنف من المعاناة من إِبْلِيسَ:

{فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ}، حَيْثُ قام إبليس الذي يوصف بأنه شيطان لأنه يقوم بأعمال فاسدة ويضلّل الآخرين، وَقام برمي أفكار خبيثة في بال آدم(ع) ليدفعه للقيام بعمل سَيِّئٍ، وقال إبليس لآدم(ع):

{يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ}، هل أرشدك، {عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ}، على شجرة إذا أكلت منها تصير خالدا لا تموت، {وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى}، شيء تملكه ولا يصيبه أي شيء يغيّره لِلْأَسْوَأِ، لِأَنَّكَ ستصير خالدا وستملك هذه الجنة ولا يبلى فَلَا يخرب ملكك، وَتعيش في هذه الجنّة إلى الأبد.

لاحظ استبدال الآيات اسم إبليس بوصفه بالشيطان، وهي صفة استعملها القرآن لتوصيف عامّة من يقوم بإضلال الآخرين، وفي الأصل هي وصف لمن يقوم بالأعمال الضالة السيئة بنفسه ويشجّع الآخرين عليها.

نَتَذَكَّرُ من آيات أخرى أن هذه الشجرة التي يتكلم عنها إبليس هي نفسها الشجرة التي أمر سبحانه آدم(ع) أَلَّا يأكل منها، وهذه القصّة مشهورة منذ الْقِدَمِ، ومنتشرة بين عامّة الناس من أهل الكتاب وغيرهم.

كَلِمَةُ الوسوسة تستعمل لوصف حالة دخول الأفكار السيئة على الفكر والبال، وفي استعمالنا لها تشمل وصول المعلومات من أي مصدر كان يدلّك على فعل الشيء السَّيِّئِ ولا يجبرك عليه بالقوة، سواء وصلت الفكرة بالكلام من الفم للأذن، من إنسان لآخر، أو وصلت مباشرة إلى الوعي، من شيطان جِنِّيٍّ لإنسان، أو تكوّنت في الوعي، كما توسوس لنا أنفسنا.

أقول لك هذا لأننا مشحونون بثقافة دينية موروثة تشير لكلام مباشر مسموع بالأذن من إبليس لآدم(ع)، وهذا لا يبدو صحيحا بالنظر لعموم ما نفهمه من كلام القرآن عن تعامل الشياطين معنا، علما أن التواصل حصل بطريقة تؤكّد لآدم(ع) ولزوجته أن إبليس يقول لهما، وهذا ما نفهمه من الآية 21 من سورة الأعراف {وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ}، وأمّا ما يقوله البعض عن تمثّل إبليس على شكل حَيَّةٍ وكلامه مع آدم(ع) فهذا يبدو تَخْمِينًا أو افْتِرَاضًا للطريقة التي وسوس بها إبليس لآدم(ع) وزوجته، لأن كلام عموم المنتمين لدينه تعالى عن تمثّل الجنّ بشكل طيني لا تجد له مصدرا موثوقا.

(فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى{121})
استطاع إبليس إقناع آدم(ع) بالأكل من الشجرة المحرّمة!

{فَأَكَلَا مِنْهَا}، حَيْثُ يشير الكلام لأكل آدم(ع) وزوجته من ثمار أو ورق... الشجرة، مِمَّا سبب لهما فقدانا للفكر الواعي كما يبدو، فَنَزَعَا عنهما لباسهما كما ورد في الآية 27 من سورة الأعراف فَرَاجِعْ دراستها لمزيد من التفاصيل {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا}...

{فَبَدَتْ}، فَظَهَرَتْ، لهما {سَوْآتُهُمَا}، الأجزاء التي يسوءهما أن تظهر من أجسادهما، فَاسْتَفَاقَا بعد مدة ووجدا أنفسهما عاريين أو شبه عاريين وبعيدين عن ثيابهما، {وَطَفِقَا}، فَعَلَى الفور أخذا، {يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ}، فَقَامَا بنزع أوراق الأشجار ليسترا أنفسهما فيغطيا بدنهما.

بعبارة أبسط: أكلا من الشجرة، فقدا فكرهما الواعي "كالسكران"، نزعا ثيابهما، مشيا عاريين "أو شبه عاريين" في الجنة من دون وعي، عاد إليهما وعيهما، وجدا أَنْفُسَهُمَا من دون ثياب، أخذا يغطيان جسديهما من أوراق أشجار الجنة.

{وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ}، حَيْثُ لم يطع أمر المسؤول عنه من مستوى إلهي، {فَغَوَى}، فَتَصَرَّفَ بشكل سَيِّئٍ لا عن رشد.

لِمَزِيدٍ من التفاصيل حول كل القصة راجع دراسة الآية 19 وما بعدها من سورة الأعراف لِأَنَّنَا هناك تحدثنا مطولا عن كل ما له علاقة بهذه القصّة.

هنا كلام حول معصية الأنبياء، هل يصدر من الأنبياء معصية لكلامه تعالى؟ هنا صدر من آدم(ع) معصية، فَقَالُوا إنها معصية من النوع الإرشادي مثل ارتكابنا للمكروهات وليست من نوع ارتكاب المحرمات... على أساس أن الأمر الإلهي لم يكن من نوع الحلال والحرام بل من نوع الإرشاد "النصيحة"... وقيل كلام كثير غير ذلك... وقيل هي معصية صدرت قبل أن يتكلّف بالنبوّة... ولكن لم أجد في القرآن ما يشير إلى نبوّة آدم(ع) من أصله! بل نجد أنه وبصراحة ووضوح غير مذكور مع الأنبياء والرسل، حَيْثُ نجد القفز عنه عند الحديث عن النبوّة، فَلَاحِظِ الفرق بين الكلام القرآني عنه وبين الكلام عن الآخرين الذين تعلم بأنهم أنبياء... والآية التي تتحدّث عن اصطفائه لا يمكن الاستنتاج منها بشكل مباشر أو غير مباشر أنه كان نبيا، لِأَنَّ السيدة مريم(ع) اصطفاها سبحانه أيضا، ولم يقصد القرآن أبدا أنها صارت نبيّة، والإيحاء إلى آدم (ع) أيضا لا يدل على نبوّته، لِأَنَّ أمّ النبي موسى(ع) والنحل والجبال... ذكر القرآن أنه تعالى أوحى إليهم أيضا، وهم ليسوا أنبياء.

بين هذا وذاك تذكّر دائما أن معنى كلامه تعالى عن آدم(ع) يشير لكونه أوّل بَشَرِيٍّ تأهّل ليتكلّف بأوامره تعالى، وراجع في ذلك دِرَاسَةَ الآية 30 من سورة البقرة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ}...، وهذا لا يستدعي أن يكون أوّل نبي بما تحمله كلمة نبي من معنى الوظيفة لنقل كلامه تعالى للآخرين...

ما قام به آدم(ع) معصية، وعقابها محدّد سلفا ومعلوم: الخروج من تلك الجنّة، والشقاء في بيئة سيضطر فيها لتأمين طعامه وشرابه ومسكنه... وجانب آخر من المعصية أَنَّهُ تسجّل عليه مخالفة تكليف إلهي وعلى ذلك عقاب في الآخرة... فَلْنُتَابِعْ:

(ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى{122})
بعد ذلك كما يبدو من الكلام هنا ومن الآية 37 من سورة البقرة {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}، ندم آدم(ع) ندمًا شديدًا وأعلن التوبة وطلب المغفرة:

{ثم اجْتَبَاهُ رَبُّهُ}، ضمّه إليه المسؤول عنه من مستوى إلهي ولم يطرده من رحمته، {فَتَابَ عَلَيْهِ}، فتح له صفحةً جديدةً، وقبل توبته عن المعصية وأنه أقلع عنها فلن يكررها ثانيةً، وأنه لن يسمع كلام إبليس مرةً ثانيةً، {وَهَدَى}، وضعه تعالى على طريق الهداية على الطريق الصحيح الذي يوصله للغاية الصحيحة. ونعرف من القرآن أن الهداية الإلهية تكون بإرشاده تعالى لعبيده إلى العقيدة والشريعة الصحيحة.

(قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى{123})
قال، سبحانه:
{قَالَ}، سبحانه: {اهْبِطَا مِنْهَا}، يا آدم ويا زوجته من جهة، ويا إبليس من جهة أخرى، كلاكما انزلا بشكل إجباري من الجنة، {جَمِيعًا}، بلا استثناء فكلّكم مجبورون على النزول من هنا، {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}، آدم وزوجه وذريتهما من جهة يجب أن يعادوا إبليس لأنه يريد لهم الشرّ، وإبليس وأعوانه من الجنّ الشياطين من جهة أخرى هم أصلًا أعلنوا العداء للإنس فسيحاولون إضلالهم بكل الطرق والوسائل.

{فَإِمَّا}، حينما، {يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى}، يصلكم منّي الأشياء الصحيحة التي توصلكم للغاية الصحيحة، وهي ما يضعكم على العقيدة والشريعة الصحيحة التي توصلكم لمرضاتي وجنتي، {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ}، لا يكون على الشيء الخطأ الذي يوصله للغاية الخطأ، وعمليًّا فهو سيلاقي ثواب إيمانه وعمله الصالح بما يسعده في الآخرة، {وَلَا يَشْقَى}، لا يصاب بالتعاسة من اتبع هداه سبحانه.

الشقاء هو التعاسة الناشئة من عمل تقوم به أو يقوم به الآخرون ويؤثّر عليك، وبنظره تعالى الشقيّ من يعش مخالفًا للدين الإلهي وتعاسته الذنوب التي يحملها، وهو نفس الشيء نظرة العقلاء منّا للسوء وتجنّبه وللخير وفعله، وبنظره تعالى المؤمن مهما حصل معه هنا في الدنيا من مصائب، فليس شقيًّا طالما هو مؤمن عامل للصالحات، لأنّ كل ما يحصل معه يصبّ في مصلحته في الآخرة، وبالعكس أيّ سعادة من السيئات يعيش فيها هنا في الدنيا فهي متاع الدنيا ولا قيمة لها بالمقارنة مع الدار الآخرة التي هي الحيوان، هي الحياة الحقيقية...

انتبه، إبليس غير مشمول بإتيان الهدى لأنه ملعون حتمًا إلى يوم الدين، وسبحانه يعلم سلفًا أن إبليس لن يهتدي، ولا ندري إن كان أحد ما من أتباع إبليس من الجنّ سيهتدي، مع أنه مستبعد بالنظر لوصفهم شياطين.

التفت إلى التكرار لكلمة الشقاء في السورة.

بقي شيء لا ينتبه له "المتدينون" عادةً، نحن "بشكل عامّ" نرى كلامه تعالى هو الهدى، وحلاله تعالى لا ضرر منه، وحرامه تعالى فيه ضرر... أمّا الآخرون "بشكل عامّ" فلا يرون ذلك، بل يرون شيئًا ما مفيدًا لهم ومسبّبًا لسعادتهم فيحللونه حتى لو كان حرامًا في دينه تعالى، وهنا آيتنا وغيرها الكثير الكثير من الآيات تؤكّد بأن فقط ما يقوله تعالى يوصل للغاية الصحيحة، فاتّباع دينه تعالى حتمًا يوصل إلى الجنّة، واتّباع أي عقيدة أو شريعة أخرى فعليه عقاب.

لكن ننتبه جيدًا لأنه تعالى في القرآن غالبًا عرض هذه النقطة من منظور آخر أشمل، حيث عرض علينا الهدى بكلامه سبحانه على أساس أن فينا القدرة على تمييز كلامه تعالى أنه الهدى، لأنّ كلامه تعالى لا يتضمّن أي أمر بفعل شيء سيّئ، ولا يتضمّن سماحه تعالى لنا بترك فعل الخير، ونحن من قبل سماع كلامه تعالى نميّز الخير من الشرّ، والهدى بكلامه تعالى هو تصويب وتقويم لأفكارنا ونفسياتنا بكلامه تعالى الفرقان الحقّ... ونحن نتأثّر بالأمور لدرجة نفقد فيها تمييز الخير من الشرّ بسبب شدّة رغبتنا بشيء سيّئ، فيأتي كلامه تعالى ليهدينا، وكلّ الخير فيه، وأي مخالفة له فهي حتمًا فساد باطل سيّئ... وليست هدى.

من ناحية ثانية، التعابير القرآنية المشابهة لتعبير آيتنا هنا تؤكّد بأنه تعالى لديه شيء ثابت لن يغيّره، حيث إنّ بعض الناس ينطلقون من عقلية التغيير في دينه تعالى على أساس أن ما يقولونه أنسب، وعلى أساس أنه إن كان هناك آخرة فهم لن يتحاسبوا على ما رأوه مناسبًا مع أنه مخالف لكلامه تعالى، وهذا شيء منتشر في عامّة "حكومات" البلدان، وحتى بلداننا التي تحمل اسم الإسلامية، حيث إنّ قانونها وتطبيقه العملي مخالف لبعض كلامه تعالى على أساس أن ما يشرّعونه أنسب، وكمثال بسيط على ذلك قطع يد السارق المستوفي للشروط بوصف جرم السرقة، وهذا حاليًا متعارف بين المسلمين استنكاره! والربا في المعاملات البنكية... متعارف بين المسلمين أهميته وضرورته!

تشريعات الدول من هذا النوع هي انعكاس للهوى الجماعي للأفراد.

الكلام يجرّ الكلام، حيث إنّ الكثير من تفاسير القرآن مشحونة بتفاسير ما أنزل بها تعالى من سلطان، ذكروها لأنهم لم يفهموا المعنى من ظاهر كلامه تعالى بالشكل الصحيح، لذلك اخترعوا معنى يخالف ظاهر كلامه تعالى الواضح لأنهم رأوا كلامهم أنسب من ظاهر ما يقوله القرآن! وآخرون تشبّعوا بثقافة علمية ومذهبية... ومقتنعون بصحتها، لذلك جعلوا تفاسيرهم للقرآن موافقة لما هم مقتنعون به بدلًا من تصويب قناعاتهم بما يقوله القرآن.

للمزيد من التوسّع حول هبوطهما من الجنّة راجع دراسة الآية 36 من سورة البقرة {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{124})

{وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي}، الذي لم يهتم باستحضاري في فكره ومشاعره وعمله، معتبرًا أن ذكره تعالى غير مهمّ، ولم يعتبر كلامه تعالى الذي أوصله لنا الأنبياء مهمًّا، {فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا}، فهذا ذاهب حتمًا إلى حيث سيقضي وقته في التعب والعذاب، والكلام هنا عن الآخرة، ومع المعيشة المتعبة، {وَنَحْشُرُهُ}، نجمعه مع بقية الناس الذين سيرجعون إلى الحياة في يوم القيامة بقرار منّا سواء قبل أو لم يقبل، {أَعْمَى}، لا يرى، فقلبه أعمى، "وشيئًا ما عيناه لا تريان بالمعنى الحقيقي المفروض للرؤية، فلن يرى إلا ما يزعجه". وكما كان هنا في الدنيا مُعْمَى الفكر والنفسية ولم يتّبع الهدى، ففي الآخرة سيكون أعمى الفكر والنفسية.

الآية 19 من سورة الرعد {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ}، استعملت بشكل واضح كلمة "العمى" لمن يرى بعينيه، ولكن لم ير الحقّ الذي نزل على النبي محمد(ع)، والعمى الناتج عن الإعراض عن ذكره تعالى هنا في الدنيا هو نفسه العمى في الآخرة، بما يناسب عالم الآخرة المختلف عن عالمنا، والكلام هنا لا يقصد فقدان الرؤية بالعينين.

بقي شيء، لدينا تعابيرُ قرآنية تفيد بأن الكفّار هنا في الدنيا ورغم ما يظهر على بعضهم من سعادة وسرور، فهم في العمق مضطربون قلقون غير مرتاحين، وهم خائفون دائمًا من فقدان ما يحبّون من مال وصحّة وأولاد... وأي مشكلة تصيبهم تبقى محفورة في داخلهم لأنهم لا أمل لهم بالآخرة التي ستعوّض عليهم أحباءهم وعموم ما فقدوه في الدنيا، وهذا شعور خاص بالمؤمنين بالآخرة، ولذلك تحتمل الآية هنا معنى الإشارة لمعيشة ضنكٍ لهم هنا في الدنيا، والأرجح أنها على معناها العمومي للمعيشة الضنك في العمق دنيويًّا وأخرويًّا.

إلى هنا قرأنا ملخّصًا عن الوعد والوعيد لعموم بني آدم(ع) من أوّل لحظة خرج فيها أبوهم من الجنّة، وتكمل السورة مع مشاهد من يوم القيامة.

لاحظ، التعبير بالمعيشة الضنك والعمى، وهو تفسير عملي لمعنى كلمة شقاء، ونفهم من الآية أن السعادة من نصيب المؤمنين حتمًا في جنّة خالدة والشقاء من نصيب الآخرين حتمًا في عذاب خالد، فعلى هذا الأساس ليكن تقييمنا للصعوبات التي نمرّ بها في الدنيا بسبب تديننا.

(قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً{125})
تنقلنا الآيات إلى نموذج شخص أعرض عن الذكر الإلهي وحشره تعالى أعمى "القلب" في يوم القيامة، حتى يضعنا تعالى أمام نموذج عمّا سيحصل في يوم الحساب وننتبه، فمن كانت آيات ربه تعالى أمامه هنا في الدنيا وعمي قلبه عنها، فسيكون أعمى الفكر والنفسية في الآخرة، وسيشقى، ويقول:

{رَبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {لِمَ حَشَرْتَنِي}، لماذا جمعتني مع البقية بقرار منك، لماذا أقمتني من مماتي وجمعتني مع الناس، {أَعْمَى}، لا أهتدي لشيء ينفعني؟! {وَقَدْ كُنْتُ}، في الدنيا، {بَصِيرًا}، كان لدي القدرة على إدراك ووعي وفهم الصور، لأتصرّف عن عقل ووعي، وأرى الآن مصيري إلى النار ولا أقدر على فعل أي شيء لحلّ هذه المشكلة.

هو يوصّف نفسه أنه كان بصيرًا في الدنيا، أمّا في الحقيقة فهو لم يكن بصيرًا بل كان أعمى، وهذا شيء قالته صراحةً الآية 19 من سورة الرعد {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ}، هنا في الدنيا وصفت الآية كل من أعرض عن الدين الإلهي بأنه أعمى، وكما فهمنا منها أنه أعمى القلب والفكر لأنه لم يتّبع ما ينفعه، وفي الآخرة نفس الشيء، ولن يستطيع أن ينفع نفسه ولا بشيء.

ننتبه لشيء آخر، حيث إنّ الآية تشير لفقدان التركيز لما نصفه بالعامية "تخريف"، مثل حالتنا عند قلّة النوم، أو من كثرة ضغط الهموم، أو عند المرض والحمى... وهذا الشخص هنا في الدنيا كان يرى الإيمان ويفهمه، وبالرغم من رفضه له لكنه كان يراه ويعلم أنه سبيل للخلاص، وبهذا المعنى فعلًا لم يكن أعمى، إنما عمي عندما قرّر المضي في حياته على الضلال، ويوم القيامة يسأل إن كان هناك مجال لفتح الرؤية أمامه بطريقة ما حتى يجد حلًّا لمشكلته الحتمية في عذاب شديد خالد.

(قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى{126})
{قَالَ}، سبحانه: {كَذَلِكَ}، هكذا وبنفس الحالة، {أَتَتْكَ آيَاتُنَا}، في الدنيا ووصلك منّا أمور مميزة منسوبة له تعالى، {فَنَسِيتَهَا}، عرفتها ولكنك لم تهتم بها وحذفتها من بالك، {وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ}، في يوم القيامة من الموت وما بعده من أيام الحساب، {تُنْسَى}، ننساك من هدايتنا للحصول على الرحمة وللوصول إلى الجنة، لا نهديك ولا ندلك على الخير، لأنك أنت بكفرك خرجت من تحت مظلة الرحمة الإلهية.

تتذكّر أن تطبيق الكلمات الوصفية عليه سبحانه يختلف عن تطبيقها علينا، لأننا بطبيعة بشرية وسبحانه إله، وتحدّثنا عن ذلك في دراسة كلمة "حي" في الآية 111 من هذه السورة، لذا نطبّق كلمة نسيان عليه تعالى من بعد تجريدها من متعلقاتها البشرية، حيث إنها حتى باستعمالنا العادي لها تدرجات، يبدأ من ذهاب الشيء أو المعلومة عن بالك، وتذهب حتى من ذاكرتك، مرورًا بتنزيل الأولوية، ويصل إلى تقصّدك إهماله. وسبحانه لا تغيب عنه أي معلومة أو أي شيء، ونسيانه تعالى لهم في العذاب عن إهمالهم من رحمته، عن نسيانهم من رحمته.

للنسيان تدرجات، تبدأ من اختفاء المعلومة تمامًا من ذاكرتك، وصولًا إلى بقائها في ذاكرتك مع خروجها من اهتمامك وتركيزك بسبب انشغالك بشيء آخر أو بسبب تنزيلك لمستوى أهميتها، أو النسيان عن قصد. ووصفه تعالى بالنسيان، المقصود منه إخراجهم من رحمته تعالى، نسيانهم عن قصد من قاموس الرحمة والعناية والرأفة... وسبحانه لا تختفي المعلومات من عنده ولا بأي شكل، ولا ينشغل بشيء يسبب له ترك الاهتمام بأشياء أُخَرَ... وقصدت الآية من تعبيرها بنسيانه تعالى للكافرين وهم يتعذّبون، قصدت توصيل تعبير قاسٍ جدًّا جدًّا لنا عبر التأكيد على انقطاع اهتمامه تعالى بهم عن قصد، لأنه نسيان عن قصد، وليس مَحْيًا لهم من علمه تعالى، بل مَحْيًا لهم من رحمته تعالى، وليس لانشغاله تعالى بأمور أخرى بل لِتَقَصُّدِهِ تعالى نسيانهم.

للتقريب لنقل إنك تسجّل أسماء الناس الذين ستوزّع عليهم جوائز أو هدايا، وأنا أوافق على الأسماء، وتقترح اسم فلان وفلان... وأنا أوافق... وتذكر اسمًا لا أريده في اللائحة، فأقول لك: انْسَهُ. يعني تَقَصَّدْ نسيانه ومُرَّ عنه، فاسمه في بالنا ونتذكّره ولكني لا أريد ذكره في اللائحة.

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى{127})
{وَكَذَلِكَ}، بهذا الشكل الذي أخبرناك به عن حشر الذي أعرض عن ذكره تعالى بحالة العمى وتركه تعالى منسيًّا، {نَجْزِي}، نعطي المقابل، {مَنْ أَسْرَفَ}، من تجاوز الحدّ، حيث بالغ في استعمال جسده وشهواته أو الموارد التي أتاحها سبحانه له، وصرف المال بكثرة، ورمى الطعام والشراب، واستعمل جسده في الشهوات الحرام... وفوق إسرافه فهو، {لَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ}، لم يعتقد بصحّة الأمور المميّزة المنسوبة للمسؤول عنه من مستوى إلهي، ولم يؤمن به تعالى أنه خالق لما في الدنيا من كائنات وظواهر، لأنّ هذه آيات كأفعال إلهية مميزة، ولها دلالة على توحيده تعالى، ولم يؤمن بكلام الأنبياء ولا بالآيات التي حصلت على أيديهم... وبالتالي لم يؤمن بالآخرة.

{وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ}، ونخبرك عن الضرر الذي يصيب هذه النوعية من الناس في الحياة التي ستأتي في الآخرة بعد انتهاء الحياة الدنيا أنه لن يكون عاديًّا أو يمكن تحمّله أو الاعتياد عليه، {وَأَبْقَى}، أدوم، بالمقارنة مع ما تعرفونه من عذاب يصيب الناس في الدنيا فإن عذاب الآخرة لهذه النوعية من الناس مختلف عن عذاب الدنيا لأنه أشد ولا يفارقهم.

(أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى{128})
{أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ}، ألم يضعهم على الشيء الصحيح، {كَمْ أَهْلَكْنَا}، كم استنفد سبحانه حياة، كم أمات، {قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ}، من الناس الذين كانوا مقرونين مجموعين مع بعض في الزمان والمكان لمدة طويلة! هناك أناس أنزل سبحانه عليهم العذاب وأهلكهم، وسمعتم بهم فلماذا لم يهدكم ذلك ولم يسبب لكم ذلك الانتباه لوجود عقاب إلهي لمن عصاه سبحانه! فلماذا لم تهتدوا لذلك؟

{يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ}، يمشي المنكرون لآياته تعالى في أماكن سكن، بين بيوت... الذين أهلكهم سبحانه، فكيف لم يهتدوا وهم يشاهدون نهاية الكفار! ألم يسألوا أنفسهم: أين الذين كانوا يسكنون في مدائن صالح(ع)، وفي مدين، وفي الأحقاف؟ وماذا حل بهم؟ وهم يسمعون من الأنبياء بأنهم تم القضاء عليهم بسبب كفرهم!

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، في مساكن الكفّار المدمّرة الخالية، {لَآيَاتٍ}، لأنها أمور مميّزة تدل على عذابه تعالى لمن كفر، {لِأُولِي النُّهَى}، للموصوفين بأنهم يملكون ولديهم النهي وهي القدرات العقلية والنفسية التي تنهى وتوقف الإنسان عن معصية ربه سبحانه وتجعله لا يفعلها ولا يقترب منها.

كما ترى، العذاب الذي أصاب بعض الأقوام هنا في الدنيا أراد سبحانه منه أن يكون نموذجًا كدليل على عذاب الآخرة، لأنهم تعذّبوا هنا بسبب جريمة كبيرة ارتكبوها، وبالتالي هناك من لا يمرّر الجرائم، ويقوم بإهلاك مرتكبيها، وهذا تطبيق هنا في الدنيا للعذاب على الجرائم في الآخرة، وهذا ما تقوله الآية هنا.

بعبارة أخرى أصرح، الذي يريد دليلًا ملموسًا أنه تعالى سيعذّب الكافرين في الآخرة، فلينظر إلى نماذج من تعذيبه تعالى لبعض الأقوام الكافرة هنا في الدنيا، لأنها دليل على تدخّله تعالى وتنفيذ عقابه بالكافرين.

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى{129})
{وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ}، هناك كلمة قالها المسؤول عنك من مستوى إلهيٍّ في السابق، وهي أنه سيترك البشرية حتى تنهي الحياة الدنيا وبعد ذلك يُحاسِبُهم على كلّ أعمالهم في الآخرة وبشكل نهائيٍّ، {لَكَانَ لِزَامًا}، لولا تلك الكلمة لكان ضرورياً كنتيجة يجب أن تحصل، وتكملة الجملة تعرفُها لوحدك: لكان يجب نزول العذاب النهائيّ على الكفّار من قومك بسبب كفرهم، فَنُعَذِّبَهُم الآن وفوراً، ولكان، {أَجَلٌ}، زمان نهائي لتنفيذ العذاب، {مُسَمًّى}، محدَّدٌ، فلولا الكلمة التي سبقت لطالهم العقاب على ما فعلوه الآن كأجل محدَّدٍ لهم.

هناك {أَجَلٌ مُّسَمًّى}، هناك زمن نهائيٌّ محدَّدٌ لتعذيب هذه النوعية من الناس، ولولا أنه تعالى جعلها في الآخرة، ولولا أنه تعالى قرّر ترك مهلة للتوبة... لكان لِزاماً معاقبتهم فوراً عند قيامهم بالسيئة، ولكان الآن هذا الوقت الوقتَ الذي فعلوا فيه السيئة هو الأجل المسمّى لمعاقبتهم.

هناك شيء تُلاحظُه في استعمال القرآن للتواريخ بالنسبة له تعالى، فيما قرّر تعالى فعله في المستقبل، نحن سنسأل عن السنة والشهر واليوم والساعة لحصوله، وحين يردّ تعالى علينا بالجواب سَيُحَدِّثُنا بما نحن معتادون عليه، وكمثال الكلام عن الروم وأنهم سيغلبون في بضع سنين كما ورد في الآية 4 من سورة الروم {فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ}، أمّا حين يكون الكلام عن شيء سيفعله تعالى وغير ناظرٍ إلى تحديد تاريخه بالنسبة لنا، كحالة الآية هنا، فلا تسأل عن تاريخ من سنة أو شهر لأنه تعالى في شؤونه لا يتعاطى مع الأمور بهذه الطريقة، وخذ مثلاً الآية 94 من سورة مريم {لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا}، سَنُفَسِّرُها بالتساهل أنّه تعالى عدّهم بالأرقام، واحد، اثنان، ثلاثة... ولكن هذه ليست طريقته تعالى في الإحصاء والعدّ، فَذِكْرُ أسمائِهم، أو إحضارُهم كلِّهم بدون استثناء لأنهم كلَّهم معلومون له تعالى، فلنقل بالتساهل أنَّ أسماءهم مسجَّلةٌ في ملف خاصٍّ في الكتاب الرئيسيِّ الذي فيه معلومات عن كل شيء في الدنيا والآخرة، فهو تعدادٌ، تماماً كما نفعل نحن بتعداد أسماء التلامذة في الصفّ الدراسيِّ، فلا نقول التلميذ رقم واحد فلان، التلميذ رقم اثنين فلان... بل نكتفي بذكر الأسماء.

الآيات المشابهة لآيتنا هذه لا تتحدّث عن سنة وشهر ويوم بكلمة {أَجَلٌ مُّسَمًّى}، نحن بالتساهل نُفَسِّرُها هكذا على طريقتنا نحن في التعامل مع الأمور. أمّا في علمه تعالى فليست الأمور مثل حفظي لتاريخ ميلادي وتاريخ وفاة والدي، بل في علمه تعالى الصورة كلُّها لما يجري كسلسلة أحداثٍ، وطبعاً من ضمنها علمه تعالى بنظامنا التقويميِّ ونظام الجنّ التقويميِّ إذا كان عندهم شيء كهذا.

بالمناسبة، الكلام الافتراضيُّ عن تقويم للجنّ يُريك بسهولة أنَّ كلامه تعالى عن أفعاله حين لا يكون لإخبارنا نحن عن تاريخٍ، سيكون غير ناظرٍ لتحديد مثل تحديدنا نحن للتاريخ، ولا لتحديد الجنّ للتاريخ...

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى{130})
هنا سترى صراحة المقارنة بين ما حصل بين النبي موسى (ع) وفرعون، وبين النبي موسى (ع) وقومه، وبين آدم (ع) وإبليس، وبين نهاية من أنكر آياته تعالى في الدنيا والآخرة، وبالخصوص سمعت منه تعالى أنه لولا قوله سابقاً عن تحديد زمن في الآخرة للعقاب الشديد لمن كفر، لكان الآن انتهى أمر من كفر وحلّ به العقاب الذي يستحقّه الآن... والآن الكلام معك أيها المخاطب بهذا القرآن...

{فَاصْبِرْ}، تَحَمَّلْ وَتَصَرَّفْ بشكل واعٍ ومدروس في مختلف الظروف أيها النبي محمد(ع) "وأيها المؤمن"، {عَلَى مَا يَقُولُونَ}، على ما يقوله الكفّار عن رسالتك.

{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}، نَزِّهِ المسؤول عنك من مستوى إلهيٍّ عن كل النقص والصفات السيئة، وبالخصوص سَبِّحْهُ نَزِّهْهُ عن الصفات التي لا تناسب الحمد له تعالى، فلا تنسب له تعالى أنه قام بعمل سيئ، سَبِّحْهُ نزّهه عن ذلك، لأنه تعالى لا يصدر عنه إلا أعمال حميدة جيّدة، فله الحمد دائماً على كل ما يفعله.

مثلاً، إذا خطر ببالك بأي شكل من الأشكال أنه تعالى له علاقة بالشقاء الذي يصيبك، وهذا شيء غير جيّدٍ لك، فسبّحه تعالى عن هذا التصور، نَزِّهْهُ عن القيام بعمل غير محمود، لأنه تعالى لا يفعل أي شيء غير محمود، وإنما فعل ذلك معك بعض مخلوقاته أو فَعَلْتَهُ أنت مع نفسك ومعهم.

سَبِّحْ بحمده، {قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ}، عند الفجر قم بالتسبيح بالحمد، وهي فترة نقيم فيها صلاة الصبح التي تبدأ من الفجر، من أول بداية انتشار ضوء الشمس وقبل أن يظهر قرصها من خلف الأفق، وينتهي وقت الصلاة حين طلوع الشمس، حين تبدو ويظهر قرصها بالعين من بعدما كانت مختفية مستورةً بالكامل خلف الأفق.

{وَقَبْلَ غُرُوبِهَا}، أيضاً سَبِّحْ بحمده تعالى قبل نزول الشمس تحت الأفق واستتارها به، وهذه الفترة فيها صلاتا الظهرين وينتهي وقتهما عند نزول قرص الشمس تحت الأفق.

{وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ}، في فترة أو فترات من وقت العتمة، {فَسَبِّحْ} بحمده، ومنتصف الليل الأول هو وقت صلاة العشائين الواجبة، ومنتصف الليل الثاني هو وقت صلاة الليل النافلة "المستحبّة فهي ليست واجبة"، ولذلك عبّرت الآية بـ {آنَاءِ}، الذي يشير لفترة أو فترات، وتفهم منه أن الليل كلّه من أوله لآخره ليس كل وقته لأداء الصلاة الواجبة، ولا كل وقته لأداء صلاة الليل، فصلاة الليل وقتها بعد منتصف الليل، وصلاة العشائين وقتها قبل منتصف الليل.

و {أَطْرَافَ النَّهَارِ}، أيضاً سَبِّحْ بحمده، على طرف النهار وهي الفترة من اليوم التي تكون الشمس فيها ظاهرة، وهي عادة الفترة التي نكون فيها نشطين ونقوم بأشغالنا وأعمالنا.

{لَعَلَّكَ تَرْضَى}، من المتوقّع منك ومن المفروض إن داومت على التسبيح بحمده أن ترضى وَتَقْبَلَ بمحبّة ما ستناله منه تعالى في الدنيا والآخرة.

نتذكّر دائماً أن كلمة "لعلّ" ترادف: من المفروض ومن المتوقّع. مِنْ ناحيته تعالى الأمور محسومة، فمن مات مؤمناً عاملاً للصالحات فله المغفرة والجنّة، ولكن من ناحيتنا نحن فالأمور غير محسومة إن كنا سنبقى مؤمنين عاملين للصالحات إلى أن نموت، ولذلك ترى القرآن يعبّر عن حالة التزامنا بأوامره تعالى أن لها نتيجة لعلنا نصير فيها، فإذا صليّت وصمت وزكيّت... وابتعدت عن السوء وبقيت هكذا إلى أن تنتهي حياتك، فحتماً يَكُونُ وَصْفُكَ تقيّاً وستنال الجنّة، ولكن طالما أنت حيّ وقابل للتغيّر وفعل السوء، فلن يقول لك سبحانه أنك إذا صليت فستدخل الجنّة حتماً، فهذا لن يكون تعبيراً دقيقاً ولا صحيحاً في حال ارتكبت سوءاً من الدرجة العالية، ولذلك يعبّر القرآن عن هذه الحالة بلعلّ، لأنَّ من المفروض ومن المتوقع أن تكون النتيجة رضاك عمّا سيعطيه سبحانه لك على إيمانك والتزامك، إن انتهت حياتك وأنت على هذه الحال.

نتذكّر دائماً أن كلمة رضا ومشتقاتها، معناها في كلام العرب وفي القرآن: وصف شعور كتعبير عن القبول وانتفاء الاعتراض بل بالعكس فهو الموافقة المتدرجة من السرور إلى الحبّ عن فعال أحد ما، والوصف يشمل شعورك على العمل أو على صاحب العمل. فهي ليست وصفاً لقبول شيء مكروه، فهذا وصفه الصبر، ففي أدبياتنا نجد كلاماً عن

الصبر على المكروه، وأن الرضا بالمكروه أعلى من الصبر، وهذا معنى لم يستعمله القرآن في كلامه، ومخالف للمعنى اللغوي لكلمة رضا، ويحمل في طياته معانيَ أخرى مرفوضة إذا قارنتها مع مفاهيم القرآن، فسبحانه لا يخصّص "من عنده" مكروهاً لمؤمن حتى يكون إيمانه عالياً بالرضا على المكروه، فأي مكروه غير محبوب يحصل مع المؤمن فهو بسبب ذنب ارتكبه المؤمن أو ذنب ارتكبه غيره، وليس منه تعالى أبداً بتاتاً وهذا واضح من عموم كلام القرآن ومنه الآية 30 من سورة الشورى {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}.

نعم لا مشكلة بالتهاون في معاني الكلمات في الأدبيات التي بيننا إلا إذا كانت تعبّر عن شيء ديني منسوب له تعالى، فالقرآن دقيق في تعابيره ولا يتهاون أو يتساهل أو يتراخى في معاني الكلمات التي يستعملها، وعندما نتهاون نحن ويصير للكلمات معانٍ نظنها من مفاهيم قرآنية، وعندما تترسخ هذه المعاني المتراخية للكلمات في ذهننا، فعندها سنقع في مشكلة تفسير كلام القرآن على أساس المعنى والمفهوم الذي أصلاً تراخينا فيه.

لدينا كم هائل من الآيات التي تصف روعة الجنّة وأن من يدخلها سيبقى مذهولاً بروعة ما فيها أبداً، بلا ملل ولا أي رغبة في شيء آخر، فكل ما يرغب به يجده في الجنّة، بل يجد فيها ما لا يخطر على باله... وكمثال جامع لذلك ما ورد في الآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} فهو راض بها، وراض عنه تعالى، وهذا هو معنى كلمة الرضا لغوياً وهكذا استعملها القرآن، وهي لا تتحمّل ولا تتوافق مع ما درج في أدبياتنا عن الرضا على شيء مكروه، والذي سيعني ضمناً احتمال حصول شيء مكروه في الجنّة، ورغم ذلك سيرضى عنه المؤمن، لا، فانتبه دائماً من ذلك.

نرجع للسورة، ونلاحظ بدايتها حين افتتحت الكلام عن شعور النبي محمد(ع) "كرسول وكنموذج عن المؤمن" بالشقاء من الناس المعارضين للدين الإلهي الذين آذوه، وشرحت كل السورة له ولنا أنه تعالى لا يقصد الشقاء لا لرسله ولا لغيرهم، بل نحن المخلوقات نسبب الشقاء لأنفسنا ولبعضنا البعض، وهنا في ختام السورة تنبيه على تلبّسنا بشعور بالرضا الدائم على الناحية الإلهية عن كل ما يحصل معنا، عبر التسبيح "بحمده"، فهنا في الدنيا يشمل سبحانه المؤمنين برحمته وفي الآخرة يثيبهم بجنّته.

بالنسبة للآية هنا، إذا قرأناها من منظور شخص عادي يمارس حياته اليومية عندها سنفهمها بشكل أفضل، انتهاء وقت النوم عند الفجر، وبداية التحرّك للعمل والنشاط اليومي من بعد طلوع الشمس، قبل طلوعها وانطلاقك إلى شؤونك، سَبِّحْ بحمده، وبعد أن قضيت النهار في أعمالك وأشغالك، وقبل الغروب سَبِّحْ بحمده، ومن الليل سَبِّحْ، وهذا لا يعني أن تنساه تعالى في الصباح والظهيرة بل فيهما أيضاً سَبِّحْ بحمده، سواء عبّرت عن ذلك بالذكر والحركات التي نسمّيها عبادة، أو بالسلوك فالتزمت بالصلاح في قولك وعملك ونواياك...

كما تلاحظ، إن اقتصر نظرنا في الآية على تحديد مواقيت الصلاة الواجبة فنحن نخرجها عن مقصدها الأساسي، فهي تضمنّت مواقيت الصلاة الواجبة والمستحبة، ولكنها أرادت الإشارة إلى بابه سبحانه المفتوح دائماً في أي وقت لاستقبال تسبيحه بالحمد، وأثر هذا التسبيح علينا ستراه بعد قليل.

لا تَنْسَ أن جوهر الصلاة اليومية هو في ذكر ربنا سبحانه بتنزيهٍ عن الصفات الناقصة السيئة، وبحمده على كل أفعاله، فالآية تتحدّث عن التسبيح بحمده، والصلاة الواجبة والمستحبّة نموذج لهذا التسبيح، فلا تحصر ما تتحدّث عنه الآية من مواقيت للصلاة الواجبة أو المستحبّة، لا، بل هي نموذج جيّد عن تنفيذ هذا التسبيح.

نَتْنَبِهْ دائماً، من مجمل آيات القرآن نفهم أنه يوجد صلاة واجبة يجب تأديتها كل يوم في ثلاثة أوقات، فهن خمس صلوات موزعة على ثلاثة مواقيت. ومن الآية 58 من سورة النور نفهم أن توقيت الصلاة الواجبة منسّق مع توقيت العمل والراحة، فهناك أشارت لنا بأن يكون من بعد طلوع الشمس إلى الظهر، والفترة بعد صلاة العصر إلى ما قبل المغرب، أن تكونَ الفترتان لتعامل الناس مع بعضها، للعمل أو للالتقاء... كتنسيق لوقت الصلاة مع ما يناسب حياتنا ونشاطاتنا، فراجع ما قلناه هناك للتوسع في تناسب مواقيت اليوم وجدولته... وهنا أشارت الآية إلى استمرار ذكره تعالى بالتسبيح في عامّة اليوم، ومن ضمنها ثلاثة مواقيت للصلاة الواجبة، فسبحانه يستقبل التسبيح في أي وقت كان.

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى{131})

{وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ}، عندما تنظر أمامك تَنْظُرُ لما هو لك، وعندما تمدّ نظرك تقصد النظر للبعيد لما ليس لك، فلا تنظر باشتهاء ورغبة، {إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ}، زَوَّدْنَا للانتفاع به، {أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ}، أنواعاً أصنافاً من الكفار، حيثُ إنَّ بعض المجموعات الثرية من الكفار يتمتعون وَيَنْعَمُونَ بالصحّة أو بالراحة أو بالمال والأملاك والنساء والأولاد... ذلك المتاع، {زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، يَمْلِكُونَ من ذَلِكَ المتاع الزهرة أي من أفضل شيء يمكن الحصول عليه أو الكون فيه في الدنيا، وَيَمْلِكُونَ المال الوفير والصحة والأمان... وذلك ليس لأن الله تعالى يحبّهم أو يفضّلهم على المؤمنين، لا، بل، {لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ}، لنعرّضهم لما يعجبهم ويغيّر حالهم.

{وَرِزْقُ رَبِّكَ}، وما يتيحه المسؤول عنك من مستوى إلهيّ لتسدّ رغباتك وحاجاتك به، {خَيْرٌ وَأَبْقَى}، موصوف بأنه حَسَنٌ جَيِّدٌ وأدوم، الكلام عن الآخرة حيث ستحصل على رزق جيد بشكل خالد لا يفنى، وهو طبعاً أفضل مما في الدنيا. فلا تمد عينيك على ما يملكه بعض الكفار في الدنيا فهو زائل ولن يبقى، وتعلق بما هو أفضل وأدوم.

التعبير بـ "زهرة الحياة الدنيا" مشابه لتعابيرنا "زهرة شبابه"، نَقُولُ: أخذ الزهرة من الثياب وترك لي البالي. ونقول: يعيش زهرة أيّامه. الزهرةُ في النبات اسم لما يمكن أن تسميه بأفضل وأحبّ شيء فيها لك، وعلى هذه الوصفية نستعمل كلمة زهرة لأي شيء آخر أو لأي حالة نعتبرها الأفضل والأحبّ.

تَتَذَكَّرُ دائماً أن كلام القرآن عن نماذج، لَيْسَ كلّ المؤمنين محرومين من متاع الدنيا، بَعْضُهُمْ أثرياء ولديهم كل ما يرغبونه... وليس كلّ الكفّار متمتعين بزهرة الحياة الدنيا، بَعْضُهُمْ فقراء وآخرون مرضى وغيرهم يعاني المشاكل... ولكن الكلام عن نماذج من الكفّار مرتاحين ولديهم ما يرغبونه، فلا تظنّ أنه تعالى يعتبر لهم قيمة ولذلك هم مُرْتَاحُونَ، لا بل هي فتنة في الدنيا لهم وقصيرة الأمد، بعد قليل الموت، وبعده الخلود لهم في النار، والخلود للمؤمنين في الجنّة.

بالنسبة لكلمة "خير" في استعمال القرآن كثيراً ما نستنسب تفسيرها على معنى "أفضل"، وأحيانا يصدق هذا المعنى بالتبعية من فحوى الكلام، ولكن بعض الاستعمالات القرآنية لنفس الصياغة تريك أنه لم يقصد بكلمة خير أن تكون رديفاً لكلمة أفضل، وكمثال واضح عن ذلك ما ورد في الآية 16 من سورة العنكبوت {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}، مُرَادَفَتُهَا بأفضل في أمثال هذه الآية سيعطيك معانيَ غير دقيقة بل وغير مقبولة إلا إذا حملت معنى الأفضل على عموم المقابلة بين الأسوأ والأحسن، ولكن هذا ليس معناها بل هذا معنى كلمة خير، وكلمة "أفضل" في أشعار العرب قبل الإسلام محصورةٌ بين الحسن والأحسن، لو قلت إنَّ الإيمان أفضل لكم فهذا يعني أن الكفر حسن والإيمان أحسن، لا، فالإيمان خير لكم مما يعني ضمناً أنَّ الكفر سوء لكم.

لم يستعمل القرآن كلمة أفضل بتاتاً، واستعمل التعبير بالخير وهو أوسع بالمعنى، فهو يقابل الشرّ كما في الآية 11 من سورة النور {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}، واستعملها بمعنى ما يقابل الحسن وَالآخَرُ أحسن وليس شرّاً، كما ورد في الآية 271 من سورة البقرة {إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}، إبداءُ الصدقة ليس سوءاً وإنما إخفاؤها أحسن، وهنا يمكن استعمال كلمة أفضل.

يعني لا ترادف "خير" بـ "أفضل"، فهما في بعض سياق الكلام يتقاطعان تطبيقيّاً حيث يكون اللذان تقارن بينهما كِلَاهُمَا جَيِّدَيْنِ، فعندها يصدق قول خير أو أفضل، ولكن حين يكون الكلام عمومياً يشمل ما كلاهما جَيِّدَانِ ويشمل أيضاً ما أحدهما جيد والآخر سيئ، ويشمل الوصف مطلقاً بمقارنة الحسن مع مطلق الوصف بالحسن، حتى لو لم يكن هناك طرف آخر للمقارنة والمقارنة مع مطلق الوصف، كوصفه تعالى بخير الرازقين وخير الحاكمين... فهو تعالى بالمقارنة مع وصف الحسن مطلقاً كرازق وحاكم فهو خير موصوف بذلك، فكلمة أفضل ليست وصفاً صحيحاً لهذه الحالات وكلمة خير صحيحة.

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى{132})
{وَأْمُرْ}، أيها النبي(ع) وأيها المؤمن، {أَهْلَكَ}، الناس الذين تنتمي إليهم وينتمون إليك، زوجتك وأولادك وأقاربك... {بِالصَّلَاةِ}، بالتوجّه نحو ربّهم سبحانه، وهذه الكلمة صارت منذ القدم مصطلحا دينيا يشير للصلوات الخمس الواجبة التي نؤدّيها يوميا، {وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا}، فلا تتصرّف بشكل غير واع أو غير مدروس مع أهلك ولا تكن عنيفا وتفرض عليهم الصلاة بالقوة، وإذا قصّروا فكن صبورا وباللين مُرْهُم بالقيام إلى الصلاة وليس بالعنف.

هذه الصلاة التي تقوم بها لا ينتفع بها ربك سبحانه، {لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا}، لا نعبّر لك عن إرادتنا للحصول على شيء منك نحتاجه، لِتجبر من تستطيع على الصلاة كأنك تقدّم شيئا ضروريا يريده سبحانه بشدّة ويحتاج إليه، لا، لا يسألك سبحانه رزقا، بل، {نَحْنُ نَرْزُقُكَ}، حيث جعل معك ما تسدّ به حاجاتك ورغباتك، وعلى رأس ذلك وأهمّه ما تأكل منه "أو تشتري به ما تأكله"، {وَالْعَاقِبَةُ}، أي ما يعقب وما يأتي بعد شيء، والكلام هنا عن أفضل ما يأتي بعد شيء ما وهو، {لِلتَّقْوَى}، لمن يخشى ويتجنب، وسياق الكلام عمومي لتجنّب السيئات وبالتالي تجنّب غضب وعقاب ربه سبحانه، وما سيعقب وما سيأتي بعد التقوى هو أفضل ما يمكن أن تحصل عليه، فهو رزق رائع لا ينتهي في جنّة خالدة.

تذكّر أن البعض يعتقدون بأن البخور هو طعام الملائكة(ع)! والصلاة هي طعام الإله عزّ وجلّ! وأن الإله سبحانه يشعر بحاجة إذلالنا وخضوعنا له، وأنه لن يكون إلها إذا لم يعبده أحد... وإلا فلماذا يأمرنا بالصلاة والعبادة؟ هنا تنبّه الآية من يفكّر بهذه الطريقة إلى أن يصحح فهمه، لأنّه سبحانه لا يستفيد بأي شيء من الصلاة التي نقوم بها، بل أمرنا بها حتى يعطينا عليها رزقا في الآخرة، ويقول لرسوله: صحيح أننا أمرناك بالصلاة، وأمرناك أن تأمر الناس بالصلاة، ونأمرك أن تأمر التابعين لك "أهلك" بالصلاة، ولكننا لسنا بحاجة لكل ذلك، فلا يصدر منك تصرّف يشير إلى ذلك، فإذا قمت بإجبار من هم تحت سلطتك "أهلك" على الصلاة لي، فسيبدو معناه أنك تجبرهم على شيء لا يريدونه وليسوا مستفيدين منه وكأنك تقدّم لي شيئا أحتاجه من صلاتهم، كرزق أعيش منه وأنا مضطر إليه لدرجة تفكيرك بإجبار الناس الذين لك سلطة عليهم "أهلك" بالصلاة لي! لا، ولا بأي شكل تؤثّر فيّ صلاتكم كلّكم أو ترككم للصلاة كلّكم.

أمر سبحانه نبيّه(ع) أن يأمر أهله بالصلاة، لأن الذين ينتمون له هم في بيته وهو يعيلهم، أو له سلطة عليهم، أو يسمعون كلامه... لذا تريد الآية أن تقول: حتى هؤلاء الذين تحت سلطتك أو وصايتك أو بحاجة إليك... لا تستعمل معهم العنف والإجبار والقوّة حتى يصلّوا، وبالتالي بقيّة الناس الذين لا يصلّون وأنت تحمل همّهم وتبحث عن الطرق لإقناعهم، وربما تفكّر لو أنك تستطيع الضغط عليهم حتى يصلّوا ولا يُحاسَبوا في الآخرة، فاصبر عليهم، حتى الذين لك سلطة عليهم فاصبر عليهم ولا تجبرهم بالقوّة.

بقي شيء، حيث إنّ بعضهم يفتي بعقوبة لتارك الصلاة، وبرأيهم يجب على المؤمنين أو على السلطة أن تعنّف تارك الصلاة بالكلام... أو الجلد... وصولا إلى القتل! ويستندون في ذلك إلى تفاسيرهم لبعض آيات القرآن ولبعض الروايات. ويبدو واضحا من كلامهم أنهم لم يميّزوا بين حالة المعلن للكفر بدينه تعالى والذي يُعَدُّ تركه للصلاة إعلاناً منه لكفره، كإعلان منه بأنه ليس مسلما، وبين حالة المعلن انتماءه لدينه تعالى ولكن في قلبه مرض وهو فاسق أو منافق من الدرجة المنخفضة بتماشيه مع بعض دينه تعالى وصولا إلى الدرجة العالية برفضه لكل ما لا يوافق هواه السيّء.

قبل ذلك فإنّ هؤلاء وغيرهم لديهم مشكلة كبيرة بتفاسيرهم التي لم تَرَ الصورة الكاملة لما يقوله القرآن عن أحكام التعامل مع كل الناس من كافرين أو مشركين أو فاسقين أو منافقين من مسلمين أو أهل كتاب، إذ إنّ الأساس في كل القرآن أن نتعامل مع كل الناس بما قالته الآية 8 من سورة الممتحنة: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، فمهما كانت حالة أي إنسان عقائديا أو تشريعيا، وطالما لم يتصرّف بشكل عدائي مع الآخرين، فلا يحقّ لنا التصرّف معه بشكل عدائي، وحتى لو كان معلنا معارضته لديننا، وطالما لم يُعادِنا لهذا السبب، فلا يحقّ لنا معاداته.

أمّا إن كان معلنا العداء للمنتمين لدينه تعالى، فعندها نعاديه متصرفين معه بنفس ما عادانا به، فإن كانت معاداة كلامية فقط، وواضح أنها لن تتطوّر ليصير لها تنفيذ عملي، فحدودنا معه بالكلام، وأمّا إذا كانت معاداة يعلن فيها تطبيق معاداته بأي نوع من الضرر للمسلمين، فعندها نتعامل معه بإنهاء ضرره، سواء إعلاميا أو اقتصاديا...

أمّا إن كانت معاداة لحدّ الأذية الجسدية بالمسلمين بسبب إسلامهم، فعندها نقاتله.

هناك حالات تصل فيها المعاداة الكلامية إلى حد الإفساد في الأرض، أو لحدّ الضرر غير المحمول بالمسلمين، فهذه لا يختلف حكم التعامل فيها مع الكفّار والمنافقين والفاسقين من المسلمين أو أهل الكتاب، كالحالة الواردة في الآية 60 من سورة الأحزاب: {لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا}، فراجعها لمزيد من التفاصيل.

بهذا المختصر نفهم كلام القرآن وتطبيق الرسول(ع) له مع الكفّار الذين كانوا معلنين المعاداة والقتال للمسلمين بسبب إسلامهم، فهؤلاء إن أعلنوا عن إسلامهم، أو أرسلوا خبرا عن إسلامهم، وحتى يطمئن الرسول(ع) أنهم لا يكذبون ليخدعوه، كان (ع) يرسل لهم من يتفقّد أحوالهم ليرى إن كانوا فعلا أسلموا، وذلك عبر النظر في نموذج من تطبيقاتهم للإسلام برفع الأذان وإقامة الصلاة ودفع الزكاة، ولأمثال هؤلاء جاءت الآية 5 من سورة التوبة: {فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، فكلامها ليس عن مسلمين، ولا عن الكفّار المسالمين، بل عن كفّار كانوا معادين، وفيما بعد قالوا إنهم أسلموا.

المشكلة أن الكثيرين ممن لديهم خلفية إجرام، أو استهتار، أو قلّة فهم ووعي للأمور... لم يفهموا كلام القرآن واعتبروا بعض آياته متعارضة مع بعضها، فوصفوا ما رأوه متعارضا بالمنسوخ "أي الملغي" بناسخ. وهذا باب الهاوية في تحريف معنى كلامه تعالى، فصاروا ينسخون ما لا يتماشى مع هواهم! ومنه نسخهم لكل الآيات التي تدعو للمحاورة في الدين مع الآخرين، وإصدار حكم القتل عليهم كلّهم!

منه إجرامهم بتحليل قتل كل الآخرين المخالفين لهم في شيء ما حتى لو كانوا مسلمين! فإن خالفوهم في المذهب العقائدي أو التشريعي، أو خالفوهم في موقف سياسي... أهدروا حرمتهم بإجازة قتلهم!

منه إفتاؤهم بقتل تارك الصلاة من المسلمين! بينما لن تجد في كل القرآن من أوّله لآخره، ولا في سيرة الرسول محمّد(ع) ولا حتى في الروايات كلّها من الموثوقة إلى الضعيفة وحتى المروية عن الكذّابين المشهورين بالكذب، لَن تجد أن الرسول(ع) فعل ضررا ما بمسلم تارك للصلاة. وكل ما ستجده في المرويات كلام عن قتل أناس حصل شكٌّ في إسلامهم ومن قبل كانوا كفّاراً معادين، والحالة المشهورة لذلك ختمها النبي(ع) بالبراءة مما فعله خالد...

(وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى{133})
{وَقَالُوا}، الكفار: {لَوْلَا يَأْتِينَا}، لو يحضر لنا محمّد، {بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ}، بشيء مميز من المسؤول عنه من مستوى إلهي، وهم يطلبون ذلك حتى يصدّقوه أنه رسول.

يجيبهم سبحانه: {أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ}، لهؤلاء الكفار، {بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى}؟ وهناك صحف وهناك أشياء مكتوب عليها، وهي كتب الأنبياء، وذكر منها القرآن زبور النبي داوود(ع) كما ورد في الآية 55 من سورة الإسراء: {... وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}، وذكر صحف النبيين إبراهيم(ع) وموسى(ع) كما ورد في الآية 19 من سورة الأعلى: {صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}، واشتهر بين الناس صحف عديدة أخرى منسوبة لبعض الأنبياء كصحف منسوبة للنبيين شيث ويحيى... هذه الصحف كانت أولا قبل هذه الصحف قبل هذا القرآن، وهذا القرآن أتاهم يبيّن ويوضّح لهم ما في تلك الصحف، فماذا يريدون بعد؟ فالآية التي يريدون حصولها ها هي أمامهم وهي هذا القرآن، لأنّه امتداد لتاريخ من آلاف السنين من الصحف عن الدين الإلهي، فإن لم يعتبروا هذا شيئا مميّزا فأي شيء سيقنعهم وأي آية ستجعلهم يؤمنون؟!

سترى من الآية التالية أن هذا القرآن بيّن لهم، وضّح لهم بكلامه عن تصميمه وخلقه تعالى لنا في الدنيا لنمرّ منها إلى الآخرة حيث الحساب، وهذا مرّ معك منذ قليل في هذه السورة وبالخصوص عندما تحدّثت عن حشر بعض الناس عُمْيًا بسبب عماهم عن آياته تعالى...

لاحظ وانتبه لتركيز القرآن مرارا وتكرارا وبطرق مختلفة على الامتداد التاريخي لهذا الدين الإلهي، فالسؤال هنا موجّه للكفّار، فما تفسيركم لهذا الدين الإلهي القرآني كما هو بلا أي تغيير في العقيدة وأساسيات الشريعة منذ آلاف من السنين عبر أنبياء نقلوه لكم؟ وعبر كتب عمرها آلاف السنين؟ أليس هذا آية؟ كشيء مميّز يدلّ على أن هذا دين إلهي؟ قارنوا هذا مع أي دين آخر وسترون أنّه لَا أي دين آخر له هذا الامتداد التاريخي، إذ لَا إله عبده المشركون بقي معبودا بعد مدّة، ولا أي دين غير دينه تعالى إلا وله بداية من اختراع البشر وليس له امتداد تاريخي بعيد... بينما دينه تعالى ممتد إلى أوّل بشري تأهّل ليتكلّف، إلى آدم(ع)، فما تفسيركم لهذا إلّا أنه دين إلهي حقيقي صحيح.

كما ترى هنا قفزت الآية عن شيء كرّره القرآن مرارا في مختلف السور، حيث تجد كلامه تعالى يشير إلى الخير الذي يعرضه عبر القرآن، في مقابل فساد عقيدة وشريعة الآخرين، ولكن هنا اكتفت الآية بلفت انتباههم لشيء من المفروض

أن يكون ملفتا لانتباههم، فما معنى صحف متوزع تاريخها على آلاف من السنين مضت وكلّها نقلها أشخاص يقولون إنهم رسل منه تعالى ويحملون نفس العقيدة ونفس أساسيات الشريعة؟ فماذا تفسيركم لهذا؟ أليس ذلك آية كافية لكم لتؤمنوا؟

(وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى{134})
{وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ}، بدل تركهم لو استنفدنا حياتهم، فأمتناهم، {بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ}، بضرر يصيبهم هنا في الدنيا من قبل أن تأتيهم البيّنة "هذا القرآن" {لَقَالُوا}:

{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا}، قبل أن تهلكنا لو بعثت لنا من ينقل لنا كلامك وما تأمرنا به، {فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ}، ونكون على الأمور المميزة المنسوبة لك، ونؤمن بدينك ونلتزم بما أمرتنا به لأنّ هذا شيء مميّز وصلنا منك، {مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ}، قبل أن نصير في حالة نزول العذاب ومن ضعفنا لا يمكننا ردّه، ونصير منقادين غصبا عنّا لشيء نكرهه وهو التعذيب، ومن قبل أن {نَخْزَى}، ويصيبنا الشعور بالمهانة من عمل قبيح قمنا به.

يعني، هم هنا في الدنيا يطلبون آية ويطلبون شيئاً مميّزاً يدلّ على أنه من الإله سبحانه ليؤمنوا برسوله، وأنزل سبحانه عليهم القرآن وهو بيّنة وهو واضح، وهناك رسل على امتداد التاريخ حملوا للناس الأوامر والتنبيهات الإلهية، وبالخصوص نقلوا للناس التحذير والإنذار من عقاب شديد في الآخرة... وهذا شيء حصل عبر تاريخ ممتد لآلاف السنين، وأنتم وصلكم ذلك عبر هذا القرآن، ولم تؤمنوا لأنه لم يعجبكم إذ لا يتماشى مع رغباتكم السيئة... فلو أهلككم سبحانه قبل أن يأتي إليكم الرسول الناقل لرسالتنا، وانتقلتم إلى الآخرة لتتحاسبوا، لكنتم اعترضتم وقلتم: هذا الذلّ والمهانة من العذاب الذي نزل علينا كنّا سنتجنّبه "لو" أرسلت إلينا رسولا، ولكنّا اتبعنا آياتك.

كما ترى، هم يكفرون بالرسول ورسالته رافضين فكرة تدخّل الإله سبحانه بحياتهم، ولا يريدون التقيّد بكلامه تعالى، ولا يهمّهم الخير الذي في كلامه تعالى ويريدون البقاء على راحتهم في فعل ما يرونه هم مناسبا حتى لو كان سيئا... وسيصيبهم العذاب على ذلك، وفرضا لو لم ينزّل سبحانه رسالة على رسول، وعذّبهم على ما فعلوه من اختراع لعقيدة وشريعة، لاعترضوا! وقالوا: لو وصلنا منك سبحانك دين، لالتزمنا به...

المشكلة ليست في الرسول ولا في الرسالة ولا في الآية، وبالنسبة لمحور كلام السورة فإنّ سبحانه من ناحيته يرسل الرسول لا ليشقى الرسول بل ليوصل رسالته سبحانه إلى الناس، وها هو يخبرك بأنك الآن بينهم حجّة عليهم وهم يرفضون الإيمان بك وبرسالتك، ولو عذبناهم من دون إرسالك لتنذرهم لقالوا: لو أرسلت رسولا لآمنّا به! وهم الآن وأنت بينهم يؤذونك ويعارضونك!

لو أطلت عليك، فهذا ما نسمّيه "بالمفارقة"، فلنقل إنّ الهواء البارد سيجعلك تمرض حتما، وقدّمت لك ثيابا تجعلك دافئا، ولكنك رفضت لبسها وتقول بأنك لن تتحمّل البرد لأنه شديد، وتقول بأنك لن تمرض. وبعدها مرضت، فهذه مفارقة، فلو لم أقدّم لك الثياب لقلت: لو قدّمت لي الثياب لما مرضت لأني لا أتحمّل البرد. وهنا الآية والتي سبقتها تتحدّثان عن نفس المعنى، إذ مع وجود الرسول بينهم، كفروا بالرغم من علمهم بحاجتهم للهداية، ولو لم يكن بينهم رسول لقالوا: لولا أرسلت إلينا رسولا لنهتدي.

لاحظ فيما سبق من كلام أشرنا فيه إلى الوضع الطبيعي العقلاني لوجود رسول إلهي بين الناس، حيث من المفروض أن يوقّروه ويحترموه ويقدّروا ما يقدّمه لهم من هدى يوصلهم إلى مرضاته تعالى والجنّة الخالدة، وخلال ذلك يجعل حياتهم هنا في الدنيا سعيدة بأقصى ما تتحمّله الدنيا من تقديم سعادة للبشر... ولكن على أرض الواقع التطبيق مختلف، إذ سبّبوا الشقاء للرسول، وكما ترى إنّ السورة لم ترد شخصنة الدين الإلهي بالرسول، ولم ترد من الناس إلا أن يطيعوا ما يقوله الرسول، ولم ترد منهم تمييزه عن الآخرين، وهذا مفهوم قرآني عام منتشر في مختلف المواضيع، حيث إنّ الواجب على كلّ الناس احترام وتوقير بعضهم بدون أي تمييز، ولنقل إننا سنحصر الكلام عن المؤمنين لأن الناس فيهم الكفّار والمنافقون والفاسقون، فأي مؤمن ظاهره خير، فمن الواجب على المؤمنين الآخرين احترامه وتقديره، ولذلك لا ترى السورة هنا تعرض بشكل مباشر أي تمييز للرسول عن الآخرين، ولم تقل إنه من المفروض أن توقّره الناس وتحترمه وتقدّره بشكل زائد عن الآخرين، بل ركّزت على اتباع ما يقوله فقط وفقط.

أمّا بالنسبة للمفهوم القرآني العام الذي بنينا عليه هذا الاستنتاج فهو واضح جدا، إذ إنّ القرآن لم يكرّر أساسيات الإيمان في كل مناسبة، وخذ نموذج الكذب، والمبالغة، وتنقيص الكلام... حيث إنّ هذه سيئات معلومة، ولم يقل القرآن إنّ ذلك حرام بين البالغين فقط، إذ من البديهي أنّه حتى مع الأطفال سيّء، ولذلك لا تجد آيات قرآنية صريحة في موضوع تربية الأطفال، لأن أساسيات الدين الإلهي لا تتغيّر من التعامل مع الكبار أو الصغار، فإنّ الكذب حرام، والعنف حرام، والضرب حرام... مع الكبار ومع الصغار...

(قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى{135}
{قُلْ}، أيها النبي(ع) لهؤلاء الكفار:

{كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ}، أنا وأنتم أيها المنكرون لرسالتي في حالة تربّص، في حالة انتظار حصول شيء نتوقّع حصوله، {فَتَرَبَّصُوا}، انتظروا ما سيحصل، {فَسَتَعْلَمُونَ}، بعد التربّص سيأتي ما ننتظره وتعلمون، {مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ}، من هم الرفقة الذين على الطريق الأساسي المتناسب في استقامته مع أوامره تعالى، نحن أم أنتم؟ وستعلمون، {مَنِ اهْتَدَى}، من كان على الأشياء الصحيحة التي توصله للغاية الصحيحة. وهذا الكلام يشير إلى يوم القيامة وما بعده من أيام الحساب، حينها سترون أن الكفر بالرسول ضلال ولن يوصلكم لشيء صحيح، لأنّ نهايته عذاب شديد... وسترون أن من آمن بالرسول وصل فعلا إلى غاية صحيحة، إذ نهايته إلى الجنّة...

سورة الأنبياء (21) ص 322
تتمحور السورة حول الطالبين لآية تثبت لهم أن محمدا(ع) مميّز وليس رجلا عاديا من البشر العاديين، وإلا فلن يؤمنوا به كرسول يتواصل معه الإله، إذ تجاهلوا العقلانية والحقّ والخير والصلاح الذي في كلامه(ع) والسورة هنا تركت هذا الموضوع لسور أخرى وركّزت فقط على ما يطلبونه ليؤمنوا، وخلال ذلك تحدّثت عن آية خلق ما في الدنيا التي أمّنها تعالى لنا لنتعرّف عليه ونؤمن به، وهي آية أكثر من كافية لنؤمن... ودمّرت عقيدة شركهم... وبقي تركيزها على الردّ على طلبهم شارحة أن هذا الطلب غير عقلاني ولا معنى له... وسردت لنا جانباً قصيراً من نبذات عن المؤمنين السابقين لنرى أنهم بشر عاديون، وهم امتداد لآلاف من السنين لهذا الخط التوحيدي... وفي نفس الوقت نرى تدخّله تعالى المباشر في بعض أمور حياتهم، بينما لا تاريخ ممتدّ لدين المشركين ولا لآلهتهم ولا أثر لها على الإطلاق.

تلاحظ أن الجيل الأول من المسلمين سمّوا السورة بسورة الأنبياء بسبب ورود ذكر سبعة عشر نبياً فيها، ولكن السورة لم تصفهم ولا مرّة بأنهم أنبياء أو رسل، واختتمت الحديث عنهم بأنهم "أمّة"، وأضافت إليهم السيدة مريم(ع)، مما يشير بوضوح إلى أن السورة عرضتهم كنماذج ممتازة إيمانياً وأنهم كلّهم من البشر، وكنماذج ممتدّة عبر التاريخ في عبادة الله الأحد حيث تدخّل سبحانه في حياتهم لصالحهم.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ{1})
{اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ}، مرّ زمن سابق جعل زمان حسابهم يقترب منهم أكثر، فإذا وضعت في ذهنك أن زمن حسابهم محدّد معلوم عنده تعالى، ونظرت لمسيرة حياة الناس باتجاه محاسبتهم، ستراهم يقتربون منه، فهي نظرة العدّ العكسي لاقتراب يوم القيامة. الكلام هنا عن حساب الناس من بعد القيامة من الموت في الآخرة بعدما تنتهي الدنيا، {وَهُمْ}، والكلام موجّه للناس الكافرين، {فِي غَفْلَةٍ}، لأنهم ليسوا منتبهين لاقتراب حسابهم، وهو آتٍ حتما وهم لا يشعرون بذلك، {مُعْرِضُونَ}، لا يعتبرون لحسابهم في الآخرة أي أهمية، حيث إنّ الغفلة ناتجة عن الإعراض، ووصلهم خبر عن الحساب ولكنهم أعرضوا عنه ولم يهتمّوا به فكرياً، ولم يدخل عملياً في حياتهم ولم يتصرفوا على أساس أنه سيحصل، غفلوا عنه، لم يعودوا منتبهين له مع أنه سيحصل.

هذه المقدمة تشير لما يفعله عموم الناس من الاستهتار بِحِسَابٍ على الشرك به تعالى عِلْماً أَنَّ الحساب والعقاب الشديد على ذلك آتٍ لا محالة.

نلاحظ من الآيات القرآنية العديدة كالآية 51 من سورة الإسراء، وفي السورة هنا الآيات 38 و97 و109، والآية 63 من سورة الأحزاب، والشورى 17، والقمر 1، والمعارج 7، والجن 25، والنبأ 40، أنها كلها استعملت وصف اقتراب الحساب بطريقتين: الأولى من ناحية اقتراب نهاية الدنيا، وهذا بالنظر إلى المدّة التي سبق ومرّت على وجودها وأن ما بقي هو أقل بكثير، فربما يكون ما بقي من عمر الدنيا بالمئات أو بآلافٍ أو ملايينَ أو ملياراتٍ من السنين... والثانية من ناحية الناس، ونحن حين نموت نفقد وعينا وإحساسنا بالزمن، ونقل لنا القرآن كلاماً قاله الكافرون عن شعورهم بمدّة لبثهم أمواتاً أنها يَوْمٌ أو بعض يوم... وهكذا يكون الحساب قريباً بالنسبة لهم لأنهم لن يشعروا بمرور الزمن بعدما يموتون وسيستعيدون وعيهم ليجدوا أنفسهم في الآخرة، كالذي نام ثم استيقظ ولم يشعر بمرور الزمن.

هناك معنى آخر تتحمّله بعض الآيات إذا فهمنا منها أن عمر الواحد منّا قرابة السبعين عاماً، وبعدها سيموت ويجمد الزمن عنده ليستعيد وعيه في الآخرة، فبالنسبة له تعالى، يكون بين موتك وبعثك لمحاسبتك، مرّ زمن كنت غَيْرَ وَاعٍ فيه، وعلى هذا يكون حسابك دائما قريباً. يعني ليس فقط من ناحيتنا سنشعر أن حسابنا لم يستغرق وقتاً، بل حتى من ناحيته تعالى الذي يرى فترة فقداننا لوعينا تشبه فترة انتظار دورنا لنتحاسب. هنا يخبرنا سبحانه أن الحساب اقترب حتى لا نتهاون في طاعته، والمئة سنة التي يمكن أن نقضيها أحياءً في الدنيا والتي حتماً سنموت بعدها، ونفقد وعينا، وبعدها يعيد تعالى إحياءنا ليحاسبنا، هكذا بالنسبة له تعالى يكون ما بين حياتنا الآن ومحاسبتنا في الآخرة مدّةً قليلةً جداً من الزمن، حيث نموت ونجمد بفقدان وعينا موتاً، إلى أن نعود إلى الحياة لنتحاسب، ويكون حسابنا قريباً جداً جداً.

أطلت عليك الكلام لأن موروث تراثنا الثقافي الديني مشحون بكلام يجعل موعد يوم القيامة قريباً جداً جداً، إذ دائماً كانت ثقافة المؤمنين تشير لكون موعد يوم القيامة لا يتجاوز بضعة سنين أو بضع عشرات من السنين أو ألف سنة... ومرّت المئات والآلاف ولم تحصل، وهذا الخطأ منشؤه من تفسيرات المؤمنين للنصوص الإلهية بشكل غير صحيح، ومَا نفهمه من هذا القرآن أنه سيأتي على البشرية زمن ينفذون فيه من أقطار السماوات وصولاً إلى السماء حيث سنتعرض للشهب التي ترميها الملائكة على الجنّ، راجع الآية 33 و 34 من سورة الرحمن {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ، يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ}، وسيأتي زمن إفساد بني إسرائيل في الأرض مرتين، وبعدها ترك القرآن الاحتمالات مفتوحة ولم يذكر لنا ماذا سيحصل... وراجع في ذلك الآيات الآية الرابعة وما بعدها في سورة الإسراء وصولاً للآية الثامنة {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا}، وهذه أمور لم تحصل بعد، وبناء عليه فمن غير المعلوم إن كانت البشرية ستستمر لمئات أو آلاف أو ملايين من السنين... قبل أن يموتوا كلّهم.

(مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ{2})
{مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ}، أي شيء يجعلهم يستحضرون التوحيد والحساب في فكرهم، {مِنْ رَبِّهِمْ}، من المسؤول عنهم من مستوى إلهي، {مُحْدَثٍ}، حيث سابقاً أتى ذكر وهذا تكرار له، وإتيان الذكر حدث مرة أخرى، {إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ}، يصل الذكر إلى مسامعهم ولكنهم يتعاملون معه كمن في حالة تسلية فلا يأخذونه بجدّيّة.

مدّةً بعد مدّةٍ يرسل سبحانه رسولاً مع رسالةٍ للناس لتجعلهم يستحضرون العقيدة الصحيحة في فكرهم وعملهم، ولكنهم لا يأخذونها على محمل الجدّ.

هناك كلام حول الذكر المحدث، وكان جدلاً حاداً بين المسلمين في زمن العباسيين وما بعده، ويقولون إنّ أذناب السلطة العباسية نشروا هذا الخلاف وغذّوه بين الناس لِيَتَلَهَّوْا عن الأمور السياسية... على أي حال، قالوا إنّ الذكر كلام إلهي، فإن كان محدثاً جديداً، فإذاً الإله سبحانه محلّ للحوادث، عِلْماً أنّه تعالى قديم وعلمه قديم وكلامه يجب أن يكون قديماً أيضاً... هذا خلاصة ما قالوه، وتفرّع عن هذا الكلام بحث حول الكون وبقية السماوات والأرض إن كان قديماً أم محدثاً! وهذا الكلام في غاية السخافة، وخلط بين أوّليته تعالى وعلمه تعالى وخلقه للأشياء وإدارته لها، فهو تعالى قديم على المعنى الذي ذكره القرآن {الْأَوَّلُ}، وطبيعته تعالى تفوق قدرتنا على التصوّر، وحتى المخلوقات العالية جدا والتي

يخطر ببالنا منها الملائكة العالية (ع) الحاملة للعرش الذين ورد الكلام عنهم في الآية 7 من سورة غافر {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ...}، وهم أيضاً بعيدون جدا جدا في تكوينهم عنه تعالى، ولا يمكنهم فهم ولا تصوّر أي شيء عنه تعالى، وسبحانه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} كما ورد في الآية 11 من سورة الشورى، ولا يمكن للملائكة ولا تستطيع ولا تقدر على التواصل معه تعالى مباشرة... ومن هذا نعلم بأن أي وصف عن قدمه أو أوليته تعالى فهو كلام عن موضوع يفوق قدرتنا على فهمه أصلاً، وأي كلام عنه هو مجرد افتراضات وتخمينات من المؤكّد أنها غير صحيحة.

من الواضح في القرآن أنه تعالى يأخذ قرارات تصدر عنه تعالى بشكل خارج نطاق قدرتنا على الفهم، ونفترض أنّها تتم بسرعة بالقياس إلى تعاملنا نحن مع الأمور، ونفترض أنّ التخطيط والتصميم لخلق ما في الدنيا استغرق لمحة بصرٍ كتعبير عن أسرع ما يمكننا لمس سرعته العالية، عِلْماً أنّ استعمال القرآن لتعبير "لمح البصر" والذي ورد مرتين في الآية 77 من سورة النحل والآية 50 من سورة القمر اللتين كانتا تتحدثان عن قراره تعالى بإعادتنا للحياة في الآخرة، وللدقّة لم يستعمل القرآن هذا الوصف لكل الحالات، إذ في حالة قراره وتصميمه تعالى لخلق ما في الدنيا حيث كان تعالى ولم يكن معه شيء، لا يصح وصف تلك الحالة بأي أوصاف تتضمّن زمناً أو مكاناً لأن طبيعته تعالى فائقة تتجاوز أي علاقة بأمور للمخلوقات علاقة بها...

كان قراره تعالى أن تبدأ الأشياء بالتشكّل تدريجياً... بخلقه تعالى نظاماً يسير لتتركّب الأشياء مدّة بعد مدّة، وهذه هي عادة حصول الأشياء من حولنا، وهذا هو المجال العلمي البشري للبحث عن كيفية نشوء وارتباط الأشياء من حولنا، كنظريات نشأة الكون، ونشأة الكواكب، ونشأة الحياة... ويحصل خلق بتدخّل إلهي مباشر لخلق "لتركيب" شيء ما فجأةً، أو لتغيير طبيعة الأشياء، ولكن هذا نادر الحدوث في بيئتنا، كخلق ناقة ثمود من صخرة في لحظة كما هو مشهور في تراثنا، وكجعل النار لا تحرق النبي إبراهيم(ع) كما ورد في الآية 69 من هذه السورة... وهذه أمور مهما كثرت فهي نادرةٌ جدا جدا أمام دنيا فيها تفاصيل هائلة تسير بالتمام على المخطط الإلهي.

بما أنّه لا يوجد شيء في كلامه تعالى يشير إلى حصول الأشياء بدون سبب، كقوّة سحرية "بالمعنى الخرافي"، أو بدون ترابط مع أشياء أخرى، نفهم أنّ ما لا نعلم سببه كنجاة النبي إبراهيم(ع) من النار وخلق النبي عيسى (ع) من دون أب... نفهم أنّ له سبباً يفوق حالياً قدرتنا على فهم آليات حدوثه.

أيُّ شيءٍ غير الله تعالى فهو مخلوق محدثٌ على معنى أنه جديد، لم يكن وكان، والسماوات والأرض وكل المخلوقات لم تكن ثم أحدثها تعالى، وهذا شيء واضحٌ جدا جدا في القرآن، والذكر الإلهي الذي ينزله تعالى للناس عبر رسله "توراة إنجيل قرآن وصحف الأنبياء"، هو كلام إلهي محدثٌ مثله مثل خلق الكائنات، وخلقه تعالى لنا إحداثٌ، وكلامه لنا إحداثٌ.

المشكلة البسيطة التي يقع فيها الناس عندما يقولون: يعني لم يكن يعلم الله تعالى ما سيقول، والآن خطر بباله وقاله. وهذا التفكير الشارد غير الموزون ينبع من عقلية ونفسية القائل، فإن كان في حياته العادية لم يدرّب فكره وتصرفاته على الصدق والاستقامة والحكمة... وكان يتكلّم في الأمور بغير دراسة ولا تقانة، ينطبع فكره ونفسيته على هذا القالب المنحرف، وبالتالي تصير كل أفكاره مطبوعة بدمغة الانحراف، حتى لو كانت للوهلة تبدو مستقيمة، فهي لن تكون كذلك إلاّ إذا كرّر أفكاراً مستقيمةً قالها غيره ليتمرّن فكره من جديد على الاستقامة...

الباحثون في العقيدة والشريعة الدينية مثلهم مثل غيرهم، فيهم الفذّ وفيهم البسيط الساذج، وفيهم الصادق وفيهم الكاذب، وفيهم المنحرف كلياً أو جزئياً عن دينه تعالى وفيهم المستقيم، وفيهم المتعصّب وفيهم المتساهل... وأفكارهم الدينية تنبع من هذه العقليات والنفسيات، ومن المتّفق عليه نظرياً أنّ فهم "لبّ" القرآن متاح لكل صادق الفكر والمشاعر، وواضح لمن يتعلّم من القرآن وهو معتقد أنّه كتابٌ إلهي، ولن يفهم القرآن من يسقط أفكاره على القرآن.

هنا وبكل وضوح تقول الآية بأنّ الذكر محدث، وحين قرّر تعالى خلق السماوات والأرض، قرّر من ضمن مخططه أن ينزّل رسالة تتلوها رسالة... فإذاً الرسالة محدثة بعد رسالة، وأين المشكلة في ذلك؟ والعالم محدث، حيث لم يكن وصار، والسماوات محدثة، والقرآن محدث، لم يكن وصار... وسبحانه {الْأَوَّلُ}، وأين المشكلة في ذلك؟ ومن قال بأنّها أمور تحدث فيه تعالى؟! ومن قال بأنّ شيئاً ما تغيّر فيه تعالى؟! وما علاقة هذا بذاك؟!

نعم بعض الأحيان من كثرة الاستغراق في فكرة ما، يطيش الفكر فاقداً التركيز، وهذا يصيبنا جميعاً نحن البشر، ولا تتهم كل من خالفك الرأي بسوء النية، حيث ربما أنت فيما بعد في مسألة ما ستغيّر رأيك، وهل كان رأيك السابق عن سوء نيّة؟

(لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ{3})
{لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ}، في أساس فكرهم ونفسيتهم تركوا الذكر الإلهي وانشغلوا بأشياء أخرى لا تقاس أبداً من حيث الأهمية بالانشغال بالذكر الإلهي، {وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا}، إذ الذين لم يكن معهم حقٌّ، ولم يكونوا عادلين ولا منصفين حين تعاملوا مع الذكر الإلهي بلا اكتراث، ولم يكن معهم حقٌّ حيث ظلماً لعبوا وتلهّوا بشيء بالغ الأهمية، {أَسَرُّوا النَّجْوَى}، فحديثهم الخاص على راحتهم فيما بينهم كان:

{هَلْ هَذَا} "الرسول" {إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ}! مساوٍ لكم تماماً في تكوينه الإنساني، لأنه من نوع المخلوقات ذات البشرة مثلنا، بماذا يتميّز عنّا حتى نصدّقه بأنه رسول الإله؟ {أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ}! حيث أنتم تعون وتفهمون الصورة التي أمامكم لأنه بشريٌّ، وهل ستذهبون وتتماشون مع السحر الذي يفعله لتؤمنوا به لِيَنْطَلِيَ عليكم خداعه وأنتم ترون بوضوح أنه من البشر العاديين وأنّه يخدعكم!

وهم حين يكونون مع بعضهم البعض مرتاحين في الكلام {نَجْوَى}، والتي تعني حديثهم مع بعض بشكل خاص وبحرية الأريحية بين المتوالفين مع بعض، فإنهم من ضمن ما يقولونه لإقناع أنفسهم وبعضهم البعض بتبرير كفرهم بالرسول الإلهي أنه لن يخدعهم بكلامه ليؤمنوا به لأنهم أذكى من ذلك.

إذاً هم رفضوا الإيمان بالذكر عن التوحيد والآخرة الواصل لهم عبر الرسول، متحججين أن الرسول بشريٌّ عاديٌّ وليس مميزاً حتى يقتنعوا أن الإله يتواصل معه. وكما ترى وسترى في بقية كلام السورة، فإنها سترد على قولهم هذا وستركّز على مضمون الذكر الذي كفروا به، فلو كان عقلانياً كلامهم لكان معهم حقٌّ بإنكار الرسول الذي يقول كلاماً فاسداً باطلاً سيئاً... ولكن كل الأدلة تشير إلى صحّة هذا الذكر، لأنه كلام حقٍّ وصلاح، فما معنى كلامهم الفارغ وهل سيغيّر أي شيء ولن تحصل الآخرة والحساب؟

وبالنسبة للسحر فهو التلاعب بعقول ونظر وحواس ومشاعر الناس ليتوهّموا شيئاً غير الواقع والحقيقة عبر الخدعة، وهنا الظالمون يقولون: هذا الشخص يقول بأنه رسول، ولكنه يخدعنا، إذ لا يتميّز عنا بأي شيء، ونحن حين يخدعنا الساحر لن نؤمن أبداً بحقيقة ما فعله لأننا متأكدون أنها خدعة حتى لو لم نعلم كيف فعلها، وهل ستؤمنون بسحر هذا البشري لتؤمنوا أنه مميز كرسول إلهي مع أنكم تبصرون أنها خدعة. وهو تعبير مشابهٌ لما نقوله: هل سيخدعكم وأنتم مفتوحة أعينكم!

لِنُطِلِ الكلام عن تهمة السحر، أولاً ضع في بالك دائماً أن السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شيئاً غير حقيقي أنه حقيقيٌّ. حيث إنّ الساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد بأنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع أنها لم تختفِ، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر والذي تراه صريحاً في الآية 66 من سورة طه {قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}. وما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، وهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية أنها سحر، كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

وننتبه لتكرار القرآن عدة مرّات الاتهام له وللرسل بالسحر، حيث إنّ هذا الاتهام بكلمة سحر لم يعد دارجاً كثيراً في عصرنا من الكافرين بالدين الإلهي، ولكن تسمع المرادف له والذي يعطي نفس المعنى، فيقولون إنّ الدين للبسطاء، وهذا معناه أن البسطاء ينخدعون بالكلام الديني الخرافي ليروه حقيقةً، ولغوياً هذا هو معنى كلمة سحر.

حسناً، هذا ما يقوله الكافرون، فهل نحن المتدينون نمارس السحر حين نتلو الآيات؟ نعم، حيث إنّ ما تسمعه الآن على القنوات من دعاة الإسلام، في أغلبيته الساحقة لا يختلف عن كلام أهل العقائد الكافرة أو المنحرفة، إذ تسمع الدعاة يعرضون الكذب بالإعجاز العلمي والطبّي والليزر والثقوب السوداء... التي تكلّم عنها القرآن! وتسمع الكذب عن أسرار الحلال والحرام التي لم تظهر إلا بعد تقدّم العلم ليتبين أن السجود على الأرض يسحب منك الطاقة السلبية ويجعل الدم يتحرّك ليصل إلى المخيخ... وعن الجرثومة التي في لحم الخنزير والتي لا تموت بالتجميد ولا بالطهي... وعن وعن... وهو كلام فارغ وهراء ما أنزل الله به من سلطان. وهذا الجانب المنحرف من ديننا الذي يخترعه الناس هو المساوي للسحر الذي يمارسه أهل العقائد الأخرى، ومثله في الكذب والانحراف والسحر: الكلام المذهبي بين المسلمين، الذي فعلاً يوقع الأغبياء تحت تأثيره حتى يرتكبوا السوء والفساد بالفرقة بين المسلمين وصولاً إلى قتل المسلم الآخر!

أمّا القرآن وبدون التلاعب به، فهو الحقّ، وليس بسحر لأنه لا يخدعنا بل يقدّم الحقّ والواقع والخير والصلاح، وعلينا عرضه على أنفسنا وعلى الناس كما هو، والأمور غير العادية التي ذكرها القرآن كفلق البحر للنبي موسى (ع)، ولبث النبي يونس (ع) في بطن الحوت وغيرها... فهي ليست خرافات بل أمور حقيقية حصلت بتدخّل إلهي لتكون آيات، إذ دائماً هناك أناس يطلبون آيات من هذا النوع ليؤمنوا، ولكنهم حين يسمعون بها قد حصلت في الماضي يسخرون! والذين حصلت في زمنهم لم يؤمنوا! بينما نحن نؤمن بها لأن القرآن بمحتواه العقائدي والتشريعي الحقّ يدلّنا بوضوح أن مصدره إلهي... وأمّا خزعبلات الإعجاز العلمي والعددي... وأشباهها، وخزعبلات الروايات الكاذبة، وخزعبلات الطائفية والمذهبية والعصبية... فهي سحر خادع لا علاقة للقرآن بها.

الرسول يقول للناس كلام الحقّ، ويبيّن فيه فساد كلامهم وصحّة كلامه المنقول عنه تعالى، وحين لم يجد الكافرون أي ردّ يدافعون به عن عقيدتهم، قالوا عن كلام الرسول أنه سحر، على أساس أن الرسول بكلامه قد تلاعب بعقولهم مما جعلهم يرون دينهم الصحيح فاسداً، وجعلهم يرون دينه الفاسد صحيحاً.

(قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{4})
{قَالَ}، من الواضح من سياق الآيات السابقة أن القائل هو الرسول الذي يتهمونه بالسحر، وتنسب الآية هنا القول للنبي محمد(ع) بشكل خاص كما سترى من بقيّة الآيات، وهي ليست منقولة عن عامّة لسان أي رسول:

{رَبِّي}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}، فما تقولونه في أحاديثكم الخاصة "النجوى" عني بأني بشريٌّ وساحرٌ ولن تنخدعوا بي، وقولي لكم بأني رسوله تعالى، فهذا لا يخفى عليه تعالى لأنه يعلم كل الأقوال التي تدور في السماء، في عموم ما علا، وتعلم من القرآن أنّهنّ سبع سماوات، ويعلم القول في {الْأَرْضِ}، وهذا التعبير القرآني يشابه قولنا عن علمه تعالى الواسع المحيط بكل قول يحصل في دنيا المخلوقات. {وَهُوَ السَّمِيعُ}، الذي يسمع كل شيء بدون استثناء، وهو {الْعَلِيمُ}، حيث يعلم بتفاصيل كل شيء والجميع تحت المراقبة.

أنتم تتّهمونني بخداعكم، وأنا أتوجّه إلى الذي يعلم كل شيء، ويعلم بأني رسوله، وجميعنا تحت مراقبته، وبناء عليه لن أتجرّأ وأكذب وأقول إنّي رسوله لو لم أكن رسوله لأنه تعالى يراقبني، وأخبركم عن جرأتكم باتهامي بالسحر بأنه تعالى يعلمه، وسيحاسبكم ويجازيكم عليه.

لاحظ القرآنَ يستعمل كثيراً صفةَ عليمٍ ليشير إلى كونه تعالى يسمع ويرى ونحن نسمع ونرى، ولكن أحياناً نسمع ونرى كالآلة، فلا ننتبه أو لا نركّز أو لا نفهم أو ننسى... ولكنه تعالى يسمع ويثبت عنده ما سمعه مع "وعيه" تعالى له، فهو عليمٌ بكل ما يسمعه، وهذا المعنى هو الأكثر انتشاراً في القرآن لصفة عليمٍ.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائماً أنّ التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاءٍ أو غيره، ويقابله أرضٌ لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماءً" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرضٌ، وهذا لا يعني أن الأرض ترابيةٌ، أو كوكبٌ... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرضٌ، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...} وهي إشارة إلى وجود سبع أَرَضِينَ مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرضٍ "كوكب" أو أراضٍ "كواكب" تحت كل

سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرضٌ، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرضٌ بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرضٌ بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرضٍ أو أراضٍ.

عادةً نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير فنستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، فنقول: خلق سبحانه الدنيا. أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيراً صحيحاً دقيقاً بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى}. فسبحانه دقيق في تعابيره ويحدّثنا بدقّةٍ عمّا يعلمه، وكلامه تعالى عن السماوات والأرض هو كلام عن علم بما أمامه سبحانه، حيث إنّه دائماً يتكلم بشفافية عمّا أمامه فقط، أمّا الكلام عن كلّ ما في الدنيا، فهو كلام عمومي ويشمل "نظرياً" ما هو خارج العلم، ولذلك لم يستعمله تعالى، بينما ترى استعماله في كلام عموم البشر لأننا نتساهل ونتراخى في التعبير.

(بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ{5})
بل قالوا، تلك النوعية من الناس قالوا ردّا على كلام الرسول:

{أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ}، مجموعة صغيرة من خليط الرغبات مع الهواجس التي يراها "محمّد" في منامه أو في اليقظة وهي أمور لا معنى لها في الواقع، حيث يرى في منامه أنه رسول وأنه يتواصل مع الإله... والناس بشكل عام يؤمنون بأن بعض المنامات لها تأويل فعلي، فتتحقق، أو تنقل صورة حقيقية عن واقع ما، أمّا هذا الذي يقول بأنه رسول، فهو يحلم في أثناء نومه أو في أثناء اليقظة بالأضغاث أي بما لا تأويل له فلا حقيقة ولا واقع له، ويصدّق ما يراه ويقول لنا بأن الإله يتواصل معه.

{بَلِ افْتَرَاهُ}، أقواله مفتراة حيث يلفّق كلاما وينسبه لله تعالى، ويخترع أنه تعالى أرسله.

{بَلْ هُوَ شَاعِرٌ}، لديه مهارة تركيب الكلام المنمّق عن المشاعر والأحاسيس حين يصف الأمور، لأن كلامه لا يعبّر عن أي واقع أو حقيقة. ومعلوم أن الرسول محمّد(ع) لم ينظم الشعر، وهم لا يقولون عن القرآن إنه شعر القصائد والقافية، بل يقصدون أن الشعر في أصله وأساسه ليس خبرا حقيقيا ينقل الواقع، بل كلام تصويري يحفّز ويثير الأذن بموسيقاه ويثير الصور التي يفعّلها في ذهن المستمع، ولا يعبّر عن واقع حقيقي، وحتى لو نقل لنا الشاعر في قصيدته قصّة معركة جرت، فلن ينقلها مثل نشرة الأخبار، بل سينمقّها ويذوّقها مبالغا في تصوير مجريات الأحداث... وإذا سمعنا شعرا بين شاعرين يتبارزان في الكلام، فكلاهما يقنعك بأن معه حقٌّ لشدّة حدّة لسانه على الشاعر الآخر... وهذا ما يقصدونه بقولهم إن القرآن شعر، حيث إنه بنظرهم هو صفصفة كلام خيالي موسيقي بليغ لا يعبّر عن أي حقيقة.

{فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ}، بدل كلامه فليقم بشيء مميّز يدلّ على صحّة كون الإله يتواصل معه، {كَمَا}، مثلما، {أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ}، حيث إنه بحسب قوله (ع) هناك رسل جاؤوا من قبله وكان لديهم قدرات تميّزهم عن بقية البشر... ولماذا هذا الرسول ليس مميزا مثل الذين سبقوه؟ مثل عيسى الذي أحيا الموتى وموسى الذي فلق البحر...

هم أصلا لا يؤمنون بالرسل من أساسه، ولكن سمعوا من أهل الكتاب ومن الرسول محمد(ع) أن الرسل السابقين حصلت على أيديهم آيات، فاعتبروا أنه كلام عن تميّز أولئك الأشخاص بقدرات تثبت أنهم ليسوا عاديين، إذاً فليأتِ هذا الرسول بآية تثبت أنه ليس مثلنا كرجل عادي من البشر. وسترى من الآية بعد التالية أن كلامهم غير صحيح وناقص، إذ ليس لديهم معلومات صحيحة عن رسله تعالى، وهكذا من خيالهم يقولون إن الرسل السابقين الذين تحدّث عنهم القرآن، كان لديهم قدرات مميزة عن البشر، وأنهم لم يؤمنوا بهم ولن يؤمنوا بك حتى تأتيهم بآيات مثل التي قيل إنها حصلت في السابق...

سيبدو لك مما سبق ومن تكملة الكلام أنهم رفضوا الإيمان برسول بشري، ولتصديقه يطلبون آية تثبت أنه تميّز لأن الإله تواصل معه، إمّا أن تتغيّر طبيعته البشرية ليصير فيه قدرات خارقة، أو يزوّده الإله بقدرات خارقة، وسترى من الآية بعد التالية وما بعدها الردّ على كلامهم، وقبل ذلك أخبرتهم الآية التالية أنهم لن يؤمنوا مهما جاءتهم من آيات:

(مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ{6})
{مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا}، لم يعلن أي مجتمع من الناس من قبل هذا المجتمع إيمانه، وكنّا أهلكناه واستنفدنا حياته من بعد كفره بالآيات، {أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ}؟ فهم يطلبون آية، وقبلهم لم تؤمن أي قرية جاءتها آية، ولذلك أهلكناها، فهل هؤلاء سيؤمنون إن جاءتهم آية؟! لا.

بعبارة أخرى هناك قرى أهلكها تعالى لأنها لم تؤمن بالآية التي طلبوها، فهل هؤلاء القوم سيؤمنون لو جاءتهم آية؟ أم سيكون مصيرهم الهلاك تماما مثل السابقين من الكافرين؟

نلاحظ في القرآن أنه سبحانه فعلا يزوّد بعض الرسل بآيات، ولكن ليس كُلَّ الرسل، وسبحانه هو يختار ما يراه مناسبا من الآيات، ولكن حين يطلب الناس آية، فسبحانه يحسم الموضوع للرسل بأن الناس الطالبين للآية لن يؤمنوا حتى لو تحقّق لهم ما يطلبون، وترى في القرآن أن هذا الشيء محسوم بشكل نهائي، ويقول تعالى بعلمه الواسع إنَّ أسلوب إتيان الناس بالآيات "التي تعارف الناس على تسميتها بالمعجزة والخوارق" لن يَجْعَلَ الكفّار يؤمنون أبدا، فمن لم يؤمن بآية خلق ما في الدنيا من كائنات وظواهر، ولم يؤمن بكلامه تعالى الواضح أنه حقّ، فلن يؤمن ولا بأي شكل مهما حصلت معه أو أمامه من آيات، ولدينا نماذج عديدة في التاريخ عن ذلك أبرزها كفر فرعون وقومه بتسع آيات خاتمها آية انفلاق البحر فدخلوا فيه! وبالنسبة لإيمان السحرة بالنبي موسى(ع) فراجع دراسة الآيات التي تحدّثت عنهم لترى أنهم من الأساس كانت عندهم بذرةُ إيمان وترى ذلك من كلامهم بعدما هدّدهم فرعون بتعذيبهم وقتلهم...

لمزيد من التوسّع راجع دراسة الآية 59 من سورة الإسراء {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا}.

تلاحظ أن تركيب الجملة يبدو فيه تقديم وتأخير للكلمات، واستبدال هذا التركيب بأي تركيب آخر يعطي نفس المعنى سيجعلك مجبرا على إضافة كلمات أخرى وتصير الجملة طويلة وتفقد جمالها، فجرّب ذلك، وسترى عندها جمال سبكة هذه الآية.

تذكّر دائما أن كلمة قرية معناها: مجموعة من الناس مع بعضها في مكان واحد، سواء في الخيام، أو الكهوف، أو البيوت أو البنايات، بعدد كبير أو صغير... فكلّه اسمه قرية.

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ{7})
ما قالوه في الآية قبل السابقة عن تميّز الرسل الإلهية بقدرات خارقة، لم يكن إلا تصوراتهم هم عن الرسل وليس صحيحا كلامهم:

{وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ}، أيها الرسول محمد(ع)، {إِلَّا رِجَالًا}، ذكورا من البشر، حيث لم نرسل مخلوقات غريبة عنهم كملاك أو جنّي...، والرسل البشر سيبقون بشرا ولن تتغيّر خصائصهم البشرية، إذ تمتّع بعضهم بقدرات غير عادية ولكنها من ضمن بقائه بشرا.

{نُوحِي إِلَيْهِمْ}، والوحي هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، وهذا يصدق على كل تعاملاته سبحانه لأنه يستحيل على كل المخلوقات التواصل المباشر معه سبحانه، وسبحانه أصلا لا يصدر عنه مباشرة صوت لنسمعه نحن، ولا يصدر عنه ما يشبه الصوت لتسمعه الملائكة(ع)، ولمزيد من المعلومات حول الوحي راجع دراسة الآية 25 من هذه السورة.

إذاً هذا ما يفعله تعالى لاختيار رسله للبشر، وطلبكم آية تبين لكم أن الرسول متميّز بقدرة خارقة لأنه يتواصل مع الإله، فهذا لو حصل فلن تؤمنوا، وأصلا ليست عادته تعالى تغيير طبيعة رسله، فكلهم بشر، وهكذا نرى بقية كلام السورة عن المؤمنين المميزين بالإيمان العالي أنهم احتاجوا له تعالى ولم تتغيّر طبيعتهم ليقوموا بما يَحْلُو لهم من خوارق...

{فَاسْأَلُوا}، عَبِّرُوا عن إرادتكم لحصولكم على جواب من {أَهْلِ الذِّكْرِ}، والكلام هنا عن الذين لديهم علم بهذا الموضوع وهم الناس الذين ينتمون لاستحضار أمور إلهية في فكرهم وعلمهم، حيث إنهم من اليهود والنصارى و...

{إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}، إذ أنتم أيها الكافرون لا علم لكم بتاريخ كيفية تعامله تعالى مع موضوع توصيل كلامه للناس، فاسألوا الناس الذين لديهم علم عن تاريخ تعامله تعالى مع الناس، وسترون أنه تعالى منذ آلاف السنين أوحى لرجال من البشر ليكونوا رسله، حيث لم يرسل كائنات غريبة ولم يغيّر في الطبيعة البشرية لرسله.

الذين يتهمون الرسول محمد(ع) بأنه ساحر أو يتوهم أو شاعر، فالآية تردّ هنا على كلّ ذلك ضمنيا، وبصراحة تردّ على ما يقولونه عنه بأنه رجل عادي من البشر وهم لن يؤمنوا بالرسول الإلهي إن كان مثله مثلهم، لذا اسألوا أهل الذكر، إذ هناك أناس منتمون لدينه تعالى ولديهم معلومات عن الرسل، فاسألوهم إن كنتم لا تعلمون، ولا تخترعوا شروطا للرسول الإلهي من رؤوسكم حتى تؤمنوا به، فلو كان هناك قبله ولو رسول واحد من غير البشر، أو تغيّرت الطبيعة البشرية لأي رسول منهم... لأمكنكم الاعتراض على محمّد(ع)، لذا كان من الأفضل لكم أن تسألوا الناس الذين لديهم معلومات عن الرسل الإلهية السابقة، "كاليهود النصارى والصابئة..." بدلا من كلامكم الفارغ عن الرسل السابقين بأنهم مُمَيَّزُونَ عن الرسول محمّد(ع)، اسألوهم وَسَيُخْبِرُونَكُمْ أن كل الرسل الإلهية لهذا الدين كانوا رجالا من البشر العاديين.

بناءً عليه، قرارُهُ تعالى بإرسال الرسل من البشر هو مقابل اقتراحكم بِإِرْسَالِ رسل من غير البشر، أو تغيير الصفات البشرية في رسوله، ومن قبل سبحانه لم يرسل للبشر رسلا إلا من البشر ولم يغيّر في طبيعتهم، ولن يغيّر سبحانه قراره بناء على اعتراضكم على هذا، لأنه لا عقلانية ولا منطق فيما تَقْتَرِحُونَهُ، ولن يقدّم ولن يؤخّر ولن يغيّر أي شيء ما تقترحونه، فلن يسبّب لكم الإيمان.

أمَّا بالنسبة لاختراعات بعض أهل الكتاب حول الطَّبِيعَةِ الإلهية لبعض الرسل، فسبحانه لم يستر هذا الموضوع، وترى القرآن مرارا وتكرارا يشير لهذا الاعتقاد بأنه اختراع من البعض وليس أساس دينه سبحانه، والآية التالية ستنبّه الجميع على الطبيعة البشرية الصافية لكل الرسل ولكل المؤمنين من الدرجة العالية.

(وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ{8})
{وَمَا جَعَلْنَاهُمْ}، لم نجعل تلك الرسل الذين أرسلناهم للناس، {جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ}، كل الرسل كان لهم جسد من رأس وصدر وبطن... من هذه المادة التي على الأرض، وحتى الرسل الذين اخترع لهم الناس طبيعة إلهية "كعزير وعيسى ويحيى... عليهم السلام"، كان لهم جسد، وكان جسدهم يحتاج للغذاء ليبقوا أحياء، يأكلون ويقومون بفعل ما يسدّ جوعهم وعطشهم بالمضغ والبلع... {الطَّعَامَ}، ما هو عادة يأكله البشر ويسمونه طَعَامًا، {وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ}، لم يكن الرسل لا يموتون ولا يتغيرون ولا يفنون، لا، فكلّهم من الفانين الذين سَيَمُوتُونَ إن خرب جسدهم، وَيَمُوتُونَ إذا لم يأكلوا الطعام، وَسَيَمُوتُونَ إن مرضوا... إذ هم من البشر مثلكم تماما.

ذكر القرآن هذا التوصيف "أكل الطعام" أكثر من مرّة، ليشير إلى الطبيعة البشرية للرسل وللسيّدة مريم(ع) مع ابنها النبي عيسى (ع) كما تقرأ في الآية 75 من سورة المائدة {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ}، وهذا تنبيه لمن سيسأل أهل الذكر، فإن سأل المسيحيين فالبعض منهم سيقولون له: نعم كل الرسل كانوا رجالا من البشر، ولكن الرسول عيسى(ع) كان بطبيعة إلهية. فهنا الآية تريد أخذ الصحيح من شهادة أهل الذكر العقلانيين، بأن كل الرسل كانوا رجالا من البشر، وتريد نفي أي صفة ألوهية عن الرسل لأنهم كلّهم "وباعتراف الجميع" كانوا يأكلون الطعام وإلّا ماتوا، وهذا يؤكّد حتما بأنهم كلهم من البشر العاديين ولا أحد منهم لَدَيْهِ طبيعة مختلفة عن تكوين بقيّة البشر.

(ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاء وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ{9})
ثُمَّ {صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ}، الرسل الذين طلب منها قومها آية، واستجبنا لهم، إذ صدقنا بوعدنا الذي وعدناهم، إذ قلنا عن شيء سنفعله، وقلنا إننا سنهلك أقوامهم إذا لم يؤمنوا، وفعلاً أهلكناهم، {فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ}، خلّصنا الرسل من العذاب وخلّصنا معهم من نشاء، وتعلم أنه تعالى من بين خيارات عديدة أمامه "شاء" فاختار تخليص المؤمنين فقط في حالات كحالة النبي نوح (ع) والنبي لوط (ع)، وبعض الأحيان شاء تعالى تخليص الكافرين "الذين سيؤمنون فيما بعد أو سيلدون مؤمنين" كما في حالة قوم النبي صالح (ع) والنبي شعيب (ع)، {وَأَهْلَكْنَا}، فاستنفدنا حياة فأَمَتْنا،

{الْمُسْرِفِينَ}، الذين بالغوا في فكرهم وعملهم ووصلوا إلى ما فوق ما هو مسموح لهم، إذ أسرفوا في استعمال ما يملكونه من مال أو قدرة أو حواس، ففعلوا بها أموراً سيئة، وجاءهم الرسول لينبّههم ليتوقّفوا عن الإسراف، ولم يؤمنوا به ولم يتوقّفوا عن الإسراف، وطلبوا آية ولم يؤمنوا فأهلكناهم هلاك عذاب من تدخّل إلهي.

تحدّثت آيات عديدة من القرآن عن نجاة المؤمنين من العذاب مع الرسل، ونرى ذلك في القصص التي رواها القرآن عن الأنبياء: نوح، هود، شعيب، صالح، ولوط عليهم السلام، ونجد في القرآن في الحادثتين اللتين وقعتا في زمن النبيين شعيب (ع) وصالح (ع) أن المؤمنين خرجوا من القرية قبل نزول العذاب، ورجعوا وقد بقي من أهل القرية بعض الأحياء، وراجع في ذلك دراسة الآية 79 من سورة الأعراف {فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}، فالتعبير {بِمَنْ نَشَاءُ} هنا في الآية ناظر إلى المؤمنين الناجين مع الرسل وإلى بعض الناجين من الكافرين من أهل القرى في بعض الحوادث.

(لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ{10})
لماذا تطلبون أن يكون الرسول مميّزاً عن البشر؟ لماذا تطلبون منه آية؟ ولماذا لم تؤمنوا به؟

لقد {أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ}، فيه الذكر الموجّه لكم، ما هو مطلوب منكم أن تذكروه وأن تستحضروه في فكركم وعملكم فستجدوه في هذا الكتاب "القرآن" الذي نزل عليكم، {أَفَلَا تَعْقِلُونَ}؟ أليس لديكم عقل يعقل هذا؟ لماذا لا تفهمون ولا يستوعب عقلكم هذه المعلومات؟ لو استعملتم عقولكم "قدرتكم على الاستيعاب والفهم" بالشكل السليم لوجدتم أن هذا الكتاب فيه كل ما يلزمكم لتؤمنوا، فانتبهوا له وتوقّفوا عن اختراع إشكالات وخزعبلات تافهة عن الرسول والدين الإلهي.

يشير الكلام هنا لعمق تراه منتشراً في كل القرآن، فلو كان كلامه تعالى الذي ينقله لنا رسله فيه سوء، لكان مع الكافرين حقّ بالكفر به، ولكنهم كفروا به ولم يعقلوه فلم يفكّروا به بعقل، بل تعاملوا معه من خلفية رفضهم للتقيّد بالحقّ الذي يتعارض مع مصالحهم التي تتضمّن رغبات سيئة.

بعبارة أخرى فهذا الذكر كلام حقّ عنه تعالى وعن أفعاله وقراراته، وكلام خير وصلاح عن التشريعات والسلوكيات، وهذا لوحده من المفروض أن يكون كافياً لكم لتؤمنوا به أنه من مصدر إلهي وأن تلتزموا به.

(وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ{11})
{وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً}، وكم من قرية كانت ظالمة فقصمناها؟ كم مجتمع من الناس كان غير عادل ولا منصف حين لم يؤمن بالرسل فقصمناه فضربناه بقوّة فصلته وكسرته، وهذا التوصيف بـ "القصم" يشير إلى ضرب جبروتهم وطغيانهم وظلمهم وكفرهم، وسترى من الآية التالية أنهم سيركضون خوفاً وهرباً، فأمتنا القرية، {وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ}، كوّنا أناساً لهم كيان الجماعة غير القرية التي هلكت، فجاء بعدهم أناس عاشوا مكان القرية التي قصمناها، أو ممن بقي من المؤمنين من أهل القرية كوّنا أناساً عاشوا من بعد الذين أهلكناهم.

أنتم أيها المعترضون على الرسول وعلى الكتاب الذي حمله لكم منه سبحانه وتطلبون شيئاً آخر، أفلا تعقلون ما أنزلنا لكم؟ إن لم تؤمنوا به فهذا تصرّف ظالم منكم لأنه حقّ واضح ويدل على الشيء الصحيح، فظلماً كفرتم ولم يكن معكم حقّ، وكم من قرية ظالمة كما ظلمتم فقصمناها، فماتت وانتهت وجاء بعدها قوم آخرون؟

أنتم لستم أوّل الدنيا ولا آخرها، وأنتم لستم الوحيدين على هذه الأرض، فإذا أعطيتم قيمة لأنفسكم وظننتم أن إهلاككم ليس محتملاً لأن هذا يعني هلاك البشريّة، فأنتم مخطئون، حيث سنّة الله تعالى في هذه الدنيا أن يموت أناس ويعيش أناس، وأنتم لستم مميزين حتى تنكسر القاعدة عليكم.

بقي شيء، فليس كل هلاك لأقوام حصل بتدخّل إلهي مباشر لتغيير الظروف الطبيعية، حيث بعضهم يهلك من كوارث طبيعية يتركها سبحانه تحصل ولا يتدخّل، وفي بعض الحالات يتدخّل سبحانه للعناية بالمجتمع المؤمن المستغفر،

وراجع في ذلك دراسة الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

(فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ{12})
القرية التي قرّر سبحانه قصمها، {فَلَمَّا أَحَسُّوا}، عندما شعروا وتلمّسوا، {بَأْسَنَا}، شدّتنا وعذابنا الشديد، {إِذَا هُمْ مِنْهَا}، من القرية، {يَرْكُضُونَ} يحاولون الهرب بالانتقال بأسرع ما يمكنهم.

حين يرون أن العذاب الإلهي بدأ، فتبدأ الأرض بالتزلزل، أو البركان بالثوران، أو عاصفة هوجاء تضرب بقوّة، فعندما يشعرون أن الخطر أكيد فهم يركضون ليهربوا من مكان الخطر. هذا الجبروت والكبرياء نقصمه فيتكسّر ويأخذ الناس حجمهم الطبيعي كمخلوقات ضعيفة عندما يتعرّضون لعقاب إلهي، فيركضون هرباً لأنهم عاجزون عن المواجهة، وأنتم مثلهم فاعرفوا حجمكم.

(لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ{13})
تسخر منهم الآية: {لَا تَرْكُضُوا}، لا تغادروا قريتكم بأسرع ما يمكنكم، إذ كنتم جبّارين مسرفين ساخرين من الرسل ومن عقابه تعالى على أساس أنكم لا يهزّكم شيء، فقفوا وواجهوا ما يحصل معكم بقوّتكم بدلاً من الهرب بسرعة، {وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ}، حيث كنتم معتادين على استعمال ما لديكم بأكثر مما تحتاجون، وكنتم معتادين على إشباع رغباتكم أو صرف أموالكم وقوّتكم ترفاً، أي بشكل زائد عن الحاجة، فلماذا تتركونه وتركضون؟ {وَمَسَاكِنِكُمْ}، إلى الأماكن التي كنتم تسكنون فيها على أساس أنها أماكن فيها راحتكم، فلماذا تتركونها وتركضون؟ {لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ}، فمن المفروض ومن المتوقّع أن يطرح الآخرون عليكم الأسئلة وأن تطرحوا الأسئلة على بعضكم البعض، فتعبّرون لبعضكم البعض عن إرادتكم للحصول على الإجابة عن سبب ركضكم وترككم لترفكم ومساكنكم.

كما ترى، الآية تسخر منهم، مثلما تقول لمن يهرب وكان قبل قليل يهددك: ارجع لنرى قوّتك وتهديدك، فهؤلاء كانوا مترفين ولا يبالون بالعقاب الإلهي، وها قد وقع العقاب والآن يحاولون الفرار منه، فتسخر منهم الآية: لماذا تركض وتترك بيتك حيث كنت مترفاً؟ ما السبب؟ الجواب هو نزول عقاب إلهي عليكم وليس لديكم القدرة على فعل أي شيء، وهذا ما كنتم لا تؤمنون به وترون أنفسكم مترفين ولا أي قوّة قاهرة فوقكم.

المترف يمكن أن يكون غنياً أو فقيراً، بلا فرق، فأيُّ شخص كانت عادته التصرّف بشكل يزيد عن حاجاته فهو مترف.

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ{14})
{قَالُوا}، الناس وهم في حالة نزول العذاب: {يَا وَيْلَنَا}، يا مصيبتنا العظيمة، {إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ}، لم يكن معنا حقّ حين كفرنا وعصينا الرسول، حيث من الإنصاف والعدل أن نؤمن بما جاءنا لأنه كان حقّاً واضحاً وكافياً.

كما ترى، تغيّر كلامهم من التعالي والكبرياء وفرض الشروط على الرسول ليؤمنوا إلى الاستسلام الانهزامي المسحوق مع الاعتراف بظلمهم. ينتشر في القرآن الكلام عن اعترافهم بالحق في الآخرة، وأنهم كانوا ظالمين إذ تأمّن لهم ما يجعلهم مؤمنين وهم رفضوه رغم علمهم بأنه حقّ، ولدينا آيات مثل آيتنا هنا ترينا نماذج عن البعض منهم أنهم هنا في الدنيا عندما يفقدون أي أمل بالنجاة فإنهم يعترفون بظلمهم، كحالة إيمان فرعون في آخر لحظات حياته عندما تيقّن أنه سيغرق ويموت، وتقرأ ذلك في الآية 90 من سورة يونس {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ}.

(فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيداً خَامِدِينَ{15})
{فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ}، استمروا على الإشهار والإعلان بهذا القول بالويل والاعتراف بالظلم، {حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا}، حتى جعلهم تعالى مأخوذين "كلهم أو أكثرهم"، {خَامِدِينَ} بلا حراك. كما يحصد المزارع نتاج النبات، وكما تحصد الحرب حياة الناس، فالموت الذي أمر به سبحانه يحصد حياتهم ويتركهم أجساداً ميتة لا تتحرّك.

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ{16})
{وَمَا خَلَقْنَا}، فلم نركّب ونؤلّف، {السَّمَاءَ}، كل ما علا فوقنا وصولاً إلى السماء السابعة، {وَالْأَرْضَ}، عموم ما كان تحت سماء، {وَمَا بَيْنَهُمَا}، من فضاء ومخلوقات وظواهر، {لَاعِبِينَ}، غير جديين، فلم نقم بهذا العمل للتسلية والمرح والعبث. بالنسبة للكائنات المخلوقة فإن السماوات والأرض هي حدود كلّ الدنيا، وما بينهما هو المساحة التي فيها كل المخلوقات والظواهر في الدنيا. وتذكّر دائماً أن هذا التعبير {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا} لا يشمل الإله عزّ وجلّ، بل يشمل فقط الكائنات المخلوقة.

تتذكّر أن كلمة سماء وصف لعموم ما علا ويقابله أرض لعموم ما كان تحتها، فلكل سماء أرض تقابلها بما يناسب طبيعة تلك السماء، فكوكب الأرض أرض بالنسبة لسمائنا، وسطح القمر أرض بالنسبة لسمائنا ومثله سطح الشمس وسطح المشْتري الغازي، وكذلك بقية السماوات لها ما يناسبها من أرض، وتقرأ ذلك في الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}.

إذاً، ما معنى خلقه تعالى لما في الدنيا بهذه الضخامة الهائلة؟ هل خلقها سبحانه ليلعب: لتمضية الوقت ويتسلى بدون أي حكمة؟ وخلقنا نحن في هذه الدنيا لنحيا ونموت بلا حساب على ما فعلناه بحرية الإرادة والاختيار الممنوحة لنا؟ كما ترى فهناك الكثير من الأسئلة التي تتفرّع من آيتنا هذه، فهل خلقنا سبحانه وتركنا على هوانا لنخترع عقيدتنا وشريعتنا؟ ما معنى تزويده تعالى لنا بقدرات وصفات تتضمّن الحاجة لعقيدة وشريعة ويتركنا نخترعهما على هوانا السيّء ولا يتدخّل ليبعث رسولاً يرينا الهدى؟

(لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ{17})
{لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا}، فرضاً لو قصدنا أن نفعل شيئاً غير مهم مع وجود أمور مهمّة لنفعلها، {لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا}، من ذاته تعالى، {إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ}، هذا لو فرضاً قرّر سبحانه أن يلهو.

ضع في بالك أن اللهو هو القيام بشيء ما مع وجود شيء آخر أهمّ منه لتفعله، ويتدرّج من تمضية الوقت والجهد والاهتمام... بشيء تافه جداً، إلى تمضية الوقت بشيء له أهمية ولكن هناك شيء أهمّ منه.

هم بكفرهم بالرسول الإلهي الناقل لكلامه تعالى لهم، يجعلونه تعالى خالقاً لما في هذه الدنيا الضخمة ومشاهداً لما يجري فيها فقط من دون أن يتدخّل فيها، وبدون محاسبة الذين خلقهم يميّزون بين الخير والشرّ ويتمتّعون بحرية إرادة واختيار، يسألهم سبحانه: لماذا خلقتها؟ لألهو؟ وتأتي آيتنا هنا لتخبرنا أنه فرضاً، لو فرضاً أراد تعالى فعل شيء ما قيمته أقل من أمور أخرى، فلديه سبحانه أمور أخرى ذاتية ليفعلها.

إذًا ما في هذه الدنيا خلقه تعالى عن حكمة وليس لهواً ولا لعباً، فهي عمل له أهمية، حيث خلق سبحانه فيها كائنات وهبها الحياة والفكر والإرادة... ليمتحنهم فيها ويجازيهم في الآخرة على اختياراتهم... أمّا الكافرون برسله تعالى فما تفسيرهم لسبب خلقه تعالى لما في الدنيا إن لم يتواصل معهم عبر رسله ليخبرهم لماذا خلقهم وليهديهم؟

ننتبه جيداً، فالآية لا تشير إلى إمكانية أن يلهو الإله عزّ وجلّ، ولا أنه تعالى يلهو بأمور من مستوى إلهي، لأنه سبحانه لم ولن يفعل ذلك، وسبحانه أصلاً لا يلهو ولا يلعب، بل تخبرنا الآية بأنه تعالى لا اهتمام له بنا كتسلية، لأن قيمتنا كمخلوقات أقل بكثير بالنسبة له تعالى لنكون أداة للتسلية واللهو له، إذًا خلقنا سبحانه لا لِيتسلّى أو يلعب بنا، ولا ليتركنا نتصرّف على هوانا من دون حساب، ولذلك أرسل لنا من يخبرنا عن الحكمة من خلقنا... لنمرّ بالامتحان هنا ونُجَازَى في الآخرة...

تذكّر دائماً أننا نتعرّف عليه تعالى بما يخبرنا به عن نفسه سبحانه، حيث بحدود عقلنا يمكننا لوحدنا إذا نظرنا إلى أفعاله تعالى من حولنا أن نستنتج بعض صفاته سبحانه بشكل صحيح، ولكن طريقة تفكيرنا وسلوكنا، وهو انعكاس لمستوى سلامة قلبنا، ستحدّد ما سنصل إليه من صفات إلهية، والنموذج النبي إبراهيم(ع) الذي ستطرحه السورة هنا، ذكره القرآن مراراً مُركِّزاً على أنه نموذج عن إنسان وصل "بقلبه السليم من الدرجة العالية" لمعرفة عالية بالصفات الإلهية

لأن تفكيره ونفسيته وسلوكه مستقيم، ونُزُولاً من هذا النموذج الراقي إلى أسوأ أنواع التفكير والنفسية والسلوك المبني على الكذب والخداع والعصبية وحب الشهرة والشهوة... ستكون الاستنتاجات عنه تعالى غير صحيحة وباطلة، كتجسيم الإله، وتعدّد الآلهة، ومزاجية الإله... وبين النماذج الراقية المتعرّفة عليه تعالى بقلبها السليم، وبين أسوأ النماذج من القلوب الغلف العمي... هناك الخليط بينهما، كحالتنا نحن المنتمين لدينه تعالى، فهؤلاء معرفتهم به تعالى بحاجة لتقويم، لأن بعض السواد في قلوبهم سيعميها عن رؤية الصفات الحقيقية له تعالى، وكمثال على ذلك ما تسمعه من اعتراضات على حكمته تعالى في البلاءات التي تصيبنا، وكأنه ليس خبيراً ولا بصيراً ولا مقتدراً...

نتذكّر أنه تعالى ليس كمثله شيء أبداً بتاتاً ولو بشعرة، ونتذكّر أن كل الموجودات بلا استثناء كلّها مخلوقات عبيد له تعالى، ولا واحد منها قريب منه تعالى لدرجة معرفته على طبيعته الإلهية، ولا واحد منهم يمكنه التواصل معه تعالى بشكل مباشر، لأنّ الفرق كبير جداً جداً جداً بينه تعالى وبين أي مخلوق. ولا تفهم من هذا الكلام أنه سبحانه يمنع مخلوقاته من التواصل المباشر معه، لا، بل بسبب التميّز الفائق في طبيعته سبحانه، لا يمكن أن يوجد مخلوق يقدر على التواصل المباشر معه عزّ وجلّ.

بناءً عليه نفهم الآية هنا عن "فرضاً" لو أراد سبحانه لهواً لاتّخذه من لدنه، نفهمها كخبر منه تعالى لا يمكننا فهمه على حقيقته، لا عن طريق التواصل معه تعالى مباشرة، ولا عن طريق التفكير به تعالى، حيث إنّ الطريقين الوحيدين للتعرّف عليه تعالى هما أولاً: الطريق المحدود عبر التفكير فيما حولنا وفي خلقتنا نحن... والطريق الثاني أن يخبرنا هو سبحانه عن نفسه. ويقولون إنّ هناك طريقاً ثالثاً وهو طريق المعرفة القلبية، وهي طريقة التصوّف والعرفان... وفي الحقيقة هي ليست طريقة منفردة، إذ إنّ أساسها الصحيح هو طريقة النموذج إبراهيم(ع) وهي التفكّر فيما حولنا وفي أنفسنا، فإن كان لدينا قلب سليم، فلدينا فكر ونفسية سليمة، وسنصل كما وصل النبي إبراهيم(ع) إلى أعلى الدرجات الممكنة للبشر للتعرّف عليه تعالى.

هنا الآية تخبرنا عن شيء يمكننا معرفة نصفه لوحدنا، والنصف الآخر لا يمكننا معرفته إلّا إذا أخبرنا تعالى عنه، حيث بقلب سليم ستدرك أنه تعالى حكيم وتُوصَف بالصوابية كل تصرفاته وقراراته لأنه لا يعبث ولا يلعب ولا يلهو، وبالتساهل نقول إنّ أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، إذ لا يفعل لغاية له سبحانه. ولكن الآية تخبرنا أنه تعالى "لو فرضاً" لم يكن حكيماً في كل شيء، وقرّر سبحانه أن يلهو، فمخلوقاته لا تشكّل له تعالى أي قيمة كلعبة أو تسلية، لأنّ قيمتنا أقل بكثير من أن نكون تسلية للإله سبحانه.

دائماً يتحدّث معنا سبحانه وتعالى بشفافية، وهنا ينزل سبحانه لمستوى تفكيرنا ليخبرنا بكل شفافية عن نفسه ليقول لنا: فرضاً لو أردت أن ألهو، فبذاتي "التي لا يمكنكم فهمها أبداً" هناك أمور لها أهمية أعلى من خلق ما في دنياكم لهواً، وما في دنياكم لا يثير أي اهتمام لي حتى أخلقه لألهو، بل خلقته لأنه عمل حكيم.

(بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ{18})
لم نخلقكم لنلعب أو نلهو، {بَلْ نَقْذِفُ}، نرمي بقوّة، {بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ}، تذكّر أنّنا ما زلنا في أجواء إرسال رسول إلهي مع رسالة، فالناس صار بينها عقائد باطلة غير سليمة وغير صحيحة، ويقذف سبحانه هذا الباطل بالحقّ بالصواب بالصحيح، وهي الرسالة التي يحملها الرسل، فهذه قذائف حق وليست عبثية أو باطلة فاسدة، {فَيَدْمَغُهُ} تعالى فينطبع الحق على الباطل، فتظهر طبعة دمغة نقشة الحقّ، {فَإِذَا هُوَ}، الباطل، {زَاهِقٌ}، خارج عن مكانته قهراً وغصباً عنه.

{وَلَكُمُ الْوَيْلُ}، لكم المصيبة الكبيرة، {مِمَّا}، من الذي، {تَصِفُونَ}، فوصفكم له تعالى وهو كفركم به تعالى، أو قولكم بأنّ له شركاء، أو أنّه ترككم ولم يرسل رسولاً، أو يجب أن يأتيكم رسول من غير البشر لتؤمنوا، أو أن يأتيكم بآية تحددونها أنتم لتؤمنوا... أو أنّه تعالى خلقنا للتسلية ليلهو... فهذا الكلام سيسبّب لهم العذاب الشديد.

تصوّر الباطل كطبعة على المعجون، وتصوّر الحقّ يصطدم به، فينطبع الحقّ على المعجون فوق طبعة الباطل، وتنمحي "تزهق" طبعة الباطل. وهذا التصوير حقيقي، لأن القرآن الذي جاء به الرسول(ع) فيه كل المعلومات الحقّ الصحيحة عنه تعالى وعن قراراته وأفعاله، وهذا ما نسمّيه بالعقيدة، وفيه تشريعات وسلوكيات حقّ صالحة، وفيه

الأجوبة على الإشكالات التي يقولها الكافرون والمشركون والمنافقون والفاسقون، وما يقوله الناس المنكرون للدين الإلهي فهو كلام فاسد باطل غير صحيح، وظهر بطلانه عندما ردّ عليه القرآن، فتشوّهت طبعة الباطل وظهرت مكانها طبعة الحق.

مَن أصرّ على البقاء على الباطل رغم ظهور الحق بهذا الشكل الواضح، فلهذا السبب بالتحديد سيقضي عقوبة خالدة في جهنّم، وهذا شيء ذكره القرآن مراراً، وهنا تذكره الآية بطريقتها الخاصّة، فالويل لمن وصف الدين الإلهي بكلام باطل بعد أن دمغه الحق وصار واضحاً بطلان ما يقوله الكافرون، والويل المصيبة الكبيرة معروفة، فهي الخلود في جهنّم.

بقي شيء، ففي مسألة الحقّ والباطل تدرج بيننا ثقافة نستخدم فيها بعض آيات القرآن التي نفسّرها بشكل لا نفرّق فيه بين الانتصار والحكومة والسيطرة والغلبة والزهوق، كالآية 81 من سورة الإسراء {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}، فنقول إنّ الباطل زاهقٌ فالحقّ سينتصر، قاصدين أنّ المؤمنين سيحكمون ويكون لهم دولة، وهذا المعنى لم يقصده القرآن بهذه العمومية، فهناك حالات في التاريخ اكتملت فيها الشروط لفرض المؤمنين سلطتهم على مجتمعهم، ونصرهم تعالى... وأمّا عموم بقية التاريخ البشري بمجتمعاته المنتشرة على الأرض، فالغالبية ينتشر فيها الباطل مخلوطاً بالحقّ، وكثيراً من الأحيان يكون الباطل طاغياً.

كلامه تعالى في قرآنه عن ظهور الحقّ وزهوق الباطل بتعابير متنوّعة، يشير إلى ما يمكن أن تسمّيه بالانتصار على المستوى الفكري النظري، فإذا فكّرت وتمعنّت في عقائد وتشريعات وسلوكيات الناس، وأردت معرفة الحقّ من الباطل فيها، فما وصلنا منه تعالى يبيّن لك الحقّ بشكل واضح، وهذا عادة وغالباً ما يقصده تعالى بكلامه عن انتصار الحقّ وعن دمغه للباطل، فأي مسألة تنظر إليها لتدرسها بعقلانية، فدمغة الباطل ستكون مدموغة بدمغة الحقّ فوقها، على معنى أنّ دمغة الباطل ليست أوضح من دمغة الحقّ بل العكس فالحقّ واضح، وعلى معنى أنّ الحقّ منتصر فعليه أدلة واضحة تثبت صحّته.

عملياً، جاء في القرآن أدلّةٌ على توحيده تعالى، وعلى صفاته الحسنى، وعلى حسن تشريعاته والسلوكيات التي يأمرنا بها، وتبيَّنَ بشكل واضح الحقّ، وبذلك يصير واضحاً الباطل الفاسد من عقائد وتشريعات وسلوكيات.

(وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ{19})
ندخل من هنا على من قال بأنّه تعالى لديه شركاء في الألوهية:

{وَلَهُ}، منسوب لله سبحانه، {مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ} "السبع" {وَالْأَرْضِ}، وهذا التعبير القرآني يرادف قولنا: كل المخلوقات التي في كل الدنيا كلّها منسوبة له تعالى، وتصميمها وخلقها وتبعيتها وملكيتها والسيطرة عليها... له تعالى، وهذا يعني أنّه ولا واحد منها إله، لأنّ كلَّها مخلوقات منسوبة له تعالى.

{وَمَنْ عِنْدَهُ}، من عموم مفاهيم القرآن تفهم الإشارة هنا للملائكة(ع) الذين ليسوا عندكم أيها البشر، فَلَسْتُمْ ترونهم ولا تتعاملون معهم مباشرة كما تتعاملون مع بعضكم البعض... فيصير وصفهم بأنهم عنده تعالى لأنهم منسوبون له كمخلوقات مقرَّبة منه، وليس المقصود أنهم قريبون منه في مكان ما، لا، فسبحانه لا معنى للمكان بالنسبة له، وبالتالي لا أحد من مخلوقاته يكون قريباً منه بهذا المعنى، بل بمعنى مقربين منه سبحانه كما تفهم من الآية 172 من سورة النساء {لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ...}.

{لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ}، فلا يرون أنفسهم أكبر من أن يتصرفوا على أساس أنهم مفروض منهم وعليهم طاعته تعالى لأنهم يرونه تعالى كبيراً في الصفات الحسنى والقدرات، ويرون أنفسهم صغاراً أمامه سبحانه، {وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ}، فلا يشعرون ولا بأي شكل أنهم بعبادته تعالى فاتهم شيء أهمّ، بل يشعرون بأن أهمّ شيء ممكن أن يفعلوه هو أن يتصرّفوا على أساس أنهم عبيد له سبحانه وتعالى.

تشير الآية لأمرين، فمن نظرته تعالى يخبرنا وبكل صراحة أنه لا يجد أي شيء إلا المساحة والكائنات التي خلقها هو تعالى، والمساحة وصفها سماواتٍ، ولكل سماء أرض تناسبها في نوعها، وراجع في ذلك دراسة الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...}، فأي شيء وأينما كان في الدنيا فسبحانه خلقه وبالتالي

فهم منسوبون له تعالى كعبيد له مفروض منهم وعليهم طاعته، ولا يوجد شيء آخر غير ذلك. ضع هذا في بالك دائماً لأن القرآن كرّره كثيراً ليخبرك وبصراحة وشفافية أنه تعالى لا يرى إلا نفسه والكائنات التي خلقها، ولا يرى ولا يلمس أي أثر لأي شيء آخر مهما كان نوعه، فلا إله غيره تعالى ولا مخلوق إلا الذين خلقهم هو سبحانه، وهذا خبر منه تعالى للجميع ليعلموا أنه لا يوجد أي إله إلا هو سبحانه وتعالى، ودليل هذا الخبر من ناحيتنا أننا وعبر آلاف السنين من تاريخنا لم تصلنا رسل إلا منه تعالى، ودليل آخر أننا لم نَرَ أفعالاً تدل على قرارين إلهيين، بل نرى دنيا تسير على قرار واحد وهذا ما ستقوله السورة بعد آيتين.

من ناحية ثانية تشير الآية للملائكة(ع) الذين لديهم قدرات أعلى بكثير من قدرات بقيّة المخلوقات، ومع ذلك فهم يتصرّفون بسعادة معتبرين أنفسهم عبيداً له تعالى، وذلك لأنهم يعرفون المعنى الحقيقي للألوهية ومقامها، فلا يرون أي فائدة في أي عمل آخر غير عبادته وطاعته تعالى.

(يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ{20})
الملائكة(ع) الذين عنده تعالى يعبدونه ولا يستكبرون ولا يستحسرون:

{يُسَبِّحُونَ}، ينزهونه سبحانه عن كل الصفات الناقصة التي لا تليق به تعالى، طوال، {اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}، وبالنسبة لنا فإنّ الزمن مقسوم لفترة فيها ضوء وهي النهار، وفترة عتمة وهي الليل، حيث إنّ الملائكة (ع) دائمة التسبيح بلا انقطاع في مدّة الزمان الذي نفهمه نحن "ليل ونهار"، {لَا يَفْتُرُونَ}، لا يحصل معهم فتور، ولا يمرون بحالة همود عن التسبيح، فدائماً يسبّحون بأقصى ما يمكنهم ولا يخفّ ولا ينقطع تسبيحهم له تعالى ولا لأي سبب، ولا يملّون ولا يتعبون ولا ينشغلون بشيء آخر غير تسبيحه تعالى.

ننتبه جيداً، فكما اعتبر سبحانه الأعمال العادية للمؤمنين العاملين للصالحات، عندما يذهبون إلى أعمالهم لتحصيل الرزق وللتعلّم وللتسلية الحلال... اعتبرها كلّها تسبيحاً له تعالى، وعليها ثواب لأنها مغطّاة بإيمانهم وعملهم الصالح، وكما اعتبر كل عمل حسن يقوم به الكافر بأنه فاقد للقيمة لأن أساس العقلية والنفسية كفر، فكذلك نفهم من القرآن أنّ الملائكة (ع) لا تقوم بأي عمل سوى إطاعة أوامره تعالى، إذ ليس لديها أشغال أخرى، وأيضاً أشغالها هي تسبيح عملي له تعالى.

ألفت انتباهك للتعبير بالليل والنهار، لأنّ الكلام موجّه لنا ونحن نعدّ الزمن بالليل والنهار، وهذه جملة تحصر كلّ يومنا، وبعده يوم آخر من ليل ونهار... وهذا التعبير يستعمل زمننا نحن لنفهم أنّ الملائكة (ع) على الدوام في حالة تسبيح وبلا انقطاع، إذ نحن ننام ونتوّقف عن التسبيح... أمّا هم (ع) فلا ينامون، وبلا انقطاع يسبّحونه تعالى.

بعبارة أوضح، نحن لا ندري إن كان في سماء الملائكة(ع) فترات زمنية مختلفة تصفها لغتنا بالليل والنهار، وأصلاً الآية لم تقصد توصيف سمائهم، بل قصدت أن نفهم أنّهم وبالنسبة لزمننا إذا نحن راقبناهم، يمرّ النهار وهم يسبّحون، ويمرّ الليل وهم يسبّحون، بلا انقطاع.

ملخّص الكلام، أنّ الملائكة (ع) تفخر وتستأنس بتصرّفها على أساس أنهم عبيد له تعالى وهم مداومون على تسبيحه سبحانه، وهم ليسوا آلهة ولا بأي شكل، هذا من جانب، ومن جانب آخر هم كائنات تفوقنا بالقدرات والصفات بشكل هائل، ورغم ذلك فهم يفخرون بكونهم عبيداً له تعالى ومداومين على تسبيحه.

لن نفهم هذا الكلام بمدح الملائكة(ع) بناءً على تصوّرنا أنّها كائنات مبرمجة غصباً عنها لتكون مطيعة له تعالى، لأنّهم ليسوا كذلك، ولن نفهم مدحهم إن كنّا نتصوّرهم قريبين منه تعالى وكأنهم يرونه أو يتحدثون معه مباشرة "عزّ وجلّ"، فهذا غير صحيح أيضاً. ويبدو من القرآن مدحهم لطاعتهم مع قدرتهم على المعصية، ويظهر ذلك من استفهامهم عن سبب الأمر لهم بالسجود لآدم(ع)، فيبدو واضحاً من الآيات التي تناولت هذا الموضوع أنّهم بإمكانهم معصية الأوامر الإلهية، ونفهم ذلك عند مقارنتهم بإبليس الذي اعترض وعصى، فلو كانوا مبرمجين غصباً عنهم على الطاعة فلا معنى لتوجيه اللوم على إبليس الذي ليس مبرمجاً على الطاعة ولم يسجد، وفي دراستنا لتلك الآيات لفتنا الانتباه أنّ كلامه تعالى مع الملائكة ومع إبليس كان من وراء حجاب، وبنفس الطريقة تواصل سبحانه مع الملائكة (ع) ومع إبليس، لأنّ طريقة التواصل هذه لم تجعل إبليس مطيعاً، ونفس الشيء بالنسبة للملائكة(ع) إذ هم ليسوا مطيعين له تعالى لأنه

يتواصل معهم بتلك الطريقة، والكلام يجرّ الكلام، فالكافرون من البشر لن يؤمنوا لو تكلّم تعالى معهم مثلما يتكلّم مع الملائكة، والقرآن في العديد من المناسبات كرّر لنا قصّة إبليس لننتبه أنّه كان بين الملائكة وتكلّم معه تعالى بنفس الطريقة التي يتكلّم بها سبحانه مع الملائكة، وهذا لم يغيّر أي شيء في إبليس، فكفر، والكفّار من البشر لو كانوا مكانه لبقوا كافرين أيضاً.

(أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ{21})
كل المقدّمة السابقة كانت موجّهة للكفار المنكرين لرسالة الرسول محمد(ع)، وطلبوا منه آية تبرهن أنه رسول من الإله الواحد الأحد، وهم في المقابل ومن دون أي دليل اخترعوا آلهة وعبدوها! والآيتان السابقتان بيّنتا أن الملائكة(ع) وهي مخلوقات ذات قدرات عالية، هي تفتخر بعبادته تعالى وتقضي وقتها في تسبيحه، وهكذا تبدأ السورة من فوق لتحت، حيث انتهت من الملائكة (ع) وبيّنت أنهم مخلوقات وليسوا آلهة، وننتقل الآن إلى:

{أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ}؟ سؤال تعجّبي: إن كانت كل الكائنات مخلوقات مملوكة عَبَدَةً له تعالى، وإن كانت "الملائكة(ع)" المخلوقات ذات القدرات العالية جداً تعبده تعالى بأقصى ما يمكنها بلا توقّف، فالتعجّب من الذين اتخذوا آلهة من الأرض من البشر! من أقل درجات المخلوقات إذا قارنّاها مع قدرات الملائكة(ع)، واعتقدوا بأن تلك المخلوقات آلهة، {هُمْ يُنشِرُونَ}، يقيمون ويعرضون المخلوقات، والذين قالوا عنهم آلهة هل هم يجعلون للمخلوقات كياناً وتصير منشورة معروضة... فكيف تصوّروا واعتقدوا أن مخلوقات من الأرض لديها القدرة على خلق كائنات لتعبدها! ما هذه السخافة!

نفهم الكلام عطفاً على الآيات السابقة، حيث هناك مخلوقات في السماء العالية "الملائكة"، ولديها قدرات عالية هائلة جداً بالنسبة لقدرات البشر، وتلك المخلوقات تفتخر بتفرغها لعبادته تعالى، فما معنى أن بعض الناس يعبدون أشخاصاً من الأرض من البشر "في مقابل كائنات قدراتها عالية في السماوات" ومعتقدين بأن أولئك الأشخاص من البشر "ناشرة" خالقة للبشر أو لأي كائن آخر؟ سبحانه نشرنا، وجعل لنا كياناً معروضاً نراه ويرانا الآخرون، وهذا هو النشر، بينما هناك من يعتقد بأحد ما من الأرض، بمخلوق يعيش على الأرض، ولديه قدرات على النشر؟! حيث يعتبر أحداً ما من المخلوقات الأرضية آلهة ينشر ويجعل للشيء كياناً ليصير منشوراً معروضاً؟!

بعبارة أبسط، الحقّ أنه تعالى الإله الخالق لكل شيء، وخلق كائنات بقدرات عالية جداً في السماوات، ففرضاً نسب أحد ما لتلك الكائنات أنها ناشرة، أي جاعلة لكيانات أخرى معروضة، خالقة، لكان في المسألة على الأقل افتراض، لأنك تنسب لكائنات ذات قدرات عالية شيئاً يحتاج لقدرات عالية، أمّا أن تنسب لكائن مخلوق على كوكب الأرض، أنه لديه قدرات على النشر، على خلق كائنات، والكلام عن خلقنا نحن البشر من أوّلنا، فهذا غريب جداً ولا معنى له.

الملائكة تختلف بالقدرات كما ورد في الآية الأولى من سورة فاطر ...{جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ}...، فالملائكة الأضعف لم تعتبر الملائكة الأقوى منها آلهة خالقة... والآن ننتقل حيث تنقلنا الآية، لأن البشر كلهم قدراتهم واهنة ضعيفة جداً جداً بالمقارنة مع الملائكة، فما معنى أن بعضهم اعتبر أشخاصاً من البشر آلهة خالقة!

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ{22})
{لَوْ كَانَ فِيهِمَا}، في السماء والأرض، وهذه هي حدود الدنيا التي فيها المخلوقات، {آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}، فهي فيها إله واحد واسمه الله، ولو كان فيهما إله أو آلهة أخرى، وكان هناك آلهة متعددة ستفسد كل السماوات السبع وكل الأراضي التي تحتها، والصلاح هو حالتها الآن كما تراها متناغمة متوافقة يحصل ما هو متوقّع منها، والفساد هو خراب نظامها وبالتالي خرابها، فيا من تعتقدون بآلهة تشاركه تعالى في الألوهية فأنتم مخطئون لأنه سيقع خلاف في القرارات بين الإلهين، حيث يقرّر واحد شيئاً والآخر يقرّر شيئاً آخر في نفس الموضوع أو في شيء له علاقة بنفس الموضوع، وبمثال تقريبي بسيط فلنقل إنَّ أحدهما قرّر نزول الماء والآخر قرّر نهاراً مشمساً... وهكذا في بقية المواضيع فستخرب الدنيا كلّها، وبما أنها "الآن" تسير على نحو واحد ولا يظهر فيها قراران متعارضان، إذاً الإله واحد حتماً، وهو صاحب الاسم المحدّد المميّز الله عزّ وجلّ.

طبعاً المثال عن نزول الماء بسيط وللتقريب، وأنت تعلم أن ما نراه فيما فعله تعالى في الدنيا من مخلوقات وظواهر، هو ما شاءه تعالى من خيارات عديدة أمامه، والخيارات أمامه تعالى لتصميم ما في الدنيا كثيرة جداً بسبب قدراته الهائلة سبحانه، والخيارات عديدة أمامه تعالى لسيران الأمور، وخذ مثلاً ما لم نختبره مباشرة وهم الجنّ، حيث إنَّ مادة تكوينهم مختلفة عنّا، والصفات الناتجة عن ذلك لا نعلم منها إلا القليل، فهل يأكلون؟ هل يشمّون؟ لا ندري. ولو كان هناك قراران من مستوى إلهي في خلق ما في الدنيا لكنت سترى أثره كتعارضٍ فيما يحدث، فسننه تعالى، وطريقة أفعاله تعالى هي ما تراه منتشراً في الدنيا، وهي متناسقة متماشية بلا تعارض، ففرضاً قرّر إله ما أن ينمو جسد البشر من التغذية بالتنفّس فقط بلا أكل، لاغياً الجهاز الهضمي وكل ما يتعلّق به... من الأساس لن تستمر الأمور في الدنيا لتسير إلى ما وصلت إليه الآن لو كان هناك إلهان يقرران، حيث إنَّ واحداً سيخلقنا من طين، والآخر سيخلقنا من غاز... وهكذا...

{فَسُبْحَانَ اللَّهِ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز تنزّه عن أي وصف سيئ، وهنا الكلام عن وصفه بوجود شركاء له، {رَبِّ الْعَرْشِ}، المسؤول من مستوى إلهي عن الإدارة المركزية العالية فوق الجميع، المسؤول عن الحكم وإصدار القرارات في كل السماوات والأرض، سبحانه تنزّه، {عَمَّا}، عن الذي، {يَصِفُونَ}، حيث يصفونه تعالى فيقولون عنه بأن له شريكا أو شركاء في الألوهية وهذا غير صحيح.

ننتبه لمعنى بسيط واضح جداً سيفهمه من الآية أي مشرك، وعلى أساسه نحن يجب أن نفهم الآية لأنها تتحدّث مع مشرك، فالله سبحانه إله، أرسل محمداً (ع)، ومحمد(ع) ينقل لنا عن الإله سبحانه أنه أحد، والمشرك يقول إنَّ لديه إلهاً أو آلهة أخرى، ولا مشكلة في عبادة أكثر من إله، والمشرك يعترف بآلهته فقط ولا يعترف بإله محمد (ع)، وقد لا يعترف بآلهة المشركين الآخرين! ولكنه عادة يعترف بها كآلهة ولكن لا يعتبر لنفسه أي علاقة بها، فهي ليست آلهته، بل آلهة أناسٍ آخرين...

أساس فكرة اختراع آلهة غير الله تعالى منشؤها أن يكون لكل مشرك آلهة خاصّة به، يعبدها ويتقرّب لها لتحقّق له "كل" ما يريد، وآلهته تغلب الآلهة الأخرى التي لا يتقرّب إليها لأنها لم تنفعه ونفعت أناساً غيره على حسابه، فلنقل إنَّ آلهته نصرته على الآخرين في الحرب... عندها الخاسرون سيعتبرون آلهته عدوة لهم لأنها سبّبت لهم الخسارة... هذه هي عقلية ونفسية ومشاعر المشرك، ومن هنا نفهم ما تقوله له الآية، فأنت كمشرك تعتقد أن الآلهة تنفّذ وتفرض إرادتها حتى لو تعارضت مع ما يريده إله آخر، فلو كان هذا صحيحاً، وكان هناك آلهة متعدّدة وكل واحد منها يقرّر وينفّذ، فستخرب السماوات والأرض لأنهم كلهم لديهم القدرة على التحكّم بها، وكلّهم لديهم قرارات مختلفة.

خذ مثالاً عملياً من واقع المشركين، ولنقل مثلاً إنَّ هذه الجماعة التي تعبد "اللات" قد خاضت حرباً مع جماعة تعبد "هبل"، فكيف سيستجيب لهم إلههم "اللات" لينصرهم إن قرر "هبل" نصر جماعته؟ تصوّر كيف ستكون نتيجة تدخّل إلهين بنفس الحادثة... للأسف بلغت السخافة بالمشركين ليتصوّروا فعلا أن الآلهة تتخالف وتتعارك وتقتل بعضها! وكلّ ذلك من خيالهم وكانوا يسمّونه ديناً!

المعنى الظاهر ببساطة من الآية بكلامها مع المشركين هو أكثر من كافٍ لتدمير عقيدة الشرك به تعالى، فالألوهية لا معنى لها إن لم تكن منفّذة، فمن تقول عنه إلهٌ فيجب أن يكون إلهاً له سلطة فعلية على عبيده على مخلوقاته، ولا معنى لإله ليس له أثر ولم يفعل أي شيء، فكيف علمت به!؟ وطالما لست ترى في الدنيا إلا مساراً واحداً للأحداث التي تعكس قراراً واحداً صادراً عن إله واحد، فمن أين اخترعت الإله الآخر؟ وماذا فعل؟ ولو فعل ورأيت أثر فعله، لكان فعله مخالفاً لما قرره الله سبحانه، ولرأيت أثر الاختلاف في القرار في الدنيا لأن حادثة ما ستحصل على غير ما هو متوقّع عادة... وهذا شيء لا تراه ولا تلمسه، وبالعكس تلمس وترى آثار إله واحد رب للعرش.

بالنسبة لكلمة "عرش"، فالعرش الذي نعرفه نحن هو الكرسي الفخم الضخم الموضوع على منصّة ويجلس عليه الملك أو الحاكم، وأصلاً كلمة عرش وصف لعموم ما علا ويقابلها فرش، وعرشه سبحانه تعبير عن الإدارة المركزية من مستوى ربوبي، تعبير عن مركزية السيطرة والقرار لكل ما في الدنيا "والآخرة"، وبما أن سيطرته تعالى ممتدة على كل الدنيا "والآخرة" فعرشه سبحانه ممتدّ بامتداد الدنيا "والآخرة"، على كل ما في الدنيا والآخرة كما هو واضح من تعبير الآية 255 من سورة البقرة {... وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}.

لدينا تراث ديني ثقافي يشير البعض منه إلى وجود شيء محدَّدٍ كعرش له سبحانه، كشيء مشابه بشكل ما لمكان تتم فيه إدارة شؤون الدنيا، واستندوا على ذلك قرآنياً بالآية 17 من سورة الحاقة {وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، وكلامهم خليط من تصوّرات مختلفة، بعضها سببه استعمال لغتنا لتوصيف أمور لا يمكننا نحن البشر تصوّرها، وبالتالي الكلمات التي نستعملها لذلك تنقل نفس المعنى ولكن لأمور مختلفة، حيث هناك مُلْكٌ صُلْبٌ لا يهتز وإدارة إلهية مركزية لما في الدنيا، ولكنه سبحانه واسع محيط، وهناك ملائكةٌ بقدرات عالية خلقها سبحانه ووظّفها لإدارة بعض شؤون ما في الدنيا، وأشهرها وضوحاً من القرآن ملك الموت، وهذه موصوفة "بلغتنا" أنها حاملة للعرش، والكلام القرآني الذي يشير لقوّة الملك ولنواة الحكم والسيطرة فهو لا يشير إلى مكان، ولا إلى شيء، بل إلى حالة، وهذا واضح جداً من تعبير الآية 255 من سورة البقرة بوصفها وساعة الكرسي بوساعة السماوات والأرض.

من السذاجة تصوّره تعالى جالساً على كرسي على منصّة وثمانية ملائكة يحملون المنصّة، ضاربين بعرض الحائط كلامه سبحانه عن نفسه بأنه واسع محيط وليس كمثله شيء فلا يمكن لأي مخلوق تصوّره...

الوصف القرآني لملائكة حافّين حول العرش أو حاملين له هو وصف حالة وليس وصف مكان.

بعبارة أخرى، كل السماوات... وهذه الأرض التي نحن عليها، هي كل ما في دنيا المخلوقات، خلقها كلّها ربنا الله سبحانه، ويخبرنا سبحانه أنه هو بنفسه ولوحده ركّبها وألّفها في ست فترات زمنية، وبعد اكتمالها، لم يتركها سبحانه لغيره ليديرها، بل استوى على العرش حيث كل شيء صار بالتمام فانبسطت سلطته عليها كلها، ومن دون تهديد من أحد بالقدرة على التدخل.

على الاسمية لكلمة عرش كاسم لشيء، كل السماوات والأرض "كرسيه" عرشه تعالى، وعلى الوصفية للملك القوي والسيطرة والإدارة المركزية والتي بلغتنا البشرية نستعمل لها وصف العرش، سبحانه حالته أن عرش السماوات والأرض منسوب له، ذو العرش، واستوى على العرش، وهناك ملائكة موظفون منه تعالى بتنفيذ مهمات "رئيسية" فيكون وصف حالتهم كحاملين للعرش وحافّين حول العرش.

وكلمة ربّ، تشير لعموم من كان مسؤولاً عن شيء، ومن سياق الاستعمال يتحدّد مدى مسؤوليته، فربّ البيت وربّة المنزل وربّ العمل... وصولاً إلى أعلى ربوبية من مستوى إلهي حيث لا ربّ فوقه وهو الله تعالى.

وبضمّ معنى كلمة عرش مع معنى كلمة ربّ، ربّ العرش، صرنا نفهم بدقة معنى تسبيحه تعالى عمّا يصفون، فهو تعالى يخبرنا عن نفسه وهو تعالى أدرى منّا بذاته، ونفس الذي قلناه عن تراخي مشركي العرب في استعمال كلمة إله، فهو ينطبق على استعمالهم لكلمة رب بمعنى الربوبية على العرش، فينطبق على الربوبية من مستوى إلهي حقيقي، فهذه أيضاً لا تتحمّل التراخي والتساهل ليوصف بها اثنان.

بقي شيء، وبحسب اطلاعي على تاريخ محيط النبي محمّد(ع) وما قبله، لم أجد أحداً يذكر ما تقوله الآية هنا، وهو كلام عقلي فيه عمق رغم بساطة ظاهره المفهوم، وتضيف إليه بقية كلام القرآن من هذا المستوى الواضح جداً جداً أنه كلام من نظرة إلهية للأمور، فسبحانه يعلم بكل ما في الدنيا، حيث يراها كلّها بتفاصيلها من أوّل ما خلقها ولم يغب عنه شيء، ويعلم بما سيجري في الآخرة بالتفصيل، ومن هذه النظرة تفهم كلامه تعالى في هذا القرآن، فمثلاً حين يقول تعالى إنَّه رزقني فلأنه هو صمّم الدنيا بحيث سينتج في بيئتي ما آكله، ونصرني لأنه صمّم الدنيا بحيث سيحصل النصر للمؤمنين إن توافرت الشروط المناسبة، وشفاني من مرضي لأنه تعالى صمّم جسدي ليتعافى من بعض الأمراض، وصمّم نباتات ومواد تساعدني على الشفاء... وأماتني لأنه صمّمني بجسد يفنى...

ما تلاحظه بوضوح من بعد تجميع مختلف تعليقات الكافرين بهذا القرآن والقائلين بأن محمداً ألّفه، سترى أنهم يفترضون محمداً الأمي راعي الغنم فيلسوفاً حكيماً من العيار الثقيل جداً حتى يقول كلاماً ككلام آيتنا هذه وأمثالها، ويفترضونه عالماً بكتب أهل الكتاب ومتخصصاً فيها لسنين طويلة حتى نسخ منها قصصها وعقائدها وتشريعاتها، ومثقفاً بشكل غير عادي حتى تمكّن من إعادة صياغة بعض ما في تلك الكتب بشكل يناسب مختلف المواضيع التي تناولتها مختلف السور... وعالماً بالتشريعات حتى علّق عليها وبرّرها من وجهة نظر جديدة... وعالماً خبيراً بالعديد من

اللغات التي يقولون إنَّه استعمل كلمات منها في قرآنه التي قالوا إنَّها ليست عربية ولم يكن العرب في زمانه يستعملونها...

بسبب كلامهم نحن أمام احتمالين، فإمّا أن نعترف بأن القرآن كلام يفوق قدرة المخلوقات على تأليفه فمصدره إلهي، أو سنقول بأن محمداً لديه قدرات تفوق قدرات البشر ومستواها إلهي حتى تمكّن من تأليف هذا القرآن، فهذا معنى كلام الكافرين به كرسول حين قالوا إنَّه أعاد صياغة كتب أهل الكتاب بمواضيعها المتنوعة من عقائد وقصص أنبياء وتشريعات وسلوكيات وأخبار عن خلق الدنيا وعن الآخرة... مستعملاً لغات عديدة ليصيغها متناغمة في سور وكل سورة منها تتناول محوراً محدداً، ودائماً بلا أي خطأ تكلّم على لسان الإله وبنظرة إلهية للأمور، فما هذه الترهات التي يقولونها ولا يقولون الحقيقة البسيطة الظاهرة الواضحة: هذا القرآن كلام من مستوى إلهي وبرؤية إلهية للأمور، فمصدره حتما إلهي بلا أي تدخّل من أي مخلوق.

أخيراً فلنتوسّع بدراسة كلمة إله، ونتذكّر دائماً أننا كبشر جعل سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرّف عليه سبحانه من ملاحظة أفعاله "آياته في خلقه" ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء...وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق بالقوّة الإلهية الفائقة عند الوقوع في الشدائد... فوضعنا كلمة نصف بها الكائن ذا الصفات والقدرات العالية جداً عن قدراتنا، وهي كلمة "إله" كوصف لذي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلّق به عند الوقوع في الورطات...

وفي الحقيقة الكائن الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة، والذي ليس مخلوقاً فهو الله سبحانه، وقد تساهل الناس في استعمال كلمة إله لتنطبق على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، فيطلقونها على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أن فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي}...

القرآن يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهي، فيقوّم اللغة ككلّ، ويقوّم دقة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة "إله"، فيخبرنا أنها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرّج في استعمالها.

المشركون الناطقون باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... استعملوا كلمة إله بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

قارنها مع كلمة "ربّ"، فأنا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... فهذه كلمة تتحمّل التدرّج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهي، فهي لا تتحمّل التدرّج، فهي حصراً له تعالى ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهي.

كلمة إله في حقيقة معناها لا تتحمّل التدرج لِيُوصَفَ بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، فحين يخبرك أنه خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، وسبحانه وظّف الملائكة(ع) التي خلقها لتنفيذ بعض أوامره... وهكذا ترى بوضوح أنه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، فماذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدّد له والمميّز "الله" جلّ جلاله قد فعل كل شيء، فما معنى ألوهية غيره! وهذا ملخّص مبسَّط للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

ألفت انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، فحصروا استعمال كلمة إله للإله الكبير، واستعملوا للآخرين وصف الربّ، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربّة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون: إله المطر وإله الحرب... وعلى كل حال فالقرآن رفض توصيف غيره تعالى بالألوهية والربوبية من مستوى إلهي، فالمشركون يعتقدون بوجود كائن "ربّ" مسيطر على المطر من مستوى إلهي وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم أنه توصيف لألوهية أربابهم.

من ناحية ثانية لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، فيصير الهوى إلهاً كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ}...، فهي لا تشير لاعتقاد الشخص بأن هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لدين فيه ما يهواه، عملياً هو يعبد هواه.

بالنسبة لأصل كلمة "الله" هناك كلام كثير حولها، ويبدو من تتبّع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حالياً بالسامية... أن الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة "إله" ومنها جرى اشتقاق اسم العلم "الله"، وهذا الاسم لم يكن متداولاً في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط فللآخرين نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، فكلمة إله واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات ما يسمّى بأصل اللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة الله من وصف الإله ومتى، وهل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قديماً عبر الوحي. الأرجح عندي "استذواقاً" أنه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك "استذواقاً" لأن المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين بلا مستند صريح لتأكيد كلام ما، فهو بطبيعته يصير استذواقياً لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا ذات نفسي ففي سياق كلام آخر ربما أستذوقُ أنه تعالى هو سمّى نفسه، فليس من المعقول ولا من المقبول منك أن تطلب حسماً من الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دليلاً حاسماً، ولا مقبول من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنه الصحّ إلا اللهم إن قدّم دليلاً دامغاً، وهذا لا يبدو ممكناً في مسألتنا هذه.

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ{23})
تكمل السورة كلامها مع المشرك:

{لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ}، لا أحد فوقه عزّ وجلّ ليسأله ماذا فعلت، لا أحد يعبّر له تعالى عن إرادته للحصول على جواب منه تعالى حول شيء فعله سبحانه، ولا أحد يقول له تعالى: لماذا فعلت كذا... {وَهُمْ}، البقيّة كلّهم، {يُسْأَلُونَ}، حيث يسألهم الإله سبحانه ويعبّر لهم عن إرادته للحصول على جواب منهم: ماذا فعلتم؟ ولماذا فعلتم هذا؟...

لو كان هناك آلهة غيره تعالى، لصاروا في وضع التخالف في القرارات، ولسأل أحدهم الآخر وحاسبه: لماذا قررت كذا وفعلت كذا... معارضاً لقراري وفعلي؟...

الآية السابقة قالت إنه لو كان يوجد كائن لديه القدرات والصفات الإلهية، مثل صفات الله تعالى، لفسدت السماء والأرض لأن كل واحد سيفعل ما يريد حتى لو تعارض مع قرار الإله الآخر، وعندها تصير حالة الآلهة حالة مطالبة كل واحد منهم للآخر لتبرير ما قرّره وفعله... وهنا تكمل الآية المعنى السابق، فالله سبحانه وحده الذي يقرّر {رَبِّ الْعَرْشِ} ولا أحد غيره لديه القدرة على تقرير شيء آخر، ولذلك لا يحصل فساد في السماوات والأرض، حيث تسير فقط على المخطّط الإلهي. ولا أحد يسأل الله تعالى: لماذا فعلت هذا؟ ولِمَ لم تفعل ذاك؟ وأنا أرى أن هذا أنسب، وسأمنعك من فعل ذاك... وفقط الله سبحانه يسأل الآخرين ويحاسبهم لأنهم كلهم مخلوقاته وعبيده.

أيضاً بعبارة أخرى بناء على حتمية لمسنا لأثر للإله حتى نعرفه، فما نراه هو أثر واضح من تصميم وفعل إله واحد، لأن كل شيء يسير كما هو متوقّع منه، ولا يظهر ولا يبدو أي أثر لقرارين متعارضين، وهذا يأخذك إلى ما تقوله الآية هنا، لأنه من الواضح أنه يوجد فقط إله واحد، لا يسأله أحد ما عمّا فعل لأنه وحده الإله والبقية مخلوقات بعيدة كل البعد في القدرات عنه تعالى، ولو تخالفت أنا وأنت بالقرار في نفس المسألة، فستسألني وأسألك عن سبب قرارك، ولو ألغيت ما فعلته أنا لتنفّذ ما قرّرته أنت فسأسألك سؤالاً أحاسبك فيه عمّا فعلت... وهكذا تأتي آيتنا هنا لتقول إنه تعالى وحده ذو القدرات الفائقة ويفرض ما يريده على الآخرين.

نعم، يمكنني أن أسأل: لماذا فعل الله هذا الشيء أو ذاك؟ سواء لأعلم السبب أو لأعترض. ولكن سياق الكلام هنا ليس عن أي سؤال، بل عن سؤال الاعتراض الذي ينتج عمّن يمكنه المحاسبة والعقاب أو إجباره تعالى على فعل شيء آخر... وأنا أسأل معترضاً رافضاً لما فعله تعالى، ولنقل مثلاً إني معترض على خلقه لي من طين، وكما ترى فهذا الاعتراض أو أي اعتراض آخر فلن يغيّر من الواقع أي شيء، ولن يغيّر مما قرّره تعالى، لأن كلام الآية هنا عن سؤال محاسبة أو تبرير أو اعتراض... من سائل يمكنه فعل شيء معارض لقراره تعالى أو مانع له تعالى من تنفيذ قراراته...

وهكذا ترى أنّه تعالى وحده الذي يسأل كل البقية عمّا قرّروا وفعلوا، لأنه تعالى منحهم حرية الإرادة، وهو تعالى وحده الذي يفرض ما يريد، ويحاسبهم ويجازيهم ويعارض قراراتهم ويفرض عليهم تنفيذ ما يريده...

ننتبه، حيث إن بعض المفسرين فهموا هذه الآية بشكل آخر، وأخرجوها عن سياقها الذي يدل على المعنى الذي ذكرناه، واستنتجوا منها أنّه تعالى حرّ ويفعل ما يشاء، حيث يقرّر سبحانه رمي المؤمنين في النار، والكفّار في الجنّة! ومن استنتج هذا الكلام عنه تعالى فقد ضرب بعرض الحائط كل الكلام الإلهي القرآني المتخم بالآيات التي تقول بأنه تعالى وعد حتماً المؤمنين بالجنّة والكفّار بالنار، وقال مراراً وتكراراً بأنه تعالى صادق في وعده ولا يعجزه شيء عن ذلك وهو العزيز القدير... ولن يغيّر قراره، هذا من جانب، ومن جانب آخر وأخبرنا سبحانه عن نفسه أنّه عادل لا يظلم، حكيم لا يعبث، محبّ للمؤمنين، كاره للكافرين... فكيف يجتمع هذا كلّه مع ما قالوه؟

حتى لو نظرنا إلى ما قالوه من جانب "الاحتمال العقلي" لكونه تعالى الإله المالك فهو حرّ في فعل ما يريد، فهذا لا ينطبق بتاتاً عليه تعالى ولا بأي شكل، وليس هناك حتى احتمال لهذا الشيء، لأن الحكمة والرحمة صفتان لازمتان لا تنفكّان عنه تعالى، فكيف سيعذّب المطيع، ويثيب العاصي؟ فعلى أي احتمال أو مقياس سيفعل ذلك؟! وكلام من قال هذه الترهات هو نموذج عن البلاء الفكري الديني المؤذي الذي نجده هنا وهناك فيما يتعلّق بفهم القرآن والدين الإلهي.

سبحانه فعلاً يفعل ما يريد، وأخبرنا مراراً وتكراراً أنّه حميد لأن كل أفعاله حميدة، وأنه رحمن وكل أفعاله نابعة من العناية بمخلوقاته إلى أن هم بكفرهم يقرّروا الخروج من تحت رحمته، وأخبرنا أنّه حكيم وكل أفعاله بالصوابية لضبط الأمور على المطلوب، لضبطها على الحقّ والخير والصلاح...

سبحانه يفعل ما يريد، ولكن من أين لكم القول إنّه تعالى يفعل الظلم؟ أو يعبث؟ وأخبركم عن صفاته التي ترونها منتشرة بآثارها فيما فعله وقاله.

لهذا الكلام عمق في أبحاثهم "إن كانت تسمّى أبحاثاً"، حيث إن بعضهم يدمّر كل شيء عقلاني، فلولا مقارنتنا للأمور على الحقّ والعقلانية والصلاح... فما معنى محاولتنا التوصّل إلى الحقّ والخير؟ وأي كلام ستقوله لي عن أي شأن، فبكل بساطة أقول لك إنّه لا يوجد معيار لمقارنة خير الأمور وشرّها عليه، وأي شيء ستحاول إقناعي به أنه خير أو صحيح، فهو لن يكون ثابتاً، ويمكن أن يكون شراً، وبالعكس وأي شيء تحاول إقناعي بأنه شرّ أو فاسد أو كاذب... فأنت تتعب نفسك لأن وصف الأمور بهذه الصفات ليس ثابتاً.

هل هذا الكلام له أي معنى؟ لا، ولكن ترى بعضهم يقوله متحججاً بآيتنا هنا، على أساس أن ما يفعله تعالى فهو الحقّ والخير حتى لو كذب سبحانه علينا ورمى المؤمنين في النار وأدخل الكافرين إلى الجنّة، لأنه الإله الحرّ ويفعل ما يريد وما يريده فهو الحقّ والخير.

هذا هو الدمار لما يميّز البشر عن بقية الحيوانات، ونصير بلا ناموس، وهذا هو منشأ استحمار العقول بالترويج للشرّ وعليك بإقناع نفسك به بأنه خير لأنه أمر إلهي! حيث تسمع كلامهم وتطيعه حتى لو رأيته شراً وفساداً، وحتى لو أمروك بقتل الأبرياء... لأنك أصلاً مأمور بالإيمان والالتزام بالدين الإلهي على العمى، حيث إنه سبحانه يأمرنا بشيء سيئٍ، وعليك الالتزام به حتى لو رأيته سيئاً.

هذه العقلية تراها ليس فقط عند المجاهرين بها من القائلين أنّه تعالى يفعل السوء، وإن فعله سبحانه فسيصير السوء حسناً، بل ترى نفي الأساس منتشراً عند غالبية المسلمين ولكن بصيغ أخرى، حيث أنت لا تفهم بقدر ما يفهم علماء الدين، فإن أفتوا بشيء تراه سيئاً، فالمشكلة فيك دائماً، وهذا صحيح إن كان قلبك مريضاً فكنت بالأساس محباً لفعل السوء... ولكن لو كان قلبك سليماً في مسألة ما، وتأكّدت بأن كلامهم سوء، فهل أنت معذور أمامه تعالى بفعلك لما يقولون بالرغم من رؤيتك لسوئه؟

لا، لست معذوراً، وها كل القرآن أمامك مبني على تكليفه تعالى لنا بما جعله فينا من قابلية لتمييز الخير من الشرّ والحقّ من الباطل، فإن لم أكن قادراً على التمييز بينهما فعلى أي أساس سيحاسبني ويجازيني بالنار؟ وقبل ذلك فعلى أي أساس سأعلن إيماني والتزامي بدينه تعالى إن لم أره حقاً وصلاحاً؟ وطالما لست محكوماً بالتدين بدين الحقّ والصلاح، فلأؤمن بأي دين، أو لأخترع ديناً على هواي.

لهذا أصف ما يقولونه بالدمار، لأن كلامه تعالى في القرآن كلّه مبني على محاسبتنا ومجازاتنا بما لدينا من قدرة على تمييز الخير من الشرّ، وبما لدينا من القدرة على الاختيار بينهما. وواضح وصريح في وصفه تعالى بالصفات الحسنى، وهي بالأساس المرجعية لوصف الأمور بالخير والشرّ، وما يفعله تعالى دائماً هو الخير لأن صفاته تعالى حسنى من مستوى فائق.

(أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ{24})

{أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً}؟ وتركوه تعالى واعتبروا غيره آلهة؟! {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ}، أعطوني دليلكم الذي يثبت ألوهية غير الله تعالى، {هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي}، وها أنا "كرسول" أقول لكم ما تستحضرونه في فكركم ومشاعركم عن إلهي، والرسل من قبلي على امتداد آلاف السنين من التاريخ البشري ذكروه تعالى وما أقوله هو نفس ما قالوه، وأنا رسول من سلسلة رسل جاءت من قبل، وكلهم ذكروا الله تعالى بأنه الإله الأحد، والآلهة التي تقولون عنها هاتوا أخبروني منذ متى تعرفونها؟ ومنذ متى هي آلهة؟ وهل لها امتداد عبر التاريخ؟ وأين رسلها وكتبها وآياتها... وأخبروني ماذا فعلت ولمستم له أثراً...

{بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ}، لأن الصواب أن آلهتهم مخترعة من تاريخ محدّد، والدنيا تسير على نظام واحد بقرارات من الواضح صدورها عن إله واحد... وأكثرهم لا يريدون الانتباه لهذه النقطة التي تثبت أن آلهتهم وهمية مخترعة وليست حقيقية، {فَهُمْ مُعْرِضُونَ}، حيث لا يعتبرون للحقّ أي أهمية، والحقيقة الواضحة أمامهم أن الإله واحد أحد ولكنهم لا يعطون لهذه المعلومة الصحيحة أية أهمية ويعطون الأهمية للخيال والاختراعات الوهمية!

للأسف نحن كمنتمين لدينه تعالى لا ننتبه لأدبيات القرآن ونخترع أدبيات دينية من عندنا، حيث ترانا نفصل أنفسنا عن الآخرين بتسمية أنفسنا بالمسلمين على أساس أننا على دين مختلف عن دين اليهود والنصارى... وستقول بأننا لا نقصد بذلك الانفصال عنهم بدين مختلف بل نقصد التميّز عنهم لأن دينهم فيه تحريف. علماً أن القرآن يعرض علينا تاريخ الدين الإلهي كقطعة واحدة مانعاً تمييز أي واحد من المؤمنين عبر التاريخ عن الآخرين، حيث لا فرق بينهم ولا بأي شيء، ومنبهاً من التحريفات التي قام بها البعض... ومن ناحية ثانية أسألك، بالله عليك، ماذا فعل اليهود والنصارى من مخالفات ولم نفعله نحن حتى تصرّ على تمييزنا عنهم؟ انظر إلينا وسترى أن مجموعة ما منّا فعلت هذا وأخرى فعلت ذاك وغيرها أفتت بتلك الفتوى... وما فرقنا عنهم حتى نتميّز عنهم؟

الطامّة الكبرى أننا حين نتحدّث بعقلانية نتعالى عن التفاهات لنبرّرها! وما معنى الطوائف والمذاهب؟ وما هذا الامتداد لدينه تعالى الذي نقطعه في زمننا مصرين على التميّز عن الآخرين بمذهب أو طائفة لا تشمل الآخرين! وهل الآخرون على دين مختلف؟ أو دين منحرف؟ أو ليسوا على نفس الدين؟ وترانا لا نرى السوء في مذهبنا ونضيء على السوء عند الآخرين! ولدينا تبرير لكل ما نفعله! مصرين على تغيير الآخرين ليكونوا مثلنا! ووالله والله والله لو تغيّر الآخرون كلّهم إلى مذهب واحد، فما هي إلا ساعات حتى ينقسموا داخل المذهب الواحد إلى جماعات وأحزاب، لأن المذاهب أصلاً من داخلها منقسمة لجماعات وأحزاب...

كما ترى، في اللحظة التي نتحدّث فيها بعقلانية عن الامتداد للدين الإلهي عبر آلاف من السنين، ومن آدم(ع) أوّل بشري تأهّل ليتكلّف بدينه تعالى، وأننا ننتمي لهذا الامتداد، ترانا نقطع أنفسنا عن المنتمين لدينه تعالى في عصرنا! ونجعلهم خارجين عن دينه تعالى!

لا تفهم من كلامي نفي واقع الحال، لأننا كبشر لدينا هذه النزعات لحبّ التميّز عن الآخرين والانتماء لشيء أضيق كمجموعات خاصّة، وهذا نابع من فساد القلوب، وما تفسيرك لالتحاق الهمج الرعاع مع كل ناعق ينعر بالعصبية والتفرقة بين المسلمين ليكفّر المسلمين الآخرين ويبيح حرمتهم؟! دعك من الهمج، وما تفسيرك لمن يتقلدون مناصب "علماء الدين" من مختلف الطوائف مدّعين أنهم أكثر من يفهم دينه تعالى وهم لا مشكلة عندهم بالانتماء لطائفة أو مذهب! بل لديهم جهود جبّارة في الدفاع عن الطائفة والمذهب!

معنى كلامهم عن الامتداد التاريخي لدينه تعالى لآلاف السنين أنه امتداد لمذهب الحقّ الذي هم عليه؟! بينما كلامه تعالى دائماً عن امتداد دينه سبحانه، وأمّا مذاهبهم وطوائفهم فحالتها تماماً مثل حالة الشرك به تعالى، ولها تاريخ بلا امتداد.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ{25})
تأكيد على استمرارية توحيده تعالى عبر التاريخ السابق الطويل:

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ}، نُوصِلُ معلومات إلى واحد من البشر وَنَأْمُرُهُ بنقلها للناس وَنَقُولُ فيه إِنَّهُ فقط:

{لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا}، فلا يوجد ولا أي كائن لديه صفات وقدرات فائقة فوق الجميع إلا هو تعالى، فلا إله معه، ولا إله غيره، ولا يوجد نصف إله غيره، ولا ربع إله، ولم يَتَجَسَّدْ سبحانه في مخلوق... ولا يوجد مخلوق بنفحة إلهية... {فَاعْبُدُونِ}، كُلُّكُمْ مفروض منكم وعليكم طاعتي، تَصَرَّفُوا على هذا الأساس، وَأَطِيعُوا كلامي فقط. ولمزيد من التوسّع حول كلمة إله راجع دراسة الآية 22 السابقة.

كُلُّ الناس تعلم بوجود رسل من قبل الرسول محمد(ع)، وَهُنَاكَ أتباع لتلك الرسل، وهناك كتب وتراث ديني وقصص منتشرة بين الناس... وكلّهم منذ آلاف السنين أشاروا إلى الله تعالى أَنَّهُ الإله الأحد، وَهَذَا يدل بوضوح عَلَى أَنَّهُ الإله الأحد الخالق لكل ما في الدنيا، لأننا لا نجد عبر التاريخ الطويل أي إله من الآلهة التي عبدها المشركون وله امتداد معروف عبر التاريخ، وَأَشْهَرُ الأنبياء في القدم نوح(ع) وبعده النبي إبراهيم(ع) ومن بعدهما لم يُسَجِّلِ التاريخ أي عبادة للآلهة التي كان يعبدها الناس في عصر النبيين نوح(ع) أو إبراهيم(ع)، وكذلك نصل إلى ما قبل أربعة آلاف عام "تقريبا على خلاف في التوقيت"، إلى النبي موسى(ع) ولا نجد ولا أي إله من زمنه مَعْبُوداً الآن، وَأَيُّ إله غير الله تعالى ستجد له بداية لأناس عبدوه مما يدل على أنهم اخترعوه في زمن محدّد وبعدما ماتوا مات معهم ذكر إلههم، أمّا الله تعالى فيتكرر ذكره سبحانه على مدى التاريخ عبر رسل له تعالى يذكرونه لوحده.

اَلْوَحْيُ هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سَوَاءً أكان خيرا أم شرّا، وبناء عليه فكل أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وحيا لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وترى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}، وحتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...}.

يَنْطَبِقُ فعل الوحي على أي كائن كان "إِنْسَاناً، حَيَوَاناً، مَلَكاً، أو جِنّاً" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم، وَطُرُقُ فعل الوحي أَنْوَاعُهُ متعددة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}. ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}، وما ورد في الآية 193 و 194 من سورة الشعراء {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ}. أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ...}، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل كما هو مشهور في تراثنا الديني. ووحي عبر إصداره تعالى صوتا في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، مضافا لها الآية 13 من سورة طه {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}، فكلامه تعالى معه(ع) وحي لأن الكلام ليس صادرا مباشرة منه تعالى فهذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، وَيَصِيرُ وصف الحالة أن كلامي يصلك وحيا.

هُنَاكَ وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} ففي النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

اَلْوَحْيُ يَصْدُقُ على وحي الخير والشر، فالشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا...} ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... وَالْوَسْوَسَةُ في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيرا أو شرا فهو وحي.

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ{26})
حَسَناً، لدينا سلسلة طويلة جِدّاً من الرسل الإلهية، وهي سلسلة ضاربة في عمق التاريخ بآلاف السنين، وكلّهم يذكرون الله تعالى بأنه الإله الأحد، وَأَوْحَى إليهم لينقلوا رسالته إلى عبيده، ولكن هناك شيء شاذّ:

{وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا}! الذي يعتني بمخلوقاته بما فيه مصلحتهم حَدَّدَ وعيّن من مخلوقاته من يعتبره وَلَداً له، فالاتّخاذ هو الاعتراف بأنه تعالى لا يلد، ولكن اعتبر واحدا أو أكثر من مخلوقاته كولد له. وَبَعْضُ الكفّار قالوا إِنَّهُ تعالى اتّخذ الملائكة بَنَاتٍ له، وبعضهم جعل الملائكة ذُكُوراً وَإِنَاثاً كأولاد له تعالى، وبعض الناس من المنتمين لدينه تعالى التابعين لسلسلة الرسل شَذُّوا وقالوا عن الرسولين "عزير(ع) وعيسى(ع)" أنهما ابْنَانِ له تعالى ولهما طبيعة إلهية، وتقرأ كلاما عن ذلك في الآية 30 من سورة التوبة {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهِ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}، وكما ترى فهذه النماذج من الناس حَتَّى لو كان انتسابها بالأصل للخط الطويل الرسالي الإلهي، إلّا أنهم شَذُّوا عن الخط، وقالوا عن رسولين بأنهما ابْنَانِ لله تعالى فلهما طبيعة إلهية! وسبحانه لم يُخْفِ ذلك ولم يستره بل ذكره عَلَناً وَصَرَاحَةً وأخبرنا أنهم شواذ عن الخطّ وقولهم ذلك يشابه "يضاهي" قول المشركين به تعالى.

{سُبْحَانَهُ}، تنزّه تعالى عن هذا الكلام، طبيعته سبحانه لا يمكن أن ينتج عنها ولد ولا بأي شكل، وَأَيْضاً لا معنى لتحديده "لاتخاذه" تعالى من مخلوقاته وَلَداً له. وما قيل في بعض الكتب عن تسبيحه تعالى عن أن يكون له ولد على معنى أنه سبحانه ليس لديه الدوافع البشرية لاتخاذ ولد، فنحن لدينا دوافع ترغّبنا بأن يكون لنا أولاد، وسبحانه منزّه عن ذلك، فهذا الكلام لوحده صحيح لأنه تعالى ليس بَشَرِيّاً حتى يكون له نزعة "رغبة" بشرية، ولكن من عموم مفاهيم القرآن ترى أنه تعالى يشير بالتسبيح في هذا النوع من الكلام إلى طبيعته سبحانه التي يستحيل أن ينتج عنها ولد له عزّ وجل، فما ينتج عنها مَخْلُوقَاتٌ فقط وليس أَوْلَاداً، ومن ناحية ثانية فلا معنى لتحديده تعالى واحدا من مخلوقاته كولد له، فكلهم مخلوقات مثل بعض.

{بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ}، النبيان عزير(ع) وعيسى(ع) كنموذجين مشهورين، أو غيرهما من المؤمنين الذين ألّههم بعض المنتمين لدينه تعالى، أو الملائكة الذين اعتبرها بعض المشركين أَوْلَاداً له تعالى، فهم عباد، فموصوفون بأنهم مفروض منهم وعليهم طاعته تعالى، {مُكْرَمُونَ}، فلهم كرامة فلهم تقدير عَالٍ واحترام عنده تعالى، فلهم شأن ومقام رفيع، ولكنهم ليسوا أَبَداً آلهة ولا أَوْلَاداً له تعالى.

يعني فِعْلاً هناك مخلوقات اعتبر تعالى لها قيمة عالية، ولكنهم يبقون موصوفين بالعبيد، ولم يعتبرهم سبحانه كأولاد له.

كما تلاحظ، حَتَّى الخط الرسالي الطويل لذكر الله تعالى وحده كإله، تَعَرَّضَ عبر الزمن للتشويش مرتين بشكل بارز ملحوظ، ومثلما ردّت الآية على المشركين الذين اخترعوا آلهة، فمن الواضح أن الخط الطويل من الرسل المنادي بذكره تعالى لوحده كإله، شَذَّ عنه اختراع له زمن محدّد يثبت أنه اختراع بشكل مفضوح ودخيل على الذكر الرسالي الطويل، وَفَصَّلَتْ آيات أخرى من القرآن الكلام حول هذا الموضوع عندما تحدّثت مع أهل الكتاب، وقالت ما ملخّصه: كيف تعترفون بدين النبي إبراهيم(ع) دينا صَحِيحاً تَامّاً وأنتم أضفتم إليه شَيْئاً جَدِيداً؟ فالنبي إبراهيم (ع) لم يعبد النبي عيسى(ع)! فكيف يكون دين النبي إبراهيم (ع) صَحِيحاً؟ فأنا الآن أريد أن أكون على عقيدة النبي إبراهيم(ع) فلن أعبد النبي عيسى(ع)، فماذا تقولون عنّي؟ وماذا يعني أن ديني صحيح ودينكم صحيح في نفس الوقت بينما تعبدون معه تعالى إلها آخر! أو تقولون إِنَّهُ تعالى اتّخذ وَلَداً! أو تقولون حل الإله في جسد بشري ونحن مأمورون باعتبار هذا البشري إِلَهاً...!

هنا تركيز الكلام على المشركين المنكرين للتوحيد ولإرسال الرسل، والطالبين أن يكون الرسول الإلهي مُمَيَّزاً عن بقية البشر حتى يصدّقوا أن الإله تواصل معه... ولذلك فقط أشارت الآية للمشركين العابدين للملائكة ومثلهم ومعهم أشارت لِلشُّذُوذِ الواضح المفضوح الذي طرأ من شواذ بعض الناس عن خط دعوة الرسل لتوحيده تعالى.

ضع في بالك أن المنتمين لدينه تعالى قال بعضهم عن النبيين عزير(ع) وعيسى(ع) إِنَّهُمَا ولدان له تعالى، وليس لدينا كلام مشهور عن أحد من المنتمين لدينه تعالى في اعتبار الملائكة(ع) أَوْلَاداً له تعالى، فهذا شيء يبدو أنهم لم يفعلوه، وبعد آيتين سترى تَهْدِيداً للعباد "المكرمين" الذين لو فَرْضاً ادّعوا الألوهية لرماهم تعالى في جهنّم، وبما أننا لا نجد في القرآن تَهْدِيداً ولا بأي شكل للملائكة(ع) بالتعذيب في جهنّم، فبناء على هاتين النقطتين فتفسير الآية هنا بأنها تشير للشواذ الذي فعله بعض المنتمين لدينه تعالى حين عبدوا النبيين البشريين عزير(ع) وعيسى(ع)، ومعهم الْمُشْرِكِينَ العابدين للملائكة، ولكن تكملة كلام السورة بتهديد من ادّعى الألوهية أو أَنَّهُ وَلَدٌ له تعالى فيبدو أنه لا يشمل الملائكة(ع).

كَلِمَةُ عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نَحْنُ نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، فكأن كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، فكلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، فهي جمع الجمع، فأثناء الكلام بدقّة قد تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، فتقول الآيات: عبيد. وَوَرَدَتْ في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وَتَكُونُ لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وَتَكُونُ لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، فهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخَرِينَ جاءهم رسول، وعبيد آخَرِينَ... فجمع الجمع "عباد"، فكلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جِدّاً عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

(لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ{27})
الْعِبَادُ الْمُكْرَمُونَ:

{لَا يَسْبِقُونَهُ} تعالى {بِالْقَوْلِ}، لَا يقول العباد المكرمون شَيْئاً قبل أن يقول تعالى، بل هم ينتظرون أوامره سبحانه التي يقولها لهم، ولو كانوا آلهة لَكَانَ لهم كلام ولو لِمَرَّةٍ واحدة قبل كلامه سبحانه، وهذا يرجع بك إلى الآية السابقة عن فساد حال ما في الدنيا من مخلوقات وظواهر لو كان فيها أكثر من إله يدير شؤونها، ويرجع بك إلى الآية التي أخبرتنا أنه تعالى وحده يُسْأَلُ والآخرون لا سلطة لهم ولا قدرة أمامه سبحانه... فما معنى أن يكون أَحَدٌ ما من مخلوقاته المؤمنين وَلَداً أو إِلَهاً، وهم يتصرّفون كعبيد له تعالى منتظرين لما سيقوله لهم، {وَهُمْ بِأَمْرِهِ} تعالى {يَعْمَلُونَ}، فلا يعملون بأمر أنفسهم ولا بأمر غيره، وَيُنَفِّذُونَ الأمور التي يأمرهم بها تعالى، فكيف اعتبروهم آلهة وكل شيء يدل على أنهم عبيد! وَهُمْ مطيعون ويفعلون فقط ما يأمرهم به سبحانه، فهل لعزير أو عيسى قرارات في أي شيء من مستوى إلهي؟ أم تاريخ حياتهم يشير إلى تماشيهم في الإيمان والشريعة والسلوكيات مع الخطّ الإلهي الممتد منذ آلاف السنين؟

تذكّر أن الكلام عن نماذج من المنتمين لدينه تعالى "بعض اليهود والنصارى" وَهَؤُلَاءِ بعضهم شذّ وعبد بعض الأنبياء واعتبرهم أَوْلَاداً له تعالى، وأنت تعلم من مفاهيم القرآن أنه تعالى لا يختار أَشْخَاصاً ليوحي إليهم بشكل عبثي، بل من تأهّل من الناس بقلبه السليم فهذا يوحي إليه تعالى وَيَصِيرُ نَبِيّاً، وبعلمه سبحانه بالغيب لما سيكون عليه الناس من قبل أن يولدوا، بل من علمه تعالى من أوّل ما قرّر سبحانه خلق ما في الدنيا، وَمِنْ علمه سبحانه بذلك يعتني بشكل خاص بالذين يعلم أنهم سَيَكُونُونَ بقلوب سليمة من مستوى عَالٍ، وكمثال بارز عن ذلك أَخْبَرَنَا سبحانه سَلَفاً عن يَحْيَى(ع) وعيسى(ع) أنهما سيكونان نَبِيَّيْنِ...

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ {28})
{يَعْلَمُ} سبحانه {مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ}، ما يجري معهم وأمامهم، ويعلم سبحانه، {مَا خَلْفَهُمْ}، ما لم يَجْرِ أمامهم، وهو ما جرى وهم غائبون عنه، في الْمَاضِي أو الحاضر أو المستقبل، فهم حتما ليسوا آلهة لأنه تُوجَدُ معلومات تغيب عنهم، وَهُمْ مخلوقات محدودة بقدرتها على الِاطِّلَاعِ، والله تعالى يعلم ما يجري معهم وما يجري وهم لا يعلمونه، فكيف يَكُونُونَ آلهة!

{وَلَا يَشْفَعُونَ}، العباد المكرمون لا يتوسّطون بقيمتهم المعنوية لغيرهم عنده تعالى، {إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى}، فمن وافق سبحانه بمحبّة على حصوله على الشفاعة من العباد المكرمين فيمكن أن يشفع له العباد المكرمون، وَلَا استقلالية ذاتية لديهم ليشفعوا فارضين بالقوّة قرارهم عليه تعالى حتى يجعلوا شخصا ما يدخل إلى الجنّة وكان الله تعالى يريد إدخاله إلى النار، لا، ليس لديهم ولا لغيرهم هذه القدرة.

{وَهُمْ}، العباد المكرمون، {مِنْ خَشْيَتِهِ}، من الشعور بالخطر منه تعالى ومن شعورهم بإمكانية تَجَنُّبِ هذا الخطر عبر إطاعة أوامره تعالى، هم، {مُشْفِقُونَ}، يشعرون بمعايشة حالة العذاب التي ستصيبهم إن عصوه تعالى.

اسْتَعْمَلَ القرآن وصف الإشفاق من العذاب للمؤمنين هنا في الدنيا، ولم يستعمله لوصف حالتهم في الآخرة، وبالعكس اسْتَعْمَلَ وصف الإشفاق من العذاب لغير المؤمنين في الآخرة في يوم القيامة، وَكَمِثَالٍ عنه ما ورد في الآية 49 من سورة الكهف {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ...}، فهنا الآية تتحدّث عن حالة العباد عندما كانوا هنا في الدنيا، فكانوا يخشونه تعالى، وَمُشْفِقِينَ من عذابه فيعيشون في حالة وكأن العقاب الإلهي سيصيبهم حتما، فليسوا مستهترين، ولا ينسون مراقبته تعالى لهم... وَالْعِبَادُ المكرمون الذين عبدهم بعض الناس كَانَتِ الخشية والإشفاق حالتهم، ولولا ذلك لَنْ يَعْتَبِرَهُمْ تعالى مُكْرَمِينَ، فكيف قال بعض الناس عن الذين يخشونه تعالى ويشفقون من عذابه أنّهم آلهة!

بَقِيَ شيء، هُنَاكَ أمور يطرحها القرآن من نظرة إلهية وبشكل متكرر من مختلف الزوايا وبحسب ارتباطها بمختلف الأمور، وَتُلَاحِظُ تكرار الكلام القرآني عن ربط الشفاعة في الآخرة مع الألوهية، مِنْ نظرته تعالى للأمور يراها تسير حتما إلى يوم القيامة حيث القرار لمصير خالد لنا إمّا في النار أو في الجنّة، وهناك حالات لا يخلد فيها بعض الناس في النار، فيقضون فيها لَحْظَةً أو سَاعَةً أو يَوْماً أو ... ملايين السنين... وبعدها يخرجون من النار، طبعا هؤلاء ليسوا مشركين ولا كافرين ولا مُرْتَكِبِينَ للجرائم من العيار الثقيل... بل مُوَحِّدِينَ ولكن عليهم سيئات لم تُغْفَرْ...

على أي حال، القرار في يوم القيامة مصيري، وسبحانه وحده يملك القرار، وَأَخْبَرَنَا سبحانه أنه سَمَحَ لبعض عباده بالتوسّط لآخرين حتى ينجّوهم من النار... وَفَرْضاً لو كان غيره تعالى لديه صفة الألوهية، أو نفحة ألوهية... لكان قراره تَنَفَّذَ في يوم القيامة حتى لو لم يرض الله عزّ وجلّ... وهذا المقدار من الكلام يكفينا لِأَلْفِتَ انتباهك لمصدر هذا القرآن، فَخُذْهُ كنموذج لترى الفرق الهائل بين كلامه تعالى من نظرته للأمور والتي تراها مقحمة في طيات كلامه سبحانه، وبين كلام من تأليف البشر، وبشكل فج مباشر، وَقَارِنْهُ مع احتمال أن يكون هذا القرآن من تأليف محمّد بْنِ عبد الله(ع)، وسترى أن هذا القرآن مستحيل أن يكون إلا من تأليف الإله سبحانه وتعالى، لِأَنَّ كل البشر ومعهم الجنّ وَالْمَلَائِكَةُ(ع) ليس لديهم هذه النظرة الإلهية الدائمة للأمور، وَالْمَلَائِكَةُ(ع) لا يعلمون الغيب، وَهُمْ وبناء على وعد منه تعالى يؤمنون بحصول حساب وجزاء في الآخرة، لَوْ فرضا كان هذا القرآن من تأليفهم فَحَتْماً سيغيب عن بالهم النظرة الإلهية للأمور.

خذ مثلا ما ورد في سورتنا هذه في الآية 22 عن فساد ما في الدنيا لو كان فيها إِلَهَانِ أو أكثر، وَلِحَدِّ اطِّلَاعِي على الكتب العقائدية القديمة من متدينين وفلاسفة وحكماء من مختلف الثقافات، لم أجد طرحا كهذا، وَفَرْضاً لو طرحه أحد ما في تاريخ البشرية، فَمُحَمَّدُ بْنُ عبد الله الأمي راعي الغنم بالأجرة، وبعدها أَجِيرُ تجارة بأموال أناس آخرين... البعيد كلّ البعد عن التراث الثقافي العلمي... من أين سيأتي بطروحات بديعة من هذا العيار؟

وآيتنا هنا وغيرها بإقحامها الشفاعة في الآخرة في سياق كلام السورة عن شؤون من مستوى إلهي لإنقاذ أحد ما من العذاب... مِنْ أين لمحمّد بْنِ عبد الله هذه الإحاطة والدقّة لطرح نظرة إلهية بحتة في سياق كلام يدّعي فيه أنه كلام الإله؟

وقبلها إقحام السورة كلاما عن بعض المنتمين لدينه تعالى العابدين لبشر لتبيّن لنا أنهم شواذ نَاشِزُونَ بفجاجة عن الامتداد التاريخي للدين الإلهي التوحيدي، أَيُّ عبقري بشري أو جنّي أو ملائكي يمكنه صياغة كلام مسبوك بدقّة من نظرة بهذا المستوى من الرؤية للماضي والحاضر والمستقبل البعيد؟

نَنْتَقِلُ الآن للشفاعة، وَهِيَ عموم استخدام القيمة المعنوية أو السلطوية لتغيير الظروف نحو الأحسن، والآيات القرآنية التي تحدّثت عن الشفاعة تَنَاوَلَتْهَا من عدّة جوانب أهمّها نفي الشفاعة لأي مخلوق كحقّ مفروض ملزم "مرغم" للإله سبحانه وتعالى، كحقّ النقض "الفيتو"، وتقرأ ذلك في الآية 255 من سورة البقرة {... مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ...}، لَا تتصوّر أن مَلَكاً أو شخصا من خيرة المؤمنين يملك حقّ الشفاعة وسيفرض تنفيذها على مجرم لينقذه من العذاب، وَيَضْرِبُ رجله بالأرض "يحتجّ معترضاً" ويقول: معي حقّ الشفاعة وأريد أن يدخل فرعون إلى الجنّة. هذا شيء لا يمكن أن يحصل لأنه لا أحد يمكنه فرض أي شيء من أي نوع عليه تعالى.

هناك آيات أخرى أكّدت على وجود شفاعة من الملائكة (ع) والمؤمنين من الدرجة العالية للمؤمنين من الدرجة المنخفضة، وكمثال عن ذلك الآية 28 من سورة الأنبياء {... وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}، وَالشَّفَاعَةُ تُنَفَّذُ بعدما يسمح الإله سبحانه بها، وَضِمْنَ القرار الإلهي الأساسي يوجد أشخاص على ميزان العدل المستقيم يجب أن يتعذّبوا حتما، ولكن القرار الإلهي فيه رحمة، فمن ابتعد عن الشرك والكبائر كقتل الأبرياء والزنا... قَرَّرَ له تعالى أن يكون له مخرج من العذاب، وَسَمَحَ بالشفاعة له، أمّا المشركون والمرتكبون للكبائر من السيئات فلا تنفعهم الشفاعة كما ورد في الآية 123 من سورة البقرة {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ...}، نَفْيُ الشفاعة هنا في الآية ينبهنا أن لا نفعل ما نريد من سيئات معتمدين على شفاعة أحد ما لنا في الآخرة، لِأَنَّ هذا طريق يؤدي إلى فعل سيئات لا تنفع معها الشفاعة.

لا ننسى أن الشفاعة لا تعني دائما أنها للنجاة من النار، بل التخفيف من عذابها أو التخفيف من وقت المكوث فيها هُوَ أيضا من آثَارِ الشفاعة.

الجانب الثالث من الشفاعة الذي تجده في بعض الآيات هو نفيها عن الآلهة التي اخترعها المشركون، آلِهَتُهُمُ الوهمية التخيلية كإله الحرب وإله الخمرة... أو التي لها كيان كملاك أو إنسان أو جنّي، لَا قدرة لها حتى على الوساطة عنده تعالى للعفو عمّن عبدهم، وعادة سِيَاقُ كلام هذا النوع من الآيات يريك أنه تعالى وحده الإله وأن الآخرين ليس لهم سلطة من مستوى إلهي بل حتى ليس لديهم القدرة على فرض قيمتهم المعنوية عليه تعالى، وكمثال عن ذلك الآية 51 من سورة الأنعام {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}، وَسُبْحَانَهُ وحده بسلطته يشفع ويسمح بالشفاعة. ومثال آخر الآية 13 من سورة الروم {وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ}، حيث كان الكلام عن الذين أشركوهم معه تعالى في الألوهية، وسبحانه لا شريك له، وَهُمْ بينهم وبين آلهتهم شراكة وهمية بين عبد وإله، ولا قدرة لها لتشفع لهم... ومثال آخر الآية 43 من سورة الزمر {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ}، وهذه شاملة لكل أنواع الآلهة التي اخترعوا ألوهيتها، حَتَّى لو كان لها فعلا كيان ولم تكن وهمية كإله الخمرة وإلهة الحبّ، وَكَانَتْ مَلَكاً أو إنسانا أو جنيا، فَهَؤُلَاءِ لا يملكون شيئا من مستوى إلهي.

(وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ{29})
{وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ}، من العباد المكرمين، {إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ}، فيقول للناس: اعتبروني إلهاً ولا تعتبروه تعالى وحده الإله أو لا تعتبروه أصلا إلهاً. {فَذَلِكَ}، القائل لهذا الكلام، {نَجْزِيهِ}، نعطيه المقابل على كلامه، {جَهَنَّمَ}، المكان الموصوف بسوء ما فيه، {كَذَلِكَ}، بالجزاء بجهنم، {نَجْزِي الظَّالِمِينَ}، نعطي المقابل المناسب للذين لم يكن معهم حقٌّ، لأنهم ظلماً يقولون عن أنفسهم إنهم آلهةٌ وهذا غير صحيح وليس من العدل والإنصاف أن يقولوا هذا الكلام.

نلاحظ استعمال القرآن لتعبير {مِنْ دُونِهِ}، مشيراً بذلك إلى عموم أي عقيدة لم توحّده تعالى، سواء عبدوا غيره معه سبحانه أو عبدوا غيره ولم يعبدوه سبحانه، ففي كلتا الحالتين هم اتّخذوا إلهاً من دونه سبحانه، وتركوا توحيده تعالى واعتبروا غيره إلهاً ولو في مسألة واحدة إلهية اعتبروه فاعلاً لها ولم يعتقدوا بالله تعالى فاعلاً لها.

ننتبه جيداً، فمن قال عن هذه الفقرة من الآية 26 إلى هنا إنها تقصد الملائكة (ع)، فلينتبه للتهديد بجهنم، لأنه ولا مرّةً في القرآن هدّد تعالى الملائكة (ع) بجهنّم، ولا حتى تلميحاً، ولا إشارةً، ولا يمكن استنتاج أي شيء بهذا المعنى من كلّ القرآن، لأن التهديد في القرآن بجهنم توجّه للبشر والجن فقط، وهنا من الواضح من سياق السورة أن الكلام عن بشر، وبالتحديد عن الرسل من البشر.

إلى هنا انتهينا من الفقرة التي قطعت سياق السورة اضطرارياً، لأنها استشهدت بالخط التاريخي الطويل للرسل الداعين إلى عبادة الله تعالى وحده، ولكن على هذا الخط خرج أناس "بعضٌ من اليهود والنصارى" وقالوا عن بعض الرسل إنهم آلهة أو حلّ فيهم سبحانه أو اتخذهم أولاداً فصار لهم اعتبار إلهي أو... لذلك مرّت هذه الفقرة لتعالج هذه النقطة، وهي كما ترى نقطة خاصّةٌ بالعباد الذين هم من الرسل واخترع لهم الناس بنوّةً إلهية أو تأليهاً، وكما ترى سبّبوا خللاً تاريخياً في صفاء الدين الإلهي الحقّ الذي حمله الرسل عبر التاريخ الطويل، مما كسر تاريخية نقاوة الدين الإلهي التوحيدي، ولذلك نرى هنا أن الآيات لم تتكلّم عن حساب من ألّه بعض العباد المكرمين، لأن السورة ليست موجّهةً لهم، وهي ليست موجّهةً لأهل الكتاب، بل موجّهةٌ إلى غيرهم من المشركين، وترى في سور أخرى تفصيلاً أكثر وكلاماً موجّهاً بشكل خاص لأهل الكتاب بخصوص تأليه بعضهم للشخصيات الدينية.

على كلّ حال، أيّ تشابه بين عقيدة مشركين مع عقيدة المنتمين لدينه تعالى الذين اعتبروا بعض الناس آلهة، فالكلام هنا مناسب للردّ على كلتا العقيدتين، فإن كان المشركون "فرضاً" عبدوا شخصاً مؤمناً من الأنبياء أو من غيرهم، فالعباد المكرمون يتوعدهم تعالى بجهنّم "فرضاً" لو أنهم ادّعوا الألوهية، فمن البديهي أن أي شخص آخر غيرهم يدّعي الألوهية فمصيره جهنّم.

تلاحظ القساوة والشدّة في كلامه تعالى عمّن يدّعي الألوهية حتى لو كان من الأنبياء والرسل، وذلك ليعلم الجميع أنه ليس فوق أي أحد حصانةٌ من العقاب على الشرك.

تلاحظ أنه تعالى دائماً بشفافية وصراحة يتحدّث معنا، ولم يتستر على موضوع شواذ بعض المنتمين لدينه الذين أشركوا... وهنا في الآية ترى أنه تعالى لا يعقد اتفاقيات جانبية مع أحد، إذ الكل على نفس المسطرة، فإذا نبي أو رسول ادّعى أنه ولد له تعالى أو أنه إله أو... فعقابه سيكون شديداً جداً.

أيضاً تلاحظ توصيفه تعالى للمشركين بالظلم، حيث بشفافية يقول تعالى إنهم لو كان معهم حقٌّ حين أشركوا، أو فرضاً فرضاً فرضاً تبيّن معهم حقٌّ وكان هناك إله غيره تعالى، فرضاً فرضاً ذلك، فعندها لن يعاقبهم تعالى على شركهم، ولذلك يصفهم سبحانه عادة وغالباً بالظالمين، على معنى أنهم ظلماً أشركوا، حيث لم يكن معهم حقٌّ حين أشركوا، لأن كل الأدلة تشير لكونه تعالى الإله الواحد الأحد، وهم ظلماً أشركوا.

أطلت عليك الكلام لأن غالبية تفاسير القرآن لم تشر لشفافية كلامه تعالى في كل المواضيع، وأيضاً لديهم تفسيرات متنوّعةٌ لكلمة ظلمٍ، حيث غالباً قالوا إنها تقصد أنهم ظالمون بما سبّبوه لأنفسهم من عذاب، وهذا المعنى هو الأقل قصداً في القرآن، لأن الغالب من كلامه جاء على المعنى العمومي لكلمة ظلم، على معنى أنهم لم يكن معهم حقٌّ وظلماً كفروا بالحقّ الواضح.

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ{30})
يعود الكلام مع الذي طلب آيةً يتميّز بها الرسول محمّد(ع) عن البشر ويثبت بتميّزه أن الإله تواصل معه، بينما هذا الطالب للآية حتى يؤمن، فهو أصلاً يعيش في آية ضخمةٍ جداً جداً:

{أَوَلَمْ يَرَ}، ألم تحصل لديهم صورة محدّدةٌ كما نقول بالعامية: ما شافوا، ما التفتوا. {الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا التوحيد والرسل و... "ما شافوا" {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وهذه حدود الدنيا التي فيها المخلوقات، وهي سبع سماوات ويقابل كل سماء أرض تناسبها، فكلمة سماء وصف لعموم ما علا بشرط أن يقابله أرض، وليس بالضرورة أن تكون أرضاً واحدةً فسطح القمر أرضٌ أيضاً، وهكذا لكل سماء أرضٌ تناسبها وهذا ما تفهمه من الآية 12 من سورة الطلاق "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ..."، فالسماوات والأرض التي تقابل كل سماء، {كَانَتَا رَتْقًا}، كانتا مرتوقتين أي ملتحمتين برباط، {فَفَتَقْنَاهُمَا}، ففصلنا الرباط وصارت سبع سماوات بين كل سماء وأخرى أرض. بعبارة

أخرى فكل شيء كان مرتبطاً ببعضه، وفيما بعد جرى تفكيك الروابط وتشكلت السماوات فصارت كل سماء محدّدة منفصلة عن الأخرى بأرض تناسب نوعها. وبالتشبيه التقريبي من استعمالنا لكلمتي رتق وفتق، فهو مثل رتق الثياب الممزقة بالخيط عبر وصلها مع بعضها بالخيوط، وفتق الثياب عبر فكّ الخيط لفصل القماش عن بعضه.

ومن بعد الفتق، {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}، فكل الحياة التي على الأرض من نبات وحيوان، وكلّها بسبب الماء صار فيها حياة، وبكل بساطة وبلا أي كلام معقّد "علمي بيولوجي..." وكلنا نعرف أن كلّ النباتات والحيوانات "على الأرض من حولنا" تموت بلا الماء، فالماء جزء أساسي من تكوين أي خلية، والجزء الثاني بالتعبير القرآني هو التراب، وبتعابيرنا الحالية هو الكربون والكالسيوم والحديد... حيث إن بعض البيولوجيين لديهم مصطلح عن الحياة الأرضية أنها كربونية، لأن الكربون لديه خاصية ترابط مع أربع ذرات فهو الأكثر انتشاراً على المستوى الذري، وهذا التعبير بالحياة الكربونية ليس متعارضاً مع تعابير القرآن، لأن القرآن مرات أشار للماء كعنصر أساسي للحياة على كوكب الأرض، ومرات أشار للتراب كمكوّن أساسي، ومرات أشار لهما معاً بالطين، فهو تراب مخلوط بماء، وهذا التعبير يشير للمواد التي في بيئتنا والتي حالياً نصنّفها بتسميتها بعناصر الجدول الدوري "جدول مندلييف".

انتبه جيداً، لأن الآية تتحدّث مع شخص يعيش على الأرض، فعلى الأرض كل الحياة مرتبطة بالماء، وهذا شيء بسيط واضح يدركه أي إنسان، ولا تعرض الآية إثباتاً ولا من أي نوع، ولا تريد أن نبحث لنرى أن كل الحياة من الماء وبذلك نتأكّد أن من يعلم هذه المعلومة هو الإله وها ثبتت صحّتها... لأن هذه وأمثالها من الكلام هي ترهات، حيث إن الجنّ فيهم حياة، والملائكة (ع) أيضاً، وكلاهما لا علاقة لهم بالماء! لذلك الآية لا تطرح قاعدة شاملة لكل ما في الدنيا، بل هنا من حولنا على بيئة الأرض فكل شيء حيّ مرتبط بالماء.

{أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}؟ لماذا لا يعتقدون بالإله الخالق الأحد؟ فمن الواضح أن الخالق المخطّط المدبّر للسماوات والأرض واحد لا شريك له؟ فلو فكّروا جيداً في ما حولهم لانتبهوا فوراً أن إلهاً متحكماً واحداً فقط يقرّر ويسيطر على كل شيء.

ننتبه جيداً، حيث ربما يسرح فكرنا إلى علم الفلك وعلم الحياة لنفسّر هذه الآية على أساس ما لدينا الآن من معلومات أكاديمية، ولكن ننتبه، حيث إن في الكثير من الآيات التي استعملت التعبير بالسماوات كانت تتوجّه بكلامها عن ومع الناس عبر التاريخ من عهد النبيين نوح(ع) وإبراهيم(ع)... وخذ مثلاً الآية هنا، حيث إن أول من سمعها يبعد عنّا أكثر من ألف وبضعة مئات من السنين، لأن هذا الكلام وجّهه تعالى لكل الناس في كل العصور، إذ إن الآية تلفت انتباه أي إنسان عادي وتسأله: الأرض من أين أتت؟ والسماوات من أين أتت؟ فعلى الأقل أي إنسان عادي يعرف السماء الزرقاء في النهار، ويعرف السماء التي يرى فيها النجوم في الليل، ووصلنا خبر عن سماوات أخرى فيها جنّ وملائكة(ع)، وكل هذه السماوات التي نعرفها والتي سمعنا عنها ومعهم الأرض، من أين أتوا؟ وكما تلاحظ إن معلوماتنا الحالية التي نلمسها بحواسنا وبالأدوات تشير لكوننا الحاوي للمجرات فقط، ولم نتوصّل بعد للاحتكاك المباشر أو بالأدوات مع السماوات الأخرى، ورغم ذلك سبحانه لم يقصر كلامه عن السماء التي نعرفها، وتحدّث عن واقع الدنيا كما خلقها بسبع سماوات. ومعلوم لك من الآيتين 33 و 35 من سورة الرحمان أننا في المستقبل سنتخطّى سماءنا وصولاً إلى سماء تمنع فيها الملائكة الجنّ من المرور {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}... {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ}.

على كل حال مفهوم للسامع أن الكلام هنا عن عموم الدنيا وعمّا يلمسه منها في محيطه على الأرض، وبالطريق ليأخذ علماً أنه يوجد سماوات أخرى أيضاً، فهل من المعقول اشتراك أكثر من إله في التخطيط والتنفيذ لخلق ما تراه؟ فمن الواضح القدرة العظيمة لتصميم وخلق هذه الأشياء، وهذه القدرة منحصرة فقط في إله واحد صمّمها وخلقها كلّها.

العجب كل العجب من كلمات يرميها بعض علماء الفيزياء والفلك حول القوانين التي تحكم تشكّل الكون، وبكل بساطة يرمي البعض سموماً فكريةً مفادها أن قوانين الفيزياء هي التي تحكّمت في نشأة الكون، ولا حاجة لوجود إله! وكأن القوانين الفيزيائية إله! أو أنها أتت بخصائصها من فراغ هي والمادة والطاقة! والأنكى من ذلك كلام بعضهم عن ثقة مفرطة على أساس أن نظرياتهم الحالية صحيحة حتماً! وأنها لن تتغيّر! وكأن كلامهم من مستوى إلهي حاسم بصحّته! ولو دقّقت في التخصصات الفيزيائية العالية لوجدت أن أكثر المحترمين علمياً من هذا المستوى، لوجدتهم يأخذون حجمهم الطبيعي بالاعتراف بضعفنا الشديد وببعدنا عن فهم حقيقة الكون وما نلمسه ومما نتألّف منه... ولكن الدعاية

وانتشار الكلام دائماً حليف للكلام الفارغ، ولا تجد للعقلانية أي دعاية ولا ترويج، لأن العقلانية ليس فيها تشويق ولا لها جماهير...!

يمكنك ملاحظة الكفّار الذين كانوا في عهد النبي نوح(ع) وهم بالنسبة لنا متخلّفون علمياً، كانوا يتكلّمون بثقة حول نفي وجود الإله على أساس أنهم يعرفون كلّ شيء! وها ضربت لك مثالاً من زمن بيننا وبينه آلاف السنين، ويتكرر نفس المشهد في بقيّة الأزمنة وفي مختلف الأماكن. إن الذي قرّر أن لا يؤمن بسبب تعلّقه بالشهوة والغريزة السيئة، ولا يريد أن يقيّده الدين بنهيه عن السوء، فهذا أينما كان وفي أي عصر كان، سيفترض نفسه متفوقاً علمياً ويفهم كل شيء من حوله، وسيتفلسف بتعليلات واهية، ويقول: لا يوجد إله. ولو دقّقت في كلامهم لوجدت الكثير من الخزعبلات، لأن الله سبحانه قال لنا عبر رسله أنه جعل الحياة تسير على سنن، على قوانين إلهية، وأنه هو تعالى جعلها هكذا، ومن ناحيتنا نحن نسجّل الملاحظات ونحلّل ما حولنا حتى نستخرج قوانينَ فيزيائية وكيميائية وطبيّة... تساعدنا على التعامل مع ما حولنا بما يناسب حاجاتنا، وهكذا خلق تعالى ما حولنا، وهكذا خلقنا نحن البشر مع القدرة على التفكير والملاحظة والتحليل.

سؤال واحد بسيط يبين لك ما يخفيه الناكرون للدين الإلهي، إن النقطة الأولى التي بدأ منها الكون "كما نفترض حالياً بالاعتماد على نظرية الانفجار الأعظم"، بناءً على ما يقولونه نسأل: من خلق تلك النقطة التي انبثق منها كل شيء في الكون؟ ومن جعل فيها الخصائص الفيزيائية التي سينشأ عنها الكون بمجراته؟ وما هذه الصدفة التي أخرجت حياة متّزنة مستمرّة على الأرض؟ وسترى من الآيات الآتية بعضاً من التفاصيل عن خلقه تعالى للأرض عن تصميم إلهي سابق...

عذراً للإطالة والخروج عن سياق الآيات، لأن السورة هنا تركيزها بشكل أساسي على المشركين وهم المعتقدون بوجود آلهة متعددة، وليسوا منكرين لوجود إله، وهناك سور أخرى من القرآن مررت كلاماً عن الملحدين الناكرين لوجود إله من أصله واعتبرت كلامهم نابعاً عن كذب لأنهم من داخلهم يشعرون بعمق وجود إله... وسور الرعد والجاثية والواقعة مناسبةٌ جداً في انطباق كلامهم عن الملحدين "المنكرين لأي إله".

هنا كما ترى إن الآيات تلفت الانتباه لحتميّة وجود إله، ولكن تركيزها على وحدانيته، أعتذر منك للخروج عن تركيزها، ولكن هو نفس الكلام ضمنياً متوجّه مع المنكرين للألوهية.

أمّا بالنسبة للمشهد الذي تعرضه الآية عن رتق فتقه تعالى، فنحن كلّنا بالنسبة له تعالى كتلة واحدة، حتى لو اختلفت السماوات عن بعضها فيما تتألّف منه، حيث إن الأرض وسماؤها من نجوم ومجرات... تتألف من عناصر الجدول الدوري من هيدروجين وهيليوم ونيتروجين... وطاقة ومادة معتمة... "هذا بحسب آخر افتراضات علومنا"، وبقية السماوات تتألف من تركيب آخر مختلف عن المواد التي في بيئتنا، ولكن كل السماوات والأرض وقبل أن يصير بينها فواصل، كانت "بتوصيف تقريبي" ككتلة واحدة توصف بأنها مرتوقة، كانت متعلقة ببعضها بشيء كالنسيج، وفتقها تعالى وفرط ما يربطها لتنفصل وتصير سماوات وأرضاً، وهذا هو التبسيط اللغوي لكلمات الآية فلا تذهب أبعد من ذلك لتطبيقه على النظريات العلمية، لأنها نظريات حتماً ستتغيّر وتتبدّل، وبعد مئة أو ألف أو ألفي سنة سيأتي غيرها وستصير من التراث العلمي التاريخي بلا أثر لها ولا تداول بها.

بعبارة أبسط في حالة الصفر لم يكن هناك شيء، وخلق سبحانه شيئاً ما، من هذا الشيء تكوّنت السماوات والأرض على ست مراحل زمنية، وتكوّنها يوصف بأن شيئاً كان ملتصقاً ببعضه، كان رتقاً، وجرى فصله عن بعضه، فانفتق متوسّعاً لتتشكل السماوات وأراضيها.

بقي شيء، إن ما تسمعه من كلام من الذين لا يؤمنون بالأديان ويسمّون أنفسهم علمانيين وملحدين، غالب كلامهم رفض لكلام قاله المنتمون لدينه تعالى، حيث إن علماء الدين المنتمون لدينه تعالى لديهم نظريات يقولون إنها نابعة من عقائد دينه تعالى بل هي كلامه تعالى، وهذا غالباً غير صحيح، إذ إن غالبية علماء الدين المنتمين لدينه تعالى عبر التاريخ، كان لهم تفسيرات لكلامه تعالى مبنية على معطيات ظنّوا أنها صحيحة، ومع مرور الزمن ترسّخت نظرياتهم لتصير جزءاً من دينه تعالى، وبعدها صارت مقدسة مثل تقديس كلامه تعالى، ويصير رفضها كفراً!

قديماً فهموا من كلامه تعالى أنه خلق الدنيا في ستة أيام بداية من اليوم الواحد والإثنين... وفي يوم السبت استراح سبحانه، بينما كلمة يوم في تعابيره تعالى وفي استعمال البشر هي أوسع من الأربع وعشرين ساعة، فهي لعموم أي زمن لحدث أساسي وينتهي بانتهاء الحدث الأساسي ويتخلّله ساعات كل ساعة لحدث فرعي، حيث ربما زمنه بالسنين أو بالملايين منها، فوصف الفترة يومٌ، والأحداث الفرعية خلال اليوم توصف بالساعات...

نفس الكلام عن نزول الماء وحدوث الزلازل و... ونشأة الحياة على الأرض، كان مجهولاً آلية حدوثها، وكان للمنتمين لدينه تعالى نظريات عن ذلك، ونظرياتهم عادة تفسّر حدوث الأمور بصدور أمر منه تعالى، حيث بدون أسباب ولا آليات تحدث الأمور التي لم يعلموا سبباً لحدوثها.

لا مشكلة في هكذا فرضيات ونظريات طالما هي أقصى ما يمكنهم الوصول إليه مما حاولوا فهمه، ولكن المشكلة أن يتبنوه كدين ويصير هو الدين ورفضه الكفر.

ما تسمعه من العلمانيين الملحدين غالبه كفر بما يقوله المنتمون لدينه تعالى، إذ ها كلامه تعالى أمامك يحثّك على التفكير في خلقه تعالى لما في الدنيا، ويخبرك أنه خلقها على مراحل، وخلق الإنسان من سلالة من طين... ولم يدخل في آليات حدوث الأشياء، ولم يقل إن الأشياء تحصل بدون سبب وفقط بأمر منه تعالى وبكلمة تحصل الأمور.

معرفتنا لآليات نشأة كوننا ما هي إلا فرضيات للتعرّف على كيفية خلقه تعالى لكوننا، وليس إلغاءً لكونه تعالى خلق كوننا، وها ترى آيتنا هنا تخبرك عن مرحلة من خلق كل ما في الدنيا بنظرة أوسع مما يقوله علماء الفلك والفيزياء حصراً عن خلق كوننا نحن فقط والذي هو سماء من سبع سماوات أخرى.

نرجع خطوة إلى الوراء ونضيء على سبب مشكلة الخطأ في فهم كلامه تعالى، وهي نقطة نستفيد منها لفهم هذا القرآن، حيث إن الدارج أن زيادة المعطيات العلمية التي نسمّيها حالياً بالأكاديمية، من معلومات فيزيائية وكيميائية وجيولوجية وطبيّة... كلما تقدّمت علومنا في هذه المجالات كلما زاد فهمنا لكلامه تعالى، هذا ما هو دارج، وهذا هو معنى تفسير كلامه تعالى بناءً على المعطيات العلمية الجديدة، فهل هذا صحيح؟ لا، بل هذا هو المشكلة بعينها، لأن كلامه تعالى في قرآنه جاء بأبسط ما يمكن أن يفهمه أي إنسان عادي في أي عصر وزمان وبدون معطيات علمية أكاديمية، وراجع دراستنا هذه لترى فيها تفسير أي آية تعتقد أنها بحاجة لتخصّص علمي أكاديمي لفهمها، وسترى أن هذا غير صحيح.

كلامه تعالى واصف بدقة للأمور التي يراها ويلاحظها أي إنسان عادي، والقصد من الكلام لفت انتباه الإنسان لما فعله تعالى، لفت انتباهه لما فيه وحوله ليكونوا له آيات دالة عليه تعالى كخالق، ودالة على توحيده وعلى صفاته الحسنى سبحانه، وليس القصد أن يعلّمه تعالى شيئاً لا يعرفه ليكون له آية! لأن كلامه تعالى عمّا نراه ونلمسه ونشعر به... هو لفت انتباه لما نعلمه، والنادر من كلامه تعالى إخبارٌ عمّا لا تعامل مباشر لنا معه كالكلام عن الملائكة والجنّ وعن سماوات لهم...

لقد أطلت عليك كثيراً، فيكفي هذا المقدار من الكلام هنا، وسأحيلك إلى أي دراسة تفسّر آية ما من القرآن بناءً على معطيات علمية أكاديمية لا يفهمها إنسان كان في زمن النبي محمّد(ع)، لتقارنها مع ما درسناه هنا وترى الفرق.

أخيراً تذكّر دائماً ما فهمناه في هذه الدراسة للقرآن أنه تعالى زوّدنا بما يعرّفنا عليه بالفكر والملاحظة والوعي... حيث تقصّد سبحانه تصميم ما في الدنيا بضخامة وتفاصيل هائلة لنتعرّف على قدراته بسهولة، وكرّر القرآن مراراً وتكراراً لفت انتباهنا وتذكيرنا بما نعرفه ويدلّ عليه تعالى كخالق... وأن هذا هو الركيزة التي سيحاسبنا تعالى على أساسها إن كفرنا به من بعدما أتاح لنا ما يعرفنا عليه بسهولة، وثاني ما ذكره تعالى من طرق تعرّفنا عليه هو النفسية بمشاعرها من الخوف والرغبة... نتعلّق ونتوجّه نحو قدرة فائقة يمكنها مساعدتنا أو تحقيق رغباتنا، وتقرأ هذا في العديد من الآيات التي ضربت لنا نموذجاً عن حالة من كان في البحر فاقداً لأي أمل بالنجاة من الغرق في عاصفة هوجاء... وراجع كمثال عن ذلك الآية 22 من سورة يونس {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}.

أمّا ما يسمّيه الناس بالمعجزة كشيء لا يقدر البشر على فعله وقام به بعض الأنبياء، ويسميها القرآن بالآيات واصفاً لها بالتميّز لأنها من مستوى إلهي، فهذه ليست أسلوبه تعالى لهدايتنا، وأخبرنا صراحةً أن الناس بالأصل يكونون صالحين فكرياً ونفسياً مبتعدين عن الفساد الفكري وكارهين للشرّ، هؤلاء مؤمنون ويزيدهم سبحانه هدىً عبر الكلام الذي يصلهم من رسله، وأمّا الآخرون الذين لم يؤمنوا من آية خلق ما في الدنيا، ولم يتماشوا مع مشاعرهم الدافعة للتعلّق به تعالى عند الضرورة الحرجة، ولم يروا الصلاح والخير في كلامه تعالى المنقول عبر رسله، فهؤلاء لن يؤمنوا ولا بأي شكل، ولا بأي طريقة، ولا بسبب أي آية، إلا أن يغيّر تعالى عقولهم ونفسيتهم، وهذا ما لن يفعله سبحانه.

(وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ{31})
{وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ}، التي تعيشون عليها، {رَوَاسِيَ}، أشياء تجعلها مستقرة ولكن ليست ثابتة في مكانها، مثل رسو السفينة، حيث تستقر في الميناء على وجه الماء ولكن تبقى قابلة للحركة، وجعل تعالى فيها رواسي، {أَن}، حتى لا، {تَمِيدَ بِهِمْ}، حتى لا تتحرّك من تحتهم، فإذا لم تكن راسية "شبه مستقرة" فلن يتمكنوا من الوقوف أو المشي عليها أو البناء عليها... وتصوّرها كلها غازية، أو مائية، أو رخوة، أو طبقاتها دائمة الاهتزاز.... فأنت الآن تعيش على سطح الأرض وهو رَاسٍ، وفيه قابلية الحركة ولكنه مستقر لتعيش عليه، ولم تصر الأرض كذلك بالصدفة، ولا بجهودك، ولا من صنع آلهتك الوهمية، بل هو الله سبحانه جعلها هكذا. وما ورد في الآية 27 من سورة المرسلات واصفا الرواسي بالشامخات، ونفهم منها أنها الجبال، فالرواسي تعبير عن عموم وصف ما هو مستقر ولكن ليس ثابتا، ويشمل وجه الأرض والجبال التي عليها، حَيْثُ إِنَّ الآية هنا تشير لما هو تحتنا أنه رَاسٍ حتى لا تميد بنا، والآية هناك تشير للرواسي الشامخات، للجبال المستقرة ولكنها ليست مثبّتة. وسنتوسع قليلا في الكلام عن ذلك بعد قليل.

{وَجَعَلْنَا فِيهَا}، في الأرض، {فِجَاجًا}، أعماقا بين مرتفعات، {سُبُلًا}، مسالك كطرق، والفجاج ليست كلها عميقة جدا جدا، بل غالبيتها مناسبة لتكون طريقا تسلكها للتنقّل بين المناطق، فلو كانت كل الأرض أخاديد كمنحدرات قاسية تقطع وصلات الأرض عن بعضها، أو مرتفعات بينها شيّارات تقطع المرتفعات عن بعضها، لما تمكنّا من الانتقال بين بقع الأرض، ولكنه تعالى جعل في الأرض طرقا لنسير عليها، ومرّة ثانية تشير الآية إلى شيء نتعامل معه بشكل "روتيني" متكرر ولا ننتبه لأهميّته، وهو قدرتنا على الانتقال من مكان لآخر على الأرض، فمن صمّمها لتكون هكذا؟

{لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}، مِنَ المفروض ومن المتوقّع أن تكونوا على الشيء الصحيح الذي يوصلكم للغاية الصحيحة، لِتعلموا أن تضاريس الأرض وحالتها المناسبة لتعيشوا عليها هِيَ من تخطيط وصنع إله عظيم، ومن المتوقّع منكم أن تؤمنوا به تعالى عبر النظر إلى هذه الأمور الرائعة.

تلاحظ الآية تشير لتصميم الطرقات بين المرتفعات، وحين تعرف إلى أين توصلك بعد أن تتعرّف عليها، تَهْتَدِي بها لتصل إلى الوجهة التي تقصدها، وتلاحظ بوضوح كيف استعملت الآية فعل الهداية عبر هذه الطرقات لتهدي إلى الإله سبحانه الذي صمّمها، والكلام موجّه لعموم الناس وخصوصا للذين يطلبون آية من الرسول ليثبت لهم أَنَّهُ بَشَرِيٌّ متميّز بتواصل الإله معه ليؤمنوا به، فما أنتم فيه من تصميم إلهي، ونموذج عنه رسو الأرض والسبل... فإن لم يكن هذا آية كافية لكم لتؤمنوا فلن تؤمنوا ولا بأي شكل.

أمّا بالنسبة للتعبير عن سطح الأرض بِأَنَّهُ "رَاسٍ" فهل يحتاج لمعرفة بالطبقات التكتونية والقشرية والقارية... المتحركة... حتى نفهم الآية؟ لا، فالزلازل كافية لنلتفت لما تقوله الآية، حَيْثُ إِنَّ تزلزل الأرض مدّة بعد مدّة يريك أن سطحها رَاسٍ، فهو مستقر ولكنه ليس ثابتا لِأَنَّ الزلزال يحرّكه، وكما ترى فلا تحتاج لأي معلومات عن جيولوجيا الأرض لتفهم الآية هنا، وهذا لا يعني التقليل من قيمة العلوم، بل نفصل بين كلام الآية المفهوم لأي إنسان عادي، وبين تفسيرها بناء على تعقيدات علمية تخصصية تتماشى مع كلام الآية ولكن لم تقصدها الآية.

(وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ{32})
{وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا}، ما علا فوقكم من فضاء جعلناه منتشرا فوقكم، {مَّحْفُوظًا}، مصونا يعتني تعالى به ليبقى كذلك، وَالذي يحافظ على استقرار الأشياء في السماء لتبقى كفضاء فوقنا، لِذَلِكَ الآية تسمّيه سقفا محفوظا لأنه مستقر فوق رؤوسنا، وتقول بأنه تعالى جعله هكذا محفوظا موجودا يسير بانتظام بلا مفاجآت، {وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا}، عن الأمور

المميزة التي في السماء والتي تدلّ على المستوى الإلهي في تصميمها وخلقها، هم، {مُعْرِضُونَ}، وَيعتبرونها بدون أهمية، وبالتالي لَا يؤمنون به تعالى.

تذكّر العديد من آيات القرآن التي تحدّثت عن نهاية الدنيا بتبدّل السماوات والأرض، حَيْثُ يمرّ عليها مرحلة تتناثر فيها النجوم، ومرحلة أخرى تجتمع فيها مرّة ثانية... وَالآية هنا تشير إلى الاستقرار الذي نراه الآن في السماء التي فوق رؤوسنا كسقف، واستقرارها منعكس على استقرار البيئة التي فيها الأرض، ومعلوم للجميع أَنَّ نَيَازِكَ وشهبا تتساقط بين الحين والآخر على الأرض، ولكن ليس بمقدار يسبب دمارها، وَلولا هذا الاستقرار "الحفظ" الذي يمرّ الآن لما تواجدت الحياة على الأرض لمدّة طويلة، وأصلا لما صارت حياة.

كما ترى، إِنَّ الآيات تدفعنا للتفكير بما نراه كتصميم ابتدعه سبحانه، لِأَنَّ كل ما في الدنيا لم يكن موجودا، ومن الصفر من لا شيء صمّمه سبحانه، وتفهم ما تريد الآيات قوله إذا أنت قرّرت أن تخلق "دنيا" من الصفر ولم تَرَ من قبل أي "دنيا"، وَمخيلتنا التي سنبني عليها تصوراتنا سينتج عنها المخلوقات وبيئتهم والظواهر البيئية... وكما ترى من واقع حالنا، إِنَّ ابتكاراتنا واختراعاتنا واكتشافاتنا وأفكارنا وتخيّلاتنا... نحن كبشر مَحْدُودَةٌ جِدًّا، لِأَنَّهَا تعتمد على بيئتنا لاشتقاق تخيّلات منها لابتكار شيء جديد، فَمِنَ العينين ابتكرنا نقل الصورة بالكاميرا، ومن الأذن ابتكرنا نقل الكلام بالهاتف، ومن القدمين ابتكرنا آلات لنقطع بها المسافات...

هنا الآيات وبالخصوص آيتنا هنا التي بعّدت أفق الملاحظة إلى السماء، كبيئة ضخمة هائلة من حولنا لأرضنا، لتلفت انتباهك لما هو أبعد مما تلمسه وتعايشه على الأرض، حتى تلتفت لتصميم ما في الدنيا بأعمق وأكبر مما بين يديك وتتعامل معه مباشرة، لِأَنَّ تصميم السماء التي فوقنا من توابع تصميم البيئة المناسبة لنعيش ونحيا على الأرض.

أي كلام غير الظاهر البسيط من الآية لتفسيرها بالنظام الشمسي والمجرّي... فَهو ليس تفسيرا للآية، والاكتشافات العلمية الفلكية وصور التلسكوبات... هي من روائع تعرّفنا على بديع صنعه تعالى ولكن لا تخلطه بتفسير الآية التي قصدت ما يفهمه ويراه أي إنسان عادي يعلم أن استقرار الفضاء فوقه يحتاج لتصميم وقدرة غير عادية... وأن سقوط النيازك والشهب الكبيرة سيدمّر الأرض أو سيدمّر قسما كبيرا منها أو يبيد الحياة عليها، وشيء من هذا سيحدث في المستقبل البعيد حين تنتهي الدنيا وتتبدّل السماوات والأرض، وتصير السماء كالمهل، وتتناثر النجوم... وَعندها تتعرّض الأرض للتبدّل بشكل عنيف لا مجال فيه لبقاء حياة حيوانية أو نباتية عليها، وهذا ما يفهمه أي إنسان عادي وهذا ما تقوله الآية.

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ{33})
{وَهُوَ}، الله تعالى، {الَّذِي خَلَقَ}، ركّب وألّف، {اللَّيْلَ}، فترة العتمة من اليوم، {وَالنَّهَارَ}، فترة انتشار الضوء من اليوم، وخلق وَركّب وألّف، {الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ}، {وَكُلٌّ}، من الشمس والقمر، {فِي فَلَكٍ}، في مسارات وطرقات، {يَسْبَحُونَ}، لِأَنَّ كل واحد منهما له فلك خاص يسبح فيه، كما تسبح السمكة في الماء وَتراها معلّقة في الماء، فتنزل وتصعد وتقف ولا ترى أي شيء يمسكها فكذلك الشمس والقمر مثل السمكة في الماء، حَيْثُ تَرَاهُمَا معلّقين في الفضاء. ويمكنك مراجعة الآية 40 من سورة يس "{لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}"، وتفهم منها أن للشمس فَلَكًا وللقمر فَلَكًا آخَرَ، وَكل واحد منهما يسبح في فلك في مسار مختلف عن فلك الآخر.

تذكّر دائما يا عزيزي أن القرآن يتحدّث مع شخص عادي يمكنه فهم الآيات "الفلكية" من وقوفه على الأرض ومشاهدته بعينه لما في السماء، فلا تستغرق في تفسير الآيات اعتمادا على نَظَرِيَّاتٍ عِلْمِيَّةٍ، لأنها حتما ستتغيّر، وعندها يظهر كلامك العلمي سَخِيفًا وتسبّب سخافة لآيات القرآن، وهذا شيء فعله الكثيرون من قبل، حين فسّروا القرآن على مقياس معلوماتهم، من نظرية الأفلاك السبعة تليها نظرية الأفلاك التسعة، ومن نظريات الأساسيات الأربعة "النار والماء والهواء والتراب"، ومن نظريات الطبائع والأمزجة... فإذا قرأت ما فسّروه من قرآن بناء على تلك النظريات فلن تتمالك نفسك من الضحك على سذاجة ما قالوه، فخذ علما أنك أيضا ستكون محلا للسخرية ممن سيأتي بعدنا إن فسّرت القرآن على أساس النظريات العلمية السائدة في عصرك.

كما تظنّ أنت الآن أن معلوماتك متقدمة جدا وصحيحة، وَالسابقون القدماء أيضا كانوا وبنفس القوّة يعتقدون بصلابة صحة معلوماتهم، ومن المتوقّع بعد ألف أو عشرة آلاف أو مئة ألف... سنة أن معلوماتنا الحالية ستصير من تاريخ التراث العلمي ولا أحد سيتداول بها أو يتعلمها لأنها مستبدلة بمعلومات متطورة أكثر بكثير...

نرجع للآية، وَحين ترى القمر في عتمة الليل، ستراه معلّقا هكذا في الفلاة، ويسبح بكل ما للكلمة من معنى، لِأَنَّ له فَلَكًا، وَله مسار يمشي دائما عليه، والشمس بالنسبة لمن يشاهدها من الأرض، أيضا تسبح، ولها مسار تمشي عليه، حَيْثُ إِنَّ القرآن يتحدّث مع شخص يقف على الأرض، وبالنسبة لهذا الشخص فإن الشمس لها فلك في السماء، وَلها مسار محدّد لا تخرج عنه ونراها تدور به حول الأرض، وهذا كل ما تقوله الآية، فهي فعلا تقصد أن من يقف على الأرض سيرى الشمس تدور حول الأرض، لأنها تتحدّث مع شخص واقف على الأرض، وكل الناس منذ فجر التاريخ وإلى الآن، يَصِفُونَ الشمس بِأَنَّهَا تغرب وتشرق، وتجري وتسير من الشرق إلى الغرب، مع العلم أننا كلنا الآن نعلم أن الأرض تدور حول نفسها وليست الشمس التي تدور حولنا، وكلامه تعالى هو تكرار لما نصف نحن به المشهد، وليس كلامه تعالى درسا في علم الفلك، ولا تخاطب إنسانا وَاقِفًا في الفضاء البعيد جدا جدا ليتمكّن من بعد مدة طويلة من رؤية الأرض تدور حول الشمس، فَـالآية، وَالظاهرة المميزة الدالة على إله، هي ما نراه من تحرّك الشمس على مسار فوقنا.

الذين قالوا عن القرآن بأن النبي محمّد(ع) ألّفه على أساس المعلومات الشائعة في عصره، وهي معلومات غير صحيحة لأن الأرض تدور حول الشمس، نَسْأَلُهُمْ: مع من يتحدّث القرآن حين لفت الانتباه لحركة الشمس؟ ألم يكن يتحدّث مع شخص يقف على الأرض؟ حَيْثُ إِنَّ القرآن فقط يلفت انتباهنا لعظمة ما نراه من مشاهد، وأمّا عن دوران الأرض حول نفسها وحركة الأرض حول الشمس، فأين سنقف لنراها هكذا؟ وإن قال القرآن بصراحة واضحة أن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس، فما الفائدة من طرح هذا الكلام مع غالبية الناس التي كان من المستحيل أن تقتنع به لأنه يخالف ما تراه بعينها؟ ولو قاله القرآن صراحة لكفروا به وأحرقوا القرآن، ولنبالغ وَنَقُلْ لربما لن يؤمن به حتى محمّد(ع) ذات نفسه لو وجد في القرآن معلومات تخالف أُمُورًا يراها بديهية.

حتى نحن الآن المتبجحون بعلومنا المتقدمة جدا، فلو ذكر القرآن صراحة شيئا ستكتشفه البشرية بعد مدّة وهو مخالف للبديهيات المتعارف عليها حاليا، فمن سيؤمن بالقرآن؟ وأصلا هل سنفهم ما يقوله القرآن لو طرح الأمور قاصدا لفت انتباهنا لما صمّمه وخلقه تعالى مع ذكر عمق آليات حدوثها؟ وَهَا هُوَ كلامه عن خلق الإنسان من سلالة من طين، حَيْثُ رفض المؤمنون ظاهر الكلام الإلهي وحوّروه ليصير آدم أوّل بشري... وحاليا رفض الكافرون هذا الكلام الإلهي ولم يعتبروه بشكل ما يشير إلى مرونة تتحمّل تماشيه مع نظرية أصل الأنواع من التطوّر... ولمزيد من التوسّع في ذلك راجع دراسة الآية 7 من سورة السجدة "{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ}".

هَا هُوَ كلامه عن سبع سماوات لسنا نرى إلا سماء واحدة منها، وَهَا هُوَ كَلَامٌ عن شيء لم نختبره بعد، وهو حقيقي وموجود، وفي المستقبل سنتعامل مَعَهُ كما ورد في الآيتين 33 و 35 من سورة الرحمان "{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ... يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ}"، حَيْثُ سَنَتَخَطَّى سماءنا وصولا إلى السماء التي تمنع الملائكة أَحَدًا من تخطّيها برمي من يقترب بالشهب... ألم يسخر الكافرون قديما من هذا الكلام؟ ألم يسخر منه كفّار من عصرنا حتى من بعدما وطأنا القمر كأول خطوة نحو اكتشاف الفضاء؟

هكذا ترى أن ما يحاول المنتمون لدينه تعالى تقديمه للآخرين من تفسيرات علمية عصرية لكلامه تعالى، هُوَ أولا غير صحيح وليس تفسيرا لكلامه تعالى بل إِسْقَاطٌ لمعطيات علمية على كلامه تعالى، وهذا في السابق أدّى إلى نتائج كارثية جعلتنا سخرية للآخرين، وثانيا فِعْلًا في كلامه تعالى إشارات لأمور لم نختبرها بعد، حَيْثُ لَمْ يحصر القرآن كلامه فقط عن البديهيات والأمور البسيطة التي يفهمها ويختبرها أي إنسان عادي، بل تكلّم معنا بما يمكن أن نفهمه عن أمور من خارج المألوف ليرينا صورة أوسع، وَهناك استفزازات قرآنية رائعة عن أخبار سماوات يمكننا النفوذ فيها، وعن أخبار إحياء الموتى هنا في الدنيا، والكلام مع الحيوانات والحشرات، ونقل غرض من مكان بعيد بلمحة...

من ناحية ثانية إِنَّ القرآن صحّح أمورا أساسية أو لها أهميّة ممّا حرّفه أهل الكتاب، ولكن ترك الكثير الكثير من الأمور الجدلية معهم، والتي لا منفعة من طرحها، كتحديد صريح للولد الذي أمر تعالى نبيّه إبراهيم(ع) بذبحه، حَيْثُ منهم من

قال إِنَّهُ إسماعيل ومنهم من قال إِنَّهُ إسحاق... وكذلك بالنسبة للفت الانتباه للآيات من حولنا، حَيْثُ عَادَةً لا يطرح القرآن ما يسبّب جدلا، بل مجرّد الْتِفَاتَاتٍ لأمور من حولنا نفهمها بكل بساطة، وحتى ما طرحته الآية السابقة عن جعل كل شيء حيّ من الماء، لِأَنَّ أي إنسان عادي يعلم أنه لا يوجد نبات ولا حيوان على الأرض يمكنه أَنْ يعيش بلا ماء، لِذَلِكَ لست بحاجة للتخصّص بالبيولوجيا لتفهم ذلك.

كما تعلم مُنْذُ الْقِدَمِ تنتشر من المؤمنين معلومات داعمة للقرآن، وأخرى من الكافرين به مناقضة لما يقوله القرآن، وكلاهما شاردان عمّا قاله تعالى في كتابه، حَيْثُ لَا يوجد آيات اكتشفت الليزر، ولم يطرح القرآن نظريات علمية أصلا، وفقط يوجه الكلام إلى شخص عادي يسمع الكلام الإلهي، وبعض الكلام للفت الانتباه للآيات من حولنا، لما نراه ونلمسه كما هو بدون أي حاجة للتخصّص في العلوم لنفهمه، وبعض القرآن مجرّد خبر من الإله سبحانه ولا إمكانية لنا لتجربته أو معاينته حاليا في الدنيا، كالجنّ والملائكة(ع) والشياطين، وكحوادث نهاية الحياة وما بعدها... علما أنه ذكر أدلة على إمكانية حدوثها أو لمس نماذج عن ذلك هنا في الدنيا... وَهكذا ترى أن الجدل حول الآيات التي يقولون إِنَّهَا تتناول مواضيع "علمية" والانقسام حول تفسيرها لتطابق أو تخالف نظرياتنا العلمية الأكاديمية، كُلُّ هذا الجدل فارغ لأن القرآن عادة لا يطرح إلا الأمور العادية البسيطة التي نعايشها... وأمور أخرى كأخبار إعادة خلقنا في الآخرة وعذاب الكافرين مع نماذج عنها في الدنيا... لِذَلِكَ نؤمن بعموم كلام القرآن بناء على التوضيحات التي في كلامه عمّا يطرحه علينا، وبناء على ما تراكم لدينا من أدلّة نجدها فيه على كونه من مصدر إلهي...

(وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ{34})

بعدما انتهت الفقرة التي تشير لنماذج من آية خلق ما في الدنيا، وهي أكثر من كافية لمن يريد أن يؤمن، عادت السورة لتتحدّث عن ومع الذين طلبوا أن يأتيهم الرسول محمّد(ع) بآية تثبت أنه متميّز وليس مجرد رجل بشري عادي، وإلا فلن يؤمنوا به ولا برسالته...

{وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ}، لَمْ نجعل وَلَا وَاحِدًا من البشر خالدا لا يموت ولا يفنى، وَسابقا لم نفعل ذلك، {أَفَإِن مِّتَّ}، ففارقت أنت الحياة الدنيا أيها الرسول محمّد(ع)، {فَهُمُ الْخَالِدُونَ}؟

تصوّر مشركا يقف أمام الرسول(ع) ويقول له: إن متّ يا محمّد فسيموت معك دينك وذكر إلهك، فلو كنت حقا رسولا إلهيا لجعلك إلهك خالدا لا تموت. وَأنت ضعيف كرسول إلهي، تمرض وتنزف وتموت... وَالرسالة الإلهية التي تقول بأنك تحملها لنا، يجب أن يكون حاملها مميّزا ليستطيع تبليغها والمحافظة عليها، وَها أنا أحمل سيفا فإن ضربتك به فسأقتل الرسول الإلهي وتنتهي رسالتك! وَهل من المنطق أني وبهذه البساطة يمكنني أن أنهي رسولا إلهيا! ولهذا السبب أستغرب ولا أؤمن بأن الإله أرسل بَشَرًا لنا.

يجيب القرآن بجوابين في الآية هنا والتالية: فَسبحانه لم يجعل وَلَا وَاحِدًا من البشر من قبلك خالدا لا يموت، وَالرسل والأنبياء وَالصِّدِّيقُونَ... كلهم ماتوا وأنت لست شاذا عن هذه القاعدة "الإلهية" فستموت أيضا، ولا يوجد أي مشكلة إن متّ، ولكن لماذا نسي الذين يقولون لك هذا الكلام بأنهم هم حتما سيموتون؟ وبعدها سيتحاسبون ويتجازون، فقبل أن يسألوا عن مصير رسالتك بعد موتك، مَا هي اسْتِعْدَادَاتُهُمْ هم لما بعد موتهم؟

لِنكمل لنرى القاعدة الإلهية الأساسية بالنسبة للحياة والموت:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ{35})

القاعدة الإلهية:

{كُلُّ نَفْسٍ}، كل واحد من البشر، {ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}، سوف تذوق وتشعر وتلمس مفارقة الحياة، {وَنَبْلُوكُم}، نصيبكم بما يمكن أن يغيّركم، {بِالشَّرِّ}، بالأشياء السيّئة التي تحصل معكم ولا تحبّونها ولا تريدونها أن تحصل معكم، {وَنَبْلُوكُم}، {بِالْخَيْرِ}، بالأشياء التي تحصل معكم وتحبّونها، وكلاهما الشرّ والخير، {فِتْنَةً}، شيء يعجبكم أو تتماشون معه فتتغيّرون منه، كامتحان لنرى كيف ستتصرّفون حين يصيبكم شرّ، فهل تخرجون عن طاعته تعالى وتعصون أوامره، وكيف تتصرّفون حين يصيبكم الخير فهل تتكبّرون وتتعالون وتسرفون وتبطرون...

{وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}، عندما تموتون فلن تفنوا وتندثروا، ولن تذهبوا إلى مكان لا علاقة لنا به، ولن ننساكم... لا، بل سترجعون إلى الحياة إلينا نحن حيث ستقفون بين أيدينا لتتحاسبوا.

إذًا، القرار الإلهي بأن كل الناس حتما ليست خالدة هنا في الدنيا، وأنت أيها الرسول من الناس، والمشركون من الناس، فإن صبّوا اهتمامهم عليك كرسول ستموت، ولم يعجبهم ذلك، على أساس أن أي واحد منهم بإمكانه إنهاء موضوع الرسول الإلهي بضربة سيف... وعلى أساس أنك بشري ولست متميّزا عنهم وسيموت دينك بموتك... فهل نسوا أنهم أيضا سيموتون؟ لماذا لم يهتمّوا بقضيّة موتهم التي تخصّهم؟ وهم الآن في حالة امتحان وسيأتي الحساب بعد موتهم الأكيد، لأنهم ليسوا خالدين، لماذا لم يهتمّوا بقضيّة موتهم وما سيحصل بعد موتهم وهي القضية الأساسية!

تصوّر كلام الآية كأنك تسمع شخصا لا خبرة له ولا دراسة ولا دراية في الاقتصاد، وخبرته في الأعمال والتجارة محدودة بمال بالكاد يكفيه ويكفي عياله، ورغم ذلك هو يتحدّث عمّا يجب فعله لإنقاذ البلاد من أزمتها الاقتصادية! ويقوم بالتنظير على مستوى الدولة والمنطقة والعالم! فلو كان يتحدّث مع الناس العاديين، فلا مشكلة لأنهم كلّهم عاديون ومستواه من مستواهم، ليتسلّوا بالكلام، ولكن لو كان يتحدّث مع الخبراء الاقتصاديين، سيقولون له: قبل أن تتحدّث على مستوى كبير، صبّ اهتمامك على عملك حتى تستطيع على الأقل أن تخرج من حالتك المعيشية السيئة...

هنا الآية تقول شيئا مشابها للمشرك الذي يتحدّث بشيء أكبر منه، حيث يتحدّث عن أفعال الإله سبحانه وعن رسوله (ع)، تقول له الآية: بالنسبة للخلود والموت، اهتمّ بشؤونك لأنك ستموت وستتحاسب وستتجازى، وهذا شيء على قياسك، واترك الأشياء الأكبر من قياسك، لأننا الإله ونحن أرسلنا الرسل من البشر ونعلم بأنهم سيموتون.

بقي شيء، الدارج في تراثنا الثقافي الديني اعتبار كلمة "نفس" كشيء مختلف عن الجسد، ككيان لوحدها، حيث يموت جسدنا وتبقى "النفس"، وبشكل ما هذا شيء يشير إليه القرآن ولكن بشكل مختلف كثيرا عمّا هو متداول في ثقافتنا، لأن كلمة نفس استعملها القرآن بمعناها اللغوي البعيد كل البعد عن المعنى الاصطلاحي الفلسفي، ففي اللغة هي شبه مرادف للشخص وللواحد وللذات... بغض النظر عن مادّة تكوينك، عن جسدك المؤلّف من الكربون والكالسيوم والماء... فلو غيّر سبحانه مادّة تكوينك لشيء آخر، فأنت نفسك ذاتك... ستبقى أنت ولكن بتكوين من مادة مختلفة، وهذا ما نفهمه بتصوّرنا للمقتولين في سبيله تعالى الذين يموت جسدهم وينتقلون بذاتهم بتكوين مختلف إلى عالم آخر ضمن عالم الدنيا ولكن تصير لهم طبيعة مختلفة عن طبيعة المواد التي فينا ومن حولنا.

بالمختصر، كلام القرآن لا يشير بكلمة نفس لشيء يبقى بعد موتنا، بل يشير إلينا نحن، ولم يتماشَ القرآن مع المصطلح الفلسفي للنفس والروح والجوهر... الموروث من فلاسفة اليونان وغيرهم من المنتمين لدينه تعالى، ولم يتماشَ حتى مع استعمالات الناس في عهد النبي محمّد(ع) لكلمات روح ونفس، بل استعمل كلمة نفس بمعناها العربي البسيط الذي يشير لذاتي، للفرد وللشخص... وترى ذلك واضحا في قراءة الثلاثمئة مرّة التي استعمل فيها القرآن كلمة نفس، والتي يمكن استبدالها كلّها بما يعبّر عن الشخص، عن الواحد منّا، عن الفرد... وسيكون معنى الآيات صحيحا.

الأوضح منه استعمال كلمة نفس في حقّه تعالى كما في الآية 30 من سورة آل عمران {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}، من الواضح أن معناها هو نفس معنى وصف الواحد منّا بالنفس، وليس معناها أنه تعالى لديه نفس وشيء آخر.

أمّا التحديد الدقيق لآلية الموت وبقاء ذاتي، بقاء فكري ونفسيتي ومشاعري وذكرياتي... مفعّلين أو خامدين... فهذا بحث مفتوح على مصراعيه، وليس جوابه عند المتدينين ومفسري القرآن ولا علماء الدين، ومن الخطأ الفادح حصر هذا الموضوع بالمتعاطين بالمواضيع الدينية على أساس أن الموضوع ديني والجواب موجود في كلامه تعالى أو عند المتدينين، لا، بل بعض العناوين العامّة مطروحة في كلامه تعالى، وأمّا الآليات والتفاصيل فهي متروكة لطاولات البحث والاختبار، مثلها مثل كلام القرآن عن خلق ما في الدنيا في ستة أيام ونزول الماء وعوم الفلك وسيران الشمس وخروج النبات وتسلسل الإنسان من طين... فهي إشارات لمراحل وظواهر وليست كلاما إلهيا عن آليات وتقنيات فعله تعالى للأشياء.

هكذا ترى أن فكرة محاولة نسخ ذات إنسان ما، أو حفظ وعيه وذاكرته... بطريقة ما، أو إعادة إحياء ميّت... أمور رائعة متاحة لنا للعمل عليها، وسيكون الجواب عن أسئلتنا عن آليات وعمق معنى الحياة والموت، سيكون موجودا فيما نختبره من هذه الأمور.

بعبارة أخرى، الكلام المنتشر في ثقافتنا الدينية عن الموت والحياة والروح والنفس والجوهر والعرض والأمثال والأشباح... هي كلمات عفا عنها الزمن وصارت بحاجة لتجديد لتخرج من حصرها بالدين ولتصير عرضة للاختبار إذا أمكننا ذلك. سبحانه بكلامه ينطلق من رؤية إلهية للأمور ويوصّفها بلغتنا بأبسط وأدقّ ما يمكن، والهدف من كلامه تعالى معنا هدايتنا، وليس تثقيفنا بمعلومات عن جسدنا وبيئتنا، وإن كان هذا يحصل ضمنيا بشكل ما.

أمّا كلامنا نحن عن الأمور من منطلق التفكير بها من دون اختبارها، فهو كلام ينطلق من تصوراتنا المبنية على مخزون معلوماتنا التجريبية عن الأمور، وكثير مما نظنّه أبحاثا فكرية، هي في عمقها أبحاث مرتبطة بالواقع، وكمتدينين، كلامنا يبتني أيضا على مخزون معلومات وصلتنا كأخبار منه تعالى، وعلى كلا الحالتين، ما يمكننا اختباره يجب علينا اختباره بدلا من التكلّم عنه من تصوراتنا، لأن اختبار الأشياء أساس بناء قاعدتنا الثقافية، ويليها الأخبار منه تعالى عن أمور من الصعب أو من المستحيل أن نختبرها الآن، كالأخبار عن نشأة السماوات، والأخبار عن الآخرة، ورغم ذلك لم يتركنا سبحانه على عمانا، بل زوّدنا بمختلف أنواع الأدلة مع نماذج تثبت لنا صحة ما يقوله سبحانه، وخذ مثلا عذاب بعض الأقوام في الدنيا بكارثة، حيث يقول القرآن إنه نموذج عن عذاب الآخرة، وخذ مثلا عن إعادته تعالى لخلقنا في الآخرة، حيث إن النبي عيسى(ع) أحيا بعض الموتى، وهذا نموذج، ولدينا ما نراه من إحياء الأرض بعد موتها بالمطر، وهذا من أكثر النماذج القرآنية عن إمكانية وسهولة إعادته تعالى لخلقنا... وغيرها العديد من الأمثلة على مختلف العناوين الإخبارية عن أمور سيفعلها تعالى والتي نتمكّن من اختبارها مباشرة الآن، بالرغم من وجود نماذج عنها أو أدلة عليها.

من المفروض بعد هذا الكلام أن تصير لدينا رؤية أوسع وألين ومرنة أكثر للتعاطي مع المواضيع التي تناولها القرآن، ونختصر بسهولة تفسير كلامه بما يعطيه الكلام من معنى لغوي بسيط، ونتوسّع في أبحاثنا بدون الجمود على قيود نخترعها لنصنّف بعض الأمور كدينية ممنوع البحث فيها إلا لعلماء الدين، لذا اترك ما يقولونه لأنه لا مستند إلهيٌّ صريحٌ لكلامهم، واذهب لتختبر الوعي والإدراك والذاكرة... وجرّب أن تحفظها وتنسخها... وأن تعيد إحياءها... صريح القرآن كلّه من أوله لآخره لم يمنعك عن ذلك لا بالتصريح ولا بالتلميح... بل حفّزك لتنطلق بأقصى ما يمكنك فعله... وإذا أعدت ميّتا دماغيا إلى الحياة، أو نسخت وعي أحد ما لجسد بيولوجي أو رقمي... فسيكون شيئا رائعا، مما سيزيد إيمان المؤمنين لأنهم يلمسون نماذج عن كلامه تعالى من إعادة الأموات للحياة، وسيزيد كفر الآخرين لأنهم صار بإمكانهم إعادة الأموات للحياة، وكلام القرآن عن ذلك بالنسبة لهم سيصير موضة قديمة وليس دليلا على وجود إله ولا يشير لقدرة إلهية تفعل ذلك، لأنهم صار بإمكانهم فعله...

(وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ{36})
{وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، المنكرون لكونك رسولًا إلهيًّا ومنكرون لهذا الدين الإلهي، عندما تصير عندهم صورة محدّدة لك، كما نقول بالعامية: إذا شافوك، {إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا}، حيث يتعاملون معك من خلفية الاستهانة والاستخفاف، ويعتبرونك بلا قيمة ويستهينون بك!

{أَهَذَا} الذي نستهزئ به هو {الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ}! فما قيمة محمّد حتى يتحدّث عن آلهتكم! فهو مجرّد شخص عادي من البشر فكيف يضع نفسه في مقام آلهتنا ويتحدّث عنها!

تذكّر المثال الذي ضربناه في الآية السابقة عن الشخص الذي يتحدّث بأمور أكبر منه، حيث إنهم هنا يستخفّون بالرسول (ع) ويقولون عنه بأنّه يتحدّث بأمور أكبر منه، لأنه يتحدّث عن الآلهة.

هم في نفس الوقت الذي يهزؤون فيه بالنبي محمد(ع)، {وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ}! حيث إنَّ أعلى قيمة هي لله الرحمن، الموصوف بأنه يعتني بمخلوقاته وبهؤلاء لما فيه مصلحتهم وهم لا يعتقدون به إلهًا أحدًا!

بعبارة أخرى، الكفّار عندما يذكر لهم النبي محمد(ع) الله سبحانه بأنه إلههم الأحد، فهم يعلنون كفرهم بهذا الكلام، لأن محمّدا(ع) مجرد بشرٍ بلا قيمة أمام آلهتهم التي يتحدّث عنها، بينما في الحقيقة لا يوجد أي أحد له قيمة أعلى من قيمته تعالى، لأنه الرحمن بالجميع بما فيهم من كافرين، وبسبب رحمته صاروا أحياء... وهم كافرون به!

معلوم بالبداهة أن آلهتهم هم اخترعوها، وألوهيتها وهميّة، وأعطوها هذه القيمة العالية! وتركوا الإيمان بذي القيمة الإلهية الحقيقية، والذي يعتني بهم، حيث إنهم من رحمته سبحانه أحياء ولهم كيان في بيئة مناسبة... وأرسل تعالى لهم من يهديهم... ويكفرون به!

بقي شيء، في عدة مناسبات ورد في القرآن وصفه تعالى بـالرحمن، وكمثال عن ذلك الآية 30 من سورة الرعد {كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ}، حتى عندما كان سياق الكلام يتضمّن العذاب للكافرين كما ورد في الآية 69 من سورة مريم {ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا}، حيث إن هذه الآيات وأمثالها استعملت وصفه تعالى بـالرحمن حتى يبقى أساس تصوّرنا له تعالى أنه بالأساس رحمن، ورحمته وعنايته بنا أدّت إلى منحنا الحياة... ومظلة رحمته منشورة فوق الجميع، إلى أن يقرّر البعض الخروج من تحتها بكفرهم، لذا يبقى وصفه تعالى بـالرحمن حتى عندما يرمي الكافرين في النار، لأنهم مجرمون ظالمون وبقرار ظالم منهم بعنادهم وإصرارهم خرجوا من تحت رحمته تعالى.

(خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ{37})
{خُلِقَ الْإِنسَانُ}، تم تركيب وتأليف الغالب الأعم من الناس، {مِنْ عَجَلٍ}، من الاستعجال، إذ إنَّ غالبية الناس تريد حصول الأمور بسرعة قبل وقتها، وهذا طبع إنساني عام، {سَأُرِيكُمْ آيَاتِي}، سأجعل عندكم صورة محدّدة للأمور المميزة من مستوى إلهي والمنسوبة له تعالى، {فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ}، لأنها ستحصل في وقتها المحدّد لها ولن تحصل قبل ذلك.

ضع في بالك دائما أن القرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموما ذكرا وأنثى، وأنهم يتناسلون... أو متعلق بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

هذه الآية تكملتها الآية التالية، ونتذكّر بداية السورة التي نقلت عن بعض الناس طلبهم لآية تثبت لهم تميّز الرسول محمّد(ع) عن البشر العاديين وإلا فهم لن يؤمنوا به ولا بدينه، فذكرت لهم ما دحض وهشّم معتقداتهم الشركية، وأردفتها بلفت انتباههم لأنفسهم وبيئتهم وما فوقهم كآيات ضخمة تدل عليه تعالى... والآن صار الكلام عن آية الآخرة حيث سيرجعون من الموت ليتحاسبوا، وهم الآن يريدون رؤيتها قبل أوانها، فيقول سبحانه لهم: لا تستعجلوا، سترون آياتي. ومن تكملة الكلام في الآية التالية ستعلم أنه تعالى سيريهم يوم القيامة من الموت، وهو ليس بعيدا عنهم، وبمجرّد أن يموتوا سيفتحون أعينهم وكأنهم ناموا لوقت قليل، وسيرون آياته تعالى في مشاهدتهم للآخرة.

بقي شيء، في هذه الدراسة اعتمدنا شبه ترادف كلمة خلق مع ركّب وألّف، وفي الحقيقة كلمة خلق أوسع من ذلك، فأنا الآن مركّب مؤلّف من المواد، وأنا في حالتي الحالية مخلوق كامل، ونفس الوصف بخلقي ينطبق على اللحظة التي اخترق فيها الحُيَيْمِن البويضة، حيث في حينها يصدق عليّ وصف: خلقني سبحانه. والآن يصدق عليّ وصف: خلقني سبحانه. ولكن في حينها لا يصدق عليّ وصف: ركّبني وألّفني سبحانه، لأني لم أكتمل بعد. وهكذا ترى الدقّة في معنى كلمة خلق، لذا ضعه في بالك لأني لم أجد عبارة موجزة تشرح ذلك لأضعها كشرح أمام كلمة خلق.

بقي شيء، هنا في الآية تفهم بكل وضوح أن الطبع الإنساني العام هو حبّ استعجالنا لحصول الأمور "التي نحبّها أو..."، وحين صمّمنا تعالى "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" كان من نتائج ذلك تضمّن حبّ الاستعجال فينا.

الآن سؤال، إن كان الاستعجال طبعاً من ضمن الخلقة الإنسانية كما تقول الآية، فلماذا لوم الإنسان المستعجل؟ ولماذا لومه في بقية ما ذكره القرآن عن صفات سيئة مرتبطة بخلقته؟ ولماذا لا يكون اللوم على من جعله هكذا؟ والجواب عن ذلك سيفيدنا كثيرا في فهم كلامه تعالى عموما، إذ أساسا نحن بسبب الرغبات والشهوات والهوى... نفعل السيئات، فهل

لا لوم علينا لأنها مزروعة في خلقتنا؟ واللوم عليه تعالى بجعلها فينا؟ طبعا اللوم علينا، لأن الرغبات والأحاسيس والشهوات والخيال... أمور رائعة منحها تعالى لنا، ومنحها لنا مع القدرة على استعمالها وتفعيلها بالخير والصلاح، والمشكلة هي في الاتجاه بها نحو الأمور السيئة.

من ناحيته سبحانه لم يفعل معنا إلا كل خير، فهو حميد، وكل أفعاله نحمده عليها لأنها كلها خير لنا، لذا اترك الفاسد من الموروث الثقافي الديني واترك الضبابية في النظرة لأمورك لأن هذا يتضمّن صراحة أو بشكل غير مباشر أنه تعالى فعل لنا ضررا وتعديا علينا، وانظر لو أن الناس جميعا أطاعوه تعالى، فلا أحد سيؤذي أحداً، والحكومات ستعمل على رفاهية شعوبها، وسيتدخّل سبحانه لنسعد بأقصى ما يمكننا الحصول عليه من سعادة الدنيا... وأمّا الحوادث والأمور السيئة فكلّها من قراراتنا السيئة نحن.

أي طبع إنساني فينا له اعتدال وله خروج عن المقبول نحو الضعف أو نحو الزيادة المفرطة، وبقرار منّا نتدرب على رفع أو خفض مستوى طبائعنا وشهواتنا وغرائزنا... ولا داعي لربط هذا الموضوع بدينه تعالى لتفهمه، لننسَ العقاب الإلهي على الأفعال السيئة، ولننظر للعقلانيين في مختلف المجتمعات إن كانوا يقبلون بتبريري لأفعالي السيئة لأني لم أستطع التحكّم بنفسي، حيث غضبت وقتلت، وأحببت القيادة بسرعة عالية فتجاوزت حدود السرعة المسموح بها... وأحببت حيازة شيء فسرقته... وهكذا مع بقية الأمور التي دوافعها إن كانت معتدلة فلن تسبب أي مشكلة لنا أو للآخرين، وبمجرد أن تصير ضعيفة أو قوية فعندها تبدأ المشاكل.

خذ مثلا رغبة الاقتران بالجنس الآخر، هذه رغبة رائعة منحها تعالى لنا، وتحقيقها ممكن ومتاح بكل سهولة للجميع، ولكن سوء تصرفات الناس مع أنفسهم ومع الآخرين، نتج عنه تشوهات في خلقة البعض "معاقين جسديا"... ونتج عنه نفور الناس من بعضها البعض بسبب الأفكار السيئة والأوهام والعقد الفكرية والنفسية... ولهذا لدينا الكثير من المشاكل الزوجية والعديد من حالات الطلاق... وما تفرضه بعض المجتمعات من عادات وتقاليد، كتكاليف الأعراس الباهظة المترفة... وتأخير سن الزواج... ولا ننسى المجرمين المعتدين على الآخرين والزناة... وهكذا تحوّلت منحة إلهية رائعة مزروعة فينا إلى كارثة بسبب سوء تعاملنا معها، ونفس الشيء بالنسبة لبقية الطبائع الإنسانية ومنها الاستعجال وحبّ المال وحب الصحّة وحب الولد...

الاستعجال طبع إنساني عامّ، لأن حياتنا قصيرة، ورغباتنا دافعة، ولذلك ترى المؤمن من الدرجة العالية يرغب بالآخرة فلا يخاف الموت، وفي نفس الوقت يعمل لدنياه عالما بأنها دار ممر، وفي نفس الوقت يسعد فيها بأقصى سعادة متاحة بعيدا عن السوء، ويعمل لآخرته، لذا فإنَّ استعجال المؤمن للآخرة ليس متطرفا، وما هو دارج في ثقافة بعض المنتمين لدينه تعالى عن حبّهم للموت، فهو لا يتماشى مع كلام القرآن الذي يؤكّد على ضرورة حبّنا للحياة مع تفضيل الحياة الآخرة إن استدعت الظروف القاهرة الدخول في قتال الأعداء...

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{38})
{وَيَقُولُونَ}، الكافرون: {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}؟ إن لم تكونوا تكذبون في كلامكم عن حصول يوم القيامة والحساب، فمتى سيحصل؟ هذا إن كنتم صادقين فنحن لا نعتقد بأنكم تقولون شيئا صحيحا، ولكن على كل حال متى هذا الموعد؟

هم يستعجلون بها بحسب طبعهم الإنساني ويريدون حصولها الآن ليؤمنوا بها، فالاستعجال من الطبيعة البشرية.

(لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ{39})
{لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا}، لو يعلم الذين أنكروا الرسول والرسالة والتوحيد ويوم القيامة والحساب، لو يعلمون، {حِينَ لَا يَكُفُّونَ}، لا يوقفون ولا يمنعون، {عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ}، لا من الأمام بما يواجهون به ولا من خلفهم، وحين {لَا يُنصَرُونَ}، فلا يحقّق لهم أي أحد ما يريدونه من خلاص من النار التي تحرقهم من كلّ الجوانب.

هم يسألون عن موعد حصول القيامة والحساب، ولكن لو يعلمون ما سيفعلونه هناك حين تلفحهم النار ولا يمكنهم الاحتماء منها ولا يوجد من يحميهم منها. وتكملة الجملة صارت واضحة: لو يعلمون هذا لما استعجلوا بها ولا سألوا عن موعدها باستهتار وتكذيب.

(بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ{40})

{بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً}، تباغتهم فتصير أمامهم فجأة من دون أن يتوقّعوها، ومن دون أي مقدّمات يتوقعونها سيأتي الموعد لمحاسبتهم ومجازاتهم، وأنت تعلم أنهم سيغلقون أعينهم هنا حين يموتون ويفتحونها مرّة ثانية ليروا أنفسهم بغتة "فجأة" في يوم القيامة، بلا شعور بمرور أي وقت طويل، {فَتَبْهَتُهُمْ}، حيث حصلت فعلا وهم لم يكونوا أساسا يتوقّعونها، مما حصل ما لا يطابق توقعاتهم، وانبهتوا أي اصطدموا بشيء لم يتوقعوا حدوثه أبدا.

{فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا}، لذا لا يمكنهم دفع الآخرة عنهم، ولا يمكنهم الهرب منها، ولا أن يقتلوا أنفسهم، ولا أي شيء ينجيهم من الحساب والعقاب، {وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ}، إذ لن يحصلوا على أي مهلة، حيث حان وقت الحساب، وسيحصل الآن بدون أي تأخير.

تعلم من سور أخرى كان تركيزها على مشاهد من بعد يوم القيامة وبالتحديد ركّزت على الاحتمالات "الخزعبلية" التي يخترعها الناس عن إمكانية طلبهم لفرصة ثانية يرجعون فيها إلى عالم كعالم الدنيا ليؤمنوا ويعملوا الصالحات... أو عن تركهم في الآخرة ليصوموا ويصلّوا ويفعلوا كل ما يأمر به سبحانه حتى ينجيهم من النار... فكلّها خزعبلات واختراعات وهمية لن تحصل، فلا إمهال "لا إنظار" بعد القيام من الموت، فلا فرصة ثانية.

(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون{41})
{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ}، انتقدهم بازدراء ودونية بَعْضُ الناس، اعتبروهم بلا قيمة واستهانوا بهم، {فَحَاقَ}، التفّ وأحاط، {بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ}، بالذين انتقدوا الرسل بازدراء ونظرة دونية لكلامهم، {مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، حيث استهزؤوا بالكلام عن العقاب الإلهي، فتعاملوا معه من خلفية الاستهانة والاستخفاف فاعتبروه كلاما غير عقلاني وبلا قيمة، وهو نفسه العذاب الذي استهزؤوا به أحاط والتفّ عليهم فلا مهرب لهم من النار.

في كل عصر هناك مستهزئون ساخرون من الرسل، ففي زمن النبي محمد(ع) استهزؤوا به وسخروا منه، وفيما بعدها... وإلى زمننا... حيث صارت السخرية من الرسل موثّقة بالصوت والصورة عبر أفلام مدفوعٍ عليها تكاليف مالية لإنتاجها!

ننتبه، حتى المسلمون الملتزمون دينيا نراهم يقعون في مشكلة الاستهزاء والسخرية من الرسل، عبر المزاح "الطرائف، النكات" التي "لا" يقصدون منها إهانة الرسل، فيذكرون الرسل فيها ويضحكون مازحين... ونبّه القرآن صراحة على أنه تعالى لا يسمح لنا بذكر اسمه ولا ملائكته (ع) ولا رسله (ع) ولا أنبيائه (ع) في أي نوع من المزاح، راجع كمثال الآية 65 من سورة التوبة {وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ}، هذا فضلا عن تنبيهه تعالى لنا بحرمة السخرية مطلقا من أي شخص كان كما ورد في الآية 11 من سورة الحجرات {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ}...

(قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ{42})
{قُلْ}، للكافرين بك كرسول وبالتوحيد والآخرة: {مَن يَكْلَؤُكُم}، من يصونكم ويحفظكم، {بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ}؟ ولم ترد كلمة "كلأ" إلا هنا في القرآن، وفي كلام العرب قديما تشير إلى عامّة ما يصونك ويحافظ على حياتك، وفي الاستعمال تشير للأكل كنموذج عن أبرز ما يصون حياتك، حيث يقولون "كلأ" للطعام، ولكنها عامّة المعنى لعامة ما يصون حياتك.

انتبه جيدا لهذا السؤال الذي جوابه فيه، وانظر إلى الآية من حيث إنّ القائل هو الله تعالى: أنا رحمان لدي صفة العناية بتأمين ما تحتاجه كل المخلوقات، حالة الكلأ هي حالة الحفاظ على حياتكم من الرحمان، فإن قرّر سبحانه أن يَتَوَقَّفَ عنكم ما يكلؤكم فمن سيكلؤكم ويُمضي قراره ويُنَفِّذُهُ مخالفا قراره تعالى؟

{بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم}، عن استحضار المسؤول عنهم من مستوى إلهي في فكرهم ونفسيتهم، {مُّعْرِضُونَ}، يعتبرونه بلا أهمية! يعتبرون "الذكر" الكلام حول الرحمان الذي جعلهم أحياء ويؤمّن لهم ما يحتاجونه في حياتهم، ويعتبرونه بلا أهمية، ويخترعون آلهة وهمية ويعطونها الأهميّة ينسبون لها إنزال المطر وإتاحة الرزق...

كما تعلم في عمق الرحمانية نجد أن: أصل وجودنا، واستمرار كياننا وبيئتنا، وتعلّق حياتنا بأجسادنا... من أدقّ التفاصيل التي نعرفها أو التي لا نعرفها إلى أكبرها... كلّها لولا رحمته الواسعة سبحانه لما حصلنا عليها، الآية تشير إلى كل ذلك، ولكنها تتحدّث مع مشرك، فعلينا هنا في دراسة السورة أن نفهمها مثلما يفهمها من تحدّثت معه، ببساطة من دون تعقيدات فكرية.

(أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ{43})
هؤلاء الذين سألناهم من يكلؤكم منّا:

{أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا}، هل لهم كائنات ذات صفات وقدرات فائقة تمنعه تعالى من إلحاق الضرر بهم، فتتدخّل وتفرض إرادتها عليه سبحانه، وتكلأ عبادها بينما سبحانه قرّر ألا يكلأهم.

{لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ}، في حال قرّر سبحانه إصابتهم بضرر فلا يستطيعون أن ينتصروا لأنفسهم، فلا يمكنهم مساعدة أنفسهم للتخلّص من ضررنا، {وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ}، فهم أمامنا وتحت تصرّفنا لن يصحبهم، ولن يأخذهم أحد ما معه "بصحبته" إلى مكان آخر لا سلطة له تعالى فيه.

طبعا كلام القرآن عن آلهة المشركين يفترض فيك أنت العقلانية لفهمه، حيث إنّ الآلهة الوهمية التي أصلا هي من خيالهم ولا وجود لها، فهذه ليست مقصودة بالكلام عنها هنا، والكلام ليس مع الآلهة الخيالية ولا مع أصنامها وتماثيلها وصورها... ولا عن الملائكة، ولا عن البشر المؤمنين كالنبي عيسى(ع) الذي عبده بعض الناس، بل عن القليل الباقي من الناس الكافرين والجنّ الكافرين الذين عبدهم بعض الناس.

بالنسبة لي ولك كموحدين، نفهم أن الشرك به تعالى تفاهة وكلام فارغ، ولكن هناك عددٌ كبيرٌ من الناس مشركون علنا به تعالى، وعندهم آلهة ولها أسماء وصفات، وأنت تعلم أن آلهتهم وهمية من خيالهم، والقليل منهم بحسب معلوماتنا عبد فعلا كائنات موجودة، حيث عبد ملاكا أو جنيا أو إنسانا، ومعلوم لنا أن الملائكة أصلا لن تحتك مع البشر إلا بأمر منه تعالى، فهي لم ولن تقولَ للناس أن يعبدوها، ومعلوم أن البشر المؤمنين من الدرجة العالية، كالنبي عيسى(ع)، والجن المؤمنين من الدرجة العالية، فهؤلاء لم ولن يقولوا للناس أن يعبدوهم. فمن بقي من آلهة المشركين ويمكن التعامل معه لمحاسبته ومجازاته؟ كما ترى من التاريخ بقي القليل النادر.

هكذا تضع في بالك دائما أن القرآن لم يتحدّث في كل آية عن كل آلهة كل المشركين بأنواعها المتنوّعة، وما تجده في غالبية التفاسير من تفسيرات لآيات أقحموا فيها الأصنام أو الملائكة أو النبي عيسى(ع)... كآلهة عبدها الناس، فهذا خطأ، لأن أكثر الآيات افترضت بك كمؤمن العقلانية، وافترضت في المشركين ولو بذرة عقلانية كافية ليفهموا الكلام، لأن الآلهة الوهمية التي لا كيان حقيقياً لها لكائن حيّ، ولها تمثال أو صنم يمثلها، فهذه آلهة خيالية لا معنى للكلام معها أو عنها، فهي ليست واعية ولا تفعل ولا تنفعل، كحالة اللات ومناة والعزّى التي ورد الكلام عنها في سورة النجم وحطّمت ألوهيتها الآية 23 من سورة النجم {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ}، وهكذا تبقى التي اعتبروها آلهة والتي لها كيان حي، وأكثر كلام القرآن عن آلهتهم يشير لهذا، وكمثال واضح عن ذلك ما ورد في الآية 28 من سورة يونس {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ}.

النتيجة أن الحالة التي يمكن الكلام فيها بشيء ما من العقلانية مع المشركين، هي حالة نادرة، فلا معنى للكلام عن آلهة اخترعوها من خيالهم وليس لها كيان أصلا، ولا معنى للكلام التهديدي لكائنات مؤمنة لا علاقة لها بالذي ألّهها وعبدها، والقليل جدا من كلام القرآن تناول هاتين الحالتين، ويبقى الكلام عن آلهة لها كيان ولها علاقة ما بعبادة الناس لها، وهذه حالة نادرة، ولكنها الحالة الوحيدة التي يمكن الحديث عنها، والكثير من آيات القرآن تحدّثت عن هذه الحالة النادرة، لأن الحالات الأخرى ماذا ستقول عنها؟

(بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ{44})
إذاً مع كل هذه الأمور الواضحة جدا عن وهمية ألوهية آلهة المشركين، لماذا يعبدونها؟ السبب: {بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ}، زوّدناهم هنا في الدنيا بما يتمتعون به، بمتاع يستفيدون منه لضروريات الحياة الأساسية والثانوية، أتحنا لهم الحيوانات الأليفة لأكلها واستخدامها... والنباتات والأملاك ووسائل إشباع الرغبات... {حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ}، إلى أن امتدّت عليهم المدّة التي عاشوها، عاشوا فيما أعطاهم سبحانه حتى صارت أمورا عادية اعتادوا على وجودها وحصولهم عليها، وصارت روتينية، ولم يعودوا يفكّرون بها من أين أتت، ومن منحها لهم، لأنها متوفّرة بين أيديهم، لذلك لم يعودوا يهتمون بمن منحهم المتاع، واخترعوا آلهة وهمية يشكرونها على ما أعطاهم الله سبحانه وتعالى!

{أَفَلَا يَرَوْنَ}، ألم تَحْصُلْ عندهم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شافوا. {أَنَّا}، نحن الإله الحقيقي الأحد، {نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا}؟ الناس تعيش على الأرض، ولكنه سبحانه يجعلها تنقص من السكان، مرة من هذا الطرف من أطراف الأرض يموت شخص أو أشخاص، ومرة من ذلك الطرف، ومرة من طرف آخر... {أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ}؟ كل هذه الناس التي تموت هنا وهناك، ألم ينتبهوا أنها لا يمكنها أن تفعل أي شيء أمام القدرة الإلهية التي حكمت عليهم بالموت، {أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ}؟ هل قرارهم هم تميل إليه الكفّة ويُنَفَّذُ بدلا مما قرّره تعالى؟

المتاع الذي أنتم فيه مِنَ الواضح أنكم لن تستمرّوا فيه، في النهاية ستموتون، إذا كنتم معتادين على ما تتصرّفون به من حولكم لتستفيدوا منه لتعيشوا ولتسعدوا، واعتبرتموه تحصيل حاصل، وموجود هكذا، فلماذا لا تبقون فيه؟ ولماذا تَفْقِدُونَهُ؟ بأقل نظرة لما حولكم في أطراف الأرض سترون أنه ولا واحد من الناس بقي حيا يتمتّع بما في الدنيا، أنتم أيضا سننقصكم من الأرض، عامةً أنتم تريدون البقاء متمتعين في الدنيا فهل يمكنكم أن تغلبوا قرار الموت الذي حكم به تعالى عليكم؟ طبعا لا، فلماذا تتصرفون وكأنكم مخلّدون في هذا المتاع؟! وتخترعون آلهة وهمية، وتتركون توحيد من يهددكم بعذاب بعد الموت!

دائماً تذكّر أن كلام القرآن عن نماذج، هناك كفّار مشركون فقراء ومقهورون يعيشون حياة تعيسة، وبعض الكفّار ينتحرون كارهين لحياتهم... هؤلاء ليسوا نموذجا صالحا للكلام عن تعلّقهم بالدنيا، الآيات العديدة المشابهة لآيتنا هنا، كالآية 116 من سورة آل عمران {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، تتكلم عن نماذج، معلومٌ أنه ليس كل الكفّار أغنياء وليس كلهم عندهم أولاد، هناك الكثير من الأمور التي لا يمكن الكلام عنها بالتعميم الشامل للجميع، وافترض بك القرآن العقلانية لتعلم ذلك، وكثيرا ما استعمل كلمة إنسان ليشير بها إلى الغالب الأعم وليس للجميع، وبالتحليل يمكنك الكلام عن الحالات الأخرى غير النموذجية، هنا مثلا لو قابلت مشركا فقيرا مقهورا معذبا... وبدون أي سبب وجيه لتعلّقه بالدنيا، فهذا بكفره حارمٌ نفسه مما وعد به تعالى من جنة خالدة، هذا غبي لدرجة تخطّي توجيه الكلام معه أو عنه، وغباؤه ليس عذرا له على أساس أنه تعالى خلقه غبيا، لا، حتى الأطفال وقبل تمكنهم من المشي والنطق تلمس تمييزهم بين الخير والشرّ، هذا الغبي يميّز بين الحقّ والباطل في الأمور التي عادة يتعامل معها، الكلام ليس عن محاورته في فلسفة العقائد والتشريعات وبنية الحكومة جمهوريةً أو برلمانيةً... بل عن أفعاله العادية هو بتعاطيه مع نفسه ومن حوله.

(قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاء إِذَا مَا يُنذَرُونَ{45})
{قُلْ}، لهؤلاء الذين يتمتعون بما في الدنيا ولا ينتبهون لآخرتهم:

{إِنَّمَا}، حصرا وفقط، {أُنْذِرُكُمْ}، أنقل لكم الخبر السَّيِّئ عن شيء سَيِّئ سيحصل معكم بالتأكيد بسبب توافر شروط حصوله فيكم، {بِالْوَحْيِ}، بما وصلني منه تعالى بلا كلام مباشر مسموع بالأذن، ولمزيد من المعلومات حول كلمة

"وحي" راجع دراسة الآية 25 من هذه السورة، لِأَنَّنِي أنقل الإنذار لكم منه تعالى، وَلَسْتُ أخترع الإنذار من رأسي، بل هو صادر من الإله سبحانه.

{وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ}، الطرش، {الدُّعَاءَ}، الإشهار والإعلان، القول المُوَجَّه إليهم، {إِذَا مَا يُنْذَرُونَ}، إذا نقلت لهم الخبر عن شيء سَيِّئ قادم بالتأكيد بسبب توافر شروط حصوله لهم، حَيْثُ تقول للأطرش: انتبه أمامك ستقع في الهاوية بالتأكيد إِذَا استمريت بالمشي على هذا الطريق. وَلَنْ يستمع لإنذارك لأنه أصلا لم يسمع كلامك. وهؤلاء إن لم يردّوا على الإنذار فمثلهم مثل الأطرش، وكأنك لم تتكلّم معهم.

قاربها مع توجيهاتك لأولادك، لتلاميذك، لِعُمَّالِكَ، لأقاربك... حَيْثُ تُنْذِرُهُمْ من شيء خطره أو ضرره واضح جدا لديك، ومنطقي ومعلوم بين العقلاء، وسيحصل حتما بسبب توافر شروط حصوله، ولكنهم لا يَرُدُّونَ على كلامك! ويفعلون ما في رأسهم! فمثلهم مثل لو أَنَّكَ تَكَلَّمْتَ مع أطرش لم يسمع ما قلت، والناس يستعملون لهذه الحالة تعبير: كأنك تتكلّم مع الحائط.

ننتبه جَيِّداً، أَحْيَاناً نحن نخترع أشياء لم يقلها القرآن، ونقولها للناس حتى نجعلهم يُؤْمِنُونَ، وَلَاحِظِ الآية هنا ماذا تقول، حَتَّى الرسول لا يَحِقُّ له اخْتِرَاعُ أي شيء من رأسه وينسبه لدينه تعالى ليجعل الناس يُؤْمِنُونَ، لِأَنَّ الإنذار بالعذاب ليس من اختراعه، بل وحي نزل عليه من الله تعالى، وقام بنقله إلى الناس كما هو، بلا زيادة ولا نقصان. أقول لك هذا الكلام لأننا في تراثنا الثقافي الديني الكثير من الاختراعات وفي مختلف المواضيع، وخذ منها مثلا تخويف الآخرين بثعبان ضخم في جَهَنَّمَ، وهذا شيء لم يذكره القرآن ولم يشر إليه ولا يمكن ولا بأي شكل استخراجه من القرآن... ومع ذلك فالبعض لا يهمّهم إن كان هذا الكلام صادقا أو كاذبا ويَهُمُّهُمْ أَنَّهُ شيء مفيد لجعل الآخرين يُؤْمِنُونَ لأنهم يخافون الثعابين والعناكب...

لا تَنْسَ أن الكلام في السورة لا يزال مع المشركين الطالبين لآية يتميّز بها الرسول محمّد (ع) حتى يُصَدِّقُوا بأن الإله يتواصل معه... ويتعاملون معه (ع) على أساس أن كلامه صادر عنه شخصيا ولا قيمة له ولن يؤمنوا حتى يروا آية، لِذَلِكَ يَأْمُرُهُ تعالى عبر الجملة هنا أن يخبرهم بوضوح أنه ينذرهم بالوحي، بما وصله منه تعالى، لِأَنَّ التهديد على شركهم صادر من الإله سبحانه.

ضع في بالك دائما الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى مَعَانِيَ قرآنية رائعة، تَصَوَّرْ شخصا أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، هُنَا تحذّره من سلوك الطريق السَّيِّئ، فهو حاليا ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ}...، والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}...

أمّا إذا سلك طريق الخطر، فتنذره، لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. لِأَنَّ الإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتما ما يضرّه، وتُنْذِرُ الكافر حيث هو في حالة ستسبّب له العقاب حتما، وَوَرَدَ هذا كثيرا في القرآن. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يتلبّس بما سيسبّب له الضرر، حَيْثُ تُحَذِّرُ المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

وهذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، إِذْ يقوم المؤمن بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، وتُنْذِرُهُ من العقاب الحتمي عليه كحالة المسيحيين المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}، وعموم المؤمنين المشمولين بالتهديد من فكرة فعل السيئات على أساس أن يحمل أحد ما السيئات عنهم {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}، والمشمولين بالتهديد إن لم يتغيّروا نحو الأحسن موعودون بالمغفرة كما ورد في الآية {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}، ونفس المفهوم في الآية 45 من سورة النازعات {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا}.

(وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ{46})
{وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ}، وإذا شعروا وتحسسوا، {نَفْحَةٌ}، شيء قليل، {مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ}، من ضرر يصيبهم من المسؤول عنك من مستوى إلهي، والكلام يصدق على بداية تعذيبهم أول قيامتهم من الموت وقبل دخولهم إلى العذاب الشديد في النار، ويصدق على حالات الكوارث التي تصيب الكافرين هنا في الدنيا، حَيْثُ لَدَيْنَا العديد من الآيات التي يبدو من سياقها عمومية كلامها دَامِجَةً عَذَابَيِ الدنيا والآخرة بلا فرق، لِأَنَّ كِلَيْهِمَا عذاب.

{لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا}، يا للمصيبة العظيمة التي حلّت علينا، {إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ}، لَمْ يكن معنا حقّ حين كفرنا وَبِسَبَبِهِ أصابنا العذاب.

كلمة {نَفْحَةٌ} أو مشتقاتها لم ترد إلا هنا في القرآن.

تريك الآية مشهدا عن اعترافهم بالحقّ لمجرد نفحة من العذاب أصابتهم بسبب ظلمهم، حَيْثُ لَمْ يَبْدَأِ العذاب الحقيقي في جَهَنَّمَ بعد، ومن نفحة عذاب في الدنيا أو في يوم القيامة وما بعده وقبل دخولهم النار اعترفوا لأنفسهم بظلمهم.

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ{47})
{وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ}، التي سَنَزِنُ بها أعمال الناس وَنُحَدِّدُ قيمتها، {الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ}، بما لهم بالضبط، بالحصّة العادلة بدقّة وَلَا تزيد ولا تنقص، {لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ}، لزمن القيام من الموت، وَهُنَاكَ سنضع الموازين الدقيقة لنحاسب.

كما تعلم، كل قول أو عمل أو نيّة تصدر منّا هنا في الدنيا، له قيمة في الآخرة، حَيْثُ هُنَاكَ قيمة سيّئة للأعمال السيئة وقيمة حسنة للأعمال الحسنة، والموازين في يوم القيامة تزن القيمة لأعمالنا، وَلَا تتصوّرها تزن بالكيلو، أو ككفتي ميزان، لا، بل هناك كتاب إلهي تَحَدَّدَتْ فيه قيمة كل عمل، وَمَنْ تصدّق فله قصور بعدد كذا وجنّة مساحتها كذا... ومن قتل بريئا فسيخلد في جهنّم في أقصى درجات التعذيب... وَنَقِفُ ومعنا كتاب مسجّل فيه كل أعمالنا وأقوالنا ونيّاتنا، وكل شيء من ذلك لَهُ قيمة محدّدة، وهذا معنى وضع الموازين القسط، وَيَصِيرُ لكل شيء قيمته بالضبط، ويبدأ الحساب على ميزان قيمة كل عمل، وَهَذَا العمل السَّيِّئُ يساويه ذاك العمل الجيد، وَيُلْغِيَانِ بعضهما من الحساب... لن أطيل عليك هنا في هذه التفاصيل لِأَنَّ التركيز فقط على العدل الإلهي وسيطرته تعالى المطلقة على مُحَاسَبَتِنَا في الآخرة.

{فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا}، وَلَا أحد يعاملها إلّا بالإنصاف والعدل، وَيَأْخُذُ كل واحد ما له بالضبط، {وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ}، حتى لو كان شيئا له وزن أو قيمة أو شكل، يساوي، {حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ}، والخردل نبات له بذور صغيرة جدا جدا، أصغر من حبّة الرمل، "وحاليا يدرج استعمال معجون منه في الطعام"، وَلَوْ قمت بعمل جيّد أو سيء، ويساوي في قيمته قيمة حبّة الخردل الصغيرة جدا جدا، {أَتَيْنَا بِهَا}، أحضر تعالى لك هذا العمل لتتحاسب عليه مهما كان صغيرا تافها.

{وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}، حَيْثُ نَحْنُ نكفي لوحدنا حتى نحاسب على الأعمال، من نَاحِيَتَيْنِ: وَلَا نحتاج لمساعدة أحد لنحاسبكم بدقّة، وأصلا نحن الإله بصفاتنا الإلهية العالية نكفي لنحاسب بدقّة. يعني، سبحانه اعتنى بدقّة أن يكون الحساب دقيقا، وبالنظر إلى هذا الاهتمام والدقّة والقدرة على تنفيذ هذه الدقّة في الحساب، فَسُبْحَانَهُ كَافٍ لمحاسبتكم بدقّة متناهية بلا أي ظلم ولو لمقدار تفاهة قيمة حبّة خردل، وَلَا شيء تافه لرميه، فإن كان لك أخذته وإن كان عليك فستنال العقاب على مقداره.

نلاحظ أن كلمة "حبّة" نستعملها الآن تقريبا كمرادف لكلمة "واحدة"، وَنَقُولُ "بتساهل": ناوليني حبتين من ذاك. وَنُشِيرُ بِهَا للسجّاد أو الغسّالات... كبضاعة. ولكن معناها الأساسي ليس واسعا لهذه الدرجة لِأَنَّهَا لخصوص ما كان صغيرا منفردا، كحبّة لؤلؤ وحبّة رمان... ومن سياق الكلام يتخصّص معناها إذا كانت تشير لحبوب النبات، وبالخصوص للكيان النباتي شبه الكروي الذي يتم أكله كما هو بلا غلاف عليه، كالقمح والشعير والفول...

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ{48})
تذكّر في بدايات السورة حينما أشارت لانتساب الرسول محمد(ع) إلى سلسلة طويلة من الرسل ضاربةٍ في عمق التاريخ لآلاف من السنين، وصولاً إلى أوّل بشري تأهّل ليتكلّف، وكلُّهم يحملون نفس الرسالة من نفس الإله سبحانه،

هنا عادت الآيات لهذه النقطة بذكرها لنماذج من المؤمنين الممثلين لخط دينه تعالى، ولترى أنهم كانوا بشراً عاديين، وبالتالي لا معنى لما طلبه الكفّار من النبي محمّد(ع) أن يأتيهم بآية تُثبت أنه تميّز عن البشر حتى يؤمنوا بأن الإله تواصل معه...:

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ}، صار معهما منّا شيءٌ يفرّق بين شيئين، كتابٌ يفرّق بين الحق والباطل، ومعلوم أنها التوراة التي تجعل الفرق واضحاً بين الحق والباطل، ففيها العقيدة الصحيحة، والتوراة، {ضِيَاءً}، يكشف الأشياء لتصير مرئيةً، والكلام عن الإضاءة على العقيدة والشريعة الحقّ لتصير واضحةً.

ذلك الفرقان، {ذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ}، يجعل الذين يتجنبون ويتحاشون، والكلام عن المتجنبين للباطل والسوء وهو نفسه تجنُّبُ غضبِ وعقابِ ربّهم فيستحضرون كلامه تعالى في فكرهم ومشاعرهم.

ما يُنزله سبحانه على الرسل له وجهان أساسيان، وهنا السورة توجّهت بالكلام مع من ترك توحيد الله تعالى واخترع آلهة أخرى وعبدها رافضاً الإيمان بالرسول الإلهي وكافراً بالعقاب في الآخرة، وتصحيح هذا الاعتقاد وجه من وجوه ما يُنزل على الرسل، والوجه الآخر هو التوجّه بالكلام مع المحترمين، مع المتقين، فهؤلاء يكون ما يُنزل على الرسل: فرقاناً وضياءً وذكرى لهم. وهذه القيمة لما ينقله الرسل يعرفها المتقون.

تذكّر دائماً المفهوم القرآنيَّ الذي يشير إلى وجود أناسٍ موصوفين بالتقى ويأتيهم كتاب منه تعالى، حيث عادةً ينصرف ذهننا إلى كون الناس لا يكونون مؤمنين ويأتيهم كتاب ليؤمنوا، ولكن هذا بالأساس ليس صحيحاً، فسبحانه يصنّف الناس بحسب سلامة قلوبهم، بحسب تفكيرهم ونفسيتهم، فالبعض منهم سيتماشى قلبه السليم مع ما يُنزل منه تعالى، فهو بالأصل مؤمنٌ، متقٍ، كارهٌ للأمور السيئة... فيتماشى مع ما وصله من كلامه تعالى، ولذلك ترى الأنبياء فوراً يؤمنون بأن وحياً إلهياً يصلهم لأنه يتماشى مع سلامة قلبهم. وآخرون بقلوب بين بين، ويزيدهم كلامه تعالى هدىً أو ينفرون من نهي إلهي لشيء سيئٍ يحبونه ويرغبون به... وآخرون قلوبهم غلفٌ فلن يتماشوا أبداً مع كلامه تعالى، إلّا اللهم نفاقاً وفسقاً... ولمزيد من التوسّع حول هذه النقطة راجع دراسة الآية 2 من سورة البقرة {ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}.

(الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ{49})
{الْمُتَّقُونَ}: {الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ}، لديهم شعور بوجود خطر من عقاب المسؤول عنهم من مستوى إلهي ويمكن تجنّب هذا الخطر "عبر طاعته تعالى"، {بِالْغَيْبِ}، فيخشونه وهو تعالى غائب عن حواسّهم والآخرة غائبة عنهم أيضاً، فلا يرونه تعالى ولم يروا الآخرة بأعينهم، ولا يلمسونه تعالى بأيديهم أو حواسهم ولم يلمسوا الآخرة... وهم، المتقون، {مِّنَ السَّاعَةِ}، من الزمن المحدّد من يوم، وغالباً يشير القرآن بالساعة إلى ساعة رجوعهم من الموت في يوم القيامة، هم، {مُشْفِقُونَ}، يشعرون "الآن في الدنيا" بمعايشة ما سيصيبهم من عذاب في الآخرة إن عصوه تعالى، فيتصورون أنفسهم يتعرضون للعذاب.

تتذكّر أن يوم القيامة هو زمن محدّد من بداية إعادة الخلق في الآخرة، ويليه أيام من الحساب إلى حين دخول آخر واحد إلى الجنّة والنار، وفي تلك الأيام ساعات، وفي أول ساعة من أوّل يوم سيحصل قيامنا من الموت، وبعدها حشرنا زمراً... وبعدها الحساب الجماعي... وصولاً إلى آخر يوم وآخر ساعة حيث يدخل المؤمنون إلى الجنّة والآخرون إلى النار، ومن سياق الكلام تفهم ما يقصده القرآن بكلمة "ساعة" فغالباً يشير بها إلى أوّل ساعة، إلى ساعة رجوعنا إلى الحياة من الموت، وأحياناً نادرةً يشير بها إلى عموم ساعات محاسبتنا أو آخر ساعة حين يدخل المؤمنون إلى الجنّة والآخرون إلى النار وهذا ما جاء في الآية 46 من سورة غافر {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}.

أنت تعلم أن كلمة يوم تشير إلى زمن يقع فيه حدث رئيسي ويتخلله ساعات تحدث فيها أحداث فرعية، فليست كلمة يوم مخصصة للنهار والليل، ولا للأربع وعشرين ساعة، وترى ذلك بوضوح عندما تتذكّر أن كلمة ساعة لم تكن قديماً تشير إلى الستين دقيقة، فكانت أوسع أو أقصر زمناً من ذلك تبعاً للزمن الذي استغرقه الحدث، وبناء عليه فالعرب قديماً وغيرهم من أهل اللغات الأخرى استعملوا كلمة يوم لتشير لعموم أي فترة زمنية وقع فيها حدث أساسي واحد، كيوم

الحرب، يوم الويلات، يوم الأفراح، يوم النصر... يوم من أيام خلق الدنيا... فهذه تعابير لا تشير لليل ونهار وقع في الحدث، بل لأيام من ليالٍ ونهارات، وهكذا فهمنا أن ستة أيام لخلق ما في الدنيا هي ست مراحل، تكون متساوية زمناً فيما بينها أو متفاوتة، وتكون بالسنين أو مليارات السنين... فهي مرحلة زمنية.

نلاحظ العديد من تعابير القرآن عن المؤمنين هنا في الدنيا أنهم مشفقون من الآخرة، وكمثال عن ذلك الآية 18 من سورة الشورى {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ...}، وفي الآخرة بالعكس فمعلوم أنهم مطمئنون، والمجرمون هنا في الدنيا ليسوا مشفقين من العذاب أمّا هناك في الآخرة فسيكونون مشفقين من العذاب على سيئاتهم، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 22 من سورة الشورى {تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}.

(وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ{50})
من قبل نزلت التوراة وحالياً:

{وَهَذَا}، القرآن، {ذِكْرٌ}، شيء يجعلكم تستحضرون أموراً في فكركم ومشاعركم، {مُّبَارَكٌ}، مَرضيٌّ عنه لأنه ليس فيه باطل أو شرّ، وهذا الذكر المبارك، {أَنزَلْنَاهُ}، أنزله تعالى على رسوله، {أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ}؟! فتعلنون رفضكم له واستغرابكم له وتكفرون به وقد أنزله إلهكم؟! والمنكر من مقابلته مع "عرف معرفة" يعطي معنى حصول صورة أو مفهوم ونفي تطابقه مع ما لديك، فهو عموم ما ليس معروفاً على الوجه المطروح، كرفض لتصنيفه. والكلام هنا عن رفضهم تصنيف هذا الذكر بأنه إلهي.

من ناحيتين: الأولى أنّ الذكر مبارك، فعندما تسمعونه ستسمعون كلاماً جيداً حسناً، كلاماً كلّه حقّ وصلاح، ومن ناحية ثانية إلهكم سبحانه أنزله، فكيف تنكرونه فترفضون الاعتقاد بكلامه تعالى؟

فرضاً لو كان في القرآن كلام باطل سيئ، لكان معكم عذر لإنكاره، ولكنه وبكل وضوح يقول الحقّ فيصحّح لكم عقيدتكم مع الأدلّة، ويقول لكم تشريعات وسلوكيات صالحة، فكيف وبأي معنى تنكرونه فترفضون الاعتراف بأنه نازل من عند الإله سبحانه؟!

كما ترى، وصف ما نزل بأنه مبارك يشير لعموم ما فيه من عقيدة وتشريع وسلوكيات، فهو يأمر بالتوحيد وبرّ الوالدين والصدقة... ويحرّم الكذب والغش والسرقة والزنا... وكثيراً ما ركّز القرآن على هذا لمقارنته مع أي دين آخر ليسأل الكافرين به عن سبب هذا الكفر بأمور مباركة حقّ وصالحة...

نلاحظ السورة في الآية هنا وفي الآيتين السابقتين مالت إلى توضيح امتداد الكتب الإلهية عبر التاريخ، من التوراة إلى القرآن، والآن ستنتقل بنا إلى زمن طويل قبل نزول التوراة، إلى نموذج بارز من البشر:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ{51})
{وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ}، أعطيناه التفكير والتصرّف بشكل سليم صحيح من قبل هذا الرسول محمد(ع) ومن قبل الرسولين موسى(ع) وهارون(ع)، {وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ}، فلدينا علم بما حصل وسيحصل معه، يعني كنا نتابع ما يحصل معه، ولذلك فكل ما سنقوله عنه سيكون صحيحاً دقيقاً.

التعبير بـ{آتَيْنَاهُ رُشْدَهُ} لا يقصد تمييزه(ع) عن بقية الناس واختياره عشوائياً أو بدون سبب أو مزاجياً... ليبرمجه تعالى ليصير رشيداً، لا، فنسبة أي شيء يحصل معنا له تعالى تعني أنه سبحانه هو الذي صمّم وخلق حتى تسير الأمور بهذا الشكل، فهو تعالى رزقني الطعام، علماً أنّي أنا حرثت وزرعت وحصدت... ولكن حين تنظر لكل الأمور من الصفر، من لا شيء، وكنموذج عنه ترى أنه تعالى صمّمني أجوع فأحتاج للطعام، وجعلني قادراً على تحصيله من بيئتي، فهو تعالى رزقني، وأماتني وأحياني وشفاني... وهداني وأضلّني... وأرشدني... فبما جعله تعالى فينا من قابلية فكرية ونفسية للتعرّف عليه من أفعاله في خلقه لنا وخلق ما حولنا، فهو تعالى هدانا.

السورة دخلت على نموذج من الناس اعتقد بوحدانية الله تعالى بقلبه السليم، بفكره ونفسيته السليمة، لترينا نموذجاً راقياً عن إنسان وصل إلى التوحيد بسهولة من آياته تعالى.

أنت وأنا نعلم بأن إبراهيم(ع) نبي، وربما تقول: من الطبيعي أن يكون "النبي" إبراهيم(ع) موحّداً لله تعالى، فلم يشرك به تعالى لأنه نبي، ولأنه تعالى أوحى له أنه لا إله إلا هو... فانتبه وتذكّر دائماً ما قاله القرآن عن الوحي أنه مجرد معلومات تصل منه تعالى إلى وعي بعض الناس، ولا تختلف عن وصول نفس تلك المعلومات عبر الأذن، فمحمّد ابن عبد الله(ع) لو لم ينزل عليه الوحي، ونزل على شخص آخر، وذاك الشخص الآخر كان في سيرة حياته العادية أميناً صادقاً... لكان محمّد ابن عبد الله أوّل المؤمنين به وبنفس قوّة إيمانه التي وصل إليها عندما نزل عليه الوحي.

بعبارة كررناها مراراً في هذه الدراسة لأن القرآن ذكرها مراراً بشكل لا يبدو واضحاً لنا لأننا غارقون في معلومات مسبقة تحكم فهمنا للقرآن، فنحن نقدّس الأنبياء وننسى أنهم مثلنا مثلهم بلا أي فرق، وننسى أنه تعالى اختارهم لطهارتهم... فلو نزل الوحي بالقرآن على أبي جهل، فهل تتوقّع أن يؤمن أبو جهل؟ لا، بل سيجنّ جنون أبي جهل بسبب المعلومات التي ترد على باله وهو يرفضها ولا يريد أن يسمعها، وسيبحث عن أي طريقة لِتَوَقُّفِ وصول هذه المعلومات إلى وعيه...

أطلت عليك راجياً أن يعلق هذا المفهوم القرآني الأساسي البسيط في بالك، ففي دراستنا هذه ومن باب الأدب ألصقنا وصف النبي مع السلام عليه بأسماء أنبيائه تعالى، ولكن هذا يجعلنا لا ننتبه أن "إبراهيم" وقبل نزول الوحي عليه كان قلبه سليماً، فلم يشرك، ولم يكذب... ويبدو من القرآن أنه (ع) لم ينزل عليه وحي منذ طفولته إلى حين غادر المدينة التي حاولت إحراقه... وفرضاً لم يكن الاستنتاج صحيحاً فكان (ع) نبياً قبل محاولة إحراقه، فهو سيتماشى بسهولة مع الوحي الذي نزل عليه منه تعالى لأنه متوافق مع فكره ونفسيته. في مقابل ذلك، أبو جهل كنموذج مشهور، فلن يتماشى مع الوحي لو نزل عليه، لأنه في حياته مطبوع على الكذب والخيانة والخداع وأكل حقوق الآخرين وظلمهم... وسيجنّ جنونه ويقلب الدنيا بحثاً عن حلّ لِيَتَوَقَّفَ نزول الوحي عليه.

سورتنا هذه من أبرز السور التي تبيّن أن الأشخاص المؤمنين الذين ستذكرهم، هم بالأصل موحّدون من قبل نزول الوحي عليهم، فلم يطلبوا آية ليؤمنوا، وهم نماذج ممتدة عبر آلاف من تاريخ البشرية، وهم أبرز وأرقى النماذج، ويوجد غيرهم الكثير... فالسورة تطرحهم أمام من يريد آية يتميّز بها الرسول محمّد عن البشر ليؤمن بدينه تعالى، فها هم الرسل والأنبياء لم يطلبوا آية ليؤمنوا لأن آية خلق ما في الدنيا أكثر من كافية ليؤمنوا، ولذلك تلاحظ أن السورة لم تصف ولا واحداً منهم بأنه نبي، وستضيف إليهم نموذجاً نسائياً مميزاً جداً وهي السيدة مريم(ع)، حتى يقوم الكافر الطالب لآية ليؤمن بمقارنة نفسه مع هؤلاء البشر العاديين الذين آمنوا بسبب سلامة قلبهم.

الخلاصة أن الأنبياء يتماشون مع ما ينزل عليهم منه تعالى لأنه متوافق مع فكرهم ونفسيتهم، فهم لا يتغيّرون بسبب الوحي ليصيروا موحّدين، ولا يتغيّرون بسببه ليصيروا صادقين أمينين خلوقين... في حياتهم، وهذه حالة بقية المؤمنين كل بحسب درجة صفاء قلبه.

سيأتيك في دراسة الآية 56 كلام عن وصول أي واحد منّا إلى التعرّف عليه تعالى وتوحيده من دون نزول وحي عليه.

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ{52})
{إِذْ قَالَ}، "النبي" إبراهيم(ع)، {لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ}، قال للناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع مسألة الدين وأبوه من جمعتهم:

{مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ}، ما هذه المنحوتات والمصبوبات والتشكيلات التي هي تمثيل كتشبيه وتمثّل شيئاً ما، وهو (ع) كان يعلم بأنهم يقولون بأنها تماثيل لآلهة ما، ويعتبرونها تمثيلاً لآلهة ما، ولكن سألهم عنها كمراقب يراهم يفعلون شيئاً أمام التماثيل، {الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ}، فأنتم ملازمون على عبادة وتبخير وتقديم النذور... لتلك التماثيل!

ننتبه، من بعض الروايات صار لدينا فهم لهذا السؤال على أنه استفهاميٌّ، على أساس أن "إبراهيم" كان يعيش بمعزلٍ عن قومه، في مغارة أو كهف... وأن هذه أوّل مرّة يراهم (ع) فيها يعبدون الأصنام، وأنه يستفهم لماذا يعبدون

التماثيل... وهذه التفاسير تعتمد على عموم صياغات القرآن لما جرى معه(ع) التي توحي بأنه (ع) لأوّل مرّة يرى مشركين عابدين للأصنام والكواكب... وهذا يرجع إلى قوّة العبارة التي طرحها القرآن مصوّراً ما حدث من الصفر قبل أي نقاش سابق، لم يقصد القرآن أنه (ع) كان منعزلاً في طفولته عن الناس وبعدها تفاجأ بشركهم، لا، بل انتقل بنا إلى حيث اقتحم الشابّ إبراهيم مجتمعه معارضاً لشركهم، وبكل بساطة يظهر أن أسئلته (ع) كانت تعجبيّة استنكاريّةً، فبأي منطق يعبد الناس تمثالاً مصنوعاً من الحجارة أو الخشب؟ وسترى من الآية التالية أن سؤاله كان تعجبياً وليس نابعاً عن مفاجأته بما يراه.

تصوّر حالته كحالة معارض سياسي، عندما تروي تاريخه لي، ستخبرني عن أول موقف سياسي له، ولنقل إنه طرحه أمام أبيه حين كان في عمره العشرين، فهل ستفترض أنه قبل ذلك كان في مغارة ولم يتعاطَ السياسة؟ لمجرد أنك قفزت عن نقاشاته السابقة مع أبيه وأخبرتني عن أبرز حادثة حصل على أثرها خلاف حادّ بينهما، فهل هذا من المفروض أن يدفعني لأعتقد بأن الولد كان يعيش في مغارة وفجأة خرج منها وشاهد أوضاع المجتمع، وكوّن رأياً سياسياً وطرحه؟!
هذا ما جاء في بعض المرويات التي لم تستطع التماشي مع قوّة العبارات القرآنية التي صوّرت خبر النقاش مع أبيه بالقوّة التي على أثرها حصل تنافر بينهما...

هناك خلاف في الروايات والتفاسير حول هذا الشخص الذي يناديه النبي إبراهيم(ع) في القرآن: أبي. بعضهم قالوا: هو أبوه الحقيقي "والده الذي أولده". وآخرون قالوا: لم يكن والده بل عمّه، ورباه منذ طفولته، واعتاد النبي إبراهيم(ع) أن يسميه أبي.

ورد في التوراة أن اسم والد النبي إبراهيم(ع): تارخ. بينما الشخص الذي يتحدث عنه القرآن اسمه: آزر. وورد ذلك في الآية 74 من سورة الأنعام {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ...}، ويمكن الاستنتاج أن الذي ربّاه اسمه آزر، ووالده تارخ، وهذا على ذمّة من كتب التوراة...

لا تنسَ أن العرب ينادون العم بكلمة: أبي. والقرآن استعمل نفس التعبير كمثال على ذلك حين تحدّث أولاد النبي يعقوب(ع) عن آباء أبيهم وذكروا من ضمنهم عمّه النبي إسماعيل(ع) كما ورد في الآية 133 من سورة البقرة {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...}.

على كل حال الآية 41 من سورة إبراهيم(ع) نقلت عن النبي إبراهيم(ع) دعاءه بالاستغفار لوالديه "وليس لأبويه" حين كان شيخاً كبيراً {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}، ونعلم أن النبي إبراهيم(ع) استغفر فعلاً لأبيه "آزر"، وكان النبي إبراهيم(ع) حينها "شاباً"، ولكن بعدما تبيّن للشابّ إبراهيم(ع) أن آزر عدو لله تعالى تبرّأ منه كما تقرأ في الآية 114 من سورة التوبة {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ...}، إذاً كما هو واضح، لدينا استغفار حين كان (ع) شاباً "لأبيه" لآزر، وبعدها تبرّأ منه، ولدينا استغفار "لوالديه" وكان كبيراً في السنّ. مما يعني أنه (ع) حين صار شيخاً كان يستغفر لوالديه اللذين "ولداه"، فآزر لم يكن "والده" بل عمّه أو أحد أقاربه أو شخص تولّى العناية به وتربيته... ولذلك كان يناديه أبي.

(قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ{53})
قال أبوه وقومه:

{وَجَدْنَا آبَاءَنَا}، من أهلنا إلى أجدادنا، {لَهَا}، لهذه التماثيل، {عَابِدِينَ}، يتصرفون على أساس أنهم عبيد لها فمفروضة منهم طاعتها وهي آلهتهم.

الآية هنا تطرح عقلية المشي على تراث ثقافي بالاعتماد فقط وفقط على وراثته من الناس السابقين من دون التحقّق من صحّته، وهذه مشكلة منتشرة في كل المجتمعات في مختلف الشؤون، وحاربها القرآن رافضا إياها كتبرير لأي عقيدة أو شريعة أو سلوك، مركزا فقط وفقط على صحّة السلوكيات النابعة من سلامة القلب، حيث ترى المجتمعات مشحونة بأفكار وعادات يمشي عليها الناس على عماها، ومن يدعو للتغيير يرفضونه من دون التفكير فيما يقوله.

هذه العقلية دمار للقيمة العالية التي منحها تعالى لنا من الفكر وحرية الإرادة، وهذا لا يعني رفض كل ما ورثناه، بل يعني إعادة تقييمه وقبول ما يوافق سلامة القلب ورفض ما يخالفه إن وجدناه، وللأسف، على المستوى النظري ترى بعضا من العقلانية هنا وهناك في مختلف المجتمعات، ولكن على مستوى التطبيق ترى التخلّف والتحجّر والتبرير الغبي لأفعال السوء منتشراً بين الناس.

معاناة الشابّ إبراهيم(ع) مع قومه ما هي إلا نموذج عن المعاناة لكل شخص منّا، حيث نادرا ما تجد شخصا لم يتأثّر سلبا من سلوكيات سيئة موروثة واعترض عليها ولم يلق تجاوبا، وفي جانب آخر وهو نفسه داعم لموروث سيّء يعجبه ويتأذّى منه الآخرون!

هذا التوسّع في دراسة الآية ليس خروجا عن مفاهيم القرآن بل تكراراً وتأكيداً لها، فالقرآن كثيرا ما كرّر الإضاءة على هذه المشكلة من كل نواحيها، هنا ترى مشكلة التراث الشركي، وفي غيرها ترى مشكلة التراث التشريعي والسلوكي والأخلاقي... وهذا الدين الإلهي بالطريقة التي عرضها القرآن يختلف عن اختصارنا له بعقيدة وتشريع، فالأخلاقيات والسلوكيات التي مرّت في كلامه مرتكزة على عقيدة وتشريع ولكنها ليست من نوع البنود القانونية، وهي أوسع وأشمل أثرا على حياتنا، فالزكاة مثلا ضريبة يمكن التعامل معها على الورقة والقلم، ولكن الصدقة ومساعدة المحتاجين ليست كذلك، ولا تقل للوالدين {أُفٍّ} ليست كذلك، واحترام الآخرين، احترام كيانهم وقيمتهم ووقتهم وفكرهم ومالهم... التقانة والإجادة فيما نفعله... فكلّها تفاصيل يتحكّم بها تبريرنا لوراثتها من آبائنا.

هذا القرآن، هذا الكلام الإلهي طرح أوليات وأساسيات ركّز على البارز المهمّ منها كنموذج، تاركا التفاصيل للتفريع من الأساسيات، هذا إن حصل التزام بالأساسيات، وبناء عليه فآيتنا هنا تطرح عنوانا كبيرا عن الشرك كتقليد للآباء كنموذج عن بقية العقائد والتشريعات والسلوكيات التي يجب دائما عرضها على سلامة القلب لنرى سقمها من صلاحها.

الكلام يجرّ الكلام، حيث لن تجد في كل القرآن أي قبول إلهي لأي تبرير لعمل سيّء قمنا به لندافع عن أنفسنا في الآخرة بقولنا: قاله لي فلان. حتى لو كان هذا الفلان أبي وكل أقاربي، وكل مجتمعي، وكل علماء الدين... ففي الآخرة سأتحاسب عليه بلا تهاون لأني مزوّد بقدرة على تمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، ولم أستعملها.

نموذج شرك قوم إبراهيم(ع)، والذي لن تجد في كل القرآن أي تواصل إلهي معه (ع) يأمره فيه بمعارضة دين قومه، يريك أن سلامة القلب العالية بالمحافظة عليها منذ طفولتنا، ستوصلنا إلى رفض الباطل والسوء ومعارضته حتى لو كان أهل بيتنا وكل قومنا يفعلونه.

الشرك نموذج بارز عن كل بقية الأمور الباطلة والسيئة التي لا يقبل سبحانه تبريرنا لفعلها تقليدا للآخرين.

(قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{54})
قال "النبي" إبراهيم(ع):

{لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}، من الواضح جداً أنكم لستم على الشيء الصحيح لا أنتم ولا آباؤكم، لأن عبادة هذه التماثيل ضلال وليست عملا صحيحا، وتبرير عبادتها بأنها موروثة من الآباء لا يعطيها الشرعية ولا يجعلها صحيحة.

أنتم تضلّون في شيء ما، وتورّثونه لأبنائكم، فهل هذا يجعل ضلالكم حجّة وتبريراً لأبنائكم للبقاء على ضلال ورثوه منكم؟ لا، وكذلك ما ورثتموه عن آبائكم فتقديسه ليس مبرراً، بل هناك حقّ هدى وهناك باطل ضلال، وهذا هو المقياس الصحيح للأمور، وبناء على الحقّ الواضح لي فمن الواضح أن آباءكم وأنتم على شيء غير صحيح، فلا أنتم لديكم دليل على صحّة الشرك به تعالى ولا آباؤكم.

نلاحظ الآيات هنا تعطينا المختصر المفيد من كلام طويل جرى بين "النبي" إبراهيم(ع) وقومه وأبيه، فلا تتصوّر الآيات هنا كمشهد يقف فيه أبوه مع قومه من جهة وإبراهيم(ع) من جهة، وقالوا ما تنقله الآيات هنا، وربما حدث ذلك مرّة ما، ولكن الآيات هنا تنقل خلاصة ما قاله(ع) وقالوه، ويكون ذلك قد استغرق أياماً أو أشهراً... فالقرآن لم يعتمد الترجمة الحرفية "التعريب" إلى العربية لما نقله من محاورات وكلام، بل اعتمد خلاصة ما يقصده القائل، لذلك ترى

نفس الحادثة منقولة بعبارات مختلفة في سور مختلفة، حيث في كل سورة نقل تعالى من الحادثة ما حدّده مناسباً متماشياً مع محور كلام السورة، فاختار زاوية ما من الحادثة ونقلها هنا، واختار زاوية أخرى من نفس الحادثة ونقلها في سورة أخرى.

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شراً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فقد ضلّ عنك صيدها. استعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، فلم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، ولن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضالّ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} رداً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ{55})
قالوا، قومه وأبوه:

{أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ}، هل أنت مقتنع بأن ما تقوله صواب ولديك دليل عليه، {أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ}، أم لست جدّيّاً فيما تقول، هل تمزح معنا وتتسلّى أم لديك ما تخفيه عنّا من غايات تريدنا أن نحققها لك وتفرض علينا ذلك عبر مخالفة عقيدتنا بينما أنت مؤمن بها وتخالفها فقط لتضغط علينا؟

دائماً عندما تسمع أحداً ما يخالف ما هو متعارف في مجتمعه، عندها ستسأل عن غاياته من ذلك، وتتهمه بمصلحة شخصية من ذلك، على أساس أنه يسبّب البلبلة بين الناس فارضاً عليهم تحقيق غاياته الشخصية ليتخلّصوا من شرّه، فيريد منصباً أو مالاً أو امتيازاً أو مشاركة في القرارات... وأحياناً يبرز أشخاص لديهم عقد نفسية كحبّ التعالي والتكبّر والفخر... بما لديهم من معلومات على أساس أنهم أذكى وأفهم من الآخرين، وينشرون تعليقاتهم على مختلف سلوكيات الناس... ولا تفهم ماذا يريدون؟

الآية هنا اختصرت التحليلات المختلفة التي احتملها قومه(ع)، وأعطتك استفسارهم العقلاني، حيث سألوا عن عقيدته (ع) إن كان يؤمن بها فعلاً، أم أنه مؤمن بعقيدتهم وليس جدّيّاً بما يقوله عن مخالفتها ولديه أسباب أخرى تدفعه لإعلانه مخالفتها...

(قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ{56})
قال "النبي" إبراهيم(ع): {بَلْ رَبُّكُمْ}، لا لست ألعب وهذه التماثيل ليست ربّكم، بل المسؤول عنكم من مستوى إلهي هو {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، كل ما أعرف أنه موجود في هذه الدنيا فهو تعالى المسؤول عنه من مستوى إلهي، {الَّذِي فَطَرَهُنَّ}، حيث لم يكنّ موجوداتٍ وأوجدهن، {وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ}، أنا لم أخترع هذا الكلام من الفراغ، ولست ألعب بل أتكلّم معكم بجديّة، ومتأكّد من صحّة كلامي وأشهد بأن كلامي صحيح.

نتذكّر من القرآن أن "النبي" إبراهيم(ع) درس فعلا عقيدة قومه، وجالس عبدة الكواكب وعبدة الأصنام، ومن قبل نظر من حوله فرأى كونا لا بدّ أن خالقه عظيم واحد واسع محيط سميع بصير حكيم... ولم يَرَ أثرا للآلهة التي يعبدها قومه، وهذه هي شهادته، حيث رأى الآيات الإلهية من عظمة التخطيط والتدبير والتنوّع في المخلوقات وتفاصيلها وترابطها... من سعة السماء وكثرة ما فيها من نجوم، إلى تكوين الأرض والحياة والبيئة... فهو بعينه رأى الآيات الإلهية، وعلى هذا الأساس يشهد بأن عبادة التماثيل والكواكب... ضلال.

لاحظ ربط الكلام هنا مع الآيات السابقة من السورة والتي لفتت انتباهنا لآية خلق ما في الدنيا، فالذي يطلب آية "معجزة" ليؤمن، كيف تجاهل آية خلق ما في الدنيا من كائنات وظواهر؟ وكيف لم يَرَها دالة عليه تعالى؟ وهنا الكلام عن أرقى نموذج من البشر آمن بسبب آية خلق ما في الدنيا، فمن شاهد هذه الآيات وفهمها، فقد صار شاهدا مثل "النبي" إبراهيم(ع).

ننتبه، لأنه لم يقصد النبي(ع) أبدا القول بأنه كان حاضرا "مشاهدا ناظرا" حين حصل فطر للسماوات والأرض، حتى الجنّ الذين كانوا قبلنا لم يكونوا موجودين حينها كما نعلم من القرآن، راجع الآية 51 من سورة الكهف {مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ}، ولكنه (ع) يقصد أنه يشهد على صحّة كلامه عن الربّ الذي بالتأكيد هو فاطر كل الدنيا، مثلما نحن نشهد بأن هذا التلفاز حتما صنعه مهندسون.

هنا نلتفت لشيء مهمّ جدا، إذ لدينا نماذج من فلاسفة اليونان المشهورين، وأبرزهم سقراط وأفلاطون وأرسطو، ولا يبدو من كتبهم وما نقلوه عنهم أنهم احتكّوا بمُنْتَمٍ لدينه تعالى، أو قرؤوا من كتبه تعالى، ورغم ذلك ترى أنهم موحدّون من الدرجة العالية حتى أنهم يقولون في التاريخ إن سقراط حكم عليه قومه بالإعدام لأنه موحّد سفّه شركهم...

ألفت انتباهك لهذا النموذج لتقارن سلامة قلوب هؤلاء مع سلامة قلب إبراهيم(ع)، حيث من آثارهم ترى وصولهم للكثير من صفاته الحسنى سبحانه عبر التفكّر فيما خلقه تعالى في الدنيا، ولكن ترى أنهم لم يصلوا إلى حيث وصل إبراهيم(ع) الذي بسبب سلامة قلبه العالية جدا آمن بالآخرة والحساب والجزاء فيها كما تقرأ في الآية 82 من سورة الشعراء {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ}، وبحسب علمي لم يصل فلاسفة اليونان إلى هذا المستوى، ولا أذكر من كلامهم أي شيء عن الآخرة والحساب.

هذا الكلام يجعلك ترى لماذا اختار سبحانه الكلام عن إبراهيم(ع) في العديد من السور حين أرادنا أن نرى ما يمكننا الوصول إليه بما زوّدنا به تعالى من فكر ونفسية وآيات للتعرّف عليه سبحانه وعلى أفعاله وقراراته.

لهذا السبب ولأني لم أجد تصريحا واضحا في القرآن عن أي تواصل بينه تعالى وبين إبراهيم(ع)، احتملت بقوّة أنه لم يكن نبيا طوال فترة حياته إلى ما بعد محاولة إحراقه.

كما ترى، في هذا الكلام عمق يتشعّب كثيرا، ومنه السؤال عن حساب الذين لم يحتكوا في حياتهم بمؤمن ينتمي لدينه تعالى لينقل لهم الإنذار من عقابه تعالى على الإيمان بالباطل وفعل السوء، فعلى أي أساس سيحاسبهم سبحانه؟ ها قد صرت ترى أن الأساس هو ما جعله تعالى فينا من قابلية تمييز الخير من الشرّ وحرية الإرادة لفعل ما نريد، وهذا الأساس نتحاسب عليه أيضا نحن المنتمين لدينه تعالى، ولا فرق بين المسلم وبين الآخرين في هذه النقطة فهي الأساس لمحاسبتنا ومجازاتنا في الآخرة.

نحن بضبابية نصنّف الملايين من المسلمين بأنهم موحدون، وبالتالي فهم لن يخلدوا في النار، والمليارات من الصينيين والهنود... مشركون وبالتالي سيخلدون في النار، والذي عاش في مجاهل غابة ولم يحتك بحضارة فهو إلى النار، لا، فهذه الضبابية بالحكم على الأمور ليست صحيحة، وبأبسط التفاتة لوعده تعالى بالخلود في النار للمنافقين والفاسقين من المنتمين لدينه، ترى أولا أن الحكم بتميّز المسلمين عامّة عن الآخرين غير صحيح، ولست أتحدّث عن أهل مذهب حقّ بحيث إن كل المنتمين له لن يخلدوا في النار، فتلك أماني أهالي كل المذاهب، بل أتحدّث عن كل المسلمين من كل مذاهبهم وطوائفهم، لأن الانتماء للإسلام بلا تطبيق لا يعطيهم في الآخرة أي تميّز عن أهل الأديان الأخرى، بل وحتى عن العلمانيين.

لن أخوض هنا طويلا في التفاصيل، وأكتفي بالإشارة إلى تقليدنا لما وجدنا عليه آباءنا من عقائد باطلة وتشريعات وسلوكيات فاسدة، إذ إن الكثير إن لم نقل الغالبية ممّن يسمونهم بعلماء الدين المسلمين يفتون بهدر دم الكافر حتى لو كان مسالما! والكثير منهم لا يعتبر قيمة لأهل المذاهب الإسلامية الأخرى، وبعضهم يهدر دمهم! ويأتيك الذين يعتقدون أنفسهم مؤمنين ملتزمين ويريدون تطبيق هذا النوع من الشرعية على أساس أن كل البقية فاسقون منافقون لا يطبقون أمره تعالى بالجهاد لقتل من يجوز، بل يجب، قتلهم!

الاحتكاك بأهل الأديان الأخرى يريك أن فيهم نفس ما فينا، إذ فيهم المجرمون، وفيهم المسالمون، وفيهم المقدّسون لشخصياتهم الدينية والمُرَبِّبُون لهم، مثلما فينا من فعل ذلك بالتمام من دون استعمال كلمة ربّ لقدّيسه، حيث يأخذ كلام قدّيسه على عماه، بل ويطبّقه ضاربا مخالفته للقرآن بعرض الحائط، بل ويقدّس الرواية عن قدّيسه حتى لو كانت مشكوكاً في صحّتها!

في الآخرين موحدون لا يقلّون عددا عن الموحدين من المنتمين لدينه تعالى، وفيهم متّبعون لسلامة قلوبهم بالقدر الجيد في عقائدهم وتشريعاتهم وسلوكياتهم وهم لا يقلّون عددا عن المنتمين لدينه تعالى.

على المقياس القرآني فيهم من سيدخل الجنّة بدرجة أعلى من بعض المنتمين لدينه تعالى. لأن المعيار هو وصولهم لتوحيده تعالى ولفعلهم للصالحات، وأمّا الانتماء لدينه تعالى بالاسم، فهذا شيء ثانوي، وها أمامك إبراهيم(ع) الذي لم يكن منتميا بالاسم لدينه تعالى، ولا منتميا لكتاب إلهي، حيث اعتبره تعالى خليلا.

الكلام يجرّ الكلام، لأنه سبحانه لم يتعامل مع التاريخ بالنظرة الضيقة التي تعامل بها المنتمون لدينه، إذ نحن المسلمون والآخرون من المنتمين قبلنا لدينه تعالى، نظرنا للتاريخ من زاوية محطات حوادث جرت مع الأنبياء، وكذلك تبعنا الآخرون معتبرين ديننا كتاريخ لجماعة تهتّم بشخصياتها الدينية، وهذا خطأ في التوصيف تراه جليا في حالة إبراهيم(ع)، وسأقرّب لك الصورة بشكل أسهل لو تصوّرت معي في القرآن كلاما عن الحكم بالموت على سقراط لأنه وحّد الإله وسفّه عقائد قومه، ومعلوم لك أن سقراط ليس منتميا بالاسم لدينه تعالى، إذ لم يكن نوحيا ولا إبراهيميا ولا يهوديا...

لو ذكر القرآن سقراط وآخرين موحدين من المشهورين لديك، وأكثر من ذكرهم بمثلما ذكر الأنبياء أو أكثر، لقلت إن القرآن كتاب يؤرّخ لكل الموحدين وليس فقط لجماعة المنتمين بالاسم لدينه تعالى.

بينما نظرته تعالى للتاريخ مختلفة، إذ ها هو النموذج إبراهيم بالأصل مثله مثل النموذج سقراط، إذ إنه ولوط ليسا منتميين بالاسم لدينه تعالى، حيث اختارهما تعالى كنماذج ليذكرهما لنا لأنهما يتمتعان بسلامة قلب من الدرجة العالية، ولم يتمتّع بهذه الدرجة سقراط. ولهذا السبب نالا عناية إلهية من الدرجة العالية ولم ينلها سقراط.

القرآن كتاب ديني، ولكن الشخصيات التي اختارها تعالى ليذكرها لنا فيه، اختارهم من أرقى النماذج البشرية في سلامة القلب، وهؤلاء إن كانوا بسلامة قلب من الدرجة العالية، وكان هناك داع للتواصل الإلهي معهم، فسيتواصل سبحانه معهم ويصير وصفهم أنبياء، ومن الدواعي لتواصله سبحانه معهم ليهدوا قومهم أو ليتعلّموا شؤونا لا يعرفونها في الحياة من تشريعات لم يختبروها كتشريعات القضاء بين خلافات الناس، وخذ مثلا منها حالة مشهورة من تاريخ النبي محمّد(ع) والتي نقلتها بداية سورة المجادلة حين جاءته زوجة تشتكي من ظهار زوجها لها والرسول(ع) لا يعرف حكمها...

هكذا ترى أننا من بعدما تشبّعنا بتراث ثقافي ديني صرنا نحصر الأمور بأشياء نعتبرها لنا ولديننا وخاصة بنا، حيث صار القرآن عن أنبيائنا ورسلنا، وهذا بالتبعية صحيح، أمّا بالأصل فكلامه تعالى عنهم كلام عن النماذج البشرية الراقية، وسورتنا هنا من أوضح الواضحات على ذلك لأنها لم تصفهم بالنبوّة.

نضيف لهذا الكلام قصص سورة الكهف، إذ لم تذكر السورة ولا حتى بالتلميح أن أصحاب الكهف كانوا من المنتمين بالاسم لدينه تعالى، ولا ذا القرنين، ولا صاحب الجنّة، ولا الناس الذين تدخّل العبد الصالح في حياتهم.

(وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ{57})
{وَتَاللَّهِ}، سأفعل شيئا وأؤكّد لكم بصاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى أني سأفعله، {لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ}، سوف أفعل شيئا مضادا بالمنحوتات التي تعبدونها وهي جامدة لا تفعل شيئا، وهذا الفعل سيثبت بأنها ليست أربابا، {بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ}، بعد أن تعطوني ظهركم حيث لا أرى وجوهكم، وعندما لا تكونون بقرب الأصنام سأكيدها.

من الآية التالية ستعرف أنه (ع) سيكسّر الأصنام...

كلمة كيد هي لعموم أي عمل مضاد لمصلحة الآخرين وليس المقصود منه حصول مصلحة للفاعل، ويكون علنيا أو بالسرّ، وتشابه كثيرا الكلمة العامية: جكارة.

نلاحظ أن الآيات مرّة استعملت كلمة صنم ومرّة كلمة تمثال، وكلمة صنم في الاستعمال القديم تشير كوصف لما كان جامدا لمّاعا، وعلى التسمية هي لمنحوتة معبودة وعادة المنحوتة كتمثال تكون جامدة لماعة مصقولة.

الوثن عموم أي جماد تتم عبادته من تمثال أو رمز كصليب أو مجرد حجر عادي...

التمثال عموم ما يمثّل كتشبيه أو رمز لشيء، كالمنحوتة التي تمثّل شيئا، حيث تمثّل إله الحرب أو إله المطر. التمثال المعبود هو وثن، والتمثال هو صنم يمثّل شيئا ما، يمثّل إله المطر، يمثّل إله الحرب... والصخرة غير المنحوتة والتي شكلها لا يمثّل شيئاً، أو حائط أو حجرة أو خشبة... ويعبدها أحدهم هي بالنسبة له وثن، وليست تمثالا ولا صنما.

(فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ{58})
في يوم ما تولّى فيه قومه عن الأصنام، واستطاع "النبي" إبراهيم(ع) أن يكون لوحده مع الأصنام...

{فَجَعَلَهُمْ}، جعل الأصنام، {جُذَاذًا}، جذوة هنا وجذوة هناك بدل أن تَبْقَى تَمَاثِيلَ كل تمثال قطعة واحدة، حيث جعلهم قطعا مكسّرة، {إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ}، لأن القوم كَانَتْ لهم أَصْنَامٌ كثيرة، وأحدها كانوا يعتبرونه الأكبر بينهم، على أساس أنه أكبر آلهتهم، حيث كسّر (ع) الأصنام وترك الصنم الكبير فقط، {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، إذ من المفروض ومن المتوقّع من قومه أن يرجعوا فيعيدوا التفكير في مسألة عبادتهم لمنحوتات جامدة، وفي الآية 64 التالية سترى أنهم فعلا رجعوا لأنفسهم، ولكن جحدوا...

من المشهور بين الناس أن النبي إبراهيم(ع) كسّر الأصنام بفأس، وعندما انتهى من التكسير علّق الفأس على يد أو في عنق الصنم الكبير، والقرآن لم يذكر هذا التفصيل.

(قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ{59})
حضر بعض القوم إلى المكان الذي فيه تماثيلهم، ووجدوها مكسّرة إلا التمثال الكبير، وانتشر الخبر عن ذلك بين الناس... قالوا:

{مَنْ فَعَلَ هَذَا}، التكسير، {بِآلِهَتِنَا}، بالذين نعتقد أننا تابعون لهم وهم لديهم صفات وقدرات عالية؟ {إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ}، إذ ليس معه حقّ فيما فعله، فهذه آلهة يجب احترامها وتقديسها لا تكسيرها.

(قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ{60})
قال جماعة من القوم:

{سَمِعْنَا فَتًى}، وصل إلى آذاننا كلام صادر عن ذكر في عمر الفتوّة، إذ ليس ولدا ولا كهلا بل بين ذلك، {يَذْكُرُهُمْ}، يتحدّث عن فعل شيء بالتماثيل، حيث قال إنه سيكيدهم، سيفعل شيئا سيئا بهم، ومن الأكيد أنه هو كسّرهم، وهذا الفتى {يُقَالُ لَهُ}، ينادونه: {إِبْرَاهِيمُ}.

مجموعة من القوم وقفوا مغتاظين من مشهد الأصنام المكسّرة، وبعضهم كان تناقش مع النبي إبراهيم(ع) وتذكّر أنه (ع) توعّد للأصنام.

بقي شيء تلاحظه من الآية، حيث قبل قليل كانت الآيات تشير لحوارات النبي إبراهيم (ع) مع القوم، فلا تبالغ ويذهب فكرك إلى انعقاد جلسة بينه وبين كل القوم، حيث ترى هنا أن البعض يعرفونه وآخرون لا يعرفونه، لأنه في حينها كان مجرد شاب يبدي تعليقاته على عقيدة قومه، ويتداول الكلام الديني مع المحيطين به...

(قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ{61})
{قَالُوا}، القوم: {فَأْتُوا بِهِ}، بهذا الفتى إبراهيم، {عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ}، حيث سنقيم له تحقيقا ومحاكمة علنية أمام كل الناس ليروه بأعينهم، {لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ}، إذ من المتوقّع ومن المفروض حين يراه الناس أن يشهد واحد منهم أنه رأى إبراهيم يكسّر الأصنام أو خارجا من مكان الأصنام حين وقعت الحادثة... أو يشهد بأنه سمعه(ع) يتوعّد بتكسير الأصنام لأنه لا يؤمن بها...

هم لا يريدون أن يتّهموا أيا كان وتنتهي القضيّة، لا، بل هم فعلا يريدون معرفة من كسّر الأصنام، يريدون التأكد منه للانتقام منه بشدّة، لأنه كسّر آلهتهم، ولذلك يريدون استعمال كل ما يمكن للتأكّد من الفاعل، لذلك يريدون أن يحضر كل الناس ليروا إبراهيم ويسمعوا التحقيق معه، وبهذه الطريقة باستخدام هذا الكمّ من المراقبين أثناء التحقيق، من المتوقّع أن يظهر لواحد من الناس أي دليل يؤكّد أن إبراهيم هو الفاعل، سواء رآه يكسرها أو رآه يدخل أو يخرج من مكانها في وقت الحادثة، أو سمع منه كلاما يشير إلى نيّته بتكسيرها، أو رأوه (ع) حاملا لأداة الجريمة...

ننتبه جيّدا، حيث هناك حوادث جرت مع الأنبياء، وكانت علنية بحضور كل قومهم، تذكّر يوم الزينة والسحرة والحيّات في مواجهة النبي موسى(ع)، وتذكّر خروج الناقة من الصخرة كما هو مشهور، وتنقُّلها بعد خروجها بين قوم ثمود... هنا، القوم هم جمعوا كل الناس، وهذا سيران للأمور بحسب مخطّط إلهي ليظهر الحقّ بين أكبر عدد ممكن من الجماهير... لِنَرَ ماذا حصل:

لكن قبل أن نكمل نلاحظ أنه تعالى يتعامل مع السيئين بما يحبّون فعله من سوء مع الآخرين عبر التشهير العلني أمام أكبر جمهور ممكن، لأن المؤمن الصالح يحبّ أن يتغيّر الناس للأحسن، ويحب أن تصير أمورٌ علنية يشهدها كل الناس لتساعدهم على الإيمان والالتزام، وهذا شعور جيّد، مثل حالة الترويج الإعلامي لإنسان خلوق صالح... ليكون نموذجا للآخرين.

بالعكس، السيئون يحبّون إرهاب الآخرين حتى لا يعارضوهم، ويحبون تخويف أكبر عدد ممكن من الآخرين، ويحبّون التشهير بأعدائهم بأذيتهم بالكلام العلني أمام الجميع، ويحبون فعل الأذية الجسدية ظلما بالآخرين وعلنا للتباهي بقوّتهم...

هنا ترى إصرارا من عبدة الأصنام على التحقيق ومعاقبة مكسّر أصنامهم أمام أكبر عدد ممكن من الناس، وأنت أصلا تستسخف عبادتهم لصنم، إذ إن حالتهم نموذج واضح عن عقول متحجّرة تريد فرض سخافتها على الآخرين، وتريد افتعال حدث تاريخي بتجميع كل الناس ليشهدوا على محاسبتهم ومعاقبتهم لمن كسّر آلهتهم!

(قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ{62})
... ذهبوا وبحثوا عن إبراهيم، ويبدو أنهم أحضروه إلى ساحة الجريمة حيث الأصنام مكسّرة.

قالوا: {أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا}، التكسير، {بِآلِهَتِنَا}، بالذين نعتقد أنهم بقدرات وصفات عالية، {يَا إِبْرَاهِيمُ}؟

(قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ{63})
قال(ع): {بَلْ فَعَلَهُ}، قام بالتكسير، {كَبِيرُهُمْ}، التمثال الكبير بالحجم، {فَاسْأَلُوهُمْ}، عبّروا للتماثيل عن إرادتكم للحصول على جواب منهم لتعلموا من كسّرهم، ليجيبوكم، {إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ}، إن كانوا يصدر عنهم صوت له معنى.

هذا هو كيد النبي إبراهيم(ع) من الأساس، لأنه أراد (ع) أن يبيّن للناس سخافة عبادة هذه التماثيل، فلو كانت آلهة، لدافعت عن نفسها، أو قالت من كسّرها، ولو كانت آلهة لها أي تأثير لكنتم صدّقتم أن التمثال الكبير تحرّك وكسّر تماثيل الآلهة الصغيرة...

لم يكذب النبي إبراهيم(ع)، بل أشار للمحققين معه أن يلتفتوا إلى ساحة الحدث، وبناءً على عقيدتكم بأن الأصنام آلهة، يبدو أنها تعاركت، وكسّرت بعضها، وربح كبيرهم، وأداة الجريمة معه، فلماذا تتهمونني أنا!

بعبارة أخرى، حتى لو في الحقيقة أنا كسرتها، ولكن بناءً على إيمانكم فهذه ساحة الجريمة أمامكم تعني أنهم هم تعاركوا مع بعضهم وربح كبيرهم، لأنه أضخم وبالتالي هو أقوى من البقية أليس كذلك؟ وحتى تتأكّدوا من كلامي إن كان صحيحاً أو كذباً فاسألوهم من كسّرهم؟

بالاطلاع على بعض الأديان المشركة تجد في أدبياتهم أن آلهتهم تتخالف وتتعارك وتتقاتل فيما بينها، ومنها ما هو مشهور في الأدبيات من تعارض "الإلهين" زوس وهيديس مع أبيهم "الإله الكبير"... وهنا تحتمل من الكلام أن القوم لديهم شيء من تراث تقاتل آلهتهم مع بعضها البعض.

(فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ{64})
هذا ما كان يقصده إبراهيم(ع) من تكسير الأصنام وإبقاء الكبير سليماً.

{فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ}، راجع كل واحد من القوم نفسه، فيما يقوله هذا الفتى، حيث من الواضح أن معه حقّاً، وهذه مجرّد منحوتات صمّاء جامدة مستحيل أن تتحرّك لوحدها.

{فَقَالُوا}، فيما سيأتي من كلام سترى أنهم قالوا ذلك في أنفسهم: {إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ}، أنتم ليس معكم حقٌّ باعتبارها آلهة لأنها وبكل وضوح لن تتحرّك لتتعارك ولن تنطق ولن يصلكم منها خبر يشرح ما حدث... فمن أين لها الوصف بالألوهية، فظلماً قلتم إنها آلهة.

هنا ترى الجملة تستعمل كلمة ظلمٍ على معناها العمومي الأساسي، فالظالم هو عموم من ليس معه حقٌّ فلم يكن منصفاً عادلاً، وهكذا استعملها القرآن، وفي بعض الآيات تطبيق اشتقاقي لظلم النفس على معنى تسبيب الضرر لها، فليس محقاً من يسبب لنفسه العذاب بسبب كفره.

(ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ{65})

{ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ}، رجوعهم إلى أنفسهم سبّب لهم أن يُنْكَسُوا فيقلبوا رؤوسهم، كما ننكّس العلم بتنزيله عن السارية ليصير تحت، فمعنوياً الأفكار التي كانت في رؤوسهم من فوق صارت تحت، ففكرة أن هذه التماثيل هي آلهة صارت تحت وفكرة أنهم أصنام صمّاء جامدة صارت فوق، مضافاً إليه حركة الرأس "طأطأة" بتوجيه الوجه نحو الأرض.

{لَقَدْ عَلِمْتَ}، أيها الإنسان الذي يقرأ القرآن الآن، وأيها الإنسان الذي يعبد الأصنام، {مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ}، فمن المستحيل أن تقول الأصنام شيئاً ولو حرفاً، لا مباشرة ولا عبر وحي لأحد ما ولا عبر وسيط ولا بالإشارة... فهم مجرّد منحوتات ومن المستحيل أن تتكلّم لتخبركم كيف وقعت حادثة التكسير، فكيف ستكون آلهة؟ فلا يقبل عقلكم أن تكون آلهة وفي نفس الوقت فاقدة لقدرة الكلام ولو بحرف! ولو عبر وسيط...! ولو لمرة لتخبركم من كسّرها...

(قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ{66})
انتهينا من التنبيه الإبراهيمي عن استحالة إمكانية نطق التماثيل، وننتقل للتنبيه الثاني. قال النبي إبراهيم(ع):

{أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، هل تتصرفون على أساس أنكم عبيد فمفروضٌ منكم الطاعة والتأليه لغير صاحب الاسم المحدّد المميّز الله، {مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً}، للذي لا تحصلون منه ولا على أي منفعة، لأنه لم يخلقكم ولا يرزقكم... {وَلَا يَضُرُّكُمْ}، ولن يغيّر حالكم وما حولكم للأسوأ، لأنه مجرّد صنم لا يمكنه فعل أي شيء، فهو مثله مثل أي صخرة أو حجرة أو خشبة.

هكذا انتقل الشابّ إبراهيم(ع) إلى التنبيه الثاني، فإن كانت التماثيل لم تقل من كسّرها لأنها لا تنطق، فأيضاً هي لم تستطع حماية نفسها! وأنتم لن يخطر ببالكم أبداً أن الصنم الكبير كسّر الأصنام الصغار لأنكم متأكّدون أنها لا تتحرّك، وأصلاً لا يمكنها فعل أي شيء، فكيف يمكنها نفعكم أو أن تضرّكم أنتم! فعلى أي أساس تتصرّفون على أنكم عبيد لشيء لم يتمكّن من حماية نفسه من التكسير، ولا يتمكّن من تكسير غيره!

(أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ{67})
{أُفٍّ لَكُمْ}، صدر منه (ع) صوت عبر نفخ الهواء من فمه مع صوت حرف الفاء كتعبير بالانزعاج منهم على هذا التفكير والسلوك السخيف الضالّ، وأفٍّ، أعلن انزعاجي، {وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} تعالى، لأن هذه الأصنام التي أعلنتم أنكم عبيد لها وتركتم عبادة الله تعالى فهي بلا قيمة عندي.

{أَفَلَا تَعْقِلُونَ}! من الواضح سخافة عبادتكم، فلماذا لا تستعملون عقولكم لتدخل هذه المعلومات الصحيحة إلى عقولكم إلى فهمكم! ألا تستوعبون الكلام المنطقي!

بالنسبة لبعض ما صنّفه علماء اللغة العربية تحت عنوان "أسماء الأصوات"، فعامّة الناس يظنون أنها كلمات بينما هي أصوات مثل صوت الألم "آخ" وتقليد صوت إطلاق البنادق "طا طا"، وكأمر السكوت "هسس أو هصص أو صصص" التي نكتبها "صه"، "وأفٍّ" مثلهم من هذه الكلمات، قد تصدر من القائل تماماً كالنطق بأحرف "أفّ" وقد تصدر بصوت مشابه "أوف، هفّ...".

(قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ{68})

العجب من هؤلاء القوم! بعد كل ما جرى، ركبوا رؤوسهم! والآية هنا هي زبدة ما تريد السورة الإضاءة عليه، لأن عبادة الأصنام لا منطق ولا عقل يقبلها، وبالدليل الواضح جداً جداً هي ليست آلهة، ولكن ليست المشكلة في الحجّة والبرهان، وليست المشكلة فكرية عقائدية، بل عصبيةٌ للضلال والهوى، ونتذكّر بداية السورة عن الطالبين تميُّز الرسول محمّد(ع) عن البشر حتى يؤمنوا به كرسول إلهي، فهل الكلام العقلاني عن سخافة عبادة الأصنام يحتاج لتصديقه أن يقوله لك كائن من غير البشر؟!

{قَالُوا}، القوم:

{حَرِّقُوهُ}، احرقوا هذا الفتى بالنار، {وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ}، فإن هي لم تدافع عن نفسها فمن واجبنا نحن الدفاع عنها لأنها آلهتنا، {إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ}، إن كنتم اخترتم عقاباً له فليكن حرقاً بالنار.

انتبه جيّداً لهذه الآية، وانتبه للعصبية بحسّ الانتماء لتمثال لا ينطق ولا يضر ولا ينفع، وبدل التراجع عن الضلال الواضح، فلننصر عقيدتنا الباطلة!

تذكّر بداية كلام السورة عن مشركين يطلبون آية ليؤمنوا بالتوحيد، فسألتهم السورة عن البرهان الذي لديهم على صحّة ألوهية آلهتهم، وأخبرتهم أن كل ما حولهم من أرض وسماء وتفاصيل فيهما... يدل عليه تعالى وبكل وضوح. وهنا نرى نموذجاً بارزاً واضحاً عن مشركين تيقّنوا أن آلهتهم خرافية، وهذا مشابه جداً لحصول آية كشيء مميّز أمامهم يدلّهم على فساد عقيدتهم، ويخبرنا القرآن أنهم من داخلهم تيقّنوا بأن إبراهيم (ع) معه حقٌّ، ولكنهم ركبوا رؤوسهم وقرروا حرقه!

كما ترى فهل هناك سخافة أكبر من عبادة صنم؟ حجرة أو خشبة منحوتة؟ ما هذا المستوى المتدنّي جداً جداً؟ وتعمّد القرآن الكلام عن هذه النماذج الفاقعة في وضوح سخافتها لتتدرّج منها وترى السخافات الأخرى التي قد تكون مقتنعاً بها ويعرض عليك القرآن شيئاً آخر مخالفاً لها، وبذلك تفكّر مرتين قبل معارضة ما يقوله القرآن لتشكّ في نفسك وتعتمد على ما يقوله سبحانه بعدما يتخلّص فكرك ونفسيتك من السخافة والتفاهة، وحينها سترى الحقّ حصراً وفقط فيما يقوله سبحانه...

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ{69})

... نعلم من الآية 97 من سورة الصافات {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ} أنهم أعدوا "بنياناً" من نارٍ عظيمة جداً جداً من خشب مرتفع كأنه بناء... ورموا فيها النبي إبراهيم(ع) من بعيد لشدة كبر مساحة وهج النار...

قلنا، قال تعالى: {يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا}، بلا سخونة، {وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}، فلا يحصل له(ع) منك أي سوء، فلا تؤذيه حرقاً ولا تؤذيه برداً.

بالنسبة لقوله تعالى للنار أن تكون برداً وسلاماً، نلاحظ دائماً تعبير الآيات القرآنية عن الكلام الإلهي مع الكائنات "الإنسان والحيوان والنبات والسماء والأرض..." والكلام مع الظواهر "النار، المطر، الرياح..." فهو نفس الكلام بالأمر المباشر منه تعالى، وبعض منها صرّح القرآن بأنها تستجيب ولها إرادة من نوع ما، وتقرأ ذلك في الآية 11 من سورة فصلت {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}، التي تفيد

بنوع من الوعي والإرادة للسماوات والأرض بما يناسب تعامله سبحانه معها، ونحن من ناحيتنا سنراها جمادات، وتحدّثنا مطولاً عن نوع وعيها في الآية 44 من سورة الإسراء، وملخص الكلام أنه تعالى بمستواه الإلهي يمكنه التعامل بشكل ما مع هذه الكيانات والظواهر فلديها إمكانية ما للقبول أو الرفض لما يتناسب مع وعيها وكيانها، ومن غير المعلوم لنا مدى مساحة أو نوع ما يمكنها قبوله أو رفضه، فهذا شأن يفوق قدرتنا على فهمه، وهذا لا يلغي كونها من ناحيتنا مجرد جماد بلا وعي، فنحن لا قدرة لنا على التعامل مع وعيها وتصنيفها من ناحيتنا سيبقى على أنها جمادات لا وعي تفاعلي لها معنا.

من زاوية أخرى، هنا قال تعالى للنار كوني برداً... وإذا تصوّرت أنك أنت كلامك "بشكل سحري" يتنفّذ، فلينزل الماء، فلتهبّ الرياح، فلتتأجج النار... على أساس القوّة الخارقة بدون سبب سوى صدور الكلمات منك، فهذا التصوّر لا معنى له في الواقع، وحتى سبحانه وتعالى لا يفعل الأشياء بهذا الشكل، بل الأمور تجري بأسبابها، فتطيع الكائنات أو المواد كلامه تعالى وتنفّذه، أو تطاوع المواد إرادته تعالى فتستجيب كما نلوي نحن الحديد بأيدينا فيلتوي... أو تقوم الملائكة (ع) بفعل ما أمر به تعالى...

ما نقوله هنا عن الاعتقاد بقدرة خارقة أو سحرية بالمعنى الخرافي، له عمق مؤثّر على أساس فكرنا الديني، فعموم الناس من مختلف الأديان والعقائد لديهم نفس هذه المشكلة، وعلى مستوى الكلام الجدّي فالناجون "بشكل ما" من هذه الأفكار الوهمية الساذجة هم المؤمنون العقلاء والعلمانيون، ولكن حتى العلمانيون تحوّلت عندهم نفس فكرة القدرة الخارقة السحرية بالمعنى الخرافي، تحوّلت من الإيمان بالأمور الدينية إلى تنفيسها بالروايات الخرافية والخيال العلمي... ونظرية تعدّد الأكوان المتوازية... وفكرة التقدّم والتأخّر في الزمن لتغيير أحداث التاريخ، ففكرة الأمور الخارقة والغريبة متجذرة فينا وعليها نبني أحلامنا وأمانينا.

كمؤمنين علينا الحذر كل الحذر من أية أفكار نابعة من هذه الخلفية، فتدخلاته تعالى حيث تظهر قدرته الفائقة، كحادثة تدخله تعالى هنا في منع النار "جحيم" من إحراق النبي إبراهيم(ع)، وفلق البحر للنبي موسى(ع) و... هي حوادث نادرة ولكن تميّزها جعلها فاقعة، والكفار الذين جرت أمامهم لم يؤمنوا، والكفار الذين وصلهم خبرها اعتبروها خرافية كأساطير، أمّا المؤمنون من الدرجة العالية ففهموها كحوادث تدخّل فيها تعالى حتى تكون حجّة على الناس كفعل لا تفسير له إلا تدخّل قدرة فائقة لفعله، ومعلوم للجميع أن ذوي القلوب السوداء المحبين للسيئات هؤلاء لن يؤمنوا ولو جئتهم بكل أنواع الآيات كما تقرأ في الآية 111 من سورة الأنعام {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا...}.

هؤلاء المؤمنون من الدرجة العالية ترى موقفهم من تدخلاته تعالى في نموذج النبي زكريا(ع) الذي اندهش من استجابته تعالى لطلبه، لا لأنه لم يكن مؤمناً بقدراته تعالى، بل لأنه يرى نفسه عبداً يطلب من إلهه ولا يرى نفسه سيّداً يطلب من جني الفانوس السحري "الخرافي"... وأمّا المؤمنون من الدرجة الأقل "أمثالنا" فنحن ومن دون أن ننتبه تصل بنا الحالة إلى التعامل معه تعالى وكأننا نتعامل مع جني الفانوس "الخرافي" الذي يحقّق لنا طلباتنا بلا نقاش.

هذه الأفكار الخطيرة تجدها كخلفية حتى في كلام العقلاء من المؤمنين، فتجدها في كلامهم عند تفسير قوله تعالى {يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}، فيفسرونها من خلفية الاعتقاد بتحقّق وحصول وحدوث الأمور بمجرد النطق بكلمة ما، علماً أنه تعالى في قرآنه تحدّث عن سنن وعن أسباب ومسببات وعن خلق ما في الدنيا في ستة أيام... والمطر سقناه لبلد ميّت وأحيينا به الأرض بخروج النبات فيها... ونفس الخلفية بكلامهم عن الاسم الأعظم الذي إذا علمته وتلفظت به فكل ما ستطلبه يتحقّق...!

نرجع لكلام الآية عن خروج النبي إبراهيم(ع) سالماً من النار، فبغض النظر عمّا يريده تعالى وممن، فكلامه تعالى سيتنفّذ حتماً، فهو وحده لديه القدرة على فعل ما يريد، فهو تعالى أعطى النار صفة الإحراق، فهي لا تحرق بقدرتها الذاتية المنفصلة عنه سبحانه، تصوّرْ أن الإله سبحانه وتعالى اختفى هكذا فجأة، فكلنا بنفس اللحظة سنختفي، والنار ستختفي، وتصوّر أن الإله سبحانه وتعالى سها عنّا ونسينا، في لحظة سينهار وجودنا ونختفي، والنار سينهار كيانها وتختفي... وهذا ما تفهمه ضمناً من الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ...}، فالنار تحرق لأنه تعالى في كل لحظة يجعلها موجودة وتحرق، وعندما رموا فيها النبي

إبراهيم(ع)، أمر سبحانه النار أن لا تحرق النبي إبراهيم(ع)، فالنار ربما لها وعي ما مختلف عن وعينا واستجابت لتنفيذ أمره تعالى، وربما بالاتصال بينها وبينه تعالى لأنه متحكّم بها وقد غيّر خصائصها، وربما يخطر ببالك احتمالات لم تخطر ببالي، فعلى كلّ حال نحن أمام حادثة أراد الإله بعزّته وجلاله أن لا تحرق النار عبده إبراهيم(ع) لتكون آية عن تدخّله بينما آلهة المشركين تكسرت ولم تتدخل لحماية نفسها... فمنع سبحانه النار من إحراق عبده، وآلية حصول ذلك غير معلومة لنا، فهذا شأن إلهي يمكن أن يحصل بطريقة تفوق قدرتنا على فهمه، وربما يمكننا فهم القليل منه، وربما وبناء على معلوماتنا الحالية عن فيزياء النار أن إشعاعها قد تغيّر تردّده ليكون أقل من تردّد المواد التي يتألّف منها جسد النبي إبراهيم(ع) وبالتالي فلن تحرقه وسيشعر ببرودة منها...

كما ترى، نحن أمام خبر منه تعالى عمّا فعله في حادثة مشهورة في التاريخ أن إبراهيم (ع) رموه في النار ولم يحترق، واعتمد القرآن كثيراً على ذكر أمور مشهورة تعرفها الناس لتذكيرهم بها كدليل تاريخي مشهور على تدخّله سبحانه.

هذا هو سبب إغفال القرآن لذكر الكثير من الأنبياء والرسل والحوادث التي جرت معهم، لربما عوّضت حوادث أخرى مشهورة عن ذكر حوادثهم للعبرة منها، وربما هي حوادث مغمورة في التاريخ ولم يتوارثها الناس فلم تنتشر عبر التاريخ، أمّا حادثة محاولة إحراق النبي إبراهيم(ع) فهي متداولة بين الناس، وخصوصاً في منطقة الشرق الأوسط الذي اعتمد القرآن على تاريخ البشرية فيه كنموذج اضطراري لأن التوسّع في الكلام عن تاريخ جغرافيا أخرى لن يكون مفيداً بالنظر لنزول القرآن في منطقة الشرق الأوسط... وبالنظر لانحصار المتأهلين ليكونوا أنبياء في منطقة الشرق الأوسط، وتحديداً وحصراً فالمتأهلون كانوا من ذرية النبي إبراهيم(ع).

(وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ{70})
{وَأَرَادُوا بِهِ}، قصد القوم بإبراهيم(ع)، {كَيْدًا}، عملية رميه بالنار كانت عملاً مضاداً له (ع)، ومن خلاله (ع) أرادوا إسكات أي صوت معارض لدينهم بأقصى مظهر مرعب عبر الحرق بنار متأجّجة أمام الناس.

{فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ}، لم يحصل ما كانوا يتوقعونه بل فقدوا نتائج بنيانهم للنار على أساس نصرتهم لآلهتهم وفاز عابد الله تعالى إبراهيم(ع)، لأنهم أرادوا إحراقه لإنهاء تدينه وإعلاء قيمة دينهم، ولكن حصل العكس تماماً، فظهرت قوّة تدينه وانتصر دينه(ع)، فظهرت قدرة الإله الحقيقي، وفقدوا هم أي معنى لآلهتهم ودينهم.

الخلاصة: آلهتهم لم تدافع عن نفسها ولم تنطق، وإله إبراهيم نجّاه من النار.

(وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ{71})
{وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا}، أخرجنا إبراهيم(ع) من الخطر هو ولوطاً(ع)، {إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ}، ومن الآية 26 من سورة العنكبوت نعلم أنه بعد محاولة إحراقهم للشابّ إبراهيم(ع) وخروجه من النار سالماً، أكمل تنبيهه لهم وإنذارهم... ولم يؤمن منهم إلا لوط(ع) {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، والمشهور في التاريخ أن "سارة" آمنت به أيضاً وكان بينها وبين إبراهيم(ع) محبّة فتزوّجها (ع) وغادر الزوجان مع لوط(ع) وخلّصهم سبحانه من حكم المشركين وخرجوا من أرض بابل باتجاه أرض الكنعانيين "كما هو مشهور في التاريخ"، وهي أرض مباركة حيث حصل فيها أو سيحصل فيها أمور جيّدة حسنة جداً، لكل الناس. وفيها سيسكن النبي إبراهيم(ع) وسينتشر الأنبياء من ذريّته بكثرة في تلك الأرض.

أرض الكنعانيين حالياً تشمل فلسطين وسيناء وأجزاء من السعودية والأردن وسوريا ولبنان، ومرّت فترات من التاريخ سُمّيت غالبية تلك المنطقة بالشام وقبلها كانت تسمى أرض الشامات وكان امتدادها يختلف توسّعاً وضيقاً بحسب توسّع سلطة مختلف الحكومات عليها...

يقال في التراث التاريخي اليهودي إنّ النبي لوط(ع) بينه وبين النبي إبراهيم(ع) قرابة، ومما قيل أنهما ابنا خالة.

على كل حال، وكما ترى، خروج النبي إبراهيم(ع) من النار سليماً معافىً أمام جمع غفير من الناس هو آية غير عادية، ورغم ذلك لم يؤمن بأنها من فعلِ اللهِ تعالى غير رجل واحد وهو لوط(ع)، وهكذا ترى أن طلب الناس آية ليؤمنوا ما هو

إلا عذر تافه يريدون به التغطية على يباسة فكرهم وتحجّره، فلا عقلانية في طلبهم الذي قد يبدو عقلانياً بينما هم عابدون لحجر أو خشبة!

تذكّر محور السورة التي بدأت كلامها به عن نموذج من الكافرين الطالبين لآية تثبت لهم أن محمّداً(ع) ليس مجرد بشري عادي، أو فليتميّز بشيء غير عادي، وإلا فلن يؤمنوا به ولا بدينه، وهنا ترى آية من العيار الثقيل، ويؤمن بها نموذج كفّار مكّة الطالبين لتميّز الرسول محمّدٍ(ع)، وهي خروج إبراهيم (ع) سالماً من وسط نار كالجحيم، والسبب معلوم مشهور وهو تدخّله سبحانه من بعدما كسّر(ع) أصنام قومه... ورغم ذلك لم يؤمن من قومه إلا لوط(ع).

فرضاً فرضاً قام الكافرون من عصر النبي محمّدٍ(ع) والطالبون لآية تثبت أنه (ع) غير بشري أو متميّز حتى يؤمنوا به، فرضاً رموا محمّداً(ع) في النار، وخرج سالماً، فهل هذه آية كافية لهم ليؤمنوا به كرسول وبالتوحيد؟ لا، لن يؤمنوا، والدليل هو معرفتهم بما جرى مع إبراهيم(ع) ومعرفتهم بكل القصة، ورغم ذلك لم يؤمنوا، ومن قبلهم الذين حصلت أمامهم الحادثة لم يؤمنوا.

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ{72})
{وَوَهَبْنَا لَهُ}، وأعطى سبحانه للنبي إبراهيم(ع) من دون حصوله تعالى على أي مقابل منه (ع)، وهبه تعالى ولدا وهو، {إِسْحَاقَ}(ع)، ووهبنا له {يَعْقُوبَ}(ع)، وهو ابن إسحاق(ع)، {نَافِلَةً}، حيث كلاهما (ع) زيادة منه تعالى عمّا لدى النبي إبراهيم(ع) ولديه قبلهما إسماعيل(ع)، {وَكُلًّا}، من إسحاق(ع) وابنه يعقوب(ع)، {جَعَلْنَا صَالِحِينَ}، حيث كلّ واحد منهما كان صالحا جيداً في فكره وعمله.

نلاحظ أن الآية قالت عن الولد وولد الولد أنهما نافلة، فمن بقيّة القرآن نعلم أن النبي إبراهيم(ع) لم يكن عقيما، حيث أنجبت زوجته هاجر طفلا "إسماعيل(ع)"، ولكن زوجته سارة كانت عقيماً وحصل تدخّل إلهي لتحبل سارة، ولذلك فإن ولدها نافلة لأنهما لم يكونا ليحصلا عليهما بالشكل العادي الطبيعي من سارة، ووهبهما تعالى له. وسترى فيما سيأتي من آيات ذكراً منفرداً للنبي إسماعيل(ع) لأنه لم يكن نافلة.

إذا تذكّرتَ مما هو مشهور في التراث التاريخي الديني أن سارة كانت مهاجرة مع النبي إبراهيم(ع)، وتاركة لعبادة الأصنام، لانتبهتَ لضمّها إلى العناية الإلهية بوهبها أولادا وهي عاقر، ولكن لم تُضِئْ عليها الآيات لأنها "ومع احترامنا الشديد لها" هي لم تصل إلى النموذج الإيماني النسائي الراقي كما وصلت السيدة مريم(ع) التي ستذكرها السورة فيما سيأتي.

ننتبه جيداً، لحدّ الآن لم تصف السورة ولا واحداً من الذين ذكرتهم بأنه نبي، فالأساس أنهم هم كانوا طاهري الفكر والعمل، وفيما بعد نزل عليهم وحي يتماشى مع سلامة قلبهم، فصاروا موصوفين بأنهم أنبياء لأن النبأ منه تعالى كان يصلهم، وتركيز السورة عليهم أنهم نماذج راقية من قبل أو بدون نزول الوحي عليهم.

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ{73})
{وَجَعَلْنَاهُمْ}، الجدّ والابن والحفيد، {أَئِمَّةً}، مرجعا أساسيا يأتم به الآخرون، قدوة تتبعهم الناس في عقيدتهم وعملهم، {يَهْدُونَ}، يضعون الآخرين على الأشياء الصحيحة التي توصلهم للغاية الصحيحة، {بِأَمْرِنَا}، بما يريده تعالى، فسبحانه كان يتابعهم ويزوّدهم بتفاصيل العقيدة والشريعة الصحيحة.

{وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ}، وبكلام لا يصدر مباشرةً منه تعالى وعادة عبر توصيل الملائكة(ع) لكلامه تعالى إلى وعيهم، ولمزيد من المعلومات حول الوحي راجع دراسة الآية 25 من هذه السورة، حيث وصلتهم معلومات لـ، {فِعْلَ الْخَيْرَاتِ}، للقيام بالأعمال الخيّرة الجيدة، ولهذا الكلام عمق لارتباطه بما جعله تعالى فينا من قدرة على تمييز الخير من الشرّ، وسبحانه لا يأمر إلا بالخير، ولذلك هم يتماشون مع الوحي الذي يصلهم ويريهم ما قد لا يرونه أو لا خبرة لهم به لمعرفة خيره من شرّه...

{وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ}، {إِقَامَ}، إقامة تفعيل، أن لا يعطّلوا أو يهملوا، {الصَّلَاةِ}، التوجّه والإقبال، والصلاة كلمة عامة تشير لعموم توجّه شيء نحو شيء، ومنذ القدم هي مصطلح ديني يشير للتوجّه إلى الله تعالى بالحركات والكلام لذكره تعالى

الذي يعبّر عن التقرّب لله تعالى، وهي التي نقيمها في أوقات محددة خمس مرات في اليوم... ولا معلومات لدينا عن الصلاة التي كان يصليها النبي إبراهيم(ع) وأولاده، ولكن لدينا معلومات عن صلاة النبي موسى(ع) التي توارثها بنو إسرائيل، فهي مماثلة بالأوقات والحركات لصلاتنا ولها وضوء مثل وضوئنا، واستبدلها غالبيتهم بترانيم...

{وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ}، {إِيتَاءَ الزَّكَاةِ}، توزيعها أو جعلها عند من يوزّعها، وكلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، حيث تشير لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكية، مال زاكٍ، طعام زاكٍ..."، ومنذ القدم صارت مصطلحا دينيا يشير إلى دفع نسبة محددة من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ}...، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، فيدفع منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة ...{وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ}...، حيث تكون نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

{وَكَانُوا}، الجدّ والابن والحفيد، {لَنَا عَابِدِينَ}، هم مفروض منهم وعليهم طاعته تعالى وهم يتصرّفون على هذا الأساس.

لا تنسَ أن محور الحديث عن النبي إبراهيم(ع) النموذج الراقي، والحديث عن أولاده هنا فقط تكملة للحديث عن النبي إبراهيم(ع) لنرى العناية الإلهية به (ع) حيث تدخّل سبحانه مرة في تخليصه من النار ومرة في وهبه الأولاد بعد أن صارت امرأته العاقر كبيرة في السنّ ليكون دليلا واضحا على تدخّله تعالى.

لاحظ وانتبه وضع في بالك دائما ما تقوله الآية هنا عن الزكاة، وكما ترى فهي أمر إلهي يرجع في تاريخه لآلاف من السنين، وللأسف درج في كتب التفاسير كلام عن فرض الزكاة في عهد النبي محمّد(ع) من بعد هجرته إلى مدينة يثرب، وكلامهم يبدو منه أن الزكاة شيء جديد في الدين الإلهي صار مشرَّعاً بعد الهجرة، وبناء عليه فسروا الآيات التي نزلت قبل الهجرة وكانت تتحدّث عن الزكاة أو الصدقة أو الإنفاق... أنها تشير للصدقة غير الواجبة، وهذا الكلام غير صحيح، فليس لدينا في الآيات التي نزلت قبل الهجرة ما يحرّم السرقة، فهل كانت حلالاً وصارت حراماً بعد الهجرة؟

أقول لك هذا لأن العديد من التفاسير لبعض الآيات ابتنت على هذه الخلفية، منها حرمة شرب الخمر، التي قالوا إنَّ القرآن تدرّج في حرمتها، وهذا غير صحيح، بل تكرّر الكلام عنها لأن المسلمين الأوائل لم يتخلّصوا من الإدمان عليها بسهولة... فهي مثلها مثل الزنا والسرقة و... حرام من أول ما كلّف سبحانه البشرية بدينه، هي أمور سيئة معلوم سوؤها، والصلاة والزكاة... واجبة من أول ما وضع سبحانه لعباده تشريعات وسلوكيات، ونخمّن بناء على تحليل كلام القرآن أن ذلك حصل في عهد النبي نوح(ع) فهو أقدم نبي رسول صرّح القرآن باسمه ومعه شريعة.

(وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ{74})
ننتقل إلى موحّد هاجر مع النبي إبراهيم(ع) تاركا قومه عُبَّادَ الأصنام:

{وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا}، صار يرى الصوابية في الأمور، وينتج عن ذلك أن أفكاره وأعماله لها أهداف عالية سامية ولا عبث فيها، وآتيناه، {عِلْمًا}، وسياق الكلام مع وعن مؤمن فالعلم الذي تقصده الآية هو ما له علاقة بالإيمان، كمعلومات لها علاقة بالعقيدة والشريعة والسلوكيات.

كما ترى، سنسأل: لماذا لم يُؤْتِنَا تعالى حكما وعلما وآتاه للوط(ع)؟ الجواب أنه تعالى عبر قرآنه هذا أتاح للجميع الحصول على الحكمة والعلم، ونفس الشيء حصل مع النبي لوط(ع) الذي وصلته معلومات واستفاد منها، فلا تتصور أنه تعالى غيّر شيئا بفكر أو نفسية لوط(ع)، لا بل هي حالة وصول المعلومات والتزامه (ع) بها، وتطوّر فكره ونفسيته بناء عليها، مثلما نحن يتطوّر فكرنا ونفسيتنا من بعدما نفهم الحقّ ونتعلمه من هذا القرآن.

{وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ}، خلّصناه من المجتمع السكّاني، {الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ}، تعمل الأعمال التي ينفر منها الإنسان العاقل، ومعلوم أنه كان فيهم شاذُّونَ جنسيا، وكان البقية موافقين غير معترضين، فنزل عليهم عذاب، ولكن النبي لوط(ع) وعائلته "إلا امرأته" نجوا من الدمار.

{إِنَّهُمْ}، أهل تلك القرية، {كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ}، كانوا أناسا لهم كيان الجماعة المتفاعلة سوءا في فكرها وتصرّفها، {فَاسِقِينَ}، حيث خالفوا أوامره الواضحة سبحانه، حيث أمرهم تعالى عبر رسوله لوط (ع) بالاستقامة ولكنهم أصرّوا على الشذوذ.

لاحظ كيف قفزت الآية عن إلحاق زوجته بهلاكها مع قومها لأن سياق السورة لا علاقة له بتلك الحادثة، ونفس الشيء ستراه بتخطّي السورة بعد قليل لموضوع غرق ولد النبي نوح(ع).

كلمة "حكم" وصف لعموم ضبط الأمور كما هو مطلوب على الصواب، وعندما تكون صفة أو وصفَ فعلٍ له تعالى فهي تحمل الناحيتين من معناها، حيث تحمل معنى صوابية الأمور التي قرّرها وفعلها تعالى فهي حقّ، وتحمل معنى الحكومة الدارج بيننا وهو معنى اشتقاقي من الحكم ويشير إلى تنفيذ ما حكم به، حيث تشير للسلطة على تنفيذ الحكم.

الحكم على معنى الحاكمية والحكومة "السلطة"، فأصل المعنى البتّ في الأمور بحكمة، بصوابية ضبطها على المطلوب على الحقّ، ومن مشتقات ذلك عموم أي حكومة كفرض شيء على الآخرين. ووصفه تعالى بالحكيم متضمنٌ "حكمه وحكومته" فهي متطابقة مع أصل معنى الكلمة، لأن قراراته حقّ، أمّا حكم وأحكام وحكومة الناس، فمقصود منها بالأساس أن تكون لضبط الأمور بالحق، وفي التطبيق يحصل عادة مخالفة للحقّ، فتكون الأحكام والحكومة ظالمة، وتعابير القرآن عن ذلك منها ما ورد في الآية 47 من سورة المائدة {وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}، وأمثالها من التعابير التي لم تغيّر في أصل معنى الكلمة، بل أبقتها على معنى ضبط الأمور على الصواب، ونبّهت إلى أن مخالفة أوامره تعالى هي حكومة ليست على الصواب.

بناء عليه فالناس بحاجة لسلطة، ومن كان حكيما فمن المفروض بين العقلاء أن تكون له السلطة، وليس بالضرورة سلطة على كل شيء كالملك أو الرئيس، لأن واقع الحال أن شخصا واحدا لن يتمكن من إدارة كل شؤون المجتمع حتى لو كانت سلطته مطلقة، فمن البديهي توزيع المهام على أشخاص متعددين ولهم صلاحية وهامش يتخذون فيه القرارات التي يرونها مناسبة، وهم ليسوا بدرجة حكمة من افترضناه الأكثر حكمة بينهم، وهكذا نفهم أنَّ السلطة للحكيم كافية على مستوى الإرشاد للمسؤولين.

أقول لك هذا لأن ما ورد في القرآن من أمثال آيتنا هنا والواصفة لبعض الأنبياء بإتيانه تعالى لهم الحكم، حيث احتار المفسرون في معناها، لأنه معلوم أن القليل من الأنبياء كان لهم سلطة رئاسة على الناس، فتفسير حكمهم بالسلطة دفع العديدين لتفسيرها كمنصب إلهي ولكنه معطّل من الناس، على أساس أنه تعالى عيّنهم للحكومة وبقي توصيفهم بالحكم ولكنه متعطّل من رفض الناس لذلك.

آخرون من المفسرين أرجعوا كلمة حكم لمعناها الأصلي، للحكمة للصوابية، حيث قالوا إنَّ أمثال آيتنا هنا تشير لكون الأنبياء حكماء، ولم يدمجوا بين الصوابية وبين السلطة كتطبيق عملي للصوابية كما فعلنا.

هكذا ترى أنَّ إتيانه الحكم وصف لحالة علمه ورؤيته (ع) للصوابية في الأمور، وبالتالي فهو مؤهل للسلطة أو كمرشد أو مرجع تقويمي لأصحاب السلطة، وسواء عطّل الناس سلطته أو دعموها، فهو يبقى موصوفا برؤيته للصوابية في الأمور، ويبقى موصوفاً بالحكم.

بقي شيء نلاحظه في العديد من السور، حيث طرحت نماذج بارزة جدا من الصعب حتى على أكثر الأغبياء والأجلاف معاندتها، حيث كان الكلام السابق عن قوم النبي إبراهيم(ع) وعبادتهم للصنم، وهي سخافة لا تحتاج لكثير من التفكير لترى تفاهتها، وهنا الكلام عن الشذوذ الذي لا يحتاج العاقل الرزين لوقت طويل ليرى فساده وسوءَه، وفرضا استسخف أحد ما نفسه ونادى بالحرية الشخصية فيما يفعله الناس مع بعضهم برضاهم، فرضا نزلنا معه إلى هذا المستوى، فماذا يقول عن التعدّي على الآخرين جنسيا؟ هذا ما كان يفعله قوم النبي لوط(ع) مع الغرباء المارّين بجوار قراهم، فهل من عاقل يناقش في فساد ذلك؟

(وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ{75})
{وَأَدْخَلْنَاهُ}، لوطًا(ع)، {فِي رَحْمَتِنَا}، في عنايته تعالى لما فيه مصلحة لوط (ع)، {إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}، لأنَّ عمله كان جيّدًا ولذلك نال منّا العناية والرعاية.

ننتبه كيف انتقلت السورة تدريجيًّا من نموذج المُوَحِّد "النبي إبراهيم(ع)" الذي تعصّب قومه لأصنامهم باطلًا وعنادًا، فنال العناية بالنجاة من النار، وهاجر ورافقته العناية الإلهية بِوَهْبِهِ الأولاد المميزين... وهاجر معه مُوَحِّد آخر وهو لوط(ع)، ورافقته أيضًا العناية الإلهية فنجّاه تعالى حين نزل العذاب على البقعة التي كان يسكن فيها... ونكمل مع شبه التمام بالعناية الإلهية والنجاة من عذاب نزل على قوم آخرين، ونكمل مع النبي نوح(ع)، ولكن قبل ذلك أريد لفت انتباهك لكيفية ترابط ما ستذكره السورة عن هذه النماذج من الناس، وستلاحظ قبل كل فقرة إشارة لربط قصة الاسم الذي سبق بما سيأتي، حيث إنَّ كل شخص أشارت له السورة اختارت بعده شخصًا شابهه فيما حصل ويشابه الذي بعده في شيء آخر، كحلقات السلسلة، فانتبه لذلك لأن السورة قصدت أن لا ترتّبهم زمنيًّا بحسب التاريخ بل بحسب ارتباط جوانب من قصص حياتهم.

(وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ{76})
{وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ}، قبل النبي لوط(ع) توجّه النبي نوح(ع) بكلام نحوه تعالى، ومن سياق الكلام تعلم أنه (ع) توجّه إليه تعالى بطلب إبادة قومه الكفّار، ومن الآية 27 من سورة نوح {إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} ترى أنه (ع) علم أن قومه لن يخرج منهم في المستقبل ولا ولدٌ مؤمن... {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ}، حيث حقّقنا ما طلبه منّا، {فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ}، وخلّصناه مع الأشخاص الذين ينتمون لبيته، وكلمة أهل تشمل الأولا والزوجة ولكن لا ندري إن كان للنبي نوح(ع) زوجة أخرى مؤمنة غير الكافرة التي تحدّثت عنها سورة التحريم، متذكرين أنه (ع) عاش قرابة الألف سنة، ولربما كان عنده خلال ذلك أكثر من زوجة... نجيناه مع أهله {مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}، من الشعور بالضغط النفسي العظيم من خوف الغرق.

تذكّر دائمًا أن السورة في بداياتها تحدّثت عن امتداد تاريخي لرسل منه تعالى، وأن الأصنام وبقيّة الآلهة الوهمية لا يوجد لها امتداد تاريخي، صحيح أن هذه الفقرة من السورة لم تصف المذكورين فيها بأنهم أنبياء ورسل، ولكنها استبدلت هذا التوصيف بشيء آخر، حيث استبدلته بعرضهم كنماذج عبر التاريخ وحّدوه تعالى ونالوا عنايته بشكل مشهور معروف بين الكثيرين من الناس، وهذا شيء لا نجده في تاريخ المشركين، نعم قد نجد في تاريخ بعض المشركين قصصًا عن عنايات آلهتهم ببعض الأشخاص بأمور مميزة، ولكن لو كانت تلك التدخلات صحيحة لوجدنا لها امتدادًا في التاريخ، ولم نجدها فقط في زمن محدّد، فمن من تلك الديانات لديه تاريخ من آلاف السنين من زمن النبي نوح(ع) مرورًا بالنبي إبراهيم وموسى وعيسى وصولًا إلى محمد عليهم صلوات الله تعالى؟

تلاحظ كيف قفزت الآية عن غرق ولده (ع) الكافر لأن سياق السورة لا علاقة له بهذه الحادثة، ونفس الشيء حصل قبل آيتين حيث تخطّت السورة إهلاك زوجة النبي لوط(ع).

(وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ{77})
{وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ}، حققنا له (ع) ما يريده على الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع دينه تعالى، {الَّذِينَ كَذَّبُوا}، حيث حصل على دعمنا ومساعدتنا للتخلّص من قومه الذين كذّبوا فلم يصدّقوا ولم يؤمنوا، {بِآيَاتِنَا}، بالأمور المميزة المنسوبة له تعالى، والآية الوحيدة التي نعرفها والتي حصلت مع النبي نوح(ع) هي طول عمره، ونضيف إليها الآية العامّة لجميع البشر فيما خلقه تعالى في الدنيا، وأمّا الطوفان فليس آية لهم ليؤمنوا بسببه لأنه أبادهم، فالطوفان آية لنا لنؤمن، وبمراجعة عموم ما نقله القرآن من كلام النبي نوح(ع) مع قومه، تفهم أنه (ع) لفت انتباههم لأنفسهم وبيئتهم وأنها تدل على مصمّم خالق ذي قدرات وصفات فائقة وأن آلهتهم وهمية لا حقيقة إلهية لها... فلم يصدّقوه...

{إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ}، جماعة من الناس أفكارهم وأعمالهم سيّئة، لأنهم كانوا مشركين فاسدين... {فَأَغْرَقْنَاهُمْ}، أمتناهم اختناقًا بالماء، {أَجْمَعِينَ}، كلّهم بلا استثناء.

تذكّر دائمًا أن القرآن ولا مرّة قال عن قومي النبيين صالح(ع) وشعيب(ع) أنهم كلّهم بالكامل أهلكهم تعالى، وقال القرآن مرارًا وبصيغ مختلفة عن أقوام الأنبياء نوح(ع) ولوط(ع) وهود(ع) أنهم أبيدوا بالكامل.

(وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ{78})
ننتقل إلى نموذجين مُوَحِّدَيْنِ مطيعين له تعالى ونالا العناية الإلهية بشكل مختلف عمّا سبق من عنايته تعالى بالأنبياء إبراهيم(ع) ولوط(ع) ونوح(ع):

{وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ}، وهما أب وابنه نبيان مشهوران من بني إسرائيل، {إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ}، حيث كانا قاضيين في قضية حصل فيها خلاف على حرثٍ، على شيء تمّت تهيئته للإنتاج، وهنا المقصود خلاف على أرض أعدّت للإنتاج الزراعي وما زالت بلا حصاد، {إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ}، انتشرت متباعدة في الحرث، {غَنَمُ}، ضأن أو ماعز أو خليط من كليهما، {الْقَوْمِ}، أناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع هذه الحادثة، حيث إنها أغنام يملكها أحد ما وسرحت وهي ترعى وانتشرت في أرض مزروعة يملكها أناس آخرون، ومن البديهي أن الكلام هنا عن أكلها للزرع.

بعبارة أخرى هناك قطعة أرض مزروعة لشخص أو لأشخاص، وجاء غنم لشخص آخر أو لأشخاص وأكل الغنم الزرع من دون أن ينتبه صاحب الغنم، {وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ}، لما يحكم به داوود(ع) وسليمان(ع)، {شَاهِدِينَ}، حيث كنّا نشهد ونراقب ونسمع ونرى كيف سيحكمان.

ننتبه لأن الآيات لم تخبرنا ما هو الحكم، فإن كان الراعي منتبهًا لدخول ماشيته إلى الزرع وتركها تأكله فبالبداهة ستقول إنّه يجب عليه التعويض، ويكون السؤال عن قيمة التعويض، وإن كان الراعي غير منتبه والماشية أكلت الزرع، فهل على الراعي التعويض على المزارع حتى لو لم يكن قاصدًا لإتلاف المزروعات؟ وهل يدفع قيمة المحصول الزراعي الحقيقية العالية عند بيعه بعد نضوجه وحصاده؟ أم يدفع قيمته الحالية؟ أو يعتبرونه مساويًا لقيمة العلف الرخيص...؟ ولنقل إنها كانت مزروعة قمحًا، فإن دفع الراعي قيمة المزروعات على أنها علف رخيص، أي دفع بقيمة التبن، فقد ظلمنا صاحب الزرع، وإن دفع الراعي قيمة المزروعات العالية فهذا لا يبدو عادلًا لأنه لم يستفد منها بقيمتها الحقيقية كقمح واستفاد منها كأي علف رخيص أكله غنمه.

ويقولون إنَّ النبي داوود(ع) حكم على صاحب الغنم بدفع قيمة القمح والتبن معًا، ويقولون في الروايات إنَّ قيمة المزروعات كانت عالية ومساوية لقيمة الأغنام التي أكلته، وكانت النتيجة بالحكم لصاحب الزرع بالحصول على قطيع الأغنام كتعويض... ويقولون إنَّ النبي سليمان(ع) حكم ببقاء الغنم لصاحبه الأصلي ولكن كل ما ينتج عن القطيع من مواليد وصوف ولبن... فهو لصاحب الزرع حتى يأخذ حقّه كاملًا، وهكذا يحصل الطرفان على حقهما بشكل مقبول لكليهما... وفي الآية التالية سنتوسّع قليلًا في دراسة هذه القضية.

على أي حال ننتبه جيّدًا، فإن بدا لك أن لا قيمة لهذه الحادثة التافهة بين غنم وزرع، فحقوق الناس تحظى بأهميّة بالغة جدًّا عنده تعالى مهما كانت صغيرة أو كبيرة، ولا يقبل سبحانه بصدور حكم غير صحيح من أشخاص يمثّلون دينه تعالى على الأرض، حتى لو كان في قضيّة تراها أنت تافهة، علمًا أنك لو كنت أنت صاحب الزرع، ولا تملك غيره لتعيش أنت وعيالك، لكانت القضيّة قضية حياة أو موت بالنسبة لك، ولم تعد تافهة!

(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ{79})
{فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ}، فالمعلومات التي أمامه كانت كافية ليحكم في الخلاف بحكم صحيح واضح لأنه فهم القضيّة بشكل صحيح، {وَكُلًّا}، وكل واحد، من داوود(ع) وسليمان(ع)، {آتَيْنَا حُكْمًا}، فكانا يريان الصوابية في الأمور، وآتينا كل واحد منهما، {عِلْمًا}، معلومات يجيدان التعاطي معها واستخدامها، كالفرق بين الذي لم يقرأ عن القضايا والخلافات ولم يتعاطَ بها ولم يتعامل معها... وبين من لديه خبرة فيها وفي كيفية التعامل معها بناء على معلومات لديه، فهذا لديه علم، فهو عالم بالقضاء، مثلما لدينا عالم بالطبّ وعالم بالكيمياء...

تعبير الآية يدل على اختلافهما في نوعية ومستوى الحكمة والعلم، وكما يبدو هنا علم النبي سليمان(ع) كيف يحكم بشكل أنسب في هذه القضية ولم يعلم النبي داوود(ع) الحكم الأنسب. والتعبير بـ {فَفَهَّمْنَاهَا} يوحي بأنه تعالى تدخّل

بشكل ما "وحيا" ليجعل سليمان(ع) يفهم القضية ليصدر عنه الحكم الأنسب، وهذا محتمل خاصة من تكملة الكلام عن التدخل الإلهي لتصير لهما قدرات مميزة، ولكن ماذا لو كان الكلام عن الجدارة؟ فمنذ قليل في الآية 74 ورد نفس التعبير بإتيان النبي لوط(ع) حكما وعلما، وفهمنا منها أنه تعالى لم يزرع في فكره بشكل استثنائي صوابية رؤية الأمور، ولم يزرع المعلومات بشكل استثنائي، بل هو (ع) بفكره ونفسيته السليمة "المتاحة لنا جميعا"، وبالتعمّق في المعلومات "المتاحة لنا جميعا"، صار حكيما عالما، فالأرجح أن يكون الكلام هنا نفس الشيء عن تفهيم القضية لسليمان(ع)، مثل طلاب الجامعات حيث المعلومات متاحة للجميع وبعضهم متميّز بالفهم أكثر من البقية...

{وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ}، فمن دون أي مقابل منه جعلنا الجبال، {يُسَبِّحْنَ}، مع النبي داوود(ع)، فعندما يقول (ع) كلاما ينزّه فيه الإله سبحانه عن الصفات الناقصة السيّئة، فإن الجبال كانت تسبّح معه، {وَالطَّيْرَ}، أيضا سخرناها لتسبّح معه (ع)، {وَكُنَّا فَاعِلِينَ} حيث قررنا هذا وفعلناه، فهذا شيء غير اعتيادي لكم كبشر ولكن نحن الإله قررنا أن تسبّح الجبال والطيور مع النبي داوود(ع) وفعلنا ذلك فسبّحت معه.

بالنسبة لتسبيح الجبال والطير مع النبي داوود(ع)، حيث ذكرت الآيات اختلافا بين تعليم منطق الطيور وتسبيح الطيور والجبال، فلا يذهب فكرك أن الجبال كانت تنطق بكلام سمعه النبي داوود(ع) وهي تقول: سبحان الله، أو تردّد الصوت، أو... فالطيور نطقت "بلغتها" وفهم النبي سليمان(ع) نطقها وهذا شيء مختلف عن تسبيح الجبال، وعبّر القرآن عن كل الكائنات بأنها تسبّح الله تعالى ولكن نحن البشر لا نفقه تسبيحها، فالسماوات بكل ما فيها تسبّح، والنجوم والجبال والحيوانات... وتذكّر دائما أن الآية 44 من سورة الإسراء أغلقت الباب حين قالت: {وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}، يعني ولا بأي شكل ستتمكّن من فقه "أن نربط المعلومات لنفهم" تسبيحها، فستبقى بالنسبة لنا جمادات وبهائم، وحين يقولون بأن وجودها هو تسبيح، أو حركتها مطيعة للقانون الإلهي هو تسبيح، أو تسخيرها لنا تسبيح... هاربين بذلك من ظاهر الآيات التي تقول بوضوح أنه يوجد وعي من نوع ما لهذه الكائنات، فكلامهم فارغ لا علاقة له بتسبيحها لأن ما افترضوه هو فقه للتسبيح وأخبرتنا الآية صراحة أننا لا نفقه التسبيح فكيف فسّروه إن كانوا لا يفقهونه! فلا تتعب نفسك في شيء لن تفقهه من دون تدخّل إلهي.

لا بد من الالتفات لشيء في الآيات، فعلى ما يبدو أن هذه العناية الإلهية لم يدركها من كان قرب النبيين، حيث إنّهما فقط كانا بشكل أو بآخر يدركان أو يشعران... بتسبيح الجبال والطير، حيث فيما سيأتي من آيات سنرى عنايات وآيات إلهية ظاهرة واضحة لكل الناس، ولكن أصرّت الآيات هنا على طرح عناية إلهية وآية غير واضحة إلا لمن حصل عليها، فهما (ع) فقها تسبيح الجبال وبقية كل الآخرين لم يفقهوه، إذ سبحانه لا يوجّه الكلام هنا في آياته حصرا للمشركين ليقنعهم بامتداد أفعاله تعالى عبر التاريخ بشكل علني مثل تدخّله تعالى في حادثة إحراق النبي إبراهيم(ع) أمام جموع من الناس... بل يتحدّث مع المتقين المؤمنين ومع المشركين لنعلم أن أفعاله تعالى مجالها أوسع من الأمور العلنية أمام الجميع وتتدرج إلى الأمور الخاصّة بشخص ما لتكون له آية لوحده.

ما معنى القوانين الإلهية التشريعية إن لم يتمكّن النبي داوود(ع) من إصدار حكم صحيح بالاستناد إلى كتابه تعالى؟ وما معنى تمكّن ابنه(ع) من فهم ما جرى بالاستنباط من كلامه تعالى لاستخراج حكم صحيح؟ طرحت عليك السؤال بشكل يتضمّن الجواب فيه، ويبدو واضحا من الآيات أن الحكمين من النبيين كانا صحيحين ولكن أحدهما أصوب وأنسب ففيه حصول كل الأطراف على حقّها من دون الضرر بالأطراف المتنازعة، وهذا ما نفترضه حصل بناء على مفاهيم القرآن التي تركت هامش مرونة لنا لنتحرّك فيه فيما يتحمّل المرونة بما يتعلّق بشؤون الناس، فالكثير من أنواع القضايا يمكن استخراج أحكام متعددة لها وكلّها صحيحة، ولكن دائما هناك حكم أنسب للجميع على مقياس الرحمة الإلهية.

بعض المشرّعين من علماء المسلمين يجمد على النصوص القرآنية والروايات ولا ينتبه إلى ما تركه تعالى لنا من مرونة سبّبت وصول روايات فيها أحكام مختلفة في نفس القضية، فالظروف التفصيلية للقضايا عادة تكون مختلفة، وبناء عليه ليس من العقلانية اعتماد حكم واحد وتعميمه على كلّ القضايا، وأشهر بلاء نقع فيه قضية حضانة الأولاد بين المطلقين، فترى في كتب الفقه أحكاما حدّية لا مرونة فيها لتحديد العمر الذي يعطي الحضانة للأمّ... ولمختلف العلماء من نفس المذهب اختلاف في تلك الأحكام! لأنهم اعتمدوا على استخراج أحكامهم من الروايات من عقلية "الحدّية" في استخراج حكم واحد لا مرونة فيه!

نفس الكلام عن دية المقتول، حيث لدينا روايات حدّدتها بقيمة ضخمة جدا، وروايات حدّدتها بقيمة أقل... والسبب أن القضاة والمشرعين القدماء ناسبوا بين الظروف الاقتصادية لمجتمعاتهم وبين المرونة الواضحة حين ترك سبحانه تحديد قيمة الدية... بينما ترى في غالبية كتب الفقه حدّية في تحديد قيمة محددة للدية كحكم يجري على كل المجتمعات...

الآيات هنا من أبرز النماذج القرآنية عن المرونة في أحكامه سبحانه والتي تركها سبحانه لتناسب مختلف الظروف، فحتما حكم النبي داوود(ع) صحيح، ومشتق من كلامه تعالى، ولكن حكم النبي سليمان (ع) كان أنسب، وهذا هو دينه سبحانه وتعالى، والعقلية الجامدة التي نتعامل بها مع كلامه تعالى لاستخراج تشريعات حدّية فهي دين الناس، حيث إن دينه سبحانه ترك لنا هامش مرونة لتتناسب الأحكام مع مختلف الأزمنة والأمكنة والظروف...

لذلك لم يَرَ تعالى أهمية لذكر ما حكم به النبيان، فالمهم أن حكما منهما أنسب من الآخر بخصوص الحالة التي عُرضت عليهما، فأي تغيّر ولو طفيف في حادثة مشابهة، لما استطعنا الاستفادة من الحكم القديم إلا بعد تعديله ليتناسب مع الظروف المختلفة للحالة الجديدة، ولذلك تركت السورة ذكر الحكم حتى لا نجمد عليه ونعمّمه، ومن البداهة معلوم أن ما يرضي طرفي النزاع في مثل هذه الحالات التي لم يقصد فيها الطرفان أي سوء، فهو الحكم الذي يقبل به تعالى.

(وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ{80})
تكملة الكلام عن النبي داوود(ع)، {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ}، حيث صار يعلم كيف يصنع لباسا للناس، ومن بقية الآية تعلم أنه لباس خاص بالحرب، وبضمّ هذا الكلام مع ما ورد في الآية 10 من سورة سبأ {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا... وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ} نفهم أنه (ع) تعلّم صنع الدروع المعدنية، {لِتُحْصِنَكُمْ}، لتحفظكم وتصونكم، {مِنْ بَأْسِكُمْ}، من الأفعال الشديدة التي تقومون بها ضدّ بعضكم، من الضرب الشديد أثناء التعارك، {فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ}؟ هل تعلنون أنكم حصلتم على أشياء جيّدة منه تعالى؟

نلاحظ أن الشكر على تعليم صناعة الدروع التي انتشرت فيما بعد وحصل عليها كل المتقاتلين، سواء المؤمنين أم غيرهم، حيث من البديهي أن الآية لم تعمّم الشكر على الجميع، بخاصة إن واجهت "كمؤمن" عدوا مدرّعا! فالشكر إذا أنت "المؤمن" كنت مدرّعا وعدوّك غير مدرّع، وهذا ما أشارت له الآية حصرا، حيث إنّ النبي داوود(ع) تزوّد وزوّد مقاتليه المؤمنين بدروع، وكانت الدروع في حينها حاسمة لهم لنصرهم على عدوّهم، وهذا يستوجب منهم الشكر.

لو جمعنا ما نجده منتشرا في القرآن عن التدخلات الإلهية لنصرة المؤمنين، وكلّها تستوجب الشكر، لفهمنا أن تعليم صناعة الدروع الحديدية كان قفزة مميزّة في حينها وتَمَيَّز بها النبي داوود(ع) ومقاتلوه.

من المشهور في التاريخ أن النبي داوود(ع) عاش فترة مشحونة بالمعارك منذ شبابه، ونقل القرآن منها المعركة مع جالوت، راجع الآية 251 وما قبلها من سورة البقرة، ومن التراث التاريخي اليهودي تعلم أن اليهود في حينها كانوا منقسمين متقاتلين مع بعضهم ووحّدهم النبي داوود(ع) بالقوّة... ويبدو من الآية هنا أن الدروع المعدنية كانت حاسمة لنصرة المؤمنين الحقيقيين على الآخرين، وما هو دارج في ثقافتنا الدينية التاريخية عن تليين الحديد للنبي داوود(ع) ذهب إلى تفسيره بشيء آخر، إلى تحوّل المعدن كالمعجون في يده (ع)، ولا أدري إن كان ذلك صحيحا إذ إنّ تعبير الآية هنا بالفهم العادي سيشير إلى توصله لتقنية التعامل مع المعدن لتطويعه كما صار يفعل الحدادون من بعده، وأصلا ليس هذا هو المهمّ في الموضوع، حيث إنّ الآية 12 من سورة سبأ فيها تعبير عن شيء مماثل من إسالة عين القطر للنبي سليمان(ع) وهناك فهموا منها التطور في تقنيات التعامل مع المعادن، وهنا من الأنسب فهم الآية بتطوّر تقنية التعامل مع المعادن ليصنع المؤمنون مع النبي داوود(ع) دروعا تنصرهم على الآخرين.

لست بذلك أنفي احتمال تطويع الحديد ليلويه (ع) بيديه كالمعجون، لأنّ الآية 12 من سورة سبأ تشير لذلك بتوصيفه بالفضل فراجع دراستها {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ}، ولكن ألفت انتباهك أنه من الموروث وليس من صريح عبارات القرآن.

(وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ{81})

وللنبي سليمان(ع)، سخّرنا، {الرِّيحَ عَاصِفَةً}، الهواء القوي جدا، {تَجْرِي بِأَمْرِهِ}، تسير الريح بأمر النبي سليمان(ع) بما يريده منها أن تفعله، {إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا}، فعلى ما يبدو، وكما هو معروف بين أهل الكتاب، أنه (ع) في حادثة ما كان (ع) بعيدًا عن أرض مملكته التي كانت قريبة من الساحل الكنعاني وجواره، وهي الأرض التي كرّر القرآن مرارًا أنها مباركة، وجرى تسخير الرياح له لتحمله وتعيده إلى مملكته، {وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ}، فلدينا علم بكل شيء، فنعلم كيف نفعل أي شيء نريده، وهنا الكلام عن قراره تعالى بتسخير الرياح لبشري، ويخبرك سبحانه أنه يعلم كيف يفعل ذلك لترى أن الأمور سهلة جدا عليه لترى قدراته الفائقة عندما تقارنها مع ما يمكنك أنت أن تقوم به، فأنت تحتاج للانتقال بسرعة من مكان لآخر، واستغرق ذلك البشرية سنينَ طويلة من التطور العلمي مع الكثير من الإخفاقات حتى وصلنا إلى روعة الانتقال بالطائرات، بينما سبحانه رأى من المناسب تسخير الريح لعبده فحصل ذلك.

التفت للآية 36 من سورة ص التي عبّرت عن سيره (ع) بالريح {رُخَاءً}، فهي قويّة ولكن بالمقدار المناسب، فالرخاء ليس متعارضا مع عصف الريح، فهي "عاصفة" قويّة ولكن "رخاء" بالشكل المناسب له(ع)، وهذا مشابه لحالة السفر بالطائرة، فمن في داخلها في رخاء بينما الطائرة تعصف بها الريح الناتجة عن سرعة الطائرة.

تذكّر أن السورة تركّز على نماذج مشهورة عبر التاريخ ونالت العناية الإلهية، وذلك في مقابل انتفاء وجود تاريخ لأي تدخّل من غيره تعالى على مستوى إلهي وبأشكال مختلفة، فهذه الأخبار التاريخية عن نماذج تدخّله سبحانه، فماذا فعلت الآلهة التي يعبدها المشركون عبر التاريخ؟ فإن نسبوا لآلهتهم عملا ما غير اعتيادي، فهو اختراع وهمي لم يحصل، والدليل أنه لا يوجد امتداد تاريخي لأفعال آلهتهم، بينما تدخلاته تعالى منتشرة عبر التاريخ.

المشهور بين أهل الكتاب أن النبي سليمان(ع) كان يحارب خارج مملكته ووصله نبأ حصول انقلاب في مملكته... وإذا رجع على الأحصنة أو مشيًا فسيفوت الأوان... ولذلك سخّر الله تعالى الريح، ويقولون إنّها حملت سفنه "طيرانًا" في الهواء ونقلتها إلى مملكته... وهذا كلّه كلام منسوب لكتب من التراث اليهودي كالتلمود وغيره، ولا يوجد لدينا مصادر موثوقة لمعرفة حقيقة أي شيء عمّا جرى، وبحسب ما أذكر لم يذكروا في التوراة أي شيء عن تسخير الريح له (ع)، ولكن المشهور عموما أن الرياح كانت تطيعه (ع)، ولولا ما وردنا من التراث اليهودي "ونقله بعض المسلمين إلى تراثنا وصرنا نعتبره روايات إسلامية"، لقلنا إنّ الريح سُخِّرَت له (ع) لتحريك سفنه الشراعية في البحر، فهذا أول ما يتبادر إلى الذهن، علمًا أنّ العجائب التي حصلت في زمنه(ع) تجعلنا لا نستبعد حصول طيران في الهواء بشكل ما، ولكننا بحاجة لمصدر موثوق لتأكيد حصول ذلك.

(وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ{82})
{وَمِنَ الشَّيَاطِينِ}، ومن الذين لديهم صفة عادة القيام بالأفعال السيئة، الضلال، سخّرنا للنبي سليمان(ع)، {مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ}، حيث ينزلون تحت المياه لاستخراج أشياء من قعرها كاللؤلؤ والمرجان، وسخّرنا له(ع) من الشياطين مَنْ، {يَعْمَلُونَ}، للنبي(ع)، {عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ}، أقل من الغوص، حيث إنّه بالنظر لصعوبة الغوص فإنّ بقية الأعمال أقل منه، كأعمال البناء واستخراج المعادن... {وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ}، صائنين، وتعلم من سياق الكلام أنهم شياطين حيث سيكون حفظهم من عصيان أوامر النبي(ع)، إذ سبحانه جعلهم مطيعين له (ع) ولولا تدخله الدائم سبحانه لكانوا انفلتوا من طاعة النبي(ع).

حتى نفهم هذه الآية جيدًا فلنبدأ بمعنى كلمة شيطان، إذ إنّ معناها أي شخص يقوم بعمل ضلال وعمليا فهو مضاد لعمل الأنبياء، فهو أي شخص ضال ويضلّل الآخرين، وهنا يبدو أنهم شياطين الجنّ بسبب تعذّر الغوص العميق على الإنس في حينها، ويبدو أن الآية ذكرته من بين الأعمال المختلفة التي كانوا يقومون بها ليس لأنه غوص لمتر أو عشرة أمتار لأنّ هذا شيء مقدور عليه في الحالة العادية للبشر، بل لأنه غوص لأعماق يمكن للجنّ الوصول إليها وكان يتعذّر في حينها على البشر غوصه... وبضمّ الكلام هنا مع الآية 12 من سورة سبأ {... وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ}، ترى بوضوح أنها حالة المجرمين الذين يتعرضون لعقاب كما كان دارجًا قديمًا لدينا عقاب المجرمين بالأشغال الشاقة.

هم جنّ شياطين، وعقابهم تسخيرهم للنبي سليمان(ع)، حيث إنّ هناك جنًّا مؤمنين وليسوا مسخرين له(ع).

بطريقة لا نعرفها، منح تعالى النبي سليمان(ع) السيطرة على شياطين الجنّ ليعملوا تحت أمره، فأمرهم بالغوص والقيام بأعمال أقل من ذلك أيضا، كالبناء وصناعة المعدّات والأدوات... والشياطين عاصية لأوامر الله تعالى بفعلهم للسوء، وبالتالي فلا، ولا بأي طريقة عادية معروفة، يمكن أن يطيعوا نبيّه، ولذلك ذكرت الآية أنّه تعالى يحفظهم، يصونهم، فيمنعهم من معصية أوامر النبي سليمان(ع).

تلاحظ أنّ الآيات لم تصف "داوود(ع) وسليمان(ع)" بأنهما نبيّان، لأن كل السورة لم ترد أن تلصق العناية الإلهية بهؤلاء الأشخاص لكونهم أنبياء، فلا رابط مباشر بين العناية الإلهية والنبوّة، وإنما الرابطة بكونهم من المؤمنين من الدرجة العالية، وسترى ذلك جليًّا في العناية الإلهية بالسيدة مريم(ع) التي لم تكن نبيّة بالمعنى الوظيفي للكلمة، حيث لم يأمرها تعالى بنقل كلامه لهداية الناس.

(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ{83})
{وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ}، توجّه نحو المسؤول عنه من مستوى إلهي بالكلام التالي:

{أَنِّي مَسَّنِيَ}، أحسست فعليًّا بـ، {الضُّرُّ}، بما يضرّني، بشيء سيئ عليّ، {وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}، وأنت يا ربّي موصوف بكثرة وشدّة عنايتك، يعني أنا أحتاج أن تخلّصني من الضرّ الذي أنا فيه وتخليصك لي منه شيء عادي بسبب اتصافك بالرحمة الفائقة التي لا تقارن بالرحمة من أي كائن آخر.

عادة نواجه مشكلة في دقّة فهم هذا النوع من التعابير، محتارين بين قصدها المقارنة بين رحمته تعالى وبين رحمة غيره، فهو تعالى أرحم من بقية الراحمين، وبين قصدها أنها وصف مطلق بغض النظر عن وجود راحمين آخرين، لتصير كلمة الراحمين مجرد وصف لا يشير لكائنات راحمة، ويمكن حمل العبارة على الشمولية للمعنيين. وأظن معك حقّ إذا استبعدت قصدها الوصف المطلق لأن كلمة راحمين يتبادر منها وصف لكائنات رحيمة وليس وصف حالة الرحمة بلا كائنات موصوفة بها، فلو تصوّرت نفسك لوحدك مخلوقا في الدنيا ولا أحد آخر معك، ورحمك تعالى، فهل يمكنك أن تقول إنّه تعالى أرحم الراحمين؟ تصور ذلك وسترى أنّه لا معنى لهذه الجملة في هذه الحالة لأنه لا يوجد أحد غيره تعالى وأنت، فستقول إنّه رحمن بك ولكن ما معنى أنّه أرحم الراحمين بينما لا يوجد أحد غيره سبحانه؟ وهكذا ترى أنّ الجملة لو كانت تصدق على الوصف المطلق بغض النظر عن وجود راحمين آخرين، لصدق قولك لها في حالة كنت لوحدك المخلوق في الدنيا ورحمك ربّك.

المشهور بين الناس أن النبي أيوب(ع) تعرّض لمحنة عظيمة، فبعد أن كان غنيًّا معافًى، صار فقيرًا مريضًا بمرض لا دواء له، حتى أخرجه الناس من بيته ورموه بعيدا عن قريتهم خوفا من أن يعديهم بمرضه، ومن المشهور بين الناس أن جلده تفتّت، ولحمه اهترأ... ونعلم من القرآن من الآية التالية أنّه تعرّض لمشكلة في أولاده أيضا، وفقد أملاكه...

كلّ ذلك حصل وكان (ع) يتصرّف بشكل عادي مثلما يحصل مع أي إنسان عادي، فنحن نضع في بالنا أنّه نبيّ ومتميّز عنّا بالنبوّة، وننسى أنّ تميّزه عنّا أوّلًا بقلبه السليم، بفكره ونفسيته، وبطاعته لربّه سبحانه، وبعد ذلك تميّز بالنبوّة فصار يصله نبأ منه تعالى، حيث حصل معه كل هذا الضرر ولم يتصرّف ليحلّ مشاكله بالطريقة "السحرية" التي نحن نخترعها في وهمنا للأنبياء حين نفترض أنّهم يرون الملائكة (ع) يوميًّا، ولديهم سيطرة على الكون، وبكلمة واحدة يمكنهم أن يفعلوا ما يريدونه... لا، إذ حاول (ع) إصلاح أموره بالطرق العادية التي نحاول فيها نحن إصلاح أمورنا، وحاول التداوي بما هو معروف في عصره... ولكن محاولاته فشلت، ووصلت أموره إلى أسوأ ما يكون... حيث بقيت زوجته تعمل لتؤمّن للنبي(ع) الدواء والطعام، وهذا شيء مشهور بين الناس ونستظهره من القرآن من تفسير الآية 44 من سورة ص {وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ}... حيث يقولون إنّ زوجته في فترة ما لم تجد عملا، فقصّت شعرها وباعته، فمن بعد كلّ العزّ الذي كان فيه من ثياب وحليّ، لم يبق معها إلا شعرها لتبيعه وتطعم زوجها، كما قالوا، وعندها وكما ترى، انتهت كل الوسائل المعروفة المتاحة للتخلّص من المحنة، عندها طلب النبي أيوب(ع) من الله سبحانه التدخّل.

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ{84})

{فَاسْتَجَبْنَا لَهُ}، حقّقنا له ما طلبه منّا، {فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ}، كان الضرّ يغطّيه فرفعناه عنه، وشفي من مرضه، {وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ}، الأشخاص الذين كانوا ينتمون إليه، والمقصود أولاده الذين لا يبدو صريحا من الآيات ماذا جرى معهم، ونحتمل أنهم مرضوا أو تشرّدوا أو... ورجعوا، {وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ}، حيث أنجب أولادا آخرين من جديد بعدد أولاده الذين فقدهم ورجعوا، وكل ذلك حصل معه، {رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا}، عنايةً من عنده تعالى لما فيه مصلحة عبده، وفعلنا ما فعلناه له ليكون {ذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}، فكلّ من يعتبر نفسه ويتصرّف على أساس أنّه مملوك كعبد له تعالى، فهذه القصّة تجعله يستحضره تعالى بصفاته وأفعاله في فكره ومشاعره.

نلاحظ أن السورة في أساسها تتوجّه لتصحيح عقيدة الشرك، ولكن وكما هو واقع الحال، المؤمن هو الذي يهتمّ بقراءة هذه الرسالة الإلهية، وضمنها هذه السورة، وفي مقابله المشرك الذي لن يهتمّ بما يسمعه من كلام عن آيات إلهية، فتكون الآيات حجّة على المشرك على أساس أنها لفتت انتباهه إلى ما يعلمه أو أخبرته بما لا يعلمه ليلتفت... وتكون {ذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ} للمؤمن الذي يستحضرها في فكره ونفسيته ويرى أفعاله تعالى...

قصّة النبي أيوب(ع) الذي نال عناية إلهية أعادت له حياته بأفضل مما كانت، هي نموذج للعابدين حتى يروا قيمة توحيد عبادتهم له تعالى، ويتأكّدوا أنّ إلههم متابع لهم وفاعل لما يريد، والآلهة التي اخترعها الناس لا تضر ولا تنفع من حيث تدخلها الفعلي في حياة الناس...

إذن، وكما نبّه القرآن دائما، علينا باستعمال كل الوسائل المتاحة والتوكّل عليه تعالى، ولا يوجد شيء ديني "سحري" يحقّق مطالبنا كلما أردنا، لا ندرس ونريد النجاح، ولا نعمل ونريد الثروة، ونرتكب السيئات ونريد العناية الإلهية أن تلازمنا وتكون رهن إشارتنا... ونملك مالاً يكفينا لسنوات ونطلب مزيدا من المال!.. فها قصّة النبي أيوب(ع) فيها الجواب عن كلّ ما يخطر ببالنا من مشاغل ومشاكل وضرر الدنيا.

مضافاً إلى ذلك وربطاً مع محور السورة حول الذين طلبوا تميّز الرسول محمّد (ع) بآية حتى يتميّز عن البشر ليؤمنوا به، هي ترينا نموذجا بشريا عن مؤمن من الدرجة العالية، تعرّض لأشد المحن، وخلالها بقي مؤمنا، ولم يطلب آية ليؤمن، ولم يكن متميّزا عن بقية البشر لأنه بشري مثلهم، وتدخّل سبحانه فحسّن أحوال عبده، وهكذا ترى خليطاً مترابطاً ومتشعّباً من العبر من هذه القصّة لتربطه بمحور السورة.

(وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ{85})

{فَاسْتَجَبْنَا لَهُ}، حقّقنا له ما طلبه منّا، {فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ}، كان الضرّ يغطّيه فرفعناه عنه، وشفي من مرضه، {وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ}، الأشخاص الذين كانوا ينتمون إليه، والمقصود أولاده الذين لا يبدو صريحاً من الآيات ماذا جرى معهم، ونحتمل أنهم مرضوا أو تشرّدوا أو... ورجعوا، {وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ}، حيث أنجب أولاداً آخرين من جديد بعدد أولاده الذين فقدهم ورجعوا، وكل ذلك حصل معه، {رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا}، عنايةً من عنده تعالى لما فيه مصلحة عبده، وفعلنا ما فعلناه له ليكون {ذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}، فكلّ من يعتبر نفسه ويتصرّف على أساس أنّه مملوك كعبد له تعالى، فهذه القصّة تجعله يستحضره تعالى بصفاته وأفعاله في فكره ومشاعره.

نلاحظ أن السورة في أساسها تتوجّه لتصحيح عقيدة الشرك، ولكن وكما هو واقع الحال، المؤمن هو الذي يهتمّ بقراءة هذه الرسالة الإلهية، وضمنها هذه السورة، وفي مقابله المشرك الذي لن يهتمّ بما يسمعه من كلام عن آيات إلهية، فتكون الآيات حجّة على المشرك على أساس أنها لفتت انتباهه إلى ما يعلمه أو أخبرته بما لا يعلمه ليلتفت... وتكون {ذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ} للمؤمن الذي يستحضرها في فكره ونفسيته ويرى أفعاله تعالى...

قصّة النبي أيوب(ع) الذي نال عناية إلهية أعادت له حياته بأفضل مما كانت، هي نموذج للعابدين حتى يروا قيمة توحيد عبادتهم له تعالى، ويتأكّدوا أنّ إلههم متابع لهم وفاعل لما يريد، والآلهة التي اخترعها الناس لا تضر ولا تنفع من حيث تدخلها الفعلي في حياة الناس...

إذن، وكما نبّه القرآن دائماً، علينا باستعمال كل الوسائل المتاحة والتوكّل عليه تعالى، ولا يوجد شيء ديني "سحري" يحقّق مطالبنا كلما أردنا، لا ندرس ونريد النجاح، ولا نعمل ونريد الثروة، ونرتكب السيئات ونريد العناية الإلهية أن

تلازمنا وتكون رهن إشارتنا... ونملك مالاً يكفينا لسنوات ونطلب مزيداً من المال!.. فها قصّة النبي أيوب(ع) فيها الجواب عن كلّ ما يخطر ببالنا من مشاغل ومشاكل وضرر الدنيا.

مضافاً إلى ذلك وربطاً مع محور السورة حول الذين طلبوا تميّز الرسول محمّد (ع) بآية حتى يتميّز عن البشر ليؤمنوا به، هي ترينا نموذجاً بشرياً عن مؤمن من الدرجة العالية، تعرّض لأشد المحن، وخلالها بقي مؤمناً، ولم يطلب آية ليؤمن، ولم يكن متميّزاً عن بقية البشر لأنه بشري مثلهم، وتدخّل سبحانه فحسّن أحوال عبده، وهكذا ترى خليطاً مترابطاً ومتشعّباً من العبر من هذه القصّة لتربطه بمحور السورة.

(وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ{86})
{وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا}، الثلاثة الذين سبق ذكرهم مع من سبقهم من مؤمنين أدخلهم تعالى في عنايته الخاصّة لما فيه مصلحتهم، {إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ}، فسبب دخولهم في الرحمة الإلهية الخاصّة أن أعمالهم وأفكارهم كانت صالحة جيّدة، ولذلك نالوا رحمته الخاصّة سبحانه.

(وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ{87})

ننتقل الآن مع التدرج في السورة من الصبر العالي للنبي أيوب(ع) وللثلاثة "إسماعيل وإدريس وذي الكفل" الذين يشبهونه في الصبر، ننتقل إلى حالة لن يُخْفِيَهَا تعالى أو يتجاهلها، وهي حالة شخص ذي قلب سليم موحّد عامل للصالحات، ولكن في مسألة ما تصرّف بشكل غير مقبول، فافهم الكلام عنه مثل كلام بعض السور عن المشركين الذين قالوا عن الملائكة أو غيرها أنّهم أولاد له تعالى... وتعريج السور بعد ذلك للكلام عن منتمين لدينه تعالى فعلوا نفس الشيء بقولهم عن النبي عيسى(ع) أنّه ولد له تعالى، وطبعاً تردّ السور على عقائد المشركين وتبيّن أن المنتمين بالاسم لدينه تعالى الناسبين له تعالى ولداً انحرفوا وصاروا متشاركين مع المشركين في هذه المسألة، فسبحانه في القرآن يتناول كل الأمور بشفافية، وهنا نفس الشيء، فلو لم يغضب النبي يونس(ع) ويبتعد عن قومه، لربما اختاره تعالى ليذكره في السورة هنا مع الصابرين، ولكنه لم يصبر، وهذه حالة فريدة بين ذوي القلوب السليمة...

{وَذَا النُّونِ}، المنتسب للسمكة الكبيرة "الحوت"، وهو النبي يونس(ع) الذي ابتلعه الحوت فصار بينه وبين الحوت قصّة، ولقّبته الآية بذي النون، بالمنسوب للسمكة الكبيرة "الحوت"، {إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا}، فلم يصبر بل أصابه الغضب فلم يمرّر ما حصل معه وردّ بقسوة.

من القرآن نعلم أنّ قومه لم يؤمنوا، فخرج النبي يونس(ع) من قريتهم على أساس أنّ العذاب سينزل عليهم، ولكنهم حينما رأوا علامات عاصفة قادمة، وعلموا أنها العذاب الذي وعدهم به النبي يونس(ع)، واستغفروا... ورفع سبحانه العذاب عنهم، راجع الآية 98 من يونس {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}، واعتبر النبي يونس(ع) أنهم لا يستحقّون المغفرة... فذهب عنهم مغاضباً فردّ على ما حصل تاركاً قومه وتاركاً وظيفته كرسول لهم...

{فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ}، عن علم غير صحيح اعتقد بأننا لن نضيّق عليه، واعتقد بأننا سنتركه بلا حساب على غضبه... حيث ابتلعه الحوت كما ورد في الآية 142 من سورة الصافات {فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ...} وبقي حيّاً، وعلم أنّه يتعرّض لعقاب إلهي على ما فعله... {فَنَادَى}، توجّه بالكلام إليه تعالى وهو، {فِي الظُّلُمَاتِ}، في عتمات جوف الحوت حيث لا يرى أي بصيص ضوء نهائياً، فنادى: {أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ}، فإن كانت تصرفاتي الغاضبة تشابه تصرفات من لا يعتقد بك ككائن بصفات وقدرات فائقة، أو تُشْبِهُ تصرفات من يشرك بك، أو تدل على أني لم أحترم مكانتك، فها أنا أعلن باعتقادي دائماً أنّك وحدك الإله، وحدك ذو الصفات والقدرات الفائقة، وحدك المسيطر، وحدك الحكيم العليم... حين قرّرت رفع العذاب عن قومي، {سُبْحَانَكَ}، أُنَزِّهُكَ عن أي صفة لا تليق بك، فأنت العالم الحكيم... فاعتراضي الذي يبدو من غضبي عن رفعك العذاب عن قومي لم يصدر منّي لأني أعتقد أنك أخطأت في رفع العذاب عنهم، {إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}، فلم يكن معي حقّ بغضبي وذهابي عنهم، ولم يكن معي حقّ بغضبي حين ارتفع العذاب عنهم.

كما يبدو من الكلام، كانت كلّ الفكرة في بال النبي يونس(ع) أنّ قومه يستحقّون نزول العذاب وإهلاكهم، وأنّ استغفارهم في آخر لحظة ما هو إلا تمثيلية نجّتهم من العذاب الإلهي، فغضب لأنه وبحسب معرفته بهم، فهم لا يستحقون إلّا العذاب والهلاك، وفي السابق لم يحترموه وهو يدعوهم إلى الإيمان، والآن إن رجع إليهم بعد إلغاء نزول العذاب عليهم فبالتأكيد لن يحترموه حيث طلب العذاب لهم! وسينظرون إليه كالمَبْخُوع... وأكثر من ذلك، بل يفكّر النبي(ع) أنّهم بعد أن رفع تعالى العذاب عنهم فما هي إلا مسألة أيام حتى يرجعوا كما كانوا، وسيبدأ معهم من جديد بإنذارهم... وفي الأخير سينزل عليهم العذاب مرّة ثانية... ويقومون بخدعة مسرحية الاستغفار مرّة ثانية... هذه احتمالات الأفكار التي يخطر ببالي أنّها دارت في فكر النبي(ع) وجعلته يغادر قومه مغاضباً.

لا تَنْسَ أنّه كان (ع) يجب عليه العودة إليهم ليهديهم، حيث أعلنوا استغفارهم حين رأوا العذاب، وهذه أساساً كانت المهمّة الأولى له معهم، والمهمّة الثانية أن يوضّح لهم العقيدة والشريعة الصحيحة، ولكنّه غادر وابتعد بعد أن آمنوا! ومغاضباً!

ننتبه، قد نقيس بعض أفعال الأنبياء على أنفسنا، وندّعي أنّنا كنّا سنتصرّف أفضل منهم لو كنّا مكانهم، وهذه المشكلة الاستهتارية فينا تنبع من فكر ومشاعر ضبابية غير مدروسة، إذ ترى شخصاً لا يلتزم بالصلاة كما يجب، ولا يلتزم بالسترة والحشمة، ولم يترك الغيبة والكذب والمبالغة... ويتعامل بالربا والغش والاحتيال... ويقول الشيء ونقيضه بعد قليل... ولا تأخذ منه حقّاً ولا باطلاً بل يركب رأسه ويتمسّك برأيه... فنحن وبكل سهولة واستهتار سننسى كل عيوبنا، وندّعي أنّنا لو كنّا مكان النبي يونس(ع) لما غضبنا، ولرجعنا إلى قومنا! بينما إذا مرّ بقربنا شخص شارد الذهن ولم يُلْقِ علينا التحية، فلا نعذره ونعتبرها إهانة لا تغتفر، ونقاطعه...

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ{88})
{فَاسْتَجَبْنَا لَهُ}، حقّق تعالى ما طلبه حين نادى معترفاً بظلمه، {وَنَجَّيْنَاهُ}، خلّصناه، {مِنَ الْغَمِّ}، من الشعور المزعج الثقيل بأنّه يتعرّض للعقاب لأنّه أغضبه تعالى، حيث قذفه الحوت على الساحل بعد عدّة أيام من ابتلاعه، وراجع في ذلك الآية 145 من سورة الصافات {فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ}.

{وَكَذَلِكَ}، وبهذا الذي ذكرناه من استجابتنا وتخليصنا، كذلك {نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}، نخلّص المعتقدين بنا.

نتذكّر أنّ السورة هنا تركّز فيما تركّز على التدخّل الإلهي كآيات توحيدية... في مقابل آلهة المشركين التي لا دليل عليها ولم تفعل شيئاً عبر التاريخ الطويل... وهنا لدينا يونس (ع) حيث رآه من كان معه على السفينة حين ابتلعه الحوت، راجع الآية 141 من سورة الصافات {فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ}، ومن الطبيعي أنّهم أخبروا الناس بما حصل ووصل الخبر إلى قومه، وبعد مدّة عاد إليهم سليماً...

بقي شيء، هل البقاء حيّاً في بطن الحوت أمر عادي؟ وهل أي إنسان سيبتلعه الحوت "إلى جوف بطنه أو يبقيه في فمه" سيبقى حيّاً؟ لا، حيث بشكل إعجازي تدخّل سبحانه وأبقاه (ع) حيّاً في بطن الحوت، ووصف القرآن للحالة بالالتقام والبطن يحتمل بقاءه (ع) في فم الحوت أو دخوله إلى معدة الحوت. وهذا الكلام موجّه للمتفلسفين الذين يقولون إنّه يستحيل "أو من شبه المستحيل" البقاء حيّاً في بطن الحوت "في معدته أو فمه"، وهذا معلوم وإلّا لما كان ما حصل معه (ع) آية، كدليل على تدخّله سبحانه.

هذه القصّة منتشرة في مختلف الثقافات عند غير المنتمين لدينه تعالى، حيث تجدها بنسخ مختلفة في الشرق الأقصى والأدنى... عند البوذيين وبقية الأرواحيين... مما يدل على أنّ أصلها من تراث دينه تعالى، وبعد ذلك تناقلها الناس وتحوّرت بما يناسب ثقافتهم، ونفس الشيء حصل أيضاً مع قصّة الطوفان التي تجدها منتشرة في مختلف الثقافات على الأرض عند غير المنتمين لدينه تعالى.

للأسف، رغم ورود هذه القصص في تراث المنتمين لدينه تعالى منذ القدم، وقبل تداولها في تراث الآخرين، إلّا أنّ العلمانيين ممن يسمّون أنفسهم بالباحثين، يتعامون عن هذه الحقيقة ويقولون إنّ المنتمين للدين الإبراهيمي أخذوا هذه القصص من المشركين وحوّروها، بينما العكس هو الصحيح.

آية المكوث في بطن الحوت الغريبة، تأخذك كمؤمن إلى تدخّله تعالى بما يراه مناسباً وبسهولة بتغيير خصائص الأشياء والظروف كما يريد، والآخرون المعتبرون لهذه القصص أنّها أساطير لأنّها غير معقولة، نرجع بهم إلى أول السورة، فهم هؤلاء أنفسهم لو جاءهم رسول ينقل لهم كلامه تعالى، لرفضوا الإيمان به وطلبوا آية، ما هي الآية التي سيطلبونها؟ أليسوا يطلبون شيئاً غير معقول أن يحصل؟ لِمَاذَا حين ينقل لهم تعالى أخباراً عن أمور غير معقولة وحصلت، وأنّها آية، لماذا لا يصدقونها؟ ولمزيد من التوسع عن ذلك راجع دراسة الآية 59 من سورة الإسراء {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا}.

(وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ{89})
ننتقل إلى شخص آخر كان يشعر بأنه في غمّ، واستجاب سبحانه له:

{وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ}، توجّه بكلامه نحو المسؤول عنه من مستوى إلهي:

{رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {لَا تَذَرْنِي فَرْدًا}، لا تتركني وليس معي أحد، وأنت تعلم أنه (ع) طلب أن لا يتركه سبحانه بلا أولاد، {وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ}، حيث أنا أريد ولدا حتى يرثني فينتقل ما معي إليه، ولكني إن أنا متّ ولم يكن عندي أولاد، فأنت سبحانك ترث الجميع، {وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ}، وهذا واقع حال كل المخلوقات التي لا تملك أي شيء بشكل مستمر لأنها كلّها ستموت "في الدنيا" وأنت الباقي فتعود إليك ملكية كل شيء من المخلوقات حين يموتون.

نتذكّر أن النبي زكريا(ع) لم يكن عنده أولاد لأن امرأته عاقر، وصار شيخا هرما، وهو طوال عمره كان صابرا ولم يطلب التدخّل الإلهي، وراجع في ذلك أول سورة مريم، وحاول طوال تلك السنين معالجة عقم امرأته بالطرق التي يعرفها، ولم ينجح، وأخيرا توجّه نحوه سبحانه بالطلب، وبكل أدب، واستعمل العبارات التي تدل على خوفه من أن يكون طلبه للولد فيه أي نوع من قلّة الأدب، فبكل احترام طلب منه تعالى الحصول على ولد.

لاحظ من عموم الآيات القرآنية التي نقلت كلام النبي زكريا(ع) عن رغبته ليكون عنده ولد، حيث عرض (ع) تبريرات لطلبه الولد من الله تعالى، وأشار في ندائه أنه حتى لا ينقطع نسل هذا الفرع من بني يعقوب(ع) فيأتي من يرثه من بعده ويستمرّ هذا النسل... بهذا الولد، حتى يكون هذا الولد نبيا ويهدي قومه... وفي نفس الوقت لا يريد (ع) أن يبدو كأنّه يفهم بمصلحة قومه أكثر منه سبحانه وتعالى، فلا يريد أن يبدو وكأنه يقترح عليه تعالى شيئا لم ينتبه له سبحانه، ولا يريد أن يبدو أنه يحبّ الولد أكثر مما يحبّه تعالى...

ننتبه دائما، حيث إن الأنبياء لا يدعون مثلما نحن ندعو، نحن دائما لدينا طلبات دنيوية نريدها أن تتحقّق، أمّا النماذج الراقية من المؤمنين، فيعملون ويتوكلون عليه تعالى ولا يطلبون منه "على الرايح والجاي" أمورا عائلية ومالية وصحيّة وتجارية وأمنية... ولا يتعاملون معه سبحانه من خلفية عقلية التعامل مع جنّي الفانوس السحري الخرافي، بل يحمدونه على كل حال لأنه تعالى حميد فلا يفعل إلا الخير، ويشعرون بأنه تعالى يراهم، وما يجري معهم من سوء فهو ناتج من أفعال البشر ومن الظروف في بيئة بلوى... وبعينه تعالى يجري ما يجري، وتحت مراقبته، وسيجعل سبحانه الأمور تسير بما يراه هو تعالى مناسبا، وهم يثقون به... ويمكنك مراجعة سورة يوسف التي ركّزت على هذا مطولا في نموذج قصة حياة النبي يوسف(ع) التي تدخّل سبحانه في مجرياتها بحيث تبدو الأمور تجري بشكل طبيعي بينما هي تجري بما رسمه تعالى... وفي بعض الأحيان، ومثلما قرأنا قبل قليل من قصّة النبي أيوب(ع)، وهنا في قصّة النبي زكريا(ع)، وحين تغلق كل الطرق المعروفة، نهائيا، عندها وبكل خجل، وبكل خوف من أي قلّة أدب، يطلب المؤمنون من الدرجة العالية أن يتدخّل سبحانه...

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ{90})
{فَاسْتَجَبْنَا لَهُ}، سمع سبحانه طلبه (ع) وحقّقه له، {وَوَهَبْنَا لَهُ}، وأعطيناه من دون مقابل، {يَحْيَىٰ}، {وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ}، التي كانت عاقرا وأنجبت يحيى، {إِنَّهُمْ}، زكريا وزوجته، {كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ}، كانوا لا يهملونه

ولا يتباطؤون عن أي عمل خير "حسن، جيّد"، هم عند أول فرصة مناسبة يقومون بالخير، وانتبه فالآية لا تأمرك أن تسرع أو تتسرّع، بل تأمرك أن تسارع، فعندما يتاح لك فعل الخير لا تهمل ولا تتباطأ، ولا تتهور أو تتصرف بدون تفكير.

{وَكَانُوا يَدْعُونَنَا}، يعلنون لنا ويشهرون لنا، {رَغَبًا}، يرغبون بشيء، وأعلى ما يرغبه المؤمن هو رضاه تعالى والجنّة، {وَرَهَبًا}، ومع شعور شديد بأننا فوقهم بالقدرة والسلطة، {وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}، حيث يشعرون بضعفهم بسبب فقدانهم للقدرة أمام قدراته تعالى.

يعني، لم يستجب تعالى لزكريا(ع) وهو لا يستحقّ، حيث نحن في نظرنا تبدو مسرحية، بين نبي ومن نبّاه، فالنبي ينزل عليه الوحي ويتواصل معه تعالى، فلا غرابة إن طلب منه تعالى ولدا في مرّة من مرّات التواصل، بل الغرابة أن لا يعطيه سبحانه الولد من دون أن يطلب! هذه الأفكار هي الغالبة على فكر عموم الناس حتى الذين يقرؤون القرآن من المؤمنين، لأننا لم نفهم أن هؤلاء الأشخاص سلوكهم وفكرهم من مرتبة عالية، وأن حياتهم العادية مثل حياتنا، وأن الملائكة ليست تحت أمرهم، بل لتوصيل الأمور الإلهية الضرورية للناس، والضرورية فقط، ولا ينزل الوحي كل يوم عليهم، إذ نحن نتصوّر النبي كمن يحمل هاتفا بيده، ويتصّل بالإله سبحانه وتعالى في أي ساعة يشاء... وبعضنا يتصوّر للأنبياء سلطة كونية ليفعل ما يشاء فيقول للشيء كن فيكون... وهذه التصورات تمنعنا من فهم ما يقوله القرآن عنهم، وبالخصوص ما تقوله السورة هنا، والتي ركّزت على شخصية هؤلاء النماذج الراقية ولم تصفهم بأنهم أنبياء حتى تبقى صورتهم البشرية واضحة لنا، وأن نبوّتهم ليست ميزة زائدة بل نابعة من تأهلهم بسلامة قلبهم ليتواصل معهم تعالى فيما يراه مناسبا.

(وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ{91})
ننتقل إلى نموذج طاهر آخر حصل على ولد:

{وَالَّتِي أَحْصَنَتْ}، صانت ولم تعرض، {فَرْجَهَا}، العضو الذي يحصل عبره الحبل، واضح جدا أن السيدة مريم(ع) هي المقصودة، وكما هو معلوم فهي لم ترتكب الحرام الجنسي ولم تكن متزوّجة بالحلال أيضا حين حصلت الحادثة، وعلى كلا الحالتين أحصنت نفسها ولم تعرض نفسها على أي رجل لا بالحلال ولا بالحرام، {فَنَفَخْنَا فِيهَا}، جعلنا في داخلها، {مِنْ رُوحِنَا}، من شيء صاف منّا، حبلت بولد بطريقة غير عادية ولم تعاشر رجلا لتحبل، بل بشيء صاف منه تعالى تشكّل جنين في بطنها.

{وَجَعَلْنَاهَا}، مريم(ع)، {وَابْنَهَا}، عيسى(ع)، {آيَةً}، شيء مميّز، {لِلْعَالَمِينَ}، لكل الناس. فهي حملت بتدخّل إلهي، ونطق ابنها وهو في المهد، وعندما كبر ابنها صدرت منه أعمال كانت آيات باهرة لكل الناس، حيث أحيا بعض الموتى وشفى المرضى...

نلاحظ أن القرآن كرّر الكلام كثيرا عن طهارة السيّدة مريم(ع) لأن اليهود في عصرها وما بعده إلى عصرنا لا يزالون يتهمونها بالزنا رغم كل ما ظهر من ابنها من معاجز خارقة باهرة تدل على أنّه ترافقه العناية الإلهية بشكل غير عادي وبالتالي فأمّه طاهرة، ولمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 21 من سورة مريم {قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا}.

لاحظ كيف تدرجت الآيات من نموذج راق لآخر حتى وصلت إلى السيّدة الطاهرة مريم(ع)، والتي يظهر بوضوح تدخّل الإله سبحانه وتعالى في حياتها، فهل هناك إله من آلهة المشركين المزعومة، وله تاريخ مع الناس مثل هذا التاريخ؟

بالنسبة لتعبير "روحنا" فهو يشبه تعبير: عبدنا. ومثلما نفهم أنها تشير للعبد للمخلوق الذي خلقناه نحن ونملكه نحن، كذلك التعبير "روحنا" فهو يشير لمخلوق من روح نحن خلقناه، وإضافة الروح للإله سبحانه لا تعني أنه جزء أو قسم أو من روح الإله عزّ وجلّ، لا، بل تعني أنه مثل التعبير بعبدنا وكمثال عنه ما ورد في الآية 23 من سورة البقرة {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا...}، وروحنا نحن جعلناها روحا، حيث جعلنا شيئا صافيا يسبب الحياة في بطنها

لتنجب ولدا، ومثلها نسبة الرزق له تعالى بتعبير "رزقنا" الوارد في الآية 54 من سورة ص {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ}.

الروح ككلمة عربية معناها: الشيء الأساسي الخالي من الإضافات، الجوهر، "الإسانس". درج أن يقول العرب قديما "وحديثا" عمّا ينتج من عملية تقطير السوائل: روح العنب، روح الزهر، روح النعناع... وهو وصف بالروح للشيء الصافي من العنب من الزهر من النعناع... ومنه وصف بعض المشروبات بأنها مشروبات روحية على أساس أنها نتجت من التقطير الذي يصفّيها من الشوائب. وبناء عليه الروح التي نفخها تعالى في آدم(ع) والروح الذي نزل بالوحي وروح العنب... ليسوا نفس الشيء، لأن الروح وصف لحالات مختلفة ينتج عنها آثار مختلفة.

في كلام القرآن الواصف لخلقة آدم(ع) أقصى ما يمكن أن تستوحيه من سياق الكلام عن نفخ الروح فيه(ع) والوارد في الآية 23 من سورة الحجر {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}، إشارتُها إلى ما جعل آدم(ع) قابلا للتكليف بالأوامر الإلهية، وهذا عنوان واسع يفتح الافتراضات الكثيرة تحته، لتقول ربما هي الحياة وربما الفكر وربما برمجة الدماغ وربما المشاعر الإنسانية... ربما شيء نزل من عنده تعالى... حتى إن بعضهم في أدبياته الدينية أو الفلسفية يقول إن الروح منه تعالى "كشيء" منه عزّ وجلّ...

في كلام القرآن عن وصف الملاك النازل بالوحي بأنه روح، كما ورد في الآية 193 من سورة الشعراء {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ}، أقصى ما يمكن أن تستوحيه من سياق الكلام أنه يشير بوصف الروح إلى كائن بقدرات وصفات عالية جدا عن بقية الملائكة(ع) لأنه روح.

في وصف حبل السيدة مريم(ع) كما في الآية هنا يشير سياق الكلام إلى خلق بذرة جنين في بطنها، وفي وصف النبي عيسى(ع) بالروح مع نسبة الروح له تعالى والوارد في الآية 171 من سورة المائدة {... إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ...}، هذا يشير إلى خلقه (ع) بشكل متميّز عن الآخرين بدون أب، وأنه (ع) ليس إلها. وما ورد في الآية 9 من سورة السجدة عن الروح في مرحلة من خلق الإنسان {ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}، تكملة الكلام توحي بأن الروح وصف حالة لما قبل أن يصير فينا السمع والبصر والفؤاد، والآية غير صريحة في أن الروح هي سبب هذه الميزات، لأن سياق كلامها يشير لكون الروح مجرد مرحلة من خلقتنا، ومع مجموع ما نتكون منه بجسدنا ومما هو موصوف بأنه "روح" يصير فينا السمع والبصر والفؤاد.

يعني الروح وصف لعموم أي شيء صاف، وتختلف الأشياء الموصوفة بالروح حيث إن بعضها من سائل صاف كروح النعناع، وبعض يتعلّق بالطين كروح البشر، وبعضها يتعلّق بما تتكوّن منه الملائكة... وبالتالي الخصائص لما هو موصوف بالروح مختلفة عن بعضها.

هذا كل ما ورد في القرآن عن الروح، ومنه ترى أن البحث في معنى كلمة روح "فيما يتعلّق بالإنسان" ما يزال مفتوحا على احتمالات عديدة، فهي خبر منه تعالى لوصف شيء فينا، وتعرفه بسهولة الفرق بين كومة تراب وبين إنسان، كلاهما فيهما نفس المواد، ويختلفان بالتركيب بأشياء عديدة منها ما يسمّى بالروح. وقديما انتقل هذا الخبر عن الروح من كلامه تعالى إلى عموم الناس، ودخل في ثقافتهم، وبحثوا فيه وكان لهم آراء عنه من خلفيات عقائدية وفكرية وعلمية... مختلفة، وكانت نتائجهم مختلفة، وتراكمت تلك المعلومات وتداخلت مع مسألة الحياة والموت، والوعي والفكر والذاكرة، وإعادة خلقنا في الآخرة وإعادة الحياة إلى الجسد هنا... وما يشكّل حقيقة كياننا على أساس أن جسدنا مجرد وعاء للروح والنفس، وأن الروح هي ما يميّزنا عن بقية الكائنات... وبشكل أو بآخر ترسّخت هذه الأفكار فينا حتى صارت ملتصقة بالروح ونريد أجوبة عنها من الكتب الدينية.

الكلام يجرّ الكلام، انتبه جيدا لما سأقوله ولا تتسرّع في الحكم عليّ بالسوء، حتى كلام النبي محمّد(ع) الذي استعمل فيه كلمة روح ونفس، هو كلام عامّة الناس من حوله، وهي ثقافة عامّة الناس حتى المشركين منهم، وكلهم يقولون إن الذي مات زهقت روحه، ومن بعد ذلك يقول بعض المشركين إن للأرواح عالماً... وبعضهم يقول إن الموت هو هلاك للروح أيضا وهو الانتهاء تماما ولا يبقى شيء منّا إلا جسدنا الميّت... أمّا المنتمون لدينه تعالى فلديهم أدبيات متماشية في بعضها مع أدبيات عامّة الناس، كجملة: مات وخرجت روحه.

انتبه إلى أن القرآن لم يستعمل هذه التعابير التي استعملها النبي محمّد(ع) في كلامه. ولست بذلك أعيب على النبي(ع) بل أريك الفرق بين كلام الإله سبحانه الواصف للأشياء بدقة، وبين تعابير البشر المتساهل فيها والمبنية على معطيات وتراكمات...

لولا هذا الفرق الهائل بين كلامه تعالى في قرآنه وبين كلام رسوله محمّد(ع)، لكان لدينا شكّ في أن هذا القرآن من تأليف محمّد(ع)، طبعا أرانا القرآن العديد من الأدلة على إلهية مصدره، ولكن لو تشابه كلام القرآن مع الكلام العادي للرسول (ع) في خطبه وكلامه مع الناس، لكان الشكّ سيتسرّب إلينا... ولكن واحداً من أهم الأدلة على إلهية مصدر هذا القرآن هو الفرق الهائل بينه وبين كلام الرسول محمّد(ع) من حيث تناول المواضيع وتركيب العبارات والدقة في استعمال الكلمات... ومنه الفرق في عدة مسائل منها طريقة كلام القرآن عن الروح، وطريقة كلام النبي محمّد(ع) عن الروح.

كما ترى، المشكلة في تعاطينا مع الكثير من الأمور التي نعتبرها "دينية" وأن جوابها موجود حصرا في القرآن، أو في الكتب الدينية، علما أن كلامه تعالى كان صريحا معنا، كتبه سبحانه مخصصة للهداية، وكلامه تعالى فيها من نظرته الإلهية للأمور، ومبسط إلى أقصى ما يجعلنا نفهم الكلام بما يتحمّله فهمنا ولغتنا مع الحفاظ على مصداقية ما يقوله تعالى بالدقّة في التوصيف. ومن هذه النظرة سترى أن كلامه تعالى عن أمور تتعلّق بمراحل خلق ما في الدنيا والكائنات والظواهر، لم يقصد منه سبحانه إلا الهداية، إلا لفت انتباهنا لعظيم صفات وقدرات من صمّم وخلق ما في هذه الدنيا، وبالتالي وعوده سبحانه عن الآخرة صادقة... ولم يقصد سبحانه من الكلام عن خلق ما في الدنيا أن تكون أخبارا كأخبار كتب ومجلّات العلوم الأكاديمية.

خذ مثلا نزول الماء، قديما الغالبية من المؤمنين فهموا كلامه سبحانه عن نسبة نزول الماء له تعالى بسذاجة وطفولية، على أساس أنه وبدون سبب يأمر سبحانه الغيمة فينزل منها المطر، وبناء على نفس هذه السذاجة اخترع بعض الناس إلها للمطر! وأنت تعلم الآن آلية نزول الماء من تبخّر وتكاثف واختلاف الشحنة والحرارة بين الغيوم... أو من الغبار في الجو... وبسببها يتساقط المطر. وبناء عليه صرت تفهم أنه تعالى مسؤول عن نزول الماء لأنه هو سبحانه صمّمها وخلق البيئة التي ستحصل فيها، وتفهمها بعمق أكبر أنه سبحانه في كل لحظة يسيطر على كلّ شيء ولن يحصل أي شيء إن لم يسمح سبحانه بحصوله، وراجع في ذلك دراسة الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ...}، على كل حال ومن أي عمق نظرت للموضوع، وربما أخطأت في فهمك وربما أصبت وهذا بحث آخر، ولكن على كل حال بدأت بمقاربة الموضوع مرتفعا عن الطفولية والسذاجة وصرت تربط الأمور بأسباب... ونفس الشيء عن تحريكه سبحانه للرياح، وللسفن، وخروج الزرع... ففي كلامه تعالى تراها أعمالاً منسوبة له سبحانه.

الآن ننتقل إلى الأمور الجدلية لترى أنها نفس الشيء وليست مختلفة، في موضوع خلقتنا فهم المؤمنون القدماء كلامه سبحانه بسذاجة طفولية حيث فهموه أنه تعالى عجن شكل تمثال من الطين ونفخ الروح فيه ليصير حيا واسمه آدم، ولمّا لم يجدوا في كلامه تعالى شيئا يشير إلى خلق زوجة لآدم(ع)، ووجدوا تعابير مشابهة لما ورد في الآية الأولى من سورة النساء {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا...}، فسروه كخلق لزوجة آدم(ع) منه، من ضلعه... ولمّا لم يجدوا ما يفسّر وجود بقية الحيوانات، تاهوا... وراجع في دراستنا هذه مختلف الآيات التي تعرفها عن خلقة آدم(ع) وخلقتنا لترى طرحا ملتزما بكلامه تعالى... علما أن هذه الأخبار منه تعالى عن خلقتنا صحيحة ودقيقة ولكن فهمها يحتاج للالتزام بكلامه تعالى، فكلامه سبحانه المقدّس أمّا فهمنا لكلامه تعالى فشيء مختلف، والمشكلة أننا أدخلنا "فهمنا" لكلامه سبحانه إلى هالة القداسة ليصير كلامنا بمستوى صدقية الكلام الإلهي، وبالتالي يصير كلامنا هو الدين وأي كلام آخر هو الكفر!

الكلام عن الروح نفس الشيء، لو أزلت من القداسة ما تعرفه وما قيل عنها من تراكم موروث الثقافات الدينية، وتركت كلامه سبحانه فقط المقدّس، لرأيت فرقا هائلا بين الكلامين، وأي كلام عن الروح من خارج كلام القرآن ليس مقدسا ولا دينيا، بل مجرد آراء، وإن كنت تعتقد أن الروايات وآراء علماء الدين متفقة على معناها، فدقّق وراجع معلوماتك، لأن مختلف آراء العلماء تذكر لك الروايات التي تؤيّد فكرة ما، ويتغاضون عن الروايات الأخرى التي ذكرت فكرة أخرى مختلفة، أو يرفضون تلك الروايات التي فيها ما يتعارض مع الروايات التي استنسبوها...

ما ذكرته لك في أوّل الكلام عن الروح هو أقصى ما يمكن أن تستوحيه من كلام القرآن، هل هذا قليل وتريد المزيد؟ لا مشكلة، اذهب وفكّر واختبر وقارن... ولكن لا تلصق كلامك بكلامه تعالى، ولا تحصر البحث عنها في كتابه تعالى ولا في الكتب الدينية، إذ لا آلية خلق ما في الدنيا ولا آلية خلق الكائنات والظواهر مذكورة في القرآن، وإنما ذكر سبحانه بعضا من مراحل حدوث هذه الأمور من نظرة إلهية، ولم يذكر آليات وتقنيات تنفيذها بناء على علوم البشر.

في عصرنا يقول الكثيرون "من المرموقين المحترمين" من العلماء، إننا بحاجة إلى قواعد رياضية وفيزيائية جديدة لفهم الكون لأن ما بين أيدينا عاجز عن تفسير عمق الكثير مما نراه... وآخرون يقولون إننا أمام احتمال لبروز علم جديد مختلف عن العلوم التي نعرفها الآن، وهو علم لم يخطر ببالنا ويمكنه تفسير ما نراه في الكون بشكل أفضل مما لدينا من علوم. وبهذا المثال من المفروض أن تلتفت إلى الفرق الهائل بين إله يفعل وبين فهمنا لما فعل، ومهما تعمّقنا وتطورت علومنا، فسيبقى الفرق هائلا بين ما سنفهمه وبين حقيقة فعله سبحانه للأمور، وفي هذه المساحة التي تتطوّر فيها علومنا نمرّ متلمسين روائع بديع صنعه تعالى...

إذن، كلامه سبحانه عن الروح هو مجرد لفت انتباهنا لشيء فينا موصوف بأنه خال من الإضافات، شيء بشكل ما يجعلني مختلفا عن كومة الطين، لأنني من طين من كربون وحديد وكالسيوم وهيدروجين... وهذه المواد فيها خصائص تجعلها تترابط وينتج عنها آثار كيميائية تصير بيولوجية "أحيائية"، وفي مرحلة ما من تكوين الإنسان يصير وصف حالته أن فيه روحاً، أمّا ما هو بالضبط وما أثره؟ فغير محدّد مباشرة وصراحة من كلامه تعالى، إلّا اللهم إن استنتج أحد ما شيئا ولم أطّلع.

هل أصابك الإحباط لأن أسئلتك عن الروح لم تجد جوابها في القرآن؟ انتبه إلى أنه كتاب هداية، تقصّد سبحانه استفزاز الملاحظة فيك لتفكّر وتبحث، حيث أخبرك عن سبع سماوات وما تسمّيه بالكون بتريليونات مجراته ما هو إلا سماء من تلك السبعة، وأخبرك عن الجنّ كمخلوقات واعية مفكرة ولديها غرائز وشهوات... وتكوينها من نار...

للأسف، الخبر الإلهي الاستفزازي لفكرنا عن الجنّ لم يأخذ طريقه الصحيح للبحث فيه، وبقي محصورا في ترهات كتب يقولون عنها دينية أو مستوحاة من الدين الإلهي والقرآن، وللأسف الشديد مستواها الهابط السخيف سخّف معه الدين الإلهي وجعل مسألة الجنّ من ترهات تراث القصص البشرية الخرافية، كالكلام عن حضور أعراس للجنّ والزواج منهم وتحضيرهم بالبخور وتسخيرهم بالعزائم لاستخراج الكنوز من الأرض...

على كلّ حال، مثلما تطوّر فهمنا لكلامه تعالى عن إنزاله سبحانه للمطر، بعد أن فكّرنا وجرّبنا... وما زلنا في طور فهم كلامه سبحانه عن خلق كوننا وخلق الحياة... قد يأتي زمن نفهم فيه المعنى العميق لوصف الروح لنا، أمّا الآن فيبدو أننا ما زلنا في مرحلة السذاجة والطفولية أمام هذا التعبير.

أخيرا لا بد من لفت انتباهك لتاريخ طويل مديد من المعلومات التي خزّنها البشر، ومن دراستها سترى أن العلوم الفكرية البحتة "كالرياضيات" تبقى في الفراغ إن لم نجد لها تطبيقا عمليا، وهناك علوم تستعمل فيها فكرك ولكنها تعتمد على تفكيرك بالتجربة وملاحظة ما تراه، وهي أمور لا يمكن الوصول فيها إلى نتيجة على الورقة والقلم من دون معطيات حسيّة، كالفيزياء والكيمياء والبيولوجيا...وهذا القرآن وصلتنا فيه أخبار عن بعض الأمور التي لا يمكننا أن نتعاطى معها بالتجربة المباشرة، ومشحون ببدائل تشير لأمثال مشابهة لتلك الأخبار جرى اختبارها، وأحيلك إلى الآيات 258 وما بعدها من سورة البقرة كنماذج حسّية من التاريخ عن إعادة خلقه تعالى لنا في الآخرة.

أقول لك هذا لتنتبه إلى أن المطر وجريان السحاب وإنبات الزرع وجريان السفن... التي من الواضح أنها أمور خليط بين الفكر والتجربة لفهم آليات حصولها، كذلك بداية خلقة الكون وخلقتنا والروح... وهذه لا يمكن فهمها إلا بالفكر مع التجربة.

أعيد وأكرّر لك أن القرآن استفز فينا فكرنا وخيالنا في الكثير من المواضيع محفّزا لنا على التفكّر فيها، وخذ الآية الثالثة من سورة الرعد كمثال من عشرات غيرها {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}، والتفت إلى كلامه عن سبع سماوات وعن نفاذنا في السماوات وتعرّضنا لشهب من الملائكة التي تحمي سماء غير سمائنا... كما ورد في الآيتين 33 و 34 من سورة

الرحمن {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ، يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ}، وكلامه عن الجنّ... وكلامه عن الذي أتى بعرش من سبأ برمشة عين كما ورد في الآية 40 من سورة النمل {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ...}، وغيرها من روائع المحفّزات للبحث فيها... والروح ليست مختلفة عن هذه المواضيع، لأنه على الورقة والقلم من دون معطيات حسيّة لن تصل إلى نتيجة في فهم الروح كوصف لشيء فينا.

إذا وضعت هذا في بالك ستنتبه إلى أن أكثر الكلام المنتشر عن الروح ما هو إلا افتراضات "فكرية"، ولا مشكلة فيها كافتراضات ننطلق منها للتعمّق في الحقيقة، ولكن لا تقدّسها، ولا تجعلها دينية، ولا تمنع الآخرين من البحث فيها من خارج القرآن والمصادر الدينية، ولا تستبعد أي فكرة أو بحث معترضا عليها لأنك تراها مخالفة للدين الإلهي، إذ قد تكون هي التفسير الصحيح لكلامه تعالى وقد منعك عن قبوله مخزون تراثك الثقافي الطفولي الساذج.

بالنسبة لموضوع النفس وبداية الحياة وإعادة إحيائنا راجع دراستنا للآية 67 من سورة مريم.

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ{92})

{إِنَّ هَذِهِ}، النماذج من الناس الممتدة عبر التاريخ لآلاف السنين من النبي نوح(ع) وما بعده....، {أُمَّتُكُمْ}، هؤلاء كانوا منتسبين لرأي رئيسي أساسي "الدينه تعالى" ولهم امتداد تاريخي ويريدكم سبحانه أيها الناس أن تنتسبوا لأمّتهم، {أُمَّةً وَاحِدَةً}، حيث يوجد بينهم أشياء مشتركة واحدة ولها امتداد تاريخي فهم على دينه تعالى، وكلّهم على عقيدة التوحيد والصلاح.

يعني هناك أمّة على دينه تعالى وعاملة للصالحات وهناك أمم أخرى ومنها مشركة، ومن نظرته تعالى لنا يخاطبنا كلّنا جميعا عبر هذا القرآن ليخبرنا أن ننتسب كلّنا للأمّة التابعة لخط الحقّ والصلاح وهو نفسه دينه الأصيل سبحانه، فما كانت عليه هذه النماذج من الناس هي أمّتكم، فهي الأمّة التي من المطلوب أن تكونوا عليها، أمّةٌ واحدة ولا تخترعوا شيئا يتعارض مع ما عليه هذه الأمّة.

{وَأَنَا رَبُّكُمْ}، أنا المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {فَاعْبُدُونِ}، فالمفروض منكم وعليكم طاعتي فتصرّفوا على هذا الأساس.

ننتبه إلى أن أوّل آية بعد أسماء الأشخاص الذين ذكرتهم السورة، قالت عنهم إنهم أمّة، ولم تقل أنبياء ولا رسل، لأن السورة من ضمن مضامينها تردّ على ما نقلته في أوّلها عن الرافضين للإيمان بالرسول محمّد(ع) لأنه بشري غير متميّز عن الناس العاديين، على معنى: اتركوا مسألة الوصف بالرسول الإلهي كوظيفة، وانظروا للموضوع على أنه يشمل كل البشر، فكلكم من المفروض منكم اتباع الحقّ وفعل الصلاح مهما كانت الظروف، وها نماذجٌ بشرية راقية عن ذلك، فليكونوا أمّتكم، فكونوا على ما كانوا عليه.

أيضا تريد لفت انتباهنا لامتداد دين الله تعالى عبر التاريخ بهؤلاء الأشخاص الذين ذكرتهم، فإذا نظرت إليهم وجدتهم كلهم موحدين لله تعالى صابرين عابدين خاشعين... له وحده تعالى، وسيبدو لك واضحا أن أي عبادة لآلهة أخرى فهي اختراع وليس له أي امتداد حيث كان محصورا في زمن محدّد، وبموت من كانوا يعبدون الآلهة الوهمية فإن آلهتهم تنتهي، وغيرهم يخترع آلهة أخرى... أمّا هذه الأمة التي تحدّثت عنهم السورة، فعلى عقيدة واحدة لإله واحد.

تلفت انتباهنا للعناية والتدخّل الإلهي الذي حصل مع هذه النماذج، وهي قصص مشهورة منتشر خبرها بين الناس، وبعضهم نجا من الطوفان وآخر من النار وبعضهم وهبه تعالى ولدا في حالة مستحيلة... بينما آلهة المشركين لا أثر لأي فعل لها، وإن اخترع أحد ما شيئا لآلهته، فمن أقل نظرة للتاريخ البشري المعلوم سترى أنها قصّة مخترعة ومحصورة بزمن تاريخ من اخترعها، فلو كانت آلهة حقيقية لكان لها امتداد من التدخّل عبر التاريخ.

(وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ{93})

بدل أن يكون الناس أمّة "على خط ديني واحد"، {وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ}، لم يتفقوا على أمورهم على شؤونهم وما يريدونه، بل تَقَطَّعَ إلى قطع بينهم، وصاروا فرقا وأمما كل واحدة لها دين مختلف عن الآخرين، ولم يكونوا كلّهم موحدين لله تعالى ولا عاملين للصالحات...

{كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ}، أرشدناهم إلى الأمة الصحيحة، ولكن تركوها وأشركوا، أين يظنون أنهم سيذهبون بهذه الفعلة؟ أهكذا من دون حساب ينتهي الموضوع؟ لا، بل كل واحد من الناس سيرجع إليه تعالى ليحاسبه ويجازيه على دينه، ولن نموت وننتهي، لا، ولن نموت ونرجع لآلهتهم الوهمية، ولن نرجع إلى الحياة إلى عالم خارج سيطرته تعالى... بل حتما سنرجع إليه تعالى، وَلْنَرَ ماذا ينتظرنا:

(فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ{94})
في خضمّ هذه الحياة التي يتقطّع الناس فيها إلى أمم مشركة منحرفة عن الدين الإلهي، وأمم على دينه تعالى، وأمم بين الأمّتين.. فإنهم سيرجعون إليه تعالى:

{فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ}، أمامنا خيارات من أفعال نرى صلاحها وفسادها، والذين اختاروا القيام بالأعمال الصالحة الجيدة المتاحة لهم والتي ميّزوا صلاحها بالقدرة التي جعلها تعالى فينا لتمييز الصالح من الفاسد، فهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، وعملياً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموماً وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، حتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائماً أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به. وهذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي فهو في الحقيقة اختراع من البشر وليس أمراً إلهياً.

{وَهُوَ مُؤْمِنٌ}، وهو معتقد بالله تعالى، {فَلَا كُفْرَانَ}، لا نكران، {لِسَعْيِهِ}، لما سعى فيه، وما قصده باعتقاده وفعله وقوله، لن ننكره له، {وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ}، كلّ سعي، وكلّ شيء صدر منه وهو يقصد فعله، سنكتبه له.

يعني في معمعة الحياة الدنيا لا تنسوا أبداً أننا هدّدنا من أشرك، ولكن من التزم على خطّ تلك الأمة الراشدة فنحن نكتب له أعماله ولا ننكر له عمله الصالح، وعملياً هذا يعني أنه تعالى سيعطيه الثواب على إيمانه وعمله.

نلاحظ دائماً اقتران العمل الصالح بالإيمان وأنهما كلاهما معاً يعطيان نتيجة جيّدة، لا الإيمان لوحده يكفي، ولا العمل الصالح لوحده يكفي، بل كلاهما معاً ينتج عنهما ثواب حسن.

بالنسبة لكلمة "آمن" لم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإسلام أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، آمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كلاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

في الآية عمق يبحثونه في مجال فلسفة القوانين والأخلاق، وفي كلامه القرآني سبحانه يخبرنا بشكل حاسم بلا نقاش أننا كلّنا لدينا أساس قدرة تمييز الخير من الشرّ، وبعض الأمور من السهل علينا التوافق كلّنا على وصفها بالخير أو الشرّ، كحالة التبرّع بالطعام لطفل جائع... وبعض الأمور تحتاج لدراسة، كحالة إطعام مجرم سجين على حساب حصّة أقل لإنسان صالح... وهناك أمور أخرى تبقى جدلية ويصير البحث فيها استذواقياً، كحالة التأكد من بقاء القليل من الطعام

والتأكّد من الموت جوعاً وبالتالي ترك المجرم السجين بلا طعام في مقابل الحفاظ على حياة الآخرين الصالحين... طبعاً هذه أمثلة سريعة قصيرة لن أناقش فيها لتنتبه للفكرة.

القرآن دائماً يخبرنا أنه كلما ارتفعت درجة سلامة قلبنا "فكرنا ونفسيتنا" توضّحت الصورة لدينا أكثر لتمييز الخير من الشرّ، وهكذا وصولاً إلى الذين يصفهم تعالى بأنه آتاهم حكماً وعلماً، فهؤلاء ترتفع عندهم لأقصى الحدود درجة تمييز الخير من الشرّ، وبعكسهم فكلما خفّت درجة سلامة قلبنا زادت ضبابية رؤيتنا لخير الأمور من شرّها، وصولاً إلى درجة الحضيض حيث نرى بعض السوء خيراً ولا نرى الشرّ فيه...

بناءً عليه، كلّنا حالياً كدارسين للقوانين والسلوكيات والأخلاقيات... خليط بين متوسطي سلامة القلب ميلاً إلى الضعف، ولذلك لدينا العديد من المسائل التي نحتار بين وصفها بالخير أو الشرّ، وتراها واضحة منتشرة في حالة: فلأقتله قبل أن يقتلني حتى لو لم يكن يحمل سلاحاً ليقتلني... فلأجعل البلد الفلاني ضعيفاً اقتصادياً لأنه إذا ترفّه فسيعتدي على بلدي...

ننتقل من هنا إلى الكلام عن الدافع لالتزامنا بالصالحات، وفي كلامه القرآني سبحانه ركّز على ما جعله فينا من تمييز بين الخير والشرّ وجعله الدافع، فهو نفس تصنيفنا للشيء أنه خير يدفعنا لفعله، ونفس تصنيفنا وشعورنا بسوء الشيء يدفعنا لكرهه وتركه، تقول بأننا نفكّر بحالتنا كمجتمع ونعلم بأننا حتى نعيش سعداء فعلينا كلنا الالتزام بفعل الصلاح، وهذا صحيح، ولكن يبدو من عموم مفاهيم القرآن أن معرفتنا للخير هي الدافعة لفعله، ومعرفتنا للشرّ هي الدافعة لتركه.

نضيف على أبحاثنا البشرية حول هذا الموضوع، وبغض النظر عن قبولك لما رأيته أنا كمفهوم قرآني، وبين ما تراه أنت، وبين ما تقترحه أنت من وحي كلام القرآن أو من خارجه... ففي كلامه تعالى أساس واضح، وهو الحساب في الآخرة والمجازاة على الأعمال، مع وعد بجنّة رائعة خالدة لفاعلي الصالحات "المؤمنين"، كحافز للجميع حتى يفوزوا بهذه الجائزة. وهذا ما أفهمه من تعابير القرآن القصيرة بكلمتين وردتا مراراً ومنه الآية 28 من سورة سبأ {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...}.

كما ترى، سبحانه يدعوك لفعل الصالحات حتى يجازيك بالجنّة، وهكذا تفهم معنى عرضه عليك الالتزام بدينه تعالى، لا يعرض عليك فعل السيئات، ولا إجبار نفسك على الاقتناع بأن دينه سبحانه صالحٌ، لا، وسنفهمها بشكل أوضح إذا مثّلتها بحالة الزوجة التي تمنّن زوجها أنها لم تخنه، فهي من المفروض بها ألا تخونه، ولا يحق لها طلب جوائز على ذلك، وهذه هي حالتنا الأساسية كبشر، فالمفروض بنا جميعاً الإيمان بالحقّ والالتزام بعمل الصالحات، وهكذا ترى أنه تعالى حين أرسل رسله بدين، سبحانه لم يعرض علينا شيئاً جديداً غريباً لنؤمن به ونلتزم به.

لكن في نفس الوقت عرض علينا سبحانه جائزة غير عادية لمن آمن وعمل الصالحات، وهدّدنا تحذيراً وإنذاراً من عقاب غير عادي لمن كفر بالحقّ وعمل السيئات. وهذا شيء لن يدخل في كلام الباحثين العلمانيين، وهو فرق أساسي بيننا وبينهم بعدما نتّفق على الكثير من الأمور لفلسفة القوانين والأخلاق إلى أن نصل إلى شيء إضافي يدفعنا نحن المؤمنين حتى نكون صالحين، وهو الإشفاق من العذاب والرغبة بالجنّة.

الآن وصلنا إلى الشرط الذي وضعه تعالى حتى يجازينا خيراً على عملنا للصالحات، فمن لم يك مؤمناً فلا أجر له، ويبدو من عموم مفاهيم القرآن وجهان لهذا الشرط، الأول أنه تعالى المجازي، فإن لم تقصد فعل الخير حتى يجازيك عليه سبحانه، فلماذا سيعطيك سبحانه عليه أجراً؟ ولا تجب عن ذلك باختراع أوصاف من خيالك له تعالى، فهو رحمنٌ ولكن أنت كفرت به، ولم تعمل صالحاً وأنت مؤمن به، فخرجت بإرادتك من تحت مظلة الرحمة الإلهية... بالرغم من سهولة الإيمان به تعالى بسبب الأدلة الأكثر من كافية عليه وعلى صفاته وصدق وعوده...

هل ستفترض وبضبابية أنه يوجد شخص آية في السلوك الصالح بلا ولا أي سوء، وهو ليس مؤمناً، وستسأل إن كان هذا النموذج أيضاً لن ينال ثواباً حسناً منه تعالى؟ وهذا هو الوجه الآخر الذي يبدو من كلامه تعالى حين يخبرنا أن من لم يؤمن به فحتماً حسماً سيرتكب سيئات، ومن العيار الثقيل، كالزنا، والموافقة على قتل الأبرياء لمجرد أنهم من ملّة أخرى أو لون آخر أو من بلد آخر تحتاج لموارده الأساسية... وكتشريعات سيئة يشرعها أو يوافق عليها وهي تبيح المخدرات والدعارة وبيع الأسلحة للظالمين المجرمين...

طبعاً لا يذهب فكرك إلى الذين يصفون أنفسهم منتمين لدينه تعالى من المسلمين أو المسيحيين أو اليهود... على أساس أنهم موصوفون كلهم بالإيمان وعمل الصالحات، وأنت تعلم أن فيهم مجرمين من الدرجة العالية في الإجرام، لا تقايسهم مع آخرين من غير المنتمين لدينه تعالى لتقول إنّ الآخرين أفضل منهم، وبالتالي لا تقبل بكلامه تعالى عن المجازاة بالثواب بالجنّة فقط للمنتمين لدينه سبحانه، فهذه تفاهة مفتراة عليه سبحانه، وها القرآن مشحون بكلامه الذامّ للمنتمين لدينه تعالى من المنافقين والفاسقين من الدرجة العالية، وهؤلاء لم يميّزهم سبحانه في كلامه عن الكافرين بتهديد كل هذه النوعية بالعذاب خالدين في جهنّم، ولم يميّزهم سبحانه لا من حيث القيمة ولا من حيث شدّة العقاب لهم على سوء ما فعلوه.

(وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ{95})
{وَحَرَامٌ}، ممنوع منعاً باتاً، {عَلَى قَرْيَةٍ}، على مجتمع من الناس، {أَهْلَكْنَاهَا}، استنفدنا حياتها، أمتناها، {أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ}، هل يموتون ولا نرجعهم لنحاسبهم؟ لا، بل حرام أن يموتوا ولا يرجعوا لنحاسبهم ونجازيهم.

بتعبير آخر: من غير المعقول ولا المقبول موت مجتمع من الناس من دون إرجاعهم إلى الحياة مرة ثانية لمجازاتهم على أعمالهم. سبحانه ربط الحرام بهم ولم يربطه بنفسه سبحانه، ولم يقل: حرام عليّ... بل حرام على قرية... فهذه قرية بمجموعها العام فعلت السوء من العيار الثقيل، وتلك قرية خلطت صالحاً بسيّئ، وأُخَرُ كانت بالمجمل مائلة للصلاح، فحرام على تلك القرى أن تهلك ولا يرجعوا ليتحاسبوا ويتجازوا على ما فعلوه.

مثلما نحن نقول لأحد ما: حرام عليك إهمالك لأهلك الفقراء المرضى من المساعدة. والمطلوب منه فعل شيء ما. وها تعبير آخر مشابه لما تقوله الآية هنا: حرام عليك ألا تتجازى على إهمالك لأهلك الفقراء المرضى من المساعدة. والمطلوب فعل شيء ما له بسبب ما فعله. وعلى هذا المعنى جاء كلام الآية هنا.

الذين يخطر ببالهم أنه تعالى لسبب أو لآخر سينساهم أمواتاً ولن يهتم لأمرهم، أو سيغيّر قراره ويلغي يوم القيامة أو... أو... لا، فحتماً حسماً سيرجع الجميع ليتحاسبوا، حتى لو كانت حالتهم همجية غوغائية كحالة قوم يأجوج ومأجوج، وهذا ما ستقوله الآية التالية. وتلاحظ آيات أخرى من القرآن كانت أشمل، لأن كلامها عن كل إنسان من الناس أنه سيحشره تعالى، كمثال عن ذلك ما ورد في الآية 47 من سورة الكهف {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا}، بينما هنا جاء التعبير عن "قرية" عن أي مجتمع من الناس، سواء أكان عددهم كبيراً أو قليلاً، وسواء كانوا في خيام أو بيوت... وهذا يأخذك إلى تعابير أخرى قرآنية تجاوزنا التفصيل في مقصدها، كالتي استعملت كلمة "قوم"، لتكن آيتنا هنا نموذجاً تضعه في بالك لتفهم بقية كلامه تعالى، لأن عادة الإنسان يعيش في مجتمعات، وعادة المشكلات ناتجة عن العيش في مجتمعات، وكلام القرآن الموجّه لكل واحد منّا، هو نفسه الكلام الموجّه لنا كلّنا كمجتمع، وفرضاً وكحالة نادرة، لنقل إن شخصاً يعيش وحده في صحراء أو غابة، ولم يتعامل مع البشر حتى مات وحيداً، هذه حالة نادرة جداً، فلا تضعها في بالك حين تقرأ كلامه تعالى الموجّه إلينا عن أمور بين شخصين وأكثر، كالكلام عن الغيبة أو عن القتل أو عن أذية الآخرين بالكلام أو بالضرر بمصالحهم... لتقول: ما نفع هذا الكلام مع شخص يعيش وحده في غابة؟

لذلك استعملت الآية هنا التعبير بقرية، والكثير من الآيات استعملت ولنفس السبب كلمة "قوم" لتشير إلى جماعة متفاعلة مع شيء ما، متفاعلة مع مسألة دينه تعالى، متفاعلة مع التجارة بالغشّ، متفاعلة مع مسألة الإله بالشرك... وتوجيه الكلام غالباً في القرآن مع الإنسان الفرد بما يتعرّض له من احتكاكه بالآخرين، وبما يتعرض له من كونه فرداً من مجتمع.

(حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ{96})
إلى حد الآن في زمننا، كل القرى يتم إهلاكها ولا ترجع:

{حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ}، هؤلاء القوم أغلق عليهم ذو القرنين بردم بين صدفين كما علمنا من الآية 94 وما بعدها من سورة الكهف {قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ

تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا}، ولا ندري ماذا حصل معهم بعد سدّ الطريق عليهم، ولا ندري متى هلكوا كقرية، ولكن على أي حال وكما تقول الآية هنا تعقيبا على الآية السابقة، لسبب أو لآخر هم قرية هلكت، ولهم زمن سيتم فتح المكان المغلق عليهم، {وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ}، من كل مرتفع بسيط، {يَنْسِلُونَ} يخرجون من بين شيء، والكلام هنا عن خروجهم من بين التراب، مثلما وصفت الآية 51 من سورة يس حالتنا جميعا في يوم القيامة {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ}، وهذا يشابه تعبيرنا: من كل حدب وصوب. يعني من كل النواحي، واختصرت الآية التكملة لأنها مشهورة معروفة واكتفت بالإشارة للحدب.

يأجوج ومأجوج قرية أهلكها تعالى، مثلها مثل بقية القرى، وحرام على كل القرى أن لا يرجعوا ليحاسبهم سبحانه، واستعملتهم الآية كمضرب مثل، لأنهم أناس من المشهور أنهم همجيون ومن الصعب التعامل معهم والسيطرة على غوغائيتهم، ورغم ذلك سيرجعون أيضا للحساب، ومعلوم أن غوغائيتهم وفوضويتهم ستكون مضبوطة في يوم القيامة حيث {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا} كما ورد في الآية 108 من سورة طه.

ننتبه، حيث علق في أذهاننا من الروايات، ربط هذه الآية بآخر الزمان وأشراط الساعة... ولا علاقة للآية بذلك الكلام نهائيا، فهي تتحدّث عن خروج يأجوج ومأجوج من موتهم إلى الحياة في الآخرة كأي قوم آخرين، ولا تتحدّث عن خروجهم في الدنيا، حيث إن الآية مجرّد خبر عن قيامهم من الموت وكما يبدو اختارتهم كنموذج لتريك قراره تعالى بتحريم ترك أي قوم بدون أن يرجعوا إليه تعالى ليحاسبهم ويجازيهم، حتى لو كانوا بمستوى همجية يأجوج ومأجوج.

إن أصررت على ما يقولونه عن خروج يأجوج ومأجوج هنا في الدنيا "في آخر الزمان" كما يقولون، فأعد قراءة الآية السابقة واللاحقة لترى الربط، ولترى أن الكلام هنا عن الآخرة وليس عن شيء سيحصل في الدنيا.

(وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ{97})
بعد خروج يأجوج ومأجوج، وخروج بقيّة القرى إلى الحياة مرّة ثانية:

{وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ}، لأن الوعد الإلهي بحصول حساب وجزاء كان حقا صوابا وسيحصل حتما واقترب، أولا القيام من الموت وبعدها حشر الناس زمرا وبعدها المساءلة العامّة وبعدها الحساب، {فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا}، حيث إن الذين أنكروا الدين الإلهي يركّزون قدرتهم على فهم ووعي ما يرونه، لأنهم مندهشون مرعوبون من رجعتهم إلى الحياة مرّة ثانية، ويقولون:

{يَا وَيْلَنَا}، يا لمصيبتنا الكبيرة، {قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا}، كنّا غير منتبهين لهذا الحدث أنه آت، ولم نعر لقدومه انتباها، {بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ}، ولم يكن معنا حقّ حين كفرنا، ولم نكن منصفين ولا عادلين حين لم نؤمن ولم نعمل الصالحات استعدادا لهذا اليوم، حيث وصلنا الإنذار الواضح منه، وكان من الإنصاف أن نتجهّز له، ولكننا عاندنا وكفرنا به.

المشهد هنا بعد القيام من الموت، ومعرفتهم بأنهم سيتحاسبون، ولمّا يبدأ الحساب بعد. فالمشكلة ليست في القيام من الموت مرّة ثانية، ولكن المشكلة بعد القيام من الموت هي اقتراب الوعد بالحساب والمجازاة على ما فعلناه في الدنيا، وهم يعلمون أن حسابهم سيكون عسيرا.

كما ترى، تركيب كلمات الآيات لا يتحمّل المعاني التي قالها بعضهم عنها على أساس أن الفتح على يأجوج ومأجوج يحصل هنا في الدنيا وقبل القيام من الموت وبعدها اقترب يوم القيامة، لأنه على هذا المعنى لا تركب الجملة الأخيرة: {فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا}. وبوضوح تشير الآيات إلى اقتراب الوعد بالحساب، حيث قبله ساعات من قيامنا من الموت وحشرنا زمرا... وبعدها اقترب المهمّ، اقتراب الحساب، {فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ...}.

(إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ{98})
{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، أنتم مع من اعتبرتم أنفسكم مفروضاً منكم طاعتهم من دونه تعالى، حيث تركتم اعتباره تعالى الإله الأحد واعتبرتم غيره آلهة تعبدونها، كما نقول: ذهبتم من دوني. ونقصد تركتموني وذهبتم، لأنهم

تركوا توحيد العبادة لله تعالى وعبدوا غيره. وأنتم وما تعبدون، {حَصَبُ}، حجارة صغيرة ومتوسطة الحجم، {جَهَنَّمَ}، المكان الموصوف بسوء ما فيه، حيث فيه النار المتأججة، وفي موقد النار تصير الحجارة التي حول الموقد وتحت النار، تصير حامية جداً، وهي الحصب، لأنهم وما يعبدون سيكونون ساخنين شبه التمام بحجارة الموقد، {أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ}، ونخبركم أنكم ستذهبون باتّجاه جهنّم حتما، وبعد الورود أي بعد الاتجاه نحوها والمصير بقربها، وكما هو معلوم يصيرون فيها برميهم فيها.

المشهد عن أناس واقفين بعد قيامهم من الموت، وكانوا يعبدون غير الله تعالى، وسيتحاسبون وسيكونون هم ومن عبدوهم ساخنين جداً في النار المتأججة التي يرونها الآن من بعيد وسيردونها وسيذهبون إليها، وإلى هناك هم ذاهبون، يعني هو تعبير مشابه لما نقوله بالعامية: لهونيك رايحين.

ننتبه جيداً، كثيراً ما اعتمد القرآن على ما نعرفه مسبقاً بشكل افتراضي وترك التفصيل فيه، حيث إن هناك من الناس من عبد النبي عيسى(ع) فهل الآية تشير إليه (ع) أنه سيكون حصب جهنّم؟ طبعاً لا، لأن السورة توجّه كلامها إلى المشركين الذين اتّخذوا آلهة يمكن أن تكون حصباً في جهنّم، ولنقل إنهم عبدوا التماثيل أو عبدوا شخصاً هو قال لهم أن يعبدوه... ومن دون كثير من التفكير تفهم هذا، حيث إنه من الواضح أن بعض المشركين عبدوا الملائكة(ع)، فما ذنب الملائكة(ع) حتى يكونوا حصب جهنّم! من الواضح أنهم لا ذنب لهم، وأشارت السورة في بداياتها إلى براءة الملائكة(ع) والعباد المكرمين ممن جعلهم آلهة، ولكن الآلهة التي عبدها المشركون ويمكن أن تكون حصباً لجهنّم إنها ستكون معهم في جهنّم، وهي الأشخاص الذين أمروا الناس أن يعبدوهم، أو الذين عبدوهم وهم لا يعلمون لأنهم كانوا أمواتاً، ولكن نهايتهم إلى جهنّم لأنهم لم يكونوا مؤمنين، وهؤلاء سيدخلون معهم إلى جهنّم، وينطبق الكلام على تماثيلهم وأصنامهم وأنصابهم وأي شيء ألّهوه، إلا أن الآية التالية تتحدّث عن خلود الجميع والآية بعد التالية تتحدّث عمّن له زفير وشهيق، وهكذا نفهم أن الآية هنا تشير بالخصوص لأناس معبودين وهم موافقون على هذه العبادة، وسيصيرون حصباً لمن عبدهم.

ما قيل عن الكلمة: {مَا تَعْبُدُونَ}... بأنها تشير لغير العاقل وهي تقصد الأصنام، فهذا غير صحيح، لأن هنا "مَا" بمعنى الذي، وتشمل العاقل وغير العاقل، والكلام هنا ليس مع الأبرياء مثل الملائكة(ع) والأنبياء والصدّيقين، وتبيّن لك أن الكلام مع المذنبين الذين جعلوا الناس يعبدونهم، أو المجرمين الذين عبدهم الناس وهم لا يدرون لأنهم كانوا أمواتاً حين عبدوهم، بدليل أنه سيكون لهم زفير في جهنّم، ولا معنى لأن يكون للأصنام زفير في جهنّم، ولا معنى للكلام عن خلود الأصنام في جهنّم كما سترى من الآية التالية.

لو أطلت عليك، بعض الأحيان نتذاكى في المحلّ الغلط، ونسأل عمّن تهدّد هنا ليكون حصباً على أساس أن الآية عمومية في كلامها ولم تخصّص، حيث لم تقل إن الملائكة(ع) والمؤمنين لا علاقة لهم بمن عبدهم وألّههم، وهكذا صرنا بحاجة لإيجاد حلّ لتخريجهم من العمومية... لا، لأنه كثيراً ما افترض القرآن علماً سابقاً فينا لنفهم الكلام، خذ مثلاً بسيطاً جداً عن الاختصار والإشارة في بعض السور لأحد الأنبياء، إمّا ما قفزت عنه السورة معلوم مشهور بين الناس، وإمّا مذكور في سور أخرى، ومرّ معك في السورة هنا ذلك في حالة ذي النون، والتي أحصنت فرجها، حيث لم يذكر حتى اسمها بسبب شهرتها وافتراض القرآن معرفتك بها (ع).

نفس الشيء في الوضوء، حيث لم يفصّل القرآن في حليّة الماء وأنه قراح ومن آنية مملوكة غير مسروقة أو مغصوبة... ولا تكلّم عن إزالة المانع عن الجلد... لأنه افترضها كبديهيات...

نفس الشيء عن الشهود على القضايا حيث اختصر كل صفاتهم بالرضا عنهم كشهود، عاقلين فاهمين للموضوع وليسوا تحت الضغط أو الإكراه...

هنا الكلام نفس الشيء، والمشكلة في اتباع طريقة تفكير من لم يؤمن بهذا القرآن، على أساس أنه يوجد احتمال بتناقض فيه، أين الحكمة الإلهية وأين العدل الإلهي وأين صريح بقية القرآن في محاسبة كل نفس بما كسبت... لأن الملائكة(ع) والمؤمنون الحقيقيون خارجون حكماً من أي عقاب بسبب عبادة أحد ما لهم، لأنهم لا دخل لهم بالموضوع، وهم خارجون حكماً عمّا تتكلّم به الآيات هنا وسترى ذلك صريحاً بعد آيتين.

تتذكّر دائماً أن كلام القرآن عن آلهة المشركين قفز عن الآلهة الوهمية التي لا يوجد كائن لها، كالإله الخيالي للحرب والجمال والخمرة... واكتفى بالقول عنهم أنهم مجرد أسماء وهمية، فماذا سيقول عنهم غير ذلك وهم أصلاً من الخيال؟ ولذلك افترض القرآن بالسامع حداً أدنى من العقلانية، ووجه التهديد لمن لتوجيه التهديد له معنى، لشخص حقيقي من الجنّ أو من البشر وعبده الناس وهو ظالم...

للأسف، رغم بداهة ووضوح سخافة الشرك به تعالى لدرجة صعوبة إيجاد شيء عقلاني من عقائد المشركين للكلام عنه معهم، هناك مشركون به تعالى؟! وبعضهم يقول بأن آلهته قوية ولن تتركه إذا فعلاً حصل وقمنا من الموت لنحاسب ونتجازى، وحاول أن تقول له إنه هو وآلهته سيكونون في النار. وفكّر في إيجاد حالة يصدق عليها هذا الكلام؟ لأن بعض آلهة المشركين وهمية من الخيال وأصلاً لا يوجد لها كيان! وهذا أصلاً من الأساس كيف ولماذا يعبدها؟! وبعض المشركين عبد مؤمنين لم يدّعوا الألوهية، كالعابدين للملائكة وللنبي عيسى(ع)، وهذا كيف ولماذا عبدهم وهم لم يقولوا له أنهم آلهة؟! وهكذا تبقى حالة تراها نادرة لتتكلّم بشيء ما مع المشرك، حيث تتكلّم مع مشرك عبد كائناً ما، وهذا الكائن ادّعى الألوهية كحالة الفرعون المعاصر للنبي موسى(ع)، أو هذا الكائن أصلاً كافر وسيدخل النار، وهم من دون علمه عبدوه، أو عبدوه وليس عنده مشكلة في ذلك مع أنه لم يقل لهم أن يعبدوه، كحالة العابدين لبعض شياطين الجنّ...

كما ترى بسبب افتقاد العقلانية من عقيدة الشرك، وبسبب ندرة الحالات الملموسة التي لها ارتباط ما بالواقع والتي يمكن الكلام عنها مع المشرك، ترى أنك لا تستصعب إيجاد تطبيقات للآية هنا لأنها نادرة، مما يخطر ببالك إضافة الأصنام لتصير حصبَ جهنّم لأنها كثيرة، ولكن أجواء الآيات لا تساعد على هذا التفسير، لأن الكلام عن كائنات تتألّم ولها زفير وعبدها الناس.

(لَوْ كَانَ هَؤُلَاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ{99})

{لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ}، الذين تعبدونهم من دون الله تعالى، {آلِهَةً}، {مَا وَرَدُوهَا}، ما كانوا ذهبوا إلى جهنّم، لأن الأشخاص الذين كنتم تعبدونهم، لو كانوا فعلاً آلهة لما استطعنا سوقهم إلى جهنّم، {وَكُلٌّ}، حيث إن كل واحد منكم أنتم ومن تلك الآلهة المصطنعة، {فِيهَا}، في جهنّم، {خَالِدُونَ}، لا تموتون ولا تخرجون منها ولا هي ستخرب...

لاحظ السورة تتحدّث عن مشهد في يوم القيامة، وهناك سيرون الأشخاص الآلهة التي عبدوها، سواء التي عرفوها أو التي عبدوها وهم لم يعرفوها ولم يروها في حياتهم ولكن عبدوها بعد مماتها... وهؤلاء الآلهة بعضهم ربما قال عن نفسه إنه إله، وربما لم يقل ذلك ولكن بعد موته قالوا عنه إله، وهو لم يكن مؤمناً أصلاً وكان من الكافرين، فسيرونه أمامهم في يوم القيامة، وسيرد معهم إلى جهنّم ليكون حصباً، لأنه لو كان إلهاً لما دخلها.

يعني، هذا خبر عمّا سيحصل في يوم القيامة، كاستهزاء بالمشركين وآلهتهم.

بقي شيء تعقيباً على ما توسّعنا به في الآية السابقة، حيث كثيراً ما قفز القرآن عن الأصنام والتماثيل وعن الآلهة التي لا كيان "فيزيائي" لها، واكتفى بالقول عن هذه النماذج إنها أسماء سمّوها وهي لا كيان لها أصلاً، فأي برهان يحتاجه هؤلاء ليقنعهم أن آلهتهم وهمية وهي بكل وضوح وهمية ولا كيان لها ولا بأي شكل وهم يعلمون أنها مجرد أسماء فارغة اخترعها أحد ما من خياله!

هنا نفهم الآية أيضاً على هذا المنوال، لأن الآلهة التي لا كيان لها أصلاً، فهل سيخلق لها تعالى كياناً ويرميه في النار؟ وهل سيخلق سبحانه ما كانوا يقولون عنه إنه إله النار وإله الحرب... ويرميهم في النار؟ طبعاً لا معنى لهذا الكلام، وهكذا ترى أن الآية تفترض بك أنك وبكل سهولة ستفهم أن الكلام مع من له كيان وعبده الناس ويستحقّ رميه في جهنّم.

(لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ{100})

{لَهُمْ}، لتلك الآلهة التي عبدتموها، {فِيهَا}، في جهنّم، {زَفِيرٌ}، إخراج للهواء من الرئتين، {وَهُمْ فِيهَا}، في جهنّم، {لَا يَسْمَعُونَ}، وتنادونهم حتى ينقذونكم ولكن لا يسمعونكم، لأن عذاب من ادّعى الألوهية شديد جداً لدرجة انشغال كلّ

حواسّه بألم التعذيب فلا يسمع نداءكم، وعمليا فمن يناديهم يتوقّع منهم أن ينقذوه بقدرتهم الإلهية، ولكنهم ليسوا آلهة، فعمليا هم لا يسمعون تعني أنهم لن يهتموا بالنداء لهم.

يعني مثل من لا يجيد السباحة ويكاد يغرق وبدأ بابتلاع الماء... وبالقرب منه شخص آخر في نفس الحالة، وناداه أن ينقذه، فستتحرّك طبلات أذنه من تصادم الصوت بها، ولكن هل فعلاً سيكون موصوفاً بأنه سمعه؟ لا، لأنه مشغول بأخذ النفس... ونفي السمع استعمله القرآن مراراً لمن تحرّكت طبلات أذنه عندما سمع آيات القرآن ولكنه لم يؤمن بها، وخذ مثلاً واضحاً عن ذلك الآية 179 من سورة الأعراف {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}، حيث إن الوصف ليس نفياً للقدرة على السمع، لأن الأنعام تسمع صوتك، بل نفي لحقيقة الاتصاف بمعنى السمع، فمن يسمع يفهم ويستجيب، وإن لم يستجب فمثله مثل الحائط أو الميكروفون الذي ترتطم به موجات الصوت فيستقبلها ولكننا لا نصفه بأنه يسمع لأنه لا يستجيب.

هناك سور أخرى من القرآن تحدّثت بعمق عن أصل وأساس عبادة غير الله تعالى، حيث أرجعت أساس كل الشرك بالله تعالى إلى إبليس عليه اللعنة، وإلى أعوانه من شياطين الجنّ، ومضافاً إليهم شياطين الإنس، وهنا السورة نهائياً لم تذكر أي شيء عن هذا، لأنها تركّز فقط وفقط على من طلب آية تميّز الرسول عن البشر حتى يؤمن به وليؤمن بتوحيده تعالى بينما هو يؤمن بآلهة ليس لديه ولا أي دليل على ألوهيتها، وتجاهل تاريخاً عميقاً من تدخلات الله تعالى مع أناس مشهورين بالطهارة، والتي ذكرت السورة هنا العديد من نماذجها.

بقي شيء، هل هناك الكثير من الناس من هذه الآلهة حصب جهنّم؟ معلوماتنا التاريخية تشير لعدد قليل جداً منهم، كفرعون وبعض الكهنة وبعض مدّعي الربوبية من المنتسبين لدينه تعالى... أساساً ليس العدد مهماً، لأنه فرضاً لو كان واحداً فقط لكان كافياً للتهديد به ولمن عبده، والبقية العابدون لغيره تعالى وليس لآلهتهم كيان حقيقي، لهم عذاب مشابه في شدّته لمن عبد واحداً من الناس، هذا من جهة. ومن جهة ثانية إن عموم مفاهيم القرآن تشير لشيء خطير، فمن ترك موالاته تعالى وموالاة المؤمنين "الحقيقيين" فقد اعتبر غيره تعالى رباً أو إلهاً... ومن تنصّب لطرح دين مقابل دينه تعالى وتبعه الناس، فقد اعتبر نفسه إلهاً حتى لو لم يعلن ذلك صراحةً، وسبحانه سيحاسبه ناظراً إليه معتبراً نفسه في مقابله تعالى كإله يقول شيئاً مقابل ما يقوله الله عزّ وجل.

لكن يبقى الكلام هنا عن الذين بصراحة قيل عنهم آلهة كما ورد في الآية السابقة.

(إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ{101})
{إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى}، سَبَقَ وأخبرناهم بأن شيئا حسنا جيّدا منّا سيحصل معهم، حين قلنا لهم بأنهم سيحصلون على الثواب، طبعا إذا التزموا بأوامري، {أُولَئِكَ عَنْهَا}، عن جهنّم، {مُبْعَدُونَ}، نُبْعِدُهُمْ عنها.

نلاحظ أَنَّ القرآن يؤكّد على ورود كل الناس إلى جهنّم، حَيْثُ سيذهبون باتجاه قريب منها، ولكن سيسقط فيها الكفّار، ويتم إبعاد المؤمنين عنها، وَيَمُرُّونَ على الصراط من فوقها أو من جنبها كما يبدو من الآية 74 من سورة الْمُؤْمِنونَ {وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ}، وَالْمُؤْمِنُونَ الكاملون لن يشعروا أبدا بحرارتها، والأقل منهم سيشعر بألم طفيف، وهكذا وصولا إلى أقل درجة إيمان مع خلط للعمل الصالح بالطالح، وَيَشْعُرُونَ بعذابها للمحة أو لساعة أو لأيام أو لسنين قليلة أو عديدة... إلا الذين كانوا فعلا مؤمنين عاملين للصالحات، فهؤلاء يمرّون قرب جهنّم ولا يشعرون بأي ألم.

(لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ{102})
الَّذِينَ وعدناهم بالثواب:

{لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا}، ففي جهنّم نار متأجّجة سيكون لها حسّ، حَيْثُ يَصْدُرُ عنها صوت، وتعلم من الآية 12 من سورة الفرقان {إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا} أن لها صوتا مرعبا، وَالْمُؤْمِنُونَ لا يسمعون حسّا

للنار، ولا حتى صَوْتًا خَافِتًا، {وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ}، فيما يشتهون وَيُحِبُّونَ ويرغبون، من إشباع الحواس والرغبة والاقتناء... {خَالِدُونَ}، على نفس الحالة دائما فيما يشتهونه.

هَذَا من التعابير القرآنية العديدة التي تؤكّد أَنَّهُ لا ملل ولا ضجر في الجنّة، لِأَنَّ أهلها في حالة السعادة الدائمة فيما يشتهونه، وليسوا في حالة من يقنع نفسه بما هو فيه، لا، بل هُمْ فيما يُحِبُّونَهُ وَيَرْغَبُونَهُ ولا يَبْغُونَ عنه حولا كما وصفتهم الآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}.

(لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ{103})
{لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ}، أكبر فزع، أكبر مفاجأة مع ارتباك هي حين يفتح الناس أعينهم بعد رجوعهم من الموت، لأنهم سيشعرون بالحزن وبانكسار الخاطر على ما فاتهم من إيمان وعمل صالح كان سينفعهم هنا، أمّا المؤمنون العاملون للصالحات فلا يحزنون لأنهم لم يفتهم أي شيء حَيْثُ تَحَضَّرُوا ليوم الفزع الأكبر.

{وَتَتَلَقَّاهُمُ}، فتواجههم وتصير قبالتهم فتستقبلهم، {الْمَلَائِكَةُ}، لتقول لهم على طريقة الترحاب بهم:

{هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ}، حَيْثُ وعدكم فقال لكم سبحانه عن ثواب حسن لإيمانكم وعملكم الصالح، وهذا هو الزمان الذي قال تعالى لكم عنه وستنالون ما قاله لكم.

نَعْرِفُ من آيات أخرى من القرآن عن لحظة فتح الكافر لعينيه في يوم القيامة من الموت، أَنَّ الملائكة (ع) من أول لحظة تبدأ بضربهم وتوبيخهم، وتفهم ذلك من الآية 93 من سورة الأنعام {...وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ...}، ومن الآية هنا ومن غيرها نعلم أن الملائكة(ع) تقوم بالاستقبال الحارّ بالتبريك والتهنئة والكلام اللطيف... والخدمة والتعامل الملوكي... من أول ما يفتح المؤمن عينيه من الموت.

(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ{104})
متى الوعد بالقيام من الموت والحساب سيحصل؟:

{يَوْمَ}، في الزمن الذي فيه، {نَطْوِي السَّمَاءَ}، فهي الآن منقسمة لسبع سماوات، وكل سماء منتشرة مفتوحة، فنطويها لجمعها فنكدّسها فوق بعض، {كَطَيِّ}، مثل ثني وتكديس، {السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ}، فالكتب المتفرقة على أوراق يتم طويها لجمعها وتكديسها لتتلاصق في سجل، في غلاف سميك يجمعها يغلّفها كلّها، كسجلات الأحوال الشخصية التي تحوي شهادات ميلاد الناس، والسجلات العقارية التي تحوي وثائق ملكية العقارات والخرائط، فمثلما يتم جمع وتكديس الوثائق في السجلات، سيتم طوي وتكديس وجمع السماء كلها، بما تحويه فيها سيتم تكديسها مع بعض، وَوَرَدَ تعبير مشابه في القرآن عن السماوات في حالة تبدّلها من الدنيا للآخرة أنها مطويات بيمينه تعالى في الآية 67 من سورة الزمر {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ...}.

{كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ}، فمثلما من أوّل مرّة خلقنا فركّبنا وألّفنا السماء، فكانت مطوية وفردناها لسماوات منتشرة، {نُّعِيدُهُ}، فنعيد فردها ونشرها مرّة ثانية.

{وَعْدًا عَلَيْنَا}، فنحن قطعنا هذا الوعد على أنفسنا، فإعادة خلق السماوات هو شيء قلنا إِنَّنَا سَنَفْعَلُهُ.

نُلَاحِظُ أَنَّ آيات القرآن في سور أخرى فَصَّلَتِ الحديث عن يوم القيامة، وخصوصا في السور والفقرات التي توجّهت بالحديث إلى منكري يوم القيامة، وهنا أكملت السورة حديثها معنا بعد أن أخبرتنا عن يوم الحساب والجزاء الذي يليه، وعرّجت في الآية هنا على قرار إلهي محسوم بإعادة الخلق مثل أوّل مرّة، فهذه السماوات الموجودة الآن لن تبقى على حالها، فسيتغيّر حالها فتتبدّل وستعود كما كانت في البداية، مطوية كلّها، وسيتم فردها من جديد، فتبدأ الآخرة وبعدها يأتي يوم قيامة الناس من الموت إلى الحياة مرّة ثانية ليتحاسبوا ويتجازوا.

نَنْتَبِهُ، فلن ترجع السماوات كما كانت، بل ستتبدّل، فسنصير في عالم نرى فيه الملائكة(ع)، ونرى أعمالنا مرافقة لنا، ولنا كتب لأعمالنا مجسّدة أمام أعيننا، ويصير جسدنا خالدا لا يموت، والنار والجنة خالدتان لا تخربان ولا تَفْنَيَانِ... وهذا صريح من الآية 48 من سورة إِبْرَاهِيمَ {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}.

نَنْتَبِهُ جيّدا لما نجده مُتَكَرِّراً بكثرة في القرآن، فهذا الرجوع إلى الحياة مرّة ثانية لمحاسبة الناس هو "وعد" إلهي، فلن يغيّر الإله سبحانه قراره، والتكرار للتأكيد على هذا الوعد، حتى لا يخطر ببالنا أبدا أن القيام من الموت والحساب غير محسوم، بل محسوم، فلا تسري عليه قاعدة: يَدْرِي مَنْ يَعِشْ. لا، فحتما سيحصل.

(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ{105})
هل هذا الخبر عن يوم القيامة والحساب شيء جديد؟

{وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ}، في كلامنا الذي أوحيناه إلى الأنبياء والرسل ولم يبق كلاما فكتبوه، فأي كلام عندما نكتبه يصير اسمه: زبور. وَكَتَبَ تعالى في الزبور فيما كتبه الأنبياء أو ما كتبه الناس نقلا عن الأنبياء "كحالة هذا القرآن"، {مِن بَعْدِ الذِّكْرِ}، من بعد الأشياء التي قلناها لكم لتستحضروها كأشياء محددة في فكركم، وهي عموم الوحي الذي وصل إليكم عبر الأنبياء، حَيْثُ أولا نزل الذكر التوراة والإنجيل والقرآن وما أوحاه تعالى للعديد من الأنبياء، ومن بعدها تمّت كتابة ذلك فصار مزبورا، يعني صار وثيقة مكتوبة بين أيديكم وَكَتَبَ سبحانه فيها، {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا}، تصير الأرض في ملكية بلا استرداد، فيحصل عليها، {عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}، الذين مفروض منهم طاعتي والكلام هنا عن الذين تصرّفوا على هذا الأساس فكانوا صالحين جيّدين في عملهم وإيمانهم، فهؤلاء سيحصلون على الأرض لتكون لهم.

نَسْتَحْضِرُ ما ورد في الآية 74 من سورة الزمر {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}، فهنا التعبير عن الأرض ليس عن الأرض التي نحن عليها الآن في الدنيا، وَلَيْسَ عن كوكب الأرض، بل عن أرض جنّة الآخرة، وأذكّرك بأن السماء وصف لعموم ما علا من فضاء، والأرض عموم ما كان تحت سماء، فكوكب الأرض سطحه أرض، والقمر سطحه أرض... فكل سماء يقابلها أرض لا يعني أنها مثل سقف البيت والأرض التي تحته، بل هو وصف لعموم ما علا ويقابله عموم ما تحته حتى لو كان ما تحته كواكب منتشرة فكلّها أرض. وَتَفْهَمُ ذلك من واقعنا من معرفتنا بكوننا وهو ما أشارت له الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...}، ووساعة الجنّة هائلة الضخامة بوساعة السماوات والأرض كما تقرأ في الآية 133 من سورة آل عمران {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}، وبناء عليه فالأقرب لفهمنا الحالي أن شيئا كالمجرات بكواكبها هي الجنّات.

هَذَا الخبر عن دخول الصالحين إلى الجنّة ليس خبرا جديدا، فكما ركّزت السورة على دين التوحيد والعناية الإلهية بالنماذج الراقية من عبيده سبحانه أَنَّهُ شيء ضارب في تاريخ البشر منذ القديم الغابر، فكذلك الخبر عن جنّة الخلد، حَيْثُ من أول بدايات تكليف البشريّة من عهد آدم(ع) نزلت أخبار منه تعالى بأن الأرض ستكون للصالحين، والنار للطالحين.

نَنْتَبِهُ، فإذا وضعنا في بالنا أن السورة لا تزال تركّز حديثها على عقيدة المشركين، فلا معنى لتوجيه معاني الآيات خارج هذا السياق، وَلَا معنى للحديث عن وراثة المؤمنين للأرض هنا في الدنيا، ولا معنى لربطها بأحداث ما يسمّونه بآخر الزمان وظهور المهدي... فهذه أمور لم تشر لها السورة، بل ركّزت على المشركين والآخرة، فمن الواضح أن الأرض هنا في الآية هي أرض الجنّة في الآخرة.

كَلِمَةُ عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نَحْنُ نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، فكأن كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، فكلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، فهي جمع الجمع، فأثناء الكلام بدقّة قد تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، فتقول الآيات: عبيد. وَوَرَدَتْ في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على

تقديم السوء لأنفسهم. وَتَكُونُ لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وَتَكُونُ لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، فهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخَرِينَ جاءهم رسول، وعبيد آخَرِينَ... فجمع الجمع "عباد"، فكلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جدا عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

تَذَكَّرْ أن توريث الجنّة للمؤمنين ورد عدة مرات في القرآن، وكلمة إرث تشير لصيران ملكية بلا استرداد من المالك السابق، وهذا نُوصَفُ به حين نرث من ميّت، فتنتقل الملكية منه إلينا ولن يستردّها الميّت منا. ولكن الميراث ليس محصورا بانتقال الملكية من ميّت، فهو لعموم انتقال الملكية بلا استرداد من المالك السابق.

اسْتَعْمَلَ القرآن كلمات دقيقة لوصف حالة الكفّار الخالدين في جهنّم بِأَنَّهُمْ في مثوى، في مكان لا يملكونه، مثل من مثواه السجن والضيف والغريب في بلد... راجع كمثال الآية 23 من سورة يوسف {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ...}، وَدَرَجَ في أدبيات المسلمين استعمال جملة: مثواه الجنّة. وهي غير دقيقة وغير صحيحة لغويا، لأن من في الجنّة يملكها وليس ضيفا فيها... ولذلك عبّر القرآن عن توريث الجنّة للمؤمنين، وهو تمليكها لهم منه تعالى بلا استرداد. ولكن بسبب ظنّنا أن التوريث لا يكون إلا من ميّت، ذَهَبَ المفسرون إلى معان أخرى للآيات...

(إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغاً لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ{106})
{إِنَّ فِي هَذَا}، الكلام المكتوب عبر التاريخ، {لَبَلَاغًا}، وَهُوَ خبر بالتمام وصل، {لِّقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع مسألة الدين، {عَابِدِينَ}، يتصرفون على أساس أنهم عبيد فمفروض منهم الطاعة، ومن البديهي أن الكلام عن العابدين له تعالى، وبالتالي سيحسبون حساب أن يرثوا الجنّة ولذلك هم يطيعونه وحده تعالى، ولا يخترعون آلهة وهمية ولا شريعة مخالفة لشريعته تعالى.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ{107})

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ}، أيها الرسول محمد(ع) برسالة من عندنا، {إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}، من عنايتنا لكل الناس لما فيه مصلحتهم، لتخبرهم عن العقيدة والشريعة الصحيحة حتى لا يتعذّبوا في جهنم وحتى يفوزوا بالجنّة، ولهذا السبب فقط أرسلناك.

إذا فكّرت في الأمور التي تخطر على بال غير المؤمنين عن سبب إرسال رسول من الإله سبحانه، فسيقولون إِنَّهُمْ لا يُصَدِّقُونَ أنه سبحانه مهتم بإيمانهم فيمكنهم أن يؤمنوا بما يَشَاءُونَ، ويقولون إِنَّ محمدا (ع) يخترع الكلام ويقول إِنَّهُ رسول ولا نجد سببا لإرساله فأمورنا تمام... بينما هم يؤمنون بالباطل ويفعلون السوء، فالإنذار وبيان الآيات لهؤلاء هو رحمة لهم حتى يتراجعوا عن سوئهم، وحتى لو لم ينفع معهم الإنذار فسيبقى موصوفا بأنه رحمة لهم، وهناك الذين في قلبهم بذرة صلاح ويحتاجون لدفعة هداية ليتحسّن دينهم، فيأتي ما ينقله الرسول لهم منه تعالى من بشارة بالجنّة وبيّنات الآيات وهو رحمة لهم...

(قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ{108})

{قُلْ}، أيها الرسول محمّد(ع) عبر هذا القرآن لمن أرسلناك لهم:

{إِنَّمَا}، فقط وحصرا، {يُوحَىٰ إِلَيَّ}، تَصِلُنِي معلومات من دون كلام مباشر مسموع منه تعالى، ولمزيد من المعلومات حول كلمة "وحي" راجع دراسة الآية 25 من هذه السورة، {أَنَّمَا}، فقط وحصرا، {إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ}، وَالَّذِي يملك

الصفات والقدرات الفائقة فوق الجميع إنما هو واحد لا ثاني له، فلا مثيل ولا شريك له، {فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ}؟ فهل أنتم منقادون مطيعون لهذا الإله الواحد؟

بعبارة أخرى: تصلني معلومات إلى وعيي وفيها أنها من إله يقول عن نفسه إِنَّهُ لا إله غيره، فوحده فوق كل المخلوقات بالصفات والقدرات، ووحده الخالق لكل شيء والمسيطر على كل شيء... وبناء عليه فهل سَتُسْلِمُونَ لهذا الإله فتكونوا منقادين مطيعين له؟

يعني مضافا للدلائل المنتشرة فيما نراه على أنه يوجد إله صمّم وخلق، وأنه واحد أحد، أَتَانَا خبر منه يؤكّد ذلك.

لِمَزِيدٍ من التوسع حول كلمة "إله" راجع دراسة الآية 22 من هذه السورة.

(فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاء وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ{109})
{فَإِن تَوَلَّوْا}، إن لم يعتبروا كلامك مرجعا لهم وَذَهَبُوا عن كلامك باتجاه آخر، وَلَمْ يسلموا، {فَقُلْ}:

{آذَنتُكُمْ}، أعلنت وصرّحت لكم، {عَلَىٰ سَوَاءٍ}، بلا فرق وبالتساوي بيني وبينكم فيما وصلني، وَمَا أخبرتكم به هو نفسه ما وصلني بلا نقصان، وَوَرَدَ شبه لهذا التعبير "على سواء" وعلى نفس المعنى الوارد هنا في الآية 58 من الأنفال {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ}، {وَإِنْ أَدْرِي}، فلا دراية لي، فأنا لم أعشه ولست في مركز القرار لأعرفه... {أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ}، مَا وعدكم به سبحانه، وَمَا قال إِنَّهُ تعالى سيفعله، وَكَلَامُهُ سبحانه عن قيامكم من الموت ومحاسبتكم ومجازاتكم، فلا دراية لي به لأني مثلكم أسمع المعلومات ولكني لست مشاركا في قرار حصولها ولا تنفيذها... فهل سيكون قريبا أم بعيدا؟ لا أدري.

نُلَاحِظُ من القرآن أن توقيت يوم القيامة غير معلوم لأي مخلوق، بل بالتقريب تعرف الملائكة(ع) شيئا عنه وراجع في ذلك دراسة الآية 15 من سورة طه {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ}، ونحن بتخمين حصول دمار للكون نحصل على صورة تقريبية لمرحلة يوم القيامة من الموت بعد تبدّل هذا الكون، وهذا تقريب تخميني وليس علما يقينيا، وتلاحظ أن القرآن استعمل توصيف تبدّل السماوات والأرض لانتهاء الدنيا ولم يستعمل تعابير الدمار، نَحْنُ نُوَصِّفُ تبدّلها بالدمار والخراب، ومثله نوصف البراكين والزلازل والعواصف... علما أنها أحداث عادية وضرورية لحياة الأرض بحسب طبيعة تكوينها... على كلّ حال فحتى لو أراد سبحانه إطلاعنا على التوقيت فلن نتمكّن من فهمه كتوقيت، حَيْثُ أَخْبَرَنا سبحانه عبر القرآن عمّا سيحصل من تبدّل "دمار" الأرض والنجوم والسماوات بشكل عام... وبعدها يعود ابتداء الخلق من جديد بحلّة جديدة... فهذا كلام عن مراحل وأما التوقيت فمستحيل علينا فهمه، لأن الزمن سيكون له معنى مختلف عندما تتبدّل السماوات وترجع كما كانت في بداية خلقها، ففي تلك الأثناء تكون كل المخلوقات فاقدة للوعي "إلا من شاء الله" كما ورد في الآية 68 من سورة الزمر {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ} ، فلو أراد تعالى أن يشرح لنا أو للملائكة (ع) عن توقيت يوم القيامة، فكيف سيحدّده تعالى لنا إذا كنا سنفقد وعينا! وكيف سيتحدّد إن كانت الدنيا ستتغيّر وبالتالي ستتغيّر مرجعية تحديد الزمن حيث لا شروق ولا غروب!

لَا تَنْسَ أبدا أن التوقيت هو ما يسألون عنه، فبعد كم سنة ستحصل... ولا يوجد طريقة لإخبارهم به، هذا من جهة، ومن جهة ثانية هُنَاكَ توقيت لم يسألوا عنه ويمكن الحصول على جواب له، مَتَى سيموت كل البشر؟ وهذا يمكن معرفته لأنه في المجال الزمني السابق لتبدّل الدنيا، ولكن هذا السؤال ليس مهمّا، لأنه احتمال وارد عند بعض الكفّار أن يموت كل البشر بدمار عام شامل بكارثة على مستوى كوكب الأرض، ولكن السؤال عن القيام من الموت، وَهُوَ خبر جاء عبر الأنبياء والرسل، ويريدون معرفة توقيته ليتأكدوا من صدقه، أو ليؤمنوا في آخر الأيام قبل حصوله، أو يسألون عنه لمجرّد السؤال الفضولي عمّا يقوله هذا الدين بشأن هذا الموضوع... فإذا حدّد لهم النبي وقتا بعيدا، سخروا من هذا التهديد البعيد جدا جدا، وإذا قال إِنَّهُ قريب وفي زمان حياتهم فإنهم أيضا سينتظرون ولن يؤمنوا وحالتهم ستكون مثل حالة أي قوم حدّد لهم النبي وقتا لنزول عذاب دنيوي عليهم بعد يوم أو يومين أو ثلاثة، أو بعد سنوات كما في حالة الطوفان، ولم يؤمنوا! فعلى أي حال مَا الفائدة من السؤال ومن الجواب! لا فائدة، ولذلك لم يجب القرآن إلا بشكل تلميحي.

فِي عموم أدبياتنا الدينية نحن ومن سبقنا من المنتمين لدينه تعالى، نلاحظ خلطا بين وقت يحصل فيه تبدّل السماوات والأرض وبين يوم القيامة، لَدَيْنَا تراث ثقافي ديني يفترض أنه سيأتي زمن يحصل فيه كارثة ويراها الناس وستكون الكارثة التي ستقضي على حياة كل الناس وأن هذه الحادثة هي يوم القيامة، وتجد في فلتات كلام العلماء خلطا بين الآخرة والدنيا فتفهم من كلام بعضهم أن الآخرة بجنّتها ونارها موجودة الآن! فيقولون إنَّ من مات انْتَقَلَ الآن للآخرة! وهذا النوع من التهاون في التعابير منتشر حول هذا الموضوع وليس له أساس قرآني إلا إسقاطا لأفكارنا المسبقة على آيات لم تقصد هذا المعنى، ففي القرآن هناك زمن تتبدّل فيه السماوات والأرض، وبهذا تنتهي الدنيا، ومن بعدها تأتي الآخرة ونقوم من الموت، وقبل وأثناء قيامنا من الموت يحصل تزلزل للأرض وانهيار للجبال... وهذا ما ذكره صريح القرآن في مقابل ثقافة دينية تخلط بين تبدّل الدنيا وبين الآخرة، حَيْثُ يَتِمُّ تَفْسِيرُ آيات قيامنا من الموت بِأَنَّهَا تشير لمشاهدتنا نحن لخراب الدنيا، وهذا غير صحيح.

(إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ{110})
{إِنَّهُ}، الإله الواحد، {يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ}، يعلم ما تقولونه علناً أمام الآخرين بشكل مباشر وواضح، {وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ}، يعلم ما لم تقولوه للآخرين، ويعلم سبحانه ما يدور في رأسكم من أفكار ويعلم مشاعركم.

سياق الكلام هنا عن موقفكم من مسألة توقيت يوم القيامة، وما قلتموه عنها وعن الرسول وعن رسالته وعن التوحيد كُلُّهُ تحت المراقبة الإلهيّة، وما لم تقولوه ولكن شعرتم أو فكّرتم به أيضاً يعلم به سبحانه.

(وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ{111})
{وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ}، أمّا عن سبب تصميمه تعالى لما في الدنيا بحيث يكون موعد حصول يوم القيامة مخفيّاً علينا، فلا أدري إن كان من المفروض أن يكون هذا الموضوع شيئاً قصد تعالى أن يصيبكم به كشيء تفتنون به فتتغيرون بسببه، {وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ}، حيث تستفيدون مما تجدونه في الدنيا إلى وقت محدّد سينتهي بعده تمتّعكم بما في الدنيا.

كما ترى، الآية تريك أنه تعالى وبصراحة لم يُخْفِ المعلومات عنّا ويُخْبِرْها سرّاً لرسوله(ع)، حيث يأمر سبحانه رسوله (ع) أن ينفي أي علاقة له بهكذا قرارات، {إِنْ أَدْرِي} فلا علم لي ولا بأي شكل بتوقيت القيامة أو سبب جعل موعدها غداً أو بعده أو بعد سنة أو سنين... وأنا أصلاً لا علاقة لي به، وأنا بالنسبة لهذا الموضوع مثلي مثلكم، ومما أراه من حالتنا فمن المفروض ومن المتوقّع، مما يبدو، أن إخفاء موعدها الآن سببه أن تفتتنوا به، حيث تتعرضون لهذه المعلومة فتتماشون معها وتعملون على أساسها فتؤمنون أو تكفرون... كامتحان لكم حتى تزدادوا كفراً أو يؤمن البعض منكم...

كما ترى، هي جملة يقولها سبحانه وينقلها لنا عبر هذا القرآن كأمر بأن يقولها رسوله للناس، على معنى: إذا سألوك فقل لهم جواباً منك، لأنك لا تدري أي شيء عن يوم القيامة إلا ما وصلك منه تعالى وقلته للناس، ومما يبدو لك، وهو صحيح، أنَّ سبب إخفاء موعدها أن يكون الإخفاء فتنة للناس، والسؤال عنها لن يجيب سبحانه عليه، فإن لم يعجبهم ذلك فسيكفرون، وإن آمنوا تماشوا معه.

(قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ{112})
{قَالَ}، نكمل مع تعليمه سبحانه لرسوله(ع) ماذا يقول للناس، على معنى الآيات التي استعملت الأمر "قل":

{رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ}، هناك خلافٌ بيني وبين من كفر بي كرسول، وأنا مجرد رسول ناقل لكلامك وقمت بواجبي هذا، لذا بقي أن يقوم المسؤول عني من مستوى إلهي بالحكم بضبط الأمور على ما هو مطلوب بالحقّ بالصواب، وهذا ما أؤمن بأنك ستفعله وأتوقّعه فقط منك، فاحكم في خلافي مع هؤلاء القوم الكافرين بالحق، وبالصواب أعطني حقي وأعطهم حقّهم، وقرأنا ما يتوقّع الرسول(ع) من حق له، وهو الثواب بالجنّة على إيمانه وعمله الصالح وبالأخص على تبليغه هذه الرسالة وتحمّله معاندتهم وتكذيبهم له، وفي مقابله العقاب لمن لم يؤمن بما قاله (ع).

{وَرَبُّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {الرَّحْمَنُ}، الموصوف بالعناية بنا، {الْمُسْتَعَانُ}، الذي نطلب معونته، {عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ}، حيث أنتم تقولون كلاماً تصفونه تعالى فيه بأن له شركاء، وتصفوني بأني أكذب... وهذا سيسبب لكم عذاباً وضرراً منكم للمؤمنين لأنكم ستمنعونهم أو تعارضونهم أو تُكذِّبونهم أو تسخرون من إيمانهم ومن تطبيق دينه تعالى... لذا أطلب العون منه تعالى على الأثر السيِّئ الناتج عن كلامكم.

سورة الحج (22) ص 332

بدأت بِأَخْبَارِ الآخرة وثوابها وعقابها لعموم من خالف دينه تعالى، وانتقلت للكلام عن نسك إلهي "مناسك الحجّ" الضارب في عمق التاريخ قِدَماً، وتوجهت بكلامها مع نموذج فاقع من مخالفة دينه تعالى عبر تحويل نسك إلهي "الحجّ" عن مساره الإلهي التوحيدي إلى الشرك، وأعادت وصل الحجّ بدينه تعالى وبالتالي وصله بالرسول محمّد (ع) وقرآنه... حيث ركّزت على هذا النسك المربوط في جوهره بالآخرة كتعبير منّا عن شكره تعالى على {بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ} وهو نموذج بارز عن بقية نعمه تعالى علينا.

بالطريق أشارت لنموذج غريب جِدّاً من أفعال المشركين المانعين الطاردين القاتلين... للموحدين الذين يريدون أداء الحجّ، وكأن الحجّ من أساس دين المشركين وتابع لهم فقط!

أكثرت السورة من نقل مشاهد من الآخرة عن العقاب والثواب والتذكير بأهمية النُّسُكِ وسببه لينتبه المتلاعبون به...

من تسمية المسلمين للسورة بـ "الحجّ" تتوقّع أن تجد فيها تفاصيل عن مناسك الحج في مكّة، ولم يرد فيها من المناسك إلا إطعام المحتاجين من الْبُدْنِ والْهَدْيِ، وما في سورة البقرة عن الحج أوسع بكثير مما ورد هنا، وتتذكّر أن أسماء السور لم ترد منه تعالى نهائيّاً، وما ورد عن رسوله(ع) فـغَالبيَّتُهُ اعتمد أوّل آية في السورة للإشارة إليها... وبعدها صار الناس ينتقون أسماء للسور بكلمة واحدة للسهولة... وبذلك صار للسورة العديد من الأسماء، ورُكِّزَ منها فيما بعد ما تداوله الناس بناء على مجموع استنسابهم للتسمية، حيث كان للأسماء فِعْلاً علاقة "ما" بالسور، ولكنها في أكثر الأحيان لم تعبّر عن موضوع السورة، فـهنا السورة ركّزت على نموذج الحج كنسك توحيدي جرى التلاعب به، ولم يكن محور كلامها عن تشريعات أدائه.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ{1})

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ}، الكلام موجّه لكائنات من نوع الإنسان بما فيها من قابلية التكليف بأوامره تعالى:

{اتَّقُوا رَبَّكُمْ}، تجنّبوا وتحاشوا المسؤول عنكم من مستوى إلهي، وعادة يقصد القرآن بـ"تقوى" تجنّب مخالفة أوامره تعالى وبالتالي تجنّب غضبه وعقابه سبحانه، {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ}، إن فقدان الثبات والاهتزاز الذي سيحصل في الساعة، وغالبا يشير القرآن بالساعة لأوّل ساعة من يوم القيامة من الموت، وهي الساعة التي نقوم فيها من الموت وتليها ساعات وأيام حشرنا وفرزنا زُمَراً ومحاسبتنا... فساعة قيامنا من الموت، {شَيْءٌ عَظِيمٌ}، مهول ضخم وليس أمرا عاديا.

من سورة الزلزلة نعلم أن هزّة أرضية ستحصل وعلى أثرها يخرج الناس من التراب إلى الحياة، لذا بدأت السورة بهذا المشهد العظيم لتنبّهنا مما بعده من حساب ومجازاة لمن لم يتّقه أو اتّقاه تعالى.

نلاحظ في عموم الكتب خلطا بين مشهد تبدّل الدنيا وبين يوم القيامة، حيث عادة يدمجونهما الناس مع بعض حتى بالتسمية، ويقولون عن زمن تبدّل الدنيا أنه يوم القيامة، وفي عموم التراث الديني لليهود والمسيحيين والمسلمين تجد كلاما عن أناس لا يزالون أحياء من الدنيا ويشاهدون حصول "يوم القيامة"... وعلى هذه الخلفية فسّر بعضهم الآيات هنا وبضع آيات أخرى من القرآن، علما أن القرآن أخبرنا بحصول تبدّل للدنيا حيث تكون كلّ الناس ميتة في حينه...

وبعده الصيران في سماوات وأرض الآخرة، وبعده قيامنا من الموت مقارناً مع ظواهر تحدث من زلزلة وتسيير الجبال...

(يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ{2})

{يَوْمَ تَرَوْنَهَا}، في الزمن الذي يصير عندكم صورة محدّدة للساعة، فتقومون من الموت وترون الأجواء من حولكم، عندها، {تَذْهَلُ}، لِانشغال الفكر بشيء قوي يذهب عن البال، {كُلُّ مُرْضِعَةٍ}، كل امرأة ترضع طفلا "ماتت" وهي مرضعة، وحين ماتت كان لديها طفل يَشْرَبُ من لبنها، {عَمَّا أَرْضَعَتْ}، حيث تفتح عينيها في يوم القيامة ومن شدّة الرعب يغيب طفلها كليا عن بالها، لأن شعورا قويا جدا من الخوف سيطر عليها وسيجعلها تنسى حتى ولدها الذي كانت تطعمه من لبنها قبل أن تموت.

تتذكّر أن غمضة عين بيننا وبين يوم القيامة، حيث نموت ونفقد وعينا وحين نستعيده في يوم القيامة فحالتنا مثل من نام واستيقظ، وهنا الكلام عن نموذج مرضعة ماتت، وفقدت وعيها، وفي الحالة العادية عندما تستيقظ فأول ما سيخطر ببالها ابنها لترضعه، ولكنها ومن شدّة رعب ما تراه في يوم القيامة، عِنْدَمَا ستستعيد وعيها لن يخطر ببالها ابنها لترضعه، بَلْ ستذهل عنه.

الكلام القرآني عن الرعب والخوف في الآخرة دائماً لغير المؤمنين.

{وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا}، والمرأة الحامل ستضع ما تحمله حيث سيخرج منها ويسقط ويخرج منها جنينها، أيضا من رعب مشهد العودة إلى الحياة مرّة ثانية لا تتماسك الحامل ويسقط جنينها من الرعب. ولا نجد في القرآن شيئا صريحا عن مصير هذه الأجنّة التي عادت إلى الحياة عندما عادت أُمَّهَاتُهَا إلى الحياة، وحتما بالحكمة الإلهية هناك شيء ما لهم، ولا ندري إن كانوا سيبقون أولادا أو سيكبرون... فهذه تفاصيل لا علاقة لها بالهداية ليذكرها القرآن.

كلمة "حَمْل" بالفتحة على الحاء والسكون على الميم، هي في أكثر استعمال العرب لها مخصّصة لما تحمله الأنثى في بطنها، وكلمة "حَمَل" بالفتحة على الحاء والفتحة على الميم، مخصصة لما يحمله أي إنسان على ظهره أو بيديه أو على رأسه، فمن قرأ آيتنا هذه مخالفا قراءة جمهور المسلمين الذين نموذج قراءتهم "حفص"، فسها أو نسي أو اخترع من عنده قراءة مختلفة بما رآه هو مناسبا...

نتذكّر العديد من آيات القرآن التي تحدّثت عن إعادة كل الناس إلى الحياة، ومن دون استثناء، فالتي ماتت وفي بطنها جنين، بعد رجوعها إلى الحياة في يوم القيامة سيخرج الجنين منها، لأنه نفس مثله مثل بقية الأنفس، والآية هنا ألصقت هذا الإسقاط بالرعب من المشهد وقفزت الآية عن المؤمنة التي ماتت حَامِلاً فهذه لن ترتعب ولن يسقط جنينها من الرعب، وستكون مرتاحة سعيدة مسرورة... لذا فالكلام هنا عن المرضعة التي تذهل والحامل التي تضع ومن الواضح أنه ليس توصيفا لحالة المؤمنين بل للآخرين.

من عموم القرآن نفهم أننا كلّنا دفعة واحدة نبدأ بالتشكّل لنستعيد وعينا ونخرج إلى الحياة في تلك الساعة، والزلزلة هي حالة تزلزل الأرض لخروجنا منها، وبناء عليه فالكلام هنا عن الزلزلة المتلازمة مع خروجنا من الأرض، ويصير فهم الآية أسهل ومتماشيا مع عموم القرآن إن فهمنا أن "يوم ترونها" يشير إلى رؤية الساعة، رؤية مشهد ساحة أول قيامنا من الموت، حيث نرى أنفسنا والآخرين ومحيطنا في حالة خروج الأموات إلى الحياة.

{وَتَرَى النَّاسَ}، ويحصل لديك صورة محدّدة للناس في تلك الساعة وهم، {سُكَارَىٰ}، فَاقِدُونَ للتركيز مثل من شرب المسكرات "الخمر وأمثاله..."، {وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ}، إذْ ليست حالتهم ناتجة عن المسكرات أو المخدرات، {وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ}، ما يشعرون به من ضرر وما يرونه من ضرر للآخرين غير عادي ولذلك تصيبهم حالة الذهول المشابهة لحالة السكران.

ننتبه جيّدا، مشهد القيام من الموت وصفه القرآن عدة مرّات، وأكّد أن المؤمنين العاملين للصالحات تستقبلهم الملائكة(ع) بأحسن استقبال من أول لحظة يفتحون فيها أعينهم بعد قيامهم من الموت، ولا يشعرون بأي فزع أو خوف،

راجع الآية 103 من سورة الأنبياء {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ}، فهنا الآية تتحدّث عن كل مرضعة وحامل لم تكونا مؤمنتين، حيث تذهل عمّا أرضعت وتسقط حملها رعبا، وترى الناس سكارى... إلا المؤمنين العاملين للصالحات، فهؤلاء لا يتعذّبون في يوم القيامة، أمّا الكفّار فتبدأ الملائكة (ع) بضربهم وجرجرتهم وإهانتهم من أول لحظة يفتحون فيها أعينهم من الموت.

كما ترى، اختيار نموذج المرضعة وذهولها عن ولدها تقصد به الآية أن تريك شدّة الرعب لأقصى درجة، وذهول المرضعة عن ولدها يحصل هنا في الدنيا عند تعرّضها للخوف الشديد، وأيضا اختيار نموذجي المرضعة والحامل من بقية حالات الكافرين يريك أن المجرمة الظالمة لن تنال الرحمة لأنها هي بإرادتها كفرت وفعلت السيئات وستنال عقابها...

لاحظ أن السورة أرادت عرض مشهد مرعب وعن قصد لم تذكر حالة المؤمنين الصالحين السعيدة في يوم القيامة، وذلك حتى تنتقل الآية من هذا المشهد المرعب إلى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ{3})
رغم هول مشهد ساعة القيامة من الموت، وإخبارنا عن شدّة عذابه ورعبه، والذي من المفروض أن يجعلنا نتقيه تعالى:

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ}، من يتحدّث مع الآخرين محاولاً إقناعهم، وللمجادل تدرجات تبدأ من الباحث عن الحقيقة الليّن في آرائه، وصولاً إلى الصلب الذي لا يغيّر رأيه، وهنا من تكملة الجملة تعلم أن الكلام عن المصرّ على رأيه فيجادل، {فِي اللَّهِ}، وموضوع كلامه حول الله تعالى، {بِغَيْرِ عِلْمٍ}، من دون أن يكون لديه معلومات صحيحة يستند عليها ولا تفكير عقلاني يستند إليه، حيث هكذا من رأسه يخترع الأوهام عن الله تعالى ويجادل بها! وبحسب ما تقوله الآيات هنا فهي تتحدّث بالخصوص هنا عمن يقرر من عنده أن الله تعالى لن يقيمنا من الموت ليحاسبنا ويجازينا، فهو يقرّر عن الله تعالى من دون أن يكون لديه معلومات صحيحة!

يمكنك أن تستوحي من اختيار الآية السابقة للمرضع والحامل، أنها من الحالات التي يفترض بعض الناس أنه تعالى سيضعف أمامها وسيلغي العقاب... لا، لأنَّ المجرم بإرادته خرج من تحت مظلة الرحمة الإلهية وسينال عقابه كائنا من كان.

{وَيَتَّبِعُ}، ويكون على خطى، {كُلَّ شَيْطَانٍ}، كل من يقوم بأعمال الضلال بنفسه وليضلّ الآخرين، {مَّرِيدٍ}، مارد وهو معتاد على المخالفة، متمرّس بالخروج عن الطاعة، فمن يتمرّد عن طاعته تعالى فيفعل ويقول بشكل مضاد لما يأمر به الإله سبحانه، ويستمرّ على هذا السلوك فيصير وصفه: مَرِيداً، مَارِداً، مُتَمَرِّداً. "مثل عتد عتيد، ومرد مريد".

هناك أشخاص يقومون بهداية الناس عن علم، وهم الأنبياء والرسل والصدِّيقون... وهناك مضاد لهم وتكون صفته: شيطان. وإبليس على رأس القائمين بهذا العمل الإضلالي، وهناك شياطين آخرون أيضا من الجنّ والإنس يقصدون طرح الأفكار الضالّة، وهذا الذي يجادل بغير علم عنه تعالى، فمهما قلت له كلاماً هادياً واضحاً بَيِّناً... فلن يسمع لك وسيسمع لكل فكرة مضادة للإيمان يقولها أي شيطان، سواء وسوست له شياطين الجنّ في رأسه، أو وسوست له شياطين الإنس، أو هو نفسه شيطان يتبع هواه الشيطاني... وكل هذا يحصل من بعض الناس علما أن وراء ذلك ساعة مرعبة من القيام من الموت.

ضع في بالك أن السورة ستكرر قولها: ومن الناس. وستستعمل تعابيرَ مشابهة لتنبهنا لاختلاط أنواع الشرك، فهنا الكلام عن نوع من الناس يخترع أفكاراً من رأسه ويستمع للأفكار الشيطانية ويتبناها... وفيما سيأتي من السورة هناك أُناس آخرون بعقائد وسلوكيات مختلفة... كما في الآية 8، وبعدها في الآية 11، وبعدها...

(كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ{4})
{كُتِبَ عَلَيْهِ}، سجّل، على معنى قرّر سبحانه على الشيطان، وصار محسوماً محتوماً، {أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ}، من تولّى الشيطان وتصرّف على أساس أنه تابع للشيطان كمرجع له، {فَأَنَّهُ}، الشيطان، {يُضِلُّهُ}، حيث يضعه على الشيء الخطأ الذي يوصله للنهاية الفاسدة، {وَيَهْدِيهِ}، حيث يضعه على الشيء الناتج عن الضلال الذي يوصله للغاية الناتجة

عن الضلال، {إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ}، حيث إنَّ نهاية الطريق الشيطاني إلى ضرر في نار مستعرة مشتعلة بقوّة ولها ألسنة لهب طويلة.

كلّ الهدى للحقّ في دينه تعالى ومن المستحيل أن تحصل على كلمة هدىً للحقّ واحدة من الشيطان، لأنَّ كلَّ كلامه ووسوسته وأعماله... كلُّها تدل على طريق جهنّم، ومن المستحيل أن توصلك إلى الجنّة.

نلاحظ هنا أنها من المرات النادرة التي استعمل فيها القرآن كلمة هدىً مرتبطة بشيء خطأ، وهي على معنى لو أنك سألتني عن الطريق ودللتك على الطريق الخطأ الذي لن يوصلك إلى حيث تريد، حيث طلبت مني أن أهديك وهديتك للطريق الخطأ. وهنا نفس الشيء، حيث إنَّ الكلام الإلهي يدل على الهداية الصحيحة وهناك مَنْ يترك كلامه تعالى ويتبع كلام الشيطان الذي سيهديه للطريق الخطأ، لأنَّ نهاية طريق الشيطان توصل إلى عذاب السعير.

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضَلَّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، وهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواءً أكان خيراً أم شرّاً، وإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فَضَلَّ عنك صيدها. واستعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهةً ما، وفي يوم القيامة {ضَلَّتْ عَنْهُ}، حيث لم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون لأنه ليس على طريقهم، بل ضالٌ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردّاً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

ننتبه، حيث إنَّ القرآن صرّح مراراً أنه ولو لمرَّةٍ واحدة سمعت كلمة شيطانية ونفّذتها أو أعجبتك، وتركت في مقابلها كلمة إيمانية صادرة عن القرآن أو عن الرسول(ع)، ولم تتراجع عنها، فأنتَ واليتَ الشيطان وخرجت من ولاية الله تعالى، وصار الشيطان مرجعاً لك ولو في كلمة واحدة. طبعاً خطورة العقاب على المخالفة مرتبطة بحجم ومدى سوء المخالفة، حيث إنَّ هناك مخالفات أثر سوئها قليلٌ بالمقارنة مع الأخريات، كسرقة صغيرة جدّاً في مقابل قتل نفس بريئة، وتركت العديد من الآيات هذا التفصيل بكلامها العمومي عن خطورة ولاية الشيطان حتى يبقى التركيز على مدى سوء ما نفعله إن تركنا ولاية من يهدينا للخير لنعتبر من يهدينا للشرّ مرجعاً لنا.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاء إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ{5})

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ}، الكلام موجّه لكم أيتها المخلوقات من نوع الإنسان بشكل عام، {إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ}، إن كان لديكم أدنى احتمال بأنه لن يحصل بعث، وعادة يشير القرآن بالبعث لإنهاض الناس من الموت، وبعبارة أخرى، فإن كنتم تريدون دليلاً حسياً ملموساً عن وعدنا ببعثكم من الموت:

{فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ}، ركّبناكم وألّفناكم، {مِنْ تُرَابٍ}، من المواد التي حولكم، لأنكم لم تخرجوا من لا شيء، ولا بقوّتكم الذاتية، ولا بالصدفة، ولا من الطبيعة الأم، ومن البديهي الواضح أنكم كنتم لا شيء، وها صرتم من التراب، من هذه المواد التي من حولكم، "كربون كالسيوم حديد أوكسجين..."، لأنَّ الذي خلقكم أوّل مرة هو يقول بأنه سيعيد خلقكم مرة ثانية.

من الواضح أننا مخلوقون من ماء وتراب، والقرآن مرة يشير لهما معا بتعبير الطين، ومرة يشير لواحد منهما سواء الماء لوحده أو التراب لوحده، والكلام ليس درساً عن البيولوجيا، بل لفت انتباهٍ لما نعلمه من تكوين جسدنا من ماء وتراب.

عدَّةُ آيات من القرآن تلفت انتباهنا لما صار كائناً مخلوقاً "متألّفا متركّبا" من الطين... وتسلسل الكائن، حتى صار منه ذكر وأنثى، وصار التناسل عبر التزاوج بين الذكر والأنثى، كما تقرأ في الآية الأولى من سورة النساء {يَا أَيُّهَا النَّاسُ

اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً}، ومن هنا تكمل الآية من بعدما صار التكاثر بالتزاوج: {ثُمَّ}، خلقناكم، {مِنْ نُطْفَةٍ}، وكلمة نطفة وصف لعموم أي شيء صغير الحجم جدّاً، ونستعمل هذه الكلمة "عادة" لوصف مكونات مني الرجل، وحالياً بالعاميَّة نستعملها اسماً للحيوانات المنوية "بدلا من الكلمة الاصطلاحية حييمن"، علماً أنها في أساس معناها ليست مخصصة لذلك، حيث يمكنك القول عن أي كمية صغيرة جدّاً من الماء العادي أو البهار أو الملح أو...: نطفة.

{ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ}، حيث تصير النطفة التي في البويضة أكبر حجماً وفيها دم وعالقة بجدار الرحم، {ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ}، حيث تصير العلقة مضغة "تصوّرها كاللقمة الممضوغة" فهي شيء لا شكل محدَّداً له، فلا يبدو بعد عليكم كيان الجسد البشري، والمضغة، {مُخَلَّقَةٍ}، مركَّبة مؤلَّفة والكلام عن استمرار صيرانها طفلاً فيه حياة، {وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ}، حيث ليست مركَّبة لتصير طفلاً فيه حياة، يعني في مرحلة النطفة والعلقة لا يبدو علينا أننا سنصير جنيناً، وفي حالة المضغة يمكن بالفحص أن تقول: هنا لدينا بداية تكوين طفل، ومن هنا يمكن أن يكتمل خلقه "تركيبه تأليفه"، وممكن أن لا يكتمل خلقه فيموت أو يولد فيه نقص عن البقيّة.

السبب الذي من أجله جعل تعالى خلقنا بهذه الطريقة: {لِنُبَيِّنَ لَكُمْ}، لنوضّح لكم، حيث كان بإمكاننا تصميم خلقكم بطريقة مختلفة ولكن حتى يكون واضحاً لكم أننا صمّمناكم "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقناكم وأننا يمكن أن نعيدكم إلى الحياة مرة ثانية، واخترنا هذه الطريقة لخلقكم والتي تدلّكم بسهولة على إله صمّمكم وخلقكم ويمكنه إعادة خلقكم بعد موتكم.

{وَنُقِرُّ}، ونثبّت، حيث نجعل من المضغ مَنْ يستقرّ ويثبت، {فِي الْأَرْحَامِ}، في جهاز المرأة التناسلي الذي نمت فيه المضغة، نقرّ، {مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}، فأمامه تعالى خيارات عديدة ولكل جنين موعد زمني محدَّد ينتهي فيه استقراره في الرحم "عادة قرابة التسعة أشهر"، {ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ}، من الرحم، {طِفْلًا}، صغاراً، {ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ}، حيث تكبرون لتصيروا في أشد ما يمكنكم الوصول إليه من قواكم العقلية والنفسية والجسدية.

تريد الآية لفت انتباهنا لخلقنا أطواراً، حيث إنَّ الحيوانات والنباتات تكون صغيرة وتكبر، حيث كان بإمكانه تعالى جعلهم يخرجون إلى الحياة بطريقة أخرى ليس فيها أطوارٌ، حيث إنَّ الملائكة (ع) مثلاً "وبحسب ما نعرف عنها في عموم تراثنا الديني" أنها ولدت هكذا كما هي فلا تكبر ولا تصغر، ولا نعلم أي شيء عن آلية خلقها ولكن نفترض بناء على تراكم موروثنا الثقافي الديني أنها ليس لها أطوارٌ، ولكنه تعالى اختار لنا أن نخرج بالطريقة التي نعرفها حتى ننتبه أن الذي خلقنا بهذه الطريقة التي فيها مراحل دقيقة جدّاً جدّاً، يمكنه أن يكررها معنا، ونحن وكما هو واضح جدّاً، لم نخرج من الحائط، ولم نخرج من لا شيء، ولم تخلقنا الطبيعة لوحدها فهي ليست أصلاً كياناً خلّاقاً إنما هي بيئة نعيش فيها.

{وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى}، حيث تأخذه الملائكة(ع) ويفارق الحياة وهو في أشدّه أو قبل ذلك، {وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ}، فالبعض منكم وليس كلّكم، مَنْ يُرَدُّ، حيث يتمُّ ردّه وإرجاعه، {إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ}، إلى حالة أقل من حالة الأشد البدني والفكري، إلى حالة دونية، حيث بعدما يكبر كثيراً في العمر يرجع مشابهاً لما كان عليه طفلاً في شدّته البدنية والعقلية الضعيفة، {لِكَيْلَا}، حتى لا، {يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا}، حيث كان لديه معلومات عن نفسه وعن الأشياء من حوله، ويخسرها وتذهب من عقله ويصير مشابهاً للطفل فلا يعلم شيئاً.

السؤال: لماذا نموت؟ لماذا لا نستمرّ في الاشتداد بالقوة العقلية والبدنية كلما كبرنا؟ تخبرنا الآية أن هذا التصميم مقصود، والهدف منه أن نؤمن بسيطرته تعالى علينا بالتمام، وأنه بإمكانه تعالى إرجاعنا إلى الحياة مرّة ثانية بأي طريقة يريدها، ويمكنه تعالى خلقنا مرّة ثانية بأي كيان يريده، حيث في الآخرة سيجعلنا كلنا خالدين لا نفقد حياتنا مهما حصل معنا.

حسناً، انتهت الآية من الحديث عنّا كأناس، حيث في زمن ما لم يكن لنا وجود، وخلقنا سبحانه، وهذا دليل ملموس على قدرته تعالى على خلقنا ونحن حالياً في هذه الحالة، فما معنى إنكار قدرته سبحانه على خلقنا مرّة ثانية؟ وسترى في الآية التالية توسُّعاً في معنى الحياة التي فينا...

نحن وبقية الحيوانات نشترك في أساسيات هذه العملية للخروج إلى الحياة، وستنتقل الآية إلى نموذج لحياة من نوع مختلف في مراحله عنّا:

{وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً}، حيث يصير لديك صورة محدّدة عن بقعة أرض ليس فيها حركة، وهنا الكلام عن همود الحياة فيها، {فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ}، حيث نزل من السماء مطر، {اهْتَزَّتْ}، حيث حصل للأرض حركة بسبب انفلاق البذور ونموّها، {وَرَبَتْ}، وتربَّت وترعرعت، ونما منها شيء، {وَأَنْبَتَتْ}، الأرض حيث نما منها وكبر، {مِنْ كُلِّ زَوْجٍ}، من كل صنف ونوع، {بَهِيجٍ}، نبات في حالة النمو الكامل مثلما نحن البشر نصل إلى أشدّ قوانا العقلية والجسدية فللنبات مرحلة يصل فيها إلى كمال القوّة النباتية في نموّه عبّرت عنه الآية بأنه بهيج.

إذاً لدينا نموذج آخر عن خروج الحياة بتكرار أمامنا، حيث أشار القرآن كثيراً لخروج النبات من الأرض أنه مشابه لخروجنا نحن إلى الحياة، وأن الاختلاف في التفاصيل والآلية بين حياة الحيوان وحياة النبات فهو بالنسبة له تعالى اختلاف في التفاصيل فقط، حيث إنَّ كليهما النبات والحيوان من التراب والماء، وكلاهما يمران في مراحل، ولمزيد من التوسّع راجع دراسة الآية 17 من سورة نوح {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}، ومن الآية 9 للآية 11 من سورة ق {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ... رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ}.

ننتبه ولا ننسى أن الآيات لا تقصد إعطاءنا درساً في بيولوجيا الحياة، لا، بل تلفت انتباهنا لأمور يعرفها الإنسان العادي، والبداية مع بداهة تكوّننا من طين، وبداهة حصول حمل من التلقيح بنطفة من الرجل، ومعلومة مراحل الحمل من حالات سقوط الحمل قبل اكتماله، حيث تسقط علقة أو مضغة.

الحديث هنا مع من لديهم ريب في البعث من الموت، على أساس أنه شيء صعب أو مستحيل فعله، حيث تلفت الآية انتباهه ليسأل نفسه: كيف ولماذا سيكون بعثنا صعباً أو مستحيلاً طالما أنَّ خلقنا أول مرة حصل، فما المانع من خلقنا مرّة ثانية؟ فلينظروا إلى جنسهم كيف خلقه سبحانه هنا، ولينظروا إلى النبات كيف ينمو ويخرج إلى الحياة، فمن الواضح أن من صمّمهم وخطّط للحيوان والنبات أن يخرجوا بهذه الطريقة التي تتكرّر باستمرار ودائماً من حولنا، فمن الواضح قدرته على تكرارها مرّة ثانية بعد موتنا، ويخرجنا من الموت من جديد بكل سهولة.

ملاحظة، حيث سمعت عن الاندهاش المتكرر من الكثير من الأطباء الذين يشهدون ولادات يومية، حيث إنَّ كل حالة ولادة تجعلهم يشعرون بالدهشة والتعجّب من تكرار هذه المعجزة، مع أنهم يعرفون دقائق علمية عن عملية تكوّن الجنين وخروجه، ولكن تغيب تلك التفاصيل عن ذهنهم عندما يرون النتيجة أمامهم: خروج إنسان من إنسان. وهذا نموذج عمّا تشير إليه الآية هنا، فمن صمّم وخطّط ونفّذ هذه الحياة هنا، فهو قادر على إعادة تكرارها، بل تكرارها أهون عليه.

بالنسبة لكلمة "أرذل" فهذه ليست إهانة للكبار في السنّ، بل هي توصيف لرجوعهم عن شدة قواهم العقلية والجسدية، حيث إنَّ أصل معنى الكلمة يشير لوصف لشيء دون شيء آخر، لشيء أقل منه أو أضعف منه... حيث إنَّ أراذل الناس هم الذين دون غيرهم في شيء ما، وبحسب سياق الحديث يتحدّد بأي شيء تقصد أنهم أراذل، حيث نقل القرآن وصف بعض الناس لمن اتبع الأنبياء بأنهم أراذل، وكانوا يقصدون أن أتباع الأنبياء من الضعفاء اجتماعياً ومالياً... وربما فيهم من كان ضعيفاً أخلاقياً فيما مضى، فكلمة "أراذل" لا تشير إلى شيء سيّء حصراً، بل لوصف حالة ضعف "دونية" في شيء ما. وعلى كل حال من سور أخرى من القرآن كررت هذا الوصف لحالة الضعف عندما نتقدّم في السن، نفهم أنه تعالى تقصّد بذلك أن ينكسر تكبّرنا، فلا سيطرة لنا حتى على جسدنا وقدراته، ولتكسير أي منطق قوّة ننطق به في شدّتنا معتزّين بقوّتنا ولا نهاب الآخرة وحسابها ونارها... فلنتذكّر أننا لا نبقى على قوّتنا، وسنفقدها ونرجع إلى أرذل العمر، ولمزيد من التوسّع راجع أيضاً الآية 68 من سورة يس {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ}.

بقي شيء، حيث في دراستنا هذه فسّرنا كلمة "خلق" بركّب وألّف، وهذا تقريب مقبول ولكنه يفتقد لشيء تتضمنّه كلمة "خلق"، فضعه في بالك لأن تكراره في مختلف الآيات التي ذكرت كلمة "خلق" سيكون مملاً، فأنا الآن مخلوق، وحين ارتبط الحييمن بالبويضة فأنا انخلقت، علماً أني في حينها لم يصر لي كيان بعد، حيث كنت مجرَّد بذرة ستصير كائناً، وكما ترى فإنَّ كلمة "خلقني" تتضمّن معنى تركيبي الأولي قبل اكتمال كياني.

لمزيدٍ من التوسّع حول موضوع خلقنا وآليته والروح والنفس وعودتنا إلى الحياة فراجع دراستنا للآية 51 من سورة يس {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ}، وسيأتيك في الآية التالية أيضاً مزيد من التوسّع حول ذلك.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {6})
{ذَلِكَ}، الذي لفتنا انتباهكم له من خلقكم وخلق النبات أول مرة الذي يدل بوضوح على سهولة بعثكم إلى الحياة مرّة ثانية، {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ}، صاحب هذا الاسم المحدَّد المميّز الله هو الصواب من كل النواحي، حيث إنَّهُ إله حقيقي وليس باطلاً كذباً مثل الآلهة الوهمية التي اخترعها الناس من خيالهم، وهو الإله الأحد، وما يقوله حقٌّ صواب ليس فيه كذب، وما يفعله حقٌّ صواب ليس فيه عبث أو باطل، وقال سبحانه بأنه سيبعثنا من الموت مرّة ثانية، وسينفّذ سبحانه ما قاله، فهذا حقٌّ صواب، قولاً وفعلاً.

{وَأَنَّهُ يُحْيِي}، يعطي الحياة، يجعل حالة الفعل والانفعال في كائنات، {وَيُمِيتُ}، ويأخذ الحياة فتصير الكائنات بلا فعل ولا انفعال، وهذا واضح جدّاً جدّاً، حيث جعل سبحانه كل أصناف الحياة من حولنا لها بداية ونهاية، {وَأَنَّهُ} تعالى {عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، حيث يقدر، بإمكانه فعل أي شيء يريده بأي شيء، وهنا الحديث عن بعثنا، فإذا أراد سبحانه بعثنا من الموت فيمكنه فعل ذلك بنا، بدليل أنه تعالى خلق ما في الدنيا التي نحن فيها، وبشكل عام فإن أراد تعالى فعل أي شيء بأي شيء فسبحانه وتعالى لديه القدرة على فعله.

هناك عمق في الآية عن معنى الحياة، فالتراب الذي نتألّف منه، فما معنى أن يصير كياناً "إنساناً" يفعل وينفعل؟ وله وعي وفكر ويؤثّر ويتأثّر بما حوله، حيث إنَّ هذا شيءٌ يحتاج لقدرة فائقة لفعله، ويحتاج لتصميم مواد وبيئة ينتج عنها حياة. فلو علمنا كيف نشأت الحياة من خصائص فيزيائية ينتج عنها ترابطات كيميائية وتصير بيولوجية... فهذا لا يعني أكثر من تعرّفنا على آلية خلقه تعالى لنا، وأشار القرآن إلى مراحل من ذلك عندما قال بأنه تعالى خلقنا من طين ثم من سلالة... كما ورد في الآيات حول الآية 8 من سورة السجدة {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}.

لو أطلت عليك، فتراكمت ثقافة دينية غير صحيحة عند المنتمين لدينه تعالى وصارت لهم وعند الآخرين هي الدين الإلهي، حيث فهم المؤمنون "بشكل عامٍ" كلامه تعالى بسذاجة وطفولية، حيث فهموا أفعاله تعالى بالمباشرة من دون وسائل وأسباب ووسائط، وكانت تفسيراتهم صلبة جافة بناءً على معطياتهم القليلة التي فهموا منها كلامه تعالى عن خلقه لما في الدنيا، ولم ينتبهوا أن الكلام الإلهي راعى قدرة البشر على فهم الكلام في مختلف الأزمنة متماشياً مع أقل كمية ممكنة من المعطيات التي يفهمها أكثر البشر، حيث إنَّ فهمنا الحالي للآيات والمستند على المعطيات العلمية التي في عصرنا، هو نفس حالة الأقدمين في فهمهم لكلامه تعالى بناء على المعطيات العلمية من عصورهم، والمشكلة المتكررة إن لم نفهم نحن أن المعطيات ستتغيّر أو تتطوّر وستصير أعمق وأدق من معطياتنا الحالية، فلا قيمة للكلام الدقيق العميق السابق لعصره لأننا لن نراه صحيحاً لأننا لن نفهمه، ولأننا بحاجة لدراسته من الصفر متخلّين عن الكثير من معلوماتنا القديمة... ففرضاً فرضاً لو أتانا كتاب من عشرة آلاف سنة من المستقبل، ويتكلّم عمّا توصلت إليه البشرية في موضوع آليات خلقنا، فهل سنفهمه؟ لا، لأننا بحاجة لكتب كثيرة أخرى معه تشرح لنا كل ما يتعلّق بالموضوع، والبشر بعد عشرة آلاف سنة لو أتاهم كتاب من المستقبل من عشرة آلاف سنة ستأتي، فسيحصل معهم نفس الشيء.

ها نحن أمام كتاب من الإله عزّ وجلّ، يتكلّم معنا بدقّة مستعملاً أفضل ما يمكن للغتنا تحمّله للكلام عن أفعاله سبحانه، ومراعياً قدرتنا على فهم الكلام الإلهي الذي سنحاول فهمه بناءً على المعطيات العلمية المتوافرة لدينا، لأنَّ الخطأ القديم بتفسير كلامه تعالى بناءً على المعطيات هو نفسه خطأ إذا اعتقدنا أن ما لدينا من علوم كافٍ لتطبيق كلامه تعالى عليه، ليصير لكلامه تعالى معنىً غير المعنى البسيط الواضح من معاني الكلمات.

هكذا تنتبه أنه تعالى تكلّم معنا بصدق وشفافية وصراحة ولكن بمقدار ما نتحمّل فهمه على مختلف قدراتنا العلمية على مرّ العصور.

لم يفهم غالبية المنتمين لدينه تعالى هذا، وأصرّوا على تطبيق كلامه تعالى على فرضيات استنسبوها وعلى نظريات اعتقدوا بصحّتها، ومع مرور الزمن تراكم لدينا موروث ثقافي له عنوان ديني وبنفس مستوى قداسة كلامه تعالى،

وصار للدين الإلهي قوانين علمية بدلاً من طرحهم لها كفرضيات تاركين باب البحث مفتوحاً، وفاصلين بين كلامهم وبين كلامه تعالى...

لم يفهموا تصميمه سبحانه لما في الدنيا قبل خلقها، وأنه سبحانه خلقها في ستة أيّام، في ست فترات زمنية ليست محددة بالتساوي ولا بمقدار الزمن، حيث إنها ليست أيام الأسبوع، وراجع في ذلك دراسة الآية 9 وما بعدها من سورة فصلت {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ...}، ولم يرسخ هذا في ذهنهم ورسخ أنه تعالى يقول للشيء {كُنْ فَيَكُونُ} على معنى فورية حدوث الأشياء حين يريد سبحانه حصولها، بينما كلامه تعالى كان يشير لحتمية حصولها وليس لفورية حصولها...

من هنا صرت ترى الفرق بين معرفتنا لآليات حصول الأمور بواسطة ما نتمتّع به من فكر وملاحظة، بحيث نحاول ربط الحوادث مع بعضها، باحثين عن أول نشأة الكون وصولاً إلى خروج الحياة على الأرض، حيث إنَّ هذا بحثٌ عن آليات وتقنيات فعله سبحانه للأمور، واكتشافنا لها لا يعني أننا اكتشفنا كيف حدثت ولم نر الله تعالى يفعلها وبالتالي فإنَّ الله غير موجود، بل معناه أننا فهمنا كيف صمّمها تعالى بمقدار ما لدينا من قدرات فكرية، وهذه القدرات ستتطوّر مع تزايد علومنا لتصويبها أكثر فأكثر، لتنفتح أمامنا آفاقٌ جديدة من المعرفة، حيث نتعلّم تقليد آليات خلق الحياة وإعادة خلق الأموات... وتتوسّع رؤيتنا للأمور بشكل أوضح.

بعبارة أخرى، إنَّ كلامه تعالى عن خلقنا {مِنْ طِينٍ} ثم {مِنْ نُطْفَةٍ} ثم {مِنْ عَلَقَةٍ}... لنصير طفلاً... ومن يكبر يصر هرماً خرفاً... ما هو إلا لفت انتباه لمراحل خلقتنا كما صمّمها تعالى، واكتشافنا لآليات حصولها هو تعرُّفٌ على آليات فعله تعالى للأشياء، وإلا فكيف تتوقّع أنه سبحانه خلق ما في الدنيا؟ فهل هكذا فجأة قال لها كوني فكانت فصارت وصرنا كلّنا مخلوقين فيها؟ من الواضح جدّاً جدّاً من كلامه سبحانه أنه غير صحيح، ومن البديهي أنه غير صحيح مما نراه من حولنا، حيث مرّت السنين قبل أن أولد أنا وأنت، ولم يقل سبحانه وتعالى لي ولك: كونا، فكنّا فجأةً، بل من حين ما صمّم سبحانه ما في الدنيا أمر أن نكون أنت وأنا، فحتماً صرنا في الزمن الذي قرّره سبحانه لنا.

هنا الكلام في الآية عن خلقه سبحانه كائنات حية، فما معنى حدوث ذلك لولا تصميمه تعالى لما في الدنيا بحيث تجري الأمور لتتشكّل فيها الحياة؟

المشكلة أن المؤمنين بغالبيتهم الساحقة لم يفهموا أن الأمور تجري بأسبابها، وأن خروج الحياة لم يحصل فجأةً بل بعد سلسلة من حوادث جرت في ستّة أيّام "ست فترات زمنية، ست مراحل"، وإن كنت تظنّ بنفسك وعياً مختلفاً مرتفعاً عن سذاجة الموروث الثقافي الديني فيما يتعلّق بخلق ما في الدنيا وخلقنا، فهذا شيء جيّد، وأذكّرك بنظرية النشوء والارتقاء، فهل تتركها كنظرية علمية تفسّر أفضل من غيرها آلية نشأة الحياة، وتتعامل معها بعقلانية كأي نظرية أخرى قابلة للنقاش والتعديل أو اقتراح ما هو أفضل منها... أو ترفضها فوراً لأنها مخالفة للدين؟

هذا ما أريد لفت انتباهك له، حيث هنا لا يوجد شيء اسمه مخالف للدين الإلهي ولكلام الإله سبحانه في كتبه، بل مخالف لما قاله المتدينون وهم المتدينون قدّسوا كلامهم ليصير هو الدين، وهذا خطأ فظيع وقع به الكثيرون ممن سبقنا، وأحاول ألّا أقع فيه في دراستي هذه، وفي نفس الوقت لست من المنبهرين بالعلوم والتكنولوجيا والاكتشافات لدرجة اعتبارها مقدَّسةً لأفسّر بها كلامه تعالى، أو على أساسها أكفر بالقرآن، لا، بل نفهم كلامه سبحانه كما يفهمه أي إنسان عادي متوسّط الثقافة ودرس القرآن، ونحاول تقريب الصورة بما نعرفه من تجاربنا وأفكارنا ونظرياتنا، ولا نفسر كلامه تعالى بأي نظرية علمية، وها في دراستنا هذه وفي أي آية تخطر على بالك سترى الفرق بين الموروث الثقافي الديني وبين ما يقوله صريح القرآن الذي لا يمكن ولا بأي شكل أن يتعارض أو يتخالف... مع النظريات العلمية لأن القرآن لم يطرح إلّا ما يمكن لأي إنسان عادي ملاحظته، مع طرحها من نظرته تعالى للأمور بما يمكن لنا فهمه والانتباه له.

(وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ {7})
الله تعالى هو الحقّ ويفعل ما يريد:

{وَأَنَّ السَّاعَةَ}، الوقت المحدد القصير من يوم طويل فيه ساعات كثيرة، وغالبا يشير بها القرآن إلى ساعة بعثنا من الموت في يوم القيامة، {آتِيَةٌ}، قادمة تلك الساعة، {لَّا رَيْبَ فِيهَا}، فلا يوجد ولا أدنى احتمال ضئيل بأنها لن تأتي،

وحتما ستأتي، {وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ}، يُقِيمُ تعالى الأموات من الأماكن التي عادة تضعون فيها الأموات، وعادة يكون عليها علامات، كشاهد أو بلاطة... للدلالة على مكان الدفن، وسوف يقيمهم تعالى من مدافنهم إلى الحياة مرّة ثانية.

الآية لا تقصد أن كل من مات فله قبر، فمن البديهي موت أناس في البراري والصحاري والبحار ولا يقوم أحد بقبرهم، إذ إنّ كلمة قبر مخصوصة للمكان الذي قام الأحياء بوضع الأموات فيه، حيث تشير الآية إلى القبور كمكان نحن وضعنا الأموات فيه بأيدينا كنموذج كمثال والكلام ليس حصرا عنهم.

انتبِهْ دائما للفرق بين تعابيره تعالى في قرآنه وبين ما في خلفيتنا نحن من أفكار نرى منها الأمور، ونحن وبدون انتباه نفهم الآية هنا على معنى: من القبور سيبعثهم تعالى. وبالتالي سنسأل عمّن لا قبر له ومات حرقا أو أكلته الحيوانات، فمن أين سيبعثه تعالى؟ بينما بمراجعة تعابير القرآن ترى كلامه عن القبور كلامٌ عن نماذج، والأهم منه والأهم من ذلك هو التصريح بإعادة خلقنا من تراب، حتى لو لم يَبْقَ لتراب جسدنا الميّت أثر.

من هذه النظرة ترى أنه حتى من له جسد ميّت لم يتحلّل بعد، أو له عظام، أو ترابه لا يزال في قبره، فالقرآن بالكلام عنه كان كلاما عن نماذج لما بقي منّا ويمكنه تعالى إعادة خلقنا منه. يعني بعبارة أصرح، ضع ما أقوله لك هنا في بالك وسترى أن الكلام القرآني لا يقصد صراحة إعادة خلقنا من تراب بقايا جسدنا، بل من أي تراب كان سيعيد تعالى خلقنا.

خُذْ مثلا آيتنا هنا، فإنَّ {بَعْثَ مَن فِي الْقُبُورِ}، تعبير يختلف عن بعثهم من القبور. ولست أقصد أنه تعالى سيهمل بقايا جسدنا القديم حتى لو كانت مجتمعة في قبر، ليبعثنا من تراب آخر، إذْ أنا لا علم لي بآلية فعله تعالى لذلك، ولكن أُوَسِّعُ النظرة لفهم أدق لكلامه تعالى، وكل المسألة سهلة حين تتذكّر أن عموم كلام القرآن في مختلف الأمور هو عن نماذج.

إذًا وبعد دليل حسي عن قدرته تعالى على منح الحياة، وهي الحالة التي نحن فيها الآن، ها هو يخبركم سبحانه بقراره الحاسم على بعثنا من بعد موتنا، ومن بعدها محاسبتنا...

ضع في بالك أن العرب "وعموم بقية اللغات" يعبّرون باليوم عن الفترة الزمنية لحدث أساسي وتنتهي بانتهائه، ويتخلل اليوم ساعات تقع فيه أحداث فرعية، حيث إنّ كلمة يوم ليست مخصصة للأربع وعشرين ساعة، لأنَّ هذا تعارف جديد على تحديد يومنا المؤلف من ليل ونهار، أمّا في أصل استعمال اللغة فالكلمة عمومية لأي فترة زمنية لها بداية لحدث أساسي وله نهاية، وبغض النظر عن بداية وضعنا لكلمة يوم حيث ربما بدأ كتحديد للفترة من ليل ونهار "وهو الأرجح تخمينا"، وفيما بعد توسّع معنى الكلمة ليشير إلى أي فترة زمنية لحدث أساسي ونهاية للحدث، وهذا حال عموم بقية الكلمات التي بدأت باسم شيء وانتهت بالعمومية على الوصفية، كالقدح والقداحة، واليد والجناح كاسم للعضو وفيما بعد كوصف للقدرة على فعل الأشياء...

إذًا، خلقه تعالى لما في الدنيا في ستة أيام كان يشير إلى مراحل زمنية أساسية ست، بغض النظر عن طول كل مرحلة، فهي ليست ست مراحل متساوية بالزمن، بل فقط ست مراحل ربما تكون إحداها أطول من الأخريات... ويوم القيامة من الموت، والذي عادة نعتبره نحن ممتدا من ساعة قيامنا من الموت مرورا بمحاسبتنا ونهايته بآخر ساعة بدخول آخر واحد إلى الجنّة والنار، هو يوم طويل جدا جدا، وهذا الكلام لا يبدو دقيقًا، إذ أَلْصَقَتْ تعابير القرآن كلمة اليوم بالقيامة، ولم تلصقها بكل ما سيجري في الآخرة إلى ما قبل دخول آخر واحد إلى النار أو الجنّة، ويبدو أَنَّهُ هناك يوم للقيامة من الموت، وأيام أخرى للحساب وصولا إلى آخر يوم وآخر ساعة.

الساعة هي فترة من اليوم، يقع فيها حدث فرعي، وبكل سهولة تعلم أنهم قديما لم يحددوا للساعة زمنًا كالدارج حاليًا بستين دقيقة، حيث كانت بالنسبة لهم تعبيرا عن حدث فرعي ربما استغرق ساعات بالقياس لساعاتنا الحالية المعتمدة على آلة تعدّ الثواني... ويوم القيامة فيه الساعة التي نقوم فيها من الموت وهي أوّل ساعة بالنسبة لنا من ذلك اليوم، ويليها ساعات وأيام يحدث فيها فرزنا زُمَرًا ومحاسبتنا فرديًّا وجماعيًّا... وعرض الأشهاد...

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ {8})
رغم وضوح الآيات الإلهية ووضوح ما لفت سبحانه إليه انتباهنا من خلقنا وخلق النبات...

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ}، الكلام هنا عن الذي لا يريد الوصول إلى الحقّ، بل فقط يريد أن يغلب من يتكلّم معهم، ويجادل في الله تعالى، {بِغَيْرِ عِلْمٍ}، إذْ يخترع معلومات من رأسه وينسبها لله تعالى ويجادل بها! حيث يقرّر هكذا من رأسه بأن الله تعالى لن يبعثنا ولن يحاسبنا، فمن أين له المعلومات عن الله تعالى حتى يستعملها للمجادلة بها؟! {وَلَا هُدًى}، فليس لديه أشياء صحيحة توصل لغاية صحيحة، إذْ فرضا لو كان يعرف الأشياء الصحيحة ويقنعنا بها لكان يجادل حتى يهدينا، ولكنه هو نفسه لا يعلم تلك الأشياء!

يجادل، {وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ}، فليس لديه كتاب إلهي يكشف الظلام ليرينا الطريق الصحيح، فلو كان لديه كتاب نازل من الإله سبحانه، وينقل لنا المعلومات التي فيه، لكان كلامه مُنِيرًا يكشف الظلام، لأنه يجادل في الله تعالى مستندا على النقل من كتاب إلهي.

هذا الكتاب الذي بين أيدينا وهو القرآن، هو كتاب منير، وما ننقله نحن للآخرين من هذا الكتاب سَيُنِيرُ لهم حتى يروا الحق في الكلام عنه تعالى، لأننا ننقل لهم معلومات قالها الإله سبحانه، حيث قال سبحانه إنَّهُ سيبعثنا من جديد وسيحاسبنا ويجازينا لنتنبه من الكفر بالحقّ ومن فعل السوء، وهذا كلام منير، والذي يتبعه سيرضى عنه تعالى ونهايته خالدة في الجنّة، أمّا من يقول كَلَامًا من رأسه في مقابل الكلام الإلهي، فما قيمة كلامه؟!

تذكّر دائما، أَنَّ المؤمنين لديهم كتاب إلهي فيه عقيدة واحدة، أمّا غيرهم فبابهم مفتوح لعقائد مختلفة، ولذلك نَفْسُ الشخص المشرك يقول شَيْئًا ما وبعدها يقول شَيْئًا آخر مُخَالِفًا لما قاله سابقا! وذلك عندما تتحدّث السورة هنا مع أو عن فكرة أو تصرّف للمشركين، فهي لا تعني أن عقائد المشركين أَنْوَاعٌ ثابتة منفصلة، لأن نفس الشخص المشرك يمكن الآن المجادلة بقوله كَلَامًا ما، وبعد قليل سيقول كَلَامًا آخر، وهكذا ترى السورة تتحدّث معه بكل ألوانه.

هنا تقول له: ليس لديك علم ولا هدى ولا كتاب، إذًا على أي أساس تتحدّث عن الله تعالى؟! وقبل قليل في الآية 3 قالت السورة: ليس لديك علم وتلحق بما تقوله الشياطين وتترك ما يقوله الرسل، فهل هذا مصدرك الذي تعتمد عليه لتتحدّث عن الله تعالى؟! من الممكن أن يكون المشرك هو نفسه يخترع مرّة، ويتبع الشياطين مرّة، فلا داعي لتفسير آيات السورة على أنها قسّمت المشركين لأنواع عديدة، بل الواضح أن السورة هنا شملتهم كلهم بحديثها عن أساسيات التوحيد والشرك.

(ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ{9})
هذا الكافر بالبعث الذي يجادل:

{ثَانِيَ}، يثني ويطوي، {عِطْفِهِ} "حرف العين عليه كسرة"، ويلوي عطفه أي جنبه على بعضه، مثلما يفعل الأولاد الصغار في حركة رفضهم واعتراضهم بِثَنْيِ كتفهم، ونلاحظ العديد من الآيات القرآنية التي تشير إلى حركات الجسد، كدلالة على تلبّس الأشخاص بمشاعر نابعة من أفكارهم ويترجمها جسدهم إلى حركات، وهو ما نسميه بلغة الجسد، وهنا لدينا حركة جسدية تعبّر عن رفض للكلام الإلهي، {لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}، إذْ يريد جعل الناس تترك المسلك الإلهي فتصير ضالّة عن الخط الإلهي، ليمشوا على خطّ آخر فاسد، وأصلا أيُّ خط آخر غير الخط الإلهي فهو ضلال حتما.

{لَهُ}، لهذا المجادل، {فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ}، فهنا في الدنيا سيشعر بالمهانة من قبيح ما فعله.

{وَنُذِيقُهُ}، ونجعله يتحسّس، {يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، في زمن القيام من الموت في الآخرة، {عَذَابَ الْحَرِيقِ}، حِينَ سيقوم من الموت في اليوم الذي ينكره الآن، عندها سيشعر بالضرر من ألم تعرّضه للنار، وتعلم من القرآن أنه عذاب متّصل بالحريق "الخفيف نسبيا" أثناء محاسبته إلى حين رميه في جهنّم حيث العذاب الشديد.

(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ{10})
{ذَلِكَ}، عذاب الحريق الذي سيذوقه من يوم القيامة، {بِمَا}، بسبب الذي، {قَدَّمَتْ يَدَاكَ}، بما جعلته يداك لك، وكما تقدّم لي الطعام وتقدّم الطعام لنفسك، فإنَّ الأعمال السيئة التي قمت بها قَدَّمَتْ لك السيئات، لذا أنت حضّرت لنفسك هذا العذاب، وأنت أخّرت الأعمال الجيدة فلم تقم بها، فلم تقدّمها لنفسك لتجدها حسنات.

{وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}، بل بالعدل والإنصاف يحاسب الذين مفروض منهم وعليهم طاعته، ورغم كونهم عَبِيدًا والفرق هائل بينهم وبين الإله سبحانه، لَكِنَّهُ متنزّه عن الصفات السيئة وفعل السوء، وسبحانه لا يتأثّر بأي شيء مهما كان نوعه ولا بأي شكل، فلا يتضرّر ولا ينتفع، ورغم ذلك فإنَّ سبحانه له الأسماء الحسنى، فلا يظلم حتى الذين لا يمكنهم ولا بأي شكل معارضة قراراته فيهم...

لهذا الكلام عمق يأخذك لمعنى محبة وتعلّق المؤمنين به تعالى، إذْ نحن منتسبون لذي قدرات فائقة، وفي نفس الوقت منتسبون لذي صفات حسنى.

العديد من الآيات مثل آيتنا هنا تريد القول إنَّكَ هنا في الدنيا ترمي حَجَرًا على الزجاج فتكسره، وتجمع حَطَبًا وتعطيه شعلة فيحترق... وكذلك الأعمال التي نقوم بها هنا في الدنيا سَنَجِدُهَا تماما كما هي أمامنا في يوم القيامة، وكما ترى بعينك أثر التصميم والخلق الإلهي الذي يجعل الزجاج ينكسر والحطب يلتهب... وتراها حوادث عادية، فكذلك في يوم الآخرة لن ترى أي تدخّل إلهي مباشر كفعل غير عادي لتتعذّب في نار أعمالك، فهي أعمالك وأقوالك وأفكارك كلها تتحوّل لحسنات تسعدك، أو لسيئات تؤلمك، وكما هنا لا تعترض على احتراق الخشب وانكسار الزجاج لأنه شيء طبيعي وحَصَلَ لأسباب تعرفها تماما، فكذلك في الآخرة سيجد الكافر سيئاته محيطة به وتسبّب احتراقه كشيء طبيعي وحَصَلَ لأسباب واضحة جدا.

قال بعضهم إنَّ الآية تنفي كثرة ظلم الإله سبحانه عن عباده ولكنها لا تنفي كل الظلم، يعني رُبَّمَا يظلمك تعالى قليلا ولكن لن يظلمك كثيرا! وهذا زلل فظيع ومخالف للعديد من آيات القرآن التي تؤكّد أنه تعالى لا يظلم ولو مقدار ذرّة كما نقرأ في الآية 40 من سورة النساء {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ}...، ولا مقدار حبّة خردل كما تقرأ في الآية 47 من سورة الأنبياء {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ}، وهنا وبسبب الكلام عن شدّة العقاب بالاحتراق، جاء السؤال إن كان في شدّته ظلم؟ فهل يستوجب ما فعله هذا الإنسان هذا المقدار من العذاب الهائل؟ نعم يستحقّه وسيرى هناك في يوم الآخرة أنه هو فعله بهذه الفظاعة، وسبحانه وتعالى ليس بِظَلَّامٍ للعبيد، إذْ إنَّ شدّة العذاب ليست ناتجة عن شدّة الظلم أبدا.

بعبارة أخرى، الفكرة أن العذاب لو كان قليلا لكان السؤال: هل يستحق التعذيب من قام بهذا الجدل في الله تعالى؟ هل الله ظالم فعذّبه بلا وجه حق لأنه لم يستحقّ التعذيب؟ والآن الفكرة الأخرى عن العذاب الشديد جدا، والسؤال: هل يستحق هذا المجادل هذا العذاب الشديد؟ هل الله ظَلَّامٌ حتى عذّبه بهذه الشدّة الفظيعة؟ هذا ما طرحته الآية من مقابلة عذاب قليل بعذاب شديد، ومقابل العذاب الشديد أخبرتنا الآية أنه تعالى ليس بِظَلَّامٍ، وما سيحصل معهم من عذاب شديد فهو ليس مُبَالَغًا فيه، وما سيجده المجادل من عذاب فهو تحصيل حاصل إذْ قَدَّمَتْهُ يداه هو لنفسه وسبحانه لم يقدّمه له، بل فقط وضع تعالى القواعد العادلة التي تحوّل الأعمال إلى سيئات وحسنات، وحذّره وأنذره، وهو الإنسان اختار بيديه أن يقدّم لنفسه هذا العذاب الشديد.

القرار الإلهي من أصله حكيم ولا ظلم فيه، إذْ من الأساس خلقنا تعالى على هذا التكوين بحكمته وعدله، ولم يكن يلعب حين خلقنا، وحذّرنا من اللعب واللهو بالعقيدة والشريعة، والذي من رأسه اخترع أفكارا وهمية لا أساس لها عن الله تعالى، وهو يدرك تماما ما يفعله، فهذا يستحقّ العذاب الشديد في الحكم الإلهي، ولن يعترض أي أحد في يوم القيامة على شدّة العذاب، لأنه سيرى أنه يستحقّه، ولم ينقل لنا القرآن أي اعتراض منهم، وهناك سنرى أنهم هم فعلوه بهذه الشدّة، وهم بأيديهم أججوا نارا مؤلمة سيعيشون فيها.

كلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، فكأن كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، إذْ كلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، فهي جمع الجمع، وأثناء الكلام بدقّة رُبَّمَا تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، فتقول الآيات: عبيد. ووردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وَرُبَّمَا تكون لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام

{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وَرُبَّمَا تكون لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، فهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخَرِينَ جاءهم رسول، وعبيد آخَرِينَ... فجمع الجمع عباد، إذًا كلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جدا عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ{11})
نموذج آخر من المشركين:

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ}، بعض الناس يتصرفون على أساس أنه مفروضٌ منهم طاعتُه تعالى ولكن، {عَلَى حَرْفٍ}، على طرف، مثلا: يقف على حرف "على طرف على حافّة" سطح بناية أو شيّار صخري... فهو جاهز للسقوط، {فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ}، وحصلت معه أشياء يصنّفها أنها خيرٌ له، ونجحت تجارته أو زراعته أو لم تخرب سيارته... {اطْمَأَنَّ بِهِ}، شعر بالاستقرار من توافر معطيات وظروف لا سوء فيها، {وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ}، وتعرّض لشيء يمكن أن يغيّره، وسياق الكلام يشير إلى تعرّضه لشيء سيّئٍ وليس على خاطره، وخسرت تجارته أو فشلت زراعته... عندها، {انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ}، كما نقول: بِوَجّكَ انطلق. ونقصد أن تنطلق فوراً حالاً. فهذا المفتون ينقلب عن عبادته تعالى على وجهه، وفوراً يوجّه وجهه باتجاه آخر، وسياق الكلام عن تركه لعبادته تعالى من دون أي توانٍ أو تأخير. هو أصلاً كان يعبد على حرف ولا يحتاج لأكثر من نفخة حتى يسقط.

{خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ}، فَقَدَ أموراً لها أهمية كبيرة هنا في الدنيا وفي الحياة الآخرة بعد هذه الدنيا، فبانقلابه على وجهه وتركه للإيمان سيفقد صفة المؤمن، وبالتالي سيفقد "سيخسر" عنايته تعالى به، فلن ينال الرحمة الخاصة بالمؤمنين لا في الدنيا ولا في الآخرة، وسيفقد مغفرة الذنوب وسيفقد الثواب على الأعمال الحسنة لأنها ستحبط...

{ذَلِكَ} الخسران للدنيا والآخرة، {هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}، لا خسارة أوضح من ذلك، ففقدان الوصف بالإيمان الذي يتبعه فقدان كل ما يتعلّق بمميزات الإيمان من عناية إلهية من مغفرة وثواب وشفاعة... وبالتالي فقدان الجنّة ودخول النار، فهو خسارة واضحة.

(يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ{12})
هذا الذي انقلب على وجهه:

{يَدْعُو}، يشهر ويعلن، {مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ}، مثلما نقول: ذهبتم من دوني. أي ذهبتم وتركتموني. ترك الدعاء "الإعلان والإشهار" أن الله تعالى إلهه الواحد الأحد، ودعا وأعلن وأشهر لغيره تعالى أنهم آلهة، وهم لن يضرّوه فلا يمكنهم تغيير حالته للأسوأ، ولن ينفعوه ولن يستفيد منهم، فإن كان يعبد الأصنام فـ أصلاً لا تأثير لها ولا بأي شكل، وإن كان يعبد أفراداً من الناس الأموات، فهم أيضاً لا تأثير لهم على هذا العالم، وإن كان يعبد الجنّ فلن يحصل منهم على النفع، تاريخياً لم نجد من انتفع من عبادتهم، وإن كان يعبد الملائكة(ع) فهي لا تفعل أي شيء من دون أن تتلقى أمراً منه تعالى وبالتأكيد لن تسمع لمن يعبدها لأنه مشرك، وإن كان يعبد الكواكب أو أي شيء آخر... فكلها لا قدرة لها على تأمين أي شيء له... وإن كان يعبد إنساناً حيّاً، فقدرات الإنسان معلومة محدوديّتها وليست إلهية حتى تنفع أو تضرّ من مستوى إلهي.

{ذَلِكَ}، الترك للدعاء "للإعلان" له تعالى أنه الإله والإعلان عن غيره أنهم آلهة، {هُوَ الضَّلَالُ الْمُبِينُ}، فلا أوضح من هذه الحالة بأنها فاسدةٌ لن توصل لنتيجة صالحةٍ، فأيّ عاقل يحكم بشكل واضح جداً أن ترك عبادته تعالى وعبادة غيره سيوصل إلى نهاية سيئة.

راجع الآية الرابعة من هذه السورة لمزيد من التوسّع حول كلمة "ضلّ".

بالنسبة لكلمة "دعاء" ومشتقاتها، ففي عموم استعمال العرب الكلمة يائيٌّ وواويٌّ "دعوت ودعيت" مثل "طغوت وطغيت". وهذا في استعمال العرب ولكن كل القرآن استعملها فقط بالواو من الأصل الصرفي "دعو"، ووردت مرتين للمبني للمجهول مع ياءٍ في الآية 12 من سورة غافر {... إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ...}، وفي الآية 53 من سورة الأحزاب {... وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا...}، وهذا ممّا جرى به لسان العرب بإضافة الياء في هكذا حالة، وكما ترى من الاستعمال لا يمكن حمل الكلمتين "بالواو أو بالياء" على نفس المعنى إلا إذا كانتا على معنى عموم الإشهار والإعلان، وكذا الحال فيما جرى عليه لسان العرب بما ورد مرتين في الآية 4 و 37 من سورة الأحزاب {أَدْعِيَاءَكُمْ}، {أَدْعِيَاءَهُمْ}.

ضع في بالك دائماً أن أكثر الجمل القرآنية المشابهة لآيتنا هذه لم تقصد بشكل خاص أنهم يدعون على معنى يطلبون أشياء وأموراً من آلهتهم، بل قصدت العمومية، إذ قصدت أنهم يعلنون ويشهرون عن غيره تعالى أنهم آلهة، ولن يجدوا ردّاً من تلك الآلهة على هذا الإعلان، وهذا عملياً يتضمّن التوجّه بالدعاء لتلك الآلهة أن ترزقه أو تشفيه... وقارن هذا الكلام مع دعاء نتوجّه به نحوه تعالى لإعلان توحيده أو إعلان مدحه بحمده... وهذا دعاء لا يحوي على أي طلب، فهو مجرد إعلان منك أنّ الله تعالى إلهك وصفاته كذا وكذا... وتمدحه تعالى... وتذكر فضائله عليك لتشكره... فضع هذا في بالك دائماً لأن أكثر استعمال القرآن لكلمة دعاء قصدت ذلك ولم تقصد الدعاء على معنى طلب الأمور والأشياء.

على أي حال فلنتحدّث قليلاً عن الدعاء بمعنى طلب أمور منه تعالى لتحقيقها لنا، فهل إذا دعوناه تعالى ستتحقّق أمانينا؟ نعم ولا، فالأماني على خلفية عقلية التعامل مع جنّيّ الفانوس السحري الخرافي وهذه ليست أخلاقيات التعامل معه سبحانه وتعالى، فنحن عبيده وهو سبحانه يقرر بحكمته ما هو الأنسب لنا، وسبحانه قد أخبرنا صراحةً أنّ أكبر مصلحة لنا هي تأمين دخولنا إلى الجنّة الخالدة، أمّا ما في الدنيا فهو متاع أمام جنّة الآخرة التي هي الحيوان كما تقرأ في الآية 46 من سورة العنكبوت {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}، فهي الحياة الحقيقية بكل ما تحمله كلمة حياة من معنى.

هل يصير الدعاء له تعالى بلا معنى لأنه هو سبحانه سيقرر ما الأنسب لنا؟ بصراحة الجواب عملياً هو نعم! وذلك بناءً على تراكم موروثنا الثقافي الديني الذي فيه أنّه تعالى يحقّق طلباتنا وأمانينا إذا دعوْناه بالدعاء المناسب وبالكلمات المناسبة وفي الأوقات المناسبة... فهي صيغة منقّحة عن صيغة التعامل مع جنّي الفانوس السحري الخرافي، بينما المؤمنون من الدرجة العالية الفاهمون لحقيقة معنى الدعاء على معنى الطلب منه تعالى، فخذ نموذجاً قرآنياً عنهم النبي زكريا(ع) واقرأ أول سورة مريم، وخذ نموذج النبي أيوب(ع) الوارد في الآية 83 وما بعدها من سورة الأنبياء {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}، وخذ كتاب الأدعية المسمّى بالصحيفة السجادية المنسوبة للإمام زين العابدين، والدعاء المسمّى بدعاء كميل المنسوب للإمام علي، وسترى فرقاً هائلاً بين الدارج في ثقافة غالبية المنتمين لدينه تعالى وبين حقيقة معنى التعامل معه تعالى عبر الدعاء.

القرآن ذكر نماذج عن استجابته تعالى لبعض الطالبين لتدخّله، لا لنفهم أنّه تعالى رهن إشارتنا، وأنّه مجبورٌ على استجابة طلباتنا لأننا مؤمنون داعون له... لا، بل لنرى أنّ آلهة الآخرين وهميّةٌ لا أثر لها، ولنرى أنّه القدرة الوحيدة من مستوى إلهيّ، ولنرى أنّنا إذا كان لدينا مُعْتَمَدٌ أو استناد على قدرة فائقة لتتدخّل لصالحنا فلا يوجد إله غيره تعالى...

ما هو دارج بين المنتمين لدينه تعالى بالدعاء له تعالى لتحقيق أمانينا، فأكثره أصلاً غير منطقي ولا عقلاني ولا صحيح ولا معنى لاستجابته تعالى للكثير الكثير منها، فما معنى طلبي منه تعالى أن أنجح في الجامعة وأنا لم أدرس بالشكل المطلوب؟ فهل أصير طبيباً من استجابة أدعية أمّي لنجاحي وأنا لم أدرس جيّداً؟ ومن بعد علمك أنت بذلك فهل ستأتي إلى عيادتي لأعالجك؟... كما ترى فالدعاء طلباً لتيسير الأمور، له معنى، أمّا الدعاء للنجاح بدون دراسة فلا معنى له.

من عموم مفاهيم القرآن ترى أنّ حبّ الدنيا رأس كل خطيئة، فالكلام بالمثاليات لن يقنعنا إذا كان حبّ الدنيا متعشّقٌ في قلوبنا، فنحن الآن نريد السعادة والمال والشهوات... فندعو مطالبين بها، فإن حصلنا عليها نطمئن بها، وإن عاكستنا الظروف سقطنا إيمانيّاً، وهذا ما تشير له الآية السابقة بالعموم، وركّزت على من يتحوّل عنه تعالى ليدعو غيره كأبرز نموذج عن الانحراف الفاقع الواضح جداً من العقليات والنفسيات العاطلة.

أطلتُ عليك، قارن ما تدعو به يوميّاً مع ما نقله القرآن عن أدعية الأنبياء، وسترى أنّ ما تضمّن طلبات تريدها منه تعالى وتدعو لها في يوم واحد تتجاوز في عددها كل ما طلبه الأنبياء في حياتهم! فهناك أنبياء عاشوا وماتوا ولم يطلبوا أي شيء منه تعالى ليحققه لهم في الدنيا، واستحضر في بالك النبي إبراهيم(ع) الذي لم ينقل عنه القرآن أيّ طلب دنيويّ، واستحضر في بالك خجل النبي زكريا(ع) أثناء طلبه الوحيد ليكون له ولد...

نعم، المؤمن يتوكّل عليه تعالى، وكفى بالله وكيلاً، وأمرنا سبحانه بالتوكّل عليه لأنه فعلاً لم يترك الأمور تجري من دون الأخذ في عين الاعتبار مصلحة المؤمنين، فما نريد تحقيقه نعمل له، ونتوكّل عليه تعالى، وبين التوكّل وبين الدعاء وبين معرفة قدرنا وقيمتنا بالمقارنة مع المؤمنين من الدرجة العالية الذين يعملون لتحقيق ما يريدونه، ويدرسون ما لم يتحقق ليعلموا إن كان يستحق أن يطلبوه منه تعالى، وإن طلبوه طلبوه خجلاً... بين هذه العناوين نفهم معنى الدعاء له تعالى.

(يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ {13})
بتركه لعبادته تعالى والتوجّه لغيره:

{يَدْعُو}، يشهر ويعلن، {لَمَن}، للذي، {ضَرُّهُ}، صدور ضرر منه، {أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ}، فإذا نظرت إلى الصورة من بعيد، إلى الله الحكيم الرَّحْمَن القدير العليم... من جهة، وتصوّرت أي آلهة اخترعوها من جهة أخرى، ونظرت إلى الذي يدعو تلك الآلهة الوهمية، فسترى أن احتمال حصوله على الضرر من دعاء آلهته الوهمية أقرب من حصول نفع له.

من جديد، من سيدعو؟ إن كان أشرك ودعا الملائكة (ع) أو المؤمنين القديسين، فهؤلاء لا علاقة لهم بالموضوع من أساسه ولن يفكّروا أصلاً بالاستجابة له إن "إن" سمعوا دعاءه، وإن كان يدعو الأصنام والكواكب... فدعاؤه يذهب حتماً إلى الفراغ لأن الأصنام مجرّد حجارة أو خشب، والكواكب لها وعي ما بحيث الإله سبحانه يتعامل معها، ولكنها لا تتفاعل معنا فهي بالنسبة لنا جمادات ولا قدرة نهائيّاً لنا على التواصل معها، وإن كان يعبد أرواح أشخاص، فهؤلاء أموات فاقدون للوعي من أصله، لا يسمعون ولا يرون! وإن كان يعبد الجن، فهؤلاء سيكونون من الشياطين، وهل تتوقّع من الشيطان أن يقدّم نفعاً له؟ بل إن دلّه الشيطان على شيء فسيدلّه على ما يضرّه.

الضرر من الدعاء لغيره تعالى يحصل فوراً بخروجهم من رحمته تعالى، وسيلي ذلك أن تسير حياتهم بشكل يجعلهم ينزلون عميقاً أكثر في جهنّم.

{لَبِئْسَ الْمَوْلَى}، يا لسوء من اتخذه وليّاً له، فما أسوأ من اعتبره مرجعاً له عندما دعاه كإله وترك الدعاء لله تعالى، {وَلَبِئْسَ}، وما أسوأ، {الْعَشِيرُ}، الذي يعاشره فيترافق معه على أنه إلهه.

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ{14})
في المقابل لِنَرَ على ماذا يحصل من تعلّق بعبادته تعالى سواء حصل معه خير أو ضرّ:

{إِنَّ اللَّهَ}، إن صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا أنهم معتقدون بهذا الدين، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، وقاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، حيث خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، فعمليّاً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادةً نفسّر "عملوا الصالحات" على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إنهم صلّوا وصاموا... وهذا عمليّاً صحيح، ولكن بالأصل الكلام أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموماً وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائماً أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به.

هذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. هذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلاً سيّء" فسيكون في الحقيقة اختراعاً من البشر لصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمراً إلهيّاً.

المؤمنون العاملون للصالحات يدخلهم تعالى إلى، {جَنَّاتٍ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين ومشتهيات... {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا}، من تحت أشجار وورود تلك الجنات، {الْأَنْهَارُ}، السوائل الجارية بغزارة المختلفة النوع والطعم واللون كما تعلم من الآية 15 من سورة محمد {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى...}، فلا تبالغ في تصوّر المشهد بجريان الأنهار ليصير كمستنقعات، لا فالتعبير يشير لروعة المنظر.

{إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}، ما يقصده تعالى سيحصل، لأنه قرّر تعالى أن يحصل، وأراد تعالى أن ينال المؤمنون العاملون للصالحات جنات رائعة، فهكذا أراد، وسيفعل ذلك حتماً.

تذكّر أن المشرك عبد غيره تعالى، وماذا يمكن للغير أن يقدّم له؟ لا شيء، هنا الآية تقول عنه تعالى أنه سيجعل المؤمنين العاملين للصالحات في الجنّة، وأنه أراد ذلك وسيفعله لأنه تعالى قادر على فعل ما يريد، فهو إله حقيقي.

نلاحظ دائماً أنّ القرآن يقرن بين الإيمان والعمل الصالح مع بعض، والنتيجة للاثنين معاً هي دخول الجنة، فلا الإيمان بدون عمل صالح ينفع، ولا العمل الصالح من دون إيمان ينفع، بل كلاهما معاً ينفعان.

(مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاء ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ{ 15})
سواءً الذي عبد الله تعالى على حرف، أو نسيه تعالى تماما من أصله، وعبد غيره، فليسمع ما يلي:

{مَن كَانَ}، من الناس، {يَظُنُّ}، لديه اعتقاد استند فيه إلى معلومات، {أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}، وبناءً على حصول الضرر له وهو تحت عينه تعالى انقطع أمله منه تعالى أن يحقّق له ما يريده سواء في الدنيا أو الآخرة، لأنه أصلا يعبده تعالى على حرف، ولذلك ترك عبادته تعالى والدعاء له وتوجّه نحو شيء آخر ليدعوه لينصره أي ليحقّق له ما يريده.

{فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ}، وليحاول بأي طريقة ليتواصل بها مع من في السماء، لأن من حوله على الأرض مخلوقات عادية والفكرة أن الإله "الآلهة" في السماء، وليخترع أي طريقة توصله إلى من في السماء من آلهة يخترعها أو يتوهّمها، وليدعُ ولينذر وليصم ولينتحب وليتمرّغ في التراب وليحرق البخور لتلك الآلهة، {ثُمَّ لْيَقْطَعْ}، وليحصل عنده قطع، وليتأكّد بشكل قاطع، بأنه تواصل مع آلهته، وليتأكّد أن إلها غيره تعالى سمعه وذاك الغير قادر على تحقيق ما يريده، وبعدها، {فَلْيَنظُرْ}، ومن بعد التأكّد من التواصل مع آلهته عبر أي طريقة كانت ليوجّه اهتمامه العام، وليسأل نفسه: {هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ}؟ لأنه اغتاظ فظهر عليه الانزعاج بشدّة من الضرر الذي أصابه حين كان يعبد الله تعالى، فتركه تعالى "كيدا" بالعامية "جكارة"، فعبد غيره تعالى قاصدا تنفيس انزعاجه منه تعالى الذي لم يحقّق له ما يريده.

كما ترى، فإن الكلام هنا يشير لأساس سبب اختراع إله وترك الله تعالى الإله الحقيقي الواحد الأحد، وطالما دفعنا فكرنا ونفسيتنا نحوه تعالى كإله لنا، فلماذا تركوه تعالى الواضح أنه إلههم الأحد وعبدوا غيره؟ لأنهم يدعونه تعالى لتحقيق طلبات لأمور يرغبونها هنا في الدنيا، وسبحانه غالبا لن يحققها لهم، إمّا لأنها من عقلية التعامل مع جنّي الفانوس السحري الخرافي، وإما لأنها طلبات لا مصلحة لهم بها أصلا، وإما طلبات لأمور سيئة، وإما طلبات تجعل دنياهم كأنها جنّة الآخرة، فلهذه الأسباب وغيرها دعوا غيره تعالى.

من هنا تقول لهم الآية أن يقوموا بالتأكد من التواصل مع آلهتهم، بأي طريقة ممكنة فليتواصلوا معها، وليخبرونا على ماذا حصلوا منها؟

يعني ليفعلْ أي شيء يوصله لمن في السماء ممن يعتقد بأن لديهم القدرة على نصره "عموم تحقيق ما يريده" وهنا الكلام عن الخير الذي يريده والضرر الذي يريد التخلّص منه ويرى أن الله تعالى لم يحقّقه له، وليتأكد بعدها وبأي طريقة كانت بمدّ أي سبب يراه مناسبا وبشكل قاطع أنه تواصل مع إله غيره تعالى، والآن ليخبرنا، هل حصل على شيء؟ هل الغيظ الذي حمله على الله تعالى لأن الضرر أصابه حين كان يعبده تعالى، هل ذهب الانزعاج الشديد عنه بعبادة غير الله تعالى لأنه حصل على النصر، وعلى التأييد والدعم والمساعدة من غيره تعالى؟!

الجواب واضح: لا، لم يحصل على أي شيء ينفعه، ولن يحصل على أي شيء أصلا. فليس في السماء إله إلا الإله الذي اغتاظ منه، فمهما فعل ليتواصل مع من يتوهّم أنهم آلهة في السماء غير الله تعالى، فلن يحصل على أي شيء.

كان من الأفضل أن تصبر على الضرر الذي أصابك، وأن تطلب فقط من الله تعالى أن ينصرك "أن يحقّق لك ما تريد"، وهكذا فقط وبهذه الطريقة فقط ستحصل على نتيجة، ولكن إن كنت تعبده تعالى على حرف، ومتعلّقاً بالدنيا وجاهزاً لتبيع إيمانك على أوّل مفترق طرق، فلن تقتنع بأي شيء وستكفر به تعالى في أوّل فرصة.

استعمل القرآن كلمة "نصر" ومشتقاتها بمعناها العام: عموم تحقيق الغاية على الآخر. ومن سياق الكلام تعلم ما هي الغاية التي يريدها، سواء أن يغلب عدوّه، أو يفرض سلطته على عدوّه، أو يقهر الظروف لتسير على ما يريده، فهذه الكلمة أعمّ من تخصيصها بالنصر على العدو، وهكذا استعملها القرآن.

"الظنّ" هو اعتقادك بشيء ما مستندا إلى شيء ما، فإن كان ما تستند عليه صحيحا كان ظنّك صحيحا، وهذه حالة المؤمنين {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} كما ورد في الآية 46 من سورة البقرة، وهم مستندون في ظنّهم إلى آياته وكلامه تعالى. وإن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران {وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ}، واستناداً للحالة الحرجة التي كانوا فيها ظنّوا أنه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء. وبين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند إليها ولكنه ليس مقتنعا بها، ولا تزال الأمور عنده مرجّحة لاحتمالات أخرى، وهذا ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}، وهم يريدون أن يلمسوا مباشرة حصول ساعة قيامهم من الموت حتى يعتقدوا بها ولا يكفيهم الاستناد إلى معلومات تدلّ عليها، ويريدون اليقين بها عيانا حتى يؤمنوا. وهذه الحالة قريبة جدا من الاصطلاح "في علم المنطق" والدارج لمعنى كلمة ظنّ على معنى وجود عدة احتمالات. وها صرت تعلم المعنى اللغوي الأساسي لكلمة "ظنّ" فانتبه للفرق بينه وبين المعنى الاصطلاحي حتى لا تفسّر القرآن على أساس المعنى الاصطلاحي.

لو أطلت عليك يا عزيزي ويا عزيزتي، فقد قرأت كتابا لشخص يدّعي "كذبا وبوضوح" أنه مسلم مصري درس في الأزهر وتعمّق في التصوّف والزهد، وحالته المادية والصحية كانت تسير من سيئ إلى أسوأ، ثم يقفز من هذه المقدمة ليقول إنه ترك الدين الإسلامي وقرّر أن يبيّن الكذب الذي فيه، لأنه كلما عبده تعالى أكثر تراكمت عليه المصائب أكثر. ويذكر في كتابه الأخطاء التي وجدها في القرآن وتناقضاته، والبداية كانت مع كلام القرآن عن الدعاء له تعالى على معنى الطلب منه تعالى تحقيق طلباته، مبيّنا أن هذا كلام فارغ لم يوصله إلى أي نتيجة.

في دراستي هذه وضعت ملاحظات على الآيات التي علّق عليها، ولم أشر إلى كتابه واكتفيت بشرح الآيات على المنهاج الذي اعتمدتُه، وطارت تعليقاته ولم يعد لها أثر، ولذلك نادرا ما اضطررت إلى الإشارة إلى ما قاله هو أو غيره.

أحبّ أن أخبرك أن كتابه عبارة عن مجهود جماعي لجهات رسمية دولية، وما قاله في كتابه هو تراكم لتعليقات سبق أن ذكرها غيره من المغرضين الحاقدين من أمثاله. وهذا ليس موضوعنا هنا، بل السؤال عن فقره وتعاسته أثناء إسلامه وزهده وصلاة الليل والأدعية التي لم تنقطع قبل أن يبلغ الثلاثين. وحين ألّف الكتاب وكما يقول قارب عمره الثمانين، ولكنه لم يخبرنا كيف تحسّنت حاله بعد ارتداده عن الإسلام! ماذا حصل معه وكيف بقي حيا لعمر الثمانين سنة وتحسنت ظروفه من تركه للصلاة والدعاء؟

عن تقانة جاءت مقدمة كتابه لتدغدغ مشاعر فقراء المسلمين ليبيّن لهم أن الإسلام الذي يأمرهم بالدعاء لتحقيق ما يريدون يكذب عليهم، ومن الصلاة والدعاء لن تحصل على أي شيء، مع العلم أنه كاذب وبوضوح وليس مسلما من أصله بل كاتب شيطاني مأجور مدفوع من جهات رسمية تموّله لتشويه صورة الإسلام، وأصلا لم يفهم دينه تعالى، ولم يمر في حالة عبادة الله تعالى حتى على حرف، وهو أصلا في هاوية الكفر، ولكنه توجّه في كتابه إلى الذين يعبدونه تعالى على حرف، فإن أصابهم خير، بقوا مسلمين، وإن أصابهم ضرر في حياتهم، بدأوا بالتشكيك به تعالى وبدينه.
ونعود لنسأل نفس السؤال الذي طرحت جانبا منه آيتنا هنا: ما البديل لتركهم لدينه تعالى؟ وما الذي يمكنه تحقيق ما يريدونه؟

أعتذر أشد الاعتذار عن الإطالة عليك بما يبدو وكأنه من خارج القرآن، ولكنه من صميم القرآن الذي لم يقل ولا مرّة أن تقعد في بيتك صائما مصليا داعيا ذاكرا، وأنّه تعالى سينزل عليك مائدة من السماء. لقد حصل ذلك فعلا مرّة واحدة كآية حصلت مع حواريي النبي عيسى(ع) وذكرها القرآن، ولم تتكرر معهم كلّما جاءوا. وإن كنت بطهارة السيدة الصديقة الطاهرة مريم (ع) التي اصطفاها تعالى على نساء العالمين بسبب طهارتها غير العادية، فعندها سينزل عليك رزقك من السماء كآية يعلم بها الناس لتثبت لهم فيما بعد أنك طاهر عفيف، لأنها (ع) حبلت من دون مقاربة رجل. وهذا كان واحداً من أسباب نزول الرزق عليها (ع) من السماء، وبحسب معلوماتنا لم يحصل ذلك بهذه الطريقة لا من قبل ولا من بعد.

نسأل: هل تشترط عليه تعالى أن تعيش في حالة الذي في جنّة الآخرة الآن من الصحّة والأمان والرفاهية، حتى تلتزم بدينه تعالى؟ حسن، هو ذاك لك هنا في الدنيا بمقدار ما يمكنها أن تؤمّنه الدنيا إن كنت من مجتمع يستغفره تعالى، وبضمانة إلهية، كما قالته الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، وأمّا غير ذلك فأنت في البلاء والفتنة من الآخرين إن كنت سليم القلب، إذ وصلت الأمور مع النبي إبراهيم(ع) إلى رميهم له في النار، ومعلومة محاولات اغتيالهم للرسول محمّد(ع).

لِنَنْسَ ما قاله ذلك الشيطان، ولنتكلّم مع أنفسنا، ففي مجتمعاتنا المسلمة الكثير من الفقر والمعاناة، وخيرات بلداننا أكثر من كافية لنعيش كلّنا في رفاهية، فأين أخطأ تعالى معنا؟ نحن أمّرنا علينا الفسقة المنافقين الفاسدين وجعلناهم ملوكا وأمراء ورؤساء وحكّاماً لينهبوا الثروات ويعيثوا فينا الفساد. ونحن تعامينا عن مصالحنا الحقيقية حتى صرنا نمشي خلف من تعيّنه الدول الأخرى حاكما علينا بمسرحيات الانتخابات الديمقراطية نقتنع فيها أننا نحن اخترنا حكّامنا. ونحن تخاذلنا حتى جاءت عصابة واحتلّت بلدا مسلما واغتصبته وأذلّت أهله، ولو رمى كل واحد منّا عليهم دلوا من الماء لجرفتهم السيول. ونحن اخترنا الحلّ الأصعب على أساس أنه الأسهل وحلّلنا لأنفسنا تعاطي المخدرات لنسيان همومنا، بدلا من القيام بواجباتنا تجاه أنفسنا والآخرين برفض الظلم. ونحن الذين نتحوّل من النعجة المسالمة إلى الذئب الكاسر حين نستلم الحكم ولا نرضى بأقل من تكديس عشرات المليارات في حساباتنا المصرفية.

نحن الذين ننسى كلّ مصائبنا الاجتماعية والاقتصادية وفساد حكوماتنا، وفساد ديننا، ونسرع لاهثين خلف أي ناعق ينعر بالعصبية المذهبية والطائفية لنقتل المسلمين المخالفين لنا في شيء من العقيدة أو الشريعة، أو حتى المخالفين لنا في رأي ما في حادثة تاريخية عمرها أكثر من ألف وأربعمئة سنة!

أيّ دعاء سينفع وأكثرنا فاسدون؟ أم من مسؤوليته تعالى أن ينزل على كلّ واحد منّا رزقا من السماء مطبوخا جاهزا مع الفاكهة والتحلية بعد الطعام، وبعدها ترتفع المائدة وليس علينا حتى جلي صحونها! هذه هي عقلية التعامل معه تعالى على خلفية التعامل مع جنّي الفانوس السحري الخرافي، وفوقها نرفع عن أنفسنا المسؤولية وكأننا بلا قدرة على فعل أي شيء لتغيير أحوالنا، ونتخلّى عن مسؤولياتنا ونطالبه تعالى بتحقيق أمانينا.

(وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ{16})
{وَكَذَلِكَ}، بهذا الكلام عن التنبيه لانتفاء إمكانية الحصول على النصر في الدنيا والآخرة إلّا منه تعالى، {أَنزَلْنَاهُ}، أنزلنا هذا القرآن بذاك الكلام، {آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ}، كلاماً مميّزاً واضحاً، {وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي}، يضع على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة، {مَن يُرِيدُ}، ومن عموم القرآن نعلم أنه تعالى أراد هداية الذين لديهم نيّة أن يهتدوا،

ولديهم حبّ لمعرفة الحقّ والحقيقة، ولديهم قلب سليم بدرجة مقبولة، ولذلك أنزل سبحانه لهم هذا الكتاب بهذا الكلام الهادي. أمّا الآخرون فهذا الكتاب مجرد إنذار لهم لأنهم لن يستفيدوا منه ليهتدوا.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ{17})

هناك أنواع عديدة من العقائد المنتشرة بين الناس، وبعضهم يقولون إنهم على دينه تعالى وبعضهم لديهم دينهم الخاص... فما موقفه تعالى منها؟:

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا}، فأعلنوا أنهم معتقدون بهذا الدين الإلهي، في أي عصر كانوا، وفي أي مكان كانوا، هؤلاء أولا نخبركم عنهم، وثانيا: {وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ}، فالذين هادوا وهو على ما يبدو وصف لهم من كلام قاله النبي موسى(ع) وسيأتيك الكلام عن ذلك بعد قليل، والصابئين الذين صبؤوا عن الدين، والمشهور منهم من ترك الدين اليهودي وكان لهم دين خاص ينسبونه إلى النبي يحيى(ع)، والنصارى الذين قالوا إنهم أنصار النبي عيسى(ع)، والمجوس، وفي عصرنا معلوماتنا تشير إلى أنواع عديدة منهم، فبعضهم لديه إلهان "واحد للخير وآخر للشرّ"، وبعضهم يعبد النار، وبعضهم يدّعي أن دينهم يرجع إلى نبي ما من أنبيائه تعالى... واشتهر منهم قديما مجوس الفرس، {وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا}، فأساس عقيدتهم الصريح أنهم جعلوا لله تعالى شركاء في الألوهية، فهؤلاء الأصناف كعناوين رئيسية ينضوي تحتها مختلف أديان البشر، فالبوذيون وعموم الأرواحيين والطاويين وعبّاد الحجر... هم تحت عنوان المجوس أو الذين أشركوا، هذا من جهة ومن جهة ثانية هناك المؤمنون الحقيقيون، ومن جهة ثالثة المنتمون لدينه تعالى ولم يؤمنوا بهذا القرآن من اليهود والصابئة والمسيحيين.

{إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ}، ومن عموم القرآن تفهم أن الفصل فيما اختلفوا فيه، فالآن كل واحد من هذه الأصناف له عقيدته التي يعلن اقتناعه بها، فالباطل مخلوط مع الحق، والحق مبهم في كلامهم، فمن معه حق؟ في {يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، من الموت يفصل تعالى بينهم، فهذا الإبهام للحقّ في دينهم سينتهي عندها ويظهر الحق بشكل واضح، {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}، فيشهد سبحانه كل ما يحصل، فكل ما فعله ويفعله وقاله ويقوله هؤلاء الأصناف من الناس، إنه تعالى يسمعهم ويراهم ويسجّل ما يفعلونه.

نلاحظ أنَّ الآية حصرت كل أنواع العقائد بهذه الأصناف، فالذين آمنوا الآن بهذا الدين أو آمنوا من قبل بأديان الأنبياء بشكل صافٍ حقيقي، هؤلاء مجموعة. وهم المؤمنون، والناس المنتسبون لكتاب إلهي "يهود نصارى..." ولكن يوجد انحراف في عقائدهم "وتشريعاتهم" ولم يؤمنوا بهذا القرآن "ومعهم المنتمون لهذا القرآن من فاسقين ومنافقين"، وحدهم كمجموعة مصنّفة. والذين أشركوا به تعالى من دون أن يكون لهم أي ارتباط بالدين الإلهي من الأساس، من مجوس أو مشركين، وحدهم، فالعقائد المتنوعة ترجع في أساسها إلى هذه العناوين، ولن يبقوا هكذا من دون حكم إلهي بحقّهم، فَلْيُؤْمِنُوا أو يخترعوا بالدين أو يشركوا، فهناك حساب من الإله الشاهد على كل شيء.

لا يفكّر أحد أنه سيضيع بعقيدته المنحرفة في معمعة كثرة العقائد المنحرفة، ولا يفكّر بأن الاختلاف في العقائد منتشر مما يجيز له اختيار ما يشاء أو أن يخترع ما يشاء، لا، فهناك إيمان صحيح عليه ثواب حسن وهناك إيمان باطل وعليه عقاب.

بالنسبة لمعاني الكلمات ومقاصدها، في القواميس العبرية المرموقة نجد كلمة "يهود" واشتقاقها من هاد هدنا "هداية"، وتطبيقيا فسروها على معنى الإنابة والحمد له تعالى "المنيبين الحامدين"، ففي اللغتين العربية والعبرية هي في الأساس نفس الكلمة بنفس المعنى من الاهتداء "الهداية"، وعندما تشتق منها تسمية أو فعل مباشر يصير تصريفها مثل قول النبي موسى(ع) المنقول في الآية 156 من سورة الأعراف {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ} فنعتبر هدايتنا نحوك، وترى ذلك في استعمال اشتقاق فعل منها عدة مرات في القرآن ومنها ما ورد في الآية 62 من سورة البقرة {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى}.

بالنسبة لكلمة صابئة فمعناها الديني: الخروج عن عقيدة من حولك، سواء أكانوا مؤمنين أم كفّاراً، وطالما خرجت عن دين الذين من حولك فوصفك: صابئ. وهي بهذا المعنى في السريانية والأرامية واليهودية والعربية، وهذا الوصف

بالصابئة "لمن خرجوا عن عقيدة من حولهم من الناس"، اشتهر به الكثير من المؤمنين الذين صبؤوا "خرجوا" عن دين الكفر عبر التاريخ، ولكن أشهرهم "بحدود معلوماتي" هم أتباع النبي يحيى(ع)، الذين خرجوا عن يهودية علماء عصرهم والتي اعتبروها انحرفت عن الدين القويم.

بالنسبة لكلمة نصارى فمعناها: المناصرون. وصارت تسمية لمن اتبع النبي عيسى(ع) حين عرض على أتباعه أن يكونوا أنصاره إلى الله تعالى كما ورد في الآية 14 من سورة الصف {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ}، فيساعدوه ويؤيدوه فيؤمنوا ويعملوا على نشر الدين الإلهي.

بالنسبة لكلمة: مجوس، التي لم ترد في القرآن إلا هنا، فقد حصرها بعضهم بالزرادشتية، وآخرون عمّموها لكثيرين غيرهم، والظاهر تعميمها للزرادشتية والأيزيدية والسيخية... وغيرهم، وبعضهم في الأصل "وكما تستوحي من أمّهات كتبهم" فهم من أتباع كتاب ينسبونه لأحد الأنبياء "كالأيزيديين" وحصل فيه تحريف وتلاعب حتى صار إلى ما هم عليه الآن من اختلاف مع تعاليم القرآن.

أمّا بالنسبة للفرق التي أتت من المسلمين "من بعد الإسلام" وانحرفت عن الإيمان "بشكل من الأشكال" فلم يصنّفها القرآن بأي اسم خاص، واعتبرهم منافقين أو فاسقين، وأبقى عليهم اسم الإسلام من الظاهر، مثلما وصف أهل الكتاب ولم ينفِ انتماءهم بالاسم لدينه تعالى، وأمرنا باعتبارهم مسلمين ومحاسبتهم عند ارتكابهم لأي خطأ علني مثلهم مثل بقيّة المسلمين.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ{18})

{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت، {أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ}، فيعبّر عن خضوعه واحترامه له تعالى، {مَن فِي السَّمَاوَاتِ}، من كائنات، {وَمَن فِي الْأَرْضِ}، من كائنات، والتعبير القرآني بالسماوات والأرض يشير إلى كل ما في الدنيا التي تتواجد فيها المخلوقات.

{وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ}، وهي بحسب استعمال القرآن واستعمال العرب لكلمة "نجم" في أشعارهم قبل الإسلام، أيُّ جرم "أي شيء" له مكان في السماء، سواء أكان منيرا بذاته مشتعلا كشمس أو غازياً ساخناً، أو جرما يعكس ضوء غيره كالأرض والمشتري... وكلمة كوكب باستعمالهم وصف لعموم أي شيء مضيء في السماء.

{وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ}، والدابة وصف لكل ما فيه حياة ويدبّ فيتحرك مغيّراً مكانه على أرض، وهذا بالأساس يشمل كل الكائنات الحية من عائلة الحيوان من الحشرات والزواحف وذوات الأرجل والطيور والأسماك، وندر استعمالها في كلامنا لتشمل الحشرات والأسماك، علما أن القرآن استعملها للحشرات كما في حالة الحشرة "السوسة أو غيرها" التي أكلت العصا التي كان يتّكئ عليها النبي سليمان(ع) كما ورد في الآية 14 من سورة سبأ {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ}، واستعملها شاملاً بها الزواحف كما في الآية 45 من سورة النور {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ}، واستعملها بمعناها الأعم لتشمل كائنات حية من غير عالمنا كما في الآية 29 من سورة الشورى {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ}.

ويسجد له تعالى، {وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ}، وكثير من الناس، لا يسجدون، {وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ}، وهناك عبر التاريخ كثيرون من الناس سجدوا له تعالى وفي مقابلهم كثيرون أيضا استحقّوا أن يتعرّضوا لما يضرّهم لأنهم لم يسجدوا له تعالى.

{وَمَن يُهِنِ اللَّهُ}، يُهِنْهُ تعالى فيحقّره ويعتبره بلا قيمة، {فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ}، مَن يستطيع أن يجعل له كرامة كقيمة واحترام، لأن السجود لله تعالى يسبّب الكرامة، ولن يحصل عليها من لا يسجد له تعالى، {إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}، وأمامه تعالى خيارات عديدة وأخبرنا سبحانه عن قراره بإهانة من لا يسجد له، ويمكنه تعالى أن يهينه ولا أحد سيمنعه، وسنرى في الآية التالية الإهانة التي ما بعدها إهانة للذين لم يسجدوا له تعالى.

لاحظ الآية تقول: {أَلَمْ تَرَ}. يعني لو فكّرت بما سنقوله لك لانتبهت، ولو أن هذه الكائنات ليست مطيعة له تعالى، للاحظت ذلك، ولكنها تعمل كما تراها وتلاحظها، وهذه هي حالة خضوعها له تعالى، وعندما نخبرك أنها ساجدة لنا، تعبّر عن احترامها وخضوعها لنا، فأنت من ناحيتك تراها خاضعة لنا وتسير كما نأمرها كدليل على خضوعها لنا، وهذا المعنى يشابه ما قالته الآية 15 من سورة الرعد {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ}، والكلام معنا كمؤمنين لنلتفت أننا نسجد لله تعالى بإرادتنا وهذا تصرّف صحيح وبه نكون متماشين مع كل ما في السماوات والأرض، وهذا الكلام ليسمعه المشرك ليسأل نفسه: لماذا لا أتوقّف عن الشرك وأسجد للإله الذي تسجد له كل الكائنات طوعا وكرها؟

الأساس المنتشر في السماوات والأرض هو السجود له تعالى، والشواذ هو المخالفة بأن لا يسجد أحد ما له تعالى أو السجود لغيره تعالى، وكل الكائنات تسجد له تعالى، وكلّها لها وعي خاص بها، ونحن من ناحيتنا نعتبر الإنس كائنات واعية، وبما وصلنا من خبر عن الملائكة(ع) والجنّ نعتبرهم كائنات واعية يمكن التواصل بيننا وبينهم بشكل من الأشكال، أما الأرض والسماوات والنجوم والجبال والأشجار... فهي ليست واعية بالنسبة لنا بل جمادات، لأننا لا يمكننا التواصل معها، والدواب "الحيوانات" يمكننا التواصل معها بشكل أقل من قدرتنا على التواصل مع الناس، ولها وعي بنسبة قليلة بالنسبة لنا، ولكن القرآن أكّد أنه تعالى يمكنه التواصل مع كل الكائنات، وأنها لديها طريقتها الخاصة بالتعبير عن خضوعها واحترامها له تعالى، وهذه الآية هنا تخبرنا أن كل الكائنات تسجد باستثناء كثير من الناس وطبعا الكثير من الجنّ أيضا لا يسجدون، ولكن الكلام هنا موجّه للناس لأن الحديث معهم وعنهم لا مع أو عن الجنّ.

نتذكّر دائما أن السجود هو أقصى تعبير عن الاحترام والخضوع، ويتدرج من تعبير العبادة لإله وصولا إلى التعبير عن الاحترام فقط كما سجدت الملائكة(ع) لآدم(ع)، وكما سجد أهل النبي يوسف(ع) له كما نقلت ذلك الآية 100 من سورة يوسف {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا}، وبالنسبة لنا نحن البشر فإن فعل السجود هو تقريب رأسنا من الأرض، أو وضع جبهتنا أو جبيننا... على الأرض، أمّا بالنسبة لبقية الكائنات فلا ندري كيف تسجد، ولا تحاول أن تتصوّر كيف تسجد، ولا تخمّن أن سجودها هو طاعتها بالمسير على أوامره تعالى، لأن هذا من آثار إعلانها لخضوعها له تعالى وليس تفسيرا حرفيا لسجودها، ولا تفهم أن نفس وجودها هو سجودها... لا، بل هي تسجد ولكن لا ندري كيف، مثلما هي تسبّح ويدرك تعالى تسبيحها أمّا نحن فمن المستحيل الآن وبالطرق البشرية أن ندرك أو نفهم تسبيحها، وهذا شيء قالته بصراحة ووضوح الآية 44 من سورة الإسراء {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}، وكذلك سجودها لا توجد لدينا أدنى فكرة عن كيفيته، سوى الخبر من الآيات.

بالنسبة للتعبير بـ "كثير" في حالة من يسجد وحالة من لا يسجد من الناس، فكلاهما عددهما كثير، ولنفترض أنهم بالملايين الذين سجدوا له تعالى، وبالمليارات الذين لم يسجدوا، فكلاهما كثير ولم تقصد الآية أن تبيّن أيهما أكثر، إنما قصدت أن تبيّن أن لكلا الحالتين جمهوراً واسعاً من الناس على مرّ التاريخ، وأن كل بقية الكائنات "غير الإنس والجنّ" تسجد.

(هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ{19})
نرجع لِصُلْبِ الموضوع للفت الانتباه لمن سجد له تعالى ولمن سجد لغيره سبحانه:

{هَذَانِ خَصْمَانِ}، شخصان أو مجموعتان بينهما خصام، وبينهما خلاف بسبب النفور والكره أو العداوة بينهما، {اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ}، بسبب اختلاف إيمانهم بالمسؤول عنهم من مستوى إلهي حصل الخصام، {فَالَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا وحدانيته تعالى، "سوف يهينهم سبحانه كما قالت الآية السابقة"، {قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ}، كما تقول فصّلت له ثياباً لعرسه، هنا تقصد الآية أن ثياباً يلبسونها قطعناها لكل واحد منهم، مثلما نقول: مفصّلة على قياسهم. هي جاهزة لهم وهي من النار، سيلبسون ثياباً مشتعلة، و{يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ}، تصب الملائكة(ع) الحميم، وهذا وصف لعموم ما وصل إلى درجة حرارة مرتفعة جداً، وعادة ينصرف ذهننا إلى المعادن الذائبة مثل حمم البراكين، تصبّها الملائكة(ع) فوق رؤوس الكافرين.

(يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ{20})
{يُصْهَرُ بِهِ}، يذوب بسبب ثيابهم النارية والحمم المصبوبة، يذوب كذوبان المعدن، {مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ}.

تعلم من العديد من آيات القرآن أنهم لا يموتون وخالدون دائماً على هذه الحالة.

(وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ{21})
{وَلَهُمْ}، للكافرين فوق كل ما سبق، {مَقَامِعُ}، كتل صلبة مخصّصة للضرب، مثل المطرقة، ومن عموم مفاهيم القرآن نعلم أن الملائكة(ع) تضربهم كما تفهم من الآية 18 من سورة العلق {سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ} ومن الآية 30 من سورة المدثر {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ}، تضربهم الملائكة(ع) بمقامع، {مِنْ حَدِيدٍ}، من شيء صلب جداً.

ضع في بالك أن العرب قديماً كانت كلمة حديد عندهم صفة لما هو صلب ولم تكن اسماً مخصصاً للمعدن المعروف حالياً باسم الحديد، استعملها القرآن كما استعملوها وترى ذلك واضحاً في {فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} أي حادّ شديد، كما ورد في الآية 22 من سورة ق.

(كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ{22})
{كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ}، كلما أراد الكافرون أن يخرجوا من المكان الذي يتعذّبون فيه للخلاص من الشعور النفسي المزعج الثقيل، {أُعِيدُوا فِيهَا}، تعيدهم الملائكة(ع)، حيث يحاولون التفلّت والهرب، بعضهم يركض، وبعضهم يحاول التسلّق... ولكن بلا جدوى، لأن الملائكة(ع) تلاحقهم تلاحقهم.

لا يرتاحون فيها ولو للحظة، ولا يعتادون عليها، حيث في كل لحظة يريدون الخروج منها ولو بأي طريقة يائسة.

{وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ}، يا أيها الكافرون عندها تحسّسوا فعلاً ما معنى عذاب الحريق، هنا في الدنيا أنتم لا تؤمنون به، بل وتسخرون منه، أما هناك فذوقوه وتحسّسوه، لأنه لم يعد خبراً وصار حقيقة.

في جهنّم لا يحصل هروب فعليّ، ولكن محاولة الهروب عبر التحرّك في الاتجاهات المختلفة لمن يتمكّن من التحرك، حتى يتخلصوا من المكان، ولكن لا مجال للخروج من جهنم، أقصى ما يحصل هو انتقالهم من مكان لآخر في جهنّم، من الحفرة إلى حافتها ثم يسقطون فيها ثانية، ومن وادٍ إلى الجبل ثم يسقطون ثانية... لأنه لا يوجد مكان سيشعرون فيه بأن العذاب أخف، ولكن عندهم دائماً شعور الحاجة للتخلّص من هذا المكان.

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ{23})
في المقابل هناك الخصم الثاني ونهايته كما يلي:

{إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين اعتقدوا بهذا الدين الإلهي، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، حيث قاموا بالأعمال الموصوفة بأنها صالحة جيّدة، والتزموا بما يرونه صالحاً، وهذا عملياً يتماشى مع أوامره سبحانه الذي لا يأمر إلا بما هو صالح، عملياً تركوا الحرام وفعلوا الواجب، هؤلاء يدخلهم تعالى إلى {جَنَّاتٍ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها، حيث فيها حدائق وبساتين... {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، تسير فيها السوائل المتنوعة من ماء ولبن وعسل وخمر كما ورد في الآية 15 من سورة محمد، {يُحَلَّوْنَ فِيهَا}، في تلك الجنّات يلبسون الحلي، حيث يضعون على جسدهم وثيابهم ما يجعلهم أحلى، أجمل، {مِنْ أَسَاوِرَ}، أشياء يضعونها على معاصم أيديهم، {مِنْ ذَهَبٍ}، وهو وصف للمعدن الذي له تدرجات من اللون الأصفر بحسب نقاوته، ومرغوب للزينة لأنه لا يتغيّر لونه ولمعانه، ويحلّون فيها {وَلُؤْلُؤاً}، ويلبسون الحلي من اللؤلؤ وهو كرات صغيرة يتم استخراجها هنا في الدنيا من الصدف البحري، ولها ألوان عديدة أكثرها انتشاراً الأبيض والعاجي الذي يعطي لمعات من بقيّة الألوان.

{وَلِبَاسُهُمْ}، ما يضعه المؤمنون العاملون للصالحات على جسدهم في الجنة، {حَرِيرٌ}، وهذا وصف للقماش الخفيف والناعم جداً وذي الألوان الزاهية، وهنا في الدنيا يتم استخراجه من دودة القزّ أو يتم تصنيعه من مواد ناعمة جداً.

نلاحظ دائماً القرآن يقرن بين الإيمان والعمل الصالح مع بعض، والنتيجة للاثنين معاً هي دخول الجنة، فلا الإيمان بدون عمل صالح ينفع، ولا العمل الصالح من دون إيمان ينفع، بل كلاهما معاً ينفعان.

لا تَنْسَ دائماً أن الآيات تعرض لنا ما يمكننا فهمه من روائع الجنّة، حيث تذكر لنا أشياء نعرفها نحن هنا على الأرض، حيث إنّ العديد من الآيات نبّهت أن هذه الأوصاف للجنّة وما فيها هي مجرّد نماذج، لأن الجنّة متجدّدة دائماً، وفيها أشياء فوق تصورنا الآن، وتختصرها كمثال الآية 35 من سورة ق بعبارة {وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}.

بقي شيء، حيث قال الراغب الأصفهاني في كتاب المفردات إنّ كلمة "إسوارة، سوار" معرّبة من الأصل الفارسي "دستواره"، ومن بعده نقلت كتب التفاسير جملته هذه ونشرتها. وحالياً لدينا معايير لإرجاع الكلمات لأول شعب وضعها لنسبة تلك الكلمة لهم، من تلك المعايير أن نجد مستنداً تاريخياً استعملت فيه الكلمة عند شعب ما قبل الآخرين، أو تكون التسمية لشيء ما هم اخترعوه قبل الآخرين، أو نجد اشتقاقات من تلك الكلمة مستعملة بمعانٍ قريبة... لو وجدنا مستنداً باللغة الفارسية، يذكر كلمة "دستواره" وهذا المستند أقدم من أي مستند عربي، لاحتملنا أن يكون أصل الكلمة فارسيّاً وتعرّف عليها العرب من الفرس، ولو وجدنا في الآثار أن العرب لم يعرفوا الإسوارة في تاريخهم، واخترعها الفرس قبلهم، لاحتملنا أن العرب تعرّفوا على الإسوارة وعلى الكلمة الخاصّة بها من الفرس، وأن العرب أعادوا صياغة الكلمة بما يناسب تلفظهم للكلمات... ولكن الراغب وغيره من اللغويين القدماء كانت معاييرهم رخوة أكثر من المقبول، فمعيارهم هو تشابه لفظ الكلمة العربية مع الفارسية، فيحكمون أن أصل الكلمة فارسي! والعجيب أنهم لم يحكموا أن أصل الكلمة عربي! ما هذا المعيار! اخترت هذه الكلمة بالتحديد لأبين لك أن أكثر ما قالوه عن أصل الكلمات العربية الواردة في القرآن أنها أجنبية هو مجرد تخرّصات بلا دليل، وهنا كمثال الأساور من أقدم ما اخترعه الإنسان، حيث إنها منتشرة في آثار كل الحضارات القديمة، وتشابه اللفظ بين اللغتين لنفس الشيء، يشير "ولا يحتّم" إلى أصل واحد للكلمة، فلماذا لا يكون عربيّاً؟ أو آراميّاً؟ أو حتى سريانيّاً، وهي لغة يبدو أنها أقدم من العربية والفارسية؟ ولماذا لا تكون كلمة "إسوارة، سوار..." عربية ولدينا كلمة "أسير" التي تحتمل الاشتقاق بسبب "تكبيل" يدي الأسير!

لا أريد البرهنة لك أن أصل كلمة إسوارة عربي، ولكن ألفت انتباهك إلى أكثر ما قالوه في التفاسير والقواميس عن أصل بعض الكلمات العربية أنه كان تخميناً، وبلا دليل، ونتج عنه كلام غير صحيح لتفسير معاني بعض الكلمات... وللأسف إنّ من يعيد دراسة ما قالوه متّهم في علمه! لأن الناس يقدسون القديم، وكأن القديم لم يكن جديداً حين قالوه!

لمزيد من التوسّع حول هذا الموضوع راجع دراستنا للآية 21 من سورة الإنسان {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ...}، والآية 47 من سورة الصافات {لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ}، والآية 3 من سورة الزخرف {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}.

(وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ{24})
المؤمنون العاملون للصالحات، {هُدُوا}، وضعهم سبحانه على الأشياء الصحيحة التي توصلهم للغاية الصحيحة، {إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ}، حيث كل ما يقولونه يكون طيّباً جيّداً محبّباً، لا يصدر منهم قول خبيث مؤذٍ، وهم دائماً يقولون كلاماً طيّباً محبّباً لبعضهم البعض.

{وَهُدُوا}، وضعهم سبحانه على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة، {إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ}، إلى طريق أساسي منسوب للحميد، الله تعالى الذي كل ما يفعله جيّد محمود، حيث لا شيء سيّئ أبداً بتاتاً في الطريق لأنه طريق الله الحميد، أوصلهم تعالى إلى رضاه عنهم ومنحهم الجنّة الخالدة. ورد التعبير {بِصِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}، في سورة سبأ الآية 6: {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}، مما يؤيّد أن الحميد هنا صفة له تعالى وليست صفة للصراط.

قارن هذا الصراط بآخرة الذين يحاولون الهرب من جهنّم، حيث إنّ أهل الجنّة لا يرغبون أصلاً في الخروج منها، ولو بعد مليارات السنين، تقرأ ذلك صراحةً في الآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}، وهم دائماً

في حالة انشراح وسعادة مثل أوّل يوم سعدوا فيه بما في الجنّة، وأهل النار لا يتحملونها ولو للحظة، حيث في كل لحظة هم متضايقون ويحاولون يائسين الخروج منها.

من مخزون تراثنا الثقافي، أول ما يخطر ببالنا هنا أن الصراط هو الطريق الذي يمر فوق جهنم ليصل عبره المؤمنون إلى الجنة، ورد شيء عن ذلك في الآية 74 من سورة المؤمنون {عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ}، ولكن معنى الآية هنا عام ولا يشير أصلاً لطريق فوق جهنّم، ولا يشير لطريق يمرون عليه، بل يشير لعموم أي شيء في الجنّة، كجهة يسيرون عليها، حيث كل ما فيها جيّد لأن الحميد بناها وسبّب لهم دخولها بإيمانهم بما هداهم به سبحانه.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ{25})
هناك حالة متطرّفة جدّاً من تصرفات قام بها بعض الكافرين، وتطرّق لها القرآن في بضع سور، ومنها الآية 34 من سورة الأنفال {وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}، وهي حالة فجّة جدّاً كما سترى، وفيها غرابة تدير الرأس إلى القفا! فلنتابع:

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، وسياق الكلام عن الذين أنكروا التوحيد، {وَيَصُدُّونَ عَنْ} سبيل الله، حيث من يرد من الناس أن يكون على مسلك الدين الإلهي إنهم يمنعونه، ويصدون عن {الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، يمنعون المؤمنين من الذهاب إلى باحة الكعبة التي في مكة، لأداء الحج أو العمرة أو الصلاة لله تعالى... المسجد الحرام {الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ}، لكل الناس على السواء بلا أي فرق، لم نجعله مِلْكاً أو خاصّاً بأهل مكّة ولا بقريش ولا للعرب... بل اعتبره تعالى بيتاً له ليقصده كل الناس ليتقرّبوا منه سبحانه، {سَوَاءً}، مثل بعض بلا فرق، {الْعَاكِفُ}، المقيم الملازم في منطقة المسجد الحرام، من يسكن بقربه، فهو مثله مثل {الْبَادِ}، الذي يبدو، يظهر في مكّة، فهو الذي يسكن خارج منطقة المسجد الحرام ثم يسافر ليبدو ليظهر في مكة بشكل مؤقّت ليحجّ أو يعتمر أو يصلّي أو يدعو، كلاهما المقيم قرب المسجد الحرام والمقيم بعيداً عنه وصار فيه، وكلاهما لا يملكان المسجد الحرام، وكلاهما لا يحق لهما التصرّف كأنهما يملكانه.

الآية تشير إلى سكان مكّة التي فيها المسجد الحرام، حيث يتصرفون وكأن المسجد الحرام لهم وليس بيتاً له تعالى وليس مكاناً عامّاً لعموم من يريد عبادته تعالى! وبناءً عليه منعوا المؤمنين الموحدين من الحجّ والعمرة!

بعبارة أخرى، هم يمنعون المؤمنين بالله تعالى من التواجد في المسجد الحرام، بينما هو الله تعالى الذي حدّد ذاك المكان كمسجد حرامٍ؟!

{وَمَنْ يُرِدْ}، ومن يكن مقصوده، {فِيهِ}، في المسجد الحرام، {بِإِلْحَادٍ}، يَحِيدُ عن ملكية المسجد لله تعالى وتساويه فيه مع غيره من الناس، يتصرّف كأنه يملكه أو له حصّة فيه أو وصاية عليه... ويميل إلى اعتبار نفسه مالكاً للمسجد، {بِظُلْمٍ}، من دون وجه حقّ، يمنع الناس من الحج والعمرة وهم مسالمون، {نُذِقْهُ}، نجعله يتحسّس، {مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}، من ضرر يصيبه ويؤلمه فلا يمكن تحمّله أو الاعتياد عليه.

منع المؤمنين الموحدين من القيام بمناسك الحجّ هو إلحاد وهو ميلان بظلم عمّا أمر به تعالى، ولكن هناك منع لا يكون ظلماً، وذلك عندما تمنع مشركاً يريد ذكر آلهته الوهمية أثناء مناسك الحج، فهذا ليس إلحاداً بظلمٍ، بل إلحادٌ كميلانٍ عن الأمر الإلهي بمنع بعض الناس عن المسجد الحرام ولكن بحقّ وعدل. ما تجده في آيات أخرى من القرآن كالذي ورد في الآية 28 من سورة التوبة والتي تحدّثت عن المؤمنين حين تنتشر سلطتهم على مكّة، تأمرهم بمنع المشركين من دخول المسجد الحرام، فهذا بحسب تعبير الآية هنا، إلحاد بحقّ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا...}.

المسجد الحرام، هو الباحة التي حول الكعبة التي في مدينة مكة، وهي باحة كبيرة وتمتد حتى الصفا والمروة، وزمزم... ولأن الكعبة لها صفة: بيت الله. فالباحة حولها لها حرمة واحترام، ولذلك يقال لكل الباحة: المسجد الحرام، أي الذي له حرمة، لأنه باحة بيت اعتباري لربنا سبحانه، فيحرم فيه الصراخ والجدال والكلام بأي شيء غير العبادة والدعاء والمناجاة فقط.

نلاحظ السورة كان تركيزها على المشركين، وانتقلت بنا إلى تصرّف متطرّف عجيب يقوم به المشركون المكّيون، فبيت الله تعالى ليس مِلْكاً لهم حتى يمنعوا المؤمنين من الذهاب إليه! هم مشركون به تعالى ويعبدون غيره في بيته ويمنعون الموحّدين من زيارة بيته سبحانه! فهل لآلهتهم أصلاً أي علاقة بقداسة المسجد الحرام؟! أم هو بيت بني بأمر إلهي ليكون رمزاً دينياً لتوحيده سبحانه!

(وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ{26})
تدخل السورة على تاريخ المسجد الحرام لتربطه بدين التوحيد وتفصله عن دين الشرك وعن المشركين:

{وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ} (ع) {مَكَانَ الْبَيْتِ}، حدّدنا له (ع) مكان البيت المسمّى بالكعبة، والبيت الذي نريده أن يكون مَعْلَماً إلهياً على الأرض للناس ليقصدوه، حدّدنا مكانه للنبي إبراهيم(ع)، ولم يكن يعرف مكانه وحدّدناه له، ومن الآية 127 من سورة البقرة نفهم أن البيت كان له قواعد، ورفعها النبي إبراهيم(ع) فجدّد بناء البيت عليها، {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ...}، يعني أن البيت قبله كان موجوداً، وتهدّم وبقيت قواعده وحدّد له تعالى موقعه لإعادة بنائه...

{أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا}، حين أمره تعالى ببناء البيت نبّهه أن لا يجعل أي شيء كان شريكاً له تعالى في الألوهية، {وَطَهِّرْ بَيْتِيَ}، اجعله خالياً من أي شيء سيّئٍ خبيثٍ، ولا تسمح بوضع الأصنام فيه، ولا تستقبل نذور المشركين به تعالى... طهّره، {لِلطَّائِفِينَ}، لمن يريد أن يطوف ويجول ويدور حوله، {وَالْقَائِمِينَ}، للواقفين على قوائمهم، لمن يقومون ويقفون بقرب البيت للصلاة والذكر... {وَالرُّكَّعِ}، لمن ينحني بظهره، {السُّجُودِ}، لمن ينحني حتى يصل رأسه قريباً من الأرض.

كما ترى، الآية تصف الأشكال والحركات الجسدية التي تعبّر عن ذكره تعالى والتعبير عن فائق الخضوع له، والتي عادة نسمّيها بالعبادة، وهذا البيت تَحَدَّدَ لنا لنقوم بهذه الأمور وليس لذكر غيره تعالى.

(وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ{27})
{وَأَذِّن}، وأعلن، {فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ}، حتى يقصدوا الذهاب إلى البيت الحرام، فأخبر عموم الناس أن هذا البيت منسوب لله حتى يحجّوا إليه، فيقصدوه ليؤدّوا مناسك عبادية، من طواف وصلاة وسعي... ومن بعد أَذَانِكَ، {يَأْتُوكَ}، يأتي إليك الناس، {رِجَالًا}، ماشين على أرجلهم، ويأتون إليك حيث أنت قرب البيت واستجابة لِأَذَانِكَ ولإعلانك، {عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ}، على الحيوانات التي تنقلهم كالأحصنة والجمال التي ضَمُرَ بَطْنُهَا وتَقَلَّصَ بَطْنُهَا من طول ما قطعت من مسافات بعيدة. وسواء مَشْياً أو بوسيلة نقل يأتي الناس إليك استجابة لإعلانك، {مِن كُلِّ فَجٍّ}، من كل مكان بين المرتفعات، {عَمِيقٍ}، والوصف ليس لصورة بعدهم عن مكّة من فوق، بل وأنت واقفٌ في مكّة وتنظر للأمام، تصير الطرقات التي يمشي عليها الناس باتجاهك، فجاج ممرات، عميقة ولها بعد كبير عنك. بعبارة أخرى فهو توصيف لعمق أفقي، كتوصيف عمق الكهف والقاعة...

عليك بتصوّر النبي إبراهيم(ع) كشخصٍ كفردٍ يقوم بإعلام عموم الناس بأنهم يجب عليهم أن يأتوا مرّة واحدة في حياتهم على الأقل وأينما كانوا ليحجّوا إلى هذا البيت القائم في صحراء قاحلة، ليعبدوه تعالى وحده. وغالب الناس كما يبدو من التاريخ مشركون به تعالى ويعبدون الأصنام. فإذا تصوّرت هذا فستفهم أن الأمر الإلهي لنبيّه إبراهيم(ع) أتبعه بجواب عن هذا الاستغراب، فأنت قم بالإعلان وسترى أن الناس مشياً سيأتون للحج، ومن مسافات بعيدة لدرجة أن الحيوانات التي سيأتون عليها وهي تتحمّل الانتقال لمسافات بعيدة، ستصل تلك الحيوانات بهم إلى الحجّ وهي هزيلة من طول المسافة التي قطعوها.

لِتتَصَوَّرَ المشهد الذي تنقله الآية بشكل أفضل، تصوّر نفسك أنت أقمت الكعبة وأنهيت بناءها، وأمرك سبحانه بإخبار الناس على كل الأرض أنه يجب عليهم الحجّ إلى هذا البيت، فأوّل ما سيدور في رأسك أن الموحدين العابدين لله تعالى قلائل بل نادرون بالنسبة لبقية أهل الأرض المشركين، وهذا البيت في صحراء قاحلة تحيط بمنطقته من كل الجوانب، فمن سيأتي ليحجّ إليه! حتى الموحِّدُونَ قد لا يلتزمون بهذا الواجب الذي فيه مشقّة قطع الصحاري! ولذلك خاطبه ربّه سبحانه وقال له: أنت قم بالأَذَانِ ونخبرك بأن الناس مشياً سيأتون، ومن مسافات بعيدة جداً جداً سيأتون.

لا تَنْسَ لماذا ذكرت لنا السورة هذا الكلام، فالإعلان عن الحجّ لهذا البيت الذي في مكّة، هو إعلان من الله تعالى، ولا علاقة لمشركي مكّة ولا للعرب ولا لقريش ولا للنبي محمد(ع) ولا للنبي إبراهيم(ع) بهذا الإعلان، فهو إعلان صدر بأمر إلهي، منذ زمن بعيد من آلاف السنين من عهد النبي إبراهيم(ع)، وتقديري الاحتمالي للمدة بيننا وبينه (ع) تقارب الخمسة آلاف سنة على الأقل.

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ {27})
يأتي الناس من الأماكن البعيدة إلى مكّة:

{لِّيَشْهَدُوا}، ليحضروا، {مَنَافِعَ لَهُمْ}، في الطواف والركوع والسجود، منافع لهم، من إعلانهم لإيمانهم ومن الثواب على مناسكهم ومن المغفرة لذنوبهم... والتعبير بالمنافع لهم وليس لله تعالى يريك أنهم سيتكلّفون على السفر، ومعه المشقّة، والوقت... وما سينتفعون به من الحجّ يستحقّ ذلك منهم، والكلام على معنى ما قالته الآية 114 من سورة هود "{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}"، فذهاب السيئات من أهمّ المنافع.

هذا الكلام لا يلغي التوسّع في المنفعة من التجارة ومن التعارف بين الناس للتداول في الشؤون العامّة للمسلمين، بشرط أن تكون النيّة للحجّ أولاً، وبالطريق الانتفاع من تلاقي عدد كبير من الناس من مختلف المناطق...

{وَيَذْكُرُوا}، يستحضروا في فكرهم وقولهم وعملهم، {اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ}، أيام يَعْلَمُ بها الناس، وتمام مناسك الحج تستغرق إحراماً على الطريق قبل الوصول إلى مكّة، وبعدها عمرة تستغرق يوماً واحداً، وبعدها المبيت والوقوف بعرفات، وبعدها رمي الجمرات ليومين أو ثلاثة، يعني إذا اختزلت قطع المسافات، كل المناسك مدتها لا تستغرق ما يتجاوز الستّة أيام، وهي واجبة مرّة واحدة في العمر، ويستحب تكرارها.

يذكروه تعالى، {عَلَى مَا رَزَقَهُم}، على ما أعطاهم من شيء يسدّون به أهمّ حاجة تحافظ على حياتهم، شيء يأكلونه وهو، {مِّن بَهِيمَةِ}، وهي كل الحيوانات غير الإنسان، {الْأَنْعَامِ}، الموصوفة بأنها نعمة، وسترى من الآية بعد التالية أنه يوجد تقييد فليس كل ما يقول عنه الناس أنه مأكول حلالاً، فقط ما يصفه العقلاء بالنعمة هو الحلال، وفي أول سورة المائدة تجد تفصيلاً عاماً لما هو حلال وحرام أكله منها... من ضمن أسباب أمره تعالى لهم للحجّ إلى هذا البيت أن يَشْكُرُوهُ تعالى بالخصوص على الحيوانات التي يأكلونها، فهو تعالى خلقها، وهو تعالى سمح لهم بقتلها وأكلها، وهو تعالى جعلنا مسلّطين عليها، فنربيها وتطيعنا فتتجاوب معنا مع أننا سنأكلها...

{فَكُلُوا مِنْهَا}، ما تقدّموه كأضحية حين تحجّون يمكنكم الأكل منه، {وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ}، الذي في حالة بؤس وحالته ليست جيّدة، {الْفَقِيرَ}، الذي يفتقر ولا يملك المال ليشتري لحم الأنعام، فأطعموه منها.

في عصرنا يمكن الاحتفاظ باللحم الفائض عن الحجّاج بالتبريد أو التعليب، وفي قديم الزمان كان هناك وسائل أخرى للاحتفاظ بما بقي من اللحم، منها التجفيف والتقديد بالملح... بالنظر لزمن النبي محمّد(ع) كان عدد الحجيج كبيراً جداً بالنسبة للفقراء في مكّة، وفي عصرنا عدد الحجيج ضخم بالملايين، فقديما وحديثا الكلام عن الاحتفاظ باللحم بطريقة مناسبة لتوزيعه على الفقراء عموما وليس في منطقة مكّة فقط.

بالنسبة للكمية التي يحقّ للحاجّ أن يأكلها أو يأخذها معه بعد انتهاء مراسم الحجّ أو الكمية التي يجب أن يقدمها للفقراء، لم تحدّدها الآية، وهو متروك للظروف المناسبة، فإن كنت غنياً فكل من الأضحية بمقدار شبعك ووزّع الباقي كلّه على الفقراء حتى لو خزّنوه، وإن كنت فقيراً فكل وأطعم الفقراء وخذ الباقي لأنك فقير... وحاليا لا يأكل الحجّاج عادة من أضاحيهم بسبب الزحام عند أماكن الذبح في منى، وهذا ليس مضراً بإتمام مناسك الحج ولكن سيفقد الحاج الشعور بنعمة تناول اللحم من أضحية هو قدّمها ليشكره تعالى على هذه النعمة، وللأسف ربما لا يلتفت الناس إلى أهميّة ما يقدمونه من أضحية، فتركيز الآيات هنا على نعمة "بهيمة الأنعام" يبدو مغموراً غير معروف بين المسلمين بأنه من مقاصد الحجّ.

إذنْ للحج ناحيتان، ناحية ذكر الله تعالى كإله أحد خالق... فننتفع بالحصول على الثواب والمغفرة من العبادة بالحركات والكلام... وحالة شكره تعالى على ما وفّره لنا من حيوانات لنأكلها كأبرز نموذج عمّا يحفظ لنا نعمة حياتنا.

ضع في بالك أن البهيمة هي كل الحيوانات، الأليفة والوحشية، والتي يحلّ أكلها أو يحرم، ونصِفُها بالبهيمة لأن ما نعرفه نحن ونفهمه مبهم عليها فهي عموما لا تعرفه ولا تفهم معناه. وكلمة الأنعام نقولها للحيوانات التي يحلّ أكلها، سواء أكانت أليفة أو تعيش في البريّة، فتعبير "بهيمة الأنعام" بكلا الكلمتين مع بعض يشير لعموم الحيوانات التي يمكننا أكلها سواء كنّا نربّيها كالبقر والدجاج... أو التي نصطادها من البريّة كالعصافير والغزلان.

ومن بعد تقديم الأضحية:

(ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ{29})
بعد ذكر الله تعالى وشكره على بهيمة الأنعام، عبر تقديم الأضحية، بعد ذلك، {لْيَقْضُوا}، لينهوا، {تَفَثَهُمْ}، حالة الإحرام التي سببت لهم التفث، حيث كان ممنوعا عليهم الاستحمام والعطور وتقليم الأظافر... لعدة أيام، وبعد الانتهاء من ذكر اسمه تعالى والشكر على بهيمة الأنعام عبر تقديم أضحية وإطعام الفقراء منها، يمكن للحاج أن يفكّ إحرامه "فيحلق أو يقصّ شعره..." ويعتني بنظافة جسده.

{وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ}، لا يخلطوا نذورهم التي أوجبوها على أنفسهم مع أعمال الحجّ، فإذا نذرت صلاة ركعات مستحبّة، أو الطواف، أو تقديم ذبائح للفقراء... أو أي شيء آخر من النذور، فلا تخلطه مع مناسك الحج. بعبارة أصرح، لا تقم بأي عمل نذر مشابه لأعمال الحجّ أثناء أداء الحجّ وتعتبره بدلا من منسك للحج، لنقل إنّك نذرت صلاة ركعتين في مقام النبي إبراهيم(ع)، وأعمال الحج أصلا تتضمّن ذلك، فإذا صلّيتها بنية الوفاء بنذرك، فلا تعتبرها بدلا عن الصلاة الواجبة للحجّ بل صلِّ الركعتين مرّة ثانية.

الجملة تشير إلى المنع من النذر لأي شيء ضمن مدّة أداء المناسك، حيث يمكنك النذر بشيء ما لما بعد فكّ الإحرام.

{وَلْيَطَّوَّفُوا}، ليجولوا ويدوروا، {بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ}، الذي مرّ على وجوده زمن طويل، قديم، ومن المشهور بين المسلمين أنّه بعد تقديم الأضحية نفكّ الإحرام "بالتقصير أو الحلق أو تقليم الأظافر..." ونغتسل، ثم نتوجّه من منطقة منى إلى الكعبة لنطوف حولها ونعود لنبيت في منى.

ننتبه ولا ننسى، أنّ الكلام الذي تنقله السورة كان موجّها للنبي إبراهيم(ع) ليعلن للناس عن مراسم الحجّ وأسبابه وكيفية مناسكه، وذكرتها السورة باختصار لأنها لم تقصد هنا تعليمنا مناسك الحجّ، بل قصدت لفت انتباه الجميع بأن مناسك الحجّ المتداولة هي ليست من صنع قريش ولا من صنع العرب، وأنّ هذا البيت له مناسك إلهية ترجع إلى عمق عدة آلاف من السنين إلى النبي إبراهيم(ع)، ومن وقتها تحدّدت أسباب الأمر الإلهي لمناسك الحج. ونلاحظ كيف عبّرت الآية عن البيت أنّه عتيق، وذلك للإشارة إلى أنّه بيت قديم جدا جدا، فلم يبنه العرب، ولا القرشيون، فهو عتيق وأعتق حتى من عهد النبي إبراهيم(ع).

تسمع هنا وهناك كلاما حول الكعبة والحجّ بأنّها تراث عربي خاص بالعرب، و"محمد" عمّم التراث العربي ليصير واجبا دينيا عالميا، فقبل النبي محمد(ع) كان بعض العرب بنى بيتا لآلهته وجعله محجّة! كُرْهاً وغيرةً من الكرامة والشأن بين العرب الذي حظي به أهل مكّة بسبب الكعبة، وطمعا في الاستفادة من التجارة بالبيع للحجّاج... بَنَى بعض العرب بيوتا يشابهون بها الكعبة... ومعلوم منهم بيتٌ في الطائف كان متواجدا في عهد النبي محمّد(ع)، ولكن مساعيهم لم تنجح ولم تصر تلك البيوت محجّة، لأنها مجرّد اختراع لا علاقة لدينه تعالى به، وكانت تلك البيوت مخصّصة لعبادة آلهة تلك المدن! ولم تكن لله تعالى! وحتى أبرهة الحبشي المشهور بهجومه على الكعبة لتدميرها، قالوا إنّه بنى بيتا في اليمن وأمر الناس بالحجّ إليه بدل الحجّ إلى مكّة، وعندما لم يستجب الناس له، توجّه نحو مكّة ليدمّر الكعبة.

بقي شيء، فما معنى أن يكون له تعالى بيتٌ؟ وهذا السؤال بصياغته غير الصحيحة لن يوصلنا لفهم صحيح، فالسؤال الصحيح: لماذا حدّد تعالى بيتا له؟ وهكذا يتماشى السؤال مع الواقع، فسبحانه لا يسكن في بيت، ولا يعنيه البيت بأي شيء، وفقط حدّده هناك في مكّة ومن دون أي ميزة مقدّسة أو عجيبة للمكان سوى أنّه تعالى اختاره "لسبب ما، وراجع

في ذلك ما ورد في الخطبة المسماة بالقاصعة في كتاب نهج البلاغة"، ليكون مكانا يقصده الناس للقيام بطقوس تعبّر عن شكرهم له تعالى على ما رزقهم من بهيمة الأنعام... وهذا في أساسه يعتمد على توحيده تعالى والإيمان بصفاته وأسمائه الحسنى وكتبه... والآخرة.

(ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ {30})

{ذَلِكَ}، الذي أمرنا به النبي إبراهيم(ع) بالقيام به في الحجّ، {وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ}، فمن يحج يكون موصوفا بأنّه يعظّم، يراها كبيرة ضخمة الأشياء التي صار لها حرمة والمنسوبة له تعالى، أي صارت بالنسبة له أوامر إلهية وممنوع "حرام" مخالفتها ولها قيمة عالية جدا عنده، {فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ}، فهذا شيء جيّد له عند المسؤول عنه من مستوى إلهي، وعمليا سيعتبره تعالى مهتما برضاه سبحانه عليه وسينال على ذلك ثوابا حسنا.

الآيات تخبرنا عمّا هو واجب علينا فعله في الحجّ، {ذَلِكَ}، صارت هذه الواجبات لها حرمة، وصار حراما ممنوعا مخالفتها، ومن يعظّم ويحترم بشدّة هذه الحرمات فسينال الخير من ربّه تعالى، وسينال رضاه تعالى ومغفرة وثوابا نهايته إلى الجنّة الخالدة.

بعبارة أخرى، ليس الحجّ على مزاجي ومزاجك، ليمكنك أن تحجّ أو لا تحجّ، لا، ولا مناسك الحجّ على مزاجك، ليمكنك أن تفعلها أو تتلاعب بها وتنقص منها أو تزيد عليها، لا، فهي أوامر إلهية لها حرمات وعليك تعظيمها واحترامها بحذافيرها. وكما ترى فالكلام مع من يخطر بباله أن الحجّ طقوس اخترعها أحد ما، ويمكننا لسبب أو لآخر إجراء تعديلات عليها، لا.

{وَأُحِلَّتْ لَكُمُ}، صارت حلالا ولا عقاب عليها، {الْأَنْعَامُ}، الحيوانات الموصوفة بأنّها نعمة لأنّكم تأكلونها، {إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ}، إلا ما نقوله لكم عبر مستند منّا أنّه من الأنعام ولكن لسبب أو لآخر صار حراما أكله، ومن آيات أخرى مثل الآية الثالثة من سورة المائدة علمنا المحرمات من الأنعام {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ}...

{فَاجْتَنِبُوا}، ابتعدوا لا تقربوا، {الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ}، الأشياء المنفور منها لسوئها والناتجة عن أي شيء جامد كالتماثيل أو الأصنام التي يعبدها الناس، فعموم أي شيء له علاقة بالأصنام والتماثيل التي يعبدها الناس، فهو منفور منه بسبب سوئه، فاجتنبوه. ومعلوم النهي عن الشرك به تعالى عبر اعتبار غيره تعالى إلها، ومضافا لذلك أنت كموحّد لله تعالى عليك بنفي أي قيمة حسنة وقطع العلاقة بكل ما له ارتباط بالأوثان من تماثيل وأصنام يعتبرها الناس آلهة، قديما أدخل المشركون على مناسك الحج أشياء تتعلّق بأوثان آلهتهم، ووزّعوا أوثانهم على أماكن متفرقة لها علاقة بمناسك الحج، وصاروا يذبحون الأضاحي عند تلك الأوثان، ويقدّمون النذور عندها... وخذ مثلا سمعت به في العديد من الثقافات المحلية بانتشار الاعتقاد بحجر ما أو صخرة في منطقتهم، ويقولون بأنّ الأنثى التي تعاني من مشاكل في الحبل تذهب إليها ليتيسّر حبلها... وهذه نسخة محدّثة عن الرجس من الأوثان.

{وَاجْتَنِبُوا}، ابتعدوا عن، {قَوْلَ الزُّورِ}، قول الكلام المزيّف غير الحقيقي، لأنّ عموم أي توجّه لغير الله تعالى، سواء بإعلان الألوهية أو الربوبية من مستوى إلهي، أو عند ذبح أو نحر الحيوانات لشكر غيره تعالى أو كنذر لغيره تعالى، فهو زور وهو غير صحيح، لأنّ الله سبحانه هو الإله الأحد، وهو الخالق لكل شيء، وكمثال هو تعالى خلقنا وخلق الأنعام، وهو سمح لنا بقتلها وأكلها... ومن مضامين الحج تأديته كتعبير عن شكره تعالى على عموم ما رزقنا ومنه شكره تعالى على بهيمة الأنعام، فأي كلام عن شكر غيره تعالى على الأرزاق التي معنا والمتاحة لنا فهو زور غير صحيح.

نتذكّر أنّ أساس منسك الحجّ هو ذكر اسم الله تعالى، والثاني هو شكره على بهيمة الأنعام، والصنم أو التمثال أو أي رمز كان، عندما يعبده الناس يصير اسمه وثناً، ولا علاقة للوثن بما حصلتم عليه من أنعام، فاجتنبوا الأصنام والتماثيل

التي تعتبرها الناس آلهة، وبالخصوص هنا اجتنبوا أن تنسبوا للأوثان أي فضل لها في نعمة الأنعام، ليكون لحم الأنعام المذبوح باسم آلهة المشركين رجساً.

لا تنسَ أنّنا لا نزال في أجواء أصل وأساس التشريع الإلهي للحج إلى بيته تعالى الذي في مكّة، وأنّ أساسه التوحيد، وأنّ الناس أدخلوا أوثانهم على مناسك الحجّ، حيث مرّت فترة من الزمن كان سكّان مكّة مشركين، وهم والكثير من العرب المشركين كانوا يحجّون للبيت، ويتقرّبون للأوثان المنتشرة حول الكعبة... بحجّهم ونذورهم وأضاحيهم!

(حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ{31})
تجنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور وكونوا:

{حُنَفَاءَ لِلَّهِ}، تَمِيلُونَ عن كل شيء وتتوجّهون فقط نحو صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" تعالى، فكونوا مستقيمين على تأليه الله تعالى وحده، فلا تعبدوا غيره ولا تتقرّبوا لغيره ولا تنسبوا فضلا لغيره... {غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ}، فلا تجعلوا معه آلهة أخرى تشترك معه تعالى في الألوهية ولا تنسبوا فضائله تعالى عليكم لغيره.

{وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ}، يقول إنّه تعالى لديه شركاء في الألوهية، {فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ}، فهو يماثل من وقع ساقطا من السماء وتأخذه الطيور بحركة سريعة أثناء وقوعه، تتعارك عليه لتلتقطه أثناء سقوطه بأظافرها لتأكله، {أَوْ}، كأنما، {تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ}، يدفعه الهواء القوي نزولا، {فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}، عميق جدا جدا.

المشرك وأثناء وقوفه أمامك تظنّ أنّه موزون وعاقل وبحالته العقلية التامّة... أمّا في الحقيقة فأفكاره المتشتتة لا تختلف عمّن تَتَخَطَّفُهُ الطيور تمزيقا بمخالبها ومناقيرها.

تصور الهواء القوي يدفعك باتجاه وَادٍ عميق جدا لتضرب الأرض منسحقا، فما هي نوعية أفكارك وأنت تزداد سرعتك وتعلم بأنّك ستتحطّم على الأرض! في مسألة تَخَطُّف الطير هناك أحوال طارئة من تناقل الطيور... وفي التشبيه بالسقوط الحالة واحدة وهي الوقوع في الفراغ كالوقوع في المجهول مع توقّع الارتطام بالأرض، فمسألة عقائدية مثل التوحيد والشرك، هي خليط من مشاعر وأفكار، وإذا استبدلتَها بحلّ معادلة رياضية أو فيزيائية، أو بالتفكير في مشروع تجاري... وأعطيتها لشخص يسقط في هاوية ويعلم أنّه سيتحطّم، فماذا سينتج عنه! طبعا لن يفيدك بأي كلام موزون، وقيمة كلامه مثل قيمة كلام مشرك واقف أمامك ويبدو لك مرتاحا مفكّرا في العقيدة، ولكن في الحقيقة كلامه فارغ وغير موزون.

(ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ{32})
{ذَلِكَ}، الذي ذكرته الآية السابقة عن فراغ كلام الشرك من أي قيمة حقيقية، وفي مقابله:

{وَمَنْ يُعَظِّمْ}، يجعل عظيما ويحترم بشدّة، {شَعَائِرَ اللَّهِ}، الطقوس الدينية التي أمر بها تعالى، والكلام عمومي وهنا الحديث عن نموذج شعائر الحجّ، عن أعمال الحجّ من إحرام وطواف وتقديم أضحية... وبالخصوص عن حرمة عبادة وشكر غيره تعالى على بهيمة الأنعام، {فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}، فهي تنبع من قلب، من أساس فكري ونفسي تقي يخشى ويتجنّب، وسياق الكلام عن المتجنبين لغضب وعقاب رَبِّهِمْ سبحانه، ولذلك يلتزمون حرفيا بأوامره تعالى.

هذه التقوى الموجّهة المحدّدة الناتجة عن تعظيم شعائره تعالى هِيَ حالة ثابتة مستقرة، معاكسة لحالة المشرك الذي لم يعظّم الشعائر الإلهية فأشرك وصار أساس فكره ونفسيته متذبذبا أو يشعر بأنّه ذاهب في المجهول إلى المهول كما وصفت الآية السابقة.

(لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ{33})
{لَكُمْ فِيهَا}، في الأنعام المُحَلَّلَة التي تُقَدِّمُونَهَا أثناء حجّكم، حين تذبحون مِعْزَاةً أو بقرة... {لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}، تنتفعون منها بالأكل منها إلى موعد محدد، لحين رحيل الحجّاج عن مِنى لمدة يومين أو ثلاثة، {ثُمَّ مَحِلُّهَا}،

مكان حلول تلك الأضاحي، وتنقلونها من مِنى حيث ذبحتموها وأكلتم منها، {إِلَى البَيْتِ العَتِيقِ}، إلى الكعبة المبنية منذ زمن بعيد.

مكان تقديم الأضحية في الحج يكون في منطقة مِنى، وقديما لم يكن فيها سكان، ويبقى الحجّاج فيها لرمي الجمرات "الحصى"... لمدة ثلاثة أيام... يوم العيد ويومين بعده، وتشير الآية هنا إلى أكلهم في هذه الأيام الثلاثة من الأضحية التي قَدَّمُوهَا، وبعدها ينقلون ما بقي منها {إِلَى البَيْتِ العَتِيقِ} حيث سيكملون إنهاء مراسم الحجّ بطواف الوداع.

لو أطلت عليك، حججتُ على ما هو متعارف عليه في زماننا حيث يَتَوَكَّلُ الآخرون بذبح الأضحية عنك، ولا ترى أضحيتك ولا تأكل منها، وحين بقينا ثلاثة أيام في مِنى لرمي الجمرات، لم نَرَ فيها أجواء الاهتمام بما تُقَدَّمُ من ذبائح، لأنَّ الجميع "عموما" لم يَرَوْا أضاحيهم أصلا! وللأسف، إنَّ الناس "عموما" صار لديهم عاداتٌ وأفكارٌ ستجعلك منبوذا لو خالفتها حتى لو قمت بما يتوافق مع دينه تعالى، ولو في مِنى انشغلت بشوي لحم من أضحيتك... لجعلوك سخرية! بينما الآيات هنا تؤكّد على أهمية تناولك من أضحيتك في مِنى ولمدة بقائك فيها حتى تشعر بنعمته تعالى عليك، ولدينا روايات عديدة عن قيام الأجيال الأولى من المسلمين بشوي اللحم والانشغال بطهيه... في مِنى.

تذكّر أن وصف البيت "الكعبة" {بِالعَتِيقِ} يشير ضمنا إلى بيوت أخرى اخترعها الناس ولم تكن محدّدة منه تعالى كبيت لعبادته، وكما ترى، من قبل في الآية 29 التي كانت نقلا لكلامه تعالى مع نبيّه إبراهيم(ع) مع وصف البيت بأنه {عَتِيقٌ}، وهذا الوصف {بِالعَتِيقِ} حصل في زمن النبي إبراهيم(ع)، لأنَّ البيت أقدم منه (ع) بكثير، ولو تساهلت تاريخيا وبدأت بمقارنة أي بيت منسوب له تعالى أو لإله اخترع الناس ألوهيته، لوجدته جديدا بالنسبة لِعِتْقِ الكعبة إلى زمن النبي إبراهيم(ع)، ناهيك عن كون البيت أعتق حتى من زمن إبراهيم(ع).

ورد في التفاسير لهذه الآية ما يعني شمول منطقة منى بتعبير "البيت العتيق"، وهذا غير سليم كما ترى إلا بتخريجات بعيدة عن الفهم الأولي من التعبير الذي يضيّق الإشارة إلى المكان إلى البيت وليس إلى منطقة البيت.

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ{ 34})

{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ}، لكل جماعة لها انتساب أساسي، حيث اشتركوا على شيء ما وكان لهم امتداد تاريخي، والكلام في الآية عن المنتسبين لتوحيده تعالى، {جَعَلْنَا}، حدّدنا لهم، {مَنْسَكًا}، عملا عباديا، {لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ}، ليستحضروا اسمه تعالى في فكرهم وقولهم، {عَلَى مَا رَزَقَهُمْ}، على الأشياء الأساسية التي أتاحها تعالى لهم، وأهمها الأكل الذي يحفظ حياتهم، {مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ}، من الحيوانات البهيمة الموصوفة بأنها نعمة لأننا نأكلها، طبعا ما حلّله تعالى منها.

أمر تعالى كل الأمم السابقة التي كانت توحّده أن تقوم بتقديم الأضاحي له تعالى لشكره على ما رزقهم من الحيوانات التي حلّل لهم أكلها.

{فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ}، لأنَّ من يملك الصفات والقدرات الفائقة فوق الجميع فهو واحد للجميع ولا ثاني أو ثالث... له، ومن صمّم ونفّذ وخلق ودبّر وتابع المخلوقات... هو إله واحد لجميع الناس، وهو نفس الإله لكل الأمم، وهو وحده الذي يجب أن تشكروه على منحكم بهيمة الأنعام كنموذج بارز عن بقية نعمه تعالى عليكم، وبنظرة على مختلف الأمم الموحدة السابقة ستجدون مَنَاسِكَ لشكره تعالى على هذه النعمة لأنه هو تعالى أمر بتلك المناسك.

{فَلَهُ}، لهذا الإله الواحد، {أَسْلِمُوا}، انْقَادُوا وأطيعوه بالتمام، {وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ}، احمل الخبر السار المفرح للمخبتين، للذين خبتوا له تعالى وشعروا وتصرّفوا على أساس أنه تعالى فوقهم وهم عبيد تحته.

قارن ما تقوله الآية مع الذين يشعرون بالضيق والانزعاج من فكرة الإسلام له تعالى لأنهم سيتقيدون بشريعته، علما أن شريعته سبحانه فيها الخير لهم في الدنيا والآخرة، ومخالفتها سوء لهم في الدنيا والآخرة، فمن يؤمن بذلك هو الكاره للسيئات والذي يشعر بالفخر والسعادة من الانتماء لإله فائق القدرات وأسمائه حسنى... ومن جانب آخر تشير له الآية هنا أنَّهُ سبحانه إلهنا الواحد، وهذا واضح جدا من تشابه ما نحن فيه، وتفهمها بشكل أوضح عندما تتذكّر أن المشركين لهم آلهة متعددة ومختلفة، أيُّ إله منهم خلق ما في الدنيا؟ وأيهم خلق الأرض، وأيهم خلق البشر، وأيهم أتاح الرزق

للبشر... أهي الآلهة التي يعبدونها في الصين؟ أم التي يعبدها العرب؟ ولا تخلط هذا السؤال مع تحديد اسم الإله، فحتى لو لم يعلم الصينيون باسم العلم "الله" المحدّد له تعالى، وما فيهم من فكر وملاحظة يرون بهما ما في الدنيا، فهذا يكفيهم للتعرّف على إله واحد لجميع خلقه سبحانه، وهذا شيء كرّره القرآن خلال كلامه مع المشركين الذين يؤمنون بأن آلهتهم خاصة بهم وللآخرين آلهة خاصة بهم... على هذا الاعتقاد كيف يفسرون تشاركهم كلّهم في الرزق المتاح لهم؟ هل إله كل جماعة هو الرازق لجماعته؟ وما معنى هذا بينما مصدر الرزق واحد من البيئة التي نعيش فيها؟

بقيت أمور، حيث إنَّ خالقنا صمّمنا مع رغبة الالتزام بمناسك، ووجّهها بالشكل السليم حيث حدّد لنا الكعبة بيتا اعتباريا لنحجّ إليه كعباده ولنعلن عن شكره على ما رزقنا، وكنموذج بارز عن ذلك شكره على الطعام الذي نرغبه ونحفظ به حياتنا، وأبرز نموذج من الرزق هو بهيمة الأنعام.

النباتيون هم وشأنهم في اختيار طعامهم، وفي استبدال اللحم بما يغذّي جسدهم... وفي رأفتهم على الحيوانات... ولكن يبقى شكرهم له تعالى على الرزق، لأنَّ كلام الآية عن الشكر على بهيمة الأنعام ما هو إلا نموذج عليه الغالب الأعم من الناس، وأمّا النباتيون المحاولون منع الآخرين من أكل اللحم، والمعلّقون على الدين المجيز لقتل الحيوانات لأكلها، فهؤلاء شطحوا في المبالغة، ووصف الآية لتلك الحيوانات بالبهيمة يتضمّن بشكل ما الردّ عليهم، وهو وصف يشير إلى فقدان عموم الحيوانات لما نتمتع به نحن من عقل، والمحللة للأكل تبدو بشكل خاص فاقدة لأشياء أكثر، وتفهم ذلك من الآية 44 من سورة الفرقان {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا}، وهو تشبيه بالأنعام من ناحية تدنّي مستوى العقل عندها، وبما يخصّ الكلام عن حلية قتلها لأكلها لأنَّ خالقنا جعلنا مسلطين عليها، وجعل فينا الالتذاذ بطعم لحمها...

الأمر الآخر مشكلة اختراع الناس للنسك، حيث تجد طقوسا للمنتمين لأي دين أو عقيدة، ولديهم جبل مقدس يزورونه، ومياه مقدسة، وقبور مقدسة، ومزارات مقدسة، وأماكن حصلت فيها معجزات لتصير مقدسة... ويصير لتلك الأماكن طقوس كالمشي حافي القدمين من مسافات بعيدة إليها، وتحضير بعض أنواع الطعام الخاصة فيها، والبخور والشموع... والترانيم والأغاني والأدعية... ولباس خاص...

لا تعتبر هذا كشيء خاص بعموم المتدينين بأي دين كان، حتى الذين يعتبرون أنفسهم متفلتين وغير تابعين لأي دين كان، لديهم نسخ مشابهة، ولديهم الحفلات والكرنفالات وألبستها الخاصة، كحفلات التنكّر والحفلات الشبابية بحركاتها الخاصة لكل نوع حفلة... وتجمعات مشاهدة الأندية الرياضية والفرق الاستعراضية أيضا بلباس خاص وطعام وشراب خاص وهتافات خاصة... وزيارة الأماكن الأثرية والمعالم التاريخية... والاحتفاظ بتذكارات...

خالقنا جعل لنا منسكا ننفّس فيه هذه الحاجات والرغبات، ووجّهه بالاتجاه المفيد لنا، ورغم ذلك ترى الناس معلّقين على منسك الحجّ بينما هم يستبدلونه بمناسك أخرى يعتبرونها اختيارية وليست دينية، بينما هي مرتبطة بصميم حياتهم وليست اختيارية كما يدّعون...

الكلام يجرّ الكلام، حيث في دينه تعالى مكان واحد للجميع، وبطقوس محددة، وواجبة مرة واحدة في العمر، ومن رغب فليكررها كلما شاء... وهذا دينه تعالى، وأمّا دين الناس المنتمين لدينه تعالى فهو مختلف، لأنهم يضيفون مناسك أخرى للدين الإلهي، ومن لم يؤدّها فإيمانه ناقص بل مشكوك فيه! حيث يعتبرون مناسكهم أعلى في الأهمية من مناسكه تعالى!

هذه طرق الشيطان لحرفنا عن كلامه تعالى بطريقة نشعر فيها بأننا مؤمنون أكثر من الآخرين عبر التزامنا وترويجنا لطقوس دينية غير الحجّ، بل ويصل الانحراف بنا إلى التقليل من أهمية منسك الحجّ! لتصير المزارات بقيمة الحجّ بل أعلى!

سبق أن لفتت السورة انتباه الجميع أن الكعبة التي في مكّة عتيقة وأعتق حتى من النبي إبراهيم(ع)، لأنها ليست للعرب ولا لأهل مكّة ولا للسعوديين ولا للمسلمين المنتمين للقرآن، بل هي لله تعالى الإله الواحد، وبالتالي فهي مناسك للجميع.

(الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{35})

{بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ}، {الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ}، فسمعوا كلاما عن أفعاله الحميدة أو عن صفاته... {وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ}، استشعروا الخوف في أساس فكرهم ونفسيتهم.

{وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ}، وهم الذين لا تفلت أعصابهم عندما يتعرضون لشيء مزعج أو ضاغط.. فلا يقولون كلاما خارج الطريق الإيماني لأنهم انفعلوا من شيء لا يناسبهم ولا يحبونه، فلا ينفعلون ويقومون بتصرفات لا تنسجم مع الإيمان بل يتصرفون في كل الظروف بشكل واعٍ ومدروس.

{وَالْمُقِيمِي}، المفعلين غير التاركين ولا المهملين، {الصَّلَاةِ}، التوجّه والإقبال، فيقومون بالحركات والكلام الذي يعبّر عن توجّههم بالعبادة له تعالى، وكلمة صلاة صارت مصطلحا دينيا يشير لحركات وكلمات محدّدة يقوم بها المؤمن عدة مرات في اليوم، وهي التي نسميها بالصلوات الخمس الواجبة يوميا.

{وَمِمَّا}، ومن الذي، {رَزَقْنَاهُمْ}، من الأشياء التي صارت معهم منّا ليسدّوا بها حاجاتهم وما يريدونه، وخصوصا ليأكلوها "أو يشتروا بها ما يأكلونه" ليحافظوا على حياتهم، {يُنْفِقُونَ}، ومن الواضح أن الكلام عن تقديمها للمحتاجين، وهذا التعبير يشمل الزكاة كضريبة قيمتها محدّدة، ويشمل الصدقة الواجبة دوما كلما كان هناك من يحتاج للمساعدة الملحّة وتستطيع مساعدته، ويشمل الصدقة المستحبّة لتحسين الأوضاع الخاصة أو العامة للآخرين...

لاحظ تكرار القرآن اختيار الصلاة والإنفاق في مختلف السور، وهنا أضافت إليهم الصبر، حيث لدينا ما يمكن أن تعتبره عملا فرديا أثره محصور بك، وهو الصلاة، ولدينا ما يمسّ حياة الآخرين وهو الإنفاق، لأنَّ دينه تعالى ليس دينا من نوعية الاعتقاد الخاص بك ولا أثر له على حياة الآخرين، بل أهمّ ما يأمرك به بعد ذكره تعالى أن تهتم بالآخرين وخاصة المحتاجين للمساعدة، وهذا شيء منتشر بكثرة في القرآن، وتجده بعبارات متنوعة من الزكاة والصدقة والإنفاق والإيتاء...

بالنسبة لسياق كلام الفقرة فالحديث عمومي عن المصلّين والمنفقين، وكنموذج عنه ما يحصل في الحجّ من توجّه نحوه تعالى ومن تقديم أضاحٍ لإنفاقها على الفقراء.

(وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{36})

{وَالْبُدْنَ}، الموصوفة بضخامة البدن "الجسد"، وهذه الكلمة لم ترد في القرآن إلا هنا، وفي كلام العرب أكثر استعمالها للجمل أو الناقة علمًا أنها كلمة عامّة واصفة للبدن الكبير فتشمل عموم الحيوانات محلّلة الأكل والضخمة كالثيران والجواميس، {جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ}، من الطقوس الدينية التي أمر بها تعالى.

{لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ}، في هذه الشعيرة الدينية التي أمر بها تعالى، وهي تقديم حيوان كبير الحجم في الحجّ لإطعام المحتاجين، لكم في هذه الشعيرة خير، شيء جيّد، حيث يأكل المحتاجون منها بكميات كبيرة، وتنالون ثوابًا كبيرًا ومغفرة على هذه الشعيرة.

نتذكّر أن الآيات هنا لا تقصد مباشرة إخبارنا عن كيفية أداء مناسك الحج أو العمرة، بل تخبرنا عن أصل تشريع وجوب الحج وسببه، وهنا تنقلنا إلى حالة يعتبرها البعض متطرفة، وهي تقديم جمل أو ناقة "أو بقرة أو ثور" كأضحية، لأنّ الواحد الكبير منها يطعم مئة شخص، وهل تقديمها كأضحية شيء مبالغ فيه؟ تجيب الآية: لا، لأنّ الذي خلق البدن كبيرة يقول لكم أن تقدّموها كأضحية إن أردتم، وعليها ثواب أكبر.

{فَاذْكُرُوا}، استحضروا في فكركم وبالتحديد في قولكم، وقولوا، {اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا}، على البدن، {صَوَافَّ}، وهي صافّة لقوائمها، "واقفة على رجليها" واذكروا اسمه تعالى عليها قبل ذبحها أو نحرها، {فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا}، وصار جنبها على الأرض، وماتت نهائيًا من بعد الذبح أو النحر، {فَكُلُوا مِنْهَا}، من لحمها، ولكم حرية الأكل على ذوقكم مشوية مقلية مالحة حارة... وجملة "وجبت جنوبها" يمكن الاستغناء عنها ولكنها أُقحمت لتعني أن لا تعطوا الهدي للمحتاجين وهو حيّ، ولا تذبحوه وتتركوه في أرضه لمن يرغب بالأخذ منه.

{وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ}، المقتنع بحاله ولم يستعط الناس ولم يطلب منهم مساعدة على أساس أنه يستطيع تدبير أموره المُعسِرة حاليًا، وعادة هو شخص لا يتحمّل نفسيًا طلب المساعدة من الناس حتى لو كان لا يستطيع شراء اللحم للأكل، {وَأَطْعِمُوا}، {الْمُعْتَرَّ}، الذي يعتري الناس ويقصدهم سواء ليخبرهم أنه بحاجة للمساعدة أو يجدهم يأكلون فيحضر إليهم حتى يدعوه ليشاركهم.

ننتبه جيدًا، نحن هنا أمام حالة تقديم أضحية من النوع الضخم التي تكفي لقرابة المئة شخص، وتلفت الآية انتباهنا لكمية الطعام الضخمة والمرغوبة المتوافرة في بدنة، كنعمة منه تعالى علينا، وقبل تقديمها وهي صواف اذكروا اسمه تعالى عليها قبل نحرها أو ذبحها... وحين تسقط كلوا منها ووزّعوا على الآخرين، وليس حصرًا على من استعطاكم وطلب منكم بل حتى على من لم يطلب منكم وكان قانعًا بحالة فقره أو مسكنته، وأيضًا أطعموه.

الفقير أو المسكين الذي تعلم بفقره وإن طلب منك حصّة من اللحم فيجب عليك إعطاؤه، والذي لم يطلب منك لأنه قانع بحاله ولا يستعطي، وهل تقول إنّه لم يطلب فلن أعطيه؟ لا، بل أقدم أنت على تقديم حصّة من اللحم له، وهذا تصوير لمشهد تكافلي تعاوني جماعي بتقاسم نعمته تعالى بين الحجّاج في منى، وسبقه في عموم مناسك الحجّ اشتراكهم جميعًا في لباس موحّد يجعلك لا تميّز الغني من الفقير...

تلاحظ التعابير القرآنية المشابهة للآية هنا عن "أكلنا" منها و"إطعام" غيرنا، وهي دائمًا إشارة إلى أننا نحن "نأكل" على ذوقنا حتى لو لم يكن ما نأكله في نظر الآخرين أنّه طعام لأنه حارّ جدًا أو مالح جدًا أو بدون ملح... ولكن عند تقديم الأكل للآخرين يكون بما هو متعارف عليه أنّه "طعام" وهو المقبول المرغوب للأكل عند عامة الناس.

كذلك، بما قلناه لكم عن تقديم البدن كأضحية وتوزيع لحمها، {سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ}، فسبحانه جعلها لكم من دون مقابل، وخلقها تعالى صالحة ومرغوبة لتأكلوها، وجعلها أليفة، وفيها كمية كبيرة من اللحم... {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، فمن المفروض ومن المتوقّع منكم أن تشكروا إلهكم على تسخير الأنعام لكم لتأكلوها، وتعبّروا عن حصولكم على شيء جيّد منه سبحانه.

سأطرح عليك شيئًا مبنيًا على مخزون ذاكرتي من الروايات والتاريخ، وهو بحاجة لتدقيق، وليكن فقط كلفت انتباه لك، حيث إنّ منطقة منى لم تكن منطقة سكنية في حين نزول هذا القرآن، والكلام هنا تكرر فيه الأمر بإطعام المحتاجين من الأضاحي، ومن الواضح أن الكلام ليس عن محتاجين من سكّان منى، ولا مخصصًا لفقراء ومساكين سكّان مكّة الذين نفترض أنهم سيقصدون منى للأكل من الأضاحي، ولا مخصصًا للحجّاج الفقراء والمساكين الذين لا يمكنهم شراء أضحية، وهؤلاء تحدّثت عنهم الآية 196 من سورة البقرة وأخبرتنا أنهم يصومون بدلًا من الهدي...

نحن أمام احتمالات عديدة مفتوحة لفقراء ومساكين يمكن إطعامهم من الأضاحي، وفي عصرنا ضمّن الناس ثمن الأضحية مع تكاليف الحجّ التي يدفعونها لمنظمي رحلات الحجّ، وحاليًا ثمن الأضحية أقل بكثير من تكاليف السفر والفندق والطعام... بينما قديمًا كانت المعزاة بثمن قطعة أرض كبيرة... وبذهاب الناس في عصرنا بالملايين إلى الحجّ مما ينتج عن ذلك ملايين الأضاحي، لدرجة أنه وبحسب معلوماتنا من الأكيد مرور سنين في التاريخ حيث كان لحم الأضاحي يتم دفنه بعد تعفّنه وذلك بسبب الإهمال وسوء التدبير...

بمراجعة التاريخ لم أجد في أدبياتنا كلامًا عن إحضار الحجّاج معهم إلى ديارهم شيئًا من الأضاحي، لا مملّحًا ولا مقدّدًا... وتجد كلامًا عن إحضارهم لماء من بئر زمزم... وتجد في طيّات النادر من الروايات إرسال لحوم من أضاحي الحجّ إلى بعض المناطق البعيدة عن مكّة...

كما ترى فهذا موضوع، ولسبب أو لآخر، لم يدخل في أدبياتنا الإسلامية كشيء له أهمية، لا قديمًا ولا حديثًا. نعم بين مدّة ومدّة نسمع اقتراحات عن تقديم الأضاحي في بلدان الحجّاج لتوزيعها على فقراء بلادهم، وذلك بدلًا من تقديمها في منى، علمًا أن هذا حلّ جيّد كما يبدو ولكنه مخالف لصريح الأمر القرآني الإلهي بتقديم الهدي في منى، فهناك إصرار من حكمة إلهية بأن تبقى المركزية للتعامل مع الأضحية في مكّة المدينة الشاملة لضاحية منى، وتبيّن لك سوء ما تعارفنا عليه من تقديم أضاحٍ لا نراها ولا نأكل منها، متجاهلين بذلك شكره تعالى على بهيمة الأنعام عمليًا عبر الأكل منها.

المشكلة في تطبيق الأمر الإلهي بالتعامل مع ملايين الأضاحي لتوزيعها على المحتاجين حول العالم بما يرضيه تعالى، عبر توزيعها لا بالسياسة وشراء الضمائر... فهذه المشكلة لا تلغي الأمر الإلهي، مثلها مثل أي مشكلة تطبيقية أخرى لدينه تعالى بسبب الفسق والنفاق، وخذ مثلًا المهر المؤجّل "المؤخّر" كضمان لحقّ الزوجة من استهتار زوجها بها من تطليقها ساعة يشاء، وما معناه إن كنّا على مستوى التطبيق نتواجه مع فسقة ومنافقين يسيئون معاملة زوجاتهم إلى أن يطلبن الطلاق متنازلات عن مهرهن! علمًا أن صريح القرآن نبّهنا من هذا، وللأسف على مستوى التطبيق ترى عموم فتاوى علماء المسلمين وقضائهم في الطلاق، يعفون الزوج السيّء المعاشرة من دفع المهر لأن الزوجة طلبت الطلاق؟! وهل نلغي المهر المؤخّر أو نصلح فتاوينا ليطال القضاء بحكمه الفاسقين والمنافقين؟ وهنا نفس الكلام عن الأضاحي، فسوء إدارتها ليس سببًا لإلغائها بل يجب الضغط على الحاكمين لتصحيح تطبيق ما أمر به تعالى، حيث لدينا كميات هائلة من الطعام والكافية لملايين الفقراء والمحتاجين حول العالم.

(لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ{37})
{لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا}، ولا بأي طريقة يستفيد سبحانه وتعالى من الأضاحي التي تقدمونها، لا من لحمها ولا من دمها، فلم يأمركم سبحانه بتقديمها له ليأكل أو يشرب منها، {وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ}، فما تقومون به ويكون تجنّبًا منكم للكفر والسوء، وهو نفسه تجنّبكم لغضبه وعقابه تعالى، وذلك عبر نموذج شكره تعالى على ما رزقكم، فهذا ما يصل إليه تعالى من أضحيتكم، التقوى، تجنّب الشرك به تعالى وإعلان الشكر له تعالى لوحده، وهذا ما يعتبره تعالى ذا قيمة من تقديم الأضحية قربةً له.

{كَذَلِكَ}، بأمره تعالى لكم بتقديم أضحية، {سَخَّرَهَا لَكُمْ}، جعل الأنعام لكم من دون أي مقابل منكم لا له تعالى ولا للأنعام، وأنتم لم تصمّموها ولم تخلقوها ولم تجعلوها مرغوبة لأكلكم... {لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ}، لتعلنوا أنّه تعالى كبير في وضعكم على الأمور الصحيحة التي توصلكم للغاية الصحيحة، وتسأل نفسك: من خلقها وأتاحها لنا لنأكلها ونتغذّى بها وجعلنا نرغب بطعمها؟ وها عبر الرسل يخبرك أنه هو تعالى أجاز لك قتلها وأكلها، وتلاحظ أنّ الآيات السابقة ركّزت على وصفها ببهيمة الأنعام لتلفت انتباهنا إلى أنّها بهيمة، حتى نلتفت للفرق بينها وبيننا، وقتلها كإنهاء لحياتها لأكلها لا يحمل معنى إنهاء حياة واحد من الناس، لأنّها بهيمة لا تفهم معنى الموت كما نفهمه نحن، وهذا موضوع فيه تفاصيل... وسبحانه حين خلقها من الأساس صمّمنا وصمّمها لأكلها... نعم نلاحظ تركيز القرآن على ذكر اسمه تعالى عند إنهاء حياتها لنتذكّر أنها حياة وأنّ من خلقها لنأكلها أجاز لنا إنهاء حياتها.

{وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ}، احمل الخبر السار المفرح للذين يقومون بأعمال حسنة جيّدة، فمن قدّر نعمته تعالى عليه بتسخير الأنعام، وقدّمها وأطعمها للقانعين والمعترين ويكبره تعالى على هذه الهداية... فهذه أعمال حسنة قام بها، فاحمل له الخبر المفرح عبر هذا القرآن، ولم تذكر الآية ما هو الخبر، ولكنه معروف، حيث سينال هذا المحسن ثوابًا ومغفرة، وعمليًا هي جنّة خالدة.

تذكّر دائمًا أنّ كلمة "محسن" ومشتقاتها هي وصف لعموم من قام بعمل حسن، أمّا التنازل عن حقّك للآخرين أو منحهم ما لا يستحقون أو التفضّل عليهم... فهو من تطبيقات الاتّصاف بالعمل الحسن، وليست كلمة محسن محسنين إحسان... مخصصة لهذه العناوين.

إلى هنا انتهت السورة من توضيح سبب تشريعه تعالى لمناسك الحج، وأنها ليست اختراعًا ولا تراثًا عربيًا، بل شعائر إلهية ممتدة في جذورها لآلاف السنين، ولا يحق لأي إنسان منع الآخرين من أداء هذه الشعيرة الإلهية، فكيف إن كان المشرك يمنع الموحّدين من هذه المناسك التي وضعها تعالى تحت عنوان توحيده!

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ{38})
{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ}، يردّ الأعداء والضرر، يحامي، {عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا}، عن الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين الإلهي، {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ}، كل من يقوم بالخيانة ولم يعلن أنه لن يلتزم بالاتفاق أو لن يقوم بما هو متوقّع منه، وخالف ذلك علمًا أنه مفروض منه الالتزام، وهنا الكلام عن خيانة عبادة غيره تعالى في بيته سبحانه! وتقديم

الأضاحي شكرًا لغيره تعالى، فهذه الخيانة لا يحبّها تعالى، وفوق كل هذا، يمنعون المؤمنين الموحّدين من الحجّ ومن تقديم الأضاحي لله تعالى! ولا يحبّ سبحانه كل، {كَفُورٍ}، كل منكر، وهنا الكلام عن منكر لا يعتقد بتوحيد الله تعالى.

لاحظ الكلام عن {خَوَّانٍ كَفُورٍ} "خائن كافر"، وهناك من آمن، وسبحانه يدافع عمّن آمن ولا يحب "كلّ" خوان كفور بدون أي استثناء، فسيحصل "بل حصل" صدام حتمي بين الخطّين، وكل الآيات في الفقرة السابقة كانت ترينا اصطدام الكفّار بالعقيدة والشريعة الإلهية عبر ممارساتهم المخالفة لأوامره تعالى في الحج والأضحية، وفي زمن النبي محمّد(ع) حصل صدام بين الكفار الخونة مع المؤمنين حين منعوا المؤمنين من الحج، وتعلن الآية هنا عن الدعم الإلهي للمؤمنين وسترى ذلك فيما سيأتي من السورة.

ضع في بالك في عموم ما ورد في القرآن أنه تعالى لا يحبّه، وردت حيث لا داعي للكلام القاسي، وخذ مثلًا كلامك معي حيث تريد تحذيري وتنبيهي وتقول: سأكسر عظامك لو فعلت كذا وكذا... فهذه نبرة عالية لا مبرر لها لأنك تعلم أني حاليًا لست ناويًا لفعل السوء، والجملة الأنسب: لا أحب أن تفعل كذا وكذا... وعلى هذا المفهوم جاءت الآيات التي وجّهت كلامها مع المؤمنين مستعملةً عبارة مشابهة لعبارة "الله يحب أو لا يحب". والكلام هنا في الآية عن كفّار يؤذّون مناسك الحجّ، وهذا هو الجانب الإيجابي الذي بسببه جرى استعمال توصيف فيه شيء من الطراوة معهم.

بقي شيء من الفضول، ما يقولونه عن إعجاز تكرّر بعض كلمات القرآن بعدد مُلفت، كقولهم عن تكرار كلمة ليل 12 مرة وكلمة نهار 12 مرة... تتبعتُ غالبية الكلمات التي قالوها ووجدت غالبية كلامهم كذبًا إلا في أقل من عشر كلمات، ومما تحققت وتأكدت منه كلمة شهر بالمفرد "شهر، شهرًا" حيث تكررت 12 مرة، وتكررت كلمة شهر بالمثنى "شهرين" مرتين فقط. كلمة "رجل" بالمفرد تكررت 24 مرة، وكلمة "امرأة، امرأت" أيضًا تكررت 24 مرة. كلمة "يأمرون" تكررت 7 مرات، وكلمة "ينهون" أيضًا تكررت 7 مرات. كلمة "الخبيث" بالمفرد تكررت 7 مرات، وكلمة "الطيب" بالمفرد تكررت 7 مرات. وهناك كلمات أخرى فيها الكثير من التراخي والاستنسابية بحيث يلغون كلمة أو كلمات لسبب غير وجيه ويدّعون أن الأعداد متساوية كقولهم عن تكرار كلمة ملائكة والشيطان.

الغريب أن الحالة الوحيدة الصادقة بالتمام والوضوح ليست منتشرة في مقالاتهم وكتبهم! فعلًا تكررت في القرآن جملة "الله يحب" 16 مرة، وجملة "الله لا يحب" 16 مرّة.

لكن، هل هذا يعني أي شيء؟ لا، لأنه لا يحتاج القرآن لخزعبلات من هذا النوع ليصير له قيمة أو لنؤمن بأنه من مصدر إلهي، فما فيه من حقّ وصلاح هو قيمته.

(أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ {39})
{أُذِنَ}، أعطيناهم إذننا وسمحنا، {لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ}، للذين يقوم الآخرون بمحاولة إنهاء حياتهم، طبعًا أعطيناهم الإذن بقتال من يريد قتلهم، {بِأَنَّهُمْ}، بسبب أنهم، {ظُلِمُوا}، صيغة فعل مبني للمجهول، الآخرون ظلموا المؤمنين، والآخرون لم يكن معهم حقّ فيما يفعلونه مع المؤمنين، ولم يعاملوهم بالعدل والإنصاف وظلمًا قاتلوا المؤمنين ولذلك سمحنا للمؤمنين أن يقاتلوهم، {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}، سبحانه قادر على تحقيق ما يريده المؤمنون ممن ظلمهم وقاتلهم.

هذا الإذن بالقتال عامّ لكل التاريخ، من السابق إلى ما بعد الحالي، لأنّ الآية لا تتحدّث بالخصوص عن زمن النبي محمّد(ع)، ونلاحظ آيات القرآن التي تشبه آيتنا هنا، والتي لها علاقة بما حدث في عصر النبي محمد(ع)، وهنا كنموذج ترى أهل مكّة المشركين منعوا النبي(ع) والمؤمنين من الحج، لأنّ الآيات تتحدّث بشكل عام وليست محصورة بما حدث في حينها، ولو كنت جاهلًا بأخبار حوادث بداية الإسلام في عهد النبي محمد(ع)، فلن تجد أي مشكلة في فهم الآيات على عموميتها، لأن القرآن اعتبر ما جرى في عهد النبي محمد(ع) نموذجًا عمّا جرى ويجري مع المؤمنين على مرّ التاريخ، وتحدّث بشكل عام حتى لا يكون القرآن كتاب تأريخ لحياة النبي محمّد(ع).

ننتبه جيّدًا لطرق التعابير القرآنية الدقيقة جدًا جدًا، {بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا}، ولو كان المؤمنون ارتكبوا الظلم، فعندها لَمَا حصلوا على الإذن الإلهي بالقتال، ولَمَا حصلوا على النصر الإلهي، بل العكس سيغضب تعالى عليهم إن كانوا هم الظالمين.

لاحظ أيضًا دقّة التعبير بـ: {عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}. لأنّ سبحانه لم يقرّر نصرهم دائمًا، إذ نصره تعالى متعلّق بإيمانهم وسلوكهم، وسبحانه لم ينصرهم في معركة أُحُد لأسباب مفصّلة بإسهاب في سورة آل عمران من الآية 121 وما بعدها.

للدقّة البالغة استعملت الآية تعبيرًا يشير إلى الإذن بالقتال وليس عموم وجوب القتال، لأنّ هناك ظروفًا تمنع المؤمنين من قتال عدوّهم وتضطرّهم للمهادنة معه إذا كان عدد عدوّهم أكبر بكثير وهو مجهّز بأسلحة عاتية ولا مجال للمناورة معه... لدينا إذن بالقتال ويصير واجبًا إن كانت الظروف موائمة... ونصرهم ليس محسومًا إلا إذا كانت فيهم الصفات اللائقة بالنصر الإلهي.

لم توجّه الآية كلامها نحو المؤمنين الحقيقيين من الأتقياء فقط، لا، بل لعموم من آمن بدينه تعالى يتوجّه الكلام، ولنقل إنّه مؤمن بدينه تعالى ولكنه لا يصلّي أو يتهاون في صلاته... وهو يعلم بأن هذا خطأ ولكنه يتهاون... هذا من الذين آمنوا بشكل جزئي وله عقاب على سيّئاته، وإن ترك قتال الأعداء فهذا ذنب يضاف إلى ذنوبه السابقة...

بقي شيء، هنا وهناك تجد اتهامات باطلة عن هذا القرآن حيث يصفونه بالدموي الآمر بقتل الأبرياء... متجاهلين عن قصد معاني جمله، وقاطعين لها عن سياقها لتبدو إجراميةً، وعن قصد يدمجون كلام القرآن مع سلوكيات إجرامية يقوم بها بعض المجرمين من المسلمين ليبدو القرآن ككتاب دفع هؤلاء إلى الإجرام.

خذ الآيات هنا كنموذج عن أسباب أمره تعالى للمؤمنين بالقتال، وتوسّع من هذا الفهم لأي كلام قرآني عن قتال الآخرين لترى الفرق الهائل بين ما يقولونه وبين ما تعتقد به وبين ما يقوله القرآن، وبشكل مباشر وبعبارة صريحة أكرّر لك مفهومًا قرآنيًا واضحًا جدًا: لا قتال إلا ضد من قاتلك، طالما هو مسالم بطبيعته ولن يعتدي عليك مهما كانت الظروف، فلا سبيل لك عليه حتى لو كان كافرًا. وراجع في دراستنا هذه أي آية يخطر ببالك أنها تخالف ما أقوله لترى أنك مشحون بتراث ديني ثقافي لا يستند إلى قرآنه تعالى، وراجع سورة التوبة وسورة الممتحنة وسترى فرقًا عجبًا بين كلامه تعالى من جهة وبين فتاوى وممارسات تحت اسم دينه تعالى من جهة أخرى، وبالمختصر ترى ذلك واضحًا في الآية 8 من سورة الممتحنة {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

أيضًا، لتكن الآيات هنا نموذجًا تضعه في بالك دائمًا حين تقرأ كلام الإله سبحانه، رغم قدراته الفائقة سبحانه يتكلّم معنا بشفافية، لأنّ القتل عمل سيّء، ويبقى توصيفه سيّئًا تحت أي ظرف كان، ولكنه تعالى يسمح به ويعفو عن القاتل في حالات خاصة جدًا جدًا، وتجد عموم كلامه تعالى في قرآنه ملصقًا بتبريرات لأحكامه، وفيما سبق قرأت عن سبب أمره سبحانه لك بالحجّ، وهنا ترى سبب إذنه لك بالقتال لأنهم قاتلوك... فضع هذا دائمًا في بالك وسترى أنه تعالى لم يقل أي شيء من دون تبريراته أو أدلته... وبعض الأحيان تكون واضحة جدًا، وبعض الأحيان ورغم وضوح العبارات لا نراها لأننا لا نريد أن نراها، وأحيلك لنموذج بارز الشفافية في الآية 219 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا...} حيث فيهما منافع لم يتجاهلها سبحانه، بل برّر لحرمتهما بالضرر الكبير منهما، وهنا برّر سبحانه إذنه للمؤمنين بالقتال لأن الآخرين قاتلوهم، ولأن الآخرين كانوا ظالمين حين قاتلوا المؤمنين، ولو كان المؤمنون هم المعتدين، والكافرون لم يريدوا أصلًا قتالهم، فعندها تكون حرب "المؤمنين" بلا غطاء إلهي، بل هم في هذه الحالة مجرمون قَتَلَةٌ لأنفس بريئة وجزاؤهم الخلود في جهنّم.

(الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ {40})
أنواع الظلم الذي تعرّض له المؤمنون من الذين يقاتلونهم:

{الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم}، تمّ طردهم من الأماكن التي كانت تدور فيها شؤون حياتهم، من بيوتهم وأملاكهم ودكاكينهم وبساتينهم... {بِغَيْرِ حَقٍّ}، حيث طردوهم وهم لم يقوموا بأعمال سيئة تدينهم، ولم يعتدوا على الناس... {إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، هو، {اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز. حيث تمّ طردهم فقط لأنهم قالوا إنّ الله تعالى ربهم ولا يعترفون بالآلهة الأخرى، فهل هذه جريمة يستحقون عليها طردهم من ديارهم؟! فلو

كان المؤمنون سرقوا أو اعتدوا أو قتلوا... لفهمنا أن الذي طردهم كان لديه سبب وجيه، ولكن يطردونهم لأنهم موحدون لله تعالى!

{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ}، "الناس يتدافعون، فهذا يدفع ذاك، وأناس تدفع أناساً" فلولا دفع ردّ صدّ الفساد من بعض الناس بقتال المؤمنين للفاسدين، {لَّهُدِّمَتْ}، لكانت تدمّرت، {صَوَامِعُ}، جمع صومعة وهي اسم لمكان العبادة البعيد عن الناس، ولا يزال إلى الآن مستعملا عند المسيحيين، ولهدمت {بِيَعٌ}، ويبدو من القواميس أنها اسم لأماكن العبادة عند اليهود، ولم يعد هذا الاسم شائعا الآن بين العرب وتشيع بدله كلمة "كنيست"، ولهدمت {صَلَوَاتٌ}، أماكن عامة للتوجّه إلى الله تعالى للعبادة، كمصليات وهي بقع على الأرض أو غرف مخصصة للصلاة... ولهدمت {مَسَاجِدُ}، أماكن محدّدة للسجود لله تعالى، وحاليا صارت كلمة مسجد حصرا لأماكن العبادة عند المسلمين، مع أنها في القرآن كلمة عامّة تشمل كل أماكن توحيد الله تعالى عبر التعبير بالحركات التي تتضمّن سجوداً.

{يُذْكَرُ فِيهَا}، في تلك الأماكن حيث يتم استحضار، {اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً}، فهي أماكن عامّة للعبادة يأتيها أناس كثيرون فيصير فيها ذكر كثير لاسم الله تعالى، وكل هذه الأماكن الخاصة بعبادته تعالى لكانت تهدّمت لولا دفع الله تعالى الكفّار عن تلك الأماكن بالمؤمنين.

الجملة هنا ليست على معنى حاجته تعالى لمن يعبده، لا، بل على معنى حاجتنا نحن لعبادته تعالى، وهذا ما ستراه من وصفه تعالى بالعزيز. لأجل مصلحتنا أمر تعالى المؤمنين بـالدفاع عن حرية تدينهم وبقاء أماكن عبادته تعالى عامرة، فلو غلبهم الكفّار لصاروا هم وغيرهم مجبورين على الكفر بالحقّ وفعل السوء، ونتيجة ذلك العذاب الخالد في جهنّم.

{وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ}، وكما لاحظت، من ناحية نرى أنه تعالى الإله الأحد فلا إله غيره وهو الإله الواحد للجميع، ومنعنا سبحانه من الشرك به، وبعض الناس التزموا بذلك، مما سبّب لهم إيمانهم أن يطردهم الكفار من بيوتهم وأملاكهم... فلو لم يأذن سبحانه للمؤمنين بمقاتلة الكفّار، لما بقي أي مكان لعبادة الله تعالى، ولهدم الكفار كل أماكن العبادة لله تعالى، وهكذا يعتبر سبحانه قتال المؤمنين للكفار نصرةً له تعالى، ينصرون الله تعالى، ولذلك قرّر أن ينصر من ينصره، حيث سيحقّق سبحانه للمؤمنين ما يريدونه من الكفّار.

{إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ}، ليس ضعيفا، بل يمكنه بكل سهولة نصر المؤمنين، والله، {عَزِيزٌ}، منفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض إرادة الآخرين عليه... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره.... وأصلا لا يحتاج لعبادتنا، ولا لأماكن العبادة التي نعبده فيها، ولا لنصرنا لدينه ولا لـأي مساعدة من أحد ما لينصر المؤمنين، ولا هم الكفّار يفرضون عليه تعالى انتصار كفرهم...

تفلسف أحدهم واخترع من تخريفاته قائلا إنّ كلمة صلوات هنا ليست عربية بل من أصل سرياني وعبري لكلمة "ثالوطا وصالوطا صالوثا"، ولا أدري ما معنى هذا الاختراع! ولماذا! طالما هي نفسها الكلمة جمع "الصلاة" على معنى التوجّه بالعبادة إليه تعالى تصير بالعربية صلوات! فهي نفس الكلمة في السريانية والعربية والآرامية والعبرية! لـماذا هنا صارت عند بعض المتذاكين "صالوث"! حيث هناك من المسلمين من يصرّ على إبراز اللغة العربية كونها أرقى من كل اللغات "برأيهم"، وأنها لغة أهل الجنّة "برأيهم"، وبرأيهم إنّ العربية هي لغة القرآن الذي لم يكن بالإمكان نزوله بلغة أخرى لما تتميّز به اللغة العربية من متانة وقوّة التعبير وكثرة المفردات... "برأيهم"، يعني هي لغة بشكل ما: مقدسة "برأيهم"، وهذا كلام فارغ، فلا توجد لغة مقدسة ولا مميزة عنده تعالى، إذ إنّ كتب الأنبياء السابقين كانت إلهية المصدر، وكانت بلغات أولئك الأنبياء، وسبحانه لم يكلّم نبيّه موسى(ع) بالعربية، فهل تلك اللغة مقدسة!

يقابله كلام مضاد بالتمام فارغ مثله، حيث يقول الآخرون إنّ أكثر كلمات اللغة العربية من أصل سرياني وآرامي وعبري وفارسي وحبشي ونبطي ورومي... فهي لغة ضعيفة، وحتى رسم كلماتها "كتابتها" استمدتها من السريانية والآرامية، وبحسب ما يقولون لـضعف هذه اللغة نجد في القرآن الكثير الكثير من الكلمات من لغات أخرى... وهذا كلام فارغ أيضا، وأي اطلاع بسيط على علم "الألسنية" يبيّن لك أن كل اللغات بدون أي استثناء، لم تأت من الحائط ولا فجأة ولا من فراغ، بل كل اللغات تشاركت وتشابكت وأغنت بعضها البعض بالكلمات حتى صارت على ما هي عليه الآن.

من المضحك ما نجده في كتب بعض السريان وبعض من تأثّر بهم، عندما يقولون عن كلمة عربية إنّ أصلها سرياني! ومن دون أن يقدموا أي مستند سرياني مكتوب يسبق القرآن العربي! فما هذه السخافة! علما أن كلتا اللغتين العربية والسريانية لغتان "كلهجتين" من الآرامية القديمة على اعتبارها اللغة الأم، وفي دراسات أخرى أحدث فإنّ العربية من فرع ما قبل الآرامية، والسريانية من جذور آرامية. ويبدو أن المسألة ليست بهذه الحديّة لأنّ الآرامية عنوان مناسب للغة التي كانت دارجة في عموم المنطقة التي اختلف أهلها باللهجات... والسريانية درجت بين الفرات والبحر المتوسط، والعربية درجت في ما يسمّى شبه الجزيرة العربية...

يتحمّل الكثير من علماء المسلمين مسؤولية نقل الكلام السخيف مثلما نقلوا قراءة بعضهم لكلمة صلوات هنا أثناء تلاوتهم للقرآن بشكل مختلف وباللغة العبرية! صالوثا! وبدل أن ينبّهوا المسلمين من فظاعة مثل هذه الأخطاء، قاموا بنشرها على أنها قراءة معترف بها للقرآن! وهم يدّعون أنهم من العلماء، علماء المسلمين!

(الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ {41})
{الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ}، هؤلاء المؤمنون إن قرر سبحانه جعلهم متمكنين مسيطرين بثبات ولهم سلطة في الأرض، فلا يكونون تحت سلطة الكفّار، ويمكنهم فعل ما يريدون بحريّة، عندها، {أَقَامُوا}، فعّلوا ولم يعطّلوا أو يهملوا، {الصَّلَاةَ}، التوجّه والإقبال، القيام بالحركات والكلمات التي تعبّر عن عبادة الله تعالى لمرّاتٍ محدّدة في اليوم... ولم يتركوها أو يهملوها.

{وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}، حيث ما يعقب وما يحصل بعد هذه الأمور التي يقوم بها المؤمنون من صلاة وزكاة... لن يكون الفراغ ولا شيء بعده، بل عاقبتها وما سيحصل بعدها فهو لله تعالى، ومعلوم أنه تعالى سيعطي الثواب عليها، وسيغفر لمن التزم بها.

إذن، الدعم الإلهي يحصل عليه المؤمنون لهذا السبب، لأنهم سيقيمون الصلاة... وينهون عن المنكر...

{وَآتَوُا الزَّكَاةَ}، على معنى جعلوها عند من يوزّعها أو وزّعوها بحسب ما أمر سبحانه، وكلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، حيث تشير لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكيةٌ، مالٌ زاكٍ، طعامٌ زاكٍ..."، ومنذ القدم صارت مصطلحا دينيا يشير إلى دفع نسبة محدّدة من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ}...، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، حيث يدفع منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة ...{وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ}...، لتكون نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

{وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ}، حيث أمروا الآخرين بالقيام بما هو متعارف عليه أنه حسن بين المتدينين العقلاء ويتماشى مع دينه تعالى... {وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ}، حيث يأمرون الآخرين أن يتركوا نهائيا وبلا عودة الأعمال والأقوال المنكرة أي التي لا تطابق ما لديهم من معرفة للأمور الصالحة الحسنة، لأنها التي ينكرها المتدينون العقلاء لأنها سيئة، وهي نفسها الأعمال والأقوال التي يحرّمها الدين الإلهي.

المنكر من مقابلته مع "عرف معرفة" يعطي معنى حصول صورة أو مفهوم ونفي تطابقه مع ما لديك، وهو عموم ما ليس معروفا على الوجه المطروح، كرفض لتصنيفه.

سؤال: هل تمدح الآية هنا كل المهاجرين الذين هاجروا مع النبي محمد(ع) من مكة إلى يثرب؟ أم تمدحهم مع الأنصار؟ أم تقصد الخلفاء المسلمين الأربعة الأوائل؟ أم تقصد واحدا منهم؟ حيث دائما نجد في غالبية التفاسير تعليقات من هذه الأنواع حول الغالب الأعمّ لآيات القرآن لتحديد شخص أو أشخاص تقصدهم الآيات، علما أن السورة وكما ترى، أرادت أن تكون عامة في منطقها لتكون شاملة لكل زمن تتكرر فيه نفس الظروف، فلا كل المهاجرين معصومون

أتقياء، ولا كلّهم فسّاق إلا القليل منهم... فهذه مبالغة غير مقبولة وتلك مبالغة غير مقبولة، والتعصّب المذهبي أعمى القلوب حتى نطقت بتفاسير عصبية لم يقلها القرآن ولم يشر إليها، وأماتوا ما يقصده القرآن كرامة لنصرة طوائفهم ومذاهبهم! حيث بعضهم جعل الكلّ معصومين، وآخرون جعلوا القلّة معصومين والبقية فُسَّاقاً!

(وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ{42})
{وَإِن يُكَذِّبُوكَ}، إذا قالوا عما تقوله لهم أيها النبي محمد(ع) عن الدين الإلهي بأنه كذب وليس صحيحاً، {فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الدين الإلهي وينتمي لجماعتهم النبي نوح(ع)، وقوم {عَادٍ}، الذين كان نبيّهم هوداً(ع)، وقوم {ثَمُودَ}، الذين كان نبيّهم صالحاً(ع). وهذه أقوام معلوم خبرها بين الناس ويضربها القرآن كنماذج عن مكذبين للرسل نالهم عذاب هنا في الدنيا، ومن بعد نزول القرآن تقوّمت التفاصيل عن حقيقة أهم ما جرى مع هذه الأقوام، وصارت قصصهم مشهورة.

يعني، أنت لست أول رسول يكذّبه الناس، وقومك ليسوا أول قوم يكذبون الرسل، فخذ نماذج من التاريخ من آلاف السنين من زمن النبي نوح(ع) وقبيلتي عاد وثمود الذين كذّبوا الرسل، ومعلوم أن تكذيبهم كان له عاقبة سيئة حيث تعرضوا لعذاب هنا في الدنيا كنموذج عن عقابه تعالى للكافرين أمثالهم في الآخرة.

يعني الكلام هنا كخبر لقومك ولمن بعدهم أن تكذيب الرسل له عواقب سيئة معلومة...

(وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ{43})
{وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ}، والجماعة التي ينتمي لجماعتها النبي إبراهيم(ع)، أيضا كذّبوه، {وَقَوْمُ لُوطٍ}، أيضا كذّبوه.

في الأساس ولد هذان النبيان بين نفس القوم الذين حاولوا إحراق النبي إبراهيم(ع)، وهؤلاء هم القوم الذين كذّبوا النبي إبراهيم(ع)، وفيما بعد هاجرا وعاش النبي لوط (ع) بعيداً عن النبي إبراهيم(ع) في القرية التي كانت تأتي الفواحش، وكذّبوه. ولذلك فصلت الآية بين النبيين بتكرار كلمة "قوم" للدقة التي تشير لقومين لكل نبي.

(وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ{44})
{وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ}، الذين كانوا مع بعض في قرية مدين ومعلوم أن نبيّها النبي شعيب(ع) حيث إنهم أيضا كذّبوا رسولهم ومعلوم أن مشكلتهم كانت الغشّ...

{وَكُذِّبَ مُوسَىٰ}، بالضمّة على الكاف فهو فعل مبني للمجهول، حيث إنّ أحداً ما كذّب النبي موسى(ع)، ومعلوم أن فرعون وقومه كذّبوه.

كما ترى عبر التاريخ البشري حصل العديد من التكذيب للرسل، {فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ}، حيث أعطى سبحانه زيادة زمنية للمنكرين لدينه المكذّبين لرسله ولم يعذّبهم على الفور، {ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ}، ولم أتركهم على راحتهم، حيث بعد المهلة أصبتهم بعذاب دنيوي، {فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ}؟ فالموصوف بالنكر وهو الشيء الذي لا يتطابق مع صورة الخير التي في بالهم وهو العذاب، أخذتهم به، فكيف تراه؟ ماذا تقول عنه؟ ما رأيك بالعذاب الذي فعلناه بهم؟

المنكر من مقابلته مع "عرف معرفة" يعطي معنى حصول صورة أو مفهوم ونفي تطابقه مع ما لديك، فهو عموم ما ليس معروفاً على الوجه المطروح، كرفض لتصنيفه. وهنا الكلام عن عذاب شديد لم يكن يعرفه الذين وقعوا فيه.

عبر التاريخ لم يترك سبحانه تكذيب رسله يمر بلا عقاب، فليكفر المعاصرون لنزول هذا القرآن ومن سيأتي بعدهم، حيث ضرب سبحانه لكم نماذج عمّن كفر قبلكم، فكيف ترون عقابه تعالى لمن كفر؟ فهل أنتم مستعدون لنزول العقاب عليكم؟ وأنت أيها الرسول(ع) وأيها المؤمن لا تظنّ بأننا نترك الكفار على راحتهم هنا في الدنيا ليفعلوا ما يحلو لهم، لا، حيث في الوقت الذي نراه مناسباً نضربهم بعذاب يستحقونه كنموذج للآخرين عن عذاب الآخرة.

بقي شيء، طالما كرّر القرآن أسماء هذه الأقوام، والسبب أنها معروفة بين الناس بشكل سطحي في البيئة التي نزل فيها القرآن، فاختار نماذج قريبة من الفهم لمن يسمع القرآن، ولكنه من جهة ثانية أكّد مراراً أنهم مجرد نماذج بارزة تحمل قصصهم الكثير من العبر، فهي شبه جامعة لكل ما يكفي للاعتبار به، وهناك أقوام آخرون أهلكهم تعالى ولكنهم ولسبب أو لآخر لم يشتهروا، وسترى ذلك من الآية التالية، وعلى كلّ حال فهذا القرآن ليس كتاب تاريخ ليذكر كل من عذّبهم تعالى هنا في الدنيا، بل كتاب هداية حيث اكتفى بذكر قصص هذه الأقوام لأن قصصهم تضمّنت العبرة المطلوبة للهداية.

(فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ{45})
{فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا}؟ مثل أي مجتمع من الناس، أهلكناها، استنفدنا حياتها، أمتناها، {وَهِيَ ظَالِمَةٌ}، حيث لم يكن معها حقّ فيما فعلته، ولم تكن منصفة عادلة حين كذّبت الرسل، {فَهِيَ}، حيث إنّ القرية التي أهلكناها صارت، {خَاوِيَةٌ}، فارغة من داخلها، {عَلَىٰ عُرُوشِهَا}، على ما فوقها، لأنّ العروش فوق ومن تحتها صار فراغٌ فهي خاوية، والتصوير لمشهد مكان بذل فيه القوم جهداً لصنع عروش، كعمارات وبساتين معروشة... فهل يتركها من بذل جهداً في تعريشها؟ {وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ}، حيث فيها آبار ماء، وحفروا فيها باذلين الجهد لاستخراج الماء، ولكن حاليا لا أحد يستعملها، {وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ}، ومن سياق الكلام تعلم أنه قصر مبني ولا يزال بحالة جيدة ولكنه خال من السكان. فهل من عادة الناس تركهم السكن في قصر! لا، وهل من عادة الناس تركهم لمكان فيه ماء! لا. لذا اختارت الآية الإشارة إلى حالة ما كنموذج عن قرية ما وبقي فيها قصر مشيد لم يتهدّم ولكنه صار بلا سكان لأنه تعالى أهلكهم.

ضع في بالك دائماً أن القرآن افترض فهمك لكلامه كعاقل يفهم من سياق الكلام وأن كلامه نماذج، حيث ليست كل القرى مبنية من قصور، وليست كل القرى فيها قصر "واحد"، وليست كل القرى التي نزل عليها العذاب بقي فيها قصر مشيد... لأنّ هذا فهم ساذج لكلامه تعالى، بل اختارت السورة نموذجاً واضحاً فاقعاً لتلفت انتباهنا له، فما معنى وجود مكان فيه بيوت وصالحة للسكن وفيه بئر وفيه قصر، وليس فيها أحد؟! ألا يدلّك هذا على عذاب إلهي ضرب من كان فيها؟ وكما ترى فإنّ الكلام عن نموذج، حيث ترى بقعة أرض فيها آثار بيوت وليس فيها ماء، فلن تستغرب إن هجرها أهلها، ولكن حين ترى بئراً فيه ماء وبجانبه قصر فستتساءل عن سبب خلوّه من السكان، وخذ مثلاً تقريبياً عن ذلك قصور الفراعنة قرب نهر النيل، فمن الواضح أن هلاكاً حصل لهم وإلا لبقي حكّامهم يجددون القصور ويعيشون فيها...

بعبارة أخرى فإنّ العذاب في الدنيا للمكذبين للرسل حصل في السابق وفعلناه وبقيت آثار يراها الناس عن بعض تلك القرى التي أهلكناها، وأخبرناكم عبر هذا القرآن عن نماذج أهلكناها وصارت خاوية، فلا تنسوا هذا التهديد الواضح لمن كذّب الرسل.

تذكّر دائماً أننا الآن نقول قرية عن بلدة في الريف، ومدينة عن المساكن الكثيرة جدا، ولكن كلمة قرية معناها الأساسي عند العرب هو: أي مكان لمجتمع من الناس يعيشون مع بعض، سواء أكان عددهم قليلاً أو كثيراً، سواء أكانوا في العراء أو في آلاف البنايات... فكلهم اسمهم: قرية. وبهذا المعنى استعملها القرآن.

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ{46})
{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ}؟ الكفّار الذين كذّبوا الرسل ورفضوا هذا الدين الإلهي، ألم يمشوا وَيَنْتَقِلُوا في الأرض ليروا نماذج عن القرى الخاوية؟ {فَتَكُونَ لَهُمْ}، للكفّار، {قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا} !؟ أليس لديهم في أساس فكرهم ومشاعرهم ما يجعلهم يشعرون ويفكرون حين يرون القرى الخاوية، فَيَعْقِلُونَ وَيَتَفَاعَلُ عقلهم "استيعابهم" مع هذه المشاهد لينتبهوا أنها حصلت من عقاب إلهي ويمكن أن يتكرر ليصيبهم هم أنفسهم سواء في الدنيا أو الآخرة؟!

أو يكون للكفار، {آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا}؟! فإن لم يروا بأعينهم القرى الخاوية فهم بالتأكيد سمعوا عنها من الناس الذين رَأَوْهَا، وَطَالَمَا سمعوا بوجود قرى خاوية من كوارث حصلت معهم، ألم يفكّروا بأن العذاب الإلهي هنا في الدنيا يُصِيبُهُمْ هم أيضا؟!

حسن، البَعْضُ رأوا القرى، وآخرون سمعوا بها ولكن لم يتراجعوا عن كفرهم!

{فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ}، فالقدرة على فهم ووعي الصورة تبقى سليمة، لِأَنَّهُمْ يرون أمامهم وَلَيْسَتِ المشكلة في عيونهم ولا في دخول الصورة إلى دماغهم، والكلام عمّا أمامهم من قرى أهلكها تعالى، {وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}، لِأَنَّنَا في صدرنا نشعر بالضيق وَالِانْشِرَاحِ والسعادة وَالِانْقِبَاضِ، وَلَدَيْنَا حالة التفاعل مع ما يصلنا عبر الحواس وما يحصل معنا، وهذا هو معنى التعبير بالصدر، لِأَنَّهُ تفاعلنا، ولدينا مركز للفكر والنفسية وهذا هو معنى كلمة قلب، المُؤْمِنُ يرى القرى الخاوية بعينيه فَيُحَلِّلُ الصورة بقلبه، بفكره ونفسيته، ويتفاعل مع المشهد، في صدره، أمّا هؤلاء فليست المشكلة في عيونهم ولا آذَانِهِمْ حَيْثُ رأوا أو سمعوا عن القرى الخاوية، ولكن قلوبهم التي في صدورهم، أَسَاسُ فكرهم ونفسيتهم حيث يتفاعلون مع ما يصلهم، هُوَ أعمى، لا يتفاعل مع هذه المشاهد والأخبار.

ننتبه جيّدا، فالقلب كاسم للعضلة التي تضخ الدم وهي في الصدر، لَيْسَ هُوَ المَقْصُودَ هنا، فكلمة قلب بمعناها العامّ عند العرب تعني: أساس الشيء وما هو مركزي فيه. وبذلك تشمل عضلة ضخّ الدم، وأساس فكر ونفسية الإنسان، وما يجعل المحرّك يعمل، وما يجعل المفاعل النووي يعمل... ولم يتساهل القرآن في استعمالها في كلامه لِتَخْتَلِطَ مع كلمات أخرى قريبة بالمعنى منها، حَيْثُ فصل وحدّد القلب عن اللب وعن الصدر وعن العقل... حين استعملها فيما يخصّ الإنسان وَصَارَتْ تشير حصرا لأساس الفكر والنفسية.

بحسب اطلاعي، غَالِبِيَّةُ اللغات تستعمل تعبير كلمة "قلب" للدلالة على مركز الشعور والأحاسيس، حَيْثُ نقول: أحبك من قلبي. قلبي لم يهتف له. قلبي مُتْعَبٌ من شدة الهم. قلبي أَعْمَى ولا أستطيع التركيز... ولا تُوجَدُ أي لغة تقصد بهذا الكلام خصوص العضو الذي يضخ الدم، بل المقصود هو مركز فكرنا وشعورنا وأحاسيسنا، وبهذا المعنى استعملها القرآن مثلما يستعملها أهل اللغة كمعنى حقيقي لمركز الشعور "النفسية" والفكر.

بالنسبة لكلمة "صدر، صدور" إنْ لم يكن القصد بها أَعْضَاءَ الجسد للقفص الصدري وما تحته من أعضاء... اسْتَعْمَلَهَا القرآن كما يستعملها الناطقون باللغة العربية وكما هي مستعملة في العديد من اللغات الأخرى، حَيْثُ نشير بالصدر للتفاعل الداخلي للإنسان مع ما يراه ويسمعه ويشعر به مما يتعرّض له... نَحْنُ عندما نتعرّض لمختلف الظروف، نشعر بالانقباض أو الانشراح... في صدرنا، وَلِذَلِكَ استعملنا كلمة صدر لتوصيف حالة تفاعلنا مع الأمور، وحتى لو لم تشعر بأي شيء في قفصك الصدري، من انقباض أو صعوبة في التنفّس أو راحة... مُجَرَّدُ تفاعلك مع ما تعرّضت له، فإن مختلف اللغات البشرية تعبّر عن هذا التفاعل بأن شيئا حصل في صدرك، وحتى السرّ الذي تخفيه عن الآخرين تعبّر عنه مختلف اللغات بأنه في صدرك، وكلّنا نعلم أن السرّ ليس في القفص الصدري، وَلَيْسَ تحته في الرئة أو القلب أو المريء... بل هو تعبير يشير لحالة تفاعلنا مع ما ندركه سواء بقي مَخْفِيّاً أو ظهر له أثر حِسِّيٌّ في منطقة الصدر أو على تعابيرنا وحركاتنا.

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ{47})
{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ}، ويقولون لك أيها النبي محمد(ع): فليحصل الآن قبل وقته ما تهددنا به من ضرر سيصيبنا، فلا داعي لانتظاره للآخرة، أو تهديدنا بحصوله في الدنيا لِأَنَّنَا مَلَلْنَا من التهديد.

{وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ}، قال تعالى إِنَّهُ سيعذّب الكفار وسبحانه ملتزم بهذا فلن يخلفه ولا لأي سبب، فهذا سيحصل حتما، {وَإِنَّ يَوْمًا}، إِنَّ فترة زمنية لحدث ما له بداية ونهاية، {عِنْدَ رَبِّكَ}، عند المسؤول عنك من مستوى إلهي، {كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}، ذلك اليوم يماثل "يشابه ولا يساوي" ما تضيفونه لعدد بعد عدد من السنين، من اثني عشر شهرا وبعده اثني عشر شهرا هكذا حَتَّى يَصِيرُوا ألفا... فالألف سنة وقت طويل جدا جدا بالنسبة لكم، أمّا بالنسبة له تعالى فهي كيوم، كفترة زمنية فيها حدث يبدأ وينتهي، فلا يوجد ولا أي سبب حتى يستعجل سبحانه العذاب لكم في الدنيا أو الْآخِرَةِ ليفعله الآن.

تتذكّر أن القرآن في العديد من الآيات فَصَلَ في كلامه بين عذاب الدنيا وبين عذاب الآخرة، ولكن لا تَنْسَ أَنَّهُ أيضا في العديد من الآيات لم يفصل بينهما، وَتَكَلَّمَ عنهما على أساس أنهما عذابان متصلان بلا فرق، فهناك من يتعذّب هنا ويموت بالعذاب ليعود في الآخرة مع استمرار العذاب عليه، وبناء عليه ففي العديد من الآيات ترى التهديد لا يفصل بين

تعذيبهم في الدنيا أو الآخرة، رُبَّمَا يحصل لهم تعذيب في الدنيا ويكون موصولا بعذاب الآخرة، وربما لا يحصل لهم عذاب في الدنيا ويكون نصيبهم بالعذاب فقط في الآخرة، فمن سياق الكلام نفهم ذلك بسهولة.

هنا في الآية، اسْتِعْجَالُهُمْ بالعذاب عمومي، لِأَنَّهُمْ سمعوا تهديدا عن عذابين يمكن أن يَحِلَّا بهم، عذاب في الدنيا وآخر في الآخرة، وهم يستعجلون بكلا العذابين، طبعا عن استهتار واستهزاء، فَيُجِيبُهُمْ تعالى أَنَّهُ لن يخلف وعده بتعذيبهم وَسُبْحَانَهُ ليس مستعجلا، فما يشعرون هم به من زمن طويل مرّ من حياتهم ولم يحصل العذاب، فهذا الزمن لا شيء بالنسبة له تعالى، فألف سنة عندكم هي بالنسبة له سبحانه مجرد فَتْرَةٍ زمنية "قصيرة" وقعت فيها حادثة وانتهت.

أَنَا بكل سهولة أخطّط لنهار يومي أنني سأفعل كذا وكذا، لِأَنَّهُ فترة زمنية قصيرة يمكنني التخطيط فيها لعمل أو أعمال سأنهيها في ذلك اليوم، ولا أستعجل حصول تلك الأمور لأني أعلم أن اليوم زمن قليل وقبل انتهائه سأنجز الأعمال التي أريدها، فَلْنَقُلْ إِنِّي أريد رشّ حديقتي بالمبيدات، وهذا عمل يستغرق ساعة، وأنا مرتاح جسديا ولدي العدّة المناسبة، ولا عمل آخر عندي، فلا أشعر بالعجلة لرشّها لأني أعتبره عملا سهلا سَيَتِمُّ فِي فترة من النهار... أمّا إن كان عملا يستغرق تنفيذه بضع سنين، كبناء سدّ لتوليد الطاقة، فلدي سبب وجيه لترتيب وجدولة الأعمال وَإِلَّا فَسَيَسْتَغْرِقُ سنوات طويلة جدا، وهذه حدودنا في مشاريعنا، بضع سنين، وعادة لا تمتدّ لعشرات السنين، وَنَضَعُ خططا على مستوى الدولة لعشرين سنة، أو لخمسين سنة، أو نفترض خططا لمئة سنة، أمّا ألف سنة، فهي فترة زمنية تفوق قدرتنا على التخطيط لها لأننا نعلم يقينا أن أمورا ليست بالحسبان ولن تخطر على بالنا ستحصل خلال هذه المدّة، فمن المستحيل علينا التخطيط لها.

مِنْ ناحية ثانية، الإِلَهُ سبحانه وتعالى يخبرنا أَنَّهُ صمّم وخطّط لحصول آخرة وعذاب للكافرين، وذلك بعد مرورهم في دنيا سيمرّ فيها كل الذين قرّر تعالى خروجهم إلى الحياة، وعندما أخبرهم الرسول(ع) الإلهي بذلك، شعروا بأنه كلام فارغ بسبب طول المدّة التي مرّت ولم تَأْتِ الآخرة، هُنَا الآية تخبرهم أنكم أنتم تشعرون بالمدّة القليلة لليوم، والمدة الطويلة جدا للألف سنة، أمّا بالنسبة له تعالى فالألف سنة التي تشعرون بأنها طويلة جدا فهي بالنسبة له تعالى كيوم، تشابه يوما، فهي مجرد فترة زمنية.

بعبارة أُخْرَى، سُبْحَانَهُ يقرّر ويخطّط للألف سنة بسهولة كما تقررون وتخططون أنتم بكل سهولة لأعمال اليوم الواحد، فلماذا سيستعجل سبحانه ليحصل العذاب للكافرين؟

نتذكّر دائما أن اليوم هو فترة زمنية لحدث رئيسي، فاليوم عندنا يبدأ من غروب الشمس إلى غروبها في اليوم التالي، أو من منتصف الليل إلى منتصف الليل التالي، أو من شروق الشمس إلى شروقها في اليوم التالي... 24 ساعة، والآخرة بالنسبة لنا تبدأ من أول ساعة من أول يوم قيامتنا من الموت، مرورا بأيام من المحاسبة المتنوعة... والنهاية مع يوم انتهاء الحساب بدخول آخِرِ شخص إلى الجنة أو النار.

خَلْقُ ما في الدنيا حصل في ستة أيام، في ست فترات زمنية، وليس بالضرورة أن تكون مدّتها الزمنية متساوية، بل هي فترات كلّ واحدة منها لحدث أساسي، وتقديرنا الحالي لنشأة كوننا أَنَّهُ استغرق بين 13 و30 مليار سنة ليصل إلى ما هو عليه الآن، ناهيك عن ست سماوات غيرها لِحَدِّ الآن لا نعلم عن تكوينها ومدّته أي شيء... فأي حدث يبدأ وينتهي فهو يوم بالنسبة له تعالى، فَيَرَاهُ تعالى كيوم، سواء طال لألف سنة أو لملايين أو مليارات السنين أو لِبِضْعِ ساعات، فلا فرق، فلا يستعجل سبحانه وتعالى، لأنه لن يزيد ولن ينقص عمره عزّ وجلّ، ولا يتغيّر أي شيء بالنسبة له تعالى، وَلَنْ يشيخ وَلَنْ تخفّ قدراته... وَلَنْ يفوته أي شيء، ولن تحصل أمور تعيق تنفيذ ما يريده تعالى... وَأَصْلًا لا معنى للزمن بالنسبة له عزّ وجلّ، سُبْحَانَهُ ينظر إلى مخلوقاته التي تَتَأَثَّرُ بمرور الزمن، ولمخلوقاته التي للزمن قيمة عندهم لأن حياتهم محدودة، وقواهم الجسدية والعقلية تتغيّر مع الزمن، والحوادث تؤثر على مجريات حياتهم... فالآية تقول: تريدون العذاب الآن لأنكم لا تصدقون بحصوله، فلو هددكم النبي(ع) بنزول العذاب بعد ألف سنة، فستقولون: هذه مدّة طويلة جدا نكون قَدْ متنا ومات محمّد وتهديده فارغ وليس أكثر من أكذوبة... ولكن انتبهوا أن الألف سنة مدة طويلة لكم، ولكنها مجرد يوم بالنسبة له تعالى، فهي مجرد زمن قصير يمر عليكم بين حدثين.

أَعْلَمُ أَنِّي أطلت عليك وكرّرت الكلام، لأن الكثيرين من الناس تَأَثَّرُوا بكلام سمعوه عن الزمان والمكان وسرعة الضوء... وعن فيزياء الزمكان، ونظرية النسبية... وَأَدْخَلُوهُ تعالى وأدخلوا ملائكته(ع) إلى المعادلة، وأدخلوا هذه الآية

هنا إلى حسابات الزمن والسرعة... وأدخلوا الآية 5 من سورة السجدة {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}، والآية 4 من سورة المعارج {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}، ولكن الآيات لا تتحدّث مع فيلسوف فيزيائي يفهم النظرية النسبية الخاصّة والعامّة، وإنما تتحدّث مع أشخاص عاديين يفهمون الكلام العادي الذي تقوله الآية، ولا علاقة لها بأي نظرية علمية، ولست بحاجة لأي مستوى علمي لتفهمها، فهي فقط تقول إنَّ الفترة الزمنية لحدث فحتى وإن طالت مدّته لألف سنة فهي طويلة جدا عليكم ولكنها مجرّد يوم، مجرّد فترة زمنية بين حدثين بالنسبة له تعالى، وإن طالت لألفين أو مليون أو مليار سنة... فأنتم لديكم مبرّر لتستعجلوا حصول أمور في حياتكم أمّا سبحانه وتعالى فلماذا سيستعجل؟ فالمليون سنة مثل اليوم عنده تعالى، وسترى مثالا تطبيقيا عن ذلك في الآية التالية:

(وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ{48})
{وَكَأَيِّنْ}، ومثل أي، {مِنْ قَرْيَةٍ}، من أي مجتمع من الناس، {أَمْلَيْتُ لَهَا}، أعطاها سبحانه وقتا، وسياق الكلام هنا عن أنه تعالى لم يعاقبها على الفور، {وَهِيَ}، القرية، {ظَالِمَةٌ}، فلم يكن معها حقّ فيما فعلته، وَكَانَتْ غير عادلة ولا منصفة حين كفرت بدينه تعالى وكذّبت رسله ولم تؤمن بالآخرة... بل ظلما كفرت وكذّبت بالرغم من وضوح الحقّ، وعلى هذا كانت تستحق العقاب ولكنه تعالى، {أَمْلَيْتُ لَهَا}، مدّد لها الفترة الزمنية، لِأَنَّهُمْ كانوا يستحقون العذاب حالا وفورا ولكن جرى تمديد وقت حصوله، {ثُمَّ أَخَذْتُهَا}، لَمْ أتركها وهي ظالمة بل أهلكتها، {وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ}، حَيْثُ إِنَّ آخِرَ وخاتمة ما تصل إليه الأمور تَرْجِعُ إليه تعالى، عَلَى كل حال مَرْجُوعُكُمْ إليه تعالى لتقفوا أمامه ليحاسبكم.

عندما تستعجلون بالعذاب ولا يعذبكم فورا فأنتُم لستم أول قرية أمهلها سبحانه، وليس الموضوع بالنسبة لقرار التعذيب مُتَعَلِّقاً بطول أو قصر الزمن، فسبحانه لا يستعجل لأنه لا يهمّه الزمن، وأنتم تستعجلون لأن حياتكم قصيرة، فانتبهوا بأن المهلة التي أنتم فيها لا تعني أن تهديدكم بالعذاب كلام فارغ، لا، لِأَنَّ الذين هدّدناهم من قبلكم أيضا أمهلناهم وأملينا لهم حتى جاء الوقت الذي نحن الإله نراه مناسبا فعذبناهم.

عَلَى كل حال وكيفما متم، قبل العذاب في الدنيا أو بعد عذاب في الدنيا، فإلى أين ستذهبون؟ يَقُولُ أحدهم: سأموت قبل أن يأتي العذاب الذي تهددوننا به. فأين المشكلة عند الله تعالى لو متّ قبل نزول العذاب؟! ولو متّ وجاء العذاب على قومك بعد مليار سنة فأين المشكلة؟ عَلَى كل حال أَنْتَ وغيرك كُلُّكُمْ تصيرون إليه تعالى، سواء متّم في الدنيا بعذاب أو بمرض أو بأي شيء... فإليه المصير.

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ{49})
{قُلْ}، أيها الرسول محمد(ع) عبر هذا القرآن: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ}، أوجّه كلامي إلى عموم المنتمين إلى صنف الإنسان، {إِنَّمَا}، حصرا، {أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ}، وَأَنْقُلُ لكم الخبر عن خطر أكيد سيحصل لمن توافرت فيه شروط حصول الخطر، {مُبِينٌ}، بشكل واضح أنذركم، وَأَنْقُلُ لكم آيات القرآن الذي ينزل عليّ من ربّكم سبحانه والتي تقول بكل صراحة ووضوح: من لا يتبع هذا الدين فسيتعذّب عذابا شديدا. أَنْتُمْ لا تَضُرُّونَنِي ولا أنا أستفيد من إيمانكم، ولا علاقة لي بما سيحصل معكم بعد كفركم أو إيمانكم، لِأَنَّنِي مجرّد رسول ناقل للإنذار لأن الحالة التي أنتم عليها ستوصلكم حتما إلى مصيبة.

ضَعْ في بالك دائما الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى مَعَانِيَ قرآنية رائعة، تَصَوَّرْ شخصا أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، هُنَا تحذّره من سلوك الطريق السيّء، لِأَنَّهُ حاليا ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ}، والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}.

أمّا إذا سلك طريق الخطر، فتنذره، لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. الْإِنْذَارُ تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتما ما يضرّه، وَتُنْذِرُ الكافر حيث هو في حالة ستسبّب له العقاب حتما، وَوَرَدَ هذا كثيرا في القرآن. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يتلبّس بما سيسبّب له الضرر، وَتُحَذِّرُ المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

وهذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، حَيْثُ يَقُومُ المؤمن بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، وَتُنْذِرُهُ من العقاب الحتمي عليه كحالة المسيحيين المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}، وعموم المؤمنين المشمولين بالتهديد من فكرة فعل السيئات على أساس أن يحمل أحد ما السيئات عنهم {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}، والمشمولين بالتهديد إن لم يتغيّروا نحو الأحسن الْمَوْعُودِينَ بالمغفرة كما ورد في الآية {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}، ونفس المفهوم في الآية 45 من سورة النازعات {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا}.

فَلْنُتَابِعْ:

(فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ{50})

{فَالَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قاموا بالأعمال الموصوفة بأنها صالحة جيدة، قاموا بما يرونه هم صالحاً وهذا يتماشى مع ما يأمر به سبحانه الذي لا يأمر إلا بما هو صالح، وعملياً هم تركوا ما يحرّمه تعالى وفعلوا ما يوجبه تعالى عليهم، فهؤلاء، {لَهُم مَّغْفِرَةٌ}، يَتجاوز سبحانه عن ذنوبهم، ولهم {رِزْقٌ}، لهم شيء يحصلون عليه ليسدّوا به حاجاتهم ومشتهياتهم، {كَرِيمٌ}، موصوف بأنه محترم وهم يشعرون بأنهم محترمون، حيث إنَّ نَوعيته وقيمته عالية وهم يشعرون بأنهم محترمون وقيمتهم عالية، لا منّة وحتى الشكر على الرزق غير مطلوب منهم...

يخطر ببالك أن الرزق الكريم يشير لمجازاته سبحانه على الحسنة بأضعاف مضاعفة من الثواب، وهذه المجازاة صحيحة ولكنها ليست المعنى الصريح المباشر لكلمة كريم، لم يستعمل القرآن كلمة كريم بهذا المعنى، بل بمعنى المحترم الذي له قيمة وبلا إهانة، تصوّر أنك تقدّر قيمة العمل الذي أنجزه لك العامل في الاعتناء بحديقتك، وتعطيه أجره مع ابتسامة وضيافة... فهذا أجر كريم، الآن تصوّر رميك للعامل أجره على الأرض مع إهانته بالكلام والحركات، فحتى لو أعطيته زيادة عن أجره فهذا ليس أجراً كريماً، وهذا ما يريدنا القرآن أن نفهمه، المؤمن سيحصل على أجره من ربّه تعالى بكرامة، حيث سيظهر أنه تعالى يحترم ويقدّر ما فعله المؤمن، وسيعطيه ما يعيش منه في الجنّة بشكل كريم بكل احترام وتقدير، وما يحصلون عليه موصوف بالكرم أي سيحصلون على ما له قيمة عالية.

(وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ{51})

{وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ}، سَعَوا، وقاموا بنشاط قصدوا منه تعجيز الأمور المميّزة المنسوبة له تعالى، حتى تعجز عن الدلالة على توحيده تعالى وآخرته... يقولون عن خلق ما في الدنيا بأنه عادي وأننا هكذا من دون إله صرنا مخلوقين، أو يقولون بأن الطبيعة خلقتنا أو إلهاً غيره تعالى خلقنا... والحيوانات والنباتات لا شيء مميّز فيها ولا تدل على إله خالق قادر... والأمور المميزة التي جرت مع الرسل قالوا إنها أساطير وسحر... {أُولَئِكَ}، المعاجزون لآياتنا هم، {أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}، سيكونون مع بعض في المكان الموصوف بضخامة سوء ما فيه.

من دراسة أشعار العرب قديماً قبل الإسلام وجدت فرقاً بسيطاً بين كلمتي جحيم وجهنّم، جهنّم باستعمال القرآن هي اسم مكان مشتق من الوصف بجهنم الذي يشير لسوء الحالة أو المكان، واستعمال هذا الوصف لمكان تعذيب في الآخرة هو وصف للأنواع المختلفة المسببة للعذاب مما فيها، فيها النار المحرقة وفيها الضرب وفيها طعام كريه ورائحة كريهة... وتفهم ذلك من فحوى الآية 49 من سورة غافر: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ}... وفي بيتين من الشعر قبل الإسلام وجدت إشارة بكلمة جحيم لضخامة النار، ويناسبها ذلك في القرآن كما ورد في الآية 97 من سورة الصافات: {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ}، والجحيم وصف الضخامة في السوء.

حسناً، هل الآيات كافية للكل حتى يؤمنوا أم المشكلة في نوعية ووضوح الآيات ولذلك يوجد أناس لم يؤمنوا؟ لِنَرَ:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{52})

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ}، شخص نحمّله رسالة خاصّة منّا للناس، والرسل كثر ومنهم: نوح وإبراهيم ولوط ويعقوب ويوسف وإلياس ويونس... عليهم السلام، وأكثر الذين ذكرهم القرآن كانوا أنبياءَ رسلاً.

{وَلَا}، أرسلنا، من {نَبِيٍّ}، وهو الذي يصله نبأ، والكلام عن الذين يصلهم منه تعالى خبر غير منتشر علمه بين الناس، وبما أن الآية فصلت الرسل عن الأنبياء، فالكلام هنا يضيّق معنى كلمة رسول لتصير مخصصة لمن يحددهم تعالى كرسل منه كناقلين منه تعالى لشيء محدّد ليقولوه للناس، ويكون النبي هو الذي لا يحمل رسالة خاصّة ليبلّغها للناس، يكون نبياً كناقل للأخبار فقط وليس ناقلاً لكلامٍ إلهيٍ موجَّهٍ لقوم أو شخص، ويكون عمله مثل عمل المؤمن العادي الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بحسب الشريعة المعروفة المنتشرة في عصره، ويختلف عن المؤمن العادي بأنه أحيانا ولضرورات يراها تعالى يُنبّئه سبحانه بشيء ما، يخبره سبحانه بشيء غير منتشر علمه بين الناس، وهكذا يصير موصوفاً بأنه تواصل معه تعالى عبر إنبائه، يصير وصفه نبياً.

خذ مثلاً حالة النبي الرسول موسى (ع)، وصول النبأ الإلهي إليه، يجعله موصوفاً بالنبوّة، ولكن ذهابه بأمر إلهي لمواجهة فرعون ونقل الكلام الإلهي لفرعون وقومه، فهذا عمل رسالي، فهذا نقل لرسالة، نقل لكلام إلهي. أنا بنقلي لك كلام القرآن وهو كلامه تعالى لست رسولاً لأنني لم أُكلَّف رسمياً منه تعالى بنقل كلامه لك.

يبدو واضحاً أن شخصيات الأنبياء مختلفة في العزم وإدارة الأمور والتخطيط... علماً أنهم كلهم من الدرجة العالية من الإيمان، ولكن شخصياتهم والظروف التي هم فيها تؤهل البعض منهم لتوظيفه تعالى لهم كرسل، وآخرون يبقى وصفهم أنبياءَ حتى لو مرّة واحدة وصلهم نبأ منه تعالى، طالما لسبب أو لآخر لم يتوظّفوا لنقل كلام خاص منه تعالى للآخرين، فهم أنبياء وليسوا رسلاً، وهذا طبعاً لا يلغي قيامهم بواجباتهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

نرجع للآية، {إِلَّا إِذَا تَمَنَّى}، أحبّ الرسول أو النبي أن يحصل شيء ما، وهذا الشيء يبدو مستبعداً حصوله، عندها، {أَلْقَى الشَّيْطَانُ}، وهذا وصف لمن يقوم بأعمال الضلال المضادة لأعمال الأنبياء والرسل، وعلى رأس الشياطين إبليس، إذا تمنى الأنبياء والرسل شيئاً، ألقى الشيطان {فِي أُمْنِيَّتِهِ}، تدخّل الشيطان لفعل شيء مضاد لما يرغب النبي أو الرسول بحصوله، كل نبي ورسول يتمنيان أن يهتدي الناس، وأن ينتشر الدين الإلهي، والأنبياء والرسل يعلمون أن هذا ليس شيئاً سهلاً حصوله ولا متوقعاً حصوله "بسهولة" فهو أمنية لأنه شيء مستبعد حصوله، وكلما تمنوا ذلك قام الشيطان بالإلقاء في تلك الأمنية، يتدخّل ولا يتركها تتحقّق ويقوم بدور مضاد لها لتعطيلها، يوسوس للناس حتى يعارضوا الأنبياء والرسل، وحتى يشركوا، وحتى يفعلوا السيئات...

{فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ}، يَحُلُّ شيء إلهي مكان وسوسة وآثار وسوسة الشيطان، {ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ}، يجعل سبحانه الأمور المميزة المنسوبة له تعالى مضبوطة على الصواب، تكون بيّنةً قوية قاهرة...

النسخ وصف لعامّة ما تم نقله عن الأصل، سواء بقي الأصل فهو التكرار، أو انمحى الأصل فكان الانتقال الكلّي، وهنا الشيطان يفعل شيئاً مضاداً لآياته تعالى، وسبحانه يمحو ذلك ويضع مكانه شيئاً آخر.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ}، يعلم كل شيء كان وسيكون، يعلم بما يتمناه الأنبياء والرسل، ويعلم بما يفعله الشيطان، ويعلم ما هو أفضل حل لمساعدة المؤمنين، {حَكِيمٌ}، لا يعبث ولا يتسلى، حين يتدخل لينسخ ما يلقي الشيطان فعن حكمة ودراية اختار ويختار الآيات التي ستجعل الناس الطيبين العاقلين مؤمنين. أصلاً كل ما يحصل من أناس يهدون وآخرين يضلون صمّمه تعالى بحكمة، لم تحدث وسبحانه لا علم له بأنها ستحدث من بعد خلقه لما في الدنيا، بل عن حكمة ومن أساس التصميم لما في الدنيا تضمّن وصول الأمور إلى حالة رسل وأنبياء يهدون، وفي مقابلهم شياطين يضلّون.

بعبارة أخرى عندما يقوم الشيطان بالوسوسة لبعض الناس ليسعوا معاجزين في آيات الله تعالى، وهذا يتعارض مع أمنيات الرسل والأنبياء، فإنه تعالى يحكم آياته لا يترك فيها أي مجال للعبثية، يجعلها تظهر بكل وضوح لتدل عليه تعالى.

مهما قال الناس من وسوسات شيطانية عن الآيات الإلهية ليعجزوها ويسخّفوها حتى لا تعد آيات هادية كأدلة، فلا مشكلة أيها الرسول محمد (ع)، كل الأنبياء والرسل الذين سبقوك تمنوا لو يؤمن كل الناس، ولكن لم تنجح أمانيهم، لأن الشيطان ألقى فيها ووسوس في عقول الكثير من الناس حتى سخّفوا الآيات الربانية، ولكنه تعالى يتدخّل لأنه هو تعالى المسؤول عن تأمين الآيات التي تهدينا إليه، وليس مسؤولاً عن تحقيق أماني رسله وأنبيائه، وهو سبحانه أصلاً يعلم أن أكثر الناس لن يؤمنوا... ولذلك أحكم تعالى آياته فمهما أعجزها الناس ومهما وسوس الشيطان فالآيات ستبقى واضحة لمن أراد أن يؤمن، وهو الذي كان قلبه سليماً بدرجة مقبولة من التعلق بالشهوات والنزوات وحبّ السلطة والشهرة... السيئة، هذا ما أخبرنا سبحانه أنه سيفعله، فقط يعرض تعالى علينا آياته بشكل واضح، وهذا هو معنى الآيات التي تتحدّث عن دمغ الحق للباطل وانتصاره عليه، كالآية 18 من سورة الأنبياء: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ}... وبعدها من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وليتحمّل من كفر العقاب الإلهي.

في بعض الكتب كلام حول الآية هنا ويقولون فيه إنّ الشيطان تدخّل وجعل النبي محمد (ع) أثناء تلاوته للقرآن يمدح آلهة المشركين! والآية هنا برّرت ما حصل من زلّة لسان النبي (ع)! وهذا النوع من الروايات من أوضح ما يكون كنموذج عن الغالبية الساحقة من الروايات المخترعة السخيفة التي نسبوها للنبي (ع)، ضاربين بعرض الحائط كل الآيات القرآنية الواضحة التي تقول عن النبي (ع) بأن عليه حراسة من الملائكة (ع) حتى لا تتدخّل الشياطين بتلاوته للقرآن، وتقرأ ذلك بوضوح في الآية 28 من سورة الجنّ: {لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا}، وضاربين بعرض الحائط كل الآيات التي تؤكّد بأن الشيطان ليس له أي سلطان على العباد المخلصين وعلى رأسهم الأنبياء والرسل، فلا سيطرة له عليهم ولا بأي شكل، كما تقرأ بكل وضوح في الآية 42 من سورة الحجر: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}، وضاربين بعرض الحائط أن الشيطان لا يمكنه أصلاً أن يجعل أي إنسان يتكلّم رغماً عن إرادته بأي كلمة كانت، بل فقط وفقط أقصى ما يمكن أن يفعله الشيطان هو أن يوسوس، فكيف تجرّأ هؤلاء على النبي محمّد (ع) وقالوا إنّ الشيطان استطاع جعله (ع) يردّد خلفه مدحاً لآلهة المشركين!

من أمثال هذه الروايات استفاد منافقون فاسقون كأمثال سلمان رشدي، واستعملوها كدليل على سخافة كل الدين الإلهي، فها هو الدين نفسه عبر هذه الروايات يقرّ ويخبرنا بأن ما ينقله محمد قد يكون للشيطان نصيبٌ منه وفيه، فكيف نعرف الفرق بين الوحي الإلهي والوحي الشيطاني! وعرض رشدي علينا نتيجته بأن بل كل ما قاله محمد كان من الشيطان! ولسوف يتحمّل الذين اخترعوا هكذا روايات، ومن أيّدها، ومن نشرها، ومن برّر لها بدل أن يرميها... كلّهم سيتحاسبون على ما فعلوا بنفس درجة حساب من استغلّها ليعجز في آياته تعالى.

(لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ{53})
ينسخ تعالى ما يلقي الشيطان ويحكم آياته:

{لِيَجْعَلَ}، الله تعالى، {مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ}، ما يرميه الذي يعمل على إضلال الناس من وسوسة في أفكار الناس، {فِتْنَةً}، شيئاً يتعرضون له ويغيّرهم، كامتحان، {لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}، الذين أساس نفسيتهم وفكرهم مريض غير سليم لأنهم متعلّقون بالشهوات السيئة ومعتادون على الكذب ومحبّون للسلطة والمال... فهؤلاء يتعرّضون لضغط هواهم مما يوسوس به الشيطان لأن أساس فكرهم ونفسيتهم فيه فساد، فيتماشون معه... وما يلقي الشيطان هو فتنة لـ {الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ}، فمن كثرة إصرارهم وتكرارهم للمعاصي يصير قلبهم كالصخر، فأساس فكرهم ونفسيتهم لا يقبل التغيّر مهما عرضت عليه من آيات.

{وَإِنَّ الظَّالِمِينَ}، إن الذين لم يكن معهم حقّ، {لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}، في انقسام في مفارقة وابتعاد عن الدين الإلهي، فهم مشقوقون منفصلون عن الدين الإلهي بما فيه من حقّ، ففكرهم وتصرفهم بعيد جداً عن الحقّ.

كما ترى دخلت الآية هنا والتي سبقتها على جواب الآية التي تحدّثت عن الآيات الإلهية التي جعلها تعالى للناس حتى يؤمنوا، ورفضها البعض منهم، الآيتان نبّهتا على أن الشيطان يتدخّل ليعارض الرسل والأنبياء في عملهم، ويجعل الناس يضلّون عبر تشويه الآيات الإلهية ليروها غير كافية ليؤمنوا، ونبّهت الآية هنا أن الآيات غير كافية لمن في قلبه مرض ولمن قلبه قاسٍ، فليست المشكلة في الآيات بل في الذين لم يؤمنوا، فهم المرضى والذين قلوبهم قاسية فلا تقبل التغيّر مع الحقّ المبين، وهم اتبعوا الشيطان حتى صاروا هكذا.

مرض القلب، وصف استعمله القرآن لكل من لديه مشكلة ثابتة مع الحقّ، ربما يكون لديه مشكلة اقتناع بوجوب الصلاة أو الجهاد أو الزكاة... وليس لديه مشكلة في التوحيد ويوم القيامة... وربما لديه مشكلة اقتناع بيوم القيامة وليس لديه مشكلة في اتباع الشريعة لأنها عادلة وتعطي لكل شخص حقّه... وربما المرض منتشر في قلبه حيث لديه مشكلة في كل شيء يقوله الدين الإلهي... الذين في قلوبهم مرض ربما يكونون من المسلمين كالمنافقين والفاسقين، وأنت تعلم أن النفاق والفسق درجات، أقلّها حالتنا نحن المؤمنين من الدرجة المنخفضة... وربما يكونون من الكفّار، مِن سياق الكلام تعلم ما هو نوع وحجم المرض، وعلى كل حال الآيات هنا تتحدّث عن كل الذين في قلوبهم مرض، وبالخصوص مع الذين مرضهم جعلهم يرفضون أساس الدين، حيث رفضوا توحيده تعالى والإيمان برسله تعالى وآخرته.

إنْ كان هناك بصيص أمل ولو طفيفاً في إيمان الذين في قلوبهم مرض، فالقاسية قلوبهم مفقود منهم الأمل فلا ولا بأي شكل سيؤمنون.

(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{ 54})
{وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}، الذين وصلتهم معلومات منه تعالى عبر آياته، حتى يصير عندهم علم حقيقي يوصلهم للإيمان ينسخ تعالى ما يلقي الشيطان... ليعلموا {أَنَّهُ}، الدين الذي تنقله لهم أيها الرسول محمد (ع) هو، {الْحَقُّ}، الصواب الصحيح، {مِن رَّبِّكَ}، من المسؤول عنك من مستوى إلهي، {فَيُؤْمِنُوا بِهِ}، يعتقدوا بالدين الإلهي، {فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ}، يصير أساس فكرهم ونفسيتهم تحت العلم الحقّ، تحت أوامره فلا يخالفونها.

{وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ}، يضع سبحانه على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة، {الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، يهديهم تعالى، {إِلَى صِرَاطٍ}، إلى طريق أساسي، {مُّسْتَقِيمٍ}، يوصف بأنه على الأحسن فلا انحراف فيه، الآيات الإلهية الكافية لهم حتى يهتدوا للخطّ الإلهي المستقيم مضمونٌ منه تعالى وصولها لهم.

نَنتبه، لو كان اختلاف وجهات النظر بيننا نحن لقلنا: الحق معي، أو الحق معك. لكنَّ القرآن دائماً يعبّر بشكل مختلف فيقول: الحقّ من ربّك، الحقّ من ربّهم. ولا يقول أبداً: الحقّ مع ربّك. هناك فرق كبير بين القولين، عندما تقول: الحقّ معي. فهذا يتضمّن إمكانية أن يكون الحقّ مع غيرك، ويتضمّن أنّ هذه المرّة الحقّ معك وربما في مرة أخرى يكون الحقّ مع غيرك، أمّا التعبير القرآني فدائماً يقول: الحقّ "من" ربّك. لأنه تعالى لا يصدر عنه إلا الحقّ دائماً.

ضع في بالك دائماً أن القرآن لم يستعمل كلمة "اعتقد" ومشتقاتها بالمعنى الدارج بيننا على معنى العقيدة والعقائد الدينية، في استعمال القرآن كلمة "آمن" ومشتقاتها مرادفة بالمعنى لكلمة اعتقد على المعنى الدارج، مع فارق بسيط وهو نفسه الفرق بين كلامنا وكلام القرآن الذي حدّد للكلمات معنىً دقيقاً واستعملها على أساسه، وجعلها متدرجة في المعنى، كلمة "آمن" ومشتقاتها في القرآن لا تعني لوحدها أبداً أنها توصيف لمن كان مؤمناً من الدرجة العالية، مِن السياق تعلم عن أي درجة يتحدّث، إنْ كانت الآية عمومية فهي عمومية تقصد كل من أعلن اعتقاده بهذا الدين عبر إعلان انتمائه له، سواء أكان مؤمناً حقيقياً أو فاسقاً من الدرجة المنخفضة أو العالية أو منافقاً... وراجع في ذلك دراسة الآية 9 من سورة الحجرات: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ}... حتماً هناك فسق أو نفاق أدّى إلى اقتتال الموصوفين بالإيمان بهذا الدين الإلهي... إذا كانت صفة الإيمان خصوصية فَمِن السياق تعلم أنها تشير للمؤمنين من الدرجة العالية أو للمؤمنين العاديين الذين خلطوا صالحاً بسيّئ...

(وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ{55})
{وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أعلنوا أنهم منكرون للدين الإلهي وهم مستمرون على حالة، {فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ}، أمام ما هو واضح صريح أنه حق صحيح يقولون كلاماً تافهاً، وبدل أن يعلنوا الإخبات للدين الإلهي هم في كل مناسبة يجادلون ويناقشون وكأن ما يقوله الدين الإلهي موضوع للتسلية... {حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ}، يمارون حتى يأتي زمن قصير من يوم طويل، والكلام عن الساعة من يوم القيامة والتي سيقومون فيها من الموت، {بَغْتَةً}، فجأة من دون أن يتوقعوها، {أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ}، يصيبهم ضرر منه تعالى هنا في الدنيا ويكون عقيماً لا حلّ معه للنجاة منه. كما نقول: جدل عقيم. أي لا حلّ له. ونقصد أنه لا يوصل إلى أي نتيجة أخرى غير البقاء على حالة الجدل، فكذلك العذاب الإلهي لهم في الدنيا إذا أصابهم فلا يمكنهم الهرب منه أو النجاة منه ولن ينتهي إلا بعد القضاء عليهم.

نَتذكّر دائماً أن يوم القيامة يبدأ من قيامنا من الموت، فأوّل ساعة فيه حين نقوم من الموت، وبعده أيام فيها ساعات حشرنا زمراً، بعدها الحساب الفردي والجماعي... وهؤلاء سيبقون في حالة مرية من الدين الإلهي فلا يقتنعون به ويقولون كلاماً تافهاً عنه، ويموتون وهم على هذه الحالة، حتى الساعة التي يقومون فيها من الموت، وهي أول ساعة من آخرتهم، فعندها يدركون بأن ما جاءهم من الدين الإلهي وعن القيام من الموت والحساب... صحيح، أو تصيبهم كارثة هنا في الدنيا ويرون أنها لن تنقضي حتى تهلكهم وهم يعلمون أنها غضب إلهي عليهم بسبب كفرهم، فأثناء حدوثها وبعد تيقنهم من الموت يؤمنون...

(الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ{56})
{الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ}، من بعد ساعة قيامهم من الموت، {لِّلَّهِ}، لصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، هُنا في الدنيا الملك لله تعالى أيضاً ولكن من سياق الكلام عن الآخرة تعلم أن الوصف يشير إلى انتهاء ما كنّا نتمتع به في الدنيا من مساحة لفرض ما نريده، هُنا في الدنيا سمح سبحانه لنا بمساحة من حرية الإرادة الممنوحة لنا وبعضنا خالف أوامره... وتركنا تعالى نجادل ونماري في آياته... أمّا في يوم القيامة فكل ذلك ملغىً وفقط ما يقوله تعالى يحدث.

{يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ}، يصدر قراراته الصائبة العادلة بين الناس في زمن الآخرة لوحده تعالى فلا أحد يتدخّل ولا أحد يمكنه أن يتدخّل، تَصدرُ منه تعالى أحكامٌ على أعمالنا، وفي النهاية يرسل تعالى هذا إلى الجنة وذاك إلى النار...

{فَالَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا أنهم معتقدون ملتزمون بهذا الدين الإلهي، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قاموا بالأعمال الموصوفة بأنها صالحة جيّدة، وعملياً تركوا ما حرّمه تعالى وفعلوا ما أوجبه تعالى، فحكم الله الملك فيهم أن يكونوا: {فِي جَنَّاتِ}، في أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين... {النَّعِيمِ}، فيها الكثير من النعم من الأشياء الجيّدة الرائعة الموصوفة بأنها نعمة.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ{57})

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا}، أعلنوا أنهم منكرون لهذا الدين، {وَكَذَّبُوا}، لم يصدقوا، {بِآيَاتِنَا}، بالأمور المميزة المنسوبة له تعالى، {فَأُوْلَئِكَ}، حكم الله الملك فيهم أن: {لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}، يتعرضون للضرر مع الشعور بأنهم بلا قيمة فيشعرون بالإهانة والاحتقار.

نَنتبه، تحدّثت الآيات السابقة عن الآيات الإلهية أنها واضحة، وكافية لمن يريد أن يؤمن، وأن من يرفضها ويعاجز فيها فهو في قلبه مرض وقساوة ويتبع الشيطان، ويماري في آياته تعالى، وهكذا تصل بك الآيات إلى نتيجة أنه يستحق العذاب مع الإهانة لأنه كفر وعلى هذا عقاب، واستهان بآياته تعالى فسيكون مهاناً...

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ{58})
إليك النص مراجعاً ومصححاً بناءً على الشروط التي حددتها، مع إبراز التعديلات بالخط العريض:

{وَالَّذِينَ هَاجَرُوا}، الذين تركوا ديارهم وسافروا مغادرين إلى مكان آخر ليعيشوا فيه، {فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، سالكين على المسلك الإلهي، وهذه الجملة تعطيك معنى أنهم حين كانوا في ديارهم وبسبب إيمانهم تعرّضوا للتهديد أو المضايقة أو

الطرد... فاضطروا للمهاجرة ليحافظوا على تديُّنهم، ولم يهاجروا بسبب آخر غير تديُّنهم، ولم يهاجروا بسبب مشاكل عائلية أو اقتصادية... بل بسبب إيمانهم تعرّضوا للمضايقة الشديدة من الآخرين فهاجروا، {ثُمَّ قُتِلُوا}، حيث قام الأعداء بإنهاء حياتهم، "بتعبيرنا الدارج نقول: استشهدوا"، {أَوْ مَاتُوا}، وفقدوا حياتهم بحادث أو مرض... أو ماتوا ميتة طبيعية، فعلى كلا الحالتين، {لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ}، لسوف يعطيهم سبحانه مما له ارتباط بحاجاتهم وما يرغبون به، طعاما، وشرابا، ولباساً، وسكناً... {رِزْقًا}، أموراً موصوفة بأنها على أتم مواصفات الرزق، {حَسَنًا}، جيّداً، وكما ترى فالآية تعرض تعويضه تعالى لهم عن تركهم لديارهم في سبيله برزق حسن، وهذا الكلام يشير إلى ما يحصلون عليه في الآخرة، {وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}، فصاحب الاسم المحدد المميز الله بالتأكيد موصوف بأنه حين يرزق فرزقه حسن وأفضل من أي رازق آخر، لأنه الإله المالك لكل شيء والقادر على كل شيء فيمكنه أن يعطيهم أفضل الرزق، فالأب يرزق أولاده، والغني يرزق الفقير... فهم رازقون، ولكن بالمقارنة مع ما يمكن أن يقدّمه سبحانه، فسبحانه خير الرازقين، أفضل منهم بكثير، وهذا واضح فهو تعالى سيعطيهم الرزق في جنّة خالدة.

حتى لا يأسف المؤمنون على ترك ديارهم في سبيله تعالى، تعدهم الآية هنا بالثواب الإلهي مع لفت الانتباه لمستوى قدراته تعالى على تقديم ما سيكون رائعاً.

بالنسبة لكلمة "خير" في استعمال القرآن فكثيراً ما نستنسب تفسيرها على معنى "أفضل"، وأحيانا يصدق هذا المعنى بالتبعية من فحوى الكلام، ولكن بعض الاستعمالات القرآنية لنفس الصياغة تريك أنه لم يقصد بكلمة خير أن تكون رديفاً لكلمة أفضل، وكمثال واضح عن ذلك ما ورد في الآية 16 من سورة العنكبوت {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}، فمرادفتها بأفضل في أمثال هذه الآية سيعطيك معانيَ غير دقيقة بل وغير مقبولة إلا إذا حملت معنى الأفضل على عموم المقابلة بين الأسوأ والأحسن، ولكن هذا ليس معناها بل هذا معنى كلمة خير، وكلمة "أفضل" في أشعار العرب قبل الإسلام محصورةٌ بين الحسن والأحسن، فلو قلت إنّ الإيمان أفضل لكم فهذا يعني أن الكفر حسن والإيمان أحسن، لا، فالإيمان خير لكم مما يعني ضمناً أنّ الكفر سوء لكم.

لم يستعمل القرآن كلمة أفضل بتاتاً، واستعمل التعبير بالخير وهو أوسع بالمعنى، فهو يقابل الشرّ كما في الآية 11 من سورة النور {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ...}، واستعملها بمعنى ما يقابل الحسن فالآخر أحسن وليس شرّاً، كما ورد في الآية 271 من سورة البقرة {إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ...}، فإبداء الصدقة ليس سوءاً وإنما إخفاؤها أحسن، وهنا يمكن استعمال كلمة أفضل.

يعني لا تُرادِف "خير" بـ "أفضل"، فهما في بعض سياق الكلام يتقاطعان تطبيقياً حيث يكون اللذانِ تقارن بينهما كلاهما جيدَين، فعندها يصدق قول خير أو أفضل، ولكن حين يكون الكلام عمومياً يشمل ما كلاهما جيدان ويشمل أيضاً ما أحدهما جيد والآخر سيئٌ، ويشمل الوصف مطلقاً بمقارنة الحسن مع مطلق الوصف بالحسن، فحتى لو لم يكن هناك طرف آخر للمقارنة والمقارنة مع مطلق الوصف، كوصفه تعالى بخير الرازقين وخير الحاكمين... فهو تعالى بالمقارنة مع وصف الحسن مطلقا كرازق وحاكم فهو خير موصوف بذلك، فكلمة أفضل ليست وصفاً صحيحاً لهذه الحالات وكلمة خير صحيحة.

لاحظ المفسرون أن الآيات من هنا إلى الآية 65 ستذكر كل واحدة في آخرها وصفين له تعالى، وهذا شيء لم يتكرر بهذا الشكل في القرآن.

بقي شيء، فالدارج في ثقافتنا الدينية أن نسمي المقتول في سبيل الله تعالى بالشهيد، وهذه تسمية اصطلحناها نحن ولم يصطلحها القرآن، لأن الشهيد في استعمال القرآن أعمّ انطباقاً وليس محصوراً في المقتول في سبيله تعالى، فبعض المقتولين في سبيله تعالى يكونون شهداء على أمّة، وبعضهم شهداء على جماعة، وبعضهم شهداء على من تخاذل... وبعضهم شهداء فقط على من ظلمهم وقتلهم... والقرآن وَصَّفَ بالشهيد عموم من يشهد على ما فعله الآخرون من سوء، وبناءً عليه الأنبياء والرسل وصالحو المؤمنين شهداء حتى لو لم يموتوا من قتل الأعداء لهم...

أيضاً درج في ثقافتنا الدينية إعطاء قيمة عالية للمقتول في سبيله تعالى، والتغاضي عمّن تحرّك في سبيله تعالى وبقي حيّاً ومات من المرض أو الشيخوخة، ونادراً ما نعطيه قيمة، ولكن القرآن كرّر مراراً حفظه تعالى لقيمة ما فعله المؤمن

حتى لو لم يمت قتلاً، فالهجرة في سبيله تعالى عمل ذو قيمة عالية جداً، وبمعزل عن نهاية حياة المؤمن قتلاً أو بميتة طبيعية، فهناك أجر عالٍ للهجرة في سبيله تعالى، وها ترى الآية هنا تعطيهما نفس القيمة العالية بالتساوي.

(لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ{59})
{لَيُدْخِلَنَّهُم}، لسوف يجعل سبحانه المهاجرين في سبيله يدخلون، {مُّدْخَلًا}، ممرا إلى شيء، {يَرْضَوْنَهُ}، يقبلونه بمحبّة، فلا يفكّرون ولا يرغبون في الذهاب إلى مكان آخر غيره، وتعلم أنهم سيدخلون إلى الجنّة وسيكونون راضين بهذا الدخول إلى الجنّة لأنهم سيجدون فيها كل ما يسرّهم ولن يشعروا بالملل أو الضجر طيلة خلودهم فيها.

{وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ}، يعلم كل شيء وهنا المقصود أنه تعالى يعلم بما تعرّض له هؤلاء المؤمنون، ويعلم ما فعلوه ويعلم بما يرضيهم وسينالون ما يرضونه في الآخرة... والله {حَلِيمٌ}، بتعبيرنا الدارج: طويل البال. فلا يمكن استفزازه تعالى عبر مخالفة أوامره، فلا يستعجل، حين تعرّض المؤمنون للمضايقة والطرد والقتل... فسبحانه لا يرضى بذلك ولكنه ترك الأمور تجري لأنه حليم، ومن بعد نجاح المؤمنين فيما تعرّضوا له في الدنيا سيحصلون على جنّة خالدة.

(ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ{60})
{ذَٰلِكَ}، الذي ذكرناه لك عن علمنا وحلمنا عند طرد المؤمنين، ووعدنا بالرزق والمدخل الحسن للمهاجرين، فلهذا الكلام توابع: {وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ}، فلو أن المؤمنين الذين طردهم الكفّار، عاقبوا الكفّار فيما بعد فطردوا الكفّار من ديارهم، أو استولى المؤمنون على أموال للكفّار كبدل عن الأموال التي سلبها الكفّار منهم... {ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ}، فجرى الاعتداء على المؤمن بشيء زائد عن السابق، يعني هي مثل حالة: ضربني بكفّه فضربته بكفّي، واحدة بواحدة، فإن عاد وردّ الضربة فهذا بغي وهذا زيادة غير صحيحة، فلننقل عمليا إنّ المؤمنين استولوا على أموال للكفّار بدلا من الأموال التي صادرها أو سلبها أو وضع الكفّار يدهم عليها... فمن المفروض أنها واحدة بواحدة وينتهي الموضوع، ولكن بعدها إن قام الكفّار بعمل عدائي آخر، فعندها يخبرنا تعالى عبر القرآن أنه: {لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ}، فسوف يؤّيده تعالى ليحقّق ما يريده المؤمن ضدّ من بغى عليه.

بعبارة أخرى فهناك أناس متهوّرون لا يفكرون في العواقب، وهناك من يفكّر في العواقب، وقد يقول: إن أخذت حقّي من الكفّار فقد يبغون عليّ بأشد مما فعلوا سابقا، فلأبقى ساكتا أفضل من تطوّر الأمور نحو التصعيد، لا، فاحسب الأمور جيدا ولكن لا تكن جبانا، وكن صلبا فأقوى قوّة في الدنيا ستنصرك.

{إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ}، فيمرّ عن الأشياء ولا يتوقّف عندها، فيسامح عن حقّ له تعالى فلا يعاقب على كل ذنب، {غَفُورٌ}، فيسامح من أخطأ ولا يعاقبه، طبعا إذا كان يستحقّ المغفرة، فهذه الصفة تقصد أنه تعالى ليس صلبا جلفا قاسيا لا يغيّر موقفه ممن أخطأ، بل يسامح سبحانه من آمن واستغفره...

ننتبه جيّدا، فتطبيق هاتين الصفتين "عفو غفور" على سياق الجملة يحتاج إلى الكثير من الجهد ولن يكون واضحا مستقيما إن لم نقبل مفهوما قرآنيا منتشرا هنا وهناك بكثرة، وسأطرحه عليك بسهولة: فالقتل مثلا، هو عمل سيئ، مهما كانت ظروف القتل، حتى لو أن مؤمنا قتل عدوا كافرا هجم عليه قاصدا قتله، ولكنه تعالى يعفو عن هذا ويغفر بسبب سماحه تعالى للمؤمن بقتل أعدائه المقاتلين، بل ويثيب المؤمن على ما فعله.

مثال آخر منتشر في القرآن كقوله تعالى في العديد من الآيات أنه غفر لرسوله محمّد(ع)، علما أن سياق الآيات وعموم السيرة النبوية "الصحيحة"، لا تشيران إلى ذنب ارتكبه الرسول محمّد(ع) عن قصد مخالفة أوامره تعالى، وراجع كمثال الآية 43 من سورة التوبة {عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ}، مضافا إليه الصفات التي يتحلّى بها نفس محمّد (ع) من سلامة القلب التي تمنعه أصلا من ارتكاب أي مخالفة مقصودة لأوامره تعالى، مضافا إلى ما كرّره القرآن من صيانة إلهية لرسله عبر الوحي لهم حتى لا يقوموا "وعن غير قصد" بمخالفة لأوامره تعالى لأن سيرتهم سنّة يستنّ بها الناس... إذن، حتى العمل غير المقصود إن كان سيئاً فلن يتغيّر عنوانه ليصير حسنا، وحين يتطابق مع الأمر الإلهي "كقتل العدو المقاتل" فإنه تعالى يعفو عنه ويغفر بل وأحيانا يثيب من فعله.

هنا الكلام عن قيام المؤمنين بعمل مشابه لما قام به الكافرون ضدّهم، فلنقل سلب المؤمنون أموالا للكافرين بدلا من الأموال التي سلبها الكافرون من المؤمنين، فما قام به المؤمنون يبقى توصيفه أنه عمل سيئ، والأسوأ منه قتل الكافرين المقاتلين، ولكن هذه الأمور متماشية مع الأوامر الإلهية التي تجيز للمؤمنين ردّ اعتداء الآخرين عليهم، وتجيز لهم أخذ حقوقهم... فسبحانه يعفو ويغفر للمؤمنين عن هذه الأعمال التي لن يتغيّر توصيفها بأنها سيئة، وبما أنهم قاموا بها متماشين مع أوامره العادلة تعالى، فلهم عليها أجر.

وهكذا ترى الآية هنا تقول للمؤمن: نعم هذه الأفعال سيئة، فالردّ بالمثل على ما فعله الكافرون بالمؤمنين من سوء، فهو عمليا قيام المؤمنين بعمل سيئ مماثل لما فعله الكافرون، فإن فكّرت بأنك لن تقلّد الكافرين في سوئهم لأنك لا تفعل السوء، فتركتهم يعتدون عليك ولم تردّ على اعتدائهم، أو فكّرت بأنهم من بعد ردّك على أفعالهم ستتفاقم الأمور وتصير أسوأ لأن الكافرين سيصعّدونها لتصير أسوأ، فاعلم أنه تعالى سينصرك، طبعا إن لم تك باغيا، واعلم أن عمل السوء ردا على السوء الذي قام به الآخرون فهو معفو عنه ومغفور ذنبه.

وتتذكّر دائما أن الكلام الإلهي يفترض بك العقلانية، ويخاطبك بالعقلانية، فيجيز لك الردّ على سوء الكافرين بمثلما فعلوا، ولا يستعمل عبارات يأمرك فيها بفعلها على أي حال، فقد تكون الظروف غير مناسبة لأنهم أقوى بكثير ولا مجال أبدا للمناورة معهم أو مواجهتهم، وقد يكون الحلّ السلمي ممكنا، وهنا كلام الآية مبني على هذا المعنى.

والكلام يجرّ الكلام، فالعديد من الدارسين للقرآن ولسيرة النبي محمّد(ع) لم ينتبهوا لهذا، فالآية 29 السابقة {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}، تراها مستعملة كثيرا في أدبياتنا على معنى أنه تعالى لم يأذن من قبل للمؤمنين بقتال الكافرين، ونزلت الآية بالإذن، لا، فالآية عمومية المعنى، فالقتل عمل سيئ، ويبقى توصيفه سيئا، ولكنه تعالى أذن به فقط وفقط عندما يتعرّض المؤمنون للقتل، وفي نفس الوقت لم يجبرهم تعالى على القتال دوما، فربما الظروف لا تسمح لأن المؤمنين ضعفاء ولا مجال للمناورة أو مواجهة الأعداء، وربما هناك مجال للحلّ السلمي وحصول المؤمنين على حقوقهم... وهكذا تفهم معنى تعابير القرآن عن الأمر بالقتال مع تعابير الإذن بالقتال مع تعابير الجنوح للسلم... فلمختلف الحالات أحكام مختلفة.

بقي شيء تسمعه من المدّعين للفهم، فيقولون إنّ أي دين كان فيجب أن تكون تعاليمه لا تتضمّن العنف، فيجب أن تكون عن المحبّة والتسامح... لأن القيمة المعنوية للدين كشيء جديد مضاف على حياة الناس ليؤمنوا به، فيجب أن تكون نابعة من تعاليمه التي تدعوهم لمحبة بعضهم البعض، وبالتالي فيجب أن لا يحصل حروب بين الجماعات لأنها مختلفة عن بعضها في الدين، ويجب أن لا ترفع الناس شعارات دينية تدعو لقتال الآخرين، ويجب إبعاد اسم الإله عن أي قتال لأن المفروض بالإله أن لا يسمح للناس بقتل بعضهم البعض...

والأسخف من ذلك قولهم إنّ المنتمي لدين ما فيجب أن يسامح أعداءه حتى لو عذّبوه وقاتلوه... وأن لا يردّ على بغيهم بمثله وإلا فلا فرق بينه وبينهم، فهم مجرمون وهو بالردّ عليهم بمثل ما فعلوه يصير مجرما مثلهم.

هذه الترهات ناشئة عن سذاجة، أو عن محاولة تسفيه دينه تعالى وتنفير الناس منه بتصوير الدين دمويا، أو جعل المنتمين لدينه تعالى أغناما ليحكموها... وبعضهم كذب علنا ليحارب دينه تعالى لجعله مماثلا لبقية الأديان التي سبّب الإيمان بها حروبا دينية بين الناس، بل وبعضهم وبضبابية جعل دينه تعالى سببا لمآسي وحروب البشرية!

هؤلاء في قلوبهم مرض، ومنهم القاسية قلوبهم العمي الصمّ، فمعلوم للجميع وبوضوح أن أكبر حروب البشرية لم يكن سببها دينياً، فلنرجع إلى أكبر الغزوات عبر التاريخ، إلى الهكسوس والآشوريين والفراعنة والفرس والصينيين... والرومان واليونان... والأمويين والعباسيين والمغول والعثمانيين والحملات الصليبية... وحرب بحر الصين والحرب الأوروبية الأولى والحرب الأوروبية الثانية التي تطوّرت وكبرت رقعتها لتصير مسمّاة بالحرب العالمية الثانية... ناهيك عن مئات الحروب عبر التاريخ بين بلدين أو مدينتين... فمعلوم بوضوح أنه حين جرى إقحام اسمه تعالى في حرب ما، فقد كانت مجرد عنوان مثل أي عنوان آخر لتحفيز واستفزاز الناس ليشاركوا في الحرب.

مختصر الكلام أن ما تسمعه في عصرنا من مهاجمة للقرآن ولدين المسلمين أنه دموي إرهابي، ففي جانب منه الكلام صحيح لأن العديد من تفاسير القرآن من عقلية الإجرام جعلت معناه إجرامياً، والعديد من جماعات المسلمين هم فعلا

مجرمون دمويون، ولكن هل الآخرون نعاج مسالمة! أم هي مجرد دعاية مركّزة على دين المسلمين ليبدو دمويا حتى تكرهه الناس وليبدو دين النصارى واليهود والهندوس... مسالما! فالإجرام الذي فعله عبر تاريخ البشرية المدّعون الانتساب للنبي عيسى(ع) وللنبي موسى(ع) يفوق بأضعاف مضاعفة ما فعله المدّعون الانتماء للنبي محمّد(ع).

فمن ناحية الدراسة العقلانية ترى أن الحروب تستغل اسم الدين لتصير الحرب دينية وكأن المشاركين فيها لا مصالح لهم فيها! فهم يقاتلون لأجل الإله، ودفاعا عن دين الإله... بينما العكس هو الصحيح فالحروب والنزاعات دائما سببها مصالح شخصية لعصابة حاكمة تشحن الجماهير بكل أنواع الكلام حتى يشاركوا في الحروب...

حتى أن عموم المسلمين وقعوا في نفس فخّ نسبة القتال له تعالى وأنهم هم لولا ذلك لما قاتلوا، فحملوا راية القتال في سبيل الله كعنوان يجعل حروبهم إلهية وهم لا مصلحة ولا علاقة لهم بها إلا لأنه تعالى أمرهم بها!

والأنكى من ذلك تلبيس كلامه تعالى القرآني بمعانٍ من هذه الخلفيات الفاسدة المتعارضة حتى ضاعت البوصلة ولم يعد الرجوع إلى التفاسير والفتاوى صالحا لتمييز الحقّ من الباطل.

في قرآنه عزّ وجلّ ممنوع فعل أي اعتداء أو بغي على أي إنسان مهما كان دينه أو جنسه أو عرقه، طالما هو مسالم حتى لو لم يكن مسلما بل حتى لو كان كافرا مشركا ملحدا، وهذا واضح وصريح في كل القرآن ومنه ما ورد في الآية 8 من سورة الممتحنة {لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، وفي قرآنه تعالى إذن للمؤمنين بقتال الذين يقومون بأنشطة قتالية بغيا وعدوانا ضد المسالمين ومنه ما ورد في الآية 190 من سورة البقرة {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}، وفي قرآنه تعالى إذن للمؤمنين بقتال الذين يقومون بأنشطة قتالية بغيا وعدوانا حتى لو كانوا منتمين بالاسم لدينه تعالى فكانوا مسلمين وتقرأ ذلك في الآية 9 من سورة الحجرات {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

في قرآنه سبحانه مسموح ردّ الاعتداء بمثله وممنوع الزيادة عليه، وتقرأ ذلك في الآية 126 من سورة النحل {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ}.

وفي قرآنه سبحانه كما ورد منذ قليل {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}، فالتعبير بـ "أذن" يقصد الهامش المتروك لعقلاء المؤمنين لتقدير المصلحة في الردّ على العدو الباغي بقتال، أو بنوع مناسب من الردّ بحسب القدرات المتوافرة والمتاحة للمؤمنين، وفي آيات أخرى أمر بالقتال حين يكون لدى المؤمنين قدرة عليه مع تحميل درجة إيمان وصبر المؤمنين مسؤولية تعبئة الفرق العددي بينهم وبين عدّوهم كما تقرأ في الآية 66 من سورة الأنفال {الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}.

وفي قرآنه تعالى وعد بنصر إلهي على الباغين حتى لو كان الردّ على بغيهم يبدو أنه سيجعلهم يبغون من جديد، أو سيبغون بشكل أعنف، فهذا ليس عذرا حتى لا تقاتلوهم طالما لديكم القدرة على الردّ...

في قرآنه تعالى تبريرات لكل ما أمرنا به تعالى، ومنه تبريرات إذنه تعالى للمؤمنين بقتال الآخرين، فالإذن بقتالهم جاء دائما مع أسباب السماح به، فالاخرون هم اعتدوا أولا، وهجّروا، وسلبوا أموال وحقوق المسالمين... وهذا ورد مرارا في قرآنه تعالى ومنه الوصف الوارد منذ قليل في هذه السورة "بأنهم ظلموا".

في قرآنه تعالى لن تجد أمرا بقتال الآخرين لسبب لا علاقة لك به، فلن تجد تعليق السبب به تعالى، فأنت كمنتمي لدينه تعالى تؤمن بالحق وتعمل الصالحات، ولذلك عارضك الآخرون المؤمنون بالباطل الفاعلون للسيئات، وقد تبنّى سبحانه نسبة قتالك للباغين عليك لأنك مؤمن بالحق وعامل للصالحات، فسمّاه قتال في سبيله، والمعنى الحرفي لهذا التوصيف أنك تقاتل بما يرضيه تعالى، فلم تعتد ولم تبغ، بل دافعت عن نفسك.

في قرآنه تعالى لن تجد أمرا إلهيا بنشر دينه تعالى بالقوّة، ولن تجد أمرا إلهيا بتدمير حكومات الآخرين مهما كان نوعها حتى لو كانت كافرة علمانية مشركة ملحدة... وها نموذج واضح من كلامه تعالى مع نبيّه موسى(ع) الموجّه لفرعون...

ولن تجد في قرآنه تعالى سماحا بالفتوحات والغزوات... ضد المسالمين مهما كان دينهم أو عرقهم.

(ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ {61})
{ذَٰلِكَ}، الذي أشارت له الآيتان السابقتان عن الحلم والعفو والمغفرة والقدرة على نصرة المؤمنين: {بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ}، يجعل فترة العتمة من اليوم تدخل، {فِي النَّهَارِ}، في فترة الضوء من اليوم، حيث من العشي إلى ما بعد الغروب نرى العتمة تدخل رويداً رويداً مكان الضوء، وبالعكس، {وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}، حيث يجعل الضوء يدخل في العتمة، ومن الفجر إلى ما بعد الشروق ترى الضوء يدخل في العتمة ويحلّ محلّها.

هذا الحدث الضخم المتكرر يومياً نموذج يشير إلى عظمة قدرته تعالى، وفي نفس الوقت يشير إلى أنه تعالى مراقب متابع دائماً لنا، لأنّ تكرار هذه الظاهرة متعلّق بأمره تعالى لها أن تحصل، ونحن لا نعيش في آلة أوتوماتيكية تعمل لوحدها إن تركها سبحانه بالكامل لوحدها، بل صمّمها تعالى وخلقها لتعمل لوحدها ولكنها ستزول إن تركها تعالى ولم يحفظها كما تقرأ صراحة في الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ...}، ومن ناحيتنا نحن نلاحظ كوناً يعمل وفق قوانين فيزيائية وكيميائية وبيولوجية...

بعبارة أخرى لا يوجد شيء اسمه الطبيعة الفاعلة لوحدها، بل هي الطبيعة نتيجة تصميمه وخلقه تعالى لها، ولا استمرارية لوجودها لوحدها إن تركها تعالى ولم يمسك كيانها من الزوال.

ما يفعله الكفار وما يحصل مع المؤمنين هو تحت مراقبة ومتابعة ذي القدرات الفائقة، المسؤول عن تكرار إيلاج الليل والنهار متعاقبين، والكلام على معنى أول سورة الضحى: {وَالضُّحَىٰ، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ...} لأن حصول الليل والنهار سببه العناية الإلهية بكل ما في الدنيا، مما يعني أنه تعالى متابع ومراقب لكل شيء، فلا يخطر ببالك أن ما يجري معك غائب عنه تعالى...

{وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ}، يسمع كل شيء فلا يغيب عنه أي شيء يحصل، و{بَصِيرٌ}، يدرك "بمستوى إلهي" ويعي معنى صورة ما يحصل، ويرى ويدري بكل شيء يحصل، فإذا لم تر تدخّله تعالى ضدّ الكفّار فهذا لا يعني أنه تعالى لم يسمع أو لم ير ما جرى، لا، بل يسمع كل شيء ويرى كل شيء، وأبسط دليل على ذلك هو تكرار الليل والنهار يومياً، لأن هذا شيء لا يحصل بدون المتابعة الإلهية، وهل توقّف الليل والنهار حتى تشكّ في غيابه تعالى عن السمع والبصر؟

بقي شيء، الدارج في ثقافتنا الدينية أن الملائكة (ع) تقوم بأعمال تسيير ما في الدنيا، وبعض الكلام يشير إلى ملائكة تحرّك الأرض وتحرّك الشمس وتحرّك الرياح وتنزل الماء... ويدرج في أدبياتنا تصنيف الملائكة بأعمال متعلقة بنا، حيث هناك ملك للموت وملك للرزق وملك لتعذيب الكافرين... ولبعض هذا الكلام مستند قرآني صريح، كالكلام عن ملك وملائكة لتوفينا، وعن ملك وملائكة لتعذيب الكافرين، ومنها استوحينا أن ملكاً هو النافخ في الصور الذي يعيدنا إلى الحياة مع أن القرآن لم يذكر أن النافخ في الصور ملاك، واستوحينا أن ضيوف النبي لوط(ع) كانوا ملائكة تولّوا إهلاك قومه... ولكن التوسّع المتشرب في ثقافتنا لم أجد له دعماً قرآنياً صريحاً أو تلميحاً، ولا تجد كلاماً عن ملائكة تقوم بتسيير الأمور التي تحصل في الدنيا، ولا تجد كلاماً عن أي علاقة لهم بحصول الليل والنهار ولا نزول الماء ولا تسيير الرياح. وألفت انتباهك لشيء خطير، إذ لا شيء في القرآن عن ملاك موكل بالرزق، بل هناك المعاكس لذلك تماماً بربط الرزق به تعالى مباشرة، حتى فرضاً لو كان لملاك ما وظيفة لها علاقة بالرزق الذي نحصل عليه، فهو لا قرار له فيما يفعله، تماماً مثلما ملك الموت لا قرار له بتوقيت موتنا، بل وظيفته توفّينا عند الأجل الذي كتبه سبحانه.

بناءً على موروثنا الثقافي فهم البعض أن ما نسمّيه بقوانين الفيزياء من ثقالة وجذب وحركة... ما هو إلا وجه آخر للأعمال التي تقوم بها الملائكة، وهذا لا تصريح قرآنياً له بل يتعارض مع كلام القرآن عن مراحل مترابطة متسلسلة لخلق السماوات والأرض مما يشير إلى ما نسمّيه بتعابيرنا الحالية بآلية ميكانيكية صمّمها تعالى لتسير عليها الأمور.

(ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ {62})
{ذَٰلِكَ}، الذي قالته الآيات عن النصرة الإلهية للمؤمنين ووعدهم بالرزق الحسن والمدخل الحسن، والصفات الإلهية الرائعة من العفو والحلم، وقدرته على نصر المؤمنين، ومتابعته لكل ما يجري... {بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ}، هو الصواب،

فهو الإله فعلاً فبكل وضوح ترون صفاته الفائقة، {وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ}، ما يعلنه الناس ويشهرون به لآلهة أخرى غيره تعالى، {هُوَ الْبَاطِلُ}، هو إعلان وإشهار لن يكون له فعالية، ووصفه بالباطل له تبعات عديدة، فهو فاسد غير صالح وليس صحيحاً... وتفهم أصل معنى كلمة باطل من جملة: أبطل مفعول الدواء.

{وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ}، الأعلى من كل شيء، والعلي في الشعر العربي قبل الإسلام عادة مستعملة مقابل الأخفض مادياً أو معنوياً، فمهما اخترعتم آلهة بمواصفات عالية، أو فكّرتم في أحد لديه قدرات عالية، فكلّه "في منخفض، تحت" الله العلي الأعلى من كل شيء، بل أعلى حتى من أي تصوّر نحن المؤمنين نتصوّره له تعالى، فحتى لو أنت كمؤمن أردت أن تتصوّر صفة له تعالى، واستشعرت بها في أحاسيسك، وارتقيت بها في أعلى قدرات فكرك ووجدانك، فأنت لن تصل أبداً إلى العلو الإلهي الحقيقي.

الله {الْكَبِيرُ}، أكبر من كل شيء، أكبر من أي كائن آخر في كلّ شيء، والبقية "أصغر"، وصفاته وقدراته أكبر من أي صفة أو قدرة يملكها كائن آخر، ويمكننا فقط تقريب صورة كبره تعالى، ولا يمكننا أبداً أن نفهم حقيقة كبره تعالى، لأن عقلنا وقدراتنا محدودة.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ {63})
تعقيباً على كل ما سبق من كلام عنه تعالى، وكدليل حسّيّ على عظيم قدرته سبحانه: {أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت. {أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}، بالمطر، {فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً}، فأول ما يحصل أن يصير خَضارٌ على الأرض بسبب نمو النبات، {إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ}، فالتعامل مع هذه الظاهرة الرقيقة "نزول الماء وخروج النبات" يدل على أنه تعالى لطيف فلا جسم له ولديه القدرة على التعامل "بلطف" بلين برقّة مع الأشياء، والله {خَبِيرٌ}، فلديه أخبار تفاصيل كل شيء، والمثال هنا عن خروج النبات بلون أخضر بعد نزول الماء من السماء على الأرض، وفيه تفاصيل كثيرة جداً جداً، وكلّها خبرها عنده تعالى.

مثلما ننظر للفرق بين الإنسان الذي يصنع الساعة الصغيرة وبين غيره، وبين الطبيب الذي يخيط الشرايين الدقيقة وغيره... وننتبه للفرق بين قدرة هذا الإنسان وذاك على التعامل مع الأمور الدقيقة، هنا الآية تلفت الانتباه لقدرته تعالى على التعامل مع دقائق الأمور لأنه لطيف، ويمكنه سبحانه التعامل بلطف مع الأمور الدقيقة، ولديه كافّة المعلومات الدقيقة عن هذه الأمور الدقيقة.

وقع البعض في كلمة "{تُصْبِحُ}" الأرض مخضرّة، قائلاً إنّه في بعض الأماكن ينزل الماء بالليل وعند الصباح "تصبح" الأرض مخضرّة! حيث علقوا في معنى كلمة "{تُصْبِحُ}" أنها مخصوصة لأول النهار، للصباح، على أساس أنه في مقابلها "أمسى" للمساء. علماً أنّ العرب قديماً والقرآن يستعملون كلمة "أصبح" ومشتقاتها لتوصيف الصيرورة لأول حالة بعد حدث، مشابهة بذلك الإصباح فهو أول ما يستقبلك من النهار، فأوّل تغيّر يحدث بعد حالة كانت قبله، نقول: أصبح كذا. خذ مثلا الآية 10 من سورة القصص {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا}، والأوضح منها في الدلالة على المعنى الذي قلناه الآية 103 من سورة آل عمران {فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا}، الآية هنا تشير إلى حالة اخضرار الأرض كأول حدث بعد سقوط المطر، بغضّ النظر عن زمن حدوثها بعد ساعة أو ليلة أو يوم أو أيام...

تذكّر دائماً المثال المكرّر في دراستنا هذه عن النظرة الإلهية للأمور، تصوّر نفسك أنت قرّرت تصميم وخلق كائنات، فصممتها تجوع فتأكل لتنمو... هل ستطهو لها الطعام بيدك أم ستجعلها في بيئة ينتج عنها الطعام؟ وإن خلقتها في بيئة متوافر فيها الطعام، ألا تكون أنت رازقها ومن أطعمها؟ مِن هذه النظرة نفهم كلامه تعالى معنا عن خلقنا وأنه رازقنا، ونفهم تعابير نسبة نزول الماء وخروج النبات... له تعالى، لأنه هو صمّمها وخلقها.

المنتمون لدينه تعالى قديماً، لم يفهم الكثير منهم كلامه تعالى من هذه النظرة، حيث فسروا الكلام على حرفيته لاغين الأسباب والمسببات، على معنى أنه وبلا أي سبب يأمر سبحانه المطر أن ينزل فينزل الماء، وأمر تعالى أن تصير الدنيا فصارت، وأمر أن يصير بشر فصار آدم... وهم معذورون لأن معطياتهم كانت عاجزة عن فهم الآليات التي صمّمها وخلقها تعالى لحدوث الأمور، ولكن العقلاء منهم ليسوا معذورين حين قدّسوا تفاسيرهم وجعلوها هي الدين،

فكان الأجدر بهم الالتزام بمعاني الكلمات كما هي والانتباه لتغيّر المعطيات وتطوّرها، وهم يعلمون أن من سبقهم كان لديهم معطيات تبيّن خطؤها فيما بعد، وبالتالي معلوماتنا الحالية ليست أفضل حالا، سيأتي زمن يبيّن خطأ بعضها، ونقصان بعضها، وتقويم بعضها...

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ{64})
{لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ}، وهنّ سبع سماوات، وله تعالى، {مَا فِي الْأَرْضِ}، التي تقابل كل سماء، فلكل سماء أرض أو أراضٍ تناسبها، وصولاً إلى المسمّاة بالكرة الأرضية التي نعيش عليها وهي بيئتنا التي نعرفها جيّداً، ولسمائنا أراضٍ أخرى كأرض القمر وأرض المريخ... وهكذا للسماوات الأخرى أرض أو أراضٍ تناسب تكوينها، وهذا ما أشارت له الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}، وهذا التعبير القرآني بـ {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} يشير لحدود كل دنيا المخلوقات فهي منسوبة له تعالى، وهو مصممها وخالقها ومدير شؤونها...

{وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميز {اللَّهِ} هو الوحيد المنفي عنه عموم الحاجة لأي شيء، المستغني بكل ما للكلمة من معنى، وصفاته وقدراته كاملة فائقة، وكل شيء منسوب له وأصلاً لا يحتاج أي شيء.
ووصفه تعالى بالغني ليس تفسيره أنه تعالى يملك كل شيء وبالتالي يصير المعنى أنه تعالى يملك ما يحتاجه، وهذا غير صحيح، لأن كلمة {غَنِيّ} تفيد معنى الاستغناء، وهو عموم انتفاء عموم الحاجة لعموم أي سبب، إمّا لأنك لا تحتاج أصلاً للشيء، وهذه حالته تعالى {الْغَنِيُّ} بالنسبة لكل شيء، وحالة الملائكة بالنسبة لطعامنا... أو غنيّ لأنك لديك ما تحتاجه وهذه حالتنا حين نملك الطعام والشراب... أو غنيّ لأنك تملك ما يمكّنك من الحصول على ما تحتاج، وهذه حالتنا حين نملك المال لنشتري به ما نحتاجه. وترى هذا المعنى للاستغناء بشكل مباشر وواضح لأصل معنى كلمة {غَنِيّ} في تعبير {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}، كما ورد في الآية 97 من سورة آل عمران، بوضوح يشير الوصف بالغني للاستغناء، فلا حاجة له تعالى بهم.

{لَهُوَ الْحَمِيدُ}، بكل ما لكلمة {حَمِيد} من معنى فهو سبحانه موصوف بها، فلا يصدر عنه تعالى إلا الأعمال الجيدة الحسنة.

تعبيرنا بـ {الْحَمْدُ لِلَّهِ} يشير لإيماننا بأنه تعالى لا يصدر عنه إلاّ أعمال جيّدة، فنحمده عليها، لأنه موصوف بأنه {حَمِيد}، وأكّد القرآن على هذا كثيراً، وهذا لبّ الإيمان الصحيح به تعالى، ومن تعلّق بشيء واحد مما في الدنيا فلن يفهم حقيقة حمده تعالى، لأن فقدانه لأي شيء دنيوي من مال أو صحّة أو ولد أو نجاح... سيجعل الإنسان يراه تعالى لا يعامله بشكل جيّد، على معنى: {رَبِّي أَهَانَنِ}. كما ورد في الآية 16 من سورة الفجر، فلا يستطيع أن يحمده تعالى على فقدان شيء يريده بشدّة، ويحمّله تعالى مسؤولية فقدانه ما يريد، علماً أنه تعالى لم يفعل معنا أي شيء غير حميد، بل نحن نفعل ونسبّب السوء لأنفسنا ولبعضنا البعض.

يعني من كان له كل شيء، ومستغنياً عن كلّ شيء، ولا يصدر عنه إلا أعمال جيّدة، فكيف تجعلون له آلهة شريكة؟! وماذا فعلت تلك الآلهة؟!

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{65})
لَفْتُ انتباهٍ "دليل حسّي" على نسبة كلّ ما في الدنيا له تعالى وغناه وحمده تعالى:

{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شُفْت، ألم تلتفت، {أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ}، حيث جعلها متاحة لكم من دون أن تقدّموا أي شيء، {مَا فِي الْأَرْضِ}، من موارد وكلها متاحة لكم لتستخدموها وأنتم لم تخلقوها ولم تصنعوا تلك الموارد ولا علاقة لكم بوجودها ولا بخصائصها.

وسخّر لكم، {الْفُلْكَ}، وهي الأشياء التي تعوم على الماء، كالسفينة والمركب والفلوكة... {تَجْرِي}، تسير بالتتابع، {فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ}، حيث إن الفلك هي نموذج عن تسخير البيئة من حولكم لكم، وأنتم لم تجعلوا الأشياء تطفو على الماء، وإنما استخدمتم خاصية طفو الأشياء على الماء وهي خاصية صمّمها ونفّذها تعالى، لذلك صارت الفلك تجري على

الماء بأمره تعالى حيث أراد أن تكون هذه الصفات للماء وللمواد، وهكذا صار، ونُفِّذ أمره وحصل ما يريده تعالى، وصارت الفلك تجري على الماء.

الفلك مجرد نموذج عن نتائج خصائص البيئة من حولنا، والطائرات والسيّارات واحتراق النفط لتسييرها... كلّها خصائص نستخدمها ونحن لم نصمّم خصائص الأشياء بل سخّرها لنا تعالى.

والله تعالى، {يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ}، لأن عموم ما علانا من فضاء بما فيه، قابل للوقوع علينا وسبحانه حين صمّمها أمسكها عن الوقوع علينا، {إِلَّا بِإِذْنِهِ}، حيث إنه بين الحين والآخر يأذن، يسمح تعالى أن تنزل النيازك والشهب لتضرب الأرض، ولكن بشكل عام يمسكها تعالى فلا يجعل ضربات سماوية عنيفة تضرب الأرض بشكل دائم، ويبدو للبعض من بعض الكلام القرآني عن مرحلة تبدّل الدنيا أنه سيأتي زمن يتعرّض فيه كوكب الأرض لضربات من نيازك السماء ولكن هذا التفسير ليس صريحاً واضحاً من الآيات فراجعها لمزيد من الدراسة.

{إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ}، لأنه ليس قاسياً صلباً ولم يجعلهم يعيشون في بيئة صعبة مرعبة هشّة، {رَحِيمٌ}، حيث يعتني بالمؤمنين بشكل خاص لما فيه مصلحتهم، واستعمل القرآن كلمة {رَحِيم} كصفة خاصة لمعاملته تعالى للمؤمنين فقط.

بعبارة أخرى، كل ما نراه من حولنا من تسخير لم يكن المقصود منه تأمينه وتسخيره للكفار، بل كرامة للناس المؤمنين العاملين للصالحات صارت البيئة على الأرض والسماء مسخّرة لكل الناس.

كررنا في دراستنا هذه تَصَوُّرَ لو أنك أنت قررت خلق كائنات في بيئة، فأنت ستضع الصفات للكائنات والبيئة، وبالتالي كل ما سيحدث سيرجع في أساسه لك، لأنك صمّمته ليحدث، ولنقل إنك قررت جعل الكائنات تنمو بالأكل، وتشعر بالجوع وتضطر لإسكات هذه الرغبة وإلا ستموت... ولديك خيارات عديدة لذلك، هل ستخلق لها وجبات جاهزة أم ستجعل البيئة ينتج عنها الطعام؟ وحين تجد الكائنات الطعام في بيئتها ألن تكون أنت رازقها؟ وهنا الكلام في الآية يشير إلى هذا المفهوم، فهو سبحانه سخّر متيحاً لنا ما حولنا لنستخدمه، والسفن ليست اختراعاً بشرياً لم يخطر على باله سبحانه، لأنه أصلاً حين صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وضع فينا الفكر والملاحظة... ووضع في بيئتنا ما يعلم أنه سيوصلنا لصنع السفن، ولذلك ينسب سبحانه جريان السفن لنفسه، وسبحانه أيضاً صمّم السماء مع قابلية وقوع أشياء منها على الأرض...

بقي شيء عن التعبير بوقوع السماء على الأرض، حيث إن تعبير السماء يشير لعموم ما علا من فضاء ويقابله عموم أي أرض، فكوكبنا أرض، وسطح القمر أرض، وسطح الشمس المشتعل أرض... والوقوع تعبير يشير لعموم ما يسقط من فوقك، وقديماً جداً علم الناس أو حصل في منطقتهم سقوط نيازك من السماء، وعموم مختلف اللغات يعبرون عن وقوع الأشياء من السماء بأنها هي السماء وقعت عليهم، علماً أنهم لا يقصدون وقوع الفضاء عليهم فهذا لا معنى له، ولا يقصدون وقوع قطع لونها أزرق، فهذا لم يحصل ولم نسمع في كلام الناس قديماً أي تعابير تشير لهذا المعنى، وأوّل مرّة سمعته كان من أغبياء علّقوا على كلام القرآن بتفسير كلامه عن وقوع السماء بسخافات لم نسمع بها من قبل، فقالوا إنّ محمداً(ع) حين ألّف القرآن تصوّر السماء كقطعة زجاجية يمكن أن تتكسّر وتقع على الأرض، وكما ترى فإن تعابير القرآن هي نفسها متداولة بين العرب وبين عموم الناس من مختلف اللغات عن توصيف وقوع أشياء من السماء، ولا قديماً ولا في عصر النبي محمّد(ع) ولا حديثاً سمعنا بأحد يقول ما قالوه من سخافات لتفسير كلامه تعالى لاتهام النبي محمّد(ع) بأنه ألّف القرآن.

(وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ {66})
{وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ}، جعلكم أحياء أي تتفاعلون مع أنفسكم ومع بعضكم ومع بيئتكم، ولديكم وعي، وتنمون فتكبر أجسامكم... هنا في الدنيا، {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ}، فيأخذ الحياة منكم فتصيرون فاقدين للوعي والتفاعل، ثم، بعد ذلك، {يُحْيِيكُمْ}، فمرة ثانية يجعلكم أحياء في الآخرة.

{إِنَّ الْإِنْسَانَ}، إن الغالب الأعم من الناس، {لَكَفُورٌ}، لناكر، والكلام هنا عن إنكار غالبية الناس لإحيائه تعالى لنا مرتين.

ضع في بالك دائماً أن القرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموماً ذكراً وأنثى، وأنهم يتناسلون... أو متعلقٍ بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

هنا تشير الآية للغالبية الساحقة الناكرة، ومن السياق هنا نعلم أنهم ناكرون لفضله تعالى عليهم عندما أعطاهم الحياة بالرغم من وضوح وقوعنا تحت سيطرة من منحنا الحياة ويأخذها منّا، وهو نفسه تعالى يخبرنا بأنه سيعيد الحياة لنا، فبدل الإيمان به وشكره تعالى فالغالبية كافرة بإحيائه وبإعادة إحيائه تعالى لنا.

في الآيات السابقة رأينا عرضاً حِسِّيّاً ملموساً لبعض قدراته تعالى، ولخلقه لنا، وبالتالي فما معنى تكذيب خبر منه تعالى عن إعادة خلقنا مرّة ثانية؟ وما نراه دليل أكثر من كافٍ لنتأكّد من صحّة كلامه سبحانه عن بعثنا من موتنا.

كما تلاحظ، وصف القرآن لحالة صيرورتي "حياً" أنه تعالى أحياني، لأنني كنت ميتاً وأحياني، وعلى أساس المعنى اللغوي للكلمات يتماشى الوصف مع بقية الأوصاف الأخرى لتكويني، حيث فطرني وخلقني وأحياني... فهي أوصاف لنفس النتيجة ولكنها ناظرة لجوانب مختلفة، ولم أكُ شيئاً وكنت ميتاً، أيضاً أوصاف لنفس الشيء من زوايا مختلفة.

أقول لك هذا لأننا عادة في حالة الإنسان نتصوّر وصف الموت فقط لشيء كان حياً ومات، ولا نتصوره وصفاً لمن لم يَكُ شيئاً من أصله، وهذا سبّب للكثيرين افتراض وجود روحي أنا أو نفسي أنا عنده تعالى، ويصير عندهم التعبير بـ "كنت ميتاً" يشير إلى حالة تجرد الروح والنفس عن جسد، والتعبير بـ "أحياني" يشير لإسقاط أو تلبيس أو دمج... الروح والنفس بجسد، وهذا كلام افترضوه ولا تجده صريحاً في كلامه تعالى، وأصلاً فيه مشكلة ناتجة عن تعاريفهم لهذه الكلمات، فروحي التي يقولون إنها كانت عنده تعالى قبل خلق جسدي، وبحسب تعريفهم للروح الإنسانية، فهي لا تتحمّل الوصف بالموت... وبذلك يعيدون صياغة الجمل حتى يصير التعبير القرآني عن إحيائي مشيراً لحالة إحيائي بجسد... ولا تترك حكمك على كلامي المعترض على كلامهم ضبابياً، وراجع أي آية تظن أنها تشير لما قالوه لترى أنها ليست صريحة فيما استخرجوه منها.

لدينا توصيف قرآني منتشر في السور عن الأرض الميتة وأنه تعالى أحياها، وفي هذه الحالة لن تفترض نفساً أو روحاً سابقة للأرض، ولن تفترض أنها كانت حيّة وماتت، وبعد ذلك أحياها تعالى، بل ستفهم أنها كانت ميتة مثل مَوَاتٍ أي سطح كوكب أجرد من الحياة النباتية، وبسبب نزول الماء صارت حيّة بخروج الحياة النباتية.

على أي حال، لست أقصد تسخيف موروثنا الثقافي عن الروح والنفس والجوهر... أو أي شيء آخر، بل أقصد لفت انتباهك أنها أبحاث وافتراضات ونظريات وتخمينات، ويمكنك معارضتها أو الموافقة عليها، أو أن تأتي بفرضية جديدة... ويمكنك محاولة استشفافها من وحي كلام القرآن، فلا مشكلة في كل ذلك، وإنما المشكلة في جعل أي واحدة منها جزءاً من دينه تعالى، فلا تَعُدْ فرضية أو نظرية وتصير بقوّة قداسة كلامه تعالى، ويصير الإيمان بها ضرورياً، ويصير إنكارها كفراً بالدين الإلهي! والمشكلة الثانية هي حصر البحث في هذه الأمور بين علماء الدين والكتب الدينية، على أساس أنها شيء ديني، ولكن ما هو الديني في هكذا موضوع؟

كما ترى، الكلام يجر الكلام، وترى مشكلة في فهمنا لكلمة دين التي أوصلتنا إلى منع الآخرين من البحث في بعض الأمور بعد تصنيفها أنها دينية، وهكذا يصير الكلام عنها محصوراً فقط في علماء الدين ومحصورةً مصادرها بكتب الدين!

أليس أساس إيماننا بهذا الدين مستنداً على فهم كلام إلهنا؟ وبعد تفريد العلوم التي نحتاجها لفهم كلامه تعالى سترى بوضوح أنه لا شيء منها دينيٌّ بالمعنى الضبابي المنتشر لكلمة دين، فلديك علوم اللغة والعقيدة والشريعة والتاريخ... وكما ترى فهي اختصاصات لغة وفلسفة وقانون وتاريخ... وليست شيئاً دينياً، يكفي هذا المقدار من الإطالة عليك، فقد صارت الفكرة واضحة.

لمزيد من التوسّع حول حالة الموت الأولى راجع دراسة الآية 28 من سورة البقرة {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، وبعدها راجع دراسة الآية 67 من سورة مريم {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}.

(لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ{67})
بعد كل الذي منحه تعالى للإنسان، كان من المفروض أن يكون الإنسان معترفاً بالجميل شكوراً، لا كفوراً!

{لِكُلِّ أُمَّةٍ}، لكل جماعة من الناس لها انتساب أساسي، تشترك في شيء على امتداد تاريخها، والكلام هنا عن المشتركين بتوحيده تعالى، {جَعَلْنَا مَنْسَكًا}، عملاً عبادياً، {هُمْ نَاسِكُوهُ}، هم يقومون به، وعلمنا من مجمل السورة أنها تقصد بالمنسك عموم الأعمال التي نسمّيها بالعبادية غير الصلاة وبالخصوص عمل التضحية في الحج في مكّة لشكره تعالى على بهيمة الأنعام، حيث أمر تعالى الأمم السابقة بتقديم الأضاحي كاعتراف بفضله سبحانه عليهم.

{فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ}، فهذا الأمر، هذا الموضوع عن المناسك، فلا تدع المشركين ينازعونك فيه، وتتحدّث عن أصله وتاريخه وسببه ووجوبه... وفي مقابل ذلك الذين في عصرك من الكفّار "ونموذج عنهم كفّار مكّة" يتحدثون عن الحجّ أنه تراث خاصٌّ بهم ولا علاقة لك به... لينزعوه ليفصلوه عن دينك، مثل النزاع على قطعة أرض بين طرفين كلّ واحد يقول إنها له لينتزعها من الآخر، حيث إن كلامهم عن كون النسك في مكّة خاص بهم هو غير صحيح، فلا تقبل بالحديث معهم أصلاً عن أحقية هذا النسك بدينك لأن الموضوع منتهٍ ولا مجال للكلام فيه.

{وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ}، أشْهِرْ وأعلن للناس أن ينتسبوا مثلك إلى المسؤول عنك من مستوى إلهي، وهذا كلام عمومي جاء هنا في سياق دعوتهم للنسك في الحجّ على أساس تبعيتهم لربّك سبحانه وليس لآلهتهم المزعومة.

{إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى}، أنت على أشياء صحيحة توصل لغاية صحيحة، {مُسْتَقِيمٍ}، يوصف بأنه على الأحسن فلا اعوجاج ولا انحراف في هداك. وأنت على دينه تعالى، متّبع لكلامه تعالى، حتماً أنت على الهدى، وبالنسبة للنسك في مكّة، ما تقوله عنه هو الصحيح لأنك مستند إلى كلامه تعالى، مستند إلى متانة صلدة في الحقّ، فتصرّف على هذا الأساس وكن واثقاً جداً ممّا تقوله وواثقاً من نفسك المعتمدة على هدى مستقيم.

كما ترى، سياق الكلام مع مشركي مكّة عن الحجّ، وهو نفسه موجّه لعموم أي إنسان قد يقول إن الحجّ طقوس اخترعها العرب أو محمّد أو المسلمون...

لا تقصد الآية كلاماً عن اختلاف في المناسك التي جعلها تعالى للمنتمين لدينه عبر التاريخ، لأن هذا لا معنى له ولا مستند قرآني تطبيقي له، ومثله الكلام بشكل واضح جداً عن وحدة ما نسمّيه بالعقيدة، فهي نفسها من أوّل ما تواصل تعالى مع البشر وستبقى هي نفسها، لأنها معلومات عن أمور حقيقية عنه تعالى وأنه واحد وعن أفعاله وقراراته، فلا سبحانه سيتغيّر ولا قراراته ستتغيّر، ومثله الكلام عن أساسيات الشريعة والسلوكيات التي أمرنا بها تعالى، فهي واحدة لن تتغيّر لأنها قائمة على مفهوم الخير والشرّ والفساد والصلاح، لأن الشيء السيئ لن يصير هو نفسه بذات عينه صالحاً بعد مدّة، ولا العمل الصالح هو ذات نفسه وبنفس الظروف سيصير فاسداً، ولذلك فأساسيات تشريعاته تعالى لا تتبدّل.

ومثله الكلام هنا عن النسك، فلا تقصد الآية أنه تعالى جعل مناسكَ مختلفة عبر التاريخ للمنتمين لدينه، لا، بل الكلام عن نسك تقديم الأضاحي، فهذا هو الأساس الثابت، وإن كانت كلمة نسك تشير لما هو أعمّ من الأضاحي وتشمل الأعمال التي يقوم بها الحاجّ في مكّة، وبالتالي يصير المعنى أنه تعالى يغيّر في المكان والزمان والحركات والأفعال والأقوال... التي يفعلها المنتمون لدينه، وهذا لا مستند قرآنياً له.

خذ مثلاً ما هو متعارف بين الناس أن الحجّ إلى مكّة للمسلمين، والحج للناصرة وبيت لحم... للمسيحيين، والحجّ لبيت المقدس لليهود. هذا قرآنياً غير صحيح لأنه تعالى لم يشرّع حجّاً إلا إلى مكّة على الأقل منذ عهد النبي إبراهيم(ع) وما بعده.

بضبابيةٍ ينتشر بين البعض أن العقيدة واحدة في دينه تعالى ولكن الشريعة مختلفة، وهذا بالتدقيق ليس صحيحاً، قرآنياً ترى الصراحة أن أساسيات التشريع واحدة، والاختلاف في تفاصيل لا تمسّ بالأساسيات، والوحيد الصريح قرآنياً بالتغيير هو تحريم بعض الشحوم في زمن ما على بني إسرائيل، والسبب بغيهم كما تقرأ في الآية 146 من سورة الأنعام {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}.

والأقل صراحة منه تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، لأن بيت المقدس كقبلة مستحدثة تاريخياً لأن بناء بيت المقدس أجدد بكثير من بناء الكعبة، وبمراجعة الآيات القرآنية التي تتحدّث عن موضوع القبلة سترى أن المسألة بالأساس اعتبارية لأن لله المشرق والمغرب كما قالت الآية 142 من سورة البقرة {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، وسترى أيضاً أنه تعالى أراد أن يرى الجميع أن هذا الدين ليس ديناً جديداً، بل هو نفس الدين الذي كان عليه الأنبياء قديماً، ولذلك كانت القبلة الأولى بيت المقدس وهي في حين نزول هذا القرآن كانت القبلة المعتمدة عند اليهود والمعترف بها عند النصارى.

أمّا بالنسبة لما ورد في الآية 93 من سورة آل عمران {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، فهذا ليس من نوع التغيّر في تشريع أساسي، لأن الميتة والمنخنقة... وما أهلّ لغير الله تعالى به... حرام من الأساس، ولكن هناك تفاصيل في بعض ما يسمّى بالطعام ويبدو أنه حسّن تعالى مستوى الناس عبر وحيه للأنبياء بتحريم أكل بعض أجزاء من الحيوان المحلّل الأكل، كتحريم أكل الأعضاء التناسلية وحدقة العين... وهذه أمور لم يذكرها القرآن لأنها ليست أساسية، وحرمتها ليست بقساوة حرمة أكل الميتة، ومعلوم أن بعض الناس تحتاج لأكلها للتداوي من أمراض غير مستعصية...

وبالنسبة لحرمة العمل في السبت، وتعديله لتصير الحرمة للعمل في يوم الجمعة وفقط في وقت صلاة الظهر، فهذا واضح لك أن سببه شدّة تزمّت فتاوى اليهود بتحريم فعل كل شيء ممكن تحريمه يوم السبت، حتى إنقاذ أحدهم من الموت صار حراماً! وتغيير اليوم وتغيير المدة المحرّم فيها العمل، يبدو أنه إرجاع للحالة الأصلية للتشريع... وهنا كلام تحليلي كثير لن أدخل فيه وأكتفي بلفت انتباهك إلى أنه كلام عن شيء لا علاقة له بالصلاح والفساد بشكل مباشر، لأن ما يتعلّق بهذا المعنى هو فقط ما يسمّى بأساسيات الشريعة.

بقية كلام الناس عن اختلافات في الصلاة أو الصوم أو الزكاة... كله تخمين لأننا لا نجد بين أيدينا مصادر موثوقة لتشريعاته تعالى في أمثال هذه المواضيع، وما نجده هو التعديلات والتحريفات التي اخترعها الناس على مرّ التاريخ، حيث تبدّلت وتعدّلت الأمور حتى بقي منها الأسامي فقط، ومنذ عهد قريب جداً جداً لا يتجاوز المئة عام في تقديري، صار الصوم عند المسيحيين له نسخ متعددة منها الصوم لأربعين تماماً مثلما نحن ننقطع عن الطعام من الفجر إلى المغرب ومعها الانقطاع عن مشتقات الحيوان، ومنها الانقطاع عن الطعام كلياً حتى الثانية عشر ظهراً مع الانقطاع عن مشتقات الحيوان لأربعين يوماً... وهكذا نسخ أخرى كتنزيلات وتخفيضات...

أي كلام عن تفاصيل في بعض العبادات والتشريعات على أنه اختلاف، هو بحاجة لتدقيق لن تصل منه لنتيجة حاسمة لأن المصادر للدراسة محرّفة عن الأصل حتماً، ولكن على أي حال لن تجد تغيراً في شيء أساسي.

(وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ{68})
{وَإِنْ جَادَلُوكَ}، والجدل هو عموم محاولة إقناع الآخر، وتدرجاته تتحدّد من السياق من التمسّك بالرأي إلى الليونة، فإذا حاول كفّار مكّة إقناعك بدينهم وبأن الحجّ من تراثهم... {فَقُلِ}:

{اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ}، أنتم تجادلونني وربما يبدو أنكم تريدون معرفة الحقيقة، وتقومون بأعمال ضد دعوتي وكأنكم مقتنعون فِعْلًا بصواب دينكم وخطأ ديني... وَهَا يأمرني سبحانه أن أدعوكم لدينه، وهَا تُجَادِلُونَنِي، وَأَمَرَنِي تعالى أن أقول لكم بأنه يعلم ما تعملون، وأنا لا أعلم، فهناك شيء سِرّيٌّ مَخْفِيٌّ في عملكم المضاد لعملي، ولا يبدو لي ولغيري، ولكن أنتم تعلمونه، والله تعالى يعلمه، وها أنقل لكم عبر هذا القرآن أنه تعالى يخبركم أنه يعلم ما تعملون.

حَسَنًا، ما الذي يعلمه تعالى؟ أيُّ مراقب لكفّار يجادلون النبي(ع)، سيجد الكفّار مصرّين عنيدين مخلصين لدينهم، فهل هم على شيء؟ وَمِمَّا ينبع هذا الإخلاص لدين الكفر؟ تُخْبِرُنَا الآية هنا أن هذا الإصرار والإخلاص للكفر ليس نَابِعًا من قناعة حقيقية، فالله تعالى أعلم منّا بما يعملون، فهو أعلم بسببه، بمنبعه، بفكرهم وعقليتهم ونفسيتهم، وأَنَّ إخلاصهم للكفر فقط مَنْظَرٌ ومظهر خَادِعٌ لا يعبّر عن قناعة عقلانية حقيقية عندهم بدينهم، فهو عصبية وعناد وتجبّر وتكبّر... فجملة {اللَّهُ} تعالى {أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} هي في الحقيقة تهديد لهم، فهم يجادلون ويَبْدُو عليهم أنهم محبّون للحقّ ويفكرون بعقلانية... ولكنهم تحت مراقبة من يعلم حقيقة ما يعملون، وتعلم من عموم القرآن أنهم يعملون على إطفاء دينه تعالى لأنه لا يناسب مصالحهم ونزواتهم وشهواتهم... السيئة.

(اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ{69})
{اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ}، يقوم سبحانه بضبط الأمور على الصوابية فيما بينك وبينهم، {يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، في زمن قيامكم من الموت، {فِيمَا}، في الذي، {كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}، فأنتم في الدنيا لستم متفقين، فالحقّ مع من منكم؟ فإن لم تقتنعوا أيها الكفّار بما يقوله رسولنا(ع)، وهو واضح أنه حقّ، فيوم القيامة من الموت سيصدر ويتنفّذ الحكم الإلهي بينكم وبينه، وبالطبع سيكون الحكم الإلهي لصالح رسوله(ع) لأن ما يقوله الرسول هو نَقْلٌ عنه تعالى، والكفّار حينها في مصيبة.

لاحظ وانتبه ما تقوله الآيات هنا، حَيْثُ أَحْيَانًا يتعامل بعض الناس مع المواضيع الدينية باستهتار فيطرحون آراءهم وهم لا ينتبهون أنها آراء في مقابل ما يقوله الله عزّ وجلّ، وَهَا رسوله ناقل لكلامه تعالى، فما معنى الجدال مع الرسول الناقل لكلام الإله؟ والآية هنا تلفت انتباههم ليوم القيامة من الموت الذي سيتحاسبون فيه على آرائهم المعارضة لما يقوله الإله عزّ وجلّ.

(أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ{70})
{أَلَمْ تَعْلَمْ}، أيها النبي(ع) وأيها المؤمن، {أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}؟! فعموم ما هو فوق وعموم ما هو تحت لا يخفى عليه تعالى أي شيء يحصل فيه، وفي الدنيا سبع سماوات يقابل كل سماء ما يناسبها من أرض كما تعلم من الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}...، ألم تعلم ذلك مما تراه من خلقه تعالى لما في الدنيا والذي يشير إلى كائن بقدرات فائقة صمّمه وخلقه ويدير شؤونه، وبالتالي فمن الواضح علمه بكل ما يجري فِيهَا كُلِّهَا.

الخبر عن علمه تعالى بما يفعله الكفّار هُوَ مَبْنِيٌّ على علمه الواسع المحيط الواضح سبحانه بكل شيء في أي مكان، وإن كانوا هم لا يؤمنون بذلك فتذكّر أنت أيها الرسول(ع) ذلك، فلا تهتم حين يُنَازِعُونَكَ وَيُجَادِلُونَكَ، فأنت وهم تحت المراقبة ومن يراقبكم سيحاسبكم ويجازيكم يوم القيامة.

{إِنَّ ذَلِكَ}، العلم لكل شيء، {فِي كِتَابٍ}، فكل شيء مسجّل في كتاب رئيسي أساسي مكتوب فيه كل شيء حصل ويحصل وسيحصل.

{إِنَّ ذَلِكَ}، العلم بكل شيء في السماء والأرض وتسجيله في كتاب، {عَلَى اللَّهِ} تعالى {يَسِيرٌ}، فليس شيئا صعبا، فهو شيء سهل وَتَمْشِي الأمور براحة كما يريدها تعالى رغم ضخامة مسرح الأحداث الممتد من الأرض إلى سبع سماوات، ورغم كثرة ما يحدث، فالعلم به مسبقا وتسجيله يسير سهل عليه تعالى.

هَلْ سيمرّ ما يفعله الكفّار عليه تعالى من دون أن يعلم به؟ لا.

بِالنِّسْبَةِ لعلمه المسبق سبحانه وتعالى بكل ما سيحدث، فسبحانه بقدراته الفائقة التي تفوق قدرتنا على التصوّر، فمن أول ما قرّر سبحانه خلق ما في الدنيا، وسنقول مستوحين من تعابير القرآن أنه استغرقه سبحانه قرار وتصميم السماوات السبع وأراضيها مدة أسرع من لمح البصر ليصمّمها ويعلم بما سيجري فيها بكل التفاصيل، وَهَذَا التَّعْبِيرُ التشبيهي بلمح البصر غير دقيق فلم يستعمله تعالى ليصف قرار خلقه وتصميمه لما في الدنيا، ففي حينها لا زمان ولا مكان حتى نقول بأن ما جرى استغرق زمنا ولو للمحة بصر... على أي حال فقبل خلقه تعالى لما في الدنيا سَجَّلَ كلّ ما سيحصل في

كتاب، وهذا الكتاب ليس من ورق، ولا مثل ذاكرة الكومبيوتر ولا مثل أي شيء يمكننا تخيّله، فنحن الآن لا يمكننا تخيّل الملائكة(ع) وهي كائنات بعضها يطّلع على ما في الكتاب وينفّذ ما فيه...

بِالنِّسْبَةِ لعلمه المسبق سبحانه، فهل هذا يعني أني الآن أقول وأفعل ما هو مسجّل في ذلك الكتاب ولا إرادة لي على تغيير ما سيحدث؟ لا، فأنا أرى شابا مسرعا بسيارته لدرجة استحالة سيطرته عليها حين تجنح، ويسير على طريق متعرّج ويسير عليه الناس، فأتوقّع حتما أَنَّ حادثا ما سيحصل، ولو كنت على سطح بناية أرى مساره وسرعته وأرى من الزاوية الأخرى سيارة سيلتقي بها عند مفترق الطرق، لَاسْتَيْقَنْتُ بوقوع التصادم... فهل علمي الأكيد بوقوع الحادث سبب في الحادث؟ وبهذا التقريب هي الأمور بالنسبة له تعالى، فسبحانه لا يتوقّع ولا يحتمل، بل يعلم بما سيحدث، وكما هو واضح فهذا شيء منفصل عن قراري أنا بالإسراع بالسيارة لدرجة الجنون والذي حتما سينتج عنه حادث كان سبحانه يعلم به قبل وقوعه.

هَذَا الكلام عن علمه تعالى بتفاصيل كل ما سيحدث مع كائنات لها إرادة حُرَّةٌ لتختار، وهي الكائنات نَفْسُهَا تَحْتَارُ ولا تعلم ماذا ستختار، فالأبحاث الحالية عن توجيه الظروف لاختياراتنا تعطينا فهما أفضل لهذه الحالة، حَتَّى إِنَّ بعض الباحثين تطرّف ليثبت أن كل ما يبدو كحيرة بالنسبة لنا، فما سنختار فعله محدّد سلفا بسبب جيناتنا وتربيتنا وبيئتنا... وهناك اِخْتِبَارَاتٌ أثبتت أن العديد مما يبدو من اختيارنا تَمَّ تَوْجِيهُهُ، فيمكن بنسبة كبيرة توقّع ردود فعل الناس أمام العديد من الحوادث والظروف...

لَكِنَّ هذا التطرّف لدرجة إلغاء حرية الإرادة والاختيار منّا، هُوَ النسخة المماثلة لما وقع فيه بعض المفكرين من المنتمين لدينه تعالى فلم يفهموا الفرق بين علمه تعالى بما سيحدث وبين حرية إرادتنا واختيارنا لما سنفعله.

الخلاصة أننا لسنا أحرارا ولا مختارين في بعض الأمور التي أصلا لا قدرة لنا ولا مجال لنا على الاختيار منها، ومنها اختيار خروجنا إلى الحياة، فإن اعترض أحد ما قَائِلًا إِنَّهُ لو سأله تعالى رأيه لما اختار الخروج إلى الحياة، فهل هناك إمكانية أصلا للاختيار في هذه الحالة؟ فقبل أن يخلقني سبحانه فكيف سيسألني رأيي؟! وهكذا ترى أن ما لا اختيار لنا فيه فبعضه من هذا النوع، وبعضه الآخر من النوع الذي يمكن أن تؤثّر فيه جيناتنا وتربيتنا وبيئتنا... وبعضه من النوع الذي يتأثر من التلاعب بالكلام بعقولنا... ولكن كل هذا يسقط أمام العقلانية الرزينة من الدرجة العالية، فلن يحكمنا أي شيء لنختار إنكار الحقّ أو فعل الباطل، وهذه حالة متاحة لنا جميعا إلى أن نبدأ نحن بتسخيف أفكارنا وأفعالنا...

نرجع للآيات، فمن هذا العلم الإلهي الواسع المحيط ننتقل إلى علمه تعالى بأنه لا يوجد إله غيره:

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ {71})
{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، كما نقول: ذهبتم من دوني، ونقصد أنكم ذهبتم وتركتموني، فهم تركوا عبادته تعالى وعبدوا غَيْرَهُ، فيعتبرون أنفسهم مفروض منهم وعليهم طاعة غيره تعالى، {مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ}، فعبادتهم لآلهة أخرى لم ينزل من عنده تعالى بهذا التصرّف، {سُلْطَانًا}، شيء فيه قوة، فلو قال الله تعالى إِنَّهُ لديه شركاء في الألوهية، أو لو قال إِنَّكُمْ يجب أو يمكنكم عبادتهم، لكان كلامه تعالى يعطيكم سلطانا فيعطيكم قوّة في حجّتكم في عبادتكم لغيره تعالى، ولكنه تعالى هو الإله الأحد، وبعلمه الواسع المحيط بِكُلِّ ما في السماوات والأرض، لا يجد سبحانه إلّا الذين خلقهم، ولا أثر لأي إله غيره تعالى، وبناء عليه فلم ولن يقل سبحانه إِنَّهُ لديه شركاء في الألوهية فكل الآخرين غيره مخلوقات، وهذا يعني أنهم ليسوا آلهة ولا يمكن وصفهم بالألوهية، وعبادة غيره تعالى تحتاج لدليل، لِحُجَّةٍ قوية، فإن لم تنزل هذه الحجّة من عنده تعالى العالم بكل شيء والذي لم ير أي أثر لإله غيره، فعلى ماذا يستندون في عبادة غيره تعالى! من أين يستمدّون السُّلْطَانَ، الْقُوَّةَ التي تثبت صحّة عقيدتهم؟! ومن ناحية ثانية فسبحانه لن يسمح بعبادة مخلوقاته ولم يسمح.

{وَيَعْبُدُونَ}، {مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ}! فهم بشر ولا اتصال لهم ولا تعامل لهم إلّا مع محيطهم، فكيف يقولون إِنَّهُ يوجد آلهة غيره تعالى! فمن أين علموا بوجود تلك الآلهة! وَهَا سبحانه "الإله" تَوَاصَلَ مع واحد منهم وجعله رسولا له، وزوّده تعالى بالآيات التي تدل على صدقه... وهذا الامتداد التاريخي لرسله تعالى يدل بوضوح على دوام تواصله تعالى مع مخلوقاته... وَهَا سَيْرُ ما في الدنيا يدل على مركزية قرار واحد تمشي عليه الأمور... أمّا الكفّار، فمن أين اخترعوا له تعالى شركاء في الألوهية، وَمِنْ أين لهم العلم بوجودها! فهل لها رسل؟ أم لها أثر؟...

{وَمَا}، وليس، {لِلظَّالِمِينَ}، للذين لم يكن معهم حقّ حين أشركوا بلا سلطان ولا علم، للذين لم يكونوا منصفين ولا عادلين حين عبدوا غيره تعالى، وَهَكَذَا ظُلْمًا عبدوا غيره تعالى، فليس لهم، {مِنْ نَصِيرٍ}، فلن يجدوا من يحقّق لهم ما يريدونه، فهم عبدوا غيره تعالى، ووحده تعالى النصير من مستوى إلهي، فإذا صار هؤلاء بلا نصير من مستوى إلهي، فحين يحاسبهم سبحانه ويعذّبهم فلن يجدوا أحدا ينصرهم عليه سبحانه ليخرجهم من عذابه لأن آلهتهم مزعومة وليست آلهة حَقِيقِيَّةً.

ضع في بالك دائما أن القرآن كرّر مرارا أَنَّهُ تعالى بعلمه الواسع المحيط بِكُلِّ شيء، لا يرى إلّا نفسه والكائنات التي خلقها هو سبحانه، والظواهر التي تحصل في السماوات والأرض كُلُّهَا من تصميمه تعالى وتسير بحسب تخطيطه تعالى لها، وفوق ذلك، سَلَفًا سجّل سبحانه كل ما سيحصل مع الكائنات وبيئتها، وما حصل من قبل وما يحصل الآن فهو على التمام كما سجّل سبحانه، وهذا يشير إلى أنه لا يوجد أَيُّ إِلَهٍ غير الذي تسير الأمور مثلما سجّل... وبناء عليه يخبرنا سبحانه وتعالى وبكل شفافية أَنَّهُ لا يرى أي تدخّل لقدرة غير قدرته، ولا يرى أي أثر لوجود إله غيره، فالأمور تجري بحسب ما هو مسجّل في الكتاب وبدقّة وبدون أي تغيّر عمّا يعلمه تعالى أَنَّهُ سيحصل... فكيف سيعلم "البشر المحدودون" المشركون بوجود آلهة غير الله تعالى وهو سبحانه لم ينتبه لتلك الآلهة ولم ير أثرها! فهل هذا ممكن! نَحْنُ المحدودون في معرفتنا وعلمنا وحواسّنا وقدراتنا... نعلم بوجود آلهة متعددة ومن يعلم غيب السماوات والأرض ويرى كلّ الأمور تسير كما كتب... لا يعلم بوجود آلهة أخرى! وتقرأ نفس المعنى في عدة آيات منها الآية 18 من سورة يونس {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ {72})
الذين يجادلونك ويعبدون آلهة غيره تعالى من دون سلطان ولا علم:

{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا}، حين تقرأ عليهم الأمور المميّزة المنسوبة له تعالى عن مستند، وَتَقْرَؤُهَا عليهم استنادا إلى ما يوحيه تعالى لك أيها الرسول محمّد(ع)، وهي جمل وسور هذا القرآن، {بَيِّنَاتٍ}، وَاضِحَاتٍ بالمعنى وأنها منه سبحانه، عندها، {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ}، فحالة إنكارهم، حالة تعبيرهم عن مخالفة ما تقوله لهم بالنسبة لما يعرفونه، مع استغرابهم ورفضهم التماشي مع ما تتلوه، فهي تبدو عليهم من تعابير وجوههم، فأنت لا تدري بما في قلوبهم، وحتى لو لم يقولوا أي شيء، فمن تعابير وجوههم تعرف أنهم ينكرون ما تقوله نَقْلًا عنه تعالى. وَالْمُنْكَرُ من مقابلته مع "عرف معرفة" يعطي معنى حصول صورة أو مفهوم ونفي تطابقه مع ما لديك، فهو عموم ما ليس معروفا على الوجه المطروح، كرفض لتصنيفه. وهنا الكلام عن رفضهم دلالة الآيات وأنها إلهية...

في مقابل عبادتهم بلا سلطان لآلهة ليست آلهة، وتركهم لعبادة الإله الحقيقي، وعندما تقرأ عليهم دلائله تعالى وهي سلطان، عندها ترى في وجوههم المنكر، وَتَرَى علامات الإنكار كرفض لما تقوله مع أنها آيات {بَيِّنَاتٍ}: واضحة.

{يَكَادُونَ}، فعلى شعرة، وَبَقِيَ لهم القليل حتى، {يَسْطُونَ}، تظهر منهم السطوة، فيقومون بأعمال العنف والبطش، {بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا}، يقرؤون عليهم عن مستند "وهو هذا القرآن المستند إلى الوحي الإلهي" وَيَقْرَؤُونَ عليهم الأمور المميزة المنسوبة له تعالى وعلى شعرة سيقوم الكفّار بالبطش بالمؤمنين بضربهم أو قتلهم...

تريد الآية تصوير مشهد الكفّار مع من يقرأ عليهم آياته تعالى الواضحة ذات السلطان، فبدل أن يستمعوا له بعقلانية فهم لديهم قرار مسبق برفض أي شيء غير دينهم، وهم يرغبون بشدّة بضرب وتعذيب وقتل من يقول إِنَّهُ يقول كَلَامًا إِلَهِيًّا مُخَالِفًا لدينهم، حتى لو كان كلامهم بلا علم أو سلطان في مقابل كلام عن علم وسلطان، وَحَصَلَ هذا فعلا، ولكن الآية لم ترد تحويل الكلام إلى أخبار حوادث تاريخية، بل تريد عرض الصورة في الحالات التي لم يحصل فيها هذا الهجوم، وَتُخْبِرُنَا لنتصور مشهد حالة شخص بلا علم ولا سلطان ينكر ما يُعرَضُ عليه من علم له سلطان، بل ويرغب بالبطش بمن يقوله! فماذا يسمّى هذا؟

هذا شيء تراه منتشرا في عموم أمور حياتنا عبر التاريخ وليس محصورا في الأمور الدينية بشكل مباشر، فمن الأمور الصغيرة التافهة كخلاف بين الأطفال على لعبة، إلى الأمور الضخمة التي تأثيرها يصل إلى قتل أناس أبرياء، ترى منكرين للحق الواضح المستند لعلم له سلطان، ولديهم رغبة بالبطش بمن يقول الحقّ!

{قُلْ} لهم: {أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ}؟ هل تريدون أن أخبركم بشيء غير منتشر علمه بينكم وهو أَسْوَأُ من إنكاركم وشدّة بغضكم لتالي القرآن، وأَسْوَأُ من حبّكم لضرب وتعذيب وقتل من يقرأ عليكم آياته تعالى؟

{النَّارُ}، التي في الآخرة هي أَسْوَأُ وأضرّ مما تنوون فعله بالمؤمنين، {وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا}، حَيْثُ قال تعالى إِنَّهُ سيعذّب بها المنكرين لدينه، {وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}، وما أتعس النار من شيء تصلون إليه، فما أَسْوَأَهَا كنهاية لكم.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ{73})
{يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ}، أقمنا لكم كلاما تشبيهيا، {فَاسْتَمِعُوا لَهُ}، ركّزوا سمعكم عليه:

{إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، فهذا المثل موجّه للناس الذين تركوا الدعاء الإشهار الإعلان لله تعالى أنه الإله، ويدعون يشهرون ويعلنون عن غيره على أنهم آلهة، فهؤلاء، {لَنْ يَخْلُقُوا}، لن يركّبوا ولن يؤلّفوا، {ذُبَابًا}، وهي الحشرة الطائرة المعروفة، {وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ}، حتى لو اجتمعت آلهتكم كلّها وتعاونت على خلق ذبابة واحدة فلن يستطيعوا.

{وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا}، يأخذ الذباب من آلهتكم شيئا، حين تقدّمون قرابين لآلهتكم ويهجم عليها الذباب ويأكل منها فهو سلب لأنه أمام آلهتهم وبالقرب منها يحصل أخذ الذباب للطعام، {لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ}، لا تستطيع آلهتكم أن تستنقذ، أن تخلّص، أن تستعيد ما سرقه الذباب من الطعام أو الشراب.

{ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}، فآلهتكم الطالبة لاسترجاع ما سرقه الذباب هي ضعيفة عن استرجاع المسلوب، والذباب المطلوب استرداد الطعام منه هو أيضا ضعيف وليس خصما قويا! لأنه لا يملك قدرات عالية حتى نقول بأن آلهتكم عجزت عن التعامل مع الذباب القوي! الذباب ضعيف ولم تستطع آلهتكم استرداد ما سرقه منها! بكل وضوح آلهتكم هي ضعيفة عن استنقاذ ما لها.

كيف يفكّر المشرك حتى ضربت له الآية هذا المثل؟ الله سبحانه وتعالى هو خالق كلّ شيء، والمشرك يدعو "يعلن ويشهر" أن غيره تعالى إله، هذا الغير الذي تدعوه أيها المشرك، هات أخبرنا إن كان بإمكانه خلق ذبابة، ها آلهتك، وها المواد من حولك وحولها، فلتُركّب آلهتك ذبابة إن كانت فعلا آلهة يمكنها أن تخلق، لم نتحدَّكُمْ أن تبتدع آلهتكم المادة من أصلها، ولم نتحدَّكُمْ أن تخلق شيئا جديدا، ولم نتحدَّكُمْ أن تخلق شيئا ضخما، فلتخلق آلهتكم التي تطلبون منها تحقيق مطالبكم الكبيرة، فلتخلق حشرة صغيرة على الأقل، دلّونا ولو على ذبابة خلقتها آلهتكم حتى نرى أنها آلهة حقيقية، وأن لديها قدرات إلهية ولو على هذا المستوى الصغير، الذباب يأكل من الأضحية التي تقدمونها لآلهتكم، يسلب الطعام من أمام آلهتكم، هل يمكن لآلهتكم استرجاع ما أخذه الذباب؟ كيف تدعونها وتعلنون وتشهرون أنها آلهة، وهي عاجزة تماما وبشكل فاضح عن استرداد ما تقولون إنّه لها!

البشر بعضهم حصل على قدرة خلق كائنات حيّة، النبي عيسى(ع) أحيا الموتى ومن الطين خلق طيورا كما أخبرتنا الآية 110 من سورة المائدة {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي...}، وكل ذلك جرى بإذن الله تعالى، ولكن آلهة المشركين هل ولو لمرة واحدة خلقت شيئا ما؟ أنتم كبشر ربما يحصل البعض منكم على قدرة خلق شيء ما بقدرة ممنوحة منه تعالى، والقدرة على استعادة ما سلبه الذباب، وهذه ليست المشكلة، أنتم أصلا لستم موضوع الحديث، الحديث عن آلهتكم العاجزة تماما، هي إمّا أصنام صمّاء جامدة، أو أسماء لأموات فاقدين للوعي أصلا، أو كواكب أو جن أو ملائكة (ع) لا تملك أصلا مواصفات إلهية، ولن تخلق أي شيء بقدرتها الذاتية، ولن تخلق أي شيء إن طلبتم منها فلن يعطيها تعالى القدرة لتخلق أي شيء إن كانت ستبرهن لكم أنها آلهة، ولا تَنْسَ أن السورة هنا تتحدّث مع مشركين لا يعترفون بالكتب الإلهية، ولذلك لم تبرّر لِتذكر سبب قدرة النبي عيسى(ع) على خلق الحياة

من الطين، وهناك سور أخرى تحدّثت مع أهل الكتاب الذين ادعوا الألوهية للنبي عيسى(ع) وشرحت لهم أنه(ع) ليس إلها...

هناك عقيدة محددة عن آلهة يعبدها المشركون، والكلام في الآية معهم، وكما ترى دمّرت إيمانهم، آلهتهم هل خلقت ذبابة؟ أو يمكنها خلق ذبابة؟ أو هل يمكنها استرداد ما يسلبه الذباب من الطعام الذي تقدّمونه أنتم لها؟ وهكذا انتهينا من مسألة اختراع آلهة بلا معنى. وإذا توسّعت بالكلام لتسأل أننا نحن البشر لو خلقنا من التراب كائنا حيا، فهذا موضوع آخر، حاليا من خلية جذعية لأي حيوان، ونضعها في بيئة مغذيات مناسبة لها، فسنخلق حيوانا بطريقة غير طريقة تلقيح البويضة، ومعلوم لك أننا فقط حاكينا وقلّدنا خلق الحيوان، فعليا لم نخلقه، بل قَدَحْنَا طريقة خلقه من أساس لا علاقة لنا بتصميمه، نحن لم نصمّم ولم نخلق الخلية الجذعية.

ماذا لو استعملنا المواد الأولية من الذرات، وركّبناها بمحاكاة للخلايا الجذعية؟ وخلقنا منها حيوانا، هل هذه قدرة إلهية؟ لا، صحيح أن هذا سيكون شيئا رائعا ولكنّ هذه قدرة بشرية ممنوحة من الإله سبحانه الذي أتاح لنا الفكر... والمواد وخصائصها... وشيئاً نقلّده... وأنت تعلم من نفسك أنك لو فعلتها فستبقى مخلوقا ولن تصير إلها.

أمّا إن تراخيت في تعريفك لكلمة إله، وهذا ما ستتحدّث عنه الآية التالية، حتى صارت تنطبق عليك لأنك خلقت من التراب حيوانا، بغض النظر عن بقية قدراتك الضعيفة جدا، لأنّ وعيك للأمور محدود جدا لذا لا تقدر على التعامل مع عدّة مواضيع في نفس الوقت، وسمعك محدود وبصرك محدود... وتنام... وتموت... فيمكنك وصف نفسك بالإله وهذا ما حصل فعلا وفعله بعض الناس ومثال عنهم الفرعون الذي عاصر النبي موسى(ع)، ولكن هذا مجرد كلام فارغ ساذج، مجرد تراخٍ وتساهل في معاني الكلمات ولن يغيّر من واقع كونك مخلوقا، لأنّ الموصوف فعلا بالألوهية لا يكون مخلوقا، ويكون لديه قدرات فائقة، فهو من لا شيء يصمّم ويخلق، وهناك واحد بهذه الصفات وخلقك وخلق كل ما في الدنيا.

بالنسبة للأضحية له تعالى سبق ومرّ معك في الآية 37 من هذه السورة أنه تعالى لا يناله لا لحم ولا دمٌ من أضحيتنا، ولكنه تعالى يعتبر قيمة للتقوى التي انطلقنا منها لتقديم الأضحية التي أمرنا أن نأكلها نحن "إن أردنا" وأن نطعم القانع والمعتر، وهكذا ترى الفرق الهائل بين تقديم الأضحية على اسم الله تعالى وبين تقديم المشركين لأضحيتهم على اسم آلهتهم، في دينهم لا أجر على تقوى ولا آخرة ولا حساب... وفيما نعرفه من معتقداتهم يقولون بأن آلهتهم روحيا تأكل مما قدّموه وتشمّ رائحة الدم والبخّور... وأمثال هذا الكلام الفارغ.

عادة يتبادر إلى ذهننا من كلمة "يدعون" وأمثالها، أنهم يطلبون من آلهتهم شيئا ما، مثلا يطلبون الرزق أو التوفيق في تجارة... ولكن القرآن استعمل هذه الكلمة ومشتقاتها على المعنى العمومي للكلمة، على معنى الإشهار والإعلان، ومن سياق الكلام يتحدّد ما يشهر ويعلن به الفاعل، وغالبا أشار القرآن بها إلى الذين يدعون يعلنون ويشهرون عن غيره تعالى أنهم آلهة، ومن تبعات ذلك أنهم يطلبون من آلهتهم تحقيق شيء ما.

(مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ {74})
المشركون الذين يدعون من دون الله تعالى آلهة أخرى:

{مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ}، لم يعطوه تعالى "قيمته" الحقيقية الصحيحة، قيّموه تعالى بأقل بكثير مما هو عليه كإله واحد أحد، عندما يقولون بأن له شركاء في الألوهية قلّلوا من قيمته تعالى، وصار وصف الألوهية مبتذلاً يُوصَف به ما يخترعونه من خيالهم، وصار سبحانه في قولهم مشابها لصنم أو لإله وهمي لا وجود له!

{إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ}، لديه القوّة الفائقة جدا جدا، التفكير بأنّ له تعالى شركاء هو تفكير نابع من أنهم لم يفهموا قوته تعالى، ونابع عن تقليل لقيمته تعالى، حيث اخترعوا آلهة وجعلوا لها صفة ما، ويدعون تلك الآلهة صاحبة تلك الصفة على أنها إلههم، ويدعونها حتى تحقق لهم ما يريدون، مثلاً اخترعوا إلها للحرب، الفكرة في رأس المشرك أن هذا الإله متخصّص في الحروب، وقدراته في الحروب أعلى من قدرات الآلهة المتخصّصة بالمطر والبحار والتجارة... وإله البحر قدراته البحرية أعلى من قدرات إله الحرب... هذه الأفكار نابعة من أنهم لم يقدروه تعالى بالقيمة الحقيقية،

وتراخوا في معنى كلمة إله حين وصفوه تعالى بها، وصارت تعني فُقْدَانَ إله لقوّة ما، بينما تعالى قوي في كل شيء، في البحر والحرب والمطر والرزق...

{وَاللَّهُ عَزِيزٌ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض إرادة الآخرين عليه... هو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره.... فلو كان هناك إله غيره عزّ وجلّ فلا معنى لألوهية ذلك الإله إن لم يملك قدرة تفوق قدرته تعالى أو لديه قدرة لا يملكها تعالى ليفرض ما يريده على الله تعالى، أساس الفكرة في رأس بعض المشركين الذين اخترعوا آلهة أن إلها واحدا لا يمكنه أن يكون قويا في كل شيء، ولذلك يخترعون آلهة متعددة، ويحدّدون لكل واحد منها اختصاصاً! لديهم إله للمطر وإله للبحر وإلهة للجمال والخصب!

الدارج في تراثنا الثقافي استخراج معانٍ عميقة من كلامه تعالى، من آيتنا هذه تجد أبحاثا عقلية فكرية "عقائدية كلامية فلسفية..."، ولا مشكلة في ذلك طالما النتائج متوافقة مع صريح القرآن، وطالما لا نقول عنها بأنها الدين الإلهي حتى لا نلزم غيرنا بالإيمان بها، لا مشكلة بها عندما نصرّح بأنها أفكارنا نحن... إنما المشكلة في عرضها كتفسير لشيء تقصده الآية، على هذا يصير كلام الآية هنا كمثال، يصير كلاما موجها لمشرك فيلسوف! هل تفسيرها بمعاني كلماتها البسيطة هو ما قصده تعالى، أم تفسيرها بالكلام الفلسفي هو ما قصده تعالى؟ ستقول: لا مانع من التفسيرين معا لأنهما سيكونان على نفس المعنى، واحد بسيط والثاني عميق.

إذا كانا على نفس المعنى تماما، مع إضافات في التفسير العميق تجعله متوسّعا مرتبطا بقواعد عقلية، أيضا لا مشكلة في ذلك، هكذا نحافظ على ظاهر القرآن الذي هو حجّة إلهية على المشرك، لأنك لن تفرض على المشرك التخصّص في العلوم العقلية من فلسفة ومنطق... حتى يفهم كلامه تعالى الذي يريه الحقّ من الباطل.

المشكلة هي تفسير الآيات من خلفية أننا لن نفهمها إلا من بعدما شرحها الفيلسوف لنا، لاغين بذلك أنها حجة الله تعالى على كل من يسمع، هنا في الآيات الكلام مع مشرك، وما الهدف منه؟ الهدف منه عرض كلام واضح وبسيط يبيّن للمشرك بأن شركه باطل وأن الحقّ هو توحيده تعالى.

نعم، القرآن كتاب للدراسة، تفهمه من القراءة، ولكن البعض من كلامه بحاجة لدراسة لأن الأمور فرضت نفسها هكذا، نحن أمام كلام صادر من الإله سبحانه، إنّ دقّة استعمال الإله سبحانه للغتنا، وبعدنا عن استعمال لغتنا بهذه الدقّة تفرض علينا القراءة المتأنية لاستيعاب المعاني، وهذه أبسط حالة من حالات الوصف بدراسة كلامه تعالى، ويليها استعماله تعالى لكلمات وصيغ دقيقة في التعبير عن المعنى المطلوب، وتلك الكلمات وصيغة جملها ليست متداولة في كلامنا الدارج، ويليها كلام الآيات في موضوع لا أفهمه لأني لم أسمع به أو لا تعاطي لي به... كآيات أحكام الميراث والطلاق وكتابة الديون والاتفاقيات... وككلامه عن الأنواع المختلفة من العقائد المخالفة للحقّ...

تبقى بعد ذلك آيات قليلة نادرة تقصّد سبحانه بها تكسير رؤوس المشركين والمنافقين والفاسقين، على أساس أنهم متعلقون بسوء يحبونه مع علمهم بمدى سوئه، فلن يؤمنوا مهما جاءتهم من آيات لأنهم لا يريدون التخلّي عمّا يحبون، ككلامه تعالى عن تسعة عشر ملكا لتعذيب كل الكفّار في جهنّم، راجع في ذلك دراسة الآية 31 من سورة المدثر {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا...}، تَقَصَّدَ سبحانه أن لا يتماشى مع قدرتهم على فهم هذه المسألة، لأن عدد الملائكة الموظفة بتعذيب الكفّار في النار قليل، والكفّار أكثر منهم بكثير...

أمّا في مسائل توضيح الحقّ للمشركين ليروا أن الشرك باطل وأن التوحيد حقّ، فسبحانه استعمل كل الطرق الممكنة والعبارات المتنوعّة المختلفة ليبيّن لهم الحق، في هذه المسألة بالذات من الخطأ "عادة" تفسيرنا لكلامه تعالى بكلام اصطلاحي "فلسفي ومنطقي وعرفاني وصوفي..." عميق كتفسير مقصود من كلام الآيات، وهذا لا يعني أننا لا يحقّ لنا اشتقاق أبحاث فكرية من الآيات، وعرضها على الآخرين كدراسات، لا، ولكن لا يحقّ لنا أن نفرض على الآية المعنى الفكري "العميق" الذي اقترحناه، بذلك يصير كلامنا هو الدين في نظر الآخرين، وهذه من أكبر المصائب الطارئة على دينه تعالى، ويعترض الآخرون على كلامنا، وأحيانا يكون اعتراضهم صحيحا، ويصير اعتراضهم على

أساس أنه اعتراض على كلامه تعالى، لأنهم يردون على كلامنا بناء على أنهم يردّون على ديننا، وهكذا يكفرون بديننا، وهم لا يريدون التمييز بين ديننا نحن وبين دينه تعالى، لأننا نحن أصلا عرضنا كلامنا على أنه دينه وكلامه تعالى.

(اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ {75})
المشركون كيف تواصلوا مع آلهتهم؟ كيف علموا بها أصلا؟ كيف علموا باختصاص هذا الإله بالحرب وذاك بالمطر...؟ كيف علموا أنها تسمع وتبصر؟ أما بالنسبة لله تعالى:

{اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا}، يختار المميزين من الكائنات الموصوفة بأنها تملك شيئا مميزا، تملك صفة الطاعة التامّة له تعالى، وتملك قدرات عالية... جرت تسميتها من وصفها بِمِلْكِهَا لشيء ما أنها: ملائكة، ملك، ملاك... يختار تعالى منهم رسلا لينقلوا ما يريده تعالى إلى الآخرين، ونعرف من القرآن منهم بالاسم الملاك جبريل(ع) الذي توظّف كرسول لنقل هذا القرآن منه تعالى إلى الرسول محمّد(ع)، كما ورد في الآية 97 من سورة البقرة {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ...}، {وَمِنَ النَّاسِ}، أيضا يصطفي ويختار سبحانه لتميّزهم من يكون رسولا ناقلا لكلامه تعالى إلى الناس، ونعرف منهم الكثيرين: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد، يوسف، إلياس، لوط... عليهم السلام.

عبر هذه الرسل الممتدة لتاريخ بآلاف السنين من تاريخ البشرية، وصلكم الخبر منه تعالى أنه إله، وأنه أحد، وأنه خالق كل شيء، ووصلكم عبر الرسل صفاته وأوامره سبحانه لكم... أمّا الآلهة التي اخترعتموها فمن أرسلت لكم؟ وكيف تعرّفتم عليها وعلى صفاتها؟... لا جواب لديكم.

{إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ}، يسمع كل شيء، {بَصِيرٌ}، يدرك ويعي "بمستوى إلهي" معنى صورة ما يحصل، يرى كل شيء مع دراية، ليس مثل آلات الكاميرا التي تسجّل الصوت والصورة ولكن لا تفهم منهما أي شيء، لا، وليس مثلنا حين يشرد ذهننا عمّا يحصل أمامنا فلا نعيه، لا، بل سبحانه يسمع ويرى ويعلم بما يسمعه ويراه. يعني من كلّ النواحي هناك مراقبة، حين يصطفي تعالى فعن علم ناتج من سمعه وبصره تعالى يصطفي... والرسالة تصلنا تحت مراقبة السميع البصير، سبحانه ليس مثل آلهتكم التي اخترعتموها والتي لا تسمع ولا تبصر ولا تعي حتى ما يجري أمامها.

هذه عيّنة مما فعله تعالى وعن قدراته، فماذا عن آلهتكم! أين رسلها؟ وهل تسمع وتبصر من مستوى إلهي؟

(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ {76})
الله السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الذي: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وسياق الكلام عن علمه تعالى بما هو أمام الرسل، فيعلم بما يحصل والرسل يعلمون به، وَمَا خَلْفَهُمْ، وأيضاً يعلم تعالى ما لم يحصل أمامهم، وما غاب عن الرسل فحصل ولم يكونوا موجودين في السابق أو الحاضر أو المستقبل.

وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ، وكل الأمور وكل الأشياء التي حصلت وتحصل وستحصل، كلها ترجع إليه تعالى فهو يقرر ماذا سيحصل، ويقرر ما سيتركه يحصل، وسبق ومرّ معك في هذه السورة نماذج عن قراراته سبحانه وما فعله في الدنيا التي نعيشها الآن، ووصلك خبر عما سيفعله سبحانه في الآخرة...

لم يرسل تعالى رسله بدون متابعتهم، بل السَّمِيعُ الْبَصِيرُ يتابع كل ما يحصل، وهذا يعطينا ضمانة أن ما يصلنا عبرهم منه تعالى فهو بالتمام كما أراد تعالى، ومضافاً إلى ذلك نحن تحت مراقبة من يعلم كل شيء يحصل معنا، ومحاسبتنا ومجازاتنا على ما فعلنا يرجع إليه سبحانه... أمّا آلهتكم التي اخترعتموها فماذا تعلم؟ وماذا تقرر؟ وعلى ماذا تسيطر؟ لا شيء.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {77})
بعد كل الأدلة والأخبار السابقة عنه تعالى، إليكم هذا البلاغ الخاص:

يا أيها الذين آمنوا، وأعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين الإلهي، {ارْكَعُوا}؛ احنوا ظهوركم كشكل من أشكال التعبير عن الخضوع والاحترام، {وَاسْجُدُوا}؛ فاجعلوا وجوهكم قريبة أو ملامسة للأرض أيضاً كتعبير عن فائق خضوعكم واحترامكم، {وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ}؛ فأنتم عبيد للمسؤول عنكم من مستوى إلهي ومفروض منكم وعليكم طاعته فتصرّفوا على هذا الأساس.

{وَافْعَلُوا الْخَيْرَ}؛ فبما جعلته فيكم من قدرة على تمييز الخير من الشرّ فاختاروا فعل الخير، فلتكن أفعالكم جيدة حسنة صالحة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو خير فعملياً لا تخالفوا أوامره تعالى، فلا تتركوا ما أمركم به ولا تفعلوا ما نهاكم عنه، وفي الهامش المتروك لكم بما يناسب مختلف ظروفكم فاختاروا ما ترونه خيراً... كل هذا التزموا به، {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}؛ فمن المتوقع ومن المفروض أن تكونوا من الذين قاموا بعمل فالح، فأجادوا فيما عملوا لأنهم عملوا الصحيح، ونتيجة الإيمان والعمل الصالح هي الوصول إلى رضاه تعالى والدخول إلى جنة الآخرة، ولكن يبقى الوصف بالفلاح عمومياً بغض النظر عن النتيجة فهو وصفك لحسن ما فعلته، فلنفترض أنه تعالى لن يجازينا بالجنة على الإيمان والعمل الصالح، فالإيمان بالحقّ فلاح، والعمل الصالح فلاح، وتفهمها على معنى وصفك لإنسان ما بأنه محترم بسبب قراراته وتصرفاته، فلا تصفه بمحترم لأنه سيدخل الجنة بل لصلاحه تصفه بالمحترم، وهنا الكلام نفس الشيء.

وهل هذا التفصيل بالتفصيل لدراسة كلمة خير لا حاجة له؟ لا، فهو من أساسيات القرآن، لأنه تعالى يريدك من كتابه هذا أن تفهم أنه لا يعرض عليك أموراً فاسدة لتعتقد بها، ولا يعرض عليك أموراً سيئة لتفعلها، فلا يعرض عليك أموراً غريبة عنك، حيث ما فيك من قدرة على تمييز الخير من الشرّ، وما فيك من دافع لتكون خيراً، واستحسانك ورضاك عن المؤمنين بالحقّ والفاعلين للخير، فهو الهداية وهو الفلاح بغض النظر عن أي شيء إضافي آخر، وفوق ذلك لديك وعد من الذي خلقك بمجازاتك بجنة خالدة إن كنت فالحاً.

والكلام هنا توجيهي، فمن التزم به تماماً فقد أفلح حتماً، وحالتنا نحن المؤمنين العاديين لا تجري عليها حتمية فلاحنا، لأننا سنسقط هنا وهناك في فكرة سيئة أو عمل سيء، وسنكون موصوفين بأننا من الذين آمنوا وركعوا وسجدوا وعبدوا وفعلوا الخير، ولكن قد لا نتوصف بها على التمام، فقد نخلط عملاً صالحاً بآخر سيئاً، وقد نقوم بعمل سيء من العيار الثقيل... ولذلك لا تعطي الآية ضمانة فلاحنا بناء على التزامنا المتقطع بما تقوله الآية.

عادة نسمع من الكثيرين المنتمين للديانات "من المسلمين واليهود والمسيحيين..." كلاماً عن ضمانهم للجنة لأنفسهم، فهنا الآية تتحدث مع الجميع من كل مستويات الإيمان، ولا تعطي أي ضمانة فلاح بناء على الإيمان المتقطع المخلوط بعمل سيء، ولذلك عبّرت {لَعَلَّ}، فإن التزمنا بالكامل أفلحنا، وإن لم نلتزم بالكامل فلعلنا نفلح إن لم نرتكب حراماً من العيار الثقيل كالزنا وشهادة الزور والبهتان... أو لم نترك واجباً من العيار الثقيل كترك الزكاة...

تلاحظ أنها المرات القليلة التي استبدل فيها القرآن تعبير "عملوا الصالحات"، بـ {وَافْعَلُوا الْخَيْرَ}، فكلاهما نفس المعنى والنتيجة، وكلاهما أساس كلامه تعالى معنا، فوصفنا لشيء أنه صلاح أو خير، فمجرد وصفه بهذا سيعني تصنيفه بالنسبة لنا بالخير والصلاح، فنرغبه ونحبه ونرضاه... وبالعكس فوصفنا نحن لأي شيء بالسوء والفساد، يعني أننا لا نرغبه ولا نحبه ولا نرضاه...

الباحثون من فلاسفة القانون والأخلاق... عن معنى الخير والشرّ، وعن السبب الدافع لنا لفعل الخير وترك الشرّ، هؤلاء تاه أكثرهم وغرق في مسائل لم يميّز فيها بين الخير والشرّ، وانتهى إلى نتيجة اعتبارية بوصف الأمور بالخير والشرّ، فتصير مجرد وجهة نظر يمكن أن نختلف عليها ويكون كلانا معنا حقّ، فأنت من وجهة نظرك تراها خيراً، وأنا من وجهة نظري أراها شراً، وكلانا معنا حقّ، لا.

كلما كانت قلوبنا سليمة، كان فكرنا ونفسيتنا صافيين، وهذا ينتج عن تركنا لكل ما نراه سيئاً، وفعلنا لكل ما نراه خيراً، كلما كانت الصورة أمامنا لتصنيف الخير والشرّ في الأمور أوضح، وكلما تشوهت قلوبنا، فتشوه أساس فكرنا ونفسيتنا بسبب فعلنا لشيء ما رأيناه سيئاً ولكننا فعلناه، كلما تشوهت قدرتنا على تمييز الخير من الشرّ، حتى تصل بنا الأمور إلى رؤية الشرّ خيراً وبالعكس.

حتى على المستوى النظري لن نستطيع تمييز الخير من الشرّ إن كان أساس فكرنا ونفسيتنا مضروباً، وهذا سبب ما تسمعه من كلام الباحثين في موضوع الخير والشرّ، فبحسب سلامة وفساد قلوبهم ستختلف رؤيتهم وتنظيرهم للأمور، وفي بعض المسائل ستجد هذا أقرب للحقّ من ذلك، وهو نفسه ستجده شاطحاً غارقاً في مسألة أخرى... فبحسب نوع العطل في قلبه سينتج عنه تشوه في رؤيته للأمور.

الخلاصة أن الخير والشرّ والحقّ والباطل بالأساس واضحان جداً لذوي القلوب السليمة من الدرجة العالية، واضحان في كل المسائل، في الإيمان بالحقّ به تعالى وبصفاته الحسنى وبأفعاله الحميدة... وبأخباره عما فعله وسيفعله، وكنموذج عن ذلك إِبْرَاهِيمُ(ع) الذي كرر القرآن الكلام عنه كلما أراد ضرب مثل عن أرقى نموذج بشري وصل بقلبه السليم إلى معرفة كل ما يمكن لبشري معرفته عنه تعالى.

بعد المستوى العالي جداً إِبْرَاهِيمَ وبقية الرسل أولي العزم، الذين ميزهم تعالى بذكرهم كباقة وحدهم وهم نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمُحَمَّدٌ صلواته تعالى عليهم، وتقرأ ذلك في الآية 7 من سورة الأحزاب: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا}، وبعدهم النبيين بدرجات متفاوتة، وبعدهم صالح المؤمنين... وصولاً إلينا نحن ضعاف المؤمنين، فنحن لدينا الكثير من الاشتباه في تمييز الخير من الشرّ لأننا نرغب بالكثير من السوء، ونفعل بعضه... ونترك الكثير من الخير، ومع التكرار على هذه العقلية والنفسية والسلوكيات، نصير نرى بعض السوء خيراً، ونرى بعض الخير سوءاً.

هنا يأتي دور القرآن ككتاب هداية، فعلى هداه نقوّم ما انحرف من فساد قلوبنا، وهكذا يكون القرآن هدى للمتقين، فبالأساس تكون أنت تقياً بدرجة مقبولة، وأصاب قلبك مرض من سيئات فعلتها، فتسمع القرآن وتراه متماشياً مع أساسيات الخير التي تراها أنت خيراً، فتتماشى مع القرآن لأنك تراه خيراً، فتترك ما نبهك عن سوئه لأنك أولاً صرت معترفاً بسوئه، وثانياً تبت منه...

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ {78})

{وَجَاهِدُوا}؛ قوموا بعمل فيه جهد وليس سهلاً، {فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ}؛ جهاداً صحيحاً كما ينبغي وخالصاً في سبيله تعالى. فحتى تحافظوا على بقائكم على إيمانكم وعملكم الصالح، وحتى لا يجبركم الآخرون على ترك دينكم، لا تتهاونوا وقوموا بعموم الأعمال التي فيها جهد، حيث ستتعرضون لبلاءات من الآخرين ومن أنفسكم قد تدفعكم لترك واجب ما أو فعل حرام ما، فجاهدوا أنفسكم وجاهدوا الآخرين، وهذا يتضمّن المجاهدة بالنفس والمال بتقديمها في سبيله تعالى لقتال أعدائكم... بعبارة أخرى الجهاد عمومي يشمل جهاد النفس بمعارضة السوء الذي توسوس به، ومجاهدة وسوسات الشياطين من الجنّ والإنس، ومجاهدة بالنفس والمال بتقديمهم في سبيله تعالى حين تدعو الحاجة.

{هُوَ اجْتَبَاكُمْ}؛ فاعتبركم من خواصّه من بين الناس، بينما البقية مشركون أو كافرون أو منافقون أو فاسقون، ولكن أنتم المؤمنون العاملون للصالحات سبحانه اعتبركم مجموعة خاصة به كمجموعة المؤمنين به، فلكم معاملة وعناية خاصّة، ولذلك لا تعتبروا الجهاد شيئاً عظيماً تقدمونه، فإذا قايستم ما تقدمونه مع اعتباره تعالى لكم أنه اجتباكم، ستنتبهون أنكم لم تقدموا الشيء الكثير، فجاهدوا حتى تبقوا من مجموعة المجتبين عند الإله عزّ وجلّ.

{وَمَا جَعَلَ} تعالى {عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ}، في الأمور التي تدينون بها لربكم سبحانه كتبعات عليكم لأنكم عبيده، فليس عليكم في ما أمركم به ربّكم سبحانه، {مِنْ حَرَجٍ}؛ فليس في دينكم أشياء تجعل موقفكم محرجاً، فليست أموراً سيئة أو على حافة السوء، لا، ليس في الدين الإلهي أي أمور من هذا النوع.

بعبارة أخرى في هذا الدين الإلهي، التبعات التي عليكم من الالتزام بما يقوله تعالى لكم سواء من العناوين أو التفاصيل لتؤمنوا بها أو لتفعلوها، فكل ما يطرحه سبحانه لا يسبب لكم أي نوع من الحرج حتى تضطّروا لمخالفته، وليس فيه أي شيء لتقبلوه على مضض وأنتم غير مقتنعين به، لأنه دين حقّ يتماشى مع رؤيتكم للخير والحق والصلاح، وبناء عليه فليكن تديّنكم متيناً، فجاهدوا بما أنتم عليه من دين حقّ.

{مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ} ؛ فالدين الذي أنتم عليه نابع من ثقافة وعادات أبيكم جدّكم الأكبر "معنوياً" النبي إِبْرَاهِيمَ(ع)، فهذا الشخص المميّز عنده تعالى بسبب سلامة قلبه، هو أبوكم المعنوي لأنه سبحانه جعل عاداته وثقافته ديناً، وأمر سبحانه بقية الناس بتقليد النبي إِبْرَاهِيمَ(ع)، فلا داعي للشعور بالحرج من أي شيء تفعلونه لأن أساسه يرجع إلى تلك الشخصية المعترف بها عند غالبية الناس بأنها كانت شخصية محترمة جداً، وقبل ذلك سبحانه اعتبره مميزاً.

عطفاً على الآية السابقة الكلام عن النبي إِبْرَاهِيمَ(ع) هنا كنموذج بارز جداً في تاريخ البشرية عمن التزم بما يراه صالحاً، ولذلك كرّر سبحانه الكلام عنه في القرآن كنموذج لنا لنقتدي به، على قاعدة أننا كلنا فينا نفس القابلية التي في إِبْرَاهِيمَ(ع) لتمييز الخير من الشرّ وفينا حب الخير ورؤيته فلاحاً... فملة إبراهيم ليست ديناً إبراهيمياً على معنى أنها اختراع إبراهيمي، فلو أي واحد منّا التزم بما يراه خيراً وصلاحاً فسينتهج في حياته بالتمام مثل نهج إبراهيم حتى لو لم يسمع بإبراهيم ولم يصله أي أثر منه، لأن سلوك إِبْرَاهِيمَ(ع) ترجمة للخير الذي جعله تعالى فينا، ومن البديهي أنه مطابق لما يرضاه تعالى لنا، ومتماشياً مع الأوامر الإلهية.

إذاً وبحسب ما ركّزت عليه السورة من التوحيد ومناسك الحج وتقديم الأضحية... بأنها ليست تراثاً عربياً، ولا تراثاً قرشياً، ولا اختراعاً من "محمّد"، بل هي أعمال قام بها من قبل آلاف السنين شخص معروف مشهور لدى الكثيرين جداً من الناس واسمه "إِبْرَاهِيمُ"، والكثيرون من الناس يعتقدون أن "إِبْرَاهِيمَ" لن يقوم بأي عمل لا يرضى الله تعالى عنه، ويعتبرون أن أي تصرّف قام به "إِبْرَاهِيمُ" فسيكون بأمر من الله تعالى، إذاً، الحج وتقديم الأضحية "كنموذج" هي أعمال قام بها إِبْرَاهِيمُ(ع)، وقبل ذلك توحيده تعالى كان الأساس في عقيدة إِبْرَاهِيمَ(ع)... فلا داعي لتشعروا بالحرج من تعليقات الناس على مناسك الحجّ وتقديم الأضحية، ولا على التوحيد وبقية مفردات دينكم، وأصلاً لن يأمركم تعالى بأي عمل محرج تستحون منه.

{هُوَ} ، النبي إِبْرَاهِيمُ(ع)، {سَمَّاكُمُ} ؛ أطلق عليكم تسمية، {الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ} ؛ فقبل الآن ومنذ آلاف السنين أطلق النبي إِبْرَاهِيمُ(ع) على من يلتزمون بهذا الدين الإلهي أنهم مسلمون: منقادون مطيعون بالكامل لله سبحانه. فحتى اسمكم الديني الذي تحملونه "مسلمين" فهو بالأساس وصف استعمله النبي إِبْرَاهِيمُ(ع) ليصف به الملتزمين بدين الله تعالى منذ آلاف السنين.

{وَفِي هَذَا} ، الذي نخبركم به عن أبيكم المعنوي إِبْرَاهِيمَ(ع)، {لِيَكُونَ الرَّسُولُ} ، محمّد(ع)، الذي ينقل إليكم رسالتنا الآن، {شَهِيدًا عَلَيْكُمْ} ؛ فيشهد أنكم أتباع لملّة أبيكم إِبْرَاهِيمَ(ع)، فيخبركم بما يجب أن تفعلوه، ويراكم تنفذّونه، فيشهد الرسول محمّد(ع) بأنكم لم تخرجوا عن ملّة أبيكم إِبْرَاهِيمَ(ع)، يعني يعطيكم النبي محمّد(ع) المصداقية، فكرسول إلهي سيصادق ويوافق على إيمانكم وأعمالكم أنها مطابقة للمواصفات.

{وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} ؛ ففي الأزمنة والأمكنة التي يغيب فيها الرسول محمد(ع)، أنتم أيها المؤمنون أيضاً ستشهدون فتؤكدون أن دينكم هو امتداد لملّة النبي إِبْرَاهِيمَ(ع)، وتتحملون مسؤولية المصادقة على تصرفات الآخرين أنها صحيحة دينياً. وهذا الكلام يشير إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبيان العقائد والأحكام الإلهية... فهذا مطلوب من المؤمنين.

وحتى تكونوا شهداء فابدؤوا بأنفسكم بالالتزام بأساسيات الدين التالية:

{فَأَقِيمُوا} ؛ فافعلوا ولا تهملوا أو تتركوا، {الصَّلَاةَ} ؛ التوجّه والإقبال، وطبعاً المقصود هو التوجّه نحوه تعالى بالحركات والكلمات التي تعبّر عن ذكره والخضوع له في الأوقات وعلى الشكل الذي حدّده تعالى لكم عبر رسوله (ع)، وهي التي نسميها بالصلوات الخمس اليومية الواجبة.

{وَآتُوا الزَّكَاةَ} ؛ على معنى اجعلوها عند من يوزّعها أو وزّعوها أنتم، وكلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، فتشير لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكية، مال زاك، طعام زاك..."، ومنذ القدم صارت مصطلحاً دينياً يشير إلى دفع نسبة محدّدة من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ} ؛ أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، فيدفع منها ما يوصف

بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ}، فتكون نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

{وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ}؛ فالتزموا بما يرضاه ويقوله تعالى لتمنعوا حصول الأمور السيئة التي لا تريدونها أن تصل إليكم أو لا تريدون أن تكونوا فيها، ومن جانب آخر هو أمر لنا جميعاً لنكون سوياً تحت المظلّة الإلهية، فيكون الاعتصام به تعالى جامعاً لنا.

{هُوَ}، الله تعالى، {مَوْلَاكُمْ}؛ فبما أنكم أعلنتم إسلامكم فقد اعتبرتموه تعالى مولاكم كمرجع لكم، وها سبحانه يخبركم أنكم تابعون له، وعملياً فسيعتني سبحانه بكم بما يراه مناسباً على أساس أنكم من التابعين له تعالى.

{فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ}؛ فعندما تعتبرون أنفسكم تابعين له تعالى وهو تعالى مسؤولاً عنكم كمرجع لكم، فأنتم اخترتم مولى من أفضل ما يكون، فصرتم تابعين لمن هو موصوف بأفضل صفات العناية للتابعين له.

{وَنِعْمَ النَّصِيرُ}؛ فهو سبحانه سيحقّق لكم ما تريدونه لأنفسكم أو من غيركم وموصوف بأنه من أفضل ما يكون كنصيّر. وهذا بديهي لأنه تعالى الإله الواحد الأحد، وحين توالوه سبحانه ويعتبركم من الموالين له فبالتالي أنتم صرتم تابعين لأقوى قوّة في الوجود.

أمّا الذين اخترعوا آلهة وعبدوها واعتصموا بها واعتبروا أنفسهم موالين تابعين لها، فقد ذكر القرآن وصفهم بـ {بِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ}.

سورة المؤمنون (23) ص 342
هناك مخطط إلهي لمصيرنا وسيحصل حتماً، ويتحدد مصيرنا بالفلاح الذي ستذكر السورة أبرز نماذجه في مقدمتها والذي نتيجته جنة خالدة، ويتحدد مصيرنا بالكفر الذي نتيجته العذاب الخالد، وحيث إن الخزعبلات والكلام الفارغ إنكاراً للآخرة لن يغيّرا أي شيء من هذا المصير الحتمي.

عرضت السورة لفت انتباهنا لآياته تعالى في أنفسنا وفي بيئتنا وفي بعض تدخلاته تعالى كحالة إبادة قوم النبي نُوحٍ(ع)... وهي آيات دالة عليه تعالى وعلى توحيده، وعرضت أبرز سخافة تعلق بها من كفر ظلماً بقوله إنه لن يؤمن برجل من البشر أنه رسول إلهي، لتريه أولاً أن كلامه غير صحيح، لأن الآيات فينا ومن حولنا دالة على إله واحد أحد، والتاريخ مشحون برسل من البشر، ونفس هذا الامتداد التاريخي لآلاف السنين لأشخاص على نفس الخط هو لوحده دليل على كونه تعالى يعتمد إرسال رسل من البشر للبشر، ومضافاً إليه ما جرى مع الرسل من "آيات" تثبت أنهم رسله سبحانه، والعذاب الذي أصاب بعض الأقوام دليل واضح على تدخله تعالى بسبب تكذيب الأقوام لرسلهم...

أهم ما تراه تركيز السورة على الحجة الواهية للكفر بالرسل لأنهم بشر، مع العلم أن هذه الحجة لم تغير أي شيء، إذ إن الكفار وعبر التاريخ ماتوا في ظروف مختلفة، والنتيجة أنهم ماتوا كفاراً، وستأتي الآخرة حتماً، فبماذا انتفعوا من التعلق بهذه الحجة التافهة؟ طبعاً قبل ذلك بينت السورة أن حجتهم تافهة.

بعبارة أخرى لو أزلت من السورة القسم المتعلق بتوضيح مسألة "رسل من البشر" لرأيت عموم كلام السورة عن حق واضح مقابل تفاهات، فالحق الواضح أن الإله أحد، وستذكر الأدلة على ذلك، فما معنى تكذيب الرسل في هذا الشيء الواضح بحجة أنهم لن يؤمنوا برسل إلهية من البشر؟!

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ{1})
{أَفْلَحَ}، كانَتْ أعمالهم فالحةً فأجادوا عملاً، {الْمُؤْمِنُونَ}، الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين. بعد إعلانهم لإيمانهم تعرض لهم السورة في مقدمتها السلوك العملي للإيمان، وعبّرت عنه بالفلاح، بأنه عمل أجاد من قام به، كما نقول: أفلحت يا فالح، واصفين مادحين من قام بعمل جيدٍ.

في الآية الحادية عشرة الآتية سترى دخولهم جنّة الآخرة كنتيجة وصفهم بالفلاح، ولكن لا تنسَ أن وصفهم بالفلاح أساسٌ بغض النظر عن النتيجة، فصلاتهم وإعراضهم عن اللغو وزكاتهم... هي بحد ذاتها فلاح على معنى الإجادة فيما عملوا. هذا أساس قرآني يربط بين أوامره تعالى وبين ما فينا من قابلية لرؤية خير ما يأمرنا به تعالى، فلا توجد حالة وصف بالفلاح لمن قام بعمل يراه أصحاب القلوب السليمة سيئاً حتى لو كان عملاً منسوباً للدين. تصوّر الإيمان والالتزام بدينه تعالى بالرغم من الاعتقاد بأمور سيئة فيه، أو بالرغم من الاعتقاد بتحريمه علينا لأمور جيدة، هو تصوّرٌ ناتجٌ عن الممارسات السيئة للمنتمين لدينه تعالى، وهي ليست فلاحاً، ولن تصير فلاحاً. هذا هو الفرق الجوهري بين دينه تعالى المطروح علينا عبر هذا القرآن، وبين أي دين آخر، فلا يوجد في دينه تعالى ما يمكن أن يكون سيئاً ويأمرك به سبحانه، ولا يوجد ما لك فيه خير وينهاك عنه سبحانه. هكذا يصير الفلاح عمليا ما تراه أنت فلاحاً وهو نفسه ما يأمر سبحانه به، وبعد ذلك يأتي الوعد بالفوز بالجنّة للفالحين.

بالنسبة لكلمة "آمن" فلم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإسلام أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن.
بمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، فـ"آمن" على أصل معناها اللغوي، و"اعتقد" على معناها الاصطلاحي الدارج، كلاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ{2})
{الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ}، أثناء توجههم وإقبالهم، وكلمة صلاة صارت منذ القدم مصطلحاً دينياً عن الكلمات والحركات التي تعبّر عن ذكره والخضوع له تعالى، وهي التي نسميها بالصلوات الخمس الواجبة يومياً، {خَاشِعُونَ}، يشعرون بالضعف من فقدانهم للقدرة أمام قدراته تعالى.

يظهر الخشوع عند الشعور بالوقوف بين يدي الإله سبحانه وتعالى، حيث من الخارج لا نقوم بأي حركة غير حركات الصلاة للتعبير عن فائق الخضوع والاحترام، "إلا عند الضرورة القصوى في الظروف القاهرة، كالهرب من الخطر فنختصر الحركات والكلمات... أو حتى نقطع الصلاة"، ومن الداخل نشعر بأننا نتكلّم مع الإله سبحانه وتعالى، فنركّز على التوجّه إليه تعالى، ونفهم ما نقول، فلا ننوي ونكبّر للصلاة ومن بعدها يذهب فكرنا إلى مشاغلنا وهمومنا... ونجد أنفسنا في التسليم ولم نَعِ ما قلنا وما فعلنا كأننا آلات!

تتذكّر دائماً أن كلام القرآن عن نماذج من المستوى الإيماني العالي لا يقصد منه إلغاء المستويات الأقل منه. هنا الكلام عن الخاشعين في الصلاة هو كلام عن نماذج قليلة جداً تؤدّي صلاتها من أولها لآخرها بخشوع، ويحفّزنا القرآن لنكون منهم، أو نحاول لنكون قريبين من صفاتهم. ليس من المقبول أن يتهاون سبحانه معنا ليمدح الصلاة الفارغة من المضمون، فكم من المصلين وهم من الظالمين المجرمين في بيتهم ومع أهلهم ومع جيرانهم ومع مجتمعهم وفي تعاملاتهم مع الآخرين... فما قيمة صلاة هؤلاء؟ هكذا ترى أن الخشوع الحقيقي له تعالى في الصلاة دافع رادع لنا عن ارتكاب السوء على الأقل خوفاً منه سبحانه، والصلاة الفارغة من المضمون ليست فلاحاً، فهي ليست عملاً تمدح عليه من قام به.

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ{3})

{وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ}، بتعبيرنا الدارج فاللغو هو "الأفعال" والكلام الفاضي، كلام بلا طعمة، وصولاً إلى الكلام السيئ. له تدرجات تبدأ من أقل اللغو بكلام لا فائدة فيه إلا مضيعة الوقت وتشويش الفكر والنفسية، كالكلام لا عن دراسة ولا عن مصادر موثوقة ولا عن تفكير... وينتقل للتدرج الأعلى للغو بالكلام الذي فيه أذية خفيفة للآخرين كالمزاح الثقيل، وصولاً إلى العيار الثقيل كأذية الآخرين بالكلام والكذب في أمور مهمة وشهادة الزور وعموم الكلام الفاحش مع غناء أو بدونه... وكيفما نظرت إلى هذا النوع من الكلام "والأفعال" اللغوية ستجدها في النهاية كلاماً باطلاً سيئاً، سواء لمضيعة الوقت أو انخفاض مستوى القيمة الأخلاقية أو الاجتماعية أو الثقافية... أو لسوئها... والفالحون عنه {مُعْرِضُونَ}، فهو ليس من اهتماماتهم فلا يفعلونه.

لاحظ الآية تنتقل بنا إلى السلوكيات العالية بكلامها عن ترك اللغو. للأسف فإن مستوانا المنخفض يمنعنا من فهم المعنى الحقيقي لترك اللغو الذي يبدأ من مستويات نعتبرها عادية من الكلام المنتشر بيننا، كقولي لك: ذهبت إلى دارك لأزورك ولم أجدك، وفي الحقيقة تكون غير قاصد لزيارته وتعلم أنه لن يكون متواجداً في منزله حين قصدته... هذا نموذج من الكلام المتعارف عليه بين الناس أنه عادي، بينما هو لغو، والفالحون لا يفعلونه.

خذ مثلاً الكلام عن العقائد والتشريعات وتفسير القرآن والأحداث التاريخية والسياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع والنصائح الطبية... التي نقولها لا عن دراسة ولا عن مصادر موثوقة، فهذا لغو خطير جداً يؤسس لعقلية متخلفة تتعاطى مع الأمور الخطيرة باستهتار، والفالحون لا يفعلونه.

مثال آخر تعليقاتنا على ملابس بعضنا البعض وعلى أثاث بيوتنا... قاصدين التقليل من قيمة ما عند الآخرين، أو قاصدين رفع قيمة ما عندنا بالمقارنة مع ما لدى الآخرين... ومثله المزاح الثقيل المؤذي للآخرين... الفالحون لا يفعلونه.

أطلت عليك لأننا مشحونون بثقافة تحصر دينه تعالى بالتشريعات القانونية للعقود والمعاملات المالية... ناسين تشريعات السلوكيات والأخلاقيات. بسبب ذلك يذهب فكرنا من كلمة "لغو" إلى حرام من العيار الثقيل كالكذب في الأمور المهمة والغناء بكلام فاحش والسباب والشتم... ناسين تفاصيل السلوكيات الراقية المرتفعة عن كل اللغو الحرام أصلاً.

خذ مثلاً آخر عن النصائح الطبية الشعبية الفاسدة التي ينشرها الناس على وسائل التواصل الاجتماعي، فلننسَ من كتبها وهو ليس من أهل الاختصاص بالطب، ولننسَ أمراضه النفسية الدافعة للكذب وسخافته أو حبه للظهور... ولنسأل الذين يوزعونها للآخرين: ماذا تفعلون؟ فإن لم يكن هذا لغواً حراماً فما هو اللغو الحرام؟

الآن صرت ترى أين تحلّق الآية هنا في كلامها عن نماذج راقية من المؤمنين، حيث قفزت الآية عن أساسيات معلوم حرمتها، من الكذب وشهادة الزور... لتريك جانباً آخر من سلوكيات تجعل الإيمان منخفضاً، وبكلام عمومي تستعمل فيه الآية كلمة "لغو" ليشمل كل كلام "وفعل" وتصرّف سيئ من الأقل ضرراً وصولاً إلى الخطير في ضرره.

بقي سؤال: هل يحرّم سبحانه التسلية واللعب والمزاح والغناء؟ هل هم من اللغو الذي تحرّمه الآية هنا؟

لا، هم من أنواع اللغو ولكن يحرم اللعب والتسلية بما هو حرام كالقمار، وبما هو مؤذٍ كالملاكمة حتى إسقاط الخصم من بعد إفقاده لوعيه بسبب الضرب، ويحرم اللهو واللعب حين يكون هناك عمل مهم جداً يجب علينا تأديته، ويحرم المزاح حين لا يرغب به الآخرون أو يصير ثقيلاً مؤذياً، ويحرم الغناء حين يسبب اشتهاء الأنثى للمغني واشتهاء الذكر للمغنية، وحين يكون الغناء بكلام باطل كالفحش والسباب...

العجب من فتاوى تحرّم غناء الزوجة لزوجها أو غناء الزوج لزوجته بكلام الغرام والإباحية بينما محلل لهما المقاربة الجنسية! والعجب تحريم غناء النساء بين بعضهن حتى لو كان الكلام لائقاً!

ترك سبحانه لنا مساحة بحسب شخصياتنا ومواقعنا في المجتمع، فلم يحرّم اللغو بكل أنواعه التي بالتوسّع في معناها ستشمل حتى ما هو حلال، حيث يحرم اللهو والمزاح على المتولين لشؤون تمس مصالح الناس كالقادة والقضاة والمشرّعين... حين يكونوا في وظيفتهم، فهؤلاء قد لا يميّز الناس بين جدهم وهزلهم... بينما لا يحرم عليهم المزاح في مجالسهم الخاصة مع أصدقائهم.

ترك لنا سبحانه مساحة وهامش مرونة لما قد يتعارف عليه مجتمع أو جماعة، ويكون لغواً سيئاً عند البعض، ولغواً معفواً عنه عند الآخرين، فلم يلزمنا كلنا بعناوين تفصيلية واحدة...

كمثال عن ذلك ما كان دارجاً بين الناس في أيام النبي محمد (ع) وفي بيئته من أدوات موسيقى "كالدف والطبل..."، فقد كان متعارفاً منتشراً استعماله في حفلات الزفاف والمناسبات... ولذلك تراه حلالاً في تراثنا الديني، أمّا حين دخلت آلات جديدة "كالطنبور والمزمار..." فقد استهجنها الناس واستهجنوا ما جاء معها من غناء غير مألوف، ومن سهرات وحفلات "وسكر" غير مألوف للرزنين العقلاء المتدينين، فحرّموا ما لم يألفوه حتى لو جرى استعماله بطريقة لائقة.

ترى في عصرنا أناشيد دينية على أدوات وأنغام موسيقى مستوردة من ثقافة فيها ما ليس محتشماً ولا لائقاً، وفي البداية كانت مستهجنة محرمة، وحين ألفها الناس صارت على الأقل عرفياً حلالاً!

هكذا ترى أن هذه المواضيع فيها حلال وحرام حين تكون سيئة، فيكون فيها إغراء حرام، وكلام معيب أو سيئ... وليس فيها حلال وحرام إن كانت مستهجنة أو جديدة، فلا معنى لتحريم شيء، وبعدما يعتاد الناس عليه ويألفوه يصير حلالاً.

هكذا بقية ما هو ألعاب وتسالي، فلا معنى للنفور منه وتحريمه بدون أساس قرآني ولمجرد استهجانه واستغرابه، ولمجرد استعمال الآخرين له للقمار أو للإباحية أو بأي شكل سيئ، فقديماً حرّم بعضهم شراء واقتناء ومشاهدة التلفزيون على أساس أنه يعرض ما هو حرام، وحالياً لن تجد مفتياً يحرّم شراء التلفزيون لأن الجميع اعتادوا عليه.

خلاصة الكلام أن التسلية بالحديث والمسامرة مع الأصدقاء بالذكريات والنكات والقصص... أو بالألعاب، هو شيء فعله صالح المؤمنين عبر التاريخ، بينما ما هو دارج بين بعض الناس عن الإيمان العالي لأشخاص متفرغين للصلاة والدعاء والذكر والدراسة، ولا يجالسون الآخرين إلا للحديث في الشؤون المهمة جداً، ولا يفرغون وقتاً للتسلية، ولا يبتسمون... فهو شأن خاص بفكر ونفسية أولئك الأشخاص، وليس العنوان الوحيد للوصول إلى الدرجة العالية للإيمان عبر استغلال كل الوقت فيما ينتج عنه حسنات، فهذه سيرة النبي محمّد (ع) كنموذج عن بقية الأنبياء، ستجد فيها أنه (ع) لم يقضِ كل نهاره بالعبادة أو الذكر، وأنه كان يلاعب أحفاده، ويتسامر مع أهل بيته وأصدقائه، ويبتسم للناس، ويضحك بلياقة أمام الأمور المضحكة، ولم ينكر على الناس غناءهم في أعراسهم ولا استعمالهم لأدوات الموسيقى ولا رقصهم... من المعلوم أنه (ع) كان يعقد للناس قرانهم ويحضر زفافهم وولائمها، ولم ينقلوا في السيرة ولا ملاحظة عن الغناء والعزف، فلم يقولوا: جاء النبي وتوقف الدف والطبل...

بالعقلانية تفهم أنه (ع) كان يحضر ما كان لائقاً بتواجد نبي فيه، لأن مجتمع المدينة كان فيه فسّاق ومنافقون مستهترون باللياقة والحرمة...

(وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ{4})

{وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ}، وكلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، حيث تشير لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكية، مال زاك، طعام زاك..."، ومنذ القدم صارت مصطلحاً دينياً يشير إلى دفع نسبة محددة من الخير. راجع الآية المائتين وخمس عشرة من سورة البقرة: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ}، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدٍّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، فيدفع منها ما يوصف بالعفو من الأموال. راجع الآية المائتين وتسع عشرة من سورة البقرة: {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ}، فتكون نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة. راجع الآية الستين من سورة التوبة: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

شاع بين المسلمين أن الزكاة لم تكن واجبة في أول بداية الدعوة حين كان النبي محمدٌ (ع) في مكة، ويقولون إنها صارت واجبة بعدما هاجر (ع) إلى المدينة، وهذا غير صحيح، لأن الزكاة واجبة في الدين الإلهي من آلاف السنين، وتقرأ ذلك مراراً في كلامه تعالى مع مختلف المنتمين لدينه عبر العصور ككلام الآية الثالثة والثمانين من سورة البقرة: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ... وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}. هذا الدين القرآني ليس بدعةً حتى لا تكون الزكاة واجبة

من أول سنوات الدعوة إليه، بل كانت واجبة دائماً واستمر وجوبها، مثلها مثل حرمة شرب الخمر والسرقة والزنا وشهادة الزور والبهتان والإفك... فهذه أمور لا تجدها في السور النازلة أوائل الدعوة فهل صارت محرمةً بعد الهجرة؟!

فرّق القرآن بين الزكاة الواجبة وبين الصدقة كون الزكاة معلوم أنها في دينه تعالى نسبة مفروضةٌ... أمّا الصدقة فهي وجوب مساعدة من تجده محتاجاً وبقدر ما يمكنك لسد حاجته ومن دون تحديد لقيمة أو نوع المساعدة، فلم يتحدث القرآن عن صدقة "مستحبة" بل عن وجوب مساعدة المحتاجين حتى لو كنت قد دفعت الزكاة والخمس...

ما تجده في كتب الفقه من كلام تفصيلي عن الزكاة، ومحاولة اعتمادهم على الروايات لتحديد نوعها وكميتها وزمانها... لأن القرآن لم يذكر إلا وجوبها، فهذا غير سليم، لأنه تعالى في عموم تشريعاته عرض علينا في القرآن الأساسيات تاركاً هامش مرونة واسعاً ليناسب مختلف الظروف والأزمنة والأمكنة. أصلاً تلاحظ ذلك في الروايات التي ستجد فيها اختلافات، وبعضها سببه أن الرسولَ (ع) تحرَّكَ في هامش المرونة المتروك لنا منه تعالى لنشرّع في تلك المساحة بما نراه مناسباً مع الالتزام بأساس التشريع. بناء عليه لم يشرعِ الرسولُ (ع) في عموم تفاصيل الشريعة بشكل حاد صلب، بل باختلاف الظروف تحرَّكَ في الهامش المتروك ليشرّع بما يناسب.

مثل الكلام في الزكاة الكلام في دية المقتول وفي تقسيم الميراث وقرار قتال الأعداء أو معاهدتهم... فكلها أمور متروك فيها هامش مرونة منه تعالى لنا لأن الظروف تختلف... للأسف لم نفهم ذلك وأصررنا على البحث والتنقيب في الروايات لنخرج بفتاوى صلبة تقيدنا فيما تركه تعالى مرناً!

لا أقصد بذلك التراخي والتهاون في تشريعاته تعالى، بل الإعلان عن قابلية تغير التشريعات التفصيلية بحسب الظروف المناسبة بدلاً من التقيد بتشريعات كانت مناسبة لزمن الرسول (ع)، بل حتى في زمنه (ع) كان يتحرك في هامش المرونة ويفتي بحسب الظروف المناسبة، وترى ذلك واضحاً جداً في اختلاف تحديده (ع) لنسبة الزكاة بين شخص وآخر وبين زمن وآخر... وتراه في أحكام متعددة في الميراث متحركاً (ع) في هامش الثلث إلى النصف فيما تركه الميت ليشرّع بما فيه مصلحة الوارثين...

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ{5})
{وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ}، لما بين رجليهم؛ للفرج النسائي "الرحم"، والفرج الذكري "الإحليل"، {حَافِظُونَ}، معتنون صائنون. مِن الواضح أن المقصود هو حفظهم لفروجهم من ارتكاب الفاحشة، كما سترى من الآية التالية.لاحظ ورود هذه الآية والآيتين التاليتين في سورة المعارج من الآية التاسعة والعشرين وما بعدها.

(إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ{6})

{إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ}، المرأة لا تحفظ فرجها من زوجها، والرجل لا يحفظ فرجه من زوجته، حيث إن الزوج والزوجة مسموح لهما معاً فعل كل ما يرغبان به مع بعضهما بفرجيهما، وبالتالي الاستمتاع ببقية جسدهما.

{أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ}، أيضاً لا يجب على الرجل الحفاظ على فرجه من الأنثى التي يملكها بالاقتدار بالتحكّم "الأمة، العبدة"، ولا هي تحفظ فرجها منه. ليسا بحاجة لعقد نكاح حتى يصيرا حلالاً على بعضهما، ويكفي كونها مملوكة وراغبة بالمقاربة، فإن لم ترغب لم يجز لمالكها مقاربتها كما سترى في دراستنا عن العبودية.

{فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ}، لا لوم عليهم، فهم كمؤمنين من المفروض ألا يفعلوا السوء، وهم لم يرتكبوا أي خطأ بهذا التصرّف، فلا عتاب ولا عقاب لهم على العلاقة مع زوجاتهم أو ما ملكت أيمانهم.

كلام الآية عن نفي اللوم يشير إلى سماح إلهي صريح بالمتعة الجسدية المقوننة بزواج أو ملك يمين بين ذكر وأنثى، وبالتالي تحريم أي علاقة جسدية أخرى غير مقوننة بعقد زواج أو ملك يمين. بالدقة فإن نفي اللوم يجيز للمؤمنين الزواج للمعاشرة ويجيز ملك اليمين للمعاشرة أيضاً "مع موافقة المملوكة"، ولا يوجبه على المؤمنين، فهو متروك لرغبتهم، فقد يرغبون بالبقاء عزاباً ولا تمنعهم الآية من ذلك.

ضمناً فإن كلام الآية "بنفي اللوم" يشير إلى ما تجده هنا وهناك في ثقافات دينية مختلفة حتى من المنتمين لدينه تعالى، حيث بعضهم "يلوم" معتبراً العلاقة الجنسية حيوانية غرائزية منحطّة ويجب الترفّع عنها، ويصفون من لم يقم بعلاقة جنسية من المتدينين بأنه من الأرقى إنسانياً ودينياً! يشجعون على ترك العلاقات الجنسية... أو التعامل معها فقط لإنجاب الأولاد مع حكمهم بارتكاب الإثم "اللوم" إن تلذّذت بالعلاقة الجسدية الحلال! تجد ذلك منتشراً في عموم أدبيات اليهود والمسيحيين والبوذيين... للأسف فإنه هنا وهناك في بعض أدبياتنا الإسلامية يختلط التنبيه السلوكي والأخلاقي من الانجراف مع الشهوة إلى درجة الوصول إلى الحرام بالزنا... هذه التنبيهات مهمة جداً... ولكنها تختلط مع كلام عن تشويه نعمة المتعة الجسدية التي جعلها تعالى فينا، حيث بعضهم يبالغ لدرجة التنفير منها والتعامل معها بجفاف وعند الاضطرار!

يبنون كلامهم على مبدأ الابتعاد عن التعلّق بزينة الحياة الدنيا، وبحسب قول بعضهم فهذا هو الطريق إلى الإيمان العالي! طبعاً بعضهم عقلاني في طرحه وملتزم بكلامه تعالى المتماشي مع الآية الثانية والثلاثين من سورة الأعراف: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، فنبّه القرآن من الانجراف المتطرف بالغريزة الجنسية لدرجة الفحش بالزنا أو الشذوذ، ونبّه من دوام التفكير فيها وجعله هدفاً مستمراً وهماً... هذا مثله مثل التنبيه العادي من أي رغبة أو غريزة أو شهوة، كنهم الطعام والسكريات والدهنيات والتسوّق بشراء الثياب وغيره إلى حد التبذير والإسراف... التطرف "إسرافاً وتبذيراً" في كثرة أي شيء قد يوصل في النهاية إلى فعل السوء...

بعضهم الآخر من موزعي النصائح الأخلاقية والعرفانية والصوفية لم يميّز حالته التي فرضت عليه ترك الملذات لأنه شاخ وهرم جسده، فصار يوزّع نصائح مناسبة لعمره ولم ينتبه أنها غير مناسبة للشباب، مخالفاً بذلك سنّته تعالى في خلقه حيث تفضّل علينا بنعمة الشهوة والغريزة بجسد ونفسية يصلان مع بعض إلى مرحلة الشباب للتمتّع بفضله تعالى...

من عجوز متصوّف أو عجوز عرفاني أو عجوز سالك أو عجوز مؤمن مستنير... تسمع نصائح بالترفّع عن الملذات الجسدية "الجنس والأكل..." على أنها حجب مانعة من التقرّب منه تعالى! بينما هذه هي حالته هو كعجوز أصلاً، فهو مترفّع عنها غصباً عنه لأن جسده لم يعد قادراً عليها! فليحتفظ بنصائحه لنفسه ولينتبه لكلامه مع الشباب المفعمين بالحيوية، فهم سيشعرون من كلامه بأن إيمانهم ناقص لأن رغبتهم وشهوتهم قوية... بينما هم الطبيعيون والعجوز هو المتطرّف بعرض دين متزمّت على الآخرين، وهذا دين من اختراعه هو وليس دينه تعالى.

الحري بنا دراسة أوضاع مجتمعاتنا وشبابنا لتأمين حياة سعيدة لهم بتنفيس شهوتهم بالحلال عبر تأمين أشغال لهم تدرّ عليهم مداخيل تكفي للزواج... بدلاً من كبتهم بالنصائح الدينية المنفرة من المتعة الجسدية وتكريههم بها بكلام ننسبه لدينه تعالى.

هكذا ترى آيتنا "فإنهم غير ملومين" تاركة المجال للحالات المختلفة باختلاف الظروف ولاختلاف تدرجات الرغبات من القوّة إلى الضعف. إنهم غير ملومين إن فعلوا ما حلّله تعالى لهم، بينما تجد بعضاً من المنتسبين لدينه تعالى منّا وممن سبقنا من أهل الكتاب يقولون بحلية الزواج، ولكنهم يلومون من يقوم به لأجل المتعة، وكأنه يفعل شيئاً معيباً يلام عليه، ويقولون إن الزواج ضرورة لاستمرار النسل ومن المعيب التلذّذ به!

الكلام يجر الكلام، فأي فعل بين الزوجين بجسديهما وبرضاهما فهو حلال لهما.

كما ترى، فقد صار كلامي عميقاً بعض الشيء وخرج أو يكاد يخرج عن اللياقة، وصرت ترى أن التعبير القرآني {غَيْرُ مَلُومِينَ} يقصد ما قلناه وأكثر، ولكن عبّر القرآن بطريقة لطيفة وراقية ومهذّبة.

بالنسبة للعبودية، فعلى مر التاريخ اختلفت نظرة الناس للعبودية، حيث كانت العبودية دارجة قديماً في غالبية الأمم، ومنذ مدة قليلة في القرن العشرين صار دارجاً النفور من العبودية، فنسي الجميع ما كان دارجاً متعارفاً عليه أنه مقبول لدرجة جعلت المفسرين والفقهاء والمفكرين المسلمين يشعرون بالحرج من الآيات التي تتحدث عن العبيد، وتراهم

مباشرة يغيّرون الموضوع ويشيرون لعدالة الإسلام ومسحه للعبودية عبر تحرير العبيد وعتقهم ومكاتبتهم، وجعل تحريرهم فديةً كتكفير عن بعض السيئات...

كلامهم صحيح، ولكن الصحيح أيضاً أن العبودية كانت منتشرة، ولها تشريعات في القرآن، ولست بوارد نفي أفضلية كون جميع الناس أحراراً، فإن كان المزاج العام للناس الآن مضاداً للعبودية، فأين المشكلة! في حين نزول هذا القرآن وإلى زمن غير بعيد لم يكن هذا المزاج العام، بل كانت العبودية واقعاً منتشراً بين الناس، فإن وقع المسلمون تحت الأسر من أعدائهم فقد كان مصيرهم العبودية، فلم يكن المسلمون وحدهم يستعبدون...

لننظر لأحكام العبيد في القرآن، ولن تجد فيه حكماً أو تشريعاً يأمر باستعباد أحد، وأقصى ما ستجده عن تقييد الحرية فهو عن أسر الأعداء المحاربين فقط. ما فعله الرسول محمدٌ (ع) من استعباد للأسرى "كما نقلوا في التاريخ" فقد كان حكم الأمر الواقع بسبب اعتماد الطرف الآخر له، وبسبب الخيارات الأخرى الضيقة، فإما قتل أسرى الأعداء أو تركهم أحراراً وفي ذلك خطر إعادة تشكيل قوّة معادية، أو سجنهم ليموتوا في السجن أو سجنهم لمدة طويلة جداً وهذا ليس حلاً عملياً للسجين أو للساجن له، أو استعباد الأسرى.

قونن النبي محمدٌ (ع) هذا الواقع بناء على مبادئ القرآن، بتحرير أسرى الأعداء من بعد أسرهم إن كانت الأمور تشير لاستبعاد الخطر منهم، أو استعبادهم وتفريقهم إن كان هناك خطر من تجمعهم من جديد كمعادين مقاتلين.

علماً أننا لا نجد في التاريخ سوى "زعم بعضهم" استعباده (ع) لبعض أعدائه، بينما لا تجد ولا أي أثر في التاريخ بعد ذلك لأولئك الذين قيل عنهم مستعبدين! لا تجد ولو اسماً واحداً لرجل أو امرأة من الأقوام الذين قيل عنهم إن الرسول (ع) استعبدهم ولا يزالون عبيداً، حيث يبدو واضحاً أن كلامهم عن استعباد الرسول (ع) لبعض أسرى أعدائه كان في حدّه الأقصى لمدة قصيرة جداً جداً لا تتعدى الأيام، وبعدها إطلاق سراحهم، ولكن أصحاب العقلية الإجرامية تعاموا عن ذلك مبيحين استعباد الآخرين واغتصاب نسائهم...

أكرر لك لتنتبه جيداً، فرغم ما قاله البعض عن استعباد الرسول (ع) لأعدائه، ورغم التعارف على ذلك أنه من المسلمات التاريخية، فبأدنى نظرة عقلانية لكل التاريخ ستجد أن هذا الزعم كاذب، والدليل عليه واضح لأنك لا تجد في الروايات ولا اسماً واحداً لعبد في المدينة من الذين أسرهم الرسول (ع)، ولا تجد ولا اسماً واحداً لأي طفل منهم صار بعد ذلك مسلماً، علماً أن كفار العرب كلهم أسلموا بعد مدة قليلة من الزمن، ولا تجد في التاريخ اسماً ولو لابن واحد من أبناء الصحابة ولّدته عبدة مأسورة من الأعداء. نعم، تجد في التاريخ زواجاً من مملوكات وتجد أولاداً منهم، وكمثال على ذلك إبراهيم ابن النبي محمدٍ (ع) من ماريا القبطية التي أعتقها (ع) ثم تزوجها...

كل الكلام المنتشر عن حالات استعباد الرسول (ع) لأسرى الأعداء لمدة طويلة، وعن استعباد واغتصاب نساء الأعداء، فهو كذب من أوهام المسلمين المجرمين، ومن أحلامهم بالبقاء على دين الجاهلية...

هذا ما تراه من تاريخ تطبيق الرسول محمدٍ (ع) للقرآن، فلم يكن له (ع) عبيد سوى ما قالوه عن زيد بن حارثة الذي اشترته السيدة خديجة ولداً صغيراً ووهبته للرسول الذي ربّاه كولد له وليس كعبد، وبلال بن رباح الذي قالوا عنه في كتب التاريخ إن أبا بكر اشتراه لتحريره من ظلم أمية بن خلف ويقولون إنه وهبه للرسول (ع)، ومعلوم من التاريخ أن بلالاً لم يعش بين المسلمين كعبد، ولم يعمل عند الرسول (ع) أصلاً لا في بيته للخدمة ولا كعبد في وظيفة ما...

بالنسبة للنساء، فكلهن أعتقهن النبي (ع) وتزوجهن، فلم يقارب ولا واحدة منهن وهي مملوكة يمين "عبدة أو أمة".

بحسب ما نقلوه في كتب التاريخ، فإن حالات تسريح الرسول محمدٍ (ع) للأسرى أو فدائهم أكثر بكثير من حالات استعبادهم "التي زعموها ولا تجد لها بعد ذلك أثراً في التاريخ"، وأشهرها طلقاء مكة من بعد الفتح، وبعدهم تسريح هوازن من بعد معركة حنين، وقبلها فداء أو تسريح حصل لمختلف جماعات يهود المدينة وخيبر... هكذا ترى أنه تعالى ترك لنا هامشاً واسعاً في القرار المناسب لمختلف الظروف والأزمنة والمجتمعات... لاستعباد الأعداء أو سجنهم أو مفاداتهم أو قتلهم "إن ثبتت عليهم جرائم...".

أكرر لك لتنتبه أشد الانتباه مما يقال عن إبادة الرسول (ع) لكل ذكور بعض أعدائه، ولما يقال عن سماحه (ع) لأصحابه باستعباد نساء الأعداء ومعاشرتهن غصباً عنهن... فهذه أكاذيب ألّفها مجرمون مشابهون في إجرامهم لبعض

المعاصرين للرسول (ع)، أولئك بقوا على عقليتهم الإجرامية القديمة بلا ناموس ولا قرآن، واستمر الحال هذا من بعد الرسول عملياً وفتوائياً مخالفاً لكلام القرآن الصريح حتى صار من المتعارف عليه والمنتشر فتاوى تبيح اغتصاب العبدات "ملك اليمين"، وقد درج ذلك بين المسلمين! صار منتشراً في ثقافتنا الحريم والجواري...

التصرفات المشهورة عن الرسول (ع) هي وحدها العاكسة لدينه تعالى، أمّا تصرفات كل بقية المسلمين وفتاويهم فهي عاكسة لدينهم هم، فهو (ع) لم يكن له عبيد يخدمونه، ولا قارب أنثى "أمة عبدة ملك يمين" قبلما يتزوجها، وما ينقله البعض من أخبار شاذة عن ذلك، وما قاله البعض كفتوى تجعل اغتصاب المملوكة رغماً عن إرادتها حلالاً، فما هو إلا انعكاس لعقليتهم الذكورية الإجرامية.

ما قاله القرآن يساوي بين الزوجة وملك اليمين من ناحية حلية المقاربة كما ورد في الآية السادسة من سورة المؤمنين والآية الثلاثين من سورة المعارج: {إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ}. لمقاربة مملوكتك لا تحتاج لعقد قران عليها ويكفي موافقتها، وإن رفضت وطلبت الزواج من مالكها حتى تسمح له بمقاربتها، أو طلبت الزواج من أي أحد آخر حراً كان أم عبداً، فهي وشأنها. هذا واضح من كل كلام القرآن الذي عليك بإعادة قراءته من دون أفكار "ذكورية إجرامية" مسبقة عن هذا الموضوع، وسترى بوضوح أن للعبدة "الأمة المملوكة" حرية اختيار من تقاربه ومن تتزوجه، وهذا واضح وصريح من الآية الخامسة والعشرين من سورة النساء: {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}...

نعيد فنقول إن القرآن لم يذكر من موضوع تشريع تقييد الحرية إلا الأسر للأعداء، فلم يذكر أي شيء عن الكيفية التي تبيح استعباد الآخرين، ومن ناحية ثانية فقد كان الأمر الواقع المنتشر بين الناس استعبادهم للشعوب الضعيفة من أي دين أو عرق كان. هل تشريعات القرآن التي تضمّنت كلاماً عن العبيد وملك اليمين قصدت واقع الحال هذا، أو قصدت فقط الهامش المسموح التحرّك به في حالة استعباد الأسرى من الأعداء المقاتلين من غير المسلمين؟

من عموم القرآن، وبالخصوص من سورة الممتحنة، وبالأخص من الآية الثامنة منها: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، تجد منعاً قرآنياً بكل أشكاله من التعرّض بالأذى لأي إنسان كان مهما كان عرقه أو دينه إلا إذا كان معادياً محارباً. أي آية قد يفسّرها أحدهم ويقول إنها تشرعن استعباد المسالمين من الكفار أو من أهل الكتاب، فراجع دراستنا هذه لترى معناها، وسترى أن كلامهم غير صحيح. أمّا ما في الروايات عن هذا الموضوع ومخالف لصريح القرآن فمصيره الرمي والإهمال وتكذيب ناقليه عن الرسول (ع)...

ننتقل الآن إلى واقع الحال الذي كان عليه الناس في عصر النبي محمدٍ (ع)، حيث كانوا يشترون ويبيعون العبيد المسالمين المخطوفين من مختلف الجنسيات ومختلف الأديان. هل في عهده (ع) تعامل المسلمون بذلك أم انحصرت تعاملاتهم في العبيد من الأعداء؟

طبعاً حين نقول "المسلمون" نقصد المؤمنين الحقيقيين منهم، فقد اشتهر في عهده (ع) بعض المسلمين "المنافقين والفاسقين" الذين يجبرون عبداتهم على الزنا، وقد منعهم النبي (ع) من ذلك بأمر إلهي كما ورد في الآية الثالثة والثلاثين من سورة النور: {وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا}. من منطوق الآية بكلامها عن الإحصان تفهم أنه حتى مالكها لا يحق له مقاربتها إن لم تقبل، وبالتالي فلا يحق له السماح للآخرين بمقاربتها غصباً عنها... ويحق لها اختيار زوجها مع موافقة أهلها ومن ضمنهم مالكها...

أكتفي بهذا المقدار الذي فيه الأساسيات القرآنية لترى نظرة قرآنية مختلفة عن العبيد مما هو دارج في مختلف الكتب المسمّاة إسلامية.

ما تجده في القرآن عن العبيد وما تجده في كتب التاريخ من تصرفات المؤمنين الحقيقيين مع العبيد والإماء، كتطبيق عملي للإيمان في التعامل مع الآخرين، ترى فيه فرقاً عما تجده في الكثير من كتب الفقه عند كل المسلمين، التي بعضها كتبها فقهاء مجرمون، يحلون استعباد أي إنسان ليس من طائفتهم أو مذهبهم! بل يهدرون دم وعرض الآخرين! حتى

المسلمين المسالمين! اعتمدوا في ذلك على روايات كاذبة رواها مجرمون أمثالهم، واعتمدوا على سيرة مجرمين من المسلمين اتخذوا منهم منارة للدموية. ها القرآن أمامك، وها دراستنا له، فراجع أي آية قالوا إنها تدعم كلامهم لترى أنهم كاذبون ومجرمون.

بالنسبة لتعبير ملك اليمين، فمعنى كلمة ملك: هو عموم أي شيء يرجع إليك أمره فيتبع لك مع التحكم به والسيطرة عليه. كلمة يمين لعموم التعامل مع أي شيء براحة واقتدار وقوة وتحكم، فيصير تعبير ملك اليمين يعني: السيطرة مع اقتدار، فهو شخص تتصرّف به فتأمره بقوة اقتدارك عليه. كلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحر، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

من هذا المعنى اللغوي الأساسي للكلمات ترى أن استعمال القرآن لها للتعبير عما يقصده فهو بعيد كل البعد عن الممارسات السيئة للناس مع المملوكين ملك يمين والمستعبدين. قارن معنى كلمة "ملك يمين وعبد" مع خادم أو خادمة أو عامل أو عاملة مقابل المبيت والطعام، وسترى أن القرآن يقصد هذا المعنى حصرياً، أمّا ممارسات "المسلمين" ورواياتهم وفتاويهم فهي تمثّلهم هم ولا تمثّل دينه تعالى المطروح في قرآنه.

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ{7})

تلاحظ نفس الآية وردت في سورة المعارج في الآية الحادية والثلاثين. {فَمَنِ ابْتَغَى}، فمن أراد وكان مطلبه، {وَرَاءَ ذَلِكَ}، فعرض فرجه على غير زوجته أو ملك يمينه، أو عرضت فرجها على غير زوجها أو مالكها، فابتغى أو ابتغت الزنا أو الشذوذ... {فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ}، هم المتخطون، هم الذين تجاوزوا حدود ما سمح به تعالى.

كما تلاحظ، فإن كلام الآيات عن الاستمتاع الجسدي بين ذكر وأنثى. أما ما قيل عن الاشتقاق من الآية بحرمة الاستمناء بيد الشخص لنفسه أو بالآلات أو أي وسيلة، فهو اشتقاق تتحمّله الآية بقوة، علماً أن هذا التحريم مشهور في ثقافة المنتمين لدينه تعالى، ولكنهم ضخّموا سوءه لدرجة جعله أسوأ من الزنا، وهذا قرآنياً ليس بصريح.

هذا يأخذنا إلى موضوع آخر عن الواجبات التي ذكرها القرآن ولم يذكر عقاباً في الآخرة على تركها كالصوم والحج... وعن المحرمات التي لم يذكر عقاباً على فعلها كالغيبة والخمر والقمار... وينسحب الكلام على الواجبات والمحرمات المتعارف عليها من الروايات "السنن" ولم يذكرها القرآن أصلاً، كالختان وتغسيل الميت والعادة السرية...

ملخص الموضوع تفهمه بالتحليل من عموم كلام القرآن عن بني إسرائيل حيث توعّد البعض منهم بالخلود في النار بسبب فسادهم في الأرض، علماً أن بعضهم ملتزم ببقية الواجبات ومبتعد عن المحرمات! فقد كانوا يصومون ويصلون ويرخون لحاهم ونساؤهم مستورة... يبدو من القرآن أن الكفر والشرك به تعالى سبب رئيسي لدخول النار، وأن الفساد في الأرض بأذية الناس "قتلاً وتسخيراً وإفقاراً..." هو السبب الثاني، أما السيئات الصغيرة المحصور ضررها، والسيئات من نوع مخالفة السنن، فهذه ليست لوحدها سبباً رئيسياً للخلود في النار أو حتى لدخول النار.

بالنسبة للاستمناء فإن مخاطره مجهولة للبعض منّا بسبب فقدان التجربة الشخصية معه، ولكن الدراسات الحديثة تشير إلى مشاكل جسدية ونفسية مدمرة للفتيان وللبالغين "من الذكور والإناث"، ونفس الأخطار بل وأكثر منها "بحسب قولهم" تنتج عن المشاهد الإباحية...

لسبب ولآخر فإن المؤمنين في عصرنا ليسوا من رواد الأبحاث والدراسات، ولذلك نعتمد على دراسات الآخرين التي ستكون محكومة بمزاجهم. بعبارة أصرح، فرغم وضوح الآثار المدمرة لتعاطي المخدرات والخمور والزنا والقمار والربا... ترى غالبية الآخرين يتعامون عن ذلك محاولين ربط الآثار السلبية بالإدمان فقط. هذه الخلفية نفسها تنطبق على العادة السرية ومشاهدة الإباحية، فتجد الغالبية من الأطباء رافضين الاعتراف بربطهما بالآثار المدمرة نفسياً وجسدياً.

أحيلك لمعرفة خطورة الاستمناء ومشاهدة الإباحية إلى مواقع إنترنت "للآخرين" تعالج هذه المشكلة وتضيء على الآثار السلبية الناتجة عنها. كلام الدارسين والمتعرضين لهذه التجربة ليس نابعاً من خلفية دينية تحرّم الاستمناء ومشاهدة الإباحية خوفاً من العقاب في الآخرة، بل نابع من تعرّضهم لآثار دمّرت حياتهم...

تجد تفاصيل مهمة جداً تحت عناوين مختلفة منها وأهمها "الدماغ تحت تأثير الإباحية"، والريبوت...

في تلك الدراسات معلومات كثيرة جداً وتفاصيل مذهلة لا يصدقها عقلك عن الآثار الناتجة عن مشاهدة الإباحية، وخاصة عند الفتيان الذين صاروا عاجزين جنسياً بسبب ذلك، ومعاقين نفسياً بالانطواء والانزواء والفشل في الدراسة والعمل وشؤون الحياة...

في تلك الدراسات ترى أيضاً دماراً للزواج والعلاقة بين الجنسين بسبب الانتكاسات الجسدية والنفسية الناتجة عن مشاهدة الإباحية...

انتبه لحسمهم بموضوع الآثار السلبية المدمرة لمشاهدة الإباحية، وبالنتيجة برأيهم فيجب تركها بالكامل نهائياً بلا رجعة لاستعادة العافية الجسدية والنفسية. بالنسبة للعادة السرية فلا يزالون بعقلية الرغبة بالسوء رغم علمهم بالآثار المدمرة لكثرة الاستمناء، فبناء على الرغبة والممارسة المنتشرة بينهم لفعل ذلك، ستجد النصائح بالإقلال من الاستمناء بدلاً من الإقلاع عنه نهائياً... على أي حال فهذا أفضل من النصائح الطبية القديمة الصادرة من أطباء "ومجتمع" لا يريدون الإقلاع عن العادة السرية، فهؤلاء يتعامون عن آثارها المدمرة، بل وهم "كانوا ولا زالوا" بغالبيتهم يحفزّون الفتيان على الإكثار من ممارستها على أساس أنها لا ضرر منها! فعلوا ذلك لدرجة أوصلت مجتمعاتهم لتكون الأولى في استهلاك أدوية المقويات الجنسية للشبّان!

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ{8})
وردت نفس الآية في الآية 32 من سورة المعارج.

{وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ}، للأموال أو الأملاك التي عندهم وهي لغيرهم ووضعها الآخرون عندهم، والذين هم لـ {عَهْدِهِمْ}، للأشياء التي أعلنوا أنهم سيلتزمون بها، هم {رَاعُونَ}، يراعون الأمانة والعهد فلا يُفَرِّطُونَ بهما فلا يخونون من أَمَّنَهُمْ على شيء أو من تعاهدوا معه، ولا يَتَهَاوَنُونَ ولا يَسْتَهْتِرُونَ بالأمانة أو بالعهد.

الأمانة عندما تضع عندي مالا أو أي شيء لأحفظه لك، أو تضع عندي شيئا وتسمح لي باستعماله ولكنك ستأخذه فيما بعد، أو تضع عندي مالا أو شيئاً أستعمله في العمل أو التجارة لإنتاج المال... فرعاية الأمانة أن أحافظ على ما وضعت عندي، فلا أفرّط به، ولا أخربه أو أفعل به ما يقلّل من قيمته... ولا آخذه غصبا عنك ولا أنصبه عليك... وإن كانت أمانة شراكة فلا أعطيك أقل من حقّك من الأرباح...

العهد أن أتفق معك على شيء، وأعلن لك أني سألتزم بالاتفاق، كأن تعمل لي عملا على أن أعطيك أجرك ألف درهم، أو أن أعمل لك شيئا محددا، أو نتفق على شراكة في العمل، أو نتفق على البيع والشراء بمواصفات محددة... فالإخلال بأي اتفاق هو مخالفة لرعاية العهد وعليه عقاب.

نلاحظ شيوع الإخلال بالأمانة والعهد بين الناس، فلا العامل يقوم بعمله مثلما اتُّفِقَ معه، ولا أنت تقوم بعملك كما اتفقت مع الآخرين، ولا تقدّم للعامل ما يستحقّه من أجرٍ، وأنت تطلب أكثر مما تستحقّ... ويسرق الشركاء بعضهم...

مراعاة الأمانة والعهد أمر عام، يشمل ما بيننا نحن وما بيننا وبينه تعالى، فَقَبِلْنَا أمانة الخلافة الإلهية، وتعهدنا أن نعبده وحده تعالى... فمنطوق الآية عامّ شامل لكل أنواع العهد والأمانة ولكن سياق الكلام هنا عن خصوص تعاملات الناس بين بعضهم البعض.

بقي شيء ترى انتشاره بوضوح في مختلف سور القرآن، حيث تراه يعرض عليك الاستقامة والصلاح في التعامل مع الآخرين ويختار نماذج أساسية عن أمور واضحة جدا لا يناقش في حسنها إلا الظالمون، وما سبق من تشريعات ربطها تعالى بالإيمان الذي يُتَرْجَمُ بالصلاة على أساس أن ذكرك له تعالى خمس مرات يوميا في أوقات متفرقة، سيدفعك دائما

لِتَتَذَكَّرَ أنك تحت مراقبة من سيحاسبك ويجازيك، فإن فعلت سوءا نلت العقاب وإن فعلت خيرا نلت الحسنى، والشعور بالمراقبة الإلهية واحدٌ من فوائد الصلاة العديدة، وقبل ذلك أولاً هي تعبير عن شكره وحمده تعالى على خلقنا، وإعلان عن توحيده، وتقرّب منه، وما يتبع ذلك من شعور الارتياح بالعلاقة مع إله فائق القدرات وصفاته حسنى، وينتج عن ذلك أن تذهب السيئات بسبب فعل الصلاة الحسن كما ورد في الآية 114 من سورة هود {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}.

بعدها اختارت السورة أبرز نماذج تشريعات وسلوكيات التعامل مع الآخرين، وهي ليست تشريعات تقييد لحريتك بحيث تشعر أنك مخنوق بها، بل تشريعات ضامنة لسعادتك وسعادة مجتمعك إن التزم الجميع بها.

الرفاهية الاقتصادية علامة مميزة للبلدان، وهذه أساسياتها التقانة والأمانة، وكل من له علاقة بعمل إنتاجي من صناعة أو فلاحة أو عمالة... كمصمّم أو مدير أو منفّذ أو عامل... إن التزم بالتقانة والأمانة، صار المجتمع في رفاهية اقتصادية، وما تذكره آيتنا هنا عن الأمانة فهو متضمن لأمانة التقانة، أي القيام بالعمل كما هو متوقّع منك على أحسنِ وَجْهٍ، وَتُتْقِنَ عملك.

قبلها الكلام عن الزكاة كتكافل اجتماعي يؤمّن للدولة مدخولاً لمساعدة المحتاجين وتأمين عموم حاجات المواطنين، حيث إن الزكاة ضريبة تركها تعالى غير محددة القيمة مشترطاً ألا يشعر منفقها بثقل منها، ووسّع مجال إنفاقها ليغطي مختلف حاجات المرتبطين بالحكومة التي يدفعون لها الزكاة، لِتَشْمَلَ العناية بمصالح المسلمين والآخرين، وتتوسّع في الظروف الحرجة لتشمل مسلمين ومحتاجين من خارج المرتبطين بالحكومة التي تدير الزكاة...

الجانب الآخر الذي تذكره السورة هو الرفاهية الاجتماعية، التي تفتقدها غالبية مجتمعات البشر، وهذه تتأمّن بترك اللغو المؤذي للآخرين من مبالغة أو كذب أو شهادة زور أو كلام سباب... وتتأمّن بصلاح العلاقة بين الذكر والأنثى الضرورية جدا لنا كسدّ لحاجة الارتباط لتأمين الراحة العاطفية والجنسية...

كل ما سبق من كلام السورة مرتبط ببعضه ومتشابك، وفي بعض الأحيان يتوسّع العنوان ليحل محل العنوان الآخر، حيث إن الأمانة هي نفسها في العلاقات المادية وفي الزواج، واللغو هو نفسه الأمانة في الكلام والتصرفات والعلاقة الزوجية... ويندرج تحت هذه العناوين مروحة واسعة جدا من المفردات، كتربية الأولاد، حيث ستجد النادر من الآيات لتستوحي منها تعاليم لتربية الأطفال، ولم يهمل سبحانه هذا الموضوع بل هو متضمّن في كل كلامه، ومن الواضح من تراكم مفاهيم القرآن في شخصيتك أنه سينتج عنها فهمك للأسلوب الإيماني بتربية الأطفال والتعامل معهم، فاللغو ليس ممنوعاً مع الكبار فقط، والأمانة ليست مع الكبار فقط، وهكذا ترى أنه تعالى لم يفصل أي شيء ليصير مخصصاً للتعامل مع الأطفال لأنه متضمن في كل توجيهاته.

إذن، دينه تعالى ليس ديناً فردياً بمعنى حصر أثر الإيمان بالفرد، حيث إن بعض الناس وبضبابية يقولون عن الدين الإلهي إنه شيء خاص بالفرد، يصلي ويصوم ويدعو ويقرأ القرآن... ويرخي لحيته ولا يشرب الخمر... على أساس أنها تصرفات لا أثر لها على الآخرين، ومعلوم أن هذا الكلام ضبابي غير دقيق ولا صحيح، بل هي أحلامهم التي تقرّ بالخير في التدين وفي نفس الوقت يريدونه محصوراً فيمن يرغب به حتى لا يكونوا ملزمين بالالتزام به.

ها أنت ترى في أمثال كلام الفقرة من سورتنا هذه، أن دينه تعالى فيه عناوين تشمل كل مرافق الحياة وشؤونها.

نعم، هناك الخوف المبرّر من السلطة الدينية التي التصق بها صيت سيئ من ممارسات رجال الدين، وهذه ليست حكراً على سوء ما فعلته الكنيسة المسيحية من العصور الوسطى إلى القرن التاسع عشر، وخذ نموذجاً عن ذلك سوء علماء اليهود في زمن النبي عيسى(ع)، حيث كانوا حاكمين... وخذ من عندنا وعّاظ السلاطين، ومعهم علماء السوء بفتاويهم الإجرامية، وفرضهم لأهوائهم على الآخرين باسم الدين الإلهي...

الذين تخاطبهم هذه السورة هم الكافرون الرَّافِضُونَ للتقيّد بالحقّ الذي نتيجته سعادة ورفاهية الجميع، وتعرض عليهم عناوين لا يمكن لأي عاقل المناقشة أمام بديهية حسنها والخير الناتج عن التزام الجميع بها، وللأسف هذا شيء صار من التاريخ، وبدلاً منه لدينا دين مختلف عن قرآنه تعالى ومنتشر بين الناس على أنه دينه تعالى، وهذا ما أخاف أنا شخصياً منه، والآخرون من غير الملتزمين بدينه تعالى لديهم كل الحقّ بالخوف منه ورفضه.

لم يكن هدفي من دراسة القرآن الانتهاء بكتاب للنشر، إذ إن البداية كانت من دافع التعرّف على كلامه تعالى لأن الكثير مما هو معروض كدين إلهي لم أستطع التماشي معه، وهذه حالة منتشرة بكثرة بين عموم عقلاء الناس، وكان الحل بدراسة الدين من المصدر الوحيد الموثوق، وهو كتاب منسوب له تعالى، وأول ما يتبادر إلى الذهن الاستعانة بتفاسير القرآن على أنها دراسات شارحة لكلامه تعالى، وهنا كانت الطامة الكبرى، فبمراجعتها ستخرج بأحاجٍ ستنسى منها الآية التي كنت تريد فهمها! والأسوأ منه معانٍ ما أنزل بها تعالى من سلطان، والأسوأ منه معانٍ فاسدة مخالفة للصلاح، وهذه ستراها بسهولة حين تقرأ كتب المخالفين لمذهبك علماً أنها هي نفسها النظرة بالسوء من الآخرين للكتب التي من مذهبك!

هكذا صرت أمام مسار إجباري لدراسة كل شيء من الصفر، وكان الحلّ الوحيد "نظرياً" بالتخلّي عن أي معلومة سابقة مهما كان نوعها، ومُتَخَلِّياً عن المخزون الشخصي العلمي والديني والمذهبي... إذ إن أهم شرط لفهم القرآن أن تقرأه بنية التعلّم منه، وهذا لا يحصل إن كنت تفسّره معتمداً على أي معلومة دينية سابقة راسخة عندك، وهكذا ستبقى في دوامة أفكارك لتسقطها على القرآن ولن ترى القرآن.

بعدها سترى جمال وحسن كلامه تعالى، وبعدها أنت وسلامة قلبك، فإما أن تلتزم أو لا تلتزم، وربما تجاهد نفسك بمنعها عمّا ترغبه وهو سيئ، وربما تفشل... وهذه المشكلة التطبيقية يبقى خطرها على مستواك الفردي، وحين تبدي برأيك للآخرين، عبر كلام أو كتاب، فالمشكلة تصير منتشرة إن لم تفصل بين معنى ما تقرؤه كما هو، وبين ما ترغبه أنت، إذ إن غالب تفاسير المسلمين إسقاط لرغباتهم وهواهم على كلامه تعالى، وَيَخْتَفِي معنى كلامه تعالى ونصير أمام دين من رغبات المفسرين، وهذا شيء مرعب.

في الكثير من هذه التفاسير فتاوى إجرامية ضد عموم البشرية، ومذهبية عصبية، وفي الكثير من هذه التفاسير فتاوى ذكورية ماسحة لحقوق الإناث، وفي هذه التفاسير فرض على الآخرين لأهواء من يسمونهم بالعلماء، حيث لديهم جلد وضرب وقتل لحالق لحيته! ولتارك صلاة الجمعة! ورجم للزاني والزانية... ولديهم تكفير للآخرين لأهون سبب، ولديهم إباحة دم ومال وعرض من يكفّرونه...

لا تَرْمِ هذه الاتهامات على الآخرين، ولا تقل إن علماء مذهبك أبرياء أتقياء من هذه الفتاوى، ولا تقل إن أبناء مذهبك أبرياء من هذه الممارسات، فهذا والله غير صحيح، لأن الكلّ في الهاوية إلا اللهم ما ندر من أفراد، وما ندر منهم سقط هنا أو هناك في تفصيل ما...

لهذه الأسباب صار لدى الكثيرين سبب إضافي للنفور من الدين الإلهي، وصار لدينا دكاكين من ركاكة فكر المدّعين للفهم من مثقفي المسلمين الطارحين لآرائهم وتفاسيرهم بلا علم، وهم بديل سيئ عن فتاوى المدّعين لصفة علماء الدين...

(وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ{9})
{وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ}، على توجههم وإقبالهم، والكلام عن توجّههم لله تعالى بالذكر والتعبير عن فائق الاحترام والخضوع، وكلمة صلاة صارت منذ القدم مصطلحاً دينياً يشير لحركات وكلمات محددة نفعلها في أوقات محدّدة ونسميها بالصلوات الخمس اليومية الواجبة، والدارج بيننا تسميتها بالعبادة، {يُحَافِظُونَ}، فلا يضيعونها، ولا يتركون فرض صلاة، ولا يؤخرونه لما بعد وقته.

لاحظ افتتاحية السورة عن الخشوع في الصلاة، وخاتمة مواصفات المفلحين هي المحافظة على الصلاة، لأن التوجّه إليه تعالى بالعبادة بخشوع، نفترضه صفة ملاصقة لمن يلتزم بالصلاة دائما في وقتها، حيث لا نفكّر في الخاشع إلا وهو من المحافظين على صلواتهم، ومن البديهي أن الخاشع سيكون محافظاً على صلاته، ولكن ننتبه إلى أننا نتعلّم، وأننا أمام احتمالات كثيرة من أفكار الناس، إذ يقول أحدهم إني إن لم أكن في حالة نفسية تسمح لي بالصلاة خاشعاً فلن أصلّي لأنه تعالى لن يقبلها لأنها مجرد حركات وكلمات فارغة إن كانت من دون خشوع، وربما يقول أحدهم إني خشعت كثيرا في صلاة الصبح ولا داعي لصلاة الظهر، وربما يقول أحدهم وربما يقول آخر...

لنفهم هذا المعنى ننظر إلى الغالبية الساحقة من المسيحيين، حيث مسخوا الصلاة الواجبة بحركاتها وأوقاتها لتصير ضَمَّاً للكفين على بعضهما لِثَوانٍ مع قول أي كلمات تختارها! لأنهم لم يحافظوا على صلاتهم، ويبقى الوصف العمومي للصلاة بخشوع منطبقاً عليهم في تلك الثواني، حيث إن كلمة صلاة عمومية شاملة لأي نوع من التوجّه والإقبال عليه تعالى، وعادة نفسّرها بالصلوات الخمس الواجبة لأنها أبرز نموذج عن الصلاة.

(أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ{10})
أولئك المؤمنون الملتزمون بالأعمال الصَّالِحَةِ، هم {الْوَارِثُونَ}، فهناك شيء سيملكونه ولن يتم استرداده منهم.

ضع في بالك أن "وَرِثَ، مِيرَاث" ومشتقاتها تعبّر عن انتقال الملكية بلا استرداد من المالك السابق، والحالة المشهورة لاستعمال هذه الكلمة عندما تنتقل للآخرين أملاك إنسان مات، فالميّت لن يستردّ أملاكه، وهكذا يكون من أخذ أملاك الميّت وَرِثَ، فَانْتَقَلَتْ إليه الملكية ولن يستردّها أحد منه، وكذلك استعملها القرآن عندما قال عنه تعالى إِنَّهُ يرثنا كما عبّرت الآية 40 من سورة مريم {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ}، فحين نموت نفقد ملكيتنا لكل شيء، وَصَحِيحٌ أنه تعالى المالك لكل شيء، وَيَمْلِكُنَا ويملك ما معنا... ولكنه تعالى منحنا ملكية تحت ملكيته، وعندما نموت نفقد ملكيتنا، ويصير وصفه تعالى أنه وارث لنا، وَيَمْلِكُ ما كنّا نملكه ولن نستردّ أملاكنا منه تعالى لأننا أَصْلاً متنا.

الآن نأتي إلى أدقّ التعابير، إلى ملكية المؤمنين للجنّة، فَوَصَفَهَا القرآن بأنها ميراث لهم، وهذا يعني أنه تعالى سيجعلهم يملكونها ولن يستردّ تعالى منهم هذه الملكية. وهذا المعنى الدقيق للميراث يريك جمال ودقّة تعابير القرآن، وترى منه أهمية العمل على تحديد المعاني الدقيقة للكلمات التي استعملها القرآن، حتى لا تبحث عن معنى للميراث في الآيات وتفترض فيه أنها حَصْرٌ لطرف مات والآخر أخذ أملاكه، لا، فالتوريث أعمّ، وكما ترى في آيتنا هنا، فهو توريثه تعالى الجنّة للمؤمنين على معنى نقل ملكيتها لهم وستبقى لهم ولن يأخذها تعالى منهم.

اسْتَعْمَلَ القرآن كلمات دقيقة لوصف حالة الكفّار الخالدين في جهنّم بِأَنَّهُمْ في مثوى، في مكان لا يملكونه، مثل من مثواه السجن والضيف والغريب في بلد... راجع كمثال الآية 23 من سورة يوسف {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ...}، وَدَرَجَ في أدبيات المسلمين استعمال جملة: مثواه الجنّة، وهي غير دقيقة وغير صحيحة لُغَوِيّاً، لأن من في الجنّة يملكها وليس ضَيْفاً فيها... ولذلك عبّر القرآن عن توريث الجنّة للمؤمنين، وهو تمليكها لهم منه تعالى بلا استرداد. ولكن بسبب ظنّنا أن التوريث لا يكون إلا من ميّت، ذَهَبَ المفسرون إلى مَعَانٍ أخرى للآيات...

(الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{11})
{الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ}، يملكون بلا استرداد المكان الرائع الذي يتمتّعون بما فيه، {هُمْ فِيهَا}، في الفردوس، {خَالِدُونَ} لا يموتون ولا يخرجون منه ولا هي تخرب...

بالنسبة لكلمة فردوس بحسب استعمال العرب لها قبل الإِسْلامِ وبعده فهي توصيف لمكان تتمتّع بما فيه، والجنة وصف لمكان موصوف بالروعة، وما قيل عن أصل كلمة فردوس إِنَّهُ فارسي أو رومي أو سرياني أو عبري... ربما يكون صحيحاً، لِأَنَّ هذه الكلمة مستعملة في كل هذه اللغات، ولكن هذا لا يعني أي شيء، فلا يعني أن القرآن اسْتَعْمَلَ كلمات غير عربية، وَهَذِهِ سخافة يريد البعض منها التقليل من قيمة القرآن، حَيْثُ إِنَّ كل اللغات على الأرض تستعمل كلمات من بعضها، وخاصة الكلمات التي تعطي معنى مُحَدَّداً بِدِقَّةٍ لشيء لم يعطه أهل اللغة كلمة محددة له بدقّة، كأسماء الأشياء التي لم يكونوا يعرفونها، أو وصف لحالات لا يعرفونها... فمن البديهي أنهم ليس لديهم كلمة لها، وَتَعَرَّفُوا على الشيء وعلى الكلمة المخصصة له من لغة الذي اخترع ذلك الشيء... وتصير تلك الكلمة مدموجة مع لغتهم، أمّا أصلها فلا يهمّ طالما استعملها العرب.

أقول لك هذا لأن بعض الأغبياء يريدون "الإيحاء غير الصحيح" بِأَنَّ القرآن استعمل كلمات أجنبية ولذلك هو كاذب حين يقول عن نفسه إِنَّهُ عربي كما ورد في الآية 2 من سورة يوسف {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}. ولكن إذا

كان العرب في زمن النبي محمد(ع) "وقبله" اسْتَعْمَلُوا هذه الكلمات للدلالة على أشياء مُحَدَّدَةٍ، فماذا تريد أن يستعمل القرآن! فلو سحبت الكلمات المنحولة والمنقولة من اللغة العربية فماذا يبقى؟

لا أحبّ أن يكون في دراستنا هنا كلام جارح عن أي أحد، ولكن بعض من تكلّم بهذا الموضوع "بغضّ النظر عن نواياهم"، فهم أغبياء لدرجة لا يمكن تحمّلها، حَيْثُ أَلَّفُوا كُتُباً عن الكلمات السريانية التي استعملها القرآن، وَكُتُباً عن الكلمات الآرامية، وَكُتُباً ومقالات عن الكلمات الفارسية واليونانية والروميّة والنبطية والحبشية... ولم تكن دراستهم عن اللغات، بل قصدوا التقليل من القيمة اللغوية للقرآن! وكأن أَحَداً ما قَالَ لهم إِنَّنَا نؤمن بِأَنَّ اللغة العربية جَاءَتْ من الحائط، أو من السماء، وَأَنَّهَا لغة منفردة متفردة لم تأخذ أي شيء من أي لغة أخرى، وهكذا: فتح قوم ما أعينهم في لحظة ما من الزمن وهم يجيدون اللغة العربية! وهي ليست متطورة ولا منحولة أو منقولة من أي لغة أخرى! ولم يستورد العرب ولا كلمة أجنبية من غيرهم!

ما هذه السخافة! ما هذا الغباء! حَيْثُ إِنَّهُ في قديم الزمان كان أهل منطقة الشرق الأوسط يتكلمون بلهجات مختلفة وليس بلغات مختلفة، مثلما تجد الآن لهجات مختلفة من العراق إلى الخليج واليمن، ومصر وفلسطين والأردن وسوريا ولبنان... وَالسِّرْيَانِيَّةُ والآرامية والنبطية والعربية والعبرية... نسميها الآن لغات، وَكَانَتْ قَدِيماً مجرّد لهجات متشابهة جِدّاً "ولا تزال"، وَاخْتَلَفَتْ وتطوّرت كل واحدة منها بشكل مختلف مع مرور الزمن...

أولئك المعلّقون على استعمال القرآن لكلمات استوردها العرب من لغات أخرى، فماذا يتوقّعون أن يستعمل القرآن، أي كلمات؟ نعم، ذَكَرْتُ لك سَابِقاً مشكلة وصلتنا من روايات أجيال المسلمين الأولى التي فسّرت القرآن، وَبَدَلَ أن يعترف البعض بجهلهم بمعاني الكلمات الدقيقة التي استعملها القرآن، قَامُوا بنسبها إلى لغة أخرى، ومن سياق الآيات خمّنوا لها معنى رأوه مُنَاسِباً للسياق... نعم لقد أَكَّدُوا بذلك "للأغبياء المغرضين" أَنَّ القرآن فِعْلاً استعمل كلمات غير عربية وغير مستعملة عند العرب! وَضَيَّقَ علينا أولئك المفسرون الباب لمعرفة المعنى الدقيق للكلمات القرآنية، لأن كلامهم عن تفسير القرآن العظيم، أعطى هالة وصف العظمة لكلامهم هم! وَلَمْ نفرّق بين القرآن العظيم وكلامهم العادي! وَصَارَتِ المعاني "العظيمة" التي طرحوها متداولة، وغابت المعاني الحقيقية بسبب كثرة انتشار الروايات العظيمة في الكتب، لأنها "روايات عظيمة مقدّسة"! وبسبب قلّة انتشار استعمال بعض الكلمات الدقيقة التي استعملها القرآن، ولأن أكثر الكتب العربية تَأْلِيفاً كانت عن العلوم الإسلامية التي أشاعت تلك الروايات المفسّرة للكلمات، فكانت النتيجة: صعوبة إيجاد المعنى الأصلي لتلك الكلمات.

حَسَناً، ما هي الكلمة العربية التي ترادف معنى كلمة فردوس "الأجنبية كما يقولون" حتى نستبدلها في الآية أيها المتذاكون؟ أقرب كلمة هي "جنّة"، وهي وصف للمكان الرائع، وليست وَصْفاً للتمتّع بما فيها وهو هذا المعنى الذي تعطيه كلمة فردوس كما يبدو من كلام العرب.

الآن من جديد، أخبرونا عن كلمة عربية بهذا المعنى لنضعها بَدَلاً من الكلمة التي قلتم إِنَّهَا فارسية؟ ما أسخفكم، حَيْثُ افْتَرَضْتُمُ النبي مُحَمَّداً(ع) جَاهِلاً باللغة العربية وَضَلِيعاً بالعديد من اللغات الأخرى! فما أسخفكم حين ادَّعَيْتُمْ أن مُحَمَّداً أَلَّفَ القرآن واستجلب كلمة دقيقة جِدّاً جِدّاً لوصف التمتّع بالمكان الرائع من اللغة الفارسية! فَمُحَمَّدٌ الأمي يستجلب كلمات دقيقة المعنى من لغات أخرى ليؤلّف القرآن! من النبطية والرومية والسريانية والفارسية... وهي كلمات دقيقة وتطابق المعنى المطلوب! وهي كلمات غير عربية، ولم يستعملها العرب، ومعناها دقيق! يعني هو خبير غير عادي باللغات العالمية! ما أسخفكم.

لا أدري ماذا أقول عن المسلمين الَّذِينَ أسّسوا لهذا الكلام، والمسلمين الذين شايعوا هذا الكلام، وَلا أتهمهم كلّهم بنواياهم، حَيْثُ إِنَّ بَعْضَهُمْ لا تاريخ له بالنفاق أو الفسق أو الكذب عن عمد، وَهَؤُلاءِ نَدْعُو لهم بالمغفرة، وأما الآخرون من أصحاب النوايا السيئة المحبّين للتميّز والظهور والشهرة... فليتجهّزوا للعقاب.

لمزيد من التوسّع حول هذا الموضوع راجع دراستنا للآية 21 من سورة الإنسان {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ...}، والآية 47 من سورة الصافات {لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ}، والآية 3 من سورة الزخرف {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}.

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ{12})
بعد أن دلّتنا السورة على وصف الفلاح العملي للإيمان ترجع بنا إلى التصميم والتخطيط الإلهي الأساسي لنا نحن البشر، فخروجنا إلى الحياة وإيماننا وفلاحنا هي أمور مقصودة مخطّط لها من الأساس:

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ}، ركّبنا وألّفنا الكائن المنتسب لنوع الإنسان، {مِنْ سُلَالَةٍ}، واحد بعد الآخر، واحد متّصل بالآخر، واحد يلد الآخر كمتسلسلين، {مِنْ طِينٍ}، من التراب المخلوط بالماء.

الآيات 7، 8، 9 من سورة السجدة أخبرتنا أن الأساس للتركيب من تراب وماء، وصار يتسلسل كائناً بعد كائنٍ، حتى وصل إلى مرحلة صار فيها ذكراً وأنثى...

ضع في بالك دائماً أننا فسّرنا "خلق" بركّب وألّف للتقريب، أنا الآن مخلوق كوصف لتركيبي من المواد، وحين انعقدت النطفة بالبويضة أنا أيضاً موصوف بأني خُلِقْتُ، ومن تلك المرحلة سأصير فيما بعد على ما أنا عليه.

تذكّر دائماً أن القرآن عبّر عن مادّة خلقنا بأنها من طين وهي المرادف القرآني للتعبير عن المواد الموجودة على الأرض من كربون وحديد وكالسيوم وأكسجين... ويمكنك ملاحظة ذلك عندما تقول كائنات مختلفة عنّا في تكوينها أننا من طين، حيث إن الملائكة(ع) والجنّ يروننا أشكالاً متحركةً من الطين، ومادّة تكويننا لا تختلف عن مادّة تكوين الأرض التي ندوس عليها ولا تختلف عن الشجرة والصخرة والحائط.. وكلّنا من طين، من كالسيوم وهيدروجين وزنك ونحاس...

بناءً على عموم مفاهيم القرآن تُشير آيتنا هنا لما نتركّب ونتألّف منه، للمواد التي على الأرض، ووصفُه باللغة العربية طينٌ، والآيات التالية تشير إلى ما بعد صيرورة البشرية ذكراً وأنثى يتوالدون بالتلقيح.

كما ترى الخبر هنا عن خلقنا من طين هو لفت انتباهنا لشيء نعرفه، ولا يحتاج لأكثر من الالتفات له حتى ننتبه أننا من طين، وهي المواد التي في بيئتنا، إذ بعد موتنا يتبخّر الماء ويتحلّل الباقي إلى تراب، وهكذا نلتفت لمن صمّم خلقنا من طين...

عادةً يعتمد القرآن على معاني الكلمات لغوياً وما تتضمّنه من إشارات وتبعات، أنا مخلوق، مركّبٌ مؤلّفٌ، وبديهي أني لم أخلق نفسي، فمن خلقني؟ فمن ركّبني وألّفني؟ وهكذا ترى كلام الآية هنا عن أصل النوع الإنساني، وبغض النظر عن كيفية وآلية خلقه، فهو مخلوق من طين، فمن خلق المواد وجعل فيها خصائصها وصمّم صيرورة حياة إنسانية منها؟ والجواب البديهي هو ما قصد تعالى منه طريقة لنتعرّف عليه سبحانه، فالإله خلقنا.

هل سنسأل عمّن خلق الإله؟ نعم سنسأل ولكنه سؤال بلا معنى، لأن الإله طبيعته مختلفة فهو لا يوصف بأنه مخلوق لأنه ليس مركّباً ولا مؤلّفاً من شيء، ووصف تعالى نفسه بذلك في الآية 11 من سورة الشورى {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، وهذا هو الردّ القرآني على السؤال عمّن خلقه تعالى، فهذا من أساسه ليس سؤالاً صحيحاً. وما يقولونه في الكتب عن براهين فكرية فلسفية لحتمية البداية من خالق لم يُخْلَق، فافصلها عن كلام القرآن ولا تجعل تلك البراهين مرتبطة بدينه تعالى، وإلا فأي برهان منها يثبت فساده فيما بعد، فسيبدو للآخرين أنه فساد في إيماننا به تعالى. لا مانع من تلك الأبحاث، ولكن المانع هو لصقها بدينه تعالى، والأخطر منه المحاولات العديدة للصقها بالقرآن كتفسير له، وبذلك يصير أي ردّ عليها ردّاً على كلامه تعالى.

(ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ{13})
{ثُمَّ جَعَلْنَاهُ}، الإنسان، {نُطْفَةً}، وهذا وصف للشيء الذي حجمه قليل جداً سواء أكان ماءً أو أي سائل أو رشّة ملح صغيرة أو سكّراً... وهنا المقصود وصف الحيوان المنوي "الحييمن باصطلاحنا الحالي" وصغره موصوف بالنطفة، وجعله تعالى نطفة، {فِي قَرَارٍ}، في ما يوصف بأنه يستقرّ فيه ويثبت فيه، مكان له للبقاء فيه، {مَكِينٍ}، فيه المواصفات التامة للمكان المناسب له، وبما أن الوصف للنطفة في مكان استقرارها فهنا الوصف بالقرار المكين يكون لرحم الأنثى، حيث النطفة تثبت فيه بالقوة التي تتماشى معها وتناسبها،ويصير الحيوان المنوي في البويضة التي تكون

في البداية في قناة فالوب ثم تنتقل إلى الرحم، وهي مستقرّة هناك بشكل جيّد جداً، بحيث لا ينفلت منها الحيوان، إلا في حالات قليلة، وبما أن الآية تتحدّث عمّن خرجوا إلى الحياة ونجحت ولادتهم، فهذا يعني حكماً أنهم كانوا بشكل مستقر في البويضة، ولم يتزعزع استقرارهم، والآخرون سقطوا ولم يكملوا نموّهم.

الأرجح أنهم في عصر نزول هذا القرآن لم يكونوا يعلمون بوجود بويضات في رحم الأنثى، وبعضهم خمّن وجود شيء مشابه لمني الرجل، وسمّوه بالمني للأنثى، وحالياً نعلم أنها إفرازات نسائية لا بيوض فيها. وكما ترى فوصف القرآن لما يحصل للحمل جاء بالكلام الأبسط الذي لا نقاش فيه مهما كانت علومنا بدائية أو تطوّرت، فمعلوم أن الحمل يحصل في الحالة العادية فقط من إفراز الذكر شيئاً في رحم الأنثى... وغالبية كلام القرآن من هذا النوع البسيط على الفهم، فهو للفت الانتباه لما نعلمه من آيات خلقه تعالى لنا ولما حولنا، وليس لطرح نظريات وفرضيات، وليس لإغراقنا بمعلومات بعيدة عن فهمنا وسابقة جداً لتطوّر علومنا، فهذا شيء لا فائدة هداية منه، بل بالعكس ستجعل كلام القرآن محلاً للجدل بسبب مخالفته للمعطيات العلمية في الأزمنة التي لم تصل لمعرفة ما يقوله.

لذلك لا تذهب عميقاً أبعد من الفهم البسيط للكلام العربي من الآيات، فغالبيتها الساحقة لم تقصد إلا ما يعرفه غالبية الناس من الملاحظة البسيطة العادية جداً.

معلوم لك أن القليل النادر مما لم تَطَلْهُ علومنا بعد ذكره القرآن حتى تنتبه أنه من مصدر إلهي لم يحصر كلامه فيما يعرفه الناس فقط، وحدّثك عن سماوات سبع، وعن نفوذنا نحن فيها وسبقنا الجنّ بذلك... وعن إمكانية التواصل مع الحيوانات، وعن نقل عرش من سبأ إلى أرض كنعان برمشة عين... وحدّثك عن إحياء النبي عيسى(ع) لبعض الأموات... وغيرها من الأمور التي للمؤمن هداية وللآخرين مسببة للكفر، فهم لا بلفت انتباههم لما يعلمونه يقنعون، ويطلبون ما لا يعلمون، وحين يأتيهم شيء من ذلك يكفرون!

أضيف لك أنه تعالى ذكر ثلاثة أنواع من المعلومات، بعضها البسيط المعلوم لأي إنسان عادي، كلفت الانتباه لظاهرتي الليل والنهار وخروج النبات... وأكثر كلام القرآن عن هذا النوع، وبعده كلام عن أمور لم تَطَلْهَا علومنا بعد، كالنفاذ لسماوات أخرى غير سمائنا كما أشارت له الآيتان 33 و 34 من سورة الرحمن {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}... {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ}، وكإحياء الموتى الذي فعله النبي عيسى(ع) وربما نتمكّن في المستقبل من فعل ذلك... وبعده كلام القرآن النادر جداً عمّا لن نستطيع فهمه أبداً كحالة تسبيح ما نسمّيه نحن جمادات، وتقرأ ذلك في الآية {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}.

(ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ{14})

{ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً}، ركّبنا وألّفنا النطفة حتى صارت عالقة في جدار الرحم، وهي في هذه الحالة تشبه نقطة الدم، {فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً}، وركّبنا وألّفنا ما علق على جدار الرحم ليصير شيئاً لا يظهر له شكل واضح، شيئاً كاللقمة الممضوغة التي لا يبدو لها شكل محدّد، {فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا}، وركّبنا وألّفنا المضغة وصار فيها تكوين الهيكل العظمي، وتعلم أن الهيكل العظمي يبدأ بالتشكّل على شكل خيوط رفيعة، {فَكَسَوْنَا}، وألبسنا العظام لحماً، فصار اللحم ينبت على خطوط العظام ويغطيها، فأنت الآن موصوف بحالة: كسوة اللحم لعظامك. والآية لا تقصد تشكيل هيكل عظمي فارغ أولاً ثم تلبيسه باللحم، فهذه المراحل معلومة للناس من حالات الإسقاط للحوامل في المراحل المختلفة من الحبل، ومعلوم لهم مرحلة تشكّل ما يشبه العمود الفقري مع رأس ويدين ورجلين بدون تفاصيل مميزة إلا للذي يعلم أن هذا الشيء كان سيصير إنساناً.

{ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ}، كوّناه من شيء سابق، أحدثنا بنيان الإنسان مما سبق من العظام المكسوة لحماً، {خَلْقًا آخَرَ}، تركيباً مختلفاً عمّا بدأ به، حيث صار له صورة طفل بشري من حيث الشكل، وصار له "أو فيه بذرة" حواس ومشاعر، وغرائز، وقدرة على التفكير.

{فَتَبَارَكَ اللَّهُ}، فما فعله تعالى جعل له صفة البركة، إذ صدر عنه سبحانه عمل جيّد حسن، فهو تعالى راضٍ عن عمله هذا في خلق الإنسان، وهذا العمل هو أصلاً عمل جيّد، {أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}، وكلمة أحسن في أشعار العرب قبل الإسلام وباستعمال القرآن محصورة بين الحسن والأحسن، وليست للمقابلة بين الحسن والسيّء، فـ"أحسن الخالقين" تشير لصفاته وقدراته الفائقة سبحانه التي سينتج عنها حتماً أحسن خلق، فالكلام ليس عن مقارنة بين ما خلقه تعالى وبين ما خلقه الآخرون، علماً أننا نحن البشر والكائنات الأخرى نخلق بالاعتماد على القدرة الممنوحة لنا منه تعالى، وبسماح منه تعالى نخلق، والخلق ليست صفة خاصة بالإله فهي متدرجة من خلق بمستوى إلهي فطراً من لا شيء، أو بدعة من شيء... وصولاً إلى خلقنا نحن بقدرة ممنوحة لنا من الإله ومن مواد متاحة لنا من الإله، ونركّب ونؤلّف من المواد التي خلقها تعالى، وما نخلقه ستنعكس فيه صفات ضعفنا فلن يكون بمستوى ما يخلقه تعالى.

أنت تعلم أنه تعالى منح النبي عيسى(ع) قدرة على الخلق كما تقرأ في الآية 110 من سورة المائدة {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ}... {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي}... وسياق الكلام هناك كان عن القدرات غير العادية التي منحها تعالى للنبي عيسى(ع) والتي لا تجعله إلهاً فهو ليس أكثر من بشري بقدرات ممنوحة من الإله...

جملة {أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ}، لو عطفناها على ما ورد في الآية 9 من سورة السجدة {ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ}... فستكون قاصدة لنفخ الروح فينا وهو الأرجح، فراجع هناك ما قلناه عن الروح.

تلاحظ هنا في الكلام عن خلقنا أنها معلومات لا تحتاج لدراسة عميقة لفهمها، فهي من نوع المعلومات العامّة التي يمكن لأي إنسان عادي متوسط الثقافة أن يفهمها، والمقصود منها لفت انتباهنا لما يدلنا عليه تعالى كإله واحد أحد، وليس المقصود منها تعليمنا آلية نشأة الحياة ولا آلية خلق الإنسان، فما علاقة الهداية بمعرفتنا بآليات حدوث الأمور؟

كلام القرآن مقصود منه هدايتنا، ولفت تعالى انتباهنا لما يدلنا عليه مما نراه فينا ونلمسه من حولنا، ومما نفهمه بالتفكير به من خلق ما في الدنيا مما لا نلمسه بحواسنا... وآيتنا هنا لا تحتاج لوصولنا إلى التصوير الصوتي أو بالرنين المغناطيسي أو التصوير البوزيتروني... لفهمها، فهذا الكلام الإلهي معنا للفت الانتباه لما يدلنا على خالقنا، فهو نفسه من أوّل ما كلّف سبحانه البشرية من آلاف السنين، مروراً بالذين نزل في عصرهم القرآن وصولاً لعصرنا ولمن سيأتي بعدنا بآلاف أو ملايين السنين إن طال عمر البشرية إلى هذا المقدار...

الناس عموماً يعلمون أن التلقيح هو بداية الحمل، وأنه بعد التلقيح يحصل نمو بالتدرج ليكتمل ويصير جنيناً، والتسميات التي استعملتها الآية لتلك المراحل هي نفس الكلمات التي استعملها الناس لوصف تلك المراحل، وبالبداهة ترى أن كلام الآية عن أمور عادية تفهمها الناس وتعلمها من حالات إسقاط الحمل والأجنة... فأنت لست أمام كلام جديد يعلّمك مراحل خلقة الإنسان، بل أمام كلام يلفت انتباهك لما تعلمه لترى منه الإله الذي صمّم وخلق الدنيا وصولاً إلى ما تراه وتعلمه عن خلقة الإنسان، وهكذا تهتدي للإيمان بإلهك...

خاطبنا تعالى بالكلام البسيط بقدر ما نتحمّل فهمه وبقدر ما تتحمّل لغتنا التعبير عنه بدقة، فلم يكن كلامه تعالى بسيطاً ركيكاً لدرجة فهم الأطفال له، ولم يكن معقداً صعباً لدرجة فهم القلّة القليلة من المتعلمين الدارسين له، فلو كانت التعابير بسيطة جداً لدرجة التهاون بالدقة، لما آمنّا بأن هذا الكلام إلهي، ولو كانت التعابير تعرض ما يحتاج لأقصى ما يمكن للبشر فهمه من تطوّر علومهم، لما آمن بالقرآن أحد، لأننا سنرفض ما يقوله، وخذ مثلاً لو جاء غالبية كلامه تعالى عن أشياء حقيقية ولكنه يخالف ما نعتبره بديهياً، فلنقل إن رسوله نوح أو عيسى أو محمّد عليهم السلام قالوا للناس إن الأرض كروية وتدور حول الشمس فآمنوا بالإله العظيم الذي جعلها هكذا، وآمنوا بالإله الذي خلق ما في الدنيا عبر مراحل امتدت لمليارات السنين، وأن كوننا نشأ من توسّع على شكل انفجار لبذرة من الطاقة "كما هو دارج حالياً"... فبعد هذا الكلام من سيؤمن بالرسل؟

إن اعتقدت بأنك الآن معك معلومات وافية وكافية لتؤمن لو جاء في القرآن معلومات متقدمة، فانتبه لمعارضة عموم المنتمين لدينه تعالى لنظرية النشوء والارتقاء علماً أنها بشكل جيد متماشية مع ظاهر القرآن، فلست أقول لك أن تفسّر القرآن بناء عليها، ولا أقول لك جزماً أنها صحيحة، فهذا ليس من اختصاصي للبت فيه وهو مجال البيولوجيين ومن شؤونهم، ولكن ألفت انتباهك أنك لن تتحمّل معلومة لم تتراكم مقدماتها عندك، فلو جاءك الآن كتاب فيزيائي من

المستقبل من عشرة آلاف سنة قادمة، فهل ستفهمه؟ وهي نفس الحالة لو جاء غالبية كلامه تعالى بما ليس متداولاً ومفهوماً عند عامّة الناس، فسيكفرون بكلامه تعالى، فماذا لو تحدّث سبحانه معنا عن آلية خلقه هو تعالى للأشياء؟ فمن سيفهم؟ وهذا إن أصلاً تحمّلت اللغة البشرية التعبير عن حقيقة تعامله تعالى مع الأشياء، وأنت تعلم أن القرآن جاء فيه بعض الأمور البعيدة عن قدراتنا حالياً وفي المستقبل القريب، ففيه بعض الكلام عمّا يمكننا فعله نظرياً في المستقبل، كالكلام مع الحيوانات أو نقل أشياء بسرعة عالية جداً من أماكن بعيدة كنقل عرش من سبأ إلى مملكة النبي سليمان(ع)... وفي القرآن كلام عن شيء لن نفقهه أبداً، وهو الكلام عن تسبيح الجمادات له تعالى، وهذا الكلام محلّ سخرية من الكافرين، وها صرت ترى عرضه تعالى علينا في قرآنه أموراً من مستويات مختلفة من البسيطة والمتوسطة والمستحيلة، وهي نفسها ما سيطلبه الكافر ليؤمن، وهي نفسها ما ستجعل الكافر يتحجّج أنه لن يؤمن! فالأمور البسيطة سيسخر من بساطتها لأنه يعرفها، وبعض الأمور المتوسطة يسخر منها لأنها نظرياً مقدور عليها، وأمور أخرى يسخر منها منكراً لعقلانيتها لأنه لا يقدر عليها! مع أنه هو نفسه يطلب من القرآن ذكر هكذا أمور لا يعرفها ولا يقدر عليها حتى يؤمن بأن الكلام من الإله!

بناءً عليه صرت ترى سخافة كلام المنتمين لدينه تعالى المنبهرين بالاكتشافات العلمية والمقحمين لها في كلامه سبحانه، وصرت ترى أن عموم كلامه تعالى موجّه لأكبر عدد ممكن من الناس لهدايتهم، مع المحافظة على مستوى التعبير والمعلومات بما يدل على أنه كلام إلهي، وبين هذا وذاك جرى تمرير القليل من المعلومات غير العادية لترى أنه كلام الإله وليس كلام بشر، ككلامه تعالى عن خلق ما في الدنيا في ستة أيام منها أربعة أيام قُدِّرَ فيها القوت... وراجع في ذلك دراسة الآية 10 من سورة فصلت {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ}، ومنها كلامه عن الملائكة والجنّ، وعن سماوات سننفذ في أقطارها ونتعرّض للشهب كما ورد في الآيتين 33 و 35 من سورة الرحمن {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}... {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ}، وغيرها من الأمور ومنها ما سيرد بعد آيتين بكلام عن طرق في السماوات.

(ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ{15})
{ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ}، بعد أن تصيروا خلقاً آخرَ وتصيروا إنساناً حياً يفعل ويتفاعل، {لَمَيِّتُونَ}، وتفقدون حياتكم، فهذا الخلق لجسدكم من التراب لن يحافظ على كيانه، حيث سيخرب بالمرض أو بالشيخوخة، أو يتعرّض للتخريب بالضرب والقتل... وتفقدون حياتكم.

هذا ما يحصل معكم وهو من تصميمه تعالى لكم وقراره تعالى أن تعيشوا وبعدها تموتوا، حيث اختصرت الآيات ما هو معلوم من مدّة حياتنا التي نتعرّض فيها للفتنة والبلاء في الدنيا لتركّز على الخطوط الأساسية لتصميم حياتنا وموتنا.

واضح جداً أن الإنسان الذي يرغب بالبقاء حياً لا قدرة له على ذلك، مما يشير بالبداهة لقدرة قاهرة صمّمته بحيث يموت.

(ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ{16})
{ثُمَّ إِنَّكُمْ}، بعد موتكم، {يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، في زمن القيام من الموت، {تُبْعَثُونَ}، ننهضكم ونقيمكم من الموت.

إذَنْ، هذا هو المخطّط الإلهي الأساسي بشكل مختصر لخروجكم أيها الناس إلى الحياة من طين، وموتكم، وبعثكم. والتفاصيل لامتحاننا وحسابنا مشهورة معروفة، وسبق أن ذكرت لنا السورة مواصفات من قضى حياته فالحاً... وتكمل الآيات مع الأفعال الإلهية المتعلقة بتخطيطه تعالى لما حولنا:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ{17})
{وَلَقَدْ خَلَقْنَا}، ركّبنا ألّفنا، {فَوْقَكُمْ}، أيها الناس، {سَبْعَ طَرَائِقَ}، ومن العديد من الآيات القرآنية نعلم بوجود سبع سماوات فوقنا ومنها ما سيرد هنا في السورة في الآية 86 {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ}، وبما أن الكلام معنا نحن

الواقفين على الكوكب المسمّى بالأرض فهذا يعني أننا في آخر سماء وفوقنا ست، حيث جعل تعالى فوقنا سبع طرائق، أولها سَمَاؤُنَا بنجومها ومجراتها، ويليها ست سماوات بنيتها مختلفة.

تتذكّر أن كلمة سماء لعموم ما علا ويقابله أرض، ومن الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} فهمنا أن لكل سماء ما يناسبها من أرض، وأن كوكب الأرض وسطح القمر وسطح الشمس... هي أَرَاضٍ بالنسبة لسمائنا، والسماوات الأخرى لها ما يناسبها من أرض أو أَرَاضٍ... والآية هنا تشير لإمكانية الانتقال من سماء لأخرى، وهكذا تصير سبع طرائق، وليس المقصود وجود سبع طرقات بالتحديد، ومن أي نقطة يمكن النفوذ إلى السماء التالية فهو طريق، وهكذا يصير التعبير نَاظِراً إِلَى أي نقطة كمعبر بين سماء وأخرى، وبما أنهن سبع سماوات فبينهن سبع طرائق، وأي انتقال من واحدة لأخرى هو طريق، ولنقل على التشبيه أنك من لبنان لتصل إلى ألاسكا ستمر بِسَبْعَةِ خطوط عرض، ومن أي نقطة مررت فأنت ستقطع خطا من الخطوط، حيث بينك وبين ألاسكا سَبْعَةُ خطوط، وهنا الكلام نفس الشيء وليس عن أوتوستراد محدد بين كل سماء وأخرى.

{وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ}، حيث لم يكن تعالى غير منتبه ولا يدري بما يجري في الطرق ومع الخلق، بل سبحانه مُنْتَبِهٌ مُتَابِعٌ لما يجري عبر الطرائق الممتدة بين السماوات والأرض.

لاحظ أن الكلام هنا مشابه لمن لم يلتفت إلى نفسه وما حوله ولم يفكّر فيمن صمّمه وخلقه بهذا الشكل، فيعتقد أننا وبدون علمه تعالى نخترع الهواتف والحواسيب... ولا دخل له تعالى بذلك بل تفاجأ سبحانه بما فعلناه... وهنا الكلام عن طرائق في السماوات، لأن الانتقال بينها لم يكن تعالى غافلا عنه لِيَحْصُلَ لوحده وليس عن قصد في تصميمه تعالى لما في الدنيا، لا. ذكرت لك في هذه الدراسة أننا وعلى ما يبدو من الآية 33 من سورة الرحمن {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}، أننا نحن البشر سيأتي علينا زمان ننتقل فيه بين السماوات مثلما ينتقل الجنّ فيها، وهنا يبدو أن للسماوات طرائق "طرقات أو طريقة بالمعنى العام" توصل إلى السماء التي فوق أو إلى التي تحت.

ننتبه جيدا، لأن أي كلام عن هذه الطرائق الآن فهو مجرد تخمينات، وما قيل عن كونها بُقَعاً على الأرض وهي الطرقات الوحيدة لخروج الصواريخ إلى الفضاء، فهذا سخيف، وليكن هذا الكلام نموذجا لنا عن التعامل بمعلومات ناقصة ونشرها بين الناس لأنها موافقة لهوانا وتستدرج جمهورا مستمعا، حيث إن العلماء يعتمدون الاقتراب من خط الاستواء لإطلاق الصواريخ الحاملة للأقمار الاصطناعية لأن الفضاء الأرضي الموازي لخط دوران الأرض حول نفسها هو خط الاستواء، وهو أفضل نقاط لوضع الأقمار الصناعية لتدور ثابتة على موقع واحد بالنسبة للأرض، حيث يمكن إطلاق الصواريخ إلى الفضاء من أي بقعة من الأرض وليس صحيحا تفسيرهم للآية بأنها تشير لبقع محدّدة على الأرض.

قديماً كانت معلومات عامّة الناس عن الفلك قليلة، وكانوا يظنّون أن الكواكب السيارة "حول الشمس" هي السماوات السبع، وقالوا ذلك بقوّة مستندين إلى تأكدهم من سَبْعَةِ كَوَاكِبَ "تدور حول الأرض"... لذلك ستجد تفسيرات قديمة لآيتنا هذه "وأشباهها" بأنها تشير لمسارات الكواكب السيّارة، وليكن هذا أيضا نموذجا لنا عن خطورة تفسير القرآن بمعلومات معتمدة على نظريات علمية نظنّ أنها صحيحة، حيث أنت تعلم الآن أن الكواكب السيّارة التابعة للمنظومة الشمسية عددها أكثر من ذلك، وتعلم أن أفلاكها ليست سماوات، وتعلم أن سطحها أرض بالنسبة لسمائنا، ونحن وهي وكل ما فِيمَا نسميه بالكون بمجراته فهو سماء واحدة فوقها ست سماوات أخرى...

على كلّ حال آيتنا هنا من المحفّزات القرآنية لنا لتوسيع أفق البحث والاكتشاف، وسيكون شيئاً رائعا تَعَرُّفُنَا على طرق نسلكها للنفوذ في أقطار السماوات...

بالنسبة لجمع التكسير "طرائق"، هناك جمع مصدري "طرق" وجمع سالم "طرقات" لكلمة طريق، وطرائق إما جمع تكسير مرادف بالمعنى للجمع السالم "طرقات" أو ليست على جمع طريق بل على جمع صفة الطرق حيث هو طارق للطريق وهي طرائق، ودراسة حالات وجود جمع سالم وتكسير لنفس الكلمة مثل أنبياء ونبيون... أو وجود أكثر من جمع تكسير لنفس الكلمة مثل عبيد عباد... لا يزال هذا الباب اللغوي لمعرفة الفرق بين هذه الجموع واستعمالاتها ضعيفاً، ولم أصل بعد إلى نتيجة مرضية من كلام اللغويين ومن بحثي عن هذه التصريفات والمشتقات للخروج بقاعدة

عامّة لكل الكلمات، وما ستجده مجرد تخريجات لحالات خاصة ولا يسري على بقية الكلمات... لذلك نكتفي بالقول عن طرائق وطرقات أنهما يشيران لمسلك يؤدّي إلى المطلوب... وسنتغاضى عن التفصيل الدقيق بينهما لجهلنا به.

(وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ{18})
{وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}، من الفضاء فوقكم ينزل الماء، وهذا معلوم من رؤيتنا لنزول الماء من الغيوم، {بِقَدَرٍ}، بكميّة محدّدة منه تعالى، مرّةً بكثرة ومرّةً بقلّة، ولكن دائماً بالمقدار الذي حدّده تعالى، {فَأَسْكَنَّاهُ}، جعلنا الماء يَسْكُنُ يَسْتَقِرُّ، {فِي الْأَرْضِ}، {وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ}، وما ترونه من تكرار لنزول الماء وسكونه في الأرض بِرَكاً ومستنقعات وخزانات جوفية... فهذا التكرار لا يعني أنها حالة تحصل لوحدها من دون متابعة منه تعالى، فلو شاء سبحانه لجعل الماء لا يسكن في الأرض، ولأوقف نزول الماء...

تذكّر دائماً أن البيئة التي نعيش فيها صمّمها تعالى بهذا الشكل، وكان بإمكانه تعالى تصميمها بطريقة أخرى، وبإمكانه تعالى دائماً تعديلها لتتغيّر، وكثيراً ما لفت القرآن انتباهنا لما هو متكرر حولنا من ظواهر، وصرنا معتادين عليه وكأنه تحصيل حاصل، ولا نلتفت أنّ إلهاً بصفات وقدرات عالية جداً صمّمها وجعلها تعمل ويتابعها، ويمكنه تغييرها أو تعديلها ساعة يشاء.

تتذكّر أنه تعالى ينسب نزول الماء إلى نفسه على معنى تصميمه وخلقه سبحانه لما يسبّب نزول الماء، حيث صمّم وخلق ما في الدنيا حتى تصل الأمور إلى مرحلة ينزل فيها المطر... وسلفاً ومن تصميمه تعالى لما في الدنيا سبحانه يعلم بمقدار المطر الذي سينزل ومتى وأين وما سيحلّ به، وهذا تقرؤه جلياً من مفهوم الآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، ومن آيتنا هنا بوصف المطر بالمقدار، وسبحانه متابع مدير باستمرار لشؤون كلّ ما في الدنيا وإلا لزالت كما تقرأ في الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ...}، وهكذا من الصورة الشاملة ومن الصورة الضيقة ترى أنه تعالى هو يُنْزِلُ الماء.

سأكرر لك ما كررناه كثيراً في دراستنا هذه لتقريب الصورة لفهم هذا النوع من الكلام القرآني عن نسبة حدوث الأشياء له تعالى، أنزل الماء وأجرى الرياح وَأَحْيَانَا وأماتنا ورزقنا وشفانا... فلو أنت قررت خلق كائنات، وجعلت فيها صفة الجوع لتأكل لتنمو وتتكاثر... وخلقت لها بيئة يخرج منها ما تأكله، فمن رزق المخلوقات؟ من أطعمها؟ ونفس النظرة لنزول الماء الناتج عن تصميمك أنت للبيئة بحيث ينزل الماء، فأنت أنزلته، ونفس النظرة لمرض وشفاء المخلوقات فَمَنْسُوبٌ لك لأنك أنت صمّمتها هكذا، ونفس الشيء بالنسبة لهدايتها وضلالها فهو منسوب لك لأنك أنت صمّمتها بهذه القابلية، فأنت هديتها وأضللتها بهذا المعنى.

(فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ{19})
{فَأَنْشَأْنَا}، كَوَّنَ سبحانه من شيء سابق، {لَكُمْ}، أيها الناس، {بِهِ}، بالماء النازل من السماء وبالماء الذي سكن في الأرض، كوّن تعالى، {جَنَّاتٍ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها، من حدائق وبساتين، {مِنْ نَخِيلٍ}، وهي أشجار النخل التي تنتج البلح والتمر والرطب، {وَأَعْنَابٍ}، أَنْشَأَ سبحانه لكم بالماء جنّات الأعناب وهي نبتة العنب "الكرمة والعريش"، {لَكُمْ فِيهَا}، في الجنات، {فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ}، أطعمة كثيرة من نتاج نباتات الجنّات تأكلونها لا للشبع بل للتلذذ بطعمها، {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}، حِينَ تشعرون برغبة في الأكل لسدّ الجوع فمن الفاكهة تأكلون أَيْضاً.

من الأساس خطّط سبحانه أن يكون نتاج الثمر لاستخدامين، للفاكهة وللشبع، وكمثال عن ذلك: نتاج النخلة نأكله كفاكهة لنلتذ بطعمها، ونأكله عند الجوع وَنَشْبَعُ، وحالياً العنب لا نأكله إلا للتلذذ بطعمه، أمّا قَدِيماً فكان طعاما مثله مثل أي نباتات أخرى تتوافر لهم ليسدّوا بها جوعهم، وخاصة زبيب العنب، وكما ترى فأي شيء يملأ البطن سَيَسُدُّ جوعها لِذَا لَا تخلط بين عادات أكلنا الآن معتمدين على كثرة الألياف والكربوهيدرات لنشبع، وبين أساس سدّ الجوع بأي مأكول.

من هنا تنتبه يا عزيزي ويا عزيزتي لشيء مهمّ، إِذَا خلطنا الماء بالتراب فهذا طين، ولن ينتج عنه فاكهة نلتذّ بها ولا حتى طَعَامٌ يسدّ جوعنا ونتغذّى به، مِنْ هذا العمق لما نفهمه ببساطة تتحدّث آيتنا هنا، من ماء نزل على الأرض "على

ترابها" وخرج بسببه نبات، حمل ثِمَاراً مختلفة اللون والطعم والحجم و... ونحن نرغب بأكلها ونتغذّى بها، وهي في أساس نشأتها من تراب وماء، حيث إنَّ العلاقة بيننا وبين الثمار ليست عادية، لِمَاذَا ستخرج نباتات من سقوط ماء المطر على الأرض؟ طَبْعاً بسبب تصميم الإله وخلقها بهذا الشكل، ولنقل إنَّ أحدا ما أنكر ذلك، نَسْأَلُ: لماذا سينتج عنها ثمر أرغب بأكله وَطَعْمُهُ لذيذ ومرغوب لي؟ وما علاقة كياني بكيانها؟ وَإنْ لم يكن هناك تصميم من الأساس لوجود حاسة الذوق عندي ورغبة الأكل والتلذّذ... وتصميم بيئتي لينتج منها ما أرغب بأكله، فما التفسير للعلاقة بين ماء وتراب وخروج نبات له ثمر... وبيني أنا بلذّتي للأكل منها؟

لا تفهم من كلامي هذا أننا لن نجد رابطة منشأ وتطوّر علاقة بين الحيوان والنبات، حيث هُنَاكَ حَتْماً علاقة، وهنا وهناك تجد فرضيات عن بداية نشأة الحياة على الأرض، وهي باحثة عن آلية النشأة لرابط العلاقة الحالية بين حيوان يأكل نَبَاتاً ويتغذّى به ويلتذّ بطعمه، حيث هُنَاكَ آليات مترابطة لحصول ذلك، وكلامه سبحانه معنا للفت انتباهنا إلى نتيجة تصميمه لما في الدنيا من بعد خلقها، لا ليخبرنا أن ما نراه يحصل حَصَلَ من دون أسباب مترابطة منذ طفولة نشأة الكون، لا، حيث إنَّ فَهْمَ أفعاله تعالى على خلفية "كن فيكون" على معنى الفورية في خلقه تعالى للأشياء، هُوَ مَا يُؤَدّي بنا إلى فهم كلامه تعالى بشكل غير صحيح، وَوَصْفُ أفعاله سبحانه بكن فيكون المقصود منه حتمية حصول الأشياء، كحالة وصف نزول الماء وخروج النبات، حيث لَمْ يقل تعالى: فلينزل الماء. والمطر سينزل من الفراغ، لا، بل هناك آليات لحدوث ذلك.

بالنسبة لما تقوله الآيات هنا فهي تشير إلى النتيجة من أكل حيوان لنبات متخطية آليات حصول ذلك، ويشير القرآن إلى بعض من مراحل حصول ذلك، كما ورد في الآية 10 من سورة فصلت {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ...}، حيث نفهم أنه في مرحلة ما من تشكّل ما في الدنيا حَصَلَ على الأرض تشكّل رزق للحيوانات التي ستنشأ عليها، وكانت تلك المرحلة موزعة على أربع مراحل، وفي كل مرحلة حصلت أحداث أساسية كانت نتيجتها: مطر وَنَبَاتٌ تأكله الحيوانات.

ذكر القرآن شَيْئاً عن مراحل تشير لآليات نزول الماء، كما ورد في الآية 9 من سورة فاطر {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا...}، وَبَعْضُ مراحل نزول الماء عبر إثارة الرياح للغيوم لتصير سَحَاباً ينزل منها مطر فيما بعد هِيَ مراحل معلومة لأي إنسان عادي. وَكَلَامُهُ تعالى عن نزول الماء وخروج النبات تطبيق لأمره تعالى "كن فيكون" حتما، ولكن ليس فَوْراً وبلا مراحل أو آليات لحدوثه.

لا تَنْسَ دَائِماً أن عموم كلام القرآن عن نماذج، حيث لَا ميزة مميزة للنخل والعنب على بقية الفواكه، لِأَنَّهُمَا نَمُوذَجَانِ يعرفهما من نزل القرآن في زمنهم ومنطقتهم، والآخرون إن لم يعرفوا هذه النباتات فليقيسوها على نباتات منطقتهم، لِذَا لَا تنجرف خلف كلام ساذج يجعل النباتات التي ذكرها القرآن مميزة أكثر من النباتات الأخرى، لا، حيث إنَّ كُلَّ نَبْتَةٍ لها ميزتها الغذائية ولونها وطعمها التي تميّزها عن النباتات الأخرى، وَبَعْضُهَا أَلذّ طَعْماً لبعض الناس من الأخرى، وبعضها في شيء ما أكثر فائدة من الأخرى، وبعضها كثرته تسبّب الضرر، وبعضها حتى القليل منه يسبب الضرر لبعض الناس... وهذا يجري حتى على النباتات التي ذكرها القرآن.

(وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ{20})

{وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ}، الكلام هنا عن الشجرة النبتة التي لها جذور وجذع وفروع وتنبت على جبل سيناء، وسيناء منطقة مشهورة جنوب فلسطين وشمالي مصر، وتابعة حاليا لجمهوريّةِ مصر، وفيها سلسلة جبال مشهورة تاريخيا بأنها كانت مسرحا لكلامه سبحانه مع نبيّه موسى(ع).

{تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ}، تلك الشجرة ينتج عنها الدهن وهو المائع الجامد قليلا، يَدْهُنُ به الناس شعرهم وجسدهم، ينصرف ذهننا من هذا التوصيف فورا إلى أشهر شجرة نستخرج منها الدهن في منطقة سيناء، وهي شجرة الزيتون، ولم يعد منتشرا في عصرنا دهن الشعر والجسم بزيت الزيتون واستبدلناه بمساحيقَ صناعيّةٍ "كريمات ومساحيق دهن وشامبو...".

كما نقول: الدبس تنبت به شجرة الرمان، ونقصد أننا نستخرج دبس الرمان من نباتها، كذلك هنا الآية تشير إلى كون الدهن من نبات شجرة الزيتون، من حبّات الزيتون المعصورة.

تنبت تلك الشجرة، بالـ {صِبْغٍ}، وهو السائل الذي تُصْبَغُ فيه اللقمة فتغطس الخبزة فيه فتنصبغ، {لِلْآكِلِينَ}، لمن يتعرّف على هذا النوع من الطّعام ويأكله، حيث إنّ زيت الزيتون كطعام مع الخبز ليس مشهورا في كل البلدان، ولم يَبْدُ لي من ذاكرتي عن أخبار مكّة ويثرب أن زيت الزيتون كان دارجا عندهم، لذلك أشارت الآية له هنا أنه طعام لبعض الناس.

نلاحظ أنّ مناطقَ عديدةً على الأرض يوجد فيها أشجار زيتون، ولكن تاريخيا اشتهرت منطقة سيناء وفلسطين بكثافة شجر الزيتون فيها، حيث إنّ الآية تشير إلى نوع شجر شهير ارتبط اسمه بالمكان الشهير الذي تتواجد فيه بكثرة، وهو طور سيناء حيث تكلّم ربنا سبحانه هناك مع كليمه النبي موسى(ع)، وهذه حادثة نادرة لم تحصل في الدنيا من قبل ولا من بعد مع أي بشري، وهذا لا يعني التقليل من قيمة الآيات التي وَصَفَتْ ما نسمّيه بمعراج النبي محمّد(ع)، ولكن تبقى حادثة التكليم منفردة نادرة.

كما ترى، اختارت الآية نموذج شجرة الزيتون التي نستخرج منها الزيت والمعجون... ومن المشهور جدا وإلى الآن الصابون المستخرج من زيت الزيتون الممزوج مع ورق الغار، ما علاقة نظافة جسدي ونضارته ورغبتي برائحة زيت الزيتون على جسدي، مع ماء نزل على التراب وخرج منه نبات له ثمر أرغب في استخدامه وهو موائم تماما لما أرغب به؟ إن لم يكن هناك من صمّم ذلك فكيف نفسّر العلاقة بين جلدي وشعري وطعامي ونبتة لها زيت؟

بعبارة أخرى، من بين المناطق العديدة التي ينبت فيها شجر الزيتون، اختارَ تعالى هنا ألاّ يذكر مباشرة شجرة الزيتون واستبدله بالإشارة إلى مكان له شهرة بتوافر شجر الزيتون فيه، ومعلوم ومشهور أنّ ذاك المكان حصلت فيه حادثة مميزة وهي تكليمه تعالى لنبيّه موسى(ع) ونزول التوراة فيه، ومن باب تحريك ذهننا ليستحضر صورا عديدة لطيفة، ربط تعالى كلامه عن نموذج نبتة لها أهمية غذائية وجمالية في حياتنا، ربطه مع حادثة فريدة في مكان حدث فيه كلام الإله سبحانه مع بشري.

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ{21})
{وَإِنَّ لَكُمْ}، أيها الناس، {فِي الْأَنْعَامِ}، في الحيوانات الموصوفة بأنها نعمة لكم، وهي الحيوانات التي تربّونها لتأكلوها وتشربوا لبنها، لكم في الأنعام، {لَعِبْرَةً}، شيء تعتبرون به، بالتأمّل بخلقها وصفاتها واستخدامها والانتفاع منها... تعتبرون فتستخرجون منفعة فكرية منها، والكلام هنا عن دلالتها على من صمّمها وخلقها بهذه الصفات.

{نُسْقِيكُمْ}، تشربون، {مِمَّا فِي بُطُونِهَا}، حيثُ من بطن الأنعام الحلوبة يتحوّل الطعام إلى لبن "محلوب، حليب" يتجمّع في درّتها، ونشربه، وورد هذا الكلام في الآية 66 من سورة النحل، {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ}، فالبطن هي البطن التي فيها الطعام حيث يتحوّل إلى محلوب، وليست بطن الدرّة كما قال البعض.

{وَلَكُمْ}، أيها الناس، {فِيهَا}، في الأنعام، {مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ}، بالإضافة لانتفاعكم بلبنها "حليبها" هناك منافع أخرى، حيث تحرثون الأرض بها، وتستعملون جلودها، وتنقلون الأغراض عليها... {وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}، أيْ تأكلون لحمها.

أيضا تلفت الآية انتباهنا لارتباطنا الغريب بحيوانات نشرب لبنها ونأكل لحمها وننتفع منها بأمور كثيرة... ألا يدلّ ذلك على إله من الأساس صمّمها وصمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" بهذا الترابط لمنفعتنا؟

مهما حاول البعض تفسير ما يراه على أنه من الطبيعة وبلا إله، أو بالصدفة، أو حتمية ناتجة عن كثرة الحوادث في الكون الهائل... أو ... فكيف يمكنه تفسير تحوّل الطين إلى حيوان، وارتباط حيوان بحيوان آخر بحيث يستهلك لحمه ولبنه ويتغذّى به؟ ويستفيد منه للركوب والنقل ودباغة جلده للملابس...؟ من الواضح وجود ارتباطات معقّدة لا يقبل العاقل إلّا أن ينسبها لتصميم وتخطيط قبل خلقها.

معرفة آليات حدوثها ليس إلا محاولة تعرّف على الآلية التي صمّمها تعالى لحدوث الأمور، إذْ إنّ معرفة آلية نشأة الكون والحياة فيه... وترابط الكائنات فيه مع بعضها ومع بيئتها، فهذه المعرفة ليست لاغية للإله الخالق، بل هي معرفة للآلية التي صمّمها الإله لينتج عنها ما نراه.

نعم، معرفة آلية نشأة الكون والحياة إلغاء للإله بحسب ما صوّره الكثيرون من المنتمين لدينه تعالى حين قالوا عن حدوث الأمور أنها حَدَثَتْ بقوله تعالى أن تحدث وبدون آليات ومراحل لحدوثها، وحين نعرف آليات حدوثها لا نرى إلههم بل نرى مراحل وآليات معلومة سبّبت حدوث الأمور، لذلك أنا وأنت نكفر بهكذا كلام، ونكفر بهكذا إله اخترعه الناس، ونؤمن بالإله الذي تحدّث عن نفسه في كتبه ومنها هذا القرآن واصفاً لفعله للأمور أنها بأمر منه حصلت ولكن عبر آليات ومراحل، ومن خلال تعرّفنا على كيفية حدوث الأمور نؤمن به تعالى كإله صمّم وخلق. هذا إلهنا، وهذا هو الواقع، وهذا هو كلام إلهنا عن حدوث الأمور من تصميمه لها... أمّا الكثير من المنتمين لدينه تعالى المفسرين لكلامه على فعله تعالى للأشياء بدون مراحل وآليات وأسباب مترابطة، فهؤلاء بسذاجة وطفولية فهموا كلامه تعالى، وصار يبدو أمام الآخرين أنه دينه تعالى، بينما هو دينهم هم وليس دينه تعالى.

(وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ{22})
{وَعَلَيْهَا}، على الأنعام، {وَعَلَى الْفُلْكِ}، على الأشياء التي تعوم على الماء كالمركب والفلوكة والسفينة... {تُحْمَلُونَ}، تحملكم لتنتقلوا من مكان إلى آخر، وذلك بدل أن تبذلوا جهد المشي أثناء السفر لأنها تحملكم وتنقلكم. وأشهر الأنعام للحمل: الجمال والبقر والبغال والحمير...

يمكنك الآن إضافة السيارات والقطارات والطائرات للنعمة الإلهية على الناس حيث سخّر لنا سبحانه البيئة من حولنا لنستخدمها بهذه الطريقة.

إلى هنا انتهت الفقرة التي أشارت لملاءمةِ البيئة من حولنا لنا، كلّ هذه النماذج وغيرها الكثير الكثير، كلّها تشير لتصميم رائع مناسب جدا لنا لنعيش فيه مرحليّاً قبل الانتقال إلى عالم الآخرة، ففكّر فيما سبق لو أنك أنت تصمّم مخلوقات وبيئة لتعيش المخلوقات فيها، وربما تستسهل وضع النقاط الرئيسية، ولكن التفاصيل لتلك النقاط بالملايين، وارتباط المخلوقات ببعضها عبر علاقات التوازن والتعامل والاستقرار... أيضا بالملايين... أشارت الفقرة هنا لخطّ ترابط وعلاقة النبات والحيوان باختصار، وبكل سهولة يمكنك التوسّع حتى تقضي سنوات ولن تنتهي من الغوص في تفاصيل ودقائق البيئة من حولك، فنزول الماء يسبقه تكاثف الماء وارتفاعه وتشكّل السحب ونزول الماء... وسكونه على الأرض لفترات طويلة وقصيرة، وسقي النبات منه، وكيف يشربه النبات وكيف تحلّل جذور النبتة التراب والماء لتنمو، والاختلاف في نتاج النبات بالحجم والشكل واللون والطعم وخصائص الغذاء... والأنعام المذهلة التي نستخدمها كلّها ولا نرمي أي شيء منها أبداً، فروثها لتسميد الأرض، وجلدها لنلبسه، ولحمها لنأكله... حتى ظلفها وقرنها نستعمله لصنع الصمغ! فلا نرمي ولا شعرة من الأنعام! وأخيراً استخدامها واستخدام السفن للسفر، ونحن لا علاقة لنا بتصميم كل ذلك من الأساس، بل فقط استخدمنا بالفكر المتاح لنا ما وجدناه متاحا في بيئتنا.

تتذكّر دائما وتنتبه إلى أننا مهما اخترعنا وابتكرنا واكتشفنا... فنحن دائما ندور في ما أتاحه تعالى لنا، ويعلم سبحانه وتعالى مسبقاً ما يمكن أن ينتج عنّا من الفكر والقدرة على الخيال الممنوح منه تعالى لنا في البيئة التي صمّمها تعالى... بعبارة صريحة ومباشرة: لن يتفاجأ سبحانه من اختراع نخترعه، سلفاً يعلم تعالى بكل ما سنفعله، وسبحانه صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وصمّم بيئتنا وهو تعالى يعلم بالضبط ما سينتج عنّا في هذه البيئة.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ{23})
لاحظ كيف اختتمت السورة الفقرة السابقة بكلامها عن الفلك، وافتتحت هذه الفقرة بحدث بارز له علاقة جوهرية بالفلك.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ}، إلى الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع شيء، وهو (ع) ينتمي لجماعتهم، حيثُ حملناه رسالة منّا إلى الناس الذين كان يعيش معهم ومعلوم أنّ غالبيتهم تفاعلوا مع دينه تعالى بالكفر والشرك، فقال (ع):

{يَا قَوْمِ}، يا أيها الناس الذين أنتمي لجماعتهم، {اعْبُدُوا اللَّهَ}، فأنتم مفروض منكم وعليكم طاعة صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز "الله" فتصرّفوا على هذا الأساس، {مَا لَكُمْ}، ليس لكم، {مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}، فلا يوجد كائن عنده الصفات

والقدرات الفائقة غيره، فهو الإله الأحد، {أَفَلَا تَتَّقُونَ}؟ فمن المفروض أن تتجنبوا وتتحاشوا، والكلام هنا عن تجنّبكم لغضبه وعقابه فتوحدوه وتطيعوه فلماذا لا تفعلون ذلك؟

ضع في بالك أنّ ما سبق وأنْ لفتت الآيات انتباهنا له عن خلقنا وعن المطر والنبات والثمر والأنعام والفلك... هو نفس الكلام توجّه به النبي نوح(ع) إلى قومه... وبعدها قال: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ}... فلا تفهم الكلام هنا أنه حصل فجأة من دون سابق جدال بينه(ع) وبينهم، ولا تفهم أن السورة قفزت بالكلام من شيء لشيء آخر بلا علاقة بين الفقرتين، لا، حيثُ إنّ ما سبق من كلام عن الآيات من المفروض أن تكون نتيجته إيمان من التفت إلى الآيات في خلقته وخلقة ما حوله وترابطها... ولكن قوم النبي نوح(ع) لم يؤمنوا، وعادة يختارهم القرآن كنموذج عن بقية الكافرين بالآيات، ويختارهم بسبب بعدهم السحيق بآلاف السنين لنرى امتداد دينه تعالى عبر رسله، ونرى أنّ عقلية الكفر بالآيات هي نفسها مشتركة عند نوعية من الناس.

(فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ{24})
{فَقَالَ الْمَلَأُ}، أيِ الجماعة التي لها سلطة معنوية، كالأغنياء والرؤساء والوجهاء... {الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ}، أيِ الجماعة التي ينتمي (ع) لجماعتهم والذين أنكروا ولم يؤمنوا بكلام النبي نوح(ع) عن التوحيد والتقوى... قال الوجهاء منهم:

{مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ}، إذْ ليس مميزا عنكم بأي شيء، وهو مثلنا كائن من صنف الذين لهم بشرة، {يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ}، حيثُ يريد أن تعتبروا أنه قدّم لكم شيئا جيدا وصار له جميل عليكم، ليصير له مكانة عالية عندكم كشخص يتواصل معه الإله، بينما هو مجرد رجل عادي مثلنا مثله، واخترع أنه يحمل رسالة من الإله حتى تَرَوْهُ أفضل منكم، {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً}، بما أنّ لديه تعالى كائنات تملك مميزات عالية عن البشر "ملائكة"، لكان أرسلها لنا وسنؤمن فورا بدل أن يرسل رجلا عاديا، {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ}، حيثُ لم نسمع من أجدادنا القدماء عن إله واحد، وأنّه جاءهم رجل عادي يحمل رسالة من هذا الإله الواحد.

ضع في بالك أنّ اعتراضهم هنا على كون الرسول من البشر ناظر للموضوع من تقييمهم هم للأمور، حيثُ رأوا أنّ الإله بجلالة قدره ترك كل الطرق المتاحة للتواصل معهم، ومنها تركه للملائكة ليطلب من رجل عادي أن يكون ناقلا لكلامه! لأنّهم تجاهلوا معنى كلام الرسول الذي يبيّن لهم سخافة اختراعهم لآلهة وأنّ على ذلك حساباً عسيراً... وركّزوا على بشرية الرسول كعذر يبقيهم على كفرهم.

حسناً، بما نعرفه من القرآن والتاريخ، إنّ الرسول نوح(ع) من أقدم الرسل، فهل قومه كانوا محقّين حين قالوا بأنهم أوّل مرّة يسمعون برسول إلهي من البشر؟ فهل كان الرسول نوحٌ(ع) فعلا أول رسول من البشر وهم محقون لأنهم لم يسمعوا برسول من البشر من قبل؟ لا، بل هم كاذبون، وها أنتَ ترى أنّهم يعرفون الله تعالى، ويعرفون ملائكته(ع)، من أين علموا بهم؟ طبعا من رسول سابق، لذلك هم يكذبون وكذبهم واضح، ونتذكّر ما نقله القرآن عن قوم النبي محمّد(ع) أنهم إنما يتبعون دين الشرك لأنه دين آبائهم، وأن محمدا(ع) بطرحه لدين التوحيد هو الشاذّ! وكما كان واضحا كذب كلامهم لأن دين آبائهم لم يتوارثوه ليرجع إلى أوّل زمن تاريخ البشرية حتى يكون دينا قديما جدا، بل دين التوحيد هو القديم، إذْ إنّ جدّهم النبي إبراهيم(ع) كان موحّدا، كيف يكون دين الشرك دين آبائهم إن كان النبيان إبراهيم(ع) وإسماعيل(ع) من أوائل آبائهم وكانا من الموحدين! كما كذب المشركون في عصر النبي محمّد(ع) كذبوا في عهد النبي نوح(ع).

انتبه وضع في بالك أنّ الفقرة هنا ستنقل كلام أقوام قالوه لرسلهم ولن تجيب على ما قالوه بل ستترك الجواب والرد عمّا قالوه إلى ما بعد شرح نفسيتهم وعقليتهم، وبعد شرح نفسية وعقلية المؤمنين، حيثُ ستترك السورة الردّ إلى الآيات من 66 وما بعدها. ولكن هنا انتبه جيدا أنهم وجدوا لأنفسهم حجّة يتمسكون بها ليكفروا، على أساس أنها ضربة تهدّ دين النبي نوح(ع) ولا حلّ لها! إذْ إنّها حجّة تغلق كلّ موضوع رسولية الرسول نوح(ع)، حيثُ إنّه من البشر ولن يؤمنوا حتى يأتي رسول من الملائكة(ع) ولن يأتيهم رسول من الملائكة(ع) لأسباب ذكرتها آيات أخرى... وهكذا علقوا على شيء لا حلّ له ويظنون بذلك أنهم انتهوا من دينه تعالى.

هذا التعليق مشابه جدا لقولهم عن الرسول أنه مجنون أو ساحر، ومهما قال لهم من كلام حقّ، ولفت انتباههم... إذْ هو أمام حائط مسدود: ساحر ولن نؤمن بكلامك. مجنون وتخرّف ولن نؤمن لك. أنت من البشر وتضحك علينا لنعطيك قيمة وتقول إنّك رسول ولن نؤمن لك... وسترى في الآية 66 تفصيلا كافيا للردّ على كلامهم هذا.

بقي شيء، حيث افترض القرآن معرفتك بكذبهم، هل تتوقّع من الذي يخترع آلهة ويعبدها أن يكون صادقا في كلامه الديني! وبالخصوص فإنّ الكلام هنا منقولٌ عن الملأ، وهم مشابهون لملأ عصرنا "من حكّام ورؤساء وعلماء ومثقفين وفلاسفة ودكاترة..." الذين يجدون الكلام المناسب للتلاعب بعقول الناس العاديين التابعين لهم.

لاحظ فيما سيأتي نقل السورة لاعتراض مشركين من قوم آخرين على رسولهم كونه من البشر، وهذا ما تركّز عليه السورة كنموذج عن حجّة واهية يتحجّج بها الرافض للإيمان بالآيات الدالة على توحيده تعالى، وبالتالي هو رافض للفلاح الذي ذُكِرَتْ نماذج عنه في مقدمة هذه السورة، ومتعلّق بفعل السيئات.

(إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ{25})
{إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ}، هو مجرد رجل في عقله اختلال، وهو كالمجنون، {فَتَرَبَّصُوا بِهِ}، انتظروا حصول شيء نتوقّع حصوله معه، {حَتَّى حِينٍ}، بعد مرور بعض الزمن سيعود إلى رشده ويصحو من جنونه، ويتوقّف عن تخريفاته، وسيرجع مثلنا طبيعياً ولن يقول بأنه رسول من الله تعالى، أو بعد مرور الزمن سيموت ونرتاح من تخريفاته المجنونة، أو سيظهر دليل يكشف كذبه...

لا يذهب فكرك إلى وصفهم له بالجنون أنهم يقصدون جنوناً تاماً، فمثلما نحن نقول عن شخص يقول كلاماً لا نوافق عليه ونعتبره كذباً أو مبالغاً فيه أنه مجنون، فهم هذا ما يقصدونه.

(قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ{26})
{قَالَ} النبي نوح(ع):

{رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ}، حقّق لي ما أريده بسبب تكذيبهم لي، أنا أقوم بكل ما أستطيع، ولكنهم لا يتغيّرون مهما قلت ومهما حاولت، فأطلب منك التدخل يا ربّي لتثبت أني صادق وأني فعلاً رسولك.

(فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ{27})
{فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ}، أوصلنا إلى النبي نوح(ع) معلومات بلا كلام مباشر، سبحانه كل تواصله مع كل مخلوقاته يسمّى وحياً لأنه يستحيل صدور صوت مسموع منه تعالى مباشرة، وعادة يوحي تعالى للملائكة(ع) وهم عادة يوصلون المعلومات إلى فكر ووعي الأنبياء، ومرّة من المرات، النبي نوح(ع) وصلته المعلومات التالية: {أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ}، اعمل شيئاً يعوم على الماء، {بِأَعْيُنِنَا}، تحت مراقبتنا، و{وَحْيِنَا}، سوف نوصل إليك المعلومات اللازمة لك لبناء الفلك، وسوف نخبرك كيف تبني السفينة وسوف نتابع خطوات البناء معك، فهي سفينة غير عادية لأنها ستكون كبيرة جداً، وستتحمّل أمواجاً عاتيةً جداً.

{فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا}، إذا حان وقت تنفيذ ما قرّرناه، وتعلم أنه قرار إغراق الكفّار، {وَفَارَ التَّنُّورُ}، نبعت الماء من التنور من الحفرة التي يستعملها الناس لخبز العجين، والتنور هو الحفرة التي يصنعها الناس في الأرض ليخبزوا "ليسخّنوا" العجين فيها ليصير خبزاً، وهي لا تزال كلمة مستعملة بهذا المعنى في العديد من الدول العربية، ففارت وامتلأت الحفرة بالماء وفاضت، ونعرف من الآية 12 من سورة القمر أن الأرض تفجّرت منها عيون الماء من كل مكان، ويبدو من الآية هنا، أن حفر التنور الموجودة في مختلف البيوت في مكان سكن النبي نوح(ع) امتلأت أرضيتها بالمياه أولاً لأنها حفر، ثم أخذ الماء يرتفع حتى فاض، وهذه كانت علامة بداية الطوفان، عندها قال الله تعالى للنبي نوح(ع): {فَاسْلُكْ فِيهَا}، مرّر إلى السفينة ليصير في داخلها، {مِن كُلٍّ} "على اللام شدة وتنوين كسر" {زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ}، ومن المشهور

جداً أن النبي نوح(ع) حمل معه في السفينة حيوانات، وهنا تخبرنا الآية بشكل عام أنه (ع) حمل من كل نوع من الحيوانات ذكراً واحداً وأنثى واحدة.

بالنسبة لقراءة "كل" بكسرتين فراجع دراسة الآية 40 من سورة هود.

{وَأَهْلَكَ}، المنتمين لك "زوجتك، أبناءك وبناتك..." اسلكهم ليمرّوا إلى داخل السفينة، {إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ}، فهذه السفينة تبنيها لنجاة المؤمنين من الكفّار، فمن كان كافراً حين حصول الطوفان فسبق وقلنا إنه ممنوع صعوده إلى السفينة، {وَلَا تُخَاطِبْنِي}، لا تتوجّه إليّ بكلام تعتبره مهماً لأسمعه، {فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا}، عندما ترى الذين لم يكن معهم حقّ حين كذّبوك وكفروا، وعندما تراهم يغرقون فلا تتكلّم معي وتطلب منّي أن أنجّيهم، {إِنَّهُم}، الذين ظلموا، {مُّغْرَقُونَ}، سيموتون حتماً اختناقاً بالماء.

نتذكّر أن واحداً من أبناء النبي نوح(ع) كان كافراً ولكن أمام أبيه كان لا يعلن كفره كما يبدو من كلام القرآن عنه، وحين بدأ الطوفان، هذا الولد مثله مثل بقيّة الكفّار لم يؤمن بأن هذا الطوفان عذاب إلهي، فلم يركب في السفينة... وغرق... وهنا أشارت الآيات لحالته حتى يتذكّره من يسمع هذا الكلام وينتبه أنه لا مجال لكافر بالنجاة من العقاب الإلهي حتى لو كان والده نبياً.

من المستبعد أن يكون الطوفان عاماً لكل الأرض، وبالتالي فلا داعي لحمل زوجين من كل أنواع الحيوانات على السفينة، فالضروري منها الحيوانات التي في منطقة الطوفان، سواء منها الوحشية أو الأليفة.

سبب الاستبعاد هو وجود حيوانات ترجع لنفس الفصيلة على مختلف بقاع الأرض، وعلى جزر يعود تاريخ انفصالها عن بقية اليابسة إلى زمن طويل جداً جداً، وخذ مثلاً أستراليا، وعلى تقدير تقريبي خمسون ألف سنة غير كافية لتفسير اتصالها باليابسة لانتقال الحيوانات إليها.

تفسير وجود بشر على جزر منذ القدم، حتى لو كانت الجزر بحجم قارة، فله تفسيران معروفان، إمّا عبر الانتقال بالقوارب إليها، أو الانتقال براً في زمن كانت اليابسة متصلة، أو في زمن اتصال باليابسة عبر الجليد في فصل الشتاء. وبالنسبة لتفسير وجود الحيوانات البرية على جزر بعيدة عن القطبين فهو ممكن في حالة اتصال اليابسة مع بعضها فقط لأن البحر في تلك المناطق لا يجمد سطحه شتاءً، إلا إذا كانت الحالة جليداً لعموم وجه الأرض، وهذا حصل منذ عشرات آلاف من السنين... وكل هذا يأخذنا إلى أبعد بكثير من التقديرات المتداولة في الثقافة الدينية عن زمن طوفان النبي نوح(ع)، ويمكن مقاربته مع معرفتنا بزمن اختراع الإنسان للقوارب، ولا مانع من امتداده لأبعد مما يفترضون لأنهم افترضوا بناءً على تخمينات عادة تتعارض مع كثير من الوقائع، بالآثار يمكن تقريب زمن النبي آدم(ع) إلى الزراعة وتربية الماشية وبناء البيوت، حيث نفترض أنها أهليات وقابليات فكرية ونفسية مترافقة مع أهلية التكليف بدينه تعالى، وفي منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا حيث نحتمل أنه مسرح الأحداث، فهذا التاريخ على أقل تقدير يرجع لعشرين ألف سنة مضت، ويتحمّل إرجاعه إلى أكثر من ذلك أيضاً، وهذا أبعد بكثير من المذكور في كتب المنتمين لدينه تعالى.

(فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{28})
{فَإِذَا اسْتَوَيْتَ}، صرت في حالة التمام المناسبة لك، استقريت، {أَنتَ وَمَن مَّعَكَ}، من أهلك المؤمنين والحيوانات، {عَلَى الْفُلْكِ}، على السفينة، {فَقُلِ}:

{الْحَمْدُ لِلَّهِ}، لأن كل ما يفعله تعالى هو جيّدٌ حَسَنٌ، {الَّذِي نَجَّانَا}، خلّصنا قبل أن يطالنا العذاب، {مِنَ الْقَوْمِ}، من الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع دينه تعالى، {الظَّالِمِينَ}، الذين لم يكن معهم حقّ، لم يكونوا عادلين ولا منصفين حين كفروا بالدين الإلهي، لأن النبي (ع) ومن معه من المؤمنين كانوا تحت ضغط حكم الكفّار الذين يؤذونهم حتى يتركوا دينه تعالى، وسبحانه فعل عملاً حميداً بإغراقهم.

نتذكّر من آيات أخرى من القرآن أن القليل من قوم النبي نوح(ع) آمنوا، ونجوا معه في السفينة، حيث إن الآية السابقة صرّحت بنجاة أهله(ع) وهنا شملت أهله ومن آمن معه من قومه بجملة {وَمَن مَّعَكَ}، راجع الآية 40 من سورة هود

{حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}.

ننتبه لتوصيف القرآن لهذه النوعية من الناس أنهم: ظالمون. وهذا التوصيف متكرر كثيراً في القرآن، فضع في بالك معناه أنهم وصلهم الدين الإلهي الحقّ بشكل واضح، ولم يكن معهم حقّ حين لم يؤمنوا به، فلو كان في الدين ثغرات، وخلل، ولم يكن واضحاً... فلكان معهم حقّ بالكفر به، ولكنهم ظالمون لأنهم لم يكونوا محقّين ولا عادلين ولا منصفين حين كفروا بالدين الواضح أنه الحقّ الصحيح. الظالم وصف لعموم من لم يكن معه حقّ، سواء اعتدى عليك أو أخذ ما ليس له... أو بان له الدين الإلهي واضحاً ورغم ذلك كفر به، وهذا التطبيق الأخير للظلم هو الأكثر انتشاراً في استعمال القرآن لكلمة ظلم ومشتقاتها.

(وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ{29})
{وَقُل رَّبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا}، أنت يا نوح صرت في السفينة العائمة على الماء، وسننزلك منها، فتوجّه نحونا بالدعاء حتى ننزلك من بعد رحلتك في السفينة في مكان يكون، {مُّبَارَكًا}، كلّه خير ولا شرّ فيه، {وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ}، من بعد الانتقال سننزل من السفينة ونعتمد على كونك لا تفعل إلا الخير فستختار لنا مكاناً جيداً.

صارت المنطقة كلها مغمورة بالماء، ولا يرى النبي(ع) إلا الماء من حوله، وهذا الطوفان له زمن سينتهي فيه، وبعدها ستنزل السفينة على الأرض، ويعلّم سبحانه نبيّه(ع) أن يتوجّه نحوه تعالى بالدعاء حتى يجعل السفينة تنزل في مكان مناسب لهم للعيش.

كما ترى فالآيات هنا تعطي معنى التركيز على ما سيأتي، لأن ما مرّ انتهى، ونحن لدينا ذاكرة تحتاج لوقت حتى تنسى ما جرى، وإذا بقينا نكرّر الكلام عمّا جرى، فلن ننساه وسيدخل من سلبيات ذلك انعكاس على حياتنا، لأن النبي نوح(ع) صار الآن في حالة دمار كل ما سبق وكان فيه، حيث تدمّر مسكنه وأشغاله وروتين حياته... وحتى الانتهاء من مشاكل الكفّار الذي كان يزعجه ويؤذيه كان جزءاً من حياته اليومية... ولا أقصد أنه سيحنّ ويشتاق للأيام الخوالي مع قومه الكفّار، ولجدالهم... ولكن واقع الحال فراغ من المشاكل معهم، وهو في حالة الصفر فيما يحتاجه لإكمال حياته هو ومن معه، وهم بلا ديار... ومن هذا وأشباهه ينقله الوحي الإلهي لينسى ما فات وليركّز على ما سيأتي...

الطوفان ورد ذكره في وثائق سومرية قديمة ويقدّرون عمر بعضها بين 1500 و 2000 قبل الميلاد، وعلى ذمّة المراجعين لها والناشرين لترجمتها وهي تحكي قصّة طوفان فيه الكثير من التشابه مع رواية القرآن، ومن المرجّح أن بقاء السفينة لمدة طويلة كان السبب لمحافظة الناس على قصّة الطوفان، ومضافاً له اهتمام المؤمنين بها لنقل القصّة للأجيال التالية... لذا لا تحدّد تاريخ الطوفان بتاريخ الوثائق، لأن الوثائق تتحدّث عن شيء أقدم منها.

هناك أدلة جيولوجية على حدوث طوفان هائل للبحر الأسود بين فترة 7000 و5000 سنة قبل الميلاد، وأدلة على حدوث طوفانات غمرت الكثير من وجه الأرض ترجع لما قبل ذلك...

من المعلوم حدوث طوفانات متعددة على بقع مختلفة على الأرض، ولكن تثبيت حصول أي واحد منها عبر الآثار لا يعني أنه هو الطوفان الذي جرى على عهد النبي نوح(ع)، خاصة مع مشكلة اعتماد غالبية الباحثين في هذا الموضوع على التواريخ المذكورة أو المستوحاة من التوراة التي أقحم فيها علماء اليهود كلامهم مع كلامه تعالى، قاصدين جعل التوراة كتاباً جامعاً للتاريخ بناءً على المعلومات المتداولة بينهم، ويظهر لك فساد العديد من معلوماتهم بأقل تأمل ومقارنة بمعلوماتنا الحالية عن أعمار وأطوال أجساد من سبقنا من البشر، وبمقارنة بعض ما ورد في التوراة مع ما ورد في القرآن عن بعض تفاصيل قصص بعض الأنبياء، كتصويرهم لحالة اليأس للنبي أيوب(ع)... وبمقارنة الأحداث التاريخية التي ذكروها في التوراة عن معاركهم مع الفلسطينيين والعموريين والموآبيين... مع الآثار التي وجدها الناس، فستجد اختلافات كثيرة وتعارضاً... لأنهم كتبوا التاريخ على هواهم متجاهلين الحقائق...

إن لم نجد آثاراً مرتبطة بسفينة النبي نوح(ع)، أو أثراً آخر مباشراً لحادثة الطوفان ومؤكداً... أو لم نجد علماً أثرياً له ارتباط بتعلّم الناس صنع السفن من بعدما صنع النبي نوح(ع) سفينة... أو نجد أثراً للآلهة التي عبدوها "سُوَاعاً، يَغُوثَ،

يَعُوقَ وَنَسْراً" كما ورد في الآية 23 من سورة نوح، فلن يكون لدينا دليل حاسم على زمن تاريخ حدوث الطوفان، وسندور في حلقة التقديرات والتخمينات والافتراضات.

الكلام له ارتباطات أخرى، منها إن كان الطوفان عاماً لكل وجه الأرض أو لخصوص منطقة منها، أو أنه حصل في زمن كانت كل البشرية محصورة في بقعة واحدة، أو الكلام عن بقعة كانت فيها ذرية آدم(ع) والبشر الآخرون في المناطق البعيدة لم يتأهّلوا للتكليف بالدين الإلهي ولم يَطُلْهُم الطوفان... أو طالهم الطوفان جزئياً... أو...

بما لدينا حالياً من معطيات جيولوجية، فمن المستبعد شمول الطوفان لكل وجه الكرة الأرضية، إلا إذا كان تاريخ حادثة النبي نوح(ع) يرجع لأكثر بكثير من خمسين ألف سنة، لأن المعلومات التي لدينا عن الحيوانات والبشر في مختلف القارات، تشير لنشاطات مستمرة للحيوانات والبشر في مختلف البقع وترجع لتاريخ ما قبل انفصال "برّ، يابسة" القارات عن بعضها "ويسمّونها بانجيا" حيث إن القارات تتصل مع بعضها شتاءً بالجليد... وبحسب الدراسات الحالية لا يمكن تفسير نجاة الحيوانات في السفينة وانتشارها من جديد على وجه كل الأرض إلا إذا حصل الطوفان قبل أكثر من خمسين ألف سنة على الأقل... وأكرر لك أن هذا تحليل يستند على معطياتنا العلمية حالياً، وأنا شخصياً لا أستبعد ولا أستقرب هذا التاريخ ولا أي تاريخ آخر قبله أو بعده، إذ ليس لدينا لحدّ الآن شيء تاريخي موثوق نستند عليه لتحديد تاريخ النبي نوح(ع)، إلا اللهم إن كانت دراسة آثار القبور المنسوبة لشخصيات تاريخية دينية، كالقبور المنسوبة لآدم(ع) وأولاده، ولنوح(ع) وأولاده... ستهدينا لتصويب التواريخ، هذا إن كانت تلك القبور فعلاً لمن هي على اسمهم ولم تكن من تخريفات أهل القرى... أو من افتراضات المتبجحين "كذباً" على الآخرين بمعرفتهم التاريخية، وهم كثر عبر التاريخ...

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ{30})
{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ}، الطوفان ونجاة المؤمنين وغرق الكافرين، {لَآيَاتٍ}، أمور مميّزة، فهي تدلّ على تدخّله تعالى لإهلاك الكافرين كلّهم فقط ونجاة المؤمنين فقط، {وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ}، فنصيب الناس بما يمكن أن يغيّرهم، فنمتحن ونختبر الناس، فكفر قوم النبي نوح(ع) فامتحنّاهم حين بلّغنا رسالتنا للنبي نوح(ع) ليتركوا الكفر، فرسبوا في الامتحان، فجازيناهم.

ننتبه لتعبير الآية: {لَمُبْتَلِينَ}. فهناك قرار إلهي واضح بامتحان كل الناس، وهنا الكلام بالخصوص عن حالة إرساله سبحانه رسولاً إلى قوم مبتلين بالكفر، وابتلاهم سبحانه برسول.

كما ترى انتهت الفقرة بالإشارة للطوفان وما رافقه من تفاصيل بأنه آيات، وأنت تعلم أن خبر الطوفان منتشر في عموم ثقافات أهل الأرض ولكن بنسخ فيها تفاصيل مختلفة، وها القرآن يعرض عليك النسخة الصحيحة لسبب الطوفان من كفرهم، وهكذا ترى العمق التاريخي لآلاف السنين الذي ذهبت إليه السورة لتحضر منه أمراً مميزاً من تدخّله تعالى وذا علاقة مباشرة بدينه سبحانه، وهي حادثة تسبيب كارثة أبادت كفّاراً، وعمرها آلاف السنين، وبعدها حصلت حوادث مشهورة مشابهة... وهذا كلّه يريك أن دينه تعالى واحد وممتد تاريخياً وليس بدعة مثل الأديان الأخرى...

في سور أخرى ذكرت الطوفان تحدثنا عن جوانب أخرى من الحادثة، ومكان استقرار السفينة بحثناه في دراسة الآية 44 من سورة هود {وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ}.

(ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ{31})
{ثُمَّ}، من بعد الطوفان، {أَنشَأْنَا}، كوّنا من شيء سابق، {مِن بَعْدِهِمْ}، من بعد الكفّار الذين غرقوا، {قَرْنًا آخَرِينَ}، أناساً غيرهم مقرونين أي مجموعين مع بعض في نفس المكان والزمان لمدة طويلة. حيث من بعد الطوفان كان الناجون قلّة قليلة، وهذا ما تراه في الآية 40 من سورة هود {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا ... وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}، ولكن بعد مرور مدّة من الزمن تكاثروا وصاروا من جديد أناساً بأعداد كبيرة.

ننتبه، بالنسبة لتأريخ زمن الطوفان الذي نقله المسلمون عن اليهود، فهو رهن بصدقهم، وهذا شيء صعب، لأنهم أكثروا من الاختراعات والتأليفات الكاذبة، وبالنسبة لنا كمسلمين نعتمد القرآن ككتاب إلهي سليم من التحريف، لسنا متعلّقين ولا

بأي تأريخ محدّد للطوفان، لأن القرآن لم يذكره، ربما يكون حصل منذ بضعة آلاف من السنين أو عشرات من آلاف السنين، لا فرق عندنا، ولسنا مضطرين لفعل ما فعلته الأجيال الأولى من المسلمين حين أرادوا جواباً لكل سؤال، وكان همّهم إيجاد أي جواب كان، فاعتمدوا ما يقوله أهل الكتاب في الكثير من الأمور التاريخية، وللأسف لن يبدو لك من كلامهم تصريحٌ بأنهم نقلوا معلوماتهم عن أهل الكتاب، ستبدو لك معلوماتٌ نابعة منهم، وبحسن النية ستفترض أنهم نقلوها عن الرسول محمّد(ع)، أو عن مستند صادق، وهذا غير صحيح، والباب للبحث في تاريخ الطوفان مفتوح، ولحدّ اطلاعي على ما قيل قديماً وحديثاً، عند المسلمين والآخرين، لحدّ الآن ليس بين أيدينا أي معلومة موثوقة، وما تجده هنا وهناك من كلام عن آثار السفينة في متحف روسي أو تركي أو على سلسلة جبال آرارات... وغيرها... بعد التدقيق به لم تثبت لي صحّته.

(فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ{32})

{فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ}، حدّدنا منهم شخصا ليحمل لهم نفس الرسالة التي نقلها من قبله النبي نوح(ع) وهي التالية: {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ}، أنتم مفروض عليكم طاعة إلهكم صاحب الاسم المحدّد المميّز الله سبحانه وتصرّفوا على هذا الأساس، {مَا لَكُم}، ليس لكم، {مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ}، حيث لا يوجد أيّ كائن آخر غير الله تعالى لديه الصفات والقدرات الفائقة، {أَفَلَا تَتَّقُونَ}؟ ومن المفروض أن تتجنّبوا غضب وعقاب إلهكم ولا تشركوا به أو تنكروه، فلماذا لا تطيعونه وتتجنّبون غضبه وعقابه وهو الإله الأحد؟

نلاحظ أن الفقرة هنا لم تذكر اسم الرسول، وأشارت فقط إلى أنه أول رسول بعد النبي نوح(ع) لقوم محدّدين، ولو كان من الرسل الذين ذكر القرآن أسماءهم كصالح(ع) أو هود(ع)... لكان القرآن ذكر اسمه هنا، ولكن من الواضح أنه غيرهم، واكتفت الآيات بالحديث عنه من دون ذكر اسمه، فلا تبحث عنه لأنه لا فائدة من معرفة اسمه.

أمّا لماذا لم تذكر الآيات اسم الرسول والقوم؟ فبالمقارنة مع بقية النبذات المختصرة التي ذكرتها السورة عن الرسل الآخرين، وما ذكرته عن آياتهم، ترى هنا بالتحليل أنها قصدت إغفال هوية الرسول حتى لا يدخل على فكرنا أي شيء لا تريد السورة قوله عنه، حيث إنها تريد أن تحدّثنا عن رسول دون أن تتطرّق لأي آية حصلت معه، حتى تكون النماذج التي طرحتها متنوعة، من رسول كنوح(ع) عاش طويلا جدا... وبنى سفينة نجا فيها المؤمنون فقط، إلى رسول بلا أي آية، ورسولين موسى(ع) وهارون(ع) مع آيات عديدة متنوعّة، وصولا إلى رسول تميّز بأمور غير عادية هو وأمّه مريم(ع) وابنها عيسى(ع). وأنت تعلم ردود فعل الناس على هذه النماذج، من رفض للرسل لأنهم من البشر، وصولا إلى تأليه رسول بشري لمجرد تميّزه بأمور بسيطة!

بعبارة أخرى، قوم النبي نوح(ع) لم يؤمنوا وكان لهم الحجج الواهية العديدة... منها أن الرسول الإلهي من المفروض ألا يكون من البشر، فغرقوا ونجا المؤمنون فقط في سفينة بناها النبي نوح(ع) بأمر إلهي، وغرق الكفّار فقط... وهذا يدل بوضوح على أنه (ع) كان فعلا رسولا إلهيا وأن غرق قومه كان من فعل إلهي... وها نحن مرّة ثانية نرى قوما من بعد الطوفان يكرّرون نفس الكلام! وهم يعلمون بحصول الطوفان ونجاة المؤمنين فقط! حيث كانت آثار الطوفان والسفينة لهم آية، وراجع في ذلك الآية 15 من سورة القمر {وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}، فما معنى اعتراضهم على بشرية الرسول؟ وأي نتيجة سيحصلون عليها من هذه الحجّة القديمة السخيفة! المشكلة ليست في الرسول، ولا في نوعية الرسالة، ولا في البيئة التي فيها الناس، ولا في التاريخ حين قالوا كذبا بأنهم لم يسمعوا برسول إلهي من البشر، ولا في الآيات... بل هم لا يريدون أن يؤمنوا، وكلّ حججهم واهية سخيفة.

نلاحظ أن الفقرة هنا تنقل لنا كلام هذا الرسول الجديد بشكل مشابه لما قاله الرسول القديم نوح(ع)، حيث إن الآيات تريدنا أن نلتفت للتكرار الحرفي لمضمون الرسالة التي ينقلها الرسل الإلهيون إلى الناس، وسترى في مقابله التكرار الحرفي لإنكار الرسل! فلنتابع:

(وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاء الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ{33})

{وَقَالَ الْمَلَأُ}، قال الوجهاء والذين لديهم سلطات معنوية، كالرؤساء والأغنياء... {مِن قَوْمِهِ}، من الجماعة التي ينتمي لجمعتها ذلك الرسول، {الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا رسالته ودينه، {وَكَذَّبُوا}، لم يصدّقوا، {بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ}، فقالوا إنّ الكلام عن لقاء الله تعالى ليحاسبنا ويجازينا في الحياة الآخرة بعد الدنيا هو كلام كذب، {وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، فصاروا يتصرفون بشكل مفرط متكرّر في استخدام ما حولهم من موارد وشهوات، حيث يصرفون المال بما يفوق حاجتهم، ويشبعون الشهوة بما يفوق حاجتهم... وطبعا الكلام عن سوء ما فعلوه فيما هو متاح لهم، فقالوا:

{مَا هَٰذَا}، الرسول، {إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ}، فهو رجل عادي لا يتميّز عنكم بشيء حتى نصدّق بأنه رسول من الإله، وكتأكيد واضح على كونه رجلا عاديا جدا، حيث إنّ هذا الرسول، {يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ}، يستهلك الأطعمة مثلكم ومن نفس طعامكم وإلا لمات من الجوع، {وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ}، حيث يبلع من السوائل التي تشربون منها وإلا سيموت من العطش، يعني شكله مثلنا وطعامه وشرابه هو نفس طعامنا وشرابنا لأنه عادي جدا جدا، فكيف يقول بأنه رسول من الإله! فهل من المعقول أن يكون أي واحد منكم قادراً على ادّعاء الرسولية مثله، وكيف سنعرف إن كان رسولا إلهيا وهو مثلنا مثله؟ هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإنّ الكلام عن التواصل مع الإله، وهذا شيء غير عادي ويحتاج لصفات غير عادية، وأمّا أن يتواصل الإله مع بشري، فهذا غير معقول.

خذ مثلا لو قال لك أحد ما إنّه ينقل إليك أوامر الرئيس، فستنتظر إليه لترى إن كان فيه صفات تؤهله ليوظّفه الرئيس كناقل لكلامه، فلنقل إنّه بطّاش بجسد قوي، أو فهيم بعقل رزين، أو من أقارب الرئيس... الآن انظر من عيون الوجهاء إلى رجل يقول بأنه ينقل لهم كلام الإله الذي يتواصل معه، فهم يقيسون الأمور على أنفسهم ومن تقييمهم هم، فهم الوجهاء النافذون المطاعون... ولم يتواصل معهم الإله وتواصل مع رجل عادي ليس من الوجهاء؟! وهذا شيء أشارت إليه سورة أخرى بصراحة في الآية 31 من سورة الزخرف {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}، أمّا هنا فالتركيز على الفرق الهائل بين الإله وبين بشري، لأنّ الإله بعظمته وجلالة قدره يتواصل مع رجل عادي ويطلب منه نقل كلامه تعالى للناس؟ متجاهلاً الملائكة ومتجاهلاً وسائل الاتصال الأخرى المتاحة ليطلب من رجل عادي نقل كلامه!

لاحظ أن هذه النوعية من الناس لديهم قرار بالبقاء على ما هم عليه، ولا يهمّهم الحقّ، وإن لسبب أو لآخر وجدوا مصلحة في الإيمان، فهم ينتقلون إلى أبعد نقطة متطرفة فيه والمعاكسة تماما، فإن فعل الرسول شيئا مميزا فسيعتبرونه إلها ويعبدونه! مثلما حصل مع من عبد النبي عيسى(ع)، فهو ذاته الفكر والنفسية المريضة للكفار تراه في مُدَّعِينَ للإيمان! وحين تقول لهم إنّ النبي عيسى(ع) بشري عادي وليس إلها لأنه يأكل الطعام وإلا سيموت، يقولون إنّ الإله حلّ بشكل بشري يأكل ويشرب!

(وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ{34})
{وَلَئِنْ}، وإذا، {أَطَعْتُمْ}، سمعتم ونفّذتم كلام، {بَشَرًا مِّثْلَكُمْ}، واحدا مساويا لكم تماما في إنسانيته ولا يختلف عنكم ولا بأي شيء، {إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ}، حيث ستفقدون أمورا لها أهمية كبيرة، وستفقدون قيمتكم كأناس محترمين عقلاء واعين، فجنونٌ وقلّة عقل إطاعة شخص عادي لتغيّروا دينكم وهو لا يتميّز عنكم إلا بكذبه.

الآيات السابقة نقلت عن قوم النبي نوح(ع) حين قالوا عنه إنه واحد من البشر مثلهم، وهنا نفس الكلام يقوله هؤلاء عن رسولهم، ونحن نتذكّر هذه النقطة جيّدا لأنها واحدة من أهم أسباب الحديث عن الرسل هنا في السورة.

ننتبه إلى أنّ السورة قصدت إخفاء هوية الرسول حتى لا نرى أي شيء جانبي من حياته، لنرى منه فقط كلامه وكلامهم حين رفضوه بحجّة أنه من البشر، حيث فيما سبق وفيما سيأتي قصدت السورة الكلام عن نماذج من الرسل مع ذكر أسمائهم واختاراتهم بعناية للفت الانتباه لفروقات بسيطة بينهم ولم تكن كافية لمن أصرّ على الكفر، وسيأتيك رسول حصلت على يديه آيات عديدة بعدد يفوق آيات بقية الرسل... ولم يؤمن الناس... هنا أنت أمام نموذج مُغْفَلٍ، متروك عن قصد حتى لا ترى إلا ما تقوله الآيات: رسول عادي بلا آيات سوى كلامه الحق... ورفضه الكفّار لأنه بشري.

سنرى أنّ السورة ستترك الجواب والرد عمّا قاله الكفّار إلى ما بعد شرح نفسيتهم وعقليتهم، وشرح نفسية وعقلية المؤمنين، وسترد عليهم بشكل كافٍ من الآيات 66 وما بعدها.

(أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ{35})
{أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ}

وكدليل على تخريفاته:

{أَيَعِدُكُمْ}، هل يقول لكم عن شيء سيحصل فيقول إنّكم، {إِذَا مِتُّمْ}، حيث فارقتم الحياة، {وَكُنتُمْ تُرَابًا}، وتحلّل لحم جسدكم حتى صار ترابا، {وَعِظَامًا}، ولم يَبْقَ من جسدكم إلا بقايا الهيكل العظمي، يعدكم، {أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ}! حيث ستخرجون إلى الحياة مرّة ثانية! من أين! وكيف! وقد تحلّل جسدكم!

(هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ{36})
{هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ}

{هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ}، وهذا التعبير العربي يشير لاستبعاد شيء ما، وهو بعيدٌ جدا جدا، {لِمَا تُوعَدُونَ}، حيث إنّ ما يقول الرسول عنه أنه سيحصل من عودتكم إلى الحياة فهو بعيد جدا عن أن يقبله عاقل، ومن المستحيل حدوثه.

لاحظ وانتبه وتذكّر دائما أنّ القرآن لم يعرّب كلام السابقين من لغتهم إلى العربية، بل اعتمد نقل ما قصدوه من كلامهم، وصاغ لنا بعبارات عربية ما قصدوه من كلامهم، ولذلك ترى أنّ نفس الحادثة نقلها القرآن بعبارات مختلفة لأنّ موضوع السورة يريد الإضاءة على جانب محدّد مما قاله وقصده المشاركون في تلك الحادثة، وهنا من غير المعلوم لغة القوم الذين تتحدّث عنهم الآيات، وكما ترى في لغتهم تعابير مرادفة للتعبير العربي "هيهات" عن استبعاد شيء ما.

(إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ{37})
{إِنْ هِيَ}، فقط وحصرا، {إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا}، التي نحن فيها الآن ولا توجد حياة آخرة بعد الموت فيها، {نَمُوتُ وَنَحْيَا}، حيث يموت أناس ويولد أناس جدد، وهذه الدورة بين الحياة والموت محصورة هنا في الدنيا، حيث يموت أناس ويولد أناس غيرهم، {وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ}، ولن يقيمنا أحد من الموت من الأجساد التي تحلّلت.

انتبه ولا يذهب فكرك إلى أنهم كانوا يؤمنون بالتناسخ، حيث إنّ هناك أُناساً يقولون إنّ من يموت من الناس يرجع إلى الحياة بشكل آخر، في مولود آخر من الناس أو الحيوان، أمّا هنا فمن الواضح أن القوم يقصدون انحصار الدورة بين الحياة والموت هنا في الدنيا فقط، حيث نموت، وهنا يخرج أناس آخرون إلى الحياة، ولا أحد سيرجع إلى الحياة بعد أن يفنى جسده، وهذا ما قصدوه.

بناءً على إعلانهم هذا، لا يوجد سبب يمنعهم من فعل أي شيء يريدونه، لأنهم لا يحسبون حسابا ليوم الحساب، وطالما أنهم لم يؤمنوا بعقاب في الآخرة فهم سيفعلون ما يحلو لهم.

لمزيد من التوسّع حول الأدلة العديدة التي عرضها تعالى لنا لتأكيد عودتنا إلى الحياة، بالإضافة لإخبارنا عنها مع لفت الانتباه لمن خلقنا أول مرة وأنه بسهولة يمكنه خلقنا مرة ثانية... وتأكيدات على صدق وعده ولن يغيّر تعالى قراره... هناك أدلة ملموسة على ذلك ترى قسماً منها في فقرة من سورة البقرة تبدأ من الآية 258، وتراها في حادثة أصحاب الكهف في الآية 21 من سورة الكهف {وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا}...، وتراها في إحياء النبي عيسى (ع) للموتى... وتراها في العديد من الآيات التي لفتت انتباهنا للحياة النباتية المنتشرة من حولنا والتي تحصل من سقوط المطر، حيث لا فرق في أساس معنى الحياة بيننا وبين النبات، والاختلاف في نوعيتها فقط... وكمثال عن ذلك الآية 11 من سورة ق {رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ}، وهذه وغيرها أدلة ملموسة تريك قدرته تعالى على إرجاع الأموات إلى الحياة.

(إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ{38})

{إِنْ هُوَ}، هذا الرسول، {إِلَّا رَجُلٌ}، إنسان ذكر عادي، {افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}، ألصق كلامه الكاذب بالله تعالى، حيث إنه يكذب لأنه تعالى لم يقل أصلا هذا الكلام، وهو لا يتخيّل، وليس مشتبها بل عن قصد يفتري كذبا، {وَمَا نَحْنُ}، الملأ من الوجهاء الأشراف والحكام... {لَهُ}، لهذا الرسول، {بِمُؤْمِنِينَ}، ولن نعتقد أبدا بصحّة ما يقوله.

نحن تعرفوننا أننا من الوجهاء ومن أصحاب المراكز، ولنا قيمتنا في المجتمع، ولن نكون سُذَّجاً "مساطيل ومجانين" لنؤمن بما يقوله هذا الكذّاب المفتري.

ضع في بالك أنّ الافتراء هو الاتهام أو الوصف أو العمل... الذي تلصقه بالآخرين وهم لم يفعلوه أو لم يقولوه... وتلصق بهم شيئا بلا دليل أو بدون قولهم لك أنهم فعلوه... ويتبين فعلا أنه لهم، فتكون فقط مُفْتَرِياً عليهم، وتلصق بهم شيئا لا علاقة لهم به فأصلا لم يفعلوه، وهذا هو الافتراء الكاذب.

لو أنا قلت إنّه تعالى يوحي إليّ، فأنا أفتري عليه تعالى لأنه لم يُوحِ إليّ، ولو قلت مفاهيمَ مغايرة لما قاله تعالى مدّعيا أنّه تعالى قالها، أو قلت عنه تعالى إنّه سيفعل شيئا وفي الحقيقة سبحانه لن يفعله، ففي هذه الأمثلة أنا أفتري الكذب عليه تعالى لأنه أصلا لم يقل هذا الكلام، وأصلا لن يفعل ما قلت أنا إنّه تعالى سيفعله.

(قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ{39})
{قَالَ}، الرسول بعدما يئس من قومه:

{رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ}، حقّق لي ما أريده بسبب تكذيبهم لي، فأنا أقوم بكل ما أستطيع، ولكنهم لا يتغيّرون مهما قلت ومهما حاولت، لذا أطلب منك التدخل يا ربّي لتثبت أني لست مفتريا كاذبا.

هذه الجملة سبق ونقلتها السورة عن لسان النبي نوح(ع).

(قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ{40})
{قَالَ}، سبحانه:

{عَمَّا قَلِيلٍ}، مشابهة لمعنى: بعد قليل، والدارج في الكتب كونها "عن" مع "ما" الزائدة، ولا يبدو لي هذا مستقيما، حيث استعملها القرآن دائما على معنى "عن الذي"، ويناسبها هنا ذلك مع الأخذ بعين الاعتبار أن التبديل صحيح بالمعنى ولكنه ليس الأنسب بالتلفّظ كما هو الحال في كل استعمالات القرآن لها. عن كم من الوقت سيأتي النصر؟ عن الوقت القليل، {لَّيُصْبِحُنَّ}، أول ما ستصير حالتهم من بعد نصرتنا لك، {نَادِمِينَ}، حيث سيصيبهم شيء سيّء ناتج عن تكذيبهم وكفرهم بك فيتمنون لو أنهم ما قالوه ولا فعلوه، وحين ينزل عليهم العذاب سيندمون لأنهم كذّبوك، ويتمنون لو أنهم آمنوا.

بالنسبة للتعبير بأصبح ومشتقاتها فانتبه جيدا، لأن الكلمة في أصل اللغة مجعولة لتوصيف الصيرورة لأول حالة بعد حدث، وبهذا فهي مشابهة للإصباح لأول ما يستقبلك من النهار من بعد الليل. فهي أوّل حالة من بعد حالة سابقة، وخذ مثلا حالة أم النبي موسى(ع) التي أصبح فؤادها فارغا كما ورد في الآية 10 من سورة القصص، حيث إنّ الذهول بتوقّف وجمود فكرها ومشاعرها كان أوّل حالة أصابتها بعد إلقائه (ع) في النهر. وكلمة أصبح ليست مخصّصة لزمن أول طلوع الشمس بل لعامّة أول حالة من بعد حدث ما.

(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاء فَبُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{41})
{فَأَخَذَتْهُمُ}، لم تتركهم، {الصَّيْحَةُ}، الأمر الذي يصل إليهم كلّهم، وسياق الكلام عن الأمر الإلهي بموتهم هنا في الدنيا بكارثة فأخذتهم، {بِالْحَقِّ}، بالصواب فهم كانوا يستحقون أن تأخذهم الصيحة، ولم نظلمهم لأنهم كفروا فهم يستحقون أن يصيبهم ما يميتهم كلّهم أو "غالبيتهم".

الصيحة في استعمالنا العادي هي وصول الصوت لعدد كبير من الناس، وحتى يصل إليهم يجب أن يكون الصوت قويا، واستعمل القرآن كلمة صيحة بعد تفريغ معناها من كلّ الإضافات، وهذا التفريغ للمعنى الأساسي من الإضافات منتشر في عموم كلمات القرآن، وبهذه الطريقة لم يضطر لاستعمال مجاز أو استعارة أو كناية واستعمل أقرب كلمة للمعنى المقصود، وعامّة أهل اللغات يفعلون ذلك، مثلما نفعل مع كلمة باب، نافذة... في اللغة لا نخصّص هذه الكلمات لمستطيل من الخشب، بل نفرّغها من الإضافات ونستعملها لعموم أي ممر أو إطلالة مادية أو معنوية... وعند توصيفه سبحانه، بالحي القيوم البصير... أحبّ غضب انتقم... يد، ووجه الله تعالى... سنفهم هذه الكلمات بشكل صحيح عند تفريغ أساس معناها من الإضافات.

هنا الصيحة هي وصول كلمة ما "أمر ما" إلى عدد كبير، وهنا هو أمر بالموت. واستعمل القرآن كلمة صيحة في سور أخرى للتعبير عن أمر برجوع كل الناس إلى الحياة. وكما ترى فرّغها القرآن من التصاقها بالصوت القوي، واستعملها على معنى وصول الأمر الإلهي لعدد كبير من الناس في وقت واحد، وبهذا الأثر فهي على معنى النفخ في الصور، فكلاهما تعبير عن وصول وانتشار أمر إلى عدد كبير من الناس.

{فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً}، في أشعار العرب قبل الإسلام تجد استعمالهم لكلمة غثاء في معنى: ما لم يعد له قيمة، كمقابل مضاد لكلمة سمين، واستعملت كلمة غثاء في القرآن مرة ثانية في الآية 5 من سورة الأعلى {فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ} وكانت تصف حالة خراب وفساد النبات، فلنأخذ هذا التوصيف ولنقل هنا إنّهم بعدما ماتوا صاروا أجسادا بالية خربة مثل النبات وورق الشجر حين يبلى.

{فَبُعْدًا}، وسياق الكلام عن عذابهم يعطي لـ "بعدا" معنى: طردهم فلا قرب لهم من الرحمة الإلهية، {لِّلْقَوْمِ}، للناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع دينه تعالى، {الظَّالِمِينَ}، الذين لم يكونوا منصفين ولا عادلين حين كفروا، حيث لم يكن معهم حقّ حين كفروا بكلام عقلاني واضح أنه حقّ، لأنهم ظلما كفروا به.

بعبارة أخرى هم غثاء فبعدا لهم حيث لا قيمة لهم عنده تعالى وليسوا مشمولين بالرحمة الإلهية لأنهم هم بقرار منهم بكفرهم به تعالى وبرسله خرجوا من تحت مظلة الرحمة الإلهية.

(ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ{42})
ثم بعد إهلاك هؤلاء الكافرين، {أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ}، مجموعات أخرى كثيرة من الناس كانت تعيش مقرونةً مشتركةً مع بعضها في الزمان والمكان لمدة طويلة قمنا بخلقها من أناس سابقين.

كما ترى، لا يوجد لديه تعالى أي مشكلة في إهلاك الكافرين وإنشاء آخرين لإعطائهم الفرصة. وهذا يشير إلى وجود عدد محدّد من الناس الذين سيخرجون إلى الحياة، وهذا العدد من الناس معلوم لديه تعالى سلفاً، ومعلوم من هم وكم سيمتد عمرهم... وما سيكون سلوكهم... وأنه سيكون منهم مؤمنون من الدرجة العالية، ولأجلهم قضى تعالى أن تخرج البشرية إلى الحياة على الأرض...

الآية هنا تتضمّن المعنى الذي ورد في الآية 16 من سورة فاطر {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ}، وبعض الأقوام لا يرون أبعد من مكانهم وزمانهم فيظنون أنهم محور الحياة والكون والدنيا، وكأنهم بوجودهم يحدّدون قيمة الدنيا والإيمان... فتأتي أمثال آيتنا هنا لتلفت انتباههم أنهم مجرد مجموعة من البشر مرّت على الحياة وستذهب ويأتي آخرون ويذهبون وهكذا...

(مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ{43})
{مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا}، فأي أمّة، أي مجموعة من الناس تشترك في توصيفها ولها امتداد تاريخي، وهنا الكلام عن أناس على دين واحد، سواء كانوا كفّاراً أو مؤمنين أو فاسقين... لن تسبق أجلها وهو الوقت الذي حدّدناه لها لتموت، ولن تموت قبله، {وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ}، فلا يمكنهم أن يؤخّروا موتهم، ولا يمكن أن يمرَّ أجلهم ولا يموتوا.

موت الأمم لا يحصل من دون علم مسبق منه تعالى، حيث من الأساس لديه تعالى آجال مسجّلة لكل الأمم، ويعلم سبحانه سلفاً إن كانوا سيموتون بشكل عادي أو بعذاب، وبشكل دقيق سبحانه أصلاً سجّل لكل أمة زمناً لموتها، ولا يمكنها أن تموت قبله أو بعده.

لاحظ الكلام عن الأمة التي هي مجموعة من الأقوام، حيث في زمن ما هم قوم، ويموت البعض منهم ويولد آخرون، وفي كل زمن يمر عليهم هم قوم في ذاك الزمن، وبالنظر لمجموع الأقوام التي مرّت منهم وكانوا على نفس الشيء الأساسي دينياً، سواء كانوا مشركين أو منتمين لدينه تعالى، فهم أمّة.

لا يزال الكلام عن حالة البشر منذ آلاف السنين من عهد النبي نوح(ع) والرسول الذي أتى بعده، حيث كفر بالرسل من كفر، وآمن البعض، وها هم ماتوا جميعاً، ولو كان الكافرون بالمليارات أو كانوا أمّة منذ قديم الزمان، فهذا لا يعني أي شيء، لأنهم سيموتون ويندمون في الآخرة.

سنفهم المغزى عندما نسمع المنكرين لدينه تعالى والقائلين إنَّ أساس عقلية وتفكير وعقيدة البشرية هي الكفر بالتوحيد، لأنها عقيدة قديمة جداً، ولها جمهور كبير، فلماذا سأنتمي لدين جماعة عددها صغير عبر التاريخ؟ بل عددها ضئيل كالنادر بالنسبة للمجموع الضخم للكافرين بهذا الدين.

تتذكّر أنّه تعالى عبر القرآن لفت انتباهنا لما جعله فينا لنتعرف عليه، ومنه الفكر الناظر في آيات خلق ما في الدنيا، والذي يدلنا على إله عظيم فائق القدرات... ومنه التعلّق بتلك القدرة الفائقة للنجاة من مصيبة... ومنه الاقتناع بالكلام الحق المنقول عبر الرسل.

أضف هذا على خبر كون آدم(ع) أول بشري تأهل ليتكلّف بدينه تعالى، فربما هو أوّل موحّد لأن البقية قبله وغالبية من بعده وبسبب أمراض فكرية ونفسية انحرفوا عن توحيده تعالى فاخترعوا آلهة من خيالهم، حيث اخترعوا إلهاً للمطر وآخر للرعد... وعبدوا ما يخافون منه...

الآن نأتي إلى المحللين لتديّن البشر، من المشركين علناً بزعم آلهة معه تعالى، أو من المشركين بعبادة هواهم ومشتهياتهم وأنفسهم والمال... فهؤلاء يرون أنفسهم الأكثرية في تاريخ البشرية، وهذا صحيح، ولكن هل هذا يعني أنهم معهم حقّ؟ لا، فالأكثرية ليست معياراً للحقّ، بل العقلانية والصلاح هي المعيار، وسيبقى الحقّ حقاً حتى لو لم يؤمن به ولا واحد من المخلوقات.

من هذا العمق المنتشر الكلام عنه في مختلف سور القرآن نفهم جانباً من الآيات هنا بكلامها عن استمرار دورة الحياة البشرية، حيث تأتي أمم وتذهب، ويأتي غيرها، والنهاية للجميع الموت، وبعده حكمه تعالى علينا بانتهاء الدنيا وتشكّل الآخرة ليعيدنا إلى الحياة ويحاسبنا ويجازينا بالحقّ...

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ{44})

{ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا}، واحداً بعد الآخر، رسول يليه رسول، يعني كان هناك شبه اتصال بين الرسول السابق واللاحق، كما يوجد اتصال بين الأمة السابقة واللاحقة، والفقرة التالية ستبدأ بالكلام عن النبي موسى(ع)، حيث هنا الكلام بالخصوص عن الفترة بعد الرسول الذي بعد الرسول نوح(ع)، وبقية الرسل من بعده ونعرف منهم إبراهيم وولديه إسحاق وإسماعيل، وحفيده يعقوب، وابن حفيده يوسف عليهم السلام.

{كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا}، كل جماعة من الناس موصوفة بشيء مشترك بينها ولها امتداد تاريخي، وجاءها من ينقل كلامه تعالى إليهم، {كَذَّبُوهُ}! حيث لم يصدّقوا ما يقوله، {فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا}، حيث كان الجدد على ما سبق وكان عليه الذين قبلهم، ومن تكملة الجملة تعلم أن المقصود أن المكذّبين للرسل بالعذاب ماتوا مثلما مات الذين من قبلهم، {وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ}، حيث صاروا من التاريخ ويتحدّث الناس عنهم لأنهم لم يعودوا موجودين، {فَبُعْدًا}، حيث لا قرب لهم من الرحمة الإلهية، {لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}، لأناس كيان الجماعة المتفاعلة مع دينه تعالى بحيث لا يعلنون اعتقادهم والتزامهم بالدين الإلهي، لذا لا قيمة لهم عنده تعالى، وليسوا قريبين منه تعالى لأنهم كفروا به وبرسله، ومن ناحيته

تعالى لا يهتم بهم وأبعدهم عنه، وعملياً يكون تعالى أبعدهم عن رحمته، لأنهم من المستحيل أن يخرجوا إلى مكان بعيد عن سلطته تعالى عليهم.

هناك تعابير قرآنية كثيرة مرادفة لتعبير {بُعْدًا} لهم...، بعضها قاسٍ جداً كاللعن وسحقاً وغضب عليهم... وبعضها متوسّط القساوة مثل تعبير آيتنا هذه بالبعد وتعابير بأنه تعالى لا يكلمهم ولا يقيم لهم وزناً...

إذاً فالحجّة التي يتعلّقون بها حين يرفضون الإيمان برسله تعالى لأن الرسل من البشر، فمن المفروض أنها انتهت، كما نقول بالعامية "صارت حجّة بايخة، قديمة معفنة..." لأنه يوجد سلسلة طويلة من الرسل وقال الكافرون لهم نفس الكلام، ونزل عذاب، ونجا المؤمنون... فما معنى تكرار نفس الرفض مع الرسل الإلهية؟ وخصوصاً ما معنى قول الكفّار إنهم لن يؤمنوا برسول بشري!

ننتبه جيداً، حيث إنَّ آيتنا هذه خبر عن شيء حصل بشكل متكرر عبر التاريخ، إذ كلما أرسل سبحانه رسولاً إلى كفّار كذّبوه، وأسهب القرآن وسورتنا هذه فيما سيأتي من كلام عن أسباب كفر أقوام الرسل، واصفاً لحالتهم بالظلم على معنى أنهم لم يكن معهم حقّ بتكذيب ما هو واضح أنه حقّ، وواصفاً إياهم بالجحود والمرية وقساوة القلب والعمى... ومنبهاً أنَّ لديهم قابلية الإيمان ولكن هم اختاروا الكفر عناداً وتكبراً.

هل مشروع خلق الناس فاشل؟

هذا السؤال صحيح لو كان المشروع من خلقهم ليصيروا مؤمنين كلّهم أو أكثرهم، ولكنه تعالى مراراً وتكراراً أخبرنا أنه سلفاً علم بأن الأكثرية لن يؤمنوا، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 179 من سورة الأعراف {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ}...، لذا لم يهتم سبحانه بالعدد، واهتم بالقليلين الذين سيؤمنون. ومن النظرة الإلهية لنا، نحن كائنات يمكنه سبحانه أن يخلقها بهذه الصفات التي فينا من فكر وحرية إرادة وغرائز وشهوات... وبسهولة يعلم سبحانه مصير كلّ واحد منّا إن خلقنا، سواء الذي سيؤمن أو سيكفر، ورأى سبحانه قلّة قليلة ستؤمن، والأكثرية عناداً وظلماً سيكفرون، مع أن الجميع مزوّد بنفس القلب الذي يؤهّله ليؤمن... لذا فإنَّ تحميل المسؤولية عن النتيجة برمي الأكثرية في النار تتحمّله الأكثرية وليس الذي خلقها، فالأكثرية فاشلون.

لننظر إلى ما قبل ذلك، حيث إنَّ هناك سبع سماوات مختلفة التكوين عن بعضها، وفيهن كائنات مختلفة عن بعضها في الصفات والمميزات والقدرات، وبالتحليل "القوي المستند لمفاهيم القرآن" يبدو أنه تعالى لن يحرم كائناً من الخروج إلى الحياة طالما هناك إمكانية حكيمة لذلك، وحالتنا ليست مختلفة عن ذلك، وهكذا ترى أن كفر أكثرية الناس والذي لن يصيبه تعالى بأي ضرر، وإيمان القليلين الذي لن ينتفع منه سبحانه، هو قرارنا نحن، ونتحمّل نحن ما سينتج عنه، لذا فإنَّ الفشل من ناحيتنا إن لم نؤمن حتى لو كفرنا كلّنا.

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ{45})
ثم، من بعد الرسل السابقين، {أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا}، بالأمور المميزة المنسوبة له تعالى، {وَبِسُلْطَانٍ}، بشيء له قوّة، بحجّة ودليل قويّ، {مُبِينٍ}، واضح.

أرسلهما تعالى ومعهما العصا التي تتحوّل لحيّة واليد التي تصير بيضاء، وحصل فيما بعد تحوّل الماء إلى دم، وانتشار الضفادع... واختارت السورة الرسولين موسى(ع) وهارون(ع) من بين العديد من الرسل لأنهما حصل على عهدهما آيات متنوعة كثيرة "تسع آيات"، وذلك لننتبه إلى أن الآيات الكثيرة المتنوعة لم تنفع ولن تنفع مع من لا يريد أن يؤمن.

(إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ{46})
أرسلناهما {إِلَى فِرْعَوْنَ}، إلى حامل لقب أعلى سلطة في عصره "فرعون"، وفي بلدان أخرى يصفون أعلى حاكم عندهم بأوصاف أخرى ككسرى عند الفرس وقيصر عند الرومان وملك عند العرب... {وَمَلَئِهِ}، وإلى الوجهاء من المصريين من الزعماء والوزراء والأمراء... {فَاسْتَكْبَرُوا}، فرأوا أنفسهم أكبر من أن يؤمنوا، {وَكَانُوا قَوْمًا}، أناساً

لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع دينه تعالى، {عَالِينَ}، يرون أنفسهم أعلى من الآخرين وأعلى من الإيمان بما يقوله الآخرون.

عبّر القرآن كثيراً عن الوجهاء والنافذين والرؤساء... بأن الرسل نقلوا لهم رسالة الله تعالى، وكما نعلم إنَّ الرسالة الإلهية موجّهة لكل الناس، لكنَّ الملأ هم المسيطرون على الناس، ولذلك نرى بعض الآيات خصّصت تركيزها على كلام الرسل مع النافذين في المجتمع، لأنهم مؤثّرون في الناس، ويسمع الناس كلامهم ويطيعونهم، فإن آمن الحاكم والملأ أعلن الآخرون التابعون لهم إيمانهم، وبالعكس إن كفروا فهم المسيطرون وأصحاب القرار فسيقومون بصدّ الباقين بالقوة عن الإيمان، وأصلاً لن يتجرّأ غالبية الآخرين على اعتناق دين مخالف لدين الحاكمين.

لمزيد من المعلومات عن هذا الفرعون راجع دراسة أي آية ورد فيها ذكر لهامان، كالآية 6 من سورة القصص.

الترجمة العملية لتكبّرهم وعلوهم كانت ما يلي:

(فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ{47})
{فَقَالُوا}، فرعون وملؤه:

{أَنُؤْمِنُ}، هل نعلن اعتقادنا والتزامنا، {لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا} !؟ حيث إنَّ موسى وهارون مجرّد شخصين من البشر لا يتميّزان عنّا بأي شيء، ويشبهاننا تماماً، وهل من المعقول أن نعتقد بأنهما رسولان من الإله، حيث يمكن لأي شخص أن يقول ما يقولانه ويدّعي أنه رسول! {وَقَوْمُهُمَا}، والناس الذين ينتمون لجماعتهم، {لَنَا عَابِدُونَ}، حيث يتصرفون على أساس أنه مفروض منهم وعليهم طاعتنا، وهما موسى(ع) وهارون(ع) من بني إسرائيل، وبنو إسرائيل عابدون لنا، حيث إنهم مطيعون لنا وتحت أمرنا وحكومتنا، وهل من المعقول أن نسمع لكلام موسى(ع) وهارون(ع) وأهلهم عابدون لنا! ونترك ديننا ونتبع دين العابدين!

لاحظ وانتبه، للمرّة الثالثة في السورة نجدها تنقل كلاماً متكرراً عن بشرية الرسول، وأنها الحجّة لكفر هؤلاء الأقوام.

أيضاً ضع في بالك أن الفقرة هنا لن تجيب عن ما قاله الأقوام لرسلهم، وستترك الجواب والرد عما قالوه إلى ما بعد شرح نفسيتهم وعقليتهم، وبعد شرح نفسية وعقلية المؤمنين، وستتركه إلى الآيات من 66 وما بعدها، ولكن ها صرت ترى أن الكلام تكرّر من الكفّار لرسلهم، وتكرّر نزول العذاب ونجاة المؤمنين، فرفضهم الإيمان برسول بشري ما هو إلا حجّة يتعلقون بها، يتذرعون بحجج واهية، كما نقول بالعامية: عم يتفلسفوا عالفاضي. وحالتهم تشبه حالة الطفل الذي تغطّي له عينيه فيظن أنه هو اختفى لأنه لم يعد يرى!

في أدبياتنا درج القول عن استعباد فرعون لبني إسرائيل، على المعنى الدارج لكلمة استعباد، وتأيّد عندنا ذلك من عبارتين وردتا في الآية 22 من سورة الشعراء ولم يرد في القرآن غيرهما {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}، والآية 47 من سورة المؤمنون {فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ}، ولكن على المعنى الأساسي لكلمة عبد التي تشير لمن مفروض منه أو عليه الطاعة، فهي مقابل الحرّ وليست مرادفة للمملوك، فالملكية من تبعيتها العبودية. وهكذا نصير أمام سعة في المعنى في حالة بني إسرائيل تحت حكم فرعون، حيث إنَّ الحالة العامة أنهم كلهم تحت حكمه وسلطته مثلهم مثل بقية المواطنين التابعين لسلطة فرعون، والحالة الخاصة أن بني إسرائيل لم يكونوا مواطنين من الدرجة الأولى، حيث لدى البعض منهم حياته الخاصّة كطبيب ومهندس وتاجر وساحر... وبعضهم الآخر عمال. وتفهم ذلك من حالة قارون الثري النافذ من بني إسرائيل تحت حكم فرعون، ومن حالة السحرة كنموذج عن مهنة مارسها بعض أفراد بني إسرائيل، ولست أقصد أنهم كانوا مرتاحين أو لديهم حقوقهم كاملة ولم يعمل البعض منهم بالسخرة مقابل وجبة الطعام... بل أقصد أن تشبيه الصورة عن حالتهم كلّهم بشكل مزرٍ فهذا مبالغ فيه، فتصوّرها مثل حالة العيش تحت حكم ديكتاتور تعرفه من عصرك أو سمعت به.

مفهوم الاستعباد في ثقافتنا بعيد كثيراً عن أصل معنى الكلمة ومنطلق من تطبيقات سيئة جداً لها، وهكذا صار لها معنى في بالنا وبعيد عن المعنى اللغوي الذي استعمله القرآن لها، ولا ننتبه لذلك ونفسّر القرآن على ما في بالنا من معنى

"تطبيقي سيئ" لكلمة عبد. لغوياً كلمة "عبد" تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك. وبهذا المعنى استعملها القرآن.

أقول لك هذا لأنني متأثر بخلفية استعباد فرعون لبني إسرائيل على المعنى الدارج في ثقافتنا التاريخية الدينية، وحاولت الابتعاد عن وصفهم بالاستعباد، ورغم ذلك وأثناء المراجعة لهذه الدراسة أجد فلتات مني لوصفهم بالاستعباد، وهذا وللأسف شيء حصل حتى في مواضيع أخرى تقوّمت عندي أكثر بعد دراستها، ولكن فلتات الخلفية الثقافية أسرع وأقوى من استحضار معلومة توصّلت إليها عن دراسة.

(فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ{48})
{فَكَذَّبُوهُمَا}، حيث لم يصدقوهما، {فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ}، من الذين استنفدنا حياتهم، أمتناهم. وكما تعلم من القرآن غرق فرعون وجنوده في الماء.

يعني ما نفع فلسفتهم بالاعتراض على بشرية الرسول الإلهي! حيث كذّبوه وكانوا من المهلكين! فأين الإنجاز فيما فعلوه! وهل تبين لكم أيها السامعون بقصّتهم أنهما فعلاً رسولان بشريان منه تعالى للناس، وهل انتبهتم لنتيجة الكفر بهما؟

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ{49})
{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ}، والمشهور جداً أن القرآن يقصد بذلك كتاب التوراة فلا نعرف كتاباً غيره نزل على النبي موسى(ع)، {لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}، فمن المفروض ومن المتوقّع أن يكونوا على الأشياء الصحيحة التي توصلهم للغاية الصحيحة إذا مشوا على تعاليم الكتاب الإلهي.

ضع في بالك أن ما يسمّى الآن بالتوراة هو مجموعة كتب جمعها أحبار اليهود على مرّ التاريخ، وتوراة النبي موسى(ع) بقي منها الشيء القليل في التوراة الحالية، ويقولون إنَّ الأسفار الخمسة الأولى الموجودة الآن في كتاب التوراة، هي التوراة المنسوبة للنبي موسى(ع) وبقية الأسفار من تأليف أنبياء آخرين ومن تأليف الأحبار، ولكن بمراجعة الأسفار التي ينسبونها للنبي موسى(ع) ستجد أن غالبيتها الساحقة مقولة عنه(ع) وليست مقولة منه ولا مقولة من الله تعالى، وهذا شيء لا ينفيه اليهود الذين يقرّون بأن كتب التوراة احترقت وتلفت في زمن سبي البابليين، وكتبها من جديد الكاهن "عزرا" ممّا يتذكّره منها "وما أعجبه مما تذكّره"، وكتبها قبل ميلاد السيد المسيح(ع) بحوالي خمسمئة عام، ومن بعده أضاف علماء اليهود إليها أسفاراً جديدة... وهذا هو الكتاب المنتشر حالياً بين الناس...

مشهور أنه لبعض الأنبياء والرسل صحف كتبوها وفيها إرشادات دينية، أمّا هنا في الآية فالحالة متميّزة، وبحسب معلوماتنا التاريخية وبحسب ما ذكر القرآن فإنَّ حالة النبي موسى(ع) هي أول مرّة ينزل فيها على رسول كتاب "رسمي" منه تعالى موجّه للناس، فكما تريد الفقرة الإشارة إلى الامتداد التاريخي لرسل منه تعالى، فهنا تشير إلى بداية نزول كتب منه تعالى عبر التاريخ. وليبقى هذا في ذهنك، فبعد قليل ستتحدث الآية 53 عن تفرّق الناس عن خطّ الرسل وفرح كل حزب بكتابه الخاص به، حيث إنَّ الكتاب الإلهي الأول الذي نزل على بني إسرائيل لم يكن مخصّصاً لهم، بل هو كتاب لكل الناس، ومع مرور الزمن صار معتبراً ككتاب خاص بهم، مثلما يعتبر الآخرون القرآن كتاباً خاصاً بالمسلمين.

ننتبه أيضاً، فنحن الآن كمسلمين وبحسب ما أمرنا به القرآن، نعترف بكل الكتب التي نزلت على كل الرسل، لأنها كلها من نفس المصدر، وكلها على نفس المنهج، وتقرأ ذلك في العديد من السور منها الآية 4 من سورة البقرة {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ}...، وأمّا ما يسمونه التوراة في عصرنا الحالي، فهي كتاب خليط من التوراة الأساسية "التي حرّفت"، وكتب منسوبة لأنبياء "أيضاً فيها الكثير من التحريف" وكتب منسوبة لعلماء من اليهود عن التاريخ اليهودي وفيها الكثير من التشويه للحقائق التاريخية.

(وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ{50})

ذكرت السورة أربعة رسل اعترض الناس على بشريتهم، الرسولَ نوحاً(ع)، والرسول الذي بعده، والرسولين موسى(ع) وهارون(ع)، وهنا الكلام عن شخصين ألّههما بعض الناس وهما بشريان! وتأتي السورة على ذكرهما كمفارقة، كنموذج غريب من سلوكيات الناس! إذ بعضهم كفر بالرسل لأنهم بشر، وآخرون ألّهوا بشراً!

{وَجَعَلْنَا ابْنَ}، السيدة، {مَرْيَمَ}، وهو النبي عيسى(ع)، {وَأُمَّهُ}، السيدة مريم(ع)، {آيَةً}، شيئاً مميّزاً، لأنها (ع) حملت بلا مقاربة لأي رجل، فابنها وُلِدَ من دون أب، فكلاهما كان آية. وهنا لم ترد الآيات الدخول في تفاصيل قصّتهما وفقط أشارت لهما(ع) لسبب ستراه بعد قليل، ونتذكّر الآيات العديدة التي أثبتت كون السيدة مريم(ع) طاهرةً وقصّةَ حملها من دون مقاربتها لأي بشري صحيحةً، بدليل أن هذا الطفل المميز كان يتكلّم ويتحدّث مع الناس وهو في المهد... ولكن هذا موضوع آخر تحدّثت عنه سورة مريم مطوّلاً.

{وَآوَيْنَاهُمَا}، جعلنا لهما مكاناً محدّداً ليبقيا فيه، يسكنان، {إِلَىٰ رَبْوَةٍ}، إلى أرض صالحة للزراعة أو فيها نبات بكثرة، إلى منطقة فيها نباتات للأكل ومريحة لمن يستقر فيها، وكلمة ربوة وروابي مستعملة لوصف المناطق السهلية الخضراء المائلة إلى وجود مرتفعات ومنخفضات فيها. {ذَاتِ قَرَارٍ}، لا يوجد في تلك المنطقة أي زعزعة، فهما في ثبات فيها، فلا أحد سيتعرّض لهما بالأذية أو الإزعاج ليجبرهما على الخروج منها، {وَذَاتِ مَعِينٍ}، كل ما يعينهما على شؤون الحياة سيجدانه في تلك الربوة، من ماء وطعام... وطبعاً الأمان.

الكلام هنا تعبير عن بشريتهما لأنهما يحتاجان للرعاية، فهما أمّ وجنينها الذي حملته وانتبذت به عن الناس خوفاً من اتهامها بالزنا... راجع سورة مريم من الآية 22 وما بعدها، حيث يمكن أن يتعرّضا بسهولة للاعتداء من إنسان أو حيوان... ويمكن بسهولة أن يموتا من الجوع... فلا تنسَ أن السيدة مريم(ع) عندما مرّت أشهر على حبلها خرجت من بين قومها إلى الروابي البعيدة وحدها، وأنجبت ابنها في البريّة بعيداً جداً عن الناس... وهنا تتحدّث الآية عن تلك الفترة، وتلفت انتباهك إلى حاجتهما للعناية الإلهية وإلا لتعرّضا لمكروه...

لنتذكّر ما قاله الناس عن كفرهم بالرسل لأنهم من البشر العاديين، وهنا الكل يعلم أن بعض الناس اعتقدوا بأن النبي عيسى(ع) إله! وأن أمّه أمّ للإله! مع العلم بأنهما من البشر بشكل صافٍ تماماً مثلهما مثل غيرهما، واحتاجا للعناية الإلهية وتأمين الطعام والشراب لهما، فلا معنى لاعتبار النبي عيسى(ع) إلهاً وهو محتاج إلى العناية! والأكل والشرب!

يعني، عندما تميّز واحد من الرسل بشيء بسيط لا يجعله فوق الطبيعة البشرية، حيث خلقه تعالى من دون أب، وجعله يتكلّم وهو في المهد، ولكن ألّهه بعض الناس لمجرد تميّزه بأمور بسيطة عن البقية! لو فرضاً كان الرسول الإلهي من غير البشر وبقدرات غير عادية، فهل كانوا سيؤمنون موحدين أم سيعبدون الرسول؟

ألفت انتباهك لما تجده في الكثير من التفاسير المحاولةِ تحديد مكان الربوة، ولم أدرِ ما الفائدة من ذلك؟! وما علاقته بما تريد السورة قوله! وما علاقته بالهداية! وهذا النوع من الغرق في الفضول يؤدّي عادة إلى أمور غير صحيحة، ومع مرور الوقت تصير من الدين! فما معنى قول بعضهم أنّ فلسطين لم يكن فيها ولا نخلةٌ وأنها ذهبت إلى العراق حيث أكلت (ع) رطباً؟ علماً أن النخيل منتشر في كل المناطق الدافئة في الشرق الأوسط منذ القدم، وعلماً أنه في حينها يكفيها (ع) الابتعاد قليلاً لمسير ساعات لأي جهة كانت لتصير في البراري النائية عن الناس...

(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ{51})
{يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ}، أنتم كلّكم بشر وكلّكم تحتاجون للطعام، فكلوا من الأطعمة الجيّدة وابتعدوا عن الأطعمة الخبيثة المنفور منها، لأن كل الرسل ومن ضمنهم النبي عيسى(ع) كلّهم بحاجة للطعام ليعيشوا.

{وَاعْمَلُوا صَالِحًا}، قوموا بالأعمال الموصوفة بأنها صالحة جيّدة، حيث جعل سبحانه فيكم أيها الرسل القدرة على تمييز الخير من الشرّ، فالتزموا بفعل ما ترونه خيراً حسناً، وبما أنه سبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح عملياً اتركوا ما حرّمه تعالى وافعلوا ما أوجبه، {إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}، لديّ علم تفصيلي بكل ما تقومون به، فأنتم تحت المراقبة.

العبارة هنا على معنى: ليس على أي واحد منكم خيمة زرقاء، فإذا لم تؤمنوا ولم تقوموا بالأعمال الصالحة فستتحاسبون وتُجزَوْن بالعقاب مثلكم مثل غيركم. وهذا الكلام موجّه للرسل، ولكن الآية تخبرنا به لنعلم نحن أن الرسل تماماً مثلنا،

بشر يأكلون، ومكلّفون مثلنا وتحت المراقبة، فلا يحق لهم مخالفة الأوامر الإلهية، وهذا المعنى ستنتبه له عندما تلتفت إلى عادة الناس أصحاب السلطة والقوّة أنهم هم وأقاربهم والمقربون منهم، يكونون فوق القانون، بل ما يصدر عنهم هو القانون! فهنا تشير الآية إلى من لديه صفة وظيفة رسول الله تعالى، فهو ليس فوق القانون، ولا يتميّز عن الآخرين، بل هو مثلهم تماماً مأمور بفعل الصالحات وترك السيئات، وسيتحاسب مثل البقية إن خالف الأوامر الإلهية.

أكرر لك، إنّ الكلام عن السماح لهم بالأكل من الطيبات يشير ضمناً إلى تشريع المنع عن أكل ما هو خبيث منفور منه، ولكن الكلام هنا عن كون كل الرسل من البشر ويحتاجون لأكل الطعام حتى يحافظوا على حياتهم.

(وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ{52})
الآن يتوجّه الخطاب إلى كل الناس كما سترى من الآية التالية:

{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً}، رسلنا أمّة واحدة وكلّهم بينهم شيء مشترك واحد، إذ كلّهم على نفس الدين، ولهم امتداد تاريخي من آلاف السنين ومتواصل وصولاً إلى أمّة الرسول محمّد(ع)، فهذه أمتكم التي يجب أن تنتسبوا لها، حيث أرسل تعالى للناس رسلاً وكانوا كلهم على خط واحد، ولكن إذا نظرنا إلى الناس فسنجد أُمماً مختلفة! أُمماً مشركة بأنواعها المختلفة وأُمماً كافرة بأنواعها المختلفة... وحتى من أتباع الرسل سنجد أُمماً مختلفة، فاسقة ومنافقة ومتحزّبة! وتلك تعلن أنها أمّة الرسول موسى(ع) والأخرى أمّة الرسول عيسى(ع)، وهذه أمّة الرسول محمد(ع)... وهذا ما ستشير له الآية التالية، ولكن بالنظرة الإلهية كل الرسل أمة واحدة، على خط واحد مشترك بينهم وهو التوحيد وشريعة الصلاح.

{وَأَنَا رَبُّكُمْ}، المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {فَاتَّقُونِ}، تجنبوا وتحاشوا، وسياق الكلام عن تجنّب غضبه وعقابه عبر طاعتنا له تعالى.

بعبارة أخرى تخبرنا الآية أن كل الرسل الذين أرسلهم تعالى للناس هم على خط واحد، فهم أمّة، ونحن مدعوون للانتساب لهذه الأمّة، إذ كلّهم دعوا الناس لتوحيده تعالى، وترك الشرك، وهذه علامة مميزة تميّز بها الرسل عبر التاريخ، مضافاً إليه الشريعة الإلهية التي تأمر بالصلاة والزكاة... كأبرز نماذج عن الفلاح كما تحدّثت عنه بداية السورة والذي أمرنا به سبحانه من أوّل ما أرسل رسله.

بعباراتنا الشعبية: بلا كلام بلا فائدة وبلا طعمة عن كفركم بالرسل لأنهم بشر، فهذه فذلكة فارغة، وها هي أمّة الحقّ بالامتداد التاريخي عبر رسل كانوا محطات تقويم لدين الناس، فكونوا امتداداً لهذه الأمة.

تذكّر أن السورة تخاطب في نفس الوقت: المشركين والمؤمنين، وهنا الآيات يفهم منها المؤمنون أن الخط الإلهي واحد، وما يرونه من أديان منحرفة منتمية بالاسم لدينه تعالى فهي اختراعات عصبية ومذهبية وحزبية... وحتى يفهم المشركون أنهم هم شاذّون عن الخط الصحيح، فهم عادلون عن الخط التاريخي التوحيدي، وأن ما يرونه من تصرفات شاذّة للمنتسبين للدين الإلهي لا علاقة لها بالخط الإلهي الواحد الممتد من أول رسول إلى آخر رسول، فلا عذر للمشركين بترك الدين متعذّرين بالسلوك الشاذّ لبعض الذين يقولون بأنهم متدينون ومن أتباع الرسل، حيث وضّح القرآن للجميع بأن تفرّق المتدينين هو شواذ وسيتحملّون مسؤوليته.

(فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ{53})
في مقابل الأمر الإلهي للناس باتباع خط الرسل:

{فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ}، اختار الناس أن لا يكون أمرهم أمراً واحداً، فصاروا قطعة قطعة مختلفين أدياناً ومذاهبَ وطوائفَ ولم يعودوا مجتمعين على أمر واحد، ولم يبقوا على الخط الإلهي الواحد الذي نقله الرسل، {فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ}، {زُبُرًا}، كلاماً مكتوباً مختلفاً، فصار لكل جماعة "زبور" كتاب خاص بهم يختلف عن كتب الآخرين، علماً أن الرسالة الإلهية الأساسية واحدة!

الكلام هنا مع كل من خالف دينه تعالى، فالمؤمنون الحقيقيون وَحْدَهُمْ، والبقية من المشركين والكافرين والمحرّفين للدين الإلهي الفاسقين المنافقين، وَحْدَهُمْ.

{كُلُّ حِزْبٍ}، كل جماعة من الناس مرتبطون تحت عنوان يميّزهم عن الآخرين، ويمكن للآخرين الانضمام إليهم بتقليد ما يفعله المنتمون لهذا الحزب أو ذاك، {بِمَا لَدَيْهِمْ}، من كتاب وعقيدة وشريعة وسلوكيات، {فَرِحُونَ}! يشعرون بحالة نفسية جيّدة! وَيَرَوْنَ أنفسهم مكتفين بما لديهم وليسوا مضطرين للتفكير بغيره ففيه ما يعجبهم وعلى هواهم. وهذه هي عقلية التحزّب كتعبير آخر عن الطائفية والمذهبية التي يدافع عنها أتباعها بشراسة مُبَرِّرِينَ لها ومتعامين عن أي وجهة نظر حقّ يسمعونها.

هذا الشعور بالفرح بالطائفية والمذهبية، تعبّر عنه الآية بالحزبية لتشير إلى حسّ الانتماء لديهم، فهذه مصيبة المصائب البشرية، حيث يطغى عليهم حسّ الانتماء والفرح به وبما اجتمعوا تحته وبمخزون ثقافي وبتاريخ بطولات... وهم لا يرون المشكلة إلّا في الآخرين ولا يرون أنهم هم في نفس مشكلة عقلية التحازب مثل الآخرين! والآية السابقة نبّهت الجميع للأمة التي يجب أن يكونوا عليها، فالحزب الوحيد الفالح هو التحازب تحت تقواه تعالى، واستعمل تعالى وصفاً لذلك بتسميتهم باسمه كما تقرأ في الآية 56 من سورة المائدة {وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}.

كلمة "زُبُر" بالضمّة على حرف "ز" و"ب" معناها: الشيء المكتوب، كتاب، صحيفة... كزبور النبي داوود(ع)، و"زُبَرَ" بالضمّة على "ز" والفتحة على "ب" معناها: قطعة، نثرة، كزبر الحديد.

(فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ{54})
{فَذَرْهُمْ}، اتركهم ولا يعنيك أمرهم وهم، {فِي غَمْرَتِهِمْ} في الذي يغمرهم ويستولي عليهم بالتمام ويغطيهم بالكامل من كلّ الجوانب، اتركهم في هذا الفرح بحزبهم الذي يغطيهم بالكامل ويمنعهم من الإيمان، {حَتَّىٰ حِينٍ}، فهذا حتماً لن يستمر، وحتماً سيتحاسبون عليه.

سوف ترى بعد قليل في الآية 63 أن هذا الذي يغمرهم وأشياء أخرى منعتهم عن فعل الخيرات.

ضع آيتنا هنا في بالك عندما تقرأ في بعض التفاسير ضياعهم بين أمره تعالى لرسوله بقتال الكافرين وبين الأمر بالإعراض عنهم وتركهم وأن يذرهم ويتولّى عنهم... وتبريراتهم أن بعض الآيات منسوخة على معنى إلغاء الأمر بقتال الكافرين، فلدينا تراث ضخم منتشر في كتبنا من أمثال هذا الضياع الذي يتبدّد بأقل تأمل عقلاني، فالأمر بالقتال خاصّ فقط وفقط بِمَن يقاتل المؤمنين وليس لأي مخالف لنا في الدين، وللدقة فهو إِذْنٌ بقتالهم ويصير أمراً إن كانت الظروف مناسبة... وأما بقية ما فهموا منه تعارضاً مع الأمر بقتال الكافرين، فهو مثل آيتنا هنا، فهو يشير لعموم حالتهم بتركهم وشأنهم في كفرهم ليلاقوا مصيراً حتمياً بالعقاب في الآخرة، مع احتمال عقاب جماعي أو فردي لهم في الدنيا.

الكلام على معنى أنك كرسول أو كنبي أو كمؤمن، قمت بما عليك من تبليغهم لكلامه تعالى، وبعد ذلك لا علاقة لك بتدينهم ومصيرهم، فهذا النوع من الكلام لا علاقة له بالكفّار المحاربين المقاتلين، فهؤلاء إن صار لك مجال لتنذرهم وتبين لهم، واقتنعوا... فبها ونِعْمَتْ، وإلا فقتالهم واجب إن كنت تستطيع.

(أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ{55})
الناس المتفرقون عن خطّ الرسل، اتركهم في تفرّقهم:

{أَيَحْسَبُونَ}، هل يخطر في بالهم من دون تفكير ولا دليل، {أَنَّمَا}، أن الذي، {نُمِدُّهُم بِهِ}، نعطيه لهم بإتاحته، {مِن مَّالٍ}، نقدية أو أملاك... {وَبَنِينَ}، أولاد.

(نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ{56})

يحسبون أننا، {نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ}! فكلما احتاجوا لشيء جيّد فنحن نؤمّنه بإتاحته لهم! بدون أي إمهال أو تباطؤ! وكأنهم محطّ اهتمامنا، ومدلّلون عندنا!

{بَل لَّا يَشْعُرُونَ}، هذا الذي يحسبونه عن اهتمامنا بهم غير صحيح، فهم لا يشعرون بما يجري ولا ينتبهون له، ونعرف من القرآن أنهم في حالة امتحان، وكل ما يحصلون عليه من خير وهم في حالة كفر فهو استدراج على المعنى الذي ورد في الآية 178 من سورة آل عمران {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}، فهم إنما يؤججون ناراً أكبر وأكبر سيتعذّبون بها في الآخرة، وهم الآن لا يشعرون بما يتسجّل عليهم هنا وبما ينتظرهم هناك، ويسمعون به ولكن سيتفاجؤون به حين يرونه متحققاً أمامهم وقد كذّبوا به من قبل.

(إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ{57})
في مقابل ما يحسبه هؤلاء من اهتمام ومسارعة إلهية لتأمين الخيرات لهم، وهو غير صحيح، هناك آخرون طريقهم مختلف، وهم فعلاً يحصلون على الخيرات التي تفيدهم في الآخرة، أمّا خيرات الدنيا فليست من أول اهتماماتهم:

{إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم}، لديهم شعور بخطر من المسؤول عنهم من مستوى إلهي ويمكنهم تجنّب هذا الخطر، {مُّشْفِقُونَ}، يشعرون بمعايشة هذا الخطر، ويشعرون بأنه موجود وسيصيبهم ولا يمكنهم تحمّله إذا أصابهم.

هم يعلمون بأنه تعالى يعاقب من يخالف أوامره، ولديهم شعور الخشية من أن يصيبهم هذا العقاب، فيشفقون منه أي يعايشون العذاب بتصوّر أنفسهم فيه.

لاحظ كيف قفزت الآيات من أناس مهملين مستهترين ويحسبون أنهم محطّ الاهتمام الإلهي، إلى أناس يستشعرون خطر العقاب الإلهي، فيلتزمون بالحق والصالحات حتى يرضى تعالى عنهم ولا يعذّبهم، وهذا هو السلوك الصحيح.

تلاحظ القرآن ينقل لك حالة المؤمنين هنا في الدنيا مشفقين من عذاب الآخرة، وأنهم في الآخرة مسرورون، والآخرون الذين لم يشعروا في الدنيا بالإشفاق من عذاب الآخرة وكفروا وفعلوا السيئات، فهم في يوم القيامة مشفقون من العذاب لأنهم يرون النار من بعيد ويعلمون أنهم ذاهبون إليها، فيشعرون بمعايشة ألمها قبل حصوله، وتقرأ ذلك في عدة آيات وبتعابير مختلفة منها الآية 49 من سورة الكهف {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا...}.

(وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ{58})
{وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ}، بالأمور المميزة المنسوبة للمسؤول عنهم من مستوى إلهي، {يُؤْمِنُونَ}، يصيرون في حالة اعتقاد بأنها أمور مميزة وعلامات تدل عليه سبحانه كإله خالق متابع لمخلوقاته في كل لحظة وخلقهم بالحقّ... وسيجازيهم...

الكلام عمومي عن إيمانهم مما يرونه من آثاره تعالى في خلقه لما في الدنيا ومما وصلهم من رسله، وإيمانهم بدلالة ما يرونه ويسمعونه على صفات إلههم...

(وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ{59})
لا يقولون بوجود ربّ غيره تعالى، ويوحدّونه كمسؤول عنهم من مستوى إلهي.

(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ{60})
{وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ}، يعطون، {مَا آتَوْا}، ما جعلوه عند الآخرين، {وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ}، أساسُ فكرهم ونفسيتهم يعلم بوجود سبب حقيقي ووجيه للخوف والخشية، وحين يدفعون الزكاة أو الصدقة فهم لا يشعرون بأنَّهم قاموا بعمل عظيم، "ولا

بشوفة حال" أو زهو، ولا يَمُنُّونَ ربهم سبحانه بأنَّهم دفعوا من مالهم... بل يدفعون الصدقة والزكاة كما نقول بالعامية: وهم من تحت. وهم مكسورو الجناح أمام ربّهم الذي عقابه مرعب للذين لم يساعدوا الآخرين.

قارنها مع الذي يساعد الآخرين ويرى نفسه صار كبيراً وعالياً عليهم، والآن قارنها مع الذي صار يرى نفسه ذا قيمة عالية عنده تعالى كمن صار له عليه تعالى جميل، حيثُ إنَّ المؤمنين من الدرجة العالية يتصدقون ويشعرون بالوجل منه تعالى، لأنهم يشعرون دائماً بأنَّهم مقصّرون ولم يُوَفُّوه تعالى حقّ حمده وشكره... ويخافون عقابه فلا يشعرون بالعظمة والدرجة العالية لأنهم تصدّقوا قربةً لله تعالى.

{أَنَّهُمْ}، سببُ وجلهم علمهم بأنَّهم، {إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ}، فسيموتون ويرجعون إلى المسؤول عنهم من المستوى الإلهي، طبعاً ليحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم التي قاموا بها في الدنيا، حيثُ إنهم يعلمون أن موتهم في الدنيا ليس النهاية، ولن يَفْنَوْا أو يختفوا، ولن يذهبوا إلى عالم خارج عن سلطته تعالى... بل إليه تعالى سيرجعون من موتهم ليحاسبهم، ولذلك لا يشعرون بأي زهو أو فخر أو مِنَّةٍ... حين يقدمون مالهم في سبيله تعالى، بل يبقى شعور الخشية من وقوعهم في العقاب حاضراً مستقراً في ذهنهم.

(أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ{61})
{أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ}، عندما يعلمون بوجود عمل أو قول خير جيّد، فإنهم لا يستهترون ولا يؤجلون ولا يهملون، بل يجدونه فرصة مناسبة فيقومون به أول ما تسنح لهم الفرصة. وانتبه، فالآية لا تأمرك أن تسرع أو تتسرّع، أو تتهور أو تتصرف بدون تفكير، بل تأمرك أن تسارع فلا تهمل ولا تتباطأ حين ترى عمل خير يمكنك القيام به.

قارنها مع الذين يقولون: بطيخ يكسّر بعضه. أو فخّار يكسّر بعضه. فيتركون الآخرين يعانون ولا يهتمون، والآن قارنها مع المؤمنين من الدرجة العالية الذين يبادرون لمساعدة الناس والعمل على حلّ مشاكلهم، فهم يبادرون لكل ما يستطيعون فعله من خير.

كما ترى، نحن عادة نفسّر هذا الكلام على أنهم يبادرون إلى ما يرضيه تعالى، فيفعلون الواجب والمستحبّ ويتركون الحرام والمكروه، وهذا التفسير صحيح لأنه تعالى لا يأمر إلا بالخير، ولكن غالبية كلام القرآن أشار لما يرونه هم خيراً، لما هم يرونه موصوفاً بالحسن بما جعله تعالى فينا من قابلية لتمييز الخير من الشرّ والصلاح من الفساد، فعلى هذا الأساس نتحاسب، فأصلاً نؤمن بدينه تعالى لأننا نراه حقّاً وصلاحاً، وبناء عليه فلا يوجد شيء اسمه باطل ونؤمن به لأنَّ ديننا يقوله، ولا يوجد شيء اسمه سوء ونفعله لأن ديننا يأمرنا به، فهذا مخالف لصريح القرآن، ودمار للدين الإلهي، وإيمان بدين فاسد.

نعم، بسبب كثرة فعلنا للسيئات يفسد قلبنا، وتتشوّه لدينا في بعض الأمور القدرة على تمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، وهكذا نقوّم أفكارنا ونفسياتنا بما جاء في هذا القرآن، فالقرآن بهذا المعنى وصف نفسه بأنه هدى للمتقين، لأن أساس فكرهم ونفسيتهم يرغب بالهدى، وحين يقرأون القرآن يتماشون معه، فيقوّمون فكرهم ونفسيتهم على أساسه، فيهديهم ويعلمهم الحكمة...

{وَهُمْ لَهَا}، للخيرات، {سَابِقُونَ}، فبأسرع ما يمكنهم يقومون بها فلا يهملونها لأنهم يعتبرونها فرصة سانحة لكسب رضاه تعالى، ومن بعدها فرصة أخرى ستسنح لهم فلا يريدون أن يكونوا متأخرين عن أي فرصة تتاح لهم.

ورد وصف "السابقون" عدة مرات في القرآن لوصف الفئة العالية جداً من المؤمنين، ومنها ما ورد في الآية 32 من سورة فاطر {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ}...

لاحظ كمثال بأننا نحن والآخرين نقول بأننا إذا صار معنا الملايين فسوف نساعد الفقراء والأيتام و... وهذا مجرّد كلام فارغ، أمّا النوعية التي تتحدّث عنها الآية، فهم بما لديهم يفعلون الخير، ويعملون ويتجهزون للمزيد من فعل الخيرات، ولا ينتظرون حصولهم على الملايين من المال، بل بما هو متاح لهم يسارعون في الخيرات.

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ{62})

{وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا}، لا نوجب ولا نأمر أيَّ نفس، أيَّ شخص، أيَّ واحد أن يقوم بأي عمل، {إِلَّا وُسْعَهَا}، إلا بما يسعها فعله، إلا بحدود ما يمكنها أن تفعله، فلا نفرض ولا نوجب ولا نأمر أي شخص بأن يفعل شيئاً لا يسعه القيام به، شيئاً لا يقدر على القيام به أو يُسْتَصْعَبُ بجهد بالغ القيام به، بل نأمر الجميع أن يقوموا بما يستطيعون القيام به.

هذا الكلام عموميٌّ شامل لكل ما نتحاسب عليه، فأيُّ شيء سيئ سيحاسبنا سبحانه على فعله فسنكون بوسعنا قادرين على تركه، وأيُّ شيء خيّر سيحاسبنا سبحانه لأننا لم نفعله فسيكون بوسعنا، بمقدورنا فعله ولكننا لم نفعله.

أول تكليف لنا هو توحيده تعالى بناءً على الآيات التي في أنفسنا ومن حولنا وفي كلامه تعالى معنا عبر رسله، فهل الآيات كافية لنؤمن؟ نعم، لأنه تعالى لا يكلّفنا إلا بما يسعنا، وباقي الكلام عن بقية التكاليف التي أمرنا تعالى بتركها أو فعلها، بالأصل كلّها يمكننا القيام بها وليست فوق قدرتنا، وحين تصل الأمور إلى الحرج، إلى ما فوق قدرتنا على التحمّل، فإن التكاليف تسقط، وهذا تفصيل واسع بوساعة التكاليف، وذكر منها القرآن نماذج، كالأطعمة الحرام التي يجوز أكلها إن تعسّر علينا إيجاد الطعام الحلال وصرنا في خطر الموت جوعا، كما ورد في الآية 173 من سورة البقرة {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ}، ومثله الكفر به تعالى تحت التهديد بالقتل الفعلي مع قلب مطمئن بالإيمان كما ورد في الآية 106 من سورة النحل {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ}، ومثله إسقاط وجوب الصوم في حالات العسرة كما ورد في الآية 184 من سورة البقرة {أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ}.

نرجع للآية، {وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ}، حيث إن كل ما تفعلونه مكتوب مسجّل فيه، وهذا الكتاب ليس من ورق ولا مثل الكومبيوتر... وهو شيء مختلف لأنه يعيد عرض ما فعلناه مع إظهار لنوايانا الداخلية ومشاعرنا حين قمنا بأي عمل... وهذا الكتاب ينطق بالصواب فلا يكذب ولا يبالغ ولا يزيد ولا ينقص مما فعلناه وشعرنا به... وما هو مسجّل فيه يعبّر عن أمور صحيحة، ولا داعي لافتراض وعي ما للكتاب لأنه ينطق، إذ النطق توصف به حتى الأوراق التي بين أيدينا الآن، وما فيها من تسجيل يفصح عن معلومة، وهذا وصفه نطق. ولست أنفي قدرة النطق عن الكتاب ككائن له وعي ما، حيث سبحانه أخبرنا عن جلودنا أنها ستنطق لتشهد علينا في يوم القيامة كما ورد في الآية 21 من سورة فصلت {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، والجلود قالت مخبرة عن نفسها فقالوا: أنطقنا الله... ولكن التزاماً بحرفية ما قاله القرآن نلتزم بكلامه، والنطق لغويا يشمل حتى ما هو مكتوب.

{وَهُمْ}، الناس الذين نطق الكتاب بما فعلوه مع نواياهم ومشاعرهم، {لَا يُظْلَمُونَ}، بل بالعدل والإنصاف سينطق الكتاب بما هو مسجّل فيه عن أعمالهم.

حتى لا يخطر ببالنا أننا على مزاجنا نحدّد بأننا نقدر أو لا نقدر على التكاليف الإلهية، ونخترع الحجج حتى لا نؤمن بالرسل ولا بالتوحيد... أو نخترع العذر حتى لا نساعد بأموالنا المحتاجين، أو نخترع العذر حتى لا نصوم... لا، لأننا تحت المراقبة وهناك كتاب تتسجّل فيه أعمالنا، ومسجّلٌ فيه إن كان بوسعنا فعل الخيرات وترك السيئات.

(بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ{63})
{بَلْ قُلُوبُهُمْ}، مركز وأساس تفكيرهم ونفسيتهم، {فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا}، فهي مغمورة مغطاة بالكامل من كل الجوانب، من هذا الذي قلناه عن الخشية والتقوى والإنفاق والمسارعة بالخيرات... والحساب والجزاء... فما يغمر قلوبهم من حبّ الحياة الدنيا والهوى السيّء يمنعهم من الإيمان والالتزام بدينه تعالى، {وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ}، تركوا هذه الأعمال الصالحة وقاموا بغيرها، كما نقول: ذهبتم من دوني، ونقصد: ذهبتم وتركتموني. هنا هم تركوا ما قالته الفقرة السابقة من أعمال الخير التي يقوم بها المؤمنون، وفعلوا أعمالاً غيرها، {هُمْ لَهَا عَامِلُونَ}، هم يقومون بها! القيام بالأعمال الحسنة له معنى، والخشية منه تعالى لها معنى، والمسارعة في الخيرات لها معنى... وهم تركوا هذا، وهناك أعمال أخرى سيّئة هم لها عاملون! ليس لديهم مشكلة بالقيام بها وهي بلا قيمة بل وسيّئة!

تصوير المشهد هنا عن حالة أن كل إنسان سيقوم بعمل ما، بغض النظر عن سوء أو حسن ما فعله فهو سيقوم بعمل ما، على معنى الآية 6 من سورة الانشقاق {يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}، تجميع المال والبخل بالإنفاق منه هو عمل، والإنفاق منه على المحتاجين عمل، وصرفه على مشتهيات السوء عمل، وكما ترى بالنهاية كلنا كادحون بشكل أو بآخر، سنمر في حياة نقوم فيها بأعمال، وهناك خط المتقين الملتزمين بالأعمال الصالحة ونهايتهم الجنّة، حيث سبحانه لم يكلّفهم بأعمال خير لا يقدرون على فعلها، وفي مقابله خط الآخرين ونهايتهم النار، الذين كانوا قادرين على فعل الصالحات، وكلاهما قضيا حياتهما عاملَيْن.

معلوم لك أن الكلام عن الفرق بين نتيجة الصلاح ونتيجة الفساد، وسنرى ما تشير إليه الآية بشكل أوضح عندما تأخذ أي نموذجين من الناس صارا في عمر متقدم، واحد التزم بالصلاح، والآخر لم تكن القاعدة عنده الالتزام بالصلاح الحقيقي، شارفا على الموت، كلاهما عملا في حياتهما، ولا أقصد بالضرورة أنهما بذلا جهداً متعباً مضنياً... حيث يمكنك الالتفات للكلام الطيّب أو السيّء مع الآخرين على أنه عمل، والتواضع والتكبّر... أنّه عمل، وهكذا ترى أنه تعالى كلّفنا بالالتزام بالصلاح، ومعلوم أن عليه ستسير حياتنا بخير وسعادة للجميع، ولكن البعض يختار الأعمال السيئة...

بقي شيء، عمل الخير وعمل السوء بينهما تدرجات، خذ مثلاً عن فقير جائع يمكنك مساعدته ليشبع بالتمام فساعدته بذلك، فهذا عمل خير تامّ، ومساعدته بنصف ما يشبعه، فهو ليس عملَ خير تامّاً وفيه سوء، وتركه جائعاً عمل سيّء، عبّرت الآية عن أن لهم أعمالاً دون ذلك، دون ما هو موصوف بالخير، ولم تقصد التدرجات، بل قصدت تركهم لعمل الخير وفعل السوء، ترك الفقير نصف جائع هو عمل سيّء، ولا خير في نصف إشباعه طالما كنت قادراً على إشباعه.

(حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ{64})
{حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ}، لم يترك سبحانه الذين اعتادوا على التطرف والمبالغة بشكل سيّء في صرف المال والقوّة والشهوة... ولم يتركهم سبحانه وأخذهم بالعذاب بضرر يصيبهم هنا في الدنيا، {إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ}، يصدر عنهم صوت جار، صوت متغيّر في لحنه تماماً عن الصوت العادي.

تفسير الجأر بما له علاقة بالصوت دارج بين المفسرين، ونقلوه عنهم في القواميس، ويبدو أن المعنى الأساسي للكلمة هو تطاول الشيء في اتجاه، حيث تجأر بعينك هو وصف لإطالة النظر باتجاه محدّدٍ، ويجأر النبات وصف لتطاوله وارتفاعه، وتجأر بصوتك وصف لإطالة الصوت متوجّهاً به نحو شيء.

لاحظ الآية هنا تضرب مثالاً وتعمّمه على بقيّة الناس، فليس كل الأقوام في كل الأوقات يصيبهم عذاب في الدنيا منه تعالى على ذنوبهم، حيث البعض منهم نزل عليهم العذاب تقريباً فوراً "بعد ثلاثة أيام"، كحالة ثمود بعدما قتلوا الناقة، وآخرون تأخّر نزول العذاب عليهم، كحالة قوم النبي نوح(ع)، وغيرهم جرى إنذارهم ولكن لم ينزل عليهم العذاب لأن حالهم تغيّر ولو قليلاً، أو لم يصل مستوى ذنوبهم لدرجة استحقاق نزول العذاب، أو لأنه سيولد منهم مؤمنون، كحالة كفّار مكّة... ولكن هناك من نزل عليهم العذاب، وحصل معهم ما تقوله الآية هنا. فلا تضع في بالك أن كل المترفين في كل الأزمنة والأمكنة حصل معهم هذا العذاب وجأروا، لا، بل البعض منهم حصل معهم هذا لأن شروط حصول العذاب توافرت فيهم، فانتبه إليهم كنموذج مثل عموم كلام القرآن، فواقع حال البشرية بتعقيدات وتداخلات للأمور تجعل أكثر الكلام عنهم لا ينتشر انطباقه بالكلية عليهم، ضع هذا الواقع دائماً في بالك لترى أن غالبية كلام القرآن عن نماذج، ومن سياق الكلام ترى أن بعضها عمومي غالب وبعضها أمثلة خصوصية لحالات قليلة.

{لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ}، لا تصرخوا بأصوات تعبّر عن ألمكم واستغاثتكم، {إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ}، فلا أحد يمكنه أن يساعدكم على تحقيق ما تريدونه ضد ما يفعله تعالى بكم من تعذيب.

هذه خاتمة من لم يَتَّقِهِ تعالى فلم يلتزم بالحقّ والصلاح.

(قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ{66})
من هنا تبدأ السورة بافتتاحية الكلام للردّ بشكل مباشر على ما قاله الأقوام للرسل الذين تحدّثت عنهم السورة في بدايتها:

{قَدْ كَانَتْ آيَاتِي}، الأمور المميزة بنسبتها له تعالى، العلامات وهي الدلائل الدالة على توحيده تعالى وعلى صدق رسله... {تُتْلَى عَلَيْكُمْ}، يقرؤها الرسل والأنبياء والمؤمنون عليكم استناداً إلى ما نزل منه تعالى، {فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ}، إلى العقب إلى الخلف، {تَنكِصُونَ}، تتراجعون ولا تكملون الطريق، بدل التماشي مع ما وصلكم منه تعالى لأنه عقلاني وحقّ وصلاح واضح لكم، ومن المفروض أنكم راغبون بالحقّ والصلاح، بدل ذلك تراجعتم إلى الخلف مبتعدين عنه.

كنتم آتين باتجاه الطريق الصحيح "من حيث المنظر"، حيث سمعتم بآياته تعالى التي تدل على وحدانيته وآخرته وحسابه... ولكن من الطريق الذي جئتم منه، من طريق الشرك، على أعقابكم، رجعتم إلى الخلف، تنكصون ولم تكملوا مع من يتلو عليكم الآيات.

(مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ{67})
نكصتم:

{مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ}، تعتبرون أنفسكم أكبر من أن تؤمنوا بما يُتْلَى عليكم من آياته تعالى.

{سَامِرًا تَهْجُرُونَ}، تتركون وترحلون نهائياً عن شخص يسامركم ويحدّثكم بلطف عن آياته تعالى.

نلاحظ توصيف التَّالِي "القارئ" للآيات بأنه سامر، لأنّ حديثه لطيف مثل حديث صديق تجلس معه في أنس، لم يكن ولا واحد من الرسل يعرض آياته تعالى على الناس بفظاظة، بل بسلاسة ولطافة ينقله، وأصلاً كلامه تعالى لطيف لأنه فقط وفقط عن الصلاح والخير والحقّ.

كلمة "سامر" وردت في القرآن مرّة واحدة فقط هنا، وأقرب اشتقاق لها استعمله القرآن عندما لقّب "أو سمّى" سامري بني إسرائيل الذي له قصّة مع العجل، ولا علاقة لهذه بتلك سوى التشابه باللفظ.

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الْأَوَّلِينَ{68})
{أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ}؟ القول الإلهي الذي سمعوه ألا يستحق أن يعاملوه بتدبّر فيفحصوه ويتأمّلوا فيه؟ ما معنى عرض شيء كبير بهذه الأهمية عليهم ولا يفكّروا به؟! وما معنى أن ينكصوا؟!

لنقل فرضاً لو كان صحيحاً أنهم لأول مرة يسمعون هذا الكلام، أليس من المفروض أن يتأمّلوا فيه؟

{أَمْ جَاءَهُم}، هذا السامر التَّالِي للآيات، {مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ}؟ هم يسمعون شيئاً جديداً لم يسمع به آباؤهم ولذلك يقولون عن الآيات أنها كلام بدعة مخترعة جديدة! هل هذه حجّة مقبولة لرفض كلام حق عقلاني وصلهم؟ علماً أن كلامه تعالى مترافق مع الناس من أوّل إنسان تأهّل ليتكلّف، من آدم(ع).

تذكّر ما قالته السورة في بدايتها في الآية 24 نقلاً عن قوم النبي نوح(ع) حين تعذّروا بكفرهم به وتكذيبه (ع) لأنهم لأول مرّة يسمعون برسول إلهي! وهو كلام كذب وفارغ. يا بقيّة الأقوام هل هذه أوّل مرّة تسمعون برسول ينقل آياتي؟ هذا العذر هل له معنى أصلاً؟ سواءً سمعتم برسلي من قبل أم لم تسمعوا بهم، أليس من الواجب عليكم أن تتدبّروا فيما تسمعونه الآن؟

هذا الكلام يردّنا إلى أول تكليف للبشرية، أوّل من تكلّف كان آدم(ع)، ولم نلقّبه في دراستنا هذه بالنبوّة لأن القرآن قفز عنه حين لقّب الآخرين بالنبوّة، نحن هنا نبحث عن رسول قبل الرسول نوح(ع)، وعلى كلّ حال سواء أكان الرسول نوحاً(ع) أوّل رسول رسمي ناقل للإنذار منه تعالى للآخرين، أو كان هناك قبله رسل وهو الأرجح، ولكن حتماً كان قبله (ع) أنبياء أو مؤمنون وصّلوا للناس دينه تعالى، حين يقول الكافرون بأنهم لا هم ولا آباؤهم سمعوا بهذا الدين فهم كاذبون حتماً، لأنّ أوّل من تكلّف من الناس "آدم(ع)" الذي كان يتلقّى العقيدة والشريعة منه تعالى، ونقلها للآخرين...

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ{69})

المنكر من مقابلته مع "عرف معرفة" يعطي معنى حصول صورة أو مفهوم ونفي تطابقه مع ما لديك، فهو عموم ما ليس معروفاً على الوجه المطروح، كرفض لتصنيفه.

هل الرسول غريب غير متوافق بالنسبة لما يعرفونه؟ لا يعرفون تاريخه ولا صفاته ولا يدرون إن كان عاطلاً فاسداً... أو صفاته لا تتوافق مع ما يعرفونه من الصفات التي يجب أن تتوافر في ناقل الكلام من الصدق والأمانة ورجاحة العقل وتاريخ سلوك حسن بين الناس...

بعبارة أخرى حدّد تعالى واحداً منهم كرسول له، هل لم يعرفوه كرسول لأن صفاته لا تتماشى مع ما يفترض بالرسول التحلّي به ولذلك أنكروا أنه رسول إلهي؟

الرسول محمّد(ع) "كنموذج" ألا يعرفون صدقه وأمانته ورجاحة عقله... وسبحانه لن يختار رجلاً غير موزون ولا محترم ليكون رسولاً، بل الرسل الإلهية من أرقى الناس، فليتفضّلوا باعتراض حقيقي على من حدّده تعالى كرسول لهم، فليقولوا إنّ فيه صفات تجعلهم يشكّون في صدقه؟ هل كان مجنوناً؟ أم هل سبق وصدر عنه كلام غير عقلاني؟ وهل سبق وقام بأعمال فاسدة سيئة؟ وهل كان يكذب أو يبالغ؟... وبسبب هذه الصفات السيئة لم يعرفوا أنه فعلاً رسول إلهي لأن الرسول الإلهي من المفروض أن يكون بصفات لائقة بهذه المهمة.

نفس الحال والسؤال لكل من سبق من رسله تعالى، لأنّ كلّهم كانوا الأرقى من بين الناس.

(أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ{70})
{أَمْ يَقُولُونَ بِهِ}، بهذا الرجل الذي يقول إنّه رسول، {جِنَّةٌ}، فهو مجنون؟ ما هذه السخافة وعلى أي أساس ترمونه بهكذا تهمة؟ هل هكذا برمي الكلام السخيف بهذا الاتهام السخيف يجعلكم تبرّرون لتكذيبكم له؟

أنت تعلم من التاريخ المشهور أن الرسول محمّداً (ع) كان عاقلاً رزيناً وقائداً عظيماً لدرجة تأليفه نواة دولة من لا شيء، من أجلاف العرب المتشتتين المتناحرين بالعصبية والعنتريات الفارغة، وتشكيله(ع) نواة دولة شيء لم يستطع كل بقية الرسل فعله.

{بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ}، فهو ليس مجنوناً بل نقل لهم كلام حقٍّ صوابٍ. لننظر فيما يقوله هذا الرجل، هل فعلاً المجنون يقول هذا الكلام؟ المجنون يلفت انتباه الناس للآيات من حولهم بأن خالقاً أحداً قادراً مخططاً... صمّمها وخلقها، أم المجنون من يظن بأن هذا الكون صار لوحده من الفراغ وللعبث؟ هل المجنون يأمرهم بترك عبادة التماثيل من الحجارة؟ أم المجنون من يعبد الحجارة ويعتقد أنها آلهة؟

{وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ}، أكثر الناس للكلام الصواب الذي يقوله الرسول، {كَارِهُونَ}، لا يحبّونه، ليست مشكلتهم مع كلامه مشكلة الاقتناع به، ولا مشكلة أنه غير منطقي، أو غير واضح ولا مفهوم... لا، مشكلتهم مع كلامه أنهم لا يحبّونه ولديهم حبّ للكلام الفارغ والباطل والسيّئ، كالكلام عن عبادة الحجارة والخشب والكواكب! والكلام عن اختراع الآلهة التي تخطر على بالهم! والكلام عن فعل ما يحلو لهم من سوء دون حسيب ولا رقيب! والكلام عن استغلال كل الفرص المتاحة للتلذّذ بمشتهيات الدنيا حتى لو كانت سيئة فاسدة مدمّرة للفرد وللمجتمع... هذا ما يحبونه.

(وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ{71})
{وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ}، لأنَّ ما يأمر به سبحانه ملتصق تماماً بالحقّ ولا ينفصل عنه لدرجة تساوي أفعاله وأقواله تعالى مع الحقّ تماماً، فأي فعل إلهي هو حتما ودائما حقٌّ صواب بسبب صفاته وقدراته الفائقة سبحانه، فلن يتضرّر ولن يتأذّى من أي شيء، وبالتالي فلا دوافع عنده تعالى للتصرّف بغير الحكمة والرحمة... ولا مجال للعبثية واللهو والكذب والخداع... لو كان الحقّ على هواهم، على ما يحبه ويرغبه المشركون، وترك سبحانه ما أرسل به رسله، وفعل ما يهواه المشركون، عندها، {لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ}، إذ سبحانه ضابط لأمور كل ما في الدنيا بفرضه للحقّ، وخذ مثلاً الملائكة وهي كائنات ذات قدرات عالية جداً، تصوّر لو أنه تعالى لم يضبطها على الحقّ وفعلت ما تشاء بلا حساب؟ وتصوّر إبليس وبقية الجنّ بقدراتهم الأعلى من قدراتنا لو أنهم بلا ضبط، وتصوّر لو أنه تعالى خلقنا نحن البشر بلا ضابطة، بلا قدرة لتمييز الخير من الشرّ وبلا رغبة في فعل الخير، ماذا كان سيحصل؟

ما هي أهواء المشركين؟ هم يهوون اختراع الآلهة من أوهامهم ولا يريدون إطاعة الإله الحقيقي الأحد، وبناء عليه لا يرون إلهاً فوقهم يأمرهم بحكمته بما يراه مناسباً وهم يهوون اتباع الشهوات وما يسعدهم ولا يريدون التقيّد بأي شيء مخالف لهواهم السيّء. الآن فكّر لو أنه تعالى تماشى معهم تاركاً لهم حرية التصرّف على هواهم السيّء، لكان تعالى ترك الملائكة(ع) تتصرّف على هواها، والجنّ يتصرفون على هواهم بلا ضابطة، وتصوّر حالة فلتان النظام في الكون! حيث أنت تفعل ما تشاء، ولا تقبل أن تطيع أحداً، وخاصة لا تريد اتباع أوامر إلهك الحكيمة، وتصوّر الآخرين من الناس يفعلون أيضاً ما يهوون، من قتل وسرقة واستعباد وسلطة... ما حجم هذا الفساد!

نتذكّر أننا لسنا وحدنا في هذا الكون، لأنَّ كل الكائنات لها وعي خاص بها، تصوّر الملائكة(ع) على هواها ولا تقوم بأعمالها كما أمرها تعالى، وتستخدم قدراتها علينا وعلى غيرنا من الكائنات كما تشاء! فهل من المنطق أن تطلبوا أيها الناس أن تكونوا أنتم فقط خارج المسطرة الإلهية باتباع الحقّ ولكم الحرية المطلقة لتتبعوا أهواءكم ولا تُحاسَبوا! ولا يأمركم سبحانه بما يجب عليكم فعله وما يجب تركه! ما هذا المنطق! وعلى هذا المنطق لكان تعالى ترك كل الكائنات تفعل ما يحلو لها بالقدرات التي معها، ولم يزودها بما تميّز به الصلاح والخير من الفساد والشرّ... ولكان الفساد والخراب عاماً منتشراً في كل الدنيا!

{بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ}، حيث زودنا الناس ما يخصّهم في استحضار معلومات عن الحقّ، وقام الأنبياء والرسل بتوصيل ما يجعل الناس يستحضرون ربّهم سبحانه وأوامره بالخير ونواهيه عن الشرّ في فكرهم وعملهم، وبدل أن يتذكّروا ذلك بالقدرة المجعولة فيهم لتمييز الخير من الشرّ، {فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ}، عما وصلهم منه تعالى من الحقّ، {مُعْرِضُونَ}، يعتبرونه بلا أهمية!

بعبارة أخرى، الرافضون لما يقوله الرسل هم بكل وضوح رافضون للحق، ورافضون لما يقيدهم فكرياً وعملياً بالحقّ، ويريدون فعل ما يحلو لهم حتى لو كان سيئاً مع العلم أن فيهم القدرة على تمييز الخير من الشر، فهل من المعقول والمقبول أن يترككم سبحانه على هذه الحالة بل ويتماشى مع أفعالكم؟ لو تماشى سبحانه مع ذلك متجاهلاً الحقّ، لخلقكم أصلاً بلا قدرة على تمييز الحقّ من الباطل، ما معنى جعله ذلك فيكم إن لم تلتزموا به؟! وماذا لو تماشى تعالى مع أهوائكم وخلق كل الكائنات بلا رغبة في فعل الخير؟ ستفسد السماوات والأرض وهذه حدود دنيا كل المخلوقات، وستخرب لأنه تعالى لن يهتم بفعل الحقّ، سيكون مثلكم مزاجياً عبثياً... وستفسد المخلوقات التي في الدنيا وتتصرّف على هواها والنتيجة ضرر لجميع المخلوقات، لأنَّ شخصاً واحداً أو مجموعة صغيرة من الأشخاص قرّروا فعل ما يحلو لهم حتى لو كان سيئاً، فأنت تعلم أن النتيجة ستكون كارثية على المحيطين بهم، ومن استطاع منهم الوصول إلى الحكومة والسلطة، أفسدَ محيطاً جغرافياً كبيراً يطال بلداناً.

هل هذا هو مشروعكم الناجح أيها الرافضون للحقّ الذي يقوله رسله تعالى؟!

(أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ{72})
{أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً}؟! هل عبّرت لهم عن إرادتك للحصول على خَرْجٍ منهم؟ وهل سبب تكذيبهم لك أنك سألتهم أن يقوموا بإخراج أشياء من أموالهم وأملاكهم ويعطوها لك؟ هذا شيء لم يفعله الرسل، ولكن الكلام موجّه للمشركين، هل سألكم الرسول أن تعطوه من أموالكم أشياء خاصّة له؟ هل طلب منكم مالاً؟ ذهباً؟ فضّةً؟ أراضيَ؟ بيوتاً؟... فلو طلب منكم هذه الأشياء لنفسه لقلنا بأنكم ترونه رجلاً يريد استغلالكم لتحقيق مصالحه الدنيوية الشخصية، وكان معكم حقّ أن تشكّوا فيه، فالرسول الإلهي ذو المبادئ السامية لا يفعل ذلك.

نلاحظ آيات عديدة أخرى من القرآن نقلت لنا أمراً إلهياً لرسله أن يقولوا للناس بأنهم لا يسألونهم أي أجر، فلا يطلبوا منهم أن يدفعوا لهم مالاً كمقابل على نقلهم الرسالة الإلهية، وراجع في ذلك الآيات 109 و 127 و 145... من سورة الشعراء {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ}، وهنا تعرض الآية نفس المعنى تقريباً، حيث هناك التعبير بنفي الأجر على عمل نقل الرسالة، وهنا نفي طلب الخراج منهم، أي نفي طلبه حصّة من مالهم أو أملاكهم لكونه رسولاً، مثلما يأخذ الملك الخراج من الناس، ومثلما يأخذ العرّافون ورجال الدين أموالاً وأملاكاً من الناس ليتمتّعوا ويبذخوا بها.

{فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ}، لأنَّ ما سيخرجه لك المسؤول عنك من مستوى إلهي، خير من خراجهم، بتعبير أبسط هو أفضل مما يمكن أن يخرجوه لك من مال وأملاك... ولهذا السبب لن يطلب الرسول خَرْجاً من الناس لأنَّ عين الرسول على الخراج الإلهي، وسبحانه أصلاً لم يسمح للرسول أن يطلب من الناس خراجاً شخصياً له أو أجراً، ولا يوجد أي رسول خالف هذا الأمر الإلهي.

{وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}، لأنَّ تأمينه تعالى لما تسدّ به حاجاتك ورغباتك موصوف بأنه خير، وبالمقارنة مع الأب الذي يرزق أولاده، والغني الذي يرزق الفقير... سبحانه حين يجعل معك ما تحتاجه وترغبه مما يرتبط بحاجاتك ورغباتك كإنسان، فهو أفضل مما يمكن أن يؤمّنه الآخرون لك. إذ سيمنّون عليك أو يتعالون عليك... وربما يحتفظون بالأرزاق الجيّدة لأنفسهم ويعطونك مما استغنوا عنه... أمّا سبحانه فيرزق عبيده ويعطيهم الثواب على شكرهم له، ومن ناحية ثانية بقدراته الفائقة سبحانه يمكنه أن يرزقهم ما لا يمكن للآخرين تقديمه، ويرزقهم بما لا ينفد.

بالنسبة لكلمة "خير" في استعمال القرآن، كثيراً ما نستنسب تفسيرها على معنى "أفضل"، وأحياناً يصدق هذا المعنى بالتبعية من فحوى الكلام، ولكن بعض الاستعمالات القرآنية لنفس الصياغة تريك أنه لم يقصد بكلمة خير أن تكون رديفاً لكلمة أفضل، وكمثال واضح عن ذلك ما ورد في الآية 16 من سورة العنكبوت {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، لأنَّ مرادفتها بأفضل في أمثال هذه الآية سيعطيك معانيَ غير دقيقة بل وغير مقبولة إلا إذا حملت معنى الأفضل على عموم المقابلة بين الأسوأ والأحسن، ولكن هذا ليس معناها بل هذا معنى كلمة خير، وكلمة "أفضل" في أشعار العرب قبل الإسلام محصورة بين الحسن والأحسن، فلو قلت إنَّ الإيمان أفضل لكم فهذا يعني أنَّ الكفر حسن والإيمان أحسن، لا، لأنَّ الإيمان خير لكم مما يعني ضمناً أنَّ الكفر سوءٌ لكم.

لم يستعمل القرآن كلمة أفضل بتاتاً، واستعمل التعبير بالخير وهو أوسع بالمعنى، حيث يقابل الشرّ كما في الآية 11 من سورة النور {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...}، واستعملها بمعنى ما يقابل الحسن فالآخر أحسن وليس شرّاً، كما ورد في الآية 271 من سورة البقرة {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ...}، فإبداء الصدقة ليس سوءاً وإنما إخفاؤها أحسن، وهنا يمكن استعمال كلمة أفضل.

يعني لا ترادف "خير" بـ "أفضل"، لأنهما في بعض سياق الكلام يتقاطعان تطبيقياً حيث يكون اللذان تقارن بينهما كلاهما جيدين، عندها يصدق قول خير أو أفضل، ولكن حين يكون الكلام عمومياً يشمل ما كلاهما جيدان ويشمل أيضاً ما أحدهما جيد والآخر سيء، ويشمل الوصف مطلقاً بمقارنة الحسن مع مطلق الوصف بالحسن، حتى لو لم يكن هناك طرف آخر للمقارنة والمقارنة مع مطلق الوصف، كوصفه تعالى بخير الرازقين وخير الحاكمين... هو تعالى بالمقارنة مع وصف الحسن مطلقاً كرازق وحاكم فهو خير موصوف بذلك، فكلمة أفضل ليست وصفاً صحيحاً لهذه الحالات وكلمة خير صحيحة.

(وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{73})
{وَإِنَّكَ}، أيها الرسول، {لَتَدْعُوهُمْ}، تُشْهِر وتعلن لهم، {إِلَى صِرَاطٍ}، إلى طريق أساسي، {مُسْتَقِيمٍ}، يوصف بأنه على الأحسن فلا انحراف فيه، لأنك تنقل رسالة إلهية صحيحة وهي حقّ وصلاح، وتوصل إلى مرضاته تعالى وإلى الجنة، وتدعوهم ليكونوا على هذا.

لو كانت دعوتك لهم إلى فساد وشرّ وكلام باطل، لكان معهم حق في الاعتراض عليك وتكذيبهم لك، ولكن ما الذي تدعوهم ليكونوا عليه؟ التوحيد الواضح من آيات خلق ما في الدنيا، والحقّ والعدل والبرّ بالوالدين والأقربين والصدقة ومساعدة المحتاجين وحفظ الأمانة... هل هذا إلا صراط مستقيم؟ فعلى ماذا يُكَذِّبُونَكَ؟ وما هو الذي يَرْفُضُونَهُ؟

الآية هنا هي مختصر كل كلام القرآن معنا، لأنَّ كل كلام القرآن عن دعوتنا لما نراه نحن خيراً وحقّاً، هذا إن كان قلبنا سليماً، وكان أساس فكرنا ونفسيتنا سليماً، إذ سبحانه لا يعرض علينا الإيمان والالتزام بشيء غريب أو شيء لا يقبله عقلنا ونفسيتنا، أو شيء نراه سيئاً... ويعرض تعالى علينا معلومات عنه وعمّا فعله وسيفعله مع الأدلة التي ترينا أنها حقّ وصدق، فكل كلامه تعالى عن الإيمان والعمل الصالح ملتصق بتبريرات وأدلة على صدقه وصلاحه.

هذا هو المستند لكلامه تعالى واصفاً إيَّانا على حالنا كمتقين أو أسوأ من الأنعام أو بين الحالتين، حيث نحن كل واحد منّا له فكره ونفسيته في تعاطيه مع الأمور، وكلّنا فينا قابلية تمييز الخير من الشرّ، وآيات خلقنا وخلق ما في الدنيا ملموسة وأمامنا قبل أن نسمع أي كلام منقول عنه تعالى، وبناء عليه يكون كتابه تعالى هدى للمتقين، لأنهم بالأساس موصوفون بالتقى، أي بتجنّب السوء وهذا هو نفسه صفة تجنّب مخالفة أوامره تعالى، وهو نفسه صفة تجنّب غضبه وعقابه سبحانه...

بناء عليه، لنقل إنَّك تشعر برغبة في الكفر وترك ما يقوله هذا القرآن، فكن صادقاً مع نفسك وانظر فيما ترغب بفعله وينهاك عنه تعالى، هل هو سيّئٌ ورغم ذلك ترغب بفعله؟ وانظر فيما أمرك تعالى بفعله، هل هو سيّئٌ ولذلك ترغب بترك الإيمان والالتزام؟

أي شيء تراه سيئاً وتظن بأنه من دينه تعالى، فأنت أمام حالة من حالتين، إمَّا أنت متعلّق به وترغبه وتتعامى عن سوئه، وهذه عادة حالة الكافرين بدينه تعالى، وإمّا هو شيء لم يقله تعالى، وهذه هي الحالة الغالبة العامّة التي تصيبنا نحن المنتمين لدينه تعالى، حيث لدينا عقائد وفتاوى وسلوكيات وأدبيات... سيئة ومعروضة علينا على أساس أنها دينه تعالى.

حتى لدينا كلام سيّئٌ ومنسوب له تعالى كتفسير لقرآنه سبحانه، كفتاوى قتل الأبرياء، فراجع في دراستنا هنا أي آية تعتقد أنها تقول شيئاً سيئاً لترى تفسيرها وبعد ذلك احكم عليها، واحكم عليّ في تفسيرها، لأنها موجّهة لك مثلما هي موجّهة لي، ودراستها واجبة عليك مثلما هي واجبة عليّ.

كلام الآية هنا عن الرسول أنه يدعو إلى صراط مستقيم، وهذا يستند على كون الرسول ملتزماً حرفياً بما ينقله عن الإله سبحانه، لأنَّ كلامه حتماً حقٌّ لأن كلامه تعالى هو الحقّ، ومستند إلى نفس الصفات التي في الرسول والتي لأجلها اختاره تعالى ليكون خليفة له بين الناس، لأنه كاره للسوء ورافض له ولن يفعله عن قصد... وفيما يخص تبليغ الرسول كلامه تعالى للناس لدينا ضمانة إلهية بأن الرسول سيوصل كلامه تعالى لنا بالحرف...

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ{74})
{وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}، لا يعتقدون، {بِالْآَخِرَةِ}، بالحياة التي ستأتي في الآخر بعد الحياة الدنيا، ولا يؤمنون بالقيام من الموت والعودة إلى الحياة مرّة ثانية، هم، {عَنِ الصِّرَاطِ}، عن الطريق الأساسي، {لَنَاكِبُونَ}، إذ لهم مناكب أخرى غيره، وسياق الكلام عن أنهم لا يمشون على الصراط المستقيم الذي تدعوهم إليه أيها الرسول، لأنهم عنه ناكبون ولهم مناكبهم الفاسدة، وهم على طرق أخرى، ويفعلون ما يشاؤون حتى لو كان سيئاً ولا يهمّهم الحساب في الآخرة لأنهم لا يؤمنون بها.

عملياً، في الآخرة هناك طريق "صراط" ملموس يمشي عليه أهل الجنّة لدخولها، والكافرون مثلما هنا "معنوياً" عن الصراط المستقيم ناكبون عنه سالكين سبل الكفر وسوء العمل، فهم هناك في الآخرة أيضاً على صراط غير مستقيم "معنوياً وعملياً" لأن اعتقادهم وأعمالهم لن توصلهم إلى الجنّة.

سنفهم الكلام بشكل أسهل إذا قاربناها مع كلام القرآن أحياناً بلا تفريق بين عذاب للكافرين في الدنيا أو الآخرة، لأنَّ بعض الآيات شملتهما معاً، حيث واحدة كنتيجة محتملة تصيب الكافرين، والأخرى نتيجة حتمية ستصيبهم في الآخرة، وفرضاً أصابهم الاثنان معاً، فكلاهما عذاب، ولذلك في بعض الآيات تجد صعوبة لمعرفة أي عذاب تقصد، لأنها تقصدهما معاً.

هنا نفس الشيء بالكلام عن الصراط، لأنه نفسه في الآخرة "معنوياً ومادياً" ما كانوا عليه في الدنيا "معنوياً، ومادياً كتحقيق عملي للأفعال الباطلة"، وسياق الكلام في الآية السابقة والكلام في الآية التالية، يجعل الآية هنا رابطة بين ما يدعوهم إليه الرسول هنا في الدنيا لصراط مستقيم "معنوياً وعملياً بالأفعال"، وبين ما هم عليه هنا في الدنيا كناكبين عن الصراط المستقيم "معنوياً ومادياً بالأفعال"، وبين ما سيكونون عليه في الآخرة معنوياً بتصنيفهم سيّئين وكترجمة للنتيجة مادياً بدخولهم النار ونكوبهم عن الصراط المؤدي إلى الجنّة.

الصورة تنطبق على مشهد من الآخرة حيث لن يكونوا على الصراط المؤدّي إلى الجنّة، لأنهم ضالون معنوياً لأنهم كافرون وضالون مادياً لأنهم عاملون للسيئات، وهي على معنى الآية 8 من سورة سبأ {أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ}، وهي على المعنى المعاكس للآيات التي ربطت الهدى هنا بالهدى في الآخرة، كما ورد في الآية 9 من سورة يونس {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}.

كما ترى، كلامه تعالى لا يفرّق بين ما نحن عليه هنا وبين ما سنكون عليه في الآخرة، فالذي على الصراط المستقيم هنا، في الآخرة هو على صراط مستقيم كما ترى من الآية 175 من سورة النساء {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}، لأنَّ الكلام عن وصف حالة الإيمان والعمل الصالح، وهو نفسه عملياً تطبيقياً الكلام عن طريق دخولهم الجنّة.

ستجد في القواميس واستعمال العرب قديماً لكلمة نكب ومنها منكب "مثل كتب ومكتب..."، أنها لمعنى عامة العدول والميل كسلوك لطريق غير الطريق الآخر، وهي مختلفة عن كبا يكبو التي لعامة الوقوع، وما توارثناه عن الصراط كطريق فوق جهنّم يمرّ عليه المؤمنون إلى الجنة، ويقع عنه أهل النار في النار... عادةً يذكرون آيتنا هنا له، وكما ترى، هذا المعنى غير سليم للآية، ولا توجد آية أخرى في القرآن تعطي المعنى المنتشر في ثقافتنا عن الصراط كجسر فوق النار، بل الكلام القرآني عن الآخرة يوصّف جهة يمين فيها المؤمنون لناحية الجنّة، وجهة شمال فيها الكافرون لناحية حفرة النار، ويمرّ المؤمنون بالقرب من حفرة النار أثناء مرورهم إلى الجنّة، وهذا ما تفهمه من الآية 71 من سورة مريم {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا}، لأنَّ ورودها هو المرور بقربها أو من ناحيتها، وراجع دراستها.

الآية 66 من سورة يس {وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ}، كلامها عن فقدان الكافرين لأي قدرة في الآخرة وأنهم تحت أمره تعالى فيهم، حيث هي افتراض وصف حالة محاولة الكافرين الدخول إلى الجنّة، كمحاولة منهم للابتعاد عن حفرة النار لسلوك الطريق الذي يؤدي إلى الجنة، وهذا لن يحصل لأنَّ هناك حاجزاً يمنعهم من ذلك كما تقرأ في الآية 46 من سورة الأعراف {وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ...}، وآية سورة يس تفترض فقط محاولتهم دخول الجنّة بالقوة أو الحيلة، وكلامها أصلاً لا يساعد على تصوّر الصراط كجسر فوق النار كما يقولون، ما معنى محاولتهم الوصول للجسر المؤدّي إلى الجنّة إن كان الجميع سيمر عليه وهم سيقعون عنه؟ إذ كلامها صريح عن محاولتهم الوصول إلى صراط يوصلهم للجنة.

تختلط الصور للمشهد مع اختلاط المعاني غير الصحيحة لبعض التعابير، حيث إنَّ الغالبية يفهمون تعابير القرآن عن أبواب لجهنّم وللجنّة أنها مثل باب البيت، أو كباب في سور مدينة، بينما الباب وصف لعموم أي ممر حتى لو لم يكن كشيء تشير له، كالتعبير الوارد في الآية 11 من سورة القمر {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ}، لأنَّ الجنّة بِسَعَةِ السماء والأرض كما تقرأ في الآية 21 من سورة الحديد {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...}، وأقرب صورة لها بالنسبة لمعطياتنا الحالية المبنية على ما نعرفه عن كوننا أنها ككواكب في مجرات، وذلك في مقابل تصوّرها ككوكب ضخم كما يبدو من غالبية موروثنا الثقافي، أمَّا الصورة المنتشرة في ثقافتنا عن مكان واحد لكل الجنّة، وفيه أبواب للمرور إلى أماكن مغلقة على الذين من الدرجة المنخفضة... فهذا لن تجد ولا آية تخبرك به، وهو لا يتماشى مع عموم كلام القرآن عن تلاقي وتخالط جميع من في الجنّة ساعة يشاؤون، وأصرحها الآية 21 من سورة الطور {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}، إذ كل واحد منهم يشعر بأقصى السعادة التي لا يتصوّر فوقها سعادة، وكل واحد منهم درجة سعادته مرتبطة بدرجة إيمانه وعمله الصالح، وفعلياً هناك من يشعر بالسعادة أكثر من الآخرين... ولكل واحد منهم أماكنه الخاصة... والمؤمن من الدرجة العالية يلتحق به أهله المؤمنون من الدرجة المنخفضة ليعيشوا مع بعض أو ليقيموا الحفلات... ولا تتغيّر درجة سعادة أي واحد منهم فكل امرئ بما كسب رهين.

على أي حال ليس مهمّاً إن كان هناك صراط كجسر فوق النار أم لا، فالنتيجة واحدة، ولكن المهم هو الالتزام بالمعاني الصريحة لما يقوله تعالى، لأنَّ تفسير كلامه تعالى بما يناسب تصوراتي بعيداً عن المعنى الصريح للكلام القرآني الصريح، هو المشكلة، حيث لا يكون التفسير الفاسد لبعض الآيات ذا نتائج عقائدية أو تشريعية مضرَّةٍ بالإيمان بشكل

مباشر وقوي، كالحالة هنا بالكلام عن وجود ممر كجسر فوق جهنم أو لا، سواء أكان أم لم يكن فالنتيجة واحدة والاختلاف فقط في تصوّر المكان... ولكن يبقى الضرر من ترسيخ ثقافة التلاعب والتهاون في فهم كلامه تعالى، وهذا حتماً في آية ما سيؤدي إلى ضرر من العيار الثقيل في العقيدة أو الشريعة والسلوكيات بسبب التلاعب والتهاون في معاني آيات تطبيقاتها خطيرة، وهو فعلاً ما تجده مُنتشِراً في التفاسير والكتب والمقالات...

(وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ{75})
{وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ}، لو اعتنينا بهم لما فيه مصلحتهم فلم نعذّبهم، {وَكَشَفْنَا}، رفعنا، أزلنا، {مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ}، وغيّرنا حالهم السيِّئ إلى الأحسن، {لَلَجُّوا}، لدخلوا وتوغّلوا، {فِي طُغْيَانِهِمْ}، في تخطّيهم لحدودهم، والكلام عن فعلهم السوء، {يَعْمَهُونَ}، بدون أي وجهة محدّدة، وبأي اتجاه متاح سيذهبون، وبأي شيء يقع أمامهم سيتعدّون حدودهم.

كلام الآية عمومي يصدق على أي نموذج، لو هنا في الدنيا أصابهم عذاب وكشفه تعالى عنهم، فإنَّ الأكثرية الساحقة سيرجعون كما كانوا طاغين كما تفهم من الآية 32 من سورة لقمان {وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ}، وكما نفهم من النموذج في الآية 65 من سورة العنكبوت {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ}، وفي يوم القيامة لو عادوا إلى دار تكليف كالتي كانوا فيها في الدنيا فكلّهم سيعودون طغاة كما كانوا، وتقرأ هذا في الآية 28 من سورة الأنعام {... وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ...} وسيأتي الكلام عنه هنا في السورة في الآية 99 وما بعدها.

إذاً هذه هي حالة الذين يكفرون بالرسول الإلهي الداعي إلى صراط مستقيم، لأنهم مصرّون على طغيانهم حتى لو أصابهم عذاب يحتاجون فيه للقدرة الإلهية لتخليصهم منه، ولو نجوا من العذاب لعادوا لطغيانهم.

يعني لا حلّ مع هذه النوعية من الناس طالما هم يتمتعون بحرية الإرادة والاختيار لأنهم دائماً سيختارون الكفر والسوء.

(وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ{76})
{وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ}، بعض النماذج منهم فعلاً لم نتركهم مرتاحين وعرّضناهم لما يضرّهم، {فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ}، لم يتوجهوا إلى المسؤول عنهم من مستوى إلهي طالبين الحصول على الهدوء والتخلص من الاضطراب، {وَمَا يَتَضَرَّعُونَ}، ولا يظهرون له تعالى حاجتهم الشديدة له بالدعاء الباكي والصوت الحزين. فعلاً حصل العذاب لنماذج منهم ونجّاهم تعالى منه، ولكن النتيجة المتوقعة حصلت، لأنهم بقوا كما كانوا طاغين.

الآيات هنا تجاوزت عن حالة الذين يتضرعون له تعالى لينجيهم وبعدها يعودون ليشركوا، وركّزت فقط على حالتهم من بعدما يتخلصون من العذاب حتى لو لم يدعوه تعالى، لأنهم لن يؤمنوا.

الكلام يريك نفسية وعقلية هؤلاء المشركين المجرمين أنها ليست شيئاً مؤقتاً، لأنها دائمة معهم ولن تتغيّر، إذ لديهم قرار راسخ ثابت بالكفر ولن يتغيّر، وعندما تضع هذا في بالك ستفهم أن الخلود المؤبّد لهؤلاء في النار، هو شيء يستحقّونه، لأنهم ولا بأي طريقة سيؤمنون، وطالما هم يتمتعون بحرية الإرادة والاختيار فسيختارون الكفر، ولو بعد مرور مليارات السنين من العذاب، وخروجهم منه، فلن يتغيّروا وسيعودون للطغيان، لأنهم مصرّون على الكفر والمعصية، ولذلك كان عقابهم الخلود في جهنّم.

(حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ{77})
هم لن يستكينوا ولن يتضرّعوا حين يشعرون بالراحة والأمان:

{حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا}، وهذا سيحصل فعلا عند دخولهم إلى جهنّم، {ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ}، حيث يكون بابا موصوفا بالضرر الشديد لمن دخله، {إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ}، وعندها يشعرون فعلا بأنهم لا خلاص لهم من هذه الحالة السيّئة.

كما ترى الآية لم تذكر نار الآخرة مع أنها فعلا التي سيدخلونها، وأبقت كلامها عموميا لوصف حالة إصرارهم على الطغيان طالما سنحت لهم الفرصة، حتى لو تعرضوا للعذاب كعقاب على طغيانهم، ونجوا منه، لعادوا إلى طغيانهم

حتى لو مرة ثانية وثالثة ورابعة... نجوا من العذاب لعادوا كما كانوا طاغين، ولا حلّ معهم، ولذلك نهايتهم إلى عذاب {هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ}، وسيشعرون فيه بأنه لا خلاص لهم منه.

(وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ{78})
أنتم تتمتعون بحرية الإرادة والاختيار لأنه هو تعالى منحها لكم، وأنتم مصرون على استعمالها بالكفر بالذي منحها لكم وبتكذيب كلامه المنقول عبر رسله، وتطغون...

{وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ}، فمن شيء سابق كوّن سبحانه لكم، {السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ}، فصارت المعلومات عمّا حولكم تدخل إليكم عبر الأذنين والعينين مع وعي وفهم للأصوات والصور، وجعل لكم {الْأَفْئِدَةَ}، واستعمل القرآن كلمة "فؤاد" بمعنى ما يرادف بشكل ما تعبيرنا الحالي: الوعي الإدراكي الناشئ عن الوعي للذات. وهو قابلية وعي النفس ووعي ما يصل من الحواس. وهي المسببة لوعي الصوت والصورة وعموم بقية ما يصلكم، وبالفؤاد اختلفتم عن آلات تسمع وترى مثل آلات التسجيل والكاميرات، ولديكم فؤاد فلديكم القدرة على وعي وإدراك معنى ما ترونه والإحساس به... وكمثال تقريبي عمّا تقصده الآية قارن بيننا وبين الأغنام التي تنتظر دورها في المسلخ، حيث ترى مشهد موت من سبقها ولا تفهمه مثلما نحن نفهمه، وأكثر ما تفهمه أن من سبقها توقّف عن الحركة، وهي تتوقّع أنه سيتحرك بعد قليل... أمّا نحن فلدينا فؤاد ولدينا وعي لمعنى ما نراه، ونفهم معنى مشهد سبب الموت بشكل كامل. طبعا هذه المقارنة فقط لمقاربة الفكرة لأنه لا علم لي بحقيقة ما تفهمه الأغنام من مشهد موت حيوان آخر أمامها...

كما ترى الفرق الشاسع بين الحيوانات وبين ما في كل الكون الذي نراه هو الحواس، وخاصّة حاستي السمع والبصر، كأبرز نموذج عن دخول المعلومات من الخارج إلى الذهن، حيث هناك حاسة التذوّق واللمس والشمّ وإدراك الاتجاه... والفارق الكبير الذي يتفرّد به الإنسان عن كل بقية الكائنات التي نراها "نحن" في الكون هو الفؤاد، هو الوعي والإدراك والفكر والمشاعر للمعلومات التي تدخل من حاستي السمع والبصر كأبرز نموذج عن بقية الحواس.

{قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}، لأن الحاستين "السمع والبصر" والوعي الإدراكي للمدخلات "الفؤاد" هي نعمة كبيرة جدا جدا، ونحن الناس قليلا ما نعلن أننا حصلنا على أمور جيدة منه تعالى، وبعضنا لا يشكر، ولكن حتى من شكر فبمقدار قليل يشكر، ومن بذل جهده ليشكر فسيبقى مقصرا ولن يفيه تعالى حقّ الشكر على نعم هائلة القيمة.

إذًا، نحن وبقية الحيوانات التي لديها سمع وبصر، كيف حصلنا على هاتين الحاستين؟ انظر إلى الكون من حولك، واشرح لي كيف حصلت الحيوانات على هذا، والسؤال الأكبر: من حدّد المعنى لهذه الظواهر؟ وفكّر فيها بأنه لم يكن يوجد شيء، ولا شيء، ما معنى الرؤية والسمع والوعي؟ ومن هنا فكّر من قبل أن تشعر بأن هذه الحواس منتشرة متفرقة بين الحيوانات الكثيرة، وفكّر فيها الآن ومن قبل، واسأل عمّن ابتدع مسألة البصر والسمع والوعي، ومن جعلها في الحيوانات، ومن جعلها من التركيبة الملتصقة بحياة الحيوانات.

نحن اخترعنا آلة التصوير، الكاميرا، ولكنها تقليد لأعيننا، ولم نبتكر فكرة الرؤية، لأنها موجودة ونعرفها، والآن فكّر في لا شيء موجود، والإله سبحانه صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا مع القدرة على الرؤية، والبيئة من حولنا متنوعة الأشكال والألوان ولها عمق وفيها حركة... وهذه أمور تجعل الرؤية لها معنى، من خطّط وصمّم هذا؟ ومن جعل لنا فهما ووعيا لما يجري؟ الكاميرا ترى وتسجّل ولكنها لا تعي ولا تتفاعل مشاعرها مع المشاهد، من اخترع مسألة التفاعل مع المشاهد؟

حينما تسمع حديثا من بعض المتذاكين حول نشوء الحياة في الكون بالصدفة على الأرض، لأنه يوجد تريليونات تريليونات الكواكب، ومن الطبيعي أن تنجح الحياة على سطح واحد منها بسبب تفاعل المواد مع بعضها، وأن هذا حدثٌ يجب أن يكون تكرّر على كواكب أخرى... فهذا الكلام يحمل سخافته في داخله والآيات تشير إلى سخافته، انظر إلى الحاسّة كحاسّة، وإلى الوعي والتفكير، حيث يمكن بتبسيط طفولي أن نفهم تركيب المواد والصخور فوق بعضها بسبب العوامل لتصنع شكلا ما، لتصنع كوكبا قمرا شمسا... ويمكن أن نفهم أن المواد تترابط وتتناسخ كيميائيا لتنتقل من طور لطور، وهذا شيء موجود ونفهمه، ويدل بسهولة على الإله الذي صمّم وخلق المواد وخصائصها... ولكن "الحياة" والحواس هي شيء خارج عن بساطة تركيب قصر من رمل، وكوكب، ومجرّة.

أشار القرآن إلى خروج كل الكائنات نباتا نموا من التراب والماء، يعني هي تراكيب من هذه المواد، من كاربون وحديد وكالسيوم... ونحن الآن نفترض أن التراكيب الكيميائية الأولى "بوليمرات" كانت تتناسخ وتتلاءم مع بيئتها حتى صارت تشبه الخلية، وصارت بشكل ما توصف بكونها بيولوجية "أحيائية"، والتي بدورها كانت تتناسخ وتتناسب مع بيئتها... حتى صار هناك كائنات، وهذا حصل من تصميم وتخطيط إلهي، ومعرفتنا بكيفية آلية حدوث الحياة لا تعني أنها لوحدها حدثت، بل هو تعرّف على الآلية التي صمّمها تعالى لتنخلق منها الحياة، وإدخال البصر والسمع والفؤاد إلى تصميمنا هو ما تشير إليه الآية هنا.

الخلاصة أن حالنا من إيمان أو كفر، وعمل صالح أو طغيان، هو ناشئ من تمتعنا بقدرات ممنوحة منه تعالى، وأبرزها من الحواس السمع والبصر، والفؤاد كوصف لوعينا الإدراكي، ومن هذا يصير لدينا حرية إرادة واختيار.

(وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ{79})
{وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ}، نشركم كأفراد، {فِي الْأَرْضِ}، بما منحكم سبحانه مما جعلكم واعين مدركين، وبالتالي صار لديكم حرية إرادة واختيار، وبعضكم اختار الكفر وآخرون اختاروا الإيمان، وبهذه الصفات والقدرات جعلكم تعالى تخرجون إلى الحياة كأفراد على الأرض.

{وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}، حيث يتم جمعكم إليه تعالى بعد أن تنتهي حياتكم على الأرض بقرار منه سبحانه سواء قبلتم أو رفضتم، فلن تفنوا ولن تختفوا حين تموتون، بل سيتم حشركم جمعكم كلّكم إليه تعالى ليحاسبكم ويجازيكم.

بعبارة صريحة ها يخبركم من أخرجكم إلى الحياة بوعي إدراكي أنكم من بعد موتكم سيحييكم وسترجعون إليه.

مع أن الآيات هنا تقصد لفت انتباهنا للصفات التي في خلقتنا والتي ينتج عنها كفر أو إيمان، وأنها من نتيجة تصميمه تعالى، وأنه في النهاية على حياتنا حساب ومجازاة في الآخرة، ولكنها بالطريق كلام عن خلقتنا الذي يدل عليه تعالى، لذلك نتوسّع في معنى كلامه تعالى عن خلقتنا بالمقارنة مع ما يقوله الكافرون، ومرّ معك في السورة كلام عنه، وسنعيده هنا بلفت الانتباه لطريقة خلقه وإنشائه سبحانه لما في الدنيا، حيث سبحانه خلقها على ست مراحل "ستة أيام"، وخلقنا نحن البشر فيها متسلسلين من تراب... وهذا الكلام عن مراحل هو ما يطرحه القرآن ويمكن لأي إنسان عادي أن يفهمه، أمّا آليات حدوث الأشياء، فلم يدخل القرآن في تفاصيلها بشكل مباشر واكتفى بذكر بعض المراحل، واكتشافنا لآليات نشأة الكون بمعرفة القوانين الفيزيائية التي حكمت المادة ليتشكّل الكون... وبعدها اكتشافنا لآليات نشأة الحياة من جذورها بعد أبسط تركيب كيميائي... هذا لا يعني أكثر من التعرّف على آلية تنفيذ تصميمه تعالى بما يمكننا نحن فهمه.

الفهم الساذج الطفولي لكلامه تعالى عن خلق السماوات والأرض وإنزال المطر وخلق آدم(ع)... سبّب لنا مشكلة تعارض تفسيراتنا مع تطوّر علومنا، حيث ترسخّت فينا ثقافة ورثناها ولم نعد نقبل تغييرها، وهي مختلفة عن حقيقة كلامه سبحانه، ها أمامك كتاب منه تعالى، فاقرأه راميا مخزون التراث الثقافي الديني لترى فهما مختلفا عمّا تعلمه، وها دراستنا أمامك تعرض عليك كلامه تعالى كما هو بمعناه الحرفي، طبعا على قدر ما استطعت التحقيق فيه وعلى قدر الخروج من موروثي الثقافي، وصرت ترى الفرق بين "كن فيكون" الدارج بيننا على معنى الفورية بلا أسباب ولا آليات ولا مراحل، وبين معنى حتمية حصول ما يريده تعالى، الفرق هائل بين المعنيين، فلا ما في الدنيا قال له تعالى: كن، فكان فورا، ولا آدم(ع) خلقه تعالى من تمثال من طين فورا، ولا المطر ينزل بلا سبب إلا لأنه تعالى أمر... بل تحصل الأمور حتما لأنه تعالى أمر بحصولها، ولكنها تجري على أسباب ومراحل بحسب ما يناسب تكوينها. ولنقل إنه سبحانه قادر على خلق ما في الدنيا فورا وبلحظة بكل ما فيها "هذا إن كانت الأمور تتقبّل ذلك"، ولكن ما معنى هذا؟ وما معنى أن تخرج البشرية كلّها فورا إلى الحياة مع بعض؟ وما معنى أن يتخطّى سبحانه خلق "الدنيا" الأولى لينتقل فورا إلى الآخرة لأجد نفسي فورا وأول مرّة أفتح فيها عيني، فأجد نفسي في جهنّم لأنه تعالى يعلم أني لو مررت في الحياة الدنيا سأكون كافرا!

أطلت عليك هنا بعرض مختلف عمّا ذكرناه سابقا في السورة، ففكّر في معنى فورية حصول الأشياء من دون ترابط مع شيء سابق، وستجد أنه لا معنى له، وما يقوله علماء الفلك والفيزياء والبيولوجيا عن نظريات وفرضيات عن نشأة

الكون والحياة، هذا لا ارتباط له بأي شيء ديني لنرفضه أو نقبله، نحن كمؤمنين وبناء على مفاهيم كلام ربّنا سبحانه، نرى كلامهم بحثا عن آليات فعله سبحانه للأشياء.

نعم، رفض كلامهم له ارتباط بما قاله الكثيرون من المنتسبين لدينه تعالى، لأن هؤلاء فسّروا كلامه تعالى بطفولية وسذاجة، وعلقوا هناك ولم يتطوّر فهمهم لكلامه تعالى ليروا مدى روعة البحث عن آليات تنفيذ تصميمه تعالى... وصار كلامهم هو الدين، وكلامهم متعارض مع معطيات علمية فكرية أو تجريبية، وهكذا صار بين الدين والعلوم تعارض...

(وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ{80})
{وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي}، حيث يعطي الحياة فتصير الكائنات في حالة فعل وانفعال... {وَيُمِيتُ}، حيث يأخذ الحياة فتفقد الكائنات حالة الفعل والانفعال، {وَلَهُ}، تعالى، {اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}، تعاقب وتداور بحيث يذهب الليل ويأتي النهار، وترى المعنى واضحا لكلمة "اختلاف" في كلمة "خليفة" حيث ذهب الرئيس وجاء خلفا له رئيسٌ آخر... حيث تأتي ظاهرة العتمة محلّ ظاهرة الضوء، ثم تأتي ظاهرة الضوء وتحلّ مكان العتمة... هذه الظاهرة له تعالى، وهي منسوبة له لأنه هو صمّمها ونفّذها وجعلها تتكرّر ولم تحصل لوحدها.

{أَفَلَا تَعْقِلُونَ}! لماذا لا تستوعبون هذه الظواهر التي ترونها من حولكم وهي تدلّ على خالق صمّمها ونفّذها وجعلها تستمر!

في الآية السابقة توسّعنا في مفاهيم الآيات التي تتحدّث عن أفعاله سبحانه، وهنا بالنسبة لإحيائه تعالى وإماتته للكائنات، فالكلام عن الحالة التي نحن فيها الآن، حيث أحياني سبحانه وسيميتني، وآلية حصول ذلك عبر ولادتي فأحيا، وتعطّل جسدي فأموت، تصوّر نفسك أنت صمّمت وخلقت كائنات في بيئة، وجعلتها تتوالد وتتكاثر، ويخرب جسدها وتموت، من أحياها ومن أماتها؟ كما ترى آليات حصول الحياة والموت تجري بأسبابها التي صمّمتها وقرّرتها وخلقتها أنت، ومن هذه النظرة مع الفارق الهائل بين قدرتك على تصميم وخلق بيئة وكائنات، وبين قدراته تعالى الفائقة، من هذه النظرة يلفت سبحانه انتباهك للظواهر، وهناك عمق سحيق في تعامله تعالى مع الأمور بشكل يختلف عن تعاملنا السطحي معها، وخذ مثلا عندما أعطى سبحانه النبي عيسى(ع) القدرة على خلق الحياة مباشرة من تماثيل طينية لطيور... راجع الآية 110 من سورة المائدة {... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي...}، النبي عيسى(ع) مخلوق حصل على قدرة منح الحياة من الإله سبحانه، وهو (ع) لم يخلق المادة ولا خصائصها... وحين دبّت الحياة في الطين وصار طيورا هو (ع) ليس له ارتباط ببقائها حيّة... وإذا مات فهي لن تتأثّر، بينما كل شيء في الدنيا سيتأثر بل سيزول إن لم يستمر سبحانه بالمحافظة عليه كما تقرأ في الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}، وقبل ذلك كلّه النبي عيسى(ع) لم يصمّم الحياة الطينية من أصله، هذا اختراع إلهي كبدعة من لا شيء وفقط من تصميمه سبحانه.

ربما نحن وبدون منحة إلهية إضافية عمّا معنا من قدرات، بفكرنا وبتجاربنا ربما نصل إلى القدرة على خلق الحياة في المواد، وربما سنستطيع إعادة الحياة إلى الأموات، وهذا متعلّق بمدى معرفتنا لآليات حصول الأمور، ومدى ما سمح به تعالى لنا بالقدرات التي منحها لنا. النظرة القرآنية لهذا الموضوع لا تختلف عمّا حدث على يدي النبي عيسى(ع)، المشكلة عند المتدينين في طفولية فهمهم لكلامه تعالى، والمشكلة عند الآخرين في دمج ما يقوله المتدينون مع كلامه تعالى، ولا عذر لهم بذلك لأن العقلانية واضحة من كلامه تعالى في قرآنه هذا، والمتدينون بعضهم يقول: هذه شؤون إلهية يفعلها سبحانه بنفسه ومباشرة بلا آليات لحصولها، على معنى كن فيكون "فورا". وآخرون يقولون إننا لا يمكننا تقليد أفعاله تعالى لذا لا يمكننا خلق كائن حيّ إلا إذا منحنا سبحانه بشكل استثنائي القدرة على ذلك. وآخرون يقولون إننا ممنوع علينا محاولة تقليد أفعاله سبحانه، وهذا حرام وكفر وعليه عقاب... وغيرهم يجحدون ويمارون فيقولون إنَّ ما نعرفه من آليات حدوث الأمور ليس صحيحا، وبخاصة في موضوع نظرية النشوء والارتقاء "تطوّر الأنواع".
ويقولون ويقولون...

هذا هراء، هذا كلامهم هم وليس كلامه سبحانه، حيث إنه من غير المعلوم لنا حدود ما يمكننا فعله بالقدرات الممنوحة لنا منه تعالى، وقد نتمكّن من خلق كائنات أو إعادة الحياة لها، ولم يخبرنا سبحانه عن آليات حصول الأمور بل أخبرنا عن بعض مراحل البعض منها، وحفّزنا بذلك على البحث عن آليات حصول الأمور للاستفادة منها...

القاعدة الأساسية أنه تعالى أكثر من الكلام معنا عن آيات خلقه لما في الدنيا بما يمكننا فهمه بمعطيات بسيطة، بمجرد الالتفات لانحصار المواد في بيئتنا بالتراب والماء، تفهم أننا مخلوقون من طين، وها ترى الليل والنهار يتعاقبان، وترى الشروق والغروب... غالب الكلام القرآني مع إنسان عادي متوسط الفهم، والقليل من الكلام القرآني يحتاج لدراسة وتركيز انتباه، وهناك كلام قرآني قليل عن أمور أخرى كالسماوات السبع والملائكة والجنّ... وإمكانية البشر للنفاذ في السماوات... وبعض أفعال غير عادية فعلها بشر سابقون كالكلام مع الحيوانات وإحضار شيء من بلد آخر برمشة عين... وهي أمور تريك أن المتكلم إله نظرته أوسع من المعطيات التي مع أي إنسان في أي زمان، وهي أمور تستفزّنا لنفتح أفقنا ونرى عظيم قدراته تعالى وروعة ما تزوّدنا به...

لست أقول إننا في يوم من الأيام سننفخ في التماثيل لتصير حيّة كما فعل النبي عيسى(ع)، ولا أقول إننا سنضرب بعصانا البحر لينفلق كما فعل النبي موسى(ع)... ربما نتمكّن من ذلك وبنفس الطريقة، لأن سبحانه قد يكون جعل فينا قدرة كامنة على فعل ذلك ولم نكتشفها بعد، ويكون سبحانه قد أتاح لنا فهم آليات تُقلِّد "محاكاة" ما فعله الرسل لنفعله هو نفسه ولكن بطرق مختلفة... وإن خطر ببالك أنني متأثّر بأفلام الخيال العلمي، فخذ علما بأن ما حصل وفعله تعالى على يدي رسله كان محفّزا لخيالنا، فاتحا موسّعا لآفاق تخيلاتنا، وما بين أيدينا من معارف وتكنولوجيا وأدوات وآلات... كانت خيالا منذ عشرات سنين قليلة مضت، من عمليات استبدال القلب والكلية... والطائرات... والاتصال بالصوت والصورة عبر القارات من جهاز أحمله بيدي... وتحريك يدي هنا لتتحرّك بنفس حركتها يد اصطناعية في قارّة أخرى...

التفت وانتبه إلى أن إحياءه تعالى وإماتته لنا وللحيوانات... وظاهرة الليل والنهار، شيء خيالي في عظمته، خيالي ليس على معنى أنه غير حقيقي، بل على معنى روعته في التصميم لأحداث تظهر فيها عظيم صفات وقدرات من صمّمها وخلقها.

(بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ{81})
قال الكفّار "الحاليون" كلاما مشابها لكلام الكفّار الذين كانوا أولا قبلهم في الحياة.

(قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ{82})
قالوا، الكفارُ السابقون والحاليون:

{أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا}، إذا فقدنا حياتنا وصرنا لا نفعل ولا ننفعل وتحلّل لحمنا حتى صار ترابا، {وَكُنَّا عِظَامًا}، لم يبق منّا إلا هيكلنا العظمي الذي تحمّل البِلَى "الاهتراء"، {أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ}، سوف ننهض بعد أن كنّا كامنين، ونقوم من الموت؟

لاحظ وانتبه جيدا، هذا النوع من أسئلة الكفّار الذي نقله القرآن يشير بكلامهم إلى ما بقي من جسدنا من تراب وبقايا عظام بعد موتنا، وهذا التراب وبقايا العظام الذي كان جسدا حيّا، هل سيعود إلى الحياة مرة ثانية؟ ونحن ندري بأن الكفّار من الدرجة العالية، وهم النموذج الذي عادة يركّز القرآن عليه، ونعلم أنهم لن يؤمنوا حتى لو أمامهم رجع التراب والعظام إلى الحياة، ولدينا نماذج عن ذلك حيث خرجت ناقة من صخرة بطلب من كفّار ثمود ولم يؤمنوا! ووجد فرعون البحر مفلوقا لممرات كالطود، ودخل فيه وتلمسّه واختبره، ولم يؤمن لا هو ولا جنوده! والنبي عيسى(ع) أحيا بعض الموتى أمام الناس كما ورد في الآية 110 من سورة المائدة {... وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي...}، ولم يؤمنوا كما هو معلوم ومشهور من تاريخ حياته(ع)، حيث انتشر الإيمان به بعد موته وغالبية المؤمنين الجدد لم يكونوا من الذين شاهدوا إحياءه للموتى... وغيرها العديد من الأمثلة.

أقول لك هذا لأن المسلمين غاصوا فكريا في تحليل كلام الكفّار ناسين أن المشكلة ليست الأدلة بل عقلية الكفر الصلبة التي لن تتغيّر مهما جئتهم بآية.

بناء عليه، أيُّ غوص فكري في تحليل كلام الكفّار، ما هو إلا افتراضات لا تهمّ الطرف الآخر أصلا، ومنها مسألة ما يسمّونه بشبهة الآكل والمأكول، حيث مات أحدهم وصار ترابا، ونبت في التراب نبتة امتصّت التراب، وأكلت نعجة تلك النبتة، وأكل إنسان ما تلك النعجة... وصار تراب جسد الميّت من ضمن أجزاء جسد النعجة، ثم صار التراب من ضمن جسد الإنسان الذي أكل النعجة. وصار نفس التراب لجسدين، كيف سيحيي تعالى هذين الإنسانين وهما لهما نفس التراب؟

لاحظ أن هذه الإشكالية لم ينقلها القرآن عن الكفّار ليجيب عليها، هل ردّ عليها؟

أولاً القرآن عادة ينقل أبرز نماذج أساسية من كلام الكفّار ويجيب عليها، ثانياً لم يعقّد القرآن الكلام بتفاصيل لا حاجة لها، وعرض العديد من الردود السهلة الحاسمة، وبعض الردود على نفس المسألة ستجدها تتناول المسألة من زوايا مختلفة، وخذ مثلا مسألة الردّ على إعادة إحيائنا، مرةً يشير القرآن إلى خلقنا من قبل، أين المشكلة في خلقنا مرة ثانية؟ ومرةً يشير لنماذج عظيم قدرته تعالى فيما خلقه وبالتالي وضوح قدرته تعالى على فعل ما يريد، ومرةً يشير إلى صدقه تعالى فيما يقوله حيث قال بأنه سيبعثنا وسبحانه صادق وقوله الحقّ، وهكذا تجد لنفس السؤال أجوبة متعددة تنظر للموضوع من جوانب متعددة، وكما ترى ستجد جوابا عن أي كلام يقوله الكفّار وحتى ستجد ضمنا جوابا عن التفاصيل التحليلية والافتراضات، ومسألة اختلاط تراب إنسانين مع بعض محلولة طالما الإله يقول بأنه سيفعلها، لأنه قادر وصادق...

الآن لننتبه لشيء آخر أهم ولم يلتفت له العديدون، سبحانه تماشى مع كلام الكفّار بإشارتهم للتراب والعظام، وأجابهم عنه بأنه تعالى يعيده. الكلام عن نموذج، عن كافر واقف قرب تراب ميّت ويشير إليه بأصبعه، والجواب على هذا النموذج أنه تعالى سيحييه ولا مشكلة في ذلك.

لمزيد من التوسّع يمكنك مراجعة الفقرة الطويلة من سورة البقرة والتي تبدأ من الآية 243 والتي ركّزت على أدلة ملموسة عن إعادته تعالى لبعض الأموات إلى الحياة هنا في الدنيا.

بقية كلام القرآن عن إعادتنا إلى الحياة من القبور والأجداث... ما هو إلا كلام عن نماذج، وكلام اختار فيه تعالى ما يقدح صورا سهلة في ذهننا حتى نستشعر معنى كلامه سبحانه، وإلا كلامه تعالى لا يشير حصرا إلى استعمال نفس التراب والعظام لإعادة الأموات إلى الحياة، وهذا واضح من حالة المقتولين في سبيله تعالى أحياءً يرزقون فرحين بما آتاهم... كما ورد في الآية 169 و 170 من سورة آل عمران {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...}، بينما جسدهم ميّت أمامنا، حيث أحياهم تعالى بجسد آخر، ونفترض بالتحليل أنه جسد من نوع آخر من المادة، وفيه كل خصائصهم الذاتية من الوعي والذاكرة والمشاعر... والتعامل مع الرزق أكلا وشربا وسعادة...

ضع هذا في بالك وراجع الآيات التي تتحدّث عن هذا الموضوع، وسترى أنها تتحدّث عن نماذج سهلة الفهم، ولا تقصد حصرية إعادته تعالى الأموات إلى الحياة من نفس التراب.

فكّر فيها الآن واسأل عن أهمية تراب جسد الميّت حتى حصرت فكرك في إعادة خلقنا منه! المشكلة أننا جعلنا هذه الأهمية لتراب الميّت وعظامه وقبره... جعلناها كخلفية في فكرنا، وصرنا نرى كلامه تعالى من هذا المنظور، ولم ننتبه أن كلامه تعالى كان عن نماذج كما هي العادة، ما هي أهمية تراب وعظام جسدي؟ هل فيهما شيء يخصّني أنا وهما ضروريان لإعادتي أنا إلى الحياة؟ أليس تراب جسدي وعظامي مشابهاً لكل تراب الأرض؟

أكرر لك، ضع هذا في بالك وسترى أن الأبحاث الفكرية والكلامية والتحليلات عن استعمال التراب لإعادة الأموات إلى الحياة في الآخرة، نابعة من خلفية لم تميّز أصلاً أنه لا أهمية للتراب، وأن كلامه تعالى كان عن نماذج.

{لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ{83}}

{لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ}، قيل لنا وقيل لآبائنا من قبل أننا سننبعث من الموت، وتكملة جملتهم تعرفها: ولم يحصل البعث. قيل هذا الكلام سابقا قبل الآن، ولم يحصل، حيث لم يرجع أي أحد مات منهم، {إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}، وهو شيء مسطور، وَسطّره الناس الذين كانوا أوَّلاً قبلنا.

السطر هو عموم ما انتظم مع غيره، وأوضح استعمال له على المعنى الأساسي كلمة "مسطرة"، وهو مادِّيَّاً كالوقوف في صفوف، وكتابة الجمل بنفس التباعد... وَمَعْنَوِيَّاً للكلام المتتالي جملة بعد جملة، حيث نقول سطّر بُيُوتاً من الشعر، ولا نقصد أنه كتبها على الورقة بل نقصد أنها تألّفت مرتبة. وكلمة أساطير وردت في القرآن تسع مرات، وسياق الكلام يقصد كلاماً فيه مبالغات أو خُرَافِيَّاً.

هذا الكلام عن بعث الأموات سمعنا به من قبل، وهو مبالغات وخرافات، حيث لم يمت أحدٌ ويرجع إلى الحياة.

ننتبه جيّداً، إذ تعودنا على القرآن وهو يعطينا أسباب نفاق الناس، وأسباب فسقهم، وأسباب تركهم للإنفاق، وأسباب الهرب من معركة قتال الأعداء... وهنا نحن أمام سبب من أسباب الشرك والجرأة على تكذيب الرسول الإلهي والجرأة على فعل السيئات، حيث تنقل لنا السورة عنهم إعلانهم كفرهم بالحياة بعد الموت، وبذلك لم يعد لديهم سبب ليؤمنوا بالرسول، ولا بما يقوله الرسول، وليس لديهم سبب يمنعهم من اختراع الآلهة والشريعة طالما لا يؤمنون بحساب وعقاب على ما يفعلونه، فهم سيفعلون ما يرونه مناسباً لهم حتى لو كان سيّئاً، وهذا هو أساس الفرق بينهم وبين من آمن بالبعث، فالمؤمن سيحسب حساب اللقاء معه تعالى والجزاء فسيتقي...

(قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{84})
{قُلْ}، عبر هذا القرآن: {لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا}؟ الأرض التي أنتم عليها ومعكم بقية الكائنات التي حولكم، هي منسوبة لمن؟ ومن صمّمها ومن خلقها ومن يتابع شؤونها...؟ {إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، إن كان لديكم علم ودرستم وفكّرتم في هذا بشكل عقلاني.

ستلاحظ فيما سيأتي تدرّج أسئلة السورة من السؤال هنا عن تبعية الأرض ومن عليها، إلى السؤال عن تبعية السماوات، وصولاً للسؤال عن مطلق السيطرة.

ضع في بالك الفرق بين النسبة "لمن، له، لي..." وبين الملك، لو فسّرت الجملة هنا بأنها سؤال عن المالك، لَـأنقصت من السؤال العام الأوسع، وتراه من افتراض أجوبة مختلفة: لِـمن ما في السماوات والأرض؟ ليست لأحد؟ هكذا من لا شيء أتت؟ لوحدها؟ بالصدفة؟ وتراها وتقول هي ليست لأحد؟ ليس لها من تنتسب له؟ وأنت تعلم بكل بساطة أن السؤال التالي: من أين جاءت إن لم يكن لها من تنتسب له كمصمّم وخالق لها؟ وهكذا تنتبه لأي كلام قرآني آخر لم يستعمل كلمة "ملكية" واستعمل تعابير النسبة "لله، له، لمن..." بـأنه أوسع بالمعنى من الملكية ومختلف، حيث إنَّ تعابير النسبة أعم من حصرها بالملكية، وهي تشملها وتشمل غيرها من المعاني، وتشمل السيطرة والإدارة... وأحياناً ينفصلان بحسب ما تقصده من النسبة، وكمثال زوجتي منسوبة لي، ولكنها ليست ملكي.

(سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ{85})
{سَيَقُولُونَ لِلَّهِ}، سيقول الكافرون إنَّ الأرض ومن عليها منسوبون لصاحب الاسم المحدّد المميّز الله.

{قُلْ} عبر هذا القرآن لهم: {أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}؟ لـماذا لا تستحضرون هذه النسبة لله تعالى في فكركم ومشاعركم وعملكم؟ مَن له التصميم والخلق والملك والسيطرة والإدارة... للأرض بما فيها من كائنات حيّة، ألا يمكنه إعادتكم إلى الحياة مرّة ثانية؟ لـماذا تكفرون بذلك؟ هـل يبدو أنه تنقصه القدرة! أو يبدو أنه لا يعلم كيف سيفعلها!

لاحظ آيتنا هنا أوسع من الردّ على مشرك جعل لله تعالى شركاء في الألوهية، وَهي في مضمونها تتكلّم حتى مع ما نسمّيه في عصرنا بالملحد الذي يقول بأنه لا يؤمن بأي إله، وَالجواب هنا عن السؤال عن المنسوبة له الأرض ومن عليها، والجواب الوحيد الصحيح أنها لله تعالى، مـاذا لو قال أحد ما: ليست منسوبة لأحد وليس هناك إله أَصْلاً. وكما ترى هـذه جملة صحيحة لُغَوِيَّاً، كقولي: شربت الصخرة وطعمها لذيذ. ولكنها جملة فارغة بلا معنى، أي عقل وأي منطق هذا؟ كيف بدأ كل هذا الذي نحن فيه من مجرات وكائنات وظواهر؟ من لا شيء ولوحده بدأ؟! من بذرة طاقة

هائلة هكذا جاءت من لا شيء كما يقول البعض؟ وتلك البذرة لوحدها بدون تضمين تصميم لما سيحصل فيها نشأ الكون وصار فيه حياة!

هـذه عادة القرآن في كلامه مع المشركين حيث يضمّنه كَلَاماً مع المدّعين بأنهم منكرون لوجود إله من أصله، فهؤلاء سخفاء لدرجة البلاهة حتى لو كان لديهم عشرات شهادات الدكتوراه.

مِـن شدّة سخافتهم يسألون: إن كان الله خالق الدنيا فمن خلق الله؟

الجواب عن ذلك أننا نحن مخلوقون، لأنَّنَا مركّبون من شيء، من الطين، والجنّ مخلوقون من نار، والملائكة من شيء ما... أمّا سبحانه وتعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} كما قال عن نفسه في الآية 11 من سورة الشورى، فليس مُرَكَّبَاً من أي شيء حتى تسأل عمّن ركّبه "خلقه"، إذ سبحانه طبيعته مختلفة كُلِّيَاً عن مخلوقاته، فهو أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُواً أحد، وَأخبرنا سبحانه عن نفسه وبنفس هذا الكلام من أوّل ما تكلّف أوّل واحد من البشر، من آلاف السنين من عهد آدم(ع)، وتسلسل الرسل من بعده ناقلين نفس الخبر، نقطة انتهى. فهذا باختصار الجواب عن سؤالهم، وليس غَرِيبَاً أن يكفروا أو يجحدوا أو يماروا... فهم لا يختلفون عمّن سبقهم من الكافرين حتى لو بدوا لك لطفاء عقلانيين إنسانيين، فمن حسن حظّك أن لا يكونوا عدائيين...

نـحن بدورنا نسألهم بِنَاءً على مفاهيم القرآن، كيف ستتعرف المخلوقات على خالقها؟ أليس من السؤال عمّن خلقها؟ حيث إنَّ سبحانه وبصريح العبارة المتكررة بتعابير مختلفة، لفت انتباهنا لأنفسنا ولما حولنا ولكل ما في الدنيا، أننا مزروع فينا ما يجعلنا نسأل عمّن خلقها لنتعرّف عليه، وأكثر سبحانه من التفاصيل والتعقيدات والضخامة والتقانة... فيما خلقه حتى يجعل تعرّفنا عليه سَهْلاً، وَمُضَافَاً إليه أرسل رُسُلاً يخبرونا عنه تعالى، وإلى هنا فالإيمان به تعالى عقلاني وواضح أنه حقّ، وأخبرنا تعالى عن نفسه عبر رسله أنه ليس مَخْلُوقَاً، وطبيعته مختلفة ولا معنى لوصفها بأي شيء مما تعرفونه إذ إنَّ الفرق هائل بيننا وبينه تعالى، وهكذا السؤال عمّن خلقني، وبعدها عمّن خلق ما في الدنيا، يـتوقّف عنده تعالى لأنه لا يصحّ السؤال عمّن خلقه، لأنه سبحانه ليس مُرَكَّبَاً ولا له طبيعة تتحمّل السؤال عمّن خلقه عزّ وجلّ.

بَعِيدَاً عن المتوارث الديني من الكلام عن الأنبياء وكتبه تعالى، يـشعر أحد ما بأنهم شيء كمجموعة دينية لها ثقافتها المنفصلة عن بقية البشر، كشيء ستنتمي له ولم تكن فيه، بينما سبحانه لم يعرض في قرآنه الأمور من هذا المنظار، بل عرضها كمعلومات حقيقية وعليها أدلة لتؤمن بها وتعتبرها صادقة بما فيك من فكر وعقلانية، وتسمية أشخاص من الأنبياء في القرآن كنماذج عن المؤمنين بالمعلومات الصحيحة عنه تعالى، حيث كَثِيراً ما وردت أسماؤهم بدون وصفهم بالنبوة، وهذا الكلام له بعد تراه حين تتذكّر فلاسفة من مختلف العصور والجنسيات، ولا علاقة لهم بدينه تعالى، ووصلوا لتوحيده تعالى وتحديد دقيق للعديد من صفاته وقدراته سبحانه، وَمِـن خارج ما يسمّى بثقافة المنتمين لدينه تعالى ستجد أُنَاسَاً يتشاركون مع المؤمنين بدينه تعالى في مسائل توحيده سبحانه، وأنه الأول...

خذ مَثَلاً مَشْهُورَاً من فلاسفة اليونان، فهؤلاء لا ارتباط لهم ولا حتى معرفة بكتبه تعالى ورسله، ولا احتكاك بينهم وبين منتمين لدينه تعالى، وحتى لو حصل ذلك، ففي زمانهم لم يكن المنتمون لدينه تعالى من الممارسين للفلسفة والمنطق والكلام... بينما تراث فلاسفة اليونان مشحون بكتب فلسفية عن توحيده تعالى مع أدلة فكرية...

عَـادة نحن نعتبرهم كجماعة بعيدة عن كلام القرآن، لأن القرآن يتحدّث فقط عن أنبيائه تعالى، وهذا غير صحيح، بل القرآن تحدّث عن أشخاص مميزين جِدّاً، والبعض منهم وبسبب الدرجة العالية لسلامة قلبه نبّأه تعالى فتواصل معه، وبعضهم وظّفه تعالى كرسول.

رَاجع حالة إبراهيم كما ذكرها القرآن، من دون وصفه بالنبوة حين كان شَابَّاً كسّر أصنام قومه وحاولوا إحراقه، ولم يتواصل معه سبحانه، فبعد ذلك تواصل معه سبحانه. إذ إنَّ إبراهيم أَصْلاً لم يكن مُنْتَمِيَاً لدينه تعالى بالاسم، بل هو مجرد شاب عادي من الناس، توصّل بفكره السليم إلى التوحيد والعديد من صفاته تعالى.

قَـارنه مع سقراط وَأَفلاطون وَأرسطو وأفلوطين... فهؤلاء لو كانت قلوبهم سليمة من الدرجة العالية التي وصل إليها ابراهيم ونوح ولوط وموسى... لكان سبحانه تواصل معهم لينوصفوا بالنبوة، ولكنهم كانوا تحت المستوى المطلوب.

من هذا ترى أن العديد من الفلاسفة ومن دون أي ارتباط بما يسمّى بالتراث للمنتمين لدينه تعالى، وَحَّدُوهُ تعالى وآمنوا أنه الأوّل وأنه ليس كمثله شيء.

(قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ{86})
ما زال سياق الكلام عن الكفر بالبعث المتضمّن للكفر بالرسول البشري الناقل له، وتنتقل السورة من السؤال عَمَّنْ له الأرض ومن عليها إلى لفت الانتباه للسؤال عن:

{قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ}؟ أنتم تعرفون سماء واحدة ضخمة بما يفوق تصوّركم، وأخبرناكم مِرَاراً بأنه يوجد غيرها ست أخريات، على كل حال فَمعرفتكم بسماء واحدة كَافِيَةٌ ولكن خذوا عِلْمَاً بوجود غيرها، وفي المستقبل ستنفذون إليها كما ورد بخبر منه تعالى في الآية 33 و 35 من سورة الرحمن {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا}... {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ}، فمن ربّ السماوات وَمن المسؤول عنها من مستوى إلهي؟ أم أنها لوحدها انخلقت وتدير شؤونها بنفسها؟ وصمّمت نفسها؟ أم بالصدفة صارت...

{وَمَنْ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}، نموذج الحاكم الذي يجلس على عرش، على شيء عَالٍ، على كرسي موضوع على منصّة ضخمة ومن هناك يدير شؤون المملكة أو البلد، وَالسماوات السبع مملكة ضخمة هائلة الضخامة مَن يديرها؟ وَهل تسير أمورها من دون إله صمّمها ويتابع ما يحصل فيها مَرْكَزِيّاً؟

هناك جواب واحد: الله سبحانه وتعالى يسيطر ويدير كل شيء من كل مكان، فهو تعالى وَاسِعٌ محيط لطيف... وعرشه سبحانه واسع باتساع كل الدنيا المحدودة بسبع سماوات.

لاحظ، هناك سبع سماوات وهي حدود دنيا المخلوقات، وهناك إدارة لها، حيث أنا ربّ أسرتي، والزوجة ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... هذه الربوبية على مستوانا، وأمّا ربوبيته تعالى فعلى مستواه الإلهي لسبع سماوات.

بالنسبة لكلمة "عرش"، العرش الذي نعرفه نحن هو الكرسي الفخم الضخم الموضوع على منصّة ويجلس عليه الملك أو الحاكم، وَأَصْلَاً كلمة عرش وصف لعموم ما علا ويقابلها فرش، وعرشه سبحانه تعبير عن الإدارة المركزية من مستوى ربوبي، تعبير عن مركزية السيطرة والقرار لكل ما في الدنيا "والآخرة"، وبما أن سيطرته تعالى ممتدة على كل الدنيا "والآخرة" فعرشه سبحانه ممتدّ بامتداد الدنيا "والآخرة"، على كل ما في الدنيا والآخرة كما هو واضح من تعبير الآية 255 من سورة البقرة {... وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}.

لَدينا تراث ديني ثقافي يشير البعض منه إلى وجود شيء محدّد كعرش له سبحانه، كشيء مشابه بشكل ما لمكان تتم فيه إدارة شؤون الدنيا، واستندوا على ذلك قُرْآنِيّاً بالآية 17 من سورة الحاقة {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، وكلامهم خليط من تصوّرات مختلفة، بعضها سببه استعمال لغتنا لتوصيف أمور لا يمكننا نحن البشر تصوّرها، وبالتالي الكلمات التي نستعملها لذلك تنقل نفس المعنى ولكن لأمور مختلفة، حيث هناك ملك صلب لا يهتز وإدارة إلهية مركزية لما في الدنيا، ولكنه سبحانه واسع محيط، وهناك ملائكة بقدرات عالية خلقها سبحانه ووظّفها لإدارة بعض شؤون ما في الدنيا، وأشهرها وُضُوحَاً من القرآن ملك الموت، وهذه موصوفة "بلغتنا" أنها حاملة للعرش، وَالكلام القرآني الذي يشير لقوّة الملك ولنواة الحكم والسيطرة هُو لا يشير إلى مكان، ولا إلى شيء، بل إلى حالة، وهذا واضح جِدّاً من تعبير الآية 255 من سورة البقرة بوصفها سَعَةِ الكرسي بِسَعَةِ السماوات والأرض.

مِن السذاجة تصوّره تعالى جَالِسَاً على كرسي على منصّة وثمانية ملائكة يحملون المنصّة، ضاربين بعرض الحائط كلامه سبحانه عن نفسه بأنه واسع محيط {وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} لِذَا لا يمكن لأي مخلوق تصوّره...

الوصف القرآني لملائكة حَافِّينَ حول العرش أو حاملين له هُو وصف حالة وليس وصف مكان.

بعبارة أخرى، كُل السماوات... وهذه الأرض التي نحن عليها، هي كل ما في دنيا المخلوقات، خَلقها كلّها ربنا الله سبحانه، ويخبرنا سبحانه أنه هو بنفسه ولوحده رَكّبها وألّفها في ست فترات زمنية، وبعد اكتمالها، لم يتركها سبحانه

لغيره ليديرها، بل استوى على العرش حيث كل شيء صار بالتمام وَانبسطت سلطته عليها كلها، ومن دون تهديد من أحد بالقدرة على التدخل.

عَلى الاسمية لكلمة عرش كاسم لشيء، كل السماوات والأرض "كرسيه" عرشه تعالى، وعلى الوصفية للملك القوي والسيطرة والإدارة المركزية والتي بلغتنا البشرية نستعمل لها وصف العرش، فَسبحانه حالته أن عرش السماوات والأرض منسوب له، ذو العرش، واستوى على العرش، وهناك ملائكة موظفون منه تعالى بتنفيذ مهمات "رئيسية" فَيكون وصف حالتهم كحاملين للعرش وَحَافِّينَ حول العرش.

(سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ{87})
{سَيَقُولُونَ}: السماوات والعرش، {لِلَّهِ} تعالى، هي منسوبة لصاحب الاسم المحدّد المميّز الله سبحانه وتعالى.

{قُلْ} لهم عبر هذا القرآن: {أَفَلَا تَتَّقُونَ}؟ لماذا لا تتجنبون، وسياق الكلام عن تجنّب غضبه وعقابه تعالى، حيث ترون أن مركزية إدارة دنياكم بيده، ويخبركم صراحة بأنه سيحاسبكم ويجازيكم على السيئات عندما يعيد خلقكم في الآخرة، فلماذا لا تطيعونه حتى تتجنبوا غضبه وعقابه؟!

انتبه ولا يخطر ببالك أنّ أجوبة المشركين هنا هي أجوبة لا تصدر عن مشرك، على أساس أن القول عنه تعالى أنه ربّ السماوات والعرش هو كلام إيمان عالٍ، لا، بل الآية تفترض أنهم سمعوا الكلام الإلهي الواضح الذي لا يمكنهم الردّ عليه، والذي يدل بوضوح على أنه تعالى ربّ السماوات ورب العرش، فإن قالوا كلاماً غير ذلك، وبعضهم فعلاً قال غير ذلك، يُرجَع الكلام معه إلى لفت انتباهه للآيات التي فيه وحوله، فإن أنكرها وأصرّ على شركه، فلا كلام آخر معه إلا التهديد، وأمّا من تماشى مع الآيات التي حوله، فسيتماشى مع السورة ليرتقي في تفكيره ليصل إلى الإيمان الصحيح، فالجواب الوحيد الصحيح أنه تعالى له السماوات والعرش.

على كل حال، فعلياً المؤمنون ومن لديهم بذرة إيمان فقط هم المستفيدون من هذه الآيات، فهم يرتقي إيمانهم بهذه التوضيحات، والآخرون لن ينفع معهم أي شيء، فهذا الكتاب {هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} لأن الآخرين يرفضون الحقّ.

(قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{88})
{قُلْ} لهؤلاء عبر هذا القرآن:

{مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ}؟ أنتم تملكون سيّارة وثياباً وهاتفاً وبيتاً وأرضاً... وغيركم يملك هذه الأشياء وغيرها، وهناك دنيا بوساعة ضخمة هائلة جداً جداً وهي ملكوت، وهي أشياء عديدة مملوكة، فملكوتها، ملكها بيد من؟

هناك فكرة ضبابية عند بعض الناس أنّه تعالى خلقنا وترك الأمور تجري لوحدها من دون تدخّله، أو وكّل آخرين بإدارة شؤونها، أو القرارات الأساسية منه تعالى والتفاصيل متروكة، أو التفاصيل موكّل بها الملائكة بما تراه مناسباً أو... فالسؤال هنا في عمقه خبر منه تعالى بتدخّله بنفسه في كل شيء، لأنّ بيده كل شيء ولم يترك أي كبيرة أو صغيرة لغيره ليقرر فيها فيما يتعلّق بشؤون ما في الدنيا.

{وَهُوَ يُجِيرُ}، يضم الكائنات إلى سيطرته لتكون تابعة له فيحميها، {وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ}، ولا يفعل أحد فعل الإجارة عليه، فلا يتبع هو تعالى لأحد ليحميه أو يحمي أملاكه.

{إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}، لو فكّرتم فعلاً وصار لديكم علم في الربوبية والألوهية والملك... لعلمتم بكل سهولة أنّه إله واحد أحد لا شريك له ويجب طاعته وتصديق كل ما يقوله لكم عبر رسله.

كلمة {مَلَكُوتُ} المشتقة من كلمة ملك، تدل على أنواع متعددة من الأملاك الكثيرة، لنبدأ بالأشياء الصغيرة، فالله تعالى يملكني ويملك حياتي ويملك كل ما أملك ويملكك و... ويملك الأرض وكل محتوياتها... ويملك السماء بكل طبقاتها...ويملك الملائكة والجن والعوالم التي يعيشون فيها و... فهذا كله اسمه ملكوت. وما تجده في الكتب من كلام عن الملك والملكوت للتفريق بين ملكه تعالى لسمائنا أو أرضنا فيسمّونها "ملك"، وبين ملكه للسماوات فيسمونها "ملكوت"، فهو اصطلاح اخترعوه وليس المعنى اللغوي للكلمة، فلم يستعملها القرآن ولا العرب قديماً مثلما يقولون.

بقي شيء نضعه في بالنا دائماً، إذ لغة البشر تتعاطى مع أمور يفهمها البشر، وتوسيع استعمال اللغة البشرية لتوصيف ما لا قدرة للبشر على التعامل معه مباشرة، أو لما يفوق قدرتهم على فهمه أو تصوّره... فهذا سينتج عنه خلل في تطبيق اللغة بسبب تنزيل الوصف الحقيقي لما لا ندركه إلى تقريبه من مستوى قدرة البشر على الفهم، والكلام عنه تعالى أو عن الملائكة (ع) بلغتنا ما هو إلا تقريب للصورة، لأن طبيعته تعالى متفرّدة مختلفة عن كلّ الكائنات، والملائكة طبيعتها مختلفة عنّا ولا تماس مباشر بيننا وبينها.

سبحانه خالقنا جعل فينا القدرة على اختراع لغة للتخاطب بيننا لنقل المعلومات، ونتج عن ذلك قدرتنا على التصوير بالكلمات للآخرين ما لم يروه أو ما لا يمكنهم رؤيته، وبذلك صار استعمالنا للكلمات على الاسمية الوصفية، فإذا أشرت إلى الكرسي وقلت لك أنّه قدّاحة قاصداً تسمية الكرسي، فسترد عليّ بأن هذا الشيء ليس قدّاحة لأنه لا يقدح، وهكذا ترى بسهولة في بعض الأسماء أنها وصفية، حيث يمكنك تصوّر شيء يقدح من وصفي له حتى لو لم تره من قبل... وليس هدفنا هنا البحث في أصل نشأة اللغة عن أصل البداية بالتسمية من الوصفية أو من التسمية مباشرة أو من خليط بينهما، وعادة أسهل الكلمات للبحث فيها هي ما كانت لأشياء لها صوت، فترى في عموم اللغات أسماء لأشياء لها صوت سُمّيت بما يشبه الصوت الصادر عنها، كحمحمة الحمام، أزيز، طقطقة...

على كل حال، وصفه سبحانه بلغتنا محدود بقدراتنا التي لم ولن تستطيع التعامل معه تعالى مباشرة، وبالتالي يجب سحب الخصائص البشرية من كلامنا حين نستعمله لوصفه سبحانه. وهذه ليست حالة فريدة، عموماً جعلنا للكلمات دلالات تتخطّى حصرها فيما وضعناها له أول مرّة، واستعملناها بمعنى تجريدي لتنطبق على أشياء عديدة متشاركة في شيء ما.

خذ مثلاً وجه الصحن وقفاه، حيث لم نخترع كلمة جديدة للتفرقة بين الجهة المقعرة والجهة المحدّبة للصحن، ومثله الكثير من بقية الأشياء كواجهة البيت والسيارة والجهات الأربع... وخذ كلمة يد كمثال آخر، كـ يد الآلة ويد المقلاة واضرب بيد من حديد وضع يدك معي... فهذه ليست استعمالات مجازية أو كنائية أو استعارة... بل هي استعمالات على أصل معنى تصوّرناه كمفهوم ينطبق على أمور عديدة، لأن اليد تخطّت أن تكون خاصّة بالأصابع الخمسة مع الكفّ، لتصير الوسيلة التي تساندنا لنحقّق بها الأشياء أو نطالها بها...

الآن من المفروض أن نرى بسهولة معنى توصيفه تعالى لنفسه أنّه {بِيَدِهِ مَلَكُوتُ} كلّ شيء، وهي تعبير حقيقي لا يشير باليد لعضو، بل مثلما نقول: هذه الأراضي تحت يد فلان من الناس. ومعلوم أننا لا نقصد أن كف يده بالأصابع الخمس فوقها. طبعاً مع الفارق بأن هذا الفلان بشري، ويستعمل غيره أرضه وهو لا يدري، لذلك نسحب هذه الخصائص البشرية من التوصيف حين نستعمل نفس العبارات في وصفه سبحانه الواسع المحيط الخبير السميع البصير العليم... ليكون توصيف {بِيَدِهِ مَلَكُوتُ} كلّ شيء من مستوى إلهي، فلا يغيب ولا يخرج من سلطته أي شيء في الدنيا مهما كان صغيراً أو كبيراً عنه سبحانه وتعالى.

الكلام السابق عن سحب الخصائص البشرية من الكلمات لاستعمالها في حقّه تعالى، هو نفسه من حيث المبدأ سحبنا لخصائص الكلمات لتشير لمفاهيم عامّة، وبذلك تصير مداليلها أوسع انطباقاً، وبغض النظر عن أول ما وضع الناس كلمة وجه، ربما وضعوها كاسم للوجه أو صفة للوجهة أو ... على أي حال ترى بسهولة أنها صارت وصفاً لما نتوجّه به، وبهذا المعنى نصفه بها تعالى فنقول: وجه الله، قاصدين توجهه تعالى، ولا نقصد عضواً جسدياً يتوجّه به تعالى، فهذا بالنسبة لنا صحيح، وأمّا بالنسبة له تعالى فوجهه هو توجّهه نحو شيء ما ليخلقه أو بالعناية بالرحمة أو بالغضب... ومعلوم أنّه تعالى بصير سميع من مستوى فائق، ففي كل نقطة من الدنيا يسمع ويرى، وهكذا نفهم بسهولة أن نسبة الوجه له تعالى حقيقية على الوصفية وليس على معنى العضو من عينين وأذنين وفم وأنف... فهذا غير صحيح وأصلاً لا معنى له بالنسبة له تعالى.

بالنسبة لبقية أسماء الأعضاء البشرية التي استعملها سبحانه لوصف نفسه، كالعين والساق... فراجع أي آية في دراستنا هذه لترى توجيهنا لمعنى تلك الاستعمالات، حيث أطلت عليك هنا.

(سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ{89})

{سَيَقُولُونَ}: الملكوت، ملك الأشياء الكثيرة المتنوعة، {لِلَّهِ} تعالى، وهو فوق أي مجير.

{قُلْ} لهم عبر هذا القرآن:

{فَأَنَّى}، بأي طريقة أو وسيلة، {تُسْحَرُونَ}؟ تتعرضون لمن يسحركم، فكيف يمكنني أن أسحركم لأخدعكم بكلامي عن لفت انتباهكم لآياته تعالى بينما العقلانية والمنطق يقولان بأنّه تعالى إله واحد أحد قدير مسيطر... وبالتالي فهو القادر على بعثكم من موتكم ووعده حقّ.

ضع في بالك دائماً أنّ السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه يجعل الآخرين يتوهمون شيئاً غير حقيقي أنه حقيقي. الساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد بأنّه أوهمك بطريقة ما أنّها اختفت، مع أنّها لم تختفِ، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر، والذي تراه صريحاً في الآية 66 من سورة طه {قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}. ما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، تمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، فهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية أنّها سحر، فهذا كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أنّ حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأنّ الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

ننتبه لتكرار القرآن عدة مرّات الاتهام له وللرسل بالسحر، وهذا الاتهام بكلمة سحر لم يعد دارجاً كثيراً في عصرنا من الكافرين بالدين الإلهي، ولكن تسمع المرادف لها والذي يعطي نفس المعنى، يقولون إنّ الدين للبسطاء، وهذا معناه أنّ البسطاء ينخدعون بالكلام الديني الخرافي ليروه حقيقةً، ولغوياً هذا هو معنى كلمة سحر.

هنا تسألهم الآية، أين الخداع في هذا الكلام الذي ينقله لكم الرسول عن الآخرة! أليس كلاماً صريحاً واضحاً ملموساً؟

بعبارة أخرى، إن كان هذا الواقع من الآيات التي حولكم، ومن وضوح سيطرة وقدرة الإله الخالق، إن كان هذا سحراً وخداعاً لتقتنعوا بالبعث والحساب فما هي الحقيقة!

(بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ{90})

{بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ}، صار أمامهم ومتاحاً لهم الصواب الصحيح، والكلام عن توحيد الخالق وقدرته على خلقنا في الآخرة ومجازاتنا على أفعالنا فهذا ليس سحراً ولا خداعاً ولا تضليلاً بل هو الصحيح، فسبحانه لا يحتاج لأساليب ملتوية لإقناعهم وأصلاً لا يقول تعالى إلا الحقّ، وبالقدرة التي جعلها تعالى فيهم إذ يمكنهم تمييز هذا الكلام أنّه حقّ، {وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}، لأنهم لا يقولون الحقيقة حين يشركون ولا يؤمنون بأنه تعالى الإله الأحد الخالق المالك المسيطر، القادر على إرجاعنا إلى الحياة.

هناك مبدأ قرآني أساسي راسخ، حيث هناك توصيف حاسم للأمور بأنها حقّ أو باطل، ولا أتحدّث عن مشكلة بيني وبينك حيث يكون معك الحقّ جزئياً، وفي بقية الموضوع أنا معي حقّ، حيث لك ربع المال والبقية لي... وهكذا يصير الحقّ جزئياً معك، لا، بل أتحدّث عن الحقّ مطلقاً، ففي القسم الذي معك الحقّ به فهو الحقّ الصافي، وهكذا بالنسبة لكل بقية الأمور، والرمادية أو الضبابية أو الاختلاط لا تجعل الحقّ متغيراً، بل تجعله غير واضح أو غير محدّد...

من هذا المبدأ يتكلّم سبحانه عن الحقّ كتوصيف ثابت، وبالنسبة لكلام الآيات هنا، ففي الواقع هناك كائن متميّز ليس كمثله شيء، وبقدرات فائقة، وخلق كل ما في الدنيا، وجعل فيها كائنات بحرية إرادة واختيار، وبقدرة تمييز الخير من الشرّ، وقرّر محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم السيئة والحسنة، وأرسل رسلاً يخبروننا بذلك وبأنه سيعيد خلقنا في عالم يأتي في الآخر بعد تبدّل الدنيا. وهذا حقّ لأنه فعلاً الواقع الموجود والذي سيحصل.

ما نسميه نحن بالعقائد، وهو مصطلح لم يستعمله القرآن، فما هو إلا المعلومات التي يقولها تعالى لنا عن نفسه وعمّا فعله وسيفعله، وهي معلومات عاكسة للواقع، وطبعاً هي حقّ لأن الناقل لها لا يكذب وعليم وخبير وسميع وبصير... ويعلم الغيب... والإيمان بها هو التصديق بها والتماشي معها.

بناءً على هذا سألت السورة الأسئلة السابقة، وأخبرتنا أن التعامل بمزاجية مع المعلومات الحقّ لرفضها وتكذيبها، فهذا لن يغيّر من الواقع أي شيء، والكلام الفارغ بتكذيب الرسل هو تكذيب لكلامه تعالى، وهو تكذيب للحقّ.

بعبارة أخرى، هناك من يقول بأن ما يفعله أو يقوله تعالى هو الحقّ لأنه تعالى فعله أو قاله، وبرأيهم أن معيار التوصيف بالحقّ يدور بحسب ما يفعله ويقوله تعالى، كحالة تعامل بعض الناس مع قرارات الملك، حيث يقولون إنّ الملك معه حقّ دائماً، وكحالة تعامل بعض الناس مع أقاربهم وأولادهم وعائلتهم ومذهبهم وطائفتهم وحزبهم... فهم يساندونهم في الباطل معتبرين أن الحقّ هو هذه المساندة، فتوصيفهم للحقّ لم يعد له معيارٌ إلا المزاجية والعصبية... وما يرونه هم مناسباً.

الله سبحانه وتعالى في قرآنه أرانا "أخلاقاً" من مستوى إلهي، حيث تحدّث معنا بشفافية، ولم يأمرنا بالإيمان بأي شيء لا دليل عليه، ولم يأمرنا بشيء سيءٍ، ولم ينهنا عن شيء حسن، وكل كلام القرآن تبريري، فمع كل خبر وأمر تجد دليلاً وشرحاً لترى الحقّ وتتعلمه.

توصيف الأمور بالحقّ في أساس أصله هو توصيف الواقع، مثلما ترى بعينك وبوضوح الأشياء أمامك، فهل تحتاج لأدلة حتى تقتنع بأن الأشياء أمامك؟ وهكذا يرى تعالى الأمور ولا يقول إلا ما يطابق الواقع، ويخبرنا عن نفسه وعن قدراته وعمّا فعله وعن قراراته... وهذه وقائع صحيحة، فالكلام عنها حقّ وليس باطلاً.

بالنسبة للتشريعات والسلوكيات، فالخير والشرّ هو المعيار، وبالتحليل المستند على ما وصف به تعالى نفسه، وهو نفسه ما نراه منعكساً فيما خلقه، نفهم أن القوي بقدرات فائقة والذي لا يضره ولا ينفعه شيء، لا معنى للكثير من الصفات بالنسبة له، لذلك لن يستعجل ولن يتسرّع... ولن تصدر عنه قرارات يندم عليها أو يغيّر رأيه وقراره فيها... وهكذا نفهم وصفه تعالى بالحليم العليم الحكيم... والرحمن لمخلوقاته الضعيفة جداً جداً جداً أمامه، والتي لم يخلقها ليلهو بها، بل خلقها بسبب قدراته الفائقة التي ينتج عنها صفات حسنى حيث منح الحياة للكائنات.

سبحانه دائماً كلامه وأفعاله حقّ، على معيار الحقّ الناتج عن صفاته الحسنى تعالى، وصفاته بدورها ناتجة من صميم طبيعته سبحانه، وكلامه وأفعاله هي الواقع الذي صمّمه وخلقه تعالى، ومن نتائج تصميمه وخلقه سبحانه لما في الدنيا من كائنات واعية ولها مساحة اختيار فعل ما تشاءه في مجال الحرية المتاحة لها، نتج مفردات تطبيقية للحقّ، وصار هناك خير وشرّ مما تفعله الكائنات بإرادتها واختيارها، وهنا صرنا أمام توصيف التشريعات والسلوكيات بأنها حقّ أو باطل بالنظر للمتعاملين مع بعضهم.

هكذا ننتقل إلى تفاصيل صفات المخلوقين والتي تحدّد ما هو الأنسب لهم، إذ الأساس هو التساوي بينهم، والحقّ أن يحصل كل واحد على ما حصل عليه الآخرون، والحقّ إمكانية تطبيق إرادته مثلما يطبقها الآخرون، ولكن اختلاف طبيعة المخلوقين ينتج عنه اختلاف فيما يحقّ لهم، وما يجب عليهم فعله أو تركه...

مضافاً لاختلاف طبيعة المخلوقين هناك اختلاف في الموقعيات بين المجموعات المتشابهة من المخلوقين، حيث هناك ملائكة بقدرات أعلى من الملائكة الآخرين، وهكذا صار ملك واحد رئيسي لموضوع توفّي أنفس البشر، ومعه ملائكة ينفذون أوامره... ونفس الشيء بموضوع توصيل كلامه تعالى وحياً حيث هناك ملاك بقدرات عالية يتولّى ذلك... وهكذا ترى أن ملاكاً بقدرات أقل من ملك الموت وملك الوحي، لن تقبل اعتراضه "لو اعترض" طالباً أن يتولّى هو هذه المهمات، لأن قدراته أقل من قدرات رئيسه.

من هذا ترى معنى تشريعاته تعالى لنا نحن البشر، حيث الأساس هو التساوي بيننا، ومضافاً إليه واقع حال الاختلافات بيننا، والتي بعضها ناتج عن الخلقة كالفرق بين الأنثى التي تحبل وتصير في حالة لا تتحمّل معها الجهد، وبين الرجل الأقوى بدنياً "بشكل غالب عام"، وبعضها ناتج عن قرارات صارت نتيجتها صفات لنا، فمهمل في مقابل مجتهد، ودارس في مقابل بسيط، وصادق في مقابل كاذب... وسارق خائن في مقابل أمين...

الحقّ ليس مرناً أو مطّاطاً، بل ثابت، وعلى أساسه جاءت تشريعاته وتوجيهاته تعالى، وليس صحيحاً أن الحقّ يتشكّل مما قرّره وفعله تعالى، فلو فرضاً قرّر تعالى إلغاء الآخرة والحساب والجزاء، أو من الأساس خلقنا كما نحن ولن يحاسبنا ولن يجازينا، فهذا لن يصير حقاً، بل توصيفه لعب كما ورد في الآية 38 و 39 من سورة الدخان {وَمَا خَلَقْنَا

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}، وبشكل مباشر وأوضح عن مسألة الآخرة والجزاء كما ورد في الفقرة التي وردت فيها الآية 16 من سورة الأنبياء {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ}، وكما سيرد هنا في السورة في الآية 115 {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} فالحقّ هو واقع حال وليس متغيراً بحسب الأحوال.

خلاصة الكلام عن الحقّ والباطل والخير والشرّ، أن الحقّ في كلامه تعالى هو مجرد نقله تعالى لمعلومات لنا عن الواقع الذي يراه من نفسه ومما خلقه ومن علمه اليقيني بالغيب بما سيحصل حتماً ككلامه عن الآخرة، فهذا كلّه كلام حق لا كذب فيه، لأنها فقط معلومات مطابقة للواقع.

ومن ناحية ثانية ما فعله تعالى هو الحقّ ولا باطل فيه لأنه تعالى لم يمنح حرية الإرادة والاختيار لأي مخلوق بدون منحة قدرة تمييز الخير من الشرّ، ومن بعدها ما يفعله المخلوق بإرادته سيتحاسب ويتجازى عليه في الآخرة...

نضع في بالنا دائماً أنّه تعالى بقدراته الفائقة قدّر وحسب كل الاحتمالات ونتائجها المستقبلية، وشاء منها بحكمته، فخلق السماوات والأرض بناءً على ما رآه الأنسب.

بالنسبة للحقّ والباطل في التشريعات، منحنا تعالى قلباً "أساس فكر ونفسية" لتمييز الخير من الشرّ، وبرغبة في فعل ما هو حسن وترك السوء، فإن نفس توصيفنا لأي شيء بأنه خير هو انعكاس رغبتنا وحبّنا ورضانا بفعله لأنفسنا وللآخرين، ونفس توصيفنا لأي شيء بأنه سيء هو انعكاس كرهنا ونفورنا من فعل الآخرين له معنا ومن فعلنا نحن له مع الآخرين، ففينا أساساً ما يعطي تقييماً للخير والشرّ.

أي خطأ بترك أي خير كنّا قادرين على فعله، أو بفعلنا لأي سوء كنّا قادرين على تركه، سيبدأ التشوّه في قدرتنا على تمييز الخير من الشرّ، وبتكرّر الأخطاء يتشوّه أساس فكرنا ونفسيتنا "قلبنا" وصولاً إلى الفقدان التام للتمييز بين الخير والشرّ وأحياناً نصير نرى الشرّ خيراً...

هكذا نصل إلى فكرة رفض مجازاتنا على ما اخترناه وفعلناه من سوء، ونرفض الإيمان بالآخرة لأننا لا نريدها أن تحصل.

بالعكس، ما يعرضه تعالى علينا من الإيمان بالمعلومات الحقيقية الصحيحة، وأن نفعل الصالحات التي يمكننا رؤية صلاحها بقلبنا إن كان سليماً، فمن آمن وعمل صالحاً، فهذا لا مشكلة عنده حتى ينكر الآخرة، بل يريدها.

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ{ ({91

{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ}، لم يحدّد اعتباريًّا واحدًا من مخلوقاته كولدٍ له، فهذا غير صحيح، وها هو سبحانه يخبركم بأنه لم يفعلها. ومعلوم أنه أصلًا لن "يتولَّدَ" فيخرج منه تعالى شيء بل سبحانه يخلق.

{وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ}، فلا يوجد مع ذي الاسم المُحَدَّدِ المُمَيَّزِ الله كائن آخر لديه صفات وقدرات فائقة مثله.

التعبير بحرف الجرّ "من" في عبارة {مِنْ وَلَدٍ} و{مِنْ إِلَهٍ} هو نفي لأصل وجود أي ولد أو إله، حيث تقول: ما معي شيء، ما معي مال. ونحتمل أنك مفلس تمامًا ويمكن أن يكون معك مال قليل جدًّا جدًّا لا يكفي لشراء رغيف خبز. أمّا حين تقول: ما معي "من" شيء، ما معي "من" مال، فهذا نفي لوجود حتى القليل من المال، ونهائيًّا بتاتًا ما معك مال. وهنا التعبيران يشيران لهذا، حيث سبحانه ما معه من إله، فهذا نفي لوجود أي كائن موصوف بالألوهية غيره تعالى، فلا نصف إله معه سبحانه ولا ربع... ولا بنفحة إلهية.

لو كان معه سبحانه وتعالى إله، {لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ}، حيث إنَّ هذا الإله يأخذ مخلوقاته ويدير شؤونها، وذاك الإله لا يسمح للإله الآخر بالتدخّل في مخلوقاته... ونحن في حياتنا لا نرى أي انفصال في إدارة المخلوقات، مما يبدو واضحًا أنه يوجد إله واحد يدير كل شيء.

لو كان معه تعالى إلهٌ آخر، أو آلهة أخرى، {لَعَلَا}، لارتفع وتسلّط، {بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}، لكان هذا الإله قرّر شيئًا ما، والآخر قرّر شيئًا معاكسًا، وعندها يريد كل إله الاعتلاء ليجعل البقية تحته، ولصار هذا واضحًا بالنسبة لنا، ولكننا لم نر من حولنا أي شيء يدل على تنازع آلهة، لأنَّ شؤون ما في الدنيا كلّها تشير لمركز قرار واحد.

{سُبْحَانَ اللَّهِ}، تنزّه الذي اسمه الله، {عَمَّا}، عن الذي، {يَصِفُونَ}، فهو الإله الحقيقي الأحد، وما يقولونه عن وجود آلهة أخرى غير صحيح، فهذا وصف باطل لا يتّصف به تعالى.

هنا الكلام الإلهي عن علو بعض الآلهة على بعض لو كانوا موجودين، فهو كلام مبني على افتراض وجودهم وما ينتج عنه لو وُجِدوا، وأنا وأنت مستوى افتراضاتنا محصور بقدراتنا التي منها نتوقّع، لذا لا يمكنني توقّع حصول شيء من أمور فوق قدراتي على فهمها والتعامل معها أو حتى تصوّرها، كما يمكنني أن افترض "جدلًا" وجود آلهة متعددة، ولكن هل يمكنني درس الأوضاع بشكل صائب من بعدها أو سأتخرّص بتخمينات ربما لا تكون واقعية؟ وهنا نحن أمام كلامه تعالى عن افتراض وجود آلهة متعددة وأنهم لو كانوا فرضًا موجودين {لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ}، إذ إنَّ هذا الإله لن يسمح للآلهة الأخرى بالتدخّل في مخلوقاته وذاك لن يسمح... لذا حتمًا ستحصل خلافات بينهم لو تشاركوا في نفس المخلوقات أو لو تشاركوا في البيئة التي فيها المخلوقات، بينما واقع حالنا وما حولنا لا يشير إلّا لمسار واحد للأمور حيث لا يبدو قراران من مستوى إلهي علينا...

هذا الكلام من منظور إله حقيقي يعلم ماذا سيحدث لو فرضًا كان يوجد آلهة متعددون، أمّا أنت وأنا فهذا الكلام بالنسبة لنا مجرد خبر يمكننا فهمه ولكن في نفس الوقت وقدراتنا أقل بكثير جدًّا جدًّا من التعامل مع هكذا افتراض لوحدنا، وربما يقول قائل: لا، لو كانوا آلهة متعددة لاتفقوا فيما بينهم ووزّعوا المهام على بعضهم وتوافقوا ولن يحصل أي خلاف بينهم... ولن يحصل أي فساد... حسن، وما معنى الألوهية بالنسبة لنا؟ لأننا نتحدّث عن دنيانا ولسنا نتحدّث عن سماوات هنا وسماوات أخرى مختلفة منفصلة إداريًّا عن دنيانا، وهل تشارك الآلهة في خلقي؟ أو في قرار تصميمي وتصميم بيئتي؟ وما معنى الألوهية إن كانوا لم يفعلوا أي شيء، وما معنى تصميم ما في الدنيا بشكل يتحمّل تشاورًا بين الآلهة ويتحمّل تعاونًا في خلقها؟

ضمنيًّا، ما معنى قولي بوجود آلهة متعددة بينما لست أرى إلا توافقًا وإشارة الأمور لمركزية قرار واحدة بلا خلافات؟ ولماذا سأخترع عدة آلهة وأخترع أنهم متوافقون مع بعض ولا تتعارض قرارتهم وأفعالهم بينما الواقع يريني إلهًا واحدًا؟

هذه التصورات عن توافق عدة آلهة على إدارة ما في الدنيا هي بعيدة كل البعد عمّا فهمناه وتعلمناه عن معنى ألوهيته الحقيقية سبحانه، حيث إنَّ قرار خلق ما في الدنيا وتصميمها والبدء بالتنفيذ، نرى من القرآن أنه عمومًا مع بقية أي أمر إلهي أنَّ اتخاذه يحصل بأسرع من لمح البصر، علمًا أن هذا الافتراض غير دقيق بالنسبة لحالة خلق ما في الدنيا، حيث ورد تعبير "لمح البصر" في القرآن كوصف لقرار حصول ساعة قيامنا من الموت، وقبل خلق ما في الدنيا لا مجال لوصف الحالة بأسرع من لمح البصر، وتلك الحالة التي ليس فيها إلا هو تعالى لا تتحمّل وصف سرعة اتخاذه للقرار والتصميم بلمح البصر... إذ لا زمان ولا مكان قبل خلق ما في الدنيا حتى نقول إنَّ قرار تصميمها حصل بأسرع من لمح البصر.

هذا هو المعنى الحقيقي للألوهية، حيث هو الأول لا شيء ولا زمان ولا مكان، وما معنى تشارك إلهين بقرار واحد بينما معنى الألوهية الحقيقي لا يتحمّل ذلك لأنه لا مسافة زمنية بين القرار والتصميم والبدء بالتنفيذ؟

الآية هنا تطرح معنى بسيطًا على فهمنا أكثر من هذا المعنى العميق الدراسي المستوحى من القرآن لمعنى الألوهية المتخطّي للزمان والمكان، حيث إنَّ دراساتنا حتمًا فيها ضعف ما حتى لو بدت صحيحة، والصحيح دائمًا هو صريح ما نفهمه من القرآن، وكل ما سبقنا من دراسات تعرّض للنقد والتدقيق، ودراساتنا الحالية هذه ستتعرّض للنقد والتدقيق الآن وفيما بعد. وأقول لك هذا لتنتبه أن الآيات من نوع آيتنا هذه مغرية لمحبي المباحث العقلية الفكرية، لذا انتبه من كلامهم، وحتى لو بدا لك عقلانيًّا منطقيًّا، فلا تفسّر به القرآن، وانتبه دائمًا أنَّ الكلام الذي يحتاج فهمه للتخصّص في المصطلحات التي اخترعها الناس، فهو عادة ليس تفسيرًا دقيقًا للقرآن، بل اشتقاقات ونظريات وتخمينات...

على أي حال، الآية تسألنا عن حالنا ككائنات في بيئة، وعلى أي أساس استند من قال بوجود آلهة متعددة؟ وهل يرى قرارين مختلفين من مستوى إلهي في نفس الوقت؟ وبتعبير الآية هل يرى أثرًا لإلهين ذهب كلّ واحد منهما بما خلق ليقرر مصير مخلوقاته وما يجري معهم بشكل مختلف عن الآخرين؟ أم نرى كلّ شيء يسير على سنن واحدة؟ إذ كلنا نفس الخلقة، وتحت نفس الظروف، والماء الذي نشربه هنا يشربه الآخرون في قارات أخرى... وهو نفس الإله خالق للجميع... ولماذا افتراض إلهين من دون أثر لإلهين؟ وهذا بالضبط ما تقصده الآية.

بقي شيء نادرًا ما ذكرناه في دراستنا هذه مع العلم أنه ظاهر بكثرة من قراءتنا للقرآن، إنَّ الذين يقولون بأن هذا القرآن من تأليف محمّد بن عبد الله، فليخبرونا عن هذه الثقافة العالية لهذا الرجل لدرجة قدرته على تأليف كلام من نظرة إلهية للأمور؟ ولدرجة افتراض أمور من مستوى إلهي؟ وعليك أن تتذكّر هنا عقلية المشركين، حيث إنَّ كل جماعة منهم لها آلهتها المختلفة عن آلهة الآخرين مع تطابق أو تشابه في القدرات والسيطرة، إذ إنَّ إله المطر عند هؤلاء اسمه وبعض صفاته مختلفة عن إله المطر عند الآخرين، وكمثال ولنقل إنَّ نزول الماء الآن في مصلحة هذا المشرك، ومشرك آخر في نفس البيئة يعبد إلهًا آخر للمطر وليس له مصلحة في نزول الماء، وأي إله من آلهتهما سيمشي كلامه؟ وماذا لو قرّر إله النار أن يشعل حريقًا؟

هذا الافتراض في الآية هنا ليس خياليًّا، بل مبني على عقيدة الشرك التي فعلًا يؤمن بها المشركون، وافتراض قدرة محمد بن عبد الله على تأليف هذا القرآن، وهو الأمي راعي الغنم في بيئة معلوم مستواها في الأبحاث الفكرية، إذ لم يولد بين فلاسفة اليونان، ويأتينا بهذا القرآن طارحًا الأمور من نظرة إلهية بحتة، ومن الواضح جدًّا جدًّا أنَّه كلام من إله ينظر للأمور، وعلمًا أنَّ مجتمع محمّد سخيف فكريًّا بالعموم الغالب لدرجة عبادتهم للحجر! وهذا شيء يستحقّ التوقّف عنده، ومن تحجّر من الكافرين بإلهية مصدر هذا القرآن رافضًا الالتفات للكلام القرآني من نظرة إلهية واضحة للأمور فهذا لا يختلف في سخافته عمّن عبد حجرًا واعتبره إلهًا.

ضع في بالك دائمًا أنَّ الناس عمومًا يتراخون في استعمال الكلمات، والقرآن لا يمكن أن يتراخى مثلهم في معانيها، لذا حدّد القرآن معنى دقيقًا للكلمات بما يتناسب ويتماشى مع استعمال العرب للغتهم، وبالنسبة لكلمة إله، بالدقّة القرآنية تعني: كائنًا ذا صفات وقدرات فائقة فوق صفات وقدرات المخلوقات. ولو تماشى القرآن مع التراخي في استعمال العرب لهذه الكلمة "وغيرها"، لصار كلامه جدليًّا بلا أساس، لأن معاني الكلمات تصير مزاجيّةَ الانطباق على ما أريده وأقصده أنا، وما تريده وتقصده أنت، وبناء عليه أمطّ كلمة إله وأجعلها تناسبني وأصف بها نفسي مثلما فعل فرعون كما ورد في الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي}...، وهو مثل كلام عامّة الناس الذين لا يتكلّمون بدقّة، لذا لا يستعملون كلمات دقيقة، وبالتالي تحتاج لفهم قصدهم حتى تقوّم كلماتهم، بدل أن تفهم قصدهم من كلماتهم...

ستسمع مشركًا يقول عن حجر أنَّه إله، ومشركًا آخر يقول عن إنسان ما أنَّه إله، وآخر من وهمه وخياله يخترع كائنًا لا وجود له وينعته بالألوهية، وآخر سيقول إنَّ الجنّ آلهة، وغيره سيقول عن الملائكة (ع) آلهة... وهذا النوع من التراخي والتساهل في استعمال الكلمات هل يمكنك تفسيره؟ وهل يمكن أن تشرح كيف يصير الحجر إلهًا؟!

هذا الكلام من صلب مقاصد القرآن، حيث إنَّ الذين قالوا عن الحجر إله، هم عرب، من قدماء العرب، من أقحاح العرب، ومن فصحاء العرب... وهل هذا يعني أنهم استعملوا الكلمة بشكل صحيح؟ لا، فهم قصدوا بها كائنًا قدراته عالية تفوق قدراتهم هم، ولكنهم تراخوا بها حتى صارت تنطبق على تمثال من خشب! فهم ليسوا آلهة ليعلموا فعلًا ما معنى كلمة إله كتطبيق فعليّ حقيقي، ولم يكرّروا كلامًا قاله إله حقيقي لهم، ولم يستعملوا عقولهم بشكل سليم حتى يستخرجوا صفاته تعالى من أفعاله كما فعل النموذج الأبرز إبراهيم (ع)، وبذلك تفهم كلامه تعالى عبر هذا القرآن أنَّه كلام إله حقيقي يخبرنا عن نفسه، ويخبرنا أنَّه الوحيد الموصوف فعلًا بهذه الكلمة بشكل حقيقي، لأنه وحده صفاته وقدراته فائقة فوق الجميع والبقية كلّهم مخلوقات له، وبعض المخلوقات منحها تعالى قدرات أعلى من الآخرين، ولكنهم بذلك لا يصيرون آلهة ولا أولادًا له عزّ وجلّ.

(عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ{92})

الله سبحانه، {عَالِمُ الْغَيْبِ}، يعلم كل ما غاب عنكم وعن غيركم في الماضي والحاضر والمستقبل، و {عَالِمُ الشَّهَادَةِ}، حيث يعلم ما تشهدونه مما ترونه وتسمعونه وتحسّون به، إذ إنَّ كل ما يحصل معكم وأمامكم "أو مع غيركم" يعلمه تعالى.

على أساس علمه الواسع هذا، {فَتَعَالَى}، ارتفع وكان فوق، {عَمَّا}، عن الذي، {يُشْرِكُونَ}، حيث قالوا إنَّهُ سبحانه له شركاء وهو تعالى عن هذا الشرك، فهو فوق هذا الكلام.

بعبارة أخرى يعلم تعالى كلّ شيء ويرى أنَّهُ الإله الأحد، والبعض يقولون إنَّهُ يوجد آلهة أخرى، ولكن بناء على علمه بالغيب "علمه الواسع المحيط مكانًا وزمانًا" يخبرنا أنه تعالى عمّا يصفون، فلا يوجد آلهة أخرى غيره.

ننتبه جيّدًا ونضع هذا دائمًا في بالنا حيث ذكره القرآن مرارًا وبطرق مختلفة، فسبحانه وتعالى يتكلّم معنا بصراحة وشفافية، ويخبرنا بما يراه ويعلمه، وبعلمه الواسع جدًا جدًّا، للماضي والحاضر والمستقبل، لم ير أحدًا غيره بمواصفات الإله، ولم يجد أيّ أثر على وجود إله غيره. والله لديه قدرات فائقة، ويعلم كل شيء، وأنتم البشر "المشركون" مخلوقات، لذا علمكم محدود، ولا تعلمون إلّا بما ترونه أمامكم أو تسمعون به من غيركم، فكيف اكتشفتم وجود آلهة غيره إن كان هو سبحانه وتعالى لا يرى إلهًا غيره! فمن أين لكم هذه المعلومات! ونرى نفس المعنى في آيات عديدة من القرآن، أصرحها الآية 18 من سورة يونس(ع): {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

نفس الكلام عن اتخاذه تعالى ولدًا ليكون بمثابة إله، فهو سبحانه لم يفعل ذلك، وبما أنه لا يوجد أثر لتدخّل هذا الولد الإله في الشؤون الإلهية فكيف افترضتموه؟! وإن لم يتدخّل هذا الولد الإله فما معنى ألوهيته إن لم يكن لها أي أثر! فعلى أي أساس اخترعتم ولدًا إلهًا له تعالى! وفرضًا فقط قلتم إنَّهُ تعالى له ولد، وهذا الولد ليس إلهًا، فكيف تعرفون أنتم بذلك وسبحانه لا يعرف! وها هو يخبركم صراحة بأنه سبحانه لم يفعلها!

(قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ{93})
{قُلْ}، عبر هذا القرآن وليسمع المشركون:

{رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {إِمَّا تُرِيَنِّي}، حين تجعل عندي صورة محدّدة عن، {مَا يُوعَدُونَ}، عن الذي قلته لهم إنَّكَ ستفعله بهم، فأنت يا ربي وعدتهم بالعذاب لأنهم أشركوا بك وكذّبوني، فعندما تجعلني أرى ما وعدتهم به من بعث وحساب وجزاء:

(رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{94})
{رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ}، في الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع دينك، {الظَّالِمِينَ}، الذين لم يكن معهم حقّ حين كفروا، الذين ظُلْمًا كفروا، وها أنا أكرر الكلام الذي أمرتني بقوله، لذا أطلب منك ألّا تجعلني فيهم حين تحاسبهم وتجازيهم.

سترى من الآية التالية أن الكلام في الآيتين هنا عن تهديد المشركين بعذاب هنا في الدنيا، حيث يعلّم سبحانه رسوله (ع) والمؤمنين أن يتوجّهوا نحوه تعالى بالدعاء ليكونوا من الناجين من العقاب الإلهي إن نزل على المشركين.

بقي شيء، إذ ليس معلومًا لنا لماذا الجيل الأول من المسلمين الذين كتبوا القرآن أهملوا رسم ياء النسبة مرات عديدةً من كلمة "ربّ، ربّي"، ونعلم أنهم بذلوا أقصى جهدهم لرسم الكلمات بأحسن طريقة دالة على اللفظ، إذ لم يلتزموا برسم الكلمات على أساس اشتقاقها الصرفي، وهذا أصلًا لم يكن علمًا محدَّدًا في زمانهم "علم الصرف والنحو"، فلا معنى لاعتبار ما رسموه كتحريف أو خطأ إملائي، فهل يحق لنا محاسبتهم على شيء لم يكونوا يعلمونه أصلًا؟!

قواعد الإملاء الحالية متطوّرة عن سنين من الأبحاث منذ عهد الجيل الأول من المسلمين، فبالنسبة لقواعدنا رسومهم فيها أخطاء، وربما حتى بالنسبة لزمانهم كانت بعض الرسومات أخطاء إملائية عند الآخرين، ولكن لا تَنْسَ أنهم كانوا يعلمون أن رسم الكلمات في زمانهم كان فنًّا مخلوطًا مع معرفة بقواعد اللغة التي كانت استذواقيَّةً استنسابيَّةً في زمانهم

أكثر من كونها علميَّةً ممنهجةً، حيث بعد الجيل الأول تطوّرت علوم اللغة العربية بشكل غير عادي ربما لم يسبق له مثيل في تاريخ تطوّر علوم بقية اللغات كما يقول الكثير من الباحثين.

بناء عليه كان الجميع يعلم أن تعلّم القرآن طريقه سماعه من الآخرين الذين سمعوه من الرسول(ع)، والاستعانة بما هو مكتوب لتنشيط الذاكرة، إذ لم يكن معتمدًا عندهم تعلّم القرآن من القراءة فقط، وهذا ما بقي منتشرًا إلى زماننا، مع اعتمادنا أكثر فأكثر على المكتوب على الورق لأن رسم الكلمات صار أفضل بالإشارة إلى اللفظ.

لكن حتمًا تغيّرت اللهجة منذ ذاك الزمان إلى زماننا، حيث بضبابية يتصوّر البعض أن ما هو متعارف بيننا عن علم التجويد والترتيل بتحديد مخارج الحروف وأحكام التلاوة من إدغام ومدّ وتفخيم وترقيق... هو ما كان دارجًا في عهد الرسول(ع)، وهذا ليس بصحيح، بل هو فنّ طوّروه جاعلين له قواعد تسري على مختلف الحالات المتشابهة متجاهلين ما إن كان الجيل الأول من المسلمين يتكلمون بهذه الطريقة مع كل الكلمات.

الخلاصة من الكلام أن قراءة القرآن انتقلت معتمدة على السماع، ومستعينة بما هو مكتوب، وتغيّر اللهجة بلفظ الكلمات شيء طبيعي ولا يغيّر في معنى الكلمات، وتغيّر رسم الكلمات مع مرور الزمن شيء طبيعي لأن علوم رسم الكلمات على قواعد مرتبطةٌ بالقواعد التي نستنسبها.

ما بين أيدينا من مصاحف قرآنية مطبوعة بما يسمّى بالرسم العثماني، تغيّرت رسومه عن النسخ القديمة التي كانت بين أيدي الناس، حيث إنَّ علماء اللغة رويدًا رويدًا غيّروا بعض الرسومات لتصير أسهل على اللفظ... وبقيت التسمية بالرسم العثماني مع أنها لم تعد كذلك مئة بالمئة.

بالنسبة لتعدّد القراءات فهذا موضوع آخر أحيلك فيه إلى ما درسناه تحت الآية 16 من سورة القيامة {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ}.

(وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ{95})
{وَإِنَّا عَلَى أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ}، قال سبحانه لهم إنَّهم سيتعرضون للعذاب إن قرّر سبحانه ذلك، وحتى نجعلك أيها الرسول ترى تحقيق وعدنا فيهم، فترى تعذيبهم هنا في الدنيا، {لَقَادِرُونَ}، إذ يمكننا وبكل بساطة أن ننزل العذاب عليهم وننجيك وترى كيف يتحقّق وعدنا فيهم.

نلاحظ القرآن لم يشر أبدًا إلى كون النبي محمّد(ع) رأى الجنّة أو النار، ويشير القرآن فقط إلى رؤية النبي محمّد(ع) لأشياء في السماوات العلى كما نفهم من سورة النجم، وهو عادةً نسمّيه في ثقافتنا الدينية بالعروج... ولكننا نجد الكثير من الروايات التي تصف رحلته (ع) إلى الجنّة والنار، وربما يكون هذا حصل فعلًا، حيث ربما تكون جنّة ونار لأناس من عالم غير عالمنا، وربما تكون نماذج صور عن المستقبل، وربما... نقول ربما لأن نارنا نحن وجنّتنا نحن ليستا موجودتَيْن بعد، فهما تُبْنَيَانِ في الآخرة بعدما تتبدّل السماوات الحالية إلى سماوات أخرى، وبعد أن تتبدَّلَ الأرض مع السماوات لتصير غير الأرض الموجودة حاليًّا، كما نفهم من العديد من الآيات ومنها الآية 48 من سورة إبراهيم: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}، عندها تكون الدنيا انتهت وجاءت الآخرة بنارها وجنّتها، وهذا ما نفهمه من القرآن، فالجنّة والنار اللتان في الآخرة لنا فهما ليستا موجودتَيْنِ الآن، وأقول لك هذا لأن بعض المفسرين فسّروا آيتنا هنا على معنى قدرته تعالى على جعل رسوله(ع) يرى جهنّم الآخرة، بينما الآية لم تقل ذلك، وأصلًا لا يمكنه(ع) رؤية جهنّم الآخرة لأنها الآن غير موجودة، إذ نحن الآن في الدنيا والآخرة لم تأت بعد، وإن كانوا مُصِرِّينَ على هذا التفسير فعليهم باستعمال عبارات دقيقة فيقولوا إنَّهُ تعالى يمكن أن يريه (ع) نموذجًا عن جهنّم الآخرة، ولكن هذا افتراض غير صريح من ظاهر الآية هنا التي فسّروها بهذا الشكل، والأوضح منه والأسهل على الفهم تفسير الآية هنا بالعذاب الذي ينزل هنا في الدنيا على المشركين.

على كلّ حال، لولا عقلية تقديس الروايات، وبخاصة التي تتحدّث عن المعراج، لرأيت أن أسانيدها ومتونها فيها مشاكل من المفروض بالعاقل ألّا يعتمد منها أي شيء لتفسير القرآن أو توجيه معانيه على أساسها.

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ{96})
{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ}، فإذا اعترضت طريقك أي سيّئة من أي كلام أو عمل غير جيّد يقوم به الناس، فادفعه وردّه عنك بالطريقة الأحسن، وبأفضل ما يمكنك أن تفعله مع السيّئة فافعله، وطوّل بالك، ولا تنفعل، ولا تغضب... ولا تستعمل طرقًا ملتويةً أو تتلاعب بالكلام السيّء...

{نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ}، حيث يقولون كلامًا عنّا يصفوننا فيه بأنّنا لنا شركاء في الألوهية، ويصفونك بالكاذب، ويصفون آخرتنا وحسابنا وعقابنا بأنّه أساطير... فلا تنجرف مع كلامهم السيّء، ولا تشتمهم ولا تهينهم، ولا تكذب وتحتال أو تتلاعب بالكلام... حتى تقنعهم... ولا ينزل مستواك لمستواهم والتزم أنت بالأخلاق العالية واترك باقي الموضوع لربّك لأنّهم تحت المراقبة وهو تعالى يعلم ما يقولونه عنه.

(وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ{97})
{وَقُلْ}: {رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {أَعُوذُ بِكَ}، أعتقد بك مانعًا لي وأطلب منك أن تكون مانعًا لي، {مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ}، والشياطين أي الموصوفون بالقيام بأعمال الضلال لأنفسهم وللآخرين، حيث إنَّ فكري ونفسيّتي مفتوحان لاستقبال وسوساتهم، إذ يهمزون ويقومون بالشدّ، وسياق الكلام عن مواضيع محدّدة في فكري ونفسيّتي، حيث يختارون نقطة ضعف عندي ويقومون بالشدّ عليها حتى أفعل السوء، لذا أنا أطلب منك يا ربي الحماية من الهمز، من الضغط من الشدّ الفكري والنفسي الذي أتعرض له من الذين يحاولون إضلالي.

نعلم من القرآن أنَّ كل الناس بالأساس محميّة من "سيطرة" الشياطين، إذ بالأساس لا يمكن للشياطين "إجبارنا" على فعل أو قول أي شيء، ولكن من أدار أذنه لوسوستهم، ونفّذها، وتكررت طاعته لهم، فهذا يعطي للشياطين السيطرة عليه كما نفهم من الآية 42: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}، حيث في البداية يصير تابعًا لهم مع علمه بذلك، ومن بعدها لا يعود يرى أنَّه تحت سيطرة الشياطين... هنا تنبهنا الآية من الاتكال على أنفسنا ضدّ الشياطين، لأنَّ هذه فكرة شيطانية، بل نتّكل عليه تعالى ليحمينا منهم، ويساعدنا تعالى من همزاتهم، وإن لم يساعدنا سبحانه فحتمًا سنسقط ولا يمكننا ردّهم عنّا.

كما ترى أقل استفادة من الآية لنا أن نتمرّن على الانتباه من الوسوسات الشيطانية، إذ إنَّ المحافظة على هذا هو بداية جيّدة، حتى ولو قولًا باللسان ومن دون شعور، ومن بعدها الأمل بالترقّي إلى مستويات أعلى، وأنا وبكل صراحة واضحة لا يمكنني التوسّع في دراسة هذا النوع من الآيات إلا على مستوى نظري افتراضي، لأنَّ فهمنا كلّنا لها لن يرقى بعمقه إلى مستوى فهم النبي محمّد(ع) لها، ولا إلى مستوى المؤمنين من الدرجة العالية، إذ إنَّ هؤلاء عندما يخاطبونه تعالى يشعرون به كما تشعر أنت بمن يجالسك، وأين أنا من ذاك؟ لذا فهمي لقولي بالتعوّذ به تعالى من همزات الشياطين، في الواقع لن يتعدّى مستواي الإيماني المنخفض، وتأليف الكلام النظري عن الأخلاقيات والسلوكيات العالية سهل، ولكنه سيكون حتمًا مشحونًا بأخطاء، وسيكون خطرًا قراءة الآخرين له لأنهم سيفهمون كلامه تعالى بشكل غير صحيح عبر كلامي، ولذلك ألتزم حدودي فيما أعلم أنّي لست من أهله، وأستغفره تعالى فيما اقتحمته في دراستي هذه لكلامه تعالى فيما لم أعلم أنّي لست من أهله، أو ظننت أنّي به عليم وتبيّن العكس.

(وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ{98})
{وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ}، وأنا أعتقد بك مانعًا لي، {أَن يَحْضُرُونِ}، بأن تمنعهم أن يأتوا إليّ ليوسوسوا لي، لأنَّك أنت المسؤول عنّي من مستوى إلهي ويمكنك منعهم من الاقتراب مني، فأبعدهم عني.

لاحظ الآيات تقول بطريقة غير مباشرة، إنَّ المشركين أفكارهم نابعة من همزات شيطانية، وأمرتنا الآيات السابقة بالطلب منه تعالى لينجينا من عقابه للمشركين ولا يجعلنا في زمرتهم، وهنا تأمرنا أن ندعوه بالطلب منه تعالى ليبعد عنّا الشياطين، وبالنظر لموضوع السورة، فإذا حضرتني الشياطين واتّبعت وسوستهم ففي النهاية سيقنعونني أن أكفر بالبعث وأشرك به تعالى وأكذّب رسله... ولن أفلح.

(حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ{99})
لا تكن مثل تلك النوعية من الناس الناكرة للحياة الثانية والحساب والجزاء، ولا يبالون بالحذر من وسوسات الشياطين وسيبقون على موقفهم:

{حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ}، وهنا الكلام عن لحظة قصيرة جدًّا جدًّا بين مفارقة الحياة والدخول في حالة الموت، حيث إنَّ الكلام عن نموذج بارز لحالة شخص يشعر بأنه يموت ولديه بقايا وعي بالقدر الكافي ليدرك أنه فعليًّا هو في حالة الموت، وكان من قبل كافرًا بالآخرة، عندها قال:

{رَبِّ ارْجِعُونِ}، أطلب منك أيها المسؤول عنّي من مستوى إلهي أن ترجعني إلى الحياة، فلا تأخذ حياتي الآن.

تتذكّر أن عادة كلام القرآن عن نماذج، فلا تعمّم كل كلمة يقولها القرآن إلا إذا تبيّن لك أنها عامّة، وخذ مثلًا قوله عن قيام الناس من القبور، حيث إنَّ أي إنسان عادي يعلم بوجود أشخاص ماتوا ولا قبور لهم، كالذين أكلتهم الحيوانات أو ماتوا غرقًا وبقيت جثثهم في الماء أو احترقوا... وخذ مثلًا توجيه القرآن كلامه عمومًا للكفّار المترفين الأغنياء، فهذا لا يعني أبدًا أنه يقصد عن كلّ الكفّار أنهم أغنياء، إذ من المعلوم أن بينهم الكثير من الفقراء، ولكن ركّز القرآن على الأغنياء كنموذج ترى سبب اختياره في سياق الكلام... وهنا آيتنا نفس الشيء، حيث تتحدّث عن نموذج ولا تقصد أن كل واحد سيمرّ في هذه الحالة.

مضافًا لذلك أيضًا لا معنى للبحث عن شخص تقصده الآية بعينه، فهي نموذج عام تفهمه بسهولة ولذلك صاغه تعالى لك كمضرب مثل.

(لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{100})
{لَعَلِّي}، من المفروض ومن المتوقّع منّي أن، {أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ}، أنا الآن جاءني الموت، وصرت في حالة الموت وكنت عاملا للسيئات، أرجعني إلى الحياة ومن المفروض ومن المتوقّع مني أن أعمل الأعمال الجيّدة، وعمليا أطيعك وأترك معاصيك، لأنني الآن فهمت أن الفلاح في الأعمال الصالحة وأن حياتي في الدنيا كانت فرصة.

{كَلَّا}، هذا لن يحصل، لن ترجع إلى حياة فيها تكليف كالحياة التي كنت فيها، {إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا}، قال سبحانه بأنه لن يعطيك فرصة ثانية، وأخبرنا سبحانه بذلك مرارا وتكرارا عبر رسله وكتبه، وكلمته تعالى لا تصير كلمتين، لأنها كلمة واحدة لا تتغيّر.

{وَمِنْ وَرَائِهِمْ}، من بعد مفارقتهم للحياة، {بَرْزَخٌ}، شيء وسطي، وصف حالة بعد موتهم في الدنيا وقبل عالم الآخرة، {إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ}، إلى حين نقيمهم من الموت. وكلمة برزخ تعني: وصف حالة الوسط الحاجز أو وصف الحالة بين شيئين لا هو هذا ولا هو ذاك. مثل نقطة لقاء بين نهر حلو وبحر مالح، من جهة مياه حلوة ومن جهة مياه مالحة وفي الوسط برزخ لا هو حلو ولا هو مالح، وحالة ما بعد موتنا وقبل الآخرة هي برزخ، هي حالة الوسط بينهما.

هناك بعض الناس الذين سيبقى وعيهم قبل موت جسدهم بالكامل، كحالة المريض مرضا مميتا أو هو شيخ كبير بجسد من المستحيل استعادته لعافيته، لنقل للتقريب أنّه يفقد وعيه ويسترجعه وهو يعلم أنه سيموت حتما في أي لحظة، هذا تضربه الآية كنموذج لنا، بقي له لحظات قبل الموت وراجع نفسه ليندم على كفره وظلمه...

لاحظ تساهلنا في التعابير التي تترسّخ فينا من كثرة تكرارها لتحكم على فهمنا للقرآن، من عادة الناس أن يقولوا لمن مات إنّه انتقل إلى الآخرة. وهذا غير صحيح، لأنّ الآخرة "وكما كررنا كثيرا حتى جعلتك تملّ منّي" ليست موجودة الآن.

بالنسبة لكلمة البرزخ، يوجد كلام كثير في تراثنا الديني عن شيء يسمونه بعالم البرزخ، وأكثره كلام لا تأييد صريح له من القرآن، كالروايات التي تتحدّث عن تنعيم كلّ المؤمنين في جنّة في البرزخ ومعاقبة كلّ الكافرين في نار في البرزخ، هذا لا يتماشى مع المفاجأة للذين ماتوا في الدنيا وفتحوا أعينهم ليجدوا أنفسهم في الآخرة والتي ذكرتها آيات عديدة وبصيغ مختلفة، منها الآية 52 من سورة يس {قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا}...

هناك روايات يمكن تدعيمها ببعض الآيات مع بذل جهد كبير من التساهل والتراخي في تفسير الآيات لتتماشى مع الروايات، كقولهم عن تنعيم كل المؤمنين من الدرجة العالية في جنّة البرزخ، وتعذيب كل المجرمين من الدرجة العالية في نار البرزخ، والبقية من الذين خلطوا عملا صالحا بسيّئ فهؤلاء يفقدون وعيهم ليفتحوا أعينهم في الآخرة... وهناك مفاهيم في بعض تلك الروايات مخالفة بشكل صريح لما يقوله القرآن، كالروايات التي أدخلت الآخرة إلى عالمنا الآن وصارت الآخرة موجودة الآن! يقولون فيها إنّه الآن تم رمي الكفّار مباشرة في جهنّم الآخرة والمؤمنون يتنعمّون في جنّة الآخرة...

هناك روايات تؤيّد تماما ما يقوله صريح القرآن، وتنفي أي وعي من بعد الموت إلا للمقتولين في سبيله تعالى، ولكنها ليست على المزاج العام ولذلك هي مهملة، في ثقافة غالبية الناس رؤيتهم للأموات في المنام والحديث معهم... يستندون إلى هذا ليؤكدوا أن كل الأموات لا يزال لهم وعي بعد موتهم في عالم ما، ويسمّونه بعالم البرزخ أو عالم الأرواح أو عالم الأشباح... وكلّه كلام يستند على منامات ولا مستند قرآني له.

ما نفهمه من صريح القرآن أنّ المؤمنين المقتولين في سبيله فقط فورا ينتقلون إلى مكان يسعدون فيه وموجود الآن في الدنيا، كما ورد في الآية 169 من سورة آل عمران {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}، وهذا المكان ليس جنّة الآخرة لأن الآخرة لم تأت بعد، ودمجا مع الآية هنا والوحيدة في ذكرها لما نسميه في تراثنا بعالم البرزخ للأموات، نقول إنّ المقتولين في سبيله تعالى موجودون في جنّة في البرزخ. ولا نجد في القرآن بشكل صريح أي كلام عن انتقال المؤمنين من الدرجة العالية إلى "جنّة برزخية" بعد موتهم، ولا حتى الرسل والأنبياء، ولا يمكننا نفي حصول ذلك، ولكن تأكيد حصوله لم يَبْدُ لي بشكل صريح وواضح من القرآن، وراجع في ذلك دراسة الآية 26 من سورة يس {قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ}.

نفهم من صريح القرآن وبكل وضوح وتكرار أنّ الموصوفين بالمجرمين والكفار والفاسقين والمنافقين والمشركين... ستأتيهم ساعة رجوعهم إلى الحياة بغتة، لأنهم من بعد موتهم لم يعودوا يشعرون بمرور الزمن، ولا يشعرون بمرور أكثر من يوم أو أيام على موتهم، راجع كمثال الآية 103 و 104 من سورة طه {يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا}، وبناء عليه من الصعب القبول بتفسيرهم للآيات التي جعلوها تتوافق مع روايات تعذيب بعض الكافرين في البرزخ.

إن مشكلة إسقاط معلوماتنا وقناعاتنا على القرآن لتفسيره، هي مشكلة منتشرة ليس فقط في موضوع ما يسمّى بعالم البرزخ وما فيه، من شدّة تأثّرنا بموت أحبتنا نراهم في منامنا وبالخصوص في الأيام الأولى التالية لموتهم، ومن شدّة تأثّرنا بما يتعلّق بهم نرى الأموات في منامنا يتحدثون في أمور عائلية أو شخصية نابعة من صورتهم عندنا ومن معرفتنا بوئام أو شقاق الميّت مع هذا أو ذاك... وبعد أسابيع... يبدأ النسيان... ويختفي الميّت من حياتنا ومن مناماتنا... وعندما نتحدّث عن البرزخ تقفز تلك المنامات من جديد كدليل على حياة الميّت في البرزخ!

كيف لا ننتبه أنّ الميّت اختفى من مناماتنا بعد مرور أسابيع وأشهر تكفّلت بنسيانه من حياتنا! ومن الواضح أنّ مضمون تلك المنامات ليس إلا تأثّرنا نحن بمن مات، ومن قال بأننا يمكننا نحن رؤية المقتول في سبيله تعالى وهو في الجنّة المؤقتة "في البرزخ"؟ حتى المجرم الكافر المشرك... يرى أحباءه الأموات في منامه، ويراهم سعداء! بينما هم مشركون! ما معنى هذا وكيف تفسرونه!

لست بوارد نفي كل ما يقوله الناس، ولكن إقحام ما نقوله في الدين الإلهي من دون مستند قرآني سيوقعنا في مشكلة تحريف الدين الإلهي، وسندخل في متاهات تجعل الدين الإلهي سخيفا، ما معنى زيارة الميّت المؤمن لأهله الأحياء وهم متخالفون يتقاتلون فيما بينهم! أو زيارة أرملته التي تزوّجت! يأتيك تخريج "لا أفهمه" عن إخفائه تعالى للسوء بحيث لا يرى المؤمن في أهله إلا خيرا! وأكتفي بهذا القدر وأترك لك تقييم ما قلناه وما قالوه، والله المسدّد للصواب.

الآية هنا فقط تقول بأننا بعد موتنا نصير في حالة وسطية، فالبرزخ وصف لحالتنا، فلا نحن أحياء كما كنّا، ولا انتقلنا إلى الآخرة التي ستأتي بعد تبدّل الدنيا.

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ{101})

يبقون في حالة البرزخ... {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ}، ومن المشهور في عموم الثقافة الدينية أنّ الملاك إسرافيل(ع) "وتذكّر دائما أنّ القرآن لم يسمّ هذا الملاك" أنّه(ع) يقوم بالنفخ في شيء ينشر منه إلى كل الناس أمر رجوعهم إلى الحياة، يعني انتقلت بنا الآية من البرزخ، لتخبرنا بالمرحلة التي تليها للأموات وهي البعث من الموت.

{فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ}، فلا أحد من هؤلاء الكافرين يبقى لديه نسيب، قريب منه بالنسب من أقاربه من أهله أو من أولاده، فالعلاقات كلّها مقطوعة نهائيا، {وَلَا يَتَسَاءَلُونَ}، فإذا كان بقربهم شخص لا يعرفونه فلا يسألونه: من أنت؟ من أي عائلة؟ وهل أعرفك؟... ولا الذي بقربهم سيسأله ليحصل على جواب منه عن اسمه واسم عائلته ومن أين هو.

الكلام ليس عن المؤمنين المسرورين المرتاحين المستبشرين بدخول الجنّة، بل عن الآخرين المشغولين بالرهبة والخوف والألم...

خذ مثلا عن حالة أناس في رحلة طويلة وأنهكهم الجوع، وعندما توفّر لهم الطعام وهجموا ليأكلوا، نقول: ما حدا بيقرب حدا، ما حدا بيعرف حدا، ما حدا لحدا. حيث كلّ واحد مهتم بسد جوعه وينسى أولاده وأحبابه، وإذا كان معهم أناس أغراب على تلك المائدة فإنهم لا يسألون من بقربهم: من أنت؟ من أي عائلة... ولا الذي بقربهم يسألهم لأنه أيضا يسدّ جوعه... وهذا يحصل هنا في الدنيا أمّا في الآخرة فالأب الكافر وهو بقرب ابنه الكافر فلن يشعر بأي علاقة معه من شدّة الرعب حينها... وسيكون الكافر ملاصقا لكافر آخر ولن يهتمّ به ليسأله من أنت وما اسمك...

ننتبه، لأننا من سياق الآيات نعلم أنّها تتحدّث عن المشركين المنكرين للآخرة، فهؤلاء يطير ذهنهم من حالة الذهول والخوف ولا يهتمون إلا بما سيحصل معهم شخصيا، فينسون أقاربهم وأحباءهم... أمّا المؤمنون الصالحون فلا تصيبهم هذه الحالة، بل يبحثون عن أقاربهم وأحبائهم ليشفعوا لهم إن كانوا يستحقون الشفاعة، ويسألون من حولهم من المؤمنين ليتعرّفوا عليهم... لذا لا تخلط بين حالة الترفيه والراحة للمؤمنين في يوم القيامة وبين حالة الرعب والقلق لغيرهم.

بالنسبة لتصريف "تساءل يتساءلون"، إنّ الدارج بيننا أنّه تصريف مستعمل للاستفهام والاستغراب، حيث لدينا "سؤال" ولدينا "تساؤل"، أمّا المعنى الأساس لأي تصريف من مشتقات كلمة "سأل"، فسياق الكلام يحدّد إن كانت الجملة للاستفهام أو الاعتراض أو إرادة الجواب... إذ إنّ المعنى الأساسي لها هو المرادف تقريبا لمعنى كلمة "طلب" حاليا، ولم يستعمل القرآن كلمة "طلب" بالمعنى الدارج حاليا واستعمل بدلا منها كلمة "سأل" لعامّة إرادة شيء ما من أحد ما، سواء أراد جوابا "بكل أنواعه ومن ضمنه الاستفهام" أو أراد غرضا أو مساعدة... وكلمة يتساءلون تشير لحالة توجيه سؤال من أكثر من شخص إلى عدة أشخاص.

بالنسبة للنفخ في الصور، من الآية 68 من سورة الزمر {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}، علمنا أنّ حادثة النفخ في الصور ستحصل مرتين، وأوّل نفخة ستسبّب موت كلّ المخلوقات في الدنيا "إلا من شاء تعالى"، وثاني نفخة ستحصل بعدما تتبدّل الدنيا وتأتي الآخرة، وهذه النفخة ستسبّب عودتنا إلى الحياة، ويسميها القرآن بالساعة لأنها بالنسبة لنا هي أول ساعة من يوم قيامنا من الموت.
والمشهور بين المسلمين أنّ ملاكا اسمه إسرافيل(ع) يقوم بالنفخ في الصور، وتذكّر دائما أنّ القرآن لم يذكر اسم النافخ ولم يقل أصلا إنّه ملاك ولكن اشتقاقا من عموم ما نفهمه من القرآن عن توظيفه تعالى للملائكة للقيام بهكذا أعمال، ومما هو مشهور في عموم ثقافة المنتمين لهذا الدين الإلهي من اليهود والمسيحيين، سنقول إنّ ملاكا اسمه إسرافيل هو النافخ في الصور.

الصور في اللغة هو الشيء الذي نستعمله لنصدر صوتا قويا، فيسمعه عدد كبير من الناس، كالبوق قديما، وكمكبر الصوت حاليا. طبعاً، إنّ الصور الذي تتحدّث عنه الآية هنا ليس بوقا مصنوعا من خشب أو من معدن، وليس مكبرا للصوت، ولكنه شيء يستعمله "الملاك إسرافيل(ع)" فينفخ فيه، فيجعل في داخله "شيئا لا نعرفه"، مثلما نجعل نحن الهواء داخل البوق "أو البالون"، فيصدر من الصور "شيء" يسبّب قيام كل الناس من موتهم، دفعة واحدة.

وصف النفخ في الصور مثل الوصف بالصيحة الوارد في العديد من الآيات ومنها الآية 53 من سورة يس {إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ}، إذ أمام عدد هائل من المخلوقات الميتة، يصدر أمر إلهي بإعادة هذا العدد الهائل إلى الحياة بنفخ "الملاك" في شيء ينشر الأمر الإلهي على عدد كبير، ونفس الحدث يوصف بالصيحة

كتعبير عن أمر إلهي سينتشر على عدد كبير، لأنّها ليست صرخة "علما أنّ كلمة صرخة أصلا غير مناسبة لوصف الحالة"، ولا الصيحة مسموعة بالصوت، بل التعبير بالنفخ في الصور وبالصيحة هو وصف لانتشار الأمر الإلهي على عدد كبير ليتنفّذ.

النفخ في الصور ليس كما ننفخ نحن البالون بالهواء، حيث إنّ كلمة "نفخ" استعملها القرآن مرارا لتوصيف حالة سريان الحياة في المادة الجامدة مثل التراب، والآيتان 29 من سورة الحجر و72 من سورة ص تنسبان النفخ له سبحانه في آدم(ع) فصار حيا، والملائكة(ع) نفخت في بطن السيدة مريم(ع) فصارت حبلى، وراجع في ذلك الآية 19 من سورة مريم {قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} مع الآية 12 من سورة التحريم {وَمَرْيَمَ ... فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا...}، والنبي عيسى(ع) كان ينفخ في الطين فيصير طيرا، كما ورد في الآية 110 من سورة المائدة {... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي...}، وهنا ينفخ الملاك في الصور فنتشكّل نحن من التراب ونعود إلى الحياة.

صرت تعلم أنّ استعمال هذه الكلمات على معناها الوصفي الحقيقي وليست تعابيرَ مجازية، ولكن تصوّر حصولها غير ممكن لنا حاليا لأنها توصّف شيئا من عالم آخر، من عالم الملائكة التي لا يمكننا رؤيتها الآن، ففي عالمها صور "بوق" يناسب تكوينه تكوين الملائكة، والنفخ فيه فعل يناسب تكوين الملائكة، إذ نحن لدينا رئتان ننفخ منهما، والملائكة تكوينها مختلف، ولكن لديها فعل توصف فيه بأنّها تنفخ. ونفس الشيء الكلام عن الشهب التي ترجم بها الملائكة لتبعد الشياطين عن السماء العالية، إذ إنّ الشهب توصيف لشيء يناسب تكوين تلك السماء، وهي ليست شهبا من المادة التي يتشكّل منها كوننا "سماءنا"... ونفس الشيء وصف سجود الملائكة بتعبير يناسب تكوينها...

(فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{102})
بعد النفخ في الصور وعودة الناس إلى الحياة الآخرة:

{فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ}، من كان معه ما يوزن وله ثقل، حيث إنّ الوزن فعل عام لتحديد قيمة مادية أو معنوية في الأشياء، والثقل وصف لقيمة معنوية أو مادية في الأشياء، ومن سياق الكلام تعلم إن كان الثقل معنويا لشيء حسن أو سيّئ، إذ إنّ الحسنات لها ثقل حسن على فاعلها، والسيئات ثقلها سيّئ على فاعلها.

عملياً، الذي حصل على الحسنات من الأعمال الجيدة التي قام بها في الدنيا، {فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، هم الذين قاموا بعمل فالح، وأجادوا فيما عملوا لأنهم عملوا الصحيح.

نتذكّر من القرآن وبالخصوص من الآية 105 من سورة الكهف {أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا}، أنّ الأعمال الحسنة التي قام بها المشركون تحبط وتفقد قيمتها، وشرحت سور من القرآن سبب الحبط لأنهم لم يقوموا بالأعمال الحسنة للحصول على الثواب في الآخرة، ولأنهم أشركوا به تعالى ليطلبوا الحسنات من آلهتهم...

لا تتصوّر ميزان الأعمال في يوم القيامة مثل ميزان الكيلو بالكفتين أو الإبرة أو كميزان إلكتروني... لا، بل في الكتاب الرئيسي لأعمال الناس يوجد قيمة لكل عمل حسن أو سيّئ، إذ لكل عمل يوجد ميزان لقياس مدى حسنه أو مدى سوئه. هنا الكلام عن الشيء الذي له قيمة في الميزان حتى يدخل فاعله إلى الجنّة، لأنّ السيئات وزر وحمل مزعج لها ثقل يزعج حاملها، ولكن الكلام هنا عن الميزان الذي على أساسه ندخل إلى الجنّة، فمن كان ميزانه ثقيلا بالأعمال ذات القيمة الحسنة فسيدخل إلى الجنّة، ودائما تصوّر الآيات القرآنية أنّ من بقي لديه شيء له قيمة "له ثقل حسن" فسيدخل إلى الجنّة، ولو بمقدار الزحزحة عن النار، ومن لم يبق لديه شيء له قيمة حسنة، ومعه أوزار من السيئات، فهو واقع تحت وِزْر الكفر وفعل السوء، فسيدخل إلى النار، "ولو لمدة قليلة وفي أقل درجاتها..." لنتابع:

(وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ{103})
{وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ}، الذي لم يكن له أعمال لها ثقل في ميزان الدخول إلى الجنّة، إذ كانت أعماله بلا قيمة محترمة، ولا حسنات مقبولة لديه، أو حبطت حسناته، {فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ}، حيث فقدت أنفسهم قيمتها، وصارت مهانة

بلا قيمة وستتعذّب، {فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ}، محكوم عليهم أن يصيروا في مكان موصوف بسوء ما فيه ولن يخرجوا منه ولن يخرب ولن يموتوا...

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ{104})
حين يَصِيرُونَ في جهنّم، {تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ}، حيث يهبّ اللهب من جهنّم ويمر على وجوههم فيحرقها، {وَهُمْ فِيهَا}، في جهنّم، {كَالِحُونَ}، عابسون يشدّون على أسنانهم وعلى عضلات وجههم وفمهم من شدة الألم والشعور بالمضايقة.

كلمة كلح ومشتقاتها لم ترد إلا هنا في القرآن.

(أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ{105})
هل هذا التعذيب كثير عليهم؟ فَلْنَرَ مشهدا عن سؤالهم في يوم القيامة:

{أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي}، الأمور المميزة المنسوبة له تعالى والتي تدل على توحيده وعموم صحّة كلامه تعالى، {تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ}، حيث قرأها الأنبياء والرسل والمؤمنون عليكم عن مستند منه تعالى، {فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ}، لا تصدّقونها؟

بعبارة أخرى، هذا العذاب الشديد الخالد الذي أنتم ذاهبون إليه في جهنّم، سببه تكذيبكم بآيات منسوبة له عزّ وجلّ، والتي سمعتموها ووصلتكم، ولو لَمْ تسمعوها لكان لكم عذر فيما فعلتم، ولو كانت من غيره تعالى لقلنا إنّها لم تكن بالمستوى المطلوب، ولو... ولكن سمعتموها بشكل واضح، وهي آياته تعالى، هاتوا أخبرونا عن معنى تكذيبكم لكلام الإله سبحانه؟

ركّز جيدا على هذه النقطة: الإله سبحانه بنفسه وبإشرافه أوصل لهم ما يدلّهم على توحيده ودينه، إذ لم يكذبوني أو يكذبوك أو يكذبوا الرسل، بل كَذَّبُوا بما قاله الإله سبحانه.

(قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ{106})

{قَالُوا رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا}، بالكسرة على الشين، مثلما نقول: غلب عليّ النعاس. إذ إنّ أعمالنا من النوع الشقي غَلَبَتْ علينا، وتحكّم وسيطر علينا اختيار الأعمال من النوع السيّئ الذي يسبّب التعاسة والمعاناة، وأشركنا وكذّبنا الرسل وفعلنا السيئات... وهذه شقاوة، لأنّ هذه أعمال تسبب التعاسة والمعاناة ونحن قمنا بها، وغلبت علينا، وكانت كصفة غالبة لعموم أفعالنا.

{وَكُنَّا قَوْمًا}، أناسا لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع دينك، {ضَالِّينَ}، على الخطأ الذي يوصل لنتيجة خطأ، حيث إنّهم في الآخرة يعترفون بأنهم أشقياء وأنّ الشقاوة لم توصلهم إلى نتيجة جيدة، وهو اعتراف للحصول على التعاطف والرحمة.

هنا الكلام عن حالة شقاوة جماعية، إذ يوجد شقي واحد بين مؤمنين، ولكنه حالة منفردة شاذّة، أمّا الحالة النموذجية العامّة: فشقاوة منتشرة في المجتمع وكلّهم أو الغالبية متوافقون عليها علنا أو ضمنيا ولا يعملون على تغييرها. هكذا تفهم هنا كلامهم عن كون كل واحد منهم واحداً من جماعة وكان متماشيا مع جماعته، يعني لم أكن لوحدي ضالا شقيا بين مؤمنين ولم أستغلّ فرصة تواجدي معهم، بل بالعكس كنت بين أشقياء مثلي وكان الجوّ العام جوّ ضلال، لِيكن هذا مبررا لحالتنا حتى نحصل على فرصة ثانية، كما سيأتي في الآية التالية...:

تلاحظ كلام القرآن عن الفرد وغالبا عن الجماعة "قوم، قرن"، مثلما غالب كلام القرآن عن نماذج من الكفّار الأغنياء، والكفار الملأ، لأنّ هؤلاء تأثيرهم أكبر، وحتى لو لم ينتبه الكفّار هنا في الدنيا أنّ جَمْعَتَهُمْ كقوم متضامنين على الكفر كانت سببا في توجّه الهوى العام نحو الكفر، إذ إنّ الكافر المنفرد بين مؤمنين ستراه يفكّر مرتين وثلاث... وعشرة قبل أي قول أو تصرّف علني بالكفر، ولكنه ضمن جماعة مثله يصير قويا في إعلان صراحة الكفر، لذلك يركّز القرآن أحيانا على هذا الأثر من حالة قوم، ويخبرك أنّ جَمْعَتَهُمْ "سيتكسّر رأسها" في الآخرة وتفقد العزّة.

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، لأنّها لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيرا أم شرّاً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضَلَّ عنك صيدها. استعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، حيث لم تقصد الآيات أنّ آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، ولن يفيدوه بشيء. كما استعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون إذ هو ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردّاً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ{107})
{رَبَّنَا}، المسؤول عنا من مستوى إلهي، {أَخْرِجْنَا مِنْهَا}، من جهنّم، {فَإِنْ عُدْنَا}، وتغيَّرْنا من حالة الإيمان الحالية إلى حالة الشقاوة السابقة، وكرَّرْنا الشقاوة والضلال، {فَإِنَّا ظَالِمُونَ}، بعد أن رأينا رجعتنا إلى الحياة وحسابك وعقابك الشديد، فإن أعطيتنا فرصة ثانية، فبالتأكيد سنتصرف بشكل أفضل، وإلا فلن يكون معنا حقٌّ، ولا نكون منصفين ولا عادلين إذا تصرّفنا بشقاوة.

مضافاً لما قلنا في الآية السابقة عن استعمال كلمة قوم، الصورة هنا عن كلام جماعة يقولون إننا "كجماعة" سنتعاون في الفرصة الثانية على الاهتداء بدل الحالة السابقة التي غلبت فيها علينا شِقْوَتُنَا كقوم متعاونين على الشقاوة.

إذن، صاروا في جهنّم ويطلبون فرصة ثانية، وبعبارة أخرى يقولون: فهمنا واقتنعنا أننا كنا مخطئين وها نحن نتعذّب فأعطونا فرصة ثانية وسترون أننا تعلمنا درسنا، وإن عدنا للكفر وتكذيب الآيات فعندها نكون ظالمين، لا يكون معنا حقٌّ ولا نكون منصفين عادلين إن عدنا للكفر، ويكون معكم حقٌّ بتعذيبنا. واللهِ لن نعود لمثلها أبداً. وبعباراتنا العامية، كلامهم على معنى: والله ما بقى أعيدها.

(قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ{108})
{قَالَ}، سبحانه وتعالى:

{اخْسَئُوا فِيهَا}، كونوا في جهنّم في حالة تدل على عجز قدرتكم على تحدّي أوامره تعالى، {وَلَا تُكَلِّمُونِ}، لا تتحدثوا معي بموضوع خروجكم من جهنّم.

يخطر ببالك أن حديث هؤلاء معه تعالى هو فرصة راحة لهم، أو هو شعور بالقيمة ولو للحظات لأنهم يتكلمون معه تعالى... لا، حتى هذا الحديث معهم يسبّب لهم تعذيباً وألماً نفسياً.

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ{109})
لا معنى لحصولكم على فرصة ثانية بسبب:

{إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ}، مجموعة من الناس يفترقون عن الآخرين بقيامهم بعمل محدّد بشكل جماعي، {مِنْ عِبَادِي}، من الذين مفروضٌ منه وعليهم طاعتي، {يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا}، فنعلن للمسؤول عنّا من مستوى إلهي اعتقادنا به، {فَاغْفِرْ لَنَا}، فتجاوز عن الأعمال السيئة التي عصيناك فيها، {وَارْحَمْنَا}، فعاملنا بعنايتك لما فيه مصلحتنا.

{وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}، فإن كان هناك أحدٌ ما موصوفٌ بالرحمة فأنت موصوفٌ بتمام حُسْنِ ما تعنيه كلمة رحمة.

كلمة {عَبْد} تشير لمن مفروضٌ منه وعليه الطاعة، وهي مقابل الحرّ، والملكية من تَبَعِيَّتِهَا العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة {عِبَاد} على كلمة {عَبِيد}، حيث كأن كلمة {عَبِيد} قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة {عِبَاد} ألطف وتشير لمن عَبَدَ الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، لأن كلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن {عَبِيد} جمع {عَبْد}، و{عِبَاد} جمع {عَبِيد}، وهي جمع الجمع، وأثناء الكلام بدقّة، تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم

شيء خاص مشترك، فتقول الآيات: عبيد. وردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وتكون لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وتكون لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس: {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، وهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخرين جاءهم رسول، وعبيد آخرين... وجمع الجمع "عباد"، وكلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جدا عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

بالنسبة لكلمة "خير"، فراجع ما ذكرنا في دراسة الآية 72 من هذه السورة.

(فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ{110})

لا معنى لحصولكم على فرصة ثانية بسبب:

{إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ}، مجموعة من الناس يفترقون عن الآخرين بقيامهم بعمل محدّد بشكل جماعي، {مِنْ عِبَادِي}، من الذين مفروضٌ منه وعليهم طاعتي، {يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا}، فنعلن للمسؤول عنّا من مستوى إلهي اعتقادنا به، {فَاغْفِرْ لَنَا}، فتجاوز عن الأعمال السيئة التي عصيناك فيها، {وَارْحَمْنَا}، فعاملنا بعنايتك لما فيه مصلحتنا.

{وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}، فإن كان هناك أحدٌ ما موصوفٌ بالرحمة فأنت موصوفٌ بتمام حُسْنِ ما تعنيه كلمة رحمة.

كلمة {عَبْد} تشير لمن مفروضٌ منه وعليه الطاعة، وهي مقابل الحرّ، والملكية من تَبَعِيَّتِهَا العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة {عِبَاد} على كلمة {عَبِيد}، حيث كأن كلمة {عَبِيد} قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة {عِبَاد} ألطف وتشير لمن عَبَدَ الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، لأن كلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن {عَبِيد} جمع {عَبْد}، و{عِبَاد} جمع {عَبِيد}، وهي جمع الجمع، وأثناء الكلام بدقّة، تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم
شيء خاص مشترك، فتقول الآيات: عبيد. وردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وتكون لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وتكون لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس: {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، وهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخرين جاءهم رسول، وعبيد آخرين... وجمع الجمع "عباد"، وكلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جدا عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

بالنسبة لكلمة "خير"، فراجع ما ذكرنا في دراسة الآية 72 من هذه السورة.

(إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ{111})

{إِنِّي جَزَيْتُهُمُ}، أعطيت للمؤمنين مقابل إيمانهم وطلبهم للمغفرة والرحمة، {الْيَوْمَ}، في هذا الزمن، في الآخرة، {بِمَا صَبَرُوا}، بسبب الذي تحمّلوه للبقاء على خط التوحيد والالتزام بالدين، وبقوا يتصرفون بوعي وبشكل مدروس في مختلف الظروف، ولم ينجرفوا وراء شهواتهم وغرائزهم والمال والسلطة والشهرة... وتحمّلوا الأذى من الكفّار... فاليوم أعطيهم المقابل على صبرهم على الإيمان، وأعطيهم الثواب، {أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ}، فهم فقط وبالتأكيد الذين حصلوا على شيء له قيمة عالية.

نتذكّر دائماً أن الصبر يكون على شيء تعتقد أنه سيذهب، وبالنسبة لما يحصل مع المؤمنين في الدنيا، كلّ الدنيا ستنتهي، ومهما طال الصبر فله نهاية، وأمّا الثواب على الصبر فهو فوز بجنة خالدة كما تعلم.

سياق الكلام هنا مع الذين في جهنّم كما قالت الآية 107 السابقة، والتعبير باليوم في الآية هنا ليس ليوم القيامة بل لعموم زمن الآخرة، وعندما يحصل هذا الكلام سيكون المؤمنون في الجنّة يتنعَّمون.

(قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ{112})
الآية السابقة قالت إنَّ المؤمنين سيحصلون على الثواب لأنهم صبروا مدّة حياتهم على الأرض، فهل هو صبر طويل لا يمكن تحمّله لأن يوم الحساب بعيد؟ لنَرَ:

{قَالَ}، قائلٌ في يوم القيامة للمشركين، والكلام الآن موجَّهٌ للمشركين الذين تتحدّث معهم وعنهم السورة، والقائل ليس محدَّداً، فسبحانه يوجِّهه لمجموعة منهم، والملائكة (ع) تسأل مجموعة أخرى:

{كَمْ لَبِثْتُمْ}، كم مرَّ عليكم من زمن، والكلام عن زمن في حالة الموت، {فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ}؟ كم هو عدد السنين "المجموعة من اثني عشر شهراً" التي بقيتم فيها في حالة الموت على الأرض في الدنيا؟

(قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ{113})
{قَالُوا}، المشركون:

{لَبِثْنَا}، مرَّ علينا الزمن في الأرض في حالة الموت، زمناً مقداره، {يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ}، وواضحٌ أن سياق الكلام عن يوم من فترة قصيرة كاليوم من ليل ونهار الذي نقضيه على الأرض، فلم يشعروا بمرور السنين خلال موتهم، {فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ}، عبِّرْ عن إرادتك للحصول على معرفة الزمن الذي لبثناه للعادين، لمن يقوم بالتعداد للوقت، مثلاً اسأل من مات بعدنا أو اسأل الملائكة (ع) التي نراها الآن ونعلم أنها كانت واعية أثناء موتنا.

بعبارة أخرى، من عادتنا بفقدان الوعي أثناء النوم أن ننام بعض يوم في فترة الليل، وإن نمنا لمدة طويلة فلا نحتمل أنها ستتجاوز أكثر من يوم، وهذه عادتنا حين كنّا نفقد وعينا بالنوم في حياتنا الدنيا، وعلى كلّ حال نحن لا نشعر بمرور الوقت أثناء نومنا أو في عامّة حالات فقداننا للوعي، حتى لو فقدنا الوعي لأيام أو لأشهر أو لسنين... فلا فرق بالنسبة لنا، لأننا فاقدون للوعي ولن نشعر بمرور الزمن، وإذا استعدنا وعينا بعد فقدانه لملايين السنين، فنحن لا نشعر أبداً بمرور الزمن الطويل، وأقرب تقدير لمدة فقداننا للوعي سيكون على عادتنا التي كنّا عليها، لبعض يوم أو يوم كامل على الأكثر.

طبعاً نحن نحلّل كلامهم متوسّعين في معناه، وإلا فهناك في الآخرة هم أبعد ما يكونون عن القدرة على التحليل والتفكير، لأنهم من الخوف والرعب بالكاد يجيبون بأسرع ما يخطر ببالهم.

سبحانه وتعالى يعلم أنهم لبثوا لسنين طويلة، ويسألهم عن مدّة لبثهم أمواتاً بالسنين، فيأتي الجواب من المشركين بعد أن عاد إليهم وعيهم أنهم لم يشعروا بمرور سنين، بل يشعرون بمرور يوم أو بعضٍ من اليوم، ولا جواب لديهم غير هذا، {فَاسْأَلِ} الذين كانوا يعدّون الزمن أثناء فقداننا للوعي.

هذا اليوم كنتم تكذّبون به، ومتّم، وها أنتم عدتم للحياة وكنتم تقولون عنه إنه لن يحصل وها هو حصل، فهل ترونه بعيداً من بعد موتكم؟ وهذا الكلام المنقول مما سيحصل في الآخرة موجّه لمنكري الآخرة الآن أنكم في حينها لن تشعروا من بعد موتكم إلا بمرور يوم أو بعض يوم وترون أنفسكم عدتم إلى الحياة، وستشعرون أنها حصلت بسرعة.

(قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{114})
{قَالَ}، الذي سألهم:

{إِن لَّبِثْتُمْ}، فقط مرّ عليكم زمن على الأرض في حالة الموت، {إِلَّا قَلِيلًا}، بالمقارنة مع حالة الخلود التي أنتم فيها من الآن وصاعداً، فالسنين التي قضيتموها فاقدين للوعي في حالة الموت هي قليلة، {لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}، لو أنكم كان في قناعتكم معلومة صحيحة مطابقة للواقع، فهذا الآن صرتم تعلمونه وقدّرتم لبثكم بيوم أو بعض يوم، ولكن لو كنتم تعلمونه من قبل لكان نفعكم، ولحسبتم له حساباً وآمنتم والتزمتم...

ضع هاتين الآيتين في بالك دائماً لترى أنهم كانوا فاقدين لوعيهم في حالة البرزخ، ولدينا العديد غيرها من الآيات التي تنقل لنا أنهم بعدما ماتوا فقدوا وعيهم تماماً إلى حين استعادوه في يوم القيامة، وما هو منتشر في ثقافتنا عن عذاب القبر وعذاب البرزخ... بعمومه لا يتماشى مع هذا الكلام القرآني الصريح عن فقدان الشعور بمرور الزمن أثناء موتهم، فإذا أردت دراسة تلك الروايات عليك أن تحافظ على ما قاله القرآن، وما خالف منها القرآن فارْمِهِ بعرض الحائط، ولا تَرْمِ ما يقوله القرآن بعرض الحائط حتى لو كان الكلام منسوباً إلى النبي محمّد (ع)، فيكون عندها الكلام إمّا افتراءً عليه (ع) أو نقلاً بالاشتباه أو...

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ{115})
{أَفَحَسِبْتُمْ}، هل خطر ببالكم هكذا ومن دون تفكير، {أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ}، فركّبناكم وألّفناكم، لتعيشوا في الدنيا، {عَبَثًا}، من دون نتيجة مرجوّة من الفعل، من دون حكمة بخلقكم؟ {وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}؟ فتموتون في الدنيا وتنتهي قصّتكم ولا ترجعون إليه تعالى ليحاسبكم؟

تكذيبكم بالحياة الآخرة والحساب والجزاء، يعني أنّه تعالى خلقكم هنا في الدنيا من دون أيّ حكمة! عبثًا! فهل هذا معقول؟! فهل هذا شيء يفعله الإله!؟

هذا الكلام المختصر يشير إلى ما تميّزنا به كبشر من فكر ووعي وأحاسيس وشهوات وغرائز... وحرّيّة إرادة واختيار، مثلاً ما معنى وضعنا في بيئة مع تزويدنا بما يجعلنا نُحَرّمُ ونُحَلِّلُ؟ ولا تَحْصُرِ التحليل والتحريم بالدين، لأنّه من دون الدين كأوامر إلهية نحن لدينا الكثير الكثير من التحليل والتحريم، حيث لا نرضى أن يهتك الآخرون سترنا وأملاكنا ودمنا وعرضنا... ولا نرضى بخيانة الأمانة والعهد وبالكذب والافتراء وشهادة الزور... ولا نرضى بقيادة السيارة بسرعة عالية بين البيوت، ولا بإطلاق المفرقعات بعد منتصف الليل بين البيوت... وما معنى وجودنا بهذه العقليّة والنّفسيّة إن لم يكن هناك حساب وجزاء على أفعالنا ممّن خلقنا؟ وما معناها؟ وهل زوّدنا تعالى بهذا عبثًا من دون أي حكمة؟ وهل يلعب أو يلهو من خلقنا؟ لا.

بقي شيء، في بعض أدبياتنا نتساهل ونتراخى ونقول بأنّه تعالى خلقنا لأهداف سامية عالية، لغاية، لسبب، بينما بالنسبة له تعالى الكلام القرآني لم يصرّح إلا بخلقنا ملصقًا ذلك بصفاته تعالى من الحكمة والرحمة والعزّة والقدرة والعلم... فلا معنى للأهداف والغايات والأسباب من خلقنا بالنسبة له تعالى، ومن ناحيتنا نحن يصير التوصيف بالأسباب.

ترى ما أقوله واضحًا فيما فسّر به بعضهم الآية 56 من سورة الذاريات {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، والذي لم ينتبه إلى أنّه تعالى لا معنى للغايات والأهداف بالنسبة له، فسّر الآية على معنى أن الهدف والغاية من خلقنا أن نعبده تعالى، والسؤال: لماذا خلقنا سبحانه؟ جوابه: لنعبده. على معنى ما قصده تعالى من خلقنا: أن نعبده. وهذا معنى غير صحيح أصلاً لا للآية ولا كوصف له تعالى، فالآية كانت تقول بأنّه تعالى لم يأذن لنا بعبادة غيره، ولم يخلقنا لنعبد غيره.

سبحانه خلقنا بالصفات التي فينا والتي تحرّكنا لنفعل ونقول، وصار لدينا غايات وأهداف، إذ نريد المحافظة على حياتنا، ونريد التلذّذ بحواسنا، ونريد القوة والسلطة والنفوذ... وبحرّيّة الإرادة مع القدرة على تمييز الخير من الشرّ، فالغايات الأسمى بالنسبة لنا هي اختيار الخير الّذي فيه استفادتنا كأفراد كل واحد لوحده، وكمجموعة حتى لا نؤذي بعضنا...
وربط سبحانه ذلك بمحاسبته ومجازاته لنا على ما فعلناه بإرادتنا ممّا اخترناه من الخير والشرّ، وهذا هو معنى الآية هنا أنّه تعالى لم يخلقنا عبثًا، وما معنى جعله تعالى فينا حرّيّة الإرادة وتمييز الخير من الشرّ إن لم يحاسبنا ويجازينا على ما نفعله؟ فهل هذا عمل حكيم أم عبثي؟

(فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ{116})
{فَتَعَالَى اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز "الله" أعلى، وهو فوق العبثية، وهو {الْمَلِكُ الْحَقُّ}، المالك لكل شيء والحاكم على كل شيء وهو موصوف بأنّه حقّ، فملكيته سبحانه حق صواب صحيحة لأنّه الخالق لكل شيء، ومن ناحية ثانية فهو الملك الحق لأنّه لا يتصرّف إلّا بالصواب، وتعالى عن وصفهم له بخلقه للناس عبثًا.

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، وحده الله لديه الصفات والقدرات الإلهية الفائقة، وهذه تكملة لكونه الملك الحق، فالآلهة التي اخترعها الناس لا تملك أي شيء، فلو كان واحد منها خلق شيئًا لا علاقة لله تعالى به فسيكون مالكًا له، ويحمل بطريقة ما صفة الألوهية لأنّه سيكون عنده قدرة ذاتية فائقة منفصلة عن القدرة الإلهية، وبما أن هذا غير صحيح، فلا يوجد ولا أي كائن لديه الصفات والقدرات الفائقة إلّا صاحب الاسم الله، فلا إله إلّا الله.

{رَبُّ الْعَرْشِ}، الله هو المسؤول من مستوى إلهي عن العرش الممتد في كل دنيا المخلوقات، فسبحانه يدير كلّ الشؤون في كل دنيا المخلوقات من مستوى ربوبي، والعرش يوصف بأنّه {الكَرِيمِ}، فمقامه وشأنه عالٍ، فإذا قارنت صفة الكريم مع صفة العبث لوجدت أن العابث بلا قيمة وليس محترمًا، أما العرش فمكانته عالية جدًّا جدًّا.

نلاحظ ورود وصفه تعالى بالإكرام مرتين في سورة الرحمن ومرة في سورة العلق، وبالكريم مرة في سورة الانفطار، وورد في مختلف القرآن الوصف بالكريم للقرآن والملائكة(ع) ولما في الجنّة... وهنا الوصف للعرش، وهذا الوصف في القرآن يناسب الكرم بمعنى الكرامة المكانة العالية المحترمة، ولا يناسب الكرم بمعنى العطاء بلا حدود أو ما يشابه الجود... فهذا المعنى من مشتقات وتطبيقات كلمة كرم حين تكون وصفًا للعطاء.

تتذكّر أن كلمة "ربّ" نستعملها للمسؤول عن شيء ما. إذْ أنا ربّ بيتي، والزوجة ربّة منزل، وذاك ربّ العمل...
وسبحانه ربّ من مستواه الإلهي، فعلى نفس معنى ربوبيتي على أهل بيتي بمستواي البشري تكون ربوبيته تعالى على العرش ولكن من مستواه الإلهي.

والعرش الذي نعرفه نحن هو الكرسي الفخم الضخم الموضوع على منصّة ويجلس عليه الملك أو الحاكم، وأصلًا كلمة عرش وصف لعموم ما علا ويقابلها فرش، وعرشه سبحانه تعبير عن مركزية السيطرة والقرار لكل ما في الدنيا، وبما أن سيطرته تعالى ممتدة على كل ما في الدنيا فعرشه سبحانه ممتدّ بامتداد ما في الدنيا، وفي الآية 86 من هذه السورة توسعنا قليلًا في الكلام حول العرش.

وفي الآية 91 من هذه السورة توسعنا حول كلمة إله.

(وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ{117})
{وَمَنْ يَدْعُ}، الذي يشهر ويعلن، {مَعَ اللَّهِ} تعالى {إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ}، لا يملك دليلاً يثبت به ألوهيّة الذي أعلن وأشهر أنّه إلهه، حيث يخترع إلهاً من رأسه وخياله ويدعوه ويُعْلِنُ ويشهر أنّه إلهه، فمرّة يدعو ويعلن أن اللهَ تعالى إلهه، ومرّة يدعو ويعلن أن أحداً آخر إلهه، مع العلم أنّه من الواضح جداً من آيات الله تعالى فيما خلقه ومن الرسل ومن هذا القرآن أنّه لا يوجد أصلاً إله إلّا الله تعالى، ومعلوم ممّا حولنا أنّه يوجد إدارة مركزية واحدة على رأسها إله واحد وربّ واحد يدير الكون...

{فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ}، فهذا الدّاعي "المعلن المشهر" لإله آخر غيره تعالى، لن يتركه المسؤول عنه من مستوى إلهي بلا حساب على اختراع إله من خياله أو من خيال غيره.

{إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ}، لا يوصف بأنّهم أفلحوا، إذْ لم يكونوا مجيدين فيما عملوه، {الْكَافِرُونَ}، فمن أنكر التوحيد فلا يوصف بأنّه فالح ولا بأي شكل، وفهمنا من السورة أن الكافر المنكر للتوحيد سيخلد في جهنّم.

مرّ معك في السورة أنّه تعالى إله أحد بدليل كذا وكذا... وهنا ختام السورة عن انتفاء أي برهان عند المشركين يثبت ألوهية آلهتهم، فلا تفصل الآية هنا عن السورة وتستنتج أنّه يمكن لأحد ما من المشركين الحصول على برهان يثبت به ألوهية آلهته، فهذا مستحيل، والآية هنا وبناء على ما ورد في السورة، لا تتحمّل تفسيراً بأنّه: من كان عنده برهان يثبت ألوهية آلهته فلن يحاسبه تعالى. لا، لا يوجد ولا أي برهان حقيقي عقلاني على ذلك، وأي كلام يطرحه أي أحد كبرهان على ألوهية آلهته، فما فينا من فكر سليم كفيل بأن يرينا أن براهينهم هواء وكلام فارغ، والقرآن سهّل علينا ذلك وبيّن لنا أن كلامهم ليس برهاناً.

تلاحظ بداية السورة بالحديث عن فلاح المؤمنين، وخاتمة السورة عن "لا" فلاح الكافرين.

بقي شيء، بعض الناس حين يسمعون قرآنه سبحانه بكلامه عن الحساب على الكفر، هكذا من أوهامهم يقولون: لا نقتنع بأن الإله عنده مشكلة فيما نراه نحن مناسباً، فبماذا سيتأثّر لو قلنا عن غيره إلهاً؟ أين المشكلة ولماذا سيحاسبنا على ذلك؟ ويقولون هذا وهم لا يؤمنون بالآخرة ولكن يتعاملون معها على مستوى نظري افتراضي، حيث تأتي آيتنا والعديد غيرها لتخبرنا أنّه ليست المشكلة عنده تعالى شخصيّاً، بل فيكم، إذ سبحانه لا يسمح بالسوء والباطل، وعبادة غيره إيمان باطل بغض النظر عمّا سينتج من أعمال سوء من الشرك، فكما نحن لا نقبل بالكلام الباطل من بعضنا، سواء أكان عنّا شخصيّاً أو عن أعمالنا أو... ونعتبره سيئة يستحقّ العقاب عليه، فكذلك الكلام الباطل عنه تعالى، وما نقوله بالعامية أن الكلام ليس عليه جمرك، ولا يقدّم ولا يؤخّر... فهذه سخافة لأن بعض الكلام يسبب دماراً للبلدان، كتجييش الناس ضد بعضهم وكالأمر بالحرب... والكلام عنه تعالى بالباطل سوء من أسوأِ ما يكون، وعليه عقاب شديد، وأفكاركم الخيالية لن تغيّر من هذا الواقع أي شيء، وها نقلت لكم السورة مشاهدَ ممّا سيحدث معكم حتماً في الآخرة من عذاب...

(وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ{118}
{وَقُلْ}، أيها الرسول وأيها المؤمن حتى تتميّز عن الكافرين وتكون من الفالحين: {رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {اغْفِرْ}، تجاوز عن سيئاتي، طبعاً المقصود اغفر لي، {وَارْحَمْ}، عاملني بعنايتك لما فيه مصلحتي، {وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}، وأنت خير الراحمين، فإن كان هناك أحد ما موصوف بالرحمة فأنت موصوف بتمام حسن ما تعنيه كلمة رحمة.

بالنسبة لكلمة خير راجع ما ذكرناه في دراسة الآية 72 من هذه السورة.

بالنسبة للأمر الإلهي لرسوله محمّد(ع) بالاستغفار، فالأمر حقيقي، لا لأن الرسول محمّد(ع) من فاعلي السوء عن قصد، فهذا مستحيل وإلا لما اختاره تعالى رسولاً، بل لأنّه قد يحصل سوء مرتبط به (ع) فيكون مسؤولاً بشكل ما عن حصوله، كخطأ غير مقصود ولا معلوم أنّه سيحصل من فعل أو قرار اتخذه الرسول... راجع في ذلك دراسة الآية 43 من سورة التوبة {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ}.

سورة النور (24) ص 350
تتوجّه السورة بالكلام إلى "كلّ" المجتمع الإسلاميّ الذي يحتوي على أطياف مختلفة من مستويات أناس منتمين للدين الإلهي، فمنهم المؤمن الصادق بإيمانه الملتزم الحقيقي، ومنهم متوسّط الإيمان والالتزام، ومنهم المنتمي فقط بالاسم للدين الإلهي، وتتوجّه السورة إليهم بكلامها عن بعض أهم تشريعات السلوكيات لتعليمهم كيفية التعامل معها، وموضوعها بعض أهم نقاط لها ارتباط ببعضها لتنظيم المجتمع.

بداية كلامها عمّا يتعلّق بالعلاقات الجنسية والحشمة... وما يتفرّع عن ذلك، وبعدها دخلت على تشريعات أخرى لها ارتباط بعقلية ونفسية الفرد أمام ما نبّهت منه فيما يتعلّق بالعلاقات الجنسية والحشمة، فعلى صيغة: من بعد تصحيح التعامل مع مسائل اتهام الناس بالسوء... فالكلام يجرّ الكلام عن الذين لا يُعْجِبُهم هذا الكلام ولا تُعْجِبُهم تشريعاته تعالى في القضايا التي يتخالفون فيها مع الآخرين، ويكذبون بإظهار الطاعة لدرجة خوض قتال إن أمرهم الرسول(ع) بذلك... وبعدها الرجوع لأمور تتعلّق بالحشمة في البيوت، ومن مناسبة الكلام عن البيوت عرض توجيهات عن الطعام في البيوت...

فيها شيء ملفت، فإذا استثنيت حكم الجلد بمئة للزاني وفرض الشهود أربعة على الزنا، وكيفية شهادة الزوج على اتهامه لزوجته، فالأمور الباقية التي تحدّثت عنها السورة من المفروض أنها أمور عادية عند المؤمن الحقيقي، وبديهية عنده، كحرمة تأليف القصص الكاذبة عن الناس، وحرمة اقتحام البيوت واختلاس النظر إلى سكّانها... والستر والحشمة وطاعة الرسول... وبالنظر إلى هذه الأمور التي تبدو بديهية للمؤمن يمكنك بسهولة أن تفهم معنى النور الإلهي الذي جعله سبحانه للمؤمن الحقيقي، وإذا رأيتها بديهية فأنت تتحلّى بالنور الإلهي، وسترى المسلم الذي يعاني من التوجيهات

التي طرحتها السورة ليستقيم، فهذا يحبّ التَّسَلّي بأعراض الناس، ويحبّ الفاحشة واختلاس النظر، ولا يهتم بالحق والباطل فيريد دائماً الحصول على ما يريد... وتنبّهه وتحذّره السورة...

الملفت الآخر في هذه السورة توجيهها لكيفية تعاملنا مع هذا المسلم غير الملتزم، حيث لم تسمح لنا باعتباره خارجاً عن الإسلام، وعلّمتنا كيف نعاقبه حين يخطئ، وأمرتنا بالإنفاق عليه إن كان بحاجة للمساعدة بمجرد اعترافه بلسانه أنه أخطأ...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ{1})
{سُورَةٌ}، الشيء الذي له سُورٌ، الشيء المُحَدَّد، وهنا المقصود به هذا الكلام هنا الذي يتحدّث في موضوع "أو محور" مُحَدَّد، {أَنزَلْنَاهَا}، ومعلوم أن هذه السورة نزلت من العالي معنوياً من عنده تعالى من السماء العالية التي فيها الملائكة(ع) على الرسول محمد(ع)، وهي هذه التي نقرأها الآن وأسماها المسلمون سورة النور، {وَفَرَضْنَاهَا}، فيها أوامر فَرْضٍ واجبٍ عليكم، فيجب عليكم الالتزام بها، وسترى معنى ذلك فيما سيأتي في السورة من كلام عن الفرق بين كلامه تعالى وبين عادات المجتمعات التي تسري فيها أحكام وعادات وسلوكيات مخالفةٌ للحقّ وبالتالي مخالفة لدينه سبحانه.

{وَأَنزَلْنَا فِيهَا}، أيضاً، {آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ}، أمور مميّزة واضحة، والمقصود هنا الجمل التي تدل على الأوامر الإلهية التي تشرح سبب التشريعات والسلوكيات التي سترد في السورة، فَفَهَّمْنَاكُمْ أسباب ما فرضناه عليكم، {لَعَلَّكُمْ}، من المفروض ومن المتوقّع منكم بعد قراءتها أن، {تَذَكَّرُونَ}، تستحضروا الله تعالى وما فرضه عليكم في فكركم ومشاعركم وعملكم.

السورة هنا موضوعها واحد واضح جدّاً، وهو تنظيم المجتمع الإسلاميّ، والبداية مع مسألة الأعمال الجنسية المحرّمة وما يتفرّع عنها لمنع انتشار هذه الأعمال، وبعدها متفرّقات لها جذور ارتباط بذلك. هي سورة لهذا الموضوع، وهي كلام مُحَدَّد محوره هذا تنظيم المجتمع، وهذا المعنى تشترك فيه كل سور القرآن، حيث كل واحدة منها سورة، مما يعني أن كل واحدة منها لها موضوع أو محور مُحَدَّد تتحدّث عنه، ومرّة يكون واضحاً جدّاً مثل السورة هنا، ومرّة يكون غامضاً بعض الشيء لأنني أنا لم أفهم الموضوع بينما أنت فهمته ورأيته لأنك باحث أو مهتمّ بما تطرحه، أو لديك خبرة تجربة فكرية أو تشريعية أو سلوكية فيما تقوله... ومرّة يكون غامضاً علينا كلينا لأننا لم نفتح أعيننا جيّداً وتهنا في الروايات التي قطّعت موضوع السورة... ومرّة يمنعنا مرض في قلبنا من الرؤية... وأحياناً لا نراه جيّداً لأنه يتحدّث مع نوعية من الكفّار بينما أنت وأنا مسلمان لا نفهم عقلية ونفسية وكل نوعية عقائد الكفر...

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ{2})
أول ما فرضه تعالى في هذه السورة على الناس: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي}، الأنثى والذكر اللذان يقيمان علاقة جنسية "تامّة" بشكل غير شرعي، ولو لمرّة واحدة، {فَاجْلِدُوا}، اضربوهما على الجلد الخارجي لجسمهما، {كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا}، من الزانيين، {مِائَةَ جَلْدَةٍ}، لا أكثر ولا أقل، {وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ}، فيما تدينون به لله تعالى كتبعات عليكم كونكم عبيده ومؤمنين به وملتزمين بكلامه تعالى، فلا تأخذكم الرأفة حيث الزاني أو الزانية سيتعرّض للجلد، والإنسان عادة ضعيف ويسبب له الجلد الألم فتفكّرون بإلغاء الجلد.

يعني إن كنتم فعلاً متديّنين بهذا الدين فلا تتركوا الزناة بلا عقاب الجلد بسبب الرأفة بهم، ولا تعاقبوهما بأقل من مئة جلدة، أو بشيء آخر غير الجلد... {إِن كُنتُمْ} "فعلاً" {تُؤْمِنُونَ}، تعتقدون، {بِاللَّهِ}، إلهاً يجب طاعته، {وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ}، وتؤمنون بأنكم بعد الحياة الدنيا سترجعون إلى الحياة التي في الآخرة، ليحاسبكم سبحانه ويجازيكم، فمخالفتكم لتطبيق هذا العقاب للزناة سيعرّضكم أنتم للعقاب في الآخرة.

{وَلْيَشْهَدْ}، ليكن حاضراً، {عَذَابَهُمَا}، عند تنفيذ ضرر الجلد مئة جلدة للزانيين، ليكن حاضراً عند تنفيذ حكم الجلد بهما، {طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ}، مجموعة من مجموعة المعلنين اعتقادهم والتزامهم بالدين، ليكن حاضراً عدد من

المعروفين بين الناس بإيمانهم، وفرضه تعالى لوجود الشهود عند الجلد يشير إلى مراقبة تنفيذ الحكم، وحتى لا يحصل تلاعب بالزيادة أو النقصان.

نلاحظ أن عامّة فقهاء المسلمين يفتون برجم الزناة، ويقولون بأن حكم الجلد هو للعزباء والأعزب الزاني، أمّا المتزوّج أو المتزوجّة الزناة فحكمهما الرجم بالحجارة حتى الموت، ولكن هذا الكلام بهذا الشكل مخالف لصريح القرآن، لأنّ الآية عامّة ولم تحدّد إن كان الزناة متزوجين أو عزّاباً، ونجد في الآية 25 من سورة النساء أن عقاب الأمة الزانية نصف ما على الحرّة، يعني خمسين جلدة، "... {فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ}..."، فإن كان الحكم بالرجم للزانية الحرّة المتزوجّة كما يقولون، فكيف يمكن تطبيق نصف الرجم على الأمة المحصنة! وهذا يؤكد أن الحكم هو الجلد للحرّ الزاني وللحرّة الزانية سواء أكانت عزباء أو متزوجة.

لم يذكر القرآن عقاب الزناة بالرجم بتاتاً ولا بأي شكل، نعم ذكر القرآن عقاب القتل للمفسدين في الأرض "{إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ}..."، فإن اعتبر القاضي أن هذا الزاني بالتحديد أو هذه الزانية بالتحديد، مفسدان في الأرض لكثرة زناهما أو لشدّة تأثيرهما في نشرهما للرذيلة في المجتمع، أو...، فعندها ينتقل عقابهما من الجلد إلى القتل لا لكونهما زانيَيْنِ بل لكونهما مفسدين في الأرض.

ننتبه أيضاً، حيث ينتشر في بعض المجتمعات الإسلامية قتل الزانية "جريمة شرف"، وأكثر القتل يحصل للبنات العازبات، ويقتلونهن لمجرد التهمة، وحتى لو لم تحصل علاقة جنسية! وهذا قتل لنفس بريئة وعقابه الخلود في جهنم، فإن كان الإله سبحانه وتعالى فرض مئة جلدة، فالجلدة الزائدة بعد المئة عليها عقاب.

ننتبه أيضاً، حيث إنّ أغلب مجتمعات المسلمين تغض النظر عن الذكر الزاني، فلا يعاقبونه وأصلاً لا يلومونه إن زنى! فهو فحل! وهو رجل! فمن يفكّر بهذه الطريقة فليعلم أنه ليس على هذا الدين الإلهي، فكما ننتبه لبناتنا يجب علينا وبنفس الشدّة الانتباه لشبابنا، ومنعهم وتحذيرهم من الزنا، ومعاقبتهم إذا زنوا.

علينا دائماً أن ننظر لكل الأمور من النظرة الإلهية، فكما نرى مجتمعات متراخية متساهلة متسامحة مع الزنا، بل الزنا فيها علني ومباح، وتعيش الناس حالة عادية متعايشة مع الزنا، ونرى في المقابل مجتمعات متشدّدة وعقوبة الزنا فيها القتل دائماً "للإناث وبدون شهود ولمجرد التهمة"، فبين هذين المجتمعين نفهم الحكم الإلهي، لأنّ الزنا تهديم لتنظيم العلاقات الأسرية بين الناس، وتهديم للنسب، وتهديم لشيء اسمه عفّة وضبط للشهوة، وتهديم للمشاعر المستقيمة كالغيرة والإخلاص، فلا الفلتان الجنسي مسموح، ولا القتل مسموح، وكلاهما كفر بالدين الإلهي.

أخيراً نشير إلى حكم الجلد وهو الضرب على الجلد، يجب أن لا يحصل كسر بالعظام أو عطب للأعضاء، ولا يقطع من اللحم، بل فقط الضرب يكون على ظاهر الجلد، فلا ينزل الدم، وعادة يحصل فعل الجلد على الظهر لأنه منطقة آمنة من إلحاق الضرر بالمجلود، وحيث المطلوب فقط شعوره أو شعورها بالألم ولا يجوز أذية المجلود بشكل مبرح، وهذا الكلام وردنا صريحاً جدّاً جدّاً من سيرة النبي (ع) والشكر لله أنه متّفق عليه بين عموم فقهاء المسلمين.

(الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ{3})
{الزَّانِي}، الشخص الذي يقيم علاقة أو علاقات جنسية غير شرعية، {لَا يَنكِحُ}، لا يفعل ما يتضمّن إقامة علاقة جنسية تامّة، {إِلَّا زَانِيَةً}، إلا مع أنثى تقيم علاقة أو علاقات جنسية غير شرعية، {أَوْ مُشْرِكَةً}، أو أنثى لا تعتقد بتوحيد الطاعة لله تعالى وتطيع غيره تعالى.

بمراجعة استعمال القرآن لكلمة نكاح ستجد أنها أعمّ من كونها مرادفاً لعقد الزواج، فالنكاح هو عموم ما يتضمن إقامة علاقة جنسية سواء أكان عبر عقد زواج دائم أو منقطع أو عبر أي نوع من الاتفاقات أو حتى عن تراضٍ بلا كلام... وهي أعمّ من كونها مرادفاً لعقد الزواج، فهي تتضمّنه على معنى شرعية ما سيأتي بعد عقد الزواج من علاقة جنسية، فبرضا الزوجين يمكنهما الامتناع عن إقامة علاقة جنسية، ولهذا جاء استعمال القرآن لكلمة نكاح ليميّزها عن عقد الزواج الذي يمكن أن يحصل كعقد وليس بالضرورة حصول علاقة، بينما كلمة نكاح تشير حصريّاً لحصول العلاقة.

العبارة في الآية 60 من سورة النور "{وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا}..." تتضمّن المتزوجة والعزباء، على معنى أنها لا ترجو ما يتضمّن علاقة جنسية، فلم يعد لها رغبة أو لم تعد مرغوبة.

بناءً عليه عقد الزواج يتضمنّه معنى النكاح، حيث من بعده يصيران زوجاً وزوجةً، فيتضمن رضا الطرفين بالمقاربة الجنسية، ونكاح المطلقة ثلاثاً من بعد طلاقها من زوج جديد مما يعني ضمناً حصول علاقة جنسية تامّة مع الزوج الجديد، ورفض أحدهما للمقاربة مخلّ بالعقد، والمهر شرط غير مبطل للزواج، والنفقة والميراث من تبعات الزواج الافتراضية المتضمَّنة، ويمكن إبطالها ضمن العقد، كما يمكن تحديد مدّة للعقد فتصير التبعات اختيارية، ويقابله إيقاع الطلاق.

يعني كلمة نكاح لوحدها لا ترادف كلمة زواج لأنّها لا تشير لبقية تبعات الزواج الافتراضية إلا فقط المقاربة الجنسية.

{وَالزَّانِيَةُ}، التي تقيم علاقات جنسية غير شرعية، {لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ}، لا يفعل معها ما يتضمّن علاقة جنسية إلا من يقيم علاقات جنسية غير شرعية، {أَوْ مُشْرِكٌ}، أو شخص لا يعبده تعالى وَحْدَهُ.

{وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ}، منع سبحانه هذا النكاح، {عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}، على المعتقدين الملتزمين بهذا الدين، فممنوع عليهم فعل ما يتضمّن علاقة جنسية من زانٍ أو زانية أو مشرك أو مشركة.

بعبارة أخرى هو إعلان مقاطعة المؤمنين للزناة مع الإهانة لهم، فالذي يزني حرام على المؤمنة أن تتزوّج منه "إلا أن يتوب"، والزانية حرام على المؤمن أن يتزوجها "إلا أن تتوب"، والكلام يجر الكلام ربطاً على إيمان الزناة، فهم ليسوا من المؤمنين بهذا الدين الإلهي، وهم مثل المشركين، وحَرَّمَ تعالى على المؤمنين الزواج من مشركين.

لاحظ الآيات تتوجّه بالأحكام الشرعية للمسلمين، فهذا الزاني وهذه الزانية هما إمّا من المسلمين "أو من أهل الكتاب"، والآية لا تتحدّث عن حياة الزاني وعلاقاته، يعني لا تقصد أن تقول: فلينكح الزاني الزانية أو مشركة. إنما تقول إنّ المؤمنين لا يفعلون نكاحاً مع هذه النوعية من الناس، ولا يبقى لهذه النوعية من الناس أن تتزوّج إلا من المنحطّين أمثالهم من الزناة الذين يفعلون السوء فلا يلتزمون بالأوامر الإلهية، أو من المشركين الذين أصلاً لا يلتزمون بالأوامر الإلهية، فهي لا تشرّع للزناة مَن يحق لهم الزواج بل تهينهم وتريهم أن هذا هو مستواهم، فمستواهم الزواج من الزناة ومن المشركين على معنى أن هؤلاء بلا ناموس ولا دين مثلهم.

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ{4})
ننتقل الآن إلى كيفية إصدار الحكم بالزنا:

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ}، والكلام هنا عن رمي عن إطلاق الاتهام بالزنا، {الْمُحْصَنَاتِ}، الحافظات لأنفسهن، الإناث اللاتي لم يعرضن أنفسهن على الآخرين، سواءٌ أكانت عزباءَ ولم تعرض نفسها على أي إنسان، وهكذا وصف القرآن السيدة مريم(ع) كما ورد في الآية 12 من سورة التحريم "{وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا}..."، ووصف المحصنة يشمل عموم التي لا تعرض نفسها على غير زوجها، كما نفهم من الآية 5 من سورة المائدة "... {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ}..."، ومن السياق تعلم إن كان الكلام عن محصنة لأنها متزوجة لا تعرض نفسها إلا على زوجها، أو عزباء محصنة لأنها لا تفعل الفاحشة أو الكلام يقصدهما العزباء والمتزوجة معاً. حيث إنّ العزباء والمتزوجة كلاهما نَصِفُهُمَا بالمحصنات على معنى الحافظات الصائنات لأنفسهن.

مَن يتّهم المحصنات بالزنا، {ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ}، لم يأت الرامي بالتهمة بأربعة أشخاص أو بثلاثة هو رابعهم ويقولون بأنهم شاهدوا حصول الزنا بأعينهم بشكل واضح، {فَاجْلِدُوهُمْ}، اضربوا من اتهم المحصنات على جلدهم الخارجي، {ثَمَانِينَ جَلْدَةً}، {وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا}، مهما مرّ من زمن لا تقبلوا شهادة هؤلاء في أي قضية كانت، لا تقبلوا قولهم عندما يؤكدون وقوع حادثة ما على أساس أنهم سمعوها أو رأوها وكانوا حاضرين حين حصولها، سواء أكانت شهادة على زواج أو طلاق أو ميراث أو بيع أو شراكة...

{وَأُولَئِكَ}، الَّذِينَ يتهمون الإناث المحصنات من دون أربعة شهود عيان، {هُمُ الْفَاسِقُونَ}، هم الخارجون عن شيء علني يقوله الدين الإلهي، لأنّهم خالفوا أمراً إلهيّاً واضحاً، حيث إنّ الأمر الإلهي بالإدلاء بالشهادة على حصول زنا حين يكون الشهود أربعة، فإن كان الشهود أقل من ذلك فيجب أن يسكتوا نهائيّاً ولا يتكلّموا فيما رأوه مع أي أحد.

وصفتهم السورة بالفاسقين، وهم مسلمون فاسقون، فقط وفقط عقابهم الجلد ورفض شهادتهم فيما بعد في أمور أخرى لأنهم اتهموا أنثى أو ذكراً بالزنا وعددهم لم يكن كاملاً كما حدّد تعالى.

ننتبه، المطلوب أربعة شهداء، وثلاثة لا تكفي ويتم جلد الثلاثة إن تكلموا بين الناس أنّهم رأوا أنثى تزني، وحتى لو ثلاثة رأوا الحادثة وكان معهم رابع ولكنه لم ينظر... فمن تكلّم عمّا حصل، يتم جلده... ويجب أن يكون الشهداء من المعروفين بصدقهم وأمانتهم بنقل الحديث... ويجب أن يتطابق كلامهم في توصيف ما حدث... وكما ترى لأنّ هذا تضييق شديد يكاد يجعل من الشهادة على الزنا شبه مستحيلة، ونحن لسنا الحريصين على الدين والعفّة والقيم... أكثر منه تعالى، وهذه شريعته وهو سبحانه الحكيم، وليس هذا التشريع حماية للزناة، ولكنه حماية للمحصنات من سهولة اتهامهن، لأنّه من الصعب اتفاق أربعة أشخاص على الكذب، ومن الصعب اتفاقهم على كل التفاصيل أثناء التحقيق معهم إنْ كانوا كاذبين.

نعم صار من الصعب تثبيت حالة زنا، لأنها تتطلّب أربعة شهود رأوا بأعينهم حصول العلاقة الجنسية، ولكن في نفس الوقت صار ممنوعاً على الناس اتهام بعضهم بهذه التهمة الشنيعة، ويجب أن يكون هذا الحكم رادعاً لألسنة الناس من التهاون برمي الاتهامات لكل من يكرهونه أو يشتبهون به، ورادعاً للذين يتسلّون بأعراض الناس، فلو طبّقنا هذا القانون، وجُلِدَ أو انْجَلَدَ ثمانينَ جلدةً الَّذِينَ نسبوا الزنا لأنثى أو ذكرٍ، لخرس المتسلّون بأعراض الناس، وارتاح المجتمع من طوال اللسان.

من ناحية ثانية حتّى لو ثلاثة أشخاص من المؤمنين الثقات العدول رأوا بأمّ أعينهم حادثة زنا، فيجب عليهم أن يسكتوا، لأنّ هذه إرادته تعالى، وهو لا يريد سبحانه وتعالى أن يتهاون الناس بتهمة الزنا، ولا يريد أن يتحدّث الناس عن الزنا، حتّى لو حصل الزنا وشهد ثلاثة فليسكتوا عليه ولا يتحدّثوا به حتى لا تنتشر هذه الأحاديث بين الناس، لأنّ مجرد انتشار هكذا قصص يحفّز الرغبة عند ضعاف النفوس لارتكاب الفاحشة...

سيأتيك في الآية 19 ما تستفيد منه لتعلم أيضاً سبباً آخرَ لتصعيب إثبات تهمة الزنا.

نلاحظ بشكل واضح أن الآية أشارت للأنثى التي يتهمونها بالزنا "المحصنات"، وأن التهمة لا تثبت عليها بأقل من أربعة شهود، ولاحظ أن الآية لم تذكر كيفية ثبوت التهمة على الذكر! والسبب واضح، لأن الأنثى أضعف من الذكر في غالبية المجتمعات، ولذلك ركّز على كيفية ثبوت التهمة عليها بأربعة شهود عدول رأوا بأعينهم بشكل واضح الحادثة، وهو نفس الحكم لثبوت التهمة على الذكر، ولكن حتى تشير الآية بالتركيز على المنع من استضعاف الإناث، والابتعاد عن معاقبتهن لمجرد التهمة وبدون دليل كما هو دارج في العديد من المجتمعات، ذكرتهنّ لوحدهن، وللأسف ورغم وضوح ما قالته الآية إنّ الإجرام منتشر بقتل البنات لمجرّد الشبهة، علماً أنه لو ثبتت تهمة الزنا بالعلاقة الجنسية التامة ومع أربعة شهود فحكمهن الجلد لا أكثر.

ننتبه، حالة الزنا هي حصول معاشرة جنسية تامّة، أمّا الملامسة الخارجية والتقبيل... فهذا ليس حكمه "الحدّ"، وليس حكمه الجلد بمئة جلدة بل حكمه أقل ويسمى "تعزيراً"، ويحدّده القاضي بحسب ما يراه مناسباً.

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{5})
{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا}، لا تقبلوا شهادة الَّذِينَ رَمَوا المحصنات "ولم يكونوا أربعة شهود صادقين" في أي حادثة بعد ذلك إلا الذين تابوا وفتحوا صفحة جديدة في سلوكياتهم مما يدل على أنهم لن يكرروا شهادتهم بالزنا على أحد مرّة ثانية إن كانوا أقل من أربعة، {تَابُوا}، {مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ}، من بعد مرور وقت على شهادتهم، {وَأَصْلَحُوا}، وكانت أعمالهم صالحةً جيّدةً، والكلام هنا عن الالتزام الحرفي بكلام إلهي واضح، حيث إنّ في الحادثة السابقة هم يعلمون أنه تعالى لا يقبل إدلاءهم بشهادتهم إن كانوا أقل من أربعة، ورغم ذلك تحدّثوا وقالوا إنّهم شهدوا حادثة زنا... فإنْ بعدما نالوا عقابهم بقوا يقولون بأنهم ظُلِمُوا، وأنهم صادقون، وأن الحكم الإلهي ليس عادلاً... ولم يعترفوا بأنهم أَخْطَأُوا... فهم فاسقون،

ولكن إن رأيتم تغيّرهم مُعْلِنِينَ اقتناعهم بالحكم الإلهي فعندها يمكن قبول شهادتهم من جديد في القضايا والمعاملات بين الناس.

{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ}، يتجاوز عن السيئات، لا يجمد سبحانه على موقف واحد دائم ممن أساء، لأنّه سبحانه يسامح مَن تاب، وهو، {رَّحِيمٌ}، حيث لديه عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، ونتذكّر من القرآن أن غفران ذنوب مَن يتوب خاصٌّ فقط بالمؤمنين، ولذلك استعملت الآية هنا صفة الرحيم لأنّ غير المؤمن أصلاً لن يستغفر طالباً منه تعالى المغفرة، قد يعترف بينه وبين نفسه أو أمام الآخرين بأنّه فعل السوء، ولكن لن ينال مغفرة منه تعالى على ذنوبه حتى لو لم يكرّرها وحتى لو اعترف بِسُوئِهَا.

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ{6})
ننتقل لحالة أخرى:

{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ}، الزوج الذي يرمي تهمة الزنا على زوجته، حيث يتّهم الزوج زوجته بالزنا، {وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ}، لدى الأزواج، {شُهَدَاءُ}، على الحادثة، {إِلَّا أَنفُسُهُمْ}، فقط الزوج شاهد زوجته تزني ولم يكن معه ثلاثة آخرون، {فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ}، كلام الزوج عن رؤيته للحادثة، {أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ}، حيث يكرّر شهادته أربع مرات وهو يقسم بالله تعالى أنه لا يكذب فيما يقوله عن زوجته.

في بعض تراثنا الديني نجد تحليلاً للزوج بقتل زوجته إن ضبطها بالجرم المشهود وهي تزني، وكما ترى الآية هنا تنفي ذلك، فلا يحلّ له قتلها، وهذا حكمه تعالى، وأي تصرّف آخر فعليه عقاب ولا يوجد عنده تعالى شيء اسمه: لم أضبط نفسي...

نعم هذا الكلام غريب جداً علينا كمجتمع ذكوري ميّالٍ للعنف ولا يفهم أن أحكامه تعالى نابعة من عدل وحكمة، ونفترض أن الرجل الشريف لن يضبط أعصابه وسيقتل زوجته لو ضبطها تزني... ولكن هذا ينبع من عادات وليس من الطبيعة البشرية.

(وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ{7})
{وَالْخَامِسَةُ}، بعد أن يقسم الزوج أربع مرات مُتَّهِماً زوجته بالزنا، أن "يقول": {لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ}، أي عليه الطرد من الرحمة الإلهية، {إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ}، لِيَلْعَنَهُ الله تعالى إن كانت زوجته بريئة وهو يكذب في اتهامه لها.

تعقيب على ما مرّ، إن شهد عليها مرّة واحدة، وأمره القاضي بتكرار شهادته مع قسمه بالله لتصير أربع مرات وخامس مرّة يلعن بها نفسه إن كان يكذب، وإن لم يكرّر قسمه أربع مرات ولم يلعن نفسه إن كان كاذباً فعليه عقاب الجلد ثمانين مرّة.

وتعقيب آخر، إن كان مع الزوج شاهد آخر أو شاهدان، فهما يشهدان ويكمل الزوج تكملة عدد الشهادات حتى تصير أربع...

بقي شيء، رسموا كلمة "لعنة" هنا فيما يُسمّى بالرسم العثماني بالتاء الطويلة "لعنت"، والدارج حالياً رسمها بالتاء المربوطة، وهناك عدة كلمات قرآنية أخرى لها نفس الحالة حيث كُتبت مرة بالتاء الطويلة ومرة بالتاء القصيرة، كرحمت وامرأت، وقِيلت تبريرات عديدة لتخريج الرسم بالتاء الطويلة، وما قرأته منها مما طالته يدي لا يبرّر رسمها ممدودةً قياساً على قواعدنا الحالية، إذ ما قالوه لا يظهر منه فرق واضح جلي بين نفس الكلمة التي كُتبت ممدودة مرة وكُتبت قصيرة مرة أخرى في موضع آخر، إلا اللهم حالة كلمة "رحمة" التي يبدو لها تبرير لرسمها ممدودة شَبَهاً لحالة الأفعال الجامدة "نعمت بئست..." والتاء للتأنيث...

وأصلاً هي تبريرات لا داعي لها، وأهميتها يجب أن تكون محصورة بين الباحثين في علوم تطوّر رسم وقواعد اللغة... لأن الجيل الأول من المسلمين حين كتب القرآن بذل جهداً جباراً لرسم الكلمات بأنسب طريقة للّفظ بما رأوه مناسباً، وأنت تعلم أنه في حينها لم يكن لديهم تخصصات في علوم اللغة، وتعلم بأن قواعد رسم الكلمات تطوّرت حتى وصلت

إلى ما نحن عليه الآن، فلا تحاسب الجيل الأول الكاتب للقرآن على القواعد المتعارف عليها حالياً، والاحتمال الأقوى أن من كتب التاء ممدودة ومن راجع كتابته كان يعلم بحالة التاء المربوطة في آخر هذا النوع من الكلمات، ولكن لسبب أو لآخر هم رأوه مناسباً فكتبوها ممدودة.

نفس الكلام يجري على حالات رسم مخالفة لقواعدنا الحالية، وخذ مثلاً منها كلمة "النبيين" حيث رسموها بياء واحدة دائماً، ورسموا كلمة "الليل" بلام واحدة دائماً، وغيرها من الأمثلة التي لا يبدو لك منها أنها أخطاء إملائية بالنسبة لهم، علماً أن حصول خطأ بالرسم حتى على مقاييسهم وارد...

إن كانت المسألة حول تحريف وقع في القرآن، فأصلاً من البداية وإلى الآن المعتمد عند جمهور المسلمين هو تناقل القرآن من الفم لأُذُنٍ، والمتابعة بالقراءة عن المكتوب لتصويب الذاكرة بعرض صورة الكلمات، والخطأ الإملائي بالنسبة لقواعد الكتابة هو خطأ إملائي أو خطأ بالرسم وليس تحريفاً، وكانت الأخطاء الإملائية منتشرة بكثرة في المصاحف التي نسخها الناس بيدهم عن مصاحف أخرى، وهذا يحصل من السهو والاشتباه، ولدينا مصاحف مكتوبة عن قراءة وليس نقلاً عن نسخة مكتوبة... ولدينا حالات عديدة لمصاحف حاول نسّاخها رسم الكلمات بحسب قواعد عصرهم، والتي تعتبر خطأ إملائياً لمن أتى بعده وغيّر رسم الكلمات، وبدوره رسومه تعتبر خطأ إملائياً لمن أتى بعده... وكل هذه المشاكل حالياً لم نعد نعلم بها لأن الطباعة الآلية لنسخة واحدة منقحة بين الرسم في ما يسمّى بالرسم العثماني وبين رسومات أجدد للكلمات قد حلّت المشكلة، ولسبب وجيه جداً اعتمد المسلمون النسخة المسمّاة بالرسم العثماني كأساس، وهم يعلمون جيداً أن قواعد الرسم تغيّرت، ولكن حفاظاً على توحيد رسم القرآن والابتعاد عن متاهات تطوّر قواعد الرسم اعتمدوا رسمة النسخة الأكثر انتشاراً بين المسلمين، واعتمدوا القراءة على قراءة الجمهور الغالب من المسلمين "الذاكرة الجماعية" والتي اختاروا لها القارئ "حفصاً" كقارئ يمثلها.

والقراءة الحالية المضبوطة بالتمام بلا خلاف، والمنسوبة لحفص، هي قراءة جمهور المسلمين منذ عهد الرسول محمّد(ع)، وما حفص إلا ممثّل لجمهور المسلمين وليس قارئاً مثل بقية القرّاء الذين تختلف قراءتهم عن قراءة جمهور المسلمين.

الجدير بالذكر أن ما بين أيدينا والمسمّى بالرسم العثماني، يعطي انطباعا بأنه الرسم الذي كان في مصحف عثمان، وهذا غير صحيح، بل هو معتمد على مصحف عثمان بالتمام من حيث محاولة الرسم بما يناسب اللفظ، بدون زيادة أحرف منطوقة، لأنه بعد انتشار التعلّم بدأ العلماء يستحسنون رسوما أنسب لتعطي اللفظ المحفوظ في الذاكرة، وحاولوا قدر الإمكان الحفاظ على الرسم القديم، فأجروا تغيرات في الرسم بحيث يناسب اللفظ أكثر، إلى أن استقروا بشكل عام على النسخة المنتشرة حاليا، وللتعمّق في ذلك راجع كتب تدوين القرآن تحت عنوان "رسم المصاحف".

لمزيد من التوسّع حول موضوع الرسم والقراءة وادّعاء التحريف... راجع دراسة الآية 6 من سورة الأعلى {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى}.

(وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ{8})
{وَيَدْرَأُ}، يدفع يبعد، {عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ}، الزوجة، {أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ} تعالى، وتؤكّد قَسَماً أربع مرات وتقول، {إِنَّهُ}، زوجها، {لَمِنَ الْكَاذِبِينَ}، وليس صادقاً فيما يتّهمها به.

(وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ{9})
{وَالْخَامِسَةَ}، بعد الشهادات الأربع، {أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ} تعالى {عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ}، وليردّ سبحانه وتعالى على كذبها بردّ قاسٍ إن كان زوجها صادقاً في ما اتهمها به.

أيضاً، وبالنظر إلى ما مرّ، إن طلب منها القاضي أن تشهد أربع مرات وتلعن ولم تقبل، فعندها يثبت عليها حكم الزانية ويتم جلدها مئة جلدة.

كما ترى، حكمه تعالى لم يضع الزوجة تحت رحمة زوجها الذي قد يكون كاذباً في اتهامه لها، وإن كانت بريئة ستقسم على ذلك، ومن بعدها لا يحقّ لأي أحد التعرّض لها بأي شيء. وإن كانت كاذبة أو كان هو كاذباً فلعنة الله تعالى ليست

شيئاً يستهان به، ومما نعلمه من عموم كلام القرآن عن انطباع القلب، فمن شبه المستحيل أن يتوب من كذب باتهام الأبرياء ولعن نفسه، وهذا سيموت ويكون عقابه الخلود في جهنّم إن لم يتب، ومن شبه المستحيل أن يتوفّق للتوبة بعد أن يلعن نفسه، لا تنظر للموضوع بسهولة: قيل للسارق احلف، قال جاء الفرج. لا، فالموضوع هنا فيه لعنة الله تعالى.

لاحظ، فيما سبق كان الكلام يصرّح بذكر المحصنة ليرينا الحكم وهو نفسه الكلام عن المحصن، وهناك قصدت الآية حماية الأنثى البريئة من سهولة اتهامها بالزنا... وهنا نفس الشيء تحمي الآية الزوجة البريئة من الاتهام، وهو نفسه الكلام عن شهادة الزوجة على زوجها إن ضبطته يزني، حيث تشهد عليه وتلعن وهو يردّ شهادتها ويلعن، ولكن مجتمعنا الذكوري انسحب تأثيره على فهمنا للقرآن ونادراً ما ترى من اشتق من آياتنا هذه حكم الزوجة التي ضبطت زوجها يزني.

في الروايات لدينا حكم بحصول طلاق لا رجوع منه إن حصل تلاعن بين الزوجين على خلفية الاتهام بالزنا للزوجة، وهذا لا يبدو صريحاً من الآية ولكنه حكم يتماشى مع مفاهيم القرآن للرأفة والرحمة والمودّة والعشرة بالمعروف المفروض تواجدها بين الزوجين، لأن هذه الأمور لا يَعُودُ لها أي معنى من بعد التلاعن، وبذلك لا معنى لبقائهما زوجين. على كلّ حال، تأكيد حكم إلهي من الروايات يحتاج للتأكّد من خلو تلك الروايات من أي مخالفة للقرآن، والتأكّد من صدورها عن الرسول(ع) من دون أي إضافات أو تحليلات ممن روى...

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ{10})
{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ}، لو لم يكن سبحانه يمنحكم أموراً جيدة من دون أن يكون واجباً عليه منحها لكم، ولولا {رَحْمَتُهُ}، لولا عنايته بكم لما فيه مصلحتكم، هذا هو التشريع الإلهي لم يكن بهذه الطريقة لولا فضله تعالى عليكم ورحمته، حيث إن الطريقة التي كانت معتمدة، والتي لا تزال معتمدة في العديد من المجتمعات التي لا تتقبل الزنا، أن يقتل الرجل زوجته فقط على الشبهة، أو استناداً إلى كلام الناس، أو بسبب غيرته المفرطة... وهي بريئة! هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية ورغم خطورة جريمة الزنا، وعقابها الشديد، لكنه تعالى في كل ما سبق تلاحظ أنه تعالى لم يُرِدْ جعل هذه التهمة سهلة الإلصاق، أو سهلة التلفيق، وجعلها سبحانه صعبة بتعقيد شروطها لأن أي شخص يوصّف مشهد الحادثة وينقلها للآخرين ستنتشر التهمة، حتى لو كانت وهمية وكذباً... يعني قارنها بحادثة قتل، حيث في القتل هناك جثّة وأداة قتل ودماء ودوافع للقتل... وهي تفاصيل من الصعب تلفيقها ولصقها بأيٍّ كان بمثل سهولة إلصاق تهمة الزنا التي يكتفي فيها الناس لتصديقها ونشرها بشخص يقول: رأيتهما معاً...

لولا فضله ورحمته تعالى، لأجريتم أحكاماً ظالمة. وهذه التكملة للجملة واضحة تعرفها بالبداهة، وتكرر قطع الجمل في القرآن بدون تكملة كأسلوب قرآني للفت الانتباه بشدّة للكلام.

{وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ}، يقبل التوبة ويسامح من فتح صفحة جديدة، والله {حَكِيمٌ}، حيث لم يقل هذه الأحكام عن عبث بل عن رؤية الصوابية في الأمور، وهي واضحة لمن ترك عصبيته وعقليته الجامدة.

ننتبه جيداً، لأن هذه الأحكام الإلهية إلى الآن نراها غير مطبّقة في الغالبية الساحقة من مجتمعاتنا التي تدّعي الانتماء لدينه تعالى، هنا التوبة والإشارة لحكمته تعالى تفهمها موجّهةً لمن كان لديه أحكام مختلفة عن حكمه تعالى ويجريها في مجتمعه قبل معرفته بالحكم الإلهي.

أعد قراءة الآية لترى أن قطع الجزء الأول منها بدون جواب "لولا"، وتركه لك لتكمله من سياق الكلام، وبعدها الكلام عن التوبة والرحمة، يشير بقوّة إلى كون هذه الآيات أحكاماً جديدةً بالنسبة لهذا المجتمع الذي نزلت على عهده، وفيما سبق كانت أحكامهم مختلفة، ويراها سبحانه ظالمةً عبثيةً، لأنها أحكام من خلفية ذكورية قاسية فقط على الإناث، ولذلك عقّبت الآية بأنه تعالى توّاب إن تابوا وحكيم، وتشريعه ليس عبثياً بل تشريعكم أنتم عبثيٌّ.

(إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ{11})
ننتقل لشيء خطير يصيب المجتمع الإسلامي، وهي حالة نشر الأحاديث عن اتهام الأبرياء بالزنا من دون دليل:

{إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ}، بشيء غير ما هو بالأصل، وهنا المقصود الذين يقولون كلاماً عن شيء حصل ولكنهم غيّروه وتلاعبوا به، هم، {عُصْبَةٌ مِنْكُمْ}، هم مجموعة متّحدة على الإفك من مجتمع المسلمين، {لَا تَحْسَبُوهُ}، فلا يخطر ببالكم لأول وهلة، أن الإفك الذي قالوه، {شَرًّا لَكُمْ}، {بَلْ}، لو فكّرتم فيه، {هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}، ففي النظرة الأولى لانتشار اتهاماتهم الكاذبة يبدو أنهم آذوا وأساؤوا للأشخاص الذين اتهموهم ولأقاربهم، وأساؤوا للمجتمع... ولكن لو فكّرتم لوجدتم أن ما فعلوه له وجه حسن آخر، حيث صار واضحاً للجميع من هم الفاسقون الذين يرمون الاتهامات ويتسلّون بالناس.

{لِكُلِّ امْرِئٍ}، لكل شخص منهم، {مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ}، فهم اكتسبوا وحصلوا على تبعات عمل سيئ معلوم أن عليه عقاباً ونتج من إفكهم.

{وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ}، تولّى وأخذ على عاتقه مهمّة نشر الخبر على أكبر عدد من الناس ليشيعه بينهم، أو قام بتكبير الحادثة لتصير تهمة بفاحشة، {لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ}، فسيصيبه ضرر لا يمكن تحمّله ولا الاعتياد عليه.

الآيات تشير لحادثة محددة وقعت في عهد النبي محمد(ع)، وتحدّثت عنها بالعموم ولم تذكر الأسماء ولا التواريخ... لأنها أرادت أن تكون الحادثة نموذجاً للعبرة عبر التاريخ، ومعلوم تكررها في الكثير من المجتمعات، حيث بكل وضوح يبدو من الآية أن هناك جماعة من المسلمين قاموا بتلفيق تهمة زنا لرجل وامرأة من المسلمين، ومن دون أي دليل، وفقط لمجرد تواجدهما معاً لوحدهما، وصارت تلك العصبة تخترع الأقاويل وتضع البهارات فوق القصّة التي اخترعوها... حتى انتشرت بين الناس قصّة زنا بين شخصين بريئين، وهنا الآيات تتوعّد الأفاكين بالعذاب وبالخصوص للذين كبّروا ما جرى وأضافوا عليه اتهام الزنا وتولّوا نشر الخبر بين الناس.

من المشهور في الروايات أن الآيات نزلت في حادثة اتهام لإحدى زوجات النبي(ع)، ولا يوجد استفادة منظورة من البحث في الروايات التي قالوا بأنها متعلّقة بالآيات هنا، لأنها روايات فيها تعارض وأحداثها غير متناسقة، وكما ترى من دونها نفهم كل الآيات، ونراها تنطبق على كل إفك يحصل في أي زمن كان.

نعود لننتبه لما نبّهت عليه الآية، فمن قام بالإفك فقد سبّب الشرّ "الأذى والسوء... بأنواعه المختلفة" للمتهمين ولأقاربهم ولأصدقائهم، ولكن الآية تأمرنا بالنظر للناحية الثانية من الحادثة وفيها خير، حيث ظهر الأشخاص الذين يخترعون الأكاذيب بشكل واضح، وصاروا مفضوحين، لنكمل:

(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ{12})

{لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ}، لو أنكم حين سمعتم الإفك الذي ينتشر وبدل أن تظنوا بالمتهمين بالإفك شرّاً، فتشكّوا فيهم أنهم قاموا بعمل سوء، بدلا منه لولا، {ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا}، حين سمع المعلنون اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين الإلهي، وحين سمعوا هذا الإفك ظنّوا شرّاً بالمتهمين، وصدّقوا الخبرية، فالآية هنا تقول لهم: لولا ظننتم بأنفسكم خيراً بدل الشرّ. لأن المؤمنين نفس واحدة، والاتهام توجّه لتلك النفس الواحدة، فهل تظن بنفسك إن كنت بريئاً؟ لا، لأنك تعلم بأنك بريء، لذلك عندما اتهموا مؤمنين آخرين وبدون دليل كان يجب أن تظن بالمتهمين خيراً لأنهم نفسك وأنت منهم، ومن دون دليل اتهموهم.

لولا، {قَالُوا}، المؤمنون والمؤمنات: {هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ}، هذا بشكل واضح قلب للكلام كتحريف وتزييف للحادثة.

يعني، من المفروض أن لا يبلع ولا يصدّق المؤمن أي كلام يسمعه، وبخاصة إن كان اتهاماً لشرف الناس، وحين يسمع كلاماً من دون دليل يجب عليه فوراً المبادرة بالدفاع والردّ بأن هذا "إفك مبين" لأنه كلام من الواضح أنه تركيبة، وهو غير صحيح طالما لا يوجد دليل صريح ومباشر، وسترى من الآية التالية أنه تعالى يعتبر المُتَّهِمِينَ كاذبين وسترى في الآية 16 أنه تعالى يأمرنا بالتعامل مع هذا الكلام ووصفه على أنه بهتان. نكمل مع الآية التالية للتوجيهات الإلهية للمؤمنين أمام هكذا حادثة:

(لَوْلَا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ{13})

{لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ}، هؤلاء الذين يرمون الاتهامات يجب أن يسكتوا أو حين يأتون بأربعة شهداء فقط في هذه الحالة تصدّقوهم، ومعلوم أن الشهود يجب أن يكونوا مشهورين بصدقهم وأمانتهم بنقل الكلام، وأن يكونوا رأوا الحادثة بشكل واضح...

{فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا}، الذين ينشرون الاتهامات، {بِالشُّهَدَاءِ}، بأربعة شهداء، يؤكدون وقوع الحادثة، {فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ} تعالى {هُمُ الْكَاذِبُونَ}.

ننتبه، لأن الآيات لا تتحدث عن أشخاص رأوا حادثة ما، حيث إن هذا الموضوع تحدّثت عنه وعن حكمه الآيات السابقة، بل تتحدّث الآيات هنا عن الثرثارين، النمامين، الأفّاكين، الذين لم يكونوا أصلاً موجودين حين حصول الحادثة، فإن لم يستندوا إلى أربعة شهداء رأوا الحادثة، فتصنيفهم عند الله تعالى بأنهم: كاذبون. مهما قالوا ومهما وصفوا ومهما حلّلوا... طالما لم يستندوا في أقوالهم إلى شهود عيان وعددهم أربعة فكل كلامهم: كذب.

يعني فرضاً حصلت حالة زنا وشهد عليها أربعة وكانوا عدولاً... ووصفوها مثل بعضهم... ومن بعد ذلك تحدّث الناس عمّا جرى، حيث إن الناس نقلاً عن أربعة شهداء ينقلون الكلام، أمّا في الإفك فهو الكلام بتهمة الزنا من دون الاستناد إلى أربعة شهود رأوا ما جرى بوضوح... مُشيعو الكلام عن الفاحشة بدون الاستناد إلى أربعة شهود يعتبرهم تعالى كاذبين، فلو نقلوا عن ثلاثة شهود لا رابع لهم، أو نقلوا عن اثنين أو عن واحد يقسمون بأنهم رأوا... عملياً هذا يعني أمره تعالى لنا أن نعتبر الناقلين للكلام عن أقل من أربعة شهود كاذبين، ونقطة انتهى.

عادة الناس الثرثارين لا يسكتون إن رأوا أو قيل لهم أن رجلاً وامرأة كانا لوحدهما... ويبدؤون بالتحليل: ماذا كانا يفعلان لوحدهما غير الفاحشة... وهذا التحليل ومهما كان منطقياً... فهو كلام كذب لأنه لا يستند إلى حقيقة مشاهدة ما حصل.

أكرر لك، فرضاً حصل زنا، ولم يكن عليه أربعة شهود، وإنّ تحليل الناس لحادثة اختلاء الرجل والمرأة أنهما زنيا كان في الحقيقة تحليلاً صحيحاً، رغم ذلك يقول لنا سبحانه وتعالى إنهم كاذبون، حيث سيحاسبهم سبحانه على أساس أنهم اتهموا الرجل والمرأة بالزنا كذباً، حتى لو كانا في الحقيقة زنيا.

لهذا الكلام عمق تشريعي وسلوكي، لأن الشاهد والشاهدين والثلاثة على الزنا لا نقول إنهم كاذبون، حيث كان حكمهم الصمت طالما ليس العدد أربعة، وإن تكلّموا بما رأوه فلهم عقاب. تَصَوَّرْ لو أنهم بدؤوا يقولون بين الناس أنهم شاهدوا الزنا بين فلان وفلانة ولكن عددهم أقل من أربعة ولذلك لن يثبت حكم الزنا، بهذا تكون التهمة انتشرت بين الناس! ولذلك حكم تعالى عليهم بالجلد ثمانين جلدة لأنهم تكلموا فيما رأوه...

هنا الوضع أسوأ، لأن الأفّاكين أصلاً لم يروا زنا، بل اعتماداً على أقل من أربعة شهود، أو من افتراضاتهم وتخميناتهم اتهموا، حتى لو كان تخمينهم صحيحاً، وحتى لو أيّدهم ثلاثة شهود، فهم سيحاسبهم تعالى على أساس أنهم كاذبون، والشهود الثلاثة الذين نشروا الكلام بين الناس حكمهم الجلد...

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ{14})
{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ}، لو لم يكن سبحانه يمنحكم أموراً جيدةً من دون أن تكون واجبةً عليه تعالى منحها لكم، {وَلَوْلَا رَحْمَتُهُ}، لولا عنايته بكم لما فيه مصلحتكم، {فِي الدُّنْيَا} عبر تزويدكم بالتشريعات والسلوكيات الحقّة وتوبته عليكم... {وَفِي الْآخِرَةِ}، بالمغفرة لكم ومضاعفة الثواب... {لَمَسَّكُمْ}، لأحسستم بشكلٍ حقيقي، {فِيمَا}، في الذي، {أَفَضْتُمْ}، تكلمتم فيه بشكلٍ زائدٍ عن حدّه، لأصابكم، {عَذَابٌ عَظِيمٌ}.

هذا الاتهام للناس من دون دليل، والإفاضة في الكلام عبر تبهيره بالزيادة عليه ونقل القصّة للآخرين، يستوجب عقاباً في الدنيا وعقاباً في الآخرة، ولكن من فضله تعالى ورحمته أعطاكم فرصةً للتوبة، تماماً مثلما يستحق المشرك أو الكافر أو المجرم... مثلما يستحق فوراً أن ينزل عليه عقابٌ هنا في الدنيا وعقابٌ حتميٌّ في الآخرة، ولكن فضلاً ورحمةً بالمؤمنين يتم تأجيل العقاب عسى أن يتوبوا.

ضع في بالك أن الآيات هنا تتحدّث مع مؤمنين عاديين إن جاز التعبير، حيث أشارت الآيات لمؤمنين رفضوا الخوض في الاتهامات، ومؤمنين خاضوا... وبعد قليل ستنتقل الآيات لمن يحبّ أن تشيع الفاحشة في مجتمع المؤمنين، فضع في بالك أن الآيات تتحدّث عن هذه الفئات الثلاث من المجتمع، كلٍّ على حدة.

لنتوقّف هنا قليلاً طالما أن كلام القرآن عموماً عن نماذج لنتعلّم منها ونستفيد، لأنّ عموم التفاسير وللأسف تعاملت مع الآيات هنا على أنها تأريخ لحادثة جرت في زمن النبي محمّد(ع)، وغاصوا في الأحداث والأشخاص والتحليل... وضاعت علينا العبرة... وما نراه في المجتمعات المسمّاة إسلامية من أزمات وكوارث اجتماعية واقتصادية وأمنية... فما هو إلا نتيجة التشريعات والسلوكيات الفاسدة النابعة من إيمانٍ فاسدٍ، وتهاون الناس بأعراض بعضهم البعض برمي الاتهامات على الشبهة والتخمين... بينما شرعه سبحانه لا يقبل بأقل من أربعة شهود على الزنا ويعاقبهم بالجلد إن كانوا أقل من ذلك...

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ{15})
هذه النوعية تستحق العقاب للسبب التالي: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ}، تتلقون أي تستلمون ما سمعتموه من اتهامات من الآخرين بألسنتكم، فأنتم أناس وهم أناس، وكلكم كمجموعة من الناس تتلقون الخبر من بعضكم من لسان ينقله إلى لسان آخر ينقله للسان آخر وهكذا... ووصلكم الخبر من لسان الناس ولم تكونوا حاضرين شاهدين على الحادثة، وبعدها، {تَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ}، بما تتفوّهون به، بفمكم الذي تتكلمون به، {مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ}! فتنقلون كلاماً وصلكم من كلام الآخرين ومن دون أي دليل على صحّة ما وصلكم قمتم بنقله ونشره وأنتم لا تعلمون فلستم شهوداً ولا ناقلين عن شهود، وأنتم تعلمون أن الشهود يجب أن يكونوا أربعة، وتعلمون أنهم فرضاً لو شهد أقل من أربعة فيجب أن يسكتوا وينسوا الحادثة.

{وَتَحْسَبُونَهُ}، من دون تفكير بالموضوع وأثره وضرره... تحسبون نقلاً للكلام، {هَيِّنًا}، أنه ليس مهماً ولا قيمة له، فتستسهلون الكلام به وكأنه بلا ضرر ولا عقاب عليه، وكأنكم لستم ترتكبون خطأً فظيعاً، على أساس أن كل الناس تتحدّث بهذا الموضوع وأنتم فقط قمتم بنقله... وأنتم فقط تحلّلون وتخمنون... فهذا ما تحسبونه، ولكن، {هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ}، ليس شيئاً هيناً رمي الاتهامات بلا أربعة شهود.

(وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ{16})
{وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ}، لو أنكم حين سمعتم هذه الاتهامات وبدل أن تنشروها، {قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا}، حيث لا يحق لنا أن نتحدّث بهذه القصص المعيبة عن الناس، ولا يحق لنا نشر هذا النوع من القصص، {سُبْحَانَكَ}، تنزّهت، حيث لا تقبل بنقل الكلام بالاتهامات من دون دليل، لأنك منزّه عن تمرير اتهامات الناس لبعضها من دون دليل بلا عقاب، {هَذَا بُهْتَانٌ}، هذا الاتهام للناس بدون دليل هو الموصوف بأنه بهتان وهو الشيء بلا أساس، بلا دليل، وهو بهتان، {عَظِيمٌ}، إذ يكون الكلام بلا أساس عن موضوع تافه، ولنقل أني أتحدّث عن شخص أكل خروفاً بالكامل وجبةً واحدةً، وهذا بهتان، وهذا كلام لا أساس له من الصحة، ولكنه ليس عظيماً بخطورة اتهام الناس في أعراضهم.

البهتان هو ما تفعله أو يفعله الآخرون معك، أو ما تقوله أو تسمعه ولا أساس له بالنسبة لك، حيث لا يطابق توقعاتك ولا ما في فكرك، أو لا يطابق توقعات وفكر غيرك. وكمثال عنه القول عن شيء فعله أناس أو فرد، وبالنسبة لك من غير المتوقّع منهم فعل ذلك، حيث لا أساس لديك لتتوقّع فعلهم ذلك، في هذه الحالة يوصف القول بأنه بهتان، سواء فعلوه حقاً أو لم يفعلوه، لأن التوصيف بالبهتان يجري حتى على من فعل شيئاً لا تتوقّع منه فعله، وعلى هذا المعنى جاء كلام الآية هنا وكلام الآية 12 من سورة الممتحنة {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ...}. ومن تبعاته استعمال البهت عند حصول شيء بشكل مفاجئ لم تتوقعه ولم يكن هناك أساسٌ لحصوله بحسب معلوماتك والمعطيات التي معك، وعلى هذا المعنى جاء الكلام في الآية 258 من سورة البقرة {... قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ...}.

هذه التوجيهات الإلهية للجميع، فإن كنت مؤمناً حقيقياً، فمن الأساس يجب أن لا تصدّق ما تسمعه من اتهامات يتحدّث بها الناس من دون دليل، ويجب عليك محاربتها فوراً، وإن كنت تميل إلى التصديق وإلى نقل القصص والتسلّي بها، فها يعلّمنا سبحانه عبر هذا القرآن أن لا نتكلّم بكلام لا دليل عليه، وهنا بالخصوص يجب توافر أربعة شهود، وإلا فلنسكت ولا ننقله، ومن قاله لنا نخبره بأنه يجب أن يسكت عن بهتان الناس، وبخاصة إن كان عن الشرف والزنا، لأن هذا كلام عظيم وليس هَيِّناً لنتسلّى به.

ننتبه جيداً ونتذكّر الآية 13 السابقة التي أخبرتنا أنه تعالى يعتبر المتكلمين في اتهام الزنا كاذبين حتى لو ثبتت التهمة فيما بعد، طالما لم يكن الكلام عن أربعة شهود، فسيعتبرهم سبحانه كاذبين وسيحاسبهم على هذا الأساس، وهنا نفس القاعدة، ويأمرنا سبحانه أن نعتبر الكلام بلا أربعة شهود بُهْتَاناً، لأنه اتهام بلا أساس، وتهمة باطلة مرفوضة، وسينتج عن ذلك أن يقول المنافقون والفاسقون عن المؤمنين الحقيقيين أنهم بسطاء ساذجون، لأنّ المسألة واضحة، ماذا كان يفعل فلان وفلانة لوحدهما؟! وشاهدهم فلان في السيارة لوحدهما... أو نزلا من البيت معاً... طبعاً زَنَيَا، وهذا واضح ولا يحتاج لشهود... لا، هذا يتعامل معه المؤمنون الحقيقيون على أنه بهتان، ويأمر من ينقله بالسكوت... وسترى سبب ذلك في الآية 19 الآتية.

(يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{17})
{يَعِظُكُمُ اللَّهُ}، يقول سبحانه لكم عبر هذه الآيات ما يحدّد لكم الصحيح من الخطأ، ويعظكم تعالى، {أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ}، لعمل شبيه بهذا، وبعد الآن لا تقوموا بنشر أي كلام بلا دليل شرعي، {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، إن كنتم فعلاً معتقدين ملتزمين بهذا الدين، فيجب أن لا تكرروا نفس الخطأ ولا تقوموا بنشر أي شيء سيِّئ عن الناس من دون دليل مقبول شرعاً.

الآية هنا تربطها مع كلام قرآني آخر ورد في الآية 206 من سورة البقرة {وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ}، والذي لم يتّعظ ورفض التوقّف عن اتهام الآخرين بدون شهود على أساس أنه ليس غبياً لأنّ القصّة واضحة... فلينتبه أن ذكاءه هذا ليس مطلوباً في هذه المسألة، بل المطلوب منه استعمال ذكائه في أن لا يكون مصيره جهنّم، وأصلاً المصلحة العامّة للمسلمين أن يلتزموا بما يقوله تعالى هنا.

(وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{18})
{وَيُبَيِّنُ}، يوضّح، {اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ}، الأمور المميّزة، حيث هنا عبر جمل القرآن صار واضحاً لكم ما يجب أن تفعلوه وما يجب أن تتركوه، وصار واضحاً السبب وراء هذه الأوامر الإلهية كما سيأتي في الآية التالية.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ}، فيعلم كل شيء، ويعلم ما هي أنسب الأحكام التي سيأمركم بها، {وَاللَّهُ حَكِيمٌ}، فأوامره لا تصدر عن عبث ولا عن تسلية بل صوابية الحقّ في الأمور.

هذه الأوصاف له تعالى مقابل أوصاف الثرثارين الطفيليين الوقحين... المتسلّين بالناس... وصولاً إلى الكلام عن أعراض وشرف الناس... وهؤلاء صفاتهم معلومة، وها تسمع كلاماً من عليم حكيم ينبّهك ويخبرك ما تفعله حتى لا تكون منحطاً أخلاقياً ونفسياً وفكرياً كفرد، وحتى لا يكون المجتمع مستواه متدنٍ من طول لسان الناس عن بعضهم البعض بالكلام السوء.

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ{19})
ننتقل الآن إلى تبرير إضافي للحكم السابق الذي ضيّق ومنع الاتهام بدون أربعة شهود، وضمناً ننتقل إلى نوعية من الناس في المجتمع الإسلامي:

{إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ}، أن ينتشر خبر، {الْفَاحِشَةُ}، العمل الجنسي السيّء، {فِي الَّذِينَ آمَنُوا}، في المجتمع الذي أعلن أنه معتقد ملتزم بالدين الإلهي، {لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}، فلن يتركهم سبحانه من دون عقاب لا هنا في الدنيا ولا في الآخرة.

هناك أناس يحبّون نشر الأخبار عن الأعمال الجنسية السيئة في مجتمع المؤمنين، فلو كان الناس لا يسمعون بالأعمال الجنسية السيئة، فمن الصعب أن تخطر ببالهم، ولكن عند نشر قصص عن الفاحشة بينهم فسيلتفتون إليها، وتخطر ببالهم، وبطريقة أو بأخرى سيستسهلونها وسيتشجعون على ارتكابها... وهذا هو ما يريده الناشرون لتلك الأخبار، لأنهم كارهون لمجتمع المؤمنين، ويريدونه أن يكون منحطاً مثلهم.

{وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}، فأنتم لم تفكّروا في خلفيات الذين ينشرون أخبار الفاحشة، ولم يخطر ببالكم أنهم يريدون تشجيعكم على ارتكاب الفاحشة، ولكن الله تعالى يعلم، وها أخبركم.

على كل المؤمنين الانتباه من كل أنواع الأخبار، فهناك آيات عديدة نبّهت عن الأنواع الأخرى من الأخبار التي ينشرها المغرضون الكارهون للمؤمنين، والتي ينشرها البسطاء والحمقى من المؤمنين... أو الذين خبرتهم معدومة أو قليلة في التعاطي مع الأمور... كإشاعة الأمن أو الخوف من العدو كما ورد في الآية 83 من سورة النساء {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ...}، وإشاعة الأخبار والمعلومات الكاذبة كما ورد في الآية 6 من سورة الحجرات {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} وغيرها... أمّا هنا فالتركيز على إشاعة الفاحشة، والمنع من نقلها أو نشرها، بل ومحاربة من ينشرها وإخراسه وتهديده بالعقاب بالجلد إن اتهم أحداً ما، أو أصرّ على نقل أخبار الفاحشة...

بقي شيء، حيث يشيع في مجتمعاتنا الذكورية أحاديث عن المغامرات الجنسية، فبعضهم يتباهى بعلاقاته مع الزانيات، وبعضهن متزوجات ويشرن لرغبتهن بمغنٍّ أو ممثّل... وبعضهم يتباهى بعدد صاحباته فهو زير نساء... وتشيع برامج تلفزيونية وأفلام وكتب... وبرامج وأخبار الفضائح... عن علاقات فاحشة... وفي غالبيتها تجدهم يعرضون الزنا مع تبريره كفعل اضطراري لأن زوجته لا تحبه، أو زوجها لا يحبها ولا يلاطفها... أو كفعل مضطر له من فعله بسبب الشهوة القوية... فهذه الأمور وأمثالها تطبيق عملي لنشر الفاحشة، ولفاعليها ومشجعيهم والمتابعين لهم ولناشري ما سمعوه... عذاب أليم في الدنيا والآخرة.

ومثله في الخطورة تناقل صور غير محتشمة عبر وسائل التواصل الاجتماعي، فالآيات هنا تريك منتمين للإسلام ولكنهم منحطّون سفلة يتسلّون بأعراض الناس، ويريدون أن ينزل الجميع إلى مستواهم المتدنّي عبر نشر السوء لترغبه الناس وتتداوله...

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ{20})
{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ}، لو لم يكن سبحانه يمنحكم أموراً جيدةً من دون أن تكون واجبةً عليه تعالى منحها لكم، وهنا عملياً هو المهلة التي يمنحها تعالى لنا لنتوب، وَلَوْلَا {رَحْمَتُهُ}، لولا عنايته بكم لما فيه مصلحتكم، أيها المؤمنون، وتكملة الجملة تعرفها وحدك: لكان سبحانه عاقبكم فوراً حين انجرفتم مع الذين أشاعوا الفاحشة، ولكان سبحانه تركك لقمةً سائغةً لهم ليتلاعبوا بكم ولم يُنَبِّهْكُمْ من الخطورة، {وَأَنِ اللَّهَ رَؤُوفٌ}، ليس قاسياً صلباً، ولذلك لم يُعاقِبْكُمْ أنتم أيضاً أيها الناقلون لكلام الإفك، وَاللَّهُ {رَحِيمٌ}، فلديه عناية خاصةٌ بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، فلا يعاقبهم فوراً بل يترك لهم مجالاً لتصحيح أخطائهم ليسامحهم...

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{21})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {لَا تَتَّبِعُوا}، لا تكونوا على، {خُطُوَاتِ}، ما يسير عليه معنوياً، {الشَّيْطَانِ}، الموصوف بالقيام بأعمال السوء لنفسه وللآخرين، وهنا الكلام عن الذي يعمل على إضلال الناس، {وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ}، الشيطان، {يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ}، بالأعمال الجنسية السيئة وفيما سبق مثال عن ذلك بالزنا، ويأمر بـ، {وَالْمُنكَرِ}، بالأعمال المنكرة التي لا تطابق ما لدى عقلاء المؤمنين من معرفة للأمور الصالحة الحسنة، وهي نفسها الأعمال والأقوال التي يحرّمها الدين الإلهي. وفيما سبق مثال عن ذلك الإفك... فالشيطان يأمر بالزنا وأشباهها من أعمال السوء، ومن ناحية ثانية يأمر بالمنكر ويأمر بتلفيق الأكاذيب ورمي الاتهامات ونشر أخبار الفاحشة...

{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ}، فلو لم يكن سبحانه يمنحكم أموراً جيدةً من دون أن تكون واجبةً عليه تعالى منحها لكم، {وَلَوْلَا رَحْمَتُهُ}، لولا عنايته سبحانه بكم لما فيه مصلحتكم، {مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا}، فلا واحد منكم كان لائقاً بوصفه بالإيمان، ولكن بفضله ورحمته سبحانه صار يصدر عنكم أعمالٌ جيّدةٌ طاهرةٌ وصرتم أنتم لائقين، وحالة الزكاة التي أنتم فيها لم تحصلوا عليها وحدكم، {وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ}، فأمامَهُ تعالى خيارات عديدة وشاء سبحانه أن يغفر للمؤمنين ويمهلهم فرصة ليتوبوا ليغفر لهم، وإلا لما كانوا زاكين لائقين بوصفهم بالإيمان.

كلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، فتشير لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكية، مال زاكٍ، طعام زاكٍ...".

{وَاللَّهُ سَمِيعٌ}، يسمع كل شيء، وهنا تشير إلى كونه تعالى يسمع من تاب إليه واستغفره وطلب عونه... {وَاللَّهُ}، {عَلِيمٌ}، ويعلم بكل شيء، وهنا تشير إلى علمه بحالنا وأننا لولا فضله ورحمته لكانت حالتنا سيّئةً، ويعلم سبحانه إن كنّا نستحقّ أن يزكّينا.

تذكّر دائماً أنه سبحانه عندما يقول بأنه يزكي من يشاء... يغفر لمن يشاء... يهدي من يشاء... يضلّ من يشاء... فإنه تعالى لا يشاء عن عبث وتسلية، بل عن حكمة، وكل هذه الجمل وأشباهها تشير إلى تصاميمه التي قرّرها سبحانه في خلقنا، فهي مثل نسبة نزول الماء وتحريك الرياح والسفن... له تعالى، لأنه سبحانه هو صمّم وخلق ما في السماوات والأرض بهذه الخصائص، مثلما لو فرضاً أنت صمّمت وخلقت بيئة فيها كائنات تجوع، فأنت جعلتها تجوع "جوّعتها"، وحين تتيح لها الطعام في بيئتها فأنت أطعمتها ورزقتها... ونفس الشيء بالنسبة لكل شيء ينسبه تعالى لنفسه من إماتتنا وإحيائنا ورزقنا وهدايتنا.

مضافاً لما سبق صمّمنا وخلقنا سبحانه بحيث أن الذي مال إلى الإيمان فسيحصل على المساعدة منه تعالى بإنارة قلبه والمغفرة له وتزكيته... والذي مال إلى الكفر والنفاق فسيحصل على المساعدة من الشيطان ليضلّه أكثر، ولا يحصل على المغفرة، وهذا ما شاءه تعالى، فهذا ما اختاره فصمّمه وخلقه تعالى.

لاحظ تكرار السورة لفضله ورحمته تعالى على المؤمنين، وهذا مبني على أن السوء يبقى تصنيفه سيئاً، وبالأساس عليه عقاب حتميّ بحسب حجم السوء، ولكن من فضله تعالى شاء أن يغفر، وهذا ليس متاحاً للجميع فهو فقط للمؤمنين، لأنه سبحانه رحيم، ولديه عناية خاصّة بالمؤمنين فقط، فالمغفرة لا ينالها الفاسقون والمنافقون من العيار الثقيل، بل هي فقط للمؤمنين غير المصرين على السوء، ولديهم بذرة إيمانية صادقة ولو بمقدار قليل... أمّا الآخرون، فإن تابوا فبلسانهم فقط يتوبون، وإن رأوا واعترفوا بأن ما فعلوه كان سيئاً، فهذا لن يؤمّن لهم المغفرة، فشرط المغفرة الإيمان والعمل الصالح بدرجة مقبولة، وإلا فلا مغفرة.

(وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{22})
تعقيباً على زكاتنا بفضله ورحمته تعالى:

{وَلَا يَأْتَلِ}، لا يقصّر ولا يهمل ممتنعاً، {أُولُو الْفَضْلِ مِنكُم}، الذين لهم صلة بالفضل، حيث حصلوا على فضل إلهي عليهم، وحصلوا على أمور جيدةٍ منه تعالى منحها لهم وهي غير واجبة عليه تعالى منحها لهم، {وَلَا يَأْتَلِ} فلا يقصّر ولا يهمل ممتنعاً {أُولُو الْفَضْلِ} {وَالسَّعَةِ}، الوَسَعَة الوفرة، والمقصود بـأولي الفضل والسعة المرتاحون مالياً، وهؤلاء يأمرهم تعالى أن لا يقصّروا، {أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ}، أقرباءهم، طبعاً المقصود أقرباؤهم المحتاجون للمساعدة المالية، وأيضاً لا يقصّروا في إعطاء، {وَالْمَسَاكِينَ}، عموم الذين أوضاعهم المالية متعثرة ويحتاجون للمساعدة المالية، {وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، ومن الواضح أن المقصود هم المهاجرون المساكين، حيث تركوا بلادهم التي فيها ديارهم وأشغالهم وانتقلوا إلى بلاد غريبة لأنهم تعرّضوا في بلادهم لضغوط حتى يتركوا دينهم فهاجروا.

لاحظ السورة انتقلت للحديث عن المؤمنين الذين تماشوا مع موجة نشر الاتهامات، وحذّرتهم في الآية السابقة من اتباع خطوات الشيطان، ونبّهت جميع المؤمنين بأنهم بفضل ورحمة إلهية زكوا وإلا فلا واحد منهم زكا، فالكل لهم سيئات في موضوع ما، وهنا تشير الآية إلى الأشخاص الذين حالتهم المالية جيدة أو ممتازة واعتادوا على مساعدة غيرهم،

وتنبّههم أن لا يتعاملوا مع المؤمنين الذين ارتكبوا سيئة ما بقساوة شديدة وانتقام، وطالما هم جزء من المجتمع الإسلامي، فيجب إعانتهم ليعيشوا، من بعد توبتهم كما ستقول تكملة الجملة، حتى لو ارتكبوا خطأ إشاعة الفاحشة.

كما ترى فالذين بحاجة لمساعدة هم من الأقارب المساكين أو الأغراب المساكين أو المهاجرين المساكين، حيث ذكر تعالى لنا عناوين تسميتهم حتى ننتبه لمن هم، وحتى يلين قلبنا عليهم من وصفهم بالأقرباء والمساكين والمهاجرين في سبيله تعالى...

{وَلْيَعْفُوا}، فلا يتوقّفوا عند كلّ شيء سيّءٍ فعله الآخرون، فإن كان واحد من هذه النماذج من الناس، من أقاربك أو من المساكين أو من المهاجرين، شارك في نشر الأحاديث عن أعراض وشرف الناس فانسوا الموضوع وسامحوهم، {وَلْيَصْفَحُوا}، فليعرضوا عما فعله هؤلاء الناس.

طبعاً تقصد الآيات الذين تابوا واعترفوا بذنبهم فاعفوا عنهم وسامحوهم، لأن العفو يكون عمّن طلب العفو، عمّن عبّر لك عن طلب مسامحتك له باعتبار ما جرى من سوء لا يستحقّ التوقّف عنده من بعد التوبة منه. وترى هذا المعنى لاستعمال كلمة العفو في الآية 219 من سورة البقرة {... وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...} فالإنفاق المأمور به هو ما لن يؤثّر عليك، فهو معفوٌّ عنه بالنسبة لك.

{أَلَا تُحِبُّونَ}، أيها المؤمنون، {أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ}؟ فأنتم حتماً لديكم ذنوب في موضوع ما، فإن عفوتم وصفحتم فها يعرض عليكم ويعدكم سبحانه بالمغفرة ويتجاوز عن ذنوبكم، فإن كنتم تحبون أن يغفر سبحانه لكم فاعفوا واصفحوا.

{وَاللَّهُ غَفُورٌ}، يتجاوز عن الذنوب فليس لئيماً عزّ وجل عن ذلك، ولا حقوداً سبحانه وتعالى عن ذلك، بل أخبركم عن نفسه أنه يغفر فاعفوا واصفحوا عن الآخرين التائبين حتى تنالوا مغفرته تعالى.

{وَاللَّهُ}، {رَّحِيمٌ}، فيعتني بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، واستعمل القرآن صفة الرحمن لتوصيف عموم عنايته سبحانه بعموم مخلوقاته، وخصّص القرآن صفة الرحيم ليشير إلى خصوص العناية بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، فتذكّر أن الكفار والمشركين والفاسقين والمنافقين لا ينالون ولا أي نوع من المغفرة لأن الرحمة الخاصة بالمؤمنين لا تشملهم، فهم بإرادتهم كفروا وفعلوا السوء وبذلك خرجوا من تحت الرحمة الإلهية.

سترى بعد قليل في الآية 32 حثاً على مساعدة بقيّة الفقراء والمساكين من أفراد المجتمع المسلم، فالكلام هنا بذكر الأقارب والمهاجرين والمساكين هو لتفعيل العطف في المؤمنين.

بعبارة أخرى، مسألة خوض بعض الناس في الاتهامات بلا دليل مقبول شرعاً، عليها عقاب إلهي شديد، وبعض الخائضين قد يكونون من الذين يحتاجون للمساعدة المالية من المؤمنين، فهل تعاقبونهم بقطع المساعدات عنهم؟ نعم إن أصرّوا ولم يطلبوا العفو، ولكن إن ندموا فلا تجمدوا على موقف صلب منهم، فاعفوا واصفحوا وساعدوهم مالياً.

يمكنك فهم كلام الآية هنا على الوجهين، فمن ناحية المستهترين بأعراض الناس يصير عندهم علم بأنهم سيفقدون المعونات المالية بمخالفة أوامره تعالى في موضوع رمي الاتهامات على الآخرين ونقلها، مما يكون ذلك رادعاً لهم، ومن ناحية ثانية يأمر سبحانه المؤمنين بقبول توبة أولئك الناس، ويعدهم بتوبته تعالى عليهم كتحفيز لهم.

(إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{23})
هل حق الأبرياء ضاع إن كان المتهمون لهم فعلا لم يتوبوا؟ لا:

{إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ} "بالاتهامات"، {الْمُحْصَنَاتِ}، وسياق الكلام عن الإناث اللاتي لم يَعْرِضْنَ أَنْفُسَهُنَّ على أحد بالحرام، {الْغَافِلَاتِ}، اللاتي لا ينتبهن وَلا يدرين بما يقوله الآخرون عنهن من أصله، لأنهنّ مشغولات بحياتهن العادية، {الْمُؤْمِنَاتِ}، اللاتي أعلنّ اعتقادهن والتزامهن بهذا الدين الإلهي، فمن رماهن باتهامات باطلة عن شرفهن، {لُعِنُوا}، طردوا من الرحمة الإلهية، {فِي الدُّنْيَا}، فلا تشملهم العناية الإلهية هنا وَلا يهديهم سبحانه ولا ينير طريقهم ويتركهم للشيطان يتلاعب بهم... وَ{لُعِنُوا} في {الْآخِرَةِ}، فلا يغفر لهم سبحانه ولا يسامحهم ولا يعفو عنهم ولا يسمح بالشفاعة لهم... {وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}، فلهم ضرر يصيبهم ويكون كبيراً جداً جداً فلا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه.

إذن نحن من جهتنا مأمورون بالتعامل مع ظاهر الناس، فمن أظهر أنه ندم على نشره للأكاذيب فيجب علينا إكمال مساعدته مالياً كنموذج عن استمرار العلاقة معه، ولكن هنا الآية تحذّره بأنه ملعون إن لم يتب، وملعون إن كان يمثّل ويحتال على الناس في توبته.

لاحظ من جديد أن الآيات تركّز على الدفاع عن المؤمنات، وَالذكور المؤمنون أيضاً لهم حرمة، ومن يتهمهم أيضاً ملعون، ولكن السورة بشكل عام ركّزت على الإناث لأنهن أضعف من الذكور في عموم المجتمعات، حيث إنّ مجرد اتهامهن سيسبّب طلاقهن أو بقاءَهُنّ عزباوات، وقد يسبب قتلهن كما هو دارج في بعض المجتمعات التي تدّعي الإسلام.

تاريخياً تلاحظ أنه بعد الحرب العالمية الثانية تحوّلت الدول الأوروبية والأمريكية "بشكل عام" من التشدّد على الإناث بأمور العلاقات الجنسية، إلى الرخاوة المفرطة مع حماية من الدولة... وبعض المجتمعات الإسلامية اتّجهت في نفس الاتجاه... وبالتحليل استناداً للوقائع ترى أن العنوسة للذكور والإناث على رأس أسباب شيوع الفاحشة، وهي ناتجة من استبدال الزواج بالخليلات والزانيات، سواء لسبب القصور المالي عند الذكور عن تلبية الحاجات التي فرضتها عاداتنا في الزوج في بعض المجتمعات، وتعييب الناس على تعدّد الزوجات، أو لسبب آخر.

هي نفسها التصرفات المتراخية هذه تحتاج لبعض القوننة لتبتعد عن وصفها بالفاحشة، إذ إنّ تعاليم القرآن لم تفرض تعقيدات علينا بل سهّلت وتركت مجالات مرونة كثيرة في التشريعات، ومن الغريب تعليق بعض الناس على هذه المرونة وفي نفس الوقت تعاملهم بمرونة مع أمور تصل إلى قبولهم العملي بالفاحشة! حيث كثيراً ما تسمع تعليقات على رخاوة الإسلام في الطلاق، وتعليقات عن اعتباره للزواج معاملة عادية مثل أي معاملة أخرى فيها شروط يوافق عليها الطرفان... وصولاً إلى توافقهما على مدّة الزواج... وتعليقات على سماح الإسلام بتعدّد الزوجات، بينما هؤلاء المعلِّقون يدافعون عن المتزوجين المتخذين للخليلات من الزواني، ويشرّعون الزنا للعزّاب وللمتزوجين؟

سيأتيك في الآية 32 كلام عن تكاليف الحياة المانعة من الزواج...

(يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{24})
المشيعون للفاحشة سوف يرون آثار هذه اللعنة:

{يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ}، هذه الأعضاء من جسمهم التي استعملوها في الحديث عن شرف المؤمنات بلسانهم، وأشاروا إليهن بأيديهم، ومشوا إلى الصبحيات والعصرونيات والسهرات بأرجلهم حتى يتسلّوا بأعراض وشرف المؤمنات... فهذه الأجزاء من جسمهم ستشهد عليهم وَستؤكد في يوم القيامة حين يتحاسبون، {بِمَا}، بالذي، {كَانُوا يَعْمَلُونَ}، من رمي الاتهامات على الأبرياء، فإن أنكروا فإن أعضاء جسدهم ستشهد عليهم.

بطريقة ما تنطق أعضاء جسدهم لتفصح عن شهادة كما صرّحت بذلك الآيتان 20 وَ21 من سورة فصلت، {حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، أمّا كيف سيحصل هذا بأي طريقة وهل يمكننا تصوّره الآن؟ لا يبدو ذلك ممكناً، ولكن لتقريب الصور نتذكّر تعابير وإمارات من الجسد لها دلالة واضحة على معنى، كاحمرار الوجه خجلاً، والارتجاف خوفاً، والبكاء حزناً...

(يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ{25})
{يَوْمَئِذٍ}، في يوم الحساب، {يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ}، يعطيهم بالتمام، {دِينَهُمُ الْحَقَّ}، ما دانوا به فعلاً، فكلنا ندين له سبحانه بالطاعة لأنه ربّنا خالقنا إلهنا، فعلينا تبعات الالتزام بأوامره سبحانه، وهؤلاء لم يلتزموا بما يدينون به لربّهم سبحانه، فهم على أساس أنهم مؤمنون، والمؤمنون لا يفعلون السوء، وهذا من تبعات كونهم يميزون بين الخير والشرّ، ومن تبعات كونهم عبيداً له تعالى وَمُنْتَمِينَ لدينه تعالى، وهناك في يوم القيامة سوف يعطيهم سبحانه بالتمام وبالحق ما دانوا به، وَدينهم كان شيطانياً، دين الثرثارين الفاسقين الفاسدين المدمّرين لحياة الآخرين وللمجتمع... كان ديناً يجيز لهم رمي الاتهامات على الأبرياء وبدون دليل... وسينالون ما يستحقون على هذا الدين بالتمام، فلن يزيد سبحانه على عقابهم ولن ينقص منه.

يومئذٍ، {يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ}، ففي يوم القيامة سيعلمون وبشكل واضح أنه تعالى الذي كان حقاً صحيحاً يجب عليهم أن يدينوا بدينه، أن يطيعوا أوامره ولا يقوموا برمي الاتهامات على المؤمنات، طبعاً سيعلمون ذلك حين يحاسبهم تعالى ويجازيهم بالعذاب على ما فعلوه من سيئات.

كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، فهي ليست اصطلاحاً مخصَّصاً كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، وَهي عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئاً ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني فأنا مدين له، فخلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعاً بسبب سَعَةِ تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... وَكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة فهناك ندان بأعمالنا، فما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هي التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضاً يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسباً بحكمته فَيَدِينُنا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ{26})
الناس هنا في الدنيا يعيشون مع بعضهم مختلطين، ولكن:

{الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ}، اللاتي تَصْدُرُ منهن أشياء خبيثة، رديئة عاطلة فهن قرينات للخبيثين أمثالهم، فيرافقها أو يتزوّجها... ولا يهتم بخبثها حين ترمي الأبرياء بالتهم ولا حين تفعل الفاحشة. {وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ}، وَالذي يتّهم الأبرياء في شرفهم أو يزني، أيضاً ترافقه أو تصاحبه أو تتزوجه التي لا تهتم بخبثه لأنها مثله.

{وَالطَّيِّبَاتُ}، وَاللاتي تَصْدُرُ عنهن أشياء صالحة جيّدة، {لِلطَّيِّبِينَ}، لأنه يهتم بالبحث عن طيّبة ليتحدّث معها وليتزوجها... وَبالعكس، {وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ}، لأنَّ الطيبات لا يقبلن الحديث مع أو الزواج من غير الطيبين.

{أُولَئِكَ}، الطيبون والطيبات، وتكملة الجملة {لَهُمْ مَغْفِرَةٌ}... وقبلها جملة معترضة، {مُبَرَّءُونَ}، لا علاقة لهم، {مِمَّا يَقُولُونَ}، من الواضح أن الآية تشير إلى ما يقوله الخبثاء عن الطيّبين وتؤكّد أن الطيّبين أبرياء ولا علاقة لهم بالاتهامات التي يقولها الخبثاء عنهم، وتؤكّد بأن الطيبين لا علاقة لهم بما يقوله الخبثاء من رمي الاتهامات، وكما ورد سابقاً فالطيبون لا يخوضون في الكلام السيئ عن الناس بل يقولون: {هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ}.

هناك أناس طيبون فعلاً، وما يقوله الخبثاء عنهم فهو غير صحيح، وتفهم الكلام إذا انتبهت للخبيث الذي يرى كل الناس مثله خبثاء، فحين يتّهمهم بالفاحشة فهو أصلاً غير مقتنع بوجود أناس طيبين، وهو غير مقتنع أصلاً بوجود أناس لا يتسلّون بالآخرين، وَتأتي آيتنا هنا لتنبّه الجميع: هناك طيبون بريئون مما يقوله عنهم الخبيثون. وهناك طيّبون لا يقولون ما يقوله الخبثاء.

{لَهُمْ}، للطيبين والطيبات، {مَغْفِرَةٌ}، تجاوز عن ذنوبهم، أمّا الخبثاء فلا ينالون المغفرة، وللطيبين والطيبات، {رِزْقٌ كَرِيمٌ}، أشياء يحصلون عليها مما يحتاجونه أو يرغبون به وهو كريم أي موصوف بأن له قيمة عالية ومحترمة وهم يشعرون بأن لهم قيمة عالية ومحترمة حين يحصلون عليه.

قارنها مع عامل ترمي له أجره على الأرض، وَحَصَلَ على الأجر ولكن مع إهانة، أمّا لو شكرته وَأعطيته الأجر بيده، فَيَنَالُ أجره وهو يشعر بأنه كريم، بأن قيمته عالية، وهذا ما يشير له القرآن دائماً حين يستعمل كلمة كريم، حيث لم

يستعملها على المعنى الدارج بيننا عن العطاء بكثرة أو من نوعية عالية، لأنَّ هذا محسوم فَهِيَ جنّة خالدة فيها ما تلذّ الأعين وتشتهي الأنفس... ولكن الأهم من ذلك هو الشعور النفسي بالقيمة العالية كشخص موقّر محترم جليل القدر...

ضع في بالك المثل المشهور: إن الطيور على أشكالها تقع. فالنورس يغطّ حيث يرى نوارس، والدوري يترافق مع الدواري، حيث عادة لا تجد بلبلاً بين الحساسين ولا حمامة بين النوارس... ونفس الشيء تقوله الآية هنا عن الناس بالنظر إلى الخبث والطيبة، وهذا واقع حال نعرفه بالبداهة، فشارب الخمر أصحابه عادة من شاربي الخمر... ومرتاد المساجد صحبة مع أمثاله... وهنا الآية تشير إلى عموم الخباثة لترينا فصلاً في داخل المجتمع بين أفراده المسلمة، حيث عموماً هناك دائماً في المجتمعات المسلمة خبيثون وطيّبون، وصرنا نعرف من السورة هنا مِنَ الخبيثين: الزناة ومحبي انتشار الفاحشة والأفاكين... وَتقول السورة لهم إنّ انتماءكم بالاسم لدينه تعالى لن يغنيكم عن محاسبتكم في يوم القيامة بالدين الحقيقي الذي كنتم فعلاً تدينون به، فأنتم لم تكونوا تدينون بدينه سبحانه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ{27})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا}، حتى تلمسوا أُنْساً من أهلها، حتى تشعروا بالاطمئنان بأنهم أصلاً يسمحون لكم بالدخول، ولا تدخلوا حتى، {تُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا}، حتى لو كنتم تعلمون بأنهم لا يعارضون دخولكم إلى منزلهم، فلا تدخلوا خلسة أو فجأة، بل سلّموا على الذين تنتمي لهم البيوت، على أصحاب البيت قبل أن تدخلوا إلى بيوتهم، فيردّوا السلام، ويسمحوا أو لا يسمحوا لكم بالدخول.

{ذَلِكُمْ}، الاستئناس والسلام قبل دخول بيوت الآخرين، {خَيْرٌ لَكُمْ}، موصوف بأنه حسن جيّد، {لَعَلَّكُمْ}، حيث مِنَ المتوقّع منكم ومن المفروض أن، {تَذَكَّرُونَ}، فتستحضروا في بالكم أن شخصاً ما سيدخل إلى بيتكم، فبهذه الطريقة لا تتفاجؤوا بشخص في داركم.

سترى في الآية 30 والآية 31 كلاماً عن غضّ البصر... وهنا مِنْ أوّل المحظورات أن ندخل البيوت فجأة فنرى أهل البيت بثياب غير محتشمة أو نرى النساء بدون حجاب... ناهيك عن الإزعاج في وقت راحتهم أو في وقت لا يناسبهم...

بكل الحالات، فإنّ الناس في بيوتها تتصرّف على راحتها، حيث إنّ المرأة تكون بلا حجاب وبثياب مريحة، والرجل رُبّما يكون بثياب مريحة غير لائقة لاستقبال الضيوف، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية لا يجب عليك في أي وقت تختاره أنت أن تفرض زيارتك على الناس، لأنهم قد يكونون مشغولين بشيء خاص، أو يكونون مُنْزَعِجِينَ لسبب ما ولا يرغبون باستقبال الضيوف... وَالاستئناس يشمل شعورك بأنك مرغوب فيك عادة بزيارتهم، وبخاصة الآن، فلا تذهب إلى بيوت الناس وأنت تعلم أنهم الآن في هذا التوقيت لا يرغبون باستقبال زوّارٍ، كوقت الطعام، أو وقت الراحة، أو وقت القيلولة، أو وقت العمل...

ربما تستغرب من كتاب إلهي يلفت انتباهك لشيء بديهي، وَهذا الاستغراب يعني أنك مهذّب مؤدّب وتحترم بيوت الناس، ولا تحتاج إلى التنبيه لأنه بديهي لك، ولكن هناك مجتمعات أو أشخاص ليسوا لائقين ولا يعتنون بحرمة بيوت الناس عن استهتار أو قلّة انتباه أو عن قلّة أدب، فهذا الأمر الإلهي لدخول بيوت الناس بهذه الطريقة، يجعله واجباً.

بقي شيء، حيث ستلاحظ في التوجيهات هنا بحديثها عن منعه تعالى لنا عن بعض السلوكيات، أنها لم تذكر عقاباً عليها، وهذا لا يعني أن مخالفتها لا عقاب عليها، إذ إنّ القاعدة الأساسية أن كل سيئة عليها عقاب، ولكن هذه السلوكيات السيئة المذكورة هنا ليست من النوع المسبب للخلود في النار، وَصحيحٌ أنها ليست مثل رمي الاتهامات التي سبق وأخبرتنا عن وعده تعالى لهم بعذاب أليم وعظيم، ولكن هذا لا يعني الاستهتار بها، فهي سيئة وبالتأكيد عليها عقاب لغير المؤمنين الذين سيجازيهم تعالى حتى على غمزة العين الساخرة، أمّا المؤمنون من الدرجة المقبولة فهذا النوع من السلوكيات السيئة هو على الأقل مسبّب لإتلاف حسنات مقابلها لمحيها، أو على الأقل مسبّب لعذاب في يوم القيامة، وإن كثرت سلوكياتهم السيئة بلا توبة فالحالة حالة فسق أو نفاق من درجة تخرجهم عن صفة الإيمان المقبول، وعندها على الأقل سيقضون زمناً في أقل درجة في النار، وإلا فهم منافقون وَفُسّاقٌ من درجة أعلى ومصيرهم درجة أسوأ في النار...

(فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ{28})

إذا كنتم أصلاً مستأنسين بأن أهل الدار يرحّبون بكم، وقصدتموهم، وسلّمتم، ولم يردّوا السلام:

{فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا}، في البيوت التي تقصدون دخولها، {أَحَداً}، سواء أكان البيت خالياً أو لم تجدوا من يَرُدّ السلام، {فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ}، حتى يعطيكم أهل البيت إذناً ويسمحوا لكم بالدخول، لا يحق لكم الدخول إلى البيت وأنتم تقولون: سندخل وننتظرهم حتى يرجعوا... أو ربما لم يسمعونا ولندخل...

انتبه، حيث لا يحق لك النظر من خلف السور لترى إن كان في البيت أحد، ولا من الشباك إلى داخل المنزل لترى إن كان فيه أحد، إلا في حالة الاضطرار الشديد كتصاعد دخان حريق من المنزل... وهذا شيء معروف بالبداهة ولذلك ركّزت الآيات على السلوك العادي كحالة زيارة عادية حتى نحترم حرمة البيوت.

{وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا}، لا تدخلوا، وردّ أهل البيت السلام عليكم ولكن قالوا لكم ارجعوا عن البيت ولا تدخلوا، سواء برّروا لكم بأنهم مشغولون أو نائمون... أو لم يبرّروا لكم وفقط أخبروكم أنهم لن يستقبلوكم الآن، {فَارْجِعُوا} عن دخول البيت.

الرجوع وألّا تدخلوا البيوت بلا إذن، {هُوَ أَزْكَى لَكُمْ}، هو اللّائق بكم، فهذا تصرّف يليق بالمؤمنين الحقيقيين، ولا تدخلوا فجأة ولا تدخلوا غصباً عن أهل البيت، أو تجعلوهم يستحون منكم بينما هم لا يريدون استقبالكم...

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}، فإن التزمتم بما أمركم فهو تعالى يعلم، وإن لم تلتزموا وادّعيتم أنكم سمعتم أهل البيت يدعونكم للدخول، أو ادّعيتم أنهم أذنوا لكم فدخلتم وصرتم تتنقلون في غرف المنزل الخاصة... فهذه التصرفات لا تمرّ عليه تعالى، ويعلم بها فانتبهوا لأنكم تحت المراقبة وسيحاسبكم العليم.

(لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ{29})

{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ}، لا مشكلة، {أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ}، لا سكن فيها من أصله، وهي البيوت الخالية التي هجرها أهلها، أو التي غادرها أهلها وأجازوا لكم استعمالها، {فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ}، فيها منفعة واستفادة لكم. فلست بحاجة لأخذ إذن صاحبها كلما أردت أن تدخلها طالما هو أذن لك بدخولها في حالة غيابه، أو هجرها وتركها لمن يرغب باستعمالها.

قيل إنَّ البيوت غير المسكونة تشير إلى البيوت العامّة كالفنادق والمحلات... ولكن سياق الكلام يشير إلى البيوت التي يسكنها الناس وليس للمرافق العامّة ذات الأبواب المفتوحة والمعلوم استقبالها لعامّة من يرغب بدخولها.

{وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ}، ما تُعْلِنُونَهُ للآخرين، ويعلم {مَا تَكْتُمُونَ}، ما لا تعلنونه للآخرين، فإن أظهرتم أنكم دخلتم إلى بيت ما وأنتم لا تعلمون بوجود سكّان فيه، وأخفيتم علمكم بوجود سكّان فيه، فهذا التصرف يخفى على الناس ولكنه لا يخفى عليه تعالى فانتبهوا ولا تحتالوا لأنكم تحت المراقبة.

في عصرنا الحالي شاع بين الناس تقسيم الأراضي لعقارات لها مالكون معهم سندات ملكية، وبغض النظر عن شرعية هذا الموضوع لأن بعض جوانبه فيه مخالفة لدينه تعالى، كحالة تملّك المشاعات بلا أي استفادة فعلية منها بزرعها أو استخراج أملاح أو معادن منها... والآية تتحدّث عن بيوت غير مسكونة سواء أكان معك إذن من أصحابها باستعمالها، وأنت تعلم أنهم غائبون ولا تتوقّع رجوعهم فلا حاجة لطرق الباب كلما أردت الدخول... أو بيوت غير مسكونة هجرها أهلها، سواء أذنوا لك باستعمالها لأنهم لم يتخلّوا عن ملكيتها، أو تخلّوا عن ملكيتها.

أمّا البيوت غير المسكونة، والتي لم يهجرها أهلها ولم يتخلّوا عن ملكيتها، ولم يأذنوا لك باستعمالها، فهذه خارج موضوع الآية، فلا يحقّ لك دخول هذه البيوت، وهذا بناء على عموم مفاهيم القرآن التي رسّخت حقّ الملكيات لأصحابها.

لو أطلت عليك، ففي بعض الدول يوجد قانون يجيز لأيٍّ كان السكن في أي بيت مهجور، وذلك بسبب أزمة السكن والإيجارات المرتفعة التي تفوق قدرة بعض الناس على تأمينها، وبالتالي أبقت تلك الدول ملكية البيوت المهجورة لأصحابها ولكن أجازت لأي فاقد لمكان للسكن أن يسكن فيها... وهذا موضوع مختلف ولم تقصده الآية.

(قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ{30})
{قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ}، قل عبر هذا القرآن للمعلنين أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ}، لا يتركوا قدرتهم على فهم ووعي الصور بلا حدود، وليحيّدوا بنظرهم عن شيء، وهنا الكلام من الواضح أنه عن تحييد النظر عمّا هو حرام، ولا ينظروا بشهوة إلى أجسام المحرَّمات عليهم... والتعبير هنا يشير إليك كمؤمن ألّا تنظر بشهوة إلى محرَّمة عليك حتى لو هي أبدت مفاتنها، ويجب غضّ البصر عنها والتصرّف كأنك لم ترها وتكمل طريقك... ومن تبعات الكلام ألّا يتلصلصوا على البيوت من الشبابيك ومن فوق الجدران ومن شقوق الأبواب...

قل للمؤمنين، أن {يَحْفَظُوا}، أن يرعوا ويصونوا، {فُرُوجَهُمْ}، ما بين أرجلهم، والكلام موجّه هنا للذكور لأن الآية التالية ستخصّص كلامها عن المؤمنات الإناث. وحفظ الأعضاء التناسلية عملياً هو ألّا يستعملوها بالفحشاء.

{ذَلِكَ}، الحفظ وغضّ البصر، {أَزْكَى لَهُمْ}، أليق بالمؤمنين، وأي شيء غير ذلك فهو من تصرفات غير المؤمنين.

{إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ}، حيث لديه كل الأخبار، {بِمَا}، بالذي، {يَصْنَعُونَ}، بما فعلوه ونتج عنهم، وإن كان الشخص يتغابى على نفسه ويركّز نظره على جسد امرأة حرام عليه ويبرّر لنفسه... أو يتغابى على نفسه ويبرّر لنفسه الزنا... فليعلم أنه تحت المراقبة، وكل الأخبار عنده تعالى لأنه يرى كل الحوادث.

(وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاء بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاء وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ{31})
{وَقُلْ}، أيها الرسول(ع) عبر هذا القرآن، {لِلْمُؤْمِنَاتِ}، للإناث اللاتي أعلنّ أنهن معتقدات وملتزمات بهذا الدين، قل لهن:

{يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ}، لا يتركن قدرتهن على فهم ووعي الصور بلا حدود، فإذا رأين مشهداً حراماً عليهن النظر إليه فليبعدن نظرهن، ومن المشهور جداً في الثقافة الدينية القرآنية أن النظر إلى عورات الآخرين حرام، والنظر بشهوة إلى غير الزوج حرام... وقل لهن أن {يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ}، فليصنّ ما بين أرجلهن، ويحفظن سوأتهن من الحرام، فالمسموح فقط هو الزواج الحلال وأي فعل غير ذلك بالفرج فهو حرام.

وقل لهن ألّا {يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ}، ولا تُظهر الأشياء التي يضعنها ليبدين أجمل، {إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا}، فما يبدو من الزينة من بعد الستر الواجب مستثنى. وبدل أن تعدّد الآية أعضاء الجسد الواجب على المرأة سترها عن الأجانب، استبدلتها الآية بالمواقع التي توضع فيها الزينة، على الرقبة والصدر والأذنين... فهذه حرام أن تظهر واستثنت الزينة التي تظهر على الثياب.

ضع في بالك أن الآية تفترض مسبقاً أنها تتحدّث مع من يعلم وتعلم بوجوب ستر الجسد للعفّة الإيمانية، فمن البديهي أن اللباس الضيّق لا يتماشى مع الإيمان بدينه تعالى، ولا يتماشى اللباس الذي يكشف الصدر والفخذ... مع الإيمان، ومن بعد هذا تبدأ الآية كلامها معنا، وتحدّد أن المسموح إظهاره من جسد المرأة هو فقط ما يظهر بعد الستر المحتشم، وهو دائرة الوجه، والكفّان والقدمان.

{وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ}، بالقماش الذي يستر الرأس "والوجه"، {عَلَى جُيُوبِهِنَّ}، على فتحات الثياب، فالقميص الطويل من الرقبة إلى آخر القدمين له جيب، وهو مفتوح من جهة الرأس، وهذه الفتحة هي الجيب الذي تظهر منه الرقبة والقليل

من الصدر، وتقول الآية: فليستر حجاب الرأس على فتحة الرقبة والصدر أيضاً. وهذا كما تلاحظ هو الحالة العادية عند الملتزمين حيث تضع المرأة الحجاب على رأسها ويكون كبيراً لدرجة تغطيته للرقبة والصدر.

لاحظ في بعض المجتمعات الإسلامية هناك نساء يضعن الحجاب ولكن لا يسترن رقبتهن... وبعضهن لا يسترن كامل رأسهن... وهناك نساء يضعن الخمار على وجههن ولكن رقبتهن وصدرهن مكشوفان... وكل ذلك كان نفس الشيء قديماً حين نزول هذه الآية، فهنا تنبههن الآية على وجوب ستر الرقبة والصدر عن الأجانب، عن غير أزواجهن أو من يحرم عليهن الزواج به كإخوتهن وأولاد إخوتهن... كما سيأتي في تكملة الآية هنا، وتغطية الشعر لا تغني عن تغطية الرقبة والصدر، وأيضاً تغطية الوجه لا تغني عن تغطية الرقبة والصدر.

كلمة خمار في الأساس تشير لعامّة كل ما يغطّي شيئاً ما، واستعمالها للحديث عن لباس المرأة يشير حصراً لغطاء الرأس والوجه، ودرج بعد وقت طويل بين المسلمين تسمية أخرى للخمار وهو ما نسمّيه في عصرنا بالحجاب، وكلمة حجاب أيضاً كلمة عامّة الانطباق، وحين استعمالها لوصف لباس المرأة فهي تشير حصراً لغطاء الرأس، وهنا الآية استعملت كلمة خمار، ومن هنا ظهر نقاش فقهي حول وجوب ستر المرأة لوجهها، لأن كلمة خمار تشمل تغطية الرأس والوجه، ولكن الكمّ الهائل من الروايات المنقولة من تاريخ زمن النبي محمّد(ع)، والكمّ الهائل من التاريخ الذي وردنا عن النساء الأوائل من المسلمين، يشير إلى خيار ستر المرأة لوجهها وأنه ليس واجباً عليها ذلك، فبعضهن ستر الوجه وأخريات لم يسترنه... والآية هنا تشير بالخمار حصراً لما هو متعارف عليه الآن من امتداد حجاب الرأس لتغطية الرقبة والصدر الظاهرين من جيب الثوب.

أمّا داخل البيت: {وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ}، ولا يجعلن ما يجعلهن أجمل قابلاً لرؤية الآخرين له، والمقصود هو مواقع الزينة، كالرقبة والصدر... فلا يكشفن عنها، {إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ}، لمن هو موصوف بحق المعاشرة شرعاً، زوجها أو طليقها ضمن العدّة...

ستبدأ الآية بذكر من يوجد في البيت عادة مع المؤمنة: {أَوْ} يبدين زينتهن لـ: {آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ}: حميهن، الحمو، وبالعامية نقول: عمّها أبو زوجها. {أَوْ أَبْنَائِهِنَّ} أولاد المؤمنة، {أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ} أو أولاد بعلها من أمهات أخريات، وحتى بعد وفاة الزوج أو طلاقها منه يبقى الأولاد موصوفين بأبناء البعل السابق. {أَوْ إِخْوَانِهِنَّ} اخوة المؤمنة، {أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ}: أولاد إخوة المؤمنة، {أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ}، أولاد أخوات المؤمنة.

ننتبه، فلو عبّرت الآيات بالزوج بدل البعل، لكان الطليق ضمن العدة لا يحق لها أن تبدي زينتها أمامه، وهذا غير صحيح، ولكان أبو الطليق وأولاده من زوجة أخرى ضمن من يحرم عليها إبداء الزينة أمامهم وهذا غير صحيح أيضاً، ولذلك عبّرت الآية بالبعل ليشمل الزوج والطليق في العدة فهما موصوفان بحق المعاشرة شرعاً، طبعا إذا فعل الطليق ذلك أثناء عدة الطلاق الرجعي عندها يلتغي الطلاق.

{أَوْ نِسَائِهِنَّ}، زوجات وبنات كل من سبق ذكرهم، زوجة الأب وبناته... وزوجة الأخ وبناته... وتذكّر دائماً أن الآية تركيزها على من تخالطهم المؤمنة في بيتها عادة، فالآية غير ناظرة إلى بقيّة النساء من المسلمات أو من غيرهن، فأولئك إن كُنَّ محترمات ولا يصفن للأجانب شكل المؤمنة بدون حجاب، فلا مشكلة للمؤمنة أن تبدي زينتها أمامهن، وأمّا اللاتي لسانهن طويل ولا يكترثن بحرمة المؤمنة، ويصفن جسدها وشعرها... للأغراب، فيجب على المؤمنة ستر نفسها عنهن حتى لو كُنَّ أخواتها، ولذلك ترى جمعاً غفيراً من المسلمين يؤمن "بحرمة" انكشاف المسلمة على غير المسلمات لأن غير المسلمات عادة لا يراعين حرمة ترك توصيف المؤمنة للآخرين.

{أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ}، من الإماء، فمن البديهي بحسب ما ترى من الآية أنها تقصد هنا فقط الإناث مما ملكت أيمان المؤمنات فقد سبقها حلّية اطّلاع نساء من سبق ذكرهم من الرجال عليهن، ونساء آبائهن ونساء إخوانهن... وما ملكت أيمانهن من إناث.

{أَوِ التَّابِعِينَ}، للبيت الذي يسكنون فيه، {غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ}، ففرضاً يوجد في البيت الذي تعيش فيه رجل من أقارب زوجها أو من عائلتها ولكنه ليس من محارمها، كخال الزوج... أو ابن خال أو ابن عم الزوج... ففي حالة لم

يكن من أولي الإربة، ولم يكن من الذين لهم إرْبٌ فلا رغبة لهم في النساء، لأنه كبير جداً جداً في السنّ ولا رغبة له بمقاربة النساء، فيمكنها إبداء زينتها أمامه.

{أَوِ الطِّفْلِ}، الأطفال الذين ليسوا من محارم المؤمنة، فلا يجوز لها أن تظهر أمام الطفل بزينتها، إلا {الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ}، فإن ظهرت أمامه عورة، فرأى شيئاً من جسد المرأة يجب ستره، فإن لم يلتفت الطفل لذلك ولم يميّز أنها غير محتشمة، ولم يستح... فهذا لا يزال طفلاً ويمكنها إبداء زينتها أمامه، وعادة هو الولد تحت الخمس سنين، وربما أكثر بقليل أو أقل بقليل، فكل طفل يختلف عن الآخر في بلوغه لسنّ التمييز.

وقل للمؤمنات ألّا {يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ}، وأثناء مشيها لا تضرب الأرض برجلها لتصدر صوتاً من حذائها أو من خلخالها وهو نوع من الزينة المعدنية التي تضعها الأنثى على القدم، {لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ}، فتضرب الأرض برجلها وهي تقصد أن يلتفت الناس إليها بأنها تضع خلخالاً في قدمها.

{وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً}، فكلّكم مع بعض افتحوا صفحة جديدة تاركين ما سبق من تصرفات صرتم تعلمون أنها ممنوعة، {أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ}، أيها المعلنون أنكم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، فإذا تبتم فمن المتوقّع ومن المفروض أن تكونوا من الذين قاموا بعمل فالح، فأجادوا فيما عملوا لأنهم عملوا الصحيح.

نلاحظ الآية لم تذكر الأخوال ولا الإخوة من الرضاعة "والأعمام إن حصرت الآباء بالأب الوالد"، والسبب أنها كانت تتحدّث عمن عادة يكون ساكناً مع الأنثى في بيتها، ومعتاداً على رؤيتها يومياً، فنحن أمام حالة نموذجية لمن يتواجد في بيت زوجها من أقاربه.

نلاحظ أن ما هو شائع بين بعض الناس من جواز إظهار الأنثى لجسدها لمحارمها إلّا السوءة "مخرج البول والعذرة ومحيطهما من الشعر" لا يتناسب مع الآية هنا التي حدّدت ما يجوز إظهاره بمواقع الزينة، وخذ مثلاً إرضاع الطفل من الثدي، فمن المتعارف بين الكثير من الناس أن تظهر المرأة ثديها أمام محارمها "أبيها أخيها ابنها عمّها..." لترضع طفلها، ولكن هنا وكما ترى فإن الآية لا تؤيّد هذا الكلام، ولا نجد آية أخرى تؤيد هذا الكلام.

في النسخ الأولى للقرآن كان الرسم هكذا "أيه المؤمنون" بلا ألف، ويبدو واضحاً أنهم رسموها على اللفظ وليس على القواعد التي وضعها الناس فيما بعد ليصير رسم الألف إجبارياً بعد ما سمّوه "ها" التنبيه حتى لو لم تمدّها، وبرّر البعض لحذف الألف أنها لالتقاء الساكنين. وبمناسبة الحديث فالكلام يجرّ الكلام، فألفت انتباهك للفرق بين الهمزة "ء" وحرف المدّ "ا"، وفي سردنا للأبجدية نقول: ... واو، هاء، لام ألف، وياء. فهذه "اللام ألف" هي البديل للهمزة. فحتى في كتب المتخصصين باللغة تجد بعضاً من الخلط في تسمية كلا الحرفين بالألف، وبالمناسبة فلدينا ثلاثة "حروف مدّ" ليست ملفوظة كحرف إن كانت لوحدها، وهي: المدّ المسمّى "ألف" "ا" كما في "سماء"، والياء المقصورة "ى" كما في "حلوى"، والواو المشابهة لحركة الضمّة بدون مدّ، فرسمها "و" ولكنها غير ملفوظة لو كانت لوحدها كما في "قالوا"، ففي أمثال هذه الكلمات عند تهجئتها لأحرفها الملفوظة لن تتمكّن من تحديد لفظ للمدّ، وفي الكتابات القديمة المنمّقة "ككتابتهم للقرآن" عادة كانوا يرسمون أحرف المدّ بحرف صغير.

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاء يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ{32})
{وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ}، العزّاب البالغين الراغبين بالزواج ساعدوهم لإقامة ما يتضمّن علاقة جنسية بالحلال، ساعدوا الأيامى أي العزّاب من الذكور والإناث في سنّ الزواج ولديهم رغبة في الزواج، زوّجوهم وساعدوهم على الزواج.

{وَأَنْكِحُوا}، {الصَّالِحِينَ}، الجيّدين، {مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ}، الذين هم تحت أمركم من ذكور وإناث، وترون أن سلوكهم صالح ويستحقون منكم معاملة حسنة، ساعدوهم للارتباط بما يتضمّن إقامة علاقة جنسية بالحلال، زوّجوهم.

{إِنْ يَكُونُوا}، الراغبين بالنكاح من الأيامى أو العباد، {فُقَرَاءَ}، ليس معهم مال يكفي للنكاح، {يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}، مَنْحُ المال بيده تعالى وهو غير واجب عليه سبحانه بل فضل منه، وها هو يعدكم سبحانه بإغنائهم، لِذَا قُومُوا أنتم بما أمرناكم به، وزوجوهم ولا ترفضوا تزويجهم لأنهم فقراء.

الآية تشير حصرا إلى مسألة رفض الأنثى أو الذكر المؤمن الخلوق العامل النشيط لأنه فقير، ولا تقصد الآية أن نقبل بأي فقير يتقدّم لطلب بناتنا، ولا تقصد أن نقبل بأي أنثى فقيرة يريدها ابننا، لا، بل تنبّه لخطأ أن لا تزوّجهم ممن تحت ولايتك فقط بسبب الفقر، لِنَقُلْ أَنَّ بقية الصفات مقبولة ولكنه فقير، فَلَا تجعل فقره عائقا، يُمْكِنُكَ رفضه لأنه فقير تعلم بطمعه بغناك، أو لا ترى بوادر فيه للعمل والجدّ والنشاط فَسَيَبْقَى فقيرا كما هو، وتخاف من نزول مستوى معيشة ابنتك بما لن تطيقه هي فيما بعد، أمّا غير ذلك فَلَيْسَ مستحسنا رفضهم لأنهم فقراء.

{وَاللَّهُ وَاسِعٌ}، غير محدود، وهنا بالتحديد الرِّزْقُ بيده تعالى بشكل واسع، يُعْطِي بشكل واسع لمن أراد، {وَاللَّهُ عَلِيمٌ}، يَعْلَمُ بمصلحتكم حين أمركم بأن تساعدوا من يريد الزواج وأن لا يكون الفقر عذرا لرفض "العريس أو العروس".

ضع في بالك دائما أن الغنى ليس مَعْنَاهُ الحصول على الكثير من المال والأملاك، لِأَنَّ هذا المعنى لكلمة ثري، ولكن الِاتِّصَافَ بالغنى هو الحصول على ما يكفيك بحيث لا ينقصك ما تحتاجه، يعني بتعبيرنا الحالي يشمل متوسّط الحال والأغنى منه، وصولا إلى الثري.

بِالنِّسْبَةِ لكلمة أَيَامَى وَإِمَاءٍ، لَا أعتقد أنك من مراجعة الروايات والقواميس ستخرج بسهولة بنتيجة للمعاني، إنْ درست هذه الكلمات فَلْيَكُنْ ما ستجده نموذجا لك عن ضبابية القيمة العالية للموروث والقديم، وَلْيَكُنْ نموذجا لك عن تراخي وتساهل وأخطاء العرب في استعمال لغتهم بدقّة، ومنه ستعلم أن الأشعار التي اشتهرت بين الناس قبل الإسلام، مِنْ أسباب شهرتها أنها كانت في نظر الجمهور فصيحة وبليغة، ورغم ذلك هَذَا لا يعني أن كل كلمة قالوها دَقِيقَةُ المعنى، لِأَنَّهُمْ بشر، وتخونهم الذاكرة والعبارة، بل وتنقصهم الكلمات، بِضَبَابِيَّةٍ نفترض أن أي عربي من البادية كان قاموسا دقيقا لمعاني كل كلمات اللغة العربية! هَلْ هذا معقول!

بِالنِّسْبَةِ لكلمة {عِبَادِكُمْ}، كَلِمَةُ عبد تشير لِمَنْ مَفْرُوضٌ عليه الطاعة، وجمعها عبيد، وجمع الجمع عِبَادٌ. ومن تبعات الملكية العبودية. سنتكلم عن العبيد بتوسّع في دراسة الآية التالية.

بقي شيء، هناك لغط متكرر حول تزويج البنات في سن التاسعة، وهناك الكثير من التَّعْلِيقَاتِ القادحة على الدين الإلهي بهذا الموضوع، حتى أن بَعْضَ المتدينين يتشوّش ذهنهم من هذا الموضوع وخاصة عند الكلام عن تزويج فتاة بتسع سنين لرجل في الستين من العمر، وسبب كلّ هذا اللغط نابع من الخلط بين القرآن وبين عادات المنتمين لدينه تعالى، اَلْقُرْآنُ لم يأمر الأهل بتزويج ابنتهم في حال بلوغ جسدها إِلَى الحالة المناسبة للزواج "البلوغ البيولوجي"، وَلَمْ يَنْهَهُمْ في نفس الوقت عن تزويجها في هذا السنّ، وترك هذا الموضوع "مثل الكثير من المواضيع الأخرى" تركه مرنا ليتحدّد بحسب ثقافة وعادات المجتمعات المختلفة، مع شرطين أساسيين، البلوغ البيولوجي ورغبتها بالزواج. أمّا تحديد سن قانونية دينية للزواج "18 عاما" وتعميمها على كلّ المجتمعات فهذه مهزلة، وتعميم ضرورة تزويج البنت حالما تبلغ سنّ البلوغ البيولوجي "تسع سنين" فهذه مهزلة أيضا، لأن المزاج العام يختلف من عصر لآخر ومن جيل لآخر ومن مجتمع لآخر.

لن أطيل عليكم وألفت انتباهكم لسخافة تحديد سن قانونية للزواج، ومنذ عهد قريب جدا كانت الغالبية العامة من المجتمعات ومن ضمنها الأوروبية، كان دارجا تزويج البنات في عمر قريب من الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ، على أي حال مَا معنى الزواج؟ لَا تحكم من خلف الضباب على الدين الإلهي الذي "يسمح" بتزويج البنات الصغار، لِأَنَّ بعض تلك المجتمعات التي حدّدت سنا قانونيا للزواج بِثَمَانِي عَشْرَةَ سنة شَاعَ فيها للبنات الصغار المصاحبة وإقامة علاقات جنسية كاملة، وحصول حالات حمل وإنجاب وهنّ لم يبلغن الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ من العمر، مَا معنى القانون الذي يمنع زواجهن قبل الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ مع السماح لهن بالمصاحبة قبل ذلك؟ هذا هراء مبني على مفهوم الزواج الذي لا طلاق فيه، أو الطلاق الصعب جدا، بعض تِلْكَ المجتمعات متحدّرة من قانون مُلْصَقٍ بالدين الإلهي وينصّ على كون الزواج رِبَاطًا مُقَدَّسًا لا انفكاك له، أمّا في الحقيقة في دينه تعالى فالزواج عقد قابل للفسخ والبطلان.

إِذًا، لا يوجد في القرآن أي أمر بتزويج الفتيات الصغار "بعد البلوغ الجسدي"، ولا يوجد منع، وَهُوَ متروك كهامش مرن بحسب مزاج المجتمعات، وهذه المرونة والهامش مُنْتَشِرَانِ في الكثير من التشريعات التي اكتفى القرآن بِذِكْرِ عَنَاوِينِهَا، وعموما لم نفهم ذلك ونستغرب حين لا نجد في القرآن تفصيل حكم مسألة ما، ونستغرب أن مجموع آيات الأحكام "التشريعات" لا يتجاوز بضع صفحات بينما كتب الفِقْهِ صفحاتها بالمئات.

(وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاء إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{33})
{وَلْيَسْتَعْفِفِ}، ليكن عفيفا، ليتنزّه وليترفّع، {الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا}، أَيْ من يرغب فيما يتضمّن إقامة علاقة جنسية، ولم يجد وَلَمْ يتمكّن من ذلك، فليستعفف وَلَا يذهب وراء الأفعال السيئة كالزنا، {حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ}، حتى يحصل على أمور جيدة منه تعالى، وَهُوَ فضل منه تعالى لِأَنَّهُ ليس فرضا واجبا عليه تعالى أن يغنيه، إِلَى أن يرزقه تعالى ما يكفيه من مال ليتمكّن من النكاح فليستعفف.

من الواضح المعلوم أَنَّهُ تعالى ليس من سننه أن يرزق شخصا لا يعمل ولا يسعى، قَدْ تجد من وُفِّقَ في الحصول على رزق وفير من دون تعب، ولكنها حالة نادرة تحصل بأسباب لا تتوافر للجميع، كمن يجد كنزا بالصدفة، أو يرث مالا، أو يحصل فجأة على هبة... وأما الحالة العادية الغالبة فهي السعي والعمل للحصول على الرزق للاستغناء عن مساعدة الناس، هُنَا الآية تخبرنا بأن هذا الباب للحصول على الرزق مفتوح ومتاح للجميع لأنه تعالى زودنا في أنفسنا وبيئتنا بما نحتاجه لتحصيل الرزق.

{وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}، أَيِ الذين تَمَلَّكْتُمُوهُمْ ملك اقتدار، اَلْعَبِيدُ الذين يريدون أن تكاتبوهم وَتَجْعَلُوا بينكم وبينهم كتاب "اتفاق" على أن يدفعوا لكم ثمن حريّتهم في مدّة محدّدة، {فَكَاتِبُوهُمْ}، اِقْبَلُوا معهم هذا الاتفاق، وبذلك يَصِيرُونَ أحرارا في حياتهم، ومن ضمن سياق الكلام يُمْكِنُهُمْ الزواج باختيارهم خارج ولايتكم، وهذه المكاتبة تقبلونها، {إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا}، أَيْ وجدتم أنهم من الصالحين في المجتمع الإسلامي لأن يكونوا أحرارا فيه، {وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ}، فإن كان العبد بحاجة لمساعدة مالية فَأَعْطُوهُ، حَيْثُ أوجب سبحانه عليكم الصدقة عَلَيْهِمْ إن كانوا بحاجة للمساعدة، وطبعا هذا لا ينفي إمكانية إِعْطَائِهِمْ هدية ولكن الكلام هنا من نوع التشريع القانوني للواجبات.

نَتَذَكَّرُ دائما أن القرآن أمرنا بمساعدة كل من يحتاج للمساعدة حتى بعد دفعنا للضريبة المحدّدة "الزكاة"، وهنا الكلام عن إيتاء العبد الذي اتفق مع مالكه على العمل وَإِنْتَاجِ المال لشراء نفسه، ومرّ بظروف صعبة وصار بحاجة للمساعدة المالية، حَيْثُ يَأْمُرُ سبحانه مالكه "والآخرين" بمساعدته.

{وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ}، اَلسِّيَاقُ من الكلام عن اللاتي تملكونهن وهنّ فتيات أي فيهن مواصفات مرغوبة لإقامة "علاقة" معهن، وَأَعْمَارُهُنَّ عادة من بعد ظهور مفاتن الجسد عليهن وفي أجواء الأربعين تقريبا، فلا يحقّ لكم إجبارهن على البغاء، أَيِ البغي على أوامره تعالى الذي أمر بالعفّة أو الزواج، بِأَنْ تأمرونهن بالبغي وراء ذلك، وهو منح معاشرتها لمن يرغب كزانية، {إِنْ أَرَدْنَ}، قصدن وَرَغِبْنَ، {تَحَصُّنًا}، إن أرادت الأمة أن تتعفّف وَتَبْقَى عزباء أو لسيّدها أو تتزوّج، وإن أرادت أن تتزوّج من شخص آخر غير سيّدها فليساعدها على الزواج إن كانت صالحة كما قالت الآيات السابقة.

إِنْ أرادت الْإِمَاءُ التحصّن فَلَا تُجْبِرُوهُنَّ على البغاء، {لِتَبْتَغُوا} أَيْ تريدون وتطلبون {عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، الحصول على شيء معروض هنا في الدنيا، شيء ترون له أهمية ويمكنكم الحصول عليه، وهنا الكلام عن المال من بغاء الْإِمَاءِ من معاشرة هذا وذاك الذين يدفعون المال ليزنوا معها.

ننتبه جيّدا، أَنَّ الزنا بكل أشكاله حرمته معروفة قديما في دينه تعالى ومن بداية نشر النبي محمّد(ع) لِلْإِسْلَامِ، وَالْفَتَاةُ الحرة من أصله لا يجوز إِكْرَاهُهَا على الزواج فضلا عن إكراهها على البغاء، اَلْحَدِيثُ هنا في المملوكات اللاتي اعتاد الناس على التعامل معهن كأنهن بلا قيمة ولا كرامة، وَفِي الحالة العادية لن تتزوج ممن تريد إلا بِإِذْنِ مالكها، والتعبير بالفتاة يشير بوضوح إلى أنهن لسن بنات لمن يجبرهن، بل إماء "عبدات" في حالة الفتوة: فتاة. وهذا لا يعني أن من لم تكن فتاة يَجُوزُ بغاؤها، لا، وَلْيَكُنْ هذا مثلا لك عن افتراض القرآن فهمك لكلامه وقفزه عن أمور افترضك تعرفها، لِأَنَّ الصغار جدا والكبيرات في السن أصلا هنّ "عادة" خارج هذا الحديث لأنهن لسن مرغوبات في الموضوع الذي تتحدّث عنه الآية، ولذلك اختصرت الآية الكلام باستعمال كلمة دقيقة "فتاة".

{وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ}، أَيْ يجبر الْإِمَاءَ على البغاء بمعاشرة زنا وغيره من الفواحش، وهن لا حول لهن ولا قوة وَلَا يستطعن مخالفة أوامر من يملكهن لأنه سيعذّبهن ويضربهن... {فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ}، يُسَامِحُهُنَّ على ما فعلنه غصبا عنهن، حَيْثُ وقع السوء حتى لو لم يكنّ راغبات به وسينلن المغفرة عنه، {رَحِيمٌ}، لِأَنَّ نموذج الكلام عن مؤمنات وسينلن عنايته تعالى الخاصّة بالمؤمنين، ومعلوم أنهن لو كُنَّ راغبات بالزنا فلا معنى للكلام هنا عنهن.

لاحظ أن التعامل مع العبيد تاريخيا يختلف باختلاف المالك، حَيْثُ هُنَاكَ أشخاص كانوا لا يعطونهن أي قيمة إنسانية، وَلَا حرمة للأمة "للعبدة" عندهم، ولذلك تجد تعابير الآية مشوّشة عليك وَقَدْ تظن بجواز ترك الأمة لتبغي إن هي لم ترد الإحصان، ولكن الآية تصير واضحة إن نظرت لحديثها مع من لا يؤمن بحرمة واحترام لأمة، فإن كانت هي باغية فلا تتماشى معها لتجلب لك المال من البغاء، ولا تجبرها على البغاء، أمّا إن كانت تريد الإحصان فكيف تسمح لنفسك أن تجعلها باغية؟ وهذا ما تريد الآية قوله.

بقي شيء، اَلْآيَةُ في موضوع العبدة تتكلّم بواقعية، لَوْ علم بقية المسلمين المؤمنين بحالة إجبار أحدهم عبدته على البغاء، لَوَجَبَ عليهم التدخّل لإجبار مالكها على احترام حقوقها، ولكن وكما هي الحال في عصرنا من العصابات التي تجبر الفتيات على البغاء، اَلْكَلَامُ هنا عن حالة مشابهة حيث لا تتمكّن الأمة "العبدة" من الشكوى أو تخاف من مالكها أو هي محبوسة...

بالنسبة للعبودية، عَلَى مرّ التاريخ اختلفت نظرة الناس للعبودية، حَيْثُ كَانَتِ العبودية دارجة قديما في غالبية الأمم، ومنذ مدّة قليلة في القرن العشرين صار دارجا النفور من العبودية، وَنَسِيَ الجميع ما كان دارجا متعارفا عليه أنه مقبول لدرجة جعلت المفسرين والفقهاء والمفكرين المسلمين، جعلتهم في عصرنا يشعرون بالحرج من الآيات التي تتحدّث عن العبيد، وتراهم مباشرة يغيّرون الموضوع ويشيرون لعدالة الإسلام، ومسحه للعبودية عبر تحرير العبيد وعتقهم ومكاتبتهم، وجعل تحريرهم فِدَاءً كتكفير عن بعض السيئات...

كلامهم صحيح، ولكن الصحيح أيضا أن العبودية كانت منتشرة، ولها تشريعات في القرآن، ولست بوارد نفي أفضلية كون جميع الناس أحرارا، فإن كان المزاج العام للناس الآن مضادا للعبودية، فأين المشكلة! فِي حين نزول هذا القرآن وإلى زمن غير بعيد لم يكن هذا المزاج العام، بل كانت العبودية واقعا منتشرا بين الناس، فإن وقع المسلمون تحت الأسر من أعدائهم فقد كان مصيرهم العبودية، وَلَمْ يكن المسلمون وحدهم يستعبدون...

لِنَنْظُرْ لأحكام العبيد في القرآن، لَنْ تجد فيه حكما أو تشريعا يأمر باستعباد أحد، وأقصى ما ستجده عن تقييد الحرية فهو عن أسر الأعداء المحاربين فقط، وما فعله الرسول محمّد(ع) من استعباد للأسرى "كما نقلوا في التاريخ" فقد كان حكم الأمر الواقع بسبب اعتماد الطرف الآخر له، وبسبب الخيارات الأخرى الضيقة، إمَّا قتل أسرى الأعداء أو تركهم أحرارا وفي ذلك خطر إعادة تشكيل قوّة معادية، أو سجنهم ليموتوا في السجن أو سجنهم لمدة طويلة جدا وهذا ليس حلا عمليا للسجين أو للساجن له، أو استعباد الأسرى.

لِذَا قَوْنَنَ النبي محمّد(ع) هذا الواقع بناء على مَبَادِئِ القرآن، بتحرير أسرى الأعداء من بعد أسرهم إن كانت الأمور تشير لِاسْتِبْعَادِ الخطر منهم، أو استعبادهم وتفريقهم إن كان هناك خطر من تجمّعهم من جديد كمعادين مقاتلين.

علما أننا لا نجد في التاريخ سوى "زعم بعضهم" استعباده(ع) لبعض أعدائه، بينما لا تجد ولا أي أثر في التاريخ بعد ذلك لأولئك الذين قيل عنهم إِنَّهُمْ مُسْتَعْبَدُونَ! وَلَا تجد ولو اسْمًا واحدا لرجل أو امرأة من الأقوام الذين قيل عنهم أن الرسول(ع) استعبدهم ولا يزالون عبيدا، وَيَبْدُو واضحا أن كلامهم عن استعباد الرسول(ع) لبعض أسرى أعدائه كان في حدّه الأقصى لمدة قصيرة جدا جدا لا تتعدّى الأيام، وبعدها إطلاق سراحهم، ولكن أصحاب العقلية الإجرامية تعاموا عن ذلك مبيحين استعباد الآخرين واغتصاب نِسَائِهِمْ...

أُكَرِّرُ لك لتنتبه جيدا، رَغْمَ ما قاله البعض عن استعباد الرسول(ع) لأعدائه، ورغم التعارف على ذلك أنه من المسلمات التاريخية، بِأَدْنَى نظرة عقلانية لكل التاريخ ستجد أن هذا الزعم كاذب، والدليل عليه واضح لأنك لا تجد في الروايات ولا اسْمًا واحدا لعبد في المدينة من الذين أسرهم الرسول(ع)، ولا تجد ولا اسْمًا واحدا لأي طفل منهم صار بعد ذلك مسلما، علما أن كفّار العرب كلّهم أسلموا بعد مدة قليلة من الزمن، ولا تجد في التاريخ اسْمًا ولو لِابْنٍ واحد من أبناء

الصحابة وَلَدَتْهُ عبدة مأسورة من الأعداء، نعم تجد في التاريخ زواجا من مملوكات وتجد أولادا منهم، وكمثال على ذلك إبراهيم بْنُ النبي محمد(ع) من ماريا القبطية التي أعتقها(ع) ثم تزوجها...

كُلُّ الكلام الْمُنْتَشِرِ عن حالات استعباد الرسول (ع) لأسرى الأعداء لمدة طويلة، وعن استعباد واغتصاب نساء الأعداء، فهو كذب من أوهام المسلمين المجرمين، ومن أحلامهم بالبقاء على دين الجاهلية...

هَذَا ما تراه من تاريخ تطبيق الرسول محمّد(ع) للقرآن، حَيْثُ لَمْ يكن له (ع) عبيد سوى ما قالوه عن زيد بن حارثة الذي اشترته السيدة خديجة ولدا صغيرا ووهبته للرسول الذي ربّاه كولد له وليس كعبد، وبلال بن رباح الذي قالوا عنه في كتب التاريخ أَنَّ أَبَا بكر اشتراه لتحريره من ظلم أمية بن خلف ويقولون أَنَّهُ وهبه للرسول(ع)، ومعلوم من التاريخ أن بلالا لم يعش بين المسلمين كعبد، ولم يعمل عند الرسول(ع) أصلا لا في بيته للخدمة ولا كعبد في وظيفة ما...

بِالنِّسْبَةِ للنساء، كُلُّهُنَّ أعتقهن النبي(ع) وتزوجهن، وَلَمْ يقارب ولا واحدة منهن وهي مملوكة يمين "عبدة أو أمة".

بِحَسَبِ ما نقلوه في كتب التاريخ، حَالَاتُ تسريح الرسول محمّد(ع) للأسرى أو فِدَائِهِمْ أكثر بكثير من حالات استعبادهم "التي زعموها ولا تجد لها بعد ذلك أثرا في التاريخ"، وأشهرها طلقاء مكّة من بعد الفتح، وبعدهم تسريح هَوَازِنَ من بعد معركة حنين، وقبلها فداء أو تسريح حصل لمختلف جماعات يهود المدينة وخيبر... وهكذا ترى أنه تعالى ترك لنا هامشا واسعا في القرار المناسب لمختلف الظروف والأزمنة والمجتمعات... لاستعباد الأعداء أو سجنهم أو مُفَادَاتِهِمْ أو قتلهم "إن ثبتت عليهم جرائم...".

أُكَرِّرُ لك لتنتبه أشدّ الانتباه مما يقال عن إبادة الرسول(ع) لكل ذكور بعض أعدائه، ولما يقال عن سماحه(ع) لأصحابه باستعباد نساء الأعداء ومعاشرتهن غصبا عنهن... هَذِهِ أكاذيب ألّفها مجرمون مشابهون في إجرامهم لبعض المعاصرين للرسول(ع)، أولئك بقوا على عقليتهم الإجرامية القديمة بلا ناموس ولا قرآن، واستمرّ الحال هذا من بعد الرسول عمليا وَفَتْوِيًّا مخالفا لكلام القرآن الصريح حتى صار من المتعارف عليه والمنتشر فتاوى تبيح اغتصاب العبدات "ملك اليمين"، وقد درج ذلك بين المسلمين! وصار منتشرا في ثقافتنا الحريم والجواري...

التصرفات المشهورة عن الرسول(ع) هي وحدها العاكسة لدينه تعالى، وأمّا تصرفات كل بقية المسلمين وفتاويهم فهي عاكسة لدينهم هم، إذْ لَمْ يكن له (ع) عبيد يخدمونه، ولا قارب أنثى "أمة عبدة ملك يمين" قَبْلَ أَنْ يتزوجها، وما ينقله البعض من أخبار شاذّة عن ذلك، وما قاله البعض كفتوى تجعل اغتصاب المملوكة رغما عن إرادتها حلالا، فما هو إلا انعكاس لعقليتهم الذكورية الإجرامية.

ما قاله القرآن يساوي بين الزوجة وملك اليمين من ناحية حليّة المقاربة كما ورد في الآيتين 6 من سورة الْمُؤْمِنُونَ والآية 30 من سورة المعارج {إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ}، لِمُقَارَبَةِ مملوكتك لا تحتاج لعقد قران عليها ويكفي موافقتها، وإن رفضت وطلبت الزواج من مالكها حتى تسمح له بمقاربتها، أو طلبت الزواج من أي أحد آخر حرا كان أم عبدا، فهي وشأنها، وهذا واضح من كل كلام القرآن الذي عليك بإعادة قراءته من دون أفكار "ذكورية إجرامية" مسبقة عن هذا الموضوع، وسترى بوضوح أن للعبدة "الأمة المملوكة" لَهَا حرية اختيار من تقاربه ومن تتزوجه، وهذا واضح وصريح من الآية 25 من سورة النساء {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}...

نعيد وَنَقُولُ إِنَّ القرآن لم يذكر من موضوع تشريع تقييد الحرية إلا الأسر للأعداء، وَلَمْ يذكر أي شيء عن الكيفية التي تبيح استعباد الآخرين، ومن ناحية ثانية كَانَ الأمر الواقع المنتشر بين الناس استعبادهم للشعوب الضعيفة من أي دين أو عرق كان، هَلْ تشريعات القرآن التي تضمّنت كلاما عن العبيد وملك اليمين قصدت واقع الحال هذا، أو قصدت فقط الهامش المسموح التحرّك به في حالة استعباد الأسرى من الأعداء المقاتلين من غير المسلمين؟

من عموم القرآن وبالخصوص من سورة الممتحنة وبالأخص من الآية 8 منها {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، تجد منعا قرآنيا بكل أشكاله من التعرّض بالأذى لأي إنسان كان مهما كان عرقه أو دينه إلا إذا كان معاديا محاربا، وأي آية قد يفسّرها أحدهم ويقول

بأنها تشرعن استعباد المسالمين من الكفّار أو من أهل الكتاب، فراجع دراستنا هذه لترى معناها، وسترى أن كلامهم غير صحيح. أمّا ما في الروايات عن هذا الموضوع ومخالف لصريح القرآن فمصيره الرمي والإهمال وتكذيب ناقليه عن الرسول(ع)...

نَنْتَقِلُ الآن إلى واقع الحال الذي كان عليه الناس في عصر النبي محمّد(ع)، حيث كانوا يشترون ويبيعون العبيد المسالمين المخطوفين من مختلف الجنسيات ومختلف الأديان، هَلْ في عهده (ع) تعامل المسلمون بذلك أم انحصرت تعاملاتهم في العبيد من الأعداء؟

طبعا حين نقول "المسلمون" نقصد المؤمنين الحقيقيين منهم، حَيْثُ اشتهر في عهده (ع) بعض المسلمين "المنافقين والفاسقين" الذين يجبرون عبداتهم على الزنا، وَمَنَعَهُمُ النبي(ع) من ذلك بأمر إلهي كما ورد في الآية 33 من سورة النور {وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا}، ومن منطوق الآية بكلامها عن الإحصان تفهم أنه حتى مالكها لا يحقّ له مقاربتها إن لم تقبل، وبالتالي لَا يحق له السماح للآخرين بمقاربتها غصبا عنها... ويحقّ لها اختيار زوجها مع موافقة أهلها ومن ضمنهم مالكها...

أكتفي بهذا المقدار الَّذِي فِيهِ الأساسيات القرآنية لترى نظرة قرآنية مختلفة عن العبيد مما هو دارج في مختلف الكتب المسمّاة إِسْلَامِيَّةً.

مَا تجده في القرآن عن العبيد وما تجده في كتب التاريخ من تصرفات المؤمنين الحقيقيين مع العبيد وَالْإِمَاءِ، كتطبيق عملي للإيمان في التعامل مع الآخرين، ترى فيه فرقا عمّا تجده في الكثير من كتب الفقه عند كلّ المسلمين، التي بعضها كتبها فقهاء مجرمون، يحلّون استعباد أي إنسان ليس من طائفتهم أو مذهبهم! بل يهدرون دم وعرض الآخرين! حتى المسلمين المسالمين! وَاعْتَمَدُوا في ذلك على روايات كاذبة رواها مجرمون أمثالهم، واعتمدوا على سيرة مجرمين من المسلمين اتخذوا منهم منارة للدموية، هَا هُوَ القرآن أمامك، وَهَا هِيَ دراستنا له، رَاجِعْ أي آية قالوا إِنَّهَا تدعم كلامهم لترى أنهم كاذبون ومجرمون.

بِالنِّسْبَةِ لتعبير ملك اليمين، مَعْنَى كلمة ملك: هو عموم أي شيء يرجع إليك أمره فيتبع لك مع التحكّم به والسيطرة عليه. وكلمة يمين لعموم التعامل مع أي شيء براحة واقتدار وقوة وتحكّم. لِذَا يَصِيرُ تعبير ملك اليمين يعني: السيطرة مع اقتدار. وَهُوَ شخص تتصرّف به وَتَأْمُرُهُ بقوة اقتدارك عليه. وكلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة وَهِيَ مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

من هذا المعنى اللغوي الأساسي للكلمات ترى أن استعمال القرآن لها للتعبير عمّا يقصده بَعِيدٌ كل البعد عن الممارسات السيئة للناس مع المملوكين ملك يمين والمستعبدين، قَارِنْ معنى كلمة "ملك يمين وعبد" مع خادم أو خادمة أو عامل أو عاملة مقابل المبيت والطعام، وسترى أن القرآن يقصد هذا المعنى حصريا، أمّا ممارسات "المسلمين" ورواياتهم وفتاويهم فهي تمثّلهم هم ولا تمثّل دينه تعالى المطروح في قرآنه.

(وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ{34})
{وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ}، وصلكم منه تعالى عبر الرسول محمد(ع) الذي ينقل لكم، {آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ}، أُمُوراً مُمَيَّزَةً وَمُوَضَّحَاتٍ، والمقصود سور وجمل القرآن وَهِيَ آيات، أي مميزة لأنها منه تعالى، فمستواها غير عادي، وتعرض دينه تعالى بشكل واضح.

{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ}، {مَثَلاً}، شَيْئاً تَشْبِيهِيّاً تَقْرِيبِيّاً، نَمُوذَجاً، كما نقول أعطني مثلا عن واحد من الطيور، وَتَقُولُ: بلبل. {مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ}، كَانُوا قبلكم وذهبوا، وَأَخْبَرْنَاكُمْ بِنَمَاذِجَ عن العقاب الذي يصيب من يخالف كلامه تعالى.

{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ}، {مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ}، شَيْئاً يُتَعَلَّمُ منه ما يُحَدِّدُ الصحّ والخطأ، اَلَّذِينَ يتجنبون، وَالْكَلَامُ عن الذين يتجنبون السوء، وهو نفسه تجنّبهم لمخالفة أوامره تعالى، وهو نفسه تجنّب غضبه وعقابه سبحانه. وَمِنَ الموعظة، يَتَعَلَّمُ الْمُتَّقُونَ ما يتجنبونه مما حصل مع فاعلي السوء من عقاب إلهي، وَبَدِيهِيٌّ أنهم أصلا موصوفون بأنهم "متقون" يتجنبون السوء. وَطُولُ الكلام سببه أن مَبْدَأً قُرْآنِيّاً يريك أن الناس فيهم صفات أصلية، حَيْثُ بَعْضُهُمْ قلوبهم غلف وآخرون متقون،

وَالَّذِينَ قلوبهم عمياء لن يَتَّعِظُوا من الأمثلة عن الذين عذّبهم تعالى هنا في الدنيا بذنوبهم، وَيَقُولُونَ إِنَّهَا أساطير كاذبة أو مجرد كوارث طبيعية حصلت... وَفَقَطِ الذين لديهم صفة التقى، صفة تجنّب السوء، فهؤلاء سيتّعظون من الكلام عن العذاب الإلهي لفاعلي السوء، وَيَتَجَنَّبُونَ فعل السوء الذي فعلته تلك الأقوام...

تُلَاحِظُ أَنَّ السورة تتحدّث مع وعن المجتمع الإسلامي بكل تنوعاته، وَتَلْفِتُ انتباه الجميع للآيات القرآنية التي جعلها تعالى متاحة للجميع بشكل واضح، حَيْثُ لَا أَحَدَ لديه نفسية وعقل سليم يمكنه إنكار إلهية آيات القرآن، ومن ناحية ثانية وَصَلَنَا خبر عن كيفية تعامله تعالى مع مختلف الأقوام عبر التاريخ، من الكافرين والمشركين والمنافقين والفاسقين، وَمِنَ النَّاحِيَتَيْنِ صرنا مطوّقين، مِنْ جَانِبٍ هناك الآيات الواضحة للإيمان، ومن جانب آخر هناك عقاب واضح لمن لم يلتزم بكلامه تعالى، وَهُوَ نَفْسُهُ ما نراه حسنا إذا كان قلبنا سليما.

تَذَكَّرْ دَائِماً أن القرآن وصّف آياته تعالى بأنها "مُبَيِّنَةٌ"، وَهَذِهِ الكلمة تشابه في معناها كلمة "واضحة"، وَلَكِنَّ الكلام المبين "الواضح" لا يعني أنه ليس بحاجة لدراسة حتى نفهمه، فأي كتاب كان في أي موضوع كان، فعلينا قراءته بهدوء وتمعّن حتى نفهمه، وَنَحْتَاجُ في كثير من الأحيان أن نتدرّج في قراءة الكتب من الأبسط إلى الأصعب حتى نفهم في الهندسة والطب والرياضيات والتشريع وعلم الاجتماع وَالْأَخْلَاقِ... وَالشَّيْءُ نَفْسُهُ تَقْرِيباً بالنسبة لفهم بعض آيات القرآن.

مُضَافاً إلى ما سبق، فالقرآن كتاب حقّ وصلاح، وَهُوَ يَحْتَاجُ إلى قلب سليم ليتماشى مع كلامه، وَيَحْتَاجُ إلى فكر سليم مع نفسية سليمة حتى نفهمه مقتنعين به، فبيان القرآن بالعموم هو بيان من بعد دراسته، ومرّر القرآن الكثير الكثير من الآيات البسيطة جدا والتي يفهمها أي إنسان حتى من دون أي دراسة، ومرّر لنا الكثير من المفاهيم التي نستخرجها من كلامه وبأدنى تأمّل، ولسبب وجيه لم ينزل في كلّ كلامه إلى مستوى بساطة تعابيرنا المبسطة نحن، لأنه لو نزل القرآن إلى مستوى كلام ككلامي هذا المبسّط في هذه الدراسة، سيفقد نوعية تقانة الكلام من مستوى إلهي، عندها من سيقتنع بأن هذا الكتاب كلام إلهي؟

اِسْتَعْمَلَ سبحانه اللغة العربية لأنها لغة رسوله محمّد(ع)، ومن البديهي أن يكون كلامه سبحانه دقيقا وبعيدا عن الركاكة، وَلَمْ يَتَقَصَّدْ سبحانه أن يكون كلامه معقدا على الفهم، وما يحصل معنا من صعوبة فهم بعض الآيات حتى من بعد دراستها يَرْجِعُ إلى أمراضنا القلبية "الفكرية والنفسية" التي تتحكّم بنا ولا تدعنا نرى ما يقوله القرآن بوضوح، ويرجع إلى مخزوننا الثقافي المتراكم والمخالف لما يقوله القرآن... وَالَّذِي منها نفسّر القرآن! ككلام سورتنا هنا الواضح جدا عن حكم الجلد الذي اسْتَبْدَلَتْهُ الغالبية الساحقة بحكم الرجم للزناة! وبخاصة تنفيذ المجتمعات المتعاقبة لهذا الحكم في النساء! وَنَدَرَ جدا جدا في تاريخنا أن تجد جلدا لرجل زنى! والأندر منه أن تجد رجما لرجل زنى! فمع من كانت تزني التي رجموها؟ وهذا مثال عن عمى القلوب الذي يجعل القرآن غير مبين.

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{35})

تعقيبا على كل ما سبق: {اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، كاشف الظلام عن كل ما فِي دُنْيَا المخلوقات، وهذا الكلام موجّه إلينا لنلتفت إِلَى أننا كبشر مشمولون بانتشار النور الإلهي، وكنموذج عنه الكلام السابق عن الأحكام الإلهية، فلم يتركنا سبحانه في الظلام، بل تفضّل علينا بالوعي والفكر والحواس وهدانا إلى الفوز بالسعادة الخالدة... وكذلك نوره تعالى عام ومنتشر في السماوات والأرض بما يناسب كل شيء فيها... وسترى في الآية 40 الآتية تكرارا للكلام عن هذا النوع من النور.

مَا مرّ في هذه السورة من إرشادات لنا فهي نور لنا صادر من النور الإلهي كنموذج عن نور عنايته تعالى لبقية المخلوقات في السماوات.

من الحالات النادرة في دراستنا سنستبق دراسة الآية لنشير لمعناها العام، لِأَنَّ اللَّهَ تعالى نور كل السماوات والأرض، كاشف لظلامها بكل أنواعه، وفيما يخصّنا نحن فهو كلامه تعالى معنا الذي يخرجنا به من الظلمات إلى النور، من

الضلال للهداية، وَضِمْناً كلّ ما يتعلّق بهذا الموضوع من خلقتنا بالصفات التي فينا وتؤهلنا لتمييز الخير من الشرّ مع حرية إرادة للاختيار بينهما، وتؤهلنا لِاسْتِقْبَالِ كلامه سبحانه وَالتَّفَاعُلِ مَعَهُ، وبقية السماوات والأرض لها ما يناسبها من انتشار نوره سبحانه عليها، وَالتَّوْصِيفُ بالنور على معنى الكشف لحالة تعامله تعالى مع مخلوقاته بتصميمه وخلقه لها بالصفات التي فيها لهدايتها.

وتشبّه الآية لنا نوره تعالى بمصباح ينير غرفة، وَالْغُرْفَةُ تشبيه للسماوات والأرض، والغرفة لن ترى فيها شيئا في الظلام، وكذلك لولا نوره تعالى فلن يكون بالأصل هناك شيء في الدنيا لتراه، وَفِعْلُ خلقه تعالى للكائنات والظواهر بالصفات التي فيها هُوَ الأثر لهدايتهم بنوره تعالى، والكلام هنا عن عموم هدايته تعالى لمخلوقاته كما سترى من تكملة الآية {يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ}.

اَلْكَلَامُ هنا على معنى الآية 50 من سورة طه {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}.

زُجَاجَةُ المصباح التي تنشر النور هِيَ تَشْبِيهٌ للوسائل التي تهدينا كآيات خلق ما في الدنيا، وكلام الرسل والكتب الإلهية والإلهام في قلب المؤمن... وفتيل وزيت المصباح تشبيه بالأساس الذي ينبع منه نور الهداية الإلهية المبارك...

وعلى كل حال، وَهَذَا المثل التشبيهي يخلق تصورات في عقولنا تنبع من درجة قوتنا على تصوّر الأشياء والمعاني المحكومة بدرجة إيماننا وعقلانيتنا ونظرتنا للأمور، لِأَنَّ الْقُرْآنَ كتاب دراسة، كتاب للقراءة بتمعّن، فلا يمنعك ما أقوله "أنا أو غيري" في هذه الدراسة للقرآن أو في غيرها، وَلَا تَمْنَعْكَ من التمعّن "أنت" لتحصل على مَعَانٍ أَفْضَلَ وأرقى مما حصلت عليه أنا أو غيري، ولكن من بعد دراسة وتمعّن، وتوافق مع بقية مفاهيم القرآن، وَهَذَا المثل القرآني هنا ليس لمفسري القرآن لوحدهم، ولا للمتصوفين والعرفانيين والفلاسفة... بل هو لنا جميعا، فتمعّن فيه وادرسه.

لكن انتبه جيدا ولا تفصل الآية عمّا سبق وسيأتي، لِأَنَّ أَيَّ تفسير يحلّق في فضاء آخر غير سياق الآيات، فهو مشكوك في صحّته ومشكوك في قصد الآية له، إلا بدليل قوي أقوى بكثير مِمَّا يقولونه في عامّة الكتب حول آيتنا هنا...

وبعد تفسيرنا للآية ستسأل نفسك إن كان هذا المثل يشير لهذه المعاني البسيطة فقط، فاعلم أن ظاهر المعنى التقريبي لوصف الحالة بسيط، ولكنه عميق جدا، لِأَنَّهُ يُقَرِّبُ لك صورة تعامله تعالى مع الأشياء، وَهَذَا شَيْءٌ مستحيل علينا فهمه كما هو، وحتى الملائكة العالية لا يمكنها فهم حقيقة تعامله تعالى مع الأشياء، وَأَنَا بيدي أعمل وأفعل... أمّا سبحانه وتعالى فليس كمثله شيء، ولا شيء، فكيف سأتصوّر كيفية تعامله مع الأشياء؟ وَآيَاتُنَا هنا من نوادر تقريب صورة تعامله تعالى مع الأشياء.

بالنسبة لتعبير السماوات والأرض، نَحْنُ البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضا على قبّة النجوم التي نراها ليلا ونطلقه أيضا على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنويا على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائما أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنويا" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}... وهي إشارة إِلَى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أَرَاضٍ "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضا بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراض.

عادة نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير وَنَسْتَبْدِلُ تعبير السماوات والأرض بالدنيا، وَنَقُولُ: خلق سبحانه الدنيا. أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيرا صحيحا دقيقا بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي تُوَصِّفُ الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى}. وَسُبْحَانَهُ دقيق في تعابيره ويحدّثنا بدقّة عمّا يعلمه، وكلامه تعالى عن السماوات والأرض هو كلام عن علم بما أمامه سبحانه، إِذْ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ دائما يتكلم بشفافية عمّا أمامه فقط، أمّا الكلام عن كلّ ما في الدنيا،

فهو كلام عمومي ويشمل "نظريا" ما هو خارج العلم، ولذلك لم يستعمله تعالى، بينما ترى استعماله في كلام عموم البشر لأننا نتساهل ونتراخى في التعبير.

{مَثَلُ}، شَبَهُ، {نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ}، مَثَلِ فَجْوَةٍ في الحائط، وحاليا لم يعد هذا النوع من البناء دارجا، وَاسْتَبْدَلْنَاهُ بالرفوف، والمشكاة مثل الرفّ ولكنه رفّ في داخل الحائط، مثل خزنة صغيرة يحيط بها الحائط... وَاعْتَادَ الناس قديما على وضع المصابيح في المشكاة.

المشكاة {فِيهَا مِصْبَاحٌ}، في الفجوة شيء يصدر منه نور بسبب شعلة نار، مثل قنديل الزيت، فانوس الزيت... {الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ}، حَيْثُ إِنَّ شُعْلَةَ النار الخفيفة محاطة بزجاجة تسبب انتشار النور، ولو مرّ عليك في حياتك تجربة الفرق بين فتيل مُشْتَعِلٍ مع وبدون زجاجة تحيط به، لانتبهت للفرق بين ضوء المصباح في الحالتين، وَمَعَ زجاجة كالأسطوانة وشفافة حول الفتيل سترى أن الشعلة تصدر ضوءا يميل للبياض وإنارتها أقوى...

{الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ}، والكوكب بحسب استعمال القرآن وعموم استعمال العرب لَهُ في أشعارهم قبل الاسلام يَعْنِي: أي نقطة في السماء لها ضوء، وبغضّ النظر عن كون الضوء يصدر منها أو تعكسه. {كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ}، مثل الدرّة مثل الجوهرة مثل الأحجار الشفافة التي تعطي الْإِحْسَاسَ بصدور ضوء منها "كالدرّ النجفي واليماني.."، يعني كأنها جرم سماوي مُتَلَأْلِئُ مشعّ، كالشمس كالزهرة... وَحِينَمَا ترفع الزجاجة عن القنديل، وتشعل الفتيل، يصدر ضوء خفيف عن الشعلة، ولكن حين تضع الزجاجة تصير الزجاجة كأنها كلها منيرة، فَيَزْدَادُ الضوء بشكل مُلْفِتٍ وينتشر.

الآن انظر إلى الغرفة التي فيها المصباح، حَيْثُ انْتَشَرَ النور فيها وتبدّد الظلام، وهكذا نوره تعالى، وبالنسبة لنا كنموذج وَهَكَذَا هدايته لخلقه الذين تزوّدوا بكل ما يحتاجونه حتى يروا أمامهم طريق الهدى.

لا يذهب فكرك إلى أبعد ما تفهمه من القراءة البسيطة لهذا الكلام، لِأَنَّ الْبَسَاطَةَ التي فيه هي المطلوب فهمها، والبساطة تعني السهولة "بعد التمعّن والدراسة" ولا تعني قلّة القيمة لهذا الكلام، فلو حوّلت معاني الآية إلى فلسفة وعرفان وتصوّف... وفيزياء وكيمياء... فأنت لا تعطيه قيمة، بل سيفقد الكلام قيمته العالية حين تحمّله ما لا يحمل من معاني تخترعها وتلصقه بها، فانتبه لذلك، وَبِخَاصَّةٍ أَلَّا تَسْتَغْرِقَ في معنى النور حتى تشرد عن المعنى القرآني وتصير في عالم مختلف عن القرآن من دون أن تشعر، وأنت تظن نفسك في صميم القرآن! وَالنُّورُ باستعمال القرآن يحمل نفس المعنى باللغة العربية: انكشاف الظلام. ولم يستعمله القرآن بمعنى الخلق أو إيجاد الكائنات أو إخراجها من العدم... بل استعمله حصرا بمعنى الاهتداء، ووصف تعالى نفسه بأنه نور لأنه سبحانه يكشف الظلام لعباده فينير لهم الطريق الصحيح... وهذا مبني ويتضمّن توافر صفات في المخلوقات لِتَهْتَدِيَ.

نرجع للآية، اَلْمِصْبَاحُ الذي صار عليه زجاجة وصار منيرا كالكوكب الدري المتلألئ، مثل نقاط النجوم باصطلاحنا الحالي والكواكب بالاصطلاح العربي الأساسي، التي تتلألأ في السماء ليلا، {يُوقَدُ}، يستمدّ وقوده الذي يشتعل، {مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ}، كُلُّهَا خير، ونوع الشجرة هي، {زَيْتُونَةٍ}، وهي الشجرة المعروفة بحبّاتها التي نخلّلها لنأكلها أو نعصرها لنحصل على زيت الزيتون، وفي المثال هنا هَذِهِ الشجرة الزيتونة، {لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ}، لَيْسَتْ لناحية شرقية تَضْرِبُهَا الشمس من الشرق فقط، وليست في ناحية غربية وَلَا تَطَالُهَا الشمس إلا بعد الظهر، بل هي واقفة في بقعة من الأرض بحيث تطالها الشمس من الصباح حتى المساء، بدون أي جبال أو مرتفعات حولها تحجب عنها الشمس، وَنُمُوُّهَا بشكل مثالي، وبالتالي يكون زيت زيتونها مُمَيَّزاً.

قديما كان زيت الزيتون في منطقة الشرق الأوسط وما جاورها هو المعتمد كوقود للمصابيح، وفيما بعد استبدله الناس بمشتقات النفط المقطّر، وبعدها صار التقطير والتصفية مُتَطَوِّراً وصار للمشتقات أنواع عديدة منها الكاز والسبيرتو... وحاليا صارت هذه الأدوات للإنارة بالزيت من التراث ولا يعرفها معظم الأولاد بسبب الاعتماد على المصابيح الكهربائية "المبات".

{يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ}، زَيْتُ الزيتونة "على شعرة" سيصدر منه نور، {وَلَوْ}، حتى لو، {لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ}، إِذْ إِنَّهُ لن يشتعل بلا نار ولكن لشدة البركة التي في زيت الزيتون الذي صار هنا مثالا تشبيهيا عن مداد نوره تعالى، يَكَادُ يصدر منه النور ولو بلا شعلة.

هذا الكلام عن نوره تعالى وتمثيله بنور المصباح، فِي طَيَّاتِهِ يحمل واقعا نعلمه من عموم كلام القرآن عنه تعالى أنه يستحيل على مخلوقاته التعامل معه سبحانه مباشرة، وكمثال عن ذلك كلامه تعالى مع كلّ مخلوقاته، يَكُونُ وَحْياً أو من وراء حجاب، لا لأنه تعالى لا يريد التواصل مباشرة مع مخلوقاته، بل لأن التواصل المباشر مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين طبيعة المخلوقات، وهنا الكلام عن نوره تعالى بتمثيله بنور المصباح يريك وصل النور الإلهي إلينا عبر وَسَائِطَ، عَبْرَ حجاب، بالتمثيل هنا عبر زيت وفتيل وشعلة وزجاجة.

{نُورٌ عَلَى نُورٍ}، انْكِشَافٌ على انكشاف، وفيما يخصّنا فهو هداية على هداية، بركة وبركة، خير على خير... وَالْمَادَّةُ المشتعلة في هذا المصباح هي زيت الزيتون المبارك، كتشبيه مادي لنوره تعالى، والزيت هو وقود النار، وَصَارَ لدينا نور من نور، نور الزيت الذي يكاد يضيء... ونور المصباح.

{يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ}، هنا ترى أن الآية وجّهت كلّ التشبيه بالنور والمصباح... إلى ما يخصّنا نحن كبشر يتكلّم معنا هذا القرآن، وهكذا تنتبه لأي تفسير آخر لوصفه تعالى بالنور وتشبيه ذلك بنور المصباح بحيث لا يتوافق مع الكلام عن الهداية هنا، وَعُمُوماً لا أحد من المخلوقات لديه القدرة الذاتية على الاهتداء إلى الطريق الصحيح، وَفَقَطْ عبر النور الإلهي نهتدي، وَشَاءَ تعالى أن لا يهدي الجميع غصبا عنهم، بل سيهدي سبحانه من قرّر منهم أن يهتدي، وَقَرَّرَ البقاء على سلامة قلبه، فهذا سيحصل على الهداية الإلهية.

{وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ}، أَيْ يُقِيمُ وَيَقُولُ لنا التشبيهات، كما نقول: أعطني مثلا عن الطيور. وَتَقُولُ: بلبل. وَالْكَلَامُ السابق عن نوره تعالى بتشبيهه بالمصباح هُوَ مثل، والسؤال الافتراضي هو: كيف يهدي تعالى مخلوقاته؟ أو كيف ينتشر هداه تعالى على مخلوقاته؟ الجواب عبر نوره تعالى الذي مثلته الآية بِنُورِ المصباح...

{وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، وَحِينَمَا يختار سبحانه المثل ليخبرنا به فَعَنْ علم يختاره سبحانه من بين المعلومات الكثيرة التي لديه تعالى.

صحيح أن كلام الآية عامّ لكل نور وصلنا منه تعالى، ولكن سياق السورة هنا تركيزه على هدايته تعالى لنا في خصوص الأحكام الْإِجْتِمَاعِيَّةِ التي تناولتها السورة، وخصوصا فيما سبق كَتَنْبِيهٍ عن ذكورية الأحكام القاسية التي تعارف عليها الناس بِحَقِّ النساء.

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ{36})
هذه الآية مع التالية تصير هكذا: فِي بُيُوتٍ... يوجد رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ... يُسَبِّحُونَ...

هذه الآية والآية التالية هي تشبيه المشكاة التي فيها مصباح ينير بزيت من شجرة مباركة... حيث ستتحدّث عن بيوت انتشر فيها النور الإلهي... فالبيوت مثل الغرفة التي فيها مشكاة فيها مصباح وذكره تعالى فيها نابع من النور الإلهي على الذاكرين... فمثل هذه البيوت التي فيها رجال صفتهم ما يلي:

رِجَالٌ يُسَبِّحُونَ... {فِي بُيُوتٍ}، {أَذِنَ اللَّهُ}، سمح تعالى، {أَن تُرْفَعَ}، أن تصير تلك البيوت مبنيّة لتصير أماكن للعبادة كما سترى من تكملة الكلام، {وَيُذْكَرَ فِيهَا}، يتم استحضار اسم الله تعالى في تلك البيوت.

تلك البيوت هي أماكن العبادة التي بنيت على التقوى، كالمساجد والمصليات، وبيوت المؤمنين الحقيقيين، كبيوت الأنبياء والرسل والصالحين...

في تلك البيوت، {يُسَبِّحُ لَهُ}، يقوم {رِجَالٌ} بتنزيهه تعالى عن النقص والصفات العاطلة، {بِالْغُدُوِّ}، في أوقات الغداة وهي فترات الضوء القوي من النهار من بعد شروق الشمس إلى العصر تقريبا، {وَالْآصَالِ}، وفي فترات الضوء الخفيف من النهار، من بعد العصر إلى الغروب تقريبا، وهي عادة الأوقات التي ينشغل فيها الناس بأشغالها، فهذه النوعية من الرجال لا يقطعون تسبيحه تعالى في فترات نشاطهم. وبتعبيرنا الدارج فهم يسبحونه تعالى من الصبح للمساء، كل النهار...

الآية لا تريد عرض مواقيت الصلوات الخمس الواجبة، ومن البديهي أنها لا تأمرنا بالتفرّغ للعبادة في البيوت في الغداة والآصال، فهي مثل بقية التعابير القرآنية الواصفة للمؤمنين بالراكعين والساجدين... والتي لا تقصد أنهم دائما في تلك

الحالة، ومن الآية التالية سترى أن الكلام عن الأشغال والانشغال في تلك الأوقات في مقابل الحفاظ على تسبيحه تعالى، وتفهمه بسهولة عندما تقارنه مع الذين يؤخّرون الصلاة بسبب أشغالهم، أو الذين لا يؤدّونها في وقتها ويقضونها فيما بعد...

لاحظ تركيز عموم القرآن على التسبيح، على تنزيهه تعالى عن الصفات الناقصة أو السيئة، فخذ مثلا عن ذلك الاعتقاد بأنه تعالى حكيم خبير لطيف رحيم... فهو تسبيح له تعالى عن الاعتقاد بأنه يعبث أو يلهو أو يظلم... وقول هذا الكلام يختلف عن الاعتقاد به فعلا، فبعض الناس يسبحونه تعالى بلسانهم ولكن بعض الأحيان يعتقدون أنه تعالى لا ينتبه "فلا يشعر" بما يحصل معهم من مشاكل وصعوبات ولا يفهم حاجاتهم ولا يتطلّع إليهم... ولا يعجبهم ما قَدَّرَهُ تعالى لهم... فمن هذه الناحية نفهم عندما يخبرنا بأنه تعالى حكيم أن ننزهه عن اللهو، عن العبث، وننزهه عن أنه لا يكترث بنا، وننزهه عن اعتقادنا بتركه تعالى لنا للظروف تتلاعب بنا... وهذا مثال عن جوهر تسبيحه تعالى.

من يسبّح في البيوت في تلك الأوقات؟:

(رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ {37})
{رِجَالٌ}، الرجال "الذكور" نموذج عمّن لديه أشغال أثناء النهار وليس إلغاءً للنساء، ومثله ما ورد في الآية 23 من سورة الأحزاب "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ..." حيث إنه من المعلوم هناك أيضا نساء صَدَقْنَ ما عاهدوه تعالى عليه ولكن النساء عادة لا يشاركن في الحرب، واكتفت الآية هنا بذكر الرجال كنموذج، وحيثما يستوجب الكلام ذكر حقوق للنساء ستجد القرآن ذكرهن، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 7 من سورة النساء "لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا"، وحين يكون الكلام عن نموذج الذكور كافيا لتفهم منه أن النساء مشمولات عندها يكتفي القرآن بذكر نموذج الرجال مثل الآية هنا والآية 48 من سورة الأعراف "وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ"، إذ من المعلوم بالبداهة أنهم سينادون بعض النساء المجرمات أيضا ليسألوهُنَّ....

{لَّا تُلْهِيهِمْ}، لا تشغلهم عن شيء مهمّ، الـ: {تِجَارَةٌ}، وهي عملية البيع والشراء للبضائع ويكون أحد الطرفين أو كلاهما قاصدا لزيادة الربح على رأس ماله، ولا يلهيهم، {وَلَا بَيْعٌ}، عموم عملية تبديل شيء بشيء آخر أو بمال لا بقصد زيادة رأس المال، بل بقصد الحصول على المال لإنفاقه على الحاجات الشخصية، أو بهدف الحصول على الشيء الذي اشتريته... ومن عموم الأعمال المتنوّعة التي نقوم بها في حياتنا يبرز بالعقلانية أهمية النموذجين البارزين "التجارة والبيع"، فهما عادة فرصة رُبَّما تفوت فيذهب الزبون لتاجر آخر أو لبائع آخر، لذلك اختارتهما الآية كأبرز نموذجين من بقية ما نَهْتَمُّ به وله فعلا أهمية عالية، وحتى التجارة والبيع لا تلهيهم، {عَن ذِكْرِ اللَّهِ}، عن استحضاره تعالى في قولهم وفكرهم وعملهم، وتكملة الجملة عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تَجْعَلُ عبارة "ذكر الله" واسعة شاملة لكل ما تذكره تعالى به من قول أو فعل، إذ إن بعضهم لا يذهب إلى الحجّ لأنه لا يستطيع ترك دكّانه أو مزرعته... متحججا بأن مصالحه ستخرب علما أن الكثير من الناس يرتبون امورهم ويتركون أشغالهم ويذهبون للحج ولا تحصل مشاكل، أو لا يصوم لأن الصوم يتعبه وسيخسر زبونا إن لم يكن نشيطا للتعامل معه...

انتبه أنهم يذكرونه تعالى حتى أثناء التجارة والبيع، فالكلام عمومي حيث إن ذكره تعالى أعمّ بكثير من اللفظ باللسان أو بالقلب، وترك السوء في معاملاتنا وبالخصوص في البيع والتجارة هو نابع من ذكره وتسبيحه تعالى، لأنه تعالى منزّه عن تركنا بلا جزاء، ومنزّه عن غفلته عنّا إذا ارتكبنا سوءا تجاريا...

لا تلهيهم التجارة والبيع، {عَن... إِقَامِ}، عن إقامة، عن تفعيل، {الصَّلَاةِ}، التوجّه والإقبال، وكلمة صلاة صارت منذ القدم مصطلحا دينيا يشير للقيام بالحركات والكلمات التي تعبّر عن فائق احترامنا وخضوعنا له تعالى في أوقات محدّدة من اليوم، والتي نسميها بالصلوات الخمس الواجبة يوميا، والتجارة والبيع عمل مهم ولكن بالمقارنة مع الصلاة الواجبة فهما لهو، فهما اشتغال بشيء مع وجود شيء آخر أهمّ منه.

ولا تلهيهم التجارة والبيع عن، {وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ}، عن جعلها عند من يوزّعها أو توزيعها بحسب ما أمر سبحانه، وكلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، حيث تشير لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم

بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكية، مال زَاكٍ، طعام زَاكٍ..."، ومنذ القدم صارت مصطلحا دينيا يشير إلى دفع نسبة محدّدة من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ..."، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، حينها يدفع منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة "...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ..."، لتكون نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ".

الآيات لا تُشَجِّعُنَا على ترك العمل والتفرّغ للعبادة، لا، بل إن كان هناك أمر ديني واجب أو شيء نكسب منه حسنات، فهؤلاء الرجال لا يلتهون بأشغالهم عن طاعة الله تعالى وما يرضيه، بل من الأساس ينسّقون أشغالهم حتى لا تتعارض مع القيام بالواجبات الدينية وكسب الحسنات. ويمكنك أن تفكّر فيما تقوله الآية عندما تلتفت للذين يأتي وقت الصلاة فيبقون في أعمالهم مع أنهم يمكنهم ترك عملهم لدقائق معدودة للصلاة، ومقارنتها مع الذين يحسبون نقصان رأس مالهم التجاري إن دفعوا الزكاة فلا يَدْفَعُونَهَا...

{يَخَافُونَ}، يشعرون بخطر لا يمكن تجنّبه، {يَوْمًا تَتَقَلَّبُ}، زمن لا تثبت، {فِيهِ الْقُلُوبُ}، فيطيش ويتوه أساس فكرهم ومشاعرهم من شدة الخوف والرعب، وتتقلّب فيه، {وَالْأَبْصَارُ}، فقدرتهم على وعي وفهم الصور لا تثبت، ويُفْقَدُ فهمهم لما هو أمامهم، وتزيغ ولا تثبت وجهة النظر على شيء والنتيجة مساواة مع حالة العمى، حيث يكون الناس مثل السكران الذي يدور فكره ونظره في التيه والضياع كما ورد في الآية 2 من سورة الحجّ "يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ"، فهم هنا في الدنيا يخافون من يوم القيامة الذي يكون الناس فيه سكارى...

لاحظ توصيف حالة فقدان التركيز من الضغوط والخوف في يوم القيامة، إذ إن التعبير هنا مشابه لـ "قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا"، كما ورد في الآية 125 من سورة طه، والعمى في الآية لا يشير لعمى العينين عن الرؤية بل يشير لحالة مشابهة لما تصفه الآية هنا من تقلّب القلوب والأبصار، عمى القلب، وفقدان قدرة تركيز البصر.

بقي شيء ضعه في بالك دائما، وهو أن الخشية ليست مرادفة للخوف، إذ إن الخوف شعور سببه تصوّر التلبّس بحصول الضرر المعنوي أو المادي من شيء تشعر بفقدان إمكانية تجنب ضرره، والحلّ باقتحامه لتحمّل نتائجه أو الفرار منه إن استطعت. أمّا الخشية فشعور سببه تصوّر التلبّس بحصول الضرر المعنوي أو المادي، ولكن مع الشعور بضرورة تجنّب الشيء غير المرغوب والذي تتوقّع حصوله، وتشعر بإمكانية تجنبّه، ولا تريد اقتحامه. وكمثال، المؤمن يخاف من عقابه تعالى إن عصاه لأنه يعلم أن العقاب لا يمكن تجنّبه، والمؤمن يخشاه تعالى فلا يرتكب الذنب لأنه يتوقّع العقاب. وفي حالة الخوف تصير المواجهة مع الخطر حتمية، أمّا في حالة إمكانية تجنّب الخطر فهي الخشية. ضع هذا المعنى في بالك وسترى روعة في الدقّة القرآنية عند استعمال هذه التعابير.

(لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ{38})
تذكّر تشبيه نوره تعالى بالمصباح في المشكاة من زيت شجرة مباركة... فهنا المجازاة هي التفسير العملي لبركة زيت المصباح ولبركة النور الإلهي، فالبركة هي الخير فلنرَ كيف يكون الخير عمليا:

{لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ}، حتى يعطيهم سبحانه المقابل على، {أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا}، كما نقول: ما أحسن عملك. ولا نقصد الإشارة إلى حسن هذا العمل بالقياس إلى أعمالك السابقة، بل نقصد قياس حسن العمل مطلقا، فكل عمل حسن هو الأحسن في مقابل كل ما هو سيّء أو أسوأ، كوصف لمطلق عمل سيء تقيسه لعمل حسن، وبعد قليل سنتوسّع بالكلام عن ذلك.

{وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ}، إذ فوق ما استحقوه على أعمالهم الحسنة سيحصلون على فضل على أشياء جيدة زائدة منه تعالى وليس من الواجب عليه تعالى منحها لهم، وفضله تعالى سيكون أكثر بكثير مما نتصوّر، لأنهم سيخلدون في جنة، ونبّهنا القرآن أنهم وطوال ذلك الخلود لن يملّوا ولن يفكروا ولو للمحة بشيء آخر غير الذي يسعدون به في الجنّة الخالدة،

وراجع في ذلك دراسة الآية 108 من سورة الكهف "خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا"، ففضله تعالى سيكون تأمين ما يسعدهم في خلودهم، فهل يمكنك أن تتصوّر ذلك؟

{وَاللّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة ولا أحد يفرض عليه تعالى ماذا سيختار، ونعلم من عموم القرآن أنه تعالى شاء أن يرزق المؤمنين في الآخرة جنّة خالدة، فيصير معهم منه تعالى ما يريدونه ويحتاجونه ليكونوا سعداء، {بِغَيْرِ حِسَابٍ}، فهو تعالى ليس مجبوراً ولا مفروضاً عليه سبحانه أن يرزقهم بل هو تعالى شاء ذلك، فهم ماذا قدّموا لربنا سبحانه حتى يرزقهم؟ لا شيء، فمن دون أن يكون بينهم وبينه سبحانه حساب فإنه تعالى سيرزقهم ويعطيهم.

لا يتصوّر أي أحد أنه سيقف في يوم القيامة ويضرب رجله على الأرض ويقول: حاسبوني وأدخلوني الجنة فهذا حقّ لي واجب عليه تعالى لأني آمنت وعملت الصالحات. لا، بل من فضله تعالى يعطينا الثواب ونحن لا يمكننا ولا يحق لنا أصلاً أن نفرض عليه تعالى مجازاتنا بالحسنات، فهي أصلاً الحسنات لم تنفعه تعالى بل قدّمناها نحن لأنفسنا، ومن فضله تعالى يعطينا عليها الأجر.

نفهم بشكل أسهل معنى فضله تعالى على المؤمنين بإدخالهم الجنّة عندما تستحضر في بالك أنه تعالى لم يفعل معك في الدنيا إلا الخير، ولم يوجب عليك فِعْلَ إلا ما يمكنك أنت أن تراه خيراً، ولم يمنعك إلا مما يمكنك أنت أن تراه سوءاً، والتكاليف غير العادية كالصلاة والصوم... فهي لإذهاب سيئاتك عنك حتى لا تنال العقاب عليها كما نفهم من الآية 114 من سورة هود "وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ"، فحين تُصَلِّي أو تصوم أو تزكّي... فهذا لا يعني أنك صار لك عليه تعالى فرض واجب أن يؤجرك.

على هذا خذ مثلاً زوجتك التي تَمُنُّ عليك أنها لم تخنك، فهذا مفروض منها ولا مِنَّةَ لها بذلك، فأنت مفروض منك فعل الخير، ولا مِنَّةَ لك بذلك عليه تعالى، وجزاؤه تعالى لك بالجنة على اعتقادك بما هو حقّ وعلى عملك للصالحات، فهو فضل منه تعالى حين فرض عليك ما نسميه بالعبادات من صلاة وصوم... فمن فضله حدّد عليها أجراً لك.

تذكّر دائماً أنك ستجد في الكتب تفسيرهم لجملة {بِغَيْرِ حِسَابٍ} على معان عديدة، منها أنه رزق بلا حساب أي بلا نهاية ولا انقطاع، ومنها أنه لو كان بحساب لكان على كل حسنة ثواب واحد ولكنه تعالى بغير هذا الحساب يضاعف الثواب... وكما ترى فهذه المعاني صحيحة وذكرتها آيات عديدة في القرآن ولكن جملة {بِغَيْرِ حِسَابٍ} لا تشير لهذا المعنى، بل تشير للمعنى الذي ذكرناه، فلا أحد له عليه تعالى فرض واجب فبلا حساب واجب عليه تعالى يجازي بالجنّة على الإيمان وعمل الصالحات.

بالنسبة للتعبير بمجازاتهم {بِأَحْسَنِ مَا عَمِلُوا}، قال البعض إنَّ أعمالنا فيها ما هو حسن وفيها ما هو أحسن، وإنَّ هذا التعبير يشير إلى رفع كل ما فعلناه من حسن ليصير بمستوى ما هو أحسن، فيصير الجزاء بالمستوى الأقصى على أي عمل حسن فعله المؤمنون... وقال آخرون إنَّ الأعمال السيئة التي قمنا بها تنمحي ولا تدخل على محاسبتنا فنحصل على الجزاء بأحسن ما عملنا، وهذا المعنى أقرب من الأول لما قاله القرآن صراحةً، ويتماشى مع المعنى الذي ذكرناه، ولكن بالدقّة فالآية تعبّر عن مجازاتنا بالثواب على كل الأعمال الحسنة التي قمنا بها، فكلّها أحسن في مقابل السوء. فأعمالنا فيها حسن وفيها سيِّئٌ، وسيغفر تعالى لنا السيِّئَ منها، وسيعطينا من فضله على أحسن ما عملنا.

كما ترى شملتك وشملت نفسي هنا بالكلام عن مجازاة المؤمنين بالثواب فهذا واقع حال طمعنا أن نكون ممن تتحدّث عنهم الآية.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ{39})
في المقلب الآخر للرجال المؤمنين:

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا الدين الإلهي ولم يؤمنوا به، {أَعْمَالُهُمْ}، الأمور التي يقومون بها في الدنيا، {كَسَرَابٍ}، كشكل وهمي لأشياء حقيقية تنتقل "تسرب" ذاهبة كلما حاولت التقاطها أو الاقتراب منها، {بِقِيعَةٍ}، بأرض جرداء كالصحراء، {يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ}، حيث يخطر في بال العطشان أن السراب الذي يراه، {مَاءً}. العطشان الذي يسير في

الصحراء مِنْ شدّة عطشه تصير عنده تخيلات بأنه يرى بقعا من الماء أمامه، وهذه التخيلات وصفها بالسراب لأنه كلما حاول الوصول إليها تسرب وتبتعد عنه، {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ}، حيث مشى إلى الماء الذي تخيّله بقرب تلّة ما أو بقرب نخلة... {لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا}، إذ في الحقيقة لا يوجد ماء وإنما الذي رآه كان من خياله.

الكافر نفس الشيء يحصل معه، فهو يقوم بأعمال حسنة، يساعد الفقراء والأيتام، ويوزّع الأدوية مجانا، ويبني المدارس... ولكن هذه الأعمال لم يقم بها وهو يؤمن بحصوله على الثواب من الله تعالى، ولكنه يراها حسنة ومفيدة، وهذا كسراب، كشيء يتخيله ولن يصل إليه، لأنها تكون حسنة ومفيدة فقط إن آمن بالله تعالى، عِنْدَهَا سيعطيه تعالى عليها ثوابا، حين يموت، ويُسْأَلُ عن الأعمال "الحسنة" التي قام بها، فلن يجدها لأنها حبطت وفقدت قيمتها بسبب كفره.

{وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ}، إذ إن الصورة هنا نقلا عن مشاهد الآخرة، هنا الكافر لم يؤمن به تعالى، وقام بحسنات، وفي الآخرة حين تذكّر حسناته التي قام بها في الدنيا رآها مسجلة ولكن ليس مسجلا له عليها أي ثواب، لذلك لم يجد الحسنات ووجد الله تعالى هناك يحاسبه على كفره. هذا الكلام هنا يتماشى مع معنى ما ورد في الآية 18 من سورة إبراهيم "مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ" ويتماشى مع ما ورد في الآية 23 من سورة الفرقان "وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا".

هل قام الكافر بالأعمال الحسنة قربة لله تعالى؟ وهل قام بها وهو يرجو الثواب عليها من الله تعالى؟ لا، ولذلك لن يجدها وسيجد الله تعالى يحاسبه ليعاقبه على كفره بدل أن يجد أعمالا حسنة عليها ثواب، {فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ}، حيث أعطاه الله تعالى بالتمام حسابه على أعماله، لذلك لا يوجد لديه حسنات يتجازى عليها لأنها حبطت وفقدت قيمتها وسيتحاسب فقط على السيئات.

{وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}، حيث يحسب سبحانه بسرعة وبدقّة ولا يقع في الأخطاء، رغم كثرة التفاصيل لحياة كل شخص، كل عمل وكل قول وكل نيّة وكل حركة... وكل ما نتج من تأثيرات أعماله على الآخرين... وعبر الزمن ما نتج من آثار للأعمال... كلها يحسبها تعالى بسرعة وتصدر نتيجة درجة ونوع العقاب للكافر بدقة متناهية.

ننتبه، قرأنا في العديد من آيات القرآن عن حبط الأعمال، عن فقدان الأعمال الحسنة للقيمة، لذلك فهمنا أن الكافر والمشرك والفاسق والمنافق كلّهم تحبط أعمالهم الحسنة وليس لها أي وزن في الآخرة، وهنا شبهت الآية تلك الأعمال بالسراب بالوهم بالخيال الذي لا حقيقة له ولا وجود من أصله إلا التخيّل له، وكلما حاولت الوصول إليه لا تجده حيث تتوقّعه، عندما يصير الكافر في الآخرة، فأعماله الحسنة كسراب، كشيء يراه ولن يجده لأنه من الخيال، وسيلاقيه تعالى بدلا من ملاقاة الجزاء الحسن على أعماله الحسنة.

تفهمها بسهولة حين ترى كفّارا يقومون بأعمال حسنة مع الآخرين، ويظنون أنه إن صدقنا وكان هناك آخرة، فلديهم حسنات. لا، هذا سراب تمشون خلفه ولن تجدوه، وفي الآخرة ستجدون الذي كفرتم به، ولن يعطيكم ثوابا على حسناتكم.

تذكّر من الآيات السابقة أن الرجال المؤمنين نالوا الجزاء على الحسنات وزيادة فوقها، لأنهم اتبعوا النور الإلهي، وهنا لا ينال الكفّار أي شيء حسن لأنهم رفضوا المشي على النور الإلهي.

الآيات السابقة وصولا للآية هنا وما سيليها، ترى منها تأكيدا إلهيا على قيمة الجنّة كجزاء على الإيمان والعمل الصالح، في الكثير من أدبياتنا والتي نعتقد أنها أدبيات عالية إيمانيا، تجد تنزيلا لقيمة الجزاء بالجنّة في مقابل رضاه تعالى، وهذا النوع من الكلام وصل بأولئك الظانين أنهم من مستوى عال من الإيمان، وصل بهم حيث حرّفوا الكلام القرآني الصريح عن سعادة جسدية لمن في الجنّة، ليصير تعابيرَ مجازية عن سعادة القرب منه تعالى ومشاهدة أنواره سبحانه، برأيهم أنه لا طعام ولا حور ولا شراب... لأنها تعابير مجازية عن سعادة القرب منه تعالى! لذا لا تنجرف خلف كلامهم المخالف لصريح كلام القرآن الرابط بين رضاه تعالى وبين الجزاء بالجنّة، والمتضمّن وصف سعادتهم من رضاه عنه تعالى، ولا تُلْغِ السعادة الجسدية كما فعل البعض، ولا تجعل السعادة الجسدية أقل من السعادة النفسية التي فعلا ركّز القرآن عليها مظهرا مدى أهميتها، وبعبارات متساهلةٍ سأصف حالة أهل الجنّة أنهم بأريحية الاطمئنان وسعادة الاستناد على قوّة إلهية مؤيدة لهم مهما فعلوا، ومن هذه الحالة النفسية يتمتعون بجسدهم بما في الجنّة.

ننتبه أيضا، إذ إن السورة من بدايتها لم تتحدّث مع كفّار من نوعية عبّاد الأصنام والجنّ والملائكة... بل تتحدّث بالعموم وخصوصا مع وعن أناس في المجتمع الإسلامي، حيث إنهم يعلنون أنهم مسلمون، ولكنهم من داخلهم كفّار به تعالى منكرون له كليا أو جزئيا، لذلك سبحانه يأمرهم بالصدق، وهم يخترعون القصص الكاذبة عن المؤمنين وينشرونها، ويرمون المحصنات بالاتهامات الكاذبة، وهم يزنون، أو يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا... هؤلاء لم يتّبعوا النور الإلهي.

ما نجده في أدبيات المسلمين عن تكفير بعضهم البعض، وما نجده في سلوكيات المسلمين من هدر دم بعضهم لبعض، وإباحة المال والعرض، فهو عين الكفر بالدين، وكل من في هذه المعمعة فهو كافر بالدين الإلهي بالمعنى العام الذي استعمله القرآن لكلمة كفر، لأن الكفر هو الإنكار، والإنكار قد يكون علنا لأساسيات الدين، كإنكارٍ للإله، أو إنكار للتوحيد... هذا النوع من الناس له أحكامه الخاصة تناولتها سور عديدة من القرآن وهي أحكام الكفّار والمشركين، وإن كانوا معادين مقاتلين فذلك شيء، وإن كانوا مسالمين فالآية 8 من سورة الممتحنة وبشكل صريح أعطتهم حرمة تامة كحرمة المسلمين "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ".

هناك معتقدون بالتوحيد كافرون بالرسول، مثل كفر اليهود ببعض رسلهم وكفر المسيحيين واليهود بالرسول محمّد(ع)، وهؤلاء إن لم يحاربوا المسلمين ولم يعينوا أعداء المسلمين... فلهم حرمة تامّة كحرمة المسلمين، ويجوز الزواج منهم وطعامهم حلال للمسلمين...

هناك المسلمون المنكرون للشريعة الإسلامية، حيث إنهم لا يلتزمون بأخلاقيات أو كل تشريعات الدين الإلهي، أو لا يبرّون والديهم، أو لا يدفعون الزكاة أو لا يصلّون ولا يصومون... وهؤلاء يبقى دمهم ومالهم وعرضهم حراماً، وبعض الأعمال التي عقابها القتل للمسلمين "وغيرهم" حدّدها القرآن بدقة: كالقتل العمد لنفس زكية، والإفساد الكبير في الأرض... أمّا الاختلاف في المذهب والطائفة فليس سببا لإباحة دم المسلم وعرضه وماله، والاختلاف في المذهب من أصله مستنقع قذر "بركة وحل" وقع فيها الجميع، وكل واحد منهم يقول: أنا الإسلام الصحيح والبقية مذاهب باطلة، لذا يجب أن يتركوا ما يخالفونني فيه حتى يصيروا معي على الدين الصحيح. كل واحد منهم يقول للآخرين هذا الكلام! وكأنه لم ينظر إلى من حوله من الذين معه في مذهبه، ولم ينظر إلى فريقه المتخالف مع نفسه حول الكثير من القضايا، ويكذبون ويضحكون على أنفسهم ويخادعون الله تعالى حين يقولون بأن كل مذهبهم صحيح رغم وجود اختلافات كبيرة جدا بين علماء المذهب الواحد!

إذًا، حين وصّف القرآن بعض المسلمين بالكفّار، فإنه لم يُبِحْ دمهم إلاّ في الحالات التي يرتكبون فيها جرائم محدّدة، مثلما لم يبح دم أهل الكتاب إلا حين يرتكبون جرائم محدّدة، طالما لم تُعَادِ وتُقَاتِلْ المؤمنين، وحتى لو كنت من الكافرين المشركين به تعالى، فلا يحق لأي أحد أن يتعرّض لك بالقتل إلى أن ترتكب جريمة قتل عن قصد لبريء، أو حتى تفسد في الأرض بفساد كبير... وإن كانت هذه الطائفة من المسلمين تنظر إلى تلك الطائفة من المسلمين بأنها كافرة مفسدة في الأرض لمجرّد اختلافهم في تفاصيل العقيدة والشريعة، فما معنى المعاملة الحسنى التي أمر بها تعالى مع الكفّار ومع أهل الكتاب وهم مختلفون بشكل شبه جذري عن عامّة المسلمين! كيف يكون للكفار ولأهل الكتاب حرمة طالما لم يرتكبوا الجرائم الفعلية، ولا يكون للمسلمين من مذهب آخر حرمة!

أعتذر منك للإطالة في هذه النقطة هنا، ولكنها من أخطر أمراضنا، حيث أشار القرآن لها مرارا في العديد من السور، لكنني متألّم ممّا أراه وأسمعه من عصرنا وتاريخنا، ويزيد ألمي ما أقرأه في كتب المفسرين المشحونة بكلام الكراهية والعصبية المذهبية، ومتأثر به بشدة لدرجة تجعلني أرى كل القرآن ينبّه عليه كيفما دار، وبكل أسى وأسف تجد تحت كل آية قرآنية كلاما لعالم مسلم مرّر فيها أحقادا مذهبية، وتكفيرا وهتكا لحرمة بقية المسلمين!

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ {40})
مثال آخر غير الظمآن بقيعة يرى سرابا:

{أَوْ كَظُلُمَاتٍ}، مثل حالة الذي تحيط به العتمة من كل الجهات، {فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ}، في عمق بحر واسع، {يَغْشَاهُ}، يحيط وينتشر بشكل جزئي أو كلّي عليه، {مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ}، مياه تتحرّك على سطح البحر وفوقها تتشكّل حركة أخرى للمياه عليها، حيث تقفز أمواج البحر فوق بعضها، {مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ}، وهناك غيوم كثيفة جدًّا فوق الأمواج... {ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ}، فهو أصلا في العتمة في الليل، والأمواج متراكمة فوقه، وفوقها غيوم كثيفة تمنع ضوء الشمس أو القمر والنجوم، فهو في طبقات من العتمة فوقها طبقات من العتمة، وهذا بعكس التعبير الذي قرأناه سابقا: نور على نور.

{إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ}، وهو في تلك الظلمات إذا جعل يده أمامه، {لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا}، من شدّة الظلام لا تحصل لديه صورة محدّدة ليده ولو باللمح، لو كان هناك بصيص ضوء خفيف فهو يكاد يرى يده، ولكن في هذه الظلمات لم يكد يراها نهائيًّا لا يراها.

{وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا}، يجعل له شيئا يكشف طريقه في الحياة، {فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}، مَن سيؤمّن له إنارة كشف طريق الحقّ؟ هل الشيطان سيهديه للطريق الصحيح للحق والصلاح؟ وهل يوجد أحد من الناس وبمعزل عن النور الإلهي يمكنه معرفة الطريق الصحيح ليدلَّ الكافر عليه؟ أم هل هو نفسه ومن دون الاعتماد على النور الإلهي يمكنه رؤية الطريق الصحيح؟

هذا الكلام مبنيٌّ على النور الإلهي للسماوات والأرض، جعل تعالى في كل كائن ما ينير دربه في الحياة ليهديه للصواب بحسب قابلياته، وبالنسبة لنا جعل تعالى فينا ما نميّز به بين الخير والشرّ بما يمكننا فعله أو التعامل معه حتى لو لم يصلنا منه تعالى أي كلام عبر رسله أو كتبه، ولو لم يجعل تعالى فينا هذه القابلية، فلن تتوافر لنا من أي مصدر آخر، الكلام في الآية هنا مرتكز على أصل خلقتنا، التابع المرتكز على أنه تعالى الحقّ في أفعاله وكلامه، ومن هذا الأصل جعل فيها قدرة تمييز الحق والصلاح من الباطل والفساد.

إذًا، فقط وفقط ما يصلنا منه تعالى يكشف الظلام وينير الطريق إلى الحقّ والصلاح وبالتالي يوصلنا إلى الجنّة، وهو سبحانه نور السماوات والأرض، وهؤلاء المنكرون لدينه قرّروا مخالفة نوره تعالى، فأي شيء آخر يتبعونه فليس نورًا، ومهما تصوّروا أنه نور وصحيح وجيّد... فهم في الحقيقة في ظلمات فوقها ظلمات.

انتبه عزيزي ولا تذهب في تفكيرك لأعقد مما تقوله الآيات، لا تفلسفها ولا تصوّفها ولا تعرفنها... ولا تحشرها في الطبيعيات والفيزياء البحرية أو الجوية... فالآيات تريد منك أن تتصوّر هذه المشاهد البسيطة، وبشكل بسيط تفهم منها حالة النور والظلمة الإيمانية.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ{41})

تنبيه للجميع ولفت انتباه للذين لا يمشون على النور الإلهي:

{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت، {أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ}، ينزهه عن الصفات الناقصة السيّئة، {مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وهذا التعبير يشابه قولنا: كل من في الدنيا. من الكثير من الآيات القرآنية علمنا أن كل الكائنات بكل أنواعها تسبّح له تعالى، إلاّ الجن والإنس، فيهم من يسبّح وفيهم من لا يسبّح، وهنا الآية تنبهنا أن بقيّة المخلوقات تسبّح له تعالى، فلماذا لا ننضم لها ونسبّحه تعالى؟ فلماذا نكفر به ولا نطيعه؟

{وَالطَّيْرُ}، والطيور وهي عموم الحيوانات ذات الأجنحة، {صَافَّاتٍ}، هناك طيور تطير في مجموعات، وكلّ نوع من الطيور في صفّ في مجموعة لوحدها، حيث الآية تشير بالطيور إلى مختلف الطيور وفي أي تنظيم طاروا به، سواء كمجموعة الحمام أو كمجموعة البطّ على خطيّن... {كُلٌّ}، كل نوع من الطيور، {قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ}، علم كيفية التوجّه، وسياق الكلام عن التسبيح يعني توجهه إلى ربّه سبحانه، وعلِم {تَسْبِيحَهُ}، يعلم بماذا ينزهه تعالى، لأنَّ الطيور تختلف عنّا في مستوى وعيها "وفكرها"، والطيور بأنواعها المختلفة أيضا تختلف عن بعضها في الوعي "والفكر"، وكلّ نوع

منها حصل على ما يناسبه ويكفيه من النور الإلهي حتى يُصَلِّيَ له تعالى ويسبحه على قدر فهمه وعلى قدر ما يمكنه التعامل معه.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ}، يعلم تعالى ما يفعله الطير وبقية الكائنات التي في السماوات والأرض، نحن أصلا لا نفهم تسبيحهم، ولا نعلم بما يفعلون من صلاة وتسبيح ولكنه سبحانه يعلم بتسبيح وصلاة كل واحد من كائناته.

ننتبه جيدا، سبحانه يلفت انتباهنا إلى الطيور كنموذج عن كائنات تسبّحه، تكرّرت في القرآن الإشارة إلى تسبيح كل الكائنات الموجودة في الدنيا من غير الجنّ والإنس، كما تقرأ في الآية 44 من سورة الإسراء: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}، وهنا الإشارة إلى ذلك كنموذج عن انتشار نوره سبحانه في السماوات والأرض الذي يعمّ كل الكائنات بدون استثناء، وأكثرها استجاب فسبّحه تعالى كإعلان منهم على الاعتقاد بصفاته الحسنى الفائقة سبحانه، وأنه ليس فيه صفة ناقصة أو معيبة، وعمليا ما يصدر عنه سبحانه فكلّه حميد.

بناءً عليه لا مصلحة لنا في توجيه معنى الآية هنا للبحث عن معنى تسبيح الطيور بالشكل الذي نفهمه نحن، لأنَّ هذا ليس غرض الآية ولا هدفها. نعم لا مانع من البحث عن ذلك بشكل منفصل، بل من الرائع البحث فيه للتعرّف على مقدار ونوعية وعي الكائنات الأخرى. ولكن حين بحث علماء الدين فيه فكريا بتحليل معلوماتهم، سلكوا طريقا ضعيفا من الصعب أن يوصلهم لنتائج مُرضية، لأنَّ معلوماتهم قليلة جدا جدا عن الطيور "كنموذج"، وليس صحيحا ولا سليما حصر البحث في هذا الموضوع عند علماء الدين، ولا البحث عنه في كتب "الدين"، من كلامه سبحانه لن تجد إلا الخبر بدون أي تفاصيل سوى مساواة تسبيحنا بتسبيح بقية الكائنات، طبعا بما يناسب تكوينها وصفاتها.

تذكّر دائما أن هذا النوع من الكلام القرآني يخاطبنا نحن البشر "والجنّ" كمكلّفين، نحن بعضنا يسبّح وبعضنا يكفر، تأتي أمثال آيتنا هنا لتلفت انتباهنا وتخبرنا عن كل بقية المخلوقات والظواهر من التي بالنسبة لنا جماد إلى الحيوانات، كلّها تسبح، وهذا هو الوضع الطبيعي، فلماذا يكفر بعض البشر ولا يسبحونه تعالى؟!

ترى هذا المعنى واضحا في الآية 18 من سورة الحج: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ...}.

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ {42})
{وَلِلَّهِ}، ولصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وهذا التعبير القرآني يشير لنسبة وتبعية ملكية كل شيء، كل الموجودات في كل الدنيا لله تعالى، فهو تعالى صمّمها وخلقها ويتابع شؤونها، ونفهم الآية لو سألنا: لمن ملك الدنيا؟ الجواب: لله ملكها.

بناءً عليه، {وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}، فمصير كلّ شيء، وآخر ما تصل إليه الأمور، ونهاية كل الدنيا والكائنات التي فيها، فقرارها بيده تعالى.

سترى من الآيات الأربع التالية نماذجَ عن مصير الأمور التي قرّرها تعالى بناءً على تبعية ملكية كل ما في الدنيا له سبحانه.

بسهولة تُفهم معنى آيتنا هنا وما يشبهها من كلامه تعالى، أنه سبحانه وحده المصمّم لكل ما في الدنيا، ووحده المنفّذ للتصميم، ووحده خلقها، ووحده المتابع لما يجري فيها، وسنتوسّع قليلا في الآية بعد التالية للكلام عن المصير.

ولاحظ في تفسيرنا لكلمات الآية هنا أننا استبدلنا تعبير السماوات والأرض بالدنيا، وهذا التساهل مرّ عليك ولم تتوقّف عنده لأننا عادة لسنا دقيقين بالتعابير، فلو كانت لدينا مقدرة التعبير بدقة من المستوى الذي يعبّر به تعالى، وباستعمال هذه الدقة فسّرنا القرآن، فهذا لن يكون تفسيرًا، فحتمًا علينا استعمال تعابير نتساهل فيها حتى نسهّل المعنى المطروح بكلمات دقيقة.

خذ مثلًا كلمة الدنيا، فهي مشتقة من الدنو على معنى القرب، في مقابل الآخرة التي ستأتي بعد الدنيا، فكلمة "دنيا" تشير للزمان الحالي وللمكان الحالي، في مقابل الزمان والمكان الذي سيأتي في الآخر بعدما تنتهي الدنيا.

ونفس المعنى يمكن صياغته بعبارات نستعمل فيها كلمتي "السماوات والأرض" اللتين تشيران للمكان الآن، وعندما يتبدلان ستصير سماوات وأرض الآخرة.

لماذا هذا الكلام؟ لترى أنَّه تعالى بدقة وشفافية يتحدّث معنا، فالسماوات والأرض هما كل شيء حاليًّا، وهذا بحسب ما يراه تعالى، فسبحانه ليس لديه ولا أي سبب حتى لا يتكلّم معنا بشفافية وصدق ووضوح، حيث يقول لنا إنَّه وبناءً على ما يعلمه عن نفسه من قدرات فائقة، وبناءً على أنَّه تعالى لم يلمس ولا أي أثر لأي كائن غيره وغير الكائنات التي خلقها هو بنفسه بكل تفاصيلها ومتعلقاتها، وبناءً على أنَّه تعالى لم يلمس ولا أي أثر لأي تدخّل في إدارة شؤون السماوات والأرض من مستوى إلهي من أي كائن آخر غيره، وما يجري فيها فكله بإذنه تعالى، بناءً عليه يجيب تعالى عن سؤال: لمن ملك السماوات والأرض؟

الآن فلنتكلم بعباراتٍ متساهل فيها، ونسأل: لمن ملك الدنيا؟ فكمؤمن ستقول: لله ملكها. ولكن هذا النوع من التعبير لم يستعمله تعالى لأنه غير دقيق. ولست أقصد أنه يوجد شيء أو كائن أو ظاهرة... وليست مخلوقة منه تعالى، لا، ولكن أقصد اتباع الصدق والشفافية التي اعتمدها تعالى في كلامه معنا، فسبحانه وبناءً على ما يعلمه من نفسه من قدرات فائقة، يقول وبكل شفافية إنَّ ما صمّمه وخلقه هو كل شيء، هو كل السماوات والأرض وما فيهما، ويخبرنا أنَّه لا يوجد ولا أي شيء من أي نوع كان خارج هذه الحدود، وبدقة وبشفافيةٍ، فهو تعالى أصلًا غير محصور بهذه الحدود، وبعلمه الفائق سبحانه يخبرنا أنَّه لا يعلم عن وجود أي شيء خارج هذه الحدود، ولذلك بدقّةٍ يتكلّم عن حدود ما خلقه سبحانه، وفي داخله لا يوجد أي شيء لم يخلقه هو تعالى.

التعبير بما في الدنيا في هذه الحالة لن يكون دقيقًا لأنه أولًا سيشمله تعالى بينما الكلام عن المخلوقات، وثانيًا فالدنيا وصف للزمان والمكان، والكلام هنا عن ملك المكان وما فيه...

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ {43})
{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت، {أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي}، الزجّ هو عموم وضع الشيء في شيء ليحتويه كمناسب لاحتوائه، كما نقول: زجّه في السجن. والوصف هنا لتراكم السحب فتنزجّ لتتراكم، {سَحَابًا}، غيومًا كثيفة، {ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ}، يحصل من زجّ السحب لتصير سحابًا كبيرًا، لتؤلّف السحب كتلة واحدة، {ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا}، يصير السحاب متراكمًا فوق ومع بعضه البعض، وبتعبير بسيط تصير الغيوم مع بعضها لتكبر، كما نقول: راكم المال. ونقصد جَمْعَ إليه مالًا آخر مضافًا. {فَتَرَى الْوَدْقَ}، فيصير لديك صورة محدّدة لرشحات النقط، لنقاط الماء المترشحة، {يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ}، من هنا وهناك من السحاب، ففكّر فيه وتصوّر كومة عائمة من البخار يرشح منها الماء، فينزل نقاطًا نقاطًا من غيمة بخار.

{وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا}، من كيان ضخم من الجو الذي فوقكم، {مِنْ بَرَدٍ}، فالغيوم الضخمة جدًّا هي جبال بضخامتها ومتكوّنة من بخار الماء وتنزل منها حبّات البرد وهي حبات الجليد التي يتراوح حجمها غالبًا بحجم بين نقطة الماء وحبّة الحمّص وأكبر قليلًا، ونادرًا ما تصل إلى حجم قبضة اليد أو أكبر، في بعض الأحيان تتجمّد نقط الماء أثناء نزولها فتصير ما نسمّيه: بَرَدًا. وبعض الأحيان تجمد نقاط الماء وتصير بردًا وتبقى في الجو بسبب التيارات الهوائية القوية التي تحملها، فتتجمّع وتلتصق ببعضها وتنزل بأحجام كبيرة... {فَيُصِيبُ بِهِ} سبحانه، بحّبات البرد، {مَنْ يَشَاءُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة وبناءً على ما يراه تعالى مناسبًا ينزل البرد هنا أو هناك، {وَيَصْرِفُهُ}، فيحوّل سبحانه نزول البرد، {عَنْ مَنْ يَشَاءُ}، فالناس عادة يتأذّون منّ نزول البرد، لأنه يخرّب المزروعات وثمار الأشجار، ويؤذي الحيوانات، ويكسر زجاج البيوت والسيارات... وسبحانه بقرار منه ينزل البرد على البقع المختلفة على الأرض.

الكلام عن مشيئته تعالى لاختيار مكان وزمان نزول البرد، فهو ليس لاغيًا لآليات نزول الماء والبرد، فالآية تذكر لك مراحل النزول التي يعرفها أي إنسان عادي، والبحث عن الآليات متروك لك... وأنت تعلم أنه تعالى من حين ما صمّم وبدأ خلق ما في الدنيا، سبحانه علم بكل ما سيحدث فيها، وهذا ما تقرؤه في الآية 59 من سورة الأنعام: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ

وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، ونزول البرد والمطر في زمان ما على بقعة ما فهو معلوم له تعالى، وسمح بحصوله، فهو تعالى شاء حصوله.

نسبة نزول الماء له تعالى هي مثل نسبة الرزق لنا منه تعالى، فهو رزقنا وأَحْيَانَا وأماتنا وهدانا وأضلّنا... لأنه تعالى هو مَنْ صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا هكذا، فلو أنت صمّمت وخلقت كائنات في بيئة، وجعلت الكائنات تجوع، وجعلت لها في بيئتها ما تأكله، فنبت وأكلته، فأنت أطعمتها ورزقتها... ومن هذه النظرة يصف تعالى نفسه أنه أنزل الماء وأنبت النبات ورزقك وهداك وأضلّك.

للأسف غالبية المنتمين لدينه تعالى قبلنا ومنّا، فهموا هذا النوع من كلامه تعالى كإلغاء لآليات حصوله، ففهموا أنَّه تعالى قرّر نزول الماء، حالًا وبدون أي مقدمات ولا أسباب، تتشكّل الغيوم وينزل الماء، وهذا فهم طفولي ساذج لكلامه تعالى الذي كان يلفت انتباهنا لما نراه وأنه من تصميمه ومشيئته تعالى يحدث، ولكن بمراحل ذكر القرآن القسمَ البسيط المفهوم منها، وبآليات لم يذكرها القرآن لأنها لا فائدة هدايةٍ منها.

نرجع للآية، {يَكَادُ}، على شعرة، {سَنَا}، لمعات، {بَرْقِهِ}، ضوءه القوي السريع غير المستمر الذي يصدر من السحاب، {يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ}، فأعيننا التي نبصر بها لا تتحمل الضوء القوي جدًّا، فنفقد قدرتنا على التقاط الصورة من بعد تعرّضنا لضوء قوي جدًّا، ولمعات برق السحاب قوية جدًّا، ولكن أقل بشعرة، أقل بقليل من القوّة التي تجعلنا نفقد بصرنا حين يحصل البرق.

قصد سبحانه وتعالى أن يكون ضوء البرق قويًّا جدًّا، ولكن جعله تعالى أقل بقليل من القوّة التي تجعلنا نصير عميانًا من البرق، فهو أقل بقليل مما يسمّى بحالة "احتراق" عصبونات العين في تجويفها المقعّر الداخلي.

لاحظ كيف تلفت الآية انتباهنا للتصميم الإلهي المتعمّد لبيئة غير مسالمة تمامًا، فالبيئة المسالمة التي لا يحصل منها أي ضرر لنا، فهي فقط وفقط في جنّة الآخرة، وأما بيئة الحياة الدنيا فلم يصمّمها تعالى لتكون مسالمة تمامًا، فالبرد مصيبة إن نزل على المزروعات، وإن كان حجم البرد كبيرًا فقد يقتلنا ويقتل المواشي والدواجن... والبرق له رهبته حين نكون في الفلاة أو نمشي على الشارع وفجأة ينتشر الضوء القوي جدًّا من حولك ويزيغ بصرك لثوانٍ...

قال بعض المسلمين إنَّ القرآن منسوج على ثقافة العرب وبالتحديد على ثقافة أهل مكّة والمدينة، فذكر القرآن الفاكهة المنتشرة هناك، من عنب ورمان وبلح... وذكر البرد الوارد في الآية هنا ولم يذكر الثلج. ومن هذا الكلام لهم أغراض تائهة لا تدري منها إن كانت تهمة كامنة في خلفيتهم لكون القرآن من تأليف النبي محمّد(ع)! على أي حال، ذكر القرآن العديد من الأشياء التي وبكل وضوح يظهر من روايات الجيل الأول من المسلمين أنهم لم يعرفوها، كالدسر والزنجبيل والمرجان والاستبرق والسندس... والكوب والكأس... والمنّ والسلوى... والرحيق... فماذا عنها؟ وهكذا ترى أن كلام القرآن عن نماذج لما في الجنّة بذكر ما يعرفه من فاكهة الذين نزل بينهم القرآن، هو شيء منطقي فلا معنى لذكر أشياء لم يسمعوا بها ومتواجدة في مناطق أخرى على الأرض، وبالنسبة لما جهل معناه عامة أهل المدينة ومكّة مما ذكره القرآن، وهو ليس بقليل، فهذا سببه أنه تعالى لم يُضَحِّ بالمحافظة على الدقة باستعمال اللغة العربية حتى يتساهل أو يتراخى مستعملًا كلمات غير دقيقة لما يريد الكلام عنه، فمثلما نحن الآن كمؤمنين لا يؤثّر على إيماننا وعلى فهم لبّ مقصد القرآن أننا نجهل العديد من معاني كلماته، فالمفاهيم الأساسية واضحة، ونفس الشيء بالنسبة للجيل الأول من المسلمين، فالمفاهيم الأساسية واضحة، وجهلهم بمعاني بعض الكلمات لأنهم لا يستعملونها في حياتهم اليومية، ويستعملها عرب آخرون، فهذا ليس عيبًا في القرآن، ولا عيبًا فيهم، بل هو واقع حال استعمال الإله سبحانه للغتهم بدقة، وقد نتج عن ذلك ما تسمع به من أقوال الجيل الأول والثاني من المسلمين عن بعض كلمات القرآن أنها مستعارة من لغة أخرى!

بدل اعتراف الجيل الأول من المسلمين بحجمهم الطبيعي كناطقين باللغة العربية وأنهم ليسوا قواميس اللغة العربية، وأنَّ كلماتٍ عربية مستعملة عند عرب آخرين ودقيقة كاسم أو صفة لما يريد تعالى قوله، وهم يجهلونها، بدل اعترافهم بذلك وإراحتنا مما خمّنوه وللأسف قالوه بشكل يوحي لنا بثقتهم بصحّة ما يقولونه، بدل ذلك صار لدينا روايات "مقدسة" لتفسير كلامه تعالى... ويمكنك مراجعة الكم الهائل من تفسير الكلمات والجمل المنسوبة بالخصوص لابن عباس، وبسهولة سترى أنه منقول عنه عدة معاني مختلفة لنفس الكلمة في نفس الآية!

في خضمّ ذلك نشأ عند المسلمين تقديس لما ليس مقدّسًا، فقدّسوا اللغة العربية وصنّفوها كأفضل لغة من كل النواحي، بغنى مفرداتها وقوّة تعابيرها... وقالوا ذلك ولا يزال يقال لا عن دراسة مقارنة مع بقية اللغات، وبأقل جهد سترى أن بقية أهل اللغات الأخرى يقولون نفس الشيء عن لغاتهم!

في خضم ذلك نتج تقديس للأشياء التي ذكرها القرآن، فصار التين والزيتون شفاءً من كل داء، وشفاءً من مسّ الجنّ!... وتراكم هذا النوع من الهراء شكّل ثقافة تقديس كل ما هو عربي! ومضافًا إليه واقع حال وجود بعض الخاصية لبعض ما هو عربي، فمحمد (ع) الرسول عربي، والكعبة ومياه بئر زمزم وجبل عرفة... عند العرب، والقرآن بالعربي... وأضف إلى هذه الوقائع هراء كلام الناس، فيصير كل ما هو عربي مقدّسًا، فالتين والزيتون والبلح والعنب والرمان والجمل والمعزاة... مقدّس أو له مكانة عالية، بينما الموز والبندورة والمانجو وحيوان اللاما... لا قيمة له!

على هذه الخلفيات العميقة الدفينة انبنى كلام الناس عمّا ذكره القرآن، فمن كان منهم عربيًّا مسلمًا فتفاخر بذلك وزاد عليه من لمعاته الفكرية البكرية، ومن كان عربيًّا أو غير عربي ومحاربًا لدينه تعالى فركّز الإضاءة على ما يراه غير عربي في القرآن ليثبت أنه ليس كتابًا إلهيًّا... ومن كان مسلمًا من غير العرب فأرهقه تحويل العرب لدينه تعالى ليصير كثقافة خاصة بالعرب، ومن هذا النوع من تعريب دينه تعالى تجد استحبابَ لحس ومصّ الأصابع من بعد الأكل لأن الملاعق لم تكن دارجة عند العرب قديمًا، وتجد مدحًا لقمل الرأس وأنه علامة على البركة! وتجد أن لغة أهل الجنّة عربية!

هذا النوع من الهراء دفع العديد من المسلمين الآخرين لمحاربة تعريب المسلمين العرب للإسلام، وللأسف بدل تقويمه أعادوا ترجمته لثقافتهم! فحين اشتدّ عود الأتراك وصاروا ممثلين لدين الإسلام بسلطتهم على رقعة كبيرة من مناطق مسلمة، "ترّكوا" الإسلام! فأدخلوا ثقافتهم التركية فيه لتصير إسلامية كما فعل العرب من قبلهم، وصولًا إلى جعلهم لغة أهل الجنّة تركية! ونفس الشيء حصل مع الفرس حين اشتدّ عودهم "وفرّسوا" الإسلام وصولًا إلى جعلهم لغة أهل الجنّة فارسية!

أطلت عليك الكلام لنتعلّم رؤية خلفية بعض ما تسمعه وتقرؤه عن القرآن، فأكثر ما قيل نابع من خلفيات متأذية أو كارهة أو نافرة من ثقافات وعادات عربية أقحمها العرب في دينه تعالى، فجابهوها بمهاجمة قرآنه تعالى ودينه بدلًا من النظر في قرآنه ليروا الفرق بين كلامه تعالى وبين كلام الناس.

وكمثال عن ذلك ما ذكرته الآية هنا، فلا محلّ لذكر الثلج فيها لأن الكلام عن أذية يسبّبها البرد، وما قيل عن عربية القرآن لأنه ذكر البرد الذي يعرفه العرب ولم يذكر الثلج لأنهم لا يعرفونه، فليس في القرآن كلام شاء تعالى قوله ويحتاج لاستعمال كلمة ثلج! فمن قال لهم إنَّ القرآن مجبور على استعمال كل كلمات اللغة العربية وتركيب جمل مناسبة لها! فالأساس هو ما يريد تعالى قوله ولم تمرّ مناسبة في ذلك لذكر القرآن: الثلج ولا الجليد ولا السيف ولا الخنجر ولا الأسد ولا العمامة ولا العقيق ولا الكحل... وهي أشياء من صميم التراث العربي.

بأدنى تأمّل في كلام العرب قبل الإسلام وأثناء نزول القرآن، سترى أنهم كانوا يعرفون الثلج ويستعملون كلمة ثلج، حتى إنَّ فاحشي الثراء منهم كانوا قبل الإسلام وبعده، كانوا يبنون قبوًا يكدسون فيه الثلج الذي يحضرونه من قمم الجبال شتاءً ليستعملوه في الصيف لتبريد المياه.

كما ترى، بدل التركيز على فهم كلامه تعالى أضعنا الوقت في تصويب كلام يقوله الناس عن القرآن، جهدت في هذه الدراسة بتضمين كل ما طالته يدي مما قاله الناس ومخالفًا للقرآن، فجعلته مردودًا عليه ضمن ما عرضته في دراسة الآيات ذات الصلة بالموضوع، ونادرًا ما ذكرت لك بصراحة ما قالوه، واكتفيت بما أعتقد أن شرح الآية سيبين فساد ما قالوه، ولكن هنا شرح كلمات الآية لن يلفت انتباهك بسهولة إلى سخافة ما قالوه عنها أنها ذكرت البرد ولم تذكر الثلج، فاضطررت للتطويل.

(يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الْأَبْصَارِ {44})
{يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}، تكون فترة فيها ليل وتنقلب وتذهب ويأتي محلّها نهار، ثمّ من جديد ليل وبعده نهار... وهذا التكرار الدائم يجب ألا يجعل هذه الظاهرة بلا قيمة لأنها "روتين" تكرار، بل قيمتها عالية لأنها تتكرر كل يوم، ففكّر

فيها حين تنجز أنت شيئا رائعا لمرّة، كرسمة رائعة أو اختراع مبهر أو طعام شهي... فبنظر الآخرين هو رائع لأنه لا يمكن للجميع إنجازه، وعندما تكرّره تثبت بأنك قدير عليه... الآن لنلتفت لظاهرة الليل والنهار الرائعة الضخمة، التي تتكرّر كل يوم، فهي تدل على فائق القدرات والصفات لمن صمّمها ونفّذها ويكررها...

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، في تقلّب الليل والنهار، والمطر والبرد والبرق، {لَعِبْرَةً}، فهي أمور لها قيمة فكرية نستنبطها ونستخرجها من هذه الظواهر الطبيعية، والعبرة، {لِأُولِي الْأَبْصَارِ}، لأصحاب القدرة على إدراك ووعي الأمور، حيث كلنا ننظر ونتعايش مع هذه الظواهر الطبيعية، ولكن هل كلنا نستخرج مما نراه منها أفكارا لها قيمة؟ وهل كلنا نستخرج منها وجود خالق قادر صمّمها وخطّطها... ويجب علينا طاعته؟ لا، كلنا ننظر إليها ولكن البعض لا تحرّك فيهم هذه الظواهر إلّا مشاعر الخوف والكره للطبيعة إن كانت ظواهرها مؤذية... ولكن من يبصرها ببصر له معنى، فسيبصر الإله الذي وراء هذه التصاميم الرائعة.

الآيات هنا تشير إلى الله الملك سبحانه، حيث كل ما يجري في الدنيا مصيره بيده تعالى، من تصميمه، ومن خلقه، ومن متابعته لما يجري، وبالتالي كل ما سيحصل هو ناتج من التصميم، ففكّر فيها لو أنت صمّمت كائنات وبيئة لها، ووضعت التفاصيل وترابطها وما سينتج عنها... من مطر وبرق ورعد وليل ونهار... وبعدما خلقتها صارت هذه الأمور تحصل، ففعليا أنت فعلتها لأنها ناتجة عن تصميمك وخلقك لها، وقد ينتج شيء عمّا صنعته ولم تكن تتوقّعه، أمّا سبحانه فلا يتوقّع ولا يخمّن بل يعلم بتفصيل التفصيل لما سينتج عمّا صمّمه وخلقه، ومن هذه النظرة ينسب سبحانه كل ما يحصل في السماوات والأرض أنه منه أو بإذنه.

كما تلاحظ، العلم بحصول ما سيحدث معي ليس لاغيا لحرية إرادتي واختياري، فهو مثل توقّعك لتلميذ كسول أن يرسب، لأن علمك بذلك ليس تدخلا في إرادته بل هو بإرادته لم يدرس، وأنت كنت تعلم نتيجة رسوبه سلفا.

(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {45})
{وَاللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {خَلَقَ}، ركّب وألّف، {كُلَّ دَابَّةٍ}، كل مخلوق يدبّ يَتَحَرَّكُ على الأرض، على اليابسة أو في الماء، كل الحيوانات والحشرات، ركّبها وألّفها تعالى، {مِنْ مَاءٍ}، من الماء المعروف الذي نشربه عادة والمتواجد في بِرَكٍ أو مستنقعات... ونعلم من العديد من الآيات القرآنية أن الدواب مخلوقة من ماء وتراب، من طين، وهذه التعابير تشير إلى المواد التي تركّبنا منها، من كربون وكالسيوم وحديد وماء... ونجد آيات ذكرت التراب لوحده، وآيات ذكرت الماء لوحده، وآيات ذكرتهما معا بوصفهما طِينًا، فالإشارة لواحد منهما هي إشارة لمكوّن رئيسي، والمكوّن الثاني معلوم.

من هذا المكوّن الرئيسي "الماء" خلق وَركّب وألّف سبحانه ما يدبّ على الأرض، ما فيه حياة ويتحرّك، الحيوانات، وبضمّ كلام القرآن عن خلقنا من طين، من سلالة من طين، وخلق منها زوجها... ونحن من الدواب، فأي نظرية عن خلقنا يجب أن تشمل خلق بقية الدواب، وهذا مأزق للمنتمين لدينه تعالى الذين علقوا على تفسير كلامه تعالى بطفولية وسذاجة لأنهم اعتمدوا على معطياتهم عن علوم الحياة والتي كانت أَقَلَّ من كافية لافتراض نظرية تتماشى مع الكلام الإلهي "كما فهموه" ومع واقع وجود بقية الحيوانات ومع واقع تطوّر الحيوانات... وها ترى هنا نَمُوذَجًا عن كلامه تعالى والذي لا يمكن تفسيره بحسب النظرية التي افترضها المنتمون لدينه تعالى من يهود ومسيحيين ومسلمين عن نشأة حياة البشر، حيث قالوا إنَّه تعالى صنع تمثالا من طين ونفخ فيه وصار إنسانا... وأخذ سبحانه ضِلْعًا أَعْوَجَ وخلق منه المرأة... فمن أين أتت بقية الدواب؟ وللمنتمين لدينه تعالى أجوبة طفولية وساذجة عن ذلك، وللأسف طرحوها على أساس الحسم، لأن الأجواء العامّة كانت تفرض على علماء الدين الردّ بجواب عن هكذا أسئلة، على أساس أنَّ جوابها يجب أن يكون موجودا في الدين، في كتب الدين، في الكلام المنسوب للإله الذي يتبع له هذا الدين، وهذا غير صحيح لا سابقا ولا الآن، وهذا هو نفس سبب دخول علماء الدين في متاهات لا علاقة لهم بها، وَدخلوا في الأبحاث التاريخية ونشأة الكون ونشأة الحياة والطبّ والفلك... لأن كلامه تعالى تضمّن الإشارة لهكذا أمور، وبشكل عادي وكما هو متوقّع فَإِنَّ الغالبية الساحقة من المنتمين لدينه تعالى لم ينتبهوا لخطورة تفسير كلامه تعالى بناء على المعطيات التي معهم، وإلى الآن لا تزال نفس الخطورة، ولكن وكما حصل مع السابقين بثقتهم بما لديهم من معطيات، فهو نفسه دائما وبشكل

متكرر استمر حصوله ويحصل الآن وسيحصل فيما بعد، حاولنا في هذه الدراسة عرض المعنى الدقيق للكلمات والجمل كما هي، وأي دراسة لها لتفسيرها بناء على معطيات علمية تجريبية جديدة تُقَابِلُهَا معطيات قديمة جَهِدْتُ أن أشير إليه بوضوح أنه ليس تَفْسِيرًا بل تَخْمِينًا وَافْتِرَاضًا، لِأَنَّ كلامه تعالى لا يحتاج لفهمه إلى هذا العمق في التخصّص وإلى تطور العلوم.

خذ مَثَلًا كلام آيتنا هنا عن خلق الدواب من ماء، وَمَعْلُومٌ وبأقل تَأَمُّلٍ أن الحيوان يأكل ويشرب حتى ينمو، فهو مؤلف من ماء، ومما تحوّل له الطعام الذي أكله الحيوان فصار لَحْمًا وَعَظْمًا... ولا شيء آخر مَلْمُوسٌ في بيئتنا غير الماء والتراب، مِنَ البديهي أنها المكونات التي نتألف منها، ومعلوم بوضوح أننا حين نموت نجفّ ويتبخّر الماء ويبقى التراب.

هذا أقصى ما تحتاجه من معلومات لتفهم أنَّهُ تعالى خلق الدواب من ماء، ويمكنك التعرّف من ذلك على الخالق وعلى عظيم قدراته، نُقْطَةٌ انْتَهَى.

أمّا معرفة آلية نشأة الدواب، فلم ولن يذكرها تعالى، ولا علاقة لها بالهداية، وحتى لو ذكرها تعالى فهي لن تكون مفهومة لنا لأن معطياتنا العلمية في تطوّر دائم، هَلْ تتوقّع أنت أن تفهم كلامه تعالى لو تحدّث عن آلية حدوث الأشياء لأن معلومات عصرك متطوّرة جِدًّا جِدًّا؟ تَذَكَّرْ أَنَّهُ منذ مئة سنة تَقْرِيبًا كنّا نجهل تَمَامًا أي شيء عن آلية الوراثة وكان لدينا فكرة طرحها العالم "ماندل" ورفضها الغالبية حينها... والآن صارت من أساسيات علوم الأحياء، هَلْ تعتقد أن معلوماتك الحالية نهائية ولن تتطوّر؟ وتريد قراءة قرآن فيه نفس معلوماتك؟ مَاذَا لو ذكر لك القرآن شَيْئًا لن تفهمه لأن معلوماتك لا تزال بعيدة عن رؤية الواقع، مَاذَا لو تحدّث عن الجينات لمن كانوا قبل مئة سنة، مَاذَا سيفهمون منها؟ وَمَاذَا لو ذكر لك شَيْئًا ولا يتماشى مع معطياتك؟ فَوْرًا ستكفر به لأن كلامه غير صحيح أليس كذلك؟ فِعْلًا حصل هذا مع بعض الناس الذين ينكرون كلام النبي سليمان(ع) مع الطير والنملة، وينكرون إحضار عرش من سبأ إلى أرض كنعان بأسرع من رمشة عين، وينكرون فلق البحر...

هكذا ترى أن كلامه تعالى جاء مُنَاسِبًا لكل العصور وَمُتَجَنِّبًا مخالفة معطياتهم العلمية فيما يلمسونه ويختبرونه، ورغم ذلك فِيهِ لفتات غير عادية ككلامه عن مراحل لخلق السماوات والأرض، والتي لم نفهمها وجعلناها ستة أيام من أيام الأسبوع! بَدَلًا من كونها ست مراحل زمنية! لِيَكُنْ هذا نَمُوذَجًا لك عن القليل مما خرج به تعالى عمّا تألفه الناس ليذكر لهم شَيْئًا كَبِيرًا قَلِيلًا على عقولهم، وها ترى النتيجة كتفسير سَاذَجٍ جِدًّا لكلامه تعالى، حيث يقولون إِنَّهُ سبحانه في يوم السبت استراح!

نرجع للآية، {فَمِنْهُمْ}، من الدواب، {مَنْ يَمْشِي}، من يَتَحَرَّكُ لينتقل، {عَلَى بَطْنِهِ}، كالحيّة والدودة... {وَمِنْهُمْ}، من الدواب، {مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ} كالإنسان والدجاج والكنغر والبط والوزّ... {وَمِنْهُمْ}، من الدواب، {مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ}، كالحصان والبقر... {يَخْلُقُ اللَّهُ}، يركّب ويؤلّف، {مَا يَشَاءُ}، حَيْثُ أمامه تعالى خيارات عديدة وَقَرَّرَ تعالى هذا التنوّع في كيفية التحرّك للدواب لتكون مُلْفِتَةً لمدى وَسَعَةِ قدرته سبحانه وتعالى.

{إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، يُمْكِنُهُ سبحانه فعل أي شيء يريده بأي شيء، وكما ترى هنا، الْمَاءُ إن تحرّك فإنه يسيل جَرَيَانًا على الأرض أو كَشَلَّالٍ، ولكنه تعالى من هذا الماء ألّف أَشْكَالًا مُخْتَلِفَةً من الدواب وبأشكال مختلفة من تقنيات التحرّك، على البطن، وعلى رجلين، وعلى أربع أرجل، وَسِتٍّ وَثَمَانٍ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعِينَ...

انْتَبِهْ عزيزي ولا تنخدع بسخافات الذين قالوا: طالما يقول القرآن إنَّ الله تعالى يمكنه فعل ما يشاء هَلْ يستطيع صنع دائرة مربّعة؟ فلا تنخدع بهذه السخافات التافهة التي لا معنى لها من أصله، لِأَنَّ تركيب الكلمات المفهومة في جمل كهذه لَنْ يجعل لها قيمة، مثل: هل يستطيع الله أن يقتل نفسه؟ هل يستطيع أن يجعلني إِلَهًا؟ هل يستطيع أن يضع العالم في بيضة دجاجة بحيث لا تكبر البيضة ولا يصغر حجم العالم؟ هل يمكنه أن يجعلني أرى الأسود أَبْيَضَ في نفس اللحظة؟...

هذه سخافات وترهات يمكن لأي واحد أن يخترع منها الكثير عبر تركيب كلمات لها معنى في جمل لا معنى حقيقي لها، وعادة تسمع هذا النوع من الجمل من الأطفال، وتجد أَيْضًا القليل من البالغين يكرّرون هذا الكلام السخيف لأنهم بعقول

طفولية، ولا يميّزون بين كلمات لها معنى وبين جمل لا معنى لها، ومن المعيب والسخيف أن يقول شَخْصٌ وَاعٍ جُمَلًا لا معنى لها، نَحْنُ نصحّح هذا النوع من الجمل التي يقولها الأطفال والأحداث حتى يتكلموا بكلام صحيح، مثلما يشكو إليك الطفل عن طفل آخر أخذ لعبته البارحة منذ قليل! لِأَنَّهُ لا يعرف الفرق بين البارحة ومنذ قليل! كَلِمَاتُ جملته صحيحة ولكن معنى الجملة غير صحيح، إِذْ لا معنى حَقِيقِيَّ لزمنها، كُلُّ الأشياء التي لها معنى يقدر تعالى على فعلها، إن شاء، وكل الجمل السخيفة عن أشياء لا يمكن لله تعالى فعلها، فليفرح بها السخيف الذي يتفلسف بها، وبعدما يصير وَاعِيًا لما يقول ويصير بمستوى الفهم المقبول فوق الطفولة والسخافة، عِنْدَهَا نستمع لجمله.

أمّا بالنسبة لأصل نشأة الحياة، فالقرآن أقصى ما تحدّث فيه عن بعض المراحل، ولم يذكر آليات حدوثه، أَيُّ فرضية أو نظرية عن آليات نشأة الحياة، فهي لا مقبولة ولا مرفوضة دِينِيًّا، حَيْثُ هناك حَتْمًا آلية ما جرت عليها الأمور، ويظهر ذلك من كلامه تعالى عن خلق ما في الدنيا من سماوات وأرض في {سِتَّةِ أَيَّامٍ}، كما ورد في الآية 54 من سورة الأعراف، وفي {يَوْمَيْنِ} {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} كما ورد في الآية 12 من سورة فصلت، وخلق الأرض في {يَوْمَيْنِ} كما ورد في الآية 9 من سورة فصلت، وتقدير القوت فيها في {أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ} كما ورد في الآية 10 من سورة فصلت. مِنَ الواضح من تلك الآيات كلامها عن مراحل، وتلك المراحل لها آليات لحدوثها، واكتشافنا لذلك يبدأ من ملاحظة الأمور العامّة، وبعدها نتعمّق ونتعمّق لنصل إلى أساس كيمياء وفيزياء ترابط وتفاعل المواد...

آيتنا هنا بكلامها عن "خلق" من ماء، مثال عن نظرة إلهية لحدوث الأمور بدون الدخول في تفاصيل آليات حُدُوثِهَا، ومثله الكلام عن نشأة الجنس البشري، بسلالة من طين كما ورد في الآية 12 من سورة المؤمنين، وبشكل أوضح ترى الكلام في الآية 7 من سورة السجدة وما يليها رَاجِعْ دراستها لمزيد من التوسّع حول نشأة الحياة على الأرض.

بالمختصر، تُرَاثُنَا الثقافي الديني المفسّر لكلامه تعالى على عقلية حدوث الأشياء فَوْرًا ومن دون المرور في مراحل "طبيعية" لنشأتها، لاغين آليات حدوث الأشياء بتسلسل من بداية خلق عالمنا وُصُولًا إلى تشكّل أرضنا مُرُورًا باكتمال الظروف المناسبة لنشأة الحياة عليها وُصُولًا إلى نشأة البشر من سلالة من طين... وَالْكَلَامُ الديني اللاغي لآليات نشأة الأشياء هُوَ كلام عفا عنه الزمن، وصرنا نراه بوضوح مُخَالِفًا لكلامه تعالى.

يجب تصحيح الأساس الذي أدّى إلى عقلية دينية تعارض الطروحات العلمية التجريبية والنظرية، عِلْمًا أننا كمسلمين لم تتطوّر عندنا حِدِّيَّةٌ عنيفة مع العلوم كما حصل مع اليهود والمسيحيين، ولكن بذرتها موجودة عندنا وتراها في كتب البعض، ومتضخمة عند آخرين، وفي حجمها الطبيعي العادي عند قلّة قليلة من علماء الدين، وأمّا عموم المتدينين المثقفين من المسلمين والمسيحيين واليهود فليسوا معارضين للعلوم وفي نفس الوقت مُحَافِظُونَ على تديّنهم.

(لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{46})
{لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ}، وكل ما يصلنا منه تعالى يوصف بالنزول المعنوي لأنه سبحانه عَالٍ عنّا بطبيعته نحن البشر المخلوقين من طين، والكلام هنا لعموم ما خلقه تعالى من كائنات وظواهر ذكرتها الآيات السابقة، وشامل لكلام هذا القرآن، حَيْثُ أنزل سبحانه علينا أمورا مميزة وواضحة، وهي هذه المخلوقات والظواهر الطبيعية المميزة التي ترونها من حولكم وتسمعون الكلام عنها عبر هذه الجمل القرآنية المميزة، مِمَّا يَجْعَلُ التوحيد واضحا، وَيَجْعَلُ قدرته تعالى واضحة...

{وَاللَّهُ يَهْدِي}، يضع على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة، {مَنْ يَشَاءُ}، حَيْثُ أمامه تعالى خيارات عديدة، وَيُمْكِنُهُ هداية الجميع غَصْبًا عنهم فَيَكُونُونَ مبرمجين ومجبورين على طاعته تعالى، أو بالتلاعب بعقولهم... والكلام معنا وعنّا حَيْثُ قرّر تعالى تزويدنا بما يتيح لنا الاهتداء إلى المعلومات الصحيحة عنه سبحانه، وأمّن لنا قدرة تمييز الصَّحِّ من الخطأ، والحقّ من الباطل، وخلقنا في بيئة نرى فيها أفعاله الدالة عليه وعلى قدراته الفائقة وصفاته الحسنى، وأوصل لنا كلامه الحقّ عبر رسله، وهكذا نفهم الجملة التي وردت في الآية 40 من هذه السورة {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}.

يهدي تعالى من يشاء، {إِلَى صِرَاطٍ}، إلى طريق أساسي، {مُسْتَقِيمٍ}، يوصف بأنه على الأحسن فلا اعوجاج ولا انحراف فيه.

بالنسبة لكلمة "نَزَّلَ، أَنْزَلَ، أَنْزَلْنَا..." بِالنَّظَرِ لمكانته تعالى ولموقعه معنويا كإله، بالنسبة لعلوّه تعالى في طبيعته، فكل ما يحصل من ناحيته تعالى لناحيتنا نحن الْمَخْلُوقِينَ فهو نزول، وَهُوَ شيء حصل من العالي إلى الذين تحته، وَسُبْحَانَهُ في السماء وفي الأرض وفي كل مكان، وَإِنْ كان النظر إلى حدوث المخلوقات والظواهر فحصولها نزول معنوي من الإله العالي في طبيعته عن المخلوقات، لِأَنَّ فاعلها فوقنا معنويا لأنه ليس صحيحا ولا حقيقيا تصوّر مقارنة مادية أو مكانية بيننا وبينه تعالى... وإن كان النظر لوصول القرآن إلى الرسول(ع) من عنده تعالى فهو نزول معنوي، وإن كان الكلام بعض الأحيان يشير للنزول ماديا بالنظر لنزول القرآن عبر الملائكة (ع) على الرسول(ع)، والملائكة تنزل به من سماء فوق سمائنا فهو نزول من سماء فوق لسماء تحتها.

(وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ{47})
{وَيَقُولُونَ}: {آمَنَّا}، اعتقدنا، {بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ}، وبناء عليه، {أَطَعْنَا}، نَحْنُ سنسمع كلامه تعالى وكلام رسوله وننفّذه.

{ثُمَّ يَتَوَلَّى}، يَتَوَجَّهُ باتجاه آخر، فلا يبقى على هذا الكلام، {فَرِيقٌ مِنْهُمْ}، مجموعة من جماعة، وكلام السورة في زمن نزولها عن المسلمين مع أن الآية هنا تصدق على كل الذين سبقونا من المنتمين بالاسم لدينه تعالى، وَبَعْدَ كلام الآيات عمّا خلقه تعالى ووصول كلامه تعالى للناس، هُنَاكَ من يقول إِنَّهُ مؤمن وملتزم به، ولكن مجموعة من هؤلاء يتولّون عن الإيمان والطاعة، {مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}، من بعدما أعلنوا أنهم مؤمنون وملتزمون!

{وَمَا}، وليس، {أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ}، فأين الإيمان من التصرفات التي يَفْعَلُونَهَا؟ فما معنى إيمانهم إن لم يطيعوا الله تعالى ورسوله(ع)!

تلاحظ السورة من بدايتها توجّهت بحديثها إلى المجتمع الْإِسْلَامِيّ بما فيه من: مؤمنين حقيقيين ومؤمنين مزيّفين "كفّار أو منافقين أو فاسقين". وتلاحظ السورة لم ترد إخراج المؤمنين المزيفين من المجتمع الإسلامي حتى عندما وصفت أفعالهم بالكفر أو الفسق أو النفاق، حَيْثُ أرادت تنبيههم من معرفته سبحانه بنواياهم وأعمالهم، وأن تنبّهنا منهم...

إِذَنْ هناك أفراد منتمون بالاسم لِلْإِسْلَامِ، وبالظاهر يعلنون إيمانهم به تعالى وبرسوله، ولكن في الحقيقة هم منتمون فقط بالاسم، فلا يطبّقون كلامه تعالى ولا كلام رسوله، فلا معنى حَقِيقِيَّ لإيمانهم، وهذا وللأسف حال الغالبية الساحقة من عموم مجتمعاتنا، وَفِي الكثير من المواضيع يرفض الناس ما يقوله القرآن، وكنموذج عن ذلك ما سبق وذكرته السورة في بدايتها عن أحكامه تعالى في قضايا تتعلّق بالنساء، وأنت تعلم أن أكثر معاملاتنا بعيدة عن كلامه تعالى وخاصة في النزاعات والخلافات، وَلَا ترى أَطْرَافًا مسلمة متنازعة على شيء ما يُعْلِنُونَ أنهم يريدون حكمه تعالى إن شعروا أنه لن يكون لصالحهم، بل يريدون ما يحددونه هم! ولا يأبهون بما يقوله تعالى ورسوله.

ترى ذلك من سلوكياتنا كأفراد، وكفرق، وكمجتمع، وكبلدة، وكبلد... وتراه جليا في الخصومات والخلافات من كل المستويات...

بالنسبة لكلمة "آمن" لَمْ أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الْإِسْلَامِ أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، حَيْثُ آمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كِلْتَاهُمَا تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ{48})
{وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ}، أَشْهَرَ وأعلن لهم أحد ما ليكون شرعه تعالى والرسول حكما بينهم في خلاف ما في قضية ما، {إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ}! مجموعة منهم، معرضون! لا يعتبرون أهمية للحكم الإلهي ولا يريدونه!

إِذَا حصل خلاف بين أفراد المجتمع الإسلامي، أو بين مجتمعين مسلمين، وَعُرِضَ على المتخالفين الاحتكام إلى شرعه تعالى وحكم رسوله(ع)، فهؤلاء يرفضون الحكم إن كانوا يعلمون أنه لن يكون لصالحهم، فإن كان هو المعتدي وعليه

الحق، فيرفض الاحتكام إلى الشرع ويريد تنفيذ ما يراه هو مناسباً! وحتى لو كان معه الحقّ فهو يريد أكثر مما يحقّ له...

الكلام هنا نموذج، في عصرنا لا يوجد رسول وتحاكمنا يكون إلى قاضٍ ما، ودعوتنا إلى قاضٍ يحكم بدينه تعالى هي في الأساس دعوة إلى الله تعالى ليحكم بيننا، لأنه هو تعالى شرّع لنا هذا الدين، ونفس الشيء في زمن الرسول(ع)، حيث في القليل من القضايا نزل كلام إلهي ليبيّن الحكم الإلهي فيها لتكون نماذج عن حكم إلهي لعموم القضايا المشابهة، وفي بقية القضايا كان الرسول(ع) يحكم فيها بناءً على ما يجده من أساسيات في القرآن، وهكذا يعتبر سبحانه حكم الرسول(ع) المبني على القرآن، يعتبره تعالى حكمه هو سبحانه.

إذَنْ ليس لدينا حُكْمَانِ، واحد لله تعالى وواحد للرسول(ع) بل لدينا حكم تطبيقي يقوله الرسول(ع) بناءً على كلامه تعالى، وهذا يجرنا إلى كلام آخر عن المرونة التي تركها سبحانه وتعالى في شريعته ليحكم الرسول(ع) بحسب الظروف المختلفة، وما نراه في المحاكم العلمانية من تخصيص محاكم لمختلف القضايا، حيث هناك محكمة مالية فيها قضاة متخصصون بالمال والأعمال... ومحكمة جنائية... وهذا التخصّص هو التصرّف الصحيح، وبعض الجهات الدينية خصّصت قضاة لفروع محدّدة من القضايا حتى تَنْبَنِيَ لدى القضاة خبرة تجربة متخصّصة في فرع من نزاعات الناس، وهكذا ترى المساحة التي تركها سبحانه عن قصد حتى تبقى المرونة في الأحكام وفقاً لمختلف الظروف.

خذ مثلاً حق حضانة الأولاد من بعد الطلاق، حيث عموماً يكون الحكم بالحضانة للأب "من بعد انتهاء الرضاعة"، فماذا لو كان الأب ليس أهلاً لتربية الأولاد وكانت الأمّ أجدر منه، وهي تطلب حضانة الأولاد، فهل نجمد على حكم حقّ الأب بحضانة الأولاد؟ بالطبع لا، وهكذا لا ترى في القرآن حكماً صريحاً جافّاً صلباً إلا في النادر القليل من الأحكام، حيث عادةً ترى في القرآن الأساسيات فقط.

بناءً على ما سبق، خوف بعض الناس من حكمه تعالى نابع من علمهم أن أحكامه الأساسية تعالى عادلة ولا تتماشى مع أهوائهم، وخوفهم من حكم الرسول(ع) لأنه سيكون على المسطرة الإلهية. أمّا خوفهم من انحراف الرسول (ع) عنهم لأقاربه أو لأصدقائه... فهذا ستذكره الآية بعد التالية، وهي ستكون المعيار الذي على أساسه نختار قضاتنا.

(وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ{49})
{وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ}، إن كانوا يعلمون أن شرعه تعالى وحكم الرسول سيعطيهم الحقّ، إذا تخالفت مع أحد ما منهم واعتديت عليه بشكل واضح، ويعلم بأن الشرع سيدينك أنت لصالحه لتدفع له أو تقبل بما يقوله أو... {يَأْتُوا إِلَيْهِ}، يأتون إلى من دعاهم ليحكم الله تعالى ورسوله(ع) لهم، {مُذْعِنِينَ}، راضخين يقبلون بما تقول من دون اعتراض.

هم يقبلون بحكم الشرع إن كانت لهم مصلحة، ويرفضونه إن خالف مصالحهم!

(أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{50})
{أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}؟ هل يوجد خلل في فكرهم ونفسيّتهم يمنعهم من القبول بحكمه تعالى وحكم رسوله؟ لأنَّ الدين واضح صريح، وعليه آيات واضحة كثيرة تدل على صحّته، فمن كان فكره ونفسيته سَلِيمَيْنِ من الأمراض، فسيقتنع بالدين وبأحكامه، وأما المريض نفسياً وفكرياً فسيبقى عنده شكوك، فهل سبب تولّيهم عن الحكم الشرعي هو مرضهم؟ فليعملوا على شفاء أنفسهم من العقليات والنفسيات المريضة حيث المشكلة ليست في حكم الشرع الإلهي بل فيهم.
وبعضهم يريد دائماً أن يكون الحق معه مهما فعل! فهذا مريض ويحتاج للعلاج.

{أَمِ ارْتَابُوا}، أم لديهم إحساس بأن الشرع الإلهي غير منصف ولا عادل؟ وأن أحكامهم هم عادلة؟ فإن لم يكونوا من نوعية المريض فكرياً ونفسياً الذي يرى نفسه محقّاً دائماً، فهل معنى رفضهم لحكمه تعالى مبني على إحساس بأن شرعه تعالى غير عادل وفيه أحكام ظالمة؟

{أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ}؟ أم لديهم شعور التأكّد من حصول حيف، ميل وانحراف عن حقّهم فيظلمهم الحكم الإلهي وحكم الرسول؟ وكأنه تعالى أو رسوله(ع) سيصدر عنهما حكم المقصود به الضرر بهم، وكأن أساسيات

أحكامه تعالى ليست موحّدة وعامّة لكل الحالات، وهناك احتمال أن يصدر حكم شاذّ ومقصود منه الضرر بطرف والميل للطرف الآخر.

حتماً واحدة من هذه الحالات الثلاث هي السبب لرفضهم حكم الشرع الإلهي، فأي واحدة منها هي حالتهم؟ فإن كان في قلوبهم مرض وَيريدون الحقّ أن يكون معهم دائماً مهما فعلوا، فيجب معالجة المرض ولا علاقة للشرع من أصله، وإن كانوا مرتابين فليدرسوا الحكم الشرعي ومن بعدها فليقولوا لنا الأسباب العقلانية التي تجعلهم يرون الحكم الإلهي غير عادل، وإن كانوا يخافون لسبب أو لآخر أن يظلمهم الشرع الإلهي، فيميل إلى الآخرين ضدّهم، فهل الخوف من الله تعالى أن يظلمهم! الإله العظيم العادل الحكيم... فهل من المعقول أن يظلمهم في حكمه! أو هل الرسول الإلهي، المؤيّد بالوحي وتحت المراقبة الإلهية، والذي يحكم بالضبط بالحكم الإلهي، فهل من المعقول أن يظلمهم!

{بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، لأنه ليس مَعَهُمْ حقّ في تركهم ومخالفتهم لحكمه تعالى.

بقي شيء، العادة الغالبة في هذا القرآن نطقه بأحكامه تعالى مستخدماً نماذج من حوادث جرت في عصر الرسول(ع)، وذلك لتكون الأحكام قريبة للفهم وبعيدة عن جفاف التقرير والتبنيد، وتقصّد سبحانه طرح أساسيات الشريعة في تلك النماذج حيث تراه لا يدخل في التفاصيل، وفي بعض الحالات جرى تناول نفس الموضوع من زوايا مختلفة... على كل حال، لا ترى في أحكامه تعالى تغييرات في الأساسيات، وترى مساحة متروكة لتناسب الظروف المختلفة، وهذا ما دفع الفقهاء إلى تجميع بعض القواعد الفقهية ليجعلوها الأساس الذي ينطلقون منه في تفاصيل تبنيد الأحكام، كقاعدة لا ضرر ولا ضرار، فإن أمّنت عندي مالك، ووضعته أنا مع مالي، وجاء لصّ وَسَرَقَهُ، ومع أنك ائْتَمَنْتَنِي فأنا لست ضامناً لمالك لأني لم أقصّر، فلا ضرر ولا ضرار عليّ.

لدينا أحكام إلهية أساسياتها ثابتة، وبناءً عليه، ما معنى إعلان الإيمان به تعالى ورفض أحكامه ليكون الحقّ معي دائماً فيما أقوله حتى لو كان مخالفاً لكلامه تعالى؟ هذا مرض. وما معنى الريبة في أحكامه تعالى على أساس أنها ربما لا تكون عادلة أو منصفة ويضيع حقّي؟ فعلى أي أساس انبنى إيمانك به تعالى؟ هل على صفاته الحسنى كونه العليم الحكيم... أم على الاعتقاد بإله مزاجي عبثي؟! وما معنى الخوف من تقصّده تعالى لظلمك طالما أحكامه سبحانه لها أساسيات تجري عليك وعلى الجميع؟!

(إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{51})
{إِنَّمَا}، حصرا وفقط، {كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ} "الحقيقيين"، {إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ}، إذا أعلن لهم وأشهر أحدٌ ما لهم أن يحتكموا إلى شرعه تعالى، {أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا}، سَنُنَفِّذُ الحكم، وإذا صدر حكم شرعي فإنهم لا يخالفونه، ويقبلون به ويطبّقونه.

{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، هم الذين قاموا بعمل فالح، وأجادوا فيما عملوا لأنهم عملوا الصحيح، وأجادوا حين أطاعوا الحكم الشرعي.

هنا لدينا مشكلة عويصة، حيث إن الآيات تتحدّث عن حكم يصدر عن الرسول محمّد(ع) بشكل مباشر، ونحن كمؤمنين نعتقد بأننا لو كنّا في زمانه(ع) لقبلنا بحكمه(ع) "على العمياني"، وبدون أي مناقشة، ونفّذناه حتى لو لم يعجبنا، لأن مجرّد فكرة سماعنا لحكم من الرسول(ع) شخصياً، من تلك الشخصية ذات الهالة المقدّسة، هي فكرة تجنّن عقولنا بدغدغتها لمشاعرنا... لذلك انتبه، لو عايشت زمن الرسول(ع) لكنت كما أنت الآن أمام الشرع الإلهي، وإن كنت مريضاً نفسياً وترى أنك دائماً على حقّ، فلن يشفيك الرسول(ع) إن لم تَشْفِ أنت نفسك، وإن كنت لا تفهم الأسباب التي على أساسها انبنى الشرع الإلهي فستبقى مرتاباً به، وإن كنت لم تؤمن بالعدل والحكمة الإلهية بشكل صحيح، فستخاف أن يكون "الحاكم" جائراً عليك ظالماً لك.

نلاحظ أن علماء السوء منتشرون عبر التاريخ الإسلامي، وصِيتُ بعضهم معروف مشهور سواء في عصرنا أو عبر التاريخ بأنهم لا يحكمون بما أنزل الله تعالى، ولكن الآيات في السورة هنا لا تركّز على موضوع من لم يحكم بما أنزل الله تعالى، حيث تناولت هذا الموضوع سورٌ أخرى وآيات عديدة في القرآن، ومثّلت كثيراً بحالة بني إسرائيل... وهنا

إنما تشير لموضوع من ادّعى الإيمان بهذا القرآن ورفض الحكم الديني الحقّ، والآية التالية في عموميتها ستشير إلى المحكوم عليهم وإلى الحاكم القاضي بين الناس.

(وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ{52})
{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، الذي لا يخالف ما يقولانه، {وَيَخْشَ اللَّهَ}، وعنده شعور بوجوب تجنّب خطر العقاب الإلهي، {وَيَتَّقْهِ}، عَمَلِيّاً يطيعه تعالى بترك السوء حتى يتجنّب غضبه وعقابه سبحانه، {فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ}، حيث سَيَحْصُلُونَ على شيء له قيمة عالية، وَيَحْصُلُونَ من الطاعة والتقوى على المغفرة والخلود في جنّة الآخرة.

نحن هنا أمام حالة مثالية، أمام حكمه تعالى، وأمام حكم تطبيقي من رسوله كقاضٍ، وحتما هو الحقّ بالتمام، على الرغم من الواقع المرير لانتشار علماء السوء في كل عصر ومصر، الحاكمين بما لم ينزله تعالى، لكن ليس من المعقول أن يمنع الكلام عن دعوتنا لحكمه تعالى وحكم رسوله، وهذا ليس كلاماً في الفراغ لأننا لسنا في عهد الرسول محمّد(ع)، عِنْدَمَا تعتبر الرسول محمّد(ع) مذكوراً في القرآن لك كنموذج مثالي، عندها نفهم أن أي شخص آخر فيه الصفات اللائقة كمشرّعٍ وقاضٍ فكلام الآية يجري عليه، فيجب علينا القبول بحكمه وتشريعاته... عُلماء السوء ليست مشكلة ناشئة منه تعالى، بل منّا، فلولانا لما أتى حاكم سيِّئ يعيّن علماء سوء كقضاة ومشرّعين، ولولانا لما استمرّ علماء السوء في مناصبهم، لأننا بتركنا لعلماء الحقّ همّشناهم وصاروا معطّلين وعندها تحكّم علماء السوء ومعهم جمهورهم السيِّئ مثلهم...

لاحظ أدبياتنا في التعامل مع هكذا موضوع، فهي ليست مستقيمة من الأساس، حيث تكلّمنا عن علماء الدين السيئين المتولين لمناصب القضاء الشرعي، ولمناصب الفتوى، ولم نتكلّم عن المؤسسات التشريعية للدولة، وهم في عصرنا الحالي يسمّونهم النوّاب، حيث إن المجلس النيابي مؤسسة منتشرة في الدول ومهمتها وضع التشريعات وتعديلها، وكما ترى ومن دون أن نشعر فَصَلْنا الدولة عن الدين، عِلْماً أَنَّ كلام الآية هنا وعموم كلام القرآن عامّ وليس مخصصاً للخلافات بين الناس في ما نسمّيها بقضايا شرعية خاصة بالمتدينين، كقضايا الميراث والحضانة والوصاية على الأولاد من بعد طلاق أو وفاة... لأن كل شؤون الحياة لها عنوان تشريعي إلهي.

حتى لا يكون كلامنا في الفراغ خذ مَثَلاً تعرفة الجمرك "الضريبة" على استيراد البضائع، فلن تجد عنها في أدبيات المتدينين أي كلام تشريعي تطبيقي مستنبط من كلامه تعالى! لماذا؟ ولماذا نقبل بها وقد شرّعها من لم يدرس العلوم الدينية ولا نعتبرها من مهمّات علماء الدين لاستنباطها على مبادئهم المعتمدة؟ انتبه، لَمْ أقل إنه لا أحد بحث في هذه المسائل استناداً على كلامه تعالى، بل أقول إنها ليست منتشرة في الأدبيات.

بهذا المثال البسيط ترى أن أساس نظرتنا لموضوع التشريع فيه خلل، فعلى أي أساس نفترض بل نزعم أن مناهج استنباط الأحكام المعتمدة في المؤسسات الدينية هي الطريق الوحيد لاستنباط تشريعات مبنية على شرعه تعالى؟

كيف وصلت بنا الأمور إلى حيث نرى الحقّ والإنصاف في تشريعات المحاكم المدنية والمجالس النيابية وأوامر رئيس الوزراء ورئيس الدولة... بينما هؤلاء لا يعتمدون كتابه تعالى كتشريع؟

كلامي هذا ليس دعوة إلى نبذ فتاوى الفقهاء ولا عصيان أحكام الدولة، بل تصويب لنظرتنا إلى معنى الالتزام تطبيقياً بدينه تعالى في كل الشؤون، لأن الأمر الوارد في الآية 122 من سورة التوبة للتفقه في الدين {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}، ما كان يقصد تحديد منهاج محدَّدٍ لذلك كما هو واقع حال المدارس والمؤسسات الدينية، وما كان يقصد التخصّص في الوضوء وأحكام الحيض وحضانة الأولاد... بل كان يقصد كل شؤون الحياة بتعلّم أساسيات الحقّ والباطل في المسائل العامّة للمجتمعات والمسائل الخاصة بين الأفراد.

من وحي الآيات هنا، أنا شخصياً الداعي لتطبيق دينه تعالى، يرعبني عنوان الحكومة الإسلامية الذي يعني حكم علماء الدين، فهؤلاء فيهم أطهار لم يقصدوا السوء عن عمد، وفيهم الكثير الكثير من السيئين، وللجميع مستندات فقهية مشحونة بفتاوى السوء، أسبابها متعددة من الاشتباه ومن موروث مقدّس ومن خلفيات عصبية ومذهبية ومن خلفيات إجرامية ونفسيات مريضة... وعلى مستوى التطبيق تجد الكثيرين منهم أسوأ وأظلم من بعض العلمانيين!

طَبْعاً ليس العطل في تشريعاته تعالى، فها القرآن أمامك، وها دراستنا له، فراجع أي آية فسّرها أحد ما مستنبطاً منها حكماً تراه سيّئاً، وَسَتَرَى الفرق بين المعنى الواضح لكلامه تعالى الحقّ وبين كلامهم.

طَبْعاً ليسوا كلّهم سيئين، ولكن حتى القلائل الجيّدين منهم والذين لا نتهمهم بقصد السوء، فهؤلاء لم يتخلصوا من الكثير من الخلفيات التي منعتهم من رؤية الحقّ، فبقوا مشحونين بتقديس بعض التراث السيِّئ، ومتأثرين بالعصبية المذهبية والطائفية.

أَخِيراً، الحلّ باعتماد كلامه تعالى كمصدر لعناوين الحقّ والباطل، وإبقاء ما تركه تعالى مرناً على مرونته، والعمل ضمن الهامش المتروك لنا منه تعالى عن قصد لنتحرك فيه بما يناسب مختلف الظروف، وإعادة النظر في كل عقائدنا وتشريعاتنا بناءً على الأساسيات القرآنية، ونفعل ذلك من الصفر، متخلّين عن أي معلومة سابقة، وبلا أي خلفية، وكأننا ولدنا في جزيرة معزولة عن الدنيا وليس لدينا أي معلومة سابقة، لِنَبْنِيَ ثقافة قرآنية مستخرجين أساسيات دينه تعالى، وبعدها نبدأ بمراجعة التراث لتقويمه بناءً على القرآن.

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ{53})
ندخل على فقرة تتناول شيئاً آخر غير مشكلة الاحتكام للشرع عند هذه النوعية العاطلة من الناس، وإلى الآن يوجد من المسلمين من يفصل بين الشرع والدولة، على أساس أن دينه تعالى مخصّص للطلاق والزواج والميراث... ولا حاجة لمراجعة دينه تعالى في بقية الأمور العامّة للمسلمين أو لأهل البلد أو البلدة، وهي نفس العقلية التي ستعترض على الأحكام التي ذكرتها أوّل السورة لتجعل دينه تعالى خالياً من أي تطبيق ومحصوراً فقط بالصلاة والصيام وتربية اللحية والذهاب إلى المسجد...:

{وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ}، وأكّدوا بالله تعالى، {جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ}، بأقصى وأقوى أنواع التأكيد القسمي، {لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ}، يعني هذه النوعية من الناس حين لا يأمرهم الرسول(ع) بالخروج لقتال العدو فهم يقسمون له بأقصى وأغلظ وأقوى أنواع القسم "التأكيد" بأنهم سيخرجون معك لقتال العدو، فيقولون مثلاً: ورب العزّة الذي لا إله إلا هو لسوف نخرج معك... فليمسخنا الله تعالى إن لم نطعك... فليأخذني الله من هذه الدنيا أنا وأعزّ أحبائي إن لم أخرج معك...

{قُلْ}، أيها الرسول لهؤلاء: {لَا تُقْسِمُوا}، لا تقولوا كلاماً لِتُؤَكِّدُوا خروجكم معي حين آمركم، {طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ}، أَصْلاً المطلوب منكم الطاعة لأنكم "مؤمنون" فما معنى أن تقسموا الآن على الطاعة؟!

بعبارة أخرى ما معنى أن تقسموا على القيام بشيء يجب عليكم أصلاً القيام به؟ {إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}، فلديه تعالى كل تفاصيل أخبار أعمالكم، لأن قسم اليمين هو كلام، ومن الأعمال تحصل الأخبار، وسبحانه لديه كل الأخبار.

طَبْعاً يبدو واضحاً أن الآية توجّه كلامها إلى أشخاص سبق مخالفتهم لأوامر الرسول(ع)، لأننا لسنا أمام أشخاص الآن أعلنوا إيمانهم ويعلنون الطاعة للرسول(ع)، بل أمام من أعلنوا سابقاً إيمانهم وهم الآن يقسمون أنهم مطيعون للرسول(ع) وكأن كلامهم الكاذب هذا سيغيّر من حقيقة مراقبته تعالى لهم حين يخالفون الرسول(ع)!

(قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ{54})
{قُلْ}، لهم عبر هذا القرآن: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}، فنفّذوا أَمْرَهُما في كلّ شيء، وهنا الكلام بالخصوص حين يصلكم أَمْرٌ بالخروج للقتال.

{فَإِنْ تَوَلَّوْا}، إذا توجّهوا باتجاه آخر عن الأمر فلم يطيعوه، {فَإِنَّمَا عَلَيْهِ}، على الرسول، {مَا حُمِّلَ}، حَيْثُ حَمَّلَهُ تعالى أوامر وصار (ع) مَأْمُوراً بتبليغها وتنفيذها ويحاسبه سبحانه على ذلك، {وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ}، لِأَنَّنَا حَمَّلْنَاكُمْ أوامرنا ونحاسبكم عليها، لِذَلِكَ هناك فصل بين حسابنا للرسول(ع) وحسابنا لكم، فإن لم تطيعوه (ع) ولم يستطع الخروج للقتال لأنه لم يجد مقاتلين، فنحاسبه فقط وفقط على ما كلّفناه به من قتال الأعداء... فإذا لم يحصل خروج للقتال بسبب تخاذلكم عن الخروج معه فهذا لا يعني أنكم لن تتحاسبوا على تخاذلكم.

{وَإِنْ تُطِيعُوهُ}، للرسول(ع)، {تَهْتَدُوا}، فتكونوا على الأشياء الصحيحة التي تدل على الغاية الصحيحة.

{وَمَا عَلَى الرَّسُولِ}(ع) {إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}، حَيْثُ حَمَّلْنَاهُ وكلّفناه ونحاسبه فقط على تبليغكم أوامرنا بشكل واضح، وَالْمَطْلُوبُ منه فقط (ع) توصيل أوامرنا بالتمام وبوضوح.

فكّر فيما تقوله الآية بهذا الشكل: لم أخرج للقتال حين أمرني الرسول(ع)، وَأَيْضاً لم يخرج الآخرون، فلم يحصل خروج للقتال من أصله، فلن أتحاسب على شيء لم يحصل. لا، لِأَنَّ الآية تقول بأنك ستتحاسب، حَيْثُ كَلَّفَ سبحانه الرسول (ع) فقط بتبليغك أوامره تعالى، وكلّفنا سبحانه بطاعتها، فسواء خرج الناس أم لم يخرجوا، فسيحاسب سبحانه رسوله فقط إن لم يبلّغكم أوامره تعالى بشكل صحيح، وَإِنْ لم يطبّقها، وبشكل منفصل يحاسبكم سبحانه إن لم تخرجوا للقتال حتى لو لم يخرج أحد.

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ{ ({55
في سور أخرى من القرآن نجد شَرْحاً وَافِياً لأسباب أمره تعالى للمسلمين بالخروج للقتال، فالآخرون أعلنوا العداء وقاموا فِعْلاً بالأعمال العدائية... وفهمنا ضرورة عمل المؤمنين على تهيئة أجواء تساعدهم على الالتزام وتطبيق دينهم... وفهمنا دفاعهم عن أنفسهم... أما هنا فتركيز السورة على الطاعة لأوامره تعالى:

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ}، حَيْثُ قال سبحانه عن شيء سيفعله للذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين الإلهي، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، وَقَامُوا بالأعمال الصالحة الجيدة، حَيْثُ خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، عَمَلِيّاً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادة نفسّر "عملوا الصالحات" على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إِنَّهُمْ صلّوا وصاموا... وهذا عَمَلِيّاً صحيح، ولكن بالأصل الكلام أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عُمُوماً وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دَائِماً أَنَّهُ تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فَيُؤْمِنُونَ به.

هذا الكلام له عمق، إِذْ لا تُوجَدُ حالة نقول فيها: لست مُقْتَنِعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أَنَّ في قلبك خَلَلاً منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت مُحِبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فِعْلاً سَيِّئٌ" فسيكون في الحقيقة اخْتِرَاعاً من البشر لصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أَمْراً إِلَهِيّاً.

وعدهم سبحانه، {لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ}، حَيْثُ سَوْفَ يجعلهم باقين في الأرض خلف من يذهب، {كَمَا}، مثلما، {اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، من المؤمنين العاملين للصالحات عبر التاريخ، لِأَنَّ هذا الخط الإيماني هو الذي يحصل على العناية الإلهية ليستمرّ، ووعدهم، {وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ}، فسيجعل دينهم وهو ما يدينون به لربّهم سبحانه، وَمَا هو تبعات عليهم، سيجعله مُتَمَكِّناً وَاقِعاً مُتَحَقِّقاً قَابِلاً للتنفيذ، فكونهم عَبِيداً له سبحانه وَأَمَرَهم بفعل أمور وترك أمور ما، فهذه الأمور دين لهم، وَهَذِهِ الأمور تبعات ناتجة عن كونهم عَبِيداً له تعالى ويجب عليهم الالتزام بها، وهو الدين الذي ارتضاه تعالى لهم، حَيْثُ قبل سبحانه به عن محبّة أن تكون هذه الأوامر التي وصلتهم منه تعالى دِيناً لهم، وسيمكّن لهم دينهم فسيجعله مُتَمَكِّناً مُسَيْطِراً حَاكِماً غير محكوم، حَيْثُ سَيَعِيشُونَ في بيئة لا يجبرهم الآخرون على دين غير الدين الإلهي.

ووعدهم تعالى، {وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً}، لِأَنَّهُمْ خائفون وَيَتَوَقَّعُونَ حصول أخطار لا يمكنهم ردّها من قتل أو تعذيب أو تهجير أو ضرر من الآخرين... لِذَلِكَ سوف يتم استبدال حالة الخوف هذه بحالة الأمن، بشعورهم باستبعاد الخطر.

{يَعْبُدُونَنِي}، حِينَ أستخلفهم وأمكّن لهم دينهم ويشعرون بالأمان، وهم مفروض منهم طاعتي سَيَتَصَرَّفُونَ على هذا الأساس وَيُطِيعُونَنِي، {لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً}، حَيْثُ يُؤْمِنُونَ بي لوحدي كإله مفروض منهم طاعته، فلا يُطِيعُونَ غيري مُعْتَبِرِينَهُ إِلَهاً.

{وَمَنْ كَفَرَ}، أَنْكَرَ الدين الإلهي، {بَعْدَ ذَلِكَ}، من بعدما استخلفه تعالى ومكّن له دينه وآمنه، {فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}، وَهُمُ الخارجون عن شيء واضح وَيَعْلَمُونَ أنهم يخالفون الحقّ الواضح، فلا يعتبرهم سبحانه من جماعة المؤمنين، فلا يَنَالُونَ عنايته تعالى، وسيعاقبهم، وهذا ما حصل سَابِقاً مع المنتمين لدينه تعالى، حَيْثُ ذكر سبحانه لنا نماذج عديدة من حالات الفسق التي قام بها يهود وَمَسِيحِيُّونَ.

إذاً، ليعلم الذين في قلوبهم مرض أن تركهم الخروج للقتال حين أمرهم الرسول(ع) سيرتدّ عليهم، فإن كان في مجتمعكم مؤمنون عاملون للصالحات، فسينالون العناية الإلهية حَتْماً، من استخلاف وتمكين وأمن، ولن يتأثّر هذا القرار الإلهي بتخاذل مرضى القلوب عن الخروج للقتال.

هناك كلام لمختلف علماء المسلمين حول الآية هنا عن كونها دَلِيلاً على صحّة خلافة الخلفاء الراشدين، أو صحّة خلافة بعضهم فقط، على أساس أنه في فترة خلافتهم كانوا متمكّنين مما يعني أنه تطبيق للوعد الإلهي، ومما يعني أن خلافتهم كانت شرعية لأنها دُعِمَتْ منه سبحانه. عِلْماً أن الآية تشير للوعد الإلهي العام الجاهز دَائِماً للتنفيذ في حال صار هناك مجتمع مؤمن عامل للصالحات، ففي أي تاريخ مرّ أو سيمرّ على البشرية، وفي أي مكان كان، فالوعد الإلهي جاهز، وهذا كلّ ما تقوله الآية، وهي ليست مرتبطة بأي زمن.

من القرآن نعلم أن الوعد الإلهي تحقّق في السابق على عهد بعض الأنبياء وسيتحقّق في المستقبل، لِأَنَّ هذا الوعد ليس مُرْتَبِطاً بمجتمع بكامله من المؤمنين العاملين للصالحات، فإن الوعد يتحقّق حتى مع وجود بعض المنافقين والفاسقين... ومن الغريب أن الكثيرين من علماء المسلمين لم يميّزوا بين المجتمع المثالي الذي يتصوّرونه في خيالهم، وبين الحقيقة على الأرض، والقرآن لم يتكلّم عن مجتمع مثالي مئة بالمئة من المؤمنين العاملين للصالحات، ففي آلاف السنين التي مضت لا نجد أَثَراً ولا خَبَراً عن هكذا مجتمع مثالي، ولا يبدو لنا من القرآن أنه سيوجد في المستقبل، وما يقولونه عن الإمام المهدي في المستقبل "وتطبيق آيتنا هنا في الروايات على الإمام المهدي وما سيفعله"، اخْتَلَطَ بشكل واضح فاضح مع صورة مثالية توهّموها، حَيْثُ طرح لنا القرآن أقصى ما يمكن أن يحصل عليه الناس في الحالة المثالية، ويشجعنا للوصول إليها، وفي نفس الوقت يطرح لنا الواقع، ويتعامل سبحانه مع الواقع لا مع الخيال والمثالية الافتراضية.

أخبرنا القرآن أنه حين يستغفر غالبية المجتمع فسينالون عناية خاصة منه تعالى، وهذا ما تجده في الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، وحتى لو ارتكب أكثرهم السَّيِّئَاتِ التي لا تصل إلى حدّ غضبه تعالى عليهم، وحين يقوم المؤمنون بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فحتى لو كانوا قلّة، فبسببهم سينال كل المجتمع عناية إلهية بدرجة ما.

ترى نَوْعاً من ذلك في كلام بداية سورة الروم، حيث وصف القرآن انتصار الروم نَصْراً منه تعالى، ومعلوم من التاريخ حال الروم حينها، فهل كانوا كلّهم مؤمنين عاملين للصالحات؟ لا، ولكن المجموع العام لإيمانهم وأعمالهم كان مَقْبُولاً لدرجة حصولهم على عناية إلهية لنصرتهم على الكفّار، ولمزيد من التفاصيل راجع دراسة أول سورة الروم.

لكن إن شاع ترك غالبية الناس النهي عن المنكر، فيتم إلغاء العناية الإلهية الخاصة بالمؤمنين، وتتم معاقبتهم حتى لو كانوا من المعلنين لانتمائهم لدينه تعالى، وراجع كمثال صيران "مسخ" بعض بني إسرائيل قردة كما ورد في الآية 65 من سورة البقرة {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}، فهذه هي الواقعية التي طرحها القرآن عن المجتمعات، ولا يبدو أن المجتمع "المثالي" سيأتي في المستقبل.

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{56})
إذا أردتم أن تحصلوا على العناية الإلهية فإليكم الأساسيات التي يجب أن تلتزموا بها:

{وَأَقِيمُوا}، فعّلوا ولا تعطّلوا، {الصَّلَاةَ}، التوجّه والإقبال، وكلمة صلاة صارت منذ القدم مصطلحا دينيا يشير إلى التوجّه إليه تعالى بالحركات والكلمات التي تعبّر عن العبادة، وهي الصلوات الخمس الواجبة المتعارف عليها بين المسلمين فلا تهملوها ولا تتناسوها ولا تأجّلوها.

{آتُوا الزَّكَاةَ}، اجعلوها عند من يوزّعها أو وزّعوها بحسب ما أمر سبحانه، وكلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، حيث تشير لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكية، مال زَاكٍ، طعام زَاكٍ..."، ومنذ القدم صارت مصطلحا دينيا يشير إلى دفع نسبة محدّدة من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ}... أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، ويدفع منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة ...{وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ}... حيث تكون نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تَصْرِفُها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

{وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}، اسمعوا كلامه ونفّذوه.

{لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}، من المفروض ومن المتوقّع أن تحصلوا على الرحمة وعلى العناية الإلهية لما فيه مصلحتكم إن صليتم وزكّيتم واتبعتم الرسول(ع).

كما ترى، الفقرة هنا مستمرة بالإضاءة على كامل دينه تعالى في مقابل الرافضين مرّة للشرع، ومرّة لحكم، ومرّة يريدون فصل الدين عن المنازعات، ومرة يريدون تطبيق أعرافهم، ومرة لا يريدون الخروج للقتال... حيث هناك من يقبل بالدين للصلاة والزكاة فقط من دون التدخّل في الشؤون الأخرى، وهناك من يعتبر الشؤون العامّة للمسلمين لا علاقة لها بالدين، كالذين ينادون بفصل الدين عن الدولة، وتناسبهم الآية 50 السابقة تماما لوصف حالهم... وتأتي آيتنا هنا لتجعل من إطاعة أمر الرسول(ع) نموذجا عن إطاعة أمر المتولّين لشؤون المسلمين، طبعا ومن دون أي بلاهة وفسق للترويج للأولياء الفاسدين، لأن القرآن مشحون بوجوب ولاية المؤمنين ومشحون بالتهديد لمن أطاع الفاسقين والمنافقين والكافرين، واعتماد الرسول محمّد(ع) نموذجا عمّن يتولّى الشؤون العامّة للمسلمين هو بحدّ ذاته يجعل المقاييس لا تقبل إلا أفضل المؤمنين من بيننا لتولّي الشؤون العامّة للمسلمين.

انتبه، هنا "وفي غيرها من الآيات المشابهة" ربما تقول: إذا صلينا وزكينا وأطعنا الرسول(ع) فيجب أن يرحمنا الله تعالى، فكيف تقول الآية: {لَعَلَّ}! لذا ننتبه، أنه تعالى فعلا وعدنا بالرحمة الحتمية لمن صلّى وزكّى وأطاع الرسول(ع)، إذ إن المشكلة ليست في هذا الجانب، وليست {لَعَلَّ} للجانب الإلهي بل المشكلة من الجانب الآخر، حيث هناك احتمال منّا نحن أن نتوقّف عن الصلاة أو نهملها، أو أحيانا لا ندفع الزكاة، أو أحيانا لا نطيع الرسول(ع)، وكمجتمع هناك احتمال أن يقوم جماعة منّا بترك كلّ ذلك، ولهذه الأسباب لن نحصل على الرحمة الإلهية الخاصة. بعبارة أخرى: إن آمنتم وصلحت أعمالكم فحتما ستحصلون على الرحمة الإلهية الخاصة، ولكن هذا ليس محسوما من ناحيتكم، وها نخبركم أنكم إن آمنتم وصلحت أعمالكم فمن المفروض ومن المتوقّع شملكم برحمته تعالى، وإذا عصيتم، فلن تنالوا الرحمة الإلهية الخاصة بالمؤمنين.

(لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ {57})
{لَا تَحْسَبَنَّ}، أيها الرسول(ع) وأيها القارئ للقرآن، فلا يخطر ببالك من دون دراسة أو تفكير أن {الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا الدين الإلهي، {مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ}، بأن لديهم قدرة فوق قدرته تعالى هنا في الأرض ولا يقدر سبحانه عليهم، لا، هذا غير صحيح، إذ هنا في الدنيا لديه تعالى القدرة القاهرة على فعل أي شيء بهم.

{وَمَأْوَاهُمُ}، المكان الذي سيأوون إليه وسيبقون فيه هو {النَّارُ}، في الآخرة، {وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ}، لأن النار موصوفة بأنها أسوأ ما تصير إليه الأمور، وهي أتعس نهاية ونتيجة.

الآية ما قبل السابقة تحدّثت عن وعده تعالى بتمكين دين المؤمنين العاملين للصالحات... والكفّار لن يعجزوه تعالى عن تحقيق وعده، ومعهم الذين كانوا من المنتمين بالاسم لهذا الدين إذا لم يطيعوه تعالى ولم يطيعوا رسوله، حيث إن الوصف بالكفر هنا عام لكل من أنكر الدين، سواء أنكر الانتماء إليه من أصله، أو أنكر طاعته تعالى وطاعة رسوله في بعض الأمور مع أنه من المنتمين بالاسم إلى الدين الإلهي، إذ هناك فسّاق ومنافقون، والسورة يتمحور كلامها عنهم.

بعبارة أخرى، حين ترى هذه النوعية العاطلة من الناس، من الذين يألفون القصص الكاذبة عن أعراض وشرف المؤمنين، ويحبّون انتشار الفاحشة في المؤمنين، ويخالفون الرسول(ع) ولا يطيعونه... وحين تراهم على راحتهم هنا في الدنيا ويفعلون ما يشاؤون وهم مرتاحون على وضعهم... فلا يخطر ببالك أنه تعالى عاجز عن معاقبتهم، لا، لأنه هنا في الدنيا سبحانه قادر على إماتتهم أو تعذيبهم بالفقر أو المرض أو الحرب أو بكارثة... وفي الآخرة نهايتهم سيّئة جدا جدا في النار.

لا تَنْسَ دائما أن وصف بعض المسلمين بالكفر ورد في القرآن، ولكن هذا لا يعني تعميم كلّ أحكام الكفّار عليهم، لأنه طالما هم لم يرتدوا علنا وبقوا معلنين للشهادتين بتوحيده تعالى وأن محمّدا (ع) رسوله، فهم مشمولون بأحكام المسلمين في التعامل معهم كمسلمين بكامل حقوقهم، وحين يرتكبون مخالفة ما فعقباهم تكون على تلك المخالفة بما حدّده تعالى في قرآنه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاء ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{58})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{لِيَسْتَأْذِنكُمُ}، ليطلب منكم الإذن، وليطلبوا أن تسمحوا لهم، {الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}، الذين هم تحت ملكية اقتداركم عليهم، من العبيد والإماء، حتى لو كانوا يعيشون معكم في بيتكم فهم ليسوا أفرادا من محارمكم وليسوا استثناء عن غيرهم، لذا لا يحق لكم تركهم يتنقلون في البيت ليروكم بلباس غير ساتر لما حرّم تعالى إظهاره.

{وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ}، الذين لم يصلوا إلى العمر الذي يرون فيه أحلاما في منامهم، وهنا الكلام عن أحلام المشتهيات والرغبات المثيرة جنسيا، وهي مرحلة البلوغ الجنسي النفسي بعمر يختلف من بيئة لأخرى، وسنتوسّع بالكلام عن ذلك في الآية التالية، حيث إن العبيد الخدم في المنزل والأطفال من الذكور أو الإناث الذين لم يبلغوا نفسيا جنسيا، يجب أن يطلبوا منكم الإذن، {ثَلَاثَ مَرَّاتٍ}، يعني في منازلكم لديكم غرفة نوم خاصة لكم، أو لديكم جناح من المنزل خاص لكم، ويريد بقية أفراد المنزل من كبار وصغار التنقّل بين الغرف، لذا لا تستهتروا وتتهاونوا بالحشمة والستر حتى أمام الخدم والأطفال الصغار، وليطلب الجميع الإذن قبل الدخول إلى مكانكم الخاص ثلاث مرات، الأولى: {مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ}، قبل أن تصلّوا الفجر حيث يجب أن يطلبوا إذنا للدخول إلى غرفتكم الخاصّة، أمّا بعد أن تستيقظوا وتصلّوا الفجر وتصير في المنزل حركة بداية نشاط اليوم، من ترتيب المنزل وإعداد الفطور... فلا يحتاجون للإذن للدخول عليكم على أساس أن كل من في المنزل صار يعلم أن كل من في المنزل سيتحرك في مختلف غرفه... والفجر هو بداية خروج ضوء الشمس "بالعرض" على طول جهة أفق شروق الشمس.

ويستأذنونكم، {وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ}، حيث عند الظهر ترجعون إلى المنزل لترتاحوا من العمل، وتخلعون ثياب العمل أو الثياب التي تخرجون بها من المنزل، وعلى أساس أنه وقت الراحة إلى العصر يجب أن يستأذنكم البقية قبل الدخول إلى غرفكم الخاصة.

ويستأذنونكم، {وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ}، من بعد أن تصلّوا صلاة العشاء يجب أن يطلبوا منكم الإذن ليدخلوا عليكم إلى غرفكم الخاصة، على أساس أنه بداية الوقت الخاص للزوج والزوجة.

هذه الأوقات هي، {ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ}، والعورة هي عموم ما تسترونه عن الآخرين، وهنا الكلام عن أوقات ربما لا تحتشمون فيها باللباس، سواء أكان عريا كاملا "بين الزوج والزوجة" أو شبه عري أو ثيابا غير محتشمة... وهذه

الأوقات الثلاث حدّدناها أنها عورات لكم لذا يجب على الآخرين مراعاة استتاركم في غرفكم الخاصة في هذه الأوقات، إلا بعد أن يطلبوا الإذن، لـتحتشموا بلباسكم وتسمحوا لهم بالدخول إلى غرفتكم.

معلوم أن الستر والاحتشام أمام البالغين والأغراب واجب، لذا إن الكلام هنا عن أدبيات للمشاركين في السكن من خدم وعبيد وأطفال، وحتى لا يحصل استهتار بالحشمة حتى من هؤلاء، تأتي آياتنا هنا بتوجيهاتها لنا لتعليمنا.

انتبه للفرق بين العورة والسوءة، إذ إن السوءة هي مخرج البول والعذرة وما يحيط بهما من الشعر، والعورة بالنسبة لجسدنا هي السوءة ومضافا إليها بقيّة مناطق الجسد التي تسترونها عن الآخرين، كالقفا والأفخاذ والبطن والصدر... والعورة وصف عموم ما تحتاجون لستره عن الآخرين، سواء من الجسد أو كالدفاعات الضعيفة لمواجهة العدو كما استعملتها الآية 13 من سورة الأحزاب {... وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا}.

{لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ}، لا مشكلة عليكم أو عليهم، {بَعْدَهُنَّ}، بعد هذه الأوقات الثلاث، {طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ}، إذ لا مشكلة أن يجولوا عليكم ويتنقلوا في كامل المنزل وفي غرفكم الخاصّة، {بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ}، سكّان المنزل يطوفون بعضهم على بعض حيث يمكن لكل سكان المنزل التنقّل في كامل المنزل خارج هذه الأوقات. طبعا تفترض الآية الحالات العادية لحياة أي منزل، فإذا كان لمنزل ما برنامج حياتي آخر غير متوافق مع ما تذكره الآية، فـهذا لا يعني حرفية تطبيق الكلام هنا على أي منزل كان، لأن الكلام هنا نموذج.

إذا قام الزوج والزوجة إلى الصلاة ورجعا إلى النوم، هذا لا يعني أن الآخرين يحق لهم الدخول إلى غرفتهم لأن الآية تقول ذلك، لا، إذ إن الآية تعطينا نموذجا عن حياة عادية طبيعية للناس...

{كَذَلِكَ}، بهذا الذي نبّهناكم له من المواقيت، {يُبَيِّنُ}، يوضّح، {اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ}، الأمور المميزة، إذ إن هذه الجملة من القرآن آية من الآيات الكثيرة التي بيّنت لنا ووضّحت لنا ما يجب أن نفعله في حياتنا.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ}، يعلم سبحانه كلّ شيء وبناء على علمه الواسع سبحانه قرّر لكم هذه المواقيت الثلاث كعورات لكم.
{حَكِيمٌ}، لأن قراراته وأفعاله تعالى كلها على الصوابية ولا يعبث ولا يتسلّى سبحانه.

بعبارة أخرى إن من بعد القيام لصلاة الصبح إلى الظهر وقت يفترض فيه بقيّة أفراد المنزل أنك وزوجتك بلباس محتشم، ومن الظهر إلى العصر وقت خاص لك لترتاح في غرفتك الخاصّة، ومن العصر إلى العشاء وقت مفتوح لبقية أفراد المنزل للتجوّل في المنزل بحريّتهم، ومن بعد العشاء على أساس أنه وقت النوم يصير وقتا خاصا لك لذا يجب أن يطلب بقية أفراد المنزل إذنا للدخول إلى مكانك الخاص من المنزل من وقت العشاء إلى حين تقوم لتصلّي الفجر.

كما تعلم، الآية لا تفرض علينا توقيتا حتميا يجب علينا الالتزام به، ولكنها تعطينا نموذجا لتنظيم حياتنا داخل منازلنا وأن لا نستهتر بالحشمة أمام الخدم والأطفال، لذا يمكن أن تخبر بقية أفراد المنزل أن لا يدخلوا إلى غرفة نومك نهائيا في أي وقت كان، ويمكن أن تخبرهم أن لا يدخلوا إليها قبل الساعة العاشرة صباحا... إذ إن ما تطرحه الآية هو نموذج، ولذلك استعملت تعبير "لا جناح" الذي يعني بمعناه العام "لا مشكلة"، لذا لا يوجد حرام أو حلال محدّد بشكل حاسم في هذه الأوقات، بل يمكن تغييرها بحسب ما يناسبكم، وبعد تحديد ما يناسبكم لا مشكلة في تنقّل بقية أفراد المنزل في كامل المنزل إن حدّدتم لهم الأوقات التي تناسبكم.

ننتبه، الآية لا تتحدّث عن وقت الأذان كتوقيت محدّد، لأنها لم تقل عند أذان الفجر أو عند أذان العشاء، بل قالت: {مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ}، وعادة تقوم الناس لصلاة الفجر بعد وضوح الرؤية... وبعد صلاة العشاء تفترض الآية أنك قبل الذهاب إلى النوم ستصلّي العشاء، على أساس أنك تنام قبل منتصف الليل لتستيقظ عند الفجر وتنطلق لعملك.

ضمنا، الآية تعطينا الحالة النموذجية الأمثل لتنظيم مواقيت نشاطنا وراحتنا، على معنى أنها أفضل تنظيم لوقتنا اليومي من نشاط للعمل ومن راحة.

(وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{59})

{وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ}، من مجتمعكم، والكلام عن عموم أطفال سكّان منزلكم من إناث أو ذكور ومن أولادكم أو أولاد غيركم، حيث إذا وصلوا إلى عمر {الْحُلُمَ}، وصاروا يرون في منامهم ما يحلمون به مما يشتهونه ويرغبون به، وهنا الكلام عمّا يرونه أثناء نومهم مما يصنّف تحت الرغبات الجنسية، وهذا العمر يختلف من شخص لآخر ومن بيئة لأخرى، ولذلك لم تحدّد الآية العمر، {فَلْيَسْتَأْذِنُوا}، هؤلاء الأطفال الذين صاروا في مرحلة التمييز، {كَمَا}، مثلما، {اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، من البالغين.

{كَذَلِكَ يُبَيِّنُ}، يوضّح، {اللَّهُ لَكُمْ}، {آيَاتِهِ}، الأمور المميزة المنسوبة له تعالى، حيث بهذه الطريقة الواضحة جدا عبر هذه الجملة الواضحة جدا يبين سبحانه لكم أوامره وتنبيهاته الحكيمة للابتعاد عن الأمور السيّئة.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ}، يعلم سبحانه كل شيء، {حَكِيمٌ}، لذا لا يعبث، لأن هذه الأوامر وهذه التنبيهات الواضحة نابعة عن عالم حكيم، لذا لا تستهينوا بها، إذ لو لم تكن مهمّة ومدروسة لما قالها سبحانه لكم.

أشارت الآية السابقة إلى الجميع وركّزت على الذين عادة ما يحصل استهتار بالحشمة والستر أمامهم، وهم الخدم والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم في أن يطلبوا الإذن بالدخول عليكم في أوقات عوراتكم، وهنا عادت السورة وأشارت إلى الطفل الذي بلغ الحلم كتأكيد على ضرورة الحشمة والستر أمامه.

للأسف، في بعض مجتمعاتنا تستهتر النساء في تعاملهن مع البالغين من أبنائهن أو من أبناء أقاربهن ومعارفهن، ولا يحتشمن أمامهم كما يجب بناء على أنهن ربّينهم وأنهن يعرفنهم منذ صغرهم أو أنهن غيّرن لهم حفاضهم أو غسّلنهم مرة ما... ومن ناحية الرجال أيضا توجد حالات استهتار أمام البنات الصغار، حيث يتجوّل الرجل في المنزل بثيابه الداخلية... ولهذه العقلية بالذات، أفردت الآية كلامها عن حالة التعامل مع الأطفال والذين بلغوا الحلم حديثا، مفترضة أنك من ناحيتك أنت محتشم، وتوجّهك الآية لتعليم الأطفال والبالغين حديثا أن يتعاملوا بجدية مع موضوع الحشمة والسترة.

ما تقوله الآية ربما تجده غريبا بالكلام عنه لأنك محتشم وكلام الآيات شيء بديهي بالنسبة لك، ولكن خذ علما أن بعض الناس مستهترون أمام الأطفال الصغار لدرجة ممارسة العلاقة الحميمية مع الزوجة بوضوح أمامهم، وبعضهم يفعل ذلك مع علمه بإمكانية رؤية أولاده البالغين له، لذا تأتي الآية هنا بأمر إلهي بالحشمة حتى أمام الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم، وأن تنسى معاملة الأطفال لمن بلغ الحلم، لأنه بلغ ولم يعد طفلا، ونفهم الكلام في الآيات من استهتار البعض بذلك على أساس أنهم لا يزالون يرون فيه الطفل الصغير حتى لو صار شابا!

نلاحظ في كتب التفاسير والفقه عموما خلطا بين البلوغ الجنسي وبلوغ الرشد العقلي، حيث البعض جعلهما واحدا وقالوا إن بلوغ الحلم هو نفسه دلالة على بلوغ الرشد، وهذا غير صحيح كما هو واضح من القرآن، لأن الأحكام مختلفة بين الحالتين، إذ بلوغ الحلم يجيز "ولا يوجب" الزواج للبالغ أو البالغة، ولكن لا نسلّطه على ماله حتى يبلغ الرشد العقلي الذي يختلف بين حالة وأخرى، وهذا شيء تكلمنا عنه مطولا في الآية 6 من سورة النساء {وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ}... وكما ترى هنا ركّزت الآية على حالة الحلم عند الطفل لتحتشم وتتستّر بشكل لائق أمامه، وهناك في آية سورة النساء ركّزت على بلوغ النكاح أي بلوغ مرحلة الرغبة بإقامة ما يتضمّن علاقة جنسية، أي يرغب بالزواج ويفهم معناه ومسؤولياته، وهذا شيء يحتاج لتكاليف سكن ومعيشة... لذا فصلت الآية ضمنا بين تزويجه وبين تسليطه على ماله، إذ ربما يتأهّل جسديا ونفسيا وفكريا للارتباط بزواج "نكاح"، وفي نفس الوقت ربما لا يتأهّل لإدارة أمواله.

معلوم للجميع أن مشاهدة الأطفال للبالغين بثياب غير محتشمة، أو مشاهدتهم لمغازلة أو ملامسة أو تقبيل... ستسبب وعيا جنسيا مبكرا، والأخطر منه على الأطفال مشاهدتهم لعلاقات جنسية كاملة، لتصير أمام ولد يرغب بالنكاح وهو لا يزال ولدا ولا إمكانية عقلانية لتوفير ذلك له إلا بعد بضع سنين، وخلالها سيعاني الولد من رغبة لا يتمكّن من إشباعها، وغالبا تستمر هذه الحالة الحرجة المزعجة إلى عمر متقدّم حيث يصير الولد فتى أو فتاة متوقدة جنسيا ولا يجد منفسا لذلك.

الآية هنا كلامها عمومي لحالة الكبار والصغار، وتعلّم الكبار الحشمة كترقٍ لأنفسهم ليكونوا محترمين لائقين حتى أمام الأطفال، وتنبّه الكبار لخطورة الاستهتار أمام الأطفال، والأخطر منه أمام الأطفال الذين بلغوا الحلم، لأن هؤلاء سيقعون تحت ضغط نفسي من التفكير الجنسي، وتحت ضغط جسدي من جسدهم اليافع الذي يدفعهم لإشباع الرغبة، ومعلوم لك أنه بعد ذلك تصير الأمور معقدة جدا وينتج عنها آثار سلبية جدا... إذ إن الصغار أقل عقلانية ولا يفهمون تعقيدات الأمور المانعة من ربطهم بزواج يريحهم جنسيا ونفسيا وجسديا... وتبدأ العقد النفسية بالتطوّر، وتبدأ اختلالات هرمونية في جسدهم بالتطوّر...

هل هذه المعاناة نقمة ابتلانا بها تعالى؟ لا، بل هي نعمة رائعة ولكنها تصير نقمة عند التعامل معها بسوء، إذ بدون استهتار من الكبار سيتأخّر الوعي الجنسي عند الأطفال، ويحتفظون برغبة العلاقة مع الجنس الآخر، ولكن ليس بمستوى قوّة الرغبة مع الوعي الجنسي بسبب مشاهدتهم للكبار يفعلون أمورا جنسية.

ربما تقول إننا في عصرنا يتعرّض الأولاد لخطورة سهولة رؤية أمور جنسية على الإنترنت وفي الأفلام والمسلسلات... وإن هذا تحد لم يتعرّض له الأولاد سابقا، ولكنها مجرد مشكلة مضافة لنفس المشكلة التي كانت قديما من استهتار الكبار بالحشمة، ويجب الانتباه لخطورتها المسببة لوعي جنسي مبكر ولمحفّز دافع لرغبة لا سبيل عقلاني لتأمينها للأولاد، مما سينتج عنه تعقيدات نفسية وفكرية وجسدية...

الكلام يجرّ الكلام، حيث درج منذ مدة بين علماء نفس الأطفال وعلماء الاجتماع، أنه من الضروري تثقيف الأطفال جنسيا، وسبب ذلك أن الأطفال ربما يتعرضون للتحرّش الجنسي من الكبار وهم لا يعلمون ولا يفهمون أنه تحرّش جنسي، والسبب الآخر التخلّص من اعتبار الجنس كشيء معيب أو سيّء، وهو ما يسمّى بالتابو، وغيرها من الأسباب. وكما ترى فإن ثقافة مجتمع الكبار هي المسببة لهذه المشاكل، وبدلا من معالجة الكبار لمنعهم من التحرّش بالأولاد، وبدلا من تقويم نظرة المجتمع للعلاقة الجنسية أنها نعمة وليست نقمة أو معيبة، كان الحلّ في رأي البعض هو تثقيف الأولاد جنسيا... وهذا ليس الحلّ، مع اعترافي بأن حلّ تثقيف الكبار ليس حلا عمليا لأننا نتحدّث عن تغيير في فكر ونفسية الناس، وهذا ليس أمرا سهلا، بل صعب جدا جدا وأحيانا شبه مستحيل...

والكلام يجر كلاما آخر، إذ إن ما نشهده في عصرنا من دراسات عن طبيعية الميل لنفس الجنس، كتحفيز على إقامة علاقة شاذة بين ذكر وذكر أو أنثى وأنثى، هو ناتج من نفس الخلفية الفكرية والنفسية الفاسدة عند العديد من المنتمين لدينه تعالى الذين يعتبرون العلاقة الجنسية عملا حيوانيا منحطّا، ويعتبرون النشوة الجسدية حراما وعليها عقاب حتى الناتجة من علاقة بزواج شرعي! ومقابل الترويج لهذا الفكر المسمّى بالديني، قابله ترويج لفكر التفلّت من الدين، بينما هو بالحقيقة ليس دينه تعالى بل دين الناس.

الميل لنفس الجنس ليس طبيعيا، بل من التحفيز والتشجيع عليه، ومن مشكلة الوعي الجنسي المبكر من دون القدرة على إشباع الرغبة مع الطرف الآخر، ينشأ استسهال إقامة علاقة مع نفس الجنس لأن كلا الفردين من نفس الجنس لا يجدان سبيلا سهلا لإقامة علاقة مع الجنس الآخر، إذ إن كلا الفردين عندهما نفس المعاناة، وعادة هما قريبان من بعض بحكم تشابههما في الجنس، حيث إن الذكور يلعبون مع بعض، وينامون في نفس الغرف... والإناث نفس الشيء، ولا تزال عقليات ونفسيات كثيرة ومتنوعة فاسدة متحكمة ومنتشرة في المجتمعات، ومانعة من سهولة تعامل الذكر مع أنثى أو أنثى مع ذكر، لذا يصير البديل الأسهل عند البعض هو الشذوذ لتنفيس رغبة لم يتمكن من تنفيسها مع الجنس الآخر.

كل ما ربما تقرؤه مما يسمّى بالدراسات، ويحاول إقناعك بأن الشذوذ الجنسي ليس شذوذا، فاعلم أن القائلين لهذا الكلام لديهم خلفية فكرية ونفسية تشوّهت ولم تعد ترى الفساد لتميّزه عن الصلاح بسبب الفساد المنتشر بأنواعه الكثيرة في المجتمعات. وكمثال عنه الترويج لإعابة وسوء وحرمة... الشعور بالمتعة من العلاقة الجنسية، وأن عليها عقابا شديدا من الله سبحانه، وبعدها الترويج لحيوانية ودونية العلاقة الجنسية وأنها تبعدنا عن الرقي الإيماني.

للأسف، ما ستجده في هذا القرآن من كلام عقلاني لن تجد له جماهير! بل ستجد المضادة والنفور من طرفين نقيضين، إذ إن طرح القرآن للعلاقة الجنسية بعقلانية المرونة المتروكة لنا كهامش للزواج في أي عمر كان من بعد البلوغ الجسدي، تاركا سبحانه ذلك لتقديراتنا بما نراه مناسبا... قابله تفسير سيّء لهذا ومهاجمة للقرآن والافتراء عليه بأنه يوجب تزويج الأطفال! حيث يتهمونه بأنه يوجب تزويج البنات بعمر التسع سنين! وكلام القرآن الذي يشير ضمنا

لوصف المتعة الجنسية بالنعمة الإلهية علينا، قابله البعض بتحقير القرآن واصفين له بكتاب يروّج لدين إباحي! ولدينا الطامّة الكبرى من بعض المدّعين للإيمان العالي من المنتمين لدينه تعالى، والذين رغم صراحة كلام القرآن عن النعمة الإلهية الممنوحة لنا بالمتعة الجسدية من الأكل والشرب والعلاقة الجنسية، حوّروا كلامه تعالى واصفين لهذه المتعة بالحيوانية والدونية، بل والمانعة من الرقي الإيماني العالي!

كلامه تعالى لم يُرْضِ لا المتفلتين من الأخلاق المنحطين بالترويج لأي عمل جنسي حتى الشذوذ والزنا والجنس الجماعي... إذ حتى هؤلاء يتهمون القرآن بأنه يروّج لدين إباحي! ويرفضون الخطوط الأساسية التي قوننها تعالى للعلاقات الجنسية... ومن جانب آخر القرآن لم يُرْضِ المتزمتين المصرين على اعتبار أي نوع من المتعة حراما وعليه عقاب إلهي، لأن بعض اليهود والمسيحيين الذين يعتبرون أنفسهم متدينين، يصفون القرآن بأنه كتاب إباحي، وبعض المسلمين حوّر كلامه تعالى ليخرجه عن معناه الواضح البسيط مصرا على حيوانية ودونية المتعة الجسدية!

هو البلاء بكل أنواعه، من الذين من المفروض منهم التنظير والتشريع من علماء دين وعلماء نفس واجتماع... وهم فاقدون للرؤية الواضحة للأمور، ومن الحاكمين الفاقدين للحكمة، ومنّا نحن المستهترين بخطورة ما نفعله والمؤثّر على الأجيال القادمة، ومن الشباب الذين يرغبون بالمزيد من التعاطي مع المحفزات الجنسية بالرغم من علمهم بأنها ليست الحلّ، وستزيد الطين بلّة.

تتنقّل الفتيات في الأماكن العامة بلباس غير محتشم مسببة محفزات للشبّان الذين بعضهم لن يستطيع تنفيس رغبته مع أنثى، مما يراكم أفكارا نفسية ضاغطة يختزنها لتنعكس بشكل سيّء على بقية أفكاره ونفسيته وتصرفاته... والفتاة راغبة بإظهار جمالها والإطراء عليها والاهتمام بها... وبعضهن لن يجدن إشباعا لهذه الحاجات بالرغم من إيمانهن بأنهن بجسدهن ونفسيتهن يستحقنّ حبا وحنانا...

الله سبحانه وتعالى تفضّل علينا بنعمة جسد فيه رغبات تسبّب لنا المتعة، ولم يقيّدنا إلا بما يضرّنا كأفراد أو كمجتمع، وترك لنا هامشا واسعا جدا للتعامل مع رغباتنا وشهواتنا بما نراه مناسبا، أما المشحونون بثقافة سيئة من المسلمين ومن بقية المنتمين لدينه تعالى ومعهم العلمانيون، فهؤلاء لن يعجبهم كلامه تعالى وسيقولون الشيء ونقيضه في نفس الوقت بتعاملهم مع كلامه تعالى، لأنهم كتلة من التشوهات الفكرية والنفسية، وفاقدون للعقلانية والرزانة، وبتعابير القرآن فإنهم قلوبهم مريضة.

(وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاء اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{60})
{وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ}، الإناث كثيرات القعود في البيت والكلام عن اللاتي لم يعد فيهن قوة جسدية شبابية، اللاتي يتحركن فقط لقضاء الحاجة الضرورية، {اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا}، لا يتوقّعن إقامة علاقة جنسية لفقدانهن الرغبة بها ومعرفتهن بأنهن صِرْنَ غير مرغوبات لذلك، يعني أنها تشمل العزباء والمتزوجة، {فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ}، لا مشكلة على هذه النساء، {أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ}، لا يرتدين ثيابًا محتشمة بالكامل مثل الثياب التي ترتديها النساء خارج المنزل، حيث يمكنها داخل المنزل لُبْسُ ثيابٍ مريحةٍ، ويمكنها البقاء بالثياب التي ترتديها لخارج المنزل فهي مخيّرة، ولكن إن كانت تلبس ثيابًا عادية للمنزل ويراها أغراب من غير محارمها فليكنّ، {غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ}، غير ظاهرات بشكل مُلْفِتٍ، {بِزِينَةٍ}، بأشياء تجعلهن جميلات، يعني بشرط أن تكون ثيابهن عادية ولا يضعن على وجوههن أو شعرهن أو أجسادهنّ أشياء ملفتة للرجال، حتى لو كانت فاقدة للرغبة بالمعاشرة فعليها الاحتشام أمام الأغراب من غير محارمها.

هذا لا يعني أبدًا أنه يجوز لهن كشف شعرهن بالكامل أمام غير محارمهن، ولا أن يبدين رقابهن وصدورهن... أمام الأجانب، لا، طالما هي واعية للسترة فيجب عليها التستّر عن غير محارمها، ويجب أن نأمرها بالسترة إن كانت مهملة، ولكن إن كانت عجوزًا هرمة، تتثاقل من الاهتمام بالستر بشكل كامل، لأنها فقدت معنى الأنوثة، وتبدو أحيانا خصلة من شعرها وأحيانا يبدو زندها لنسيانها التام لمعنى الأنوثة، فهذه مَعْفُوٌّ عن تصرفاتها إن لم تعد واعية بشكل كامل للأنوثة بسبب تقدّمها بالعمر.

بعبارة أخرى، من الآية 31 من سورة النور {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ...}، تعلم أن الكلام عن لباس وزينة المرأة في بيتها أمام أهل بيتها من محارمها، وبالأساس هذا يشمل كل امرأة، ولكن في الآية هنا تخفيفٌ عن القواعد من النساء، تخفيف لهن لأنهن تصير من طبيعتهن إهمالٌ ما بسبب فقدانهن لمعنى الأنوثة، وتخفيف عن الأجنبي عليها بأنه ليس مضطرًا لغض البصر عن استهتارها "المقبول" بينما هي لا ترجو نكاحًا ولا هو يرجو بها نكاحًا، ورغم ذلك تنبّه الآية القواعد أن هذا التخفيف لا يعني أنه صار جائزًا لهن الاستهتار بالكامل لدرجة التبرّج بزينة أمام الأغراب.

{وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ}، المرأة القاعدة سواء أكنت عزباء أو أرملة أو مطلقة أو متزوجة... فلتقنع بحالها ولتستعفف وَلَا تتصرّف على أساس أنها لا تزال في عمر الفتوّة والصبا، وَلْتُنْهِ فكرة الرغبة الجنسية من رأسها، {خَيْرٌ لَهُنَّ}، لأنَّ الاستعفاف أفضل لها من التصابي.

{وَاللَّهُ سَمِيعٌ}، يسمع كل شيء، حيث سمح لهذه النساء بالراحة بشكل مقبول داخل المنزل بثياب مريحة لائقة محتشمة وبدون تبرّج حتى أمام غير محارمهن، ولكن لا ينسين أنهن تحت المراقبة، فالله تعالى يسمع كل ما يجري، وَلَا تظنّ أنها حصلت على الإذن لتستغلّه بشكل حرام، وَإِنْ لم يكن لها جسد تغوي به لأنها من القواعد، فلا تتزين لتتصابى، ولا تغوي بكلامها أو بحركاتها...

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ}، يعلم بكل ما يجري، فهي تحت المراقبة.

(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون{61})

{لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى}، الذي لا يرى بعينيه، {وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ}، الذي عنده مشكلة في إحدى رجليه تمنعه من المشي بشكل طبيعي، {وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ}، الذي عنده مشكلة في عمل عضو أو أعضاء من جسده، {وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ}، يا عامّة المؤمنين الأصحّاء، ليس على المذكورين سابقًا أي حرج، {أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ}، حيث من نظرته تعالى إلينا كمجتمع مسلم، يخبرنا تعالى أنه لا داعي للشعور بحالة نفسية صعبة حين نأكل في البيوت التي ستذكرها الآية، تَصَوَّرْ أنك جائع وليس لديك طعام أو ليس معك ثمن طعام وتريد أن تأكل، ستشعر بالحرج حين تأكل في بيت شخص يعلم بأنك جائع ولا تملك المال أو لا تملك الطعام، أو يتعذّر عليك تحضير وطهي الطعام... حيث ستشعر بحاجة للاعتذار منه لأنك تأكل من طعام له... وستشعر بأنه من الأفضل أن تأكل القليل من الطعام ولا تشبع... وستشعر بأنك يجب أن تخبره أنك ستدفع له ثمن الطعام عندما يصير معك مال... أو ستردّ له الطعام عبر استضافته حين يصير معك مال... كل هذا هو الشعور بالحرج طرحته لك في حالته القصوى لنفهم ما تشير له الآية، لذا انتبه أن كلامها ليس محصورًا بالحرج في هذه الحالات فقط، بل هو عمومي حيث تكون ميسورًا ماليًا ولكنك تأكل في بيوت الآخرين لأنك تستصعب تحضير الطعام أو أن حالة جسدك لا تساعدك على إعداد الطعام...

الأعمى والأعرج والمريض هم نماذج تطرحها الآية عن أشخاص لا يستطيعون العمل لإنتاج المال لشراء الطعام، أو قدراتهم الجسدية لا تساعدهم على إعداد الطعام، أو أصلًا لا خبرة لهم بإعداد الطعام... بشكل دائم أو مؤقّتٍ، حيث إن الأولاد والزوج والزوجة، سواء أكانوا أصحّاء أو مرضى، معاقين أو سليمين، ليس عليهم أي حرج أن يأكلوا من بيتهم، وربما يبدو هذا بديهيًا عاديًا معروفًا لك، ولا تجد له معنى أن يقوله القرآن لك، ولكن هناك الكثير من الآباء الذين يمننون أولادهم بالطعام، مما يجعلهم من صغرهم يشعرون بأنهم محرجون حين يأكلون، وذلك حين يقولون لهم: أنا أعمل وأكدّ لأؤمن الطعام وأنت تأكل على البارد المستريح... وهناك مجتمعات تتعامل مع العاجز "الأعمى الكسيح المريض..." بقرف وتعالٍ، وينبذونه، وهو نفسه يشعر بالحرج حين يأكل لأنه عاجز عن العمل أو لا يملك المال أو لا يمكنه استضافة الآخرين على الطعام، أو لا يمكنه إعداد الطعام... لذلك تأتي آيتنا هنا بكلام إلهي صريح ومباشر بنفي

الحرج عنّا لنرتاح نفسيًا إن كنّا بحاجة لمن يضيفنا، ولنتعلّم الأدب الإلهي باستضافة الآخرين بشكل لا يجعلهم يشعرون بالحرج.

ليس عليكم حرج أن تأكلوا من {بُيُوتِ آبَائِكُمْ}، أبوك وجدّك، أو {بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ}، أمك وجدتك، أو {بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ}، من أمكم أو من أبيكم، أو {بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ}، من أمكم أو من أبيكم، أو {بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ}، إخوة أبيكم، أو {بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ}، أخوات أبيكم، أو {بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ}، إخوة أمكم، أو {بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ}، أخوات أمكم.

{أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ}، لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيت أعطاكم صاحبه مفتاحه إن كان هذا يعني أنه مسموح له ولكم التصرّف فيه كأنه منزلكم، {أَوْ صَدِيقِكُمْ}، حيث لا حرج أن تأكل عند من ليس من أقاربك ولكن بينك وبينه علاقة أعلى من المعرفة العابرة أو الصحبة لأنه صديق.

{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ}، لا مشكلة، {أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا}، مع بعض مجموعين على سفرة واحدة، {أَوْ أَشْتَاتًا}، مشتتين متفرقين في الأكل، حيث يأكل أحدكم أو بعضكم في وقت ما والآخرون في أوقات مختلفة. بعض البيوت يلتزمون بمواقيت محدّدة للوجبات اليومية، وحيث لا تكون ظروفك مناسبة للالتزام بتلك المواقيت، لا حرج أن تأكل مخالفًا مواقيت طعام المنزل الذي يستضيفك، طبعًا برضاهم.

ننتبه، هناك أشخاص يعتبرون ما تقوله الآية بديهيًا لأنهم لا يشعرون أصلًا بالحرج من الأكل في هذه البيوت، لأنهم بلا إحساس أو لأن أصحاب البيوت لا يجعلونهم يشعرون بالحرج أو لأنهم يتعاملون مع هذا الموضوع بشكل طبيعي عادي... وهناك أشخاص سيفهمون هذه الآيات بأنها تعطيهم رخصة ليكونوا قليلي الأدب، ويأكلوا من هذه البيوت ما يريدون ومتى يريدون ولا يحق لأصحاب البيت الاعتراض لأن الآية أعطتهم رخصة، بل أمرتهم الآية أن يأكلوا بلا أي شعور بالحرج... لا، لم تجعل الآية لك رخصة لتكون قليل الأدب في بيتك أو في بيوت الآخرين، ولم تجعل الآية بيوت الناس مسرحًا لك لتدخلها ساعة ما تشاء لتأكل، لا، إنما تريد الآية تنبيه الحسّاسين زيادة عن اللزوم أنه لا مشكلة في الأكل من طعام لم تدفع ثمنه إن كان صاحب الطعام راضٍ، بل ويمكنك الطلب من هذه البيوت "أقاربك وأصدقائك" أن يطعموك إن كنت جائعًا، ولكن إن كنت عطّالًا بطّالًا، لا تعمل رغم قدرتك على العمل ووجود فرص عمل، وتستغل هذه البيوت لتأمين الطعام لك، فالآية هنا لا تتحدّث معك، ولم تعطك الرخصة لتستغلّ الناس، لأنها تتحدّث مع الأبناء والضيوف الحسّاسين، المهذّبين المحترمين، ومن ناحية ثانية تُشجّع الآية أصحاب البيوت التي ذكرتهم على استقبال الضيوف المهذبين، وتشجعهم على إطعام العاجزين عن العمل "الأعمى الأعرج والمريض...".

{فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا}، من البيوت التي ذكرتها الآية، {فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ}، حيث من نظرته تعالى لكم كلّكم نفس واحدة، وكلكم بشر من طين. بعبارة أخرى لا تفهموا أن الآية تعطيكم رخصة في قلّة الأدب واقتحام تلك البيوت لتفرضوا أنفسكم عليها لتطعمكم، لا، بل سلّموا على أهلها قبل أن تدخلوها، واطلبوا الإذن بالدخول، وهذا شيء ذكرته السورة سابقًا في الآية 27 التي نبّهتنا أن لا ندخل لأي منزل من دون إذن الساكنين فيه أو أصحابه... لذلك هنا عليك بإضافة تلك المقدمات للإذن بالدخول إلى البيوت، إلى الإذن بالأكل منها، ولا تقتحمها وتتصرّف كأنها بيتك لأن الآية أعطتك الرخصة، لأن هذا غير صحيح.

{تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}، واذكروا اسمه تعالى مع التحيّة، مثلًا: صبّحكم الله بخير، مسّاكم الله بخير...

{مُبَارَكَةً طَيِّبَةً}، ولا تستعملوا كلامًا جافًا، أو جارحًا، أو تقولوا لصاحب البيت كلامًا لا يحبّه... وَلْتَكُونُوا مهذّبين في تحيّتكم. وضمنًا الكلام مع الذين يفهمون الإذن الإلهي ونفي الحرج من الأكل من بيوت الأقارب والأصدقاء، أنه يسمح لهم بالتعامل مع أهل تلك البيوت وكأنهم داخلون على مطعم حيث لا يحتاجون للإذن للدخول، وأنه فرضٌ واجبٌ على أهل البيت تقديم الطعام لهم كأنه شغلهم ذلك...

{كَذَلِكَ}، بهذا الذي ذكرته الآية، {يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ}، يوضّح الأمور المميّزة، ويخبركم بشكل واضح، {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، حيث من المتوقّع ومن المفروض أن تعقلوا كلامه تعالى وتفهموه، لأن الآية لا تتحدّث عن شيء عقائدي يجعلك مؤمنًا، بل تتحدّث عن سلوك ينظّم حياة الناس، وبعد توضيحه عبر هذه الآية، من المفروض منّا أن نستوعبه

ونتصرّف على أساسه بعدما عرضته الآية بشكل واضح يبدو منه احترام خصوصية الآخرين ورفع الكلفية والحساسية الزائدة المبالغ فيها بين الأقارب والأصدقاء ومع المعوّقين.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{ {62)
تستمر السورة بعرض تقويم السلوكيات:

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ}، المعتقدون الملتزمون حَقًّا بهذا الدين هم حَصْرًا وفقط، {الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}، الذين أعلنوا أنهم معتقدون بالله تعالى إلههم الأحد وآمنوا بمحمّد(ع) أنه مرسل منه تعالى، {وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ}، مع الرسول، {عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ}، على شيء جمعهم ليفعلوه أو يريدون فعله فيما بعد، والكلام هنا عن الأمور المتّصلة بشؤون عَامَّةٍ للمسلمين سواء أكان اجْتِمَاعًا وهم جالسون للتشاور في شيء ما، أو اجتمع بعض الأشخاص للقيام بِمُهِمَّةٍ ما، لاستقبال وفد أو إجراء محاكمة في نزاع... {لَمْ يَذْهَبُوا}، فلم يتركوا الرسول(ع)، {حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ}، فيطلبوا منه (ع) الإذن لتركه أثناء وجود أمر يفعلونه أو يريدون فعله معا، مثلا فلنقل إنَّ الرسول(ع) جمع بعض المسلمين ليتشاوروا في مسألة ما، وبعد مرور بعض الوقت لم يصلوا إلى نتيجة، ويحتاج الأمر إلى مزيد من الوقت للوصول إلى نتيجة، فالمؤمن الحقيقي لا يذهب ويتركهم، بل يبقى حتى ينتهوا، أو يطلب الإذن بالانصراف قبل ذلك في حال كان عنده فِعْلًا شيء يستدعي ذهابه.

{إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ}، يطلبون منك الإذن، فيطلبون السماح لهم بالانصراف، والكلام هنا عن الذين فِعْلًا لديهم شيء مهم لينصرفوا إليه تاركين ما اجتمعوا عليه مع الرسول(ع)، {أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}، فطلب الإذن هو علامة على إيمانهم الحقيقي، وأمّا المغادرة بلا إذن أو التهرّب من الاجتماع أو... فهو انعكاس لضعف احترامهم للرسول(ع)... وبالتالي ضعف إيمانهم به تعالى.

{فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ}، إذا طلبوا منك الإذن السماح بالمغادرة، {لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ}، حيث كان عندهم أمور خاصة بهم، من أشغال خاصة بهم في مقابل "الأمر الجامع الذي يخصّ عامّة المسلمين"، فيريدون الذهاب للقيام بأعمال تخصّهم، زراعتهم تجارتهم... {فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ}، حيث إنَّ أمامك الخيار لتسمح بالذهاب لمن تشاء، وبديهي أن الكلام ليس عن مزاجية بل عن الذين ترى أنك لست بحاجة لهم الآن، فإن وجدت أن لديه عمل ضروري جِدًّا ويمكنك الاستغناء عنه الآن فاسمح له بالانصراف... لِأَنَّ الآية أمرتنا بطاعة الرسول(ع) وفي نفس الوقت أمرت الرسول(ع) بأن لا يتسلّط علينا بمزاجه، بل بما يراه مُنَاسِبًا بالحكمة مُرَاعِيًا ظروفنا.

{وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ}، واطلب أيها الرسول(ع) من الله تعالى أن يتجاوز عن سيئاتهم، {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ}، يتجاوز عن السيئات، {رَحِيمٌ}، ولديه عناية خاصة بالمؤمنين.

من المشهور في التاريخ المنقول عن زمن النبي محمّد(ع) أن المسجد كان مَكَانًا للاجتماع للتداول بالشؤون العامّة، وللقضاء بين الناس، ولتعليم الدين... وغالبية الاجتماعات مفتوحة لمن يرغب بالحضور، وبعض الاجتماعات سرية مغلقة لأن شؤونها لا تتحمّل تسرّبها للمنافقين والفاسقين...

من المشهور في التاريخ أنه (ع) لم يعتمد وزراء أو مستشارين محدّدين بصفة ولا بِأَجْرٍ، وأنه ترك الأمور على طبيعتها ليشارك في المشورة والقرار أي شخص يرى أن لديه رَأْيًا أو فكرة مناسبة، وهذه هي الفائدة من هذا النظام المفتوح. ومن المشهور أَيْضًا أنه (ع) كان يعقد اجْتِمَاعَاتٍ مُغْلَقَةً وَسِرِّيَّةً يَدْعُو إليها فقط الذين لاحظ فيهم النباهة والخبرة في الموضوع المراد البحث فيه، فكان (ع) يستدعي لبعض المهام بعض الأشخاص الذين يعتبرهم متخصصين فيها...

هنا الكلام في الآية عامّ بغض النظر عن أي نوع من الحكومة، حيث في عصرنا تنتشر حكومة الوزراء والنواب ورؤساء المحافظات ومجالس البلديات ووظائف الدرجة الأولى والثانية... للمؤسسات الحكومية... وهؤلاء موظفون بِأَجْرٍ ودوام ومهمات محددة، وتنطبق عليهم الآية حيث ترى في بعضهم عقدهم لاجتماعات تبدو عليها الأهمية، ولكنهم

يجتمعون فقط لمصالحهم الخاصّة ليتقاسموا الخيرات التي يمكنهم اختلاسها... وتراهم يخرجون بعرض نقاط الاجتماع التي تناولت ما يهمّ الناس، ولكن عند التطبيق فهم مهملون لا يتابعون تطبيق النقاط.

الآية هنا تطرح نَمُوذَجًا مُتَطَرِّفًا حيث يكون الرسول(ع) شَخْصِيًّا وكواحد من المسلمين مُشَارِكًا في اجتماع ما أو في عمل جماعي ما، لِذَا تُنَبِّهُ المؤمنين من الانصراف قبل إتمام العمل، ومصيبة مصائب غالبية بلداننا التي تسمّى إسلامية أن الموظفين لا ينجزون أعمالهم، وَهُوَ نفس المفهوم الَّذِي تطرحه الآية بالنظر إلى شكل الحكومة في عصره(ع)، ومن البديهي أن كلام الآية عن نموذج، فماذا لو اجتمع بعض المسلمين لاجتماع تباحث أو لإنجاز عمل ما في شأن عامّ... ولم يكن الرسول (ع) بينهم؟ فهل يجوز لهم الانصراف قبل إِتْمَامِ العمل؟ لا. وهذا الكلام البديهي يأخذك إلى حيث ترى أن ذكر القرآن للنبي محمّد(ع) في مثل هكذا أمور مَا هو إلا كلام عنه(ع) كنموذج عن قائد أو رئيس... وليس لحصر الكلام عنه بشخصه كمحمّد الرسول.

بالنسبة لاستغفار الرسول(ع) لمن انصرف... حيث أشار القرآن في عدّة مناسبات إِلَى أن الشيء السيّء حين يحصل فهو سيبقى تصنيفه سَيِّئًا مهما كانت الظروف، وسبحانه يعفو عنه إن لم يكن مَقْصُودًا، ولكن يبقى تصنيفه سَيِّئَةً بحاجة لعفو، حيثُ حِينَ أمرت الآية هنا الرسول(ع) بالاستغفار للمستأذنين الذين معهم عذر، كَانَ حُضُورُهُمْ وَاجِبًا وانصرافهم خطأ يستدعي الاستغفار لهم، وبمقايسة ما اجتمعوا لأجله ولإنجازه مع سبب انصرافهم، فَرُبَّمَا بَقَاؤُهُمْ أهمّ، بل الأرجح لأننا نعتقد أن الرسول(ع) لن يجمعهم إلا لحاجته لوجودهم لإنجاز عمل ما وله أهمية، وبالتالي فمن اعتقد أن الأمر سيتم إنجازه ولا داعي لحضوره، أو اعتقد أن لديه أَشْغَالًا أَهَمَّ وَفِعْلِيًّا لم تكن أهمّ... فهذا ارتكب سُوءًا، لِأَنَّ حُضُورَهُ ومشاركته حتما لها أهمية ما، وعلى الأقل فكّر فيها لو كل واحد قال إِنَّ العدد أكثر من كَافٍ لإنجاز المهمّة فلأنصرف وَلْيَبْقَوْا هم، وهكذا لا يبقى أحد لإنجاز المهمّة!

الذي طلب الإذن للمغادرة ارتكب سُوءًا، وسيبقى تصنيفه سُوءًا حتى لو حصل على الإذن من الرسول(ع)، ولكنه من نوع السيّئات القابلة للعفو عنها، لأنك مؤمن ويعاملك الإله سبحانه بصفة "الرحيم" وهي صفة للمعاملة الخاصة بالمؤمنين، وعلى رأس تلك المعاملة الخاصة هي العفو والمغفرة.

وَبِالْعَكْسِ، تَصَوَّرْ مُنَافِقًا طلب إِذْنًا بالانصراف، وهو فِعْلًا لديه عمل مهم جِدًّا، وحصل على الإذن بالانصراف من الرسول(ع)، فهذا الشخص لأنه منافق فهو غير مشمول بالعناية الإلهية الخاصّة، وسيحاسبه سبحانه على تركه للرسول(ع) حتى لو حصل على الإذن من الرسول(ع) وحتى لو فِعْلًا لديه عمل مهم جِدًّا، وربما تستغرب هذا، ولكن انتبه أنه شيء كرّره القرآن في العديد من المناسبات، وهذه هي المغفرة للذنوب المقصودة وغير المقصودة التي يغفرها تعالى فقط وَحَصْرًا للمؤمنين، حيثُ مِنْ كلّ القرآن نفهم أنه لا غفران ولا عفو ولا مسامحة على أي نوع من الأعمال "السيّئة" التي يرتكبها الكافرون أو المشركون أو المنافقون أو الفاسقون، حتى لو ارتكبوها بالخطأ وعن غير قصد، فانتبه جَيِّدًا لهذا.

(لَا تَجْعَلُوا دُعَاء الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُم بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{63})
يا أيها المؤمنون: {لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا}، حين تشهرون وتعلنون شيئًا ما لبعضكم البعض فلا يكن هو نفسه ما تُعْلِنُونَهُ أو تُشْهِرُونَهُ للرسول(ع)، وهنا سياق الكلام عن إعلان لحضور أو لعمل... فإذا دعاكم الرسول(ع) للحضور إليه أو لتنفيذ عمل... بأي موضوع كان، فلا تعتبروا دعوته "إعلانه إشهاره" مثل دعوة أي شخص آخر حيث يمكنكم تلبيتها أو رفضها، لا، بل دائمًا يجب تلبية دعوة الرسول(ع) لتنفيذ ما أعلن عنه لكم، سواء أكان عن الذهاب إلى حيث يأمركم أو بالحضور لاجتماع أو لتنفيذ عمل ما...

{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ}، تحقّق علمه تعالى بالذين ينسحبون على مهل وبشكل لا يشعر به الآخرون، حيث ينسحبون وهم يستترون بشيء ما يغطّي انسحابهم، فَيَكُونُ بقرب الباب وَيَنْسَلُّ منه بسرعة... أو يستغلّ حالة انشغال الناس وينسحب من دون أن يشعروا به، وهذا هو التسلل. {لِوَاذًا}، حيث يتسللون كما تقول: لاذ بالفرار، لاذ بالهرب... هنا لاذ بالتسلل، إِذْ حصل معه شيء ويريد الفرار منه، وَمِمَّا حصل يريد الابتعاد، وهذا هو اللوذ، لِأَنَّ التسلل بشكل عام يتضمّن شيئًا خاصًّا بك عليك الذهاب لإنجازه من دون علم الآخرين به، وَرُبَّمَا تذهب لعمل لا تريد إخبار الآخرين به

لِذَا تذهب من دون طلب الإذن حتى لا تُحْرَجَ، أمّا هم، فتسللهم لواذا، يعني بقصد الفرار والابتعاد عن المشاركة بتنفيذ الأوامر والمهام الصادرة عن الاجتماع بالرسول(ع).

لاحظ الآية استعملت "قد" مع فعل مضارع "قد يعلم"، ولو استعملنا قد مع الفعل الماضي هكذا: قد علم الله الذين يتسللون... فَإِنَّنَا نَفْهَمُهُ بسهولة على معنى أنه تعالى فِعْلًا علم بهم، كما ورد في الآية 4 من سورة ق "قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ". ولكن يجد البعض مشكلة في فهم استعمال "قد" مع فعل المضارع كما ورد في الآية هنا: قد "يعلم" الله الذين يتسللون... حيث يُفْهَمُ منها أنه تعالى الآن لا يعلم، وَأَنَّهُ رُبَّمَا يحصل لديه علم فيما بعد، وَرُبَّمَا لا يحصل لديه علم، لِتَصِيرَ الجملة مرادفة لـ: يمكن أن يحصل علم لله بـ... ولكن القرآن استعمل "قد" مع الفعل المضارع عند كلامه تعالى عن نفسه حتى يشير إلى نفس ما تشير إليه "قد" مع استعمالها في الفعل الماضي، حيث كَمَا تقول: "قد" حصل لديه تعالى العلم بشيء وقع في الماضي، فَأَيْضًا تقول: "قد" حصل لديه تعالى العلم بشيء يقع الآن أو سيقع في المستقبل.

نحن البشر لا يمكننا وصف أنفسنا بهذه الطريقة لأننا لا يحصل لدينا علم بما سيقع، بل يحصل لدينا العلم فقط بما وقع في الماضي أو يقع أمامنا الآن، أمّا تعالى فهو عالم الغيب، فيعلم ما حصل في الماضي وما يحصل الآن وما سيحصل في المستقبل، ولذلك يمكنه سبحانه التعبير عن علمه بالمستقبل بـ"قَدْ يَعْلَمُ"، أمّا نحن البشر فلا يمكننا التعبير بهذه الطريقة عن أنفسنا إلا بخبر علمناه من الإله عالم الغيب، أو بالتقدير والاحتمال القوي من التحليل والتوقّع.

بِنَاءً على هذا العلم بما سيحصل، {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ}، فلينتبه الَّذِينَ علموا بأمره تعالى بوجوب تلبية دعوة الرسول(ع) وعلموا بوجوب البقاء مع الرسول(ع) لِأَنَّ هناك احْتِمَالًا وَارِدًا أن يصيبهم شيء سَيِّئٌ من تسلّلهم، فليحذروا، {أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ}، بِأَنْ يَقَعُوا في شيء يمكن أن يغيّرهم، لِأَنَّ هذا التصرّف يجعلهم يسقطون ليصيروا فُسَّاقًا ومنافقين، {أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، حيث يصيبهم ضرر لن يكون عَادِيًّا ولا هَيِّنًا، سواء هنا في الدنيا أو في الآخرة، يعني فَلْيَأْخُذُوا عِلْمًا بِأَنَّهُمْ يتسللون من الرسول(ع) ولكنهم تحت المراقبة الإلهية، وهناك عواقب وخيمة بانتظارهم.

بقي شيء، الآيات هنا التي تحدّثت عن أوامر إلهية بطاعة الرسول محمّد(ع)، فهل فقدت معناها التطبيقي بعد مماته (ع) وصارت من التاريخ؟ لا، فالرسول محمّد(ع) نموذج طرحه القرآن كقائد للأمّة أو للمجتمع، وَبَدَلًا منه (ع) تفترض نفس الأمور مع قائد أو حاكم أو رئيس... مسؤول عن أمور المسلمين العامّة، فلا يجوز مخالفة أوامره المتماشية مع كلامه تعالى، ولا يجوز التهرّب والتفلّت من المهام الموكلة إلينا... وأبرز مثال عن ذلك الفساد الذي تراه مُنْتَشِرًا بين المسؤولين عن بلداننا وإهمالهم لِمَهَامِّهِمْ الرئاسية والوزارية والنيابية والحكومية والبلدية والوظيفية... حيث إِنَّهُمْ لا يعتبرون أنفسهم مُوَظَّفِينَ يجب عليهم تبرئة ذمّتهم أمامه تعالى عن المواقع التي تَنَصَّبُوا بها وعن الأشغال التي توظّفوا لإنجازها، ولا عن معاشاتهم التي يقبضونها من خيرات البلاد وأموال الناس، بل انْتَشَرَتْ بينهم عقلية ونفسية الفرصة المتاحة لاستغلال المناصب وسرقة ونهب أموال البلاد والناس... حيث مَا تذكره الآية هنا قبل ذلك بكثير... لِأَنَّهَا تتحدّث عن المتهربين من المشاركة في الاجتماعات التي سينتج عنها تكاليف للحاضرين فيها، أمّا حكّامنا وَمَسْئُولُونَا، فيكثرون من الاجتماعات ومهتمون بها لأنها أماكن تَخَالُفِهِمْ على حصصهم من نهب البلاد والتسلّط على العباد...

(أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{ 64})

{أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، السماوات السبع وُصُولًا إلى أرضنا هي حدود دنيا المخلوقات، وفيها كل شيء خلقه تعالى، وبكل تأكيد كُلُّ شيء فيها له تعالى، منسوب له تعالى خلقها وملكها وإدارة شؤونها... {قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ}، فتحقّق فِعْلًا علمه تعالى بما أنتم عليه، حيث يعلم حالتكم التي أنتم عليها، فهو المنسوب له كل شيء، وأنتم من ضمن المنسوبين له ككائنات في الدنيا التي صمّمها وخلقها هو سبحانه ويتابع شؤونها، وهو تعالى يعلم كل شيء، حيث يعلم ما أَنْتُمْ عليه في الماضي أو الآن أو في المستقبل، لِذَا تَحَقَّقَ علمه بحالكم، "راجع ما ذكرناه بتوسّع عن "قد يعلم" في الآية السابقة"، {وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ}، فبعدما تَمُوتُونَ ويتم إرجاعكم إلى الحياة في الآخرة لتقفوا بين يديه تعالى، {فَيُنَبِّئُهُمْ}، حيث يخبرهم بأمور غير منتشر علمها بين الجميع، {بِمَا عَمِلُوا}، حيث سيرون كل ما عملوه بالتفصيل مُسَجَّلًا في كتاب خاص بكل واحد منهم، كتاب لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها كما ورد في الآية 49 من سورة

الكهف "وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا".

{وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، لا شيء يغيب عن علمه تعالى بَتَاتًا مهما كان كَبِيرًا طَوِيلًا مُهِمًّا... أو كان صَغِيرًا تَافِهًا... وأينما كان في أي زمان... أو بدون زمان... أينما كان في أي مكان... أو بدون مكان... فهو تعالى يعلمه، وَبِنَاءً عليه فلنحذره تعالى لأنه يراقبنا وسيحاسبنا على ما فعلناه.

سورة الفرقان (25) ص 359
تركيز السورة على الجاهل الذي اعتراضاته على الدين الإلهي نابعة من طيشه وهواه، فيرمي الكلام ضد دين التوحيد وضد الرسول الإلهي بلا تفكير ولا دراسة، ويطلب حصول آيات لم يدرس معناها ولن يؤمن حتى لو حصلت...

تَشْعُرُ بأن السورة تطرح إشكالات الكافرين على الدين الإلهي بشكل واضح، ولكنك لا ترى الجواب على الإشكال بشكل واضح! لأنك تفكّر بالمنطق والعقل وتتوقّع جَوَابًا... فأراد تعالى عبر هذه السورة لفت انتباهك لتفاهة المستوى المنخفض لما يقولونه وهم معتقدون أنها إشكالات قوية على دينه تعالى.

النِّقَاطُ التي تطرحها السورة هنا من إشكالات وسؤالات واعتراضات واقتراحات لآيات... طرحتها هذه النوعية من الناس الجاهلة المتبعة لهواها الفاسد وبالتالي الرافضة للإيمان بدينه تعالى حتى لا تتغيّر عن فسادها، حَيْثُ ستجد سُوَرًا أخرى فصّلت الإجابة لإبطال تلك الإشكالات، وبشكل دقيق ومركّز ومن كل الجوانب، أما هنا فتجد جَوَابَاتٍ ابتدائية لترى أن من طرحها طرحها بلا تمعّن ولا دراسة، حَيْثُ قبل أن تفكّر بالردّ تنتبه لسخافة ما يقولونه، وهذا شيء تتميّز به هذه السورة عن بقيّة السور بشكل مُلْفِتٍ.

خذ مَثَلًا عندما قالوا إنَّ الرسول مسحور، حَيْثُ قالوها هكذا جملة بلا دليل عليها، ولا قصّة لها! كجملة من الحائط يقولونها! فمن سحره؟ وبماذا سحره؟ وكيف سحره؟... لم يقولوا أي شيء، فقط هكذا: هذا الرجل مسحور. وخذ مَثَلًا الآيات التي طلبوها ليؤمنوا... حَيْثُ ستلاحظ تركيز السورة على حصر كل الكلام الفارغ من هذا النوع هنا في السورة، لتريك كم هم ساذجون وسخيفون، وتلاحظ أشدّ تركيزها على ندمهم في الآخرة عن هذا الكلام الفارغ.

عَرَضَتِ السورة إشكالات عن القرآن بأن مصدره قصص خرافية من كتب أهل الكتاب... وعن بشرية الرسول فهو ليس مُمَيَّزًا بشيء إلهي... وطلبهم لآيات ليؤمنوا ومنها رؤية الملائكة(ع) والإله سبحانه الآن، واستغرابهم من نزول القرآن على دفعات... وَطَبْعًا عرضت عقيدتهم التي اخترعوا فيها آلهة من خيالهم وأوهامهم، وعرضت إنكارهم للآخرة... ولفتت الانتباه للآيات العديدة من حولنا كأدلّة حسية على كلامه تعالى عن التوحيد والآخرة... لِأَنَّهَا أكثر من كافية للعاقلين ليؤمنوا... وفي ختامها عرضت أبرز السيئات التي توعّد سبحانه عليها بعقاب شديد لمن يفعلها لتنتبه أَنَّ الدعوة لدينه تعالى مبنية على ترك السوء في الفكر والسلوكيات، وليست دعوة لدين العجائب والخوارق، ولتكون السورة بَلَاغًا عن شدّة العقاب للجهلة المستهترين غير الواعين لمصيرهم...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً{1})
{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ}، أعماله سبحانه التي يقوم بها مباركة لأنها كلها خير، ونزّل {الْفُرْقَانَ} الذي يفرّق بين شيئين، والمقصود بالفرقان هنا هو الآيات النازلة على النبي محمد(ع) لأنها تبين الفرق بين ما يأمرنا به سبحانه من توحيده وعبادته و... وهو "الحق"، وتبين ما يجب تركه وهو الشرك به تعالى والقتل والخيانة و... وهذا "الباطل"، فتكون الآيات النازلة على النبي محمد(ع) فرقانا تفرق بين الحق والباطل.

{نَزَّلَ} تعالى {الْفُرْقَانَ}، {عَلَى عَبْدِهِ}، على المفروض منه وعليه الطاعة، والكلام عن النبي محمد(ع)، وكل المخلوقات عبيد لله تعالى، وكذلك النبي محمد(ع)، وبناء على كونه عبدا فهو سيقوم بوظيفة نقل الفرقان للآخرين.

وسنرى في بقية السورة أيضا أهمية معرفة كون النبي(ع) عَبْداً لله تعالى، فبناء على عبوديته (ع) لن نتوقع منه فعل أشياء خارقة من عنده.

سبب تنزيل القرآن على النبي(ع)، {لِيَكُونَ}، النبي(ع) المزوّد بالفرقان، {لِلْعَالَمِينَ}، لكل الناس، {نَذِيرًا}، ناقلا للخبر السيّء من عقاب أكيد في الآخرة لمن توافرت فيه شروط العقاب.

هذا هو الملخص عن كل موضوع السورة، فكل من يقرأها أو يسمعها فليعلم أن الرسول محمدا (ع) نزل عليه القرآن منه سبحانه لينذر الماشين على طريق يوصلهم حتما للعقاب الإلهي، ووصل الإنذار، فلا عذر لكم بعد ذلك إن عذّبكم سبحانه.

ستذكر السورة نماذج عن الذين هم فعلا في حالة المصير إلى النار، فكلامها إنذار لهم من مصيرهم الحتمي إن بقوا على ما هم عليه.

ضع في بالك دائما الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى مَعَانِيَ قرآنية رائعة، تصور شخصا أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، هنا تحذّره من سلوك الطريق السيّء، لأنه حاليا ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ}، والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}.

أمّا إذا سلك طريق الخطر، فتنذره، لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. فالإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتما ما يضرّه، وتنذر الكافر حيث هو في حالة ستسبّب له العقاب حتما، وورد هذا كثيرا في القرآن. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يتلبّس بما سيسبّب له الضرر، وتحذّر المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

هذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، إذ يقوم المؤمن بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، تُنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة المسيحيين المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}، وعموم المؤمنين المشمولين بالتهديد من فكرة فعل السيئات على أساس أن يحمل أحد ما السيئات عنهم {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}، والمشمولين بالتهديد إن لم يتغيّروا نحو الأحسن الْمَوْعُودِينَ بالمغفرة كما ورد في الآية {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}، ونفس المفهوم في الآية 45 من سورة النازعات {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا}.

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً{2})
{الَّذِي لَهُ مُلْكُ}، كسؤال عن: لمن الملك. الجواب: منسوب له صفة تبعية شيء مع السيطرة والتحكّم، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وهذا التعبير القرآني يشير عادة إلى حدود كل دنيا المخلوقات.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضا على قبّة النجوم التي نراها ليلا، ونطلقه أيضا على عالم الملائكة(ع)، ونطلقه معنويا على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائما أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنويا" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}... وهي إشارة إِلَى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أَرَاضٍ "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضا بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أَرَاضٍ.

عادة نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير فنستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، فنقول: خلق سبحانه الدنيا، أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيرا صحيحا دقيقا بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى}. لأنه سبحانه دقيق في تعابيره ويحدّثنا بدقّة عمّا يعلمه، وكلامه تعالى عن السماوات والأرض هو كلام عن علم بما أمامه سبحانه، حيث إنَّهُ دائما يتكلم بشفافية عمّا أمامه فقط، أمّا الكلام عن كلّ ما في الدنيا، فهو كلام عمومي ويشمل "نظريا" ما هو خارج العلم، ولذلك لم يستعمله تعالى، بينما ترى استعماله في كلام عموم البشر لأننا نتساهل ونتراخى في التعبير.

{وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا}، لا ذكرا ولا أنثى ولا غيره، لأنه يملك كل شيء ولم يحدّد أن هذا الشيء أو هذا الملاك أو هذا الإنسان... هو ولد له تعالى.

ننتبه لدقة التعبير، ربنا سبحانه ليس من الممكن أن يخرج منه ولد، أو ينفصل عنه ولد، أو بأي صورة نتخيلها فمن المستحيل أن يكون له ولد، وإذا قالوا بأن هذا الإنسان أو ذاك الملاك أو ذلك الشيء ولد له تعالى... طالما أن كل شيء مخلوق مملوك له تعالى، فأي شيء يقولون عنه بأنه إله فسيكون من الأشياء التي يملكها تعالى، وها هو سبحانه يخبرنا أنه لم يتخذ "لم يجعل، لم يحدّد، لم يعيّن..." ولدا من أي من مخلوقاته. ولم يعتبر واحدا من مخلوقاته ولدا له. والبشر وضمنهم الأنبياء والملائكة والجن وغيرهم من المخلوقات كلهم عبيد لربنا سبحانه، وبقية الأشياء كالكواكب والنار والرياح... لأنه تعالى خلقها ويملكها.

{وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ}، من الأول هو سبحانه لوحده، ومن الأول لم يكن هنا أحد يشاركه في تصميم وصنع وخلق ما في الدنيا من المخلوقات والظواهر، إذ لم يكن له من البداية أي شريك له حصة في هذه المخلوقات، وكلها لله تعالى، وفيما بعد لم يعط سبحانه ملكية أو سيطرة أو تحكّم من مستوى إلهي لأي أحد.

{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ}، لوحده ركّب وألّف كل شيء، من المواد التي نعرفها "حديد، نحاس، كربون..." خلقنا وخلق كوننا... ومن المواد التي لا نعرف عنها إلا اسمها كخلق الجنّ من النار... والتي لا نعرف عنها شيئا كخلق الملائكة(ع) مما لا ندري ونعبّر عنه في أدبياتنا بأنه نور... خلق سبحانه وألّف وركب الأشياء والمخلوقات من تلك المواد المختلفة، ولا أحد شاركه تعالى في التركيب والتأليف، بل كل شيء تم بتخطيطه وبأمره لوحده سبحانه.

{فَقَدَّرَهُ}، جعل له مقدارا، وحدّد كلّ ما يتعلّق بما خلقه، {تَقْدِيرًا}، بكل ما تحمل كلمة تقدير من معنى. لأنه لم يخلقنا ويتركنا وهو سبحانه لا يعلم ماذا سيحدث فيما بعد، ولم يخلقنا ويتركنا لأحد كائناته ليتحكّم بنا، ولم يتركنا هكذا للصدفة... لا، بل خلقنا عن تخطيط وهو سبحانه يعلم بالضبط ماذا سيحصل فيما بعد. كما نقول: خططت لمشروعي تخطيطا. ونقصد أننا انتبهنا لكل التفاصيل. فسبحانه قدّر وحدّد وخطّط وصمّم كل شيء بدقّة، والمصير وما سيحصل مع كلّ شيء معلوم عنده تعالى بالضبط وبكل تفاصيله، سواء من ناحية توقيت خلق الكائن، وفي أي بيئة... وطوله وشكله ومدّة حياته... وما سيحصل معه... ونهايته... كلّه مقدّر محدّد.

ننتبه دائما أنه تعالى يتحدّث معنا بشفافية في كل المواضيع، من نظرته سبحانه للسماوات والأرض لا يرى إلا ما خلقه هو، حيث يرى السماوات والأرض وهي حدود الدنيا التي فيها المخلوقات، وملكها له، ولم ير أي أثر في أي شيء فيها لأي كائن آخر من مستوى إلهي، وبالتالي عندما يخبرنا بأنه الإله الواحد الأحد، بكل شفافية يخبرنا مما يراه، وهذا ما تراه بوضوح من الآية 18 من سورة يونس {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}، ويخبرنا سبحانه عن نفسه بأنه لم يحدّد من مخلوقاته ولدا، ولم يعط ملكية من مستوى إلهي لأي كائن ليتصرّف بها كما يريد... حتى لو فرضا خلق سبحانه كائنا بقدرة عالية جدا جدا عن البقية، بكل شفافية يخبرنا سبحانه أنه لم يحصل أن سيطر كائن على أي شيء في الدنيا من مستوى إلهي، لأنه سبحانه دائما يرى نفسه فوق الجميع وَقَادِرًا وبسهولة على فرض ما يريده على الجميع.

(وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً{3})

حتى نفهم هذه الآية بشكل سهل عليك بالتفكّر فيها من الناحية الإلهية، حيث الإله الذي يعرف نفسه بأنه الإله الأحد الخالق لكل شيء، المالك لكل شيء، وقدرته وسلطته على كل شيء... ومن هذه النظرة كل ما يقولونه عن إله أو آلهة غيره، وبأي طريقة كانت، وتحت أي فلسفة أو حجج... فهو غير حقيقي ولا صحيح.

{وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً}! كما نقول: ذهبتم من دوني. ونقصد: ذهبتم مع غيري. بَعْضُ الناس اعتبروا غيره تعالى آلهة وتركوا توحيده، مع العلم أنه الإله الأحد! وَتَرَكُوا توحيده سبحانه وقالوا الملائكة أو الجن أو الكواكب أو النار أو أرواح الأجداد أو الإنسان الفلاني... هو إله!

كل تلك المخلوقات التي قالوا عنها إنها آلهة، وبأي شكل تصوّروها فهم {لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا}، لا يألّفون ولا يركّبون أي شيء من مستوى إلهي، وَالكلام هنا عن ألوهية تلك الكائنات، التي لا يمكنها خلق أي شيء إلا بإذنه تعالى مما يعني أنها ليست آلهة، لأنها مخلوقات صنعها ربنا سبحانه ولا أحد منها لديه قدرة "إلهية" على خلق أي شيء، هذا إن كانت آلهتهم كائنات كالملائكة(ع) أو الأرواح أو الكواكب... أمّا إن كانت آلهة وهمية من خيالهم وليس لها كيان حقيقي فهي وهمية من صنع تخريفاتهم وَلَنْ تخلق شيئا لأنها أصلا هي غير موجودة، كآلهة الحبّ والخصوبة وإله الخمرة.

تلك المخلوقات التي يقولون عنها إِنَّهَا آلهة، {لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا}، يرى سبحانه بكل وضوح أن السيطرة المطلقة له تعالى، ولا أحد غيره ولا بأي طريقة يمكنه نفع نفسه لِيَجْعَلَهَا تستفيد، أو يضر نفسه لِيُغَيِّرَ حاله لِلْأَسْوَأِ، ولا يزال الكلام عن الضرر والاستفادة من مستوى إلهي، وَلا يمكنهم فرض الضرر على أنفسهم إن قرّر سبحانه لهم ألا يتضرّروا، ولا يمكنهم أن ينتفعوا إلا إذا سمح تعالى لهم، فكيف تكون تلك الأشياء آلهة إن كانت تحت سيطرته تعالى!

تِلْكَ التي اتّخذوها آلهة، {لَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا}، لِأَنَّهُ سبحانه الذي يقرّر حصول كل ذلك، ويسمح بحصول كل ذلك... فكيف يكون غيره إِلَهًا إن كان يحصل على حياته منه تعالى! ويموت لأنه تعالى أماته؟ ويعود إلى الحياة ليكون منشورا معروضا مرّة ثانية ككائن حيّ بأمر منه تعالى؟ فكيف يكون الموصوف بهذه الصفات إلها!

لننظر لما تقوله الآية من النظرة الإلهية لكل شيء، فليس مهمّا ما هو نوع الإله الذي قالوا عنه، سواء أكان صنما، إنسانا، جبلا، نارا، ملاكا، كوكبا... ليس مهما نوعه، وليس مهمّا معرفة الصفات التي ينسبونها لآلهتهم، ولا حاجة لذكر الأنواع المتعددة من عقائد المشركين، إِذْ كُلُّهُمْ في نظر الإله سبحانه ومهما كانوا، هم تحت سيطرته وقدرته، ومخلوقات مملوكة له تعالى.

إِنِ اخْتَرَعَ أَحَدٌ مَا من وهمه وخياله آلهة لا وجود لها ولا كيان ولا أثر... كإله الحرب وإله الرعد وإله الكرمة وإله الزرع... فهذا اختراع هو اخترعه من وهمه، ولا تعيره الآية أي اهتمام لِأَنَّ هذا تخريف.

بقي شيء، حيث نقل القرآن صراحة أن النبي عيسى(ع) خلق من الطين طيورا، وَنَبَّهَتْنَا الآيات أن هذا الخلق كان بإذنه تعالى، وتقرأ ذلك في الآية 110 من سورة المائدة {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي...} فليس بقدرة ذاتية إلهية قام النبي عيسى (ع) بخلق الطيور أو إحياء الموتى... لا، بل بمنحه تعالى لعبده (ع) القدرة على التصرّف بمستوى عَالٍ ببيئته، والكلام هنا في الآية عن كائنات يقول بعض الناس إِنَّهَا آلهة، وَتَنْفِي الآية عن غيره سبحانه القدرة الإلهية على خلق أي شيء وتحصرها فقط وفقط به تعالى.

حاليا يمكننا خلق أي حيوان من خلية جذعية، أو ذبابة بلا أجنحة بعد التلاعب بجيناتها، وقد نتمكّن في المستقبل من صنع الجينات كيميائيا من الصفر من المواد الأولية ووضعها في بيئة تُشْبِهُ الخلية الجذعية ليتشكّل منها كائن... هذا خلق، ولكنه ليس من مستوى إلهي، لأن البيئة والمواد التي نتج عنها المخلوق هي من خلق الله أصلاً ولا علاقة للإنسان باختراعها من لا شيء، وقبل ذلك أَنَا مخلوق أتمتّع بقدرات ممنوحة لي من الإله الخالق...

إلى هنا انتهت المقدمة التي تبين أن الله سبحانه وحده المبارك المالك، ولا إله إلا هو، وأحد أهم الأدلّة عليه تعالى هو هذا القرآن الفرقان، مع لفت الانتباه لعقلانية النظرة للدنيا التي ترينا بوضوح أَنَّ هناك إِلَهًا وَاحِدًا أَحَدًا يملكها ويدير شؤونها، ومن هنا ستدخل السورة في بعض ما يقوله الكفار مقابل توحيده سبحانه:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً{4})
{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، والكلام عن الذين لم يؤمنوا به سبحانه وحده الإله... قالوا:

{إِنْ هَذَا إِلَّا}، أَيْ هذا الكلام "القرآن" الذي يقوله محمد بأن الإله أحد، وليس عنده شركاء وأنه يوجد عقاب على الشرك وَهناك آخرة وحساب وجزاء... كُلُّ هذا هو فقط، {إِفْكٌ}، لِأَنَّهُ تغيير للحقيقة بالمقلوب، وَالصحيح أنه يوجد آلهة أخرى، {افْتَرَاهُ}، غير صحيح وألصقه محمد بالواقع، {وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ}، وساعد "محمدا(ع)" على إفكه وافترائه، {قَوْمٌ آخَرُونَ}، أناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الدين غير جماعتنا نحن، كأناس من اليهود أو النصارى أو الصابئة... وَهَؤُلَاءِ اسْتَعَانَ بهم ليخترع دينا جديدا مخالفا لدين أهل مكّة وعامّة العرب.

{فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْمًا}، محمّد والذين أعانوه لم يكونوا محقّين فيما فعلوه، وجاؤوا، {زُورًا}، إِذْ لم يأتوا بالكلام الصحيح بل بكلام مزوّر يشبه الكلام الديني ولكنه كلام غير صحيح.

تلاحظ آيات عديدة في سور مختلفة من القرآن ردّت على هذا الكلام بشكل عميق، حَيْثُ تحدّت الناس أَنْ يقوموا بتأليف كتاب أو سور أو حتى سورة مثل القرآن، وَلَوْ كان فعلا من تأليف محمّد وأعانه عليه آخرون فيمكنكم أن تألّفوا مثله، فجرّبوا... وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة يونس {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، وسور أخرى لفتت انْتِبَاهَنَا إلى أميّة الرسول محمّد... وأخرى إلى مرور مدّة طويلة من حياته قبل نزول القرآن عليه وفي تلك المدّة لم يسمع الناس منه كلاما مثل كلام القرآن كَيْفَ وفجأة تأتيه الموهبة! وتفهم ذلك من الآية 16 من سورة يونس {قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}، ولفت القرآن انتباهنا لنزوله على مدة طويلة من السنين وتاريخيا لا نعرف أي شخص ممن كان حول النبي(ع)، ومتّهم بتأليف القرآن عَاشَ معه (ع) طيلة حياته... وغيرها من الردود... أمّا هنا فاكتفت الآية بنقل ما يرميه الكافرون جزافا لا عن دراسة ولا عن تفكير، إِذْ فقط هكذا يرمون التهمة وبلا أي دليل! مَا الذي ورد في القرآن ويشير إلى تأليف محمّد له؟ ومن هم الذين ساعدوه لتأليف القرآن؟ هَلْ دقّقوا وحدّدوا أَشْخَاصًا عندهم الثقافة المعلوماتية واللغوية والمعرفية التي تؤهلهم لتأليف القرآن؟ وهكذا ترى تركيز السورة بالتحديد على رميهم لهذه الاتهامات بشكل فارغ من أي تفكير أو تدقيق فيها...

(وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً{5})
{وَقَالُوا}، هؤلاء الكفرة: إن ما يقوله لنا محمّد عن التوحيد والآخرة والحساب والجنة والنار... هي، {أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}، وَهِيَ قصص خرافية كان يرويها الناس القدماء الذين كانوا أولا وقبلنا، لِأَنَّهُمْ جاؤوا أولا ونحن ثَانِيًا.

السطر هو عموم ما انتظم مع غيره، وأوضح استعمال له على المعنى الأساسي كلمة مِسْطَرَة، وهو ماديا كالوقوف في صفوف، وكتابة الجمل بنفس التباعد... ومعنويا هو وصف للكلام المتتالي جملة بعد جملة، حَيْثُ نقول سطّر بيوتا من الشعر، ولا نقصد أنه كتبها على الورقة بل نقصد أنها تألّفت مرتبة. وكلمة أساطير وردت في القرآن تسع مرات وسياق الكلام يقصد كلاما فيه مبالغات أو خُرَافِيًّا.

تلك القصص الخرافية، {اكْتَتَبَهَا} "محمد(ع)" وَجَاءَ بها من الكتب، حَيْثُ ذهب عند اليهود والمسيحيين والأشخاص الذين يحكون القصص... ليكتتب تلك الأساطير وَيَسْمَعَهَا منهم وهم يقرؤونها من الكتب.

لاحظ أننا في عصرنا نقول: أتعلّم في المدرسة أو الجامعة، أمّا قديما فكان اسم حالة التعلّم من كتاب: كُتَّاب، كَتَاتِيب. وإذا نقلت كلاما من شخص قرأه لك من كتاب، فأنت تكتتب، يعني: تنقل كلاما من كلام شخص عن كتاب.

{فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ}، وَيَسْمَعُهَا منهم، {بُكْرَةً}، في أول الوقت، من الصباح، {وَأَصِيلًا}، حتى آخر الوقت من النهار. مثلما نقول بالعامية: من الصبح للمسا. وَكُلَّ النهار يسمع منهم ويخزّن المعلومات ويأتي إلينا ليقول إنَّهَا تنزل عليه وحيا من الإله.

هذا الاتهام من أصله لا دليل عليه، وَهُوَ فَقَطْ مجرّد اتهام، وتعرضه الآية كما قالوه بالتمام لتبيّن أنه من نوعية الكلام بلا دليل ولا تحقيق لِأَنَّهُ كلام بلا قيمة، وبأقل مقارنة بين ما في القرآن وما في الكتب الأخرى، سَتَجِدُ القرآن يصحّح ما تحرّف من التوراة والإنجيل، وستجد فيه قصصا وتفاصيل عن قصص ليست موجودة أصلا في التوراة والإنجيل، والمسيحيون أو اليهود... الذين التقى النبي محمّد (ع) بهم في مكّة في أوّل سنوات الدعوة هُمْ لم يرافقوه في بقية حياته حين هاجر، بِمُسَاعَدَةِ مَنْ تألّفت السور التي نزلت بعد الهجرة؟

في كلامهم اتهام لكون الكتب الإلهية السابقة أنها أساطير، كقصص غير حقيقية، وسيأتيك في الآية 35 وما بعدها دليل ملموس مشهور عن رسل إلهية مرّوا عبر التاريخ وكان لهم أثر معلوم، وَقَصَصُهُمْ ليست أساطير... وقبل ذلك ستعرض السورة مشاهد من يوم القيامة، وهم يقولون عنها إنَّهَا أساطير، وَتُرِيهِمْ ما هي الوقائع الفظيعة التي سيواجهونها، وليتحمّلوا حينها نتائج تكذيبهم لكلامه تعالى.

بقي شيء، ما لدينا من نقل لتاريخ زمن النبي محمّد(ع) جَاءَنَا بغالبيته الساحقة من المسلمين، وهؤلاء حين فسّروا القرآن باحثين عن علاقته بالتاريخ، كَانُوا في أكثر الأحيان يفترضون ويحتملون تخمينا، وَيُلْصِقُونَ حادثة ما بآية ما، أو يلصقون شخصا أو أشخاصا بآية ما، وكثيرا ما غيّرت تفسيراتهم من الواقع مِمَّا حَرَّفَ التاريخ، وتفسيراتهم غيّرت معنى الآيات، هُنَا مثلا، بحثوا فيما يَعْلَمُونَهُ عن أشخاص محددين من أهل الكتاب كانوا في مكّة ليفسروا آيتنا هنا بأن كلام الكفّار يقصدهم، ونتج عن ذلك نسج لتاريخ مبني على الاحتمالات والافتراضات ولكنه معروض على شكل توثيق! لِلْوَهْلَةِ الأولى ومن دون تعمّق رُبَّمَا تظن أن رواياتهم ناقلة لأحداث هم عاينوها أو منقولة عن شهود عيان، وأنهم كانوا حاضرين حين نزلت الآية وهي تشير لحادثة أو لشخص، أو أَنَّ الرسول(ع) أخبرهم أنها تتحدّث عن حادثة محدّدة أو شخص ما... وهذا وهم لأنه نادرا ما حصل. وكمثال على ذلك دَقِّقْ بروايات ابن عبّاس الذي إمّا لم يولد أو كان طفلا حين نزول أكثر سور ما قبل الهجرة، وسورتنا هذه منها، حَيْثُ على الأكثر كان عمر ابن عباس قرابة أَرْبَعَةِ أَعْوَامٍ حين توفّي النبي محمد(ع)... وللأسف نتعامل مع الروايات المنقولة عنه وكأنها منقولة عن شاهد عيان، أو هو نقلها عن شهود عيان، والغالبية الساحقة من رواياته مبنية على الاحتمالات والافتراضات والتخمينات وإكمال السناريوهات...

للمشكلة جانب آخر أخطر، تراه بوضوح في آيتنا هنا، بِنَاءً على فهم الذين فسّروا آيتنا هذه وأمثالها، تراهم يثبتون شيئا أراد القرآن نفيه؟! إِذْ إِنَّ السورة هنا ركّزت على نقل القرآن لكلام قاله الكفّار جزافا من دون أي تدقيق أو تأكيد، ككلام استهتاري، لِأَنَّهُمْ لم يروا شخصا يحمل كتابا فيه قصص ويتلوها على الرسول(ع)، وأصلا لم يقصدوا تحديد شخص ما ليتّهموا الرسول(ع) بأنه ينقل عنه كلامه الديني، بل هم هكذا استهتارا رموا التهمة على الرسول(ع)، على معنى: لا ندري من ضحك على محمّد بهذه الأخبار عن الإله والآخرة... وهو بِدَوْرِهِ ينقلها لنا ليضحك علينا معتقدا أننا سنصدقّه ونترك ديننا.

إذا كان الكفّار أنفسهم لم يحدّدوا شخصا أو أشخاصا يتّهمون النبي(ع) بالنقل عنهم، فمن طلب منكم أيها المفسرون التبرّع لتحديد شخص؟! ونفس الكلام هنا عن هذا النوع من التفاسير تراه في الآية 103 من سورة النحل {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}، رَاجِعْ دراستها لمزيد من التفاصيل.

(قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً{6})
{قُلْ}، سبحانه يأمر نبيّه(ع) أن يردّ عليهم:

{أَنْزَلَهُ}، أنزل هذا القرآن، {الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ}، يعلم الأمور الخفية التي {فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، فيعلم الأسرار أينما كانت في أي مكان، فالسماوات والأرض هي حدود دنيا المخلوقات، وكل ما فيها يعلمه تعالى.

بعبارة أخرى، أخبار القرآن عن الرسل والأمم القديمة، وأخباره عن بداية الخلق والنهاية في الآخرة... نعم هي مشابهة لما في كتب اليهود والنصارى، ولكن ليس بالضرورة أن يكون مصدرها الكتب القديمة، حيث أنتم تحتاجون للكتب لتعرفوا الأخبار القديمة أما سبحانه فيعلم كل الأسرار وليس بحاجة لما في تلك الكتب، ورسوله محمّد(ع) يحصل على هذه المعلومات من الذي يعلم الأمور الخفية عن الآخرين، وهي ليست أساطير "قصصا خرافية"، ولم يسمعها النبي(ع) من اليهود أو النصارى أو من القصّاصين... بل نزلت عليه منه سبحانه.

{إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا}، حيث لا يأخذ موقفا صلبا بل يسامح عن الذنوب، وهناك أناس سيسمعون هذا القرآن وسيؤمنون، وسيغفر لهم ربهم ويسامحهم ويرضى عنهم، و{رَحِيمًا}، حيث لديه عناية خاصّة بالمؤمنين، ومن ترجمتها العملية إنزال القرآن حتى يهتدوا.

ستجد في سور أخرى أجوبة أخرى عن هذا الكلام، والحاسم بينها أن المسيحيين الذين أسلموا كانوا من الأعاجم ولم يكونوا من العرب، فليس لديهم قدرة على تأليف كلام عربي بهذه التقانة العالية الموجودة في القرآن واستناداً إلى كتبهم، وراجع في ذلك الآية 103 من سورة النحل {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ}، والنبي محمد(ع) وحتى آخر لحظة في حياته لم يكن شاعرا، ولا كلامه العادي يشبه كلام القرآن، حيث لم تَصْدُرْ منه جمل تشبه القرآن أبدا بتاتا، فهل من المعقول أن يكون القرآن من تأليفه ولا يقول ولو جملة واحدة تشبه القرآن أثناء حديثه مع الناس وفي خُطْبَةٍ ما! ومن الأجوبة أيضا أنه ولا واحد من هؤلاء الذين احتملوا بأنهم يقرؤون الكتب القديمة على النبي محمد(ع)، ولا واحد منهم رافق النبي(ع) إلى المدينة، فكيف في المدينة بقي القرآن ينزل لمدة تقارب اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، وبنفس الأسلوب وبنفس الطريقة الخاصة، وبمعلومات إضافية...! ومحمد(ع) لا يكتب ولا يقرأ، ولم يغيّر ولا حرفا واحدا من القرآن، من أوّل نزول القرآن حتى آخر يوم في حياته (ع) لمدة تقارب الثَّلَاثَ وَالْعِشْرِينَ سَنَةً، حيث لم ينقّحه، ولم يعدّله... فهل هذا كتاب من تأليفه (ع) أم كتاب إلهي! بالإضافة لانتفاء وجود أي تعارض بين معلومات القرآن، بالإضافة لوجود قصص وتفاصيل في القرآن غير موجودة في أي كتاب آخر، بالإضافة إلى تكراره لنفس القصص في مختلف السور القرآنية وبدون أي خطأ طوال مدّة حياته وهو لا يستطيع أن يراجعه لأنه لا يقرأ...

تلاحظ السورة هنا تردّ بشكل ابتدائي أوّلي على اتهامهم للنبي محمد(ع) بتأليف القرآن اعتماداً على كتب اليهود والنصارى وغيرهم، فإن كنتم أنتم بحاجة لكتاب قديم كمصدر للمعلومات القديمة، فهذه حالتكم أنتم وليست حالة الإله الذي يعلم كل الأسرار، ومن الطبيعي والعادي جدا أن يزوّد سبحانه رسوله(ع) بقصص تاريخها قديم، وتنبههم الآية أن الكتب القديمة ليست المصدر الوحيد لمعرفة تلك القصص، بل المصدر الأفضل هو الإله الذي يعلم كل الأسرار، وها هُوَ زوّد بها رسوله(ع).

أطلت عليك فاعذرني، لأنه لو كنت تحقّق في قضيّة ما، لانتظرت المتّهم حتى يزلّ ويعارض كلامه... وآيتنا هنا من الآيات العديدة التي يظهر فيها بوضوح أن الردّ على كلام الكافرين ليس صادرا من إنسان، حيث إن الكثير من الآيات وبوضوح ترى فيها ردّاً من نظرته تعالى للأمور، وهنا كما ترى أتيتك بكلام ذكرته سور أخرى تبرهن أن مصدر القرآن إلهي، ولكن السورة هنا اكتفت بردّه تعالى على كلامهم، لأنه تعالى ردّ عليهم من نظرته للأمور، وهو عالم السرّ، وهو الذي أنزل هذه المعلومات القرآنية، والكافرون وبالرغم من كفرهم بالقرآن فهم يرون فيها معلومات تفوق قدرة "محمّد" على معرفتها حتى لو كانت غير صحيحة بنظرهم، فمن أين له المعرفة بأديان الآخرين وأنبيائهم وقصصهم...! لذلك يردّ سبحانه على القائل لهذا الكلام بأنه هو عالم السرّ وهذه المعلومات نابعة من هذا العلم وليست نقلاً عن بشر.

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً{7})
{وَقَالُوا}، الذين كفروا: {مَالِ هَذَا الرَّسُولِ}، كما نقول: مالي كلما قلت قد صلحت سريرتي وقرب من مجالس التوابين مجلسي، عرضت لي بلية أزالت قدمي..."نقلا عن دعاء للإمام السجّاد". يقولون: غريب حال هذا الذي يقول إنه رسول إلهي، {يَأْكُلِ}، يتناول ويستهلك، {الطَّعَامَ}، الشيء الذي يسدّ الجوع ويغذّي، {وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ}، يتنقّل في الأماكن التي يعرضون فيها البضاعة للبيع، ويشتري الثياب والطعام وحاجياته من الباعة...! فمثله مثلنا تماما، فهو رجل عادي،

يأكل ويبيع ويشتري، وليس مميزا عنا بشيء! فكيف يكون رسولا من الإله؟! ولماذا سيختار الإله رجلا عاديا ليكون رسوله!

على الأقل إن كان الإله سيرسل رجلا عاديا، فـ{لَوْلَا} أنزل سبحانه إليه ملكا، واحدا من الكائنات التي تملك صفات وقدرات عالية، واحدا من الملائكة، {فَيَكُونَ}، الملاك، {مَعَهُ}، مع الرسول، {نَذِيرًا}، حيث ينقل الملاك الخبر السيّء عن العقاب الأكيد في الآخرة لمن لم يؤمن... فإذا لم يكن الرسول الإلهي من غير البشر، فَلْيَبْقَ الرسول رجلا عاديا ولكن لِيَكُنْ معه مرافق نرى بوضوح أنه مختلف عن البشر، كشيء يؤكّد أنه ينقل الكلام من عند الإله، أمّا أن نقتنع بأن هذا الرجل العادي هو رسول إلهي! فلن نقتنع.

ضَعْ في بالك أنَّ هذين السؤالين سيتم تأجيل الجواب عنهما إلى الآية 20 و 21 من السورة، حيث قبل ذلك ستجيب السورة عن السؤالين الثالث والرابع الآتيين.

سيأتيك في الآية 35 من هذه السورة ورود حالة رسول إلهي معه نذير آخر، حيث كان للنبي موسى أَخُوهُ النبي هارون(ع) وزيرا، وفرضا فرضا اقتضت الظروف وجود مساعد للرسول الإلهي، فمن البشر سيكون المساعد.

ضَعْ في بالك أيضا أن كلامهم السخيف هذا وما سيليه مبني على عقلية التعامل مع جني الفانوس السحري الخرافي، لأن تعامل الرسول مع الإله يعني لهم التعامل مع صاحب قدرة فائقة، وبالتالي يجب أن يستفيد الذي تواصل مع الإله من هذه القدرة ويظهر عليه فرق ما، ويَدُلَّ أنه يتواصل مع الإله.

هذه العقلية، وللأسف، موجودة بشكل أو بآخر عند كثير من المنتمين لهذا الدين الإلهي بنظرتهم للأنبياء وللمؤمنين من الدرجة العالية، حيث لديهم صورة عن الأنبياء أن الملائكة(ع) كانت ترافقهم وتحدّثهم بشكل يومي... وتتدخّل في الصغيرة والكبيرة من حياتهم، ولديهم فكرة أن الأنبياء يمكنهم بدعاء صغير أن يحقّقوا ما يريدون، أو حتى بدون الدعاء يمكنهم السيطرة على ما حولهم وبيئتهم بقدرات ممنوحة منه تعالى، وبعضهم يسمّي ذلك بالولاية على الكون... وها القرآن أمامك مشحون بكلام مخالف لذلك، لأن عقلية ونفسية الأنبياء مختلفة عن عقليتنا ونفسيتنا، فهم قدروه تعالى حقّ قدره، فلا ولا بأي شكل يعتبرون أنفسهم يتعاملون مع جني الفانوس السحري الخرافي، ولا هم يتمتعون بقدرات خارقة... وترى ذلك جليا في كلام النبي زكريا(ع) حين طلب الولد منه تعالى، وراجع في ذلك ما درسناه مطولا في بداية سورة مريم.

(أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً{8})
نكمل مع كلام الكفار: {أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ}، لِيَرْمِ عليه إلهه كنزا من السماء، لِيُنْزِلْ عليه عموم أي شيء بكمية صغيرة أو كبيرة وله قيمة عالية جدا، كمجوهرات أو قطع من الذهب والفضة أو المال بكمية كبيرة، وعندها نعرف أنه فعلا يتواصل مع الإله.

تلاحظ بوضوح كلامهم انطلاقا من عقلية التعامل مع جِنِّيِّ الفانوس السحري الخرافي.

{أَوْ تَكُونَ لَهُ} "المحمّد(ع)" {جَنَّةٌ}، حَيْثُ يَكُونُ عنده مكان موصوف بالروعة، كأرض فيها أنهار وأشجار وخضار... وهكذا نعلم أنه حَصَلَ على العناية الخاصّة المميّزة من ربّه...

ننتبه لهذه الأسئلة الأربعة، لِأَنَّهَا تعني أنهم يريدون شيئا غير عادي، غير مألوف. حَيْثُ إِنَّ الكافر يضع نفسه مكان الرسول ويفكّر هكذا: لو كان الإله يتواصل معي أنا لطلبت منه أن يعطيني المال الكثير والأملاك الكثيرة، وأن يخلق لي جنة رائعة هنا على الأرض من الأنهار والأشجار والنباتات... ولطلبت منه أن يجعل أحد الملائكة يرافقني ليقوم بخدمتي وتنفيذ طلباتي... وَلِأَنَّ هذه أشياء غير عادية ولا يمكن إلا للإله أن يحققها، لِيُحَقِّقْهَا "محمّد(ع)" حتى أقتنع بأنه رسول الإله.

{وَقَالَ الظَّالِمُونَ}، غير العادلين وغير المنصفين حَيْثُ إِنَّهُمْ ليس معهم حقّ فيما يقولونه: {إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا}، أَصَابَهُ السحر وَأَثَّرَ في عقله! وبسبب تعرّضه للسحر يَتَخَيَّلُ أن الوحي ينزل عليه وأنه رسول... لأن أحدا ما

جعله يتخيّل ذلك. لَقَدْ ظلموا النبي محمدا(ع) ولم يعطوه حقّه كرسول إلهي، حَيْثُ إنَّ العدل والإنصاف أن يحترموه ويطيعوه، ولكنهم ظالمون، وَأَهَانُوهُ واتهموه بأنه مسحور عَلَى أساس أن عقله مضروب ويتخيّل الأمور!

انتبه جيّدا، لِأَنَّهُمْ يرمون الكلام هكذا، ولا يقولون من سحره؟ وكيف؟ ومتى؟... بل هكذا: محمّد مسحور، وانتهينا من موضوع دينه وما يقوله... إمَّا أن يكون هو بشخصه مميزا وبحسب ما نراه نحن مناسبا، وإمّا أن يزوّده الإله بملك يرافقه أو كنز أو جنّة، أمّا غير ذلك، فهو مسحور مضروب في عقله ولن نصدّقه.

ضع في بالك دائما أن السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه يَجْعَلُ الآخرين يتوهمون شيئا غير حقيقي أنه حقيقي. حَيْثُ إِنَّ الساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد بأنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع أنها لم تَخْتَفِ، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر والذي تراه صريحا في الآية 66 من سورة طه {قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ}. وما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، لِأَنَّ هذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية أنها سحر، كَانَ على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

للأسف لدينا روايات عن ساحر آذى النبي محمّد(ع) بسحره عن بعد من دون تماس بالهواء أو الْأَكْلِ أو الشرب، حَيْثُ كَتَبَ الساحر ونفث في حبل وجعل فيه عقدا... وَرَمَى في بئر... وتأثّر النبي محمّد(ع) بعقله وجسده من السحر... ونزل الملاك جبريل(ع) يخبره بالسبب... هذه ترهات، حَيْثُ ربما حاول بعضهم أَذِيَّتَهُ (ع) بالسحر، لا أدري، ولكن هل فعلا هناك شيء كهذا في الواقع؟ لا، وكل الكلام الذي تجده في كتب محسوبة على دينه تعالى، ويقحمون فيها آيات قرآنية وأحاديث نبوية، هُوَ كلام كاذب، لِأَنَّهُ لو نفع السحر بأذية الآخرين عن بعد، لسهلت علينا الحياة بامتهان السحر للانتهاء من الحكّام الظالمين، أليس كذلك؟ وأمّا السحر الناتج عن مواد مشمومة أو مأكولة أو ملموسة وتسبّب ضررا أو هلوسة... فهذه كانت تسمّى قديما بالسحر، وفعلا لها ضرر وأثر.

(انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً{9})
{انْظُرْ}، وجّه اهتمامك العام أيها النبي(ع)، {كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ}، كيف أقاموا لك التشبيهات! فقالوا: حتى نقتنع بأنك رسول إلهي افعل شيئا يقنعنا، "مثلاً" لِيَكُنْ معك ملاك، أو "مثلا" لِيَنْزِلْ عليك كنز... انظر لسخافة أمثلتهم التي اقترحوها ليؤمنوا!

{فَضَلُّوا}، حيث لم يكونوا على الطريق الصحيح، ويضربون لك الأمثلة حتى تختار منها وتفعلها لهم، وأمثلتهم ليست صحيحة بل ضالة، فما علاقتها بالدين والهداية وبما يأمر به تعالى! وما علاقتها بتأكيد أنك رسول إلهي! فلو حصلت فهل ستثبت لهم أنك رسول إلهي؟ لأنها سخافات تافهة من أفكارهم التافهة الضالّة.

{فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا}، حيث لا يستطيعون معرفة المسلك الصحيح. وسوف نرى في الآيات التالية أن كل أفكارهم والأمثلة التي يقولونها لا علاقة لها بالهداية للحقّ والصلاح، ولا توصل فعلا إلى الهداية.

لاحظ وانتبه دائما للفرق بين ما يقوله تعالى ويعرضه علينا عبر قرآنه، وبين أسباب إيمان البعض به وكفر الآخرين، حيث إن القرآن يخبرك بأن ما يعرضه عليك معلومات صحيحة، وتشريعات وسلوكيات صلاح، ومن المفروض إن كنت محافظا على سلامة قلبك "أساس فكرك ونفسيتك" فسترى الحقّ والصلاح في كلامه تعالى لتؤمن وتلتزم بما يقول. وهذا هو لبّ عموم ما يعرضه تعالى عليك في قرآنه، وبغض النظر عمّن نقل إليك كلامه تعالى، وبغض النظر عن صفات الرسول، يجب عليك أولا النظر فيما هو منسوب للإله، فإن كان حقًّا وصلاحا، فما معنى كفرك به؟

ومن هذا المنظار سيأتي بقية كلام السورة، وهنا الآيات على معنى ما نقوله بالعامية: ما دخل هذا بذاك؟ فلماذا تشترط الغرائب والعجائب لتؤمن بأن محمدا(ع) رسول إلهي وبعدها لتؤمن بما ينقله عن الإله؟ هل نظرت لما يدّعي نقله عن الإله لترى صلاحه من فساده؟ أم لا يهمّك الموضوع من أصله وتريد البقاء على ما أنت عليه حتى لو كان باطلا فاسدا؟

كثيرا ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، حيث إنها لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيرا أم شرا، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضَلَّ عنك صيدها. واستعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، حيث لم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، لذلك لن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون حيث إنه ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاء جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً{10})
من هنا ستبدأ فقرة تجيب عن كلامهم عن الكنز والجنّة... وبعد انتهاء الفقرة سنجد أجوبة عن كلامهم عن الطعام والملاك... ضَعْ في بالك أن الفقرة من هنا إلى الآية 19 سوف تلفت انتباه الكفّار من اهتمامهم للكنز والجنة في الدنيا إلى الانتباه للخلود في عذاب الآخرة، فما قيمة الكنز وبساتين الدنيا كلّها التي تقولون إنَّهَا ستجعلكم تؤمنون بالرسول، فما قيمتها لو فكّرتم فعلا بآخرتكم السيّئة؟!

{تَبَارَكَ}، حيث إنَّ كل ما يصدر عنه تعالى فهو مبارك لأنه جيّد ومحبوب، {تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ}، حيث أمامه تعالى خيارات عديدة وليس مجبورا على اتخاذ أي قرار، وبحكمته تعالى يقرّر، فإذا قرّر سبحانه، {جَعَلَ لَكَ}، أيها النبي(ع)، {خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ}، أحسن وأفضل من الذي يقترحونه، {جَنَّاتٍ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها وليس جنّة واحدة فقط، حيث إنها مساحات شاسعة ضخمة هائلة من الأنهار والجبال الخضراء والأشجار والخضار والفاكهة... {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، وهذا تعبير تصويري عن روعة جريان السوائل هنا وهناك تحت أشجار الجنّات، فلا تبالغ لتتصوّر المكان كمستنقعات، {وَيَجْعَلْ لَكَ}، في تلك الجنات، {قُصُورًا}، العديد من البيوت الضخمة المنتشرة في تلك الجنات الضخمة، وطبعا كل قصر يختلف عن الآخر في تصميمه وألوانه وخدمه وطعامه...

نلاحظ أن أساس فكرة تمييز الرسول عن بقيّة الناس بسبب علاقته مع الإله صحيحة، حيث فعلا سيميّزه تعالى في الآخرة بالجنّات والقصور، لأنه آمن وعمل صالحا وتحمّل أعباء ومشاكل تبليغ الرسالة... ولكن هذا سيكون ثوابا للرسول على إيمانه وعمله الحسن، ولا معنى لتمييزه هنا في الدنيا بالجنات والقصور بسبب تواصل الإله معه، لأنَّ هذه معاييرنا نحن ونظرتنا نحن للأمور غاضّين النظر عن الإيمان والعمل الصالح بينما هما المعيار للكرامة عنده تعالى.

بقي شيء، حيث مرة واحدة "بحسب بحثي" وَصَفَ القرآن مَا في الجنّة بالقصر كما ورد في الآية هنا، ومعلوم لك أن للمؤمن مختلف أنواع الأماكن التي يرغبها من خيام أو عرازيل أو بيوت أو قصور...

لَفَتَنِي تعليق بعضهم على كلام القرآن عن الخيام وأنها تدغدغ عقل بدوي في الصحراء، لأنه يحبّ الخيام، وليست مغرية لأهل المدن والحضارة... وبالتالي فإنَّ هذا القرآن من تأليف بشري يحبّ الخيام ويجدها مغرية له... وهؤلاء يتعامون عن قصد عن الآيات التي ذكرت القصور والغرف المبنية كالتي تصفها الآية 20 من سورة الزمر {لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ}... ويتعامون عن قصد ويتغابون على أنفسهم حين يتهمون بشرا بتأليف القرآن، فلو فرضا كان هذا صحيحا، أليست النتيجة المتوقعة أن يذكر البدوي ما يحلم به بدلا مما هو فيه فعلا؟ ألم يسمع البدوي بالقصور ولا بالبيوت حتى يتمنّاها ويؤلّف كتابا يصف الجنّة ويضع فيها ما يحلم به؟

كما ترى، ذَكَرَ القرآن مختلف التعابير الواصفة لمختلف أنواع الدور في الآخرة، وكلها بأنواعها المختلفة لكل مؤمن متوافرة في جنّته الخاصة به من قصور وبيوت وخيام ومجالس فيها أَسِرَّةٌ... ولكن عمي القلوب سيكفرون بأي كلام كان، فمهما قلت لهم فسيجدون تعليقات عليه، وحتى لو سألتهم عمّا يجب ذكره في الكتاب حتى يقتنعوا بأنه كلام الإله سبحانه، وأعطوك مثلا، ووجدته في القرآن ولفتّ انتباههم له، فستجدهم يعلّقون ويكفرون حتى بما هم اقترحوه! {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}.

(بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً{11})
بل، هؤلاء الكفار إنما يقترحون عليك أن تكون غنيًّا وسعيدًا هنا في الدنيا لأنهم {كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ}، وغالبًا يشير القرآن بالساعة إلى ساعة الرجوع إلى الحياة من الموت من يوم القيامة، فيقولون: لا نصدق أنه يوجد زمن سنعود فيه إلى الحياة مرة ثانية بعد أن نموت، فلا آخرة ولا حساب ولا جنة ولا نار.

باعتقادهم: إمّا أن تكون هنا سعيدًا فَرِحًا في الدنيا، وإما أن تكون راحت عليك، لأنه لا يوجد آخرة، وهذا الذي يقول بأنه رسول من الإله، فإمّا أن نراه سعيدًا بالمال والجنان هنا في الدنيا حتى نصدّق بأنه رسول الإله، فهذه الاستفادة من التواصل مع الإله حتمية ويجب أن تحصل، وإمّا هو كذّاب، ولن نؤمن بأنه رسول، وأصلًا نحن لا نؤمن بأنه يوجد آخرة سيحصل فيها الرسول "والمؤمنون" على ثواب.

{وَأَعْتَدْنَا}، جهّز وحضّر سبحانه، {لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ}، فلم يصدّق بأنها ستحصل، {سَعِيرًا}، وهي النار المستعرة التي تتأجج وتصدر ألسنة نار طويلة وأصواتًا مرعبة وهي مشتعلة بجنون...

تذكّر دائمًا أن اليوم هو فترة من الزمن لحدث أساسي، وخلال اليوم تحصل أحداث فرعية متعلقة بالحدث الأساسي واسمها ساعات، فكلمة يوم ليست مخصّصة لليل والنهار أو للأربع وعشرين ساعة... ويوم القمر يعادل ثلاثين يومًا من أيام الأرض كدورة كاملة حول نفسه... و {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} يبدو بحساباتنا حاليًا أنها كانت بمليارات السنين، مما يعني أن اليوم هو مرحلة لحدث أساسي امتدّ لمليارات السنين... وترى بوضوح شمولية معنى اليوم من كلمة ساعة التي يقفز حاليًا إلى ذهنك أنها من ستين دقيقة، بينما تتذكّر أن هذا التحديد جديد، وقديمًا كانت لوصف أي زمن لحدث فرعي من يوم لحدث رئيسي.

يوم قيامنا من الموت هو أوّل يوم بالنسبة لنا من الآخرة، وأول ساعة فيه هي ساعة قيامنا من الموت، ويلي ذلك أيام حشرنا زُمَرًا، والحساب الفردي والجماعي والأشهاد... وصولًا إلى آخر يوم وآخر ساعة فيه حين يدخل المؤمنون إلى الجنّة والآخرون إلى النار.

(إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً{12})
تلك النار المستعرة، {إِذَا رَأَتْهُم}، صار عند النار صورة محدّدة لهم، {مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ}، {سَمِعُوا لَهَا}، للنار، {تَغَيُّظًا}، مثل صوت المغتاظ غضبًا وحنقًا، وسمعوا لها، {زَفِيرًا}، كما نقول نحن لتنفس الإنسان: شهيق إذا أدخل الهواء إلى رئتيه، وزفير إذا أخرج الهواء منهما. فالنار المستعرة التي في الآخرة لها شيء مثل هذا، مثل نار الموقد عندما تفتح لها مدخنة "شراق أو داخون" الهواء، فتخرج منها ألسنة النار.

نتذكّر من القرآن أنه في بداية يوم القيامة تكون الجنّة والنار بعيدتين عن الناس، وتقتربان على مهل، راجع كنموذج الآيتين 90 و 91 من سورة الشعراء {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ}، {وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ}، فالناس مقسومون لزمرتين، وتقترب الجنّة من ناحية المؤمنين، وتقترب جهنّم من زمرة الكافرين.

لا ننسى أن جهنم هي كائن له وعي بشكل ما، ويتعامل معها ربنا سبحانه بطريقة ما، وورد ذلك صراحة في الآية 30 من سورة ق {يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ}. وهنا عندما {تَرَاهُمْ} النار من بعيد وقبل وصولها إليهم فإنها تغتاظ ويظهر صوت تغيظها وصوت زفيرها. ومن ناحيتنا، لحدّ الآن ليس لدينا إمكانيات التعامل المباشر مع وعي الكائنات من غير الحيوانات، وربما لن نتمكّن منه وهو الأرجح عندي حيث ستبقى بالنسبة لنا جمادات وأشياء، على أي حال، هذا النوع من الأخبار عن تعامله تعالى مع وعي ما للسماوات والأرض والجبال... والنار... هو تعامل إله بقدرات فائقة مع كائناته، وبالتقريب نفهم أنه بشكل ما مشابه لتعامله تعالى معنا وتعاملنا نحن مع بعضنا.

هنا ترى مفارقة في موقف الكافرين بالقرآن، لو وجدوا فيه كل ما يعرفونه ويقدرون على فعله أو لديهم تصورات عن إمكانية فعله... ويفهمونه لقالوا إنّ القرآن حتمًا من تأليف بشري مثلهم مثله في الفهم، فهم يريدون شيئًا جديدًا لا يعرفونه حتى يؤمنوا بأنه من مصدر إلهي، وحين يجدون في القرآن ما لا يعرفونه وما لا يقدرون عليه فورًا يعتبرون القرآن كاذبًا وليس من كلام الإله!

هنا الكلام عن رؤية النار للكفّار وتفاعلها تغيُّظًا منهم هو كلام حقيقي وليس مجازيًّا، ومن يكفر به لأن النار لا ترى، فهو نفسه لن يؤمن بالقرآن لو كانت كل المعلومات التي يطرحها من منظور إنساني للتعامل مع الأمور، وحين يأتيه كلام من منظور إلهي لرؤية الأمور، يكفر!

(وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً{13})
بعد انتهاء الحساب في الآخرة، {وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا}، حيث جرى رميهم في مكان ضيّق من النار، بالإضافة للتعذيب فالمساحة غير مريحة للتحرك، فيشعرون بالمضايقة من ضيق المكان أيضًا. الآية لا تقول إنّ مساحة النار صغيرة بل فيها مساحات صغيرة، كبيت كبير جدًّا ولكن فيه غرف صغيرة وممرات ضيقة.

تلاحظ أن كل تعابير القرآن تشير لنار الآخرة بأنها حفرة، وكمثال صريح عن ذلك ما ورد في الآية 103 من سورة آل عمران {وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا}.

{مُقَرَّنِينَ}، مربّطين مقيّدين بالأغلال الحديدية والحبال المشتعلة... {دَعَوْا هُنَالِكَ}، أشهروا وأعلنوا في جهنم، {ثُبُورًا}، بالكلمات التي تدل على تعاستهم، مثل: يا ويلي، يا مصيبتي، يا تعاستي... تعسًا لي، سحقًا لي... فيدعون على أنفسهم بالتعاسة.

لنتصور المشهد: كانت جهنم بعيدة، واقتربت من الكفار قليلًا قليلًا وصوتها المرعب مسموع... وعندما انتهى الحساب، تم رمي الكفّار في مكان ضيق من النار، في حفرة خانقة ملتهبة مشتعلة... مربوطين بالأغلال، ففوق أن المكان ضيق هم يتضايقون من بعضهم البعض أيضًا...

عندما نحاول تصوّر توصيفات القرآن عن النار، ونعتبر كل توصيف يقصد كل من في النار، ويقصد حالة مستمرة لأهل النار، فسنقع في مشكلة تعارض التوصيفات، حيث لدينا آيات تتحدّث عن كفّار يركضون، ولدينا آيات تتحدّث عن حشرهم في أماكن ضيّقة لا مجال فيها لا للركض ولا للحركة، ولدينا آيات عن ربطهم بأغلال ثقيلة تمنعهم من الحركة... لذا ننتبه، أن لكل ذنب نوعًا مختلفًا من العذاب، والكافرون لديهم ذنوب متعدّدة، فيتنوّع توصيف تعذيبهم بتنوّع الذنب الذي تذكره الآية، فمن تعلّق بالمال فتوصيف مكانه في جهنم أنه محاط بحيطان طويلة جدًّا، كما ورد في سورة الهمزة في الآية 8 {إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ}، والمجرمون القتلة يركضون، وترميهم جهنّم بكتل النار... راجع كمثال الآية 32 من سورة المرسلات {إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ}... لذلك نفهم من القرآن أنه يوجد أناس يتعرّضون لتعذيب من نوع واحد "تقريبًا"، ويوجد أناس يتنوّع تعذيبهم بتنوّع الذنوب التي ارتكبوها، فمرة يركضون ومرة يسقطون في حفر ضيقة عميقة ومرة يتسلقونها وتضربهم وترميهم الملائكة(ع) بكتل نارية...

(لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً{14})
فوق عذابهم وصراخهم، سُبْحَانَهُ والملائكة(ع) والمؤمنون يسخرون منهم، ويقولون لهم:

{لَا تَدْعُوا}، لا تعلنوا وتشهروا، {الْيَوْمَ}، في هذه الفترة، {ثُبُورًا وَاحِدًا}، لأنَّ كلمات الندامة والنَّوْحِ هذه ليست لفترة زمنية محدودة، فمصيبتكم أكبر مما تتصورون، {وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا}، فأعلنوا بكلمات الندامة والحسرة كَثِيرًا، دَائِمًا خَالِدًا على نفس الحالة من العذاب ستبقون، ولن يَخِفَّ عنكم، ولن تخرجوا منه...

هذه التعابير القرآنية تلفت انتباهنا للعذاب النفسي من السخرية والإهانات مُضَافًا للعذاب الجسدي.

بقي شيء، حيثُ إنَّ مَعَايَشَةَ سوء ما تقرأه تَخْتَلِفُ عن الوقوع فيه، إذ نقرأ آيتنا هذه ولا نرى فظاعة وسوء ما تشير له، على أساس أن الإهانة لا شيء أمام الاحتراق بالنار، وربما يخطر ببالنا أن أهل النار رُبَّمَا تكون أعصابهم قوية ويتحملون عذابها النفسي والجسدي، فانتبه إلى سلوكياتنا نحن إذا تعرّضنا للشماتة والسخرية كيف نتضايق ونحنق ونغضب... وانتبه أنَّ إِلَهًا يتوعّد بالعذاب الأليم، فتركيبة جسدنا في الآخرة مضاعف فيها الشعور بالألم...

(قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاء وَمَصِيراً{15})

{قُلْ} أيها النبي(ع) لهؤلاء الكفار:

{أَذَلِكَ}، هل العذاب في حفرة ضيقة في السعير، {خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ}، أم المكان الموصوف بروعة ما فيه والذي فيه يكون خَالِدًا لا يموت ولا يخرج منها ولا هي تخرب... الجنّة، {الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ}، التي قيل إنَّ المتجنبين للسوء وبالتالي المتجنبين لغضبه وعقابه تعالى سَيَكُونُونَ فيها.

{كَانَتْ لَهُمْ}، كانت الجنّة للمتقين، {جَزَاءً}، لقاء بَدَلٍ عن أعمالهم الحسنة، وكانت لهم، {مَصِيرًا}، فسينتهون إليه ولن يتغير بعد ذلك.

سبحانه عبر الآية هنا يعرض عليكم عبر رسوله جنّة خالدة لمن اتقى، فهل الكفر بالساعة المؤدّي إلى السعير أفضل أم إيمانكم وتقاكم الموصل إلى الجنّة الخالدة أفضل؟ فلماذا تختارون السعير على جنة خالدة!

(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُولاً{16})
{لَهُمْ فِيهَا}، للمتقين في الجنة، {مَا يَشَاءُونَ}، فأمامهم خيارات عديدة وما يريدون ويرغبون ويخطر ببالهم "وما لا يخطر ببالنا الآن" سيتم تأمينه لهم... {خَالِدِينَ} وبحالة دائمة لهم ما يشاؤون، فهم لا يموتون، ولا يشيخون، ولا يمرضون... وفي نفس الوقت سيبقون على حالة الاختيار من الأمور الرائعة.

{كَانَ}، هذا الوعد بدخول المتقين للجنة الخالدة وَبَقَائِهِمْ سعداء خالدين فيها، {عَلَى رَبِّكَ}، على المسؤول عنك من مستوى إلهي، {وَعْدًا}، شيئا قال تعالى إِنَّهُ سيفعله، {مَسْئُولًا}، ومن يطلب تنفيذ الوعد سيجده، فعلى عهدته تعالى تنفيذ هذا الوعد، وليس وعدا وهميا من مستهتر ينسى وعوده، وليس وعدا لا يمكنه تعالى تحقيقه، بل الإله عزّ وجلّ هو بنفسه وعد ولن يخلف تعالى وعده، وفرضا فرضا لو أخلفه فسيسأله المتقون عن وعده لهم بالجنّة الخالدة، وعمليا مَعْنَى هذا الكلام أنه عزّ وجلّ بصفاته الإلهية الفائقة، وعد وسيفي بوعده ولن يسأله المتقون عن وعده لأنه تعالى سيحقّقه.

ننتبه جيدا، الدَّارِجُ بيننا كمعنى لكلمة مسؤول، تحت مسؤوليتي، على مسؤوليتي... هو من اشتقاق استعمال كلمة "سأل" وليس من معانيها المباشرة في أساس اللغة العربية، وهنا في الآية الْمَعْنَى على أساس الاستعمال، حيثُ سَيَتِمُّ التعبير عن إرادة الحصول على جواب منه تعالى على وعده للمتقين بالجنّة، هذا فرضا إذا لم يَفِ بوعده عزّ وجلّ، وَسَيَتِمُّ طرح سؤال عليه تعالى عن وعده، إِذِ الوعد سيلتصق به السؤال عن تحقيقه، فهو وعد مَسْئُولٌ عنه تعالى، فإن لم يحققه سيسأله المتقون عنه.

كررت لك الكلام كثيرا وبصيغ مختلفة حتى تخرج مما اعتدت عليه من الِاسْتِعْمَالِ لاشتقاق من كلمة: سأل مسؤول مَسْئُولِيَّتِي... التي نستعملها بكثرة وهي ليست من أساس المعنى بل من اشتقاقاته المقصودة بالكلام، والتعبير القرآني عن المعنى الدارج لمسؤول مسؤوليتي هو: كفيل وكيل حفيظ...

بالنسبة للخلود فَالمتقون يشعرون بالخلود، ويشعرون بخلود المكان الَّذِي هم فيه، وهذا الشعور الرائع لا نعرف معناه الآن، وبالعكس مَنْ يدخل إلى النار وهو يشعر بالخلود في العذاب، نَاهِيكَ عن الألم إِذْ لِوَحْدِهِ هذا الشعور بالخلود في النار مرعب جدا.

نلاحظ أن المتقين في الجنة ليس لديهم شغل ولا همّ إلا السعادة والفرح... حيثُ هناك سوف يؤمّن لهم ربهم سبحانه كل ما يشاؤون من أشياء تجعلهم سعداء، فلا يخطر ببالك أنهم سيطلبون شيئا غريبا، كأن يعودوا إلى حالة كالحالة التي كانوا عليها في الأرض الدنيوية، أو أن يموت جارهم الذي في الجنّة، أو لا يكون لأحد غيري قُصُورٌ في الجنة... فكل ما يخطر ببالنا من أشياء غريبة تتعارض مع كون المؤمنين سعداء، فهي تصورات وهمية ولا معنى لها هناك في الآخرة، وعندما يقول سبحانه بأنه سيحقق لهم كل شيء، فهذا يعني بأنهم سَيَكُونُونَ في عقلية مختلفة عن عقليتنا نحن الآن، وَسيكون اهتمامهم بالفرح والسعادة والملذات ... وكل ذلك سيتم تأمينه لهم، بل وفوق ما يتخيلون وأكثر مما يخطر ببالهم...

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاء أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ{17})

{وَيَوْمَ}، وفي الزمن الذي، {يَحْشُرُهُمْ}، يجمع سبحانه الكافرين بقرار منه تعالى سواء قبلوا أو رفضوا، {وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، حيثُ إِنَّ الْكَافِرِينَ لم يعتبروا أنفسهم مَفْرُوضًا منهم وعليهم طاعة الله تعالى فقط، وتصرّفوا على أساس أنهم عبيد مفروض عليهم الطاعة لغيره تعالى، فعبدوا الأصنام التي قالوا إِنَّ أرواح القديسين تسكنها أو أرواح أجدادهم أو الكواكب أو الملائكة(ع)... وعبدوا النار والطبيعة ... فصلّوا لهم وآمنوا أنهم خلقوهم أو أعطوهم الرزق والمال والصحة... وكما نقول: ذهبتم من دوني، ونقصد: ذهبتم وتركتموني. فهم تركوا اعتبار الله تعالى الإله الخالق المالك الوحيد لهم وعبدوا غيره تعالى.

تقف الملائكة(ع) والجنّ والأجداد وَالْقِدِّيسُونَ... {فَيَقُولُ} لهم ربنا سبحانه: {أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ}؟ فهؤلاء أنا خلقتهم وهم ملكي وهم عبيدي فهم مفروض عليهم طاعتي، فهل أنتم قلتم لهم أن يجعلوكم شركاء معي في العبادة فيتصرّفوا على أساس أنهم عبيد لكم؟

{أَمْ هُمْ}، هؤلاء الكفار لوحدهم، {ضَلُّوا السَّبِيلَ}؟ لم يكونوا على المسلك الصحيح لعبادتي لوحدي بسبب أفكارهم هم؟ بعبارة أبسط هَلْ أنتم سبب ضلالهم أم هم ضلّوا بأنفسهم؟

ننتبه، الآية تريدنا أن نفهم أن من كان يعبد آلهة غير الله تعالى، ويقوم في يوم القيامة ليتحاسب، فليأخذ علما من الآن عما سَيَحْدُثُ، فمهما كانت آلهته، فهي ليست آلهة، وستقف ضعيفة أمام الإله الحقيقي، فهي كائنات سيحشرها ويسألها تعالى ليحاسبها إن خالفت أَوَامِرَهُ... وَلَمْ تدخل الآية في تفاصيل تحديد نوع الآلهة التي عبدها الناس، صَنَمًا، رُوحًا، كَوْكَبًا، نَارًا، عِجْلًا، بَقَرَةً، جِنِّيًّا، مَلَكًا، نَبِيًّا... فهذا غير مهم، المهم أن نأخذ علما من الآن أن الإله الحقيقي واحد أحد، وأي كائن آخر له وجود حقيقي، وقابل لِيَتَحَاسَبَ، فهو سيتحاسب إن كان مسؤولا عن عبادة الناس له من دون الله تعالى.

أمّا من عبد إلها وهميا لا وجود له أصلا، فلا يوجد له كيان، كإله الحبّ وإله السفر، وإله الرعد... فمن الواضح أن محاسبته على سخافته ستكون بسؤاله عن إلهه الوهمي الخيالي أين هو حتى ينفعك؟ ولذلك كثيرا ما قفز القرآن عن هؤلاء المخبولين العابدين لآلهة خيالية لا وجود لكائن يمثّلها، كإله الكرمة وإله المطر... وتحدّث مع وعن مشركين عبدوا كائنات لها وجود حقيقي، مثل من عبد أرواح الأجداد، أو الجنّ أو الملائكة(ع) أو أشخاصا من البشر...

بِالنِّسْبَةِ لكلمة عبد ومشتقاتها فسيأتيك كلام حولها في الآية 63 من هذه السورة.

(قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاء وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً{18})

{قَالُوا}، الذين عبدهم الناس:

{سُبْحَانَكَ}، نحن ننزهك، ننفي عنك أي صفة نقص، وبالخصوص نحن ننفي أن تكون ناقصا حتى يكون لك شَرِيكٌ في الألوهية، {مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا}، إِذْ من بين بقية الخيارات وَهذا الاختيار لا يحق لنا ولا بأي شكل، {أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ}، حيثُ إِنَّنَا تابعون لك وَأنت مالكنا ونحن عبيدك، فكيف سنجعل الآخرين يعبدوننا نحن؟ إِذْ نحن نؤمن بأنك الولي الوحيد من مستوى إلهي وَالكلّ تابعون لك سبحانك فكيف سنقول لغيرنا أن يوالينا نحن، فَيَكُونَ تابعا لنا نحن كآلهة!

الحديث هنا في يوم القيامة نقلا عن كائنات عبدها الناس وتلك الكائنات أصلا لا دخل لها بما فعله الناس، حيثُ هُنَاكَ ملائكة (ع) وأشخاص مؤمنون من الجنّ أو الإنس الذين عبدهم المشركون، وهم لا علاقة لهم نهائيا بمن عبدهم. ويوجد أيضا أشخاص من الكفار لم يقولوا لأولادهم وأحفادهم أن يعبدوهم، وَحَيْثُ عبدهم أولادهم بعد مماتهم... وفي يوم القيامة يقولون: نحن لم يكن يحق لنا أن نعبد غيرك، ولم نقل لهؤلاء أن يعبدونا، فحاسبنا على أعمالنا ولكن لا تحاسبنا على عبادة هؤلاء لنا.

كما ترى، الآيات هنا تذكر لك نموذجا عن كائنات عبدها المشركون وتلك الكائنات لا علاقة لها بذلك، إِذْ هم لم يقولوا للآخرين أن يعبدوهم، ومن المعروف منهم الملائكة والنبي عيسى(ع) والإمام علي.

يكمل هؤلاء الذين كان الناس يعبدونهم:

{وَلَكِنْ}، هؤلاء الذين عبدونا، {مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ}، حيثُ تَرَكْتَهُمْ هم ومن سبقهم من آبائهم المشركين يَتَمَتَّعُونَ وَيَسْتَفِيدُونَ وينتفعون بالحياة والجسد والرزق وما هو متاح لهم... ولم تحاسبهم فورا على كفرهم، إِذْ لَيْسَ كل شخص أعلن الكفر قضيت عليه فورا في الدنيا، مما سبّب لهم أن لا يشعروا بالخطأ الذي يقومون به، {حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ}، حيثُ ذَهَبَ استحضار توحيدك من فكرهم وسلوكهم نهائيا، وَهُمْ يعلمون أنهم يجب أن يذكروك أنت لوحدك كإله، عبر ما جعلته فيهم من ملاحظة لآياتك وعبر التعلّق بك في الشدائد وعبر الرسل والكتب... ولكن ذهب من فكرهم أنك إلهم الأحد لأنهم أشركوا ولم يتعذّبوا وبقوا يتمتعون بما في الدنيا... {وَكَانُوا قَوْمًا}، أناسا لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع دينك، {بُورًا}، لا ينتج عنهم خير، حيثُ كَانُوا جماعة فاسدة، وَكَانَ سلوكهم فَاسِدًا وعقلهم فَاسِدًا وَلَا يخرج منهم أي شيء مفيد، مثل الأرض البور الفاسدة للزرع التي لَا يَخْرُجُ منها زرع نستفيد منه، وَهَؤُلَاءِ بسبب انغماسهم بمتاع الدنيا تركوا توحيدك وعبدونا لأنه تماشى مع هواهم.

تتذكّر أن فرعون ادّعى الألوهية كما ورد في الآية {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي...}، وَهذا في يوم القيامة في البداية سينكر أنه ادّعى الألوهية، وبعدها سينكر ذلك على معنى أن الذين عبدوه كان لديهم عقل وَالْحَقُّ عليهم لأنهم تماشوا معه في ادّعائه للألوهية، وبعد ذلك سيعترف... حيثُ إِنَّ الآية هنا لم تتحدّث عنه وعن أمثاله، بل ركّزت على نموذج الذين لم يقولوا للناس أن يعبدوهم لِتُرِيَكَ بوضوح أن استهتار بعض الناس بالتوحيد ناتج من تركه تعالى لهم يتمتعون بخيرات الدنيا وهم مشركون، فلو عاقبهم تعالى فورا بعقاب قَاسٍ على شركهم بحرمانهم من الخيرات والشعور بالألم لتراجعوا عن شركهم، ومعلوم أنه تعالى حين يعيدهم ليتمتعوا بخيراته فسيكفرون به من جديد، ولو عاقبهم من جديد لآمنوا، وإذا تركهم لعادوا للكفر... ولهذا السبب حكم تعالى على هذه النوعية من الناس بالخلود في النار لأنهم لن يؤمنوا طالما هم يتمتعون بحرية الإرادة والاختيار لأنهم متعلقون بالفساد والشرّ.

(فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلَا نَصْراً وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً{19})

يرجع الكلام إلى هنا في الدنيا، إلى المشركين الذِينَ لا يزالون الآن أحياء ويسمعون هذا الكلام، وأنتم أيها المشركون متعلقون بآلهتكم التي اخترعتموها، ولكن في يوم القيامة:

{فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ}، هم يقولون لكم هناك: نحن لسنا آلهة، ولم نطلب منكم عبادتنا.

وهناك أيها المشركون، {فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا}، لا يمكنكم التحوّل بالهرب باتجاه آخر من الحساب والعقاب، {وَلَا} تستطيعون {نَصْرًا}، لا يمكنكم تحقيق ما تريدونه، وستذهبون إلى جهنّم ولا يمكنكم منع ذلك.

من الآن نخبركم: {وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ}، لا يكن مُنْصِفاً لأنه لم يتبع الحقّ الواضح، {نُذِقْهُ}، نجعله يلمس ويحسّ، {عَذَابًا كَبِيرًا}، ضررا يصيبه ولن يكون صغيرا، حيث ليس لكمة ولطمة وضربة كفّ... بل خلود في نار تحرقكم... لأنه لا يوجد أكبر من هذا العذاب فانتبهوا، وها أنذرناكم.

(وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً{20})

تذكّر توسع السورة في الإشكال الذي طرحه الكفّار على الرسول محمّد(ع)، حينما قالوا له: فليكن لك كنز أو جنّة... حيث ركّزت الفقرة السابقة على سوء العذاب الخالد الذي سيُلاقونه في الآخرة بينما اهتمامهم بالكنز والجنّة للدنيا... وهنا عادت لتجيب عن أوّل إشكالين نقلَتْهما الآية 7.

{وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}، كالنبي موسى وعيسى ونوح وإبراهيم وغيرهم... عليهم السلام، {إِلَّا إِنَّهُمْ}، مِنْ دون استثناء كُلُّهم، {لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ}، يستهلكون ما يأكله الناس عادة لِيَسُدَّ جوعهم ويغذّيهم، {وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ}، يتنقلون في أماكن عرض البضائع، حيث إِنَّهُم مثلك ومثل أي رجل عادي يشترون ويبيعون.

نتذكر من الآية 7 اعتراض الكفّار على النبي(ع) حيث قالوا له: أنت رجل عادي، والرسول الإلهي يجب أن يكون مميزا. هنا سبحانه يجيبهم بأن كل رسله كانوا عاديين، يأكلون ويشربون ويعملون ويشترون أغراضهم، ولم ينزل المال والطعام عليهم من السماء، والنبي محمد(ع) رسول مثلهم فلا تطلبوا منه أن يكون غير ذلك.

يكمل سبحانه كلامه مع الكفار: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً}، تتعرضون من تصرفات بعضكم مع بعض لما يعجبكم أو تتماشون معه ويغيّركم، حيث إنّ هناك طرقا أخرى لجعلكم تؤمنون بالرسول الإلهي، ولكنها ليست ما اقترحتموه، واقتراح إرسال رسول شكله غريب أو قدراته فائقة أو يختفي أو يطير... كلها اقتراحات ردّت عليها سور أخرى من القرآن بأنها لو تحققت فلن يؤمنوا بالرسول، وتقرأ مثالا عن ذلك الآية 111 من سورة الأنعام {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا...}، وهنا تضيف الآية شيئا جديدا، حيث إنّه سبحانه اختار من بين الخيارات العديدة التي يعلمها سبحانه الإله القدير العليم... اختار أن يكون رسوله رجلا عاديا من البشر حتى يمتحن الناس به، لِيَكونَ الرسول فتنة كامتحان مثل الأمور الأخرى التي يمتحننا بها تعالى، كالشهوة والغريزة والمال والسلطة... بعبارة أخرى عندما يرسل سبحانه من الناس شخصا ويقول له أنت رسولي لهؤلاء الناس، فهذا امتحان لهؤلاء الناس، مِنْهم من ينجح في الفتنة في الاختبار ويؤمن، ومنهم من يرسب في الامتحان مثل الكفّار الذين نقرأ عنهم هنا.

ملخص موضوع الامتحان: {أَتَصْبِرُونَ}، أيها الناس؟ فِي هذه الفتنة يختبركم سبحانه إن كنتم ستصبرون على الإيمان به تعالى وبرسله...؟ هل ستتصرفون عن وعي ودراسة أم ستفلت شهواتكم وغرائزكم وأهواؤكم وتتحكّم بكم ولا تصبرون على ترك أهوائكم؟ حيث ليس لبّ المشكلة هو الرسول، بل لبّ المشكلة وأساسها هو نفسيتكم وعقليتكم، لِأَنَّ دين الكفر مريح لكم لأنه لا يقيّدكم، وعلى حريّتكم تتصرّفون، حيث إنَّ تصنيف الخير والشر صار على مزاجكم، لَا حلال ولا حرام ولا واجب... إلا ما ترونه أنتم مناسبا لهواكم... وكما أَنَّ الإيمان هو الصبر على الطاعة، والصبر على منع النفس من الانجراف وراء الشهوة والرغبة السيئة... فَإِنَّ نفس الشيء هو الإيمان بالرسول، حيث إِنَّهُ إمّا الكفر به والانفلات وراء الشهوة والغريزة والرغبة السيئة، وإما الصبر ولجم الشهوة والغريزة والرغبة السيئة.

{وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا}، لِأَنَّ المسؤول عنك من مستوى إلهي يدرك "بمستوى إلهي" ويعي معنى صورة ما يحصل، وبالتساهل في التعبير لتقريب المعنى: يعيها ويفهم معناها سبحانه، وليس مثل كاميرات المراقبة التي تسجّل الصور والأصوات ولا تفهمها.

عندما يرسل رسولاً فسبحانه يعلم أن بعض الناس ستؤمن وتستفيد، وبعضهم سيكفر وسيتضرر، لأنه سبحانه بصير يَرَى كل ما حدث وسيحدث، لِذَلِكَ عن تخطيط وعلم ودراية أرسل سبحانه رسله من الناس وليس من مخلوقات غريبة عنّا كالملائكة (ع) أو غيرهم، وعن دراية وعلم وقصد يرسل الأنبياء ليحصل الامتحان للناس، والجائزة لمن آمن كبيرة، والعقاب لمن كفر كبير أيضا.

إلى هنا فهمنا أن الرسل الذِينَ جَاؤُوا قبل النبي محمد(ع) كانوا رجالا عاديين، والنبي محمد(ع) لن يكون مختلفا عنهم، فاعتراضكم عليه ليس في محلّه ولا معنى له.

(وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً{21})
نتذكّر نقل الآية السابعة لكلام الكافرين حين قالوا لو أن ربنا أنزل مع الرسول ملاكا يتكلّم معنا، وعندها سنصدّق أن ربنا فعلا أرسل لنا رسولا. ولم تجب الآيات التي تلتها عن هذا السؤال، وهنا يوجد سؤال آخر يشبه السؤال الأول، وبعدها سنسمع الجواب عن السؤالين:

{وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا}، حيث أصلا لا يحبون ولا يتوقعون ولا يرجّحون من بعد موتهم حصول لقاء معه تعالى في يوم القيامة ليحاسبهم ويجازيهم، لِذَلِكَ قالوا:

{لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ}، لماذا يُنَزِّلُها عليك لوحدك يا محمد؟ فلينزلها علينا كلنا وعندها ربما سنؤمن به كلّنا.

{أَوْ نَرَى رَبَّنَا} "عز وجل"، أو لو يصير لدينا صورة محدّدة للمسؤول عنّا من مستوى إلهي، وعندها سنؤمن بكل تأكيد. حيث إنَّ الكلام على معنى: فليتواصل معنا عبر ملائكته لنؤمن به، بل لماذا لا يتواصل معنا شخصيا لنؤمن به؟

كما ترى إِنَّهُم يرمون الكلام من دون أي تفكير، لو قلت لهم إنَّ تركيبتهم الحالية لا تسمح لهم برؤية الملائكة(ع)، وأصلا لا يمكن رؤيته تعالى، فسيقولون: كلام فَارِغٌ ولن نؤمن إلا من بعد رؤية الإله أو رؤية الملائكة.

{لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ}، حيث رأوا لأنفسهم قيمة كبيرة، وبدل موقعهم الحقيقي الطبيعي كعبيد يتعامل معهم إلههم صَارُوا يتعاملون مع الموضوع من فوق، إِذْ يقرّرون كيف سيتعامل معهم إلههم، وعلى هواهم يضعون الشروط، وأعطوا لأنفسهم أهمية لدرجة طلبهم أن يتواصل معهم الإله شخصيا حتى يؤمنوا به... {وَعَتَوْا}، ووصلوا إلى أعلى مرحلة، والكلام هنا عن مستوى عال من الكفر والاستهتار، {عُتُوًّا كَبِيرًا}، حيث وصلوا إلى أعلى درجة من الاتِّصَافِ بكل ما تعنيه كلمة عتو من معنى، إِذْ طلبوا نزول الملائكة عليهم ورؤية ربهم سبحانه! وهذه وقاحة ما بعدها وقاحة.

لِنَرَ الجواب عن طلبهم:

(يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً{22})
يريدون رؤيته تعالى ورؤية الملائكة (ع) حتى يؤمنوا، حيث إِنَّهُ سبحانه لا يمكن رؤيته أبدا ولا بأي حال من أي مخلوق لِأَنَّ هذا مستحيل، ولن يحصل لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولكنهم فعلا سيرون الملائكة(ع):

{يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ}، في الزمن الذي يصير عندهم صورة محدّدة للملائكة(ع)، وذاك الزمن سيكون في يوم القيامة كما تعلم من عموم القرآن وسياق الكلام هنا، {لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ}، فَيوم يرون الملائكة(ع) لن يكون خبرا جيدا للذين قاموا بالأعمال التي يستحقون عليها العقاب، {وَيَقُولُونَ حِجْرًا}، كما نقول للغرفة في البيت: حجرة. ونقول لمن حجزوه إِنَّهُ محجور. حيث يقول المجرمون: لِتَبْقَ الملائكة(ع) في حجر في مكان يفصل بيننا وبينها ويمنعنا من رؤيتها والتواصل معها، {مَحْجُورًا}، بكل ما تحمله كلمة حجر من معنى حتى لا يكون هناك أي مجال لتواصلها معنا.

حِينَها سيتمنون لو أنهم لم يروا الملائكة(ع)، لأنه وقت الحساب والجزاء على كفرهم وعلى أعمالهم الْإِجْرَامِيَّةِ، والملائكة ستستقبلهم عند قيامهم من الموت بالضرب والإهانات.

لاحظ أَنَّ الآية قفزت عن الرد على طلبهم لرؤيته تعالى، حيث إِنَّهُ معلوم أن هذا مستحيل هنا وفي الآخرة، وانتقلت لما يمكن أن يروه في الآخرة، لِأَنَّ هناك طبيعة جسدنا ستتغيّر وسنتمكّن من رؤية الملائكة(ع) التي يستحيل هنا في الدنيا أن نراها كما هي على حقيقتها لأن طبيعتنا لا تسمح بذلك، وَيمكن رؤيتها الآن إذا تمثّلت، وإذا تمثّلت على أي شكل كان فَلَنْ نعرف أنها ملائكة، إِذْ سنقول إِنَّهَا رجل عادي إذا تمثلت بشكل رجل، أو سنقول إِنَّهَا مخلوق شكله غريب إذا تمثّلت بشكل حيوان مع تغييرات في الأعضاء... وكما ترى مِنْ محتوى كلامها أو أفعالها يعلم الناس أنهم يتعاملون مع ملاك، هذا إن كان الناس لديهم سلامة قلب "فكر ونفسية" كافية لقبول الكلام الحقّ، وتذكّر حادثة رؤية قوم النبي لوط(ع) للملائكة، وأن ذلك لم يردعهم عن إجرامهم بينما النبي لوط(ع) آمن فورا أنهم ملائكة بسبب تماشي أقوالهم وأفعالهم مع سلامة قلبه...

كَمَا ترى، بسبب مستواهم المنخفض الاستهتاري برميهم الكلام بلا تفكير، إِنَّ السورة هنا تتّبع معهم أسلوب الردّ مع تسخيفهم وربطه بمصيرهم الحتمي في العذاب، وذلك حتى يبقى تركيزك أنت كمؤمن "وهم إن أعطوا أذنهم لكلام السورة" على سخافة وتفاهة كلامهم الاستهتاري بموضوع تكون نهايتهم فيه إلى عذاب خالد أليم.

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً{23})
{وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ}، ومن تكملة الجملة ترى أنها أعمال تصنيفها جيّد قام بها المشركون كمساعدة الفقراء وتطبيب المرضى... {فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً}، غير مترابط، كالغبار، {مَنْثُورًا}، منتشرا بشكل مبعثر عشوائي، وَعمليا تصير أعمالهم بلا قيمة وبلا وزن لِذَلِكَ لَا يحصلون على أي شيء مقابلها.

من الواضح أن المقصود هي الأعمال التي لو قام بها المؤمنون فَسَيَكُونُ تصنيفها أنها حسنات وعليها ثواب حسن، ولكن الكلام هنا ليس عن المؤمنين بل عن الذين قاموا بأعمال حسنة وهم كافرون أو مشركون به تعالى، حيث إِنَّ البعض من الكفّار ربما أشفق على فقير فَأَعْطَاهُ طعاما، أو ربما أنقذ شخصا من الغرق، أو ربما اخترع دواء يشفي الناس... وكل الأعمال مكتوبة مسجلة، وعندما يقف هؤلاء الكفار في الآخرة ليتحاسبوا ويتجازوا، ومعهم هذه الأعمال الحسنة، تَقُومُ الملائكة(ع) بعرض أعمالهم عند ربنا سبحانه، وَيقدم ربنا على أعمالهم الخيرة، حيث يطّلع عليها سبحانه وَيجعلها هباء منثورا، وبتعبير قرآني آخر إِنَّهَا تحبط وَتفقد قيمتها.

الآية بكل صراحة ووضوح تخبرنا أن الكافر بالله تعالى لن يحصل على أي حسنة في يوم القيامة، وَهنا في الدنيا وصل الخبر للجميع: لا تتوقعوا الحصول على حسنات في يوم القيامة إن لم تؤمنوا بتوحيده تعالى وبرسله... وبيوم القيامة، وبناء على هذا الإيمان قمتم بأعمال حسنة. أمّا من يفكر أنه: إذا كان هناك يوم قيامة فلسوف أحصل على حسنات ناتجة عن أعمال الخير التي قمت بها، حتى لو لم أؤمن... فهو مخطئ ولن ينال أي شيء.

هذا الموضوع المرتبط بعنوان العدل الإلهي هُوَ دائما محطّ جدل بين الناس، لِنَفْتَرِضْ أَنَّ الكافر سيطلب منه تعالى في يوم القيامة أن يعطيه حسنة لأنه أطعم فقيرا، على أساس أن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره، وأنه تعالى عادل ويحقّ لكل من فعل حسنة أن ينال عليها الثواب، سَيَسْأَلُهُ تعالى: هل كنت أطعمت الفقير وأنت تعتقد بأني أنا إلهك وبأنك ستقابلني في يوم القيامة لأعطيك حسنة؟ سيقول الكافر: لا. يَقُولُ له تعالى: إِذَنْ لا شيء لك عندي، لِأَنَّنِي لم أخطر ببالك أصلا عندما أطعمت الفقير، فلماذا سأعطيك حسنة؟ كُنْتَ تكفر بي وبرسلي وبحسابي... بل لم تقدّرني حقّ تقديري أو جعلت لي شركاء وأولاد... أو كنت تنفي وجودي من أصله... وتسخر منّي ومن ديني وأوامري... أو استهترت بديني وأعرضت عن كتبي وشريعتي... فلماذا سأعطيك حسنة؟

تصور يوم القيامة، وتصور المؤمن وَاقِفاً يَتَحَاسَبُ، وسبحانه يعدّ له الحسنات ويجازيه عليها، عِنْدَمَا أطعم فقيرا فهذه حسنة، وعندما أبعد الحجارة عن طريق الناس فهذه حسنة... وتصور الآن كافرا واقفا يتحاسب، وَهُوَ أيضا أطعم الفقراء وساعد الناس... ولكن كل تلك الأعمال الحسنة سيبقى توصيفها أنها حسنة ولكنها تحبط، أَيْ تفقد قيمتها، لِذَلِكَ لَا وزن لها في ميزان الحسنات كأنها غبار يتطاير في الهواء...

كما ترى من نقل القرآن لما سيحدث في يوم القيامة أَنَّ الكافر يعلم أن أعماله "الحسنة" لا يستحق عليها أي شيء، وَأَنَّ الله تعالى لم يظلمه عندما تبخرت وطارت... بل ننتبه هنا إِلَى أَنَّ القرآن كرّر لنا كثيرا هذا الكلام، فليعلم الجميع من الآن أنه لا حسنات لمن لم يؤمن بالله ربا وبرسله وكتبه وآخرته...

عادة يتشوّش فكرنا من هذا الكلام القرآني الصريح عن حبط الأعمال الحسنة، لِأَنَّ في بالنا خلفيات غير صحيحة، وكمثال هُنَاكَ مَسِيحِيُّونَ لا نعرف عنهم إلّا قلبهم الطيب وفعلهم للخير، وحين نقارنهم مع بعض المسلمين نراهم أخلاقيا وإنسانيا أفضل من كثير من المسلمين... فهل هؤلاء ستحبط أعمالهم والمسلمون السَّيِّئُونَ سينالون الثواب؟ لا ونعم، إِذْ إِنَّ أَيَّ إنسان كان ومهما كان دينه سواء أكان بوذيا أو مسيحيا أو مسلما... هَذَا ظاهره بالنسبة لنا، وأمّا في حقيقة داخله فهذا غير معلوم لنا إن كان موحّدا، وغير معلوم لنا إن كان المسلم منافقا أو فاسقا من الدرجة العالية، حيث إِنَّ المنافق والفاسق من الدرجة العالية لن ينفعه انتماؤه للإسلام بِالِاسْمِ من دون إيمان وتطبيق، وَسيحبط عمله الحسن أيضا.

لَا أنا ولا أنت يحقّ لنا الآن "ولا في الآخرة" تصنيف الناس بحسب ما نراه نحن مناسبا، فما أدرانا بباطنهم وحقيقتهم حتى نقول إِنَّ هذا إلى النار وذاك إلى الجنّة؟ كَمَا ترى من صريح القرآن أنه تعالى لم يوكل أحدا من عباده باتخاذ قرار كهذا، والشفاعة كتطبيق لسماحه تعالى بتدخّل الملائكة والمؤمنين في تحديد مصير شخص ما، لَا تحصل إلا بإذنه سبحانه لمن يراه مناسبا حصوله على الشفاعة...

أمّا الكافر به تعالى أو المشرك، والذي لم يقم بالصالحات انطلاقا من إيمانه بتوحيده تعالى وبرسله وبآخرته... فهذا حتى لو كان من المنتمين بِالِاسْمِ لِلْإِسْلَامِ، وَمَوْلُوداً من نسل النبي محمّد(ع) ذات نفسه، فَإِنَّ أعماله ستحبط. والصورة تكون أسهل على تصوّرنا إن نظرنا للكافرين الظالمين من عيار المجرمين، حيث إِنَّ هَؤُلَاءِ بسهولة نقبل ونفهم حبط أعمالهم الحسنة، وتصير الصورة أصعب عندما نكون أمام صورة ضبابية لا ترينا حقيقة أفكار ونفسيات الناس، ومن ضبابية نرى أنهم إِنْسَانِيُّونَ وخلوقون... وَربما هم كذلك، وبما نفهمه من كلام القرآن فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الناس إن كانوا فعلا فيهم درجة مقبولة من سلامة الفكر والنفسية، فَلَا يهمّ انتماؤهم بالاسم لأي دين كان، وَبهذه الحالة يكون حالهم مثل حال المولود من مسلمين ويعيش بين المسلمين وما هو بمسلم، بِالِاسْمِ فقط ينتمي للإسلام، وهؤلاء ربما بِالِاسْمِ فقط ينتمون للبوذية وللمسيحية التي يشيع الآن اعتبارهم مؤلّهين للنبي عيسى(ع) وأمّه، بينما الكثيرون منهم كافرون بهذا الشرك ولا يبلعونه...

بِعِبَارَاتٍ نتساهل فيها لنفهم الموضوع بوضوح، إِنَّ اختراع طيبة قلب لله تعالى وأنه في يوم القيامة لن يتعامل معنا بحسب ما نفهمه من صريح القرآن من حبط أعمال المشركين والكافرين به تعالى وبرسله وكتبه... هَذِهِ طيبة قلب

وهمية وفي غير محلّها، حيث إِنَّهُ سبحانه أَخْبَرُ بعباده، ومرارا وتكرارا أخبرنا تعالى أنه لا يتساهل مع الكفر والشرك به.

(أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً{24})
ننتقل لحالة المؤمنين:

{أَصْحَابُ الْجَنَّةِ}، الذين سَيَكُونُونَ مع بعض في المكان الموصوف بروعة ما فيه، {يَوْمَئِذٍ}، في يوم القيامة، {خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا}، بالمقارنة مع المشركين إِنَّهُمْ في أفضل مكان يثبتون فيه ويوصف بأنه لا شرّ فيه عليهم، حيث هم مستقرون في يوم القيامة بانتظار انتهاء الحساب، وَهُمْ مَسْرُورُونَ يضحكون ويتسلون ويأكلون ويشربون... حيث إِنَّهُمْ في حالة أفضل من حالة الكفار الذين يتعرضون للإهانة والضرب والجوع والعطش...

المؤمنون في يوم القيامة، {وَأَحْسَنُ مَقِيلًا}، فَالمكان الذي يقيلون فيه وَيستريحون فيه، هو أحسن من مكان الكفار.

كما تعلم فِي يوم القيامة وما بعده هناك مجموعة كافرة محسوم دخولها إلى النار، لِذَلِكَ يسميها القرآن: أصحاب النار، ويبدأ عذابها من أول ما تفتح عينها على الحياة مرة ثانية أثناء محاسبتها وبعدها دُخُولُهَا النار. وهناك مجموعة مؤمنة وبالتأكيد سَتَدْخُلُ إلى الجنة، ويسميها القرآن: أصحاب الجنة، وفي يوم القيامة الطويل جدا وفيما بعده من أيام...
مجموعة المؤمنين التي ستدخل الجنة بالتأكيد، مثل الأنبياء والأوصياء والشهداء والصالحين... هؤلاء أثناء الحساب يَكُونُونَ في أماكن مريحة، ويأتيهم الطعام والشراب كما تقرأ في الآية 50 من سورة الأعراف {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ}، ويتشوّقون لدخول الجنة... وهنا الآية تتحدّث عن وضعهم في يوم القيامة وما بعده وقبل دخولهم إلى الجنّة.

(وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً{25})
{يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ}، نرى الغيوم تظهر في السماء وَتشقّها نزولا إلينا. لِنَتَصَوَّرْ المشهد كما يلي، حَيْثُ فِي يوم القيامة ننظر إلى السماء ويكون لونها وَاحِداً، وَتتشقق وَيصير فيها شقوق وانقسامات، وَيصير فيها خطوط وفراغات وتخرج منها الغيوم أي البقع التي لونها خفيف ولكنها تحجب السماء، ومن تلك الشقوق {نُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ} (ع) {تَنْزِيلًا}، حيث إِنَّ تلك الغيوم أي البقع البيضاء سببها أنه سبحانه يأمر الملائكة (ع) بالنزول من سمائها إلى سماء يوم القيامة، {تَنْزِيلًا} حيث بكثرة تنزل الملائكة (ع)، وَالمنظر هو منظر غمام من بخار الماء، أمّا الحقيقة فَالملائكة (ع) الكثيرة العدد هي الموصوفة بالغمام الذي يبدو في شقوق السماء.

التوصيف بالغمام للشقوق التي ستنزل منها الملائكة (ع) من السماء في يوم القيامة، ليس اسْتِعَارَةً ولا كِنَايَةً ولا مَجَازاً، حيث إِنَّهُ استعمال حقيقي لكلمة غمام من بعد سحب خصائص وصفيتها لبخار الماء، لِأَنَّ البخار المائي غمام وأي مادة أخرى تحمل المواصفات الخارجية للبخار المائي الذي في السماء فَهِيَ غمام أيضا، لِنَقُلْ تخيّلا الآن إِنَّ الملائكة(ع) كبياض خفيف بأعداد كبيرة تشكّل بقعا في السماء، فَوصف منظرها سيكون بالغيوم.

نفس المفهوم في استعمال كلمة نجم على حقيقة المعنى في الآية الأولى من سورة النجم {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى}، حيث إِنَّ النجم وصف لعموم ما كان له موقع في السماء، ومن بعد سحب خصائص استعمالها في وصف النقاط المضيئة ليلا في قبّة السماء نستعملها لوصف أمور أخرى، والآية وصفت بها ملاكا... ونفس المفهوم في استعمال كلمة يد ووجه له تعالى على حقيقة معنى الكلمات بعد ردّها لأساس معناها اللغوي وسحب الخصائص البشرية منها. ولمزيد من التوسّع حول الاسمية والوصفية راجع دراسة الآية 88 من سورة الْمُؤْمِنُونَ {قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}.

(الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً{26})
{يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ}... {الْمُلْكُ}، الحكومة، الأمر والنهي، {يَوْمَئِذٍ}، يوم القيامة، {الْحَقُّ}، الصائب الصحيح، {لِلرَّحْمَنِ}، للموصوف بأنه يعتني بمخلوقاته لما فيه مصلحتهم وهو الله تعالى، حيث فِي يوم القيامة لن يعطي سبحانه

الحكومة ولا الأمر ولا النهي لأحد من مخلوقاته، بل هي فقط لِلرَّحْمَنِ للذي عنايته وسعت كل شيء، لأنه سبحانه سيسامح عن الكثير من ذنوب الناس، إلا الْكُفَّارَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْفَاسِقِينَ وَالْمُنَافِقِينَ من الدرجة العالية فَلَنْ يسامحهم سبحانه لأنهم هم بإرادتهم قرّروا الخروج من تحت مظلّة الرحمة الإلهية.

{وَكَانَ يَوْمًا}، وكان زمن القيامة وما بعده، {عَلَى الْكَافِرِينَ}، على الَّذِينَ أنكروا أن ربنا سبحانه وتعالى وَاحِدٌ لَا شريك له، وأنكروا يوم القيامة... فسيكون يوما، {عَسِيرًا}، صعبا حيث إنَّ أمورهم فيه لن تسير براحة. وكما ترى إِنَّهُ سبحانه رَحْمَنٌ ولكن بعض الناس بكفرهم خرجوا من الرحمة الإلهية.

نلاحظ هنا في الدنيا أن الناس معهم الحرية في طاعته تعالى أو معصيته، ولكن في الآخرة هذا يتغير، حيث إنَّ كل ما سيحصل هناك هو فقط ما يريد تعالى حصوله، وسيرمي الكفّار "السيئين" في النار، ويضع المؤمنين "الصالحين" في الجنة، ولا أحد يستطيع تغيير هذا، أو أَنْ يَهْرُبَ أو يَخْتَبِئَ... وهذا هو المعنى العملي الذي تقصده الآية من حصر الملك به تعالى في يوم القيامة.

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً{27})
{وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ}، في الزمن الذي يعض ويضغط بأسنانه على يديه كتعبير عن الندم والحسرة، يعضّ الذي لم يكن عادلاً ولا منصفاً حين لم يؤمن، عندما يرى العذاب الذي نتج عن كفره، ويرى رحمة ربنا سبحانه تشمل المؤمنين المطيعين للرسول(ع) وذنوبهم يتم غفرانها، وهو يعلم بأنه لم يكن معه حقٌّ حين كفر بدينه سبحانه الواضح أنه حقٌّ وصلاحٌ، فظُلماً كفر، فسيعبّر عن حسرته وندمه بالعضّ على يديه.

نلاحظ هنا في الدنيا أن بعض الناس عندما يشتدّ ألمهم على خسارتهم لشخص يحبونه، أو بسبب الخسارة المالية أو لأيّ شيء يندمون ويتحسرون ويحزنون على خسارته، بعضهم يقضم أظافره وبعضهم يلطم وجهه وآخرون يعضّون على شفاههم... وبعضهم يعضّون أيديهم ويغرزون أسنانهم في أصابعهم أو في كفّ يدهم كحركة لا إرادية منهم للتعبير عن شدّة الندم. وهنا استعملت الآية هذا الوصف كنموذج عن شدّة الندم، ولا تقصد أبداً أن كل الظالمين سيعضّون على أيديهم كتعبير عن الندم، حيث بحسب طباعهم المختلفة سيعبّرون بحركات جسدية مختلفة عن ندمهم، فلنقل إنّ بعضهم الآخر سيشدّ على أسنانه أو ينتف شعره... وهذا يريك بسهولة أن غالبية كلام القرآن عن نماذج.

{يَقُولُ} الظالم: {يَا لَيْتَنِي}، أرغب بشيء فاتني ومن المستبعد حصوله الآن، {يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا}، مع أن التمنّي الآن لا يفيد ولن يغيّر شيئاً، ولكني أتمنّى ولو بأي شكل من الأشكال لو أني سلكت ومشيت في مسلك الرسول الإلهي حين كنت في الدنيا.

(يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً{28})
تكمل السورة مع نقل كلام الظالم: {يَا وَيْلَتَى}، يا مصيبتي العظيمة، {يَا لَيْتَنِي}، أرغب بشيء فاتني ومن المستبعد حصوله الآن، {لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا}، حيث تركت مسلك الرسول وأخذت من هذا الشخص الكافر وذاك الكافر... خليلاً، واكتفيت به مستأنساً به وكنت أحبّ سماع كلامه والجلوس معه... فالذي تتخذّه خليلاً من المفروض أن لا تتوقّع الضرر منه، فلن تحبّ شخصاً ما بهذا العمق لدرجة وصف العلاقة بينكما بالخلّة إلا إذا كان احتمال الأذية منه غير وارد.

بالنسبة لرسم كلمة "ويلتى" بالياء المقصورة، راجع دراسة الآية 56 من سورة الزمر.

الآية لا تزال تنطبق على الكفار في زماننا، صحيح أن الظالمين الذين كانوا في عهد النبي محمد(ع) كفروا به وأهانوه ولم يتّخذوه خليلاً، ولكن حتى في عصرنا الحالي بل وفي أي زمان يوجد فيه شخص ظلم نفسه وترك اتباع الرسول(ع)، واتّبع شخصاً آخر فالآية تنطبق عليه، لا تبحث عن اسم لشخص محدّدٍ من عصر النبي محمّد(ع) قال هذا الكلام، لأنّ كل من ترك مسلك الرسول الإلهي وأحبّ مسلك الكفّار فسيندم على ذلك.

بناءً عليه، ننتبه من بعض الروايات التفسيرية التي تشير لأسماء أشخاص من الكفّار اتّخذوا كافرين آخرين أخلّاءَ، وهي محاولة تطبيقية للمعنى العام للآية، ولكن طريقتهم القديمة في التفسير والتي لا تزال مرغوبة إلى الآن، والتي تهتم بتحديد شخص أو أشخاص قصدتهم الآية، فهذا النوع من التفاسير خطير جداً ويأخذك بعيداً عن المعنى العام الذي تراه

بوضوح في الآيات، حيث تقصّد سبحانه أن يكون غالب كلامه عاماً عن نماذج بلا أسماء ولا إشارات تحدّد أشخاصاً من عهد الرسول(ع)، وذلك حتى نرى تطبيقاً عاماً لكلامه سبحانه على كل زمان ومكان.

أمّا الفكرة المترسّخة فينا والباحثة عن أسماء وقصص من عهد النبي (ع) لتفسير الآيات عليهم، فهذه مشكلة خطيرة جداً، فإذا نظرت إليها بتعقّل لرأيت أنها فكرة تفرض علينا دراسة التاريخ لفهم كتابه تعالى، وكمسلم قد لا تشعر بالغرابة من ذلك، فأنت أصلاً لديك مخزون تاريخي لا بأس به... أمّا لو وصل هذا القرآن إلى شخص من غير المسلمين وليس لديه أي خلفية تاريخية عنهم، بناءً على ما نفترضه من علم بالتاريخ كضرورة لفهم القرآن، فماذا سيفهم ذاك الشخص من القرآن؟ هل بقي اسمه كتاب هداية إلهي مبين؟

ستقول إنّه بسهولة سيفهم الخطوط العامّة من الآيات التي يجهل قصص الأشخاص التي نزلت فيهم، لا ضرورة لمعرفته بالأسماء وسيصير فهمه للآيات عاماً وهو كافٍ للهداية.

سأقول لك: طالما هذا كافٍ للهداية فما الفائدة إذن بحشو دراسة القرآن بروايات تخمينية من هذا النوع إلا الترف؟ وتضييع الجهد؟ وتضييع الموضوع؟ وفقدان التركيز على ما تريد السور قوله؟ والدخول في روايات متعارضة متخالفة مع بعض؟ والدخول في صراعات الشدّ والجذب بين المذاهب لرفع قيمة بعض الناس ومسح من يقدّسهم الآخرون...؟

للأسف وبسبب الطريقة الغالبة في تفسير الأقدمين للقرآن، بحشوهم لها بكل ما خطر ببالهم من معانٍ للكلمات وللجمل... والتحدّي بينهم بمن يأتي بتخمينات واحتمالات جديدة... وحشوهم لها بروايات كيفما كان مصدرها... وبنقاشات وجدالات الترف الفكري أو جدالات مذهبية عصبية.. لا تسمن ولا تغني من جوع الهداية... لهذه الأسباب وغيرها صارت هذه الدراسة مضطرة للدفاع عن نفسها بالخروج عن القليل الكافي لتفسير الآية كدراسة لها، لتطويل الكلام فيما يعين القارئ على الاقتناع بها ونبذ الكثير مما ذكروه في التفاسير المشهورة.

(لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً{29})
نكمل مع قول الكافر النموذج الذي تعرضه السورة: {لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي}، حيث جعلني على الشيء الخطأ الذي لا يوصل للنتيجة الصحيحة، وجعلني مبتعداً عن استحضار ما قاله لي تعالى بعد أن جاءني كلامه تعالى عبر رسوله، {وَكَانَ الشَّيْطَانُ}، وكان الموصوف بالقيام بأعمال الضلال لنفسه وللآخرين، {لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا}، فعَامَّةُ غالبية الناس يعدهم الشيطان بأشياء غير صحيحة ولا يحققها لهم أو أصلاً ما قاله لهم أو ما وعدهم به لن يتحقّق.

هنا الكلام عن وسوسة الشيطان لهم بأنهم إذا اتّبعوا سبيل الذي يقول بأنه رسول إلهي فهم سيخسرون أموراً تسعدهم هنا في الدنيا، ولا توجد آخرة فلن يتعوّض ما يفوتهم من ملذات الدنيا إن لم يحصلوا عليها الآن، وهذا غير صحيح، حيث خذلهم الشيطان بهذه النصائح الكاذبة وهم مشوا خلفه...

نلاحظ من القرآن أن كلمة شيطان هي صفة لكل من يقوم بأعمال السوء وخصوصاً من يضلّل الآخرين، ورأس الشياطين إبليس، ويليه بقية الجنّ والناس الذين يضللون الآخرين عن طريق الهدى، فهم شياطين أيضاً، هنا تشير الآية إلى الخليل الذي تبين في الآخرة أنه شيطان، أو كان الخليل شيطاناً صغيراً تابعاً للشيطان الأكبر إبليس، وهكذا يصير معنى الآية عمومياً لأي شيطان، سواءٌ كان رئيس الشياطين إبليس الذي وسوس للخليل وللظالم، أو كان الشيطان هو خليل الكافر.

في دراستنا هذه ترى أن طرح المعاني الدقيقة للكلمات يعطيك لوحده تفسيراً للآية بشكل مختلف عمّا اعتدنا عليه، آيتنا هنا والكثير من أشباهها ذات المعنى: أضلّني الشيطان، تعطيك معنىً حاسماً حتمياً، لأنّ العامل على إضلال الآخرين يوصف لهذا السبب بأنه شيطان، فإذا اتبعته فحتماً لن أصل إلى نتيجة جيدة، سأكون ضالاً، وحتماً سيخذلني.

ستفهم ما أقوله بشكل أسهل إذا قلت لك: اتّبع الرسول الإلهي تهتدِ. لأنّ معنى كلمة رسول إلهي بما تتضمّنه من صفات مميزة بالشخص حتى جعله تعالى رسولاً له، هي التي أقصدها لك، وهي ضمنياً تحمل معنى أن تكون على الشيء الصحيح إن اتبعته، فمجرّد وصفه بالرسول الإلهي يعني أنه يتمتع بسلامة قلب من الدرجة العالية، وينقل كلاماً من الإله سبحانه، فكلامه هو الحقّ والصلاح. ضع هذا في بالك لأن أكثر كلام القرآن يقصد بكلماته الدقيقة هذا المعنى الواضح

من الكلمات بما تتضمّنه من معانيها، حيث إنّ كلمة رسول عامّةٌ لأي رسول، وحين يقصد بها القرآن الرسول الإلهي فإنها ضمناً يصير لها معنى يختزن الحقّ والصلاح في كلامه.

هنا حين تذكر الآيات ندم الكافر لتركه اتباع الرسول، يعني تركه لاتباع الحق والصلاح، واتباع الشيطان يعني اتباع كل ما هو سيّئٍ ضالٍ.

سأكررها لك بصيغة أخرى: اترك معاشرة لاعبي القمار ومتعاطي المخدرات وزبائن الزانيات. لأنّ هذه الجملة لا تحتاج بعدها لشرح مطوّل حتى تفهم أنهم سيدفعونك للقمار والمخدرات والزنا، لأنّ معانيَ أوصافهم تتضمّن أنهم سيّئون وتتضمّن أنهم سيشجعونك لتكون مثلهم. وهكذا أرادنا القرآن أن نفهم كلامه عن الضلال والهدى والرسول والشيطان، لأنّ هذه الكلمات لوحدها تتضمّن معانيَ كافيةً لتفهم منها المقصود من الكلام، كوصف الشيطان بالخذول، ووصف الخليل في الآية السابقة والذي يتضمّن أنه من المفروض ألا أتوقع منه ضرراً لكونه موصوفاً بالخلّة عندي.

المسألة ليست مسألة دعوة للانضمام لدينه تعالى عبر اتّباع رسوله، بل المسألة عن الدعوة للحقّ والصلاح، ورسول الإله حتماً سيكون هادياً للحقّ. ومن يوصف بالشيطنة لم يوصف بها بسبب معاداته لدينه تعالى بل لأنه معادٍ للحقّ الذي يطرحه دينه تعالى...

(وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً{30})
بعد إعلان الكافر عن شدة ندمه لتركه الرسول واتّباعه فلانا وفلانا من الناس، يتقدم الرسول(ع) في الآخرة أثناء الحساب ليشتكي على الكفار، وقال الرسول، وهنا الكلام عن النموذج محمد(ع):

{يَا رَبِّ}، يا أيها المسؤول عني من مستوى إلهي، {إِنَّ قَوْمِي}، إن الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع دينك وأنا أنتمي لجماعتهم، {اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا}، بدل أن يتفاعلوا معه بالالتزام به ويكونَ منهاجاً لهم، هجروه وتركوه ولم يهتموا به نهائياً.

ننتبه أن الرسول محمد(ع) يتقدم ليشهد على مجموعة الكفار الذين كانوا في زمانه، وهم من قومه، ولذلك لا داعي لأن يقول: يا رب، إن هؤلاء الكفار من قومي تركوا القرآن. لأنّ مجموعة الكفار التي تتحاسب هي من قومه، وكل رسول يشهد على قومه، لذلك يتقدم الرسول(ع) ويشير إلى مجموعة الكفار من قومه ويقول عنهم إنّهم هجروا القرآن. وعندما يتقدم المؤمنون من قومه ليتحاسبوا يتقدم الرسول(ع) ليشهد ويقول: يا رب إن قومي المؤمنين هؤلاء اتبعوا القرآن.

تذكّر أول آية في السورة، لأنّ القرآن هو الفرقان، ونزّله تعالى على عبده محمد(ع) ليكون للعالمين نذيراً، ولكن البعض منهم هجروه، وهنا يشهد النبي محمّد(ع) على الكفّار الذين عاصرهم بأنّهم هجروا القرآن، أمّا بقية من هجر القرآن عبر التاريخ، فيشهد عليهم الرسول محمّد(ع) حيث إنّ كلّ رسول يشهد على أمّته، والمؤمنون من عصرهم والملائكة (ع) يشهدون أيضاً، والله تعالى على كلّ شيء شهيد، وتفهم ذلك من العديد من آيات القرآن ومنها الآية 89 من سورة النحل {وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}.

نحن هنا أمام مشهد من مشاهد الآخرة عندما يقف الأشهاد من الأنبياء أو الرسل أو المؤمنين الصالحين ليشهدوا على أقوامهم، وبما أن أبرز نموذج عن الكفر به تعالى يكون ممن كفر وهو معاصر لرسول إلهي يراه ويسمعه مباشرةً، فاعتمدت الآية نقل أبرز نموذج، فلو نقلت لنا كلاماً عن مشهد محاسبة كفّار من عصرنا وهم لم يروا النبي محمّد(ع) شخصياً، لكان الموضوع جدلياً بشكل ما، فمن سيشهد عليهم؟ وهل هذا الشهيد "المؤمن" العالم الفلاني أو المؤمن الفلاني... هو نموذجٌ راقٍ بأخلاقه الإيمانية وسلوكياته ليكون شاهداً عليهم...؟ أمّا نقل مشهد شهادة رسول إلهي عليهم بما يحمله الرسول من صفات إيمانية وأخلاقية... فلا يمكن لأي أحد الجدل فيها، لأنها نقل لنموذج مثالي عن بقية مشاهد وقوف الأشهاد المؤمنين ضد من كفر في زمانهم.

كما ترى، آيتنا هذه في سياق كلام السورة، تقابل بين الاستهتار الذي تعامل به نموذج كفّار مكّة مع الرسول والكتاب الإلهي، حيث سيأتي زمن ليتحاسبوا على كفرهم والرسول الذي كفروا به سيشهد عليهم بأنّهم تركوا الكتاب الإلهي...

تتذكّر أنّ كلمة قرآن هي وصف لإمكانية قراءة الشيء، وتشير هنا لوصف لما نزل منه تعالى بأنه قابل للقراءة فهو قرآن، وهي معلومات اختارها تعالى وصاغها بلغة يمكن للناس قراءتها، وبناءً عليه فالآية الواحدة قرآن، والسورة قرآن، والسورتان قرآن... وكل السور مع بعضها قرآن. ومعلوم من استعمال القرآن لوصف نفسه بالقرآن في العديد من الآيات، أنّه حين وصف نفسه بالقرآن فلم يكن كلّه نازلاً، وخذ مثلاً الكلام هنا، فرضاً لو كانت هذه السورة آخر ما نزل، واستعملت كلمة قرآن، لربما قلنا إنّها تقصد هجر الكافرين لكل القرآن، ولكن معلوم لك أن المشكلة ليست هكذا، بل هي مشكلة تركهم لما وصلهم منه تعالى وهو قابل للقراءة ليسمعوه ويفهموه، لأنّ عموم ما نزل منه تعالى على الرسول محمّد(ع) لتبليغه للناس ككلام إلهي موصوف بأنه قرآن، فهو قابل للقراءة، والكافرون من قومه (ع) هجروه.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً{31})
{وَكَذَلِكَ}، مثلما يحصل معك أيها النموذج الرسول محمّد(ع)، {جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ}، لكل شخص يصله نبأ، يصله خبر غير منتشر علمه بين الناس لهدايتهم، جعلنا لكل نبي، {عَدُوًّا}، من يقوم بعمل مضاد له في مجال تبليغه الأنباء التي وصلته منه تعالى للناس، {مِنَ الْمُجْرِمِينَ}، من الذين ارتكبوا الأعمال التي يستحقّون عليها العقاب...

مع وجود هؤلاء المجرمين المعادين للأنبياء لا مشكلة، {وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا}، لوحده المسؤول عنك من مستوى إلهي يمكنه وضع الناس على الأشياء الصحيحة التي توصلهم للغاية الجيدة، وكفى بربك، {نَصِيرًا}، يحقّق ما يريده أنبياؤه والمؤمنون.

أمام كثرة عدد المجرمين، وأمام قوّتهم، وأمام دعايتهم القوية ومحاربتهم للدين الإلهي، هل سيجد الناس طريق الهدى؟ نعم، ها ربّك سبحانه يخبرك بأنه سيهدي الناس الراغبين بالاهتداء، وسيحقّق ذلك رغم كل ما تراه وتواجهه من ظروف صعبة، وكفى به تعالى هادياً ونصيراً، فمن أراد أن يهتدي فلن يحتاج لغيره تعالى، ومن قرّر تعالى نصره فلن يحتاج إلى نصير غيره تعالى.

بقي شيء، هل هذا الكلام القرآني وأمثاله يعني أن دينه تعالى سيكون له جمهور كبير من المؤمنين؟ لا، لأنّ واقع الحال الذي نعرفه من التاريخ يخبرنا بندرة المجتمعات التي آمنت وصار غالبيتها من المؤمنين، حيث إنّ آياتنا هنا وأمثالها تشير إلى انتصار الأنبياء بوصول كلامه تعالى عبرهم إلى من يريد أن يهتدي، ولو شخص واحد أراد أن يهتدي والبقية لا يريدون، فالانتصار من منظوره تعالى هو وصول الهداية إلى ذلك الشخص الواحد. وهو نفس الكلام القرآني عن ظهور الحقّ وزهوق الباطل، مما لا يعني أن الكافرين انمسحوا أو صاروا محكومين والمؤمنين مسيطرين، لا، بل صار الحقّ واضحاً لمن يريد الاهتداء هو انتصار الحقّ.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً{32})
{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، لولا نُزّل عليه القرآن جملة واحدة، محمّد يقول بأن كلاماً ينزل عليه من ربّه، كشيء يقرؤه علينا فهو قرآن "قابل للقراءة" فلماذا ينزل عليه على دفعات سورة بعد سورة ولم ينزل مجمولاً كدفعة واحدة في يوم واحد! يجيب ربنا سبحانه: {كَذَلِكَ}، أي بهذه الطريقة أنزلناه سورة بعد سورة، {لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ}، فالنبي(ع) إنسان عادي ويحتاج لوقت حتى تثبت فتترسخ السور في فؤاده، في وعيه الإدراكي، في قابليته لوعي ما يصله.

من آيات متفرقة في القرآن نفهم أن تثبيت فؤاد النبي(ع) هو بهضمه للمعلومات القرآنية الجديدة عليه، وذلك حتى لا يتشوش فكره ونفسيّته بسبب حصوله على معلومات كثيرة دفعة واحدة، وبالنزول على دفعات سيهضم النبي(ع) المعلومات ويستوعبها بشكل تام.

{وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}، فجعل سبحانه القرآن مرتلاً على أتم مواصفات الترتيل، وجعل سبحانه فيه تناسقاً وتناغماً صوتياً، وهذا سيسهّل فهم وحفظ القرآن والتفاعل مع معلوماته. وإذا انتبهت أننا نحفظ ونردّد جملاً قالها المشاهير عبر التاريخ، فستلاحظ في تلك الجمل موسيقى خاصة، وتركيباً خاصاً لكلماتها، مما يسبب وقعاً "انفعالاً" مميزاً لحفظها بسهولة وبذلك تلفت أيضاً انتباه من يسمعها، وترتيل القرآن عبر جعل جمله بنسق صوتي خاص "موسيقى صوتية"، سيجعل له وقعاً وتأثيراً أكبر على من يسمعه.

نلاحظ من القرآن أنه تعالى ضمن لنا أن لا ينسى رسوله(ع) شيئاً من القرآن، كما تقرأ صراحة في الآية 6 من سورة الأعلى {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى}، فقد تدخّل سبحانه ورفع قدرة رسوله على الحفظ حتى يضمن لنا أن الرسالة لن تتشوّه بسبب نسيان الرسول لكلماتها، وحتى تصلنا كما أنزلها سبحانه.

لكن كما ترى من الآية هنا ومن غيرها من الآيات التي أشارت لتثبيت فؤاد الرسول(ع)، لم يتدخّل سبحانه في فكر ونفسية رسوله إلا بتقوية ذاكرته، لأنّ رسوله يتفاعل مع الرسالة مثلنا، فلم يبرمج سبحانه رسوله ليفهم الرسالة ويقتنع بها، بل أنزل عليه القرآن سورة بعد سورة حتى يستوعب رسوله المعاني بقدراته العادية، فلم يجعله سبحانه خارق الذكاء، ولم يجعله مبرمجاً ليتماشى على الحقّ غصباً عنه، بل تركه كما هو بقدراته الفكرية والنفسية.

ننتبه لشيء كرّره القرآن بتعابير مختلفة، فنزول الوحي على الرسول لا يسبّب للرسول الإيمان ولا بأي شكل، بل يؤكّد القرآن أنك مثلما تصلك أنت المعلومات عبر كتاب القرآن، ومثلما وصلت المعلومات لبعض الناس عبر الرسول سماعاً من فمه، فالرسول تصله المعلومات عبر الوحي، لا أكثر ولا أقل، هي معلومات تصل إلينا وتصل إليه، فطريقة وصول المعلومات مختلفة ولكن لا علاقة بين طريقة وصولها وبين الإيمان بها، ونحن الناس العاديين نفترض من رأسنا أن تواصل الرسول معه سبحانه عبر الوحي سيسبّب له (ع) أن يكون مؤمناً أكثر منّا، لأن الوحي ينزل عليه، وهذا غير صحيح أبداً بتاتاً، فمحمّد وإبراهيم وموسى وعيسى... عليهم السلام هم أشخاص عاديون، نزلت عليهم المعلومات فآمنوا بها بسبب محتواها، هم كان عندهم الاستعداد للإيمان لأن "قلبهم" فكرهم ونفسيتهم سليمة، لأنهم في حياتهم العادية كانوا صادقين محبين للخير ولا يعتدون على الناس ولا يتبعون شهواتهم وغرائزهم السيئة... وعندما وصلتهم المعلومات عبر الوحي، تطابقت وتماشت المعلومات مع فكرهم ونفسيتهم وسلوكهم، فآمنوا بها.

بعبارة أبسط، لو نزل الوحي الإلهي على كافر ما فلن يؤمن الكافر لأن المعلومات تنزل على وعيه مباشرة وليس عبر أذنيه، بل سيظن بأنه يهلوس. ولو نزل عليّ أنا الوحي، فلن يزيد إيماني ولو لشعرة، فسأبقى كما أنا، فما الفرق بين معرفتي من قراءة القرآن بأن الغيبة والكذب والغشّ والزنا... سوء، وبين سماع صوت في رأسي يقول لي بأن الكذب والغيبة... سوء! حسن، فلنفترض إني سمعت الوحي البارحة، فهل تفترض بأني سأسمعه كل يوم؟ أم سأنسى بل أتناسى متجاهلا ما سمعته البارحة حين أنجرف وراء التسلية بغيبة الناس! أم تفترض بأن "الوحي" الصوت سيصدر في رأسي قبل أن أنطق بالاستغابة لينبهني! فيتكرر كلما هممت بالغيبة ليذكّرني بسوئها! هل لاحظت، فسماع الرسول للصوت في رأسه، أو وصول المعلومات إلى وعيه أو... فهو مجرد معلومات تصله، فلولا أن الرسول من الأساس شخص قد اختاره تعالى لصفاته العالية ليجعله خليفة له ورسولا ناقلا لكلامه تعالى للناس، لكان هناك احتمال أن يكفر الرسول بما ينزل عليه، وتلاحظ من القرآن أنه يتحدّث مع الرسول محمد(ع) "وكأنه يوجد احتمال" أن محمّداً نفسه قد لا يؤمن بما ينزل عليه، وقد يميل للكفّار، وقد يترك تبليغ الرسالة لأن صدره ضاق من المضايقة والسخرية، كما تقرأ في عدة آيات منها الآية 12 من سورة هود {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}، فمن المهم جداً أن نلتفت لهذه النقطة، لأن الرسول صفة وظيفة لمن ينقل الرسالة، ونزول الوحي عليه هو وصول المعلومات له، فلا يغيّر نزول الوحي في فكره ونفسيته، بل قناعته وإيمانه وتفاعل مشاعره بالمعلومات التي تنزل عليه فهي التي تغيّر فكره ومشاعره.

ماذا لو نزل الوحي على أبي جهل أو أبي لهب؟ هل كانوا سيؤمنون؟ أم سيجنّ جنونهم لأن المعلومات التي يعونها لا تتماشى مع فكرهم ونفسيتهم! لو فرضا وصلهم الوحي إلى وعيهم لبحثوا عن أي طريقة ممكنة حتى لا يتكرّر وصول هذا النوع من المعلومات إليهم...

تثبيت فؤاد الرسول(ع) الذي ذكرته الآية هنا نفهمه بسهولة بعد استحضار معلومة من الآية 52 من سورة الشورى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ...}، فنزول معلومات قليلة "مرتلة" تسبّب التفات العقل والمشاعر، مسببة تفاعل الرسول محمّد(ع) معها، ولأنه شخص مميّز بقلبه السليم من الدرجة العالية، سيؤمن بها لأنها متماشية مع قلبه السليم، وهكذا تصير المعلومات التي نزلت عليه متداخلة مع فكره ونفسيته، فتثبت مشاعره وأفكاره مع الدين الإلهي... وتنزل بعدها معلومات أخرى... ويهضمها... فيثبت... وتنزل أخرى...

صحيح أن القرآن بحاجة لتمعّن ولدراسة لفهم معانيه، ولكن هل من المعقول أن نشطح بتفسير الآية لصفحات من الدراسة حتى نفهمها! هذا شيء يتحمّله بعض المؤمنين أصلاً بأنه كتاب إلهي، وسيقرؤون الصفحات والمجلدات، ولكن كيف سيؤمن بها الآخرون إن كانت الآية غير مفهومة إلا بقراءة صفحات من التفسير! هنا ترى كلاماً طويلاً حول الآية حتى نفهمها، والآية ردّ "قصير" على إشكال طرحه الكفّار، فإن لم يفهم الكافر من الآية الردّ على إشكاله، فما النفع منها؟! أقول لك هذا حتى تلتفت للفرق بين دراستنا هنا وبين بقيّة التفاسير والكتب التي توسّعت في شرح آيات القرآن، فهنا لم نتوسّع في التفسير بل توسّعنا في لفت الانتباه والملاحظات، لأن معنى الآية هنا بسيط ومفهوم بلا تطويل بشرط أن لا تخترع أي شيء من رأسك، أمّا إن اخترعت أن نزول الوحي سيسبب الإيمان لمن نزل عليه، فصرنا بحاجة لتنبيهك ولفت انتباهك، وهذا التنبيه قد استغرق كلاماً طويلاً، وهو ليس تفسيراً للآية، بل تنبيه من أفكار قد تسبّب لنا أن لا نفهم الآية.

نرجع للآية سائلين عن معنى سؤالهم عن نزول كلّ القرآن دفعة واحدة؟ وهذا تفهمه من كلامهم الذي نقلته الآية 4 من هذه السورة، فهناك اتهموا الرسول(ع) بتأليف القرآن، وبناء عليه فهو (ع) يحتاج للوقت حتى يؤلّف القرآن بناء على معطيات جديدة... وهكذا ترى عمقاً آخر في الآية هنا، فسبحانه لا تصله معطيات جديدة لأنه عالم الغيب، فمن أول ما قرّر سبحانه خلق ما في الدنيا فقد قرّر ضمناً محتوى القرآن وتوقيت نزول سوره... ولذلك انتقلت الآية هنا من هذا المفهوم إلى من ينزل عليه القرآن أنه إنسان، ويحتاج للوقت ليعي المعلومات الكثيرة، ولن يستوعبها لو نزلت عليه دفعة واحدة إلا بتغيير إلهي بقدرته (ع) على الاستيعاب والفهم، وهذا لم يفعله تعالى، لأني سأحتجّ ولي الحقّ بذلك، وأطالب بتدخّل إلهي لزيادة استيعابي وفهمي لكلامه سبحانه.

فما فعله سبحانه كان التثبيت للمعلومات في ذاكرة النبي(ع) كضرورة لضمانة وصول كلامه سبحانه إلينا كما هو بالحرف، وهذا عملياً مشابه لوصول نسخة صحيحة من القرآن ككتاب إليّ.

كلمة فؤاد بحسب استعمال العرب لها، ومن تقويم دقة الاستعمال القرآني لها، هي تشير لما تعيه مما تدركه، هي الفكر الواعي لما يصلك، وبتعابيرنا الحالية فهو الوعي الإدراكي الناشئ عن الوعي للذات، هو قابلية وعي النفس ووعي ما يصلك. عادة تصلك المعلومات عبر الحواس، عبر عينك جلدك أنفك أذنك لسانك... ولديك قابلية وصول المعلومات مباشرة إلى فكرك بدون وسيلة الحواس، كالوحي مباشرة في الوعي، وحيث تصل تلك المعلومات إلى وعيك الإدراكي لها فهذه حالة الفؤاد.

خذ مثلاً عندما تتعرّض لشيء قوي جدا كخوف شديد أو فقد حبيب... ويطيش فكرك، ولا تعد تسمع ولا ترى ما حولك رغم عمل عينيك وأذنيك بشكل طبيعي، وقد حصل هذا مع أم النبي موسى (ع) حين ألقته (ع) في اليمّ كما ورد في الآية 10 من سورة القصص {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا...}، أو عند تعرّضك لسؤال في موقف حرج، أو كما يحصل مع بعض الطلّاب عند تعرّضهم للامتحانات... حيث تطير المعلومات من رأسك في تلك اللحظات... والحالة التي تصيبك من تلك المواقف ونسميها "فراغ ذهني" فهي حالة فراغ الفؤاد بالتعبير العربي الذي تقوّم معناه بدقّة الاستعمال القرآني له، وعند استعادتك للانتباه لما تلتقطه حواسك، ففؤادك عاد للعمل.

(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً{33})
يكمل سبحانه كلامه مع النبي(ع):

{وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ}، لا يطرح الكفّار أي تشبيه تقريبي يعبّر عن اعتراضهم عليك، فهم قالوا: لن نؤمن بأنك رسول إلهي وأن القرآن رسالة إلهية، ولدينا الكثير من الاعتراضات والإشكالات، فـ "مثلاً" لو نزل عليك القرآن جملة واحدة لآمنّا... ومقابل أي "مثل" يأتون به كاعتراض عليك، {إِلَّا جِئْنَاكَ} "في مقابل مثلهم" {بِالْحَقِّ}، بالصواب بالجواب الصحيح، {وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}، وتوضيحاً أفضل للشيء الذي لم يفهموه واعترضوا عليه.

هم قالوا للنبي(ع): هناك الكثير من الأشياء التي تجعلنا لا نصدقك. قال لهم النبي(ع): مثل ماذا مثلاً؟ أجاب الكفار: مثلاً: لماذا لا يضع ربك القرآن كله في رأسك دفعة واحدة؟ أليس ربك قادراً على فعل هذا؟

الجواب ذكرته الآية السابقة، وهناك جواب آخر ستذكره تلميحاً الآية بعد الآتية، وهنا تؤكد الآية أن أي سؤال يمكن أن يخطر ببال أي إنسان ويسمعه النبي(ع) فسوف يجيب عنه تعالى {بِالْحَقِّ} بالحقيقة والصواب الصحيح، ولن يترك سبحانه أي سؤال يسمعه النبي(ع) بدون إجابة، بل سيفسّر أي سيشرح لك أيها النبي(ع) بأحسن شرح وتفسير.

بعد الشرح والتفسير الجيد منه سبحانه عبر الردود التي في القرآن كان يجب أن يؤمن هؤلاء الكفار، ولكن:

(الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً{34})

التفسير والشرح لهؤلاء الكفار الذين يضربون لك الأمثال هو بلا نفع ولا أي فائدة لهم، لأنهم قرروا البقاء على الكفر، والذين يضربون لك الأمثال هم:

{الَّذِينَ يُحْشَرُونَ}، الذين يتم جمعهم من موتهم وتشتتهم بقرار منه تعالى سواء قبلوا أو رفضوا، {عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ}، وهنا في الدنيا الجواب عن كل ما سألوا عنه موجود في هذا القرآن "الفرقان بين الحقّ والباطل"، ولكن بقوا على عماهم! فإمّا لم يهتمّوا بقراءة كلامه تعالى لمعرفة الجواب عن أسئلتهم، أو سمعوها، وطبعاً علموا أنها حقّ... وأصرّوا على كفرهم، وهناك في الآخرة سيتم حشرهم مع الكفار الآخرين من مختلف الأزمنة، وسحبهم بوجوههم، بما يتوجّهون به، لرميهم في جهنم، في المكان الموصوف بسوء ما فيه، فيه النار المتأجّجة، وجاء صريحاً في الآية 48 من سورة القمر أنهم في جهنم يتم جرّهم على وجوههم في النار "يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ"، ولكن التعبير هنا مماثل لما نقوله: بوجهك إلى البيت، بوجهك إلى العمل، على معنى فليكن ما تتوجّه به حصراً باتجاه البيت أو العمل تاركاً ما أنت عليه الآن. وهؤلاء الكفّار في الآخرة بوجههم إلى النار ولا اتّجاه آخر لهم.

{أُولَئِكَ}، الكفّار، {شَرٌّ مَكَانًا}، حيث هم "معنوياً في ناحية الكفر" يوصفون بأنهم في ما هو أشدّ شراً، في أبعد ما يكون عن الخير، {وَأَضَلُّ سَبِيلًا}، فإن كان أحد ما غير سالك على المسلك الصحيح فهذا الوصف ينطبق عليهم بالتمام.

مع أن الآية تتحدّث عنهم وهم في الآخرة وبعدها في جهنّم، لكنها لا تقصد المكان الحيّز حيث هم، بل تقصد مكانة الكفر، وضعية الكفر، حالة الكفر. وضلال السبيل بينما هم في الآخرة وفي جهنّم، هو أيضاً تعبير ورد مراراً في القرآن، فمن ضلّ عن الطريق الآمن وسلك طريقاً فيه قطّاع طرق ولصوص، هذا حين يصل إلى اللصوص يبقى موصوفاً بأنه ضالّ عن السبيل الآمن، وكذلك من في جهنّم يبقى موصوفاً بأنه في حالة من ضلّ عن سبيل الجنّة.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً{35})

ننتقل الآن إلى لفتة من تاريخ الأنبياء السابقين الذين واجهوا كفّاراً لا يريدون الإيمان، ونتذكر في الآية 5 من بداية السورة أن الكفار قالوا عن القرآن إنّه أساطير، وضمناً هذا يعني أن قصص الأنبياء خرافات وأساطير... وهنا تبيّن الآيات للجميع أن قصص الأنبياء ليست أساطير، فهي مشهورة ومذكورة في كتب مختلفة وتناقلها الناس... ومضافاً إليه فهي نماذج عملية عن تعذيب هنا في الدنيا للمجتمع الذي يعاند الرسول، وسمعتم عنه أيها الناس، ورأيتم بعض آثاره، فهل تستهترون وتقولون إنّه أساطير لتكون نهايتكم في جهنّم!

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ}، وهو التوراة، وهو مثل القرآن فيه كلام الحقّ والصلاح، ففيه مواعظ وترغيب بالجنة وتخويف من النار وفيه تشريع الحلال والحرام...

{وَجَعَلْنَا مَعَهُ}، جعل سبحانه مع النبي موسى(ع)، {أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا}، يؤازره، يساعده على نقل وتنفيذ الأوامر الإلهية.

تذكّر أن النبي موسى(ع) نزل عليه كتاب التوراة جملة واحدة، وهي قصّة مشهورة جداً حين صعد النبي موسى(ع) إلى الجبل ونزل ومعه ألواح عليها التوراة كاملة، فكانت كتاباً مثل القرآن يحتوي على أساسيات الشريعة والعقيدة، وفيما بعد أضاف اليهود إليها كتباً لأنبياء آخرين، وأضافوا إليها كتباً من تأليف علمائهم، فصارت التوراة كبيرة بالشكل الذي تراه الآن.

هذان رسولان مشهوران من تاريخ قديم، ومن الواضح أن قصصهما ليست أساطير.

ورد معك منذ قليل في الآية 32 طلبهم نزول الكتاب الإلهي على الرسول محمّد(ع) دفعة واحدة ليؤمنوا، وها كتاب نزل دفعة واحدة من عنده تعالى على رسول، فلماذا لم تؤمنوا به أنتم وأمثالكم من المشركين؟

مساعد الرسول موسى(ع) لم يكن مَلَكاً، بل هارون(ع)، وهو بشري مثله بالتمام، أخوه من أمّه وأبيه، فتذكّر ما قاله الكفّار في الآية 7 من هذه السورة للرسول محمّد(ع) حين اقترحوا عليه أن يكون معه مَلَكٌ من الملائكة (ع) يساعده على إنذار الناس... فنزول الملك ليكون مساعداً لم يحصل مع أي رسول، وحين حصل رسول على وزير مساعد، كان من البشر.

تذكّر دائماً أن الكفّار أصلاً يقولون عن قصص الرسل بأنها أساطير، ولذلك تلاحظ الآية هنا تشير بالإشارة إلى التوراة ككتاب نزل دفعة واحدة، وتشير بالإشارة لوزير الرسول بأنه من البشر، فالكافر أصلاً لن تعنيه هذه الإشارة لأنه مستهتر ولا يريد أن يؤمن مهما أجبته... فهذه الإشارات لنا نحن المسلمين فنحن نعلم من التراث الديني وكلام القرآن أن التوراة نزلت دفعة واحدة، ولنعلم بأن اعتراضات واقتراحات الكفّار عليها أجوبة، وأن اقتراحاتهم لو تحقّقت فهم لن يتغيّروا ليصيروا مؤمنين.

بقي شيء، من دراسة السورة بتأنٍ ربطنا آياتها ببعضها، فهل هذا النتاج للردّ على كلام الكافرين والتي احتاجت لدراسة، تعني أن الكافر الذي لن يبذل جهداً لدراستها هي ليست نافعة له وبالتالي لا معنى لكلام السورة معه؟

حجم هذه السورة يقارب الثلاث صفحات، أي ما يقارب العشرين دقيقة من القراءة المتأنية بالعينين، وللوصول إلى معانيها ربطاً ببعضها لرؤية الردود على إشكالات الكافرين، بالتقدير التقريبي يستغرق ساعتين أو ثلاثاً للوصول إلى رؤية عامّة شاملة كافية لأساسيات الردّ على أسئلة الكافرين. فهل ثلاث أو أربع ساعات كثيرة لدراسة ثلاث صفحات ستغيّر حياتي من الكفر للإيمان؟

دعني أطرح عليك الموضوع كما طرحه تعالى عبر القرآن، فالمشكلة مع الكافرين والفاسقين والمنافقين هي فيهم هم بالأساس، فالمشكلة هي قرارهم بالبقاء على فسادهم وسوئهم، وليست المشكلة أن الحقّ والصلاح لم يصلهم أو لم يفهموه، فمهما كانت صيغة كلامه تعالى ليهديهم، سواء كان بسيطاً سهلاً جداً بكلام يفهمه حتى الأطفال، فهم لن يؤمنوا ولن يقتنعوا لا بمحتوى الكلام ولا من الطريقة، فأقل ما سيقولونه أن مستوى الكلام بسيط جداً جداً ولا نصدّق بأن الإله يتحدّث بهذه الطريقة معنا، فهل نحن أطفال؟

وسواء كان كلامه تعالى معقّداً صعباً عميقاً وتحتاج الآية منه لسنين من الدراسة لفهمها، فالكافرون سيعترضون على ذلك متهمين الإله لو كان فعلاً هو منزّل هذا الكلام، بأنه لا يريدهم أن يهتدوا، ففهم كلامه مهمّة صعبة جداً بل شبه مستحيلة فهي تحتاج لتفرّغ كامل لها.

سواء جاءنا كلامه تعالى كما هي حال هذا القرآن، فغالبيته سهل بسيط بكلمات متقنة ودقيقة، وبعضه لسبب أو لآخر يحتاج للدراسة، والكافرون ليست مشكلتهم هذه، بل تعلّقهم بما هم عليه من سوء هو المشكلة.

لذلك وبصراحة أخبرنا تعالى أن هذا القرآن هدى للمتقين، للذين هم بالأساس متقون، متجنبون للسوء والباطل، ولديهم رغبة بالهدى للحقّ والصلاح، فهذا القرآن هدى لهم، أمّا الآخرون فيكون القرآن بالنسبة لهم مجرد كتاب للتعليق عليه والكفر به مهما كان محتواه أو أسلوبه، وطالما يعارض سوءهم وفسادهم، فلن يؤمنوا به.

(فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً{36})
{فَقُلْنَا}، للرسولين موسى وهارون عليهما السلام، {اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ}، إلى الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع ديننا، {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}، ولم يصدّقوا الأمور المميزة المنسوبة له تعالى، {فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا}، وخَرَّبْنَا أبنيتهم وبساتينهم وجيوشهم... على تمام ما يُوصَف به التدمير ولم يبق شيء سليم منها.

الآية هنا استبدلت ذكر فرعون وقومه بوصفهم المعروف بتكذيبهم بآياته تعالى، على أساس أن القصّة معلومة، مثلما أعلم أن فلاناً أحرق البستان، وبناء على معرفتي بمن أحرق البستان تخبرني بأنك قبل إحراقه للبستان أرسلت إليه من ينبهه: أرسلت للذي أحرق البستان من ينبهه من العقاب على إحراقه. وهنا الآية تقول نفس الشيء، ففرعون وقومه

كذّبوا بآياته تعالى التي حصلت أمامهم ومعهم منه تعالى وعلى يد النبي موسى(ع)، كالعصا واليد والضفادع والقمّل... وبناء على معرفتنا بذلك تخبرنا أنه تعالى أرسل الرسولين إليهم وكانت النتيجة دمارهم بسبب تكذيبهم لآياته تعالى.

سوف نرى بعد الانتهاء من المختصر الشديد عن بقية الرسل ما السبب من تلاوة قصص الرسل علينا.

ننتبه جيداً، لم تنزل التوراة على الرسول موسى(ع) قبل هلاك فرعون عصره، وهنا الكلام لا يقصد تسلسل الأحداث بالتدريج زمنياً، لا، بل يقصد الإجابة على ما قاله الكفّار "النموذج" في عصر النبي محمّد(ع)، فقد اعترضوا على نزول القرآن على دفعات كما قالت الآية 32، واقترحوا مَلَكاً مع الرسول كما قالت الآية 7، وقالوا إنّ القرآن أساطير كما قالت الآية الخامسة... فالآيتان هنا أجوبة وليست سرداً لقصّة، وكما ترى هما جملتان مختصرتان جداً. حيث هناك كتاب إلهي نزل دفعة واحدة، وهناك مع الرسول مساعد ولكن من البشر، وحصل على يديه تسع آيات... وهناك قوم كفّار مثلكم، وهم مشهورون جداً، ودمّرهم تعالى بسبب كفرهم، فهل دمارهم أسطورة؟

(وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً{37})
{وَقَوْمَ نُوحٍ}، وأيضا الناس الذين كان ينتمي (ع) لجماعتهم، {كَذَّبُوا الرُّسُلَ}، فقالوا للنبي نوح(ع) مثلما قال الكفار للنبي محمد(ع): أنت لست رسولاً، ولا نؤمن حتى بالأشخاص الذين تقول عنهم أنهم رُسُلٌ جاؤوا قبلك.

من المشهور بين أهل الكتاب أن والد النبي نوح(ع) وجدّه ووالد جدّه كانوا رُسُلاً ولم يؤمن بهم الكفّار.

{أَغْرَقْنَاهُمْ}، أماتهم سبحانه بانقطاع نفسهم تحت الماء، {وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً}، حيث غرقهم صار لبقية الناس شيئاً مميّزاً يدل على معاقبته تعالى لمن لا يؤمن.

هل نالوا عقابهم في الدنيا وانتهى الموضوع؟ لا:

{وَأَعْتَدْنَا}، جهّزنا وحضّرنا، {لِلظَّالِمِينَ}، للذين لم يكونوا عادلين منصفين حين كفروا بربهم سبحانه وبآياته وبرسوله... حيث لم يكن معهم حق حين أنكروا شيئاً صحيحاً واضحاً، فجهزنا لهم، {عَذَاباً أَلِيماً}، ضَرَراً يصيبهم ولن يكون سَهْلاً يمكن تحمله أو الاعتياد عليه، وهو الخلود في جهنّم.

معلوم أن قوم النبي نوح(ع) ماتوا كلهم ولم يَنْجُ إلا عدد قليل كان على متن السفينة مع النبي نوح(ع) كما تقرأ في الآية 40 من سورة هود {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}، فالجيل الأول والثاني والثالث... من ذرية النبي نوح(ع) والمؤمنون الناجون شاهدوا السفينة، وشاهدوا آثار القرى التي غرقت، ويرون من حولهم في منطقتهم أن الناس عددهم قليل وبسهولة يمكن تحديد جدّهم لأن عدد الأجداد قليل... فبسهولة يعلمون أن طُوفاناً حَدَثَ وأباد الجميع في منطقتهم، حيث كان غرق الكفّار في الطوفان دليلاً وعلامةً على أن ربنا سبحانه موجود ويتدخل هنا في الدنيا لمعاقبة الكافرين به وبرسله، لأنه نَجَا الرسول والمؤمنون فقط.

كما تعلم، حتى هذه السفينة الآية وآثار الغرق وبقاء العدد القليل في منطقتهم... قال عنها الذين كفروا فيما بعد بأنها أساطير! فالمشكلة ليست في بعدنا التاريخي عن زمن الحدث وأننا لم نر السفينة ولا آثار الطوفان، بل المشكلة في الاستهتار وقرار الكفر تفلّتاً من الالتزام بأوامره تعالى لفعل السوء.

هذا القرآن الذي بين يديك، والذي كان ينزل في زمن الكافرين الذين تتحدّث معهم وعنهم السورة هنا، أليس محتواه بحكمته وإتقان تأليفه... كافياً لمن قلبه سليم حتى يؤمن بأن مصدره إلهي؟

(وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً{38})
{وَعَاداً}، أيضاً قوم عاد الذين كان رسولهم النبي هود(ع)، {وَثَمُودَ}، الذين كان نبيهم صَالِحاً(ع)، {وَأَصْحَابَ الرَّسِّ}، وهي مدينة لا نعرف عن تاريخها إلا الشيء القليل، {وَقُرُوناً}، وأناساً مقرونين حيث كانوا مع بعض في مكان وزمان واحد، {بَيْنَ ذَلِكَ}، بين تلك الأقوام، {كَثِيراً}، حيث إنَّ التاريخ ليس حصراً على قوم النبي موسى(ع)

ونوح(ع)... وعاد وثمود، المعروفين بشكل مشهور جداً، ولا على أصحاب الرسّ الذين لا تعرفون عنهم إلا القليل جداً، فهناك الكثير من القرون مرّت بين تلك القرون، ودمّرهم سبحانه بطريقة أو بأخرى.

لنسمع ماذا تقول الآية التالية عمّا حصل معهم، ولكن قبل ذلك، نتذكر سويّاً أن "عاد" اسم لقبيلة كبيرة كانت منتشرة على شبه الجزيرة العربية، والحادثة حصلت مع عاد الذين بالأحقاف كما تقرأ في الآية 21 من سورة الأحقاف {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ}...، وكان لديها قدرة عسكرية ومالية كبيرة، وجاءها النبي هود(ع) ينذرها من الكفر والتعدّي على بقية الناس واستعبادهم بالقوة...

نتذكر أن "ثمود" اسم لقبيلة كبيرة أيضاً كانت منتشرة على شبه الجزيرة العربية، والحادثة حصلت مع ثمود في الحجر كما تقرأ في الآية 80 من سورة الحجر {وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ} وهي حالياً بالقرب من المدينة المنورة وتسمّى مدائن صالح... وجاءها النبي صالح(ع) ينذرها من الشرك والإسراف...

أما أصحاب الرسّ فقصتهم غير مشهورة ولا نعرف الآن الكثير عنهم، ولكننا نعرف أن الرسّ معناها بئر الماء أو نهر الماء، وهناك الكثير من الأماكن التي كانوا يسمونها الرسّ في زمن نزول القرآن، ويوجد مدينة مشهورة اسمها الرسّ ولها تاريخ قديم جداً تقع الآن في البلد الذي يسمّى السعودية، والظاهر أنها هي التي تتحدث عنها الآية، لأنها بحسب ما يظهر من التاريخ أشهر وأكبر مدينة بهذا الاسم، أما من هو رسولهم وماذا كان جرمهم فلا معلومات لدينا من القرآن، أما في الروايات عن المسلمين فلم يقولوا: لا نعلم، وكعادتهم رووا لنا قصصاً لا سند لها ولا دليل عليها حتى صارت القصص عن أصحاب الرسّ بالعشرات! من اليمن إلى أنطاكية والشام... إلى عنقاء أكلت العروس... ونبي حبسوه أربعة عشر عاماً في بئر... ولم يدرك الراوون لتلك القصص خطورة ما يفعلونه حين لم يقولوا: لا نعلم.

الأخطر منه ما نسبوه للإمام علي بروايات عديدة مختلفة بين بعضها عن الرسّ! وواحدة من تلك الروايات يظهر منها بوضوح أن الكذّاب الذي اخترع الرواية ونسبها للإمام علي كان ضليعاً بالتراث الفارسي، حيث اخترع أسماء لأنهار مياه أصحاب الرسّ مشابهة لأسماء الأشهر في السنة الفارسية! ولا أكون عنيفاً على الراوي ولا على المخترعين للروايات إذا قارنت بين ما رووه وبين ما نجده في كتب أهل الكتاب من قصص مشوّهة وناقصة وخرافية... ألّفوها عن الأنبياء، أمّا هنا في دراستنا فيكفينا أن القرآن يقول إنهم جاءهم رسول ولم يؤمنوا فجرى تدميرهم، وأشرت لك لمدينة كبيرة تاريخها قديم جداً واسمها الرسّ في الجزيرة العربية، ولا ندري إن كانت هي المقصودة.

لاحظ، هناك أقوام نعرف الكثير عن تفاصيل قصصهم وأصابهم العذاب، ويقول القرآن إنّه يوجد أقوام كثيرة نزل عليها العذاب ولا تعرفون قصصهم، فيصيبنا الفضول لمعرفتهم! وهو فضول لا فائدة منه، فما الفائدة من معرفة المزيد من القصص إن كانت كلّها متشابهة من الناحية الدينية! وأصحاب الرسّ مثال عن قوم لم يذكر القرآن أي تفصيل عنهم وفقط ذكر اسمهم، تاركاً خبرهم لما يعرفه الناس، أو نسوه وضاع، فبقي أصحاب الرسّ نموذجاً غير معروف كنموذج عن غيرهم غير المعروفين... وأخبرنا القرآن أنه لا جديد في قصّتهم فمثلهم مثل غيرهم من الذين دمرناهم، لأنهم كفروا وكذّبوا الرسل.

لِنَعُدْ للسورة ولننظر ماذا حصل مع تلك الشعوب:

(وَكُلّاً ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلّاً تَبَّرْنَا تَتْبِيراً{39})

{وَكُلّاً}، وكلّ واحد من تلك القرون، من تلك الشعوب، {ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ}، حيث شَبَّهْنَا له وقرّبنا له، وهنا الكلام عن تقريب عقيدة التوحيد والشريعة الحقّة... والآخرة... وبيَّنّاها لهم بشكل واضح ليفهموها ولكنهم لم يؤمنوا... {وَكُلّاً}، كل واحد من الأقوام، {تَبَّرْنَا تَتْبِيراً}، مثلما نصف القطع الصغيرة لمعدن الذهب بالتبر، حيث تمّ تفتيتهم لقطع صغيرة بكل ما تحمله كلمة تبر من معنى، وتفتَّتَتْ قوتهم ومجتمعهم...

يا أيها الكافر الضارب للأمثلة... وآتيناك في هذا القرآن من كل مثل، فماذا ظنّك بمصيرك بعد إصرارك على كفرك وتكذيب الأمثلة الإلهية؟ وها نذكّرك بنماذج مشهورة "فرعون، عاد وثمود" ونموذج غير معروف "الرسّ" ونخبرك عن وجود الكثير غيرهم وخبرهم غير منتشر علمه بين الناس، فهل هذه أساطير أم مصيرك سيكون مختلفاً عنهم إذا قرّر سبحانه معاقبتك؟

(وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً{40})
{وَلَقَدْ أَتَوْا}، مرّ قومك أيها النبي محمد(ع)، {عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ}، حيث هناك مجتمع من الناس نزلت عليهم أشياء كثيرة دفعة واحدة من السماء، ولكنه كان مطراً من النوع السيئ، والبعض من قومك أتى إليها ورآها، والقرية المشهورة بنزول مطر سيئ عليها هي قرية النبي لوط(ع) حيث أمطر سبحانه عليهم حجارة ساخنة كما تقرأ في الآية 74 من سورة الحجر {فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ}، ويبدو واضحاً من القرآن أنه في زمن قوم النبي محمّد(ع) كانت لا تزال آثار تلك القرية مرئية وبقعتها مشهورة جداً بما حصل فيها من دمار شامل.

يسألهم سبحانه: {أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا}؟ ألم تحصل عندهم صورة محدّدة للقرية المدمرة؟ لأنهم كانوا يعرفونها ويمرون بقربها أثناء سفرهم إلى فلسطين ووادي الأردن ومنطقة الشام، ويعلمون من الناس أنها القرية التي تدمّرت وكان أهلها شاذّين ويعتدون على الغرباء... لذا كان يجب أن يتعظوا ويفهموا أن العذاب يمكن أن ينزل عليهم كما نزل على هذه القرية...

{بَلْ}، رأوها وعلموا بقصتها ولكنهم لم يتعظوا لأنهم، {كَانُوا لَا يَرْجُونَ}، أصلاً لا يحبون ولا يتوقعون ولا يرجّحون، {نُشُوراً}، عرضهم عبر إخراجهم من الموت، حيث لم يكونوا يعتقدون أنه سبحانه سينشرهم ويخرجهم من الموت مرة ثانية في يوم القيامة ليحاسبهم ويجازيهم، ولذلك لم يهتموا ولم يتعظوا. وعبّرت آيات أخرى عن نفس المعنى بقولها: لا يرجون لقاء الله تعالى.

حالياً في البلد الذي يسمى الأردن، توجد منطقة تسمّى غور الأردن، وهي منطقة كانت مسكونة منذ القدم، ويقع فيها البحر الميت، وهو البحر الصغير المشهور بارتفاع نسبة الملح في مائه لقرابة الثلاثين من المئة، ومن المشهور بين المسلمين أنه في زمن النبي لوط(ع) كان في منطقة غور الأردن أربعة تجمعات سكنية، لكل واحدة منها اسم، وهي مذكورة في التوراة ولم يذكرها القرآن وهي: سادوم، عامورة، أدومة، صبييم. وهذه التجمعات هي القرية التي كان فيها النبي لوط(ع). والمشهور في عموم ثقافة المتدينين أن البحر الميت لم يكن موجوداً في عصر النبي لوط(ع) بل كان مكانه واحدة من التجمعات السكنية، "وهذا غير صحيح لأن البحوث الحالية تثبت بأن البحر الميّت عمره بعشرات آلاف السنين"، ويقولون إنّه عندما نزل العذاب على تلك المنطقة حصل زلزال وفوران للحمم من الأرض، وانخسفت قطعة من الأرض وصارت فيما بعد بحيرة كبيرة هي الآن البحر الميت.

كما تلاحظ، استعملت كلمة "المشهور ويقولون" بسبب وجود الكثير من الاختلافات بين كتب التاريخ حول مكان وأسماء وتواريخ وماذا حصل في تلك المنطقة، ولا يتماشى ما قالوه عن ولادة البحر الميّت من تلك الحادثة مع العمر الذي يقدّره علماء الجيولوجيا له، ربما حصل خسف فعلاً وتوسّع البحر الميّت ليغطي تلك القرى... وربما لا... على كل حال حتى عهد نزول القرآن يبدو أنه كان هناك آثار ما لتلك القرى وكان مشهوراً بين الناس حصول دمار هناك لقوم سوء كانوا يعتدون جنسياً على الغرباء... حيث إن القرآن أشار لمعرفة المسافرين من أهل مكّة لمكان قوم النبي لوط(ع) ولقصّتهم، ومعرفتهم تلك لم تكن مستندة لمصدر ديني بل مستندة لما يعرفه الناس عن تاريخ المنطقة، وهذا ما يبدو من الآية 137 من سورة الصافات {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ}، ومضافاً لذلك تسمية فعل الشذوذ بـ "الوطي" يريك أن قصّتهم أيضاً كانت مشهورة لمدة طويلة جداً سببت اختصار النسبة من "قوم النبي لوط" إلى "الوطي" للأسف.

(وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً{41})
{وَإِذَا رَأَوْكَ}، صارَتْ عند الكفّار صورةٌ محدّدةٌ لك أيها النبي(ع)، {إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا}، ويتعاملون معك من خلفية الاستهانة والاستخفاف، ويعتبرونك بلا قيمة، ويستهينون بك ولا يفكرون بما تقوله لهم.

يقولون: {أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا}! من بين كل الناس المحترمة في نظرنا، من الأغنياء ورؤساء العشائر والزعماء... ومن بين المخلوقات الأخرى من ملائكة (ع) وجنٍّ... اختارَ الله تعالى هذا الرجل العادي!

أنت تعلم من المشهور في التاريخ أن النبي محمّداً(ع) كان يتيماً لم يرث عن أبيه أملاكاً تغنيه، وعاش فقيراً يرعى الماشية بالأجرة، وفي شبابه عمل أجيراً في قوافل التجارة... ولم يكن مشهوراً بين الناس إلّا بأمانته وصدقه، فلا منصب ولا وجاهة ولا مال ولا بطولات قتالية دفاعية أو اعتدائية... ولا فصاحة خطابة أو شعر أو نثر... ومن هذه الصورة يأتي استهزاء الكفّار به حين قال لهم إنّه رسول إلهي.

مباشرةً سيخطر ببالك أن القيمة العالية لا تتحدّد بالمعايير التي يعتمدها الكفّار لتقييم الأشخاص، والمعيار هو الصدق والأمانة... من الناحية الإنسانية، والإيمان والعمل الصالح من ناحية دينية، ولكن دعنا ننتبه إن كانت هذه المعايير فعلاً معتمدةً عندنا؟ هل نحن نعطي قيمة للناس على أساس إيمانهم وعملهم الصالح أم نحترم ونوقّر ونضع في الصفوف الأمامية والواجهة... أصحاب المال والمنصب والزعماء...؟

دعك من ذلك، ولْنَرَ كيف فعلاً نقيّم المؤمن، حيث ترى شحناً ثقافياً دينياً منتشراً بيننا ونعتبره عموماً من أرقى مستويات الدين والتدين، وترانا ننسب القدرات الخارقة للمؤمنين من الدرجة العالية، فهذا تطوى له الأرض، وذاك يرى المستقبل، والآخر يفسّر المنامات، وغيره يأخذ خيرة بالقرآن تخرق الماضي والحاضر والمستقبل... وذاك لديه كيس مال لا ينتهي ماله مهما سحب منه، وآخر لديه كيس طحين لا ينفد طحينه، وغيره يقرأ تعويذة أو رقية شافية من أعصى الأمراض... الآن لِنَرَ المقارنة بين كلامه القرآني تعالى المادح للأشخاص، وما المعيار، ولْنَرَ معاييرنا نحن، فنحن لا يكفينا إيمان الشخص وعمله الصالح لنوقّره، وبدلاً منه نوقّر الدجالين المدّعين للخوارق، أو الذين ادّعى لهم الآخرون الخوارق. وهذه العقلية هي نفسها عقلية الكفّار في معاييرهم لقيمة الأشخاص ولكن بلباس ديني.

الكلام يجرّ الكلام، حيث رووا تضخيماً وتفخيماً عن مهر السيدة خديجة حين تزوجها النبي محمّد(ع) بأنّه (ع) دفع لها أربعة آلاف دينار ذهباً ومئة ناقة... وآخرون قالوا إنّ المهر كان 12 أوقيّةً من الذهب... وآخرون قالوا... وقالوا إنّه في مأدبة العرس نحروا عشرات النوق... ولتكن هذه نماذج لك عن المبالغات الفلكية التي على أحسن الظنّ ظنّ قائلوها أنهم يحسنون صنعاً بتفخيم نبيّهم ماليّاً... بينما هذه الأرقام الفلكية كانت ثروات طائلة في حينها، ومالكها حتماً سيكون وجيهاً في قومه، ومعلوم أن النبي محمّداً(ع) كان فقيراً، وعمّه أبو طالب الذي رعاه في فتوّته أيضاً كان فقيراً، وعموم عشيرته (ع) من بني هاشم كانوا فقراء إلا اللهم ما ندر منهم من متوسطي الحال كالعبّاس وأبي لهب...

من أمثال هذه الروايات الكاذبة يضيع عليك فهم النصّ القرآني، حيث هنا تقرأ كلامهم الاستهزائي المستند على فقر النبي(ع) وأنّه ليس من الوجهاء، فكيف يتماشى ذلك مع تلك الروايات الخيالية! ولماذا المبالغة والكذب وتشويه التاريخ؟ وهل بهذا الكذب يصير النبي محمّدٌ(ع) ذا شأن؟

(إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً{42})
{إِنْ كَادَ}، فعلى شعرة، هذا الشخص الذي يقول عن نفسه إنّه رسول بقي له القليل، {لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا}، فعبادة الذين نعتقد أن فيهم صفات وقدرات عالية فوق صفاتنا وقدراتنا، هي عقيدة صحيحة وتوصلنا لغاية صحيحة وكاد أن يقنعنا بتركها وهكذا سنصير على شيء غير صحيح، {لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا}، فبسبب ادّعاءاته على شعرة كنّا سنقتنع بأنه رسول وسنترك عبادة آلهتنا وهي العبادة الصحيحة، ولكننا صبرنا وتحمّلنا كلامه وبقينا نتصرف بوعي ودراسة فلم ننجرف وراء كلامه وإصراره بحججه على إقناعنا بتغيير ديانتنا، فلم نترك عبادة آلهتنا، وها ذهبت محاولاته وبقينا على ديننا.

لاحظ أن الكفار لم يفكروا في التهديد بالعذاب على شركهم، ولا في الأجوبة عن أسئلتهم، ولا في كتب ربهم سبحانه، بل هكذا عناداً وتكبّراً رفضوا توحيده تعالى واخترعوا آلهة وعبدوها، ويفتخرون بأنهم صبروا على عبادتها ولم يتركوا النبي يضللهم عنها! وهذا يذكّرك بنوعية الكفّار الذين تتحدث عنهم ومعهم السورة، فهم يقولون كلامهم لا عن دراسة ولا عن تفكير.

تلاحظ كلامهم يشير بوضوح إلى عمله (ع) الدؤوب وبإصرار على هدايتهم.

{وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}، أولئك الكفار، {حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ}، حين تصير عندهم صورة محدّدة للضرر الذي سيصيبهم عقاباً على كفرهم وهذه الصورة المحدّدة ستحصل لهم في يوم القيامة من الموت، سيعلمون، {مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا}، من الذي على المسلك الخطأ الذي لا يوصله للنتيجة الجيدة، أنتم أيها الكفار أم النبي(ع).

في يوم القيامة حين يرون جهنم تستعر وتتطاير شرارات نارها، ويعلمون أنهم سيتعذبون فيها، فعندها سيعلمون أن الرسول(ع) كان محقّاً في إنذاراته، وأنهم كانوا ضالّين في عبادة آلهتهم التي أوصلتهم للعذاب.

عندما نسمع كلام الكفار نظنّ أنهم يتكلمون من عقولهم وعن تفكير وعن إيمان واعتقاد ويقين، ولكن سنرى في الآية التالية حقيقة عبادتهم، وحقيقة نفسيتهم، وحقيقة آلهتهم:

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شرّاً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضلَّ عنك صيدها. واستعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، فلم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضالٌّ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردّاً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً{43})
{أَرَأَيْتَ}، كما نقول بالعامية: لو شفت. نسألك لو صار عندك صورة محدّدة لـ، {مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ}، من اعتبر ما يهواه ما يميل إليه مما يشتهيه ويرغبه، اعتبره إلهه من حيث الطاعة! فهؤلاء تركوا كلام إلههم الحقيقي واخترعوا دينا من هواهم عموماً سواء أكان بعضه هوى صالحاً أو فاسداً، ولا مشكلة في هوى الحقّ والصلاح فالكلام هنا عن مشكلة الهوى الفاسد حيث صاروا مطيعين له وعملياً صار إلههم.

{أَفَأَنْتَ}، أيها النبي(ع)، {تَكُونُ عَلَيْهِ}، على شخص بهذه العقلية والنفسية، {وَكِيلًا}؟ هل تعتقد أنك أيها النبي(ع) قادر على تسيير أموره كما يجب على الأحسن المرغوب، فتجعل هذا الشخص مؤمناً موحّداً مطيعاً لربه؟!

لدينا هنا كافر ترك طاعة إلهه الحقيقي، وبدلاً عنه أطاع هواه وأطاع رغباته وشهواته السيّئة، وترك دين الإله واخترع ديناً مبنياً على ما يرغبه ويشتهيه حتى لو كان فاسداً، فصارت شهواته وغرائزه السيئة إلهه، ومن الواضح جدّاً أنّه من كان بهذه النفسية فلا يمكن أن يتغيّر، فهل تضع نفسك أيها الرسول(ع) في موقع الوكيل، الضامن المعتمد لتغيير اعتقاده ليصير إيمانه صحيحاً؟

الجواب: بكل تأكيد، لا.

بعبارة أخرى، من خلالك أيها الرسول وصلهم كلام من الإله سبحانه ليهديهم، ومعلوم أنّه لن يوجد كلام حقّ سيقنعهم أكثر من كلامه تعالى الذي يرى كل شيء وصادق، ورغم ذلك لم يهتدوا، وبالعقل والمنطق المدعوم بالأدلة والبراهين جاءهم كلام منه تعالى ليهديهم، ولم يهتدوا، والسبب أنهم في عمق فكرهم ونفسيتهم لا يريدون الالتزام بشيء يقيّدهم ويمنعهم من فعل ما يشتهونه ويرغبونه "هواهم"، فيحبون الثراء بالمال والأملاك ولا يريدون ديناً يقيّدهم بالحلال والحرام المانع لهم من جمع الثروة حتى من طرق السوء، ويريدون السلطة للتحكّم بالآخرين ولا يريدون ديناً يجعل السلطة مجرد وظيفة لخدمة ما هو صالح للناس، ويريدون التعامل مع الآخرين من فوق بقوّتهم وتسلّطهم... ولا يريدون ديناً يساوي الناس أمام قانون عادل... ويريدون الشهوة حتى لو كانت سيئة ولا يريدون ديناً يحرّم ويحلّل مما يشتهونه... أما آلهتهم فلا تأمرهم بشيء أصلاً، وعلى هواهم يفعلون ما يحلو لهم، فلا رقيب ولا حسيب ولا آخرة... لأنهم أصلاً لا يؤمنون بالآخرة... ولهذا هم متعلقون بآلهتهم، لأنهم في الحقيقة متعلقون بهواهم الذي اخترعوا منه دينهم.

إذا كان كلامه تعالى لم ولن يقنعهم لأنهم متّبعون لدين من اختراع هواهم السيّء، فأمام هذه النوعية من الناس ماذا تتوقّع أن تفعل أنت أيها الرسول؟ فهل لديك كلام حقّ سيقنعهم أكثر من كلامه سبحانه؟

صحيح أن الآية تتحدّث عن الكفّار، ولكن في عمقها هي عامّة لعامّة من عبد هواه ولو في تفصيل واحد، حتى لو كان مسلماً، لأن مشكلة عبادة الهوى عامّة الانطباق على جميع الناس وهي الكلمة الجامعة الواصفة لكل ما نفعله من سيئات مع تدرّجات في قوّة اعتبار الهوى إلهاً، حيث هناك من يسرق كل ما يستطيع من أموال الآخرين، وهناك من يسرق ويترك القليل... وهناك من يزني مع الزانيات ويستحرم الزنى مع المحصنات، وهكذا ترى الآية ذات مفهوم عامّ الانطباق على كل البشر ولكن بتدرجات، وكلام القرآن غالباً عن أقصى درجات السوء، والأقل سوءاً يصل في تدرجاته إلينا نحن المنتمين لدينه تعالى ومعنا بقية الناس العاديين من بقية الأديان حتى لو كانوا مشركين، فحتى الشرك فيه درجات... وهكذا وصولاً إلى النماذج النادرة من البشر من ذوي القلوب السليمة من الدرجة العالية، وعادة هؤلاء يوظّفهم تعالى كرسل له للناس، ولكن غالباً تحدّث القرآن عنهم بغض النظر عن توظيفهم كرسل وبغض النظر عن تواصله تعالى معهم وحياً ليصيروا موصوفين بأنهم أنبياء، فهذا حصل لأنهم بالأصل قلوبهم سليمة وليس العكس، وبضبابية يؤمن البعض بأنّه تعالى جعل البعض أنبياء ورسلاً ولذلك صاروا مميزين بقلوب سليمة وهذا ليس صحيحاً، والصحيح أنهم بالأصل بقلوب سليمة وبعدها جعلهم تعالى أنبياء ورسلاً. ولمزيد من التوسع حول ذلك راجع دراسة الآية 121 من سورة النحل {شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}.

(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً{44})
{أَمْ تَحْسَبُ}، هل يخطر ببالك أيها النبي(ع)، {أَنَّ أَكْثَرَهُمْ}، غالبية هؤلاء الكفار، {يَسْمَعُونَ}، حين تتكلم معهم، {أَوْ يَعْقِلُونَ}، ولديهم عقل يعمل بشكل سليم ليستوعبوا ويفهموا حين تكلمهم بالكلام الصحيح العقلاني؟ لا.

هل تعتقد أنك تتحدث مع أشخاص تفهم وتفكّر؟ تصغي لكلامك لتتعرف على الحقّ، أو تفكّر فيما تقوله لهم؟

اعْلَمْ أيها النبي(ع): {إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ}، هم فقط وفقط كالحيوانات الموصوفة بأنها نعمة كالبقر والغنم والحمير... فهي أليفة وتعيش بقربك ولكن هل تتوقع أن تسمع بقرة كلامك وتعقله؟ بالطبع لا، لأن كلامك بالنسبة لها مجرد صوت بلا معنى، فهي لن تفهمك.

{بَلْ}، هؤلاء الكفار، {أَضَلُّ سَبِيلًا}، ليسوا على المسلك الصحيح أكثر من الأنعام، لأن قطعان الماشية تسير كما يسيّرها الراعي... بمقدار ما أعطاها سبحانه من فهم فهي تستعمله، أمّا هؤلاء الكفار فهم لا يستعملون العقل الممنوح لهم بل يتّبعون هواهم وشهوتهم وغريزتهم السيئة وكأنهم لا يميّزون بين الخير والشرّ الذي من المفروض تميّزُهم به عن الأنعام.

على أي أساس ستعتقد أيها الرسول أنّ بإمكانك تسيير اعتقادهم نحو الهداية وهم أضلّ من الأنعام؟

من الواضح جداً جدّاً أن سياق الكلام عن فهم أمور من المفروض أن يفهمها إنسان عاقل، وقرأتُ لأحدهم متفلسفاً أنّ كلبه يفهم عليه، وراعي الماشية يسوقها بالكلام حيث تفهم عليه... وهنا حين تُشبِّه الآية الكفّار بالأنعام فهي غير صحيحة لأن الأنعام تفهم، وكلامه صحيح وفي نفس الوقت كلام الآية صحيح، لأن كلام الآية عمّا مفروضٌ بالإنسان فهمه، من كلام عقائدي وتشريعي وسلوكي عن الحقّ والصلاح والخير... وذاك المتفلسف كلامه صحيح حيث يفهم على كلبه ولا يفهم كلام القرآن عن الحقّ والصلاح، وهذا بالضبط ما تقوله الآية، فهو كالأنعام في مستواه.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً{45})
عطفاً على الآيات السابقة، الذين لا يرون ولا يسمعون الآيات الإلهية الواضحة التي تقولها لهم أيها الرسول هم مثل الأنعام، خُذْ مثلاً الآيات التالية الواضحة والتي لم يقتنعوا بها:

{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدةٌ، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت، {إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ}؟ كيف جعل المسؤول عنك من مستوى إلهي للأشياء ظلّاً ممتداً على الأرض، والجواب على كيفية مدّه تعالى للظلّ هو بسبب الشمس التي تصدر نوراً فيصير للأشياء ظلٌّ يمتد على الأرض ويتغيّر طوله وقصره أثناء حركة الشمس، {وَلَوْ شَاءَ} ربك {لَجَعَلَهُ}، الظلّ، {سَاكِنًا}، لا يتحرك، فأمامه تعالى خيارات عديدة ولو قرّر لأوقف حركة الظلّ، وجعل الشمس بالنسبة لنا ثابتة لا تتحرك أو...

ألم تلتفت كيف مدّ سبحانه الظلّ، {ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ}، على الظلّ، {دَلِيلًا}، عندما ترى الشمس تعلم كيف سيكون اتجاه الظلّ الذي سينطبع على الأرض.

معلوم للجميع بالبداهة أن الشمس ليست سبباً للظلّ بل هي سبب للإضاءة، والظلّ "العتمة السوداء" هو الأساس، وهكذا تصير الشمس تدلّ على الظلّ، تضيء منطقة ما، لتريك الظلّ.

نلاحظ أن عبارة: {أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ}... متكررة في القرآن، وهي تفيد معنى: ما شفت، ألم تلتفت إلى... وليس صحيحاً أن في الآية تقديماً وتأخيراً كما قالوا: ألم تر إلى الظل كيف مدّه ربّك. بل تقصد الآية أن تلتفت إلى فعل وقدرة ربّك كيف مدّ الظلّ، وبعدها طبعاً سنلتفت إلى الظلّ الممدود.

علينا أن ننتبه جيّداً هنا، ولا نفكر مثل الكفار، فالأشياء التي نراها كل يوم بشكل متكرر، وصرنا معتادين على وجودها حولنا، لا يعني أنها جاءت من الحائط، أو حدثت هكذا من نفسها ولوحدها، وتكرار حصولها لا يعني أبداً استسهالها واستسخافها... وهذه هي طريقة الكفار في التفكير، والقرآن ينبهنا بكثرة في الكثير الكثير من الآيات إلى أن ما نراه من حولنا من شمس وظلّ وليل ونهار وقمر ونجوم وحيوانات ونباتات وطريقة خلقتنا وما في المخلوقات والظواهر من صفات... أنّها أشياء تحتاج لعلم ولقوة وقدرة عظيمة لتصنعها...

الكثير من المسلمين انجرفوا خلف الحديث عن علماء الفيزياء المؤمنين بالله تعالى... ففي القرن العشرين تصدّرت الفيزياء بقيّة العلوم بسبب كثرة وأهمية الابتكارات والاختراعات التي نتجت عنها... ومشى المسلمون خلف موجة الانبهار بعلماء الفيزياء الميكانيكية والإلكترونية... وقاموا بتأليف الكتب والمقالات حول العلماء المؤمنين بسبب الآيات من حولهم... وبطريقة تجعلك تشعر بأن إيمان هؤلاء "العلماء العظام" دليل على وجود الله تعالى! لأنهم عباقرة مؤمنون به تعالى، وهذا دعم للإيمان به تعالى إلهاً! علماً أن القرآن أشار لشيء مشابه ولكنه أشار للرسل والأنبياء والصالحين والصدّقين والشهداء، ويعتبرهم النماذج التي تدعم الإيمان، لأن هؤلاء الأطهار في فكرهم وسلوكهم هم القدوة والأسوة، أما "العباقرة" من العلماء في كل المجالات فالناحية العقلية النظرية فيهم قد تكون جيدة ولكنهم ليسوا قدوة دينية إلا إن كانوا من المؤمنين العاملين للصالحات.

المشكلة في كلامهم ليست هنا، بل بجعل الآيات القرآنية ذات عمق لا يفهمه إلا علماء الاختصاص العالي جدّاً بالرياضيات والفيزياء والطب والفلك... وهذا ليس بصحيح، فالآيات التي أشار لها القرآن يمكن لأي إنسان عاقل رؤيتها وفهمها وليست حكراً على العلماء، وبالطريقة البسيطة التي أشار بها القرآن للآيات من حولنا، لا نجد أي داع لتعقيدها حتى تصير حكراً على المتخصصين في الفلك والفيزياء... وخذ مثلاً الآيات هنا، التي بكل بساطة تلفت انتباهنا لما حولنا، لظواهر طبيعية نفهمها بكل بساطة، لأنه هو سبحانه صمّمها لتكون ملاحظتها بسيطة بلا تعقيد، ولتكون آية لكل إنسان عاقل، وهذا طبعاً لا ينفي وجود آيات أخرى تحتاج لفهمها اختصاصات عالية، وحتى أهل الاختصاصات العالية يعجزون عن فهم الكثير مما حولهم... ولكن كلام القرآن غالباً عن أمور سهلة على الانتباه لها وعلى فهمها لترى منها دليلاً عليه تعالى.

بهذا الكلام لست أنفي أهمية معنى إيمان العباقرة من البشر به تعالى، فهو فعلاً شيء بالغ الأهمية لأنه في جانب سلامة الفكر مشابه لكلام القرآن عن النماذج التي يسمّيها بالأنبياء. راجع كلام القرآن عن الشابّ إبراهيم، رامياً مخزونك التراثي الروائي القصصي الشعبي عنه، وسترى أنه مجرد شاب عادي ولد في مدينة ليس فيها ولا واحد ينتمي لدين التوحيد، وليس فيها ولا واحد ينتمي ولو بالاسم لدينه تعالى، وليس فيها مؤمن موحّد يكتم إيمانه، ولم يقرأ كتباً لأنبياء أو لمؤمنين موحدين... ورغم ذلك إبراهيم بسلامة قلبه توصّل لتوحيده تعالى وتنزيهه بل توصّل لمعرفة الآخرة والحساب والجزاء! وهذا ما تراه من كلامه العجيب في الآيات حول الآية 82 من سورة الشعراء {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ}.

مضافاً لذلك، كان سلوك الشاب إبراهيم سلوك عامل للصالحات، وهذه الأمور هي السبب في اختياره له تعالى ليذكره لنا في القرآن مراراً وتكراراً كأرقى نموذج يمكننا كلنا الوصول إليه لو حافظنا على سلامة قلوبنا.

هذا يرينا سبب تركه تعالى الكلام عن موحدين آخرين حالتهم من ناحية التوحيد فكريّاً مشابهة لحالة الشابّ إبراهيم، فالمشهورون جدّاً بالتوحيد من فلاسفة اليونان كسقراط وأفلاطون وأرسطو... وغيرهم الكثير، خالفوا عقيدة قومهم المشركين، ولكن فيما يبدو لي بالتحليل أن قلوبهم لم تكن تامّة السلامة من ناحية عمل الصالحات بالدرجة العالية المطلوبة لجعلهم نماذج ليذكرهم تعالى لنا لنقتدي بهم دينيّاً.

هكذا ترى أن توحيد بعض العلماء المرموقين فعلاً له دلالة مهمّة، ولكن الخطأ اعتبار إيمانهم عالياً لأنهم يفهمون ما لا نفهمه من آياته تعالى القرآنية أو الطبيعية، لا، فالآيات البسيطة الفهم التي لفت القرآن انتباهنا لها والتي يفهمها أي إنسان عادي، كظاهرة نزول الماء والليل والنهار... أكثر من كافية لترتقي بنا إلى أعلى درجات الإيمان به تعالى، وهذا جانب من المسألة، والجانب الآخر له نفس الأهمية وهو العمل الصالح، ولهذين السببين حصر القرآن كلامه عن نماذج مؤمنة عاملة للصالحات من الدرجة العالية ليكونوا لنا قدوة.

أمّا بقية كلام القرآن "القليل" عن مؤمنين صالحين من الدرجة الأقل، فكان واضحاً عن جعلهم قدوة لنا فقط فيما كانوا فيه صالحين، كمؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه والذي ورد الكلام عنه في الآية 28 من سورة غافر {وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ}...، وكحالة زوجة فرعون الوارد الكلام عنها في الآية 11 من سورة التحريم {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}، وعلى رغم عظمة حالة إيمانها المضاد لكفر زوجها الفرعون العاتي، لكنها لم تصل إلى درجة جعلها نموذجاً نسائياً من الدرجة العالية إيمانياً وسلوكياً كالسيدة مريم(ع).

(ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً{46})
{ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا}، بعدها أخذ ربك سبحانه إليه الظل، {قَبْضًا يَسِيرًا}، براحة وسهولة يتقلّص الظل عندما ترتفع الشمس فوق الأشياء.

ضع في بالك أن العرب لم يستعملوا كلمة يَسِير بمعنى قليل بشكل مباشر، فالمعنى المباشر لكلمة يَسِير كمرادف لقليل درج فيما بعد، وهو من مشتقات الاستعمال للدلالة على الأمور التي لا صعوبة فيها، مثلا: القليل من المال يسير الاستغناء عنه، ونقول عنه: مال يسير. هنا لا تفهمها أنه تعالى قبض {يَسِيرًا} قليلا من الظلّ، بل قبضا سهلا، ومن مشتقاته أن انسحاب وتقلّص الظلّ يحصل قليلا قليلا. نفس هذه الإشكالية لفهم معنى كلمة {يَسِير} التي يظنّها البعض كمرادف لـ قليل ستجدها في الآية 14 من سورة الأحزاب {وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا}، والآية 8 من سورة الانشقاق {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا}.

معرفتك بالفلك والفيزياء لن تجعلك تلتفت لهذه الآية أكثر من غيرك، بل صفاء فكرك ونفسيتك يجعلك ترى الإله الصانع لهذه الظواهر، فالإيمان العلمي أن تفكّر في صدور النور الفوتونات من الشمس، وحجب الكائنات لها لينطبع شكلٌ بلا ضوء على الأرض... لتفكّر في الفوتون وطبيعته وارتداده عن الأشياء... وتفكّر في الانفجارات النووية التي سبّبت صدور النور من الشمس... أمّا ما تطرحه الآية هو: ها ترى الظلّ، يمتد ويقصر، ويتكرّر المشهد أمامك يوميا، فمن صمّم هذه الظاهرة؟ ومن نفّذها؟ ومن جعلها تتكرّر؟ وهل لوحدها حصلت؟ أم أنها تدل على عَالِمٍ قدير حكيم صمّمها وصنعها؟ هذا كل ما تريد الآية أن تشير إليه.

فكّر مثلا في آلة ماكينة تريد تصنيعها، فأولا ستحدّد الهدف من صنع تلك الآلة، وما تتوقع منها فعله عندما تنتهي من صنعها، وثانيا عليك تصميمها ودراسة كيفية تصنيعها، ثم تبدأ بتصنيعها، وتواجهك المشاكل في صناعتها، وتعيد تصميمها... وهكذا حتى تنجزها وتكملها فتشغّلها وتعرف أنها بحاجة لتعديلات... في النهاية تقف أمام آلة أو بناء مهما كبر حجمه وتعقيده لتراه أصغر من حبة رمل بالنسبة لكوننا الفسيح الضخم الذي خلقه ربنا سبحانه وتعالى، وكوننا سماء واحدة من سبع سماوات أخريات ضخمة، ولذلك يَلْفِتُ سبحانه انتباهنا إلى عظمته عندما نرى الشمس تشرق وتغيب وتجعل للأشياء ظلالا... فهذه الظواهر الدقيقة المتكررة الرائعة تدل بالتأكيد على إله صنعها، واعتنى بالتفاصيل لدرجة حدوث ظاهرة انطباع ظلّ للأشياء وتوسّعه وتقلّصه.

بقي شيء، هنا وهناك ستجد من يذهب بآيتنا هذه إلى أبعد من ظلّك المطبوع أمامك على الأرض، وسيفسّر آيتنا بالماورائيات، وصولا إلى نظرية الظلال لأفلاطون، وتطبيقا على نظريات فلسفية وصوفية وعرفانية تتحدّث عن عمق معنى كياناتنا... على أساس أننا ظلال وأن الدنيا التي نراها ما هي إلا انطباع لنوره تعالى... وتعابير أخرى يقولونها...

هذا النوع من الكلام كافتراضات وتحليل ونظريات... لا مشكلة دينية معه إن لم يتعارض مع صريح ما يقوله القرآن، ولكن المشكلة في تفسير كلامه تعالى بهذا الشكل، على أساس أنهم بفكرهم المنير وإيمانهم العالي يفهمون من كلامه تعالى ما لا يمكن للآخرين فهمه، وعلى أساس أننا نفهم ظاهر الكلام وهم يفهمون عمقه باطنه الذي لن يظهر لنا ولن نفهمه لأن مستوانا الإيماني والفكري ليس بالمستوى المطلوب.

كما ترى، إن كان كلامه تعالى غير مفهوم بظاهر معنى الكلمات العربية، فمع من يتكلّم القرآن؟ إن كانت الآية غير مفهومة للكافر فما معنى سماعه لها ليؤمن؟ سيقولون إن الكافر سيفهم القشور الكافية للهداية ولكنه لن يلمس عمقها. لكنهم شملونا نحن المؤمنين العاديين بذلك، لأننا لسنا نرى في الآيات العمق الذي يرونه! وهكذا برأيهم يصير كلامه تعالى في عمقه غير مفهوم إلا لقلّة قليلة جدا جدا من نوعية كبار الفلاسفة والصوفيين والعرفاء!

نسأل: افتراضا لو كان كلامكم عن عمق باطن كلامه تعالى صحيحا، عندها كيف تدّعون أنكم فهمتموه؟ وها نراكم أيها المتميّزون فكريا وإيمانيا غير متوافقين على فهمه، ولكم آراء مختلفة في تفسيره! وسيجيبون بأن لكلامه تعالى أعماقا بطونا مختلفة، وكلّها صحيحة، هكذا يصير كل كلامهم المختلف عن بعضه صحيحًا!

إن لم تكن هذه هي التُّرَّهَاتُ فما هي التُّرَّهَاتُ؟ هذا ترف فكري تخيّلي ومن المعيب تفسير كلامه تعالى على أساسه.

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً{47})
{وَهُوَ}، الله سبحانه وتعالى، {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ}، أيها الناس، {اللَّيْلَ لِبَاسًا}، فترة العتمة من اليوم تغطّيكم تستركم بعتمتها وظلامها.

{وَالنَّوْمَ سُبَاتًا}، نَسْبَتُ "نتوقّف مع إمكانية إعادة التفعيل" عن النشاط والحركة بسبب النوم الذي هو وصف لحالة الفقدان المؤقّت شبه التام للإحساس بالمحيط بدون عطل في جسدنا.

{وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا}، نتحرك ونتوزّع لنقوم بالأنشطة المختلفة في فترة الضوء من اليوم.

نلاحظ وجود مخلوقات غيرنا لا تنام كما هو مشهور في تراثنا الديني عن الملائكة(ع)، وهناك مخلوقات تنام في النهار وتستأنف نشاطها في الليل بعكسنا مثل الخفافيش والبومة ... وهناك مخلوقات تستريح في فترات متقطعة من الليل والنهار مثل الأسود والضباع... أما نحن البشر فخلقنا سبحانه بحيث يناسبنا النوم في الليل لننشط في النهار، ونتناغم مع فترة انتشار الضوء لننتشر، وفي فترة العتمة نبيت، وهذا ما تشير إليه الآية.

هل هكذا من الحائط من لا شيء أو بالصدفة ومن دون خالق قدير يحصل كل هذا؟

لاحظ كيف تَصِلُ الآيات الظواهر الطبيعية مع بعضها ثم تربطها بنا كبيئة محيطة بنا، من ظلّنا إلى الشمس، إلى الليل والنهار إلى استراحتنا وانتشارنا فيهما... فلو كنّا نتحدّث عن ظاهرة واحدة، حصلت ولم تتكرّر، لفكّرنا بأنها قد تكون صدفة، ولكن هذا التناغم والتواؤم والتناسب بيننا وبين بيئتنا التي نعيش فيها، بكل تفاصيلها الكثيرة، المتكرّرة، فمن صمّمه؟ ومن نفّذه؟ ومن يجعله يستمر بتكراره؟... وبكل سهولة ترى الصانع القدير العليم من وراء كل هذه الظواهر، وترى الإله عزّ وجلّ.

انتبه جيّدا يا عزيزي، لسنا من القرآن نعلم أن هذه الظواهر صنعها إله، بل هي الظواهر تدل على إله صنعها، وإنما القرآن يلفت انتباهنا للظواهر، ويخبرنا عن اسم وصفات الإله الذي صنعها. وإذا لم تنتبه لما أقوله، فانتبه حين يقول لك الآخرون إنَّ قرآنك يقول بأن إله المسلمين صمّم وخلق الكون، وهذا شيء يخصّك كمسلم لتعتقد به بناء على ما يقوله كتابك المقدّس ولا علاقة لي به، فأنا لست مسلما والقرآن ليس كتابي المقدّس.

يقولون هذا بينما القرآن يلفت انتباهنا للظواهر ويسألنا عمّن صمّمها ونفّذها؟ ويسأل جميع الناس عن ذلك، وهي بكل وضوح تدل على صانع صنعها، فمن هو؟ عندها يقوم القرآن بإخبارنا بأن الصانع اسمه "الله" عزّ وجل، وسترى الفقرة هنا تخلط بين لفت الانتباه للآيات وللرسل، لأننا عبر التاريخ الطويل للبشرية نجد رسلا من "الله" تعالى يخبروننا عنه تعالى أنه الصانع للآيات، المصمّم الخالق لما في الدنيا، ولا نجد رسلا للآلهة الأخرى التي عبدها الناس! والأهم أننا لا نجد أي شيء له امتداد تاريخي عميق لهم! فدينه تعالى ممتد عمقا إلى أوّل بشري تأهّل لِيُكَلَّفَ بدينه تعالى وهو آدم(ع). ونجد في القرآن أدلّة دامغة واضحة عن بطلان الاعتقاد بأي إله غير الله تعالى، وخذ مثلا عن ذلك الآية 22 من سورة الأنبياء {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}، لذا ضع هذا دائما في ذهنك عندما تقرأ الآيات التي تلفت انتباهنا للظواهر.

نتذكّر أيضا أننا في دراستنا هذه لاحظنا من كلامه تعالى ثلاثة طرق للتعرّف عليه سبحانه، حيث جعل تعالى فينا ما يجعلنا نراه ونتعرّف عليه من التفاتنا لخلقتنا وخلقة ما في الدنيا بكائناتها وظواهرها، وهذا ما أشارت إليه الآيات هنا، وأرسل لنا كتبا، وهذا أيضا ما مرّ معك في السورة، وثالث طريق هو المشاعر عبر التعلّق بقدرة فائقة عند فقدان القدرة على التعامل مع الأمور، كحالة الخوف غرقا، وهذه ضمنا وبشكل ما تشمل الحالات النفسية الأخرى كتفاعلنا الشعوري مع جمال ما نراه وتناسقه، وكمثال عن ذلك ما تجده في الآية 6 من سورة النحل {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ}.

(وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً{48})
{وَهُوَ}، ربنا سبحانه، {الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ}، الهواء الذي يروح وَيمرّ من مكان إلى آخر، أرسلها تعالى لتكون، {بُشْرًا}، بشارة، وَتحمل الخبر السار المفرح بنزول الماء، لأن الرياح تحرك الغيوم من مكان لآخر وعندما نرى الغيوم فوقنا نعلم أن الريح دفعتها وجلبتها إلينا وستمطر علينا، والمؤمن يفهم أنها خبر سار وجيّد من، {بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ}، بعنايته تعالى بنا لما فيه مصلحتنا بيديه تعالى بالقدرة وبما يحقّق به تعالى الأمور في بيئتنا أَمَّنَ لنا الماء الذي نحتاجه للشرب، ولري المزروعات... عبر تنزيل المطر.

{وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ}، من تلك الغيوم التي حركتها الرياح، {مَاءً طَهُورًا}، صِفَاتُهُ جيدة ومحبوبة، وَليس لونه أو رائحته كَرِيهَةً أو طعمه مَالِحًا، بل يجعل الأشياء طاهرة أي محببة خالية مما يشوبها مما لا نرغبه، وَيروي عطشنا ويغسل الأوساخ ويخضرّ النبات...

طبعا الآية تتحدث عن الحالة الغالبة التي تفرح فيها الناس بنزول الماء، إذْ هناك حالات ينزل فيها المطر موحلا، أو غزيرا يُشَكِّلُ طوفانا مؤذيا... ولكن هذه الحوادث نادرة نسبة للمطر الطهور الذي ينزل في البلدان المختلفة.

نَنْتَبِهُ، كلمة "طهر، طهور، طاهر" التي يستعملها القرآن، ليست مرادفة للاصطلاح الفقهي الذي درج فيما بعد، حَيْثُ إِنَّ كلمة "طاهر" في كتب الفقه تعني: الذي ليس عليه دم أو بول أو... أما كلمة طاهر ومشتقاتها في القرآن فهي تعني الصفات الجيدة، الخلو من الشية، الخلو مما يصيب الشيء من عوارض سيّئة، من أوساخ خارجية أو نفسية تجعله منفرا، لِذَا الماء الطاهر والشخص الطاهر بتعبير القرآن يعني أن صفاته جيدة محببة.

أقول لك هذا لأن بعض كتب فقه القرآن فسّرت "الطهارة" في آيتنا هذه بناء على المعنى الاصطلاحي لكلمة "طهر"، وهذا تفسير غير سديد، علما أنه عمليا بعض الأحيان يكون استعمالنا لماء السماء لتنظيف الأشياء هو تطبيق حقيقي لمعنى طهارته لجعل الأشياء خالية مما هو غير محبوب، ولكن المعنى عمومي ويشمل الشرب منه وريّ
المزروعات... ويشمل تَطْهِيرَ الفكر والنفسية كما تقرأ في الآية 33 من سورة الأحزاب {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا}.

في الآيَةِ بعد التالية سنتحدّث عن معنى نسبة نقل الغيوم ونزول الماء له تعالى.

(لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً{49})

صمّم وخلق سبحانه بيئتنا حتى ينزل الماء الطهور، {لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا}، حتى يجعل سبحانه بقعة محددة من الأرض وعادة لها اسم، وَيَجْعَلُهَا بالماء حيّة ومن قبل كانت ميتة لا نبات فيها ولا حيوان، وَبَعْدَ نزول الماء تدب الحياة في البقعة التي نزل فيها، وَتَنْبُتُ النباتات المتنوعة، وتظهر الحيوانات والحشرات التي تتناسب مع تلك النباتات والبيئة.

الكلام ليس عن ساعة أو يوم من نزول الماء، بل بحسب مختلف المناطق، وَالْكَلامُ مثلا عن موسم الشتاء الممطر في بلد ما...

{وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا}، نؤمّن الماء ليشربه من الذين خلقهم تعالى، وهذه الجملة بعبارة أبسط تصير هكذا: ومما خلقنا نسقيه من ماء المطر. {أَنْعَامًا}، من الأنعام وهي من الحيوانات الموصوفة بأنها نعمة لنا لأننا نأكلها ونستخدمها، سواء أكانت الأنعام أليفة كالبقر والغنم والدجاج... أو وحشية كالظباء والأيائل... وَيَسْقِي تعالى منه، {وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا}، الكثير من الموصوفين بأنهم ناس. وَالْكَثِيرُ من الحيوانات والناس تعتمد على سقوط المطر وَتَتَشَرَّبُهُ بعد تجمعه في برك ويمشي في أنهار موسمية أو دائمة، وآخرون يعتمدون على ما سقط من مطر في أماكن أخرى وجرى أنهارا أو تحت الأرض وَيَسْتَخْرِجُونَهُ بحفر الآبار، أو يذيبون الثلج...

نَنْتَبِهُ، أكثرنا حاليا يفتح صباب الماء "حنفية، صُنْبُورًا..." في بيته وينزل الماء، ولا يحمل همّ سقوط المطر، لأن الدولة أو البلدية أو شركة المياه تؤمّن له المياه، ونلاحظ أن الذين يتعاطون الزراعة وتربية الحيوانات يشعرون بأهمية نزول الماء أكثر من الناس الذين يعيشون في المدن، والمسؤولون عن تأمين مياه الشرب للآخرين يَعْرِفُونَ قيمة تساقط الأمطار...

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً{50})
{وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ}، حوّل سبحانه نزول الماء وَنَشَرَهُ ووزّعه ليتساقط هنا وهناك، {لِيَذَّكَّرُوا}، ليستحضر الناس في فكرهم ونفسيتهم المصمّم والخالق الْمُسَيْطِرَ على هذه الظواهر، حَيْثُ قسّم سبحانه المطر بين الناس ليزرعوا ويعيشوا، وقطعه سبحانه مرة وأعطاه مرة، ليفهموا أنه يوجد من يخطط ويسيطر على نزول الماء وَأَنَّهُ لَا قدرة لديهم على التحكّم بنزوله بالقدر والوقت الذي يريدونه. فانقطاع المطر هنا ونزوله هناك من المفترض أن يذكّر الناس بربهم الذي صنع هذا النظام، {فَأَبَى}، رَفَضَ بشدّة، {أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا}، إلا إنكارا لإلههم! فَهُمْ يرفضون الإيمان ولا يقبلون إلا الكفر به تعالى الذي من الواضح أنه هو مَنْ صمّم وخلق ما سبّب نزول الماء!

نلاحظ من الآية السابعة من سورة يس {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} أنه سبحانه عندما خلق الناس مِنَ الأساس كان سبحانه يعلم أن الْأَكْثَرِيَّةَ لن تؤمن وطبعا صَدَقَ "علمه بالغيب" سبحانه، فهذه الآيات كافية لنؤمن، ولكن أكثر الناس مُصِرَّةٌ على الكفر! وأنت تعلم أنه تعالى لا يحتمل ولا يتوقّع ولا يخمّن بل يعلم بما سيحصل.

حتى نفهم بشكل عميق وسهل الفقرة السابقة، تصوّر نفسك أنت قرّرت خلق بيئة وكائنات، ولنقل أَنَّكَ ستصمّمها بتفاصيل كثيرة، وتلك التفاصيل ستعكس قدراتك العالية على التخطيط والتصميم... فلنقل أَنَّكَ خلقت أسماكا في حوض ماء، وجعلتها تنمو من الأكل، فهل سترشّ لها الطعام على وجه الحوض أم ستجعل البيئة يَنْتُجُ عنها الطعام؟ طبعا بالقدرات العالية ستجعل البيئة يَنْتُجُ عنها الطعام، فهل تتوقّع انتباه مخلوقاتك إليك كمصمّم خالق لها إن رششت عليها الطعام بيدك مباشرة، بينما إن حصلت الكائنات على الطعام من بيئتها فلن تراك؟ أم أنك أنت رزقتها وَأَنْبَتَّ لها رزقها؟... وهذا هو بالعمق ما تشير إليه الفقرة هنا، وهناك فقرات كثيرة في القرآن تشير إلى نفس المعنى، فحاجتنا للشرب لنعيش لننمو ولنلتذّ بالارتواء... ونزول ماء الشرب من الغيوم، من تصاعده كبخار وتكاثفه ونقله بالرياح ونزوله صافيا محببا للشرب... كلّه من تصميمه وخلقه تعالى، ولذلك ينسب سبحانه لنفسه نزول الماء فيقول: {أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}... {لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً}... {وَصَرَّفْنَاهُ}... مثلما ستنسب أنت لنفسك أنك خلقت الأسماك مع أنها انخلقت بالتوالد... وستنسب لنفسك رزقها علما أَنَّ طعامها نتج عن بيئتها...

من نفس هذا المفهوم تأتي بقية تعابيره تعالى ناسبا لنفسه أنه خالقنا علما أنه تعالى يذكر مراحل حصول ذلك، وأنه يميتنا علما أَنَّ ما يميتنا هو الضرر في جسدنا، ورازقنا علما أننا من بيئتنا نحصل على الرزق، وهادينا ويضلّنا... فكل ما يحصل في الدنيا هو نتاج ما صمّمه تعالى، ولذلك ينسبه تعالى لنفسه.

(وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً{51})
{وَلَوْ شِئْنَا}، حيث أمامه تعالى خيارات عديدة ولو قرّر، {لَبَعَثْنَا}، لأنهض وأقام سبحانه، {فِي كُلِّ قَرْيَةٍ}، في كل مجتمع من الناس، {نَذِيرًا}، شخصاً ينقل للقرية الخبر السَّيِّئَ عن الخطر الأكيد الذي ينتظرهم حتما في الآخرة، وذلك بسبب كفرهم بربهم سبحانه بالرغم من الآيات الواضحة الدالة عليه تعالى، ورغم وصول الإنذار لهم.

من الآية التالية سترى أن كلام الآية هنا ورغم عموميته فهو خصوصي لسؤال الكافرين: لماذا ترك الإله كل القرى وأرسلك إلينا يا محمّد؟

درج بيننا أن نقول "قرية" للتجمع السكاني القليل العدد، ونقول مدينة للتجمع السكاني الكبير، ولكن أساس معنى كلمة قرية هو: مكان مجتمع من الناس للعيش فيه، سواء كان عددهم كثيرا أو قليلا، سواء كانوا في الخيم أو في البيوت. وما نقوله نحن الآن: مزرعة، حي، بلدة، قرية، مدينة... كُلُّهُم تنطبق عليهم كلمة قرية في أصل اللغة العربية وفي استعمال القرآن.

الآيات السابقة لفتت انتباهنا لخلقنا وخلق بيئتنا بما يدلنا على الإله سبحانه وعلى بعض صفاته... حيث جعلها تعالى أكثر من كافية لنؤمن به ولنوحّده... وبقلب سليم سنعلم أنه تعالى لم يخلقها ويخلقنا فيها باطلاً بلا غاية، وخصوصاً مع خلقنا بقدرة التعرّف عليه وقدرة تمييز الخير من الشرّ، فحتما هناك حساب وجزاء لنا...

كما تعلم مما استنتجناه من القرآن في دراستنا هذه أنَّ أوّل طرق التعرّف عليه تعالى هو ما جعله تعالى فينا من ملاحظتنا لخلقتنا وخِلْقَةِ ما حولنا لنراه بسهولة كإله قدراته فائقة... ويليها ومعها تعرّفنا عليه تعالى من مشاعرنا بعد تعرّضنا لحالات تجعلنا نتعلّق بقدرة فائقة لتنجينا مما لا قدرة لنا على التعامل معه، ومعها التفاتنا بمشاعرنا لجمال وتناسق ما خلقه تعالى... وهذه الطرق مزروعة فينا وهي مع كل بشري، ونضيف إليها أخيراً التعرّف عليه تعالى عبر أنبيائه ورسله، وهذا ما لا يحصل مع كل بشري، حيث إنَّ القلّة القليلة من الناس عاصروا نبياً أو رسولاً، والقلة القليلة احتكوا مباشرة مع نبي أو رسول، وسبحانه اكتفى بنذير للأمم، كشخص ناقل لكلامه تعالى، واكتفى بكتب يتم نشرها على الجميع، وكان خيار إرسال نذير "نبي أو رسول أو شخص مؤمن" في كل قرية أي في كل مجتمع من الناس، كان متاحاً أمامه تعالى.

كما ترى، هذا واقع الحال، وما نحن عليه هو ما شاءه تعالى، ولأنَّ تصميمه تعالى لنا كما نحن، سينتج عنه ألا يصير في كلّ قرية نذير، حيث إنَّ المجتمع إمّا أن يؤمن أحدهم فيصير نذيراً، أو لا يؤمن ولا واحد منهم كما يجب فتكون القرية بلا نذير، ولكن حتماً سيكون في كلّ أمّة نذير مرّ في تاريخها، وهذا واقع حال كما ترى، وناتج عن تصميمه تعالى لنا كما نحن.

هذا الكلام يأخذنا إلى نظرته العميقة لنا سبحانه، والتي طرحها القرآن مراراً وتكراراً بصيغ مختلفة، نحن وبقرار منّا وفينا من قرّر اتباع سلامة القلب، سلامة الفكر والنفسية، وهذا لوحده وبدون أي وحي، سيصل إلى توحيده تعالى وسيعمل الصالحات، وكرّر القرآن لنا الكلام عن ذلك عبر النموذج إبراهيم(ع)، وبقية الأنبياء، الذين وصلوا بسلامة قلبهم إلى أعلى الإيمان مع العمل الصالح. وبقية الناس متدرجون في سلامة قلوبهم وصولاً إلى الذين عميت قلوبهم، لأنهم لا يريدون رؤية الحقّ الواضح، وهؤلاء لن ينفع معهم ولا أي شيء، ولا أي آية... فهم كالأنعام.

الآن ترى لماذا لم يختر سبحانه إرسال نذير لكل قرية أي لكل مجتمع من الناس، لأنه لا فائدة من ذلك، حيث إنَّ نذيراً واحداً لأمّة ما كافٍ للبقية حتى يصلهم كلامه تعالى، وهذا ما قالته الآية 24 من سورة فاطر {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}، وهذا النذير قد يكون نبياً أو رسولاً أو شخصاً مؤمناً، وعلى نفس المعنى الآية {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} فراجع دراستها لترى أنه لكل أمّة رسول، ومختصر الكلام أن الرسل السابقين هم رسل لأممهم، رسول بعد رسول... وصولاً إلى آخر رسول، ومن بعد بعثة الرسول محمّد(ع) فإنَّ كلَّ الناس بدون استثناء وإلى يوم الدين هو رسولهم.

لا تفكّر في هذا الكلام على طريقة الحالات الفردية متجاهلاً الحالة الأساسية، لذا لا تقل إنَّ شخصاً ما في غابة ما، كان سيؤمن لو أنه عاصر نبياً ما، لا، لأنه سواء وصله الكلام الإلهي أم لم يصله، فهناك القلب "الفكر والنفسية"، وأمامه

وفيه الآيات الدالة عليه تعالى، وهو بقرار منه سيختار السلامة أو العمى، حيث إنَّ إبراهيم (ع) لم يتعلّم دينه من نبي قبله.

ضع في بالك دائماً الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى معانيَ قرآنية رائعة، تصوّر شخصاً أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أياً منهما بعد، هنا تحذّره من سلوك الطريق السَّيِّئ، إذ إنه حالياً ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ}، والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}.

أمّا إذا سلك طريق الخطر، فتنذره، لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. الإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتماً ما يضرّه، حيث تُنذر الكافر حيث هو في حالة ستسبّب له العقاب حتماً، وورد هذا كثيراً في القرآن. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يتلبّس بما سيسبّب له الضرر، حيث تحذّر المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

وهذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، حيث قد يقوم المؤمن بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، فتنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة المسيحيين المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}، وعموم المؤمنين المشمولين بالتهديد من فكرة فعل السيئات على أساس أن يحمل أحد ما السيئات عنهم {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}، والمشمولين بالتهديد إن لم يتغيّروا نحو الأحسن، موعودين بالمغفرة كما ورد في الآية {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}، ونفس المفهوم في الآية 45 من سورة النازعات {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا}.

(فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً{52})

{فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ}، لا تنفّذ ما يقوله المنكرون لآياتي أيها الرسول المنذر، {وَجَاهِدْهُمْ بِهِ}، فقم بعملك الذي فيه جهد لتبليغ كلامه تعالى، وليكن {جِهَادًا كَبِيرًا}، ولا تستسلم ولا تتراجع بل أكمل تبليغ الرسالة بأقصى جهدك، لأنها ليست مهمّة سهلة لأنك ستتعرض للتكذيب والإهانة والمحاربة والتهديد بالقتل...

بالنظر إلى الآية السابقة وهذه الآية نعلم أن الكفار قالوا للنبي(ع): لماذا أرسلك ربك إلينا يا محمّد ولم يرسل أحدا إلى بقية القرى في مختلف البقع على الأرض؟ فكيف سنصدّق بأن الإله مهتم بهدايتنا وها نرى قرى بلا نذير؟ أليس إلهك مهتماً بهداية بقية القرى! اذهب عنّا إلى أي قرية أخرى وقم بهداية غيرنا بدينك الذي لا يعجبنا ولن نؤمن به واتركنا...

الجواب: أنه سبحانه لم يختر أن يكون في كل قرية نذير، وبعلمه بما سيحدث في الدنيا مما سينتج عن تصميمه وخلقه لها، قَدَّرَ سبحانه لذلك، وهو يعلم سبحانه أين ومتى سيكون هناك من الناس من سيتأهّل ليكون نذيرا، وعندما يقول الكفّار لك أيها الرسول(ع) إنّ بقية القرى متروكة بلا نذير من إلهك وهذا يعني أن دينك من اختراعك وإلا لاهتمّ إلهك بهداية بقية القرى... وبالتالي اتركهم واذهب لتضحك على غيرهم... أو اترك الدعوة لدينك الغريب ولا تخالفنا في ديننا... فلا تطعهم، بل جاهدهم وابذل جهدك معهم في إنذارهم من عذاب الآخرة وتبليغهم القرآن...

بقي شيء، يبدو أن اختيار الآيات السابقة الكلام عن تصريف المطر هنا وهناك كآية من الآيات الدالة عليه تعالى، وهي ناتجة عن تصميمه تعالى لبيئتنا بهذا الشكل، حيث شاء تعالى ذلك، ويبدو هذا الكلام مشابها في الصورة لبعث نذير هناك أو هناك، وعند قراءتك للكلام السابق عن المطر تتفعّل فيك صورة تصريفه لينزل هنا ولا ينزل هناك... وبعدها يسهل عليك تصوّر بعث نذير هنا وأنه لا يوجد نذير هناك. طبعا هذا الكلام تحليل للعبارات، وتجد عادة في التفاسير الكثير من محاولة ربط الكلام القرآني مع بعضه كالتحليل الذي ذكرته لك، ولكن أكثر كلامهم وللأسف يفتقد لربط سليم بين الآيات والفقرات وموضوع السورة، وتصير تحليلاتهم نوعاً من الترف الفكري الاستذواقي، وتفهم قصدي بسهولة

عند قراءة محاولاتهم ربط ختام السورة بافتتاحية السورة التي تليها، أو ربط آية من السورة بآية سبقتها في السورة السابقة، إذ أصلاً ترتيب سور القرآن بهذا الشكل المشهور هو ليس على ترتيب نزول السور، ولا بأمر منه تعالى أو من رسوله(ع)، بل هو ما استنسبه الجيل الأول من المسلمين حين قرّروا اعتماد نسخة واحدة من رسم القرآن لتعميمها على الجميع، قرّروا ترتيب السور من الأطول للأقصر، مع بعض الاستثناءات التي ذكرنا بعضها في دراسة الآية الأولى من سورة النجم، لذا راجع دراستها لأنها مثال عملي عن الاستذواق الاستنسابي الترفي بلا قاعدة واضحة لربط بعض المفسرين للسورة السابقة باللاحقة، وهو نفسه نوع الكلام الاستذواقي الذي أعجبني هنا عن ربط تصريف المطر مع "تصريف" المنذرين، الذي لا يبدو لي ترفا فكريا لأني استذوقته وأعجبني، فلا تنجرّ معي في ذلك، وذكرته لك حتى تميّز بين التفسير الناتج عن دراسة علمية رصينة دقيقة، وبين الكلام الذي يبدو كتفسير بينما هو استذواق، بل ترف فكري لا يصلح إلا للتسلية ولا واقع له، كحالة ربط مواضيع السور بترتيبها الحالي، ولتنتبه أكثر للتفاسير من نوع التخمينات حيث لسبب أو لآخر يجهل الدارس المعنى الصحيح ويخمّن ولا يقول لك إنّه يخمن ويكتفي أحيانا بقوله: والله أعلم.

انتبه أيضا وبنفس الخطورة من التفاسير بناءً على معطيات قابلة للتغيّر، كالتفاسير التي يسمّونها بالتفسير العلمي الطبّي والفلكي والفيزيائي، ومثله في الخطورة ما يسمّى بالتفاسير العرفانية والصوفية والكشفية...

(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً{53})
{وَهُوَ}، سبحانه، {الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ}، وفي أساس اللغة العربية البحر كلمة تصف الماء الكثير، سواء أكان حلواً أو مالحاً، وحاليا لا ننتبه عادة للبقع المائية الحلوة الكبيرة التي تسميها الناس القريبة منها بالبحر، وتجد هذا في اللغة العربية وفي اللغات الأخرى، وتتذكّر كلمة بحيرة التي نطلقها على الماء الحلو، علماً أنها تصغير لكلمة بحر... والمرج وصف لعموم ما يمشي براحة فحركته مرتاحة، وهنا تتحدث الآية عن التقاء مياه حلوة بمياه مالحة، ببحر حلو مع بحر مالح، التقاء نهر حلو ببحر مالح، ويدخل النهر في البحر ويشكّل منطقة مياه حلوة فيه ويشكّل مساراً للمياه الحلوة فيه إلى أن تندمج معه بعد مسافة ما...

{وَهَذَا}، البحر، {عَذْبٌ}، طعمه طيّب حلو، {فُرَاتٌ}، يروي ويشفي من العطش، {وَهَذَا}، البحر الآخر، {مِلْحٌ}، فملوحته غير محمولة للشرب منه، {أُجَاجٌ}، فلا ينزل بسلاسة في الحلق، بل نشعر بالملوحة والحرقة والانزعاج منه.

{وَجَعَلَ} سبحانه {بَيْنَهُمَا}، بين البحرين، {بَرْزَخًا}، والبرزخ هو الوسط الحاجز أو الحالة بين شيئين فلا هو هذا ولا هو ذاك، وجعل بينهما، {حِجْرًا مَحْجُورًا}، مانعاً منيعاً بينهما، فهما يلتقيان في نقطة مرجهما ولا يختلطان في بقية مساحتهما، وتبقى هذه الجهة حلوة، وتبقى تلك الجهة مالحة، والمرج فقط في نقطة اللقاء.

هذا أيضاً مشهد نراه كثيراً في كل نقطة التقاء نهر ببحر، ولا نلتفت للهندسة والتخطيط في محافظة كل واحد منهما على طعمه وتكوين مائه، وستلتفت له إن فكّرت في السبب الذي لا يجعل البحر المالح يجري على اليابسة كنهر، أو لماذا لا يدخل ماء البحر على مجرى النهر، أو... ومن هذه الأسئلة البسيطة جداً جداً سترى فرق الارتفاعات سبباً لما تراه من نهر يصبّ في بحر، وفرق الكثافة سبباً لبقاء المياه الحلوة مجتمعة مع بعض عندما تدخل في مياه مالحة وتشكيلها مساراً فيها...

لاحظ أننا بعض الأحيان نشعر بجفاف القراءة إن لم نسرح مع المشهد التصويري للكلام، فمن رأى بعينيه في البحر تياراً حلواً لونه مختلف عن محيطه فحتماً سيلفت المشهد انتباهه، وعموم ما يلفت القرآن انتباهنا لما نتعامل معه بشكل روتيني عادي ولكن حتماً ستأتي لحظة تجعلنا ننتبه أنه ليس عادياً، حتى أشدّ المؤمنين يقيناً به تعالى لا يلتفتون لآياته تعالى كلّها كلّما رأوها، ويسبّحونه تعالى عند هطول المطر وينشغلون بعدها بأشغالهم... لأنّ تركيزنا ليس واسعاً لدرجة استحضار كل المعلومات دفعة واحدة في بالنا، وما ذكره القرآن كآيات لم يقصد منه مداومتنا على تذكّرها كلّها في كل لحظة، لأنّ هذا مستحيل علينا، وعادة يصير عند المؤمن أساس اعتقادي به تعالى كإله عظيم فائق القدرات والصفات صمّم وخلق... فلا يغيب سبحانه عن باله، أمّا الآيات الكثيرة التي فينا ومن حولنا فلا يمكننا تذكّرها كلّها مع بعض دفعة واحدة في كل لحظة... وهذا سبّب استعمال القرآن لتعابير: ألم تر... وأمثالها، وفي دراستنا حوّلناها إلى العامية على

معنى: ما شفت. واعتبرناها مشابهة لتعبير: ألم تلتفت لكذا... وهو هذا ما قصده القرآن من طرحها، والآية هنا تتحدّث عن شيء لا يراه كلّ الناس عادة، إذ ليس في كل المناطق يوجد بحر مالح يلتقي بنهر حلو، والكثير من الناس لم يركبوا السفن ليروا تياراً من مياه حلوة يسير في بحر مالح، ولكن خذ مثلاً أننا كلنا نرى البرق ونسمع الرعد، ولا يهمّنا الموضوع في كل الأحيان، ولكن لا بد من مرّة يجعلنا فيها الرعد نقفز من مكاننا، أو يوقظنا من نومنا، أو يبهرنا البرق... فمرة واحدة ستكون كافية للفت انتباهنا لظاهرة من الحجم الهائل... وكافية لتلفت انتباهنا لمن صمّمها ونفّذها... ومثلها ظاهرة الليل والنهار المتكررة يومياً، فلا بدّ من مرّة مميزة لسبب ما لنلتفت إلى كونها ظاهرة ضخمة تدل على إله فائق القدرات.

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً{54})
{وَهُوَ}، سبحانه، {الَّذِي خَلَقَ}، ألّف وركّب، {مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا}، كائنات لهم بشرة، وهم نحن الناس، {فَجَعَلَهُ نَسَبًا}، وهم الأقارب كالأب والأم بالنسبة لأولادهما، والعم والخال بالنسبة لأولاد الإخوة والأخوات... وجعل من الماء، {صِهْرًا}، وهو الذي يصير قريبك بسبب المصاهرة من الزواج، وزوج ابنتك الذي من عائلة لا قرابة بينك وبينها هو صهرك، وأهل صهرك صار بينك وبينهم قرابة مصاهرة.

ضع في بالك دائماً أننا في دراستنا هذه فسّرنا "خلق" بركّب وألّف، للتقريب، فأنا الآن مخلوق كوصف لتركيبي من المواد، وحين انعقدت النطفة بالبويضة فأنا أيضاً موصوف بأني انخلقت، ومن تلك المرحلة سأصير فيما بعد على ما أنا عليه، وهكذا الكلام هنا عن خلقنا من الماء، لأنه من أساس تركيبتي الحالية وأساس بداية تركيبي.

{وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا}، وكان المسؤول عنك من مستوى إلهي أيها النبي(ع) وأيها المؤمن قديراً ولديه القدرة على فعل أي شيء يريده، وبكل بساطة صنع مخططاً للماء وتألّف منه بشر يتحركون ويفهمون ويتزوجون ويتناسلون، ويصيرون أقارب...

ننتبه جيداً يا عزيزي للفعل كان، حيث في اللغة العربية اقتصر علماء اللغة على التصنيف الزمني للأفعال التامّة على: أمر، وماضٍ، ومضارع. وللأفعال الناقصة على الماضي والحاضر والمستقبل. وبإضافة الحروف المنفصلة والمتصلة للأفعال "قد، سوف، سين الاستقبال..." ألمحوا إلى استمرارية وانقطاع الحدث... ولكن لم يلتفتوا إلى تصنيفات التفت لها علماء للغات أخرى، كالماضي المستمر، الماضي المنقطع، الحاضر المستمر، الحاضر المنقطع، صيغة الحاضر لحدث وقع في الماضي... وكل قواعد اللغات المحكية، هي ملاحظات تصنيفية لاستخراج قواعد من الكلام العادي، حيث إنّ الناس أقلمت لغتها من كثرة الاستعمال حتى وصلت كل لغة إلى التعبير بطريقة يفهمها الآخرون بسهولة، وبعد ذلك جرى استخراج قواعد اللغة، واستعمال الناس للغة هو الأساس، والقواعد نستخرج بعضها بشكل صحيح أو بشكل ناقص أو غير صحيح، واستخراج القواعد من اللغة مثله مثل استخراج القواعد العلمية مما يجري حولنا ومن التجارب، إذ نفسّرها بشكل خاطئ وربما لا نلتفت لأمور مهمّة...

العاملون الأوائل على اللغة العربية لم يلتفتوا إلى أهمية إضافة عامل الزمن للأفعال، لأن اللغة العربية ليس لديها تركيب "صريح واضح" خاص للدلالة على استمرار أو انقطاع الفعل، ودلالات الزمن التي نجدها في كتب قواعد اللغة الإنجليزية والفرنسية وغيرها من اللغات، تلك الدلالات ليست حكراً على تلك اللغات، لأن كلّ اللغات لديها طريقتها في التعبير عن تلك الدلالات، وهنا الآية نأخذها كمثال عن دلالة التعبير على "الماضي المستمر" باللغة العربية، حتى لو لم نجد في كتب قواعد اللغة العربية تصنيفاً لهذه الدلالة، وها هو المعنى واضح الدلالة أمامك، سواء في هذه الجملة أو الكثيرات غيرها، فسبحانه كان "في الماضي" ولا يزال "في الحاضر" وسيبقى "في المستقبل" قديراً، والدلالة معروفة، والاستعمال مشهور، ولكن علماء اللغة العربية لم يصنّفوه كماضي مستمر.

الآية السابقة تحدثت عن الماء المالح والحلو... وهنا تحدّثت عن خلقه تعالى لنا من الماء... وقيل إنّ بين الآيات ربطاً يشير إلى خلطة الماء الذي تركّب منه البشر، حيث يوجد طاهر فرات خلق تعالى منه المؤمنين، ويوجد نجس أجاج خلق تعالى منه الكافرين، ولكن هذا العمق غير ظاهر بتاتاً من الآيات هنا ولا من غيرها، بل هو استنباط استذواقي ولا دليل عليه من القرآن، ومن الأفضل البقاء على ظاهر معاني الآيات لأن هذا النوع من الغوص الاستذواقي، يختلف

باختلاف الأذواق! وبه ستخرج الآيات عن إشارتها الواضحة لما يعرفه كلّ الناس، وتصير معانيها مختصّة بأهل العرفان والتصوّف والفلسفة... وحتى لو قلت إنّ لهذه الآيات وأشباهها أو لعموم القرآن، باطناً لأهل الاختصاصات، فلا يضر فهمها على ظاهرها مع فهمها بشكل خاص للمتخصصين، وأيضاً نتساءل عن الدليل من القرآن والذي يبيح لنا لصق معنى غير الظاهر من كلامه؟ وبخاصة إن لاحظت مشكلة تعاملهم مع ظاهر الآيات، فمن الأساس فيها مشكلة قبولهم بمطاطية معنى الآية الواحدة! حتى على الظاهر! وبالتأكيد لن يجدوا أي مشكلة في مطاطية المعاني الباطنية للآيات! وهكذا نصير أمام كمّ هائل من المعاني المقترحة، والتي في النهاية تجد نفسك لم تفهم منها ما يريد تعالى قوله، بينما البديهي من كلام الإله أن المعنى الذي قصده في قرآنه واحد وهو ما نفهمه من ظاهر معنى الكلمات، طبعاً إن اتبعنا المعنى الدقيق للكلمات وابتعدنا عن المطاطية الناتجة عن الاستعارة والكناية والمجاز... والتخمين... وهذا ما تتميّز به دراستنا هنا عن بقية التفاسير.

بقي شيء، أشار القرآن مراتٍ عديدة لخلقنا من تراب ومرات إلى خلقنا من ماء، ومرات إلى خلقنا من طين... وكل هذه التعابير تشير إلى المواد المنتشرة في كوننا من كربون وكالسيوم وحديد وهيدروجين... وتشير إلى الجزيئات التي نتكوّن منها وعلى رأسها الماء الذي في تصنيفنا الحالي هو ترابط هيدروجين وأوكسجين، والماء كما هو وبهذا الترابط يشكّل النسبة الأكبر من المواد التي يتألّف منها جسدنا، والتعبير القرآني بخلقنا من الماء لا يقصد إلغاء خلقنا من طين أو تراب، والتعبير بخلقنا من تراب لا يقصد إلغاء خلقنا من ماء، بل كل تعبير يشير إلى جانب أساسي من خلقتنا من تركيبتنا.

أطلت عليك ولنكمل بشيء من المفيد تذكّره دائماً، نحن بنظره تعالى وبنظر الملائكة (ع) والجنّ، نحن البشر أشكال متحركة من الطين، ولا نختلف في تكويننا عن الشجرة والطير والحائط والأرض التي نقف عليها، ولا أختلف في نظرهم عن الكنبة التي أجلس عليها ولا عن الثياب التي أرتديها ... فكلّه طين، كلّه من المواد المعروفة من حديد وكالسيوم وسيليكون وكربون وماء... وآيتنا هنا وأمثالها يصير فهمنا لها أسهل إذا وضعنا هذا المفهوم القرآني في بالنا، حيث من الماء خلق سبحانه كائنات من لحم ودم وعظم... ولها فكر ومشاعر... وتتوالد وتقيم فيما بينها روابط قرابة نسبية وصهرية...

ترى بوضوح رؤية الآخرين لنا من طين في تعبير إبليس المخلوق من نار متكبّراً علينا نحن المخلوقين من طين، وهو لا يزال يرانا كُتَلاً متحركة من الطين كما تفهم من الآية 61 من سورة الإسراء {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا}، مثلما نحن لو استطعنا رؤية الجنّ سيكونون بالنسبة لنا كُتَلاً متحركة من النار.

انظر لكلام الآية لو أنك أنت من هذه المواد خلقت كائنات بمواصفات البشر، احمل قبضة من التراب بيدك وكوباً من الماء، وهما ما نتكوّن نحن منه، وبعدها ستلتفت إلى الإله فائق القدرات والصفات الذي خلق هذه المواد وركّبك منها لتصير كائناً حياً بشراً بجسد وأحاسيس وفكر وخيال...

البحث عن آلية نشأة الحياة من المواد، سيكون من الرائع التوصّل فيه إلى تعرّفنا على الآلية التي خلقنا سبحانه بها، ولمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 7 من سورة السجدة {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}.

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً{55})
رغم كل ما سبق ذكره من وضوح تصميم وخلق وتحكّم ربنا سبحانه بالشمس وخلق الظل كأثر لها، والليل والنهار والطبيعة البشرية المنسجمة معهما من نوم ثم عمل، والمطر بالماء الذي نحتاجه للشرب... ووضوح التخطيط والتنفيذ الإلهي لخلقنا من الماء، وجعلنا بشراً وقرابة بالنسب والمصاهرة... وفوق كل هذا يوجد رسول من ربنا سبحانه معه رسالة، ورغم كل ذلك:

{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، كما نقول: ذهبتم من دوني. تركوا عبادة صاحب الاسم المحدّد المميّز الله واعتبروا أنفسهم مفروضاً عليهم طاعة غير الله سبحانه، {مَا لَا يَنْفَعُهُمْ}، حيث لا يمكنه أن يفيدهم، {وَلَا يَضُرُّهُمْ}، لأنه لا يمكنه تغيير

حالتهم للأسوأ، لأنّ آلهتهم لا تُنزِل الماء، ولا تجعل الليل يتبعه النهار... ولا تضرهم تلك الآلهة المزعومة إذ لا قدرة لها على توقيف الشمس ولا منع المطر أو جعلنا لا نتوالد...

بهذا يظهر بوضوح: {وَكَانَ الْكَافِرُ}، كان الناكر لعبادة الله تعالى وحده، {عَلَى رَبِّهِ}، على المسؤول عنه الحقيقي من مستوى إلهي، {ظَهِيرًا}، مسانداً بالعون بآلهته لمعاداة توحيده تعالى، إذ يساند نفسه بآلهته ضد توحيده تعالى، وهذا هو المعنى للعداوة الوارد في الآية 114 من سورة التوبة {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ...}.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً{56})
{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ}، لم نحمّلك رسالتنا لتنقلها للناس أيها الرسول محمّد(ع)، {إِلَّا مُبَشِّرًا}، تنقل الخبر السار، وهو دخول الجنة للمؤمنين، {وَنَذِيرًا}، ناقلاً للخبر عن العقاب السيّئ الأكيد لمن توافرت فيهم شروط الحصول على العقاب.

لا يتوقع أحد من الرسول(ع) أن يكون شريكاً لربنا سبحانه في القرارات كما كان يدّعي الكهنة والسحرة وخدام معابد الآلهة، ولا يتوقع أحد من الرسول(ع) أن تكون لديه قدرات خارقة لهداية الناس أو للقيام بأمور خارقة، ولا يخطر ببال أي أحد أن الرسول(ع) يتحمّل مسؤولية اهتداء الناس أو كفرهم... لا، فحصراً وفقط وظّفه تعالى بالتبشير والإنذار.

ننتبه لشيء واضح جداً من القرآن، حيث لشدّة محبتنا لرسولنا، نصفه بكل صفات الكمال الأخلاقي والعقلي والجسدي والبلاغة والفصاحة والشجاعة... وفنون الحرب والخطط، وعلم الاقتصاد والاجتماع... والقضاء... وصولاً إلى معرفة لغات العالم... ومعرفة كل العلوم... ومعرفة الغيب... هناك من يشطح بكل هذا الكلام إلى أقصاه، أو في بعضها إلى أقصاه وفي بعضها إلى المستوى العادي، والقليلون فقط يقولون بأن النبي(ع) مثله مثل أي شخص آخر قد لا يعلم شيئاً من هذه الأمور، فلننتبه للمغالاة في الرسول محمد(ع)، ولننتبه للفضل الذي ننسبه له(ع) على أساس أنه مهمّ جداً، بينما هو فَضْلَةٌ وغير مهمّ بتاتاً.

بالرجوع إلى القرآن ستجد تركيزه على صفاء فكر ونفسية الرسول(ع) وأخلاقه العالية، وإخلاصه وجهاده وأمانته في حمل الرسالة الإلهية ونقلها للناس، وإخلاصه في تنفيذ الأوامر الإلهية، أما بقية الصفات التي ينسبونها له (ع)، فقد تكون صحيحة وقد لا تكون صحيحة، ولكن لن ينقص أي شيء مهمٌّ من قيمة الرسول(ع) لو تبين أن بعض تلك الصفات غير موجودة فيه، فالقيمة العالية للرسول(ع) هي بإيمانه وبإخلاصه وبتنفيذه لأوامر ربّه سبحانه، فقط لا غير، وهي نفسها المعايير التي تحكمنا في تقييمه تعالى لنا جميعاً: الإيمان والعمل الصالح.

إن كانت لديه (ع) المقدرة الكلامية على توصيل الرسالة الإلهية للناس بشكل واضح، فما الحاجة ليكون أبلغ العرب! ربما هو كذلك في نظر البعض، ولكن لو قلنا بأنه ليس أبلغ العرب، فهل تنقص قيمته! مكانته! احترامه! إيمانه! فانتبه يا عزيزي إن لم تفكّر بهذه الطريقة فأنت مغالٍ متعصّب وستقع في مشاكل لفهمك للدين الإلهي، فالقلب السليم ضروري جداً لفهم الدين وللسلوك المستقيم، والغلو والعصبية مضادان للقلب السليم... وقد ترتكب سيّئةً حين تهاجم الآخرين المعارضين لغلوّك وتعصّبك... هنا الآية وغيرها من الآيات، تشير لمهمّة الرسول(ع) حصراً بالإنذار والتبشير، فليس مطلوباً منه(ع) أن يكون عبقري زمانه أو عبقري الدهر، ولا مطلوباً منه(ع) أن يكون حاوياً لعلوم الأولين والآخرين... بل كل ما هو مطلوب منه أن يفهم الرسالة الإلهية وأن يلتزم بها وأن يوصلها للناس، وهذا في نظر الإله سبحانه هو أرقى ما يمكن أن يصل إليه بشريٌّ.

بكل أسف ألفت انتباهك لتقارن ما رآه الكفّار مهمّاً ويجب أن يتحلّى به الرسول(ع)، لينزل عليه كنز أو يكون له جنّة... وبين ما يراه "المؤمنون" مهماً ويجب أن يتحلّى به الرسول(ع)، فكما للكفّار مقاييس بيّن تعالى أنها غير مهمّةٍ فكذلك يجب أن ننتبه نحن من اختراع مقاييس من خيالنا ونراها مهمّة ويجب أن يتحلّى بها الرسول.

مدّةً بعد مدّةٍ تنتشر بين الناس من معايير للدرجة العالية من الإيمان التي نفترضها نحن من خيالنا وهوانا، فلا تجدنا نحترم المؤمن العادي الذي بحاله يصلّي ويصوم ويُزَكِّي ولا يتعاطى بالسيئات... ونفترض فوق ذلك أموراً يجب أن يتحلّى بها الشخص ليكون في نظرنا مؤمناً من الدرجة العالية، حيث نريده يرى المنامات التي تتحقّق أو يفسّر منامات

الآخرين ويأخذ خيرة تخرق الغيب... فلا نكتفي بالمعيار الإلهي للقيمة العالية للمؤمن العامل للصالحات ونزيد عليه من معاييرنا نحن ليكون المؤمن الخارق! وعندها فقط نبجّله ونحترمه!

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً{55})
{قُلْ} أيها الرسول(ع) للناس: {مَا أَسْأَلُكُمْ}، لست أعبّر لكم عن إرادتي للحصول منكم، {عَلَيْهِ}، على التبشير والإنذار، {مِنْ أَجْرٍ}، لم أطلب ولن أطلب منكم أجراً كشيء أستحقّه من مال أو منزل أو أرض أو أي شيء لتعطوني إيّاه مقابل قيامي بتبليغي لكم رسالةَ ربكم سبحانه.

لا تفكروا أنّي أقوم بتبليغكم رسالة ربكم سبحانه وهدفي الحصول على أجرٍ منكم، فتتهموني أنّي أخترع الدين لمصلحتي الشخصية، أو أستغل الدين لآخذ أموالكم وأصير غنيّاً، ولست مثل الكهنة والعرّافين الذين يأخذون لأنفسهم النذور والصدقات والقربات...

{إِلَّا مَنْ شَاءَ}، منكم، {أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا}، فالذي يدفعني لتبليغكم الرسالة الإلهية ليس الحصول على الأجر منكم، بل أقوم بذلك ليكون المسلك الذي يوصل إلى المسؤول عنكم من مستوى إلهي، ليكون واضحاً ليتخذّه سبيلاً كمسلكِ مَنْ يريد أن يهتدي ليمشي عليه.

نلاحظ أنّ لديك المشيئة في اتخاذ سبيل إلى ربّك سبحانه، أو تتخذ سبيلاً بالاتجاه المعاكس، وبتعابيرنا الدارجة أنت لديك القدرة على الاختيار، جعل سبحانه فيك هذه القدرة على الاختيار، ولكن لكلا الطريقين نتيجةٌ مختلفة، هناك خيار يوصلك للنار والآخر للجنة، فانتبه ماذا تختار.

بعبارة بسيطة ومباشرة: لا يقول لك القرآن إنّك حرٌّ لتشاء أي مسلك تريد على أساس أن هذه الحرية اختيارية ولا عواقب لها، لا، بل أنت حرٌّ لتشاء أي سبيل تريد ولكن هناك عواقب للمسلك الذي تختاره، واحد عاقبته الجنّة وآخر عاقبته النار، فاختر ما شئت.

من تحليل التاريخ نعلم أنّ كفّار مكة في بداية قيام الرسول محمّد(ع) بالدعوة، افترضوا أنّه (ع) اخترع الدين لأنه يريد التميّز عن البقيّة على أساس أنّه الصحّ والبقية مخطئون وهو أفهم منهم... وحين أصرّ على هداية الناس افترضوا أنّه (ع) يريد الزعامة والملك على أتباعه... وعندما شعروا بالخطر من انتشار دينه عرضوا عليه المال والزعامة بشرط ترك دينه واتّباع دينهم... فرفض رفضاً قاطعاً...

التاريخ يشهد بأنّه(ع) لم يطلب مالاً لنفسه، وحدّد مبلغاً بسيطاً جداً من المال كمصروف له "ستة أو سبعة دنانير في الشهر"، بالكاد يكفيه ويكفي عياله، حتى إنّنا نجد في القرآن اعتراضات نسائه (ع) عليه بسبب حالتهم المادية الأقل من عادية، وهذا رغم سيطرته (ع) التامّة على الزكاة والخمس والغنائم، كما تقرأ في الآية 28 و 29 من سورة الأحزاب. كما تجد في التاريخ أن الخليفة الأول الذي دامت ولايته قرابة السنتين من بعد وفاة الرسول(ع)، والذي تقاضى نفس ما كان يتقاضاه الرسول(ع)، فنزل مستوى معيشته لأن المبلغ كان قليلاً فأصرّ عليه الصحابة ليزيدها لنفسه... والآية هنا تقول إنّه تعالى لم يسمح للرسول(ع) أن يطلب منكم أي شيء لنفسه، وإنما يقوم بعمله كرسول ليهتدي من يريد أن يهتدي.

ضع في بالك دائماً أنّ كلمة سأل معناها الأساسي: عامّة التعبير عن إرادة شيء ما من أحد ما. وبهذا المعنى هي مرادفة تقريباً لكلمة "طلب" كما نستعملها حالياً، ومن سياق الكلام يتحدّد المطلوب: جواباً أو غرضاً أو فعلاً أو استعلاماً أو استفهاماً أو تعجباً...

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً{58})
أيها النبي(ع) أثناء تبشيرك وإنذارك للناس، {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ}، فسبحانه دائماً فَعَّالٌ، وسيبقى كما هو ولن يتغير ولن يموت ويتوقّف عن التأثير، وعندما تتوكل عليه تعالى فأنت تعتمد على القادر فعلاً على تسيير أمورك كما يجب، حيث اعتمدت على أقوى قوة في الوجود.

{وَسَبِّحْ}، وَنَزِّهْ ربك عن الصفات التي لا تليق به، {وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ}، تُنَزِّهُهُ عن أي عمل غير حميد غير جَيِّدٍ، فلا تصفه بأنه تعالى يقوم بعمل غير جَيِّدٍ، لأنه تعالى لا يفعل أي شيء سَيِّئٍ.

{وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ}، بالأعمال المخالفة لأوامره تعالى والتي يقوم بها الذين هم عبيد له وهو يملكهم ومفروض منهم وعَلَيْهِمْ طَاعَتُهُ، {خَبِيرًا}، فلديه كل الأخبار والتفاصيل والمعلومات عن أعمالهم.

سيتصرف سبحانه بما هو مناسب وفي الوقت المناسب مع الكافرين، فقم بوظيفة الإنذار والتبشير ولا تحمل هَمَّ الكفّار أيها النبي(ع) فربّك حيّ لا يموت فأين سيهربون منه؟

بالنسبة لكلمة عبدٍ ومشتقاتها فسيأتيك كلام حولها في الآية 63 من هذه السورة.

(الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً{59})
{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ... الَّذِي خَلَقَ}، الذي ألّف وركّب، {السَّمَاوَاتِ} التي فوقنا، {وَالْأَرْضَ}، التي نعيش عليها، والكلام معنا الذين نعيش على كوكب الأرض حيث يشير للواقف عليها أن فوقه سماوات أخرى، وهذه السماوات السبع هي حدود دنيا المخلوقات ولا يوجد شيء خارج ذلك، وخلق سبحانه، {مَا بَيْنَهُمَا}، ما بين الأرض والسماوات التي فوقنا، من مساحات وكائنات وظواهر وملائكة(ع) بمستوياتها المختلفة، ومن الجنّ... وهذا التعبير مرادف لـ: خلق كلّ شيء.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائما أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ..." وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراضٍ "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراضٍ.

عادة نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير ونستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، قائلين: خلق سبحانه الدنيا. أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيراً صحيحاً دقيقاً بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الأخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم "فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى". فسبحانه دقيق في تعابيره ويحدّثنا بدقّة عمّا يعلمه، وكلامه تعالى عن السماوات والأرض هو كلام عن علم بما أمامه سبحانه، فسبحانه دائما يتكلم بشفافية عمّا أمامه فقط، أمّا الكلام عن كلّ ما في الدنيا، فهو كلام عمومي ويشمل "نظرياً" ما هو خارج العلم، ولذلك لم يستعمله تعالى، بينما ترى استعماله في كلام عموم البشر لأننا نتساهل ونتراخى في التعبير.

نرجع للآية، حيث كل ذلك خلقه سبحانه، {فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}، في ست فترات زمنية، ونقدّر بعلومنا حالياً عمر سمائنا "الكون الخاص بنا" بين ثلاثة عشر وثلاثين مليار سنة، والكلام هنا عن خلق كلّ السماوات وليس عن سمائنا وحدها.

تذكّر دائماً أنّ كلمة يوم معناها الفترة الزمنية لحدث أساسي، وتتخلله ساعات تحدث فيها أمور فرعية، فيومنا العادي يبدأ من بعد غروب الشمس إلى الغروب التالي بعد قرابة 24 ساعة، أو من منتصف الليل إلى منتصف الليل التالي... والأيام الستّة لخلق السماوات والأرض هي فترات زمنية، وكل فترة تتميّز عن غيرها بشيء كما تقرأ في الآية 10 من سورة فصلت "وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ...".

ترى بسهولة أن كلمة يوم في اللغة لا تشير حصراً لفترة من ليل ونهار أو لأربع وعشرين ساعة، وذلك حين تنتبه أن كلمة ساعة لم تكن قديماً مستعملة للتعبير عن ستين دقيقة، فقديماً هي لأي فترة زمنية جرى فيها حدث فرعي تابع لحدث رئيسي، فنقول: في ساعة ما من أيام الحرب العالمية الثانية قصف الحلفاء مخازن الماء الثقيل في ألمانيا...

{ثُمَّ اسْتَوَى}، بعد اكتمال الملك "اكتمل خلق السماوات والأرض" استوى سبحانه وصار الحال بالتمام كما هو مطلوب من السيطرة والملك، {عَلَى الْعَرْشِ}، على مركزية فوقية لإصدار الأوامر، بعد اكتمال خلق السماوات كلها والأرض، اكتملت هذه المملكة، وسبحانه يتابع شؤونها.

بالنسبة لكلمة "عرش"، فالعرش الذي نعرفه نحن هو الكرسي الفخم الضخم الموضوع على منصّة ويجلس عليه الملك أو الحاكم، وأصلاً كلمة عرش وصف لعموم ما علا ويقابلها فرش، وعرشه سبحانه تعبير عن الإدارة المركزية من مستوى ربوبي، وهو تعبير عن مركزية السيطرة والقرار لكل ما في الدنيا "والآخرة"، وبما أنّ سيطرته تعالى ممتدة على كل الدنيا "والآخرة" فعرشه سبحانه ممتدّ بامتداد الدنيا "والآخرة"، على كل ما في الدنيا والآخرة كما هو واضح من تعبير الآية 255 من سورة البقرة "... وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ".

لدينا تراث ديني ثقافي يشير البعض منه إلى وجود شيء محدّد كعرش له سبحانه، كشيء مشابه بشكل ما لمكان تتم فيه إدارة شؤون الدنيا، واستندوا على ذلك قرآنياً بالآية 17 من سورة الحاقة "وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ"، وكلامهم خليط من تصوّرات مختلفة، بعضها سببه استعمال لغتنا لتوصيف أمور لا يمكننا نحن البشر تصوّرها، وبالتالي فالكلمات التي نستعملها لذلك تنقل نفس المعنى ولكن لأمور مختلفة، فهناك ملك صلب لا يهتز وإدارة إلهية مركزية لما في الدنيا، ولكنه سبحانه واسع محيط، وهناك ملائكة بقدرات عالية خلقها سبحانه ووظّفها لإدارة بعض شؤون ما في الدنيا، وأشهرها وضوحاً من القرآن ملك الموت، وهذه موصوفة "بلغتنا" بأنّها حاملة للعرش، فالكلام القرآني الذي يشير لقوّة الملك ولنواة الحكم والسيطرة لا يشير إلى مكان، ولا إلى شيء، بل إلى حالة، وهذا واضح جداً من تعبير الآية 255 من سورة البقرة بوصفها وساعة الكرسي بوساعة السماوات والأرض.

من السذاجة تصوّره تعالى جالساً على كرسي على منصّة وثمانية ملائكة يحملون المنصّة، ضاربين بعرض الحائط كلامه سبحانه عن نفسه بأنه واسع محيط وليس كمثله شيء فلا يمكن لأي مخلوق تصوّره...

الوصف القرآني لملائكة حافّين حول العرش أو حاملين له، هو وصف حالة وليس وصف مكان.

بعبارة أخرى، كل السماوات... وهذه الأرض التي نحن عليها، هي كل ما في دنيا المخلوقات، خلقها كلّها ربنا الله سبحانه، ويخبرنا سبحانه أنّه هو بنفسه ووحده ركّبها وألّفها في ست فترات زمنية، وبعد اكتمالها، لم يتركها سبحانه لغيره ليديرها، بل استوى على العرش وكلّ شيء صار بالتمام وانبسطت سلطته عليها كلها، ومن دون تهديد من أحد بالقدرة على التدخل.

على الاسمية لكلمة عرش كاسم لشيء، كل السماوات والأرض "كرسيه" عرشه تعالى، وعلى الوصفية للملك القوي والسيطرة والإدارة المركزية والتي بلغتنا البشرية نستعمل لها وصف العرش، سبحانه حالته أنّ عرش السماوات والأرض منسوب له، ذو العرش، واستوى على العرش، وهناك ملائكة موظفون منه تعالى بتنفيذ مهمات "رئيسية" ويكون وصف حالتهم كحاملين للعرش وحافّين حول العرش.

نرجع للآية، {الرَّحْمَنُ}، الموصوف بالعناية بمخلوقاته لما فيه مصلحتهم، وهذه الصفة هي الأساس لتعامله تعالى مع جميع خلقه إلى أن يقرّروا هم الخروج من رحمته تعالى بكفرهم وفعلهم للسيئات... وهكذا تصير الجملة معبّرة عن خالق قوي قاهر باسط سلطته على كل الدنيا، وفي نفس الوقت رحمنٌ.

{فَاسْأَلْ بِهِ}، عبّر عن إرادتك للحصول على جواب عنه تعالى، سؤالاً بشأنه تعالى، لتتعرّف على قدراته وصفاته... {خَبِيرًا}، عن معرفته لكل الأخبار التي تجري في عرشه. عندما تتوكّل عليه تعالى فأنت تعتمد على أقوى قوّة في الوجود، على حيّ لا يموت، وتعتمد على من خلق كل شيء، فإن كنت تسأل عمن تعتمد عليه ويكفيك، فاسأل بربك خبيراً، يراك ويسمعك ويعلم بمشاعرك وأفكارك وما تسمعه وتراه... أنت وكل الكائنات.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً{60}}
{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ}، قال الرسول(ع) أو المؤمن لهؤلاء الكفّار: {اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ}، قوموا بما يعبّر عن فائق احترامكم وخضوعكم للموصوف بأنه يعتني بكم، لأنه خلقكم وأتاح لكم الأرض بمواردها لتعيشوا عليها... فعبّروا عن خضوعكم له تعالى، والسجود بالنسبة لنا يكون بتقريب أو ملامسة وجهنا للأرض.

{قَالُوا}، الكافرون: {وَمَا الرَّحْمَنُ}! هل هناك فعلاً إله يوصف فقط بالعناية بكل المخلوقات!

{أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا}؟! هكذا تأمرنا أن نسجد لشيء أنت تحدّده وتريدنا أن نطيعك ونسجد له؟ أنت تحدّد لنا من نعبّر له عن أشد أنواع التعبير الحركي بالخضوع؟

{وَزَادَهُمْ}، أمر السجود للرحمن، {نُفُورًا}، ابتعاداً عن الرحمن قاصدين لوجهة أخرى! وبدل أن يؤمنوا بربهم الرحمن زادهم كلامك معهم عن السجود نفوراً ابتعاداً، عن الرحمن!

معلوم أنّ كفّار مكّة يعرفون الله تعالى، ويحلفون به، ويحجّون إلى الكعبة... لأنهم مشركون يعبدون آلهة متعددة ومن ضمنها الله تعالى، ويعرفون معنى كلمة رحمن، تذكّر أن السورة نقلت سابقاً كلامهم الإشكالي على دينه تعالى ورأيت فيه أنهم لا يفكّرون فيما يقولونه، بل هكذا يرمون الكلام الفارغ على أنه إشكالات على صحّة ما يقوله لهم الرسول.
وبناء عليه فافهم الآية هنا من هذا المنظور، لأن المشرك يعبد آلهة متعددة ولا يؤمن بأن الله تعالى هو الإله الأحد الخالق لكل شيء، ولا يؤمن بأنه تعالى المسيطر على كل شيء، حيث إن آلهتهم لها سيطرة على المطر والريح والحرب والرزق... وصفة الرحمن في نظرهم ليست حكراً على إلهك حتى تأمرنا أن نسجد له لوحده، لأنهم أصلاً لا يؤمنون بأن كل النعم التي معهم هي من إلهك حتى يصفوه بالرحمة ويسجدوا له لوحده.

من ناحية ثانية أهمّ، هم أصلاً لا يرون الآلهة رحيمة كصفة دائمة وأساسية فيها، بل يرونها مزاجية عبثية، ترحم أحياناً وتغضب في أحيان أخرى وتسخط بحسب مزاجها! ويعتقد المشرك أنها تستجيب له عندما يحقد عليك طالباً منها أن تضرّك، وتستجيب له ليستعبد الناس ويسلب أموالهم... لذا ليس هناك إله رحمن بل هناك إله مزاجي مرّةً يرحم ومرّة يظلم، وعلى هذا الأساس هم يستغربون: ما الرحمن! لا نعرفه لأننا أصلاً لا نؤمن بفكرة الإله الخالق لكل شيء على أساس العناية بالجميع، بل لكل أناس آلهة خاصة بهم ترحمهم على مزاجها إن تقرّبوا منها ورضيت عنهم...

تذكّر دائماً أن السورة تتحدّث مع وعن كفّار لا يقولون كلامهم عن دراسة، فلو فكّروا فيمن خلق كل شيء، ولماذا خلق كل شيء، لما قالوا هذا الكلام، ولكن في نظرهم: هكذا ومن لا شيء فتحنا أعيننا على الحياة ووجدنا كل شيء من حولنا، وما الرحمن الخالق المعتني بكل شيء! وفي نظرهم الإله مزاجي ويتسلّى ويعبث، وما الرحمن!...

بقي شيء، صلاتنا اليومية الخمس والتي يراها الآخرون كعمل غريب التزامنا به، ولسبب أو لآخر ليسوا مستعدين لفعله، ومن تلك الأسباب أنهم لا يعتقدون به تعالى رحمناً، لأنهم لم يفهموا أن الدنيا دار بلاء ومن يجتازها بنجاح تاركاً السيئات فسيفوز بجنّة الآخرة، ومحصور همّهم وتفكيرهم في الدنيا، ورغم أن بعضهم لا يعلنون توحيده تعالى، ولا اعتقادهم رسمياً به كإله... إلا أنهم حين يتكلمون عنه تعالى فلديهم اعتراضات على ما يصيبهم من سوء في حياتهم أو في حياة الآخرين، وبناء عليه في مسألة من المسائل لا يرون رحمة إلهية بناءً على تقديرهم هم للأمور.

نفس الشيء يحصل معنا نحن المؤمنين من الدرجة المنخفضة، ورغم ذلك نصلّي، وأحياناً نصلّي على مضض من بعد تعرّضنا لما يزعجنا ويضرّنا وكنّا نريده تعالى أن يتدخّل...

الآية هنا بكلماتها الموجزة فيها عمق يوضّح لنا الكثير من الأمور، حيث سبحانه موصوف بالرحمن، ودائماً رحمن، ولكل مخلوقاته، ومن ناحيته تعالى لم يصدر منه أي فعل مقصود منه أذيتهم، بل هم يؤذون بعضهم، وهم بفعلهم للسيئات يخرجون من رحمته تعالى إلى غضبه عليهم وعندها يصيبهم الضرر منه تعالى...

هكذا يصير سجودنا بصلاتنا اليومية تعبيراً عن انتسابنا لمن نؤمن برحمته، وحتى نبقى مشمولين برحمته. فمن يقول بأنه فاعل للخير وتارك للسيئات ولا يريد السجود للرحمن، فلا يصلّي، لأن المشكلة ليست في تركه القيام بالحركات والكلمات للصلوات الخمس اليومية على أنها حركات وكلمات، بل المشكلة فيما تعبّر عنه الصلاة، وبتركها سيفقد ما ينتج عن الصلاة.

القبلة والابتسامة والحضن... والخدمة وتقديم ما لديك... هي تعابيرنا بين بعضنا عن احترامنا ومحبتنا، وهذه هي الصفات الإنسانية التي من دونها لسنا سوى آلات تتحرّك بلا مشاعر ولا عواطف... وتفريغ العلاقة بيننا وبينه تعالى من صفاتنا الإنسانية بحيث لا نرى داعياً للتعبير له تعالى عن شكره ومدحه بسبب ما تفضّل به علينا من حياة وصفات وبيئة... ولا نرى داعياً للتعبير له تعالى عن فائق احترامنا وخضوعنا، فهذا تجميد وتعطيل لطبيعتنا التي فيها ما يدفعنا للتعبير عن محبتنا واحترامنا وتقديرنا لمن فعل معنا خيراً.

الكلام يجر الكلام، حيث ربط القرآن السجود له تعالى "الصلاة" بالإيمان به ليس على معنى حاجته تعالى لصلاتنا، ولا على معنى أن من قام بحركاتها ونطق بكلماتها صار مؤمناً، بل على معنى أنها بأصلها ومعناها تعبير يقوم به من وصل إلى معرفة صفاته الحسنى تعالى، وبحكمته أوجبها تعالى على المؤمنين عبر التاريخ خمس مرات في اليوم حتى يبقى إعلان الارتباط متكرراً منّا، ونتيجته فائدتها علينا، ومن رحمته تعالى جعل استغفارنا ماحياً لذنوبنا، وجعل صلاتنا حسنات ماحية للسيئات، حيث إن الصلاة فرصة متاحة لنا لمغفرة سيئاتنا واكتساب الحسنات كما ورد بصريح عبارة الآية 114 من سورة هود {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}، ونحن بحاجة لها بسبب حاجتنا لما يمحو سيئاتنا.

هكذا ترى عمق معنى السجود له تعالى من أرقاه من سجود المؤمنين من الدرجة العالية الذين يعبّرون عن احترامهم وخضوعهم للرحمن، وشكرهم ومدحهم للرحمن، ويسعدون بتسبيحهم للرحمن... وفخر انتمائهم لإله صفاته حسنة عبر صلاتهم للرحمن، وهم الخاشعون. مروراً بالملتزمين بالصلاة لكسب الحسنات منها ولتذكّره تعالى... وصولاً إلى المصلين لأنها واجبة حتى لا يعاقبهم سبحانه على تركها، وعند بعضنا الصلاة مجرد عادة وصولاً إلى حالة قيامنا بها فارغة من أي معنى، بل نصلّيها ونحن نفكّر في أمور سيئة سنفعلها!

(تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً{61})
الرحمن الذي تدعوهم للسجود له... {تَبَارَكَ}، فكله خير وكلّ ما يصدر عنه خير، {الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا}، وكلمة برج وصف لعامة ما اتّسع، حيث إن البناء المتّسع طولاً هو برج، والمرأة المتّسعة في الزينة هي متبرجة... وهنا الكلام عن مجموعات النجوم المنتشرة في السماء والتي تعجّب منها الناس على مرّ التاريخ وأطلقوا عليها أسماء مثل برج الميزان والعقرب... نحن نرى القمر يتحرك في السماء، ولاحظنا تحرّكه على نفس الخط، ولاحظنا ارتباط تلك الحركة بتغيّر الفصول عبر السنة... حيث إن البروج يتغير مكانها من شهر لآخر، وكان الناس قديماً لا يملكون رزنامات ورقية أو على هواتفهم أو يشاهدون قنوات الطقس والأحوال الجوية... بل كانوا يعتمدون على حركة القمر في تلك البروج ليعرفوا متى يكون المدّ والجزر في البحر أو الأنهار الكبيرة، وليعرفوا متى يبدأ أو ينتهي الشتاء ليزرعوا أو ليسافروا، ومتى ينتهي الصيف ليهاجروا بأغنامهم وأبقارهم إلى مناطق أكثر دفئاً... والآية اختصرت هذا الذي تعرفه واكتفت بالإشارة إلى المجموعات النجمية التي أبهرتنا عبر التاريخ.

{تَبَارَكَ الَّذِي}، {جَعَلَ فِيهَا}، في السماء، {سِرَاجًا}، شيئاً متوهّجاً، وهي الشمس المشتعلة، وبعض العرب يقول قنديل والآخر يقول سراج للفتيل المشتعل المغمس بالزيت أو النفط.

جعل في السماء، {قَمَرًا مُنِيرًا}، ينير يضيء في الليل.

إذاً هذا هو الرحمن الذي يأمركم رسولكم بالسجود له، لأن شؤونه أكبر بكثير مما تتصوّرون، وأقرب شؤونه الضخمة سبحانه تشمل سماءكم...

نلاحظ الآية قالت عن الشمس أنها مشتعلة وعن القمر أنه منير. ونحن ومن دون أي تخصص في علم الفلك نلاحظ أن ضوء الشمس فيه حرارة عالية ومحرقة، بينما ضوء القمر خفيف ويسبب الإنارة الخفيفة، ونرى القمر بعيننا أنه ليس مشتعلاً، وعند وقوعه بالخسوف تحت ظلّ الأرض يختفي نوره، مما يعني أنه عاكس لنور الشمس... وهذا شيء تعرفه بالملاحظة العادية ولا يحتاج لتخصص في جيولوجيا الكواكب.

بقي شيء لزيادة المعرفة، قديماً قبل نزول القرآن بألف سنة وأكثر كان غالب العلماء وكثير من الناس يدركون أن الشمس مشتعلة والقمر عاكس لنورها، والبعض من العلماء كانوا يعلمون أن الأرض كروية، ولدينا تراث مكتوب عنهم

يثبت ذلك، ولكن تأخّرت معرفتنا بمركزية الشمس ودوران الأرض حولها كحقيقة علمية إلى ما بعد نزول القرآن بسنوات... وأيضاً لزيادة المعرفة أذكر لك أن العلماء السابقين كانوا مثل الناس العاديين متأكدين أن الشمس تصدر عنها الحرارة... ولم يكن لديهم تحليل يفسّر سبب هذه الحرارة إلّا أن الشمس كانت كوكباً كالأرض وعليها غابات واشتعلت... بعد ذلك تطوّرت الفكرة لأن اشتعال الغابات ليس منطقياً فهو لن يدوم طويلاً وقالوا إنه اشتعال لمواد نفطية... إلى أن جاءت نظرية الاندماج الهيدروجيني. وأذكر لك هذا لا لنسخر من تلك النظريات بل لنلتفت إلى تطوّر العلوم ولا نعتمد ما نحن عليه من معطيات حالية لتفسير القرآن، لأنها حتماً ستتطوّر علومنا أكثر فأكثر، ومثلما ننظر الآن للمعلومات القديمة بأنها ساذجة حتماً الكثير من معلوماتنا ستكون بنفس القيمة بعد مئات وآلاف السنين من تطوّر البشرية.

أصلاً لست بحاجة لتخصصات علمية لتفهم ما لفت القرآن انتباهك له من آياته تعالى، لأن غالبيتها كانت بسيطة معلومة لأي إنسان عادي إذا فكّر فيها قليلاً، وإلا فما معنى لفت انتباهنا لها؟ نعم هناك أمور بسيطة جداً للبعض وللآخرين ليست بسيطة وتحتاج لتمعّن، وهذا شيء طبيعي، وهناك أمور تقصّد سبحانه ذكرها لنا وهي أبعد من متناول يدنا حالياً، ككلامه تعالى عن خلق سماوات ست غير سمائنا، حيث إن كلامه تعالى عمّا فعله كآيات لنا دالة عليه سبحانه، جاء بغالبيته من الأمور السهلة علينا فهمها، والقليل يحتاج لتمعن، والنادر الذي تقصّد منه سبحانه أن ننتبه أن أفعاله ليست محصورة بما نعرفه نحن البشر، وبالتالي من ناحية ثانية نفهم أن هذا القرآن من مصدر إلهي علمه واسع يتخطّى حدود ما نعرفه مما نلمسه بقدراتنا العادية، وكلامه عن الجنّ وعن الملائكة وعن سماوات أخرى، نماذج عن أمور لا نلمسها مباشرة.

بعبارة أخرى لو اكتفى تعالى بلفت انتباهنا في قرآن إلى أمور بسيطة جداً، لقلنا بأن هذا كلام بشري عادي وليس كلام إله، ولو أكثر القرآن من الكلام عن آيات لا نلمسها وقلّل من الآيات التي نفهمها بسهولة، لقلنا إن هذا الكتاب ليس لافتاً لانتباهنا لآياته تعالى لأن أكثر كلامه عن أمور أصلاً لا نعرفها.

هكذا ترى كيف جاء كلامه تعالى في قرآنه مكرراً لأمور بسيطة يفهمها أي إنسان عادي، مع قليل من التوقّف عندها، كلفت الانتباه لظاهرتي الليل والنهار ونزول الماء وخروج النبات... وأمور تحتاج لبعض التمعّن، كوصف الجبال بالرسو والقمر نوراً والشمس سراجاً وخلقنا من طين... وبعض الأمور القليلة التي لن نختبرها ولن نلمسها ولكنها من أفعاله تعالى وموجودة، ولا يخطر ببالي منها إلا كلامه تعالى عن سبع سماوات لافتاً انتباهنا لها أنها آية، لذا لا أتذكّر سياق كلام قرآني يلفت انتباهنا لآية من أفعاله تعالى لنؤمن به ونوحّده ولم نختبرها بعد إلا ذكره لملكوت السماوات، وربما حتى هذه فهمناها بالخطأ إسقاطاً لمخزوننا الثقافي على كلامه تعالى، وكانت عمومية كإشارة لعموم ما علا وليست لفت انتباه لما سنختبره في المستقبل...

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً{62})

{وَهُوَ}، الرحمن، {الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ}، فترة العتمة من اليوم، {وَالنَّهَارَ}، فترة الضوء من اليوم، {خِلْفَةً}، يخلف أحدهما الآخر، حيث يأتي الليل ثم يذهب ويأتي خلفه النهار ثم يذهب، ويأتي خلفه الليل وهكذا يتكرر الأمر كل يوم. جعلهما سبحانه بهذا الوصف، {لِمَنْ أَرَادَ}، لمن كان مقصده، {أَنْ يَذَّكَّرَ}، أن يتذكر ويستحضر الإله سبحانه في فكره ومشاعره، الجاعل الليل والنهار خلفةً، {أَوْ}، لمن، {أَرَادَ شُكُورًا}، ويشكره سبحانه ويعلن أنه حصل على أمور جيدة منه سبحانه، ليشكره تعالى على هذا النظام الرائع من تعاقب الليل والنهار من دون توقف.

تذكّر أن القرآن عبّر بطرق مختلفة عن تعاقب الليل والنهار، ومنها ما ورد في الآية 190 سورة آل عمران {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...}.

من أوضح الواضحات على القدرة والرحمة الإلهية هو تكرار الليل والنهار خلف بعضهما، مما يشير إلى عنايته سبحانه المستمرة بنا بتأمين بيئة مناسبة وجيدة لنا للعيش فيها.

بقي شيء، المشركون يؤمنون بآلهة متعددة، وآلهتهم مختلفة عن بعضها، فآلهة مشركي مكّة أسماؤها وصفاتها مختلفة عن آلهة مشركي الطائف، وهؤلاء آلهتهم مختلفة الأسماء والصفات عن مشركي يثرب... وهكذا، فلكل جماعة منهم آلهتهم الخاصّة بهم، حيث تأتي الآيات هنا كنموذج عن كلام الإله الحقيقي الأحد الذي لا إله غيره، والواحد لجميع خلقه،

لترينا أن الأمور من حولنا ليست منفصلة عن بعضها حتى نرى فيها آلهة متعددة، بل كل ما في السماوات والأرض مترابط ويدل على تصميم وتخطيط وخلق ومتابعة من إله واحد أحد، فالليل والنهار يحصلان على كلّ الأرض، وآلهتكم مختلفة الأسماء والصفات، فمن سبّب الليل والنهار؟ فمن صمّمه ويتابع حصوله وربطه بخلقتنا لننشط نهاراً ونسبت ليلاً؟... فلنقل إنّ إلهاً من آلهة مشركي مكّة فعل ذلك، ولكن هذه ظاهرة ليست محصورة بأهل مكّة بل ممتدة على كلّ الأرض، ويبدو واضحاً أن إلهاً واحداً فعلها، وكذلك نفس الأمر مع بقية الأمور الممتدة الشاملة لكل المخلوقات والظواهر، فبأدنى تفكير سترى أن إلهاً واحداً صممها ونفّذها، فما معنى إنكاركم للإله الرحمن الواحد الأحد ورفضكم السجود له لوحده؟

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً{63})
في مقابل الكافرين بِالرَّحْمَنِ يوجد المؤمنون:

{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ}، الذين مفروض عَلَيْهِمْ طاعة الموصوف بالعناية بمخلوقاته لما فيه مصلحتهم، وسياق الكلام عن الذين فعلا يتصرفون على هذا الأساس، {الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا}، لَا يُعْطُونَ لأنفسهم قيمة كبيرة وشأنية عالية، وَيَمْشُونَ بسهولة متماشين مع أعضاء جسدهم بلا تكلّف، وَيَتَحَرَّكُونَ على طبيعتهم الطيبة بتواضع ومن دون خيلاء أو تفاخر أو تكبّر، فهؤلاء فعلا يشعرون ويتصرفون على أنهم عبيد الرَّحْمَنِ. وعكسها هو المشي مَرَحًا كما ورد في الآية 18 من سورة لقمان {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}.

توصيفنا لشخص أثناء المشي يشرح لنا الكثير عن نفسيته، فإذا كان المؤمنون أغنياء ويملكون الكثير من المال فهم لا يتفاخرون على غيرهم، ومن مشيتهم نعرف إذا كانوا يشعرون بالتفاخر. وإذا كان المؤمن يلبس ثيابا أنيقة نظيفة مرتبة فهو لَا يَزْدَرِي غيره، ويمكننا معرفة ذلك من طريقة مشيه إذا كان يمشي بشكل طبيعي أو يشعر أنه يقوم بعرض للأزياء ويتفاخر على بقية الناس، هذه المشية الطبيعية العادية المتواضعة تَجِدُهَا أيضا عند كافر متواضع، ولكن الفرق بين الكافر والمؤمن أن المؤمن يتواضع لأنه يشعر بأنه عبد لِلرَّحْمَنِ، فيتصرف بحسب شعوره بحجمه كعبد لا يحقّ له التكبر والتعالي لأنه تحت مظلة من يعتني به من مستوى إلهي، ويشترك المؤمن المتواضع مع الكافر المتواضع في تشخيص التكبّر والزهو والفخر بأنه سوء.

كما ترى، في الوصف عمق تراه بوضوح إذا تصوّرت موظفي دولة لرئيس ظالم مستبد، فهم سيتصرفون انطلاقا من استنادهم على أوصاف رئيسهم المجرم فلن يرحموا الناس، وهكذا ترى عباد الرَّحْمَنِ مُتَخَلِّقِينَ بأخلاق ربّهم الرَّحْمَنِ، حَيْثُ يَمْشُونَ على الأرض هونا بلا تفاخر ولا تكبّر ولا خيلاء ولا زهو على الآخرين.

{وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ}، الطائشون الذين يرمون الكلام كيفما كان بلا دراسة ولا تفكير، إذا قالوا كلاما ليسمعه المؤمنون، وَبَدَءُوا بِقَوْلِ كَلَامٍ غَيْرِ مَدْرُوسٍ، كلاما لا يطابق الحقيقة: الطبيعة خلقتنا، أو بالصدفة حصل هذا الكون، أو آلهتنا خلقته، أو يدعون المؤمنين للانضمام إليهم في فعل السيئات، أجابهم المؤمنون: {سَلَامًا}. يعني لن يكون بيننا وبينكم شيء سَيِّئٌ منّا بسبب كلامكم السيّء الفاسد، فلن نقول كلاما باطلا وَلَنْ نَلْغُوَ ولن نقول كلام الجاهلين. مثلما نحن عندما لا نوافق على كلام شخص ما، نَضْرِبُ له التحية ونقول "السلام عليكم" وننصرف، كتعبير لائق محترم عن اعتراضك على ما تسمعه، وأنك لا تريد الخوض في جدال مع جاهل لأنك ستتنزل إلى مستواه وتبدأ باللغو.

كَلِمَةُ {عَبْدٍ} تشير لمن مفروض منه وعليه الطَّاعَةُ فهي مقابل الْحُرِّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة {عِبَادٍ} على كلمة {عَبِيدٍ}، فكأن كلمة {عَبِيدٍ} قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة {عِبَادٍ} ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، فكلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن {عَبِيدٌ} جمع {عَبْدٍ}، وَ{عِبَادٌ} جمع {عَبْدٍ}، فهي جموع تكسير، وَأَثْنَاءَ الكلام بدقّة تَكُونُ الإشارة لمجموعة {عَبِيدٍ} بينهم شيء خاص مشترك، حَيْثُ تقول الآيات: {عَبِيدٌ}. وَوَرَدَتْ في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وَتَكُونُ لكل العبيد بكل أنواعهم حَيْثُ تقول الآية {عِبَادٌ}، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد

المؤمنين وللعبيد غيرهم. وَتَكُونُ لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، فهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وَعَبِيدٍ آخَرِينَ جاءهم رسول، وَعَبِيدٍ آخَرِينَ، لِذَلِكَ كَانَ الْجَمْعُ {عِبَادٌ}، وَكَلِمَةُ {عِبَادٍ} ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جدا عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

(وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً{64})
والمؤمنون، {الَّذِينَ يَبِيتُونَ}، يَصِيرُونَ في البيوت، تَحْوِيهِمْ جدران الغرف وسقفها أو الخيمة... وعادة نبيت ليلا، وفيها يَكُونُونَ، {لِرَبِّهِمْ}، للمسؤول عنهم من مسؤول إلهي سبحانه، سواء أكان مبيتهم في المسجد أو البيت أو الخيمة... هم يبيتون: {سُجَّدًا}، يُقَرِّبُونَ أو يلامسون وجههم بالأرض، وعادة نضع جبهتنا على الأرض كأقصى تعبير جسدي عن الاحترام الشديد والخضوع له تعالى، ويبيتون، {قِيَامًا}، في حالة التفعيل، والمقصود الوقوف على القدمين يذكرونه سبحانه، وسواء أكانوا يصلون الصلوات الواجبة أو المستحبة أي النوافل أو يدعون أو يتلون القرآن...

الآية لا تقصد أن المؤمن يقضي كل بياته في العبادة، بل تشير إلى سلوك المؤمن الذي بياته يتضمّن التقرّب إلى ربّه سبحانه، عَلَى الأقل الأقل، فَالْمُؤْمِنُ العادي يُصَلِّي المغرب والعشاء، وَيُمْكِنُ أن يزيد عليها التقرّب إليه تعالى بصلاة الليل، وقراءة القرآن والدعاء...

كلام القرآن فيما يخصّنا يكون عادة عن نماذج، حيث الرسول محمّد (ع) نموذج عن أي قائد، والكلام عن تعذيب ثمود وعاد... نماذج، والرسل الذين ذكرهم القرآن نماذج... والوصف هنا أيضا نموذج لا تقصد منه الآيات أن حالتهم السجود والقيام كلما باتوا.

بقي شيء تلاحظه كفرق بين أدبياتنا في كلامنا وبين تعابير القرآن، نَحْنُ نسمّي الصلاة عبادة، ولكن لم يرد في القرآن استعمال كلمة عبادة بهذا المعنى الدارج بيننا، بل ورد فقط صلاة، والمقصود منها لغويا التوجّه، وورد الذكر وَمَقْصُودٌ منه ذكره تعالى بالكلام، وَاسْتِعْمَالُ كلمة عبادة للأعمال الواجبة وللأعمال التي نتقرّب بها منه تعالى، هُوَ استعمال غير سليم لغويا ولم يستعمله القرآن، ولا أقصد بذلك المنع من استعماله، ولكن بعض إِسْقَاطَاتِ خلفياتنا على معاني بعض الكلمات القرآنية ينتج عنه تفسيرات غير صحيحة لكلامه تعالى، ككلمة دعاء ومشتقاتها التي يقفز إلى ذهننا أنها على معنى الطَّلَبِ منه تعالى تحقيق شيء لنا، ويترسّخ ذلك ونصير نفهم العديد من كلامه تعالى من خلفية هذا المعنى غير الصحيح، وَمِثْلُهَا كلمة كفر، وطهر ونجس... وكلمة مؤمن ورسول ونبي... التي صار لها تعاريف اصطلاحية مختلفة عن معناها اللغوي.

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً{65})
الْمُؤْمِنُونَ، {الَّذِينَ يَقُولُونَ}: {رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {اصْرِفْ}، حوّل أبعد عنّا، {عَذَابَ جَهَنَّمَ}، الضرر الناتج عن المكان الموصوف بسوء ما فيه، {إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا}، كان إلزاما بشيء ثقيل يجب تأديته كمجازاة على السيئات، مثلما نقول "مُغْرَمٌ" للذي عليه دين مالي ثقيل، أو "مُغْرَمٌ" للواقع تحت وطأة حبّ شديد، أو نقول "غرامة" للذي عليه دفع مبلغ مالي لمخالفة سير، وَوَرَدَتْ كلمة "غرام" على هذا المعنى في سورتي القلم والطور {أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ}.

المؤمنون يعرفون شدة العذاب هناك ويطلبون منه تعالى المساعدة حتى لا يكون مصيرهم العذاب.

الْغُرْمُ "مَغْرَمٌ، غَرَامٌ" هو عموم إلزامك بشيء مادي أو معنوي لتبعات مادية أو معنوية ولن يسقط عنك لوحده، فَالْمَغْرَمُ المادي لما عليك من تبعات مادية مالية أو غَيْرِهَا ومؤثرة وأنت ملزم بتأديتها، فغرامة مخالفتك لقانون السير هي إِلْزَامُكَ بدفع مال على المخالفة. وَمَغْرَمٌ مَعْنَوِيٌّ، فعليك تبعات مشاعرك كحبّك حيث صرت مُلْزَمًا بالهيام والشوق...

(إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً{66})

الْمُؤْمِنُونَ يقولون:

{إِنَّهَا}، جهنم، {سَاءَتْ}، ما أسوأها، {مُسْتَقَرًّا}، هي مكان سَيِّئٌ عَاطِلٌ لِلِاسْتِقْرَارِ، لِلثَّبَاتِ، لِلْبَقَاءِ فيه، الذي كانت سبيله في الدنيا توصله لجهنّم ليستقر فيها فَهِيَ مَكَانٌ سَيِّئٌ، {وَسَاءَتْ}، {مُقَامًا}، وهي ليست مكانا مرغوبا لنكون في حالة التفعيل فيها، وعمليا عَلَى المعنى الدارج لكلمة "مُقَامٍ" كاسم مكان، هي ليست مكانا مرغوبا للإقامة فيه.

ضع في بالك أن العرب حين نزول القرآن لم يكونوا يستعملون كلمة "مُقَامٍ، مُقَامِي" على معنى مكانتي، قيمتي، مركزي... بشكل صريح مباشر، ولا على معنى تقدير القيمة "بتصريف تقييم" ولا على معنى المسؤولية "بتصريف قَيِّمٍ"... ولا على معنى المكان أو كاسم مكان، وَدَرَجَ فيما بعد استعمال هذه الاشتقاقات بهذه الْمَعَانِي. وَلَمْ يَسْتَعْمِلِ القرآن كلمة "قَوْمٍ" واشتقاقاتها إلا بمعناها كما كان يستعملها العرب حين نزوله: حيث أقوم بعمل ما، وضعي حين أكون مُفَعَّلًا... ما أقوم به من أعمال في مكان ما... والمعنى الجامع لمختلف الاستعمالات: الْكَوْنُ مُفَعَّلًا على ما هو محمود. وكما ترى، عَمَلِيًّا هذا المعنى سيأخذك إلى الاشتقاقات بالمعاني التي درجت بين الناس، حَيْثُ تَصِيرُ الكلمة مشيرة لمكان أو قيمة أو مسؤولية...

ما هو دارج عن معنى كلمة "قَيِّمٍ، قيمة، مُقَامٍ" كتقدير للشيء، "قيمته عالية"، فهو من مشتقات معنى الكلمة وليس معناها الصريح، وَإِلَى حين نزول القرآن لم أجد في أشعار العرب "قبل الإسلام" أي استعمال لهذه الكلمة بهذا المعنى الصريح الذي نعرفه الآن، بل معناها مثل ما تفهمه الآن عندما تقول: تقويم الأسنان، مما لا يعني جعلها كلّها متشابهة بالطول أو الانحراف، بل جعلها مُفَعَّلَةً على الأحسن المناسب، و{الدِّينُ الْقَيِّمُ}، {دِينًا قِيَمًا}... وصف للتفعيل الذي على الأحسن المناسب. ومن مشتقات المعنى أَنَّ لَهُ قِيمَةً عَالِيَةً ولكنه ليس أصل معنى الكلمة.

هنا الآية تشير لأصل المعنى لعموم حالة التفعيل، وتفهم ما تقصده الآية إذا قارنته مع حالة مَيِّتٍ في جهنّم، وَهُوَ ليس في حالة تفعيل لِأَنَّهُ مَيِّتٌ، ولن يعني له سوء المكان أي شيء، أمّا أن يكون مُفَعَّلًا أي واعيا بفكره وأحاسيسه ومشاعره... فهذا لن يرغب بهذه الحالة أن يكون في جهنّم.

هذه هي المعاني من الأفكار والمشاعر التي في المؤمنين ويصوغها تعالى بكلام ينسبه لهم، هي كتعليم منه تعالى لنا لنقولها، وفي نفس الوقت هي واقع حال أفكارهم ومشاعرهم حتى لو لم يقلها بالحرف ولا واحد منهم كما تقولها الآيات.

وَلَا تتصوّر أن المؤمنين أو واحدا منهم قال حرفيا ما تقوله الآيات هنا، ونقله سبحانه عنه، لا، لا داعي لهذا التصوّر لِأَنَّهُ ليس المقصود نقل أدعية المؤمنين بل المقصود الإضاءة على فكرهم ومشاعرهم.

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً{67})
يكمل سبحانه صفات المؤمنين:

{وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا}، إذا صرفوا من مالهم وأملاكهم على معيشتهم وطعامهم ولباسهم... {لَمْ يُسْرِفُوا}، لم يصرفوا أكثر مما يحتاجون، مَثَلًا عندما يعدّون الطعام للغداء هم يحضّرون ما يكفيهم من دون زيادة، وَالْإِسْرَافُ عندما يبقى الكثير من الطعام ويرمونه كنفايات. وَمَثَلًا عندما يشترون الثياب لَا يشترون الكثير منها بحيث لَا يَلْبَسُونَهَا أو يَلْبَسُونَهَا لمرة واحدة وتبقى في الخزانة، وَالْإِسْرَافُ بهذا الشكل سَيِّئَةٌ.

إِذَا أنفق المؤمنون على معيشتهم، {لَمْ يَقْتُرُوا}، لم يضيّقوا على أنفسهم بأقل مما يحتاجونه، حَيْثُ لَمْ يكونوا بخلاء على أنفسهم، بحيث يحضّرون طعاما أقل من الذي يشبعهم، أو يلبسون الثياب حتى لو أصبحت مهترئة وممزقة وَهَذَا الْإِقْتَارُ كنوع من البخل أو الاقتصاد الزائد عن حدّه أيضا سَيِّئٌ.

{وَكَانَ}، إنفاق المؤمنين، {بَيْنَ ذَلِكَ}، بين الإسراف والإقتار، {قَوَامًا}، يوصف بأنه على الأحسن، بما يقوم بحاجاتهم على الأحسن، معتدلا على قدر حاجتهم، حَيْثُ لَا يَمِيلُ لناحية التبذير والإسراف والإفراط في الشراء... ولا يميل للبخل وحرمان النفس من الطعام الشهي أو اللباس الجيد.

الكلام هنا عن مصروف المؤمن على نفسه وعلى من هم تحت مسؤوليته أو ضيافته للآخرين... وكما ترى إِنَّ كَلَامَهُ تعالى هنا وفي الآية 32 من سورة الأعراف {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ}...، لا

يتماشى مع ثقافة صورة الإيمان العالي التي ينشرها بعض الناس عن المؤمنين الْحَارِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ من الطيبات والملذات، والمعيبين على المؤمنين المتنعمين بالخيرات بما هو تحت الإسراف.

الكلام يجرّ الكلام ولو كان من خارج تفسير القرآن، حَيْثُ في عصرنا عادة يعيب الأهل المؤمنون على أولادهم أنهم يفضلون أكل المطاعم على طبيخ المنزل، وهذا شأن عائلي، ولكن المشكلة حين يبدأ الأهل ومن دون انتباه بِالتَّعْيِيبِ إيمانيا على الأولاد، وكأن كره الطبيخ المنزلي كفر! لِذَلِكَ عَلَيْنَا الانتباه من إقحام دينه تعالى في سلوكيات تحددها قدرتنا المالية إن كانت تتحمّل شراء طعام من المطاعم للأولاد، وإن كانت المطاعم نظيفة... وإن كان الطبيخ المنزلي متقنا...

اَلْكَلَامُ يجر الكلام، حَيْثُ فِي مجتمعاتنا نستعمل تعابير لا نرى خطورتها مثلما نقول للطفل: سيخنقك الله إن لم تكمل صحن طعامك. سَيُعَاقِبُكَ لأنك تريد ثيابا جديدة، ستدخل النار لأنك رميت قطعة خبز... نحن كمؤمنين نحاول الالتزام بكلامه تعالى مبتعدين عن الإسراف ولكن هذه الأساليب ليست سليمة ولا حتى أصلا صحيحة.

(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً{68})
يكمل سبحانه وصفه للمؤمنين:

أولا: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ}، لا يعلنون ولا يشهرون أنه يوجد كائن فائق القدرات والصفات غير صاحب الاسم المحدّد المميّز الله سبحانه.

ثانيا: والمؤمنون، {لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ}، هناك نفس ممنوع منعا باتّا القيام بعمل لإنهاء حياتها ونفس أخرى يحلّ إنهاء حياتها، حَيْثُ إِنَّ النَّفْسَ البشرية التي يحرم قتلها هي أي إنسان لم يفعل جرما يستحقّ عليه القتل، ولكن هناك حالات يجوز فيها قتل النفس {بِالْحَقِّ}، فَالْحَقُّ قتل القاتل الذي أمات شخصا بريئا عن قصد، وقتل المفسد من العيار الثقيل في الأرض كما ورد في الآية 32 من سورة المائدة {مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا}، وقتل العدو الذي يقوم بنشاط قتالي ضدّ المسالمين.

ثالثا: والمؤمنون، {لَا يَزْنُونَ}، حَيْثُ لَا يقيمون علاقات جنسية محرمة.

{وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ}، يقوم بأي واحدة من هذه الأعمال الثلاث كائنا من كان، فسوف، {يَلْقَ أَثَامًا}، حَيْثُ يَجِدُ أمامه ذَنْبًا يستحق عليه العقاب لأنه ارتكبه وهو يعلم بأنه سيّء جدا وفعله معصية للإله سبحانه، وسنرى في الآية التالية الآثام التي سيتعرّض لها من يفعل واحدة من هذه الثلاث.

قبل ذلك لاحظ أننا عادة نفهم كلمة "يَدْعُونَ" وأشباهها على أنها لطلب شيء، كطلب الرزق والشفاء والنجاح... ولكن معناها العمومي هو الإعلان والإشهار، وسياق الكلام يحدّد أي نوع من الإعلان والإشهار هو المقصود، هُنَا وفي العديد من الآيات أمثال آيتنا هذه، تَقْصِدُ إعلانهم وإشهارهم عن غيره تعالى أنه إله، ومن تبعات ذلك الدعاء "بالطلب" من غيره تعالى.

ضع أيضا في بالك أن الذنب هو عموم أي مخالفة للأوامر، والإثم هو خصوص مخالفة الأوامر مع العلم بوجود عقاب عليها، والسيئة هي العمل الموصوف بأنه سيّء... وَهَكَذَا لبقية الكلمات المشابهة يوجد معنى دقيق لكل واحدة منها وعادة تنطبق كلّها على نفس العمل، فَيَكُونُ ذنبا وإثما وسيّئة، وأحيانا لا، والذي بالخطأ وعن غير قصد قام بعمل سيّء، هذا ليس مذنبا ولا آثما مع أنه أساء، وفي كل الحالات يجب عليه الاستغفار.

(يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً{69})
{يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، في زمن القيام من الموت وعندما يُحَاسَبُ الشخص الذي دعا مع الله إلها آخر، أو قتل شخصا بريئا لا يجوز قتله، أو زنا، فعقابه تتم مضاعفته أي زيادته بكثرة، مرتين وثلاث... ومئات وملايين... المرات.

{وَيَخْلُدْ فِيهِ}، في العذاب "في جهنم" حَيْثُ لا يموت ولا يخرج منها أبدا، {مُهَانًا}، وهو يشعر بالاحتقار وبأنه بلا قيمة، وَيَتَعَرَّضُ للإهانات، حَيْثُ فوق تعذيبه الجسدي سيتعرض لتعذيب نفسي. هُنَا في الدنيا في بعض الدول يوجد أناس

مجرمون يدخلون إلى السجن ولكنهم في السجن يَكُونُونَ محترمين معزّزين مكرمين في غرفة نظيفة ومكان مريح ومعاملة جيدة، ولا يتعرضون للتعذيب ولا يسمعون الإهانات... مع أنهم مجرمون ويستحقون العقاب الشديد، أمّا في الآخرة فالمكان مشتعل ونتن وكريه ومعاملة من فيه خشنة فظة غليظة...

نلاحظ أنه من بين كل المحرمات خَصَّصَتِ السورة هنا هذه المحرمات الثلاث "الشرك، القتل، الزنا" بأن عذابها مضاعف لمن ارتكبها عن قصد وهو يعلم بسوئها، علما أن القرآن أَشَارَ لذنوب أخرى غيرها تسبّب الخلود في جهنّم، كالهروب من الحرب مع الأعداء "الهروب من الزحف" كما ورد في الآية 16 من سورة الأنفال {وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}، والارتداد عن الدين كما ورد في الآية 217 من سورة البقرة {وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، وغيرها... وأشار للصدّ عن سبيل الله تعالى بأنه يسبب مضاعفة العذاب كما ورد في الْآيَتَيْنِ 19 وَ 20 من سورة هود {الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ... يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ}...، إِذَنْ ليست هذه الذنوب الثلاث وحدها تسبّب مضاعفة الذنوب والخلود في جهنم، فهي فقط من النماذج البارزة عن الذنوب الكبيرة.

من ناحية هي تحذير للمؤمن حتى لا يقترف هذه السيئات الكبيرة، ومن ناحية ثانية مَنِ ارتكبها ولم يتب فهذا الإعلان له هنا سلفا عمّا سيلاقيه، لِيَتُبْ أو لِيَأْخُذْ علما بمصيره.

ستجد في بعض التفاسير أن كلمة خلود هنا لا تعني المؤبّد في النار بلا نهاية، بل المدّة الطويلة جدا. وكما ترى وَهَذَا مخالف بشكل واضح لمعنى كلمة "خلود"، وما دفعهم لذلك هو اعتقادهم بِأَنَّ الموحّد لا يخلد في جهنّم مهما فعل، حَيْثُ فِي بالهم أن من زنا وهو مسلم موحّد، حتى لو لم يتب، فعقابه في جهنّم لمدة طويلة ثمّ يخرج منها لأنه موحّد، وأمّا من دعا مع الله تعالى إلها آخر فمحسوم أمره بالخلود في النار، لأنه ليس من جماعتهم وَلَيْسَ من الموحدين، وأمّا من قتل نفسا بريئة فستجدهم مُنْقَسِمِينَ حول مسألة خلوده في النار...

كما ترى، بسبب معصية الزنا واعتقادهم بأن من ارتكبها وكان من الموحدين لله تعالى ولم يتب منها، هذا "في رأي بعضهم" لا يمكن أن يخلد في جهنّم بسبب هذه المعصية، وكان الحلّ برأيهم بتبديل معنى الخلود ليصير مؤقّتا! ولكن وكما تقول الآية وبكل صراحة: الزاني كائنا من كان، موحّدا أو مشركا، طالما لم يتب فسيخلد في جهنّم.

هنا نسأل إن كَانَتْ مُضَاعَفَةُ العذاب ظُلْمًا، هل هو عقاب بعذاب يزيد عمّا يستحقّه المسيء؟ لا، دَائِمًا ركّز القرآن على هذا وبشكل واضح ومرارا قال لنا إِنَّهُ تعالى لا يظلم وتقرأ هذا صريحا في آيات عديدة منها الآية 40 من سورة النساء {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ}...، وَمُضَاعَفَةُ العذاب للذين في النار سَتَكُونُ من ضمن ما يستحقّونه من عقاب، وأبسط مثال قرآني عن ذلك هو حمل العاصي لأوزار مع أوزاره كَمَا تقرأ في الآية 25 من سورة النحل {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ}، عِنْدَمَا قام بالسيئات وشجّع الآخرين على ارتكابها فله حصّة من كل سيئة فعلها الآخرون بسببه أو بتشجيع منه، وهكذا لَهُ عذاب على ما قام به مباشرة بنفسه، وله عذاب "مضاعف" ناتج عمّا نتج من فعل الآخرين للسوء الذي دفعهم أو شجّعهم هو عليه، وراجع كمثال ما ورد في الآية 85 من سورة النساء {مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا}...

مثال قرآني آخر عن قتل النفس الواحدة الزكية، الذي يعادل قتل كل الناس، وعقابه على القتل هو الأصل ويضاعف تعالى له العذاب بسبب ما نتج عن القتل كما ورد في الآية 32 من سورة المائدة {مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا}... وَرَاجِعْ دراستها لمزيد من التعمّق بسبب مضاعفة عذاب القتل.

ننتقل لشيء له علاقة، الدَّارِجُ في فهمنا لقرآنه تعالى تذكّر الآيات التي تتوعّد بالخلود في النار على السيئات، ومضافا لها روايات بعضها لا يتماشى مع كلام القرآن، حيث تتوعّد بالعقاب بالنار والخلود فيها على أمور لا نراها تستحق هذه الشدّة في العذاب، وَبِضَبَابِيَّةٍ تَتَشَكَّلُ لدينا صورة عنيفة جدا في العقاب على سيئات لا نعتبرها تستحق ذلك، وهذا غير صحيح، حَيْثُ فِي القرآن لن تجد وعدا بالعقاب خلودا في النار إلا على بضعة عناوين معدودة، منها قتل النفس بغير حقّ، والشرك به تعالى، والزنا والهروب من المعركة... أمّا بقية الكلام القرآني ففيه وعد بالعذاب في النار على سيئات

أخرى كالامتناع عن مساعدة المحتاجين مع القدرة على مساعدتهم... وذكر القرآن سيئات عديدة لم يذكر عليها العقاب كالغيبة والسرقة...

لن أخوض هنا في نقاش أذكر فيه أنواع السيئات، بل سأركّز على المفهوم البسيط الذي نتفّق عليه كلنا، حَيْثُ إِنَّ السيئات درجات في شدّة سوئها، كالفرق بين قتل نفس بغير حقّ، وبين العبوس في وجه زوجتي بغير حقّ، وَكِلَاهُمَا عمل سيّء ولكن الفرق بينهما هائل من ناحية شدة السوء. وبناء عليه نفهم كلامه تعالى في قرآنه الذي أخبرنا فيه عن السيئات التي يعتبرها تعالى من العيار الثقيل وعقابها الخلود في جهنّم، والتي تعارف الناس على تسميتها بالكبائر، ولكن ولأسباب عديدة من الموروث الثقافي تكوّنت لدينا صورة مرعبة عن عذابه تعالى لنا على أي سوء كان ومهما كان حجمه أو نوعه، وها قرآنه تعالى أمامك وسترى أن هذا غير صحيح، ولا علاقة لكثير من الموروث الثقافي الديني بكلامه تعالى، حَيْثُ فِيهِ ستجد كلاما أصلا مُتَعَارِضًا مع القرآن...

لنرجع لمسألة شدة العذاب، ولنقل إِنَّكَ أنت موكّل كقاض هنا في الدنيا لمحاسبة الناس على سيئاتهم، وانتبه أن لا تتعامل مع الموضوع بضبابية السذاجة مفترضا في نفسك طيبة قلب، ولنبدأ بمسح هذه الصورة بافتراضك قَاضِيًا على مجرم سجن أحبائك الأبرياء من كبار وصغار، وعذّبهم وماتوا تحت التعذيب الطويل، وهم لا ذنب لهم حَيْثُ لَمْ يفعلوا له أو لغيره أي سوء، فبماذا تحكم عليه؟ وفرضا فرضا بالغت وقلت إِنَّكَ ستسامحه، فهل فعلا ستسامحه إن كنت تعلم أنه سيفعلها ثانية مع أبرياء آخرين؟ وفرضا أنت سامحته، فماذا لو عاد أحباؤك المقتولون تحت التعذيب إلى الحياة، فهل سَيَغْفِرُونَ لك تركك للذي عذّبهم بلا عقاب؟

القرآن غالبا وعادة تحدّث مختارا أقصى نماذج الكفر والإجرام، وهم المقطوع الأمل من تغيّرهم، وَهَؤُلَاءِ لو عادوا من الآخرة إلى حياة فيها تكليف كالتي كانوا فيها في الدنيا، لعادوا لإجرامهم كما ورد في الآية 28 من سورة الأنعام {بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}. ضع هذا في بالك لتفهم أن هذه النوعية من الناس هي التي توعّدها تعالى بالخلود في النار، وأمّا الأقل سوءا فلم يذكر القرآن خلودهم في النار وأحيانا لم يذكر أن لهم عقابا كحالة الساخرين والمستغيبين كما ورد في الآية 11 من سورة الحجرات {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، وَاكْتَفَى بوصفهم أنهم ظالمون "سيئون".

هنا نسأل: لماذا لا تجد في القرآن ذِكْرًا لكل السيئات "الكبيرة والصغيرة" مع العقاب عليها؟ الجواب: لأن التفاصيل المتعلقة بنوايانا حين نفعل السوء مختلفة، ودرجة سوء ما فعلناه مختلفة، وتكرارنا له مختلف... ولو تكلّم تعالى عن العقاب الآن بدون فهمنا لكل تفاصيل كل حالة، لما فهمنا معنى شدّة العقاب ولا الرخاوة فيه، حَيْثُ أَنَا أَدْعُو بالموت والعذاب على شخص لطمني صفعة خفيفة أمام الناس، ولو استطعت لكسرت يده أو قتلته... فَمَاذَا لو وجدت في القرآن أنها سيئة صغيرة ولا تستحقّ أصلا تعذيب فاعلها؟

هل انتبهت؟ بضبابية نحكم على كلامه تعالى بالعنف المبالغ فيه، بينما سبحانه في قرآنه خرج من هذه التفاصيل لأن الناس مزاجيون ضبابيون طفوليون في تعاملهم مع هكذا أمور، حَيْثُ إِنَّ نفس الشخص المصفوع يريد عقابا شديدا لصافعه، وبعد قليل سيعلّق على القرآن بأنه يبالغ في العقاب على بعض السيئات كالزنا والخمر والربا... والتي برأيه لا تستحق أصلا الوقوف عندها! بل يعلّق على عقوبة قتل القاتل لأنه هو قلبه طيّب وسيسامح من يقتل أحباءه!

لماذا الاعتراض على العذاب على السيئة؟ لأنه هو نفسه لديه لائحة طويلة عريضة من الأمور السيئة التي يفعلها ولا يريد الإقلاع عنها، أو أصلا لا يعترف بسوئها، أو يعترف بسوئها ولكنه يقول بأنه غير قادر على تركها... لِذَلِكَ حين ينظر لنفسه يرى أن الكلام في القرآن عن العقاب على السيئات ليس في مصلحته.

يا عزيزي ويا عزيزتي "الْمُذْنِبِينَ" أنا مِثْلُكُمْ بالتمام، ولكن أوّل خطوة نحو التحسّن هي الاعتراف نظريا بالسوء، وهذه الدراسة القرآنية منّي ليست انْعِكَاسًا لأخلاقي العالية، لا، بل هي تفسير نظري منّي لكلامه العالي سبحانه، مع الاعتراف مني هنا وهناك بأني لست أهلا للتعمّق في بعض الآيات ذات المستوى الأخلاقي العالي أو ذات مستوى عبادي عَالٍ.

أَرْغَبُ لو يُسَامِحَنِي تعالى مهما فعلت، ولكن هذه مجرد رغبة لا واقعية لها طالما لم أَسْتَغْفِرْ وأتب... وخذ علما أن بعض المجرمين من الدرجة العالية مقتنعون بأنهم يفعلون الخير بقتلهم الأبرياء، حَيْثُ برأيهم أن انضباط الناس تحت سلطتهم عبر تَرْوِيعِهِمْ بقتل البعض منهم، فيه مصلحة كبيرة لعدد كبير جدا من الناس وناتجة عن التضحية بقتل عدد قليل جدا من الأبرياء... ومنهم الذين يفجّرون أنفسهم بالأبرياء ويقصفون الأبرياء بالطائرات والصواريخ... بل حتى اللصوص يدعونه تعالى لتوفيقهم في إيجاد مخبأ مال البيت الذي يسرقونه!

هذه الضبابية خلفية منتشرة في عموم كلام حتى الذين يعتبرون أنفسهم مثقفين موضوعيين باحثين دارسين متخصصين من دكاترة ومؤلفي كتب... وبناء عليه انْتَبِهْ من كلامك ومن كلامهم على أي خلفية يستند.

الآن ننتقل للنقاش في تصنيفنا لشدّة سوء الأفعال، قَدْ تعترف بشدة سوء بعض ما اعتبره تعالى يستحق العقاب الخالد في النار، وقد لا تعترف ببعضه الآخر، وَالْمُجْرِمُ القاتل للنفس البريئة والذي لو عاد من مماته لعاد وكرّرها... ولو عاد أيضا من مماته لعاد وكرّرها... فهل تناقش في استحقاقه لعذاب خالد لأنه لو خلد في الدنيا لبقي مجرما؟

إذا كنت ستناقش في هذه فما نفع الكلام معك؟! لِأَنَّ قُدْرَتَكَ على تمييز الخير من الشرّ معطّلة مشوّهة، والخلل في طريقة تفكيرك ونظرتك للأمور، حَيْثُ إِنَّ بعض الناس تَافِهُونَ وعندهم غباء في مسائل عقلانية مع أنهم في مسائل أخرى محترفون ومتخصصون وبارعون في الطبّ والرياضيات والتاريخ واللغة والفيزياء... وَأَنَا شخصيا منهم في بعض المسائل التي لم يتحكّم عقلي المتّزن في نظرتي وتعاملي معها، وهذا شيء عادي للأسف بيننا عموم البشر، وبهذا يتميّز عنّا النماذج الراقية التي ولهذا السبب بالذات وظّفهم تعالى رسلا يحملون وصف خليفة له تعالى في الأرض...

سأكتفي بهذا المقدار من لفت انتباهك لمشكلة في تشوّه قدرتنا على تمييز الخير من الشرّ في بعض المسائل التي لا نريد توصيفها الحقيقي لأننا متعلقون بشيء يتعارض معها، وهذا هو التطبيق العملي لما قالته الآية 43 من هذه السورة {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا}، وتطبيق للآية 51 من سورة الأعراف {الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ}.

(إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{70})
سيلقى من يفعل واحدة من هذه الذنوب عذابا خالدا:

{إِلَّا مَنْ تَابَ}، من فتح صفحة جديدة متوقفا عن فعل الذنب.

إلى هنا علمنا أن باب التوبة مفتوح، ومن يَتُبْ يَقْبَلْ سبحانه توبته ولن يعذّبه، وأكثر من ذلك، فإذا تاب، {وَآمَنَ}، أعلن اعتقاده بربه سبحانه ووحّده ولم يشرك به شيئا، {وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا}، وهذا التعبير مختلف عن "عمل صالحا" لأنه يشير للتوقّف عن الأعمال السيئة كلّها وليس فقط عمّا تاب منه مَنْ أشرك أو زَنَى أو قتل، فتخصيص السورة لفقرة مخصصة لهذه الآثام الثلاث مع قبوله تعالى التوبة منها، يريك أنه مهما كان الإثم فظيعا من شرك أو قتل أو زنا، سبحانه يتوب عن التائب.

{وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا}، الذي قام بالأعمال الصالحة الجيدة، حيث خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، وعمليا هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادة نفسّر "عملوا الصالحات" على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إِنَّهُمْ صلّوا وصاموا... وهذا عمليا صحيح، ولكن بالأصل الكلام أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموما وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، حتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائما أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى وَيُؤْمِنُونَ به.

هذا الكلام له عمق، حيث لا تُوجَدُ حالة نقول فيها: لست مقتنعا ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خَلَلٌ منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّا لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلا سيّء" سيكون في الحقيقة اخْتِرَاعاً من البشر لصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمرا إلهيا.

{فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ} سبحانه {سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ}، السيئة التي ارتكبوها يتم استبدالها بحسنة تَمْحُو السيئة، وهذه مقابل تلك، مثلما نبدّل المال بتبديل الجنيه بالريال. وما قيل عن تحويل السيئة لحسنة بحيث هو نفسه العمل السيّء يتحوّل ليصير حسنات، فهذا ليس المعنى اللغوي للجملة ولا يتماشى مع بقية مفاهيم القرآن التي تؤكّد ثبات وصف السوء لما هو سيّء، وهكذا يكون التبديل بحذف السيئة ووضع حسنة مكانها، وسياق الكلام عن التوبة، هنا في الدنيا تاب، وفي الآخرة في كتاب أعماله يُبَدِّلُونَ السيئة بالتوبة والاستغفار منها.

{وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا}، يغفر بشكل هائل، يسامح عن الذنوب حتى لو كانت ضخمة جدا، سبحانه ليس صلبا جافا يثبت على موقف واحد ممن أخطأ، لا، بل يغفر. {وَكَانَ}، {رَحِيمًا}، حيث لَدَيْهِ عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم.
استعمل القرآن وصفه تعالى بِالرَّحْمَنِ للإشارة إلى عنايته تعالى بكل مخلوقاته، واستعمل كلمة رحيم لخصوص وصفه تعالى بعنايته بالمؤمنين فقط، وَالْآخَرُونَ بإرادتهم بكفرهم وفعلهم السوء خرجوا من تحت مظلة الرحمة الإلهية،
والترجمة العملية لهذه الرحمة هي المغفرة والشفاعة... وما تقرؤه هنا عن تبديل سيئاتهم حسنات، فهذه أمور لا ينالها إلا المؤمنون.

(وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً{71})
{وَمَنْ تَابَ}، من فتح صفحة جديدة وتوقف عن الفعل السيئ ونوى أنه لن يرجع إليه، مهما كان تاريخه السابق من كفر وأعمال سيئة، {وَعَمِلَ صَالِحًا}، وقام بما يراه جيداً، وهذا يتماشى مع أوامره تعالى الذي لا يأمر إلا بما هو صالح، عملياً التزم بالواجبات وترك المحرمات الدينية، {فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا}، فهذا تنطبق عليه التوبة بكل ما تحمل كلمة توبة من معنى، وعن جدّ وعن حقّ يتوب أي يفتح صفحة جديدة، ولا يتوب اليوم ويرجع غدا للمخالفة، ثم يتوب ثم يرجع، ثم يتوب ومن ثم يرجع... لا، فهذه ليست توبة حقيقية بل مجرد كلام فارغ، ومن مات وهو على هذه الحالة من التذبذب فهو في الحقيقة لم يتب فعلا.

كما تعلم من إشارات القرآن حين يتحدّث عن نور الإيمان، ونور المؤمن، والصراط، وحبل الله... تجد إشارات تفيد بأن الدرجة العالية من الإيمان تجعلك تكره السوء، ومن أعلى درجات التوبة أن تكره السوء الذي ارتكبته، فالكذب سوء، وبكل سهولة ستجد أناساً يكرهون هذا السوء، وهكذا ننتبه إلى المؤمنين من الدرجة العالية الذين يكرهون بقيّة السيئات، ولا يحبونها ولا يحبون من يفعلها، وهكذا تفهم التأكيد بالمتاب هنا {مَتَابًا} على معنى حقيقة فتح صفحة جديدة بشكل حاسم سببه كُرْهُ السيئة التي كان يفعلها.

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً{72})
المؤمنون الحقيقيون، {الَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ}، فإذا كانوا شهودا على بيع منزل أو سيارة أو كانوا موجودين حين حصول حادثة قتل أو تعارك... فهم يشهدون بالحقّ ولا يزوّرون الحقيقة بل يقولونها كما هي.

المؤمنون، {إِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ}، حيث صدر منهم أو من غيرهم كلام فارغ، كلام كيفما كان، كما نقول بالعاميّة: كلام بلا طعمة. فهم ينتبهون للكلام الباطل فلا يستمرون بقوله ولا يبقون في مكان يحصل فيه اللغو، واللغو يَحْصُلُ عن غير قصد من زلّة اللسان في حالة الغضب... أو زلّة لسان أثناء المزاح... أو يصدر ممن يجلس المؤمنون معهم... فهم، {مَرُّوا كِرَامًا}، فالمؤمنون قيمتهم عالية ولذلك يمرون على اللغو مرور الكرام إن صدر منهم أو صدر ممن حولهم لغو، مرور من له قيمة، مرور من ينتبه لما قيمته منخفضة فلا يستمرّ عليه ولا يبقى في مكان يقوم فيه الناس باللغو.

ننتبه إلى أن تعبير {وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا} يشير إلى أن المؤمن يمرّ باللغو، ولكن مرور الكرام، يعني ليس من عادته التوقّف عند اللغو والاستمرار به، سواء صدر منه أو ممن حوله، فمن صار اللغو مكررا بكثرة عنده فلينتبه لنفسه، فهذا ليس من صفات المؤمنين.

بقي شيء، من عادة المفسرين استبدال تطبيقات "مصاديق" الكلمات بما يبدو كأنه مرادف لمعنى الكلمة، بينما هو من تطبيقاتها، وتفسيرها بهذه الطريقة سيبعدنا عن المعنى الدقيق الذي يقصده القرآن ونصير محكومين بالذي افترضوه كمرادف، هُنَا مثلا تجد تفاسير مختلفة لكلمة {لَغْوٍ}، نحن فسّرناها بمعناها اللغوي العام كما استعملها العرب والقرآن، وهي بتعبيرنا الحالي: الكلام الْفَاضِي، كلام بلا طعمة، كلام كيف ما كان، شربحة وحكي فَاضٍ. ويتدرج من الْأَسْوَإِ وهو الكذب وتكذيب الحقّ، مرورا بِالتَّعْلِيقَاتِ والانتقادات غير المحقّة والمعيبة على الدين الإلهي أو على الناس، ومرورا بشهادة الزور والغناء بكلام معيب... وصولا إلى المبالغة بالكلام والمزاح الثقيل... أمّا بعض المفسرين فقالوا إِنَّهَا تقصد فقط الغناء، وآخرون قالوا فقط الغيبة، وغيرهم حصرها بالجدالات الدينية العقيمة مع أشخاص لا يريدون الاقتناع بالحقّ... وآخرون وسّعوا المعنى ليشمل كل ذلك وغيره. وكما ترى فهذه أغلبها تطبيقات مباشرة لكلمة {لَغْوٍ} أو غير مباشرة كشهادة الزور والغناء.

(وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً{73})
نتذكر السورة حدثتنا عن آياته تعالى من تعاقب الليل والنهار والشمس والقمر... ونماذج عن تعذيب الكافرين هنا في الدنيا... ونتذكر أن الكفار لم يتأثروا بها بل بقوا على كفرهم كأنهم لم يسمعوا ولم يروا الآيات، وهنا تريك السورة العكس يحصل من المؤمنين:

المؤمنون هم، {الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ}، بالأمور المميّزة المنسوبة للمسؤول عنهم من مستوى إلهي، كمشهد الليل والنهار، والشمس والقمر، والبروج... والمخلوقات من حولنا... {لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا}، حيث لم يقعوا بسرعة وقوع من لا يسمع ولا يرى، بل بالعكس خرّوا سجّدا رهبا وطمعا، راجع كمثال الآيتين 15 و16 من سورة السجدة {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}...

مرّ معك سابقا مرور الكافرين على آياته تعالى ووقوعهم سريعا في حالة العمى والصمم حيث لا يرونها آيات إلهية، وبالعكس هنا الوصف بأن المؤمنين لا يصيبهم ما أصاب غيرهم، بل يرون ويسمعون الآيات بِتَأَنٍّ وتفكير.

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً{74})
المؤمنون، {الَّذِينَ يَقُولُونَ}:

{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {هَبْ لَنَا}، نطلب منك إعطاءنا شيئا لن نعطيك أي شيء مقابله منّا، أَعْطِنَا، {مِنْ أَزْوَاجِنَا}، من الذين اقترنّا بهم فتزوجناهم، {وَذُرِّيَّاتِنَا}، من الذين انفصلوا عنّا "بالولادة أو بغيرها"، من أولادنا وأولاد أولادنا، أَعْطِنَا الزوجة والذرية على أن يكونوا: {قُرَّةَ أَعْيُنٍ}، فتقرّ فتثبت أعيننا عليهم ولا نرغب بغيرهم من فرحنا وسرورنا عندما نراهم، بعبارة أخرى المرأة المؤمنة تطلب منه سبحانه أن يهبها زوجا وأولادا تشعر بالسعادة حين تراهم... ويطلب الرجل المؤمن منه سبحانه أن يهبه زوجة وأولادا يشعر بالسعادة عند رؤيتهم... وبعد الزواج أيضا تطلب المرأة والرجل أن يكون الزوج والذرية قرّة أعين، وهذا تعبير عن السعادة بما وهبهم.

{وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}، لِيَكُنْ سلوكنا جيدا جدا لدرجة جعلنا مرجعا وقدوة للذين يتجنبون السيئات وهو نفسه تجنّب غضبك وعقابك، نَحْنُ نريد أن نكون من الأتقياء، بل نريد أن نكون من أحسن الأتقياء، وَلَا نريد أن نكون أتقياء من الصفّ الأخير، وَبِطَبِيعَةِ الحال هناك أتقياء يتركون كل السيئات ويفعلون كل الخيرات التي يقدرون عليها، فهم أئمة هدى فهم مرجع وقدوة للآخرين، وهناك من هو أقل منهم، نَطْلُبُ أن توفّقنا لنكون من الدرجة العالية جدا ويقتدي بنا الآخرون.

قارنها مع القانع بإيمان وعمل صالح أقل من العادي، ولا يرغب بالتطوّر إيمانيا، حَيْثُ يعلم بوجود درجة أعلى من الإيمان ولكنه لا يرغب أو لا يعمل على الوصول إليها، وبعكسه تماما هُنَاكَ من يرى الدرجة العالية من التقى لدرجة صيرانه إماما في التقى، ويرغب بحصول ذلك معه.

نتذكر الآيات السابقة عن المؤمنين أنهم لا يزنون، وهنا تطلب المرأة المؤمنة أن يكون زوجها في نظرها كَافِياً لها فلا تفكر في الحرام، وكذلك الرجل المؤمن يطلب أن يكون مسرورا بزوجته فلا يزني.

نلاحظ أَنَّ المؤمنين لم يطلبوا مالا ولا ثروة، بل طلبوا السعادة في بيتهم ودائرتهم الصغيرة، لأن قرة العين في المنزل هي أقصى سعادة يمكن أن يحصل عليها الإنسان، وغير ذلك هُوَ فضلة زائدة.

نلاحظ أنهم ليسوا منزوين، وهذا مفهوم مهم جدا، مَا المعنى العملي لكونهم أئمّة للآخرين؟ وما الاستفادة منه؟ الاستفادة معلومة، أَوَّلَا يطلبون أن يكونوا هم أنفسهم صالحين من الدرجة العالية وَيَحْصُلُونَ على أعلى الأجر في الآخرة، وثانيا يطلبون الترقّي إيمانيا لدرجة أن يكون الآخرون تابعين لهم في سلوكهم الإيماني، وبذلك يحصلون على حسنات مما يفعله من اتّخذهم إماما وفعل مثلهم لأنهم مرجعه وقدوته. أمّا المعنى العملي لكونهم أئمة فهو انخراطهم عمليا في تطبيق كامل دينه سبحانه، عَلَى الأقل الأقل يقومون بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتصل حالة الإمامة في أقصاها إلى تولّيهم لإدارة شؤون المسلمين كضمانة لمسار المجتمع على دينه تعالى.

هذا الكلام له دعم قرآني، مَا معنى الآيات التي تأمرنا بولاية المؤمنين إن لم يَتَصَدَّ المؤمنون لتولّي الشؤون؟ ما هو منتشر عموما عن مؤمني الدرجة العالية من المتصوفة والعرفاء والعلماء الصالحين والمؤمنين الصالحين أنهم بحالهم ولا يتعاطون الشأن العام، وَيَتْرُكُونَهُ للآخرين ليترأسوا الناس وبذلك يصير الفسقة والمنافقون نوّابا ووزراء وموظفي المناصب الرفيعة والحسّاسة... هَذَا خطأ فظيع وسبب رئيسي لهلاك أمّة المنتمين لدينه تعالى، أَيُّ قيمة عالية لإيمانهم وصلاحهم إن تقيّد الدين بحالة فردية لا تتخطّى الصوم والصلاة ورخي اللحية والدمغة على الجبين من طول السجود...! وتأليف كتب الشريعة والأخلاق... بدون العمل على تطبيق ما فيهما على المجتمع! أَيُّ دين هذا؟ وما معنى ما فعله أرقى الْمُؤْمِنِينَ من الأنبياء والرسل بالمقارنة مع الذين يسمّون أنفسهم أو يسمّيهم الآخرون بالمؤمنين والصالحين والمتصوفة والعرفاء وأصحاب المقامات... إن لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر وتركوا الشؤون العامّة للمسلمين ليتولّاها الفسقة والمنافقون!

(أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً{75})
{أُولَئِكَ}، المؤمنون الذين بهذه الصفات، {يُجْزَوْنَ}، سيجازيهم سبحانه وَسيعطيهم المقابل على إيمانهم وتقاهم، {الْغُرْفَةَ}، وهي وصف حالة احتواء المكان لهم، وعمليا فهي الإشارة إلى السكن المجهّز بكل ما يحتاجونه ويرغبون به، وطبعا هو في قصور وخيم وعرازيل... الجنّة الخالدة، {بِمَا صَبَرُوا}، بسبب تحمّلهم وتصرفهم عن وعي ودراسة، حَيْثُ لم تفلت شهواتهم وغرائزهم السيئة بل صبروا ولم يرتكبوا المعاصي وبقوا متعلقين بربهم سبحانه وبوعده لهم بالجنة.

هذه النوعية من المؤمنين وبينما هم في الغرفة، {يُلَقَّوْنَ فِيهَا}، فيتلقون في الغرفة، عِنْدَ تلاقيهم مع أحد ما يستقبلهم بـ، {تَحِيَّةً}، كلاما لطيفا يسمعونه حين يلاقون الملائكة(ع) والخدم والحور... وفي الغرفة يلقون، {سَلَامًا}، فيسمعون كلمات تعبّر عن الخلو من أي شيء سيّء ممن يقوله.

لا يوجد هناك في الجنة أي واجب عليهم ليقوموا به، فلا صلاة ولا صوم... ولا يوجد أي شيء حرام أو ممنوع...
وهناك ينزع تعالى من صدورهم الغلّ فكلّهم يحبّون بعضهم البعض، فلن يسمعوا من أي أحد كلاما يزعجهم ولا بأي شكل.

نلاحظ تعبير "الغرفة" فهي بالأصل وصف الاحتواء كالاغتراف، وهذا الاشتقاق بالغرفة هو اسم مكان، وبالنظر لكونه مُوَجَّهاً لبشر فالمقصود به المكان الذي تجهّزه بما تحتاجه لتستريح فيه، وتشير الآية إلى الغرفة في الجنّة كاسم نوع لغرفات كثيرة جدا منتشرة في الجنّة للمؤمنين، في قصورهم وخيامهم وعرازيلهم... راجع في ذلك الآية 20 من سورة الزمر {لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}...، والآية 58 من سورة العنكبوت {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}...

كما تقول عن شخص: هو الرجل. وتقصد أن كل مواصفات الرجولة التامّة المحبوبة موجودة فيه، فالغرفة بتعبير الآية هي الغرفة التي فيها كل المواصفات التامة للغرفة. يعني "أل" التعريف ليست للعهد، فليست لما تعرفه ورأيته من قبل، فليست لغرفة تعرفها الآن، بل لتمام الوصف للمكان بالغرفة بكل ما تحمله كلمة غرفة من معنى، فهو على الامتياز في صفاتها كغرفة، ففيها كل ما هو مرغوب تواجده في غرفة، ومن نوعية عالية.

(خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً{76})
المؤمنون، {خَالِدِينَ فِيهَا}، في تلك الغرف التي في الجنة، فلا هي ستخرب ولا هم سيموتون أو يخرجون منها، ومن عموم كلام القرآن نفهم أنهم يشعرون بهذا الخلود في أنفسهم بما يتمتعون به من صحّة ونشاط وجسد لا يتأذّى... ويرون خلود المكان الذي هم فيه. وهنا في الدنيا تعلم أن أي غرفة ومهما كان تصميمها وموادّ بنائها فهي حتما سيأتي عليها زمان وتخرب، والمعدن يصدأ ويتآكل، والتراب والباطون يتفتّت... مضافاً إليها عوامل البيئة من برودة فَتَقَلُّص وسخونة فَتَمَدُّد... وزلزلة وانزياح للأرض... أمّا هناك في الآخرة فالتصميم للبيئة مختلف والمواد مختلفة... وطبعا هذا لا يعني أن تصميم المكان والغرف وما فيها لن يَتَغَيَّر، فللمؤمنين ما يشاؤون من إجراء تغييرات وتعديلات وتبديلات... ولا تَنْسَ أن المؤمنين لهم روضات كما ورد في الآية 22 من سورة الشورى {...وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ...}، فمن البديهي أنهم ليسوا محبوسين في الغرف بل لهم غرف في بيوت وقصور... في الجنة.

{حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا}، هي مكان ثبات لا سوء فيه، فمن سار كل حياته ووصل إليها بأعماله الحسنة واستقرّ بها، فما أحسنها من مكان للاستقرار للثبات، و{حَسُنَتْ} الجنة، {مُقَامًا}، مكان ليكونوا مفعّلين فيه، فهو مكان إقامة، مكان سكن لتمضية حياتهم فيه، لأنَّ مَن في الجنّة خالد لا يموت ولا يمرض ولا يتعب ولا يسمع فيها ما يزعجه وفيها كل ما يسّره... فما أحسنها من مكان تكون مُفَعَّلاً فيه، تكون حَيًّا نَشِطًا فيه.

هذا التفسير لكلمة {مُقَام} هو على أصل معنى الكلمة، والذي عَمَلِيًّا يشير لاسم مكان تحصل فيه نشاطاتك، وراجع دراسة الآية 125 من سورة البقرة {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى...}.

ننتبه عندما يقول ربنا سبحانه عن جنة الآخرة أنها {حَسُنَتْ} مكانا للعيش الدائم، حيث سبحانه يقول عن الدنيا التي نعيش فيها الآن أنها لعب ولهو، فبالمقارنة مع الآخرة هي لا شيء، وهذا بالرغم من أن ما في الدنيا يسعدنا فِعْلًا ونرغب به، فكيف ستكون الآخرة التي يقول عنها ذو القدرات الفائقة أنها ستكون رائعة ولا مقارنة بين روعتها وبين متاع الدنيا؟

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً{77})
{قُلْ}، أيها الرسول(ع) للمشركين عبر هذا القرآن: {مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي}، ما يجعله تعالى يبالي أو يهتم، فما السبب حتى يلتفت إليكم المسؤول عنكم من مستوى إلهي أيها المشركون، {لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ}؟ لولا إشهاركم إعلانكم، ومعلوم أن المشركين أعلنوا أنه تعالى ليس الإله الواحد الأحد، ولهذا السبب حصل توجيه اهتمام إلهي بما يقولونه ليريهم الهدى.

{فَقَدْ كَذَّبْتُمْ}، لَمْ تؤمنوا بآياته تعالى التي ترونها في خلقكم وخلق السماوات والأرض، ولم تتبعوا سلامة القلب في فكركم ومشاعركم لتوحدوه تعالى حين تفاعلتم مع ما ترونه وتلمسونه فيكم ومن حولكم، وَاخْتَرَعْتُمْ آلهة من أوهامكم وخيالكم، ولم تؤمنوا بما وصلكم عبر رسله سبحانه، وبقيتم على شرككم وعقائدكم التخريفية وشرائعكم الظالمة، {فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا}، ومن سياق الكلام تعلم الإشارة للزوم مجازاتهم بالعذاب، لِأَنَّهُ ضروري كنتيجة لفعلهم ما يعلمون أنه سَيِّئٌ.

من عموم القرآن تعلم أنه تعالى بحلمه وحكمته قرّر أن يرينا الهدى عبر رسله، وحتى لو قرّرنا الكفر، كحالة تعامله تعالى مع إبليس بالحلم "طول البال" وتوضيح الهدى له حين رفض إبليس السجود لآدم(ع)... وهنا الكلام رَدٌّ عن سؤال افتراضي ترى إِشَارَاتٍ له خلال السورة، فلماذا اهتمّ سبحانه بمشركي مكّة ليرسل لهم رسولا يهديهم؟ وَلِمَ اهتم بمشركي العرب؟ ولماذا الاهتمام الإلهي أصلا بكل المشركين في العالم حتى يرسل لهم رسولا من العرب؟...

لا، لا يذهب فكركم للبعيد أيها المشركون وَلَا تعطوا لأنفسكم قيمة عالية على أساس أن رسولا إِلَهِيًّا جاء خِصّيصًا لكم لأنكم مُهِمُّونَ وشأنكم عَالٍ، لا، فهذه طريقته تعالى للتعامل مع الأمور عبر توصيل الهدى للمكلفين باتّباعه، وأنتم لو كان دعاؤكم "إعلانكم إشهاركم" تَوْحِيدِيًّا، لما اهتمّ سبحانه ببعث رسول لهدايتكم للتوحيد، وَسُبْحَانَهُ بحكمته ورأفته وحلمه

يتعامل معكم من هذه الصفات الحسنى الراقية، أمّا أنتم فلا قيمة لكم إن لم تؤمنوا، ولزاما حَتْمًا على حالتكم أن تنالوا عذابا أَلِيمًا خالدا.

سورة الشعراء (26) ص 367
اعتمدت السورة عرض واقع الناس عبر مدخلية ما يشعر به الرسول المكلّف بنقل كلامه تعالى لهم، فهل يوجد مبرر أو أي داعٍ لِيَبْخَعَ نَفْسَهُ لأنهم لم يؤمنوا؟

مِنْ هنا تبدأ السورة بعرض نماذج لأقوام من تاريخ البشرية قاموا بأعمال سيئة جِدًّا على مستوى جماعي وبشكل واضح لا يناقش أي عاقل في سوء ما فعلوه، وإذا ناقشت في واحدة منها مُعْتَرِضًا على أنها ليست سيئة لسبب أو لآخر، فهذا يرجع إلى مرض وفساد في القلب، ولكن حَتْمًا سترى السوء في الأخرى.. ومن هذه النماذج ترى بوضوح أن العطل فيمن لا يريد أن يؤمن وليس فيما يعرضه تعالى عليهم عبر رسله وكتبه من حقّ وصلاح.

بَدَأَتْ بنموذج وقوف النبي موسى(ع) أمام فرعون عصره وملئه وهم أعتى نموذج في تاريخ البشرية، وبعده بنموذج النبي إِبْرَاهِيمَ(ع) الذي عبد قومه مختلف أنواع الآلهة الواضح أنها وهمية، وبعدها تنتقل لنماذج أخرى وتنتقل السورة فَوْرًا إِلَى مشهد من الآخرة لترينا ضعفهم الشديد والذي أَيْضًا لا مقارنة بينه وبين موقف ضعف الرسل أمامهم في الدنيا...

فِي آخرها تعود السورة لافتتاحيتها التي أشارت لمن كفر بهذا القرآن الذي يعرض علينا الحقّ وفعل الصالحات وترك السوء.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(طسم{1})
هذه حروفٌ نتهجّاها مقطّعةً هكذا: طا سين ميم.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوَّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوِّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ{2})
{تِلْكَ آيَاتُ}، الطاء والسين والميم، هذه الأحرف النموذج عن بقية أحرف لغة من لغات البشر بما لها من علاقة بالكتاب الرئيسي بسبب تحوّل قسم منه إلى اللغة العربية ليصير مُتَاحًا لكم أيها الناس قراءته، وَهِيَ آيات وَهِيَ نماذج مميزة موجودة في {الْكِتَابِ الْمُبِينِ}، الواضح، لَيْسَ فيه أي اختلاط في معلوماته أو نقص أو تشابه أو مبالغة أو كذب. طَبْعًا هذا خبر عن نظرته تعالى لذلك الكتاب، وأما بالنسبة لنا فلا قدرة لنا أَصْلًا على الاطلاع المباشر على ذلك الكتاب، تُرِيدُنَا الآية أَنْ نفهم أن ما يصلنا من قرآن أَنَّ منبعه كتاب مبين كتاب واضح جِدًّا وكلّه صحيح، ونلمس ذلك بقراءة القسم الذي تحوّل منه لقرآن بما فيه من كلام حقّ مبين.

ضع هذا في بالك حَيْثُ فِي آخر فقرة من السورة سترى كَلَامًا قاله الكافرون عن القرآن أنه من تنزيل الشياطين على محمّد(ع)، وَمَا بين الجملة هنا وبين تلك الفقرة سيمرّ عليك سرد فقرات تاريخية من نظرة دينية تعرض دينه تعالى المعروض على الناس عبر رسله تعالى، وترى فيها أُمُورًا سيئة جِدًّا جِدًّا يرى سوءها أي عاقل، فَعَلَهَا أقوام مُخَالِفُونَ لدينه تعالى، فكيف يكون هذا الكلام العقلاني الحقّ المعارض للأفعال السيئة، شَيْطَانِيًّا! وما تفسيرهم لقيام الشياطين بنقل كلام عقلاني مضادّ للسوء! والأهم من ذلك هو تشبيه كفرهم بهذا القرآن المبين الواضح جِدًّا أنه من مصدر إلهي، تشبيه هذا الكفر بالقرآن بالسوء الواضح جِدًّا الذي مارسته الأقوام التي ذكرتها السورة.

تذكّر دَائِمًا أن القرآن استعمل مِرَارًا كلمة مبين كمرادف مشابه كَثِيرًا لكلمة واضح كما نستعملها في كلامنا الدارج، ولم يستعمل كلمة "واضح" أو مشتقاتها ولا مَرَّةً، ووصف ذلك الكتاب "الرئيسي" أنه مبين والقرآن منه فهو مبين أَيْضًا كما تقرأ في الآية 15 من سورة المائدة {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ}، وَهَذَا لا يَعْنِي أننا يمكننا فهم كل هذا القرآن من دون تمعّن أو دراسة، لِأَنَّ هذا ليس من المعاني التي يقصدها الوصف للقرآن بالمبين.

قارنها مع كتب ابتدائية ومتوسطة وثانوية وجامعية ومراجع، فسبحانه جمع في هذا القرآن كل هذه الصفات مُحَافِظًا في نفس الوقت على دقّة ومتانة المعاني والعبارة، حتى يكون القرآن في أساسيات أساسياته سَهْلًا على فهم أبسط مستويات الفهم الإنساني، وَمُتَدَرِّجًا في عمق المعاني لدرجة الحاجة لدراسته لفهمه، فهو مبين لا على معنى بساطة ركاكة العبارة السهلة الفهم، كما هو حال دراستنا هذه القاصدة لتبسيط معانيه اضْطِرَارِيًّا بعبارات سهلة تصل إلى حدّ الركاكة اللغوية والتعبيرية، لِأَنَّ هذا القرآن كتاب إلهي بطريقة صياغته باللغة العربية يدلّ لوحده على تأليفه بقدرة إلهية فائقة تستطيع استعمال لغتنا بما يفوق قدرتنا على ضبطه من الدقة باختيار كلمات ذات معنى دقيق... ويفوق قدرتنا على تركيب الجمل بصياغة دقيقة... ويطرح مَعَانِيَ ومفاهيم دقيقة في الحقّ والصلاح...

(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ{3})
{لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ}، هل تعتقد أنه من المفروض أيها النبي محمد(ع) بعد كفرهم بالقرآن الذي من مصدر إلهي أن تقع تحت شعور فقدان القدرة والإرادة على فعل أي شيء لتغييرهم عن سوء معتقداتهم وأفعالهم، أَلَّا يكونوا مؤمنين، فتبخع نفسك لأنهم لا يعتقدون بك كرسول ولا يعتقدون بدينك ولا بالقرآن النازل عليك.

البخع هو حصول الشيء بالإكراه الخارج عن الإرادة أو ناتج عن تعطيل الإرادة، فَقَهْرًا تعطي معنى فرض الإرادة وفقدان القدرة على ردّها، وَ"الْبَخْعُ" تعطي معنى التماشي قَهْرًا لأن إرادة الرفض مفقودة، والسؤال هنا: هل من المفروض أن تشعر بفقدان الإرادة قَهْرًا على جعلهم مؤمنين؟ فتشعر أنك مقيّد أو عاجز أو ضعيف... أمام شيء تريد حصوله وَقَهْرًا بسبب عنادهم لم تستطع جعلهم مؤمنين؟

نحن في حياتنا العادية كبشر، من الطبيعي أن نصير في حالة "الانبخاع" عندما يرفض الناس كلامنا أو يُعَارِضُونَنَا أو يُكَذِّبُونَنَا ونفقد القدرة على إقناعهم... والآية هنا تنبّه الرسول(ع) بأن المشركين إن لم يكونوا مؤمنين بما تقوله فهل من المفروض أن تكون مَبْخُوعًا! فهل تعتقد أن هذا الشعور "بالانبخاع" طبيعي، فالشعور بأمور سيّئة كالأسف عليهم أو

الشعور بأن إيمانهم من مسؤوليتك وأنت فشلت في ذلك... فهل يجب أن يصيبك هذا الشعور أو تكون هذه حالتك لأنهم لم يؤمنوا؟

هذا مدخل السورة على عرض موضوع سوء ما يفعله المكذبون للرسول، حيث بالأساس هناك قرآن من مصدر إلهي، وفيه كل الحقّ والخير، فماذا يعني الكفر بالقرآن غير إرادة الباطل وفعل السوء؟ فسوء الكفر بالقرآن بأنه من مصدر إلهي والكفر بما فيه من حقّ وصلاح فهو نفسه مثل أي سوء فعله أقوام سابقون ونالوا نصيبهم من العذاب الإلهي... وهذا محور السورة، أمّا الافتتاحية عن الانبخاع فَهِيَ تنبيه من الاستغراق في مشكلة بشكل يجعل الواقع فيها لا يرى أبعد مما هو فيه، فسترى السورة تعرض نماذج من قصص رسل سابقين تعرّضوا لمضايقات غير عادية من قومهم الَّذِينَ فعلوا سُوءًا لا يناقش عاقل في فظاعة سوئه، وسترى نتيجتهم هنا في الدنيا وفي الآخرة... وسنفهم أن ما يبدو كمشكلة في نظر "النموذج" الرسول الناقل لكلامه تعالى عبر هذا القرآن للناس، فتكذيبهم له وللقرآن هو شيء سيّء، ولكنه ليس شيئا جديدا حَيْثُ حصل الكثير مثله سابقا، وتحمّل الناس نتائج خياراتهم...

بقي شيء، كلمة "بخع" وردت مرتين في القرآن هنا وفي الآية 6 من سورة الكهف، وفي عموم التفاسير حملوها على معنى قتل النفس قَهْرًا، وهذا ليس المعنى المباشر للكلمة بل من تطبيقاتها الاشتقاقية، ففي كلام العرب في بداية الْإِسْلَامِ وفي عموم أشعار العرب بعد الْإِسْلَامِ "لم أجدها فيما لدي من مصادر في الشعر قبل الْإِسْلَامِ"، فهي تعني: إِرَادَةُ الرفض مفقودة بأقصى أشكالها فسيحصل شيء بليغ ولا يمكن مقاومته. وتختلف عن القهر بأن المقهور لا قدرة له على ردّ ما فُرِضَ عليه مع وجود إرادة رفض، أمّا البخع فلا توجد إرادة رفض لأن القبول من الطرف الآخر ولا قدرة للمبخوع على فعل أي شيء. وبهذا المعنى الأساسي ينطبق البخع على استعمالات كثيرة من اشتقاقات التطبيق، كبخع الذبيحة الذي يعني وصول سكين الذبح إلى قفا الرقبة، بخع الناس بالسلطة، بخع النفس بالقتل، بالأسف، بالحزن، بالتماشي مع ما يقوله الآخرون... وصولا إِلَى المعنى الدارج للبخع حين لا يتماشى الآخرون مع ما تقوله لهم وَيَصُدُّونَكَ فيمشي ما أرادوه ولا يمشي ما أردته لهم...

ما تعرضه السورة تقريبا من حيث المبدأ هو مثل حالة الواقع في ضائقة مالية... المهموم... المستغرق في مشاكله اليائس من الحلول... وكأنه أوّل من يتعرّض لهذه المشاكل في الدنيا... ولو خرج بنظره إلى التاريخ لعلم أن غيره الكثيرين مرّوا بظروف أصعب من ظروفه وَتَجَاوَزُوهَا... واستمرّت حياتهم... فالتركيز على إيجاد مبلغ كبير من المال لحلّ الأزمة ليس دائما هو الحلّ، وَعَادَةً الْأَزَمَاتُ المالية لا تنتهي بتأمين مبالغ مالية تسد العجز، حَيْثُ ترى أن الأمور تماشت مع الأيام واستمرت الحياة، ومن استوعب الأزمة فهذا يتعايش مع الظروف ويخرج نفسيا منها ويكمل حياته... والكثيرون تراهم تمشي حياتهم غَصْبًا عنهم وهم مصرون على العيش في حالة الأزمة ويقضون السنين ويموتون وهم لم يخرجوا نفسيا منها! علما أن الحياة مشت على الحالتين، فالمكروب المنزعج مشت حياته... والذي استوعب الأمور وخرج مرتاحا نفسيا منها أيضا مشت حياته.

هذا الكلام هو جانب مما تقصده السورة هنا بكلامها مع النموذج الرسول محمّد(ع) كرجل يقوم بتوصيل كلامه تعالى إلى الناس، وَيُعَارِضُونَهُ وَيُكَذِّبُونَهُ... علما أن تركيزها الأساسي على سوء ما يفعله المشركون والذي يبدو واضحا جدا لأي عاقل رزين، فما الداعي لتبخع نفسك بسببهم؟... على كلّ حال، فلو كنت أنا مكانه (ع) وأعلم يقينا بالعقاب الأليم الخالد لمن كفر... لشعرت بأني مبخوع بما أني أعرض على الناس ما فيه مصلحتهم ونجاتهم من عقاب خالد بينما هم يَسْتَهْزِئُونَ بي وبكلامي، فتأتي السورة بنماذج من التاريخ عن رسل تعرّضوا للمعاناة بأشكال مختلفة لترينا نظرته تعالى للأمور، وكيفية تعامله تعالى معها، وذلك حتى لا نجعل تبليغ دينه تعالى أمرا شخصيا من الشؤون الخاصة بنا وكأننا نحن أصحاب الدين، وحتى نرى أن الأمور مشت واستمرت الحياة وتجاوزت حالة الذي كفر مكذّبا... وجاء بعدهم رسول وكفر قومه... وبعده وبعده...

سترى في القصص التي ستعرضها السورة تركيزا على صلابة موقف الرسل، وتحدّيهم للصعاب في ظروف من أشدّ ما يكون أمام أقوام يرتكبون سُوءًا واضحا... والآية التالية تختصر كل الموضوع بأنه تعالى لو أراد لمنع الكافرين غَصْبًا عنهم وقهرا بالقوّة أَلَّا يقدروا على بخع رسوله، فيمكنه تعالى إجبارهم على الالتزام بدينه غَصْبًا عنهم... ولكن لا حكمة من ذلك...

إذَنْ، لا داعي للانبخاع وليس من المفروض الانبخاع إن لم يؤمنوا، ففقط بلّغهم كلامه تعالى ولا تهتمّ بكفرهم، لأن ما يفعلونه سيّء واضح وهم مصرّون عليه رغم وضوحه، فهذا قرارهم واختيارهم وسيتحملون نتائجه السيّئة.

(إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ{4})
أنت أيها الرسول(ع) تحمل رسالة الإله لهم، طَبْعًا كلّها كلام حقّ وصلاح، وإن افترضت أنك يجب أن تنبخع لتكذيبهم لك، فمرجع رسالتك للإله، وحين يكفرون هَلْ هم يبخعونه عزّ وجلّ؟ انتبه أنه لا داعي لهذا الشعور، ولا معنى له أصْلًا:

{إِنْ نَشَأْ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة ولو قرّر سبحانه، {نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً}، شيء مميّز من عنده تعالى ينزل عليهم، {فَظَلَّتْ}، دَاوَمَتْ، {أَعْنَاقُهُمْ لَهَا}، للآية، {خَاضِعِينَ}، منقادين فلا يمكنهم الكفر بك كرسول ولا برسالتك. كما نقول نحن: رغم أنفك، غَصْبًا عن رقبتك... وَغَصْبًا عنهم تبقى الآية الشيء المميز الَّذِي يجبرهم على إعلان إيمانهم وفعلهم الصالحات غَصْبًا عنهم ولا يَتَجَرَّؤُونَ على الكفر وفعل السوء.

العنق هو عموم ما كان ضَيِّقًا وقبله اتساع، وفي الإنسان هو ما تطاول من الوصلة بين الرأس والجسد، وبالعامية نسميها رقبة.

لنفترض أنه سبحانه أمر الحجارة أن تطير وتضرب كل من يكفر أو يفعل السوء، أو يسقط حجر بقربه كإنذار، وفي المرّة الثانية يضربه الحجر ويؤذيه أو يقتله، وَالْبَقِيَّةُ سيسكتون بل لن يَتَجَرَّؤُوا على الكفر أو فعل السوء مرة ثانية. أو لِنَفْتَرِضَ أنه سبحانه أمر الهواء أن ينقطع عن الشخص الذي يفعل السوء، وَهَذَا سيتوب فَوْرًا حين ينقطع نفسه وإذا كرّر فعلته فسينقطع نفسه وهكذا... وهنا الآية تركت التصوّر مَفْتُوحًا لما يمكنه تعالى فعله بهم حتى يلتزموا بالحقّ غَصْبًا عنهم...

لكن هذا شيء لن يفعله سبحانه، وَلَنْ يجعل الناس يخضعون بهذه الطريقة ليتوقفوا عن السوء بالرغم من قدرته تعالى على فعل ذلك.

إذًا، أنت عاجز عن جعلهم مؤمنين ولعلك باخع نفسك لهذا، فهل الذي أرسلك عاجز عن جعلهم مؤمنين؟ فَالْتَفِتْ إِلَى أن من كلّفك بنقل الكلام الحقّ إليهم يُمْكِنُهُ جعلهم غَصْبًا عنهم تابعين لأوامره تعالى.

هناك آيات قالت إِنَّهُ تعالى يمكنه لو أراد لَجَعَلَ الجميع مؤمنين غَصْبًا عنهم، وهذا يتضمّن فيما يتضمّن أن يجعلنا سبحانه مبرمجين غَصْبًا عنّا على الإيمان، راجع كمثال الآية 99 من سورة يونس {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}، ولكن الآية هنا لا تشير لذلك بل تتحدّث عن الخضوع، عن إجبارهم غَصْبًا عنهم أَلَّا يَتَجَرَّؤُوا على مخالفة دينه تعالى حتى لو من داخلهم كانوا رافضين كافرين، فهي على معنى: بخعوك، فيمكننا أن نبخعهم غَصْبًا عنهم لترك السوء وبالتالي نجعلهم لا يَتَجَرَّؤُونَ على بخعك. ولكن لم يشء سبحانه ذلك، وأجّل عقابهم الشديد على كفرهم إلى الآخرة... وفي الدنيا حصلت نماذج من مشيئته تعالى لتعذيب بعض الأقوام على سوء ما فعلوه وستتكلم عنهم السورة...

(وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ{5})
هَؤُلَاءِ الكفار:

{مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ}، مهما جاء للكافرين بالقرآن من شيء يجعلهم يستحضرون في فكرهم ومشاعرهم الذي يعتني بعباده لما فيه مصلحتهم، مَهْمَا جاءهم من ذكر، {مُحْدَثٍ}، جديد يأتي مدّة بعد مدّة للناس، {إِلَّا كَانُوا عَنْهُ}، عن الذكر، {مُعْرِضِينَ}، فلا يهتمون به!

من ناحية هناك الإله الموصوف بالعناية بعموم مخلوقاته، حَيْثُ يَهْدِيهِمْ للحقّ والخير وهو نفسه لما فيه منفعتهم ومصلحتهم... ويأتيهم بما يجعلهم يستحضرونه تعالى في فكرهم ونفسيتهم وعملهم ليكونوا مؤمنين صالحين... وهناك من يكفر ويعرض عن ذكره تعالى!

الكفّار في نظره تعالى كلّهم جبلة واحدة، من أول كافر إلى آخرهم وَكُلُّهُمْ مجموعة واحدة، وَكُلَّمَا جاء ذكر لهم فَهُمْ يعرضون عنه، وَالْكُفَّارُ الذين في عصرك أيها الرسول والذين تفترض أنك يجب أن تكون مَبْخُوعًا بسبب إعراضهم عن ذكر ربّهم، فَهَذَا ليس شَيْئًا جَدِيدًا من هذه النوعية من الناس، بل هو ممتد في التاريخ كما سترى من نبذات القصص القصيرة التي ستذكرها السورة.

كما ترى، الآية تشير إلى الرسول محمّد(ع) وإلى القرآن بأنهما الذكر المحدث بعد قيام العديد من الرسل عبر التاريخ بتذكير الناس... ذِكْرٌ عبر رسول، وبعده ذكر محدث أي من جديد ذكر إلهي للناس مع رسول جديد...

(فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون{6})
{فَقَدْ كَذَّبُوا}، الكفارُ الحاليون لم يصدّقوا بالرسول(ع) وبالقرآن، والذين من قبلهم كذّبوا بالرسل والآيات... فلم يعتبروها صادقة، {فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، حيث نبّأهم تعالى فأخبرهم عن شيء علمه غير منتشر بينهم، وهو الخبر عن الآخرة والعقاب فيها، فاستهزَؤُوا، فتعاملوا مع هذا الكلام بخلفية الاستخفاف والاستهانة فاعتبروه بلا قيمة واستهانوا به، وهو نفسه هذا الكلام سيأتيهم نبَؤُهُ. مثلما أُنَبِّئُكَ أَنَّ العاصفة حتماً قادمة، فتستهزِئُ، ولكن نبأ العاصفة سيأتيك وتصير فيه، وهؤلاء، نبأُ العذاب الإلهي الذي استهزَؤُوا به سيأتيهم ويصيرون فيه، فسيتعذّبون.

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ{7})
{أَوَلَمْ يَرَوْا}، ألم تحصل لديهم صورة محدّدة كما نقول بالعامية: ما شافوا، ما التفتوا. {إِلَى الْأَرْضِ}، التي تحتهم وحولهم، {كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا}، كم من نوع جعلناه ينمو ويكبر في الأرض، {مِنْ كُلِّ زَوْجٍ}، من كل صنف ونوع، {كَرِيمٍ}، له قيمة عالية، فأيُّ نبتة هي مخلوق مصنوع حي، وله قيمة عالية في مقابل الأشياء غير الموجودة، أو الأشياء التي لا حياة فيها. فهل هذه القيمة العالية، هذه الحياة، هذا التصميم واللون والشكل والنمو والإزهار... هل هكذا لوحده يحصل؟! هكذا من لا شيء يصير في المواد حياة وتنمو وتكبر منها كائنات! لا، بل هناك إله صمّمها وصمّم بيئتها وجعلها تنبت.

إذًا، حين يقول سبحانه لكم بأنه يوجد يوم نُنَبِّئُكُمْ فيه بما عملتم، فَنُحَاسِبُكُمْ على السوء، ولا تصدِّقون، فالتفتوا إلى أبسط شيء حولكم ومنتشر بشكل كثيف جداً جداً، التفتوا إلى النبات المتنوّع، حيث أَنْبَتَهُ سبحانه وهذا نموذج يريكم عموم قدراته سبحانه، ويريكم متابعته للسماوات والأرض حتى يحصل في الأرض نمو للنبات... وهكذا ترون أنه وبكل سهولة سَيُنْبِتُكُمْ سبحانه في الآخرة.

نَنْتَبِهُ للفرق بين تصنيفك الشخصي أنت للنبات، والتصنيف الحقيقي، ربما تقول: توجد نباتات مضرّة لنا تمرضنا وتقتلنا، ونباتات تضر بزرعنا... وأنَّ النبات الذي يتم استخراج المخدرات منه فكيف يوصف بأنه كريم؟ فانتبه بأن الآية لا تتحدث عن الاستخدام للنبات بل تتحدث عن قدرة ربنا سبحانه على إخراج الحياة من الأرض الميتة التي تشبه إخراجنا نحن مرة ثانية إلى الحياة كما ورد في الآية 17 من سورة نوح {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}، وبهذه النظرة للحياة فكل النبات كريم أي له قيمة.

على كلّ حال، من القرآن نعلم بأن كلّ شيء خَلَقَهُ تعالى بحكمة، حتى لو كان أي شيء بالنسبة لك سيئاً مضرّاً، فهذا تصنيفك أنت من منظورك أنت إذا لم تعرف الاستفادة منه، ولكن بالنظرة الإلهية الشاملة كلُّ شيء وراءه حكمة إلهية من خلقه، حيث هناك نباتات مضرة بسمّيتها وأذيتها وتخديرها للعقل... وفي زمن ما كان الحكم عليها بأنها بلا فائدة وكلّها ضرر، ومع الوقت تغيّرت نظرتنا لهذه النباتات واستخرجنا منها أدوية البنج أو التخدير وأدوية معالجة الاكتئاب والالتهابات...

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ{8})
{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، في خروج الأنواع المختلفة من النبات من الأرض، {لَآيَةً}، هو شيء مميّز بدلالته على قدرته تعالى على وهب الحياة للكائنات، هو دليل على قدرته تعالى على إخراجنا من الأرض مرة ثانية. {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ}، فالغالبية الساحقة منهم ليسوا معتقدين مصدّقين بهذه الآية الواضحة.

من الآية 7 من سورة يس {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}، فهمنا أنه سبحانه عندما خلقهم، من الأساسِ كان سبحانه يعلم أنَّ الأكثرية لن تؤمن، وصَدَقَ علمه تعالى.

حسناً، هل نفهم بكل سهولة أن الحديث هنا عن آية الإنبات يشير فيما يشير إلى بعثهم من الموت لإنبائهم بأعمالهم؟ إذا درست القرآن لوجدته اسْتَشْهَدَ عدّة مرات بإنبات النبات على قدرته تعالى بكل سهولة على إنبات البشر مرّة ثانية في الآخرة، وأوّل شيء مترسّخ في عقل الكافر أنه لا يوجد سبب يجعله يؤمن بالرسول ورسالته لأنه أصلاً لا يؤمن بالآخرة، بالبعث بعد الموت، فلماذا سيقيّد نفسه بما يقوله الرسول! وهذا شيء كرّره القرآن كثيراً، والجملة هنا لم تقل ذلك، ولكن بتأمّل قليل عن سبب قولها سترى أن لفت الانتباه لخلق النبات يشير لنموذج من قدراته تعالى، وهو نفسه يشير لقدرته تعالى على إعادة خلقنا، وبالتالي محاسبتنا... وهذا هو موضوع الكلام هنا.

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ{9})
{وَإِنَّ رَبَّكَ}، وإنَّ المسؤول عنك من مستوى إلهي، أيها الرسول (ع) "وأيها المؤمن"، {لَهُوَ الْعَزِيزُ}، هو الموصوف بكل ما تحمله كلمة عزيز من معنى، والعزيز وصف لنفي عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... فلا تبخع نفسك أيها الرسول(ع) فربّك عزيز لا يتأثّر أصلاً حتى لو كفرت كلّ المخلوقات، وعزيز حيث يمكنه فعل ما يريد، ويمكنه تعالى جعلهم مؤمنين غصباً عنهم ويمكنه إعادة إحيائهم لمحاسبتهم، ويمكنه تعذيبهم هنا أو في الآخرة...

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ}، {الرَّحِيمُ}، الموصوف بالعناية الخاصّة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم بكل ما تحمله كلمة رحمة من معنى، حيث يخاطبهم بهذا القرآن حتى يؤمنوا وبعدها يفوزوا بالجنة، في مقابل الأكثرية التي بسوء فعلها أخرجت نفسها من رحمته تعالى.

انتبه أيها السامع للقرآن، اهتمامه تعالى بالناس ليهديهم ليس نابعاً من حاجته لهم، فهو العزيز سبحانه لا يستفيد ولا يتضرر منهم بأي شيء، والسبب لاهتمامه تعالى بالناس ليبعث لهم رسولاً، أن بينهم من سيؤمن وسبحانه رحيم بالمؤمنين حيث يُؤَمِّنُ لهم ما يساعدهم على الاهتداء.

تذكّر دائماً أن للربوبية معنًى متدرّجاً، فأنا ربّ بيتي، وزوجتي ربّة منزل، وذاك رب العمل... فهذه الربوبية المسؤولية عن الآخرين تكون على قياس الموصوف بها، وسبحانه ربّنا فهو المسؤول عنّا ولكن من مستوى إلهي.

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{10})
من هنا تبدأ السورة بعرض نموذج من التاريخ عن رسول كان يبدو موقفه ضعيفاً جداً، وتزوّد بآيات عديدة تفوق ما تزوّد به الرسل الآخرون بحسب ما نفهم من القرآن، وواجه قوما يفعلون سوءاً واضحاً لا يناقش عاقل رزين بسوئه، ولم يؤمنوا به... فتعامل معهم تعالى بما يناسب... ومرّت تلك الحادثة وصارت من التاريخ... فهل لو شعر ذاك الرسول بالانبخاع في حينها فهل لشعوره هذا أي معنى؟ فلنتابع:

{وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى}، توجّه المسؤول عنك من مستوى إلهي بكلام إلى شخص محدّد اسمه موسى(ع)، ومن المشهور أنه (ع) صار موظَّفاً كرسول إلهي من بعد هذا الكلام معه(ع):

{أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ}، كن بين الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع شيء، {الظَّالِمِينَ}، الذين لم يكونوا عادلين منصفين، حيث أشركوا واخترعوا ديناً سيئاً واستضعفوا الناس... ولم يكن معهم حقّ في كل ذلك. وسيأتيك في الآيات التالية كلام عن سوء ما فعلوه.

(قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ{11})
القومُ الظالمون هم، {قَوْمَ فِرْعَوْنَ}، الناس الذين ينتمي فرعون لجماعتهم.

{أَلَا يَتَّقُونَ} ؟ ألا يتحاشون ويتجنبون؟ والسؤال عمومي، فما معنى حالتهم وهم ظالمون؟ ألا يميّزون بين الحقّ والباطل والخير والشرّ؟ حيث كفروا واستعلوا واستكبروا... فهل هذه الأعمال السيئة بحاجة لبرهنة على سوئها ليتوقّفوا عنها؟ فاذهب إليهم واسألهم إلى أين هم ذاهبون؟ فهل يعتقدون أن ربهم سيتركهم ولن يعاقبهم في الآخرة؟

نعلمُ من آيات عديدة منتشرة في القرآن أن هذا الخطاب الإلهي مع الرسول موسى(ع) جرى في الوادي المقدّس طوى كما نقرأ في الآية 16 من سورة النازعات "إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى"، والمشهور أنه في منطقة سيناء. وتعلم أن فرعون كان لقباً لأعلى حاكم في بعض فترات تاريخ مصر، كلقب قيصر عند الرومان ولقب كسرى عند الفرس ولقب ملك عند العرب...

ضَعْ في بالك دائماً أنَّ القرآن ذكر النموذج فرعون الذي كان على عهد النبي موسى(ع) كأعتى نموذج عبر التاريخ، ففي عصرنا توجد حكومات لديها أسلحة فتاكة "نووية وعابرة للقارات..." أشدّ مما كان لدى فرعون، ولديهم مال وجنود أكثر مما كان لديه، ولكن بالقياس مع المجتمعات التي عاصرت فرعون حيث كان جبَّاراً عليهم بشكل فائق، وأضف إليه أنه كان رجلاً لا يسايس ولا يراعي إلا مصالحه المباشرة، وما يقوله هو القانون، ويكفيك أنه اعتبر نفسه إلهاً كما تقرأ في الآية 38 من سورة القصص "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي..."، ومن هنا تصوّر مدى تجبّره وتكبّره وعلوّه كديكتاتور مع جنون العظمة، فمن هذه الناحية هو فعلاً أعتى شخص في تاريخ البشرية، حيث فيه كل صفات الطغيان والإجرام بشكلها الأقصى. وقومه عصابة حاكمة بعنصرية على الأقوام المفروضة عليهم السلطة، فتصورها مثلاً كحالة المهاجرين إلى بلد أجنبي حيث تتم معاملتهم بازدراء ودونية... الآن وبعد هذه الصورة عن فرعون ترى مدى صعوبة مهمّة النبي موسى(ع).

لمزيدٍ من التفاصيل حول تحديد الفرعون الذي عاصره النبي موسى(ع) فراجع دراسة أي آية ورد فيها ذكر هامان، كالآية 6 من سورة القصص.

(قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ{12})
{قَالَ}، النبي موسى(ع):

{رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ}، أشعرُ بشيء سيءٍ لأنهم بالتأكيد سيكذبونني حين أقول لهم أنك أرسلتني. وعندها:

(وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ{13})
وعندما يُكَذِّبُونَنِي، {يَضِيقُ صَدْرِي}، يكون تفاعلي مع تكذيبهم لي غير مرن، أشعرُ بأني لست مرتاحاً، وعندها، {وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي}، تخونني العبارات ولا أتمكّن من التعبير عمّا أريد قوله بشكل صحيح، {فَأَرْسِلْ إِلَى}، أخي، {هَارُونَ}، أرسِلْ إليه أنك كلّفته بمساعدتي، ليتكلم هو بدلاً عني عندما أشعر بالضيق، لأنَّ أخي هارون(ع) أفصح مني لساناً كما ورد في الآية 34 من سورة القصص فهو يعبّر بالكلام بطريقة جيدة أفضل منّي "وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ".

لاحِظِ الآيات في سورة طه أعطت نفس المعاني التي ذكرتها الآية هنا بطريقة تعبير مختلفة، هنا {يَضِيقُ صَدْرِي} وتكملتها: {اشْرَحْ لِي صَدْرِي}. {وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي} وتكملتها: {وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي}. {فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ} حتى يتكلّم بدلاً عنّي حين لا ينطلق لساني.

القرآن لم ينقل الكلام بالحرف كترجمة من لغة النبي موسى(ع) إلى العربية، ولا حتى أي محاورة أخرى نقلها كترجمة حرفية، بل اعتمد نقل ما يقصد القائل قوله، حيث نقل فحوى المقصود من الكلام، وكان التركيز في كلّ سورة على جانب من المقصود من الكلام بما يناسب موضوع السورة.

بمراجعة ما ذكره القرآن عن الحوادث التي جرت مع النبي موسى(ع) سترى أن طلبه (ع) لتوزير أخيه هارون(ع) لم يكن له أي أثر فعلي في التأثير على الأحداث المهمّة، وسترى أنه تعالى استجاب لهذا الطلب مع علمه سبحانه بأنه لا

منفعة أساسية مؤثّرة منه فيما يخصّ الأحداث الأساسية التي ستجري... ويبدو من نقل القرآن لهذا الطلب وغيره أنَّ النبي موسى(ع) مدركٌ لخطورة المواجهة مع فرعون الجبّار العنيد "الديكتاتور المجنون بالعظمة"... ويحاول (ع) الإحاطة بكل ما يمكن أن يفيده لهذه المواجهة.

هناك شيء مُلْفِتٌ في الكلام المنقول عن أول كلام بينه تعالى وبين الرسول موسى(ع)، حيث تلاحظُ سرعة بديهة بتجميع الأفكار عن توقّعه (ع) ما سيحدث، وطلبه العون منه تعالى فيما يراه سيسهّل المهمة المستحيلة، حيث يستعيدُ عرض وقائع الحال من معوقات يعلمها ويطلب منه تعالى المساعدة لتذليلها... وبالتحليل لهذا نرى أنه (ع) من قبل كلامه تعالى معه كان يفكّر في حلّ لبني إسرائيل...

(وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ{14})
ويا رب: {لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ}، فعلت شيئاً يستحق العقاب عندهم، ومن المشهور أنه (ع) قتل واحداً من جنود فرعون، حيث نقل القرآن الحادثة في الآية 15 من سورة القصص "... فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ..."، {فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ}، عندي شعور أكيد بأنهم سينهون حياتي بسبب قتلي لواحد منهم.

قصة قتل ذلك الرجل كما ذكرها القرآن في سورة القصص، أنَّ النبي موسى(ع) كان يتجول في المنطقة التي كان يسكنها بنو إسرائيل، فاعتدى شخص من رجال فرعون على شخص من بني إسرائيل، وكان ينوي ضربه بشدة أو حتى قتله، فتدخل النبي موسى(ع) وضرب رجل فرعون ضربة قوية، ومات الرجل من تلك الضربة...

على إثر تلك الحادثة أمر فرعون رجاله بإلقاء القبض على النبي موسى(ع) لمحاسبته وقتله، فهرب النبي(ع) وذهب إلى مدينة مدين، وبقي فيها لمدة عشر سنوات "أو ثمانٍ، راجع الآية 27 من سورة القصص"، وبعد رجوعه من مدين حصل هذا الكلام الإلهي معه.

(قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ{15})
{قَالَ}، ربنا سبحانه لنبيه(ع):

{كَلَّا}، ننفي ما تقوله فلن يقتلوك.

{فَاذْهَبَا}، أنت وأخوك هارون(ع)، {بِآيَاتِنَا}، بالأمور المميزة التي تدلّ على أنكما رسولان من الإله سبحانه، وهي العصا التي تتحول لثعبان، واليد التي تصير بيضاء.

{إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ}، فنسمع ماذا يحصل بينكما وبين فرعون وقومه، يعني سبحانه يتابع معكما ولن يسمح لفرعون بقتلكما.

(فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ{16})
{فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ}، فاحضرا عنده، {فَقُولَا}، له: {إِنَّا}، نحن الاثنان، {رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، ناقلان لكلام المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس، فليس رباً لبني إسرائيل فقط بل ربّ كل الناس.

(أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ{17})
الرسالة الموجّهة لك تقول:

{أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا}، أطلق واترك، {بَنِي إِسْرَائِيلَ}، يرحلون معنا ويغادرون مصر.

لا ننسى أن فرعون كان بشكل ما استعبد بني إسرائيل جاعلاً منهم مواطنين من الدرجة الثانية وأباح لنفسه قتلهم بأحكام مزاجية عبثية تصدر منه...

بنو إسرائيل هم أبناء أبناء... النبي يعقوب(ع) الذي له اسم "يعقوب" ولقب "إسرائيل"، والنبي يوسف ابن النبي يعقوب(ع) وهو الذي أحضر إخوته وأبناءهم إلى مصر بعدما أعلن ملك مصر في حينها إيمانه بالله الواحد، وراجع في ذلك الآية 93 من سورة يوسف {اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ}.

من المعروف من التاريخ أنه بعد موت النبي يوسف(ع) حصل تغيّر في الحكم في مصر، من حكم الملوك إلى حكم الفراعنة، وعاد حكم الفراعنة الذين يعبدون الأصنام ويعتبرون أنفسهم آلهة، وأولئك الفراعنة اعتبروا عموم الأقوام الأخرى أقل منهم، وعاملوا بني إسرائيل كساكنين "مواطنين" من الدرجة الثانية بالنسبة لقوم فرعون من ناحية الحقوق والواجبات، وهذا رغم ما تعرفه عن صيرورة قارون ثرياً جداً وهو من بني إسرائيل، فاعتبارهم درجة ثانية لا ينفي صيرورة بعضهم أثرياء ومهنيين وصناعيين وحرفيين... والمشكلة أنهم تحت قانون ديكتاتوري ظالم ويمنعهم من ممارسة دينهم الحقّ... حتى جاء النبي موسى(ع) ناقلاً لقوله تعالى لفرعون ليترك بني إسرائيل يغادرون مصر.

أمّا هذا الطلب بالنسبة لفرعون فمعناه أولاً: أن يترك عدد كبير من القوة العمالية والمهنية... بلده. وثانياً: سيرحلون ليشكلوا مدينة منفصلة لوحدهم، ويمكنهم فيما بعد تشكيل جيش ومهاجمة مصر.

لاحظ العديد من سور القرآن التي عرضت مهمّة الرسولين بأنها محصورة في نقطتين: دعوة فرعون وقومه إلى دينه تعالى، فإن آمنوا أو لم يؤمنوا فهذا موضوع منفصل عن النقطة الثانية وهي إرسال بني إسرائيل من مصر.

(قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ{18})
أجاب فرعون مخاطباً النبي موسى(ع)، قال: ألم نُرَبِّكَ فينا وليداً؟ ألم نعتنِ بك ونطعمك لتنمو وتكبر مذ أن كنت حديث الولادة؟ وقصّة التقاط آل فرعون له (ع) من الماء مشهورة، وراجع الآية 8 وما بعدها من سورة القصص لمزيد من المعلومات {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ}.

{وَلَبِثْتَ فِينَا}، فمرّ عليك زمن عندنا وبيننا، {مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ}، فكبرت عندنا حتى صرت شاباً. وبدل اعترافك بالجميل الذي فعلناه معك، حيث ربيناك وكبّرناك وعلّمناك، ثم بعد ذلك جئت تتآمر علي! وتنقلب ضد حكمي وديني!

(وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ{19})
{وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ}، مثلما نقول بالعامية: عملت عملتك، وعملت العملة... وأول ما يتبادر إلى الذهن من هذه الجملة هو قتله (ع) لواحد من رجال فرعون وهربه (ع) من مصر بسببها، ويمكنك مراجعة ذلك في الآية 15 من سورة القصص، وفعلتها، و{أَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ}، من الناكرين للقانون المصري الذي يبيح لجنود فرعون قتل الآخرين ويمنع الآخرين من قتل أي جندي مصري.

لاحظ شبه هذه الحالة مع تاريخنا المعاصر، فدول الاستعمار أعطت لمواطنيها حصانة تحميهم حتى لو ظلماً وعدواناً قتلوا أي واحد من أهل المستعمرات...

إلى هنا تلاحظ جانباً آخر من صعوبة وضع النبي موسى (ع) أمام فرعون، أولاً جاءه (ع) بدين مخالف، وثانياً معارضاً لحكمه على بني إسرائيل، وثالثاً تربّى عندهم، ورابعاً هو (ع) مطلوبٌ بجريمة قتل واحد منهم.

(قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ{20})
{قَالَ}، النبي موسى(ع) لفرعون، أتقول بأني كافر بدينكم وقوانينكم:

{فَعَلْتُهَا}، نعم قتلت الرجل التابع لك، {وأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ}، لست تابعاً لدينكم وقوانينكم، لأنني لست على الإيمان بسلطتك ولا بدينك الذي يجيز لكم قتل بني إسرائيل لأتفه سبب، ولذلك قتلت المصري الذي حاول قتل واحد من بني إسرائيل.

هذا الكلام يأخذنا إلى وجوب مخالفة الأوامر والقوانين الظالمة دفاعاً عن المظلومين، وهي حالة مشابهة لحالة الأنظمة القمعية الفتّاكة بمن يخالف الحكّام سياسياً أو اقتصادياً... حيث ترى الكثيرين يقفون على الحياد مع علمهم بالظلم الذي يُمارَس على الآخرين، وترى الموظفين يطيعون الأوامر الظالمة للناس من تعذيب وقتل، على أساس أنهم لا حول لهم ولا قوّة، وكأن هذا تبرير لِما فعلوه خوفاً من ظلم الذين أعلى منهم في السلطة...

هذا الكلام الفارغ لا تبرير له أمامه تعالى، فلهذه الأسباب وغيرها ترى مسخاً حيوانياً متوحشاً على شكل إنسان، وتراه فرداً واحداً أو جماعة قليلة العدد مثله مجرمة معه، وتراهم يحكمون الملايين بالظلم! فلو رفض البقية إطاعة الأوامر الظالمة، لما ترأس ظالم على الناس.

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شراً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فضلّ عنك صيدها. استعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، حيث لم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء.

هنا استعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} رداً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ{21})
يكمل النبي موسى(ع):

{فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ}، تركت مصر عندما شعرت بالتأكيد بخطر سيحصل لي لأنكم حتماً ستقتلونني. فراري لم يكن فراراً من وجه العدالة بل فراراً من حكمكم الظالم، لأنكم لن تُجروا محكمة عادلة لي بل ستعاملونني كمواطن من الدرجة الثانية وتقتلونني حتى مع علمكم أني كان معي حقٌّ، ولذلك فررت.

{فَوَهَبَ لِي}، أعطاني من دون مقابل منّي، {رَبِّي}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {حُكْمًا}، جعلني أرى الصوابية في الأمور وأحاول ضبطها على المطلوب، {وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ}، ناقلاً كلاماً منه تعالى إلى الناس.

يعني ما أنا فيه من علم وفهم فهو ليس من نتاج تربيتكم لي، فالحكمة، رؤية الصوابية في الأمور هي القيمة والمعنى الحقيقي للعلم والفهم، وهذا حصلت عليه من ربّي سبحانه، ومعها وصلني منه تعالى كلامٌ لأنقله للناس.

لاحظ أننا حتى نحن المؤمنين سيخطر ببالنا أن تربية النبي موسى(ع) في قصر فرعون ستترك أثراً حضارياً على فكره وسلوكه، كتعلّم القراءة والكتابة، وتعلّم الإدارة وفنون القتال... وأنا لا أستطيع إلّا تصوّر ذلك، وعلى الأقل في اعتياده (ع) على القصر كمكان، حيث ليس كل بني إسرائيل سبق لهم ودخلوا قاعة قصر فرعون بضخامتها وبحرسها وأناقتها... وهيبتها... وهذا لوحده شيء أراه كاستفادة من ترعرع النبي موسى(ع) في قصر فرعون، فجانب الرهبة من القاعة ومن فخامتها ومن الحرس ومن فرعون، شيء فاقد التأثير على النبي موسى(ع) الذي سابقاً كان في هذا المكان، نعم تبقى مشكلة الكلام مع الديكتاتور الصلب فرعون، والتي أيضاً ترى فيها شجاعة وصلابة النبي موسى(ع)...

وهكذا نفهم الآية هنا تفصل بين ما يمكن أن يكون (ع) تعلّمه حين تربّى عند فرعون، وبين الحكمة، وهي بذلك لا تلغي أهمية ما حصل عليه (ع) من استفادة من تربية فرعون له، ولكنه لن يكون بأهمية الحكمة، بأهمية رؤية الصوابية في الأمور، فهذا هو لبّ الخلاف ومحور الكلام بين الرسول الرافض للظلم والسوء وبين الديكتاتور الظالم فرعون.

(وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ{22})
يقول النبي موسى(ع) مجاوباً فرعون:

{وَتِلْكَ نِعْمَةٌ}، هي شيء جيّد، {تَمُنُّهَا عَلَيَّ}، تعتبر نفسك فعلت معي شيئاً يستحق أن أشكرك عليه، {أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}! جعلتهم يتصرفون على أساس أنهم عبيد لك، على أساس أنه مفروض عليهم طاعتك!؟ هل هذا ما تريد أن تقنعني بأنه عمل جيدٌ، ومنّة يجب أن أشكرك أن جعلت بني إسرائيل كالعبيد عندك؟!

الأمور التي ذكرتها يا فرعون وتمنّني بها، وتريد اعترافي لك بالجميل فيها: أنك ربيتني، وأنك لم تقتلني الآن لأني قتلت أحد رجالك، وأنك لم تحاسبني لأني خرجت عن دينك... فكيف تمنّني بتلك الأشياء وتنسى أن كل هذا ناتج عن اعتبارك بني إسرائيل عبيداً فمفروضٌ منهم طاعتك.

أتقول لي بأنك ربيتني في قصرك، فالسبب أنك حين ولادتي أمرتَ بقتل المواليد الذكور من بني إسرائيل، وأمي رمتني في النهر حتى لا تقتلونني! فكيف أشكرك على هذا!

تريد أن تحاسبني لأني قتلت واحداً من رجالك كان ينوي قتل رجلٍ بريءٍ من بني إسرائيل! فلأنك تعتبرهم مواطنين من الدرجة الثانية عندك ويحق لك ولجنودك ولقومك قتلهم فتطالبني بقتلي للمصري المجرم؟

لاحظ أن النبي موسى(ع) يتكلّم، ولا تجد في القرآن كلاماً منقولاً مباشرة عن النبي هارون(ع) عند اللقاءات مع فرعون، فما ظنّه النبي موسى(ع) مهماً جداً لتعيين أخيه هارون (ع) معه ليتكلم عنه حين تخونه العبارة، فلم يغيّر من الواقع أي شيء، وطبعاً سبحانه من الأساس كان يعلم بذلك، ولكن ورغم ذلك حقّق لرسوله موسى(ع) طلبه فآزره بأخيه نبياً...

كلمة "عبّدت" تصير على المعنى الأساسي لكلمة "عبد"، ففرعون فرض على بني إسرائيل طاعته، فهذه الكلمة في مقابل الحرية وأمّا الملكية فمن تبعاتها العبودية وليست مقابلاً لها. وهكذا ترى وصفاً دقيقاً لحالة بني إسرائيل أنهم كانوا معتبرين كمواطنين من درجة منخفضة جداً، حيث إن بعضهم كان له منصب كقارون وآخرون كانوا حرفيين ومهنيين كالسحرة، وآخرون كانوا عمّال سخرة مجبورين على الأشغال بلا أجرٍ وفي مقابل الطعام فقط...

في أدبياتنا درج القول عن استعباد فرعون لبني إسرائيل، على المعنى الدارج لكلمة استعباد، وتأيّد عندنا ذلك من عبارتين وردتا في الآية هنا، وفي الآية 47 من سورة المؤمنين {فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ}، ولكن على المعنى الأساسي لكلمة عبد التي تشير لمن مفروض منه أو عليه الطاعة، فهي مقابل الحرّ وليست مرادفة للمملوك، فالملكية من تبعيتها العبودية. وهكذا نصير أمام سعةٍ في المعنى في حالة بني إسرائيل تحت حكم فرعون، فالحالة العامة أنهم كلهم تحت حكمه وسلطته مثلهم مثل بقية المواطنين التابعين لسلطة فرعون، والحالة الخاصة أن بني إسرائيل لم يكونوا مواطنين من الدرجة الأولى، حيث لدى البعض منهم حياته الخاصّة كطبيب ومهندس وتاجر وساحر... وبعضهم الآخر عمّال. وتفهم ذلك من حالة قارون الثري النافذ من بني إسرائيل تحت حكم فرعون، ومن حالة السحرة كنموذج عن مهنة مارسها بعض أفراد بني إسرائيل، ولست أقصد أنهم كانوا مرتاحين أو لديهم حقوقهم كاملة ولم يعمل البعض منهم بالسخرة مقابل وجبة الطعام... بل أقصد أن تشبيه الصورة عن حالتهم كلّهم بشكل مزرٍ فهذا مبالغ فيه، فتصوّرها مثل حالة العيش تحت حكم ديكتاتور تعرفه من عصرك أو سمعت به، فالناس من تجار ومهنيين وحرفيين... ويملكون بيوتاً وأراضيَ وسياراتٍ... فدينك وشريعتك ملغية ومفروض عليك طاعة الديكتاتور ولا قيمة لك عنده وعند النافذين الحاكمين التابعين له، فهو وضع مزرٍ ولكن يبقى مختلفاً عن صورة مساكن العبيد الضيقة الوسخة... وكونهم كلهم يعملون بالسخرة... فهذا ما أقصد أنه صورة مبالغ فيها.

مفهوم الاستعباد في ثقافتنا بعيد كثيراً عن أصل معنى الكلمة ومنطلق من تطبيقات سيئة جداً لها، وهكذا صار لها معنى في بالنا وبعيد عن المعنى اللغوي الذي استعمله القرآن، ولا ننتبه لذلك ونفسّر القرآن على ما في بالنا من معنى "تطبيقي سيّء جداً" لكلمة عبد. لغوياً كلمة "عبد" تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك. وبهذا المعنى استعملها القرآن.

أقول لك هذا لأنني متأثر بخلفية استعباد فرعون لبني إسرائيل على المعنى الدارج في ثقافتنا التاريخية الدينية، وحاولت الابتعاد عن وصفهم بالاستعباد حتى لا تُفهم من كلامي وصفهم بالمعنى الدارج عن الاستعباد، ورغم ذلك وأثناء المراجعة لهذه الدراسة أجد فلتات مني لوصفهم بالاستعباد، وهذا وللأسف شيء حصل حتى في مواضيع أخرى تقوّمت

عندي أكثر بعد دراستها، ولكن فلتات الخلفية الثقافية أسرع وأقوى من استحضار معلومة توصّلت لها عن دراسة، وهذا الكتاب صار قرابة الأربعة آلاف صفحة، وكل مراجعة تستغرق أكثر من سنة، ويستحيل عليّ إعادة تقويم كل ما كتبته بناء على تقويم وتحسين أجريته أثناء دراستي لآية ما، حاولت ذلك بكل جهدي ولكنه ليس شيئاً سهلاً البتة.

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ{23})
قال فرعون: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}؟ من هو الذي تتحدث عنه بأنه المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس؟

كما ترى، السورة تريدك هنا الالتفات إلى تبكيت وتسكيت فرعون بالجواب الذي قاله النبي موسى(ع)، ونخمّن أن فرعون أخذ الحديث إلى مجرىً آخر بعد خسارة الجولة الأولى، على معنى تعال نقفز عن هذه الجدالات ولندخل فيما نحن فيه الآن، فمن الذي تدعونا لعبادته؟ ولكن ربما جادل فرعون حتى في هذه النقاط مُبَرّراً لتصرفاته، وربما حصل شيء آخر، لأن القرآن لم ينقل الأحداث بالتبنيد التاريخي، فهذا لا فائدة منه إلا للفضول بمعرفة التفاصيل، وما الفائدة هنا مثلاً من نقل القرآن لجدال فرعون بقوله كلاماً فارغاً أمام الحقيقة الواضحة التي عرضها النبي موسى(ع) عن المآسي التي نتجت من تصرفات فرعون بتعبيد بني إسرائيل وأدّت لِصَيْرُورَةِ موسى الطفل في بيت فرعون...

مسألةٌ أخرى، هناك الكثير من الشعوب الكافرة التي اتخذت ربّاً غير الله تعالى، إذ يعتقدون بأن لكل شعب ربّاً خاصّاً بهم! فآمون كان في فترة ما ربَّ المصريين، وكاموش كان ربَّ الكنعانيين، وعشتار كانت ربَّةَ الفينيقيين، وزِيوس ربَّ اليونان... لذلك لم تكن عندهم مشكلة في تنوع الآلهة، بل ولأسباب عديدة كانت عندهم مشكلة في اشتراكهم مع الآخرين بنفس الآلهة! لأنهم يريدون إلهاً ينصرهم على الآخرين لسلب خيرات الآخرين وفرض السلطة عليهم قهراً وعدواناً، وبالتالي من الأفضل أن يكون لهم إلههم الخاص بهم الذي لا يهتم بالآخرين... لذلك يستغرب فرعون! لأن النبي موسى(ع) يقول له بأن الربّ واحد لكل الناس!

(قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ{28})
قال النبي موسى(ع):

{رَبُّ} العالمين هو {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}، المسؤول من مستوى إلهي عن كل شيء، من مساحات وكائنات وظواهر، ومن الواضح أنها ككتلة واحدة وأن إدارتها تابعة لمركزية واحدة، لأن تصميمها وخلقها ومتابعة شؤونها من الواضح أنه تابع لرب واحد.

{إن كُنتُم مُّوقِنِينَ}، إن كان لديكم اعتقاد مطابق وموافق للحق والواقع، فسترون أن ربّ كل شيء هو إله أحد لا إله غيره، وواحد للجميع.

بعبارة أخرى، أنتم لا تفهمون معنى الربوبية، فإن كان لكل بقعة من الأرض ربّ خاص بها، فمن ربّ السماوات والأرض كلها! هل أربابكم خلقوا البقع التي تعيشون عليها! يعني: هل ربّ المصريين خلق مصر والمصريين وخلق الظواهر في منطقتهم وخلق السماء التي فوقهم... وربّ الكنعانيين خلق أرض الحثيين والحثيين وبيئتهم... ما يحصل من أمور مشتركة بين الجميع من أرض وبيئة وسماء وظواهر من ليل ونهار... هل كل ربّ من الأرباب لديه بيئة له أم كما هو واضح هناك بيئة واحدة "سماوات وأرض" وكلّها يبدو واضحاً تبعيتها لإله واحد لأن التصاميم والتراكيب والظواهر واحدة ومشتركة في التصميم والتناغم والتوائم بينها.

(قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ{25})
قال فرعون لمن حوله، قال لمن يحيط به من الناس في مجلسه مستغرباً:

ألا تسمعون! يعني قام بحركة مسرحية تدل على شدة استغرابه: هل أنا وحدي أسمع هذا التخريف الذي يقوله موسى أم أنتم أيضاً تسمعونه!

لاحظ هروبه من العقلانية حيث فقد إمكانية الردّ على وضوح كون السماوات والأرض لها ربّ واحد، وانتقل إلى تضييع الموضوع بحركات وأقوال مسرحية يستغلّ فيها أنه هو ومن حوله لا يناسبهم الاعتراف برب واحد أحد، لأن ثقافة عبادتهم لآلهتهم المختلفة عن آلهة الآخرين، لها جذور وتشعبات متشربة في فكرهم ونفسيتهم، إذ إن آلهتهم أقوى من آلهة الآخرين لأنها نصرتهم عليهم وجعلتهم حاكمين للشعوب التي طالتها يدهم، وسبب قهر المصريين لبقية الشعوب أن آلهة المصريين أقوى... ومضافاً لذلك خيرات الأرزاق أيضاً من آلهتهم التي بنوا لها المعابد الضخمة الفخمة... هل كلّ ذلك التاريخ مع آلهتهم ومعابدها الضخمة والنذورات والطقوس والأعياد... فراغ لا معنى له!

(قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ{26})
يكمل فرعون كلامه الاستعراضي المسرحي: قال موسى إن الرب واحد وهو {رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ}، نفس المسؤول عنكم الآن من مستوى إلهي ونفس المسؤول عن أهلكم الذين ماتوا من قبل! ما هذا التخريف، نحن لا نؤمن به ولا نعبده، ومن سبقنا من أجدادنا لم يؤمن به ولم يعبده، فكيف يكون ربنا!

ضع في ذهنك دائماً أن فرعون يتكلم انطلاقاً من عقيدة الشرك، إذ إن كل المشركين وبحسب ما نعلم، لديهم ربّهم الخاص بهم، ويعترفون بأن الشعوب الأخرى لديها أرباب خاصة بها، ولكن انتبه، هم لا يعتبرون أرباب الشعوب الأخرى ربّاً لهم، بل هي ربّ لتلك الشعوب فقط، فالمصريون مثلاً كانوا يعترفون بأن كاموش ربّ الموآبيين، وبعل وعشتار ربّ للكنعانيين... ولكن ليس ربّاً للمصريين بل هو ربّ خاص بتلك الشعوب ولا دخل له بالمصريين، ولا يستجيب لهم إن دعوه... وهكذا ستفهم هنا عندما يسخر فرعون من النبي موسى(ع) الذي يقول كلاماً غير عقلاني بتاتاً، فكيف يقول بأن ربّ بني إسرائيل هو ربّ لكل الناس! بل هو ربّ أجدادنا أيضاً! لا نحن ولا أجدادنا اعترفنا به ولا عبدناه، وهذا شيء مضحك!

ترى في عقيدة المشركين شيئاً غريباً، إذ إن وجود الربّ عندهم ينطلق من اعترافهم به هم! عندما يقبل المصريون بربّ ما ليكون ربّاً لهم، فإن قبلوه فالمشركون الآخرون سيعترفون بربّ المصريين كربّ ولن يعبدوه لأنه ربّ خاص بالمصريين... وهكذا بالعكس سيعترف المصريون بربّ الكنعانيين كربّ، ولكنهم لن يعبدوه لأنه ربّ خاص بالكنعانيين، وبناء عليه ستفهم كلام فرعون الذي رفض "اعتبار" ربّ بني إسرائيل ربّاً له، لأن الله تعالى ربّ خاص لبني إسرائيل.

(قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ{27})
قال فرعون:

{إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ}! ففي عقله وتفكيره عطل واضح، فهو يقول خرافات.

شيء مضحك ما يقوله هذا الرسول الذي أرسله الإله! فكيف يكون ربّ آبائنا وهم ماتوا عابدين لغيره؟! وأصلاً ماتوا وهم لا يعترفون به ربّاً! وكيف يكون ربّاً لنا ونحن لا نعترف به! فما هذا الكلام المجنون! وما هذا الرسول المجنون!

تذكّر دائماً أن الاتهام للرسل بالجنون تكرّر لغير النبي موسى(ع) ولم يكن الناس يقصدون وصف الرسل بالجنون لدرجة فقدان العقل بالكامل، بل مثلما نحن العقلاء نقول لبعضنا إذا سمعنا كلاماً غير عقلاني ولا منطقي: كلام مجانين.

(قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ{28})
قال النبي موسى(ع):

{رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا}، فليس لكل بقعة على الأرض مسؤول عنها من مستوى إلهي خاص بها، بل كل الأرض إلهها واحد أحد للجميع، والتعبير بالمشرق والمغرب وما بينهما يشير لكل وجه الأرض. {إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ}، إن كان لديكم القدرة على عقل، على فهم واستيعاب حقيقة معنى الربوبية.

مثلاً، نهر النيل من خلقه؟ أي ربّ؟ فهل خلقه ربّ الحبشة "أثيوبيا حالياً" حيث ينبع؟ أم خلقه ربّ السودان حيث يمر؟ أم خلقه ربّ المصريين حيث يصبّ؟! إذ لكل قوم من هؤلاء ربّ مختلف عن ربّ الآخرين، فمن خلق النهر أي ربّ؟! ونفس الشيء بالنظر لظاهرة شروق وغروب الشمس، لأنها ذات الشمس تشرق على جميع الناس، وتحصل ظاهرة شروقها وغروبها على كل الناس، لذا من الواضح أن ربّاً واحداً صمّمها وخلقها، وما معنى وجود ربّ للشمس عند المصريين وهو مختلف عن ربّ الشمس عند الكنعانيين والحثيين... طالما هي نفس الشمس ونفس الظواهر ناتجة عنها على الجميع؟! الجواب أن الربّ الحقيقي واحد وهو خلق كل شيء.

(قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ{29})
قال فرعون للنبي موسى(ع):

{لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي}، فاعتبرت كائناً غيري لديه صفات وقدرات فائقة، {لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}، فسأحجز حريّتك في مكان مغلق عقاباً لك.

فرعون كان يرى نفسه كواحد من الآلهة لأن أوامره تتنفّذ بالحرف على الشعوب التي يحكمها، ولا يرى سلطة على الناس تفوق سلطته عليهم، وهذه هي الألوهية بنظره، فهو بصفات الحكم والسلطة والسيطرة... وقدرات جيشه وماله... بشكل فائق على كل من حوله من الناس، وهكذا صار يرى نفسه إلهاً ككائنٍ فائق القدرات.

ننتبه لجنون العظمة، ولصعوبة وصلابة من كان يواجهه النبي موسى(ع)، ونتذكّر أن السورة تعرضه للرسول محمّد(ع) ولنا كنموذج نقيس عليه ما نعانيه من غير المؤمنين بدينه تعالى، فمهما كانت معاناتنا فهي لن تصل إلى مستوى المعاناة من فرعون، لأن أي كافر آخر بالدين لن يكون إلا فرعوناً صغيراً أمام فرعون النبي موسى(ع).

الآن لِنُراجِع الكلام السابق بناءً على لبّ السورة، هل يناقش عاقل في سوء حكم فرعون الديكتاتوري المبني على مزاجية اختراع الأرباب التي لن تتدخّل في التشريعات التي يسنّها فرعون من مزاجه؟ وصولاً لأمره للناس أن يعتبروا كلامه إلهياً؟ فما هذا؟

كما ترى فأنت تقف أمام وقاحة من النادر رؤيتها بهذا الوضوح، إذ إن حُكَّاماً على مستوى صغير لبيت أو لعائلة أو لبلدة... أو على مستوى كبير لبلد أو بلدان، فالظالمون من هؤلاء فعلاً يتصرفون كأنهم آلهة، فهم يرفضون مخالفة الآخرين لأوامرهم بل رافضون حتى لمناقشتها، فهم عملياً يعتبرون أنفسهم آلهة، ولكن من النادر أن ترى فجاجة ووقاحة كالتي تسمعها نقلاً عن فرعون بإعلان نفسه إلهاً، حيث يخبر فرعون النبي موسى(ع) بأن كلامه غير قابل للنقاش ولا معنى لتبيان الخطأ فيه، فلا تجادلني والتزم بما أقول.

بقي شيء، ما تنقله الآية هنا هو من الأمور التي جعلتنا نرجح كون خوفو هو الفرعون الذي عاصر النبي موسى(ع)، إذ من الآثار نعلم أن خوفو أعلن نفسه إلهاً.

(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ{30})
قال النبي موسى(ع) لفرعون:

{أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ}، حتى لو أتيتك بشيء واضح يدل على أن ربّ العالمين أرسلني، فهل ستبقى على موقفك تعارضني وستسجنني؟ وتأمرني بأن أعتبرك إلهاً وكلامك مقدساً غيرَ قابل للنقاش؟

عادة نحن نسأل عن سبب تزويده تعالى لرسوله بآية تحوّل العصا لِحَيَّةٍ، فهل ما يفعله فرعون ببني إسرائيل من سوء يحتاج لكثير من التفكير لترى سوءه؟ أم هل عقيدة فرعون الدينية التي يستند عليها لتبرير المزاجية في حكمه تحتاج لتفكير عميق لترى سخافتها وظلمها؟ أليس ما نقلت الآيات ملخصه من كلام النبي موسى(ع) كافٍ لمن لديه ذرّة عقل ليؤمن؟ ورغم ذلك ترى فرعون أنهى الموضوع معلناً نفسه إلهاً! فلا كلام فوق كلامه وانتهى الموضوع.

هنا نفهم أنه تعالى أراد من آية تحويل العصا لِحَيَّةٍ أن تكون دليلاً حسياً من خارج المألوف، لأنَّ أيَّ فعل من أفعاله تعالى هو بحدّ ذاته آية عظيمة، فَخَلْقُ صخرة عمل يحتاج لقدرة إلهية لجعل مادتها موجودة ومتراكبة، وخلق حبة رمل أو ذرة هو عمل غير عادي، وبعض الناس يفهمون كلامه تعالى عن تحوّل العصا لِحَيَّةٍ على أنه شيء لا يستحقّ هذه الضخامة بالتركيز عليه في القرآن وفي كلام النبي موسى(ع) كآية وذلك في مقابل تريليونات المجرات وأرضنا التي تنبض بالحياة والظواهر.

هكذا تلتفت أنه في الأساس أيُّ عمل إلهي هو آية مميزةٌ، واختياره تعالى لتحوّل العصا لِحَيَّةٍ ما هو إلا تركيز على شيء من خارج ما هو مألوف لنا، لا أكثر ولا أقل.

مما سيأتي سترى الانتقال من الكلام العقلاني مع فرعون إلى إذاقته للأفعال الإلهية المميزة، وأولها حادثة تلقّف حيّة النبي موسى(ع) لما صنعه السحرة وأمام حشود غفيرة وإيمان السحرة، مما سبّب إحراجاً وإغضاباً لفرعون... وبعد القمل والضفادع...

بعبارة أخرى، ما فعله تعالى وموصوف كلّه بأنه آيات لأنها أعمال تدلّ على الإله الواحد القدير العليم... ومن خلقنا وخلق ما حولنا وتحتنا وفوقنا، هي آيات أكثر من كافية للإيمان به تعالى، ورغم ذلك لم يؤمن الكثيرون، وها ترى هنا فرعون متعامياً عن كل ذلك ومعلناً لنفسه أنه إلهٌ، رَمْيُ عصا أمامه لتصير حيّةً آيةً، فهل يستطيع فعلها؟ وكما ترى الحادثة لم تَجْرِ أمامي أو أمامك لنكون المقصودين بها أنت وأنا، فنحن لا نملك عقلية فرعون، انظر لردّ فرعون وسترى الفرق، إذ إنَّ اعتباره لنفسه إلهاً لم يقصد به قدرته بنفسه على فعل الأمور من مستوى إلهي، بل مسخ الوصف بالألوهية ليصير على قياس قدراته البشرية فيأمر الآخرين ليفعلوا ما يريد.

تذكّر هنا الآية 258 من سورة البقرة {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}، في كلامه عن قدرته على الإحياء مسخ لمعنى الربوبية بتركه إنساناً حياً وقتله لآخَرَ، ولكن لم يستطع مسخ معنى الربوبية في التحكّم بمكان شروق الشمس.

هكذا ترى أن فرعون مسخ معنى الألوهية لتصير على قياسه الواقعي بما له من سلطة قاهرة يأمر بها الذين من حوله لدرجة فعلهم للعجائب بأمره. ومنه ترى أن آياته تعالى كتحويل العصا لِحَيَّةٍ واليد لِبَيَاضٍ وتحويل الماء لِدَمٍ وانتشار الضفادع... هي أمور كبيرة بالأصل لأنها تحتاج لقدرة إلهية لفعلها، وتَقَصَّدَ سبحانه تبسيطها جداً جداً لكسر تكبّر وجبروت فرعون وَمَلَئِهِ حيث لم يستطيعوا التعامل حتى مع هذه الأمور "البسيطة نسبياً". كانت كافية لكسر هذا الجبروت الذي لم ولن يقتنع بالمنطق والعقلانية وتَقَصَّدَ سبحانه أن تكون مما يعتقدون أنهم يستطيعون التعامل معه ليريهم حجمهم الصغير...

(قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{31})
قال فرعون: {فَأْتِ بِهِ}، أحضر إلينا برهانك، {إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}، إلى الآن لم نُصَدِّقْكَ من كلامك فَأَرِنَا دليلك.

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ{32})
{فَأَلْقَى عَصَاهُ}، رَمَى على الأرض النبي موسى(ع) الخشبة الرفيعة الطويلة، {فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ}، فجأةً صارت العصا وبشكل واضح جداً حيواناً زاحفاً من نوع الحيّة.

ما قيل عن أن الثعبان هو الحية الكبيرة، ووصفها بالجان الوارد في الآية 31 من سورة القصص {وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ} يشير لحية صغيرة، على أساس أن نفس العصا تغيّر حجم الحيّة التي تحوّلت إليه، هو كلامٌ تخمينيٌّ لم أجد له مصدراً في الكلام قديماً لاستعمال العرب لكلمتي ثعبان وجانّ، إذ إنَّ الأرجح الواضح من الكلام القرآني أن العصا تحوّلت دائماً إلى حية بنفس حجم العصا، والاستنتاجات لمعاني الآيات بناءً على معانيهم الافتراضية لكلمات حية وثعبان وجانّ يبدو لطيفاً ولكنه ليس صحيحاً. لأنَّ كلمة "جانّ" ليست من أسماء أو صفات الحيّات.

في أشعار العرب قبل الإسلام "فيما لدي من مصادر" استعمالٌ كثيرٌ لكلمتي أفعى وحيّة واستعمال نادر لكلمة ثعبان، ولا يظهر منه أي تمييز لهذا الوصف أو التسمية عن الحيّة والأفعى إلا من ناحية تذكير اللفظ وتأنيثه، وبتحليل الشعر القديم وكلام الفراهيدي في كتاب العين، وكلام تاج العروس ستجد أن العرب القدماء يقصدون بالأفعى اسماً لنوع من الحيات، وسيبدو لك بوضوح أنها تسمية غير متفق عليها بين العرب، إذ هناك العديد من أنواع الحيّات، وكل جماعة منهم تقصد بالأفعى نوعاً ما... ويبدو أن الغالبية يسمون بالثعبان الحية الطويلة غير السامة المشهورة بأكلها للفئران. وتعابيرهم عنها أنها ضخمة لأنها على مقاييس حيّات المنطقة العربية التي يعرفونها، ولا يقصدون الضخامة من قياس حيّة الأناكوندا التي لا يعرفونها ولا تتواجد في مناطقنا.

بناءً عليه لم يستعمل القرآن كلمة أفعى لأن العرب استعملوها بضبابية كاسم لنوع من الحيّات، واستعمل كلمة ثعبان لترى أن طول العصا هو نفسه صار طول الحيّة.

(وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ{33})
{وَنَزَعَ يَدَهُ}، أخرجها (ع) من تحت شيء ما، ومن عموم القرآن ومما جاء صريحاً في الآية 12 من سورة النمل {وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ...} ومما هو مشهور، أدخل (ع) يده في جيبه أي من فتحة قميصه من جهة رقبته وأخرجها، {فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ}، صارت يده كأنها رخام أبيض أو ببياض الثلج، {لِلنَّاظِرِينَ}، للذين يُوَجِّهُونَ اهتمامهم العام إليها، للذين يعتبرونها منظراً ويتوجهون إليه بشكل عام.

بقيت يداً طبيعيةً تتحرك أصابعها، ولكن من ينظر إليها المنظر أمامه يكون: يدٌ لونها أبيض.

لاحظ أن خبر تحوّل لون اليد إلى الأبيض لا يعني لك شيئاً مهماً مثل تحوّل الخشبة لحيوان، إذ تتصوّر كأنها اندهنت بلون أبيض، والآيات اكتفت بمقدار قليل من توصيف هذا الشيء، واعتمدت على افتراضك كمؤمن أنه تعالى لن يزوّد رسوله بشيء عادي كآية، إذ من المفروض أن يعجز الناس عن تقليد الآية حتى يصدّقوا بأنها حصلت بقدرة تفوق قدرة البشر، لذا ليس مهماً لنا الآن أي تفاصيل عنها، بل المهمُّ أن من في عصره (ع) عجزوا عن تقليد هذه الآية، وترى في عموم القرآن أن السحرة عملوا على تحويل الحبال والعصي إلى ما يشبه الحيّات ولم يعملوا على تقليد تحوّل اليد إلى بياض، مما يشير إلى أن تَحَوُّلَهَا لم يكن مشابهاً لصبغها بلون أبيض بل شيئاً آخَرَ معجزاً، وللصراحة لم أصل إلى تصوّر دقيق لما حصل باليد وكيف كان منظرها، ولكن فهمت من القرآن أن تَحَوُّلَهَا لم يكن مجرد تغيير عادي للونها.

تتذكّر ما قلناه منذ قليل، لأنَّ أيَّ فعل يفعله تعالى هو آية كبرى، إذ إنَّ خَلْقَ ذَرَّةٍ ونملة وبعوضة... هو آية كبرى، وَإِدْخَالُ اليد تحت القميص وإخراجها بيضاء وبقية الآيات الثَّمَانِي "غير فلق البحر" يبدو بالتحليل أنها عمل مقصود منه شعورهم بالقدرة على فعله بطريقة، كاستفزاز لهم بسبب كفرهم بآيات خلقهم وخلق السماوات والأرض...

(قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ{34})
هذه الجملة في الآية 109 من سورة الأعراف {قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ} مَنْسُوبٌ قولها للملأ، وهنا منسوبة لفرعون، لِذَا على ما يبدو أن فرعون وملأه كانوا فِيمَا نسمّيه: اجتماع عصف أفكار. حَيْثُ كُلُّ من لديه رأي يقوله وتتكرّر الأقوال، ويتبناها هذا وذاك، ويكرّرها هذا أو ذاك مع إعادة صياغتها... وَرُبَّمَا فرعون أول من اتّهم النبي (ع) بالسحر، وربما آخرون من ملئه سبقوا فرعون بهذه التهمة... على أي حال النتيجة من اجتماعهم للبحث في تحليل الآيات "الحية واليد" أنها نوع من السحر الممتاز، وَنَقَلَتِ السورة هنا هذه النتيجة عن لسان فرعون للتركيز عليه كشخص عنيد من الدرجة الأولى لترينا المعاناة التي عاناها الرسول موسى(ع) معه، ولترينا تَصَلُّبَ فرعون على سوئه رغم الآيات الواضحة...

قال فرعون {لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ}، للناس المجتمعة من حوله وهم من الوجهاء والوزراء والمستشارين:

{إِنَّ هَذَا} "موسى" {لَسَاحِرٌ}، يقوم بخداعنا حتى نتوهّم أن ما يفعله حقيقة، وهو {عَلِيمٌ}، عَلَّامَةٌ فَنَّانٌ محترف بفنون السحر، لِأَنَّ ما قام به لا يدل على أنه مرسل من الإله بل يدلّ على أنه ساحر من الطراز الرفيع، ولديه مخطّط شخصي ستذكره الآية التالية نَقْلاً عن اتهامات وجهها فرعون له (ع).

ضع في بالك دَائِماً أن السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شَيْئاً غَيْرَ حَقِيقِيٍّ أنه حقيقي. إِذِ الساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد بأنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع أنها لم تختف، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر والذي تراه صَرِيحاً في الآية 66 من سورة طه {قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}. مَا هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، تُمَكِّنُهُ تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وَهَكَذَا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، فهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية أنها سحر، فهذا كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

(يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ{35})

أيضاً في الآية 110 من سورة الأعراف وردت نفس الجملة تقريباً وكانت في سياق كلام الملأ، ويبدو أنها هناك مثل هنا من سياق كلام فرعون وملئه أثناء تداولهم للأفكار وذلك بالنظر إلى آخرها: {فَمَاذَا تَأْمُرُونَ}. يعني خلاصة ما طرحوه وتوصّلوا إليه من تحليل للآيات أنها سحر والمخطّط منها ما يلي:

{يُرِيدُ}، موسى، {أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ}، فمخطّطه الرئيسي هو الاستيلاء على مصر وطرد المصريين منها بسحره، فبالقوة العسكرية لن يقدر علينا ولكنه يخدعنا بالسحر حتى نعتقد أنه مدعوم من إلهه فنخاف ونسمع كلامه ويتحجّج بأنه يدعونا للإيمان وإرسال بني إسرائيل وبعدها سيستولي على الحكم.

{فَمَاذَا تَأْمُرُونَ}؟ ما هو الأمر وما هو الشيء الذي تريدونه أن يحصل؟ حيث نحن لا نزال بكامل قوّتنا فكيف نردّ على هذا الخطر؟

لا يخطر ببالك أن فرعون يقول لهم: ماذا تأمرونني أنا أن أفعل، لا بل يقول: أنتم معي في موقع إصدار الأوامر فأنتم الوجهاء والمستشارون، فما تأمرون أن نفعل بموسى وهارون وبما عرضاه علينا لنردّ خطرهم.

الكلام يعطي معنى شعور فرعون بالوقوع في ورطة مواجهة شخص قد يكون فعلاً مدعوماً من الإله، فعناداً يكفر فرعون مع شعور دفين عميق بأنه يواجه أمراً فوق قدرته على التعاطي معه...

(قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ{38})

{قَالُوا}، الملأ وهم الوجهاء والمستشارون قالوا لفرعون:

{أَرْجِهْ وَأَخَاهُ}، أجّل الردّ عليهما الآن وعلّقه، {وَابْعَثْ}، وأقم رجالاً وأنهضهم، {فِي الْمَدَائِنِ}، في المدن المختلفة، في الأماكن التي فيها مساكن ثابتة، ويكونوا {حَاشِرِينَ}، مهمّة هؤلاء الرجال هي حشر، أي جمع السحرة بقرار من فرعون ليأتوا بهم سواء قبلوا أو رفضوا.

لا تحسم أمرك الآن فيما يعرضانه عليك، فلا تعلن "الآن" رفضك ولا قبولك لهما بأنهما رسولان من الإله، وأرسل أوامرك إلى المدن المختلفة ليقوموا بجمع السحرة من مختلف المدن، ومن بعدها تجيب عن طلب موسى(ع) وهارون(ع) بعدما تبرهن أنهما ساحران...

ورد في الآية 111 من سورة الأعراف نفس التعبير مع استبدال كلمة ابْعَثْ بكلمة أرسل، وفي دراستنا هذه وفي رأي العديد من الباحثين المعاصرين والقدماء، هناك معنى دقيق لكل الكلمات التي تبدو مترادفة، حيث هناك فرق ما بين بعث وأرسل، وما ألفت انتباهك إليه هنا ليس الفرق بين الكلمتين بل لشيء أهمّ، لأنَّ اللغة التي كان يتكلّم بها الذين تنقل الآيات هنا كلامهم، لم تكن اللغة العربية، والآيات لا تنقل لنا الترجمة الحرفية لكلامهم، وهذا شيء منتشر في القرآن الذي ركّز على ما يقصده الناس في كلامهم ولم يركّز على نقل كلامهم بالحرف، فشخص قال لآخر: اضربه، المعنى الحرفي للكلمة يتحمّل التطبيق للضرب بالصفعة على الخد أو باللطم على الوجه... وصولاً إلى ضربة تقتل أو ضربة تنكيل وتمثيل... ولو نقل لك القرآن هذا الكلام لنقله حرفياً كما هو: قال اضربه. أمّا لنقله بالمقصود منه فتقول: قال اقتله.

وهذا شيء يفعله كل الناس أثناء نقلهم لأحاديث الآخرين، طبعاً مع الفرق بأننا لا نعلم ما في ضمائر الناس وسبحانه يعلم، فإذا استبدل القرآن كلمة اضربه باقتله، فعن علمه تعالى الدقيق بما يقصده القائل ينقل الكلام.

بالنسبة لما تبيّن لي من الفرق بين بعث وأرسل، فالبعث إنهاض من همود، والإرسال إطلاق من كمون. من ناحية وجود أناس لفرعون في مختلف المدن وأساساً من ضمن عملهم تنفيذ أوامره فهو إرسالهم لحشر السحرة، ومن ناحية انتفاء وجود أي اهتمام سابق بحشر السحرة فهو بعث لهم لحشر السحرة. وترى القرآن استعمل وصف البعث لإقامة الأموات من همود، ولم يستعمل التعبير بالإرسال لأن الحياة لم تكن كامنة فيهم ليرسلهم، ولا تزال هذه الكلمات تحتاج لتدقيق المعنى أكثر.

(يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ{37})
أولئك الرجال الذين بعثتهم في المدن المختلفة، {يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ}، يحضرون إليك كل متخصص متفنن في السحر، {عَلِيمٍ}، لديه علم بفنون السحر.

هؤلاء السحرة سيقومون بصنع سحر مثل سحر موسى، وبعدها تعلن رأيك فيه بعد أن يصير لديك دليل دامغ على كذبه وأنه مجرد ساحر عليم وليس رسولاً إلهياً.

نعلم من آيات أخرى كالآية 58 من سورة طه "فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ..."، أن فرعون تبنى هذا الرأي وأعاد تكراره على مسامع من حوله، مما يشير إلى وجود آراء أخرى طرحوها...

كما تعلم ذهب الرجال وجمعوا السحرة، وقام السحرة بصنع سحر يحوّل العصا والحبل... لحيّة، وعرضوه أمام فرعون، فأعجبه واقتنع به، فأرسل فرعون في طلب النبي موسى(ع)، وقال له: أنت ساحر وأحضرنا لك سحرة يتحدّونك... واتفق فرعون مع النبي موسى(ع) على مكان وزمان التحدي...

(فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ{38})
{فَجُمِعَ السَّحَرَةُ}، من كل المناطق المختلفة صار السحرة مع بعض، {لِمِيقَاتِ}، لموعد زمني محدّد، {يَوْمٍ مَّعْلُومٍ}، زمن محدد سلفاً. فهم منتشرون في مدن مختلفة وتحدّد لهم موعد ليحضروا فيه إلى فرعون، طبعاً من بعد زمن طلبوه لتحضير سحرهم.

نعلم من آيات أخرى بالاتفاق بين النبي موسى(ع) وفرعون على حصول لقاء التحدّي في يوم عيد عند المصريين، وهذا هو الميقات الذي اتفقوا عليه، راجع الآية 59 من سورة طه "قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى".

(وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ{39})
{وَقِيلَ لِلنَّاسِ}، وقال لهم رجال فرعون: {هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ}؟ هل حضرتم كلكم من بيوتكم لمشاهدة التحدّي؟ حيث انتشر بين الناس خبر تحويل النبي موسى(ع) العصا لثعبان...

(لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ{40})
{لَعَلَّنَا}، من المتوقّع ومن المفروض أن، {نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ}، نكون على ما يقولونه لنا، ولا نتبع ما يقوله موسى، {إِنْ كَانُوا}، السحرة، {هُمُ الْغَالِبِينَ}، إن رجحت الكفّة لصالحهم فكان سحرهم مساوياً أو أقوى من سحر موسى.

موسى يدّعي أنه رسول إلهي، وأنه يجب اتباع كلامه بسبب تحويله العصا لحيّة، وبناء عليه من يستطيع فعل ذلك فيجب علينا طاعته، ونحن لدينا ثقة بقدرة السحرة على تحويل العصا لحيّة، وبناء عليه من المتوقّع ومن المفروض منّا أن نتّبع كلام السحرة ونطيعهم حين يغلبون موسى.

بعبارة أخرى، هذه أجواء مسرحية للسخرية من النبي(ع)، على أساس أن تحويل العصا لحيّة يجعل من حوّلها يدّعي أنه رسول إلهي وعلى الآخرين أن يطيعوه، فإن غلب السحرة موسى، فهم وبحسب ما يقوله موسى سيكونون مؤيّدين من إلههم... وهكذا يصير واجباً علينا اتّباعهم بحسب المنطق الذي نسمعه من موسى...

(فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ{41})
{فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ}، عندما أحضروهم إلى الساحة، قالوا لفرعون:

{أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً}، لا بد أن يكون لنا شيءٌ محدّدٌ نستحقّه كبدل مالي وجوائز ستعطينا إياها، {إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ}، إن رجحت الكفّة لصالحنا فأقنعنا الناس أكثر منه بأننا فعلاً حوّلنا العصي والحبال لحيّات.

لاحظ أنهم يستغلون الموقف، ويفرضون شروطهم الآن في ساعة حرجة على فرعون، حيث لا مجال في تلك اللحظة أن يرفض فرعون طلباتهم، فإن رفضها فلن يقوموا بالسحر، وسيغلب النبي موسى(ع). ولا تَنْسَ أن سوراً أخرى نقلت لنا تحذير النبي موسى (ع) للسحرة من خطورة ما يفعلونه، وأنهم فكّروا بالتراجع عن تحدّيه... وتدخّل فرعون وملؤه ووعدوهم بأجر كبير... هنا تنقل السورة فقط آخر ما حصل، وتنقل استغلال السحرة للموقف ليفرضوا على فرعون الأجر الذي يريدونه...

يبدو أنهم جاؤوا بأمر من فرعون ولم يتجرّؤوا على مخالفة الأوامر، وحين تواجهوا مع النبي موسى(ع) استغلّوا الموقف فجاءتهم الجرأة ليطلبوا من فرعون أجراً عالياً ليتحدّوا النبي موسى(ع) وإلا فسيتراجعون وسيبدو النبي موسى(ع) منتصراً...

(قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ{42})
{قَالَ}، فرعون لهم:

{نَعَمْ}، أؤكّد لكم جزيل العطاء المالي، {وَإِنَّكُمْ إِذاً}، فإن غلبتم موسى فبالتأكيد أنتم، {لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}، من الذين أعتبرهم قريبين منّي مثل أهلي وأصدقائي ووزرائي... فتدخلون على مجلسي وتقابلونني... يعني تصيرون من الذين لهم قيمة عالية عندي.

معنوياً يحبّ الناس أن يكونوا من معارف الحكّام، ويحبون أن يكون مسموحاً لهم دخول القصر، وأن يكونوا ممن تصلهم الدعوات الرسمية... ومضافاً لذلك ما سينتج عنه من قيمة معنوية بين الناس وبين موظفي الدولة فيحظون بامتيازات لا ينالها الآخرون، كإعفاءات من الضرائب وغض النظر عن ممنوعات يرتكبونها...

ولا تَنْسَ أن الكثير من الناس لم يكونوا يرون الفرعون إلا من بعيد، فكم من ملك حكم ولم يره لا قومه ولا جنوده إلا المقربون منه فقط، أو رآه البعض من بعيد وللمحة، وحتى في عصرنا نحن نراهم على الشاشات وبالصورة، ونادراً ما نرى الحكّام شخصياً، وهكذا تفهم هنا الكلام عن القيمة العالية عند السحرة للدخول إلى قصر فرعون ومقابلته ساعة يشاؤون.

(قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ{43}
{قَالَ}، النبي موسى(ع)، {لَهُمْ}، للسحرة:

{أَلْقُوا}، اتركوا ما معكم ليصير على الأرض، ارموا، {مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ}، ما أنتم حضّرتموه لترموه.

يعني هيّا قوموا بالتحدّي.

(فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ{44})

{فَأَلْقَوْا}، فرمى السحرة، {حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ}، {وَقَالُوا}: {بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ}، بوصف فرعون الذي ليس ذليلاً لأحد وليس تابعاً لأحد فهو فوق الجميع، {إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ}، حتماً ما نعرضه نحن سيكون أقوى مما سيعرضه موسى.

هذا التحدّي إن خسرناه ستنقص مكانة فرعون، وهو عزيز وسيبقى كذلك لأن ما سنقدّمه دفاعاً عن عزّته سيكون أقوى من سحر موسى.

نتذكر من آيات أخرى أن النبي موسى(ع) خطب في السحرة، وحذّرهم من أنهم لا يتحدّونه هو بل يتحدّون ربّ العالمين، كما يُفهم من الآية 61 من سورة طه "قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى"، فحصل بعض النقاش بين السحرة حول خطورة تحديهم للربّ سبحانه! ولكن تدخل فرعون ومستشاروه وأقنعوا السحرة بأن لهم ما يريدون إن غلبوا موسى(ع)... وأشارت الآية 41 السابقة إلى ذلك... فصمّم السحرة على المواجهة مع النبي (ع)، ورموا ما في أيديهم وهم يهتفون باسم فرعون.

نتذكر من آيات أخرى، أن النبي موسى(ع) خاف مما حصل، كما ورد في الآية 67 من سورة طه "فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى"، حيث جاء السحرة بسحر عظيم، وإذا رمى النبي موسى(ع) عصاه فماذا سيحصل؟ لا شيء! لأنه معه عصا تتحول لحيّة، والسحرة حولوا العصيّ والحبال لحيّات! فما الفرق؟ وكيف سيظهر أن ما فعله حقيقة وما فعلوه خدعة؟!

من آيات أخرى نعلم أن ربنا سبحانه قال لنبيه(ع): ارم عصاك، وستلقف ما صنعوا. وستقرأ شيئاً عن ذلك في الآية التالية.

هذه التفاصيل قفزت عنها السورة هنا لتريك حصراً المقابلة والمقارنة بين وضوح سوء فرعون في حكمه، وسوء جهالته وعناده حتى بعدما أعلن السحرة أهل الخبرة أن ما فعله النبي موسى(ع) ليس سحراً...

(فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ{45})
{فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ}، أفلتها من يده على الأرض، وتحوّلت لحيَّةٍ وأخذت تمشي نحو ما رماه السحرة، {فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ}، فتلتقط بسرعة ما ألقوه، {مَا يَأْفِكُونَ}، ما قلبوا به الخيال إلى حقيقة، فالتقطت العصي والحبال التي جاؤوا بالإفك بها، فحبالهم وعصيّهم في الحقيقة والواقع لم تتحول لحيَّةٍ، ولكن السحر "الخدعة" جعلها تبدو كأنها تحولت، وهذا هو المقصود بالإفك أي قلب الحقيقة إلى كذب.

من موروثنا الثقافي الديني ورثنا أنها بلعت تلك الحبال والعصي، وللأسف لم أنفلت منه رغم قراري ومحاولة انتباهي لأي خلفية من موروثي الثقافي وقناعاتي لأبعدها عن المعنى الظاهر من كلام القرآن، حيث في بدايتي لهذه الدراسة منذ أكثر من عشرين سنة فسّرت الآيات من هذه الخلفية بالرغم من أن الكلمات أمامي لا تقوله صراحة! عِلْماً أن التلقّف وصف لعموم التقاط سريع لشيء أُلْقِيَ، وليس مخصصاً للبلع الذي أحياناً هو من تبعات المعنى، ويمكن أن يحصل تلقف من دون بلع، ولا داعي لتصور حيّة النبي موسى(ع) تبلع حبالهم وعصيّهم، بل يبدو أن المشهد سيكون أقوى لو تصوّرنا حيّة النبي موسى(ع) تهاجم وتتصرّف كما تتصرّف الحيّة عندما تهجم على حيّة أخرى، وتعضّها، وهذا هو اللقف وهنا الوصف المناسب للحية هو الالتقاط مسكاً بالفم، وحصل هذا بسرعة لما ألقاه السحرة، والكلمة العربية لوصف ذلك هي التلقّف.

ظهر بوضوح أن حية النبي موسى(ع) حقيقية وتتصرّف على طبيعتها الحقيقية كحيّة تهاجم الحيّات، بينما حيّات السحرة مجرد حبال وعصي تتلوّى بميكانيكية آلية من تمدّد أو تقلّص للمواد من حرارة الشمس أو من تفاعلها الكيميائي... أو بسبب آخر، بلا أي حركة إرادية لأنها لم تصر حيواناً، وحين التقطتها حيّة النبي موسى(ع) أكملت تحركها الآلي أو خربت وتبيّن بوضوح أنها لم تصر حيواناً، ورمتها حيّة النبي موسى(ع) واتجهت باتجاه الأخرى وهكذا الحيّة الآية سعت بحركة الحيوان الإرادية ليرى الجميع الفرق بين عصاً صارت حيواناً حقيقياً وبين الخدعة.

حيّات السحرة لن تتحرّك كما تفعل الحيّة الحقيقية حين تهاجمها حيّة أخرى، لأنها لم تصر حيواناً يتفاعل كما تتفاعل الحية مع محيطها، حيث إنَّ حيّة النبي موسى(ع) تقترب منهم وتتأمّلهم وتتمايل مع حركتهم وتلقف واحدة منها لتجدها

عصاً أو حبلاً، وتلك تتحرك وكأنها لم تمسكها حيّة... فتتركها وتكمل حركتها التي تبدو بوضوح أنها ليست حركة حيوان بينما حيّة النبي موسى(ع) تسعى وتتحرّك عن قصد ووعي.

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ{46})
{فَأُلْقِيَ}، وارتمى على الأرض، {السَّحَرَةُ}، تحت تأثير ما حصل، {سَاجِدِينَ}، وانحنوا وقرّبوا جباههم من الأرض أو لامسوها بالأرض. وهذا تعبير عن إعلانهم لأقصى درجات الاحترام والخضوع.

(قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ{47})
{قَالُوا}، السحرة:

{آمَنَّا}، اعتقدنا، {بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}، بالمسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس.

بالنسبة لكلمة "آمن" لم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإسلام أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، فآمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كلتاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ{48})
بالتحديد آمَنَّا بالرب الذي يتحدث عنه موسى وهارون.

السحرة يعرفون الفرق بين السحر والحقيقة، وشاهدوا عصا النبي موسى(ع) فِعْلاً تتحول لكائن حي وليست سحراً، وعلموا أن ربّاً قديراً فقط يمكنه فعل هذا، حيث صارت الخشبة حيواناً ولم تكن خدعة، لأنهم خبراء بالخدع وما رأوه لم يكن خدعة، لذلك أعلنوا إيمانهم مباشرة.

بعد الآية التالية سنتحدّث عن إيمان السحرة بتوسّع...

(قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ{49})
{قَالَ}، فرعون للسحرة:

{آمَنتُمْ لَهُ}، أعلنتم اعتقادكم بموسى كرسول وبإلهه، {قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ}! قبل أن أسمح لكم، وقبل أن تسمعوا قراري! هكذا بهذه السرعة أعلنتم إيمانكم! يعني لا يمكنني بلع وهضم ما تفعلونه لأنه إعلان لهزيمتي وانتصار موسى بانضمام الذين أحضرتهم لهزيمته ليصيروا مؤمنين به! ولست أصدق أنكم فِعْلاً آمنتم به، بل لا بدّ أن في الأمر مكيدة وخديعة.

{إِنَّهُ}، موسى، {لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ}، حيث إنكم تلاميذ عنده وهو أستاذكم، وغلبكم وهذا لا يثبت أنه رسول بل يثبت أنه ساحر أكبر منكم، وكلام فرعون هذا يشير إلى كون النبي موسى(ع) علّم السحرة كيف يسحرون تحوّل العصي والحبال لحيّاتٍ، واتفق معهم على هذه المسرحية ليخدعوا فرعون، حيث يغلبهم ويلقف ثعبانه حيّاتهم.

{فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}، ومن تكملة الجملة تعلم أن فرعون سيريهم شدة عقابه لهم، {لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ}، سأقطع اليد اليمين بكاملها من الكتف، وأيضاً أقطع من خلاف أي من الجهة المخالفة، الرجل اليسرى بكاملها من الورك. أو أقطع اليد الشمال وبخلافها من الجهة الثانية أقطع الرجل اليمين. ومن خلاف أي من جهة مخالفة للجهة الثانية.

هذا القطع للأعضاء بهذا الشكل لم أره لأعرف معناه العملي، ولكن المقصود منه واضح وهو الرعب من شدّة الأذى منه، وهل يبقى حيّاً من يقطعون له يده ورجله من خلاف؟ ويقومون بكيّ مكان القطع... أو يتركونه ليموت؟ لا أدري.

{وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ}، وأربطكم على العواميد حتى تشاهدكم الناس وأنتم تموتون.

ننتبه أنّ فرعون لم يهدّد النبيين موسى(ع) وهارون(ع) بأي شيء! ولم يفعل لهما أي شيء! كما يبدو، إنه كان يخاف منهما.

(قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ{50})
{قَالُوا}، السحرة: {لَا ضَيْرَ}، لا مشكلة، وبالعامية هي على معنى: مش فارقة، مش هاممنا. طالما، {إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ}، فسننتقل بالموت من هذه الدنيا وفي الآخرة نصير عند المسؤول عنّا من مستوى إلهي، وإذا عذّبتنا وقتلتنا فلن نفنى بل سنذهب إلى ربنا سبحانه ليجازينا على إيماننا به.

كما ترى من الآية هنا ومن التالية ومما ورد نقلاً عن كلام السحرة في سور أخرى، كلامهم يدل على معرفتهم المسبقة بدينه تعالى، وترى من الآية 73 من سورة طه {إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}، أنهم كانوا مكرهين على السحر، حيث من الأساس أحضرهم فرعون غصباً عنهم لتحدّي شخص يقول بأنه رسول الإله، وحين حذّرهم النبي موسى(ع) من خطورة ما يفعلونه فهم خوفاً من عقاب فرعون لم يستطيعوا التراجع كما تفهم من الآية 62 وما بعدها من سورة طه {فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى}، لذلك قبلوا التحدّي وحاولوا استغلال الموقف لفرض أجْرٍ لهم على فرعون إن غلبوا النبي موسى(ع)...

هل هم سحرة من بني إسرائيل؟ أم هم من بني إسرائيل ومن مختلف الجنسيات التي حكمها فرعون وهم من داخلهم مؤمنون بدينه تعالى ويخفون إيمانهم؟ هل...؟ الاحتمالات مفتوحة ولكن الأكيد على كل الحالات أنهم كانوا يعرفون دينه تعالى جيداً، وربما بعضهم تعرّف على دين النبي موسى(ع) من بعدما استدعوه للتحدّي وسأل عن الأسباب... وعلم بما جرى بين النبي موسى(ع) وفرعون... وأنت تعلم أن طلب النبي موسى(ع) بإخراج بني إسرائيل من مصر لأنهم مواطنون من الدرجة الثانية، فهو طلب عقلاني مشروع يشعر به كل مواطن من الدرجة الثانية، وتعلم أن من في جمجمته ذرّة عقل لن يؤمن بربوبية فرعون من مستوى إلهي، ولن يوافق على جبروت الديكتاتور فرعون... ومما ورد في الآية 28 وما بعدها من سورة غافر نقلاً عن مؤمن من آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه، {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ...}، حيث ترى من كلام هذا المؤمن معرفةً متوفرّةً بين الناس عن دينه تعالى، وما قاله السحرة ليس وليد اللحظة التي تلقّفت فيها الحيّة حبالهم وعصيّهم، بل عن معرفة سابقة تدعّمت بآية لا يمكن أن تكون حصلت إلا بقدرة إلهية، ولذلك فوراً أعلنوا إيمانهم متخلّين عن الدنيا ومتقبلين لعقاب فرعون ومتخلّين عن ثوابه الذي لا يقارن ولا بأي شكل بالعقاب والثواب الإلهي.

(إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ{51})
{إِنَّا نَطْمَعُ}، نرغب ولدينا أمل، {أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا}، الأعمال الخطأ التي قمنا بها في حياتنا وآخرها حين تحدّينا رسوله، ولدينا رغبة وأمل أن يسامحنا المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ}، لأننا لم نفكّر مرتين بالموضوع من بعدما رأينا الآيات وكنّا أوّل من اعتقد بموسى(ع).

تصوّرها مثل مسابقة تتكرّر سنوياً، وفي كل مسابقة هناك أوّل، فهو ليس الأول على طول الزمن، بل في تلك المسابقة هو الأول، وهنا في حالة عرض آية إلهية على يدي النبي موسى(ع) فإنَّ السحرة أعلنوا إيمانهم قبل الآخرين.

تذكّر أن السحرة استغلّوا الموقف قبل التحدّي وضغطوا على فرعون حتى يجازيهم بأجْرٍ عالٍ... وهنا السحرة وبنفس العقلية يعلمون أن ربنا سبحانه سيقدّر لهم إعلانهم للإيمان في هذه الساحة الكبيرة وأمام كل الناس.

ضع في بالك أنه تعالى فِعْلاً يعتبر قيمة مميزة عنده لمن آمن أوّلاً قبل الآخرين، راجع الآية 10 من سورة الحديد {... لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى}...}.

هناك شيء ذكرناه في هذه الدراسة في مناسبات مختلفة، حيث فهمنا من القرآن أن الذي عنده قرار عميق بالكفر لن يؤمن ولو جئته بكل أنواع الآيات، وأمّا إيمان السحرة فلم يكن من الكفر الصلب إلى الإيمان، بل من بذرة رغبة في التعرّف على الحق، حيث إنَّ رؤيتهم لآية يعلمون أنها إلهية، أدى لإعلان الإيمان.

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ{52})
بعد مرور السنين ومنع فرعون بني إسرائيل من المغادرة، وفي تلك السنين أصابت المصائب فرعون وقومه، حيث تحول ماء النهر إلى دم، وهجمت الضفادع على بيوتهم، وانتشر القمّل... وسورتنا هنا قفزت عن تلك الآيات مكتفية من القصّة بالإضاءة على إيمان السحرة وكفر فرعون بآية فلق البحر...

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى}(ع)، أنزلنا على وعيه المعلومات التالية: {أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي}، الذين من المفروض عليهم طاعتي، امشِ ببني إسرائيل باتجاه الخروج من مصر، والإسراء كان ليلاً بحسب ما ورد في الآية 23 من سورة الدخان {فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ}، والسبب: {إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ}، لأنَّهُ إنْ علم فرعون بخروجكم فسوف يلحق بكم، ولذلك اكسبوا الوقت واهربوا منه.

قال العديدون في كتب التفاسير والقواميس إنَّ الفعل "سَرَى" يشير حصراً للحركة ليلاً، ولكن هذا لا يبدو من استعمال العرب لكلمة سريان، ولا يبدو من استعمال القرآن لهذه الكلمة ومشتقاتها، ومنه ما ورد في الآية 24 من سورة مريم {... {تَحْتَكِ سَرِيًّا}}، بل ومن الآية 23 من سورة الدخان {فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ} ومن الآية الأولى من سورة الإسراء {... {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا} ...}، فباستعمال "سَرَى" مع قيد الليل فيهما يبدو أنها ليست كلمة مخصّصة للانتقال ليلاً. ويبدو أنها تختلف عن بقية الكلمات الواصفة للانتقال "مشى انتقل ركض..." بأنها أقرب منهم لمعنى التسلسل والحركة بخفّة بدون جلبة، كحالة وصف سريان الماء.

كلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة وهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، حيث كأنَّ كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، إذ كلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، وهي جمع الجمع، وأثناء الكلام بدقّة قد تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، فتقول الآيات: عبيد. ووردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وقد تكون لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وقد تكون لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، وهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخرين جاءهم رسول، وعبيد آخرين... لذا فإنَّ جمع الجمع "عباد"، وكلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جداً عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

(فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ{53})
علم فرعون بهروب بني إسرائيل في الليل، {فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ}، رجاله بأمره، {فِي الْمَدَائِنِ}، في المدن المختلفة، في مختلف الأماكن التي فيها مساكن ثابتة، {حَاشِرِينَ}، أشخاصاً جامعين بقرار من فرعون، وكما ترى أصدر قراراً بجمع قواته العسكرية والقادة ليحضروا كلّهم بإرادتهم أو غصباً عنهم، وبهذا المعنى استعمل القرآن كلمة حشر ومشتقاتها.

الآية تشير لتوصيل أمره لمختلف المدن القادرة على الالتحاق به بالمسير خلف بني إسرائيل، وقديماً كان بعضهم يستعمل الإشارات بالنار ليلاً مستعينين بنقاط توصل الرسائل إلى المدن البعيدة، وربما كانت الأحياء مدناً منفصلة قريبة

من بعضها بالقرب من مدينة فرعون... على أي حال هو لم يكتفِ بالقوة التي بين يديه واستدعى كل قواته من شدة غضبه...

(إِنَّ هَؤُلَاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ{54})
سبب حشر وجمع الجيش: {إِنَّ هَؤُلَاءِ}، بني إسرائيل، {لَشِرْذِمَةٌ}، لمجموعة غير مترابطة، وهم، {قَلِيلُونَ}، عددهم قليل. ولم ترد كلمة شرذمة في القرآن إلا هنا وتفهم منها أنه يشير لكونهم لا قوّة عسكرية تدريبية أو تجريبية أو عتادية لديهم.

هؤلاء بالنسبة لنا هم مجموعة لا تشكل أي تهديد عسكري لأنهم شرذمة، وليس لهم ترابط عسكري، وعددهم قليل بالنسبة لما يمكن أن تفعله قوّتنا لأنهم مدنيون ولا يجيدون القتال.

ننتبه إلى التعبير عن بني إسرائيل بأنهم قليلون، حيث ما بين أيدينا من كتب ألّفها اليهود عن خروجهم من مصر، تقول بأنهم كانوا أكثر من أربعمئة ألف! بل قال بعضهم إنهم كانوا أكثر من ستمئة ألف! وهذا كذب واضح فاضح، والمبالغة في الأعداد والمقاييس منتشرة بكثرة في كتبهم في مختلف المواضيع، وتجد المبالغة بشكل مماثل من اليهود الذين أعلنوا إسلامهم، عندما يتكلمون عن الأعداد وعن مقاييس الأشياء كمقياس حيطان وعواميد بيت المقدس... تلاحظ بأنهم يحملون عقلية ما اعتادوا عليه في كتبهم المحرّفة ويبالغون بشكل هستيري فلكي بالأعداد ومقاييس القصور والفاكهة والأشخاص... عندما يتحدّثون عن أحداث تاريخية... وكمثال عن ذلك كلامهم عن العماليق كأشخاص أطوالهم بعشرات الأمتار في القرية التي رفض بنو إسرائيل قتالها على زمن النبي موسى(ع)...

تذكّر أن أقصى مدّة افترضوها بين قدوم أبناء يعقوب(ع) الاثني عشر مع عائلاتهم إلى مصر وبين خروجهم من مصر هي أربعمئة سنة، وأقل مدّة مقترحة عندهم تقارب المئة وعشر سنين من بعد موت النبي يوسف(ع)، فهل في أي من المدتين يصير الإخوة الاثنا عشر عددهم أربعمئة ألف! أو ستمئة ألف!! أضف إليه أنّ فرعون كان يقتل الأولاد الذكور مدّة بعد مدّة! أضف إليه أنهم لو كانوا بهذه الكثرة فكم هو عدد جيش فرعون حتى يخافوا منه لهذه الدرجة! نعم انجرف المسلمون مع المبالغات ونقلوا أن جيش فرعون كان مليون "ألف ألف" وسبعمئة ألف جندي! وبعضهم جعلهم مليار "ألف ألف ألف"!! إذن وبكل وضوح عليك بالانتباه للمبالغة الكبيرة في عدد بني إسرائيل حين خرجوا من مصر، حيث إنَّ فرعون يقدّرهم بشرذمة قليلة.

(وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ{55})
{وَإِنَّهُمْ}، بني إسرائيل، {لَنَا لَغَائِظُونَ}، مسبّبون الغيظ لنا، فاستفزّونا لنتضايق ونشعر بالانزعاج الشديد، فكيف يخرجون من دون إذننا وهم كالعبيد عندنا! وقبل ذلك خالفوا ديننا ويريدون تأسيس مجتمع خاص لهم منفصل عنّا...

(وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ{56})
{وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ}، نحن المصريين كلنا يجب أن نحذر منهم، واحتمال حصول خطر منهم وارد ويصير أكيدا إذا توافرت شروط حصوله، فلذلك سننطلق بالجيش كاملا وبالعتاد العسكري الكامل لملاحقتهم وللقضاء عليهم، ولن ننطلق بفرقة صغيرة.

بعبارة أخرى هو خطاب تحفيز للقادة والجنود للتعامل بجدية مع هروب بني إسرائيل، فالموضوع ليس مسألة الهروب بل له أبعاد خطيرة كتهديد لبقاء الدولة إن صار لهؤلاء كيان منفصل قادر على تشكيل قوّة عسكرية... فهم ليسوا تهديدا حصريا لملك فرعون بل لكل الدولة ومواطنيها.

(فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{57})

هكذا، {فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ}، من أماكن موصوفة بروعة ما فيها من بساتين وحدائق وأشجار... وأخرجناهم من {عُيُونٍ}، من أماكن فيها فتحات يخرج منها الماء لتصير أنهارا وبرك مياه.

(وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ{58})
أخرجهم سبحانه من {كُنُوزٍ}، من أشياء جمعوها ولها قيمة عالية جدا، من الكثير من الأموال والذهب والبرونز والجواهر... وأخرجهم سبحانه من {مَقَامٍ كَرِيمٍ}، من أماكن إقامة لها قيمة عالية، من مساكنهم المريحة الواسعة المفروشة بأحسن الأثاث مع الأمان والراحة.

مكر سبحانه لفرعون وقومه بسبب كفرهم الشديد، فأغراهم سبحانه باللحاق ببني إسرائيل الضعفاء "اللقمة السائغة السهلة"، فترك فرعون وقومه العيشة الهنيّة والعزّ الذي كانوا فيهما... ولاحقوا شرذمة قليلين... كتسلية ونزوة بطش وعرض للقوّة... وجمع كل جيشه وبسرعة في ليلة واحدة لعرض عضلاته...

(كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ{59})
{كَذَلِكَ}، هكذا خطط سبحانه للانتقام منهم، {وَأَوْرَثْنَاهَا}، انتقلت ملكية الأرض والسيطرة عليها بلا استرداد لـ {بَنِي إِسْرَائِيلَ}، حيث انتهت سيطرة فرعون على المنطقة، وصاروا أحرارا للسكن أينما شاؤوا...

الآية لم تقصد أن بني إسرائيل ورثوا أرض مصر حيث كان يسكن فرعون وجنوده، بل سبحانه أورث "بقعة" أرض أخرى لبني إسرائيل، فالكلام هنا عن الأرض يقصد المنطقة التي صار فيها بنو إسرائيل منتقلين من تحت حكم فرعون إلى حكم أنفسهم بذاتهم.

بالنظر لما ورد في الآية 137 من سورة الأعراف {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ}، تعلم أن الكلام نظرة عامّة لانفلاتهم من حكم فرعون، وصيرانهم في حرية وحاكمين لأنفسهم من بعد دمار القوة العسكرية، فلم يعد هناك من يهدّد أمنهم عسكريا.

المشهور في التاريخ والمقبول قرآنيا أن أول منطقة صاروا فيها من بعد هلاك فرعون وجيشه هي منطقة سيناء الواقعة شمال نهر النيل، وقبل هلاك فرعون كانت تابعة له، وبعد هلاكه صار بنو إسرائيل حاكمين لأنفسهم فيها.

أطلت عليك الكلام الذي من البديهي وضوحه، فالآية 137 من سورة الأعراف لم تقصد وراثتهم لكوكب الأرض، ولا الآية هنا قصدت وراثتهم لمصر، بل الكلام عن تحقيق الهدف حيث صار لهم مكان يحكمون فيه أنفسهم، ومتاح لهم الانتقال بحرية في مختلف الاتجاهات، وهذا سابقا كان ممنوعا عليهم تحت حكم فرعون.

(فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ{60})
{فَأَتْبَعُوهُم}، لحق فرعون وجيشه ببني إسرائيل وكانوا على مسار اتجاههم، {مُّشْرِقِينَ}، عند شروق الشمس عند الصباح.

علموا ليلا أن بني إسرائيل غادروا، فأمضى فرعون ما تبقّى من ساعات الليل يجمع الجيش، ولحقوا ببني إسرائيل عند شروق الشمس عند الصباح الباكر.

(فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ{61})
{فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ}، عندما صار لكل مجموعة صورة محدّدة عن المجموعة الثانية، وصار بإمكان جمع بني إسرائيل رؤية جمع فرعون، وجماعة فرعون رأوا من بعيد جماعة بني إسرائيل، عندها، {قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى}، المجموعة التي مع النبي موسى(ع) وهم بنو إسرائيل، قالوا للنبي(ع):

{إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}، حتما سوف يدركوننا، وسيلحقون بنا وسيصلون إلينا.

من الواضح جدا أنهم لا مهرب لهم، ففرعون خلفهم والبحر أمامهم.

(قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ{62})
{قَالَ}، النبي موسى(ع):

{كَلَّا}، نفي لما تقولونه، لن يدركونا ولن يصلوا إلينا، {إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}، المسؤول عني من مستوى إلهي الذي أمرني بالخروج من مصر، وهو أعلم بما يحصل، وهو سبحانه سيهديني وسيضعني على الشيء الصحيح الذي يوصلني للغاية الصحيحة، وسيدلني على الحلّ وسيساعدني.

يعني لم يكن النبي موسى(ع) يعلم ماذا يفعل، حيث كان المخطط أن يسبقوا فرعون ويقطعوا البحر إلى الجهة الأخرى... ويصيروا بعيدين جدا عن فرعون ربما في مناطق غير تابعة لنفوذه، أو ربما يفقد أثرهم... أو يتركهم لشأنهم... ولكن حين رأى جيش فرعون قادما باتجاههم لم يجد حلا لهذه المشكلة، ولكنه واثق تماما به تعالى أنه سييسّر له حلا لهذه المشكلة.

(فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ{63})
{فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ}، وصلت إليه (ع) منه سبحانه المعلومات التالية، معلوم أن كل أنواع تواصله تعالى مع كل مخلوقاته تكون وحيا أو من وراء حجاب وذلك بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وطبيعة مخلوقاته فلا إمكانية للتواصل المباشر، ولذلك كل تواصله تعالى مع كل مخلوقاته يوصف بأنه وحي لأنه ليس كلاما مباشرا من القائل.
لمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 51 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ}...

{أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ}، ضرب النبي موسى(ع) البحر بعصاه، {فَانفَلَقَ}، صار في البحر شقوق كبيرة، {فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ}، كل شقّ في البحر، {كَالطَّوْدِ}، كالشامخ ارتفاعا ووقوفا، {الْعَظِيمِ}، الضخم من العرض والطول الكبير للحائط المائي.

من المشهور جدا أن كلّ فرق "كل شقّ" في البحر، مرّ فيه مجموعة من بني إسرائيل، الذين كانوا مجتمعين على الساحل على شكل مجموعات كعادتهم حيث كل مجموعة لها جدّ واحد من أبناء النبي إسرائيل "يعقوب"(ع)، يعني انفلق البحر لعدة ممرات كما تقول الآية هنا.

كلمة طود لم ترد في القرآن إلا هنا، وتوصيف علو الممرات لم يرد في القرآن إلا هنا بالطود، لم يصفها بالجبل، ومخزون تراثنا الثقافي يشير لجبال من الماء، لذا نفسّر كلمة طود هنا بأنها مرادف لجبل، وهذا غير صحيح، وكلمة طود في كلام العرب قديما كانت مستعملة لعموم ما شمخ علوا، وكثيرا ما استعملوها لوصف إنسان يريدون وصفه بالقيمة العالية فهو واقف شامخا.

للأسف أيضا وأيضا، انفلت منّي في هذه الدراسة وصفي للممرات بالجبال متأثرا بمخزوني التراثي، وحاولت مراجعة كل ذلك وتصحيحه، فاعذرني إن بقي شيء ما بدون تصحيح.

بناء عليه كلا البحرين النيل والأحمر مرشحان ليكونا مكانا لغرق فرعون وجنوده، حيث إن معدل ارتفاع النيل "حاليا" بدون الأماكن التي تدخّل فيها الإنسان هو وسطيا قرابة العشرة أمتار، وهذا الارتفاع كاف لوصفه بالطود العظيم، والبحر الأحمر فيه ارتفاعات مختلفة والكثير منها قابلة لتوصف بالطود العظيم لو خمّنا حصول الانفلاق فيها.

سبحانه يمكنه تجهيز الممرات البحرية لهم قبل وصولهم إلى شاطئ البحر، ولكن يبدو أن سبحانه أراد إعلامنا جميعا بأن انفلاق البحر له علاقة بتأييده للرسول موسى(ع)، ضرب النبي موسى(ع) للبحر، وانفلاق البحر هو فقط لنعلم أن هذا الشخص مؤيّد منه سبحانه، في الحقيقة ضرب البحر بالعصا لا يسبب انفلاقه بهذا الشكل أبدا، ولكن سبحانه أمر البحر بالانشقاق حينما تلامسه ضربة عصا النبي موسى(ع) لنعرف أن البحر لم ينشق لوحده، ولا صدفة، ولا بسبب قدرة النبي الشخصية... بل بقدرته سبحانه الذي يساند نبيه موسى(ع) بشكل علني واضح ملموس.

أنبهك على ذلك لأننا نجد في بعض كلام اليهود والمسيحيين والمسلمين أن النبي موسى(ع) كان لديه علم بحالة المدّ والجزر، فاختار في زمن محدّد وقت الجزر "للبحر الأحمر" ليهرب ببني إسرائيل، وهو يعلم بأن المدّ سيكون سريعا خلفه فيحميه من أي ملاحقة... وآخرون قالوا بأنه وبأمر إلهي حصل زلزال سبّب اندفاعا قويا للمياه حتى انحسرت فمرّ بنو إسرائيل، وعاد الماء بعدها على شكل موجة ضخمة وضرب فرعون وجنوده... وبعضهم بحث عن بقعة غير عميقة من البحر الأحمر لتكون ممرا في حال انحساره... وهذه الأقوال وغيرها تصدر عمّن لا يؤمن بأنه تعالى أراد تمييز الحادثة لتتسجّل في التاريخ بضرب رسوله موسى(ع) للبحر وانفلاقه لعدة فرق عالية جدا... كل كلامهم هذا يتعارض مع توصيف القرآن للانفلاق من بقعة عميقة تشكّل فيها طود عظيم، حيطان مائية مرتفعة جدا...

كلمة بحر تشير لتجمّع كبير للمياه، سواء أكان حلوا أو مالحا، جاريا أو راقدا، وبما أن الكلام عن انشقاق البحر حصل في مصر فالمرشحان للحادثة هما البحر الأحمر ونهر النيل، كلاهما لغويا تصدق عليهما كلمة بحر.

من غير المؤكّد إن كانت حادثة إغراق فرعون وجيشه جرت في النيل أو الأحمر، وليس مهمّا معرفة ذلك لأنه مجرد بحث للفضول، إن كانت مسألة البحث من دافع التأكد تاريخيا مما يذكره القرآن لتحاكمه إن كان مصدره إلهيا، فهذه مشكلة تتم معالجتها بالنظر لكل القرآن إن كان بالنسبة لك من مصدر إلهي، وليس بالنظر إلى شيء واحد تاريخي ذكره القرآن، حيث إنك لا تملك المعرفة التاريخية التي تؤهلك لمحاكمة كلام القرآن عن حادثة تاريخية، بل تملك معطيات قليلة من الآثار وتحلّلها.

خذ مثلا حادثة معركة قاديش بين رعمسيس المصري وموائللي الحثّي، كلاهما ترك آثارا يدونان فيها انتصارهما على الآخر! بناء على الأثر الذي تجده قبل الآخر، وجهلك بالأثر الآخر ستحكم بناء على ما لديك من أثر، هل حكمك صحيح! وهل من هكذا أوضاع ستحاكم كلام القرآن عن أمور تاريخية إن كان صحيحا؟

لست بهذا الكلام أقلل من قيمة الأبحاث التاريخية ولكن أعطيها حجمها الطبيعي كونها دراسات، لا تتعامل معها على أنها حقائق دامغة نهائية وصحيحة مئة بالمئة، للتأكد من إلهية مصدر هذا القرآن انظر إلى ما يقوله عن الحقّ والباطل، وإلى ما يأمرك به وينهاك عنه، إن رأيت فيه مرجعية عالية جدا للحقّ والصلاح بعيدا عن أهواء الإنسان الفاسدة، فهل ستتبع هذا أم ترفضه؟ وهذا هو سؤاله تعالى لك وهذا هو لبّ كل القرآن بكلامه معك.

القرآن لم يذكر لك بعضا من الأحداث التاريخية ليثبت لك أن مصدره إلهي، بل ليلفت انتباهك بطرق متنوّعة للفرق بين ما يدعوك سبحانه ورسله إليه، وبين ممارسات الناس عبر التاريخ، هل ستنسى ما يفعله الفراعنة من الديكتاتوريين المجرمين عبر التاريخ، وتركّز على رفضك التصديق بانفلاق البحر وكأن القرآن ذكرها لك لتركّز عليها وتصير محور الاهتمام والأهمية، بسببها تؤمن أو تكفر، وبماذا ستؤمن وبماذا ستكفر؟ لأن الموضوع ليس عن التدقيق في التاريخ بل عن الخير والشرّ والحقّ والباطل...

نعم هناك جانب آخر من إنكار هذه الحوادث واعتبارها خرافية، لأنها حجّة لتنزيل مستوى هذا القرآن ليصير مجرد كتاب عادي، وليس إلهيا، ويصير بقية كلامه عن الخير والشرّ "الحلال والحرام" يمكننا المناقشة فيه لأنه ليس صحيحا من كلام إلهي بل مجرد طروحات قابلة للنقاش.

هذه هي المشكلة بالأساس، إن لم تقتنع "على المستوى النظري" بخير كل ما أمرك به تعالى في قرآنه، ولم تقتنع بسوء كل ما نهاك عنه تعالى مما ذكره في هذا القرآن، فقبل البحث في أي مسألة أخرى، ركّز على هذه النقطة، ما السبب الذي جعلك ترى ما طرحه القرآن من تشريعات وسلوكيات لا تعجبك؟

اسمح لي بتسهيل المسألة عليك، دعك جانبا من ادّعاء المنتمين لدينه تعالى أنهم ملتزمون بدينه، إذ إن هذا غير صحيح عموما، للأسف كلنا لم نفصل بصراحة وشفافية بين البحث "نظريا" في التشريعات والسلوكيات، وبين الموقف العملي الشخصي منها، حيث تقرأ كلام المنتمين لدينه تعالى عن الأخلاق والحقّ والخير... وترى الكثير من سلوكيات الكثيرين منهم مخالفة حتى لما تتفّق أنت عليه معهم أنه حقّ وصلاح!

للأسف لم نفصل بين كلامه تعالى في قرآنه هذا كمرجع أساسي لدينه تعالى، وبين دين المنتمين لدينه تعالى، حيث إن هناك فرق هائل في الكثير من المسائل بين الدينين.

بعبارة مباشرة، كلنا من منتمين لدينه تعالى ومن الآخرين لم نتعامل مع كلامه تعالى بتجرّد نظري لنفسّره كما هو على حقيقته حتى لو لم نرغب بالالتزام به، بل خلطنا بين ما نرغب به وبين كلامه تعالى، وأسقطنا أهواءنا على كلامه تعالى.

ما حاولت فعله في هذه الدراسة هو الفصل بين ظاهر معنى كلامه تعالى الواضح، وبين خلفياتنا الثقافية المشحونة بأهوائنا ورغباتنا السيئة، حاولت عرض كلامه تعالى عليك كما هو بغض النظر عن تطبيقي "أنا" العملي له. ولو فعلنا ذلك كلنا، لاعترفنا حتما "نظريا" بخير وصلاح ما يعرضه تعالى علينا، وانتقلنا للتركيز على مشكلة مخالفتنا لذلك عمليا، ولاحترمنا أنفسنا قائلين بأن كلامه تعالى كذا وكذا... وهو حقّ وصلاح، ولكننا لا نرغب بالالتزام به.

أقول هذا لنفسي ولك ولكل المنتمين لدينه تعالى ولكل الآخرين، طالما لم نثبّت هذه القاعدة بيننا، لنعترف نحن أولا بأننا أسرى خلفياتنا الثقافية ولأهوائنا السيئة، وأننا منها اخترعنا في دينه تعالى وفسّرناه على هوانا، وأننا منافقون وفاسقون بدرجات متفاوتة في العنوان الذي ندّعي المشي تحت رايته، وهو راية طلب الحقّ لمعرفته للالتزام به، فإن هذا ليس صحيحا كما هو على إطلاقه. طالما لم يعترف الآخرون بأنهم ليسوا صريحين وأن القاعدة عندهم علنا ليست لاتّباع الحق والصلاح بل اتباع ما يهوونه حتى لو كان باطلا وسيئا.

طالما كلانا لم نعترف بذلك، فسندور كلنا في حلقة مفرغة ولن نتقدم حتى على المستوى النظري، على الأقل لنعترف بالحقّ والصلاح "نظريا" ونعترف بأننا نخالفه عمليا في هذه المسألة أو تلك، لأن هذا هو المهمّ وبعد ذلك نبحث فضولا عن آثار تاريخية لما ذكره تعالى في قرآنه.

(وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ{64})
{وَأَزْلَفْنَا}، قرّبنا درجة درجة، بعد دخول بني إسرائيل البحر، {ثَمَّ} "فتحة على الثاء" {الْآخَرِينَ}، وهم فرعون وجنوده، أثناء عبور بني إسرائيل في البحر وقبيل وصولهم للناحية الثانية بدأ فرعون وجنوده يقتربون منهم عبر قطع المسافات في الممرات.

كلمة {ثَمَّ} هنا تجعل الجملة هكذا: أزلفنا بني إسرائيل، وحصل بعد ذلك نفس الفعل وأزلفنا الآخرين. هذه الجملة اختصرت الكلام عن دخول بني إسرائيل البحر ودخول فرعون وجنوده بعدهم، وباستعمال كلمة {ثَمَّ} أعطت الجملة معنى حصول إزلاف لبني إسرائيل من البحر، اقترابهم منه أكثر فأكثر، ونفس الشيء حصل مع الآخرين.

هذا التعبير بـ "الإزلاف و{ثَمَّ}" يشير إلى قرب المسافة بين خروج بني إسرائيل من الممرات واقتراب الجنود منهم، مما يرشّح كون الحادثة حدثت في بحر عرضه قليل نسبيا، مما يقوّي احتمال حصول حادثة الانشقاق في نهر النيل وليس في البحر الأحمر.

(وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ{65})
{وَأَنجَيْنَا}، خلّص سبحانه من الخطر قبل وقوعه، {مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ}، من بني إسرائيل، {أَجْمَعِينَ}، كلهم وبدون استثناء نجوا من الغرق.

(ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ{66})
{ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ}، حالما خرج آخر شخص من بني إسرائيل من شقوق البحر، وحالما صار آخر جندي من جيش فرعون في البحر، تهاوت الجدران المائية، والأطنان من المياه انهارت على فرعون وجنوده وحطمتهم وأغرقتهم وماتوا اختناقا من الماء...

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ{67})
{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ}، في تلك الحادثة، {لَآيَةً}، شيء مميّز، دليل واضح على تدخّله ودعمه تعالى لرسوله موسى(ع).

{وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم}، ولم يكن أكثر الناس، {مُّؤْمِنِينَ}، معتقدين بهذه الآية. من سمع بهذه الآية واعتقد بصحّتها فمن المفروض أن يؤمن بدينه تعالى، إذ إنها ليست حادثة عابرة، حيث هناك خروج لأناس من تحت حكم فرعون ولم يكن ليقبل أبدا فرعون بذلك، وأصلا مرّت السنين على تعرّض فرعون وقومه للمصائب لأنهم لم يسمحوا لبني إسرائيل بالمغادرة... وهذا الخبر حتما اشتهر في حينها، مضافا إليه حادثة تحدّي السحرة... وهناك موت لفرعون وجنوده الذين كانوا مرعبين لبقية شعوب المنطقة... وهناك آلاف من الناس من بني إسرائيل مرّوا من الممرات المائية الضخمة... ونقلوا ما حصل معهم للآخرين...

من الآية 7 من سورة يس {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}، فهمنا أنه سبحانه عندما خلق الناس من الأساس كان سبحانه يعلم أن الأكثرية لن تؤمن، وطبعا هذا ما حصل، حيث إن المسألة ليست مسألة وضوح آياته تعالى بل مسألة إصرار الأكثرية على الكفر عنادا وعتوا وغباء...

في نهاية هذه القصّة، نلتفت إلى فرعون وجيشه، وإلى الرسول موسى(ع)، من بداية تبدو ضعيفة مبخوعة لا أمل لها بالنجاة، إلى تدخّل إلهي ونصر ساحق، من سوء حكم فرعون الذي لا يناقش عاقل فيه، إلى عقلانية طرح النبي موسى(ع) مدعوما بآيات...

بقي شيء، هنا وهناك تجد كلاما ساخرا عن حادثة انفلاق البحر، على أساس أنها أسطورة مبنية على فكر طفولي ساذج... وترى أنهم لم يفهموا تقديره تعالى للأمور لتصل إلى حصول حادثة الإغراق لنرى منها كيف يصل الإنسان بجنون العظمة والتكبّر والكفر لدرجة رؤيته لانفلاق البحر، ورغم ذلك دخوله فيه لارتكاب جريمة مجزرة قتل بأبرياء!

مسألة اختفاء أي أثر لهذه الحادثة في الآثار المصرية، ليس دليلا على أنها لم تحدث، لأن الآثار التي تركوها عن التأريخ معلوم تشويه الحقائق فيها، وتراه في الانتصارات المزعومة على الآخرين، وكمثال على ذلك معركة قادش بين رعمسيس والحثيين، حيث ادعى كلا الطرفين النصر فيها... وبالنسبة لحادثة الإغراق لا مصلحة لهم في ذكرها ولا بأي شكل، لأنها دليل على فساد دينهم، وهزيمة مهينة لهم.

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ{68})
{وَإِنَّ رَبَّكَ}، المسؤول عنك من مستوى إلهي، أيها الرسول (ع) "وأيها المؤمن"، {لَهُوَ الْعَزِيزُ}، الموصوف بكل ما تحمله كلمة عزيز من معنى، والعزيز وصف لنفي عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... هو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... لا تبخع نفسك أيها الرسول(ع) لأن ربّك عزيز لا يتأثّر أصلا حتى لو كفرت كلّ المخلوقات، وعزيز يمكنه فعل ما يريد، ويمكنه تعالى جعلهم مؤمنين غصبا عنهم ويمكنه تعالى إعادة إحيائهم لمحاسبتهم، ويمكنه تعالى تعذيبهم هنا أو في الآخرة...

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ}، {الرَّحِيمُ}، الموصوف بالعناية الخاصّة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم بكل ما تحمله كلمة رحمة من معنى، يخاطبهم بهذا القرآن حتى يؤمنوا وبعدها يفوزون بالجنة، في مقابل الأكثرية التي بسوء فعلها أخرجت نفسها من رحمته تعالى.

انتبه أيها السامع للقرآن، اهتمامه تعالى بالناس ليهديهم ليس نابعا من حاجته لهم، لأنه العزيز وسبحانه لا يستفيد ولا يتضرر منهم بأي شيء، والسبب لاهتمامه تعالى بالناس ليبعث لهم رسولا، أن بينهم من سيؤمن وسبحانه رحيم بالمؤمنين يؤمّن لهم ما يساعدهم على الاهتداء.

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ{69})
{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ}، واقرأ على الناس مستنداً على هذا الوحي، {نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ}، خبراً غيرَ منتشرٍ عِلْمُهُ بين الناس عن الشخص المعروف المشهور بينكم وهو إبراهيم (ع).

تذكّر أن السورة في أجواء {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ}، حيث تذكر لك هنا مختصراً عن نموذج لمؤمن سابق "مثلك" عانى أشدّ المعاناة مع قومه المتدينين بعقيدة سُوءُها واضح بأقل تأمّل.

تلاحظ أننا لا نجد إشارةً واضحةً في القرآن تدل على نزول الوحي على الشابّ إبراهيم حين جرت هذه الحوادث معه، مما يشير بقوّة إلى كونه (ع) نموذجاً فريداً فيما وصل إليه من درجة إيمان ومعرفة دينية باتباع قلبه السليم فقط. ولذلك أغفلنا وصفه بالنبوة في بعض الأحيان حين تحدّث القرآن عن مرحلة شبابه حتى تلتفت إلى كونه لم يكن تواصل معه تعالى بالوحي ليصير نبياً.

هذا التحليل الذي يبدو صحيحاً، يعطيك عمقاً لن تراه إلا حين تنظر إليه (ع) كأي إنسان آخر، مع الفارق الهائل في كونه (ع) باتباع قلبه السليم توصّل إلى أعلى درجات الإيمان من دون أي تواصل إلهي معه عبر الوحي أو غيره.

طبعاً هذا الكلام مبني على تحليل آيات القرآن، أمّا الروايات فمشحونة بأخبار نزول الوحي عليه (ع)، وتكلّم الملائكة (ع) معه وهو شابّ... فأنت وشأنك فيما تختار بين القرآن والروايات، أو تجمع بينهما بطريقة ما، ولكني ألتزم بما أجده في القرآن إلى أن يتبين لي غير ذلك بدليل.

لمزيد من التوسّع حول هذا، راجع دراسة الآية 56 من سورة الأنبياء {قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ}.

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ{70})
{إِذْ قَالَ} إبراهيم (ع) {لِأَبِيهِ} "آزر" {وَقَوْمِهِ}، وللناس الذين لهم كيان الجماعة وينتمي إبراهيم (ع) وأبوه لجمعتهم:

{مَا تَعْبُدُونَ}؟ ما هذه الأشياء التي تعتبرون أنفسكم مرتبطين بها كالمفروضِ عليكم تأليهُها وطاعتُها؟ اشرحوا لي وأقنعوني بقيمتها لأعلم سبب تأليهكم لها.

هناك خلاف في الروايات والتفاسير حول هذا الشخص الذي يناديه النبي إبراهيم (ع) في القرآن: أبي. فبعضُهم قالوا: هو أبوه الحقيقي "والده الذي أَوْلَدَهُ". وآخرون قالوا: لم يكن والده بل عمَّه، وربّاه منذ طفولته، واعتاد النبي إبراهيم (ع) أن يسميه أبي.

ورد في التوراة أن اسم والد النبي إبراهيم (ع): تارخ. بينما الشخص الذي يتحدث عنه القرآن اسمه: آزر. وورد ذلك في الآية 74 من سورة الأنعام {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ...}، فيمكن الاستنتاج أن الذي ربّاه اسمه آزر، ووالده تارخ، وهذا على ذمّة من كتب التوراة...

لا تنسَ أن العرب ينادون العم بكلمة: أبي. القرآن استعمل نفس التعبير كمثال على ذلك حين تحدّث أولاد النبي يعقوب (ع) عن آباءِ أبيهم وذكروا من ضمنهم عمَّه النبي إسماعيل (ع) كما ورد في الآية 133 من سورة البقرة {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...}.

على كل حال، الآية 41 من سورة إبراهيم (ع) نقلت عن النبي إبراهيم (ع) دعاءه بالاستغفار لوالديه "وليس لأبويه" حين كان شيخاً كبيراً {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}، ونعلم أن النبي إبراهيم (ع) استغفر فعلاً لأبيه "آزر"، وكان النبي إبراهيم (ع) حينها "شاباً"، ولكن بعدما تبيّن للشابّ إبراهيم (ع) أن آزر عدو لله تعالى تبرّأ منه كما تقرأ في الآية 114 من سورة التوبة {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ...}، إذاً كما هو واضح، لدينا استغفار حين كان (ع) شاباً "لأبيه" لآزر، وبعدها تبرّأ منه، ولدينا استغفار "لوالديه" وكان كبيراً في السنّ. مما يعني أنه (ع) حين صار شيخاً كان يستغفر لوالديه اللذين "ولداه"، لأن آزر لم يكن "والده" بل عمَّه أو أحد أقاربه أو شخصاً تولّى العناية به وتربيته... ولذلك كان يناديه أبي.

(قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ{71})
قالوا، أبوه وقومه: {نَعْبُدُ أَصْنَامًا}، وهي منحوتات من الصخر أو الخشب ونعتبر أنفسنا عبيدا لها، {فَنَظَلُّ لَهَا}، ونداوم لتلك الأصنام، {عَاكِفِينَ}، ملازمين، ونستمر في تعبيرنا عن عبادتها، فهي آلهتنا ولها مكانة عالية ونحن نداوم على التعبير عن ذلك.

وهذه صورة مجتمع متدين بغالبيته الساحقة، فعبادة الأصنام ليست حالة عرضية أو في المناسبات... بل هناك هوى جماعي في التعبير عن عبادة الأصنام.

(قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ{72})
قال، إبراهيم(ع): {هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ}؟ حين تتوجّهون إليها بالكلام معلنين ومشهرين أنكم عَابِدُونَ لها فهل تسمعكم؟

فهي أصنام منحوتة، بأيّ منطق وأيّ عقل يسمعكم التمثال؟! وما الفرق بين الحجارة قبل أن تنحتوها وبعدما صارت تمثالا! وهل تسمعكم الحجارة!

توقّف هنا قليلا لترى لبّ السورة، هل هناك أوضح من سوء نحت تمثال وعبادته؟ وهل كلامه (ع) إلا العقلانية؟ وهل أمام هذه النوعية من الناس من المفروض أن يَبْخَعَ (ع) لأنهم لم يؤمنوا؟! وأنت أيها النموذج محمّد(ع) وأيها المؤمن، هل تعتقد أنه من المفروض بعد كفرهم بالقرآن الذي من مصدر إلهي أن تقع تحت شعور فقدان القدرة والإرادة على فعل أي شيء معهم ليؤمنوا؟ كما ترى فإنَّ اعتقادهم وأفعالهم واضح سُوءُهَا، ما معنى الاهتمام بإيمانهم وهم قرّروا الكفر عنادا!

(أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ{73})
{أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ}؟ هل يمكن للأصنام أن تفيدكم بشيء؟ ترزقكم أو تشفيكم...؟ وكيف يفعلون ذلك؟

{أَوْ يَضُرُّونَ}؟ إذا لم تعبدوهم أو لم تقدموا لهم القرابين فهل بإمكانهم تغيير حالكم للأسوأ؟ والحجر من بعدما تنحتونه ويصير تمثالا بأيّ منطق تعتقدون أنه يصير لديه قدرات تنفعكم! وبأيّ منطق تعتقدون بأنه سيضرّكم إن لم تعبدوه!

قارن بين ما يسألهم (ع) عنه وبين ما سيقوله حين يعرّفهم بربّه سبحانه، "... {يُمِيتُنِي} {يُحْيِينِ} {يُطْعِمُنِي} {يَسْقِينِ}... {اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ}...".

(قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ{74})
قالوا، أبوه وقومه: {بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا}، أهلنا وأجدادنا، {كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}، أي وجدناهم يعكفون على عبادة هذه الأصنام، لا بد أنهم يعرفون بأنها تسمع وتضر وتنفع، ومن غير المعقول أنهم لم يعلموا لماذا عبدوها. نحن لا يوجد لدينا دليل ولا حجّة على أنهم يَسْمَعُونَنَا، أو يَنْفَعُونَنَا، أو يَضُرُّونَنَا، ولكن اعتمادا على آبائنا عبدناهم، حتمًا هم كان لديهم سبب وجيه عقلاني لفعل ذلك.

نلاحظ ورود مفهوم "تقليد الأجداد" مرارا في سور مختلفة من القرآن، من أنت لتغيرها؟ ومن نحن لنفكّر فيها إن كانت صحيحة أو فاسدة؟ هذه ثقافتنا وعاداتنا وتقاليدنا وديانتنا منذ القدم، كيف نتخلّى عنها؟ نحن لسنا مضطرين للتفكير بصحتها أو خطئها، أجدادنا كانوا عابدين لها، ونحن استمررنا على هذا التقليد وليس لدينا أي مشكلة معها.

هذا المفهوم لتقليد الأجداد ليس حجّة مقبولة، وليس في مسألة عبادة الأصنام فقط، بل في أي مسألة كانت، فأكثر ثقافتنا الدينية موروثة من الأجداد، وفيها ما يوافق القرآن، فهو على الرأس والعين، وفيها ما يخالف القرآن ويتمسّك به بعض الناس! وفيها ما لا دليل عليه من القرآن، ولا يتماشى مع مفاهيم القرآن، ولست مضطرا لاتباع هذه الأمور إلا إن وجدت عليها براهين أنها اشتقاقات مبنية على مفاهيم قرآنية.

لا يوجد عذر اسمه: {وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا}. إن كانت شريعة أو عقيدة أو سلوكيات... مخالفة لكلامه تعالى فعليها حساب وعقاب.

(قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ{75})

قال، إبراهيم(ع): {أَفَرَأَيْتُمْ}، أسألكم إذا حصل عندكم صورة محدّدة لـ، {مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ}، الذي تعتبرون أنفسكم عبيدا له ومفروضاً منكم تقديسه وتأليهه وطاعته...

(أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ{76})
تلك الأصنام التي تعبدونها، أنتم، الآن، وآباؤكم، وأهلكم وأجدادكم، الأقدمون، الذين من قبل تقدّموا وكانوا أحياء وعبدوها.

أنا لا يهمني من عبدها، ومن كان، ومدى قدمه، ولا كم كان عددهم، وها أخبركم:

(فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ{77})
{فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ} فإنهم، تلك الآلهة هي، عدو لي، لأنني أعمل على إلحاق الضرر بها من كرهي لها، إلا رب العالمين، إلّا المسؤول عن كل الناس من مستوى إلهي، وهذا فقط لا أعاديه.

كما وجدنا إشارة في الحوار السابق بين النبي موسى(ع) وفرعون عن عقيدة المشركين بأنهم لا مشكلة لديهم في أن يكون للأقوام الأخرى آلهة خاصة بهم، هنا نفس الشيء، حيث إنَّ قوم النبي إبراهيم(ع) لديهم آلهتهم الخاصّة بهم، ويعترفون بآلهة الأقوام الأخرى بأنها آلهة ولكن ليست آلهتهم، لكل قوم آلهة خاصّة بهم. وهنا ترى كلام النبي إبراهيم(ع) يتضمّن الردّ على هذه العقيدة التي لا عقلانية فيها، لأن الربّ الخالق المسيطر... يكون ربّا لكل العالمين، وهذا التفسير الوحيد للأمور المشتركة بين كلّ الناس، لأنه من غير المنطقي أن إله هذه الجماعة يسبّب الليل والنهار، وإله الجماعة الأخرى يسبّب الليل والنهار لهم... هذه ظاهرة واحدة مسؤول عنها إله واحد، ومثلها كل بقية الأمور التي تدل على ربّ واحد مسؤول عنها.

من هنا يبدأ إبراهيم(ع) بالتعريف بما يفعله الرب الحقيقي.

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ{78})
وربي هو، {الَّذِي خَلَقَنِي}، ألّفني وركّبني من المواد وجعلني كائنا حيّا، {فَهُوَ يَهْدِينِ}، يضعني على الأشياء الصحيحة التي تدلني على الغاية الصحيحة.

كلنا متفقون على وجود خالق لنا ولما حولنا، وما تعبدونه حتما ليس إلها، وأنا عندما أنظر إلى نفسي وما حولي أستدل على الإله الحقيقي، وبكل بساطة أعلم أنه خلقني، وبكل بساطة أعلم أنه سيدّلني على نفسه لأتعرّف عليه.

ضع في بالك أن القرآن مشحون بلفت انتباهنا للسماوات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والمطر والريح والجبال وألوانها والنباتات واختلافها والحيوانات والاستفادة منها والفلك... إبراهيم وقبل نزول الوحي عليه التفت لآياته تعالى، وهذه حال عموم المؤمنين، والبعض منهم يكون قلبه سليما بدرجة عالية فينزل عليهم الوحي الإلهي ويصيرون موصوفين بأنهم أنبياء، ولكن غالبا القرآن يذكر لنا "إبراهيم" ليشير إلى نموذج راق جدا جدا من البشرية، حيث وصل إلى أرقى المعرفة به تعالى بدون نزول أي وحي عليه، وذلك عبر النظر في آيات خلقه سبحانه للسماوات والأرض، وما نقرأه هنا يعرض لنا قوله (ع) النابع من قلبه السليم وليس من الوحي، لن تجد ولا تصريحاً قرآنياً بنزول الوحي عليه أثناء هذه الحوادث أو قبلها.

(وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ{79})
{وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ} وربي هو، {الَّذِي} {يُطْعِمُنِي}، يؤمّن لي ما يسدّ جوعي ويغذّيني، وأنا بواسطة الجسد الذي منحه تعالى لي آكل من النباتات والحيوانات التي خلقها سبحانه.

وربي هو، {يَسْقِينِ}، أتاح الماء الصالح للشرب في بيئتي، وجعل عندي القدرة على الشرب والارتواء.

أمّا آلهتكم، فما دخلها بطعامي وشرابي ونموّي واستذواقي لطعمها...

لا يقصد النبي إبراهيم(ع) أبدا أن ربّه سبحانه يقدّم له الطعام والشراب مثل الجالس في مطعم، بل بكل بساطة تفهم قصده بأن الطعام من زراعة النباتات وتربية الحيوان... والشراب من الأنهار والمطر... متوافر، وأمّنه تعالى لعبيده وليست الأصنام التي أمّنته.

ما معنى توافر الطعام والشراب لكل الناس على مختلف بقاع الأرض وأنتم تعتقدون بأن لكل قوم آلهة خاصة بهم؟ هذه أمور مشتركة بين الجميع ومن الواضح أنها من تصميم وفعل إله واحد.

تذكّر دائما المثال الذي ضربناه في العديد من السور عن مقارنة تخيلية بين خلقه تعالى لنا وبين تصميمك أنت لمخلوقات في بيئة، لنقل إنك خلقت أسماكا في حوض ماء، وصمّمتها بأقصى ما تمكّنك قدراتك من جعل تفاصيل فيها، وصمّمتها تتوالد وتنمو وتكبر وتأكل... الآن، هل سترشّ لها الطعام على سطح الماء أم ستجعل البيئة تنتج لهم الطعام؟ كما ترى على كلا الحالتين أنت أطعمت مخلوقاتك، ونفس المفهوم هنا تنقله الآيات عن لسان "إبراهيم" الذي يرى مواصفات من صمّمه وخلقه في نفسه وفي بيئته وفي أكله وشربه، سبحانه الذي خلقنا وخلق بيئتنا متيحا لنا فيها ما نأكله، هو أحيانا ويميتنا ويرزقنا ويطعمنا...

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ{80})
{وَإِذَا مَرِضْتُ}، أصابتني علّة "خلل" في بدني، {فَهُوَ يَشْفِينِ}، يصححني منها.

كما لا ينزل عليه (ع) الطعام والشراب جاهزاً بلا عمل، فكذلك الشفاء لا يحصل بلا دواء أو بدون مقاومة الجسد للمرض، وهذا ما يقصده النبي(ع). يَسَّرَ لنا سبحانه دراسة الطب واكتشاف الدواء، وجعل في جسدنا القدرة على مقاومة المرض... فإذا مرضنا وشُفِينَا بالدواء أو من مقاومة الجسد للمرض فهو تعالى شفانا، أمّا الأصنام فماذا فعلت!

كما ترى فالشفاء حالة عامّة لكل الناس، وتدل على أن إِلٰهًا وَاحِدًا صمّم المخلوقات والبيئة بهذا الشكل المشترك، فما معنى تعدّد الآلهة؟!

الوصول إلى معرفة الآخرة بدون وحي ولا كتاب إلهي

(وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ{81})
ربي هو، {الَّذِي يُمِيتُنِي}، ينهي حياتي هنا في الدنيا ويجعلني لا أفعل ولا أنفعل، {ثُمَّ يُحْيِينِ}، ويعيد الحياة لي مرة ثانية في الآخرة.

هنا ينبري سؤال مهم جداً، وبناءً على ما فهمناه من عموم القرآن، افترضنا بقوّة أن إبراهيم(ع) حين قال هذا الكلام الوارد في الآيات هنا، لم يكن ينزل عليه الوحي، فهل بسلامة القلب وبدون وحي يمكن للإنسان الوصول إلى معرفة وجود بعث وحساب في الآخرة؟ نعم هذا ما يبدو من الآية 191 من سورة آل عمران {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}، السؤال عن الغاية أو الهدف أو الحكمة... هو نفسه السؤال المنتشر بيننا كلّنا عن سبب وجودنا، والملحدون يقولون إنَّ أصل مشكلتهم مع الدين الإلهي أن هذا السؤال عن الهدف من وجودنا مرفوض بالنسبة لهم، لأنه لا جواب له إلا الاعتراف بالإله المصمّم الخالق، وهذا ما لا يريدون الاعتراف به، فيقولون عبارات لا عقلانية عن الصدفة وعن بذرة من الطاقة لها خصائص نتج عنها الكون و... ليبرروا بذلك وجود الكون بلا إله خالق له، ويتحدثون عن افتراضهم لآليات خلق ما في الدنيا وكأن اكتشافنا لآليات النشأة يلغي المصمّم والخالق؟ وكأن افتراض بذرة طاقة نشأ منها الكون يلغي السؤال عمّن خلق تلك البذرة بتلك الخصائص؟

من خارج الكلام أفيدك بمعلومة تاريخية عن أول من اقترح نظرية الانفجار الأعظم وهو البلجيكي جورج لوميتر الفيزيائي الكاهن الكاثوليكي في عام 1930، ورفض العلماء نظريته لأنها برأيهم نابعة من العهد القديم "التوراة" ومبنية

على الإيمان بالإله الخالق، والمفارقة أنه بعد عدة اكتشافات فلكية تأكّدت نظريته وصارت عَلَمًا للملحدين كإثبات لنفي الإله الخالق!

نرجع للسؤال، ما معنى خلقنا مع قدرة تمييز الخير من الشرّ وقابلية اختيار فعلهما؟ لا معنى له إن لم يكن هناك جزاء، وهذا الاستنتاج مزروع فينا كنتيجة عن الفكر والنفسية وعن الحالات التي نتعرّض فيها للشرّ من الآخرين، ونتوجّه نحو قدرة فائقة قادرة "لو أرادت" على حمايتنا من شرّ الآخرين، ونتوجّه نحو قدرة نعتقد بحتمية معاقبتها لمن أضرّ بنا وآذانا... كما ترى فهو نفسه الأساس الفكري والنفسي الذي ينتج عنه تعلّقنا بقدرة فائقة عند الوقوع في الأزمات لتنجينا، كحالة الخوف من الغرق في البحر من عاصفة هوجاء، والذي كرّره القرآن كمثال نرى منه جانباً مما زرعه تعالى فينا للتعرّف عليه.

على هذا الأساس يمكن بسهولة تبرير الاعتقاد بإله سيجازي الشرّير كنتاج من سلامة القلب "الفكر والنفسية"، ولكن كيف نصل من هذا إلى الاعتقاد بوجود حياة ثانية بعد الموت للمجازاة؟ وبالتحليل نقول إننا لا نرى كل الأشرار ينالون عقاباً هنا في الدنيا على أفعالهم السيئة، فإن لم يكن هناك حياة ثانية ببعثهم من الموت لمجازاتهم، فإن السؤال عن الهدف من خلقنا سيبقى بلا جواب، فما معنى وجودنا بقدرة تمييز الخير من الشر والقدرة على فعلهما إن متنا ولم نُجَازَ؟ ولماذا أنا سأكون صالحاً لا أضرّ الآخرين بينما منفعتي الشخصية أن أكون ديكتاتوراً يَسْتَعْبِدُ كل أهل الأرض مستفيداً من قدراتهم لمصلحتي ومنفعتي... ومانعاً بذلك الآخرين من إلحاق أي ضرر بي؟...

هذا التحليل بالعمومية يبدو صحيحاً بالنظر لتاريخ تديّن الناس العلني، ويبدو من التحليل الفكري والنفسي لأقوالهم حتى لو لم يتبنّوا أي عقيدة دينية، فالقرآن ذكر لنا بوضوح أنه تعالى صمّمنا وخلقنا بحيث سينتج عن ذلك تعرّفنا عليه تعالى بفكرنا ومشاعرنا، بتفكّرنا في خلق السماوات والأرض، وبمشاعرنا من الخوف ومن الحبّ والرغبة...

بالتحليل نرى أن الفكر والنفسية توصلان لنتيجة حتمية اعتقادنا بآخرة نتجازى فيها على أعمالنا. وهذا الكلام منّي مبني في أساسه على ما تعلمته وحلّلته مما وصلني من الكتاب الذي نقله رسول إلهي، وأقول هذا لأننا هنا في هذه الفقرة نفترض بقوة أننا أمام حالة إنسان "إبراهيم" وصل لهذه النتائج فقط وفقط من سلامة قلبه، من دون وحي ولا تعلّم من أي أحد ولا من قراءة كتاب إلهي... توصّل بقلبه السليم للتعرّف عليه تعالى وللاعتقاد بالآخرة، وهذه ليست حالة شاذّة بل هي بقدرة متاحة لنا جميعاً، ووصولنا لقناعات مختلفة عن قناعات إبراهيم(ع) سببها سوء في سلامة قلبنا.

بعبارة أخرى، عليك أن تميّز بين الحالة الأصيلة للحقّ والمنقولة هنا عن نتاج فكر ومشاعر إبراهيم(ع)، وبين ما نكتبه نحن كمؤمنين ويستند إلى ما تعلمناه وحلّلناه، ومدعوماً مع محاولة تفعيل رؤيتنا للحقّ. ما أقوله أنا في هذه الدراسة بعضه نابع فعلاً من قلبي، من فكري ونفسيتي الحقيقية، وبعضه نابع من تلبّسي بحالة سلامة القلب، ككلامي النظري عن السيئات وتبيان سوئها وضررها وعقابها... هل هذا يعني أن كلامي عنها مثل كلام الأنبياء عنها؟ وهل أنا فعلاً ملتزم بكل ما أقوله؟ لا، لست كذلك، ونفس الشيء بالنسبة لاستنتاج وجود آخرة، الكتابة عن هذا الموضوع استنتاجاً من الفكر والنفسية لا تعكس حقيقة كل أفكاري ومشاعري، حين أشرح لك ما نقله القرآن عن فكر ومشاعر إبراهيم(ع)، فنحن أمام نموذج مثالي، وكلامنا الدراسي لكلامه (ع) هو محاولة تلبسنا بسلامة القلب لنعرض كلام الحقّ.

على أي حال في هذه الآيات لا نزال أمام ذكره (ع) لأمور مشتركة تحصل مع مختلف عموم الناس، فكلنا نموت، ولا معنى لذلك إلّا أن إِلَٰهًا وَاحِدًا أَحَدًا صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" بهذا الشكل، ومنه ينتقل (ع) لما استنتجه عن حتمية حياة آخرة للجميع...

من المفيد مراجعة دراسة الآية 56 من سورة الأنبياء لمزيد من التوسّع {قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ}.

(وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ{82})
ربي، {الَّذِي أَطْمَعُ}، أرغب مع أمل، {أَنْ يَغْفِرَ لِي}، أن يتجاوز عني ويسامحني على، {خَطِيئَتِي}، عن الأعمال الخطأ غير الصحيحة التي قمت بها، {يَوْمَ الدِّينِ}، في الزمن الذي تدان فيه الناس وتتحاسب على ما قامت به في الدنيا، وهو يوم القيامة من الموت.

في الآية السابقة تحدّثنا عن مصدر معرفته (ع) بوجود يوم ندان فيه.

كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، فهي ليست اصطلاحاً مخصَّصاً كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الاسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، فهي عامَّة تبعات شيء ما على أحد ما، أنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئاً ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني فأنا مدين له، وخلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعاً بسبب وساعة تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... كلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة فهناك ندان بأعمالنا، ما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هي التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضاً يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسباً بحكمته يَدِينُنَا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

لا يخطر ببالنا أبداً أن إبراهيم(ع) ارتكب معصية مثل معاصينا نحن ويستغفر منها، فهذا مستحيل لأن مستوى سلامة قلبه يجعله كارهاً لكل أنواع السوء، مثلما أنت تكره الكذب أو الغيبة أو الخيانة أو الغشّ أو قتل الأبرياء... ومن الانتباه لأي سوء تكرهه أنت ستعلم أن الناس من درجة سلامة قلب أعلى منك سيكرهون بقية السيئات التي تعلم بسوئها ولكنك رغم ذلك تقوم بها لأنك لم تكرهها ولا تزال تَرْغَبُهَا.

نحن لا نتوقّع من شخص كإبراهيم القيام بعمل سيئ عن قصد، لأن سلامة القلب من مستوى عَالٍ تجعل الشخص كارهاً لكل السيئات، لذا لن يفعلها لأنه لا رغبة له بها بل ويكرهها، ولكن الخطأ يبقى توصيفه خطأً حتى لو ارتكبناه عن غير قصد أو نسينا القيام بما يجب علينا القيام به، أو بسببنا حصل سوء غير مقصود، مثلاً لو أوكلنا من ظننا أنه جدير بالثقة ليكون أميناً على أموال الآخرين فاختلسها، فهذا خطأ نتحمّل نحن مسؤوليته...

مضافاً لذلك هناك أمور من مستوى: حسنات الأبرار سيئات المقربين. ابتسامتي الدائمة لأولادي وتعبيري عن غضبي منهم عند إزعاجي، نعتبره تصرفاً عادياً، مع أن تعبيري عن مستوى غضبي عليهم عند إزعاجي هو بنفس القوّة أو أقل عند قيامهم بسيئة! أمّا المترقّون في الأخلاق العالية فالتعبير عن غضبهم على أشياء تافهة هو السيئة التي يستغفرون منها، وأنا أضرب مثالاً افتراضياً لأني لا علم لي بالأخلاق العالية من تلك الدرجة.

أمّا الكلام الذي تجده منتشراً عن النقاش في عصمة الأنبياء، على معنى أنهم لا يصدر منهم سوء لأنه تعالى خلقهم بفكر ونفسية متميزة عن البقية فلن يصدر منهم سوء، أو بسبب تدخله تعالى لمنعهم، أو تسييره تعالى للأمور بحيث يتجنبون فعل السوء... أو أنهم يفعلون بعض السوء... فغالب كلامهم بعيد عن كلام القرآن الذي أكّد أنه تعالى جعل فينا جميعاً نفس القدرة على تمييز الخير من الشرّ، وبعض الناس كارهون للسوء ومتمرّسون على كرهه فلا يفعلونه، هؤلاء يختارهم تعالى ليكونوا أنبياء ورسلاً.

بعلمه بالغيب سبحانه لما سنكون عليه اختار ولادة عيسى(ع) بلا أب وميّزه بقدرة النطق منذ صغره... فلا تظنّ أنه تعالى عبثياً وانتقائياً شاء لعيسى أن يكون متميزاً بإيمانه وعمله الصالح فأجبره وبرمجه ليكون كذلك، لا، بل من علمه تعالى بالغيب بأن هذا المخلوق سيكون مميزاً بصلاحه، منذ طفولته اعتنى به. ولو أنا خلقني سبحانه بلا أب وأنطقني من المهد... وحين كبرت مَنَحَنِي قدرات شفاء المرضى وخلق الحياة في الطين وإحياء الموتى... فلن يزيد إيماني الذي أنا عليه حالياً ولو لشعرة، بل أكفر بل أعلن للناس أني إله... وترى هذا المعنى واضحاً من كلام النبي سليمان(ع) المنقول عنه في الآية 40 من سورة النمل {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}.

هذا الكلام من ناحية فكر ونفسية الذين جعلهم تعالى أنبياء ورسلاً، فهم كارهون للسوء، وهذه هي ما يمكن أن تسمّيه عصمتهم، أي ما يمنعهم عن ارتكاب السوء هو سلامة قلبهم فهم كارهون للسوء... ولكن يبقى جانب السهو والخطأ غير المقصود، فهم بشر ويشتبهون في شيء ما أو ينسون... وهنا من الواضح في القرآن أنه تعالى يتدخّل بشكل مباشر وصريح حتمًا فيما يتعلّق بكونهم خليفة له تعالى في الأرض، وراجع في ذلك مثال تدخّله تعالى عبر ملكين احتكما عند النبي داوود(ع) من الآية 21 وصولاً إلى الآية 26 من سورة ص {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ}...، وكمثال آخر تدخّله تعالى لضمان وصول القرآن كما هو إلى الناس كما تقرأ في الآية 6 من سورة الأعلى {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ}، ويمكنك أن تسمّي ذلك بالعصمة الإلهية لهم، وهي حتمية فقط فيما يخص تمثيلهم لدينه تعالى كخليفة له تعالى.

أمّا بالنسبة لبقية أمور حياتنا، فمن الواضح جداً من سورة يوسف في سردها لأحداث حياة النبي يوسف(ع)، سبحانه وبشكل لا نراه بتاتاً، يتدخّل لتسيير الأمور بحسب حكمة ورحمة يراها تعالى، ومع أن الكلام عن هذا لا يبدو له علاقة مباشرة مع البحث عن العصمة إلا أنه يعطيك صورة تستحضرها في بالك عن تدخلاته تعالى.

هكذا ترى بسهولة تطبيقاً عملياً لمساعدته تعالى للمؤمنين ليهتدوا وليزدادوا إيماناً، سبحانه لا يقوم بمقالب أو احتيال أو مكائد... للناس حتى يفسقوا أو ينافقوا، لا، فهذا مستحيل، فقط بالبلاء تظهر حقيقتنا الكامنة، فيزداد المؤمن إيماناً، وخذ مثالاً عن ذلك رميهم لإبراهيم من بعيد على النار من شدّة كبر حجمها، وبقائه على إيمانه وهو يرى أنه سيحترق... ويظهر نفاق المنافق وفسق الفاسق فيتراجع عن إيمانه لأهون سبب...

لا الأنبياء معصومون منه تعالى بشكل يجبرهم على أن يكونوا صالحين، ولا أنا تركني تعالى بلا مساعدة، ولا كنت من داخلي صالحاً فابتلاني متقصداً إغرائي لأفعل السوء.

(رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ{83})

{رَبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {هَبْ لِي}، أعطني من دون أي مقابل منّي لك، {حُكْمًا}، اجعلني حكيما فأرى الصوابية في الأمور، فتصير أفكاري وأفعالي وكلماتي على الصوابية على الحق والصلاح، ويصير لها أهداف حسنة وسامية وليست عبثية أو سيئة.

{وَأَلْحِقْنِي}، واجعلني ألتحق واضممني، {بِالصَّالِحِينَ}، بالأشخاص الذين قاموا بالأعمال الصالحة الجيدة الحسنة، واجعلني الآن في حياتي ومن بعد مماتي من المحسوبين من مجموعة العاملين للصالحات.

بالنسبة للوصف بالصالحين خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، والصالحون باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفةً بالصلاح وحسنةً جيدةً، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، فعمليا هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادةً نفسّر {عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إنهم صلّوا وصاموا... وهذا عمليا صحيح، ولكن بالأصل الكلام أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحةً جيدةً.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموما وحتى بين المؤمنين، أنّ الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائما أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأنّ القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به.

هذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعا ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنّ في قلبك خللاً منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّا لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلا سيّء" فسيكون في الحقيقة اختراعاً من البشر لصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمرا إلهيا.

(وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ{84})

يا رب، {اجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ}، فما أقوله بلساني اجعل الناس الآخرين، الذين سيأتون في الآخر، في الأجيال القادمة، اجعل كلماتي صادقة عندهم. وليبقَ منّي أثر كلماتي الإيمانية وليصل ذلك إلى الناس من بعدي ليروه صادقاً ويؤمنوا به.

نلاحظ أناساً يهتمون بترك أثر لهم في التاريخ، فيهتمّ بتسمية شارع باسمه، أو كليّةٍ أو مسجدٍ... وبعضهم يؤلّف كتباً... وآخرون يسجلون مواقف تاريخية... وبعضهم يعتبر الولد امتداداً لاسمه... هذه الأفكار لها خلفيات فكرية ونفسية مختلفة تختلف عمّا قصده النبي إبراهيم(ع) الذي عمل على هداية المعاصرين له، ويريد أن تنتقل أقواله لتهدي الناس من بعد مماته، وهذا يتأيّد بما نعلمه عن وجود صحف مكتوبة منسوبة للنبي إبراهيم(ع)، كما ورد في الآية 18 و 19 من سورة الأعلى {صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}، فعلى ما يبدو هي محاولته الحفاظ على استمرار نقل المعلومات السليمة للأجيال من بعده، مثل وصيته (ع) لأولاده بالإيمان والصلاح، وتوصيته لهم أن يوصوا أولادهم بذلك، ليوصوا أولادهم وهكذا... كما ورد في الآية 132 من سورة البقرة {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}.

هذا من ناحيته(ع)، ومن ناحيته تعالى اعتبره نموذجاً وعلامة مميزةً في التاريخ وناسباً له كل المؤمنين من بعده كما تقرأ في الآية 78 من سورة الحجّ {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ}.

(وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ{85})
يا رب، {اجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ}، من الذين يرثون أي يملكون بلا استرداد من المالك، {جَنَّةِ النَّعِيمِ}، المكان الموصوف بروعة ما فيه وكل ما فيه موصوف بأنه نعمة من أعلى المستويات، حيث يتنعم ويسعد ويفرح من فيها بقصورها وبساتينها...

تذكّر أنّ توريث الجنّة للمؤمنين ورد عدة مرات في القرآن، وكلمة إرث تشير لصَيَران ملكية بلا استرداد من المالك السابق، وهذا نَصِفُ به حالة إرثنا من ميّت، حيث تنتقل الملكية منه إلينا ولن يستردّها الميّت منا. ولكن الميراث ليس محصورا بانتقال الملكية من ميّت، فهو لعموم انتقال الملكية بلا استرداد من المالك السابق.

استعمل القرآن كلمات دقيقة لوصف حالة الكفّار الخالدين في جهنّم بأنهم في مثوى، في مكان لا يملكونه، مثل من مثواه السجن والضيف والغريب في بلد... راجع كمثال الآية 23 من سورة يوسف {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ}...، ودرج في أدبيات المسلمين استعمال جملة: مثواه الجنّة. وهي غير دقيقة وغير صحيحة لغويا، لأن من في الجنّة يملكها وليس ضيفا فيها... ولذلك عبّر القرآن عن توريث الجنّة للمؤمنين، وهو تمليكها لهم منه تعالى بلا استرداد. ولكن بسبب ظنّنا أن التوريث لا يكون إلا من ميّت، ذهب المفسرون إلى معانٍ أخرى للآيات...

(وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ{86})
يا رب، {اغْفِرْ} لأبي، تجاوز عن أخطائه، {إِنَّهُ}، أبي، {كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ}، لم يكن من المهتدين لطريق الحق.

نعرف من الآية 114 من سورة التوبة {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ}...، أنّ النبي إبراهيم(ع) وعد أباه بالاستغفار له وذلك حتى يشجعه على الإيمان، ووفى بوعده وطلب له المغفرة، ولكنه سبحانه لن يغفر لأبيه لأنه بقي كافرا.

راجع دراسة الآية 70 من هذه السورة حول تحديد شخصية أبيه التي استغفر لها هنا، حيث تبيّن أنه ليس والده الذي أولده بل شخص بمكانة أبيه.

(وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ{87})

يا رب، {وَلَا تُخْزِنِي}، لا تجعلني أشعر بالمهانة من قبيح ما فعلت، {يَوْمَ يُبْعَثُونَ}، في الزمن الذي تبعث وتقيم فيه الناس من الموت للحساب في الآخرة.

راجع ما قلناه في ذيل الآية 81 عن طريق معرفة إبراهيم(ع) بيوم للبعث.

(يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ{88})

يوم يبعثون من الموت هو، {يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ}، هنا في الدنيا من يملك المال يمكنه شراء قصر أو بستان... أمّا في الآخرة فلا ينفعه المال الذي جمعه في الدنيا ليشتري به في الآخرة، لأنه أصلا لن يجد أي مال في الآخرة بل سيجد ما فعله بذلك المال.

{وَلَا بَنُونَ}، لا ينفع الأبناء والبنات الذين ننجبهم. فمهما كان عددهم كبيرا ومهما كانت قوّتهم... فهم لن يساعدوك في الآخرة إذا كنت كافرا. هنا في الدنيا ربما يشترون لك الطعام، ويساعدونك في معيشتك... أمّا في الآخرة فبماذا سيساعدونك؟ حيث ستتحاسب على أعمالك ولن يغيّر أولادك أي شيء إن كنت كافرا.

تنتبه أنّ الكلام هنا ليس لاغياً للشفاعة، بل لاغياً للشفاعة للكافر حتى من أولاده، أمّا المؤمنون الذين خلطوا عملا صالحا بسيّء فأولئك معلوم أن الشفاعة تطالهم من أولادهم إن كان لهم أولاد من المؤمنين الصالحين، وإن لم يكن لهم من يشفع لهم من الناس فالملائكة تشفع لهم، وسبحانه يشفع لهم عند نفسه.

كلام الآية عن البنين هو نموذج فقط إذ عادة نفترض أنهم سيكونون الأكثر اهتماما بأهلهم، ومن الآية 34 وما بعدها من سورة عبس {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ}...، ترى توسّعا في ذكر نماذج عن الذين نفترض أنهم سيهتمّون ببعضهم البعض.

(إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ{89})

{إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ}، إلا من حضر أمامه تعالى، {بِقَلْبٍ}، بأساس نفسية وفكر، {سَلِيمٍ}، خالٍ من الأمراض، فكل ما يخالف ما يرضاه تعالى فهو ناتج عن نفسية وفكر مريض، فمن لا يكذب ولا يخون ولا يتّبع الهوى... في حياته العادية فهذا لن يعارض أي شيء يقوله له تعالى، بل سيتماشى معه بالتمام لأنه متوافق أصلاً مع نفسيته وفكره.

لا يذهب فكرك من بقية تعابير القرآن عن القلب أنّها كلمة محصورة بالعضلة التي في الصدر وتضخّ الدمَ، لا، بل هي كلمة تشير لعامّة ما هو أساس الشيء، ومن سياق الكلام عن الإنسان في شؤونه الأخلاقية تعلم أنّها تشير لأساس فكره ونفسيته، وهكذا استعملها القرآن وهكذا استعملها العرب.

بعبارة أبسط، القرآن لم يعتمد في كلامه على المعلومات العلمية التي كانت عند الناس، لنقل إنّهم كانوا يظنون أنّ العضلة التي تضخّ الدمَ هي التي تولّد المشاعر عندنا، وبناءً عليه استعملوا كلمة قلب للدلالة على أساس نفسيتنا، في عموم اللغات تجد الناس يقولون: أحبّك من كل قلبي. هل كلّ الناس من مختلف اللغات نشأ عندهم هذا التعبير من الاعتقاد بأن القلب "العضلة الضاخّة للدمِ" هو مركز الشعور؟ وفرضاً لو كان هذا صحيحاً، وكانوا يعبّرون عن أساس النفسية والعقلية بكلمة قلب، فماذا سيستعمل القرآن أيَّ كلمة من لغات البشر ليشير إلى أساس الفكر والنفسية؟

أطلت عليك بسبب سخفاءَ متذاكينَ قالوا إنّ القرآن يقصد بكلمة قلب العضلة التي في الصدر بناءً على اعتقاد الناس في عصر النبي محمّد(ع) بأن تلك العضلة هي التي ينبع منها تفكيرنا ونفسيتنا، وهؤلاء المعلّقون على القرآن ولشدة ما هم أذكياء انتبهوا إلى أنّ الدماغ هو المسؤول عن الفكر والنفسية وليس القلب، وبناءً عليه فالقرآن فيه خطأ، وهو من تأليف محمّد الذي كان مثله مثل باقي الناس في عصره يعتقد أنّ القلب "العضلة" مسؤولةٌ عن المشاعر.

حاولت في دراستي هذه أن أبتعد عن الكلمات القاسية، ولكن اعذرني حين لا أتمالك أعصابي مع أمثال هؤلاء الأغبياء، لنسلّم جدلاً أنّ العرب كانوا يعتقدون أنّ عضلة القلب هي مركز الشعور، وأنهم بناءً على ذلك استعملوا كلمة قلب فيما يخصّ المشاعر، وفرضاً أنّ ذلك كان صحيحاً، ليخبرونا هم ما هي الجملة الصحيحة المرادفة لجملة: أحبك من كل قلبي. وما المرادف لجملة: قلبه طاهر. فإذا كانت هذه الجمل مبنيةً على أساس علمي يشير إلى عضلة القلب وممنوع أن

يستعملها القرآن لأنها تشير في الأساس إلى عضلة القلب، فما هي الكلمة العربية التي تشير إلى أساس الفكر والنفسية عند الإنسان؟ هل سيقول القرآن: إلا من أتى الله بدماغ سليمٍ. من مِن العرب سيقبل هذه الجملة ويفهم منها ما يريد القرآن قوله؟

بل هم أنفسهم ألا يقولون للآخرين: أحبك من كل قلبي، وقلبك سليم، وقلبه أسود... كيف هم يستعملون هذه الكلمة قاصدين بها أساس العقلية والنفسية ويمنعون على القرآن استعمالها بهذا المعنى!

طالما أنّ العرب وعموم بقية اللغات استعملوا كلمة قلب لتشير إلى عموم أساس أي شيء، ويستبدلونها أحياناً بكلمة "اللبّ"، فماذا سيستعمل القرآن ليعبّر عن ذلك؟! وقارنها كمثال مع اللغة الإنجليزية التي يستعمل الناطقون بها كلمتي قلب ولبّ "هارت، كور" لوصف عموم أي شيء أساسي في الآلات والماكينات والأفكار... لترى أنّ المعلّقين على القرآن بهذا النوع من التفاهات هم سخفاء لدرجة البياخة.

انتهى كلام النبي إبراهيم(ع)، ويأتي بعده كلام ربنا سبحانه معقباً ومكملاً:

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ{90})
في ذلك اليوم الذي لا ينفعنا فيه إلا القلب السليم:
وأزلفت الجنّة، جرى تقريب المكان الموصوف بروعة ما فيه بتدرّج، للمتقين، للذين كانوا يتحاشون ويتجنبون، وسياق الكلام يشير إلى تجنّبهم السيئات وهو نفسه تجنّبهم لغضب وعقاب ربهم سبحانه، وعمليا فهم أطاعوه ولم يعصوه سبحانه.
تفهم من سور أخرى أن حساب الآخرة أيامه طويلة جدا جدا، والناس يكونوا أثناء ذلك مقسومين لقسمين رئيسيين، وكل قسم منهم في جهة لوحد، فجهة للمؤمنين، وجهة للكفار، وتقترب الجنة ببطء وعلى مراحل من جهة المؤمنين، وهم يتشوّقون للدخول إليها، وتظل تقترب وتقترب منهم حتى ينتهي الحساب وتصير قريبة جدا منهم، فيمشي المؤمنون ليدخلوا إلى الجنة.

(وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ{91})
في ذلك اليوم، {بُرِّزَتِ}، ظهرت بشكل واضح، {الْجَحِيمُ}، مكان يوصف بضخامة سوئه، {لِلْغَاوِينَ}، الذين اعتقدوا بأشياء فاسدة عن جهل، فرجحت شهواتهم ورغباتهم السيئة على عقلهم، والكلام هنا عمّن غوى فترك توحيده تعالى لأنه لا يريد التقيّد بالصلاح.

الغاوون يرون الجحيم من بعيد، وتقترب منهم ببطء وهم مرعوبون منها... حتى ينتهي يوم الحساب الطويل ويسقطون فيها.

من دراسة أشعار العرب قديماً قبل الإسلام وجدت فرقاً بسيطاً بين كلمتي جحيم وجهنّم، فجهنّم باستعمال القرآن هي اسم مكان مشتق من الوصف بجهنم الذي يشير لسوء الحالة أو المكان، واستعمال هذا الوصف لمكان تعذيب في الآخرة هو وصف للأنواع المختلفة المسببة للعذاب مما فيها، حيث فيها النار المحرقة وفيها الضرب وفيها طعام كريه ورائحة كريهة... تفهم ذلك من فحوى الآية 49 من سورة غافر {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ}... في بيتين من الشعر قبل الإسلام وجدت إشارة بكلمة جحيم لضخامة النار، يناسبها ذلك في القرآن كما ورد في الآية 97 من سورة الصافات {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ}، فالجحيم وصف الضخامة في السوء.

انتبه ولا تظن أنّ الزلفى مخصوصة للأمور الجيدة كما قال بعضهم، وأنّ الآية السابقة استعملت الإزلاف للجنة ولم تستعمله لوصف اقتراب النار من الغاوين، لا، ففي هذه السورة في الآية 64 أزلف تعالى فرعون وجنوده خلف بني إسرائيل في البحر وغرقوا، في سورة الملك الآية 27 نجد أنّ العذاب في يوم القيامة رأوه زلفاً، فهذه الكلمة "زلف زلفى" معناها الاقتراب بدرجات "بتدرّج" من شيء ما.

هذه العقلية المنتشرة عن تخصيص كلمات قرآنية لمعانٍ ليست من المعاني الأصلية اللغوية للكلمات، هو منهاج غير صحيح، تراهم يرمون الكلام جزافاً بدون تحقيق ولا تدقيق، وحين يرون ما يخالف كلامهم يتعامون عنه! كقولهم عن

استعمال القرآن لكلمة مطر فيما يخص السوء، وعن كلمة عباد لخصوص المؤمنين، وهكذا غيرها العديد من الكلمات التي أخرجوها عن معناها اللغوي لتصير مصطلحاً قرآنياً، وهذا غير صحيح.

(وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ{92})
{وَقِيلَ لَهُمْ}، لِلْغَاوِينَ، يَقُولُ لهم مرة ربنا سبحانه، ومرة أخرى المؤمنون ومرة أخرى الملائكة(ع)، يقولون للكفار:

{أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ}؟! أين آلهتكم التي كنتم تعتبرون أنفسكم عَبِيدًا لها وَمَفْرُوضٌ عليكم طاعتها وتقديسها...

(مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ{93})
أين الذين كنتم تعبدونهم، {مِنْ دُونِ اللَّهِ}؟ تركتم عبادة الله الواحد وعبدتم غيره، فأين هم؟ مثلما نقول: ذهبتم من دوني. ونقصد أنكم تركتموني وذهبتم. فأين الذين عبدتموهم تاركين توحيد العبادة لله تعالى؟!

{هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ}، هل يحققون لكم ما تريدونه؟ لِأَنَّهُ حَكَمَ سبحانه عليكم بالدخول إلى جهنّم، وها أنتم ذاهبون إليها، فهل وجدتم أي مساعدة من آلهتكم لتنجيكم!

{أَوْ يَنْتَصِرُونَ}، هَلْ هناك شيء يدل على أنهم يمكنهم تحقيق شيء ما أَصْلًا؟

هذا خبر لنا جَمِيعًا الآن عن شيء سيحصل في المستقبل حتى نأخذ عِلْمًا بأن الله تعالى هو الإله الأحد، فلا تتعلقّوا بأي وهم عن آلهة تَخْتَرِعُونَهَا وَتَعْبُدُونَهَا وَتَقُولُونَ بأنها ستنصركم إن قمتم من الموت، فخذوا عِلْمًا من الآن أن هذا غير صحيح، وها الإله الحقيقي الوحيد يخبركم بذلك.

الآية كخبر عمّا سيحصل، وَفَائِدَتُهَا الآن لمن يمكن أن يخطر بباله من المشركين، ولو احْتِمَالٌ تَخَيُّلِيٌّ أَنَّهُ تُوجَدُ آخرة، يَتَخَيَّلُ أن آلهته حينها ستتدخّل لنصرته، وَتَأْتِي آيتنا هنا وأمثالها لتنبهه وتخبره بأن آلهته لن يكون لها أي سلطة هناك، فَتَوَقَّفَ عن هذه الأحلام التخيلية الوهمية.

كلام القرآن كما تقرأ في الآية هنا، هُوَ ليس من نوع الحجّة الخبرية، وَلَيْسَ صَحِيحًا فقط لأن الله تعالى قاله، بل قبل ذلك هَذَا يستند أَسَاسًا على علم المشرك الآن بأن آلهته ليست آلهة، لِأَنَّهَا من اختراع آبائه أو من اختراعه هو، وأن كل شيء فيه وحوله يدل على إله واحد أحد، وعلى أدلة عديدة...

أقول لك هذا لأن الكثير من أدبياتنا الشعبية تستند على كون كلامه تعالى ثَابِتَةً صِحَّتُهُ لأنه تعالى قاله، وَنَسْأَلُ عن سبب شيء، ويأتيك الجواب: لأن الله قاله. صَحِيحٌ أن قوله تعالى الحقّ، ولكنه تعالى أَصْلًا لم يكلّفنا بالإيمان بدون دليل، حَيْثُ أَعْطَانَا دلائل وتبريرات لكل ما قاله سبحانه من عقيدة وتشريع وسلوكيات، وخذ مَثَلًا تأكيد القرآن لحصول الآخرة، وَانْظُرْ فقط لتأكيد حصولها، وَهَذَا خَبَرٌ، ولم يطلب سبحانه منّا الإيمان به هكذا لأنه خبر، بل يستند على أنه تعالى صفاته حسنى فوعده الحقّ، وها تاريخ أفعاله تعالى كلّها تدل على كون وعده الحقّ، ويستند على وضوح قدرته تعالى على تنفيذ وعده، وقبل ذلك يستند على حكمته تعالى من خلقه لنا بحرية إرادة مع قابلية الاختيار، فحتما هناك جزاء على ما اخترناه. ومن هذا المثال ننتبه أن كلامه تعالى عن أمور ستحدث في الآخرة هِيَ أخبار ثَابِتَةٌ صحّتها لكونها خَبَرًا منه تعالى صَادِقًا وَحَقًّا، وعليها أطنان من الأدلة لحدوثها، ومنه نماذج إهلاكه تعالى لبعض الكفّار هنا في الدنيا، كنموذج عن عذاب الآخرة لمن كفر وفعل السوء...

(فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ{94})
لا تستطيع تلك الآلهة الوهمية أن تفعل أي شيء.

{فَكُبْكِبُوا فِيهَا}، تَمَّ رمي آلهتهم فوق بعضهم في جهنم، {هُمْ وَالْغَاوُونَ}، مع الذين اعتقدوا بأشياء فاسدة عن جهل، حَيْثُ رَجَحَتْ شهواتهم ورغباتهم السيئة على عقلهم وَعَبَدُوا تلك الآلهة، فهم وآلهتهم سيتم رميهم فوق بعضهم في جهنّم، وهذا المعنى يشابه ما نقوله بالعامية اللبنانية: كرفتة، كردسة... كتعبير عن رمي للأشياء مع إهمال مكان سقوطها وترتيبها.

ننتبه جيدا، فالكلام القرآني كثيرا ما افترض أنك تفهمه من سياق كلامه، ومن النادر كلامه عن الأصنام في الآخرة، وَحِينَ يشير القرآن إلى نقل أحداث من مشاهد الآخرة وَتَتَضَمَّنُ كلاما عمّن عبدهم الناس من دونه تعالى، فغالبا أشار القرآن للكائنات الواعية التي عبدها الناس، وإذا كَانَ الْمَعْبُودُونَ مثل فرعون هم دعوا الناس ليعبدوهم، فالعابد والمعبود في النار، وإن كان الناس عبدوا نبيا، فطبعا النبي لن يقول للناس أن يعبدوه، فمن عبده إلى النار والنبي بريء لا علاقة له، وإن كان الناس عبدوا آلهة وهمية لا وجود أصلا لكائن لها، فهذه وهمية ولا كلام عنها في الآخرة والكلام مع من عبدها وتوبيخه على سفاهته ورميه في النار... وإن عبد الناس التماثيل، فهذه مجرد حجارة أو خشب، ولمزيد من التفاصيل راجع دراسة الآية 98 من سورة الأنبياء {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ}.

وهنا الْكَبْكَبَةُ لآلهتهم معهم في جهنّم تتحمّل تضمين كبكبة الأصنام معهم كمواد تلتهب لتعذّب من عبدها، وَآيَتُنَا هنا من نوادر الآيات التي تتحمّل ضمنا أن تكون التماثيل التي عبدها الناس مشمولة بالكلام القرآني عن الرمي في جهنّم.

أكرر لك، كما ترى مِنْ سياق الكلام يفترض القرآن أنك تفهم الأساسيات، وَمِنَ البديهي أنه لا ذنب للنبي عيسى(ع) بتأليه الناس له، ولن يتحاسب (ع) على ذلك، فمن البديهي أن تفترض من كلام القرآن عن المشركين أن النبي عيسى(ع) وغيره من المؤمنين والملائكة هُمْ ليسوا المقصودين بالآلهة التي عبدها الناس والتي سيرميها تعالى في جهنّم.

بالنسبة لرفع {الْغَاوُونَ} هِيَ تابعة للفعل المبني للمجهول {كُبْكِبُوا}، مع ضمّة على الكاف الأولى، وفي لغة العرب عندما تحذف الفاعل وتغيّر تصريف الفعل ليشير إلى فاعل لست مهتما بتحديده، فهم يرفعون المفعول به كنائب للفاعل. وهنا ليس مهما تحديد من كبكبهم فجرى استعمال صيغة الفعل الماضي المبني للمجهول. طبعا هذا حصل من تطوّر استعمال الناس لهذه اللغة مع استذواقهم الخاص في طريقة التلّفظ، وفي لهجاتنا العامية عموما هناك صيغ تعبيرية أخرى تفيد نفس المعنى عن إهمال الفاعل لأنك لا تعرفه أو لا يهمّك ذكره...

(وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ{95})
فَكُبْكِبَ الكفار الغاوون مع آلهتهم في جهنم، وَكُبْكِبَ معهم:

{جُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ}، كل من كان مُلْتَزِمًا بتنفيذ ما يأمر به إبليس.

إبليس من الجنّ كما ورد في الآية 50 من سورة الكهف {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ...}، وكرّر القرآن لنا مِرَارًا عن إبليس قراره بالبرهنة لربنا سبحانه أنه أفضل مِنْ آدم (ع) وبنيه، وأن بني آدم (ع) لا يستحقون القيمة التي أعطاها تعالى لهم... ولذلك لن يسجد إبليس لآدم(ع) ولا لذريته، وقرر أن يغويهم ويضلّهم ليبرهن له تعالى أنهم سيكفرون ويشركون... وليسوا أفضل منه ليسجد لهم... وَشَارَكَهُ عدد من الجنّ في ذلك، وصار له أتباع من الإنس أيضا يقومون مثله بمهمة إضلال الناس عن دينه تعالى، وكما نعلم من الآية 36 من سورة الزخرف {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}، فَكُلُّ غَاوٍ يصير متاحا ليرافقه شيطان... وكل هؤلاء سيتم رميهم في جهنم.

(قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ{96})
{قَالُوا}، الكفّار الغاوون وجنود إبليس، {وَهُمْ فِيهَا}، في جهنم، {يَخْتَصِمُونَ}، والخصام هو عموم أي خلاف يسبب حالة نفسية بين شخصين من النفور والكره وصولا إلى العداوة، فهم من خلفية الكره والعداوة لبعضهم البعض يتكلمون مع بعضهم فيما يختلفون فيه.

(تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{97})
{تَاللَّهِ}، تَأْكِيدًا بالله تعالى، {إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}، بِشَكْلٍ واضح لم نكن على الهدى، لم نكن على الطريق الصحيح.

هذه الجملة تفهمها مثلما تنصح شخصا وتقول له عن شيء ما أن لا يفعله، ولا يردّ عليك، وبعدها يتبيّن له أنك كنت محقا مئة بالمئة، وَيَقُولُ لك: كان معك حق مئة بالمئة. وهنا تنقل الآية لنا كلام من أشرك به تعالى في الدنيا وتخبرنا أنه في الآخرة سيكون مُتَأَكِّدًا وبشكل واضح من ضلاله.

كَمَا رأيت فيما سبق من آيات هُنَا أيضا تريدنا الآية أن لا يضحك أحد منّا على نفسه ويخترع أفكارا من خياله عن الدين والآخرة، وَبَعْضُهُمْ يقول: إن كان هناك آخرة فلا أظنّ أنه تعالى سيرميني في النار لأني عبدت صنما وفعلت كذا... بل سيشفق عليّ ويستثنيني... أو يتساهل معي، فما المشكلة إن عبدت صنما.. كلا، سنتحاسب بالعدل وبدقة، ومن الآن يخبرنا القرآن أنه في الآخرة لن يعترض أي أحد على العقاب الذي يناله في الآخرة، حَيْثُ سَيَرَى أنه فعلا يستحقّه مهما كان شديدا.

(إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ{98})
{إِذْ نُسَوِّيكُمْ}، حين كنّا نجعلكم على السوية، مُسَاوِينَ، بنفس المكانة أيها الأشخاص والجنّ والأصنام، {بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}، بالمسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس.

هُنَاكَ في الآخرة سيعترفون أن الرب واحد أحد، أمّا هنا في الدنيا فهم يخترعون لأنفسهم ربّا خاصا بهم.

(وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ{99})
{وَمَا أَضَلَّنَا}، ما جعلنا نمشي على الطريق غير السليم، {إِلَّا الْمُجْرِمُونَ}، إلا الذين ارتكبوا جريمة، الذين ارتكبوا عملا يستحقون عليه العقاب، وهنا من الواضح أن المقصود بالمجرمين هم الذين اخترعوا ديانة الكفر أو شجعوا الآخرين عليها، وصدّوا الآخرين عن الهدى.

كَثِيرًا ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سَوَاءً أكان خيرا أم شرا، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فَضَلَّ عنك صيدها. وَاسْتَعْمَلَ القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، وَلَمْ تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، وَلَنْ يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضَالٌّ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ{100})
بسبب ضلالنا، {فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ}، وَلَنْ يتوسط لنا أحد مع ربنا سبحانه ليخرجنا من جهنم.

شاهد الكفار كيف يشفع الأنبياء والشهداء والصالحون والملائكة (ع) والإله سبحانه، للمؤمنين الذين ارتكبوا بعض الذنوب التي يمكن التجاوز عنها لِأَنَّهَا ليست من النوع الخطير الكبير في سوئه، وَطَالَمَا مات الإنسان وهو لم يكفر بربه سبحانه ولم يشرك ولم يقتل النفس التي حرم الله تعالى ولم يزن... أو فعل ذلك ولكن تاب عن هذه الأعمال قبل أن يموت... وكان عليه ذنوب من العيار المتوسط أو الخفيف... فَسُبْحَانَهُ يأذن أن يتوسط له الأنبياء أو الصالحون أو الملائكة (ع) حتى لا يتعذّب على ذنوبه.

بالتحليل لمفاهيم القرآن عن عنايته تعالى بالمؤمنين الذين في حالة ما كان لهم موقف له قيمة، كتحليل الآية 10 من سورة الحديد {لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا}، وتحليل الآية 14 من سورة البلد {أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ}، والآية 100 من سورة النساء {وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ}، وأصرح من ذلك ما ورد في الآية 195 من سورة آل عمران {فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ}، تَرَى

من ذلك تَدَخُّلًا إِلَهِيًّا لمضاعفة ثواب عمل حسن له قيمة كبيرة بسبب الظروف، وبالتالي لَا معنى لأهمية عملهم الحسن إن لم يسبب لهم نجاة من النار.

مضافا إليه من مفاهيم القرآن أيضا سُبْحَانَهُ يتدخّل بالشفاعة حيث لا يمكن للآخرين التدخّل، لِأَنَّ النبي أو الملاك لا يمكنهم إرضاء شخص له حقّ عليك ليسامحك لأنك آذيته، بينما سبحانه يمكنه فعل ذلك...

(وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ{101})
ليس لنا في جهنّم صديق، شخص بيننا وبينه علاقة مميزة، حميم، يعزّهم ويهتم بهم، وهنا الكلام عن فقدانهم لمن يمكن أن يتدخل لأنه يهتمّ بهم لينقذهم من جهنم.

كل المؤمنين سيعلنون عداوتهم للكفار ولن يشفعوا لهم، وحتى الكفار الذين كانوا من أعزّ الأصدقاء بين بعضهم، لَنْ يتبرّع أي واحد منهم ليدافع عن الآخر، بل كل واحد منهم سيهاجم الآخر ويشتمه...

لاحظ أن الشافعين ليس بالضرورة أن يكونوا من أصدقائك الحميمين، لِأَنَّ الرسول والنبي يشفع حتى في الذين لم يرهم ولم يعرفهم من أمّته، والملائكة (ع) تشفع للناس وليسوا أصدقاء لهم... وَالْكَلَامُ هنا على نحو النموذج، عَادَةً الصديق الحميم سيهتم بأمرك ويحاول مساعدتك، وهنا في الدنيا نعتمد على ذلك، وَنَطْلُبُ المساعدة من أَصْدِقَائِنَا، وإن كانت الصداقة بيننا حميمية فنحن نتوقّع أقصى المساعدة منهم، وَقِيَاسًا على هذا تنقل الآية كلام الكفّار أنهم ليس لهم ولا أي صديق حميم ليبذل جهدا في مساعدتهم من ورطة العذاب في النار.

(فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{102})
يقول الكفار وهم يتندّمون:

{فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً}، لَوْ مرة ثانية نأخذ فرصة ثانية لنعود إلى حالة التكليف كالتي كنّا فيها في الدنيا، {فَنَكُونَ}، فيها، {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، من المعتقدين الملتزمين بدينه تعالى.

لَكِنَّ هذا لن يحصل، فلن يرجع أي شخص منهم إلى "الدنيا" مرة ثانية، وَتُنَبِّهُنَا الآية جميعا والآن في الدنيا أن نستغل الفرصة جيدا لأنها الفرصة الوحيدة.

أمّا لماذا لن يأخذوا فرصة ثانية لإرجاعهم إلى حياة فيها تكليف، فَتَحَدَّثْتُ عن أسبابه سور متفرقة كما تقرأ في الآية 28 من سورة الأنعام {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}.

بقي شيء، كثيرا ما نتساهل في تعابيرنا بسبب تفلّت الأفكار منّا، فالأساس أن الزمن يسير في مرحلتنا هذه الآن، فنحن الآن في حالة الدنيا، وبعدها يتبدّل المكان {تَتَبَدَّلُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ} ونصير في زمان ومكان يسمّى: الآخرة. فلا معنى لقولنا أنهم يسألون عن فرصة بإرجاعهم إلى "الدنيا"، حَيْثُ لَمْ يقل القرآن ذلك، لِأَنَّ هَذَا مستحيل لأن الدنيا انتهت وهم يعلمون ذلك، وبناء عليه فالتعبير الدقيق عمّا يسألونه من فرصة ثانية، هو أن يجعلهم سبحانه في حالة التكليف من جديد، ليؤمنوا ويعملوا صالحا، وبعدها يحاسبهم. وكما ترى فهم لم يدخلوا في اقتراحات كيفية حصول ذلك، ونحن نفترض أن يكون في بالهم أنهم في زمن الحساب، فليتوقّف الحساب، وليأخذوا فرصة يَعِيشُونَ فيها حالة الإيمان والعمل الصالح، وبعدها لِيُحَاسِبَهُمْ سبحانه، أو ليتوقّف الحساب، ويضعهم سبحانه في بيئة مشابهة لما كانوا عليه في الدنيا، وهم يقولون بأنهم سَيَكُونُونَ من المؤمنين العاملين للصالحات.... أو... المهم، بغض النظر عن أي افتراض أو اقتراح، فهم يطلبون فرصة ثانية مهما كان نوعها... مِنَ الآن يخبرنا القرآن جميعا أنه لا يوجد فرصة ثانية، ولمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 28 من سورة الأنعام.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ{103})

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، في قصّة النبي إبراهيم(ع) مع سوء اعتقاد قومه، وقصّة فرعون والسحرة، وأخبار ما سيجري على الكفار في جهنم، {لَآيَةً}، شيء مميّز منه سبحانه حتى نوحدّه تعالى ونلتزم بدينه.

{وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ}، ورغم هذا الكلام المميّز فالأكثرية من الناس لن يعتقدوا ولن يلتزموا بدينه تعالى. وَلَنْ يهتموا بآية منه تعالى وسيعتبرونها كلاما كاذبا، فهل يستحقون أن تبخع نفسك عليهم!

نَنْتَبِهُ جيّدا، حَيْثُ مِنْ بين كل القصص التي ذكرها القرآن فقوم النبي إبراهيم(ع) وحدهم لم ينزل عليهم عذاب دنيوي في حياة النبي إبراهيم(ع) مع العلم أنهم لم يستغفروا، بينما ارتفع العذاب عن قوم النبي يونس(ع) بسبب استغفارهم كما ورد في الْآيَةِ 98 من سورة يونس {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}، وَمِنَ القرآن نعلم أن إبراهيم(ع) كان طويل البال مع الكفّار بشكل لا يوصف، ونلاحظ ذلك مما ذكرته الآيات عن طول باله واستغفاره لأبيه، ونلاحظ تحمّله(ع) لمحاولة إحراقه وَلَمْ يدع على قومه بالهلاك، وفي آيات أخرى من القرآن الكريم نلاحظه (ع) يجادل في قوم لوط(ع) حَيْثُ يَفْتَرِضُ أنهم يَكُونُ فيهم مُؤْمِنُونَ، أو يُؤْمِنُونَ بعد مدّة... كَمَا تقرأ ذلك في الآية 74 من سورة هود {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ}.

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ{104})
إنّ ربك، وإنّ المسؤول عنك من مستوى إلهي، أيها الرسول (ع) "وأيها المؤمن"، لهو {الْعَزِيزُ}، فهو الموصوف بكل ما تحمله كلمة عزيز من معنى، والعزيز وصف لنفي عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... فلا تبخع نفسك أيها الرسول(ع) فربّك عزيز لا يتأثّر أصلاً حتى لو كفرت كلّ المخلوقات، وعزيز حيث يمكنه فعل ما يريد، إذ يمكنه تعالى جعلهم مؤمنين غصباً عنهم ويمكنه تعالى إعادة إحيائهم لمحاسبتهم، ويمكنه تعالى تعذيبهم هنا أو في الآخرة...

إنّ ربك لهو {الرَّحِيمُ}، الموصوف بالعناية الخاصّة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم بكل ما تحمله كلمة رحمة من معنى، حيث يخاطبهم بهذا القرآن حتى يؤمنوا وبعدها يفوزون بالجنة، في مقابل الأكثرية التي بسوء فعلها أخرجت نفسها من رحمته تعالى.

انتبه أيها السامع للقرآن، لأنّ اهتمامه تعالى بالناس ليهديهم ليس نابعاً من حاجته لهم، فهو العزيز وسبحانه لا يستفيد ولا يتضرر منهم بأي شيء، والسبب لاهتمامه تعالى بالناس ليبعث لهم رسولاً، أنّ بينهم من سيؤمن وسبحانه رحيم بالمؤمنين فيؤمّن لهم ما يساعدهم على الاهتداء.

(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ{105})
{كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ}، لم يصدّق الناس الذين ينتمي النبي نوح(ع) لجماعتهم، {الْمُرْسَلِينَ}، حيث جاءهم عدّة مرسلين وكذّبوهم كلّهم ولم يؤمنوا بهم.

من المشهور في كتب أهل الكتاب أنّ أباه (ع) وجدّه وجدّ جدّه كانوا رسلاً.

من هنا تُكمل السورة مع نماذج الأقوام الذين فعلوا السوء وكان فيهم رسول، وبعد قراءتها سترى أنّه لا سبب للرسول الإلهي أن يبخع نفسه إن لم يؤمن قومه...

(إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ{106})
{إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ}، الشخص المشارك معهم في شيء، وهنا الكلام عن مشاركته (ع) لهم في مكان الإقامة، قال النبي نوح(ع) لهم: {أَلَا تَتَّقُونَ}؟ ألا تتحاشون وتتجنبون، وسياق الكلام عن تجنّب غضب ربكم عليكم، فتتوقّفوا عن الشرك به سبحانه؟ ضع في بالك أنّ الوصف بالأخوّة يشير لعلاقة المشابهة بالتساوي في شيء أساسي يجمع الموصوفين معاً،

كأخوّة في النسب، أو في الإيمان أو في الإنسانية أو في التكليف... أو المكان والمعيشة... كما نقول: أخو العرب، أخو المهنة... {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} كما ورد في الآية 10 من سورة الحجرات.

(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ{107})
{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ}، أنقل رسالة من ربكم سبحانه، وأنا رسول {أَمِينٌ}، لا أخون بل أنقل لكم بكلّ صدق ما يقوله ربكم سبحانه لكم.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ{108})
{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} {فَاتَّقُوا اللَّهَ}، تجنّبوا مخالفة كلامه وتجنبوا غضبه وعقابه، {وَأَطِيعُونِ}، التزموا بما أنقله لكم من أوامر ربكم سبحانه، إذ سبحانه يقول لكم أَنْ تتوقّفوا عن الشرك به وفعل السوء، لذا أطيعوني وتوقّفوا عن فعل السوء وعن الشرك بعبادة غيره سبحانه.

(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ{109})
{وَمَا أَسْأَلُكُمْ}، لا أعبّر لكم عن إرادتي للحصول، {عَلَيْهِ}، على تبليغي لكم للرسالة، {مِنْ أَجْرٍ}، أي شيء محدّد أستحقّه كأجرٍ كبدل أتعاب عن قيامي بتوصيل الرسالة، فلم أسألكم أن تعطوني المال أو البيوت والأراضي لأني أقوم بتبليغ الرسالة الإلهية.

{إِنْ أَجْرِيَ}، فقط ما أستحقّه مقابل نقلي وتبليغي للرسالة، {إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ}، فقط على المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس، فهو سبحانه حدّد لي أجراً وأنا هدفي ذلك الأجر، وتعلم أنه الدخول إلى جنة الخلود.

ستلاحظ هذا الكلام مكرّراً في السورة هنا نقلاً عن لسان رسل آخرين أتوا بعد الرسول نوح(ع)، حتى نلتفت "للرسول الإلهي" كشخص لا يريد شيئاً شخصيّاً لنفسه، فليس مثل العرافين والكهنة ومحبّي السلطة والشهرة... وهذا الشخص يحمل رسالة من الإله سبحانه، ويقول كلاماً عقلانيّاً، وينذر الناس من العقاب الدنيوي والأخروي... ورغم ذلك لم يؤمن المشركون! فالمشكلة ليست فيك أيها الرسول محمّد(ع) ولا في رسالتك، ولا داعي لأن تبخع نفسك بسبب تكذيب قومك لك، فهم اعتقادهم وأفعالهم سيئة بشكل واضح، فقم أنت بتوصيل رسالتنا، وأمّا حساب ومجازاة المخالفين فعلينا بحسب ما نراه مناسباً، فربما نعذّبهم هنا في الدنيا أو نؤجّل ذلك للآخرة، بدمار شامل أو جزئي، بكارثة جويّة أو أرضية...

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ{110})
{فَاتَّقُوا اللَّهَ}، تجنّبوا غضب وعقاب الله سبحانه، {وَأَطِيعُونِ}، التزموا بما أقوله لكم.

طالما أنا لا أسألكم أن تعطوني أجراً، وأتعب معكم متحمّلاً تكذيبكم وإهاناتكم لي، فافهموا أني فعلاً رسول من ربكم سبحانه وليس لي أي غاية شخصيّة فهدفي هدايتكم كما هو واضح.

(قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ{111})
{قَالُوا}، قوم النبي نوح(ع) له:

{أَنُؤْمِنُ لَكَ}، نعلن اعتقادنا والتزامنا بما تقول، {وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ}؟ حيث لحق بك الأشخاص الذين بالمقارنة مع البقية فهم دون البقية، الأقل قيمة، الأقل اجتماعيّاً وثقافيّاً وماليّاً... فلنقل إنّهم يقصدون الفقراء والعبيد والضعفاء اجتماعيّاً والعمّال... ويقصدون معهم بعض الأشخاص الذين كان لهم سوابق بأعمال مصنّفة بأنّها غير محترمة، وأعلنوا انضمامهم لدينه تعالى.

قارنها مع الأحزاب التي يسارع إلى الانتماء إليها المهمّشون الضعفاء اجتماعيّاً وماليّاً، والمنبوذون من المجتمع، والفاقدون لاحترامهم وتقديرهم في عائلتهم أو مجتمعهم... فهؤلاء يشعرون بالقيمة ويفرحون بالعضوية الحزبية والرتبة وحمل الشعار والسلاح... فهذا من ضمن ما يقصده المشركون من قوم النبي نوح(ع) عمّن آمن منهم بدينه تعالى من الأراذل أي من الذين هم أقل بشيء ما من الآخرين.

الآية هنا تعطي معنى تصوّرهم للدين الإلهي كنادٍ أو كجمعية أو حزب، وبما أنّ الأراذل من مختلف الأنواع انضمّوا لهذا الدين، فالأغنياء والمثقفون والوجهاء... الذين يعتبرون لأنفسهم قيمة اجتماعيّة أو ماليّة... فهم لا يقبلون الانضمام لنفس النادي.

ضع في بالك أنّ الوصف بالرذالة يشير إلى عموم الدونية مع رداءة بالمقابلة مع آخر، فهذا رذيل لأنه أقل فهماً من الآخر، وذاك رذيل لأنه أقل اجتماعيّاً من الآخر... فبحسب سياق الاستعمال يتحدّد نوع الدونية المقصودة، سواء في العلم أو المال أو الهيئة أو الجسد أو المكانة أو في الأخلاق... فالفقير أرذل ماليّاً من الغني، والضعيف جسديّاً أرذل جسديّاً من القوي... وعلى هذا المعنى جاء الوصف في الآية 70 من سورة النحل {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}.

(قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{112})
قال النبي نوح(ع): {وَمَا عِلْمِي}، سواء كنت أعلم أو كنت لا أعلم، وبتعبيرنا الدارج: ما دخلي وما علاقتي، {بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}؟ وما أدراني فعلاً إن كانوا أعلنوا إيمانهم فقط لينتموا إلى شيء يعطيهم قيمةً أو حمايةً أو انتماءً لجماعة... وليسوا فعلاً مؤمنين بي كرسول إلهي؟ ما الفرق عندي إن علمت بأعمالهم السابقة أو لم أعلم بها... هل تروني أقوم بسؤال الناس عن سبب إيمانهم برسالتي؟ أو هل أنا أحدّد من ينتمي لدينه تعالى وكأني موظّف لأختارهم على مزاجي؟

النبي يدعو كل الناس للانضمام إلى دينه تعالى، سواء كانوا كفاراً أو مجرمين أو فقراء أو أغنياء أو منبوذين... فهو يعرض عليهم أن يؤمنوا بالله تعالى ويعبدوه وأن يتقوه... أمّا ماذا كانوا يفعلون أو لماذا آمنوا فلا علاقة للرسول(ع) بهم، فهو ليس رقيباً ولا حسيباً على الناس، وهو لا يؤسّس لحزب ويعمل على جمع مناصرين وجماهير... بل يدعوهم لدينه تعالى، وبعد ذلك فهم وشأنهم.

عمليّاً ترى ذلك من سيرة النبي محمّد(ع)، حيث إنّ العديد من المسلمين الأوائل كان لهم تاريخ في الكفر والسلب والنهب والقتل والاعتداء على الآخرين والزنا والربا... لذا لا علاقة للنبي ولا للمؤمن بتصنيف الناس لا قبل إيمانهم ولا بعده، ولا علاقة له بتطبيقهم لدينه تعالى بحذافيره من بعدما يعلنون إسلامهم، لأنّ الحكومة لها علاقة بالمسلمين بما يخصّ الشؤون العامّة ولا دخل لأحد بأحد في بقية الشؤون.

لا تفهم من الآية هنا جهله التامّ بما كان يفعل بعض الذين أعلنوا إيمانهم، إذ ربما يجهل تاريخهم السابق، وربما يعرفه، لأنّ هذا ليس مهمّاً وأصلاً هو لا علاقة له بالموضوع، والآية هنا على معنى أنّه (ع) لن يشغل باله بما كانوا يعملون.

بعبارة أخرى، لنقل إنّ متّهماً بجريمة ما حصل بينك وبينه لقاء، هل ستسأله عن المسألة؟ وإن أجابك هل ستحقّق معه للتأكد من صدق كلامه؟ وهل... إن كنت فضوليّاً، أو ثرثاراً أو... فستهتم بهكذا أمور لا علاقة لك بها، هل لك دخل بالموضوع لتسأل؟ أم أنت قاضٍ بين الناس لتسأل؟ أم رأيك وحكمك له قيمة لتسأل؟ وهكذا ترى الفرق بين فضولنا نحن وتدخلنا فيما لا يعنينا، وبين المؤمنين من الدرجة العالية الذين لا يفتحون دفاتر تحقيق وسجلات للناس، لأنّ هذا ليس تصرّفاً لائقاً بل الثرثارون النمّامون السخفاء... يفعلون ذلك.

(إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ{113})
{إِنْ حِسَابُهُمْ}، فقط تحديد ثوابهم وعقابهم على أعمالهم، {إِلَّا عَلَى رَبِّي}، فقط على المسؤول عنّي من مستوى إلهي وليس عليّ ولا على غيري حسابهم، وهذا الكلام ستفهمونه أيها الكفار، {لَوْ تَشْعُرُونَ}، لأنّ هذه حقيقة ستحصل وأنتم لا تؤمنون بها، إذ هناك آخرة فيها حساب وجزاء للجميع.

(وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ{114})
{وَمَا أَنَا}، أنا نوح لست مخوّلاً ولا من أشغالي، لست {بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ}، لن آمرهم بالقوّة بترك الاعتقاد بي كرسول أو بدينه تعالى طالما هم أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون، بعبارة أبسط لا يحقّ لي أن أقول لأي شخص أعلن إيمانه أني لن أقبله كمؤمن بي كرسول وكمؤمن بدينه تعالى.

(إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ{115})
{إِنْ أَنَا}، أنا فقط وفقط، {نَذِيرٌ مُبِينٌ}، فبشكل واضح أنقل الخبر عن شيء سيئ قادم حتما لمن توافرت فيه شروط حصول الشيء السيئ له، ومهمتي فقط نقل الخبر بشكل واضح عن عقاب الآخرة الأكيد لمن أشرك ولم يؤمن.

لاحظ أنَّ دعوته (ع) لِتَقْوَاهُ تعالى تعني ترك الشرك وترك ما يحرّمه تعالى، فسبحانه يحرّم الأعمال السيئة، وبالتالي النبي يدعو قومه للصلاح، فما معنى اعتراض من لم يؤمن بسبب إيمان الأراذل؟ وما معنى قولهم: لن نؤمن لك لأن الأراذل آمنوا. وهذا ما تريد الفقرة هنا أن تريك سوءه، فأي منطق وأي عقلانية في رفض إيمان من كان رذيلا من أي نوع كان من الرذالة من الدونية ماليا أو اجتماعيا أو ثقافيا، وسبحانه يعرض الحقّ والصلاح على المشركين به، ومعلوم أن الشرك به تعالى من أكبر الكبائر، فأي وصف بالرذالة ومهما كان نوعه فلن يكون أكثر سوءاً من الشرك به تعالى.

ضع في بالك دائما الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى مَعَانِيَ قرآنية رائعة، وتصور شخصا أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، فهنا تحذّره من سلوك الطريق السيئ، لأنه حاليا ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ}، والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}.

أمّا إذا سلك طريق الخطر، فتنذره، لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. والإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتما ما يضرّه، وتنذر الكافر حيث هو في حالة ستسبّب له العقاب حتما، وورد هذا كثيرا في القرآن. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يتلبّس بما سيسبّب له الضرر، وتحذّر المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

هذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، إذْ يقوم المؤمن بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، وتنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة المسيحيين المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}، وعموم المؤمنين المشمولين بالتهديد من فكرة فعل السيئات على أساس أن يحمل أحد ما السيئات عنهم {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}، والمشمولين بالتهديد إن لم يتغيّروا نحو الأحسن مُوعُودِينَ بالمغفرة كما ورد في الآية {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}، ونفس المفهوم في الآية 45 من سورة النازعات {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا}.

(قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ{116})
{قَالُوا}، المشركون من القوم للنبي نوح(ع):

{لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ}، إذا لم تتوقف نهائيا بلا رجعة عن كلامك هذا، {لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ}، سَنَرْمِي عليك شيئا من بعيد، وَنَرْمِيكَ بالحجارة حتى تموت، وهذا تهديد بأفظع أنواع القتل.

(قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ{117})
{قَالَ}، النبي نوح(ع):

{رَبِّ}، أيها المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {إِنَّ قَوْمِي}، إن الناس الذين أنتمي لجمعتهم، {كَذَّبُونِ}، وَلَمْ يصدّقوا أني رسولك.

(فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{118})
{فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ}، أَوْجِدْ حلا لهذه المشكلة التي لم أستطع حلّها، حَيْثُ وصلت لطريق مسدود معهم، {وَنَجِّنِي}، وخلصني، {وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، لِيَنْزِلَ عليهم عذابك ولكن خلّص منه المؤمنين فقط.

نعلم من آيات أخرى أن النبي نوح(ع) قَطَعَ الأمل من قومه، وَعَلِمَ من ربنا سبحانه أنهم لن يؤمن منهم أي واحد بعد الآن، لا هم، ولا حتى من أولاد أولادهم، راجع الآية 36 من سورة هود {وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}، والآية 27 من سورة نوح {إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا}.

(فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ{119})
{فَأَنْجَيْنَاهُ}، خَلَّصْنَاهُ قبل وقوع الكارثة، {وَمَنْ مَعَهُ}، من المؤمنين، {فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ}، في السفينة المشحونة بشيء، أي التي تحمل الناس والحيوانات...

الْفُلْكُ هو أي شيء يعوم على وجه الماء، ويشمل السفينة والمركب والعبّارة والفلوكة والقارب و... ولذلك تحدّد الآية بأنهم ركبوا في فلك مشحون، والمشحون وصف الذي يحمل الناس والحيوانات والأغراض...

نَحْنُ الآن نستعمل كلمة شحن ونقصد بها: نقل الأشخاص أو الأمتعة أو الحيوانات من مكان لآخر، والآية تستعملها بنفس المعنى لفلك "السفينة" النبي نوح(ع).

لَاحِظِ الآية هنا والتالية متصلتان، حَيْثُ النجاة كانت لمن معه في الفلك:

(ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ{120})
{ثُمَّ}، بعد ذلك، {أَغْرَقْنَا}، فأمتنا أَنْهَيْنَا اختناقا بالماء، {الْبَاقِينَ}، من بقي خارج السفينة. وهذه إشارة لإبادة القوم بشكل كامل إِلَّا من ركب منهم في السفينة.

الطوفان ورد ذكره في وثائق سومرية قديمة ويقدّرون عمر بعضها بين 1500 و 2000 قبل الميلاد، وعلى ذمّة المراجعين لها والناشرين لترجمتها فهي تحكي قصّة طوفان فيه الكثير من التشابه مع رواية القرآن، ومن المرجّح أن بقاء السفينة لمدة طويلة كان السبب لِمُحَافَظَةِ الناس على قصّة الطوفان، وَمُضَافاً له اهتمام المؤمنين بها لنقل القصّة للأجيال التالية... فلا تحدّد تاريخ الطوفان بتاريخ الوثائق، فالوثائق تتحدّث عن شيء أقدم منها.

مِنْ جانب آخر هُنَاكَ أدلة جيولوجية على حدوث طوفان هائل للبحر الْأَسْوَدِ بين فترة 7000 و5000 سنة قبل الميلاد، وأدلة على حدوث طوفانات غمرت الكثير من وجه الأرض ترجع لما قبل ذلك...

مِنَ المعلوم حدوث طوفانات متعددة على بقع مختلفة على الأرض، ولكن تثبيت حصول أي واحد منها عبر الآثار لا يعني أنه هو الطوفان الذي جرى على عهد النبي نوح(ع)، خاصة مع مشكلة اعتماد غالبية الباحثين في هذا الموضوع على التواريخ المذكورة أو المستوحاة من التوراة التي أقحم فيها علماء اليهود كلامهم مع كلامه تعالى، قاصدين جعل التوراة كِتَاباً جَامِعاً للتاريخ بِنَاءً على المعلومات المتداولة بينهم، ويظهر لك فساد العديد من معلوماتهم بأقل تأمل ومقارنة بمعلوماتنا الحالية عن أعمار وأطوال أجساد من سبقنا من البشر، وبمقارنة بعض ما ورد في التوراة مع ما ورد في القرآن عن بعض تفاصيل قصص بعض الأنبياء، كتصويرهم لحالة اليأس للنبي أيوب(ع)... وبمقارنة الأحداث التاريخية التي ذكروها في التوراة عن معاركهم مع الفلسطينيين والعموريين والموآبيين... مع الآثار التي وجدها الناس، فستجد اختلافات كثيرة وَتَعَارُضاً... لأنهم كتبوا التاريخ على هواهم متجاهلين الحقائق...

إنْ لم نجد آثَاراً مرتبطة بسفينة النبي نوح(ع)، أو أَثَراً آخَرَ مُبَاشِراً لحادثة الطوفان وَمُؤَكَّداً... أو لم نجد عِلْماً أَثَرِيّاً له ارتباط بتعلّم الناس صنع السفن من بعدما صنع النبي نوح(ع) سفينة... أو نجد أَثَراً للآلهة التي عبدوها {سُوَاعاً، يَغُوثَ، يَعُوقَ وَنَسْراً} كما ورد في الآية 23 من سورة نوح، فلن يكون لدينا دليل حاسم على زمن تاريخ حدوث الطوفان، وسندور في حلقة التقديرات والتخمينات والافتراضات.

الْكَلَامُ له ارتباطات أخرى، منها إن كان الطوفان عَامّاً لكل وجه الأرض أو لخصوص منطقة منها، أو أنه حصل في زمن كانت كل البشرية محصورة في بقعة واحدة، أو الكلام عن بقعة كانت فيها ذرية آدم(ع) وَالْبَشَرُ الْآخَرُونَ في المناطق البعيدة لم يتأهّلوا للتكليف بالدين الإلهي ولم يطالهم الطوفان... أو طالهم الطوفان جُزْئِيّاً... أو...

بِمَا لدينا حَالِيّاً من معطيات جيولوجية، فمن المستبعد شمول الطوفان لكل وجه الكرة الأرضية، إلا إذا كان تاريخ حادثة النبي نوح(ع) يرجع لأكثر بكثير من خمسين ألف سنة، فالمعلومات التي لدينا عن الحيوانات والبشر في مختلف القارات، تشير لنشاطات مستمرة للحيوانات والبشر في مختلف البقع وترجع لتاريخ ما قبل انفصال "برّ، يابسة" القارات عن بعضها "ويسمّونها بانجيا" فالقارات تتصل مع بعضها شِتَاءً بالجليد... فبحسب الدراسات الحالية لا يمكن تفسير نجاة الحيوانات في السفينة وانتشارها من جديد على وجه كل الأرض إلا إذا حصل الطوفان قبل أكثر من خمسين ألف سنة على الأقل... وأكرر لك فَهَذَا تحليل يستند على معطياتنا العلمية حَالِيّاً، وأنا شَخْصِيّاً لا أستبعد ولا أستقرب هذا التاريخ ولا أي تاريخ آخر قبله أو بعده، فليس لدينا لحدّ الآن شيء تاريخي موثوق نستند عليه لتحديد تاريخ النبي نوح(ع)، إلا اللهم إن كانت دراسة آثار القبور المنسوبة لشخصيات تاريخية دينية، كالقبور المنسوبة لآدم(ع) وأولاده، ولنوح(ع) وأولاده... ستهدينا لتصويب التواريخ، هذا إن كانت تلك القبور فِعْلاً لمن هي على اسمهم ولم تكن من تخريفات أهل القرى... أو من افتراضات المتبجحين "كَذِباً" على الآخرين بمعرفتهم التاريخية، وهم كثر عبر التاريخ...

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ{121})
{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ}، في قصة النبي نوح(ع) وإغراق الكفّار، {لَآيَةً}، شيئاً مميّزاً، وهو مميّز بدلالته على التدخّل الإلهي هنا في الدنيا لإبادة من كفر وتحقّقت فيه شروط معاقبته في الدنيا قبل الآخرة.

{وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ}، رغم أنها حادثة عظيمة وواضحة عن انتفاء وجود إله غيره تعالى، وأن نوحاً(ع) كان رسولاً إلهياً وأنه تعالى يعذّب من أشرك وأساء، وهذا العذاب بالغرق نموذج ملموس عن عذاب الآخرة... فأكثر الناس لم يعلنوا اعتقادهم بما حصل ولا بما يدلّ عليه!

نلاحظ في الآيات التي مرت التركيز على أن ذنب قوم النبي نوح(ع) كان الكفر مضافاً إليه اشتراطهم على النبي(ع) أن يطرد من دينه الأراذل "الفقراء والمستضعفين وأصحاب السوابق..." عندها ربما يفكرون في الانضمام إلى دينه! ونلاحظ أنها لم تركّز على السفينة وضخامتها، أو عمر النبي نوح(ع) الطويل جدا جدا، أو على الطوفان، أو على ابنه الكافر... فالفقرة أرادتنا أن نرى سوء عقيدتهم الواضح مما سبق ونقلته عمّا قاله النبي إبراهيم (ع) عن فساد الشرك، وأضافت عليه حجّتهم السيئة السخيفة باشتراط طرد النبي نوح(ع) للأراذل وألّا يعترف بإيمانهم.

الآن سؤال: هل تتصوّر مجتمعاً كهذا سيكون صالحاً حتى على مقياس الذين لا يؤمنون بدينه تعالى؟ فيه قانون وعدالة ورفاهية لأبنائه...؟ لا، لا يبدو هذا من الطبقية الواضحة جدا من كلام الوجهاء الرافض للانضمام لدين ينتمي إليه الأقل منهم شأناً وأهميّةً، وعادة عبادة أي إله غيره تعالى سينتج عنها قوانين على قياس الحاكمين، إن كانت الصورة في ذهنك عنهم كبدائيين، فهم فعلاً كذلك في بعض جوانب تطوّر العمارة والآلات والمؤسسات... ولكن هذا لا يلغي مفهوم فساد الحكومة عنهم، ولا يلغي فساد القانون وتطبيقه، ولا يلغي فساد القرارات المتعلقة بالشؤون العامّة، ولا يلغي الضرر من الطبقية في المجتمع... وهذه جوانب مضرّة لنا ويسميها القرآن بالفساد، وهي أولاً من نتاج فساد عقيدة الناس، والذي ينتج عنه فساد شريعتهم.

كما تلاحظ لا يبدو من القرآن بوضوح تركيز على حال فساد قوم النبي نوح(ع) حكومياً وتشريعياً، ويظهر ذلك بوضوح من كلامه المتكرر عن طغيان وفساد عاد في عهد النبي هود(ع) وكمثال عن ذلك الآية 11 من سورة الفجر {الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ}، ولدينا الآية 52 من سورة النجم والنادرة في الكلام عن فساد قوم النبي نوح (ع) {وَقَوْمَ نُوحٍ

مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى}، فترى منها أن الشرك به تعالى لم يكن السوء الوحيد الذي فعلوه، بل نتج عنه سوء الظلم والطغيان.

هكذا صار لديك صورة عن مجتمع قديم فاسد حكومياً وتشريعياً، والضرر الناتج عن ذلك يطال حياة الناس بشكل مؤذٍ تماماً وبلا فرق في حجم الضرر عمّا تراه وتلمسه من فساد حكومات عصرنا، إن خطر ببالك أن تلك المجتمعات القديمة كانت متكيفة مع الطبيعة وتسيّر أمورها بلا أي اعتماد على الحكومات، فخذ مثلاً بعض المجتمعات في الدول الفقيرة وهي مجتمعات لم تدخل كل مفردات الحضارة إليها، وانظر لسوء حالهم فيما بينهم اجتماعياً وأمنياً واقتصادياً... حيث يحرمون بعضهم البعض من بئر الماء، ومن المرعى للمواشي، ومن الأراضي الزراعية، وفلتان الأمن يمنعهم من التطوّر... من هذه الصورة تخيّل حال قوم النبي نوح(ع).

كما ترى قفز القرآن عن ذلك مركّزاً على شركهم، واختار الطبقية في مجتمعهم كنموذج عن فسادهم التشريعي الناتج عن شركهم، وذلك حتى يكون تركيزنا على فهم خطورة الشرك لوحده كعقيدة مسببة للعقاب الإلهي، علماً أن عموم كلام القرآن عن الأقوام التي تعذّبت في الدنيا كان يشير لكفرهم مضافاً إليه فسادهم وطغيانهم، وهكذا وبضبابية تخرج بنتيجة غير صحيحة، وتقول إنّه تعالى لا يهتم بالشرك به ليعذّب الأقوام عليه، ويهتم تعالى بالفساد، أو يهتم فقط بالفساد مع الشرك، وهكذا يأتي الكلام عن قوم النبي نوح(ع) ليريك أن الشرك مشكلة بحد ذاته.

نعم، من قصّة النبي إبراهيم(ع) في قومه ترى أن شركهم لم يصر سبباً لإهلاكهم بعذاب في الدنيا، وبناء عليه سنفترض أن حكومتهم وتشريعهم كان مقبولاً في عدالته، ولذلك لم يطلهم عذاب في الدنيا، علماً أن الشرك سينتج عنه حتماً فساد وطغيان، ولكن لو وضعنا مسألة الشرك جانباً فعلى ما يبدو على المعيار الإلهي أنّ شدّة سوء قوم النبي إبراهيم(ع) لم تصل إلى حيث يستحقّون نزول عذاب دنيوي عليهم.

هذا تحليل قد تنتقده أو تقوّمه أو تقبل به، ولكن وعلى أي حال، عليك بفصل مسألة الشرك لوحدها كمشكلة كبيرة عن مسألة حدوث عذاب في الدنيا، إذ بالتحليل يبدو أن الشرك ليس لوحده سبباً لحصول عذاب في الدنيا لقوم ما، بل دائماً تجد معه فسادهم وطغيانهم، ولكن هذا لا يعني أن الشرك به تعالى مسألة صغيرة.

ضع في بالك دائماً أن الطوفان بشكل عام، والسفينة بشكل خاص كانت آية واضحة جداً لسنين طويلة للناس الذين ازداد عددهم بعد الطوفان، وهذا شيء نجد إشارة له في سورة "المؤمنون" في الآية 31 وما يليها {فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ}، حيث تحدّثت عن رسول بعد النبي نوح(ع) ولم تذكر اسمه، ويبدو من سياق السورة أنه كان قريباً جداً من عهد النبي نوح(ع) وأنه من ذاك التاريخ القريب جداً من الطوفان أيضاً أكثر الناس لم يؤمنوا رغم معرفتهم بالطوفان ونجاة المؤمنين فقط في الفلك الذي يرونه.

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ{122})
{وَإِنَّ رَبَّكَ}، وإن المسؤول عنك من مستوى إلهي، أيها الرسول (ع) "وأيها المؤمن"، {لَهُوَ الْعَزِيزُ}، هو الموصوف بكل ما تحمله كلمة عزيز من معنى، والعزيز وصف لنفي عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، وَتُقَابِلُهَا صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... فلا تَبْخَعْ نفسك أيها الرسول(ع) فربّك عزيز فلا يتأثّر أصلا حتى لو كفرت كلّ المخلوقات، وعزيز حيث يمكنه فعل ما يريد، ويمكنه تعالى جعلهم مؤمنين غَصْبًا عنهم ويمكنه تعالى إعادة إحيائهم لمحاسبتهم، ويمكنه تعالى تعذيبهم هنا أو في الآخرة...

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الرَّحِيمُ}، الموصوف بالعناية الخاصّة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم بكل ما تحمله كلمة رحمة من معنى، فيخاطبهم بهذا القرآن حتى يؤمنوا وبعدها يفوزوا بالجنة، في مقابل الأكثرية التي بسوء فعلها أخرجت نفسها من رحمته تعالى.

انتبه أيها السامع للقرآن، فاهتمامه تعالى بالناس ليهديهم ليس نابعا من حاجته لهم، فهو العزيز وسبحانه لا يستفيد ولا يتضرر منهم بأي شيء، والسبب لاهتمامه تعالى بالناس ليبعث لهم رسولا، أن بينهم من سيؤمن وسبحانه رحيم بالمؤمنين حيث يُؤَمِّنُ لهم ما يساعدهم على الاهتداء.

(كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ{123})
{كَذَّبَتْ}، قبيلة، {عَادٌ}، {الْمُرْسَلِينَ}، لم يصدّقوا الذين أرسلهم ربنا سبحانه لهم ليهدوهم.

المشهور في كتب التاريخ الإسلامية أن "عاد" هو اسم شخص صار له فيما بعد أحفاد كثيرون جدًّا، فصاروا قبيلة كبيرة، وهذا الكلام لم أجد له أيَّ مستند تاريخيٍّ غير كلامهم الذي يبدو افتراضًا تخمينيًّا منهم. على كل حال فهي قبيلة كانت منتشرة في مناطق مختلفة من الجزيرة العربية، والنبي هود(ع) أرسله تعالى في منطقة الأحقاف، أي التي فيها تلال رملية كما ورد في الآية 21 من سورة الأحقاف {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ...}، ومدينتهم اسمها إرم كما ورد في الآية 7 من سورة الفجر {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ}، ويقال إنها كانت تقع بين اليمن وعمان.

(إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ{124})
قال لقبيلة عاد أخوهم المشارك معهم في مكان السكن، وهو النبي هود(ع): {أَلَا تَتَّقُونَ}، لديكم ما يكفيكم من المعلومات لتتجنّبوا وتتحاشوا، والكلام عن تجنّب السيئات وبالتالي تجنّب غضب وعقاب ربّكم سبحانه، فلماذا لستم متّقين؟ ولماذا لا تتوقفون عن الشرك به تعالى وعن ارتكاب السيئات؟

(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ{125})
{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ}، ناقل لكلامه تعالى إليكم، {أَمِينٌ}، لست أخون ولا أنقل لكم إلا ما يقوله لكم سبحانه بالضبط.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ{126})
{فَاتَّقُوا اللَّهَ}، تجنبوا غضبه وعقابه، {وَأَطِيعُونِ}، التزموا بما أنقله لكم من أوامر ربكم سبحانه، لأن ربكم يقول لكم أَنْ تَتَوَقَّفُوا عن الشرك به وعن ارتكاب السيئات، أطيعوني وتوقفوا عن هذه الأمور.

(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ{127})
{وَمَا أَسْأَلُكُمْ}، لا أعبّر لكم عن إرادتي للحصول، {عَلَيْهِ}، على تبليغي لكم للرسالة، {مِنْ أَجْرٍ}، من شيء محدّد أستحقّه كأجرٍ كبدل أتعاب عن قيامي بتوصيل الرسالة، لم أسألكم أن تعطوني المال أو البيوت والأراضي لأني أقوم بتبليغ الرسالة الإلهية.

{إِنْ أَجْرِيَ}، فقط أجري، ما أستحقّه مقابل نقلي وتبليغي للرسالة، {إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ}، فقط على المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس، فهو سبحانه حدّد لي أجرًا وأنا هدفي ذلك الأجر، وتعلم أنه الدخول إلى جنة الخلود.

تذكّر أن هذا الكلام متكرر وستكرره السورة نقلًا عن لسان الرسل، وذلك حتى نلتفت أن شخصًا لا يريد شيئًا شخصيًّا لنفسه، مثل العرافين والكهنة والملوك ومن يريد الرئاسة والشهرة... وهذا الشخص يحمل رسالة من الإله، ويقول كلامًا عقلانيًّا، وينذرهم من العقاب الدنيوي والأخروي... ورغم ذلك لم يؤمن قومه! مما يعني أن المشكلة ليست فيك أيها الرسول محمّد(ع) ولا في رسالتك، ولا داعي لأن تبخع نفسك لأجل أناس يقومون بالسيئات، فقم بتوصيل رسالتنا ونحن نتعامل مع الناس بحسب ما نراه مناسبًا هنا في الدنيا أو في الآخرة، بدمار شامل أو جزئي، بكارثة جويّة أو أرضية...

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ{128})
{أَتَبْنُونَ}، هل تراكمون تجميع الأشياء، وهنا الكلام عن منشآت، {بِكُلِّ رِيعٍ}، بكل تلة أو هضبة، تبنون بناء يكون، {آيَةً}، شَيْئًا مُمَيَّزًا، فمن يراه يعرف أنكم أنتم بنيتموها لأنه بناء مُمَيَّزٌ، {تَعْبَثُونَ}، من دون أي نتيجة مرجوّة من البناء، ومن دون فائدة منه تَبْنُونَهُ! كلمة عبث استعملها القرآن مرتين فقط، هنا وفي الآية 115 من سورة الْمُؤْمِنُونَ {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}.

على ما يبدو هم امتلكوا الكثير من المال والعبيد فبنوا على المرتفعات علامات لتدل على سلطتهم وقوّتهم، مثل النصب التذكارية والمسلات وبرك المياه المزخرفة... بلا فائدة عقلانية.

ننتبه، ثقافة بناء الأبنية لمنظرها فقط من دون أي فائدة منها، كالنصب التذكارية والشعارات وتماثيل المشاهير... ونوافير المياه... منذ القدم مُتَرَسِّخَةٌ في عموم ثقافتنا على أنها من رموز الحضارة، ونشعر بضرورتها على اعتبارها رَمْزًا للرقي والتحضّر وَانْعِكَاسًا للثقافة ولحفظ التاريخ والمشاهير... وبالعقلانية سترى أنها ضياع للتكاليف والمجهود، والقيمة المرجوة منها أصلا ليست قيمة عقلانية، وها ترى من آيتنا هنا تَصْرِيحًا برفضه تعالى لهكذا سلوكيات.
واستجلاب تلك النصب والمباني للزوار السائحين "دِينِيًّا أو للترفيه" ما هو إلا عبث فوق العبث في تكاليف السفر إليها ومصاريف زيارتها لمجرد النظر إليها... كم من حاكم ظالم ظنّ أنه يروّج لنفسه بوضع تماثيله في الساحات ونشر صوره على الحيطان... وجاء زمن سقوطه وَمَحَا الناس أثره... وصار من التاريخ المنبوذ...

قَدِيمًا بدأ الناس ببناء نصب ورموز لا فائدة منها إلا للدلالة على عظمتهم وتاريخهم وتفوّقهم على الآخرين مَالِيًّا وَتِقْنِيًّا... ودائما كان في مجتمعاتهم أو جيرانهم آلاف يبيتون جَائِعِينَ يكفيهم لكل حياتهم ما جرى إنفاقه على ما لا فائدة منه من عمارة ونصب، وحتى لو كان كل المجتمع مُكْتَفِيًا فالترف يبقى تَرَفًا سَيِّئًا ولو بأقل قطعة نقدية، ولو بدرهم واحد أو بدولار واحد يتم صرفه عَبَثًا على أبنية لا فائدة منها أو من زخرفتها.

للأسف، بدل شكر النعمة الإلهية على الموارد الطبيعية لمناطقنا عبر إنفاقها بما يخدم مصالح الناس، ترى تَرَفًا في القصور وفي الأبراج ناطحات السحاب... الفارغة غير المشغولة ولا المأهولة...

هذا يأخذنا إلى عمق ترى فيه فرق عقليتنا الآن بالنسبة لتعامل النبي محمّد(ع) مع مسجد المدينة، فبمراجعة سريعة لتاريخ بنائه ترى أنه (ع) رفض أي تغيير فيه لم ير فائدة منه، وإذا ذهب فكرك إلى ذلك المسجد بِتَصَوُّرِهِ كمساجدنا فَخُذْ عِلْمًا أنه كان بقعة أرض جرداء، وفيما بعد بَنَى المسلمون على أطرافها بيوتهم... وفيما بعد بنوا لها سُورًا مُنْخَفِضًا حولها في بعض نواحيها، وبعد إصرار من الصحابة رضي النبي(ع) بفرش أرضه بالحصى، وبعد جهد جهيد قبل (ع) أن يضعوا في زاوية منه سَقْفًا صَغِيرًا من جرائد النخيل، ورفض (ع) رَفْضًا قَاطِعًا أن يبنوا له سَقْفًا...

الكلام هنا في الآية عن العبثية في الأبنية ليس مُسْتَثْنًى منه بناء المساجد والمقامات والمزارات بالترف الذي نراه فيها من قباب مذهّبة ومآذن وأسقف شاهقة الِارْتِفَاعِ... وحيطان مزخرفة... بينما هناك أناس تعاني الجوع وسوء التغذية والحاجة للدواء والطبابة... وفقدان البنى التحتية الأساسية للحياة...

الْأَسْوَأُ من ذلك كلّه أن نفس الفقير المحتاج للمساعدة تراه يتبرّع لتلك الأماكن للترف في بنائها! وهو يظن بأنه يفعل حَسَنًا!

لا يذهب فكرك إلى تبرير ذلك بأي وجه، فالعبثية هي المعيار، وما تجده في القرآن عن أفعال النبي سليمان(ع)، كما ورد في الآية 13 من سورة سبأ {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ...}، فلا يذهب فكرك ولا بأي شكل أنه (ع) فعل شَيْئًا عَبَثِيًّا، وراجع دراسة تلك الآية لمزيد من التوسّع.

(وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ{129})
{وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ}، وتقومون بصنع أشياء تقصدون منها، {لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ}، على أساس أنه من المتوقّع ومن المفروض منها أن يبقى ذكركم عبرها إلى الأبد.

على ما يبدو أنهم أكثروا من صنع التماثيل الشخصية لهم أو النصب التذكارية والمسلات... في الساحات ومداخل المدينة وأطرافها... وهذا شيء لا تزال الأمم تفعله، حيث نجد تماثيل للحكّام والقادة العسكريين وللعلماء... ونجد أبنية ضخمة ومزخرفة ذات تكاليف عالية جِدًّا جِدًّا... وَقُبُورًا مَنْحُوتَةً... وَنَقُولُ: بناها الرومان، وبناها المصريون، وبناها عاد... والغاية منها أن تكون آية تذكارية لهم خالدة عبر التاريخ فقط لا غير بدون أي فائدة أخرى لمصالح الناس.

كما يبدو وَاضِحًا فإن هذا النوع من البناء المكلف والذي لا غاية منه سوى تخليد الذكرى ممنوع وعليه عقاب إلهي، وعلى الأقل طالما هناك أناس تحتاج للمساعدة وطالما هناك شؤون عامة للناس بحاجة لِإِنْجَازِهَا... ولكن رغم تَخْفِيفٍ للتحريم فالآية صريحة بحرمة العبثية، وهي من نوع الفساد في الحكومة والدولة في إنفاق الموارد، فالمال والجهد يجب أَنْ يتم صَرْفُهُمَا فيما ينفع الناس فقط وفقط.

(وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ{130})
يكمل النبي(ع) كلامه لقومه:

{وَإِذَا بَطَشْتُمْ}، وإذا أردتم تحقيق ما تريدونه من الآخرين وَتَعَامَلْتُمْ معهم بعنف، وَهَجَمْتُمْ على أحد لتحاربوه أو تستعمروه، أو أردتم فرض عموم أي شيء على جيرانكم أو من تطالهم يدكم، كخلاف على نهر ماء أو منجم...
{بَطَشْتُمْ}، تعاملتم بعنف، {جَبَّارِينَ}، قَاهِرِينَ فَارِضِينَ إرادتكم بالقوّة، كما يفعل الجبابرة الذين يملكون قوة كبيرة وَيُدَمِّرُونَ ويقتلون بلا رحمة، أو يفرضون ما يريدونه بلا مفاوضات...

كما يبدو فإن عَادًا كان لديهم قُوَّةٌ عَسْكَرِيَّةٌ قَوِيَّةٌ جِدًّا، وكانوا يهجمون على القرى والمدن المجاورة لهم وَيُدَمِّرُونَهَا أو يستعبدون أهلها، أو يسلبون خيراتهم أو يفرضون جزية عالية...

قارنها مع حالة من يعلن مسالمته أو تبعيته لمن هو أقوى منه، حيث يَتْرُكُهُ القوي مُكْتَفِيًا بجزية وَمُسْتَوْلِيًا على قدراته العسكرية والعمّالية... وقارنها مع من يخسر الحرب ويتركه المنتصر حَاكِمًا تَابِعًا له مُسْتَفِيدًا من مقدرات تلك الحكومة عَسْكَرِيًّا وَعُمَّالِيًّا وَمَالِيًّا... وقارنها مع الاستعمار أو بالوصاية... وَبِالنَّظَرِ لهذه الحالات نفهم توصيف النبي هود(ع) لقومه بأنهم بطّاشون مع جبروت، وَيَمْسَحُونَ أي كيان للآخرين ليصيروا تحت الاحتلال ومدموجين في دولة عاد كعبيد، أو كمواطنين من الدرجة الثانية بلا حقوق...

لا تَنْسَ أن التحرّك العسكري لقوم عاد على الآخرين مَبْنِيٌّ فقط وفقط على الاستفادة من الآخرين، بلا أي هدف عقلاني، وهذا مشابه لما نعرفه عن تاريخ التحرّك العسكري للمغول بقيادة جنكيز خان، وَتَنَبَّهَ الكثيرون عبر التاريخ لهذا، وَاخْتَرَعُوا عناوين رَنَّانَةً لحملاتهم العسكرية لتشفع لهم عبر التاريخ، كعناوين الحرية والعدالة والمساواة... وفي عصرنا يدرج العنوان الكاذب بنشر الديموقراطية وحرية الإنسان...

بالنسبة لما تريده السورة من سرد هذه النبذة عن تاريخ عاد، فهي تريك وضوح سوء ما فعلوه من أبنية عبثية بتكاليفها المالية والعمالية واستهلاك الموارد... وبطشهم الجبّار بكل من تطاله يدهم وهو أضعف منهم.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ{131})
اتَّقُوا الله تعالى وَتَجَنَّبُوا غضبه وعقابه، وأطيعوني، وَكُونُوا على ما أنقله لكم من أوامر ربكم سبحانه، وَتَوَقَّفُوا عن الشرك به وعن أعمالكم السيئة...

(وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ{132})
{وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ}، تَجَنَّبُوا غضب وعقاب الذي أعطاكم بلا انقطاع، {بِمَا تَعْلَمُونَ}، بما لديكم وتعلمون أنها نعمة عليكم، وهو التالي:

(أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ{133})
سُبْحَانَهُ يستحق أن تتقوه لأنه:

{أَمَدَّكُمْ}، أعطاكم بلا انقطاع، {الْأَنْعَامَ}، وهي الحيوانات الموصوفة بأنها نعمة لكم، حيث تَنْقُلُكُمْ وتنقل أغراضكم وتحرث أرضكم وتشربون لبنها وتأكلون لحمها...

{وَبَنِينَ}، وأمدّكم بالأولاد.

(وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{134})
سُبْحَانَهُ أعطاكم بشكل ممدود:

{جَنَّاتٍ}، وهي الأماكن الموصوفة بروعة ما فيها، وهي البساتين والحدائق حيث الأشجار والنبات والأزهار.

{وَعُيُونٍ}، وهي فتحات المياه في الأرض، ينابيع المياه العذبة التي تجري كأنهار أو تستقر كَبِرَكٍ.

أَنْتُمْ لم تحصلوا على هذه الأمور من لا شيء، بل سبحانه أمّنها لكم، وهي من أبرز النماذج من نعمته عليكم وهي غير متاحة للجميع، وَبَدَلَ أن تتّبعوا دينه تقومون بمعصية أوامره بأمور واضح مدى سُوءِهَا؟

نَتَذَكَّرُ هنا أن نسبة هذه الأشياء له تعالى نابعة من كونه سبحانه صمّم وخلق السماوات والأرض ليحصل الناس على هذه الأمور، لَوْ أنت خلقت كائنات، وصمّمتها تأكل وتتغذّى لتنمو وتتكاثر... ومنحتها قدرات التعامل مع بيئتها المتوافر فيها ما تأكله... فَأَنْتَ فِعْلِيًّا رازقها الأكل والأولاد والأنعام... ومن نفس هذه النظرة يستعمل تعالى تعابير تنسب له تنزيل المطر وأنه رزقنا وأحيانا وأماتنا وشفانا ونصرنا... لأنه تعالى صمّمها وخلقها ويدير شؤونها.

(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ{135})
اتَّقُوهُ، {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ}، أَشْعُرُ بخطر أكيد عليكم، مِنْ {عَذَابِ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، مِنْ زمن يحصل فيه ضرر لا يمكنكم تحمّله ولا الاعتياد عليه، وهذا سيحصل حَتْمًا في يوم القيامة حيث ستتحاسبون وَتُجَازَوْنَ على سوء ما فعلتموه.

(قَالُوا سَوَاء عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ{136})
{قَالُوا}، قوم عاد لرسولهم:

{سَوَاءٌ عَلَيْنَا}، نفس الشيء سيحصل، {أَوَعَظْتَ}، حَدَّدْتَ لنا الصحيح من الخطأ وَقُلْتَ لنا ماذا نفعل وماذا لا نفعل حتى نتجنب غضب ربك، {أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ}، لَمْ تتكلم معنا بهذا الكلام، فَلَنْ نؤمن وعلى كل حال:

(إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ{137})
{إِنْ هَذَا}، مَا نحن فيه هو فقط، {إِلَّا خُلُقُ}، هُوَ فقط طريقة تصرفات وأفعال انْطِلَاقًا من عقلية ما، {الْأَوَّلِينَ}، آبَائِنَا وَأَجْدَادِنَا وغيرهم من الأمم الذين كانوا أَوَّلًا، وَهَذِهِ هي نوعية تصرفاتهم ونحن مثلهم.

نَحْنُ جيل من قوم عاد، فتح عيونه على الحياة، وَوَجَدَ بقية الأقوام ووجد أجداده مُشْرِكِينَ، ويقومون ببناء النصب التذكارية والمصانع ويقومون بغزو وفرض سلطتهم على بقية الشعوب، وَلَمْ نؤسّس لهذا الشيء بل هو تصرّف عادي طبيعي تقوم به كل الأمم القويّة، وغير الطبيعي ما تقوله أنت لنا.

نتوقّف قَلِيلًا هنا ونتذكّر الحجج الواهية التي قالها الأقوام للأنبياء الذين سبق وتحدّثت عنهم السورة، تَبْرِيرُ عاد لأفعالهم لن يجعلها حسنة، وَهُمْ بشكل ما يعترفون بسوئها ولكن يبررون لها، وهذه الحالة تجدها منتشرة عبر التاريخ في مختلف الأمم، إِذْ إِنَّ أغلبية الدول المتجاورة تعيش حالة القلق من جيرانها، لأن الذي لديه القوّة على فرض ما يريده على الآخرين، لَنْ يجلس مكتوف الأيدي، وهنا في الآية مَا تنقله عن قول عاد يحمل في ضمنه هذه المعاني، لَوْ كنّا نحن الضعفاء وجيراننا الأقوياء هَلْ كانوا سيتعاملون معنا بلطف؟ لا، هَا هُوَ التاريخ أمامك يا هود، وَالْمُشْكِلَةُ ليست في توصيف ما نفعله، فليكن سَيِّئًا، ولكنها سياسة الحياة، لِأَنَّ الْقَوِيَّ يأكل الضعيف، ونحن في حالة القوّة وسنستغل ذلك.

(وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ{138})
نَحْنُ لن نتعرّض لأي ضرر، لِأَنَّهُ لو كان هناك عذاب في الدنيا كما تقول، لكان العذاب نزل على من كان قبلنا وكان يفعل مثلنا، وكلامك عن عذاب في الآخرة على ما نفعله أَيْضًا غير صحيح، لِأَنَّنَا نفعل ما يفعله كلّ الناس، فَكُلُّنَا خَطَأٌ وكلنا سنتعذّب وأنت الصحّ وأنت الناجي من العذاب!

تلاحظ أن تكذيب المشركين الذين كانوا في عصر النبي محمّد(ع) للقصص عن نزول عذاب إلهي على الذين سبقوهم من المشركين، هُوَ نفسه تكذيب عاد وهو نفسه تكذيب من في عصرنا من المجتمعات الذين لا يَتَّقُونَهُ تعالى ولا يبالون بعقابه. وهنا الكلام يدمج العذابين في الدنيا والآخرة مع بعض، حَيْثُ إِنَّهُمْ ينفون العذابين وبنفس الحجة، لِأَنَّ مَنْ سبقهم كان مثلهم، ولم يصبه عذاب إلهي في الدنيا، وَطَبْعًا هم لا يصدّقون بحصول العذاب الدنيوي على من سبقهم من مشركين، ومن سبقهم كَانَ يفعل مثلهم وَمَا معنى أن يصيبهم هم عذاب في الْآخِرَةِ على شيء تفعله كل الناس إن استطاعت؟

كَمَا ترى بوضوح لَيْسَ الحقّ والباطل والخير والشرّ... معيارهم، لِأَنَّهُمْ يتحججون بأن من سبقهم كان مثلهم سَيِّئًا، وَهَذِهِ هي سيرة البشرية، وَمَا معنى تعذيب من هو على هذه السيرة مثله مثل غيره؟ وكلامهم صحيح في جانب انتشار السوء في تاريخ البشرية، ولكن هل هذا عذر لكل قوم استطاعوا فعل السوء أن يفعلوه؟ ولا معنى للحقّ والباطل؟!

(فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ{139})
{فَكَذَّبُوهُ}، حيث لم يصدّق قوم عاد رسولهم عن نزول العذاب عليهم ولم يتقوا ربهم سبحانه، {فَأَهْلَكْنَاهُمْ}، واستنفد سبحانه حياتهم فأماتهم.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، في هذه الحادثة التي أبادت عاداً، {لَآيَةً}، شيئاً مُمَيَّزاً، وهي ليست حدثاً عادياً، حيث هناك مدينة انمحت مع سكانها ونجا المؤمنون فقط، فإن لم تكن لك ولي الآن آية مرئية لأننا لم نَرَ آثارهم ونحن بعيدون عن تاريخهم ولم نفتقدهم... فإن من جاورهم وكان قريباً بالزمن منهم، كان من المفروض أن ينتبه لهذا الحدث المميّز، وبخاصَّةٍ بعد نجاة المؤمنين فقط من تلك القرية، {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ}، أكثر الناس الذين عاصروا أو عايشوا أو لمسوا آثار الحادثة، أو سمعوا بها من مصدر موثوق، لم يكونوا، {مُؤْمِنِينَ}، معتقدين بهذه الآية.

نلاحظ تركيز الآيات التي مرت على ذنب قبيلة عاد وبشكل واضح ومختصر، حيث إنَّ ذنبهم هو الكفر مضافاً إليه الاستكبار والإسراف والإفساد في الأرض، لترى أن سوء ما يفعلونه كان واضحاً جداً، وبكلمة واحدة مختصرة ذكرت لنا السورة إهلاكهم، ولم تُعِرْ أهمية لكيفية حصول ذلك حتى يبقى التركيز وباختصار على الذنب الواضح سوؤه من جهة، والإهلاك في الدنيا من جهة ثانية. وهكذا تعرضها بسهولة على حالة النبي محمّد(ع) الذي خاطبته بداية السورة: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ}. فما الداعي لذلك؟ وها ترى وضوح سوء ما مرّ من جبابرة وانتهوا جزاءً بما فعلوا من سوء.

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ{140})
{وَإِنَّ رَبَّكَ}، وإن المسؤول عنك من مستوى إلهي، أيها الرسول (ع) "وأيها المؤمن"، {لَهُوَ الْعَزِيزُ}، هو الموصوف بكل ما تحمله كلمة عزيز من معنى، والعزيز وصف لنفي عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... لأنه فوق الجميع، وتقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... فلا تبخع نفسك أيها الرسول(ع) لأن ربّك عزيز فلا يتأثّر أصلاً حتى لو كفرت كلّ المخلوقات، وعزيز ويمكنه فعل ما يريد، حيث يمكنه تعالى جعلهم مؤمنين غصباً عنهم ويمكنه تعالى إعادة إحيائهم لمحاسبتهم، ويمكنه تعالى تعذيبهم هنا أو في الآخرة...

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ}، {الرَّحِيمُ}، الموصوف بالعناية الخاصّة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم بكل ما تحمله كلمة رحمة من معنى، حيث يخاطبهم بهذا القرآن حتى يؤمنوا وبعدها يفوزوا بالجنة، في مقابل الأكثرية التي بسوء فعلها أخرجت نفسها من رحمته تعالى.

انتبه أيها السامع للقرآن، لأنَّ اهتمامه تعالى بالناس ليهديهم ليس نابعاً من حاجته لهم، لأنه العزيز وسبحانه لا يستفيد ولا يتضرر منهم بأي شيء، والسبب لاهتمامه تعالى بالناس ليبعث لهم رسولاً، أن بينهم من سيؤمن وسبحانه رحيم بالمؤمنين ويؤمّن لهم ما يساعدهم على الاهتداء.

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ{141})
ثمود اسم لقبيلة عربية كبيرة، كانت منتشرة في عدة أماكن في شبه الجزيرة العربية، والنبي صالح(ع) أرسله سبحانه إلى مدينة الحجر، كما ورد في الآية 80 من سورة الحجر {وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ}، وتوجد إلى الآن آثارٌ لبيوت منحوتة في الصخر في مدينة تسمى الآن مدائن صالح، وهي تقع لجهة الشمال الغربي من المدينة المنورة.

(إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ{142})
{إِذْ قَالَ لَهُمْ}، لثمود، {أَخُوهُمْ}، الشخص المشارك معهم في شيء، وهنا المقصود أنه مشارك معهم في مكان المعيشة، وهو النبي صالح(ع) حيث قال لهم:

{أَلَا تَتَّقُونَ}؟ لماذا لا تتجنبون، والكلام عن تجنّب السيئات وهو نفسه تجنّب غضبه وعقابه تعالى، حيث وصلكم ما يكفيكم لتتجنبوا غضبه وعقابه تعالى فلماذا لستم كذلك؟

ضع في بالك أن الوصف بالأخوّة يشير لعلاقة المشابهة بالتساوي في شيء أساسي يجمع الموصوفين معاً، كأخوّة في النسب، أو في الإيمان أو في الإنسانية أو في التكليف... أو المكان والمعيشة... كما نقول: أخو العرب، أخو المهنة... و{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} كما ورد في الآية 10 من سورة الحجرات.

(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ{143})
{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ}، ناقل لكلامه تعالى، {أَمِينٌ}، أنقله بكل أمانة ولا أخون وأنقله لكم بشكل صحيح كما وصلني.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ{144})
{فَاتَّقُوا اللَّهَ}، تجنبوا غضبه وعقابه عبر توقّفكم عن السيئات، {وَأَطِيعُونِ} التزموا بما أقوله لكم، وتوقفوا عمّا يحرّمه تعالى وافعلوا ما يوجبه عليكم.

(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ{145})
{وَمَا أَسْأَلُكُمْ}، لا أعبّر لكم عن إرادتي للحصول، {عَلَيْهِ}، على تبليغي لكم للرسالة، {مِنْ أَجْرٍ}، من شيء محدّد أستحقّه كأجرٍ كبدل أتعاب عن قيامي بتوصيل الرسالة، حيث لم أسألكم أن تعطوني المال أو البيوت والأراضي لأني أقوم بتبليغ الرسالة الإلهية.

{إِنْ أَجْرِيَ}، فقط أجري، وما أستحقّه مقابل نقلي وتبليغي للرسالة، {إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ}، فقط على المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس، لأنه سبحانه حدّد لي أجراً وأنا هدفي ذلك الأجر، وتعلم أنه الدخول إلى جنة الخلود.

تذكّر أن هذا الكلام متكرر وستكرره السورة نقلاً عن لسان الرسل، وذلك حتى نلتفت أن شخصاً لا يريد شيئاً شخصياً لنفسه، مثل العرافين والكهنة والملوك ومن يريد الرئاسة والشهرة... وهذا الشخص يحمل رسالة من الإله، ويقول كلاماً عقلانياً، وينذرهم من العقاب الدنيوي والأخروي... ورغم ذلك لم يؤمن قومه! مما يعني أن المشكلة ليست فيك أيها الرسول محمّد(ع) ولا في رسالتك، ولا داعي لأن تبخع نفسك لأجل أناس يقومون بالسيئات، فقُم بتوصيل رسالتنا ونحن نتعامل مع الناس بحسب ما نراه مناسباً هنا في الدنيا أو في الآخرة، بدمار شامل أو جزئي، بكارثة جويّة أو أرضية...

(أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ{146})
نكمل مع كلام النبي(ع) لنرى سوء ما فعله ثمود: {أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ}، تتركون هذا المكان حيث دياركم التي لا تشعرون بأي خطر فيها، سواء من البيئة أو من الأعداء...

(فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{147})
{فِي جَنَّاتٍ}، في أماكن موصوفة بروعة ما فيها من البساتين والحدائق والأشجار... {وَعُيُونٍ}، وفتحات في الأرض ينبع منها الماء وتجري أنهاراً أو تستقر بِرَكاً.

(وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ{148})
وتتركون هذا المكان الذي فيه، {زُرُوعٍ}، مزروعات، من مختلف الخضار والفاكهة، وفيه، {نَخْلٍ}، الشجر الذي ينتج البلح والتمر، {طَلْعُهَا}، ما يطلع منها، ما يبدو منها وكان مستوراً مختفياً من قبل في الأكمام، فنتاجها فثمرها، {هَضِيمٌ}، ناضج وفي أفضل نكهاته للطعام.

يعني هو إشارة لنموذج عن أبرز ما يعتمدون عليه في حياتهم من المزروعات، حيث إنَّ التمر مشهور تاريخياً في منطقة الشرق الأوسط كغذاء يومي ويجري تخزينه كتمر للاستمرار بتناوله بعد انتهاء موسمه كوجبة يومية أساسية،

والآية هنا تشير لنموذج يدل على الأمان من ناحية الإنتاج الزراعي لما يعتمدون عليه في حياتهم لأنه كان متوافراً. وهذا مشابه لاعتمادنا في عصرنا على القمح والذرة والأرز... كمادة أساسية يومية للغذاء.

يعني حيث توجد بيوتهم يوجد بقربها شجر نخيل ثماره ممتازة، ويؤمّن لهم مصدر طعامهم الضروري لاستمرار حياتهم، فما معنى تركها والذهاب إلى مكان بعيد لنحت بيت في جبل صخري؟

(وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ{149})
تتركون كل هذا وتذهبون، {وَتَنْحِتُونَ}، تزيلون قطعاً من الصخور مع زخرفة ونقوش، تحفرون وبعدها تنحتون وتنقشون الزخارف، {مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ}، بيوتاً على أقصى ما يمكن من الزخرفة المنمَّقة، وليست مجرد غرف منحوتة كالمغاور، بل حيطانها ملساء ومنقوشة و...

ولم ترد كلمة {فَارِهِينَ} أو من مشتقاتها إلا هنا في القرآن.

الآيات تخبرنا عن سكنهم في مكان آمن وفيه كل متاعات الحياة، ولكنهم بطروا من كثرة المال والخيرات والعمّال، وتركوا بيوتهم وبنوا بيوتاً محفورة ومزيّنة بالنقوش في صخور الجبال! لا لأن بيوتهم القديمة فيها مشكلة أمنية أو غير مريحة، أو معرَّضة لخطر كارثة طبيعية... بل حتى يتفاخروا ويتباهوا ببيوت مكلفة جداً فارهة في تزيينها بالنقوش.

عموماً في ثقافاتنا الحالية لم نعد نرى أي مشكلة في بناء بيوت وتأثيثها بزوائد غير أساسية، حيث إنَّ قصور الأغنياء كلّها ترف، وبيوت الأقل منهم فيها غرف ومساحات زائدة عن الحاجة، والحيطان الداخلية والخارجية مزينة بالصخور المنقوشة... والأرضية رخام... والأبواب والشبابيك والأثاث... من أغلى الأثمان... ولا أتحدّث عن بيوت الأغنياء فقط، بل عن عامّة بيوت المسلمين الذين شاع بينهم ألا يعترضوا على الترف في بناء وتأثيث البيوت، بل ويحلمون ببناء بيوت فخمة مترفة!

بعد تجذّر ثقافة الترف في عموم مجتمعاتنا، صار من الصعب جداً علينا رؤيته كسوء، وصار من الصعب علينا فهم الاعتراض الإلهي عليه في كلامه تعالى عن قوم ثمود وما فعلوه من نحت البيوت في صخور الجبال، فما هي الحدود بين الترف السيّء، وبين المريح المقبول الجيّد؟ فهل يدعونا الدين الإلهي للعيش في بيوت ترابية أبوابها ألواح خشب تظهر منها المسامير التي تجمعها مع بعضها بلا دهان ولا نعومة لسطحها... وأرضية البيوت ترابية وأثاثها جلد صوف... وأصلاً هذا ترف إذا قسته مع خيمة من أعواد خشب ورقاع الجلود، وهذه ترف إذا قستها مع مغارة.

هناك بعض الأمور التي لا نختلف في ترفها لأنها للزينة فقط وفقط، كالنقوش الصخرية والزخرفة على الخشب... وهناك أمور مكلفة ولكنها معينة على حياة أسهل وأفضل، كتسميك الحيطان لمنع الرطوبة والحرارة... وكما ترى فليست المشكلة بتحديد ما هو مسموح وممنوع من البناء بالنظر إلى تكلفته العالية أو المنخفضة فقط، بل بتحديد ما هو ترف ولا حاجة له، عبثي، ومن بعدها تقارن بين ما يكفي وسعره مقبول، وبين الآخر ذي الثمن الأغلى بسبب زوائد فيه لا تفيدنا إلا لجمال منظرها.

عادةً يلتصق في ذهننا الثمن الغالي للأشياء مع جودتها ونوعيتها العالية، وهذا غالباً صحيح، ولكن ما يحرّمه تعالى علينا هو الترف لا الجودة، ومهما شرحت لك عن هذا الموضوع فلن أكون أفضل منك بكثير في تحديد الترف لأني منغمس معك فيما اعتدنا عليه في مجتمعاتنا من ترف لم نعد نراه ترفاً، وصرنا نبرّر له بالجودة "النوعية الجيّدة"... بل ونحلم بالعيش في القصور المترفة...

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ{150})
{فَاتَّقُوا اللَّهَ}، تجنبوا غضبه وعقابه عبر توقّفكم عن السيئات، {وَأَطِيعُونِ} التزموا بما أقوله لكم، وتوقفوا عمّا يحرّمه تعالى وافعلوا ما يوجبه عليكم.

(وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ{151})

المسرف هو الذي يتجاوز الحدّ في التصرّف بماله وعمّاله ووقته... بأكثر مما يحتاج، حيث في البداية بدأ مسرف ما من قوم ثمود ببناء بيت مكلف منحوت في الجبل، وتبعه بقية المسرفين... وتبعهم بقية القوم! فهذا أمرٌ، وهذا شيء فعله المسرفون فلا تنفّذوا ما يفعلونه. وهذه تكملة للآية السابقة، اتقوه تعالى وأطيعوني ولا تطيعوا المسرفين.

عليك أن تتصوّر حالة مجتمعهم بما تسمعه من الناس من حولك، حيث تسمع تعليقاتهم الساخرة المعيبة على البيوت المتواضعة، وتسمع تفاخرهم عن بيوتهم وتكاليفها وأثاثها... والتحف وبراويز الصور... بالمقارنة مع بيوت متواضعة... فهذه الأجواء تجعل الناس مُجْبَرِينَ على تجنّب تعليقات الآخرين عليهم، ويندفعون باتجاه الترف، وترى الفقراء يراكمون على أنفسهم الديون لزوائد في عمارة بيوتهم، ولأثاث فخم... وهذا ما تشير له الآية هنا حيث صار كلام المسرفين وتصرفاتهم هو المعيار الدارج بين الناس، ويعيبون على الذين بيوتهم عادية...

(الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ{152})
لا تطيعوا المسرفين، {الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ}، لأنَّ عملهم هذا ليس فيه أي مصلحة، بل هو مضيعة للمال وللجهد والوقت، وهذا فساد ليس فيه أي صلاح لهم أو للآخرين، حيث إنهم لم ينحتوها حتى تكون آمنةً وأفضل... بل نحتوها إسرافاً، فلا تقلّدوهم.

في غالبية البلدان نجد أغنياء مترفين يسرفون على بناء بيوتهم، وهنا يبدو من الآيات أن بداية الإسراف في نحت البيوت بدأت رويداً رويداً... حتى صار الجميع يريدون بناء بيت محفور، وانتشر الإسراف بين الجميع.

نتذكّر لُبَّ السورة حول وضوح سوء وفساد ما يفعله هؤلاء في مقابل العقلانية التي يطرحها عليهم الرسل، فهل هناك أوضح من سوء اتّباع المسرفين؟

إن لم تَرَ السوء في ترفهم على إنفاق المال والقدرات على نحت بيوت مزخرفة... فكم من غني لبيته بابُ خشبٍ من نوعية عالية ومزخرفٌ، وتكلفته تكفي لتعيش منه عائلة فقيرة لمدة أشهر، فلو كنت فقيراً وأولادك يحتاجون للطعام، أو يشتهون طعاماً لذيذاً، أو ثيابهم بالية ممزقة، أو يحتاجون للدواء... عندها لنظرت لذلك الباب ورأيت كم هو سيّء الترف الذي فضّل فيه الغني صرف أمواله على باب خشبي بدلاً من مساعدتك، أو بدلاً من تأمين فرصة عمل لائقة لك...

(قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ{153})
{قَالُوا}، قوم ثمود للنبي صالح(ع):

{إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ}، كلامك فقط نابع من إصابتك بشيء من السحر أثّر في عقلك وأنت لست طبيعياً، وتتوّهم أنك رسول وتتوهّم أننا مسرفون.

ضع في بالك دائماً أن السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شيئاً غير حقيقي أنه حقيقي. حيث إنَّ الساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد بأنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع أنها لم تختفِ، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر والذي تراه صريحاً في الآية 66 من سورة طه {قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}. وما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، وهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية أنها سحر، وهذا كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

(مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{154})

{مَا أَنْتَ}، وأنت لست سوى، {بَشَرٌ مِثْلُنَا}، من نوع الكائن الذي له بشرة ومشابه تماماً لنا، ولست مميَّزاً عنّا، ولا نفهم لماذا وعلى أي أساس سيتواصل معك الإله؟ حيث يمكن لأي واحد منّا الادّعاء مثلما أنت تدّعي ويقول بأن الإله يوحي له، فهل يمكنك تكذيبه؟

{فَأْتِ بِآيَةٍ} من ربّك، أحضر لنا شيئاً مميَّزاً من المسؤول عنك من مستوى إلهي وتبرهن به أنك فعلاً تتواصل مع الإله، {إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}، لأنك تدّعي التواصل مع الإله وَلِنَرَ إن كنت صادقاً بذلك فلتأتنا بآية.

(قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ{155})
قال النبيّ صالح(ع) لقومه:

{هَذِهِ نَاقَةٌ}، هذه أنثى الجمل، {لَهَا شِرْبٌ}، يومٌ لها لوحدها لتشرب الماء، فلا أحد يقترب من الماء غيرها، {وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ}، بعدها في اليوم التالي تشربون.

لاحظ أن الآيات التي تتناول هذه القصّة تريك أنّ للقوم مصدراً وحيداً للمياه، فلنقل إنّها بركة صغيرة متشكّلة من عين ماء... وبتقاسمهم هذا الماء مع الناقة بيوم لهم ويوم لها تصير الناقة "الآية التي طلبوها" جزءاً من حياتهم اليومية غصباً عنهم، فيومٌ ممنوع عليهم الحضور إلى الماء، واليوم الآخر يذهبون إلى الماء، لأنّهم كل يوم هم بحاجة للماء، وكلّ يوم سيتذكّرون الناقة غصباً عنهم.

من المشهور بيننا أن قوم ثمود حدّدوا صخرة وطلبوا أن تخرج منها ناقة، وهذا الكلام يحتاج للتدقيق في صحّة مصدره، لأن القرآن لم يذكر لنا ذلك، ولم يخبرنا من أين أتت الناقة، ولكن بما أن الناقة آية فنفترض أن طريقة تواجدها كانت الآية، والكلام عن خروجها من صخرة هو الكلام الوحيد المتوافر، ولذلك سنشير إليه على أنه الفرضية الوحيدة حالياً.

من القرآن لن تجد كلاماً عن آية الناقة إلا مسألة شرب الناقة من المياه، الذي يُحتمل منه شربها لكل كمية المياه التي تتجمّع في يوم واحد، فبغض النظر عن الموروث الثقافي عن خروج الناقة من صخرة، يبقى احتمال أن الآية هي الكمية الكبيرة جداً التي تشربها الناقة، وإلا فما معنى حجز يوم لها ويوم آخر للناس؟ فلو كانت تشرب ويبقى ماء، فليستعمله الناس، ولكن وكما يبدو فهي تشرب بكميات ضخمة أكثر بكثير مما تشربه أي ناقة أخرى، طبعاً، وتتذكّر أن ثمود كانوا في منطقة تنتشر فيها بين الناس تربية الجمال، في قريتهم الحجر حتماً كان يوجد جِمالٌ أخرى غير الناقة الآية.

(وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ{156})
{وَلَا تَمَسُّوهَا}، لا تصيبوا الناقة، {بِسُوءٍ}، بأي شيء سيّئ، لا تمنعوها عن الماء، ولا تجرحوها أو ترموها بالحجارة أو تقتلوها، وإلا، {فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، يأتي زمان يصيبكم فيه ضرر من ربّكم سبحانه، يأخذكم فلا يتركم ولن يكون الضرر هيّناً ولا سهلاً فلا يمكنكم تجنّبه أو تجاوزه بسلام أو تحمّله.

(فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ{157})
{فَعَقَرُوهَا}، ضربوها بشيء له رأس حاد، برمح أو سهم... فماتت، ولأنهم كانوا موافقين على قتلها اعتبرهم سبحانه كلهم أنهم قتلوها، مع العلم أن شخصاً واحداً قتلها كما هو واضح من الآية 12 من سورة الشمس {إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا}.

من الآية 65 من سورة هود {فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ}، نعلم أنهم بعد ثلاثة أيام أصابهم زلزال دمّر مدينتهم، وتدمّرت غالبية البيوت الصخرية على رؤوسهم فمات أكثرهم... {فَأَصْبَحُوا}، أول ما صاروا من بعد قتلهم للناقة، ومن بعد نزول العذاب، {نَادِمِينَ}، يشعرون بأنهم فعلوا شيئاً خطأً بموافقتهم على قتل الناقة وكان بإمكانهم اتخاذ قرار أفضل من ذلك.

انتبه، هم لم يصبحوا نادمين بعد القتل مباشرة، فالآية 77 من سورة الأعراف {فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} نقلت استهزاءهم بالنبي(ع) وبالعذاب الذي وعدهم به بعد قتلها... بل تقصد الآية أنهم بعد نزول العذاب من بقي حيّاً منهم صاروا نادمين من بعد نزول العذاب، ومن الآيات 79 وما حولها من سورة الأعراف {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}، نرى

أن العذاب الذي نزل على ثمود لم يكن عذاب إبادة، بل مات الكثيرون من القرية وبقي القليلون، وهنا الآية تصف حالة من بقي حيّاً وتقول بأنهم صاروا نادمين.

ضع في بالك دائماً أنّ مختلف تعابير القرآن عن ثمود قوم النبي صالح(ع) ومدين قوم النبي شعيب(ع)، لم تقل إنهم أبيدوا بالكامل، والإبادة التي ذكرها القرآن كانت لقوم النبي نوح(ع) وقوم النبي لوط(ع) وقوم عاد.

بالنسبة للتعبير بـ"أصبح" انتبه جيداً، لأن الكلمة في أصل اللغة مجعولة لتوصيف الصيرورة لأول حالة بعد حدث، مشابهة بذلك الإصباح لأول ما يستقبلك من النهار من بعد الليل. فهي أوّل حالة من بعد حالة سابقة، وخذ مثلاً حالة أم النبي موسى(ع) التي أصبح فؤادها فارغاً كما ورد في الآية 10 من سورة القصص، حيث إنّ الذهول بتوقّف وجمود فكرها ومشاعرها هي أول حالة أصابتها بعد إلقائه (ع) في النهر. وترى هذا المعنى بوضوح في الآية 103 من سورة آل عمران {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا}. فكلمة أصبح ليست مخصّصة لزمن أول طلوع الشمس بل لعامّة أول حالة من بعد حدث ما، وليست مرادفة لكلمة صار التي تشمل عموم الصيران سواء مباشرة بعد شيء أو بعد أمور أو بعد مدة طويلة.

(فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ{158})
{فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ}، أصابهم ولم يتركهم الشيء السيّء المضرّ وهو الزلزال، {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ}، الذي قلناه في هذه القصة عن ثمود، {لَآيَةً}، فهو شيء مميّز لمن يريد أن يؤمن، من عاصرهم ومن نجا منهم ومن كان قريباً بالزمن منهم، ومن شاهد بيوتهم المدمّرة... سيرى أنّ ما حصل لم يكن عادياً بل مميّزاً ويدل على تعذيبه تعالى لهم بسبب سوئهم، {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ}، غالبية الناس، {مُؤْمِنِينَ}، معتقدين بهذا الدين أو هذه القصة.

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ{159})
{وَإِنَّ رَبَّكَ}، وإنّ المسؤول عنك من مستوى إلهي، أيها الرسول (ع) "وأيها المؤمن"، {لَهُوَ الْعَزِيزُ}، هو الموصوف بكل ما تحمله كلمة عزيز من معنى، والعزيز وصف لنفي عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... فلا تبخع نفسك أيها الرسول(ع) لأنّ ربّك عزيز فلا يتأثّر أصلاً حتى لو كفرت كلّ المخلوقات، وعزيز حيث يمكنه فعل ما يريد، ويمكنه تعالى جعلهم مؤمنين غصباً عنهم ويمكنه تعالى إعادة إحيائهم لمحاسبتهم، ويمكنه تعالى تعذيبهم هنا أو في الآخرة...

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ}، {الرَّحِيمُ}، الموصوف بالعناية الخاصّة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم بكل ما تحمله كلمة رحمة من معنى، فيخاطبهم بهذا القرآن حتى يؤمنوا وبعدها يفوزوا بالجنة، في مقابل الأكثرية التي بسوء فعلها أخرجت نفسها من رحمته تعالى.

فانتبه أيها السامع للقرآن، لأنّ اهتمامه تعالى بالناس ليهديهم ليس نابعاً من حاجته لهم، فهو العزيز حيث سبحانه لا يستفيد ولا يتضرر منهم بأي شيء، والسبب لاهتمامه تعالى بالناس ليبعث لهم رسولاً، أنّ بينهم من سيؤمن وسبحانه رحيم بالمؤمنين فيؤمّن لهم ما يساعدهم على الاهتداء.

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ{160})
أيضاً، {كَذَّبَتْ قَوْمُ} النبي {لُوطٍ}(ع)، فلم يصدّق الناس الذين ينتمي النبي لوط(ع) لجماعتهم، كذّبوا {الْمُرْسَلِينَ}، الذين أرسلهم ربنا سبحانه.

حالياً في البلد الذي يُسمّى الأردن، توجد منطقة تسمّى غور الأردن، وهي منطقة كانت مسكونة منذ القدم، ويقع فيها البحر الميت، وهو البحر الصغير المشهور بارتفاع نسبة الملح في مائه لقرابة الثلاثين من المئة، ومن المشهور بين المسلمين أنّه في زمن النبي لوط(ع) كان في منطقة غور الأردن أربعة تجمعات سكنية، لكل واحدة منها اسم، وهي مذكورة في التوراة ولم يذكرها القرآن وهي: سادوم، عامورة، أدومة، صبييم. وهذه التجمعات هي القرية التي كان فيها

النبي لوط(ع). والمشهور في عموم ثقافة المتدينين أن البحر الميت لم يكن موجوداً في عصر النبي لوط(ع) بل كان مكانه واحدة من التجمعات السكنية، "وهذا غير صحيح لأنّ البحوث الحالية تثبت أنّ البحر الميّت عمره بعشرات آلاف السنين"، ويقولون إنّه عندما نزل العذاب على تلك المنطقة حصل زلزال وفوران للحمم من الأرض، وانخسفت قطعة من الأرض وصارت فيما بعد بحيرة كبيرة هي الآن البحر الميت.

كما تلاحظ استعملتُ كلمة "المشهور ويقولون" بسبب وجود الكثير من الاختلافات بين كتب التاريخ حول مكان وأسماء وتواريخ وماذا حصل في تلك المنطقة، ولا يتماشى ما قالوه عن ولادة البحر الميّت من تلك الحادثة مع العمر الذي يقدّره علماء الجيولوجيا له، ربما حصل خسف فعلاً وتوسّع البحر الميّت ليغطي تلك القرى... وربما لا... على كل حال حتى عهد نزول القرآن يبدو أنّه كان هناك آثار ما لتلك القرى وكان مشهوراً بين الناس حصول دمار هناك لقوم سوء كانوا يعتدون جنسياً على الغرباء... حيث إنّ القرآن أشار لمعرفة المسافرين من أهل مكّة لمكان قوم النبي لوط(ع) ولقصّتهم، ومعرفتهم تلك لم تكن مستندة لمصدر ديني بل مستندة لما يعرفه الناس عن تاريخ المنطقة، وهذا ما يبدو من الآية 137 من سورة الصافات {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ}، ومضافاً لذلك تسمية فعل الشذوذ بـ "الوطي" يريك أنّ قصّتهم أيضاً كانت مشهورة لمدة طويلة جداً سببت اختصار النسبة من "قوم النبي لوط" إلى "الوطي" للأسف.

(إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ{161})
{إِذْ قَالَ لَهُمْ}، لهؤلاء القوم، {أَخُوهُمْ لُوطٌ}(ع)، والأخ هو الشخص المشارك في شيء، وهنا المقصود أنه (ع) مشارك لهم في مكان معيشتهم، قال لهم النبي لوط(ع):

{أَلَا تَتَّقُونَ}؟ لماذا لا تتحاشون وتتجنبون السوء وهو نفسه تجنّب غضب ربكم سبحانه بالرغم من وضوح سوء ما تفعلونه، ورغم وصول خبر منه تعالى عن عقاب شديد لما تفعلونه؟

نتذكّر من كتب التاريخ ومن الآية 26 من سورة العنكبوت {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي...}، أن النبي لوط (ع) هاجر مع النبي إبراهيم(ع) من المدينة التي حاولت إحراق النبي إبراهيم(ع)، ومن المشهور بين الناس أنها كانت فيما يُسمّى الآن بالعراق "بلاد ما بين النهرين"، وأنهما انتقلا إلى منطقة الكنعانيين التي تنتشر الآن بين فلسطين والأردن وسوريا ولبنان وصحراء سيناء، وبناء عليه لم يكن للنبي لوط (ع) أقرباء في تلك القرى، ورغم ذلك عبّرت الآية عنه بأنه أخوهم لأن القرآن "والعرب" لا يحصرون كلمة الأخ بالذي ولدته أمّك أو أبوك، فهي أعمّ وتشمل أي مشاركة ملازمة في الدين أو العقيدة أو الحزب أو المهنة... وترى ذلك في الآية 10 من سورة الحجرات {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ...}.

(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ{162})
{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ}، أنا فقط ناقل لكلامه تعالى، {أَمِينٌ}، أنقله بكل أمانة ولا أخون، وأنقله لكم تاماً بشكل صحيح، لأنّ كلامي عن العقاب على ما تفعلونه ليس من عندي.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ{163})
{فَاتَّقُوا اللَّهَ}، تجنبوا غضبه وعقابه، {وَأَطِيعُونِ}، التزموا بما أقوله لكم، وتوقفوا عن فعل السوء.

(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ{164})
{وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ}، لا أعبّر لكم عن إرادتي للحصول على تبليغي لكم للرسالة على أيّ أجرٍ، أي شيء محدّد أعتبره حقاً لي أستحقّه منكم، لم أسألكم أن تعطوني المال أو البيوت والأراضي لأني أقوم بتبليغ الرسالة الإلهية.

{إِنْ أَجْرِيَ}، فقط أجري، مقابل حملي وتبليغي للرسالة، {إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ}، على المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس، فهو سبحانه سيعطيني أجري، ويغفر لي ويدخلني إلى جنة الخلود.

تذكّر أن هذا الكلام متكرر وستكرره السورة نقلاً عن لسان الرسل، حتى نلتفت إلى أنّ النبي شخص ليس مثل العرافين والكهنة والملوك... فهو لا يريد شيئاً شخصياً لنفسه، وهذا الشخص يحمل رسالة من الإله، ويقول كلاماً عقلانياً، ويحذّرهم من العقاب الدنيوي والأخروي... ورغم ذلك لم يؤمن قومه!

بالنسبة لموضوع السورة، ليست المشكلة فيك أيها الرسول محمّد(ع) ولا في رسالتك، ولا داعي لأن تبخع نفسك، لأنّ المشركين وبكل وضوح عقيدتهم وأفعالهم سيئة، قم بتوصيل رسالتنا ونحن نعاقب الناس بحسب ما نراه مناسباً، هنا في الدنيا أو في الآخرة، دماراً شاملاً أو جزئياً، بكارثة جويّة أو أرضية...

(أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ{165})
{أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ}، أتقومون بالعمل الجنسي مع الذكور، {مِنَ الْعَالَمِينَ}، من الناس التي خلقها ربنا سبحانه؟ من تكملة الآية التالية تعلم أنه (ع) يقصد: أنه من بين كل الناس التي خلقها سبحانه، والذين فيهم إناث كثيرة، تركتم الإناث وأتيتم إلى الذكور لإشباع الشهوة!

ننتبه، ليس بالضرورة أن يكون كل أهل تلك القرى شاذين، ولكن المشكلة أنهم لم يكونوا معترضين على ما يفعله الشاذّون.

يبدو من الآية 80 من سورة الأعراف {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ}، أنهم كمجتمع من الناس كانوا أول مجتمع أعلن فعله ورضاه عن الشذوذ، وما حصل قبلهم كان حالات فردية لم توافق عليها مجتمعاتهم، ولذلك لحقت تسمية فاعل هذا الشذوذ بنسبته لقوم النبي لوط(ع)، وبعدها حصل اختصار النسبة لتصير على اسم النبي لوط(ع)، لوطيّ، علماً أن الغالبية الساحقة من اللغويين والمؤرخين يرفضون هذه النسبة، ويبدو رفضهم انطلاقاً من خلفية احترام مقام نبي من أنبيائه تعالى، ولكن يبدو واضحاً جداً وللأسف أن النسبة لاسمه (ع)، وكما يبدو مع الأسف درجت وصارت اسماً للفعل اشتقاقاً من اسمه (ع). وأنت تعلم أنه (ع) أوّل من حاربها، حيث إنّ النسبة "لوطي" اختصار لـ: من قوم لوط. وطبعاً لا يقصدون أنه من سكان قريتهم أو أقاربهم بل المقصود أنه يفعل مثلهم.

(وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ{166})
{وَتَذَرُونَ}، تتركون ولا تهتمّون بـ، {مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ}، من الذين هم قرناء لكم بحسب الخلقة، فالذكر زوج الأنثى أي قرين لها عادة، ومن الطبيعي أن تكون العلاقة الجنسية بين ذكر وأنثى، وهكذا "خلقنا" ركّبنا وألّفنا المسؤول عنّا من مستوى إلهي.

{بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ}، أناس لكم كيان الجماعة المتفاعلة مع هذه المسألة، {عَادُونَ}، تتعدون وتتخطّون ما هو مسموح، وتتوجّهون نحو السيّئ الممنوع. لأنّ الزواج من الإناث متاح لكم، ويمكنكم أن تفعلوا مع الإناث ما تفعلونه مع الرجال، ولكنكم عادون وتتركون ما هو مسموح ومتوفّر، وتقومون بما هو سيّئ شاذّ وممنوع وحرام ومشين.

ننتبه لما يشير إليه النبي لوط(ع)، فهو يشير للطبيعة المتناسبة للعلاقة الجنسية الطبيعية بين الذكر والأنثى، وأنها الطبيعة الصالحة التي يجب أن نتبعها، وأمّا من يشذ عنها فهو يخالف القانون الطبيعي لخلقتنا، حيث خلق سبحانه الناس من الجنسين الذكر والأنثى، بأعضاء تناسلية متناسبة، ولم يحصل خلل في ولادات الناس ولم يمرّ عليهم زمن يلدون فيه الذكور فقط، إذ يوجد دائماً إناثٌ لزواج الذكور منهن، فالعجيب هو الانحراف عن هذه الفطرة الإلهية.

بقي شيء، في سور أخرى تجد كلاماً عن اعتدائهم على الغرباء جنسياً، كما ورد في الآية 29 من سورة العنكبوت {أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ...}، وكما هو معلوم من هجومهم على داره للاعتداء جنسياً على ضيوفه كما نقلت الآية 78 من سورة هود {وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ}، وهذا الاعتداء سوء لا يناقش به أي عاقل، ولكن سوراً عدّةً مثل سورتنا هنا لم تذكر اعتداءهم جنسياً على الغرباء حتى لا يصير لدينا ربط بين سوء ما فعلوه وحصريته بالاعتداء على الغرباء، لا، فالشذوذ لوحده وبرضى الطرفين هو سوء، والأسوأ منه حالة قوم راضون به.

(قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ{167})
قالَ القوم للنبي لوط (ع): إذا لم تَنْتَهِ، إذا لم تتوقف نهائيا بلا رجعة عن كلامك هذا معنا يا لوط، لَتَكُونَنَّ من الْمُخْرَجِينَ، سَوْفَ نخرجك وَنَنْفِيكَ ونطردك من قريتنا.

(قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ{168})
قالَ النبي لوط (ع): {إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ}، من التاركين مع النفور من الفحشاء التي تفعلونها، ومهما هددتموني بالطرد فلن أتراجع عن محاربتي وكرهي لما تفعلون.

(رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ{169})
{رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {نَجِّنِي}، خلصني، {وَأَهْلِي}، والأشخاص الذين ينتمون لي "زوجتي أولادي..." {مِمَّا يَعْمَلُونَ}، فهناك عقاب حتمي سينزل عليهم فلا تُصِبْنِي لا أنا ولا أهلي بالعقاب.

سَبَبُ بقاء النبي لوط (ع) بينهم هو محاولته هدايتهم، ولكنهم لا يهتدون، وكان يتضايق منهم كثيرا، وَتَنْقُلُ لنا الآية شدّة انزعاجه من بقائه بين هؤلاء القوم الشاذين، مع علمه بأنهم يستحقون نزول عقاب إلهي عليهم هنا في الدنيا، فهل تتصوّر "رسولا" يعيش بين سكّان منطقة بكاملها مُوَافِقِينَ على الشذوذ! فكم سيكون ذلك صعبا عليه؟

اخْتَصَرَتِ الآيات القصة الكاملة، لأنها تركز على الذنب "العمل الواضح أنه سيّء" والإنذار، فالنتيجة بالعذاب، ولم تركز السورة على تفاصيل القصة، وَمِنْ آيات أخرى من القرآن نعلم أن بضعة ملائكة (ع) تمثلوا على شكل شباب من البشر وجاؤوا إلى قرية النبي لوط (ع)، وَالْتَقَاهُمُ النبي لوط (ع) وهم في الطريق، وخاف عليهم من قومه أن يعتدوا عليهم... فأبقاهم إلى الليل مخفيين، ثم أدخلهم خلسة إلى منزله في القرية، ويقولون في الكتب إنَّ زوجته أخبرت الجيران بهؤلاء الضيوف، فهجم الشاذون من أهل القرية على منزل النبي لوط (ع) يريدون الاعتداء على الضيوف، فأعمت الملائكة (ع) أبصار المهاجمين فارتعبوا وغادروا، ثم قالت الملائكة (ع) للنبي (ع) أن يغادر القرية بعد منتصف الليل لأن المنطقة ستتدمّر... وراجع في ذلك الآية 77 وما بعدها من سورة هود.

(فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ{170})
خَلَّصْنَاهُ من الكارثة هو والمنتمين له كلّهم "إلا امرأته كما سيأتي في الآية التالية".

كَلِمَةُ {أَهْل} تشير لخاصة الانتماء، سواء كانت الخصوصية ضيقة لعائلة الرجل في بيته التي تشمل زوجته وأولاده، أو أوسع قليلا لتشمل خدمه وَأَنْسِبَاءَهُ... أو أوسع للارتباط مع الذين في قريته من أقاربه القريبين أو البعيدين أو لعموم انتمائه للسكان من غير الأقارب وتوابعهم من خدم... وتصل في مداها إلى الانتماء في عنوان ما كما في الآية 43 من سورة فاطر التي عبرت عن {أَهْل} المكر السيّء {... وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ...}، وفي تعبير {أَهْلِ} الكتاب وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 70 من سورة آل عمران {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ}. أمّا كلمة {آل} فهي لخصوص الارتباط بالنسب، للأولاد وأولادهم بين بعضهم... كما في الآية 8 من سورة القصص {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ...}.

بِنَاءً عليه فالزوجة من الأهل، وتكون من الآل إذا كانت من أقارب زوجها بالنسب، كابنة عمّه. وما ورد في الآية 59 و 60 عن استثناء زوجة النبي لوط (ع)، {إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ}، فهذا يضعنا أمام احتمالين، فإمّا هي من أقاربه بالنسب، لربما من جهة أمّه، وهذا لا دليل عليه من القرآن ولا من مصدر تاريخي موثوق. أو الاستثناء منقطع، فهي ليست من الآل وهو الأرجح، وهذا النوع من الاستثناء "المنقطع" نستعمله إذا كنت تتوقّع تضمين شيء مع جماعة حتى لو لم يكن من جنسهم، فتقول: أتى الرجال إلا الحمار. على أساس أنهم عادة يحضرون ومعهم حمار، وهذه المرة لم يحضروه معهم، فالاستثناء منقطع لأن الحمار بالأساس لا يصحّ استثناؤه من الرجال، وهنا جرى استثناؤه من المرافقة. ونفس الاستثناء المنقطع تفهمه من الكلام عن إبليس كما ورد في الآية 34 من سورة البقرة {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ...} فهو ليس من الملائكة، فاستثناء امرأة النبي لوط (ع) من الأهل هو التعبير الأصلي لأنها منهم كما ورد هنا وفي الآية 83 من سورة الأعراف {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ}، واستثناؤها من الآل منقطع فهو تعبير عن عادة انضمامها لآله وهي ليست منهم.

مَا يقولونه عن أَصْهِرَةٍ مُتَزَوِّجِينَ من بناته (ع) وَنَجَوْا معه، فهذا لا إشارة له في القرآن ولا يتوافق مع تسمية من نجوا بأنهم من الآل، فهذه الكلمة لا تشمل الأصهرة إلا إذا كانوا من الأقارب بالنسب، والمشهور بين الناس أنه (ع) لا أقارب له في تلك القرية لِأَنَّهُ هاجر إليهم وحيدا وهو غريب عنهم.

(إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ{171})
{إِلَّا} استثناء من الأهل، {عَجُوزًا} امرأة فقدت قواها لأنها صارت كبيرة جدا في السن، {فِي الْغَابِرِينَ} كما نقول: في الزمان الغابر. نَقْصِدُ الزمان الذي مضى وَمَرَّ منذ مدة طويلة. حَيْثُ صارت مع قومها الغابرين وَمَاتَتْ بالعذاب لِأَنَّهَا كافرة فاسدة مثلهم، وَهِيَ معهم من الماضين وَلَمْ تكن من الناجين. بِتَعْبِيرِنَا الدارج: راحت مع الذين راحوا. زَوْجَتُهُ من أهله ولكنها لم تنج.

نُلَاحِظُ استعمال القرآن لكلمة الغابرين سبع مرات، فَقَطْ لامرأة النبي لوط (ع)، كَمَا نعرف من القرآن، سُبْحَانَهُ أمر نبيه لوطا (ع) بالخروج مع أهله في الليل من القرية، وَأَلَّا يلتفتوا إلى الخلف عندما يبدأ العذاب، وَخَرَجَتْ زوجته معهم أيضا، "فهي من أهله وليست من آله"، ولكنها لم تكن مؤمنة أصلا وكانت موافقة على ما يفعله قومها، وكان يجب أن تموت مع قومها، وبعد ابتعادهم عن القرية وابتداء العذاب، التفتت ورأت الحجارة والحمم تنزل على القرية، وفي هذه اللحظة نزل حجر عليها وألحقها بهم، راجع الآية 81 من سورة هود التي تشير لذلك {... فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ...}، حَيْثُ التفتت فَكَانَتْ من الغابرين، وَلَمْ تكن من الناجين بل من الذين ماتوا وصاروا من الماضي.

تَكْرَارُ القرآن وصفها بالعجوز يشير لوصولها لعمر متقدّم ويلفت انتباهك لبقائها على حالة الكفر رغم زواجها من نبي وهذا شيء غريب.

آيَاتٌ أخرى من القرآن ذكرت الأمر الإلهي للنبي لوط (ع) وأهله بِأَلَّا يلتفتوا للخلف أثناء مغادرة القرية، وَسَتُخَالِفُهُ زوجة النبي (ع) لِأَنَّهَا كافرة وبتقديره تعالى يجب أن تموت مع قومها الكفّار، وراجع في ذلك الآية 81 من سورة هود {قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ...}، حَيْثُ التفتت فأصابها حجر قتلها، وطبعا ليس السبب هو التفاتها بل حصلت على فرصة لم تكن تستحقها للنجاة والتوبة، وبالتفاتها أثبتت استحقاقها الالتحاق بِقَوْمِهَا تعذيبا.

(ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ{172})
كُلُّ من كان في القرية حصل عليه الدمار، وَتَغَيَّرَتْ هيئة القرية بسبب الكارثة وَخَرِبَتْ عليهم وهم فيها فَأَهْلَكَتْهُمْ.

(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ{173})
{وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا}، حَيْثُ جَعَلْنَا أشياء كثيرة تتساقط من السماء على قوم النبي لوط (ع)، ونعلم من آيات عديدة من القرآن أن المطر كان من الحجارة والحمم وقطع الرماد الساخن، راجع كمثال عن ذلك الآية 33 من سورة الذاريات {لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ}، والآية 82 من سورة هود {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ}.

{فَسَاءَ}، كَانَ سيئا وعاطلا جدا، {مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ}، ما نزل بكثرة على الذين جرى إِنْذَارُهُمْ وَوَصَلَهُمُ الخبر عن شيء سيّء حتما سيصيبهم بسبب توافر شروط حصوله فيهم، ولم يتجنبوه كما يجب.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ{174})
{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، في قصة إنذار ودمار قوم النبي لوط (ع)، {لَآيَةً}، شَيْئًا مُمَيِّزًا يَدُلُّ على معاقبته تعالى لمن خالف أوامره بالشكل الذي فعله هؤلاء، وَمَنْ جاورهم ومن عاصرهم ومن كان قريبا من تاريخهم ومن سمع بقصّتهم من مصدر موثوق... فمن المفروض أن يعتقد به تعالى إلها أحدا يحاسب ويعاقب على السوء، {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ}، رَغْمَ وضوح ما حصل أنه عقاب إلهي فَغَالِبِيَّةُ الناس لم تعتقد لا بتوحيده تعالى ولا برسله ولا بدينه ولا بعقابه...

نُلَاحِظُ في الآيات التي مرت التركيز على وضوح سوء فعل قوم النبي لوط (ع) باختصار ووضوح وهو الشذوذ الجنسي الذكوري، وأن العقاب وقع. حَيْثُ لَمْ تُفَصِّلِ الآيات في قصة ضيوفه من الملائكة وما جرى... ولا في كيفية الهلاك... وذلك حتى يكون التركيز فقط على نوع السوء وعلى العقاب.

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ{175})
{وَإِنَّ رَبَّكَ}، وَإِنَّ المسؤول عنك من مستوى إلهي، أيها الرسول (ع) "وأيها المؤمن"، {لَهُوَ الْعَزِيزُ}، هو الموصوف بكل ما تحمله كلمة عزيز من معنى، والعزيز وصف لنفي عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... فلا تبخع نفسك أيها الرسول (ع) لِأَنَّ ربّك عزيز فلا يتأثّر أصلا حتى لو كفرت كلّ المخلوقات، وَلِأَنَّهُ عزيز يُمْكِنُهُ فعل ما يريد، حَيْثُ يُمْكِنُهُ تعالى جعلهم مؤمنين غصبا عنهم ويمكنه تعالى إعادة إحيائهم لمحاسبتهم، ويمكنه تعالى تعذيبهم هنا أو في الآخرة...

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ}، {الرَّحِيمُ}، الموصوف بالعناية الخاصّة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم بكل ما تحمله كلمة رحمة من معنى، حَيْثُ يخاطبهم بهذا القرآن حتى يؤمنوا وبعدها يفوزوا بالجنة، في مقابل الأكثرية التي بسوء فعلها أخرجت نفسها من رحمته تعالى.

انْتَبِهْ أيها السامع للقرآن، لِأَنَّ اهْتِمَامَهُ تعالى بالناس ليهديهم ليس نابعا من حاجته لهم، لِأَنَّهُ العزيز، فسبحانه لا يستفيد ولا يتضرر منهم بأي شيء، والسبب لاهتمامه تعالى بالناس ليبعث لهم رسولا، أن بينهم من سيؤمن وسبحانه رحيم بالمؤمنين وَيُؤَمِّنُ لهم ما يساعدهم على الاهتداء.

(كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ{176})
{الْأَيْكَةِ} هي الشجرة الكبيرة التي لها الكثير من الأغصان، وربما هو وصف لعموم أي نوع من الشجر بهذه الصفة وربما هو اسم نوع من الشجر له هذه الصفة. ومما يقال في التراث الْإِسْلَامِيِّ أن أهل قرية مدين كان عندهم شجرة كبيرة معمّرة "قديمة"، يستريحون تحتها، ويقولون إِنَّهُ مع مرور الزمن توطدت العلاقة مع تلك الشجرة وعبدوها...
وَهَذَا الكلام لا إشارة له من القرآن ولا من تاريخ يستند على مصدر موثوق، وَرُبَّمَا يكون صحيحا، ولكن ماذا لو كانت الشجرة مكانا لسوقهم؟ حَيْثُ إِنَّ اتِّخَاذَ شجرة كبيرة أو أشجار لإنشاء سوق تحتها كان دارجا في حينها ولا يزال في المناطق الريفية، وبما أن محور الكلام عنهم حول غشّهم في سوق لهم، فالأرجح أن نسبتهم للأيكة هِيَ نِسْبَةٌ لشجرة كانت معلما لمكان تجارتهم "في سوقهم" التي يغشّون فيها.

مِنَ الآية 85 من سورة الأعراف {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا...}، نعلم أن المدينة التي كان فيها النبي شعيب (ع) هي مدين وَمِنَ الواضح أن {أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ} هِيَ نِسْبَةُ أهل مدين لشجرة ما. بِنَاءً عليه نفهم نسبتهم للشجرة، {أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ}، أَيِ الذين مع الشجرة، تحتها وحولها وفي جوارها القريب يتعاطون الغشّ، حَيْثُ كَذَّبُوا الذين أرسلهم تعالى وهم النَّاقِلُونَ لإنذاره تعالى الناس على قيامهم بعموم أي عمل سيّء، وما يخصّ أصحاب الأيكة فهم لم يؤمنوا بما وصلهم من الرسل عن عقاب إلهي على الغشّ.

(إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ{177})
{إِذْ قَالَ لَهُمْ} النبي شعيب (ع) {أَلَا تَتَّقُونَ}؟ لماذا لا تتحاشون ولا تتجنبون، والكلام عن تجنّب السوء وهو نفسه تجنّب ما يسبّب غضب وعقاب ربكم سبحانه؟

(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ{178})
{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ}، ناقل لكلامه تعالى، {أَمِينٌ}، أَنْقُلُهُ بكل أمانة ولا أخون وَأَنْقُلُهُ لكم بالتمام وبشكل صحيح.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ{179})

{فَاتَّقُوا اللَّهَ}، تَجَنَّبُوا غضبه وعقابه، {وَأَطِيعُونِ} وَالْتَزِمُوا بما أقوله لكم، وأنت تعلم أنه (ع) نقل لهم منه تعالى الإنذار عن الشرك والغشّ.

(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ{180})
{وَمَا أَسْأَلُكُمْ}، لَا أعبّر لكم عن إرادتي للحصول، {عَلَيْهِ}، على تبليغي لكم للرسالة، {مِنْ أَجْرٍ}، أي شيء محدّد أستحقّه كَأَجْرٍ كبدل أتعاب عن قيامي بتوصيل الرسالة، وَلَمْ أسألكم أن تعطوني المال أو البيوت والأراضي لأني أقوم بتبليغ الرسالة الإلهية. {إِنْ أَجْرِيَ}، فَقَطْ أَجْرِي، وَمَا أستحقّه مقابل نقلي وتبليغي للرسالة، {إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ}، فقط على المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس، فهو سبحانه حدّد لي أَجْرًا وأنا هدفي ذلك الْأَجْرُ، وتعلم أنه الدخول إلى جنة الخلود.

سَتُلَاحِظُ هذا الكلام مكررا في السورة هنا نقلا عن لسان رسل آخرين أتوا بعد الرسول نوح (ع)، حتى نلتفت أَنَّ "الرسول الإلهي" شخص لا يريد شيئا شخصيا لنفسه، مثل العرافين والكهنة ومحبّي السلطة والشهرة... وهذا الشخص يحمل رسالة من الإله سبحانه، ويقول كلاما عقلانيا، وينذر الناس من العقاب الدنيوي والأخروي... ورغم ذلك لم يؤمن المشركون! فالمشكلة ليست فيك أيها الرسول محمّد (ع) ولا في رسالتك، ولا داعي لأن تبخع نفسك بسبب تكذيب قوم لك، لِأَنَّ اعتقادهم وأفعالهم سيئة بشكل واضح، فقم أنت بتوصيل رسالتنا، وأمّا حِسَابُ وعقاب المخالفين فعلينا بحسب ما نراه مناسبا، وَرُبَّمَا نعذّبهم هنا في الدنيا أو نؤجّل ذلك للآخرة، بدمار شامل أو جزئي، بكارثة جويّة أو أرضية...

(أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ{181})
{أَوْفُوا الْكَيْلَ}، كُونُوا أوفياء في الكيل، وَلْيَكُنْ تاما، وَلَا تخونوا فيه، وَأَعْطُوا الكيل حقّه كاملا، {وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ}، لا تكونوا من الذين يجعلون الأشياء تنقص أو تفقد قيمتها، مِمَّا يَجْعَلُ الناس يخسرون "يفقدون قيمة" ما هو لهم، وَيَنْقُصُ ما يشترونه منكم عمّا هو لهم، فلا تغشوا.

الْكَيْلُ اسم لما نقيس به الأشياء بحسب حجمها، وحاليا نحن نستعمل وحدة القياس الليتر والغالون والتنكة... وأهل قرية مدين كان لهم مكيال ما وكانوا يغشّون، حَيْثُ يصنعون كيلا له حجم أقل من الكيل الحقيقي، فمثلا تشتري منهم 20 ليترا من الزيت، ولكنك "تخسر" وَتَحْصُلُ على 19 لِيتْرًا، لأنهم صنعوا مكيالا مغشوشا...

كَمَا يبدو أَنَّ قَوْمَ النبي شعيب (ع) كان عندهم سوق وكانت الناس من القرى المجاورة تأتي إليه، وكما يبدو من القرآن فإن أكثرية التجار في السوق كانوا من مدين وكانوا غشاشين وكانوا متفقين مع بعضهم! حَيْثُ كانوا يتواطؤون ويقومون بالمسرحيات على الزبون حتى يقنعوه، فإذا اعترض الزبون على الكيل أو الميزان أو التقدير لقيمة البضاعة، كَانَ التجار الغشاشون الآخرون يتدخلون ويقنعون الزبون بأن التاجر الغشاش معه حقّ! وهذا ما تفهمه من عموم كلام القرآن عنهم بالجمع وحين هدّدوا بطرد التجّار المؤمنين، وتفهم ذلك من فحوى كلام الآية 90 من سورة الأعراف {وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ}، والآية 94 من سورة هود {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ}.

مَعْلُومٌ الضرر الذي يصيب الناس من الغشّ، والذي يتبعه فقدان الثقة، وانهيار النظام الاقتصادي العادل الضامن لحقوق الناس، لتصل الأمور إلى ما يبدو من حالة أهل مدين أن الناس يعلمون بأنهم غشّاشون ولكنهم مضطرون للتعامل معهم لأنهم المسيطرون على أكبر سوق في منطقتهم، وفي عصرنا هَذِهِ حال أصحاب الكثير من الأماكن التي نسمّيها بالحسبة، وهي أماكن بيع المزارعين لمنتوجاتهم لوكيل يحتفظ بها ليبيعها لهم، وَيُنْقِصُ من قيمتها على حسابهم ويأخذ نسبته مستهترا بالقيمة الفعلية للمنتوجات ولقيمة تعب وتكاليف المزارع، ويفرض على المزارع السعر، ويفرض عليه ضمان التلف إن بقيت البضاعة ولم يشترها أحد... ويكذب عليه وَيَبِيعُهَا بسعر عال ويخبره بأنه باعها بسعر أرخص... ورغم معرفة المزارع بذلك فهو مضطر للقبول بهذا الواقع المرّ لأنه ليس لديه حلّ آخر، لِأَنَّ أصحاب المخازن في الأسواق بشكل عامّ بغالبيتهم نَصَّابُونَ غَشَّاشُونَ مُحْتَالُونَ... ولذلك قامت العديد من الدول بتنظيم وإدارة أماكن استقبال منتوجات المزارعين وصيادي الأسماك وجامعي النباتات البرية... لتحميهم من المافيات والنصّابين...

(وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ{182})
{وَزِنُوا}، وقيسوا الوزن، {بِالْقِسْطَاسِ}، بالشيء الذي يعطي القسط، ويعطي للآخرين ما لهم بالضبط، {الْمُسْتَقِيمِ}، الذي يوصف بأنه على الأحسن.

الميزان اسم آلة لقياس عموم أي شيء، وهنا بما أننا نتحدث عن البيع والشراء، فالمقصود هو الميزان الذي نقيس به الكيلو والغرام والباوند. وكانوا يغشون بالميزان، وتشتري منهم تفاحاً، وتضعه على الميزان المغشوش، فيعطيك الوزن 4 كيلو، ولكن الوزن في الحقيقة ثلاثة كيلوات ونصف! فدفعت ثمن أربعة ولكنك حصلت على ثلاثة ونصف! وهنا الآية تنبههم أن يكون الوزن بأفضل طريقة ممكنة ليأخذ الآخرون ما لهم بالضبط.

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ{183})
يكمل النبي شعيب(ع): {وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ}، فلا تقدّروا قيمة عموم الأشياء التي للناس بأقل من قيمتها الحقيقية حين تريدون شراءها منهم. مثلاً: الحصان والحمار والجمل وغيرها من الحيوانات التي يتم استعمالها للنقل والحراثة... فهذه تقدّر قيمتها بحسب صحة الحيوان وتناسق جسمه... حيث يكون بصحّة جيدة ويساوي الكثير ولكنهم يخترعون فيه العيوب حتى تقلّ قيمته.

{وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ}، ولا يكن ما يصدر منكم حيث تعيشون موصوفاً بأنه غير منظّم، مثل الذي يفعل أي شيء من دون دراسة عواقبه ولا يفكّر فيه مرتين، {مُفْسِدِينَ}، غير مصلحين، وينطبق عليه وصف العثو كما نقول بالعامية: أهوج مُلَخْبَط طايش...

الكيل والميزان الصحيحان وتقدير قيمة الأشياء بصدق هي أمور فيها صلاح وخير في الأرض، فكل شخص سيأخذ حقه بالتمام، وستكون المعاملات التجارية بين الناس عادلة، ولا أحد يتعدّى على أحد. أمّا حين يغشّون فإنهم يفسدون فيخربون في الأرض، ويخربون المعيشة عليها.

ضع في بالك أنه تعالى صمّمنا بحيث نصل إلى مرحلة نخترع فيها وحدات وآلات القياس، وراجع في ذلك دراسة الآية 7 من سورة الرحمن "وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ"، والآية التالية ستشير إلى ذلك:

(وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ{184})
{وَاتَّقُوا}، وتحاشوا وتجنّبوا، {الَّذِي خَلَقَكُمْ}، الذي ألّفكم وركّبكم أنتم، {وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ}، مع العدد الضخم من الناس الذين خلقهم سبحانه أولاً قبلكم.

الآية هنا مع التي سبقتها تشيران إلى مرور أعداد ضخمة من البشر على الأرض، وسبحانه خلقهم مُؤَمِّناً لهم ما يجعل حياتهم صالحة، فما معنى الغشّ رغم معرفتنا بسوئه ورغم توافر وحدات وآلات القياس المتاحة للبشر حتى يتعاملوا مع بعضهم بالقسط؟ ونتنبه لهذه الإشارة إذا تذكّرنا ما قاله النبي لوط(ع) في الفقرة السابقة لقومه أن لا يخالفوا الطبيعة التي خلقهم سبحانه عليها، وهنا بمعنى قريب من ذلك ينبّه النبي شعيب(ع) قومه من مخالفة قانون الصلاح الضروري لحياة البشرية.

(قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ{185})
قال قومه له:

{إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ}، حيث أصابك خلل في عقلك بسبب سحر أصابك فصرت تتوهّم أنك رسول وتتوهّم أن ما نفعله فاسد...

في الآية السابقة 153 تحدّثنا عن معنى كلمة سحر.

(وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ{186})
{وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا}، من نوع الكائن الذي له بشرة شبهنا بالتمام، فلست تتميز عنا بشيء حتى تكون رسولاً من الإله، حيث أي واحد منّا يمكنه الادّعاء بأنه رسول من الإله مثلما تدّعي أنت، {وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ}، واستناداً لما تقوله نعتقد أنك تكذب ولست صادقاً بأنك رسول من الإله.

الظنّ هو اعتقادك بشيء ما مستنداً إلى شيء ما، فإن كان ما تستند عليه صحيحاً كان ظنّك صحيحاً، وهذه حالة المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم سبحانه كما ورد في الآية 46 من سورة البقرة {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، فهم مستندون في ظنّهم على آياته وكلامه تعالى. وإن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران {وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ}، واستناداً للحالة الحرجة التي كانوا فيها ظنّوا أنه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء. وبين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند عليها ولكنه ليس مقتنعاً بها، فلا تزال الأمور عنده مُرجَّحَةً لاحتمالات أخرى، فهذا ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}، فهم يريدون أن يلمسوا مباشرة حصول{وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا}، من نوع الكائن الذي له بشرة شبهنا بالتمام، لأنك لست تتميز عنا بشيء حتى تكون رسولا من الإله، حيث إن أي واحد منّا يمكنه الادّعاء بأنه رسول من الإله مثلما تدّعي أنت، {وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ}، واستنادا لما تقوله نعتقد أنك تكذب ولست صادقا بأنك رسول من الإله.

"الظنّ" هو اعتقادك بشيء ما مستندا إلى شيء ما، فإن كان ما تستند عليه صحيحا كان ظنّك صحيحا، وهذه حالة المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم سبحانه كما ورد في الآية 46 من سورة البقرة "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"، فهم مستندون في ظنّهم إلى آياته وكلامه تعالى. وإن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران "... وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ..."، فاستنادا للحالة الحرجة التي كانوا فيها ظنّوا أنه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء. وبين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند إليها ولكنه ليس مقتنعا بها، فلا تزال الأمور عنده مرجّحة لاحتمالات أخرى، فهذا ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية "وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ"، حيث يريدون أن يلمسوا مباشرة حصول ساعة قيامهم من الموت حتى يعتقدوا بها ولا يكفيهم الاستناد إلى معلومات تدلّ عليها، إذ يريدون اليقين بها عيانا حتى يؤمنوا. وهذه الحالة قريبة جدا من الاصطلاح "في علم المنطق" والدارج لمعنى كلمة ظنّ على معنى وجود عدة احتمالات. وهنا صرت تعلم المعنى اللغوي الأساسي لكلمة "ظنّ" فانتبه للفرق بينه وبين المعنى الاصطلاحي حتى لا تفسّر القرآن على أساس المعنى الاصطلاحي.

في عموم كتب التفاسير ستجد كلاما آخر عن الظنّ، ولا ينطبق معناه على كلّ آيات القرآن، حيث ستجدهم لا يثبتون على معنى واحد للظنّ، حيث مرة يرادفونه باليقين، ومرّة بالشك، ومرة بالحسبان... وهي معانٍ غالبا ستجدها صحيحة لأن الآيات واضحة وتدل على المعنى الذي ذكروه بالشكل العمومي الذي يتحمله الاشتقاق والتدرّج من أصل معنى كلمة ظنّ، ولكنها ليست المعنى الدقيق لكلمة ظنّ، بل كلامهم توصيف لحالة العلم الذي استند إليه الظنّ، وهنا صرت تعلم معنى الكلمة العام، وأن القرآن دائما يوضّح لك نوع العلم الذي يستند الظنّ إليه إن كان صحيحا أو فاسدا، فلن تضيع في معرفة الظنّ الصحيح من الظنّ الخطأ.

(فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{187})
{فَأَسْقِطْ}، أوقع وأنزل، {عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ}، والكسف فيما لدي من مصادر من استعمال العرب قبل الاسلام في أشعارهم يشير لعموم ما يحجب شيئا خلفه، لذا لينزل علينا شيء كبير لدرجة أنه يحجب السماء، كالنيازك والشهب الكبيرة... أو شيء يطير من الأرض مرتفعا ليسقط علينا من فوقنا، كحجارة من البراكين... {إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}، إن كنت فعلا رسولا وتهديدك بالعقاب صحيح فلا داعي للانتظار، لِيصيبنا الآن وحالا العذاب من العيار الثقيل وليكن شيئا ضخما ينزل علينا ويطحننا وليكن كبيرا لدرجة حجبه للسماء، ونحن متأكدون بأنه لن يحصل أي شيء لأنك كذّاب.

في الآية بعد التالية سنتوسّع قليلا بهذا الكلام.

بالنسبة لكلمة "كسف" وردت في آيات أخرى في الآية 92 من سورة الإسراء "أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا"، والآية 9 من سورة سبأ "... إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ..."، والآية 44 من سورة الطور "وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ"، وفي غالبية التفاسير لتلك الآيات قالوا إنّ الكسف مرادف أو مصداقه القطعة المنفصلة، ومعلوم مشهور استعمال جملة "كسوف الشمس"، فالكسف وصف لعموم ما حجب عن الرؤية ما خلفه، وما قالوه في التفاسير عن معنى آخر مختلف للكسف في الآيات، كان تخمينا منهم ترى فساده بشكل واضح من الآية 48 من سورة الروم "اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ..."، فالغيوم تكسف السماء، وبالتالي تلك الآيات قصدت بالكسف عموم أي شيء ضخم لدرجة كسف السماء أثناء نزوله عليهم، ولم تقصد أن القبّة الزرقاء "سماء النهار" تتكسّر، ولا قبّة النجوم "سماء الليل" تتكسّر، لا، بل هو عموم وصف نزول أي شيء كنيزك أو شهب أو حجارة... ويكون كبيرا وكثيرا لدرجة كسف السماء.

(قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ{188})

قال النبي شعيب(ع): {رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ}، فهل عملكم يستحق أن يعاقبكم عليه تعالى الآن أو فيما بعد، أو هل يكون عقابكم بشيء من السماء أم بغيره، فأنا لا أعلم، إنما المسؤول عنكم من مستوى إلهي يعلم، وليس بيدي أي شيء حتى أفعله، فأنا مجرد رسول.

{فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ}، فلم يتركهم، {عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ}، الزمن الذي حصل فيه شيء ظلّل وغطّى منطقتهم، ونعلم من القرآن أنه كان زلزالاً أصاب كل مدينتهم فمات الكثير منهم... وكان النبي شعيب(ع) والمؤمنون خرجوا من المدينة قبل وقوع الزلزال كما تعلم من الآية 94 من سورة هود "وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ".

{إِنَّهُ}، يوم الظلّة، {كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، ضرراً أصابهم في تلك الفترة من الزمن ولم يكن ضرراً عادياً بل كان شديداً جداً بحيث دمّر مدينتهم وقتل الكثيرين.

ضع في بالك أن القرآن لم يقل إنهم أبيدوا، وقال إنّ البعض منهم بقوا أحياء من بعد وقوع الزلزال، وراجع في ذلك الآية 93 من سورة الأعراف "فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ".

وكما ترى فلدينا ثلاثة أوصاف للعذاب الذي أصاب مدين، بالزلزال الوارد في الآية 91 من سورة الأعراف "فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ"، وبالصيحة الواردة في الآية 94 من سورة هود "وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ"، وهنا بيوم الظلّة، ومعاني الكلمات الدقيقة لهذه الأوصاف يريك أنه أصابهم زلزال "رجفة"، والوصف باللغة العربية لعموم انتشار أي أمر على جماعة كبيرة من الناس يوصف بالصيحة، والكلام هنا عن حالة انتشار أمر إلهي عليهم بالموت، وأخيراً الوصف هنا في الآية تبعاً لسخريتهم من التهديد، ففي الآية السابقة نَقْلٌ لكلامهم الاستهزائي طالبين نزول عذاب رهيب بنزول شيء ضخم لدرجة كسفه للسماء ليطحنهم... فجاء التوصيف بالآية هنا للزلزال أنه حصل في يوم ظلّلهم، فظلّلهم أي انتشر عليهم وصاروا تحته كلّهم.

يعني هم كانوا يستبعدون حصول أي كارثة من النوع الذي يصيبهم كلّهم، فليسوا قرب بحر أو نهر ضخم أو سدّ على نهر... لتصيبهم كارثة الغرق بالماء بطوفان... وليسوا قرب بركان، ومنطقتهم جبلية فليست معرّضة للأعاصير... وليسوا وليسوا... وليس لمنطقتهم تاريخ مع الزلازل المدمّرة فهم بالأمان منها، فمن أين سيأتي العذاب الذي يهدّدهم به رسوله تعالى؟ وبناء على هذا الشعور بالأمان سخروا طالبين نزول عذاب يظلّلهم كلّهم، ويكسف السماء وينزل ليطحنهم، وهكذا جاء توصيف الزلزال في الآية هنا بيوم الظلّة، حيث وقعوا كلّهم تحت تأثيره.

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ{190})

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، في قصّة الغشاشين ونزول العذاب عليهم، {لَآيَةً}، لشيء مُمَيَّز، لمن نجا منهم ولمن عاصرهم ولجيرانهم... حيث هي دليل على عقابه تعالى هنا في الدنيا للغشّاشين، {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ}، فغالبية الناس لم يعتقدوا بهذه الآية وبالتالي لَمْ يعتقدوا بدينه تعالى.

نلاحظ في الآيات التي مرّت التركيز على جرم قوم النبي شعيب(ع) وهو الغشّ، وهو عمل سوء واضح لا يناقش عاقل في سوئه.

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ{191})
{وَإِنَّ رَبَّكَ}، إنَّ المسؤول عنك من مستوى إلهي، أيها الرسول (ع) "وأيها المؤمن"، {لَهُوَ الْعَزِيزُ}، هو الموصوف بكل ما تحمله كلمة عزيز من معنى، والعزيز وصف لنفي عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... فلا تبخع نفسك أيها الرسول(ع) فربّك عزيز فلا يتأثّر أصلاً حتى لو كفرت كلّ المخلوقات، وعزيز حيث يمكنه فعل ما يريد، فيمكنه تعالى جعلهم مؤمنين غصباً عنهم ويمكنه تعالى إعادة إحيائهم لمحاسبتهم، ويمكنه تعالى تعذيبهم هنا أو في الآخرة...

{وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ}، {الرَّحِيمُ}، الموصوف بالعناية الخاصّة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم بكل ما تحمله كلمة رحمة من معنى، حيث يخاطبهم بهذا القرآن حتى يؤمنوا وبعدها يفوزوا بالجنة، في مقابل الأكثرية التي بسوء فعلها أخرجت نفسها من رحمته تعالى.

انتبه أيها السامع للقرآن، فاهتمامه تعالى بالناس ليهديهم ليس نابعاً من حاجته لهم، فهو العزيز وسبحانه لا يستفيد ولا يتضرر منهم بأي شيء، والسبب لاهتمامه تعالى بالناس ليبعث لهم رسولاً، أن بينهم من سيؤمن وسبحانه رحيم بالمؤمنين فيؤمّن لهم ما يساعدهم على الاهتداء.

(وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ{192})
عادت السورة لتتوجه بكلامها إلى المعاندين للرسول (ع) الناقل لهذا القرآن بعدما سبق من عرض لنماذج من أقوام واضح جداً سوء ما اعتقدوا به وما فعلوه، كمقارنة بين ما يعرضه هذا الرسول الناقل لهذا القرآن وبين وضوح سوء ما يفعله ويعتقده الكافرون به (ع)، سواء أكانوا في عصر نزوله أو بعده، وكإنذارات لهم للانتباه للعذاب الذي نزل على نماذج من الكافرين.

ماذا عن هذه الرسالة التي ينقلها آخر رسول؟:

{وَإِنَّهُ}، هذا القرآن، {لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، نزّله المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس.

بعد هذه القصص المختصرة التي بينت السوء الذي ارتكبه أولئك الأقوام وأخبرتنا أنه تعالى عذّبهم، فهذا الكلام نازل من الربّ سبحانه، وليس كلاماً عادياً، ولا كلام من مخلوق...

بالنسبة لما تجده في بعض الكتب عن الفرق بين كلمتي نزل وتنزيل، فكلاهما وصف لعموم الانتقال من علو "مادياً أو معنوياً" إلى مكان منخفض مادياً أو معنوياً. معنوياً نقول: نزلت رتبته العسكرية. وكلا الكلمتين "نزل وتنزيل" تتحملان معنى النزول دفعة واحدة أو على دفعات، ويتحدّد ذلك مما تتكلّم عنه، وتتحملان النظر للفاعل لوحده، أو للمفعول لوحده، أو للحالة. فلا فرق بالمعنى بين الأصل "نزل" وبين الاشتقاق "تنزّل تنزيل نزول..."، خصوصاً فيما يقولونه عن الفرق بينهما في نزول القرآن دفعة واحدة أو بالتدريج على دفعات.

ما تجده هنا وهناك في ثقافتنا عن نزول القرآن كلّه من السماء السابعة إلى السماء الرابعة... ومن الرابعة جرى تنزيل القرآن "ونزل" على دفعات على الرسول(ص)، حيث بهذا التفصيل "وأشباهه" يقصدون تفسير كلمتي نزل وتنزيل بتوصيف مختلف للفعل، وهذا تفصيل لا ضرورة له وأصلاً لا دليل قرآنيٌّ عليه، ويمكن فهم نزول القرآن تدريجياً على

دفعات ونزوله كلّه كوجهين لعملة واحدة، فبعضه نزل "تنزّل" في ليلة القدر، ثم نزل "تنزّل" بعضه في زمن بعدها... وبالنظر للقرآن كلّه جرى تنزيله "نزوله" على دفعات استمرت لقرابة العشرين سنة حتى وفاة الرسول(ص).

يبدو أن الفهم الضبابي لكلمة "قرآن وكتاب" دفع بالكثيرين للبحث عن فرق بين التنزيل والإنزال بالمعاني التي ذكروها، حيث فهموا أن كلمة قرآن تشير لكل ما بين الدفتين، لكل القرآن من أوله لآخره، وفهموا كلمة كتاب كذلك أنها تشير لكل القرآن من أوّله لآخره، وبناء عليه أرادوا تبرير الآيات التي تذكر نزول "كتاب القرآن" على أساس أنها تشير لنزول كتاب القرآن كلّه من أوّله لآخره دفعة واحدة، ومن المعلوم أنه كلّه لم يكن نازلاً على الرسول(ص) حين جاءت الآيات التي تقول إنّ القرآن نزل...

بناءً على فهمهم هذا، بدأت تبزغ الآراء المختلفة لتبرير الموضوع، فقال بعضهم إنّه كلّه من أوّل مرّة نزل على الرسول(ع)... وبعدها عاد ونزل عليه (ع) على دفعات. وآخرون قالوا: لم ينزل أولاً كلّه على الرسول(ع) وإنما نزل كلّه من السماء السابعة إلى الرابعة، ومن هناك صار ينزل على دفعات على الرسول(ع)... وغيرها من التبريرات التي لا داعي لها، فالآية الواحدة قرآن، والسورة قرآن، والسورتان قرآن... فكلمة قرآن وصف إمكانية قراءتنا لما نزل منه تعالى، فأي تعبير يشير لنزول أو تنزيل "القرآن" فهو لا يعني أكثر من نزول شيء يمكن قراءته، فلا داعي لنفهم أن التعبير يشير إلى نزول كلّ القرآن.

كلمة كتاب تشير لعموم أي موضوع تامّ، فالسورة الواحدة كتاب، والفقرة أو الآية الواحدة من السورة إن كانت تامّة الموضوع فهي كتاب، وكلّ القرآن كتاب، وهكذا عندما تجد آية تتحدّث عن نزول القرآن أو نزول الكتاب فهي ليست بالضرورة تشير إلى نزوله كلّه، فلو نزلت آية فهي قرآن، ولو نزلت آية موضوعها تامّ فهي نزول لكتاب...

نرجع للآية، عَبْرَ من أنزله ربنا سبحانه؟:

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ{193})
{نَزَلَ بِهِ}، نزل من عنده تعالى بهذا القرآن، {الرُّوحُ}، الموصوف بأنه خالٍ من الإضافات، وهو الملاك جبريل "جبرائيل"(ع)، {الْأَمِينُ}، الذي لا يخون، وأوصله الروح بالتمام كما هو.

الروح(ع) هو نفسه الملاك جبريل(ع)، بدليل ما ورد في الآية 102 من سورة النحل "قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ..." وما ورد في الآية 97 من سورة البقرة "قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ..."، ووصفه القرآن بكلمة "روح" لأنه مخلوق خالٍ من الإضافات. ومن المشهور في ثقافتنا الدينية أن ملائكة عالية أخرى غير الملاك جبريل(ع) توصف بالروح مثل: ميكال وعزرائيل وإسرافيل... عليهم السلام، ولم يذكر القرآن إلا اسمي الملكين جبريل وميكال كما ورد في الآية 98 من سورة البقرة "مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ".

نفهم من القرآن أن الملاك جبريل(ع) الذي تولى مهمة تنزيل القرآن، هو (ع) الوصلة بين الكتاب الرئيسي الذي في السماء العالية جداً، وبعد تحويله تعالى لبعض ما فيه إلى قرآن، إلى مقروء باللغة العربية، يقوم الروح بمهمة تنزيله على وعي وفكر النبي محمد(ع)، وتتطلب هذه المهمة حماية هذه المعلومات من الشياطين الذين يحاولون التدخل لمعرفة ماذا ينزل، وإذا أمكنهم فسيحاولون التشويش عليه والعبث به، وهذا ما تراه من الآيات 210 وما بعدها من سورة الشعراء "وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ... إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ". وتتطلب هذه المهمة نقل الآيات بدقة إلى وعي وفهم النبي محمد(ع)، وتتطلب نقلها إلى النبي(ع) بطريقة خاصة بحيث لا ينسى النبي(ع) ولا حرفاً من تلك الآيات كما تقرأ من الآية 6 من سورة الأعلى "سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى"... ولهذه الأسباب وغيرها فالملاك جبريل(ع) يجتمع مع ملائكة آخرين يرافقونه أثناء تنزيله للقرآن لرجم الشياطين كما ورد في الآية 4 من سورة القدر "تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ".

كلمة "روح" في اللغة هي الشيء الأساسي الخالي من الإضافات، الجوهر، "الإسانس". درج أن يقول العرب قديماً "وحديثاً" عمّا ينتج من عملية تقطير السوائل: روح العنب، روح الزهر، روح النعناع... ويعنون الشيء الصافي من العنب من الزهر من النعناع... ومنه وصف بعض المشروبات بأنها مشروبات روحية على أساس أنها نتجت من

التقطير الذي يصفّيها من الشوائب. بناءً عليه فالروح التي نفخها تعالى في آدم(ع) والروح الذي نزل بالوحي وروح العنب... تشترك بوصف الخلو من الإضافات ولكنها ليست من نفس النوع.

نرجع للآية، أين ينزل هذا الوحي(ع)؟:

(عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ{194})
ينزل الروح(ع) بالقرآن، {عَلَى قَلْبِكَ}، على أساس فكرك ونفسيتك أيها الرسول محمّد(ع)، حيث لم يكن النبي(ع) يسمعها عبر أذنيه.

أنزلناه... {لِتَكُونَ}، أيها النبي(ع)، {مِنَ الْمُنْذِرِينَ}، من الذين يقومون بمهمة إنذار الناس، فتنقل لهم الخبر عن شيء سيّء سيحصل حتماً لمن توافرت فيه شروط الحصول على العقاب الإلهي، والعقاب حتمي في الآخرة وأحياناً بحسب شدّة السوء قد ينزل عذاب على بعض الأقوام في الدنيا قبل الآخرة.

لمزيد من التوسّع حول كلمة "منذر" راجع ما ذكرناه مطولاً في دراسة الآية 115 من هذه السورة.

(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ{195})
نزل القرآن، {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}، بطريقة النطق باللغة العربية وبشكل واضح.

المعلومات في الكتاب الرئيسي ليست بالعربية، ولم تنزل كما هي ليحوّلها النبي(ع) في عقله إلى اللغة العربية، لا، حيث نزلت من عنده تعالى محوّلة إلى اللغة العربية، ولا علاقة للنبي(ع) بأي حرف فيها.

سبب نزول رسالة ربنا سبحانه باللغة العربية، أنَّ النبي محمد(ع) الذي ينقلها لكل الناس يتكلم باللغة العربية، فمن الطبيعي أن تنزل عليه الرسالة بلسانه بلغته حتى يتمكن من نقلها إلى الآخرين، ونزلت الرسالة بشكل مبين، واضح، ليس فيها غموض، فالمعلومات التي يريدها تعالى أن تصلنا والتي نسميها بالعقيدة ومعها أدلتها... لنؤمن بها، والتشريعات والسلوكيات الصالحة، والمواعظ والأمثال... فكل ذلك واضح وليس فيه غموض.

بالنسبة لنزول القرآن باللغة العربية فلا توجد خاصية تميّز اللغة العربية عن بقية اللغات، فلا يخطر ببالك أنه سبحانه أنزل القرآن باللغة العربية لأنها متفوقة على بقية اللغات في التعبير أو المفردات أو تركيب المعاني... إذ إنّ كل هذا كلام فارغ، حيث إنّ كل اللغات لديها القدرة على التعبير عن أي معنى بطريقتها الخاصة، وفكّر في اللغة التي نزلت بها التوراة والإنجيل، والتي نزلت بها صحف الأنبياء، حيث إنّ غالبيتها لم تكن عربية، وكل رسالة نزلت منه تعالى كانت بلغة الرسول الذي ينقلها، وماذا عن اللغة التي تكلّم بها تعالى مع نبيّه موسى(ع)... وهكذا ترى أنه لا خاصية مميزة ولا مقدسة لأي لغة على أخرى عند ربنا سبحانه وتعالى.

نعم، من بعد استعماله تعالى للّغة العربية لتأليف هذا القرآن، صارت اللغة العربية مميزة لأن الإله سبحانه وتعالى بقدراته الفائقة قوّم هذه اللغة حين استعمل كلماتها وركّب الجمل بدقّة تفوق قدرتنا على فعلها، فصار لدينا مرجعٌ لغويٌّ لتقويم استعمالنا للغة العربية، ولكن وللأسف، ولأسباب عديدة تافهة لم يَجْرِ استغلال ذلك كما يجب...

ننتبه أكثر، حيث إنّ القرآن نزل باللغة العربية وبلهجة قريش، وهي القبيلة التي منها النبي محمد(ع)، وكل كلمات القرآن كانت مستعملة عند العرب في حين نزول القرآن، ولكن هذا لا يعني أن كل كلمات اللغة العربية كان كل أبناء قريش يعرفون معناها، بل ستجد من بقيّة العرب أقواماً بالتأكيد يعرفون معناها، فالتفت إلى أن مكة بعيدة عن البحر، فأهلها لا يعلمون بالكلمات العربية التي يستعملها العرب الساكنون على البحر، حيث تجد عموم أهل مكّة والمدينة لا يعرفون معنى المرجان! ومكّة لم يكن فيها مدينة صناعية، فأهل مكّة لا يعلمون صنعة تسفير الكتب، وصنعة القماش، لذا لم يعرفوا معنى السندس والاستبرق... وعامّتهم ليس لديهم علم باختلاف أسماء الأواني المختلفة التي ذكرها القرآن، كالكوب والكأس... لأنها كلمات لأشياء متداولة بين الأثرياء... وأكثرهم لا يعلم صنعة تربية النحل، ولا يعرفون معنى كلمة رحيق ولا من أين تنتج النحلة العسل... ويمكنك مراجعة كلمة رحيق في القواميس لترى العجب...

لذلك تجد أنه حتى أصحاب القواميس يقعون في مشكلة جهلهم للكلمة الخاصة بأهل صنعة أو فن أو حرفة، ويحتملون أو يخترعون لها أقرب معنى، ونقع نحن الآن في مشاكل معانيهم المخترعة، ونستصعب تمييز الكلمات التي جهلوها وفسروها بأقرب ما استحسنوه، عن المعاني الصحيحة.

بالنسبة للكلمات التي اخترع لها "المفسرون وأهل القواميس" معنىً على لهجة أناس من غير قريش، ونسبوها للهجات محلية تستعمل كلمة ما بشكل خاص، فهذا غير صحيح، ولم يكن عن دراسة، وكمثال يمكنك أن تراجع ما قالوه عن كلمة "طه" وستجد عجباً!

كون القرآن مُبيناً لا يعني أنه لا يحتاج للدراسة وأنه يمكن فهمه ببساطة لأي مستوى فكري من الناس، لا، فهناك آيات بسيطة جداً جداً، وهناك آيات بحاجة لدراسة، وهناك كلمات طمس معناها الجيل الأول من المسلمين لأنها كانت دقيقة جدا وفوق قدرتهم العادية على تمييز دقّة معناها لأنهم بدأوا بدراسة اللغة جدّياً من بعد نزول القرآن، والكلمات التي لم يعرفوا معناها لم يتركوها لمن يفهمها بل استقربوا أو اخترعوا لها معنىً، وهذا ما سبّب التشويش على من أتى بعدهم... فالقرآن مبين ولكن إن تعاملنا معه بدراسة رصينة.

بالنسبة للكلمات الأجنبية عن العربية التي قالوا إنها موجودة في القرآن، فهذا هراء، إذ إنّ القرآن لم يستعمل إلا الكلمات التي استعملها العرب أو من اشتقاقٍ من كلمات العرب، وفي حالات نادرة جداً في هذه الدراسة احتملنا أن كلمة ما صاغها تعالى اشتقاقاً من كلمات العرب، ككلمة طاغوت واستبرق، وهذه حالة نادرة.

على كل حال، كل اللغات المتجاورة تشترك في استعمال الكلمات، والكلمة التي لها أصل أجنبي واستعملها القرآن فهذا لا يعني أنّ الكلمة ليست عربية، حيث عندما يستعملها العرب تصير عربية من أصل أجنبي ولا مشكلة في استعمال القرآن لها طالما استعملها العرب، وهذا حال كل اللغات، واللغة العربية ليست استثناء، فهي لغة لم تخرج من الحائط، بل تولّدت مثلها مثل بقية اللغات، من الحاجة لتسمية الأشياء، وصار لها طريقة خاصة في تركيب الكلمات والنطق... وأخذت وأعطت من بقية اللغات.

ما تجده في تراثنا الثقافي عن كلمات في القرآن يقولون إنها ليست من اللغة العربية، ولم يكن العرب يستعملونها حين نزول القرآن، فهذا هراء، والأتفه من ذلك قول من قال بأنها دليل على كون القرآن من تأليف النبي محمّد(ع)، وأسخف منه قول من قال بأن هذا القرآن ليس عربياً كما يقول عن نفسه، فلو التفت هؤلاء بأقل تفكير إلى معنى كلامهم، لخرسوا قبل أن يتفوّهوا بهذه التفاهات، وبناءً على ما قالوه من استعمال القرآن لكلمات فارسية ويونانية وقبطية ونبطية وحبشية وسريانية وآرامية... وكان استعمالها صحيحاً مطابقاً للمعنى المطلوب من الجملة، فهذا يعني أن محمَّدَ بنَ عبد الله المؤلّف لهذا القرآن كما يقولون، فهو خبير غير عادي بالعديد من اللغات! فما هذه التفاهة!

(وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ{196})
{وَإِنَّهُ}، هذا الوحي "القرآن" بما يحويه من معلومات، {لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ}، هو موجود في {زُبُرِ} في كلام قيل وصار مكتوباً، في الكتب، التي كانت مع {الْأَوَّلِينَ}، مع الناس الذين سبقونا وكانوا أوَّلاً قبلنا.

النبي محمّد(ع) لم يخترع هذه الآيات ولم يؤلفها، والدليل أنها كمعلومات منه تعالى هي مكتوبة في كتب معروفة عند الأمم السابقة كاليهود والنصارى والصابئة... وهذه القصص عن تلك الأقوام وما جرى معهم كما تحدثت عنه الآيات السابقة، هو مكتوب وموثَّقٌ في كتب الأنبياء السابقين.

بعبارة أخرى، هذا القرآن ليس بدعة بكلامه المنقول عنه تعالى عمّا نسمّيه بالعقيدة والتشريع والسلوكيات، وبالخصوص هو ليس بدعة بالقصص التي ورد ذكرها فيه عن أقوام فعلوا السوء ونالوا عقاباً دنيوياً عليه... وهناك كتب سابقة مكتوب فيها نفس المعلومات، وهذا القرآن له امتداد تاريخي لآلاف من السنين من الوثائق المكتوبة التي تدعم ما فيه.

ضع في بالك أن كلامه تعالى عن أي موضوع كان بيَّن أدلته في القرآن، وما تظنُّه خبراً بلا دليل ومطلوبٌ منك الإيمان به على معنى التسليم به على عماه، أو تشريعاً بلا تبرير ومطلوبٌ منك الالتزام به على عماه، فهذا غير صحيح، وراجع دراستنا هذه وستجد أنه تعالى ذكر دليلاً وتبريراً لكل معلومة "عقيدة" أو تشريعٍ أو سلوكياتٍ ذكرها. وهنا ترى

الآيات السابقة واللاحقة تعطيك الدليل على إلهية مصدر القرآن، فالمعلومات التي فيه لها امتداد تاريخي لآلاف من السنين من تواصله تعالى مع بعض المؤهلين للتواصل معهم، وتوظيفهم بنقل نفس الكلام العقائدي والتشريعي والسلوكي للناس، وهذا تصنيفنا نحن لكلامه تعالى وإلا فمنطق القرآن عن الحقّ عن الخير عن الصلاح... وهو نفس الكلام منذ آلاف السنين وصولاً إلى هذا القرآن.

(أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ{197})
{أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ}، لهؤلاء الناس، {آيَةً}، شيئاً مميّزاً، {أَن يَعْلَمَهُ}، أن يعلم بما في هذا القرآن من التوحيد والآخرة... والقصص التي جرى ذكرها في هذه السورة وفي غيرها عن الذين أصابهم العذاب بسبب سوء ما فعلوه، أليس شيئاً مميزاً، أن يعلمه {عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ}؟

حينما يقوم النبي بتلاوة آيات سورتنا هذه كنموذج عن بقية كلام القرآن، وهي تتكلم عمّا جرى بين النبي موسى(ع) وفرعون... وما جرى مع النبي نوح(ع) والسفينة... وما جرى مع الأنبياء إبراهيم(ع) ولوط(ع) وشعيب(ع). فمن أين جاء النبي محمد(ع) بهذا الكلام؟ وإذا كان علماء بني إسرائيل يقولون إنَّ هذه القصص مكتوبة في كتبهم، فهذا يعني أنَّ الذي أنزل تلك الكتب القديمة هو نفسه أنزل هذه القصص والمعلومات على النبي محمد(ع).

لاحظ أنَّ القرآن أشار مراراً وتكراراً لامتداد الرسالة التي حملها الرسل عبر آلاف من السنين وبنفس المحتوى، كدليل على إلهية رسالتهم، ولو لم يكن الرسل يتلقون الوحي منه تعالى، لوجدتَ اختلافاً بينهم في أساسيات العقيدة والتشريع.

لاحظ أن بعض آيات القرآن استشهدت بأهل الكتاب بشكل عام "يهودٍ، نصارى، صابئةٍ، مندائيين، مجوسٍ..."، وهنا استشهدت بعلماء بني إسرائيل بالخصوص لأن كتاب النصارى "الإنجيل" الموجود بين أيدي الناس لا يحوي قصصاً مفصّلةً عن هؤلاء الأقوام "فرعون وقوم النبي نوح(ع)..."، أمّا التوراة ففيها قصصهم، إلا النبيين هود(ع) وصالح(ع) "بحسب اطّلاعي"، ويبدو سبب إغفال علماء بني إسرائيل لهما لأنهما نبيان عربيان، والنبي شعيب(ع) أيضاً عربي ولكن التوراة ذكرت قصّة مدين والغشّ لأن النبي موسى(ع) تزوّج ابنة من سمّته التوراة بـ: كاهن مدين... حيث تفرّد القرآن عن التوراة بقصص قليلة عن الأنبياء، وفي هذا أيضاً إشارة لارتباط القرآن والتوراة بشكل أكيد من ناحية، وإشارة لكون القرآن ليس نسخة عربية عن التوراة، بل وحي جديد، بحلّة جديدة، وبقصص إضافية، مما يشير إلى إلهية مصدره، ومن ناحية هو مشابه للتوراة ولكنه ليس مشابهاً تماماً ولا يمكن للكفار أن يتهموا النبي (ع) بتعريب "ترجمة عربية" التوراة، حيث إنَّ في القرآن قصصاً وتفاصيل لم تذكرها التوراة وهي قصص متماشية تماماً مع أساسيات قصص الرسل، ولا يمكنهم اتهام النبي(ع) بتأليفها من عنده، وخاصة إذا التفت لانتشار تلك القصص بشكل متفرّق متقطّعٍ في القرآن، مما يفوق قدرة "محمّد" الأمي على توزيع تلك القصص بهذا الشكل، ولو كانت من تأليف هذا الأمي لكان وقع حتماً في التناقضات...

أمّا إذا خطر ببالك أنَّ أحداً ما سيقول إنَّ النبي محمد(ع) عَلِمَ ما في تلك الكتب، وأعاد صياغتها وأضاف عليها، فهذا السؤال تمت الإجابة عنه وعن غيره في آيات أخرى من القرآن الكريم، حيث كان الجواب: أن النبي(ع) عاش عادياً مع قومه لمدة أربعين سنة قبل أن يرسله ربنا سبحانه، وخلال حياته كلها لم يسمعه أحد يتكلم ولو بجملة واحدة تشبه جمل القرآن، وكلهم يعرفون أنه لم يكن يحفظ بيوت الشعر، وكلهم يعرفون أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، وكيف إذن وفجأة يقوم بسرد قصص عمرها آلاف السنين وبكل دقة وبطريقة غريبة لا تشبه الشعر ولا النثر، ولكنها جميلة جداً في ترتيب واستعمال الكلمات؟ وكيف طوال أكثر من عشرين سنة لم ينقّح ولم يغير في أيّ كلمة في القرآن... الذي لا تجد فيه أي اختلاف! وطوال حياته من بعد نزول القرآن لا تجد في كلامه وخطبه أي كلام مشابه لكلام القرآن... وكيف سيعينه على تأليف القرآن أشخاص من أهل الكتاب بينما لا نجد في تاريخه (ع) ولا واحد منهم رافقه من أول ما بدأ بتلاوة القرآن إلى حين مماته بعد قرابة الثلاث والعشرين سنة! وألفت انتباهك فقط إلى سخافة ما قاله البعض عن مساعدة سلمان الفارسي للرسول بتأليف القرآن، وسلمان تعرّف على الرسول (ع) بعد أكثر من عشر سنين من بداية نزول القرآن!

نلاحظ بعد قليل جواباً إضافياً عن هذا التساؤل، وهو جواب ينقلنا إلى تفكير مختلف وراقٍ عن قيمة النبوة، كما سترى.

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ{198})
{وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ}، لو نَزَّلَ سبحانه هذا القرآن العربي، {عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ}، على شخص أَعْجَمَ أي من الأشخاص الذين لا يتكلمون باللغة العربية، وبالعامية نقول بدل أَعْجَمَ: عَجَمِيّ، أَجْنَبِيّ، فِرِنْجِيّ.

لَوْ نَزَلَ هذا القرآن على رجل من الأجانب عن اللغة العربية:

(فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ{199})
{فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ}، وهذا الشخص الأجنبي عن العربية قام بقراءة ما نزل عليه من ربنا سبحانه على هؤلاء الناس باللغة العربية، فإنهم، {مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ}، فلن يعتقدوا أَبَدًا أنه من مصدر إِلَهِيّ.

انْتَبِهْ جَيِّدًا لما تشير له الآيات، لَوْ جاء للكفار العرب شخص أَعْجَمِيّ، يعرفون تَمَامًا أنه لا يتكلّم العربية، وَأَنْزَلَ سبحانه عليه القرآن بالعربي، وَقَرَأَهُ الأعجمي عليهم، فهذا سيؤكد أَنَّ القرآن ليس من تأليفه، لأنه أَصْلًا لا يجيد اللغة العربية، حَتَّى لو حصل هذا فإن الكفّار لن يؤمنوا به، والأسباب هي إجرامهم وقساوة قلوبهم كما ستذكر الآية التالية.

لاحظ الشبه بين حالة الأعجمي الذي بدأ فَجْأَةً بتلاوة كلام عربي يشهد العرب بأنه صحيح فصيح، وبين حالة "محمّد(ع)" الذي بدأ فَجْأَةً بقراءة القرآن الذي يتضمن عَقَائِدَ وَأَخْبَارًا وَتَشْرِيعَاتٍ وَقِصَصًا لا علم له بها ولا بتفاصيلها، ويصدّق محتواها علماء بني إسرائيل. هذا ما تريد الآيات الإشارة إليه، وَضَخَّمَتِ الصورة عن نموذج الأعجمي الذي سينطق فَجْأَةً بكلام عربي بليغ، لتريك أن المشكلة عند الكفّار لن تنحلّ ولا بأي طريقة.

مِنْ عموم مفاهيم القرآن ترى تَرْكِيزًا على كون الشخص هو بقرارة نفسه، إمّا أن يكون حَيًّا بَصِيرًا وسليم القلب... فتتماشى أفكاره وسلوكياته مع ما يطرحه القرآن، فيؤمن به، وإمّا أن يكون مَيِّتًا أَعْمَى وأغلف القلب... فهذا لن يتماشى مع ما يقوله القرآن ولا بأي شكل، وإلى هذا المعنى ستشير الآية التالية.

(كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ{200})
{كَذَلِكَ} وهكذا بالذي قلناه لك، من كفرهم بالوحي الذي ينزل عليك مهما كانت طريقة نزوله... {سَلَكْنَاهُ}، جعل سبحانه الوحي "القرآن" يسلك فيأخذ طريقه، {فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ}، في أساس تفكير ونفسية الذين قاموا بالأعمال التي يستحقون العقاب عليها، وعلى رأسها إجرامهم بالشرك وبتكذيب الرسول(ع) وبقية الأعمال السيئة.

قارنها مع ما كرّره القرآن مِرَارًا بتعابير مختلفة عن تماشيه مع أصحاب القلب السليم، أو بالأحرى تماشي أصحاب القلب السليم مع ما يسمعونه من كلام القرآن، فهم في حياتهم العادية لا يكذبون ولا يخونون... وليسوا مرهونين ومحكومين لهواهم السيّء... وهم محبّون للعدل والإنصاف... فكلامه تعالى ليس بَعِيدًا أو مُخَالِفًا لطبيعة هَؤُلَاءِ الناس، فيسلك القرآن في قلوبهم بالتماشي معه، بعكس المجرم الذي يرفض أي كلام يدينه ويعارض إجرامه ويأمره بالعدل والإنصاف... فهذا سيسلك القرآن في قلبه طريق الرفض والمعارضة والتكذيب...

الْآيَاتُ السابقة مع هذه الآية تقول: رغم وضوح سيئات ما يفعله بعض الناس، وكنموذج عن ذلك ما ذكرته هذه السورة عن سيئات البعض منهم، ورغم وضوح حصول عقاب إلهي للبعض منهم هنا في الدنيا، ورغم امتداد هذا الوحي الإلهي عبر التاريخ لآلاف السنين من الرسل، وتشابهه الأساسي مع كتب إلهية سبقت... وسواء نزل القرآن باللغة العربية الفصيحة بالطريقة الرائعة لتناسق الكلمات والمعاني التي توضح رسالة ربنا سبحانه للناس، أو سواء نزل بلغة أخرى، أو نزل على أعجمي وقرأه عليهم بالعربي... فإن المشكلة ليست في اللغة، أو لغة وجنسية الشخص الذي ينقل إليهم القرآن، بل المشكلة في الإجرام المانع للشخص مِنْ أَنْ يُؤْمِنَ، فالمشكلة في قلوب المجرمين الذين لن يؤمنوا حتى لو نزل القرآن بكل اللغات، وبكل الطرق التي يقترحونها، والسبب أَنَّ محتواه يتعارض مع إجرامهم.

أما المؤمنون، أو بتعبير أدق: أما الذين ليسوا مجرمين، فَسَيُؤْمِنُونَ حتى لو نزل القرآن بلغة غير لغتهم، فلا مشكلة عندهم، لأن قلوبهم تنتظر كلمات الهداية من ربهم سبحانه، ولا يهمهم بأي لغة نزلت، ولا بأي طريقة نزلت، طالما هي متماشية مع قلبهم السليم فسيؤمنون بها.

لَا تَسْتَوْحِ من جُمْلَةِ: {سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} أنه سبحانه يجبر المجرمين على رفض القرآن حتى لا يؤمنوا، لا، فالآيات توضّح لنا أنه سبحانه خَلَقَنَا بهذا الشكل: من قرّر أن يكون مُجْرِمًا فالقرآن لن يقنعه بِالتَّغَيُّرِ، مثلما صمّم سبحانه حصول مسلك محفور على الصخر من كثرة مرور المياه عليه، فإن كثرة ارتكاب الإجرام أو الإصرار عليه سَيَجْعَلُ قلب المجرم يرفض قبول القرآن الحق الآمر بالإصلاح والخير، فيسلك الإجرام في قلبه بتوافق معه، ويسلك القرآن في قلبه بالاعتراض عليه فيرفضه، وهكذا خَلَقَنَا تعالى.

نلاحظ أن رسالة النبي محمد(ع) لكل الناس، للعربي والإيطالي والصيني... فالمطلوب من كل الناس أن يؤمنوا بها، وأن يلتزموا بمحتواها، ونرى الناس من الكثير من الجنسيات والقوميات والأعراق المختلفة الْتَزَمُوا بهذه الرسالة، وأعلنوا إسلامهم، وأما الناس الَّذِينَ عَقْلِيَّتُهُمْ وَنَفْسِيَّتُهُمُ الإجرام، فهؤلاء لن يؤمنوا برسالة ربهم سبحانه ولو بأي لغة كانت، وهذا جانب مما تريد الآية قوله.

يُمْكِنُكَ ضمّ ما تقوله الآيات هنا مع مضمون الآية 111 من سورة الأنعام {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا...}.

(لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ{201})
{لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ}، لا يصير المجرمون في حالة اعتقاد بما ينزل على الرسول(ع) من القرآن، {حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}، حتى يصير عندهم صورة محدّدة للعذاب الذي لا يمكن تحمّله ولا الاعتياد عليه، وهذه الصورة ستحصل لهم حَتْمًا في يوم القيامة وما بعده، فعندها سَيُؤْمِنُونَ بأن ما يقوله القرآن صحيح، وأنه نازل من عند ربنا سبحانه، لأنهم سيرون تَطْبِيقًا مَلْمُوسًا لكلامه عن بعثهم وحسابهم على كفرهم وإجرامهم... وقد يحصل إيمانهم أَيْضًا قبل الآخرة في الدنيا حين ينزل هنا عليهم عقاب إِلَهِيٌّ ولا يرون مَهْرَبًا منه... وكنموذج عن ذلك حالة فرعون حين تأكّد من موته غَرَقًا كما تقرأ في الآية 90 من سورة يونس {... حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ}.

يعني هي حالة من يشعر بأنه بعيد عن العقاب على تصرفاته، كأي مجرم لن يتوقف عن إجرامه ولن يندم عليه إلا بعدما يقع تحت قبضة من هو أقوى منه وسيجازيه على إجرامه، فعندها يصير كالحمل الوديع، نَادِمًا، مُتَأَسِّفًا... مُعْتَرِفًا بأن ما فعله خطأ... وهنا في الدنيا قد تجد مجانين في الإجرام يبقون على صلابة موقفهم حتى بعدما يَتَعَرَّضُونَ للتعذيب وصولا إلى قتلهم، ولكن أمام العذاب الذي يصفه الإله سبحانه بالأليم، لَا واحد من المجرمين سيبقى وَاقِفًا صُلْبًا مُعَانِدًا، فكلّه سينهار ويتكسّر رأسه...

(فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ{202})
{فَيَأْتِيَهُمْ}، يَصِيرُ العذاب عند المجرمين، {بَغْتَةً}، يباغتهم وَيَحْصُلُ بسرعة من حيث لم يتوقعوا زمانه ولا مكانه، {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}، وَيَحْصُلُ من دون أي تفاعل منهم مع أحداث أو خبر حصوله. قارنها مع الذي آمن بخبر حصول عذاب إلهي لمن كفر وفعل السيئات، وَهُوَ يشعر بقدوم العذاب، أمّا المجرمون فلا يشعرون بقدومه وسيحصل لهم في مكان وزمان لا يتوقعونه.

ضع في بالك دَائِمًا أن القرآن كَثِيرًا ما دمج في كلامه عذابي الدنيا والآخرة مع بعض، بلا فرق لأن كِلَيْهِمَا عذاب، وهنا مثال عن ذلك، هَذَا الكلام في الآيات يجري على نزول عقاب إلهي هنا في الدنيا على المجرمين، ونفس الأوصاف تجري على عذاب يوم القيامة وما بعده، فكلاهما بغتة، فِي الدنيا ومن دون أي سابق إنذار تبدأ إشارات نزول العذاب والمجرمون لا يرونها إشارات عذاب مدمّر لأنهم لا يؤمنون به، وعندما يبدأ الدمار يكون مُبَاغِتًا لهم... إلا الحالة الاستثنائية قَوْمَ النبي يونس (ع) كما ورد في الآية 98 من سورة يونس {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}، وفي الآخرة أول ما يستعيدون وعيهم من موتهم سيرون العذاب بغتة كشيء حصل مباشرة من بعد استعادتهم لوعيهم...

في الآية 208 الآتية سترى منه مناسبة الكلام هنا عن عذاب الدنيا، ولكن هذا ليس دَقِيقًا، لأن الكلام هنا على عموميته، والعديد من السور قصدت دمج عذابي الدنيا والآخرة معا، على أساس أن عذاب الآخرة حتمي للكافرين، وعذاب الدنيا محتمل حصوله لهم، وعلى كل حال فإن حصل عذاب في الدنيا لهم أو لم يحصل، فكلا العذابين لا فرق بينهما من ناحية كونهما عَذَابًا إِلَهِيًّا على كفرهم. بَدَلَ أن يستعمل القرآن تعابير تشير لاحتمال حصول عذاب في الدنيا للكافرين، اكْتَفَى في العديد من الآيات بالإشارة للعذاب، دَامِجًا لهما مع بعض.

(فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ{203})
{فَيَقُولُوا}، عند حصول العذاب بغتة: {هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ}؟ هل هناك مجال لِتُنْظِرُونَا لِتُمْهِلُونَا لِتُعْطُونَا فرصة ثانية حتى نصحّح أخطاءنا؟ فإذا أصابهم عذاب في الدنيا يسألون: هل تبعد عنّا يا ربّ العذاب هنا في الدنيا حتى نأخذ فرصة لنكون من المؤمنين؟ وإذا صاروا في عذاب الآخرة سألوا: هل تعيدنا يا ربّ إلى مكان وزمان آخر غير يوم القيامة وسنكون من المؤمنين الصالحين؟

في العديد من آيات القرآن نعلم الجواب عن هذا الطلب: كلا، كَانَتْ فرصة واحدة، وكانت كافية، ولكنكم لم تستغلوها، والآن حان وقت عقابكم. تَتَذَكَّرُ دائما الآية 28 من سورة الأنعام {... وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}.

ضع طلبهم لتأجيل العذاب في بالك وقارنه بما كانوا يقولونه قبل مباغتته لهم:

(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ{204})
{أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ}؟ هل كانوا يقولون للرسول: فليحصل العذاب الإلهي الآن قبل أوانه المحدّد له، ولا داعي لانتظاره؟

الْوَحْيُ الذي ينزل على الرسول(ع) فيه إنذار من العذاب للكافر الفاعل للسيئات، والمجرمون يقولون: كفى تهديدا بعذاب مؤجّل، فليحصل الآن ما تُهَدِّدُونَنَا به إن كان كلامكم صحيحا.

تنبههم الآية، أنتم لا تستعجلون ضربة بالكفّ، بل تستعجلون عقابا إلهيا!

كَمَا تلاحظ من الآية التي سبقت، ففي الدنيا حين يبدأ الدمار وَيَتَيَقَّنُونَ بهلاكهم فَسَيُعْلِنُونَ إيمانهم وَيَطْلُبُونَ فرصة ثانية، وكذلك في الآخرة سَيَقُولُونَ: ردّونا إلى حالة التكليف لنفعل كل ما تريدون لِنَنْجُوَ من العذاب... وقبل ذلك كانوا يقولون: كفى تهديدا بكلام فارغ وليحصل الآن وفورا ما تهددوننا به وليكن ضخما لدرجة كسفه السماء من فوقنا وطحننا...

(أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ{205})
{أَفَرَأَيْتَ}، فنسألك أيها النبي(ع) وأيها المؤمن لو حصلت عندك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: لو شفت. {إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ}، فسمحنا لهؤلاء المجرمين بالتمتّع بالانتفاع والاستفادة والتصرف بخيرات الدنيا، لمدة من السنين.

(ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ{206})
{ثُمَّ}، بعد هذا التمتع لعدة سنين، {جَاءَهُمْ}، للمجرمين، {مَا كَانُوا يُوعَدُونَ}، ما قاله تعالى أنه سيفعله بهم، وَعَدَهُمْ بالعذاب على الإجرام وصار العذاب أمامهم، عندها:

(مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ{207})
الغنى هو عموم انتفاء عموم الحاجة لعموم أي سبب، ومن مُشْتَقَّاتِهِ امتلاك ما تحتاج، وترى المعنى صَرِيحًا في تصريف "الاستغناء" في الآية 6 من سورة العنكبوت {وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}. وهنا الكلام عن حاجة الكفّار المجرمين لشيء معهم ينفعهم حتى لا يتعذّبوا، مثل حاجة الجائع للطعام حتى يسدّ جوعه، فيصير غَنِيًّا إن حصل على الطعام، وهؤلاء تمتّعوا بما في الدنيا وكانوا كافرين مجرمين، فهل هذا سينفعهم ليردّ عنهم عذاب الآخرة؟

بِالْمَالِ تستغني عن العمل لأنك بالمال تحصل على ما تريد، فالمال يغنيك عن الفقر. وبالعمل تستغني عن استعطاء الناس، أمّا القعود فلن يغنيك، وستضطر للطلب من الناس... وبهذا المعنى فالحسنات تغنيك عن العذاب في الآخرة... والسيئات لا تغنيك عن عذاب الآخرة... فما يتمتعون به هنا في الدنيا لن يغنيهم عن عذاب الآخرة.

تُخْبِرُهُمُ الآية بذلك على أساس أنهم لم يكونوا موافقين على ترك ما يتمتّعون به حتى لو كان سَيِّئًا، ورغم وصول كلامه تعالى إليهم عبر رسله وكتبه أَنَّ عملهم عليه عقاب أليم، فتمتّعوا في الدنيا لسنين، وبالمعدّل العام لمدة ستين أو سبعين أو ثمانين سنة لحياة أي إنسان منكم، ولكن حين ينزل العذاب فبماذا سينفعهم ذلك؟

للتبسيط قارن هذا الكلام مع شخص قرّر العيش في بيت ما، وصاحب البيت نَادِرًا ما يأتي إلى ذاك البيت، ولكن إن وجد أَحَدًا فيه فسيحبسه... فعاش ذلك الشخص في البيت مُتَمَتِّعًا بخيراته... لسنة لسنتين لأكثر... وبعدها جاء صاحب البيت وحبسه وعذّبه لسنين، فما أغنى عنه ما تمتّع به؟ فهل يدخل العاقل في هكذا مشروع؟ وهنا نفس الكلام عن الذين تعلّقوا بمتاع الدنيا السيّء تَارِكِينَ الصلاح والحقّ، ومضت السنين على تمتّعهم بذلك، فهل هذا سيغنيهم عن عقابه تعالى لهم؟ وهل يدخل العاقل في هكذا مشروع نهايته عذاب أليم؟ كَانَ بإمكانهم اتخاذ قرار بالعيش مُتَمَتِّعِينَ بالخير والصلاح وهو نفسه يتماشى مع أوامره تعالى، وهذا كان سيغنيهم عن عذابه تعالى في الدنيا والآخرة.

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ{208})
{وَمَا أَهْلَكْنَا}، لَمْ نُنْهِ ولم نَسْتَنْفِدْ، لم نُمِتْ، {مِنْ قَرْيَةٍ}، من مجتمع من الناس، {إِلَّا وَلَهَا}، للقرية، {مُنْذِرُونَ}، من ينذرهم، من ينقل لهم الخبر عن شيء سَيِّئٍ حَتْمًا سيصيب الذين توافرت فيهم شروط الحصول على العقاب الإلهي.
يَقُولُونَ لهم: انتبهوا، فأنتم تفعلون السيئات، وهذا سيسبّب نزول العذاب حَتْمًا إن لم تتقوا ربكم سبحانه، وفي الآخرة لا يوجد فرصة ثانية للعودة، وهناك لا يغنيكم عن العذاب إلا الحسنات، وَهَا أخبركم سبحانه بقصص الذين سبقوكم من القرى التي نزل عليها العذاب هنا في الدنيا كنموذج ملموس عن جديّة التهديد...

دَرَجَ بيننا القول "قرية" للتجمع السكاني القليل العدد، ونقول مدينة للتجمع السكاني الكبير، ولكن أساس معنى كلمة قرية هو: مكان مجتمع من الناس للعيش فيه. سواء كان عددهم كَثِيرًا أو قَلِيلًا، وسواء كانوا في الخيم أو في البيوت. مَا نقوله نحن الآن: مزرعة، حي، بلدة، قرية، مدينة... فكلهم تنطبق عليهم كلمة قرية في أصل اللغة العربية وفي استعمال القرآن.

بقي شيء، هَلْ لكل قرية وعلى طول الزمان يكون فيها نذير؟ لا، فمن الآية 24 من سورة فاطر نفهم بشكل واضح أنه لكل أمّة سيمرّ في تاريخها نذير {... وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}، فلكل مجتمع له امتداد تاريخي مَرَّ في تاريخه من ينذره من عقاب حتمي في الآخرة، وينذره من احتمال حصول عقاب جماعي في الدنيا بسبب الشرك والأعمال السيّئة من العيار الثقيل، وهنا الكلام في الآية عن نزول عذاب إلهي في الدنيا، فهذا لن يحصل إلا إذا في تاريخ "قريب" مرّ في تلك القرية من ينذرهم من العذاب، وليس بالضرورة أن يكون النذير نَبِيًّا أو مُرْسَلًا منه تعالى، فالضرورة محصورة بمرور رسول في تاريخ الأمّة. لِمَزِيدٍ من التوسّع راجع دراسة الآية 47 من سورة يونس {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}.

(ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ{209})
ناقلو الإنذار للقرى هم: ذكرى، حيث يجعلون الناس يتذكرون ويستحضرون ربهم سبحانه في فكرهم ومشاعرهم وعملهم، ويستحضرون الآخرة والحساب والجزاء.

{وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ}، أبدًا بتاتًا ولا بأي شكل لن نعاملهم بما لا يستحقون، فالإنصاف والعدل أن ينالوا عقابهم على إجرامهم. فلو عذّبناهم وهم لا يعرفون أنه يوجد آخرة وحساب ولم يأتهم نذير، لكان تعذيبهم ظلمًا، ولكنه سبحانه يرسل لهم شخصًا ينذرهم، ويريهم الآيات... ويحدّثهم بالعقلانية... فإذا لم ينتبهوا فصار ذنبهم على جنبهم! وسبحانه لم يظلمهم حين عذّبهم.

(وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ{210})
هذا الكلام عن التوحيد... والإنذار من الحساب والعقاب على السيئات، وما جرى مع بعض القرى السابقة... {مَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ}، لم يقم بتنزيله على الرسول محمّد(ع) الكائنات الموصوفة بفعلها للضلال وإضلال الناس.

في الآيات التالية سوف نعرف لماذا.

كلمة شيطان تدل على الصفة للشخص من الجن أو الإنس الذي يقوم بأعمال الضلال لنفسه وللآخرين. وهنا سياق الآيات يتحدث عن الجنّ الشياطين، الذين ستخبرنا الآيات التالية عن محاولتهم التدخل في الوحي أثناء نزوله، فلا هم نزّلوه ولا هم ألّفوه ولا تدخّلوا في محتواه...

(وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ{211})
{وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ}، لا يوجد أي مقوّمات للشياطين لتتنزل بهذا القرآن! هل تنزل الشياطين بمثل هذا الكتاب! وكيف ستنزل الشياطين بكتاب يدعو الناس إلى الهدى؟! حيث يدعو إلى توحيد ربهم وطاعته بترك السيئات والصلاة... وطاعة الرسل، ومعاداة الشياطين... هل صارت الشياطين ملائكة! وهل تأمر الشياطين بالعقلانية والإصلاح في الأرض وبين الناس! راجع قصص الرسل السابقين، وراجع هذا القرآن، هل يأمرك القرآن بشيء شيطاني حتى تفكّر بأن الشياطين أنزلته! أم ينهاك عن السوء الذي تأمر به الشياطين؟

{وَمَا يَسْتَطِيعُونَ}، أصلاً لا يمكن للشياطين أن تؤلّف كتابًا مثل القرآن، لا في دقّته ولا في تركيب جمله ولا في محتواه... وراجع الآية 88 من سورة الإسراء التي أخبرتنا أن الجنّ كلّهم ومعهم الإنس لو اجتمعوا مع بعض لتأليف كتاب مثل القرآن فلن يستطيعوا {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}، ولو قارنت هذا القرآن بطريقة كلامه ودقّة كلماته وبمعانيه مع أي كتاب آخر من تأليف البشر لوجدت الفرق هائلاً، ونحن "وبحسب اطّلاعي" ليس لدينا أصلاً كتاب من تأليف الجنّ، ومن أين يمكن أن تخطر في البال مسألة تأليف شياطين الجنّ لهذا القرآن؟ وهل أصلاً يستطيعون ذلك؟ وهذا من ضمن ما تنفيه الآية ولكن كلامها المباشر عن نفي أصل إمكانية تنزيل الشياطين لكلام حق وصلاح، ونفي استطاعتهم ذلك، حتى على المستوى النظري يستحيل أن يقوم جنّي أو إنسي شيطان بتأليف كلام حق وصلاح، فحتمًا سيقع في مسائل عديدة سيتبنى فيها السوء والفساد.

نلاحظ أنه وبرغم سخافة هذا التفكير فسبحانه أجاب عنه، كيف يفكر شخص ما بأن الشيطان "الضال والعامل على إضلال الآخرين عن الخير"، كيف سيقوم بتأليف آيات "هداية" تدعو إلى توحيده تعالى، وإلى طاعة رسله بعمل الصالحات وإلى التنبيه من الحساب على السيئات... وسينزّل هذه الآيات على شخص ليقوم بنشرها على الناس، كيف؟ وهكذا تفهم من عموم القرآن تركيزه على عقلانية ورزانة وصلاح ما يأمر به تعالى عبر هذا القرآن كدليل من أهمّ الأدلة على إلهية مصدر القرآن.

من ناحية ثانية ستعرضها الآية التالية، فالشياطين لن يوكلهم سبحانه بمهمّة تنزيل كتابه على رسله.

(إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ{212})
{إِنَّهُمْ}، الشياطين، {عَنِ السَّمْعِ}، عن سماع ما يدور في سماء الملائكة(ع) العالية، {لَمَعْزُولُونَ}، حيث يوجد طبقة وحاجز يعزلهم مما يمنعهم من الاستماع لما تقوله الملائكة(ع)، ونعلم من القرآن أن هذا العازل مؤلّف من عدد ضخم من الملائكة (ع) التي تسدّ كل المنافذ وترجم بالشهب كل من يحاول الاقتراب من السماء العالية كما ورد في الآية 10 من سورة الصافات {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}.

فإذا كانت الشياطين معزولة حتى عن سماع ما يجري في سماء الملائكة(ع)، فكيف ستقوم الشياطين بالاطلاع على الكتاب الرئيسي لتنزّل منه هذه المعلومات؟

ننتبه لشيء مهم جدًا هنا، حيث سبحانه يحسم بأن المعلومات التي في القرآن لا بد أن تكون من الكتاب الإلهي الرئيسي، لا يمكن لأي مخلوق معرفة كل هذه المعلومات، ولا أن يخترع كل هذه المعلومات الصحيحة، ولا أن يؤلّف نظريًا هذه

المعلومات... ولذلك عندما تجيب الآيات هنا عن فكرة حصول النبي محمد(ع) على القرآن من الشياطين، فهي تؤكد بأن هذه المعلومات من الكتاب الرئيسي ومن المستحيل على الشياطين الاتصال بذلك الكتاب، فالشياطين معزولة بالكامل عن كل السماء التي فيها الكتاب الإلهي الرئيسي، بأي وسيلة وكيف يخطر ببالكم أن الشياطين أنزلته! فضلًا عن أنهم أصلًا هم شياطين هل سيقومون بهدايتكم!

حتى أثناء نزول القرآن، الملائكة(ع) المرافقة للروح(ع) الناقل للقرآن تمنع الشياطين من الاقتراب حتى يصل الوحي القرآني بالتمام إلى وعي الرسول(ع).

بعبارة أخرى، كلامهم عن علاقة ما للشياطين بهذا القرآن، هو كلام لا أصل له ولا معنى، حيث يريك سبحانه الواقع الحقيقي الذي يستحيل أن يحصل فيه أي تدخّل ولا بأي طريقة للشياطين بالقرآن، لأنهم أصلًا شياطين ولن يهدوكم بالكلام القرآني الهادي، وثانيًا هم بأمر إلهي معزولون عن كل ما له علاقة بوصول القرآن إلى الرسول.

ضمنًا الكلام يشير إلى فرضية تأليف الشياطين لكتاب هداية ولو على المستوى النظري بالنسبة لمعرفتهم حتى لو لم يكونوا مؤمنين بالحقّ والصلاح، مثلما أكتب أنا عن الأخلاق بينما عمليًا لست أهلًا لذلك، نظريًا أكتب عن الأخلاق، ولكن هل فعلًا أستطيع تأليف كتاب نموذجي عن الأخلاق وبدون أن يظهر فيه أي شيء من أخلاقي السيئة؟ مستحيل حتى على المستوى النظري أن يحصل ذلك، ومنه تفترض الآية هنا أن الشياطين لو فرضًا قرروا تنزيل كتاب حقّ وصلاح على بشري، فهم يستحيل عليهم تأليفه، لأنه حتمًا سيتضمّن أمورًا سيئة، وهذه حالة تراها في كتب منظري التشريعات البشرية الذين تفلت منهم أهواؤهم ليشرّعوها، كتشريع الزنا والربا والقمار والخمر والمخدرات... وبيع الأسلحة للذين سيقتلون به الأبرياء... وبقي افتراض قيام الشياطين بسماع ما تقوله الملائكة نقلًا عن الكتاب الرئيسي الذي نزل منه القرآن، حيث هذا مصدر للحق والصلاح، وأصلًا لا ينبغي لهم، وبغض النظر عن الوسيلة لو استطاع الشياطين توصيل كتاب هداية للبشر، لما فعلوها، لأنهم شياطين، وأصلًا هم عن المصدر الوحيد المتاح لهم لتنزيل كتاب حقّ وصلاح معزولون.

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ{213})
الخلاصة الحصرية النهائية، وزبدة كل الكلام والقصص التي وردت في هذه السورة، بل والزبدة من كل الوحي "القرآني" هي التالية:

أيها النبي(ع) وأيها السامع والقارئ للقرآن:

{فَلَا تَدْعُ}، لا تشهر أو تعلن، بالكلام باللسان أو بالقلب، {مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ}، التزم بالاعتقاد بصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز الله عزّ وجلّ كإله ككائن فيه الصفات والقدرات الفائقة، لأن أي دعاء لكائن آخر غير الكائن الذي اسمه "الله" عزّ وجلّ على أساس أن ذلك الكائن الآخر لديه صفات وقدرات فائقة، هو ممنوع، لأنه غير صحيح، وإلا، {فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ}، حيث يصيبك الضرر لأنك دعوت غير الله تعالى. والعذاب يبدأ حصوله هنا في الدنيا ولكن حتمًا سيصيبك في الآخرة، وسمعنا في هذه السورة ماذا يحصل مع من يعبد غير الله تعالى.

لا يذهب فكرك حصريًا من كلمة "دعاء" إلى معنى طلب شيء ما، الدعاء عمومي لأي إشهار أو إعلان، ويشمل إعلان طلب الصحّة والرزق و... ويشمل إعلان الألوهية والربوبية والتوصيف بالصفات والقدرات الفائقة... مجرد القول بأنه تعالى معه شركاء في الألوهية، هو دعاء، وهو إعلان وإشهار، وهذا الدعاء عليه عذاب.

تذكّر دائمًا أن غالبية استعمال القرآن لكلمة دعاء لم يُقصد منها طلب تحقيق شيء كما هو للأسف دارج في أدبياتنا من تفسير لتلك الآيات، آيتنا هنا واحدة من الآيات التي درج بين الناس تفسيرها على معنى المنع من الدعاء لغيره تعالى على معنى المنع من الطلب من غيره تعالى، كطلب الرزق أو الشفاء أو... بينما هي تمنع من الإعلان عن غيره تعالى إلهًا، وضمنًا تمنع من الطلب من غيره تعالى تحقيق شيء يحتاج لمستوى إلهي لتحقيقه.

ربما نشعر بالغرابة لأنه سبحانه يأمر نبيه (ع) أن لا يشرك به، ولكن لماذا الغرابة؟ سبحانه يتحدث مع إنسان مثلي ومثلك، يمكنه أن يكفر أو يشرك. وسبحانه في القرآن يوجّه كلامه لجميع الناس، من دون أي استثناء، يأمرهم جميعًا

بتوحيده، ومن الضروري أن ينبّه أنبياءه ورسله أولًا بتوحيده علمًا أنهم وبسلامة قلبهم أساسًا وصلوا إلى الإيمان بتوحيده تعالى من آيات الخلق...

تتذكّر آيات متفرقة هنا وهناك في السور، تلك الآيات ألمحت إلى تساهل بعض الناس بموضوع توحيده تعالى، على أساس أنه تعالى حتى لو كان فعلًا إلهًا أحدًا لا إله غيره وواحدًا للجميع، ولكنهم مرتاحون مع عقيدة اختراع الآلهة، قارنها مع من يفعل شيئًا يقول عنه الدين الإلهي إنه حرام، كالزنا أو الغشّ أو الغيبة... يبرر لنفسه ويقول: لن يضعني سبحانه في صلب اهتماماته ويحاسبني على شيء تافه... فرضًا لو لم يكن عنده تعالى مانع في أن نخترع إلهًا ونعبده، فرضًا ذلك، فعندها يبقى اختراع إله وعبادته أمرًا وهميًا لا حقيقة له، ولكنه يصير بلا حساب عليه، آياتنا هنا أيضًا تنبّهنا من هذا، لم يسمح سبحانه باختراع إله وحتمًا سيعذّب من يفعل ذلك.

ننتبه جيدًا، الآية لم تقل إنه يوجد إله آخر وممنوع أن تدعو له، ها هو كل القرآن أمامك لا يوحي ولا بأي شكل بهذا، بل صراحة وبوضوح يخبرنا مرارًا وتكرارًا أنه: لا إله إلا الله سبحانه، وبناء عليه أنت تفهم الآية هنا تقول: لا تقم باختراع إله وتدعو له، وفقط ادع الله تعالى. أقول لك هذا لأن غبيًا يعمل على استغباء الآخرين، قصّ آيتنا هذه عن كلّ كلام القرآن واخترع منها أنها تقول: يوجد آلهة أخرى ولكن لا تقم بالدعاء لها. وهذا النوع من الغباء أو التغابي، لا دواء له إلا العذاب، حين يرى العذاب في الآخرة سيتخلّى عن سخافته واستهتاره، وحينها يكون الأوان فات.

تذكّر دائمًا أننا كبشر جعل سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرّف عليه سبحانه من ملاحظة أفعاله "آياته في خلقه" ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء... وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق بالقوّة الإلهية الفائقة عند الوقوع في الشدائد... وضعنا كلمة نصف بها الكائن ذا الصفات والقدرات العالية جدًا عن قدراتنا، وهي كلمة "إله" كوصف لذي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلّق به عند الوقوع في الورطات...

في الحقيقة الكائن الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة، والذي ليس مخلوقًا هو الله سبحانه، وتساهل الناس في استعمال كلمة إله لتنطبق على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، حيث يطلقونها على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أن فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي}...

القرآن يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهي، يقوّم اللغة ككلّ، ويقوّم دقة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة "إله"، يخبرنا أنها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرّج في استعمالها.

المشركون الناطقون باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... استعملوا كلمة إله بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

قارنها مع كلمة "ربّ"، أنا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... هذه كلمة تتحمّل التدرّج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهي، فهي لا تتحمّل التدرّج، وهي حصرًا له تعالى ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهي.

كلمة إله في حقيقة معناها لا تتحمّل التدرج لينوصف بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، حين يخبرك أنه خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، وسبحانه وظّف الملائكة(ع) التي خلقها لتنفيذ بعض أوامره... وهكذا ترى بوضوح أنه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، ماذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدّد له والمميّز "الله" جلّ جلاله فعل كل شيء، ما معنى ألوهية غيره! هذا ملخّص مبسّط للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

ألفت انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، حيث حصروا استعمال كلمة إله للإله الكبير، واستعملوا للآخرين وصف الربّ، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربّة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون: إله المطر وإله الحرب... وعلى كل حال القرآن رفض توصيف غيره تعالى

بالألوهية والربوبية من مستوى إلهي، المشركون يعتقدون بوجود كائن "ربّ" مسيطر على المطر من مستوى إلهي وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم أنه توصيف لألوهية أربابهم.

من ناحية ثانية لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، يصير الهوى إلهًا كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}...، هي لا تشير لاعتقاد الشخص بأن هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لدين فيه ما يهواه، عمليًا هو يعبد هواه.

بالنسبة لأصل كلمة "الله" هناك كلام كثير حولها، ويبدو من تتبّع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حاليًا بالسامية... أن الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة "إله" ومنها جرى اشتقاق اسم العلم "الله"، وهذا الاسم لم يكن متداولًا في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط للآخرين نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، كلمة إله واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات ما يسمّى بأصل اللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة الله من وصف الإله ومتى، فهل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قديمًا عبر الوحي، فالأرجح عندي "استذواقًا" إنه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك "استذواقًا" لأن المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين بلا مستند صريح لتأكيد كلام ما، فهو بطبيعته يصير استذواقيًا لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا ذات نفسي في سياق كلام آخر أستذوق أنه تعالى هو سمّى نفسه، ليس من المعقول ولا من المقبول منك أن تطلب حسمًا من الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دليلًا حاسمًا، ولا مقبولٌ من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنه الصحّ إلا اللهم إن قدّم دليلًا دامغًا، وهذا لا يبدو ممكنًا في مسألتنا هذه.

(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ{214})
{وَأَنْذِرْ}، انقل الخبر "أيها النبي محمد(ع) كنموذج" عن حصول شيء سيئٍ بالتأكيد لمن توافرت فيه شروط الحصول على العقاب الإلهي، {عَشِيرَتَكَ}، عائلتك الكبيرة التي تعاشرها فتعيش معها، {الْأَقْرَبِينَ}، الذين هم قريبون منك نسبًا وسكنًا، وعمليًا هذا يعني التوجّه بالإنذار أولًا إلى بني عبد المطلب وهم أعمام النبي (ع) وأولادهم، وإلى الأقرب فالأقرب من جدّه هاشم من بقية قبيلة قريش.

تعلم من عموم القرآن أنه (ع) مأمور بإنذار وتبشير كل الناس كما تقرأ في الآية 28 من سورة سبأ {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا}...، وهنا الكلام المخصّص لإنذاره (ع) لأقرب الناس إليه (ع) يشير إلى صعوبة نقل الخبر عن عقاب إلهي شديد لمن توافرت فيه شروط حصول العقاب، وبالخصوص للأقرباء، قارنها مع سهولة دعوتهم إلى الدين الإلهي بالتبشير بالجنّة لمن آمن، لأنه ليس من السهل أن تقول لأقربائك إنكم ستدخلون نارًا خالدين فيها بالعذاب الشديد إن لم تتركوا دين الشرك... لذلك تأتي آيتنا هنا لتأمره(ع) بتخطّي هذه الصعوبة وإنذار كل من يستحقّ الإنذار.

نتذكّر من التاريخ التوفيق الإلهي لنجاح دعوة رسوله محمّد(ع) حيث غالبية عشيرته (ع) لم تقبل بالاعتداء على ابنها محمّد، وبشكل عام حموه ودافعوا عنه قبل أن يؤمنوا به كرسول، وعبر التاريخ وقياسًا ببقية الناس دفعت عشيرته (ع) ثمن إيمانها والتصاقها بقريبها "محمّد" ثمنًا فاق ما قدّمه المؤمنون الآخرون، حيث كانوا محطّ الأنظار والهدف للأعداء أكثر من غيرهم، ولذلك تجد في القرآن طلبه (ع) من الناس وبأمر إلهي أن يودّوه في القربى "في أقربائه"، لشدّة ما تحمّله أقرباؤه (ع) من الأعداء.

ضع في بالك دائمًا أنّ الإنذار يعني: شخص على حالة سوف تؤدّي به حتمًا إلى شيء سيئٍ، فتنذره. والتحذير يعني: شخص من المحتمل أن يصير على حالة تؤدّي به إلى شيء سيئٍ، فتحذّره. كمن يمشي على طريق في آخره لصوص سيسلبونه أمواله... فهذا تنذره، ومن يمشي على طريق الأمان فتحذّره من سلوك الطريق المؤدّي إلى اللصوص. وهكذا ترى صعوبة إنذار الأقارب من نار الآخرة...

لا تنسَ أن الكلام القرآني مع الرسول محمّد(ع) باعتباره نموذجًا، والتطبيق العملي للآيات هنا علينا أن يقوم المؤمن أولًا بالاهتمام بدعوة أقاربه للإيمان، طبعًا مع الفارق الهائل بيني وبينه (ع)، ما يعرفه أقاربه عن سلوكه وأخلاقه

وأمانته... يساعده (ع) على دعوتهم للالتزام بدينه تعالى، أمّا سلوكي وأخلاقي فلن تكون على القدر الكافي ليعتبرني الناس قدوة إيمانية لهم. أقول لك هذا حتى نكون صريحين في دعوة الآخرين إلى الالتزام بدينه تعالى، حيث ننهاهم عن سوء ونحن نفعله، كالغيبة وإهانة الناس والاستهتار بأموالهم وأماناتهم وأعراضهم وبناتهم اللاتي نتزوجهن ولا نعاشرهن بالمعروف... فسيرى الناس فينا نفاقًا مانعًا لهم من التديّن، على أساس أننا مسطرة ونموذج سيئٌ عن الدين الذي ندعوهم إليه...

بناءً عليه، وبواقعية، ندعو الآخرين إلى الالتزام بدينه تعالى لا على أساس أننا النموذج، بل نشير لهم إلى النماذج الراقية التي طرحها القرآن عن الأنبياء والسيدة مريم(ع)... ليقتدوا بهم.

أمّا ما تجده في الكثير من الروايات عن النبي محمّد(ع) ويقصدون منها مدحه (ع) بتأليفهم وتبهيرهم وتضخيمهم... لقصص عنه (ع)، فكانت على مقياس الأشخاص الذين رووها، حيث مستوى أخلاقهم هم انعكس على ما رأوه أو رووه أو ألّفوه أو ضخّموه وبالغوا فيه... عن النبي محمّد(ع) ليقدّموا لك صورة مشوّهةً عنه وهي في الحقيقة تعكس صورتهم البشعة هم. منذ قليل تحدّثت السورة عن استحالة قيام الشياطين بتنزيل وحي من مستوى كلام الحقّ والصلاح الوارد في هذا القرآن، لأنهم شياطين حتى على المستوى النظري لن يكونوا قادرين على التنظير بالحقّ والصلاح، فلتاتٌ من شيطنتهم ستظهر حتمًا وبشكل واضح في كلامهم الذي ألّفوه... ونفس الشيء حصل مع الروايات التي تناولت سيرة النبي محمد(ع)، حيث انعكست فيها نفسية وأفكار راويها... والكثير منها شوّه صورته (ع) بينما الراوي كان يقصد مدحه (ع).

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{215})
{وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ}، فقوتك وسطوتك لا ترفعها ولا تظهرها بل اخفضها، {لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، للذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بدينك ويفعلون ما تفعل "دينيًا".

كلمة {جَنَاح} تشير لعموم ما يتحقق به الشيء الذي يحتاج للقدرة وللقوة، فجناح الطير لقوة ولقدرة الطيران، والجناح العسكري للدولة لقوة وقدرة الدفاع والهجوم... والسلطة المعنوية للقائد أو الرئيس هي جناحه، حيث يأمر ويزجر ويعنّف ويعاقب... الآلاف وهو شخص واحد، وهم كلّهم تحت جناحه ويفعلون ببعضهم ما يأمر به هو.

من سلطتك المعنوية كقائد ورئيس فأظهر اللين واللطافة والرقّة للمؤمنين الذين اتبعوك، فإذا أخطؤوا فلا تغضب عليهم، ولا تنهرهم وتعنّفهم بالكلام، بل قم بتنبيههم بلطف ورقة.

هذه الآية درس عظيم لنا كلنا حتى نعلم بأن اللطافة مع المؤمنين هي أمر منه سبحانه، فكل من تولّى منصبًا قياديًا أو رئاسيًا... فلينتبه ليتخلّق بهذه الأخلاق أو فليترك منصبه لمن هو أهل لذلك.

لكن إن كنت لطيفًا رقيقًا، وكانت نوعية هؤلاء الناس لا تطيعك إلا بالعنف، فلا تتغير أنت، بل:

(فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ{216})
{فَإِنْ عَصَوْكَ}، فإن لم يفعل الذين أعلنوا إيمانهم ما تقوله لهم، لِنَقُلْ إنهم تركوا الشرك ولكنهم لم يصلّوا... أو لم يبرّوا والديهم... فلا تتغير أنت وتصير عنيفًا مخيفًا جبارًا حتى يطيعوك، لا.

{فَقُلْ} لهم أيها النبي(ع): {إِنِّي بَرِيءٌ}، فلا ارتباط ولا علاقة لي، {مِمَّا تَعْمَلُونَ}، أنا لا أوافق ولا أغطي أعمالكم السيئة، فإذا قام أحدكم بعمل سوء ولم ير منّي عنفًا عليه على ما فعله، فلا يفهم رضاي عن ذلك بل أعلن براءتي من عمله، أعلن بأن هذا العمل ليس صحيحًا ولست موافقًا عليه.

هذا يأخذنا إلى الآية ما قبل السابقة، لنرى الدين الإلهي كما هو يطبّقه النماذج الراقية من الأنبياء، ولا نراه بالقياس على نماذج من مؤمنين عاصين لأوامره تعالى في بعض أمورهم.

الكلام هنا يبدأ من محاولة جعل الناس من حوله (ع) مترقّين في إيمانهم وسلوكهم للدرجة العالية التي هو (ع) عليها، حيث يلفت سبحانه انتباه نبيّه أن لا يكون عنيفًا أو قاسيًا أو صلبًا... معهم إذا أساؤوا، ولا تقصد الآيات أن لا ينالوا عقابًا

على الأعمال التي عليها عقاب، بل تقصد أن لا يكون العنف والقساوة هي الأساس بالتعامل مع الذين يتعاطون معه، إذ يوكلهم بمهمات ولا ينفذونها أو يفشلون فيها أو لا يؤدّونها كما يجب... ويتعاطون مع الأمور بطريقة لا تليق بالذين هم محسوبون عليه (ع) كمساعدين وأعوان... وهكذا وصولًا إلى معاملته وتعاطيه (ع) مع بقية الناس، فليروا فيه خفضًا للجناح.

ترى هذا الفرق واضحًا بالانتباه لي أنا كشخص عادي بلا منصب ولا قيمة معنوية عند الناس، فمن معرفتي بقدري هذا في عيونهم أعلم أن كلامي ليس بقوة كلام قائد أو رئيس... فلن أكون جريئًا بتوجيه ملاحظات على سلوكيات الناس، وإن كنت جريئًا وفعلتها فأنا لا جناح لي، فلا تأثير لي عليهم... بينما الرسول القائد الرئيس... جناحه بقوة الملاحظة التي تعني أمرًا وقرارًا له أثر تنفيذي ومعنوي. طبعًا أُقَرِّبُ لك الصورة وإلا فمروحة مجال المتعاطين معه (ع) تبدأ من المتولّين لمهمات الشأن العام وصولًا إلى عامة الناس.

العنف والصلابة ممنوعان، هذا لا يعني السكوت على سوء ما يفعلونه، بل تعلن رفضك وبراءتك من سوء ما فعلوه من دون أن تَصْدُرَ منك تصرفات صلبة وعنيفة وقوية، كصراخ أو إهانة أو ضرب أو طرد...

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ{217})
في عملك في تبليغ رسالة ربك سبحانه وفي عموم أمورك: {تَوَكَّلْ}، فاعتقد واعتمد أنه تعالى يسيّر أمورك كما يجب، {عَلَى الْعَزِيزِ}، على المنفي عنه عموم الذِّلّة بأي شكل كان، من التَّبَعِيَّة والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، وتقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... وعمليًّا لو آمنوا كلّهم فلن ينفعوه تعالى، ولو كفروا كلّهم فلن يضرّوه تعالى، وهذا سببه أنه تعالى فائق القدرات والصفات، فإن توكّلت عليه تعالى فأنت متوكّل على أقوى قوّة في الدنيا.

{وَتَوَكَّلْ} على، {الرَّحِيمِ}، على الذي لديه عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، فأنت مؤمن وستكون مشمولاً بالعناية الخاصّة بالمؤمنين.

(الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ{218})
ربك العزيز الرحيم:

{الَّذِي يَرَاكَ}، الذي لديه صورة محدّدة لك، {حِينَ تَقُومُ}، وسياق الكلام من الآية التالية يشير بالقيام إلى: حين تقف لِتُصَلِّيَ وتَتَعَبَّدَ لربك سبحانه.

أنت تحت مراقبته تعالى وهو يقدّر لك عبادتك له وتقرّبك منه، فسيرعاك ويتكفلك لأنك مخلص له.

(وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ{219})
يرى سبحانه، {تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}، في الذين يقومون بحركات تعبّر عن أقصى درجات الاحترام والخضوع، عندما تقرّب رأسك من الأرض أو تلامس رأسك بالأرض، فتكون مع هذه المجموعة تسجد في نفس الوقت أو نفس المكان، ثم تسجد في وقت أو مكان آخر مع آخرين أو وحدك، عندما تتقلّب فتتحرك من مكان لمكان لتسجد له سبحانه مع الذين سجدوا عبر التاريخ ويسجدون في زمانك وما بعده، فسبحانه يراك ويقدّر لك ما تفعله ويعلم أنك تعبده وحده وتسجد له.

السجود هو أقصى تعبير عن الاحترام والخضوع، وبالنسبة لنا نحن البشر يكون عبر حني الرأس قريبًا من الأرض وصولاً إلى وضع الجبهة على الأرض، والقيام والسجود هما تعبيران حركيان جسديان عن إعلان الاحترام والخضوع الشديد، وتترافق هذه التعابير مع كلام التسبيح والحمد... فهي تعابير عبادية والصلاة تحوي هذه التعابير.

لاحظ كلمة {تَقَلُّبَكَ} إذ وردت في هذه السورة وفي العديد من آيات القرآن بمعنى: الانتقال بحالة من مكان إلى مكان آخر بحالة أخرى، وهنا {تَقَلُّبُ} النبي(ع) في الساجدين، تعبير عن سجوده(ع) في منزله وفي المسجد وفي أي مكان، والنظرة الإلهية له(ع) أنه ساجد في مجموعة الساجدين له، من الملائكة(ع) والجنّ والناس المؤمنين على مرّ التاريخ.

(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{220})
{إِنَّهُ}، سبحانه، {هُوَ السَّمِيعُ}، الذي يسمع كل شيء، فيسمعك حين تعبده.

ربك هو، {الْعَلِيمُ}، الذي لديه علم كامل وشامل بتفاصيل كل شيء، فيعلم أنك من داخلك ومن صميمك تعبده وتوحده.

أنت كمسلم مشحون بثقافة دينية ربما لا ترى معنىً عميقًا لهذه الأوصاف له تعالى لأنها روتينية متكررة على مسامعك، فننسى أننا من هذا النوع من الكلام القرآني صار لدينا مخزون ثقافي عن علمه تعالى بكل شيء، عن سمعه تعالى لكل شيء... للوهلة الأولى ربما لا تشعر من هذه الآية ما تشعر به عندما تسمع خبرًا جديدًا عليك، فضع في بالك أنها خبر جديد دائمًا لأننا كثيرًا ما ننسى أننا تحت مراقبته سبحانه.

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ{221})
حَسَنًا، هذا ما ننزله عليك أيها الرسول محمّد(ع) وتنقله للناس، نأمركم بالتوحيد وألّا تفعلوا السوء، وبالعقاب الشديد على السوء... هل هذه تعليمات شيطانية! فقل لمن "يتفلسف ويتذاكى" ويقول إنّ الشياطين تتنزّل عليك: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ}، هل أُخْبِرُكم بشيء خبره غير منتشر بينكم، على من تتنزّل الشياطين؟ الكائنات التي تقوم بعمل الضلال لنفسها وللآخرين، فتعمل على إضلال الناس عن دينه تعالى، هل تريدون فعلًا أن تعلموا على من تتنزّل الشياطين؟

(تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ{222})
الشياطين {تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ}، على كلّ شخص يقلب الحقيقة إلى الكذب، مثل السخيف الذي قال إنّ الشياطين أنزلت القرآن، رغم وضوح هذه الكذبة والعلم باستحالة حصولها، هناك شخص "كنموذج عن غيره" يقلب ويعكس حقيقة القرآن الربانية الطاهرة إلى شيطانية خبيثة، فالشياطين تتنزل عليه، وتوسوس له ليقول هذا الكلام عن القرآن والرسول(ع).

هنا سياق الكلام عن الأفاك يشير إلى الذي جعل مع الله تعالى إلهًا آخرَ، وكذّب بآياته ورسله وكتبه.

وتتنزّل الشياطين على كلّ أفّاك، {أَثِيمٍ}: الذي يعلم بفعله للسوء ورغم ذلك يفعله، ربما يقوم شخص ما وعن غير قصد بفعل السيئة، ولم يقصد معصيته تعالى، فهذا ليس أثيمًا، أمّا من يعلم بسوء اختراع وابتداع الآلهة، وسوء الزنا والقتل والسرقة والغش والشذوذ والترف... وسوء طرح الإشكالات السخيفة الكاذبة على الدين الإلهي، ورغم ذلك يطرح أفكاره، فهذا أثيم، فهذا يرتكب السوء وهو يعلم بسوء ما يفعله.

هاتان الصفتان "الأفاك الأثيم" ليستا من صفات محمّد صلوات الله تعالى عليه أبدًا بتاتًا.

ربطًا بما سبق وذكرته السورة من نماذج أقوام كانت عقيدتهم فاسدة وأفعالهم واضحة السوء ولا يناقش في فظاعة سوئها أي عاقل، ترى بوضوح من كلامهم المعارض لكلام الرسل ومن أفعالهم، ترى التطبيق العملي لتنزُّل الشياطين على هذه النوعية من الناس...

بقي شيء، في عصرنا ألّف أحدهم كتابًا سماه بالآيات الشيطانية، قرأته باللغة التي أُلِّف بها، ووجدت اختلافًا عن الترجمة للعربية، على أي حال، حيث خلط ذاك الكاتب بين دينه تعالى المعروض في هذا القرآن، وبين الروايات التي اختار منها أسوأ ما رووه ليعتمدها كتاريخ مَخْفِيٍّ لسيرة النبي محمّد(ع)، ودمج ذلك مع تفاسيرهم السيئة لبعض آيات القرآن، جانبٌ لا بأس به مما كتبه عن تاريخه(ع) كان منقولًا عن كتب مسمّاة أنها إسلامية، وجانب مما ذكره من فتاوى وتطبيقات المسلمين المجرمين كان صحيحًا لم يكذب فيه، وجانب ما ذكره عن أمور تتعلّق بالوحي ومحتوى القرآن كتفسير له، للأسف عليه روايات موجودة في الكتب المسمّاة إسلامية، حيث جمع زبالتنا في كتابه، وهو مَحْقُوقٌ وليس بريئًا، لأنَّ المادة القرآنية التي بين يديه أكثر من كافية لتريه دينه تعالى، والمادة التاريخية التي بين يديه معلومٌ للجميع الدسّ والكذب الذي فيها، وممارسات المسلمين وفتاوى علماء الدين الإجرامية معلومة، كان بالحَرِيِّ به انتقاد كل هذا، لكنه ركّز على السوء عن قصد، ومحا وتعامى وتغاضى عن الكمّ الهائل من الخير الموجود صريحًا في التاريخ والروايات والقرآن عن قصد.

لا عذر له فيما فعله، إذ لا هو ولا غيره معذورٌ في التغاضي والتعامي عن قرآنه تعالى ليلقوا باللوم على ما يسمّى بعلماء المسلمين، وعلى ما نقلوه في كتبهم من روايات وما قالوه في تفاسيرهم، فكل نفس بما كسبت رهينة.

هو وغيره مصداقٌ للآيات هنا فيمن تتنزّل عليهم الشياطين، لأنَّ الكلام الناقد لسوء ما في الروايات وكتب السيرة والتفاسير والفتاوى وممارسات المسلمين، كلام مطلوب سماعه، ومعلوم أنه لن يكون كلّه رصينًا، إذ إنَّ الانتقاد مثله مثل غيره في مواجهة ما ليس واضحًا أو مفهومًا، لا تتوقّع نقدًا يعرض أو يعارض شيئًا وسيكون صحيحًا لمجرد حسن النيّة من الناقد، لا، حيث تشوّه فهمنا للقرآن وتشوهت فتاوينا وممارساتنا لدرجة جعلت الانتقاد شاملًا تقريبًا لكل ما نؤمن ونشرّع، ومن هذا ترى كلا الطرفين الناقد والمنقود تائهين عن الحقّ والصلاح حتى مع تحلّيهما بحسن النيّة، فالبنية التحتية لإيماننا وتشريعاتنا تخلخلت بسبب ابتعادنا عن ظاهر واضح ما يقوله تعالى في قرآنٍ، وبسبب الكمّ الهائل من السذاجة والطفولية في تعاطينا التاريخي مع كلامه تعالى حتى تراكم لدينا كمٌّ هائلٌ من ثقافة وموروث يحتاج لرمي أكثره، لأن العلم لم يعد حكرًا على مفردات من الناس مدعومة ماليًّا من السلطات الحاكمة... وصار لدينا تخصصات وفروع علمية، ووصول سهل للمصادر.

لله الحمد أرى في كلام العديد من المثقفين المسلمين وعدد من علماء الدين، أرى تنوّرًا وبصيص أمل بتكوين نواة صلبة عقلانية مختلفة عن المحاولات البدائية الأولى لعلماء المسلمين في مناهجهم التي لا بد من تغييرها، بدون اتهامهم بأي سوء، هم مرحلة على قدر تطوّر علومهم، انتهت منذ زمن بعيد، والآن نعيش مخاض ولادة مرحلة علمية جديدة للدين الإلهي، وبعدما تتكوّن، سيأتي عليها زمن لتصير قديمة وبحاجة لإعادة النظر فيها...

هذه هي الواقعية، المشكلة ليست في النصّ القرآني، بل في حاجتنا لتطوير أنفسنا لنتماشى ونفهم النص القرآني، لذا لا نتهم كل العلماء السابقين بسوء النية، ولا بالسذاجة والطفولية، بعضهم كذلك، ولكن العديدين منهم كانوا أبناء مرحلتهم في كيفية فهمهم وتعاطيهم للأمور، وهذا عفا عنه الزمن، وصار دورنا نحن، وبعد مدّة سيعفو علينا الزمن ويأتي دور الآخرين.

(يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ{223})
الأفّاكون والآثمون، {يُلْقُونَ السَّمْعَ}، يتلقون من الشياطين ويسمعون منهم وسوسة الضلال، والأفاكون والآثمون، {أَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ}، وهم عادة في حياتهم العادية لا يصدقون في الكثير مما يقولونه، من جهة يسمعون لكلام الشياطين، ومن جهة ثانية هم أساسًا لا مشكلة عندهم في قول أمور كاذبة.

ننتبه لعمق هذا النوع من الكلام القرآني المنتشر في عموم السور، دائمًا يربط القرآن بين الفكر والنفسية والسلوك، وبين الإيمان والكفر، فمن اعتاد على الإجرام، على الاعتداء على الآخرين بالسرقة والغصب والنصب والقهر والجبروت... فهذا من الصعب بل شبه المستحيل إقناعه بالكلام ليتوقّف عن إجرامه، فهذا لن يتوقف عن ذلك إلا إذا خاف من قوّتك وما يمكن فعله به... ومثله من اعتاد على الكذب، فهذا حين يسمع الكلام الحقّ الصادق، لن يعجبه، ويعجبه الكلام الشيطاني الكاذب الذي يتماشى مع سلوكه المستند إلى فكره ونفسيته الفاسدين.

(وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ{224})
انتهينا من استحالة كون القرآن من كلام الشياطين أو من تنزيلهم، وأما عن الكلام السخيف بأنَّ القرآن هو نوع من الشعر اخترعه النبي محمد(ع)، فجوابه:

{وَالشُّعَرَاءُ}، والذين يصيغون المشاعر أو يحرّكون المشاعر بكلام له قافية ووزن موسيقي، هؤلاء، {يَتَّبِعُهُمُ}، يكون على ما يقولونه، {الْغَاوُونَ}، الذين يتصرفون بما يخالف الرشد، الذين رجحت شهوتهم وغريزتهم السيئة على عقلهم، حيث لا يهتمون لا بالخير ولا بمصالح الناس... بل يريدون التمتع باللحن الموسيقي والصورة الخيالية التي ترسمها معاني الأبيات الشعرية في مخيلتهم، هل يوصف الرسول(ع) بكلامه القرآني هذا بأنه من الشعراء؟ وأصلًا هل رسالته فيها غواية!

من السخافة تشبيه النبي(ع) والقرآن الذي يتلوه بالشاعر والقصائد. لأنَّ النبي(ع) يتلو كلامًا فيه معلومات عن الإله سبحانه وعمّا فعله وقرّره، وفيه قصص تذكرة عن الآخرة والعقاب والثواب، ويدعو الناس للتعقّل والتفكّر والصلاح... لذا إن الشخص الذي يستمع للنبي(ع) هو شخص يريد معرفة الحق والصلاح، ويريد معرفة الطريق إلى رضا ربه ومعرفة طريق الجنة، ومن المعلوم الفرق الواضح بين السامع للنبي(ع) وبين السامع لشاعر.

تذكّر دائمًا ما نقلته الآية 5 من سورة الأنبياء {بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ}، تهمة الشعر مجرد كلام فارغ يرمونه مثلما رموه (ع) بأنه ساحر، بل علّمه أحد ما هذا الكلام، بل مسحور مضروب في عقله، بل مجنون... قالوا كل شيء إلا الواضح أمامهم أنه كلام إلهي لأنهم لا يريدون تصديق ذلك لأنه لا يناسبهم. ومعلوم لك أنهم لا يقولون عن القرآن إنه شعر القصائد والقافية، بل يقصدون أن الشعر في أصله وأساسه ليس خبرًا حقيقيًا ينقل الواقع، بل كلامًا تصويريًا يحفّز ويثير الأذن بموسيقاه ويثير الصور التي يفعّلها في ذهن المستمع، ولا يعبّر عن واقع حقيقي، حتى لو نقل لنا الشاعر في قصيدته قصّة معركة جرت، فلن ينقلها مثل نشرة الأخبار، بل سينمقّها ويزوقها ويبالغ في تصوير مجريات الأحداث... وحتى لو سمعنا شعرًا بين شاعرين يتبارزان في الكلام، فكلاهما يقنعك أن معه حقًّا لشدّة حدّة لسانه على الشاعر الآخر... هذا ما يقصدونه بقولهم إنَّ القرآن شعر، لأنه بنظرهم هو صفصفة كلام خيالي موسيقي بليغ لا يعبّر عن أي حقيقة، ووظيفته المبالغة أو رسم صور خيالية، وعن هذا المعنى تتحدّث الآيات هنا ردًّا على كلامهم، لأنَّ كلام القرآن هداية، وكلام الشعراء التخيّلي والمبالغ فيه هو للغواية.

هناك أشعار فيها نصائح مفيدة للناس، فيها عبرة وعظة، ولكنها نادرة جدًا بالقياس مع بقية القصائد التي نقلت مشاعر الناس عن أحداث جرت معهم... هذه هي الصبغة العامّة للشعر، وبمقارنة الشعر مع القرآن سترى تداخلًا نادرًا جدًا جدًا بينهما، وأقصى ما جمعه الكافرون بالقرآن من تشابه بين شيء من القرآن مع شيء من الأشعار من وقت نزوله إلى عصرنا، لا يتجاوز خمس عشرة جملة قرآنية شبيهة بشكل ما بشعر عربي، وهذا من ستة آلاف جملة قرآنية بعيدة كل البعد عن كلام العرب الشعري. وهؤلاء الأفّاكون الكاذبون يرمون سمومهم ويقولون: هذه نماذج ويوجد مثلها الكثير في القرآن! وللتوسّع أكثر عن موضوع مقارنة الشعر بالقرآن راجع بداية سورة القمر في دراستنا هذه.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ{225})
أليس من الواضح سخافة تشبيه النبي(ع) عندما يتلو القرآن، بالشاعر عندما يتلو القصيدة! فلننظر في متن القرآن كله، ولننظر في قصائد الشعراء:

{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت. {أَنَّهُمْ}، الشعراء، {فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ}، فالشعراء في قصائدهم يهيمون فيسرحون في سرد أشعارهم من دون هدف واضح ومحدّد، وفي كل وادٍ في كل موضوع منفصل عن موضوع آخر يسرحون، حيث يبدأ بالقصيدة مثلًا من وادي العشق، وينتقل منه إلى وادي الفروسية، ومنه إلى وادي التشابيه الخيالية للجمال... مثلما نقول: سرح في وادي الخيال. وهذا التعبير بالوادي يعتبرونه مجازيًّا بناءً على قواعد البلاغة على أساس أن كلمة وادٍ تسمية لما بين جبلين، ولكنه في أصل معاني الكلمات لغويًّا على الوصفية فهو حقيقي، فما بين جبلين وصفه وادٍ، وما بين الأفكار والتخيلات وصفه وادٍ.

هذا وصف حال الشعراء بالهيام بالسرحان انتقالًا بلا عقلانية في أودية الخيال والتصاوير التخيلية والمبالغة... أما القرآن فكلامه عن شيء واحد أساسي: الحقّ والباطل، وعن نتيجة الكفر أو الإيمان وعمل الصالحات. فما وجه الشبه بين قصائد شاعر والقرآن!

(وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ{226})
{وَأَنَّهُمْ}، الشعراء مشهورون في أشعارهم بأنهم، {يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ}، حيث يقولون إنهم سيقتلون الصناديد الأشداء إن منعوهم عن حبيبتهم... ولكن كل هذا خيال ولا يفعلون منه أي شيء...

بعبارة أبسط، أليس جمال الشعر بالمبالغة في تصوير المشاهد الخيالية! فكيف يشبّهون محتوى القرآن الواقعي العقلاني بالقصائد الخيالية! وخذ مثلًا تهديده تعالى بالعقاب على الكفر، والنماذج الملموسة المشهورة المعلومة عبر التاريخ

لأقوام حصدهم العذاب الإلهي، فهل يقول تعالى في هذا القرآن ما لن يفعله؟! فعلى هذا المعنى جاءت أقوال الكافرين المستعجلين بالعذاب لأنهم يعتبرون تهديد القرآن لهم كلامًا فارغًا.

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ{227}
بما أن الآيات وضّحت الفرق بين القرآن والشعر، وبين طبيعة الشاعر وطبيعة الرسول محمد(ع)، فكان لابد أن تعطي السورة الشعراء المؤمنين حقّهم ولا تصنفهم مع شعراء الكفار، فالشعراء سيئون:

{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا}، إلا الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بدينه سبحانه، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، فقاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، حيث خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنةً جيدةً، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، وعمليًّا هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادةً نفسّر "عملوا الصالحات" على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إنهم صلّوا وصاموا... وهذا عمليًّا صحيح، ولكن بالأصل فالكلام أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحةً جيدةً.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عمومًا وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائمًا أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به.

هذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعًا ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبًّا لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلًا سيّء" فسيكون في الحقيقة اختراعًا من البشر لصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمرًا إلهيًّا.

بما أنهم شعراء فهم يؤلفون القصائد، وبما أنهم شعراء مؤمنون فهم: {وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا}، ففي أشعارهم استحضروه تعالى، وحمدوه ومدحوه سبحانه...

وهم، {وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا}، من الواضح أن الكفّار ظلمًا وبلا حقّ قالوا أشعارًا مضادة للمؤمنين وللدين الإلهي، فقام الشعراء المؤمنون بالانتصار أي بتحقيق ما يريدونه بالردّ على شعر الكافرين بالشعر أيضًا.

يختتم سبحانه السورة بختام مرعب للظالمين:

{وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا}، سيعلم الذين لم يكن معهم حقّ، إذْ ظلمًا كفروا بدين إلهي واضح، ومن الواضح عمومية هذا التهديد لكل أنواع الظلم التي يقوم بها بعض الناس ضد عموم المؤمنين، سواء عبر الشعر أو المعاداة أو الشتم أو القتل أو التهجير... أو عبر فعل السيئات... فسيعلم هؤلاء الظالمون، {أَيَّ مُنقَلَبٍ}، أي حال أو مكان نهائي، {يَنقَلِبُونَ}، فهم سينقلبون وسيتحوّلون من هذه الدنيا إلى جهنم وبئس المصير.

ما هو الآن خبر لا يصدّقونه عن انقلابهم من الدنيا إلى عذاب الآخرة، فسيأتي زمان سيكون علمًا يقينيًّا لهم، وما أسوأه من منقلب لهم.

غالب استعمال القرآن لكلمة ظلم ومشتقاتها جاء على معناها الأساسي لعموم الذي لم يكن معه حقّ ولم يكن منصفًا، وغالبًا استعملها القرآن للكلام عن الذين ظلمًا كفروا بدينه تعالى الواضح أنه حقّ، فلو كان دينه تعالى فاسدًا أو غير واضح أنه حقّ وصلاح، لكان معهم حق بالكفر به، ولكنهم ظالمون، ظلموا أنفسهم، فلم يكن معهم حقّ ولم يكونوا منصفين حين كفروا.

سورة النمل (27) ص 377
محور السورة حول سهولة الإيمان به تعالى لمن لم يتزيّن له السوء حَسَناً ولم يَعْمَهْ، لأنَّ القرآن أكثر من كافٍ لذلك، ومثل القرآن أيضاً رسله تعالى بنهيهم عن السوء والفساد والدعوة لتوحيده تعالى، كانوا ينقلون ما هو واضح أنه حقّ، حيث ضربت السورة نماذج عناد بالكفر والإصرار على السوء، ونماذج سهولة الإيمان لسليمان(ع) والملكة بلقيس...

بعدها دخلت في الكلام عن آيات الخلق للكائنات والظواهر التي نشرها تعالى لنتعرّف عليه ونؤمن به بسهولة.

بدايةُ السورة عمّن التزم بهذا القرآن الإلهي ويقابله العمه برؤية السيّء المتزين حَسَناً، وبالتالي رفضه الإيمان بهذا القرآن، الآيةِ الواضحة أنها من مصدر إلهي، بعدها دخلت السورة على تسع آيات أتت فرعون وقومه فجحدوها واسْتَيْقَنَتْها أنفسهم، كَشَبَهِ التمام مع من جحد إلهية مصدر هذا القرآن، بعدها قارنت بين القدرات التي أتيحت لفرعون وقومه مع ما تفضّل به تعالى على عبده سليمان(ع) الذي ازداد إيماناً من القدرات المتاحة له، بعدها عَرَّجَتْ على ملكة سبأ التي رأت القدرات التي أتاحها تعالى لنبيّه سليمان(ع) ورغم ذلك كان مؤمناً، فأسلمت، كشبه بين ما عُرِضَ على فرعون من آيات إلهية وجحدها.

ثم انتقلت لِتِسْعَةِ رَهْطٍ يفسدون ووصل بهم الإجرام إلى القرار بقتل داعية إصلاحي لا يقول لهم إلا ما فيه خيرهم ومصلحتهم.

من هذا الكلام ترى وضوحاً في محورية عموم الكلام الإلهي المنقول عبر رسله للناس، فهم مصلحون، والمعارضون سيّئون...

بعدها انتقلت إلى نموذج قوم يقومون بالفاحشة من نوعها الأسوأ بالشذوذ، والتي لا يناقش عاقل رزين بسوئها، وإن ناقش فاسد قلب بذلك، فهل سيناقش في سوء اعتدائهم جنسيّاً على الغرباء؟ نتيجةُ القصّة كانت أنهم قرروا طرد النبي وآله من بينهم لأنه يحاول إعادتهم إلى رشدهم...

بعدها انتقلت للآيات الإلهية الواضحة من الْخِلْقَةِ والظواهر فينا وفي بيئتنا، مِنْ بعد بيان نماذج عن قدرته الفائقة سبحانه انتقلت للكلام عن بعثه تعالى لنا في الآخرة، مذكّرة بقدراته تعالى على بعثنا والتي نرى نماذج عن قدرته في خلق السماوات والأرض، ومذكّرة بنماذج ملموسة هنا في الدنيا عبر عذابه تعالى لأقوام مشهورٍ نُزُولُ العذاب عليهم، ولهم آثار مرئية لمساكنهم أو مسموعة من الناس أو مذكورة في الكتب.

أكملت عن بعض مشاهد الآخرة لترينا ماذا سنواجه هناك كنتيجة لاختياراتنا فيما فعلناه هنا في الدنيا.

عادت لتختم بما بدأت به بلفت الانتباه لهذا القرآن كآية إلهية واضحة جداً لمن يريد أن يهتدي.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ{1})
هذه حروفٌ نتهجّاها مقطّعةً هكذا: طا سين.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوَّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوِّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها

أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

نرجع للآية، {طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ}، هذان الحرفان {طس} بما لهما من علاقة بالكتاب الرئيسي فهما من آيات القرآن، وهما من الأمور المميزة القابلة للقراءة، {وَكِتَابٍ مُبِينٍ}، كتاب واضح، من حيث إمكانية قراءته بلغة من لغات البشر، ومن حيث وضوح معناه بعد دراسته "لمن كان قلبه سليماً"، من حيث خلوّه من الكذب أو الأخطاء أو المبالغة أو التعارض...

ما السبب من تحويل المعلومات من الكتاب الرئيسي لقرآن، لشيء يمكن قراءته؟:

(هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ{2})
القرآن "المقروء" بأحرف اللغة العربية هو، {هُدًى}، ففيه الأشياء الصحيحة التي تدل على الغايات الصحيحة، حيث يعرض بوضوح المعلومات الصحيحة عنه تعالى وعن أفعاله وقراراته وهو ما نسمّيه بالعقيدة الصحيحة ويرينا الخير لنتعلّم كيف نتصرف بصلاح في حياتنا، ويبيّن السيئات التي يجب امتناعنا عنها حتى نكون على الشيء الصحيح الذي يوصلنا إلى مرضاته تعالى وإلى الجنّة.

القرآن أيضاً، {بُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}، فهو يحمل الأخبار السارة للمعتقدين الملتزمين بالدين الإلهي، ويبشرهم بخاتمة سعيدة وهي دخول الجنة في الآخرة لأنهم يطبقون ما ورد في القرآن، ومختصر أساسيات القرآن ستقولها الآية التالية،

لكن قبل أن نكمل، لِنَقُلْ إنَّ القرآن هدانا للأمور الجيّدة، هل مدى تلك الأمور الجيدة محصور بحياتنا الدنيا؟ هل يعرض القرآن ناموساً يفيدنا في تنظيم حياتنا هنا في الدنيا بالعدل والإنصاف بيننا وحفظ حقوقنا فقط؟ ونكون سعداء لأن العدل والأمان منتشران؟ لا، لأنَّ مدى هدايته أبعد بكثير، حيث يهدي إلى الآخرة الصحيحة المرغوبة، وفيه البشرى بجنّة الخلد لمن آمن وعمل صالحاً.

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ{3})
باختصار شديد بتركيز على نماذج تفريعية من أساسيات الدين الإلهي: {الْقُرْآنُ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}، {الَّذِينَ يُقِيمُونَ}، لا يعطلون ولا يهملون، {الصَّلَاةَ}، الإقبال والتوجه، والكلام عن التوجّه إليه تعالى بإعلان الإيمان به وبالمديح والاستغفار... وعلى مرّ التاريخ وقبل نزول هذا القرآن أوجب سبحانه على الناس القيام بحركات وكلمات في أوقات محدّدة، وهكذا صارت كلمة صلاة مصطلحا يُشير لما نسمّيه بالصلوات الخمس اليومية الواجبة.

{وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ}، على معنى أنهم يَجْعَلُونَهَا عند من يوزعها أو يُوَزِّعُونَهَا هم بحسب ما أمر به تعالى، وكلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، حيث تشير لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكية، مال زاك، طعام زاك..."، ومنذ القدم صارت مصطلحا دينيا يشير إلى دفع نسبة محدّدة من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ...}، أي من الأموال النقدية

والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، ويدفع منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة {...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...}، وتكون نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

{وَهُم بِالْآخِرَةِ}، بالحياة التي تأتي في الآخر من بعد هذه الدنيا الأولى، {هُمْ يُوقِنُونَ}، حيث لديهم اعتقاد مطابق للحق والواقع، وهم متأكدون من حياة أخرى بعد الموت وحساب وجزاء بالجنة أو النار... وهذه أمور حقيقية ستحصل فعلا، ولذلك هم يصلّون ويزكّون حتى يجازيهم سبحانه بالحسنات في يوم القيامة، وبعدها يدخلون إلى الجنة.

الآية تطرح أساسيات خلاصة الالتزام الديني، بالصلاة كعمل بين الفرد وربّه والزكاة كعمل له علاقة بالناس، كما أن أساس العقيدة هو التوحيد، علما أن بقية العقائد في غاية الأهمية أيضا، كالإيمان بأسمائه الحسنى سبحانه وبالرسل والكتب الإلهية والملائكة (ع)... ولكن الفرق واضح بين شدّة أهمية التوحيد وبقية العقائد، كذلك الصلاة والزكاة، لأنهما من أهم نماذج السلوك الديني، وبقية التشريعات مثل برّ الوالدين والحج والصوم والجهاد... أيضا مهمّة وعليها حساب عسير ولكن نلاحظ أن القرآن أعطى الصلاة والزكاة "وبرّ الوالدين" أهمية أكبر من الواجبات الأخرى لأنهما أبرز نَمُوذَجَيْنِ يستندان على الأساس الدافع لتنفيذ بقية الواجبات وترك المحرمات.

من ناحية ثانية لاحظنا أن القرآن فيما يعرضه علينا يُريدنا دائما أن نلتفت لكون دينه تعالى استفادة لنا، فالصلاة بشكل ما هي سلوك شخصي خاص بي لا يؤثّر عليك إن لم أفعله، ولكن زكاتي تؤثّر بك إن كنت تحتاج للمساعدة، علما أن الصلاة بالمفهوم القرآني ليست عملا شخصيا لا أثر له على الآخرين، فالصلاة الحقيقية تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهما بطبيعة الحال لهما أثر على الآخرين.

على كلّ حال الإيمان بالقرآن والصلاة والزكاة، أمور تتضمّن التوحيد والإيمان بالرسل والكتب... ويبقى أن تضيء الآية على الإيمان بالآخرة كسبب دافع لنلتزم بالدين الإلهي، لننال الثواب وَنَنْجُوَ من العقاب.

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُون{4})
{إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}، لا يعتقدون، {بِالْآخِرَةِ}، بالحياة التي في الآخر بعد الحياة الدنيا، {زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ}، فأعمالهم سيئة لأنهم لا يصلّون ولا يزكّون، ومشركون وناكرون للقرآن... لذلك جعلناهم يرون أعمالهم السيئة حسنة جميلة ولكنها فقط مزيّنة بينما في الحقيقة هي سيئة، {فَهُمْ يَعْمَهُونَ}، حيث لا يثبتون على رأي ويمشون من دون هدى، وهذا وصف عملي لمن لا يميّز بين السوء والصلاح في فكره وتصرفاته.

الآية هنا محور سورتنا هذه والتي سيكون كلامها متضمنا لنماذج نالوا زينة الدنيا من العيار الثقيل، حيث بعضهم أعمته وكفر، وبعضهم علّمته أنها نعمة منه تعالى...

كثيرا ما كرّر القرآن أن إنكار بعض الناس للآخرة هو سبب رئيسي للكفر بدينه تعالى، فهم لا يخافون الحساب والعقاب لأنهم لا يؤمنون بحصوله أصلا ولذلك يفعلون ما يَحْلُو لهم.

تذكّر دائما ما كرّره القرآن عن خلقه تعالى لنا بحيث إذا تعلّقنا بهوانا وانغمسنا فيه فإننا لن نرى ما يحرّمه تعالى سيئًا، وسينطبع قلبنا على حبّ السيئ الذي نكرّر فعله... وهكذا يكون الذي صمّمنا زيّن لنا أعمالنا السيئة لأنه تعالى صمّمنا هكذا، طبعا من بقي على سلامة قلبه كما خلقه تعالى ولم يتبع هواه السيئ فهذا لن يرى الأعمال السيئة حسنة.

من ناحية ثانية، كما يقوم البعض من الناس بتشجيع الآخرين على السيئات، كذلك يوجد كائنات من الجنّ يمكنها الوسوسة للناس، وأيضا سبحانه ترك هذا يحصل، بل من الأصل صمّمنا سبحانه وصمّم بيئتنا بهذا الشكل، وهكذا يكون تعالى زيّن للكافرين بالآخرة أعمالهم حين صمّم بيئتهم بحيث تجعلهم يتشجعون بالوسوسة على السيئات إن اتّبعوا

هواهم... وبالعكس تماما يوجد في بيئتنا من يقوم بِنَهْيِنَا عن السيئات وتشجيعنا على الإيمان والصالحات، ونحن مخيّرون بين سلوك طريق يوصلنا لنرى السيئ حسنا وبين البقاء على الهدى وكره السيئ.

لتبسيط الفكرة تصوّر نفسك أنت صمّمت وخلقت كائنات، وجعلتها تجوع وأتحت لها في بيئتها الطعام، فأنت رزقتها وأنت أطعمتها، وقبل ذلك أنت أحييتها وأمتها... ولو جعلت فيها قابلية تمييز الخير من الشر ومنحتها حرية الإرادة والاختيار، وجعلتها بحيث إذا قرّرت اتباع السوء أن ينحفر ذلك في فكرها ونفسيتها، فأنت أضللتها على نفس معنى أنت أطعمتها.

سبحانه لا يختار بعض الأشخاص ليزيّن لهم أعمالهم السيئة، لا، بل القرار متروك لنا، حيث سبحانه منحنا حرية الإرادة والاختيار، ونحن إمّا نختار هداه سبحانه المتماشي مع قلب يرينا بوضوح السيئ والجيد من الفكر والنفسية والسلوكيات، وإمّا نختار الضلال فتصير الأمور السيئة مزينة لنا وتبدو جميلة حسنة. وخذ مثلا الغشّ الذي نكسب منه المال، فهذا سيئ، ولكن يتزيّن لنا الغشّ بسبب المال الناتج عنه فنرى الغشّ جيدا. لذلك لم يختر سبحانه شخصا ما وزيّن له الغشّ، بل كلّنا مخلوقون مع قدرات وفي بيئة بحيث باختيارنا وإرادتنا يتزيّن لنا الغشّ لنراه حسنا إن أعمينا قلبنا عن سوئه الواضح...

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ{5})
{أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ}، الذين تزيّنت لهم الأعمال السيئة سيتعرضون لضرر سيئ لن يكون سهلا ولن يتمكنوا من تحمّله.

{وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ}، في الحياة التي ستأتي في الآخر بعد انتهاء الحياة الدنيا الأولى، {هُمُ الْأَخْسَرُونَ}، هم الأشد خسارة، فسيفقدون أمورا لها أهمية كبيرة، ولن يدخلوا الجنة، وبدلا منها سيتعذبون في النار.

(وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ{6})
هذه المعلومات التي نقولها لك على شكل قرآن، ما مصدرها؟

{وَإِنَّكَ}، أيها النبي (ع)، {لَتُلَقَّى}، تَسْتَلِمُ وينزل عليك، {الْقُرْآنَ}، ما يمكن قراءته، {مِن لَّدُنْ}، من عند، كما نقول نحن: أنا أتحدث معك شخصيا وبنفسي. ومع الفارق في "التعبير والمعنى" كَأَنَّ الآية تقول: ربّك سبحانه بنفسه يتابع ويعتني بنزول القرآن عليك، فلا الملائكة ولا الجنّ ولا الشياطين ولا أي كائنات أخرى... لهم أي علاقة بما ينزل عليك وفقط سبحانه عبر الملائكة (ع) ينزل عليك ما قرّره من قرآن.

الذي تتلقى منه القرآن هو، {حَكِيمٍ}، وكلمة حكمة ومشتقاتها تشير لعموم ضبط الشيء على المطلوب: على الصوابية على الحقّ... وعلى نفس المعنى الأساسي نقول: أحكم الوثاق، حكم بالعدل، حكومة على الناس... وتفسير الحكمة بالأهداف والغايات السامية هو من تبعات تطبيق صوابية الحقّ، ووصفه تعالى بالحكيم يشير لصوابية نظرته في الأمور وأن قراراته وأفعاله كلها على الصوابية، حيث لا يعبث ولا يلعب لِأَنَّ قراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول بأن أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، إذ لا يفعل لغاية له سبحانه. وبالتالي المعلومات التي يتحدث عنها القرآن صادرة من حكيم وَهِيَ حقّ وخير.

الذي تتلقى منه القرآن هو، {عَلِيمٍ}، حيث لديه علم شامل تام بكل الأشياء وبكل تفاصيلها، وبالتالي هذه المعلومات القرآنية صادرة من عليم، وليست صادرة عمّن غاب عن علمه شيء ما له أهمية وعلاقة بالمواضيع التي يطرحها القرآن. مَثَلًا كلامه عن الإله عن علم لأنه هو الإله... وإليك منه المعلومات التالية:

(إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ{7})
من هنا تبدأ السورة بنموذج فرعون وقومه الذين تزيّنت لهم الدنيا فأعماهم الخير الذي هم فيه فكفروا...

من القرآن تعلم أن النبي موسى (ع) تَزَوَّجَ من مدين وقضى فيها سنين... وهكذا ترى الكلام هنا عن مسيره مع زوجته وأولاده من قرية مدين باتجاه لم يذكره القرآن مباشرة، وفي التوراة ذكروا أنه (ع) كان متجها إلى مصر، وهذا ما تفهمه من فحوى القرآن أيضا، وَاقْتَرَحُوا مكانين في الأردن وآخر في طرف السعودية لناحية البحر الأحمر كمرشحين لمكان مدينة مدين، والمسير الإجباري من هذه النواحي نحو مصر يمرّ بمنطقة سيناء، وبالتحديد للطرف البحري لناحية البحر المتوسط من سيناء لأن قناة السويس لم تكن محفورة بعد وكان الممر برّا من طرف البحر الأحمر وبين البحر المتوسط... وَذَكَرَ القرآن أنه (ع) عندما وصل إلى وادي طوى، وخيّم الليل، وكان الجو باردا، ولم يكن النبي (ع) يعرف مكانه بالضبط، وشاهد النبي (ع) ضوءا من بعيد من جانب الجبل... وستخبرنا الآيات ماذا حدث بعدها:

{إِذْ قَالَ} النبي موسى (ع) لأهله، "لزوجته وأولاده كما هو مشهور":

{إِنِّي آنَسْتُ نَارًا}، حصل لدي إحساس بأني أرى نارا من بعيد، {سَآتِيكُم مِّنْهَا}، من مكان النار، {بِخَبَرٍ}، سَأَذْهَبُ إليها ومن الناس الذين أشعلوا هذه النار سآتيكم بخبر لنعرف أين نحن بالضبط، ونتأكد من طريقنا، {أَوْ آتِيكُم}، أُحْضِرُ لكم، {بِشِهَابٍ}، بما يشهب، بشعلة نار، {قَبَسٍ}، أقتبسها وَآخُذُهَا من تلك النار، لِأُحْضِرَ لكم خشبة مشتعلة من الموقد، {لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ}، لِنُشْعِلَ لنا من تلك الشعلة نارا وتصطلون "فننصلي" فتقعدون أمامها لتشعروا بالدفء، بِتَرْكِي لكم وذهابي إلى النار فمن المفروض ومن المتوقّع على الأقل أن أحضر نارا للتدفئة، هذا إن لم يكن الجماعة بقرب النار يعرفون الطريق الصحيح.

الآية تصوّر لنا شخصا عاديا كان يمشي في الصحراء مع أهله، وظنّ أنه تاه، وَشَاهَدَ نارا من بعيد، فَتَوَقَّعَ أنهم جماعة أشعلوا نارا للتدفئة... وهو لا يتوقع أن يحدث معه أي شيء غير عادي.

تَتَذَكَّرُ دائما أنه تعالى لم ينقل المحاورات والكلام بالحرف بترجمته إلى العربية، بل نقله بالمعنى الذي قصده القائل، وفي كل مرة يذكر لنا صياغة ما قيل بما يناسب سياق الكلام، حَيْثُ إِنَّ نَفْسَ الحادثة هنا منقولة بِعِبَارَاتٍ أخرى في سور أخرى، ولا فرق بينها سوى تعابير مختلفة.

(فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{8})
{فَلَمَّا جَاءَهَا}، عندما وصل النبي موسى(ع) إلى حيث النار، {نُودِيَ}، سَمِعَ كلاما موجّها إليه، وَكَلَّمَهُ ربنا سبحانه:

{أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ}، وأقرب شيء للفهم هو الشجرة التي تصدر منها النار، وتفهم ذلك من الآية 30 من سورة القصص "{فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ ... مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ...}"، حَيْثُ إِنَّ النار محيطة بها فهي في النار وهي مباركة، وَوَصَفَ القرآن شجرة الزيتون بالبركة كما تقرأ في الآية 35 من سورة النور "{... يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ...}"، وغير معلوم من القرآن نوع الشجرة التي عبرها تكلّم تعالى مع نبيّه موسى(ع)، وحاليا يوجد مَبْنًى قديم في جبال سيناء وفيه شجرة من نوع العليقة ويقولون إِنَّهَا التي تكلّم تعالى عبرها مع نبيه موسى(ع)، وبعضهم الآخر يقول إِنَّهَا المكان الذي نزلت فيه التوراة... وكل هذا على عهدة القائلين.

وَبُورِكَ {مَنْ حَوْلَهَا}، وَمُبَارَكَةُ البقعة التي حول النار كما وصفتها الآية 30 من سورة القصص "{فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ...}".

{وَسُبْحَانَ اللَّهِ}، أَيُّ صفة سيئة ليست موجودة في صاحب الاسم المميّز المحدّد الله عزّ وجلّ، بل كل صفاته حسنة وكاملة، والذي يتكلم عبر هذه النار هو، {رَبِّ الْعَالَمِينَ}، المسؤول من مستوى إلهي عن كلّ الناس.

أَبْسَطُ ما يخطر بالبال من قوله تعالى "{وَسُبْحَانَ اللَّهِ...}" أنه تعريف أوّلي بكل صفاته تعالى، مِنْ ناحية هو منزّه عن أي صفة ناقصة أو معيبة، وهو المسؤول الواحد الأحد من مستوى إلهي عن كل الناس.

(يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{9})
قال سبحانه:

{يَا مُوسَىٰ}، {إِنَّهُ}، من يتكلم معك الآن، {أَنَا اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... مما يعني أن أقوى قوة في الوجود تتحدث معك.

{الْحَكِيمُ}، الذي يرى ويفعل الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب ولا يلهو... وَلَا يَقُومُ بأعمال سيئة.

إلى هنا نقلت لنا الآيات المفاجأة لشخص كان منذ قليل شخصا عاديا تائها في الصحراء، ولكنه وفي لحظات تغيّرت كل حياته، حَيْثُ تكلم معه ربنا سبحانه، وكلّفه بمهمة إخراج بني إسرائيل من مصر من تحت حكم فِرْعَوْنَ الظالم لهم، وَسَنُلَاحِظُ أَنَّ الآيات لن تذكر شيئا عن تلك المهمة، بل ركّزت على وضوح الآيات الإلهية التي من المفروض أن تجعل من يحتك بها يؤمن، كشبه التمام مع هذا القرآن الواضح أنه من مصدر إلهي، ورغم ذلك هُنَاكَ من تزيّن له سوء عمله، وَعَمِهَ "{يَعْمَهُونَ}" عن آياته تعالى رغم رؤيته لها.

نَتَذَكَّرُ دائما من القرآن أن الله عزّ وجلّ لا يتكلم مع أي مخلوق كان إلّا وحيا أو من وراء حجاب كما تقرأ من الآية 51 من سورة الشورى "{وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}"، ولا يتكلّم سبحانه مباشرة حتى مع الملائكة (ع) كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال "{إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ...}"، ليس لأنه تعالى لا يريد التواصل مع الكائنات مباشرة بل لأنه من المستحيل حصول التواصل المباشر بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وبجمع ما ورد في الآية السابقة مع ما جاء في سورة القصص الآية 30 "{فَلَمَّآ أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ...}"، نفهم بصراحة أن الكلام حصل مع النبي موسى(ع) عبر الشجرة، وَنَفْهَمُ أَنَّهُ تعالى خَلَقَ الصوت في النار التي تصدر عن الشجرة، في ألسنة لهبها، أو في الهواء الصادر منها، أو... حَيْثُ ليس لدينا تفاصيل عن آلية حصول ذلك، وما يبدو جليا أنه تعالى لم يوكل إلى ملائكته(ع) إِصْدَارَ الكلام، ولا نقله، بل سبحانه مباشرة أصدر ما يريد قوله عبر صوت يخرج من الشجرة... إلى آذان النبي موسى(ع)، وهذا فيه دلالة واضحة على علو القيمة التي أعطاها تعالى لعبده موسى(ع).

(وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ{10})
وقال سبحانه لعبده موسى(ع) الذي صار منذ هذه اللحظة موظفاً كرسول:

{وَأَلْقِ}، وارْمِ على الأرض، {عَصَاكَ}، الخشبة الرفيعة الطويلة التي تحملها في يدك، رماها النبي(ع)، {فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ}، صارت لديه (ع) صورة محددة لها وهي تتحرك بسرعة وتتململ، حيث صارت حية، {كَأَنَّهَا جَانٌّ}، كأنها من الجن، عندها، {وَلَّى}، وترك المكان، {مُدْبِراً}، وأعطاها (ع) ظهره وركض، {وَلَمْ يُعَقِّبْ}، ولم يلتفت للخلف من خوفه من تلك الحية.

نلاحظ أننا لا نفهم لماذا ظنها النبي(ع) أنها من الجن، فلا علم لنا بارتباط الجن بمثل شيء كهذا، ولذلك قالوا في التفاسير إنَّ الجان كلمة استعملت عند العرب بمعنى الحية الصغيرة، وهذا القول متداول بين المفسرين وبدأ بينهم، ولا يبدو إلا أنه تخمين منهم، وذلك كثير ومنتشر في تفاسيرهم... ومضافاً إليه، لا معنى لهربه(ع) بهذا الشكل من حية صغيرة! استعمل القرآن كلمة جان للجن في سورة الحجر الآية 27 كمقابل لكلمة إنس للإنسان {وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ}، وهنا هي نفس الكلمة، وسنلتزم بنفس المعنى، حتى لو لم ندْرِ لماذا خطر ببال النبي(ع) أنها جني، فالآية تنقل لنا أول ما خطر ببال النبي(ع)، وهذا لا يعني أنها تؤيد ما خطر على باله، بل أخبرته أنها فعلاً تحولت لحية حقيقية وليست جنياً تمثل بشكل حية كما تخيل.

ناداه سبحانه:

{يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ}، لا تشعر بحصول ضرر عليك لا يمكنك تجنبه، {إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ}، فعندما يحصل شيء عندي وأنا أمرت بحصوله، كما أمرت الآن العصا بالتحول لحية، فيجب ألا تخاف من أي ضرر أو خطر يحصل لك، فهذه الحية لن تؤذيك، وعينتك رسولاً لي، فأنت رسول الإله الأحد، فلا داعي للخوف من أي خطر.

مما سيرد في السورة ستلاحظ أن تحول العصا لحية بأمر إلهي هو خبر نصدقه كمؤمنين لأن الله تعالى أخبرنا بحصوله، وينكره الكافرون لأنهم ينكرون القرآن ككتاب إلهي، بل لو دققت في كلامهم ستراهم يقولون: إما تحولت العصا لحية لأن موسى (ع) كان ساحراً بارعاً، وإما أن القصة كلها كذب بكذب. وتلاحظ أنَّ القرآن سينقل لنا عمن جرى تحويل العصا أمامهم لحية، واليد لبياض وسبع آيات أخرى، وستلاحظ أنهم شهدوا الحادثة ولن ينكروا حدوثها، لأنها حصلت أمامهم وليست خبراً لهم، ورغم ذلك اتهموا النبي موسى(ع) بأنه ساحر، فليست المشكلة في حصول الآية أمامنا بل المشكلة في العقلية، فها القرآن آية إلهية أمامنا وبين أيدينا وهناك من يقول بأنه كذب وليس من مصدر إلهي!

ما قيل عن أن الثعبان هو الحية الكبيرة، ووصفها بالجان الوارد في الآية هنا وفي الآية 31 من سورة القصص {وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ} يشير لحية صغيرة، على أساس أن نفس العصا تغير حجم الحية التي تحولت له، فهو كلام تخميني لم أجد له مصدراً في الكلام قديماً لاستعمال العرب لكلمتي ثعبان وجان، فالأرجح الواضح من الكلام القرآني أن العصا تحولت دائماً إلى حية بنفس حجم العصا، والاستنتاجات لمعاني الآيات بناءً على معانيهم الافتراضية لكلمات حية وثعبان وجان يبدو لطيفاً ولكنه ليس صحيحاً، فكلمة جان ليست من أسماء أو صفات الحيات.

في أشعار العرب قبل الإسلام "فيما لدي من مصادر" استعمال كثير لكلمتي أفعى وحية واستعمال نادر لكلمة ثعبان، ولا يظهر منه أي تمييز لهذا الوصف أو التسمية عن الحية والأفعى إلا من ناحية تذكير اللفظ وتأنيثه، وبتحليل الشعر القديم وكلام الفراهيدي في كتاب العين، وكلام تاج العروس ستجد أن العرب القدماء يقصدون بالأفعى اسماً لنوع من الحيات، وسيبدو لك بوضوح أنها تسمية غير متفق عليها بين العرب، فهناك العديد من أنواع الحيات، وكل جماعة منهم تقصد بالأفعى نوعاً ما... ويبدو أن الغالبية يسمون بالثعبان الحية الطويلة غير السامة المشهورة بأكلها للفئران، وتعابيرهم عنها أنها ضخمة فهي على مقاييس حيات المنطقة العربية التي يعرفونها، ولا يقصدون الضخامة من قياس حية الأناكوندا التي لا يعرفونها ولا تتواجد في مناطقنا.

بناءً عليه، لم يستعمل القرآن كلمة أفعى لأن العرب استعملوها بضبابية كاسم لنوع من الحيات، واستعمل كلمة ثعبان لترى أن طول العصا هو نفسه صار طول الحية.

(إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ{11})
لا يخاف لديه تعالى المرسلون، ليست قاعدة عامة، فالرسول الإلهي ليس فوق المسطرة وإذا أخطأ يتحاسب: فلا يخاف... {إِلَّا مَن ظَلَمَ}، إلا من قام بعمل لم يكن معه حقٌّ فيه، وفعل سوءاً فهذا يجب أن يخاف من عقابه تعالى حتى لو كان رسولاً فالعقاب سيطاله. ونلاحظ أنَّ الآية اختصرت الجملة ولم تكملها لأنها واضحة فقالت: {إِلَّا مَن ظَلَمَ}. والتكملة نعرفها وهي: فيجب أن يخاف.

{ثُمَّ بَدَّلَ}، غيَّر الظلم إلى {حُسْناً}، وبدل ظلمه بشيء حسن جيد، وتاب منه وصار يعمل الصالحات، من {بَعْدَ سُوءٍ}، من بعد عمله السيئ السابق، {فَإِنِّي غَفُورٌ}، ولا يجمد سبحانه على موقف صلب واحد بل يتجاوز عن أخطاء من تاب، {رَّحِيمٌ}، يعتني بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، ولذلك يسامحهم، أما غير المؤمنين فلا مغفرة لهم حتى لو اعترفوا بسوء ما فعلوه وتوقفوا عن فعله، طالما لم يؤمنوا فلا مغفرة لهم.

لدينا حادثة مشهورة حصل فيها ظلم من رسول، وهو النبي يونس(ع) عندما طلب منه سبحانه أن يعذب قومه الكفار، وغادر النبي(ع) وابتعد عن قومه لأن العذاب سينزل، وفي غيابه استغفر قومه ربهم سبحانه وأعلنوا التوبة، ولم ينزل العذاب، وعندما علم النبي يونس(ع) أن العذاب لم ينزل... أراد الابتعاد عن كل المنطقة وهو في حالة غضب! راجع في ذلك الآية 87 من سورة الأنبياء {وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}. وهكذا لدينا حالة رسول ظلم، فيجب أن يخاف، ومعلوم أنه أَمَرَ تعالى الحوت بالتقامه "بلعه"، وبتدخل منه سبحانه بقي النبي (ع) حيّاً في بطن الحوت، حيث تنبَّه النبي (ع) للظلم الذي ارتكبه، ودعا وقال: {لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}. وبدل ظلمه، وسيطر على مشاعره واستغفر ربه تعالى، وتاب عليه...

نلاحظ دقة الآيات، ولم تتركنا نفهم أن الرسول لا يخاف من عقابه تعالى أبداً مهما فعل، لا، "فليس على رأس أحد خيمة زرقاء"، حتى لو كان رسولاً، فمن يرتكب ظلماً، فليخف من عقابه سبحانه، كائناً من كان.

أطلت عليك لأنك ستجد في الكتب كلاماً ينفي ارتكاب الرسل للظلم بكل أنواعه، على أساس أنهم معصومون بشكل إجباري منه تعالى، ومسددون إلهياً بما يمنعهم من فعل السوء... وهذا النوع من الكلام المتراكب على قواعد ومصطلحات وأفكار اخترعوها، وأكثره لا معنى له، ولن أطيل عليك وأكتفي بما ذكرته لك من دراسة آيتنا هنا مع مقارنتها بحالة النبي يونس(ع)، وأي آية أخرى تخطر على بالك ولها علاقة بهذا الموضوع فراجع دراستنا هذه لترى معناها قبل أن تركبها على قواعدك الكلامية أو العقائدية أو الفلسفية...

نعود للآيات:

(وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ{12})
بعدها رجع النبي موسى(ع) ومد يده على الحية فرجعت عصاً كما كانت، أكمل سبحانه كلامه معه:

{وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ}، أدخلها من جهة رقبتك من قبة قميصك، وأخرجها، {تَخْرُجْ بَيْضَاءَ}، ناصعة كأنها ثلج أو رخام أبيض، {مِنْ غَيْرِ سُوءٍ}، ولم يصبها مرض جلدي، ويمكنك تحريكها بشكل عادي.

الحية واليد، {فِي تِسْعِ آيَاتٍ}، تسعة أمور مميزة وتدل على أنك رسول إلهي، {إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ}، والناس الذين ينتمي فرعون لجماعتهم، حيث إنَّ لقب أعلى سلطة في بعض فترات الحكم في مصر كان "فرعون"، مثل لقب الملك عند العرب، أو لقب كسرى عند الفرس... واختصرت لنا الآية عدة سنين حصل فيها الكثير من الحوادث بين النبي موسى(ع) وفرعون والسحرة و... وأشارت لتسع آيات جرت حتى يقتنع بها فرعون ويترك بني إسرائيل يغادرون مصر، والآيات التسع التي حصلت مع النبي موسى(ع) في مصر هي: العصا التي تحولت لحية، اليد التي تتحول لبياض شديد، فيضان نهر النيل حتى غمر بيوت قوم فرعون، هجوم أسراب الجراد على المحاصيل ومخازن الحبوب، انتشار القمل بشكل كثيف بين قوم فرعون، انتشار الضفادع بشكل كثيف في مساكن قوم فرعون، وتحول المياه "نهر النيل" إلى دم، وتجد ذلك في الآية 133 من سورة الأعراف {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ...} و{بِالسِّنِينَ} وهو الجدب "انقطاع" في المحاصيل، و{نَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ} فيخرج الزرع ولكن بإنتاج ضعيف، وتقرأ ذلك في الآية 130 من سورة الأعراف {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ...}، وخاتمتها الآية التاسعة بانفلاق البحر، وكانت الآية التي من المفروض أن توقف فرعون وجنوده ليتركوا بني إسرائيل يغادرون من بعد رؤيتهم البحر مفلوقاً بتدخل من مستوى إلهي... ولكن حتى هذا لم يوقفهم عن عنادهم!

{إِنَّهُمْ}، فرعون وقومه، {كَانُوا قَوْماً}، كانوا أناساً لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الدين الإلهي، {فَاسِقِينَ}، لأنَّ هناك أمور واضحة الصحة وهم لم يلتزموا بها ففعلوا السوء، سواء في دينهم أو بكفرهم بالآيات الواضح أنها إلهية ورغم ذلك لم يؤمنوا بها.

(فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ{13})
{فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا}، عندما جاءت الأمور المميزة المنسوبة له تعالى إلى فرعون وقومه، {مُبْصِرَةً}، تتيح لهم قدرة وعي وفهم الصورة الصحيحة، {قَالُوا}، عن الآيات الإلهية: {هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ}، شيء واضح بأنه خدعة تجعلنا نتوهم ما نراه بأنه حقيقة بينما هو وهم، وبالتالي ليس بدليل على كون موسى رسولاً من الإله.

نحن نقع تحت تأثير السحر بطريقة تجعلنا نتوهم هذه الأمور، ونتوهم أن العصا تحولت لحية، ونتوهم بأن إله موسى سلط علينا الضفادع... فهناك تفسير ما لحصول هذه الأمور، ولم تحصل بأمر إلهي.

تذكر أنَّ فرعون وقومه شهدوا حصول هذه الآيات، ولن يقولوا بأنها قصص كاذبة، ولكن قالوا عن النبي(ع) بأنه ساحر، وتلاحظ الكفار في بقية العصور عندما سمعوا بهذه القصص فإنهم يقولون بأنها أساطير، وإن كانت صادقة وفعلاً حصلت فموسى ساحر!

ضع في بالك دائماً أنَّ السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شيئاً غير حقيقي أنه حقيقي. فالساحر "لاعب الخفة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكد بأنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع أنها لم تختف، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر والذي تراه صريحاً في الآية 66 من سورة طه {قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ}. ما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقق ما يريد، فهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفار عن الآيات الإلهية أنها سحر، فهذا كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ{14})
{وَجَحَدُوا بِهَا}، أنكروا صدق الآيات برغم وضوح كونها صادقة، {وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ}! فسبحانه يخبرنا أنهم من الداخل لديهم اعتقاد بأنها مطابقة للواقع والحق، فهم من داخلهم يعلمون أنها تدل على أن إلهاً حقيقياً فعلها وأنها حقيقة وليست سحراً ينخدعون به... وإنما جحدوا بها، {ظُلْماً}، حيث لم يكن عندهم ولا أي حجة ولا أي منطق ليجحدوا بها، ولم يكن معهم حق بإنكار كونها إلهية، وأيضاً جحدوا بالآيات، {عُلُوّاً}، حيث كانوا يرون أنفسهم عالين جداً، أعلى من الإيمان بدين ينقله لهم رجل من المواطنين من الدرجة الثانية، راجع الآية 47 من سورة المؤمنون {فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ}.

{فَانظُرْ}، وَجِّهْ اهتمامك العام أيها النبي(ع) وأيها المؤمن، {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ}، ما عقب ما أتى بعد، لنهاية وخاتمة، {الْمُفْسِدِينَ}، الذين لا يعملون للإصلاح والخير بل لإفساد حياتهم وحياة الناس وإفساد آخرة الجميع.

من الواضح أن فرعون وقومه هم أبرز نموذج عن الذين تحدثت عنهم افتتاحية السورة، لأنهم من أبرز الذين زين الله تعالى لهم أعمالهم السيئة فرأوها حسنة، وعمهوا عن الحق، ولهم في الآخرة عاقبة السوء.

لاحظ افتتاحية السورة التي تحدثت عن القرآن كآية كافية لمن يريد أن يؤمن، وقارنها مع تسع آيات متنوعة تيقن فرعون وقومه أنها إلهية المصدر ولم يؤمنوا! ستجد في ختام هذه السورة لفت انتباهنا لآيات يراها الناس في حياتهم اليومية وينكرونها وسيسألهم عنها سبحانه وتعالى في يوم القيامة.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ{15})
بعد مختصر تزين السوء للطاغية فرعون وقومه المعلوم تمتعهم بزينة الدنيا... وكفرهم بتسع آيات، تنتقل السورة لبداية قصة تتحدث عن نموذجين، الأول هو شخص بوظيفة رسول حكم منطقته وتحت تصرفه قدرات هائلة فلم تزده إلا إيماناً، والنموذج الثاني عن ملكة كان لها مملكة عظيمة، حيث رأت الآيات وآمنت...

{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ}، وابنه، {وَسُلَيْمَانَ}، {عِلْماً}، حيث كانا عالمين ربانيين يعلمان بالعقيدة والشريعة والقضاء وأمور الحياة... {وَقَالَا}:

{الْحَمْدُ لِلَّهِ}، لأنَّ كل عمله محمود، كل أعماله جيدة، {الَّذِي فَضَّلَنَا}، حيث منحنا أشياء جيدة ولم يكن فرضاً واجباً عليه تعالى منحها لنا، فضلنا {عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ}، على الكثير من الذين مفروض منهم طاعته، {الْمُؤْمِنِينَ}، المعتقدين الملتزمين بدينه تعالى، حيث جاء قبلنا الكثير من المؤمنين ولم يعطهم سبحانه ما أعطانا.

هذان النبيان من بين القلة القليلة من الأنبياء كانا حاكمين غير محكومين، حيث كانا ملكين على منطقتهما ولا أحد فوقهما من الناس.

انتبه، لأنَّ الآية لا تقول إِنَّهُ ذات مرة كان النبيان(ع) واقفين مع بعض ودعيا بهذا الدعاء... لا، إنما ترينا بأن هذا الدعاء كان الأهم والأكثر تكراراً منهما كتعبير عن شكرهما وحمدهما له تعالى، ومن سياق الكلام السابق عن فرعون ترى

الفرق بين الذي أعمته القوة والمال وبين من شكره تعالى. طبعاً لن نرى ذلك إذا كنا بضبابية ننسى أن الأنبياء مثلهم مثلنا، وإذا كنا نعتقد أنهم مميزون عنا بشيء خاص جعله تعالى فيهم ليكونوا مؤمنين، وهذا غير صحيح.

(وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ{16})
{وَرِثَ} النبي سليمان(ع) أباه النبي داوود(ع)، وهنا سياق الكلام يدلّ على انتقال الحكم من الأب للابن بلا استرداد، حيث إنَّ كلمة {وَرِثَ} تعني عموم انتقال أي شيء ليصير مع الآخر بلا استرداد، وتنطبق على وراثة المال والكتاب والأرض والجنّة... سواء كان الانتقال من ميّت أو من حيّ فطالما هو بلا استرداد فهو وراثة، كحالة توريثه تعالى المؤمنين الجنّة كما ورد في عدة آيات منها الآية 72 من سورة الزخرف {وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}.

قال النبي سليمان(ع) في إحدى خطبه أمام أهل مملكته:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ}، تعلَّمنا فهم ما تنطق به الطيور، ونحن نفهم ما تقوله الطيور، ويمكننا التكلّم معها.

لم ينقل لنا القرآن كيفية فهمه(ع) لمنطق الطير، ولا كيفية كلامه(ع) مع الطير، هل كان يشير لها أو يتكلّم معها بلغته العادية وهي تفهمه، أو يستعمل معها كلمات خاصة تدربّت عليها... ولا أعتقد أنه (ع) كان يزقزق ويصفر ويحمحم... مثلها، ولا نجد في الروايات أي شيء مفيد عن هذا الموضوع.

نلاحظ بشكل عام نقل القرآن لحوارات تاريخية بشكل مختلف في كل سورة عن الأخرى، تذكَّر نقل القرآن لكلامه سبحانه وتعالى لأوّل مرّة مع نبيِّه موسى(ع)، ونلاحظ بين سورة وأخرى اختلافاً في كلمات تلك النصوص التي نقلت نفس ذلك الحوار، وبعض الأحيان نجد اختلافاً بالزيادة والنقصان في معاني ذلك الحوار، والسبب أن المعاني والمشاعر التي في الذهن أوسع بكثير من الكلمة التي نقولها، جملة: أنا أحبّ التفاح. أول ما تفهم منها أني أحبّ أكل التفاح، ولكن لو كان لديك القدرة على قراءة المعاني في ذهني حين قلت لك: أحبّ التفاح. ونقلت كلامي لشخص آخر، فيمكنك أن تقول عنّي: يحبّ رائحة التفاح. ومرة أخرى تقول عنّي: يحبّ لون التفّاح... ومرة غيرها ستقول: يحب نوعاً محدداً من التفاح... كما ترى من كلمة واحدة "أحبّ التفاح" يوجد لها معاني كثيرة صحيحة لو كنت تقرأ ما في ذهني وأقصده حين قلتها. كذلك الجمل التي نقلها القرآن، لأنه سبحانه يعلم ما يدور في ذهن عباده، فلا يعتمد سبحانه على نقل عباراتهم حرفياً لنا، بل وبكل وضوح: يعتمد سبحانه نقل المعاني التي يقصدونها من كلامهم، وفي كلّ سورة يعرض علينا سبحانه ما يريد الإضاءة عليه ولفت انتباهنا له من الحادثة والكلام وما قصدوه، لذا في كل مرّة يعرض علينا سبحانه عبر القرآن كلام عباده من زاوية مختلفة.

هنا، لا تنقل السورة هدهدة "زقزقة أو صفير" الهدهد حين تكلّم مع النبي سليمان(ع)، بل تنقل لنا كلاماً عربياً، ومن المعلوم أن طائر الهدهد لا يتكلّم بالعربي ولا بالعبري، ولا النبي سليمان(ع) كان يتكلّم باللغة العربية مع الطير، إذن: نقلت الآيات معاني الحوار الذي جرى بينهما، وحوَّلت ما دار في وعيهما أثناء كلامهما إلى جمل، وسترى تقريباً آخر لهذه الفكرة في ذيل الآيات التي نقلت كلام الهدهد.

لكن الذين كتبوا التوراة حذفوا منه كلام الطير والنمل مع النبي سليمان(ع)، وحذفوا منه انتقاله(ع) مع جنوده بتسخير الريح... على ما يبدو أنَّ هذه الأمور لم يصدّقها علماء اليهود الذين حرّفوا التوراة، وإلى هذا تشير الآية 76 من هذه السورة، وانتقلت قصصه(ع) في كتب جانبية لليهود "تلمود و..." مشابهة لكتب الروايات عندنا، وفيها خليط من الحقيقة ممزوج بخيال ومبالغات وافتراضات من الرواة...

لنعد للسورة حيث يكمل النبي(ع) خطابه للناس، ويقول: {وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ}، من العلم أعطانا، ومن المال ومن القوة العسكرية والاجتماعية والاقتصادية والحكم و...

{إِنَّ هَٰذَا}، العطاء الإلهي، {لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ}، بشكل واضح وظاهر أن كل هذا هو فضل وهو أمور جيدة منحها لنا سبحانه من دون أن تكون فرضاً واجباً عليه تعالى منحها لنا، لأنني وأبي لم نقدّم لربنا سبحانه أي شيء، ولم يستفد سبحانه منّا بأي شيء، وليس واجباً عليه تعالى أن يعطينا أي شيء... ولكنه سبحانه تفضّل علينا وأعطانا من كل شيء.

سنفهم ما تريد الآية قوله عندما ننظر إلى سليمان(ع) كشخص عادي، وعندما تنسى موروثك الثقافي الديني وتسحب من بالك أنَّ ملاكاً ما واقف يتحدث مع النبي في كل يوم وفي كل الوقت، وعندما تلتفت إلى أنَّ النبي ليس مجبوراً ولا مبرمجاً غصباً عنه من داخل نفسه أن يكون مؤمناً بل هو مثلنا تماماً، وعندما نفهم هذا، سنفهم أنَّ الآية تقارن بين فرعون وقومه الذين لم يملكوا ما كان لدى النبي سليمان(ع) من قدرات، ولكن سليمان(ع) الشخص العادي ازداد إيمانه، وفرعون وقومه ازدادوا كفراً وعلواً. وسنرى بعد قليل دليلاً واضحاً على أن هذا ما تريدنا هذه الفقرة فهمه.

(وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ{17})
مرة من المرات...

{وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ}، تم بقرار منه(ع) جمع الملتزمين بتنفيذ أوامره(ع) سواء قبلوا أم لم يقبلوا فهم سيحضرون حتماً، {مِنَ الْجِنِّ}، من الكائنات المخلوقة من نار، وَمِنَ {الْإِنسِ}، من الكائنات المخلوقة من طين، وَمِنَ {الطَّيْرِ}، الطيور، {فَهُمْ يُوزَعُونَ}، حيث إنَّ كل واحد منهم يأخذ محلّه المناسب، ولهم ترتيب يلتزمون به.

(حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ{18})
ذات مرة جمعهم (ع)، وبينما هم يسيرون...

{حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا}، وصل (ع) مع جنوده، إلى {وَادِي النَّمْلِ}، وهو مكان لا نعرف أين هو بالضبط الآن، حيث إنَّ حكومة النبي سليمان(ع) امتدت بين فلسطين ولبنان وسوريا والأردن ومصر... كما هو مشهور، وفي هذه البلدان يوجد عدة أماكن كانت "ولا تزال" تحمل هذا الاسم "وادي النمل" بسبب وجود مستعمرات كبيرة للنمل فيها.

عندما وصل النبي(ع) وجنوده إلى وادي النمل وقبل دخوله، {قَالَتْ نَمْلَةٌ}:

{يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ}، احتموا في تجاويف التراب أو الخشب... حتى لا يحطّمكم ويدوسكم، {سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}، من دون أن ينتبهوا لكم تحتهم سيدوسونكم بأرجلهم وأرجل أحصنتهم...

لاحظ عندما قالت الآية ما قبل السابقة على لسان النبي(ع) أنه تعلّم منطق الطير فهذا لا يعني أنه(ع) لا يعلم إلا منطق الطير، وهو بالبداهة يعلم منطق البشر، وكما ترى بوضوح كان(ع) يعلم منطق الجنّ أيضاً، وهنا ترى أنه(ع) عَلِمَ ما يقوله النمل.

نحن لا نتوقّع أبداً أن تملك النملة فكراً ووعياً وفهماً يمكّنها من قول جملة باللغة البشرية: {لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}. وهذا يتضمّن معرفتها بسليمان، وأن القادمين جنود له، وهم لا يقصدون الدوس علينا لقتلنا ولكننا على مسار طريقهم... لاحظ الفرق بين هذا المعنى الذي أرادتك الآية فهمه من تعبير النملة وبين ما قالته النملة فعلاً "بلغتها أو على طريقتها لبقية النملات"، الآية حتماً لم تنقل كلام النملة بشكل حرفي، لأنَّ النملة لا تتكلّم بالعربي، بل نقلت الآية معنى ما قالته النملة وبالتحديد نقلت الآية ما فهمه النبي(ع) من كلام النملة، الآية خليط بين معنى كلام النملة لنملات القرية "خطر من الدوس، القادم كائن "له ارتباط مع الإله" ويجب أن لا نهاجمه، ادخلوا إلى البيوت"، وهي خليط بين هذا المعنى وبين المعنى الذي فهمه النبي(ع) من كلامها، والنتيجة هي: ادخلوا مساكنكم وإلّا حطّمكم سليمان وجنوده.

للنملة حتماً قدرة على الكلام بطريقة ما مع بقية النملات، إمّا عبر إصدار ذبذبات أو طقطقة... أو بحركة جسدها أو بالتلامس أو بإفرازات كيميائية... أو بخليط بين كل أو بعض ما سبق... من المراقبة نرى النمل يبدأ كلّه بالتحرّك بسرعة عند التعرّض لخطر ما، ويصير عدائياً ويهاجم، حيث ترى النملة تخرج من بيتها وتبدأ بالتحرك بأسرع من العادة لتبحث عن مصدر الخطر لتهاجمه، كيف وصلها الخبر بالخطر ووجوب الهجوم؟ طبعاً وصلها الأمر عبر وسيلة ما، والنبي(ع) فهم الوسيلة التي عبّرت عنها واحدة من النملات للأخريات بوجوب دخول البيوت، والقادمون لا يجب أن نهاجمهم.

(فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ{19})

{فَتَبَسَّمَ}، ظهرت تعابير الفرح بحركة من فم النبي(ع) بسبب شعوره بالسرور، {ضَاحِكاً}، حيث ظهرت عليه تعابير الفرح بالابتسامة العريضة وصوت كتعبير عن أشدّ سروره (ع)، {مِّن قَوْلِهَا}، بسبب ما قالته النملة، بالطبع لم يكن ضحك استصغار أو سخرية أو شماتة، بل من سروره (ع) بعجيب القدرة المتاحة له لفهم كلام نملة، ومن سروره بفهم شيء معقّد من نملة، ومن سروره بمعرفة النملة به كرجل يجب عليها أن لا تهاجمه...

لاحظ أن أي إنسان سيسمع بهذه القصّة سيضحك، لشدّة الاستهجان، سواء صدّقها أو كذّبها، وتنقل لنا السورة شعور التعرّض لشيء غير عادي حتى من الشخص الذي حصلت معه الحادثة، إذ ضحك، وهو الذي من قبل يعلم منطق الطير ويتعامل مع الجن، حتى بالنسبة له كان الأمر هجنة غريبة، ولا قبله ولا بعده سمعنا بإنسان يفهم "ما يقوله" النمل.

بعد هذا الشعور الذي أصاب النبي(ع) قال: {رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {أَوْزِعْنِي}، اجعلني في حالة مناسبة وافسح وأتح لي المجال، وفّقني ويسّر لي، {أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ}، أن أعبّر عن حصولي منك على أمور موصوفة بأنها نعمة بأنها جيدة، {الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ} "أمي وأبي"، حيث منحتنا أشياء جيّدة أنا وأبواي وأحبّ أن أعبّر لك عن ذلك، ضعني في تلك الحالة، لأنني أعلم أني مهما شكرتك فسأكون مقصّراً، لذا اجعلني أصل في شكري لك إلى أقصى ما يمكنني فعله، ولا تصبني بشيء يمنعني عن شكري لك، من تكبّر أو زهو...

{وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ}، أتح لي المجال أن أقوم بالأعمال الجيّدة التي تقبلها بمحبّة، لأنه من هذه القدرات المتاحة لي يمكنني بسهولة فعل السوء أو تجرّني القدرات العالية لفعل السوء، وأنا لا أريد حصول ذلك.

{وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ}، بعنايتك لي لما فيه مصلحتي، {فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}، نحن عبيدك ومفروض علينا طاعتك، لذا اجعلني مع الموصوفين منهم بأنهم صالحون، لأكون محسوباً معدوداً مع جماعة الذين أطاعوك وعملوا الصالحات عبر التاريخ، وعمليا هم تركوا ما حرّمته والتزموا بما أوجبته.

لاحظ أن كلاما مشابها ورد في الآية 15 من سورة الأحقاف، كنموذج عن كلام الإنسان الناضج "إنسانياً" وبالتالي ناضج "إيمانياً" {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}.

ننتبه هنا، نحن نطلب منه سبحانه أن يشفينا من المرض، ويوفقنا للحصول على الوظيفة، وأن ينجح أولادنا في مدارسهم... ولكن بعد تحقق ذلك نحن "عادة" ننسى بعد مدة أنه سبحانه اعتنى بنا، وننشغل بمطالب أخرى، ونتوقف عن شكره سبحانه! هنا النبي(ع) يطلب منه سبحانه أن لا يجعله ينسى فضائله عليه، ليداوم على الشكر ويداوم على عمل الصالحات، وأن لا تغرّه القدرات المتاحة له على فعل السوء... وأن يعتبره تعالى دوماً من العباد الصالحين.

لاحظ حين تفكّر في اختيار القرآن لحادثة كلام النملة أثناء مرور النبي(ع) مع جنوده لنقلها لنا، فستتساءل: لماذا من بين كل الحوادث العظيمة في تاريخ حياته(ع) جرى اختيار هذه الحادثة لإخبارنا بها؟ كم من مليارات النمل ماتت دوساً بأقدام الناس؟ لماذا هذا الاهتمام القرآني بهذه الحادثة؟ على ما يبدو أنَّ السبب هو إظهار شدّة العناية الإلهية بعبده سليمان(ع)، حيث كان معرّضا هو وجيشه لدخول وادٍ مليء بالنمل وهو لا يدري بما سيقتحمه، فلو دخله سيتعرّض جيشه لهجوم النمل، وربما يكون قاتلاً لبعض أفراد الجيش، وربما سيكون مزعجاً فقط ومخلخلاً لصفوف وانتظام الجيش ومسبّباً للبلبة... لكن فهم النبيّ(ع) ما تقوله النملة وحاد مبتعداً عن منطقتهم، ولم يتعرّض جيشه لهذا الخطر أو الإحراج... تلاحظ انطلاقه(ع) بالشكر لربّه سبحانه الذي اعتنى به ليمنع هجوم النمل عليه وعلى جيشه.

حسناً، هذا كان تحليلنا لسبب تفهيم كلام النملة للنبي(ع)، لكن ما سبب ذكره لنا؟ سواء صدق تحليلنا أم لم يصدق، فمحور كلام السورة عمّن كفر وبدأت بنموذج فرعون وقومه الذين كفروا وكانت القدرات العالية مالياً وعسكرياً وسلطوياً... من الأسباب الدافعة لهم لكفرهم، وهنا ترى شخصاً بقدرات عسكرية عالية جداً جداً لدرجة أن الجنّ

والطيور من أفراد جيشه، وترى أن قدراته عالية قاهرة لأي قوة عسكرية بشرية، ولديه القدرة على تجنيب جيشه الضرر الطفيف حتى من الحشرات، ورغم ذلك كان من أشدّ المؤمنين الصالحين.

أكرر لك أننا لن نفهم كلام السورة عن النبي سليمان(ع) المطروح كنموذج مؤمن صالح برغم القدرات العالية جداً التي أتيحت له، لن نفهم ذلك إن كان في بالنا أنه (ع) مؤمن عامل للصالحات بتدخّل إلهي بتمييزه عنّا ليكون مؤمناً عاملاً للصالحات.

شيء آخر، الكلام عن النموذج سليمان(ع) بقدرات فهم منطق الطير والنمل وحشر الجنّ والطير كجنود وما سيأتي من أمور غريبة عجيبة... يريك قدرات نصدّق بها نحن كمؤمنين لأن كتاباً بالدلائل الكثيرة آمنّا أنه من مصدر إلهي لأنَّ القرآن صادق حتماً في كل ما فيه، ولن يصدّق بها الآخرون، وهي أمور ترى منها قدرات غير عادية لدرجة ملامستها الخيال، بل واقعاً هي كالخيال العلمي بالنسبة لنا، حيث تمتّع بها سليمان(ع) وزاد إيماناً وشكراً واستخدمها لعمل الصالحات. لذا تقصدت السورة استحضار هذا النموذج غير العادي في القدرات، والتي لا تخطر ببالنا إلا لمن خياله واسع جداً.

قارن فحواها مع شخص موظّف في شركة ضخمة وبمعاش ضخم، هذا عادة يشعر بالاعتزاز والكبر والزهو ويريد التمتّع بالحياة ويرى نفسه أكبر من الالتزام بالصلاح، ويطلب مزيداً من السلطة ومزيداً من المال ومزيداً من التمتّع بالحياة... ليصل إلى فعل السوء ولا يعد يراه سوءاً... وقارنها مع حاكم بسلطات نافذة وكلمته مطاعة وغرّته الدنيا وصار لا يرى السوء فيما يسعده... وقارنها مع فرعون بما تعرفه عنه...

الآن استحضر ما تقوله السورة عن سليمان(ع)، ولا تقل إنَّه نبي وبالتالي هو متميّز بدعم إلهي يجعله مؤمناً عاملاً للصالحات، لأنه بهذه النظرة سيضيع علينا ما تريد السورة قوله، لأنه رجل عادي مثلنا، وصار له قدرات هائلة، وهائلة لدرجة ملامسة الخيال، وهي من الدرجة التي أصلاً نتخيّلها فقط عندما نحلم بالحصول على قدرات عالية، ورغم ذلك كان شديد الإيمان ولم يستغلّها لفعل السوء، وهذا ما أعطى سليمان (ع) القيمة.

من أنت ومن أنا؟ وبالمقارنة مع سليمان ما القدرات التي معنا والتي قد تدفعنا للاغترار بها وفعل السوء؟

وهذا ما تريدنا السورة أن نفهمه، وإن انحرفت بوصلتنا عن ذلك في المتاهات، فلن نفهم كلامه تعالى.

بقي شيء عن أخبار القرآن غير العادية، كالخبر هنا عن فهم النملة، والخبر الآتي عن فهم الهدهد، والذي بعدها عن قدرة إحضار الأشياء من مكان بعيد بأقل من ثانية، وغيرها عن خبر نفوذنا في أقطار السماوات ووصولنا إلى حيث سبقنا الجنّ وتعرّضوا للشهب المانعة لهم من الاقتراب من سماء الملائكة (ع) كما ورد في الآيتين 33 و 35 من سورة الرحمن {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ... يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ} مما يعني أننا نحن البشر سنصل إلى هناك ونتعرّض لتلك الشواظ، وخبر إحياء النبي عيسى (ع) للموتى، وغيرها من الأخبار الاستفزازية لنا لمعرفة آلية حدوثها ومحاولة تقليدها أو محاكاتها، مسألة النفوذ في السماوات محسوم حصولها في المستقبل، ومن غير المعلوم إن كنّا سنستطيع التعرّف على آليات فعل أو تقليد بقية الأمور التي تبدو مستحيلة حالياً، ومن غير المعلوم بل ومما نفهمه من القرآن لا أرجح أن يكون تقليد أو محاكاة تلك الأفعال محصوراً بالمؤمنين كقدرة نابعة عن الإيمان والعمل الصالح، وربما هي قدرات لها آليات يمكن لعموم البشر القيام بها، وسيكون رائعاً لو تمكنا من فعلها...

بالنسبة لاعتبار فهم كلام النملة آية، بتصنيف الأمور الغريبة التي حصلت مع الأنبياء، والتي ذكرها تعالى لنا في قرآن، فستجدها تحيط بكل الجوانب التي تخطر ببالنا للتأكد من حصول شيء بتدخّل إلهي، ما نقله القرآن عمّا طلبه بعض الكفّار المعاصرين للنبي محمّد(ع)، ترى فيه أنهم طلبوا أموراً يمكن للبشر تحقيقها أو الحصول عليها بقدرتهم أو بظروف مساعدة، ليكن لك هنا في الدنيا جنّة تجري من تحتها الأنهار، وليكن معك كنز... كما ورد كمثال في الآية 8 من سورة الفرقان {أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا}، وطلبوا أموراً يستحيل على بشري فعلها بالقدرات المتوافرة في عصرهم كمثال الرقي في السماء كما ورد في الآية 93 من سورة الإسراء {أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا}، وطلبوا

أموراً أصلاً مستحيلة ولا يمكن أن تحصل ولا تحت أي ظرف كطلب رؤيتهم له تعالى كما نقلت الآية 92 من سورة الإسراء {أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا}.

ضع هذا التصنيف في بالك وسترى أنه تعالى تدخّل تاريخياً لتحصل أمور عجيبة من رسله، وكانت من كل هذه الأنواع، كل ما قد يسأل عنه أحد ما ليؤمن بدينه تعالى حيث حصل إلا رؤيته تعالى لأنها مستحيلة، بل وزادنا سبحانه أفعالاً عجيبة بالنسبة لنا هي من الخيال، كالكلام مع نملة أو الانتقال الآني... حتى ننتبه أن مجال أفعاله يتعدّى ما نرى إمكانية لحصوله بقدرات بشرية.

الساخر من كلام القرآن عن حادثة فهم النبي سليمان(ع) لكلام نملة، على اعتبار أنها خرافية، معه حقّ من جانب أنها فعلاً غريبة جداً وتبدو خيالية لكن ليس معه حقّ لأنها حقيقة، ولأنه هو ذات نفسه يشترط طالباً آيات ليؤمن، فلو كانت الآيات كلّها من النوع الذي تحت الخيالي بالنسبة له، لما آمن، وسيقول إنَّها بطريقة ما يمكن للبشر فعلها... وأصلاً لن يؤمن حتى لو كان هناك يرى ويلمس هذه الحوادث، لأن المشكلة دائماً فيه لأنه رافض للحقّ والصلاح المعروض علينا في دينه تعالى، وهذه لا تحتاج أصلاً لآيات حتى تؤمن بالحقّ وتلتزم بالصلاح...

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ{20})

من هنا سندخل على قصة نبقى فيها ضمن بيان القدرات الهائلة والعجيبة التي كانت متاحة للنبي سليمان(ع)، وسنرى فيها أيضاً نموذجاً لشخص "ملكة سبأ" كان عندها سلطة عالية ولكنها آمنت عندما رأت الآيات الإلهية لأنها كانت تريد الحقيقة...

{وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ}، مرة من المرات التي اجتمع فيها جنود النبي سليمان(ع)... وبينما هو(ع) يتفقد الطير ينظر إلى مجموعة الطيور ليرى من المفقود منها ولم يحضر... قال(ع):

{مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ}؟ ما السبب أني ليس عندي صورة محدّدة للهدهد، هل هو بين مجموعة الطيور ولكني لم أره! أم هو مستور خلف شيء ما؟ أو هو موجود هنا ولكن لسبب أو لآخر لا تقع عيني عليه؟ {أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ}، أم أنه أصلاً لم يحضر إلى هنا؟

كما يبدو، هناك وقت محدّد ترجع فيه الطيور التي تنتمي لجنود النبي سليمان(ع) ورجعت كلّها إلا الهدهد.

من البديهي أنه ليست كل الطيور من كل أنحاء العالم كانت تأتي لتحضر مجلس النبي سليمان(ع)، ولا كلّ الطيور التي في منطقة حكمه (ع)، على ما يبدو أنه كان هناك بعض الطيور تأتي إلى مجلسه (ع) ومعدودة من جنوده...

الهدهد طائر متميز بعرف من الريش على رأسه ويوجد منه عدة ألوان وأحجام.

(لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ{21})

{لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا}، لسوف أجعله يشعر بالضرر بحبسه أو منعه عن الطعام والشراب أو... {أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ}، سوف أقطع بالسكين بلعومه ومجرى نَفَسِهِ... أقتله.

{أَوْ}، حتى ينجو من العذاب أو القتل، {لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ}، يأتي إِلَيَّ بشيء قَوِيٍّ، بحجة وعذر قَوِيٍّ جدا لغيابه، حتى يقنعني بالتراجع عن تعذيبه أو ذبحه، ويكون العذر مُبِينًا أي وَاضِحًا بدون شك أو تشويش.

للوهلة الأولى تستغرب تعامل حاكم بهذه الشدة مع طير، ولكن لو تصوّرت تلك الظروف حيث الاحتكاك اليومي له (ع) مع مختلف أنواع المخلوقات، لفهمت من الآية أنه (ع) صار عنده شَيْئًا عَادِيًّا التعامل مع مختلف الكائنات كما يتعامل مع البشر، فلا تتصوّر طيرا جميلا سيتعرّض للتعذيب نَاسِيًا أنه صار التعامل معه مثل التعامل مع أي إنسان عليه واجبات وله عقاب إن لم يلتزم بواجباته.

(فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ{22})

{فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ}، بعد وقت قليل وهو في مكانه، في زمان غير بعيد عن افتقاد النبي(ع) للطير، لِنَقُلْ بعد دقائق أو نصف ساعة أو أكثر جاء الهدهد، لِأَنَّ الهدهد كان يعمل على الحضور في الموعد المحدّد ولكن تأخّر، وَحَضَرَ الهدهد وقال للنبي(ع):

{أَحَطتُ}، صار عندي إحاطة، صار عندي علم، {بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ}، اطَّلَعْتُ على شيء أنت لا تعرفه، {وَجِئْتُكَ مِن}، مدينة، {سَبَإٍ}، {بِنَبَإٍ يَقِينٍ}، بخبر غير معروف عندك وهو خبر مطابق للواقع والحق، وَهُوَ صحيح بالتأكيد.

سَيَأْتِيكَ في الآية بعد التالية كلام مطوّل عن كلام الهدهد.

سَبَأٌ كما هو مشهور بين المسلمين هِيَ المدينة التي في اليمن، ومن المشهور بين المسلمين أن الملكة التي كانت تحكم سبأ في عهد النبي سليمان(ع) كان اسمها: بلقيس. وتذكّر دائما أن الأنثى الوحيدة التي ذكر القرآن اسمها هي السيدة مريم ابنة عمران، حَيْثُ لم يذكر بلقيس ولا حوّاء ولا اسم زوجة فرعون...

ورد في التراث اليهودي كلام يشير لكون سبأ في إِثْيُوبْيَا والملكة إِثْيُوبِيَّةً "قديما كانت تسمى بالحبشة مع الصومال وجيبوتي وَإِرْتِيرْيَا..."، وقد يكون ذلك صحيحا بشكل ما، فَالْيَمَنُ والحبشة عاشا حياة متداخلة عبر التاريخ، حَيْثُ مرة يحكم الحبشيون اليمن وتصير تابعة للحبشة، ومرة يحكم الْيَمَنِيُّونَ الطرف البحري من الحبشة أو يَطْرُدُونَ الحبشيين من أرضهم، وهذه حالة المشهور جدا "أبرهة" فهو حبشي حكم اليمن... فقد تكون الملكة حبشية حاكمة على سبأ التي في اليمن، وقد...

كما ترى مَا زالت السورة تعرض قدرات شبه خيالية كانت تحت تصرّف النبي سليمان(ع)، لترى منها أقصى ما يمكنك تصوّره عن قدرات يتمتع بها شخص ما، ولترى كيف استخدمها سليمان بالصلاح...

هي نفسها النقطة التي من أجلها سبحانه ذكر لنا بعضا مما تمتّع به عبده سليمان من قدرات خيالية بالنسبة لنا، لنرى صلاح سليمان، وأقول خيالية ولا أقصد أنها لم تكن حقيقية بل أقصد أننا وللآن ليس متاحا لنا تلك القدرات لِأَنَّهَا بالنسبة لنا نتخيّلها... وهي نفس النقطة إِشْكَالِيَّةٌ ويكفر بها الذين اغتروا بما لديهم من القليل التافه أمام قدرات سليمان...

على ما يبدو أَنَّ النبي(ع) بعدما صار لديه جنود من الجنّ والإنس والطير، يبدو أنه (ع) بدأ يرسلهم في مهمّات استطلاعية، وهنا يقول الهدهد: تأخرت لأني كنت أَسْتَطْلِعُ مدينة سبأ "التي تعرفون اسمها ومكانها ولكن لا تعرفون أوضاعها الحالية"، وكنت هناك أتابع تجميع المعلومات التالية:

(إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ{23})
يكمل الهدهد كلامه:

{إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ}، الملك الحاكم عليهم أنثى، وتلك المرأة، {أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ}، وسياق الكلام عن كل شيء تحتاجه في مملكتها، حَيْثُ عندها مدينة كبيرة، وعندها جيش، وعندها مجلس مستشارين وأموال وعمّال و...

{وَلَهَا}، وللملكة، {عَرْشٌ عَظِيمٌ}، حَيْثُ لاحظت شَيْئًا مُلْفِتًا، لِتِلْكَ المرأة كرسي على منصة ضخمة جدا، وَالْكُرْسِيُّ ضخم ومزخرف والمنصّة ضخمة ومزخرفة...

(وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ{24})
يكمل الهدهد:

{وَجَدْتُهَا}، لتلك الملكة، {وَقَوْمَهَا}، والناس الذين تنتمي لِجَمَاعَتِهِمْ، {يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ}، يَقُومُونَ بتعابير بجسدهم تُعَبِّرُ عن خضوعهم للشمس، حَيْثُ يُقَرِّبُونَ رؤوسهم باتجاه الأرض أمام الشمس، {مِنْ دُونِ اللَّهِ}، يَتْرُكُونَهُ سبحانه ويعبدون الشمس.

انتهى كلام الهدهد.

يمكنك القول أَنَّهُ سبحانه لم يعلّم النبي سليمان(ع) منطق الطير ليتسلى النبي(ع)، بل ليقوم بهداية الناس كما سنرى من تكملة القصّة، ولكن من مقصد السورة من ذكر هذه القدرة أنها لم تزده (ع) إلا إيمانا، سترى أنها من حيث المبدأ قدرة مشابهة في إتاحتها له بأي قدرة أخرى نتمتّع بها نحن، كقدرتنا على التكلّم مع بعضنا وقدرتنا على تحريك جسدنا... وَالْكَلَامُ مع الطير قدرة متميّزة ولكن لا تجعلها بصورة الشيء الذي إن تمتّعت به أنت فستصير مؤمنا صالحا لأنه تعالى منحه لك، وَبِضَبَابِيَّةٍ غير صحيحة نَتَصَوَّرُ هذه القدرة المميزة بحدّ ذاتها مسببة للإيمان، مثلما نتصوّر بضبابية أن نزول الوحي على شخص ما سَيَجْعَلُهُ مؤمنا، وهذا غير صحيح أبدا بتاتا، لأنك إمّا بقلب سليم فَسَتَتَمَاشَى مع معلومات الوحي، أو بقلب فاسد فَسَتَرْفُضُهَا وتعارضها وتبحث عن طريقة للتخلّص من وصول هذا النوع من المعلومات لك... وهنا نفس المبدأ، حَيْثُ إِنَّ نزول الوحي شيء غير عادي ولكنه ليس مسببا للإيمان، والقدرات الفكرية والجسدية البشرية نتمتع بها كلنا بالتساوي "تقريبا"، ولم تجعل الكثيرين مؤمنين عاملين للصالحات، ونفس الشيء بالنسبة لعلم النبي سليمان (ع) بمنطق الطير، وَقَدْ يجعله ذلك مُتَجَبِّرًا مَزْهُوًّا مُتَعَالِيًا عن الشكر لله تعالى... لِذَلِكَ ذكرته السورة لك كنموذج ترى منه شخصا بقدرات عالية وَزَادَ إيمانه بسببها لأنه هو سليم القلب...

يحتار فكرنا في هذه القدرة للهدهد على التوصيف! وَنَتَسَاءَلُ: هل هذه قدرة طبيعية يتمتع بها كل هدهد؟ أم أن الذي كان من جنود النبي سليمان(ع) كان مميزا؟ وَنَحْنُ الآن لا نملك قدرة على التفاهم مع الطيور الحالية حتى نعلم مقدار فهمها ودرجة رقي تفكيرها، ولكن نحتمل بشدّة أن الآيات تنقل المعاني التي قصدها الطير والتي فهمها النبي سليمان(ع)، لِأَنَّ الآيات لم تعرّب "لم تحوّل إلى اللغة العربية" كلام الطير لنا، بل نقلت معناه وما فهمه منه النبي(ع)، وهذا شيء منتشر في القرآن في قصص الأنبياء وكلامهم معه تعالى ومع الناس، حَيْثُ لم ينقل القرآن كلامهم إلى اللغة العربية بحرفيته من اللغة التي تكلّموا بها، وحتى الحوادث التي دارت بين أناس من العرب، وَالْقُرْآنُ لم ينقلها حرفيا، بل اختار من معاني الكلام الذي يَقْصِدُونَهُ ما يريدنا أن نلتفت له، وصاغه لنا بطريقة قرآنية...

هنا يبدو نفس الشيء، حيث لا الهدهد ولا النبي(ع) يتكلمان العربية، وَصَاغَتْ لنا الآيات ما عبّر عنه الهدهد بطريقته، وما فهمه منه النبي(ع)، والقليل جدا من الذي نعرفه عن سلوكيات وأصوات الحيوانات والحشرات سيساعدنا في الرجوع من كلام الهدهد المعرّب في الآيات إلى لغته العادية، وسنبدأ بالتحليل وأكرّر لك "بالتحليل"، بتقريب النقاط بالترتيب: وَالنَّحْلَةُ لديها طريقة لإرشاد بقيّة النحل إلى اتجاه وبعد المسافة ونوع حقل الرحيق أو الدبق الذي اكتشفته، ويبدو أن الهدهد لديه طريقة مشابهة للتعبير عن بعد واتجاه المكان ووصف بيئته، فإن لم يكن لديه القدرة على معرفة اسم المدينة من كلام الناس فربما فهم النبي(ع) من تعبير مشابه لتعابير النحل أن الهدهد يقصد سبأ.

وَبِالتَّحْلِيلِ التقريبي، كَانَ الهدهد أليفا للنبي سليمان(ع) ويراه جالسا على العرش يصدر الأوامر له ولغيره، والحيوانات تميّز الذكر والأنثى من أبناء جنسها، لِذَلِكَ عَبَّرَ الْهُدْهُدُ للنبي(ع) عن الجنس الآخر من البشر يجلس مثلما أنت تجلس وتصدر الأوامر.

بالتحليل التقريبي، الطيور تميّز وتعتني بجمال وحجم وتنسيق أعشاشها، لِذَلِكَ عَبَّرَ الْهُدْهُدُ عن حجم ضخم حيث تجلس المرأة وَفَهِمَ النبي(ع) المعنى بأنه العرش.

ومن أمثال الآية 41 من سورة النور {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ...}، نعلم أن كل الطيور تسبّح وتسجد لله تعالى، وَالْهُدْهُدُ لديه فهم "بدرجة مختلفة عنّا" لعبادة الله تعالى، ومهمته الاستطلاعية "كجندي في جيش النبي(ع)" ليبحث عمن يشرك بعبادة الله تعالى، وَشَاهَدَ عبادتهم للشمس، وربما لاحظ ذلك من انحنائهم وسجودهم نحو الشمس بأوقات مختلفة وباتجاه ملاحق لاتجاه الشمس خلال النهار، وربما لاحظ انتظارهم للحظة شروق وغروب الشمس للسجود أو الانحناء باتجاهها... وَعَبَّرَ للنبي(ع) عن ذلك وفهم النبي(ع) أنهم يعبدون الشمس.

هذا كلّه تحليل تقريبي لا أقصد منه إبعادك عن صريح الآيات التي تقول بأن الهدهد قال، ولكن أدفعك لتشبيهها مع عموم ما نقله القرآن من أقوال الناس، حيث نقل لنا المعنى الذي يَقْصِدُونَهُ من كلامهم ولم يهتمّ بنقل كلامهم حرفيا.

انتهت الآيات من نقل كلام الهدهد، وجاءت بِتَعْلِيقٍ من ربنا سبحانه على حالة عبادة قوم سبأ للشمس، وسيستمرّ التعليق الإلهي من هنا إلى الآية 26:

{وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ}، حَيْثُ قَامَ الموصوف بالقيام بأعمال الضلال لنفسه ولغيره، قام بتجميل عِبَادَةِ الشمس لقوم سبأ، {فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ}، وَمَنَعَهُمُ الشيطان عن السلوك، وهنا المقصود منعه لهم عن السلوك الصحيح، حَيْثُ حَرَفَهُمْ عن معرفة الله تعالى وتوحيده، {فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ}، أَيْ إِنَّهُمْ ليسوا على الأشياء الصحيحة التي توصلهم لغاية صحيحة، وَبِعِبَادَتِهِمْ للشمس هم أصلا لا يعبدونه تعالى، ولا يعبدون إلها حقيقيا...

تذكّر بداية السورة عن تزيينه تعالى للكفّار أعمالهم السيئة، وهنا ترى آلية حدوث ذلك عبر الشياطين التي توسوس للناس ليروا عبادة الشمس العمل السَّيِّئَ السخيف، ليروه حسنا...

كما تعلم، الشيطان صفة لمن يقوم بالأعمال الضالة ويشجع الآخرين على القيام بها، وعلى رأسهم الجنّي إبليس الأكثر إصرارا على الشيطنة، وبحسب سياق الكلام القرآني تفهم إنْ كانت كلمة "شيطان" تقصد إبليس شخصيا، أو تقصد عموم أي موصوف بالشيطنة، والآية هنا ليست محصورة بالإشارة لإبليس، ولكنه عادة الذي يخطر ببالنا لأنه رأس الشيطنة، فهو بشكل ما حتما خلف عبادتهم للشمس، وعادة يتشارك في ذلك شياطين آخَرُونَ من الجنّ والإنس.

من المفيد الرجوع إلى ما ورد منذ قليل في دراسة الآية 19 عن الأخبار القرآنية الاستفزازية لنا لتقليدها أو محاكاتها، فبغض النظر عن مقصد السورة من هذه الحادثة فالكلام مع الهدهد وفهم كلامه هو خبر استفزازي لنا، وليس معلوما إنْ كنّا سنستطيع فعله، وسيكون رائعا لو توصلنا لآلية ما لفعل ذلك تماما أو محاكاته.

(أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ{25})
يكمل سبحانه تعليقه على عقيدة سبأ:

{أَلَّا}، أَنْ لا، {يَسْجُدُوا}، لا يقوموا بأشد تعابير وحركات الخضوع، {لِلَّهِ} تعالى، لصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، وَلَا يخضعوا له تعالى عبر تقريب وجههم من الأرض وهو، {الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ}، الذي يجعل الشيء المخبّأ المستور يخرج، وَإِذَا كان هناك شيء من الصعب معرفة مكانه، فإنه لا يصعب عليه سبحانه أي شيء، بل يخرجه من مكانه أينما كان، سواء أكان، {فِي السَّمَاوَاتِ}، السبع الواسعة الشاسعة الضخمة أو في، {الْأَرْضِ}، وهذا التعبير القرآني يشير لحدود كل دنيا المخلوقات ويقصد أنه أينما كان الشيء المخبوء في الدنيا فسبحانه يخرجه من مخبئه.

والله سبحانه الذي، {يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ}، ما تسترون عن الآخرين، في عقولكم أو ضمائركم، وَيَعْلَمُ أسراركم، {وَيَعْلَمُ}، {مَا تُعْلِنُونَ}، من قول أو فعل تقومون به أمام الآخرين.

ما معنى عبادة الشمس؟ وهي كائن مخلوق وليست إلها، وما معنى تركهم لمن لا يخفى عليه أي شيء بينما الشمس تختفي خلف الأفق؟ وهذا أبسط اعتراض على ألوهيتها، وما معنى عبادتهم لها وهي لا يصل شعاعها إلى ما تحت سقف بيوتهم... لِأَنَّ الْإِلَهَ حتما يجب أن يكون قادرا على معرفة كلّ شيء أينما كان، وإلا لَمَا كان فعلا إلها، ولكان مخلوقا، مُحَدَّدًا بمكان وحيّز... وهذا لا يتماشى مع الوصف بالألوهية.

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ{26})
يكمل سبحانه كلامه ليعرّفنا بنفسه:

{اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، صاحب هذا الاسم المميّز "الله" وحده له الصفات والقدرات الفائقة التي لا يملكها الآخرون. فالعبادة والطاعة والحمد والشكر والتسبيح والنذور والدين... يجب أن تكون كلّها للإله الذي صنع المخلوقات ويدير شؤونها، ويوجد إله واحد فقط، واسمه: الله. {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، لا يوجد إله غيره، وهو أقوى قوة في السماوات والأرض، وهو إلهنا كلنا، ولا يوجد إله غيره أبداً بتاتاً، ولا يوجد نصف إله ولا ربع إله، ولا أي شيء يشبهه أبداً.

الله هو، {رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}، العرش هو عموم ما كان فوق ويقابله الفرش لعموم ما كان من تحت، وسياق الكلام عن العرش هنا يشير إلى خصوص معنوية إدارة الآخرين، ووصفه تعالى به يشير إلى السلطة والإدارة المركزية لكل السماوات والأرض، وعرش الملك هو الكرسي الموضوع على منصة كبيرة، ويجلس عليه الحاكم ليدير شؤون وأمور مملكته، أمّا سبحانه فعرشه يمتد إلى كل مكان في السماوات والأرض.

من السهل فهم هذه التعابير القرآنية على مبدأ استعمال الكلمات على الوصفية وليس على الاسمية، حيث إنّ الكرسي اسم لشيء، والعرش اسم لشيء، واليد والوجه... أسماء أعضاء، ولكن نفس هذه الكلمات وصفية وترى ما أقصده بسهولة من اسم قدّاحة لأنها اسم لما يقدح، وهكذا بقية الأسماء نستعملها على الوصفية، ضع يدك معي، نقصد بها أن تساعدني، وهذا استعمال حقيقي لكلمة يد، ونفس الشيء وصفه تعالى بفعله بيده شيئاً، والاستعمال حقيقي على الوصفية لما يفعل به تعالى، ومضافاً لهذا المبدأ تضيف إليه سحب الخصائص البشرية عند استعمال كلمات لغتنا في وصفه تعالى، حيث إنّ كلمات لغتنا نحن البشر وضعناها لما نتعامل معه، وبديهي أننا ليس لدينا كلمات خاصة بالشؤون الإلهية التي لا نفهمها، بل نستعمل كلمات من لغتنا البشرية لوصفه تعالى، والعرش كلمة بشرية لوصف شيء يتعامل البشر معه وهو الكرسي الفخم الضخم الذي يجلس عليه من له سلطة السيطرة والإدارة المركزية، ولوصفه تعالى بأنه الملك الحاكم المدير المتابع لشؤون كل شيء، كان التعبير العربي بأنه رب العرش، وعلى الوصفية عرشه تعالى كل السماوات والأرض، واستواؤه تعالى عليه وصف لحالة التناسب مع السيطرة المركزية الصلبة المتمكنة.

لاحظ الآية تريد الإشارة إلى العرش العظيم للمملكة، وأن عرشها وعروش كل الملوك لا يمكن مقارنتها بعرشه تعالى.

تذكّر دائماً أننا كبشر حيث جعل سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرّف عليه سبحانه من ملاحظة أفعاله "آياته في خلقه" ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء... وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق بالقوّة الإلهية الفائقة عند الوقوع في الشدائد... ووضعنا كلمة نصف بها الكائن ذَا الصفات والقدرات العالية جداً عن قدراتنا، وهي كلمة "إله" كوصف لذي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلّق به عند الوقوع في الورطات...

في الحقيقة، الكائن الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة، والذي ليس مخلوقاً هو الله سبحانه، وتساهل الناس في استعمال كلمة إله لتنطبق على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، ويطلقونها على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أن فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}...

القرآن يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهي، ويقوّم اللغة ككلّ، ويقوّم دقّة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة "إله"، ويخبرنا أنها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرّج في استعمالها.

المشركون الناطقون باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... استعملوا كلمة إله بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

قارنها مع كلمة "ربّ"، فأنا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... وهذه كلمة تتحمّل التدرّج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهي، فهي لا تتحمّل التدرّج، وهي حصراً له تعالى ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهي.

كلمة إله في حقيقة معناها لا تتحمّل التدرج ليوصف بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، وعندما يخبرك أنه خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، وسبحانه وظّف الملائكة(ع) التي خلقها لتنفيذ بعض أوامره... وهكذا ترى بوضوح أنه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، وماذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدّد له والمميّز "الله" جلّ جلاله فعل كل شيء، وما معنى ألوهية غيره! وهذا ملخّص مبسّط للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

ألفت انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، وحصروا استعمال كلمة إله للإله الكبير، واستعملوا للآخرين وصف الربّ، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربّة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون: إله المطر وإله الحرب... وعلى كل حال القرآن رفض توصيف غيره تعالى بالألوهية والربوبية من مستوى إلهي، لأنّ المشركين يعتقدون بوجود كائن "ربّ" مسيطر على المطر من مستوى إلهي

وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم أنه توصيف لألوهية أربابهم.

من ناحية ثانية لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، يصير الهوى إلهاً كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}...، وهي لا تشير لاعتقاد الشخص بأن هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لدين فيه ما يهواه، عملياً هو يعبد هواه.

بالنسبة لأصل كلمة "الله" فهناك كلام كثير حولها، ويبدو من تتبّع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حالياً بالسامية... أن الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة "إله" ومنها جرى اشتقاق اسم العلم "الله"، وهذا الاسم لم يكن متداولاً في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط وللآخرين نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، وكلمة إله واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات ما يسمّى بأصل اللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة الله من وصف الإله ومتى، فهل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قديماً عبر الوحي، فالأرجح عندي "استذواقاً" أنه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك "استذواقاً" لأن المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين بلا مستند صريح لتأكيد كلام ما، وهو بطبيعته يصير استذواقياً لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا ذات نفسي في سياق كلام آخر أستذوق أنه تعالى هو سمّى نفسه، وليس من المعقول ولا من المقبول منك أن تطلب حسماً من الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دليلاً حاسماً، ولا مقبول من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنه الصحّ إلا اللهم إن قدّم دليلاً دامغاً، وهذا لا يبدو ممكناً في مسألتنا هذه.

(قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ{27})
قال النبي سليمان(ع): {سَنَنظُرُ}، سنوجّه اهتمامنا العام، {أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ}، سنحقّق في الموضوع ونمتحنك لنعرف حالك صادقاً أو كاذباً، لنرى إن اخترعت هذه الحجة لتبرّر بها غيابك.

(اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ{28})
{اذْهَبْ}، أيها الهدهد إلى هؤلاء القوم، {بِكِتَابِي هَذَا}، بهذا الذي كتبته، {فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ}، ارمه عليهم ليلتقطوه ويقرؤوه، {ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ}، ابتعد حتى لا يطالوك فلا يتعاطوا معك، {فَانظُرْ}، بعد إلقاء الكتاب وجّه اهتمامك العام، {مَاذَا يَرْجِعُونَ}، ماذا يرجع منهم، ماذا يصدر منهم من تصرّف بسبب الكتاب، وماذا سيكون موقفهم من بعدما يقرؤون الكتاب.

(قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ{29})
انطلق الطائر بالكتاب، ويبدو من التعبير أن الملكة كانت بدون مَلَئِها لوحدها عندما ألقى الهدهد عليها الكتاب، فالتقطته، وقرأته، وبعد ذلك، دعت مستشاريها لاجتماع، وقالت:

{يَا أَيُّهَا المَلَأُ}، أيها الوجهاء من الوزراء والمستشارين... {إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ}، جرى رمي كتاب لألتقطه، وهو {كَرِيمٌ}، له قيمة عالية ومهم جداً، فهو صادر عن جهة لها مكانة وقدرة عالية.

(إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ{30})
{إِنَّهُ}، هذا الكتاب، {مِن}، المدعو: سليمان، ويبدو أنه(ع) كتب اسمه في نهاية الرسالة أو في نصّ منها، {وَإِنَّهُ}، الكتاب فيه ما يلي:

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، افتتاحية الرسالة باسم الله الموصوف بالرحمة العامة للعناية بكل مخلوقاته وموصوف بالرحمة الخاصة بالعناية بالمؤمنين فقط بشكل مميّز عن الآخرين.

كما ترى، هذه البسملة هي نفسها التي ميّزت سور القرآن لتفصلها عن بعضها، وهي غير مذكورة في التوراة ولا في الإنجيل.

هنا تلاحظ معنى هذه الجملة التي تفيد بأن الرسالة موجّهة لسبأ عبر سليمان وأن ما فيها ليس شيئاً شخصياً منه(ع)، فهو من خلفية الإيمان بالله تعالى يوجّه هذه الرسالة لهم، وهذا في أساسه مشابه للرسائل التي يتم تداولها في الممالك ويتم تصديرها باسم الملك، فحتى الأحكام والتشريعات والبلاغات... تصدر باسم الملك على أساس أن أي شيء يحصل في المملكة لن يتم إلا بموافقة الملك.

(أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ{31})
{أَلَّ}، أن لا، {تَعْلُوا عَلَيَّ}، لا تستعلوا على ما أقول، فلا تروا أنفسكم أعلى منّي فتفكّروا أن لا تخضعوا لي، {وَأْتُونِي}، واحضروا لعندي، {مُسْلِمِينَ}، منقادين، وهذا الوصف يحتمل إسلامهم على معنى إعلانهم التوحيد بانقيادهم لله تعالى فقط بدلاً من الشرك به، مما يعني إسلامهم أي انقيادهم لما يعرضه عليهم النبي (ع) من دين، ويحتمل إسلامهم على معنى إعلانهم أنهم تحت حكم النبي(ع) حتى لو بقوا مشركين، وهذا هو المعنى الأرجح، وبعد قليل سنبحث في هذا الموضوع.

على هذا يجب أن تذهب الملكة مع وفد إلى الملك سليمان(ع) وتعلن أمامه أنها ومملكتها تابعون له وتحت حكمه.

هل هذا فقط مضمون الرسالة أم جرى اختصار كلام منها؟ يبدو على الأقل أنه جرى اختصار اسم من بعث بالرسالة، فما نقلته الآيات عن مضمون الرسالة ليس فيه ذكر اسم النبي سليمان(ع)، وهذا يشير لكون الرسالة حوت معلومات أخرى، فلنقل أنها حوت معلومات دينية مختصرة... وربما لا، واكتفى (ع) بالبسملة لشهرة دينه في المنطقة، وربما...

هنا علينا تحليل الموضوع لكونه مرتبطاً بتعرّفنا على ما يمثله سليمان (ع) كنبي وكملك في نفس الوقت، فهل يعرض عليهم بالقوّة الانتماء لدينه تعالى ليكونوا "مسلمين" فإن رفضوا سيحاربهم؟ أو يعرض عليهم الانقياد له شخصياً كملك يريد فرض وبسط سلطته على منطقتهم؟ أو الاثنين معاً؟

نضع في بالنا أن الكلام هنا عن مملكة سبأ يريك أنهم كان لهم قوّة عسكرية، وهكذا نضيف على الاحتمالات السابقة أن الدارج بين الممالك فرض المملكة القوية سلطتها على الأضعف منها، ففرضاً فرضاً كان أهل سبأ مشركين ومسالمين، فهل النبي مأمور بفرض دينه تعالى عليهم بالقوّة؟ لا، وهذا ما تراه جلياً في القرآن، وترى أن الواجب على المؤمنين عموماً إنذار المشركين فقط، وذلك عبر دعوتهم للإيمان بدينه تعالى واتّباع شريعته، وبعد ذلك فإن كانوا مسالمين فلا سبيل للمؤمنين عليهم، فلا يحقّ لهم جعلهم مؤمنين ملتزمين بالقوّة بدينه تعالى، ولا يحق لهم التعرّض للمشركين بأي نوع من أنواع الأذية أو الضرر، وهذا ما تراه واضحاً من الآية 8 من سورة الممتحنة {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

هذا حكم إلهي على المؤمنين ولا تغيُّرَ فيه، لأن معياره مستند على أسس الحقّ والباطل والصلاح والفساد والخير والشرّ... وليس مثل حالة تشريع تحريم أو تحليل شيء ما بسبب اختلاف الظروف، كالحالة النادرة لتحريم بعض أنواع شحوم الأنعام على بني إسرائيل، وإعادة تحليلها فيما بعد، وراجع في ذلك دراسة الآية 146 من سورة الأنعام {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}، فطالما الظروف الزمانية والمكانية مشابهة، وهناك مشركون مسالمون، فالحكم الإلهي واحد: إنذارهم فقط.

بناء عليه، دعوة النبي سليمان (ع) لهم ليأتوه مسلمين، والتي يبدو منها أنه (ع) يعرض عليهم أن يأتوا إليه ليعلنوا إيمانهم بدينه، هذا ما معناه وكيف يحصل وهم لم يصلهم من دينه إلا رسالة فيها بضع جمل وغير كافية للتعرّف على الدين الإلهي؟ فهل يصح الافتراض أنه (ع) أراد من هذه الرسالة القصيرة القول لهم أن يؤمنوا بدينه على العمى ولمجرد أنه أقوى منهم؟ وإلا هجم عليهم ودمّرهم!

فإن لم تكن دعوة للانضمام لدينه فالاحتمال الثاني الأرجح أن يأتوه مسلمين على معنى خضوعهم وتبعيتهم لحكمه، وهذا يعني أنهم وبسبب القوّة العسكرية التي لديهم فهم يشكلون خطراً ما، مع العلم أنهم مسالمون، وبالتالي يعرض عليهم النبي(ع) الخضوع لحكمه لأنه أقوى منهم، ولا يعرض عليهم دينه لأنه أقوى منهم، وترى هذا المعنى من الآية هنا {أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ}، وتراه فيما سيأتي من كلام الملكة مع مستشاريها عن القوّة القتالية... فليس فيه أي إشارة للإيمان أو الدين...

بقي شيء، الآثار المكتوبة هي مصدرنا للتعرّف على التاريخ القديم، وكما ترى قديماً جداً لم تهتم الشعوب عموماً بالتأريخ لنفسها ولا لغيرها، وهناك قلة نادرة من الرحّالة والمهتمين بالتعرّف على الحضارات الأخرى كتبوا عن معاصريهم... وأضف إلى ذلك المبالغات والكذب فيما كتبوه والمبني على عقلية تزوير التاريخ لصالحهم... والمعلومات غير الدقيقة أو الخطأ...

بالنسبة لموضوعنا هنا ولعموم ما ذكره القرآن عن أقوام قديمة، في القرآن في بعض القصص تجد القليل من الإشارات المساعدة على تحديد الحقبة الزمنية للأحداث، ولتثبيتها تحتاج لآثار، وللأسف لم يتعامل المسلمون بمنهجية علمية مع التأريخ والآثار، وتعاملوا بالتخمينات والمعلومات الشعبية، واستوردوا معلومات من التراث الشعبي لأهل الكتاب ومن كتبهم كالتلمود والتوراة...

معلوم أن التوراة قسم صغير جداً منها هي توراة النبي موسى(ع)، والبقية كتب منسوبة لأنبياء، وكتب ألّفها علماء اليهود، وتوراة النبي موسى(ع) وقع فيها تحريف لم يدمّر أساسيات الدين الإلهي من عقيدة وتشريع، فبالاعتماد على القرآن يمكنك استخراج أساسيات العقيدة والشريعة الإلهية الحقّة من التوراة وتمييز التحريف بسهولة.

أمّا بقية الأسفار فهي بالعموم تأريخ لأحداث، وللأسف لم يكن للمؤرخين منهج علمي رصين، وكانوا مزاجيين عابثين...

للأسف، اعتمد العديد من الجيل الأول وما بعده من المسلمين على نقل ما جهلوه من التاريخ من التوراة ومن بقية مصادر أهل الكتاب، ولم يشيروا إلى مصادرهم مما أدّى إلى الاعتقاد بأن كلامهم مصدره إسلامي! وموثوق!

من ذلك كمثال انتشار سلسلة النسب من آدم(ع) وصولاً إلى النبي محمّد(ع) فهي خليط من التوراة في جزئها الأول وصولاً إلى النبي إسماعيل(ع)، والجزء الثاني من تخمينات المسلمين لأجداد النبي محمّد(ع)...

في دراستنا هذه رجّحنا وبناء على الإشارات القرآنية بمقارنتها مع الآثار أن يكون الفرعون خوفو هو المعاصر للنبي موسى(ع)، وراجع في ذلك أي آية ورد فيها ذكر هامان كالآية 6 من سورة القصص، وبناء عليه سيحصل في التاريخ التوراتي انزياح إلى الخلف بقرابة الألف سنة.

هنا في الكلام عن النبي سليمان(ع)، لحدّ الآن لم أجد ولا مصدراً موثوقاً حول تحديد حقبته الزمنية، وما في التوراة عن معاصرته (ع) للملك الفينيقي أحيرام فهو على ذمّتهم، وذمّتهم تبدو واسعة بالنظر إلى كلامهم عن شخصية النبي سليمان(ع) وأفعاله التي لا تتماشى مع أوصاف الأنبياء عموماً، ولا مع ما ذكره القرآن عنه (ع) من قدرات هائلة تمتّع بها...

المجال مفتوح أمامك لتحديد تاريخه (ع) وتحديد تاريخ مملكة سبأ التي تعامل معها، وأنصحك بأن لا تعتمد ما تجده في كتب المنتمين لدينه تعالى من مسلمين وأهل كتاب، لأن غالبيتهم الساحقة كانوا ناقلين للتخمينات التي لا تستند على أي دليل ملموس، وطبعاً هذا لا يعني الاعتماد على أثر مكتوب لغيرهم، لأن غيرهم لم يكن أصدق منهم، ولكن الأثر كأثر سيقرّب لك الصورة ليعطيك تحديداً للحقبة التاريخية، حيث إنّ أي نقش أو وثيقة مذكور فيها الملك سليمان(ع)، وتشير لصفات متقاربة مع ما ذكره القرآن، سنحتمل بقوة أن تاريخ الوثيقة يقرّب لنا تاريخ الحقبة، وربما هناك أكثر من سليمان(ع)، وربما الوثيقة زمنها متأخّر كثيراً عن الزمن الحقيقي، وربما...

(قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ{32})
قالت الملكة: {يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ}، يا أيها الوجهاء من مستشارين ووزراء... الذين آخذ منهم المشورة، {أَفْتُونِي فِي أَمْرِي}، فأسألكم إعطائي جواباً عن الأمر عن الموضوع، فهل نعلن إسلامنا له أو نحاربه أو...

{مَا كُنْتُ قَاطِعَةً}، ما كنت حاسمة، {أَمْراً}، فأي أمر من الأمور في أي موضوع كان، {حَتَّى تَشْهَدُونِ}، فتكونوا حاضرين ترون وتسمعون حين اتخاذي للقرار، فكما تعلمون فأنا لا أتّخذ قراري أثناءَ غيابكم، بل عادة أتشارك معكم في الرأي ثم أصدر قراري أمامكم.

ما رأيكم؟ هل نحارب؟ هل نسالم؟ أم لديكم رأي آخر... فاقترحوا عليّ.

(قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ{33})
{قَالُوا}، الملأ: {نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ}، موصوفون بالقوة فلدينا قوة عسكرية وهو الجيش، ونحن، {أُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ}، موصوفون بأن جيشنا إذا قاتل فلديه بأس شديد فأثر عمله على العدو سيّء وغير حميد وبشكل شديد قوي جداً، فجنودنا شجعان ويقاتلون بشراسة.

{وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ}، فحسم الموضوع عندك لاتخاذ القرار المناسب، فنحن من جهتنا مستعدون للحرب، {فَانْظُرِي}، فبعد الذي قلناه وجّهي اهتمامك العام، {مَاذَا تَأْمُرِينَ}، فسنفعل ما تقولين إمّا نحارب أو نستسلم.

من الآية هنا والتي سبقتها والتالية ترى ملكة عاقلة رزينة تشارك الوجهاء في قراراتها، وترى من كلام مستشاريها أنهم أيضاً عقلاء ويثقون بعقلانيتها وحكمتها، وتنظيم الحكومة عندهم مقدّس فالرأي الأخير والحاسم للملكة. أقول لك هذا لأن السورة تريدنا أن نقارن حالتهم مع حالة فرعون ومستشاريه الذين فقدوا العقلانية حين تعاملوا مع تسع آيات إلهية مُصِرّينَ أنها سحر... ولم ينظروا للاحتمالات الأخرى بل عناداً جحدوا وكفروا بالآيات الإلهية، بينما هنا ترى قوماً أقوياء أغنياء ومرتاحين... ورغم ذلك يحسبون بعقلانية كافة الاحتمالات، وهم يجهلون القدرة القتالية للنبي سليمان(ع) ولكن يرون أنفسهم مستعدين للمواجهة وسترى أن العقلانية الواضحة هنا لملكتهم ستنعكس عليها لتؤمن عند أول احتكاك لها بأثر يدل على قدرات ممنوحة بتدخّل إلهي...

(قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ{34})
{قَالَتْ}، الملكة: {إِنَّ الْمُلُوكَ}، إن الحاكمين لجماعة من الناس، {إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا}، فإذا حاربنا وخسرنا، ودخل علينا هذا الملك فمثله مثل بقية الملوك، سيفسد قريتنا، وما نحن فيه من صلاح اجتماعي واقتصادي وأمني... سيصير فاسداً، بالقهر والسلب والقتل وفرض قوانين ظالمة...

والملوك عادة إذا انتصروا، {جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا}، جعلوا غير المنقادين لغيرهم من المنتسبين للمجتمع الخاسر من الناس، جعلوا الحاكمين، {أَذِلَّةً}، منقادين غصباً عنهم لأوامر المنتصر عليهم. فأنا ملكة وأنتم ملأ، ولكن بعد الخسارة فلا أنا ملكة ولا أنتم ملأ وسنصير ذليلين محكومين لمن انتصر علينا، وسيعيّن واحداً من التابعين له ونصير كلّنا تابعين له.

إذا أخذنا قرارنا بالحرب، وحاربنا وخسرنا، فسنفقد الحكم وتفسد معيشة قريتنا بسبب الحكم الظالم لمن حاربناه وانتصر علينا، ومن أرسل إلينا هذا الكتاب ربما يكون أقوى منّا، وبناءً على هذا الاحتمال:

(وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ{35})
{وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ}، سأرسل إلى سليمان أشياء من دون أن يطلبها منّا ونقدّمها له بدون مقابل منه، {فَنَاظِرَةٌ}، وسأنتظر وسأبقى مدّة من الزمن لأرى، {بِمَا يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ}، ماذا سيقول الأشخاص الذين أوصلوا الهدايا، وسنعرف رأيه بها، وهل سيكتفي بها ولا يهاجمنا، أم هل سيطلب المزيد من المال، أو سيعتبرها عربون صداقة ولا يهاجمنا... وماذا سيقول للمرسلين... والمرسلون ما رأيهم بقوّته العسكرية وبعدالته وحكمته...

لن نعلن استسلامنا ولا عداوتنا، بل سنعلن صداقتنا بهدية، فإذا قبلها كصداقة أو اعتبرها ضريبة أو رفضها وطلب أكثر منها... والرسل سينظرون في مملكته ليحدّدوا قوّته العسكرية وما دينه... وبناء عليه نحدّد موقفنا منه.

(فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ{36})
{فَلَمَّا جَاءَ}، عندما وصل الرسل الحاملون للهدايا من الملكة إلى النبي سليمان(ع)، {قَالَ} النبي(ع) للرسل:

{أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ}! حيث أطلب منكم أن تأتوني مسلمين أمركم لي، وترسلوا لي المال مددا على أساس أني مقطوع من المال وأحتاجه وقمتم بتأمينه لي... حتى أترككم؟

{فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم}، ما معي وحصلت عليه منه تعالى فهو موصوف بالخير أكثر مما معكم، أحسن مما أعطاكم، وعندي مال أكثر منكم، {بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ}، عادة حتى لو كان لديكم الكثير من المال فستشعرون بحالة نفسية جيدة إن جاءتكم هدية مالية.

هذه هي عادة الملوك، تفرح بالهدايا القيّمة حتى لو كانت لديهم خزائن مليئة بالمال، ولكن ليس النبي سليمان(ع)، فهو حتما يريدهم أن يعبدوا الله تعالى ويتوقفوا عن عبادة الشمس ولا يهمّه المال.

(ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ{37})
يكمل النبي(ع) كلامه:

{ارْجِعْ إِلَيْهِمْ}، عُد إلى قومك، والكلام موجّه لرئيس الوفد، {فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ}، سوف نذهب إليهم بالملتزمين بتنفيذ أوامرنا، {لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا}، لا قدرة لهم عليها، ولا يستطيعون هزيمتها، {وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا}، من مدينتهم، {أَذِلَّةً}، سنجعلهم تحت أمرنا بعد أن نهزمهم، {وَهُمْ صَاغِرُونَ}، "صاغر اسم فاعل من صغر" أي وهم صغار على حجمهم الطبيعي، بلا قدر وبلا قيمة بالنسبة لنا فنحن أكبر منهم.

فهذا المال الذي على شكل هدية تقصدون منه أن أفرح به على أساس أن أفرض عليكم دفع المال سنويا مقابل ترككم... فهذا ليس هدفي، لذا سأذهب إليكم بقوّة عسكرية لأغيّر الحكم.

بما أن الكلام عن نبي ملك فبالتحليل نعتقد أن هدفه تغيير الحكم المشرك وفرض حكم ديني توحيدي.

... رجع الرسل مبهورين مما رأوه من الكائنات المختلفة التي تحت إمرة النبي سليمان(ع)، ومن العمارة والقدرات المنعكسة على المدينة وحياة الناس... وحملوا معهم تهديدا شديد اللهجة، ونقلوا لقومهم الصورة المرعبة لما يمكن أن يحصل إذا هجم عليهم النبي سليمان(ع) بسبب قوّته...

(قَالَ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِين{38})
... علم النبي(ع) بقرارهم بالاستسلام، أو احتمل بقوة أنهم سيستسلمون، أو علم بأن الملكة قادمة للتفاوض... فقال أمام مستشاريه والقادة:

{يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ}، يا أيها الوجهاء من وزراء ومستشارين وقادة... {أَيُّكُمْ}، أي واحد منكم، {يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا}، يحضر لي من قصرها في سبأ إلى هنا المنصّة الضخمة التي تجلس عليها، {قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}؟ قبل أن يصلوا إليّ وهم يعلنون انقيادهم لي؟

عرش الملكة كان مميزا وضخما جدا كما مرّ معك من وصف الهدهد له في الآية 23 من هذه السورة، ولا يمكن حمله وإخراجه من القصر بسهولة، ويحتاج لساعات طويلة أو ربما أيامٍ والكثيرَ من العمّال لتفكيكه وإخراجه من القصر... ناهيك عن نقله من سبأ إلى حيث النبي سليمان(ع)، وفكّر النبي(ع) بأن اختفاء العرش من القصر هكذا فجأة! سيسبب ضجة كبيرة في سبأ، وستكون حادثة لافتة ولا يمكن نسيانها... وحين يحضر الوفد ويرَوْنَ العرش الضخم سبقهم ووصل قبلهم من المفروض أن يجعل موقفهم ضعيفا جدا أمام قدرات تفوق تصوّرهم...

(قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ{39})
{قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ}، قال واحد من الجن لديه قدرات عجيبة، والعفريت كما نقول الآن: داهية. وهي وصف لمن يستطيع فعل أشياء عجيبة بطرق غريبة، وقال العفريت:

{أَنَا آتِيكَ بِهِ}، بالعرش، {قَبْلَ أَن تَقُومَ}، قبل أن تصير قائما واقفا، {مِن مَّقَامِكَ}، من حيث أنت مكانك، أنت جالس على الكرسي وقبل أن تقف على رجليك أكون أحضرته. {وَإِنِّي عَلَيْهِ}، على العرش، على حمله ونقله من هناك إلى هنا، {لَقَوِيٌّ}، عندي القدرة، وأيضا، {أَمِينٌ}، وسياق الكلام ليس عن الأمانة بأن لا يسرقه أو يسرق منه شيء، بل عن نقله كما هو من دون تكسير أو نقصان.

(قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ{40})
شخص آخر كان في المجلس، ومن المشهور أنه من الإنس ويقولون في بعض الروايات إن اسمه "آصف بن برخيا"، عنده علم من الكتاب، هناك كتاب فيه كيفية فعل النقل الآني من بعيد للأشياء، وتعلّم منه.

ما يخطر ببالنا من قراءة القرآن عن ذلك الكتاب سنحتمل أنه الكتاب الإلهي الذي فيه معلومات عن كل شيء عن الدنيا ومنه نزل القرآن... ولكن من الصعب جدا بما نفهمه من القرآن أن يتّصل بذلك الكتاب أحد غير الملائكة العالية، وبناء على ما نفهمه من القرآن عن الملائكة (ع) أنها حصريا يوظفها تعالى فيما يأمرها به، وليست تحت إمرة أي مخلوق كما تفهم من عموم القرآن ومن الآية 64 من سورة مريم {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا}، فمن شبه المستحيل افتراض تواصل هذا الشخص بقرار منه مع واحد من الملائكة ليزودّه بالمعلومات من ذلك الكتاب، وهذا شيء مخالف للكثير من أدبيات المنتمين لدينه تعالى من صوفيين وعرفانيين الذين يعتقدون بتواصل الملائكة مع المؤمنين من الدرجة العالية من البشر وبدون توظيف منه تعالى للملائكة، وحتى إن أدبياتهم تصرّح بإمكانية القيام بطقوس من صيام عن اللحم لعدة أيام والخلوة وقراءة عزائم أو أدعية وصلوات... يحصل بعدها تواصل مع الملائكة، بحيث يمكنهم توظيف الملائكة لما يريدونه... وكما ترى فبالمقارنة مع كلام القرآن فهذه خزعبلات ولا دليل دامغٌ على حصولها، ومحصور الكلام عن حدوثها بين أشخاص لا ثقة بكلامهم، أو أشخاص يبدو أنهم ولسبب ما وصلوا إلى درجة الهلوسة وهم واعون...

سيخطر ببالنا كتاب التوراة، ولكن أيضا لا يوجد في التوراة ما يفيد في هذا الموضوع، ولا نجد في التراث اليهودي أي شيء مستوحى من التوراة حول هذا الموضوع، إلّا اللهم خزعبلات شبيهة بخرافات كتب الطلاسم المستخرجة من القرآن، والتي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا دليل ملموسٌ على تحقّق أي شيء منها... ورغم ذلك تجد لها جماهيرَ تؤمن بها لأنها تدغدغ أحلامنا ونريدها أن تكون حقيقية حتى يكون لنا نصيب منها إن صدقت...

أقول لك هذا لأن صياغة العبارة في الآية بالكلام عن "الكتاب" توحي بأنه كتاب نعرفه، أو كان معروفا عندهم وفيه معلومات عن فعل هذا الشيء، أو "وهو الأرجح" أن أل التعريف ليست عهدية بل واصفة للكتاب بما فيه من معلومات مفيدة عن هذا الموضوع، حيث عنده علم من الكتاب الذي فيه معلومات عن هذا الموضوع. وهكذا يبقى السؤال مطروحا، هل هو كتاب من تأليف البشر وفيه كلام عن آليات الانتقال الآني؟ أو من تأليف الجنّ؟ أو من تأليف الجن والبشر؟

على أي حال ذاك زمان كان يعجّ بالغرائب حيث الجنّ يعملون عند النبي(ع)... من التحليل لم أصل إلى أي شيء مفيد حول هذا الكتاب ولا على افتراض تصوّر لهذا العلم الذي يتيح فعل ذلك...

ما تجده هنا وهناك في مختلف أنواع الكتب، من رياضات وطقوس وتمائم ومواقيت طوالع النجوم... لفعل هذا النقل للأشياء أو الانتقال، فالتاريخ الموثّق الأكيد أنه ولا واحد غير الذي ذكرته الآيات هنا قام بشيء كهذا. وما يقولونه عن عرفاء ومتصوّفين لديهم قدرات على الانتقال الآني لمسافات بعيدة، فللأسف لا يمكن الوثوق به، لأن الناقلين لهذه الأمور يبالغون عادة في تمجيد وتقديس المتصوفين والعرفاء، ولو قرأت ما يقولونه من نظرة ناقد لرفضت الاقتناع بكلامهم غير الموثّق بأدلة...

نرجع للآية، {قَالَ}، {الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ}: {أَنَا آتِيكَ بِهِ}، بالعرش، {قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ}، قبل أن ترمش عيناك، قبل أن تغمض جفنك. وهذا يشبه تعبيرنا الحالي: بكبسة زر.

{فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ}، صار عند النبي(ع) صورة محدّدة للعرش لأنه مستقر ثابت عنده في ساحة مجلسه، وهكذا فجأة ظهر العرش أمامه بعد أن كان في سبأ! {قَالَ}، النبي(ع) مخاطبا نفسه ومخاطبا من حوله: {هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي}، هذا من الأمور الجيدة التي أعطاني إياها المسؤول عني من مستوى إلهي وهي ليست واجبة عليه تعالى بل فضلا منه تعالى حصلت عليها، وما أريده وآمر به يتحقق أمامي برمشة عين! هذا، {لِيَبْلُوَنِي}، ليصيبني سبحانه بما يمكن أن يغيّرني، ليمتحنني سبحانه كيف سأتفاعل وأتصرف: {أَأَشْكُرُ}، هل أشعر وأقول ما يعبّر عن اعترافي بعمله الحسن

سبحانه معي بوضع هذه القدرات تحت تصرّفي؟ {أَمْ أَكْفُرُ}، وأنكر فضله تعالى عليّ وأشعر بالتكبّر والجبروت؟ {وَمَن شَكَرَ}، من حصل على شيء جيّد وأعلن أنه حصل على شيء جيّد، {فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ}، سبحانه لا يستفيد من شعورنا ولا من قولنا الذي يعبّر عن اعترافنا له تعالى بجميل ما فعله معنا، بل نحن نستفيد لأنه تعالى سيرضى عنّا وسيكافئنا بالمزيد من فضله.

{وَمَن كَفَرَ}، من أنكر نعمته سبحانه، {فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ}، حيث إن المسؤول عني من مستوى إلهي لا يحتاج لأي شيء، وهنا بالتحديد هو سبحانه ليس بحاجة لتعابيري عن شكره، وربي، {كَرِيمٌ}، مكانته وشؤونه عالية جدا جدا، ولا تزداد قيمته عزّ وجلّ بسبب شكر من شكره.

بالنسبة لوصفه تعالى بالغني، عادةً ينصرف ذهننا إلى ملكيته تعالى لكل شيء، ولكن بالتدقيق في كلامه تعالى وفي استعمال العرب لهذه الكلمة تراها تشير لنفي الحاجة، سبحانه يملك كل الطعام، ولكنه سبحانه أصلا لا يأكل، لذا وصفه بالغنى لا يشير إلى ملكيته لما يحتاجه بل لنفي حاجته، والاشتقاق "استغنى" يعطيك المعنى المباشر لهذه الكلمة، وترى هذا المعنى بشكل مباشر وواضح لأصل معنى الكلمة في تعبير {وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} كما ورد في الآية 97 من سورة آل عمران، بوضوح يشير الوصف بالغني فقط لنفي الحاجة.

تذكّر دائما أن كلمة كريم لها معنى دارج غير معناها الأساسي، حيث درج أن معناها: العطاء بكثرة. ولكن معناها الأساسي هو القيمة والمكانة العالية، وبهذا المعنى استعملها القرآن، ومن الاشتقاق التطبيقي لذلك أحيانا الوصف بالكرم لما تعطيه بكثرة للآخرين.

بهذا الفهم والإيمان العميق، اختار النبي سليمان(ع) التعلق بربه سبحانه وشكره على نعمه، ونلاحظ ازدياد "سليمان" إيمانا كلما ازداد قوة، ونتذكر فرعون وقومه الذين ازدادوا كفرا وعلوا كلما لمسوا آية إلهية.

تراجع دراسة هذه الآية لترى أي خيط يوصلك لفهم آلية نقل العرش بلمحة، وهذا حلم من الطبيعي أن يراودنا، لأنها قدرة رائعة، ولكن للأسف تبقى الاحتمالات مفتوحة ولم أجد أي خيط لاتّباعه للوصول إلى تلك المعرفة، ولا أقصد غلق باب البحث عن ذلك ولكن أنبّهك من السخافات التي ستجدها في مختلف الكتب، وليكن عقلك رصينا، وعلى كل حال تجد في القرآن العديد من الأمور التي تحفّزنا، وأشهرها الكلام في الآية 33 من سورة الرحمن عن النفوذ في أقطار السماوات، والتعامل مع الجنّ، وخلق النبي عيسى(ع) لطيور من الطين، وحياة النبي نوح(ع) لأكثر من ألف سنة، والكلام مع الحيوانات... ربما نقل الأشياء آنيا ينفتح لنا بابه لمعرفة آلية فعله، من يدري؟ ولا تحصر هذا الموضوع بعلو درجة الإيمان والعمل الصالح كسبب حصري للحصول على هذه القدرة، حيث الآية صريحة بأن من فعلها تعلّمها، ومعلوم وبديهي أنه ليس أشدّ إيمانا ولا عملا صالحا من النبي سليمان(ع) الذي لم يملك تلك القدرة لأنه لم يتعلمها. أيضا لا تحصر هذا الموضوع بقدرة خرافية سحرية، كالذين يؤمنون بأن النطق بكلمات غريبة ينتج عنها آثارٌ خارقةٌ، لأن هذه خرافات، وإن أردت فابحث عن آليات فعل هذا الشيء بالطرق المتعارف عليها علميا وتجريبيا أنها فعلا تؤدّي لنتيجة، لأن كتب السحر والشعوذة والطلاسم والعزائم وتحضير الملائكة والجنّ... لم يكن لها أثر تطوّري أو ملموس إلا اللهم التخلّف العقلي والإيمان بالخرافات...

أكرر لك لتقويم وتصحيح نظرتنا عن الأنبياء، هنا وبكل صراحة وشفافية ترى النبي سليمان(ع) يعلن عن خطورة امتلاك قدرات عالية جدا، حيث قد يؤدّي ذلك به إلى الكفر! ولترى معنى ذلك قارنه مع حالة فرعون المالك لقدرات عالية وكانت سببا لكفره وتجبّره وعناده... وإعلانه نفسه إلها! ولم تصل قدراته إلى حدّ ما ملكه النبي سليمان(ع) الذي ما يزال إنسانا يتعرّض مثلنا لامتحان فتنة وبلاء.

(قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ{41})
قال النبي(ع) لعمّاله:

{نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا}، غيّروا لها عرشها حتى ينكره الذي يعرفه، قوموا بإجراء تعديلات عليه تجعل من يعرف شكله ينكره الآن ولا يتعرّف عليه أنه هو بالضبط.

عندما تأتي الملكة إلينا عندها، {نَنظُرْ}، نوجّه اهتمامنا العام إليها، {أَتَهْتَدِي}؟ هل ستتعرّف على الطريق الصحيح فتؤمن بديني حين ترى القدرات الموضوعة تحت تصرّفي، ومنه تعرف أن غايتي إيمانهم وليس توسيع مملكتي بالقوّة مع بقائهم كفّارا أو إجبارهم على الإيمان بالقوة... ومن ناحية ثانية نتعرّف على عقليتها ونفسيتها إن كانت من النوع الذي يتمسّك برأيه ولا يغيّره فكره.

{أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ}؟ فتكون من الذين لا يفهمون أننا نريد منهم الإيمان بدينه تعالى وليس فرضه عليها بالقوة، ونمتحن نفسيتها وعقليتها لنرى إن كانت عنيدة أو ليست على درجة عالية من الذكاء والحكمة.

هو اختبار لعقلها ليرى (ع) إن كانت سترى ما يقصده من تنكير عرشها، لأنها من المفروض أن تتعرّف عليه ولكن السؤال إن كانت ستعلم أن النبي سليمان(ع) وبهذا النوع من القدرات الهائلة المتاحة له والتي لم يستخدمها فورا لإخضاع سبأ بالهجوم عليها، منحهم الوقت والآن جاء بعرشها لتتلمس بيده قدرة لم تشهدها من قبل.

علينا بتشبيه هذه الحالة بحالة فرعون عندما جاءه النبي موسى(ع) بعصا تتحول لحيّة، فهل اهتدى؟ وهل آمن أنّ ربّاً قادراً قاهراً قويّاً هو من حول العصا لحيّة؟ أم كان من الذين لا يهتدون؟ فلا يؤمنون بدينه تعالى مهما حصلت أمامهم من آيات، لأنه عنيد وفاقد لهذا النوع من الحكمة الذي يجعله مؤمنا، وهذا ما حصل مع فرعون كما نقلت الآية 57 من سورة طه {قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى}، حيث أول ما خطر بباله وعلق في ذهنه هو التهديد لملكه بالرغم من الإعلان المتكرر من النبي موسى(ع) أن لا هدف له ولا غاية بملك مصر، وهنا تفهم الآية من هذه الزاوية ليشير النبي سليمان(ع) إلى أنها قد تظنّه تهديدا لحكمها ومملكتها فقط لا غير.

بعبارة مباشرة، لو كان هدف النبي سليمان(ع) من إسلامهم له أن يتوسّع حكمه ليشملهم، لكان استعمل القدرات المتاحة له لإخضاعهم بالقوّة، وهذه القدرات واضحة من نموذج نقل العرش بنقله من أمام أعينهم ومن قصر مشحون بالحرّاس...

(فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ{42})
{فَلَمَّا جَاءَتْ}، الملكة إلى قصر النبي سليمان(ع) أخذها الذين استقبلوها إلى حيث وضعوا عرشها، {قِيلَ}، فقال أحد ما لها: {أَهَكَذَا عَرْشُكِ}؟ لقد سمعنا بعرشك العظيم فانظري إلى هذا العرش... هل يشبه عرشك؟ أشاروا إلى عرشها الذي غيّروا بعض معالمه.

{قَالَتْ} الملكة:

{كَأَنَّهُ هُوَ}! هذا العرش يشبهه كثيرا لدرجة أنّي أظنّ أنه هو نفسه عرشي! كما ترى تعمّدوا أن لا يقولوا لها أنهم نقلوا عرشها، ونتصوّر اندهاش الملكة ودورانها حول العرش لتتلمسه وتتفحصه... وحيرتها كيف فعلوها؟ كيف أخرجوه من قصري؟ وكيف أحضروه إلى هنا؟...

أوامر النبي سليمان(ع) كانت لمن رافقها من جماعته أن لا يتكلموا معها بأي شيء ليتركوها في حيرتها، ودهشة الملكة جعلتهم يتحدثون مع أنفسهم فقالوا:

{وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا}، هي علمت الآن بالقدرة العظيمة المتاحة للملك سليمان(ع) من ربه سبحانه، أمّا نحن "المرافقون لها" علمنا هذا قبلها، {وَكُنَّا مُسْلِمِينَ}، منقادين لربنا سبحانه.

من يملك هذه القدرات قادر على فرض سلطته ودينه بالقوّة، ولكن النبي سليمان(ع) اختار الطريق الطويل لأن هدفه ليس ضمّهم لسلطته مع بقائهم كفّارا ولا إجبارهم على الإيمان بل ترغيبهم به...

كانت المرأة حكيمة، ليست ضعيفة العقل لتقول إنّه هو، لأن هذا مستحيل بالنسبة لها، وليست غبية لا تميّز عرشها، وهكذا اختارت عبارتها بدقة {كَأَنَّهُ هُوَ}، مما يدل على أنها من النوع الذي لا ينكر الحقائق وفي نفس الوقت لا يتبنى أي شيء بسرعة من دون تفكير.

(وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ{43})
يكمل الذين أوتوا العلم من قبلها وكانوا مسلمين وصف حالة الملكة:

{وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ}، عبادتها واعتبارها لنفسها تابعة للشمس ومفروض منها تأليهها وتبجيلها... تاركةً بذلك عبادته تعالى، حيث صدّها ومنعها من الإسلام، لأنها ليست كافرة من صميمها، بل كما يبدو لنا أنها عاقلة وتقتنع بالحقّ عندما تراه، {إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ}، من أناس لهم كيان الجماعة وهي تنتمي لجماعتهم، {كَافِرِينَ}، ناكرين لله تعالى، بسبب نشأتها بين جماعة منكرة لله تعالى وتوحيده، تماشت معهم في عبادتهم للشمس مما منعها من عبادته تعالى.

عبادة قومها للشمس منعتها من عبادة الله تعالى.

باب التحليل مفتوح للتعرّف على عقيدتها هي شخصيًّا، لأن الآية هنا تشير بشكل ما أنها لم تعبد الشمس عن قناعة، وربما تماشت مع قومها معتبرة الشمس كرمز للإله، وهذه عادة عقيدة الذين يمكن تسميتهم بالعقلاء من المشركين، وربما لم تؤمن بالشمس لا كرمز ولا كإله ولكنها تماشت مع ديانة قومها ولم تعارضهم علنًا، وهذه عادة حال الملوك الذين لا تهمّهم عقيدة الناس طالما الحكم مستقر... وربما...

(قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{44})
بعد قضاء الملكة بعض الوقت تراقب وتتفحص العرش، {قِيلَ لَهَا}، قال لها أحد ما:

{ادْخُلِي الصَّرْحَ}، ادخلي إلى البناء المرتفع وقاعدته واسعة، وقفت الملكة عند مدخل ساحة الصرح ونظرت إلى الأرض، {فَلَمَّا رَأَتْهُ}، عندما صار للصرح صورة محدّدة عندها، {حَسِبَتْهُ}، خطر في بالها لأول وهلة، بأن الصرح، {لُجَّةً}، اللّج هو الدخول في العمق، ومنه الإيلاج والولوج، حسبت الملكة أن الصرح هو بركة ماء عميقة نسبيًّا، والدخول إليه هو لجّة وهو دخول في شيء له عمق، وحسبت أن رجليها ستنزل فيه، {وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا}، رفعت ثوبها قريبًا من ركبتها حتى لا يتبلل ثوبها بالماء، ومشت على الصرح! اندهشت بأنها تسير على وجه الماء!

على ما يبدو، إن النبي(ع) كان واقفًا من الجهة المقابلة من الساحة لاستقبال الملكة، وعندما كشفت عن ساقيها لتسير فوق الصرح قال لها النبي سليمان(ع):

{إِنَّهُ صَرْحٌ}، إن هذا البناء المرتفع عن الجوانب وله ساحة، {مُّمَرَّدٌ}، أرضيته ملساء مبسوطة، {مِّن قَوَارِيرَ}، من شكل أسطواني، أنابيب، ولكن جمعوها مع بعض، وجعلوا الماء يجري فيها ومن تحتها.

كما يبدو هي قوارير شفافة حتى ظهر الماء من تحتها، ونستنتج أنها مصنوعة من زجاج أو من مادة أخرى شفافة.

يعني: مدخل البناء الضخم فيه ساحة عبارة عن بركة ماء كبيرة تم تغطيتها بقوارير بأنابيب، من الزجاج، وسطح الأنابيب ممرد أي أملس من جهة فوق، ويمكن المشي عليها.

بعد دراسة هذا الوصف يبدو أنه يريد استبعاد وصف لوح الزجاج على وجه الماء بأنابيب زجاجية لها وجه أملس.

الملكة عندما رأت ما يفوق قدرتها، من نقل العرش، وهذا الصرح.... علمت أن النبي(ع) يتمتع بدعم إلهي يفوق قدرة البشر، وقاسته بعبادة قومها للشمس التي لا أثر لها كإله... وبما أنه (ع) لم يهجم عليهم من دون سابق إنذار، ولم يهتمّ بهداياهم ولم يأمرهم باتباع دينه بالقوة، فلا بد أن دينه حقّ، وكما يبدو واضحًا حيث كان بإمكانه إخضاعهم لحكمه بالقوة ولم يفعل ذلك لأنه فضّل إسلامهم بدينه عن قناعة.

{قَالَتْ}، الملكة:

{رَبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي}، لم أكن منصفة عادلة مع نفسي، ولم يكن معي حق بعبادة الشمس، لأنني عبدتها عن تقليد لقومي وبدون أي دليل على ألوهيتها، أمّا إله سليمان فيبدو واضحًا أنه يتواصل معه حيث أمّن له هذه القدرات الهائلة...

{وَأَسْلَمْتُ}، أعلنتُ إسلامي وانقيادي واتباعي، {مَعَ سُلَيْمَانَ}، حصرًا، {لِلَّهِ}، لصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {رَبِّ الْعَالَمِينَ}، المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس.

نلاحظ، أن القصّة توقّفت عند هذا المشهد ولم تكمل، وهذا ما تريد لفت الانتباه إليه، حيث إن هذه الملكة آمنت بعد رؤيتها لأمور غير عادية قام بها النبي سليمان(ع)، أما غيرها الكثيرون من الملوك والحكام والناس، فلم يؤمنوا رغم رؤيتهم لآيات عظيمة قام بها الأنبياء، كما رأينا ذلك في الفقرة السابقة التي تحدثت عن فرعون وقومه.

باستعمال التعابير التي وردت في أول السورة، ملكة سبأ لم يستمر تزيّن سوء عبادة الشمس لها ولم تعمه، وآمنت عند أول احتكاك بآيات تدلّ على دينه تعالى واتّبعت رسوله.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ{45})
{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ}، قبيلة، {ثَمُودَ}، {أَخَاهُمْ صَالِحًا}، المشارك معهم "في مكان السكن"، وهو النبي صالح(ع)، وكانت الزبدة والملخص لرسالته: {أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ}، حيث إنكم عبيده ومفروض منكم طاعته، تصرفوا على هذا الأساس، ووحدّوه وأطيعوه... وتوقفوا عن الشرك به.

الكلام منه تعالى عن عبادته يحمل في طياته النظرة الإلهية للأمور على حقيقتها، فهو الإله الأحد، ومن المفروض أن نعبده، وبناء عليه فهذا هو التصرف الصحيح، وأي تصرّف آخر يُعدُّ غير صحيح، لأنه باطل وسيّئ، وعندما ينقل لنا الرسل الأمر الإلهي بعبادته تعالى، فالمقصود هو هذا، وهو الإشارة للتصرّف الصحيح الوحيد.

خلاصة النتيجة: {فَإِذَا هُمْ}، قوم ثمود، {فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ}، والخصام هو عموم أي خلاف يسبب حالة نفسية بين شخصين من النفور والكره وصولًا إلى العداوة، حيث إن كليهما ينتمي لقبيلة ثمود، ولكن فريقًا، مجموعةً منهم، تفرّق عن الآخرين بشيء، حيث آمن، وفريقًا "مجموعة أخرى منهم" لم يؤمن، وصاروا يختصمون ويتكلمون مع بعض حول الإيمان ولكن بنفور وكره وعداوة. ومن الآية 75 من سورة الأعراف، {قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ}، نعلم أنهم انقسموا فريقين: فريق المستكبرين كفر، وفريق المستضعفين مؤمن، وهذا لا يعني أن الأغنياء فقط كفروا والفقراء آمنوا مع أنّ هذا عادة ما يحصل، لا، لأن المستضعف قد يكون غنيًّا ولكنه مغلوبٌ على أمره، والآخرون سلطتهم أقوى، والفقير أيضًا يستكبر ويرفض عبادته تعالى...

ثمود هو اسم لقبيلة عربية كبيرة، كانت منتشرة في عدة أماكن في شبه الجزيرة العربية، والنبي صالح(ع) أرسله سبحانه على ما يبدو من الآية 80 من سورة الحجر، {وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ}، التي كانت واحدة من المدن الكثيرة لقوم ثمود. ويوجد إلى الآن آثار لبيوت منحوتة في الصخر في مدينة الحجر، وتسمى أيضًا مدائن صالح، وهي تقع لجهة الشمال الغربي من المدينة المنورة.

لاحظ أن دعوة النبي صالح(ع) لاقت قبولًا من بعض قومه، مما يعني أن الرسل يقولون كلامًا عقلانيًّا مقنعًا، وبكل سهولة يقتنع به الطالب للحقّ، وأمّا العنيد المتعالي المتكبّر فلن يؤمن.

المختصر هنا عن ثمود ورسولهم لم يأت على ذكر الناقة، وهذا ملفت جدًّا للانتباه، حيث إنه قبل حصول آية الناقة هناك فريق آمن، ومن بعد آية الناقة لم يؤمن أي شخص جديد من كفّار ثمود.

بالنسبة لكلمة {"أخ"} فهي وصف لعلاقة المشابهة بالتساوي في شيء أساسي يجمع الأشياء معًا، سواء في النسب أو في الإيمان أو في الإنسانية أو في التكليف... أو المكان والمعيشة... كما نقول: أخو العرب، أخو المهنة... {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ}، كما ورد في الآية 10 من سورة الحجرات.

(قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{46})
{قَالَ}، النبي صالح(ع) لهم:

{يَا قَوْمِ}، يا أيها الناس الذين أنتمي لجماعتهم وهم متفاعلون مع الدين، {لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ}؟ أنتم تستعجلون السيئة وتطلبون مني نزول العذاب عليكم الآن وفورًا قبل انتظار وقته في الآخرة، لماذا تفعلون هذا؟ بل استعجلوا من ربكم الحسنة بدلًا من السيئة، واطلبوا منه تعالى أن يهديكم ويجازيكم بالحسنة، كما يلي: {لَوْلَا}، أنكم يا قومي، {تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ}، تطلبون منه سبحانه التجاوز عن أعمالكم السيئة، {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}، من المفروض ومن المتوقّع أن يرحمكم ربكم سبحانه ويعتني بكم لما فيه مصلحتكم إذا استغفرتم.

لاحظ أن المؤمن الموعود بالجنّة يستعجلها ويريدها الآن، ويستعجل الحسنة الآن، وهذا يمكن فهمه وتقبله لأنه يستعجل بالحسنة، أمّا هؤلاء فما معنى قولهم: لن نؤمن ولينزل علينا العذاب؟! أين المنطق في هذا! بينما أمامهم باب مفتوح للعلاقة الطيبة معه تعالى عبر الاستغفار، يهملونه ولا يبالون بتهديدهم بالعقاب على كفرهم وسوئهم.

كما تتذكّر، سبحانه لا يعرض على الناس عبر رسله عقيدة أو شريعة أو سلوكيات سيئة، بل يعرض الحق والخير والصلاح، والكلام هنا عن دعوتهم لاستغفاره تعالى يعني وجود سوء في عقيدتهم وشريعتهم وسلوكياتهم، وليس سوءًا لأنه فقط مخالف لأوامره تعالى، لا، بل سبحانه خلقنا بقابلية تمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ... حيث إن العاقل يرى السوء فيما يفعلونه، وهم يرون السوء، ولكنهم يعمهون ويتعامون ويتكبرون...

ضع في بالك أن استعمال كلمة {"لَعَلَّ"} التي تعني: من المفروض ومن المتوقع. هي ليست لوصف شيء من ناحيته تعالى، لأن رحمته سبحانه متاحة للجميع إلى أن يخرجوا هم منها بذنوبهم، فإن لم يستغفروا فلن ينالوا الرحمة، وبناء عليه الأمر والنصيحة بأن يستغفروه تعالى وبعدها من المفروض ومن المتوقّع أن يرحمهم سبحانه، وإن لم يستغفروه فهذا يعني أنهم هم بإرادتهم خرجوا من رحمته تعالى ولن يرحمهم.

(قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ{47})
{قَالُوا}، الكفّار من قومه:

{اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ}، السيّئ سيحصل معنا بسببك وبسبب المؤمنين معك، حيث إن الطيرة هي ربط حصول شيء سيّئ بشيء آخر أصلًا لا علاقة مباشرة بينهما، وهذا هو معنى الكلمة بغض النظر عن قناعتك بها، عندما قال الكافرون أنهم يتطيرون من المؤمنين قصدوا أنه أصلًا لن يحصل عقاب إلهي لمن كفر، وكلام المؤمنين عن الإنذار غير حقيقي، ولكن مجرد كلام المؤمنين عن شيء سيّئ قادم سيسبّب حصول شيء سيّئ، مثلما أتوقّع أن تقع عن الدراجة، وأكرر قولي هذا... فيصيبك حالة توقّع حصول ذلك، وهذه تسمّى "طيرة"، وعندما تقع ستقول بأنك وقعت بسبب قولي لك أنك ستقع، علمًا أنه لا ربط حقيقيًا بين كلامي ووقوعك. لم تعد كلمة "طيرة، طائر..." دارجة وصرنا نستعمل بدلًا منها كلمة "نحس"، مع العلم أنه في اللغة أصل معنى الكلمتين مختلف.

بعبارة أخرى، أنت والذين آمنوا معك تهددوننا بأن شيئًا سيّئًا سيصيبنا لأننا لم نؤمن بدينكم، فإن كان سيصيبنا مكروه فسببه أنتم لأنكم طيرة "نحس".

{قَالَ}، النبي صالح(ع): {طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ}، تفاءلكم بحصول الشرّ من كلامنا ليس صحيحًا بل عند الله تعالى، لأن قرار حصول الأمور كلّها بيده، أنتم تتنحسون منّا ولكن في الحقيقة نحن لا نسبّب أي شيء، بل الله تعالى يمكنه إصابتكم بالشرّ، وتوقّعوا منه تعالى الشرّ بسبب كفركم.

{بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ}، أناس لهم كيان الجماعة، {تُفْتَنُونَ}، يتم تعريضكم لأمور تعجبكم حتى يرى من يعرّضكم لها كيف ستتغيرون على أساسها. كما تعلم الكلام عن افتتانهم بقدرتهم على الشرك الذي يبيح لهم اختراع عقائد وتشريعات مناسبة لهواهم، وهم سقطوا فيه.

(وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ{48})
{وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ}، في المكان الذي فيه بيوت ثابتة، وهي مدينة الحجر التي كان فيها النبي صالح(ع)، كان فيها، {تِسْعَةُ رَهْطٍ}، تسعة أشخاص ينتمون لتسع عائلات وكل عائلة متضامنة مع بعضها، حيث إن كل واحد من التسعة يمثّل عائلته التي ستمشي بقراره، وأولئك الرهط، {يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ}، ولا يقومون بأعمال صالحة نافعة للناس.

الفساد له عدة درجات وعدة وجوه، منها الواضح الذي من الصعب الاختلاف عليه، مثل: تسبيب الحروب والنزاعات، والدمار للعمران والمصالح... والعصبية والمذهبية... وتسبيب الفقر، والطبقية الاجتماعية... واختلاس المال العام... وهناك أمور تعتبرها أكثرية الناس فسادًا، مثل: المخدرات، الدعارة، الشذوذ، القمار... وهناك أمور تسبّب الفساد ولكن ليس كما تفعل الحرب والمخدرات، مثل الثياب المبتذلة المنافية للحشمة، والصور والأفلام غير المحتشمة أو الخلاعية... وقطيعة الأقارب والجيران... هذا فساد، ولكن أثره قد لا يكون مدمّرًا مثل فساد الحروب. وأرجو أن لا تناقش في الأمثلة لأني أقرّب لك الصورة ولست أحدّد عناوين بحديّة، لأن الطبيعة البشرية والظروف المختلفة تجعل فعلًا ما يتغيّر عنوانه ليصير جدليًّا غير متفق عليه... لهذا السبب جاءت غالبية تعابير القرآن عن نماذج فيما طبيعته تتغيّر بتغيّر الظروف، طبعًا لا تغيّر في المعلومات عنه تعالى وعمّا قرّره وفعله ولا في أساسيات التشريع.

نقول هذا الكلام حتى نلتفت لسبب عمران بعض الدول وخراب دول أخرى، وبغض النظر عن الدين الرسمي المعلن للدولة والشعب، إن كانوا يرتكبون فسادًا من الدرجة الأولى، فحتى لو كان دينهم المعلن هو الإسلام، فهذا لا يعني أي شيء، لأن الفساد من العيار الثقيل سيسبب الخراب.

إذا كانت دولة ما تعلن الكفر، ولكنها لا ترتكب الفساد من الدرجة العالية، فالمسؤولون فيها لا يسرقون المال العام، وكل الناس تحت القانون بدون محسوبيات... فإن أهلها سيعيشون بأمان اجتماعي واقتصادي...

أمّا مسألة نزول العذاب من ربنا سبحانه على الناس بسبب كفرهم العقائدي فقط، فهذا لا دليل واضح وصريح عليه من القرآن، بل كل القصص التي تتحدث عن نزول العذاب هنا في الدنيا، تحدثت عن مشكلة محدّدة قام بها الناس، حيث أخبرتنا عن فعل سيّئ محدّد سبّب نزول العذاب، ويمكنك مراجعة سورة الأنعام حيث شرحت لنا السورة هذه النقطة بكل وضوح، وتذكّر دائمًا قوم النبي إبراهيم(ع) الذين لم ينزل عليهم عذاب مع أنهم كفّار، حيث لم ينقل لنا القرآن عنهم إلّا كفرهم بدون إفساد في الأرض، ولم ينزل عليهم عذاب رغم محاولتهم إحراقه (ع)، وأمّا قوم النبي نوح(ع) فتمّت إبادتهم لأنهم لن يلدوا إلا فاجرًا كفّارًا كما ورد في الآية 27 من سورة نوح، وكانوا أظلم وأطغى من قوم عاد وثمود كما تقرأ في الآية {وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ}، لأن أكبر ظلم وأكبر جرم هو الشرك به تعالى، لأنه كذب ومخالف للحقّ الواضح بأدلة عديدة منتشرة وأكثر من كافية... وبعدها يأتي السوء من العيار الثقيل وهو السبب المباشر لحصول عذاب هنا في الدنيا، وترى مفهوم ذلك من الكلام عن المنتمين لدينه تعالى من بني إسرائيل، الذين وبسبب سوئهم ابتلاهم سبحانه بالسمك الذي يأتي إلى شواطئهم يوم السبت المفروض عليهم أن لا يعملوا فيه، حيث أصابهم عذاب في الدنيا وجعلهم تعالى قردة مع العلم أنهم ليسوا مشركين {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}.

(قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ{49})
هؤلاء التسعة هم يقررون ويحرّكون عائلاتهم، قالوا في اجتماع لهم:

{تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ}، لنقسم بالله ولنؤكّد كلامنا بذكر الله، حيث إن كل واحد منهم أقسم بالله تعالى، {لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ}، لسوف نبيّت صالحًا والمنتمين له، زوجته وأولاده... نجعلهم يبيتون فيصيرون من دون حركة أو نشاط، ونقتلهم ونتأكد من موتهم.

{ثُمَّ}، بعد أن نقتلهم، {لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ}، للمسؤول عن المطالبة بقتله، لمن يطالب بدمه، لمن يطالب بثأره، للشخص الذي سيبحث عمن قتل صالحًا وأهله حتى يحاسبهم، نقول له نحن رؤساء العائلات: {مَا شَهِدْنَا}، لم نر ولم نسمع، {مَهْلِكَ}، استنفاذ حياة، موت، {أَهْلِهِ}، الذين ينتمون لعائلته وهم صالح وعائلته، لا نعرف من قتل صالحًا وأهله... {وَإِنَّا لَصَادِقُونَ}، نثبت على كلامنا ولا نتراجع عنه على أساس أننا لا نكذب.

قارنها مع تاريخ النبي محمّد(ع) الذي دافعت عنه عائلته "بنو هاشم" حتى من قبل أن يؤمنوا، وستجد في التاريخ أن العائلات في مكّة اجتمعت عدّة مرات لإيجاد حلّ للتخلّص من الرسول محمّد(ع) ودائمًا كانت العقبة الأساسية عمّه أبو طالب زعيم بني هاشم، حيث كان أبو طالب الرهط بما يمثله من تبعية بني هاشم له... إلى أن مات أبو طالب... بعدها تجرّأت بقية العائلات على النبي (ع) وحاولوا قتله... وهنا الكلام عن النبي صالح (ع) يبدو مشابهًا.

لا تستغرب إذا قرأت في القرآن عن كفّار يقسمون أو يحلفون بالله أو بالرحمن، فكفّار مكة مثلًا كانوا يؤمنون بالله تعالى إلهًا، ولكنهم كانوا يؤمنون بأن معه سبحانه آلهة أخرى، وكانوا يرفضون اتباع دينه تعالى. وكما يبدو لنا من قراءة كتب الديانات الأخرى كالبوذية والطاوية والسيخية... حيث إن هؤلاء يؤمنون في كتبهم الرئيسية بإله كبير، ويقولون بوجود أرباب "آلهة" أخرى معه.

الخلاصة: قرروا قتل النبي صالح(ع) مع زوجته وأولاده على أساس أنهم لو اغتالوا النبي صالح (ع) لوحده فالتهمة ستتوجّه إليهم كأعداء صريحين له، ولكن قتله مع أهله سيجعل الأمر يبدو كأنه مشكلة شخصية لهذه العائلة مع أحد ما، أو حادثة سرقة أو...

لاحظ هذه النوعية من الناس، فهم يريدون قتل رسول الإله! وما ذنبه؟ لا شيء سوى أنه يدعوهم للتوحيد وترك الإفساد في الأرض!

(وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ{50})
{وَمَكَرُوا مَكْرًا}، هؤلاء الرهط التسعة وضعوا مخطّطًا يوصف بتمام التخطيط لشيء سيّئٍ، مخطّطًا قويًّا، حيث سيقتلون النبي(ع) وأهله اغتيالًا بالسرّ، وأمام الناس سيقومون بالبحث عمن قتلهم.

{وَمَكَرْنَا مَكْرًا}، حيث خطّط سبحانه شيئًا سيّئًا لهؤلاء الرهط التسعة، لأنهم يشعرون بالقوة والأمان منه تعالى، ويشعرون بالقوة والقدرة على تنفيذ مخطط اغتيال النبي صالح(ع)... وسبحانه لديه مخطّط مضاد.

{وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}، حيث لا ينتبهون للمخطّط الإلهي أنه يجري فوق مخطّطهم.

(فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ{51})
{فَانظُرْ}، من بعد مكرنا بهم وجّه اهتمامك العام أيها النبي محمد(ع) وأيها القارئ للقرآن، {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ}، ما عقب، ما أتى بعد، الخاتمة والنهاية لخططهم السيئة.

{أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ}، حيث وقع على الرهط التسعة أنواع مختلفة من أفعال تغيّر مدينتهم للأسوأ، من تكسير وتهديم... ودمّرنا معهم، {وَقَوْمَهُمْ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة والرهط ينتمون لجماعتهم، {أَجْمَعِينَ}، لأن الدمار أصاب الرهط والعائلات التابعة لهم، طبعًا لأنهم كانوا موافقين على قرارات الرهط.

تعلم من القرآن أنّه سبحانه أمر نبيّه صالحًا(ع) بمغادرة القرية مع الذين آمنوا، حيث غادروها، وبعد ثلاثة أيام، ضرب زلزال المدينة، ودمّر البيوت المنحوتة في الصخر وصدّعها، ومات الكثير من أهل المدينة كما تفهم من الآيات حول الآية 65 من سورة هود {فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ}.

العذاب على ثمود لم يكن إبادة لكل القرية، بل أباد الرهط التسعة والعائلات التي تتبع لهم، حيث إننا من القرآن نعلم أن النبيين شعيب(ع) وصالح(ع) لم تحصل إبادة شاملة لقومهما، بل تدمّر قسم كبير من قراهم بزلزالين، وهنا يبدو أن الإبادة كانت فقط للعائلات التسعة بالكامل، ولا ندري إن توسّع قليلًا ليشمل قتلى من العائلات الأخرى...

يمكننا افتراض سيناريو زلزال تأثرت به البيوت في الجبل أكثر من البيوت على الأرض، ونفترض أن الرهط المعارضين للرسول كانوا مع عائلاتهم من أصحاب البيوت المحفورة في الصخر، وهكذا ماتوا كلّهم لأنهم من سكان البيوت المحفورة في الجبال على فرض أنها كانت المنطقة الأكثر تأثّرًا بالزلزال.

نعرف من القرآن أنهم قتلوا الناقة وبعد ثلاثة أيام حدث الزلزال المدمّر، ومن غير الواضح إن كان مخططهم لقتله وأهله (ع) حصل قبل مجيء الناقة أو بعده؟ والأرجح قبل مجيئها لأنه بعد قتلهم لها غادر فورًا النبي والمؤمنون ونزل العذاب بعد ثلاثة أيام، وكما ترى لا أهمية لمعرفة ذلك لأن النتيجة أن مخططهم لم يتنفّذ، ودمّرهم سبحانه.

(فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ{52})

{فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ}، ترونها في مدينة الحجر التي لا تزال موجودة ولكنها، {خَاوِيَةً}، فارغة من داخلها، ليس فيها أحد من الناس، {بِمَا ظَلَمُوا}، بسبب أنهم لم يكونوا عادلين ولا منصفين، ولم يكن معهم حقّ، حيث أشركوا بربهم سبحانه، وأسرفوا، وقتلوا الناقة، وكانوا ينوون قتل النبي صالح(ع)... وكل هذا ظلم ليس معهم حق بفعله.

{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ}، المصير بالهلاك والدمار، {لَآيَةً}، هي شيء مميّز، {لِّقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة، {يَعْلَمُونَ}، لديهم علم صحيح دخل إلى قناعتهم بأنه سبحانه يتدخل هنا في الدنيا ليدمّر المفسدين، فإذا رأوا تلك البيوت علموا بأنها آية من ربنا سبحانه تدلّ على تدخّله لمعاقبة الكافرين المفسدين...

مرّ معك أن مدينة الحجر التي حصل فيها هذا الدمار والتي من المشهور أنها ليست بعيدة عن مكّة كثيرًا وقريبة من مدينة يثرب، وآثارها لا تزال موجودة إلى الآن، حيث إن الإشارة بـ "تلك بيوتهم" إشارة لنا أيضًا للانتباه لها.

كانوا فريقين في المدينة، ماذا أصاب الفريق المؤمن؟:

(وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ{53})
{وَأَنجَيْنَا}، قبل نزول العذاب خلّص سبحانه، {الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بدينه تعالى، {وَكَانُوا يَتَّقُونَ}، وكانوا يتجنبون، وسياق الكلام عن تجنّبهم السوء وهو عمليًّا تجنبّهم مخالفة أوامره تعالى والالتزام بذلك ونتيجته تجنّب غضبه وعقابه سبحانه.

الرهط التسعة وقومهم اغترّوا بقدراتهم ولم يؤمنوا، كشبه اغترار فرعون، وبعكس صلاح سليمان(ع) وملكة سبأ...

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ{54})
{وَلُوطًا}، نخبركم عنه عبر هذا القرآن، {إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ}، للناس الذين لهم كيان الجماعة وهو (ع) ينتمي لِجَمَاعَتِهِمْ، الذين يعيش بينهم:

{أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ}، أتقومون بالعمل الجنسي السَّيِّئ، وستذكره الآية التالية، {وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ}! وأنتم واعون فاهمون للصورة التي أمامكم، فأنتم تفهمون بأنها خطأ، فلستم تفعلون الفاحشة عن جهل بسوئها.

يكمل النبي لوط(ع) كلامه، فالفحشاء الَّتِي تقومون بِهَا:

(أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ{55})
{أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ}! فتتركون النساء وتقومون بالشذوذ الذكوري، رغم توافر النساء لإقامة علاقة جنسية معهن، طبعا عبر الزواج.

{بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ}، أناس لهم كيان الجماعة، {تَجْهَلُونَ}، تتصرفون عن طيش، فأنتم تقومون بهذا الشذوذ ومن لديه الفهم والعقل لا يفعل هذا، ولكنكم تجهلون فتتصرفون بلا عقل ولا فهم، مثلما نحن نقول: هذا الشابّ طَائِشٌ "جهلان"، ونقصد أنه يتصرف لا عن عقلانية بل يتصرّف بحسب رغباته وشهواته السيئة.

ذكر القرآن قصة قوم النبي لوط(ع) للإشارة إلى عمل يحرّمه تعالى ونحن البشر عموما بالغالبية الساحقة "لحد الآن" نراه سَيِّئاً مَشِيناً مَعِيباً مخالفا لطبيعتنا ومدمّرا للنسل، حَيْثُ ذكره القرآن كثيرا كنموذج عن عمل لا نناقش في فحشه وبشاعته ورغم ذلك فهناك من أصرّ على ارتكابه! وذكر القرآن مرارا الغشّ في الميزان كعمل سَيِّءٍ جِدّاً لا يحتاج لرسول حتى يبيّن للناس مدى سُوءِهِ، وذكر مرارا الإسراف في بناء البيوت أَيْضاً كنموذج بارز واضح عن سوء استعمالنا للموارد المتاحة لنا... وكما ترى فعمى القلب يجعل الغشّ حلالا مثلما يجعل الشذوذ حلالا.

ما أريد لفت انتباهك له هو تماشي أوامره تعالى مع الطبيعة التي خلقنا سبحانه عليها إن لم نعبد الهوى السَّيِّئَ، حَيْثُ إِنَّ بعض ما حرّمه تعالى أجد نفسي ترغبه، وبعضه الآخر أكرهه، وأنت تحبّ ما أكرهه أنا وتكره ما أحبّه أنا... ففي النقطة التي كان قلبك فيها سليما، وكرهت أنت ما حرّمه تعالى، وفي نفس تلك النقطة عبدت أنا هواي السَّيِّئَ وصرت أراه محبوبا... فهذا ما أرادنا القرآن دائما أن ننتبه له، فأي مخالفة لما يقوله تعالى ستكون نابعة عن فساد في الفكر

والنفسية بسبب عبادة الهوى السَّيِّئِ. وَمُضَافاً إليه أراد القرآن تنبيهنا من العقاب الشديد في الآخرة لمن خالف التماشي مع القلب السليم المتناغم مع دينه تعالى.

بعبارة مباشرة وصريحة: لم يخلقنا سبحانه بطبيعة وعقلية ونفسية لا تتماشى مع أوامره، بل بالعكس أوامره متناغمة تَمَاماً مع القلب السليم، مع أساس الفكر والنفسية السليمة، فالعاقل الرزين لا يحتاج لإقناعه بصحّة أي شيء من كلامه تعالى، لأنه أصلا يتماشى مع فكره ونفسيته، ونتدرج نُزُولاً مع الأقل عقلا ورزانة، لنصير مع حالة الذي يرى هذا السَّيِّئَ محبوبا وذاك السَّيِّئَ مكروها، فتجد من يرى الغشّ في الميزان محبوبا له لأنه يزيد من مكاسبه المالية، وهو نفسه يرى السرقة سيئة ويجب أن يكون عليها عقاب لأنه يخاف على أمواله وبضائعه من السرقة!

في موضوع الفاحشة الشذوذية نفس الشيء، فالعاقل من الدرجة العالية ينفر منها، والعاقل بدرجة أقل يَنْفِرُ منها ولكن لا يبالي إن فعلها الآخرون، وصولا إلى أعمى القلب الذي يرغب بها ويراها محبوبة...

فلسفة الكلام لتبرير الشذوذ وتحليله في تشريعات بعض الدول، لَيْسَتْ سوى نموذج على قياس كبير من عبادة الهوى السَّيِّئِ ومخالفة الطبيعة البشرية "العاقلة الرزينة" في أساسها، تَمَاماً كتحليل قوم النبي لوط(ع) للشذوذ، وتحليل قوم النبي شعيب(ع) للغشّ، وتحليل قوم النبي هود(ع) لتسخير الآخرين لخدمة ترفهم، وتحليل قوم النبي صالح(ع) للترف لدرجة أن تكلفة بيت منحوت في الصخر تكفي مصاريف سنين لكل احتياجات عائلة فقيرة...

خذ مَثَلاً مما تعرفه، فالربا حرام بصريح العبارة في التوراة والإنجيل والقرآن، وضرره معروف معلوم للعقلاء، وَمُدَّةً بعد مدّة تصيب المجتمعات كارثة اقتصادية بسبب النظام الاقتصادي الربوي الهش... ورغم ذلك تراه شائعا في كل المجتمعات!

من المضحك ما يقوله البعض عن ممارسة بقية الحيوانات للشذوذ، بحيث تفهم من كلامهم أنه أمر طبيعي منتشر بكثرة في عالم الحيوان، ونحن البشر نخالف الطبيعة الحيوانية إذًا حرّمناه ومنعناه! وهذا كذب، فهناك بعض الحالات النادرة جدا جدا لشذوذ بعض الحيوانات التي لا تختلف عنّا في الممارسات الحيوانية السَّيِّئَةِ الأخرى كالقتل والاعتداء... وَبِنَاءً على تبريراتهم فليكن أَيْضاً سلوك الحيوانات العدائي بقتل الآخرين مبررا للأعمال الإجرامية للبشر بقتلهم لبعضهم البعض! فهو الأكثر انتشارا بين الحيوانات! فلنقلّد الحيوانات في كل ما تفعله طالما بعض ما تفعله الحيوانات يشير إلى تبرير الجانب الحيواني من سلوكيات الإنسان.

فذكور القطط والكلاب والأسود وَالنُّمُورِ... تقتل أولادها إذا جاعت، بل تقتل الذكور أولادها حتى تستعيد الأنثى شبقها "رغبتها الجنسية" فلنفعل ذلك! أم نصفه بالتصرّف الحيواني ونترفّع عنه؟

من المضحك ما يقوله البعض عن تحكّم جيناتنا بسلوكياتنا، وأن البعض منّا محكوم بجيناته التي تدفعه للشذوذ... وهذا كلام رفضه العلماء الرَّصِينُونَ قديما وحديثا لأنه يعطي مبرّرا للمجرمين القتلة على أساس أن لديهم جينات تدفعهم للإجرام، وبناء عليه فما معنى الخير والشرّ؟ بل ما معنى القوانين التي نضعها نحن لتنظيم حياتنا ومعاملاتنا طالما نحن مجبورون جِينِيّاً على مخالفتها!

كلّنا نعلم بأن تركيبتنا الحيوانية هذه، من جينات ومن قرارات تنطبع في فكرنا ونفسيتنا ومن جسد له حاجات ومن نفسية برغبات... هِيَ خليط مما يجعلنا "إنسانا"، إِذْ إِنَّ مجموعها مع بعض يدفعنا لفعل هذا وترك ذاك، فسلوكياتنا محكومة بما معنا وفينا ونتركّب منه، ولكن لا أحد منّا مسلوب الإرادة وَغَصْباً عنه يقوم بأعمال لا قدرة له على تركها، وإلّا فما معنى القوانين والتشريعات والحقوق والواجبات التي تحاسب عليها الدولة والحكومة؟ فهل تجد عاقلا يقول عن مجرم قتل بريئا أنه كان مجبورا على فعلها ولا إرادة له وَغَصْباً عنه فعلها لأنه ورث جينات الإجرام؟ فهذا غير معقول وغير مقبول.

نفس الشيء بالنسبة للشذوذ الجنسي كسلوك يبرّره البعض ويسمح به للآخرين، على أساس أن الشاذّ بعيد عنهم ويقوم بعمل لا ينفعهم ولا يضرّهم، فلماذا سيمنعونه؟ ولكن حين يشذّ ولد لهم سترى الكثيرين منهم يعيشون المأساة، فدعك من الكلام الفارغ الذي تسمعه عن تطورهم وتحضّرهم وعقلانيتهم... وانظر إليهم حين يشذّ ولدهم أو ابنتهم لترى الإحراج

والرفض والممانعة والمقاطعة والنبذ... ولا أدري إن كان هذا سيتغيّر مع الزمن ليصير مقبولا بشكل واسع في بعض المجتمعات، فقوم النبي لوط(ع) صار عندهم كلّهم الشذوذ مقبولا.

الآن لِنَنْظُرْ للشذوذ كما وصفه القرآن، فهو فاحشة كما ذكرت الآية السابقة، وإذا لم يره البعض فاحشة "عمل جنسي سَيِّئٌ"، فحالتهم مثل حالة الزناة الذين لا يرون زنا الزوج أو الزوجة فاحشة، فهؤلاء انعدم عندهم الحسّ السليم، ويصل العمى ببعض الناس لدرجة تحليل اغتصاب الآخرين، ولست أتحدّث فقط عن حالات فردية للمجرمين، بل عن مجتمعات تتبنّى الفكرة، ومعلوم وواضح لك تشابه العقلية والنفسية مع مجرمي الحروب القتلة للأبرياء بلا مبالاة...

فإذا كنا نناقش شخصا ما في مسألة وصف الشذوذ بالسوء، بالفحش كعمل جنسي سَيِّئٍ، فليس غريبا أَلَّا يراه البعض سيئا، فكثير من الأمور السيئة "نظريا"، تراها بعض المجتمعات صالحة، كالزنا والمخدرات والغشّ والربا وقتل الأبرياء وبيع الأسلحة للمجرمين ودعم الفاسدين لسرقة خيرات الأوطان... والتعامل مع الآخرين بالعنصرية على أساس أنهم بشر من الدرجة الثانية أو بالكاد بشر.

الوصف القرآني الآخر للشذوذ هو الإسراف كما ورد في الآية 81 من سورة الأعراف {إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ}، فهو المبالغة في الشهوة الجنسية لدرجة محاولة إشباعها بأكثر مما يكفي، حَيْثُ بِالْعَلَاقَةِ بين الذكر والأنثى يحصل الاكتفاء، وأمّا علاقة الذكر مع الذكر أو الأنثى مع الأنثى فهو إسراف، إِذْ يَحْصُلُ به إشباع، بل يَكُونُ عند البعض أقوى، ولكنه إسراف، وَخُذْ حالة النشوة والانشراح والراحة الناتجة عن تعاطي المخدرات مثلا، أَنَا لم أختبرها، ولكن الْمُدْمِنِينَ عليها يخبرونك بروعة المدة التي تطيح بعقولهم، وَيُخْبِرُونَكَ عن لذّة رائعة لا مثيل لها، فهل هذا مبرّر لنا للتعامي عن خطر المخدرات ودمارها للمجتمعات؟ أم أن العاقل يراها إسرافا يجب الابتعاد عنه؟

بعبارة أصرح ترى القرآن لا يصف الأمور مثلما يصفها بعض المنتمين لدينه تعالى، نَحْنُ نتعصّب بعمى للدين وَنَمْسَخُ تعاليمه ونشوّهها، حَيْثُ لم ينف القرآن المنفعة من الخمر والقمار كما تقرأ في الآية 219 من سورة البقرة، ولم ينف المنفعة المالية من الغشّ، ولم ينف المتعة الجسدية عن الشذوذ، ولكن مثلما نبّهك للأضرار الكبيرة الناتجة عن الخمر والقمار والغشّ، نبّهك من الانجرار وراء الشذوذ الذي في حالة قوم النبي لوط(ع) ومن بعد فقدانهم لأي معنى للقيمة للأمور المعنوية الجنسية المحترمة، فصاروا يرون الأمور ميكانيكية لدرجة سقوط حرمة الآخرين بتحليل بل باستحباب الاعتداء جنسيا على الآخرين.

يمكنك استقصاء ومراجعة عموم الآيات التي ذكرت أوصافا مختلفة لحالة قوم النبي لوط(ع)، من الجهل والاعتداء... ولكن يكفيك ما ذكرناه.

الآن ننتقل لحالة الجهلاء برفض كل ما سبق من كلام عقلاني، ورفع شعار الحرية الفردية، أَنَا حرّ بجسدي وأفعل به ما أشاء، وبهذا يتحجج عادة الزناة والشاذون، على أساس أن الآخرين لن يتأثّروا بأفعالهم فلماذا يمنعونهم؟

أَوَّلاً لسنا أحرارا بأجسادنا لنفعل بها ما نشاء، فهل أذيّتي لنفسي وقتلها تندرج تحت هذه الحرية أم لا؟ وماذا عن قرار ثنائي لشخصين قررا قتل أنفسهما، فهل هما أحرار؟ وماذا عن حريّتي بجسدي ورفضي للسترة بالمشي عاريا، بل وقيامي بحركات وأفعال منافية للحشمة علنا أمام الناس، أَنَا حرّ وإن لم يعجبهم فليديروا هم نظرهم.

ثَانِياً، من قال إِنَّ الآخرين لن يتأثروا من الشذوذ؟ فترويج الفكرة سيسبب هبوطا معنويا في الْقِيَمِ الأخلاقية حتى في الأخير تفقد كل القيم معناها، فلا يبقى معنى للحبّ والزواج والإخلاص... ولا للحشمة والعفة والخجل والحياء... وصولا إلى الحالة التي وصل إليها قوم النبي لوط(ع) باعتدائهم جنسيا على الآخرين رافضين وصفه بالاعتداء، فهو مجرد إِدْخَالِ عضو من الجسد في جسد آخر، مثل إدخال المفتاح في القفل، فلماذا نعطيه أوصافا أخلاقية؟

هذه ليست مبالغة، بل واقع حال وصل إليه "النموذج القرآني" قوم النبي لوط(ع) بسبب الاستهتار بالقيمة المعنوية للأفعال، وهو من حيث المبدأ نفس العطل الذي يصيب المجرمين بإنهاء حياة الآخرين على أساس أن الآخرين مجرد حيوانات تتحرك وَأَنْهَيْنَا حركتها، فلا قيمة لحياة الإنسان عندهم.

فلنتوسّع قليلا في هذه النقطة، والبداية مع شعار الحرية الفردية وأنه لا تأثير للشذوذ على الآخرين، فَلْنُعْطِ الشاذّين الحرية في فاحشتهم وإسرافهم، لأننا لن نتأثّر بما يفعلونه مع بعضهم في السرير.

لا، فالنموذج القرآني السارد بالتفصيل لأهم النقاط من تاريخ قوم النبي لوط(ع) مضافا إليه واقعنا الحالي، يريك أن الشذوذ يذهب بعيدا ويسيطر أثره على الجميع.

الْبِدَايَةُ مع أفراد شاذين "فاحشين مسرفين" مستترين خجلين خائفين من معاقبة مجتمعهم لهم وخائفين من نبذهم، وبعدها استهتار المجتمع بسوء الشذوذ بسبب انتشار بقية أنواع الفساد في المجتمع، إِذْ إِنَّ الِانْهِيَارَ الأخلاقي لا يبدأ من لا شيء، بل له بذرة تنمو لتصير شجرة ملعونة، وأولها رفض المجتمع لفرض تشريعات صالحة مخالفة للهوى الجماعي، فالمجتمع الراغب بالمخدرات والمسكرات والقمار والزنا والربا... سيصل في نهاية الأمر إلى قبول أي سوء آخر.

تصير الخلفية العقلية والنفسية عند المجتمع، تصير رافضة لأي تحكّم بتشريعاته وقوانينه على قاعدة الصلاح، فيريدون تَشْرِيعَاتٍ منفلتة من أي قيود عقلانية وأخلاقية، وتكون مناسبة فقط لما يهوونه ويرغبون به، وهكذا يشرّعون المخدرات والزنا والربا... وصولا إلى تشريع كل ما يصبّ في مصلحتهم ورفاهيتهم حتى لو كان دعما وتسليحا لمجرمين لقتل الأبرياء ولإسقاط حكومات صالحة واستبدالها بحكومات تتنازل عن خيرات بلادها للداعمين لبقاء المجرمين في السلطة...

نرجع للشذوذ الذي صار المجتمع المنحلّ أَخْلَاقِيّاً وَفَاقِداً للعقلانية، صار متسامحا معه، فماذا سيحصل بعد ذلك؟

من قصة قوم النبي لوط(ع) ترى أن المجتمع يعيب على النبي وبناته أنهم مستقيمون عبر السخرية منهم أنهم يتطهرون، وتقرأ ذلك في الآية 56 من سورة النمل {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}. وهذا ما سيحصل في المجتمعات التي شرّعت الشذوذ، فبعد مدة ستسيطر على كل المجتمع عقلية رفض الطهارة، ليس لأنهم كلّهم سَيَشِذُّونَ، بل كرها بكل ما هو طاهر مانع لهم من فعل السيئات من زنا ومخدرات وقتل الأبرياء وسرقة موارد الدول الأخرى...

بَدَلاً من حالة الحرية الفردية الممنوحة للراغبين بالشذوذ، على أنها لا تأثير لها على الآخرين، نصير أمام حالة فرض الشذوذ على الآخرين، ومحاربة غالبية المجتمع للطهارة، وهذا تراه في الدول التي فرضت في المدارس تشجيع الأطفال على الشذوذ.

من قصّة قوم النبي لوط(ع) نرى تحوّل الإسراف من الإسراف بالشهوة بين أشخاص قرّروا ممارسة الشذوذ مع بعضهم، برضاهم، إلى الإسراف بإشباع الشهوة بالاعتداء على الآخرين جنسيا كما ورد في الآية {أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ}... وكما تفهم من حالة هجومهم على بيته للاعتداء على ضيوفه كما تنقل العديد من الآيات منها الآية 78 من سورة هود {وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ}.

نعم، تلك المجتمعات التي سينتشر فيها قبول الشذوذ، حَتْماً ستسيطر فيها عقلية ونفسية الانحلال من كل ما له قيمة أخلاقية، ويصير الاعتداء جنسيا على الآخرين حَقّاً للمعتدين كما نقلت لنا الآية عن الهاجمين على بيت النبي لوط(ع) للاعتداء جنسيا على ضيوفه {قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ}، فبرأيهم ليس الحقّ أن يتزوّجوا من بناته ومن بقية البنات، بل الحقّ برأيهم أن يسمح لهم بالاعتداء جنسيا على ضيوفه الذكور!

هذا هو المسار الحتمي للفحشاء والإسراف، وستسمع تبريرات لا تبدو عقلانية الآن في تلك المجتمعات، ولكنها فيما بعد ستكون عقلانية ومقبولة ومشرعنة بالقانون عندهم، وأتصوّر أنهم سيقولون: لا يحق لك منعي من إدخال عضوي فيك طالما أننا كِلَيْنَا سنشعر بالنشوة ولن نحبل... فهذا فحوى ما قاله قوم النبي لوط(ع) حين طالبوه بتركهم يعتدون جنسيا على ضيوفه الذكور.

لست أبالغ ولا أمزح، فهذا ما ستصير إليه الأمور، وعندما يصير هذا منتشرا في مجتمع ما، فكارثة من عنده تعالى ستبيد ذلك المجتمع، ولن ترحم الذين لم يشذّوا، فهؤلاء يستحقون العقاب في الدنيا والآخرة لأنهم لم يحاربوا الفاحشة.

فراجع في بالك سيرة قوم النبي لوط(ع) وطبّقها على الواقع، وسترى أن الإبادة بعذاب في الدنيا أمر حَتْمِيٌّ، وهذا العذاب لا شيء أمام عذاب خالد في الآخرة لكل الشاذين والمؤيدين لهم، وللساكتين عنهم.

نعم، هناك حالات جسدية نادرة وخاصة لبعض الناس، بحيث يتداخل عندهم التكوين الجسدي بين خصوصية الذكورة والأنوثة "خنثى"، فهؤلاء وبما يناسبهم يختارون جنسهم، ويختارون إجراء عمليات جراحية أو أدوية هرمونية لتوجيه جنسهم، فيحددون جنسهم ويتعامل معهم الآخرون على هذا الأساس، ولا يبقون في حالة التذبذب بين ذكر وأنثى حفاظا على ناموس الأخلاق بحصر العلاقة بين ذكر وأنثى.

بالنسبة للتسمية "لوطي"، دَرَجَتْ تسمية الشاذين ذكوريا بأنهم لوطيون، وَرَفَضَ الغالب الأعمّ من علماء المسلمين من مفسرين ومؤرخين ولغويين ارتباط هذه التسمية باسم النبي لوط(ع)، وقالوا إنَّ الشبه مجرد مصادفة، وللأسف كلامهم لا يبدو صحيحا، فإذا تتبعت الصفة في اللغة العربية فستجدها توصلك إلى اسم النبي لوط(ع) حيث لا شبه بين كلمة لوطي وأي كلمة عربية أخرى لها علاقة بالفاحشة، وبالتحليل القوي يبدو أنه عبر التاريخ، مختلف المناطق المجاورة لقوم النبي لوط(ع) نَسَبُوا الشاذين إلى قوم النبي لوط(ع) المشهورين بالشذوذ فيما بينهم وبالاعتداء جنسيا على الغرباء أَيْضاً، ومع مرور الزمن تناقل الناس قصّة القوم الذين حصلت لهم كارثة أبادتهم وأراحت جيرانهم والمسافرين من اعتدائهم جنسيا على الآخرين، فاختصروا النسبة لِإسْمِ النبي لوط(ع) فصارت النسبة للشاذّ "لوطي"، مثل لبنان لبناني، إبراهيم إبراهيمي، إسماعيل إسماعيلي، مسيح مسيحي... إذْ إنَّ النبي لوط(ع) حارب الشذوذ، ولكن التصق اسمه بالفاعلين لهذه الفاحشة بسبب قومه.

في مختلف ثنايا هذه الدراسة كَرَّرْتُ أسفي لارتباط اسم رسول نبي طاهر... بفعل الشذوذ الذي كان يرتكبه قومه، علما أنه (ع) من أوّل المحاربين لَهُ... ولكن هناك فائدة من هذا الارتباط، فهذا بشكل ما دليل رابط على واقع جرى في التاريخ، فنسبة الفعل لقومه (ع) وبعد تناقل القصّة عبر الأجيال نتج الاختصار لنسبة اسمه (ع) إلى الفعل "لوطي"، حتى صارت الكلمة "قبل الإسلام" عربية وتعني الشذوذ الذكوري، وهذا بشكل ما دليل إضافي على حصول حادثة إبادتهم بسبب فعلتهم تلك ووجوده (ع) بينهم، وهذا يكون إنذارا لكل الشاذين والمؤيدين بأن مصيرهم سيكون العذاب الإلهي في الدنيا قبل الآخرة كمجتمع أو كأفراد.

بالنسبة لمكان حصول حادثة إبادة قوم النبي لوط(ع)، حَالِيّاً في البلد الذي يسمى الأردن، يوجد منطقة تسمّى غور الأردن، وهي منطقة كانت مسكونة منذ القدم، ويقع فيها البحر الميت، وهو البحر الصغير المشهور بارتفاع نسبة الملح في مائه لقرابة الثلاثين من المئة، ومن المشهور بين المسلمين أنه في زمن النبي لوط(ع) كان في منطقة غور الأردن أَرْبَعَةُ تجمعات سكنية، لكل واحدة منها اسم، وهي مذكورة في التوراة ولم يذكرها القرآن وهي: سادوم، عامورة، أدومة، صبييم. وهذه التجمعات هي القرية التي كان فيها النبي لوط(ع). والمشهور في عموم ثقافة المتدينين أن البحر الميت لم يكن موجودا في عصر النبي لوط(ع) بل كان مكانه واحدة من التجمعات السكنية، "وهذا غير صحيح فالبحوث الحالية تثبت بأن البحر الميّت عمره بعشرات آلاف السنين"، ويقولون إنَّهُ عندما نزل العذاب على تلك المنطقة حَصَلَ زلزال وفوران للحمم من الأرض، وانخسفت قطعة من الأرض وصارت فيما بعد بحيرة كبيرة هي الآن البحر الميت.

كما تلاحظ اسْتَعْمَلْتُ كلمة "المشهور ويقولون" بسبب وجود الكثير من الاختلافات بين كتب التاريخ حول مكان وأسماء وتواريخ وماذا حصل في تلك المنطقة، ولا يتماشى ما قالوه عن ولادة البحر الميّت من تلك الحادثة مع العمر الذي يقدّره علماء الجيولوجيا له، فربما حصل خسف فِعْلاً وتوسّع البحر الميّت ليغطي تلك القرى... وربما لا... على كل حال حتى عهد نزول القرآن يبدو أنه كان هناك آثار ما لتلك القرى وكان مشهورا بين الناس حصول دمار هناك لقوم سوء كانوا يعتدون جنسيا على الغرباء... فالقرآن أشار لمعرفة المسافرين من أهل مكّة لمكان قوم النبي لوط(ع) ولقصّتهم، ومعرفتهم تلك لم تكن مستندة لمصدر ديني بل مستندة لما يعرفه الناس عن تاريخ المنطقة، وهذا ما يبدو من الآية 137 من سورة الصافات {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ}، وَمُضَافاً لذلك تسمية فعل الشذوذ بـ "الوطي" يريك أن قصّتهم أَيْضاً كانت مشهورة لمدة طويلة جِدّاً سببت اختصار النسبة من "قوم النبي لوط" إلى "الوطي" للأسف.

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ{56})

{فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا}، الجماعة التي ينتمي (ع) لِجَمَاعَتِهِمْ، إلا أن قالوا: {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}، انْفُوا واطردوا، آل لوط، أقرباء لوط بالنسب، اطردوهم من قريتكم، إنهم أناس يتطهرون، حَيْثُ لا يقتربون من الأشياء الخبيثة، فَيَعْتَبِرُونَ ما نفعله فُحْشاً خبيثا مكروها وهم لا يفعلونه ولا يقبلون به فَلْنُطْرِدْهُمْ من بيننا.

نَتَنَبَّهُ، إِذْ إِنَّهُمْ لا يقصدون الاعتراف بأن عملهم خبيث ودنيء وفاحش، بل يسخرون من النبي(ع)، فيقولون: حسن، نحن خبيثون فَحَّاشُونَ، ولوط وآله طاهرون، فليرحلوا عنا.

من المشهور في التاريخ ومما يبدو وَاضِحاً من القرآن إِنَّ زوجة النبي لوط(ع) كانت موافقة لما يقوم به القوم، وعلى هذا هُمْ اقترحوا طرده (ع) مع آله، إِذْ إِنَّ هذا التعبير بالآل يشير حصرا إلى طرده (ع) مع القريبين منه (ع) بالنسب، مع أولاده، لأن القوم يعلمون أن زوجته ليست معارضة لهم، وهكذا نفهم من كلمة أهله أنها لعامة المنتمين له(ع) فَتَشْمَلُ زوجته، ولكنها لا تصير من آله بسبب زواجه منها، حَيْثُ إِنَّهَا قد تكون من آله إن كانت من أبناء أقاربه كابنة عمّه... ويبدو من الآية 34 من سورة القمر {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ}، أنه (ع) نَجَا مع آله فقط، يعني مع أولاده فقط، لِأَنَّ الآل تشمل الأقارب بالنسب فقط ولا تشمل الصهر ولا الزوجة إلا إذا كانوا أَصْلاً من الأقارب بالنسب، كأبناء العمّ...

بناء عليه، الروايات التي تقول بأنه (ع) كان له أصهرة "أزواج لبعض بناته" نجوا معه، لَا تتوافق مع ما تقوله الآيات عن نجاة الآل فقط، ومعلوم أنه (ع) ليس له أقارب نسب هناك حَيْثُ موطنه الأصلي من القرية التي حاولت قتل النبي إبراهيم (ع) حَرْقاً.

(فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ{57})
{فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ}، خَلَّصْنَاهُ مع المنتمين له، مع أولاده، والمشهور بين الناس أن أولاده كانوا من البنات فقط ولكن لم يشر القرآن لذلك. {إِلَّا امْرَأَتَهُ}، زوجته من أهله ولم تنج، {قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ}، والقدر هو عَامٌ تحديد القيمة أو الكمية أو المدة أو الشكل والهيئة... حَيْثُ حدّد تعالى لقومها أن يموتوا بالحجارة المتساقطة، وهي مُقَدَّرٌ لها أن تموت مثلهم، فلم تنج وكان مصيرها مثل مصير قومها الْغَابِرِينَ أي الذين مضوا مَوْتاً وصاروا في خبر كان بسبب كفرهم وفسادهم، فَكَانَتْ من الذين ماتوا وصاروا من الماضي، مثلما نقول عن بعد الزمن إنه غَابِرٌ، ومثل التعبير {أَحَادِيثَ}، فبدل أن يكونوا أحياء مشاركين في الحديث صاروا أمواتا يجري الحديث عنهم، فهي لم تبق لتكون مع الأحداث التي تجري بل صارت مع {الْغَابِرِينَ} مع الذين مضوا وانتهت حياتهم، مع الذين صاروا في خبر كان.

هِيَ مثل قومها كافرة فاسدة، وحين خرجت مع زوجها ومات قومها، صَارُوا من الغابرين، وهي لم يكن مُقَدَّراً لها النجاة، إِذِ التفتت وألحقها تعالى بقومها فماتت، فَكَانَتْ من الغابرين.

نلاحظ استعمال القرآن لكلمة {الْغَابِرِينَ} سبع مرات، وفقط لامرأة النبي لوط(ع)، وكما نعرف من القرآن، سُبْحَانَهُ أمر نبيه لوطا(ع) بالخروج مع أهله في الليل من القرية، ولا يلتفتوا إلى الخلف عندما يبدأ العذاب، وخرجت زوجته معهم أيضا، "لِأَنَّهَا من أهله وليست من آله"، ولكنها لم تكن مؤمنة أَصْلاً وكانت موافقة على ما يفعله قومها، وكان يجب أن تموت مع قومها، وبعد ابتعادهم عن القرية وابتداء العذاب، التفتت ورأت الحجارة والحمم تنزل على القرية، وفي هذه اللحظة نزل حجر عليها وألحقها بهم، راجع الآية 81 من سورة هود التي تشير لذلك {فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ}، التفتت. نزلت عليهم الحجارة كما سترى من الآية التالية، وهي نزل عليها حجر أَمَاتَهَا، فَكَانَتْ من الغابرين، لم تكن من الناجين بل من قومها الذين ماتوا وصاروا من الماضي، التفتت فأصابها حجر قَتَلَهَا، وطبعا ليس الْتِفَاتُهَا سبب قتلها، بل كانت كافرة إِذْ حصلت على فرصة لم تكن تستحقها للنجاة والتوبة، وبالتفاتها أثبتت استحقاقها الالتحاق بِقَوْمِهَا تَعْذِيباً.

(وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ{58})
{وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ}، وجعلنا أشياء كثيرة تتساقط على أهل تلك القرية، {مَطَرًا}، بكل ما تحمله كلمة مطر من معنى، {فَسَاءَ}، فتعس ولم يكن فيه أي خير، {مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ}، الذين تمّ إنذارهم حَيْثُ جرى نقل الخبر لهم عن شيء سَيِّئٍ

أكيد سيحصل لهم بسبب توافر شروط حصولهم فيهم، فهو مطر من حجارة، وحمم، ورماد بركاني... إِذْ إِنَّ المطر يكون خيرا أو سَيِّئاً وهم مطرهم كان من النوع الْأَسْوَإِ.

من عموم تعابير القرآن الوصفية لتلك الحادثة نحتمل بقوّة أنّ بركانا قديما انفجر، أو فجأة من الأرض حدث انفجار للحمم... قريبا جدا من قريتهم، أو في وسطها، وتساقطت حممه وحجارته عليهم. وأمّا ما هو متداول أَنَّ المنطقة انخسفت وتحولت إلى بحر، وهو البحر الميت، فهذا لم يذكره القرآن، وأقصى ما ذكره القرآن يشير إلى أَفْكِ "انقلاب" الأرض بالخسف والارتفاع عن الجوانب، أَوْ خسف وانقلاب قراهم على جانب واحد... ولا نعلم إن امتدّ البحر الميّت لِيَغْمُرَهُمْ أو بقي على حجمه وحصل الخسف قريبا منه...

إلى هنا انتهت القصص.

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ{59})
{قُلْ}، أيها النبي(ع) وأيها المؤمن:

{الْحَمْدُ لِلَّهِ}، عَبِّرْ عن اعتقادك بأن صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز "الله" كلّ أعماله محمودة جيدة، والآيات التالية ستلفت انتباهنا لبعض الأمور الحميدة التي فعلها سبحانه، وبالنسبة لما سبق فله الحمد تعالى حين خلقنا بفكر ونفسية ترينا الصلاح... والحمد لله على عقابه لِلسَّيِّئِينَ.

وقل: {سَلَامٌ}، تعبير من ناحيتك عن كلّ خير منك بلا أي سوء، {عَلَى عِبَادِهِ}، على الذين مفروض منهم طاعته وتأليهه، {الَّذِينَ اصْطَفَى}، الذين اختارهم بسبب ميزة فيهم، فميّزهم سبحانه عن بقية الناس، وطبعا بسبب إيمانهم وطاعتهم اصطفاهم سبحانه ولم يصطفهم عبثا أو بالمزاج أو بالقرعة...

الْقِصَصُ السابقة ورد فيها ذكر لعباد اصطفاهم سبحانه، فَسَلِّمْ أيها النبي عليهم وعلى أمثالهم، وَعَبِّرْ من ناحيتك عن كل خير منك اتجاههم، بحبّ الخير لهم...

بعد الحمد له تعالى والسلام على المؤمنين، سؤال: {آللَّهُ}، أألله، فهل صاحب هذا الاسم المحدّد المميز سبحانه، {خَيْرٌ}، أفضل؟ {أَمَّا}، أم الذي، {يُشْرِكُونَ}؟ فبالمقارنة بين ربنا سبحانه بصفاته الحميدة وقدراته الفائقة وبين الذين يقولون عنهم آلهة ويجعلونهم شركاء لربنا سبحانه، بِالْمُقَارَنَةِ نسأل: من هو خير؟ هل آلهة المشركين أرسلت رسولا ليهديهم وينهاهم عن فعل السوء؟ وقبل ذلك كلّه مَنْ خلقهم، ومن جعلهم أناسا بفكر ونفسية ومشاعر ورغبات... فِي مقابل من الحمد له على كل شيء، أَيْنَ هي آثار وأفعال الآلهة التي يقولون عنها؟!

ضع في بالك أن ما سيأتي من لفت انتباهنا لآيات الخلق والظواهر التي حولنا، فَهُوَ الأساس للتعرّف عليه تعالى، والآيات التي جرت على يد الرسل ما هي إلا بديل غير أصلي، إِذْ إِنَّ تحوّل العصا لحيّة آية لا تختلف في دلالتها عليه تعالى عن هذا القرآن، ولا عن آية نزول الماء من السماء، ولا عن جريان المياه وخروج النبات و... ولكن الأساس للتعرّف عليه تعالى فكريا من طريق التفكّر في خلق السماوات والأرض، وبالأحاسيس النابعة من ذلك، وأمّا الآيات التي نسميها بالخوارق والمعجزات فهي وبصريح القرآن لا تجعل أحدا مؤمنا وهو لم يكن مؤمنا بالأصل، وراجع في ذلك دراسة الآيات التي تحدّثت عن إيمان السحرة، ونموذج عنها راجع دراسة الآية 73 من سورة طه {إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}.

كلمة عَبْدٍ تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، فكأن كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، فكلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، فهي جمع الجمع، وَأَثْنَاءَ الكلام بدقّة قد تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، فتقول الآيات: عبيد. وَوَرَدَتْ في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وَتَكُونُ لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ

الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وَتَكُونُ لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، فهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وَعَبِيدٍ آخَرِينَ جاءهم رسول، وَعَبِيدٍ آخَرِينَ... فجمع الجمع "عباد"، فكلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جدا عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

بالنسبة لكلمة "خير" في استعمال القرآن كَثِيراً ما نستنسب تفسيرها على معنى "أفضل"، وأحيانا يصدق هذا المعنى بالتبعية من فحوى الكلام، ولكن بعض الاستعمالات القرآنية لنفس الصياغة تريك أنه لم يقصد بكلمة خير أن تكون رديفا لكلمة أفضل، وكمثال واضح عن ذلك ما ورد في الآية 16 من سورة العنكبوت {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، فمرادفتها بأفضل في أمثال هذه الآية سيعطيك مَعَانِيَ غير دقيقة بل وغير مقبولة إلا إذا حملت معنى الأفضل على عموم المقابلة بين الْأَسْوَإِ والأحسن، ولكن هذا ليس معناها بل هذا معنى كلمة خير، وكلمة "أفضل" في أشعار العرب قبل الإسلام مَحْصُورَةٌ بين الحسن والأحسن، فلو قلت أن الإيمان أفضل لكم فَهَذَا يَعْنِي أن الكفر حسن والإيمان أحسن، لا، فالإيمان خير لكم مما يعني ضمنا أن الكفر سوء لكم.

لم يستعمل القرآن كلمة أفضل بَتَاتاً، واستعمل التعبير بالخير وهو أوسع بالمعنى، فهو يقابل الشرّ كما في الآية 11 من سورة النور {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}... واستعملها بمعنى ما يقابل الحسن فالآخر أحسن وليس شرا، كما ورد في الآية 271 من سورة البقرة {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}... فإبداء الصدقة ليس سُوءاً وإنما إخفاؤها أحسن، وهنا يمكن استعمال كلمة أفضل.

يعني لا ترادف "خير" بـ "أَفْضَلَ"، فهما في بعض سياق الكلام يتقاطعان تطبيقيا حيث يكون اللَّذَانِ تقارن بينهما كلاهما جَيِّدَيْنِ، فعندها يصدق قول خير أو أفضل، ولكن حين يكون الكلام عموميا يشمل ما كلاهما جَيِّدَانِ ويشمل أيضا ما أحدهما جيد والآخر سَيِّئٌ، ويشمل الوصف مطلقا بمقارنة الحسن مع مطلق الوصف بالحسن، حَتَّى لو لم يكن هناك طرف آخر للمقارنة والمقارنة مع مطلق الوصف، كوصفه تعالى بخير الرازقين وخير الحاكمين... إِذْ إِنَّهُ تعالى بالمقارنة مع وصف الحسن مطلقا كرازق وحاكم فهو خير موصوف بذلك، فكلمة أفضل ليست وصفا صحيحا لهذه الحالات وكلمة خير صحيحة.

هنا في الآية ترى بوضوح فساد مرادفة كلمة خير بكلمة أفضل، فالتوحيد ليس أفضل من الشرك لأنه من استعمال كلمة أفضل ستكون المقارنة بين أمرين كلاهما جَيِّدَانِ، بينما بكلمة خير يكون القصد أوسع شاملا لأمرين أَحَدُهُمَا أفضل من الآخر، أو أحدهما جيد والآخر سَيِّئٌ.

(أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ{60})

لنبدأ بالمقارنة بين ربنا سبحانه، إلهنا، وبين آلهة المشركين التي اخترعوها من خيالهم:

{أَمَّنْ}، أم من، {خَلَقَ}، أَلّف وركّب، {السَّمَاوَاتِ}، عموم ما فوقكم وهنّ سبع سماوات، {وَالْأَرْضَ}، التي تقابل كل سماء وُصُولاً إلى التي تعيشون عليها، فهذه هي حدود كل دنيا المخلوقات وَمَنْ ركّبها وألّفها من المواد المختلفة؟
والتعبير القرآني بالسماوات والأرض يشير إلى كلّ شيء وهو أدق لُغَوِيّاً من تعبيرنا عن ذلك بكلّ الوجود، لأن السماوات والأرض تشمل كلّ ما خلقه تعالى، ولا تشمله سبحانه.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أَيْضاً على قبّة النجوم التي نراها لَيْلاً ونطلقه أَيْضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه مَعْنَوِيّاً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دَائِماً أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنويا" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}... وهي إشارة إِلَى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أَرَاضٍ "كواكب" تحت كل

سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أَرْضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراض.

ضع في بالك دَائِماً أننا حين نقول عن خلق السماوات والأرض أنه تركيب وتأليف "للمادة" فلا نقصد أنها كلّها من المواد المعروفة باسم عناصر جدول المواد من حديد ونحاس وهيدروجين... بل نقصد أن لها مادة ما تتألّف منها، نُسَمِّيهَا طاقة، أَوْ نُسَمِّيهَا أي اسم كان، حَيْثُ يكون له صفات مشتركة مع مادة كوننا وَرُبَّمَا يكون مُخْتَلِفاً كُلِّيّاً، وَقَدْ نشترك معها في أساس أساس تكوين مادتنا، وَقَدْ لا نشترك معها... فهذا كلّه ليس مُهِمّاً، المهم أنه تعالى وحده من جانب له طبيعة مختلفة تَمَاماً عن طبيعة المخلوقات، إِذْ إِنَّ المخلوقات مؤلّفة من شيء ما، وهو سبحانه ليس مَخْلُوقاً فليس مُؤَلَّفاً ولا مُرَكَّباً من أي شيء.

هكذا ترى أن السؤال عمّن خلقنا لا يجري عليه تعالى لنسأل عمّن خلقه، لأنه تعالى أَصْلاً ليس مَخْلُوقاً، إِذْ أَصْلاً طبيعته ليست مركّبة ولا مؤلّفة، وهذا ما تفهمه من عموم وصفه لنفسه تعالى ومن صريح الآية 11 من سورة الشورى {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}...

{مَنْ}، {أَنْزَلَ}، لكم أيها الناس، {مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}، عبر المطر، {فَأَنْبَتَ بِهِ}، وَنَمَّى بالمطر، {حَدَائِقَ}، وهي القطعة المزروعة من الأرض التي لها حدود حولها كسياج يحدق بها، ومنها كلمة حدقة، وتلك الحدائق، {ذَاتَ بَهْجَةٍ}، حَيْثُ مَنْ ينظر إليها يشعر بالسرور، طَبْعاً من خضارها وألوانها وجمال نباتاتها ورائحتها... كما ترى اخْتَارَتِ الآية نموذج الحديقة التي نعتني بها وننسّق توزيع النباتات فيها لتكون مَنْظَراً نرتاح له...

{مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا}، إِذْ أَنْتُمْ لولا تنزيله سبحانه للمطر وتخطيطه لعملية نمو النبات، لم يكن بإمكانكم أن تنبتوا شجر تلك الحدائق، حَيْثُ أَنْتُمْ تغرسون الشجرة في الأرض وتقلّمونها وتحرثون تحتها التراب... ولكن كل هذا لا يجعل الشجرة تنبت، تنمو وتكبر، فمن خططّ للخلايا النباتية أن تنمو وَتَكْبُرَ من استهلاكها للماء والمواد التي في التراب؟ وأن تمدّ جذورها في الأرض وأوراقها صُعُوداً لتستنشق الهواء؟...

{أَإِلَهٌ}، هل إله، {مَعَ اللَّهِ}، فعل هذا؟ هذا التصميم لنزول الماء على هذه الأرض التي بهذه المواصفات، حَيْثُ فِيهَا تراب قابل لامتصاص الماء وفيه معادن وتركيبات عضوية مغذية... ونقوم نحن بتحديد قطعة أرض وَنُشَتِّلُ ونغرس فيها، لِتَنْبُتَ الأشجار، ونحن لا علاقة لنا بما يحدث حتى تصير النبتة شجرة كبيرة، وَرُبَّمَا نفهم أو لا نفهم كيف يحدث نموّها، إِذْ لَا نفهم تركيبة خلاياها، ولا نفهم تركيب الخلية الواحدة، ولا نفهم ما يجعل الخلية مركّبة... ولا نفهم ما الذي يجعل بذرة تنبت ليصير طولها شِبْراً فقط وأخرى شِبْرَيْنِ فقط... وبذرة أخرى لنوع آخر من النبات تنمو ليصير طولها بالأمتار! فهل هناك "إله" كائن عنده صفات وقدرات فائقة فوق صفات وقدرات المخلوقين غير الله تعالى صمّم وخلق المطر والنبات؟

{بَلْ}، هؤلاء المشركون هم، {قَوْمٌ}، أناس لهم كيان الجماعة، {يَعْدِلُونَ}، كما نقول: كان نَاوِياً لشراء السيارة ولكنه عدل عن ذلك، وَلَنْ يشتري السيارة. فهم يحيدون وَيَمِيلُونَ عن الإله الحقيقي الأحد، وَلَا يستقيمون على عبادته ويعبدون غيره! عِلْماً أَنَّ ظاهرة المطر والنبات كمثال، فهي تدلّ بوضوح على إله واحد أحد صمّمها وخلقها.

ننتبه لكلام الآية عن شيء تفاصيله كثيرة جِدّاً جِدّاً، حيث لدينا خلق البيئة "سماوات وأرض"، وإنزال المطر، ونمو الأشجار. وَالْغَبِيُّ ومن يتغابى فقط سيقول بأن كل هذا "النظام" في هذه البيئة صار بالصدفة، وَهُنَاكَ حَتْماً إله صمّم ونفّذ ما حولنا، وعبر الرسل والكتب السماوية المنتشرة عُمْقاً لآلاف السنين من تاريخ البشرية وصلنا خبر بأن الإله الخالق لكل شيء اسمه "الله"، فكيف يعدلون عنه ويعبدون غيره؟ بأي منطق؟ بأي حجّة؟ بأي دليل بأي برهان؟

نلاحظ أن نفس النقطة التي تشير لها الآية هنا والآيات الآتية، هِيَ نفسها النقطة التي تجعل البعض لا يلتفتون لهذه الآيات الإلهية، وَمِنَ العديد من الآيات القرآنية نفهم بأنه تعالى كان بإمكانه خلقنا في بيئة أقل تَعْقِيداً وتفاصيل مما نحن فيه، بل يمكنه سبحانه خلقنا نحن بتفاصيل أقلّ، ولكنه سبحانه حتى يرينا نفسه، وحتى نلتفت بسهولة أن إِلَهاً خلقنا وخلق ما حولنا، أكثر من التفاصيل في الألوان والأشكال والأوصاف والتناسق والتناسب بين المخلوقات والبيئة... وجعل

الأمور مستقرّة تمشي على أنماط متكرّرة، وخذ مَثَلاً ما تشير إليه الآية: حَيْثُ فِي كل لحظة تنبت الكثير من النباتات، ومنها ما يصير أَشْجَاراً مرتفعة، ونحن على الأكثر نقوم بغرسها وسقايتها وتقليمها... أو تطعيمها والتلاعب بتلقيحها أو جيناتها... وهذا كلّه لا علاقة له بأصل خلق خلايا النبتة، ولا إنبات النبتة لتصير شجرة، ولا علاقة لنا بنزول الماء لنرويها، ولا بتحويل مياه البحر إلى غيوم، ولا بنقل الغيوم من فوق البحر إلى اليابسة... وَهِيَ كل هذه التفاصيل التي تدل عليه سبحانه وتعالى كإله قادر حكيم حميد... لأنها "تتكرّر"، وَهُنَاكَ أناس لا يؤمنون بأن الله تعالى صمّمها ونفّذها ويبقيها تعمل! بل يقولون: بالصدفة حصل كل هذا، حَيْثُ إِنَّ المادة التي يتألّف منها الكون لها القابلية أن تتفاعل وتتناسب حتى تبني المجرات والأرض بيابستها ومائها وجبالها ومطرها ونباتها والحيوانات...

هذه سخافة واستسخاف للعقول، حتى لو صدر هذا الكلام من دكاترة وبروفسورات وَرُؤَسَاءِ جامعات... فهو سخيف من أناس يتبجّحون بالقليل القليل الذي يعرفونه، وَهُمْ يظنون أنهم يعرفون الكثير عن بداية الكون والحياة وتركيب المادة... أمّا في الحقيقة فهم يرون ما صمّمه الإله سبحانه ليكون دَلِيلاً وَاضِحاً على وجوده كإله، ومع ذلك ينكرونه!

ولو أطلت عليك، فَهَؤُلَاءِ المنكرون له تعالى كإله صمّم وخلق، يَخْلِطُونَ بين كلامه سبحانه وبين ما فهمه المتدينون من كلامه سبحانه، إِذْ إِنَّ كلامه سبحانه لم يدخل في آليات فعله للأمور، والمتدينون عُمُوماً فهموا كلامه سبحانه بسذاجة وطفولية، على أساس أنه تعالى يفعل الأشياء بِلَا روابط ولا أسباب، حَيْثُ يَقُولُ للشيء كن فيكون فَوْراً، وهذا غير صحيح، وهي نفسها العقلية الساذجة الطفولية التي جعلت الأقدمين يخترعون إِلَهاً للمطر وآخر للزرع... على أساس أن هذه الأمور ليست من نتاج البيئة بل تحصل مُبَاشَرَةً من فعل إله يأمر بنزول الماء، لِيَنْزِلَ.

هكذا ترى أن غير المعتقدين بإله بسبب تعرّفهم على آلية نشأة الكون، حَيْثُ إِنَّهُمْ وَبِنَاءً على كلام المنتمين لدينه تعالى كفروا بالإله، وَالْمُنْتَمُونَ لدينه تعالى بغالبيتهم يعلنون أنهم يعتقدون بأنه تعالى يأمر وَتَحْصُلُ الأشياء بشكل سحري بالمعنى الخرافي وفقط لأنه تعالى قال لها أن تحصل، وَبِدُونِ أسباب ولا آليات تحصل الأمور، حَيْثُ أَمَرَ فَانْخَلَقَتِ السماوات والأرض، بينما العلماء يرون تَرَابُطاً للأمور مفترضين نقطة صفر نشأ منها كوننا وبخصائص الطَّاقَةِ تشكّلت المادة ومن خصائص المادّة تشكّلت المجرات، ومن خصائص المادّة تشكّلت الحياة... وَلَا يوجد إله. وكلامهم صحيح رَدّاً على كلام المنتمين لدينه تعالى، بينما هو خطأ عندما تقارنه مع كلامه تعالى في قرآنه الذي أخبرنا مِرَاراً وَتَكْرَاراً بأنه خلق السماوات والأرض على ست مراحل، وأن السماوات والأرض كانتا شَيْئاً ما... وَصَارَتَا شَيْئاً آخر... إِذْ كُلُّ الكلام الإلهي عن مراحل، ولم يذكر بشكل مباشر آليات حصوله، وما نفترضه عِلْمِيّاً عن آليات نشأة الكون والحياة، مَا هو إلا محاولة تعرّف على الآليات التي صمّمها تعالى لنشأة الكون.

سأكرر لك مِثَالاً كررناه مِرَاراً في دراستنا هذه عن تصوّرك أنت لنفسك قرّرت خلق كائنات في بيئة، فهل ستخلقها كلّها دُفْعَةً وَاحِدَةً أم ستخلق الأساس الذي سينتج عنه توالد وتكاثر للكائنات؟ وهل ستجعلها تنمو من التغذّي؟ وهل ستخلق لها الطعام كوجبات جاهزة تحت الطلب تنبثق من لا شيء أمامهم ليأكلوها، أم ستجعل بيئتهم ينتج عنها الطعام؟ هكذا ترى أنه تعالى صمّم السماوات والأرض بحيث تجري الأمور في ستة أيام في ست مراحل وُصُولاً إلى نشأة الحياة الإنسانية المتوافقة مع بيئتها لتعيش فيها، وبناء عليه إِنَّ البحث عن آليات تنفيذه تعالى لتصميمه لنعلم كيف جرت الأمور، سيكون من الرائع التوصّل إلى معلومات عنه... وَكَلَامُ العلماء عن آليات نشأة كوننا، وآليات تكوّن الأرض، وآليات نشأة الحياة عليها... مَا هو إلا كلام يبحث عن آليات تنفيذه تعالى لتصميمه، فإن فهمناه فلماذا سنكفر به تعالى؟

هل من المعقول أن تكفر بك الكائنات التي خلقتها لأنها لم تشاهدك تخلق لها الطعام مُبَاشَرَةً، واعتبرت الطعام المتواجد في بيئتها من نتاج العلاقات بين المواد والظروف التي في بيئتها؟! ألست أنت من أطعمها حين صمّمت بيئتها بهذا الشكل؟

سأذهب بك بَعِيداً، فَرْضاً لو قرّرت أنت بثق الوجبات الجاهزة من الفراغ لتصير أمام مخلوقاتك، هل هذا سيضمن أنهم سَيُؤْمِنُونَ بك؟ لا، وَمَنْ رفض الاعتراف بك كمصمّم خالق رازق عبر البيئة التي من تصميمك وخلقك، سَيَرْفُضُ الاعتراف بك كخالق لطعامه من الفراغ، وسيقول نفس الشيء، حَيْثُ سَيَقُولُ بأن البيئة التي حولنا ولوحدها، فيها خصائص مجهولة أو نخترع لها خَصَائِصَ، ينتج عنها فَجْأَةً وجبات طعام. وهذه هي عقلية الكفر العنيدة التي لا دواء لها، وَهُمْ كالأنعام بل أضلّ سَبِيلاً.

(أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ{61})
{أَمَّنْ}، أم من، {جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا}، مُسْتَقَرّاً لكم؟ مَنْ قرّر وخطّط أن يجعل الأرض بهذا التصميم الذي يناسب تصميمكم بحيث يمكنكم أن تَقَرُّوا، وَتَعِيشُوا على الأرض؟ هَلْ هكذا لوحدها صار لها سطح صلب وبيئة تناسبكم؟ أم آلِهَتُكُمْ جعلتها هكذا؟

ضع في بالك أن المشركين كانوا يخترعون آلهة خاصة بهم مختلفة عن آلهة الآخرين، بل ويعترفون بآلهة الآخرين على أساس أن إله المطر الذي اخترعوه خَاصٌّ بهم ومسؤول عن إنزال المطر عليهم لوحدهم، وإله المطر عند الآخرين لا علاقة له إلا بنزول الماء عندهم. لو فَرْضاً وسّع واحد منهم أفقه ليرى أن ظاهرة نزول الماء مشتركة على جميع بقاع الأرض، كالليل والنهار، وكالبيئة "الأرض" التي نعيش عليها... فسيكون من الواضح له أن كل شيء يتبع لنفس الإله... وهذا ما تريد الآيات قوله مباشرة عبر طرح لنماذج عن أمور مشتركة بين كل الناس.

{وَجَعَلَ خِلَالَهَا}، خلال الأرض، {أَنْهَارًا}، مِيَاهاً تجري بغزارة، حَيْثُ جعل الأنهار تتخلل الأرض، وَتَمُرُّ وتشق الأنهار المائية مَسَالِكَ في الأرض، هَلْ هكذا لوحدها صار في الأرض مَجَارٍ مائية عذبة؟ أم لكل نهر إله؟!

{وَجَعَلَ لَهَا}، للأرض، {رَوَاسِيَ}، أشياء مستقرّة ولكنها غير ثابتة في مكانها، وهي قشرة الأرض والجبال التي عليها. وصفتها الآية بالرواسي كوصف السفن عندما تَرْسُو وَتَتَوَقَّفُ في الميناء فهي ليست ثابتة في مكانها ولا تتحرك، بل هي راسية أي متوقفة الآن ولكنها قابلة للحركة. ورد في الآية 27 من سورة المرسلات استعمال كلمة {رَوَاسِيَ} لوصف {الشَّامِخَاتِ} أي الجبال، وهي هنا مشمولة مع عموم وجه الأرض، هَلْ هكذا لوحدها صارت الأرض تحتكم راسية وانتصبت الجبال من الأرض راسية؟ أم آلهتكم نصبتها؟

ما تقوله آيتنا هذه للفت انتباهنا، لا يحتاج لتخصص في جيولوجيا الأرض للتعرّف على الصفائح التكتونية وغيرها، إِذْ إِنَّ عموم الناس يحصل في أراضيهم زلازل، وبعضها يحرّك الأرض والجبال من مكانها بسرعة مسببة تغيّرا في التضاريس... مما يشير لكل الناس إلى وصف سطح الأرض والجبال بأنها راسية، مثل رسوّ السفن، فهي ليست ثابتة بشكل يمنعها من الحركة نِهَائِيّاً، ولكنها مستقرة وقابلة للحركة، حَيْثُ إِنَّ الزلازل تحرّكها.

{وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا}، والأكثر انتشارا هو التقاء نهر ببحر، مَنْ وضع شيئا يمنع طغيان المياه المالحة على المياه الحلوة؟ كلمة "بحر" اسم وصفي للماء الكثير، سواء أكان جاريا كالنهر أو مستقرا كالبحر والبحيرات والبرك... وسواء كان حلوا أو مالحا. في النقاط التي يلتقي فيها بحران، "بحران مالحان، أو بحر حلو وبحر مالح، أو نهر ضخم مع بحر..." يَصِيرُ لدينا منطقة يختلط فيها ماء البحرين، ولكن هناك حَاجِزٌ "بسبب فرق الارتفاع وبسبب فرق الكثافة..." يمنع مرور مياه هذا البحر لِتَغْطِيَةِ كل مياه البحر الآخر، وَالْأُمُورُ مستقرة بينهما... يدخل النهر بعمق في البحر ليمتد خَطّاً فيه، وهذه حالة برزخ ممتد طُولاً لأن مياه البحر لم تُلْغِ النهر، والنهر لم يُلْغِ البحر، وفي الأخير سيندمجان...

{أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ}؟ هل كائن لديه قدرات وصفات فائقة مع الله تعالى ذي القدرات والصفات الفائقة فعل ذلك؟ هل أحد آخر غَيْرَ الله تعالى فعل ذلك؟

{بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}، بل أكثر الناس جهلة ولا يلتفتون لهذه الأشياء العظيمة، لأنهم حصروا تفكيرهم الضيّق بأشياء صغيرة، ولم يعودوا يرون الصورة الكبيرة للبيئة التي يعيشون فيها، فهم يشربون الماء الحلو، ولكنهم لا يعلمون بأن خالقا مدبرا قديرا صمم هذا النظام الذي يجعل الماء الحلو غير مختلط بالماء المالح... وَعَنْ غباء وعن عمى قلب لا يعلمون أنه تعالى صنع هذا.

ننتبه جَيِّداً، نحن أضفنا سؤال: هكذا لوحدها صارت هذه الأشياء؟ والآية سألت: هل إله غير الله تعالى فعل هذه الأشياء؟ سبب إضافتنا لهذا السؤال لأنه متضمّن في الآية هنا "والآيات التي سبقت أَيْضاً"، فهذه التفاصيل من حولنا والكثيرة الكثيرة جِدّاً جِدّاً، لا يوجد عاقل "حقيقي" يقول بأنها لوحدها صارت، حَيْثُ أشارت الآيات لأمهات التفاصيل التي تشير

لاستحالة تكوّنها بالصدفة ولوحدها، وحسمت كونها مستندة إلى كائن بقدرات وصفات فائقة صمّمها وخلقها، وتسألنا عنه.

ضع في بالك أن الكلام عمّا حولنا وتسميته بالآيات الإلهية، بأنه أمور مميزة تدل عليه تعالى، إذْ إنَّ الكلام عنها يَلْفِتُ انتباهنا لكل تفصيل حتى لو بَدَا لنا أنه ليس من تخطيطه وتصميمه تعالى، يعني مثل صنعنا للسفن، إذْ نَحْنُ البشر حين صنعناها لم نفاجئه تعالى بها وكانت غير "خاطرة على باله" سبحانه، بل من الأساس يعلم سبحانه ماذا يمكن أن ينتج عنّا بهذا الفكر والخيال والبيئة... بل ويعلم سبحانه متى سنبدأ بصنع السفن... ونفس الكلام بالنسبة لأي شيء آخر، خذ مَثَلاً مجاري المياه على وجه الأرض "الأنهار"، نحن حين نخترع شيئا ما نتفاجأ فيما بعد بما يمكننا أن نستخدم هذا الشيء المكتشف، أمّا سبحانه فكل ما سيحصل في الدنيا بالتفصيل معلوم عنده تعالى ومقصود سَلَفاً، حَيْثُ إنَّ حصول مجاري مياه على سطح الأرض، كان من الأساس ضمن تصميمه تعالى للأرض.

(أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ{62})
{أَمَّن}، أَمْ مَنْ، {يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ}، الذي دفعته الظروف وصار مضطراً حيث يفعل أشياء لا رغبة له بها بسبب الظروف السيئة التي هو فيها، أو صار مضطراً لشيء عنده حاجة ضرورية للمال ليأكل أو ليحصل على مستلزمات الحياة، أو يحتاج للصحّة أو للنجاح... فمن يسمع طلبه ويجيب عليه "سواء حقّق ما طلبه بالضبط أو تدخّل لفكّ اضطراره بطريقة ما"، {إِذَا دَعَاهُ}، إذا أعلن له تعالى وأشهر معلناً له ما يضطر إليه، {وَيَكْشِفُ}، من يزيح، يزيل، {السُّوءَ}، الأمور التي تسوؤه ولا تسرّه، فمن يجيبه؟

نتذكّر عدة آيات تحدّثت عن توجّه الناس بالدعاء "بشكل عام" إلى الله تعالى وحده حين يقعون في ورطة عويصة، سواء احتاجوا لشيء ضروري أو كانوا في مصيبة ويريدون النجاة منها، فمن يجيبهم غيره تعالى؟

آيتنا هنا من الآيات القليلة جداً التي استعمل فيها القرآن كلمة دعاء بمعناها الأخص لتشير ضمنياً إلى طلب شيء منه تعالى لتحقيقه، حيث أصل كلمة دعاء يشير لعموم أي إعلان وإشهار، وغالبية استعمال القرآن لها للإعلان والإشهار عنه تعالى كإله واحد أحد، والقليل مثل آيتنا هنا يشير ضمنياً لطلب تحقيق شيء، وقبل استشهادك بآية قرآنية تظنّها تتحدّث عن الطلب منه تعالى لتحقيق شيء ما لنا، راجعها لترى إن كانت تقصد ذلك، وللأسف كثيرة هي الاستشهادات بآيات مقطوعة عن سياقها ولا تقصد المعنى الذي يقولونه عنها.

الآية بدقّةٍ استعملت عبارة "{يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ}"، ولم تقل: يستجيب للمضطر، لأن يستجيب معناها أنه تعالى ينفّذ ما طلبوه منه، وأمّا يجيب فمعناها أنه سمع دعاءهم وأجاب عليه.

الكلام عن اضطراري لشيء، كحاجتي للمال، أو لكشف السوء كالشفاء من المرض أو النجاة من حرب... يشير للوقوع في مأزق، ودعونا الإله سبحانه، وأشهرنا وأعلنّا له عن طلبنا للمساعدة منه، وأجاب على دعائنا بتدخّله سبحانه لمساعدتنا. ولكني أُحَدِّدُ في دعائي للإله سبحانه أن يبيد الأعداء، أو يوقف موج البحر، أو يرزقني مالاً كثيراً جدّاً... فإن استجاب معناها: أباد الأعداء، أوقف موج البحر، رزقني مالاً بكثرة... وإن أجاب على دعوتي فهو تعالى سيفعل بحكمته ما يراه مناسباً، حيث يخيف الأعداء، أو يجعلهم يملّون من الحرب... ويرسل الريح لتدفع سفينتي من مكان العاصفة... ولا يرزقني مالاً كثيراً ولكن يغيّر الظروف بحيث تقل حاجاتي للمال... أو يساعدني غني من ماله... وأكثر ما يحصل معنا هو إجابة الدعاء وليس استجابة الدعاء، ويمكنك بسهولة ملاحظة الفرق في القرآن بين مقصد الكلمتين "أجاب، استجاب".

هكذا ترى انتقال السورة من التفكّر في آيات خلقه تعالى لبيئتنا حتى نتعرّف عليه بفكرنا، إلى المشاعر التي من خلالها نتعرّف عليه تعالى، حيث صمّمنا سبحانه بقدرات ووضعنا في بيئة مشحونة بما يدلّنا عليه سبحانه، وبالتفكّر في خلقنا وخلق بيئتنا والظواهر التي فيها من ليل ونهار وحاجز بين بحرين... نتعرّف عليه، وبالمشاعر المتفاعلة مع بيئتنا من انشراحنا بجمال الطبيعة والمخلوقات والتناسق... والاندهاش وتقدير الحواس والرغبات التي فينا... وينتج عن ذلك تعلّقنا الشعوري بالقدرة الفائقة التي خلقت كل شيء، ونختزن هذا التعلّق ليتفعّل عندما نشعر بالحاجة لتدخّل قوّة فائقة لمساعدتنا.

في الأبحاث عن أصل اختراع الإنسان القديم للديانات، وصلوا لنفس النتيجة التي طرحها القرآن بصراحة ووضوح، وقالوا إنّ الإنسان القديم البسيط الساذج، الذي كان يجهل الكثير الكثير من آليات وأسباب ما يحدث في الطبيعة، لذلك اخترع إلهاً ونسب إليه ما يجهل كيفية حدوثه، واخترع إلهاً للمطر لأنه لم يعلم سبب نزول الماء، واخترع إلهاً ليدعو له ليحقّق له طلباته بنزول الماء، واخترع إلهاً لينجّيه من المصائب التي لا قدرة له على حلّها... والصياغة القرآنية لنفس هذا الكلام والتي تراها هنا في الآية والتي بعدها، أنّه تعالى صمّمنا بحيث سيكون لدينا ما يعرّفنا عليه بالفكر والمشاعر، وإلا فكيف سنتعرّف عليه سبحانه؟ والآية هنا صريحة بأن المشاعر مزروعة فينا وهي من طرق التعرّف عليه سبحانه.

المشكلة ليست في صراحة ووضوح كلامه تعالى، بل العكس ستجد المشكلة فينا نحن المنتمين لدينه تعالى، لأننا توارثنا ثقافة مبنية على الطفولية والسذاجة "وستبقى هذه حالتنا في كل مجالات العلوم حتى الأكاديمية منها"، وما نعرف سبب حصوله، وما نعرف آليات حدوثه، لا نقول عنه: سبحان الله، وما نجهل آليات حدوثه نقول عنه: سبحان الله، معتبرين خلق الكون سرّاً إلهيّاً غير قابل للفهم نهائيّاً، لأنه تعالى يأمر فتحصل الأشياء، وبدون سبب ولا مراحل ولا آليات... ولذلك نخاف من الفرضيات والنظريات التي تحاول تفسير آلية نشأة الكون، ونعتبرها كفراً به تعالى وإنكاراً لوجوده، بينما هي مجرد محاولة التعرّف على آليات فعله للأشياء.

نفس المشكلة في تفسيرنا للمشاعر التي تدفعنا للتعلّق به تعالى، حيث روّجنا ثقافة الاعتقاد به تعالى بشكل مشابه لجنّي الفانوس السحري الخرافي الذي يحقّق لنا مطالبنا وأمانينا، وهكذا صار عندنا شكّ به تعالى إن دعوناه ولم يستجب لنا، وكفرنا به إن حلّت علينا مصيبة...

الآية هنا وعموم القرآن وكلامه تعالى السابق في الكتب الإلهية السابقة، لم يعرض علينا "خدماته" تعالى للحصول عليها من الدعاء له، أو من الصلاة له... فهذا ما نتخيّله من جنّي الفانوس السحري الخرافي، وهذا ليس تعاملاً له معنى مع الإله عزّ وجلّ.

في أدبياتنا الدينية فسّرنا العديد من آيات القرآن من خلفية ما نهواه ونرغبه، بحيث كلما وردت كلمة دعاء أو أي من مشتقاتها، فهمناها على معنى الطلب منه تعالى، بينما استعمال القرآن لهذه الكلمة ومشتقاتها كان على المعنى اللغوي للكلمة، على معنى عموم الإشهار والإعلان، وغالباً كان الكلام عن الإعلان عن توحيده تعالى وشكره... وليس عن الطلب منه تعالى.

يمكنك مراجعة دراسة الآية 80 من سورة الشعراء {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} لترى نموذجاً عن الإيمان الحقيقي الصحيح به تعالى، وترى فرقاً عن أدبياتنا، فالمطر ينزل لأنه تعالى أصلاً صمّم الأرض بحيث ستحصل فيها ظاهرة المطر، وبناء عليه يكون سبحانه هو الذي أنزل الماء، وسبحانه صمّمنا مع قابلية الشفاء، فهو يشفيني حين أمرض، وحين آخذ الدواء، وحين أجري عملية جراحية... وفي حالات نادرة جدّاً جدّاً يتدخّل سبحانه بشكل غير معتاد ويشفي عباده، كحالة شفاء النبي أيوب(ع)، وبين هذه وتلك، يسيّر سبحانه الأمور بما يراه مناسباً، ميسّراً للمريض الشفاء عبر فكرة في بال طبيبه، وربما بشيء آخر... وربما يترك سبحانه الأمور لتسوء... وإلا فكيف سنموت؟

نرجع للآية، {أَمَّن}، أَمْ مَنْ، {يَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ}؟ وتخلفون عليها، وتبقون بعد ذهاب الذين كانوا قبلكم لتأتوا خلفهم، وتتصرّفون بما على الأرض من موارد.

لاحظ أن كل أدعيتنا الاضطرارية لكشف سوء حلّ بنا، خلاصتها أننا نريد بقاءنا أحياء، بصحّة جيّدة، وسعداء... ونخلف الذين سبقونا من الناس ونبقى أحياء "بسعادة" على الأرض ونتمتّع بما فيها، واستعمل القرآن كلمة "{خُلَفَاءَ}" كثيراً بمعنى: الباقين أحياء من بعد موت أناس آخرين، وهنا الإشارة لبقائهم للتمتّع بما على الأرض من أرزاق ومشتهيات.

{أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ}؟ هل كائن بصفات وقدرات فائقة مع الله تعالى يفعل ذلك؟ أم الله تعالى لوحده يفعل هذا لأنه لوحده تعالى لديه الصفات والقدرات الفائقة؟

{قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ}، أنتم لا تستحضرون هذا في فكركم ومشاعركم، ونسيتم أو تناسيتم كيف نجّى ربنا سبحانه نبيه نوحا(ع) ومن آمن معه، وكيف نجّى ربنا سبحانه نبيه إبراهيم(ع) من الإحراق، وكيف نجّى سبحانه أنبياءه ومن آمن معهم مثل موسى(ع) وصالح(ع) وهود(ع) ولوط(ع)... وكيف ينجيكم من المصائب التي تحلّ بكم...

بشكل عام، إن استمرار تواجد البشرية منذ آلاف السنين هو التطبيق العملي لتصميمه تعالى ما يجعلنا نخلف بعضنا البعض على الأرض، قارنها مع الحيوانات التي انقرضت، أو مع الأقوام التي أبيدت بحرب أو مرض أو مجاعة، وسترى أن المجموع العام للبشرية استمرّ وتكاثر، ومن ناحية أخرى فإنّ المؤمنين المميّزين نالوا عناية منه تعالى ليخلفوا على الأرض، مع أنها حالة نادرة بسبب ندرة المؤمنين الحقيقيين، إلا أنها تبقى تطبيقاً لكلام الآية، ومعلوم لك أنه تعالى يعطي الأتقياء قيمة وأهمية حتى لو كانوا نادرين ويجعلهم محور كلامه في هذا القرآن.

(أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ{63})
{أَمَّن}، أَمْ مَنْ، {يَهْدِيكُمْ}، يضعكم على الشيء الصحيح الذي يوصلكم للغاية الصحيحة، {فِي ظُلُمَاتِ}، في عتمات، {الْبَرِّ}، على الأرض اليابسة، أو في {ظُلُمَاتِ}، {الْبَحْرِ}؟ من الذي خلقكم مع قابلية استخدام مواقع النجوم لمعرفة الاتجاهات عندما تكونون مسافرين من بلد إلى بلد، سواء على اليابسة أو في البحر؟ ومن خلقكم مع قابلية اكتشاف الحقل المغناطيسي لتصنعوا البوصلة وتستدلوا بها على الاتجاهات؟ ومن أعطاكم القدرة على صنع المزولة والبوصلة...؟

في عصرنا الحالي من علّمنا بالقلم حتى صرنا علماء فيزياء وإلكترونيات وفلك وبيولوجيا...؟ ومن جعل فينا قدرة ابتكار الخرائط والصواريخ والأقمار الاصطناعية...؟ من يسّر لنا صنع نظام تحديد المواقع "جي بي إس"؟

نلاحظ أن نور النهار ينتج عن الشمس، وأما ظلام الليل فينتج عن غياب الشمس والقمر، وينتج الظلام عن الغيوم التي تحجب الشمس والقمر... فالنور له مصدر واحد في النهار وأما الظلام فيسببه عدة أشياء في الليل، وهكذا نفهم استعمال الآية للظلمات بصيغة الجمع.

تلفت الآيات انتباهنا لنرى كل شيء من حولنا مدروساً ومخطّطاً له حتى يكون بهذا الشكل الذي نراه، فليست صدفة وعن غير قصد صارت النجوم واستعملها البحارة والرحّالة للاهتداء في عتمة الليل، بل حتى هذا التفصيل وغيره كان مقصوداً عندما خلق سبحانه السماوات والأرض، والإنسان بما فيه من صفات منحها له تعالى يكتشف كيفية الاستفادة منها، فاستفادة الإنسان منها كانت مقررة سلفاً منه سبحانه.

{وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا}، من ينقل الهواء الذي ينتقل حاملاً للغيوم التي تمطر، ويرسلها بُشْراً خبراً سارّاً مفرحاً، {بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ}؟ فالرياح الحاملة للمطر لا تسير هكذا لوحدها وبقدرتها الذاتية، ولا بقدرتها الذاتية تنقل الغيوم... ولا بالصدفة حصل هذا، ولا إله غيره تعالى صمّمها هكذا... بل الله سبحانه جعلها هكذا، والنتيجة من ذلك هي نزول الماء المفرح لنا، فنحن بين يديه تعالى، لا نخرج عن سلطنته ولا عن قدرته ولا عن مملكته... ومن رحمته أي من عنايته تعالى بنا لما فيه مصلحتنا صمّم نزول الماء الذي منه نتزوّد بالمياه الحلوة لنشربها ونسقي مواشينا وزرعنا...

يسألنا سبحانه بطريقة الاستغراب: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ}؟ هل كائن بصفات وقدرات فائقة مع الله تعالى فعل ذلك؟ والجواب: لا، فلا إله إلا الله تعالى، ووحده لديه الصفات والقدرات الفائقة ووحده صمّم ونفّذ هذه الظواهر الطبيعية.

{تَعَالَى}، ارتفع وكان فوق والبقية أخفض منه، والكلام هنا عن أن مقامه سبحانه فوق، {عَمَّا}، عن الذي، {يُشْرِكُونَ}، حيث أشركوا معه تعالى آلهة أخرى يقولون إنّها صمّمت وخلقت ونفّذت... ولا تزال تتابع هذه الظواهر... ولكنه سبحانه يخبرنا أنه وحده فعل كل هذا، وهذا واضح من مركزية التصميم والسيطرة التي نراها... وأنه سبحانه تعالى ارتفع وتسامى عن نظرة وتفكير من يجعل له شركاء في هذه الأمور.

نلاحظ من آيات عديدة أخرى من القرآن مشابهة للآيات هنا، نلاحظ أنها تشير لتعارض ولا تناسب وجود أكثر من إله، فحتى نطلق صفة الإله على كائن ما، فهذا يعني أنه ذو صفات وقدرات فائقة ومصمّم خالق متابع مسيطر... وهذا يشمل كل شيء، من خلق وتدبير وظروف وبيئة ومصير... فكلمة إله بمعناها الحقيقي كما يريدنا الله تعالى الموصوف بها أن

نفهمها، فمعناها أن إلهاً واحداً كافٍ لفعل كل ما ترونه وتعيشون ضمنه، فإن لم يكن الإله قادراً على إنجاح تصميمه، فهو ليس إلهاً، وإن كان يحتاج لآخرين حتى يساعدوه فهو ليس إلهاً... فالله الإله، أعلى مما يقوله المشركون، فهم يقولون بأن له تعالى شركاء في الألوهية، وصمّموا وخلقوا ويتابعون مخلوقاتهم... تعالى الإله عن وجود آلهة أخرى معه، وتعالى أن يكون لديه شريك، وتعالى عن أن يكون بحاجة لمساعدين... وما نحن فيه دليل على تعاليه سبحانه عن الشركاء لأنه لوحده صمّم وخلق وتابع...

في العمق من كلام الإله سبحانه نفهم ونتعلّم عن شيء لا يمكننا اختباره بالتماس المباشر، فالكلام عن الألوهية وصفاتها وقدراتها... كبير علينا، ونفهم منه بقدر عقولنا الصغيرة، وبدلاً من ذلك جعل سبحانه الأمور سهلة جدّاً علينا حتى نتعرّف عليه من آثار أفعاله، وعلى قدر أكثر من كافٍ لنوحّده، وما يخالف العقلانية هو اختراع إلهين، ومضافاً لذلك نفهم من كلامه تعالى وبكل شفافية أنه يعلم من نفسه أنه لا معنى لوجود إله آخر غيره، فهذا غير ممكن، ورغم ذلك يتحدّث معنا سبحانه بشفافية وصدق ووضوح، وعقلانيّة بالقدر الذي يمكن لعقولنا فهمه، فلم يركّز سبحانه على شرح طبيعته التي لن نفهمها كما هي، وأخبرنا عن تميّزه {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} كما ورد في الآية 11 من سورة الشورى، وأخبرنا عمّا يعلمه من نفسه من صفات عن طبيعته، أنّه تعالى لم يَرَ ولا أي احتمال ولا بأي طريقة أن يكون هناك كائن مثله أو شبيه له ليكون إلهاً، وركّز أكثر كلام القرآن حول ما صمّمه تعالى فينا وحولنا ليلفت انتباهنا لما يدلّنا عليه لوحده مباشرة، فهذه الظواهر النماذج مشتركة تحصل على كلّ الأرض، فما معنى حصولها من عدّة آلهة وهي نفس الظاهرة متشابهة ومترابطة ومنتقلة؟ هذا يدل بوضوح على وجود إله واحد صمّمها وخلقها.

(أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{64})
{أَمَّن}، أَمْ مَنْ، {يَبْدَأُ الْخَلْقَ}، من في البداية ركّب وألّف كل شيء هنا في الحياة الأولى؟

{ثُمَّ يُعِيدُهُ}، فيكرّر تركيب وتأليف المخلوقات، فمن يمكنه فعل ذلك غير الله تعالى؟

حتى لو سمع هذا السؤال شخص لا يؤمن بإعادة خلقنا في الآخرة، فكلنا نعلم بأن للخلق بداية حتماً، فمن ابتدأ بخلق الكائنات؟ وها يخبرنا الذي بدأ الخلق أنّه سيعيد خلقه مرّة ثانية، فأيها المشركون لا تخترعوا أن آلهتكم أيضاً يمكنها إعادة الخلق، لأنها أصلاً لم تبدأ به حتى تعيده.

إذا فكّرنا فيها من ناحية ثانية، فرأينا آلة ضخمة، وقال لنا الذي صنعها أنّه يمكنه تفكيكها، أفلا نصدّقه؟ وهنا تشير الآية لهذا المعنى، فمن بدأ الخلق "التركيب والتأليف" يقول بأنّه سيعيده، ومعلوم مما نراه مما خلقه أن قدراته فائقة، أفلا نصدّقه؟

أنت تعلم أن الكلام عن الآخرة معناه الحساب والجزاء على ما فعلناه في الدنيا، ومن لا يُرِدِ الالتزام بالدين الإلهي يعلن إنكاره للآخرة، ولكن إنكاره لن يغيّر أي شيء، فالآخرة ستقع حتماً، وسيتحاسب ويتجازى.

{وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ}، بالمطر، ومن يرزقكم من {الْأَرْضِ}؟ فالرزق هو عامّة ما يسد حاجاتكم أو يشبع رغباتكم، والكلام هنا عن الرزق الأساسي للحفاظ على حياتكم، وهو الذي تشربونه من المطر وتأكلونه من الأرض من نبات وحيوان، فمن صمّمه وخلقه وأتاحه لكم؟

هكذا وصلت الآيات إلى ما يمسّ استمرار حياتنا نحن، فمن أتاح لنا الرزق؟ وقبلها من صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا بحيث نجوع ونأكل لننمو... ولنحافظ على حياتنا...؟

{أَإِلَٰهٌ}، أكائن له صفات فائقة فوق مستوى صفات المخلوقات، {مَّعَ اللَّهِ}، مع صاحب هذا الاسم المحدّد المميز؟ كلا، إنما يفعله الله تعالى لوحده، لأنه وحده الإله.

إن قال المشركون أنّه يوجد إله آخر غير الله سبحانه يفعل ذلك، {قُلْ} لهم:

{هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ}، أحضروا ما يثبت، أرونا دليلكم الذي يثبت ما تقولونه، {إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، في قولكم أنّه يوجد إله آخر غير الله سبحانه وتعالى.

نحن في كل تاريخ البشرية لم نسمع من المشركين أي دليل عقلاني صحيح على قدرة آلهتهم على فعل أي شيء، ولكن عبر التاريخ نرى أنّه سبحانه "الله" أرسل رسله بالكتب والآيات "بالبراهين والأدلة" للناس لينبّههم أنّ إلههم واحد أحد... أما تلك الآلهة التي يعبدها المشركون فهي وهمية ومن اختراعهم هم! وليست آلهة، وأبسط دليل على اختراعهم لآلهتهم أنّها لا امتداد تاريخيّاً لها، وتواصل الله تعالى معنا له امتداد منذ آلاف السنين من حين ما تأهّل أول بشري ليتكلّف وقابلٌ لتلقّي أوامره الإلهية وهو آدم(ع)، مروراً بالعديد العديد من الأنبياء، وصولاً إلى آخر الأنبياء محمّد(ع)، أما المشركون، وكل منطقة اخترعت آلهتها، وكل قرية لها آلهتها الخاصّة، بل هناك أشخاص اخترعوا آلهة خاصّة بهم لوحدهم مخالفين بقية أهالي قريتهم! فما هذا المنطق! لأنّ المطر ينزل على كل الأرض، والنبات ينمو على كل الأرض، فهل لكل بقعة من الأرض إله خاص يُنْزِلُ الماء وينبت النبات!

(قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ{65})
{قُلْ}، أيها النبي(ع) وأيها المؤمن:

{لَّا يَعْلَمُ مَن فِي}، لا أحد من المخلوقات التي في، {السَّمَاوَاتِ} "السبع"، ولا من مخلوقات، {الْأَرْضِ} التي أنتم عليها والأراضي التي تقابل تلك السماوات، ولمزيد من التوسّع حول تعبير "السماوات والأرض" راجع الآية 60 من هذه السورة.

لا أحد منهم يعلم، {الْغَيْبَ}، ما حصل في الماضي أو يحصل الآن أو ما سيحصل في المستقبل، {إِلَّا اللَّهُ}، إلا صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز فهو وحده فقط وفقط يعلم الغيب، {وَمَا يَشْعُرُونَ}، لا يدري من في السماوات والأرض، {أَيَّانَ}، متى وفي أي زمن، {يُبْعَثُونَ}، يقيمهم ويخرجهم ربهم سبحانه من موتهم.

من القرآن نعلم بقدوم زمان تموت المخلوقات المكلّفة وما حولها، حيث يموت البشر وبقية الحيوانات والنباتات والجنّ، وتقرأ ذلك في الآية 68 من سورة الزمر {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ}، وستتبدّل السماوات والأرض، وسيبعثنا سبحانه كلّنا مرة ثانية من موتنا، وهذا من الغيب، لأنه شيء غائب علمه عنّا، لا ندري متى سيحصل، ولا يعلم الغيب "كلّه" إلّا الله تعالى، وها هو يخبرنا بأنه سيبعثنا مرّة ثانية من موتنا، وها يخبرنا سبحانه بأنه ولا مخلوق يعلم توقيت هذا البعث، وأكثر من ذلك: لا واحد سيشعر متى يتم بعثه، بل هكذا وفجأة يفتح عينيه ليجد نفسه بعثه تعالى من موته.

قارن كل ما عداه تعالى في مسألة الموت وإعادة الإحياء، لأنه تعالى لوحده الحيّ الذي لا يموت، وسترى أننا المخلوقات كلّنا في مسألة: متى سنعود إلى الحياة، نجهل الجواب، وهذا يدل على شدّة ضعفنا كلّنا أمامه تعالى الذي يعلم كل شيء عنّا وعمّا سيحصل معنا...

للتوسّع في مسألة توقيت الآخرة راجع دراسة الآية 15 من سورة طه {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى}، ولكن لا تَنْسَ أن الكلام القرآني عموما موجّه لنا، مثلما تقرأ التعبير هنا عن نفي علم من في السماوات و"الأرض" للغيب، لأنّ الكلام موجّه لنا، ونحن على الأرض، وهكذا تصير الصورة أنك واقف على الأرض وسبع سماوات فوقك، ولكلّ سماء أرض تناسبها مثلما كوكب الأرض وسطح القمر وسطح الشمس وسطح... أرض بالنسبة لسمائنا، ولا داعي لتوجيه الكلام لنا بالإشارة لسبع سماوات وسبع أرضين، ومن حيث أنت إلى آخر سماء، وهذه هي حدود دنيا المخلوقات، لا أحد فيها يعلم الغيب إلا الله تعالى.

الكلام عن الغيب بالمقدار الذي يشمل كلّ شيء، وبدرجة اليقين، وأنا أعلم بالغيب المستقبلي متوقّعاً أن تكون بقربي بعد ثانيتين لأنك تمشي باتجاهي وتقصدني، وأتوقع لأشياء ستحصل وزمنها أبعد ليوم أو سنة أو... ولكنه توقّع من المستحيل أن يصير يقيناً لأن المتغيرات الكثيرة تؤثّر على جريان الأحداث، حيث يحصل شيء يمنع وصولك إليّ حتى بعد ثانية من اللقاء.

هنا الآية وعموم القرآن ينفيان أي قدرة لأي مخلوق على معرفة الغيب بالمستوى الإلهي، وكلّ ذرة وكل كائن وكل... في السماوات والأرض سبحانه يعلم بما حصل وسيحصل معها... وهذه الكمية الهائلة جدا من المعلومات تحتاج لقدرة من مستوى إلهي لعلمها ووعيها واستحضارها كلها في نفس الوقت...

الملائكة(ع) بقدراتهم العالية جدّاً عن قدراتنا، نتوقّع أنهم يعلمون شيئاً من الغيب أكثر مما نعلمه نحن، وترى ذلك في دراسة الآية 15 من سورة طه. وعلى أي حال فإنّ الكلام هنا في الآية موجّه لنا، ونحن لا نشعر متى سيتم بعثنا.

(بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُون{66})
كلّنا نحن البشر لا نعلم متى ستتمّ إعادة الحياة لنا بعد موتنا، والذين ينفون ولا يؤمنون بقدوم الآخرة، ومن أين لهم هذا النفي؟ وما سببه؟ ويسخر سبحانه من بعضهم ويقول عنهم:

{بَلِ ادَّارَكَ}، امتدّ وتوسّع حتى وصل علمهم، {فِي الْآخِرَةِ}! توسّع علمهم حتى علموا ما في الآخرة! وعلموا أنّها لن تحصل! وأنكروها!

في الحقيقة، لا هم ولا غيرهم يعلم ماذا سيحصل في المستقبل، كيف ينكرون شيئاً لا يصل إليه مدى علمهم! وهل لديهم علم بالغيب حتى ينفوا وجود الآخرة التي سنرجع فيها إلى الحياة!

{بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا}، حيث إنّ الشكّ هو اختيارك للتصديق أو الإنكار لشيء مع إعلانك أنك لم تستند لدراسة أو تفكير لتصديقه أو إنكاره، ولا يعتقدون بحصولها مع أنهم لا يستندون لأي مستند أو دليل في إنكارهم لحصولها، وبالرغم من أنّ الإله المصمّم الخالق المتابع لكل شيء، وعالم الغيب، يقول لهم بأنها ستحصل.

{بَلْ هُم مِّنْهَا}، من رؤية حصول الآخرة، {عَمُونَ}، معميون من رؤيتها، ولا يمكنهم رؤيتها ولم يروها لحدّ الآن "وهذا صحيح" ولذلك لن يصدّقوا بها. ولاحظ التعبير بأنهم {مِّنْهَا عَمُونَ}، حيث إنّ الله تعالى يراها ستحصل لنا، والمؤمنون يؤمنون بها، والمشركون قلبهم مُعَمّىً عن رؤيتها، وهذا مشابه للتعابير القرآنية عن إعماء قلوب المشركين، وفعلاً علمهم لا يدرك الآخرة، ولا يصل إلى هذا المجال ليرى أن الآخرة ستحصل.

إنكارهم للآخرة هل ينبع من قدرتهم على معرفة ما سيحصل في المستقبل، ولم يروا حصول آخرة ولذلك أنكروها؟ وهل فعلاً قدرتهم على المعرفة ممتدة بهذا القدر إلى المستقبل؟ أم يشككون في صحّة كلام الله تعالى ومن دون أي دليل ينكرون حصولها؟ بل هم من رؤيتها عميان، ولا علم لهم بالغيب ليروا حصولها أو ليروا أنها لن تحصل، ولا شكّهم يفيد العلم، وهي حقّاً ستقع ولكنهم عميان لا يرون ذلك.

أمّا المؤمنون فيرون ما حولهم، يرونه سبحانه خلف كل الظواهر الباهرة، التي من المستحيل أن تكون هكذا بالصدفة، ولا يجدون أي مبرر لاختراع آلهة متعددة من رأسهم ومن خيالهم، ويوقنون بأن الإله حكيم لم يخلق كل هذا عن عبث، وتقرأ ذلك صراحة في صياغته تعالى لإيمان المؤمنين بعبارة وردت في الآية 191 من سورة آل عمران {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}، ومما فهمناه من قدرة القلب السليم على التأكد من حصول آخرة فيها حساب وجزاء كما فهمنا من الآية 82 من سورة الشعراء والمنقولة عن لسان النبي إبراهيم(ع) {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ}، راجع دراستها، وجاء للمؤمنين خبر عبر الوحي الإلهي لهم أو عبر الرسل الذين أوحى تعالى لهم، بأنه سبحانه خطّط أن نموت وأن يبعثنا إلى الحياة مرّة ثانية، وممّا يشاهدونه من حولهم يؤمنون بقدرة الإله على إعادة خلقنا لأن الحياة تتكرّر باستمرار من حولنا، وبناء عليه يؤمنون بالآخرة.

تذكّر الآية 64 ما قبل السابقة والتي لفتت انتباهنا لما حولنا من ابتداء الحياة وإعادة الحياة، وكلام القرآن مِراراً عن تكرار الموت والحياة بخروج النباتات وتوالد الحيوانات... أمامنا بشكل كثيف جداً، وسألتنا عمّن يفعل ذلك؟ فإن كنّا نرى بأعيننا الحياة تتكوّن أمامنا، وبكثرة، فكيف يقولون باستحالة رجوعنا إلى الحياة مرّة ثانية؟ وهل الإله عاجز عن بعثهم؟ والآية 65 أشارت إلى من لا يؤمن ببعثنا مرّة ثانية أنه يرجم بالغيب، حيث لا علم لهم بما يتحدّثون عنه، وها هي الكتب والرسل الإلهية تخبرنا بأنه تعالى قرّر بعثنا إلى الحياة مرّة ثانية، ويرينا أمام أعيننا "عبر توالدنا وخلق النبات..." أن هذا سهل جدّاً عليه، وهنا الآية تسألهم: كيف تنكرون الآخرة! وهل وصل مدى علمكم لتعلموا الغيب وعلمتم أنه لا يوجد آخرة؟! أم فقط حوّلتم شكّكم إلى يقين؟! أم أنتم عميان عنها وتنكرونها بلا دليل؟ وفعلاً أنتم عميان عنها لأنكم مخلوقات أضعف بكثير من أن يصل مدى علمكم إلى مرحلة ما بعد انتهاء الحياة الدنيا.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ{67})
من أكثر الإشكالات التي يطرحها الكفار تداولًا، وشكلها يبدو كأنها دليل ولكنها كلام فارغ:

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، وهنا الكلام عن الذين أنكروا حصول الآخرة:

{أَئِذَا}، هل إذا، {كُنَّا تُرَابًا}، متنا وتحلل جسدنا، ومرّ على موتنا فترة طويلة جدًا لدرجة صيرورة لحمنا وعظامنا ترابًا، وعادة نسمّيه برماد الميّت، {وَآبَاؤُنَا}، الذين ماتوا قبلنا منذ زمن طويل وقبلنا صاروا ترابًا فلم يعد لهم أي أثر، {أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ}! هل سيتم إخراجنا إلى الحياة مرة ثانية! كيف ونحن اختفينا واختلط جسدنا المتحلل بالتراب!

(لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ{68})
يكمل الكفار قولهم:

{لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ}، سمعنا هذا الكلام عن أنه تعالى قال بأنه سيعيد إحياءنا، {وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ}، أيضًا قبل أن نولد سمعوا كلامًا عن حصول هذه العودة إلى الحياة، ولكن لم يحصل شيء! فهذه الوعود بالآخرة: {إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ}، كلام مسطور، قصص خرافات، {الْأَوَّلِينَ}، الناس الذين كانوا أولًا قبلنا.

السطر عموم ما انتظم مع غيره، وأوضح استعمال له على المعنى الأساسي كلمة مسطرة، وهو ماديًا كالوقوف في صفوف، وكتابة الجمل بنفس التباعد... ومعنويًا للكلام المتتالي جملة بعد جملة، فنقول سطّر بيوتًا من الشعر، ولا نقصد أنه كتبها على الورقة بل نقصد أنها تألّفت مرتبةً. وكلمة أساطير وردت في القرآن تسع مرات، وسياق الكلام يقصد كلامًا فيه مبالغات أو خرافيًا.

في سور أخرى من القرآن الكريم، سمعنا إجابات شافية عن كل الأسئلة المتعلقة بالآخرة، والكثير من الأدلة، كما في سورة يس الآيتين 78 و 79 {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} أمّا هنا فالجواب مختلف:

لكن قبل ذلك ننتبه، ليس كل المشركين كاذبين في كلامهم الديني ومكذّبين في كلّ شيء ديني، فبعضهم فيه عقلانية فيقول لك إنّ أدلتك على هذا الدين الإلهي صحيحة ومنطقية وعقلانية و... وهذا الدين الإلهي يدعونا للخير والعدل والحقّ... ولكني لا أريد أن أؤمن، أو يقول: أفكّر بالالتزام فيما بعد، أو عندي ظروف تمنعني من الالتزام، أو عندما سأكبر في العمر سألتزم، أو... وهذه النوعية عامّة شاملة لمشركين ولفاسقين ومنافقين ولملحدين أصلًا لا يؤمنون بالله تعالى.

هناك من غير المؤمنين نوعية تكذب لتدافع عن عقيدتها وشريعتها وسلوكياتها السيئة، كما قال قوم النبي نوح(ع) في الكلام الذي نقلته الآية 24 من سورة المؤمنون {فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ}، وقبل النبي نوح(ع) جاءهم رسل، وكما قال فرعون وقومه فيما نقلته الآية 36 من سورة القصص {فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ}، حيث جاءهم النبي يوسف (ع) من قبل كما نقلت الآية 34 من سورة غافر عن لسان المؤمن من آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا...}.

هنا في الآية ترى اعترافًا من بعض نماذج الكفّار بالآخرة أن آباءهم جاءهم خبر عنها، فانتبه حين تقرأ القرآن أن واقع حال الطبيعة البشرية يفرض أن يتكلّم سبحانه معنا بطريقة النماذج، ففي سور أخرى رأيت أن نماذج منهم أنكروا أن يكون جاءهم رسل، وأنكروا أن يكون مرّ في التاريخ من يوحدّه تعالى كما تقرأ في الآيات 5 و 6 و 7 من سورة ص {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (5) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (6) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (7)}، وصرت تعلم بوضوح أنهم كاذبون.

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ{69})
أيها النبي(ع) وأيها المؤمن، {قُلْ} للمنكرين للحياة الآخرة:

{سِيرُوا} امشوا تنقّلوا، {فِي الْأَرْضِ}، {فَانظُرُوا} من بعد السير وجّهوا اهتمامكم العام، {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ} ما عقب وما أتى بعد شيء كخاتمة ونهاية، {الْمُجْرِمِينَ} الذين ارتكبوا الأعمال التي يستحقون العقاب عليها، حيث كان عندهم نفس عقليتكم فلم يؤمنوا بالآخرة، وخالفوا أوامرنا، ففكروا: ماذا حصل معهم؟

الجواب: كانت عاقبتهم الدمار والموت.

بعبارة أخرى تقول الآيات: ربكم يقول للذين يرتكبون الجرائم: انتبهوا سأعذبكم في الآخرة، وإذا لم تؤمنوا بعذاب الآخرة، فخذوا نموذجًا ملموسًا عمّا أقوله لكم، وانظروا هنا في الدنيا كيف عذبت المجرمين.

من أنكر الآخرة وارتكب الجرائم أين هو؟ فرعون وقومه، ثمود، عاد، وقوم لوط(ع)... ماذا جرى معهم؟ ألستم ترون مساكنهم؟ ألم تسمعوا بقصصهم؟ ألم ينزل عليهم عذابي؟

يعني افهموا، كيف لم تقتنعوا بعقابه تعالى لمن خالف دينه مع أنكم ترون في التاريخ نماذج عن أقوام عذّبهم سبحانه هنا في الدنيا؟! ما أصابهم يصيبكم، ومن الواضح أن من عذّبهم في الدنيا صدق في وعده، ومن الواضح جدًا أنه سيصدق بوعده ببعثكم في الآخرة ليجازيكم.

(وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ{70})
أنت أيها النبي(ع) وأيها المؤمن:

{وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ} أنت تعلم بأنهم حتمًا سيتعذّبون، فلا تشعر بالمضايقة على تعذيب المجرمين والمنكرين لدينه تعالى، لأنهم يستحقّون العذاب كما ترى من تكذيبهم للحقّ وإجرامهم.

{وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ} لا تشعر بالمضايقة وبالانزعاج، {مِّمَّا} من الذين، {يَمْكُرُونَ} من تخطيطهم السيّء لمحاربة الدين الإلهي، فمضايقتهم لك بتكذيب كلامك عن إلهك وعن كونك رسولًا وعن دينك وعن الآخرة... انسها ولا تتضايق، فلا داعي لذلك.

من مجمل القرآن نفهم من هذه التوجيهات الربانية للرسول(ع)، بأنه لا داعي للحزن على تعذيبهم القادم فهم يستحقونه، ولا تتضايق من كلامهم كالذي تنقله الفقرة هنا عن كفرهم بالبعث من تراب، ولا تتضايق من أفعالهم المضادة لعملك ونشرك لدينه تعالى، لأنها أفعال نابعة من قرار اتخذوه بإرادتهم وهم يعلمون بمخالفتهم للحقّ، وأفعالهم السيئة هذه ستكون سببًا لتعذيبهم فلن تمرّ من دون عقاب.

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{71})
{وَيَقُولُونَ} المنكرون لعذاب الدنيا والآخرة: {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}؟

حسن، سلّمنا جدلًا بتحقق ما تقولونه عن الحساب والمجازاة، فإن كنتم صادقين عندما تقولون بأنه سيحصل، في أي تاريخ سيحصل؟ هاتوا أخبرونا.

تذكّر دائمًا أن القرآن مرارًا مزج بين عقابي الدنيا والآخرة في كلامه مع الكافرين، فكلاهما عقاب إلهي، وفي الكثير من الآيات لم يفصل سبحانه بينهما، هنا كلام المنكرين لدينه تعالى عامٌّ ويشيرون به إلى نزول عقاب في الدنيا عليهم مثل العقاب الذي يقول عنه القرآن أنه نزل على من كان مثلهم من الكفّار... ويشيرون لعقاب الآخرة أيضًا، يعني يقولون: العقاب الذي تقولون عنه في الدنيا أو الآخرة متى سيحصل؟ ها نحن نسمع التهديد ولم يحصل شيء معنا.

(قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ{72})

{قُلْ} لهم عبر هذا القرآن أيها النبي(ع): تسألونني أنا عن موعد تعذيبكم في الدنيا والآخرة، ها أجيبكم كما علّمني ربي سبحانه:

{عَسَى} من المحتمل المرجّح غير الأكيد، {أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم} أردف لكم سبحانه عذابًا هنا قبل عذاب الآخرة، وقدّم لكم "عيّنة" ربكم سبحانه، {بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ} أنتم تطلبون حصول العذاب الآن لتؤمنوا، فانتبهوا، ربما يكون جزءٌ من التعذيب الذي يعدكم به ربكم رَدِفَ لكم، فعذاب الآخرة محسوم ولكن إرداف "إلحاق" عذاب قبله شيء محتمل مرجّح ولكن غير أكيد، ويقرر سبحانه تعذيبكم هنا في الدنيا قبل مجيء الآخرة.

لاحظ من كل القرآن أنه تعالى لم يحسم نزول العذاب "هنا في الدنيا" على الكفّار الذين كانوا في زمان النبي محمّد(ع)، وفي نفس الوقت لم يعطهم سبحانه الأمان من العذاب، بل تركهم تحت التهديد، والآن "بعد موت النبي محمّد(ع)" يبدو من التاريخ أنه تعالى لم يرد تعذيبهم هنا في الدنيا لأنه لم يحصل، وإنما أراد تهديدهم، كما تعلم من التاريخ تركوا فعلًا عبادة الأصنام، وصار منهم مؤمنون كُثُرٌ، ومن نسلهم خرج مؤمنون كُثُرٌ، وهذا هو عامّة سبب تأجيل عقاب الكافرين للآخرة بدون عقاب في الدنيا، إذ يولد منهم مؤمنون، ولمزيد من التوسّع راجع في ذلك دراسة الآية 27 من سورة نوح {إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا}.

هنا كما ترى، لم يعلن سبحانه لنبيّه(ع) أن العذاب سينزل أم لن ينزل، وأمر سبحانه رسوله أن يقول للمشركين: {عَسَى}... فهناك احتمال مرجّح ولكنه لم يتأكّد بعد عن نزول عذاب هنا في الدنيا عليكم، فلا تشعروا بالأمان الزائف منه، فهو يحوم فوق رؤوسكم وقرار حصوله عنده تعالى يصدر في أي ثانية، أنتم تستحقونه ولكن نزوله متعلّق بحكمته تعالى إن كان يرى ذلك مناسبًا.

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ{73})
{وَإِنَّ رَبَّكَ}، إن المسؤول عنك من مستوى إلهي أيها النبي(ع)، {لَذُو فَضْلٍ}، يوصف سبحانه بأن الفضل منسوب له، ويوصف سبحانه بتقديم الأمور الجيدة من دون أن تكون فرضًا واجبًا عليه سبحانه تقديمها، وهنا الكلام عن فضله تعالى على الناس حين أمهلهم ولم يعذّبهم فورًا حين يكفرون به، وبتركه سبحانه لهم مجالًا للتوبة، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ}، أكثر الناس لا يعبّرون عن اعترافهم بفضله "بجميله" سبحانه عليهم.

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ{74})
{وَإِنَّ رَبَّكَ}، إن المسؤول عنك من مستوى إلهي أيها النبي محمّد(ع)، {لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ}، مركز تفاعلهم مع ما يصلهم عبر حواسّهم فهو مكنون، مثل حبة اللؤلؤ في الصدفة فهي مكنونة في الصدفة، فلا نرى ولا نعلم بما في صدورهم، وأمّا سبحانه فيعلم ما في مركز تفاعلهم مع الأمور، حيث يعلم الأفكار والمشاعر والأحاسيس التي لا يعلنون عنها، وربك سبحانه يعلم، {وَمَا يُعْلِنُونَ}، ما يقولونه ويفعلونه علنًا بناءً على تفاعلهم مع الأمور.

عندما تركهم ولم يعاقبهم ليس لأنه سبحانه لا يدري بما يدور في صدورهم من كفر، أو لا يدري بما يفعلونه ويقولونه علنًا، بل هم تحت المراقبة الدقيقة والعميقة.

نلاحظ بعض الناس يعبّرون بطريقة معيبة عنه تعالى حين يقعون في ورطة، يقولون: أين الله؟ ألا يرى ما يجري علينا؟ وهنا تلفت الآية انتباهنا جميعًا بأنه سبحانه حين يترك الأمور تحصل، يترك المجرم يرتكب جريمته، ويترك الكافر يكفر... فهذا لا يعني أبدًا أنه سبحانه لا يراهم، سبحانه يتدخل أو لا يتدخّل وفقًا لما يراه مناسبًا بحكمته، حيث كل شيء تحت المراقبة الإلهية.

ليس هذا فقط، بل كل شيء مسجّل في كتاب كما ستقول الآية التالية.

بالنسبة لكلمة "صدر، صدور" إن لم يكن القصد بها لأعضاء الجسد للقفص الصدري وما تحته من أعضاء... استعملها القرآن كما يستعملها الناطقون باللغة العربية وكما هي مستعملة في العديد من اللغات الأخرى، نشير بالصدر للتفاعل الداخلي للإنسان مع ما يراه ويسمعه ويشعر به مما يتعرّض له... نحن عندما نتعرّض لمختلف الظروف، نشعر بالانقباض أو الانشراح... في صدرنا، استعملنا كلمة صدر لتوصيف حالة تفاعلنا مع الأمور، وحتى لو لم تشعر بأي

شيء في قفصك الصدري، من انقباض أو صعوبة في التنفّس أو راحة... مجرد تفاعلك مع ما تعرّضت له، فإن مختلف اللغات البشرية تعبّر عن هذا التفاعل بأن شيئًا حصل في صدرك، وحتى السرّ الذي تخفيه عن الآخرين تعبّر عنه مختلف اللغات بأنه في صدرك، وكلّنا نعلم أن السرّ ليس في القفص الصدري، ليس تحته في الرئة أو القلب أو المريء... بل هو تعبير يشير لحالة تفاعلنا مع ما ندركه سواء بقي مخفيًا أو ظهر له أثر حسّي في منطقة الصدر أو على تعابيرنا وحركاتنا.

(وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ{75})
{وَمَا مِنْ}، لا يوجد من، {غَائِبَةٍ}، من شيء غائب عن علمكم أو عن علم الملائكة(ع) أو عن الجنّ وبقية المخلوقات، سواء كانت تلك الغائبة عن شيء يحدث ولم تشهدوه، أو سيحدث في المستقبل ولا تعلمونه، {فِي السَّمَاءِ}، في عموم ما كان فوقكم، أو {وَالْأَرْضِ}، التي أنتم عليها، ما من غائبة عن كل المخلوقات، أو يشهدها البعض منهم والآخرون غائبون عنها، أو غائبة عن الجميع لأنها ستجري في المستقبل، {إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، في شيء مسجّلة فيه الأمور بشكل واضح لا خطأ ولا اشتباه فيه، وعادة يشير القرآن بالكتاب إلى شيء مسجّل فيه كل شيء حصل ويحصل وسيحصل، وهو كتاب تتطّلع على بعضه الملائكة(ع) وتنفّذ ما فيه من معلومات، كما نفهم من القرآن بكلامه عن ملائكة تتوفّى الأنفس وأن الآجال مسجلة كما تقرأ في الآية 145 من سورة آل عمران {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ...}، وهو كتاب تحوّل قسم مما فيه إلى التوراة والإنجيل والقرآن... وهو كتاب فيه كل ما نفعله وسنفعله وكل ما سيحصل كما تقرأ في الآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}... فيه كل ما خلقه تعالى وسيخلقه... وفيه نهاية حسابنا ومصيرنا في الآخرة كما تفهم من الآية 49 من سورة الكهف {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا...}... أي غائبة ومهما كان نوعها فهي مسجّلة في ذلك الكتاب بشكل ليس فيه اختلاط أو اشتباه أو تشابك أو خطأ في المعلومات.

سبحانه يعلم الآن ما يدور في فكر الناس، ويعلم ما يقولون، ويعلم ما سيدور في صدورهم وما سيعلنونه إلى أن يموتوا... بل يعلم أكثر من ذلك بكثير، وبشكل يفوق تصوّركم، حيث يعلم كل شيء وكل تفصيل عن كل ذرة في الكون كما تقرأ في الآية 3 من سورة سبأ {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}... كل تلك المعلومات الهائلة مسجلة في كتاب، وهذا الكتاب مبين فلا يحصل فيه أي خطأ.

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ{76})
بناءً على أنه تعالى يعلم كل شيء:

{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ}، هذا الجزء من الكتاب الرئيسي والذي صار يمكنكم قراءته بعد أن حوّله تعالى إلى اللغة العربية وأوحاه إلى الرسول محمد(ع)، هذا الذي يمكنكم قراءته، {يَقُصُّ}، يقول خبرًا عن حدث تتبّعه تعالى، {عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ}، على الذين هم من نسل النبي يعقوب(ع)، يقص عليهم، {أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}، على طول الزمن صار بينهم خلاف حول الأحداث التاريخية التي مرّت على الرسل والأنبياء، وهذا مشابه لما نجده في الروايات عندنا من اختلاف، رووا قصصًا ناقصة، ومخالفة لبعضها البعض، كان بينهم بسطاء يسرح خيالهم في اختراع القصص، وكان بينهم خبثاء يخترعون القصص ليستجلبوا انتباه الناس لهم، وكان بينهم من يعتبر نفسه عاقلًا رزينًا "عِلمانيًا تجريبيًا" فرفض كل ما لم يره بعينه... ورفض الآيات كتحوّل العصا لحيّة، وانشقاق البحر، والكلام مع الطير... بل نجد شيئًا غريبًا جدًا في التوراة، الكلام فيها عن الآخرة والحساب والجنّة والنار... نادر جدًا جدًا، حتى لا تكاد تلتفت لوجوده! مما يشير إلى انتفاء رسوخ الإيمان بالآخرة في بعض الذين أضافوا كتبًا على التوراة!

من بين القصص التي تناولتها السورة هنا نجد بعض التفاصيل عن قصّة النبي سليمان(ع)، وهي قصّة اختلف كثيرًا فيها بنو إسرائيل حتى حذفوا منها الكثير لاعتقادهم بأنها لا تدخل في الرأس! حين تحدّثوا عن النبي سليمان(ع) في

التوراة حذفوا كلامه مع الطير والنمل، وحذفوا انتقاله بالريح... وذكروا أن ملكة سبأ هي بنفسها "ومن دون أي تواصل عبر رسالة الطير..." أتت لزيارة الملك سليمان(ع) لتعقد سلمًا مع هذا الملك القوي حتى لا يهاجمها... وجاء في التوراة أن النبي سليمان(ع) في آخر عمره، انحرف عن التوحيد وعبد الأصنام!

كما هو مشهور بين كل علماء التاريخ، نسخ التوراة أحرقت كلها عندما تعرض اليهود للهجوم البابلي، وقام الكاهن عزرا بكتابتها مرة ثانية، وفيما بعد وعبر الزمن قام كهنة آخرون بإضافة أسفار جديدة للتوراة... ونلاحظ أن الكاهن عزرا كتب قسمًا من التوراة بشكل صحيح، "موافق تمامًا لما في القرآن"، ولكن هناك أشياء مفقودة في التوراة وهي أمور لم يكن يؤمن بها الذين كتبوا التوراة فحذفوها! لم يذكروا عن النبي سليمان(ع) كلامه مع الطير، أو عن تسخير الرياح له، أو عن إحضار عرش ملكة سبأ... ونجد كهنة وأحبارًا آخرين كتبوا عن التاريخ اليهودي كتبًا عديدة مختلفة غير التوراة، وذكروا فيها أشياء تشبه ما يذكره القرآن الكريم عن النبي سليمان(ع)، ولكن أيضًا يوجد اختلاف كثير بين تلك الكتب حين تتحدّث عن نفس الحادثة، مثلما تجد الاختلاف في الروايات عندنا، وغالبًا من الصعب جدًا أن تعرف الصحيح من السقيم في تلك القصص.

بقي شيء، بعض الأحيان يوجّه القرآن كلامه لليهود وبعض الأحيان لبني إسرائيل، ومما نعرفه من التاريخ أن اليهودية دين انضمّ إليه الناس من مختلف الجنسيات والأعراق، أمّا الانتساب بالبنوّة للنبي يعقوب(ع) الذي يسمّى أيضًا بإسرائيل كما هو مشهور جدًا بين عموم الناس، فهو بالطبع محصور بذريّته (ع)، وعبر التاريخ بقيت ذريّته (ع) متابعة للدين الإلهي بشكل يفوق جدًا تتبّع بقية من آمن بدينهم، حيث كان علماء الدين من بني إسرائيل، لذلك يتوجّه القرآن عادة إلى بني إسرائيل عند كلامه عن "المعلومات"، كونهم "بشكل شبه حصري" تتبّعوا الأمور الدينية وكانوا علماء الدين اليهودي.

(وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ{77})
{وَإِنَّهُ}، القرآن، {لَهُدًى}، فيه الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة، فمن اتّبع ما فيه فهو على الطريق الصحيح الذي يوصله لرضاه تعالى وجنّته، والقرآن، {وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ}، عناية إلهية لما فيه مصلحة الذين هم في حالة الاعتقاد والالتزام بدينه تعالى.

تذكّر دائمًا أن كلام القرآن عن المؤمنين عمومي لا يقصد حصرًا من آمن من بعد نزول القرآن، فالإيمان الحقّ درجات أقلّها توحيده تعالى وأن لا تخترع إلهًا من الخيال، وبعدها الإيمان بالإله الواحد الأحد الفائق القدرات والصفات... والمشي على سلامة القلب من الابتعاد عن الإجرام وترك الأمور السيئة والمشينة والمعيبة... فهذا يكون مؤمنًا عنده تعالى حتى من قبل إعلانه لإسلامه، وقبل التصديق برسله وكتبه والآخرة... بعدها يأتيه هذا القرآن هدى ورحمة منه تعالى، ويكون عناية إلهية له ليهديه للطريق الصحيح، ويخبره عن السيئات التي ولسبب أو لآخر لم يرها سيئة، ويخبره عمّا لم يصل إليه بفكره ومشاعره من صلاح وفساد... ويخبره عن الآخرة بعذابها ليتّقي، وبسعادتها ليرغبها...

نفس الكلام يصدق على من كان كافرًا وآمن فيما بعد بالقرآن، حيث صار القرآن له هدى ورحمة، ولكن العمق الذي تعلّمناه من القرآن عن فكر ونفسية الناس، يجعلنا نفهم تقسيمه تعالى للناس قبل وصول كلامه لهم عبر رسله، فهناك أعمى وهناك بصير، وهناك أصمّ وهناك ذو لبّ، وهناك قلب سليم وقلب مطبوع على الكفر... وكل ذلك قبل وصول الكلام الإلهي إلينا، ومن بعد وصوله يبقى الأمر نفس الشيء إلا اللهم ما ندر وكان في العمق مختلفًا عمّا يظهر لنا، فلن يؤمن قلب طبعه صاحبه على الكفر، ولو ظهر عليه الإيمان فهو نفاق أو فسق... وبعضهم كان يظهر عليه الكفر ولكنه من داخله فيه بذرة قوية للإيمان فقلبه غير مطبوع على الكفر، كملكة سبأ... ولمزيد من التوسّع راجع دراسة الآية 2 من سورة البقرة {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}.

(إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ{78})
{إِنَّ رَبَّكَ}، إن المسؤول عنك من مستوى إلهي، {يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ}، ينهي ما بين بني إسرائيل من خلافات بحكمه ويقول سبحانه بالصوابية ما قرّره بشأن الخلاف بينهم.

كما ترى كمثال في السورة هنا، حيث قضى تعالى بحكمه في خلافاتهم حول بعض تفاصيل قصص الأنبياء.

وربك، {وَهُوَ الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره...

وربك، {الْعَلِيمُ}، الذي لديه علم بكل شيء، وبكل التفاصيل، فعندما يحكم فهو سبحانه يحكم بناءً على معلومات صحيحة، ولا يخمّن ولا يقول معلومات كاذبة...

نسأل عن سبب تعريج السورة على اختلاف بني إسرائيل في بعض تفاصيل قصص الأنبياء؟ فالسورة في أساسها تتوجّه بالكلام مع الكفّار، وساقت لهم قصصًا ليروا آيات ربّهم سبحانه فيها لتكون حجّة عليهم سواء آمنوا بصدقها أم لم يؤمنوا فهذه مشكلة فيهم أنهم يكذّبون قرآنه تعالى، واختارت الإضاءة على شخص حاز قدرات هائلة ولم يزده ذلك إلا إيمانًا، وهو النبي سليمان(ع)، واختارت نموذجًا عن حاكم كافر آمن بعد رؤيته للآيات وهو ملكة سبأ، وبما أن القرآن يتوجّه بهذا الكلام إلى الكفّار ليلفت انتباههم "وليؤمنوا" فإن البعض من بني إسرائيل، وهم من ناحية التصنيف ليسوا من الكفّار، ولكنهم مشابهون للكفّار في حالة إنكار هذه التفاصيل عن بعض الأنبياء، ولذلك أشارت السورة إلى أن المشكلة في الطرف الآخر وليست في القرآن، فهم بنو إسرائيل بين بعضهم يوجد خلاف حول بعض الأحداث التاريخية، وما يقوله القرآن نابع من عالم الغيب سبحانه وتعالى.

لاحظ العديد من أمثال هذا الموقف ونبّه عليه القرآن، كموضوع تحليل وتحريم الأطعمة... كاختراع ولد له تعالى، فلو كان المعلنون لتدينهم بدينه تعالى لم ينحرفوا عن الدين الإلهي، لكان سبحانه اكتفى بتوجيه كلامه عن تصحيح الدين إلى الآخرين، من الكفّار ومرضى القلوب الفاسدين فكريًا ونفسيًا، ولكن هناك أناس منتمون بالاسم لدينه تعالى، ولديهم مشاكل مثل بعض مشاكل الكفّار، حيث بعضهم لا يؤمن بكل كلامه تعالى، وبعضهم حذف كلامه تعالى من الكتب لأنه لم يؤمن به، وبعضهم جعل شخصية دينية مرموقة ولدًا له تعالى، وبعضهم ربّب قدّيسه... ولذلك تجد في العديد من السور تعريجها من الكلام مع الكفّار إلى أهل الكتاب بسبب وجود نفس المشكلة عند البعض من أهل الكتاب.

هنا في السورة حدث نفس الشيء، حيث يوجّه سبحانه كلامه للكفّار ليريهم مدى عظمة القدرات التي أتيحت لعبده سليمان(ع) ورغم ذلك لم يكفر، ومدى الملك الضخم لملكة سبأ، ورغم ذلك تحوّلت عن الكفر وآمنت، ولكن هناك تنغيص، فهناك أناس من المنتمين لدينه تعالى ويكفرون بهذا الكلام! لذلك اضطرت السورة لتوجيه الكلام إلى بني إسرائيل أيضًا مثلما وجّهت كلامها للكفّار لتعرض دينه الصحيح تعالى على الجميع، ولتخبرهم أن ما يقوله القرآن هو الصحيح لأنه صادر من عالم الغيب.

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ{79})
{فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}، اعْتَمِدْ أيها النبي(ع) على صاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى بأنه سيسيّر أمورك كما يجب، {إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ}، فأنت في إيمانك على الشيء الصحيح المطابق للواقع الواضح الذي لا شَكَّ في صحته.

إشعرْ بالقوة فأنت مدعوم بأقوى قوّة وأنت على حقّ. والمكائد، والمعاندة، والإشكالات، والمحاربة... من الخارج، ومعارضة كلامك من الداخل من المنتمين لدينه تعالى، فلا تشعر بالقلق مِنْهَا، وتوكّل عليه تعالى الذي حتما سيعتني بك.

لِنَنْتَبِهْ جيدا، ما نقرؤه هنا نموذج عن "أخلاقه" تعالى، تَصَوَّرْ طاغية بقدرات عسكرية ومالية يقول لشخص ما أن يتوكّل عليه ولا يخاف من أي شيء، حيثُ نحن أمام دعوة للتوكّل على أقوى قوّة في الدنيا، قوّة فائقة، يتبعها أنك على الحقّ، ويمكنه تعالى أن يفعل ما يشاء ولكن عظمة صفاته وقدراته تعالى تجعلها حسنى، فحكمته ورحمته تَحْصُرَانِ أفعاله تعالى فقط فيما هو محمود، فمن كان على الحقّ فهو مدعوم منه تعالى.

يعني سبحانه وتعالى لا يعرض علينا التحازب بالانتماء لدينه لنكون جماعته المحسوبة عليه، وبالتالي مهما فعلنا فلنا معاملة خاصّة، لا، فطالما نحن مع الحقّ فسبحانه معنا، وإلا فغضبه تعالى شديد حتى على المنتمين لدينه.

(إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ{80})

إنك، أيها النبي(ع) تحاول هداية الناس، وتشعر بالإحباط لأنك لم تنجح مع الجميع، بالرغم من أنك على الحق، وبالرغم من أنك مرسل من ربك سبحانه، ورغم براهينك وشروحاتك... انتبه:

{إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى... الدُّعَاءَ}، هؤلاء الذين لا يؤمنون بك هم في الحقيقة موتى، هم فاقدون للمعنى الحقيقي للحياة لأنهم لا ينفعلون ولا يتفاعلون مع دينه تعالى الحقّ عبر كلامك معهم، وهم بهذه الحالة موتى لا حياة فيهم، لا في عقولهم ولا في فكرهم ولا مشاعرهم، لذلك لن يسمعوا دُعَاءَكَ، إشهارك وإعلانك عن الدين الإلهي لهم. هل يمكن أن تصل إلى أي نتيجة إن تكلمت مع ميت!

{وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ}، الطرشان الذين لا يسمعون فأنت لا تستطيع جعلهم يسمعون، {الدُّعَاءَ}، ما تشهره وما تعلنه لهم، ومعنى اتّصاف الكائن بأنه يسمع حين يستجيب لما تشهره وتعلنه له، فإن لم يتفاعل فهو لا يسمع، والكفّار لا يسمعون كلام الهدى، ما معنى وصفهم بأنهم يسمعون؟ وهل يمكنك أن تجعل الأطرش يسمعك؟

إذن لا يمكنك جعل الموتى أو الصمّ يَسْمَعُونَكَ، {إِذَا وَلَّوْا}، إذا ذهبوا باتجاه آخر، {مُدْبِرِينَ} يعطونك ظهرهم ولا يهتمون لكلامك. وهم أصلا موصوفون بأنهم موتى وصمّ، وحين تتكلّم معهم لتهديهم يتولون عنك ويذهبون باتجاه آخر، هل يمكن أن يهتدوا؟

بقي شيء، هذه الأوصاف بالموت والصمّ للكفّار حقيقية، وليست مجازية ولا استعارة ولا... وهي متكررة في القرآن كما تقرأ في الآية 171 من سورة البقرة "وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ"، ما معنى إنسان له سمع وفكر بينما هو رافض لكلام الحق الواضح؟ وما معنى سمعه وما معنى فكره؟ وهل هو موصوف فعلا بالسمع والفكر؟ إنَّ هذا المستوى المتدني جدا الذي يصل إليه بعض الناس بقرار منهم وإصرار على رفض الحقّ والخير والصلاح يجعلهم فاقدين الوصف الحقيقي لمعنى كلمة عقل وفكر.

وعلى هذا المعنى جاء الكلام في الآية 64 من سورة العنكبوت "وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" فالحياة بكل ما تحمله كلمة حياة من معنى هِيَ في جنّة الآخرة حيث لا مرض ولا تعب ولا شيخوخة ولا ضرر للجسد ولا أذية...

(وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ{81})
{وَمَا أَنْتَ}، ولست أنت أيها النبي(ع) {بِهَادِي}، بواضع على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، وَأَنْتَ لست مخصصا لهم لتهدي، {الْعُمْيِ}، الذين لا يرون، {عَنْ ضَلَالَتِهِمْ}، عن الأشياء الخطأ التي توصلهم للغاية الخطأ، وَمَا معنى الاتِّصَافِ بإمكانية الرؤية إن كان الموصوف بها لا يصل إلى الطريق الصحيح بل يمشي باتجاه المصيبة؟ لِأَنَّ الكفّار في الحقيقة هم عميان لا يرون أنهم يمشون على طريق الضلال، على طريق السوء وهو نفسه طريق معصيته تعالى والذي نهايته العذاب، تُنْذِرُهُمْ ولكن لن تستطيع تغييرهم لتضعهم على الهدى.

{إِنْ تُسْمِعُ}، أنت أيها النبي(ع) فقط يسمعك، {مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا}، من يعتقد بالأمور المميزة المنسوبة له تعالى، هَذِهِ النوعية فقط وفقط تسمع كلامك، لِأَنَّ الشخص الذي يؤمن أصلا بآيات ربه سبحانه سيسمع كلامك، وَهُوَ الذي يرى الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم... ونزول الماء، ونمو النبات... يراها كآيات، وَيَرَاهَا كأمور مميّزة تدل على إلهه ربه الأحد الخالق الحكيم... هَذِهِ النوعية من الأشخاص يسمعون كلامك، {فَهُمْ مُسْلِمُونَ}، هُمْ منقادون طائعون لك ولربك سبحانه.

تذكّر دائما المفهوم القرآني عن أصحاب القلب السليم الذين يتماشى فكرهم ونفسيتهم مع كلامه تعالى الذي لا يقول إلا الحقّ ولا يأمر إلا بما هو صالح، وحين يسمعون كلام رسوله "القرآني هذا" سَيُسْلِمُونَ، وَسَيَنْقَادُونَ له لأنه يتماشى مع فكرهم ونفسيتهم.

وردت نفس آيتنا هذه في سورة الروم في الآية 53 بدون ياء لكلمة هادي {وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ...}، وترى الفرق بين الكلمتين من استعمال الآية 186 من سورة الأعراف {مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ...} ومن استعمال الآية 7 من سورة الرعد {... إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ}. ومن استعمال الآية 6 من سورة القمر {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ

نُكُرٍ}، لَمْ تقل الداعي لأنه يصير معهودا أي معلوما معرّفا، بينما أرادت الآية إبقاءه مجهولا كإشارة لداع ما يدعو الناس، وهنا رسمها كتّاب القرآن قديما بالياء لتعطي معنى أنك لست المعهود لهدايتهم، وفي سورة الروم رسموها بلا ياء لتعطي معنى أنك لست من عموم من يمكن أن يهديهم، هذا من ناحية معرفة المعنى من رسم الكلمات، أمّا من ناحية اللفظ فعند الوصل لا يظهر فرق بين الكلمتين، ويظهر فقط إذا توقفنا على كلمة هادي، مَعَ الياء نلفظ الكسر، وبدون الياء نلفظ الدال ساكنة.

كما ترى، من طريقة الإلقاء نتعرّف على الرسم، والجملة هنا ليس من العادة فيها التوقّف للفصل، رُبَّمَا من الوصل مع لفظ إشباع الكسر أو إهماله فرّق القدماء بين الحالتين، وهو الأرجح.

(وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ{82})
{وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ}، تحقق ما قاله سبحانه على الكفار، وهنا سياق الكلام السابق عن حصول عودتهم إلى الحياة، وَقَوْلُهُ بالأمر سبحانه: "قوموا من موتكم". إذا وقع على الكفار وخرجوا من موتهم، عندها، {أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً}، وهي المخلوق الذي يدب على الأرض وَيَتَحَرَّكُ على الأرض، أَيْضًا من الأرض تخرج تلك الدابة مثلما هم خرجوا من الأرض، {تُكَلِّمُهُمْ}، تلك الدابّة تكلّم الكفار، وملخص ما تقوله الدابة لهؤلاء الكفار، {أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا}، بالأمور المميزة المنسوبة له تعالى، {لَا يُوقِنُونَ}، لا يعتقدون بأنها مطابقة للواقع والحق، لَا يعتقدون بأن كلام القرآن عن الآخرة مطابق للواقع، وَكَانُوا يعتقدون أنه لن يحصل.

الكلام موجه للكفار، وهذه الدابة تتحدث مع الناس الكفار في يوم القيامة، وتوبّخهم وتذكّرهم بتفكيرهم السابق، لَا المخلوقات والظواهر الطبيعية أقنعتهم، ولا الكتب الإلهية أقنعتهم، ولا قصص نزول العذاب على المجرمين...

بعبارة أخرى تريد الآية أن تقول: هؤلاء النَّاكِرُونَ للآخرة، عندما يقع قوله سبحانه عليهم وَيَرْجِعُونَ إلى الحياة، أَيْضًا سيخرج معهم مخلوق من الأرض، ويسير بين الكفار، ويوبخهم على كفرهم بآيات ربهم سبحانه.

كما تلاحظ، الآية خبر عن شيء لم يحصل بعد، وهذه الدابة لم يقل القرآن لنا ما شكلها، ولا ندري هل هي إنسان أم نوع آخر من الحيوان؟ كَلِمَةُ دابة تشمل كل الحيوانات بما فيها الإنسان وتشمل الحشرات، وبربطها مع ما تقدّم وذكرته السورة فَالدَّابَّةُ تتكلم مع عموم الكفّار ومن ضمنهم مع الذين أَنْكَرُوا آية كلام الهدهد والنملة مع النبي سليمان(ع)، حَيْثُ هناك من يعتبر هذه الْقِصَصَ خرافة، ويعتبرها سببا لكفره بهذا الدين الذي فيه خرافات... فِي يوم القيامة ستخرج دابة من الأرض، حشرة من نوع النمل، أو طير أو أي حيوان ما يعود إلى الحياة... لا ندري، وعلى كل حال الدَّابَّةُ ستكلّم الناس وسيفهمون كلامها، وسيدركون أن خبر كلام النبي سليمان(ع) مع الدواب "نمل وطير" كان خبرا صحيحا وتكذيبهم له هو تكذيب للآيات الإلهية.

نلاحظ أن الروايات عن هذه الدابة تَوَسَّعَتْ وتشابكت بالموضوع حتى صار من المستحيل معرفة الصحيح من الكذب منها، لِأَنَّ أكثر رواة تلك الأحاديث مشهورون بالكذب وتأليف الروايات، وأكثر الكتب التي وردت فيها "أولا" تلك الأحاديث، هِيَ كتب مشحونة بروايات كاذبة... ولا تحكم على ما أقوله لك من رواية أو رِوَايَتَيْنِ تعجبانك عن الدابة، بل عليك بمراجعة عدد أكبر من الروايات عن الدابة التي فسّروا بها آيتنا هذه، وعندها سوف ترى أنها لا تغني ولا تسمن من جوع، طبعا إذا لم تقدّس الروايات بضبابية متغافلا متعاميا عن سوء سندها وعن سوء متنها وعن سوء تطبيق ما فيها على الآية... تِلْكَ الروايات جاءت بأمور من المستحيل أن تفهمها من الآية، وكأن الآية هنا نقطة من بحر ما في تلك الروايات التي سرحت كل واحدة منها في جهة... مع كمّ كبير من المعلومات وَبَعِيدٍ بشكل واضح عن آيتنا هذه، ورغم ذلك تجد في ثقافة الكثيرين قناعات لتفسير آيتنا هذه بما لا يظهر بِوُضُوحٍ منها ولا من بقية القرآن... وما ذكرته لك هو ما ستفهمه بالنسبة لربط الآية بما ذكرته السورة.

(وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ{83})
بعدما وقع القول عَادَ الناس إلى الحياة، وبدأت محاسبتهم، وَمِمَّا سيحصل حينها:

{وَيَوْمَ}، فِي الزمن الذي، {نَحْشُرُ}، نجمع بقرار منّا سواء قبلوا أو رفضوا، {مِن كُلِّ أُمَّةٍ}، من كل أناس كان لديهم عقائد وسلوكيات مشتركة وكان لهم امتداد تاريخي، حَيْثُ هناك أمّة عبدت الأرواح، وأمة أخرى عبدت الكواكب، وأمة مجرمة قاتلة... نَحْشُرُ، {فَوْجًا}، دفعة منهم، لِنَقُلْ مثلا: إِنَّهُ سبحانه قسّم الكفّار جيلا جيلا، ثم يجمع كل جيل إلى الحساب، وَالَّذِينَ كانوا مع بعض في عصر النبي محمد(ع) يحشرهم سبحانه كفوج كمجموعة لِوَحْدِهِمْ، والجيل الذي عاشر الصحابة يجمعهم سبحانه لِوَحْدِهِمْ وَهُمْ فوج آخر... وهكذا... المكذبون بالآيات كلّهم مثل بعض في الكفر بالآخرة ولكن مُوَزَّعُونَ أفواجا بحسب تخصّص كل مجموعة منهم بصفة يختلفون بها عن الآخرين، حَيْثُ هناك القتلة منهم، وهناك الغشّاشون... مثلما نستعمل نفس التعبير عن فوج المغاوير وفوج المشاة وفوج البحّارة... كُلُّهُمْ من الجيش ولكنهم مُوَزَّعُونَ أفواجا بحسب تخصّص كل مجموعة منهم.

ضع في بالك دائما أن كلام القرآن عن نماذج، حيث حشرنا أفواجا يستدعي حشر الواحد منّا مع أفواج متعددة، لِأَنَّ القرآن نادرا ما تحدّث عن مشهد من الآخرة على أساس أنه لن يحصل غيره، حَشْرُنَا فرادى لمحاسبتنا على ما فعلناه ولم يكن له أثر على الآخرين هُوَ مشهد من حوادث الآخرة، وحشرنا مع أهل زماننا ومنطقتنا لمحاسبتنا على سوء اختيارنا لزعمائنا من الفسّاق والمنافقين هُوَ مشهد آخر، وحشر المتعاملين مع الأعداء مشهد آخر، وحشر هذا مع الغشّاشين، ثم هو نفسه حشره في مشهد آخر مع الزناة... إِنَّهُ حشر أفواج بمشاهد متعددة، وَأَيَّامُ الحساب طويلة جدا جدا للغور في أدق تفاصيل سوء مَا فَعَلْنَاهُ، وتفاصيل أثره عبر التاريخ...

ها أَنَا قَرَّبْتُ لك الصورة عن معنى حشر الأفواج، وصرت تعلم بوجود معايير عديدة مختلفة للحشر، مَثَلًا يتم حشر أحدهم في فوج محدّد بحسب أشدّ صفة كفر أو فسق أو نفاق مشتركة بينهم، وَالْكَافِرُ الواحد يُمْكِنُ أَنْ يشترك مع عدّة أفواج، لَدَيْنَا أمّة الذين حاربوا الرسل وهؤلاء أفواج بسبب تكذيب هذا الفوج لهذا الرسول وذاك الفوج لذاك الرسول... وأمّة عبدة الأصنام أفواج، وأفواج الغشاشين عبر التاريخ، وأفواج القتلة... وبناء على ما نفهمه من القرآن بشكل عام، سَيَتِمُّ جمع الكفّار بحسب أكبر ذنب ارتكبوه، وَالَّذِينَ تشاركوا في الشرك والقتل والتبذير والإسراف... هُمْ فوج واحد من أمّة الكفر، والذين كانوا مشركين ومشتركين في الإسراف والتبذير ولكن لم يكونوا من القتلة، هُمْ فوج منفصل... وهكذا...

بعد تقسيم الأمم لأفواج، يُوَزَّعُونَ، وَكُلُّ واحد في محلّه المناسب، لَا أحد منهم يتحرّك كما يريد بل يقف حيث حشروه، وَلَا يمكنه الهرب ولا مخالفة الأوامر ولا الانتقال حيث يشاء... سَيَقِفُ حيث يَحْشُرُونَهُ بلا قيمة ولا اعتبار ولا قدرة له على مخالفة الأوامر.

نتذكّر من القرآن أن الحساب يكون لكل شخص لِوَحْدِهِ، وَمَا فعله من سيئات وحسنات في حياته، سَوْفَ يقف "منفردا وحيدا" في يوم القيامة ليتحاسب عليها، ولكن هنا ننتبه لما تقوله الآية، "وغيرها من آيات القرآن"، إِذْ تشير لحساب إضافي للحساب الفردي، هُنَاكَ حساب جماعي، لأن الذنب يكون جماعيا، وَهُنَاكَ فرق بين شخص كفر وكان يعيش لِوَحْدِهِ، وبين شخص كفر وكان يشكل فردا في مجتمع كافر، لِأَنَّهُ كان داعما لانتشار الكفر، مَثَلًا: لو فرضنا منطقة فيها عدد من الكفار، هُمْ كمجتمع سيحاربون المؤمنين ودينهم، والشخص المؤمن سيخاف منهم ولن يظهر إيمانه... ولو كان في المجتمع شخص واحد كافر فقط، هَذَا لن يخيف المؤمنين حتى يخفوا إيمانهم.

هكذا نفهم أن الشخص لِوَحْدِهِ له تأثير، والجماعة المتّفقة على رأي واحد لها تأثير مختلف، ولذلك سيتحاسب الناس كأمم، وكمجموعات كافرة، وكأفواج، وأترك لك المجال لتفكر في ثواب الفرد الجزء من مجتمع مؤمن لأنه يشجّع بقية أفراد المجتمع على الإيمان، وخذ مثلا: الصوم المستحب أو الواجب، فِي المجتمع الذي ينتشر فيه الصوم، تجد أنه مع الوقت يزداد عدد الصَّائِمِينَ، وهكذا ينال الجميع ثواب التكاتف والتواصي بالإيمان، وبالعكس مَنْ وقف في احتفال لتأييد فاسد أو ظالم أو منافق أو فاسق له سلطة ما كرئيس عائلة أو حزب أو نائب برلمان أو وزير أو... مُجَرَّدُ الوقوف مع جماهيره وبلا تصفيق وبلا حمل راية وبلا... عَلَيْهِ حساب عسير جدا جدا، وَلِهَذَا الواقف حصّة من كل السيئات التي نتجت عمّا فعله الزعيم وعمّا فعله المنتمون للزعيم...

(حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{84})

{حَتَّى إِذَا جَاؤُوا}، جاء الأفواج للحساب، جَاءَتْ واحدة من المجموعات ووقفت للحساب، وسألهم سبحانه عن تبريرهم لكفرهم:

قال تعالى: {أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي}، هل قلتم عن الأمور المميّزة المنسوبة لي أنها ليست صادقة؟ وَلَمْ تصدّقوها ولم تقنعكم حتى تؤمنوا بها؟ {وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا}، بآياتي، {عِلْمًا}؟ عِلْمُكُمْ لم يشمل آياتي، وَلَمْ تؤمنوا بها لأنها كانت دون مستوى العلم، وَاعْتَبَرْتُمْ آياتي أمورا عادية، أو حصلت بالصدفة، أو أساطير وخرافات وَسِحْرًا كَخُدْعَةٍ...

{أَمَّاذَا}، أم ماذا، {كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}؟ ماذا كانت سيرتكم في الحياة الدنيا؟ ما هو الشيء الذي أوصلكم للكفر بآياتي؟

بعبارة أخرى، يقول سبحانه وبكل شفافية لتلك المجموعة من الناس: في الدنيا أتحت لكم التعرف على الكثير من الآيات التي فعلتها بصفاتي وقدراتي الفائقة، من مخلوقات وظواهر طبيعية، وكتب منّي، وأنبياء ورسل ممتدين عبر التاريخ... هَلْ رغم كل هذا لم تؤمنوا وَكَذَّبْتُمْ بآياتي! ولم يحصل عندكم علم بها أو بصحتها؟ هَلْ من المقبول تجاهلكم لكل هذا حتى كفرتم، أم ماذا كنتم تعملون؟ مَاذَا جرى معكم؟ بِكُلِّ شفافية هاتوا أخبرونا إن لم تكن الآيات واضحة أو كافية لتؤمنوا، أو أخبرونا إن لم يكن لديكم القدرات على فهمها، أو أن الخطأ في تصميمي وخلقي لكم في بيئة بحيث انشغلتم أو انصبّ اهتمامكم على أمور منعتكم من التصديق بالآيات.

كما ترى، سبحانه وتعالى ورغم علمه الفائق وقدراته القاهرة، بِكُلِّ شفافية يحاسب عباده الكافرين، وَيَسْأَلُهُمْ إن كان لديهم سبب وجيه حتى كفروا بآياته، والسؤال عمومي عن أي شيء، ويتضمّن سؤالهم حتى عن خطأ في تصميمه تعالى لهم وللسماوات والأرض إن كان موجودا وسبّب لهم الكفر، هَاتُوا أخبرونا وبرّروا لنا: لماذا كفرتم بالآيات الإلهية؟

ننتبه جيدا لطريقة ربنا عز وجلّ في حسابه لعباده، وَنُلَاحِظُ كيف يسألهم ويترك لهم المجال للإجابة، بل ويسأل هذه المجموعات بطريقة إظهار العذر لهم، هَلْ من أحد منكم لم يسمع بآياتي؟ وَلَمْ ير خلقته ولا خلقة ما حوله... ولم يكن ذلك كافيا له للتعرّف عليه تعالى... لَوْ كان لَدَى أحد منهم عذر فليقله وسبحانه سيسمع له.

معلوم واضح أنه سبحانه وتعالى بَيَّنَ آياته بشكل واضح ومنتشر وكثيف وأكثر من كاف ليؤمنوا، لَا يوجد أي أحد لديه عذر للتكذيب بها، ولاحظ أن آخر آية من السورة ستشير لوضوح آياته تعالى وعلمهم بها، وأنها متاحة وأمامهم، وأنها أكثر من كافية ليؤمنوا، ولم يشغلهم أي شيء عنها لأنهم يحتكون بها... ولكنهم كذّبوا بها ظلما.

(وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ{85})
{وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ}، وتحقّق ما قاله تعالى عليهم، إِذْ قال سبحانه إِنَّهُ سيعذّب المنكرين لآياته، ووقع هذا القول بالتعذيب عليهم، {بِمَا ظَلَمُوا}، بسبب أنهم لم يكونوا منصفين ولا عادلين حين كذّبوا بآياته تعالى، وَلَمْ يكن معهم حقّ حين كفروا بآياته تعالى وبالتالي كفروا بدينه ورسله وآخرته... وليس لديهم أي عذر، {فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ}، لا يفصحون عن أي معلومة، وَلَا يقولون أي شيء كجواب لتبرير كفرهم لأنه لا يوجد ما يقولونه.

لاحظ، الآية لا تقول إِنَّهُ سبحانه أخرسهم وأبكمهم ولذلك هم لا يتكلمون، لا، بل تقول إِنَّهُمْ لا جواب لديهم، ولا عذر، ولذلك هم يسكتون ولا ينطقون. وهكذا علينا أن ننتبه لمختلف الآيات التي تحدّثت عن مشاهد ومواقف مختلفة لوصف محاسبة الكفّار في الآخرة، فِي حالة الموقف هنا هُمْ مبهوتون ولا جواب لديهم عن سبب كفرهم بالآيات، وفي موقف آخر يبررون لأفعالهم السيئة... ومرة يخرّسهم سبحانه لتشهد أعضاء جسدهم...

لو عكسنا مفهوم الآية، فقلنا إِنَّهُمْ لم يظلموا حين كفروا، فمعناها أن الآيات الإلهية كانت ناقصة وضعيفة ولذلك لم يقتنعوا بها، وَكَانَ معهم حقّ حين كفروا بها، ولذلك ينقل لنا القرآن سلفا هذه المشاهد من يوم القيامة، هُنَا يمكنهم القول لنا إِنَّ ما يسميه القرآن آيات فينا ومن حولنا، كالليل والنهار... ونفس القرآن، وقصصه وتنبيهاته... يمكنهم القول لنا إِنَّهَا خرافات وكلام فَارِغ وأساطير. وهنا الآية تخبرهم عن مشهد يقفون فيه في الآخرة، ويسألهم الإله بعظمته وهيبته ولياقته الإلهية بالكلام وبشفافية: ألم تكن آياتي كافية لتؤمنوا؟ وأنت كمؤمن تعلم الجواب: نعم كانت كافية وأكثر من كافية، وهم هناك سيسكتون لأنها كانت أكثر من كافية ليؤمنوا ولكنهم ظلما كفروا.

نتذكّر كلام السورة في افتتاحيتها وما بعده في متنها عن القرآن أنه آية واضحة، وعن تسع آيات لفرعون وقومه، وما رأته ملكة سبأ وآمنت... هَذَا من محاور السورة الذي تعيد الآيات هنا عرضه من مشاهد ستحصل في الآخرة بسؤاله تعالى للكافرين عن سبب كفرهم بالآيات...

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{86})

كانت الآيات السابقة تتحدث عن سؤال الكفار في الآخرة عمّا كان موقفهم من آياته سبحانه في الدنيا؟ لِمَاذَا لم يؤمنوا بها؟ والآن ستذكر لنا الآية هنا واحدة من الآيات الإلهية والتي تتكرر كل يوم، ويلاحظها كل شخص، ولوحدها كافية لتجعلنا نتعرّف ونوحّد ربنا سبحانه الذي صمّم وخطّط ونفّذ وتابع...:

{أَلَمْ يَرَوْا}، ألم تحصل لديهم صورة محدّدة كما نقول بالعامية: ما شافوا، ما التفتوا. {أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ}؟ فيخفّفوا أو يتوقّفوا عن الحركة والنشاط في فترة العتمة من اليوم. هُنَاكَ شيء مشترك ومنتشر بين كل البشر، من طفولتهم إلى شيخوختهم، فِي عتمة الليل يسكنون، وَيَتَوَقَّفُونَ عن العمل والأنشطة وينامون، مَنْ صمّم ونفّذ هذا النظام الشامل المنتشر على جميع الناس؟

أيضا، ألم ير الكفار أننا نحن الإله جعلنا، {وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا}؟ في فترة الضوء من اليوم نتيح لكم إمكانية فهم ووعي الصور التي أمامكم بسبب انتشار الضوء، حيث تسرحون وتتحركون فيه وتنشطون.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، السكن ليلا والإبصار نهارا، {لَآيَاتٍ}، فهي أمور مميزة، {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الآيات، {يُؤْمِنُونَ}، وَهُمْ في حالة الاعتقاد بالله تعالى إلها وبما يصلنا منه من أخبار، وأمّا الكفار فلن يعتبروها آيات، ولذلك لَنْ يتغير حالهم، وسيبقون على كفرهم.

نلاحظ الآية هنا اختارت لفت انتباهنا للّيل بعتمته والسكن فيه، والنهار بضوئه والنشاط فيه، لأن أي إنسان وفي أي مكان، يَلْمِسُ هذه الظاهرة المتكررة المتماشية مع طبيعتنا. ومن ناحية ثانية تلفت الآية انتباهنا للتصميم الذي نحن فيه، لِمَاذَا لا نبقى مستيقظين نشطين كل الوقت؟ ولماذا لا ننام كل الوقت؟ ولماذا ننشط بوجود الضوء، ولماذا نتماشى بحالات مختلفة مع تعاقب الليل والنهار... والكثير الكثير من الأسئلة والتفاصيل التي من المستحيل حدوثها لوحدها والتي تدل بوضوح على إله خالق عظيم قدير حكيم عليم... صمّمها ونفّذها.

كثيرا ما ركّز القرآن على شيئين أحدهما نراه بوضوح كآية الليل والنهار وجريان الشمس والقمر... والآخر نراه بشكل أوضح من بعد لفت القرآن انْتِبَاهَنَا له، كرسو الأرض والجبال، والبقرة التي تشرب ما نزل من السماء من ماء، وتأكل ما نبت من الماء والتراب، وتستهلكه في بطنها إلى جسمها وينتج عنه لبن "حليب"، وأنا أشربه وأتغذّى به! والنبتة التي تمتص الماء والمغذيات من التربة وتنتج ثمرا، طعمه لذيذ بالنسبة لي ومفيد وَمُغَذٍّ! وَمَا تراه مُتَّصِلًا وَعَادِيًّا بيني وبين شرب اللبن وأكل الثمار، هَلْ يمكن أن تشرح لي ما علاقتي أنا بما حصل وكيف حصل؟ وَأَيُّ صدفة جعلتني بحاسّة ذوق ورغبة في أكل ثمرة نبتة، ولماذا أَنْتَجَتِ النبتة ثمرة أرغب في أكلها؟

ما تطرحه الآية هنا هو نفس الشيء، مَا معنى نشاطي وسكوني وارتباطه بالعتمة والضوء؟ لِأَنَّ التأقلم يحصل حين تأتي لبيئة جديدة عليك لم تعشها من قبل، أمّا أن يكون كيانك مُبَرْمَجًا للتوافق بحالات مختلفة مع بيئتك فما معناه؟ لِمَاذَا كياني يسكن؟ ولماذا العتمة تتعاقب مع الضوء لأنشط بعدها؟ ألا يبدو أني محكوم بجسد وبيئة صمّمها أحد ما وجعل في كياني وبيئتي الكثير من التفاصيل المترابطة؟ ألا تبدو الأشياء والظواهر في مكانها المناسب؟

حتى لو قلت بنظرية النشوء والارتقاء "التطوّر" دامجا لها مع نظرية كثرة تكرار الحوادث "الفيزيائية والكيميائية" في كون هائل الضخامة نتج عنه في بقعة ما بيئة وكائنات ناجحة لتنتج الحياة، فهل كثرة التفاصيل التي فينا وحولنا والترابط بينها حَصَلَتْ من دون تصميم؟

أخبرنا سبحانه أَنَّهُ خلق دنيا المخلوقات في ستة أيام، أي في ست فترات زمنية وكل فترة منها كانت مرحلة من خلق ما في الدنيا، وَكَانَتْ مرحلة من تركيبها وتأليفها، وفي النهاية وصلت الأمور إلى الحالة التي نحن عليها، وَصَارَ هناك بشر وبيئة مناسبة متماشية مع صفاتهم التي قرّرها تعالى أن تكون.

هذه أبرز جوانب من مراحل خلق السماوات والأرض وصولا إلى خلقنا، ولحصول ذلك آليات مرتبطة ببعضها، تؤدّي في النهاية إلى نشوء أرض بالصفات التي نراها، وإلى نشوء حياة، وَمَعْرِفَتُنَا بآليات حدوث نَشْأَةِ الكون لا تلغيه تعالى من حساباتنا، بل بالعكس هِيَ محاولة تعرّف على آلية وكيفية خلقه تعالى لنا.

وهناك من ينكر الآيات الإلهية "من خلق وظواهر وترابط بين المخلوقات وبيئتها..." رافضا نسبتها إلى إله فائق الصفات والقدرات، وهناك من ينسبها إلى آلهة أخرى اخترعها من وهمه وخياله، وقديما جدا جدا كان بعض الناس الْمُتَذَاكِينَ يقولون نفس الكلام الذي تسمعه الآن عن الطبيعة أنها خلقتنا، وعن خروجنا إلى الحياة هكذا لوحدنا بلا إله، وقديما كان الكثيرون يعتقدون أن الإله أو الآلهة تتدخّل فينا من بعد ما صرنا موجودين، على أساس أن الإله أو الآلهة كائنات مثلنا خرجت إلى الحياة هكذا لوحدها...

هو نفس الكلام القديم مماثل للكلام الجديد ولكن بعبارات من عصرنا يستعملون فيها مصطلحات جديدة... حَيْثُ صَارَتْ قوانين الفيزياء أوّل إله، وبعدها إله الكيمياء، يليه إله البيولوجيا، وإله التطوّر، والطبيعة، والصدفة، وإله كثرة التكرار...

هم يرفضون الإقرار بأننا في تصميم وتخطيط إلهي، ويقبلون بأي تبرير آخر! وَيَرْفُضُونَ أسهل وأوضح تبرير لما نحن فيه: إله فائق القدرات والصفات صمّمنا وخلقنا عبر آليات مترابطة سينتج عنها سبع سماوات... ويوم القيامة حين يعيدنا تعالى إلى الحياة سَيَسْأَلُنَا عن الليل والنهار والسكن والبصر فيهما، ألم تكونا آيَتَيْنِ كافيتين لنا لنرى إلها فائق القدرات والصفات صمّمها وخلقها؟ بينما هم مصرّون الآن في الدنيا على تكذيب ما هو واضح؟!

لنقل بأننا تعرّفنا على آليات نشأة الحياة على الأرض بمعلومات يقينية وليس بنظريات، وبأن الحيوانات من حين نشأتها الأساسية تكيّفت مع بيئتها، ونتج عن ذلك تواؤمها مع الليل لتسكن فيه لأنها تفقد الرؤية في العتمة... فهذا لا يعني أكثر من التعرّف على آليات خلقه تعالى للأشياء وآليات تَوَاؤُمِهَا وتوافقها مع بيئتها.

ولنقل إِنَّكَ أنت صمّمت كائنات، والصفات الأساسية التي تريدها فيهم تستدعي توقّفهم عن النشاط لاستعادة عافيتهم الفكرية والجسدية، كحالة خلقنا نحن من طين وبدماغ يزوّدنا بالمعلومات والخيارات، وَهَذِهِ أهم صفة فينا ككائنات حيّة واعية لديها حرية إرادة واختيار وعليها تكليف بالمشي على ما هو حقّ من عقيدة وشريعة وسلوكيات، وهذا يستدعي أن يتوقّف الدماغ عن تلقّي المعطيات من الحواس حتى يعيد تنظيم ما تعرّض له، وهكذا تنبني شخصية كل واحد منّا بشكل مختلف عن الآخر بسبب الخيارات التي قرّرها أثناء احتكاكه مع المعطيات الحسيّة والفكرية.

ولتحصل هذه الحالة اختار تعالى "شاء" أن يجعلنا في بيئة تجعلنا مضطرين للتوقّف عن النشاط لنسكن عبر ظاهرة العتمة والتي نسمّيها بالليل.

مَا تراه أنت من الآخر الآن بسكونك ليلا، ومعرفتك بآليات وصول الأمر إلى هنا منذ نشأة الحياة على الأرض والتي وصلت عبر آليات متعددة إلى ما نحن عليه، فهو نتيجة تصميمه تعالى للسماوات والأرض حتى تصل أمورنا إلى ما نحن عليه، وهنا يسألك تعالى عمّا جعل الأمور هكذا كما تراها؟

نتذكّر أن كلام القرآن معنا كبشر، يستدعي الكلام عنّا بالنماذج، لأننا لا نحمل كلنا بالضبط نفس الصفات، بل نختلف، وهذا من ضمن تصميمه تعالى لنا بمتغيرات كثيرة جدا تشكّل هوية منفردة لكل واحد منّا عن الآخر، حيث بعض الناس يصيبهم الأرق ولا ينامون ليلا، وهذا معلوم منذ القدم، ولكنها الحالة الشاذّة بالنسبة لانتشار صفة النوم عند الغالبية الساحقة من البشر، وهكذا نفهم أن كلام القرآن عن نماذج. هنا النموذج عمومي للغالبية الساحقة من البشر، وأحيانا يذكر القرآن نماذج ليست عمومية بل خاصة جدا وفردية، كحالة الذي يعلم أنه سيموت خلال أيام أو ساعات أو دقائق والتي ضربتها مثالا الآية 10 من سورة المنافقين {وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ}، لَيْسَ كل واحد منّا سيمرّ في هذه الحالة، بل الكثيرون يموتون فجأة وفورا وبلا سابق إنذار. مثلها حالة دفن الأموات في قبور بحفرة تحت التراب، التي ذكرها القرآن لأنها الحالة الشائعة ولأن ذهننا يصوّر لنا القبور عند الكلام عن الموتى، ومعلوم أن الكثير من الناس ماتوا في البحر، وآخرون

أكلتهم الحيوانات، وغيرهم احْتَرَقُوا... ضع هذا في بالك دائما لأن القرآن افترض فيك هذا الحدّ الأدنى من العقلانية لترى أن الكلام عن النماذج.

(وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ{87})
الآيات السابقة تحدثت عن تعامي بعض الناس عن الآيات الإلهية الواضحة والكثيرة ونكرانهم للآخرة، وتناولت بعضا من مشاهد الآخرة لِتَنْبِيهِ الكفّار من خطورة النهاية للكفر...

هنا تعود السورة لتؤكّد وقوع يوم القيامة، ولا تعطينا من الأدلة التي نقرأها في سور أخرى، لأن هذه السورة تؤكد أن المؤمن أو من عنده بذرة إيمان، فهذا سيكتفي بما يقوله سبحانه له عبر هذا القرآن معتمدا على ما يراه من آيات فيه ومن حوله تدفعه للإيمان بحكمة تصميم آخرة للحساب...:

{وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ}، من المشهور جدا في عموم ثقافات أهل الكتاب وثقافتنا أن ملاكا اسمه إسرافيل(ع) هو النافخ في الصور، وتذكّر دائما أن القرآن لم يذكر اسمه ولم يذكر أصلا أن النافخ في الصور ملاك، ولكن من عموم مفاهيم القرآن عن توظيفه تعالى للملائكة بتوفّي الأنفس وغيرها من الأمور، مِنْ هذه الخلفية يذهب فكرنا لنفترض أن النافخ في الصور ملاك ذو قدرات عالية... فِي زمن ما ينفخ وَيَضَعُ "يضخّ" شيئا بداخل الشيء الذي يوصل وَيُوَزِّعُ الأمر الإلهي لعودتنا إلى الحياة على العدد الكبير للكائنات الميتة، وعند حصول النفخ يحصل شيء في المواد، وَتَتَشَكَّلُ من جديد، وترجع الحياة لنا...

بعد النفخ، {فَفَزِعَ}، حَصَلَ عنده حالة المفاجأة مع ارتباك يتدرّج من الخوف إلى الاندهاش، وَاسْتَفَاقَ من موته مع الشعور بالمفاجأة والتلبّك، {مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ} "السبع" من كائنات مختلفة، من مخلوقات كانت في السماوات على قيد الحياة من قبل وماتت، {وَمَنْ فِي الْأَرْضِ}، التي تقابل كل سماء وأرضنا وأي أرض أخرى في كوننا... وَمَا فيهن من مخلوقات كانت تعيش عليها، كُلُّهُمْ فزعوا وَاسْتَفَاقُوا من موتهم في حالة فزع "متدرجة من الخوف إلى المفاجأة"، {إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ}، حَيْثُ هناك مخلوقات لن تفزع وَلَنْ تستعيد حياتها مع شعور بالمفاجأة أو الخوف، وأنت تعلم أنها إشارة إلى الكائنات التي ستعود إلى الحياة وهي مسرورة، ونعلم من عموم القرآن ومن الآية بعد التالية 89 من هذه السورة {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ} أن المؤمنين سيفرحون أشدّ الفرح برجعتهم إلى الحياة مرّة ثانية لأنهم يتوقعون دخول الجنّة التي وعدهم بها سبحانه، هَؤُلَاءِ هم من شاء الله تعالى أن لا يفزعوا، وَأَمَامَهُ تعالى خيارات عديدة وقرّر أن يعود المؤمنون "من الدرجة العالية" إلى الحياة مع شعورهم بالسعادة.

{وَكُلٌّ}، كل الذين عادوا إلى الحياة من مخلوقات السماوات والأرض، {أَتَوْهُ دَاخِرِينَ}، أتوا إليه سبحانه وَحَضَرُوا إلى الحساب بين يدي ربهم سبحانه وهم محكومون مطيعون منقادون لسلطته تعالى فلا يمكنهم المقاومة أو الرفض أو الهرب.

الصور في اللغة هو الشيء الذي نستعمله لنصدر صوتا قويا، يَسْمَعُهُ عدد كبير من الناس، كالبوق قديما، وكمكبر الصوت حاليا. وطبعا الصُّورُ الذي تتحدّث عنه الآية هنا ليس بوقا مصنوعا من خشب أو من معدن، وليس مكبرا للصوت، ولكنه شيء يستعمله "الملاك إسرافيل(ع)" وَيَنْفُخُ فيه، وَيَجْعَلُ في داخله "شيئا لا نعرفه"، مثلما نجعل نحن الهواء داخل البوق "أو البالون"، وَيَصْدُرُ من الصور "شيء" يسبّب قيام كل الناس من موتهم، دفعة واحدة.

وصف النفخ في الصور مثل الوصف بالصيحة الوارد في العديد من الآيات ومنها الآية 53 من سورة يس {إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ}، أَمَامَ عدد هائل من المخلوقات الميتة، يصدر أمر إلهي بإعادة هذا العدد الهائل إلى الحياة بنفخ "الملاك" في شيء ينشر الأمر الإلهي على عدد كبير، ونفس الحدث يوصف بالصيحة كتعبير عن أمر إلهي سينتشر على عدد كبير، وَهِيَ ليست صرخة "علما أن كلمة صرخة أصلا غير مناسبة لوصف الحالة"، ولا الصيحة مسموعة بالصوت، بل التعبير بالنفخ في الصور وبالصيحة هو وصف لانتشار الأمر الإلهي على عدد كبير ليتنفّذ.

النفخ في الصور ليس كما ننفخ نحن البالون بالهواء، حَيْثُ كلمة "نفخ" استعملها القرآن مرارا لتوصيف حالة سريان الحياة في المادة الجامدة مثل التراب، وَالْآيَتَانِ 29 من سورة الحجر و72 من سورة ص تنسبان النفخ له سبحانه في

آدم(ع) وَصَارَ حيا، والملائكة(ع) نفخت في بطن السيدة مريم(ع) وَصَارَتْ حبلى، وراجع في ذلك الآية 19 من سورة مريم {قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} مع الآية 12 من سورة التحريم {وَمَرْيَمَ ... فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا...}، والنبي عيسى(ع) كان ينفخ في الطين وَيَصِيرُ طيرا، كما ورد في الآية 110 من سورة المائدة {... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي...}، وهنا ينفخ الملاك في الصور وَنَتَشَكَّلُ نحن من التراب ونعود إلى الحياة.

صرت تعلم أن استعمال هذه الكلمات على معناها الوصفي الحقيقي وليست تَعَابِيرَ مجازية، ولكن تصوّر حصولها غير ممكن لنا حاليا لأنها توصّف شيئا من عالم آخر، من عالم الملائكة التي لا يمكننا رؤيتها الآن، فِي عالمها صور "بوق" يناسب تكوينه تكوين الملائكة، والنفخ فيه فعل يناسب تكوين الملائكة، نَحْنُ لدينا رِئَتَانِ ننفخ منهما، والملائكة تكوينها مختلف، ولكن لديها فعل توصف فيه بأنها تنفخ. ونفس الشيء الكلام عن الشهب التي ترجم بها الملائكة لتبعد الشياطين عن السماء العالية، حَيْثُ الشهب توصيف لشيء يناسب تكوين تلك السماء، وَلَيْسَتْ شهبا من المادة التي يتشكّل منها كوننا "سَمَاؤُنَا"... ونفس الشيء وصف سجود الملائكة بتعبير يناسب تكوينها...

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ{88})
{وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ}، {تَرَى الْجِبَالَ}، يصير لديك صورة محدّدة للكتل الضخمة المنتشرة على الأرض، {تَحْسَبُهَا جَامِدَةً}، لِأَوَّلِ وهلة ومن دون تدقيق يخطر ببالك أنها متماسكة، {وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}، ولكن الجبال في الحقيقية تسير بشكل يشابه مرور الغيوم الكبيرة، عِنْدَمَا تنظر إلى الغيوم الكبيرة تراها تمرّ من مكان إلى مكان في السماء بسبب هشاشة تركيبها البخاري، وفي الآخرة الْجِبَالُ مثلها ستمرّ لأن كيانها الداخلي سيفقد ترابطه وتصير هشّة، وهذا شيء من، {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}، كَمَا نقول: تقانة عالية، جودة عالية، تصميم هندسي ممتاز... كُلُّ ما يصنعه الله تعالى فهو ممتاز.

{إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ}، لديه أخبار وتفاصيل كل شيء ويحيط علمه بالذي تفعلونه هنا في الدنيا، وَمَنْ لديه القدرة على تسيير الجبال، وتسيير السحاب الثقال كما هو واضح أمامكم كمثال عن إتقان ما صنعه، مِنَ البديهي أن يكون خبيرا بأفعالكم ولا تغيب عنه.

بمراجعة ما ورد في الآية 20 في سورة النبأ {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا}، والآية 10 من سورة الطور {وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا}، والآية 9 من سورة المعارج {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ}، وغيرها من الآيات نفهم أن الجبال في الآخرة، وهي الكتل الضخمة من الصخور والتراب، سَتَفْقِدُ تماسكها فتراها تحسبها جامدة، وهي في الحقيقة هشّة، فهي ضخمة والسحاب ضخم، ولكنها هشّة مثل السحاب الذي رغم ضخامته تحمله الرياح، وبعدها ستسير الجبال وتنهار.

ركّز القرآن عدة مرات على ذكر الجبال على أساس أن بعض الناس يرونها ككيانات ضخمة صلبة قوية، تُعْطِيهِمْ شعورا باستمرارية وجودها وأن لا شيء يزيلها، وبالتالي لَا خراب للدنيا ولن تحصل آخرة... تَأْتِي عدة آيات لتشير إلى تبدّل تكوين الجبال في الآخرة وأنها ستنهار لأن ترابطها الداخلي سينهار.

ننتبه لما يقولونه حول الإعجاز العلمي أو الطبي أو الجيولوجي أو الكيميائي... في القرآن، أَكْثَرُهُ غير صحيح، وغالبيته الساحقة تقويلات لم يقلها القرآن، وهناك الكثير من الأمور "العلمية" التي نسبوها للقرآن عبر التاريخ، وتغيّر رأينا العلمي فيها فيما بعد، وتبيّن أنها نظريات وفرضيات غير صحيحة! كتفسيرهم للسماوات السبع بمسارات الكواكب السيارة حول الأرض، وتبين فيما بعد وجود كواكب سيّارة أكثر وهي مع الأرض تسير حول الشمس...

وآيتنا هنا خبر عن شيء سيحصل في الآخرة، ويدعم ذلك ما سبق وأشرت به لك من آيات متفرقة في مختلف السور تتكلّم عن الجبال في الآخرة، هَنَاكَ مَنْ قَالُوا إِنَّ آيتنا هنا تشير لسباحة الأرض في الفضاء وبالتالي، ترى الجبال جامدة ولكنها تسبح في الفضاء كما تسبح الغيوم في السماء، ولكن هذا كيف سيفهمه الرسول(ع) الذي خاطبته الآية؟ ولماذا نأخذ معنى كلمة "جامدة" مقابل "متحركة" مع أنها بالأصل مقابل "الهشاشة" إِذْ إِنَّ الماء الجامد هو وصف لتصلّبه ومن مشتقات وصفه بالجماد أنه لا يسيل ولا يجري ولكنه موصوف بأنه جامد وهو في الكوب، ويبدو من القواميس واستعمال العرب لهذه الكلمة أن الجمودية بالأساس تشير لصلابة وقساوة الشيء ولا تشير بالأصل إلى ثباته، مثلما

نقول عن شخص أنه جمد في مكانه، ونقول أيضا أنه يبس في مكانه، هَذِهِ استعمالات متساهلة في معاني الكلمات، لَا الشخص جمد ولا تيبّس، بل توقّف. وعلى هذا الْجِبَالُ في يوم القيامة تحسبها جامدة، مَنْظَرُهَا يوحي لك بأنها صلبة متماسكة، ولكنها هشّة، تمر مرّ السحاب، منهارة من داخلها وتسير مع الريح...

(مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ{89})
{إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ}، وعلى هذا الأساس:

{مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ}، من منكم أيها الناس في الآخرة أتى بالحسنة، بالأعمال الحسنة، فعاد إلى الحياة الآخرة ومعه الأعمال الجيدة التي قام بها في الدنيا، {فَلَهُ}، كجزاء ومقابل من ربه سبحانه على حسناته، {خَيْرٌ مِّنْهَا}، شيء حسنه "أفضل" أعلى من حسناته.

بالطبع، وبكل تأكيد، ومن دون أي مقارنة بين ما نفعله نحن هنا في الدنيا من حسنات، وبين ما سيقدمه لنا سبحانه من جزاء في الجنة من ناحية حسن ما فعلناه وحسن ما سنلاقيه. وخذ هذا المثال: مَنْ تصدق هنا في الدنيا بتفاحة على فقير، بنية القربى لله تعالى، فِي الآخرة لا يكون جزاؤه تفاحة مثلها، أو بعشر تفاحات، أو بصندوق تفاح، أو ببستان تفّاح... لا، جَزَاؤُهُ يكون بساتين وقصورا، وهذا بالطبع خير "أفضل" بكثير من حسنته بتفاحة. طبعا ما ذكرته لك هو مثال مشتق من مفاهيم القرآن.

{وَهُم}، الذين كانت أعمالهم في الدنيا حسنة وجاؤوا إلى الآخرة ومعهم عملهم الحسن، {مِّن فَزَعٍ}، من الاندهاش مع الارتباك الذي يصل إلى درجة الخوف، {يَوْمَئِذٍ}، يوم القيامة من الموت هم، {آمِنُونَ}، مستبعد عنهم أي نوع من الأذيّة، لَنْ يطالهم الفزع أو الرعب أو الخوف. ونفس المعنى مع تفصيل قليل ورد في الآية 103 من سورة الأنبياء {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ}.

بالنسبة لكلمة "خير" فقد توسعنا في دراستها في الآية 59 من هذه السورة.

(وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{90})
{وَمَن جَاءَ}، الذي وصل إلى الآخرة، {بِالسَّيِّئَةِ}، بالأعمال السيئة العاطلة التي قام بها في الدنيا، {فَكُبَّتْ}، رُمِيَت بإهمال كيفية سقوطها، {وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ}، حيثُ تم رميهم على وجوههم في نار جهنم بإهمال مقصود منه أذيتهم واحتقارهم.

أيها الذين جئتم بالأعمال السيّئة: {هَلْ تُجْزَوْنَ}، هل تحصلون على مقابل سيّئاتكم برميكم في النار باحتقار على وجوهكم، {إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}؟

الآية السابقة قالت إنّ من جاء بالحسنة فله ثواب في الجنة، وهنا تؤكد الآية أنّ الذي جاء بأعمال سيئة سيُحاسَب بالضبط بمقدار سيئاته، هل رميكم في النار حدث لكم إلا بسبب أعمالكم السيئة؟ نعم هي السبب لرميكم في النار، ولستم مظلومين لأنكم تستحقون هذا العذاب الشديد.

نتذكّر من القرآن حبطه سبحانه لأعمال الكفّار، فلا يجدون أي قيمة لأي عمل حسن قاموا به في الدنيا، لو أنَّ كافراً شفى كل أهل الأرض من الأمراض، وأطعمهم وسقاهم وعلّمهم... طالما هم كفّار فلن يكون لأعمالهم أي قيمة في الآخرة، مع أنها تبقى موصوفة بأنها أعمال حسنة، وهنا تشير الآيتان إلى الذي في الآخرة اعتبر الله تعالى له أعمالا حسنة، لأنه من المؤمنين، وتشير إلى من حبطت أعماله فلا حسنات له، وكل ما حمله معه هو أعماله السيّئة، وهذه النوعية سيتم رميها على وجوههم في النار، وشدّة العذاب مساوية بالقيمة لما عملوه من سيئات.

(إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ{91})
أيها النبي(ع) قل للناس عبر هذا القرآن:

{إِنَّمَا}، فقط وحصرا، {أُمِرْتُ}، أمرني ربي سبحانه، {أَنْ أَعْبُدَ}، أن أتصرّف على أساس أني عبد ومفروض مني إطاعة، {رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ}، المسؤول من مستوى إلهي عن هذا المكان الذي له حدود، وعادة للبلد إسم، والكلام هنا عن مكّة، {الَّذِي حَرَّمَهَا}، جعل سبحانه لها حرمة، حرامٌ وممنوعٌ فيها أشياء عديدة، منها الاقتتال والتنازع...

{وَلَهُ}، لربي سبحانه، {كُلُّ شَيْءٍ}، منسوبٌ له كل الأشياء بالملكية والسلطة... وليس مكة فقط.

{وَأُمِرْتُ}، أمرني ربي سبحانه أيضا، {أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}، أنقاد وأطيع وأعلن اتباعي له سبحانه.

هنا نتذكر، أنّ هذه السورة تتحدث مع عيّنة من كفّار الأرض، حيث تتحدث مع كفار مكّة كنموذج، وتتحدّث مع الذين يعيشون في مكان حرّمه الله تعالى، حيث حَرَّمَ ومنع فيه القتال والنزاع والمخاصمة... هذه حرمته، سبحانه الذي أمر ببناء الكعبة التي في مكة واعتبرها بيتا له لتذهب إليه الناس لتحجّ أي ليقصدوه ويقوموا بالتعبير عن شكرهم لربهم على فضله عليهم في الدنيا... صار لهذا البيت حرمة وبالتالي لهذا البلد ولهذه البقعة المحدّدة والتي لها إسم "مكّة" صار لها حرمة ربانية، كما أنَّ لبيتي أنا حرمة ولبيتك حرمة، تدخل إلى بيتي بإذني وتتصرف فيه باحترام ولياقة، ولا تتنقّل فيه على هواك، بل تجلس وتتنقّل حيث أسمح لك... هذه هي حرمة البيت أن تعتبر نفسك ضيفا فيه وتحترم قوانين صاحبه. الكعبة لها حرمة، لأنها بيت الله تعالى، وهي في مكة، وجعل سبحانه لكل مكة حرمة.

الآية تقول: إنّه تعالى حرّم هذه البلدة وبناء عليه احترم عامّة الناس هذه الحرمة، وبناء عليه استفدتم يا أهل مكّة النموذج عن بقية الكفّار، استفدتم من ذلك وصار بلدكم آمنا، وهذه نعمة واضحة كوضوح الشمس أنها منه تعالى، وهو نفسه سبحانه أمرني بعبادته والإسلام له، أما تلك الآلهة التي تعبدونها أنتم وغيركم، فما دخلها في قدسية البيت ومكانته؟ وما دخلها في حرمة هذه البلدة؟ وبالتالي ما دخلها بنعمة الأمان الذي أنتم فيه والناتجة عن تقديس بقية الناس لبيته تعالى؟

(وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ{92})
أمرني الذي حرّم هذه البلدة، {أَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ}، أَنْ أقرأ عليكم الشيء القابل للقراءة، والمقصود هو هذا الكلام المستند لوحيه تعالى، {فَمَنِ اهْتَدَى}، من تلاوتي للمعلومات القرآنية تعلّمها والتزم بها وصار على الأشياء الصحيحة التي توصله للغاية الصحيحة، {فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ}، لأنه سيصير على الحقّ والخير والصلاح.

{وَمَن ضَلَّ}، الذي سمع القرآن ولم يلتزم به وكان على طريق آخر غير الهدى، وكان على الأشياء الخطأ التي توصله للنتيجة الخطأ، {فَقُلْ} له أيها النبي(ع): {إِنَّمَا أَنَا}، فقط وحصرا، {مِنَ الْمُنذِرِينَ}، من الذين يقولون الإنذار، وينقلون الخبر عن شيء سيّء قادم حتما لمن توافرت فيه شروط الحصول على العقاب الإلهي، ولن يضرني ضلالكم بل يضركم أنتم.

نتذكّر دائما أنّ الوحي الإلهي على رسوله(ع) بالسور وما فيها من آيات، هي معلومات كانت في كتاب رئيسي أساسي في السماء العالية، وتحوّل قسم من تلك المعلومات إلى اللغة العربية، وصارت مقروءة، وهي قرآن، وكلّ القرآن وصفه قرآن=مقروء، السورة الواحدة قرآن، والآية الواحدة قرآن، هنا حين يتلو النبي(ع) القرآن على الناس، فإنّه يقرأ عليهم ما نزل عليه، مهما كانت الكمية التي سمعوها، فهم سمعوا: قرآنا.

كثيرا ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، هي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيرا أم شرا، إذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فَضَلَّ عنك صيدها. استعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، ولم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، ولن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون لأنه ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

أيضاً عادةً يذهب فكرنا من جملة "يهتدي لنفسه" أنه سينفع نفسه للوصول إلى الجنّة عبر رضاه تعالى، وهذا صحيح ولكنه ليس دقيقا، لأنَّ أساس مفاهيم القرآن مبنية على ما جعله تعالى فينا من قدرة على تمييز الخير من الشرّ والحقّ من

الباطل، وهي الكلمات تتحدّث عن نفسها، الخير مرغوب والشر منفور منه، وإلا فلا معنى لمحاسبته تعالى لنا ومجازاتنا إن لم يكن فينا دافع للنفور من الباطل ورغبة بالحقّ.

على هذا الأساس وقبل أي منفعة برضاه تعالى عنّا وإدخالنا الجنّة، كلام القرآن عن أساس ما مفروض أن يكون رغبة فينا، وهي رغبة الهدى، رغبة الكون على الحقّ والخير.

نفهمها بشكل أبسط إذا نظرت للموضوع بالعكس، ولنقل إنك عرضت عليّ قرآنه تعالى، وقلت لك إني أرفض الإيمان والالتزام به. وتسألني عن الذي لم يعجبني فيه، ولنتخطّى مسألة الاعتقاد به تعالى إلها واحدا أحدا، مع أنها أهم مسألة ولكن لنتخطّاها ليكون المثال أسهل، ما الذي لا يعجبني في التشريعات والسلوكيات التي يعرض القرآن عليّ الالتزام بها؟ حيث يأمرني ببرّ والدي، وطول البال عليهم في أي حال... والإحسان لجميع الناس وخصوصا الأقارب... والصدق والأمانة... ويحرّم قتل النفس بغير حقّ ويحرّم الزنا والسرقة والغشّ والمخدرات والقمار...

هكذا ترى أنه يعرض عليّ الهداية للحقّ والخير. وإن ناقش أحد ما في مسألة يحرّمها القرآن وهو يريدها حلالا، فليكن الميزان بيننا العقلانية، ولن أطيل عليك هنا فراجع في دراستنا هذه أي آية عن أي موضوع ترى أنه غير عقلاني، أما أي شيء آخر منسوب لدينه تعالى ولا مستند قرآني صريح عليه، وتراه سيئا، فانتبه أَنْ يكون سبب ذلك مرضاً في فكرك ونفسيتك وللمسألة أساس قرآني، أو أن المسألة باطلة فعلا وقائلها وناسبها لدينه تعالى هو في فكره ونفسيته مريض.

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ{93})
كما بدأت السورة بالكلام عن الرؤية والعمه لآيات الله تعالى، فإنَّ آخر جملة تقول:

{وَقُلِ}، أيها النبي(ع):

{الْحَمْدُ لِلَّهِ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز الله سبحانه، كل عمله موصوف بأنه محمود، عمله جيد، وهنا بالتحديد الإشارة إلى هدايته تعالى لنا، هذا شيء حميد حسن جيّد، فاحمده تعالى على الهداية أيها النبي(ع) وأيها المؤمن، {سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ}، سيجعل عندكم صورة محدّدة للأمور المميزة من مستوى إلهي والمنسوبة له تعالى، سيريكم الأمور التي تدل عليه تعالى كإله واحد أحد فائق القدرات والصفات، وهذه الظواهر الطبيعية من ليل ونهار وسماء وأرض ونجوم ونبات وحيوان... من الواضح أن كل هذه الأشياء هي آيات منه تعالى، وله الحمد عليها.

{فَتَعْرِفُونَهَا}، يصير عندكم معرفة بها كمعلومات تدل عليه تعالى وعلى صفاته وقدراته... وصحّة كلام رسله... لأنَّ المعرفة هي عموم مقارنة الشيء مع مخزون الذاكرة بحثا عن تطابق أو تشابه، أو تسجيل معلومة جديدة.

لاحظ وانتبه إلى أنَّ القرآن لم يستعمل ولا مرّة في حقّه تعالى كلمة "عرف" أو أي من مشتقاتها، لأنَّ المعرفة من التعرّف وهي العلم بالاعتماد على الأَمَارَات بطريقة غير مباشرة، عبر مقارنة ما دخل حواسك وتصوراتك ومفاهيمك مع ما في ذاكرتك، أو تسجيل معلومة جديدة، فإنَّ العلم حديثا بشيء لم تكن تعلمه أو العلم بالتلقين من آخرين لشيء لا تعلمه... هو التعرّف، ولذلك لا يوصف تعالى بالمعرفة ويوصف فقط بالعلم، حيث سبحانه لا تغيب عنه أي معلومة حتى يتعرّف عليها أو حتى يقارن بينها وبين ما يعلمه، علمه فائق.

{وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}، عموم ما تقومون به لا يجري من دون انتباه المسؤول عنك من مستوى إلهي، بل بالعكس تماما ربك سبحانه ينتبه ويعلم بكل شيء، ويراقب كل شيء، فمن رأى الآيات وآمن فسبحانه يراه، ومن عمه ولم يرها فسبحانه أيضا يراه.

لاحظ أنَّ الآية 84 من هذه السورة تحدّثت عن سؤاله سبحانه للكفّار في يوم القيامة عن آياته إن كانوا أحاطوا بها علما... وهنا الآية تؤكّد لنا أنهم يرونها وسيرون المزيد منها طالما هم أحياء... وسيعرفونها، وسيتحاسبون على نكرانها وتكذيبها.

سورة القصص (28) ص 385

تعرض نموذج "النبي" موسى(ع) الذي أول ما صار شابا تدخّل في مجتمعه لحماية المظلومين على حساب مصلحته الشخصية، تاركا الجاه والعزّ والمال والسلطة... وحتى حين هرب من الظالمين إلى مدين، أول عمل قام به هناك مساعدة المحتاجين... وحين استقر بمدين قام بعمل رسالي وهو إلى حينها لم يكن نبيا، ولم يكن يتلقى وحيا إلهيا... وفي مقابله النموذج الآخر من بني إسرائيل قارون الذي كان معه في نفس الظروف تقريبا ولكنه بغى... والنموذج فرعون وهامان وجنودهما الطغاة.

في دراستنا هذه كرّرنا الكلام عن النبي إبراهيم(ع) أنه لم يُوحَ إليه، ولم يَكُ نبيا طوال مدة شبابه إلى ما بعد محاولة قومه إحراقه، كل ما فعله وقاله (ع) حول ديانة قومه كان نابعا من قلبه السليم، وهنا ترى نفس الحالة مع الشاب موسى(ع) في معارضته للظلم وهجرته، وحين رجعته تواصل معه تعالى، والفرق بين الشابين إبراهيم وموسى، أنَّ الأول لم يتواصل مع منتمين لدينه تعالى ولا مع كتاب إلهي، بل فقط وفقط بقلبه السليم وصل إلى ما وصل إليه من إيمان بالله تعالى وصفاته والآخرة... بينما الشاب موسى احتك بقوم منتمين لدينه تعالى ولديهم صحف منسوبة للنبي إبراهيم(ع)...

تركيز السورة الطويل على بداية حياة الشاب موسى(ع) لترى منه أنَّ الذين يتواصل معهم تعالى ليصيروا موصوفين بالنبوّة، وبعضهم يوظّفهم سبحانه ليكونوا رسلا، هم بالأصل فيهم صفات عالية جدا...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(طسم{1})
هذه حروفٌ نتهجّاها مقطّعةً هكذا: طا سين ميم.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوِّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف

آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ{2})

{تِلْكَ}، الحروف الطاء والسين والميم، بما لها من علاقة بالكتاب الرئيسي هي، {آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ}، أشياء مميّزة منسوبة للكتاب الرئيسي الواضح الذي ليس فيه أي اختلاط في معلوماته أو خطأ أو نقص أو تشابه.

هذه المعلومات التي تتنزل عليك هي من ذلك الكتاب عبر تحويلها لأحرف لتصير مقروءة، وهي صحيحة وواضحة، و{طسم} نموذج عن الأحرف التي تَحَوَّلَ الكتاب بها لتصير قابلة للقراءة للبشر.

ومن ذلك الكتاب:

(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{3})
{نَتْلُو عَلَيْكَ}، نقرأ عليك أيها النبي محمد(ع) استنادا لذلك الكتاب، {مِن نَّبَإِ}، خبر معرفته غير منتشرة عن، {مُوسَى وَفِرْعَوْنَ}، نتلوها، {بِالْحَقِّ}، بالصواب والصدق، من دون أي تغيير في مضمونها، ولا انحياز للنبي موسى(ع) ولا ظلم لفرعون وقومه، بل يقول سبحانه لك ما جرى بالضبط، فهذه التلاوة ليست لخرافات أو أساطير بل هي صحيحة.

{لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}، لأناس لهم كيان الجماعة يعتقدون بكلامه تعالى.

هذه القصّة تحرّفت وتشوّهت عبر التاريخ، ويريد سبحانه تبيانها بشكل صحيح، ومن ناحية ثانية يريد سبحانه أن يظهر ما فعله تاريخيا من التأييد للمؤمنين في ظرف من الظروف المستحيلة تحت حكم واحد من أطغى الطواغيت، كتحفيز للجميع للانضمام إلى زمرة المؤمنين الذين ينالون عنايته تعالى.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ{4})
{إِنَّ فِرْعَوْنَ}، الشخص الذي كان يحمل لقب أعلى حاكم في فترات من تاريخ منطقة مصر القديمة، كما نقول لملك الفرس: كسرى، ولملك الرومان: قيصر، وملك المصريين في بعض الفترات من تاريخهم كان يقال له: فرعون.

{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا}، تسلّط بعلو فوق الحقّ والعدل، {فِي الْأَرْضِ}، حيث امتدت سلطته، ولم يكن يرى أي كلام فوق كلامه، وما يراه هو مناسبا لمصالحه السيئة يفعله، ولا يهمّه الحقّ ولا العدل ولا الإنسانية... {وَجَعَلَ أَهْلَهَا}، المنتمين للأرض التي امتدّ عليها حكمه، وجعل أهل البلدات الذين تحت حكمه، {شِيَعاً}، مجموعات متفرقة كلّها تابعة له وكل مجموعة متضامنة مع بعضها وليست متضامنة مع الآخرين، {يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ}، كلّ الجماعات تحت حكمه ومن خليط من تلك المجموعات هناك مجموعة، ولهذه الحالة نستعمل وصفهم بالطائفة، استقوى فرعون عليهم لدرجة أنه، {يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ}، يقتل من أبناء المستضعفين "الذكور"، {وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ}، ويترك الإناث أحياء، مما يشير إلى وجود جماعات أخرى غير بني إسرائيل ولم يكن فرعون قاسيا ظالما مجرما معهم لهذه الدرجة...

{إِنَّهُ}، فرعون، {كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}، من الذين لا يفعلون الصلاح، حيث كان يفسد الحياة على الأرض التي يحكمها ويجعلها سيئة، وهذا العلو عن الحقّ والعدل والاستضعاف للآخرين لدرجة قتل الأبرياء هو نموذج عن فساده الواضح.

أمّا سبب أمر فرعون بقتل الذكور وترك الإناث لطائفة من الذين تحت حكمه ومنهم بنو إسرائيل، فبناءً على ما ورد في التوراة فإنَّ الجيش المصري كان يخرج من مصر للقيام بالغزوات على البلدان المجاورة والبعيدة، وكان يبقي في مصر جيشا صغيرا لحماية المدن ولحفظ الأمن حتى لا يثور أحد على فرعون، ولْنَقُلْ مثلا إنَّ هذا الجيش الصغير عدده ألف جندي، ولنقل مثلا إنَّ هذا الجيش يستطيع السيطرة على خمسة آلاف "مواطن" إذا حاولوا الفرار أو القيام بثورة...
وكان عند حكومة فرعون إحصاء بعدد وأسماء "المواطنين"، وعندما يزيد عدد ذكور "بني إسرائيل" عن خمسة آلاف "مثلا" عندها يصدر فرعون أمرا بقتل الأطفال الذكور، حتى يبقى العدد تحت الخمسة آلاف. و{يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ} يتركون الأطفال الإناث أحياء، لأنهن لا يقاتلن ولا يشكلن خطرا عسكريا، ويعملن في الزراعة ورعاية الماشية والخدمة...

من الآية ننتبه إلى أنَّ هذا القتل لم يكن بشكل خاص لبني إسرائيل بل كان عموميا في مختلف المناطق التي كان يحكمها ذلك الفرعون على الجماعات التي يخشى منها خطرا عسكريا، وما قيل عن قتله للمواليد الذكور بسبب نبوءة ولادة طفل

سينهي حكم فرعون، فهذا شيء تجده منتشرا في الروايات ولا تصريح له في القرآن، والتاريخ يدعم رأي قتل المواليد الذكور لتقليل عددهم حتى لا يصيروا فيما بعد قوّة قتالية بعدد يفوق قدرة قوات حفظ الأمن الفرعونية.

(وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ{5})
العبرة الأولى من تلاوة قصة النبي موسى(ع) وفرعون التي يريد تعالى أن يَعْلَمَهَا المؤمنون:

{وَنُرِيدُ}، نَقْصِدُ ونرغب، {أَنْ نَمُنَّ}، أن نعطي شيئا يستحق أن يشكروني عليه، {عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ}، الذين استضعفهم فرعون فتعامل معهم على أنهم ضعفاء وهو القوي، وبعد المنّة بتخليصهم من ظلم فرعون نريد أن، {نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً}، مرجعا أساسيا، متبوعين وقدوة للناس، وَيَكُونَ منهم أشخاص مُمَيَّزُونَ وَيَكُونُوا نموذجا ومثالا حسنا يقلّده بقية المؤمنين، بدلا من النموذج فرعون، ونريد أن، {نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}، حَيْثُ يذهب فرعون المالك الحاكم على بقعة من الأرض وينتقل الملك والحكم للمؤمنين.

من الواضح من الآيات التالية أن الكلام بالتحديد عن بني النبي يعقوب(ع) "بني إسرائيل"، ولا تتحدث عن كل الذين استضعفهم فرعون، فبنو إسرائيل كانوا موحدين لله تعالى، وقديما أحضرهم النبي يوسف(ع) من أرض كنعان كما هو مشهور في التاريخ ليعيشوا في مصر قرب نهر النيل، ليزرعوا ويرعوا ماشيتهم، ويعيشوا في بحبوحة... كما هو مشهور في التاريخ وكما تقرأ في الآية 93 من سورة يوسف {اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ}، ولكن بعد مرور الزمن، تغيّرت الأوضاع في مصر، حَيْثُ ذهب حكم الموحدين وجاء حكم الفراعنة المشركين، وصار بنو إسرائيل تحت الحكم الظالم لفرعون... وهؤلاء يريد سبحانه المنّ عليهم فيتدخل ليخرجهم من ظلم فرعون ويجعلهم يحكمون أنفسهم، ومعلوم أن بني إسرائيل لم يحكموا مصر، فلم يرثوا أرض مصر بل بدمار فرعون صاروا أحرارا وحاكمين لأنفسهم على الأرض، أي أرض، وأمّا حكم مصر من بعد غرق فرعون فقد انتقل لقوم آخرين، لولده أو أقاربه... كما تقرأ من الآية 28 من سورة الدخان {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ}.

أما العبرة بالنسبة لنا: الله تعالى يتدخل لينجي عباده الموحدين المخلصين، وهنا أبرز نموذج في التاريخ عن قوة عظيمة جدا لفرعون، ومن جهة ثانية ضعف شديد جدا للمؤمنين، فإنجاؤهم يحتاج لتدخّل إلهي، وَحَصَلَ.

تَعَابِيرُ القرآن عن الأرض، لا تشير دائما لكل الكرة الأرضية، بل لعموم أي بقعة أرض، سواء كلّها أو بعضها، ومن سياق الكلام تعلم لِمَا تشير إليه، وهنا لا تشير الآية إِلَى انتقال ملكية الأرض التي كان فرعون يحكمها إلى بني إسرائيل، بل تشير للأرض التي فيها بنو إسرائيل أينما كانت، سَوَاءٌ استقرّوا وَبَنَوْا قرى... أو بقوا رُحَّلًا ينتقلون فيها... فلا فرق، فهم من بعد نجاتهم من فرعون وَرِثُوا الأرض التي هم عليها، فصارت لهم بلا منازع ولا سلطة للآخرين عليهم.

(وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ{6})
ونريد أن ننجيهم ونورثهم الأرض:
{وَنُمَكِّنَ لَهُمْ}، لهؤلاء المستضعفين، في الأرض، نجعلهم متمكنين من فعل أي شيء يريدونه، وَتَصِيرَ لهم سيطرة وثبات وَيَكُونُوا أحرارا مسيطرين لا يحكمهم الآخرون.

وَنُرِيدُ أَنْ، {نُرِيَ}، أن نجعل صورة محدّدة عند، {فِرْعَوْنَ}، {وَهَامَانَ}، ومساعده ووزيره الأوّل كما يبدو من عموم الآيات التي ذكرته، {وَجُنُودَهُمَا}، والملتزمين بتنفيذ أوامرهما، نريد أن تصير عندهم صورة محدّدة، {مِنْهُمْ}، من بني إسرائيل، {مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ}، انْتِبَاهُ فرعون وهامان وجنودهما من الشيء السَّيِّئِ، من الخطر الذي كانوا يتوقعونه من بني إسرائيل إذَا توافرت ظروف حصوله، تَوَفَّرَتْ شروطه وحصل، وَوَقَعَ الخطر على فرعون وهامان وجنودهما وماتوا غرقا.

أول ما خطر ببال فرعون وملئه وجنوده من كلام النبي موسى (ع) معهم بدعوته لهم للإيمان وترك بني إسرائيل يغادرون مصر، أنه (ع) يريد السيطرة على مصر كما ورد في عدة آيات منها الآية 110 من سورة الأعراف {يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ}، وَقَتَّلُوا أبناءهم ورفضوا تركهم يغادرون مصر... وكل هذا لم ينفع وَفِي النهاية رأوا الخطر حين أطبقت عليهم المياه وماتوا غرقا.

هناك جدل بين المؤرخين وعلماء الْآثَارِ والمتدينين والمهتمين... حول تحديد "اسم وتاريخ" الفرعون الذي كان على عهد النبي موسى (ع)، ولم أجد أي واحد منهم يملك دليلا قاطعا أو قويا... واسم هامان الذي ورد هنا، مِنَ المفروض أن يكون مميّزا لتحديد اسم الفرعون الذي كان على عهد النبي موسى (ع)، وَتَتَبَّعْتُ اسم "هامان" في تاريخ الفراعنة، وكان تتبعا مرهقا، وَوَجَدْتُ شخصا مناسبا استبعده الكثيرون لأنه وزير للفرعون "خوفو" وهو أقدم بكثير من أي فرعون افْتَرَضُوهُ، وفي التاريخ ذكروا أن هذا الوزير هو المسؤول عن بناء أهرامات الجيزة الضخمة، وهذا يشبه ما ورد في الآية 36 من سورة غافر من اعتماد فرعون عليه كمهندس أو كالرجل الأول لتنفيذ المهمات {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ}.

غالبية المؤرخين المتدينين لديهم تسلسل تاريخي ديني للأحداث من آدم (ع)... وَالنَّبِيِّ نوح (ع)... وَإِبْرَاهِيمَ (ع) وَيَعْقُوبَ (ع) وَيُوسُفَ (ع) الذي نقل بني إسرائيل إلى مصر، وبعد ذلك بسنين ولادة النبي موسى (ع)... وبعده مملكة النبي داوود (ع)... وولادة النبي عيسى (ع)... وهذا التاريخ الديني له روايات ومستندات عند المتدينين ولا يمكنهم مخالفتها، لِأَنَّهَا تراثهم الديني، وبعضها كتبوه كملحق تاريخي ديني مع التوراة بما يماثل الروايات والأحاديث عندنا، وَأَيُّ تغيير لتاريخ أي واحدة من تلك الأحداث سَيُسَبِّبُ لهم تشوّشا في بقية التواريخ، وتحديدهم للفرعون الذي كان على عهد النبي موسى (ع) برعمسيس "رمسيس" وتحديدنا له بخوفو سيسبّب رجوعا هائلا بألف سنة تقريبا في جميع الأحداث التاريخية مشوّها بذلك كل تراثهم التاريخي.

ستجد في الْوِيكِيبِيدْيَا العربية وَالْإِنْجِلِيزِيَّةِ، أن للفرعون خوفو "خوبوس، شوبس" وزيرا اسمه يتماشى بالعربية مع لفظ هامان "هم يونو، حم يونو، هامون"، وله تمثال محفور عليه اسمه محفوظ في المتاحف، وهذا المهندس "أو الإداري" بنى أهرامات الجيزة الضخمة، والقرآن عبّر عن الفرعون بأنه ذو الأوتاد، وَفَهِمْنَا منها أنه الآمر ببناء الأهرامات والمسلاّت، وراجع في ذلك دراسة الآية 7 من سورة النبأ والآية 12 من سورة ص، والآية 10 من سورة الفجر {وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ}، وخوفو نصّب نفسه إلها كما تقول دراسة الآثار، والفرعون الذي تحدّث عنه القرآن أَعْلَنَ نفسه إلها كما ترى في الآية 29 من سورة الشعراء {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}، ومن الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي...}.

هذه التفاصيل وغيرها كالكلام عن أنهم لم يجدوا مدفنا لزوجة خوفو، وهذا يَتَمَاشَى مع إيمان زوجة الفرعون الذي عاصر النبي موسى (ع)، وَوَرَدَ ذلك في الآية 11 من سورة التحريم {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}، وبالتالي نفترض كره زوجها لها وحرمانها من مدفن ملكي، أو خروجها من مصر مع بني إسرائيل...

كل ما سبق يجعلنا نعتقد بقوّة أن "خوفو" هو الفرعون الذي كان في زمن النبي موسى (ع). والمشكلة عند الآخرين الَّذِينَ بنوا تاريخا دينيا بناء على كون "رعمسيس رمسيس" هو الفرعون المعاصر للنبي موسى (ع)، وبين تغييره ليكون خوفو، المشكلة أن بين الفرعونين قرابة ألف ومئتي سنة، فتاريخ خوفو في فترة 2500 سنة قبل الميلاد، ورعمسيس في 1300 قبل الميلاد، وعليه تندفع قرابة الألف سنة إلى الخلف كل الأحداث التاريخية ويتشوّه بذلك التراث التاريخي الديني الذي افترضوه...

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ{7})
صار واضحا أن فرعون يقتل ذكور بني إسرائيل مدّة بعد مدّة حتى لا يزيد عددهم وَيُشَكِّلُوا خطرا عسكريا على مملكته، وَصَدَرَ أمر من فرعون بتخفيف عدد المواليد الذكور حين كانت أم النبي موسى(ع) حاملا به وعلى وشك الولادة، ونفترض أن اسمها كان مسجّلا عند جنود فرعون لقتل طفلها بعدما تلده إذا كان المولود ذكرا.

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى}، وبدون كلام مسموع بشكل مباشر منه تعالى وضعنا في وعيها فكرة، {أَنْ أَرْضِعِيهِ}، أطعميه من لبنك "من حليبك"، لِيَبْقَى معك، {فَإِذَا خِفْتِ}، شَعَرْتِ بالخطر الأكيد، على الولد من أن يقتلوه، عِنْدَمَا يأتي الجنود ليقوموا بأخذ الأطفال من البيوت لقتلهم، {فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ}، ارْمِيهِ في الماء، ضَعِيهِ في تابوت من قصب أو من

خشب وَارْمِيهِ في النهر كما تقرأ في الآية 39 من سورة طه {أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ...}. والمشهور بين الناس أنها وضعته في صندوق قصب ورمته في نهر النيل.

{وَلَا تَخَافِي}، لَا تشعري بأي خطر عليه من أن يصيبه مكروه، كُونِي مطمئنة، {وَلَا تَحْزَنِي}، لَا تشعري بالمضايقة على فراقه، {إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ}، سَيَرْجِعُ إليك، بل وأكثر من ذلك، {وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}، سَوْفَ يجعله سبحانه من الذين يحملون رسالته لِتَبْلِيغِهَا للناس حين يكبر، لِأَنَّ ابْنَكِ هذا سيكون له شأن عظيم.

ننتبه لكامل الوحي الإلهي، حَيْثُ صار لَدَى الأم "إلهام" بأن ابنها نَاجٍ وسيصير رسولا إلهيا.

بالنسبة لكيفية الوحي إليها بأي طريقة، فلا تفاصيل لدينا، ولكن بحسب ما تبيّن من معنى كلمة وحي باستعمال القرآن، يَبْدُو أنها معلومات ألقيت في وعيها، في فكرها ومشاعرها، بحيث اطْمَأَنَّتْ ونفّذت ما وصل إلى وعيها من معلومات، ولا داعي لأي افتراضات عن ملاك كلّمها، أو تمثّل لها، أو رأت شيئا في منامها... أو أنه سبحانه مباشرة أوحى لها... لِأَنَّ كلّ هذا الكلام بتفاصيله لا يقدّم ولا يؤخّر.

الوحي هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خيرا أم شرّا، وبناء عليه كُلُّ أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وحيا لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وترى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}، وحتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...}.

ينطبق فعل الوحي على أي كائن كان "إِنْسَانًا، حَيَوَانًا، مَلَكًا أو جِنًّا" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم، وطرق فعل الوحي أنواعه متعددة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}. ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}، وما ورد في الآية 193 و 194 من سورة الشعراء {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ}. أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ...}، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل كما هو مشهور في تراثنا الديني. ووحي عبر إصداره تعالى صوتا في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، مضافا لها الآية 13 من سورة طه {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}، وَكَلَامُهُ تعالى معه(ع) وحي لأن الكلام ليس صادرا مباشرة منه تعالى لِأَنَّ هَذَا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، وَيَصِيرُ وصف الحالة أن كلامي يصلك وحيا.

هناك وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} وَفِي النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

الوحي يصدق على وحي الخير والشر، وَالشَّيَاطِينُ يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا...} ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... وَالْوَسْوَسَةُ في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيرا أو شرا فهو وحي.

بقي شيء، فِيمَا قَصَّهُ القرآن من قصّة النبي يوسف(ع) في سورة يوسف، رأينا وصول يوسف(ع) إلى مصر كنهاية لقرار اتخذه تعالى سلفا، ولم نستطع تمييز تدخله تعالى في مجريات الأحداث حتى وصلت إلى هذه النهاية، وَسُورَةُ يوسف ذكرت تسلسل الأحداث بدون أي إشارة إلى تدخّله سبحانه، واكتفت بالقول بأن الأمور تجري كما قدّرها سبحانه ليصل يوسف (ع) إلى مصر. إلا اللهم البذرة التي سبّبت في البداية "كرة الثلج" وَتَدَحْرَجَتْ وكبرت الأمور من بعد

الرؤيا عن سجود اثني عشر كوكبا ليوسف (ع)... وصولا إلى التدخّل الإلهي عبر رؤية الملك للبقرات والسنبلات والتي بناء عليها حصل النبي يوسف(ع) على التمكّن في الأرض وَصَارَ المستشار الأول للملك...

هنا في أحداث حياة النبي موسى(ع) ترى الآيات تذكر لنا آلية تدخّله سبحانه في مجريات الأمور، حَيْثُ أَوْحَى سبحانه لأمّه لترميه في النهر... وألقى سبحانه عليه (ع) محبّة حتى تعلّق به آل فرعون وزوجته كما تقرأ في الآية 39 من سورة طه {... وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}، وربط سبحانه على قلب الأم حتى لا يعرف فرعون من هم أهل الطفل... وحرّمنا عليه المراضع حتى يضطروا إلى تسليمه لأمّه لترضعه كما ستقرأ في الآية 12 الآتية هنا... وصولا إلى صراحة قوله تعالى حين كلّمه في سيناء {... فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى} كما تقرأ في الآية 40 من سورة طه.

أقول لك هذا لأن السورة تريدنا أن نلتفت لتدخّله تعالى لصالح المؤمنين كأفراد وكجماعات.

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ{8})
وصل خبر لأمّ موسى(ع) أن جماعة فرعون قادمون لقتل مولودها الجديد، فوضعت الأم طفلها موسى(ع) في تابوت صغير في نهر النيل كما هو مشهور، وسار التابوت حتى وصل إلى قصر فرعون الذي له واجهة من ناحية النهر.

يَقُولُونَ بأن الأم أخبرت جماعة فرعون أن المولود مَاتَ، ويقولون بأن القابلة تَسَتَّرَتْ عليها وأيّدت رواياتها... وهي تفاصيل لم يجد القرآن فيها أي فائدة لذكرها.

{فَالْتَقَطَهُ}، سَحَبَهُ من النهر، {آلُ فِرْعَوْنَ}، جماعة من أقرباء فرعون بالنسب، من أولاده أو أخته... ويقولون في التوراة إِنَّ أخت فرعون التقطت الطفل، وَسَحَبُوهُ من النهر، {لِيَكُونَ}، في المستقبل، {لَهُمْ عَدُوًّا}، يعاديهم وَيَعْمَلُ ضد ما يريدونه، ويكون، {حَزَنًا}، يُسَبِّبُ لهم الشعور بالمضايقة من أمور ستحصل معهم، وأنت تعلم ما أصابهم من الدَّمِ والقمل والضفادع... والهلاك في البحر.

سبب حكمه تعالى عليهم بالحزن والعداوة من عبده موسى(ع): {إِنَّ فِرْعَوْنَ}، الحاكم حينها، {وَهَامَانَ}، ويبدو من القرآن أنه أكبر مستشاري فرعون، وراجع في ذلك الآية ما قبل السابقة، {وَجُنُودَهُمَا}، وهم الملتزمون بتنفيذ أوامر فرعون وهامان، {كَانُوا خَاطِئِينَ}، يرتكبون الخطأ ولا يفعلون الصحيح، لأنهم مستكبرون كافرون تسلّطوا على الناس وخيرات الأرض... بالفساد، وهذا خطأ.

ننتبه جيّدا، هذه الفقرة من قصّة النبي موسى(ع) حصلت بهذا الشكل من تخطيط إلهي، وَبِالطَّبْعِ كان هناك خيارات عديدة لنجاة الطفل من القتل، ولكن سبحانه شاء أن يتربّى مدمّر فرعون في حماية فرعون، لتكون عبرة عبر التاريخ للمؤمنين.

(وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ{9})
بعد سحب آل فرعون التابوت من النهر، ومشاهدة الطفل فيه، علموا أنه من الأطفال المحكوم عليهم بالموت، وأن أهله رموه في النهر حتى ينجو...

لكن تعلقت به امرأة فرعون وأحبّته، ومن المشهور بين أهل الكتاب أن اسمها: آسيا.

{قَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ}، زوجة فرعون: فليكن هذا الطفل الجميل، {قُرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَكَ}، يَثْبُتُ نظرنا عليه وَيَسُرُّنَا عندما ننظر إليه ونتسلى بحركاته الطفولية، {لَا تَقْتُلُوهُ}، لَا تصدر أوامرك لجماعتك بإنهاء حياته، {عَسَى}، من المرجّح غير الأكيد، {أَنْ يَنْفَعَنَا}، لأننا سنعلّمه ونربيه وَنَسْتَفِيدَ منه كرجل متعلّم، {أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا}، نَتَبَنَّاهُ إن أعجبنا.

هِيَ تجعل زوجها يقارن بين قتله الذي لا فائدة منه لِأَنَّهُ مجرد طفل واحد، وبين الفائدة التي يَحْصُلُونَ عليها من تربيته، لِأَنَّهُ بلا أهل وَصَارَ لهم.

{وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}، لا يدرون ولا يحسبون أي حساب بأن توقعاتهم كلها خطأ، لِأَنَّ الطفل لن يكون خادما... ولا ولدا لهم، بل سيكون عدوا مدمّرا لمملكتهم.

يدّعي المؤرخون اليهود أَنَّ هيئة بني إسرائيل كانت مختلفة عن هيئة المصريين، من لون البشرة ونقائها وتناسق الوجه والجسم، على أساس أنهم عموما أجمل من النوبيين والقبطيين والساحليين "المصريين الأصليين"، وتجد حتى في رواياتنا الإسلامية اعتبار هيئة بني إسرائيل معيارا للقوام الحسن وليس للجمال، وَعَرَّجْتُ على هذه النقطة لألفت انتباهك أن فرق خلقة الطفل موسى ربما هو السبب ليكون محبوبا كقرّة عين بسبب جماله الطفولي غير العادي بالنسبة لمن التقطه، أو عموما كطفل جميل محبّب بالنسبة لبقية الأطفال.

نلاحظ القرآن يستعمل صفة فرعون وهو يشير حصريا للشخص الذي كان حاكما على مصر حين ولد النبي موسى(ع)، ويبدو واضحا أنه هو نفس الفرعون الذي لحق ببني إسرائيل وغرق، وهذا يبدو من عموم القرآن حيث لا نجد أي إشارة من الآيات لفرعونين مختلفين، وهنا تلاحظ الآيات تتحدث عن الفرعون الذي أحبّت زوجته الطفل موسى(ع)، وهو نفسه الذي وزيره اسمه هامان، والذي طلب منه فيما بعد أن يبني له صرحا ليطلع به إلى السماء إلى إله موسى...

في كتب اليهود يوجد اختلاف حول هوية المرأة التي التقطت الطفل وربّته، بَعْضُهُمْ قال إِنَّهَا زوجة فرعون ولكن الأكثرية يقولون إِنَّهَا أخت فرعون، ومن الالتزام بالمعنى الحرفي لكلمات الآيات نرى أن الالتقاط كان من شخص من آل فرعون، من أقربائه بالنسب، أخته أو أخوه أو ابنته أو ابنة أخته... وزوجته فيما بعد طلبت الاحتفاظ بالولد، والزوجة ليست من الآل بل من الأهل، طبعا إلا إذا كانت قبل الزواج من أقاربه بالنسب كابنة عمّه... رُبَّمَا حصل الالتقاط من أخت فرعون كما هو مذكور في التوراة، والآية السابقة تتماشى مع هذا الاحتمال، وفيما بعد طلبت زوجته الاحتفاظ بالطفل... هذا بغضّ النظر عمّن تولّى متابعة شُؤُونِهِ بتربيته، رُبَّمَا الأخت منفردة أو مع زوجة فرعون...

نُلَاحِظُ في القرآن المرسوم بما يسمّى بالرسم العثماني، سنجد كلمة "امرأة" و "قرة" بالتاء الطويلة "امرأت، قرت" لأن من كتب السورة كتبها على اللفظ الموصول، ومن كتب نفس الكلمة في الآية 74 من سورة الفرقان {... رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ...} كَتَبَهَا على القاعدة بالتاء المربوطة، وبحسب قواعد الرسم "الحالية" مِنَ المفروض أن ترسم بالتاء المربوطة التي تُلْفَظُ "هـ" إذا وقفت على الكلمة وسكتت ولم تلفظ الكلمة التي بعدها، وتلفظ "ت" عندما توصل لفظ الكلمة بالتي بعدها. وهنا الرسم بالتاء الطويلة لا يغيّر أي شيء من لفظ الكلمة لأن القرآن توارثه المسلمون لفظا وحفظا عن ظهر قلب، وهذه الكلمة وصلتنا ملفوظة ونحن نعلم أن من كتبها كَتَبَهَا على لفظ وصلها بما بعدها لَا تأثير لرسمها بالتاء الطويلة، وَهُوَ على معاييرنا خطأ إملائي لم يسبّب تحريفا لفظيا ولكنه على مقاييس الرسم بحسب اللفظ، والذي كان معتمدا حين كتب الجيل الأول القرآن وَهُوَ رسم مقبول بل وواجب حيث الوقف ممنوع أو غير متوقّع.

بَعْضُهُمْ يعتبر هذا النوع من الرسم القرآني خطأ وتحريفا، ويبالغ في تصوير المسألة ليجعلها كإثبات لتحريف القرآن، وبالتالي حتى يفقد القرآن قيمته كمصدر موثوق ككتاب إلهي، وهذه العقلية نابعة من التبرير للكفر بالقرآن حتى لا يكونوا ملزمين باتباع ما فيه، وحتى يسببوا تشويشا في عقول المسلمين... وبعضهم سَاذَجُونَ يتماشون مع الدعاية بدون خلفية سيئة مقصودة...

علميا، الجيل الأول من المسلمين، والثاني والثالث الذين أجروا تعديلات طفيفة على الرسم، حاولوا رسمه بأقرب طريقة للفظه لمن لم يسمعه من قبل ولم يحفظه عن ظهر قلب، أمّا الحافظ له فيستعين بالمرسوم لتنشيط الذاكرة، ومعلوم أن علم رسم الكلمات تطوّر سريعا مع التطوّر السريع لقواعد اللغة العربية، وهكذا صار لدينا نص مقدّس يريد الناس المحافظة على رسمه كما هو بالرغم من علمهم بابتعاد رسمه عمّا تطوّرت له قواعد الرسم، ولدينا رسم على القواعد الجديدة التي بقيت تتطوّر وتتطوّر جيلا بعد جيل، مُنْذُ عهد قريب جدا لا تزال تجد كتبا ليست بَعِيدَةً عنّا بزمن كتابتها وفيها بعض الكلمات المرسومة على قواعدهم والمختلفة عن قواعدنا الحالية ككلمة "هاذا وهاؤلاء، واللذين للمفرد، وامرءة بدلا من امرأة، وَيَحْيَى بدلا من يحي أو بالعكس...

الجهد الجبّار الذي بذله الجيل الأول من المسلمين لرسم القرآن بأقرب طريقة ممكنة مساعدة على لفظه، بَذْلُوهُ بما رأوه مناسبا على قواعد بدائية تطورت كثيرا فيما بعد حتى صارت بالشكل الذي تعرفه الآن، وقد يحصل أنهم رسموا كلمة ما

بشكل مخالف لقواعد الرسم في زمانهم لأنهم وجدوها أنسب للّفظ، أو سهوا لم يُغَيِّرْ الكلمة لفظا، دَائِمًا كانت القاعدة عند المسلمين عموما الاعتماد على تعلّم القرآن من الفم لِلْأُذُنِ، والاستعانة بالمكتوب لتنشيط الذاكرة، ولم تكن القاعدة تعلّمه من المكتوب لأن الرسوم لا تزال إلى الآن وفي غالبية اللغات البشرية، لا تزال أضعف من تقديم مادة دقيقة للفظ الكلمات كما يلفظها أهل لغتها، ولمزيد من التعرّف على هذا راجع ما يسمّى بدراسات الفونوتيك التي نتج عنها أحرف صوتية خاصة بأهل كل لهجة، ورغم ذلك فالبشر بشر، وأهل اللغة الواحدة وأهل اللهجة الواحدة بل وفي نفس البيت تجد بينهم من يلفظ الأحرف بطريقة مختلفة عن الآخرين.

على أي حال، قواعد كتابة الكلمات تغيّرت وتتغيّر، فلا تحاكم الجيل الأول والثاني... الكاتب للقرآن على أساس قواعد عصرك.

كتابة القرآن باليد عمل لا بد من وقوع الأخطاء فيه، لِأَنَّ كل من يستطيع الكتابة سيحاول امتلاك نسخة مكتوبة من القرآن عبر نسخها بيده من نسخة عند الآخرين، وهل كل الناسخين مهرة! أم كلهم سيلتزمون بالرسم القديم ولا يُعَدِّلُونَ عليه بما يروه أنسب ليساعدهم على لفظ الكلمة بشكل صحيح كما سمعوها، أو ظنّوا أنهم سمعوها! وهل كلّهم مُقَدِّسُونَ للنص ولن يجروا عليه تعديلات! وهل كلهم وَاثِقُونَ بالنسخة التي ينسخون عنها ولا يعتقدون أَنَّهُ ورد خطأ فيها وبالتالي فَهِيَ تحتاج لتعديل! وهل وهل...!

من البلاهة التغاضي أو التعامي عن كل هذه العوامل لنفترض أن كل المسلمين يحفظون القرآن عن ظهر قلب مثل بعضهم، ومن السخافة اعتبارهم بقدرة الآلات على النسخ بدون أخطاء لدرجة أن نفرض أو نفترض أَنَّ أي نسخة من القرآن يجب أن تكون مرسومة تماما مثل بقية النسخ.

بغض النظر عن مسألة الْقِرَاءَاتِ المتعددة للقرآن، والتي يمكنك لمزيد من التوسّع مراجعة دراستنا لها في ذيل عدة آيات منها الآية 6 من سورة الأعلى {سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنْسَى}، هُنَا سنحصر كلامنا عن الرسم، وسنتطرق للوثائق التي وجدوها في مسجد في صنعاء، وبعضها يعود للقرن الأول الإسلامي، يعني جرت كتابتها خلال أول مئة سنة من بعد نزول القرآن، رُبَّمَا في حياة الرسول محمّد(ع) وربما في حياة الخلفاء الأربعة وربما في العصر الأموي، وفي تلك النسخ بعض الاختلافات عن الرسم الحالي لما درج تسميته بالرسم العثماني نسبة للخليفة الرابع عثمان الذي أجبر الناس على اعتماد نسخة مكتوبة واحدة "يوافق عليها الصحابة" لينسخ الناس عنها بدلا من مشكلة رسم كل واحد منهم على ذوقه ومعلوماته بالطريقة التي يراها مناسبة... وما ليس معلوما للجميع أنه حتى هذه النسخة "العثمانية" أجرى عليها بعض العلماء بعض التعديلات على الرسم والتي وجدوها ضرورية جدا... وتجد ذلك في كتبهم العديدة المتخصصة بتاريخ رسم القرآن والتي استعملوا جملة "رسم المصحف" كعنوان لها، ومع مرور الزمن ومن بعد مقارنة العلماء لتعديلات الرسم صار هناك توافق كبير على النسخة التي اعتبر الغالبية أنها لا تزال تحافظ على غالبية من الرسم العثماني ومقبولة كرسم مساعد على تذكّر كلمات القرآن، وَجَرَى اعتمادها بالتوافق غير المعلن رسميا بين العلماء والناس، وانتشرت لأنها فرضت نفسها مثلما انتشرت قراءة حفص عن عاصم المتوافقة قديما مع قراءة جمهور المسلمين... وهكذا حتى تكفّلت آلات الطباعة بنسخ القرآن موحدا...

بمراجعة وثائق صنعاء ستجد الدَّارِسِينَ يقارنون بين رسمها والرسم المتعارف حاليا للقرآن، وهذا سينتج عنه فروقات طبيعية، وللأسف الدَّارِسُونَ لم يكن بعضهم عارفا بتاريخ تطور رسومات هذه النسخة التي بين أيدينا ويفترض أنها هي نفسها الرسومات التي كانت قديما! يُقَارِنُ على هذا الأساس معتبرا الفرق خطأ أو تحريفا!

للأسف يعتبرون أي نسخة قديمة من القرآن أنها نسخة معتمدة موثوقة مصححة منقحة رَاجَعَتْهَا لجنة من علماء اللغة وحفّاظ القرآن! متجاهلين وناسين أن كل بيت مسلم كان يفتخر باقتنائه لنسخة من القرآن، وأن الغالبية كانوا ينسخونه هم بيدهم، وأن النسخ التي ينسخها المحترفون كانت حكرا على الأغنياء القادرين على دفع ثمن ورقها الغالي جدا، وثمن مهارة الخطّاط، وثمن مراجعتها من حافظين للقرآن من الدرجة العالية في الوثوقية...

بناء عليه ترى فريقا عقلانيا من الدارسين يعلم أن الاختلافات في الرسم شيء طبيعي ناتج عن أخطاء بشرية غالبا غير مقصودة، ومثله الاختلاف في قراءة النادر من الكلمات والناتج عن الضعف البشري، ويعلمون أن الذاكرة الجماعية

للمسلمين حفظت القرآن جيلا بعد جيل من التحريف، وحفص بروايته عن عاصم مَا هو إلا ممثّل لقراءة جمهور المسلمين، وهي التي بقيت معتمدة عند جمهور المسلمين وصولا إلى عصرنا بالحرف كما هي...

فَرِيقٌ آخر من الدارسين يتعامى عن كل ذلك ويتغابى عن قصد أو بسذاجة، ولأسباب تافهة غير علمية يعلن أن القرآن الحالي محرّف! وها صرت تعلم بعضا من أهم النقاط التي يجب عليك الانتباه لها حين تدرس مسألة تدوين وقراءة القرآن، وصرت تعلم لماذا وصل رسم القرآن إلينا بهذا الشكل البعيد في بعض كلماته عن طريقة الرسم الحالية، وصرت تعلم أن القراءة المتوارثة المنتشرة والمنسوبة لحفص عن عاصم هِيَ قراءة جمهور المسلمين قديما.

صرت تعلم أن القرآن حتى لو نزل على بعض الناس مكتوبا على الأوراق وواصلا لأيديهم نازلا مباشرة من السماء، لما آمنوا به من عند الله تعالى، وَأَخْبَرَنَا تعالى عن هذه النوعية في الآية 7 من سورة الأنعام {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}، فالمشكلة عندهم في محتواه، فهم معارضون للحقّ والصلاح، وسيجدون مليون تبرير ليكفروا به.

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{10})
{وَأَصْبَحَ}، أوّل ما صار، {فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى}، ما تعيه مِمَّا يحصل معها، صار، {فَارِغًا}، لشدة تعلقها بولدها أصابها شعور رهيب بالفراغ "العاطفي والنفسي" على فراقه، مثل حالة توقّف فكرنا ونفسيتنا عن أي ردّ فعل عند تعرّضنا لصدمة قوية.

{إِنْ كَادَتْ}، على شعرة، بَقِيَ لها القليل، {لَتُبْدِي بِهِ}، لتظهر لتعلن بأنه ولدها، وَوَصَلَتْ إلى مرحلة بحيث لا تستطيع الحفاظ على السرّ، عَلَى لحظة كانت ستذهب علنا لتبحث عن ابنها على مسار النهر، {لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا}، لولا أنه سبحانه شدّ على أساس فكرها ونفسيتها، لِأَنَّهَا من الوحي تعلم أنه سيرجع إليها، وهذه المعلومة موجودة في أساس فكرها ونفسيتها، وَلَوْلَا هذا لذهبت لتبحث عن طفلها... {فَرَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا}، {لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، لتكون من المعتقدين بوعده سبحانه لها بأن الطفل سيرجع، وَصَبَرَتْ ولم تخالف ما وصلها من وحي.

لاحظ الآية هنا تشير لسيناريو مختلف لو علم فرعون من هم أهل الطفل، قَبِلَ بالإبقاء على حياته والاحتفاظ به بناء على أن أهله مجهولة هويتهم، فلو علم بالتحديد من هم أهله، لرفض الإبقاء على حياته، ولذلك ربط سبحانه على قلب أمّه حتى لا تكشف هويتها إذا بحثت عن طفلها على مجرى النهر.

بالنسبة للتعبير بأصبح فانتبه جيدا، لأن الكلمة في أصل اللغة مجعولة لتوصيف الصيرورة لأول حالة بعد حدث، مشابهة بذلك الإصباح لأول ما يستقبلك من النهار من بعد الليل. هِيَ أوّل حالة من بعد حالة سابقة، وَهُنَا حالة أم النبي موسى(ع) التي أصبح فؤادها فارغا، وَالذُّهُولُ بتوقّف وجمود فكرها ومشاعرها هي أول حالة أصابتها بعد إلقائه (ع) في النهر. وترى هذا المعنى بوضوح في الآية 103 من سورة آل عمران {... وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا...}. وَكَلِمَةُ أصبح ليست مخصّصة لزمن أول طلوع الشمس بل لعامّة أول حالة من بعد حدث ما، وليست مرادفة لكلمة صار.

كلمة فؤاد بحسب استعمال العرب لها، ومن تقويم دقة الاستعمال القرآني لها، تُشِيرُ لما تعيه مِمَّا تدركه، وَهِيَ الفكر الواعي لما يصلك، وبتعابيرنا الحالية هُوَ الوعي الإدراكي النَّاشِئُ عن الوعي للذات، وَهُوَ قابلية وعي النفس ووعي ما يصلك. وعادة تصلك المعلومات عبر الحواس، عَبْرَ عَيْنِكَ، جِلْدِكَ، أَنْفِكَ، أُذُنِكَ، لِسَانِكَ... ولديك قابلية وصول المعلومات مباشرة إلى فكرك بدون وسيلة الحواس، كالوحي مباشرة في الوعي، وحيث تصل تلك المعلومات إلى وعيك الإدراكي لها هَذِهِ حالة الفؤاد.

خذ مثلا عندما تتعرّض لشيء قوي جدا كخوف شديد أو فقد حبيب... يَطِيشُ فكرك، وَلَا تَعُودُ تسمع ولا ترى ما حولك رغم عمل عينيك وأذنيك بشكل طبيعي، وَحَصَلَ هذا مع أم النبي موسى (ع) حين ألقته (ع) في الْيَمِّ كما ورد في الآية هنا {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا...}، أو عند تعرّضك لسؤال في موقف حرج، أو كما يحصل مع بعض الطلّاب عند تعرّضهم للامتحانات... وَتَطِيرُ المعلومات من رأسك في تلك اللحظات... وَالْحَالَةُ التي تصيبك من تلك المواقف ونسميها

"فَرَاغًا ذِهْنِيًّا" هِيَ حالة فراغ الفؤاد بالتعبير العربي الذي تقوّم معناه بدقّة الاستعمال القرآني له، وعند استعادتك للانتباه لما تلتقطه حواسك، فُؤَادُكَ عاد للعمل.

(وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ{11})
{وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ}، قالت أمّ النبي موسى(ع) لابنتها: {قُصِّيهِ}، تتبعي ما يجري من أحداث تتعلّق بأخيك.

ذهبت ابنتها تمشي على مسار النهر، تبحث عن التابوت، {فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ}، وَحَصَلَتْ عندها صورة غير مباشرة له، لأنها لم تنظر إِلَيْهِ بشكل مباشر بل بَصُرَتْ به عن جُنُبٍ "ضمّة على الجيم، ضمّة على النون"، وَهِيَ لم تقترب مباشرة من المكان، ولم تنظر بشكل مباشر إلى الطفل، وَتَصَرَّفَتْ كأن الموضوع لا يعنيها وأنها مجرّد مارّة من هناك، ولكنها أدركت وفهمت من المنظر أنهم التقطوا أخاها من النهر، وأنهم مهتمّون به... {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}، بمراقبتها لهم...

أَيُّ حركة ملفتة منها ستعني أنها لها علاقة بالطفل، وأنها تتابع ما سيجري معه، مما يُؤَدِّي إلى قتلهم له... ولذلك تصنّعت بأنها هناك بمجرّد الصدفة.

(وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ{12})
الطفل كان يصرخ جائعا، وَأَحْضَرُوا له نساء لترضعه...

{وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ}، والحرام هو عامة الممنوع بَاتًّا جَزْمًا عَمَّا هُوَ متاح أو لك حصّة فيه، ويتدرج من شدّة المنع إلى الشدّة مع العقاب عليه. مثلما نحن نستعملها: حرام عليك. ونقصد أنه ممنوع جدا حتى لو لم يكن عليه عقاب. كمن يقطع شجرة مثمرة من ملكه ولم يكن عليه أي ضرر منها. مَنَعْنَا على الطفل، {الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ}، لِأَنَّ الطفل موسى(ع) أول ما تركته أمّه في النهر كان في حالة رفض لأي إرضاع من غير أمه، وعندما جاؤوا بالنساء يحاولن إرضاعه كَانَ يرفض... وَبَحَثُوا له عن مرضعات غيرهن... إلى أن تدخلت أخته من بعد يأسهم، {فَقَالَتْ}، لهم: {هَلْ أَدُلُّكُمْ}، هل أرشدكم، {عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ}، وَيَقُومُونَ بالعناية به، {وَهُمْ لَهُ}، للطفل، {نَاصِحُونَ}، لا يغشّونه وَلَا يقومون بعمل مضاد لمصلحته ولا تقبلون أنتم به، وَيَهْتَمُّونَ به بشكل صحيح.

بما أن الخدم الذين أوكلتهم امرأة "أو أخت" فرعون بالطفل يَئِسُوا من محاولاتهم لإطعام الطفل من مرضعات مختلفة، وخافوا عليه من الموت جوعا، وأن تعاقبهم امرأة "أو أخت" فرعون... قَبِلُوا بما تقوله لهم أخته (ع)، ومشوا معها... أو أحضرت أمّها إلى القصر... ولكن التعبير بأهل بيت يكفلونه يشير إلى بحثهم عن مرضعة يبقى عندها الطفل في بيتها، وعلى هذا القصد عبّرت أخته بأن أهل البيت الذي تقترحه، لِأَنَّ عموم من ينتمي إلى ذاك البيت سيعتنون بالطفل.

(فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ{13})
وهكذا دلّتهم على بيت أهلها وسكت الطفل مع أمّه...

{فَرَدَدْنَاهُ}، أرجعنا الطفل، {إِلَى أُمِّهِ}، {كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا}، تَثْبُتُ عينها ولا ترغب برؤية شيء آخر، وَتَفْرَحُ برؤية ولدها، {وَلَا تَحْزَنَ}، لَا تشعر بالمضايقة على فراقه، {وَلِتَعْلَمَ}، الأمّ، {أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ}، لِأَنَّ ما يقوله سبحانه أنه سيفعله حَقًّا سيفعله، وَأَوْفَى سبحانه بوعده لها.

{وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}، أن وعد ربنا سبحانه حقا يحصل.

تذكّر بداية السورة عن الوعد الإلهي لنصرة المؤمنين من بني إسرائيل... وضع الجملة هنا في ذهنك لأنك سترى خلال السورة إشارات لمن لا يؤمن بالوعود الإلهية.

لاحظ أن الطفل كان في عمر الرضاعة مما يستدعي بقاءه مع مرضعته، لترضعه نهارا وليلا، وَبَقِيَ في بيت أمّه بالعنوان العام كمربية، ولكنه محسوب على جماعة فرعون، ونفترض أن الأهل صاروا يتقاضون أجرا من فرعون على العناية بولدهم الذي سيكون له علاقة بدمار فرعون!

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{14})
مرت السنوات... وكبر الطفل موسى(ع) بين قصر فرعون وبين بيت أهله...

{وَلَمَّا بَلَغَ}، وعندما وصل إلى، {أَشُدَّهُ}، صار شديدا، اكتمل نموه الجسدي والعقلي والنفسي، {وَاسْتَوَى}، وصار بالتمام على المواصفات المناسبة، تَخَطَّى مرحلة المراهقة والشباب واستقرّ على مرحلة الرجولة، عندها، {آتَيْنَاهُ حُكْمًا}، جعله تعالى يرى الأمور بصوابية أي بطريقة صحيحة، وَصَارَ عنده حكمة تمكّنه من معرفة الأشياء الحسنة من السيئة وصارت أعماله وأقواله وتصرفاته لها أهداف وليس فيها عبث. {وَآتَيْنَاهُ}، {عِلْمًا}، وَصَارَ لديه معلومات، لِأَنَّ الحكمة بصوابية رؤية الخير في الأمور ستكون محدودة إن كان الحكيم لا يملك معلومات عن المواضيع، وخذ مثلا العلم بمختلف التكتيكات العسكرية أو الدعاية الإعلامية وأثرها على التلاعب بعقول الناس... حَتَّى لو قرأت عشرات الكتب عن الفنون العسكرية والخطط وصرت عقيدا "أو جنرالا"، فَمَعْلُومٌ الفرق الهائل بين الضبّاط في رؤيتهم لصوابية الأمور، هُنَاكَ المشهورون بِحِنْكَتِهِمْ وذكائهم... ونفس الشيء في الهندسة وَالطِّبِّ... لَدَيْنَا الكثير من حملة الشهادات العليا وكلّهم درسوا وحصلوا على نفس المعلومات، ولكنك تجد فرقا بينهم في رؤية الأمور... وهنا الوصف للنبي موسى(ع) يريك أنه صار فيه أساس رؤية الصوابية في الأمور مع المعلومات المطلوبة للإحاطة بجوانب المواضيع التي يتعاطى بها.

لَا معنى لما تجده في بعض الأدبيات عن حصول كل الأنبياء على كل العلوم البشرية أو ما يزيد عن ذلك، حَصَلَ بعضهم على شيء ما من ذلك، حَيْثُ إِنَّ النَّبِيَّ يوسف(ع) مثلا كان عالما من تأويل الأحاديث، وأقرب نبي له بذلك هو النبي عيسى(ع) كما تفهم من الآية 49 من سورة آل عمران {... وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ...}، بينما لا نجد هذه القدرة العلمية عند بقية الأنبياء. وهنا لَا معنى لعلم الشاب موسى(ع) بالطبّ والهندسة والكيمياء... كما يعلم بها المتخصصون حتى يمنحها تعالى له، لِأَنَّ الكلام عن شخص سيصير رسولا إلهيا ومسؤولا عن قومه ومواجها لسلطة فرعون الظالمة... وَفِيمَا يخص هذه الأمور نتوقّع أن يؤتيه تعالى علما بها.

على أي حال، ليست كل تعابير القرآن عن إيتائه تعالى لشيء ما تقصد تَدَخُّلًا إِلَهِيًّا على غير العادة، أَسَاسًا كل ما لدى كل المخلوقات هُوَ منه تعالى، وَأَيُّ تحليل للحكمة والعلم بالنوعية والكمية والكيفية التي حصل عليها الأنبياء، يَجِبُ مراعاة قاعدة أنهم إن حصلوا على شيء من تدخّل منه تعالى ولم يفعله سبحانه مع الآخرين، فَرْضًا حصل ذلك، فَلَا علاقة له بِصَيْرُورَتِهِمْ مؤمنين صالحين من الدرجة العالية، وله علاقة فقط بكونهم أصلا من المؤمنين الصالحين ونتيجة لذلك وبناء على قدراتهم الفكرية والنفسية التي صقلوها، يؤتيهم تعالى الحكمة والعلم على المعيار الإيماني.

{وَكَذَلِكَ}، بالحكمة والعلم، {نَجْزِي}، نعطي نقابل، {الْمُحْسِنِينَ}، الذين يقومون بالأعمال الحسنة، وَمُوسَى الشاب(ع) لم يكن طائشا سيئا ظالما... بل كان من المحسنين طوال حياته، وكنتيجة لسلوكه الحسن أَكْرَمَهُ سبحانه بالحكمة والعلم.

الشَّابُّ موسى(ع) كان يعيش في قصر فرعون مع الطبقة الحاكمة المستعلية على الناس، وكان يزور بيت "أهله" الذين ربوه، وهم مواطنون من الدرجة المنخفضة، ويشعر بمعاناتهم بمنعهم من ممارسة دينهم... مما جعله يرى ويشعر بمعنى الحكم الظالم...

لَا تَنْسَ أنه صار للنبي موسى هويتان: وَلَدٌ بالتبني بالنسبة لزوجة "أو أخت" فرعون، ولفرعون هو مجرد ولد تتسلى به زوجته "أو أخته"، ومن ناحية ثانية هُوَ (ع) يعلم أنه من بني إسرائيل ويعرف أهله الحقيقيين ويعرف أخاه هارون الأكبر منه سنا كما هو مشهور... وَفِيمَا بعد طَلَبَ (ع) منه تعالى أن يجعله وزيرا له بناء على معرفته العميقة بأنه شخص لائق بهذه الوظيفة... والأهم من ذلك كَانَ يعرف دين جدّه النبي إبراهيم(ع).

كما يبدو من الآيات المتفرقة في القرآن، مُوسَى(ع) في هذه المرحلة اشْتَدَّ جسده وصار قويا، ونحتمل بشدّة مما رواه عنه (ع) القرآن أنه هنا كان شابا يقارب العشرين لا أكثر، ولا يوجد معيار عام لكل البشر لبلوغ الأشد، وَالْغَالِبُ منهم يبلغ أشدّه الجسدي في قرابة العشرين من عمره، وأمّا للأشد العقلي والنفسي فَهُوَ يختلف بين شخص وآخر بشكل كبير، وفي هذه المرحلة التي صار فيها (ع) شابا واعيا حكيما، عَلَى ما يبدو من الآيات أنه (ع) بَدَأَ يتكلم عن الظلم والفساد معارضا... وذات مرة:

{وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ{15}}
{وَدَخَلَ}، الشاب موسى(ع) إلى، {الْمَدِينَةَ}، إلى مكان فيه بيوت ثابتة حيث يسكن بنو إسرائيل كما يبدو من بقية الآيات، دخلها، {عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا}، فلم ينتبه المنتسبون للمدينة إلى دخوله (ع) إليها، ونفترض أنه (ع) دخلها لوحده بلباس عادي، وقبل ذلك كان يدخلها بلباس جماعة فرعون أو على حصان أو مع مرافقين... {فَوَجَدَ}، موسى(ع)، {فِيهَا}، في المدينة، رَجُلَيْنِ {يَقْتَتِلَانِ}، يحاول كل منهما إنهاء حياة الآخر، {هَذَا}، الرجل، {مِنْ شِيعَتِهِ}، من المتضامنين مع بعض ضد الآخرين، في الدين والعرق فكلاهما الشاب موسى(ع) والرجل من بني إسرائيل، {وَهَذَا}، الرجل الآخر، {مِنْ عَدُوِّهِ}، من العاملين على ما يضاد مصلحة بني إسرائيل.

نُلَاحِظُ هنا، أن الشاب موسى(ع) صار موقفه واضحا من أعمال فرعون وجنوده، صار معاديا لهم، ومن الواضح من الآيات التالية أنه حاول منعهم بالكلام عن التعدي على بني إسرائيل، ولكن بعد هذه الحادثة سيصير (ع) ضدهم معاديا بالفعل والعمل.

بعبارة أصرح، يبدو من الكلام هنا بوصف "شيعة" أن الشاب موسى(ع) صَارَ مُنْخَرِطًا فَعَّالًا في الحياة السياسية وله موقف معلوم مع بني إسرائيل وضد ظلم فرعون وجماعته.

{فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ}، طَلَبَ الإسرائيلي النجدة من موسى(ع) الذي كان مارا من ذلك المكان، وَطَلَبَ مساعدته، {عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ}، وَتَدَخَّلَ الشاب موسى(ع) وحاول فض النزاع، ولكن الفرعوني أصر على قتل الإسرائيلي، فَاضْطُرَّ (ع) لضربه لردعه، {فَوَكَزَهُ}، وهذه الكلمة في كلام العرب واصفة لعموم ما يشبه محاولة غرز الشيء من الناحية الرفيعة، كوكز العصا في الأرض أي إدخالها فيها ولكن بالضرب تَصِيرُ وَكْزًا، وَالْوَكْزُ للآخر يصدق على الضرب الخفيف أو القوي باليد أو بالعصا... واحتمل عموم المفسرين أنه (ع) لم يقصد قتله فَضَرَبَهُ بجمع الكفّ أي بقبضة يده "بوكس"، على أساس أن الضربة برأس الرمح أو العصا... ستكون مع قصد القتل، ولكن يبدو من صورة المشهد أن المصري أصرّ على قتل الإسرائيلي، وَضَرْبَةُ موسى(ع) للمصري كانت قوية لإيقافه، {فَقَضَى عَلَيْهِ}، أَنْهَى حياته، وَمَاتَ الفرعوني من الضربة.

{قَالَ} موسى(ع): {هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ}، الموصوف بعمل الضلال وَهُوَ يوسوس في عقول الناس لتقتل بعضها، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ وَسْوَسَ للفرعوني أن يقتل الإسرائيلي، مما اضطرني لضربه، وهذه هي النتيجة التي يريدها الشيطان: اقتتال الناس. {إِنَّهُ}، الشيطان، {عَدُوٌّ}، يريد الشرّ للناس وَيُسَبِّبُ المشاكل بينهم مثلما سبّب هَذِهِ المشكلة، والشيطان، {مُضِلٌّ مُبِينٌ}، يُضَلِّلُ الناس عن طريق الحق بشكل واضح.

كيف يحق لإنسان قتل إنسان آخر من دون جريمة؟ أمّا جنود فرعون، فَكَانُوا يقتلون بني إسرائيل ساعة يشاؤون، وحتى من دون سبب كما يبدو من هذه الحادثة ومن قتلهم للمواليد الجدد...

ننتبه جيدا، مما سيأتي سترى أنه(ع) حاول قتل فرعوني آخر، مما يدل عَلَى أَنَّهُ (ع) هنا لم يقصد أن قتل الأول كان من عمل الشيطان، بل ما كان يفعله الفرعوني من عمل الشيطان، وأما الدفاع عن المظلومين فهو واجب. ومن جانب آخر مِنْ حِينَمَا وصفته (ع) الآية بأنه صار عليما حكيما، مِنْ غير المنطقي أن يقوم بعمل من وسوسة الشيطان بعد هذا الوصف، ناهيك عن منافاة حمله للرسالة الإلهية مع مَاضٍ إجرامي لقتل من لا يستحقّ القتل...

تذكّر دائما أنك ستجد عامّة كتب التفاسير تقول عن رجل فرعون "القبطي" نسبة للأقباط على أساس أنهم مشهورون بسكنهم قديما لمصر وأن فرعون وحاشيته وجنوده كانوا أقباطا، وَيَجِبُ أن تتذكّر دائما أنه لا دليل من القرآن على هذه النسبة، وَلَا ندري فعلا إن كانوا من عرق الأقباط أم لا، مع العلم أن نسبتهم للأقباط المنتشرة في كتبنا ترجع إلى ما ورد في التوراة، وأمّا في التاريخ فمن الواضح أن بعض سلالات الفراعنة وملوك مصر كانوا من الأقباط فعلا ولكن بعضهم الآخر كان من عرق آخر "نوبي، ساحلي...".

لاحظ تعابير الآيات التي لم تذكر تحديدا لهوية الرجل الفرعوني الأول المقتول أو الثاني، لِأَنَّهُمَا تَابِعَانِ لجماعة فرعون، وربما يكونان من أي جنسية، وَلَيْسَ بالضرورة أن يكونا من نفس عرق فرعون، ولذلك عبّرنا عنهما بالمصري.

(قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{16})
قال الشاب موسى(ع): {رَبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي}، لم أكن مُنْصِفاً عادِلاً مُحِقّاً مع نفسي، لم يكن معي حق، ومن سياق الكلام في الآية التالية نفهم أنه (ع) لم يكن معه حَقٌّ عندما كان ساكتا عمّا يقوم به فرعون وجنوده من استضعاف لبعض الناس وقتلهم بلا جرم، وهو(ع) كان بالأمان لأنه منسوب بالتبنّي لزوجة "أو أخت" فرعون كولد لها، ومحسوب على جماعة فرعون... {فَاغْفِرْ لِي}، تجاوز عن خطئي ولا تحاسبني على سكوتي.

{فَغَفَرَ لَهُ}، تجاوز سبحانه عن الخطأ، وموسى(ع) هنا لم يكن نبيّاً أو ينزل عليه الوحي، فلم يعلم أنه سبحانه غفر له، حيث سبحانه يخبرنا أنه غفر لموسى(ع) حين طلب منه المغفرة بسبب أنه {إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ}، الذي يتجاوز عن الذنوب، {الرَّحِيمُ}، الذي لديه عناية خاصّة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، والمغفرة لا ينالها إلا المؤمنون.

إذن اعتبر الشاب موسى(ع) نفسه مُذْنِباً طوال الفترة السابقة من حياته حين لم يفعل أي شيء ضد استضعاف فرعون لبني إسرائيل، ولذلك طلب المغفرة عن تلك الفترة من حياته، فهو الآن أمام عينيه يرى فِرْعَوْنِيّاً يمكنه بكل بساطة ومن دون أي سبب أن يقتل من بني إسرائيل من يشاء وساعة يشاء، فلم يتحمّل هذا الاستضعاف وتدخّل...

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ{17})
تكملة لدعاء موسى(ع) حيث قال:

{رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {بِمَا}، بالذي، {أَنْعَمْتَ عَلَيَّ}، بما أعطيتني من نعم من أشياء جيّدة، من الفهم والعلم والحكمة، ومن الحصانة سابقاً بالانتماء لفرعون، فلم أتعرّض للسوء الذي تعرّض له قومي... {فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً}، لن أكون مُعِيناً ومُساعِداً، {لِّلْمُجْرِمِينَ}، للذين يرتكبون الأعمال التي يستحقون عليها العقاب، لن أعين فرعون وجماعته الذين يرتكبون الجرائم، فهم يجب أن تتم معاقبتهم لا مساندتهم، وأنا للأسف كنت مَحْسوباً عليهم، مثلاً عندما يعددون المقاتلين في صفوفهم والإداريين كنت مَحْسوباً منهم.

قرر التخلي عن حياته السابقة. ولكن: إلى أين يذهب؟ وماذا يفعل؟

(فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ{18})
{فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ}، بعد حادثة قتله للفرعوني أوّل حال صارت مع الشاب موسى(ع) وهو لا يزال في المدينة، {خَائِفاً}، يشعر بالخطر الأكيد الذي لا يمكن تَجَنُّبُهُ، {يَتَرَقَّبُ}، يوجّه اهتمامه بما سيحدث، فيأخذ احتياطاته من ردة فعل فرعون وجنوده الانتقامية.

{فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ}، الذي طلب البارحة أو ما قبله من موسى النصرة على الفرعوني، {يَسْتَصْرِخُهُ}، يصرخ لموسى(ع) فيقول بصوت عالٍ جِدّاً: تعال أَنْقِذْنِي... ومن تكملة الآيات سترى أنه كان بقبضة فرعوني يحقّق معه تحت تهديد السلاح، فيبدو أنهم وجدوا جثّة الفرعوني المقتول بالأمس ولكن لم يعلموا من قتله، ومن التحقيقات وصلوا للإسرائيلي الذي كان يتقاتل معه، فألقى القبض عليه أحد الفرعونيين... وصرخ الإسرائيلي للشاب موسى(ع) ويبدو أن الصراخ كان يحوي كلاماً عن حادثة البارحة: تعال أَنْقِذْنِي واقتله... يريدون قتلي لأنك قتلت الفرعوني البارحة...

قال موسى(ع) للإسرائيلي الذي يناديه: {إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ}، بشكل واضح تتصرّف بلا رجاحة عقل. كان من المفروض أن تَخْتَبِئَ، وتتجنّب الظهور العلني، أو أن تتستر عليّ... ولكنك اعتبرت نفسك بريئاً وأني أنا قتلت الفرعوني، وأنت لا علاقة لك... وبشكل واضح أنت لا تهتم إلا بمصلحتك، وبدل أن تستر عليّ فَضَحْتَنِي أمام الجميع أنني قتلت الفرعوني بالأمس.

(فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ{19})
{فَلَمَّا أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا}، عندما قرر (ع) التدخّل بعنف ضد الفرعوني، ويبدو أنه (ع) تدخّل ليخلّص الإسرائيلي وحصل تعارك مع الفرعوني كانت نتيجته سيطرته (ع) على الفرعوني عندها، قال الفرعوني:

{يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ}، في البارحة أو ما قبله أنهيت حياة رجل قبلي ويبدو أنك تريد إنهاء حياتي اليوم؟

{إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ}، تريد أن تكون قاهِراً لغيرك وفارِضاً لإرادتك على الآخرين، فأنت تعترض علينا فيما نفعل من قتل الناس، وها أنت بالأمس قتلت واحِداً واليوم تريد قتلي، ولا فرق بينك وبيننا، {وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ}، من الذين يقومون بالأعمال الصالحة بما فيه خير الناس، وهذه كذبة.

يبدو أن الفرعوني لم يكن ناوِياً قتلهما بل أراد إلقاء القبض عليهما لسحبهما للمحاكمة، أو أنه عندما صار في موقف ضعيف طالب موسى(ع) أن يتصرّف بشكل صالح حتى لا يقتله، وعندها تركه الشاب موسى(ع) ولم يقتله، وهرب الفرعوني وغادر المكان مُتَوَجِّهاً نحو جماعته وأخبر الجميع بما جرى معه...

(وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ{20})
جاء رجل من أقصى المدينة، من طرفها البعيد، جاء، {يَسْعَى}، يمشي ولديه غاية، وهنا غايته البحث عن موسى(ع) وإيصال الخبر... ومما قاله تعلم أنه كان قرب آخر المدينة وعلم بشيء ما، ونفترض أن جنود فرعون دخلوا من باب المدينة وكلامهم يدل على بحثهم عن موسى لأخذه وقتله... وعلم هذا الرجل بذلك ومن هناك أخذ يسعى سابِقاً جنود فرعون للبحث عن موسى(ع)، وحين وجده، {قَالَ}:

{إِنَّ الْمَلَأَ}، إن وجهاء المملكة والجماعة الحاكمة من فرعون ووزرائه ومستشاريه، {يَأْتَمِرُونَ بِكَ}، تداولوا بأمرك واتفقوا على شيء سيحصل معك، وبالتحديد هم يأتمرون، {لِيَقْتُلُوكَ}، حتى ينهوا حياتك، فأنت لم تعد تحت غطاء امرأة "أو أخت" فرعون التي تبنّتك.

{فَاخْرُجْ}، من المدينة، {إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ}، لست أغشّك وما أقوله لك صحيح وسوف يَقْتُلُونَكَ إن لم تخرج.

(فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{21})
{فَخَرَجَ}، الشاب موسى(ع)، {مِنْهَا} من المدينة، {خَائِفاً}، يشعر بالخطر الأكيد الذي لا يمكنه تَجَنُّبُهُ، فهو متأكد بأنهم سَيَقْتُلُونَهُ، وخرج، {يَتَرَقَّبُ}، يوجّه اهتمامه ليرى ما يجري، ويأخذ احتياطاته حتى لا يمسكوا به، ويسلك طُرُقاً آمنة، ويتخفّى عن المارة... لأن جماعة فرعون يبحثون عنه.

{قَالَ}، الشاب موسى(ع): {رَبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {نَجِّنِي}، خلّصني، {مِنَ الْقَوْمِ}، من الناس الذين لهم كيان الجماعة، {الظَّالِمِينَ}، غير العادلين ولا المنصفين في فكرهم وتصرّفهم، فلو كانوا منصفين عادلين يقبلون بالحقّ لكان موسى(ع) واقِفاً أمامهم ليبيّن لهم أن المقتول هو المجرم، وأنهم هم مجرمون باستباحتهم لأرواح بني إسرائيل...

تذكّر دائماً أن موسى(ع) لحدّ الآن لم يَتَلَقَّ أي وحي، وليس نَبِيّاً، ولاحظ أدعيته التي تدل على إيمانه العالي وتوكّله على ربّه سبحانه.

(وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ{22})
{وَلَمَّا}، وعندما، {تَوَجَّهَ}، جعل النبي موسى(ع) وجهته، اتجاه حركته، {تِلْقَاءَ}، بشكل يلاقي به، قرية اسمها، {مَدْيَنَ}، وعلى ما يبدو أنها كانت في حينها مدينة خارجة عن سيطرة فرعون وجيشه "كما سيظهر لك في الآية 25 من كلام والد الزوجة المستقبلية للنبي موسى(ع)"، إمّا لأنها تحت حكم آخر أو لأنها قرية صغيرة غير تابعة لدولة فلا

قيمة لها بنظر فرعون ليحتلها أو يتحكّم بسلطتها... وحالياً لدينا ثلاث بقع يقولون إنها التي كانت مدين، وهي بين الحدود الأردنية والسعودية، وللوصول إليها من البرّ من مصر يجب المرور عبر صحراء سيناء... يقولون في الكتب أنه(ع) سلك طريقاً مُميتاً يمرّ عبر صحراء كبيرة، وهي الطريق الوحيد الآمن حيث بقية الطرقات عليها حواجز ونقاط للفرعونيين إلّا ذاك الطريق باتجاه الصحراء، لأن من يذهب عبره سيموت، ولا داعي لوضع مراقبين عليه.

{قَالَ} (ع): {عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي}، احتمل بشكل مرجّح غير أكيد أن يضعني المسؤول عنّي من مستوى إلهي على الشيء الصحيح الذي يوصلني لغاية صحيحة، على، {سَوَاءَ السَّبِيلِ}، على مسلك سَوِيٍّ متناسب. وهذه الجملة يشابه معناها ما قاله النبي موسى(ع) حين واجه البحر وجيش فرعون من خلفه، حيث قال: {إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ}.

كان (ع) مُحْتاراً ولا يدري ماذا يفعل؟ واتخذ قراره بالفرار، وحدّد وجهته إلى مدين، ولمّا انطلق نحوها ارتجى من الله تعالى أن يكون خيار الذهاب إلى مدين اختياراً صحيحاً له نتيجة صحيحة، فهو(ع) ليس له فرض "ولا ضربة لازمة" على ربّه سبحانه حتى يهديه إلى التصرّف الصحيح، فلحدّ الآن هو(ع) شاب عادي ولم ينزل عليه وحي النبوّة ليتلقّى الأوامر الإلهية مباشرة، فهو هارب من جريمة قتل، ويتصرف بما يراه مُناسِباً ويرجو منه تعالى التوفيق فيما اختاره، ويتكلّم بطريقة من لا يعتبر نفسه شَخْصاً مُهِمّاً، وهو يدري حَتْماً أنه تعالى لو استجاب لدعائه لهداه، ولكنه(ع) لم يُعْطِ أي قيمة لنفسه، ولا يدري إن كان هو نفسه شخصاً يستحق أن يستجيب الإله دعاءه ليوفّقه في الاتجاه الذي اختاره.

قارنها لو قال (ع): سيهديني ربي حَتْماً وسأنجو وأكون مُرْتاحاً في مدين. فعلى أي أساس سيكون (ع) ضامِناً للتوفيق؟ وهكذا نفهم لماذا استعمل التعبير بـ"عسى" التي تعطي احتماله المرجّح أن يكون من الذين سيعتني بهم تعالى. قارنها مع قوله (ع) {إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} عندما لاحقه فرعون بجنوده والبحر أمامه ولا مجال للهرب، فهناك كان (ع) مُتَأَكِّداً من هدايته تعالى له، فالفرق بين حالته (ع) هنا وحالته هناك، أنه هناك أمام البحر أمره تعالى بالانطلاق... وهو (ع) يثق به تعالى أنه هداه وسيهديه لما هو صحيح للنجاة من فرعون.

أطلت عليك الكلام بسبب ما تجده في كتب التفاسير عند ورود كلمة "عسى" في مختلف الآيات القرآنية، لأنها مثلها مثل بقية كلمات القرآن التي لم يعتمدوا لها مَعْنىً واحِداً، فصار لها عدّة معان، وعند المفسّر الواحد كان لها في كل آية معنى بحسب ما يراه هو مُناسِباً، وفي الحقيقة كلمة "عسى" تعطي مَعْنىً واحِداً: من المحتمل المرجح غير الأكيد. ولو راجعت الآيات التي وردت فيها كلمة عسى، وألصقت هذا المعنى لها، لَتَبَيَّنَتْ لك مَعانٍ قرآنية رائعة كما ترى من آيتنا هنا.

(وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ {23})
مشى الشاب موسى(ع) في الصحراء والبراري أَيَّاماً...

{وَلَمَّا وَرَدَ}، عندما حضر وَوَصَلَ إلى، {مَاءَ مَدْيَنَ}، إلى المكان الذي فيه بركة أو بئر ماء يشرب منه أهالي مدين ويسقون ماشيتهم، {وَجَدَ عَلَيْهِ}، على الماء، {أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ}، مجموعة من الناس لهم انتساب لشيء ما، {يَسْقُونَ}، وَيَمْلَأُونَ الأوعية بالماء من البئر أو يتيحون المجال على طرف البركة لماشيتهم لتشرب، ومن تكملة الكلام ترى أنهم أمّة رعاة اعتادوا على ورود تلك المياه لتشرب منها ماشيتهم من أغنام وماعز وغيرها.

التعبير بـ{الْأُمَّةِ} يشير لوصوله (ع) إلى مياه لرعاة لهم امتداد تاريخي للسقي منها، فهي مياه تابعة لمدين وليست مياهاً في الفلاة لا صاحب لها.

{وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ}، وجد على الجانب وبشكل منفصل عن جماعة الناس، {امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ}، ومن سياق الكلام ترى أنهما تدفعان وتجران ماشيتهما بَعِيداً عن الماء.

بقية الرعاة يسقون ماشيتهم وَيَتْرُكُونَهَا تشرب من الأحواض أو من البركة، إلّا هاتين المرأتين فإنهما تَسْحَبَانِ ماشيتهما العطشى وَتُرْجِعَانِهَا عن الماء.

اقترب موسى(ع) من الْمَرْأَتَيْنِ، وسألهما، {قَالَ مَا خَطْبُكُمَا}؟ قولا لي وأنا سأسمع، أَخْبِرَانِي لماذا لا تتركان ماشيتكما تشرب؟

{قَالَتَا لَا نَسْقِي}، لا نؤمّن ماء الشرب لماشيتنا، {حَتَّى يُصْدِرَ}، حتى يغادر، "مثل استيراد وتصدير"، {الرِّعَاءُ}، الرعاة الذين يرعون ماشيتهم، لأننا لا نريد الاختلاط معهم حيث نحن إناث وكلهم ذكور، والاختلاط معهم غير مناسب، ولذلك نضطر لدفع ماشيتنا العطشى عن ورود الماء حتى ينصرفوا كلهم عن الماء.

{وَأَبُونَا}، والدنا، {شَيْخٌ كَبِيرٌ}، وصل لمرحلة كبيرة في العمر حيث صار جسده ضَعِيفاً جِدّاً، وهو كبير في السن وليس شيخا في بداية شيخوخته بل في مرحلة متقدمة من الشيخوخة، وهو ضعيف جِدّاً ولا يقدر على رعاية الماشية، وَيَبْقَى في المنزل، "وليس لدينا راع أو أخ..."، ونحن مُضْطَرَّتَانِ لرعاية الماشية.

ربما من المفيد لفت انتباهك أنه من عادة رعاة الماشية أن يسرحوا بمواشيهم من الصباح الباكر إلى المراعي، وقبل الغروب يرجعون بالمواشي لِيَسْقُوهَا، وهنا يبدو الحال مُشَابِهاً، حيث رعت المرأتان ماشيتهما وعادتا لِتَسْقِيَاهَا قبل زربها في الحظيرة، ومن الطبيعي محاولة ماشيتهما الوصول إلى الماء لأنها عطشى، وكما ترى، الْمَرْأَتَانِ كانتا تَذُودَانِ ماشيتهما وَتَدْفَعَانِهَا بَعِيداً عن الماء حتى لا تُضْطَرَّا لمخالطة بقيّة الرعاة... وتنتظران جانِباً مع ماشيتهما حتى انصراف كلّ الرعاة، حتى لو وصلتا إلى الماء قبل الرعاة الآخرين فإن البقية لن يحترموا الدور وسيفرضون على المرأتين البقاء لآخر الدور.

(فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ {24})
تَدَخَّلَ موسى(ع)، اقترب من الماء حيث يجتمع الرعاة، {فَسَقَى لَهُمَا}، وَأَتَاحَ الماء لماشية المرأتين.

يقولون في الكتب إنَّ النبي موسى(ع) تشاجر بالكلام أو بالتدافع مع الرعاة حين سقى للمرأتين، حَيْثُ عَادَةً تكون الأجواء عنيفة لِأَنَّ كُلَّ راع يريد أن يسقي ماشيته قبل الآخرين، وهكذا يستضعفون المرأتين بِإِجْبَارِهِمَا للبقاء مُنْتَظِرَتَيْنِ حتى ينتهي آخر راع...

ثم، بعد السقاية، {تَوَلَّى}، ترك الشاب موسى(ع) الماء وذهب، {إِلَى الظِّلِّ}، إلى الفيء تحت شجرة أو غيضة أعشاب، أو بجوار صخرة، {فَقَالَ}(ع):

{رَبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}، أنا محتاج لما تنزله إليّ من خير. وَهَذِهِ المدينة هي وجهتي وَهَا وَصَلْتُ إليها، وأنا ينقصني كل شيء الآن، ينقصني المسكن، والطعام والمال... لِذَا أَنَا فقير بحاجة لما تنزله عليّ من خير من أمور جيّدة.

لاحظ التعبير القرآني للدعاء بـ{أَنزَلْتَ}، حَيْثُ هُنَاكَ حالات ترى فيها بكل وضوح أن ما حصلت عليه كان بتوفيق ربّاني محض، وَبِقَرَارٍ نازل منه سبحانه حصلت على شيء ما، لأن الظروف التي حولك لا تبشّر بحصولك على ما تريد، وهنا نفس التصوّر عند الشاب موسى(ع)، إِذْ إِنَّ الظُّروفَ من حوله لا تبشّر بأي خير، فَهُوَ غريب في القرية، مفلس، وعلى ما هو مشهور في الكتب أنه افْتَتَحَ لقاءه مع رعاة القرية بمشاجرة على الماء!

جاءت الاستجابة على الفور:

(فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{25})
{فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا}، إحدى الْمَرْأَتَيْنِ اللَّتَيْنِ سقى لهما، جاءت، {تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ}، وَتَقُومُ بشيء تشعر أنه معيب أو مخجل، لأنها ستتحدث مع رجل غريب، والدارج بيننا استعمال كلمة الحياء والخجل في هكذا موقف. {قَالَتْ}، له (ع):

{إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ}، يشهر ويعلن لك، ومن سياق الكلام ترى أن أباها يعرض عليه الحضور إلى منزلهم، {لِيَجْزِيَكَ}، ليعطيك كمقابل، {أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا}، لِأَنَّكَ قُمْتَ بعمل تستحق عليه المجازاة بالأجرة، حَيْثُ سَقَيْتَ لنا ماشيتنا وهناك "أجرة" شيء تستحقه على هذا العمل، ويريد أبي أن يجازيك وَيُعْطِيَكَ المقابل لعملك.

قَبِلَ مُوافِقاً موسى(ع) على الدعوة، ومشى معها إلى منزلهم.

{فَلَمَّا جَاءَهُ}، عندما وصل إلى أبيها الشيخ، ومن المنتشر بين المسلمين أَنَّهُ النبي شعيب(ع)، ولكن لا نجد تَأْيِيداً من القرآن لتحديد هذه الهوية، إِلَّا اشْتِرَاكَ هذا الشيخ والنبي شعيب(ع) في سكنهما في مدينة مدين، ولا أظنهما نفس الشخص بناء على إغفال القرآن تسميته، وبناء على عادة ترك الأنبياء للقرى التي يصيبها الدمار، والكلام هنا عن شيخ وبعدها عن إجرائه عقد عمل لعشر سنين مع النبي موسى(ع)، وهذا لا يتماشى جَيِّداً مع فرضية حصول الكارثة على مدين فيما بعد خروج النبي موسى(ع) منها وعلى زمن هذا الشيخ.

على أي حال، سأله الشيخ: من أين أنت وما قصتك، وَأَجَابَهُ موسى(ع)، {وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ}، وَأَخْبَرَهُ بالتتابع ماذا حدث معه... بعدها، {قَالَ}، الشيخ:

{لَا تَخَفْ}، وَلَا تشعر بأنك سيصيبك أي مكروه منهم، {نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}، تخلّصت من الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة بالظلم بتعاملها مع حالتك، إِذْ إِنَّ عَقِيدَتَهُمْ وشريعتهم وتصرفهم ظلم ولا يهمّهم العدل والحقّ، ولو قبضوا عليك لما حاكموك بعدل، وَأَنْتَ هنا في مدين في الأمان منهم، لأنها بعيدة وليست تحت سيطرة جيش فرعون.

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ{26})
{قَالَتْ}، إحدى البنتين: {يَا أَبَتِ}، يا أبي، {اسْتَأْجِرْهُ}، اسْتَخْدِمْهُ وادفع له أجرة وَأَعْطِهِ ما يستحق مقابل الأعمال التي سيقوم بها لك، ومما سبق تعلم أنها تشير إلى استئجاره (ع) ليرعى ماشيتهم ويسقيها، {إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ}، لِأَنَّ الْمَوْصُوفَ بأنه جيد لتوظّفه ويأخذ بَدَلاً يستحقه عن أعمال ينجزها لك، هو الشخص، {الْقَوِيُّ}، بَدَنِيّاً، و{الْأَمِينُ}، الذي لا يخون.

من المشهور أن الفتاة التي تقترح استئجاره (ع) هي نفسها التي تبرّعت بالذهاب إلى موسى(ع) لتبليغه دعوة أبيها ليأتي إليهم، وهي نفسها التي تزوّجها النبي موسى(ع)... ومن المشهور بين المسلمين وَنَقْلاً عن التوراة أن اسمها "صافورا"، وها هي تمدح الشاب موسى(ع) بوصفه بالقوي على رعاية الماشية، والقوة البدنية واضحة من هيئة موسى(ع) ومما فعله من سقاية ماشيتهما، ووصفته بالأمين حَيْثُ لَنْ يخون ولن يسرق الماشية لأنه أصلا سقى لهما ولم يطلب أَجْراً، وَهُوَ لَيْسَ طَمَّاعاً ولا اسْتِغْلَالِيّاً...

يقولون في الكتب أَنَّها علمت أنه أمين من مشيها معه(ع) لتدله على البيت، حَيْثُ لَمْ تمش بجانبه لأنها خجولة، وَمَشَتْ أمامه لتدلّه على الطريق، وَطَلَبَ منها النبي موسى(ع) أن يمشي هو أمامها وتمشي هي خلفه حتى لا يضطر للنظر إليها وهي أمامه.

ننتبه جَيِّداً، حَيْثُ فِي قصّة النبي يوسف(ع) في سورة يوسف، تبيّن لنا التدخّل الإلهي بمجريات أحداث حياة النبي يوسف(ع) والتي تبدو كأنها أحداث عادية ولكن القرآن عرضها على أنها كانت تحصل من تدخّل إلهي، "إلا في رؤية النبي يوسف(ع) للمنام، ورؤية الملك للمنام"، وَكَانَ قراره وتخطيطه تعالى أن يذهب عبده يوسف(ع) إلى مصر ليكون رَسُولاً هناك... وحصل ذهابه برمي إخوته له في الجبّ ومرور قافلة أخذته معها إلى مصر وهو ولد صغير... وهكذا بقية الأحداث التي أوصلته (ع) ليكون ثاني أعلى رتبة حكومية في مصر...

هناك لم نستطع "نحن" تمييز التدخّل الإلهي لولا إخباره تعالى لنا أَنَّ ما كان يجري كان من تخطيطه سبحانه، إِذْ إِنَّ الْأَحْدَاثَ تبدو لنا تجري على طبيعتها مثل مجريات حياة أي شخص... وهنا نفس الشيء، حَيْثُ مُوسَى(ع) وصل إلى الأمان من فرعون في مدين ولكن بعدها كيف سيعيش؟ وها ترى من الآيات هنا أنه تعالى اعتنى به وَأَمَّنَ له العمل والمسكن والزوجة، فور وصوله إلى مدين، في أوّل يوم، مع أن الأحداث تبدو كأنها تجري لوحدها من دون تدخّل إلهي.

(قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ{27})
قال الشيخ للشاب موسى(ع):

{إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ}، أزوّجك، {إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ}، ويبدو من مجمل القصّة أنه أشار إلى البنت التي أبدت إعجابها الشديد بموسى(ع) وذهبت لدعوته واقترحت استئجاره...

وهذا الزواج يتم بشرط، {عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ}، أن تكون أجيرا عندي فتعمل لدي بالأجرة لمدة ثماني سنين.

{فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً}، فلم تقطع أجرتك لي وأتممتها إلى عشر سنوات، {فَمِنْ عِنْدِكَ}، فبخاطرك وبراحتك، فهو عقد عمل لثماني سنوات وقابل للتمديد لسنتين إضافيتين، إذا أنت رغبت بذلك.

{وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ}، ولا أريدك أن تبقى عندي لأكثر من هذه السنين رغم حاجتي الشديدة لك، حيث لن أستغلّ ظروفك كغريب هارب فقير في مدين، ولن أفرض عليك شروطا قاسية، {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}، أعاملك معاملة صالحة جيّدة.

كما ترى، هذا العرض يؤمّن للشاب موسى(ع): الزوجة، والمسكن، والمال.

نلاحظ أن الشيخ يستبدل كلمة سنة بكلمة حج، لأن مدين مدينة عربية، والحجّ كلمة تعني: قصد الذهاب إلى مكان ما. وبسبب شهرة الذهاب إلى الكعبة التي في مكّة والذي كان مشهورا بين العرب كنسك من ديانة النبي إبراهيم(ع)، لذلك استبدل الشيخ كلمة سنة بكلمة حج، ولم أجد احتمالا آخر غير أن يقصد بها: عادة الذهاب لمكّة مرّة في السنة وفي الشهر الذي اعتاد فيه قومه على الذهاب إلى الحج.

ننتبه إلى أنه لا علاقة بين الإجارة للأب ومهر ابنته، حيث إن الأب يقدّم عرضين متحدين للشاب، أعرض عليك تزويجك ابنتي بشرط أن تعمل عندي. والإجارة للأب ليست مهرا للبنت، وكما تعلم، المهر ملك للعروس وليس لأهلها، وكما ترى من فحوى الآيات أن البنت راغبة بالزواج من هذا الغريب الفقير، وستقبل به زوجا ولو بدون مهر. وأمّا التنقيب عن معرفة ما دفعه (ع) كمهر لها، فليس فيه أي فائدة، حيث إن في شرعه تعالى لا يوجد تقييد لنا بتحديد قيمة للمهر طالما الأنثى موافقة على أي شيء له قيمة ولو بقيمة بسيطة جدا، وبخاصة أن الظروف لا تشير لاستغلال ظروف الأنثى بل تشير بوضوح لعلمها بفقر المرغوب بالزواج منه.

بقي شيء من الفضول، حيث إن التعبير بـ {عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي...} يدل على رعاية الماشية بسبب حاجة الشيخ لراعٍ كما ترى من سياق الأحداث، بأن تكون أجيرا عندي برعاية ماشيتي لمدة ... وهذا ما قالوه في الكتب قديما وفي كتبنا. ومن المشهور قديما وإلى زمن قريب من عصرنا، مشاركة الراعي الأجير لصاحب الماشية بالنصف في الإنتاج، حيث للأجير نصف المواليد الجدد ونصف إنتاج الألبان والصوف... في المدة التي يكون أجيرا فيها.

تعبير الشيخ بـ {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}، يريك أدبا إيمانيا عاليا بتعليق حصول أي أمر كان بمشيئته تعالى، لأن المؤمن يعلم بأنه تعالى متابع ومسيطر دائما على كل الأمور، وأمامه تعالى دائما خيارات عديدة لتسيير الأمور بما يريده، ونحن كمؤمنين نعلم بأننا اهتدينا للحق والصلاح بما زوّدنا به تعالى من قدرة على تمييز الخير من الشرّ، ومن الآيات الدالة عليه تعالى... ونعلم أننا نقع في سوء نضعف أمامه فنفعله... ودائما نطلب منه تعالى توفيقنا للعمل الصالح والابتعاد عن السوء، وتختصر ذلك الآية 6 من سورة الحمد {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}، لأن تعرّفنا على الخير والشرّ ليس كافيا لنكون صالحين، بل التطبيق العملي للهداية هو الهدف، ونطلب منه تعالى مساعدتنا على ترك السوء وفعل الصلاح، ويساعدنا سبحانه بالطرق المناسبة.

سبحانه وتعالى لا يختار شخصا ما بشكل عشوائي أو عبثي ليشاء جعله صالحا غصبا عن الشخص، أو أدعوه تعالى فيشاء جعلي صالحا غصبا عنّي فلا أستطيع فعل السوء حتى لو أردت، أو أنه تعالى يسحب أصلا من قدراتي القدرة على فعل السوء... أو بالعكس وسبحانه لا يشاء لشخص ما أن يكون كافرا فاسدا مجرما فيجعله غصبا عنه هكذا، لا.

المعنى الآخر الذي تداوله القرآن عن مشيئته تعالى كان عن نفي أي قدرة قاهرة فوق قدرته تعالى، حيث نحن نشاء، ونختار ما نفعله، فماذا لو شئت أنا شيئا لأفعله ولم يشأه تعالى؟ ولنقل إنّي شئت قتل شخص ما، طبعا سيحصل ما شاءه تعالى ولسبب أو لآخر لن أستطيع فعل ما أردته، ولو حصل ما أردته أنا من سوء فهذا يعني أنه تعالى ترك لي حرية التصرف فيما منحني من قدرات، وهذه هي الحالة الأساسية لتعامله تعالى مع كل مخلوقاته الذين منحهم حرية إرادة واختيار.

بناءً على كل ما تقدّم نفهم ببساطة وسهولة التعبير القرآني الذي يستعمل التصريفات المختلفة لكلمة "مشيئة"، لأنها لعموم حالة إجراء "قرار أو إمضاء أو فعل أو قبول أو ترك..." شيء من خيارات عديدة، ويتدرج معناها بحسب الفاعل، بالنسبة لنا نحن البشر نشاء سواء أعجبنا أو لم يعجبنا، أمّا بالنسبة له تعالى فلا يحصل إلا ما يراه هو تعالى مناسبا، حيث يتركنا نفعل السوء لأنه شاء تعالى امتحاننا في الدنيا ليجازينا في الآخرة...

من سياق الكلام القرآني تفهم دائما من كلمة مشيئة وتصريفاتها المعنى الذي ذكرته لك، كأساس لغوي لمعنى الكلمة، ومن سياق الكلام ترى حصر القصد من المشيئة باشتقاقات تطبيقية للمعنى الأساسي، حيث في بعض الآيات تشير لكون كل المخلوقات ليس لديها مشيئة قاهرة غالبة لمشيئتِهِ "لما يشاؤه" تعالى، وكمثال عن ذلك الآية 29 من سورة التكوير {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، لأن سبحانه شاء تركنا نشاء، حتى لو شئنا الكفر. وكمثال آخر خلود أهل النار في النار وأهل الجنّة في الجنّة ولكن يبقى هذا الخلود للأشخاص والمكان معلّقا بمشيئته تعالى، فلا هم ولا المكان صاروا خالدين بحيث لو تركهم تعالى لَبَقُوا خالدين، وهذا ما تقصده الآية 108 من سورة هود {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ}.

بقية الاستعمالات القرآنية لكلمة مشيئة وتصريفاتها، كآيتنا هنا، فهي سهلة الفهم على معنى أنه تعالى يتدخّل بطرقه المناسبة وبما يراه مناسباً لصالح آخرة الذين في قلوبهم سلامة تكفي ليكونوا ناجين من النار.

لا تَنْسَ دائما أنه تعالى أخبرنا بما شاءه من الأساسيات، حيث شاء خلقنا بحرية إرادة واختيار، وشاء تركنا نتصرّف بحرية حتى لو كفرنا به، وشاء مجازاتنا في الآخرة على ما فعلناه بإرادتنا، لأننا نشاء الكفر أو الإيمان ونحن نتحمّل نتيجة اختياراتنا.

(قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ{28})
قال الشاب موسى(ع) موافقا على ثماني سنوات، أما بالنسبة للسنتين الإضافيتين، فقال:

{ذَلِكَ}، الاتفاق، {بَيْنِي}، أنا الموافق، {وَبَيْنَكَ}، أنت الموافق، وكلانا مُلْزَمٌ به، {أَيَّمَا}، أي واحد من، {الْأَجَلَيْنِ}، من الزمانين المحددين، {قَضَيْتُ}، واخترت أنا حصوله، فسواء بقيت لثماني أو لعشر سنوات، {فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ}، فلا أكون موصوفا بأني تعديت وتجاوزت الاتفاق الذي بيننا، فأبقى لثمانٍ فقط أو أُكْمِلُ العشرة.

{وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ}، ونعتقد أنه تعالى سيسيّر الأمور كما ينبغي.

مهما كانت الظروف بعد اختياري لثمانٍ أو عشر سنوات فأنا غير ملزم بالبقاء، فلا تفرض عليّ من جديد البقاء لأنك تحتاجني...

(فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ{29})
{فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ}، عندما حصلت ومرّت المدّة التي اتُّفِقَ عليها مع الشيخ، ويقال إنه أمضى عشر سنوات، {وَسَارَ بِأَهْلِهِ}، والكلام عن حصول مغادرته بالذين ينتمون له (ع) "بامرأته وأولاده" برضاه ورضا الشيخ، وعلى الطريق، {آنَسَ}، لم يكن متأكدا ولكنه أحسّ، {مِنْ جَانِبِ الطُّورِ}، من جانب الجبل، {نَاراً}، هناك تلاميح ضوء تصدر من جانب الجبل عندها، {قَالَ}، موسى(ع)، {لِأَهْلِهِ امْكُثُوا}، ابْقَوْا هنا لمدة من الزمن، {إِنِّي آنَسْتُ نَاراً}، أشعر بوجود نار هناك، وسأذهب إليها، {لَعَلِّي}، من المفروض ومن المتوقّع أن، {آتِيكُم مِّنْهَا}، من المكان الذي فيه النار، من الناس الذين أشعلوها والجالسين بقربها، آتيكم {بِخَبَرٍ}، لِنستدلّ على الطريق ونعرف أين نحن بالضبط، {أَوْ}، آتيكم من النار بـ، {جَذْوَةٍ}، بقطعة خشب، ويقصد قطعة خشب مشتعلة، {لَعَلَّكُمْ}، يا امرأتي وأولادي، {تَصْطَلُونَ}، لِنُشْعِلَ موقدا ونصطلي أمامه ونجلس أمام النار لنتدفأ.

إلى هنا، تكون قصة موسى(ع) الرجل المؤمن انتهت، وبدأت مرحلة جديدة من حياته، حيث استدرجه سبحانه ليذهب لوحده في هذا الليل، ليكلّمه ويصير موظّفا بالرسالة ولديه مهام...

نلاحظ أننا لا ندري لماذا ترك النبي موسى(ع) مدين، ولا ندري إلى أين كان متوجّها، ونتساءل، إن كان متوجّها نحو مصر ففرعون سيقتله! ولهذا السبب فسّروا بعض الآيات التي تتحدّث عن كلامه تعالى مع نبيّه(ع) بأنه حصل مرتين، مرّة وهو في مدين من جبل في منطقتها، ويقولون إنه هناك أمره تعالى بالتوجّه إلى مصر، وهذا ورد في التوراة "الحالية" ولا نجده صريحا في القرآن، ومرّة ثانية في صحراء سيناء وهي حادثة رؤيته(ع) للنار، وهذه صريحة في القرآن وفي التوراة "الحالية".

في دراستنا يتبين وجود حادثتين متعلقتين بكلامه تعالى معه(ع) في منطقة جبلية: الأولى هي التي تتحدّث عنها الآيات هنا بعد مسيره(ع) من مدينة مدين، والثانية حين نزول التوراة بعد خروج بني إسرائيل من مصر. ولا يبدو من القرآن حصول كلام إلهي معه(ع) في مدين قبل الحادثة هنا، والآيات القرآنية المنتشرة في مختلف السور والتي أخبرتنا عن هذه الحادثة هنا، يبدو من محتواها أنها أوّل كلام إلهي معه (ع).

نحتمل أن النبي موسى(ع) كان راجعا إلى أهله في مصر وينوي إخفاء هويته الحقيقية وتبنّي هوية رجل من مدين... أو نحتمل أنه سار نحو بلاد الكنعانيين ليكون قريبا من مصر، أو ليستقر في مصر ولكن في مدينة أخرى غير مدينة أهله... أو نفترض سقوط الأحكام القضائية في القانون المصري بعد ثمانية أو عشرة أعوام، وبناء عليه لن يحاكموه على قتل الفرعوني، وهذا ما ذكره بعضهم علما أن الآية 33 من هذه السورة لا تتماشى مع هذا الاقتراح... أو كان لديه مخطّط ما كعصيان مدني أو هروب... لبني إسرائيل... أو ألهمه تعالى بالعودة إلى مصر... أو هو نفسه لم يتحمّل الغربة بسعادة بينما المؤمنون من قومه يعانون من الظلم... وقرّر العودة ليتشارك معهم مصيرهم... أو كان مقررا فعل شيء ما لإخراج قومه من مصر...

أطلت عليك الكلام لترى أن الفضول الذي عندي لم يَرَ تعالى له أهمية ولم يذكر جوابه صراحة في كلامه تعالى عن الحادثة، وصغت لك الاحتمالات التي قد تضيف عليها من عندك ما هو أفضل منها... وطالما لم أفرض عليك احتمالاتي لتتبناها، ولم أقحمها في تفسير كلامه تعالى، فلا مشكلة، والمشكلة فقط أني أضعت وقتك في ما لم يَرَ تعالى له أهمية لذكره، وهذه المشاكل لم ينتبه لها العديد من المفسرين، حيث إن عمومهم شحنوا تفاسيرهم بالفضول الذي لا علاقة له بالكلام القرآني، وتغرق معهم غير منتبه لذلك، والمصيبة الأكبر حين يصير تفسير كلامه تعالى مبنياً على التخمينات والاحتمالات، والمصيبة بعدها صيران تلك التخمينات والاحتمالات بقوّة الواقعية، وبعدها تصير خلفية فكرية ونفسية فينا وحاكمة على فهمنا لكلامه تعالى، وهذا كثيرا ما وقعنا فيه.

هنا ترى بسهولة الفرق بين تخميناتي وبين كلامه تعالى، وبين فصلي لتخميناتي عن كلامه تعالى، ولكنك لن ترى ذلك بسهولة في غالبية بقية التفاسير والدراسات القرآنية لعموم القرآن، لأنه تعشّق في ذهننا البحث الفضولي عن الغرائب والعجائب "النكات" والتي لا تسمن ولا تغني من جوع، وتعشّق فينا "نزلت في فلان"، ورغبنا في التميّز في التفسير بما لم يذكره غيرنا... وخاصة إذا ذكرنا تفسيرا يداعب وساوس شيطانية عصبية مذهبية بمدح شخصياتنا الدينية الخاصة بنا وذمّ الشخصيات التي يقدّسها الآخرون...

(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{30})
{فَلَمَّا أَتَاهَا}، عندما وصل النبي موسى(ع) إلى النار، {نُودِيَ}، سمع صوتا موجّها إليه، والنداء صادر، {مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ}، ومن الآية 12 من سورة طه والآية 16 من سورة النازعات {إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى}، نعلم أن هذا الوادي، هذا المنخفض اسمه "طوى" والمشهور أنه يقع بين جبلين من جبال منطقة سيناء، وعندما تدخل فيه، من الشاطئ الأيمن، من الجهة اليمين للوادي، على حافة الأرضية المتصلة بارتفاع، {فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ}، في المنطقة الصغيرة من الوادي الموصوفة بالخير لحصول شيء خير فيها وصارت مباركة، حيث فيها سيتكلم سبحانه، {نُودِيَ}، {مِنَ الشَّجَرَةِ}، حيث نادى سبحانه عبده موسى(ع) الذي كان ينظر باستغراب للشجرة التي يخرج منها نور النار، ويقولون إنها كانت لا تحترق ولا تصدر عنها حرارة النار، فقال سبحانه وتعالى له:

{يَا مُوسَى، إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، أنا صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس.

الرب الذي كنت تؤمن به، وتدعوه، وتعبده، ها هو يتكلم معك.

نتذكر كيف كان سلوك موسى(ع) قبل هذه الحادثة، حيث لم يكن ينزل عليه وحي، وكان مؤمنا شديد الإيمان بربّه سبحانه، ولاحظنا كيف كان يدعوه تعالى دائما ويتعلّق به... فدرجة الإيمان العالية لموسى(ع)، وسلوكه الطاهر، جعلاه يستحق أن يكلمه ربه سبحانه.

من ناحية ثانية، علمه سبحانه بمستقبل هذا الإنسان الطاهر، وكيف سيكون سلوكه، هو الذي أمّن التدخل منه سبحانه للمحافظة على حياة موسى(ع) عندما كان طفلا، وأمّن الأمان والمسكن... حين صار شابا... وهذه العلاقة المتبادلة بين العبد وربّه سبحانه، ستستمر، وسيبقى موسى(ع) وفيا جدا ومخلصا ومطيعا لربه سبحانه... وسبحانه سيرعاه ويعتني به عناية خاصة جدا...

ننتبه، سبحانه ليس له جسم، وليس له حنجرة... ولا يكلّم أي مخلوق بشكل مباشر إلا وحيا أو من وراء حجاب... لا لأنه تعالى لا يريد التواصل المباشر مع مخلوقاته، بل لأنه يستحيل حصول التواصل المباشر بسبب الفرق الهائل بين طبيعة الإله وبين المخلوقات. وأصدر سبحانه الصوت من الشجرة التي كان يصدر منها لهب النار، ربما بتحكّمه تعالى بالهواء أو بألسنة النار أو بأغصان الشجرة... حتى تصدر صوتا، كما نتحكم نحن بضغط الهواء على أوتار حنجرتنا وشكل فمنا لنصدر الصوت، ربما هكذا وربما بطريقة أخرى، وعلى أي حال سبحانه مباشرة فعل إصدار هذا الصوت ولم يوكل ملاكا به.

لاحظ توصيف الآية لمكان الكلام، من مدين باتجاه مصر وفي صحراء سيناء، يصير الممر إجبارياً باتجاه سلسلة جبال تترك جهة واحدة للمسير، حيث يصير مكان الحادثة مواجِهاً بشكل إجباري من جهة الطريق لمن ينظر إليه، وهناك سخفاء كافرون بالقرآن علّقوا على الآية هنا بأن الجبل ليس له جهة يمين وشمال، فإذا درت للجهة الأخرى من الجبل انعكس اليمين والشمال... ونحن لا نعرف كيف نشكر هذا السخيف على هذا الاكتشاف العظيم لنسبية الاتجاهات، لأنه نفسه الذي قال هذا الكلام، يعبّر عن يمين وشمال الجبل إذا أراد أن يدلك على شيء فيه! حيث يقول لك: انظر ليمين الجبل... وكلّ البشر يعبّرون بهذه الطريقة، وفي الحادثة هنا النبي موسى(ع) كان في نقطة ما، ومن تلك النقطة صار للجبل يمين وشمال بالنسبة له، ومن الجانب الأيمن للجبل رأى النار... وأولئك الذين يعلّقون على القرآن بأنه ليس كتابا إلهيا بكلام سخيف من هذا النوع، ما هو النصر الذي يتوقّعونه بكذبهم وسخافتهم؟ وهل يريدون إضلال الناس عن الكتاب الإلهي؟ أو تشويش عقول الناس بكلام يبدو عقلانياً لمن لم ينتبه له، وفيما بعد حتى لو انتبه لسخافته ولكن علق في ذهنه فكرة "يوجد إشكال على القرآن"... أهذا ما يريدونه؟ مَثَلُهم مَثَلُ منكري الآيات عبر التاريخ، مثل فرعون وملئه وجنوده، ونهايتهم جهنّم وبئس المصير.

(وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ{31})
بعد أن عرّف سبحانه عن نفسه، بدأ بمسألة جعله(ع) رسولا مع مهمّة... فقال له سبحانه:

{وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ}، ارْمِ الخشبة الطويلة الرفيعة التي في يدك على الأرض.

فألقاها (ع) من يده على الأرض، {فَلَمَّا رَآهَا}، حيث صار عنده (ع) صورة محدّدة لها وهي، {تَهْتَزُّ}، تتحرك في مكانها، {كَأَنَّهَا جَانٌّ}، كأنها من الجنّ، {وَلَّى}، وتوجّه (ع) باتجاه آخر، وهرب النبي(ع) منها، {مُدْبِراً}، معطيا ظهره للحيّة، {وَلَمْ يُعَقِّبْ}، ولم يلتفت إلى الخلف.

نلاحظ أننا لا نفهم لماذا ظنّها النبي(ع) أنها من الجنّ، لأنه لا علم لنا من القرآن بارتباط الجنّ بمثل شيء كهذا، ولذلك قالوا إنّ كلمة "جانّ" استعملها العرب بمعنى الحيّة الصغيرة، ولكن لا يبدو ذلك واضحا صريحا من كلام العرب قديما، وأيضا لا معنى لهربه(ع) بهذا الشكل من حيّة صغيرة! استعمل القرآن كلمة جانّ "للجنّ" في الآية 27 من سورة الحجر {وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ} كمقابل لكلمة إنس للإنسان، وهنا هي نفس الكلمة، وسنلتزم بنفس المعنى حتى يتبيّن لنا تحليلٌ قويٌّ آخر، وحتى لو لم نَدْرِ لماذا خطر ببال النبي(ع) أنها جِنّيٌّ، فالآية تنقل لنا أوّل ما خطر ببال النبي(ع) ولم تؤيّده، لأن العصا فعلا تحوّلت لحيّة حقيقية.

ناداه سبحانه:

{يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ}، تعال من إدبارك، {وَلَا تَخَفْ}، لا تشعر بالخطر من أذية الحية، {إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ}، حيث عليك الأمان وليس عليك أي خطر. وورد نفس المعنى بطريقة مختلفة في الآية 10 من سورة النمل {وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ}.

تَذَكَّرْ دائما أنه تعالى لم ينقل المحاورات بالترجمة الحرفية للكلام، فهذا لا معنى له، لأنه تعالى يعلم ضمائر مخلوقاته، ويعلم ما يقصدونه من كلامهم، وينقل لنا ما قصدوه من كلامهم... وخذ مثلا قولي: سأضربك. في مختلف الظروف سيختلف قصدي، حيث قد أقصد ضربا لطيفا للمداعبة، وقد أقصد ضربا مؤذيا، وقد أقصد ضربا قاتلا... وهكذا نفهم أنه تعالى وبحسب ما قصده القائل نقل لنا الكلام.

من ناحية ثانية، كل سورة لها موضوع أو محور خاص، وبحسب ما يناسب ذلك ينقل لنا تعالى الجانب المناسب من الأحداث، وترى نقلهُ تعالى لحادثة كلامه مع نبيّه موسى(ع) متكرراً في مختلف السور بعبارات مختلفة تحمل نفس المعنى، وبعض السور فيها زوائد لا تجدها في سور أخرى لأن محور كلام السورة تناسبه تلك الزوائدُ...

مضافاً لكل ما سبق نتذكّر الآية 82 من سورة النساء {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}، بينما هذا القرآن لا تجد فيه ولا أي مخالفة، لأنّ كل كلامه متوافق متناغم مع بعضه بالرغم من سرده لنفس الحوادث بعبارات مختلفة ومن زوايا مختلفة.

ما قيل عن أنّ الثعبان هو الحية الكبيرة، ووصفها بالجان الوارد في الآية هنا يشير لحيّة صغيرة، على أساس أن نفس العصا تغيّر حجم الحيّة التي تحوّلت إليها، فهو كلام تخميني لم أجد له مصدرا في الكلام قديما لاستعمال العرب لكلمتي ثعبان وجانّ، والأرجح الواضح من الكلام القرآني أن العصا تحوّلت دائما إلى حية بنفس حجم العصا، والاستنتاجات لمعاني الآيات بناء على معانيهم الافتراضية لكلمات حية وثعبان وجانّ قد تبدو لطيفةً ولكنها ليست صحيحةً. لأن كلمة "جانّ" ليست من أسماء أو صفات الحيّات.

في أشعار العرب قبل الإسلام "فيما لدي من مصادر" استعمالٌ كثيرٌ لكلمتي أفعى وحيّة واستعمالٌ نادرٌ لكلمة ثعبان، ولا يظهر منه أي تمييز لهذا الوصف أو التسمية عن الحيّة والأفعى إلا من ناحية تذكير اللفظ وتأنيثه، وبتحليل الشعر القديم وكلام الفراهيدي في كتاب العين، وكلام تاج العروس ستجد أن العرب القدماء يقصدون بالأفعى اسماً لنوع من الحيات، ويبدو لك بوضوح أنها تسمية غير متفق عليها بين العرب، حيث هناك العديد من أنواع الحيّات، وكل جماعة منهم تقصد بالأفعى نوعا ما... ويبدو أن الغالبية يسمون بالثعبان الحية الطويلة غير السامة المشهورة بأكلها للفئران. وتعابيرهم عنها أنها ضخمة وهي على مقاييس حيّات المنطقة العربية التي يعرفونها، ولا يقصدون الضخامة من قياس حيّة الأناكوندا التي لا يعرفونها ولا تتواجد في مناطقنا.

بناءً عليه لم يستعمل القرآن كلمة أفعى لأن العرب استعملوها بضبابية كاسم لنوع من الحيّات، واستعمل كلمة ثعبان لترى أن طول العصا هو نفسه صار طول الحيّة.

(اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ{32})
بعدما عاد النبي موسى(ع)، مدّ يده على الحيّة، فعادت عصا كما كانت... قال له سبحانه:

{اسْلُكْ يَدَكَ}، أدخل يدك، {فِي جَيْبِكَ}، أدخل يدك من جهة رقبتك تحت فتحة قميصك من جهة رقبتك، ومن ثم أخرجها، {تَخْرُجْ بَيْضَاءَ}، كلون الثلج أو الرخام الأبيض ولكن، {مِنْ غَيْرِ سُوءٍ}، من دون أن يصيب يدك أي ضرر، فتبقى يدا عادية تتحرك، وليس بها أي مرض جلدي أو ضرر.

بعد ذلك، {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ}، قرّب يدك إلى صدرك ناحية إبطك وكتفك، فأدخلها إلى جيبك مرة ثانية، {مِنَ الرَّهْبِ}، من بعد ما سببت الرهب وهو شعور الخوف من شيء يفوق القدرة على التعامل معه، لأن من يرى ابيضاض اليد سيرتهب، ومن بعد الضمّ تخرج اليدّ كما كانت عادية. إن تحوّل العصا لحيّة شيء له رهبة، وكذلك تحوّل اليد لابيضاض فهو مرهب، فعند رؤية فرعون وملئه لهاتين الآيتين لذا لن يجرؤوا على التعرّض لك بأي سوء.

بالمقارنة بين هذه الآية وبين الآية 22 من سورة طه {وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ...} نفهم أن إدخال اليد في الجيب وضمّ اليد إلى الجناح هما تعبيران لمعنى واحد.

نلاحظ من بقية الأحداث أن السحرة حاولوا تقليد تحوّل العصا لحيّة ولكنهم عجزوا تماما عن تقليد تبييض اليد، ولاحظ كيف تصفها الآية بأن من يراها صارت بيضاء سيرهبها، حيث أنا الآن أستصعب تصوّر ذلك لأني لم أرها، وأقرب شيء لتصوّري كأنها اندهنت بدهان أبيض، ولكن حتما ليس الأمر بهذه السهولة، وعلى ما يبدو أن السحرة تخطّوها وتركوا تقليدها لاستحالته عليهم...

{فَذَانِكَ}، العصا واليد، {بُرْهَانَانِ}، دليلان يثبتان أنك رسول، {مِنْ رَبِّكَ}، من المسؤول عنك من مستوى إلهي، {إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ}، إلى أعلى حاكم في مصر وإلى المشاركين معه في الحكم من الوجهاء والقادة والمستشارين، {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً}، أناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الدين الإلهي، {فَاسِقِينَ}، مخالفين لما هو علنا حقّ وصالح.

نعرف من آيات أخرى أنه سبحانه أرسل موسى(ع) بالآيات إلى فرعون ومن معه، لسببين، الأول والأساسي: حتى يترك فرعون بني إسرائيل يرحلون من مصر. والسبب الثاني: لعلّ فرعون وقومه يهتدون فيؤمنوا.

(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ{33})
موسى(ع) الذي أصبح من هذه اللحظة رسولا، قال:

{رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً}، أنهيت حياة شخص من رجال فرعون، {فَأَخَافُ}، فأشعر بخطر أكيد، {أَنْ يَقْتُلُونِ}، أن ينهوا حياتي ليستردوا ثأرهم. وهذه الحادثة ذكرتها السورة هنا في الآية 15.

إذا ذهبت إلى فرعون لأوصل له كلامك، فإن الجنود سيحتجزونني على الفور، وبعد ذلك سيقتلونني ربما قبل وصولي إلى فرعون لأكلّمه، وحتى لو وصلت إلى فرعون فلن يسمع كلامي وسيأمر بقتلي فورا.

(وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ{34})
وهناك مشكلة ثانية.

{وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً}، هو يتكلّم ويحدّث ويعبّر بشكل جيد أفضل منّي، {فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ}، إلى فرعون وقومه، {رِدْءاً}، يردأ عني كمعين ومساعد لما سألاقيه، {يُصَدِّقُنِي}، يصادق على كلامي فيؤيّد صدق كلامي فيقول مثلما أقول وينشره بين الناس، {إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ}، فأشعر بشيء سيّء أكيد أن لا يصدقوني بأني مرسل من عندك، فإذا كنّا اثنين مرسلين فسيزيد احتمال تصديقهم لنا.

من الآية 13 من سورة الشعراء نرى النبي موسى(ع) يصف نفسه عندما يضيق صدره فيتضايق، بأنه كانت تخونه العبارات ويفقد القدرة على التعبير بشكل صحيح، ولذلك طلب منه سبحانه أن يكون معه أخوه هارون(ع) ليتكلم بدلا عنه عندما يتضايق(ع)، {وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ}، ونجد في الآية 25 من سورة طه وما بعدها تكملة للكلام من طلبه(ع) حلّ هذه المشكلة {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي...}.

(قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ{35})
{قَالَ}، سبحانه لنبيه(ع):

{سَنَشُدُّ عَضُدَكَ}، ما تعتمد عليه لن نتركه رخوا لذا سندعمك، {بِأَخِيكَ}، كما طلبت، {وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً}، فلا يفرضون عليكما أي شيء بالقوة، {فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا}، فلا يطالوكما بأي ضرر أو سوء، ولا يسجنوكما أو يؤذوكما، {أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا}، فمن كان من الناس على ما تقولانه، {الْغَالِبُونَ}، فستكون الكفّة راجحة لمصلحتكم.

نلاحظ من مختلف الآيات التي تحدّثت عن "اقتراحات" النبي موسى(ع) لإنجاح رسالته، "شرح الصدر، فكّ العقدة من لسانه، الدعم بأخيه..." أنها لم تقدّم ولم تؤخّر، فمع تسع آيات عظيمة ولسنين عديدة مرّت لم يؤمن فرعون ولا قومه ولا سمحوا لهما بالخروج ببني إسرائيل من مصر، ولفتت تنبيهات قرآنية لهذا الشيء، فدائما ضع في ذهنك أن الأمر الإلهي

ليس بحاجة لاقتراحات من الآخرين حتى ينجح، والآيات لفرعون وقومه حجّة إلهية عليهم حتى لا يكون لهم حجة عليه تعالى أنهم لم يؤمنوا برسوله لأنهم لم يروا منه دليلا على إلهية مصدر رسالته... وكما ترى بوضوح من القرآن تَقَصَّدَ سبحانه أن يكونوا عبرة لكل من يأتي بعدهم أنه لا حلّ مع هذه النوعية من الناس ولا بأي شكل بالإقناع، حيث جحدوا بالكلام الحقّ الواضح وكفروا بتسع آيات متنوّعة...

إنما استجاب سبحانه لرسوله مرسلا أخاه معه، محقّقا سبحانه له ما طلبه بناء على قناعة رسوله بالطلبات، وكونها لا تتعارض مع الإرادة الإلهية، علما أنها أصلا لن تغيّر مما سيحصل، وترى ذلك في الأحداث التي ستجري حيث لن ترى أثرا فعّالا لتوزير هارون(ع) إلا الراحة النفسية به عند الرسول موسى(ع)، وفي حالة عبادة بني إسرائيل للعجل سترى فرقا هائلا بين شخصية النبي موسى(ع) كشخص فرد واحد غيّر الحالة التي لم يستطع النبي هارون(ع) التعامل معها...

(فَلَمَّا جَاءهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ{36})
... ذهب الرسولان إلى فرعون... وجرى حديث نقلته آيات متفرّقة من القرآن...

{فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا}، عندما حضر عندهم (ع) بالأمور المميّزة المنسوبة له تعالى، {بَيِّنَاتٍ}، واضحاتٍ لا شك في صحتها، جاءهم بالأدلّة "تحوّل العصا لحيّةٍ واليد لبياضٍ" التي تدل أنه سبحانه أرسله. قال فرعون وقومه: {مَا هَذَا} "الذي تفعله" {إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى}، هذه أعمال ليست حقيقية بل خدعة تجعلنا نتوهّم أمورًا غير حقيقية، تفتري وتلصق نفسك بالإله كرسول بينما الحقيقة غير ذلك.

{وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا}، بأن الربّ يرسل لنا رسلًا، {فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ}، في الذين كانوا قبلنا.

نعلم من التاريخ ومن أمور ذكرتها آيات أخرى بأنهم كاذبون، لأنهم سمعوا بالرسل من ربهم من قبل، وعلى الأقل عندما كان الرسول يوسف(ع) يعيش في مصر، وذكّرهم المؤمن من آل فرعون بذلك...

كذبهم بأنهم لم يسمعوا بهذا من قبل هو نفس حالة كذب قوم النبي نوح(ع) والذي نقلته الآية 24 من سورة المؤمنون {فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ}.

ضع في بالك دائمًا أن السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شيئًا غير حقيقي أنه حقيقي. فالساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد بأنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع أنها لم تختفِ، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر والذي تراه صريحًا في الآية 66 من سورة طه {قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}. وما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، فهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية أنها سحر، فهذا كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

(وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاء بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ{37})
قال لهم النبي موسى، ردًّا على اتهامه بالافتراء بالسحر مدّعيًا أنه رسول منه سبحانه، قال ما ملخّصه:

{رَبِّي}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {أَعْلَمُ}، فلا يخفى عليه، {بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى}، بالأشياء الصحيحة التي توصل لغايات صحيحة، {مِنْ عِنْدِهِ}، أنا أقول لكم بأني رسول من عنده لكم، وربي يراني ويسمعني، وهو يعلم إن كنت صادقًا، فلا يهمني ما تقولونه عني.

وربي أعلم بـ {مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ}، ما يعقب ما يأتي كخاتمة ونهاية، {الدَّارِ}، وطبعًا المقصود الجنة التي هي من ديار الآخرة حيث تدور فيها شؤون الحياة، ومقابلها هناك ديار النار.

{إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ}، لا يوصف بأنه فالح، لم يكن مجيدًا في عمله، {الظَّالِمُونَ}، الذين لم يكن معهم حقّ، فمهما نجحوا هنا في الدنيا في السلطة أو الثروة... ففي الآخرة وبسبب كفرهم وسوئهم الذي لم يكن معهم حقٌّ فيه فسيدخلون إلى النار.

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ{38})

{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ}، يا أيها الوجهاء والوزراء والقادة، {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}، أنا الكائن الفائق القدرات والصفات بشكل واضح، وأوامري وحدها التي تسري هنا، وكلنا نعلم هذا، فإن كان يوجد إله آخر حقًّا، فلا بدّ أن يكون في السماء، {فَأَوْقِدْ لِي}، أشعل النار من الوقود، فلتكن نارًا مستمرّةً، {يَا هَامَانُ}، وهذا اسم وزيره الأول كما يبدو واضحًا، {عَلَى الطِّينِ}، على التراب المعجون بالماء، وابدأ بصنع الطوب القاسية، حتى تكون حجارة من طين، {فَاجْعَلْ لِي}، اصنع لي، {صَرْحًا}، بناءً ضخمًا، وسياق الكلام يشير لطلبه ببناء برج طويل من تلك الحجارة الطوبية، وسوف أصعد على الصرح، {لَعَلِّي}، من المفروض ومن المتوقّع أن، {أَطَّلِعُ}، أن يصير عندي اطلاع، فأرى ما هو مخفي ومستور، {إِلَى إِلَهِ مُوسَى}، أبحث عن الكائن الموصوف بالقدرات والصفات الفائقة الذي يقول عنه موسى، لأراه وأتعرّف عليه، {وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ}، موسى، {مِنَ الْكَاذِبِينَ}، فلن أجد إلهه هناك.

نلاحظ الجو المسرحي للحادثة، حيث يطلب فرعون بناء الصرح أمام الوجهاء كعرض مسرحي ليريهم أنه يتعامل بعقلانية وبرهان مع كلام موسى(ع) وأنه لن يجد إله موسى(ع) في السماء. ولم يعلّق القرآن أي تعليق آخر عن هذا الصرح، لأنه طرح سخيف، ولا معنى له سوى استعراض القدرة التي يظنها فرعون هائلة في فن العمارة، وفي القدرة على بناء الأبنية الشاهقة، "بسبب اختراع الآجر: طوب مجفف بالنار"، وننتبه، في لحظة النقاش، كان هذا الاقتراح وبشكل ما سيبدو عقلانيًّا، ولكن بعد إعادة التفكير بهدوء، من الواضح سخافة بناء برج طويل للوصول إلى الرب في السماء، لأن أصغر جبل سيكون ارتفاعه أعلى من أي برج يمكنهم بناؤه! وتبجّح فرعون بالقدرة على بناء صرح شاهق هو كلام مسرحي سخيف!

السورة كما لاحظنا، اختصرت قصة لقاء الرسولين مع فرعون، وركزت على أهم تصريح صدر من فرعون، وهو قوله عن نفسه أنه إله، وأنه لا يعتقد بوجود إله موسى(ع)... وركّزت على سخافة ردّ فرعون باقتراحه بناء الصرح.

نجد في سورة غافر كلامًا عن شخص مؤمن بموسى(ع) من آل فرعون، قام بوعظ فرعون وقومه... وكان كلامه قويًّا مقنعًا، ولكنهم لم يستجيبوا!... وبعدها اقترح فرعون على هامان بناء صرح...

بقي شيء، هل نحتمل أنه بنى الأهرامات لهذا السبب؟ وقبل ذلك نسأل إن كان فعلًا ذهب هذا الاقتراح إلى التنفيذ أم بقي اقتراحًا استعراضيًّا؟ حاليًّا معلوماتنا تفيد بأن بناء المسلّات "العامود الضخم المنفرد لوحده" كان دارجًا عند عامّة الوثنيين لعبادة الشمس، لذلك نستبعد كون المسلّات المصرية بنيت لغرض اطّلاع فرعون على إله موسى(ع)، لأن طولها نسبيًّا قصير جدًّا أمام أصغر التلال... وليس لها درج للصعود إلى قمّتها... والأهرامات الصغيرة بنيت كقبور للفراعنة والملوك كما يقولون، وفرضًا صدق تقديرنا لكون الفرعون خوفو هو المعاصر للنبي موسى(ع) فأهرامات الجيزة المنسوبة لخوفو ستكون المرشحة لهذه الحادثة، وأقول مرشّحة ولا أجزم لأن بناء الأهرامات في مصر وغيرها من الأماكن حول العالم أقدم تاريخيًّا من أهرامات الجيزة فما سبب بناء تلك الأهرامات السابقة على أهرامات الجيزة؟ طبعًا ليس للاطلاع على إله موسى(ع)، ولأن دراستي المرجّحة لكون الفرعون خوفو مع أنها قوية ولكني لا يحقّ لي الجزم بها...

صناعة الطوب شيء مميّز في التاريخ البشري، وكلام فرعون يشير إلى هذا الاختراع الذي يسهّل عملية بناء مبانٍ مرتفعة في وقت قصير، وأنسب شيء هو بناء برج بدرج دائري، وكل هذا الكلام مجرد تحليلات واحتمالات، وربما أصلًا بقي الاقتراح استعراضيًّا ولم يتنفّذ، وهو الأرجح عندي.

بالنسبة لاسم "هامان" راجع ما ورد سابقًا في هذه السورة تحت الآية 6.

(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ{39})

قرأنا في الآية السابقة كيف اعتبر فرعون نفسه إلهًا، وأذعن من حوله بذلك ولم يعترضوا! وهذه مشكلة كبيرة، وهناك مشكلة ثانية:

{وَاسْتَكْبَرَ}، رأى نفسه أكبر من أي شيء آخر، أكبر من إطاعة أي أحد حتى لو كان الإله أو رسوله، وأكبر من الحق، وأكبر من العدل، وما يفعله هو الصواب! {هُوَ وَجُنُودُهُ}، فرعون والملتزمون بتنفيذ أوامره استكبروا، {فِي الْأَرْضِ}، حيث رأوا البقية أصغر منهم، واحتلوا المدن والبلدان، واستضعفوا أهلها، ومنعوهم من ممارسة دينهم، وفرضوا عليهم الضرائب... وكل ذلك الاستكبار كان، {بِغَيْرِ الْحَقِّ}، لأنه لم يكن معهم حقٌّ، بل عن باطل وتعدٍّ واستكبار...

{وَظَنُّوا}، اعتقد فرعون وجنوده بناءً على أساس غير صحيح، {أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ}، بعد الموت اعتقدوا أنهم ليسوا ذاهبين إليه تعالى ليحاسبهم ويجازيهم، ولذلك كفروا واستكبروا.

نلاحظ أنه بكلمات موجزة أرتنا الآيات الذنبين الكبيرين اللذين لا يوجد أكبر منهما، وهما: الكفر بالله تعالى، وظلم الناس. وارتكبهما كليهما فرعون وجنوده.

يبدو من آثار الفراعنة أنهم "أو البعض منهم" كانوا يؤمنون بحياة بعد الموت، ولكنها حياة هم اخترعوها على خاطرهم، ومن دون أي دليل، ولا تشابه أبدًا بين ما اخترعوه بعد الموت مع ما سيحصل فعلًا، إلا في نقطة واحدة وحيدة فقط: هناك "بشكل ما" حياة بعد الموت. وبحسب دراسات علماء الآثار كانوا يصفونها بعالم الأشباح أو الأرواح، ولا علاقة لها بيوم القيامة في الآخرة والحساب الإلهي والجنّة والنار... وهنا عندما تقول الآية أنهم ظنوا أنهم لا يرجعون إلى ربّهم سبحانه، فهم فعلًا كذلك لأنهم لم يكونوا يعتقدون بوقوفهم أمامه تعالى ليحاسبهم ويجازيهم على الكفر والظلم...

لو أطلت عليك، هناك وهناك في كتب جامعية ودراسات... ترى الكثيرين يحيلون عقائد دينه تعالى على الاشتقاق من عقائد الأمم المشركة، على أساس أن الأصل هو اختراع الناس لعقيدة الآلهة المتعددة وما يليها من اعتقادات عن نشأة الكون والآخرة، وما يتبع ذلك من طقوس عبادية، وما ينتج عنه من شرائع... وأن دين التوحيد جاء كتطوير لتلك الأفكار... وهذه الخزعبلات التافهة مردودة بأقل تأمّل في التاريخ، لأن القرآن نبّهنا مرارًا وتكرارًا بأنه سبحانه من أوّل ما تأهّل بشري لتلقّي التكاليف الإلهية، سبحانه كلّفه، وهذا الكلام عن آدم(ع)، منذ آلاف السنين بدأ سبحانه بتكليف البشرية، وتواصل سبحانه مع العديدين من الناس وأوصل إليهم الأنباء منه سبحانه وصاروا يسمّون بالأنبياء، وكلّهم نقلوا كلامًا واحدًا متطابقًا عن العقيدة التي سنُحاسَب عليها في الآخرة إن لم نؤمن بها...

بناءً عليه، الأصل هو العقيدة والشريعة التي وصلتنا من الأنبياء، وما فعله المشركون من تحويرات عليها فهي الاختراع.

بناءً عليه، نسأل عمّن هو أقدم من الآخر، هل النبي إبراهيم(ع) أقدم أم الفرعون خوفو؟ وقبل ذلك نسأل من أقدم النبي نوح(ع) أم القوم الذين ولد النبي إبراهيم(ع) بينهم؟ وقبل ذلك نسأل، من أقدم من آدم(ع) في مقابل أي دين له تاريخ؟

نعم، في تاريخ البشرية من أولها حصل خلط بين ما زرعه تعالى فينا من الانتباه لقدرة فائقة خلقتنا وخلقت ما حولنا لنتعرّف عليه، وبين اختراع الناس لآلهة من خيالهم رافضين الإيمان بالأنبياء الذين يعرضون عليهم عقيدة توحيده تعالى والآخرة، ويعرض الأنبياء شريعة يرفض الالتزام بها المجرمون والظالمون والمعتدون وعبّاد الهوى...

هنا في مقارنة تاريخية من آثار الفراعنة مع دينه تعالى، ترى أنهم كان لديهم تفاصيل كثيرة عن الحياة بعد الموت، ومع تشابهات قليلة جدًّا ونادرة بينها وبين ما جاء به الأنبياء عبر التاريخ، وترى أنهم هم حوّروا ما سمعوه من رسله تعالى وتلاعبوا به ليكون عقيدة تناسب مزاجهم، بأبسط تأمل ترى الفرق بين عقلانية ورزانة كلامه تعالى عن الآخرة حيث الحساب والجزاء على الأعمال الحسنة والسيئة والتي يمكننا نحن بكل بساطة رؤيتها حسنة أو سيئة، والتي على أساسها ندخل النار أو الجنّة، وبين وضع عملتين ذهبيتين على عيني الميّت كأجار طريق يدفعها الميّت لسائق المركب لينقله إلى عالم ما بعد الموت... وأنه من تحنّط وتكفّن ووضعوا في قبره مالًا، فهذا سينتقل إلى عالم الآخرة ليعيش سعيدًا، ومن مات بلا تحنيط ولا مال في قبره فهذا راحت عليه وتاه في عالم الظلمات...

نعم وبكل أسف، أدخل المتديّنون بدينه تعالى من ثقافة المشركين إلى تقاليدنا، وصرنا نعتبرها دينية! ولن ترى منها ولا حتى رائحة في كلامه تعالى في هذا القرآن، كالكلام عن روح الميّت التي تتعذّب بسبب معاناة أحبائها الأحياء... وعن

زيارة الميّت لأهله في منامهم أو شخصيًّا في بيوتهم... وكذكرى الأربعين للميّت التي دخلت فعلًا من المشركين الذين كان يستغرقهم تحنيط ميّتهم قرابة الأربعين يومًا... وغيرها الكثير من العادات والمعتقدات التي ما أنزل تعالى بها من سلطان، وهي الحجّة لبعض الكافرين على المتدينين بأننا استوردنا عقائدنا وثقافتنا من المشركين.

"الظنّ" هو اعتقادك بشيء ما مستندًا إلى شيء ما، فإن كان ما تستند عليه صحيحًا كان ظنّك صحيحًا، وهذه حالة المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم سبحانه كما ورد في الآية 46 من سورة البقرة {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، فهم مستندون في ظنّهم على آياته وكلامه تعالى. وإن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران {... وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ...}، استنادًا للحالة الحرجة التي كانوا فيها ظنّوا أنه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء. وبين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند عليها ولكنه ليس مقتنعًا بها، حيث لا تزال الأمور عنده مرجّحة لاحتمالات أخرى، فهذا ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}، هم يريدون أن يلمسوا مباشرةً حصول ساعة قيامهم من الموت حتى يعتقدوا بها ولا يكفيهم الاستناد إلى معلومات تدلّ عليها، فيريدون اليقين بها عيانًا حتى يؤمنوا. وهذه الحالة قريبة جدًّا من الاصطلاح "في علم المنطق" والدارج لمعنى كلمة ظنّ على معنى وجود عدة احتمالات. ها صرت تعلم المعنى اللغوي الأساسي لكلمة "ظنّ" فانتبه للفرق بينه وبين المعنى الاصطلاحي حتى لا تفسّر القرآن على أساس المعنى الاصطلاحي.

لنعد للسورة ونتذكّر بدايتها التي افتتحت بقولها عن فرعون أنه استكبر وعن المستضعفين والنصر الإلهي الذي سيكون بجانبهم.

(فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ{40})

{فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ}، العظمة التي كان يشعر بها فرعون نابعة من وجود جنود وهم ملتزمون تمامًا بتنفيذ أوامره، حيث تناولهم سبحانه ولم يتركهم، {فَنَبَذْنَاهُمْ}، طرحهم سبحانه وتركهم، {فِي الْيَمِّ}، في الماء، ومعلوم أنهم ماتوا غرقًا بإطباق البحر عليهم، {فَانْظُرْ}، من بعد هذا الخبر عن غرقهم وجّه اهتمامك العام، {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ}، ما عقب وكان خاتمة ونهاية، {الظَّالِمِينَ}، الذين لم يكونوا عادلين منصفين، فلم يكن معهم حقٌّ حين كفروا بآيات ربهم سبحانه وبرسوله (ع).

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ{41})

{وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً}، صار فرعون وجنوده مرجعًا أساسيًّا يتبعهم الآخرون، {يَدْعُونَ} الناس {إِلَى النَّارِ}، وقارنها مع أئمة الهدى الذين يدعون الناس إلى الجنّة.

{وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ}، يوم يقومون من الموت في الآخرة، {لَا يُنْصَرُونَ}، لن يجدوا من يحقّق لهم ما يريدونه، ولن ينصرهم أحد. ومن مجمل ما ورد في القرآن نفهم عمومية التعبير من جملة "لا ينصرون"، فلن ينصرهم أحد، ولن ينصروا بعضهم بعضًا، فلا فرعون وجنوده ينصرون أنفسهم ولا ينصرون غيرهم ولن ينصرهم الناس... والكلّ سيتم رميهم في النار ولن يستطيعوا فعل أي شيء.

تذكّر بداية السورة حين قالت أنّه تعالى يريد جعل المستضعفين "المؤمنين" أئمّة.

(وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ{42})

{وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً}، وهذا وصف حالة اتّباع فرعون وجنوده لبني إسرائيل حين دخلوا خلفهم في الطرقات المائية، فأتبعهم تعالى لعنته، واللعنة عمليًّا هي رفعه سبحانه الرحمة عنهم فأطبق البحر عليهم، فهذا آخر ما حصل معهم في الدنيا قبل موتهم.

{وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ}، وفي زمن القيام من الموت، فرعون وجنوده، {مِنَ الْمَقْبُوحِينَ}، فكل شيء له علاقة بهم فهو قبيح وليس فيه أي شيء جميل جيد، فشكلهم قبيح كريه، ومنظرهم قبيح، وهم مكروهون، ومكانهم قبيح، ونهايتهم قبيحة... تذكّر بداية السورة التي تحدّثت عن جعل المستضعفين وارثين.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ{43})
{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى}(ع) {الْكِتَابَ}، من المعروف أنه تعالى أعطاه التوراة، {مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا}، استنفدنا حياة، أمتنا، {الْقُرُونَ الْأُولَى}، من بعدما أمات تعالى الناس الأولى الذين كانوا قبله (ع) مقرونين مع بعض فيعيشون مع بعض في زمن واحد.

والكتاب الذي أعطاه سبحانه لموسى(ع) هو، {بَصَائِرَ لِلنَّاسِ}، فيجعلهم يفهمون الصورة الصحيحة، فتجعل وعيهم يدرك معنى الصورة الصحيحة، والكتاب أيضًا هو، {هُدًى}، ففيه الأشياء الصحيحة التي توصل لغايات صحيحة، وهي نفسها التي توصلهم لرضاه سبحانه عليهم وتوصلهم للجنة، والكتاب أيضًا هو، {رَحْمَةً}، عناية إلهية لمصلحة الناس، فلولا عنايته تعالى بهم لما كان أنزل لهم الكتاب ليهتدوا، {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}، فمن المتوقّع ومن المفروض منهم أن يستحضروه سبحانه في فكرهم ومشاعرهم وعملهم.

أقل ما يمكن اعتباره رحمة من نزول الكتاب الإلهي لنا هو تشريعاته العادلة بيننا التي تعطي لكل واحد منّا حقّه، والتي تنظّم حياتنا الاجتماعية، فتمنع الكذب والسرقة وشهادة الزور و... ونفهم من الكتاب الإلهي الغاية والنهاية لنا لخلقنا، وأولًا وقبل أي شيء آخر نجد في الكتاب تعريفًا بإلهنا الحقيقي وردودًا على الشكوك التي تساورنا بسبب سوء ما في قلبنا...

يمكنك إضافة ما نقرأه من كلام المؤمنين من الدرجة العالية عن تعريفهم عبر كتابه تعالى بمحبوبهم، وهذا ما نجده في القرآن من توصيفه تعالى لهذه النوعية من الناس الذين يعيشون حالة الحب لله تعالى وتقديره حقّ قدره، والخلّة، والتفكير في بدائع صنعه... وهذه أمور أكبر من قياسي لأقتحمها، مع أننا أحيانًا نمرّ في فترات نفسية بدرجة خفيفة من هذه الحالات، فنشعر به تعالى بشدّة معينًا لنا، منقذًا، رازقًا...

ما يسمى اليوم بالتوراة هو مجموعة كتب، ومن ضمنها كتاب التوراة الذي نزل على النبي موسى(ع)، وكتب منسوبة لبعض الأنبياء، وكتب قصص عن تاريخ اليهود كتبها علماء اليهود...

(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ{44})
{وَمَا كُنْتَ}، أيها النبي محمد(ع) وأيها القارئ للقرآن، {بِجَانِبِ}، بالقرب من جهة من المكان، {الْغَرْبِيِّ}، ومن مجمل القرآن نعلم أن المقصود هو الجبل لجهة الغرب "جهة نزول الشمس خلف الأفق" والمشهور أنه من سلسلة جبال سيناء، حيث أنزل سبحانه كتاب التوراة على نبيه موسى(ع)، وهناك بجانب الغربي، {إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى}(ع) {الْأَمْرَ}، حين أنهى سبحانه ما قرّره من أمر "من موضوع ومسألة" الشريعة إلى النبي موسى(ع)، فأعطاه سبحانه الآيات والأحكام التي قرّرها سبحانه للناس، فلم تكن بشخصك هناك، {وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ}، ولا بأي طريقة لم تلمس بحواسّك ما حصل معه، فلم تَرَ ولم تسمع ما حدث أثناء نزول التوراة، ولنقل مثلًا أنّه حتى من بعيد لم يكن النبي محمّد(ع) يشاهد ما حصل.

يعني لا بشخصك كنت هناك ولا بطريقة أخرى كنت تشهد ما جرى هناك، ونفهمها بشكل بسيط حاليًّا بكاميرات موضوعة هناك وأنا أشاهد ما يحدث من بعيد. طبعًا لم تقصد الآية خصوص هذا المعنى بل عموم أي طريقة ممكنة ليشهد النبي محمد(ع) ما حصل هناك من دون أن يكون بجسده هناك.

سنرى في نهاية الفقرة إشارة بأنه سبحانه أخبر نبيّه(ع) بهذه القصص التي لم يكن يعرف عنها أي شيء، وذلك حتى يخبرها للناس عبر هذا القرآن ليؤمنوا بربهم سبحانه...

بالنسبة للوصف بالغربي، فهذا تعبير شائع منذ القدم ويصير كالاسم في المناطق التي فيها تضاريس، كسلسلة جبال لبنان، فقسم منها شرقي، وقسم غربي. في المنطقة التي نزلت فيها التوراة هناك جبل ما لجهة الغرب، وفي الجهة الغربية حصلت الحادثة. وهنا كما ترى لا أهمية للتسمية، لأن الآية تريد القول: لم تكن هناك في المكان شاهدًا حين نزلت التوراة. وبدل كلمة "مكان" استعملت وصف الجبل "الغربي".

(وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ{45})
{وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا}، كَوَّنَ سبحانه من الناس أناسا آخرين مقرونين مجموعين مع بعض في الزمان، وخلق سبحانه الكثير من المجتمعات البشرية التي كان بينها فواصل زمنية، {فَتَطَاوَلَ}، طال وامتد، {عَلَيْهِمُ}، على الناس، {الْعُمُرُ}، المدّة التي عاشوها.

من بعد نزول التوراة مرّ وقت طويل جدًا، وماتت أجيال كثيرة من الناس، وصارت التوراة التي أنزلها سبحانه غير معترف بها ككتاب إلهي عند الكثير من الناس بسبب البعد التاريخي بين نزولها وبين ولادتهم.

{وَمَا كُنتَ}، أيها النبي محمد(ع)، {ثَاوِيًا}، مقيما "كضيف" في مكان لا تملكه، {فِي أَهْلِ مَدْيَنَ}، في الناس المنتمين لقرية مدين، {تَتْلُو}، تقرأ عن مستند مكتوب أو مسموع، {عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا}، الأمور المميزة المنسوبة له تعالى، {وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ}، أرسلنا الشابّ موسى (ع) لينقل كلامنا إلى مدين.

تذكّر تدخّله تعالى في مجريات أحداث حياة النبي موسى(ع) منذ طفولته، وهنا الكلام عن وصوله (ع) إلى مدين بقرار إلهي، ولم يكن نبيا حينها ولا رسولا موظفا بتعيين منه تعالى، وصار الشابّ موسى في مدين "ثاويا" مقيما في مكان لا يملكه، وخلال السنين التي قضاها بينهم صار ينقل للناس ما يعرفه عن دين أجداده، وأول ما يخطر ببالنا أنه حدّثهم عن النبي يوسف(ع) وعن بقية أجداده الأنبياء كيعقوب وإسحاق وإسماعيل وإبراهيم... عليهم السلام، ويخطر ببالنا أنه كان يحفظ من صحفٍ لأجداده التي نعرف منها صحف النبي إبراهيم(ع) التي أخبرتنا عنها الآية 19 من سورة الأعلى {صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}، حيث إن الآية تشير للشاب موسى(ع) وقبل مروره بسيناء ونزول الوحي عليه كان يعمل على نقل معلوماته الدينية للآخرين، حيث كان مؤمنا ثاويا في مدين، كرسول من دون أن يعلم بأنه تعالى أجرى الأحداث ليوصله إلى هناك ليقوم بتكليفه كمؤمن ناقل لأهل مدين ما يعلمه عن دينه تعالى. لأنه سبحانه أوصله إلى مدين وهو يعلم بأن موسى (ع) سيقوم بدور الرسول حيث سينقل لأهل مدين ما يعرفه عن دينه تعالى. ومن الآية التالية سترى أنه بعد ذلك قام سبحانه بتوظيف وتعيين موسى (ع) كرسول، بينما كان من قبل في مدين يقوم بمهام الرسول كناقل لكلامه تعالى بما يحمله من تكليفه كمؤمن من دون تعيين رسمي منه تعالى.

الآية لا تشير إلى أحد آخر كان في مدين، لا للشيخ حميه "والد زوجته"، ولا للنبي شعيب(ع)، لأن هؤلاء ليسوا موصوفين بِالثَّوَى في مدين لأنهم من أهلها، ومن الواضح من الآية التالية أن الكلام هنا عن موسى(ع).

بالنسبة لكلمة "ثَوَى، مَثْوَى" دَرَجَ أن نقول عن بعضنا ولبعضنا: مثواه الجنّة، وجعل تعالى مثواك الجنّة. ولكن من استعمال القرآن لكلمة "مَثْوَى" نعلم أن معناها: إقامة شخص في مكان لا يملكه وليس له، كالضيف، كالنبي يوسف(ع) في قصر العزيز كما ورد في الآية 21 من سورة يوسف {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ...}، وكأهل النار في النار، كما ورد مرارًا ومنه ما ورد في الآية 12 من سورة محمّد {... وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ}، حيث إن أهل الجنّة يرثون الجنّة فيملكونها كما ورد مرارًا ومنه الآية 85 من سورة الشعراء {وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ}، لذا لا يصحّ وصف من في الجنّة بأنه ثَاوٍ فيها، ولم يرد وصف كهذا أبدًا في القرآن، وأمّا أهل النار فثاوون فيها لأنها ليست ملكًا لهم، كالسجين المحكوم مؤبّدًا، فهو لا يملك السجن وليس وارثًا له بل ثَاوٍ فيه.

(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ{46})
{وَمَا كُنتَ}، أيها النبي محمد(ع)، {بِجَانِبِ الطُّورِ}، قريبا من جهة الجبل، {إِذْ نَادَيْنَا}، حين وجّهنا كلامنا، وسياق الكلام عن كلامه تعالى مع موسى(ع)، {وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ}، بسبب عناية المسؤول عنك من مستوى إلهي بما فيه مصلحة الناس أخبرناك بما حصل عند ذلك الجبل عندما كلّمنا عبدنا موسى(ع) وعيّناه بشكل رسمي كرسول، {لِتُنذِرَ}،

لتنقل الخبر عن شيء سيّء قادم حتمًا بسبب توافر شروطه، {قَوْمًا}، أناسا لهم كيان الجماعة، {مَّا أَتَاهُم}، لم يأت إليهم، {مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ}، حيث لم يأتهم قبلك شخص ينقل لهم الخبر السيّء الحتمي عن العقاب في الآخرة بسبب توافر شروط حصول العقاب لهم، ومن قبلك لم يأتهم أحد، لأنك أول شخص ينذر المعاصرين لك، وسبب إخبارنا لك بهذه القصص حتى تنقلها للناس، {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}، حيث إنه من المتوقّع منهم ومن المفروض أن يستحضروا ربّهم سبحانه في فكرهم ومشاعرهم وعملهم.

هذه الأخبار عن العناية الإلهية بعبده موسى(ع)، والعناية بالمؤمنين، والآيات، والكلام الإلهي، والكتاب الإلهي... تشير للامتداد التاريخي العميق للدين الذي تنقله أنت أيها الرسول محمّد(ع)، ومن المفروض ومن المتوقّع أن تجعل من يسمعها يستحضر كلامه تعالى في فكره ومشاعره وعمله فيؤمن ويطيع.

ننتبه دائمًا، الرسالة الإلهية عالمية ولكل العصور أيًّا كان حاملها، فلا يوجد نبي أو رسول لقوم مخصصين دون قوم آخرين، ولكن يوجد نبي أو رسول لم يأته أمر بالتوسّع بالإنذار والتحذير خارج نطاق محيطه الضيّق بسبب قدراته وبحسب الظروف التي يمرّ بها.

من الواضح أن ما مرّ في هذه السورة من تفاصيل عن حياة الرسول موسى(ع)، لم تكن معلومة عند النبي محمّد(ع)، حيث إن السورة تنقل الأحداث سردًا وتعليقًا ممن يعلم الغيب، من شاهد، وهو سبحانه، وهذا يدل على أن هذا القرآن من مصدر إلهي، وتدخّله سبحانه في مجريات هذه الأحداث حتى يصل الشاب موسى إلى مدين ويعمل كناقل لما يعرفه من دين أجداده الرسل، وذلك من قبل تعيينه تعالى له رسميًا كرسول، وبعدها وبجانب الطور عيّنه سبحانه كرسول، وها أنت يا محمّد(ع) مثل موسى(ع) نذير لقومك ورسول معيّن منه تعالى، وتكملة الكلام في الآيات التالية:

قبل أن نكمل، بضمّ الآية 6 من سورة يس {لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ}، نجد أن جيلًا أو جيلين أو أكثر من قبل زمن النبي محمّد(ع) مرّت بلا نذير، وبضمّ الآية 24 من سورة فاطر {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} نفهم أنه من الطبيعي مرور زمن على قوم ما بلا نذير، ولكن أي أمّة كانت حتمًا سيمرّ في تاريخها نذير، ولمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 47 من سورة يونس {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}.

(وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{47})

{وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ}، ما قَدَّمَتْهُ أيدي قومك أيها الرسول محمّد(ع) لأنفسهم، حيث ما فعلوه هم بأنفسهم وإرادتهم من سوء فهم يستحقون عليه أن تُصِيبَهُمْ {مُصِيبَةٌ}، وسياق الكلام عن مصاب سيّء يحصل معهم، لأنهم لحدّ الآن لم يصبهم شيء سيّء يستحقونه على كفرهم، فلو أصابهم، تَقَعُ عليهم كارثة هنا في الدنيا، كزلزال أو بركان أو فيضان أو مرض أو حرب... فلو وقعت عليهم مصيبة وماتوا، عِنْدَمَا يَقُومُونَ للحساب في يوم القيامة، {فَيَقُولُوا رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا}، شَخْصًا مُكَلَّفًا منك يخبرنا بما يجب علينا، {فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ}، نَكُونَ على هدى الأمور المميّزة المنسوبة لك، وَنَلْتَزِمَ بالأمور الْحَقِّ والصالحة التي ترسلها لنا مع رسولك، {وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، نكون من المعتقدين الملتزمين بدينك من توحيد وآخرة و... فلماذا عذّبتنا والآن تحاسبنا ولم ترسل لنا رَسُولًا ينذرنا؟ فلو أرسلت لنا رَسُولًا لكنّا مؤمنين.

كما ترى، ما سبق من كلام عن موسى الشاب الذي أرسله تعالى إلى مدين يتلو الآيات ولم يكن مُبَلَّغًا بتعيينه لهذه الوظيفة منه تعالى، وفيما بعد تبلّغ بتكليفه رَسْمِيًّا ومباشرة منه تعالى ليكون رَسُولًا، وبتسع آيات ذهب إلى فرعون، ولم يؤمن فرعون، وبعدها نزلت عليه التوراة وانتشرت بين الناس، وأكثر الناس لم يؤمنوا، والنموذج أهل مكّة الَّذِينَ تتحدّث معهم وعنهم الآيات هنا، حيث طال عليهم الأمد بينهم وبين التوراة فلم يؤمنوا بها، وها أنت يا محمد مُبَلَّغٌ منه تعالى لتكون رَسُولًا ومعك هذا القرآن كرسالة منه تعالى، وها قومك الذين يستحقون العقاب بسبب كفرهم وسوء عملهم، لم يؤمنوا، فلو عذّبهم تعالى من دون أن يصلهم رسول، لقالوا: لولا أرسلت إلينا رَسُولًا... وها أَرْسَلَ سبحانه لهم رَسُولًا ولم يؤمنوا به!

سبحانه لن ينزّل مصيبة على أحد من الناس بسبب ذنوبه إلا من بعد إنذاره، وهذا واضح جِدًّا من الآية 208 من سورة الشعراء: {وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ}.

بعبارة أخرى تقول الآية هنا: لو لم نرسل رَسُولًا ينذرهم، ونزل العذاب عليهم في الدنيا وماتوا، لكان معهم حق أن يعترضوا على إماتتهم بتدخّل إلهي مباشر، ولاعترضوا وقالوا: لو بعثت لنا رَسُولًا ينذرنا لكنّا من المؤمنين، ولكنك أَمَتَّنَا من دون أن تنذرنا فلم تعطنا فرصة لنعلم ونتأكّد بأنك تحاسب وتجازي، فكيف عاقبتنا وأمتنا، وكيف ستدخلنا إلى النار؟ فهذا ما تقصده الآية هنا ولكنها صاغته بطريقة تدل على أنه تعالى لا يفعل ذلك أَصْلًا، ولأجل ذلك أَرْسَلَ سبحانه فِعْلًا لهم رَسُولًا وهو أنت أيها الرسول محمّد(ع).

(فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ{48})
{فَلَمَّا جَاءَهُمُ}، عندما جاء لقومك، {الْحَقُّ}، الصواب الصحيح، {مِنْ عِندِنَا}، أرسلناك أنت لتنذرهم بكلام واضح جدًا يبيّن السوء في عقيدتهم وشريعتهم وسلوكياتهم، فهل آمنوا؟ لا، بل، {قَالُوا}: {لَوْلَا}، هذا الرسول، {أُوتِيَ مَا أُوتِيَ مُوسَى}، سمعنا أن موسى ادّعى أنه رسول مثلك يا محمّد، ولكن سمعنا أنه فعل الكثير من الأشياء التي تدل فعلًا على أنه رسول من الإله، لو تفعل مثلما فعل حتى نؤمن بك.

{أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ}؟ قبل أن تأتي إليهم أيها الرسول محمّد(ع) هل كان قومك مؤمنين بالرسول موسى(ع)؟! لا، فهم أنكروه وأنكروا دينه والكتاب الذي نزل عليه وكذّبوا بالآيات وقالوا عنها أساطير... وأشركوا، فما معنى قولهم لك أنهم كانوا سيؤمنون بك لو فعلت ما فعله موسى(ع) وهم أصلًا لم يؤمنوا بموسى(ع)!

قال الكفّار: {سِحْرَانِ}، ما صدر عن "موسى ومحمّد" هو سحر لأنه خدعة تجعلنا نتوهم شيئًا غير حقيقي، وليس آيات ربانية حقيقية، فتحويل العصا لحيّة وابيضاض اليد... قال الكافرون قديمًا عنها إنها سحر، ومن أتى بعدهم من كفّار قالوا إنها سحر، وعندما وصل الخبر لقوم النبي محمّد(ع) أيضًا قالوا إِنَّهُ إمّا أساطير كقصص خرافية، أو حقيقية ولكنها أخبار عن ساحر ماهر... والرسول محمّد(ع) قالوا عن كلامه بالقرآن إنه أيضًا سحر يجعل من يسمعه يتوهّم أمورًا غير حقيقية، فالحقيقة هي دين الشرك وآلهتهم وثقافتهم... وكلام محمّد مجرد سحر يسحرنا فيجعلنا ننخدع لنرى ديننا غير صحيح... {تَظَاهَرَا}، تعاون موسى ومحمّد تاريخيًا على اختراع الخدع السحرية، حيث اخترع موسى تحويل العصا لحيّة... واخترع التوراة واستعان بها محمد ليخترع القرآن معتمدًا ومستعينًا بالسحر الذي فعله موسى من قبل ليدعم به ما يقوله على أساس أنه امتداد تاريخي لسلسلة رسل من نفس الإله، لذا نسب محمّد نفسه كرسول للإله، ويحاول إقناعنا بذلك مستعينا بموسى الذي سبقه وقال إنه رسول من نفس الإله وحاملًا لنفس الدين...

{وَقَالُوا}، الكفّار: {إِنَّا}، نحن، {بِكُلٍّ كَافِرُونَ}، نُنْكِرُ أنهما رسولان، ولن نؤمن لا لموسى ولا لمحمّد.

كما ترى، الكلام الذي يرمونه كعذر جعلهم لا يؤمنون بالرسول محمّد(ع)، وهم فعلًا لا يقصدون من هذا الكلام أي شيء عقلاني، بل مجرد صفصفة كلام وفزلكة، حيث يقولون للرسول محمّد(ع) إنك لم تأت بآيات عظيمة كثيرة كالتي جاء بها موسى، لو حصلت معك أمور مثل تلك لآمنّا بك. حسنًا، هل أنتم مؤمنون بالرسول موسى (ع) أصلًا؟ لا، ما معنى كلامكم عن الإيمان بمن يفعل ما فعله موسى؟ وأنتم في الحقيقة تقولون إِنَّ الرَّسُولَيْنِ موسى (ع) ومحمّد (ع) هُمَا ساحران.

بعبارة أخرى، نفس ما طلبوه "آيات" ليؤمنوا، لو حصلت لقالوا عنها بأنها سحر!

في عصرنا كتب أحدهم قصّة طويلة نَحَلَ فيها تراث الدين الإلهي التاريخي ليصيغه بطريقة تفرّغه من معناه وتجعله أسطورة، واخترع شخصيات وهمية مماثلة في الصفات والعصر للشخصيات الدينية، وللنبي موسى(ع) اخترع شخصية تعلّمت سحر تحويل العصا لما يشبه الحيّة من القوم الذين هرب إليهم بعدما ارتكب جريمة قتل... وبعده اخترع شخصية تعلّمت وتمرّست على إيقاف دقّات قلبها وانبعثت بعد أيام من قبرها كتمثيل للرسول عيسى(ع)... واخترع شخصية مماثلة للرسول محمّد(ع)... وقبلها اخترع شخصيات تماثله عزّ وجلّ وتماثل إبليس وبقية أهم الرسل الإلهية مبررًا بحسب رأيه "بعقلانية" لكل التاريخ الديني الإلهي بشكل يفرّغه من مضمونه الديني كآيات إلهية فتصير أمورًا

عادية وأساطير... ومعترضًا على لبّ الدين الإلهي من خلقنا وتكليفنا لمحاسبتنا في الآخرة... وما هو إلا مريض قلب أصرّ على مخالفة صريح ما قاله القرآن بسخافاته التي أصلًا نبّه عليها القرآن، حيث ركّز في روايته على أمور لم يفهمها، وعلى أمور يبدو أنه فهمها ولكنه تقصّد جعلها غير مفهومة ليستمر في تطويل كتابه وشحنه بالاعتراضات والردود على دينه تعالى بطريقة قصصية تحاكي الواقع من زاوية نظرة قلبه المريض.

كما ترى، الذين تنقل الآية كلامهم يطلبون آيات كالتي حصلت في زمن النبي موسى(ع) ليؤمنوا، ولو حصلت لقالوا إنها سحر، وها ترى نفس العقلية في صاحب الرواية التي مسخ فيها الآيات التي جرت على يد الرسل لتصير فارغة! لو حصلت أمامه لقال مثلما قال فرعون وقومه إنها سحر.

بلفتة قرآنية بسيطة للامتداد التاريخي لنفس الدين الإلهي لآلاف من السنين على عقيدة وشريعة وسلوكيات واحدة، وامتداد الرسل عبره كلّهم بكلام واحد، وذلك بالرغم من الانقطاع الزماني والمكاني بين العديد منهم، والمانع من تواصلهم مع بعض ليتعلموا من بعضهم... كالانقطاع المكاني والزماني بين الرسولين موسى(ع) ومحمد(ع) اللذين بينهما مئات السنين، هذا لوحده كافٍ لننتبه إلى أن كلامهم من نفس المصدر، وهي نفسها هذه النقطة التي تغاضى عنها كاتب تلك الرواية ليجعل هذا الامتداد التاريخي بلا معنى! أو أنه لم يرها من عمى قلبه وهو الأرجح، حيث أرجع شخصيات روايته إلى آلاف السنين، متعاميًا عن الخط الواحد لكل الرسل، ومحوّرًا ما حصل معهم من أحداث جرت فيها آيات ربانية لتصير أحداثًا لها تفسيرات عادية جدًا وبالغ فيها من نقلها إلينا لتصير خارقة للطبيعة بينما هي عادية... وهذا هو نفسه الكلام الذي تنقله الآيات هنا عن النموذج كفّار مكّة الذين اتهموا الرَّسُولَيْنِ موسى(ع) ومحمّد(ع) بالسحر وأنَّ تعاونًا حصل بينهما حيث استفاد محمّد من تراث قصص وصلته عن موسى ليعيد طرح دين موسى على الناس مع سحر جديد وهو القرآن... ويوم القيامة لن يقول هذا الكاتب وأمثاله: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولًا. لأن الرسول جاءهم، ومعلومات القرآن التي حوّرها وتلاعب بها ليفرّغها من تميّزها حتى لا تُعَدَّ آية، سيندم عليها وسيقول: ربي أرجعني أعمل صالحًا... كما ورد في الآية 100 من سورة المؤمنون.

في الآية التالية تجد سؤالًا موجهًا لهذه النوعية من الناس:

(قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{49})
النبي محمد(ع) جاءهم بكتاب من عند الله تعالى، ولم يقتنعوا به، ومن قبل القرآن كان هناك التوراة التي نزلت على النبي موسى(ع) ولم يتبعوها، فهؤلاء الكفار لم يعتبروا القرآن والتوراة كتب هداية بل سحرًا! ككلام يخدع الناس.

{قُلْ}، أيها النبي محمد(ع) لهذه النوعية من الناس: {فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا}، من القرآن والتوراة، فليكن كتابًا فيه الأشياء الأصحّ مما فيهما، {أَتَّبِعْهُ}، أكن على ما فيه، وَأَعْتَقِدُ وَأَلْتَزِمُ بما فيه، {إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، بِأَنَّ ما ستأتون به هو كتاب من عند الله تعالى وَأَنَّ دينكم على الهدى الإلهي.

من الآية التالية تفهم الكلام هنا عن محتوى الكتاب الذي تسأل الآية عنه، ككتاب أهدى من التوراة والقرآن، فما الذي قاله القرآن ولا ترونه صحيحًا حتى رفضتم الإيمان به ككتاب منه تعالى؟ فأنا "محمّد" أقول لكم إنَّ القرآن من عنده تعالى، وأنتم تكفرون به، فآتوني بالكتاب الإلهي الصحيح لأؤمن به، وإن كنتم لا تعتقدون بأي كتاب نازل من عنده تعالى فدينكم على أي أساس يعتمد؟ فعلى أي أساس تقولون إنكم على الهدى؟

الكلام هنا مع أناس يعبدون آلهة، فإن لم يَأْتِ كتاب من إلههم فكيف صار لهم دين يأمرهم بعبادة تلك الآلهة؟ ألا يوجد شيء وصل من آلهتهم؟ فأين هو؟ وما محتواه؟ وهل فيه عقيدة وتشريعات وسلوكيات هادية أهدى من القرآن؟

أمّا الذين لا يعبدون ولا يعتقدون بأي آلهة، ونسمّيهم في عصرنا بالملحدين والعلمانيين، فهؤلاء تناسب حالتهم سورة الرعد والجاثية والواقعة، وتناسبهم عموم الآيات من مختلف السور التي سألت المشركين عمّن خلق السماوات والأرض بالكائنات والظواهر التي فيها، ومن بعد الانتهاء من مسألة الإيمان به تعالى يصير الكلام عن بقية التفاصيل...

بقي شيء تنتبه له جيدًا، حيث إن هذا القرآن معروض علينا لنؤمن به على أساس أن نرى فيه عرضه للمعلومات الحقّ وللشريعة والسلوكيات الصالحة، وإلا فإن رأيناه يعرض الباطل والفساد فيجب أن نكفر به، وعلى هذا الأساس سيحاسبنا

سبحانه، ولا يقبل سبحانه الإيمان بشيء تعتقده فاسدًا لمجرد أنك تعتقده من مصدر إلهي، ولا يقبل سبحانه عملًا تراه فاسدًا سيئًا وتفعله لأنك تعتقده من مصدر إلهي، هذا مخالف لكل صريح القرآن الذي يؤكد أن الحقّ والصلاح المعروضين عليك في هذا القرآن هما ما ستتحاسب عليه، حيث إن فيك قابلية تمييز الخير من الشرّ، وتفسد هذه القابلية كلما فعلت سوءًا وكرّرته، فإن وصلت إلى درجة لم تعد بعدها تميّز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، فالسبب منك وفيك لأنك أفسدت قلبك، وَأفسدت القدرة على تمييز الخير من الشر، وستتحاسب وتتجازى ولا عذر لك.

هنا وبكل شفافية تعرض الآية علينا المقارنة بين هذا القرآن "والتوراة" وبين أي كتاب آخر، فإن كان ما سيأتي به الناس مُدَّعِينَ بأنه كتاب إلهي، وسيبدو لنا أنه أهدى من القرآن، فنحن مأمورون باتباعه، ومعلوم أن هذا مستحيل حصوله، لأن هذا القرآن من الإله سبحانه، ويستحيل أن يعلم الحقّ أحدٌ ما أكثر منه تعالى، ويستحيل أن يكون أحدٌ ما أصدق منه تعالى، وأحكم وأخبر...

(فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{50})
{فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ}، لم يحققوا ما طلبته منهم، ولم يَأْتُوا بكتاب إلهي، {فَاعْلَمْ}، بأنهم، {إِنَّمَا}، فقط، {يَتَّبِعُونَ}، هم على، {أَهْوَاءَهُمْ}، على ما تهواه وعلى ما تشتهيه أنفسهم من شهوات ورغبات سيئة، لذا لا يتّبعون العقل والمنطق والتفكير الصحيح.

{وَمَنْ أَضَلُّ}، من هو الأكثر ابتعادًا عن الطريق الصحيح، {مِمَّنِ}، من الذي، {اتَّبَعَ}، كان على، {هَوَاهُ}، على الأمور التي يحبها ويرغبها وهي نزواته وشهواته ورغباته، {بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ}، من دون اعتماده على الأشياء الصحيحة التي أتتنا منه تعالى، لذا لا ضابط عنده لأي تفكير أو سلوك حيث إنه على هواه يتصرّف حتى لو كان ما يفعله سيئًا، ويخالف الكلام الإلهي الحق.

هناك أمور نهواها وليست حرامًا حيث حلّلها تعالى، ولا ضرر منها عليكم ولا حساب، كالأكل والشرب واكتساب المال بالتجارة والعمل... والزواج... وهناك أمور نهواها ولكنها سيئة وعليها عقاب، وما في التوراة والقرآن هدى إلهي يبيح ما هو صالح ويحرّم السيّء، ومن الأكثر ضلالًا ممن ترك الحقّ الواضح الذي جاءنا منه تعالى واتبع ما يهواه حتى لو كان فاسدًا سيئًا؟

بعبارة أخرى، خلقنا سبحانه مع قدرة تمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، ولكن ولأسباب عديدة ناتجة عن خيارات وقرارات اتخذناها في حياتنا، يصير عندنا هوى ورغبة بأمور سيئة... ونستمر على ممارستها إلى أن نفقد تمييزها عن الخير، وصولًا بالإصرار عليها حتى نراها هي الحقّ... وتنتشر بعض تلك الأمور في مجتمعاتنا وتصير متوارثة وطبيعية وعادية... وهكذا تتعطّل فينا جزئيًا أو كليًا القدرة على تمييز الحقّ من الباطل. وفي هذه الحالة التي هي حالتنا دائمًا، نحن نحتاج لأساس يصوّب لنا الحقّ، وكلامه سبحانه دقيق وواضح وحقّ، لذا هو الأنسب ليكون لنا مرجعًا نعتمد عليه لتقويم فكرنا وشريعتنا وسلوكياتنا، ومن هذا تسأل الآية هنا عن الأضلّ من هو؟ حيث لدينا كتاب صادر عن الإله سبحانه وتعالى، وهذا يعني أنه كلّه حقّ، فبماذا يوصف الذي يتركه ويتبع هواه؟

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي}، لا يضع على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة، {الْقَوْمَ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة من الدين، {الظَّالِمِينَ}، الذين لم يكونوا عادلين ولا منصفين حين تركوا الهدى، حيث لم يكن معهم حقّ باتباع الهوى السيّء وترك كلامه تعالى، لأن كلامه تعالى حقّ وهم تركوه واتبعوا الهوى كيفما كان، ولن يجبرهم سبحانه على الإيمان به وبكتبه، ولن يتغاضى أو يصادق سبحانه على تصرفاتهم ليعتبرها صحيحة أو بلا عقاب عليها... ولن ينير قلوبهم بل سيتركهم لشهواتهم وللشياطين تتلاعب بهم لأنهم هم بإرادتهم قرّروا ترك الحقّ المبين.

(وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ{51})
لن يهديهم تعالى، فقط سيتعامل معهم بما يلي:

{وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ}، لم نقطع أقوالنا عنهم، حيث بشكل متواصل وصلهم ما نريد أن نقوله لهم، وأرسلنا لهم الأنبياء والرسل والكتب تباعًا، {لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}، لأنه من المفروض ومن المتوقّع منهم بعد وصول قولنا لهم أن يستحضروا ما نقوله في فكرهم ومشاعرهم وعملهم فيؤمنوا ويعملوا الصالحات.

لا عذر لهم ولا بأي شكل ليقولوا فيما بعد: لم يكن معنا خبر بالآخرة والعقاب على اتباع الهوى السيّء. لا، حيث تباعًا عبر الزمن وصل كلامه تعالى الحقّ المبين للناس، وهم ظلمًا كفروا به.

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ{52})
كنموذج عمن وصلهم القول الإلهي:

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ}، الذين أوصل لهم سبحانه كتابًا من عنده، {مِن قَبْلِهِ}، من قبل القرآن، {هُم بِهِ}، بالكتاب، {يُؤْمِنُونَ}، مُعْتَقِدُونَ مُلْتَزِمُونَ به.

أنتم أيها الكفار طلبتم آيات "معجزات" مثل آيات النبي موسى(ع) ولكن الكفّار قديمًا في حين حصولها لم يؤمنوا، وأنتم أيضًا لن تؤمنوا، ونزل كتاب على النبي موسى(ع) وآمن به بعض الناس، حيث كان كتابه تعالى كافيًا لهم ليؤمنوا، لأنه فعلًا كاف، وأنتم نزل عليكم القرآن ولم تؤمنوا به! مع أنه كاف لمن يريد أن يؤمن بدليل كل من آمن عبر التاريخ بكتبه تعالى، لذا أنتم الشواذ حتى لو كنتم كُثُرًا، ومن آمن فهم العاقلون حتى لو كانوا قلّة.

يخطر بالبال أعداد الكافرين الأكبر من أعداد المؤمنين، لذا تذكّر ما قاله سبحانه الذي يعلم خبايا وعلن عبيده، حين قال تعالى عن الكفّار بأنهم تركوا الحقّ بسبب اتباعهم لهواهم السيّء، فحتى لو كان كل أهل الأرض كفّارًا، فهذا لا يعطيهم أي قيمة، لأنهم كلهم يتبعون هواهم السيّء، ويتركون الحق الواضح، ولو آمن شخص واحد بالكتاب الإلهي، فهذا الشخص قيمته عالية وأعلى من كلّ الكفّار، لأنه اتبع الهدى بدل الهوى.

من قبل كان المؤمنون قلّة، وفيما بعد هم قلّة، ولكن هذا لا يغيّر أي شيء، لأن الحقّ حقّ والباطل يبقى باطلًا.

(وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ{53})
أولئك الذين آمنوا بالكتاب الإلهي الذي نزل من قبل:

{وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ}، إذا قرأ النبي(ع) عليهم القرآن وهو ينقله مستندًا على ما وصله من وحي، {قَالُوا آمَنَّا بِهِ}، اعتقدنا بالقرآن، {إِنَّهُ}، القرآن هو، {الْحَقُّ}، هو الصواب هو الكلام الصحيح، {مِن رَّبِّنَا}، من المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ}، من قبل أن نسمع هذا الكتاب كنّا، {مُسْلِمِينَ}، منقادين مطيعين لربنا سبحانه.

من الواضح أن الآيات تقول بأن الأشخاص الذين في فكرهم ونفسيتهم حب لمعرفة طريق الحق والخير، فهؤلاء بمجرد سماعهم للقرآن سيؤمنون بأنه كلام ربهم سبحانه الذي يدل على الهدى، لأنهم من قبل سماعه كان عندهم قرار باتباع الهدى، وترك الهوى السيّء.

هنا سيخطر ببالك النظر في التاريخ الإسلامي لترى أي واحد من أهل الكتاب آمن وتحدّثت عنه الآيات هنا؟ خذ علمًا أن شخصًا واحدًا من أهل الكتاب آمن بالقرآن سيكون كافيًا لتتحدّث عنه الآيات، حيث إن القرآن من أوله لآخره لم يعط أي قيمة للعدد الذي يؤمن أو يكفر، بل أعطى للمؤمن الواحد قيمة، وحقّر كل من قرّر الكفر حتى ولو كانوا كل الناس.

لفتني المغمورون في التاريخ الإسلامي قبل الهجرة، والذين تقرأ عنهم أخبارًا مشوشة كالتلاميح، وهو كلام عن عبيد في مكّة كانوا من أهل الكتاب وآمنوا بالقرآن، ولكن كانوا مغمورين، ولم تحفظ الناس أسماءهم، ولم يهتموا بهم، حيث تجد بعضًا من الروايات عنهم وكأنهم من بلد آخر بعيد وتشوّهت أسماؤهم وأخبارهم! لأنهم عبيد بلا قيمة في مجتمعهم وإيمانهم لم يكن ملفتًا حتى للمسلمين! ويكفيك ما قاله القرآن عنهم حتى لو لم تستطع من مصادر التاريخ أن تحدّدهم بدقّة، حيث احترمهم سبحانه وقدّر إيمانهم وأشار إليهم.

(أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{54})

{أُولَئِكَ}، الذين كانوا من قبل القرآن يؤمنون بكتب الله تعالى وبأنبيائه وآمنوا بالقرآن أولئك، {يُؤْتَوْنَ}، يعطيهم سبحانه، {أَجْرَهُمْ}، ما حدّده تعالى كاستحقاق لهم، {مَرَّتَيْنِ}، لأنهم آمنوا بدينه سبحانه مرتين، مرة قبل نزول القرآن، ومرة ثانية بعد نزول القرآن، في يوم القيامة سيحسب سبحانه حسناتهم مرتين.

لاحظ، شخص مؤمن بالإسلام يقوم بعمل حسن، حيث يتم حساب أجره مرة واحدة، تلك المرة الواحدة فيها مضاعفة للحسنات، وفيها زيادة على الحسنات ناتجة من فضله سبحانه، ولكنها حساب وانتهى، وهي حساب مرة واحدة. أمّا من كان مؤمنا بدين إلهي صحيح، وعندما جاء رسول جديد فآمن به، فهذا من الناحية العملية آمن مرتين، وهو شخص حصل له إيمانان عمليان برسولين، بكتابين، حيث سيتم حساب أعماله الحسنة كلها أول مرة على أساس أنه من أهل الكتاب المؤمنين، وسيحصل على أجره منها، ثم مرة ثانية سيعيد سبحانه احتساب أعماله الحسنة على أساس أنه من المسلمين، وهكذا سيحصل على الأجر مرتين.

ننتبه جيدا، هم سينالون هذا الأجر المضاعف ليس بسبب الإيمان القلبي فقط، فالإيمان بالقلب لوحده لا يكفي، حيث نبهنا القرآن مرارا أن الإيمان يكون بالقلب وبالعمل، وستبدأ الآية بذكر الأعمال الحسنة التي قاموا بها على أساس إيمانهم، حيث سيحصلون على الأجر مرتين: {بِمَا صَبَرُوا}، بسبب تصرّفهم الواعي والمدروس في الأزمات، فلم يتراجعوا رغم المصاعب والمشاكل، ورغم الإهانات والسخرية... حيث صبروا على دينهم قبل القرآن، ثمّ صبروا مرّة ثانية على دينهم القرآني.

ثانيا، {يَدْرَءُونَ}، يبعدون بطرق مختلفة، {بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ}، لأن السيئة فعلوها ولصقت تبعاتها بهم فيدرؤونها بالحسنة، حيث يجعلون الشيء السيّء يبتعد ويحيد عنهم بفعلهم لشيء حسن. ونعرف من الآية 114 سورة هود(ع) أبرز نموذج عن ذلك وهو الصلاة {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ...}، والفعل للحسنة سينتج عنه ذهاب سيئة مسجلة على الفاعل، والاستغفار والتوبة عملان حسنان يمسحان السيّئة، هذا من جانب العلاقة بين العبد وربّه أمّا بين العبد والناس، فلدينا نموذج الدفع بالتي هي أحسن لردّ السوء الذي يتعرض له المؤمن من الآخرين كما ورد في الآية 34 من سورة فصلت {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}.

{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ}، ومن الذي صار معهم منّا مما يحتاجونه لسد حاجاتهم ورغباتهم الحياتية، {يُنْفِقُونَ}، ومن الواضح أن المقصود أنهم يصرفون "يتصدّقون" على الآخرين المحتاجين، لأنه من البديهي أنهم ينفقون على أنفسهم.

لاحظ بشكل واضح ما هو دينه تعالى، حيث إن الآية هنا والتي تليها تعرض نماذج عنه، حيث عرضت الصبر والدرء بالحسنة، والإنفاق، وترى الانعكاس الاجتماعي لهذه التصرفات، وعندما يسأل القرآن عن كتاب لدين الكافرين بالقرآن، سواء كانوا يؤمنون بآلهة أو ملحدين، يسألهم عمّا يعرضه القرآن وعمّا يعرضونه هم كدين بديل، ولن أطيل عليك لأن الفروقات واضحة، وحتى لو اخترع العلمانيون الملحدون تشريعات وقوانين يعتبرونها عقلانية عادلة، فهم سيسقطون حتما في أمور نابعة عن الهوى السيّء ولا عقلانية فيها وسيشرّعونها، كتشريع الربا والخمر والقمار والمخدرات، أو الزنا، أو التغاضي عن الزنا عرفا وفي القضايا واعتباره تصرفا شخصيا... والتغاضي عن سرقات كبار المجرمين وتطبيق القوانين على الضعفاء...

(وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ{55})
رابع نموذج من أفعالهم، وإذا سمع هؤلاء المؤمنون، {اللَّغْوَ}، في استعمال القرآن والعرب قديما يناسبها بتعبيرنا الحالي: الكلام الفاضي، كلام بلا طعمة، كلام كيف ما كان، شربحة وحكي فاضي. ويتدرج من الأسوأ وهو الكذب وتكذيب الحقّ، مرورا بالتعليقات والانتقادات غير المحقّة والمعيبة على الدين الإلهي أو على الناس، ومرورا بشهادة الزور والغناء بكلام معيب... وصولا إلى المبالغة بالكلام والمزاح الثقيل... وهنا الحديث عن النقاش والجدل مع الذي لا يبحث عن الحقيقة بل فقط للجدل، والمؤمنون {إِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ}، {أَعْرَضُوا عَنْهُ}، واعتبروه بلا أهمية، ولا يدخلون فيه لأنه لا يثير اهتمامهم.

الكثير من الناس محبّون للجدل الفارغ، يدخلون فيه رغم علمهم أنهم في النهاية لن يصلوا إلى أي نتيجة، وسواء كان معك حقّ فعلا والآخرون مخطئون، أو تظن أنّ لديك وجهة نظر يجب أن يسمعها الآخرون، أو... فإن لم يكن مستواك الفكري والنفسي مرتفعا فلن تعرف أن ما دخلت فيه كان لغوا، وستصرّ على رؤيته مهمّا. والآية هنا تتحدّث عن نماذج راقية من المؤمنين، فهم حين ينزل مستوى الكلام إلى اللغو، لأنّ الطرف الآخر لن يقتنع بالحقّ ويريد تمضية الوقت بالمجادلة فقط، وتتأكّد من ذلك من بعدما عُرِضَ الحقّ الواضح ورأيته لا يزال يماري، حيث يجب عليك الإعراض عن الخوض في هكذا جدال.

قال المؤمنون لمن يلغو: {لَنَا أَعْمَالُنَا}، حيث إننا مقتنعون بما نقوم به من أعمال يوافق عليها الدين الإلهي أنها حقّ، وأعمالنا لنا حيث سنتحاسب ونُجَازَى عليها، {وَلَكُمْ} أيها، اللاغون، {أَعْمَالُكُمْ}، حيث لن نتحاسب ولن نُجَازَى عنكم، {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ}، لأننا لسنا مثلكم بل نعلن لكم أننا لا يصدر منّا أي شيء سيئ، لذا لن نلغو، مثلما نحن عندما لا نوافق على كلام شخص ما، نضرب له التحية ونقول "السلام عليكم" وننصرف... كتعبير لائق محترم عن اعتراضك على ما تسمعه، وأنك لن تشارك فيما يفعله، وأنك مغادر ولا تقصد أي شيء سيئ بذلك...

{لَا نَبْتَغِي}، أي لا نريد وليس مطلبنا، {الْجَاهِلِينَ}، الفاقدين للتوازن العقلي، والطائشون الذين لا يفكرون ولا يدرسون الأمور لا نَبْتَغِيهِم، حيث ليس لنا رغبة بالتحدّث معهم.

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ{56})
بعد الكلام الذي ورد في الآيات السابقة عن الكفّار متّبعي الهوى المنكرين للآيات والكتب... والنهي عن اللغو معهم حين يصير الكلام معهم مجرد جدل عقيم...

إنك، أيها النبي(ع) "وأيها المؤمن"، {لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}، فهناك شخص أخوك صديقك... أو لا تعرفه فهو مجرد إنسان وتحبّ أن تضعه على الأشياء الصحيحة التي توصله للغاية الصحيحة حتى لا يتجازى بالنار، ولكن الأمور لا تجري على هذا النحو، حتى لو أحببت أن يهتدي ليصير مؤمناً ملتزماً لأنَّك ستقنعه بكلام الحق وبالأدلة... فهذا لن يغيّر أي شيء، {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة حيث قرّر سبحانه تصميمنا وخلقنا بإرادة حرّة لنختار من نريده مما نميّز أنَّه خير أو شر، وشاء تعالى تركنا نختار، ونتيجة لذلك شاء تعالى أن يهتدي فقط من قرّر اختيار الحقّ والصواب. وأمّا من اتّبع هواه السيّء واستغرق في ذلك، ولم يرد غير ذلك، فهذا لن تستطيع هدايته ولا بأي طريقة إلا بتغيير طبيعته أو إجباره بالقوّة على إظهار الإيمان وممارسة العمل الصالح. فإن كان الشخص الذي تحب هدايته فيه بذرة إيمانية فسيهتدي، وإن فقد تلك البذرة فلن يهتدي.

بعبارة أبسط، أنت متأكّد من الحقّ، ولديك أدلة عليه، وتظنّ أنَّك لو دخلت في أي محاورة مع أي شخص كان، فستتمكّن من إقناعه ليؤمن، ولكن هناك أناس محبّون للغو وجاهلون كما أخبرتنا الآية السابقة، حتى لو أحببت أن تهديهم وبذلت جهدك في ذلك، فلا تتوقّع دائماً نتيجة إيجابية، لأنَّه تعالى صمّمنا وخلقنا بحيث ترك لنا القدرة على معاندة الحقّ الواضح، ومن شاء ذلك فلن تستطيع هدايته ولا بأي طريقة، وشاء تعالى أن يهتدي فقط وفقط من أراد منّا أن يهتدي باختياره ورغبته.

كما تلاحظ، الآية لا تشير إلى شخص محدّد "يحبّه" النبي(ع) ويريده أن يهتدي، بل تشير لعموم أي شخص "يحبّ" النبي أن يهديه. ونفهم الجملة بشكل أوضح إذا قلنا إنَّه (ع) يحبّ أن تهتدي كل الناس، أو لنقل إنَّه (ع) يحب أن يهتدي جاره، يحب أن يهتدي القيصر ملك الروم...

{وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}، عندما يقول سبحانه لنا بأنَّنا لا نعرف من سيهتدي، ونحاول أن نهدي جارنا أو ابن عمنا... ونحن لا نعلم من منهم سيهتدي، ولكنَّه سبحانه يعلم سلفاً من سيهتدي، حيث سبحانه أعلم بمن سيكون على الأشياء الصحيحة التي توصله للغاية الصحيحة. نحن نحب هداية الآخرين ولكن لا نعلم من منهم سيهتدي، وليس محسوماً اهتداؤهم بسبب محاولتنا هدايتهم.

الآية هنا مثل الكثير من آيات القرآن التي تنبّه دائماً للفرق بينه تعالى وبيننا، مثل قول امرأة النبي عمران(ع) وهي تدعوه تعالى وتقول بأنَّها وضعت أنثى، وجاءت مباشرة بعدها آية تقطع نقل كلامها لتقول إنَّه تعالى أعلم بما وضعت،

راجع الآية 36 من سورة آل عمران. ومثل الكثير الكثير من الآيات التي جاء فيها أنَّه تعالى ما يشاؤه سيحصل وأن الإنسان الذي آمن فليس بقدرته الذاتية آمن، وأن من كفر ولم يعجزه تعالى وكفر مخالفاً لما شاءه تعالى، فلو شاء سبحانه لجعله مؤمناً غصباً عنه... وهكذا آيتنا هنا، ربما أحبّ أن أهدي شخصاً ما وأنا مقتنع بإمكانية هدايته لأنَّه في نظري فيه الصفات التي تؤهله ليهتدي، وكأني أعلم بمن سيهتدي، وتأتي الآية هنا لتخبرنا أنَّه تعالى هو وحده يعلم مسبقاً من سيهتدي.

طبعاً قبل الكلام السابق علينا أن نفهم بشكل صحيح التعبير القرآني: {يَهْدِي مَن يَشَاءُ}. ويمكنك استبدال هذه الجملة بالجملة التالية: أمامه تعالى خيارات عديدة ويقرّر ما يريده. وبالدقة {شَاءَ} تعني: عموم حالة إجراء "قرار أو إمضاء أو فعل أو قبول أو ترك..." شيء من خيارات عديدة، ويتدرج معناها بحسب الفاعل، وبالنسبة لنا نحن البشر نشاء شيئاً سواء أعجبنا أو لم يعجبنا، أمّا بالنسبة له تعالى فلا يحصل إلا ما يراه هو تعالى مناسباً، ويتركنا نفعل السوء لأنَّه شاء تعالى امتحاننا في الدنيا ليجازينا في الآخرة...

من كلامه تعالى في القرآن نعلم ما شاءه سبحانه، خذ مثلاً موضوع بقاء المؤمنين في الجنّة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض {وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ}، كما ورد في الآية 108 من سورة هود، وهذه الآية أبرز نموذج عن الاشتباه في معاني كلام القرآن إن لم نفهم أن جملة {مَا شَاءَ اللَّهُ} التي تعني أن هذا سيحصل طالما هو تعالى اختاره وقرّر حصوله، ولا تعني أبداً بتاتاً أنَّه تعالى فيما بعد سيشاء شيئاً آخر.

اجعل هذا الكلام عن المشيئة مفهوماً قرآنياً راسخاً عندك، إذ سبحانه أمامه خيارات عديدة، ويمكنه فعل هذا أو ذاك أو تلك... وأخبرنا سبحانه أنَّه لن يجبرنا على الإيمان بدينه غصباً عنّا، حيث شاء ذلك وفعله، وأخبرنا تعالى أنَّه يهدي بعض الناس، وهم الذين لا يتّبعون هواهم السيّء، وهذا ما شاءه تعالى، وفي كلّ القرآن وهنا فقوله تعالى أنَّه {يَهْدِي مَن يَشَاءُ}، تعني ما نعرفه من بقية القرآن أنَّه تعالى لم يشأْ هداية الذي اتّبع هواه السيّء وشاء تعالى هداية الذي حافظ على قلبه سليماً، وهكذا صمّمنا وخلقنا جاعلاً فينا هذه القابلية والقدرة.

بقي شيء، من بين ملايين المسلمين عبر التاريخ، اهتمّ المسلمون بإسلام أبي طالب عمّ النبي محمّد(ع) ووالد الإمام علي! وانقسموا فريقين، فريق يقول بأنَّه مات كافراً ولديه روايات بأن الآية هنا نزلت فيه، وقالوا بأن النبي محمّد(ع) أحبّ أن يهتدي عمّه أبو طالب ولكنَّه مات كافراً، وقسم ينفي كون الآية نازلة في أبي طالب ويقول بأنَّه مات مؤمناً. وهذا الصراع نموذج عن سخافة اهتمامات العديد من المسلمين بأمور تافهة لا تؤخّر ولا تقدّم إلا مزيداً من العصبية والمذهبية والتفرقة بين المسلمين، وسيتحاسب الجميع على ذلك، وأيضاً سيتحاسب الكاذب من أي طرف كان، حتماً هناك كاذب من الطرفين، وسيتحاسب الصادق لأنَّه لم يقل {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} كما جاء في الآية السابقة، ودخل اللغو بمتاهة العصبية العمياء التي ما زلنا ندفع ثمنها عبر تاريخ من الاقتتال والتناحر بين المسلمين!

الآية عمومية، ومثلها مثل بقية القرآن مخاطباً بها النبي محمّد(ع) كنموذج لكل المؤمنين عبر التاريخ، ومعلوم مشهور وواضح من القرآن الاهتمام الشديد للنبي(ع) بهداية كل الناس ببذله جهداً في ذلك مع كل من استطاع التكلّم معه، ونرى ذلك في العديد من الآيات التي تخبره بأنَّه (ع) ليس عليهم {بِوَكِيلٍ} ولا {بِمُصَيْطِرٍ}... وأن لا تذهب نفسه عليهم {حَسَرَاتٍ}... وأنَّه فقط {بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ}... وما تقرؤه صريحاً جداً وضمن أجواء حب هداية الآخرين والذي تجده في الآية 35 من سورة الأنعام {وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ}.

حبّ النبي محمّد(ع) لهداية الآخرين عمومي شامل لكل الناس، وحبّه لهداية أحبابه، فهذا أصلاً لا يظهر من كلمات الآية هنا، وهي لا تقول: هناك شخص تحبّه وترغب بأن يهتدي. بل تقول إنَّك تحبّ أن يهتدي الآخرون، وتحبّ أن يهتدي هذا وذاك... ولكن لا هذا الحبّ لهدايتهم، ولا تأكّدك أنَّك على حقّ، ولا الأدلة القوية التي معك، ستنفع مع اللاغين الجاهلين.

(وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ{57})

نتذكر ما ورد في الآيات السابقة عن طلب الكفار من النبي محمد(ع) الإتيان بالآيات "بالمعاجز" التي أتى بها النبي موسى(ع) ليؤمنوا... وأجابت السورة عليهم... أمّا هنا فنقرأ الحجة الثانية للكفار الذين لا يريدون الإيمان بالدين الإلهي ويخترعون الحجج حتى لا يتبعوه، حيث قالوا للنبي محمد(ع):

{إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ}، إذا فرضنا أنَّك على الهدى على الأشياء الصحيحة التي توصلنا لغاية صحيحة، وكنّا على ما تقوله ومشينا معك وصرنا مسلمين، فالنتيجة ستكون بأنّنا: {نُتَخَطَّفْ}، يتم اختطافنا، أخذنا بحركة سريعة، بغارة بهجوم... يأخذوننا ويقتلوننا أو يأسروننا، {مِنْ أَرْضِنَا}، من بيوتنا أو من محيط بلدتنا... لأنَّ بقية الناس من الكافرين بدينك هم أكثر منّا، ودينك يعارض دينهم، وسيعادوننا، هل تريدنا أن نتبع دينك حتى يطالنا تهديد بقية العرب حتى في أرضنا! فرضاً لو كان معك حق، فالإيمان به غير مناسب لنا وليس فيه مصلحتنا.

يجيبهم سبحانه: {أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ}، ألم نجعل لهؤلاء الناس سيطرةً وثباتاً، {حَرَمًا}، مكاناً جعلنا له حرمة فجعلنا فيه أموراً ممنوعة، وصارت بلدتهم التي فيها الكعبة آمنة لأنَّه تعالى جعل لها حرمة حيث اعتبر الكعبة بيتاً رمزياً له تعالى واحترمته الناس... مثل حرمة بيتي حين تدخله تتصرَّف باحترام... {آمِنًا}، بسبب بيته تعالى امتنع الناس عن القيام بأي عمل عدائي في بلدتكم، وهذا الحرم، {يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ}، حيث يتم جباية إحضار نتاج كل شيء إلى الحرم الآمن.

الغالبية العظمى من الناس في الجزيرة العربية وما حولها كانت تحترم مكة، ويقصدونها للحجّ ويحضرون معهم منتوجاتهم الصناعية والنباتية والحيوانية... للبيع، وكلمة ثمر لوحدها عادةً أكثر استعمالها لنتاج النبات، أما هنا فهو ثمرات كل شيء، وتعني بتعبيرنا الدارج: السلع والمنتوجات. ولم تقصد الآية في حينها أن منتوجات كلّ الأرض تأتي لمكّة، بل منتوجات ما حولها وما هو متاح وصوله لهم.

هذه الثمرات... {رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا}، أشياءَ من عنده تعالى مما تحتاجونه لسدّ حاجاتكم الحياتية، وازدهرت بلدتكم بالتجارة واستفدتم من ذلك...

هل أنتم فرضتم على الناس الحجّ إلى بلدتكم وجعلتم لها حرمة حتى صارت آمنة؟ ومع مرور الزمن استغلّ الناس هذا الأمان لتصير مكّة مركزاً تجارياً وصرتم تجّاراً تحصلون على رزقكم بسبب مكان آمن يرغب الناس بالتجارة فيه بسبب أمانهم فيه، فهل أنتم جعلتموه آمناً أم الله تعالى من عنده سبّب لكم هذا الرزق بتحريمه لمكّة؟

ولكنَّ أكثر الناس، الذين يعيشون في مكة في الأمان والوفرة في الرزق، {لَا يَعْلَمُونَ}، أنَّ سبب هذه البحبوحة والأمان هو ربنا سبحانه، وأيضاً أكثرهم لا يعلمون أنَّه تعالى ينصر المؤمنين به، وأن الخير سيكون أكثر إن آمنوا...

تذكَّرْ بداية السورة عن نصرة المستضعفين وما تلاها من نصرة لبني إسرائيل المستضعفين على فرعون المستكبر العالي في الأرض.

حسناً، أنتم تخافون أن تخرب قريتكم إذا آمنتم، فلنرَ كيف تخرب القرى:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ{58})
{وَكَمْ أَهْلَكْنَا}، استنفدنا حياة، أمتنا، {مِن قَرْيَةٍ}، من مكان يعيش فيه ناس، {بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا}، حيث لم يلتزموا بالحدود المقبولة للعيش، بل بطروا وصار لديهم شعور بوفرة وكثرة ما لديهم، وأسرفوا وبذّروا في معيشتهم، ولحقوا شهواتهم السيئة واستعملوا ما رزقهم تعالى بشكل سيّء، كم من قرية على هذه الشاكلة أهلكها سبحانه؟

{فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ}، أماكن السكن "البيوت" في تلك القرى المدمرة والمهجورة، {لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ}، حيث لم يسكنها أحد من بعدهم بشكل دائم، {إِلَّا قَلِيلًا}، لأنَّ القليل من القرى التي أصابها العذاب الإلهي عاد الناس للسكن فيها، {وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ}، حيث بعد هلاكهم أخذنا منهم كل شيء كان لهم.

درج بيننا القول "قرية" للتجمع السكاني القليل العدد، ونقول مدينة للتجمع السكاني الكبير، ولكن أساس معنى كلمة قرية هو: مكان مجتمع من الناس للعيش فيه. سواء كان عددهم كثيراً أو قليلاً، سواء كانوا في الخيم أو في البيوت. ما نقوله نحن الآن: مزرعة، حي، بلدة، قرية، مدينة... كلّها تنطبق عليها كلمة قرية في أصل اللغة العربية وفي استعمال القرآن.

إذا كان النموذج مشركي مكّة يرفضون الإيمان والالتزام بدينه تعالى متحججين بالخوف من بقية المشركين أن يخربوا قريتهم التي يأتيهم فيها الرزق الوفير من عموم المشركين، فالحقيقة بالعكس، حيث إنَّ القرية تخرب لأن الذي بطر بعد الوفرة سيهلكه تعالى، والقرية تعمر وتكون آمنة إن أطاعته تعالى، وها أنتم ترون القرى التي دمّرها سبحانه لأنها لم تؤمن، كمدائن النبي صالح(ع)، ومدين، وقرية النبي لوط(ع)... هل تركهم للهدى أبقى قراهم معمورة؟

هذا تهديد لكفّار مكّة لأنهم بشكل ما بطروا بالنعمة الناتجة عن حرم آمن في بلدتهم يأتيه الثمر "بالتجارة ولأنه آمن" من كل مكان، وبطروا شركاً به تعالى وبطروا بشريعة وسلوكيات فاسدة...

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ{59})
تحدّثت الآية السابقة عن قرى أهلكها سبحانه لأنها بطرت، ما المعيار الإلهي لإهلاك أو تدمير قرية ما؟:

{وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ}، لم يكن المسؤول عنك من مستوى إلهي مستنفد حياة، مميت، {الْقُرَى}، مجتمعات من الناس، {حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا}، حيث إنَّ منطقة الجزيرة العربية "كنموذج" والتي فيها قرى عديدة كانت تعبد الأصنام في عهد النبي محمد(ع)، لذلك بعث سبحانه رسوله محمّد(ع) في مكة وهي القرية الأم "الرئيسية" بين تلك القرى، وبذلك سينتشر الخبر للجميع، ليصل دينه سبحانه إلى جميع القرى.

تصور المنطقة كلها مشركة، وسبحانه بعث برسوله إلى خيمتين للبدو في الصحراء! هذا ما تنبه عليه الآية، أن رسوله سبحانه يقوم بتبليغ الرسالة في القرية الرئيسية، {يَتْلُو}، يقرأ الرسول مستنداً على الوحي الإلهي، {عَلَيْهِمْ}، على أهل القرى، {آيَاتِنَا}، الأمور المميّزة المنسوبة له تعالى، ويخبرهم بالعقيدة الصحيحة وبالصالح والفاسد من التشريعات والسلوكيات، ويخبرهم عن الآخرة والحساب والجنة والنار...

{وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي}، حيث لم يكن سبحانه ليستنفد حياة، ويميت، {الْقُرَى}، مجتمعات الناس، {إِلَّا وَأَهْلُهَا}، المنتمون لها، {ظَالِمُونَ}، إذ لم يكن معهم حق فيما فعلوه، لأنَّ من الظلم الكفر بالكلام الحقّ والشريعة الصالحة واختراع عقيدة وشريعة فاسدة من هوى فاسد، وبالعكس، فإنَّ من العدل والإنصاف والحق اتّباع رسوله تعالى الذي يعرض عليهم الحقّ والصلاح.

انتهينا من الإجابة عن السؤال الثاني للكفار، والخلاصة: أنَّ القرية التي تؤمن بربها لا تتدمر، بل التي يأتيها رسول ولا تطيعه تعالى ستتدمّر.

هل هذا يعني أن شخص الرسول يجب أن يكون بين الناس حتى يهلكوا إن ظلموا بكفرهم وبطرهم؟ هل في عصرنا الحالي لن يحصل هلاك لقوم بطرين "كافرين أو مرتكبين لحرام كبير..." لأنه لا يوجد رسول؟ لا، لأنَّ الرسول وظيفته توصيل الإنذار، فإن وصل الإنذار وعلم به الناس حتى من بعد موت الرسول فإن التهديد بالهلاك وارد إن توافرت شروط حصوله.

نرجع للآية، ما هذا الشيء العظيم الذي تخافون منه إن آمنتم أيها النموذج أهل مكّة، هل تخافون على دنياكم؟! فلنرَ أهميته:

(وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ{60})
تحتجّون أيها الكفّار بأنكم إن آمنتم فستخرب حياتكم، مع أنها لن تخرب، ولكن هكذا اعتقدتم، حسناً، فلتخرب، ما هي أهميتها؟ وبماذا أنتم متعلقون؟!

{وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ}، ما صار معكم من مال وبيوت وبساتين وسيارات ومحلات... {فَمَتَاعُ}، وهو شيء تتمتعون به وتستفيدون منه، هنا في، {الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا}، حيث تجعل الحياة التي أنتم فيها الآن تبدو جميلة وحسنة ومرغوبة، ولكنها في الحقيقة وفي العمق ليست السعادة الحقيقية كالتي في جنّة الآخرة حيث لا مرض ولا شيخوخة وحيث الأمان والسلام...

{وَمَا عِندَ اللَّهِ}، في الحياة الآخرة، {خَيْرٌ}، وهو موصوف بأنَّه حسن، ومعلوم أنَّه أفضل من متاع الدنيا وزينتها، وما عنده تعالى، {وَأَبْقَى}، حيث لا ينتهي بل متوفِّرٌ باستمرار في جنة خالدة لا نهاية لها.

{أَفَلَا تَعْقِلُونَ}، لماذا لا تفهمون أيها الناس! أفلا تستوعب وتفهم عقولكم أنَّه حتى لو فرضاً سبّب لكم الإيمان فقدانكم للأمن والتجارة... فالإيمان أفضل لكم، لأنكم ستحصلون على ما هو خير وأدوم مما في الدنيا، حيث ستحصلون على جنة الآخرة التي وعدكم بها سبحانه.

نلاحظ القرآن يصف ما في الدنيا بالمتاع، ولا يصف ما في الآخرة بالمتاع، وهذه إشارة للفرق بين ما نجده في الدنيا من استفادة لسد حاجاتنا ورغباتنا، أمّا ما في الآخرة فهو ليس لسدّ الحاجة بل حصراً للسعادة والفرح، حيث لا تأكل لتسدّ جوعاً مزعجاً بل تأكل لتستلذّ بالطعم الطيّب، ولن تشعر بأي انزعاج أو ضرر إذا أكلت كميات كبيرة جداً جداً...

بالنسبة لكلمة "خير" في استعمال القرآن، كثيراً ما نستنسب تفسيرها على معنى "أفضل"، وأحياناً يصدق هذا المعنى بالتبعية من فحوى الكلام، ولكن بعض الاستعمالات القرآنية لنفس الصياغة تريك أنَّه لم يُقصد بكلمة خير أن تكون رديفاً لكلمة أفضل، وكمثال واضح عن ذلك ما ورد في الآية 16 من سورة العنكبوت {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}، إذ إنَّ مرادفتها بأفضل في أمثال هذه الآية سيعطيك معانيَ غير دقيقة بل وغير مقبولة إلا إذا حملت معنى الأفضل على عموم المقابلة بين الأسوأ والأحسن، ولكن هذا ليس معناها بل هذا معنى كلمة خير، وكلمة "أفضل" في أشعار العرب قبل الإسلام محصورة بين الحسن والأحسن، ولو قلت إنَّ الإيمان أفضل لكم فهذا يعني أنَّ الكفر حسن والإيمان أحسن، لا، لأنَّ الإيمان خير لكم مما يعني ضمناً أنَّ الكفر سوء لكم.

لم يستعمل القرآن كلمة أفضل بتاتاً، واستعمل التعبير بالخير وهو أوسع بالمعنى، حيث يقابل الشرّ كما في الآية 11 من سورة النور {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ...}، واستعملها بمعنى ما يقابل الحسن حيث إنَّ الآخر أحسن وليس شراً، كما ورد في الآية 271 من سورة البقرة {إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ...}، لأنَّ إبداء الصدقة ليس سوءاً وإنما إخفاؤها أحسن، وهنا يمكن استعمال كلمة أفضل.

يعني لا ترادف "خير" بـ "أفضل"، لأنَّهما في بعض سياق الكلام يتقاطعان تطبيقياً حيث يكون اللذان تقارن بينهما كلاهما جيدين، وعندها يصدق قول خير أو أفضل، ولكن حين يكون الكلام عمومياً يشمل ما كلاهما جيدان ويشمل أيضاً ما أحدهما جيد والآخر سيئ، ويشمل الوصف مطلقاً بمقارنة الحسن مع مطلق الوصف بالحسن، حتى لو لم يكن هناك طرف آخر للمقارنة والمقارنة مع مطلق الوصف، كوصفه تعالى بخير الرازقين وخير الحاكمين... فإنَّه تعالى بالمقارنة مع وصف الحسن مطلقاً كرازق وحاكم، فهو خير موصوف بذلك، وكلمة أفضل ليست وصفاً صحيحاً لهذه الحالات وكلمة خير صحيحة.

(أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ{61})
{أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا}، حيث قال له تعالى إنّه سيجعله فيما هو خير وأبقى وهذا شيء حسن جيد يرغب به، {فَهُوَ لَاقِيهِ}، سيتلاقى مع ما وعده تعالى به، وسيجده وسيصل إلى الجنّة، وهذا الوعد للمؤمن العامل للصالحات، فهل هذا الشخص، {كَمَنْ}، مثل الذي، {مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، حيث جعلناه يتصرّف ويستفيد بما حوله من مال ومشتهيات في حياته هنا، وسياق الكلام عمّن تمتّع بها وهو لم يؤمن ولم يعمل الصالحات، {ثُمَّ}، بعد ذلك، {هُوَ} في {يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، في زمن القيام من الموت، {مِنَ الْمُحْضَرِينَ}، حيث يحضر أمامه تعالى للمحاسبة والمجازاة.

بعبارة أبسط، ما الاستفادة من التمتّع بالدنيا تاركا الإيمان والالتزام بدينه تعالى إذا كنت في النهاية ستحضر لتقف بين يديه تعالى ليحاسبك ويجازيك؟ فهل هذا مثل الذي وعده تعالى بجنّة الآخرة فلم يتعلّق بالدنيا وسعى للآخرة؟

في ذلك اليوم الذي سيتم إحضارهم فيه:

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ{62})
{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ}، في الزمن الذي يوجّه سبحانه كلامه لهم، {فَيَقُولُ}:

{أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}؟ أين الذين كنتم تقولون عنهم إنّهم آلهة، وشركاء لي في الألوهية؟ حيث كنتم تزعمون وتقولون ومن دون أي مستند ولا دليل إلّا ما يصدر عنكم من كلام، فتقولون إنّني لست لوحدي إلها! فأين تلك الآلهة التي قلتم إنّها تشاركني في الألوهية؟

في يوم القيامة سيكون من الواضح أنّه لا إله إلّا الله تعالى، وحده سيأمر وينهى ويحاسب ويثيب ويعاقب... وسيتبين أنّ كل ما تبقى هم عبيد عند الله تعالى، أو آلهة من الأوهام ولا وجود لها.

يعني، رفضكم للإيمان بديله الإيمان بآلهة ليست آلهة، وهذا اعتقاد ستواجهون عواقبه في الآخرة حين ترون أنّه لا إله إلّا الله تعالى، وستتجازون بأشد العذاب على شركك به تعالى، فما معنى الأعذار التي تضحكون بها على أنفسكم لتبقوا مشركين؟ وها يخبركم تعالى أنّ أعذاركم لن تنفعكم، وها يخبركم سبحانه بكل شفافية أنّه سيسألكم عن آلهتكم لتأتي وتنقذكم من عذابه، ويخبركم بكل شفافية أنّها لن تأتي لتنقذكم لأنّها ليست آلهة...

عموم القرآن لم يوجّه كلامه للذين نسمّيهم بالملحدين الذين أصلا لا يؤمنون بأي إله، وسورة الرعد والواقعة والجاثية تناسبهم لأنّها سور تبدأ بالكلام من الصفر عمّا يعرّفنا على الإله وأفعاله.

(قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاء الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ{63})
{قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ}، تحقّق، انطبق، صدق عليهم، {الْقَوْلُ}، حيث قال سبحانه إنّه سيحاسب من يشرك به وسيرميه في النار، وها هو في الآخرة صدق وتحقق قوله سبحانه فيهم، وقالوا:

{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا}، هؤلاء الناس جعلناهم يعتقدون بالأشياء الفاسدة أنّها صالحة، فزيّنا وجمّلنا لهم معصيتك والشرك بك، {أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا}، حيث وقعنا في فخ الغواية قبلهم، واعتقدنا بالأشياء الفاسدة بأنّها جيّدة، وتعلقنا بالهوى وبالشهوات السيئة وعموم حبّ الدنيا، وبعد ذلك أغويناهم، فنحن لم نجبرهم كما لم يجبرنا أحد، بل بإرادتنا تعلقنا بمتاع الدنيا وزينتها فأغوتنا وهم تعلقوا بما نقول ولم نجبرهم على اتباعنا، وهم أيضا تعلقوا بالدنيا وبالشهوات السيئة.

{تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ}، نعلن براءتنا من أفعالهم، فلا علاقة لنا بعبادتهم لنا، {مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ}، ففي الحقيقة هم عبيد للغواية وليس لنا.

المشهد عن مشركين يتحاسبون على عبادة الناس لهم، ويريدون تخفيف العقاب عن أنفسهم، فيتبرؤون مِمَّنْ عبدهم. حتى فرعون الذي كان يقول هنا في الدنيا إنّه إله، فيوم القيامة سينكر عبادة الناس له، نعم سيعترف بأنّه ادعى الألوهية وأمر الناس بعبادته، ولكن حين ينكشف كلّ شيء في يوم القيامة، ويصير واضحا أنّهم عبدوه لا عن قناعة بأنّه إله، بل لأنّ عبادته تناسب أهواءهم، فعندها يتبرّأ فرعون منهم، فهو لا يريد تحمّل ذنب عبادتهم له فوق ذنب ادعائه للألوهية.

تذكّر دائما أنّ القرآن افترض فهمك لكلامه من السياق، فمن البديهي أنّه تعالى هنا لا ينقل لنا مشهدا لمحاسبة مؤمنين عبدهم الآخرون، فهو ليس مشهدا يتوجّه فيه الكلام للنبي عيسى(ع) الذي عبده الناس، فالنبي بريء من هذا. وليس مشهدا عن توجيه الكلام للأصنام أو الآلهة الوهمية التي ليس لها كيان أصلا وعبدها الناس، بل هو مشهد عن كفّار من الناس أعلنوا ألوهيتهم أو بعد موتهم عبدهم الآخرون.

حتى لو كان إعلان أحد ما لألوهيته وعبادة الناس له حالة نادرة، فأصلا حالات الكفر التي يمكن الكلام عنها بشكل له معنى مفهوم، هي أصلا نادرة، فماذا سيقول القرآن عن الذين يحاسبهم سبحانه على عبادة إله النار وإله الخمر وإلهة الحبّ... وما هي إلّا أسماء وهمية لا كيانات لها أصلا! وهكذا ترى أنّ الكلام عن كائن حقيقي عبده الناس هو كلام له معنى بشكل ما، فتشير للذي عبدوه وتسألهم عن سبب عبادته... والبحث عن كائن هو أعلن للناس أن يعبدوه وعبدوه، حالة نادرة، ولكنّها الحالة النادرة الباقية للكلام عنها مع المشركين! كل الشرك سخافة وتفاهة، ولكن له جمهور طويل عريض، وسبحانه يريد إنذارهم، فينقل لهم مشاهدَ من وقائع ستحدث لهم في الآخرة عن حسابهم ومجازاتهم، فأي شيء يمكن الكلام عنه وله معنى بشكل ما حتى ينقله تعالى لهم الآن ليفهموا مدى ضلالهم عن الحقّ الواضح؟

(وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ{64})
الآن يتوجّه الكلام إلى الذين كانوا يعبدون غيره تعالى.

{وَقِيلَ}، قال أحد ما لهم: {ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ}، أشهروا أعلنوا حتى يحضر لمساعدتكم الذين كان بينكم وبينهم شراكة عبد مع إله.

{فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ}، لم يفعلوا أي شيء مما طلبوه منهم. {وَرَأَوُا الْعَذَابَ}، فصار عند المشركين صورة محدّدة عن الضرر الذي سيصيبهم.

{لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ}، بدلا من هذه المصيبة لو من قبل كانوا على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، لما كانت هذه نتيجتهم.

بالنسبة للتعبير بشركائكم، فسبحانه ليس له شركاء في الألوهية، والذين عبدوا غيره تعالى صار لديهم علاقة شراكة "عبد إله" مع آلهتهم المزعومة، فهم قالوا عن بعض الكائنات إنّها شريكة له تعالى في الألوهية، وسيعيد سبحانه استعمال نفس الكلمات معهم ويصفهم مع الذين عبدوهم بأنّهم شركاء مع بعض، شركاء في علاقة غير حقيقية بين عبد وإله فيما بينهم.

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ{65})
{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ}، في الزمن الذي يوجّه سبحانه كلامه إليهم، {فَيَقُولُ}، سبحانه لهم:

{مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ}؟ عندما دعاكم الأشخاص الذين أرسلتهم ناقلين لكم كلامي ليهدوكم، ودعوكم للإيمان، بماذا أجبتموهم؟ وما كان قولكم وفعلكم؟ وهل تجاوبتم معهم وآمنتم واتقيتم؟

(فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاء يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءلُونَ{66})
{فَعَمِيَتْ}، لم تظهر واختفت، {عَلَيْهِمُ}، على الذين توجّه لهم هذا السؤال، عميت عليهم، {الْأَنْبَاءُ}، الأخبار غير المنتشرة بينهم، {يَوْمَئِذٍ}، في يوم الحساب، {فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ}، لا يسألون بعضهم البعض عن الجواب المناسب، ولا يعبّر أحدهم للآخرين عن إرادته للحصول على جواب منهم ينجّيه مما هو فيه. ولا يجد الواحد منهم جوابا من الآخرين على هذا السؤال لينجّيه من العذاب، حتى لو سألهم فهو يعلم بأنّه لن يحصل على أي جواب يفيده ليستعمله للنجاة من العقاب.

بعبارة أخرى: اختفت كل الإجابات من عقولهم، ولا واحد منهم يسأل الذي بجنبه عن الجواب المناسب لأنّهم كلّهم في مجموعة واحدة في حالة واحدة، والجواب الحقيقي: إنّنا لم نتجاوب مع المرسلين بل عارضنا ما يقولونه، وكذّبناهم وقلنا عنهم سحرة وسخرنا منهم... وهذا الجواب مصيبة عليهم ولا يريدون قوله ويبحثون عن جواب غير هذا، حيث يبحثون عن جواب ينجيهم من العذاب، {فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ}، فالجواب لا يرونه لا معهم ولا مع الذي بقربهم من المشركين.

ضع في بالك دائما أنّ كلمة سأل معناها الأساسي: عامّة التعبير عن إرادة شيء ما من أحد ما. وبهذا المعنى فهي مرادفة تقريبا لكلمة "طلب" كما نستعملها، ومن سياق الكلام يتحدّد المطلوب: جوابٌ أو غرضٌ أو فعلٌ أو استعلامٌ أو استفهامٌ أو تعجبٌ... ومن الدارج بيننا استعمال اشتقاق كلمة "مسؤول، مسؤوليتي..." بالمعنى الذي تعرفه، وهذا من اشتقاق استعمال كلمة "سأل" على أساس أنّ الشخص ستتوجّه له الأسئلة عن شيء ما، والكلمة التي استعملها القرآن بهذا المعنى الدارج لكلمة "مسؤول مسؤوليتي" هي "وكيل، حفيظ".

بالنسبة لتصريف "تساءل يتساءلون" فالدارج بيننا أنّه تصريف مستعمل للاستفهام والاستغراب، حيث لدينا "سؤال" ولدينا "تساؤل"، أمّا المعنى الأساس لأي تصريف من مشتقات كلمة "سأل"، فسياق الكلام يحدّد إن كانت الجملة للاستفهام أو الاعتراض أو إرادة الجواب... والمعنى الأساسي لها هو المرادف تقريبا لمعنى كلمة "طلب" حاليا، ولم يستعمل القرآن كلمة "طلب" بالمعنى الدارج حاليا واستعمل بدلا منها كلمة "سأل" لعامّة إرادة شيء ما من أحد ما،

سواء أراد جوابا "بكل أنواعه ومن ضمنه الاستفهام" أو أراد غرضا أو مساعدة... وكلمة يتساءلون تشير لحالة توجيه سؤال من أكثر من شخص إلى عدة أشخاص.

إذًا، هم مجموعة من المعاندين المكذّبين للرسل مع بعض، والسؤال موجه لكل أفراد المجموعة، حيث يشعر كل واحد منهم بأنّه لا يملك الجواب، وينظر إلى الآخرين، ويجدهم مثله لا يملكون أي جواب، لذلك هم كمجموعة كلهم محتارون لا يتساءلون، حيث لا يسأل أحدهم الآخر: ماذا نقول عن هذا السؤال؟ وهل لديك جواب ينجينا؟... فكلّهم ذاهلون محتارون.

حسنًا، هذه كانت حال المشركين، الذين ماتوا وهم مشركون، أمّا:

(فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ{67})
{فَأَمَّا مَنْ تَابَ}، طوى صفحة الشرك وفتح صفحة جديدة، {وَآمَنَ}، اعتقد بالدين الإلهي، ووَحَّدَهُ سبحانه، وصدّق رسله... {وَعَمِلَ صَالِحًا}، قام بالأعمال الموصوفة بأنّها صالحة جيّدة، خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، حيث باشر بالتصرفات التي يراها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلّا بما هو صالح، وعمليا هو تركه لما حرّمه تعالى وفعله لما أوجبه تعالى.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموما وحتى بين المؤمنين، أنّ الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، حتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائما أنّه تعالى لا يأمر إلّا بما هو صالح وأنّ القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به.

هذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعا ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنّه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّا لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنّه أمر إلهي فهو في الحقيقة اختراع من البشر وليس أمرا إلهيا.

{فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ}، من المحتملّ المرجّح غير الأكيد أن يكون من الذين أفلحوا، من الذين أجادوا عملا، فإن مات على هذه الحالة فهو حتما أفلح ولكن من غير المعلوم إن كان سيموت وهو مبتعد عن الكفر والكبائر، فيبقى احتمال أنّه لن يفلح موجودًا بالرغم من أنّه ضعيف، ولذلك عبّرت الآية بعسى التي لا تحسم الموضوع بل ترجّح حصوله، وترى بوضوح هذا المعنى الأساسي لكلمة "عسى" في الآية 5 من سورة التحريم {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ}... فربما إن طلقهن (ع) سيتزوج واحدة تكون أسوأ منهن فيما فعلنه، فهذا احتمال وارد ولكنه غير مرجّح.

كما ترى، الآية السابقة هدّدت المشركين بنقلها لصورة عن حالتهم المزرية في يوم القيامة، وهنا لفتت الانتباه أنّهم طالما ما زالوا أحياء في الدنيا فباب التوبة مفتوح، حتى يستغلّوه، ومن المرجّح أن يكونوا من المفلحين في الآخرة، والترجيح ليس من عند الله تعالى، فسبحانه محسوم عنده الثواب بالجنّة لمن تاب وآمن وعمل صالحا، ولكن الترجيح والاحتمال متعلّق بمن تاب، لأنّه لا يزال حيّا وربما يتراجع عن إيمانه ويقوم بأعمال سيئة من النوع الذي يحبط حسناته...

الآية هنا لم تحسم فلاحه ودخوله إلى الجنة، لأنّها لا تريد أن يشعر هذا التائب بأنّ الجنة مضمونة له لأنّه تاب، فيصيبه العجب بنفسه، والتكبّر، والتهاون بالواجبات... بل تريده أن يشعر الشعور الطبيعي لكل مؤمن: يجب أن أجتهد في عملي حتى آخر لحظة من حياتي حتى أفلح وأدخل إلى الجنة.

تَفْهَمُها بشكل أبسط بمقارنتها مع الآية 137 من سورة النساء، التي تحدّثت عمّن آمن لمدة من الزمن ثم كفر {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا}، فلا يوجد شيء اسمه: يُسَجَّلُ اسم هذا الشخص مع الداخلين إلى الجنّة ويمكنه من بعدها أن يفعل ما يشاء، لا، فيجب علينا الاستمرار على حالة الإيمان والعمل الصالح حتى آخر نفس من حياتنا.

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ{68})
{وَرَبُّكَ}، المسؤول عنك من مستوى إلهي، {يَخْلُقُ}، يركّب ويؤلّف، {مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ}، أمامه تعالى خيارات عديدة ويقرّر ينتقي منها ما يريد "طبعا بحكمته ورحمته"، حيث يمكنه تعالى خلق أي شيء يريده، فسبحانه ليس محدودا بالقدرة على خلق كائنات محدّدة، فقدراته عالية جدا، بل فائقة، فما تراه من حولك من مواصفات مختلفة لأنواع الحيوانات والظواهر فهناك مواصفات أخرى وأشكال أخرى كانت متوافرة له تعالى ليختار منها، وشاء فاختار سبحانه ما تراه حاليا.

{مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ}، لا يمكن للناس بشكل خاص ولكل الكائنات بشكل عام وللذين قالوا عنهم إنّهم آلهة بشكل خاص، لا يمكن لأي مخلوق أن يختار "بإرادة قاهرة من مستوى إلهي"، فسبحانه وحده صمّم السماوات والأرض وخلقها كما قرّر، فما تراه فيك وحولك وما في دنيا المخلوقات فهو نتاج ما قرّره تعالى، وخذ مثلا خلقتنا نحن البشر من طين، وبالصفات التي فينا... فهذا ما شاء واختاره تعالى لنا.

{سُبْحَانَ اللَّهِ}، صاحب الاسم المحدّد المميّز الله تنزّه عن الصفات السيئة والناقصة، {عَمَّا يُشْرِكُونَ}، عن قولهم إنّه تعالى له شركاء في الألوهية، فبهذا لن يكون سبحانه متميّزا وسيكون عاديا فهناك آخرون مشابهون له، وهذا ليس صحيحا فسبحانه عن ذلك، تنزّه عن ذلك.

انتبه لدقّة التعبير، فهناك "الله" الإله الأحد من جهة، وهناك "المخلوقات والظواهر" من جهة ثانية ولا يوجد شيء ثالث، والله سبحانه هو وحده الذي صمّم وخلق، والبقية كلّهم ليس لديهم أي قدرة على اختيار حتى كيفية أو صفات خلقتهم، فأنا إنسان ولست ملاكا ولا جنيا ولا نبتة ولا فراشة... ولا يمكنني اختيار خلقة أخرى لنفسي، أو أن أضيف صفة أو قدرة جديدة لنفسي من خارج ما جعله تعالى فيّ أو من خارج ما أتاحه لي تعالى لأفعله... وكذلك كل بقية المخلوقات، فكيف يكون في المخلوقات من هو موصوف بالألوهية! وهو لا يقدر على اختيار كيانه وصفاته!

سياق الكلام عن مشكلة جعلهم له تعالى شركاء في الألوهية، وأنت تعلم أنّ بعض آلهتهم وهمية خيالية لا كيان لها، كإله الحبّ وإله السفر... فهذه لا وجود لها إلّا في خيالهم، وتعلم أنّ بعضهم ألّه تمثال الحجر أو الخشب... وهذه ليست كيانات واعية بل أشياء بلا وعي، وبعضهم عبد إنسانا ما أو ملاكا أو جنيا... وكلام القرآن يفترض فيك العقلانية حين يتكلّم عن آلهة المشركين، فما سبق ونقلته الآية عن بعض أحداث يوم القيامة في الآية 63 {قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ}، فهذا الكلام نقلا عن كائنات واعية ألّهها الناس، وأمّا الآلهة الوهمية الخيالية التي لا كيان لها، فمن البديهي وضوح سخافة عبادتها... وأيضا هي مشمولة بسؤال من عبدها عنها في الآية 64 {وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ}... فمن كانت آلهته خيالية أو لها كيان حقيقي، فليدعوها لتأتي وتساعده...

الكلام مع المشركين محصور بآلهتهم التي لها كيان، وكل ما عداه تعالى فهو مخلوق، ولا معنى أصلا للسؤال عمّن خلقه، فسبحانه لوحده من جهة بطبيعته التي لا توصف بالخلقة فهي ليست مركّبة ولا مؤلّفة من أي شيء، ومن جهة ثانية هناك المخلوقات، فمن الذي صمّمها وخلقها؟ هل الكائنات التي قلتم عنها إنّها آلهة صمّمت وخلقت نفسها؟ بالطبع لا، فطالما هي مخلوقة، وطالما طبيعتها تشير لكونها مركّبة ومؤلفة من شيء ما، وطالما هي لا تشبه طبيعته تعالى... فهي حتما مخلوقة، فمن الذي صمّمها وخلقها؟ فمن الواضح أنّه تعالى خالق كلّ شيء، فما معنى وصف البعض من المخلوقات بالشراكة له تعالى في الألوهية؟

بقي شيء، فكثيرا ما استعملنا في هذه الدراسة وصفه تعالى بتصميم السماوات والأرض، وآيتنا هنا من الآيات النادرة التي تعطي هذا المعنى بشكل مباشر وصريح، فمضمون بقية الآيات التي تتحدّث عمّا خلقه تعالى من كائنات وظواهر فهي تتضمّن معنى أنّه تعالى خلق ما شاء واختار، وهذا ما قصدناه حين استعملنا كلمة "تصميمه" تعالى للسماوات والأرض.

(وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ{69})

{وَرَبُّكَ}، والمسؤول عنك من مستوى إلهي، {يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ}، يعلم تفاعلهم الداخلي مع ما يتعرضون له، ويعلم سبحانه، {مَا يُعْلِنُونَ}، ما يظهرونه ويقولونه علناً بناءً على تفاعلهم مع ما حصل معهم أو أمامهم.

أيضاً لدينا من جهة "الله" الإله الأحد، ومن جهة ثانية لدينا "مخلوقات" لا يمكن وصفها بالألوهية لأن تفاعلها مع ما يحصل معها وحولها معلوم له تعالى، فما معنى ألوهية أحد منهم وهم لا يقدرون على إخفاء تفاعلهم الفكري والنفسي عنه تعالى! وهم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، كما ورد في الآية 255 من سورة البقرة.

بالنسبة لكلمة "صدر" إن لم يكن القصد بها أعضاء الجسد، فهي تشير للتفاعل الداخلي مع ما تدركه، حيث تدور تفاعلاتك مع الأفكار التي نتجت من تفاعلك مع الأمور، وبتعبير أبسط فالصدر هو وصف لمخزن تفاعلك الفكري والنفسي مع الأشياء، وعلامات الوجه والجسد وأقوالك... هي التعبير الآخر العلني لما في صدرك.

كما هناك تعابير تظهر على وجهنا وأفكار ومشاعر تظهر من كلامنا، فهناك تعابير داخلية عن أفكار ومشاعر نعبّر عنها بالكلمات بأنها في صدرنا، وأحياناً نشعر فعلاً في القفص الصدري حيث الرئتان والقلب، نشعر بالانقباض أو الانشراح مما يجري معنا... ولذلك تجد عموم الناس من مختلف اللغات عبّروا عن هذه الحالة بالتعبير بالصدر لكل ما هو في داخلنا من تفاعل مع ما يحصل معنا، سواء شعرنا فعلاً بقفصنا الصدري بالضيق أو الانشراح... أو لم نشعر، فصارت كلمة صدر تشير لعموم تفاعلنا الداخلي الفكري والنفسي مع الأمور، وضمناً يشمل ذلك أسرارنا وما نخفيه.

(وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{70})
{وَهُوَ اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، حيث لا يوجد أي كائن غيره بالصفات والقدرات الفائقة، وبالتالي ليس معه إله ولا نصف إله ولا ربع إله ولا شبه إله ولا بنفحة إلهية... فقط وحده الذي اسمه الله هو إله، فهو الكائن بالصفات والقدرات الفائقة.

{لَهُ الْحَمْدُ}، له الوصف بالحمد على أعماله وصفاته، لأن كلها محمودة جيدة، {فِي الْأُولَى}، في الحياة الدنيا التي نحن فيها الآن والتي أتت أولاً، وفي {الْآخِرَةِ}، في الحياة التي ستأتي في الآخر بعد الحياة الأولى. هنا في الدنيا عمله تعالى محمود نابع من صفاته الحميدة، وكمخلوقات نرى ذلك في خلقه لنا ومنحنا الحياة والفكر وكل شيء... وفي الآخرة عمله تعالى محمود لأنه سيجازي المؤمنين بالجنة، وعمله محمود حين يجازي بالنار المجرمين بالشرك به وبقتل الأبرياء و... وهذا ما يستحقونه، وهذا ما اختاروه هم وسبّبوه لأنفسهم.

كما ترى، عموم مفاهيم القرآن عن الحقّ والخير... تشير لكونها مفاهيم مطلقة، والكلام عن وصف أفعاله تعالى بالحمد فهو عملياً يتطبّق فيما خلقه وقرّره، حيث كلّه حسن، ولكن حتى لو لم يكن في المخلوقات وعي وقدرة للتعبير عن حمده تعالى، فتبقى أعماله موصوفة بأنها حميدة جيدة، لأن النظرة شاملة لوصفه تعالى بشكل مطلق بغض النظر عن أي مخلوق يحمد، لأن قدراته الفائقة وصفاته سينتج عنها حتماً فقط أعمال حميدة.

طبعاً سياق الكلام معنا وعن مشركين به تعالى، حيث الكلام ضمناً يشير إلى السؤال عمّا فعلته الآلهة التي زعموها، هل هي مثله تعالى آلهة؟ وهل هي موصوفة بالحمد؟ وفي أي شيء يتعلّق بكم من مستوى إلهي هي محمودة؟ هل صمّمتكم أو خلقتكم...؟ فهل تتركون الاعتقاد والتعبير بالحمد للإله الذي لا إله إلا هو، والذي كل أفعاله حميدة، والذي تتمتعون بما فعله بكم من أمور حميدة... لتشركوا به؟

{وَلَهُ الْحُكْمُ}، له ضبط الأمور بالصوابية، وعلى مستواه تعالى ما يحكم به سيتنفّذ وهي أيضاً حكومة، حيث تصدر كل القرارات الصائبة منه سبحانه وتتنفّذ، فما يحصل معنا الآن وما سيحصل في الآخرة فهي أحكامه تعالى في حياتنا هنا بتكليفنا بطاعته... وفي الآخرة بمحاسبتنا.

وإلى الله {تُرْجَعُونَ}، حيث لا تموتون وتنتهون، أو ترجعون لغيره، أو تذهبون إلى عالم خارج عن سلطته... بل إليه سترجعون إلى الحياة في الآخرة، ومعلوم أننا سنرجع ليحاسبنا ويجازينا سبحانه.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلَا تَسْمَعُونَ{71})

{قُلْ}، أيها النبي(ع) للمشركين به تعالى عبر هذا القرآن:

{أَرَأَيْتُمْ}، أسألكم حين يصير عندكم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: شفتوا. ألم تلتفتوا، {إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا}، فتكون العتمة "الظلمة" منتشرة بلا نهاية من الآن، {إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، حتى زمن قيامكم من الموت. ولم ترد كلمة سرمد ولا أي من تصريفاتها في القرآن إلا في هذه الآية والتي تلتها.

{مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ}، من هو الذي له صفة الإله ولديه الصفات والقدرات الفائقة غير الله تعالى يمكنه أن {يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ}، بأي شيء يجعلكم متمكنين من الرؤية؟ من يمكنه غير الله تعالى الإنارة عليكم؟ لأن هذه قدرة إلهية ولا يوجد إله غيره سبحانه.

{أَفَلَا تَسْمَعُونَ}، لماذا لا يدخل هذا الكلام إلى فكركم لتؤمنوا به! ما تعيشونه الآن من ظلام وضياء، من ليل ونهار، من صمّمه ومن يسببه؟ والذي يسبّبه إذا قرّر جعل الظلام مستمراً، من يمكنه الإضاءة لكم؟ كيف تكفرون به تعالى أو تشركون به ومن الواضح من هذا النموذج البديهي أن إلهاً فائق القدرات والصفات تعتمدون عليه لينير نهاركم.

الآية تقارن بين ما يمكننا نحن فعله وبين ما يمكن لآلهة المشركين فعله وبين ما يمكنه تعالى فعله، وهي تشير إلى نموذج عن شيء يحصل ولا علاقة لنا به، تشير لظاهرة الليل والنهار، من صمّمها ومن جعلها تحدث؟ ومن الواضح أن قدرة فائقة فعلته، قدرة إلهية، ولو فرضاً قرّر سبحانه استمرارية الليل بعتمته، ماذا يمكنكم أن تفعلوا، وماذا يمكن لآلهتكم أن تفعل؟ وهل أحد غيره سبحانه يمكنه تغيير الحال؟ لأن هذا شيء يحتاج لقدرة فائقة لفعله، ومن يملك هذه القدرة غيره سبحانه؟

بعبارة أخرى، كيف وما معنى شرككم بمن ترون نموذجاً واضحاً عن أفعاله؟ المستوى الضخم لإنارة كل الأرض، أليس من الواضح أنه فعل من مستوى إلهي؟ كّروا فيمن قلتم أنهم آلهة، من هم؟ وما هي قدراتهم؟ وخذوا نموذجاً لتسألوا إن كان لآلهتكم أي علاقة بحصول ظاهرة الليل والنهار؟

في آخر آية من هذه السورة سنتوسّع في دراسة كلمة "الله".

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ{72})
أيها النبي(ع) قل لهؤلاء المشركين عبر هذا القرآن:

{أَرَأَيْتُمْ}، أسألكم حين يصير عندكم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: شفتوا. {إِنْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا}، فتستمر فترة الضوء عليكم ولا تنتهي من الآن، {إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، إلى زمن قيامكم من الموت.

{مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ}، من عنده الصفات والقدرات الفائقة غير صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله"، {يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ}، يأتيكم بفترة عتمة تتوقفون فيها عن النشاط والحركة، لترتاحوا وتناموا؟

{أَفَلَا تُبْصِرُونَ}؟ من بعد لفت انتباهكم لحالة الليل والنهار، ألا يحصل عندكم وعي وفهم للصورة الصحيحة؟ ألا ترون أن إلهاً فائق القدرات والصفات يصنع هذه الظاهرة؟!

يمكننا الإغلاق على أنفسنا في غرف بلا نوافذ ونصير في العتمة لنسكن مبتعدين عن الضوء، ولكن لفت الانتباه هنا إلى ضخامة ما يحدث في بيئتنا من الضوء خلال اليوم، وارتباطه بنشاطنا فيه، والآية التالية سوف تشرح لنا أن المقصود من لفت انتباهنا لظاهرة الليل والنهار التي تتكرر كل يوم على أغلب سطح الأرض:

(وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{73})
{وَمِنْ رَحْمَتِهِ}، من عناية إلهكم الأحد العامة بكم لما فيه مصلحتكم، {جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}، {لِتَسْكُنُوا فِيهِ}، لتتوقفوا عن النشاط في فترة الليل في فترة العتمة من اليوم، {وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ}، وفي فترة النهار، في فترة الضياء من اليوم تطلبوا من الأمور التي أتاحها تعالى لكم بدون أن تعطوه سبحانه أي شيء منكم، فتستغلّوا فترة الضوء لتنشطوا وتعملوا على تحصيل رزقكم وعموم ما أتاحه تعالى لكم...

{وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، حيث صممّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" سبحانه بالحاجة للسكون ليلاً والنشاط نهاراً مع بيئة مناسبة لنا، ومن المفروض ومن المتوقّع منّا أن نشكره تعالى عليها، ونعبر له تعالى عن حصولنا على أشياء تنفعنا ونرغب بها.

ننتبه جيداً، ولا نذهب للتفكير بالطريقة أو بالآلية التي يمكن أن يختلّ بها الليل والنهار، أو كيف يمكن أن تصير أيامنا كلها ليلاً أو كلها نهاراً، وعلى كل سطح الأرض، لأن هذا يضيّع علينا فهم الآيات، لأنه سبحانه لديه العديد من الطرق حتى يجعل الليل بلا نهاية أو النهار بلا نهاية، وبطرق ربما نفهمها أو لا نفهمها، وليس هذا المهم، المهم أن نلتفت لقدرة "الإله" العظيمة التي صنعت هذه الآلة "الماكينة" الضخمة الرائعة التي تسبب الليل والنهار على كوكب الأرض والمتناسبة مع صفاتنا وما يريحنا.

بعد بيان الآيات السابقة لعظمته سبحانه، هنا في حياتنا اليومية، يأتي السؤال لما بعد يوم القيامة:

(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ{74})
يوم يناديهم، وفي الزمن الذي يوجّه فيه تعالى كلامه إلى المشركين، إلى الذين عبدوا بوذا سيجمعهم سبحانه مع بعض، والذين عبدوا النار مع بعض، والذين عبدوا هبل مع بعض، والذين عبدوا فرعون مع بعض... وهكذا مجموعات مجموعات كما سترى من الآية التالية، ويسألهم سبحانه فيقول لهم:

أين شركائي، أين الذين كنتم تقولون إنهم آلهة مثلي؟ الذين كنتم تزعمون؟ زعمتم وقلتم ومن دون استناد إلى أي حجّة إلّا قولكم، وقولكم لم يكن حجّة لأنه غير صحيح، وها ترون في هذا اليوم أنّ زعمكم غير صحيح، فأين هي الآلهة التي قلتم إنها تشاركني في الألوهية؟

طبعاً، سيكون من الواضح جداً في يوم القيامة أنه لا يوجد أحد له سلطة على أي شيء، إلّا ربنا سبحانه وتعالى، فسيكون من الواضح أنه سبحانه هو وحده الإله، ولن يكون لدى المشركين أي جواب.

(وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ{75})
{وَنَزَعْنَا}، أبعد واستخرج سبحانه، {مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ}، من كل مجموعة من الناس يوصفون بشيء مشترك بينهم ولهم امتداد تاريخي، حيث سحب منهم سبحانه، {شَهِيدًا}، شخصاً كان يعيش بينهم وشاهد ما حدث، وهو الآن مطلوب للإدلاء بشهادته أمامه سبحانه على أمّته.

{فَقُلْنَا} لهم، قال تعالى للأمم التي نزع منها الشهداء: {هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ}، أحضروا دليلكم الذي يثبت صحّة كلامكم، حيث كنتم تقولون إنّ الله سبحانه له شركاء في الألوهية، فبرهنوا على صحة كلامكم. يعني أنّ هذا الشاهد وذاك الشاهد... هم شخص أو أشخاص منكم يشهدون بأن البرهان الذي وصلكم يثبت أنه تعالى واحد أحد ودينه الحقّ، وأنتم بقيتم على شرككم.

{فَعَلِمُوا}، أمم هؤلاء الشهداء، {أَنَّ الْحَقَّ}، الصواب الصحيح، {لِلَّهِ} تعالى، فهو وحده الإله، وكل ما كانوا يقولونه عن آلهة أخرى لم يكن كلاماً حقاً بل كلاماً باطلاً وغير صحيح.

{وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}، تركهم توحيده تعالى واختراعهم وعبادتهم لآلهة من اختراعهم هو افتراء وهو تلفيق ألصقوه به تعالى ويعلمون أنه لا صحّة له، ورغم ذلك قالوه وفعلوه، وهذا شيء لن يصلهم منه أي نتيجة في يوم القيامة.

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شراً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضلّ عنك صيدها. استعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، لم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، ولن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي

موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} رداً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

لاحظ أنّ أكثر ما ورد في القرآن عن شهداء في الآخرة كان عن المؤمنين، ومثال عمّا ورد بوصف الشهادة لمن كفر على نفسه ما جاء في سورة الأنعام الآية 130 "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ"، وهنا في الآية يمكن حمل معنى الشهادة على الوجهين، وتحتمل أن يكون المقصود الشاهد على كفره وكفر أمّته، ولكن الأرجح حملها على شهادة مؤمن على قومه مثلما هي عادة ما يقوله القرآن غالباً.

ننتبه جيداً للشفافية والصدق في تعامله تعالى مع الأمور، نحن كمؤمنين نعتمد على أنه تعالى كلامه الحقّ، ولا ننتبه لشفافية تعاطيه تعالى مع الأمور، الآية هنا والتي سبقتها، والكثير من آيات القرآن في هذا الموضوع أو غيره، تريك شفافية تعامله تعالى مع كل الأمور، هنا السؤال عن تبريرهم لشركهم ليس مسرحية، بل سؤال حقيقي، فرضاً فرضاً فرضاً... ولسبب مجهول... كانت آلهتكم فعلاً آلهة، وفرضاً فرضاً غابت عن علمه تعالى، وفرضاً فرضاً أنتم تعلمون بشيء يثبت صحّة شرككم والله تعالى لا يعلمه... فها أنتم في موقف صعب جداً حيث ستتعرضون للعذاب الخالد بسبب عبادتكم لتلك الآلهة، فأين هي لتتدخّل؟ أليست هذه هي اللحظة المناسبة لتدخّلها؟

كما ترى في الواقع ليس هناك إله غيره تعالى، وبناءً عليه نرى سؤالهم عن آلهتهم لتأتي وتساعدهم، نراه تهكمياً كسخرية منهم، وفي الواقع هو كذلك ولكنه قبل ذلك هو أيضاً سؤال حقيقي يسأله تعالى بكل شفافية.

نفس هذا المفهوم تراه في الآية 18 من سورة يونس "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ..."، راجع دراستها لمزيد من التوسّع.

نفس المفهوم في سؤاله تعالى لإبليس لماذا لم يسجد، هل لديك جواب تبرّر به لرفض الأمر؟ بشفافية يسأله تعالى، وأنت كمؤمن سيتطوّر عندك هذا المفهوم لترى عظمته تعالى، سبحانه ورغم علمه الفائق الشامل للغيب، ورغم قدراته الفائقة لفعل ما يريد، ورغم طبيعته التي لا تنتفع ولا تتضرّر من أي شيء، ورغم ورغم... سبحانه يتعامل مع كائناته بشفافية، حيث يسألهم عن سبب شركهم، وعن سبب مخالفتهم لأوامره... سؤالاً حقيقياً، فرضاً فرضاً كان معهم حقّ فليبيّنوه لأنه سبحانه لا يتعامل مع الأمور بصلابة الحسم العبثية اللئيمة المتسلطة... هذه ليست صفاته سبحانه، فهو الرحمن الحليم...

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ{76})

{إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى}، الشخص الذي اسمه قارون كان ينتمي لجماعة الناس التي ينتمي لها النبي موسى(ع)، يعني هو وموسى(ع) كانا من بني إسرائيل، وقرأنا في بداية السورة كيف اتخذ الشابّ موسى(ع) قراراً بترك متاع الدنيا وزينتها التي كانت متاحة له عند فرعون، واستبدله بالدفاع عن المؤمنين المظلومين، أمّا قارون، {فَبَغَى عَلَيْهِمْ}، حيث خرج عن حدوده في تعامله مع قومه، وعاملهم بالتكبّر والاستعلاء عليهم وحرمانهم مما هو متاح له من أموال يحتاجونها كما سترى...

{وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ}، من العديد من التراكمات المجموعة من أشياء لها قيمة عالية، من المال والذهب والمجوهرات والحلي من المعادن... لدرجة، {مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ}، المفاتيح التي تفتح تلك الغرف التي فيها الكنوز، {لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ}، حيث تجعل جماعة متضامنة من الرجال يَنُوءُونَ ويحنون ظهورهم ويتمايلون من الوزن الثقيل لتلك المفاتيح.

الحديث في بعض الروايات عن الكميات الضخمة من الذهب في كنوز قارون هو كلام مبالغ فيه كثيراً، حيث في عصره كانت الحلي تصنع بكثرة من البرونز، وحينها كانت قيمتها عالية جداً، أضف إليه أن الكنز هو عامة الكنز لأي شيء له قيمة في زمنه، من العطور والسلاح والحجارة الشفافة والملونة...

ورد في الآية 61 من سورة النور كلمة مفاتحه ومعناها حتماً: مفاتيح. حيث هناك كانت الإشارة إلى أبواب البيوت "{لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ... وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ... أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ...}". والخزائن

في أيامنا لها أقفال بأرقام، ولكن في زمن قارون، كانوا يبنون مكاناً كبيراً "غرفة، حجرة" كخزانة، فيه ممر طويل، وفي الممر عدة أبواب، وفي الآخر، يوجد غرف فيها الكنوز، وهذا ما نراه من بعض آثار فراعنة تلك الحقبة. حتى تصل إلى الغرفة التي فيها الكنوز هناك العديد من الأبواب، وتلك الأبواب لها مفاتيح كبيرة الحجم ومصنوعة من المعدن أو الخشب، مما يعني أن حجم المفاتيح كبير ووزنها ثقيل، وفوق ذلك، كانوا يصنعون عدة أقفال للباب الواحد، وهكذا نفهم أن بضعة رجال كعصبة "عصابة" كمتعاونين مع بعض سيستصعبون حمل تلك المفاتيح.

بعبارة أخرى بحسب معطياتنا التاريخية عن خزائن تلك الحقبة، قارون كان لديه غرفة أو عدة غرف فيها كنوزه، وهذه الغرفة أو الغرف لها ممر واحد "أو ممرات" مغلق بالعديد من الأبواب، وهذه الأبواب لها مجموعة مفاتيح تحتاج لعدة أشخاص لحملها، يعني التصوير لحالة مثلما نحن نقول: حاطتهم تحت سابع أرض.

{إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ}، قال بنو إسرائيل لقارون: {لَا تَفْرَحْ}، لا تشعر بحالة جيّدة بسبب كنوزك، {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}. من الواضح جداً نقل الآية لنا قولهم له باختصار، لأنه يفرح في مقابل تعاسة قومه، وفرحه بغناه مقابل فقر وعوز الذين حوله، لأنه بَاغٍ مُعْتَدٍ ولا يعين من حوله بل يسخّرهم له، والآية تكملتها واضحة: لأن الله تعالى لا يحب الفرحين من نوعيتك أيها الباغي، حيث سبحانه يحب الفرح مع الإيمان والعمل الصالح، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 2 وما بعدها من سورة الروم "{غُلِبَتِ الرُّومُ... وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ... فِي بِضْعِ سِنِينَ... وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ}".

قارون فَرِحٌ لا يتأثر بأحوال الفقراء والمساكين، وهمّه زيادة كنوزه، حتى لو الذين من حوله ماتوا من الجوع، لا يهمه ولن يتصدّق عليهم ولن يعمل على إعانتهم.

في الروايات والتوراة معلومات عن قارون، ولكنها لا تتناسب مع الآيات القرآنية، ومن إشارتين في القرآن وردتا في الآية 39 من سورة العنكبوت "{وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ...}"، والآيتين 23 و 24 من سورة غافر "{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ، إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ}"، يبدو واضحاً أن قارون كان في مصر في عصر النبي موسى(ع) وفرعون وهامان، وكان باغياً على قومه ومن رجالات فرعون، لذا من الأكيد أن الخسف حصل معه في داره في مصر، قبل خروج بني إسرائيل منها.

ما هو دارج في أدبياتنا لوصف حالة بني إسرائيل في مصر أيّام النبي موسى(ع) أنهم عبيد، على المعنى الأقصى لكلمة عبد في مقابل حرّ بناءً على توصيفات القرآن لهم من تصريفات كلمة "عبد" والتي وردت في الآية 47 من سورة المؤمنون "{فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ}"، والآية 22 من سورة الشعراء "{وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}"، ليس صحيحاً، لأن معنى كلمة عبد أوسع من مقابلتها مع الحرّ أو مرادفتها بالمملوك، وهي لعموم من مفروض منه أو عليه الطاعة، وتنزل إلى عموم من يتصرف على أنه مفروض عليه تقديم الحبّ والاحترام والتقدير... ومن تبعات ذلك أن يكون العبد فاقداً للحرية بدرجة ما من الدرجات، ومن تبعات أنه مملوك أن يتصرف كعبد... ولمزيد من التوسّع راجع دراسة تلك الآيات.

أقول لك هذا لأن وضع بني إسرائيل تحت حكم فرعون يبدو منه معاملتهم في بعض الأمور بأسوأ من معاملة العبيد لدرجة قتل مواليدهم الذكور مدّة بعد مدّة... علماً أن حالة الخصي وحالة إضافة مستخرجات من النباتات لعقم النساء والرجال "كالكافور" كانت منتشرة عبر تاريخ المجتمعات كأساليب للتحكم بقدرة العبيد على الإنجاب... ولدرجة الاستهتار بحياة الناس كحالة الفرعوني الذي كان ينوي قتل الإسرائيلي فقتله النبي موسى(ع)... وفي المقابل ترى من مثال قارون أن واحداً من بني إسرائيل كان فاحش الثراء، لأنه حتماً من المتماشين مع سياسة فرعون، وبين قارون وبين عمّال السخرة الذين يحصلون فقط على الطعام مقابل العمل، هناك حتماً الحرفيون والفنيون والمهنيون... وبناءً على كل هذا استنسبنا وصف بني إسرائيل بالمواطنين من الدرجة الثانية، وهي حالة ترى لها شبهاً في المستعمرين الفارضين سلطتهم على الشعوب لدرجة استباحة قتلهم والمنع من محاكمة المستعمر...

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ{77})

وقال بنو إسرائيل لقارون:

{وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ}، واطلب وليكن هدفك في الكنوز والأموال والأراضي التي أتاحها تعالى لك، وابتغ بها {الدَّارَ الْآخِرَةَ}، فليكن هدفك أن يكون عندك حسنات تعطيك داراً، لتعطيك مكاناً تدور فيه شؤون حياتك في الحياة التي ستأتي في الآخر بعد انتهاء الحياة الدنيا.

{وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}، حيث لا نقول لك أن تنسى فيذهب من بالك نصيبك، ما هو مقسوم لك منه تعالى، من الدنيا، لأن هنا في الدنيا لك الحق بالتمتّع بما فيها ولكن ليس بالبغي علينا.

{وَأَحْسِنْ}، قُم بأعمال حسنة جيدة بما تملكه، وساعد الناس، {كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ}، مثلما سبحانه فعل معك شيئاً جيداً حيث أعطاك من الكنوز.

{وَلَا تَبْغِ}، لا يكن مرادك وهدفك، {الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ}، العمل بما يفسد حياة الناس، حيث تستغل فقر الناس واحتكارك لما يحتاجونه...

{إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}، لا يحب الذين يقومون بالأعمال الفاسدة، الأعمال التي تضر بمصالح الناس.

نلاحظ أن القائلين لهذا الكلام هم من المؤمنين، ووعظهم لقارون وأمرهم له بالمعروف ونهيه عن المنكر على الضوابط الأخلاقية الإلهية، حيث نقلت الآية كلاماً واعياً صدر عن بعض بني إسرائيل، وكما نجد في كل المجتمعات نوعية عالية من المؤمنين، نجد أيضاً من سيحسد قارون، ويتمنّى له الفقر... أمّا المؤمنون فيعظونه ليعمل على كسب الحسنات عبر مساعدة الناس واستعمال ثروته في صلاح الناس... وفي نفس الوقت أن يتمتّع بالحلال بماله...

يبدو واضحاً أن قارون مثله مثل غالبية أغنياء عصرنا، حيث يعملون على زيادة ثرواتهم باستغلال قوتهم المعنوية والمادية على شراء ما يريدون واحتكاره للتحكّم بسعره... ولا يقومون بأعمال تجارية فيها منفعة للناس بل يدخلون في المشاريع التي تربحهم المزيد من المال فقط...

بالنسبة لعموم تعابير القرآن المتضمنة ما يعني أنه تعالى آتى شيئاً ما لأحد ما، فهو وصف عمومي يشمل ما يؤتيه تعالى لأحد ما بتدخّل منه تعالى من خارج ما هو معتاد، وهذا بعض ما يحصل مع المؤمنين ومع الكافرين والفاسقين... كحالة وهبه تعالى الولد للنبي إبراهيم(ع)... ويشمل ما أتاحه تعالى لنا للحصول عليه بالقدرات التي جعلها تعالى فينا، حيث إنك إذا صمّمت كائنات وخلقتها، وجعلتها تأكل وتنمو... وصمّمت لها بيئة ينتج عنها ما تأكله، فأنت آتيتها أكلها، ورزقتها، وأنعمت عليها، وتفضّلت عليها... وهنا الكلام عن إتيانه تعالى لقارون الكنوز لأنه مما أتاحه لنا جميعاً للحصول عليه بالعمل والتجارة... وبقرار منه تعالى ليترك قارون يصير ثرياً ويفسد ويعاقبه ليكون أمثولة للآخرين...

ضع في بالك في عموم ما ورد في القرآن أنه تعالى لا يحبّه، أنها وردت حيث لا داعي للكلام القاسي، وخذ مثلاً كلامك معي حيث تريد تحذيري وتنبيهي لتقول: سأكسر عظامك لو فعلت كذا وكذا... حيث هذه نبرة عالية لا مبرر لها لأنك تعلم أني حالياً لست ناوياً لفعل السوء، والجملة الأنسب: لا أحب أن تفعل كذا وكذا... وعلى هذا المفهوم جاءت الآيات التي وجّهت كلامها إلى المؤمنين مستعملة عبارة مشابهة لعبارة "الله يحب أو لا يحب".

هنا وصفنا كلام المؤمنين مع قارون بأنه يتحلّى بالأدب الإلهي، لأنهم يقولون له إنه تعالى لا يحبّ ما تفعله.

بقي شيء من الفضول، حول ما يقولونه عن إعجاز تكرّر بعض كلمات القرآن بعدد ملفت، كقولهم عن تكرار كلمة ليل 12 مرة وكلمة نهار 12 مرة... حيث تتبعت غالبية الكلمات التي قالوها ووجدت غالبية كلامهم كذباً إلا في أقل من عشر كلمات، ومما تحققت وتأكدت منه كلمة شهر بالمفرد "شهر، شهراً" حيث تكررت 12 مرة، وتكررت كلمة شهر بالمثنى "شهرين" مرتين فقط. كلمة "رجل" بالمفرد تكررت 24 مرة، وكلمة "امرأة، امرأت" أيضاً تكررت 24 مرة. كلمة "يأمرون" تكررت 7 مرات، وكلمة "ينهون" أيضاً تكررت 7 مرات. كلمة "الخبيث" بالمفرد تكررت 7 مرات، وكلمة "الطيب" بالمفرد تكررت 7 مرات. وهناك كلمات أخرى فيها الكثير من التراخي والاستنسابية بحيث يلغون كلمة أو كلمات لسبب غير وجيه ويدّعون أن الأعداد متساوية كقولهم عن تكرار كلمة ملائكة والشيطان.

الغريب أن الحالة الوحيدة الصادقة بالتمام والوضوح ليست منتشرة في مقالاتهم وكتبهم! حيث فعلاً تكررت في القرآن جملة "الله يحب" 16 مرة، وجملة "الله لا يحب" 16 مرّة.

لكن، هل هذا يعني أي شيء؟ لا، حيث لا يحتاج القرآن لخزعبلات من هذا النوع ليصير له قيمة أو لنؤمن بأنه من مصدر إلهي، لأن ما فيه من حقّ وصلاح هو قيمته.

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ{78})
{قَالَ}، قارون: {إِنَّمَا أُوتِيتُهُ}، فقط حصلت على مالي، {عَلَى عِلْمٍ عِندِي}، عندي علم بكيفية التجارة وتشغيل الأموال، وبفهمي وذكائي وشطارتي جمّعت الكنوز، يعني لم أحصل عليها بفضل من الله تعالى حتى أستعملها كما يقول لي، على معنى القول بالعامية "مصراياتي وحُرٌّ فيهن". ولماذا لا أستغلّ فطنتي وذكائي لأحصل على المزيد! ولماذا سأساعد الناس! فليخططوا وليعملوا كما فعلت أنا...

{أَوَلَمْ يَعْلَمْ}، قارون، أَنَّ الله {قَدْ أَهْلَكَ}، استنفد حياة، أمات، {مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ}، من الناس الذين كانوا مقرونين ويعيشون مع بعض، وهؤلاء القرون كان فيهم، {مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ}، من قارون، {قُوَّةً}، والكلام هنا عن قوّة جمع المال بالحنكة واستغلال الفرص، {وَأَكْثَرُ جَمْعًا}، للمال، وكان عندهم كنوز أكثر من قارون.

ما معنى ثرائك الفاحش إن كانت نهايتك الموت ولم تستفد من كنوزك لما بعد الموت؟ وهنا في الدنيا مرّ قبلك الكثير من الأغنى منك وأقوى معنويا وبالسلطة وهلكوا، ومن هذا تنبع العديد من الأسئلة، ولماذا لم يستفيدوا من ثرائهم لاكتساب الحسنات التي تفيدهم لما بعد موتهم؟ ولو كانت الثروة تطيل العمر فلماذا لم يبق الأغنياء السابقون أحياء؟ والشعور بالسيطرة على كل شيء بسبب الثراء هو شعور خادع... ولماذا لا أنت ولا من سبقك استغللتم علمكم بذكائكم حتى تعيشوا مدّة أطول متمتعين بالمال؟ ومن موت الناس الأغنياء والفقراء ألا يبدو واضحا أن الجميع تحت سيطرة قدرة أقوى منهم صمّمتهم وخلقتهم بحيث لهم أجل محدّد؟ وما معنى نسيان ذلك والشعور بالقدرة الفائقة لأن الواحد منّا أتيحت له ظروف جمع فيها الكثير من المال؟

{وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ}، لن يُعَبِّرَ أي أحد للحصول على جواب من الذين ارتكبوا الأعمال التي يستحقون عليها العقاب، لأن جرائمهم معلومة عنده تعالى. وسياق الكلام هنا عن صدور الأمر الإلهي بإهلاك مجرم ثري هنا في الدنيا ولن يسأل سبحانه المجرم عن رأيه بالموضوع، وسيهلكه تعالى وينتهي أمره والقيمة التي كان يشعر بها بسبب ثرائه لم تنفعه.

في بعض الكتب لغط حول هذه الجملة على أساس أنها تتعارض مع الآيات التي تذكر الأسئلة لمحاسبة المجرمين، ففي الآخرة أسئلة للمجرمين عن سيئاتهم لمحاسبتهم عليها، ولكن كلام الآية هنا عن حالة النموذج قارون في الدنيا، فإذا سبحانه قرّر إهلاكه بسبب سوئه، فلن يسأله سبحانه رأيه بذنوبه إن كان يستحق العقاب عليها، ويهلكه تعالى بدون أن يسأله عن ذنوبه، وفي الآخرة سيسأله تعالى ليحاسبه عليها، وأيضا هناك حين يصدر القرار بتعذيب المجرم فلن يسأله تعالى عن ذنبه بعدما انتهى حسابه...

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ{79})
"في يوم من الأيام" {فَخَرَجَ}، قارون، {عَلَىٰ قَوْمِهِ}، على الناس الذين ينتمي لجماعتهم، {فِي زِينَتِهِ}، في الأشياء التي تحسّن وتجمّل المنظر والمظهر، من ضفائر ذهبية، وعقود، وأساور، وثياب ملونة وفخمة... وخدم وحشم...

أمام هذا المنظر، {قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}، لأن لديهم رغبة بزينة هذه الحياة التي نحن فيها الآن:

{يَا لَيْتَ لَنَا}، نرغب بشيء يكون لنا فاتنا ومن المستبعد حصوله لنا، {مِثْلَ}، شبه، {مَا أُوتِيَ قَارُونُ}، لو نحصل على ما حصل عليه قارون من الثروة... من المال والزينة والمجوهرات والرفاهية، {إِنَّهُ}، قارون، {لَذُو حَظٍّ}، حصل على الكنوز بسبب تقسيمه تعالى للرزق، {عَظِيمٍ}، فهناك تقسيم للأرزاق علينا ولا يمكننا التدخّل فيه، فكلّ واحد وحظّه، وكل واحد وما قرّره له تعالى، وقارون كانت قسمته من الرزق ضخمة.

المبالغات التي وردت في كتب أهل الكتاب وفي الروايات عن توصيف خروج موكب قارون بآلاف البغال المحمّلة بأطنان من الذهب ومن المشاة من العبيد المزينين بأطنان من الحلي! فهي من خيالاتهم وأحلامهم.

كلمة حظ في استعمال العرب قديما وفي القرآن ناظرة لقرار خارج عن إرادة المتقاسمين أو الذين حصلوا على شيء ما، فالحظ هو ما تحصل عليه مما ليس لك قرار في تقسيمه، سواء أكان جيدا أو سيئا ما حصلت عليه. وما هو دارج لمعنى الحظّ على معنى العشوائية غير المتوقعة للحصص أو الحوادث... فهي اشتقاقات يتحمّلها المعنى الأصلي لكلمة "حظّ" إن نظرت إليها من ناحية من لا يعلم على ماذا سيحصل.

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ{80})
{وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}، وهنا الكلام عن حصولهم على علم يميّزون به الخير من الشرّ وأن الدنيا زائلة فانية، وأن الحياة الآخرة أهمّ منها بكثير، وقالوا للذين تمنّوا أن يكونوا أغنياء مثل قارون:

{وَيْلَكُمْ}، يا لمصيبتكم العظيمة من هذا الكلام، انتبهوا لأنكم تقولون أشياء سيئة، {ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ}، ما يرجع علينا مما عنده تعالى موصوف بأنه حسن، {لِّمَنْ آمَنَ}، لمن اعتقد به تعالى وبرسله وكتبه... وإضافة للإيمان، {وَعَمِلَ صَالِحًا}، قام بالأعمال الجيّدة، وعمليا قام بواجباته الدينية، وترك ما حرّمه تعالى.

{وَلَا يُلَقَّاهَا}، لا يتقابل مع هذه الحالة ليحصل على ثوابه تعالى، ولا ينال الجنّة ولا يحصل عليها، {إِلَّا الصَّابِرُونَ}، إلّا الذين يتصرفون عن دراسة ووعي، ولا يتحكّم بهم غضبهم أو هواهم، وعندما ترون قارون في زينته، وأنتم فقراء وتحتاجون للمال، فاصبروا ولا تتمنوا أن تكونوا أغنياء واصبروا ولا تشكّوا بعدالة ربكم سبحانه ولا تنسوا أن قارون باغ ومصير أمثاله إلى النار، وعندما تكونوا "مؤمنين صالحين" صابرين ستحصلون على الجنّة التي لا مقارنة بينها وبين كل ما في الدنيا.

الصبر يكون على شيء تعتقد أنه سيذهب ولن يبقى، وعلى كلّ حال نحن سنموت وتنتهي الدنيا، وثوابه تعالى في الآخرة على الصبر في الدنيا سيكون بجنة خالدة.

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنتَصِرِينَ{81})
بعد ذلك، قرّر سبحانه مجازاة قارون الباغي.

{فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ}، جعلنا قارون مع المكان الذي كان يعيش فيه، جعلناه تحت مستوى سطح الأرض، فهبطت به الأرض وصار في حفرة عميقة، وانهارت الأرض بقارون وببيته وبغرفه التي كانت الكنوز فيها... وطمرتهم.

{فَمَا كَانَ لَهُ}، لقارون، {مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ}، أي جماعة مصنّفة بشيء ما، ولنقل إن مجموعة من الناس ستسارع لنجدة قارون من الموت وبيته من الخسف حتى يعطيهم من ماله، لا هؤلاء ولا الذين تمنّوا لو أنهم أثرياء مثله ولا غيرهم حقّقوا لقارون النجاة من أمره تعالى بالخسف، {وَمَا كَانَ}، قارون، {مِنَ الْمُنتَصِرِينَ}، من المحققين لما يريدونه، وهنا الكلام عن خسف وهلاك لقارون الذي يريد النجاة منه، ولم يجد من يحقق له ذلك وهو نفسه لم يستطع فعل أي شيء رغم ثرائه.

بكل وضوح ظهر أنه سبحانه مسؤول عن كل شيء، فمال وقوة قارون كانت آتية من مصدر أقوى وأغنى، وهو الله تعالى، وقرّر إنهاء الثروة والقوة والحياة لقارون، ولا أحد يمكنه معارضة تنفيذ قراره تعالى، ولا ثراء قارون سينفعه.

يعتقد الإسرائيليون حاليا أن الخسف بدار قارون حصل في منطقة كنعان، وبالأخص في مكان ما في صحراء سيناء لجهة السعودية، وذلك اعتمادا على التوراة "كما يقولون"، ولكن بقراءتنا لكل القصّة في التوراة، فمن غير المنطقي أن يكون لقارون دارٌ ضخمة فيها غرف لها أبواب عديدة ليخبئ فيها الكنوز بينما كان بنو إسرائيل يتنقلون مثل البدو في الصحراء، سواء قبل التيه أو أثناء التيه الذي استمر أربعين سنة! وبعضهم يقولون بأن قارون من الذين استوطنوا "في أرض مصر أو في أرض الكنعانيين" ولم يكملوا المسير مع النبي موسى(ع)... ولكن يبدو من الآيتين 23 و 24 من سورة غافر {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ، إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ} أن قارون كان

من أزلام السلطة والمشاركين معها باستضعاف بني إسرائيل، وفي الزمن الذي كان فيه موسى (ع) رسولا، وهكذا نفهم أن الخسف حدث مع قارون في مصر قبل خروج بني إسرائيل منها.

هذا لا يعني بالضرورة أن قارون كان في نفس المدينة التي فيها النبي موسى(ع)، ففي التوراة ذكروا أحداثا وأمورا جرت بين النبي موسى(ع) وقارون مباشرة، وهذا لا تجده في القرآن، والأكيد من القرآن أنهما من نفس الفترة الزمنية، وكلام القرآن يشير لحصول الخسف لبيت قارون في مصر، وما لا نعلمه إن كان في نفس المدينة مع النبي موسى(ع)، فلا يبدو من القرآن أن الخسف حصل والنبي موسى(ع) قريب من مكان وقوع الحادثة، وربما حصل الخسف قبل خروج النبي موسى(ع) من مصر وفي مدينة غير التي كان فيها النبي موسى(ع)، وهو الأرجح عندي.

أصلا لا نعلم إن كان التجمّع الأكبر لبني إسرائيل قريبا أم بعيدا عن مكان سكن فرعون، وربما كانا في مدن مختلفة، وربما كان بنو إسرائيل منتشرين في عدة مدن مصرية ولهم تجمّع كبير في مدينة ما...

يقول بعضهم إن هناك قصرا في مدينة الفيوم المصرية باسم: قصر قارون. وهناك بركة ماء في مدينة الفيوم أيضا يسمونها: بحيرة قارون. ويقولون بأنها المكان الذي حصل فيه الخسف، ولكن المعلومات التاريخية تؤكد أن القصر روماني، وأن البركة عمرها آلاف السنين قبل النبي موسى(ع)، وليكن هذا الكلام نموذجا لك حتى لا تثق بكل ما تجده في الكتب حتى لو كانت كتبا تعتبرها مرموقة... وكما ترى ليس لدينا أي مرجع تاريخي موثوق يحدّد مكان الخسف، ومن الأفضل الاكتفاء بالتركيز على العبرة من القصة والخسف، بدلا من البحث عن تلك الكنوز، وثواب الله تعالى خير من تلك الكنوز، فهذه كانت العبرة من كل قصّة قارون! وهل نستغلّ القصّة لنتمنّى لو أنّ لنا مثل ما أوتي قارون ونبحث عن كنزه!

(وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ{82})
بعد اختفاء قارون مع بيته الضخم في الأرض، {وَأَصْبَحَ}، أوّل ما صار مع الناس، {الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ}، الذين بالأمس، في الزمن القريب الماضي، البارحة وما قبله، وهم الذين أحبوا ورغبوا أن يكونوا مكان قارون في زينته وغناه، وهذا شيء كان أمنية لأنه كان شيئا من المستبعد ومن الصعب جدا حصوله... صاروا يقولون:

{وَيْ}، عبّروا عن التعجّب مع الاندهاش بألفاظ متعارف عليها دلالتها على ذلك، وتصنيفها اللغوي أنها أسماء أصوات، مثل لفظة: أف. المتعارف عليها للتململ والضجر، ولفظة: آخ. المتعارف عليها للتعبير عن الألم... {وَيْ}، {كَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ}، يمدّ بوفرة، {الرِّزْقَ}، عامّة ما يسد حاجاتنا ورغباتنا، المال والطعام... {لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة، والذين مفروض منهم طاعته وتأليهه وبيده قرار رزقهم ببسط بسعة، ويجعل هذا غنيا، {وَيْكَأَنَّ} الله تعالى، {يَقْدِرُ}، ويجعل الرزق بقدر، أي بكمية قليلة لمن يشاء من عباده.

بعبارة أخرى، هم لم يكن إيمانهم قويا، وكانوا مقتنعين بكلام قارون ومحاضراته عن فنّ تجميع المال "فقط" عبر ذكاء وجهد الإنسان على أساس أنه لا علاقة له سبحانه بذلك... وعندما رأوا قارون في زينته فقدوا صبرهم، ولم يعودوا يؤمنون بأنه تعالى له علاقة بتقسيم الرزق بسطا أو بقدر. ولكن عندما تدخّل سبحانه بشكل واضح جدا، وطمر قارون مع بيته الضخم تحت الأرض، ولم يحصل زلزال في المنطقة، ولم تنخسف البلدة، بل فقط وبالتحديد انخسف بيت قارون، فعندها تأكد هؤلاء، بأنه سبحانه هو المسيطر على كل شيء وأن ما حصل كان من فعله تعالى.

قال الذين تمنوا أن يكونوا محل قارون: {لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا}، لو لم يعطنا سبحانه شيئا يستحقّ أن نشكره عليه، {لَخَسَفَ بِنَا}، لجعلنا كلنا ننطمر تحت سطح الأرض مثلما حصل مع قارون الذي تمنينا لو كنّا مكانه في ثرائه، حيث سبحانه وعظنا بما حصل مع قارون وأعطانا فرصة لنتراجع عن صب اهتمامنا بتمنينا الثراء والاهتمام بالإيمان والعمل الصالح.

{وَيْ}، تعبير عن التعجّب مع الاندهاش، {كَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ}، لا يوصف بأنه فالح، لم يكن مجيدا في عمله، {الْكَافِرُونَ}، الناكرون لسيطرته سبحانه، الناكرون لتدخله سبحانه في تقسيم الرزق، وعمليا سبحانه سيعاقب الكافرين بذلك إمّا هنا في الدنيا كما فعل بقارون، أو في الآخرة فيرميهم في النار ولا فلاح في ذلك.

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ{83})
يعقّب سبحانه على الكلام: {تِلْكَ الدَّارُ}، ذلك المكان الذي تدور فيه شؤون الحياة الذي في، {الْآخِرَةِ}، في الحياة التي ستأتي في الآخر بعد انتهاء الحياة الدنيا، {نَجْعَلُهَا}، يعطيها تعالى، {لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ}، لا يريدون أن يكونوا أعلى من الآخرين الذين يعايشونهم في هذه الدنيا، ولا يريدون أن يكونوا من أمثال قارون ومن أمثال الذين يحبّون أن يكونوا مثل قارون.

{وَلَا}، يريدون، {فَسَادًا}، أعمالا وحالة باطلة عاطلة في الأرض ومتعارضة مع مصلحة الناس، ويقومون بالأعمال الفاسدة والتي تضرّ بحياة الناس وبيئتهم وأمنهم... هذا الكلام عمومي وهنا بالخصوص عن الذين يكنزون ويكنزون ولا ينفقون في سبيله تعالى ولا يقومون بمشاريع تساعد الناس... مما يزيد عدد المحرومين الفقراء، وهذا فساد.

{وَالْعَاقِبَةُ}، وما يعقب وما يأتي بعد ذلك كالخاتمة والنهاية، "السعيدة"، {لِلْمُتَّقِينَ}، للذين يتحاشون ويتجنبون، والكلام هنا عن تجنّب السوء وهو كنز المال بغيا... وهو نفسه تجنّب غضبه وعقابه سبحانه ولا يعصون أوامره تعالى بالكنز والعلو والفساد ونسيان فضله تعالى عليهم... والجنة للمتواضعين الصالحين.

(مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{84})
{مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ}، من قام بالعمل الموصوف بأنه حسن جيّد، {فَلَهُ}، مقابلها منه سبحانه، {خَيْرٌ مِّنْهَا}، ما هو موصوف بأنه حسن أكثر منها. وعمليا العمل الحسن هو نفسه طاعته سبحانه، بالقيام بالواجبات وترك المحرمات، ومن التزم بذلك إلى حين موته وقام في يوم القيامة حاملا لحسناته، فله منه سبحانه شيء موصوف بالحسن أكثر مما عمله، والمطيع لربه يقضي عشرة أو خمس عشرة دقيقة للصلاة في اليوم... وسبحانه يعطيه على تلك الدقائق القليلة، خلودا في قصور وجنات...

{وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ}، وقام في حياته بالأعمال الموصوفة بأنها سيّئة غير جيّدة، وعمليا لم يلتزم بالحلال والحرام الذي حدّده تعالى، {فَلَا يُجْزَى}، ولا ينال هؤلاء {الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ} المقابل على ما فعلوه، {إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، ولا يزيد سبحانه عليهم العقاب ولا ينقصه.

ما تقرأه في القرآن عن عذاب شديد خالد في النار كعقاب على الكفر والجرائم... فهو عقاب على مقدار الجريمة.

إلى هنا، انتهت الفقرة التي تحدثت عن نموذج قارون المعاكس لنموذج النبي موسى(ع)، وانتهت بخلاصة، أن من يطعه تعالى يفز، ومن يعصه يخسر.

بالنسبة لكلمة "خير" ففي الآية 61 توسعنا في معناها اللغوي، وأنها ليست مرادفة لأفضل، فكلمة "أفضل" باستعمال العرب لها قديما مستعملة بين شيئين كلاهما جيدان، وليست مستعملة بين شيء سيّء وشيء حسن، بينما كلمة "خير" فهي أعم ومستعملة بين شيئين كلاهما جيدان وواحد منهما أفضل من الآخر، ومستعملة بين شيئين أحدهما سيّء والآخر جيّد.

بقي شيء، سبحانه لا يعرض علينا شيئا جديدا غريبا في قرآنه، والعقيدة التي يعرضها حقّ، ولا يعرض علينا الإيمان بما هو خيالي أو لا واقع له، والله تعالى الإله بذات نفسه يعرّفنا بكلامه عن نفسه، ويرينا ذلك بسهولة من خلقه للسماوات والأرض وما فيها... وكلامه تعالى حقّ، وأخبار الآخرة ببعثنا ومحاسبتنا ومجازاتنا كلّها صحيحة، وجعل فينا سبحانه القدرة على تمييز الخير من الشرّ، ويعرض علينا ما من المفروض أن نراه خيرا صالحا.

هذا المفهوم القرآني مترابط مع سلامة القلب، {مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ}، عبارة تشير لما يراه الإنسان ذو القلب السليم حسنا، وقام به، وهو عمل يتماشى مع دينه تعالى لأنه تعالى لن يأمر إلا بما هو حسن.

قد لا تجد لهذا الكلام أي أهمية، ولكن انتبه لأن أهميته تراها عندما تسمع من يقول بأنه تعالى حين يأمر بأي شيء، حينها يصير هذا الشيء موصوفا بأنه حسن لأنه تعالى أمر به، حتى لو كان تصنيفنا له سيئا، ونراه سيئا، طالما أمر به تعالى سيصير حسنا، وهكذا يصير معنى الآيات التي مثل آيتنا هنا أن الحسنة هي ما أمر به تعالى حتى لو كنّا نراه

سيّئا، وهذا غير صحيح، بل ومدمّر للأسس التي خاطبنا بها القرآن عن تماشي أفكار ونفسية أصحاب القلوب السليمة مع أوامره تعالى، فهم لا ينفرون منها ولا يستصعبون تنفيذها لأنهم يرونها حسنة بل يحبّونها ويرغبونها، وهذا هو لبّ الدين الإلهي.

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاء بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{85})
{إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ}، أوجب عليك حتماً، {الْقُرْآنَ}، أنزل عليك ما يمكن قراءته وهو قرآن، وهذه تسمية خاصة لبعض ما ينزل وحيا على الرسول محمّد(ع) من كتاب... وصار واجبا عليك أيها النبي محمّد(ع) تنفيذ تعاليمه وتبليغه للناس، وهو الله تعالى الذي أنزله، {لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ}، حين تموت لن يتركك تستمر في حالة الموت بل ستصير في زمان وحالة قال تعالى لك عنها، وهي رجوعك إلى الحياة في يوم القيامة.

هذه الفقرة هنا من الآيات نفهم منها أن نزول القرآن لا معنى له لولا وجود موعد للحياة بعد الموت، نحن فرض سبحانه علينا الإيمان وتنفيذ ما جاء في القرآن، فإذا لم نلتزم به ماذا سيحصل؟ هنا تقول الآية أنه سيحصل شيء، هناك موعد محدّد ستعودون فيه إلى الحياة مرة ثانية لتتحاسبوا على اتباعكم أو ترككم لما جاء في القرآن. وهذا الكلام طبعاً يفترض بك معرفة أن ما جاء به القرآن حق وصلاح، ولا يهددك بالعقاب على الكفر به ومعارضته لمجرد أنه كلامه تعالى، بل لأنه كلام حقّ وصلاح واصل إليك من إلهك، وعلى ناحية كونك عبداً يجب عليه طاعة ما يصلك منه، وعلى ناحية كون إلهك حميداً ومنحك ما يجعلك تميّز بين الحقّ والباطل وإلهك يقول لك الحقّ ويجب عليك اتباع الحقّ، وهاتان النقطتان "كونك عبداً يجب عليه طاعة إلهه، وكونك تميّز بين الحقّ والباطل ويجب عليك الالتزام بالحق"، هاتان النقطتان مندمجتان مع بعض، وعلى أساسهما تتحدّث آيتنا هنا، بل كل الكلام القرآني مبني عليهما.

{قُلْ}، أيها النبي(ع) للناس:

{رَبِّي}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ}، والناس بالنسبة له سبحانه قسمان، وسبحانه الأعلم بمن نقل للآخرين الأشياء الصحيحة التي توصلهم لغاية صحيحة.

وربي أعلم بـ، {مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}، يعلم من هو على الأشياء الخطأ التي توصل لغاية خطأ بشكل واضح.

نلاحظ فقدان الوسطية، فإمّا أن يكون الشخص متّبعا للقرآن فيكون على الهدى، أو لا يكون متبعا للقرآن وبشكل واضح يكون ضالاً، طبعا أنت تعلم أن الكلام تطبيقيا عن حالات، ولا تقصد الآية أنه يوجد شخص يخالف كل عقيدة أو شريعة أو سلوك ذكره القرآن، ولكن تقصد أنه في أي موضوع كان، وأحدٌ ما فعل شيئا مخالفا لما يقوله القرآن، فهو حتما ضالٌّ.

نلاحظ كلاما في كتب التفاسير حول كلمة "معاد" في استعمال القرآن وبشكل واضح في الآية 20 من سورة الزمر {لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ}، والآية 31 من سورة الرعد {...حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ}، وفي غيرها من الآيات ترى أن ميعاد مشتقة من موعد "وعد"، وكل كلامهم حول المعاني الأخرى التي ذكروها هو منافٍ للمعنى العربي للكلمة ومنافٍ لاستعمال القرآن لها.

(وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ{86})
{وَمَا كُنتَ تَرْجُو}، أصلاً لم يكن عندك رجاء، وأصل الشعور لم يكن موجوداً ولم تحصل لديك حالة حبّ وتوقّع، {أَن يُلْقَىٰ}، ينزل عليك وتستقبل، {الْكِتَابُ}، الذي اسمه القرآن، {إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ}، إنما نزل الكتاب عليك بسبب عنايته تعالى بالناس لما فيه مصلحتهم حتى يهتدوا، ولولا نزول القرآن عليك أيها الرسول محمّد(ع) لما اهتديت أنت والذين يريدون أن يهتدوا للحقّ، وبما أنك صرت على علم بهداه تعالى، {فَلَا تَكُونَنَّ}، أيها النبي(ع)، {ظَهِيرًا}، معيناً ومساعداً، {لِّلْكَافِرِينَ}، للناكرين للحقّ، فلا عذر لك.

هذا تحذير وتنبيه للنبي محمّد(ع)، وهو طبيعي، لا تفهم من الآية أن النبي(ع) كان يعين الكفار، وهذه الآية منعته من التعاون معهم في كفرهم، لا، إنما الآية تقول بصراحة ما هو ممنوع على النبي(ع) وعلى كل المسلمين.

هذا مفهوم قرآني عام يطرح النبي محمّد(ع) كنموذج لنا، ووصلني ووصلك عبر هذا القرآن خبر بالعقاب لمن ساند المنكرين للدين الإلهي، والكلام الذي يبدو تهديدا للرسول محمّد(ع) إنما هو كلام يجعل من النبي محمّد(ع) نموذجا لي ولك، ما يقوله تعالى له (ع) إنما يقوله لنا جميعا، ومن هذا الكلام نتعلّم دينه تعالى وتكاليفه لنا.

فرضا لو كان عند محمّد(ع) فكرة إمكانية نزول كتاب إلهي عليه، لكان عنده رجاء، فهذا شيء يحبّه وربما يتوقّع حصوله، ولكن الآية تنقل لنا من داخل أفكار محمّد(ع) أنه أصلا لم تخطر الفكرة على باله، ولو خطرت لرجاها، ولذلك أصلا لم يكن الشعور "بالرجاء" بتلقّي الكتاب الإلهي موجوداً عنده (ع)، وتلقاه وصار نبيا رسولا.

قارنها مع ما مرّ سابقا في السورة من كلام عن الشابّ موسى(ع) الذي لم يخطر بباله أنه سيكون رسولا بتكليف مباشر منه تعالى وبكتاب، وتفاجأ حين كلّمه تعالى أوّل مرة...

(وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ{87})
{وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ}، ولا يمنعك عن الاستمرار بالإيمان بالأمور المميزة من مستوى إلهي، {بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ}، أنت بشكل خاص نحذّرك من الاعتذار أو التبرير بشيء منعك عن الاستمرار بالإيمان والعمل بالآيات التي نزلت عليك، بشيء سيئ ترغب به أو بضغط من أهلك أو مجتمعك...

{وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ}، أشْهِرْ وأعلن للناس أن يؤمنوا ويلتزموا بكلام المسؤول عنك من مستوى إلهي، {وَلَا تَكُونَنَّ}، لا أنت ولا الناس الذين دعوتهم للإيمان، {مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، ولا تقل بأن مع ربّك إلها آخر غيره مثلما يقول المشركون.

ورد في القرآن العديد من التنبيهات والتهديدات للنبي محمّد(ع)، وهي لا تعني أبدا أنه (ع) أشرك أو عصاه تعالى... لا، تذكّر الآية 118 من سورة البقرة "وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ..." بدل نزول الوحي عليك لوحدك يا محمد وجدالنا معك في صحّته... فلينزل علينا الوحي كلنا... وهذه طريقة مضمونة لتجعلنا نؤمن، وبما أنها لم تحصل، فكيف تقول بأن ربك يريدنا أن نعبده وحده! ها أمامه طريقة مضمونة ولم ينفذّها، أنت كاذب يا محمد... تذكّر هذا المفهوم المنتشر في العديد من السور بعبارات مختلفة، نزول القرآن على شخص ما لن يجعله مؤمنا، وفرضا كان مؤمنا لن يزيد في إيمانه، وهذا واضح أمامك من التحذيرات والتنبيهات للذي ينزل عليه هذا القرآن، لأن الوحي مجرد معلومات تصل إلى الوعي، ويتفاعل مع محتواها فكر ومشاعر الذي نزلت عليه، لا أكثر ولا أقل، فإمّا أن يكون فكرك ونفسيتك متوائمين متماشيين مع ما وصلك فتؤمن، أو ترفض محتوى ما يصلك لأنه لا يتماشى مع فكرك ونفسيتك بسبب تعلقك بالشهوات والغرائز السيئة، لن تؤمن حتى لو نزل عليك كل يوم مجلدات من الوحي من السماء، ولا فرق بين نزوله عليك وحياً في وعيك أو سماعك له من شخص آخر عبر أذنيك، فإمّا أن تكون أنت أصلا بقلب سليم فتقبله، أو بقلب مريض أو مطبوع على السوء والكذب... فترفضه.

من هذا نرى حالة شخص محمّد (ع) حين نزل عليه هذا القرآن، ونفهم معنى كلام الآيات هنا معه (ع)، هو كشخص سليم الفكر والنفسية، وسيتماشى مع الإيمان والالتزام الذي تأمره به الآيات، ومنها تعلّم الدين الإلهي، ومنه (ع) تعلمناها.

الكلام هنا ضمنا وبصراحة يأمره (ع) بالقيام بمهمّة دعوة الناس لدينه تعالى، وتذكّر دائما أننا كمؤمنين كلنا مكلفون بذلك، وبعضنا تكلّف منه تعالى مباشرة بذلك، وهم الذين نصطلح لهم الوصف بالرسل والأنبياء، وبعضنا تكلّف بما سمعه من الأنبياء والرسل.

(وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{88})
خاتمة السورة ولا أروع، فيها خلاصة الخلاصة:

{وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ}، لا تشهر ولا تعلن لأي كائن أن لديه صفات وقدرات فائقة لغير الكائن صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" عزّ وجلّ، {لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ}، لا يوجد كائن لديه صفات وقدرات فائقة إلا هو سبحانه.

عادة يذهب فكرنا من جملة "الدعاء لله تعالى" لنفهم منها الطلب منه سبحانه، لطلب الرزق أو طلب التوفيق والنجاح والشفاء... وهذا صحيح ولكنه ليس المعنى الحصري لكلمة "دعاء"، أكثر سياق الآيات القرآنية التي استعملت كلمة "دعاء" ومشتقاتها كانت تشير لخصوص الإشهار والإعلان أنه تعالى الإله الواحد الأحد وأننا مفروض منّا طاعته... وأن نشكره ونحمده... والنادر منها قصد الإعلان والإشهار طلبا منه تعالى لتحقيق وفعل شيءٍ نريده.

{كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ}، مستنفد يموت وله نهاية، {إِلَّا وَجْهَهُ}، أنت تهلك بينما الذي كنت تتوجّه بالدعاء له أنه إلهك وجهه باق لا يهلك، بقية الذين قد تتوجّه لهم فإن كانوا كائنات حقيقية فهم وجوههم تهلك ولا تبقى، لأن الجميع غيره تعالى فهم مخلوقات فانية، وإن كانوا كائنات وهمية كإله الرزق وإله المطر وإله الحبّ... فهذه أصلا وهمية لا وجه لها.

طبعا، وجهه سبحانه ليس شيئا محددا، وليس جسما، وليس فيه عينان وأنف... كما تقول: أتصدق لوجه الله تعالى. وتقصد أنك تتوجّه بعملك إليه تعالى وسبحانه ليستقبل عملك، وبنفس المعنى يردّ علينا الله سبحانه، ويقول لنا: إن هذا الوجه "الاتجاه" الذي تقربتم إليه بالأعمال الحسنة، هو باق لا يزول، وكل بقية الوجوه هالكة.

بعبارة أخرى كلمة وجه كاسم للعضو من الجسد هي وصف للعضو الذي نتوجّه به نحو الأشياء لنراها ونسمعها ونهتم بها، على الوصفية من التوجّه نقصد وصف العضو "الوجه"، بغض النظر عن أسبقية الكلمات إن كانت أول مرّة وضعها الناس للوصف أو كاسم للأشياء، أو أن الحالة خليط بين وضع أولي للأسماء لبعض الأشياء أولا، وبين جعل الصفة أولا وبعدها التسمية لكلمات أخرى، على أي حال مع تطوّر اللغة صارت الكلمات وصفية الاستعمال، ففَرْضاً سمّى البشر صفحة الرأس التي فيها العينان والفم بكلمة "وجه" أولا، وبعدها صارت كلمة "وجه" وصفية لما نتوجّه به، وصار منها "الاتجاه"... أو وضع البشر كلمة "جهة" كوصف وبعدها اشتقوا منه اسم "الوجه"، بغض النظر عن هذا البحث، عند استعمالنا للكثير من الكلمات نلغي الاسمية منها لنستعملها على الوصفية، نقول: ضع يدك معي. ونقصد ساعدني ولا نقصد أن تستعمل العضو يدك معي، على الوصفية لكلمة يد كأداة ووسيلة لما نفعل به الشيء أطلب منك مساعدتي.

من ناحية ثانية حين يجري استعمال اللغة البشرية للكلام عنه تعالى يجب سحب الخصائص البشرية من الكلمات، لأن لغتنا على قياس ما يمكننا فهمه ومما نختبره... سبحانه يتوجّه على عبد ما بالعناية، وعلى عبد آخر بالغضب واللعنة... وأنا أفعل الخير طالبا وجهه تعالى، طالبا توجّهه علي بالرحمة. ونفس الشيء استعمال كلمة عين له تعالى، ما يرى به تعالى هو عين، حتى لو كانت قدرته الفائقة سبحانه على الرؤية تتخطّى ما يمكنني فهمه لأنه سبحانه يرى كل شيء في كل السماوات والأرض ومن كل النواحي... ومعلوم أنه تعالى ليس كمثله شيء ليس له أعضاء، ولكن الكلمة البشرية الواصفة للقدرة على الرؤية تسمّي ذلك بالعين، وكمثال عن ذلك الآية 48 من سورة الطور "وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ"، البداهة تفهم قصدها أننا نراقبك ونتابع أمورك، وعمليا سبحانه يوصف بقدرة الرؤية الفائقة، وبلغتنا نحن البشر نصف الحالة بأن العين ترى.

بعبارة أخرى لو كان الاستعمال للغة البشر محصوراً بالاسمية، ولسنا متطورين لدرجة التوسّع بالكلمات ليصير استعمالها على الاسمية، لكنّا فهمنا كلام القرآن كلّه على الاسمية، ويصير لله تعالى عضو عين وعضو يد ووجه... ولكن لغتنا تطوّرت، ونستعملها على الوصفية، عموم ما ترى به الكائنات هو عين، الجن من النار ولهم عين، والملائكة لها عين، وسبحانه يوصف بأن له عين على معنى وصف قدرته على الرؤية بأنها عين.

من ناحية ثانية فرضا فرضا لم نكن متطورين لدرجة استعمال اللغة على الوصفية، وجاءنا كلام من الإله يصف به نفسه، ونعلم أنه كائن طبيعته إلهية، طبيعته مختلفة عن طبيعتنا، ووصف نفسه بكلام من لغتنا البشرية، واقع الحال يفرض نفسه، حتى نفهم على الإله حين يتكلم معنا المفروض أن يستعمل لغة بشرية لنفهم عليه، عندها أليس من البديهي سحب الخصائص البشرية من الكلمات الواصفة له تعالى بأسماء وصفات من لغة البشر التي وضعت تلك الكلمات لتصف وتسمّي بها المخلوقات؟ هذا أيضا بديهي.

نرجع للآية، {لَهُ الْحُكْمُ}، له تعالى ضبط الأمور كما هو مطلوب، وتطبيقيا الحكومة والسيطرة على فعل الصواب بيده سبحانه في كل شيء. من هذا الكلام يصير واضحا أنه لا معنى لتوجّهنا إلى من لا يملك صفة الحكم بمستوى إلهي.

{وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، عندما تموتون فأنتم لا تفنون ولا تختفون، بل إلى الله تعالى ترجعون... تلاقونه في الآخرة من بعدما يعيدكم إلى الحياة، وسيجازيكم... هذا خبر يستند على ما صرت تعلمه من قدراته الفائقة سبحانه، وأنه وحده الإله، ومما تراه من قدراته مما فعله في الدنيا... ومن بعض نماذج رجوع بعض الأموات إلى الحياة...

بالنسبة لكلمة إله، جعل سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرّف عليه سبحانه من ملاحظة أفعاله "آياته في خلقه" ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء...وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق بالقوّة الإلهية الفائقة عند الوقوع في الشدائد... وضعنا كلمة نصف بها الكائن ذا الصفات والقدرات العالية جدا عن قدراتنا، وهي كلمة "إله" كوصف لذي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلّق به عند الوقوع في الورطات...

في الحقيقة الكائن الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة، والذي ليس مخلوقا هو الله سبحانه، تساهل الناس في استعمال كلمة إله لتنطبق على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، يطلقونها على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أن فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي...".

القرآن يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهي، يقوّم اللغة ككلّ، ويُقَوِّمُ دقة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة "إله"، يخبرنا أنها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرّج في استعمالها.

المشركون الناطقون باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... استعملوا كلمة إله بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

قارنها مع كلمة "ربّ"، أنا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... هذه كلمة تتحمّل التدرّج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهي، فهي لا تتحمّل التدرّج، فهي حصرا له تعالى ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهي.

كلمة إله في حقيقة معناها لا تتحمّل التدرج لينوصف بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، حين يخبرك أنه خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، وسبحانه وظّف الملائكة(ع) التي خلقها لتنفيذ بعض أوامره... وهكذا ترى بوضوح أنه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، ماذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدّد له والمميّز "الله" جلّ جلاله فعل كل شيء، ما معنى ألوهية غيره! هذا ملخّص مبسّط للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

ألفت انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، حصروا استعمال كلمة إله للإله الكبير، واستعملوا للآخرين وصف الربّ، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربّة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون: إله المطر وإله الحرب... وعلى كل حال القرآن رفض توصيف غيره تعالى بالألوهية والربوبية من مستوى إلهي، المشركون يعتقدون بوجود كائن "ربّ" مسيطر على المطر من مستوى إلهي وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم أنه توصيف لألوهية أربابهم.

من ناحية ثانية لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، يصير الهوى إلها كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان "أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ..."، هي لا تشير لاعتقاد الشخص بأن هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لدين فيه ما يهواه، عمليا هو يعبد هواه.

بالنسبة لأصل كلمة "الله" هناك كلام كثير حولها، ويبدو من تتبّع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حاليا بالسامية... أن الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة "إله" ومنها جرى اشتقاق اسم العلم "الله"، وهذا الاسم لم يكن متداولا في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط للآخرين نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، كلمة إله واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات ما يسمّى بأصل اللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة الله من وصف الإله ومتى، فهل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قديما عبر الوحي، فالأرجح عندي "استذواقا" أنه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك "استذواقا" لأن المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين بلا مستند صريح لتأكيد كلام ما، هو بطبيعته يصير استذواقيا لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا ذات نفسي في سياق كلام آخر أستذوق أنه تعالى هو سمّى نفسه، ليس من المعقول ولا من المقبول منك أن تطلب حسما من الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دليلا حاسما، ولا مقبول من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنه الصحّ إلا اللهم إن قدّم دليلا دامغا، وهذا لا يبدو ممكنا في مسألتنا هذه.

سورة العنكبوت (29) ص 396

موضوع السورة عن عموم الفتنة في الدنيا لكل الناس، حيث الكل يتعرضون لضغوط أو مغريات وبعضهم يكفرون بالحق ويفعلون السوء ونتيجة هذا الاختيار عذاب في النار، وبعضهم ينجح ونتيجة ذلك مغفرة وجنّة الآخرة...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(الم{1})

هذه حروفٌ نتهجّاها مقطّعةً هكذا: ألف لام ميم.

الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوَّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع)

لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوِّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري...

لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ{2})
{الم}، هذه الأحرف الناقلة لكلامه تعالى إلى لغة يفهمها البشر يقول سبحانه فيها:

{أَحَسِبَ النَّاسُ}، هل خطر في بالهم من دون أن يفكّروا، {أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا}، فيقولوا اعتقدنا بشيء ما فيتركهم ولا يتدخّل بهم سبحانه، {وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}؟ لا يتعرّضون لشيء يعجبهم ويغيّرهم أو يقعون تحت ظروف قاهرة تغيّرهم... ليثبتوا أنهم مؤمنون حقيقيون. الفتنة هي عموم التأثّر وتغيُّر الحال "معنويا أو ماديا" بعد التعرّض لشيء ما،

وبوصف البشر بها تتدرج مِمَّنْ أعجبه وتعلّق به وتغيّر بسببه، إلى مَنْ أجبروه عليه وتماشى معه فتغيّر بسببه، أو تعرّض للشيء ولم يتغيّر، فافتتن ولم يتغيّر. هل خطر ببالهم من دون أن يفكّروا أنهم حين يقولون آمنّا أنّه تعالى سيتركهم بلا امتحان ينجحون فيه ليثبتوا أنهم مؤمنون؟

يخطر ببالنا أن الآية هنا تتحدّث عن مؤمنين حقيقيين في مقابلهم فاسقون ومنافقون افتتنوا وسقطوا، على أساس أن المجتمع مؤمن مسلم "مثلا" وتعرّضوا للفتنة، حيث فسق بعضهم ونافق آخرون، ولكن الكلام عمومي لكل البشر من النظرة الإلهية لهم بما جعل فيهم من قدرة على تمييز الحقّ من الباطل مع خاصية الإيمان بشيء ما، وبعضهم يؤمن به تعالى كإله واحد أحد وبعضهم يخترع إلها أو آلهة... وسبب ذلك هو افتتانهم وتعرّضهم لما هم فيه من قدرة وخاصية كبشر نتيجته أنهم سيؤمنون بشيء ما.

بعبارة أخرى، بناء على هذه المقدمة وعلى عموم مفاهيم القرآن، نفس الصورة التي نراها في مجتمع مسلم يتعرض للفتنة ويبقى بعضهم مؤمنين وآخرون يفسقون وينافقون، ومن النظرة الإلهية لكل البشر بما جعله تعالى فينا من إيمان بشيء ما، وبالقدرة التي فينا لتمييز الحقّ من الباطل، سنتعرّض للفتنة الفكرية والنفسية، ونتيجة لذلك بعضنا سيتبع سلامة القلب ويكون موحّدا مؤمنا به تعالى، وآخرون سيسقطون.

ننتبه جيدا، لأنّه سبحانه لن يتقصّد إسقاطنا في امتحانات صعبة حتى نخرج عن دينه الحقّ، بل وكما ترى من عموم القرآن، ومن هذه السورة بشكل واضح، القدرات الفكرية والنفسية التي فينا، والآيات في أنفسنا ومن حولنا... أكثر من كافية لنوحِّده تعالى ونرى السوء لنبتعد عنه، وسترى السورة هنا تعرض نماذج عن أقوام فعلوا السوء من أنواع مختلفة، والتي من المفروض أن يكون فهمها سهلا جدا علينا بسبب كثرة تكرار القرآن لها بعبارات متنوعة ومن زوايا مختلفة، ولكن بعض الناس سقطوا في فتنة هوى عبادة حجر... فتنة الربح من الغشّ... فتنة الفاحشة الجنسية السيئة...

بالنسبة لكلمة {آمَنَ} لم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإسلام أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصّحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة {آمَنَ} ومشتقاتها في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، حيث إنّ {آمَنَ} على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كلتاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ{3})
{وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، الذين سبقونا من الناس آمنوا بشيء ما متعرّضين لأمور تغيّرهم، وسترى نماذج عن ذلك خلال السورة بكلامها عمّن افتتن بما جعله يشرك وآخرين يشركون ويغشّون وآخرين يعتدون...

{فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا}، يفتنهم فيمتحنهم سبحانه حتى يعلم من منهم صادق في اتباع الحقّ والصلاح الذي لديه القدرة على تمييزه من الباطل والشرّ، {وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}، فبعد الفتنة يظهر الكاذب الذي لم يصدّق بالحق والصلاح.

بالنسبة لنا كمنتمين لدينه تعالى من السهل علينا فهم الكلام عنّا كواصف لمجتمعاتنا، وانطباق الآيات علينا صحيح ولكنها أعمّ ولكل البشر، كمثال، بالنسبة لنا كمنتمين لدينه تعالى ليس كل من يقول: أنا مؤمن، يكون صادقا في كلامه، إذ ربّما تكون له مصلحة دنيوية لذلك أعلن إيمانه، فيكون منافقا. أو ربّما يكون متماشيا مع موجة إيمان من حوله، فأعلن إيمانه لأن الغالبية أعلنت إيمانها، فلو تغيّر إيمان مجتمعه إلى الكفر أيضاً سيمشي على الموجة ويكفر... أو يُحْتَمَلُ أن يكون... هل يتركه الله تعالى بدون امتحان ويصنّفه مع المؤمنين، ويدخله الجنّة؟ لا، بل سيمتحنه سبحانه حتى يظهر على حقيقته، إمّا أن يرسخ ويثبت إيمانه وعندها يستحقّ الثواب، أو أن تظهر حقيقته الوسخة ويرسب في الامتحانات.

لترى أن الكلام هنا عمومي تَصَوَّر الحالة المعاكسة في يوم القيامة لمن ولد في بيئة كافرة فكفر لأن كل مجتمعه يرفض الإيمان فتماشى معهم، حيث تتَصَوَّره يقف ليتحاسب على كفره وهو ينظر للمولود في بيئة مسلمة ولم يتعرّض لأي امتحان! حيث سيقول الكافر: أنا أعترض، لأنّ الفرق بيني وبينه هو مكان الولادة، لو كنت مكانه لكنت آمنت... هنا

السورة توضّح للجميع أن هذا الاعتراض لن يحصل، لأنّنا كُلّنا سنتعرّض لامتحانات مهما كانت البيئة والزمن الذي نشأنا فيه، إذ فينا كلّنا نفس الأساس الذي يدلنا على الحقّ والباطل.

لاحظ أيضاً خلال كلام السورة عن المؤمن في مجتمع كافر، حيث إنّ بعض الناس يقول: مذ التزمت بالدين والمصائب تنزل على رأسي... في الحقيقة هذه المصائب تحصل من الناس بالدرجة الأولى ومنك بالدرجة الثانية، والمصائب التي تحصل بسبب الدين الإلهي أو التديّن فهي ليست من الدين الإلهي بل من معارضة الناس للحقّ. لو أعلن كل الناس التزامهم بدينه تعالى "كما هو مفروض"، فامتحان إيمانك لن يكون سهلا كما تتصوّر، إذ هناك حبّ الشهوات وحبّ الرياسة وحبّ المال والصوم وصلاة الفجر على الوقت... صحيح أن كل القرآن يؤكّد على الامتحانات بأنها من تدبير إلهي، ولكن فقط بيئة وورقة الامتحان من تدبير إلهي، أمّا استجابتنا للامتحان فهي بإرادتنا التي حصلنا عليها منه تعالى، إذ إنّ الشهوة والغريزة وغيرها... هي ورقة الامتحان الإلهية الموزعة على جميع البشر، وكيفية تصرفنا بإرادتنا يكون امتحاننا، ومن كل القرآن نعلم أن هذا هو المخطّط الإلهي لخلق الناس في هذه الدنيا، وهو جعلهم برغبات وشهوات وبصفات وبيئة مع حرية الإرادة والاختيار ليرى سبحانه كيف سيكون سلوكهم وعلى أساس أفعالهم سيحاسبهم ويجازيهم.

ننتبه لتعبير: {فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا}، التي لا تعني أبدا أنه تعالى لا يعلم من الصادق ومن الكاذب وينتظر نتيجة الامتحانات، لا، لأنّنا من القرآن نفهم أنه تعالى يعلم كل شيء، ويعلم ما يسرّون وما يعلنون، يعلم حقيقة داخل داخل كل واحد منّا، ويعلم إن كنت صادقا محبّا للإيمان مقتنعا بالآخرة والثواب... ويعلم إن كنت محبا للدنيا وللشهوات السيئة وإعلاني للإيمان يناسبني حتى أتزعّم على الناس أو يعاملوني باحترام أو أستفيد ماديا... لذلك سيفتنني وَيَمْتَحِنُنِي سبحانه حتى أظهر على حقيقتي. قبل ذلك، سبحانه من أول ما صمّم وخلق دنيا المخلوقات هو تعالى يعلم مصيري وما سأختاره في حياتي...

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاء مَا يَحْكُمُونَ{4})
{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ}، الذين يقومون بالأعمال الموصوفة بأنها سيئة، هل خطر في بالهم من دون أن يفكّروا، {أَن يَسْبِقُونَا}، فيصلوا إلى شيء ويفوته سبحانه! إذ يخالفون كلامه تعالى ويقومون بالأعمال السيّئة ويفوته تعالى ما عملوا فلا يحاسبهم ولا يجازيهم! {سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}، المفروض بمن يحكم أن يحكم بالصواب، فهل من الصواب خلقه تعالى لهم مع القدرة على تمييز الخير من الشرّ ولا يحاسبهم ويجازيهم على ما فعلوه من سوء؟ هذا حكم سيّء منهم عليه تعالى.

كما ترى، الآيات هنا هي لبّ دينه تعالى، ولا تعرض علينا شيئا غريبا عجيبا، نحن نميّز بين الخير والشرّ مع الرغبة في فعل الخير، لذلك نحن نصفه بالخير، ومع الكره للشرّ، نحن نصفه بالشرّ، فهل خلقنا سبحانه هكذا وسيتركنا بلا حساب وجزاء؟

(مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{5})
{مَن كَانَ}، من الناس، {يَرْجُو}، يحبّ ويتوقّع، {لِقَاءَ اللَّهِ}، ومن عامّة القرآن نفهم أنه اللقاء معه تعالى في الآخرة، {فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ}، حيث إنّ الوقت المحدد لحصول اللقاء مع الله تعالى آتٍ قادم حتما.

{وَهُوَ السَّمِيعُ}، الذي يسمع كل شيء، فيسمع ما يقوله الراجي للقائه، سواء قاله بلسانه أو بقلبه.

{وَهُوَ}، {الْعَلِيمُ}، فيعلم إن كان الراجي صادقا في رجائه، ويعلم أن اللقاء سيحصل حتما، مِمَّا يعني أنّنا تحت المراقبة.

إذن كلّنا معرّضون للفتنة وبعضنا تصرّف على أساس أنه يرجو لقاء ربّه سبحانه ليحاسبه ويجازيه، فترك السيئات وعمليا ترك ما حرّمه تعالى، لذلك تخبره الآية أن رجاءه في محلّه، وأنّه سيحصل حتما، وأنه تحت المراقبة، ولن يذهب سُدىً عمله المعتمد على رجاء لقائه تعالى في الآخرة ليجازيه بالجنّة.

(وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ{6})

{وَمَن جَاهَدَ}، الذي قام بعمل فيه جهد، والمقصود هو بذله الجهد ليبتعد عن الفتنة بالمشتهيات والرغبات... السيئة، {فَإِنَّمَا}، حصرا وفقط، {يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ}، حيث إنّ الجهد والمشقة والتعب... الذي يبذله لترك السوء سيحصل على نتيجة حسنة منه، {إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}، إذ لا يستفيد سبحانه من جهاد كل الناس إن جاهدوا لترك السوء ولا يتضرر سبحانه منهم إن لم يجاهدوا، بالنسبة له تعالى هي مثل بعضها سواء جاهدوا فآمنوا وعملوا الصالحات أو كفروا وعملوا السيئات، لأنّه تعالى بالغنى لا يحتاج منهم لأي شيء.

بعبارة أخرى، نحن لن نفيده تعالى إن آمنّا، إذ إنّه سبحانه لا يعرض علينا دينا كشيء غريب علينا أو فاسد... ليستفيد هو سبحانه منه، بل فقط يعرض علينا اتباع الحقّ والصلاح، ونحن المستفيدون من ذلك في الدنيا بصلاح دنيانا وفي الآخرة بمجازاته تعالى لنا بجنّة خالدة.

نلاحظ في الكثير من أدبيات الكفّار من وثنيين وملحدين وعلمانيين... اعتقادهم بأن الإله لديه حاجة يسدّها الناس بعبادتهم له، وإن لم يعبدوه سيختفي أو يموت أو يتضايق... ويحكم المنكرون لدينه تعالى على المتدينين أنهم اخترعوا إلها أو آلهة بأوصاف بشرية، إذ إنّني أصير بلا قيمة إن لم يعتبر لي الناس قيمة، وكذلك يقولون عن آلهة المتدينين أنها تصير بلا قيمة إن لم يكن لها جمهور يعبدها، وهكذا تُفْهَمُ التعابير القرآنية المتنوّعة من وصفه تعالى بالغني والعزيز... التي تقصد أنه تعالى لا يتأثّر ولا بأي شكل، إذ لا يتضرّر ولا يستفيد من كفرنا أو إيماننا... ولدينا العديد من التعابير المباشرة لهذا المعنى، ومنها ما ورد في الآية 176 من سورة آل عمران: {وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا}...

بالنسبة لوصفه تعالى بالغني، ليس تفسيرها أنه تعالى يملك كل شيء وبالتالي يصير المعنى أنه سبحانه يملك ما يحتاجه، وهذا غير صحيح، لأنّ كلمة "غني" تفيد معنى الاستغناء، وهو عموم انتفاء عموم الحاجة لعموم أي سبب، إمّا لأنك لا تحتاج أصلا للشيء، وهذه حالته تعالى {الْغَنِيُّ} بالنسبة لكل شيء، وحالة الملائكة بالنسبة لطعامنا... أو غني لأنك لديك ما تحتاجه وهذه حالتنا حين نملك الطعام والشراب... أو غني لأنك تملك ما يمكّنك من الحصول على ما تحتاج، وهذه حالتنا حين نملك المال لنشتري به ما نحتاجه. وترى هذا المعنى للاستغناء بشكل مباشر وواضح لأصل معنى كلمة "غني" في تعبير: {وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} كما ورد في الآية 97 من سورة آل عمران، حيث يشير الوصف بالغني بوضوح للاستغناء، إذ لا حاجة له تعالى بهم ولا بإيمانهم ولا يتضرّر منهم مهما فعلوا.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ{7})
{وَالَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا اعتقادهم بهذا الدين الإلهي، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، حيث قاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، فقد خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، فعمليا هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادة نفسّر "عملوا الصالحات" على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول أنهم صلّوا وصاموا... وهذا عمليا صحيح، ولكن بالأصل الكلام أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

وبشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموما وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائما أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به.

هذا الكلام له عمق، حيث لا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعا ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّا لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلا سيّء" سيكون في الحقيقة اختراعاً من البشر لصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمرا إلهيا.

{لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ}، فأعمالهم السيئة نسترها ونغطيها وكأنها لم تحصل فلا تظهر إثناء محاسبتهم، {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ}، فنعطيهم بالمقابل، {أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}، فما عملوه وكان موصوفا بأنه حسن سينالون المقابل عليه.

لاحظ في الآية أننا أمام مؤمنين ملتزمين دينيا، ولكن ارتكبوا بعض السيئات الصغيرة، أو ارتكبوا سيئات كبيرة ولكن تابوا منها بتوبة ندم حقيقية، فهؤلاء فعليا عليهم سيئات، ولكن بسبب توبتهم، ولأنهم مؤمنون، سيحصلون على مغفرة للسيئات التي فعلوها وتسجّلت عليهم، وقد عبّر القرآن بتعابير مختلفة عن التعامل الإلهي مع سيئاتهم، فمرّة بالعفو ومرة بالمغفرة ومرة بالتكفير... وستلاحظ أن الكلمات الثلاث لها معانٍ مختلفة إذ العفو، عفوت عنك: لسبب ما اعتبرت أنه لا قيمة عالية لفعلك السيّء فمررت عليه ولم أتوقف عنده. اعف عني: مرّ على سيّئتي ولسبب ما اعتبرها لا تستحقّ العقاب فلا تتوقّف عندها، قارنها مع الإنفاق من العفو مما لا تعتبر له قيمة عالية. والمغفرة تجاوز عن الذنب، والتكفير تغطية للذنب. والكلمات الثلاث نتيجتها واحدة: لن يتحاسب المؤمن على الذنب. ضع في ذهنك أن "كفر" بالفتحة على الفاء معناها أنكر، و"كفّر" بالشدة على الفاء معناها غطّى وستر، أمّا بالنسبة لانفصالهما أو اشتقاقهما من نفس المصدر فهو غير محسوم بالنسبة لي.

ننتبه لما ورد صراحة في الآية 31 من سورة النساء عن التكفير للسيئات أنه مشروط بالابتعاد عن الكبائر: {إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا}، ومن العديد من آيات القرآن نعلم أن التائب الحقيقي من ذنب كبير سيستحق التكفير عن ذنوبه.

لا تنسَ أن موضوع السورة عن الافتتان، وهنا تتحدّث الآية عن مؤمن افتتن وبشكل عام لم يسقط، ولكن ارتكب بعض السيئات، لتخبره السورة في بدايتها أن باب التكفير عن الذنوب مفتوح دائما، فليرجع وليتب، وليمت مؤمنا تائبا عاملا للصالحات، والتكفير عن الذنوب بانتظاره.

بقي شيء، من الواضح من الآية هنا أن التعبير بمجازاتهم بأحسن ما عملوا لا يشير إلى الحسن والأحسن، بل الأحسن مطلقا مقابل الأسوأ، لأنّ العمل الصغير الحسن، هو أحسن من أي عمل سيّء حتى لو كان سيئا صغيرا، فهناك معان استنبطوها من هذا التعبير القرآني والقرآن لم يقصدها، فقالوا إنّ العمل الحسن الصغير يتم رفع قيمته ليصير بقيمة أحسن عمل قمت به، وهذا ليس ما تقصده الآيات، فهنا من الواضح ما قلناه حيث السيئات كلّها يتم الستر عليها، ويتجازى فقط بالأعمال الحسنة التي قام بها، فأحسن ما عمله تشير لكل أعماله الحسنة، الصغيرة والكبيرة... في مقابل أسوأ ما عمله وهذا يشمل حتى أصغر الأعمال السيئة.

(وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{8})

{وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا}، وصلنا إلى "الغالب الأعم من الناس" أوامر وصاروا مسؤولين عن الالتزام بها وتنفيذها، وهي أن يعاملوا اللذين أولدوهم "والدتهم ووالدهم" معاملة حسنة، فلا يصدر من الولد أي تصرّف يؤذيهما.

{وَإِن جَاهَدَاكَ}، فعملا جاهدين بكل ما يستطيعان، {لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}، لتقول بأني لدي شركاء في الألوهية وهذا شيء ليس لك به علم، لأنك لو علمت أنت بأني لدي شركاء لكان معهم حقّ أن يجهدوا جهدهم لتشرك، ولكان معك حق أن تطيعهما، ولكن وكما هو واضح جدا لا يوجد إله غيري وأنت تعلم ذلك، {فَلَا تُطِعْهُمَا}، فلا تنفّذ ما يقوله والديك، فلا تشرك بي.

تذكّر دائما كلامه تعالى بشفافية في كل المواضيع ومع كل المخلوقات، كسؤاله تعالى لإبليس عن سبب رفضه السجود، فهل لديه عذر ما؟ علما أنه تعالى بعلمه الفائق يعلم كل شيء، ولكن يسأل بشفافية لأنه تعالى حكيم حليم...

إذ يأمرك سبحانه بالإحسان بوالديك فالمجال مفتوح أمامك لترضيهما بكل ما يطلبانه منك فهذا شأنك، فقد ترغب بشيء لا علاقة لهما به وهما يرفضانه، فأنت مخيّر بإطاعتهما أو معارضتهما ولكن ضمن حدود الإبقاء على الإحسان بهما بالكلام اللطيف والمسايرة والعناية بهما... إلا بالشرك به تعالى، فهذه مسألة خارج ما يمكنك التساهل به، وبالتالي إلا بمعصيته تعالى، فلا تطعهما، ولكن هذا لا يعني أبدا أن لا تحسن لهما لأنهما مشركان، إذ أصلا صاغ سبحانه العبارة بهذا الشكل لنفهم أنهما حتى لو كانا مشركين فسبحانه أوصاك بالإحسان إليهما، فيجب أن تؤمّن لهما ما يحتاجان ويجب أن تخدمهما... ويحرم عليك أن تتأفّف منهما...

{إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ}، أنت ووالديك بعد موتكم سترجعون إليه تعالى، ليحاسبكم، فإذا أشركت لترضي أهلك، أو لم تعاملهما بإحسان لأنهما مشركين أو فاسقين أو منافقين... فاعلم بأنك ستلاقيه تعالى، {فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، فما عملتموه خبره غير منتشر، أو تعايشتم معه ولم يعد خبرا جديدا أو ملفتا، أو نسيتم ما فعلتم من أصله... ففي يوم القيامة سيخبركم سبحانه عمّا فعلتموه، فأنتم تحت المراقبة فلا تتهاونوا بتوحيده تعالى حتى يرضى عنكم والداكم، فهذا عذر غير مقبول.

وكما ترى فالسورة بدأت بالكلام عن المؤمن في فتنة الوالدين المشركين، فتنبهه الآية أن الأمر الإلهي بالإحسان للوالدين لا يعني أبدا طاعتهما لتشرك بربّك سبحانه أو تعصيه.

من مشتقات الكلام هنا التعامل بالإحسان مع الوالدين الفاسقين والمنافقين.

ضع في بالك أن القرآن استعمل كلمة "إنسان" حين أشار لصفة مرتبطة بالكائن "نحن"، وليس بالضرورة أن تكون خاصّة بنا ولكنها مرتبطة بنا، فالتوالد من والدين صفة مرتبطة بنا وبالحيوانات، وبالتحديد فهي مرتبطة بنا كنوع من أنواع الكائنات التي خلقها تعالى، فالملائكة (ع) لا تتوالد "كما هو مشهور"، وهناك الكثير من الحيوانات التي تتوالد والكثير مما يبيض، ولدينا حالة النبي عيسى(ع) الذي توالد من أم بلا أب، وهذا شيء لم يمنع وصفه بالإنسانية، مثل الذين جرى توليدهم من خلايا جذعية في حاويات، فهم إنسان مع أنهم لم ينولدوا، ولهذا السبب يستعمل القرآن كلمة إنسان ليشير إلى الغالب الأعم منّا بشيء متعلق بطبيعتنا أو منتشر في غالبيتنا، وليس ليشير لكلّ البشر بدون استثناء.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ{9})
{وَالَّذِينَ آمَنُوا}، أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين الإلهي، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قاموا بالأعمال الموصوفة بأنها صالحة، وعمليا تركوا ما حرّمه سبحانه وفعلوا ما أوجبه، وتوسّعنا في الآية السابعة السابقة في دراسة تعبير {عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، {لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ}، عندما يرجعون إليه تعالى فحتما سيجعلهم في مجموعة الموصوفين بأنهم صالحون جيّدون. وهذا يعني دخولهم في الآخرة إلى جنّة خالدة.

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ{10})
{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ}، اعتقدنا بصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز {اللَّهِ} عزّ وجلّ أنه إلهنا.

{فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ}، حصل معه أي شيء مُؤْذٍ أقل من الضرر، وأي إزعاج ولو قليل حصل معه لأنه مؤمن به تعالى، عندها، {جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ}، جعل ما حصل معه مما تعرّض له من الناس وسبّب له الأذى "الضرر الخفيف"، {كَعَذَابِ اللَّهِ}! ولم يتحمّل أذية الناس الطفيفة وترك الإيمان والالتزام بدينه تعالى على أساس أنه لم يتحمّل الأذى من الناس، ولكنه بذلك سيتعرّض للعذاب للضرر من العيار الثقيل منه تعالى وهو لا يرى أن عذابه تعالى أشدّ بكثير من أي ضرر يحصل معه من الناس، فكيف إذا كانت المقارنة بين أذى "ضرر خفيف" وبين عذابه تعالى لمن كفر وفعل السيئات!

بعبارة أبسط، إذا تعرّض لسوء طفيف بسبب تدينه ففورا يترك التدين ولا يهمّه العذاب الإلهي الشديد على ذلك.

{وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ}، بسبب دعم المسؤول عنك من مستوى إلهي تحقّق للمؤمنين ما يريدونه، وصاروا حاكمين مسيطرين ولم يعد المؤمنون يتعرضون للأذية من الناس... {لَيَقُولُنَّ}، أولئك الناس التي تركت التديّن بسبب الأذى الطفيف الذي تعرّضوا له ولم يصبروا يقولون: {إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ}، نحن الآن نبدو لكم كافرين ولكنّا بسبب ظروف قاسية تركنا الإيمان وكنّا في السابق معكم من المؤمنين ولا زلنا من داخلنا كذلك، فلا تعاملونا ككفّار...

كما ترى، القرآن تحدّث في الآية عن حالات الظروف الصعبة وأمر المؤمنين بالهجرة للمحافظة على إيمانهم، ومن لم يستطع الهجرة سمح له تعالى عبر القرآن بكتم إيمانه بانتظار أول فرصة للهجرة، ولمزيد من التوسع في ذلك راجع دراسة الآية 101 من سورة النساء {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا}، وأمّا في الآية هنا فالكلام عن أذيّة عادية يمكن تحمّلها وهؤلاء تركوا الإيمان بسببها.

{أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ}؟ سبحانه يعلم وبالتفصيل بما يحصل من تفاعلات كل الناس مع ما يتعرضون له. فعلى من يضحكون وعلى من يكذبون حين يقولون بأنهم معكم من المؤمنين؟ والله تعالى يعلم تفاعلهم الداخلي مع ما تعرّضوا له من أذى، ويعلم أنهم ليسوا مستعدين لتحمّل أي شيء ليبقوا مؤمنين، وأنهم تركوا الإيمان لأسباب بسيطة...

الأذى وصف حالة عموم ما تشتكي منه ولكنه أقل من الضرر، ولا يستعمل في الأذى الجسدي بمعنى الضرر بل بمعنى الشكاية من شيء، كالضرب الخفيف الذي لا يسبب الضرر الجسدي وهو أذية، والدهان أو الصمغ على الجسد... أو الخسارة المالية البسيطة، وأكثر استعماله نفسي بسبب الشتم أو الإهانة أو المعاندة...

بالنسبة لكلمة {صَدْر}، {صُدُور} إن لم يكن القصد بها لأعضاء الجسد للقفص الصدري وما تحته من أعضاء... استعملها القرآن كما يستعملها الناطقون باللغة العربية وكما هي مستعملة في العديد من اللغات الأخرى، حيث نشير بالصدر للتفاعل الداخلي للإنسان مع ما يراه ويسمعه ويشعر به مما يتعرّض له... ونحن عندما نتعرّض لمختلف الظروف، نشعر بالانقباض أو الانشراح... في صدرنا، واستعملنا كلمة صدر لتوصيف حالة تفاعلنا مع الأمور، وحتى لو لم تشعر بأي شيء في قفصك الصدري، من انقباض أو صعوبة في التنفّس أو راحة... مجرد تفاعلك مع ما تعرّضت له، فإن مختلف اللغات البشرية تعبّر عن هذا التفاعل بأن شيئا حصل في صدرك، وحتى السرّ الذي تخفيه عن الآخرين تعبّر عنه مختلف اللغات بأنه في صدرك، وكلّنا نعلم أن السرّ ليس في القفص الصدري، لأنه ليس تحته في الرئة أو القلب أو المريء... بل هو تعبير يشير لحالة تفاعلنا مع ما ندركه سواء بقي مخفيا أو ظهر له أثر حسّي في منطقة الصدر أو على تعابيرنا وحركاتنا.

(وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ{11})
{وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين اعتقدوا فعلاً بهذا الدين الإلهي، {وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ}، الذين يخفون كفرهم به ويظهرون الإيمان أمام الآخرين كتمثيلية، الذين أعلنوا إيمانهم قبل انتشار الدين الإلهي وبعد انتشار الدين، سيتعرضون للفتنة الإلهية حتى يظهر المؤمن الحقيقي من المنافق الذي آمن في الظاهر ولكنه من داخله ليس مؤمنا حقيقيا.

من الآية هنا ترى بوضوح أنه تعالى لا يفعل أفخاخاً للمؤمن ليقع فيها ويكفر أو ينافق، بل يفتن سبحانه المنافقين ليظهروا على حقيقتهم، والكلام ليس عن معرفتك أنت بنفاقهم من بعدما افتتنوا وسقطوا، فهذا يحصل من خلال تعارض حكمه تعالى مع ما يريده أحدهم، يقول: لا يعجبني هذا الكلام حتى لو كان مكتوباً في القرآن صريحاً وواضحاً. ولكن الكلام عن علمه تعالى بهم، حيث توافقهم أنت في رأيهم ولا تراهم منافقين...

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ{12})
ننتقل إلى حالة يمرّ بها المؤمنون الذين يعيشون في مجتمع كافر:

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا الدين الإلهي، قالوا، {لِلَّذِينَ آمَنُوا}، للذين أعلنوا اعتقادهم بدينه تعالى:

{اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا}، كونوا على مسلكنا، امشوا على ما نحن عليه، لتكن عقيدتكم مثل عقيدتنا وأعمالكم مثل أعمالنا، {وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ}، وليكن العمل الذي يصفه دينكم بالسوء والذي نقوم به نحن ونقول لكم أن تفعلوه مثلنا، ليكن علينا، وإذا ذهبتم للحساب عند ربّكم كما تعتقدون، فنحن نتبرع لنتحاسب عنكم، وقولوا لربكم إننا نحن سنحمل عنكم الخطيئة، الأشياء السيئة التي قمتم بها وتسجّلت عليكم... وهكذا لا يوجد لديكم سبب لتخافوا مما يقوله دينكم عن الحساب والعقاب في الآخرة.

{وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ}، هذا الكلام غير صحيح، لأن كل واحد يرتكب خطيئة "عمل سيّء من الخطأ فعله" فهو نفسه سيتحاسب عليها، ويتحاسب معه "لا عنه" من شجّعه عليها وشاركه في الخطيئة.

{إِنَّهُمْ}، الكفّار، المنكرون للدين الإلهي، {لَكَاذِبُونَ}، لأن هذا الكلام عن التبرّع بحملهم لخطايا غيرهم هو كذب وليس حقيقة، وحين يواجه الآخرون خطر العذاب الكفّار يكذبون حين يقولون بأنهم يتبرعون بتلقّي العذاب عن الآخرين، لأنهم لن يفعلوا ذلك.

هناك حالات نادرة نسمع بها هنا في الدنيا عن تبرّع أحد ما بتلقّي عذاب ما عن آخرين... وكما تعلم، هذه حالة أكثر من نادرة، وكلام الآية هنا عن كذب الكافرين هنا في الدنيا، لأنهم لو فرضاً تعرّض المؤمن لعذاب من الآخرين بالضرب الشديد فهم لن يتبرّعوا لتلقّي الضرب عنه، وهم يكذبون حين يقولون إنهم مستعدون لتلقّي عقابه تعالى عن المؤمنين في الآخرة.

(وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ{13})
الذين يتبرعون بحمل خطايا غيرهم:

{وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ}، سيحملون ما له ثقل ما له حجم ووزن والناتج عن الأخطاء التي ارتكبوها، {وَلَيَحْمِلُنَّ}، {أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ}، وهي الأثقال الناتجة عن الذنوب التي ارتكبها أناس هم شجّعوهم على ارتكابها.

كل من ترك الصلاة سيحمل خطيئة تركه للصلاة، ولنقل للتقريب والتشبيه إن عقابه على ترك الصلاة مليار سنة في جهنّم، وإذا شجّع غيره على ترك الصلاة، فسيحمل "مثلاً تقريبياً" مليار سنة أخرى من العذاب، ويصير حسابه ملياري سنة، مليار على تركه الصلاة ومليار إضافي على تشجيع شخص آخر على ترك الصلاة. والذي أطاعه وترك الصلاة يبقى عقابه مليار سنة في جهنم. وطبعاً الكلام عن مليار سنة كعقاب لترك الصلاة هو مثال تشبيهي اخترعته لك لتقريب المعنى فقط، لأنه في القرآن لم يرد إلا الخلود في العذاب للمشركين وللمجرمين من الدرجة العالية، وأما الفاعلون للسوء من الدرجات الأقل فلا يخلدون في النار ولكن لم يفصّل القرآن في ذكر اختلاف مدّة تعذيبهم.

{وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، في زمن قيامهم من الموت سنعبّر لهم عن إرادتنا للحصول على أجوبة منهم، {عَمَّا}، عن الذي، {كَانُوا يَفْتَرُونَ}، لأنهم قالوا في الدنيا إنهم سيحملون الخطايا عن غيرهم، وهل حملوها واستفاد غيرهم؟ لا، لأنهم كانوا يقولون شيئاً كفرياً، ولن يفعلوه، مثلما تفتري على الآخرين حين تنسب لهم كلاماً لم يقولوه، لأنهم كانوا يفترون ويقولون كلاماً عن شيء هم لن يفعلوه.

ما هو دارج بين الناس العاديين حين يقولون إن الكلام ليس عليه جمرك، ويمكنك قول أي شيء تريده، وخصوصاً فيما يتعلّق بالأمور الدينية والآخرة حيث يستهترون ويقولون ما يحلو لهم... سيسألهم سبحانه عمّا قالوه في الدنيا، على أي أساس قلتموه؟ وهل أنتم مستعدون لتلقّي العذاب عن الآخرين؟...

كرّر القرآن عدّة مرات أنه في يوم القيامة لا توجد أسئلة من نوع التحقيق لمعرفة ماذا فعل الناس في حياتهم الدنيا، بل سؤال حساب، لأنه سؤال من يعلم ماذا فعلوا ويريد أن يحاسبهم، وهنا تقول الآية بأنهم سيتم سؤالهم عن افتراءاتهم التي يعلم بها الله تعالى، وسيعدّدها سبحانه لهم بصيغة السؤال: في اليوم كذا والساعة كذا هل قلت لفلان بأنك ستحمل الوزر عنه؟ والآن وبسبب تشجيعك له على فعل السوء سنجعلك تحمل أوزاراً إضافية، وسنحاسبك لأنك اخترعت مسألة حمل الخطايا عن الآخرين وكأنه تعالى يقبل بذلك...

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ{14})
{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ}، حمّلناه كلامنا لينقله للناس الذين لهم كيان الجماعة وهو (ع) ينتمي لجماعتهم، {فَلَبِثَ}، مرّ عليه زمن وهو حيّ في قومه، {أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا}، يعني قرابة 950 سنة، لو قالت الآية "إلا خمسين سنة" لكانت المدة بالضبط: اثني عشر شهراً مضروبة بتسعمئة وخمسين. ولكن لم تكن هذه هي المدّة بين ولادته (ع) وحصول الطوفان، بل كانت تسعمئة وخمسين سنة وبضعة أشهر، وعبّرت بالعام بدلا من السنة لأن العام إن اكتمل لاثني عشر شهراً فهو سنة وإن كان أقل "خلال السنة" فهو مسمّى العام، كما تقول: عام ألفين. وأي شهر من تلك السنة فهو شهر من العام ألفين. أو كما نقول عن الطفل: عمره سنةٌ وشهرانِ. وهو نفسه نقول عنه: دخل في عامه الثاني. ولا نحدّد كم شهراً هو في عامه الثاني.

{فَأَخَذَهُمُ}، لم يتركهم، {الطُّوفَانُ}، طاف الماء فغمرتهم وماتوا، {وَهُمْ ظَالِمُونَ}، غرقوا وهم على حالة الظلم، ولم يكونوا عادلين منصفين حين لم يؤمنوا، لأن الحق والحجّة والمنطق السليم... كانت واضحةً لجانب النبي نوح(ع)، ولكنهم ظلماً وبلا أي حق لم يؤمنوا، وماتوا وهم على هذه الحالة.

هناك كلام عن هذه المدّة، هل هي مدّة حياة النبي(ع) كلّها، أو هي مدّة دعوته لقومه... وإذا قرأت الآية على مهل ستنتبه أن القوم هم الناس الذين تعاصرهم في الزمان والمكان، وقومه (ع) ماتوا بالطوفان وهو(ع) بقي حيّاً كما تقول الآية، مما يعني أنه (ع) لبث فيهم من ولادته إلى ما قبل الطوفان تسعمئة وخمسين سنة وعدة أشهر، وبقي (ع) حيّاً بعد الطوفان، لذا على الأكيد عاش(ع) أكثر من تسعمئة وخمسين عاما، فهو نجا من الطوفان وعاش مدّة أخرى بعده.

هذه الفقرة من السورة تضعنا أمام حالة افتتان "نوح" كإنسان مثله مثل بقية الناس، حيث تعرّض لمختلف أنواع الضغوطات، ولمدّة تقارب الألف سنة ولم يتراجع عن دينه ولا عن الأمر الإلهي له بهداية قومه وإنذارهم، وتركت الآية الكلام عن الأذى والضرر الذي تعرّض له "نوح(ع)" لأنه معلوم الحال، وركّزت على بقائه على تديّنه.

وفي المقابل قومه كان بينهم شخص عمره غير عادي، إذ إنّ طول عمره آية كان من المفروض أن تجعل قومه يؤمنون به كرسول إلهي لأن طول عمره يحتاج لتدخّل إلهي ليحصل، ولكنهم لم يؤمنوا.

طبعاً لن تجد لكلام الآية أي معنى بالتفسير الذي ذكرناه إن كانت الفكرة "الضبابية" عندك عن الأنبياء أنهم بشكل عادي وطبيعي هم مؤمنون، لأنهم أنبياء، وبهذه الصورة لن نفهم الكثير مما قاله القرآن عنهم، حيث ذكرهم القرآن كنماذج من الناس، مثلنا مثلهم، ولكنهم حافظوا على سلامة قلوبهم، فتميّزوا بذلك، ولأنهم هكذا نزل عليهم الوحي ليكونوا واسطة لنقل أوامره وتوجيهاته تعالى إلينا، والوحي لم يجعلهم مؤمنين، ولا يجعلهم مؤمنين أكثر، وهم لا يرون الملائكة(ع)، ولا يسمعون صوتها إلا اللهم ما ندر وحصل مع القليل النادر منهم وفي حالات نادرة الحدوث، وهكذا نفهم كلام الآية هنا عمّن قال إنّه مؤمن بالتوحيد وافتتن لقرابة الألف سنة ولم يتراجع عن إيمانه، وفي مقابله قومه الذين عايشوا شخصاً عمره الطويل جدا من الواضح أن سببه تدخّلٌ إلهي ولم يؤمنوا!

أمّا بالنسبة لما تجده في تراثنا الإسلامي المنقول عن أهل الكتاب والذي يذكرون فيه العمر الطويل جدا للجيل الأول من الأنبياء، ويتدرّج طول العمر نزولا من آدم(ع) مروراً بشيث فإدريس... فنوح... لتصير المدّة الطويلة لحياة النبي نوح (ع) عادية بالنسبة لمن سبقه وتلاه من الأنبياء، حيث إن الذي كان قبله عاش قرابة الألف سنة والذي من بعده عاش أقل من ذلك بقليل، وبعده مروراً بالخمسمئة عام فالأربعمئة... وصولاً إلى المئة وما دون... فهذا كلام لا دليل عليه من القرآن ولا برواية موثوقة، ولا من الآثار، وهم في كلامهم لم يحصروا العمر الطويل جدا بالأنبياء بل عمّموه على من عاصر الأنبياء أيضاً من بقية الناس! وتجد في التراث كلاماً عن الأجساد الضخمة الهائلة الضخامة لتلك الأجيال من البشر! وهو أيضاً كلام مزعومٌ بلا دليل، ويظهر التخريف فيه بوضوح... إذ أحدهم كان مستلقياً ومرّت قافلة قرب رأسه، وبعد أيام من المسير وصلوا إلى قدميه! أو أحدهم سحب بيده الحوت الضخم من البحر وقرّبه من الشمس وشواه!

أطلت عليك لأن آيتنا هنا أيضاً ستفقد معناها استناداً لكلام التراث الديني، لأن القرآن يطرح عمر النبي نوح(ع) الطويل كآية، بينما في تراثهم صار هذا العمر الطويل حالة عادية، وكلامهم غير صحيح.

(فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ{15})
{فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ}، خلّص سبحانه النبي نوح(ع) من الطوفان وخلّص معه من كان معه في السفينة...

{وَجَعَلْنَاهَا}، السفينة، {آيَةً}، شيئاً مميزاً، {لِّلْعَالَمِينَ}، لكل الناس، حيث بقيت السفينة لزمن طويل بعد انتهاء الطوفان كظاهرة معروفة واضحة يراها كل الناس، ويعلمون أن من ركبها فقط نجا من الطوفان...

نحن الآن فقدنا أثرها، ولكن وصلنا خبرها، وربما لا تزال إلى الآن موجودة، وربما اندثرت أو احترقت أو انطمرت، أو استعمل الناس خشبها... على أي حال فالسفينة بقيت آية يراها الناس لسنين طويلة من بعد الطوفان.

تلاحظ أنه حين نزلت هذه الآيات القرآنية كان أثر السفينة مفقوداً، بل أثرها مفقود منذ بضعة آلاف من السنين، وهذا واضح من "الحزازير، الفوازير" في كتب اليهود حول مكان السفينة، مما يؤكّد أن السفينة "بهيكلها" كانت آية للناس لعدة عصور لما بعد الطوفان، وانطمست معالمها... ولكن خبرها الذي انتقل من جيل إلى جيل وللمجاورين ومنهم للمجاورين... هو الآية للعالمين وهو ما انتشر خبره لكل الناس عبر العصور، والقصص التي نجدها في المجتمعات المنتشرة على الأرض "الشرق الأوسط، الصين، الهند..." حول الطوفان والسفينة، ورغم اختلاف تلك القصص في تحديد هوية بانيها وسبب بنائها... يدلك على انتشار خبرها بين كل الناس بشكل مُلْفِتٍ، ولكن وكالعادة، تلاعب الناس بالقصة الأصلية، وتشوّهت وصارت قصصاً مختلفة، وأدخلوا فيها من تراثهم الثقافي... والمشترك بينها هو: سفينة ضخمة وطوفان ضخم.

بقي شيء، ما ستذكره السورة هنا من كلام عن أقوام جاءها رسل، هو متكرّر في العديد من سور القرآن، وكل محور كلام القرآن عن الهداية للحقّ، وتلك القصص المتكررة تتمحور حول ذلك، وكل سورة ذكرتهم تحدّثت عمّا يناسب محورها وموضوعها من قصّتهم بما يتعلّق بجانب ما من الهداية. والمشترك بين ذكرها في السور المختلفة هو تقصّد عرض التنوّع في السوء الذي ارتكبوه، فإن لسبب أو لآخر لم تشعر بسوء قوم النبي نوح(ع)، ولم تر فساد مجتمعهم بفساد حكّامهم وتشريعاتهم الظالمة، ولم تنشط عندك صورة معاناة الناس من الحكومات الفاسدة والتي هم ينتخبونها ويؤيدونها، وفيما بعد ينتقدون أداءها "كحالة بلدي لبنان..."، ولم تنشط عندك صورة مشكلة القوانين والتشريعات المعتمدة والمبنية على ما يهواه الناس وعلى العادات السيئة... وأن قوم النبي نوح(ع) إن بقوا فسيصيرون ما يشبه الدولة العظمى وسينشرون دين الكفر وتشريعات الفساد... ولن يلدوا إلا فاجراً كفّاراً كما تقرأ في الآية 27 من سورة نوح... فعندها لن ترى الفائدة من ذكر قصّتهم، ولكن قد ترى الفائدة من قصّة النبي إبراهيم(ع) الذي يمثّل الحقّ الصافي بكلامه العقلاني، وبدل استفادة قومه من هكذا شخص متميّز بتنوّره، حاولوا إحراقه! وإن لم تر الفائدة من ذلك فربما ترى طغيان وإسراف عاد وثمود مشكلة، خاصّة إن كنت في مجتمعك تتعرّض لضغوط مالية وترى الأغنياء مسرفين وأنت جائع أو أطفالك بحاجة للدواء... وإن لم تر ذلك مشكلة فهل غشّ مدين مشكلة؟ وأخيراً نصل إلى حيث من المستحيل أن لا يرى أحد ما المشكلة في قوم يعتدون جنسياً على الغرباء المارّين بالقرب من قريتهم، لأن هذه لا تحتاج لفهم ووعي من العيار الكبير للمشاكل الفكرية والاجتماعية والمالية... الواردة في قصص الأقوام السابقة.

(وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{16})

{وَإِبْرَاهِيمَ}، نذكر لك نموذجاً بارزاً آخر عن شخص عاش في مجتمع كافر تحت ظروف بالغة الصعوبة، وقومه افتتنوا بالشرك عبر اختراع آلهة متنوّعة... وكان عندهم تسامح ديني في اختراع أي آلهة يرونها مناسبة، وعلى ما يبدو من كلام القرآن عنهم ترى أنهم كانوا يعيشون ما يمكن وصفه بحالة الترف الفكري، وكانوا يرون أنفسهم متنوّرين فكرياً "وفلسفياً" لدرجة تنوّع عقائدهم وآلهتهم التي يعبدونها... وتعايشهم بسلام مع بعضهم رغم اختلاف آلهتهم.

{إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ}، للناس الذين ينتمي لجماعتهم:

{اعْبُدُوا اللَّهَ}، هو خلقكم ويملككم وأنتم عبيده ومفروض منكم طاعته وتأليهه لوحده وتصرّفوا على هذا الأساس، وتوقفوا عن الشرك به... {وَاتَّقُوهُ}، تجنبوا غضبه وعقابه، وعبادته تعالى واتقاؤه، {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، لأن شرككم ومعصيتكم لها نهاية سيئة جداً، ولو تعلمون بهذه النتيجة وبنتيجة من عبد واتقى لعلمتم أن الخير لكم أن تعبدوه وتتقوه سبحانه.

أكرّر لك يا عزيزي ويا عزيزتي ما لَفَتُّ انتباهك له في الآية 14 من هذه السورة، لأننا لن نفهم ما تقصده الآيات هنا إلى نهاية الفقرة التي تتحدّث عن بعض الأنبياء، ولن نفهمها إن كان في بالك أن النبي يرافقه ملاك يتحدّث معه كل النهار... وأن النبي ينزل عليه الوحي باستمرار وأن هذا يسبب له درجة عالية من الإيمان... وإن كان في بالك أن النبي مسلوب الإرادة ولا يمكنه الكفر بالدين، أو تفكّر بأن النبي بسبب نزول الوحي عليه من المستحيل أن يشكّ بالدين، أو غصباً عنه يعصمه تعالى ولن يفعل السوء... فلن تفهم غالب آيات القرآن التي تحدّثت عن النماذج المميزة الذين وبسبب تميّزهم صاروا أنبياء.

بشكل أوضح، إن كنت تتصوّر أن نزول الوحي الإلهي على إنسان ما سيجعله مؤمناً، فأنت مخطئ، وذكر القرآن هذا التفكير ونسبه للكفّار حين طلبوا من النبي محمد(ع) أن ينزل الوحي عليهم كلّهم، حتى يؤمنوا، وتقرأ ذلك في الآية 124 من سورة الأنعام {وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}... ونبّه القرآن مراراً وبطرق مختلفة أن الذين صاروا رسلاً وأنبياء هم أشخاص تميّزوا بنقاوة قلوبهم، وبعدها تميزوا بنزول الوحي عليهم... والآيات التي تتحدّث عن الأنبياء، وبالخصوص الفقرة هنا، إنما تشير لأشخاص مؤمنين تميّزوا بإيمانهم، وقاموا بمهمّة نقل الرسالة الإلهية للناس، لذا عليك أن تراهم كأشخاص مؤمنين عاشوا في مجتمع كافر آذاهم... ولم يتراجعوا عن إيمانهم.

تركيز السورة هنا على الفتنة التي يتعرض لها المؤمن في مجتمع كافر، سواء أكان المؤمن شخصاً عادياً أو نبياً أو رسولاً، وهذا ما تريد الآيات الإشارة إليه من ذكرها للأنبياء كأبرز نماذج عن "مؤمن" في مجتمع كافر، ولم يفتتن ولم يتراجع عن إيمانه، بل رغم كل ما تعرّض له استمر على إيمانه بل واستمرّ في نشر الدعوة الإلهية.

تضيف على ما سبق ما تبيّن في دراستنا هذه للقرآن أن إبراهيم من حين ما بدأ بمعارضة شرك قومه وصولاً إلى محاولة حرقهم له، لم ينزل عليه الوحي الإلهي، ولم يكن في حينها نبياً...

(إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{17})
{إِنَّمَا}، فقط وحصراً، {تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، تتركون عبادة صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" عزّ وجلّ وتعتبرون أنفسكم عبيداً لغيره، وتعتبرون أنكم مفروض عليكم طاعة، {أَوْثَانًا}، أشياء جامدة محدّدة لعبادتها؟ لأن التماثيل والأصنام وغيرها من الرموز عندما تتم عبادتها يصير اسمها وثناً.

كلمة صنم في الاستعمال القديم تشير كوصف لما كان جامداً لمّاعاً، وعلى التسمية هي لمنحوتة معبودة وعادة المنحوتة كتمثال تكون جامدة لماعة مصقولة. والوثن عموم أي جماد تتم عبادته من تمثال أو رمز كصليب أو مجرد حجر عادي... والتمثال عموم ما يمثّل كتشبيه أو رمز لشيء، كالمنحوتة التي تمثّل شيئاً، تمثّل إله الحرب أو إله المطر. التمثال المعبود وثن، والتمثال هو صنم يمثّل شيئاً ما، يمثّل إله المطر، يمثّل إله الحرب... والصخرة غير المنحوتة والتي شكلها لا يمثّل شيئاً، أو الحائط أو حجرة أو خشبة... ويعبدها أحدهم هي بالنسبة له وثن، وليست تمثالاً ولا صنماً.

{وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا}، أنتم تخلقون تلك الآلهة التي تعبدونها أنتم تخترعونها وتخترعون أسماءها وصفاتها... وكل ذلك إفك، لأنه قلب للحقيقة، وتجعلون الحقيقة معكوسة بينما الكلام الصحيح:

{إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، الذين تعتبرون أنفسكم عبيداً لها تاركين توحيده تعالى هم، {لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا}، حيث لا علاقة لهم بالأشياء التي معكم والتي تؤمّن لكم ما تحتاجونه وترغبون به، من مال وطعام... {فَابْتَغُوا}، اطلبوا، {عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ}، لأنه الإله الأحد وهو وحده يتيح لكم الرزق في بيئتكم.

{وَاعْبُدُوهُ}، وتصرّفوا على أساس أنكم مفروض منكم طاعته، {وَاشْكُرُوا لَهُ}، لأنه هو الذي يستحقّ منكم التعبير له عن سعادتكم بالرزق الذي معكم، لأنه هو سبحانه أتاحه لكم، {إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، لأن كلكم ستموتون ومن بعد الموت سيعيد تعالى إحياءكم وسترجعون إليه تعالى ليحاسبكم.

لو لم يكن هناك رجعة من الموت إليه سبحانه ليحاسبكم ويجازيكم على ما فعلتموه، لكان بإمكانكم فعل ما تشاؤون، فاعبدوا البرغش والبعوض إن شئتم، ولكن الموضوع ليس بهذا الشكل، لأن هناك رجعة إليه تعالى ليجازيكم على أي شيء سيئ وليس بحقّ، لذا انتبهوا.

(وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ{18})
{وَإِن تُكَذِّبُوا}، إن لم تعتقدوا بصحّة ما أقول عن الحساب على الشرك، {فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ}، هناك أناس كثيرون قبلكم كانوا يوصفون بشيء مشترك بينهم ولهم امتداد زماني حيث كذّبوا الرسل الإلهية، ولستم أوّل ناس ولا آخر ناس لا تؤمن، {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ}، لا يتوجّب على من ينقل الرسالة الإلهية لتبليغها للناس، {إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}، حيث يجب

عليه تبليغ الرسالة الإلهية بشكل واضح لـتصلكم بالتمام كما هي وبشكل واضح، وبعد ذلك ليس مطلوبا من الرسول أي شيء آخر.

لا يهم إن أطعتم الرسول أو عصيتموه، أنا مطلوب مِنّي فقط توصيل الكلام الإلهي لكم بالتمام وبشكل واضح، وسواء آمنتم أو كفرتم لا مشكلة عندي، ولا عند الله تعالى، لستم أول أناس يَكْفُرُون. لا تعطوا لأنفسكم أهمية كبيرة وتعتقدوا أنكم ستؤثرون على إلهي إن لم تؤمنوا به، وتعتقدوا أنه يحتاج لجماهير، لا، لأنَّ هذا لا يهمّه سبحانه، ولا تعتقدوا أنَّ من واجبي ومن مسؤولياتي أن تصيروا مؤمنين وأني سأتحاسب إن لم تؤمنوا، أو سأكون فاشلا إن لم تؤمنوا... لا، ولا تعتقدوا أني أنا بحاجة لجماهير تتبعني لتمشي على كلامي... لا.

استظهرنا في دراستنا هذه أن إبراهيم لم يكن يتواصل معه سبحانه حين عارض شرك قومه إلى حين حاولوا إحراقه، ولن تجد في القرآن أي تصريح يفيد بنزول الوحي عليه، ومن الصعب أن تفهم ذلك من التلميح، وآيتنا هنا مع الآية 75 من سورة الأنعام {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}، هما الآيتان الوحيدتان كما يبدو لي، واللتان تفهم منهما تواصلًا إلهيًا معه (ع)، راجع دراسة الآية 75 لترى أن رؤية ملكوت السماوات لا تحصل حصرا عبر نزول الوحي، وأمّا آيتنا هنا فتخريجها أصعب إذا كان في بالك اصطلاح الرسول المنتشر في الكتب، والذي يقولون فيه إنَّ كل رسول نبي، وراجع دراستنا للآية 45 من سورة القصص {وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ}، مِن دراستها رأينا عمومية الانوصاف بالرسولية لأي ناقل، وفهمنا أنه سبحانه يوظّف عبر الوحي بالرسالة أشخاصا، ويوصّف بالرسالة أشخاصا لم يُوحَ إليهم، إذ إنَّ الشابّ موسى هو الموصوف بالثاوي في مدين يتلو الآيات، وفي حينها لم يكن حصل تواصل إلهي معه، حيث حصل ذلك بعد خروجه من مدين ومروره بجانب الطور...

سترى في الآيات التالية أن الكلام منه تعالى، والأرجح عندي أن كلام الآية هنا منه تعالى يوصّف الشاب إبراهيم كمرسل منه تعالى مثل توصيف الشاب موسى كمرسل منه تعالى لمدين، ومعلوم أن موسى (ع) قام بعمل رسالي بنقل كلامه تعالى لمدين من دون أن يتوظّف رسميا منه تعالى كرسول، ويبدو أن الحالة هي نفسها هنا عن الشابّ إبراهيم حيث يقوم بعمل رسالي من دون توظيف رسمي له منه تعالى.

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {19})
تكملة تعليقه تعالى على الكلام بين إبراهيم وقومه:

{أَوَلَمْ يَرَوْا}، ألم تحصل لديهم صورة محدّدة كما نقول بالعامية: ما شافوا، ما التفتوا. {كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ}، كيف جعل سبحانه تركيب وتأليف الكائنات يبدأ، كلُّ ما تراه من مخلوقات من حولك من الواضح جدا أن لها بداية، والأوثان أنتم اخترعتموها، هل هي ابتدأت بالخلق! من الواضح أنها مخترعة حديثا حيث إنكم اخترعتموها، وكيف تكون آلهة خلقت ما كان قبلها!

{ثُمَّ يُعِيدُهُ}، يكرر سبحانه الخلق، من الواضح جدا من حولنا تكرار خلق الكائنات، في كل ثانية مليارات الكائنات تولد على الأرض، من نباتات وحشرات وحيوانات وبشر، مَن يخلقها؟

{إِنَّ ذَلِكَ}، الذي حصل من بداية الخلق وإعادة الخلق، {عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}، على صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" يحصل وليس فيه أي صعوبة.

الآية لا تلفت انتباهنا لإعادة الخلق في الآخرة، لأن هذا شيء لم نره، ولكنها تلفت انتباهنا إلى ما حولنا من تشكّل الكائنات، أمّا الأوثان فهي مجرد تماثيل وأصنام، صنعوها بأيديهم، واخترعوا لها أسماء وصفات من خيالاتهم، كيف تكون آلهة ويعبدونها إن لم تكن خلقتهم! بل بالعكس هم خلقوها من خيالهم وبأيديهم نحتوها!

عادة يبدو للبعض منّا سذاجة عابدي الأصنام التي يصنعونها بأيديهم، على أساس أن "الإنسان القديم" كان ساذجا وبسيطا، ولكن هذه التصرفات لا تزال موجودة وستبقى موجودة بشكلها القديم أو بحلّة جديدة، حيث انتقل الناس لعبادة الشخصيات الدينية وصنعوا تماثيل وصورا لها! وهناك من ينقل كل صفاته تعالى إلى قوانين الطبيعة! وهناك من ينقل

بعض صفاته الإلهية سبحانه إلى قدّيسيه... لا يزال خط عبادة الهوى مستمرا من قبل آدم (ع) وسيبقى مستمرا إلى آخر حياة البشرية... السذاجة لم تتوقّف بل تغيّرت تطبيقاتها وأشكالها فقط.

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {20})
{قُلْ}، عبر هذا القرآن لكل من لا يؤمن بالله تعالى إلها أحدا:

{سِيرُوا فِي الْأَرْضِ}، تنقّلوا فيها، {فَانظُرُوا}، وجّهوا اهتمامكم العام، كما نقول بالعامية: شوفوا. {كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ}، وسّعوا أفقكم من بيئتكم الضيّقة، وفكّروا فعلا كيف بدأ تركيب وتأليف الكائنات، لأنه حتماً يوجد بداية، هل وحدها تشكّلت؟ أم بالصدفة؟ ألا تدلّ المخلوقات على من صمّمها وخلقها...؟ وهل آلهتكم التي اخترعتموها أنتم لها أي علاقة؟

{ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ}، هذه النشأة الحالية، وهذه الموجودات التي نشأت وتركّبت من شيء سبقها، صاحب الاسم المحدّد المميّز الله سبحانه ينشئها حيث يركّب المخلوقات مرّة ثانية من شيء سابق لتكون النشأة الآخرة، في يوم القيامة سيعيد سبحانه إنشاءنا.

{إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، يقدر سبحانه على فعل أي شيء يريده بأي شيء، وهذا واضح مما فعله في السماوات والأرض الآن، لذا حتماً يمكنه خلقنا مرّة ثانية.

بقي شيء، الدارج في عقيدة عابدي الأصنام والأرواح والكواكب والآلهة الوهمية... أنهم يعتقدون بألوهية آلهة الأقوام الآخرين ولكن لا يعتبرون أنفسهم عبيدا لها، وعدة مرات سألهم القرآن بكلام مثل كلام آيتنا هنا، إن كان لكل قوم آلهة، هل كل قوم خلقتهم آلهتهم ولم تخلق الأقوام الآخرين؟ وماذا عن خلق الحيوانات والنباتات المنتشرة على وجه الأرض؟ وماذا عن الظواهر المشتركة من ليل ونهار ومطر... أي آلهة خلقتها... هل إله المطر الخاص بقوم ما هو مسؤول عن إنزال المطر على من يعبده، وآلهة المطر الأخرى مسؤولة عن إنزال المطر على عبيدها! من الواضح من حولنا أن إلها واحدا أحدا مسؤول عن تصميم وخلق وإنشاء كل شيء.

بالنسبة لكلمة "أنشأ"، معناها باستعمال العرب والقرآن: تكوين شيء من شيء سابق. من المادة أو من أبوين... وكلمة خَلْق تعني: عموم تركيب وتأليف أي شيء. الكلمتان قريبتان بشكل ما بالمعنى، والفرق البسيط أن "خلق" غير لاحظة لوجود شيء سابق جاهز لتركيب الكائن، و"أنشأ" ناظرة لوجود شيء سابق جاهز بدرجة ما ليتركّب منه كائن أو تحصل منه ظاهرة. ولذلك عادة نستعمل فيما بيننا وصف الإنشاء لما نفعله نحن من إنشاء أبنية أو إنشاء معامل...
نركّب الأشياء مستخدمين الخصائص فيما ركّبناها منه، ونحصر استعمال "خلق" به تعالى على أساس أن هذه الكلمة تشير للبدعة كشيء جديد يحصل.

مثال قرآني آخر عن إنشاء السحاب الوارد في الآية 12 من سورة الرعد {وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ}، الماء موجود، ومنه تكوّنت الغيوم، والاختلاف بسيط جدا بين الماء والغيمة، ولذلك نعبّر عنه بإنشاء السحاب. ولا نزال نستعمل كلمة "منشأة" على معناها الأساسي للمبنى الذي تركّب من أحجار جرى إعدادها للبناء.

(يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ {21})
القادر على إنشائنا مرّة ثانية:

{يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ}، أمامه تعالى خيارات عديدة وأخبرنا عن قراره "بحكمته" أن يصيب بالضرر المشركين به والعاصين لأوامره.

{وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ}، أمامه تعالى خيارات عديدة وأخبرنا سبحانه عن قراره بالعناية بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، يسامحهم على ذنوبهم ويضاعف لهم حسناتهم ويدخلهم إلى الجنّة.

{وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ}، أنتم في منقلب الدنيا، في ناحية الحياة الدنيا، وستنقلبون إلى ناحية الحياة الآخرة، إليه تعالى، لن تفنوا وتختفوا، ولن تذهبوا لإلهٍ آخر... بل إلى الله تعالى ستصلون، وتقفوا بين يديه تعالى ليعذّبكم أو يرحمكم.

لاحظ من دراسة آيتنا هنا أن ما تجده من كلام دارج في الكتب عن المشيئة الإلهية، وما يقولونه من أبحاث فكرية عنها... أكثره صفصفة كلام فارغ سبّب تشويشاً على فهم كلامه تعالى والخروج بنتائج فاسدة. وهي لعموم حالة إجراء "قرار أو إمضاء أو فعل أو قبول أو ترك..." شيء من خيارات عديدة، ويتدرج معناها بحسب الفاعل، بالنسبة لنا نحن البشر نشاء سواء أعجبنا أو لم يعجبنا، أمّا بالنسبة له تعالى فلا يحصل إلا ما يراه هو تعالى مناسبا، ويتركنا نفعل السوء لأنه شاء تعالى امتحاننا في الدنيا ليجازينا في الآخرة...

أضف إليه ما أخبرنا به تعالى عن قراراته الواضحة المنتشرة في القرآن، وكمثال عنها أنه تعالى حتما سيعيد خلقنا، وأن المجرم من الدرجة العالية مصيره حتما إلى النار خالدا، والمؤمن حتما إلى الجنّة... هذا ما شاءه تعالى من بين خيارات عديدة متاحة، ومعلوم أنه تعالى حكيم وكل قراراته...

(وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاء وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ{22})
{وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاء}، لن يعجز سبحانه عن إعادتكم إلى الحياة أينما كنتم في الأرض، وحتى لو كنتم في السماء، لأنكم تحت سلطته تعالى وتنالكم قدراته تعالى وسيطالكم الموت، وسترجعون إليه سبحانه أينما كنتم.

{وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ}، يلي أموركم وتكونوا تابعين له، كما نقول: ذهبتم من دوني. يعني تركتموني وذهبتم، وهنا المقصود: واليتم غيره تعالى، حيث تركتم ولايته واعتبرتم أنفسكم تابعين لغيره تعالى، ولن تجدوا من واليتموه لينفعكم في الآخرة، {وَلَا نَصِيرٍ}، حيث لن تجدوا من دونه تعالى من يحقّق لكم ما تريدونه، وهنا الكلام عن تحقيق النجاة من عذابه تعالى.

قارنها مع المؤمنين الذين والوه تعالى، واعتبروا أنفسهم تابعين له فقط، في الآخرة سيجدونه تعالى مهتما بهم برحمته، ومن والى غيره تعالى، فلن يجد هذا الولي في الآخرة وسيجد هناك أنه تعالى الولي الأحد من مستوى إلهي، والمشرك سيجد نفسه خارجاً عن اعتباره تعالى له وليا، وسيهمله سبحانه من رحمته ويعذّبه.

آيتنا هنا من الآيات النادرة التي توسّعت عمّا هو مألوف، لأن القرآن عادة يحدّثنا عن خروجنا من القبور بتعابير مختلفة، علماً أن القبور تندثر ويختفي أثرها، والكثيرون ماتوا في البحار أو البراري فلا قبور لهم... وكانت تلك الآيات تحاكي ما هو ساكن عادة في بالنا عن الأموات، لأنهم في القبور، ولم تقصد حصر خروجنا إلى الحياة فقط من القبور، ولكنها اختصرت كل الكلام وركّزت على نموذج القبور العالق في ذهننا، كنموذج كاف، حيث الكلام عادة في سور تريد تحذيرنا أو تخويفنا... وهنا ترى توسّعا في استرجاعنا إلى الحياة من عموم الأرض بفلاتها وبحارها... ومن عموم السماء، وحين نزلت هذه الآية لم يكن خاطراً على بال أحد ما أننا نموت في السماء، وكانت على معناها العمومي بالنسبة لهم بأنه تعالى لا يعجز عن أن يفعل بنا أي شيء أينما كنّا، وهذا معنى واسع يشمل استرجاعنا إلى الحياة أينما كنّا، ولا زالت الآية بالنسبة لنا عمومية بنفس المعنى، لأن الأرض تعبير عن عموم ما يقابله سماء، والسماء تعبير عن عموم ما يقابله أرض، والكلام هنا ليس محصورا بالموت في الفضاء الخارجي للأرض، بل لعموم أي سماء من السماوات السبع قد يموت فيها أي إنسان.

على أي حال، الجنّ يموتون في عالمهم وهم من نار، ولا ندري إن كان عندهم شيء كالقبور بالنسبة لنا، ولكنهم يموتون في سمائهم، ومعلوم أنه سيعيدهم سبحانه إلى الحياة، وبالتالي فرضاً مات بعض البشر في الفضاء أو في سماء غير سمائنا فهم مشمولون بإعادته تعالى لهم إلى الحياة على الأرض ليحاسبهم ويجازيهم.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{23})
{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ}، الذين أنكروا الأمور المميّزة التي فعلها تعالى والتي تدل على وحدانيته كإله، وكفروا بـ{لِقَائِهِ}، أنكروا وجود حياة أخرى بعد الموت يحصل فيها لقاء مواجهة معه تعالى وبالتالي محاسبته تعالى لعباده ومجازاتهم، {أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي}، انقطع أملهم من استعادة الحياة تحت العناية الإلهية لما فيه مصلحتهم، فمن رحمته تعالى بنا قرّر إعادة إحيائنا في الآخرة التي فيها السعادة في جنّة خالدة كجزاء على اتباع الحقّ في مدة عمرنا القصير في الدنيا، {وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، لهم ضرر يصيبهم لا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه.

لاحظ، لو آمنوا برحمته تعالى لتوقّعوا نيلهم عنايته تعالى لما فيه مصلحتهم في يوم الحساب، فلو كان لديهم على الأقل أمل برحمته تعالى لكانوا آمنوا بالآخرة وتوقّعوا أن يسامحهم ويغفر لهم ويثيبهم بالحسنى... ولكن هذه الفكرة غير واردة عندهم، أو هي ضعيفة جداً فلم يعتقدوا برحمته سبحانه، ولذلك تصرّفوا على أساس أن يرحمهم غيره، أو أصلاً لم يشعروا بحاجة لأي رحمة منه تعالى لأنهم لم يؤمنوا بالآخرة من أصله، وعلى هذا الأساس، فلن يرحمهم سبحانه لأنهم لم يؤمنوا به وبرحمته بالرغم من الآيات الكثيرة الأكثر من كافية ليؤمنوا... وسينالهم منه تعالى ما هو بعكس الرحمة، حيث سينالهم عذاب أليم يستحقونه.

بعبارة أخرى، رحمته تعالى كانت متاحة لهم ولكنهم أصرّوا على رفضها، وكفروا بالأمور المميّزة التي تدل على التوحيد والآخرة والرحمة فيها... واخترعوا آلهة وهمية، وفعلوا السوء... فهم يستحقون عذاباً أليماً بكل تأكيد.

(فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{24})
{فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ}، الناس الذين ينتمي إبراهيم(ع) لجماعتهم، كان ردّهم على كلامه حين قال لهم أن يعبدوا الله تعالى وحده ويعملوا لآخرتهم، {إِلَّا أَن قَالُوا}، وجوابهم فقط كان:

{اقْتُلُوهُ}، قوموا بإنهاء حياة إبراهيم رمياً بالحجارة أو شنقاً أو طعناً... {أَوْ حَرِّقُوهُ}، فَلْتَنْتَهِ حياته بالاحتراق بالنار.

لاحظ كيف اختصرت السورة كل التفاصيل وذكرت فقط مقاطع مما جرى، لأن تركيزها على شخص مؤمن افتتن بمجتمعه المشرك، ويريدون قتله بحرقه!

{فَأَنجَاهُ}، خلّصه، {اللَّهُ مِنَ النَّارِ}، {إِنَّ فِي ذَلِكَ}، في نجاة النبي إبراهيم(ع) من النار، {لَآيَاتٍ}، لأمور مميزة، {لِّقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة، {يُؤْمِنُونَ}، هم في حالة الاعتقاد بالله تعالى. أمّا من لا يؤمن بالله تعالى، فحين رأى النبي إبراهيم(ع) خارجاً يتمشّى من بين ألسنة النار، قال: حتى النار رفضت حرقه فرفضت لمسه لأنه نجس كافر بآلهتنا... أو قال بأن إله إبراهيم ربح علينا فأنجاه من النار ولكننا لن نعلنه إلهاً لنا ولن نترك آلهتنا، فهو إله إبراهيم لوحده... وحتى الآن إن خبر نجاته(ع) من النار هو آية فقط للمؤمنين بالله تعالى، كآية يرون فيها التدخّل الإلهي المباشر وأن أي آلهة أخرى يقول عنها الناس لم تفعل عبر التاريخ أي شيء مثل هذا.

لاحظ وانتبه أن عموم الكفّار الذين لم يؤمنوا بالآيات المنتشرة فيهم وفي خلقهم، لن يؤمنوا ولا بأي طريقة أخرى، ولا عبر أي آية مما نسميه معجزة كحالة خروج إبراهيم من نار عظيمة سالماً...

ننتبه لما حصل، حيث هناك شخص يقول كلاماً عقلانياً مدعوماً بأطنان من الأدلة... فبدل أن يوقّره قومه ويستغلّوا هذه الظاهرة النادرة ليستفيدوا منها ويتحضّروا فكرياً باتباع الحقّ، بالعكس قرّروا قتله، وحرقاً بنار ضخمة لينتقموا من مخالفته لعقائدهم!

(وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ{25})
يبدو أنه (ع) قال ما يلي بعد نجاته من النار.

{وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا}، أشياء جامدة تعتبرونها آلهة، تماثيلَ وأصناماً تعبدونها، {مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، فهنا كلكم على مودّة على وئام وحبّ فيما بينكم لأنكم تتشاركون في عبادة هذه الأوثان، فوصلت بكم الأمور لدرجة قبولكم واعترافكم بصحّة عقيدة من يعبد وثناً ويعتبره إلهاً! ولدرجة حصول مودّة التئام وتكاتف وحبّ بينكم، فيسعد الواحد منكم بتقريب قرابين أو احترام للوثن... ويقيمون الحفلات والأعياد الدينية... في مقابل العداوة ضد من يكفر بدينهم حتى لو كان معه حقّ، حيث تكاتفوا وتعاونوا على إحراق إبراهيم(ع)... {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، في زمن قيامكم من الموت، {يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ}، فينكر الواحد منكم الآخر حين يراه فلا يريد لقاءه ولا يريد الاجتماع به ولا يريد تكليمه... فلا مودّة بينهم هناك... {وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا}، حيث يطلب كلّ واحد للآخرين أن لا تنالهم أي رحمة إلهية.

{وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ}، والمكان المحدّد لبقائكم فيه هو النار، {وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ}، لن تجدوا من يحقّق لكم مطلبكم للخروج من النار، ولن تتعاونوا مع بعض ولا آلهتكم ستعينكم.

تلاحظ بوضوح وجه المقارنة بين رميهم له (ع) بالنار هنا في الدنيا وتدخّله تعالى لنصرته، وبين رميه تعالى لهم في النار في الآخرة وأنهم لن يجدوا من ينصرهم.

(فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{26})
{فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ}، أعلن المدعو لوط(ع) اعتقاده بإله إبراهيم(ع) وبالآخرة والحساب... {وَقَالَ} إبراهيم(ع):

{إِنِّي مُهَاجِرٌ}، سوف أترك بلادي والسكن فيها وأنتقل، {إِلَى رَبِّي}، إلى المسؤول عنّي من مستوى إلهي، سأنتقل حيث يمكنني عبادة ربّي من دون أن يمنعني أحد، {إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... وهو {الْحَكِيمُ}، وكلمة حكمة ومشتقاتها تشير لعموم ضبط الشيء على المطلوب: على الصوابية على الحقّ... وعلى نفس المعنى الأساسي نقول: أحكم الوثاق، حكم بالعدل، حكومة على الناس... وتفسير الحكمة بالأهداف والغايات السامية هو من تبعات تطبيق صوابية الحقّ، ووصفه تعالى بالحكيم يشير لصوابية نظرته في الأمور وأن قراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب، وقراراته وأفعاله كلها متقنة وحقٌّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول بأن أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، لأنه لا يفعل لغاية له سبحانه.

بعبارة أخرى، آمن لوط(ع) وهاجر مع إبراهيم(ع) الذي أعلن أنه مهاجر إلى حيث لا يتعرض للاعتداء بسبب إيمانه، وهذه الهجرة ليست مفروضة عليه ولا على ربّه العزيز الذي يمكنه فعل ما يريد، وكنموذج عنه إنجاء عبده إبراهيم من النار، إذ بإمكانه تعالى إبادة كل القوم... الحكيم، الذي ولسبب حكيم ترك عبده يهاجر ليستقرّ في مكان آخر.

حينها لم يكن لوط(ع) نبياً ولا رسولاً، بل أعلن وأظهر إيمانه في الفترة ما بين إحراق إبراهيم(ع) وإعلانه لمغادرة المدينة كما يبدو من الآية.

من المشهور في التاريخ، والمنتشر بين عامة الناس، أن لوطاً (ع) وسارة التي تزوّجها النبي إبراهيم(ع) هما فقط آمنا بإبراهيم(ع)، إذ إنّ شخصين فقط من كل قومه آمنا.

تذكّر ما ورد في الآية 14 من كلام حول هذه النماذج المؤمنة من الناس، والتي تحت أصعب الظروف بقيت متمسكّة بإيمانها، فلو فكّرت فيها من نظرة القداسة للأنبياء من دون اعتبارهم مثلي ومثلك وأن الفرق بيننا أنهم هم وبقرارهم اتبعوا سلامة القلب واستمروا عليها... وأن نزول الوحي عليهم لم يجعلهم مؤمنين ولم يجبرهم على الإيمان ولا حوّلهم من أشخاص عاديين إلى أشخاص لا يمكنهم معصيته تعالى... فلو فكّرت فيها من هذه الناحية سترى لوطاً كشخص عادي مثلي مثله، ولكنه كان سليم القلب، فلم يشرك، وتماشى مع ما يسمعه من إبراهيم، وقرّر الهجرة ليكون حرّاً في إيمانه وغير مجبور على إخفاء كفره بالشرك فهو مؤمن بالله تعالى إلهاً أحداً... وبالنسبة لموضوع السورة هنا فهو نموذج عمّن قال: آمنت. وافتتن، ولم يتغيّر عن إيمانه.

بينما قومه افتتنوا بالهوى والسيئات فأشركوا، وافتتنوا بشخص عقلاني كلامه حقّ، فقرّروا إحراقه...

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ{27})
{وَوَهَبْنَا لَهُ}، أعطينا للنبي إبراهيم(ع) من دون أي مقابل، ولداً أسميناه، {إِسْحَاقَ}، وأعطيناه، {يَعْقُوبَ}، ابناً من إسحاق(ع). وكما تعلم كانت امرأته المشهور اسمها "سارة"، كانت عقيماً فأصلحها سبحانه وتعالى وجعلها تنجب الأولاد، كما نفهم من الآية 29 من سورة الذاريات "فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ"، {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ}، في الذين انفصلوا عن إبراهيم (ع) بالولادة، في أولاده وأولاد أولاده... {النُّبُوَّةَ}، وكل من سيصلهم النبأ وهو الخبر غير المنتشر عمله بين الناس، وهنا الكلام عن خبر منه تعالى للناس، فيصير وصفهم أنبياء،

وكل الأنبياء الآتين من بعده سيكونون من ذريته، من أولاد وأولاد أولاده... وجعلنا في ذريته، {الْكِتَابَ}، حيث كل الكتب الإلهية ستنزل حصراً على أفراد من ذريته (ع).

{وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا}، قام بالأعمال الحسنة التي يستحق عليها الأجر، فيستحقّ عليها شيئاً قرّره تعالى، وقرر سبحانه هنا في الدنيا أن يعطيه الأولاد والأمان والنعمة... {وَإِنَّهُ}، إبراهيم(ع)، {فِي الْآخِرَةِ}، في الحياة التي ستأتي في الآخر بعد الحياة الدنيا الأولى، {لَمِنَ الصَّالِحِينَ}، فتصنيفه أنه من الصالحين عملاً، من الذين كان سلوكهم جيداً، وهذا عملياً يعني أنه (ع) سيدخل إلى الجنّة.

كلامه تعالى عن جعله الأنبياء ونزول الكتب على أشخاص حصراً من ذرية النبي إبراهيم(ع)، ليس المقصود منه تخصيصهم بشيء لم يكن متاحاً للبقية، فأنت وأنا والآخرون من كل البشر على كل الأرض، متاح لنا الآن العلو في سلامة القلب لدرجة استحقاق تواصله تعالى معنا لنصير أنبياء وتوظيفنا رسلاً، ولكن من علمه تعالى بالغيب أنه ولا واحد من بعد النبي محمد(ع) سيصل إلى هذه الدرجة العالية جداً أخبرنا أن محمداً(ع) خاتم النبيين فلا نبي بعده كما تقرأ في الآية 40 من سورة الأحزاب "مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا"، ونفس الشيء الكلام هنا مستند إلى علمه تعالى أنه لن يتأهّل أي بشري من خارج ذرية النبي إبراهيم(ع) ليكون نبياً، وطبعاً هذا لا ينفي أن يصلوا إلى درجة عالية من الإيمان ولكنها لن تصل إلى درجة تأهلهم ليصيروا أنبياء.

(وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ{28})
تختصر الآيات سنينَ طويلةً وتنتقل بنا إلى حيث صار المهاجر لوط(ع) رسولاً يعيش في مجتمع فاسد... ولن تجد في القرآن أي تصريح بحصول تواصل إلهي معه عبر نزول الوحي عليه، إلى أن زارته الملائكة(ع) المتمثلة على شكل بشر والموظّفة لإبادة قومه.

{وَلُوطًا}، كمثال آخر عن مؤمن عانى في مجتمعه، افتتن وبقي مؤمناً، {إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ}، للناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة من الدين وهو (ع) ينتمي لجماعتهم فيشترك معهم في المكان والزمان، قال لهم:

{إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ}، تقومون بالعمل الجنسي السيئ، {مَا سَبَقَكُم بِهَا}، بهذه الفاحشة، {مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ}، من كل الناس، فأنتم أول من قام بفاحشة الشذوذ كقوم لا يستنكرونها ولا يعترضون عليها.

يبدو من الآية أنهم كمجتمع من الناس كانوا أول مجتمع أعلن فعله ورضاه عن الشذوذ، وما حصل قبلهم كان حالات فردية لم توافق عليها مجتمعاتهم، ولذلك لحقت تسمية فاعل هذا الشذوذ بنسبته لقوم النبي لوط(ع)، وبعدها حصل اختصار النسبة لتصير على اسم النبي لوط(ع)، لوطي، علماً أن الغالبية الساحقة من اللغويين والمؤرخين يرفضون هذه النسبة، ويبدو رفضهم انطلاقاً من خلفية احترام مقام نبي من أنبيائه تعالى، ولكن يبدو واضحاً جداً وللأسف أن النسبة لاسمه (ع)، وكما يبدو مع الأسف درجت وصار اشتقاق للفعل من اسمه (ع). وأنت تعلم أنه (ع) أوّل من حاربها، فالنسبة "لوطي" اختصار لـ: من قوم لوط. وطبعاً لا يقصدون بوصف أحد ما بأنه "لوطي" أنه من سكان قريتهم أو أقاربهم بل المقصود أنه يفعل مثلهم. على أي حال، إنّ اشتهار هذه النسبة لاسمه (ع) "لوط، لوطي" دليل إضافي على الأثر التاريخي لهؤلاء الذين فجأة اختفوا من التاريخ بسبب دمار أبادهم، بسبب شذوذهم.

(أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{29})
{أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ}، يقوم الرجال بممارسة العمل الجنسي مع الرجال، بدلاً من فعله مع النساء.

{وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ}، المسالك التي تمرّ من قريتكم أو بالقرب منها تقطعونها على الناس لتعتدوا عليهم، فكل من مرّ على قريتكم أو على طرقاتها "من رجال وربما الإناث أيضاً" تعتدون عليه جنسياً.

{وَتَأْتُونَ}، وتقومون، {فِي نَادِيكُمُ}، حيث أنتم كنادٍ، وهو صف للذين يجتمعون ليقوموا بعمل ما بشكل تعاوني جماعي، كنادي كرة القدم من لاعبين وإداريين... وفي الأماكن التي تجتمعون فيها لتمارسوا نشاطاً جماعياً، تقومون، {الْمُنكَرَ}،

بالأعمال المنكرة التي ينكرها فيرفضها الإنسان العاقل، وبشكل جماعي علني في اجتماعاتكم يحصل الفحش بين الذكور، أو تحصل فيه لقاءات خاصة بين الذكور الشاذّين.

{فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ}، ما كان ردّ الناس الذين ينتمي (ع) لجماعتهم، {إِلَّا أَن قَالُوا}، حيث فقط كلّهم كانوا على قول واحد:

{ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}، نحن نعتقد بأنك تكذب حين تهددنا بعذاب من الله إلهك، فلا تحاول مناقشتنا ومحاججتنا، ومن الآخر، فَلْيَأْتِ الضرر علينا من إلهك وكفى تهديداً لأننا لن نتوقف عن شذوذنا واعتدائنا جنسياً على الغرباء.

ليس بالضرورة أن كل أهل هذه القرية كانوا يمارسون اللواط، إذ يكفي قيام بعضهم به، وأهلهم وأقرباؤهم وجيرانهم موافقون وغير معترضين، ومن الآية هنا نعلم أن هؤلاء الشاذين كانوا يقطعون السبيل ويعتدون على الغرباء الذين يمرّون أو يأتون إلى قريتهم، وأيضاً بدعم وتأييد وموافقة من كل بقية سكان قريتهم! وحتى بدعم وتأييد من زوجة النبي لوط(ع)! ولذلك استحقوا كلهم أن يتعذبوا إلا النبي لوط(ع) وأولاده لأنهم لم يكونوا لا مشاركين ولا موافقين.

كما ترى افتتن القوم بالشهوة الجنسية وانجرفوا فيها حتى أقصى الشذوذ، حيث إنّ السورة تطرحهم كنموذج عمّن افتتن ووصل إلى أسوأ ما يمكن، وتطرح لوطاً (ع) كمؤمن ورغم الصعوبات التي لا تطاق، لم يستسلم حتى آخر لحظة وبقي محافظاً على إيمانه ومعارضاً لقومه... حتى جاء أمره تعالى بإبادتهم.

تلاحظ أنك كعاقل رزين بقلب سليم من المفروض أن تشمئز من الشذوذ، إذ الإناث متوافرة للزواج، وفيهن ما هو أطهر للعلاقة، ويمكن معهن فعل ما يمكن فعله مع الرجال... ولكن الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء يصوّران لذة مكبّرة للشذوذ...

ما تراه من ادّعاء للتحضّر في دول تبيح الشذوذ، على أساس الحرية الفردية، وعلى أساس تبرير هذا التصرّف أنه ميول طبيعي عند هؤلاء الأشخاص، أو على أساس وجود سبب في الجينات يدفعهم للشذوذ، أو على أساس أن بقية الحيوانات تمارس الشذوذ... فكله كلام فارغ مشحون بحجج شيطانية أقنعتهم مثلما أقنعت بعض الناس بعبادة حجر نحتوه بأيديهم...

الحرية الفردية لها حدود بما يناسب الوقت الحالي والمستقبلي للمجتمعات، حيث العري لا يزال محظوراً وعليه غرامة، والزواج بأوراق رسمية محظور تحت سن الثامنة عشرة، وبيع المخدرات للأطفال محظور، بل بيع سجائر التبغ للأطفال محظور... وتعاطي الخمرة والمخدرات في الأماكن العامة محظور... وغيرها الكثير من الأمثلة التي تريك أن الحرية الفردية عنوان ضبابي مطّاط يخرقونه بأهوائهم الفاسدة ساعة يشاؤون، متجاهلين التماشي مع طبيعتنا كحيوانات اجتماعية تختلف عن بقية الحيوانات بالقيم والناموس...

ما قيل عن جينات مسببة للشذوذ، هو كلام فارغ عند المحترمين من أهل الاختصاص، ومثله الكلام عن جينات مسببة لتعاطي المخدرات والكحول ورغبة قتل الآخرين...

ما قيل عن الشذوذ بين بقية الحيوانات هو ليس منتشراً بينهم كما يدّعي البعض، لأنهم نهاية الأمر بهائم، وسلوك قتلهم لبعضهم البعض منتشر في كل فصيلة آكلة اللحوم والقوارض، فلنشرّع قتلنا لبعضنا البعض؟

على أي حال، إنّ قوم النبي لوط(ع) وصل بهم الأمر إلى الاعتداء على الغرباء جنسياً، فهل من عاقل يناقش في سوء ذلك؟

بعبارة أخرى، تجد في قرآنه تعالى تصنيفاً لعمل ما بأنه سيّء وعليه عقاب، بينما بالنسبة لك هو ليس سيئاً أو سيئاً ولكن لا يستحقّ العقاب عليه، أو لا يستحقّ العقاب الشديد، والسبب هو درجة سلامة قلوبنا، حيث أغشّ لأكسب مزيداً من المال، ولا أقتنع بسوء ما أفعله ولا أقبل بمعاقبتي عليه، وفي نفس الوقت لا أقبل أن يغشّني الآخرون! إذ غالبيتنا على المستوى النظري لتقييم سوء الأشياء نتفق على سوئها إن تعرّضنا نحن لها، وهناك أمور حتى على المستوى النظري نختلف على تصنيفها والسبب أن فساد قلوب بعضنا يكون من مستوى أعلى من البعض الآخر، وهكذا يأتي كلام الإله

عزّ وجل في قرآنه كعارض لحقيقة الأمور كما هي وكمقوّم لتصنيفنا للأمور بعيداً عن أمراض قلوبنا، فيكون مرجعاً نظرياً لنا.

في هذه الدراسة لكلامه تعالى أعرض عليك دراسة نظرية لا علاقة لها بأفعالي وممارساتي، أحاول التمييز بين ما أرغبه وبين تصنيفي لحسن أو سوء الأمور، إذ تحت الضغط النفسي أرغب بتعاطي الخمرة أو المخدرات، وتحت ضغط الرغبة الجنسية أرغب بالزنا، وتحت ضغط الحاجة للمال أفعل الغش أو النصب والاحتيال... ولكني أفصل بين ما أرغب، وبين تصنيفي له، وأعترف بسوء ما أرغب، وهذا هو الباب لحل النزاع القائم بيننا في تصنيف حسن وسوء الأمور، حيث نتناقش ونتجادل في تصنيفها من خلفية رفض التصنيف بالسوء لما أرغبه.

هذا القرآن كلام من الذي يصنّف الأمور على حقيقتها، ويعلم بحالنا وبقدراتنا ورغباتنا وحاجاتنا... والظروف الصعبة والضغوطات التي نمرّ بها، إذ ليس هناك أعلم بالحقّ والصلاح من إلهنا خالقنا ذي الصفات الحسنى والقدرات الفائقة، وعلى هذا المعنى جاء كلامه تعالى في العديد من الآيات ومنها 73 من سورة آل عمران "... قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"، حيث فقط وفقط ما يقوله تعالى هو الهدى، على معنى أنه الحقّ والصلاح والخير.

في مسألة الشذوذ ترى البعض يقولون بأنهم لن يفعلوه، لأنهم لا يرغبونه، ولكنهم لن يدعموا فكرة منع الراغبين به من ممارسته، والعنوان لذلك هو الحرية الشخصية، طالما برضى الطرفين يحصل ما يحصل، فما دخلي أنا بينهما طالما لا علاقة لي!

بغض النظر عن النقاش إن كنت سيطالك ضرر من ذلك، فسيطالك ضرر، ولكن الخلفية للكلام أنك أنت تريد حرية شخصية لنفسك فيما ترغبه ولا تريد أن يقيّدها الآخرون، وبخاصة لا تريد أن يقيدها الآخرون باسم الدين حيث سيصير على فعل الأمور عقاب "شديد" في الآخرة، وترفض فكرة العقاب "الشديد" في الآخرة على شيء أنت ترغبه، وحتى لو كنت "أحياناً" تراه سيئاً فستبقى رافضاً لفكرة معاقبتك على فعله في الآخرة، وهكذا تكفر بالآخرة وهذا ما قالته الآيات العديدة ومنها الآية 20 من سورة الحديد "اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ"، اخترت لك الآية التي تخبرك بأن ما تعلقت به من متاع الدنيا هو زائل وليس له قيمة حقيقية أمام السعادة في جنّة الآخرة الخالدة.

ضع هذا في بالك وسترى الآيات هنا تريك شخصاً بقلب سليم يرى السوء في الشذوذ، فإن لسبب أو لآخر ناقشت في ذلك، فاعلم أن فساداً في قلبك منعك من رؤية سوئه، وكما بسهولة توافق على سوء الاعتداء جنسياً على الآخرين، ستفهم سهولة تصنيف ذوي القلوب السليمة للشذوذ بأنه سوء.

ميّز بين المتعة الجنسية وإشباعها، لأن هذا شيء مرغوب ولا مشكلة فيه، إذ خالقنا تفضّل علينا بمنحنا هذه الرغبة والمتعة الرائعة، ولكن في طريقة إشباعها المشكلة، وكلامنا هنا التركيز فيه على الشذوذ الذكوري الذي نتج عنه مشكلة اجتماعية حيث بنات النبي لوط(ع) في سنّ الزواج وراغبات بالزواج وأبوهن راغب بتزويجهن ولكنهن عازبات! وترى ذلك فيما لفتت إليه انتباهنا الآية 78 من سورة هود "وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ"، وفي تلك الآية ترى أن سقوط المحرمات سيؤدّي إلى نتيجة أسوأ وأسوأ، حيث القوم صار من حقّهم الاعتداء جنسياً على الغرباء!

قوننة الشذوذ بالحرية الفردية ورضى الطرفين، مثل قوننة الربا برضى الطرفين سواء بفائدة قليلة أو جائرة متضاعفة، ومثل القوننة غير المعلنة للفساد الحكومي بهدر المال العام ونهبه... وبالرشاوى برضى الطرفين، والتلزيمات بالتراضي وللمحاسيب... والزنا برضى الطرفين... فهل الزوج راضٍ بزنا زوجته أو الزوجة راضية بزنا زوجها؟ وهل تفضّل العيش في حكومة صالحة أم فاسدة؟ وهل تفضل الدين بربا أو بدون ربا؟ وهل تفضّل فتيات متاحات للزواج أم ذكوراً؟ وبالعكس؟

لا أريد جعل المسائل جدلية، لأن مستوى سلامة القلب إن لم تتغير فلن تتغيّر النظرة التصنيفية للأمور، حيث سأخلط بين ما أرغب وما يناسبني الآن... وبين تصنيفه، وستبقى الأمور جدلية بدون الوصول إلى نتيجة بين المتجادلين.

(قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ{30})
قال النبي لوط(ع): {رَبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ}، حقّق لي ما أريده على الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع مسألة الشهوة الجنسية السيئة، {الْمُفْسِدِينَ}، فهؤلاء يقومون بالأعمال الفاسدة السيئة التي لا مصلحة لهم ولا لغيرهم فيها، حيث بالكلام لم أنجح معهم، وهذه حدود قدرتي، فأطلب منك سبحانك التأييد حتى تنصرني عليهم لينتهي فسادهم.

ضع في بالك أن كلمة "ربّ" تقال لعامة من لديه مسؤولية عناية بالآخرين، فربّ البيت وصف للأب، وربّة المنزل وصف للأم، وربّ العمل... فعلى مستوى كل واحد ومسؤولياته يكون الوصف، وبالنسبة له تعالى فهو ربّ من مستوى إلهي.

(وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ{31})
بعد عرض الآيات السابقة لما أرادت السورة الإضاءة عليه من قوم سيئين ومؤمن افتتن قومه بالشذوذ وهو حافظ على إيمانه وعلى معارضتهم في ظروف من أشدّ ما يكون، ذهبت السورة بنا إلى بداية التحضير لنزول العذاب الإلهي عليهم:

{وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا}، وبناء على ما نجده في القرآن من توظيفه تعالى عادة للملائكة(ع) بأمور مثل هذه، فيذهب فكرنا هنا للرسل أنهم ملائكة أرسلهم سبحانه إلى {إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى}، بالخبر المفرح، وكما تعلم من القرآن فالخبر كان عن قرار إلهي بجعل زوجته "سارة" تحبل بإسحاق(ع) ومن بعد ذلك سيكبر إسحاق(ع) ويتزوج وينجب يعقوب(ع)... فبشّروه بالذرية الصالحة من الأنبياء، وقالوا له:

{إِنَّا مُهْلِكُو}، مُسْتَنْفِدُو، سنميت، {أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ}، وأشاروا باتجاه القرية التي يسكنها النبي لوط(ع)، {إِنَّ أَهْلَهَا}، إن المنتمين لهذا المجتمع من الناس، {كَانُوا ظَالِمِينَ}، لأنهم لم يَكُونُوا عادلين ولا منصفين، حيث لم يكن معهم حق فيما يفعلونه من شذوذ وقطع للطرقات للاعتداء على الناس جنسيا...

كلمة هلك تقال لعموم ما هو مُسْتَنْفَد بتدرجات حتى نهايته، كالعمر أو الجسد أو الزرع بانقضائه حتى انتهائه أو فساده، ويختلف عن الموت بأن فيه تدرج في استنفاد الحياة والصحة والقوة، ومنه ما ورد في الآية 173 من سورة الأعراف {أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ}، فالكلام عن الهلاك باستنفاد الراحة والأمن والصحّة في النار. وفرق الموت عن الهلاك أن الموت هو حالة فقدان الحياة.

هلك الشخص أو هلك القوم لا تعطي حصريا معنى موتهم بل يشمل موتهم وتشمل انتهاءهم بأي معنى كان، فللشخص تشمل انتهاء تأثيره أو انتهاء حكمه كالتعبير في الآية 34 من سورة غافر {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا...} حيث وصف هلاكه وصف استنفاد حالة وجود رسول بينهم، واستعمال هلك للقوم فهي تشمل انتهاء أثرهم الفاعل ومنه معنى موتهم، وتشمل انتهاء كيانهم من بعد تشتتهم وضياع كيانهم أو انقطاع نسلهم... فمن سياق الكلام تعلم أي درجة من الهلاك هو المقصود، هلاك الموت فجأة أو هلاك الموت بفواصل زمنية أو هلاك الحياة بتعاستها...

(قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ{32})
قال النبي إبراهيم(ع) للملائكة(ع):

{إِنَّ فِيهَا}، في هذه القرية، {لُوطاً}، فهل سيهلك معهم؟

قالوا الرسل الملائكة(ع):

{نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا}، أعلم منك بكل واحد في تلك القرية، {لَنُنَجِّيَنَّهُ}، سوف ننجيه ونخلّص لوطا(ع)، وننجي، {وَأَهْلَهُ}، الذين ينتمون له، {إِلَّا امْرَأَتَهُ}، زوجته، لن ننجيها، {كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ}، يعني هي مثل قومها كافرة فاسدة، وحين خرجت مع زوجها ومات قومها، صاروا من الغابرين، من الذين مضوا وصاروا في خبر كان، حيث لم يكن مقدّرا لها النجاة، والتفتت وألحقها تعالى بقومها فماتت، فكانت من الغابرين.

الملائكة(ع) يعلمون بدقة من يوجد في القرية بشكل يفوق معلومات النبي إبراهيم(ع)، وأن مهمتهم محدّدة سلفا بقتل الجميع إلا لوطا(ع) وأهله إلا امرأته...

نلاحظ استعمال القرآن الكريم لكلمة الغابرين سبع مرات، وفقط لتوصيف امرأة النبي لوطٍ(ع)، وكما نعرف من القرآن أنّ سبحانه قال لنبيه لوط(ع) اخرج مع أهلك في الليل من القرية، ولا تلتفتوا للخلف عندما يبدأ نزول الحجارة على القرية، فخرجت زوجته معهم أيضا، وهي لم تكن مؤمنة وكان يجب أن تموت مع قومها، وبعد ابتعادهم عن القرية وبدء تساقط الحجارة، التفتت زوجته لتنظر ماذا يجري على القرية، فنزل عليها حجر ألحقها بهم، فكانت من الغابرين، ولم تكن من الناجين بل من الماضين الذين مضوا فماتوا في الحادثة.

ضع في بالك أنه لغويا وباستعمال القرآن، أنّ الزوجة من أهل زوجها وليست من آله بسبب زواجه منها، إلا إن كانت من أقاربه بالنسب ففي هذه الحالة هي من آله ومن أهله.

(وَلَمَّا أَن جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ{33})
{وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا}، عندما حضر الملائكة (ع) الذين مرّوا بالبشرى على النبي إبراهيم(ع)، ولما جاؤوا، {لُوطاً}، {سِيءَ بِهِمْ}، وشعر (ع) بحالة سيئة من قدومهم، {وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً}، حيث لم يجد أي ذريعة أي طريقة أو وسيلة لتخليصهم من أهل القرية أو حمايتهم، لذلك لم يدر ماذا سيفعل بهم... وتعلم من عموم القرآن أنهم لم يخبروه بأنهم ملائكة، وكانوا على شكل رجال عاديين، كما تعلم أنّ أي رجل يمرّ على تلك القرية فمصيره الاعتداء عليه... وعلم أهل القرية بقدوم الغرباء، فحاول النبي لوط(ع) إبعادهم عن القرية قبل أن يراهم أهل القرية كما يبدو لك هنا من تعبير "ضاق بهم ذرعا"، ولما لسبب أو لآخر لم ينجح بذلك، لم يبق أمامه إلا حمايتهم بدخولهم سرا إلى بيته لاستضافتهم عنده فيصيروا ضيوفه... فعسى إن علم بهم أهل القرية أن يستحوا منه (ع) ويتركوا ضيوفه... ولكن لم تجر الأمور بطريقة سلسلة، وذهبت نحو التصعيد، فهجم أهل القرية على دار النبي لوط(ع) يريدون سحب الغرباء منه للاعتداء عليهم، كما تقرأ في الآية 80 وما بعدها من سورة هود {قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ}، فعندها تدخّلت الملائكة وطمست أعين المهاجمين كما تقرأ في الآية 37 من سورة القمر {وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ}، وبعدها {وَقَالُوا} الملائكة(ع):

{لَا تَخَفْ}، لا تشعر بخطر لا يمكن دفعه وردّه، {وَلَا تَحْزَنْ}، ولا تشعر بانكسار شعورك، {إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ}، فهناك ضرر مميت سيصيب قومك وستنجو مع المنتمين لك منه، {إِلَّا امْرَأَتَكَ}، لن تنجو لأنها، {كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ}، من قومها الذين مضوا وصاروا في خبر كان، فهي مثل قومها كافرة فاسدة، وحين خرجت مع زوجها ومات قومها، صاروا من الغابرين، حيث لم يكن مقدّرا لها النجاة، والتفتت وألحقها تعالى بقومها فماتت، فكانت من الغابرين. وكلمة غابرين مرت في الآية السابقة.

(إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ{34})
يكمل الملائكة كلامهم باسمه تعالى: {إِنَّا}، نحن الملائكة "وبقرار إلهي"، {مُنْزِلُونَ}، سوف ننزل، {عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ}، على المنتمين لهذا المجتمع من الناس، {رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ}، شيئا مكروها سيئا نحمله لهم من جهة فوق التي تقابل جهة الأرض التي هم عليها، فالكارثة لن تحصل بسبب ظروف طبيعية تمرّ بها الأرض، بل بقرار من فوق سيحصل لهم الشيء المكروه، {بِمَا}، بسبب ما، {كَانُوا يَفْسُقُونَ}، لأنهم خرجوا عن الدين الإلهي بالأعمال الفاحشة والمنكرة.

تلاحظ طريقة التعبير هنا، التي لا تقصد أن أشياء ملموسة كحجارة أو نار ستنزل على قوم النبي لوط(ع) من السماء، مع العلم أنه حصل تساقط حجارة عليهم، ولكن التعبير يشير إلى شيء آخر، حيث يشير إلى جهة العلو الإلهية أنها قررت إهلاكهم، ونحن كملائكة دورنا ترجمة الرجز إلى عذاب، وربما تشعر بانتفاء الفائدة من هذا الكلام، لأنّ تفسير الرجز بالحجارة كمصداق "كتطبيق" يبدو أبسط، ولكن نفس التعبير ورد في الآية 59 من سورة البقرة {فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}، حيث كان لتوصيف رجز من السماء أصاب بني إسرائيل وعمليا هو كره أهل القرية لهم وطردهم منها، حيث لم يكن شيئا ملموسا بل كان غضبا وكرها إلهيا... وهنا نفس الشيء، لذلك يصير معنى الآية أنّا نحن الملائكة نترجم الرجز، الشيء المكروه السيّء، إلى عذاب.

(وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ{35})
{وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا}، من قرية النبي لوط(ع) المدمّرة، {آيَةً}، شيئا مميزا، {بَيِّنَةً}، لها دلالة واضحة على العقاب الإلهي لهم على فحشهم، {لِّقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة، {يَعْقِلُونَ}، تصير لديهم قناعة بالشيء الصحيح، لمن يستوعب ويفهم حين يرى "الآية" ما بقي من القرية المدمّرة التي كان فيها قوم مشهورون بالفحشاء. حيث إنها قرية كان الناس من جيرانهم يعرفون بأفعالها المنكرة قبل دمارها، وسيلاحظ الناس اختفاءهم بل سيهتمون بذلك لأنهم تخلّصوا من شرورهم، والآثار الباقية من الدمار ستشير بسهولة على نزول العذاب الإلهي عليهم، لأنهم كانوا معروفين مشهورين في منطقتهم بفعلهم للفحشاء واعتدائهم على عابري السبيل قرب قريتهم.

هذا الكلام لا يعني أن "الآية" لا تزال موجودة لحد الآن، وقد تكون آثار ما باقية من القرية إلى الآن، ولكنها مثلها مثل سفينة النبي نوح(ع) حيث ما بقي من آثارها آية لمن شاهدها، وكان قريبا لها بالزمن أكثر منّا، ومن كلام القرآن عن القرية نعلم أن مكانها بقي معروفا مشهورا لمدة طويلة، لأنها قريبة من مدين كما ورد في الآية 89 من سورة هود {... وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ}، ويعلم أهل مدين بآثارها وأخبارها، وكانت على طريق أساسي يوصل لمكّة كما ورد في الآية 137 و 138 من سورة الصافات {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ...}، لذلك أهل مكّة سمعوا بقصتهم ويعرفون مكانهم...

لولا الهرطقات التي يخترعها الناس بوصفهم لأماكن أثرية من تخميناتهم، لهان علينا كثيرا التعرّف على الآثار الدينية، ولكن للأسف تجد الناس مستهترين في عامّة كلامهم ومن ضمنه ما يتعلق بالكلام عن آثار مناطقهم، بناءً على الشبه بشيء ما يستنسبون لها ربطا مع حدث مشهور، وبدون دليل... لأنّ حادثة إحراق النبي إبراهيم(ع) ستجد لها العديد من الأماكن، وكهف أصحاب الكهف غير معلوم بين الكهوف العديدة التي كل أهل منطقة يقولون إنّ كهفهم هو الكهف الشهير... واستقرار سفينة الطوفان على جبل أيضا له أماكن عديدة... ومثله مسألة قبور الأنبياء التي ستجد فيها لنفس النبي أكثر من قبر في أكثر من بلد... ونفس المشكلة مع موقع مدينة مدين وعاد والحجر... ونفس المشكلة مع تحديد الفرعون المعاصر للنبي موسى(ع)... ونفس المشكلة في موقع قرى النبي لوط(ع).

للأسف حتى نسبة فاعلي هذه الفاحشة بالتسمية "لوطي" وهي اشتقاق مقصود به النسبة لفعل الفاحشة التي كان يقوم بها قوم النبي لوط(ع)، وعند البحث عن أصل التسمية ستصل إلى اسم النبي لوط(ع) الذي حاول صدّهم عن الفحش...
والسؤال عن قومه يوصلك للسؤال عمّا جرى لهم من إبادة... وهذا أيضا دليل إضافي واضح جدا على مرورهم قبلنا في التاريخ وعلى ما كانوا يفعلونه وعلى إبادتهم... ورغم ذلك الوضوح ترى عامّة المسلمين والمفسرين واللغويين وأصحاب القواميس، تراهم يرفضون نسبة اللواط لاسم النبي لوط(ع) مع العلم بأنه كان معارضاً محارباً لفعل الشذوذ، ولكن عبر التاريخ صارت النسبة لاسمه (ع).

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ{36})
{وَإِلَى مَدْيَنَ}، وهو اسم لمدينة، أرسلنا، {أَخَاهُمْ شُعَيْباً}، كان أخاهم أي مشاركا لهم في المكان الذي يعيشون فيه، {فَقَالَ}(ع):

{يَا قَوْمِ}، يا أيها الناس الذين انتمي لمجتمعهم، {اعْبُدُوا اللَّهَ}، فهو إلهكم خالقكم ويملككم والمفروض منكم طاعته لذلك تصرفوا على هذا الأساس، {وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ}، لذلك أحبّوا وتوقّعوا حصول يوم يأتي في الآخر بعد هذه الحياة الدنيا، لذلك تعلّقوا بالسعادة التي في الآخرة، ومعلوم أن مشكلتهم الأساسية الشرك والغشّ، حيث إنّ الكلام معهم عن رجاء الآخرة يشير لترك الشرك وترك ما قد يحصلون عليه من سعادة من الغشّ هنا في الدنيا ورجائهم الحصول على ثواب الآخرة.

من تعابير الجملة نفهم أن الاستقامة بفعل ما يرضيه تعالى عليها ثواب، لأنّ فعل الغشّ يتسجّل عليه سيئة وعليها عقاب، والبيع بدون غشّ حسنة ويتسجّل عليها ثواب.

{وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ}، ولا يكن ما يصدر منكم حيث تعيشون موصوفا بأنه غير منظّم، مثل الذي يفعل أي شيء من دون دراسة عواقبه ولا يفكّر فيه مرتين، {مُفْسِدِينَ}، غير مصلحين، ومن المشهور في القرآن أنهم كانوا يغشّون في الميزان والكيل، وهذا فعل ينطبق عليه وصف العثو كما نقول بالعامية: أهوج مُلَخْبَط طايش... لأنّ الفهيم العاقل الرزين لا يغشّ لأن الغشّ فساد يؤدي إلى اختلال نظام التعاملات العادل بين الناس.

وبالنسبة لموضوع السورة، ها هو شعيب(ع) افتتن قومه بالربح الناتج عن الغشّ، بينما هو "وبعض المؤمنين" لم يَغُشّ، بل عارضهم وحاول منعهم...

هل يناقش عاقل في الضرر الهائل الناتج عن الغشّ؟ يبدو من صريح ومن تحليل كلام القرآن، أن مدين كانت قرية فيها سوق مركزي يقصده عموم المجاورين من القرى الأخرى لبيع بضائعهم وشراء حاجياتهم، وأهل مدين غالبيتهم كانوا يستغلون سيطرتهم على السوق الوحيد أو الأقوى في منطقتهم ويغشُّون في الميزان والكيل بيعا وشراء، والناس مضطرون للسكوت عن ذلك لأنه السوق الوحيد المناسب للتبادل التجاري ولشراء الحاجيات.

مَعلُومٌ الدمار الاقتصادي على المدى البعيد والناتج عن الغش، وفي بلدان عديدة نرى معاناة المزارعين ومربي الماشية ومنتجي السلع الغذائية والاستهلاكية... من تحكّم أصحاب بيع الجملة بِالْمُفَرَّقِ بهم، حتى إنّ العديد من الدول أمّمت أسواق المنتوجات الزراعية لتصير تحت سيطرتها لحماية صغار المزارعين... وإلا فإنّ الأمور تذهب إلى الدمار، حيث يميل الناس إلى ترك العمل في الزراعة وتربية الماشية... التي لم تعد تؤمّن لهم معيشتهم ويتجهون للعمل في مجالات أخرى...

لن أطيل عليك الكلام عن الرفاهية الناتجة عن الالتزام والنزاهة والأمانة والتقانة... ها أنت ترى السبب الأول والأساسي للدول ذات الشعوب المرتاحة اقتصاديا، أنه ناتج عن التقانة في العمل والأمانة، هذا بغض النظر عن الأمان، وأي فساد اقتصادي من مسؤولي الدولة، أو من سلوكيات الناس، فدماره الاقتصادي سيرتد عليهم فورا بتراجع المجموع العام من الرفاهية والبحبوحة إلى الفقر وانتشار البطالة بسبب ابتعاد الآخرين عن التعامل الاقتصادي معهم.

عادة يذكر القرآن قوم مدين كنموذج اختاره تعالى عن شيء سيّء جدا جدا فعله غالبية أهل مدين، ليريك أنه تعالى لا يعرض علينا دينا من الفضاء الخارجي ولا من الخيال ولا ليفرض علينا شيئا غريبا عجيبا... بل يعرض علينا ما من المفروض أن نراه نحن حقاً ونعلم بفساد مخالفته وأثره السيّء على حياتنا، بل في قسم كبير من كلامه تعالى أصلا لا يعرض علينا سبحانه أي شيء جديد، حيث ينبهنا للحق والصلاح الذي فينا أساسا قابلية رؤيته وتمييزه عن الباطل والفساد والسوء والشرّ، ويعرض علينا ما يؤمّن لنا سعادة في الدنيا، ويعدنا بسعادة خالدة في الآخرة إن آمنّا بما هو حقّ والتزمنا بالخير والصلاح.

بقي شيء، سبحانه عرض علينا الهدى الذي يمكننا رؤيته هدىً، ولنقوّم ما فسد من رؤيتنا لتصنيفه الصحيح بسبب فساد ما في قلوبنا، وسبحانه ركّز على الأساسيات في التشريعات والسلوكيات مع بعض نوادر التفاصيل... حيث ترك سبحانه ما يمكن تركه كهامش مرونة لنا لنتحرك فيه بما يناسبنا، وهذا واقع حال الحكمة في التعامل مع مجتمعات متنوّعة في المكان والزمان والتقاليد والعادات والثقافات...

لن تجد في القرآن نظاما اقتصاديا يقيدنا بالالتزام به، بل تجد أساسيات معدودة على الأصابع نتقيّد بها لأنها أساسيات، وتجد هامش مرونة واسع جدا للتحرك فيه بما يناسبنا على اختلاف المجتمعات والأزمنة، وخذ مثلا المال سواءٌ كان

معدنياً أو ورقياً أو إلكترونياً... لا يهم، وتحديد قيمة المال بمعدن أو نفط أو قيمة تجارية أو خدماتية... لا يهم... وهكذا طالما يحافظ على قيمته بالتساوي بين كل الناس فليختاروا ما يشاؤون.

يصرّ البعض على لصق نظم سياسية أو حكومية أو اقتصادية... أو نظريات علمية... بدينه تعالى وخصوصا بقرآنه، على أساس أن ديننا عظيم وفيه كل شيء، وهذا غير صحيح، لأنّ ديننا عظيم وفيه أساسيات كل شيء له علاقة بالهداية من حقّ وصلاح، وعظيم لأنه ترك لنا هامش مرونة واسع لنتحرك به فيما يناسب الأزمنة والأمكنة المختلفة، حيث لم يحكمنا بنظام ملكي أو رئاسي أو برلماني أو وزاري... ولا بمدة الحكم... لأنّ الأساس هو فقط وفقط تطبيق الصلاح، ولم يحكمنا بنظام اقتصادي رأسمالي أو رأسمالي معدّل أو اشتراكي... لأنّ الأساس هو حرمة الربا والغش... وحفظ الأمانة... حيث إنه فقط ذكر لنا الأساسيات وترك لنا كل بقية التفاصيل.

(فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ{37})

{فَكَذَّبُوهُ}، لم يصدّقوا ما يقوله لهم النبي شعيب(ع)، {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ}، حيث لم يتركهم بحالهم الاضطراب الشديد، الاهتزاز، حيث لم تتركهم الزلزلة أحياء فأماتتهم، {فَأَصْبَحُوا}، وأول ما صاروا من بعد حصول الزلزال، {فِي دَارِهِمْ}، في الأماكن التي تدور فيها شؤون حياتهم، سكنهم ، ودكاكينهم، وسوقهم... {جَاثِمِينَ}، ملاصقين للأرض بلا حركة.

كما ترى، عموم القرآن ركّز على القصص المذكورة هنا من بين آلاف تواريخ حياة المجتمعات، لأن هذه القصص نماذج بارزة جدا بلا نقاش في تفاصيلها من حيث شناعة وفظاعة سوء الجرم الذي ارتكبه هؤلاء الأقوام، ولسهولة الانتباه لسوء ما فعلوه، فمن منّا يناقش في مدى سوء الغشّ وضرره على حياتنا؟ وهذه فتنة عاش فيها النبي شعيب(ع) مع قوم كافرين بدينه تعالى ومشركين... ولم يتراجع (ع) عن إيمانه حتى صدور قرار إلهي بإهلاك قومه...

من ناحية ثانية ترى فتنة الربح الزائد عبر الغشّ التي وقع فيها قوم مدين، فكفروا بدينه تعالى...

تذكّر دائما أن قوم النبي شعيب(ع) لم تصبهم إبادة كاملة، حيث خرج النبي(ع) مع المؤمنين من القرية، وبعد أيام حصل الزلزال ودمّر وقتل العديد منهم، وبقي منهم أحياء، وتعلم ذلك من عموم كلام القرآن عنهم حيث لم يقل ولا مرّة أي شيء يصرّح بإبادة كل أهل القرية مثلما عبّر عن إبادة قوم النبي نوح(ع) وقوم النبي لوط(ع) وقوم النبي هود(ع)، أمّا قوم النبي شعيب(ع) وقوم النبي صالح(ع) فلم يحدث لقومهما إبادة شاملة لكل سكان قراهم، وراجع في ذلك دراسة الآية 93 من سورة الأعراف {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ}.

(وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ{38})

{وَعَاداً وَثَمُودَ}، معلوم أنهما قبيلتان كبيرتان كانتا منتشرتين في مناطق عديدة في شبه الجزيرة العربية، وحادثتا الإهلاك جرتا لخصوص عاد الذين كانوا في منطقة الأحقاف في مدينة إرم، ولثمود الذين كانوا في مدينة الحجر، فهذان القومان أيضا عاقبهما سبحانه، {وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ}، صار واضحا لكم من بيوتهم أنه سبحانه عذّبهم بسبب فسادهم. والكلام مع عموم من رأى قراهم المدمّرة وأخبر الآخرين بما رآه... فهما قومان مشهوران بما فعلاه وانتقل الخبر جيلا بعد جيل بين الناس...

{وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ}، الموصوف بالقيام بأعمال الضلال وإضلال الآخرين قام بتجميل الأعمال السيئة فصار قوم عاد وثمود يرونها حسنة، {فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ}، فمنع الشيطان "عاد وثمود" من سلوك طريق الحقّ والصلاح، {وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ}، كانوا من قبل موصوفين بحالة الفهم والوعي، فكانوا من قبل بدايتهم بالكفر بدينه تعالى وبالشرك والترف والإسراف والتجبّر... يفهمون الطريق الصحيح، لذلك لم يتحكّم بهم الشيطان ويحرفهم غصبا عنهم عن سبيل الحقّ والصلاح بل رأوا السبيل الإلهي فأبصروه بوضوح، ولكن لم يروه جميلا، ورأوا أعمالهم السيئة أحسن من الحقّ والصلاح، فتركوا الالتزام بالدين الإلهي... فأهلكناهم...

عادة حين يتكلم القرآن بالمفرد عن الشيطان ينصرف ذهننا لإبليس، فهو من الشياطين، بل الأخطر بينهم، فهل الآية تلقي باللوم على الشيطان "على إبليس" وأنه لولاه لما فسد عاد وثمود؟ لا، بل كل القرآن يخبرنا عن استفزاز الشيطان للفساد الكامن فينا، فهو لا سلطة له علينا ليجبرنا على فعل أي شيء، وفقط يوسوس، فإذا أطعناه وكرّرنا طاعته فعندها وكتحصيل حاصل نصير لعبة بين يديه، وهذا ما ذكرته عدة آيات منها الآية 42 من سورة الحجر {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}.

رغم أن الكلام القرآني واضح جدا في كلامه عن الشيطان، حيث إنّ بعضهم لم يفهم وغالبيتهم لا يريدون أن يفهموا، حيث استعمل القرآن وصف الشيطان ليصف به أي كائن يقوم بأعمال الضلال، وواحد منهم إبليس الذي من الجنّ، ومعلوم وصف القرآن لبعض الجنّ والإنس بأنهم شياطين كما ورد في عدة آيات منها الآية 112 من سورة الأنعام {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ...}، لأنّ الشيطان وصف حقيقي لكائنات من الجنّ ومنّا نحن البشر، وأمّا الصورة المضخمة لكائن لا يفعل إلا الشرّ واسمه الشيطان، فانتشار هذه الفكرة في العديد من الثقافات هو ما يبدو لي السبب في تشوّه الصورة الحقيقية للاتصاف بالشيطنة، حتى وصل الأمر ببعضهم ليقول إنّ الشيطان كائن مجازي، ولا أعلم ماذا يقصدون بهذه الكلمات سوى أنهم يرفضون الاعتقاد بكونه كائنا حقيقيا، بينما نحن كلّنا بغالبيتنا نوصف بأننا شياطين حين نوسوس ونغوي ونفتن بعضنا البعض لفعل السوء، فهل نحن وهميون!

القرآن لم يلق باللوم على ما نفعله نحن بأنه من الشيطان "إبليس"، بل ألقى باللوم عليه وعلينا معا، فهو في بعض الأمور يوسوس لنا فنطيعه، وفي بعض الأمور نحن البشر لوحدنا نوسوس لبعضنا فنأخذ صفة الشيطان، والواحد منّا يوسوس لنفسه بأفكار السوء ويصير شيطانا لنفسه.

بعبارة أبسط، لو فرضا لم يقرر إبليس غوايتنا لنكفر ونفعل السوء، هل سيكون حالنا بألف خير؟ هل قال القرآن هذا بصراحة أو بالتلميح؟ لا، بل دائما تجد تحذيرا من عدو يوسوس لك ليجعلك تكفر، وهو الشيطان، وعلى رأس الشياطين إبليس، بينما هناك شياطين آخرون من الجنّ والإنس يعملون نفس عمله، بل وقد أكون أنا ذات نفسي شيطانا في مسألة ما، وبكل صراحة وشفافية أقولها لك، حيث أفسّر آية ما بهواي السيّء، مغيّرا صريح معناها ليتوافق مع هواي، فأكون شيطانا في تلك المسألة.

وأخيراً إبليس شيطان في مسألة غوايته لنا لنكفر ويبرهن لله تعالى أننا نحن البشر لا نستحق القيمة العالية التي تفضّل بها سبحانه علينا، لأنه سيكون منّا مؤمنون بسلامة قلب من الدرجة العالية التي تفوق ما يمكن أن يصل إليه كل بقية المخلوقات من جنّ وملائكة... بينما في المسائل الأخرى لشؤون حياة إبليس هو من الذاكرين لله تعالى، لأنه ليس كتلة من الشرّ، وليس فاعلا فقط للشرّ... بل هو كذلك فقط معنا نحن البشر، ولكنه في شؤون حياته مثله مثلنا لديه أولاد وشؤون حياةٌ لا أعلم أي شيء عنها، ولكن من كلام القرآن عن الجنّ الذين سمعوا القرآن وذهبوا لإنذار قومهم، كما ورد في سورة الجنّ، ترى حياة اجتماعية وقوم وجماعة ونفر... حيث ترى أصدقاء ومعارف وشؤون حياة...

(وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ{39})
ثلاثة رجال افتتنوا وسقطوا:

قارون، وهو الثري من بني إسرائيل الذي بغى على قومه، وتحدّثت عنه سورة القصص "راجع الآية 76 وما بعدها"، وفرعون، ودائما يشير القرآن بذلك إلى الفرعون الذي ضادّ وعاند النبي موسى(ع)، ويضربه دائما كمثال عن أعتى نموذج عبر التاريخ، وهامان، وهو وزير فرعون، وفي ذيل الآية سأنقل لك ما سبق وذكرناه في دراسة الآيات التي ذكرت اسمه، وجاءهم الرسول موسى(ع) بالبينات، بالأمور الواضحة، بالكلام العقلاني الذي يدلّ بوضوح أنهم على خطأ وأنّه يجب عليهم تغيير سلوكهم وتفكيرهم السيئ، وأيضا جاءهم ببينات من آيات عظيمة تدل على أنه (ع) مدعوم من إله حقيقي، حوّل العصا لحيّة و... {فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ}، تصرّفوا باستكبار في الأرض، في المكان الذي طالته سلطتهم رأوا أنفسهم أكبر من أن يؤمنوا بدين الله تعالى وأكبر من الآخرين...

{وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ}، لم يسبقونا إلى شيء ما، استكبارهم لم يجعل أي شيء يفوت عليه سبحانه، يمكنه سبحانه أن يطالهم في أي وقت يقرره، وبالتحديد هؤلاء الثلاثة، لم يتركهم سبحانه للآخرة حتى يعاقبهم، بل عاقبهم هنا في الدنيا.

تلاحظ في القرآن تكرار هذا الكلام عن نفي سبق الكافرين لله تعالى، بعضهم يظن أنه إن مات هنا في الدنيا ولم يحصل معه شيء، سَبَقَ الله تعالى، ويفوت على الله تعالى معاقبته، وبعضهم يشعر أنه بما يتمتّع به في الدنيا من سلطة ومال أنّه تعالى لم ولن يقدر على معاقبته... لذلك نجد القرآن يشير إلى كل أنواع الحالات بدون استثناء أنها لن تسبقه تعالى بأي شيء، لأنهم كلهم إليه تعالى سيرجعون ليحاسبهم ويجازيهم، ويشير القرآن لحالات هنا في الدنيا لم يؤجّلها سبحانه للآخرة، وهؤلاء الثلاثة، ومعهم عاد وثمود وقوم النبي لوط(ع)... ما كانوا بأثناء شعورهم بالعظمة، سابقين له تعالى، بل نالهم العذاب هنا في الدنيا.

هناك جدل بين المؤرخين وعلماء الآثار والمتدينين والمهتمين... حول تحديد "اسم وتاريخ" الفرعون الذي كان على عهد النبي موسى(ع)، ولم أجد أي واحد منهم يملك دليلا قاطعا أو قويا... واسم هامان الذي ورد هنا، من المفروض أن يكون مميّزا لتحديد اسم الفرعون الذي كان على عهد النبي موسى (ع)، وتتبعت اسم "هامان" في تاريخ الفراعنة، وكان تتبعا مرهقا، ووجدت شخصا مناسبا استبعده الكثيرون لأنه وزير للفرعون "خوفو" وهو أقدم بكثير من أي فرعون افترضوه، وفي التاريخ ذكروا أن هذا الوزير هو المسؤول عن بناء أهرامات الجيزة الضخمة، وهذا يشبه ما ورد في الآية 36 من سورة غافر من اعتماد فرعون عليه كمهندس أو كالرجل الأول لتنفيذ المهمات {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ}.

غالبية المؤرخين المتدينين لديهم تسلسل تاريخي ديني للأحداث من آدم(ع)... والنبي نوح(ع)... وإبراهيم(ع) ويعقوب(ع) ويوسف(ع) الذي نقل بني إسرائيل إلى مصر، وبعد ذلك بسنين ولادة النبي موسى(ع)... وبعده مملكة النبي داوود(ع)... وولادة النبي عيسى(ع)... وهذا التاريخ الديني له روايات ومستندات عند المتدينين ولا يمكنهم مخالفتها، لأنها تراثهم الديني، وبعضها كتبوه كملحق تاريخي ديني مع التوراة بما يماثل الروايات والأحاديث عندنا، أيّ تغيير لتاريخ أي واحدة من تلك الأحداث سيسبّب لهم تشوّشا في بقية التواريخ، وتحديدهم للفرعون الذي كان على عهد النبي موسى(ع) برعمسيس "رمسيس" وتحديدنا له بخوفو سيسبّب رجوعا هائلا بألف سنة تقريبا في جميع الأحداث التاريخية مشوّها بذلك كل تراثهم التاريخي.

ستجد في الويكيبيديا العربية والإنجليزية، أن للفرعون خوفو "خوبوس، شوبس" وزيرا اسمه يتماشى بالعربية مع لفظ هامان "هم يونو، حم يونو، هامون"، وله تمثال محفور عليه اسمه محفوظ في المتاحف، وهذا المهندس "أو الإداري" بنى أهرامات الجيزة الضخمة، والقرآن عبّر عن الفرعون بأنه ذو الأوتاد، وفهمنا منها أنه الآمر ببناء الأهرامات والمسلاّت، وراجع في ذلك دراسة الآية 7 من سورة النبأ والآية 12 من سورة ص، والآية 10 من سورة الفجر {وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ}، وخوفو نصّب نفسه إلها كما تقول دراسة الآثار، والفرعون الذي تحدّث عنه القرآن أعلن نفسه إلها كما ترى في الآية 29 من سورة الشعراء {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}، ومن الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي...}.

هذه التفاصيل وغيرها كالكلام عن أنهم لم يجدوا مدفنا لزوجة خوفو، وهذا يتماشى مع إيمان زوجة الفرعون الذي عاصر النبي موسى(ع)، وورد ذلك في الآية 11 من سورة التحريم {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}، وبالتالي نفترض كره زوجها لها وحرمانها من مدفن ملكي، أو خروجها من مصر مع بني إسرائيل...

كل ما سبق يجعلنا نعتقد بقوّة أن "خوفو" هو الفرعون الذي كان في زمن النبي موسى(ع). والمشكلة عند الآخرين الذين بنوا تاريخا دينيا بناء على كون "رعمسيس، رمسيس" هو الفرعون المعاصر للنبي موسى(ع)، وبين تغييره ليكون خوفو، المشكلة أن بين الفرعونين قرابة ألف ومئتي سنة، حيث إنّ تاريخ خوفو في فترة 2500 سنة قبل الميلاد، ورعمسيس في 1300 قبل الميلاد، وعليه تندفع قرابة الألف سنة إلى الخلف كل الأحداث التاريخية ويتشوّه بذلك التراث التاريخي الديني الذي افترضوه...

(فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ{40})

{فَكُلًّا}، كلّ واحد من المستكبرين المذكورين سابقا، {أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ}، بسبب مخالفته للحقّ وفعل السوء ولتكبّره... لم نتركه بل طلناه، {فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا}، وهي الحجارة الصغيرة والمتوسطة الحجم، وورد التوصيف بذلك لعذاب قوم النبي لوط(ع) في الآية 34 من سورة القمر {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ}.

{وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ}، صدر أمر واسع الانتشار منه تعالى، وهنا الإشارة بالصيحة للموت الجماعي لعدد كبير من الناس، كمدين وعاد وثمود... من دون تحديد آلية تنفيذ الصيحة، قد تكون زلزالا أو فيضانا أو بركانا...

الصيحة في استعمالنا العادي هي وصول الصوت لعدد كبير من الناس، وحتى يصل إليهم يجب أن يكون الصوت قويا، واستعمل القرآن كلمة صيحة بعد تفريغ معناها من كلّ الإضافات، وهذا التفريغ للمعنى من الإضافات منتشر في عموم كلمات القرآن، وبهذه الطريقة لم يضطر سبحانه في قرآنه لاستعمال مجاز أو استعارة أو كناية... بل استعمل أقرب كلمة للمعنى المقصود، وعامّة أهل اللغات يفعلون ذلك، مثلما نفعل مع كلمة باب، نافذة... في اللغة لا نخصّص هذه الكلمات لمستطيل من الخشب، بل نفرّغها من الإضافات ونستعملها لعموم أي ممر أو إطلالة مادية أو معنوية... وعند توصيفه سبحانه، بالحي القيوم البصير... أحبّ غضب انتقم... يد، ووجه الله تعالى... سنفهم هذه الكلمات بشكل صحيح عند تفريغها من الإضافات التي تخصّص استعمالها. وهنا الصيحة هي وصول كلمة ما "أمر ما" إلى عدد كبير، وهنا هو أمر بالموت. واستعمل القرآن كلمة صيحة في سور أخرى للتعبير عن أمر برجوع كل الناس إلى الحياة كما ورد في الآية 53 من سورة يس {إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ}. وكما ترى فرّغها القرآن من التصاقها بالصوت القوي، واستعملها على معنى وصول الأمر الإلهي لعدد كبير من الناس في وقت واحد، ومثلها في المعنى التعبير بالنفخ في الصور.

{وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ}، وهو قارون كما ورد في الآية 81 من سورة القصص {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ...}، حيث صيّره تعالى تحت مستوى الأرض وطمره تعالى فيها هو وداره وكنوزه معه.

{وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا}، طمرناه بالماء، وهو فرعون وجنوده.

{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ}، لم يحصل معهم من عذاب إلا ما يستحقونه، وكان سبحانه محقّا بتعذيبهم، {وَلَكِنْ}، ما جرى معهم كان بسبب أنهم، {كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}، لأنهم لم يكونوا عادلين منصفين مع أنفسهم عندما تركوا الكلام الحقّ وفعلوا السيئات وكفروا بكلامه تعالى، ولم يكن معهم حقّ بالكفر بالآيات البيّنات...

تتذكّر أنهم نماذج مختلفة في سوء ما فعلوه، ومن المفروض رؤيتنا نحن بسهولة لسوء ما فعلوه حتى نأخذ عبرة.

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ{ 41})

{مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ}، الذين تركوا ولاية "اتباع" صاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى ووالوا فاتّبعوا غيره، فسمعوا كلام غيره ونفّذوه، {كَمَثَلِ}، كشبه، {الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا}، وهي الحشرة التي تنسج لنفسها بيتا على وجه الأرض أو بين النباتات أو زوايا حيطان البيوت... يعني من والى الله سبحانه فاتخذ بيتا متينا حاميا، ومن ترك ولاية الله تعالى فاتخذ بيتا مثل بيت العنكبوت، {وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ}، فليس فيه القدرة على تحمّل التمزّق، فهو بيت هشّ سهل التمزّق، {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}، لو كان الذين تركوا ولاية الله تعالى يعلمون أن وضعهم يشبه وضع من احتمى ببيت العنكبوت.

تذكّر الآية السابقة التي قالت لنا كيف طال العذاب الإلهي أمما وأشخاصا ظالمين، وبأشكال متنوعة من العذاب، فهل ولاية غير الله تعالى حمتهم؟ وأي والٍ يمكنه حمايتهم منه تعالى؟ فلو كانوا يعلمون أن الولاية الحامية فقط وفقط ولايته تعالى، مثلما نجّى النبي نوح(ع) والمؤمنين، ونجّى النبي إبراهيم(ع) من النار، ونجّى بقية الرسل من أقوامهم الظالمة... فلو علموا فعلا بذلك وصارت هذه المعلومة كقناعة عندهم ولم يكفروا، فعندها لما والوا غيره تعالى.

نلاحظ أن الخيط الذي يفرزه العنكبوت ليبني بيته منه، هو من الخيوط القوية بالمقارنة مع بعض الخيوط الأخرى، ولكن الكلام هنا ليس عن الخيط بل عن بيت العنكبوت، فالبيت واهن فليس فيه من القدرة ما يكفي لحمايته من التمزّق بمجرد تمرير يدك عليه.

(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{42})
{إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ}، عندما تركوه تعالى ودعوا وأشهروا وأعلنوا لغيره، والكلام عن عموم الدعاء ولكن بالخصوص عن إعلانهم لغيره سبحانه أنه إله، حيث سبحانه يعلم لمن توجّهوا إليهم بالدعاء فقالوا عنهم آلهة، وبناء عليه يخبرنا سبحانه بأنهم مثل الذي ترك الحماية المتينة واحتمى ببيت العنكبوت، لأنه سبحانه وحده الإله الحقيقي، ووحده لديه القدرة من مستوى إلهي... وكل ما عداه هو ضعيف محكوم لإرادته تعالى.

{وَهُوَ الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... فالذين تركوا ولايته تعالى ووالوا غيره، وتركوا الدعاء له كإله أحد ودعوا غيره سبحانه، فهم دعوا لذليل محكوم له تعالى.

{وَهُوَ الْحَكِيمُ}، وكلمة حكمة ومشتقاتها تشير لعموم ضبط الشيء على المطلوب: على الصوابية على الحقّ... وعلى نفس المعنى الأساسي نقول: أحكم الوثاق، حكم بالعدل، حكومة على الناس... وتفسير الحكمة بالأهداف والغايات السامية هو من تبعات تطبيق صوابية الحقّ، ووصفه تعالى بالحكيم يشير لصوابية نظرته في الأمور وأن قراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب لأنّ قراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول بأن أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فلا يفعل لغاية له سبحانه.

سياق الكلام هنا عن صفات فيه تعالى تدفعنا لتقديره حقّ قدره، لنحترمه ونوقّره، بل لنحبّه ونفتخر به إلها لنا. وترى هذا المعنى واضحا بالمقارنة بين صفاته تعالى التي قالها عن نفسه، والتي تراها منعكسة في أفعاله، وبين صفات آلهة المشركين التي ترى فيها ضعفا وعبثية ومزاجية... فلو توصّل المشركون إلى وصف آلهتهم بصفة العزّة والحكمة، لكانوا أصلا هم فيهم حكمة تمنعهم من اختراع آلهة وهمية.

(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ{43})
{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ}، تلك التشبيهات التقريبية من ذكر الأقوام التي والت غيره تعالى فكانت كالذي احتمى ببيت العنكبوت فعذّبها تعالى ولم تنتصر ولم تجد من ينصرها، {نَضْرِبُهَا}، يقيم سبحانه تلك الأمثال فيقولها ويطرحها {لِلنَّاسِ}، مثلما نقول: ضرب خيمة. ونقصد ركّبها وأقامها، سبحانه ضرب لنا "أقام" هذه الأمثلة، {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}، لا يتحرّك بها إلا عقل وفهم الذين يستعملون فكرهم ولا تتحكّم بهم غرائزهم وشهواتهم وأهواؤهم السيئة.

نلاحظ أننا في حياتنا العادية نتحدّث مع بعض الأشخاص بكلام منطقي موزون، ولكنهم لا يقتنعون! وهنا الآية تقول نفس الشيء، فالأمثلة التي يقولها لنا سبحانه عبر القرآن تدل على معانٍ صحيحة، ولكن هل يفهمها ويستوعبها كل الناس؟ لا، لا يستوعبها من لا يفكّر بشكل صحيح، بل يستوعبها العالمون، وليس المقصود بـ "العالمين" حملة الشهادات الجامعية، ولا علماء الدين، لا، بل كل من كان فكره ونفسيته صافيين فسيستقبل الكلام الصحيح ويقتنع به، في النظرة الإلهية يكون تصنيفه: عالم بالحقّ.

(خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ{44})
{خَلَقَ اللَّهُ}، ركّب وألّف صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز الله سبحانه، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وهذه هي كل حدود دنيا المخلوقات. والتعبير بالسماء يشير لعموم ما علا من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، فلا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها "أرض"، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، حيث إن عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات وهي لم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة

فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها مما يناسب تكوينها فهو أرض، كوكبنا الترابي أرض بالنسبة لسمائنا، ومثله سطح القمر فهو أرض لسمائنا، وسطح المشتري الغازي أرض لسمائنا... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض.

خلقهم سبحانه، {بِالْحَقِّ}، بالصواب، فكان فعله سبحانه صحيحا حين خلقهم، ومن رحمته منحهم الخلقة وبحكمته خلقهم. هناك نظرة من قدرته تعالى على خلق الأشياء التي أصلا لا وجود لها، ومضافا إلى هذه القدرة والمنحة هناك الصفات الإلهية الحسنى، فإن فعل سبحانه شيئا فحتما سيكون حميدا، ومن ناحية منح الوجود والحياة للكائنات فهذا عمل حقّ، وكله خير، ومن ناحية تصميمه تعالى لما سيخلقه فسيكون نابعا من صفاته الحسنى سبحانه الرحمن الحكيم الذي لا يعبث... ذي القدرات الفائقة، فمن النظرتين خلق السماوات والأرض موصوف بأنه حقّ.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، في خلق السماوات والأرض، {لَآيَةً}، فهو شيء مميّز، {لِلْمُؤْمِنِينَ}، للمعتقدين به تعالى، فمعرفتهم بالمخلوقات من حولهم والظواهر ووساعة الكون الذي يعرفونه... يدلّهم على الله تعالى كإله أحد خالق حكيم...

بالنسبة لكلمة "آمن" لم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإسلام أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، فآمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كلتاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

لا تنسَ أن كلامه تعالى معنا وعنّا يشير للقدرة التي فينا على التعرّف عليه سبحانه وعلى تمييز الحقّ من الباطل، فيصف سبحانه بعض الناس بالمؤمنين والعالمين وذوي ألباب ومتقين... ليس من ناحية إيمانهم به وبدينه، بل بالنظر إلى حالتهم هم كأشخاص قلوبهم "فكرهم ونفسيتهم" سليمة، فحافظوا على سلامة القلب التي خلقهم تعالى بها، وهو نفسه تماشيهم مع آياته تعالى المنتشرة في الدنيا فيرونها دالة عليه تعالى، وهو نفسه تماشيهم مع كلامه تعالى الذي ليس فيه إلا الحقّ والخير.

نسمع أحيانا من هنا وهناك أناسا يعترضون فيقولون: لماذا خلقني الله؟ ولماذا خلق هذه الدنيا؟ وبعضهم يقول: كنت أفضّل أن لا أكون موجودا في هذه الدنيا لأنها لا تعجبني. بعضهم يقول: إن كان خالقنا رمانا هنا ليمتحننا ويحاسبنا ويجازينا فأنا كنت أفضّل أن لا يخلقني... يعني لم يكن خلقه لي بالحقّ، فلا حقّ له بخلقي لأنني أرفض ذلك... الآن لنتصوّر كلاما يصدر عن مؤمنين حقيقيين: أشكرك يا ربي على خلقي، أشكرك على هدايتي، أشكرك على الجنّة الرائعة الخالدة التي وعدتني بها في مقابل سنوات قليلة من العمل القليل في الدنيا...

هذا ما تشير إليه الآية، فبالحق خلق تعالى السماوات والأرض، بالصواب وليس بالباطل، فعمله سبحانه كان صحيحا، لم يكن يلعب ولا يلهو ولا يتسلّى حين خلق السماوات والأرض، بل عن حكمة خلقها، وها سبحانه يخبرنا بعد مرور مليارات السنين على خلق السماوات والأرض، أنه لم يتغيّر أي شيء، من الأساس كان قراره تعالى بالحقّ، ولحدّ الآن لا يزال ما فعله سبحانه صوابا صحيحا، فأي كلام اعتراضي على خلقه تعالى لنا، أو على خلقه سبحانه لما في الدنيا، فهو كلام فارغ يصدر عن أشخاص فارغين يعبدون الحجر، أو يفسدون في الأرض، أو يتبعون الشهوة السيئة لدرجة الجنون... فهل سيكون حكم هؤلاء على قيمة خلق ما في الدنيا مقبولا عقلانياً؟ لا.

أضف إلى ما سبق المفهوم القرآني عن وصف شخص ما بالإيمان، فهناك عُمْيُ القلوب والأبصار والبكم الصمّ... وهناك من يعقل ويبصر ويسمع... وهناك المطبوعة قلوبهم على الكفر والفساد عبّاد الهوى... وهناك أصحاب القلوب السليمة... هذه الأوصاف للناس موجودة فيهم بمعزل عن الدين الإلهي وعن قرآنه تعالى، وعندما تُعرض عليهم الآيات والدين الإلهي، فقسم سيرفضها وينكرها ويحاربها... وقسم سيتماشى معها لأنها متوافقة مع فكره ونفسيته، فهو لم يستسخف نفسه ويخترع إلها من خياله، فيشعر عن اقتناع بوجود إله واحد أحد... وهو كاره للفساد والإجرام... فهذا مؤمن، وإن كان قلبه سليما من الدرجة العالية من دون نزول وحي عليه، ومن دون سماعه لكلام ديني ممن نزل عليهم الوحي، فهذا لوحده موصوف منه تعالى بأنه مؤمن، وكثيرا ما وصف القرآن هؤلاء بالمتقين وبالذين يخافون ربّهم

سبحانه من قبل أن يأتيهم كتابه سبحانه، وراجع في ذلك دراسة الآية 2 من سورة البقرة {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}.

على أي حال فكيف سيسألك سبحانه عن رأيك بخلقك قبل خلقك! حتى يسألك إن كنت ترغب بأن تصير إنسانا، أليس من المفروض أن تكون إنسانا ليسألك! وإذا كنت معترضا بعدما خلقك، وكنت تفضّل أن لا يخلقك، فهل مشكلتك معه تعالى الذي تفضّل عليك بمنحك الحياة أم المشكلة في الناس وما يفعلونه ببعضهم حتى صارت المواليد مشوّهة والقتل والتعذيب والإزعاج... من الناس لبعضهم البعض منتشر... فحدّد مشكلتك لترى إن كان تعالى أساء لك حتى يكون معك حقّ بالاعتراض عليه سبحانه، أم أنت أو الناس من حولك أساؤوا لك.

إن كنت تسأل عن الامتحان في الدنيا ورفضك له لأنك ترفض مسألة التعذيب في الآخرة، فالمشكلة أنه تعالى لم يعرض عليك إلا الإيمان بالحق الذي تراه بسهولة من آياته، ويعرض عليك فعل ما يجب أن تراه أنت صالحا لو حافظت على سلامة قلبك، فأين المشكلة في الإيمان بالحق وفعل الصالحات الذي يؤمّن للجميع حياة بسعادة في الدنيا والفوز بجنّة رائعة خالدة؟

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ{45})

{اتْلُ}، اقرأ بالاستناد إلى، {مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ}، أوحينا إليك فأوصلنا معلومات إلى فكرك ووعيك، ومصدر تلك المعلومات من الكتاب الرئيسي، فاقرأها لتستفيد منها إيمانياً.

عامّة الكلام القرآني مع النبي (ع) هو كلام مع نموذج ليكون موجّها له (ع) ولنا، فالأمر لنا أيضاً بتلاوة القرآن.

{وَأَقِمِ}، فعّل لا تهمل ولا تترك، {الصَّلَاةَ}، وهذه الكلمة تشير لعموم التوجّه والإقبال، ولكنها منذ القدم صارت مصطلحاً دينياً يشير إلى الحركات والكلمات التي تعبّر عن العبادة له تعالى، وهي التي نسميها بالصلوات اليومية الخمس الواجبة، {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى}، تأمر بالتوقف نهائياً بلا رجعة، {عَنِ الْفَحْشَاءِ}، عن العمل الجنسي السيّء بكل أنواعه، وتنهى عن {الْمُنْكَرِ}، عن الأعمال المنكرة السيئة الفاسدة وهي التي ينكرها عقلاء المؤمنين، فالتوجّه نحوه تعالى بالعبادة ينهاك فيقول لك أن تتوقف نهائياً عن فعل الفحش أو المنكر. فإذا داومت عليها فأنت تداوم على شيء يذكّرك دائماً لترك الفحش والمنكر، وبعد قليل سنتوسع بمسألة النهي ومعناه.

{وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}، استحضار الله تعالى في فكرك ومشاعرك وسلوكك، أكبر من أي أهداف أخرى، فتلاوة القرآن والصلاة نموذجان عن استحضارك له تعالى في فكرك وعملك وقولك، وفعلاً ذكرك له تعالى أكبر، فأي عمل آخر غير ذكره تعالى فسيكون أصغر من ذكره تعالى.

{وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}، يعلم سبحانه أي شيء يحصل منكم، إذا صلّيتم يعلم، وإذا انتهيتم عن الفحش يعلم...

لاحظ أن الطبيب ينهاك عن أكل الدهون، ولكن الطبيب لن يمنعك فعليا عن أكل الدهون، لن يقف على باب فمك ليمنع مرور الدهنيات... وكذلك الصلاة، فهي تنهاك عن الفحش والمنكر، وأنت تتوجّه نحوه سبحانه خمس مرات في اليوم، فخمس مرات تنتبه أن تترك السوء، لذلك شبّهها بخمس مرات كل يوم تقرأ فيها ورقة الطبيب التي تقول: توقّف عن أكل الدهنيّات. أقول لك هذا لأننا نعلم من أنفسنا أننا ربما نرتكب فحشا أو منكرا مع أننا من المصلين، فالآية على معنى: من المفروض أن المداوم على الصلاة سينتهي عن الفحشاء والمنكر، فالزمن بين الصلوات قريب ولا يدع لنا مجالاً لننسى ذكره تعالى حتى نتجرّأ على فحش أو منكر، فهذا من المفروض أن يحصل، وإن لم يحصل فهذا يعني أننا ما زلنا نتدرج في الإيمان، ولم نصل بعد إلى المعنى الحقيقي للصلاة، لم نصل إلى معنى التوجّه والإقبال عليه تعالى.

الْوَحْيُ هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خيراً أم شرّاً، وبناء عليه فكل أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وحياً لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وترى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ

حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}، وحتى الملائكة (ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ}...

ينطبق فعل الوحي على أي كائن كان "إنساناً، حيواناً، مَلَكاً أو جنّاً" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم.

طرق فعل الوحي وأنواعه متعددة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا (ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}. ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}، وما ورد في الآيتين 193 و 194 من سورة الشعراء {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ}. أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ}...، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل كما هو مشهور في تراثنا الديني. ووحي عبر إصداره تعالى صوتا في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، مضافاً لها الآية 13 من سورة طه {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}، فكلامه تعالى معه (ع) وحي لأن الكلام ليس صادرا مباشرة منه تعالى فهذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، فيصير وصف الحالة أن كلامي يصلك وحياً.

هناك وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ}، ففي النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

الْوَحْيُ يصدق على وحي الخير والشر، فالشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}... ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... فالوسوسة في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيراً أو شرّاً فهو وحي.

(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ{46})

{وَلَا تُجَادِلُوا}، الجدل هو عموم محاولة كل طرف إقناع الآخر، وتدرجاته تتحدّد من السياق، من التمسّك بالرأي إلى الليونة. فلا تحاولوا إقناع {أَهْلَ الْكِتَابِ}، مع الناس المنتمين لكتاب إلهي، كاليهود والنصارى، {إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، فقط بما هو موصوف بأنه حسن، فممنوع التحقير أو الاستهزاء أو التعالي... عليهم وعلى دينهم وتدينهم، {إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ}، فالذين لم يكونوا عادلين ولا منصفين في جدالهم، فيبدو لكم من كلامهم أنهم لا يريدون معرفة الحق بل مصرّون على خطئهم الواضح لهم، فهؤلاء لستم مضطرين للجدل معهم من أصله.

ننتبه، الحالات التي تطرحها الآية هي: جدل بالتي هي أحسن، أو، لا جدل نهائياً. فلا يأمرك القرآن بالجدل بالتي هي أسوأ مع الظالمين، لا، بل لديك خيار من اثنين لا ثالث لهما: إمّا أن تجادل بشكل حسن مهذّب بمنطق وحجّة وفهم... أو أن لا تجادل مع الظالمين، وهنا الكلام عن الذين لا يريدون الحقّ ولا يعترفون به حتى لو كان واضحاً.

{وَقُولُوا}، والطريقة الحسنة للجدال معهم أن تقولوا لهم: {آمَنَّا}، اعتقدنا، {بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا}، فنحن نؤمن بالقرآن، وآمنّا بالذي {أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ}، حيث نعتقد بالكتب الإلهية السابقة التي وصلتكم منه تعالى، ونعتقد بأن مصدرها إلهي بالأساس قبل تحريفها طبعاً، فالكلام هنا عن أصل الإيمان بكتب نزلت من عنده تعالى، ونحن نؤمن بأنه سبحانه أنزل كتباً على رسله السابقين.

وقولوا لهم: {وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ}، فنحن لا نعتقد بإله جديد، بل هو نفس الإله، نفس الكائن ذي الصفات والقدرات الفائقة الذي أنزل كتبه على الرسل السابقين، وهو نفسه الذي نؤمن به ونعتقد أنه أنزل القرآن.

{وَنَحْنُ لَهُ}، لهذا الإله الواحد الأحد، {مُسْلِمُونَ}، منقادون مطيعون.

كما تلاحظ، الفتنة التي يقع فيها الناس عموماً والمؤمن خصوصاً تختلف وتتنوّع، فالآيات من أول السورة تناولت الحديث عن مؤمن يفتتن بالكفّار، وهنا تتحدّث عن مؤمن يفتتن بأهل الكتاب، وتذكّره بأن القرآن زوّده بكامل الحجج ليجادل أهل الكتاب حول الحقّ ليهتدوا أو ليردّ على إشكالاتهم... وأبسط وأساس الحجّة القرآنية له: أنك مؤمن على الخط الإلهي الممتدّ من الكتب الإلهية القديمة، مروراً بالتوراة والإنجيل، وصولاً إلى آخر كتاب وهو القرآن، وأنت على الخط، وأهل الكتاب توقّفوا عن المسير على خط الكتب الإلهية، فلا تفتتن بالجدل معهم بالتي هي أسوأ.

للأسف، الدارج الغالب بين عموم الناس الجدل بالأسوأ، فإن كان الله تعالى بعظيم قدرته وبعلمه بالغيب يتعامل مع كل الأمور بشفافية، حيث يسأل إبليس عن تبريره لرفضه السجود لآدم (ع)، ويسأل المشركين عن دليلهم على ألوهية آلهتهم... ويعرض عليهم ما يراه سبحانه، ويخبرهم بما يعلمه... فمن هذا الأسلوب الإلهي نتعلم الجدل بالتي هي أحسن، فالخلاف عادة يصير حول صحّة معلوماتك أو فساد معلوماتي غير المطابقة للواقع، وهذا جانب من الأمور الجدلية التي يحسمها مطابقة المعلومات للواقع، وكلامه تعالى في القرآن فيه أخبار عن أمور وحوادث كما يراها تعالى... وإن لم تنسجم المسألة بتثبيت تطابق معلومة ما مع الواقع، فمحاولة إقناع الآخر تنتقل للبرهنة على فساد معلوماته بفرض اعتبارها صحيحة ومحاولة مطابقتها مع الواقع.

خذ مثلاً مسألة الشرك به تعالى، حيث الإله تواصل منذ آلاف السنين مع البشر، وأنزل كتباً، وحدثت العديد من الأمور غير العادية عبر التاريخ المنسوبة لتدخله تعالى... وخلقه للسماوات والأرض بتنظيم واحد... فهذه معلومات إن رفضها أحد ما فلننتقل إلى افتراض صحّة ما يقوله الرافض ونرى إن كان قوله يتماشى مع الواقع، فهل هناك أثر لإلهين لكل واحد منهما قرار مختلف عن الآخر؟

مضافاً لما سبق وتحت عنوان مطابقة المعلومات للواقع لدينا مسألة تمييز الشيء إن كان من الخير أو من الشرّ، ويصير الخلاف حول تصنيف مسألة ما إن كانت صالحة لتحليلها أو وجوب فعلها، أو فاسدة لتحريمها، وعادة يحصل خلل فينا ولا تعود قدرتنا على تمييز الخير من الشرّ مستقيمة، وهكذا نحتاج إلى مرجع ثابت فيه أساسيات تصنيف الخير والشرّ بمعزل عن الأعطال التي فينا، فنحن عادة لا نعترف بأن ما نحبّه ونرغبه سيئ، فلا نفصل بين ما نحبّه وبين تصنيفه، والموضوع سيكون أسهل إذا قلت إني أحب فعل هذا العمل الذي أعلم أنه سيئ. ولكن عادة نصرّ على تبرير السيئ الذي نرغبه لنصوّره ونبرهن على حسنه.

هذه أساسيات ما طرحه القرآن وبنى عليه كلامه، وهذا ما يجب علينا الانتباه له، إذ إن كثيراً من جدالاتنا مع الآخرين والتي يبدو لنا انتصارنا فيها عليهم، هي وهم، فالغلبة بالكلام كما يفعل المحامي الحذق "الشاطر الماهر" لتبرئة مجرم، ولرفض الحقّ من الآخرين وإخفاء الحقائق... فهو الجدل الذي ينهى عنه تعالى.

عادة نحن كمنتمين لدينه تعالى نقع فيما وقع فيه الذين سبقونا من أهل الكتاب، ونترك قرآنه تعالى، ونعتمد عاداتنا وثقافتنا كدين إلهي، وكل واحد منّا من المذاهب الإسلامية يظن نفسه على الحقّ ويرى الآخرين على ضلال، ولا يفكّر ولو لثانية باحتمال أن يكون هو في مسألة ما على ضلال! وهذا الإصرار هو نفسه الذي سيواجهك عند الجدل مع أهل الكتاب، ولذلك ترى الآية هنا تعيدك للأساسيات لتتخلّى عن عاداتك وتراثك الثقافي لتجادل بمحتوى الكتاب الإلهي.

خُذْ مثلاً مسألة أفضل امرأة إيمانياً عنده تعالى، فالكلام فيها بين المسلمين مختلف بين تفضيل السيدة مريم أو السيدة فاطمة بنت النبي محمّد، أو تفضيل زوجته عائشة أو زوجته خديجة... اخترتها لك كنموذج من بين المسائل الأخرى كمسألة يمكننا الحديث فيها بقليل من الحدّة والحساسية، ولن أدخل في موضوع الجدال الدائر بيننا نحن المسلمين، وسأسألك عن الجدل فيها مع النصارى، فها القرآن في الآية 42 من سورة آل عمران وبنص أصرح من الصريح يخبرك أنه تعالى اعتبر السيدة مريم أرقى نموذج بشري نسائي {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ}، ويأتيك من يقول بأنها كانت أفضل نساء عصرها! وليست أفضل نساء العالمين من أولهم لآخرهم! وفي المقابل لا تجد في القرآن تصريحاً بالاسم بأفضلية السيدة التي يعتقد هو بأفضليتها بدلاً من السيدة مريم (ع)!

لا أدري ما معنى هذا الجدل؟! هل السيدة مريم شخصية مسيحية للمسيحيين ولا مصلحة لنا كمسلمين في اعتبارها أفضل من نساء شخصياتنا التاريخية الخاصّة بنا؟ فما معنى هذا؟

أطلت عليك وضربت لك مثلاً لتنتبه أنه ليس كل واحد منّا جادل أهل الكتاب يُجادل بالتي هي أحسن، فلنبدأ مع أنفسنا أولاً بالرجوع إلى كتابه تعالى، واعتماده فعلاً كمصدر للعقيدة والتشريع والسلوكيات، ونبذ الفرقة بيننا، وبعدها نصير مؤهلين للجدل مع أهل الكتاب.

لهذه الأعطال المعيبة التي فينا والتي يعلم سبحانه بها، أمرنا بمحاولة الاتفاق مع أهل الكتاب على الأساسيات، فنحن نؤمن بكتبكم وبرسلكم ونؤمن بنفس إلهكم، وهذا المعنى ملخص أيضاً في الآية 64 من سورة آل عمران {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}.

كِلْتَا الآيتين فيهما أمر إلهي لنا بالتصريح بإسلامنا له تعالى، وهذا هو سبب لفت انتباهك قبل قليل لمسألة الاعتراف بحيادية الحقّ والباطل عمّا أرغبه أنا من سوء، فأنا لا أعلن لأهل الكتاب أن كل عقائدي وتشريعاتي دقيقة وصحيحة، لا، بل أعلن لهم أني مثلهم أحاول أن تكون عقائدي وتشريعاتي متوافقة مع كلامه تعالى، وأننا مثلهم لدينا شطط، وكلنا كمنتمين لدينه تعالى علينا أن نعلن أننا إذا عُرض علينا الحقّ سنقبله، فنحن مسلمون له تعالى، فنحن منقادون لما يقوله تعالى، وصار لدينا كلّنا فرصة رائعة لمحاولة تقويم كل شيء ديني لأن بين أيدينا كتاباً إلهياً جديداً لا تحريف فيه.

كما ترى، أنا أتكلّم بشفافية كما تعلّمت من كلامه تعالى، وأقول إننا دائماً بحاجة لتقويم عقائدنا وتشريعاتنا وسلوكياتنا، لأننا وكما ترى من واقع حالنا، نحن لم ولن نخرج من إسقاط مخزوننا الثقافي التراثي على كلامه تعالى لتفسيره بما نراه نحن وليس بما يقوله صريح كلامه تعالى، وهذا هو ما تراه منتشراً في كتب تفاسير القرآن المتخالفة على تفسير كلامه تعالى! وأثر ذلك تخالف في العقيدة والتشريعات والسلوكيات.

انتبه حين تجادل أهل الكتاب، ولا تفعل سوءاً بالابتعاد عن الأساسيات، لأننا كلنا كمسلمين لدينا هفوات وسقطات في التفاصيل، ويجب أن نكون صريحين مع الآخرين الذين نجادلهم، وأن ندعوهم لنكون كلنا على الأساسيات، ونحاول كلنا وهم معنا لتقويم التفاصيل.

(وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاء مَن يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ{47})

{وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ}، بهذا الكلام عن خط الكتب الإلهية الممتد عبر آلاف السنين، أنزلنا إليك أيضاً كتاب "القرآن" كاستمرار لتنزيلنا للكتب.

{فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ}، المعاصرون لك ووصلهم القرآن، وهم الذين آمنوا بك وبالقرآن، {يُؤْمِنُونَ بِهِ}، يعتقدون أن القرآن هو كتاب إلهي كاستمرار وامتداد للكتب السابقة، {وَمِنْ هَؤُلَاءِ}، ومن الذين هم من أهل الكتاب، {مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ}، يعتقد بالقرآن أنه كتاب إلهي، {وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا}، لا ينكر الأمور الواضحة المميّزة المنسوبة له تعالى، التي صاغها سبحانه على شكل كلام وصار اسمها قرآناً، ولا ينكر صحّة إلهية هذا القرآن بالعلن مع إدراكه من داخله أن القرآن إلهي المصدر، وهذا هو الجحد، {إِلَّا الْكَافِرُونَ}، إلا المنكرون للدين الإلهي من أصله.

لا يوجد معنى لإيمان شخص بكتاب إلهي نزل سابقاً وإنكاره لكتاب إلهي نزل حديثاً، فإن كان الأساس عنده أن يؤمن بما ينزل من عند الله تعالى، فكلا الكتابين نازلان من عنده تعالى، فبأي حق يؤمن بالتوراة ككتاب إلهي وينكر القرآن! وبأي حق يؤمن بالإنجيل وينكر القرآن! فهل الأساس عنده الإيمان بالكتاب الخاص بديانته أم الإيمان بالكتاب الإلهي! فهل يؤمن بالتوراة أو الإنجيل ككتاب خاص به، بديانته، أم ككتاب مصدره إلهي! فإن كان أصل إيمانه صحيحاً بالكتب الإلهية، فيجب أن يضمّ القرآن لتلك الكتب ويؤمن به.

تلاحظ تعبير الآية عن إنكارهم لإلهية مصدر القرآن بالجحد، فمن الواضح جداً لمن يؤمن فعلاً بإلهية مصدر تلك الكتب، من الواضح جداً له أن القرآن نازل من نفس المصدر، ولكنه يجحد، فبالعلن يقول بأنه ينكره، مع أنه من داخله متيقّن بأنهما من نفس المصدر. هذا طبعاً إن كان يؤمن بأن كتابه إلهي المصدر، أمّا إن كان منافقاً ومن أصله لا يؤمن بإلهية أي كتاب، وهو فقط بالاسم منتسب لدين أهل الكتاب، فإن الكلام معه يكون مختلفاً، حيث يكون الكلام معه من بداية الإيمان بالله تعالى ربّاً أحداً أرسل رسلاً...

ننتبه لشيء مهم، نحن الآن في حالة عصبية الانتماء لدين، فنشعر بأن القرآن كتابنا الخاص بنا والإسلام كدين خاص بنا في مقابل الأديان الأخرى التي يتسمّى بها من سبقنا من الذين آمنوا بدينه تعالى، فنحن غير اليهود وغير النصارى... وهذا واقع حال وصفنا كمؤمنين بالقرآن وبكتبهم وهم لا يؤمنون بالرسول محمّد (ع) ولا بكتابه. ولكن كلامه تعالى كان ناظراً للحالتين وليس بالحديّة التي نميّز بها نحن أنفسنا عن الآخرين، فسبحانه في القرآن شمل كل المؤمنين عبر التاريخ بعنوان واحد، فهم مؤمنون عاملون للصالحات، "ومسلمون"، وبقية التفاصيل لا أهمية لها، فمن هو آخر رسول آمن به، أو آخر كتاب آمن به... لا فرق.

هكذا ترى الآية هنا تصف من نزل القرآن في زمنهم بالمنتمين الجدد لدينه تعالى، فهو ليس انتماءً لدين جديد بل للخطّ الممتد عبر آلاف السنين من المؤمنين.

بمراجعة ما ذكرناه في دراسة الآية السابقة، سنرى الآية هنا تفصل بين الممارسة وبين المعلومة، فبالنظرة المثالية للإيمان والعمل الصالح نصير كلنا "باستثناء النادرين من المؤمنين من الدرجة العالية" أما عملياً بالممارسة نصير موصوفين بالفاسقين أو المنافقين، فأي سيئة نرتكبها ومهما كانت صغيرة ونحن نعلم بأنها سيئة، فهذا فسق أو نفاق ولو من الدرجة المنخفضة جداً. وهنا الكلام عن إيمان بعض أهل الكتاب بإلهية مصدر القرآن لا يقصد إعلانهم إيمانهم به عملياً، وهذه حالة تلمسها من العديد من النصارى الذين يقرّون بإلهية مصدر القرآن بالمجمل، ولكنهم لا يعلنون التزامهم به.

هذا الكلام يأخذك إلى عمق آخر تجده في دراسة الآية 85 من سورة آل عمران {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}، فدين الإسلام ليس تسمية حصرية لنا نحن المؤمنين بالرسول محمّد (ع) والقرآن، بل وصف لكل من انقاد مطيعاً له تعالى عبر تاريخ البشرية، وفي عموم كلام القرآن ترى كلامه تعالى معنا عاكساً واقع حال اختلاف المنتمين لدينه تعالى لدرجة تسمية كل مجموعة منهم باسم خاص بهم "يهود وبني إسرائيل ونصارى..."، وهذا ناتج عن ممارستنا نحن لتديننا، وترى في القرآن النظرة الإلهية الموحدة لكل المنتمين لدينه تعالى بلا فرق عنده سبحانه بين أي مؤمن وآخر عبر كل التاريخ، وأبسط مثل عن ذلك اعتباره سبحانه أهل الكتاب من المنتمين لدينه حتى لو كفروا بالرسول محمّد (ع) والقرآن، فهذا شيء آخر.

بناءً عليه، أي شخص ينتمي لأي دين كان، ربما يعترف بإلهية مصدر القرآن بسبب ما يجده فيه من كلام حقّ وخير... ولكن ممارسته العملية للعقيدة والتشريع يُحتمل أن يكون فيها ما يخالف القرآن، وهذا ما تقوله الآية عن بعض المنتمين لدينه تعالى من السابقين والذين يقرّون بإلهية مصدر هذا القرآن.

(وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ{48})
{وَمَا كُنْتَ تَتْلُو}، أيها الرسول محمّد (ع) ما كنت تقرأ على الناس مستنداً لأي مصدر، {مِنْ قَبْلِهِ}، من قبل تلاوتك للقرآن، ما كنت تتلو {مِنْ كِتَابٍ}، فلم تعتمد أي كتاب كمصدر لكلامك، ففي حياتك كلّها لم تقل للناس كلاماً مستنداً على أي كتاب، سواء التوراة أو الإنجيل أو غيرهما، بل فجأة وبعد أن قاربت الأربعين سنة من عمرك صرت تتلو على الناس القرآن، فمن الواضح أن المصدر للقرآن قد اتصل بك فجأة، فمن المستحيل أن تستطيع فجأة الكلام بكلام القرآن إلا بحالة من اثنتين، "وهناك حالة ثالثة ستذكرها الآية"، الحالة الأولى: إمّا أن تكون لفترة طويلة قد اعتمدت على كتب أهل الكتاب، أو كتب أخرى، وتمرّست في تلاوتها على الناس، وبعدها اخترعت القرآن، وهذا شيء واضح جداً بأنه لم يحصل لطوال أربعين سنة من بداية حياتك، والحالة الثانية أن الإله سبحانه تواصل معك، وعبر هذا الاتصال حصلت على القرآن، وهذا ما حصل.

{وَلَا تَخُطُّهُ}، الكتاب، {بِيَمِينِكَ}، وهذه هي الحالة الثالثة، فلم تخط فلم تكتب كتاباً بيمينك أي بما فيك من قوّة وتمكّن على الكتابة، "بيدك"، لأنك أصلاً لا تجيد الكتابة، فلو كنت تجيد الكتابة لكان هناك احتمال بأنك طوال سنين عديدة، كنت تجمع المعلومات اللازمة لتأليف القرآن، وتكتبها، وانتظرت حتى اكتمل كتابك، وبدأت بتلاوته على الناس، فمن الواضح أن القرآن كتاب غير عادي، فلا يمكن لأي إنسان القيام بتأليف السور فجأة ومن دون دراسة عميقة مطوّلة،

وهذا أيضاً لم يحصل، فأنت أصلاً لا تجيد الكتابة فلا يمكنهم اتهامك بتأليف كتاب على مدى سنين لاستخدامه فيما بعد لتلاوته على الناس.

{إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ}، لو حصل شيء من الحالات الثلاث، لارتاب المبطلون، فبمجرد شعور أولي بدون أي نظر أو تفكير، سيقوم المبطلون فسيقوم الذين يحاولون إبطال القرآن لتعطيله ككتاب من مصدر إلهي ليصير من تأليفك.

نلاحظ أن كلمة "تلا يتلو" معناها: تقرأ على الناس كلاماً وأنت تستند على مرجع لكلامك. فتتلو عن كتاب، تتلو عن وحي، تتلو عن حفظك لكلام غيرك... وإذا أعدت قراءة ما كتبناه من دراسة للآية على أساس فهمك لكلمة تلا يتلو، لانتبهت لدقّة تعابير الآية.

بكل أسف، فمن المصائب التي نزلت علينا من بعض مخترعي الأحاديث، ومن الذين نقلوا الروايات ولم يرموها لترتطم بالحائط رغم وضوح كذبها، للأسف فقد قدّسوها، وقد ورد في بعض الروايات بشكل صريح أن النبي محمّد (ع) بعد أن صار نبياً، صار يكتب ويقرأ! فهناك رواية تقول عنه (ع) إنه .... فرأى مكتوباً على باب الجنة... فمن اخترع هذه الرواية "ولو درست تاريخ حياة هذا الراوي بإنصاف لعلمت بأنه من الكذّابين بشهادة أهل عصره"، فقد نسي أن النبي محمّد (ع) لا يقرأ ولا يكتب! والأنكى من ذلك أن تقديس الروايات جعل بعض المسلمين يجد تخريجات لهذه الرواية وأمثالها! وذلك بدل رميها ورمي كل الروايات التي جاءت من هذا المصدر الكاذب.

لفتني ضعف الذاكرة عند من قال إن النبي (ع) في صلح الحديبية قد كتب عقد الصلح بيده! وكان اعتماده على رواية عن شخص لم يكن حاضراً في ذاك الاجتماع! وكان هذا الراوي ينقل ما سمعه من الناس ويكمل النواقص من عنده...! ومن المشهور جداً أن سهل ابن عمرو رفض التوقيع على المعاهدة لأنها تتحدّث عن اتفاقية بين محمّد "رسول الله" وسهل ابن عمرو، الذي في حينها لم يكن يعترف بمحمد أنه رسول، وكان الكاتب للوثيقة علي ابن أبي طالب، فأمره الرسول بمحو كلمة "رسول الله" من المعاهدة بناء على طلب المدعو "سهل"، فاعتبرها الإمام علي ثقيلة عليه محو صفة الرسول، فطلب منه الرسول (ع) أن يدلّه على مكان الكلمة حتى يمحوها هو (ع) بنفسه، فمن الواضح جداً أن الرسول (ع) وبعد قرابة ثمانية عشر سنة من تعيينه إلهياً كرسول، لم يكن يستطيع تمييز اسمه ووصفه من الأسطر القليلة من بداية الوثيقة...

كما ترى يا عزيزي، تقديس الروايات يعمي القلوب عن تذكّر الحقائق الناصعة، وأشهرها أنه (ع) وطيلة حياته لم يكتب ولا كلمة واحدة من القرآن بيده، ولكن وبكل سهولة تجد أشخاصاً مرموقين في التاريخ الإسلامي يقولون: وقع خلاف في كونه (ع) صار يكتب ويقرأ بعد أن صار نبياً أم لا... فهل يوجد أعجب من هذا!

(بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ{49})
القرآن حتما ليس من تأليف "محمّد(ع)"، بل هو آيات بيّنات، كلام مميّز واضح، كدلالات إلهية، في صدور الذين أوتوا العلم، فمن كان لديه علم حقيقي، وَكان عقله صافيا ويبحث عن الحقّ، فهذا يتفاعل مع القرآن على أنه آيات ربانية واضحة.

{وَمَا يَجْحَدُ}، ولا ينكر أمام الآخرين ما يعتقد به من داخله، {بِآيَاتِنَا}، بالأمور المميّزة المنسوبة له تعالى، {إِلَّا الظَّالِمُونَ}، إلا الذين لم يكن معهم حق بإنكارها لأن صِحَّتَها واضحة، وَلم يكن عندهم حجّة صحيحة لإنكار آياته تعالى الواضحة.

نلاحظ أن صدرنا ينشرح عند حصول ما يسعدنا، وينقبض حين نتعرّض لما يزعجنا، وَالتعبير القرآني والعربي وفي الكثير من اللغات يشير بكلمة "الصدر" إلى تفاعلنا مع عموم ما يحصل معنا، فمن كان موصوفا بالعلم فهذا يتفاعل مع آياته "كلامه القرآني" سبحانه على أنها مميزة واضحة له.

من ناحية لدينا أمور مميزة منسوبة للإله سبحانه وتعالى، وناتجة عن صفاته وقدراته الفائقة سبحانه، ومن ناحية ثانية لدينا جاحد بها، يقول بأنه ينكرها مع أنه من داخله يعلم بأنها إلهية، فهذا ظالم، لأنه ليس معه حقّ، ومشكلته ليست معي أو معك بتكذيبك أو تكذيبي، بل مشكلته مع الإله عزّ وجلّ، وعادة لا ننتبه لهذا الموضوع الذي يطرحه القرآن كثيرا، فلو

كذّبني أحد ما لكان الموضوع كبيرا جدا عندي، وَتَحْتَمِلُ أني لم يكن معي حقّ ولذلك كذّبوني، وَتَحْتَمِلُ أني لم أوضّح لهم الأمور... ولذلك كذّبوني... ولكن ما يشير إليه القرآن هو تكذيبهم لدليل مميّز واضح أنه حقّ ممن لا يمكن أن يُخْطِئَ أو يشتبه أو تختلط عليه الأمور أو يعجز عن التوضيح... فهذا القرآن كلام إلهي وإنكار إلهية مَصْدَرِهِ فَهُوَ حتما جحود.

(وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ{50})
{وَقَالُوا}، بعض أهل الكتاب، ومعهم بعض الكفّار:

{لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ}، على محمّد(ع)، {آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ}، أمور مميّزة من المسؤول عنه من مستوى إلهي، ومن الواضح أنهم يقصدون أنه لو نَزَلَتْ آيات أخرى "مما يسمّيه الناس بالمعجزة" غير القرآن، كتحويل العصا لحيّة، رفع لجبل ما، إخراج ناقة من صخرة، يرافقه ملاك، يخرج له من الأرض كنز...

{قُلْ}، للذين يقولون هذا الكلام عبر هذا القرآن:

{إِنَّمَا}، حصرا وفقط، {الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ}، فأنت لا علاقة لك بالأمور المميزة من مستوى إلهي والتي يمكنه تعالى فعلها ساعة يشاء، وَأَنْتَ لا تقرر حدوثها، ولا نوعها... وَ {إِنَّمَا أَنَا}، فقط وحصرا، {نَذِيرٌ مُّبِينٌ}، أَنْقُلُ لكم بشكل واضح الخبر عن شَيْءٍ سَيِّئٍ قادم حتما من ربّكم لمن لم يؤمن، وَالمطلوب مني فقط نقل هذا الخبر بشكل مبين واضح حتى تنتهوا عمّا سيسبّب لكم العذاب.

مسألة الآيات الإضافية عن الآيات التي جعلها تعالى فينا وحولنا وبكثرة والدالة بوضوح عليه تعالى، فهذه ليست مسألة أساسية في دعوتي، بل الأساس أن أنقل لكم الإنذار، وأمّا مسألة حصول آيات "والتي عادة نسميها بالمعجزة" فالموضوع ليس عندي.

مما سبق من نماذج أقوام نزل عليها العقاب هنا في الدنيا، رأينا أعمالا شنيعة في سوئها قاموا بها ولا يناقش العاقل في سوئها، وهنا الآية بناء على ما سبق تقول: أنتم في حالة من يستحقّ العقاب الإلهي بسبب اختراعكم لآلهة وعبادتها وبسبب أمور أخرى سيئة جدا تقومون بها... فأنتم بحاجة للإنذار، وَوَظِيفَتِي كرسول إلهي أن أنذركم، وأنتم تتحججون بأنكم تريدون رؤية أمور خارقة "معجزة" لتؤمنوا وتتناسون سوء ما تفعلونه وكأنّكم لستم تعلمون بسوئه، وكأنها بحاجة لتفكير كثير ودراسة لتروا كم هي سَيِّئَةٌ... وأنها بحاجة لأدلّة "لآيات" لتتأكّدوا أنها سيئة... لا فأنتم بحاجة لنذير وليس لآيات "معجزة".

ضع في بالك دائما الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى مَعَانِيَ قرآنية رائعة لن تراها من مرادفة كتب التفاسير لهما مع بعض "أنذر يُحَذِّرُ وبالعكس" أو تفسيرهما بالخوف أو الخشية... حيث ستجد في عموم التفاسير استعمالهم هذه الكلمات لتفسير بعضها البعض كمترادفات، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لترى المعنى الدقيق لهذه الكلمات في أي آية تظن أنها ستكون مترادفة فيها لترى الفرق، ومثلها كلمة يرجو المختلفة عن يأمل ويطمع... ولفهم الفرق بين كلمتي "حَذَرٍ وَإِنْذَارٍ" تصور شخصا أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، ففي هذه الحالة "تحذّره" من سلوك الطريق السيّء، لأنه حاليا ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، أمّا إذا سلك طريق الخطر "فتنذره" لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. الإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتما ما يضرّه، حيثُ تُنْذِرُ الكافر لأنه في حالة ستتسبّب له العقاب حتما. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يصير فيما سيسبّب له الضرر، حيثُ تُحَذِّرُ المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

هذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، لأن المؤمن قد يقوم بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، عندها تنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة النصارى المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}.

(أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{51})
أولئك الذين يطلبون حصول آيات "من النوع الذي نسميه معجزة":

{أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ}، أيها الرسول محمّد(ع)، {الْكِتَابَ}، وهو هذا القرآن، {يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ}، تَقْرَؤُهُ عليهم مستندا إلى الوحي الذي أنزلناه عليك، لِأَنَّكَ لم تخترعه من عندك، ولم يخترعه أي مخلوق، لِأَنَّ هذا القرآن كلام الإله سبحانه، وإن لم يكن كلام الإله كافيا لهم ليؤمنوا فبأي شيء آخر سَيُؤْمِنُونَ؟

{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ}، في نزول الكتاب الإلهي عليك وتلاوته عليهم، {لَرَحْمَةً}، عناية إلهية لمصلحة من يسمع ما تلوته، {وَذِكْرَىٰ}، وشيء يستحضرونه في فكرهم وعملهم، {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة، {يُؤْمِنُونَ}، وَهُمْ في حالة الاعتقاد والالتزام.

نضع في بالنا دائما ما لفت له القرآن انتباهنا في سوره، كَيْفَ يكون القرآن ذكرى للمؤمن، أليس من المفروض أن يجعلنا القرآن مؤمنين ومن قبل لم نكن كذلك؟ وكأن الآيات تقول: هناك شخص مؤمن أصلا والقرآن ذكرى له، كشيء إضافي أو ثانوي على إيمانه السابق، وَالْفِكْرَةُ في بالنا أن الشخص لا يكون مؤمنا، يَسْمَعُ القرآن، وَيُؤْمِنُ. ولكن بعض الآيات تصيغها بالعكس: هو مؤمن وبعد ذلك آمن بالقرآن.

تَبْدُو الفكرة غريبة لأول وهلة عندما تنتبه لها، ولكن كلا الفكرتين صَحِيحَتَانِ، والأصحّ هو كون الإنسان مؤمنا بالأصل وبعد ذلك سار على هدى القرآن، حَيْثُ كُلُّ القرآن يتحدّث عن العالم والجاهل، عن المتقي للسوء وعن الذي يتّبع هواه السيّء، عن الأعمى والبصير، عن الحي والميّت... وكل القرآن يؤكّد بأن من لا بذرة فيه من هذه الصفات الحسنة "العلم وَالتُّقَى وَالْبَصِيرَةِ..." لَنْ يتماشى مع ما يقوله القرآن، بِالْأَصْلِ وعلى الأقل، يكون لديه بذرة إيمان، بذرة بصيرة، وحبّ لمعرفة الحق، لِيَكُونَ على الأقل مؤمنا ولو بهذه الدرجة البسيطة على مستوى البذرة أَوِ النثرة... وبعدها يَنْتَقِلُ للإيمان بشكل أرقى حين يتماشى مع ما يقوله القرآن.

فكّر فيمن قلبه سليم، عَقْلُهُ ونفسيته سليمة، وهو متحكّم بشهواته... ولا يخترع آلهة، ولا يحبّ الفساد... ولا يمر على الآيات الربانية كالبهيمة بل يراها آيات... فهذا أصلا مؤمن، وبعد ذلك عندما سمع القرآن، آمن به كدليل إلهي يعرض الحقّ ليمشي على هداه، لأن ما يسمعه من القرآن يتماشى مع البذرة السليمة التي في قلبه... وهذا ما تشير له آيتنا هنا ومختلف آيات القرآن، وخذ مثالا عن ذلك الآية الثانية من سورة البقرة {ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}، رَاجِعْ دراستها لمزيد من التفاصيل.

إِذَا انتبهنا لهذا، سننتبه كيف يكون القرآن آية كافية "للمؤمنين"، وليسوا بحاجة لآية أخرى غيره "كمعجزة" ليؤمنوا.

{قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{ (52}
{قُلْ}، أيها الرسول محمّد(ع) للكافرين بهذا القرآن:

{كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً}، لَا أحتاج لشاهد آخر على ما أقوله وأفعله حين أتلو عليكم القرآن وأنذركم، وَمَا تقولونه وتفعلونه حين تكذّبونني، فَإِنَّ صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" سبحانه يشهده، وَهُوَ {يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، يَرَى ويسمع كل شيء أينما كان في هذه الدنيا.

لَا يمكنكم القول أني قصّرت في الإنذار، أو نقلت كلاما ناقصا... ولهذه الأسباب لم تؤمنوا، لا، لِأَنَّ هذه الجملة خبر منه تعالى عن شهادته على قيام رسوله محمد (ع) بوظيفة الإنذار على أكمل وجه عبر نقل هذا القرآن بأمانة كما هو.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ}، اعْتَقَدُوا بما هو غير سليم ولا صحيح، {وَكَفَرُوا بِاللَّهِ}، أَنْكَرُوا أن صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز "الله" عزّ وجلّ إلههم الأحد الذي يجب طاعته، {أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}، سَيَفْقِدُونَ أمورا لها أهمية كبيرة، وَسَيَفْقِدُونَ المغفرة والثواب وبالتالي سيتحاسبون ويدخلون إلى النار الخالدة، أمّا المؤمنون فأكثر ما سَيَخْسَرُونَهُ هو الدنيا الزائلة، وسينالون جنّة خالدة.

هَا أَنْذَرْتُكُمْ، وعبر القرآن يأمرني سبحانه بإخباركم عن شهادته لي أني نقلت لكم دينه بشكل جيد جدا، وواضح وكامل، كَفَرْتُمْ وَآمنتم بالباطل، فأنتم الخاسرون من هذا الاختيار ولا عذر لكم عنده تعالى لأنه يشهد بقيامي بوظيفتي على أكمل وجه.

هذا الكلام وما سبقه يتضمّن نظرته الإلهية سبحانه للأمور كإله فائق القدرات والصفات يتكلّم مع عبيده المخلوقات، قَارِنْهَا مع كلام عالم خبير يوجّهك في عملك عبر وسيط بينكما، وأنت ترفض الانصياع لكلام الوسيط مع أنه ينقل كلام العالم الخبير بوضوح وبالتمام كما هو، وَعُمُومُ الآيات التي تأمرنا بشيء ما، سُبْحَانَهُ ينظر إليها من منظوره كإله يوجّه عبيده وبعضهم يرفضون الانصياع.

عِدَّةَ مرات لفتنا في دراستنا هذه للفرق الواضح بين كلام القرآن الذي ينطلق دائما وفي كل المواضيع من نظرة إلهية للأمور، وبين كلام سيكون من تأليف محمّد(ع) أو مخلوق آخر، لَا تجد في هذا القرآن أَيَّ شَيْءٍ يمكن تسميته بـ "شخصاني" كشيء نابع من محمّد(ع)، وَمَجْمُوعُ آيات القرآن القريبة من الستة آلاف، فِيهَا بضع آيات قليلة جدا جدا تناولت كلاما يبدو خاصا بحياة محمّد(ع)، كالكلام عن منع زوجاته (ع) من الزواج من آخرين بعد وفاته(ع)... وهي حالة نادرة منفردة وضّح فيها سبحانه قراره الخاص جدا جدا لشيء خاص برسوله، أمّا بقية الستة آلاف آية، فستجد فيها وضوح الفرق الهائل بين جواب أو كلام أو تشريع... أو نظرة للأمور... تتوقّعها من مخلوق أو من خالق، لِأَنَّ النظرة الإلهية للأمور واضحة جدا جدا من كلام هذا القرآن.

أقول لك هذا لأن بعض المتذاكين من المنكرين لإلهية مصدر هذا القرآن، الْتَفَتَ إلى وضوح الكلام القرآني من نظرة إلهية، وَرَأَى الفرق الهائل بين كلام يَكُونُ من تأليف محمّد(ع) وبين هذا القرآن، ولكنه جحد! وَقَالَ بأن محمدا(ع) تَلَبَّسَ بشكل متقن حالة تلقيه للوحي الإلهي، وصار كلامه القرآني مبنيا على هذه النظرة بشكل متقن، حِينَ يقول بأن الله تعالى يشهد بأنه رسوله، فهو من شدّة إتقانه لمسرحية الرسولية، ومن كثرة تمرّسه عليها، صارت مترسخة فيه لدرجة القدرة على فصل شخصه عن الكلام الذي ينسبه لله سبحانه.

لا يوجد حالة في تاريخ البشرية مشابهة لما يقوله عن محمّد(ع)، هناك أشخاص يتوهّمون بشكل أو بآخر أنهم المسيح(ع)... وآخرون يتوهمّون أنهم المهدي أو أنه يتواصل معهم... وبعضهم كاذبون لا يتوهمون بل يخترعون ذلك، وبعضهم مرضى نَفْسِيُّونَ يتوهمون ذلك... ولكن لَا تُوجَدُ أَيُّ حالة من تلك الحالات إلا وكان فيها عشرات بل مئات الثغرات، أمّا هذا القرآن الذي استمر نزوله لقرابة العشرين سنة، فلن تجد فيه أَيَّ ثغرة، ولا أي تغيير لشيء قيل سابقا...

العقيدة فيه عن توحيده وصفاته وقراراته سبحانه... كلّها دقيقة، وأساسيات التشريعات مع تبريرات الحكمة الإلهية منها، مضبوطة، وَأَلْفِتُ انتباهك لنماذج رائعة منها ولا خلاف عليها بين المفسرين، كحكم تبني الولد، وحكم الظهار والإيلاء، وتوزيع الصدقات... وكلام القرآن عن توجيهاته تعالى لسلوكياتنا من بر للوالدين والجيران والأقارب... وحرمة الفحش والغشّ والمسكرات والسرقة... وهذا ما يجعلنا نرى بوضوح أن القرآن إلهي المصدر لِأَنَّ تشريعاته أبعد ما تَكُونُ عن هوى بشري سيسقط حتما في شيء سيّء يرغبه وَيُحِلُّهُ...

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ{53})
{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ}، يقولون لك أيها الرسول محمّد(ع): كفى تهديدا بالمراقبة الإلهية وبالخسارة والعقاب... ليصبنا إلهك بالضرر الآن وفورا ولا داعي للانتظار لأننا لن نؤمن.

ضع في بالك دائما أَنَّ القرآن كثيرا ما دمج بين عَذَابَيِ الدنيا والآخرة في كلامه، لِأَنَّ كِلَيْهِمَا عذاب، والتهديد بالعذاب لمن كفر يشمل التهديد بعذاب في الدنيا والآخرة، حَيْثُ يَحْصُلُ عذاب في الدنيا أَوْ لا يحصل ولكن عذاب الآخرة حتمي. وَأَمْثَالُ آياتنا هنا تشير لعموم العذاب، فيقولون: ليحصل الآن العذاب الذي تهددنا به، ومهما كان نوعه...

{وَلَوْلَا أَجَلٌ}، لولا وجود زمن انتهاء للشيء، والكلام هنا عن موعد لِانْتِهَاءِ تركهم بدون عذاب، {مُّسَمًّى}، محدّد، فلو لم يكن هناك نهاية محدّدة معلومة لزمن حصول العذاب لهم، {لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ}، فورا والآن لَصَارُوا في حالة الضرر، ولكن جعل سبحانه لهم أجلا موعدا ليعاقبهم فيه على كفرهم.

سواء في الدنيا قبل الآخرة أو في الآخرة، عنده تعالى موعد محدّد لحصول العذاب لهم، ولولا ذلك لنزل عليهم العذاب فورا لأنهم يستحقونه بكفرهم، وتعلم من عموم القرآن أنه تعالى سلفا يعلم إنْ كان نزول العذاب في الدنيا حكيما أو تأجيله للآخرة حكيما، وسلفا حدّد سبحانه مواعيد العذاب بناء على حكمته، وعلى أي حال فالنظرة الأساسية تبقى

موجودة، فمن كفر يستحقّ العقاب فورا، وسبحانه بحكمته لا يعاقب فورا ولديه آجال محدّدة للعقاب، ويمكن أن تكون آجَالٌ لعذاب هنا في الدنيا ولكن بالتأكيد هناك عذاب في الآخرة لهذه النوعية من الناس.

{وَلَيَأْتِيَنَّهُم}، حتما سيأتي العذاب إليهم، {بَغْتَةً}، فجأة ومن دون أن يتوقّعوه، {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}، حَيْثُ لَمْ يروا مؤشرات أو دلالات لقدوم العذاب.

كما تلاحظ، التهديد في القرآن لقوم النبي محمّد(ع) لم يكن صريحا في نزول عذاب دنيوي محدّد، وَلم يعطهم الأمان من نزول عذاب دنيوي، وفي نفس الوقت لم يؤكّد لهم حصوله، بل دائما تركهم ما بين حصوله وبين تأخير حصوله. ومن التاريخ نعلم أنه لم ينزل عليهم عذاب في الدنيا، ونعلم أن الغالبية العظمى منهم أَعْلَنُوا إيمانهم فيما بعد، وَصَحِيحٌ أن وضعهم لم يكن مختلفا عن أي مجتمع أعلن إيمانه، وَكَانَ فيهم الأتقياء الصالحون، وكان فيهم المنافقون والفاسقون، ولكن بالمجمل أَعْلَنُوا إسلامهم، ولم يقوموا بسوء من العيار الثقيل اتفقوا عليه وَمُنْتَشِرٍ بينهم جميعا... وهكذا تفهم لماذا لم ينزل عليهم عذاب دنيوي يهلكهم، لِأَنَّهُمْ آمنوا فيما بعد، وخرج من ذريتهم مؤمنون.

نلاحظ في كتب التفسير والروايات كَلَامًا عن تعذيب الكفّار عبر خسارتهم لمعركة بدر، أو بحصول جفاف... وَالْقُرْآنُ سَمَّى خسارتهم ببدر عَذَابًا، ولكننا لا نجد في القرآن أَيَّ تَسَاوٍ بين العذاب الإلهي الدنيوي لمن كفر، وبين قتل المؤمنين لمن كفر، وَالْمُشْتَرَكُ بينهم فَقَطْ أنه عذاب، حَيْثُ يُعَذِّبُهُمْ سبحانه بأيدي المؤمنين، ولكن السنّة الإلهية بنزول عذاب دنيوي من عنده تعالى كزلزال أو إعصار... هي العذاب الذي يسأل عنه الكافرون، فلا يصحّ تفسير الآية هنا بالعذاب الذي حصل لهم في بدر أو غيرها.

يبدو في عموم كتب التفسير تَوَافُقٌ ضَبَابِيٌّ بينهم على حصول عذاب إلهي هنا في الدنيا لبعض الكفّار المعاصرين للرسول محمّد(ع)، علما أَنَّ هذا ليس واضحا ولا صريحا من كلام القرآن، ولا مما نجده في التاريخ! ولذلك تجدهم يرمون تخمينات عن أمور سيئة حصلت وَيُصَنِّفُونَهَا ضبابيا في خانة نزول عذاب إلهي على كفّار مكّة كجماعة وكأفراد أو على غيرهم من المعاصرين للرسول(ع)، حَيْثُ يَقُولُونَ عن أفراد إِنَّ بعضهم أكلته الكلاب، وآخر لم يستطع بلع الماء... وعن جماعات حصل لها جفاف...

(يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ{54})
{يَسْتَعْجِلُونَكَ}، أيها الرسول محمّد(ع)، {بِالْعَذَابِ}، وَيَطْلُبُونَ حصول الضرر لهم منه تعالى قبل وقته المحدّد له، {وَإِنَّ جَهَنَّمَ}، وَهُوَ الْمَكَانُ الذي كل ما فيه سيّء، حَيْثُ فِيهِ النار المتأججة والإهانات... {لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ}، لِأَنَّ الْمَوْصُوفِينَ بالكفر لهم نهاية معلومة في الآخرة، ولن يفلتوا منها، وَهُمْ حتما ذاهبون إلى مكان كل ما فيه سيّء، فلماذا ولأي سبب سيستعجل سبحانه تعذيبهم الآن؟

(يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{55})
جهنّم محيطة بهم، {يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ}، في الزمن الذي يصيبهم الضرر بعمومه، وَ"غَشِيَ" يقابلها انجلى "جلاء"، لِيَصِيرَ فيهم أو معهم أو عليهم، {مِن فَوْقِهِمْ}، {وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ}، حَيْثُ مِنْ كلّ النواحي نار وضرب وإهانات من فوق ومن تحت، {وَيَقُولُ}، أَيْ أَحَدٌ مَا يَقُولُ لَهُمْ:

{ذُوقُوا}، تحسّسوا، {مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، فهذا العذاب هو بالضبط نتيجة عملكم، حَيْثُ سَابِقًا كنتم تسمعون عنه والآن تَذُوقُونَهُ وَتَتَحَسَّسُونَهُ لأنكم صرتم فيه.

ركّز القرآن كثيرا على الكلام مع الذين يتعرضون للتعذيب كإشارة إلى التعذيب النفسي مع التعذيب الجسدي، وهنا التعبير يتضمّن شعورهم بالألم النفسي بسبب كل ألم جسدي يتعرضون له، فَضَرْبَةٌ بسبب سيئة ما، وَلَفْحَةُ نار بسبب سيئة أخرى...

من وحي هذا الكلام يمكن الاستطراد لنتكلّم عن معنى التوبة التي تمسح الذنوب، لِأَنَّهَا تتضمّن الندم على ما فعلت، وَيَحْصُلُ عندك هنا في الدنيا شعور مزعج عندما تتذكر السيئة التي قمت بها، وتقرّر أَلَّا تكررها، ولذلك يغفرها تعالى لك ولا تشعر بأي سوء منها في الآخرة، وهكذا نرى معنى الآيات التي ترينا الذين في جهنّم يرافق ألمهم الجسدي

الشعور بسوء ما فعلوه وسبّب لهم هذا الألم الجسدي، فلو هنا في الدنيا شعروا بسوء ما فعلوه لتابوا ولما تعذّبوا عليه في الآخرة.

بقي شيء، في العديد من المشاهد التي نقلها القرآن عن الآخرة تجد نقلا لكلام ما بدون ذكر الذي قاله، إِذْ لَا أهمية لمعرفة من قاله، وربما سيقوله سبحانه في موقف ما، وربما ملاك ما أو مؤمن ما سيقوله في موقف آخر... وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 64 من سورة القصص {وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ}...، وما ورد في الآية 26 من سورة يس {قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ}، وَلِذَلِكَ لَا أهمية بتاتا لمعرفة القائل.

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ{56})
{يَا عِبَادِيَ}، يا أيها الذين مَفْرُوضَةٌ عَلَيْهِمْ طاعتي لأني إلههم خالقهم ومالكهم، وبالخصوص، {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا اعتقادهم بديني، {إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ}، فيمكنكم تغيير مكان سكنكم فهي ليست ضيّقة، {فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ}، حَصْراً تصرفوا على أساس أنكم عبيد لي أنا وَحْدِي، فلا تعتقدوا ولا تفعلوا أي شيء مَبْنِيّاً على شعوركم بأن غيره تعالى مَفْرُوضَةٌ عَلَيْكُمْ طاعته لأنه إلهكم.

من الواضح أن الآية تشير لمؤمن في أرض حيث السلطة فيها لغير المؤمنين، من كفّار أو أهل كتاب يمنعونه من ممارسة دينه، حَيْثُ إِنَّ العبودية لله تعالى يندرج تحتها كلّ المخلوقات، لأنه تعالى إلهنا كلنا، وَهُوَ سبحانه صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا، فيجب أن نؤمن به إلها ونطيع أوامره وحده فقط، يَا أيها المؤمنون بعبوديتكم لي إن كنتم بين أناس يمنعونكم من عبادتي، فغادروا إلى مكان آخر لا يمنعكم فيه أحد من عبادتي، لِأَنَّ الأرض واسعة.

نُلَاحِظُ أَنَّ القرآن أشار لهذه النقطة مِرَاراً، وينقل لنا مَشَاهِدَ من يوم القيامة عن محاسبة الذين لم يهاجروا وبقوا تحت حكم الذين يمنعونهم من عبادته تعالى، وسألهم: لماذا لم تهاجروا؟ ألم تكن أرض الله تعالى واسعة؟ وتقرأ ذلك في الآية 97 من سورة النساء "إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا"، فليس عذرا مقبولا ترك عبادته تعالى بحجّة محيطك الذي يمنعك عن طاعته تعالى، وَيُمْكِنُكَ المهاجرة إلى مكان آخر وتعبده تعالى، لِأَنَّ الأرض واسعة.

تذكّر يا عزيزي ما ذكرته السورة هنا عن النَّبِيَّيْنِ إبراهيم(ع) ولوط(ع) حيث هاجرا من مدينتهما لأن أهلها منعوهما من مخالفة دين الشرك، وتذكّر ما لفتت له السورة من النعم التي حظي بها النبي إبراهيم(ع) في الدنيا من أولاد وذرية من الأنبياء والرسل، وغيرها من الرياسة والوفرة... وحظي النبي لوط(ع) بمقام الرسول...

كما ترى، أجواء السورة حول الفتنة، والتعرّض للصدّ من الآخرين عن عبادته تعالى هو فتنة، وَلَيْسَتْ عذرا طالما هناك إمكانية للهجرة إلى حيث يمكننا عبادته تعالى.

كلمة عبد تشير لمن مَفْرُوضَةٌ عَلَيْهِ الطاعة، وَهِيَ مقابل الحرّ، وَالْمِلْكِيَّةُ من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، حَيْثُ كَأَنَّ كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، إِذْ كِلَاهُمَا نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، لِأَنَّهَا جمع الجمع، وَأثناء الكلام بِدِقَّةٍ تَكُونُ الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، فَتَقُولُ الآيات: عبيد. وَوَرَدَتْ في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وَتَكُونُ لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام "وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ"، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وَتَكُونُ لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس "يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ"، فهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وَعَبِيدٍ آخَرِينَ جاءهم رسول، وَعَبِيدٍ آخَرِينَ... وَجمع الجمع "عباد"، لِذَلِكَ كَلِمَةُ عِبَادٍ لَيْسَتْ حَصْرِيَّةَ الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جدا عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء "وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا".

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ{57})
{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ}، بدون أي استثناء كل واحد منكم سوف يتحسّس ويلمس فقدان الحياة سَيَفْقِدُ حالة الفعل والانفعال، إِذْ كُلُّ الناس حتما ستموت، {ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}، حَيْثُ يَتِمُّ إرجاعكم إلى خالقكم عبر إحيائكم من جديد ليحاسبكم ويجازيكم.

لا طويلة ولا قصيرة، لا رمادي ولا كحلي، بل ثلاث حالات لا رابع لَهَا: حي في الدنيا، ميّت، حي في الآخرة. فإن كانت هذه الحال إجبارية، فهل تفضّل الموت وأنت لم تعبده سبحانه كما أمرك؟ وَمَعْلُومٌ أنه تعالى يعرض عليك فقط الإيمان بالحق وعمل الصالحات، فإن كنت في بلد الكفّار، وبيتك وأهلك ومصالحك وتجارتك... هناك، فهل تعلّقك بهم أهمّ من عبادتك لله تعالى؟ مع العلم أن كلّ نفس حتما ستموت، وبعد الموت لن تختفي ولن تَبْقَى مَيِّتَةً ولن تذهب إلى عالم لا يحكمه سبحانه... إِذْ كل نفس سترجع حتما لتقف للحساب بين يدي خالقها ليجازيها، لِذَلِكَ على هذا الأساس تصرّفوا، وَفكروا كَمَا تشاؤون في أعذار بقائكم تحت حكم كفّار يمنعونكم من ممارسة عبادته تعالى، لِأَنَّ بَعْدَهَا موتكم الحتمي ورجوعكم إليه تعالى لتعذيبكم، لِذَا قَارِنُوا بين هذا وبين هجرتكم وموتكم ورجعتكم إليه تعالى لإسعادكم في جنّة خالدة، فماذا تختارون؟

بقي شيء، حَيْثُ دَخَلَ على ثقافتنا الدينية مصطلح "النفس" على أساس أنها شيء فينا وَلَيْسَتْ من جسدنا ولا من المادة التي يتألّف منها جسدنا وَأَنَّ النفس هي الخصائص الإنسانية... ولكن هذا اصطلاح وليس المعنى الأساسي للكلمة في اللغة العربية ولا في استعمال القرآن. طبعا لا مانع من وضع الاصطلاحات لتحليل الأمور والتعرّف على آليات تكويننا الإنساني ومعنى حياتنا وموتنا، ولكن المشكلة هِيَ دخول هذه المصطلحات إلى تفسير القرآن، حَيْثُ كَثِيراً ما تجد خلطا في كلام المفسرين بين الاصطلاح الذي وضعه الناس وبين المعنى اللغوي الأساسي، وبين الإشارة لاشتقاق الاصطلاح من معاني القرآن...

هنا ترى بوضوح أن كلمة نفس لا تتحمّل المعنى الاصطلاحي الذي يقولونه عنها، إِذْ هِيَ وبكل وضوح وبساطة تشير إلى الشخص، الفرد، أنت وأنا وذاك... وهكذا استعملها القرآن في كل كلامه.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ{58})
بعدما ترجع كل نفس إلى خالقها:

{وَالَّذِينَ آمَنُوا}، الذين اعتقدوا بهذا الدين الإلهي، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، حَيْثُ قاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، وفي الآية السابعة من هذه السورة توسعنا في معنى "عملوا الصالحات".

{لَنُبَوِّئَنَّهُمْ}، لسوف نجعلهم في مكان معروف محدّد، {مِنَ الْجَنَّةِ}، من المكان الموصوف بروعة ما فيه، حَيْثُ فيه الروائع والمشتهيات من بساتين وقصور... سنسكنهم، {غُرَفًا}، أماكن مبنية ليست حجرا "ليست حجرات" إِذْ ليس حولهم أماكن ممنوع دخولهم عليها، لِأَنَّ القرآن لم يستعمل تعبير الحجرات لوصف بيوت وقصور وخيام و... الجنة، حتى نرى أنها كلّ الأماكن متاحة لصاحب الجنّة، ومن سياق الكلام نفهم من التعبير بالغرفة الإشارة لاحتوائها على مستلزمات العيش فيها طبعا برفاهية... وتلك الجنّة، {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، السوائل المتنوّعة تجري من تحت تلك الغرف، {خَالِدِينَ فِيهَا}، هم في الجنّة لا يموتون ولا يفنون ولن يخرجهم أحد منها، {وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}، يا لجودة ويا لحسن هذا الأجر هذا الذي حدّده تعالى كشيء يستحقه العاملون، طبعا المقصود قيامهم بالأعمال الحسنة.

تذكّر دائما أن تعبير: {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، لا يعني أنها غرف في مستنقعات، لا، بل من هنا نهر، ومن هناك نهر آخر... بين البساتين والحدائق، مثل المناظر الطبيعية التي تعجبنا هنا في الدنيا والتي تَجْرِي فيها الأنهار هنا وهناك.

(الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{59})

...{الْعَامِلِينَ}، {الَّذِينَ صَبَرُوا}، حَيْثُ لم يتصرفوا إلا عن وعي ودراسة، وَسيطروا على غرائزهم وشهواتهم وغضبهم، وَتحمّلوا تركهم لبعض مصالحهم "متاع" الدنيا حتى يحافظوا على دينهم، {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}، يعتقدون أن المسؤول عنهم من مستوى إلهي سيسيّر أمورهم كما يجب.

لاحظ إن فكّرت في الظروف التي يصبر فيها المؤمن، حَيْثُ يصبر على الأذى ويتوكّل عليه سبحانه ليحميه من الأذيّة أو يحسب له حسنات على صبره، وَيصبر على ضيق الحال المادي ولا يكسب المال بالسوء، ويتوكّل عليه سبحانه ليرزقه... وهذا ما ستركّز عليه الآية التالية، ونتذكّر أن محور السورة عن الافتتان:

(وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{60})

{وَكَأَيِّنْ}، مثل أي، {مِنْ دَابَّةٍ}، من مخلوق يدبّ وَيتحرّك على الأرض، والدابة وصف لكل ما فيه حياة ويدبّ مُتَحَرِّكاً مُغَيِّراً مكانه على أرض، وهذا بالأساس يشمل كل الكائنات الحية من عائلة الحيوان من الحشرات والزواحف وذوات الأرجل والطيور والأسماك، وندر استعمالها في كلامنا لتشمل الحشرات والأسماك، علما أن القرآن استعملها للحشرات كما في حالة الحشرة "السوسة أو غيرها" التي أكلت العصا التي كان يتّكئ عليها النبي سليمان(ع) كما ورد في الآية 14 من سورة سبأ "فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ..."، واستعملها شاملا بها الزواحف كما في الآية 45 من سورة النور "وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ..."، واستعملها بمعناها الأعم لتشمل كائنات حية من غير عالمنا كما في الآية 29 من سورة الشورى "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ".

{لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا}، لا تحمل معها ما له ارتباط بسدّ عموم الحاجات والرغبات، وهنا الكلام بالخصوص عن الطعام، لِأَنَّ كل الدواب تحتاج للطعام لتعيش، وكل الدواب تسعى للحصول عليه، فإن حصلت بعض الدواب على الرزق وحملته معها إلى مكان آخر، فحالتها الأصلية أنها بحاجة للطعام وليس معها طعام حَيْثُ تأخذه من مكان ما، وليكون الكلام أوضح فأنا بحاجة لرئتين لأتنفس، وأحمل معي رئتي، طبعا سبحانه صمّمني وخلقني برئتين، ولكني أحتاج للهواء، وأنا لا أحمله معي، لِأَنَّهُ متوافر في البيئة، ونفس الكلام هنا عن الطعام، حَيْثُ إِنَّ الْحَيَوَانَاتِ تجوع، وليس معها ما تأكله لِأَنَّهُ متوافر في بيئتها لِذَا هِيَ لا تحمله.

تَحْمِلُ الدابة طعامها على ظهرها أو في حقيبة... ولكنها أخذته من بيتها ولم تحصل عليه من نفسها من كيانها.

{اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ}، حَيْثُ أَنْتُمْ أيضا رزقكم يتأمّن من صاحب الاسم المحدّد المميّز الله جلّ جلاله، وَلِسَبَبٍ أو لآخر حين تُفَكِّرُونَ بأنكم مُخْتَلِفُونَ عن بقية الدواب، فاعلموا أنكم وهم متشابهون إِذْ عادة لا تحملون رزقكم معكم، وهو بالأصل متاح في بيئتكم ليس من فعلكم، وسبحانه الذي أتاحه لكم في بيئتكم.

{وَهُوَ السَّمِيعُ}، الذي يسمع قولكم وضمائركم حين تجوعون وتعطشون وَتطلبون الرزق، {الْعَلِيمُ}، الذي يعلم كيف يؤمّن لكم الرزق ومقداره...

الإنسان مثله مثل بقية الدواب مهدّد بالموت من الجوع، وسياق الآيات يتحدّث عن شخص يعلم أن الدين الإلهي حق، ويحتاج للصبر للحفاظ على إيمانه من الافتتان، وَيرى أنه إن مارس إيمانه في مجتمع كافر فسيفقد رزقه، وعلى أي حال فهو نفسه الكلام عمومي للمؤمن ولغيره الذي يخاف على رزقه إن آمن، حَيْثُ إِنَّ بقية الأمور الأساسية في حياته مهمّة ولكن توافر الرزق أساسي لبقائه حيا، ويأتي بعد الرزق التفكير في الحاجات الأخرى، فإن اختار ترك الإيمان والبقاء تحت حكم الكفّار المانعين له من ممارسة إيمانه خوفا من فقدان الرزق، واعتقد أن الهجرة من تحت حكم الكفّار إلى مكان يمكنه فيه ممارسة تدينه، اعتبرها فكرة تجعله يفقد الرزق المتاح له بين الكفّار... فتأتي الآية هنا لتلفت انتباهه، أَنَّكَ وبقية الدواب المنتشرة على الأرض، من يؤمّن لكم الرزق؟ والتفت لكل الدواب التي أصلا لا تحمل معها رزقها، بل تبحث عنه في بيئتها، فمن يؤمّن الرزق لهذه التريليونات من الجراثيم والحشرات والحيوانات؟ فلا تترك الدين الإلهي خوفا من فقدان الرزق، لِأَنَّ هذا كلام فارغ، حَيْثُ يمكنك المهاجرة أو المجاهدة...

لاحظ يا عزيزي لو أنت صمّمت وخلقت كائنات في بيئة، وصمّمت الكائنات تنمو من الغذاء، وجعلتها تجوع لتأكل، فمن أين سيأتيها الطعام؟ فهل ستخلقه أنت لها كوجبات جاهزة تنبثق أمامها فجأة، أم ستجعل بيئتها ينتج عنها الطعام؟

وهكذا ترى معنى كلامه تعالى عن رزقه للدواب من بيئتهم، حَيْثُ إِنَّهُ سبحانه صمّم البيئة لينتج عنها الرزق، ولو كفرت الكائنات برازقها فهل يريدون انبثاق الوجبات الجاهزة من الفراغ وفجأة ليؤمنوا بأنه تعالى يرزقهم؟

وهنا يَحْضُرُنِي قول منسوب للإمام علي: من وجد ماء وترابا ثم افتقر فأبعده الله. عَلَى أقل تقدير يمكن للإنسان أن يزرع ويأكل، فإن لم يزرع، فأبعده الله أي لا جعله بالقرب منّا، لأنه كسول خامل، فماذا يريد بعد الماء والتراب؟ فهل ينتظر أن تنزل عليه مائدة من السماء! أو أن يجد جيبه مَمْلُوءاً بالمال أو الطعام هكذا وَحْدَهُ! ذَكَرْتُ لك هذا القول لأن بعض الأغبياء علّقوا على هذه الآية بالمجاعات التي تحصل في مناطق مختلفة من الأرض، حيث يموت الناس من الجوع أو العطش، وفي عصرنا حصلت بعض المجاعات بسبب الجفاف، فقال بعض الأغبياء: كيف يقول القرآن إِنَّ الله يؤمّن الرزق لكل الدواب وها هي الناس تموت من الجوع؟ أيها المتذاكي، لم يقل القرآن أن تقعد وسينزل عليك الطعام جاهزا، بل الأرض الواسعة بمواردها الهائلة كلّها متاحة أمام الناس ليترزّقوا منها، وَقالت الآية {وَكَأَيِّنْ} ولم تقل كل دابة في كل مكان وزمان وظرف سيتم إحضار الرزق لها، فهل من العقلانية مشيك إلى وسط الصحراء وتقول: أكاد أموت من العطش والجوع فأين الرزق الذي قال عنه الله في قرآنه! هذا غباء ما بعده غباء.

والذين حصل في قراهم جفاف ولم ينتقلوا منها إلى مكان آخر، أو من قبل الجفاف لم يستغلّوا الموارد المتاحة لهم لحفر الآبار وجرّ المياه وبناء السدود والبحيرات... ما هم إلا خاملون كسالى، فاشلون لم يستغلّوا ما منحهم تعالى من قدرات، أو انشغلوا بالصراعات والنزاعات والتفاهات... ولو تعرّفوا على الدين الإلهي، لفهموا أنه تعالى يأمرهم بالعمل والجدّ والكسب، ويحمّلهم سبحانه مسؤولية موتهم وموت أطفالهم إن لم يسعوا للحصول على الرزق، فما الفرق بينهم وبين من سار إلى وسط الصحراء وانتظر نزول الرزق؟ لِأَنَّ هذا غباء وسخافة من مستوى مُتَدَنٍّ من التعليق على القرآن.

ومن المفيد هنا تذكّر عمل النبي يوسف(ع) على إنشاء مخازن للطعام لاستعمالها في زمن الأزمات.

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ{61})
{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ}، إِذَا عَبَّرْتَ أيها الرسول عن إرادتك للحصول على جواب من أولئك الذين علموا أن الدين الإلهي حقّ ولكنهم خافوا على أرزاقهم أن تتعطّل إن آمنوا، وَإِذَا سَأَلْتَهُمْ: {مَنْ خَلَقَ}، من ركّب وألّف، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}؟ وهذا التعبير القرآني يرادف قولنا: من خلق كل شيء، كل ما في الدنيا؟ {وَمَنْ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ}؟ إِذْ أَنْتُمْ تَسْتَفِيدُونَ منهما من دون تقديم أي شيء ليعملا؟ {لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز هو الخالق المسخّر. {فَأَنَّى}، كَيْفَ وبأي طريقة، {يُؤْفَكُونَ}، ينقلبون وَيَتَصَرَّفُونَ بعكس هذا الكلام؟

ننتبه جيدا، لِأَنَّ الْإِجَابَةَ بِاللَّهِ تعالى عند السؤال عن خالق ما في الدنيا والمسخّر لنا ما فيها، والشمس والقمر نموذج بارز واضح عن التسخير، إِذْ إِنَّهُمَا بَعِيدَتَانِ عنّا وَلَا عَلَاقَةَ لَنَا ولا بأي شكل بما يصدر عنهما نهائيا ونستفيد منه، من إنارة وحرارة ومدّ وجزر وحركة ريح... وَسُبْحَانَهُ الله الخالق هو الجواب العقلاني الوحيد، وأي جواب غيره فهو تفاهة، إِذْ لَا آلِهَةَ مُتَعَدِّدَةً خلقت، ولا بالصدفة تشكّل ما في الدنيا، وَأَيُّ صُدْفَةٍ خَلَقَتْ مادة الكون وَمِمَّاذَا وكيف...؟ وكيف صار في المادة التي انبنى منها الكون خصائص كفيلة بتكوّن المجرات وكواكبها وصولا إلى نشأة الحياة وتناسبها مع بيئتها... وصولا إلى نشأة الكائنات الذكية؟ وَأَيُّ سَخَافَةٍ إِنْكَارُ الإله الواحد الأحد المصمّم الخالق لكل شيء؟

ولو أطلت عليك، فبسبب الفهم الطفولي الساذج لكلامه تعالى من المؤمنين عموما عبر التاريخ، نتج فهم يشير إلى فعله تعالى للأشياء بقوله لها: كوني. وَتَصِيرُ فورا. علما أن كلامه تعالى لا يشير إلى ذلك، حَيْثُ صَرَاحَةً أَخْبَرَنَا سبحانه عن خلق ما في الدنيا في ستة أيام، ست مراحل، وخلقنا نحن من سلالة من طين... وها مضت مليارات السنين وَسَتَأْتِي سِنُونَ يَخْرُجُ فيها أناس إلى الحياة... لِذَا لَا مَعْنَى لفورية حدوث الأشياء، لِأَنَّ الْأُمُورَ تَحْدُثُ مترابطة ولها آليات لحدوثها، إِذْ سُبْحَانَهُ لا يقول: لِيَنْزِلِ الْمَاءُ. وبعدها وبدون ظروف مناسبة من تراكم الغيوم... ستمطر، لا، لِأَنَّ هَذَا التَّدَخُّلَ الإلهي نادر، والحالة العادية هي حصول الأمور بترابط الآليات المناسبة.

خلق الكون له آليات حدثت حتى تشكّل، ونظرية الانفجار الأعظم المشهورة بأنها تفسير جيد لنشأة كوننا، ما هي إلا اقتراح تخميني لآلية خلقه تعالى لسمائنا، ولنفترض صحّة أن ما يقترحه العلماء من حوادث فيزيائية شكّلت الكواكب...

وبعدها من حوادث كيميائية شكّلت الجزيئات النشطة... وبعدها حوادث بِيُولُوجِيَّةٍ شكّلت الحياة... فهذا لا يلغي الإله الذي صمّم ما في الدنيا لتسير بهذا الشكل الذي يقترحونه، بل يشير إلى تعرّفنا على بعض آليات وتقنيات خلقه تعالى لنا.

للأسف قديما وحديثا نجد غالبية المنتمين لدينه تعالى لم يفهموا من كلامه سبحانه نسبة خلق كل شيء لنفسه على معنى تصميمه تعالى لكل شيء بآليات ينتج عنها سبع سماوات، ولهذا تجد عُلَمَاءَ يُنْكِرُونَ وجود الإله لأنهم بظنّهم اكتشفوا آليات مترابطة لنشأة الكون وصولا إلى ظهور الحياة على الأرض، وهم بكفرهم هذا يكفرون بما قاله المنتمون لدينه تعالى، ولكنه ليس معارضا لكلامه تعالى الذي لم يُلْغِ آليات حدوث الأشياء مثلما قال عنه المنتمون لدينه سبحانه، ولمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 9 من سورة فصلت وما بعدها "قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ...".

(اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{62})
{اللَّهُ}، سبحانه وتعالى صاحب هذا الاسم المحدّد المميز، {يَبْسُطُ}، يمدّ وَيُعْطِي بوفرة، {الرِّزْقَ}، الأشياء التي لها ارتباط بحاجاتنا الأساسية وإشباع رغباتنا، والكلام هنا بالتحديد عمّا يؤمّن الطعام، {يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}، إِذْ أَمَامَهُ تعالى خيارات عديدة ليرزق الذين مَفْرُوضَةٌ عَلَيْهِمْ طاعته لأنه خلقهم وهو سبحانه يملكهم، ولا أحد يفرض عليه تعالى أن يبسط الرزق لأي أحد بل هو تعالى يقرّر ذلك، {وَيَقْدِرُ}، حَيْثُ يُعْطِي بِقَدَرٍ بكمية غير مبسوطة، وَبكمية قليلة أيضا يتيح لمن يشاء تعالى من عباده.

{إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، عن علم يمدّ ويبسط لا عن جهل ولا عن عبث، وليست الأمور فَلْتَانَةً أو متروكة للصدف، بل كلها تحت سيطرته تعالى.

إذاً، الأساس أن كلّ شيء بيده سبحانه، ولا أحد من الناس يصير غنيا بقدرة قاهرة على قدرته تعالى، بل هو سبحانه يسمح لك أن تصير غنيا، وأيضا هو يسمح لك أن تصير فقيرا، فإن لم تعمل ولم تحاول التكسّب فسيجعلك سبحانه فقيرا ولن ينزّل عليك كنوزا من السماء، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فمن خطّط وعمل بشكل مناسب للظروف التي حوله، فسيحصل على بسطة في الرزق منه تعالى، وقليلة جدا هي المصادفات التي يصير فيها شخص ما غنيا فجأة "وبالحلال" حَيْثُ يَجِدُ كنزا أو يرث مالا أو تصله هديّة كبيرة... وهي تكون بنظرنا نحن "مصادفة" أمّا من جهته تعالى فهي كانت عنده محسوبة معلومة سلفا بأنها ستحصل...

لا تتوسّع كثيرا في معنى كلمة الرزق، لأنها بالأساس معناها: عموم ما له ارتباط بإشباع حاجاتنا ورغباتنا، وعلى رأس ذلك ما تحتاجه كإنسان لتعيش. وأساسه: الماء والطعام. بعد ذلك نتوسّع قليلا في المعنى التطبيقي ليشمل الطعام الذي لا يزال بحالته الأصلية، إِذْ إِنَّ قَطِيعَ البقر والغنم... رزق، والبستان والحقل... رزق، والمال كونه الوسيلة للحصول على الطعام والشراب هُوَ رزق، والبيت الذي تعيش فيه ويحميك هُوَ رزق من ناحية محافظته على حياتك... إِذِ الرِّزْقُ بأبسط أشكاله هو أن: تأكل وتشرب لتعيش. حَيْثُ إِنَّ أَرْخَصَ طعام سيؤمّن لك البقاء حيّا، وهو رزق كامل، لِأَنَّ الَّذِي يأكل مرة واحدة في اليوم يَكُونُ حَصَلَ على رزق كامل، وكل ما يزيد عن ذلك هُوَ بسطة وَزيادة في الرزق، وصولا إلى الغنى وبعده الثراء.

أكثرنا حاليا لا يستوعب هذا الكلام، حَيْثُ لَا نَعْتَبِرُ الوجبة الواحدة في النهار رزقا، لِأَنَّنَا كُلَّنَا نستصعب العيش في هذه الظروف ولا نقبلها ولا نتحمّلها، ولكن لم نقل إِنَّ هذا هو الرزق الذي فرضه تعالى علينا، ولم يقل سبحانه إِنَّنَا يجب علينا العيش هكذا، ولكن بالمقارنة فَإِنَّ الوجبة الواحدة بالحلال مع الإيمان والعمل الصالح، هِيَ أفضل بكثير من الغنى بالحرام.

الْتَفِتْ إِلَى أَنَّ الغنى من الحرام ليس مفخرة، بل عيب، وهذا ليس بسطا لرزق إلهي، بل مال جُمِعَ من حرام، وعليه حساب عسير، والفقر لمن حاول وعمل بالحلال ليس عيبا بل مفخرة.

الآن، إن كان كل شيء بيده سبحانه فما هو المعيار الإلهي لبسط وتقدير الرزق لنا؟ وعليك يا عزيزي بطرح كل ما تعرفه جانبا حتى نتعلّم من القرآن، حتى ترى الصحّ من الخطأ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ طرح هَذَا الْمَوْضُوعَ عدة مرات ومن كل جوانبه، حَيْثُ إِنَّ الْغَالِبِيَّةَ الساحقة إن لم نقل كل الناس يحبون أن يكونوا أغنياء أثرياء، ولكن إن أكرمك الله سبحانه

أكرمك بالإيمان وتوفيقك للعمل الصالح، لا بالغنى والثراء، وإن أهانك فكرهك فأنت بلا أدب ولا حشمة ولا ناموس... وفي حال حصولك على الرزق الحلال، وبأي كمية كانت، قليلة أو كثيرة، فطالما هو حلال فأنت كريم محترم عنده سبحانه، والحصول على الرزق بطرق الحرام، وبأي كمية كانت، قليلة أو كثيرة، فأنت غير محترم عنده تعالى، بل ينتظرك عقابه القاسي في الآخرة. وتجد ذلك صريحا في الآية 15 وما بعدها من سورة الفجر "فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ". لِذَلِكَ إنَّ بسط الرزق وتقديره ليس معيارا لحبّ الله تعالى لك، وها تعدك الآيات بأنك طالما آمنت وعملت صالحا وسعيت في الحصول على رزقك بالحلال، فأمورك ستكون ميسّرة، وستكون غنيا بما معك لأنه يكفيك، وهذا لا يعني أبدا أنك حتما ستصير ثريا تملك ما يفيض عنك بكثرة من المال والأملاك.

من الشائع بين بعض الناس فكرة أن المؤمنين عادة فقراء، وأن أحبّاء الله تعالى فقراء، حَيْثُ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ فقراء... وهذا غير صحيح، أمّا الصحيح فهو أن المؤمن يَسْتَصْعِبُ الحصول على مال كثير في مجتمع يعتمد على الغشّ، حَيْثُ إِنَّ الْمُؤْمِنَ يبيع كيلو التفاح بسبعة دراهم ويربح درهما واحدا، والغشاش يبيع كيلو التفاح بستة دراهم ويربح درهمين، لأن ميزانه مغشوش، أو بضاعته مغشوشة، أو لن يسدّد بشكل كامل ثمن التفاح للمزارع المسكين... ولكن فليحافظ المؤمن على عمله الصالح ولن يفقر... وهذا الكلام عليه ضمانة إلهية.

المؤمن ليس همّه تكديس المال، بل يصرفه على كسب الحسنات، وَيَتَصَدَّقُ ويساعد الآخرين بحسب قدرته. ولدينا العديد من الأنبياء الذين كانوا أثرياء، مثل النبي يوسف وسليمان وداوود وأيوب عليهم السلام، ولدينا أنبياء كان وضعهم أكثر من عادي، كالنبي إبراهيم ويعقوب عليهم السلام، وأنبياء آخرون وضعهم عادي... وأمّا من تتصوّره كنبي فقير، كالنبي عيسى وَيَحْيَى عليهما السلام، فأنت تتصوّرهما هكذا، أمّا في الحقيقة فهما زاهدان وليسا فَقِيرَيْنِ، حَيْثُ كَانَ النبي عيسى (ع) يملك قدرة على خلق الطير من الطين، وإعادة الحياة للميّت، وشفاء الناس من الأمراض... وهو عليه السلام لم يستغلّ هذه القدرات ليجمع المال، لِأَنَّهُ زاهد لا يهمّه من الأرزاق إلا ما يحافظ على حياته بشكل يمكّنه من نشر الرسالة الإلهية...

نتذكّر جيدا ما ورد في سورتنا هنا في الآية 27 عن إبراهيم(ع) الذي هاجر وآتاه تعالى هنا في الدنيا أجره بالراحة المالية والأمن ولم يكن محكوما لأي سلطان أو ملك... لِأَنَّ السُّورَةَ ذَكَرَتْهُ ليكون نموذجا لمن هم في مثل حالته (ع)، وهي حالة الافتتان في مجتمع يمنع المؤمن من إظهار وممارسة إيمانه، فهاجر، وآتاه تعالى أجره في الدنيا، وَجَعَلَهُ ميسور الحال...

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ{63})

{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ}، إذا عبّرت أيها الرسول(ع) عن إرادتك للحصول على جواب من أولئك الذين علموا أن الدين الإلهي حقٌّ ولكنهم يخافون من فقدان أرزاقهم إذا آمنوا:

{مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ}، الأرض تصير حيّة بخروج النباتات منها، {مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا}؟ طبعا الآية لا تشير إلى فورية خروج النبات بعد ساعات أو يوم من بعد نزول الماء، حيث أي بقعة لا ينزل فيها المطر فلن تجد فيها نباتات، وهذا معلوم للجميع وافترضت الآية علمك به وأشارت إلى عامّة الأماكن التي تظهر فيها النباتات وأنت تعلم أنها ظهرت لأن مطرًا نزل...

{لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز أحيا الأرض بعد موتها.

{قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ}، لأن كل الأعمال التي تصدر عنه موصوفة بأنها حميدة جيّدة، فأعلن اعتقادك بهذا من كل ما تراه من أعماله سبحانه، وهنا لفت انتباهك للمطر والبيئة التي صمّمها وخلقها من الحياة النباتية، فأعلن حمدك لله تعالى.

{بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}، ليس لديهم عقل يعمل بشكل سليم ليستوعب ويفهم أن الحمد لله تعالى المصمّم الخالق المسيطر على كل شيء، وهنا الكلام عن الذين لا يفهمون أنه تعالى مسيطر على الرزق، وهم مستعدون لارتكاب السيئات للحصول على الرزق، بل ومستعدون لترك إيمانهم للحصول على الرزق! علمًا أنه تعالى الذي صمّم نزول الماء وجعله يحصل لتخرج الحياة على أرض بعد أن كانت ميتة، أوليس سبحانه بقادر على رزقهم إن حافظوا على إيمانهم!

بالنسبة للجواب باسمه الله سبحانه "أنه الرازق" نافين الاحتمالات الأخرى، راجع ما قلنا في الآية ما قبل السابقة.

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ{64})
{وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}، التي أنتم فيها الآن، {إِلَّا لَهْوٌ}، هي فقط انشغال بما ليس مهمًّا مع وجود شيء مهم آخر من الأفضل الاهتمام به، ومن تكملة الآية سترى أن الانشغال بالآخرة هو العمل الجدّي المهم، وكل ما تفعله هنا وتراه مهمًّا بالنسبة لك، وبالخصوص فيما يتعلّق بالحصول على البسط في الرزق، فهو غير مهمّ، وهذه الدنيا، {لَعِبٌ}، شيء تتسلّى به لتمضية الوقت، {وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ}، حيث تدور شؤون حياتكم في الحياة التي ستأتي في الآخر، والمقصود الجنّة التي في الآخرة، {لَهِيَ الْحَيَوَانُ}، فهي حقًّا الحياة الحقيقية، {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}، لو عن جدٍّ آمنوا بما يقوله لهم سبحانه عن الجنّة الرائعة الخالدة لعلموا أن الحياة بكل ما لكلمة الحياة من معنى، فهي هناك في جنّة الآخرة.

أي متعة ستحصل عليها هنا في الدنيا ومهما كان نوعها، وأي رغبة أو شهوة تحقّقها هنا في الدنيا ومهما كان نوعها... فهي لا قيمة لها بالمقارنة مع جسد شابٍّ دائمًا لا يمرض ولا يتألّم ولا يفنى... والأحاسيس مضاعفة... وراحة بال دائمة... وكل ما تشتهي متاح لك، وبتجدّد وبتنوّع دائم... ويعدك إلهك بأنك لن تملّ هناك ولن تضجر ولن تسأم ولن تصير حياتك روتينًا متكرّرًا، وتفهم ذلك من العديد من الآيات أبرزها الآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}، ولو كنت تعلم ذلك لما تركت الإيمان والعمل الصالح للحصول على رزق مبسوط في الدنيا، ولما خفت على رزقك الدنيوي ولكان اهتمامك بالآخرة ولها كل الأولوية عندك.

كما تلاحظ، السورة تعالج جانبًا مركّزًا من موضوع الرزق والخوف من فقدانه بسبب ممارسة التديّن، وأمّا إن كنت متديّنًا فهناك سور أخرى من القرآن نبّهتك على السعي والعمل وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 10 من سورة الجمعة {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ...}، ونبّهتك على التصدّق وترك مال معك حتى لا تصير فقيرًا كما تقرأ في الآية 29 من سورة الإسراء {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا}، ونبّهتك أن تتمتّع بالحلال بمتاع الدنيا ولا تتركها، اجعل حواسّك تحصل على متعتها بالحلال ولا تحرمها إلا من السوء، وتقرأ ذلك في الآية 32 من سورة الأعراف {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ...}.

هنا الآية لا تشجّعك على ترك ملذات الدنيا والعيش في كهف لتصلّي وتصوم كل حياتك لأن الدنيا لهو ولعب، لا، لا، هذا ممنوع، بل إن تفرّغت للعبادة وأنفق عليك الآخرون، فصرفهم عليك أعلى أجرًا بكثير من عبادتك... وإن تفرغت للعبادة تاركًا العمل بما تحسنه من وظيفة إدارية أو حرفية... أو مهنة طبية أو هندسية... فأنت مَلُومٌ لحرمانك الآخرين مما يحتاجونه، وكلام القرآن عن الإنفاق بالمال لمساعدة الآخرين كان كلامًا عن أبرز نموذج لتأمين ما يحتاجه الآخرون منك، ومثله مثل العقاب الشديد على تارك قتال الأعداء... الآية هنا تنبّهنا من ترك الآخرة في مقابل الاهتمام فقط بالملذات "السيئة" في الدنيا، وفي مقابل خسارة محمولة للرزق بسبب الإيمان أو الهجرة... وتصفها بأنها لا قيمة لها بالمقارنة مع ما سيحصل عليه المؤمن العامل للصالحات في الآخرة.

لاحظ أن الآيات لم تقل لك أن تعيش مؤمنًا فقيرًا خير لك من الكفر مع الراحة المالية، فهذا اشتقاق متطرف من الكلام، بل تأمرك الآيات بالبحث عن بدائل حيث تعيش مؤمنًا ومرتاحًا ماليًّا، مع وعد إلهي بالمساعدة كما تفهم من عدة آيات منها الآية 100 من سورة النساء {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً...}.

(فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ{65})
{فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ}، هذه النوعية من الناس التي تعلم أن الدين الإلهي حقٌّ، ولكن لا تلتزم به خوفًا من فقدانها للرزق والأمن، ويشاركهم في ذلك الكفّار الذين يرون أن إيمانهم بهذا الدين الإلهي سيسبب لهم فقدانهم للرزق والأمن.

{فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ}، إذا أحد منهم مرّةً ما ركب في السفينة، {دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}! وعطفًا على الكلام السابق عن الرزق فالكلام هنا عن التعرّض لمشكلة التيه "الضياع" في البحر ونفاد المؤنة، وهذا ما تفهمه من الآية التالية بقولها {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ...} حيث آتاهم تعالى الرزق على البرّ، واختارت السورة الكلام عن السفر في السفينة

كنموذج عن حالة مستعصية من أشد ما يكون من فقدان الأمل بالنجاة من العطش والجوع إذا انتهت المؤنة، فهم في تلك الحالة يدعون ويعلنون ويشهرون أن الله إلههم الواحد الأحد وهم يدينون له وحده بالطاعة والولاية لأنه وحده القادر على التدخل لنجاتهم...

{فَلَمَّا نَجَّاهُمْ}، عندما خلّصهم سبحانه من البحر، {إِلَى الْبَرِّ}، إلى الأرض اليابسة، وهناك حصلوا على الرزق "الطعام والشراب"، {إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ}! فلا يعترفون بأنه تعالى خلّصهم، ولا يعترفون بأنه رزقهم، ويحلّلون ما حصل معهم لينسبوا النجاة منه إلى آلهتهم أو الظروف أو الصدفة أو حنكتهم... وكل ذلك شرك.

هناك آيات قرآنية عديدة تحدّثت عن الخوف من عواصف البحر، أمّا هنا فمن سياق الكلام السابق ومن التعبير بالإتيان في الآية التالية نفهم أنها تشير لمن فقد الرزق في البحر... وهي تشير لنموذج بارز يمكننا فهمه بسهولة، فليس كل الناس ركبوا في السفن، ولا كلّ الناس تاهوا في البحر ونفدت مؤنتهم، ولكن هذا المثال التفاتة تريك بسهولة أنهم في الحالات التي يفقدون فيها الأمل من كل شيء، يبقى أمامهم أمل وحيد، وهو الله تعالى، بقدرته العظيمة، لأنه من الأساس كان يجب أن يؤمنوا بسيطرته على كلّ شيء، وهذا الشعور به تعالى في الورطة الشديدة يجب أن يكون ملازمًا لهم في كلّ الحالات، وليس في الورطات فقط.

تلاحظ كيف عبّرت الآية عن حالتهم بعد النجاة، بأنهم أشركوا، حيث في الآية بعد التالية سترى حديثها لأهل مكّة كنموذج عن أي مجتمع مشرك، لأنهم نموذج عن أي أناس لم يعترفوا بفضله تعالى.

أكرر لك، أن كل ما في القرآن من آيات تتحدّث عن أماكن محدّدة، أو أشخاص أو تشير لأشخاص، أو عن تسمية مجتمع ما أو تشير إليه... فكلّها نماذج، لأن القرآن ليس كتاب تاريخ لتثبيت حوادث التاريخ، بل كتاب هداية وعبرة من الأحداث التي ذكرها، وهنا الآية لا تقصد شخصًا معروفًا محددًا من الناس كان على عهد النبي محمّد(ع) أو كان قبله، لا، بل هي كلام عن عموم أي نموذج حصلت معه حادثة من هذا النوع، واختار القرآن نماذج نفهمها بسهولة وبكلام قليل، لأن التائه في البحر يفقد الحلول إن فقد الماء والطعام، فأين سيجده إن لم يصل إلى البرّ؟ لأنه بعيد جدًّا عن البرّ الذي يعرفه، أو تائه لا يعلم اتجاه البرّ.

لو أطلت عليك، ليكن هذا الكلام مفهومًا يترسّخ في ذهننا عن طريقة كلام القرآن، حيث هناك أمثلة أخرى كثيرة يمكن للقرآن طرحها، ولنقل أنه اختار الحديث عن شخص تاه في الصحراء ونفد منه الطعام والشراب، ولكن هذا يبقى لديه أمل بالعثور على نبتة ما، على حشرة ليأكلها، على واحة ماء... على أثر في الرمال يدلّه على الطريق... لأن عادة وضعه أسهل وفيه بصيص أمل بالمقارنة مع الذي تاه في البحر المقطوع أمله من أي شيء فيه رزق إلّا أن يصل إلى البرّ.

كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، فهي ليست اصطلاحًا مخصّصًا كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، فهي عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، لأنك مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئًا ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني فأنا مدين له، لأن خلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعًا بسبب وساعة تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، وهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... وكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة فهناك نُدَان بأعمالنا، لأن ما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هو التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضًا يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسبًا بحكمته قد يديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

بناءً عليه والتعبير هنا بـ {دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}، يشير إلى إعلانهم بسبب المصيبة بأنهم لا يشعرون بتبعات عليهم لأي أحد كإله لهم إلا الله تعالى، وينسون آلهتهم.

بقي شيء، سبحانه صمّمنا جاعلًا فينا قدرة للتعرّف عليه من ملاحظتنا لآياته في خلقه لنا ولما حولنا، وهذا هو التفكّر في خلق السماوات والأرض، ومن ناحية المشاعر الناتجة عن ذلك سنتوجّه عند المصائب نحو من ترسّخ في فكرنا أنه يملك القدرة الفائقة ليساعدنا، وهو الشعور إذا انحرف بسبب عقلية ونفسية فاسدة فهو سيؤدّي إلى اختراع آلهة وهمية، وهذا ما حصل قديمًا حيث اخترع الناس إلهًا للمطر وآخر للنار...

بتعابيرنا الحالية التحليلية يقولون إنّ الإنسان "القديم" البدائي، وبسبب خوفه من الطبيعة والحيوانات المفترسة، اخترع إلهًا كمسلك هروب يعطيه أملًا بالنجاة أو ليساعده على تحقيق ما يريد، وكما ترى القرآن يلفت انتباهك للطرق المتعددة للتعرّف عليه تعالى، حيث هي ليست محصورة بالشعور، لأن الأساس هو التفكّر، وتتراكم المعلومات وتترسّخ لينشأ عنها شعور يعلّقنا نفسيًّا به تعالى، سواء شعور الحاجة للمساعدة من قوة إلهية، أو شعور الخوف من غضب الإله، أو شعور الحبّ للإله بسبب منحه تعالى لنا للحياة وما فيها من سعادة... ومضافًا لذلك للتعرّف عليه تعالى لدينا تواصله سبحانه معنا عبر رسله لآلاف متواصلة من السنين، وعبر كتبه، ومحتوى كلامه الحقّ سبحانه أدلّ دليل على إلهية مصدر الكلام، ومضافًا لذلك تدخلاته تعالى بأفعال لا تفسير لها عبر الطرق الطبيعية، وهي ما نسمّيه عادة بالمعجزات...

(لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{66})
بعدما نجّاهم تعالى من البحر إلى البرّ أشركوا راجعين لما كانوا عليه! حَسَنٌ.

{لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ}، فلينكروا ما أعطيناهم من الرزق على البرّ، ولينسبوه لغيره تعالى، {وَلِيَتَمَتَّعُوا}، فليستفيدوا مما هو متاح لهم، {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}.

تركت لك الآية تكملة الجملة، فماذا سيعلمون؟ فما الذي لا يعلمونه الآن وسيعلمونه فيما بعد؟ فهم الآن لا يعلمون العقاب على نكرانهم لفضله تعالى، فينكرون جهنّم والعذاب على كفرهم، وسوف يأتي زمن حيث يصيرون في العذاب الذي يكفرون به، والكلام على معنى ما ذكرته سورة التكاثر {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}.

لاحظ وانتبه جيّدًا لكلام القرآن عن مشكلة الكفر به تعالى كرازق لأنها تشير أولًا لأساس إتاحته تعالى الرزق لنا في بيئتنا، حيث أحصل على الرزق من بيئتي ولا أعطي قيمة للذي أتاحه لي والذي جعل لي القدرات المناسبة للحصول على الرزق، وهذا كفر بدلًا من حمده وشكره تعالى على ما جعله فينا من قدرات وعلى ما أتاحه لنا من أرزاق، وهذا ما تشير له العديد من الآيات منها الآية 22 من سورة البقرة {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}.

بعدها تأتي مشكلة الكفر بتجاهل تصميمه تعالى لنا ولبيئتنا بحيث نفكّر ونشعر بأننا وبدون أي فضل له تعالى علينا وبشطارتنا وذكائنا وحنكتنا وفطنتنا... حصلنا على الرزق، وكأننا نتمتع بقدرات منفصلة عنه تعالى وبدونه سبحانه يمكننا الحصول على الرزق، أو من دونه سبحانه نحن لدينا القدرة على تحصيل الرزق الوفير... وهذا ما نقله القرآن عن لسان قارون في الآية 78 من سورة القصص {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ}، ونقلًا عن عموم لسان الكفّار في الآية 49 من سورة الزمر {فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}.

هذا التفصيل لا يحصر عموم الآيات التي تحدّثت عن الرزق بين المعنيين، إذ يشملهما معًا أو يشير لواحد منهما أو يشير لشيء آخر...

هكذا ترى أن القرآن لا ينفي الفرق بين الجهد والحنكة والتخطيط... بين الناس لتحصيل الرزق والذي سينتج عنه فقير ومتوسط وغني وثري، بجهدي وتخطيطي وتعبي... صرت غنيًّا، ولا مشكلة في هكذا تعابير إلا إذا كانت تعني أن قدراتي على تحصيل الرزق ليست ممنوحة منه تعالى، وأن الرزق المتاح حولي ليس ممنوحًا منه تعالى، هنا المشكلة، بعد تعبي ومشقّتي وجهدي... في تحصيل الرزق، أشكره تعالى وأعتقد به رازقًا لي، لأن قدراتي ممنوحة لي منه تعالى، والرزق هو أتاحه سبحانه، فله الشكر وله الحمد، وهو رزقني وأطعمني وسقاني... لأنه منحني القدرات وأتاح لي الرزق.

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ{67})
{أَوَلَمْ يَرَوْا}، ألم تحصل لديهم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شافوا، ما التفتوا، {أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا}؟ وهي مكّة التي فيها بيت الله تعالى، ولبيتك حرمة، وهي أمور ممنوع على الناس القيام بها في بيتك، ولا يحق لهم دخول بيتك إلا بإذنك، ولا يحق لهم تغيير هندسة وأثاث بيتك، ولا يحق لهم وضع أغراضهم فيه، أو التنقّل في غرفه بدون إذنك... ولبيتك حرمة، والله سبحانه حدّد بيتًا له في مكّة كرمز للناس حتى يعبّروا عن إيمانهم به سبحانه بشكل عملي فعلي كتعبير عن شكرهم له سبحانه على ما رزقهم فيما أتاحه لهم في بيئتهم من أرزاق، فيتكلّفون مالًا وجهدًا ليشكروه تعالى على نعمته عليهم... ولبيته تعالى حرمة، فممنوع فيه القتال والجدال والشتم... وصار آمنًا من المشاكل والنزاعات، {وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ}! والناس في القرى الأخرى تتعرّض للاختطاف، حيث يقوم الآخرون بأخذهم بحركة سريعة، كالغارة أو الهجوم... أمّا أهل مكّة ففي أمان لأن الناس تحترم الكعبة التي في مكّة.

أليس واضحًا جدًّا بأن الأمان الذي يتمتع به أهل مكّة "كنموذج"، هو بسبب تحديده تعالى للكعبة كبيت له سبحانه؟ وها أنتم ترون الحوادث التي تتعرّض لها الناس من حولكم من غارات وقتل وسرقات...

{أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ}؟! فيعتقدون بشيء غير صحيح ولا سليم أنه آمنهم "ورزقهم"، ويعتقدون بغير الله تعالى أنه حماهم ورزقهم!

{وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ}، وبالأشياء الموصوفة بأنها نعمة جيدة والتي منحها تعالى لهم، {يَكْفُرُونَ}! ينكرون أنه تعالى أنعم عليهم بالأمن والرزق!

لدينا نموذج من الناس وهم أهل مكّة، ومن أوضح الواضحات أنهم يعيشون في نعمة الأمان وتوافر الرزق لأنه سبحانه حدّد بيتًا كرمز ديني له في مكّة، فاحترمه عامّة بقيّة الناس، فصار أهل مكّة في أمان أعلى بكثير جدًّا ممن حولهم من بقية القرى، فكيف تكفرون بهذه النعمة وببقية النعم التي تحصلون عليها منه تعالى! وكيف تنسبونها لغيره!

بعبارة أبسط، فإن أمرًا إلهيًّا واحدًا بتحديد بيت رمزي له تعالى في مكّة، سبّب لأهل مكة مكانًا آمنًا من السهل الحصول فيه على الرزق عبر التجارة مع الآتين للحج في مكّة، فكيف تكفرون متحججين أن الإيمان بدينه تعالى سيسبّب لكم فقدان الرزق!

الآيات تتحدّث مع وعن أهل مكّة، ولكن هل لاحظت أنها نموذج بارز جدًّا عن حالة العيش في نعمة إلهية بشكل واضح؟ لأنها نعمة لا يمكن نسبتها لأحد آخر غيره تعالى، حيث سبحانه حدّد بيتًا له في ذلك المكان، واحترمت الناس البيت، فعاش الذين حول البيت في الأمان، فهل ترى كم هو نموذج واضح لا يمكن المناقشة فيه، بسبب أمر منه تعالى بتحديد بيت رمزي له في مكّة صار أهل مكّة آمنين ويأتيهم الرزق، ورغم ذلك أشركوا، وجعلوا لصاحب البيت شركاء في النعمة عليهم! بل ويقولون أن الإيمان به تعالى وحده سيسبّب لهم مشكلة أمنية واقتصادية لأن بقية المشركين سيعادونهم! وهم بذلك متناسين متعامين عن حقيقة كون أمنهم ورزقهم سببه واضح جدًّا جدًّا، إذ سببه ناتج بوضوح عن أمر من الله تعالى بتحديد بيت "رمزي إعتباري" له في المكان الذي سكنوه.

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ{68})
{وَمَنْ أَظْلَمُ}، من هو الشخص الأشد ظلمًا وابتعادا عن العدل والإنصاف، {مِمَّنِ افْتَرَى}، من الذي لفّق واخترع، {عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}، فقال أمورًا غير صحيحة وأصلا لم يقلها سبحانه، فهل يوجد أظلم منه؟

بالنسبة للافتراء فهو نسبتك كلامًا أو عملًا... للآخرين، فتلفّقه وتلصقه بالآخرين وأنت لا تعلم إن هم فعلوه أو قالوه... وتلصق بهم شيئًا ويتبين لك فيما بعد أنهم فعلًا قالوه أو فعلوه، فتكون فقط مُفْتَرِيًا لأنك اخترعته ونسبته لهم من دون أن تعلم بأنه صحيح، وتلصق بهم شيئًا لا علاقة لهم به حيث أصلًا لم يفعلوه ولم يقولوه وهذا هو الافتراء الكاذب.

الكلام هنا عن عموم الافتراء عليه تعالى كذبًا، وسياق الكلام عن القول إنَّهُ تعالى ليس الرازق، وأن له شركاء في الألوهية، وأنه تركنا على راحتنا وحريتنا بلا عواقب لنخترع العقيدة والشريعة التي على هوانا السيّء...

{أَوْ}، من أظلم ممن، {كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ}، عندما انعرض عليه الحق الصواب قال عنه إنَّهُ كذب وليس بصحيح؟

{أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ}، في المكان الموصوف بسوء ما فيه، {مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ}؟ مكان إقامة للمنكرين لفضله ونعمته تعالى؟ لمن جهنّم إن لم تكن لهذه النوعية من الناس المنكرة لدينه تعالى؟ وسيأتيك بعد قليل توسّع في دراسة معنى كلمة مثوى.

ألفت انتباهك لكلمة "ظلم"، ومن استعمال القرآن الدقيق لها فهمنا إشارتها لعموم من لم يكن مُحِقًّا مُنْصِفًا فهي مضادة للعدل وللفعل الحسن. وغالب استعمال القرآن لكلمة ظلم ومشتقاتها جاء على معناها الأساسي لعموم الذي لم يكن معه حقّ ولم يكن مُنْصِفًا، وغالبًا استعملها القرآن للكلام عن الذين كفروا ظُلْمًا بدينه تعالى الواضح أنه حقّ، فلو كان دينه تعالى فَاسِدًا أو غير واضح أنه حقّ وصلاح، لكان معهم حق بالكفر به، ولكنهم ظالمون، ظلموا أنفسهم، حيث لم يكن معهم حقّ ولم يكونوا منصفين حين كفروا.

هكذا استعمل القرآن هذه الكلمة، وهنا تسأل الآية: إن أحدًا ما فعل شيئًا غير صحيح ولم يكن معه حقّ، ووصفناه بأنه ظالم غير عادل ولا منصف، فهل يوجد ظالم أكثر ممن افترى عليه تعالى الكذب؟ وأنكر فضله سبحانه! بل نسب الفضل لغيره تعالى! فهل يوجد ظالم أكثر ممن كذّب بهذا الحقّ المعروض أمامه بوضوح؟

نموذج أهل مكّة الذين أنعم سبحانه عليهم ببيت له حرمة وسبّب لهم الأمان لمدينتهم، وصارت لأمانها مَكَانًا مَرْغُوبًا لبقية الناس للتجارة... وهم يعلمون ذلك، ولكن كذّبوا وقالوا بأن آلهتهم تحميهم من الأشرار! وتجلب لهم الرزق! وأن توحيده تعالى سيقطع عنهم رزقهم وسيفقدون الأمن، فهل يوجد أظلم من هذا؟!

ماذا يظنون أَنَّهُمْ فاعلون؟ وماذا يظنّون أنّه سبحانه فاعل بهم؟ أليس في جهنّم مكان إقامة يستحقه المنكرون لفضله تعالى وللحق؟

بالنسبة لكلمة "ثَوَى، مَثْوَى" درج في أدبياتنا أن نقول: جعل تعالى مثواك الجنّة. ولكن من استعمال القرآن لهذه الكلمة نعلم أن معناها: إقامة شخص في مكان لا يملكه وليس له، كالضيف والسجين والعبد... وهي حالة النبي يوسف(ع) في قصر العزيز كما ورد في الآية 21 من سورة يوسف {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ...}، وكحالة النبي موسى(ع) في مدين كما ورد في الآية 45 من سورة القصص {... وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا...}، وكحالة أهل النار في النار كما ورد مِرَارًا ومنه ما ورد في الآية 12 من سورة محمّد {... وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ}.

أهل الجنّة يرثون الجنّة فيملكونها وهي لهم... كما ورد مِرَارًا ومنه الآية 11 من سورة المؤمنون {الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، لغويًّا لا يصحّ وصف من في الجنّة بأنه ثاو فيها، ولم يرد وصف كهذا أَبَدًا في القرآن، وأمّا أهل النار فثاوون فيها لأنها ليست مِلْكًا لهم، فهم مسجونون فيها مُؤَبّدًا، فالسجين لا يملك السجن وليس وَارِثًا له بل ثاو فيه.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ{69})

{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا}، الذين قاموا بعمل مجهد متعب فيه مشقّة وهم يقصدون رضاه سبحانه، {لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا}، سوف نضعهم على السبل على المسالك من الأفكار والتصرفات الصحيحة التي توصلهم للغاية الصحيحة، إلى رضاه تعالى وجنّته، {وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}، فمن حَسُنَ عمله فالله تعالى معه ولن يتركه، ورأيت ذلك في القصص التي ذكرتها السورة عن نوح وإبراهيم ولوط... عليهم السلام.

نتذكّر بداية السورة التي تحدّثت عمّن يجاهد في الدين فإنما يجاهد لنفسه، فهو المستفيد من العناية الإلهية في الدنيا والآخرة.

تذكّر دَائِمًا أن كلمة "محسن" ومشتقاتها هي وصف لعموم من قام بعمل حسن، أمّا التنازل عن حقّك للآخرين أو منحهم ما لا يستحقون أو التفضّل عليهم... فهو من تطبيقات الاتصاف بالعمل الحسن، حيث ليست كلمة محسن محسنين إحسان... مخصصة لهذه العناوين.

سورة الروم (30) ص 404
تركيزها من عدة وجوه على صدق وعده تعالى بإعادة إحيائنا في الآخرة وما سيحصل بعده، والبداية مع خبر عن شيء سيحصل في المستقبل "انتصار الروم" كنموذج يبيّن صدقه تعالى في كل ما يقوله، وبعدها تتناول السورة الجوانب الأخرى من لفت الانتباه لصدق وعده تعالى بالآخرة بمقاطع قصيرة...

ثم تنتقل لترينا أساسيات وأبرز ما يعرضه تعالى علينا لنؤمن ونلتزم به، وبناءً عليه كان قراره تعالى بإعادة إحيائنا لمحاسبتنا على ما فعلناه.

أثناء ذلك ترينا أن ما يعرضه تعالى علينا وسنُحَاسَبُ ونُجَازَى على مخالفته، ما هو إلا الحقّ لنؤمن به وما هو إلا الصلاح لدنيانا، ومخالفته فساد لدنيانا، فهي الاعتقاد بالحق والقيام بالعمل الصالح، وهكذا ترى أن العقاب والثواب في الآخرة ليس قرارًا في الفراغ بلا معنى دنيويٍّ.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(الم{1})
هذه حروفٌ نتهجّاها مقطّعةً هكذا: ألف لام ميم.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوَّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوِّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

(غُلِبَتِ الرُّومُ{2})
{غُلِبَتِ الرُّومُ}، كانت الغلبة ورجحت الأكثرية، والكلام عن الرجحان العسكري لعدو الروم، فانغلبت وانهزمت الروم، وهم القوم المنسوبون للإمبراطورية الرومانية الشرقية، وهي إمبراطورية انتشرت قديماً على الأرض عسكرياً، وكان حكمها المركزي حينها في القسطنطينية، ونقلاً عن الموسوعة البريطانية، في القرن السابع الميلادي، في زمن نزول القرآن، كان هناك إمبراطوريتان بارزتان: الفارسية والرومية، وحصلت عدة حروب بينهما في بقاع مختلفة من الأرض، وذلك في صراع السيطرة بينهما على المستعمرات... حتى جاء زمن كان فيه الانتشار الأوسع للروم، وبعد ذلك قام الفرس بحرب مضادة على مناطق نفوذ الروم، وكان الروم في وقتها لقبهم: البيزنطيون، وسيطر الفرس على مناطق نفوذ البيزنطيين عبر الأحداث التالية: في عام 611 سحب الفرس المنطقة السورية "بلاد الشام" من البيزنطيين، وفي 614 فلسطين و في 619 مصر... وتخلل ذلك احتلال مدينة شالسدون القريبة من إسطنبول الحالية، والقريبة جداً من القسطنطينية (عاصمة الروم آنذاك)، فوصلت الإمبراطورية البيزنطية للحضيض، ولكن بعد ذلك وبدايةً من عام 622 حتى عام 627 وقعت هزيمة قاسية وسهلة في كل مناطق نفوذ الفرس "المستعمرات" وسقطت مناطقهم الداخلية أيضاً.

هنا الآية تشير إلى وصول الخبر إلى مكّة عن هزيمة الروم "البيزنطيين" على يد الفرس، والروم كانوا من أهل الكتاب "مسيحيين"، والفرس كانوا مشركين "أرواحيين".

(فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ{3})
انهزم جيش الروم، {فِي أَدْنَى الْأَرْضِ}، في أقرب بقعة قريبة، ويبدو الكلام عن هزيمة في مكان قريب جداً من القسطنطينية التي خسرت مستعمراتها وانتقلت المعارك مع الفرس من المستعمرات البعيدة إلى {أَدْنَى الْأَرْضِ}، إلى مكان قريب من عاصمتهم، وبمراجعة كتب التاريخ ستجد أن مدينة شالسدون التي غزاها الفرس هي المرشحة لوصفها بأدنى، بأقرب الأرض للقسطنطينية، مما يشير إلى احتمال كبير بنهاية الرومان على يد الفرس، وهذه حالة انقطاع الأمل من تمكّنهم حتى من الدفاع عن أنفسهم في مدينتهم...

{وَهُمْ}، الروم، {مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ}، من بعد رجوح الكفَّةِ عسكرياً للفرس فإن الغلبة العسكرية سترجع لتكون للروم.

انتشر حديثاً بيننا أن الآية تشير إلى أخفض نقطة على الأرض عن سطح البحر، ويقولون إنها بجوار البحر الميت في الأردن وهي واقعة تحت 395 متراً تحت سطح البحر، ويقولون إنه فيها حصلت خسارة الروم التي تتحدّث عنها الآية، مما يشير إلى إعجاز جغرافي ذكره القرآن الكريم... وهذا غير صحيح، فلا تلك النقطة هي أخفض نقطة على الأرض، ولا حصلت فيها معركة بين الروم والفرس في حين نزول الآية، ولا كان الناس الذين تتحدّث معهم الآية يفهمون أن أدنى الأرض هي أخفض نقطة عن سطح البحر، بل يفهمون أنها أقرب نقطة لشيء ما، والكلام عن قرب دخول الفرس لمنطقة مركزية الحكم الروماني، وهذا ما تشير إليه الآية.

(فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ{4})
{سَيَغْلِبُونَ}، سينتصر الروم، {فِي بِضْعِ سِنِينَ}، وكلمة "بضع" تشير عادة لما بين ثلاث وعشر سنين، حيث إن الآية تخبر عن حدث سيقع في المستقبل من بعد نزولها، فالروم مغلوبون الآن في وقت نزول هذه السورة، وآخر هزيمة كانت بالقرب من بلدهم، وهذه إشارة إلى انتهاء الأمل بانتصارهم من جديد... فتخبرنا الآيات أنهم بعد أقل من عشر سنين "تقريباً" سينتصرون، وهذه آية تاريخية واضحة، حيث خلال سنوات قليلة استعاد الروم السيطرة على المستعمرات التي خسروها، بل حتى أنهم دخلوا إلى مناطق فارسية... راجع في ذلك تاريخ الروم والفرس بعد العام 600 بعد الميلاد.

{لِلَّهِ} تعالى {الْأَمْرُ}، فالأمور التي تحصل وستحصل هي له تعالى، فالقرار في حصولها له تعالى، {مِنْ قَبْلُ}، قبل الغلبة للروم، {وَمِنْ بَعْدُ}، بعد الغلبة للروم، وهذه الطريقة في الكلام منتشرة بكثرة في القرآن حتى ترفع من بالنا أي توهّم عن خروج أي شيء عن سيطرته تعالى، لأن خسارة الروم حصلت بسماحه تعالى لحصول ذلك، فهو سبحانه قدّر لهم أن يخسروا، وعندما سيغلبون بعد بضع سنين فهو سبحانه قدّر لهم ذلك.

{وَيَوْمَئِذٍ}، في اليوم، في المدّة الزمنية المحدّدة التي ينتصر فيها الروم، {يَفْرَحُ}، يشعر بحالة نفسية جيّدة، {الْمُؤْمِنُونَ}، المعتقدون بالدين الإلهي.

إذن، خسر الروم وحزن المؤمنون "المسلمون الأوائل"، والسبب أن الروم من المسيحيين، من أهل الكتاب، وهم ينتسبون لكتاب ودين إلهي، ودين المؤمنين بالنبي محمّد(ع) هو امتداد لدين الروم، فشمت كفّار مكّة بخسارة أهل الكتاب على أيدي المشركين، وحزن المؤمنون، فجاءت الآيات هنا لتخبرهم بأن الروم سينتصرون بعد بضع سنين.

انتبه، لأن تركيز الآيات ليس فقط على ناحية شماتة الكفّار بالمسلمين، حيث سترى أن كل السورة وفقرتنا هذه تلفت انتباهنا لصدق كلامه تعالى، إذ نحن أمام حالة خسارة الروم حيث لا أمل ظاهر بإمكانية استعادتهم لقوّتهم من جديد، فيأتي الكلام الإلهي عن هذا النموذج ليبيّن سبحانه لنا علمه بما سيحصل، ويخبرنا به سلفاً، وذلك حتى نؤمن بأن كلامه تعالى عن الآخرة أيضاً صحيح وسيحصل، فهذا ما تريد السورة التركيز عليه.

تتذكّر دائماً الشفافية في كلامه تعالى، كسؤاله سبحانه للمشركين إن كانوا أعلم منه تعالى بما في السماوات والأرض، فهو خلقها وليس فيها إلا مخلوقاته فهو وحده الإله، فكيف يعلمون هم بوجود آلهة غيره وسبحانه لا يعلم! وتقرأ هذه الشفافية في الآية 33 من سورة الرعد {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ}...، وكسؤاله تعالى لإبليس عن سبب رفضه السجود لآدم(ع) علماً أنه تعالى يعلم الغيب وما في الصدور وما تخفي الأنفس، وتقرأ ذلك في الآية 12 من سورة الأعراف {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}. وهنا الكلام بمثال عن خبر انتصار الروم كدليل لنا على صدق كلامه تعالى فهو الشفافية معنا بعرضه علينا ما يعلمه، وهو نفسه كلامه تعالى عن حقائق مع أدلتها والتي نسميها بالعقيدة، والتبريرات لتشريعاته تعالى المنتشرة لكل الأحكام والسلوكيات التي يجمعها عنوان حسنها ونهيه تعالى عن الفساد.

(بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ{5})
{يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ}، {بِنَصْرِ اللَّهِ}، بتحقيقه تعالى لما يريده الروم، {يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة وقرّر سبحانه نصر الروم.

{وَهُوَ الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذِّلَّةِ بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... والذي يفرض غيره عليه... وهنا الكلام عن فرضه تعالى لما شاءه حيث نصر الروم.

وهو، {الرَّحِيمُ}، فلديه عناية خاصّة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم. وكلا الصفتين معاً "العزيز الرحيم" تشيران للعِزَّةِ وللقدرة والسلطة الفائقة له تعالى ورغم ذلك فسبحانه حكيم فلا يعبث مع أنه فرضاً فرضاً فعل العبث سبحانه فلا أحد يمكنه المعارضة ولا تغيير ما قرّره تعالى.

تلاحظ هنا إشارة واضحة لاعتبار قيمة دينية للروم لأنهم من أهل الكتاب، علماً أنهم لم يكونوا بغالبيتهم على الصراط المستقيم "كما نقول"، ولكن لمجرد كونهم من أهل الكتاب، وإيمانهم مقبول "نسبياً"، وعدوّهم مشرك، يعتبرهم سبحانه: مؤمنين في مقابل كفّار، فرحمهم ونصرهم سبحانه.

هذا يأخذك إلى المصيبة التي تدور في رؤوسنا عن تصنيفنا للآخرين، بضبابية نحكم على مجموعة ما أو أهل مذهب أو طائفة... أنهم مؤمنون جيّدون، ونحكم شاملين كل الآخرين بأنهم سيّئون، متجاهلين متعامين عن منعه تعالى لنا من أي تصنيف للآخرين طالما أفعالهم لا تتعارض مع المصالح العامّة الأساسية للمسلمين... علماً أننا كلنا بغالبيتنا الساحقة

أصلاً نحن في حالة تعارض أفعالنا مع المصلحة العامة للمسلمين. وهنا ترى وصفه تعالى فرح المؤمنين بانتصار الروم، وهذا ضمناً يشير لميله تعالى بالرضا عن الرومان المسيحيين في حينها وذلك في مقابل الفرس المشركين في حينها، بينما كل مذهب وطائفة من المسلمين تريد وبضبابية أن يكون الآخرون مثلها على هواها في العقيدة والشريعة التي لا مذهب ولا طائفة متفقة عليها فيما بينها!

الكلام يجرّ الكلام، وهو نفس الكلام عن المسلمين الأوائل الذين نصرهم تعالى في بدر وفي معركة الخندق وخيبر وحنين... فهل هذا يعني أنهم كلّهم كانوا مؤمنين من الدرجة العالية؟ لا، وهل هذا يعطينا حرية إسقاط حرمتهم للكلام عن سيّئاتهم؟ لا.

كيف نفهم من القرآن وصفهم؟ لقد وصفهم كما هم، حيث إن بعضهم مؤمنون من الدرجة العالية وآخرون وسط وآخرون منافقون وفاسقون، ولكن هذه الحالة عامّة لكل المجتمعات عبر التاريخ، فهل في بالك مجتمع ما وكلّه من الصالحين الأتقياء؟ وهل تشترط أن يكون المجتمع بهذه الصفات حتى ينال العناية الإلهية؟ على هذه الحالة لن ينال ولا أي مجتمع عنايته تعالى، وهكذا ترى أنه تعالى عادة يتعامل مع المجموع العام لعقيدة وسلوك جماعة ما، فالمجموع العام يكون مقبولاً فينالون عناية إلهية بالدرجة التي يستحقونها، سواء أكانوا يهوداً أو نصارى أو مسلمين... وسواء أكانوا في عصرنا أو قديماً... فلننقل مثلاً إنه وقعت في عصرنا حرب بين مسيحيين ومسلمين، والمسيحيون على ما هم عليه من عقيدة وتشريعات فاسدة، فإن كان المسلمون أفسد منهم عقائدياً وسلوكياً، وفرضاً كانت الحرب لها آثار ونتائج تستدعي التدخّل الإلهي، فإلى أي جانب سيتدخّل سبحانه؟ من البديهي أنه تعالى إذا بحكمته قرّر التدخّل فسيتدخّل لصالح المسيحيين، لأن المسلمين والمسيحيين واليهود والصابئة و... كلهم منتمون بالاسم لدينه تعالى، والفرق الحقيقي للقيمة عنده تعالى بينهم ليس لاسمهم أو تاريخهم أو رسولهم... بل لإيمانهم وعملهم، فكم من مسلم أفسق وأجرم من الكثير من المسيحيين واليهود.

(وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ{6})
نصر الروم بعد بضع سنين هو، {وَعْدَ اللَّهِ}، شيء قال عنه تعالى إنه سيحصل، {لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ}، فإن قال سبحانه عن شيء بأنه سيفعله، فحتماً سيحصل ما قاله تعالى ولن تستطيع أي قوّة ولا أي ظروف أن تغيّر قراره تعالى أو أن تمنع حصول ما قرّره تعالى، فهو العزيز.

{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}، وتكملة الجملة أنهم لا يعلمون أنه تعالى يحقّق وعوده حتماً، فيظنون أنه سبحانه يخلف وعوده أو يتراجع عنها أو تجبره الظروف ليتراجع عنها... لا.

إلى هنا تقريباً انتهت افتتاحية السورة، فلنراجعها:

المسلمون المؤمنون في مكّة كانوا يؤكّدون للكفار بأنه تعالى وعدهم بالنصر لأنهم مؤمنون... وفي هذه الأجواء، خسر الروم، ووصل الخبر إلى مكّة، فحزن المؤمنون لأن الكفّار الفرس انتصروا على الروم أهل الكتاب، وفرح كفّار مكّة بذلك، واعتبروها دليلاً على كذب خبرية النصر الإلهي للمؤمنين... ونزلت هذه الآيات مؤكّدة أن النصر للروم سيكون بعد بضع سنين... وحصل ذلك... واستعملت سورتنا هذه الحادثة لتشير بها إلى صدق وعده تعالى فيما يقوله عن الآخرة بأنها ستحصل حتماً مثلما وعد سبحانه بانتصار الروم على الفرس، والذي كان يبدو مستحيلاً لأن الفرس وصلوا على مشارف القسطنطينية تقريباً...

بعبارة أخرى، إن لم ينتصر الروم بعد بضع سنين، فهذا القرآن ليس ربّانياً، أو الإله الذي أنزل هذا القرآن لا يصدق بوعوده، وبالتالي ليس صحيحاً أو لا صدقية ولا موثوقية بكلام هذا القرآن عن حياة بعد الموت وحساب وجزاء... ولكن تبيّن للجميع أن القرآن إلهي المصدر لأن الروم المقطوع الأمل بانتصارهم انتصروا فعلاً بعد بضع سنين، وبالتالي فكل ما يقوله سبحانه صحيح، وخلال السورة سوف ترى الآيات الإلهية الأخرى الأعظم والأكبر والأهم من النبأ المستقبلي عن انتصار الروم والتي تثبت أنه تعالى فعلاً سيعيدنا إلى الحياة في الآخرة.

أطلت عليك لأن عموم التفاسير ذهبت إلى تحليلات أخرى لم تربط فيها مقدمة السورة بمحور كلامها، فعادة التفاسير تقطيع السور فتصير فقراتها منفصلة عن بعض، وتصير السورة بلا لبّ ولا محور ولا موضوع محدّد، إلا اللهم ما ندر

من بعض دراساتهم لبعض السور التي كان تركيزها على موضوع واحد واضحاً، وخاصة قصار السور والأطول بقليل.

دراستنا هذه تقدّمت بأشواط عن دراساتهم، وعلى أمل أن تقوم يا عزيزي ويا عزيزتي بتحسين ما قدّمته لك وتصويبه وتصحيحه... فحدود إيماني ومعرفتي وثقافتي... أوقفتني كثيراً مانعة إياي من رؤية مواضيع العديد من السور بشكل واضح، فالسور تحتاج لخبير بموضوعها ليراه، ككلام بعض السور عن عقلية كافرة لها عقيدة ونفسية محددة خارج حدود اطلاعي، وككلام بعض السور عن مشاكل كفر أو فسق أو نفاق ولها جوانب نفسية سيفهمها أفضل منّي المتخصصون بعلم النفس... وأخرى لها جوانب إدارية أو اقتصادية أو اجتماعية...

خذ مثلاً السور والآيات التي تتحدّث عن سلوكيات نماذج إيمانية راقية من الدرجة العالية، فسأفهم الجمل ومعاني الكلمات، ولكني لن أفهم العمق، وسأتّجه إلى تحليله وطرح احتمالات وافتراضات مبنية على مستواي الإيماني، وهذا سينتج عنه حتماً طرح رؤية غير كاملة منّي لكلامه تعالى.

أيضاً خذ مثلاً الكلام عن قيام الليل، والمسارعة في الخيرات، وذكره تعالى قياماً وقعوداً وعلى الجنوب... وكظم الغيظ والعفو عن الناس... والإنفاق مما أحبّ والجهاد... فأشعر بالثقل من هكذا التزامات، علماً أن المؤمنين من الدرجة العالية ينتظرون بفارغ الصبر هكذا فرص... وهكذا ترى أن مواضيع السور قد تتخطاني ثقافياً فكرياً وإيمانياً، وبسبب طول مدّة هذه الدراسة ففترت همّتي وخفّت قدراتي على التركيز بعمق ولمدة طويلة وبما يحتاج لذاكرة قوية، فهذه قدرات كنت أتمتّع بها سابقاً بقوّة... على أي حال فما قدّمته لك هو دراسة محاولاً فيها فقط وفقط أن أرضيه تعالى، ودراستي تنتظر دراستك أنت لتنقّحها أو تصحّحها...

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ{7})
من هنا ستدخل السورة على محورها، فالذين لا يعلمون أن وعده تعالى حق، هم:

{يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، يعلمون ما يظهر منها لهم، أمّا ما سيقع فيما بعد وليس بظاهر لهم فهم لا يعلمونه، {وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ}، عن التي ستأتي في الآخر بعد هذه الدنيا الأولى، {هُمْ غَافِلُونَ}، غير منتبهين لها.

الآخرة ليست من ظاهر ما يرونه أمامهم، فهم يرون الدنيا، والآخرة ليست ظاهرة أمامهم حتى يعلموا بها، ولكن إن لم تظهر الآخرة لهم فهل يحق لهم إنكارها حتى لو قال لهم الإله سبحانه إنَّها آتية؟ هنا السؤال الكبير الذي تطرحه السورة، وعلى هذا تتمحور السورة، حَيْثُ تذكر آيات تؤكّد حصول الآخرة التي لا يرونها... وأوّل إشارة على ذلك علمه تعالى بغلبة الروم بعد بضع سنين، فوضع الروم كان مَيْئُوساً منه، وكل المؤشرات تدل على انتهاء دولتهم... ورغم ذلك صدق كلامه تعالى فيهم وانتصروا، وهذا دليل ملموس على علمه تعالى بالغيب، وبالتالي، عندما يخبرنا سبحانه عن الآخرة فعن علم يقيني يخبرنا.

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ{8})
بعد افتتاحية السورة بآية عن خبر كبير عن انتصار الروم الذي سيحصل في المستقبل، وهو خبر يمكن التحقّق من صِحَّتِهِ، لِأَنَّهُ دليل ملموس عن صدقه تعالى وسيطرته على الأمور... بعد ذلك تبدأ السورة بلفت الانتباه للآيات الأخرى التي تدل عليه تعالى كإله خطّط وصمّم ونفّذ، وستلاحظ أن أي شيء ككائن أو كحدث هو في الحقيقة آية تدل عليه تعالى، لِنُتابِع:

{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم}؟ المنكرون لوعد الله تعالى بالآخرة ألم يحرّكوا فكرهم، في أنفسهم بِتَرْكيبِهِم، بِجَسَدِهِم، بِعَقْلِهِم، بِعَواطِفِهِم، بِحَواسِّهِم... كيف حدث كلّ هذا؟ ولماذا حدث؟

{مَا خَلَقَ}، لم يركّب ويؤلّف، {اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وهذا التعبير يشير لكل حدود الدنيا التي فيها الكائنات المخلوقة، وما خلق سبحانه ما بين السماوات والأرض، من مساحة وكائنات، {إِلَّا بِالْحَقِّ}، بالصواب وَكَانَ خلقه تعالى لهم عملا صوابا له هدف حسن ولن يكون معكم حق إن اعترضتم عليه، {وَأَجَلٍ مُّسَمًّى}، لِأَنَّهُ لَمْ يخلقهم سبحانه

ليخلدوا وتستمر الدنيا إلى ما لا نهاية، ولم يخلقهم ولا يدري سبحانه متى نهايتهم، بل من الأساس حدّد سبحانه موعدا لانتهاء حياة الكائنات التي لها حياة.

إذاً، قراره سبحانه حَقٌّ صَائِبٌ حَكِيمٌ... حين خلق السماوات والأرض، وبتعبير مبسّط كَانَ معه حقّ سبحانه حين خلقهم، بِحِكْمَتِهِ العالية خلقهم وليس عن عبث.

قد يقول أحد ما: لا، أنا أفضّل لو لم يخلقني، أُفَضِّلُ لو تركني غير موجود. وكما ترى يا عزيزي إنَّ هذا المستوى من الحديث من المفروض أن لا يكون أكثر من خطرات على البال تنمحي حين تسترجع وعيك العقلاني، حَيْثُ إنَّ أَقَلَّ شكل من أشكال التكوّن، ولو حشرة، ولو حجرة، ولو ذرّة... هُوَ حَتْماً أفضل من لا شيء، وأي خطرة على البال من اعتراض على وجودنا إِنَّمَا تنبع من ظروف قاسية قد نمرّ بها، وفيما بعد وفي لحظات الفرح والسيطرة على الأمور، ترانا متعلقين بالحياة!

حَسَناً، إن فهمت فكرة وجود كل شيء عن حكمة وصوابية، فهل ما نراه بالظاهر هو كل شيء؟ وَهَلْ ترك سبحانه ما في الدنيا بعد أن خلقها؟ وَلَمْ يخطّط لشيء آخر بعد أن خلقنا؟ نُولَدُ ونعيش ونموت وتنتهي قصّتنا؟ {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم} أنّ هذا غير منطقي ولا عقلاني ولا معنى له؟ بل جعل سبحانه لكل شيء أجلا محدّدا لينتهي فيه، وبما أن الكلام معنا، فالكلام عن آجالنا نحن. ونكمل مع الآية:

{وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ}، ناكرون للتلاقي للتواجه مع المسؤول عنهم من مستوى إلهي في حياة ثانية بعد انتهاء الحياة الأولى. هَا هُوَ إلهكم خالقكم يخبركم أَنَّهُ خلقكم وحدّد أجلا لموتكم، وهذا معلوم، وسيعيدكم لتلاقوه، ولكن أكثركم ينكر ذلك؟!

لاحظ كيف لفتت الآية انتباهنا لأنفسنا، لننتبه ونسأل أنفسنا: من أين جئنا؟ ومن الواضح البديهي أن خالقا خلقنا. ثم نسأل أنفسنا: لماذا خلقنا؟ ومن الواضح البديهي وجود "حكمة" مخطّط "غاية هدف" مقصود "لنا" من خلقنا، والتعبير القرآني عن ذلك أنه تعالى حكيم ولم يخلق الدنيا لهوا أو لعبا، مَا هي الحكمة "الغاية لنا" من خلقنا؟ هَا هُوَ يخبرك خالقك أنه خلقك هنا لتموت وبعدها تلاقيه ليحاسبك ويجازيك على ما فعلت هنا، ولكن ولأسباب ذكرها القرآن من التعلّق بالهوى السيّء وزينة الدنيا... أَكْثَرُ الناس تنكر هذا اللقاء معه تعالى لأنهم لا يريدون الالتزام بما يمنعهم من اتباع هواهم السيّء...

لِقاءُ الآخرة هو وعده تعالى الذي سيتحقّق، وستركّز السورة عليه من عدّة جوانب، وبدايتها كانت مع نموذج ملموس عن صدق كلامه تعالى بوعده بنصر الروم، تليها آيتنا هنا التي تسأل عن معنى "عن الحكمة" من خلقنا إن لم يكن هناك آخرة نلاقيه تعالى فيها لنتحاسب ونتجازى...

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ{9})
الكافرون بلقائنا، {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا}، مِنْ بعد السير "الانتقال فيها" يُوَجِّهُوا اهتمامهم العام، {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ}، ما يَعْقُبُ، ما يأتي بعد شيء كنهاية كنتيجة لعمل، {الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}، من الناكرين للقائنا الذين كانوا قبلهم على الأرض؟

{كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً}، عَسْكَرِيّاً وَاقْتِصَادِيّاً كانوا أقوى من النموذج أهل مكّة، كفرعون وثمود وعاد... {وَأَثَارُوا الْأَرْضَ}، فجعلوها ثائرة نشطة بالزراعة والأعمال، {وَعَمَرُوهَا}، بالمنشآت من أبنية وحقول... {أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا}، فجعلوا فيها عمارة أكثر مما فعله النموذج كفّار مكّة الذين تتحدّث معهم وعنهم هذه السورة "كنموذج"، فكانت البيوت أكثر وأماكن انتشار مدنهم ومنشآتهم أكبر وأوسع... {وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ}، فجاءهم من ينقل كلامه تعالى إليهم بوضوح، وسياق الكلام عن الآيات التي تدل على حتمية حصول لقاء معه تعالى في الآخرة، فكيف كانت عاقبتهم؟ أين هم؟ لقد أهلكهم سبحانه...

{فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ}، ما كان تعالى ليعاملهم بغير العدل والإنصاف، {وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}، لِأَنَّهُمْ مع أنفسهم لم يكونوا عادلين ولا منصفين، وَلَمْ يكن معهم حقّ حين تركوا البينات وَأَنْكَرُوهَا، فاستحقّوا الدمار.

نلاحظ أن الكلام مع كفّار مكّة كنموذج، حَيْثُ إِنَّنَا في عصرنا تُوجَدُ قوى نووية وقدرات اقتصادية بتريليونات من الوحدات المالية، ونظنّ أن من تضرب الآيات بهم المثل كفرعون وعاد وثمود... نظن أَنَّهُمْ ليسوا أقوى من الدول الكبرى التي في عصرنا، ولكن العقلية التي كانت عند كفّار مكّة هي عَقْلِيَّةٌ مشتركة بين كل ناكري الآخرة، وَحَتَّى لو كان مجتمع ما أقوى من المجتمعات التي تدمّرت بسبب كفرها، فقوتهم لن تعجزه تعالى عن تدميرهم، مَنْ يقف في وجه طوفان؟ أو زلزال قوي، أو خسوف في الأرض... لِأَنَّهُ لا أحد يمكنه النجاة من هذه الحوادث، لِذَا، ضع في بالك أن الآيات نموذج لنا عن حديث مع عقلية منكري الآخرة.

لتقريب الصورة نتذكّر الآيات التي نقلت أحاديث فرعون مع النبي موسى(ع)، وقوم النبي نوح(ع) معه، وكلام ثمود وعاد مع رسلهم... هؤلاء كانوا في عصرهم يعتقدون بأنهم أقوى قوّة علمية ومالية وعسكرية على الإطلاق! عِلْماً أَنَّنَا نرى من المعلومات التي لدينا بأن علومهم التي تبجّحوا بها كانت بسيطة بالنسبة لعلومنا! وهكذا نفهم معنى الكلام عن النماذج في القرآن، وَالَّذِي في عصرنا يتبجّح بعلومه العالية المتطورة فليتذكّر أنها كانت نفس عقلية كل المجتمعات على مرّ التاريخ، إِذْ دَائِماً كان أهل كل عصر يرون أنفسهم متطورين جدا! وَبِالتَّالِي نَحْنُ يجب أن نلتفت بأننا الآن وبالنسبة لمن سبقنا متطورون، ولكن بالنسبة لمن سيأتي بعد آلاف السنين فنحن بدائيون متخلفون.

من المهمّ الالتفات للعقلية المتكررة عبر العصور لمن يفكّر بعقلية التبجّح بعلومه، وَكَذَلِكَ هي عقلية من يفكّر بإنكار الآخرة وهو يشعر بعظمة حالته المالية أو العسكرية أو العلمية، وَالْكَلَامُ مع أي نموذج منهم ينطبع على أي منكر للآخرة في أي عصر كان، لأن كلام القرآن عن نماذج لتلك العقلية وليس كَلَاماً مُخَصَّصاً مُوَجَّهاً فقط لأهل مكّة.

إِذاً، الشعور بالقوّة والتسلّط في الدنيا هو من أسباب إنكار الآخرة، وفي التاريخ مرّ كفّار أقوى من النموذج كفّار مكّة، فما معنى هذه القوّة التي لم تنجهم من عقابه تعالى؟ فإن كنتم تشعرون بالعظمة فانظروا إلى نتيجة هذا الشعور لتروا أنه خادع وليس عظمة حقيقية أمامه تعالى.

(ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون{10})
{ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ}، ما عَقَبَ، ما أَتَى كنهاية ونتيجة أعمال، {الَّذِينَ أَسَاؤُوا}، لِأَنَّ عقليتهم وتصرفاتهم سَيِّئَةٌ، كانت عاقبتهم، {السُّوأَى}، أشياء توصف بِأَنَّهَا سيّئة وهي سكنهم في الآخرة في النار، {أَن}، بسبب أنهم، {كَذَّبُوا}، لم يصدّقوا، {بِآيَاتِ اللَّهِ}، بالأمور المميزة المنسوبة له تعالى، {وَكَانُوا بِهَا}، بآياته تعالى، {يَسْتَهْزِؤُونَ}، يَتَعَامَلُونَ معها من خلفية الاستهانة والاستخفاف وَيَعْتَبِرُونَهَا بلا قيمة ويستخفّون بها.

لاحظ دائما المبدأ الإلهي في كلامه معنا فيما يعرضه علينا لنؤمن ونلتزم به في قرآنه، مِنْ ناحية ما نسمّيه نحن بالعقيدة، فهي مجموعة معلومات يخبرنا بها تعالى عنه وعن أفعاله وعن قراراته... وبما أنها صادرة مباشرة منه سبحانه، وكلامه الصدق، فهي أخبار عن واقع حقيقي هو هكذا كما يخبرنا سبحانه عنه.

بالنسبة لما نسمّيه نحن شريعة وسلوكيات، مِنْ أمثال آيتنا هذه، والمنتشرة بكثرة في القرآن ترى أنه تعالى وبناء على ما جعله فينا من قدرة على تمييز الخير من الشر، سُبْحَانَهُ يأمرنا بترك السوء وفعل الخير، لا أكثر ولا أقل.

(اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{11})
{اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {يَبْدَأُ الْخَلْقَ}، وبتعبيرنا نحن مِنَ الصفر وبدون أي كيان سابق يركّب ويؤلّف الكائنات، ولتقريب الفكرة لِنَقُلْ إِنَّهُ تعالى من المواد الأولية الخام بدأ بتركيب الكائنات، وعندما نقول "المواد الأولية" لا نقصد الذرات ولا مكونات الذرات، ولا مكونات مكونات الذرات، ولا الطاقة... بل نقصد عموم ما تركّبت منه الكائنات المختلفة مهما كان نوعه، حَيْثُ إِنَّ الملائكة مخلوقة "مؤلّفة مُرَكَّبَةٌ من شيء ما" وهي مختلفة عن المادة التي انخلقنا نحن منها...

{ثُمَّ}، الله تعالى، {يُعِيدُهُ}، يكرّر الخلق وَيَخْلُقُ نفس الكائنات مرّة ثانية، لَنْ تفنوا ولن تختفوا عندما تَمُوتُونَ، {ثُمَّ}، بعد أن يعيد خلقكم سبحانه، {إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، لَنْ تَفْنَوْا بلا رجعة ولن تذهبوا إلى مكان آخر أو إله آخر أو حياة أخرى روحية منامية نفسانية... لا، بل إليه إلى إلهكم ترجعون. وتعلم تكملة الكلام، سَنَرْجِعُ إليه سبحانه ليحاسبنا ويجازينا، ولكن الآية تركيزها على الخبر الإلهي عن قراره سبحانه بحتمية رجوعنا إليه تعالى، وَالَّذِي خلقنا أوّل مرة، هو نفسه يقول بأنه سيخلقنا مرّة ثانية، وَهَذَا الخبر من الله سبحانه شخصيا يقوله لنا، وهذا الخبر لوحده يجب أن يكون كافيا حتى نصدّق بوجود آخرة.

بعبارة أبسط، ما معنى إنكار عودتنا إلى الحياة ومن قبل كان لنا بداية حين خلقنا سبحانه؟ مَا المانع حتى يعيد سبحانه خلقنا بعد موتنا ومن قبل كنّا لا شيء وخلقنا سبحانه؟ وبتعبير نتساهل فيه نقول: في البداية من الصفر، من لا شيء، خلقنا سبحانه، لِمَاذَا يقولون بأنه تعالى لن يعيد خلقنا مرّة ثانية بعد أن نموت؟ مَا المانع؟

هناك مفهوم نشتقّه من كلام القرآن حول ما تقوله آيتنا هنا، حِينَ قرّر سبحانه خلقنا، وعندما نقول "حين قرّر" لا نقصد أنه في زمن ما خطرت الفكرة على باله سبحانه وتعالى، بل نستعمل تعابير نتساهل فيها بسبب فقداننا للقدرة على توصيف تلك الحال، حيث نتكلّم عنه عزّ وجل ونحن بعيدون كل البعد عن فهم طبيعته سبحانه وتعالى، ولا نفهم الحالة التي لا يكون فيها زمان ومكان كالذي نعيش فيه... على أي حال، حِينَ قرر سبحانه خلقنا، بِقُدُرَاتِهِ الفائقة، علم ما سيجري من هذا التصميم وذاك التصميم... وعلم سبحانه بكياني أنا، في أي زمان ومكان وظروف... سأخرج إلى الحياة، وعلم بما سيجري معي... وسبحانه لا يحتمل ولا يتوقّع ولا يحسب الاحتمالات... بل يعلم يقينا بما سيجري.

إذاً، وبعبارات نتساهل فيها، قَبْلَ أن يخلقني سبحانه، وحين كنت لا شيء، وقبل أن يتشكّل أي شيء من دنيا المخلوقات، كُنْتُ "أنا" ضمن قراره تعالى بخلق ما في الدنيا، ومعلوم له تعالى كل شيء عنّي، وحتى قراراتي التي تبدو لي عشوائية سُبْحَانَهُ يعلم بها سلفا...

هذا الكلام يفسّر لنا الكثير من الأمور، ويريحنا من الكثير من الكلام الذي يتولّد من التفكير بموضوع الموت واندثار الجسد، وعودتي أنا بذات شخصي إلى الحياة.

أنا بذات شخصي وقبل خلق ما في الدنيا، كنت متضمّنا في قراره تعالى لخلق ما في الدنيا، وهذا ما تقوله الآية هنا: {اللَّهُ} تعالى {يَبْدَأُ الْخَلْقَ}. عَنْ تصميم وتخطيط وعلم تفصيلي بكل ما سيجري، بدأ سبحانه بخلق السماوات والأرض، وكنت مقصودا "أنا" بذات نفسي أن يأتي الزمن الذي سأخرج فيه "أنا" إلى الحياة.

سبحانه {يُعِيدُ} الخلق، مِنْ بعد موتنا، سُبْحَانَهُ من جديد سيعيد خلقي "أنا" بذات نفسي.

نعم، الأسئلة حول هذا الموضوع ستكون حول التعرّف على آلية حدوث ذلك، كَيْفَ سيعيدني سبحانه أنا بذات نفسي؟ حَيْثُ صار جسدي ترابا، وَنَمَا عليه نبات، وأكل حيوان ما تلك النباتات... وهل وعيي أو ذاكرتي تبقى محفوظة أم يعيد سبحانه تشكيلا جديدا ينتج عنه وعي وذاكرة مطابقة لي... هَلْ هناك آلية تعيدني أنا بذات نفسي من بذرة، أو من إعادة تكويني كما كنت بنفس الصفات من مادّة أخرى... أو...

ننتبه، جهلي لآلية إعادة خلقي لَيْسَ مشكلة تمنعني من الإيمان بقدرته تعالى على إعادة خلقي، وهذه هي النقطة التي تمحور حولها كلام القرآن عموما، أَوَّلاً لننظر إلى خلقنا ولم نَكُ شيئا، حَتَّى لو لم نعلم آلية حدوث ذلك، ولكن النتيجة واضحة، نَحْنُ وكوننا بسماواته وأراضيه مَخْلُوقُونَ، هَلْ سننكر خلقتنا الحالية لأننا لا نعلم آلية حدوثها! ونفس الشيء بالنسبة للإيمان بالآخرة، الَّذِي خلقنا في هذه الدنيا يقول بأنه سيعيد خلقنا بعد موتنا، وهذا خبر لوحده كَافٍ لتصديقه إن وردنا بطريقة لا نشك في صدور هذا الكلام ممن خلقنا. ومن ناحية ثانية نشر القرآن في مختلف سوره، وبالخصوص في سورتنا هذه، نشر دلائل حسيّة ملموسة على صدق كلامه سبحانه عن الآخرة.

باختصار، جَهْلِي لآلية عودتي إلى الحياة، لَيْسَ سببا عقلانيا لإنكاري لهذه العودة، هُنَاكَ الكثير الكثير مما أجهل آليات حصوله ولا يمنعني ذلك من الإيمان به والتعامل معه، إِلَى الآن لا نعرف إلا القليل جدا جدا عن طبيعة الجاذبية التي تجعل شمسنا وقمرنا سابحين، وَلَدَيْنَا قواعد للتعامل مع هذه الظاهرة رغم جهلنا التام بعمق معناها وآلية حدوثها...

ومثلها تكوين العناصر الأولية للذرات، ومثلها الكثير من الثوابت الفيزيائية والكيميائية التي نجهل معناها ولكنها ضرورية ولها مكان في المعادلات...

هل البحث عن آلية إعادة إِحْيَائِنَا يجب أن نحصره بمصادر دينية، وَنَبْحَثَ عنه في القرآن والروايات؟ لا، ولو فعلنا ذلك فنحن نرتكب خطأ جسيما، لِأَنَّ هذا شيء نعرفه بِالتَّجْرِبَةِ والملاحظة وتراكم الفرضيات لتصير نظريات...

أخيرا، قديما كان لدى المنتمين لدينه تعالى نظريات لتبرير بقاء الذات بعد فناء الجسد، وَقَالُوا إِنَّ الجسد مجرد وعاء، وحقيقتي "جوهري" هي نفسي أو روحي أو كلاهما معا... ولن أدخل في عرض ما قالوه ولا في مناقشته، وأختصر لك ذلك بالقول إِنَّهَا محاولات منهم لفهم آلية حدوث الأشياء، ولا شيء من كلامهم بالمعاني والاستنتاجات التي يقولونها مذكور بصراحة في القرآن، لا شيء، وعلى أكثر تقدير استخرجوا تلاميح من كلام القرآن ليؤيدوا نظرياتهم التي وللأسف ورثناها وصبغناها بلباس القداسة وصارت جزءا من عقيدتنا، وَصَارَتْ منسوبة لدينه تعالى، والردّ عليها ونقدها أو رفضها... هو كفر بشيء ديني!

هذه هي نفس المشكلة في الكثير من تراكمات ثقافاتنا التي صارت مقدسة، ومنها الاعتقاد بأن آدم أوّل بشري ومخلوق فورا من لا شيء... وأن السماوات والأرض انخلقت في ستة من أيّام الأسبوع...

الخلاصة من الكلام أن القرآن لم يذكر بشكل مباشر آليات فعله تعالى للأمور، وذكر لنا ما نفهمه من الكلام كآياتنا هنا، وَالَّذِي خلقنا أول مرّة يقول بأنه سيعيد خلقنا، أمّا كيف، فكما تعتقد أنك متطوّر فكريا أكثر من قوم النبي نوح(ع) ويمكنك فهم الآلية لو ذكرها تعالى لك، فاعلم أن قوم النبي نوح(ع) كانوا يقولون مثلك نفس الكلام، واعلم أنه بعد ألف سنة سَتَأْتِي بعدنا علوم متطوّرة لا نحلم بها ولا بالخيال، وسيقول بعضهم إِنَّهُمْ سيفهمون أكثر منّا لو ذكر تعالى في قرآنه آلية فعله للأشياء، وبعدهم بألف سنة وألف سنة... سيتكرّر نفس الشيء.

ما هو منتشر في الكتب عن الروح والنفس والجوهر... هو كلام لطيف، ولكنه قديم عفا عنه الزمن، ويمكن الاستفادة منه لتقريب الفكرة، ولكن أبدا بتاتا لا تجعله تفسيرا للقرآن، وأرجوك أن تتمعّن فيما قلته لك، وهو بسيط مفهوم وواضح من كلامه تعالى، أَنَا بذات نفسي كنت من ضمن قراره تعالى بخلق السماوات والأرض، وَلَمْ أك شيئا، ولكني كنت أنا بذات نفسي معلوما عنده تعالى بكل كياني ومتعلقاتي بل وبما سيحدث معي بكل التفاصيل الدقيقة في الدنيا والآخرة، ولم أكن شيئا... وخلق سبحانه السماوات والأرض، وخلق البشر... وخلقني، ومتّ، وانمحى كياني المادي، وسيعيدني تعالى إلى الحياة، حَتَّى لو صرت لا شيء، مِثْلَمَا في الأوّل خلقني تعالى من لا شيء، وكانت كل حياتي وذاكرتي وَعْيِي وفكري ونفسيتي... معلومة عنده تعالى وخلقني من لا شيء، أَيْنَ المشكلة في خلقي مرّة ثانية؟

من بداية ما صمّمني سبحانه وجعلني في مخطّطه، وخلقني، وأماتني، ثم سيخلقني من جديد في الآخرة، هِيَ سلسلة واحدة مترابطة. أمّا آلية حدوث ذلك، فهو استفزاز لنا لنتعرّف عليها، وسيكون رائعا لو قدرنا على محاكاتها وتقليدها بإحياء الموتى بنقل ذاكرتهم أو زرع دماغهم أو وصله بآلة، أو بإعادة إنعاشهم... لا أدري، حَيْثُ حصل مرارا إعادة خلق هنا في الدنيا وتجد عن ذلك فقرة في سورة البقرة تبدأ من الآية 258 {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}... وما بعدها عن الذي أَمَاتَهُ تعالى مئة عام ثم بعثه... ثم طلب النبي إبراهيم(ع) رؤية إحياء الموتى... ومعهم ما ورد عن معاينة الناس لإحياء بعض الموتى على يد النبي عيسى(ع) كما ورد في الآية 110 من سورة المائدة {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ}... {وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي}...، هَذِهِ نماذج ملموسة عن إعادة الخلق، ومعه كلام قرآني غيره الكثير عن بيان قدرته الفائقة سبحانه الذي بدأ الخلق أول مرّة ويمكنه بسهولة إعادة خلقه... ولفت انتباهنا لذلك من إحياء الأرض بخروج النبات من سقوط المطر... وتوالد الحيوانات...

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ{12})
{وَيَوْمَ}، وفي الزمن الذي، {تَقُومُ}، تتفعّل وتصير حاصلة، {السَّاعَةُ}، وغالباً يقصد القرآن بالساعة ساعة قيامنا من الموت في أول يوم من الآخرة بالنسبة لنا، وهو يوم قيامنا من الموت، عندها، {يُبْلِسُ}، تصيبهم حالة الوقوع في الورطة التي لا حلّ لها، {الْمُجْرِمُونَ}، المرتكبون للأعمال التي يستحقون العقاب عليها.

من عموم القرآن نفهم أن أوّل يوم بالنسبة لنا هو يوم قيامتنا من الموت، وأوّل ساعة فيه يحصل فيها قيامنا من الموت، وبعده أيام من الحساب الفردي والجماعي والأشهاد... وآخر ساعة في آخر يوم يدخل المؤمنون فيها إلى الجنّة والآخرون إلى النار.

أنت تعلم أن كلمة ساعة صارت عندنا مساوية لستين دقيقة منذ انتشار استعمال الناس للآلة المسمّاة بالساعة الميكانيكية، وقبل ذلك هي تعبير عن فترة زمنية يقع فيها حدث فرعي من يوم تحدث فيه أحداث فرعية كثيرة مترابطة، كساعة العسرة، وساعة النصر... فتكون طويلة جدّاً أو قصيرة. وهكذا ترى أن كلمة يوم أيضاً ليست مخصصة للأربع وعشرين ساعة، فهذا أيضاً اصطلاح علمي، وليست مخصصة لليل واحد يتبعه نهار واحد، فهي أعمّ من ذلك، فهي لعموم أي زمن وقع فيه حدث أساسي تخلّلته أحداث فرعية، كيوم الحرب، أو أيام الحرب، ومعلوم أنها جرت في أشهر أو سنوات.

لمزيد من التوسع حول كلمتي يوم وساعة، راجع دراسة الآية 19 من سورة القمر {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ}.

(وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاء وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ{13})
{وَلَمْ يَكُن لَّهُم}، للمجرمين، {مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ}، الذين كان بينهم وبين المجرمين حالة شراكة معبود وعبد، إله ومن يؤلهه... لن يجدوا أي أحد مهما كان من آلهتهم ليشفع ليتوسّط ويتدخّل في محاسبتهم طالباً أو فارضاً لهم العفو أو مانعاً من مجازاتهم... وحالة الشفاعة تحصل مع الذي وحّد الله تعالى، حيث يشفع سبحانه له عند نفسه ويغفر للموحّد ذنوبه "ضمن شروط"، أو يشفع له الملائكة (ع) والمؤمنون لمسح ذنوب المؤمن الذي عنده تقصيرات... أمّا المشركون المجرمون فلن يشفع لهم أحد.

{وَكَانُوا}، المجرمون، {بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ}، منكرين للشراكة التي حصلت في الدنيا بينهم، وهذا يحصل بعدما يَرَونَ في الآخرة أنهم لا نفع منهم بالشفاعة، أو للتخفيف عن ذنوبهم، أو حمل بعض الذنوب عنهم... هذه أمور ذكرها القرآن في سور أخرى، وبعدما يتبيّن لهم أن أي شيء جيّدٍ لن يصدر من شركائهم، سيكفرون بهم وينكرون ألوهيتهم...

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ{14})
{وَيَوْمَ}، وفي الزمن الذي، {تَقُومُ السَّاعَةُ}، تتفعّل وتحصل الساعة، وهي ساعة قيامنا من الموت في الآخرة، {يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ}، في ذلك الزمن يصير الناس فِرَقاً، فريق المؤمنين لِوَحْدِهِ، وفريق الكافرين لِوَحْدِهِ.

راجع ما قلناه عن الساعة في الآية قبل السابقة.

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ{15})
{فَأَمَّا} "فريق" {الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين اعتقدوا بهذا الدين الإلهي، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، فعملياً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادة نفسّر "عملوا الصالحات" على أنّهم أطاعوه تعالى، ونقول إنّهم صلّوا وصاموا... وهذا عملياً صحيح، ولكن بالأصل الكلام أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموماً وحتى بين المؤمنين، أنّ الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، حتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائماً أنّه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأنّ القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به.

هذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنّه في قلبك خللٌ منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنّه أمر إلهي "وهو فعلاً سيّئ" سيكون في الحقيقة اختراعاً من البشر لصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمراً إلهياً.

{فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ}، وهذه الكلمة وصف لمكان التريّض، مكان الترويح عن النفس والاستراحة، كالبستان والحديقة وأماكن اللعب والتسلية... وهنا المقصود بالروضة وصف بقاع الجنّة وكلّها روضات لأنّها للترويح للاستراحة النفسية والفكرية والجسدية، {يُحْبَرُونَ}، تتمّ معاملتهم بإجلال واحترام على اعتبار أنّ قيمتهم عالية، كمعاملة الملوك.

نلاحظ القرآن دائماً يقرن بين الإيمان والعمل الصالح مع بعض، والنتيجة للاثنين معاً هي دخول الجنة، فلا الإيمان بدون عمل صالح ينفع، ولا العمل الصالح من دون إيمان ينفع، بل كلاهما معاً ينفعان.

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الْآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ{16})
{وَأَمَّا} "فريق" {الَّذِينَ كَفَرُوا}، أنكروا هذا الدين الإلهي، وبالخصوص أنكروا الآخرة ولم يلتزموا بأوامره تعالى، {وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}، قالوا عن الأمور المميّزة المنسوبة له تعالى إنّها كاذبة، وكذّبوا أفعاله تعالى في خلق السماوات والأرض وخلقنا، وكذّبوا بأفعاله تعالى التي تدخّل فيها لتحدث أمور لا تفسير لها إلا تدخّل قدرة إلهية، وهي التي يسمّيها الناس بالمعاجز، وكذّبوا كتبه تعالى... كذّبوا كل ذلك فلم يؤمنوا به كمعلومات صحيحة ولا بدلالاته عليه تعالى لتوحيده... وكذّبوا، {وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ}، قالوا عن اللقاء معه سبحانه في الحياة التي ستأتي في الآخرة إنّها كذب، فلم يعتقدوا أنّها ستحصل، {فَأُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ}، زمان ومكان حضورهم في الضرر الذي سيصيبهم، بعد موتهم في الدنيا وبعد تبدّل السماوات والأرض وقيام الآخرة، هناك عذاب للكافرين، وهم سيكونون حاضرين متواجدين فيه.

(فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ{17})
{فَسُبْحَانَ اللهِ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز الله عزّ وجلّ منزّه مرفّع عن كل وصف ناقص أو سيّء، وهنا الكلام بالتحديد عن تنزيهه تعالى عن النقص في القدرة التي تمكّنه من إعادتنا إلى الحياة مرّة ثانية، ومنزّه عن اللهو والعبث، حيث عن حكمة خلقنا بحرية إرادة واختيار ليجازينا على ما فعلناه... ومنزّه عن الإخلال بوعوده لأنّ لقاء يوم القيامة سيحصل حتماً... وإليكم نماذج عن انعكاس صفاته وقدراته التي لا عيب فيها فهي فائقة حسنة، {فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ}، حين يأتي عليكم وقت المساء في آخر النهار، من الواضح قدرته وصفاته الفائقة، لأنّه صمّم وخلق ظاهرة المساء بما يسبّبها "من دوران الأرض حول نفسها وذهاب الضوء عن قسم منها..."، وبما يتعلّق من استراحتكم وتوقّفكم عن الأنشطة في المساء... {وَحِينَ تُصْبِحُونَ}، حين تصيرون في أول النهار، من الواضح قدرته تعالى التي سبّبت حصول صباح لكم بما يسبّب انتشار الضوء...

ضع في بالك أن الآية هنا والتي تليها لا تتحدّث عن الصلوات الخمس الواجبة، بل تشير إلى حالتنا نحن كبشر مع بيئة اليوم المتغيرة من حولنا، فأي نقص تتصوّره في الخالق الذي خلقنا في هذه البيئة الرائعة؟ وكيف لا ترى التفاصيل الهائلة والترابط الذي يدلّ على إله صمّم وخلق؟ الآية على معنى رؤيتك لمنظر جميل أعجبك ودفعك لتقول: سبحان الخالق، وتقصد التنزيه من أي عيب لمن صنع هذا المنظر، فروعة منظر الظاهرة يشير لصفات وقدرات رائعة فيمن خلقه، وهنا روعة وتقانة وضخامة وتفاصيل... ظاهرتا الصباح والمساء، تدفعك لتنزّه الذي خلقهما عن أي عيب، فجمال وحسن وكمال صفات الخالق انعكس في خلقه لهاتين الظاهرتين النموذج عن روائع ما خلق.

بالنظر للآيات السابقة: مثلما خلقنا سبحانه هنا في هذه البيئة التي نعرفها، والتي تقصّد سبحانه أن تكون ضخمة وبتفاصيل هائلة تدلنا بسهولة على عظمة قدراته تعالى وصفاته، وذلك حتى نفهم أنّه سبحانه يمكنه بسهولة أن يخلقنا من جديد ويجعلنا في روضة أو عذاب.

(وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ{18})
{وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وهذه حدود كل الدنيا التي فيها المخلوقات، كل أعماله في كل بيئات المخلوقات، فهي موصوفة بأنها محمودة جيّدة، كل ما حصل منه تعالى "وسيحصل" في السماوات والأرض فله الحمد عليه، تنقلنا

الآية من الليل والنهار للصورة الأكبر الضخمة الهائلة الضخامة، إلى دنيا بسبع سماوات، ويقابل كل سماء أرض، وسماؤنا الضخمة بمجراتها هي مجرد سماء واحدة من سبع سماوات.

{وَلَهُ الْحَمْدُ} {عَشِيّاً}، في الفترة التي يكون الضوء فيها خفيفاً من بعد غروب الشمس، فترى أمامك ولكن بصعوبة ولا ترى لمسافات بعيدة، {وَحِينَ تُظْهِرُونَ}، في فترة الظهيرة حيث تصير الشمس فوق رؤوسنا في وسط السماء.

الآية هنا والتي سبقتها لا تشير إلى تحديد توقيتين للحمد وتوقيتين للتسبيح له تعالى، بل تشيران إلى ظواهر تحصل يومياً وتشير إلى عظمة صفات وقدرات الذي صمّمها ونفّذها ويجعلها تتكرّر... وبناء عليه فهذا الخالق قادر حتماً وبكل سهولة على إعادتنا إلى الحياة مرّة ثانية، كما سترى من الآية التالية.

بقي شيء، كلام الآية السابقة والآية هنا، ترى معناه وتتفاعل معه حين تتذكّر روعة اختلاف الإضاءة في بيئتك، وللأسف غالباً نغرق في هموم الحياة ومشاكلها التي نسبّبها لأنفسنا ولبعضنا الآخر، ونفقد بوصلة التمتّع بروائع ما أتاحه تعالى لنا، فانظر من حولك وأخبرني أين أخطأ سبحانه معك؟ فما هو الشيء السيّء الذي فعله تعالى لك؟ وهكذا نفهم وصف تعالى بالحمد، كلّ أعماله موصوفة بأنها حميدة جيدة حسنة... هذا بغض النظر عن شكره تعالى عليها، لأن الشكر هو التعبير عن حصولك على شيء جيّد، والكلام هنا عن وصف أفعاله تعالى بأنها حميدة.

أمّا الأذية والضرر الذي نتعرّض له فهو منّا نحن المخلوقات، القدرات الرائعة التي منحها تعالى لنا لم نستغلها في الخير والصلاح، بل استعملناها لأذية أنفسنا والآخرين، ولتخريب بيئتنا...

الآية هنا لا تخبرك بل تذكّرك بروعة ظواهر متعلقة باختلاف نسبة الإضاءة وروعة تفاعلك معها، ففي النهار يسرح نظرك وإلى الظهيرة تنشط وفي الليل تسكن، وفي العشي تأنس، فمن صمّم وخلق ذلك كلّه؟

(يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ{19})
{يُخْرِجُ}، الله تعالى، {الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ}، يجعل الكائنات التي تفعل وتتفاعل، يجعلها تخرج من مواد كانت لا تفعل ولا تتفاعل، {وَيُخْرِجُ}، الله تعالى، {الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ}، ويجعل الكائنات ميّتة لا تفعل ولا تنفعل، {وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}، حيث تكون الأرض ميّتة لا حياة نباتية فيها، عندما تمطر "أو يأتي الربيع" فتخرج النباتات ويصير في بقعة الأرض حياة نباتية، {وَكَذَلِكَ}، بهذا الشكل من نماذج قدرته تعالى وفعله من منح وسحب الحياة الحيوانية والنباتية التي ترونها تتكرّر من حولكم، {تُخْرَجُونَ}، فبمثل ذلك نخرجكم إلى الحياة في الآخرة.

الآية في قسمها الأول تشير للحياة الحيوانية، وفي قسمها الثاني تشير للحياة النباتية، فالذي يمنحها الحياة الآن، ويسلبها الحياة، فهو نفسه يقول بأنه سيخرجكم إلى الحياة مرّة ثانية بعد موتكم، فهل لديكم أي عذر لإنكار وتكذيب كلامه! فهل من المستحيل عليه تعالى خلق الحياة أو سحب الحياة وها أنتم ترونه تعالى يفعل ذلك مليارات مليارات المرات يوميًا! ويقول لكم إنه سيعيدكم إلى الحياة بعد موتكم وأنتم تكذّبون بآياته الواضحة أمامكم والتي تدل على قدرته وصفاته الفائقة التي بها والآن يحيي ويميت ويحيي...!

حدوث الحياة في الكائنات لا يمكن تفسيره ولا بأي شكل إلا بالإيمان بمن صمّمه وفعله ولديه قدرات وصفات فائقة، لأننا لسنا مجرّد كومة من المواد، ولسنا جمادًا، ونحن فينا نوعية من الحياة ونفعل ونتفاعل، وسترى من الآية التالية لفت انتباهنا للعمق الذي تعنيه كلمة حياة.

تتذكّر دائمًا أن تفصل بين معرفة آليات نشأة أصل الحياة، ومعرفة آليات حدوث الموت وآليات إعادة الحياة للأموات، وبين الكلام الإلهي عن النتيجة، وبغض النظر عن آلية نشأة كوننا وصولًا إلى نشأة الحياة ذات الأساس الكربوني على الأرض، فنتيجة تصميمه وخلقه تعالى تراها في نفسك وحولك، حيث أنت كائن صار حيًا من المواد، وستموت، والذي صمّم ونفّذ حصول ذلك يقول لك إنه سيعيد إحياءك، فما معنى إنكارك لقدرته على فعل ذلك؟

لمزيد من التوسّع حول بداية خلقنا وإعادته راجع دراسة الآية 51 من سورة يس، {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ}، والآية 17 من سورة نوح {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}.

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ{20})
{وَمِنْ آيَاتِهِ}، ومن الأمور المميّزة التي فعلها تعالى، {أَنْ خَلَقَكُمْ}، ركّبكم وألّفكم أيها الناس، {مِنْ تُرَابٍ}، من المواد التي في بيئتنا وهذا شيء معلوم بمجرد الالتفات له، حين نموت نصير ترابًا، وأهلنا يأكلون مما أصله تراب ونحن ننمو بسبب أكلنا لما أصله تراب. {ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ}، كائنات لها بشرة، {تَنْتَشِرُونَ}، تتوزّعون تتحركون لأماكن مختلفة على الأرض، ولم تعودوا ترابًا جامدًا وصرتم كائنات متنقلّةً بالصفات البشرية.

يعني بغض النظر عن المراحل والآليات من هذا التراب صرتم بشرًا تنتشرون ومن قبل كنتم لا شيء.

ضع في بالك أننا من لحم ودم وعظم... وهذه تتكون من الكربون والكالسيوم والأوكسجين والهيدروجين... وهذا ليس اكتشافًا بل معلومة بسيطة يعرفها الجميع لأننا نتراكم بالنمو من استهلاكنا لما تألّف من هذه المواد، وحين نموت نتحلّل فيتبخر الماء من جسدنا ويبقى التراب، ويعبّر القرآن عن ذلك بأننا من التراب تركّبنا، من ماء، من طين، من هذه المواد صرنا كائنات موصوفة بالبشرية، من لحم وعظم وبشرة... فينا حياة ونأكل ونشرب ونتحرّك لننتقل قاصدين وجهة ما، وهذا يتضمّن الإشارة إلى الوعي والقصد الذي فينا والدافع لنا للانتشار... ومن فعل هذا ألا يستطيع إعادة خلقكم؟ أو أنه خلقكم عبثًا بلا حكمة "هدف لكم" ولن يعيد إحياءكم؟...

سبق وذكرنا في هذه السورة كلامًا عن الفهم غير الصحيح لكلامه تعالى حول خلقه للأشياء، سبحانه حين يريد شيئًا يقول له: {كُنْ فَيَكُونُ}، تعني أنه حتمًا سيكون، ولا تعني أنه فورًا سيكون، حيث يقرر سبحانه حصول الشيء فورًا، ويقرّر حصوله بعد زيليونات السنين. قديماً كانت الثقافة الدينية المنتشرة بين المؤمنين والتي يعتبرها الآخرون أنها الدين الإلهي، كانت تلك الثقافة غالبًا تلغي حصول الأشياء بآليات ومراحل مترابطة متسلسلة، لأنهم كانوا يجهلونها، مما أدّى إلى إنكار البعض لوجود الإله حين اكتشفوا آليات حدوث بعض الأشياء، لدينا فرضيات حول نشأة كوننا من بذرة سبّبت انفجارًا نشأت منه العناصر الأولية للمواد... وبعدها نشأت الذرات الثقيلة من انفجارات النجوم... وكان لهذه المواد خصائص ستؤدّي حتمًا إلى تشكّل كواكب سيصير عليها تفاعلات كيميائية تؤدّي إلى تولّد أشكال بسيطة من الحياة البيولوجية... وستتطوّر لتصير كائنات حيّة... وتصير بشرًا...

هذه فرضيات عن آليات حدوث الكون ونشأة الحياة فيه، وحتمًا سيأتي في المستقبل فرضيات أخرى أفضل وأدقّ، وفرضًا فرضًا صحّت نظرية الانفجار الأعظم وما يليه من تخمينات لسلسلة أحداث أدّت لنشأة الحياة على الأرض، فإن صحّت فما هي إلا معرفة لآليات فعله تعالى للأشياء، وأخبرنا سبحانه في كتبه قديمًا وفي القرآن عن أيام لخلق السماوات والأرض، وهي تعابير كانت تشير لمراحل أساسية، ولم يخبرنا سبحانه بآليات حدوثها، لأن هذه معرفة تحتاج لتراكم المعلومات وتطوّرها لنقدر على هضمها... ولمزيد من التوسّع راجع في ذلك دراسة الآية 9 وما بعدها من سورة فصلت {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ}...

آيتنا هنا نموذج عن كلامه تعالى فيما سبق من كتب أنزلها سبحانه، ونموذج عمّا تجده منتشرًا في هذا القرآن، وتستشف منها بعضًا من لمحات وإشارات عن آليات حدوث الأشياء، وترى فيها جانبًا من المراحل التي توالت حتى تشكّلت الأشياء، كقوله عن خلقنا من ماء أو من تراب أو من طين، ولكن ولأسباب عديدة لم يُعطِ القرآن أهمية للدخول في عمق آليات تشكّل الأشياء، لأننا لن نفهمها حتى لو ذكرها، وإذا ذكرها القرآن بما يفهمه المعاصرون لنزوله، فمن سيأتي بعدهم سيجد الكلام ساذجًا، ولو فرضًا نزل القرآن في عصرنا، وفرضًا ذكر لنا آلية حدوث الأشياء بما نفهمه، فأيضًا من سيأتي بعدنا بألف سنة سيجد الكلام ساذجًا...

سبحانه ترك معرفة الآليات لأفعاله، تركها للقدرات التي منحها لنا من تفكير وحواس وقدرة على الملاحظة والتجربة.... والخيال الذي تنبع منه الفرضيات... وسبحانه زودنا بقدرات أكثر من كافية لرؤية صفاته وقدراته المعكوسة في أنفسنا ومحيطنا، لنتعرّف عليه، ونعبده، ونلتزم بأوامره... وهذا هو المطلوب.

الكلام يجرّ الكلام، أي تفسير للقرآن بناءً على معطيات "علمية" جديدة فهو حتمًا خطأ، لأن كلامه تعالى له نفس المعنى المفهوم من كلماته وجمله من الزمن الذي نزل فيه ومرورًا بزماننا ووصولًا إلى آخر زمان دنيا البشرية، وإنما يتطوّر فهمنا لكلامه تعالى بتصحيح الفهم المبني على خلفيات غير صحيحة، ونصحّح معاني الكلمات والجمل، ونرمي

إسقاطاتنا عن النص، وننظر نظريًا بسلامة فكر ونفسية له، فاصلين بين هوانا وخلفياتنا وبين المعنى الظاهر لكلامه تعالى... وهكذا سنرى النص الإلهي مثلما كان من المفروض رؤيته حين نزل والآن وبعد آلاف السنين، بنفس النظرة.

كل كلام القرآن عمّا يصفه بالآيات أو بالأخبار عمّا فعله تعالى، أو عن شيء حدث... كلّه يشير لأمور مفهومة لمتوسطي الثقافة، أو بعد دراسة تأمّل وانتباه ومقارنة، وبعد ذلك تصير مفهومة حتى للبسطاء منّا، ولم يطرح القرآن كلامًا لن يفهمه الذين نزل في عصرهم، ولم يطرح كلامًا يحتاج لتطوّر علومنا لنفهمه، راجع دراستنا هذه لأي آية تعتقد بأنها اكتشاف علمي قرآني أو إعجاز علمي قرآني، أو تحتاج لتطوّر علومنا لتفهمها، وسترى أن هذا غير صحيح.

لا إعجاز علمي ولا اكتشاف علمي... في القرآن، لأنه كتاب هداية يعرض المعلومات الحقّ عنه سبحانه وعمّا فعله وعمّا قرّر فعله، ويعطينا البراهين والحجج على ذلك، ونؤمن بها لأنه تعالى زوّدنا بالقدرة المعرفية على رؤية الحقّ فيما يقوله، ونسمّي ذلك بالعقيدة، ويعرض القرآن شريعة وسلوكيات مع تبريرات وصفها بالصلاح أو السوء، وبناءً عليه نقوّم إيماننا وشريعتنا وسلوكياتنا بناءً على هذا المصدر الإلهي الصافي للحق والصلاح.

يلفت انتباهنا لنماذج من أفعاله تعالى حتى ننتبه لوحدانيته ولصفاته، ويكفي لذلك النماذج السهلة الفهم التي تحدّث عنها القرآن من مخلوقات فيها صفات مترابطة مع بيئتها، ومن ظواهر الليل والنهار وجريان الشمس...

قرآننا عظيم في عرضه للحقّ والصلاح، وهذا ما تحدّى به الكافرين ليأتوا بمثل هذا القرآن، ولم يتحدّاهم ببلاغته ولا بمعلوماته العلمية السابقة على علومهم، لأن هذا شيء ثانوي ناتج عن كون الإله بعظيم قدرته استعمل لغة من لغات البشر، وسينتج عن ذلك استعمال دقيق جدًا، وسينتج عنه تقويم لاستعمال تلك اللغة، وسينتج عن كلامه تعالى معلومات دقيقة عمّا قبل خلق السماوات والأرض، وأثناء خلقها، وما بعده... ولم يختر سبحانه من تلك المعلومات إلا ما يمكننا فهمه بسهولة أو بعد تأمّل ومقارنة، ولم يذكر سبحانه ما نحتاج لتطوّر علومنا لنفهمه.

{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (21)

{وَمِنْ آيَاتِهِ}، من الأمور المميّزة المنسوبة له تعالى، {أَنْ خَلَقَ}، ركّب ألّف، {لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا}، فصار بينكم مغايرةٌ وصرتم زوجًا، فصرتم مختلفين، وبمقارنة الذكر والأنثى عند البشر حيث لا ذكر ولا أنثى عند الملائكة (ع) نلتفت للتخطيط والتنفيذ لجعلنا نحن البشر ذكرًا وأنثى، وكما يبدو من مختلف آيات القرآن فإن الذكر والأنثى مشتقان من نفس واحدة كما ورد في الآية الأولى من سورة النساء {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً}، وبدون الاستناد لمعلوماتنا الحالية عن تطوّر البيولوجيا البشرية، ومن رؤيتنا فقط لتشابه البشر، نفهم أن الأصل واحد للجميع، وهذا ما يقوله القرآن على البساطة، وبعدها يأتي إسقاط معلوماتنا على هذه المعلومة البسيطة المفهومة لأي إنسان عادي، فقديمًا فسّروها بخلقه تعالى لآدم فورًا من تمثالٍ طينيٍّ، وخلق زوجته منه... بينما كلامه تعالى لا يعني أن الأصل إنسان مماثل للصفات التي فينا حاليًا، فلا يعني خلق إنسان فورًا، وللتأكد من ذلك فلن تجد ذكرًا لآدم ولا لزوجته في كلام القرآن عن شيء مشابه لآياتنا هنا، وستجد الكلام القرآني عن آدم حين يذكر لك شيئًا عن تكليف البشرية، عن تأهل أول واحد منهم ليتكلّف بدينه تعالى، بينما حين يتكلّم عن خلقتنا فلن تجد ذكرًا لاسم آدم، فهذا مما علق في ذهننا وأسقطناه على كلامه تعالى لنفسّره به، فنفسّر أمثال آيتنا هذه بأنها تتحدّث عن آدم بينما القرآن لم يذكره هنا ولا في الآيات التي تحدّثت عن مراحل خلقتنا.

من الآية هنا نفهم أن نفسًا ما كانت في البداية بصفة واحدة فلم تكن حينها ذكرًا أو أنثى وبعد ذلك توالد منها كيانان مختلفان بالأعضاء التناسلية، واستمرت حالة توالد جنسين من الذكر والأنثى... وهذا بديهي مما نراه من الأصل المشترك لكل البشر بكل أجناسهم الأصفر والأحمر والأسود والأبيض... ومما نراه من الأصل الواحد للذكر والأنثى.

خطّط تعالى أن يحصل هذا الانقسام لذكر وأنثى، {لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا}، لتشعر الأنثى بالسكينة بالارتياح عند ملاقاة الذكر، وبالعكس ليشعر الذكر بالسكينة عند ملاقاة الأنثى، وتلاحظ هذا بشكل ملفت عند تعارف ذكر وأنثى، وعند إعلان خطبتهما، وزواجهما... {وَجَعَلَ} سبحانه {بَيْنَكُمْ}، بين الذكر والأنثى منكم، {مَوَدَّةً}، شعور رغبة التعاطي والقرب

من الآخر، وجعل بينكم، {رَحْمَةً}، عناية منكم ببعض لما فيه مصلحة بعضكم البعض، فيعمل الذكر على تأمين ما فيه مصلحة أنثاه وتعمل الأنثى على تأمين ما فيه مصلحة ذكرها.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، خلقكم كذكر وأنثى وحصول مشاعر تسبّب رغبة التقارب والعناية بينكم بسبب الاختلاف بينكم بالذكورة والأنوثة، {لَآيَاتٍ}، فهي أشياء مميزة، {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة ومتفاعلة بينهم حالات تعايش الذكر والأنثى، {يَتَفَكَّرُونَ}، فلو فكروا وأجالوا هذه المعلومات عن هذه الحالة في عقلهم، لانتبهوا إلى عظمة قدرة الخالق بما فعله.

بالنسبة للتعبير {خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ}، فعليك بنسيان قصّة خلق حواء من ضلع آدم(ع)، فهي روايات ضعيفة، وحتى لو لم تكن ضعيفة فهي الفرق بين كلام الإله وبين كلام البشر حتى لو كان البشري رسوله تعالى، فالرسول يتكلّم بما يعرفه، وهل يعرف ما يعلمه تعالى؟ وأساسًا فكرة خلق آدم كأوّل بشري فهي لا تنطبق على واقع بقيّة الحيوانات، فهل يقولون عن النعجة أيضًا أنها من ضلع التيس؟ وعن البقرة أنها من ضلع الثور؟ وبمراجعة التراث الثقافي الديني لعموم أهل الكتاب ستجد أن كلامه تعالى "بالأصل" في كتبهم مشابه لكلام الآية هنا، ولكنهم لم يستطيعوا فهمها إلا بالطريقة الأبسط لهم بناء على معطياتهم، وذلك عبر افتراضهم لخلقه تعالى تمثالًا من معجون التراب والماء، تمثالًا طينيًا، والنفخ فيه ليتحوّل إلى لحم وعظم ودم ويصير حيًا واعيًا... وهو هذا التفكير نفسه بفهم كلامه تعالى قد استمر واتّصل مع ثقافة المسلمين المستندين لتفسيرات كلامه تعالى القرآني على تفسيرات الذين سبقوهم من أهل الكتاب، وعلى علومهم البسيطة، وهذا الكلام القرآني أمامك، وتفهم منه أن التعبير بالتراب أو الماء أو الطين والصلصال... ما هي إلا مرادف لما نسمّيه اليوم بعناصر مواد الجدول الدوري للعناصر المعروفة في كوننا، من كالسيوم وكربون... وكلام القرآن عن خلق آدم(ع) اختصر مراحله الأولية ليخبرنا عن المادة التي انخلق منها، ولم يقصد خلقه فورًا.

في الآية هنا إشارة إلى مرحلة ما من خلقتنا، حيث كانت الذكورة والأنوثة متضمنة بشكلها البدائي في مخلوق سابق على تكوّن البشرية منه، وهذا واضح جدًا من رؤيتنا لتشابه الذكر والأنثى ومن توالدهما من بعض، حيث من الآية 30 من سورة البقرة تأكّدنا من وجود بشر سابقين لآدم(ع)، {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ} فالملائكة كانوا يرون أفعال البشر ويستفهمون عن قراره تعالى بجعله خليفة له منهم، فآدم(ع) ليس أوّل بشري، ولا هو من تتحدّث عنه الآية هنا، بل هو أوّل واحد من البشر تأهّل ليتكلّف بالدين الإلهي...

أمّا البحث عن كيفية نشأة الحياة البشرية، البحث عن آليات حدوثها، فاكتفى القرآن بإشارات إلى بعض مراحلها، حيث من تراب وماء، من طين، من حمأ... كانت البداية... وبعدها سلالة من طين أي من المواد... ولدينا بعض الآيات التي تشير لمرحلة لم يكن فيها الذكر مفصولًا عن الأنثى، كالآية 1 من سورة النساء {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً}، وهو نفسه ما تقوله الآية هنا...

انتبه جيدًا، لأني لا أروّج لنظرية النشوء والارتقاء "التطوّر"، ولا أدعوك لتصديقها ولا لرفضها، فهذا شيء تقرره العلوم التجريبية، أمّا دينيًا فأنبّهك للفرق بين معرفة آليات خلقه تعالى لنا من القرآن أو من العلوم، فكلامه تعالى يبدو حاليًا وبحسب علومنا، متماشيًا بشكل ما مع نظرية النشوء والارتقاء التي تعرض فرضية قوية عن آلية نشأة الحياة على الأرض، ومنها قد نفهم كيف خلقنا سبحانه من طين.

الآية النادرة لخلق النبي عيسى(ع) طيورًا من تماثيل الطين، ليست معيارًا تجري عليه أفعاله تعالى، وليست معيارًا لتطبيقه على خلق آدم (ع) من تمثال من الطين... فخلق ما في دنيا المخلوقات استغرق ستة أيام، ست مراحل، وخلال تلك المراحل بدأ خلق الحياة على الأرض، والذي أيضًا كان له مراحل، لأن الحياة النباتية لا تختلف في جوهر معنى كلمة حياة عن الحياة الحيوانية، وهذا ما تراه جليًا في التعابير القرآنية حين يماثل خروج حياتنا في الآخرة بخروج النبات هنا كما تقرأ في الآية 11 من سورة ق {رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ}، وبالتالي كل أشكال الحياة الأرضية تشاركت بشكل ما في مراحل بدايتها... لذا لا الأم الطبيعة خلقتنا ولا الصدفة ولا كثرة التكرار... بل تصميمه تعالى للسماوات والأرض أدّى إلى وصولها إلى المرحلة التي سينتج عنها كائنات حيّة...

تلاحظ تركيز الآية هنا على حالة الشعور الإيجابية، فكما تحصل مودّة ورحمة، فبالعكس يحصل نفور ولؤم بين ذكر وأنثى، ولكن النموذج الأجمل للطرح هو لفت الانتباه لنموذج المشاعر الإنسانية الجميلة، ويستحضرني هنا لفت انتباهك

لما أشار إليه القرآن مرارًا بطرق مختلفة، لأن المشاعر "الخيّرة والشريرة" كلتاهما نتاج الخلقة الإلهية لنا، فنحن في دار امتحان، ومزوّدون بمشاعر متضادة، وعلى أساس اختيارنا للشعور الذي نقرره سنتحاسب، حيث سبحانه يصنّفنا كمؤمنين صالحين بحسب مشاعرنا التي تنتج عن أفكارنا ونفسيتنا، فيمكن أن نحبّ الله تعالى، ويمكن أن نحبّ طاعته، وأن نحبّ المؤمنين... ويمكن أن نكره طاعته تعالى ونكره المؤمنين... وأيضًا يجب على المؤمن أن يكره الشرك، ويكره المشركين المعادين، وكما ترى، فلا يوجد مشاعر سيّئة بحدّ ذاتها، لأن الكره والبغض ليسا سيئين، بل يوجد مشاعر استعمالها سيّء، فحين تكره من يجب أن تحب، أو تحبّ من يجب أن تكره فاستعمالنا هو السيّء، وهناك عدة آيات تشير لهذا الموضوع ومنها آيات مودة المؤمنين لبعض وكرههم للكافرين المعادين وكمثال عن ذلك ما قالته الآية 119 من سورة آل عمران {هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ}، أمّا الآية هنا فتشير وتلفت انتباهنا حصرًا للتصميم الإلهي للعلاقة الرائعة الجميلة للمودة والرحمة بين كائنات جعل فيها سبحانه ذكرًا وأنثى، أمّا حالة الكره التي قد تحصل بين ذكر وأنثى فهي الشواذ فهي الاستعمال السيّء لمشاعر الحبّ والكره، وحتى لو كانت الأكثرية من البشر موصوفة بهذا الاتجاه السيّء في المشاعر فهم الشواذ عن أصل الخلقة الكاملة لأحسن تقويم، وراجع في ذلك ما ورد في الآية 4 من سورة التين {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}، لأن الأكثرية ليست معيارًا ولا في أي شيء.

أعتذر عن الإطالة ولكن السورة تفرض علينا التوقّف عند النقاط التي تطرحها، فاستحضر في ذهنك المشاعر التي تعرفها من كره وحب وغضب وخوف... والتفت إلى المشاعر التي نتشارك بها مع بقيّة الحيوانات وما نختلف بها عنها وتخصّنا نحن البشر، وربما يكون عند بعض الحيوانات أو الملائكة(ع) أو الجن، مشاعر نفقدها نحن ولا نعرفها، ولا يمكننا وصفها ولن نفهمها ولا بأي شكل، مثلها مثل الألوان التي لا يمكننا رؤيتها، فلا يمكننا تصوّرها بل فقط نشبّهها تشبيهًا تقريبيًا لشيء نعرفه، وبهذا الاستحضار لهذه المعلومات تلتفت للخالق الذي صمّم هذه المشاعر المختلفة التي نملكها نحن وللمشاعر التي لا نملكها نحن ويملكها غيرنا، بل عليك أن تلتفت للإله العظيم الذي يمكنه أن يجعل فينا مشاعر جديدة لا نعرفها ولم نسمع عنها ولا يمكن أبدًا أن تخطر في بالنا، كما ترى هنا من الآية، فإن مشاعر الودّ والرحمة بين اثنين من البشر، بين ذكر وأنثى، فهي مرتبطة بشكل وثيق بكونهما "ذكرًا وأنثى"، حيث هناك ميول للشكل، وميول للقرب من الجنس الآخر المختلف بالطباع والرائحة... ونحن ككائنات مصنوعة، حصلت كل هذه المشاعر معنا من التصميم الذي خلقنا عليه صانعنا، وهذا ما تريدك الآية أن تتفكّر به.

أطلت عليك وأطيل بعد، وهذه المرّة لا أعتذر منك على الإطالة، لأن الآية أمرتنا بالتفكّر في هذه المشاعر الناتجة عن الذكورية والأنوثة، وعليك بالتوقّف عند كل آية "على شكل جملة" قرآنية لتدرسها وتفهمها، وبالأخص عندما يقوم القرآن بلفت انتباهنا لآية ربانية، فتوقّف هنا وفكّر، واعلم أن كل لحظة واحدة من التفكّر هي خير لك من ساعات من القراءة للقرآن بلا تفكّر، بل تلك اللحظة الواحدة هي أفضل من سنوات عبادة ومن ختم القرآن لمئات المرات بلا تفكّر.

نرجع للكلام مع الناكرين لآياته تعالى، الناكرين له تعالى كإله واحد أحد، الناكرين للآخرة... فكيف يفسّرون خروجنا إلى الحياة؟ وكيف يفسّرون تركّب جسدنا وتوالدنا من دون إله صمّم وخلق؟ وكيف يفسّرون حصول ذكر وأنثى؟ وكيف حصلت مشاعر بين الذكر والأنثى؟ وعادة يكون كلامهم عن الصدفة وكثرة التكرار ونجاح الأفضل... ورغم أن كلامهم ضعيف واهن لا يفسّر أي شيء، بل غالبًا يعرض علينا فرضيات عن الميكانيكية الآلية التي صمّمها تعالى لينتج عنها مخلوقات، وهم منكرون فقط لتصميمه تعالى لنا بينما هم فقط يفسرون الآلية التي أنتجتنا، نافين تصميمه وخلقه تعالى وملصقين ما حصل ونشأ منه الكون للصدفة أو للصفات الأساسية العميقة للطاقة أو...؟ علمًا أن كلامهم ما هو إلا محاولة تفسير للآلية التي خلقنا تعالى بها...

على كلّ حال، كثيرًا ما لفت القرآن انتباهنا للألوان، ولمختلف حالات الإنارة والعتمة من اليوم.... ولاختلاف النباتات... وهنا تطرح الآية المشاعر الإنسانية، وترينا أنه تعالى تقصّد أن يكون فينا وحولنا الكثير الكثير من التفاصيل التي تدل عليه تعالى أنه صمّمها ونفّذها ولا يمكن لأي عاقل أن لا يراه تعالى من خلالها... فما معنى المشاعر والانجذاب الذي فينا نحو الجنس الآخر؟ من صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" لنكون هكذا؟ ألوحدها المشاعر نتجت؟

كما ترى في هذه الدراسة من كثرة تكرار للمفاهيم أثناء دراسة الآيات، الهدف منه إصابة ما يريده القارئ من مراجعة التفاسير لفهم آية ما، ولذا حاولت أن أقدّم له تحت كل آية ما أظنّ أنه يريده ويستفسر عنه، أطلت وأيضًا اختصرت، وإلا

فبعض الآيات تستدعي صفحات لذكر كل ما لها علاقة به، لأن الآيات هنا التي تتكلّم عن خلقنا، فلها علاقة بسؤال عمّن خلقه هو تعالى، ولن أطيل عليك بالجواب الذي ستجده في سور أخرى، وأختصره لك بأنه تعالى طبيعته لا توصف بالخلقة، فسبحانه ليس مركّبًا ولا مؤلّفًا من شيء، ولمزيد من التوسّع راجع في ذلك دراسة الآية 11 من سورة الشورى {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}...

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ{22})
{وَمِنْ آيَاتِهِ}، من الأمور المميّزة المنسوبة له تعالى، {خَلْقُ}، تركيب تأليف، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وهذا التعبير القرآني يرادف قولنا: خلق كل شيء. فهذه هي حدود كلّ الدنيا التي فيها المخلوقات، ومن القرآن نعلم أن السماوات سبعٌ كما ورد في الآية 12 من سورة فصلت {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ}...، من سمائنا التي نسمّيها "الكون"، إلى سماوات الملائكة العالية... فكل ما علا هو سماء ويقابله كل ما تحته فهو أرض، وكوكب الأرض أرض بالنسبة لسمائنا وكذلك سطح القمر أرض، وسطح الشمس أرض... وهكذا بقية السماوات لها ما يقابلها من أرض مناسبة لتكوينها كما تفهم من الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}...

من بعد خلق السماوات والأرض وصولًا إلى خلقكم، {وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ}، وفي عصرنا صنّف اللغويون أكثر من ستّة آلاف لغة متداولة بين الناس، من ضمنها اللهجات، ومثلًا كل بلد عربي صنّفوا لهجته كلغة، كشبهٍ بين اللغات الأوروبية ذات الأصل اللاتيني.

{وَمِنْ آيَاتِهِ}، {اخْتِلَافُ أَلْوَانِكُمْ}، لدينا بشرة من لون أبيض وأسمر وأسود وخلاسي وأصفر...

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، الخلق لسماوات وأرض، وتعدّد اللغات وتعدّد ألوان الجلد، {لَآيَاتٍ}، فهي أمور مميّزة، {لِّلْعَالِمِينَ}، "كسرة على اللام" لمن لديهم علم حقيقي.

عليك يا عزيزتي ويا عزيزي الانتباه إلى أن الناس اخترعوا اللغة، ولكن من الذي جعل فيهم مقوّمات اختراع اللغة من فكر وقدرة على النطق، ومعاملات راقية تحتاج للغة غنية بالمفردات والتراكيب... وقارن غنى لغاتنا في التعبير مع أنواع تعابير الحيوانات بالأصوات، وتذكّر معاملاتنا التجارية والقصص والروايات... وضع في بالك لو كانت اللغة بكلماتها وتركيباتها مزروعة فينا، فسنصير آلات تتكلّم لغة واحدة... وضع في بالك لو أن أدوات النطق لا تتماشى مع البيئة من حولنا، ولا تتماشى مع رغبتنا في تغيير طريقة النطق والتعبير... لكنّا كلنا نستعمل نفس الأحرف ونفس اللهجة...

ألفت انتباهك دائمًا لطريقة خالقنا في تصميمنا وخلقنا، فهي على طريقة البذرة التي تنمو لتصير شجرة، لا على طريقة صنع الشجرة فورًا، إذ لا معنى للخلق الفوري النهائي للأشياء، وتصوّر لو أنني أنا وأنت فتحنا أعيننا على الحياة لنجد أنفسنا في جهنّم لأن الله تعالى حين "قرّر" أن يخلقنا، علم أننا سنكون من أهل السوء، ونهايتنا إلى جهنّم، فمن الآخر، خلقنا في جهنّم! كما ترى بوضوح، فلا يوجد منطق في هذا الكلام، ويبدو من القرآن بشكل واضح جدًا أنه سبحانه وتعالى لا يتعامل مع الأمور بهذه الطريقة، بل يضع البذرة، أبسط بذرة، ولا يذهب فكرك لشيء صغير الحجم نشأ منه ما في الدنيا، وقد يكون هذا صحيحًا، ويكون لا معنى له لأننا نتكلّم عن دنيا فيها مواد لا نعرف عنها أي شيء، كالمادة التي انخلق منها الجنّ والملائكة... على أي حال، فالأمور تسير كما خطّط لها تعالى من بذرة، وتصير الدنيا بسماواتها وأراضيها، ويصير كوننا... ونصير بشرًا... ونخترع اللغات المختلفة... ويصير لنا ألوان بشرة مختلفة...

دائمًا لو تصوّرت نفسك أنت تخلق كونًا، وكائنات، فستفهم مدى التعقيد والكثرة في التفاصيل وأن أي خطأ صغير غير محسوب بدقة فسيسبب انهيارًا لكل المخطط... وهكذا بسهولة ترى عظمة إلهك الذي صمّم ما تراه وتعرفه، وما لا تراه ولا تعرفه أعظم بكثير مما تراه وتعرفه.

كما ترى، لبّ الإيمان وجوهره، هو التفكّر بالآيات الربانية الرائعة، فلا إيمان مستقيم من دون تفكّر بالآيات، ولا إيمان من دون امتصاص الفكر والمشاعر لروعة الآيات الإلهية، ورويدًا رويدًا ترى نفسك تتماشى مع كل الروائع التي من حولك، ويصير تسبيح خالقك ينبع منك، فلن تجبر نفسك على تقليد غيرك في التسبيح والحمد، لأن آيةً ربانية واحدة

تدخل في وعيك، وتصير عالمًا من العالمين، وسترى السبّوح القدّوس من خلالها، فهي خير لك من مليارات التسبيحات بلسان يتحرّك في فمك كالآلة وكالعابد لله تعالى على حرف، على حافة يقع منها عند أوّل امتحان.

(وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ{23})
{وَمِنْ آيَاتِهِ}، من الأمور المميّزة التي فعلها تعالى، {مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ}، فقدانكم لوعيكم وبالتالي فقدانكم لإحساسكم بما حولكم حين توصفون بالنوم في فترة العتمة من اليوم، ليرتاح بدنكم وفكركم، لأن نفس النوم بدعة إلهية رائعة، وهو موت جزئي مؤقّتٌ، يريحك من أقصى الهموم والتعب، ويعيد إنعاشك فكريًا ونفسيًا وجسديًا...

{وَمِنْ آيَاتِهِ}، {النَّهَارِ}، فترة الضوء من اليوم، وتكملة الكلام عن النهار هو يقظتكم فيه، {وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ}، طلبكم من الأمور الجيدة التي منحها تعالى لكم وهي من الأساس ليست مفروضة عليه تعالى ليمنحها لكم، بل تفضّل بها عليكم، وتطلبون الرزق وإشباع الرغبات "بالحلال"، وهي أمور حصلتم عليها من فضله تعالى، حيث كان يمكنه عزّ وجلّ أن يخلقكم بلا حواس ولا رغبات، أو يخلقكم مع حواس ورغبات ولكن لا يؤمّن لكم ما يسدّها...

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، في نومكم ويقظتكم وطلبكم لفضله سبحانه، {لَآيَاتٍ}، فهي أمور مميّزة، {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة مفعّلين للتعامل مع هذه الظواهر، {يَسْمَعُونَ}، يدخل هذا الكلام إلى قناعتهم، أمّا من يسمعها ولا تندمج مع مشاعره وفكره، فهو مجرّد آلة معطّلة عن التفكير، مثل مسجّل الصوت، فإن لم يدخل هذا الكلام الربّاني إلى وعيه ويندمج مع فكره ومشاعره فما الفائدة من تحرّك طبلات أذنه؟!

طبعًا الليل والنهار والنوم واليقظة... من قبل أن يذكرها القرآن هي آيات، لأن الجملة القرآنية "آية" لأنها كلام إلهي، وكلامها عن ظواهر نتفاعل معها هو كلامها عن آيات نعيشها، فهي ليست خبرًا لا نعرفه بل للفت الانتباه فقط، ومن كان قلبه سليمًا سيلتفت إلى أنها أمور مميّزة تدل على صفاته وقدراته تعالى، والذي تحرّكت طبلات السمع في أذنه ولم تصر هذه المعلومات في وعيه كقناعة من بعد لفت الآية القرآنية انتباهه لما يعلمه ويراه، فلن تكون آية بالنسبة له.

(وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ{24})
{وَمِنْ آيَاتِهِ}، ومن الأمور المميَّزة المنسوبة له تعالى، {يُرِيكُمُ}، يجعل عندكم صورة محدَّدة لـ {الْبَرْقَ}، الضوء القوي السريع الذي لا يستمر، وهو الذي يصدر من الغيوم عادة، يريكموه {خَوْفًا}، فتشعرون بخطر يفوق قدرتكم على تجنُّبه بسبب ضعفكم عن التعامل معه، ويريكم البرق {طَمَعًا}، بما سيليه عادة من نزول للمطر، فترغبون بشدَّة مع أمل بنزول الماء الذي تشربونه ويسقي زرعكم.

{وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}، وهو المطر، {فَيُحْيِي بِهِ}، بالماء، {الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}، فلولا المطر لكانت الأرض صحراء قاحلة، والغابات والحقول التي تراها سببها نزول الماء. ولو كنت مزارعًا لفهمت هذا الكلام بشكل جيِّد، وحتى أضخم أنظمة الري من الأنهار ستحصر الزراعة والخضار حول الأنهار، أمّا الغابات الكثيفة والسهول والمراعي الضخمة والمزروعات الأساسية كالقمح والذرة والأرز... فهي بشكل أساسي لا تزال لحد الآن ورغم آلاتنا الضخمة، لا تزال تلك المزروعات بإنتاجها الضخم تعتمد على نزول الماء عليها مباشرة أو على الأرض لتزويد ينابيعها وبركها بالماء. وعلى أي حال الكلام القرآني عادة عن نماذج، وفرضًا استعمرنا كوكبًا لا تحصل فيه ظاهرة المطر، واستخرجنا المياه من ثلجه، فلا يتغيّر أي شيءٍ، لأنه تعالى هو المصمِّم الخالق، ولو نزل القرآن في زمن يحصل فيه ذلك، لجاءنا الكلام الإلهي عن ذلك، فكل كلام القرآن عن نماذج.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، في رؤيتكم للبرق ونزول الماء وإحياء الأرض به، {لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}، أمور مميَّزة تدل عليه تعالى فقط عند الناس الذين لديهم عقل فيدخل إلى فكرهم مما يرونه أنه تعالى وراءه كمصمِّم خالق، أمّا إن لم يعقلوه فلا عقل لهم، فلا نفع من دماغ لا يعقل ولا يرى عظمة الخالق في ظواهر البرق والمطر وإحياء الأرض.

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ{25})

{وَمِنْ آيَاتِهِ}، من الأمور المميَّزة المنسوبة له تعالى، {أَنْ تَقُومَ}، أن تتفعَّل وتصير حاصلة، {السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ}، والأمور التي يريدها سبحانه أن تحصل وهي تحصل، والسماء والأرض قائمة مفعَّلة بحيث يحصل فيها ما يأمر به تعالى. بعبارة أبسط هما تمشيان بحسب ما يريد سبحانه، وبعبارة أدق، هي مصمَّمة ومخلوقة ومرسوم لها ما يحصل فيها، ويحصل فيها بالضبط ما أمر به تعالى. وقارنها مع آلة نصنعها لتنتج دواءً، ويحصل خلل في خلطها للمواد، أو تتعطَّل بعض وظائفها... أو قارنها مع السيارة التي في البداية تعمل جيّدًا وبعدها تبدأ بالتعطُّل... وضمنًا قارن بين قدراتنا نحن فيما نريده ونعجز عن تصميم آلة تفعله، ويبقى قسم مما نريده ليتصنَّع بالأيدي، أو نُقسِّم العمل على عدَّة آلات... وهكذا نفهم وصف الآية للسماء والأرض بتشبيهها بالآلة التي تعمل تمامًا كما أمر تعالى.

لاحظ الآية لا تريد الدخول في أمور عميقة، ولم تُشر لوعي السماء والأرض والذي لا نفقهه، كما ورد في الآية 44 من سورة الإسراء "تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ..."، بل تشير إليهما كبيئتين، كآلتين ضخمتين قائمتين مفعَّلتين بما أمر به تعالى أن يحصل، فواحدة ينزل منها المطر والأخرى تمتصُّه ويخرج منها النبات، فهما دائمًا دائمًا تعملان كما صمَّمهما سبحانه، وبنفس المعنى نحن البشر ينتج عنَّا ما هو متوقَّع من تصميمه تعالى لنا بحريَّة إرادة واختيار...

{ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ}، إذا أشهر وأعلن سبحانه لكم أيها البشر، {دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ}، ووجَّه إليكم أمرًا وأنتم مختلطون مع الأرض، وكنتم أمواتًا تحلَّلت أجسامكم وعادت لتنمزج مع تراب الأرض، وإذا دعاكم للخروج منها، {إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ}، تتشكَّلون وتنفصلون عن تراب الأرض ويصير لكم كيان فترجعون إلى الحياة.

لاحظ، السماء بضخامتها وبمختلف الأحداث التي تجري فيها، والأرض بضخامتها وبمختلف الأحداث التي تجري فيها، كلاهما يحدث فيهما ما أمر به تعالى، ونحن ككائنات من ضمن تلك البيئة، وبعد موتنا يتحلَّل جسدنا ويتبخر الماء ونصير ترابًا، وإذا دعانا سبحانه للخروج فسنخرج حتمًا استجابة لأمره تعالى.

الآية تجعلك تقارن بين كل ما سبق من آيات، وبالأخير أن تقارن بين ما تراه من استجابة السماء والأرض لما يأمر به تعالى وصولًا لدعوته تعالى لك لترجع إلى الحياة من الأرض، ماذا ترى؟ وهل من الصعب أو من المستحيل أن يستجيب التراب لأمره تعالى ليعود ويتشكَّل وترجع أنت إلى الحياة؟

انتبه دائمًا أن الكثير من الآيات القرآنية نبَّهتنا للتنوُّع والاختلاف والضخامة فيما تراه من حولك، لأنه صمَّمه الإله عزَّ وجلَّ بهذه الطريقة حتى تراها بسهولة ووضوح كآيات صادرة عنه، لتتعرَّف عليه وتوحِّده... حيث كان يمكنه تعالى خلقنا في بيئة بسيطة جدًّا، بلا تنوُّع في الألوان ولا بالطعام ولا بالفصول وبلا ظواهر طبيعيَّة... ولكن قصد سبحانه أن نعيش في بيئة غنيَّة بشكل لا يوصف بأعداد هائلة من الآيات الدالة عليه سبحانه لنتعرَّف عليه ونوحِّده، وهنا الكلام في السورة للدلالة على عظيم قدراته تعالى وأنه وبكل سهولة قادر على تحقيق وعده بإرجاعنا إلى الحياة في الآخرة.

(وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ{26})
{وَلَهُ}، ومنسوب لله تعالى، {مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، والتصميم له تعالى والقرار له والخلق له والمُلك له والسيطرة له... {كُلٌّ}، كل الكائنات بدون استثناء، {لَّهُ قَانِتُونَ}، وصف حالتهم أنهم تحت أمره وسيطرته سبحانه.

ننتبه جيّدًا لهذا المعنى، وحتى لو كفر به سبحانه بعض الناس، أو عصوه، فهم بذلك لا يخرجون عن سلطانه ومملكته، و{قَانِتُونَ} تعني أن وصف حالتهم بخلقتهم وبما فيهم من صفات وقدرات وبمصيرهم... فهم تابعون لأمره وتحت سلطته تعالى، والكلام كمثال عنَّا نحن البشر وهو تعالى حدَّد شكلهم... ومولدهم ومماتهم... رزقهم ولغتهم ولون بشرتهم... وفقط ترك لهم سبحانه مساحة حرية الإرادة لامتحانهم في استعمالها...

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{27})
{وَهُوَ}، سبحانه، {الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ}، يبدأ تركيب وتأليف الكائنات، {ثُمَّ يُعِيدُهُ}، يكرِّر الخلق ويعيد تركيب وتأليف الكائنات، {وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}، وتكرار خلق الكائنات كعمل، هو بتعبير نتساهل فيه سهل بل أسهل، وكلمة هيِّن تتقاطع في التطبيق مع السهولة، ولكن ترى الفرق الدقيق في تصريف الكلمة على تفعيل "المهانة"، وهو عمل لا شأنيَّة له، مثلاً

هو لا يحتاج لجهد... وبعبارة قريبة هو عمل لا قيمة له كجهد عنده تعالى لأنه لا يتعبه سبحانه، وهذا المعنى قريب جدًّا من تعبير الآية 15 من سورة ق "أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ"، فإن كان هناك صعوبة أو مشقَّة أو مشاكل مانعة من تحقيق الشيء... فستكون في الخلق أول مرَّة لا في الإعادة، ولكن لا يوجد صعوبة عليه تعالى في البداية، وبسهولة بدأ الخلق، ولكن بشكل ما فإن الإعادة أهون، وكلاهما هيِّن كما تعلم من عموم القرآن الواصف لقدراته الفائقة سبحانه، ولكن بشكل ما الإعادة أهون ولو بشعرة.

كمثال تقريبي أطلب منك أن لا تعتمده، فقط للتقريب قارنه مع تعبيره تعالى التقريبي عن سرعة اتخاذه سبحانه للقرارات، تقريبيًّا تشبيهيًّا سرعة تصميمه وبداية خلقه لما في الدنيا حصل بلمح البصر، وهذه هي المدَّة التشبيهيَّة التقريبيَّة التي استغرقته تعالى ليصمِّم ما في الدنيا عالمًا بكل التفاصيل الدقيقة التي ستجري فيها، ولنقل على التقريب أن إعادة خلقها لن يستغرق قراره أي شيء، لأنه من الأوَّل في لمحة البصر تضمَّن تصميمه تعالى تصميم خلق الآخرة أيضًا.

طبعًا هذا الكلام تقريبي لأنه تعالى حين شبَّه سرعة اتخاذه لقراراته، كان الكلام معنا وعنَّا في سماوات وأرض، وأمّا قبل خلق السماوات والأرض، فحتى الكلام عن تصميمها وخلقها بسرعة كلمح بالبصر يصير تعبيرًا غير صالح للاستخدام، لأن الحالة حالة لا شيء، فلا مكان وبالتالي لا معنى للزمان، وسبحانه الأوَّل لا على معنى أنه كان هناك زمان وسبحانه لوحده، وهذه تعابير غير صحيحة، لأن طبيعته تعالى لا يجري عليها أوصاف المكان والزمان، وهذا ما نلاحظه من دقَّة تعابير القرآن حين وصف سبحانه نفسه منفردًا بدون أي مخلوق، ولن تجد أي شيء يشير ولو بالتلميح لأي شيء له علاقة بالزمان والمكان، وأمّا حين يخاطبنا نحن تبدأ عندها بسماع تعابير تتضمَّن تعامله تعالى مع المكان والزمان لأننا نحن مخلوقون في هكذا بيئة فيها مكان وزمان.

{وَلَهُ}، سبحانه، {الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، مثل ومقارنة وتشبيه إعادة خلقه سبحانه للأشياء، يمكنك مقارنتها بمثل أعلى، بمقاربة بتشبيه أعلى، في السماوات والأرض، فإن التفتّ بكل سهولة لضخامة الأرض، ولسبع سماوات هائلة، أصغرها "على ما يبدو" الكون الذي نعيش فيه بمجراته التريليونية، فمثّل على ذلك، وبسهولة ستنتبه أنه تعالى قادر على إعادة خلقنا.

كما نقول: أنا قادر على صنع طاولة صغيرة، وهذه الطاولة الكبيرة التي صنعتها هي "مثل أعلى" عن قدرتي على صنع طاولة صغيرة. هنا الآية تقول هكذا: الإله قادر على إعادة خلقكم، وهذا شيء هيِّن عليه، وخذوا مثلًا أعلى من القدرة المطلوبة على إعادة خلقكم، وخذوا مثلًا ضخامة ما خلقه سبحانه من سماوات وأرض، أيهما أضخم؟ إعادة خلقكم أيها البشر أم خلق هذه السماوات والأرض من لا شيء؟ وورد هذا المعنى في الآية 57 من سورة غافر التي أخبرتنا صراحةً أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلقنا "لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ".

{وَهُوَ الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذِّلَّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... وهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... وبناء عليه سبحانه قرَّر إعادة خلقنا وهذا سيحصل حتمًا لأنَّ ما يريده سيتحقَّق حتمًا.

{وَهُوَ الْحَكِيمُ}، يرى الصوابية في الأمور، لا يتصرَّف عن عبث، ورغم عزَّته بقدراته الفائقة التي يفرض بها تعالى ما يريده، خلقنا وإعادة خلقنا لها غايات سامية وليس عن تسلية أو عبث، ومضافًا إليه إنَّ خلق الأرض والسماوات بضخامة أيضًا كان عن حكمة حتى نلتفت بسهولة إلى الإله القادر العظيم، فإن قال سبحانه بأنه سيعيد خلقنا، فبكل سهولة سنؤمن بكلامه سبحانه بعد الالتفات لضخامة الآيات من حولنا.

(ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ{28})
{ضَرَبَ لَكُم}، أقام لكم سبحانه، {مَّثَلًا}، تشبيهًا تقريبيًّا، وسياق كلام السورة فيما يتعلق بقدرته سبحانه على إعادة خلقكم، والمثل، {مِّنْ أَنفُسِكُمْ}، فانظروا لأنفسكم، وتساءلوا: {هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم}، من الناس الذين تملكونهم

ملك اقتدار، وبالمختصر شبَّه ملك اليمين لطاعة العسكري لضابطه ودع من بالك التصرفات السيئة المتعارف عليها بين الناس للتعامل مع ملك اليمين والعبيد، {مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ}، فهل هناك من يشاركهم في ملك الأشياء التي صارت معكم منّا مما تحتاجونه لسد حاجاتكم ورغباتكم الحياتية؟ والوصف الشائع للمملوك باليمين هو العبد، فهل عبدك شريكك في ماشيتك وبساتينك؟ {فَأَنتُمْ فِيهِ}، أنتم وما ملكت أيمانكم في ملكية الأرزاق، {سَوَاءٌ}، متساوون بلا فرق، {تَخَافُونَهُمْ}، فهل تشعرون بضرر أكيد أن يسيطروا على أرزاقكم، {كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ}، كما تخافون من الأحرار؟

بعبارة أخرى، أنتم أيها الأحرار الذين تملكون باليمين أشخاصًا، فهل هم شركاء لكم في أملاككم؟ فأنتم تخافون من الأحرار أن يستولوا بطريقة ما على أرزاقكم، فهل عادة تخافون ممن تملكونهم ملك يمين؟ الجواب معلوم: لا. لأنكم تشعرون أنهم تحت سيطرتكم، وأنهم بالقانون وفي عرف مجتمعكم لا يحق لهم منافستكم على أملاككم.

الآية تشير إلى "نموذج" عام من الملكية، وهو نموذج يفهمه بسهولة الذين نزل في زمنهم هذا القرآن، عادةً المالك لا يخاف من المملوك "عبده" بل يخاف من الأحرار، والعبد "عادة" لن يشاركه في ملكه ولن يعلن ملكيته للأرزاق، ولكن الأحرار قد يضرّون بمصالحه ويأخذون أرزاقه منه بالقوّة...

بما أننا صرنا في عصرنا بعيدين عن فهم سيطرة المالك على عبده، يمكنك أن تُشبِّهها مع حالة عامل عندك واضع نفسه بتصرفك وتحت أوامرك ويُنفِّذ كل طلباتك، أو تُشبِّهها بالعسكري المطيع للضباط. وهكذا ترى أن هذا المثل الذي تضربه الآية هو أقرب شيء يمكننا نحن الشعور به من التسلّط على أرزاقنا، فهو بالنهاية مثل كتشبيه لتقريب الفكرة عن ملكه وسيطرته تعالى على كل شيء، فهل سيخاف سبحانه من الذين يملكهم "عبيده" أن يشاركوه في ملكه؟ وهل "عبيده" لديهم قدرة على التصرّف كما يشاؤون وهو تعالى لا سيطرة له عليهم؟ أنت تملك البستان والماشية... وسبحانه يملكك، فيملك كيانك، فكما أنت تتصرّف بحرية في ملكك، سبحانه يتصرف براحته فيك، يمكنه أن يميتك، ويمكنه أن يحييك مرَّة ثانية.

لاحظ الآية تريد وضعك في موقع ملكية وسلطة عالية لتفهم الموقع العالي لسلطته تعالى على مخلوقاته، والمملوك "العبد" يطيع أمر مولاه مثلما يطيع الجندي في الجيش ضابطه، لذلك تريدك الآية أن تشعر بأعلى سلطة وتصدير أوامر من مالك لمملوك، لتمثِّلها بك وبخالقك مالكك، فهل تتصوّر خالقك ضعيفًا عليك ولا يمكنه التصرّف فيك كما يشاء، ولن يستطيع خلقك مرَّة ثانية؟

كذلك، بهذا المثل عن سيطرة المولى على المملوك، {نُفَصِّلُ الْآيَاتِ}، والأمور المميَّزة من مستوى إلهي ليست مجملة مخلوطة مع شيء آخر يُشوِّش أفكاركم بل واضحة، {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة، {يَعْقِلُونَ}، يفهمون ويستوعبون الكلام.

بالنسبة للعبودية، على مرِّ التاريخ اختلفت نظرة الناس للعبودية، حيث كانت العبودية دارجة قديمًا في غالبية الأمم، ومنذ مدَّة قليلة في القرن العشرين صار دارجًا النفور من العبودية، ونسي الجميع ما كان دارجًا متعارفًا عليه أنه مقبول لدرجة جعلت المفسرين والفقهاء والمفكرين المسلمين، جعلتهم في عصرنا يشعرون بالحرج من الآيات التي تتحدّث عن العبيد، وتراهم مباشرة يغيّرون الموضوع ويشيرون لعدالة الإسلام، ومسحه للعبودية عبر تحرير العبيد وعتقهم ومكاتبتهم، وجعل تحريرهم فداءً كتكفيرٍ عن بعض السيئات...

كلامهم صحيح، ولكن الصحيح أيضًا أن العبودية كانت منتشرة، ولها تشريعات في القرآن، ولست بوارد نفي أفضلية كون جميع الناس أحرارا، فإن كان المزاج العام للناس الآن مضادا للعبودية، فأين المشكلة! في حين نزول هذا القرآن وإلى زمن غير بعيد لم يكن هذا المزاج العام، بل كانت العبودية واقعا منتشرا بين الناس، فإن وقع المسلمون تحت الأسر من أعدائهم كان مصيرهم العبودية، ولم يكن المسلمون وحدهم يستعبدون...

لننظر لأحكام العبيد في القرآن، لن تجد فيه حكمًا أو تشريعًا يأمر باستعباد أحد، وأقصى ما ستجده عن تقييد الحرية هو عن أسر الأعداء المحاربين فقط، وما فعله الرسول محمَّد(ع) من استعباد للأسرى "كما نقلوا في التاريخ" كان حكم الأمر الواقع بسبب اعتماد الطرف الآخر له، وبسبب الخيارات الأخرى الضيِّقة، إما قتل أسرى الأعداء أو تركهم

أحرارًا وفي ذلك خطر إعادة تشكيل قوّة معادية، أو سجنهم ليموتوا في السجن أو سجنهم لمدَّة طويلة جدًّا وهذا ليس حلًّا عمليًّا للسجين أو للساجن له، أو استعباد الأسرى.

قونن النبي محمَّد(ع) هذا الواقع بناء على مبادئ القرآن، بتحرير أسرى الأعداء من بعد أسرهم إن كانت الأمور تشير لاستبعاد الخطر منهم، أو استعبادهم وتفريقهم إن كان هناك خطر من تجمُّعهم من جديد كمعادين مقاتلين.

علمًا أننا لا نجد في التاريخ سوى "زعم بعضهم" استعباده(ع) لبعض أعدائه، بينما لا تجد ولا أي أثر في التاريخ بعد ذلك لأولئك الذين قيل عنهم مستعبَدين! لا تجد ولو اسمًا واحدًا لرجل أو امرأة من الأقوام الذين قيل عنهم أن الرسول(ع) استعبدهم ولا يزالون عبيدا، ويبدو واضحًا أن كلامهم عن استعباد الرسول(ع) لبعض أسرى أعدائه كان في حدّه الأقصى لمدَّة قصيرة جدًّا جدًّا لا تتعدّى الأيام، وبعدها إطلاق سراحهم، ولكن أصحاب العقلية الإجرامية تعاموا عن ذلك مبيحين استعباد الآخرين واغتصاب نسائهم...

أكرّر لك لتنتبه جيدا، على الرغم مما قاله البعض عن استعباد الرسول(ع) لأعدائه، ورغم التعارف على ذلك أنه من المسلمات التاريخية، بأدنى نظرة عقلانية لكل التاريخ ستجد أن هذا الزعم كاذب، والدليل عليه واضح لأنك لا تجد في الروايات ولا اسمًا واحدًا لعبد في المدينة من الذين أسرهم الرسول(ع)، ولا تجد ولا اسمًا واحدًا لأي طفل منهم صار بعد ذلك مسلما، علمًا أن كفّار العرب كلّهم أسلموا بعد مدَّة قليلة من الزمن، ولا تجد في التاريخ اسمًا ولو لابن واحد من أبناء الصحابة ولدته أَمَة مأسورة من الأعداء، نعم تجد في التاريخ زواجا من مملوكات وتجد أولادا منهم، وكمثال على ذلك إبراهيم ابن النبي محمد(ع) من ماريا القبطية التي أعتقها(ع) ثم تزوجها...

كل الكلام المنتشر عن حالات استعباد الرسول (ع) لأسرى الأعداء لمدَّة طويلة، وعن استعباد واغتصاب نساء الأعداء، هو كذب من أوهام المسلمين المجرمين، ومن أحلامهم بالبقاء على دين الجاهلية...

هذا ما تراه من تاريخ تطبيق الرسول محمَّد(ع) للقرآن، ولم يكن له (ع) عبيد سوى ما قالوه عن زيد بن حارثة الذي اشترته السيدة خديجة ولدًا صغيرًا ووهبته للرسول الذي ربَّاه كولدٍ له وليس كعبد، وبلال بن رباح الذي قالوا عنه في كتب التاريخ أن أبا بكر اشتراه لتحريره من ظلم أمية بن خلف ويقولون أنه وهبه للرسول(ع)، ومعلوم من التاريخ أن بلالا لم يعش بين المسلمين كعبد، ولم يعمل عند الرسول(ع) أصلًا لا في بيته للخدمة ولا كعبد في وظيفة ما...

وبالنسبة لنساء الرسول(ع) "ملك اليمين"، كلُّهن أعتقهن النبي(ع) وتزوجهن، ولم يقارب ولا واحدة منهن وهي مملوكة يمين "عبدة أو أمة".

وبحسب ما نقلوه في كتب التاريخ، تجد حالات تسريح الرسول محمَّد(ع) للأسرى أو فدائهم أكثر بكثير من حالات استعبادهم "التي زعموها ولا تجد لها بعد ذلك أثرا في التاريخ"، وأشهرها طلقاء مكّة من بعد الفتح، وبعدهم تسريح هوازن من بعد معركة حنين، وقبلها فداء أو تسريح حصل لمختلف جماعات يهود المدينة وخيبر... وهكذا ترى أنه تعالى ترك لنا هامشًا واسعًا في القرار المناسب لمختلف الظروف والأزمنة والمجتمعات... لاستعباد الأعداء أو سجنهم أو مفاداتهم أو قتلهم "إن ثبتت عليهم جرائم...".

أكرّر لك لتنتبه أشدّ الانتباه مما يقال عن إبادة الرسول(ع) لكل ذكور بعض أعدائه، ولما يقال عن سماحه(ع) لأصحابه باستعباد نساء الأعداء ومعاشرتهن غصبًا عنهن... فهذه أكاذيب ألَّفها مجرمون مشابهون في إجرامهم لبعض المعاصرين للرسول(ع)، أولئك بقوا على عقليتهم الإجرامية القديمة بلا ناموس ولا قرآن، واستمرّ الحال هذا من بعد الرسول عمليًّا وفتوائيًّا مخالفًا لكلام القرآن الصريح حتى صار من المتعارف عليه والمنتشر فتاوى تبيح اغتصاب العبدات "ملك اليمين"، ودرج ذلك بين المسلمين! وصار منتشرًا في ثقافتنا الحريم والجواري...

التصرفات المشهورة عن الرسول(ع) هي وحدها العاكسة لدينه تعالى، أمَّا تصرفات كل بقيَّة المسلمين وفتاويهم فهي عاكسة لدينهم هم، وهو (ع) لم يكن له عبيد يخدمونه، ولا قارب أنثى "أمة عبدة ملك يمين" قبلما يتزوجها، وما ينقله البعض من أخبار شاذّة عن ذلك، وما قاله البعض كفتوى تجعل اغتصاب المملوكة رغما عن إرادتها حلالا، ما هو إلا انعكاس لعقليتهم الذكورية الإجرامية.

ما قاله القرآن يساوي بين الزوجة وملك اليمين من ناحية حِلِّيَّة المقاربة كما ورد في الآية 6 من سورة المؤمنون والآية 30 من سورة المعارج "إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ"، ولمقاربة مملوكتك لا تحتاج لعقد قران عليها ويكفي موافقتها، وإن رفضت وطلبت الزواج من مالكها حتى تسمح له بمقاربتها، أو طلبت الزواج من أي أحد آخر حرا كان أم عبدا، فهي وشأنها، وهذا واضح من كل كلام القرآن الذي عليك بإعادة قراءته من دون أفكار "ذكورية إجرامية" مسبقة عن هذا الموضوع، وسترى بوضوح أن للعبدة "الأمة المملوكة" لها حرية اختيار من تقاربه ومن تتزوجه، وهذا واضح وصريح من الآية 25 من سورة النساء "وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ...".

نعيد القول أن القرآن لم يذكر من موضوع تشريع تقييد الحرية إلا الأسر للأعداء، ولم يذكر أي شيء عن الكيفية التي تبيح استعباد الآخرين، ومن ناحية ثانية كان الأمر الواقع المنتشر بين الناس استعبادهم للشعوب الضعيفة من أي دين أو عرق كان، هل تشريعات القرآن التي تضمّنت كلاما عن العبيد وملك اليمين قصدت واقع الحال هذا، أو قصدت فقط الهامش المسموح التحرّك به في حالة استعباد الأسرى من الأعداء المقاتلين من غير المسلمين؟

من عموم القرآن وبالخصوص من سورة الممتحنة وبالأخص من الآية 8 منها "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ"، تجد منعا قرآنيا بكل أشكاله من التعرّض بالأذى لأي إنسان كان مهما كان عرقه أو دينه إلا إذا كان معاديا محاربا، وأي آية يُفسّرها أحدهم ويقول بأنها تشرعن استعباد المسالمين من الكفّار أو من أهل الكتاب، فراجع دراستنا هذه لترى معناها، وسترى أن كلامهم غير صحيح. أمّا ما في الروايات عن هذا الموضوع ومخالف لصريح القرآن فمصيره الرمي والإهمال وتكذيب ناقليه عن الرسول(ع)...

ننتقل الآن إلى واقع الحال الذي كان عليه الناس في عصر النبي محمّد(ع)، حيث كانوا يشترون ويبيعون العبيد المسالمين المخطوفين من مختلف الجنسيات ومختلف الأديان، هل في عهده (ع) تعامل المسلمون بذلك أم انحصرت تعاملاتهم في العبيد من الأعداء؟

طبعا حين نقول "المسلمون" نقصد المؤمنين الحقيقيين منهم، اشتهر في عهده (ع) بعض المسلمين "المنافقين والفاسقين" الذين يجبرون عبداتهم على الزنا، ومنعهم النبي(ع) من ذلك بأمر إلهي كما ورد في الآية 33 من سورة النور "... وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا..."، ومن منطوق الآية بكلامها عن الإحصان تفهم أنه حتى مالكها لا يحقّ له مقاربتها إن لم تقبل، وبالتالي لا يحق له السماح للآخرين بمقاربتها غصبا عنها... ويحقّ لها اختيار زوجها مع موافقة أهلها ومن ضمنهم مالكها...

أكتفي بهذا المقدار الذي فيه الأساسيات القرآنية لترى نظرة قرآنية مختلفة عن العبيد مما هو دارج في مختلف الكتب المسمّاة اسلامية.

ما تجده في القرآن عن العبيد وما تجده في كتب التاريخ من تصرفات المؤمنين الحقيقيين مع العبيد والإماء، كتطبيق عملي للإيمان في التعامل مع الآخرين، ترى فيه فرقا عمّا تجده في الكثير من كتب الفقه عند كلّ المسلمين، التي بعضها كتبها فقهاء مجرمون، يحلّون استعباد أي إنسان ليس من طائفتهم أو مذهبهم! بل يهدرون دم وعرض الآخرين! حتى المسلمين المسالمين! واعتمدوا في ذلك على روايات كاذبة رواها مجرمون أمثالهم، واعتمدوا على سيرة مجرمين من المسلمين اتخذوا منهم منارة للدموية، ها القرآن أمامك، وها دراستنا له، فراجع أي آية قالوا أنها تدعم كلامهم لترى أنهم كاذبون ومجرمون.

بالنسبة لتعبير ملك اليمين، معنى كلمة ملك: هو عموم أي شيء يرجع إليك أمره فيتبع لك مع التحكّم به والسيطرة عليه. وكلمة يمين لعموم التعامل مع أي شيء براحة واقتدار وقوة وتحكّم. يصير تعبير ملك اليمين يعني: السيطرة مع اقتدار. وهو شخص تتصرّف به فتأمره بقوة اقتدارك عليه. وكلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

من هذا المعنى اللغوي الأساسي للكلمات ترى أن استعمال القرآن لها للتعبير عمّا يقصده بعيد كل البعد عن الممارسات السيئة للناس مع المملوكين ملك يمين والمستعبدين، قارن معنى كلمة "ملك يمين وعبد" مع خادم أو خادمة أو عامل أو عاملة مقابل المبيت والطعام، وسترى أن القرآن يقصد هذا المعنى حصريا، أمّا ممارسات "المسلمين" ورواياتهم وفتاويهم فهي تمثّلهم هم ولا تمثّل دينه تعالى المطروح في قرآنه.

(بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ{29})
كل الآيات التي لفتت السورة انتباهنا لها، كانت لقوم يتفكّرون ويسمعون ويعقلون، فلماذا لم يؤمن كلّ الناس مع أننا نراهم يعقلون ويسمعون ويفكّرون في مسائل أخرى؟ وبعضهم مهندسون وآخرون أطباء وتجّار ومهنيُّون...

{بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا}، الذين لم يكن معهم حقّ فلم يكونوا منصفين، وبدلا من الإيمان بالآيات كانوا على، {أَهْوَاءَهُم}، فمشوا على ما يميلون إليه، وسياق الكلام عمّا يحبون فعله حتى لو كان سيّئًا ومن دون التقيّد بالحقّ والباطل والصلاح والفساد، فاتبعوا أهواءهم، {بِغَيْرِ عِلْمٍ}، فعن غير دراسة أو دراية بالنتائج والآثار السيّئة لهواهم السيِّئ اتبعوه.

كما ترى، ليس كل الهوى سيّئًا، بل هي ككلمة تشمل السيِّئ والجيد، وحين ينهانا تعالى عن اتباع الهوى فهو يشير إلى الهوى السيِّئ. وهنا الكلام عن أمور نتعرّض لها، ونهوى فعل شيء منها، وعادة يفكّر الإنسان العاقل مرتين قبل فعل أي شيء ليدرسه إن كان خيرًا أو شرًّا، والكلام هنا عن أناس ليست عندهم هذه الضابطة في بعض ما يتعلّق بما يهوونه، وبعض ما يهوونه يفعلونه بغير علم، وهذا يشمل حالة أنهم لا يفكرون به ليروا إن كان حَسَنًا، فبغير علم بحسنه أو سوئه يفعلونه لمجرد أنهم يهوونه ويرغبون به، ويشمل زعمهم بغير علم أنه حسن، فيدّعون أنه حسن علما أنه لو فكّروا فيه بعقل لرأوه سيّئًا.

{فَمَن يَهْدِي}، مَن يضع على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة، {مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ}؟ مَن وضعه تعالى على الأشياء الخطأ التي توصل للغاية الخطأ فمن سيضعه من جديد على الشيء الصحيح؟ وسبحانه جعل فينا القدرة على اختيار اتباع الهوى والضلال، ولم يعطنا القدرة على إجبار مخلوق آخر بالقوّة ليتغيّر ويقتنع بالمشي على الهدى، فأنت تستطيع إجبار شخصٍ ما على التصرف كما تريد، ولكنك لن تستطيع إجباره على الاقتناع والاعتقاد بما تريد، فإذا لم يجبر سبحانه المتبعين لهواهم أن يهتدوا غصبًا عنهم بالتلاعب بعقولهم أو بطريقة إجبارية أخرى تلغي حرية إرادتهم، فمن سيهديهم؟

لاحظ، الله سبحانه يعرض عليهم الهداية عبر تفصيل آياته لهم، وجعل فيهم القدرة على الاقتناع بالحق والمشي على الهدى، أو التكذيب بالحق والمشي على الضلال، وهم اختاروا اتباع أهوائهم السيئة ونكران الآخرة وبالتالي لا يخافون من عقابه تعالى عندما يفعلون السوء، ويمكنه وحده سبحانه إجبارهم بالقوة أن يهتدوا عبر التلاعب بتكوين عقولهم أو عبر إلغاء حرية الإرادة، أو تعطيل الشهوة والرغبة أو... ولكنه سبحانه قرّر تركهم على ضلالهم الذي اختاروه هم بإرادتهم، فأي مخلوق يمكنه تغيير قناعتهم إن هم لم يريدوا تغييرها؟

بعبارة أبسط، هم لن يهتدوا أبدًا إن بقوا على اتباع هواهم وتكذيب الآيات لأنَّه تعالى لن يهديهم بالقوّة وغصبًا عنهم.

{وَمَا لَهُم}، وليس للتابعين لأهوائهم، {مِّن نَّاصِرِينَ}، فلن يجدوا من يحقّق لهم ما يريدونه، فمن سينصرهم عندما يعاقبهم سبحانه؟ ومن سيساعدهم وينقذهم من عذابه؟ لا أحد.

الآية هنا مثلها مثل العديد من الآيات القرآنية التي تشرح سبب رفض بعض الناس الإيمان بالدين الإلهي، وتعرضه من عنوان القدرة التي فينا على العلم، على تمييز الخير من الشرّ والحسن من السوء، فلم تقل أنهم خالفوا كلامه تعالى، بل استبدلته بوصف فعل ما يهوونه من سوء، وهذا عمق واضح ظاهر من عموم كلامه تعالى ولا يظهر في الكثير من التفاسير التي تستبدل هذا النوع من الكلام بتفسيره بمخالفة كلامه تعالى، علمًا أن هذا صحيح، ولكن الفرق هائل بين التعبيرين، لأنه تعالى في قرآنه ركّز على تعامله معنا ومحاسبته ومجازاته لنا بما نعلمه ونميّزه نحن من حقّ وباطل وخير وشرّ.

ليست المشكلة أن الآيات الإلهية غير كافية لإقناعهم، بل المشكلة أن الاقتناع بالآيات والاقتناع بالآخرة معناه أن يلتزموا بفعل الخير والابتعاد عن السوء، وهو عمليًّا نفسه الإيمان والالتزام بما يقوله تعالى، وهنا المشكلة، لأنهم يريدون فعل ما يريدونه، ويريدون اتباع هواهم، ويريدون تعاطي المخدرات والمسكرات أو لعب القمار أو الزنا أو الاعتداء واستضعاف الآخرين أو الغشّ والسرقة والغيبة والنميمة... ولا يريدون الصلاة والصوم والزكاة والصدقة والأمانة والصدق... فاتباع الهوى السيّئ هو العقلية التي تسبّب لهم إنكار الآيات، ومن يفكّر ويعقل فعلًا، فلن يتبع هواه السيِّئ وسيؤمن بالآيات وسيؤمن بالآخرة...

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ{ 30})

أيها الرسول(ع) انسَ وارمِ فكرة أن يؤمنوا بطرق أخرى غير عرض الآيات عليهم، فلن يهديهم سبحانه غصباً عنهم، وبالنسبة لك كنموذج عن بقية الراغبين بترك الهوى السيئ:

{فَأَقِمْ}، فعّل وانصب، {وَجْهَكَ}، ما تتوجّه به لتقابل أو تركّز على شيء ما، {لِلدِّينِ حَنِيفاً}، حيث أنت تعلم وتشعر بأنك مدين فعليك تبعات للذي خلقك، فليكن إقامة وجهك للدين، {حَنِيفاً}، مائلاً عن شيء، والكلام هنا عن الميل والحياد عن كل شيء سيئ، وعملياً وفي الواقع هذا يعني أن تفعّل توجّهك النابع من شعورك وعلمك بالتبعات التي عليك كونك مخلوقاً، فعّل ذلك حنيفاً، مائلاً عن كل شيء غير صحيح، وهذا يعني أن تتوجّه فقط وفقط نحوه تعالى.

إقامة الوجه للدين الحنيف هي، {فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا}، حين فطرنا وخلقنا سبحانه وصار لنا كيان، جعل الدين له تعالى كشيء ناتج عن هذه الخلقة، وهي من ضمن كياننا، من تركيبتنا، بتعبير أبسط: هكذا خلقنا سبحانه مع خاصية الشعور والاعتقاد بأننا علينا تبعات لمن خلقنا، فيا أيها الإنسان أقم فعّل ونشّط هذا بالشكل الصحيح، وعملياً يعني أن توحده وتطيعه تعالى علماً أن الكلام عمومي ويشير لتفعيل حالة حبّ الخير وترك السوء لأن هذه متضمنة في خلقتك.

{لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}، لن يستطيع أي أحد مسح ما انفطرنا عليه، سبحانه ركّبنا وألّفنا هكذا وسينتج عن ذلك هذه الخاصية التي نترجمها بالكلمات إلى: شعور واعتقاد بتبعات علينا لمن خلقنا، وبشكل أعمّ هو ما فينا من رغبة وحبّ للخير ونفور وكره للشرّ.

{ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}، الذي يوصف بأنه على الأحسن، ووصف الدين الحنيف الذي يصير بتعابير أبسط اعتقادنا بالحقّ وفعلنا للخير وتركنا للسوء، وصفه بالقيّم الأحسن... يشير لثبوت حسن وسوء الأمور مطلقاً، وهي ليست نسبية تصير سيئة إذا نظرت لها من زاوية ما، وهي نفسها تصير حسنة إذا نظرت لها من زاوية أخرى، لا، هناك دين قيّم، وهناك اعتقاد وشعور بتبعات ناتجة عن خلقتنا وتترجم كاعتقاد وشعور جيّد حسن، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}، وكمثال عن ذلك الذين لا يرون ثبات وصف الخير والشرّ للأمور، فهم مزاجيون وما يهوونه يفعلونه بغير علم، لا يهمّهم التفكير في حسنه أو سوئه ولا خيره أو شرّه.

نفهم مما بين كلمتي "{أَقِمْ}" و"{فِطْرَتَ}" أننا يمكن إقامة الدين الحقّ "الاعتقاد بالحقّ وترك السوء" ولا نعطّله باتّباعنا للهوى السيئ، وذلك عبر اتباع ما فينا من قدرة على تمييز الحقّ من الباطل، وهذا ما انفطرنا عليه، ويعاكسه تعطيلنا لذلك باختيارنا لفعل السوء، وبالتالي يتبعه تعطيل إقامتنا للدين حنيفاً.

بعبارة أخرى، سبحانه فطرنا وجعل لنا كياناً يوجد فيه ما يدفعنا ليكون ديننا حنيفاً، ويحتاج ذلك فقط للتفعيل، ولن تتبدّل هذه الفطرة "هذه الخلقة"، لأن هذا الشيء الأساسي الذي جعله تعالى في تركيبتنا لن يتغير، ولكن كيف تفهم هذا الكلام بوجود من يعبد غيره تعالى؟ ومن لا يعترف أصلاً بإله؟ ومن يفعل السوء... الجواب ذكرته الآيات السابقة، بسبب التمرّس على اتباع الهوى من غريزة وشهوة ونزعات نفسية سيئة... ومن هذا التعطيل لخاصية حبّ الخير وكره السوء، يصير القلب "الفكر والنفسية" مريضاً فاسداً، ومن التكرار للسوء تتشكّل على القلب طبقات من الأغشية كحاجب يمنع من تمييز الخير من الشرّ ويحبّب السوء... ويفقد السمع والبصر والفؤاد قيمتهم الإنسانية ويصير الإنسان كالبهيمة... وهناك لا تسأل إنساناً بهذه الصفات عن ترجمته الصحيحة للفطرة التي انفطر عليها، إذ تعطّلت، فسيكفر

ويشرك ويجرم... وعلى هذا المعنى جاء كلام سورة التين ومنه الآية الرابعة والخامسة {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}، {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}، فمن حافظ على ما فطرنا تعالى عليه فسيكون مؤمناً بالحقّ وعاملاً للصالحات، ومن لم يحافظ عليها فسينزل لأسفل سافلين.

لاحظ وانتبه جيداً للفرق بين المعنى الذي توارثناه من ثقافتنا الدينية عن الفطرة، وبين معناها الأساسي الذي استعمله القرآن، فالفطرة تعبير عن عموم صيران كيان للشيء، وهذا بغض النظر عن المادة الأساسية التي استعملها تعالى لخلقنا إن كانت موجودة من قبل أم لا، فعلى كلا الحالتين سواء بدأ تعالى خلقي من لا شيء حين ضمّمني مع خلق السماوات والأرض، أو خلقني من أهلي... فالوصف بالفطرة عن صيران كيان لي ومن قبل لم يكن لي أي كيان، فهذا اسمه: فطرني. وبالتالي أي صفة أو خاصية في المخلوق، فهي من فطرته، من خلقته، من تركيبته. ولنقل إنك صببت من التراب الأحمر تمثالاً لطائر، وحين صببته تضمّن اللون الأحمر في تركيبته، فاللون الأحمر من فطرتك له من التراب الأحمر. وليس هناك شيء فيك اسمه فطرة، لأن هذا اصطلاح اخترعه الناس، بل ما فيك صار فيك بسبب خلقتك من هذه المادة بهذا الشكل. وما يصطلحون عليه كمعنى للفطرة فهو اشتقاق تطبيقي من المعنى الأصلي، ومن تبعات تصميمك وخلقك من هذه المادة، سيكون متضمناً فيك بعض الصفات الإجبارية، وبسبب خلقتك بفكر ووعي وملاحظة... وبأحاسيس ورغبات... ستصل إلى الاعتقاد والشعور بتبعات عليك لمن خلقك.

نتذكّر دائماً أن العرب حين نزول القرآن لم يستعملوا كلمة "قيّم قيمة..." بالمعنى الصريح الذي نقصده الآن عن تقدير عالٍ أو منخفض للشيء: قيمتي عالية، شيء له قيمة... بل على معنى الذي يوصف بأنه على أحسن، وهكذا استعملها القرآن، ومن مشتقات هذا المعنى أنه لا انحراف فيه، أنه جيّد، وبتعبيرنا الحالي: له قيمة عالية.

كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، فهي ليست اصطلاحاً مخصصاً كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، إذ إنها عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئاً ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني فأنا مدين له، لأن خلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعاً بسبب وساعة تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... وكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة فهناك ندان بأعمالنا، فما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هو التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضاً يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسباً بحكمته فيديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ{31})
أقم الدين حنيفاً فهكذا فطرك سبحانه، أنت والآخرين:

{مُنِيبِينَ إِلَيْهِ}، ليس لكم قراراتٌ وأفكارٌ خاصةٌ منفصلةٌ عن أوامره تعالى بل أنتم راجعون في أموركم فقط إلى ربّكم سبحانه لا إلى هواكم السيئ، {وَاتَّقُوهُ}، تجنبوا غضبه وعقابه عبر طاعته، {وَأَقِيمُوا}، فعّلوا لا تهملوا ولا تتركوا، {الصَّلَاةَ}، التوجّه والإقبال، والمقصود هو التوجّه إليه تعالى بالحركات والكلام الذي يعبّر عن العبادة، وهي الصلوات اليومية الخمس، {وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، لا تفكّروا ولا تتصرّفوا على أساس أنه يوجد شريك له تعالى في الألوهية.

بشكل واضح من سياق الكلام نفهم أن الشرك بكل أشكاله وأنواعه نابع عن الهوى السيئ ومن تعطيل خاصية إقامة الدين حنيفاً والتي تدفعنا إليه فطرتنا، لأن الهوى السيئ يأمر بالشرك، ويدفعنا للتعلّق بمتاع الدنيا... ومن تبع هواه جعل

الهوى إلهه، وتجد ذلك صريحاً في معنى الآية 43 من سورة الفرقان {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا}، إذ اختراع آلهة ناتج عن اتباع الهوى السيئ... لا تكن مثله، أَنِبْ وارجع إليه تعالى فيما يقول وعلى أساسه تصرّف، وها هو ينبّهك سبحانه أن تتقيه لتتجنّب غضبه وعقابه، وأساس الدين له تعالى هو الصلاة له لا تستهن بها أو تعطّلها.

بعض الناس يقولون إنهم مقتنعون بكثير من الأمور التي يطرحها الدين الإلهي، ولكنهم يعتبرون الصلاة غير مهمة، ويقولون: المهمّ الأخلاق. ويقولون: الدين معاملة وليس بالصوم والصلاة... هؤلاء لينتبهوا لما يقوله ربّهم سبحانه حين يؤكّد على إقامة الصلاة، لأن الأخلاق مهمة، والصلاة والصوم لا قيمة لهما مع معاملة الناس بشكل سيئ، ولكن إقامة الصلاة واجبة، والأخلاق الحسنة من معاملة الناس بشكل جيد أيضاً واجبة، وهذا هو الدين الحنيف القيّم.

حتى نحن المؤمنين لا ننتبه لقيمة الصلاة ونعتبرها فرضاً واجباً مزعجاً الالتزام به في بعض الأحيان، كصلاة الصبح في الأيام الباردة... ولكنه تعالى فرضها علينا لمصلحتنا لأنه سبحانه أدرى بنا ويعلم بحاجتنا لتذكّره عدة مرات في اليوم، لينتج عن الصلاة انتهاؤنا عن الفحشاء والمنكر، ويبدو من عموم كلام القرآن عن الصلاة وبالخصوص من الآية 114 من سورة هود {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}...، تبدو حاجتنا الشديدة نحن لشيء يساعدنا على محو السيئات عنّا، والصلاة حسنة تمحو السيئات...

(مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ{32})
...لا تكونوا من المشركين:

{مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ}، صاروا فِرقاً مختلفين عن بعضهم في التبعات التي عليهم، وصاروا مجموعات تنتمي لعنوان أساسي "وهو الشرك" ولكن بينهم اختلاف في التفاصيل، {وَكَانُوا شِيَعاً}، فِرقاً كلها مضادة لبعضها البعض، وتكملة الجملة ستوضّح ذلك: {كُلُّ حِزْبٍ}، كل جماعة أناس لها عقلية وهوى وهدف مشترك مع إمكانية انضمام الآخرين إليهم، {بِمَا لَدَيْهِمْ}، بالذي يتشاركون به فيما بينهم، {فَرِحُونَ}، يشعرون بحالة نفسية جيدة، ويجدون فيه سعادتهم، يعني كما نقول: كل جماعة مبسوطون بدينهم ولا يريدون غيره.

المشركون ليسوا على دين واحد، ومن البديهي أن تسألهم: هل دينكم أفضل لأكون معكم، أم دين هؤلاء أفضل لأكون معهم، أم دين أولئك أفضل... ومن الواضح أن كل فريق منهم يعتبر نفسه شيعة مخالفة للآخرين، ويرى نفسه حزباً لجماعة من الناس اشتركت على عقلية أو هدف واحد، هل تعدّد الأديان صحيح؟ من الواضح أنه على الأقل يوجد دين صحيح والبقية خطأ، أيهم الصحيح؟ تقول الآية إنهم كلّهم خطأ، والدين الصحيح هو الدين الإلهي، هو توحيده تعالى والإيمان بالآخرة وبالتالي أخذها بعين الاعتبار لنتقيه تعالى كي لا يجازينا بالعقاب... وهذا هو الدين الوحيد الحنيف الممتد من أول ما كلّف سبحانه آدم(ع) إلى آخر الدنيا.

بقي شيء من مفاهيم القرآن ومن مفاهيم الآية هنا، اختلاف الأديان، أو الاختلاف تحت اسم الدين الواحد ليكون تحته فِرقاً وشِيَعاً وأحزاباً، هو مناف للعقلانية، والمصيبة تشايع وتحازب المنتمين لدينه تعالى، وأكبر منها طامّةً ومصيبةً اختلاف المنتمين لهذا القرآن في دينهم فِرقاً وشِيَعاً من طوائف ومذاهب وأحزاب... {كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ} بدون استثناء، أين دينه سبحانه؟

بعبارة أخرى، إن كانت الآية ترينا سخافة الاعتقاد بدين من أديان المتخالفين مع بعضهم، لأن الدين بما فيه من عقيدة تعكس الحق والواقع عن الإله وصفاته وقراراته... وبما فيه من شريعة سيتم تطبيقها على الجميع... فمن المفروض أن يكون الدين القائم على تمييز الخير من الشرّ بالعقلانية واحداً للجميع، وبما أن أديان المشركين مختلفة، فهذا يدل على أن أديانهم من اختراعهم وليس لها قيمة وليست مبنية على العقلانية، على ما فطرنا عليه تعالى من سلامة القلب، ويعرض علينا سبحانه عبر رسله وكتبه الدين الصحيح لتقويم انحرافاتنا، وهذا الدين ممتد من أول البشرية المتكلّفة إلى آخرها بعقيدة وشريعة حقةٍ صحيحة. وبناء عليه ما معنى تفرّقنا نحن في دينه تعالى شِيَعاً {كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}؟ لو أراد أحدٌ ما الانضمام للإسلام وسألك عن الاختلافات بين مذاهبكم وطوائفكم، وأي واحدة منها سيختار، فماذا ستقول له؟ أين دينه سبحانه؟

لا تقل إن الجواب بسيط لأن مذهبك هو الحقّ، لأنك بهذا الكلام أنت ترسّخ المذهبية، والآخرون أيضاً يقولون إنهم على الحقّ، وسيجمد كل منكم على موقفه، وستبقون مذاهبَ وطوائفَ متخالفة متناحرة. بل اترك المذهبية والطائفية بمعناها السيئ وانبذها وحاربها، وارفض التسمية بغير اسم الإسلام، وخذ ما تراه حسناً من الجميع، واترك ما تراه سيئاً حتى لو كان من صميم مذهبك... وهذه ليست دعوة للمزاجية، وليست دعوة لاتباع الهوى بأخذ الفاسد الذي نهواه من مختلف المذاهب، لا، بل دعوة لما تقوله الآيات هنا عن إقامة الدين حنيفاً.

في ذيل دراسة الآية 30 السابقة توسعنا في معنى كلمة "دين" راجعها.

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ{33})
{وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ}، أحسّوا بتغيّر حالهم وأحوالهم للأسوأ، مسّهم الخوف من الموت أو الحرب المدمّرة أو العواصف القوية... {دَعَوْا رَبَّهُمْ}، أشهروا وأعلنوا للمسؤول عنهم من مستوى إلهي، {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ}، كما نقول: ذهاب وإياب، فهم يدعون ويعلنون مُنِيبِينَ أي راجعين فقط إليه ومتخلّين عمّا سواه سبحانه، على أساس أنه وحده الإله القادر على مساعدتهم للخلاص من الضرّ.

{ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً}، إذا جعلهم سبحانه يتحسسون عنايته بهم لما فيه مصلحتهم، وأمّن لهم ما يحتاجونه وأزاح الضرّ عنهم، {إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ}، مجموعة من الذين تعرّضوا للضرّ ودعوا وحصل لهم الخلاص من الضرّ وإذا بهم، {بِرَبِّهِمْ}، بالمسؤول عنهم من مستوى إلهي، {يُشْرِكُونَ}، ويجعلون له شركاء! ويقولون إنّ الظروف أنقذتهم، الدواء أنقذهم، قدرتهم العسكرية أنقذتهم، مقاومة جسدهم للمرض أنقذتهم... ويتعلقون بالسبب الظاهري وينفون تدخّل وسيطرة الإله سبحانه، وفي مقابلهم فريق آخر إذا حصلت معه هذه الحادثة شكره تعالى.

ننتبه لتكرار القرآن دائماً لهذه المعاني، حيث أشار دائماً إلى تعلّق الناس به تعالى عندما يفقدون الأمل من أي حلّ، ويتعلقون بالقدرة الإلهية القاهرة الفائقة القادرة على حلّ أي مشكلة، وإن قال شخص ما إنه لا يشعر بالاعتماد على الإله عند الشدائد، أو أنه انتبه لهذا الشعور الخادع الذي لا معنى له مثل المشاعر والأفكار غير الواعية والمتراكمة من بيئتنا وأسلافنا... فهذا الشخص كاذب كاذب، لأن هذا الشعور ملتصق بنا لأنه سبحانه جعله فينا كناتج عن رؤيتنا لما خلقه تعالى والدافع للتعرّف عليه تعالى وعلى قدراته العظيمة، ومن ضمن الصفات الناتجة عن تصميمه تعالى أن نشعر بالتعلّق به سبحانه عند الشدائد، علماً أنّ القرآن لم يقل إنّ كلّ شخص سيشعر بهذا التعلّق بالإله سبحانه، لأنه استعمل التعبير بالناس أو الإنسان الذي يعني: الغالب الأعم بشكل ساحق من الناس، بسبب صفة وخاصية في أصل تركيبتهم، وسيشعرون بهذا التعلّق به تعالى.

بعبارة أصرح، حتى نتعرّف عليه تعالى جعل فينا قابلية الفكر لرؤيته من خلال أفعاله فيما خلقه، وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق به سبحانه عند الوقوع في الأزمات والمصائب لأننا نريد قدرة عظيمة لتتدخّل وتساعدنا، وسوء تفعيل ذلك بقلب فاسد أدّى إلى اختراع الناس لآلهة من خيالهم، واخترعوا إلهاً للنار وللبراكين وللعواصف وللبحار وللحروب... والذين قلبهم سليم بفكرهم فهموا آياته تعالى، وآمنوا به وبقدراته وبصفاته الحسنى المنعكسة فيما خلقه سبحانه... وصارت لديهم مشاعر التعلّق به تعالى دائماً بشكل سليم في الأزمات وفي وقت الهناء أيضاً.

كمثال عن الفريق المشرك نموذج فرعون الذي أعلن نفسه إلهاً كما تقرأ في الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}...، وحين فقد الحلول للنجاة من الموت غرقاً، أعلن إيمانه به تعالى طالباً النجدة، وهذا ما تجده في الآية 90 من سورة يونس {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ}، وفرضاً لو نجا فحتماً لعاد لما كان عليه.

بالنسبة للدعاء له تعالى ليكشف الضرّ، خذ مثلاً بسيطاً من حالة الحصول على الرزق، إذ سبحانه خلقنا مع قدرة تحصيل الرزق، وأتاح سبحانه لنا الرزق في بيئتنا، وبجهدنا وفكرنا وحنكتنا الممنوحة منه تعالى استطاع البعض تجميع الرزق أكثر من الآخرين، والكفر به تعالى أن لا تراه متفضّلاً عليك بالقدرات التي جعلتك قادراً على تجميع الرزق،

وأن لا تراه متفضّلاً عليك بإتاحة الرزق في بيئتك، إذ تكفر حين تعتقد بأنك بدونه تعالى حصلت على الرزق وكأنك تملك قدرات إلهية ذاتية غير ممنوحة منه تعالى.

نفس الكلام عن الاعتقاد بالشفاء من الدواء أو مقاومة الجسم... متجاهلين فضله تعالى بتصميمنا بجسد يمكن تصليح بعض أعطاله، وبفكر وحواس... يمكن منها اختراع دواء للشفاء.

نفس الكلام عن النجاة من الغرق ومن الحروب والكوارث الطبيعية... حيث أتاح سبحانه لنا قدرات تسمح لنا بالنجاة باستخدامها... وبتدخّل مباشر منه تعالى لتغيير جذري في الظروف، كفلق البحر لتخليص بني إسرائيل من فرعون، أو بتدخّل جزئي كوصول قافلة لالتقاط الولد يوسف(ع) من الجبّ... أو بتقدير يزيح الكوارث أو يخفّف من آثارها... أو بعلمه تعالى وتقديره بطريقة لا نفهمها... تحصل نجاة من ضرر لبعض الناس. وإنكار ذلك هو الكفر، وليس الكفر الاعتقاد بأننا بما مَنَحَنا تعالى من قدرات استخدمناها للنجاة من الضرر.

(لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ{34})
{لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ}، لينكروا الرحمة التي أتتهم منه تعالى لتزيح الضرر عنهم، {فَتَمَتَّعُوا}، انتفعوا واستفيدوا مما هو متاح لكم أيها الكافرون برحمته تعالى، {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}، وتلاحظ أن الجملة توقّفت لأن تكملتها واضحة: أنتم الآن لا تعلمون العقاب الذي ينتظركم على كفركم برحمته، ولكن لاحقاً ستعلمون ماذا سيحصل معكم، وهذا تقرأه بشكل أوضح في سورة التكاثر {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ}.

(أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ{35})
{أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً}، أنزلنا عليهم شيئاً قوياً من عندنا يغلبون به... فهو، هذا السلطان، يتكلّم بما كانوا به يشركون؟

من يشرك به تعالى يجب أن يحصل على سلطان، على شيء يغلب على شيء قوي يعتمد عليه حتى يقول إنّه تعالى ليست قدرته مطلقة وليس مسيطراً على كل شيء، وحتى يقول إنّ آلهة أخرى أو قوى أخرى أو ظروف تتحكّم بالأمور... فعلى ماذا اعتمد حتى أشرك؟ بأي سلطان؟

بالنسبة لله فهو سبحانه لا يرى أي إله آخر، ولا يرى أي قدرة فوق قدرته، وبكل شفافية يخبرنا بذلك، ولذلك يسألهم: هل أنا الإله الأحد قلت لكم أن تشركوا؟ وفقط ما يصدر عني سيكون سلطاناً فسيكون قوياً بما يكفي لتعتمدوا عليه في عقيدتكم، فهل نزل منّي أي شيء عليكم يتكلّم عمّا تشركون به ويقول إنّ شرككم صحيح؟

ما نزل منه تعالى تعرفه، إذ قال سبحانه إنّه الإله الواحد الأحد ولا إله غيره، وبهذه العبارة الصريحة مراراً وتكراراً وبصيغ متنوّعة، ولن يأتيهم أي شيء من تلك الآلهة المصطنعة التي يعبدونها، لأنه لو وصلهم منها أي شيء لكان دليلاً بين أيديهم على ألوهيتها، وبالتالي دليلاً على صحّة عقيدتهم التي جعلت له تعالى شركاء في الألوهية، وهذا لن يحصل لأنها ليست آلهة، ومنه تعالى لم ينزل أي خبر عن وجود إله أو آلهة غيره، فبأي سلطان وبأي شيء قوي اعتمدوا عليه ليقولوا عمّا يعبدونه إنها آلهة!

لو كرّرت لك، كلام الآية ليس على طريقة العنف بفرض الرأي علينا، ليست على طريقة: هكذا قال الله وهو الصحيح ونقطة انتهى. هذا شيء يقوله تعالى عن قراراته ويريك البراهين "الآيات" على صحّتها وأنها حق وحكيمة أيضاً، ولكن في المواضيع الخبرية عن واقع الحال، سبحانه يتحدّث مع مخلوقاته بشفافية لدرجة تشعر منها أنه تعالى يسألك رأيك بالموضوع وأن تعطيه دليلاً على صحة كلامك ليعطيك الحقّ، ومعلوم أنه تعالى عالم الغيب وعالم بكل شيء ويعلم ما في الصدور... ولا يغيب عنه شيء ولا تأخذه سنة ولا نوم... ورغم ذلك سبحانه يتعاطى مع مخلوقاته بحسب ما منحهم من قدرات وإمكانيات، فأنا أفكّر وأحلّل ولدي رأي في مسألة ما... لذلك سبحانه يحدّثنا بناء على توقّع ردّ منّا، والمعيار المقبول هو الحقّ فقط، ولتفهم ما أقصده بشكل سهل خذ مثلاً سؤاله تعالى لإبليس لماذا لم يطعه تعالى ويسجد لآدم(ع) كما تقرأ في الآية 75 من سورة ص {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ}، سبحانه يعلم أن إبليس استكبر واستعلى ولذلك نبّهه بالسؤال حتى يتراجع ويسجد... وخذ مثلاً آخر له علاقة بما تقرؤه هنا والذي ورد في الآية 33 من سورة الرعد {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ}...، فكلام الآية هنا بحصرية السلطان الذي يبرهن على صحّة عقيدة المشركين المبنية على وجود آلهة غيره تعالى، وأنه لن

يكون سلطانٌ إلا إذا نزل هذا الكلام منه تعالى معلناً فيه وجود آلهة غيره، هو كلام عن واقع الحال، سبحانه إله، ومن المستحيل أن يتواجد إله سيعلم به المخلوقات ولن يعلم به الله سبحانه، وها هو سبحانه يخبرنا أنه وحده الإله، فبأي سلطان، ومن أي مصدر سيؤكّد المشركون وجود شركاء له تعالى في الألوهية.

(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ{36})
{وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً}، إذا جعلناهم يلمسون ويتحسسون عنايتنا بتأمين ما فيه مصلحتهم وما يحتاجونه، فانتصروا أو شُفوا من المرض أو توفّقوا في أشغالهم... {فَرِحُوا بِهَا}، شعروا بحالة نفسية جيّدة.

{وَإِنْ تُصِبْهُمْ}، إن تحصل مع الناس، {سَيِّئَةٌ}، شيء يسوؤهم حصوله، إذ مرضوا أو وقعوا في ورطة مالية أو عاطفية... {بِمَا}، بسبب الذي، {قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ}، بما فعلوه بأنفسهم وبإرادتهم، بما فعلوه من أعمال سيئة، إذ اعتدى جماعة على جماعة أخرى، أو ورّط شخص نفسه بعمل سيئ، أو... كما نقول قدّمت لي الطعام، فهؤلاء قدّموا لأنفسهم الأعمال السيئة وأخّروا الأعمال الحسنة فلم يقوموا بها، {إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ}، يفقدون الأمل نهائياً لأنهم يشعرون بأن السوء طال استمراره عليهم ولم ينته.

سياق الكلام في الفقرة يقصد عموم الناس باستثناء المؤمنين، وهذا بديهي، وليس بحاجة لذكره، وهذا الأسلوب القرآني تعرف ضرورته من ملاحظة طريقتي في هذه الدراسة التي حتماً ستقول عنها إنها فيها تكرار، وفيها تبسيط زائد عن الحاجة، وفيها إطناب... وتشعرك بالملل من توضيح ما هو واضح... ولذلك صاغ سبحانه القرآن بأدق وأبسط صياغة على فهمنا، والتي تتحمّلها اللغة العربية ملتزماً سبحانه بالدقّة باستعمال الكلمات والتراكيب المناسبة لأن قدراته الفائقة سبحانه سينتج عنها ذلك، وإلا لو كانت صياغته مثل صياغة كلامي سهلة لدرجة الركاكة، أو يتراخى سبحانه في طرح المعاني ليستعمل عبارات أسلس... فكيف ستقنع العاقلين بأنه كتاب إلهي؟

السوء هو الأمور السيئة العادية التي نقع فيها عادة في حياتنا، كحالة من ليس لديه ما يكفي من المال لتأمين حاجياته بسبب الظروف السيئة... أو لدينا القدرة على تحقيق رغباتنا ولكننا تحت حكم ظالم يمنعنا من ذلك، أو خاملون عن العمل... فتبدأ التصورات عن حياة الرفاهية تؤذينا، وتمرّ الأيام ونقنط من رحمته تعالى فنقطع الأمل من تغيّر الحال، لأن أحلامنا وأمانينا لم تتحقّق... ويمكنه تعالى بسهولة تحقيقها ولكنه تخلّى عنّا... وهذا هو القنوط الذي تشير إليه الآية، وبهذا المعنى استعملها القرآن، وبعكسه تماماً الإنابة له تعالى في كل شيء وفي كل حال، على اعتبار أنّ كل ما يجري هو بعينه تعالى أي تحت مراقبته وبحكمته يتعامل مع الأمور...

الآية هنا مشابهة جداً لما ورد في الآية 9 من سورة هود {وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ}، وبمراجعة استعمال القرآن لكلمات القنوط، واليأس، والضرّ والسوء... ستلاحظ أن الآية تقصد المعنى الذي ذكرناه.

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{37})
القانطون من رحمته تعالى بسبب سوء حصل معهم:

{أَوَلَمْ يَرَوْا}، ألم تحصل لديهم صورة محدّدة كما نقول بالعامية: ما شافوا، ما التفتوا. {أَنَّ اللَّهَ}، أن صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {يَبْسُطُ}، بعكس يطوي فيمدّ ويتيح بوفرة، {الرِّزْقَ}، وهو عامة النصيب من النعمة التي لها ارتباط بحاجات الإنسان للحياة أو لإشباع رغباته، كالطعام والمال الذي يؤمن الحاجيات... {لِمَنْ يَشَاءُ}، إذ أمامه تعالى خيارات عديدة ولا أحد يفرض عليه أن يمدّ الرزق لهذا أو ذاك، {وَيَقْدِرُ}، ولمن يشاء يجعل سبحانه الرزق بقدر، أي بكميّة محدّدة، والكلام هنا عن مقدار قليل في مقابل البسط، عن كمية قليلة من الرزق، أيضاً قرار تقليل الرزق بيده تعالى.

أولئك الفرحون بالمال أو الصحّة أو النجاح أو... وأولئك القانطون من نزول الرحمة، ألم ينتبهوا أنه تعالى هو المسيطر لدرجة أنه هو تعالى يجعل بعضنا أغنياء وبعضنا فقراء؟

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، في سيطرته تعالى علينا بكمية الرزق الذي نحصل عليه، {لَآيَاتٍ}، فهو أمور مميزة، {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة مفعّلة فيهم حالات الغنى والفقر، {يُؤْمِنُونَ}، هم في حالة الاعتقاد به تعالى، والمؤمن يرى الخير الذي معه كرحمة من الرزّاق، ولا ييأس ولا يقنط من رحمته تعالى عندما يصيبه السوء، وأمّا غير المؤمن فلن يقتنع بهذا الكلام، لأنه أصلاً غير مؤمن بصفاته الحسنى تعالى وبسيطرته، ويقول بأنه سيؤمن فقط إذا أمّن له الله تعالى ما يفرحه وأبعد عنه السوء.

السورة هنا عرّجت على موضوع الفقر والغنى كسبب من أسباب قنوط بعض الناس من رحمته تعالى وبالتالي كفرهم به سبحانه إذا تعرّضوا لظروف سيئة، لأنهم يريدون تدخّله فوراً وحالاً ليؤمنوا به... وإلا سيكفرون به تعالى ويصلون من الكفر به تعالى إلى إنكارهم للآخرة وتفلّتهم من دينه تعالى...

أمّا لماذا شاء تعالى بسط الرزق لهذا وقدره عن ذاك، فكل شيء يحدث تراه سبحانه ينسبه لنفسه، من تشكّل السماوات والأرض... ونشأة المخلوقات... ونزول الماء وجريان الرياح... وحصولنا على الرزق، إذ بالأساس كان أمامه تعالى خيارات عديدة وقرّر منها فخلق ما تراه، وهذا معنى "شاء"، ولأنه تعالى هو صمّم وخطّط وخلق كل شيء، وسمح للأمور أن تجري... وكان ذلك من خيارات عديدة لتصاميم مختلفة، لذلك ينسب كل شيء لنفسه، فيحيي ويميت ويسيّر الفلك وينزل الماء... ويرزق ويقدر ويبسط... وينصر... ويهدي ويضلّ... فكله نتاج ما اختاره تعالى من تصميم وعلى أساسه خلق السماوات والأرض وما فيها.

مضافاً لذلك لدينا عمق آخر تطرحه سورة يوسف بكلامها عن جريان أحداث حياة النبي يوسف(ع) عن تخطيط إلهي لا نلمسه بشكل مباشر، لأن الأحداث لها تفسيرات عادية من ترابطها مع بعضها، ولكن سورة يوسف تريك أنه تعالى سيّر مجرى الأحداث كما يشاء حتى يصل يوسف(ع) إلى مصر ويهدي أهلها، ونفس الشيء تراه بوضوح في الآية 40 من سورة طه {... فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى}.

الضابطة لكل أفعاله تعالى هي حكمته، وترابطها معنا متوازن مع مساحة حرية الإرادة التي منحها تعالى لنا، فإذا بإرادتي الممنوحة قرّرت أن أكفر، فسيتركني سبحانه أكفر، لأن هذا ما شاءه، وهكذا يصف سبحانه نفسه بأنه أضلّني لسببين، الأول أنه هو تعالى صمّمني مع قابلية فيّ لأكفر أو أؤمن، وسمح سبحانه لي بتطبيق وممارسة حرية اختياري للكفر أو الإيمان، وكان بإمكانه تعالى إجباري على الإيمان... والثاني أنه تعالى لن يعتبر الباطل والسوء والشرّ... مسكوتاً عنه، بل سيبقى تصنيفه ضلالاً، ونفهمها من الآيات التي تخبرنا عن عقاب شديد خالد لمن أشرك به تعالى، فلو سبحانه شاء السكوت وتمرير الشرك به، لبقي الشرك باطلاً لأنه غير صحيح ولا يطابق واقع وجود إله واحد، ولكن لو لم يكن هناك عقاب على الشرك، لما كان يعتبر ضلالاً ذا أثر على آخرتنا...

هنا في مسألة بسط ومدّ الرزق تجد في مختلف السور ضوابط إلهية له، إذ يمدّ سبحانه لبعض الكافرين وبالخصوص للملأ منهم ليزدادوا إثماً كما ورد في 178 من سورة آل عمران {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}، ولا يبسطه لكل الناس لسبب ذكرته الآية 27 من سورة الشورى {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ}، ولتوسيع أفقك في هذا الموضوع خذ الآية 33 من سورة الزخرف {وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ}، وسيأتيك في الآية التالية جانبٌ من سبب مشيئته تعالى ليكون بيننا فرق في كمية الرزق.

قارن كلام الآية مع تصوّرك لنفسك صمّمت وخلقت كائنات في بيئة، والنتيجة من تصميمك أن تكون بعض الكائنات أغنى من الآخرين، وهكذا نفهم عموم كلام القرآن المشابه لكلام آيتنا هنا، إذ ما تراه من حالنا بين فقراء ومتوسطي الحال وأغنياء وأثرياء فهو النتيجة مما قرّر تعالى، لأن الناس كلهم أو بغالبيتهم يحبّون أن يكونوا أغنياء، بل يحبون أن يكونوا أثرياء جداً، ولكن واقع الحال هو ما تقوله الآية هنا، وهكذا تراه تعالى في فعله هذا مسيطراً مقدّراً، وعن حكمة حصل هذا ليبلونا أينا أحسن عملاً، ليرى تعالى إن كان الغني سيتصدّق، أو الفقير سيصبر، وسترى شيئاً من هذا المعنى في الآية التالية.

(فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{38})

{فَآتِ ذَا الْقُرْبَى}، الشخص الذي بينك وبينه قرابة، أخ، عمّ، خال... وليكن معه منك، {حَقَّهُ}، ما له، أيها المؤمن بأنه تعالى يبسط الرزق ويقدر، وبسط سبحانه عليك، يأمرك الباسط عليك بمساعدة أقاربك، ولهم حقّ في مساعدتهم إن كانوا بحاجة للمساعدة، وَآتِ، {الْمِسْكِينَ}، حقّه من مالك، والمسكين هو عموم من يحتاج للمساعدة سواء كان فقيرا لا يملك حتى وجبة طعام واحدة أو كان موظفا أو صاحب مهنة أو صاحب دكان... أو عنده أرض زراعية... ولكن حاليا ظروفه صعبة ويحتاج للمساعدة، وَآتِ، {ابْنَ السَّبِيلِ}، حقّه من مالك، وهو المسافر الذي وصل إلى بلدك فقيرا مع العلم أنه غني في بلده ولكنه لسبب أو لآخر لا يستطيع الوصول لأمواله.

{ذَٰلِكَ}، الإعطاء للحق من مالك لهؤلاء، {خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ}، الذي لا يريد من الناس أي شيء عندما يساعدهم ولا يريد مدحهم ولا ردّهم للجميل... بل يساعدهم لوجه الله تعالى، وهو متوجّه بما فعل إليه تعالى، يطلب رضاه تعالى فقط، وهذا التصرّف خير له، وهو موصوف بأنه حسن جيّد، {وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، هم الذين قاموا بعمل فالح، وأجادوا فيما عملوا لأنهم عملوا الصحيح.

هذا سبب من أسباب مشيئته تعالى لبعضنا بسطة الرزق وقدره، والآية هنا على معنى ما تضمّنته الآية 165 من سورة الأنعام {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ...}، ومن كان في الرزق درجته أعلى فهو في بلاء ليرى تعالى ماذا سيفعل مع المحتاجين، ومن تصدّق فأفلح.

تذكّر دائما أنه في أموال المؤمنين {حَقٌّ} {لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}، ودائما يجب على المؤمن مساعدة المحتاجين طالما يستطيع مساعدتهم، ولا يوجد شيء اسمه صدقة مستحبة على محتاج، بل بتعبيرات القرآن العديدة، طالما هناك محتاج فالصدقة عليه واجبة، وكما ترى، القرآن يسمّيها حقاً في مالك للمحتاجين.

لا تخلط بين الزكاة وبين الآيات المشابهة لآيتنا هذه، فأمثال آيتنا هذه أعمّ من التطبيق العملي لكلامه تعالى عن الإيتاء بالزكاة عبر فرض ضريبة "بسيطة" على الأغنياء، لنقل إنّ أقاربك بحاجة للمساعدة وأنت لديك فائض كبير عن حاجتك، أنت أصلا عليك دفع الضريبة المسمّاة بالزكاة وهي في نفس الوقت موصوفة بأنها صدقة، ولنقل إنك آتيت الزكاة بدفع المقدار المحدّد عليك من أرزاقك، وما زال معك أموال فائضة عن حاجتك، وهناك من يحتاج للمساعدة، هل الصدقة عليه مستحبّة لأنك دفعت الصدقة الواجبة "الزكاة"؟ لا، فعموم كلام القرآن بالمفهوم العام يسمّي ذلك زكاة أيضا، وهو اللياقة بك كمؤمن وبمالك أن تساعد به من يحتاج المساعدة... وبالعكس، عموم القرآن يسمّي الزكاة بالصدقة.

الزكاة مصطلح ديني قديم في دينه تعالى ويشير لما يجب دفعه من مالك لمساعدة الآخرين وللشؤون العامّة، وهي نسبة تتحدّد بما يناسب الظروف والأزمنة... وقد تصير ملغية في حالة افتراضية تكون فيها الحكومة تتمتع بفائض مالي ضخم، وكل الناس لا يحتاجون لأي مساعدة، ولذلك لن تجد تحديدا قرآنيا لها، لا للقيمة ولا لزمانها ولا مِمّا... ولكن أصل مسألة الزكاة هو مساعدة الآخرين، وهي نفسها عمليا الصدقة، مع الفارق أنها ضريبة تتحدّد من القيّمين على الشؤون العامّة ويجب دفعها بالمقدار والزمان الذي حدّدوه، بينما الصدقة تبقى واجبة علينا طالما هناك من يحتاج للصدقة وأوضاعنا تسمح بمساعدته.

إذاً، وعطفا على ما سبق، حين بسط سبحانه الرزق وقدر، أمرنا من ناحية ثانية أن يقوم المبسوط رزقه بإعطاء المحتاجين من ماله، وهذا كلّه مبني على خلقه تعالى لنا في بيئة فتنة وبلاء، نفقر ونغنى، ويرى سبحانه تصرفنا في مختلف الحالات... والفالح الناجح المميز ليس الغني بل من تصدّق.

كثيرا ما ربط سبحانه مع دينه هذه السلوكيات التكافلية التضامنية الاجتماعية، على أساس أنها هي سلوكيات التدين بدينه تعالى، وذلك في مقابل الفكرة عند البعض عن الدين الإلهي أنه سلوك فردي شخصي، من صلاة وصوم وتربية لحية وحجاب على الرأس... كتصرفات فردية لا تأثير لها على الآخرين، لا، فدينه تعالى من صلبه السلوك الصالح مع الآخرين.

غالبا ما ركّز القرآن على الإنفاق على المحتاجين كأبرز سلوك يأمرنا به تعالى بعد الصلاة، ومرّة استعمل تعبير الزكاة كنموذج، ومرة الصدقة، ومرّة الإنفاق...

بقي شيء، رغم وضوح آيتنا هنا أنها لا تشير بنسبة الوجه له تعالى إلى عضو، وهم لا يريدون رؤية وجهه تعالى، بل المعنى الواضح عن إرادتهم رضاه تعالى، ليراهم تعالى يفعلون ما يحبّه، فرغم وضوح ذلك لنتذكر أنه تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} كما وصف نفسه في الآية 11 من سورة الشورى، نحن عندنا وجه كعضو من صفحة رأسنا، وربنا سبحانه ينسب لنفسه وجها، فلا تتصور أبدا وجها من فم وعينين وأذنين وأنف لله تعالى، لا، فهذا يجعله تعالى مثلنا، ولكن كما نحن نستقبل الكلام والرؤية والسمع بوجهنا، سبحانه يستقبل عبادتنا له وصدقتنا التي نريد بها رضاه... يسمع ويرى من كل الاتجاهات، وفي كل الأماكن، ووصف هذه الحالة بلغة البشر أنه تعالى في كل الاتجاهات وجهه. ونفهمها بشكل أبسط إذا سمعنا أحدا ما يقول بأنه يدعو ولكنه تعالى لا يسمعه، أو يقول بأنه سبحانه لا يرى المجازر التي تحصل... أو إذا صليت باتجاه ما وهو اتجاه لن يستقبل سبحانه فيه دعائي أو صلاتي... وهكذا نفهم أن وجهه تعالى يشير الى توجهه تعالى، ويشير لاستقباله لكلامنا وتوجهه على ما نفعله، ووصف حالته تعالى بلغتنا: وجهه تعالى علينا، توجّهه تعالى. وعمليا كمثال "نتوجّه" نحن بالدعاء له تعالى، وسبحانه يتوجّه نحونا برحمته، نحن نريد وجهه تعالى، ونريد أن يتوجّه إلينا رضاه عنّا ورحمته ومغفرته، وبما أنه تعالى دائما بصير سميع عليم... بكل شيء، فنحن نريد أن يتوجّه علينا برحمته وباستجابة دعائنا. وهذا ليس تبريرا وفذلكة لمعنى وجهه تعالى، بل هي حقيقة معاني الكلمات هكذا، أنا أتوجّه بالعضو الذي فيه حواس البصر والسمع والشمّ، وهو وجهي الذي أتوجّه به، وسبحانه يتوجّه إلينا ولكن طبيعته تعالى ليس فيها عضو أو جزء أو شيء منفصل... والمعنى العملي لتوجّهه تعالى حتى يوصف بالوجه هو نوع الاهتمام والتصرف مع شيء ما، يتوجّه بالغضب على ذاك وبالرحمة على هذا...

بعبارة أخرى، كلمات لغتنا موضوعة لاستعمالها فيما نفهمه ونلمسه ويمكننا التعامل معه، وحين نستعملها مع ما لا يمكننا فهمه أو اختباره بالتعامل المباشر معه، فمن الطبيعي أن نسحب منها بعض الخصائص، ونفس الشيء حين نستعمل كلماتنا البشرية للكلام عنه تعالى، نسحب منها خصائصها البشرية حتى تنطبق عليه سبحانه، أنا أنتقم، وأشفي غليلي، وأرتاح من غضبي... وهذه خصائص بشرية متضمنة في كلمة "انتقام" عندما أستعملها لوصف بشري، أمّا حين أريد توصيف تعالى بأنه لن يمرّر جريمة ما بدون عقاب، فما هي الكلمة المناسبة لذلك؟ الانتقام، ولكن من بعد سحب الخصائص البشرية منها، ونفس الشيء في بقية ما نستعمله للكلام عنه تعالى من يد كوصف لما نفعل به، والعين كوصف لما نرى به... والوجه كوصف لما نتوجّه به...

علميا المسألة أسهل من زاوية تصنيف استعمال الكلمات على الوصفية بدلا من الاسمية، وهذا ما أراه في كل كلامه القرآني سبحانه كأساس لغوي، وليس في كلامه عن نفسه سبحانه فقط، بل لعموم تقويمه للغتنا، ولمزيد من التوسّع عن الاسمية والوصفية راجع دراسة الآية 77 من سورة الزخرف {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ}.

(وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّباً لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ{ 39})

{وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا}، أي إعطاء للمال للآخرين على أساس أنه ربا، {لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ}، ليزيد مالك في أموالهم، مثلا تعطيه مئة دينار على أساس أن تربو المئة فتزيد وتصير مئتين بعد سنة، {فَلَا يَرْبُو}، هذا المال، {عِندَ اللَّهِ}، لأن القريب المحتاج للمساعدة أو المسكين أو ابن السبيل المحتاج للمساعدة، إن لم تساعدوه فسيضطر للاستدانة، وحتى متوسّط الحال يضطر للاستدانة، وهو في هذه الحالة يكون موصوفا بالمسكين إذا كان بحاجة للمال ليدخل في مشروع ليعيش منه... فإن أعطيته من مالك على أساس الربا، على أساس تحديد مبلغ إضافي على المال لوقت محدّد، فهذا لن يربو عنده تعالى ولن تحصلوا منه على شيء، والآية تقارن بين الربا من جهة وبين عموم الصدقة والزكاة من جهة ثانية.

بعبارة أخرى، هناك من يحتاج للمساعدة لتحسين حالهم، وفي بعض الحالات يفكّ الدَّين ضيقة هؤلاء ويرجعون لك مالك، فهذا تصرف ممتاز منك ومنهم، لا هم استغلوا إيمانك وأخذوا المال الذي يقدرون على ردّه فيما بعد، ولم يأخذوه صدقة لأنهم قادرون على ردّه، ولا أنت تمنّعت عن مساعدتهم بطريقة لن تجعلك تخسر من مالك.

وهناك محتاج للمساعدة ولا يمكنه ردّ المال في المدى المنظور، فهذا لا معنى لاستدانته منك، فإن ردّ الدَّين فعن عجز سيردّه، فعليك واجب أن تؤتيه ما يمكنك من مالك، لأنه حقّ له أوجبه عليك من بسط لك الرزق.

بقيت حالة ثالثة، أن يستدين المحتاج منك بالربا، ليردّ لك المال مع زيادة بعد أن تتيسّر أحواله، على أساس أنك فككت ضيقتهم، وأنهم استفادوا وأنت استفدت من الربا، وبناء عليه فأنت فاعل خير، لا، لأنّ هذه فكرة فاسدة، لا أجر عليها.

وكما ترى، الآية لم تدخل في الكلام عن الربا وسوئه وبالتالي حرمته، واكتفت بالتنبيه على الفرق بين السلوك المبني على الأمر الإلهي الذي جعل للمحتاج حقًا في مال الغني، حيث يعطيه الغني ما يستطيع ولا يعتبره دينا ولا يطلب منه حتى أن يشكره لأنه أعطاه امتثالا للأمر الإلهي "لوجهه تعالى" وهو يرجو الثواب منه تعالى... وبين فكرة مساعدة الآخرين بالدَّين مع الربا، إذ لا حسنات عليها منه تعالى كما يتصوّر البعض لأنهم أفادوا واستفادوا، لا.

{وَمَا آتَيْتُم}، وما صار منكم عند الآخرين، {مِّن زَكَاةٍ}، وكلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، حيث تشير لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكية، مال زاكٍ، طعام زاكٍ..."، ومنذ القدم صارت مصطلحا دينيا يشير إلى دفع نسبة محدّدة من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ...}، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، يدفع منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة {...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...}، لتكون نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

الزكاة التي تدفعونها، {تُرِيدُونَ}، ترغبون وتقصدون، {وَجْهَ اللَّهِ}، تتوجّهون بالزكاة إليه تعالى وبالتالي تريدون التقرّب منه تعالى ولا تريدون أي شيء من الناس، {فَأُولَٰئِكَ}، المزكّون لوجهه تعالى، {هُمُ الْمُضْعِفُونَ}، ضاعفوا فعلا أموالهم.

بالربا تزيد أو تتضاعف أموالك هنا في الدنيا، ولكنها لا تربو عنده تعالى، بل عليها حساب وعقاب، وأما الزكاة فتربو وتتضاعف عنده تعالى كحسنات عليها ثواب في جنّات خالدة.

هناك كلام في الكتب حول معنى كلمة الربا هنا، على أساس أن السورة إمّا نزلت في مكّة قبل تحريم الربا، أو نزلت بعد هجرة الرسول(ع) إلى مدينة يثرب ونزلت بعد تحريم الربا، وهو كلام مبني على أن الشرائع الإلهية جديدة، وهذا غير صحيح، لأن الدَّين بالربا حرام في دينه تعالى منذ آلاف السنين من أوّل ما تكلّفت البشرية وصار بينها معاملات تبادلية ولو بسيطة بدائية، والربا مثل الخمر والميسر "القمار" وأكل مال اليتيم وظلم الضعفاء والسرقة والزنا... كلّها معروف مشهور أنها حرام في دين الله تعالى من أوّل ما تكلّفت البشرية، وتلاحظ أن القرآن تحدّث عن هذه الأمور على أساس أنها معروفة مشهورة حرمتها في دين الله تعالى، ولم يعرضها بصيغة تبيّن أنها تشريع جديد. لذا لا يهمّ إن كانت السورة مدنية أم مكية، لأن كلمة ربا هي نفسها الفائدة "الفايد، الفايظ..." وهي حرام في دينه تعالى قبل إرسال الرسول محمّد(ع).

أيضا تحدّثوا عن الزكاة التي في الآية، وقالوا: الزكاة وجبت في المدينة، ولم تكن واجبة في أول الدعوة، وهذه السورة نزلت في أول الدعوة، إذاً هي لا تقصد الزكاة الواجبة، أو الآية بشكل منفصل عن بقية السورة نزلت فيما بعد في المدينة وجرى إلحاقها بالسورة هنا! وكما ترى أيضا بنوا كلامهم على أساس أن هذا الدين جديد، وهو فعلا جديد على الكفّار ولكن نسوا أن له امتدادا تاريخيا وفي هذا الدين الإلهي الزكاة واجبة منذ القدم.

لتبسيط الفكرة، السور النازلة أوّل الدعوة في مكّة، ليس فيها كلام عن حرمة السرقة، ولا الغيبة... هل هذه الأمور كانت حلالا وصارت فيما بعد حراما؟ ومثله الكلام عن الخمر والزنا وشهادة الزور والربا... هذه أمور معلوم سوؤها وفسادها وحرمتها في دينه تعالى من أوّل ما كلّف سبحانه البشرية، وهذا القرآن جاء للتذكير بها وليس لطرحها كدين جديد.

هكذا ترى فساد ما يقولونه عن تحريم الخمر بعد الهجرة، ووجوب الزكاة بعد الهجرة... وبناء عليه، التفاسير التي اعتمدت هذه المفاهيم أخطأت بتغيير المفاهيم القرآنية لأنها جعلتها كدين جديد بدعة، وكلام القرآن عن الزكاة في بداية

الدعوة لم يصر له تطبيق عملي كامل لأنه لم يكن هناك دولة أو مجتمع يحكم بدينه تعالى، وكانت الزكاة تصرّفاً فردياً، وفي المدينة بعد الهجرة وفي ظلّ سلطة "حكومة" إسلامية ترأسها النبي محمّد(ع) رويدا رويدا صار للزكاة تطبيق كامل، حيث صار للصدقات بيت، سمّوه بيت المال، وعليه موظفون لجمعه ولصرفه على المحتاجين...

الربا والقروض المصرفية

ورد الكلام عن الربا في القرآن بشكل مباشر في ثلاث سور، في الآية 275 وما بعدها من سورة البقرة {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، والآية 130 وما بعدها من سورة آل عمران {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، والآية هنا، وتلاحظ في الفقرات الثلاث قبل الآية هنا كلاماً عن الزكاة والصدقة، والآية هنا بصراحة تقارن الربا مع الصدقة والزكاة، لتريك سوءه في مقابل حسن الصدقة والزكاة، وهو تبرير تحريمه، وتلك الفقرات تريك تبريرات أخرى بتعبير {فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ} كما قالت الآية 279 من سورة البقرة، وقبلها في الآية 275 بنفي الشبه والتماثل بين البيع والربا.

تطبيق مقابلة الربا بالصدقة والزكاة واضح في نموذج المحتاج ليأكل، هل تتصدّق عليه أم تستغل حاجته وتعطيه المال أو الطعام دينا وتفرض عليه ربا على المال؟ والفقرات الثلاث ركّزت ضمنا على هذا النموذج بكلامها عن الصدقة والزكاة لتريك بوضوح سوء الربا. وبعدها تأتي حالات لا نرى فيها سوء الربا وتصير الأمور جدلية، ولنأخذ مثلا حالة شخص يملك منزلا أو أرضا، والآن حاليا يحتاج للمال ليأكل، أو يحتاجه لأمور حياته الضرورية كمصاريف بيته من كهرباء وماء ومدارس وأدوية... هل تتصدّق عليه أو تعطيه المال دينا مع ربا بضمانة بيته أو أرضه فيبيع من أملاكه ليسد لك الدَّين والربا؟ وكما ترى، التفاصيل الافتراضية كثيرة للحالات التي يمرّ بها الناس، تناقش وتقول: فليبع بيته ويستأجر بدلا من صدقتي عليه. وتقول: لديه أرض لا يستعملها فليبعها... هذا الكلام نقاش في التفاصيل، تكون هذه أفضل الحلول أو لا تكون كذلك، ولن ندخل فيها لأن أساس سوء الربا لن يتغيّر بتغيّر الأمثلة.

وأمّا الذي يريد مالا دينا ليستثمره في مشروع تجاري أو زراعي أو... فهذا حالته لا تنطبق عليها الصدقة أو الزكاة، لأنه ميسور ماليا، ومعه ما يؤمّن تكاليف الحياة "ولو في الوقت الراهن"، ولكن يريد الدخول في مشروع إنتاجي، هل يحرم عليك استثمار مالك معه بفائدة لك؟ لا، ولكن يحرم عليك الربا التي تعني أن تعطيه المال وتحدّد قيمة فائدتك لكل فترة زمنية "لكل شهر مثلا" وأنك لا تخسر معه إذا خسر، وأنك تحصل على الفائدة حتى لو خسر. وكما ترى انتقلنا للحديث عن الشراكة، وأهم بنود الشراكة تحديد نسبة توزيع الأرباح والخسائر على المتشاركين.

إلى هنا ترى من النص القرآني حرمة الربا مطلقا، والبداية مع حرمة الدَّين بالربا لمن يحتاج للمساعدة في شؤون حياته الضرورية، فإن لم يحصل على مساعدة من صندوق الزكاة، أو من بيت مال المسلمين، فيجب علينا كأفراد التصدّق عليه إن كنّا نستطيع، وإن لم نكن نستطع الصدقة عليه بالمبلغ الذي يطلبه فعندها يستدين منّا، ومن هنا أكملت الفقرات الثلاث كلامها مانعة من تديينه بالربا، ومشجعة للمؤمنين بالصدقة عليه بما استدانه... ولا تجمد على الكلام بحرفيته، إذ يحتاج للمساعدة المالية لينشئ مشروعا إنتاجيا ليعيش منه ولتصير حياته أفضل، وحتى هذا من المستحسن الصدقة عليه، لأن هذا ليس مثل الغني الثري الذي يريد زيادة ثروته، ولدينا روايات عديدة تطبيقية من زمن النبي محمّد(ع) وفيها مساعدة الناس من بيت مال المسلمين كصدقة لينشئوا مشاريعَ إنتاجية...

وترى في القرآن صراحة حرمة الربا بأضعاف مضاعفة، وهذه الحالة لها عدة تطبيقات منها أن تستدين منّي مئة درهم بفائدة عشرة بالمئة شهريا، لتردّها بعد شهر مئة وعشرة دراهم، فإن لم تردّها بعد شهر فتردّها بعد شهرين مئة وعشرة مع فائدة عشرة بالمئة على المئة وعشرة، وتردّها مئة وعشرة مضافا لها أحد عشر، وهذا الأحد عشر هو الضعف المضاعف، وهكذا بعد ثلاثة أشهر تردّها مع عشرة بالمائة زيادة لتصير قرابة المئة واثنين وثلاثين... وبعضهم يضاعف الربا ليكون عشرة بالمئة على أول شهر، ويصير بعد شهرين عشرين بالمئة على الدَّين والفائدة معا، وهكذا... وهذا حرام.

وترى من القرآن تفريقه الصريح بين البيع والربا، لأن الربا ليس من أنواع التجارة.

هذه الثلاث هي أساسيات ما ذكره القرآن صراحة عن الربا.

الآن ننتقل للكلام عن أنظمة البنوك، ومعلوم لك أن أنظمتها مختلفة، بعضها ربوي بصراحة، تضع المال عندهم وتأخذ زيادة فائدة محددة سلفا تتفق عليها معهم أو تقبل بما يعرضونه عليك من فائدة... ولا كلام عن أي نوع من الاستثمار... ومخاطرها معلومة إن كانت الفائدة عالية فهذا يعني المخاطرة بإفلاس المدين بعدما يعجز عن سداد الفوائد... أو تأخذ المال منهم على أن تردّه بفائدة محددة ولا كلام عن أي نوع من الاستثمار، وهذه ربا صريحة، ومخاطرها معلومة على المدين إن كان الربا بنسبة عالية، إذ أملاكه ستذهب للبنك حين لا يقدر على السداد...

وبعض البنوك استثمارية، تعتمد على الدخول في مشاريع إنتاجية بشكل مباشر أو عبر شركاء وهم الذين استدانوا منها، وحين تضع مالك معهم يتم تشغيله في مشاريع عديدة، ويكون لك ربح ضئيل مضمون من مجموع المشاريع... وهذا ليس ربا حتى لو تحدّدت نسبة فائدتك، لأنه استثمار عبر نوع من الشراكة.

أمّا بالنسبة للاستدانة من البنوك للدخول في مشروع إنتاجي، فبعض البنوك تتعامل معه ربويا بامتياز حيث تأخذ ضمانات "رهن" وتحدّد فوائد، وتتهاون في دراسة مشروعك لأن عينها على فشل المشروع وأخذ الرهن... هذا التطبيق السيّء للربا لا يعني حرمة الاستدانة بفوائد من البنوك بعنوان استثمار البنك لماله معك كشريك في مشروعك بربح مقبول وضمانتك أنت للخسارة على أساس أن مال البنك محفوظ في رأس مال ما استثمرت فيه، في أرض أو معدات أو أبنية... المشروع.

حاولت اختصار التفاصيل الكثيرة لترى أن بعض أنظمة البنوك ليست ربوية، وبعضها يسيء التطبيق لتصير ربوية، وتعاملت شخصيا مع بعض البنوك التي تتحدّث بصراحة عن الاستثمار معك فيما تضعه معها وفيما تستدينه منها، وتدرس مشروعك بجدية، ولديها أنظمة مبنية على أسس تجارية، حيث تحدد نسبة الفائدة على ما ستستدينه منها بناء على الأرباح المتوقعة من مشروعك بما من المفروض أن لا تعجز عن سداده، ليكون ميسّرا بفوائد أصفها بالعفو مشابهةً لها نسبة الزكاة المفروضة علينا الموصوفة قرآنيا بالعفو، مع ضمانك لرأس مالهم في الأصول الثابتة "أرض مبنى معدات مواشي...".

هكذا ترى أنه سبحانه حدّد الربا المحرّم، وترك الدخول في تفاصيل الشراكة والاستثمار بأنواعها المتعددة، حتى لا يضيّق علينا فيما يناسب زماننا ومكاننا وظروفنا، مثلما لم يحدّد مقدار الزكاة والصدقة مختصرا وصفها بالعفو كما ورد في الآية 219 من سورة البقرة {... وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...}، تاركا لنا هامش مرونة بما يناسب الظروف المختلفة وصولا إلى حالة افتراضية حيث الحكومة لديها فائض مالي وكل الناس لديهم ما يحتاجونه، ولا زكاة واجبة، والنص القرآني يتحمّل هذا المعنى بل يعطي هذا المعنى لأنه لم يحدد لا مقدار ولا زمن ولا نوعية الزكاة، واكتفى بأوصافها المناسبة بالعفو والخير ووجود موارد لصرفها على المحتاجين والشؤون العامة للمسلمين...

وأمّا بالنسبة للاستدانة من البنوك لشراء منزل، فبعض البنوك صريحة بالاستثمار كشريكة معك، لأن ثمن العقار سيرتفع مع مرور الزمن، وسيحصل تضخّم لقيمة العملة أيضا مع مرور الزمن، وتحديد نسبة الفائدة للبنك من القرض يتضمّن شراكته معك في ارتفاع ثمن العقار، وضمانه لرأس ماله من خسارة التضخّم، وهذا ليس تعاملا ربويا، بل استثمارا من نوع الشراكة.

أكرر لك، التطبيقات السيئة لتعاملات الاستثمار بالشراكة مع البنوك، سواء منك أو منهم، هي التي تحوّل كل المعاملات لربوية حتى لو كان نظام البنك لا ربوياً، لنقل إنك استدنت منهم لمصاريف حياتك، أو لمغامرة تجارية متهوّرة... أو هم ضمنوا مالهم وأرباحهم بالرهون واستهتروا بأسباب أخذك للمال... وهذا يحوّل المعاملة لربوية ولا تبرير شرعي لها.

أو كانت التعاملات بفوائد كبيرة سواء لهم منك أو لك منهم، فهذه لوحدها إشارة صريحة على وجود شيء غير سليم، لأن المال لا ينتج عنه هكذا أرباح عادة في زماننا "عشرون أو ثلاثون بالمئة أو أكثر"، وبهكذا فوائد عالية "في زماننا" تصير المعاملات ربوية حتى لو كانت في أصلها استثمارية، أو تصير معاملات باطلة لمخالفتها للأصول العقلانية للاستثمار، ومنه سندات الخزينة بفوائد عالية التي تجعل الحالة الاقتصادية للبلدان كقنبلة موقوتة ستدمّر الطبقة الوسطى واقتصاد البلد...

الخلاصة أن القرآن حرّم الربا ولم يحرّم الاستثمار، وترك لنا هامش مرونة واسع لنتعامل مع الاستثمار بعقلانية وبما يناسب مختلف الظروف والأزمنة، ويؤكد لنا أنه لا يوجد ولا أي وجه لتبرير أخذ الفائدة من الذي يحتاج للمساعدة في شؤون متطلبات حياته، وهذا تتصدّق عليه، أو يستدين منك، ولا يوجد ولا أي مبرر لأخذ فائدة منه ولا بأي شكل، إذ لا ينطبق عليه عنوان الاستثمار، واستعملت له الآية نموذج وصف البيع، لأن الربا ليس مثل البيع ولا مثل الاستثمار ولا مثل التجارة ولا مثل الشراكة... لأن هذه عناوين معلومة العقلانية في بنودها، ومعلوم فساد بعض تطبيقاتها حين تصير ربوية أو جائرة لطرف من أطرافها...

ما ذكرته لك هنا هو الأساسيات المشتقة بتحليلي أنا لكلام القرآن، وأمّا بناء الأنظمة الاقتصادية الشرعية فهو من شغل المتخصصين، وكدارس للقرآن واجبي تقديم الأساسيات لهم، وشطحت بما لست متخصصا به فقط لتبسيط الصورة، والفقيه يقدّم لهم الأساسيات المترابطة مع بقية أساسيات التشريع، وأمّا التفاصيل وإعادة بناء الأساسيات قرآنيا للتفريع بناء عليها، فهو من عمل المتخصصين بالاقتصاد، وحتى لو لم يكونوا مسلمين، بل حتى لو كانوا ملحدين، ولكنهم أهل اختصاص ويلتزمون بالأساسيات "القرآنية" وهي أساسية جدا وبعناوين قليلة جدا، ويلتزمون بالأساس العقلانية في التفاريع، كلامهم الملتزم بصريح كلام القرآن يكون فوق كلامي كدارس للقرآن، وفوق كلام الفقيه غير المتخصص بالشؤون المالية، وهو فقط يراجع كلامهم ليقارنه مع الأساسيات، هذا طبعا إن كان من أهل الاختصاص بفقه الاقتصاد. وعلى أي حال هذا الكلام لا يعني أن نظاما ماليا واحدا سيصدر عن الالتزام بأساسيات تشريعات القرآن، لا، لأن هامش المرونة المتروك عن قصد يتحمل الخروج بعدة أنظمة، وكل نظام مناسب لمجتمعه وزمانه... ولكنها ستكون أنظمة متماثلة تماما بالأساسيات، ومتشابهة في التفاصيل.

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ{40})
{اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز هو، {الَّذِي خَلَقَكُمْ}، الذي ركّبكم وألّفكم، {ثُمَّ رَزَقَكُمْ}، وصار معكم منه تعالى ما يؤمّن حاجاتكم الحياتية وتشبعون به رغباتكم، وأهمّه ما تحافظون به على حياتكم وهو الطعام، {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ}، يجعلكم لا تفعلون ولا تتفاعلون، {ثُمَّ يُحْيِيكُمْ}، يعيد إليكم في الآخرة حالة الفعل والانفعال، وهذه هي القدرة الحقيقية للإله الحقيقي، و{هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم}، من تلك الأمور من الخلق والرزق... {مِّن شَيْءٍ}؟

أنتم قلتم إنّه يوجد له تعالى شركاء في الألوهية، وهذا غير صحيح، والصحيح أنّه بينكم وبين الذين تعبدونهم من دون الله تعالى شراكة عبد وإله، هم شركاء لكم وليسوا شركاء له سبحانه، هل أي واحد منهم يخلق ويرزق ويميت ويحيي؟ دلونا عليه وأخبرونا به، دلّونا ماذا خلق وأين رزق وماذا رزق... ومن أحيا ومن أمات ومن سيحيي.

{سُبْحَانَهُ}، تنزّه ليس فيه صفات ناقصة أو سيئة أو معيبة، ومن عموم القرآن نفهم أنّه تعالى يخبرنا عن نفسه ومن معرفته بنفسه وبصفاته أنّه من المستحيل تواجد كائنين مثله، ولو حصل وكان يوجد إلهان فهناك نقص فيهما حتما، ونحن البشر بفكرنا الصغير عاجزون عن فهم معنى حقيقة هذا الكلام الإلهي، ونحتاج للتفكّر فيه لفهمه لأنه أمر عن الذات الإلهية، كلمة سبحان الله، يمكن فهمها من البساطة بتنزيهه تعالى عن الصفات الناقصة والمعيبة، وصولا إلى تنزيهه تعالى عن أن يكون له شركاء في الألوهية لأنه تعالى يخبرنا بأن هذا مستحيل وأصلا غير صحيح ولو فرضا كان صحيحا فهذا "ومن وجهة نظره تعالى" يعني وجود صفات ناقصة فيه، ولن يكون فائق القدرات والصفات لأن كائنا آخر أيضا بصفات وقدرات فائقة مثله، وبالتالي كلاهما ليسا آلهة...

سياق الكلام هنا عن وحدانيته تعالى في رزقنا وخلقنا وإماتتنا... وهو منزّه عن شريك له في فعل هذه الأمور.

{وَتَعَالَى}، ارتفع مقامه، {عَمَّا}، عن الذي، {يُشْرِكُونَ}، تنزّه أن يكون له شريك، ومقامه أعلى من أن يكون له شريك.

فرضا لو تفزلك أحد منهم واخترع إلها وقال إنّه يفعل كل هذه الأشياء، أو يفعل واحدة منها، فأبسط سؤال يتوجّه له: من قال لك هذا؟ هل إلهك الذي اخترعته قال هذا؟ وما دليلك على إلهك وعلى أفعاله؟ ها الإله الحقيقي الأحد يقول لنا عبر

رسله وعلى امتداد آلاف السنين من تاريخ البشرية بأنّه هو "الله" صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز فعل كل هذا، أرونا إلها من آلهتكم له هذا الامتداد التاريخي من الرسل والكتب والآيات...

طبعا تتذكّر سوراً أخرى عديدة تناولت أدلة وحدانيته تعالى، منها الآية 22 من سورة الأنبياء {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}، أمّا هنا فاكتفت الآية بالإشارة إلى نظام واحد موحّد يسري علينا كلّنا بإحيائنا ورزقنا وإماتتنا، وهذا ما نراه بوضوح أنّه نظام يجري بدقة وعلى الجميع، لو كان هناك إله آخر غيره تعالى وعرفه المشركون، فسيعرفونه من تدخّله فيهم وفي بيئتهم، ولكنهم هم وبيئتهم لا يبدو منها قراران لإلهين، لماذا اختراع إله وهمي للشرك به مع الإله الحقيقي الأحد؟

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{41})
{ظَهَرَ}، بان وصار واضحا، {الْفَسَادُ}، الخراب وما ليس فيه صلاح، {فِي الْبَرِّ}، على اليابسة، {وَالْبَحْرِ}، على عموم أي مكان فيه ناس أو يطاله الناس بنشاطاتهم صار واضحا الفساد فيه، {بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ}، الفساد حصل كنتيجة لما فعله الناس، وحصل مما نتج مما عملوه هم بأيديهم بأنفسهم لأنفسهم، ترى هنا وهناك على اليابسة أو في البحر، ترى أشياء فاسدة ضد مصلحة الناس، ترى حربا هنا أو حاكما ظالما هناك أو دولة فاسدة تحكم بالظلم ونهب الخيرات... أو وباء أو مشاكل اجتماعية أو اقتصادية... وهي تحصل بسبب ما يفعله الناس، مضافاً لها تركه تعالى للكوارث الطبيعية تضرّهم ولا يتدخّل لمنعها أو التخفيف من ضررها لأنها تصيب قوما لا يستحقون عنايته تعالى بهم.

ظهر الفساد وكان يمكنه تعالى أن يجعله لا يظهر، ولكن تركه تعالى يحصل، {لِيُذِيقَهُم}، ليحسّسهم ويلمّسهم، {بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا}، بسبب أعمالهم الفاسدة ظهر الفساد وتركهم تعالى يشعرون بضرره حتى يعوا نتائج أعمالهم، {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، من المفروض ومن المتوقّع أن يتركوا أي فكر وسلوك سيّء وأن يرجعوا إلى الحقّ المتمثّل بالأوامر الإلهية التي تؤمّن لهم حياة هانئة بلا فساد بقدر ما يمكن لتركيبة هذه الدنيا أن تقدّمه. ولكن وكالعادة، المفروض والمتوقّع من الناس عادة لا يحصل، مثلاً يدخلون في الحروب ويعانون من ويلاتها، وبعد مدة يعودون للدخول فيها!

لاحظ استعمال كلمة فساد في القرآن، لأنها تشير إلى أمور ليست لمصلحة الناس، إلى الخراب والأذيّة في حياة ومصالح الناس، ويربطها القرآن دائما بأي فكر أو دين أو تصرّف يخالف دينه تعالى، أي شيء مخالف لدينه تعالى فهو فاسد وسيسبّب حتما الفساد في حياة الناس هنا في الدنيا وفي الآخرة.

هذه الخلاصة مما سبق من كلام يربط الآخرة بالدنيا بصراحة وبوضوح، فساد دنيانا الذي نهتم بصلاحه فهو مرتبط بفساد وصلاح آخرتنا، وما سنكسبه من فساد أو صلاح هنا، فهو من أعمالنا، وهي نفسها تعطي نفس نتيجة الفساد أو الصلاح في الآخرة، من عمل صالحا هنا فسيسعد هو ويسعد من حوله وآخرته ستكون سعيدة، ومن فسد هنا فسيتعس هو ويتعس من حوله وآخرته ستكون تعيسة.

انتبه، أي جانب إيجابي في بلاد الكفّار أو الفاسقين... فهو الجانب الإنساني العقلاني الموافق للدين الإلهي، من الضمان الاجتماعي والصحّي والدراسي... والأمن وتساوي الجميع أمام القانون... كلها أمور جيدة يأمر بها الدين الإلهي، وأي جانب سلبي من الربا والزنا والمخدرات والقمار... فهذه تشريعات "الهوى الفاسد" وتسبّب الفساد في حياة الناس ولا يوافق عليها الدين الإلهي، وآثارها السلبية معلومة ولا يناقش فيها العقلاء، كل الدول تعمل على التوعية من خطورة المخدرات والقمار... وكلنا نعلم أن النظام الربوي المقونن برعاية الدول، فيه بعض المصلحة للناس والكثير من الضرر للناس... والكثير من النفع للبنوك التي سبّبت العديد من الأزمات الاقتصادية التي دمّرت الفقراء ومتوسّطي الدخل عبر التاريخ الحديث... والسبب هشاشة النظام أمام الأسباب الكثيرة للفساد حتى لو كان بعض الأنظمة استثمارياً عقلانياً في أساسه... والزنا هوى فاسد...

ما تراه من فساد أخلاقي واجتماعي وأمني واقتصادي وثقافي... في بلدان تحمل عنوان "الإسلامية"، فهذه مسرحية هزلية سخيفة يمثّل فيها أولئك الناس دور المسلمين، وحكوماتهم تمثّل دور الحكومة الإسلامية، ومن السخافة اتهام الحكومات بالفساد وتجنيب الناس "المواطنين" أي مسؤولية عن ذلك، لن تصير حكومة إلّا من إرادة الناس، من

انتخاباتهم، من دعمهم لزعمائهم، من أحزابهم... من عصابة منهم شكّلت حزبا قهر البقية، وهؤلاء البقية يتحملون مسؤولية تسلّط الفاسدين عليهم لأنهم لم يعارضوهم ولم يحاربوهم...

الآية هنا عامّة لكل حالات الفساد، سواء للمجتمعات أو الحكومات الكافرة أو المشركة أو من أهل الكتاب أو من المسلمين. لا فرق بين هؤلاء إلا بالأسماء، لأنّ سبب الفساد في العمق واحد، وهو بما كسبت أيدي الناس، أي بما نتج عن تصرفاتهم السيئة.

أكرر لك، أي صلاح تراه في مجتمع أو حكومة لم تعلن تشريعاتها بناء على مصدر من دينه تعالى، فخذ علما أنّ التشريعات التي أدّت إلى الصلاح، فهي التشريعات المتماشية مع دينه تعالى. وأي فساد في مجتمع أو بلد يعلن أنّه منتمٍ لدينه تعالى، فخذ علما أنّ فسادهم وسلوكياتهم ناتجة عن تشريعات ليست نابعة من دينه تعالى.

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ{42})
{قُلْ}، عبر هذا القرآن للمشركين: {سِيرُوا}، امشوا وتنقّلوا {فِي الْأَرْضِ}، {فَانْظُرُوا}، ومن بعد السير وجّهوا اهتمامكم العام، {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ}، وما عقب وما أتى بعد وكان نتيجة أعمال، {الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ}، الذين كانوا يعيشون على الأرض قبلنا من المفسدين، أين هم؟ أين مدنهم؟ كيف انتهوا؟ لماذا لم يستمرّوا؟

{كَانَ أَكْثَرُهُمْ}، أكثر الذين من قبلنا، {مُشْرِكِينَ}، يجعلون لله تعالى شركاء في الألوهية، وماذا أتى بعد شركهم، ما النتيجة؟

من الواضح أن فسادهم سبّب خرابهم ودمارهم وانهيارهم... وإن سألت عن حكومة مؤمنة مثلما سألت الآية عن الحكومات المشركة لترى نموذجًا عن مجتمع مؤمن له استمرارية بسبب صلاحه، فمن المعلوم وللأسف أن المجتمعات التي آمنت وعملت صالحًا لم تستمر لأنها لم تكمل على الصلاح وفسدت، وبالتالي فمصيرها مثل مصير مجتمعات الشرك حتى لو كانت منتمية بالاسم لدينه تعالى كنموذج قرية بني إسرائيل التي فسدت والتي ذكرتها الآية 65 من سورة البقرة {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}.

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ{43})
في مقابل شركهم وفسادهم في الدنيا والذي من الواضح أدّى إلى خراب حياتهم وبالتالي ستفسد آخرتهم أيضًا، فأنت التزم بما يلي:

{فَأَقِمْ}، فعّل ولا تعطّل، {وَجْهَكَ}، ما تتوجّه به لتقابل أو تركّز على شيء ما، {لِلدِّينِ}، للتبعات التي عليك، لما هو مطلوب منك وتدين به كعبد لإلهك سبحانه، {لِلدِّينِ الْقَيِّمِ}، الذي يوصف بأنه على الأحسن، ولتكن وجهة جسدك بالعبادة وفكرك وأعمالك باتجاه ما تشعر وما تعلم بأنك مدين به لله تعالى بشكل قيّمٍ خالٍ من الفساد ولا يسبب عاقبة سيّئة لك وللآخرين.

{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ}، {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ}، فترة زمنية، والكلام عن يوم القيامة من الموت وما بعده من حساب، {لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ}، وفي ذلك اليوم سيحاسبهم ويجازيهم سبحانه ولن يستطيعوا ردّ ذلك بإبطاله لمنع حصول قيامتهم من الموت أو منعه تعالى من مجازاتهم لأنه تعالى قرّر حصوله، والمعنى هنا عامٌّ بانتفاء قدرتهم وقدرة غيرهم على منع حصول اليوم ومنع حصول ما سيحدث في ذلك اليوم، فلا أحد يقدر على منع عودتهم إلى الحياة وعلى منع مجازاتهم، والتركيز أكثر على انتفاء قدرتهم على منع ما سيفعله تعالى بهم من عقاب، وورد نفس المعنى في الآية 40 من سورة الأنبياء {بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ}، وهناك كان الكلام مركّزًا على انتفاء إمكانية ردّهم، صدّهم، منعهم ليوم رجعتهم من الموت. وكما ترى فكلا التعبيرين عن فقدانهم للقدرة على فعل ما يمنع قيامتهم من الموت وما يمنع مجازاتهم حينها، فكلا الأمرين متعلقان ببعض وضمنيًا كلاهما مشمولان بكلام الآيتين.

التزم بالدين الإلهي قبل أن يأتي يوم القيامة، ومن بعد ذلك اليوم وكما تقول الآية التالية فهناك حساب وجزاء ولا أحد يستطيع منع ذلك...

{يَوْمَئِذٍ}، يوم القيامة من الموت، {يَصَّدَّعُونَ}، كما يحصل صدع فتخرج الأشياء صدعًا أي مدفوعة لتبتعد، وتخرج وتنتأ صخرة من جبل ويصير فيه شقٌّ نسميه صدعًا، فهم يخرجون من بين شقوق الأرض، وفي يوم القيامة تتشقّق الأرض عن الأموات ويخرجون منها إلى الحياة، وتصير صورة مشهدهم كالصدع، كالذي يخرج دفعًا من شيء، وهذا ما ورد صراحة بتعبير آخر في الآية 44 من سورة ق {يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ}.

لاحظ وانتبه كيف توجّه الآية الكلام لنا، على العموم وللعموم، أنتم في حالة من يمكنه التوبة ليؤمن ويعمل صالحًا، ولكن قبل يوم القيامة، سواءٌ متّ الآن وفورًا، أو متّ بعد سنين، أو فرضًا فرضًا عشت ومتّ قبل يوم القيامة بثانية... لا يهم، فلا يحلم ولا واحد بأي فرصة ثانية ليؤمن ويعمل صالحًا بعد يوم القيامة.

في الآية 30 من هذه السورة توسّعنا في دراسة كلمة دين فراجعها.

(مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ{44})
{مَنْ كَفَرَ}، الذي أنكر فلم يؤمن ويلتزم بالدين القيّم، {فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ}، يتحمّل مسؤولية كفره، يعني سيتحاسب ويتجازى عليه.

{وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا}، قام بالأعمال الصالحة الجيدة، وفي الآية 15 السابقة توسعنا في دراسة هذه الجملة فراجعها، {فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ}، هم بالإيمان والعمل الصالح يهيئون لأنفسهم الأرضية التي سيبقون فيها، وهنا الإشارة لأرضية الجنّة فهم يمهدونها بالحدائق والبساتين والقصور... في مقابل الكفر الذي نتيجته بئس المهاد في النار.

الآية هنا تختصر لبّ تكليفه تعالى لنا، ولبّ ما يسمّى دينه القيّم، فلا يعرض علينا سبحانه شيئًا غريبًا عجيبًا منكرًا فاسدًا... لنؤمن ونلتزم به لمجرد أنه تعالى قاله، لا، بل هناك معلومات صحيحة واقعية ويدعونا سبحانه لنعتقد بها بدلًا من الاعتقاد بالخرافات والأوهام والكذب، فهناك إله واحد أحد... وسيعيد إحياءنا ليجازينا على ما اعتقدنا به وفعلناه من خير أو سوء في حياتنا.

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ{45})
بعملهم الصالح يمهدون... {لِيَجْزِيَ}، حتى يعطي سبحانه المقابل الذي حدّده كاستحقاق منه تعالى، {الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين هم في حالة اعتقاد والتزام بهذا الدين، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، وكانت أعمالهم موصوفة بأنها صالحة جيدة، ليجزيهم، {مِنْ فَضْلِهِ}، لسوف يعطيهم سبحانه من الأمور الجيدة التي منحها تعالى لهم وهي من الأساس ليست مفروضة عليه تعالى ليعطيها لهم، فهو سبحانه قرّر أن يعطيهم الجنة الرائعة الخالدة.

{إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}، ليس لديه نظرة محبّة للمنكرين للحقّ والمنكرين للالتزام بالصلاح، ولذلك لن يعطيهم من فضله، ولن يغفر لهم.

بالنسبة لوصفه تعالى بصفات المشاعر الإنسانية، فاللغة التي نستعمل كلماتها لصياغة المعاني، هي نابعة من حاجاتنا للتعبير عمّا نريد من الآخرين فهمه، ونابعة من قدرتنا على الفهم والعقل والخيال... وما يفوق قدرتنا على فهمه أو تخيّله، لن تكون كلماتنا دقيقة في التعبير عنه، وبالنسبة للتعبير عنه تعالى بلغتنا، بالتعبير عن أوصافه وقدراته وأفعاله عزّ وجلّ، فلدينا القرآن وهو كلامه تعالى عن نفسه بلغة من لغات البشر، وهذا لا يعني أن الكلمات التي يصف بها سبحانه نفسه هي تمامًا بنفس المعنى الذي نصف بها أنفسنا، أولًا نحن ليس لدينا القدرة على فهم ذاته سبحانه على حقيقتها، وبالتالي سنفهم الكلمات التي تصفه تعالى بالتقريب على ما نعرفه من بيئتنا، وحتى الملائكة العالية جدًا ليس لديها القدرة على فهم حقيقته سبحانه بسبب الفرق الهائل جدًا جدًا جدًا... بين كل المخلوقات وبينه تعالى.

بعبارة بسيطة: أيُّ كلمة من لغتنا أو سنخترعها لوصفه تعالى، فهي مجرد كلمة لن تغيّر من قدراتنا، ولن تجعلنا في مستوى من يفهم الطبيعة الإلهية.

استعماله تعالى لوصف نفسه في القرآن بكلمة "حبّ" ومشتقاتها، واستعماله بقية الكلمات من غضب وكره وانتقام ورضا... وحياة وسمع وبصر... فهذا لا يعني انطباقها عليه تعالى كما تنطبق علينا، وكما ترى فالأمور الواقعية تفرض

نفسها، نحن لا يمكن ولا بأي شكل فهم حقيقة طبيعته سبحانه، بسبب الفرق الهائل جدًا جدًا جدًا بيننا وبينه سبحانه وتعالى، وحتى يخبرنا سبحانه عن نفسه استعمل لغتنا التي نفهمها نحن، وتكلّم سبحانه معنا بطريقة يمكننا فهمها، ولم يخترع سبحانه كلمات جديدة "غير موجودة في لغتنا" لوصف نفسه، فهذا لن يعني لنا أي شيء، ولن نفهم منه أي شيء، وهذا ما نقصده بالواقع الذي يفرض نفسه، وعلى هذا فكلمات القرآن الواصفة له تعالى والتي نوصف بها نحن أيضًا، فسنفهمها مع الفارق بيننا وبينه تعالى، نحن لدينا مشاعر على قياسنا البشري، تتحكّم بنا مشاعرنا إن كانت قوية، وتتأثّر بها قرارتنا وتصرفاتنا حتى لو كانت مشاعر خفيفة، ونفقد العقلانية والحكمة والرزانة... حتى أننا نفقد بعضًا من تركيزنا على ما يجري من حولنا... أمّا سبحانه وتعالى فدائمًا حكيم، دائمًا رحمان، دائمًا سميع بصير...

هذا الكلام لا يعني أبدًا أن أوصافه تعالى بلغتنا أوصافٌ غير حقيقية، ويكون التعبير عن محبّته تعالى للمؤمنين بلا معنى بالنسبة له تعالى، أو يكون معناه فقط عمليٌّ ينعكس بإدخاله سبحانه المؤمنين إلى الجنّة، لا، فالحبّ شعور بالنسبة لنا، وكما تنطبق عليه سبحانه كلمة سميع ولا أذن له سبحانه، فكذلك كلمة حبّ وعموم أي شعور فهي تنطبق عليه سبحانه مع سحب خصائص البشرية من معاني تلك الكلمات، سبحانه لا يتأثر ضررًا أو نفعًا من مخلوقاته بأي شيء، ولكن لديه تعالى مواقف منهم ولديه تعالى وصف لتعامله معهم بشكل مختلف باختلاف اعتقادهم وأعمالهم، ولديه سبحانه قيمة مختلفة لهم... فهناك حبّ إلهي حقيقي بكل ما تحمله كلمة حبّ من معنى بعد تجريدها من الخصائص البشرية البحتة، ولم يصف سبحانه نفسه بكلمة شعور أو مشاعر بشكل مباشر، لأنها على ما يبدو كلمة محض بشريّة تشير للتفاعل مع الأمور، وسبحانه لا يتفاعل متأثّرًا مع أي شيء، بل فقط يفعل.

هناك كلمات أخرى كثيرة لا يصح استعمالها في حقّه تعالى لأنها بشرية بالتمام، بعضها من السهل انتباهنا له، فلا نقول: يهوى سبحانه، ولا نقول: تألّم سبحانه... وبعضها لا ننتبه له لأننا نتساهل في استعمال الكلمات، ولن تجد في القرآن وصفه تعالى بالمعرفة "ومشتقاتها" ولا بأي شكل، دائمًا استعمل سبحانه مشتقات من كلمة "علم" لوصف نفسه.

بمناسبة الكلام عن الدقّة القرآنية بالتعبير، فالمجازاة هي إعطاء المقابل على شيء فعله الآخر، والأجار "الأجر" هو عموم استحقاق أخذ شيء مقابل شيء بسبب تحديد قيمة الاستحقاق سلفًا، والفضل هو عامّة تقديم شيء لآخرين ليس لهم واجب عليك، أو ترك ما لك عليهم. وبهذه المعاني الأساسية استعمل القرآن هذه الكلمات، وبناء عليه انتبه دائمًا أنه لا يوجد تعابير قرآنية تعطي معنى فرض أي أحد أي شيء عليه تعالى، المؤمن العامل للصالحات لا يضرب رجله بالأرض "يحتجّ معترضاً" يوم القيامة ويطالب بالجنّة على أنها حقّ مفروض عليه تعالى أن يعطيه له، لا، فجملة سيجازي سبحانه المؤمن العامل للصالحات بالأجر من فضله، كلّها تعني أنه تعالى هو قرّر ذلك.

بقي شيء ضعه في بالك، في عموم ما ورد في القرآن أنه تعالى لا يحبّه، وردت حيث لا داعي للكلام القاسي، وخذ مثلًا كلامك معي حيث تريد تحذيري وتنبيهي فتقول: سأكسر عظامك لو فعلت كذا وكذا... فهذه نبرة عالية لا مبرر لها لأنك تعلم أني حاليًا لست ناويًا لفعل السوء، والجملة الأنسب: لا أحب أن تفعل كذا وكذا... وعلى هذا المفهوم جاءت الآيات التي وجّهت كلامها مع المؤمنين مستعملة عبارة مشابهة لعبارة "الله يحب أو لا يحب". وبهذا التحليل نفهم الخبر هنا في الآية عن أنه تعالى لا يحب الكافرين، ككلام لطيف مع الكافرين ليتراجعوا عن كفرهم، وككلام لطيف مع المؤمنين حتى لا يميلوا نحو الكفر.

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{ {46})

ستلاحظ أن الآية هنا على معنى: من الواضح جدًا أنه تعالى الإله الأحد الفائق القدرات الصادق الوعد الذي يشاء لكم رحمته... خذوا نموذجًا كدليل عن ذلك الرياح الماطرة وجريان الفلك...

{وَمِنْ آيَاتِهِ}، من الأمور المميزة التي قام بها تعالى لتدل على وحدانيته وعلى قدرته العالية وسيطرته، {أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ}، الهواء الذي يسير، {مُبَشِّرَاتٍ}، حيث تحمل الرياح الخبر السار المفرح، الرياح تدفع الغيوم باتجاهك وتستبشر بنزول الماء، {وَلِيُذِيقَكُمْ}، ليجعلكم تتحسسون وتلمسون، {مِنْ رَحْمَتِهِ}، من عنايته تعالى بكم لما فيه مصلحتكم، بتأمين الماء الذي تحتاجونه والذي تحمله الرياح لكم.

كما ترى، هذا نموذج سهل بسيط الفهم على جريان حياتنا بشكل عادي بما يؤمّن لنا المياه الحلوة التي نحتاجها، حيث لا علاقة لنا بأي شكل بهبوب الرياح وسيرانها بالغيوم ونزول الماء، وحياتنا متعلقة بهذه الظاهرة التي تؤمّن لنا مياه الشرب والريّ...

ويرسل الرياح، {لِتَجْرِيَ}، لتسير بالانتقال، {الْفُلْكُ}، عموم الأشياء التي تعوم على الماء، السفن والمراكب والفلوكة... تجري، {بِأَمْرِهِ} تعالى، لا تجري لوحدها، ولا إله غيره يجعلها تجري، هو تعالى صمّم وخلق البيئة التي سينتج عنها الرياح التي تحرّك السفن الشراعية، هي نفسها الريح تحمل بشرى نزول الماء وبشرى مناسبة السفر بحرًا لأن الريح ستدفع السفن... ولم يعد حاليًا من ضمن ثقافتنا الدارجة الاهتمام بمواعيد الرياح الموسمية التي كانوا يهتمون بها لتحديد مواعيد للسفر عبر البحر "كالرياح الأربعينية والخمسينية..."، وبشكل ما ما تزال من اهتماماتنا لمعرفة الطقس والأحوال الجوية...

{وَلِتَبْتَغُوا}، لتطلبوا، {مِنْ فَضْلِهِ}، من الأمور الجيدة التي منحها تعالى لكم وهي من الأساس ليست مفروضة عليه تعالى ليمنحها لكم، كوسائل الانتقال في البحر للتجارة والوصول إلى أماكن بعيدة فيها خيرات، ونقلكم ونقل بضائعكم... {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، من المفروض ومن المتوقّع أن تعبّروا عن جميل ما فعله الذي أنزل الماء ومكّنكم من السفر في البحر.

أنت تعلم بأنه تعالى لم يصنع السفينة ولم يحرّك الريح بيده مباشرةً كفعل بلا أسباب مترابطة مع الطبيعة، بل خلق الظروف والبيئة التي تجعل الريح يتحرّك بالغيوم الماطرة، وخلق خاصية عوم "الخشب" على الماء، وخاصية دفع الريح للأشياء، وخلقنا وخلق فينا الفكر الذي سيلاحظ هذه الظواهر وسيصنع السفن... ونفس الشيء ينطبق على كل ما سنصنعه وصنعناه من سيارات وطائرات وقطارات... نحن لم نخترع شيئًا لم يكن يعرفه تعالى سلفًا.

بعبارة بسيطة، نحن لم نخترع شيئًا لم يخطر على بال الله عزّ وجلّ، لا، بل كل ما يمكن أن ينتج عن فكرنا وتصاميمنا ونجاحنا في تنفيذه من ابتكارات واختراعات، هو معلوم سلفًا عنده تعالى، وصنع الفلك "السفن..." مجرد نموذج عمّا نتج من خلقنا بالقدرات التي فينا ومن خلق بيئة جهّزها تعالى لنا لتكون مجالًا واسعًا للابتكار والاختراع، وسلفًا يعلم سبحانه كل ما سيخطر على بالنا ونتمكّن من تنفيذه، لأنه خلقنا وخلق البيئة من حولنا، ويعلم قدراتنا، ويعلم ما يمكن أن ينتج من تزاوج فكرنا مع البيئة من حولنا، الآلات البخارية والمحركات النفطية أو الكهربائية أو النووية... بالنسبة لنا هي اكتشافات، أمّا بالنسبة له تعالى فهي مجالات منحها لنا لنكتشفها ونصنعها ويعلم سبحانه سلفًا متى سنكتشفها...

قاربها مع تصميمك أنت لآلة ما، لن تقوم الآلة بشيء لم يخطر على بالك، طبعًا هذه مقاربة مع الفارق الهائل بين الإله الذي لا يحتمل ولا يخمّن بل يعلم بدقة بما سيحصل، وبيننا بقدراتنا المحدودة، وقد تفعل الآلة التي صممناها وأنشأناها نحن شيئًا لم يخطر على بالنا.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ{47})

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ}، أطلقنا رجالًا ينقلون كلامنا إلى الناس من قبلك أيها الرسول محمّد(ع)، {إِلَى قَوْمِهِمْ}، إلى الناس الذين لهم كيان الجماعة والرسل كانوا ينتمون لجماعتهم، {فَجَاءُوهُمْ}، حيث جاء الرسل لقومهم، {بِالْبَيِّنَاتِ}، بالأمور الواضحة، التي تدلّ على وحدانيته تعالى وعلى دينه... وكمثال عن ذلك نقل الرسل للكلام الإلهي عن العقيدة الفاسدة وآثارها السيئة... ولفت الانتباه لما فعله تعالى فينا ومن حولنا كآيات دالة عليه سبحانه، كالكلام في الآية السابقة والتالية عن نماذج تعكس أفعاله تعالى...

{فَانْتَقَمْنَا}، أخذنا الحقّ الإلهي، {مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا}، لم نسامح ولم نعفُ عن الذين ارتكبوا الأعمال التي تستحقّ العقاب.

كما هو واضح جملة: أرسلنا رسلًا... تكملتها أن قومهم لم يؤمنوا وفعلوا السيئات، فانتقمنا من المجرمين منهم.

{وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا}، أوجبنا نحن الإله على أنفسنا، {نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}، ونحقّق للمؤمنين ما يريدونه ضد المجرمين.

أنت يا محمّد (ع) لست أول رسول، ولست بدعة، وخلفك امتداد تاريخي من الرسل عبر آلاف السنين، والمجرمون لهم امتداد تاريخي مع العقاب الإلهي.

كلامه سبحانه ليس لعبة حتى يستهتروا به، ولا آياته للسخرية، ولا رسله للتسلية، ولا أعمالهم الإجرامية ستمر من دون عقاب...

(اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاء كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ{48})
من هنا تعرض السورة فقرة قصيرة للفت انتباهنا إلى نموذج آخر بارز واضح جدًا عن رحمته سبحانه بعباده:

{اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ}، يطلق الهواء، {فَتُثِيرُ}، تحرّك وتهيّج الرياح، {سَحَابًا}، غيومًا كثيفة، لأن حركة الهواء تنقل بخار الماء، وعندما يسير في الجو يميل إلى التجمّع مع أي بخار ماء يصادفه، وهكذا حتى تجتمع كميّة كبيرة من البخار لتشكّل غيمة، وعندما تتكاثف لأقصى درجة ممكنة ويكبر حجمها يصير اسمها سحابة، {فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ}، يمدّ وينشر سبحانه السحاب في السماء، {كَيْفَ يَشَاءُ}، أمامه تعالى خيارات عديدة وبأي شكل يريد، وبأي علو يريد، وفوق أي مكان يريد... ينشر السحاب، {وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا}، تجمعات تكسف وتحجب عنّا رؤية السماء، {فَتَرَى}، يصير لديك صورة محدّدة عن، {الْوَدْقَ}، رشحات نقط الماء، {يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ}، حيث من تجمعات البخار يرشح الماء.

{فَإِذَا أَصَابَ بِهِ}، بالودق الذي صار مطرًا، {مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}، من الذين مفروض منهم طاعته تعالى لأنه خلقهم ويملكهم، {إِذَا هُمْ}، العباد، {يَسْتَبْشِرُونَ}، يتوقعون شيئًا مفرحًا سارًا، ينتظرون نزول الماء الذي يحتاجونه للشرب والغسيل وري المزروعات وسقاية الماشية... ولتجمّعه في برك وآبار... لاستخدامه فيما بعد...

لاحظ كيف اعتنت الآية بتفصيل كيفية تشكّل الغيوم ونزول الماء منها، وذكرت المراحل العامة التي في كل نقطة تلفت انتباهك للتصميم الإلهي الذي ينتج عنه "ظاهرة" نزول الماء، وهذا الروتين العادي المتكرر يحصل بسبب تصميمه تعالى لما نسمّيه نحن بقوانين الطبيعة.

بالنسبة لكلمة "كسف" وردت في آيات أخرى في الآية 92 من سورة الإسراء {أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا}، والآية 187 من سورة الشعراء {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}، والآية 9 من سورة سبأ {إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ}، والآية 44 من سورة الطور {وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ}، وفي غالبية التفاسير لتلك الآيات قالوا إنّ الكسف مرادف أو مصداقه القطعة المنفصلة، ومعلوم مشهور استعمال جملة "كسوف الشمس"، الكسف وصف لعموم ما حجب عن الرؤية ما خلفه، وما قالوه في التفاسير عن معنى آخر مختلف للكسف في الآيات، كان تخمينًا منهم ترى فساده من آيتنا هنا {فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا}، الغيوم تكسف السماء، وبالتالي تلك الآيات قصدت بالكسف عموم أي شيء ضخم لدرجة كسف السماء أثناء نزوله عليهم، ولم تقصد أن القبّة الزرقاء "سماء النهار" تتكسّر، ولا قبّة النجوم "سماء الليل" تتكسّر، لا، بل هو وصف نزول أي شيء كنيزك أو شهب... ويكون كبيرًا لدرجة كسف السماء مثلما نصف حالة كسوف الشمس حين تنحجب عنّا بالقمر.

(وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ{49})
{وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ}، المطر، {لَمُبْلِسِينَ}، يشعرون بأنه لا خلاص لهم من الحالة السيئة التي هم فيها من انقطاع الماء.

أهمية المياه الحلوة لا تحتاج لشرح كثير لنلتفت له، ومصدره المعتمد عمومًا على الأرض هو نزوله عبر المطر، وإلا البقاع التي يحصل فيها جفاف من انقطاع المطر فالأمور فيها ستكون كارثية، النباتات التي تعتمد على الري المباشر ستموت، وإن لم تتخزن المياه في الأرض وفي البرك، فلن تجري الأنهار... والحيوان سيهاجر أو سيموت...

حتى في بعض المدن التي لا يشعر سكانها بانقطاع الماء لأن الدولة تؤمّنها لهم من الأنهار أو البرك أو الآبار، عند انقطاع المطر أو نزوله بأقل من الكميّة المعتادة سنويًا، فإن الدولة تبدأ بتقنين المياه، وتضخّها في ساعات محددة وتأمر مواطنيها بترشيد استعمال المياه... أو سيشعر أهل المدن بأهمية المياه عندما يدفعون ثمنها غاليًا للبلديات وشركات المياه...

(فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {50})
{فَانْظُرْ}، من بعد نزول الماء عليهم وجّه اهتمامك العام، {إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ}، التفت إلى ما يتركه فيهم عنايته تعالى بما فيه مصلحتهم، {كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}، بعد نزول الماء تحيا الأرض، وتخرج النباتات.

{إِنَّ ذَلِكَ}، الإله الذي ترى آثار أفعاله، {لَمُحْيِي الْمَوْتَى}، لسوف يرجع الحياة إلى الأموات، {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، لا يعجز عن فعل أي شيء يريده بأي شيء، وأخبرنا سبحانه أنه قرّر إحياءنا مرة ثانية ليحاسبنا ويجازينا، ويخبرنا سبحانه أنه قادر على ذلك، والدليل واضح أمامك، أنت ككائن حي، لا تختلف عن النبات، وبعملية نزول الماء وإحياء الأرض التي تراها تحصل أمامك، وترى بشكل واضح أنها ضخمة ومعقّدة الإله وحده القادر على تصميمها وتنفيذها وجعلها تعمل، وهو نفسه يقول لك بأنك سترجع إلى الحياة، ويقول تعالى: إرجاعكم إلى الحياة أيها الناس مشابه لإرجاع الحياة للأرض الميتة بنزول الماء وخروج النبات، وتقرأ ذلك صراحةً في الآية 11 من سورة ق {رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} راجعها لمزيد من التوسّع.

(وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ {51})
{وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا}، إذا أطلقنا الهواء، {فَرَأَوْهُ}، صارت لديهم صورة محدّدة لريح وهو، {مُصْفَرًّا}، لونه أصفر من الرمال التي يحملها بدلًا من الماء، {لَظَلُّوا}، صارت حالتهم بلا انقطاع، {مِنْ بَعْدِهِ}، من بعد هذه الريح الرملية، {يَكْفُرُونَ}، ينكرون، ومن الواضح أن تكملة الجملة: ينكرون رحمتنا.

كما ترى، الآية هنا مع ما سبقها توسّعت في توضيح ما ورد في الآية 36 عن القانطين إذا أصابتهم سيئة، حين أمطرت بالماء الحلو ليشربوا منه ويسقوا زرعهم وماشيتهم... بعضهم أشرك أحدًا ما معه تعالى في هذه النعمة، وبعضهم لم يشكره سبحانه... وحين جاءتهم رياح رملية بدلًا من الرياح الحاملة للغيوم، هم يصيرون كفّارًا بنعمته سبحانه.

هناك شيء نعلمه بالبداهة من القرآن: الدنيا هنا ليست جنّة الآخرة. تبدو هذه الجملة بسيطة، ولكن هنا الآية تجعلنا نفهم قيمة هذا الكلام، الريح المصفرّة لا توجد في الجنّة، بل هنا في الدنيا لأن الدنيا دار مبنية لتكون: دار امتحان. ستحصل هنا في الدنيا أمور يمتحننا سبحانه بها ليس ليسقط المؤمن فيه بل ليظهر الخبيث على حقيقته، وبعض الناس تنسى كلّ نعمه وإحسانه سبحانه عند الاصطدام بأي امتحان! يكفرون به تعالى وينكرونه وينكرون رحمته ونعمته لمجرّد هبوب ريح رملية! وعلى هذا المعنى جاءت الآية 11 من سورة الحج {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}.

قارنها مع عموم الأمور الأخرى التي يقول فيها الناس كلام الكفر عندما يفقدون عزيزًا، أو عندما يخسرون مالًا... وهنا الكلام عن حالتين بسيطتين، حالة مرغوبة بهبوب الريح بالمطر، يستبشرون، وحالة هبوب الريح بالرمال المكروهة، يكفرون.

الآية هنا تريك هشاشة معتقدات الكثير من الناس بربهم، اقرأها واقرأ عموم القرآن وفي بالك أنه تعالى يعاملنا كما نحن، فلو آمنّا واستغفرنا سينتشر العدل والأمن والرفاهية بيننا، ولتدخّل سبحانه مانعًا الكوارث والحوادث السيئة بما تتحمّله هذه الدنيا الفاقدة لمواصفات جنّة الآخرة، جسدنا هنا يشيخ ويتضرّر من الحوادث... وتقرأ ذلك صراحةً في الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، ومع هذا ضع في بالك أن كلام القرآن عن البلاء والفتنة ليس المقصود منه إسقاط وتفشيل المؤمنين ليكفروا، بل حتى يظهر الخبيث على حقيقته، مجتمعٌ غلب فيه الخبث هذا أصلًا سينتشر فيه الظلم والخوف والفقر... وبما يراه سبحانه مناسبًا قد يتدخّل ليهلكهم...

(فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ{52})
إنك، أيها الرسول محمّد(ع) حين تشرح للناس معنى موقفهم مما يحصل معهم من ريح فيها خير وريح سيئة... وارتباط موقفهم منه بدينهم وبالآخرة... {فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى}، هناك أناس موصوفون بحالة فقدانهم للتفاعل، وهنا الكلام عن فقدانهم للتفاعل مع الكلام الإلهي الحقّ، هؤلاء لن يسمعوك.

{وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ}، الطرش، {الدُّعَاءَ}، ما تعلنه وتجهر به لهم، {إِذَا وَلَّوْا}، إذا ذهبوا باتجاه آخر، {مُدْبِرِينَ}، أداروا ظهرهم لك.

الأطرش إذا كانت عيونه باتجاهك تستطيع التفاهم معه بالإشارات، ولكن إن أدار لك ظهره وذهب مبتعدًا عنك، فقدت أي أمل بتوصيل المعلومة له لأنه لن يرى يديك وفمك وحركات جسدك.

تذكّر دائمًا أن القرآن يعتبر الشخص الذي لا يؤمن بالكلام الإلهي، يعتبره ميّتًا، فالميّت لا يتفاعل مع أي كلام، والكافر لا يتفاعل مع الكلام الحقّ، وهما متساويان. والأطرش إذا أدار ظهره لك فلن تستطيع التواصل معه لا بكلامك ولا بالحركات، والكافر يراك تحرّك فمك ولكن الكلام الإلهي لا يدخل إلى فكره، فالأطرش والكافر متساويان من هذه الناحية.

قارنها مع المشاكل الاجتماعية بين الناس، من المشاكل العائلية أو الزوجية أو بين الأقارب أو بين الجيران... حين تحاول إيجاد حل لمشاكلهم تصطدم برفضهم للكلام الحقّ، يكون الطرفان محقوقَيْنِ بالتساوي، أو على أحدهم الحقّ أكثر من الآخر... ونادرًا ما تجد شخصًا محقًّا تمامًا ومظلومًا تمامًا... وغالبًا تجدهم صلبين لا يتراجعون عن رأيهم ومطالبهم حتى لو كان الحقّ عليهم، دائمًا لديهم ردود على كلامك، ولديهم تبريرات لأفعالهم، ولا يقبلون تبرير أفعال غيرهم... تصل معهم إلى حيث تشعر بأنك تتحدّث مع ميّت لا يتفاعل مع كلام أو مع أطرش لا يسمع الكلام ويدير لك ظهره حتى لا يراك تتكلّم معه...

من هذه النظرة يخبرنا سبحانه وصفه للكافرين المصرّين على الكفر، مهما قلت لهم من كلام حق لتقنعهم، فلن ينفع معهم ليس لأن كلامك فاسد أو غير كافٍ لإقناعهم أو... بل لأنهم هم لا يريدون سماعه ولا الاقتناع به.

(وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ{53})
{وَمَا أَنْتَ}، ولست أيها الرسول(ع)، {بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ}، الذي لا يرى الطريق الصحيح بسبب عماه "عمى قلبه"، وهو يمشي على الطرق الخطأ بسبب عماه عن رؤية الحقّ، لا يمكنك جعله يرى الطريق الصحيح، لأنه أعمى لا يرى الحقّ.

{إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا}، فقط يصل كلامك إلى، {مَنْ يُؤْمِنُ}، من هو في حالة الاعتقاد، {بِآيَاتِنَا}، بالأمور المميزة المنسوبة له تعالى، {فَهُمْ مُسْلِمُونَ}، هم منقادون مطيعون له تعالى من بعدما يسمعون كلامك.

تكرّر شيء ملفت في القرآن، نحن عادة نفترض أن الشخص لا يكون مؤمنًا، ثم يسمع الآيات، يؤمن. ولكن العديد من الآيات تقول: شخص مؤمن يسمع الآيات فيؤمن بها. وهنا تقول الآية: عندما تتكلّم أيها الرسول(ع) بآياتنا فإن المؤمن يسمعها. فمن الواضح من القرآن أن الشخص يكون مؤمنًا أصلًا، ويؤمن بما يقوله الرسول لأنه يسمع ما يتماشى مع فكره ونفسيته، تذكّر حين يتحدّث القرآن عن القلب السليم، وعن العلماء، وعن أولي الألباب... هذه الصفات يجب أن تكون موجودة في الشخص حتى يؤمن بالدين الإلهي، وربما تكون موجودة بقوّة، وربما بشكل خفيف، ولكن إذا انعدمت صار الشخص ميّتًا أصمَّ أعمى... أيُّ آية مهما كان نوعها فلن تجعله يعلن إسلامه لله تعالى.

بالنسبة لفقدان البصر نتيجة خلل في جهاز الإبصار، في العينين أو الوصلات أو الدماغ... لم تقصدها آيات القرآن المشابهة لآيتنا هنا، وصف غير المؤمنين بالعمى ليس لأن صفة عمى البصر شيء معيب، لا، بل العمى عن رؤية نور الإيمان والحقيقة والآيات... هو المعيب، واستعمال كلمة العمى في الآيات هو بسبب دلالة هذه الكلمة على فقدان الرؤية، التي تشمل فقدان رؤية الحق والنور والآيات... وليس للإشارة إلى عموم فاقدي البصر أو السمع، هؤلاء فيهم مؤمنون، وسورة عبس أعطت المؤمن الأعمى قيمة عالية جدًا فراجعها.

يعني على الوصفية يصدق انطباق العمى على خلل في العينين أو وصلاتها مع الدماغ، ويصدق على عمى القلب، عمى أساس الفكر والنفسية عن رؤية الحق.

وردت نفس الآية هنا في سورة النمل في الآية 81 مع ياء لكلمة هادي {وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ...}، وترى الفرق بين الكلمتين من استعمال الآية 186 من سورة الأعراف {مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ...} ومن استعمال الآية 7 من سورة الرعد {...إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ}. ومن استعمال الآية 6 من سورة القمر {فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ}، لم تقل الداعي لأنه يصير معهودًا أي معلومًا معرّفًا، بينما أرادت الآية إبقاءه مجهولًا كإشارة لداع يدعو الناس، وفي سورة النمل رسمها كتّاب القرآن قديمًا بالياء لتعطي معنى أنك لست المعهود لهدايتهم، وهنا في سورة الروم رسموها بلا ياء لتعطي معنى أنك لست من عموم من يمكن أن يهديهم، وهذا شيء نعرفه حاليًا من الكتابة بسبب القواعد التي تعارفنا عليها لتحديد استعمال الياء المضافة، هذا من ناحية معرفة المعنى من رسم الكلمات، أمّا من ناحية اللفظ فعند الوصل لا يظهر فرق بين الكلمتين، ويظهر فقط إذا توقفنا على كلمة هادي، فمع الياء نلفظ الكسر، وبدون الياء نلفظ الدال ساكنة.

كما ترى، من طريقة الإلقاء نتعرّف على الرسم، وهذا موضع ليس من العادة فيه التوقّف للفصل، ربما من الوصل مع لفظ إشباع الكسر أو إهماله فرّق القدماء بين الحالتين، وهو الأرجح. حاليًا لم أتوقّف لتمييز لفظنا للكلمتين، ربما كان في زمان كتابة القرآن لفظ "كلهجة" تميّز بين الكلمتين.

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ {54})

{اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز هو، {الَّذِي خَلَقَكُمْ}، ركّبكم ألّفكم، {مِنْ ضَعْفٍ}، من أشياء فيها قوّة ولكنها غير كافية للحفاظ على الكيان ويمكن أن تتلف بسهولة، والكلام عن الخلق في مرحلة التلقيح والحمل والطفولة، وَأَثْنَاءَهَا لدينا قوّة ولكنها غير كافية لردّ مختلف أنواع الأخطار، {ثُمَّ جَعَلَ} سبحانه {مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً}، وهي مرحلة اليفاع والشباب والرجولة، {ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً}، ابيضاض الشعر، وهي مرحلة الشيخوخة التي يصير فيها جسدنا ضعيفا.

{يَخْلُقُ}، يركّب يؤلّف سبحانه، {مَا يَشَاءُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة ويقرر منها ما يراه مناسبا بحكمته، وَقرّر سبحانه أن نمر بهذه المراحل، وها نحن نمرّ بها كما شاء تعالى.

{وَهُوَ الْعَلِيمُ}، عن علم شاء سبحانه خلقنا بهذه الصفات، وهو، {الْقَدِيرُ}، يقدر على فعل أي شيء يريده.

لاحظوا المراحل التي تمرون بها، مَنْ جعلها هكذا؟ من صمّمها؟ من نفذّها؟ ومن يجعلها تتكرّر بنجاح بأعداد هائلة؟... هل بالصدفة؟ أو أنتم خلقتم أنفسكم؟ ولماذا لستم ضعفاء دائما؟ أو لماذا لستم أقوياء دائما؟ من قرّر أن تكونوا كما أنتم؟... من الواضح أن إلها قادرا عليما خلقكم، وهو يقول لكم بأنه سيعيدكم.

بقي شيء، هناك من لا يقول بأن الطبيعة خلقتنا ولا إله خلقنا، ولا بالصدفة... بل هذا حدث بسبب تراكم تكرار تريليونات المرات من التفاعلات بين المواد... مِمَّا أنتج الحياة... وَيرفضون تسمية الصدفة لهذه التريليونات من المرات التي نجحت واحدة منها، وَيقولون: الصدفة لمحاولات معدودة، أمّا تريليونات المحاولات فهذه حالة حتما سينتج عنها حياة على كوكب ما وليست صدفة... والقرآن ردّ على هذا الكلام بعدة طرق، أوّلها كلامه عن وجود تصميم إلهي لكل دنيا المخلوقات لتسير على مراحل وصولا إلى خروجنا إلى الحياة، وتوصيفنا لما نراه ونخمّنه بالفرضيات والنظريات وَمَا هو إلا محاولة منّا لفهم كيفية تصميمه وآلية صنعه تعالى لهذا الكون... والفكرة الساذجة عن رؤيته تعالى يفعل الشيء بلا سبب حتى نصدّق بأنه صمّمنا وخلقنا، هِيَ تسخيف للعقل، وتسخيف لقدراته تعالى، وما قدروه تعالى حقّ قدره.

الفكرة الساذجة بين الكثير من المنتمين لدينه تعالى عن قوله تعالى للأشياء أن تكون فتكون فورا، هَذِهِ بالنسبة لخلق ما في الدنيا هِيَ فكرة منافية لكلامه الصريح سبحانه عن خلق ما في الدنيا وخلقنا على مراحل "في ستة أيام"... وَبَسَّطْنَا مِرَاراً هذه الفكرة عبر افتراضك أنت تصمّم وتخلق كائنات في بيئة، حَيْثُ ستنعكس صفاتك وقدراتك على تصميمك

ومخلوقاتك، لِنَقُلْ أنك صممّتها لتنمو، وَهِيَ تحتاج للأكل، هَلْ ستخلق لها الطعام جاهزا مطهيا مبهّرا مملحا؟ أم ستجعل بيئتهم ينتج فيها الطعام؟ وفي هذه الحالة ألا تكون أنت رازقها؟ مِنْ هذه النظرة كثيرا ما كان كلام القرآن عن رزقه تعالى لنا، ومن لم يؤمن به تعالى لأنه لا يرى صحن الطعام ينزل من السَّمَاءِ أَوْ ينبثق أمامه فجأة من الفراغ فهذا لم يفهم قدرته ولا حكمته سبحانه من خلقه لنا هنا في الدنيا. ومن علق في ذهنه ما كان "ولا يزال بشكل ما" دارجا في ثقافات المتدينين، من الخلق الفوري لما في الدنيا، والخلق الفوري للإنسان "آدم"... فهذا لم يفهم القرآن.

الآن نأتي لما تقوله الآية هنا، والذي مرارا لفت القرآن انتباهنا له، مَا معنى هذه الأطوار في خلقتنا؟ لِمَاذَا لم تخلقنا الطبيعة خالدين؟ وَلِمَا لدينا الفكر؟ وقبله لماذا لدينا حياة؟ وما معنى الجوع والعطش والأحاسيس والمشاعر وترليونات التفاصيل فينا ومن حولنا؟ كَيْفَ يحصل هذا من دون تصميم؟ من دون إله صمّم وخلق؟ والذي لم ير ذلك فهو أعمى وأصم وميّت...

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ{55})

{وَيَوْمَ}، في الزمن الذي، {تَقُومُ}، تتفعّل وَتحصل، {السَّاعَةُ}، وغالبا يشير القرآن بالساعة إلى أوّل ساعة من ساعات يوم قيامنا من الموت وهي ساعة عودتنا إلى الحياة، عندها، {يُقْسِمُ}، يؤكّد على صحّة شيء، {الْمُجْرِمُونَ}، المرتكبون للأعمال التي يستحقون عليها العقاب، يؤكدون باستعمال طرق التأكيد الكلامي وَيقولون مثلا: والله... أنهم، {مَا لَبِثُوا}، وسياق الكلام أنهم لم يمّر عليهم زمن وهم في حالة الموت، {غَيْرَ سَاعَةٍ}، فقط زمن محدّد قصير من زمن طويل، ساعة واحدة بقوا فيها أمواتا، لِأَنَّهُمْ كانوا فاقدين للوعي ولن يشعروا بمرور الوقت حتى لو مرّت عليهم مليارات السنين.

{كَذَلِكَ}، بهذا الذي ننقله لكم عن كلامهم في يوم القيامة عن تقديرهم لمدّة بقائهم أمواتا لساعة، {كَانُوا يُؤْفَكُونَ}، كانوا يقولون كلاما بالعكس، حَيْثُ هنا في الدنيا كانوا يقولون: نستبعد ولا نؤمن بقيامنا من موتنا. ولكن في الآخرة أفكوا الكلام وَقلبوه بالعكس، لِذَلِكَ يؤكّدون أنهم لم يبقوا أمواتا لمدة طويلة بل لمجرّد ساعة وَهَا هُمْ عادوا إلى الحياة.

كلمة يوم تشير للزمن الذي يقع فيه حدث أساسي ويتضمن ساعات، وفي الساعات تحدث أمور لها بداية ونهاية في كل ساعة كحدث فرعي، ويوم القيامة في الآخرة، هو يوم طويل جدا جدا، يبدأ من "ساعة" قيامنا من الموت، ويليه أيام فيها ساعات حشرنا والحساب الفردي والجماعي... والنهاية بآخر يوم وآخر ساعة بدخول آخر شخص إلى الجنة أو إلى النار. والقرآن غالبا يشير إلى ساعة خروجنا كلنا من الموت لِأَنَّهَا التي ينكرها المنكرون.

معلوم لك أن تحديد الساعة بستين دقيقة واليوم بِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ ساعة، هذا شيء جديد على البشرية، وقديما وللاستخدام اليومي كَانَتِ الساعة زَمَناً قَصِيراً لحدث فرعي من النهار، كساعة الظهيرة، وساعة العسرة، وساعة ولادة طفل... وَهِيَ فترة زمنية مطاطة لتوصيف حدث فرعي، ومثله كلمة يوم بالاستعمال قديما هِيَ مطاطة بحسب الزمن الذي استغرقه الحدث، كيوم الحرب، ويوم القيامة... ويوم من ستة أيام لتشكّل السماوات والأرض... وَبِنَاءً عَلَى الاستعمال القديم لكلمة يوم وساعة هُمَا لَيْسَا مَحْدُودَيْنِ بليل ونهار، ومن ناحية ثانية اسْتِعْمَالُهُمَا على الاسمية سيحددهما بما يسمّي بهما الناس عادة، ولكن على الوصفية مع مطّاطية زمنهما ليشملا أي زمن لحدث أساسي "يوم"، أو أي زمن لحدث فرعي "ساعة"، كِلَاهُمَا بالاستعمال العربي والقرآني مناسبان لوصف أزمنة يكون طولها بالسنين...

مرّ في سور أخرى تخمينهم لمدّة بقائهم أمواتا بعشرة أيام كتقدير أولي، بعدها أمثلهم طريقة قدرها بيوم واحد كما ورد في الآيات 103 و 104 من سورة طه {يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا}، {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا}، وهنا يقسمون لِأَنَّ لديهم تَأْكِيداً أنهم لبثوا في موتهم ساعة، وكما ترى هِيَ تقديرات مختلفة بالنظر إلى حالة وهلة القيام من الموت المانعة من التفكير العميق لمعرفة ما جرى... ومعلوم أنها كلها تقديرات تخمينية غير صحيحة، لِأَنَّ فاقد الوعي "الميّت" لا يشعر بالزمن الذي مرّ عليه أثناء فقدانه لوعيه، حَتَّى لو مرّ عليه مليارات السنين لَنْ يشعر بمرورها.

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ{56})

{قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}، الذين صار عندهم العلم منه سبحانه، حَيْثُ عندهم معلومات مطابقة للواقع، {وَ}أوتوا {الْإِيمَانَ}، لِأَنَّ لديهم حالة الاعتقاد بالدين الإلهي، قالوا للمجرمين:

{لَقَدْ لَبِثْتُمْ}، مَرَّ عليكم زمن في حالة الموت، {فِي كِتَابِ اللَّهِ}، حيث تسجّل الزمن على موتكم، {إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ}، من موتكم مرورا بانتهاء الدنيا بتبدّل السماوات والأرض حتى زمن إنهاضكم من الموت، وَهِيَ مدة طويلة جدا ولكن لم تشعروا بمرورها، {فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ}، هَذَا هو زمن الإنهاض من الموت، {وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}، وتكملة الجملة أنكم كنتم لا تعلمون أنكم ستقومون من الموت، ولذلك لم تحسبوا حسابا لذلك وَلم تؤمنوا ولم تعملوا الصالحات، أمّا نحن فنعلم وكنّا نؤمن بأن الزمن طويل ولكن في النهاية سنقوم من الموت.

ننتبه، من ينم أو يمت سيفقد وعيه، ولن يشعر بمرور الزمن، وَلَوْ غفا لثانية أو لِمِلْيَارَاتِ السنين، فَبِالنِّسْبَةِ له مثل بعضها لأنه فاقد للوعي ولا يشعر بمرور الوقت، وهنا الآية مثلها مثل غيرها من الآيات التي تشير لحالة فقدان الوعي وبالتالي فقدان الشعور بطول زمن حالة الموت.

تذكّر أن تركيز السورة هُوَ على إنكار بعض الناس للعودة إلى الحياة من الموت، وهنا تخبرهم السورة بأنكم عندما تفتحون أعينكم من الموت ستتفاجؤون بالمدة القصيرة التي شعرتم بمرورها، وستقسمون أنكم لم يمرّ على موتكم إلا ساعة، وبالعكس أَنْتُمْ الآن في الدنيا تقسمون أنها لن تحصل.

قارنها مع تصوّرنا الآن للزمن الطويل الذي مرّ سابقا على الأموات الذين ماتوا من آلاف السنين، ولم يحصل شيء وَما زالوا أمواتا، حَيْثُ فِي بالنا أن كل ما فات عليه زمن طويل صَارَ من الماضي ولن يتغيّر حاله، وكأنه يوجد فرق بين من مات منذ قليل وَقَدْ يرجع إلى الحياة، وبين من مات منذ زمن طويل جدا، وَرَدًّا على هذه التصورات يأتي كلام القرآن ناقلا مشاهد من الآخرة للذين كفروا بها وكانوا في الدنيا يستبعدون رجوع من مات من زمن طويل إلى الحياة، حَيْثُ فِي الآخرة هم أنفسهم ماتوا منذ زمن طويل، على الأقل كانوا أمواتا خلال تبدّل السماوات والأرض الذي إذا قارنته مع ولادة السماوات والأرض الدنيا، فَيَكُونُ بِمِلْيَارَاتِ السنين، ولكنهم يقسمون أنهم لم يلبثوا أمواتا أكثر من ساعة، أو يوم أو أيام قليلة...

بقي شيء ضعه في بالك، عمّا في موروثنا الثقافي الديني عن عذاب القبر والبرزخ... لا يتماشى مع المفاجأة وفقدان الشعور بمرور الزمن الذي تقرؤه هنا في الآيات وفي غيرها العديد من السور، وللأسف مُدَّةً بعد مدّة يدرج شيء ما بين الناس وينتشر متغلبا على أي معلومة أخرى، ويصير موروثا دينيا مَمْنُوعاً معارضته، حَيْثُ لدينا روايات صريحة متماشية مع مفاهيم القرآن التي تؤكّد فقدان الجميع لوعيهم من لحظة موتهم إلى بعثهم، إلا المقتولين في سبيله تعالى المشاركين في قتال، ويقابله روايات فيها الاحتفاظ بالوعي بعد الموت في القبر وعالم البرزخ لكل الناس... وهذه الأفكار درجت بين الناس مع أنها مخالفة لصريح القرآن، وبدل رفضها جَعَلُوا لها تفسيرات وتخريجات من القرآن! متخطين صريحه الذي يشير لفقداننا للوعي من لحظة موتنا حتى بعثنا!

لا تحكم على كلامي بالضبابية، راجع أولا الروايات وسترى أن القسم الذي مضمونه يوافق دراستنا هذه، مطمور، وراجع في هذه الدراسة الآيات التي تظنّ أنها تؤكّد الرأي الآخر وسترى أن كلامنا هو الأرجح.

(فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ{57})
{فَيَوْمَئِذٍ}، يوم القيامة من الموت وما بعده من الحساب، {لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا}، الذين لم يكونوا منصفين ولا عادلين حين تركوا الحقّ والصلاح، حَيْثُ لم يكن معهم حق حين كفروا بما عليه أطنان من الأدلة القوية الواضحة، لن ينفعهم، {مَعْذِرَتُهُمْ}، أَيِ الأعذار وَالأمور التي سيقولونها عن سبب كفرهم وإنكارهم للبعث كتبرير، لَنْ تكون مقبولة لأنها ليست صحيحة ولذلك لن تفيدهم للنجاة من العقاب، {وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}، لَا يقول لهم أحد كلاما يعاتبهم فيه، لأن العتاب يكون كلاما لشخص تحترمه أو تحبّه... قَامَ بعمل سيّء فَتَلُومُهُ عليه حتى يندم وتسامحه، أمّا هؤلاء فلا أحد يحبهم ولا أحد يحترمهم وَلن يستعتبهم أي أحد على ما فعلوه من سيئات، ولن يسامحهم تعالى على ذنوبهم، بل سيرون الغضب الإلهي فقط.

بعبارة أخرى، الذي تعاتبه يكون له قيمة ما عندك كعزيز عليك، وتريد سماع كلام منه عن ندمه واعتذاره عن خطئه حتى تسامحه، والظالمون بكفرهم بالدين الإلهي الحقّ الواضح، يعتذرون ويبررون ولكن ليس لهم قيمة عنده تعالى حتى يعتبره معاتبة ليسامحهم.

قارنها مع مؤمن لديه الكثير من التقصير في واجباته الدينية، وخلط صالحا بسيء... هُوَ لم يرتكب ذنبا من الكبائر التي حكمها الخلود في النار، أو فعلها ولكنه تاب منها قبل موته... أو توقّف عنها لسبب أو لآخر... هَذَا في يوم القيامة سيعتذر ليكون عذره تبريرا مقبولا لما فعله، وانتبه أَنَّ الاعتذار مقبول كتبرير حتى ينال المغفرة، لَا تبرير لفعل السوء عن قصد، وسبحانه سيحاسبه عتابا، على أساس أنه لمس طعم الإيمان وفهم معناه الصالح لدنياه وآخرته، فلماذا لم يلتزم به... وهذا هو العتاب.

خوفه أثناء حسابه، بل وتعرّضه لبعض أنواع العذاب قبل انتهاء الحساب... وتعذيبه النفسي باللوم والعتاب... وربما تعذيبه "عتابا" لمدة ما في النار... فِي النهاية يَتَزَحْزَحُ عن النار ويدخل الجنة أو يدخل النار لمدة... ولكن في النهاية سينجو منها...

طبعا انتبهت أني أقرب لك الصورة فقط لترى أن الظالم من عيار الكفر بدينه تعالى، عَلَى ماذا سيعاتبونه وهو أصلا ليس من المعدودين بأنهم آمنوا؟! لِأَنَّ العتاب له معنى لمن كان مؤمنا ولديه تقصير بالالتزام الديني، أمّا الذي في الآخرة آمن فَالْحِينُ حِينُ حساب ومجازاة له في الآخرة وليس حين عتاب.

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ{58})
{وَلَقَدْ ضَرَبْنَا}، أقمنا، {لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ}، في هذا الكتاب الذي يمكنكم قراءته، {مِنْ كُلِّ مَثَلٍ}، فِي كل موضوع مهمّ قلناه لهم كان له كلام تشبيهي لتقريبه من فهمهم، وها نَحْنُ ضَرَبْنَا لهم مثلا عمّا يقوله المجرمون عن قسمهم في الآخرة للبثهم في حالة الموت فقط لساعة، وقلنا لهم الكثير من الأمثلة الأخرى.

{وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ}، إذا أتيت أيها الرسول(ع) لمنكري الآخرة بشيء مميّز، {لَيَقُولَنَّ}، سَوْفَ يقول، {الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين انكروا دينك: {إِنْ أَنْتُمْ}، فَقَطْ أنتم أيها المؤمنون بهذا الدين الإلهي، {إِلَّا مُبْطِلُونَ}، نوعيتكم من نوعية الذين يقومون بالأعمال الباطلة العاطلة غَيْرِ الصَّحِيحَةِ.

لَدَيْكُمْ أيها المؤمنون طُرُقٌ ملتوية لمحاولة إقناعنا بدينكم، وَهذه الأمثلة عن الآخرة التي نسمعها منكم نقلا عن القرآن، مَا هي بحقيقية، بل هي باطلة وَمُجَرَّدُ تخويف لنا حتى تستغبونا لنؤمن بدينكم خوفا من العقاب الذي تُخْبِرُونَنَا عنه. علما أن الكلام الإلهي عن العقاب كلام حقّ، لِأَنَّ الفاسد والمجرم ماذا يستحق غير الحساب والعقاب؟

بقي شيء عن معنى كلمة "مثل"، تَقُولُ لي: صرفك للمال بهذه الطريقة التي لا تحسب فيها حسابا للأيام السوداء، سيوقعك فيما لا تحبّه. وَأَقُولُ لك: لا تتكلّم معي بالفراغ واعطني مثلا عمّا سيحصل معي. وَتَقُولُ: مثلا تَمُرُّ ظروف اقتصادية صعبة ولا تكسب من تجارتك، وبما أنك تصرف كل مالك الآن ولا يبقى معك شيء كاحتياط، فَسَتَضْطَرُّ للاستدانة... ومثل آخر، تَضْطَرُّ لبيع سيارتك الغالية الثمن بسعر رخيص... ومثلا تَضْطَرُّ للاقتصاد في طعامك وتلبس ثيابا قديمة لست معتادا عليها... وَكل هذه "أمثلة" مشابهة للأمثلة التي يعرضها القرآن عن الحالات المتوقّعة للظالمين في الآخرة.

ونفس المعنى لكلمة مثل حين نوصّف الآيات الإلهية بها، حَيْثُ تَقُولُ للكافر: الإله واحد أحد واسمه الله عزّ وجلّ. وَيَقُولُ لك: اعطني مثلا عن ذلك. وَتَقُولُ له: مثلا، اسْأَلْ نفسك من خلقك؟ مثلا من جعل فيك الصفات التي نسمّيها إنسانية؟ مثلا من خلق بيئتك؟...

تذكّر دائما أن كلمة قرآن وصف لعموم ما يمكن قراءته، سواء قاله تعالى أو قاله البشر، وبالأصل ليست مخصصة لكل الكتاب الذي نزل منه تعالى على الرسول محمّد(ع)، وَاسْتَعْمَلَ سبحانه الوصف بالقرآن للكتاب الذي نزل على النبي محمّد(ع) واصفا تحوّله إلى العربية بحيث يمكننا نحن البشر قراءته، ومن قبل كان معلومات في كتاب رئيسي لا قدرة لنا على قراءتها، وبناء عليه لُغَوِيّاً واصطلاحا الْآيَةُ الواحدة قرآن، والسورة قرآن، وكل هذا الكتاب الإلهي قرآن، لِأَنَّ

كلمة قرآن وصف لما يمكن قراءته، وَهِيَ وصف لكل آية أو سورة نزلت، وفيما بعد انتهاء نزول الكتاب بوفاة الرسول(ع)، صارت كلمة قرآن وصفا لكل ما نزل منه تعالى من كتاب على رسوله محمّد(ع).

(كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ{59})
{كَذَلِكَ}، بالذي ذكرناه لك عن قول الكافرين للآيات والأمثال أنها باطلة، {يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}، المعلومات القرآنية مطابقة للواقع ولكنها لا تدخل إلى قناعتهم، حَيْثُ إِنَّ الْعِلْمَ الذي لديهم ليس له قيمة لأنه لا يتماشى مع الواقع، لِذَلِكَ هُمْ لا يعلمون، وقلوبهم أي أساس فكرهم ونفسيتهم صار عليه طبع، وَصار عليه شيء مترسّخ، وَصارت طبيعتها رافضة لأي آية إلهية تدل على الإيمان.

من المشتقات الدارجة من معنى الطبع أن تطبع يدك على الطين، أو تطبع شيئا ما على الشمع الذائب، ولكن أصل المعنى هو الطبيعة، وَهُوَ ما يصير عليه الشيء مترسّخا كصفة لا تنفصل عنه.

هكذا خلقنا سبحانه، بأساس فكري ونفسي "قلب" ينطبع وَيَتَقَوْلَبُ ليترسّخ على نوعية من الأفكار والمشاعر بسبب قرارتنا وتصرفاتنا وتمرّسنا عليها، وَمَنْ رفض لأول مرّة كلاما حقّا، وبعدها رفض غيره... وبعدها وبعدها... فهذا سينطبع قلبه على رفض الحقّ، وَلَنْ يَعُودَ بإمكانه قبول الحقّ ولا الأمثال القرآنية ولا الآيات الإلهية، لِأَنَّ قَلْبَهُ سيرفضها ولن يتماشى معها.

بعبارة أسهل، تصوّر نفسك برمجت لعبة فيها كائنات إذا مرّت على بقعة ما فستحترق، وَبِسَبَبِ تصميمك لها هكذا احترقت، لِذَلِكَ أَنْتَ أحرقتها، وتصوّر نفسك صمّمت وخلقت كائنات تجوع، وأتحت لها الطعام في بيئتها، لِذَلِكَ أَنْتَ أطعمتها. مِنْ هذه النظرة ينسب سبحانه لنفسه ما يحصل معنا، حَيْثُ خلقنا مع خاصية انطباع قلوبنا من تكرار عمل ما، مثل حالة تعلّم المهارات من نجارة وعزف على آلات الموسيقى ومعادلات رياضية... ومثل معاندة الحقّ، وَكُلُّ هذه الأمور وأشباهها أَسَاسُ تأثرنا بها واحد، وهو الانطباع من كثرة الممارسة والتكرار، ومن جعلنا هكذا؟ الله سبحانه ولذلك ينسب لنفسه الطبع على قلوبنا، وأنه رازقنا ومحيينا ومميتنا، وهادينا ومضلّنا...

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ{60})
{فَاصْبِرْ}، أيها الرسول(ع) وأيها المؤمن، تَصَرَّفْ عن وعي ودراسة ولا تفلت أعصابك، ولا تفقد التحمّل وتقوم بأعمال لا نرضى عنها، {إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ}، مَا قاله سبحانه أنه سيفعله حَقّاً سيفعله، وهنا الكلام عن الآخرة التي قال تعالى أنه سيعيدنا فيها إلى الحياة ليحاسبنا ويجازينا، {وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ}، لَا داعي لتشعر بأن كلامك أو دينك قليل القيمة ولا اعتبار له بسبب تعاملهم معه بِاسْتِخْفَافٍ، بقلّة قيمته، {الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}، الذين ليس لديهم اعتقاد بمطابقة ما تقوله عن الوعد الإلهي مع الواقع.

ما نقوله لك عن الآخرة أكيد، وَتَبَيَّنَ لك في هذه السورة تأكيدات عليه من عدة نَوَاحٍ... والعلم الذي حصلت عليه من كلامنا هُوَ يقيني، وَهُوَ مطابق للواقع، وَحَتْماً سيحصل، وعندما يستخفّ الكفّار بكلامك فاصبر لأنك تعتقد بشيء حقيقي سيحصل، وهم عن جهل وعن تكبّر وعن عبادة الهوى وعن انطباع قلبهم على الكفر... ينفون الآخرة، لِذَلِكَ لَا يوجد أَيُّ دَاعٍ لتتأثّر من استخفافهم بكلامك لِأَنَّكَ على الحقّ.

تفهمها عندما تتكلّم بشيء وأنت متأكّد من صحّته ولكن الذين حولك من الناس يضحكون من كلامك لأنهم لا يُصَدِّقُونَكَ، لِذَلِكَ تَشْعُرُ بأنك محلّ سخرية وقلّة قيمة...

كما ترى، اختتمت السورة كلامها عن صدق وعده تعالى بالآخرة مثلما افتتحت كلامها عنه.

كلمة يقين بحسب استعمال العرب لها وبحسب استعمال القرآن تعني: معلومة مطابقة للواقع. وكمثال: عِنْدِي معلومة بأن الخبز في المطبخ. وواقعا في الحقيقة كان الخبز هناك، وَهَذِهِ معلومة يقينية لأنها مطابقة للواقع. أمّا لو كنت لسبب أو لآخر متأكدا بأن الخبز في المطبخ، وعندي براهين على ذلك، وفي الحقيقة والواقع لم يكن الخبز في المطبخ، فحالتي لا توصف باليقين لأنها لم تتطابق مع الواقع، وبهذا المعنى حصريا استعمل القرآن كلمة يقين، حَيْثُ إِنَّهَا معلومة مطابقة للواقع، وأمّا درجة تأكدي من معلومة ما، فلا تُوصَفُ باليقين إلا إذا طابق الواقع.

سورة لقمان (31) ص 411
اتخذت السورة من لقمان(ع) نموذجا لشخص وصله الدين الإلهي فتماشى معه، وقارنته مع عموم الذين وصلهم كلامه تعالى فاتخذوه لهوا، حَيْثُ إِنَّ مِحْوَرِيَّةَ السورة حول آياته ودينه تعالى وبالخصوص نعمته تعالى الواضحة علينا وموقف الناس منهما، بين لَاهٍ يجادل بالحق والصلاح الذي يأمر به تعالى، وبين محسن مؤمن بالحقّ.

تَطَرَّقَتْ إلى الأدب في السلوكيات وعرضتها عن لسان لقمان كنموذج عن أي إنسان عاقل رزين يرى الحق والخير وينتبه لأدق التفاصيل، وَثَبَّتَهَا القرآن وَذَكَرَهَا لنا كأساسيات ونماذج عن السبيل الإلهي، وَإِنْ كانت بقية السور تتداخل مع سورتنا هذه بموضوع آياته تعالى ودينه واختلاف مواقف الناس منها، فسورتنا هنا انفردت بجمع بعض السلوكيات الإنسانية الراقية وجمعتها في سياق واحد على أنها من تعاليم دينه سبحانه، لترى الفرق بين الهدى للحق والخير وبين لهو الحديث والضلال.

مِنَ الواضح حثّ السورة لنا على تربية أولادنا على الصلاح، لِأَنَّ الْكَلَامَ المنقول عن أب وابن في نصائح عن سلوكيات شبابية وهي نفسها تتجدّد في كل عصر، وتنطبق على الفتيان والفتيات.

بِالنِّسْبَةِ لنبوّة لقمان أو كونه عبدا صالحا، فَمَا ورد في سورة الكهف عن أَصْحَابِ الْكَهْفِ وصاحب الجنّة وذي القرنين والذين ساعدهم العبد الصالح، حيث لم تذكر السورة أي ارتباط بالانتماء بالاسم لدينه تعالى، ومما يذكره القرآن عن الشابّ إبراهيم(ع) في معاناته مع قومه إلى حين مُحَاوَلَتِهِمْ إحراقه، وحينها لم يكن نبيا، ترى عمقا آخر للقرآن بكلامه عن آخرين كلقمان وآدم وامرأة فرعون ومؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه... وستفهم قصدي حين تقارن توحيد هؤلاء مع توحيد فلاسفة اليونان الذين لم يكونوا منتمين بالاسم لدينه تعالى، ولا علم لنا باطلاعهم على كتبه تعالى، ولا على تواصلهم مع مُنْتَمِينَ لدينه تعالى، ورغم ذلك وصلوا لأعلى درجات الإيمان بالتوحيد، ولم يذكرهم القرآن "لا هم ولا أمثالهم" لأنهم لم يكونوا بسلامة القلب العالية الموصلة للتعرّف على الآخرة وربما لم تكن سلوكياتهم صالحة بالقدر المطلوب لعرضهم كنماذج.

يعني لا تنظر لدينه تعالى كدين لجماعة مغلقة، بل لنماذج من البشرية وصلوا لأرقى سلامة القلب، وَالْأَعْلَوْنَ بينهم انحصروا في ذرية آدم، وبعده في ذرية نوح، وبعده في ذرية ابراهيم، ليس لأنه تعالى حصر النبوة في هذه الذراري، بل لأن الْمَوْلُودِينَ من هذه الذراري تميّز بعضهم بسلامة قلب عالية ولهذا اختارهم تعالى كأنبياء ورسل، وهذا لا يقلّل من شأن البقية كالذين ذكرتهم لك، حَيْثُ مِنْهُمْ مُؤْمِنُونَ صَالِحُونَ من درجة عالية، ولكنها أقل مما يناسب لتوظيفهم بالرسالة أو بالنبوة، ولمزيد من التفاصيل حول ذلك راجع دراسة الآية 33 و 34 من سورة آل عمران {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}، {ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم
(الم{1})
هذه حروفٌ نتهجّاها مقطّعةً هكذا: ألف لام ميم.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوَّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة

الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية،

لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ{2})
{تِلْكَ آيَاتُ}، تلك "الأحرف" التي بها تحوّلت المعلومات المميزة التي في الكتاب الرئيسي لتصير قرآنا، وذلك الكتاب حكيم فليس فيه معلومات عابثة أو للتسلية بل كله على ضبط الأمور على المطلوب بِالصَّوَابِيَّةِ.

هذا القرآن من كتاب أساسي حكيم جعل فيه تعالى كلّ المعلومات عن الدنيا والآخرة، وبالتالي مَا في القرآن حكيم، فعلى هذا الأساس تعاملوا أيها الناس مع المعلومات التي فيه، وما سيرد في هذه السورة نماذج من الحكمة الإلهية.

(هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ{3})
الآيات، الأمور المميزة التي نزلت من الكتاب الحكيم وصارت قرآنا نَقْرَؤُهُ هي:

{هُدًى}، تضع على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة، {وَرَحْمَةً}، فهي عناية لما فيه مصلحة، {لِّلْمُحْسِنِينَ}، لمن كان عملهم مَوْصُوفاً بأنه حسن جيّد، حَيْثُ من الأساس كان عمله حسنا ولديه إرادة الاستمرار عليه، فهذا الكتاب الإلهي له لأنه سيعرّفه على الأعمال الحسنة التي يرغب بالتعرّف عليها، وسيقوّم له ما اشتبه عليه.

كلمة "محسن" ومشتقاتها هي وصف لعموم من قام بعمل حسن، أمّا التنازل عن حَقِّكَ للآخرين أو منحهم ما لا يستحقون أو التفضّل عليهم... فهو من تطبيقات الِاتِّصَافِ بالعمل الحسن، فليست كلمة محسن، محسنين، إحسان... مخصصة لهذه العناوين.

ضع في بالك دائما أن القرآن بالأصل والأساس يصنّف الناس أنهم عمي وبصيرون، وذوو قلوب سليمة وآخرون بقلوب مدموغة مختومة على الكفر، صُمٌّ وَسَامِعُونَ، مجرمون وصالحون... فهذه الصفات لعموم الناس قبل نزول القرآن، والقرآن موجّه لأصحاب القلوب السَّلِيمَةِ فيهديهم ويكون رحمة لهم، أمّا أصحاب القلوب السوداء فلن ينفعهم القرآن أبدا بتاتا إلا إذا كان في قلوبهم بذرة خير فيها احتمال أن تكبر... وعندها يبدأ انتفاعهم من القرآن ليهتدوا به... وهنا كما ترى من الآية هناك محسنون، لِأَنَّهُمْ من الأصل يقومون بالأعمال التي يرونها حسنة، وهذا القرآن يريهم العقيدة والسلوكيات الحسنة من منبعها الصافي، من الإله ذي الصفات الحسنة، فسيتماشون معها، ويكون هذا القرآن هدى لهم.

هذا المفهوم القرآني أساسي، حَيْثُ سبحانه خلقنا جاعلا فينا القدرة على تمييز الخير من الشرّ، والحقّ من الباطل... وَمِنْ دون وحي منه تعالى ولا كتاب، نحن مُزَوَّدُونَ بالقدرة على تمييز الحسن من السيّء، وقدرة التمييز هذه سيفقدها جزئيا أو كليا من تمرّس على اتباع هواه السيّء وصار ظالما جبارا مسرفا مترفا... وبناء عليه يحاسبنا ويجازينا سبحانه على ما اخترنا نحن فعله مما نعرفه ونميّزه من خير وشرّ...

بعبارة مباشرة: لا يوجد شيء سيّء في دينه تعالى، فمن يَقُلْ عن شيء ديني بأنه لا يعجبه، فإن كان فعلا وحقّا من كلامه تعالى، فحتما هناك خلل عندنا في تمييز الحسن والسوء، لأن أوامره تعالى كلّها حسنة. وإلا، مَا نعتقد بأنه أمر

إلهي مع رؤيتنا له سيّئا، فهذا لن يكون أمرا إلهيا، بل هو فهم غير صحيح لكلامه تعالى، أو تفسير في غير محلّه، أو استنباط مبني على رؤية كلامه تعالى من خلال غشاوة منعت من رؤية الحقّ...

مِحْوَرُ كلام هذه السورة يدور حول موقف الكفر والإيمان من كلامه تعالى، وبدأت السورة بالمحسن أصلا وبعدها آمن واهتدى "متماشيا" بكلامه تعالى من بعدما سمعه، لأن كلامه تعالى يتماشى مع فكره ونفسيته، وستعرض السورة نموذج المحسن لقمان الذي استنبط مفاهيم سلوكية حسنة من فكره ونفسيته الحسنة وهذه القدرة ممنوحة منه تعالى لنا جميعا، والحفاظ على سلامتها جعلته متماشيا مع ما وصله من كلامه تعالى. وعلى هذا المعنى جاء الكلام في الآية الرابعة من سورة التين {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}.

(الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ{4})

المحسنون هم: {الَّذِينَ يُقِيمُونَ}، يفعّلون لا يهملون ولا يتركون، {الصَّلَاةَ}، التوجّه والإقبال على ربهم سبحانه بالحركات والكلمات التي تعبّر عن العبادة، فهم مداومون على التوجّه إليه، وتعلم أنه تعالى فَرَضَ الصلاة على عباده من أوّل ما كلّفهم بدينه، ومن قبل "من عهد النبي إبراهيم(ع) وما قبله..." كانت صلاتهم مُشَابِهَةً جِدًّا لما تعلمناه من الرسول محمّد(ع)، وهذا شيء تراه من مقارنة صلاتنا بصلاة بني إسرائيل التي عمرها آلاف السنين، والمشابهة في وضوئها وقيامها وركوعها وسجودها... لصلاتنا، وليس من السهل الوصول إلى تسجيلات مصورة بالفيديو لهم في صلاتهم لترى شبه التمام بين صلاتهم وصلاتنا، وما هو مشهور بيننا عن تسمية حالات الاهتزاز إلى الأمام وإلى الخلف التي يقومون بها وهم واقفون، فهذه ليست صلاتهم الواجبة.

{وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ}، يجعلونها عند الآخرين، على معنى جعلوها عند من يوزّعها أو وزّعوها بحسب ما أمر سبحانه، وكلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، وَتُشِيرُ لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زَكَّانِي عند المدير، نَفْسٌ زَكِيَّةٌ، مَالٌ زَاكٍ، طَعَامٌ زَاكٍ..."، ومنذ القدم صارت مصطلحا دينيا يشير إلى دفع نسبة محدّدة من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ...}، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، فيدفع منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة ...{وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...}، فتكون نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

{وَهُمْ}، المحسنون، {بِالْآخِرَةِ}، بالحياة التي ستأتي في الآخر بعد انتهاء الحياة الدنيا، {هُمْ يُوقِنُونَ}، فلديهم اعتقاد بالآخرة وهو اعتقاد حقّ صحيح مطابق للواقع.

هكذا تختصر الآية أبرز عناوين دينه تعالى بالصلاة كعمل فردي ناتج عن الإيمان الذي من المفروض أن ينتج عنه أثر على من يتعامل معهم المصلّي، والزكاة كعمل من الواضح استفادتنا نحن البشر هنا في الدنيا منه كنظام تكافل اجتماعي للتأمينات الفردية وما يحتاجه المجتمع... وسيقوم بهما من يؤمن بالحساب والجزاء في الآخرة.

بقي شيء، في غالب مجتمعاتنا إهمال لفريضة الزكاة، وقديما من عهد الرسول(ع) وما بعده بسنوات، كانت الحكومة الإسلامية تتولّى جمع الزكاة، وبعدها تحوّلت الزكاة من فريضة دينية إلى ضريبة للدولة وهي مع بقية الموارد الأخرى لبيت مال المسلمين يصرفها الحكّام على غير وجهها الشرعي، فينفقونها على بناء القصور والمصاريف الشخصية وتكديسها على أنها مال شَخْصِيٍّ لهم ولأقاربهم ولمن يشاركهم في السلطة... وهكذا حتى صارت عِبْئًا على الناس وتحوّل اسمها من زكاة إلى ضريبة وخراج... ولم يعد الحاكمون يراعون أوضاع الناس، ففرضوا عليهم نسبة عالية كضرائب مرهقة... وهكذا حتى نفر الناس من الزكاة... وزاد الموضوع طَامَّةً ما نجده في مختلف كتب التشريع الفقهي عند المسلمين، حيث تعقّد موضوع الزكاة في تفاصيل مملة... وصار مَزْوِيًّا في الكتب بلا تطبيق، وصار للمسلمين مذاهب في أحكامه، واستبدلها بعضهم بالخمس كنسبة ثابتة على كل ما تملك من بعد حسم المصاريف التي تحتاجها في

حياتك للسنة القادمة، وحصرها غالبهم بالغلّات الأربع "قَمْحٍ، شَعِيرٍ، زَبِيبٍ، تَمْرٍ" والذهب والفضة والماشية، وبفكر مستنير سترى في كلامهم جُمُودًا في التاريخ والجغرافيا، فلا زكاة واجبة عند الغالبية الساحقة من الفقهاء على الأرز ولا الذرة... ولا على الأموال الورقية...

(أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{5})
{أُولَئِكَ} المحسنون المقيمون للصلاة الدافعون للزكاة الموقنون بالآخرة، هم، {عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ}، هم على الأشياء الصحيحة التي وصلتهم من المسؤول عنهم من مستوى إلهي والتي توصلهم للغاية الصحيحة، فالصلاة والزكاة والإيمان بالآخرة، أبرز نماذج عن هداه تعالى.

{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، هم الذين قاموا بعمل فالح، فأجادوا فيما عملوا لأنهم عملوا الصحيح، وأنت تعلم أن نتيجته خلود في جنّة رائعة خالدة.

كَمَا ترى هنا بوضوح فالهدى الإلهي لَيْسَ شَيْئًا غَرِيبًا عجيبا عنّا، بل هو ما زرعه تعالى فينا من تمييز الحقّ من الباطل ومن حبّ ورغبة بالخير وكره ونفور من الشرّ، فمن التزم بالحق وفعل الخير تاركا الباطل والشرّ، فهو على الهدى الإلهي، ومن لديه هذه الرغبة وَانْعَرَضَ عليه الكلام الإلهي فسيتماشى معه لأنه يرغبه، ويصير وصفه القرآني أنه على هدى واهتدى بالقرآن، حَيْثُ لَيْسَ كل الناس في كلّ الأمور تحتفظ بالرغبة في الحقّ والخير، وَفِي أمر ما أو موضوع ما أو تحت ظروف ما... نميل للباطل وفعل السوء، فَيَأْتِينَا كلامه تعالى الهدى لنعيد تصويب وتقويم أفكارنا وسلوكياتنا بالاتجاه الصحيح.

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ{6})
{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ}، يَعْتَبِرُ الكلام غير المهم مهمّا ويقدّم ثمنا له، فيشتريه بثمن بيعه للكلام المهمّ، {لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}، ليضع نفسه وغيره على مسلك غير صحيح ومخالف للمسلك الإلهي، فالمسلك الإلهي مسلك الحقّ والصلاح وهناك من الناس من يضلّ نفسه وغيره عن ذلك، {بِغَيْرِ عِلْمٍ}، هكذا من دون تفكير أو دراسة أو استناد لدليل... بتعبيرنا الدارج، عن جهل.

كلام الحقّ له قيمة وتقدير، بحيث فكريا تكون محترما وتطبيقه سلوكيا له آثار على صلاح الحياة الدنيا والآخرة، وهذا هو السبيل الإلهي، وبعض الناس يتخلّون عن الكلام الحقّ وَيَسْتَبْدِلُونَهُ بكلام اللهو، فهذا هو شراء كلام اللهو، وسوء ذلك واضح في سخافة اللاهي وفي أفعاله السيئة الضالة عن السبيل الإلهي.

{وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا}، يتعامل مع السبيل الإلهي من خلفية الاستهانة والاستخفاف بها فيعتبر الأمور التي يرضى تعالى عنها بلا قيمة ويستهين بها، فيستهين بالكلام عن الإيمان بالحقّ والصلاة والزكاة والإيمان بالآخرة...

{أُولَئِكَ}، المستهزئون، {لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}، فسيشعرون بالإهانة بأنهم بلا قيمة أثناء تعريضهم للضرر كعقاب على استهزائهم بكلامه تعالى.

بالنسبة لكلمة شَرَى، هي لعموم مبادلة أي شيء بشيء مع الاهتمام بقيمة ما سيأخذه أنه بالنسبة له أهمّ مما قدّمه، ولا تركّز على قيمة ما قدّمه. فهي على معنى أن أحدا ما أخذ شيئا مقابل شيء للمنفعة. فيصدق الشراء كوصف لطرفين سواء البائع الذي أخذ المال "شرى منه"، أو الشاري الذي أخذ البضاعة "اشْتَرَى منه". واستعمال كلمة "شرى" بهذه الطريقة لَمْ يَعُدْ دَارِجًا، فنستبدل شرى بباع، ونقول اشترى فحصل العكس فوقع البيع من غيره عليه، فهو وصف حاله حين حصل الشِّرَاءُ. ومثلها في التصريف "شرى هو لغيره، اشترى هو من غيره" ولكن ما تزال مستعملة، عذر هو غيره، اعتذر هو من غيره. عرف هو الشيء، اعترف هو لغيره. وعزل هو الشيء، اعتزل هو عن غيره.

نلاحظ الآية 102 من سورة البقرة التي بشكل واضح استعملت الفعل "اشترى" وكانت تقصد أنهم باعوا الكلام الإلهي واشتروا بدلا منه كلاما باطلا {...وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ...} فالبيع والشراء وصف لمبادلة الأشياء عبر التخلّي عن شيء، سواء كانت القيمة مقدرة بالمال، أو مقدرة بقيمة معنوية.

تلاحظ العذاب المهين كنتيجة لاستهزائهم بسبيله تعالى، فمثلا تقول لأحد ما من هذه النوعية من الناس أن لا يغشّ أو أن لا يبيع الخمر أو أن لا يتعامل بالربا... أو لا يشتري أشياء مسروقة... فهذه سبيله تعالى، ولكنه يَسْتَهْزِئُ بك بما تعرضه عليه من خسارة إن ترك ذلك، فيتخلّى عمّا يعلمه من حقّ وصلاح ويستبدله بالضلال ويبدأ بالسخرية منك، ويصف القرآن ذلك بأنه بيع للهدى وشراء للضلال.

كثيرا ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيرا أم شرا، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضَلَّ عنك صيدها. وَاسْتَعْمَلَ القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، فلم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضَالٌّ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر. وهنا يُشِيرُ الْمَعْنَى لاتباع ما لا يضعك على سبيله تعالى، ومعلوم أن سبيله تعالى بالنسبة لنا هو الاعتقاد بما هو حقّ صحيح والعمل الصالح.

نلاحظ أغلبية المفسرين ركّزوا على معنى "لهو الحديث" هنا في الآية بأنه الغناء والطرب والأناشيد وألحان الكلام... والموسيقى والمزمار... ولكن الآية هنا تشير لعموم أي كلام لهو يضلّ عن السبيل الإلهي، وعلى رأسه اختراع الإشكالات والاعتراضات على العقائد الحقّ والتشريعات والسلوكيات الصالحة، لتبدو سيئة فيضلّ الناس عنها ويفعلوا الباطل.

اللهو "بالحلال" حلال إن لم يضلّك عن سبيله تعالى، ومسألة حرمة الغناء هي من التوسّع التطبيقي في معنى الآية، فحتما إن ألهاك أي شيء، ومهما كان نوعه، وحتى لو كان في الأصل حلالا، فسيصير حراما إن ألهاك عن واجباتك التي نصطلح عليها بتسميتها بالدينية، ولكن المفهوم قرآنيا أوسع من ذلك فيشمل كل الأعمال الصالحة وليس فقط الصلاة والصوم بل يشمل التكسّب والعناية بالآخرين... أيضا من الأمور التي يحرم التلهي عنها. ويمكن اشتقاق ذلك بسهولة من عموم مفاهيم القرآن، وتراه من آيتنا هنا بمفهومها العمومي.

بالنسبة لحرمة أو حليّة الغناء فلم يتطرّق له القرآن بشكل صريح، وَحَاوَلُوا من أمثال آيتنا هنا توسعة معنى آيات القرآن ليشمله، أو تضييق الكلمات لتنحصر في شيء ما... وبالبداهة تعلم أن غناء المياعة والكلام البذيء... سوء، وبالتالي حرام سماعه إلّا ممن يحلّ لك سماع هذا الكلام منه وهي زوجتك، ومن هذا تعلم بسهولة أنه يوجد شيء حرام في الغناء، وشيء حلال، وذلك بالنظر إلى تعارضه أو توافقه مع أمور أخرى من الدين الإلهي، فالغناء ليس حراما مطلقا، ولا حلالا مطلقا، ولا يحتاج لآية لتحرّم ما يراه العقلاء حراما، فهذه تفاصيل تركها سبحانه لأن النفور من بعضه يَتْبَعُ مزاج وطبائع الناس المتغيرة مع الزمن، وهذا النوع من التشريعات لم يدخل القرآن فيه بتاتا، وَتَرَكَهُ لما يراه الناس مناسبا لعصرهم وثقافتهم وعاداتهم... ومن الخطأ التعامل مع هكذا أمور بحدية الحرام من درجة ما حرّمه تعالى مباشرة... فهذه أمور تتغيّر من زمن لآخر ومن جغرافيا لِأُخْرَى، كعادات عند قوم مختلفة عن عادات عند الآخرين...

كَمَا ترى، استعمال كلمة "حرام" سيكون صلبا في هكذا مسائل متروكة لما نراه مناسبا لزماننا ومجتمعنا، وهي ليست من معيار ما يقول عنه تعالى حراما، بل من معيار ما لا نراه نحن مناسبا، وخذ مثلا بسيطا لبس الألوان الزاهية المتنوعة للرجل أو المرأة، فهذا مستهجن في غالبية المجتمعات "الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُتَدَيِّنَةِ"، ويعتبرونه لباسا معيبا أو غير لائق، ولكن هل يوصف بالحرام من نفس عيار ما يصفه تعالى بالحرام؟ لا، فما يصفه تعالى بالسوء والحرام فسيبقى كذلك ولن يتغيّر بتغير المكان والزمان، وأمّا ما تركه تعالى كهامش مرونة لما يناسب عاداتنا وثقافتنا، فهذا تتغيّر النظرة له العرفية.

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ{7})

{إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا}، إذا جرت قراءة الأمور المميّزة المنسوبة له تعالى عن مستند مثل هذا القرآن، وَقَرَأُوهَا على المستهزئ، وَسَمِعَ ما فيها من أدلّة عن المعلومات عنه تعالى وعن أفعاله وقراراته والتي نسميها بالعقيدة، وسمع التشريعات الصالحة مع تبريراتها، {وَلَّى}، ذهب عنها باتجاه آخر، {مُسْتَكْبِرًا}، يرى نفسه أكبر من الإيمان والالتزام بها، {كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا}! مع أنها تخاطبه وتنذره فهو يتصرّف وكأنه غير معني بهذا الكلام.

عَنْ أي كلام نتحدّث؟ عن كلام إلهي تتم قراءته عن مستند إلهي، فهل هناك أهمّ منه كمرجع للكلام الحقّ والتشريعات والسلوكيات الصالحة!

{كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا}، كأن في أدوات السمع ثِقَلًا، صعوبة بالسمع، وبسبب هذا الثقل لم يسمعها جيدا.

{فَبَشِّرْهُ}، فاحمل إليه الخبر عن شيء سيحصل معه، {بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}، بضرر سيصيبه ولا يمكنه تحمّله ولا الاعتياد عليه.

نلاحظ أن كلمة "بشرى" هي سماعك لخبر جيد عن شيء يهمّك، كشيء حصل ولم تعلم به وتريد معرفة خبره أو سيحصل وتريد معرفة خبره، وَأَثْنَاءَ انتظار الخبر تستبشر فتريد أن يكون موافقا لما تحبّ، وعندما نستعملها لخبر سيّء نقصد بالتبشير الصدمة بخبر معاكس عمّا نرغب به.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ{8})
{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين اعتقدوا بالحقّ، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، حَيْثُ خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، فَعَمَلِيًّا هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادة نفسّر "عملوا الصالحات" على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إِنَّهُمْ صلّوا وصاموا... وهذا عمليا صحيح، ولكن بالأصل الكلام أَنَّهُمْ قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموما وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائما أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فَيُؤْمِنُونَ به.

هذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعا ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خَلَلٌ منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّا لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلا سيّء" سَيَكُونُ في الحقيقة اخْتِرَاعًا من البشر أَلْصَقُوهُ بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمرا إلهيا.

{لَهُمْ جَنَّاتُ}، لهم أماكن موصوفة بروعة ما فيها، أماكن فيها حدائق وبساتين وقصور... {النَّعِيمِ}، وهي موصوفة بأن كل ما فيها نعمة جيّد جميل محبوب...

يَعْنِي أَنَّ المعنى من الإيمان والالتزام بالدين الإلهي الحصول على الثواب الحسن، والمعنى من تهديد من لا يؤمن ويلتزم أنه سينال العقاب.

عادة نمرّ على هذا النوع من الآيات مشحونين بثقافتنا الدينية التي فيها هذه المعلومات عن العذاب بالنار والثواب بالجنّة، ولا نلتفت إِلَى أَنَّ مخزوننا الثقافي الديني بالأصل جاء من هذه الآيات، فالآيات هنا خبر ليس بجديد علينا لأننا من أتباع هذا الدين ولدينا ثقافته، ولكن ثقافتنا جاءت من هذه الآيات. أقول لك هذا لأننا نشعر بتكرار كلام القرآن عن الجنّة والنار معتقدين أن ذكرهما مرّة واحدة يكفي ولا حاجة للتكرار، ولكن تقصّد سبحانه تكرار هذه المعلومات وبعبارات متنوّعة حتى ترسخ فينا كثقافة دينية كلّما قرأنا سورا مختلفة من القرآن.

قارن هذه الثقافة مع الاختزال الذي أجراه اليهود على التوراة التي حرّفوها حتى صار من النادر فيها ذكر الجنّة والنار! وَبِالْمُقَارَنَةِ مع القرآن تجد الفرق الهائل بين الكتابين في مسألة كثرة ما ذكره القرآن عن مشاهد الآخرة وما سيحصل فيها وبين النادر القليل الذي ورد في التوراة عن الآخرة.

(خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{9})
{خَالِدِينَ فِيهَا}، لا يموتون ولا يفنون في تلك الجنات، {وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا}، فهو شيء قال سبحانه إِنَّهُ سيحصل وحقّا حتما هو صحيح وسيحصل، وَبِضَمَانَةٍ إلهية سيحصل لأن الكلام صادر عنه تعالى، {وَهُوَ الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... وَيُمْكِنُهُ تعالى تحقيق وعده لوحده وبكل سهولة ولا أحد يمكنه منعه تعالى، ولا أن يَفْرِضَ عليه سبحانه ظروفا قاهرة مانعة من تحقيق هذا الوعد.

{الْحَكِيمُ}، كلمة حكمة ومشتقاتها تشير لعموم ضبط الشيء على المطلوب: على الصوابية على الحقّ... وعلى نفس المعنى الأساسي نقول: أحكم الوثاق، حكم بالعدل، حكومة على الناس... وتفسير الحكمة بالأهداف والغايات السامية هُوَ من تبعات تطبيق صوابية الحقّ، ووصفه تعالى بالحكيم يشير لصوابية نظرته في الأمور وأن قراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب لِأَنَّ قراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول إِنَّ أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فلا يفعل لغاية له سبحانه.

بالرغم من قدرته تعالى على فعل ما يريد وفرضه على الجميع "عزيز"، سُبْحَانَهُ حكيم، ونفهمها بسهولة بمقارنتها مع حالتنا نحن عندما نصير بقوّة وسلطة تجعل كلامنا ورغباتنا هي القانون، فلا نَعُودُ مضطرين للالتزام بضوابط الخير والصلاح لأننا نرى أن الضرر لن يقع علينا وسيقع على الآخرين فقط، ورغباتنا السيئة العبثية التي تشبع نزعاتنا وشهواتنا لأقصى الحدود ستتحقّق، فعندها نرمي الحكمة ونتصرّف بالعزّة فقط. أمّا سبحانه فحكيم لن يفعل السوء أو العبث علما أن أي فعل من هذا النوع لَنْ يتضرّر منه سبحانه فعليا ولا بأي شكل.

التعمّق في هذا المفهوم يأخذك إلى أنه تعالى هو هكذا، حَيْثُ طبيعته هكذا، ويستحيل تغيير ذلك ولا معنى لافتراض وصفه إلا بالحكمة. ولدينا مفهوم بشري عن الثوابت المطلقة ذات القيمة التي لا تتغيّر، لأنها مرتبطة بصميم طبيعة الأشياء، كحالة تجمّد الماء في حرارة محددة لمختلف الظروف، وَمَاءٌ مع ملح يجمد قريبا من درجة الصفر، وماء صَافٍ بضغط جوّي مُسَاوٍ لسطح البحر... يجمد على درجة الصفر، فإذا تكرّرت نفس الظروف بالتمام فالنتيجة واحدة وحتمية. وهكذا نفهم الثوابت ونعمّم هذا المفهوم لنفهم كلامه تعالى عن أوصافه أنها ثوابت، وهي حسنى كنتيجة لطبيعته وليس كنتيجة لتطبّعه سبحانه وتعالى.

هذا العمق يأخذنا إلى عمق آخر، حيث كل القيم في السماوات والأرض ممنوحة "موروثة" من طبيعته تعالى بدرجات، وَبِدُونِهَا ولوحده سبحانه هِيَ حالة الصفاء في القيم، وفي المخلوقات تصير بدرجات بسبب تعقيدات ارتباطات القيم بطبيعة المخلوقات، وخذ مثلا الاعتراض على أمر حكيم لأنك لا تراه صحيحا بسبب تحكّم نزعات ورغبات سيئة بك، كحالة اعتراض إبليس على أمره تعالى له وللملائكة(ع) بالسجود لآدم(ع)، وَالِاعْتِرَاضُ سيّء لأنه اعتراض على الإله ذي الصفات والأسماء الحسنى الفائقة في حسنها، والمعترض فيه قدرة فهم الحكمة الإلهية ولكن طبيعته فيها نزعات ورغبات أن يكون أفضل من غيره... وخذ مثلا استفهام الملائكة(ع) عن سبب أمره تعالى لهم بالسجود لآدم(ع) مع أنهم لن يعترضوا وسينفّذوا، وَهُمْ بما فيهم من حكمة موروثة منه تعالى في خلقه لهم بالصفات التي اختارها سبحانه لهم، بَقِيَتِ الحكمة المطلقة كما هي كمفهوم ولكنها صارت فيهم بدرجة أقل فيهم لأنهم لا يعلمون الغيب، فاستفهموا.

فِيمَا يتعلق به تعالى أَوْصَافُهُ مطلقة ثابتة، فلا يوجد شيء مرّة حكيم ومرّة أخرى بظروف أخرى عبثي، وقرار خلق السماوات والأرض مَبْنِيٌّ على أساس صفاته الحسنى سبحانه، وبعدها يتعامل سبحانه مع مخلوقاته بحسب طبيعتهم، ويصير للمفاهيم المطلقة الثابتة تدرجات...

في كتب الفلسفة لديهم كلام عن المفاهيم المنتزعة، ترى الشيء وتنتزع منه الوصف، وهذا صحيح من ناحيتنا نحن البشر، ولكنه غير صحيح بالنسبة للقيم التي في الطبيعة الإلهية الصافية، فهي ليست منتزعة، بل هي طبيعته سبحانه.

الْكَلَامُ يجرّ الكلام وَأَسَاسُ تصنيف الأمور من خير وشرّ، يَسْتَنِدُ إلى صفاته الفائقة سبحانه، حَيْثُ صفاته تعالى التي نتج عنها خلق كل شيء، هي المعيار والمرجعية لتوصيف الأمور خيرا أو شرّا، وَسُبْحَانَهُ حي قيوم عزيز غني قدير... مما يعني أنه تعالى حكيم لأنه لا سبب لديه لفعل السوء، وبالتالي هُوَ رَحْمَنٌ ورؤوف وغفور وحليم... لأنه لا سبب لديه حتى يستعجل أو يجمد على موقف صلب أو... ولمزيد من التفاصيل حول ذلك راجع دراسة الآية 38 من سورة الإسراء {كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا}.

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ{10})
التفتوا إلى عظيم قدرة من أطلق الوعد بدخول المؤمنين لجنّة خالدة:

{خَلَقَ}، ركّب ألّف، {السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا}، فهي بحاجة لما تعتمد عليه لتصير مرفوعة فوق بعضها البعض، وهناك عمد نراها كَأَعْمِدَةِ البيوت، فهناك عمد ترونها ولكن السماوات مبنية بغير عمد ترونها، بعبارة أبسط فهي مبنية بعمد ولكنها ليست من العمد التي ترونها.

كلمة سماء تشير لعموم ما هو فوق بالنسبة لأرض تحته، وهذا المعنى أعمّ من استعمالنا الدارج لكلمة أرض التي نقف عليها وأعمّ من معنى السماء التي فوقنا بنجومها ومجراتها، وَعموم ما علا ويقابله عموم ما تحت، فهما سماء وأرض، حَيْثُ كَوْكَبُ الأرض أرض لسمائنا، وسطح القمر أرض، وسطح الشمس أرض... وبقية السماوات يقابلها مما يناسبها أرض أو أراض... وراجع في ذلك دراسة الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...}.

مُدَّةً بعد مدّة نُبْتَلَى بمسنّ أو شاب خَرِفٍ يدمج القرآن بالعلوم التجريبية، فيبرهن أن العمد بين السماوات هي الجاذبية، وأن القرآن سبق العلوم والاكتشافات بذلك... ولو جمعت أقوال هذه النوعية من الناس عبر التاريخ، لوجدت أن العلوم تَغَيَّرَتْ، وأن تفسيراتهم العلمية للقرآن صارت خَطَأً بالنسبة لعلومنا الحالية. وفي عصرنا هناك إصرار عند الكثيرين بأن الجاذبية هي العمد التي لا نراها والتي تجعل مكونات الكون تسبح في الفضاء، مع العلم أن الجاذبية ليست شيئا، بل هي مجرد وصف لحالة نراها، يعني في عمق الفهم للفيزياء، لا يوجد شيء اسمه جاذبية، بل يوجد حالة وصف جذب "ثقالة" بين الأشياء وتتغيّر القوّة بتغيّر الكتلة.

لنسلّم جدلا أن عمد سمائنا هِيَ الجاذبية والآية هنا تَقْصِدُهَا، فكيف لهم افتراض وجود عمد الجاذبية في السماوات الستّ الأخرى؟! فمن أين علموا أنها محكومة بالعلاقة بين الكتلة والحركة؟ حَيْثُ هُنَاكَ الجنّ والملائكة(ع) ولا معلومات لدينا عن أي فيزياء تتعلّق بهم وبعالمهم... وهكذا ترى أن الآية هنا لم تقصد تعريفنا على نوعية العمد، ولكن ولأنها سبع سماوات مرفوعة طباقا بعضها فوق بعض، فهي وبكل بساطة حتما تعتمد على شيء حتى تصير طبقات، حَيْثُ نَحْنُ نعاني من رفع الأبنية التي نبنيها من الحديد والباطون لأطوال قصيرة جدا بالنسبة لضخامة السماوات، وَالْهَدَفُ من الآية الإشارة إلى بناء ضخم بحجم يفوق تصورنا.

{وَأَلْقَى}، ورمى سبحانه ليستقر، {فِي الْأَرْضِ}، التي تعيشون عليها، {رَوَاسِيَ}، أشياء مستقرة ثابتة ولكنها قابلة للحركة، مثل السفينة الراسية في الميناء فهي مستقرة ولكنها قابلة للحركة، ألقاها تعالى في الأرض، {أَن}، حتى لا، {تَمِيدَ بِكُمْ}، فلا تمشي من تحتكم، وَالْأَرْضُ التي تقفون عليها راسية فهي غير ثابتة ويمكن أن تتحرّك. ومن الواضح للناس من الزلازل أن الأرض لها قشرة راسية، قابلة للحركة، وهذه هي الحالة التي تقصدها الآية.

{وَبَثَّ فِيهَا}، ونشر في مختلف أنحاء الأرض، {مِن كُلِّ دَابَّةٍ}، والدابة وصف لكل ما فيه حياة ويدبّ فيتحرك مُغَيِّرًا مَكَانَهُ على أرض، وهذا بالأساس يشمل كل الكائنات الحية من عائلة الحيوان من الحشرات والزواحف وذوات الأرجل والطيور والأسماك، وندر استعمالها في كلامنا لتشمل الحشرات والأسماك، علما أن القرآن استعملها للحشرات كما في حالة الحشرة "السوسة أو غيرها" التي أكلت العصا التي كان يتّكئ عليها النبي سليمان(ع) كما ورد في الآية 14 من

سورة سبأ {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ...}، واستعملها شاملا بها الزواحف كما في الآية 45 من سورة النور {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ...}، واستعملها بمعناها الأعم لتشمل كائنات حية من غير عالمنا كما في الآية 29 من سورة الشورى {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ}.

التعبير بـ: {مِن كُلِّ دَابَّةٍ}. يقابله: بث فيها كل دابة. وهذا غير صحيح من ناحية تواجد دواب في بقع لا تتواجد في بقع أخرى، وَرُبَّمَا تَتَوَاجَدُ فيما بعد... ومن ناحية إمكانية خلق دواب أخرى غير الموجودة حاليا، وهذا لم يحصل فليس في كل زمان كل دابة موجودة على الأرض، ولذلك كان التعبير الدقيق تلافيا لذلك هو توصيف: {مِن كُلِّ دَابَّةٍ}.

السؤال عن آلية نشره تعالى للحياة على الأرض "نشأة الحياة" مَجَالُهُ مفتوح للباحثين، ولا علاقة للدين الإلهي بأي فرضية تبحث عن تلك الآلية، حَيْثُ لَا يوجد آلية يطرحها القرآن في مقابل أي فرضية، فَقَطْ من القرآن أخبرنا تعالى الأمور البسيطة السهلة على الفهم للفت انتباهنا لأفعاله، وأنه تعالى صمّم وخلق كلّ شيء على مراحل...

{وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}، وهو المطر، {فَأَنبَتْنَا فِيهَا}، في الأرض، فَجَعَلْنَا ينمو فيها، {مِن كُلِّ زَوْجٍ}، من كل صنف ونوع، وسياق الكلام عن النبات، {كَرِيمٍ}، موصوف بأن له قيمة عالية، وكلّ النبات له قيمة عالية، عرفتها أم لم تعرفها، وحتى المخدرات لها قيمة لأن لها استعمالات مفيدة للتخدير وضد الاكتئاب، وكناقل للأدوية التي تحتاج لوسيط يجعلها تتخطى قشرة الدماغ... ولكن سوء استعمال النبات يَجْعَلُهَا آفَةً، أمّا هي النبتة فمخلوق حي له قيمة عالية بحياته وتكوينه.

آلية نشأة الحياة النباتية مجال مفتوح للباحثين وليس في كلامه تعالى طرح عن آلية نشوئها، بل فقط خبر عن تصميمه تعالى لما في الدنيا بحيث ستصل إلى مرحلة يخرج فيها النبات على الأرض بسبب المطر، ولمزيد من التوسّع راجع دراسة الآية 10 من سورة فصلت {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ}.

بقي شيء عن وصف النبات بالكريم بالرغم من وجود نباتات سامّة ومخدرة ومهلوسة... يريك أن الاستعمال السيّء لا يغيّر من قيمتها ككائن حيّ، ونفس الشيء بالنسبة لخلق إبليس، فهو كائن لديه قدرة تمييز الخير من الشرّ، ويعلم بمعنى السوء، واختار فعل السوء، وهو بذلك لا يختلف عنّا نحن البشر، فنفسه توسوس له، ونحن أَنْفُسُنَا توسوس لنا، وهو إبليس أيضا يوسوس لنا، ونحن نوسوس للآخرين. ونفس المفهوم على العقرب والدبّور والحيّات السامة...

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{11})
{هَذَا}، الذي ذكرناه لكم، هو، {خَلْقُ}، تركيب وتأليف، {اللَّهِ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {فَأَرُونِي}، اجعلوا عندي صورة محدّدة عن، {مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ}؟ وهو وحده الإله والبقية دونه، وهم أقل منه وتحته في القدرات والصفات لأنهم مخلوقات، وغيره تعالى ماذا خلق، ماذا ركّب وألّف؟ واجعلوا لما خلق صورة محدَّدة تحصل عندي له؟ ولا تخبروني وتخترعوا بل أروني دلّوني وأشيروا لي عليه...

{بَلِ الظَّالِمُونَ}، الذين لم يكونوا عادلين ولا منصفين، ولم يكن معهم حق حين تولّوا عن آياته تعالى من سماوات وأرض وحيوان ونبات وظواهر، هم، {فِي ضَلَالٍ}، في ابتعاد عن الحقّ، {مُّبِينٍ}، واضح.

إن كان سبحانه خلق كل ما سبق، وهذا هو كلّ شيء موجود في السماوات والأرض، وهم يقولون عن غيره تعالى بأنهم آلهة، ولا يعلمون ماذا خلقت تلك الآلهة ولا ماذا فعلت، فهل يوجد ضلال واضح أكثر من هذا الضلال؟ وهل يوجد ظلم أكثر مما يفعلونه؟ حيث ظلماً يقولون عن غيره تعالى أنه إله، وليس معهم حقّ بذلك.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ{12})
بعد المقدمة السابقة بالكلام مع وعن مشتري لهو الحديث ليضل عن سبيله تعالى، تنتقل بنا السورة إلى سبيله تعالى، واختارت نقله عن لسان نموذج شخص محسن وهو لقمان الحكيم(ع)، فاعتبرته نموذجاً يمثّل أي مؤمن آمن بآياته تعالى وعمل صالحاً، وكنموذج معاكس تماماً لمن اشترى لهو الحديث ليضلّ عن سبيله تعالى.

{وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ}، صار يرى الصوابية في الأمور، فلا يعبث ولأفعاله أهداف سامية، وعلى رأس الحكمة التي أتته: {أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ}، فاعترف وأعلن له تعالى عن جميل ما فعله سبحانه معك، فقد خلقك بالصفات التي فيك وفي بيئة مناسبة لك... {وَمَن يَشْكُرْ}، لله تعالى، {فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ}، وعملياً فهو المستفيد من الشكر لأنه سيحصل على الحسنات والمغفرة منه تعالى، ولكن الأساس من الوصف هو التقدير والقيمة، فالجملة على معنى: فهو محترم. والمحترم يشكر، فلنفسه يشكر لأنه تعالى لن يستفيد بأي شيء، فلن تتغيّر قيمته الاعتبارية لتصير أعلى بسبب شكرك له، ولكن أنت تُثَبِّتُ قيمة معنوية عالية لنفسك حين تشكره تعالى.

{وَمَن كَفَرَ}، سياق الكلام عمّن أنكر جميل ما صنعه الله تعالى معه، فلم يشكر الله تعالى، {فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ}، مُسْتَغْنٍ عن الشكر فلا يحتاجه ولا ينقصه أن نشكره ولا يستفيد إن شكرناه، ووصفه تعالى بالغني ليس تفسيره أنه تعالى يملك كل شيء وبالتالي يصير المعنى أنه سبحانه يملك ما يحتاجه، فهذا غير صحيح، فكلمة "غني" تفيد معنى الاستغناء، وهو عموم انتفاء عموم الحاجة لعموم أي سبب، إمّا لأنك لا تحتاج أصلاً للشيء، وهذه حالته تعالى "الغني" بالنسبة لكل شيء، وحالة الملائكة بالنسبة لطعامنا... أو غني لأنك لديك ما تحتاجه وهذه حالتنا حين نملك الطعام والشراب... أو غني لأنك تملك ما يمكّنك من الحصول على ما تحتاج، وهذه حالتنا حين نملك المال لنشتري به ما نحتاجه. وترى هذا المعنى للاستغناء بشكل مباشر وواضح لأصل معنى كلمة "غني" في تعبير {وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} كما ورد في الآية 97 من سورة آل عمران، فبوضوح يشير الوصف بالغني للاستغناء، فلا حاجة له تعالى بهم ولا بإيمانهم ولا يتضرّر منهم مهما فعلوا.

والله، {حَمِيدٌ}، كل أعماله حميدة جيّدة، فسواء شكرناه أو لم نشكره فأعماله تعالى هي بالأساس موصوفة بأنها حميدة جيدة حسنة ولا يهم إن اعترفنا نحن بأنها حميدة تستوجب شكره تعالى أم لا.

ننتبه جيداً، الآية تتحدث عن أمور جيدة حصلنا عليها أو حصلت معنا ولم تقل: فاحمد الله تعالى، لأن سياق الكلام لا يريد الدخول في فلسفة عموم ما يجري معنا من أمور نراها سيئة أو جيدة، واكتفت الآية بالإشارة الشاملة لوصفه تعالى بالحمد لأن كل ما يفعله هو سبحانه موصوف بأنه حميد، جيد، والأمور السيئة ليست ناتجة عن أفعاله تعالى، بل أسباب حصولها من مخلوقاته، فهم بين بعضهم يسبّبون السوء، وهم بعقيدتهم وسلوكياتهم الضالة يخرجون من تحت مظلة الرحمة الإلهية.

هكذا ترى تركيز الآية على شكره تعالى يَحْصُرُ النظر إلى ما هو واضح من أمور جيدة ممنوحة لنا منه تعالى، كخلقنا بالصفات التي فينا وفي بيئة يتأمّن فيها ما نحتاجه ونرغب به... أمّا النظرة الإلهية للأمور السيئة التي تحصل ففلسفتها تناولتها سور عديدة، منها الآيات الطويلة من بعد الآية 120 من سورة آل عمران والتي اعتمدت معركة أحد كنموذج...

إذًا فلقمان(ع) حكيم من الشاكرين، ولا نعلم عن هذه الشخصية أية تفاصيل من القرآن، ولم يذكره القرآن "هو وآدم(ع)" لا مع الأنبياء ولا مع الرسل، فيبدو أنه لم يكن نبياً ولا رسولاً بل كان مؤمناً حكيماً فقط.

ما نجده في كتب الروايات عن تاريخ لقمان(ع)، أغلبه افتراضات، على الرغم من شهرة صاحب هذا الاسم تاريخياً بين العرب، ورغم روايتهم لحكم وقصص غريبة عجيبة عنه، بحيث تجد في مختلف مجتمعاتنا قصصاً شعبية عنه (ع) لا تجدها في الكتب، فأقصى ما نستفيد منها دلالتها على شهرته (ع) بالحكمة، ولا ندري إن صار لهذه الشخصية هذه القيمة بعد ذكر القرآن له، ومن بعدها اخترع "بعض" الناس تلك القصص والحكم عنه... أم هي متوارثة من أجيال سبقت نزول القرآن؟ على كل حال، فهو شخص عابر في تاريخ البشرية، انعرضت عليه الآيات، ولم يشتر بها لهو الحديث، فآتاه تعالى الحكمة، التي كان أثرها العملي مداومة لقمان (ع) على الشكر لله تعالى. فخذ هذا المعنى العميق واترك البحث فيما قالوه، إلا اللهم أن تقوم ببحث رصين يعتمد قرائن غير التي ذكروها في كتبنا الدينية التراثية، فللأسف من الصعوبة شبه المستحيلة أن تصل من تلك الكتب إلى نتيجة مرضية عن تاريخه (ع).

في مقدمة السورة قارنت لك بين الفكرة عن المنتمين لهذا الدين الإلهي وكأنهم عصابة أو مجموعة منعزلة عن العالم، وبين واقع حقيقة كون الأعلى إيماناً وعملاً صالحاً كانوا حصراً من ذرية آدم ثم نوح ثم إبراهيم عليهم السلام، فهذا واقع حال، ولا ينفي وجود صالحين من الدرجة العالية من بقية ذراري ونسل أهل الأرض، وعليك بقراءة سورة الكهف لترى أنها لم تذكر في قصة أصحاب الكهف وذي القرنين وصاحب الجنة والذين ساعدهم العبد الصالح، لم تذكر أنهم

كانوا منتمين لدينه تعالى، ولتوسيع الأفق راجع سورة الأنبياء التي سمّاها الناس بالأنبياء بينما هي كانت تذكر النماذج البشرية الأرقى من كل الناس ومعهم السيدة مريم(ع).

يعني انظر للقمان هنا كرجل اختاره تعالى ليذكره لك لأنه من النماذج الراقية إيمانياً، ولم يكن لا نبياً ولا رسولاً، فلو وصل واحد من خارج ذرية آدم ثم نوح ثم إبراهيم إلى درجة عالية جداً من الإيمان، لذكره تعالى لك في قرآنه، بل لجعله تعالى نبياً أو رسولاً.

(وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ{13})
بعد وصف لقمان(ع) بالحكيم تبدأ السورة بنقل كلامه ليكون كتنبيهات وتعليمات لنا مُمْضَاةً منه تعالى:

{وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ}، وهو يحدّد له الصحيح ليفعله والسيئ حتى لا يفعله فلا يقع في المشاكل وتكون أموره بخير:

{يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ}، لا تقل بأنه تعالى لديه شركاء في الألوهية. {إِنَّ الشِّرْكَ} بالله {لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}، مثلاً: لو ضربتك من دون سبب ظلمتك ولم أكن عادلاً ولا منصفاً حين ضربتك، لم يكن معي حقّ، وظلمتك... ولكن لو ضربتك لأنك ضربتني فسيكون معي حقّ ولست ظالماً لك. وهكذا استعمل القرآن كلمة ظلم، فالمشرك لم يكن منصفاً ولا عادلاً حين أشرك، لم يكن معه حق بل كان ظالماً، لأن الدلالات على توحيده تعالى واضحة جدا... والشرك به تعالى من أعظم الظلم، وإن كان في قضية ما ليس معك حقّ وكنت ظالماً، فلا يوجد أظلم من اختراع آلهة شريكة له تعالى في الألوهية، لأن هذه أكبر قضيّة يمكن أن تكون فيها ظالماً أو محقاً، وهي أكثر مسألة عليها أدلة واضحة وجمّة ومتنوّعة، وباقي القضايا ومهما كبرت وكانت مهمّة، فكلّها أقل من قضية توحيده تعالى.

لاحظ أن هذا الوعظ لشاب يافع، وليس لرجل ثلاثيني أو أربعيني، وسترى ذلك من بقية الكلام.

(وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ{14})
إذًا، رأس الدين الإلهي هو التوحيد، وذكره لقمان (ع) لابنه، ويليه برّ الوالدين كما قرنتهما عدّة سور كالآية 23 من سورة الإسراء {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ...}، ولكن لقمان(ع) هو الأب الذي يتحدّث مع ابنه، فلم يعظ ابنه بأن يبرّ والده ووالدته، فسيبدو كأنه (ع) يستغلّ الوعظ لما فيه منفعته الشخصية، ولذلك أقحمت السورة ما نقص من وعظ لقمان(ع) لابنه عن برّ الوالدين:

{وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ}، أوصلنا أوامرنا للغالب الأعم من الناس وصار تنفيذ الأوامر من مسؤوليتهم، وصيناه، {بِوَالِدَيْهِ}، بمن ولده، بأمّه وأبيه، وطبعاً الوصية أن يحترمهما ويعتني بهما فهذا بديهي.

{حَمَلَتْهُ أُمُّهُ}، في بطنها، {وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ}، وهن مضاف إلى وهن سابق، كلما نما الطفل في رحمها أضاف وهناً، مما سبّب لها الوهن المستمر، فقدرات جسمها صارت أقل من السابق بكثير بسبب الحمل، وهي تعاملت مع جسمها على أنه ضعيف، وتعاملت مع جسدها أنها حامل بكائن وضعه حساس، وضعه واهن، فلم تجهد نفسها ولم تركض ولم تحمل الأثقال... خوفاً من إلحاق الضرر بالجنين، فعلى كلا الحالتين بالنظر لوهن جسد الأم من الحمل، أو تعاملها مع جسده برعاية وهن الجنين حتى لا يسقط.

يمكننا فهم عمومية تعبير الوهن ليشمل وهن جسد الأم وحالة وهن الجنين معاً، مثل العديد من الآيات التي شملت بكلمة "عذاب" عذاب الكافرين في الدنيا أو الآخرة بلا فرق بين العذابين.

{وَفِصَالُهُ}، وابتعاد المولود عن الرضاعة من أمّه، {فِي عَامَيْنِ}، خلال مرور عامين من حياة الطفل، فربما ترضعه ليوم أو لأسبوع أو لشهر... أو لحولين كاملين، وبناءً على حكم إلهي معلوم يقضي بإيقاف الرضاعة بعد أربع وعشرين شهراً من ولادة الطفل، تأتي الآية هنا لتتحدّث عن حالة تقديم الأم لبنها لطفلها خلال عامين، لأن حالات توقيف الرضاعة للطفل تختلف بين حالة وأخرى، وعلى كلّ حال فإن أتمّت الأم إرضاع ابنها فلا يجب أن تتخطّى السنتين.

أنت كطفل استهلكت من جسد أمّك حين حملت بك، وصار لك كيان في بطنها من غذائها، فأخذت من قوّتها وسبّبت لها ذلك الوهن المستمر طوال الحمل، وأنت واهن فأي ضربة على بطنها ستسبب لك الأذية، وأي وقعة للأم ستسبب لك الأذية، وأي نقص في غذاء الأم سيؤذيك... فبسببك انتقلت حالتها من إنسان عادي، إلى إنسان واهن لا يتحمّل الظروف العادية التي كان يتحمّلها من قبل، والسبب هو وجود طفل في بطنها، وخلال عامين من حياتك أطعمتك من غذاء جسدها من لبنها...

ننتبه جيداً، لا تضمّ آيتنا هذه للآيات التي تتحدّث عن تشريع مدّة الرضاعة والفصال، فآيتنا هنا اعتمدت على ذاك التشريع وبناءً عليه ساقت الكلام عمّا تقدّمه الأم لطفلها في عامين، سواء أرضعته ليوم أو لعامين كاملين، لأن كلمة عام تشير إلى مسمّى السنة كمدّة زمنية مبهمة، كما نقول: عام الفيل. ولا يهمّنا في أي شهر حصلت الحادثة. وهنا كذلك التعبير بعامين إذا كانا تامّين فهما مساويان للحولين وهي الرضاعة التامة والتي من بعدها ممنوع إرضاع الطفل. فمن وقت ولادة الطفل إلى تمام مدة عامين، "عامه الأول وعامه الثاني"، يمكن للأم أن ترضعه أو أن تتوقّف عن الرضاعة قبل انتهاء تمام العامين "الحولين، السنتين" ويمكنها التوقف في أي زمن كان ضمن العامين.

أكرر لك، الحول هو البداية من شهر ما والرجوع إليه بعد مرور اثني عشر شهراً، والسنة هي مجموع الاثني عشر شهراً كاملة، والعام هو مسمّى اثني عشر شهراً، ففي أول أو ثاني أو ثالث... شهر من الحول نقول عن الولد: دخل في عامه الثاني. وبالدقة لا نقول دخل في الحول الثاني. ولا نقول دخل في السنة الثانية. وخذ مثلاً حكم فطام الرضيع فإرضاعه لحولين يعني من شهر ولادته وخلال مرور أربعٍ وعشرين شهراً والعودة لنفس شهر ولادته فهذان حولان. ولو كان الحكم يقول بإرضاعه لسنتين، فهذا يعني إرضاعه لمدة مجموعها أربعٌ وعشرون شهراً، فإذا توقّفت عن إرضاعه لستة أشهر مثلاً، وعادت لإرضاعه، عندها يصير بإمكانها إرضاعه ستة أشهر ما بعد مرور حولين عن ولادته، وهذا غير مسموح ولذلك عبّرت الآيات عن تمام الرضاعة بالحولين، وعن عموم الرضاعة في عامين، حيث بعض النساء ترضع الطفل ليوم أو شهر أو سنة أو سنة وشهر... وقد تتوقّف عن إرضاعه لأيام أو شهر أو... على أي حال، عادة ترضعه في مسمّى العامين، وليس بأزيد من تمام العامين.

{وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ}: {أَنِ اشْكُرْ لِي}، أنا إلهك، صممتك وخلقتك واعتنيت بك، فجعلتك تولد ممن يعتني بك... وهذا شيء جيّد لك وهو منّي، واشكر، {وَلِوَالِدَيْكَ}، لأنهما اعتنيا بك في مرحلة كنت فيها غير قادر على الاعتناء بنفسك، وحتمًا كنت ستموت لولا عنايتهما بك.

{إِلَيَّ الْمَصِيرُ}، آخر ما تصل إليه أمورك، ستصل إليّ أنا إلهك، وعندما أوصيك وتخالف وصيتي أو تطيعني، فعلى كل حال مصيرك الوقوف بين يدّي لأحاسبك وأجازيك على ما فعلت بوصيتي لك.

تتذكّر دائماً أن كلام القرآن عن نماذج، فلا تقصد الآية هنا أن كل والدين اعتنيا بولدهما بشكل مثالي، ولا كل أمّ راعت وجود جنين في بطنها... ولكن الحالة الغالبة هي عنايتهما بأولادهما بدرجة مقبولة.

تكرر في القرآن عطف بر الوالدين على التوحيد، حيث جعل القرآن برّ الوالدين ثاني أمر إلهي بعد التوحيد، وهذا يرينا أهمية هذا الأمر الإلهي، فلا تستهن به، واجعله من أولوياتك.

من ناحية ثانية ترى في الأمر الإلهي ببرّ الوالدين المربوط بالتوحيد، ترى أن دينه تعالى ليس ترفاً كممارسة شخصية لا أثر لها على الآخرين، فنظرة البعض للدين على أساس أنه سلوك شخصي بحت، من أمور فردية تتعلّق حصراً بالشخص، على أساس أن صلاته وصومه عمل محصور أثره على الفرد، فهذه نظرة ساذجة لدينه تعالى، فالدين له وجهان لعملة واحدة، وجه العقيدة والتصرفات التي تبدو فردية، ووجه الأعمال التي تمسّ الآخرين كالبرّ بالوالدين والزكاة... وكلاهما في نفس الوقت سلوك فردي له أثر جماعي، فالصلاة مثلاً تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهي عمل يبدو فردياً ولكن أثرها يمتد ليطال الآخرين...

(وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{15})

إذًا وصيّة الإله لك بالاهتمام والعناية بوالديك، {وَإِن جَاهَدَاكَ}، إذا عملا بجهد، {عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي}، بذلا جهداً حتى تقول بأني لدي شركاء لتعبد غيري، {مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}، العلم الصحيح الذي لديك أنني أنا إلهك الأحد، وأنت لا تعلم بوجود إله غيري، وإن حاولا جعلك تؤلّه غيري، {فَلَا تُطِعْهُمَا}، فقط في هذه النقطة يجب أن تعصي أوامرهما حتماً، {وَصَاحِبْهُمَا}، كن معهما، {فِي الدُّنْيَا}، أثناء حياتك وحياتهم هنا في الدنيا، {مَعْرُوفًا}، بما هو معروف، بما هو متعارف عليه بين الناس العاقلة، ومثلما هو متعارف بين الناس عن اهتمام الولد بأهله وطاعته لهما، فليكن اهتمامك بوالديك، وأمّن لهما المسكن والملبس والطعام والعناية... المحسوم الأكيد الوحيد أن تعصيهما إن عملا على أن تشرك، أمّا بقية الأمور فتقدير وجوب طاعتك لهما متروك لما هو متعارف عليه بين العقلاء المؤمنين.

من ناحية الذي يجب أن تقدّمه لهما، ارجع إلى ما هو متعارف عليه بين العقلاء في زمنك وبيئتك، ومن ناحية إطاعتهما أيضاً بما هو متعارف عليه بين المؤمنين العقلاء في زمنك وبيئتك، وإن أمراك بعمل سيئ فاعصهما، وإن أمراك بأمر ليس فيه معصية ويمكنك أنت فعله في الحالة العادية ولكن متعارف عليه بين العقلاء أنه سيئ، كأمرهما لك أن تقطع علاقاتك مع بعض الناس، أو أن تطلّق زوجتك التي لم تَرَ ما يوجب طلاقها... فلا تطعهما. الآية لم ترد أن تفصّل فيما لا يجب أن تطيعهما به واكتفت بردّه إلى العرف الذي يحدّده عقلاء المؤمنين.

ضع في بالك دائماً أن ما تركه سبحانه من تشريعات للعرف لتحديده، هو محكوم بتحديد عقلاء المؤمنين له، وليس حصراً لكبار السنّ ولا للأعراف الجاهلية التي تنتشر بين الناس، حيث دائماً هناك أعراف سيئة تنتشر بين الناس، وتصير كقوانين لا يمكنك مخالفتها وإلّا نبذوك واستسخفوك... طالما أعرافهم ضمن المساحة التي سمح بها تعالى، وعملياً لم يحرّموا حلالاً ولم يحلّلوا حراماً مذكوراً في القرآن، عندها لا مشكلة في التماشي معها، وأمّا إن كانت أعرافهم تتعارض مع الحرية التي تركها تعالى لنا فلسنا مجبرين على التماشي معها، وأنا لست مجبراً على تزويج ابنتي وعمرها تسع سنين، حتى لو كان الجميع في بيئتي يزوّجون بناتهم في هذا العمر، وأيضاً لست مجبراً على ممانعة تزويجها حتى تبلغ الثامنة عشرة حتى لو كان مجتمعي لا يزوّج البنات قبل هذا العمر، فهذا نموذج عن حدود العرف، فلا يحقّ لنا فرض هذا النوع من الأعراف على الآخرين... ومثله حلق اللحية، ولبس العباءة أو الثياب الفضفاضة، وإقامة مأتم عزاء لميّت لأربعين يوماً أو لثلاثة أيام أو ليوم...

{وَاتَّبِعْ}، كن على، {سَبِيلَ}، مسلك، {مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ}، من لم يكن له قرارات وأفكار خاصة به منفصلة عنه تعالى بل يرجع في أموره فقط إليه تعالى، واتبع ما يقوله المؤمنون الحقيقيون، {إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ}، ستموتون وترجعون إليه تعالى، لن تختفوا ولن تنمحوا ولن تذهبوا لغيره سبحانه، {فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، والخبر عمّا عملتموه ليس مُنْتَشِراً، وحتى أنتم لا تتذكّرونه كلّه، وحين ترجعون إليه تعالى فسيخبركم بكل شيء قمتم به، وأنتم تحت المراقبة الإلهية الدقيقة، وأمركم سبحانه بتوحيده، وبمصاحبة أهلكم بالمعروف، فإن أطعتم أو عصيتم فنهايتكم لعنده تعالى وسيحاسبكم.

بقي شيء ننتبه له جيداً، حيث كل كلامه تعالى معنا في قرآنه كان شفافاً، وهنا في الآية ترى منعه تعالى لك من الشرك به لأن والديك طلبا ذلك منك، طالما لا علم لك بإله غيره تعالى، فافهم الكلام على شفافيته، لأنه سبحانه لا يريد منّا الإيمان به وتوحيده على العمى لمجرد أنه قال لنا ذلك، ونفس المعنى ورد في الآية 8 من سورة العنكبوت {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، فسبحانه في قرآنه يخبرنا بكل شفافية عن علمه بما يراه، وأنه لم يَرَ ولم يلمس أثراً إلا لنفسه وللمخلوقات التي خلقها هو سبحانه، وأيضاً ينفي إمكانية علمنا نحن بشيء ولا يعلمه هو سبحانه، فكيف نعلم نحن بوجود آلهة غيره وهو تعالى لا يعلم بها؟ وهذا ما ورد في عدة آيات منها الآية 33 من سورة الرعد {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ}...، وأيضاً ينفي أي أثر لإله غيره هنا في الدنيا بالتعبير الذي ورد بالدليل عليه في الآية 22 من سورة الأنبياء {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}، وحتى أنه تعالى نقل لنا مشاهدَ من حساب الآخرة وبنفس الشفافية سائلاً المشركين عن آلهتهم لأنهم الآن بأمس الحاجة لها لتنجيهم من العذاب كما تقرأ في عدة آيات منها الآية 62 من سورة القصص {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ}. ومضافاً لكل ما سبق لدينا الخبر عن علمه تعالى بنفسه عن استحالة تواجد كائنين لهما هذه الطبيعة الإلهية وهذا ما تقوله سورة التوحيد.

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ {16})

نرجع لوعظ لقمان(ع) لابنه: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ}، بوزن أو بحجم، {حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ}، والخردل نبتة معروفة بعصير بذورها الأصفر الذي نضعه مع الطعام "بالأجنبية: موتارد"، وبذرتها صغيرة جدا جدا، وإن يَكُنِ الشيء الذي يساوي تلك الحبة الصغيرة جدا، {فِي صَخْرَةٍ}، على سطح صخرة أو في شقّ صخرة، فلا يلاحظها أحد من شدة صغر حجمها، أو {تَكُنْ}، {فِي السَّمَاوَاتِ}، الضخمة في أي نقطة فيها، أو، {تَكُنْ}، {فِي الْأَرْضِ}، الفسيحة، أينما كان وكيفما كان، {يَأْتِ بِهَا اللَّهُ}، يحضرها سبحانه فلا يضيع شيء ولا يخفى عليه سبحانه شيء، عندما يحاسبنا سبحانه بِـهذا المقياس بالدقّة يحاسب، ولو كانت أصغر من حبة رمل، فإنه تعالى يسحبها ويحضرها ليحاسبك عليها.

{إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ}، لا تتصوّره سبحانه ضخما هائلا لا يمكنه رؤية ومراقبة الأشياء الصغيرة، ولا تتصور أَنَّ وَسَاعَةَ الدنيا الهائلة الضخامة تَجعله تعالى يضيّع حبة رمل أو أصغر ولا يعرف مكانها، لا، بل هو لطيف يُمكنه التعامل مع الأشياء اللطيفة الدقيقة مثلما يمكنه التعامل مع الأشياء الضخمة.

اللَّهُ {خَبِيرٌ}، لديه أخبار كل شيء حتى على مستوى أشياء أصغر من حبّة الرمل، حيث لديه تعالى خبر بمكانها وحالها...

لاحظ أن حبة الخردل هي نموذج عن أصغر شيء له كيان يمكنك رؤيته بعينك كإنسان، تَضرب الآية مَثَلًا بِشيء صغير تعرفه وتراه، وحاليا نحن نعلم أن حبّة الخردل ليست أصغر شيء، لذا نقول: الذرّة أصغر، والبروتون أصغر... والآية لا تعطينا درسا في الفيزياء، ولا تحدّد أن أصغر شيء في الدنيا هو حبة خردل، لا، ولكن بما أننا بسهولة يمكننا الانتباه لحجم حبّة الخردل الصغير جدا، فَأَشَارَ إليها لقمان(ع) في كلامه، وأشار أيضا لها القرآن في آيات أخرى. أقول لك هذا حتى لا تقع في فخ بعض السخافات التي يُنمقّها بعضهم عن الاكتشافات العلمية في القرآن عن بذرة الخردل وميزاتها ومقارنتها بباقي البذور... ومثله الكلام عن أهمية التين والزيتون والرمان... لأن القرآن ذكرهَا، فهذه طفولية ساذجة من الصعب التخلّص منها لأن جماهيرها دائما كُثُرٌ، ومهما قلت لهم منبها تراهم يَعُودُونَ ليقعوا في هكذا تفاهات، حتى إنَّ أحدهم روّج لوضع حبة زيتون في التين وأكلهما هكذا، مشتقا ذلك بسذاجة من سورة التين، ومدّعيا أنهما شفاء من كل داء!

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ {17})

{يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ}، فَعِّلْ ولا تُعَطِّلِ التوجّه والإقبال بالحركات والكلمات التي تعبّر عن العبادة لله تعالى، {وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ}، ما هو متعارف عليه أنه حسن جيّد بين عقلاء المؤمنين ويتماشى مع الدين الإلهي فأمر الناس بالقيام به، وتطبيق هذا الكلام بالنسبة لنا أَنَّ هناك أمور أساسية ذكرها القرآن بصراحة وهناك أمور مهمّة لم يذكرها بصراحة ولكنها بسهولة يمكن اشتقاقها من كلامه تعالى كالصدق مع الأطفال وتعليمهم... وهناك أمور ذكرها القرآن وترك لنا هامش مرونة للتعامل معها كتحديد دِيَةِ الجروح والقتل... وهناك أمور اعتبرها القرآن بديهية فلم يذكرها، كحرمة استعمال الماء المسروق والمغصوب عموما، وانتفاء صحّة الوضوء به... فما هو متعارف عليه أنه جيد فأمر به.

{وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ}، فَأْمُرِ الناس بالتوقف نهائيا وَأَلَّا يفعلوا المنكر، وهي الأمور التي ينكرها المؤمنون العقلاء وإنكارهم لها مبني على دينه تعالى، وبالنسبة لنا فالأساسيات المنكرة ذَكَرَهَا تعالى في قرآنه كالشرك والغش والزنا... وهناك أمور نشتقها بسهولة من كلامه تعالى كسوء المبالغة في الكلام وسوء الاستهتار بالأعمال والأشغال، والكذب على الكبار أو الأطفال... وهناك أمور بديهية لم يذكرها القرآن كحرمة رمي الأوساخ في الشارع... والتي أيضا تشتقها من مُضَادَّتِهَا لوصف عمل الصالحات وأنها فساد...

يتقاطع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في نفس العناوين أحيانا، فيكون فعل الشيء معروفا وتركه منكرا، كبرّ الوالدين، ويتقاربان كما في حالة منكر الكلام البذيء ومعروف الكلام الحسن.

المنكر من مقابلته مع "عَرَفَ معرفة" يعطي معنى حصول صورة أو مفهوم ونفي تطابقه مع ما لديك، فهو عموم ما ليس معروفا على الوجه المطروح، كرفض لتصنيفه.

{وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ}، ويا بني تصرّف عن وعي ودراسة ولا تُفْلِتْ أعصابك وتقوم بأعمال نابعة عن عصبية وغضب إن أصابك شيء مزعج، فلا تسبّ ولا تشتم ولا تعتدي على الآخرين... {إِنَّ ذَلِكَ}، الصبر، {مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}، وَوَصْفُ أي أمر من الأمور بالعزم بِالشِّدَّةِ إصرارا عليه، فإن الصبر {عَلَى مَا أَصَابَكَ} من عزم الأمور، من تلك الأمور الممدوح فيها الشدّة والإصرار. قارنها مع ترك شرب الماء لساعة أو ساعتين، فهذا صبر يحتاج إلى عزم، ولكنه لا يوصف بأنه من عزم الأمور بمعنى حاجته لإرادة قوية جدا للالتزام به، أمّا الصبر على مختلف ما يصيبنا من مشاكل والبقاء على الحقّ والصلاح، فهذا من الأمور التي توصف بأنها عزيمة، وبتعبيرنا الدارج: صاحب إرادة قوية.

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ {18})
{وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ}، ضرب الكفّ يكون على الخد، فلا تجعل خدّك مجهّزا ليضربك الناس عليه، وَالتَّصْعِيرُ هو تقليل القيمة، فلا تكن ضعيفا مُهَانًا وتجعل نفسك بلا قيمة لدرجة استهتار الناس بك، فلا تقم بتصرفات تجعلك بلا قيمة.

{وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا}، مشيا يعبّر عن اللامبالاة وعن اطمئنان كمن يشعر بأنه مسيطر على كل أموره صحيا جسديا ماليا واجتماعيا... وَرَدَ نفس التعبير في الآية 37 من سورة الإسراء {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا}.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ}، كل من يعرض نفسه وما لديه على الآخرين على أساس أنه مميّز، {فَخُورٍ}، يفتخر بصفاته وبما لديه على الآخرين.

بعبارة أخرى، لا تجعل نفسك مُهَانًا بلا قيمة، وهذه حالة تصيب الإنسان كما نقول بالدارج: مسح نفسه. حين شعر بالحاجة لمساعدة الناس له ماديا أو اجتماعيا... أو شعر بأنه أقل من الآخرين اجتماعيا أو ماليا أو بالشكل أو بنوعية اللباس... أو أقل بالعلم والشهادات... أو من عائلة أو بلد يَعْتَبِرُونَهُ من درجة أقل... ولا ترفع بقيمتك لدرجة الاختيال والافتخار على الآخرين.

نلاحظ في الآية 63 من سورة الفرقان مدحها لمن يمشي على الأرض هونا {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا}، وَيَبْدُو أن الهون هو المشي براحة على طبيعة الجسد، هو الحالة المعاكسة لحالة المشي مَرَحًا باختيال وفخر بنفخ الصدر أو ترنّح اليدين...

أي تطبيق للاختيال بقصد عرض ما لدينا على أساس أنه مميّز، فهو سيّء، وأي شعور بالافتخار على الآخرين بما لدينا أيضا سيّء، فالتكبّر هو استصغار الآخرين، أمّا الفخر والاختيال فهو الاعتقاد بتميّز ما لديك عن الآخرين، مثل قولنا: سيارتي أجمل وأقوى من سيارتك. أولادي أشطر من أولادك... ويكون الافتخار والاختيال بكل شيء، سواء باللباس أو بالزينة أو بالسيارة أو بجمال الشكل أو بالعضلات المفتولة... أو بالمنصب أو القيمة الاجتماعية أو باسم العائلة أو الشهادة العلمية...

ضع في بالك في عموم ما ورد في القرآن أنه تعالى لا يحبّه، وَرَدَتْ حيث لا داعي للكلام القاسي، وخذ مثلا كلامك معي حيث تريد تحذيري وتنبيهي وَتَقُولُ: سأكسر عظامك لو فعلت كذا وكذا... فهذه نبرة عالية لا مبرر لها لأنك تعلم أني حاليا لست ناويا لفعل السوء، والجملة الأنسب: لا أحب أن تفعل كذا وكذا... وعلى هذا المفهوم جاءت الآيات التي وجّهت كلامها مع المؤمنين مُسْتَعْمِلَةً عبارة مشابهة لعبارة "الله يحب أو لا يحب".

بقي شيء من الفضول عما يقولونه عن إعجاز تكرّر بعض كلمات القرآن بعدد ملفت، كقولهم عن تكرار كلمة ليل 12 مرة وكلمة نهار 12 مرة... تَتَبَّعْتُ غالبية الكلمات التي قالوها ووجدت غالبية كلامهم كَذِبًا إلا في أقل من عشر كلمات، ومما تحققت وتأكدت منه كلمة شهر بالمفرد "شهر، شهرا" تَكَرَّرَتْ 12 مرة، وتكررت كلمة شهر بالمثنى "شهرين" مرتين فقط. كلمة "رجل" بالمفرد تكررت 24 مرة، وكلمة "امرأة، امرأت" أيضا تكررت 24 مرة. كلمة "يأمرون" تكررت 7 مرات، وكلمة "ينهون" أيضا تكررت 7 مرات. كلمة "الخبيث" بالمفرد تكررت 7 مرات، وكلمة "الطيب" بالمفرد تكررت 7 مرات. وهناك كلمات أخرى فيها الكثير من التراخي والاستنسابية بحيث يلغون كلمة أو كلمات لسبب غير وجيه ويدّعون أن الأعداد متساوية كقولهم عن تكرار كلمة ملائكة والشيطان.

والغريب أن الحالة الوحيدة الصادقة بالتمام والوضوح هِيَ ليست منتشرة في مقالاتهم وكتبهم! وَفِعْلًا تكررت في القرآن جملة "الله يحب" 16 مرة، وجملة "الله لا يحب" 16 مرّة.

لكن، هل هذا يعني أي شيء؟ لا، لا يحتاج القرآن لِخُزَعْبَلَاتٍ من هذا النوع ليصير له قيمة أو لنؤمن بأنه من مصدر إلهي، لأن ما فيه من حقّ وصلاح هو قيمته.

هناك شيء عن قوننة هذه السلوكيات لتصير من دينه تعالى سنذكره في الآية التالية.

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ {19})
{وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ}، ليكن تَحَرُّكُكَ له قصد ولك هدف من المشي، لا تتبختر في المشي، ولا تتراقص أو تتصنّع... امْشِ على راحة جسدك كما تمشي عامّة الناس، وهذا المعنى مشابه لتعبير الآية 63 من سورة الفرقان {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا}...

{وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ}، اجعل قوّة صوتك منخفضة للدرجة المسموعة لا أكثر، لا ترفع صوتك في كل الأوقات، لا تتحدّث بصوت عَالٍ، ولا تنادي على الناس بصوت عَالٍ، {إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ}، والمنكر من مقابلته مع "عَرَفَ معرفة" يعطي معنى حصول صورة أو مفهوم ونفي تطابقه مع ما لديك، فهو عموم ما ليس معروفا على الوجه المطروح، كرفض لتصنيفه. فَإِنْ كان هناك صوت تنكره الناس، كصوت غير متعارف عليه بين الناس أنه صوت حسن، فَهُوَ {لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}، وهو الحيوان المعروف بنهيقه.

نحن أمام رجل يعظ ابنه الشاب، والتنبيهات من الطيش والتصرفات غير المدروسة التي عادة تصدر من الشباب، وتلاحظ أن مناداة الشباب لبعضهم بصوت عَالٍ، مزعج للناس، أو كلامهم مع بعض بصوت عَالٍ... مثل أبواق "زمور، هورن" السيارات، والتشفيط، والجلوس على زوايا الطرقات، والخيلاء في المشي، وتمضية الوقت ذاهبا قادما على الطرقات أو في السيارة... فهذه هي صورة الأشياء التي يعظ لقمان (ع) ابنه منها.

إِنْ كانت فاقعة واضحة في طيش الشباب والشابّات، فهي موجودة منتشرة حتى عند كبار الرجال والنساء، وكما تلاحظ بوضوح، هي مواعظ سلوكية نابعة من أساس ديني ولكنها ليست من الأمور المشهورة بالحلال والحرام، وهذه ميزة نقل هذه الموعظة هنا في السورة، وهذه نادرة من نوادر كلام القرآن.

مرارا قسّمنا في دراستنا هذه دينه تعالى إِلَى عقائد وتشريعات وسلوكيات، وما تراه هنا هو السلوكيات التي من شبه المستحيل قوننتها على معنى وضع عقاب يحكم به القاضي على من يفعلها، حيث إِنَّ العديد من الدول تتعامل محاكمها مع السباب والإهانات والأذى النفسي... بتعويضات على المتضررين، ولكن ورغم ذلك تبقى هذه السلوكيات السيئة منتشرة لصعوبة حلّها كلّها من كبيرها وصغيرها في المحاكم، وعادة تعتمد الدول على التربية المدنية في المدارس لتوطين القيم في أفراد مجتمعها، وتختلف أساليبهم في ذلك، فبعضهم لديه كتب للتربية وآخرون يعتمدون على نفس تطبيق المربّين لنظام المدارس...

على أي حال، دينه تعالى لا يميّز بين ما يمكن قوننته ليكون عليه عقاب بيننا، وبين ما لا يمكن قوننته، فَأي سلوك سيّء، يُحَاسَبُ وَيُجَازَى عليه فاعله في الآخرة، ولو كان بقيمة حبّة خردل.

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ {20})
بعد عرض أساسيات السبيل الإلهي تلفت السورة انتباهنا كلنا، وبالخصوص تلفت انتباه من ترك سبيله تعالى وذهب خلف اللهو والاستهزاء بالدين الإلهي:

{أَلَمْ تَرَوْا}، ألم تحصل لديكم صورة محدّدة كما نقول بالعامية: ما شفتوا، ما التفتوا. {أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}؟ وتعبير السماوات والأرض باستعمال القرآن يعني: كلّ شيء. وَما في الدنيا يقدّم لكم أشياء بالسخرة وأنتم لا تقدمون أي شيء، لَمْ تصمموهم ولم تخلقوهم ولم تأمروهم ولم تدفعوا لهم الأجرة... ولا شيء، وَالآية تشير إِلى

عموم أي شيء نستفيد منه أينما كان، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، ومن الواضح أنه سبحانه أتاحه لنا، لِأَنَّ الكون الذي أنتم فِيهِ يؤمّن للأرض البيئة المناسبة، والأرض تؤمن لكم البيئة المناسبة لتعيشوا عليها، وأنتم لم تفعلوا أي شيء بخصوص ذلك وفقط تستخدمون ما تستطيعون.

كما ترى أَنَّ الآية لا تقصد أن كلّ ما في السماوات والأرض مسخّر لنا، بل تشير إلى عموم ما استفدنا منه أينما كان ونحن لم نخلقه ولم نصنعه ولم نقدّم له أي شيء...

{وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ}، بكثرة وبشكل ملائم ومناسب أعطاكم، {نِعَمَهُ}، الأشياء التي توصف بِأَنَّهَا نعمة بأنها جيّدة، ونعمه تعالى عليكم، {ظَاهِرَةً}، واضحة لكم وتعرفونها بسهولة، إِذَا نظرتم إلى كيانكم وجسدكم وحواسّكم والبيئة التي أنتم فيها... كلها نعم ظاهرة لكم بسهولة، وأسبغ عليكم نعمه، {وَبَاطِنَةً}، في الباطن لَيْسَتْ ظاهرة لكم، نَعرفها بآثارها كالعقل والفهم والخيال وما ينتج عنهم من ابتكارات... والقدرات كالقدرة على الكلام واختراع اللغة والرسم والقراءة...

لا تحمل كلمة "باطنة" على معنى أَنَّ هناك نِعَمًا مخفية لا تعرفونها، صحيح أن ما لا نعرفه أكثر مما نعرفه مما أنعم به تعالى علينا، ولكن كلمة "باطن" لا تشير لذلك.

{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ}، يصله الكلام عن الله تعالى وعن آياته وعن قدرته وعن نعمه... ويردّ عليها محاولا إقناع الآخرين بأنها غير صحيحة، {بِغَيْرِ عِلْمٍ}، من دون أن يدرس أفكاره وأقواله ليرى إن كانت حقيقية ومطابقة للواقع، فهو لا يدري فعلا معنى كلامه، ويجادل بلا {هُدًى}، هو ليس على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة حتى يدل غيره عليها، ويجادل بلا {كِتَابٍ} "إلهي" {مُنِيرٍ}، يكشف الحقيقة ويجعلها واضحة، لَيْسَ لديه كتاب إلهي ينطلق منه كمستند ومرجع ليتحدّث عن الأفعال الإلهية.

ما نستعمله ونستفيد منه مما في السماوات والأرض مَنْ قدّمه وأتاحه لنا؟ بشكل واضح تعلم منه أن الإله سبحانه سخّره لنا، وبوفرة وكثرة ترى نعمته تعالى علينا، ورغم ذلك بَعْضُ الناس يكفرون به تعالى! بل ويحاولون إقناع الآخرين بالكفر بأشكاله المتنوّعة! اِسْتِنَادًا لأي دراسة وتفكير كفروا؟ هل العلم أوصلهم لنتيجة الكفر؟ أم قدرة تمييز الحقّ من الباطل لديهم أوصلتهم للكفر! الكفر ضلال واضح والمهتدي للحقّ لا يكفر. وحين يجادلون الآخرين ليقنعوهم بالكفر إِنْ لم يكن استناد كلامهم لعلم عن تفكير ودراسة، ولم يكن من قدرة سليمة على تمييز الحقّ من الباطل، وهذه القدرة ليست مستقيمة عندهم لأنها فاسدة، بَقِيَ أن يستندوا إلى معلومات صادرة عن جهة إلهية تخبرهم بالحقيقة، لِأَنَّ الخلاف في أمور إلهية، ومن أخبر من الإله بذلك؟ هل لديهم كتاب من مصدر إلهي ومذكور فيه معلومات تثبت صحّة كفرهم؟

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ {21}) {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ}، قال أحد ما لمن لم يتبع السبيل الإلهي:

{اتَّبِعُوا}، كونوا على، {مَا أَنْزَلَ اللَّهُ}، ها صَارَتْ مُتَاحَةً لكم معلومات مصدرها الإله صاحب الاسم المحدّد المميّز الله ذِي الصفات الحسنى والقدرات الفائقة، والعلم الفائق...

{قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ}، نرفض اتباع ما تقول عنه إِنَّهُ كلام الله ونكن على، {مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا}، نَتبع عاداتهم وتقاليدهم ودينهم وعقيدتهم. وطبعا هذا نموذج بارز، وكلام السورة عن ومع أناس من زمن النبي محمّد(ع)، ولكنه ليس عنهم ولهم فقط، بل لعموم البشرية على امتداد التاريخ، وأبرز ما يتعلّق به الناس رافضين الحقّ هو ما ورثوه عن آبائهم، ويدخل معه في العنوان ما ورثوه عن مجتمعاتهم، وما اخترعوه هم كعقيدة، وما اخترعوه وتحازبوا عليه، وما استوردوه من آخرين، وما اعتمدوه مما هو رائج دارج بين الآخرين، كاستيراد عقيدة الشيوعية أو القومية أو الوجودية...

لاحظ وانتبه لعرض اتباع ما أنزله تعالى عليهم أنه ليس من باب الترويج لنفسه سبحانه، بل لكونه إلها قدراته وعلمه فَائِقَةٌ، لِأَنَّ كلامه حقّ صَافٍ، وَالمعلومات منه تعالى ستكون صحيحة ودقيقة، وهي التي تصير كعقائد نؤمن بها، وصفاته الحسنى سبحانه معلومة من انعكاسها فيما فعله، لِذَا أوامره لنا ستكون حكيمة ولن يكون فيها سوء أو شرّ، وهي التي تصير تشريعات وسلوكيات لنا، وَهذا ما يُعرَض عليهم اتباعه، وفي المقابل يرفضونه مفضّلين اتباع ما وجدوا

عليه آباءهم؟! فهل آبَاؤُهُمْ قدّموا لهم معلومات وتشريعات وسلوكيات حَقًّا أحقّ وأفضل مما يعرضه تعالى؟ وهل أصلا المعيار عند آبَائِهِمْ كان الحقّ والصلاح؟ وهل أساسا هم يبحثون عن الحقّ والصلاح ليتّبعوه؟ وإلا فما معنى تركهم لما أنزله تعالى وهو حتما وبالتأكيد حقّ صحيح حسن وصالح... واتّباعهم لما وجدوا عليه آباءهم؟

{أَوَلَوْ}، حتى لو، {كَانَ الشَّيْطَانُ}، الكائن الموصوف بالقيام بأعمال الضلال لنفسه وللآخرين {يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ}؟ يعلن ويشهر لهم للذهاب إلى النار المستعرة التي تتأجج ولها ألسنة لهب طويلة!

يخطر ببالنا عادة الإشارة بالشيطان إلى إبليس، ولكن كلام الآية هنا عمومي شامل لأي شيطان، شامل لأي كائن يحمل صفة الشيطنة، رُبَّمَا كان في آبائهم شياطين وهم من هواهم السيّء اخترعوا عقائد وتشريعات باطلة، وربما إبليس له حصّة كبيرة أو صغيرة في الوسوسة لآبائهم حتى كفروا... لِذَا ليس مهمّا تحديد شخص كشيطان، لِأَنَّ هناك حتما شيطان من الجنّ أو الإنس وراء الباطل، وَمقابل كلامه الحقّ سبحانه لا يوجد إلا كلام شيطان، كَائِنًا من كان.

لا يوجد احتمال ثالث، هُمْ أمام كلام الإله، ووحده الكلام الحقّ، ونتيجة اتّباعه رضاه تعالى والجنّة، وأي مخالفة لأي شيء من كلامه تعالى هِيَ الضلال حتما، وَهِيَ كلام شيطاني، فإن لم يكن آباؤهم على كلامه تعالى فهم حتما على كلام شيطاني، وَهل يَتْبَعُونَهُمْ حتى لو كانت النتيجة الحتمية الدخول إلى عذاب في نار مستعرة؟

نتوقّف قليلا رابطين ما قالته السورة مع بعضه، التَّوْحِيدُ وبر الوالدين والصلاة والشكر له تعالى... ونبذ التكبّر والخيلاء على الآخرين... هذا ما سبق وذكرته السورة من عقيدة وسلوكيات يأمر بها تعالى، وَالكفر بدينه تعالى هو كفر بهذه الأمور التي من الواضح أن مخالفتها ستكون نابعة من فكر ضلالي، شيطاني، فإن كان آباؤكم، مجتمعكم، بيئتكم، من يحكمكم... يعارضون هذه العقيدة والسلوكيات المطروحة على أنها من مصدر إلهي ومن الواضح جدا أنها الهدى، فهل تتبعون الضلال "الشيطاني" حتى لو كَانَتْ نهاية اتباعكم له إلى نار تتطاير ألسنتها!

من ناحية ثانية الْآيَةُ تلفت الانتباه للاستهتار والاستخفاف، حَيْثُ الكثير من الناس يقولون: بلا كلام عن جنّة وبلا كلام عن نار، يكفي نَحْنُ مرتاحون على ما وجدنا عليه آباءنا ولا نرى سببا لنتغيّر عنه، وحتى لو كان بالتحليل البسيط أو العميق يبدو فيه فساد وسوء، لَا يهمّنا إِذْ نحن هكذا نريد استمرار وانقضاء حياتنا.

السوء تراه جليا في كل ما حرّمه تعالى، من زِنًى وقمار ومخدرات ومسكرات وغشّ وتحازب وعصابات... حتى الممارسون لهذه الأعمال الإجرامية يعلمون مدى سوئها... ولكن باستخفاف واستهتار يقولون: هذه الحياة تسري فيها شريعة الغاب، حَيْثُ القوي يتحكّم بالضعيف، ويجري فيها سباق على إشباع الرغبات... ونحن متماشون مع هذا.

تأتي الآية هنا لتخبرهم علنا وصراحة أن لهذا الخيار عواقب، إِذْ نهايته إلى عذاب في نار ألسنة لهبها متطايرة تتراقص، وَهل فعلا أنتم تفهمون نتيجة هذا الاختيار؟!

(وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ {22})
في مقابل الذي ترك كلامه تعالى واتّبع آباءه ونهايته إلى النار، هناك:

{وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ}، ما يتوجّه به يكون مُنْقَاداً مُتَّبِعاً لجهة الله تعالى، {وَهُوَ مُحْسِنٌ}، عقيدته وعمله حسنان جيدان، ويكون توجّهه باتجاه الانقياد والطاعة لله تعالى بما يقوم به من الأعمال الحسنة، {فَقَدِ اسْتَمْسَكَ}، تمسّك وتعلّق بقوّة، {بِالْعُرْوَةِ}، بشيء يربطه بحبل، وهي عروة، وصلة، {الْوُثْقَى}، المشدودة بإحكام، المعقودة جيداً. تُصوّر الآية التمسّك بما يقوله تعالى مثل التمسّك بحبل عبر عقدة "ربطة" مشدودة متداخلة ولا تنفلت عن الحبل الإلهي، ومن أسلم وهو محسن جدل عروة قوية على الحبل الإلهي، وصار مُرْتَبِطاً بقوة بسبيله تعالى.

التعبير بإسلام الوجه مع الإحسان يُقصد به أن الانتماء بالاسم فقط لدينه تعالى من دون تطبيق لا ينفع، لأن الإيمان به تعالى فقط لا ينفع، والإيمان مع العمل السيّء ليس مقبولاً، بل الإحسان شرط أساسي، حيث إن الشريعة والسلوكيات يجب أن تكون حسنة، و{آمَنُوا} بدون {عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} لا معنى لها، و{عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} بدون {آمَنُوا} أيضاً لا معنى لها.

{وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}، ما يعقب الأمور، وما يأتي بعد الأشياء التي تحصل إليه تعالى، ومعلوم أنه تعالى جعل جنةً خالدةً كعاقبة للمتمسك بحبله.

أمّا من تمسّك بحبل آخر، فمصيره إلى نهاية حبله، سيكون حبل الشيطان الذي سيوصله إلى عذاب السعير.

مجمل كلام الآيات يختصر ما يعرضه تعالى من حقّ وصلاح، ونحن فينا قدرة تمييز الخير من الشرّ، ويمكننا اختيار ما نشاء، ولكن لكل نتيجة عاقبةٌ حتميةٌ، واحدة إلى النار وأخرى إلى الجنّة، لذلك اختاروا ما تشاؤون واعلموا أنكم ستتحمّلون عواقب نتيجة اختياركم.

(وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ{23})
{وَمَنْ كَفَرَ}، ومن أنكر الكلام الإلهي ولم يعتقد به ولم يعمل به، {فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ}، لا داعي لتشعر بالانزعاج عليه بسبب إنكاره للحقّ وفعله للسوء لأنك ترى مصيره إلى النار، وهذا المعنى تجده في الآية 127 من سورة النحل "وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ"، والآية 8 من سورة فاطر "... فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ...".

لا تحزن على من كفر فهو يستحقّ العقاب، لأنه كما رأيت في الآية قبل السابقة هو باختياره ترك الكلام الإلهي الحقّ الواضح واختار كلام آبائه "أو ما هو منتشر في مجتمعه أو في مذهبه أو طائفته أو حزبه..." الذي أصله كلام شيطاني.

{إِلَيْنَا}، إليه تعالى، {مَرْجِعُهُمْ}، ولن يفنوا ولن ينمحوا حين يَمُوتُونَ ولن يذهبوا لمكان آخر... بل إليه تعالى سيرجعون في الآخرة، {فَنُنَبِّئُهُمْ}، يخبرهم سبحانه بأمور معرفتها ليست منتشرة، {بِمَا}، بالذي، {عَمِلُوا}، من الكفر وأعمال سيئة... وسيحاسبهم سبحانه على ما عملوا بعد أن يقوله لهم، وأعمالهم مسجلة في كتاب، وهم كفروا وهم يعلمون أنهم كفروا بالحقّ وسبحانه سجّل لهم كل ذلك.

{إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}، تفاعلنا الفكري والنفسي الداخلي مع ما يحصل معنا وسبحانه يعلم به، وعندما يخبرهم سبحانه بما عملوا فهو عليم ويعلم كل شيء، لدرجة أنه تعالى يعلم تفاعلنا الداخلي مع الأمور، ويعلم ما كرهناه وما أحببناه وما آمنّا به... حتى لو لم نقله.

يعني هم كفروا باختيارهم، وأنت لا تعلم كل شيء عنهم ولا تعلم حقيقتهم، ولذلك تحزن على مصيرهم، فلا تحزن بسبب مصيرهم الذي حكم به تعالى عليهم، لأنَّ سبحانه سيخبرهم بكل ما فعلوه، وسيخبرهم بحقيقتهم الداخلية.

نَفْهَمُ الكلام بشكل أسهل إذا فكّرنا أن يسامح سبحانه الناس على كفرهم بدلاً من قراره بتعذيبهم، وهذه الفكرة الساذجة الطفولية والتي تبدو بريئة حنونة... هي ليست كذلك، لأنَّ هؤلاء فعلوا أموراً فظيعة، وصدورهم تخفي سوءاً من العيار الثقيل، لذلك هم لا يستحقون الرحمة والرأفة، فلا تحزن على عقابهم الشديد لأنهم يستحقونه، وفي الآخرة هم سيرون أنهم يستحقونه من بعدما يخبرهم تعالى بكل السوء الذي فعلوه وبما كان في صدورهم من سوء.

الآية تتكلم مع النبي محمّد(ع) كنموذج عن أي مؤمن، حيث عُرِضَ الدين الإلهي بشكل واضح على الجميع، وهذا وذاك باختياره كفر ومعه خبر بأن مصيره إلى النار، فلا تحزن عليهم لأنهم هم اختاروا ذلك، وهم لا يستحقون إلّا العقاب.

بالنسبة لكلمة "صدر، صدور" إن لم يكن القصد بها أعضاء الجسد والقفص الصدري وما تحته من أعضاء... فَاسْتَعْمَلَهَا القرآن كما يستعملها الناطقون باللغة العربية وكما هي مستعملة في العديد من اللغات الأخرى، ونشير بالصدر للتفاعل الداخلي للإنسان مع ما يراه ويسمعه ويشعر به مما يتعرّض له... ونحن عندما نتعرّض لمختلف الظروف، نشعر بالانقباض أو الانشراح... في صدرنا، لذلك استعملنا كلمة صدر لتوصيف حالة تفاعلنا مع الأمور، وحتى لو لم تشعر بأي شيء في قفصك الصدري، من انقباض أو صعوبة في التنفّس أو راحة... فمجرد تفاعلك مع ما تعرّضت له، فإن مختلف اللغات البشرية تعبّر عن هذا التفاعل بأن شيئاً حصل في صدرك، وحتى السرّ الذي تخفيه عن الآخرين تعبّر عنه مختلف اللغات بأنه في صدرك، وكلّنا نعلم أن السرّ ليس في القفص الصدري، إذ ليس تحته في الرئة أو القلب أو المريء... بل هو تعبير يشير لحالة تفاعلنا مع ما ندركه سواء بقي مَخْفِيّاً أو ظهر له أثر حسّي في منطقة الصدر أو على تعابيرنا وحركاتنا.

(نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ{24})
الذين كفروا:

{نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً}، نجعلهم ينتفعون بما هو متاح لهم هنا في الدنيا ولكن مدّة التمتّع قليلة، {ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ}، نلجئهم، ندفعهم رغماً عن إرادتهم، {إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ}، إلى ضرر يصيبهم وسيكون شديداً جداً بلا سهولة ولا تهاون فيه نهائياً.

هذا خبر لهم من الآن عن نتيجة اختيارهم للكفر، وفي العمق وقبل الوصول بالكلام إلى هنا، كان من قبل لدينا آياته تعالى، أفعاله تعالى، خلقه للسماوات والأرض الذي يَدُلُّ على أنه تعالى لم يخلق هذا باطلاً، وهذا شيء ركّزت عليه السورة هنا، فما معنى خلقه تعالى للسماوات والأرض فيهما كائنات عاقلة تتمتّع بحرية إرادة واختيار؟ أليس من الواضح أنه تعالى خلقنا هكذا ليحاسبنا ويجازينا على ما نختاره بإرادتنا؟ وهذا ما تجده مُنْتَشِراً في عموم القرآن بتعابير مختلفة، منها ما ورد في الآية 85 من سورة الحجر "وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ"، والآية 38 من سورة الدخان "وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ"، ومن الآية 27 من سورة ص "وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ"، وتراه كنتيجة واضحة يراها أصحاب القلوب السليمة والتي نقلت قولهم الآية 191 من سورة آل عمران "... وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ"، وهي نفسها المعرفة من الدرجة العالية نتيجة الدرجة العالية في سلامة القلب التي كان عليها إبراهيم(ع) والتي نقلها القرآن في سورة الشعراء ومنها وصوله (ع) لمعرفة الآخرة من دون نزول وحي عليه كما تقرأ في الآية 82 "وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ".

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ{25})
{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ}، إذا عبّرت أيها الرسول(ع) عن إرادتك للحصول على جواب من أولئك الذين كفروا، سألتهم: {مَنْ خَلَقَ}، من ركّب وألّف، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}؟ وهذا التعبير في استعمال القرآن يساوي: من ركّب وألّف كل شيء؟ لأنَّ هذه كُلُّ ما في الدنيا من مخلوقات وظواهر.

المشركون الظالمون اللاهون... يقهرهم ويغلبهم كلامه تعالى عبر قرآنه، حيث أخبرهم أنه تعالى خالق كل شيء، ولم يستطيعوا أن يرونا ماذا خلق الذين من دونه، لأنَّ آلهتهم ليس لها رسل ولا كتب لتخبرنا بما فعلته كما ورد في الآية 11 من هذه السورة "هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ...".

{لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}. صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز خلق كل شيء. ليس لديهم جواب آخر صحيح، وأي جواب آخر فهو كذب وافتراء، وردّ عليه القرآن بأبسط دليل: فها كتبه ورسله تعالى عبر آلاف السنين تأتينا بنفس الخبر من نفس الإله، ولم يصل أي شيء من آلهتهم، وها الدنيا من أولها لآخرها وبطولها وعرضها تدلّ على مصمّم خالق واحد...

ومن يقل بأن الطبيعة خلقتنا أو الصدفة أو كثرة التكرار... فهذا مضروب عقله حتى لو كان معه عشرون شهادة دكتوراه، لأنَّ هذه التفاصيل الهائلة التي فينا وحولنا... بدون مصمّم صارت!

{قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ}، كل أعماله توصف بأنها حميدة جيدة، خلقه تعالى للسماوات والأرض من الواضح أنه عمل حميد.

{بَلْ أَكْثَرُهُمْ}، أكثر الناس، {لَا يَعْلَمُونَ}، أن الحمد له تعالى، يحمدون غيره جَهْلاً وتَقْلِيداً لآبائهم تاركين ما يقوله تعالى، أو يرون سوء ما يحصل معهم أَحْيَاناً ويلقون اللوم عليه تعالى وكأن السوء حصل منه سبحانه وليس من بعضهم ضد بعض، وكأنهم هم لم يخرجوا من تحت مظلة الرحمة الإلهية بفكرهم وشركهم وفسادهم...

بالنسبة لتعبير "السماوات والأرض"، نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها لَيْلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه مَعْنَوِيّاً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دَائِماً أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "مَعْنَوِيّاً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ

سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ..." وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أَرْضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراض.

عَادَةً نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير ونستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، نقول: خلق سبحانه الدنيا. أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تَعْبِيراً صَحِيحاً دَقِيقاً بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم "فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى". وَسبحانه دقيق في تعابيره ويحدّثنا بدقّة عمّا يعلمه، وكلامه تعالى عن السماوات والأرض هو كلام عن علم بما أمامه سبحانه، وَسبحانه دَائِماً يتكلم بشفافية عمّا أمامه فقط، أمّا الكلام عن كلّ ما في الدنيا، فهو كلام عمومي ويشمل "نَظَرِيّاً" ما هو خارج العلم، ولذلك لم يستعمله تعالى، بينما ترى استعماله في كلام عموم البشر لأننا نتساهل ونتراخى في التعبير.

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ{26})

{لِلَّهِ}، لصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وكل شيء منسوب له، كلّ ما في دنيا المخلوقات منسوب له، يملكهم ويملك التصرف بهم ويتحكّم بهم... {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ}، المستغني عن كل شيء، لا يحتاج لأي شيء أبداً بتاتاً، وتبعية ونسبة كل ما في دنيا المخلوقات له تعالى ليست سبب غناه فهو أصلاً لا يحتاج لأي شيء.

سبحانه يملك كل الطعام فهل هو غني بالطعام؟ لا، لأنه سبحانه أصلاً مستغنٍ عن الأكل، وهكذا المال والكائنات والمساحات... سبحانه مستغنٍ عنها وليس بها، فالاستغناء بسبب الامتلاك لما نحتاج هو حالنا نحن المحتاجين للأشياء لنصير مستغنين عن الفقر والجوع... ولم يعبّر القرآن عن غناه تعالى باكتفائه بذاته، فهذا التعبير سيأخذنا إلى متاهات التفصيل التي بشكل ما ستعني أنه تعالى يجد حاجاته في نفسه، فلنبتعد عن هذا التعبير ونكتفي بالقول إِنَّهُ سبحانه طبيعته تجعله لا يحتاج لأي شيء، فهو غني على معنى المستغني عن كل شيء.

بعبارات أخرى وصفه تعالى بالغني ليس تفسيره أنه تعالى يملك كل شيء وبالتالي يصير المعنى أنه سبحانه يملك ما يحتاجه، فهذا غير صحيح، فكلمة "غني" تفيد معنى الاستغناء، وهو عموم انتفاء عموم الحاجة لعموم أي سبب، إمّا لأنك لا تحتاج أصلاً للشيء، وهذه حالته تعالى "الغني" بالنسبة لكل شيء، وحالة الملائكة بالنسبة لطعامنا... أو غني لأنك لديك ما تحتاجه وهذه حالتنا حين نملك الطعام والشراب... أو غني لأنك تملك ما يمكّنك من الحصول على ما تحتاج، وهذه حالتنا حين نملك المال لنشتري به ما نحتاجه. وترى هذا المعنى للاستغناء بشكل مباشر وواضح لأصل معنى كلمة "غني" في تعبير "... وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ" كما ورد في الآية 97 من سورة آل عمران، فبوضوح يشير الوصف بالغني للاستغناء، فلا حاجة له تعالى بهم ولا بإيمانهم ولا يتضرّر منهم مهما فعلوا.

وهو، {الْحَمِيدُ}، كل أعماله حميدة، ولا يصدر عنه تعالى إلّا أعمال حميدة جيّدة، فهو حميد.

هاتان الصفتان تتضمنان العديد من التفاصيل والأدق منها بما يتعلّق بسياق الكلام الذي وردت فيه، فالخبر عن نسبة كل شيء له تعالى وبعده صفة الغني تنفي حاجته تعالى لما خلقه، فهناك من يقول بِأَنَّهُ تعالى لديه حاجات نفسية فخلقنا لنعبده حتى يشعر بالقيمة ويصير إلهاً عالياً علينا... وهكذا نفهم الخبر منه تعالى عن وصف ذاته بالغني أنه لا حاجة له بأي شيء مهما كان نوعه، ووصفه تعالى بالحميد بعد الوصف بالغني نفهم منه أنه وبالرغم من انتفاء ضرره أو انتفاعه تعالى من أي شيء، فهو لا يفعل إلّا الخير، وقارنها مع إنسان ملك قدرات وسلطة وأملاك لدرجة أنه لا يوجد إنسان آخر يمكن أن يضرّه لشدة سلطته وقوّته، فلماذا سيتصرّف مراعياً الوصف بالحمد؟ فليفعل كل ما يخطر بباله مهما كان نوعه حتى لو كان قتلاً للآخرين للتسلية، كاللعب بالشطرنج البشرية، يستخدم الناس على الساحة كأحجار شطرنج ويقتل

الواحد منهم الآخر... وإن رأيت هذا المثال مبالغاً فيه، فما معنى خوض الناس لحروب ظالمة يأمر بها ملكهم أو رئيسهم... ويموتون فيها؟ والسبب هو تنازع على السلطة ولزيادة نفوذ السلطة وللسيطرة على موارد الآخرين...

هكذا ترى أنه تعالى يخبرك مستنداً على ما تراه من أفعاله رغم عزّته فهو حكيم عليم، ورغم غناه فهو حميد.

نرجع للآيات هنا والتي تريد الإشارة إليه تعالى كإله أحد، فمن صفات الإله أن يصمّم ويخلق، فإن كان هو تعالى المصمّم الخالق لكل شيء، وله كل شيء، فعلى أي أساس يقولون عن غيره إلهٌ؟! وعلى أي أساس يشكرون ويحمدون غيره؟

تلاحظ كلامه تعالى يصف كل أعماله بأنها حميدة، وأي شخص يعترض على ذلك، يقول عن شيء ما بأنه عمل إلهي غير حميد، فلو كان من المؤمنين المحسنين عملاً لما قال ذلك، والسبب أن المؤمن يفهم أنه في الدنيا في دار الامتحان، ودار الامتحان يتضمّن أن يكون هناك صعاب وأمور مزعجة ومؤلمة... وأمّا الدار الآخرة فكلها رائعة ولا مشاكل ولا مصاعب فيها. فعلى هذا الأساس، سيرى المؤمن كل شيء هنا في الدنيا كامتحان سببه أن الآخرين ليسوا صالحين، فلو كان الغالبية من درجة الإيمان والعمل الصالح المقبولة لنالوا عناية إلهية بدرجة إيمانهم وصلاحهم، وبدرجة ما تتحمّله الدنيا كدار ممر، ولمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 96 من سورة الأعراف "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"، والكافر سيعترض على كلّ شيء أو سيعترض على أشياء لا تعجبه لأنه لا يؤمن بأن الدنيا دار امتحان، هو يؤمن بأن حياته الآن هي فرصته الوحيدة في الوجود، فأي شيء يعارض تنفيذ شهواته السيئة... سيرى أن الإله لم يتمّم له حياته، وأن حياته ليست حميدة، وسيكفر بالإله...

(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{27})

{وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ}، لو أن كلّ النبات الذي على الأرض وله جذع خشبي كبير وفروع وأغصان وورق، {أَقْلَامٌ}، تحوّلت كل الأشجار لأقلام للكتابة، وكلمة قلم أصلها من التقليم، قديماً كانوا يقلّمون ويقصّون الأغصان أو القصب برأس مائل مسنّن قليلاً ليكون رأساً للكتابة، حيث إنَّ القلم اسم وصفي لعموم العصا الخشبية القصيرة الرفيعة، وبعدها صار اسماً وصفياً لما نكتب به، ويبقى الوصف عمومياً لكل ما يمكن الكتابة به حتى لو لم يكن شكله أو مادة تكوينه معلومة لنا، لأنَّ الملائكة يكتبون ولكن بأداةٍ لا نعلم شكلها ولا مادة تكوينها فبناءً على الوصفية هي قلم للكتابة.

{وَالْبَحْرُ}، وعموم أي واحد من تجمعات الماء الكثير التي على الأرض، {يَمُدُّهُ}، يتصل بالبحر ويزوده بالماء، {مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ}، هي بحار متّصلة بالبحر وتمدّه بالماء، بعد تحويل كل شجر الأرض لأقلام صغيرة للكتابة، وتغطيس الأقلام بالبحر والكتابة بها، وهذا البحر متّصل بسبعة بحار، {مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ}، مِنْ كثرة كلماته تعالى ستنتهي البحار ولا تنتهي كتابة كلماته تعالى، وكلامه تعالى هو أوامره بخلق أشياء وكائنات، وأوامره بتسيير أمور مخلوقاته... وهذه لو كتبها عدد كبير جداً من الكتبة، واستعملوا كميّة ثمانية بحار من المياه كحبر للكتابة، لتسجيل كلماته سبحانه، لم تَكْفِ هذه الكمية لتسجيل كلماته سبحانه، لأنه سبحانه وتعالى في كل لحظة لديه تريليونات تريليونات... الأوامر والمتابعات لشؤون مخلوقاته.

{إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ}، منفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... والكلام هنا عمّا يأمر به تعالى عبر كلماته "أوامره" حيث إنَّهَا تُنفَّذ حَتْماً، لأنَّ كلامه تعالى ليس مجرد حبر على ورق لا يُنفَّذ، ومن كثرتها لا يكفيها كل الأشجار مع البحار لكتابتها.

{وَاللَّهُ حَكِيمٌ}، كلماته الكثيرة التي يقولها كلّها حكيمة وكلها على ضبط الأمور على المطلوب بالصوابية.

مضافاً لكونه سبحانه الخالق لكل شيء، وله كل شيء، وحتى لا يخطر ببال أحد ما أنه تعالى انتهى عمله، ولا يعمل أي شيء حالياً، وصارت الأمور تمشي لوحدها... تأتي الآية هنا وغيرها من الآيات المشابهة لتخبرنا أنه سبحانه وتعالى في حالة خلق دائمة، ومتابعة دائمة لمخلوقاته، لذلك تَصْدُرُ عنه سبحانه كميات هائلة من الأوامر، وبشكل دائم.

رغم العدد الهائل للكلمات التي يمكن كتابتها بهذه الطريقة، تُقَرِّبُ الآية هنا الفكرة، حيث إنَّ كلماته سبحانه وتعالى لا تنتهي، وبتعبيرات الصوفية والعرفاء، فَإِنَّهُ تعالى "فيّاض" دائم الفيض، دائماً يخلق، ودائماً يتابع كل صغيرة وكبيرة في السماوات والأرض، ودائماً يقرّر ماذا سيحصل في كلّ الدنيا...

تَلْفِتُ الآية انتباهك إلى عظمة الإله، وتلفت انتباهك لسخافة الكلام عن إله معه، وإلى سخافة اعتبار غيره إلهاً... وإلى سخافة نكران الحمد لصاحب قدرات فائقة... وإلى سهولة ما ستعرضه الآية التالية:

(مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ {28})
{مَّا خَلْقُكُمْ}، ليس تركيبكم وتأليفكم، {وَلَا بَعْثُكُمْ}، ولا إنهاضكم من الموت، {إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ}، كخلق وبعث شخص واحد. فإن كنتم ترون عددكم كبيراً هائلاً بالمليارات، وترون إعادة خلقكم شيئاً صعباً بل مستحيلاً، فعددكم الكبير بالنسبة له تعالى كشخص واحد، يخلقكم ويميتكم ويعيد خلقكم كما لو أنه عزّ وجلّ يتعامل مع شخص واحد.

باختصار، الآية تشير إلى سهولة خلقنا وبعثنا بالنسبة له تعالى.

{إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ}، يسمع كلّ شيء، {بَصِيرٌ}، يدرك "بمستوى إلهي" ويعي معنى صورة ما يحصل، يرى كلّ شيء مع دراية، وسبحانه ليس مثل آلة التسجيل "كاميرا" التي تسجّل الصوت والصورة ولكنها جامدة لا تفهم ما تراه وتسمعه.

تشير الآية أيضاً إلى مدى سَعَةِ قدرته سبحانه، رغم عددنا الهائل كبشر، فهو تعالى يسمعنا كلنا ويرانا، ونحن بالنسبة له كخلق وبعث شخص واحد، وبنفس النظرة كلنا تحت المراقبة كنفس واحدة بالنسبة له سبحانه، يراقبنا ويعلم بكل ما نفعله كما لو أنه تعالى يسمع ويبصر شخصاً واحداً.

للتقريب، تصوّر مراقبتك أنت لإنسان ما، بعينيك تستطيع التركيز على بقعة صغيرة، ويمكنك ملاحظة حركات كل جسده التي من جهتك... علماً أن وجهه فيه فم وعينان ووجنتان وحاجبان... وكلها تتحرّك وتعبّر عن شيء... وهكذا بالتقريب نحن كلنا أمامه سبحانه بتفاصيلنا الكثيرة لا نشكّل له تعالى أي تحدٍّ ليسمعنا ويبصرنا لأن قدراته فائقة.

صِفَتَا السميع والبصير ليستا إشارة فقط إلى قدرته تعالى على مراقبتنا، بل إشارة إلى قدرته الهائلة للتعامل معنا بسهولة كأنه تعالى يسمع ويبصر شخصاً واحداً، حيث يمكنك تخيّل انتشار سمعه وبصره تعالى على كل السماوات والأرض، وكذلك تخيّل انتشار قدرته على خلقنا وبعثنا، وكأننا شخص واحد.

تتذكّر الآية السابقة التي أخبرتنا عن كثرة كلماته سبحانه، وهذه القدرة الهائلة جداً، والتي ترى آثارها من حولك كما سيأتي في الآية التالية، بالنسبة له تعالى سيكون خلقنا وبعثنا شيئاً بسيطاً سهلاً هيّناً، والدليل على ذلك هو عظيم قدراته سبحانه، وكنموذج عنها ما تقوله الآية التالية.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ {29})
نكمل مع لفت انتباهنا لقدرته الفائقة سبحانه وتعالى:

{أَلَمْ تَرَ} أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت. {أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ}، فيجعل فترة العتمة من اليوم تلج تدخل، {فِي النَّهَارِ}، في فترة الضوء من اليوم، {وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}، فيجعل الضوء يدخل في العتمة، وهذا شيء يراه كلّ المبصرين يتكرر يومياً، حيث عند الغروب تدخل العتمة في الضوء، وعند الشروق يدخل الضوء على العتمة.

{أَلَمْ تَرَ} "ما شفت" أن الله سبحانه، {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ}، فتستفيدون منهما أيها البشر من دون أن يكون لكم أي علاقة بهما ومن دون أن تقدّموا أي شيء لهما، وتستفيدون من النور والحرارة وحساب الأيام والأشهر والسنين، والمدّ والجزر، وحركة الرياح... {كُلٌّ}، من الشمس والقمر، {يَجْرِي}، يسير بتتابع، {إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى}، إلى زمن محدّد ينتهي فيه جريانهما، حيث جريانهما بالنسبة لنا يبدأ من شروقهما ويستمر بتتابع حتى يغيبا خلف الأفق. الكلام هنا ليس

عن انتهاء جريانهما حين تتبدّل السماوات والأرض ونصير في الآخرة، بل هو وصف لانتهاء الجريان بالنسبة لمن يشاهدهما يغيبان خلف الأفق.

{أَلَمْ تَرَ}، {أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}، فلديه خبر بتفاصيل كل الذي تعملونه.

نلاحظ الآية في قسمها الأول لفتت انتباهنا لنماذج عن قدرته العظيمة سبحانه، وفي قسمها الثاني خبر عن علمه سبحانه بتفاصيل كل ما نعمله، فمن يملك هذه القدرة الهائلة لمتابعة حصول ليل ونهار فمن السهل أن تفهموا قدرته على معرفة كل ما تعملونه، فانتبهوا حين ينذركم أو يحذّركم من عقابه.

ننتبه جيداً، مَنْظَرُ الأرض من الأقمار الصناعية وهي تسبح في الفضاء، وحين يظهر لك خط الظلام والضوء على سطحها، هو منظر رائع، ولكن الآيات هنا تعبّر عن جريان الشمس والقمر بالنسبة للمشاهد الواقف على سطح الأرض، علماً أننا نعتقد الآن أن الأرض تجري حول الشمس، ولكن الوصف للمشهد من سطح الأرض يكون: الشمس تجري من الشرق إلى الغرب. لذلك لا علاقة لا من بعيد ولا من قريب لما تقوله الآية مع نظرتنا للأرض والشمس من الفضاء، لَوْ ابتعدت عن المجموعة الشمسية لرأيت الشمس تجري بحركة دائرية مع ذراع المجرّة، ولو ابتعدت أكثر لرأيت كل ذراع المجرة يجري حول المجرّة، ولو ابتعدت أكثر لرأيت كل المجرّة تدور... لذا من النقطة التي تقف فيها ستقوم بوصف المشهد بشكل مختلف، والقرآن دائماً يوصّف هذا النوع من المشاهد من أعين الشخص الذي يتحدّث معه، فهو واقف على الأرض حيث: الشمس تجري من الشرق إلى الغرب.

دعك من ترهات الإعجاز العلمي في القرآن، فمن لم يؤمن به ككتاب إلهي بسبب ما فيه من حقّ وصلاح، ولم يتأكد أنه من مصدر إلهي بسبب دقّة صياغة المعاني الصحيحة التي بصياغتها ومعانيها تفوق قدرة كل المخلوقات على فعلها، وأن محمداً أُمِّيٌّ لم يتعلم هذه المعلومات... والقرآن لم يحصل عليه تعديلات وتغييرات رغم مدة نزوله لقرابة العشرين سنة... فمن ينسى كل ذلك ويريد نظريات علمية في القرآن ليؤمن، فليراجع إيمانه، وليراجع الأسباب التي تدفعه للإيمان والبحث عن الإعجاز العلمي في القرآن، لماذا يصرّ عليه؟ وماذا يريد أن يثبت؟ وهل فعلاً تقول الآيات ما استنبطه أم أنه يلويها ويشوّهها ليستخرج منها ما يوافق معلوماته التي يظنّ أنها حقيقة ثابتة لن تتغيّر مثلما كان يظنّ الذين سبقونا وفسّروا كلامه تعالى عن سبع سماوات بمسارات سبعة كواكب سيّارة حول الأرض؟!

مختصر الكلام أنه تعالى في قرآنه عادة يلفت انتباهنا لآياته، لما فعله ونراه ونلمسه ونفهمه، لخلقنا من طين حيث إنها المادة التي يتألّف منها جسدنا، لنزول الماء... لخروج النبات... هذه على بساطة فهمنا لها من مجرد لفت انتباهنا لها هي الآيات الدالة عليه تعالى...

أمّا تفسير القرآن بناءً على معطيات لم تكن معلومة حين نزوله، فهذا حتماً يعني أن التفسير خطأ، وهذه المشكلة المستمرة منذ القدم بتفسير القرآن بمعطيات علمية مستجدة، سببها الخلل والبعد عن المعاني الصحيحة للكلمات وتراكيب الجمل، وسببها إسقاطنا لمعلوماتنا التي نقتنع بها كخلفية منها نفسّر القرآن، والتفسير الصحيح للقرآن هو التفسير الذي يمكن للذين نزل في عصرهم فهمه، ونحن نفهمه، ونحسب حساباً للذين سيأتون في المستقبل أنهم سيفهمونه رغم معطياتهم العلمية التي ستكون أفضل بكثير مما هو حالياً.

هل هذا يعني أن فهمنا للقرآن لن يتطوّر؟ لا، بل أقول إنّ ربطه بالمتغيرات العلمية التجريبية هو المشكلة، وأمّا تطوّر فهمنا لكلماته وجمله التي عاث فيها المسلمون عبثاً، فهو باب ما زال مفتوحاً لتنقيته من شوائب ما فعلوه، لنصير أمام نص نفهم معنى كلماته باللغة العربية بدون تلاعب بها وبدون إسقاط خلفيات عليها، وهذا ما حاولته في دراستي هذه.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ {30})
{ذَلِكَ}، الكلام عن قدرته تعالى، وعن أنه خبير بما نعمل، {بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ}، سببه أنه فعلاً إله، {وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ}، ما يعلنون ويشهرون به لغيره تعالى من آلهة هو غير الصحيح ولا السليم، كما تقول: ذهبتم من دوني. وتقصد أنهم ذهبوا مع غيرك وتركوك، والمشركون تركوا الاعتقاد به تعالى إلهاً واحداً أحداً ويشهرون ويعلنون عن غيره سبحانه أنهم آلهة، وهذا باطل، وهذا غير صحيح، فلا إله غيره سبحانه وتعالى.

{وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ}، الأعلى من الجميع، لأنه وحده الإله والبقية مخلوقات له، وهو {الْكَبِيرُ}، الأكبر من كل شيء والبقية صغار أمامه لأنهم مخلوقاته.

القرآن استعمل تعابيرَ كثيرة للدلالة عليه تعالى، حيث استعمل الربّ والإله والخالق والفاطر والرحمن... ولكن عندما يستعمل القرآن اسم العلم، اسماً محدّداً، فهذا له دلالة خاصة، لأن الذي اسمه "الله" هو الحقّ، وأي اسم آخر من اختراع البشر للإله لا يقبله تعالى كاسم له، ولا يعتبره يشير إليه، فلا مساواة بينه تعالى وبين ربّ الأرباب عند الرومان أو اليونان أو البوذيين أو الأرواحيين... "زوس،..." لا، لا مساواة، فهو وحده سبحانه وتعالى بالاسم الذي أخبرنا به عن نفسه "الله" وهو وحده الإله ولا اسم علم آخر له، ولا يقبل سبحانه نسبة صفات له من اختراع أوهام البشر.

بقي شيء من المهمّ جداً أن نضعه دائماً في بالنا، حيث تكرر استعمال القرآن لكلمة "دعا" ومشتقاتها، وعادة يذهب فكرنا من هذا التعبير إلى "دعا يدعو" على معنى "طلب استجابة ما يدعو به"، كأنْ دعا ليصير معه مال أو ليشفى أو لينجح... وهذا غير صحيح، لأن دعا تشير لعموم الإعلان والإشهار، التي تتضمّن الإعلان عمّا تريده وتطلبه، ولكن غالب استعمال القرآن لها كان على معنى عموم الإعلان والإشهار كما ترى في آيتنا هنا، فهي لا تشير إلى تركهم التوجّه له تعالى بالدعاء لطلب الرزق أو الشفاء... فهذا من تبعات دعائهم إشهارهم وإعلانهم عن غيره تعالى أنه إله.

بعبارة أخرى، غالب استعمال القرآن لدعا ومشتقاتها هو على المعنى الأساسي: عموم الإشهار والإعلان. فإن كنت تعلن أو تشهر عن كائن ما أنه إلهك، فستكون محقاً إن دعوت الله تعالى بإلهك. وأي دعاء لغيره تعالى أنهم آلهة فهو باطل. وهكذا ترى أنها على معنى: ما اسمك؟ بماذا أدعوك؟

طبعاً هذا التفسير لا يلغي المعنى العامّ للدعاء الذي يتضمّن الإشهار والإعلان عن أمور تريد منه تعالى تحقيقها، وتجد هذا المعنى الشامل لوجهي الدعاء من إعلان الألوهية وللطلب من الإله، تراه في الآية 14 من سورة الرعد {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}.

بالنسبة لكلمة "دعاء" ومشتقاتها، ففي عموم استعمال العرب الكلمة يائية وواوية "دعوت ودعيت" مثل "طغوت وطغيت". وهذا في استعمال العرب ولكن كل القرآن استعملها فقط بالواو من الأصل الصرفي "دعو"، ووردت مرتين للمبني للمجهول مع ياء في الآية 12 من سورة غافر {إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ}، وفي الآية 53 من سورة الأحزاب {وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا}، فهذا ممّا جرى به لسان العرب بإضافة الياء في هكذا حالة، وكما ترى من الاستعمال لا يمكن حمل الكلمتين "بالواو أو بالياء" على نفس المعنى إلا إذا كانتا على معنى عموم الإشهار والإعلان، وكذا الحال فيما جرى عليه لسان العرب بما ورد مرتين في الآية 4 و 37 من سورة الأحزاب {أَدْعِيَاءَكُمْ}، {أَدْعِيَاءَهُمْ}.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ{31})
{أَلَمْ تَرَ} أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت. {أَنَّ الْفُلْكَ}، أن الأشياء التي تعوم على الماء كالمركب والسفينة والفلوكة... {تَجْرِي}، تسير بتتابع، {فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ}، فجريانها موصوف بأنه شيء جيد فعله تعالى، حيث ننتفع كثيرا من هذه الظاهرة للانتقال والشحن لأماكن بعيدة وجديدة... {لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ}، ليجعل سبحانه عندكم صورة محدّدة من الأمور المميزة المنسوبة له تعالى.

المراكب ليست وَحْدَهَا بقدرتها الذاتية تعوم وتسير على الماء، وليس بالصدفة حصل هذا، فهناك الكثير الكثير من التفاصيل التي تجعل الفلك تجري على الماء، من لزوجة الماء، ونسبة كثافته، والجاذبية وقوة دفع الريح...

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، المشهد للفلك الجارية، {لَآيَاتٍ}، لأمور مميّزة، تدل على الإله العظيم، {لِكُلِّ صَبَّارٍ}، كثير الصبر، فيتصرف دائما بوعي وعقلانية، ولا تفلت منه أعصابه فلا تتحكّم به شهواته أو مشاعره السيئة، {شَكُورٍ}، للذي يشكره تعالى فيعلن أنه حصل على أشياء جيّدة منه تعالى.

من نوادر القرآن التصريح بربط الصبر بالإيمان به تعالى شكرا على نعمه، وَأَفْهَمُهَا بما أراه من أناس عصبيين يفقدون صبرهم بسرعة فيهاجمونه تعالى بالكلام وبالسباب عند أقل إزْعَاجٍ يشعرون به من أي شيء... وهذا المستوى المتدني

الأقل من البهائم المجنونة يوجد أعلى منه بقليل، وهم الَّذِينَ يتأففون من الحياة منكرين لمتعتها ولذّتها وروعتها، فهم لا يصبرون حتى على ما لا يحقّ لهم التأفّف منه لأنهم مِزَاجِيُّونَ وهم أنفسهم لا يدرون ماذا يريدون!

ننتقل من هؤلاء إلى ما نظنّه مستوانا نحن مُتَوَسِّطِي الإيمان، فروائع ما منحه تعالى لنا لنتمتّع به في الحياة ننساه عند مشكلة ما، فنفقد صبرنا، ونطالبه تعالى بالتدخّل ليفعل ما نريد وإلا سيتزعزع إيماننا... وتتشوّش أفكارنا رغم علمنا أنه تعالى شخصيا لا يفعل إلا الخير وأن الشرّ ناتج عن الأفعال السيّئة التي اختارتها بإرادتها المخلوقات.

هكذا نفهم جانبا من ربط الآية هنا للصبر بالشكر، فمن يفقد صبره لأهون سبب أو لأكبره، ويطيش عقله فاقدا الرزانة، فهذا ستأتيه أفكار غير صحيحة وسيئة عنه تعالى، فيتّهم الله سبحانه بفعل السوء له رغم أنه يعتبر نفسه مؤمنا عاملا للصالحات، أو يعتبر قيمة عالية لنفسه كما هي حتى لو لم يكن مؤمنا ولا عاملا للصالحات ولكن صوّر لنفسه أهمية عالية ويريد إسقاط أوهامه وأحلامه عليه تعالى ليكون عزّ وجلّ تحت أمره...

من ناحية ثانية هُنَاكَ الصبر على الامتناع من فعل السوء، والذي نسمّيه الصبر على الطاعة، فالذين لا يتمكنون من ضبط أنفسهم أمام السيئات وَيَفْعَلُونَهَا، فهؤلاء لم يؤمنوا بأن الصبر نتيجته جنّة خالدة في الآخرة، فَلَا يَعُودُونَ يَرَوْنَ مَعَانِيَ وَدَلَائِلَ من آية جريان الفلك وغيرها لِيُؤْمِنُوا وَيَشْكُرُوهُ تعالى على نعمه...

أيضا نلاحظ الآية تشير إلى من لا يؤمن به تعالى كما يجب، فهو ينظر إلى الأمور كأنها تحصيل حاصل، أو بالصدفة حصلت، أو نحن البشر بذكائنا اكتشفنا صنع السفن وهي لم تكن خاطرة على باله تعالى! فهذه الأفكار نسمعها من بعض المثقفين من حملة الشهادات الْأَكَادِيمِيَّةِ العالية، على أساس أنهم عباقرة وصاروا فوق سخافة الأديان والإيمان بالإله! فهؤلاء لا يشكرونه تعالى لأنهم لم يفهموا أنه هو سبحانه صمّم البيئة لتكون بهذا الشكل، وأنه سبحانه صمّمنا مع قدرة التفكير على صنع السفينة والطائرة والسيارة والقطار... والجملة القرآنية هنا تشير إليهم بأنهم لن يروها آية لأنهم ليسوا شاكرين للإله بل شاكرين للطبيعة ولقوانين الفيزياء! وكأنها هي الآلهة، وهي المسيطرة المدبّرة المصمّمة الخالقة!

لاحظ عرض الآيات السابقة للإيمان به تعالى والتعرّف عليه من التفكّر بآيات خلقه، وسيأتيك في الآية التالية الكلام عمّا ينتج من هذا التفكير من مشاعر دافعة للتعلّق به تعالى عند الأزمات، ومضافا لهذين السبيلين للتعرّف عليه سبحانه هُنَاكَ الكلام الحقّ الذي ينقله رسله وكتبه سبحانه. وهذه هي فقط السبل للتعرف عليه سبحانه، وما نسمّيه بالمعجزات فهي لم ولن تجعل أي أحد يؤمن، وأقصى ما تفعله أنها تؤكّد للمؤمن أن رسولا ما هُوَ فعلا رسول إلهي وأن كتابا ما هو فعلا كتاب إلهي مثلها مثل الآيات الأخرى في عموم أفعاله تعالى فيما خلقه في السماوات والأرض.

(وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ {32})

{وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ}، إذا انتشرت عليهم وأحاطت بهم تحركات المياه على سطح البحر، {كَالظُّلَلِ}، كالأشياء التي تظلّل، كالأشياء التي تقف تحتها أو بجنبها لتتظلّل من الشمس أو المطر، وَتَكُونُ كالحاجز بينك وبين الحرارة أو المطر، كالحيطان والأسقف، فالموج مرتفع لدرجة تظليلهم كأنه حائط مرتفع أو كسقف يمشي من فوقهم ويغطّي السماء فوقهم عندها، {دَعَوُا اللَّهَ}، أشهروا وَأعلنوا له تعالى، {مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}، مَا يدينون به كتبعات عليهم كونهم عَبِيداً له تعالى، وبالتالي يجب عليهم أن يطيعوه وحده تعالى، ففي تلك الحالة المرعبة من الموج يُخْلِصُونَ له تعالى الدين، وَيَشْعُرُونَ بأنهم يدينون له تعالى وَحْدَهُ بالعبادة والطاعة، متجاهلين أي كائن غيره، وحتى الْمُشْرِكُونَ ينسون آلهتهم المزعومة ويدعونه تعالى وَحْدَهُ.

كرّر القرآن الكلام عن هذا الشُّعُورِ عدّة مرّات، وَكرّر الخوف من الموت في البحر كنموذج بارز، حيث في البحر عادة لا يوجد مهرب، ولا مكان تضع عليه قدميك إلّا الفلك الَّتِي تتلاعب بِهَا الأمواج، وهي حالة يفقدون فيها أي أمل بالنجاة، حيث لا يوجد شيء يفكرون فِيهِ أَنَّهُ سيخلّصهم، إلا قدرة إلهية، وهذا الشعور هو الاعتراف به تعالى كإله أحد قادر مسيطر متابع... وهذا إخلاص الدين.

{فَلَمَّا نَجَّاهُمْ}، عندما خلّصهم تعالى، {إِلَى الْبَرِّ}، إلى الأرض اليابسة، {فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ}، يقلل ممّا هو مطلوب منه دِينِيّاً، فإيمانه وأفعاله تكون مقتصدة تحت المطلوب من الاتِّصَافِ بالصلاح، مثلما نقول عمّن يصرف من ماله باقتصاد،

فيلغي كل الكماليات ويقتصر على الأساسيات الضرورية، فهؤلاء يقتصدون في دينهم، فَيَعْتَرِفُونَ بالله ربا وَلَكِنْ يُشْرِكُونَ به، أو يَعْبُدُونَهُ تعالى ولكن ليس باستمرار... وهذا المقتصد حالة منخفضة أمام المؤمن العامل للصالحات من الدرجة العالية، ولكن الاقتصاد يبقى حالة راقية أمام الجاحد:

{وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا}، لا ينكر الأمور المميّزة الواضحة بأنها صحيحة، {إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ}، وهذه الكلمة لم ترد في القرآن إلا هنا، وحملوها في القواميس على معنى الغدر، فهو منتظر للفرصة المناسبة حتى ينقلب على ربّه سبحانه، فأثناء الورطة أخلص له تعالى، وبعد الخلاص غدر وَعَادَ كافرا، ولكنهم في القواميس قالوا إنَّ الاستعمال العربي لها يشير لكسل وفتور واسترخاء، وهذا المعنى مناسب بَعْدَ وصف الآية لبعضهم بالمقتصد، وَالْآخَرُ ختار، حَيْثُ فِي أمور كثيرة أو بشكل كبير يصير متكاسلا وفاترا عن الإيمان الشديد الذي كان فيه أثناء الورطة، وعلى هذا المعنى ترى تصويرا لحالة شديدة من التعلّق به تعالى وبعدها حالة فتور وكسل شَدِيدٍ من حالة الإيمان السابقة، {كَفُورٍ}، ناكر بكثرة لآيات ربّه سبحانه.

الْآيَةُ تشير إلى أشخاص ليسوا مؤمنين من الدرجة العالية، وقعوا في ورطة لا نجاة منها، وبعد النجاة من الورطة، مِنْهُمْ مقتصد ربّته الورطة قليلا، فلم يَنْسَ الرعب الذي تعرّض له، ولكنه لم يلتزم بشكل كامل بالدين الإلهي، وهناك من ختر كفرا، حِينَ كان في الورطة أخلص الدين، وبعدما نَجَا منها ختر وَتكاسل وفترت همّته عن الإخلاص، وَأنكر الأمور الواضحة التي دلّته على الإله الأحد!

في عصرنا قرأت دراسات عن أصل نشوء الدين، وقيل فيها إنَّ الإنسان البدائي "القديم" عبد عموما ما يخافه ويجهله، فعبد النار والبركان والشمس... وبعدها اخترع إلها للمطر وآخر للبحر... وهذا الكلام صحيح وأكّد القرآن صحّته على وجهيه الحقّ والباطل، فسبحانه جعل فينا ما نتعرّف به عليه تعالى، عبر التفكّر بآيات خلقه للكائنات والظواهر لنتعرّف على عظيم قدرته وصفاته الحسنة سبحانه، وهو التفكّر في خلق السماوات والأرض، وينتج عن ذلك شعور التعلّق بتلك القدرة الفائقة التي تستطيع تغيير أعقد وأصعب ظروف الأزمات لتنجينا منها، واستخدم القرآن لذلك مرارا مثال الخوف من الغرق في البحر كنموذج بارز عن حالة من شبه المستحيل النجاة منها بالسفن الخشبية الشراعية القديمة، مع بقية مشاعر التعلّق به تعالى من حمد وشكر حبا بما تفضّل به تعالى علينا.

أَخْبَرَنَا تعالى أن سلامة القلب "الفكر والنفسية" باتباع ما نراه حقّا والابتعاد عن السوء، سينتج عَنْهَا في درجته العالية ما وصل إليه النموذج إبراهيم (ع) من معرفة كاملة لكل ما يمكن للإنسان معرفته عن ربّه وقراراته التي منها إعادة إحيائنا لِمُجَازَاتِنَا...

أَخْبَرَنَا مرارا، بل كان تركيز القرآن على مصيبة انحراف قلوب الأكثرية عن الحقّ، وينتج عن ذلك كفر بأنواعه المختلفة من نكران الإله، أو جعل شركاء له من آلهة وهمية أو عبادة كائنات... ويتقارن هذا دائما مع اختراع شرائع فاسدة...

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ {33})

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ}، تجنبوا غضب وعقاب المسؤول عنكم من مستوى إلهي، فلا تعصوه، {وَاخْشَوْا يَوْماً}، لِيَكُنْ عندكم شعور بخطر في زمن "القيامة من الموت" ويمكن تجنب هذا الخطر عبر تقواه تعالى، فهو اليوم الذي، {لَا يَجْزِي}، لا يأخذ مُقَابِلًا، {وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ}، فأنت كولد لا تتوقّع أن يجزي عنك والدك في يوم القيامة، وَلا تتوقّع أن تحصل من والدك على أي مقابل، فإن كان مؤمنا فلا تعتمد على والدك أن ينجيك من العذاب، لِأَنَّهُ لن يقبل أن يتعذّب عنك.

{وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً}، فأنت كأب لديك ولد، وَلا تتوقّع أَنْ يجزي ابنك عنك ليعطيك أي مقابل حتى تنجو من العقاب في يوم القيامة، لِأَنَّهُ لن يقبل أن يتعذّب عنك.

{إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ}، ما قال عنه تعالى أنه سيحصل في الآخرة من حساب ومجازاة على كل ما فعلناه، هُوَ أَكِيدٌ صحيح وسيحصل، وعندما يعدنا سبحانه من الآن بأن الوالد لا يجزي عن ولده ولا الولد يجزي عن الوالد، بل كل منّا سيتحاسب على أعماله وأن سيئاته لن يحملها حتى أقرب الناس منه، فوعده تعالى حق وَهذا ما سيحصل حتما.

{فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}، لَا تخدعكم فتجعلكم الحياة الدنيا القريبة التي أنتم فيها الآن، لَا تجعلكم تطمعون بشيء يبدو جيّدا ولكنه في الحقيقة غير جيّد.

{وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}، {الْغَرُورُ} "بالفتحة على الْغَيْنِ" هي الأشياء التي تسبب الاغترار، وَهِيَ الأمور التي تجعلكم تطمعون بشيء غير صحيح، وهذا الاغترار نسمعه كثيرا من الناس الَّذِينَ لا يلتزمون بالصالحات ويفعلون السيئات، ويقولون: الله غفور رحيم. وَالغرور بصفات الرحمة والمغفرة والعفو... وترك الناس بلا عقاب... ومنحهم النعم والسعادة... لَا تغتروا بهذه الأمور فتخدعوا أنفسكم بالله تعالى، حَيْثُ الحقيقة أنه تعالى حذّركم من مخالفة أوامره، وهدّدكم بالعقاب إن خالفتم، وَهذه الحقيقة، والاغترار به تعالى بالقول عنه بأنه سيغفر ولن يعاقبنا لِأَنَّنَا لا شيء بالنسبة له، فهل سينزل من مستواه العالي ليحاسبني على هذه الأمور التافهة التي يقولون بأنها حرام! يا عزيزتي ويا عزيزي، هذا هو الاغترار بعينه، وهذا هو الذي تحذّرنا منه الآية.

نسأل: هل تتعارض آيتنا هنا مع كلام القرآن عن الشفاعة؟ لا، لِأَنَّ الآية هنا تتحدّث عن المجازاة، وَالسيئات عليها عقاب، وبها سيتجازى الذي فعلها، ولن يتجازى عليها أي أحد آخر. وما تطرحه الآية عن الوالد "أم أو أب" والولد "ابْنٍ أو بنت"، هُوَ أبرز نموذج لشخصين يَتَبَرَّعُ أَحَدُهُمَا لِيُضَحِّيَ بنفسه أمام الآخر، ولكن في الآخرة أصلا لن يتبرّع أحد ليتعذّب عن أي أحد، وسبحانه أصلا لن يقبل بأن يتعذّب أحد عن آخر.

تتذكّر ما قلناه مرارا وتكرارا عن كلام القرآن أنه عادة يطرح أبرز النماذج الواضحة للفهم، هُنَا يمكن القول عن شخص بأنه يكره أباه وَأَبُوهُ يكرهه، وَهَذَانِ أصلا لن يتبرّع أحدهما ليتجازى عن الآخر، وكلامك صحيح حَيْثُ إِنَّ هذه حالات موجودة، ولكن كلام القرآن عادة يطرح نماذج لا يقصد منها التعميم على الجميع بدون استثناء، وافترض علمك بذلك، فاكتفى بطرح النماذج ليبقى تركيزك على المضمون تاركا التفاصيل والشواذ الَّتِي اعتبرك سَتَرَاهَا بوضوح، وحين تكون الأمور بحاجة لتنبيه فالقرآن يدخل في التفاصيل، كالدخول في تفاصيل من يسقط عنه واجب الصوم، كالمريض أو الذين يطيقونه... كما ورد في الآية 184 من سورة البقرة {فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ}، وَهَذِهِ وَحْدَكَ كعاقل تعلم بسقوط التكليف فيها، ولكن تجنبا لأي تشريعات لا يرغب بها تعالى أن نشتقها من تشريع الصوم، وحتى لا نفهم أننا يجب أن نتحمّل الأذية مهما كان نوعها ونلتزم بالتشريع فنصوم، لذلك جاءت بعض التفاصيل في الأحكام لترينا علنا وصراحة أنه تعالى لا يرضى بذلك. سُبْحَانَهُ أعلم بنا، ويعلم بأن العقلية المتزمّتة لن يكون المؤمنون بمأمن منها، وترى ذلك فيما قاله القرآن من تشريع أخذ الأجرة من اليتيم الغني كبدل عن الاعتناء به كما ورد في الآية 6 من سورة النساء {وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ}.

(إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ {34})

{إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}، والقرآن غالبا يشير بالساعة إلى زمن خروجنا من الموت وقبل بداية محاسبتنا، وهي أوّل ساعة من ساعات يوم قيامتنا من الموت، ومن لا يؤمن بيوم القيامة من الموت فهو لا يؤمن خصوصا بما سيحصل في أول ساعة من ذلك اليوم. ونتذكّر أن اليوم هو فترة زمنية طويلة يقع فيها حدث أساسي ويتخلله ساعات تقع فيها أحداث فرعية إلى أن ينتهي اليوم، سواء أكان 24 ساعة أو سنينا طويلة... والساعة أيضا فترة زمنية لحدث فرعي ما، ومع ساعات أخرى يحصل فيها أحداث أخرى يكون المجموع يَوْماً، وهذا بغض النظر عن تساوي زمن الساعات، حَيْثُ حديثا صار للساعة توقيت من ستين دقيقة تحسبها الآلة الميكانيكية أو الإلكترونية، أمّا قديما فمدّتها كانت مطّاطة بقدر زمن الحدث الذي وقع فيها، فساعة الظهيرة هي زمن اشتداد حرّ الشمس... وأيضا بغض النظر عن تساوي زمن الأيام بالنسبة لبعضها، وكمثال عن ذلك قوله تعالى عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام، فهي ست فترات زمنية،

ونقدّرها الآن بمليارات من السنين، ولم يقصد القرآن أنها فترات متساوية بالزمن، بل قصد المعنى الأساسي لكلمة يوم التي تَصِفُ فترة زمنية محدّدة لحدث أساسي.

علم الساعة هو العلم بوقت حصولها، فلا أحد يعلمه حتى الرسل والأنبياء، وحتى الملائكة (ع) المقرّبون، وأبسط سبب معلوم لذلك أن كل المخلوقات حين تفقد وعيها فهي لن تشعر بمرور الزمن، فالساعة من الزمن عند فاقد الوعي لا تتميّز عن مليار سنة مرّت عليه أثناء موته، ونعلم من القرآن أن كل الكائنات ستفنى قبل يوم القيامة، فكل الكائنات ستفقد وعيها إلا ما شاء الله تعالى كما ورد في الآية 68 من سورة الزمر {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ...}، وستتبدّل السماوات والأرض، وفي هذه الحالة كُلُّ كائن من الفاقدين لوعيهم لن يستطيع أَنْ يعلم متى الساعة، ومن ناحية ثانية فَرْضاً بقي أحد ما من الكائنات واعيا، فلنقل إِنَّ الملائكة العالية تبقى واعية، فهي من الآن لا تعلم بالتحديد الدقيق متى ستتبدل السماوات والأرض، فهم يتوقّعونه ويخمّنون، ولكنه شيء يفوق قدرتهم على علمه، وتجد كلاما عن ذلك فيما ورد في الآية 15 من سورة طه {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا...} والذي يشير إلى إمكانية معرفة إجمالية لزمن ستتبدّل فيه السماوات والأرض، وهذه المعرفة يمكن التوصّل إليها من ربط مجريات الأحداث الكونية... فحتى الملائكة "العالية" يمكنها توقّع ذلك ولكنها عاجزة عن تحديد وقت دقيق لحصول الساعة...

سُبْحَانَهُ، {وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ}، وهي صفة للمطر لأنه يغيث فينجّي الناس من العطش ومن موت النبات والحيوانات التي يتغذون بها.

اللَّهُ تعالى، {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ}، والرحم هو العضو الذي فيه تنمو البويضة الملقحة، فيعلم سبحانه ما في بطن الأنثى الحامل، فيعلم إن تلقّحت وحبلت، ويعلم إن كان سيعيش الجنين أم سيموت، ويعلم إن كان ذكرا او أنثى، عيناه سَوْدَاوَانِ أو بُنِّيَّتَانِ...

نحن الآن صرنا نعلم الكثير عمّا في الأرحام عبر الصور والتحاليل، ومن بساطة وسذاجة فهم بعض الناس للقرآن، قِيلَ قديما إِنَّ الصورة للجنين في بطن أمّه لمعرفة جنسه أنثى أم ذكر، هي حرام، وَتَعَدٍّ لحدودنا، لأنه تعالى وحده يعلم ما في الأرحام. وكما ترى فهذه طفولية ساذجة في فهم كلامه تعالى، فالقرآن لم يقل إِنَّهُ وحده تعالى يعلم ما في الأرحام، بل قال القرآن بشكل صريح أنه تعالى وحده يعلم موعد ساعة قيامنا من الموت، أمّا معرفتنا لبعض المعلومات عمّا في الأرحام، فَمَثَلُهَا مثل نزول الماء، الذي من ناحيتنا نرى أنه محكوم بالظروف البيئية من كثافة بخار الماء في الجو، والضغط الجوي وحرارة الرياح والغبار في الجو... ولكن من ناحيته تعالى فهو المسيطر على البيئة، فهو صمّمها وخلقها، هو يعلم سلفا كل نقطة ماء متى ستنزل وأين ستنزل، وليس من الآن يعلم، بل من قبل أن يخلق السماوات والأرض كان سبحانه يعلم بهذه التفاصيل الدقيقة...

لو أطلت عليك، أَلْفِتُ انتباهك لأمور حصلت في الماضي لتكون لنا عبرة في المستقبل، فقبل الصورة الصوتية للحامل والاعتراض عليها من المتدينين الذين كان فهمهم بَسِيطاً للكلام الإلهي، قَبْلَ ذلك كان الناس يقولون إِنَّ تناول حبّة الدواء حَرَامٌ! لأن الله تعالى هو الشافي وأخذ حبّة الدواء معتقدا بأنها تشفي هو شرك! وإن بحثت في الكتب القديمة فستجد كلاما كثيرا للناس حول هذا الموضوع وهم يسألون عن حِلِّيَّةِ أخذ الدواء! وعن حِلِّيَّةِ إجراء العمليات الجراحية! فهم فهموا بأن الله تعالى هو الشافي، ولم يفهموا أنه تعالى يشفي عبر التداوي، وعبر الدعاء معا... ضَرَبْتُ لك هذا المثال الذي أظنّه سيجعلك ترى بوضوح بعض أنواع البساطة في فهم الدين.

لا أدّعي أني لم أقع فيه في دراستي هذه، ولكني أدّعي أني حاولت تَجَنُّبَهُ عبر الالتزام بالمعاني الأساسية للكلمات وبالتالي الالتزام بما يقوله القرآن صراحة، ولكن رغم ذلك خَلْفِيَّتِي الثقافية حتما ستجد طريقها لتخرج حاكمة على فهمي لكلامه تعالى، حَاوَلْتُ جاهدا رمي ما أعلمه لأتعلم من القرآن، فهذا هو السبيل الوحيد لفهمه كما يريد سبحانه، ولكن هيهات أن أصل إلى هذه الدرجة حيث أنفلت مما تَمَرَّسْتُ عليه من سيئات ستجعلني حتما أُفَسِّرُ القرآن متأثرا بالأسباب التي دفعتني لارتكابها... أو أنفلت بالكلية من عادات المجتمعات التي عشت فيها...

{وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً}، لدينا معلومات ولكن قبل أن نعيش الحالة نَحْنُ لا ندري فعلا على ماذا سنحصل مما سينتج مما سنفعله غدا، وَأَبْسَطُ أَبْسَطِ شيء تكسبه، هو الماء والطعام، وبعدها المال أو الأشياء... أو التقييم لأعمالك

حسنة أم سيّئة... فلا أحد يدري على ماذا سيحصل غدا لأنه فعليا لم يحصل، وغدا تاريخ قريب جدا، وَكَثِيراً ما كنّا متأكدين من حصول شيء معنا في الغد، ولكنه لم يحصل، أو حصل بخلافه، أو متنا...

{وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ}، هل سأفقد حياتي في بلدي، في بيتي، في الطريق، أو أثناء سفري...

لاحظ وانتبه، حَيْثُ إِنَّ الْآيَةَ ترينا لأي درجة نحن ضعاف وكم هو تعالى محيط بنا، مِنْ أوّل تكوّننا في الأرحام يعلم سبحانه بكل التفاصيل... ويعلم تعالى ماذا سيجري معنا غدا وما بعده ونحن لا ندري بل نتوقّع فقط، ويعلم سبحانه متى سأموت وأين، وأنا أَتَوَقَّعُ ولكن لا أعلم يقينا.

{إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ}، لديه العلم بكل شيء، وَاللَّهُ {خَبِيرٌ}، لَدَيْهِ أخبار كلّ شيء.

بقي شيء، المنتشر الدارج في تاريخ البشرية موتهم على الأرض، والآية لا تقصد حصرية الموت على الأرض، فهناك من يموت في الماء ويغرق، وهذا معلوم، وهناك من سيموت في الجو أو في الفضاء... الآية هنا مثلها مثل أي تعبير قرآني يقصد الحالة العمومية، كالآية 7 من سورة الحج التي تقول بأنه تعالى يبعث من في القبور، مِنَ البديهي أنها لا تقصد أن من مات ولا قبر له لَنْ ينبعث، بل تريد الآية تفعيل الصورة النموذجية البديهية التي تخطر على بالنا حين نتكلّم عن الأموات، حيث ينصرف ذهننا إلى المقابر، وكذلك الكلام هنا الذي لم يقصد حصر حصول موتنا على الأرض، وتقرأ ذلك أيضا في الآية 148 من سورة البقرة {أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

سورة السجدة (32) ص 415
قديما سمّوها تنزيل السجدة.

محور كلام السورة مع عموم الناس الذين تَجْمَعُهُمْ خلفية رفضهم لمجازاتهم على أفعال السوء في الآخرة، ولهذا يرفضون الإيمان بها ويعتبرون هذا الكلام افتراء عليه تعالى، فيقولون إِنَّهُ سبحانه لم يقله.

تَنَاوَلَتْ أبرز ما يتعلّق بهذه النقطة لتلفت انتباهنا أَنَّهُ تعالى قادر على إرجاعنا إلى الحياة مثلما خلقنا أوّل مرة هنا، وَأَنَّ هذا حتمي، وَأَنَّهُ حقّ.

تَعْرِضُ مصير المؤمن بالآخرة العامل لها، ومصير الفاسق عن الحقّ والصلاح، حَيْثُ إِنَّ مسألة الإيمان بالآخرة أو القول بأنها فرية، لَهَا عواقب حتمية.

لَنْ تجد في السورة كلاما مع أو عن مشركين، بل ستجد كلامها عُمُومِيّاً لكل من لم يؤمن بالآخرة لأنه لا يريد الاقتناع بحساب ومجازاة على السوء الذي نفعله في الدنيا، وهذا ينطبق حتى علينا نحن الْمُؤْمِنِينَ من الدرجة المنخفضة والمتوسطة، فكثيرا ما يتذبذب إيماننا بالآخرة بسبب حبّنا لفعل سوء ما ورفضنا الاقتناع بالعقاب عليه...

تَجِدُ كلام السورة صريحا في المجازاة على الحقّ والصلاح والسوء، فصحيح أن أوامره تعالى هي الصلاح ولا ينهى سبحانه إلا عن السوء، ولكن بالطريقة التي تعرضها السورة لا ترى خلفية الكلام الديني فيها وكأنه شيء نتحزّب به، بل ترى كلاما عن الحقّ والصلاح مجردا، فلا تجد فيها بشكل مباشر عرضا دينيا كالذي اعتدنا عليه في أدبياتنا من تصنيف بالحلال والحرام والواجب والمباح، ولم تدخل السورة في عناوين ولا تفاصيل التشريعات التي عليها ثواب حسن أو عقاب، حَيْثُ تَرَكَتِ الكلام عُمُومِيّاً على أصل توصيف الصلاح والفساد مكتفية بالمقارنة مع أبرز نموذجين عن أرقى تطبيقات الصلاح عبر السجود والإنفاق.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(الم{1})
هذه حروفٌ نتهجّاها مقطّعةً هكذا: ألف لام ميم.

الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوَّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز

فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا

عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{2})
هذه الأحرف المقطعة {أَلِف لَام مِيم} هي: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ}، الكتاب الرئيسي الذي فيه كلّ شيء، نزلت منه معلومات وحياً على النبي محمّد(ع) على دفعات وتحوّلت قبل نزولها لكلمات عبر استعمال أحرف اللغة العربية، ونموذج من هذه الأحرف {أَلِف لَام مِيم}، مما صار بإمكاننا قراءتها، وصارت قرآناً.

ما نزل من الكتاب الرئيسي الإلهي، {لَا رَيْبَ فِيهِ}، لا يوجد فيه أي شيء ولو بنسبة قليلة يُعطي احتمالاً ولو قليلاً أنه غير صادق، وهو، {مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، من المسؤول من مستوى إلهي عن كلّ الناس.

هناك أمور تراها ويصير عندك إحساس باليقين بصحّتها، أو تظنّ فتستند لشيء وعلى أساسه تحكم بصدق أو كذب المعلومة، أو تشك فتميل إلى التكذيب أو التصديق ولكنك لا تستند إلى شيء قوي، وأخيرا الرِّيبَة، وهي فقط الإحساس بتكذيب أو تصديق الشيء، حيث من دون أي تحليل أو تفكير يصير عندك إحساس بتكذيب ما تسمعه أو بصدق ما تسمعه، وهذا القرآن {لَا رَيْبَ} في صحّته بأنه من مصدر إلهي، فحين تَقْرَؤُهُ لن تشعر ولو بأقل إحساس بأنه من مصدر غير إلهي.

هذا التوصيف لصحّة محتوى القرآن لهذه الدرجة العالية سببه أن الإله سبحانه نزّله، لأنَّ أصلاً سبحانه لا يبالغ ولا يكذب ولا يعبث... سبحانه وتعالى، لذلك كلّ ما سيصدر عنه سيكون مُحْكَماً مُتْقَناً صَادِقاً صَالِحاً... والقرآن نزّله هو تعالى، فمن المستحيل أن يكون فيه أي إحساس ممن يقرؤونه بأنه ليس من مصدر إلهي.

الآية التالية ستخبرنا عن أناس لم يرتابوا بالقرآن فقط بل يقولون بأنهم متيقنون بأنه ليس من مصدر إلهي! وسنرى لماذا قالوا ذلك...

بالنسبة لما تجده في بعض الكتب عن الفرق بين كلمتي {نَزَّلَ} و {تَنْزِيل}، فكلاهما وصف لعموم الانتقال من علو "ماديّاً أو معنوياً" إلى مكان منخفض ماديّاً أو معنوياً. فمعنوياً نقول: نزلت رتبته العسكرية. وكلا الكلمتين "{نَزَّلَ} و {تَنْزِيل}" تتحملان معنى النزول دفعة واحدة أو على دفعات، ويتحدّد ذلك مما تتكلّم عنه، وتتحملان النظر للفاعل

لوحده، أو للمفعول لوحده، أو للحالة. فلا فرق بالمعنى بين الأصل "نزل" وبين الاشتقاق "تنزّل تنزيل نزول..."، خصوصاً فيما يقولونه عن الفرق بينهما في نزول القرآن دفعة واحدة أو بالتدريج على دفعات.

ما تجده هنا وهناك في ثقافتنا عن نزول القرآن كلّه من السماء السابعة إلى السماء الرابعة... ومن الرابعة جرى تنزيل القرآن "فنزل" على دفعات على الرسول(ص)، وبهذا التفصيل "وأشباهه" يقصدون تفسير كلمتي {نَزَّلَ} و {تَنْزِيل} بتوصيف مختلف للفعل، وهذا تفصيل لا ضرورة له وأصلاً لا دليل قرآنيٌّ عليه، ويمكن فهم نزول القرآن تدريجيّاً على دفعات ونزوله كلّه كوجهين لعملة واحدة، حيث بعضه نزل "تنزّل" في ليلة القدر، ثم نزل "تنزّل" بعضه في زمن بعدها... وبالنظر للقرآن كلّه جرى تنزيله "نزوله" على دفعات استمرت لقرابة العشرين سنة حتى وفاة الرسول(ص).

يبدو أن الفهم الضبابي لكلمة "{قُرْآن} و {كِتَاب}" دفع بالكثيرين للبحث عن فرق بين التنزيل والإنزال بالمعاني التي ذكروها، حيث فهموا أن كلمة {قُرْآن} تشير لكل ما بين الدفتين، لكل القرآن من أوله لآخره، وفهموا كلمة {كِتَاب} كذلك أنها تشير لكل القرآن من أوّله لآخره، وبناء عليه أرادوا تبرير الآيات التي تذكر نزول "كتاب القرآن" على أساس أنها تشير لنزول كتاب القرآن كلّه من أوّله لآخره دفعة واحدة، ومن المعلوم أنه كلّه لم يكن نازلاً على الرسول(ص) حين جاءت الآيات التي تقول إنّ القرآن {نَزَلَ}...

بناءً على فهمهم هذا، بدأت تبزغ الآراء المختلفة لتبرير الموضوع، فقال بعضهم إنّه كلّه من أوّل مرّة نزل على الرسول(ع)... وبعدها عاد ونزل عليه (ع) على دفعات. وآخرون قالوا: لم ينزل أوّلاً كلّه على الرسول(ع) وإنما نزل كلّه من السماء السابعة إلى الرابعة، ومن هناك صار ينزل على دفعات على الرسول(ع)... وغيرها من التبريرات التي لا داعي لها، فالآية الواحدة قرآن، والسورة قرآن، والسورتان قرآن... حيث كلمة قرآن وصف إمكانية قراءتنا لما نزل منه تعالى، فأي تعبير يشير لنزول أو تنزيل "القرآن" فهو لا يعني أكثر من نزول شيء يمكن قراءته، فلا داعي لنفهم أن التعبير يشير إلى نزول كلّ القرآن.

كلمة كتاب تشير لعموم أي موضوع تامّ، فالسورة الواحدة كتاب، والفقرة أو الآية الواحدة من السورة إن كانت تامّة الموضوع فهي كتاب، وكلّ القرآن كتاب، وهكذا فعندما تجد آية تتحدّث عن نزول القرآن أو نزول الكتاب فهي ليست بالضرورة تشير إلى نزوله كلّه، فلو نزلت آية فهي قرآن، ولو نزلت آية موضوعها تامّ فهي نزول لكتاب...

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ{3})
{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ}! عَلَى أيّ أساس يقول بعض الناس إنّ الرسول محمّد(ع) الذي ينقل لهم القرآن الإلهي افْتَرَاهُ وألّفه وألصقه بالله سبحانه، حيث كذباً قال إنّه سبحانه ألّفه وأوحى به إليه، فعلى أيّ أساس ينفون إلهية مصدر هذا القرآن؟

{بَلْ}، ما سبق ليس صحيحاً، وهو ليس فرية، فما ينزل عليك، {هُوَ الْحَقُّ}، الصواب الصحيح، {مِنْ رَبِّكَ}، من المسؤول عنك من مستوى إلهي، ونزل عليك، {لِتُنْذِرَ}، لتنقل الخبر عن شيء سيّئٍ قادم حتماً بسبب توافر شروط حصوله، {قَوْماً}، أناساً لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع دينه تعالى، {مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ}، لم يأت إليهم نذير من قبلك، فأنت أوّل نذير للقوم، أوّل من يحمل الخبر عن الشيء السيّء منه سبحانه لهؤلاء الناس الذين يعيشون معك وفي زمانك، وهذا الإنذار بما ينزل عليك، {لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}، فمن المفروض ومن المتوقّع أن يهتدوا فيكونوا على الأشياء الصحيحة التي توصلهم للغاية الصحيحة، حيث باتباع ما ينزل عليك يَكُونُونَ على الشيء الصحيح الذي يوصلهم لرضاه تعالى وللجنّة، فهو كتاب كافٍ للهداية، ومن المفروض ومن المتوقّع أن يهتدوا به، ولكن أكثرهم لن يهتدي، لا لعطل في الكتاب، بل لعطل في قلوبهم.

هل من المعقول أن كلاماً صادراً من الإله يكون فيه ريب بصحّته؟! ومشكلتهم مع الكتاب الإلهي حتى قالوا إنّه فرية أنّ الكتاب ينذرهم، فهم يفعلون أشياء سيّئةً وهذا الكتاب ينهاهم عن ذلك، وهم لا يريدون التوقّف والانتهاء عن سوئهم، ولذلك قالوا إنّ هذا الكتاب لم يقله الإله.

ضع في بالك دائماً الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى معانيَ قرآنيةً رائعة لن تراها من مرادفة كتب التفاسير لهما مع بعض "أنذر يُحَذِّر وبالعكس" أو تفسيرهما بالخوف أو الخشية... حيث ستجد في عموم التفاسير استعمالهم هذه الكلمات لتفسير بعضها البعض كمترادفات، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لترى المعنى الدقيق لهذه الكلمات في أي آية تظن أنها

ستكون مترادفة فيها لترى الفرق، ومثلها كلمة يرجو المختلفة عن يأمل ويطمع... ولفهم الفرق بين كلمتي "حذر وإنذار" تصور شخصاً أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، في هذه الحالة "تحذّره" من سلوك الطريق السيّء، لأنه حالياً ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، أمّا إذا سلك طريق الخطر "فتنذره" لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. الإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتماً ما يضرّه، حيث تنذر الكافر لأنه في حالة ستسبّب له العقاب حتماً. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يصير فيما سيسبّب له الضرر، حيث تحذّر المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

هذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، لأن المؤمن قد يقوم بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، عندها تنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة النصارى المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً}.

ننتبه دائماً، لو كان اختلاف وجهات النظر بيننا نحن لقلنا: الحقّ معي، أو الحقّ معك. ولكن القرآن دائماً يعبّر بشكل مختلف فيقول: الحقّ من ربّك، الحقّ من ربّهم. ولا يقول أبداً: الحقّ "مع" ربّك. وهناك فرق كبير بين القولين، حيث عندما تقول: الحقّ معي، فهذا يتضمّن إمكانية أن يكون الحقّ مع غيرك، ويتضمّن أنّه هذه المرّة الحقّ معك وربما في مرة أخرى يكون مع غيرك، أمّا التعبير القرآني فكان دائماً يقول: الحقّ "من" ربّك. لأنه تعالى لا يصدر عنه إلا الحقّ دائماً.

نلاحظ نفس المعنى ورد في الآية 46 من سورة القصص {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} والآية 6 من سورة يس {لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ}، أنّه لم يأت لهؤلاء القوم ولا لآبائهم نذير، حيث كانوا على فترة من الرسل، كما ورد في الآية 19 من سورة المائدة {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، حيث مرّ عليهم فترة من الزمن بعيدة لم يكن فيها رسل منه تعالى، يعني هنا "ما" نافية بمعنى لم.

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ{4})

{اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، هو، الذي {خَلَقَ}، ركّب وألّف، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وتعبير السماوات والأرض في القرآن مشابه لتعبير: كل شيء، كلّ حدود الدنيا التي تتواجد فيها الكائنات المخلوقة. خلق سبحانه المكان، وخلق ما بينهما من كائنات وظواهر وكل ذلك خلقه تعالى، {فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}، في ستّ فترات زمنية وكل فترة منها مرحلة، حيث إنّ اليوم هنا على الأرض بالنسبة لنا هو الزمن بين الغروب إلى الغروب التالي، أو من منتصف الليلة إلى منتصف الليلة التالية، ونقسمه على أربع وعشرين حصّة زمنية نسميها الساعة، واليوم على القمر مختلف، حيث هو يقارب الشهر، وعلى بقيّة النجوم والكواكب يطول اليوم لسنوات أو يقصر لوقت قليل جداً...

جرى خلق السماوات السبع والأرض في ست فترات زمنية، وليس بالضرورة أن تكون فترات متساوية بطول الزمن، ولكن في كل فترة حدث شيء مميّز، حيث قال القرآن عن خلق الأرض في يومين، كما ورد في الآية 9 من سورة فصلت {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ...}، وجرى تقدير الأقوات في أربعة أيام كما ورد في الآية 10 من نفس السورة {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ...}، حيث كان هناك "يوم" فترة زمانية لبداية ظهور النبات والحيوانات والماء... و"يوم آخر" فترة أخرى لاكتمال تلك الأشياء. ونحن حالياً نقدّر عمر كوننا بين ثلاثة عشر إلى ثلاثين مليار سنة، ولكن هذا العمر لكوننا "لسمائنا" نحن، وأمّا بقية الأكوان "السماوات" فعادة نفترض أنه تعالى خلقها قبلنا ولكن يبدو من فحوى القرآن أن جميع السماوات والأرض تشكّلت متقارنة مع بعض.

{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، وبعد اكتمال الملك "اكتملت مملكة السماوات والأرض" استوى سبحانه وصار الحال بالتمام كما هو مطلوب من السيطرة والملك، {عَلَى الْعَرْشِ} على مركزية إصدار الأوامر.

بالنسبة لكلمة "عرش"، فإنّ العرش الذي نعرفه نحن هو الكرسي الفخم الضخم الموضوع على منصّة ويجلس عليه الملك أو الحاكم، وأصلاً كلمة عرش وصف لعموم ما علا ويقابلها فرش، وعرشه سبحانه تعبير عن الإدارة المركزية من مستوى ربوبي، تعبير عن مركزية السيطرة والقرار لكل ما في الدنيا "والآخرة"، وبما أن سيطرته تعالى ممتدة على كل الدنيا "والآخرة" فعرشه سبحانه ممتدّ بامتداد الدنيا "والآخرة"، على كل ما في الدنيا والآخرة كما هو واضح من تعبير الآية 255 من سورة البقرة {... وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}.

لدينا تراث ديني ثقافي يشير البعض منه إلى وجود شيء محدّد كعرش له سبحانه، كشيء مشابه بشكل ما لمكان تتم فيه إدارة شؤون الدنيا، واستندوا على ذلك قرآنياً بالآية 17 من سورة الحاقة {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، وكلامهم خليط من تصوّرات مختلفة، بعضها سببه استعمال لغتنا لتوصيف أمور لا يمكننا نحن البشر تصوّرها، وبالتالي فإنّ الكلمات التي نستعملها لذلك تنقل نفس المعنى ولكن لأمور مختلفة، حيث هناك ملك صلب لا يهتز وإدارة إلهية مركزية لما في الدنيا، ولكنه سبحانه واسع محيط، وهناك ملائكة بقدرات عالية خلقها سبحانه ووظّفها لإدارة بعض شؤون ما في الدنيا، وأشهرها وضوحاً من القرآن ملك الموت، وهذه موصوفة "بلغتنا" أنها حاملة للعرش، والكلام القرآني الذي يشير لقوّة الملك ولنواة الحكم والسيطرة هو لا يشير إلى مكان، ولا إلى شيء، بل إلى حالة، وهذا واضح جداً من تعبير الآية 255 من سورة البقرة بوصفها وساعة الكرسي بوساعة السماوات والأرض.

من السذاجة تصوّره تعالى جالساً على كرسي على منصّة وثمانية ملائكة يحملون المنصّة، ضاربين بعرض الحائط كلامه سبحانه عن نفسه بأنه واسع محيط وليس كمثله شيء مما لا يمكن لأي مخلوق تصوّره...

الوصف القرآني لملائكة حافين حول العرش أو حاملين له هو وصف حالة وليس وصف مكان.

بعبارة أخرى، كلّ السماوات... وهذه الأرض التي نحن عليها، وهي كل ما في دنيا المخلوقات، حيث خلقها كلّها ربنا الله سبحانه، ويخبرنا سبحانه أنه هو بنفسه ولوحده ركّبها وألّفها في ست فترات زمنية، وبعد اكتمالها، لم يتركها سبحانه لغيره ليديرها، بل استوى على العرش حيث كل شيء صار بالتمام وانبسطت سلطته عليها كلها، ومن دون تهديد من أحد بالقدرة على التدخل.

على الاسمية لكلمة عرش كاسم لشيء، كل السماوات والأرض "كرسيه" عرشه تعالى، وعلى الوصفية للملك القوي والسيطرة والإدارة المركزية والتي بلغتنا البشرية نستعمل لها وصف العرش، سبحانه حالته أن عرش السماوات والأرض منسوب له، ذو العرش، واستوى على العرش، وهناك ملائكة موظفون منه تعالى بتنفيذ مهمات "رئيسية" ويكون وصف حالتهم كحاملين للعرش وحافّين حول العرش.

بعد هذا الخبر من الإله المالك الخالق لكل الكائنات، المسيطر على كل شيء:

{مَا لَكُمْ}، ليس لكم أيها الناس، {مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ}، يلي أموركم وتكونون تابعين له، ولا لكم من دونه تعالى، {وَلَا شَفِيعٍ}، يشفع لكم فيستخدم قيمته المعنوية وسلطته للعفو عن سيئاتكم. كما تقول: ذهبتم من دوني. وتقصد: ذهبتم مع غيري وتركتموني. فإذا تركتم الله سبحانه لتقولوا عن غيره إنهم آلهة أو تركتم توحيده وقلتم إنّ معه سبحانه آلهة، فلن تجدوا من يعتبركم تابعين له ليعتني بكم من مستوى إلهي ولن تجدوا شفيعاً يطلب لكم المسامحة عن ذنوبكم غيره سبحانه.

{أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ}؟ أليس من المفروض أن تستحضروا هذا الكلام عن خالقكم في فكركم ومشاعركم وعملكم؟ فكيف توالون غيره؟ وكيف تتوقعون أن يكون هناك من سيشفع لكم غيره تعالى؟

الشفاعة هي عموم استخدام القيمة المعنوية أو السلطوية لتغيير الظروف نحو الأحسن، والآيات القرآنية التي تحدّثت عن الشفاعة تناولتها من عدّة جوانب أهمّها نفي الشفاعة لأي مخلوق كحقّ مفروض ملزم "مرغم" للإله سبحانه وتعالى، كحقّ النقض "الفيتو"، وتقرأ ذلك في الآية 255 من سورة البقرة {... مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ...}، فلا تتصوّر أن ملاكاً أو شخصاً من خيرة المؤمنين يملك حقّ الشفاعة وسيفرض تنفيذها على مجرم لينقذه من العذاب، فيضرب رجله بالأرض "يحتجّ معترضاً" ويقول: معي حقّ الشفاعة وأريد أن يدخل فرعون إلى الجنّة. فهذا شيء لا يمكن أن يحصل لأنه لا أحد يمكنه فرض أي شيء من أي نوع عليه تعالى.

هناك آيات أخرى أكّدت على وجود شفاعة من الملائكة (ع) والمؤمنين من الدرجة العالية للمؤمنين من الدرجة المنخفضة، وكمثال عن ذلك الآية 28 من سورة الأنبياء {... وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}، فالشفاعة تتنفّذ بعدما يسمح الإله سبحانه بها، فضمن القرار الإلهي الأساسي يوجد أشخاص على ميزان العدل المستقيم يجب أن يتعذّبوا حتماً، ولكن القرار الإلهي فيه رحمة، فمن ابتعد عن الشرك والكبائر كقتل الأبرياء والزنا... قرّر له تعالى أن يكون له مخرج من العذاب، فسمح بالشفاعة له، أمّا المشركون والمرتكبون للكبائر من السيئات فلا تنفعهم الشفاعة كما ورد في الآية 123 من سورة البقرة {وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ...}، فنفي الشفاعة هنا في الآية ينبهنا ألّا نفعل ما نريد من سيئات معتمدين على شفاعة أحد ما لنا في الآخرة، فهذا طريق يؤدي إلى فعل سيئات لا تنفع معها الشفاعة.

لا ننسى أن الشفاعة لا تعني دائماً أنها للنجاة من النار، بل التخفيف من عذابها أو التخفيف من وقت المكوث فيها فهو أيضاً من آثار الشفاعة.

الجانب الثالث من الشفاعة الذي تجده في بعض الآيات هو نفيها عن الآلهة التي اخترعها المشركون، فآلهتهم الوهمية التخيلية كإله الحرب وإله الخمرة... أو التي لها كيان كملاك أو إنسان أو جنّي، فلا قدرة لهم حتى على الوساطة عنده تعالى للعفو عمّن عبدهم، وعادة سياق كلام هذا النوع من الآيات يريك أنه تعالى وحده الإله وأن الآخرين ليس لهم سلطة من مستوى إلهي بل حتى ليس لديهم القدرة على فرض قيمتهم المعنوية عليه تعالى، وكمثال عن ذلك الآية 51 من سورة الأنعام {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}، فسبحانه وحده بسلطته يشفع ويسمح بالشفاعة. ومثال آخر الآية 13 من سورة الروم {وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ}، حيث كان الكلام عن الذين أشركوهم معه تعالى في الألوهية، وسبحانه لا شريك له، فهم بينهم وبين آلهتهم شراكة وهمية بين عبد وإله، ولا قدرة لها لتشفع لهم... ومثال آخر الآية 43 من سورة الزمر {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ}، وهذه شاملة لكل أنواع الآلهة التي اخترعوا ألوهيتها، فحتى لو كان لها فعلاً كيان ولم تكن وهمية كإله الخمرة وإلهة الحبّ، فكانت ملاكاً أو إنساناً أو جنّيّاً، فهؤلاء لا يملكون شيئاً من مستوى إلهي.

هنا الآية تقول: إن لم يشفع سبحانه أو يسمح لأحد أن يشفع لكم عنده، فعلى ماذا تعتمدون عندما واليتم غيره سبحانه مع أنه أخبركم بأنه سيعاقب من يوالي غيره؟

إذن، هذا القرآن إنذار من الخالق الذي لا يستطيع أي أحد معارضة قراراته، والكلام هنا بالخصوص عن الآخرة حيث قرّر سبحانه مجازاتنا، والفاعلون للسيئات لن يجدوا في الآخرة من يساعدهم...

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ{5})
بعد الاستواء على العرش:

{يُدَبِّرُ الْأَمْرَ}، تدبير المواضيع، إدارة ومتابعة الأمور التي تحصل "وبالنظر لمستقبلها" فكلّه بيده تعالى يدبّره فيصدّر أوامره بما يريده أن يحصل، {مِنَ السَّمَاءِ}، من عموم ما هو فوق، {إِلَى الْأَرْضِ}، وسترى من تكملة الجملة أنها تشير لقيام كائنات نفترض أنهم الملائكة(ع) مستندين على كلام القرآن عموماً بتوظيفه تعالى لهم ببعض المهمّات وعلى الآية 4 من سورة المعارج {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}، والآية 64 من سورة مريم {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً}، فتقوم الملائكة(ع) بالانتقال من السماء العالية إلى الأرض لتنفيذ مهمّات أمر بها سبحانه، {ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ}، فبعد نزول الملائكة(ع) لتنفيذ الأوامر الإلهية تعرج إليه تعالى، والعروج منه التعرجات وأعرج وعرّجت عليه في طريقي، وغلب استعمالها في الصعود، بينما هي وصف عموم الانتقال غير مستقيم بسبب التواء أو انعطاف أو محطات بمعنى ما، أو بسبب اختلاف وسيط الانتقال من الأرض لهواء، أو بسبب اختلاف وسيط السماء، من السماء الأولى للثانية فتكون السماوات كمحطات... والانتقال يحصل، {فِي يَوْمٍ}، في فترة زمنية، {كَانَ مِقْدَارُهُ}، كميّة الفترة، {أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}، فأنتم عندما تزيدون سنة

"اثني عشر شهراً" على سنة على سنة... وتصلون لألف سنة من تاريخكم، فهذا المقدار من الوقت الطويل جداً بالنسبة لكم، فهو بالنسبة للملائكة(ع) يساوي يوماً واحداً.

أنا أستأجر العامل ليوم عمل، وأستأجره لشهر أو لسنة... أو يتوظّف لخمسين سنة، أو حتى سنّ التقاعد، وعلى الأكثر لكل حياته التي لا تتعدى الثمانين سنة، وهنا الكلام عن تدبير إلهي تتوظّف به الملائكة(ع)، ويوم عملها بمهام ما أمرها بها تعالى مدّتها ألف سنة، خلالها تعرج إليه تعالى إن استدعت الحاجة لتلقّي أوامر جديدة، فالكلام ليس عن المدّة التي تستغرقها لتعرج إليه تعالى بل عن نموذج من مدّة يوم عملها بالنسبة لنا، فبعضهم ينزل ويصعد فوراً، كنزول الوحي، وبعضهم ينزل لأيام من أيامنا كما نفترض حالة الملائكة التي نزلت لتعذيب قوم النبي لوط(ع) فانتهت مهمتهم خلال أيام مرّوا فيها على النبي إبراهيم(ع) ثم النبي لوط(ع) ودمّروا قومه ثم عرجوا...

من عموم القرآن نعلم أن الملائكة(ع) تصل إلينا فوراً حين يأمرها تعالى بعمل ما، وخذ مثلاً تنزيل القرآن على الرسول(ع)، حيث يأمر سبحانه الملاك جبريل(ع) بالنزول وفوراً يصل الملاك(ع) إلى الأرض، والفهم البسيط بدون تعقيد للآية هنا يشير إلى المقارنة بين يوم عملنا نحن ويوم عمل للملائكة(ع)، للمقارنة بين قصر مخططاتنا لأن أعمارنا قصيرة وسيطرتنا على الأمور غير معلومة، وبين طول أعمار الملائكة(ع) وسيطرته تعالى على الأمور وعلمه الفائق بحيث يوم عمل ما للملائكة(ع) مدّته ألف سنة من السنين التي نعدّها.

كمثال تقريبي عن ذلك، لنأخذ افتراضاً حالة قراره تعالى بالطوفان لإبادة قوم النبي نوح(ع)، حيث سبحانه من قبل أن يخلق ما في دنيا المخلوقات علم بالقرار المناسب وبالتوقيت المناسب لإبادتهم بطوفان، ولنقل إنّ الآية 37 من سورة هود {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا...} تشير لما نعلمه من توظيفه تعالى للملائكة(ع) بالوحي للنبي لمتابعة بعض المهام، فلنقل ومن عموم مفاهيم القرآن إنّ بعض الملائكة(ع) تابعوا مع النبي نوح(ع) مسألة صنع السفينة، فهذا يوم عمل لهذه الملائكة(ع) واستغرقها قرابة الألف سنة ولنقل إنّها مدّة صنع السفينة، وهذا المثال التقريبي البسيط يريك الفرق الهائل بيننا حين نخطّط للأمور بحيث نتمكّن من إنجازها في وقت مناسب لأعمارنا ومواردنا ومتعلّقات ما نخطّط له، وبين إله عظيم يوظّف ملائكة تتحمّل إدخالها في تخطيط ليوم عمل كألف سنة من السنين التي نعدّها نحن، وفي الآية 4 من سورة المعارج لدينا نموذج عن يوم عمل للملائكة(ع) مقداره خمسون ألف سنة من السنوات التي نعدّها نحن.

بعبارة أبسط، فعموم كلام القرآن عن نماذج، وهنا اختارت السورة الكلام عن نموذج عروج الملائكة بعد ألف سنة مما نعدّه نحن، وهم أنجزوا عمل يوم واحد بالنسبة لهم، وفي حالات أخرى تنزل نفس الملائكة أو ملائكة أخرى لتنجز عملاً ما، ويستغرق نزولها وعملها ثانية أو دقيقة أو أيّاماً أو... أو آلافاً من السنين، فلا تجمد على الآيات التي تحدثت عن عروج الملائكة محاولاً جمعها مع بعض فهذا غير صحيح، فالكلام واضح أنه عن نماذج، حيث مرّةً تعرج في ثانية ومرة تَعْرُجُ في سنة...

طبعاً ستستهوينا فكرة نسبية الزمن الفيزيائية المشهورة لتطبيقها على ما تقوله الآية، ولكن تطبيقها غير صحيح تماماً، فهناك نسبية، ولكنها ليست من النوع المتعلّق بالسرعة التي تغيّر الزمن، خذ مثلاً قولنا، أنا أقطع المسافة بين بيروت والقدس مشياً في ثلاثة أيام، فتقول لي إنّك تقطعها في أربع ساعات بالسيارة، ويقول آخر إنّها ساعة بالطائرة، فالساعة بالطائرة مقدارها أربع ساعات لمن معه سيارة، ومقدارها ثلاثة أيام لمن سيمشي المسافة على قدميه، فهذه النسبية لها علاقة بقطع المسافات بسرعة مختلفة وبفرق الوسائل لأن الزمن هو نفسه للجميع، وهنا الآية تتحدّث عن يومنا ويوم الملائكة(ع)، ونفس الزمن يجري علينا وعليهم مع الأخذ بعين الاعتبار اختلاف تكوينهم عنّا في تعاملهم مع الأمور خلال نفس الزمن، مثل اختلاف السفر بالمشي أو بالطائرة، ليكون يوم عمل عند الملائكة(ع) من العادي أن يصل إلى ألف أو خمسين ألف أو مليار سنة وذلك بالنظر للأمر الإلهي الذي توظّفوا به والذي متعلّقاته تستغرق هذه المدّة لانتهائه.

لاحظ أننا نتأثر كثيراً بالمعطيات لتفسير بعض الآيات، وسيأتيك من اليوم وصاعداً تفسير لهذا النوع من الآيات بناءً على آخر الفرضيات "التأثير عن بعد بلا اتصال "سبوكي أت دستتنس"، والأكوان المتوازية، والأبعاد الخمسة وما بعدها...، وبعد مدّة ستأتي فرضيات جديدة وتفسيرات جديدة...

على أي حال، الكلام هنا لترى مدى الفرق الهائل بيننا وبين الشؤون الإلهية التي تتعاطى مع أزمنة طويلة جداً بالنسبة لنا وهي بالنسبة للملائكة(ع) مجرّد يوم عمل، ولم يذكر القرآن ماذا تكون بالنسبة له تعالى لأنه سبحانه فوق هذه الحسابات الزمنية التي أصلاً لا تجري عليه تعالى.

(ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ{6})
ذلك، الخالق للسماوات والأرض والمدبّر لأمورها المُنزِّل لهذا القرآن هو:

{عَالِمُ الْغَيْبِ}، فيعلم كل ما غاب عن مخلوقاته في الماضي، والحاضر الذي حصل في مكان لم يكونوا فيه، والمستقبل.

{عَالِمُ الشَّهَادَةِ}، فيعلم ما تشهده مخلوقاته، ويعلم كل ما يرونه ويسمعونه ويحسّون به، مما يحصل معهم أو أمامهم.

{الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره...

{الرَّحِيمُ}، الذي لديه عناية خاصّة بالمؤمنين لما يحتاجونه وفيه مصلحتهم.

تدبيره تعالى للأمور نابع من علمه بكل شيء، من علمه المحيط الواسع للماضي والحاضر والمستقبل، نابع من عزّته فلا يشاركه أحد في تدبيره، نابع من رحمته الخاصة بالمؤمنين المطيعين له، فلأجلهم وكرامة لهم خلق سبحانه ما في الدنيا.

من ناحية ثانية ترى من هذه الأوصاف أنه تعالى ورغم عزّته فهو رحيم، وهذه الصفة تختصر ما تَعْلَمُه من رحمته تعالى لكل مخلوقاته إلى أن يقرروا هم الخروج منها، فعندها يوصف تعالى بالرحيم لأن عنايته تصير خاصّة بالمؤمنين.

نلاحظ أنَّ القرآن لم يستعمل الفعل "عرف، أو درى" عن الله تعالى، بل دائما يستعمل الفعل "علم"، وهذا له علاقة بمعاني الكلمات "عرف ودرى" التي لا تنطبق عليه تعالى.

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ{7})
الخالق المدبّر العالم بكل شيء...: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}، كل ما ركّبه وألّفه كان حسنا، على معنى: ما أحسنه. لا يوجد شيء سيء ووسط وحسن وأحسن، لا بل المقارنة مباشرة بين الحسن من جهة وبين الأسوأ الذي يضم كلّ شيء سيّء، فكل ما خلقه سبحانه كان على الأحسن. وعلى هذا المعنى جاء سياق الكلام في العديد من الآيات مثل الآية 38 من سورة النور {لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا...} وبشكل أصرح في الآية 55 من سورة الزمر {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ...}، فكل ما نزل حسن ومقابله وصف السوء لكل ما يتعارض مع ما نزل منه تعالى.

{وَبَدَأَ خَلْقَ}، بدأ تركيب وتأليف، {الْإِنْسَانِ}، هذا النوع من الكائنات الذي له صفات خاصّة به بجسده وفكره ومشاعره، {مِنْ طِينٍ}، من ماء وتراب. الطين بتعبير القرآن يشير للمواد المنتشرة حولنا، وهي المواد المعروفة بالجدول الدوري للعناصر من كربون وكالسيوم وحديد... هذا لا يحتاج لتعمّق في الدراسة لفهمه بل مجرد الالتفات لانحصار البيئة التي نشأنا منها بالمواد، والالتفات لحالة جسدنا بعد موتنا بجفاف السوائل منه "الماء" وبقاء تراب، تعلم بالبداهة أنَّ خَلْقَنَا من طين، من هذه المواد التي على الأرض من ماء وكربون وحديد وكالسيوم...

قبل أن نتحدّث عن أمور مرتبطة بالآية، لنضع في ذهننا أنها تنبّهنا لتصميمه وخلقه تعالى لنا، بالتالي ما معنى القول عن كلام القرآن عن الآخرة أنه افتراء على أساس استحالة عودتنا إلى الحياة بعد موتنا، فالذي خلقنا أول مرة يمكنه خلقنا مرة ثانية.

سؤال: هل المواليد المشوّهة تتعارض مع تعبير الآية بأنه تعالى أحسن كل شيء خلقه؟ لا، لأن التشوّه ليس ناتجا عن أساس التصميم والخلقة بل من الظروف التي نتحكّم بها نحن في مساحة حرية الإرادة الممنوحة لنا منه تعالى، يَتَشَوَّهُ الجنين بسبب ما نفعله نحن بجسدنا وبيئتنا، بالخصوص ما نفعله من سوء وهو نفسه مخالفات لأوامره تعالى وبالاصطلاح الديني نصفها بالحرام، خذ مثلا مؤمنا شجاعا رافضا للاحتلال، ولكنه ولد تحت الاحتلال الظالم، فهل

المسؤولية والملامة عليه تعالى أم على الناس الذين تخاذلوا ولم يقاوموا الاحتلال؟ أو بالأصل أليست الملامة على الظالمين المحتلين للآخرين؟ نفس الشيء بالنسبة لما نفعله نحن بجسدنا وبيئتنا فهو المسبّب لتشوّه الأجنّة، في أصل التصميم الإلهي سنولد كلّنا أسوياء، ولو راجعت كتب الطبّ لعلمت أن تصميمنا يتضمّن آليات متعددة لتصحيح الخلل الناتج عن المتغيرات، وتصل إلى مستوى رفض الخلايا الجذعية للنمو وتوقيف خلق الجنين إذا كانت الظروف غير مناسبة... ورفض جسد الأم للبويضة الملقحة الضعيفة... ورغم ذلك تحصل ولادات مشوّهة نادرة بالمقارنة مع الولادات السليمة، وهي ناتجة بغالبيتها عن سلوكياتنا السيئة...

نلاحظ أنَّ القرآن كرّر مرارا الكلام عن بداية خلقة البشر من تراب وماء "طين"، ونفس هذا الكلام الإلهي ورد في الكتب الإلهية التي نزلت سابقا، وكانت تفسيرات المنتمين لدينه تعالى عن خلقنا أنه تعالى خَلَقَ تمثالا طينيا على شكل إنسان، ونفخ فيه الروح، صَارَ إنسانا، وهو آدم(ع)... وهذه تفسيرات طفولية ساذجة لكلامه تعالى كانت مبنية على ثقافات ومعلومات بدائية مُعْتَبَرَةً في حينها أنها راقية ومتقدمة وصحيحة، وأنت تعلم أن القرآن لم يصوّر خلق آدم(ع) بشكل صريح كما هو منتشر بين الناس... والمفسرون لكلامه تعالى بهذا الشكل لديهم مشكلة مع تفسير خلقة الحيوانات والحشرات، فلا واحد منهم تحمّل أن يقول بأن الحيوانات أيضا صَنَعَ لها سبحانه تماثيل من طين ونفخ فيها، سَكَتَ الكثيرون، وآخرون قالوا بأن الحيوانات نزلت في كيس مع آدم(ع) من الجنة!

إذا انتبهت لتعابير القرآن، ستجدها بعيدة جدا عن التصورات الساذجة التي انتشرت بين الناس عن "خلقة آدم(ع)"، فإن كان سؤالنا محيّرا عن الحيوانات كيف خلقت، ما بالنا نَسِينَا النبات! كيف بدأ خلق النبات؟ هل هو أيضا تماثيل من طين! أو نزل من الجنّة في الكيس كما قال البعض! وهذه النقطة هي بالضبط ما أريد لفت انتباهك لها، لِأَنَّ القرآن سَاوَى وشبّه خلقنا مع النبات، فلا فرق بين خروجنا إلى الحياة وبين خروج النبات، ولا فرق بين موتنا وموتها، ولا فرق بين إعادة إحيائها وإحيائنا، بل ركّز القرآن مرارا على إثبات رجعتنا إلى الحياة بعد الموت أنها مسألة عادية وأقل من عادية بالنسبة له تعالى، لأننا من حولنا نشهد خروج النبات من الأرض الميتة، وهذا تكرّر كثيرا في القرآن، كما ترى، إنَّ خلقنا من طين لا يختلف عن خلق النبات وتقرأ ذلك صراحة في عدة آيات منها الآية 11 من سورة ق {رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ}، لِذَلِكَ لا نحن كانت بدايتنا مع تمثال نفخت فيه الروح، ولا الحيوانات ولا النباتات كانت بدايتها مع تمثال، بل بدايتنا مثل البداية التي نراها الآن للنبات، تراب وماء، بذرة من تراب وماء، بذرة من المواد التي حولنا، تشكّلت وصارت كائنا حيّا.

أمّا تفاصيل التفاصيل لآليات نشأة الحياة، فلم يطرحها القرآن، ونحن أحرار في البحث والتنقيب للتعرّف على أصل الخلقة وآليات نشوئها، ونحن أحرار في طرح النظريات التي حتما لن تعارض ما يقوله القرآن، فكل ما قاله القرآن أن بداية خلقنا من طين، ولا يوجد شيء آخر سنفترض أننا مخلوقون منه سوى الطين، فهذه هي المواد الموجودة في بيئتنا، وكل ما قاله القرآن عن هذا الموضوع أن آدم(ع) كان أوّل بشري تأهل للتكليف الإلهي، وراجع في ذلك دراسة الآية 30 من سورة البقرة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...}.

نحن كمتدينين، لا يحق لنا رفض أو قبول نظرية بيولوجية عن بداية خلقنا "ونشأة الحياة عموما"، لِنَقُولَ: هذه النظرية تعارض الدين، أو نقول تلك توافق الدين. لَنْ توجد نظرية تقول بأننا مَخْلُوقُونَ من شيء آخر غير الطين، وهذا ما قاله القرآن فقط. وبعد ذلك، أيُّ كلام عن الصدفة وأمّنا الطبيعة كماكينة تعمل لوحدها أو أي فرضية عن نشأة السماوات والأرض والحياة بدون إله صمّمها... فهذا الكلام المخالف للمعلومات التي طرحها القرآن وردّ عليه بطرق متنوعّة لافتا انتباهنا للحقيقة الدامغة عنه تعالى كخالق بقدرات فائقة وصفات حسنة... وبالنسبة لنشأة الحياة أَثْبَتَ القرآن فقط نِقَاطاً بَسِيطَةً: الله سبحانه هو الخالق، خلقنا من طين، وأوّل مخلوق بشري تأهل للتكليف الإلهي كان آدم(ع)، وخلقنا مساو ومشابه لخلق النبات. وهذه أمور بديهية لا تحتاج لأي دراسات وتخصصات لفهمها.

بالنسبة لآلية خلقنا أَقْرَبُ نظرية "حاليا" لما يقوله القرآن هِيَ نظرية النشوء والارتقاء، أكرّر "أقرب نظرية" ولا نقول نظرية يؤيدها القرآن، لِأَنَّهَا لا هي تخالف التعبير بخلقنا من طين، ولا التعبير بخلقنا من سلالة من طين، ولا تخالف التصميم الإلهي لخلق كل السماوات والأرض على مراحل، "ستة أيام"، ولا تخالف أن يكون آدم(ع) أول من تأهّل لحمل التكليف الإلهي، ولا تخالف أن خلقنا وخلق النبات مُسَاوٍ ومتشابه. تذكّر أننا نقول لا تخالف ولم نقل أنها صحيحة،

لِأَنَّهَا ليست صحيحة مئة في المئة، ويبدو أيضا أنها ليست مخطئة مئة في المئة... بِخَاصَّةٍ إذا راجعت الآية 30 من سورة البقرة حيث كان واضحا وجود أناس آخرين يسفكون الدماء على الأرض وذلك قبل خلق آدم(ع)...

(ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ{8})
بَعْدَ أن بدأ سبحانه خلقنا من طين:

{جَعَلَ نَسْلَهُ}، ما ينسلّ ما يتم اشتقاقه، ما توالد، {مِنْ سُلَالَةٍ}، متسلسلة مشتقة من بعضها الواحد تِلْوَ الآخر، {مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}، من سائل ليس له شأنية، من ماء المني الذي لا قيمة له لولا تحوّله فيما بعد إلى حيوان.

استعمل القرآن وصف المهين للمني للدلالة على الفرق الشاسع بين ما كنّا عليه كحيوان منوي "حُيَيْمِن"، وبين ما صرنا عليه كإنسان تامّ الخلقة.

هكذا وصل الإنسان إلى مرحلة صار يتوالد فيها عبر المني "والبويضة"، ويمكنك دمج هذا الكلام عن المراحل مع كلام الآية الأولى من سورة النساء {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...}، فقبل التوالد من سلالة من ماء مهين من ذكر وَأُنْثَى كانت مرحلة النفس الواحدة.

(ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ{9})
{ثُمَّ سَوَّاهُ}، جعل سبحانه الإنسان بالتمام متناسبا، فسوّى الماء المهين فصار بشريا كامل الشكل، {وَنَفَخَ} سبحانه {فِيهِ}، بعد أن صار سويا جعل سبحانه في داخل الإنسان، {مِنْ رُوحِهِ}، وكلمة "روح" في اللغة هي الشيء الأساسي الخالي من الإضافات، الجوهر، "الإسانس". دَرَجَ أن يقول العرب قديما "وَحَدِيثاً" عمّا ينتج من عملية تقطير السوائل: روح العنب، روح الزهر، روح النعناع... ويعنون الشيء الصافي من العنب من الزهر من النعناع... ومنه وصف بعض المشروبات بأنها مشروبات روحية على أساس أنها نتجت من التقطير الذي يصفّيها من الشوائب. وبناء عليه فالروح التي نفخها تعالى في آدم(ع) وَالْوَارِدَةُ في الآية 72 من سورة ص {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}، والروح الْمَنْفُوخَةُ فينا وَالْوَارِدَةُ هنا، والروح الذي نزل بالوحي كما ورد في الآية 193 من سورة الشعراء {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ}، وروح العنب... كُلُّهَا تَشْتَرِكُ بوصف الخلو من الإضافات وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ من نفس النوع.

بالنسبة لنفخ الروح في الإنسان بعد أن "تَسَوَّى"، بعد أن صار تكوينه الجسدي كاملا فهو إِشَارَةٌ لشيء مختلف عن المواد التي يتألّف منها الجسد، ربما نتج عن المواد "وهو الأرجح عندي" وربما نتج عن شيء آخر. وَبِتَثْبِيتِ معنى كلمة روح أنها وصف لحالة الشيء وَلَيْسَتْ شَيْئاً، وبما نفهمه من أفعاله تعالى عبر تصميمه للأمور لتحدث بالأسباب والمسببات، عبر آليات ومراحل، فنفهم أن الروح شيء ناتج عن المادة ليكون موصوفا بالصفاء، وإلا فالاحتمال الثاني أن الروح شيء لوحده ككيان كما هو دارج، أو أن الروح وصف لشيء يضيفه تعالى لنا من عنده أو من عالم آخر، فهذا أيضا دارج في الكتب، وكما ترى فلا مستند قُرْآنِيٌّ صريح له، ولا بالتلميح إذا صدق ما قلناه من معنى كلمة روح وكان دقيقا.

لَا يذهب فكرك إلى أن الروح جزء منه تعالى، كقسم منه تعالى، لا، بل كما تقول: أعطيتك من مالي. ونفخت البالون من نفسي... فلا المال جزء منّي، ولا الهواء جزء منّي. فسبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، فلا هو روح، ولا هو روح عالية، ولا هو أي شيء يشبه المخلوقات، {فَمِنْ رُوحِهِ} تعني مِمَّا هُوَ مَنْسُوبٌ له تعالى، مما خلقه ومما يملكه، مثل التعابير الأخرى القرآنية: عبدنا، مما رزقناهم، وحينا....

ماذا يحصل عندما تصير الروح منفوخة فينا؟ لم يقل القرآن أي شيء إضافي، وَأَخْبَرَنَا فَقَطْ بأننا نَتَأَلَّفُ من طين وفي مرحلة ما يتم نفخ الروح، ويصير اسمنا: إنسان. يعني بكل بساطة هي الفرق بين كومة مواد من طين وإنسان، فهي الفرق بين كومة مواد أو جسد إنسان ميّت، وجسد إنسان حيّ بخصائصه الإنسانية، فلو حصرنا فعل الروح بأنها مسببة فقط للحياة فالفاقد للوعي حي ولكنه ليس موصوفا بتمام معنى الإنسانية بما نفعله ونتفاعل معه، ولا شيء أراه من القرآن صريحا أو بالتلميح عمّا تسببه الروح فينا، ويبقى السؤال مطروحا للبحث منطلقا من بساطة معرفتنا للفرق بين كومة المواد وإنسان بكامل خصائصه الإنسانية من حياة ووعي وفكر وذاكرة...

بِنَاءً على فكرة كلامه تعالى معنا عموما بدقة وَاصِفاً خلقنا وما حولنا بقدر ما تتحمله اللغة البشرية وبقدر فهمنا للكلام، ومراعيا مختلف المعطيات "العلمية" التي معنا ومنها سنحاول فهم كلامه سبحانه، أي مراعيا المستوى العلمي للأفراد وللمرحلة التي يمرون فيها من تطوّر معلوماتهم وتقدمها... فجاء كلامه تعالى عموما بقدر ما يمكن أن يفهمه أي إنسان عادي متوسّط الثقافة وسليم الفكر والنفسية بمقدار مقبول، فحتما ستحكمنا المعلومات التي معنا ونسقطها على كلامه تعالى، فإذا بقينا على حدود فهم كلامه تعالى بما يفهمه أي إنسان عادي ومن دون تخصّص في العلوم، فسنفهم النص القرآني مُتَعَلِّمِينَ من كلامه تعالى، وملتفتين لآية من آيات أفعاله تعالى، وهذا أكثر من كاف للاهتداء للتعرّف عليه سبحانه كإله صمّمنا وخلقنا بهذه الروعة التي فينا... وأمّا البحث عن التقنيات والآليات والتفاصيل لنشأة الحياة فهذا متروك لنا لنغوص في استكشافه.

هنا نفهم الكلام ببساطة أَنَّ المواد الطينية إذا راكمتها فلن تحصل على إنسان إلا إذا حدث فيها شيء آخر، وبعد ذلك يأتي البحث والتفكير فيما سمّاه تعالى بالروح، فهل هو ما نسميه الآن بالوصف التقريبي بالكهرباء السارية في الأعصاب ليعمل الجسد والدماغ؟ أم هو نظام برمجة تشغيل الدماغ، وبرمجة الجهاز العصبي والأعضاء كِيمْيَائِيّاً؟ أم ستتطوّر علومنا لنرى شَيْئاً آخر...؟

على أي حال، مجال البحث هذا مفتوح ولا علاقة له بالقرآن، والخبر هنا على بساطة فهمه لأي إنسان عادي من قديم الزمان وإلى الآن، فلا كومة تراب وماء متراكمة تصنع إنسانا، وهناك شيء يُفْقَدُ من الجسد عندما يتعطل ونصير أَمْوَاتاً، وهذا الشيء وصفه القرآن بالروح مُمَيِّزاً له عن المادة، فهو "كما أرى" من نتاج المادة عندما تتركّب بشكل محدّد.

عموم كلامه تعالى عن خلق السماوات والأرض وخلقنا، لم يقصد تعليمنا آلية خلقه تعالى لها، بل قصد لفت انتباهنا لما نفهمه ويدل عليه تعالى كإله مصمّم خالق لها، وبناء عليه يكون كلامه تعالى عن خلق الإنسان دَقِيقاً من النظرة الإلهية وَمُخْتَصِراً ما لا يمكننا فهمه مما يتعلّق بعمل يحتاج لمستوى إلهي لفهمه، ومختصرا ما يمكننا فهمه ولكن يحتاج لمعطيات "علمية فكرية وتجريبية" أكثر وأعمق، مُبْقِياً "غالبا وعموما" على ما يمكن لمن عاصر نزول القرآن فهمه، ولنا، ولمن سيأتي بعدنا بآلاف السنين ومزوّدا بمعطيات علمية فكرية وتجريبية متطورة أكثر بكثير مما لدينا الآن.

فإذا تعاملنا مع كلامه تعالى منطلقين من هذه الفكرة، والتي أراها منتشرة في كلامه تعالى عن خلق ما في الدنيا، حيث اختار سبحانه غالبا وعموما نماذج بسيطة جدا وواضحة وسهلة الفهم، ككلامه البسيط على الفهم عن مراحل لخلق ما في الدنيا، وكلامه عن المطر والسفن والليل والنهار... فاستنادا لهذه الفكرة فمن المفروض أن نكتفي بالبساطة في فهم كلامه تعالى عن خلقنا، ولا أقصد البساطة لدرجة السذاجة الطفولية المؤدية إلى أفكار غير صحيحة، فهذا ما سبق ووقع فيه قبلنا المنتمون لدينه تعالى، ولا يزال يقع فيه من يصر على تفسير كلامه تعالى بعمق يستند فيه على معطياته العلمية مُتَخَطِّياً حدود الفهم البسيط لكلامه تعالى، ففيما بعد مئات أو آلاف من السنين سيراه المستقبليون من البشر سَاذَجاً طُفُولِيّاً هو وأفكاره ونظرياته العلمية، وسيرون سذاجة تفسيره لكلامه تعالى بِنَاءً على نظرياته العلمية...

إن كنت من الباحثين فستدرس كل الآيات التي تتحدث عن خلق الإنسان، فراجع دراسة الآية 14 من سورة الْمُؤْمِنِينَ {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}، وسترى أنها تشير لما يمكن لأي إنسان عادي فهمه، سواء الذي نزل في زمنه القرآن أو الآن أو فيما بعد، فالإنشاء خلقا آخر هو ما ميّز كومة الطين لتصير حَيَوَاناً بصفات ما.

انتبه لأي معنى تقترحه لكلمة روح لتطبيقه علينا، حيث يجب أن يحافظ على معنى استعمال نفس الكلمة في حقّ الملاك جبريل(ع)، ويجب أن يكون نَاظِراً لبقية المخلوقات، فإن قلت أَنَّهَا المسببة لحياتنا، فلماذا خصّص القرآن بعضا من الملائكة (ع) بوصفهم بالروح وفصلهم عن الملائكة الْآخَرِينَ في نفس الجملة طالما الروح مسببة لحياة الجميع؟ وإن قلت هي الفكر أو الوعي أو... فعموم الملائكة (ع) والجنّ يفكرون ولهم وعي ولم يصفهم القرآن بوجود الروح فيهم... وهكذا فانتبه لما تقترحه، واطرحه كاقتراح وليس كتفسير لكلامه تعالى الذي لم يقصد إلا أن شَيْئاً مُمَيِّزاً من نوع ما يحصل أثناء تشكّلنا لنصير كومة طين حيّة بخصائص إنسانية، وَوَصْفُ الروح لشيء مميز في الملاك جبريل(ع) وكلاهما ليسا نفس النوع بل كلاهما يوصفان بالروح لأنهما خاليان من الإضافات، نُقْطَةٌ انْتَهَى كلامه تعالى.

هَكَذَا ترى أني لا أحارب كلام الفلاسفة عن الروح، ولا كلام الروايات عن الروح، ولا كلام علماء المسلمين والمفسرين عن الروح، بل أنبّهك أن كلامهم هو طرح منهم وليس دِيناً مَمْنُوعاً مخالفته بآراء جديدة، ورأيي الشخصي أَنَّ مسألة الروح، مسألة الفرق بين كومة طين وإنسان، ليس حلّها بالتفكير المجرد وعلى الورقة والقلم، بل هي تحتاج لمعطيات تجريبية، والخروج بنتيجة منها لها علاقة بمعنى الحياة والموت والبعث.

نرجع للآية، {وَجَعَلَ لَكُمُ}، أيها الناس، من طريقة خلقه سبحانه لكم أَعْطَاكُمْ، {السَّمْعَ}، القدرة على سماع الأصوات وفهمها، {وَجَعَلَ لَكُمُ}، {الْأَبْصَارَ}، وهي القدرة على الرؤية وفهم ووعي الصور، {وَجَعَلَ لَكُمُ}، {الْأَفْئِدَةَ}، وكلمة فؤاد تصير بِاصْطِلَاحَاتِنَا الحالية على معنى: الوعي الإدراكي. فهي تشير لعموم وعينا لأنفسنا ولما ندركه مما يدخل علينا من الحواس ليصير في فكرنا ونفسيتنا ومشاعرنا.

قارن حالة وجود فؤاد فينا مع حالة الكاميرا التي تسجّل الصورة والصوت وَتُخَزِّنُهَا ولا تعي معناها، فلو صوّرت مَشْهَداً عَاطِفِيّاً مُحْزِناً فلن تتأثّر الكاميرا به، وترى هذا المعنى من توصيف أم النبي موسى(ع) في الآية 10 من سورة القصص {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا...}.

{قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ}، فأمام هذه النعم التي حصلتم عليها في خلقتكم، فإنّ شكركم وهو تعبيركم عن اعترافكم بحصولكم على أمور جيدة منه سبحانه فهو قليل، ومن مجمل القرآن نعلم أَنَّهُ سبحانه قد قبل منّا شكره والاعتراف بحمده رغم الفرق الهائل بين ما يجب فِعْلاً أن نقدّمه من شكر له تعالى على ما حصلنا عليه منه، فلو لم نفعل أي شيء آخر أثناء حياتنا سوى شكره تعالى على منحنا الحياة، لما كان كَافِياً شكرنا له، فتركيبتنا بجسد له حاجات ورغبات تستدعي اهتمامنا بصرف وقتنا على تأمين حاجاتنا... ولذلك قبل سبحانه منّا القليل من الشكر، وأمّا من لم يشكره أَصْلاً، أو لديه اعتراضات عليه تعالى، فهذا التافه الناكر للجميل، فالحيوانات أفضل منه، لأنها تشكرك إن قدّمت لها الطعام والماء والمأوى... وهذا التافه لا يشكر الذي خلقه!

لَا تَنْسَ أن سياق الكلام عن بيان خلقه تعالى لنا الآن، وبالتالي تفاهة اتهام كلام القرآن عن الآخرة بأنه افتراء عليه تعالى، على أساس أنهم يرون مسألة إعادة خلقنا مستحيلة ناسين خلقنا أوّل مرة، فالآيات هنا أوسع وعلى معنى الآية 78 من سورة يس {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ}.

(وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ كَافِرُونَ{10})
هذا الذي سبق من كلام إلهي عن خلقتنا، وَفِي مقابله مَنِ اتهم كلام القرآن عن إعادة خلقنا في الآخرة أَنَّهُ افتراء عليه تعالى وهو غير صحيح:

قالوا: {أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ}، مُتْنَا وتحلّل جسدنا ولم يعد بالإمكان الاهتداء إلينا، وَلَمْ يعد لنا أي أثر بعدما اختلط تراب جسدنا بتراب الأرض، {أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ}؟! سَوْفَ نتركّب ونتألّف من جديد؟!

من الواضح أن القائلين هم الناكرون للحياة الآخرة، وَتُجِيبُهُمُ السورة بعد لفت انتباهنا في الآيات السابقة إلى عظيم قدرة الخالق، وأن عودتهم إلى الحياة ليست شَيْئاً صعبا على الإله سبحانه، وتجيبهم الآية بطريقة ثانية:

{بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ}، منكرون لمواجهة المسؤول عنهم من مستوى إلهي. بعد توضيح كلّ شيء لهم عبر لفت انتباههم لبداية خلقتهم من تراب وأنها لم تكن صعبة عليه تعالى، فإرجاعهم لن يكون صعبا، لِأَنَّ مُشْكِلَتَهُمْ انتقلت لشيء آخر، وَانْتَقَلَتْ لإنكارهم للقائه تعالى لمحاسبتهم ومجازاتهم، وَهَذِهِ هي الخلفية المتحكمة بهم والمانعة لهم من الإيمان بالآخرة.

فكرة إنكارهم لإمكانية خلقهم مرّة ثانية صارت سخيفة بعدما لفت انتباههم القرآن لسهولة خلقهم في المرّة الأولى، وبقي كخلفية في فكرهم ومشاعرهم رفض فكرة اللقاء مع ربّهم سبحانه لمحاسبتهم، لِأَنَّهُمْ لا يريدون الالتزام بالحقّ والصلاح، وهو عمليا إطاعة أوامره تعالى، ولذلك يرفضون الإيمان بلقائه سبحانه لمجازاتهم على أعمالهم.

كثيرا ما تكون الخلفيات هي المشكلة المسببة لخلافات الناس بين بعضهم، حيث في الظاهر تظنّ أنهم يجادلون محاولين عرض الحقيقة، ولكن في الباطن لديهم خلفيات مانعة لهم من قبول الحقّ، ويحاولون تبرير رفضهم بأي شكل كان، وهذا

ينحلّ بالاتفاق على اتباع الحقّ، ولكن هيهات هَيْهَاتَ، لِأَنَّ أَكْثَرِيَّتَنَا الساحقة تُسَوِّدُ قَلْبَنَا من سوء أفعالنا، وصار الدفاع عنها خلفية عميقة دفينة في أفكارنا ومشاعرنا، ويترسّخ السوء لدرجة تعمينا عن رؤية الحق، وهذا ما تراه منتشرا في عموم خلافات الناس وأسباب مشاكلها، وَدِينِيّاً هَذَا ما تقوله الآية هنا والعديد غيرها من الآيات، حَيْثُ هُنَاكَ من لا يريد التقيّد بالخير والصلاح، وَيُنْكِرُ الآخرة التي فيها حساب وجزاء على ما نفعله لأنه يريد فعل ما يراه هو مُنَاسِباً ويرغبه حتى لو كان سَيِّئاً.

نفس الشيء يحصل في عموم الأمور الدينية، لترى المذهبية العصبية البغيضة مُتَعَشِّقَةً في فكر ونفسية حتى في أكثر الناس رصانة وعقلانية، لأن عُطْلاً أَسَاسِيّاً صَغِيراً من هوى سَيِّئٍ، يسبّب عمى القلب على المستوى الكبير، لتبقى آليات عقلانية للتعاطي مع الأمور، ولكن الأساسيات التي يبنون عليها استنتاجاتهم مضروبة بسوء العصبية والمذهبية المخالف لأوامره تعالى الداعية لعنوان واحد وَالْمَانِعَةِ من التحازب الديني...

(قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ{11})
{قُلْ}، عبر هذا القرآن للمنكرين للقاء ربّهم سبحانه: {يَتَوَفَّاكُم}، يأخذكم بالتمام، {مَلَكُ الْمَوْتِ}، هناك ملاك مخصّص لأخذكم بالتمام وإخراجكم من الحياة، الملاك، {الَّذِي وُكِّلَ بِكُم}، وأوكل سبحانه إلى الملاك مهمّة توفيكم، {ثُمَّ}، بعدما يتوفاكم الملاك، {إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}، ولن تبقوا عند الملاك، ولن تفنوا، ولن تذهبوا إلى عالم آخر... بل إلى المسؤول عنكم من مستوى إلهي سترجعون، فهذه أوامره، وهذا تخطيطه لمصيركم، وأنتم سواء عليكم أأنكرتم أم صدّقتم، ولن يغيّر ذلك أي شيء فيما يخبركم سبحانه أنّه سيحصل معكم، وسترجعون إليه حتماً في الآخرة.

نلاحظ أنّ القرآن استعمل كلمة "ملائكة" بالجمع ومفردها "مَلَك" بالفتحة على اللام، للدلالة على كائنات غير الجنّ والإنس، واستعمل كلمة "ملوك" بالجمع، ومفردها "مَلِك" بالكسرة على اللام، للدلالة على الناس الحاكمين على أناس آخرين. ويبدو أنّ أساس كلمة مَلَك ومَلَاك ومَلَائِكَة، تشير أصلاً إلى امتلاك كائن ما لشيء مميّز، فهي اشتقاق من وصف من يملك شيئاً مميزاً، وصارت كلمةً مخصّصاً استعمالها للكائنات التي قال عنها الدين الإلهي أنّها مخلوقات لا تعصيه تعالى وتنفّذ كل الأوامر بدقة وبأمانة.

بالنسبة لكلمة وفاة، فمعناها: أخذ الشيء بالتمام ولم يُتْرَك منه شيء. وهنا تقصد الآية أنّ الجسد الذي تعطّل وصار وصفكم أنكم متّم، يتحلّل الجسد ويختلط بالتراب، ولكن أنتم بذاتكم، لم تختفوا حين متّم، بل وكّلنا ملاكاً لأخذكم، ومن المشهور في عموم ثقافات المنتمين لدينه تعالى أنّه الملاك عزرائيل(ع)، ومعه ملائكة آخرون تحت إمرته...

في الكتب يذكرون آيتنا هنا عند كلامهم عن الجسد والروح والنفس، حيث إنّ الجسد يتحلّل، ويختلط بالتراب، فماذا يأخذ ملك الموت؟ في تعابير القرآن لا نجد أي كلام عن وفاة الروح، بل يقول القرآن إنّ ملاك الموت(ع) يأخذ الأنفس. ومن استعمال كلمة "نفس" في القرآن نجدها تشير إلى الشخص كشخص، لا إلى حياته كحياة مرتبطة بالجسد. إنّ تعبير توفّي الميت يعني: الاحتفاظ بفكرنا وذاكرتنا ومشاعرنا، وليس انتقالها إلى عالم الآخرة الذي لم يأتِ بعد، والمقتولون في سبيله تعالى يبقون أحياء يتنعّمون بعد وفاتهم في الدنيا في عالم برزخي قبل عالم الآخرة الذي لم يأتِ بعد، وغيرهم من الناس يفقدون وعيهم حين يموتون ولا يشعرون بأي شيء كما يبدو من عموم القرآن الذي ذكر مفاجأتهم حين قيامهم من الموت. لذا علينا الانتباه جيّداً لما صار متوارثاً منتشراً بيننا كمسلمين عن بقاء الروح، وعن أنّها هي التي يتوفّاها ملك الموت... لأننا لا نجد في القرآن أي تصريح أو تأييد لهذا الكلام بشكل مباشر أو غير مباشر.

انتبه جيّداً أنّ كلام القرآن لم يتماشَ مع الكلام الدارج بين الناس الذين نزل في عصرهم ومكانهم، ولم يتماشَ مع كلام المنتمين سابقاً لدينه تعالى من يهود ونصارى، حيث لم يستعمل تعبير أخذ الروح من الميت، وهذا شيء تراه في كلام النبي محمّد(ع) والجيل الأول من المسلمين وفي عموم كلام أهل الكتاب قديماً، ولا تزال تسمعه إلى عصرنا، بينما القرآن لم يتحدّث بمثل هذا الكلام، لذا انتبه لذلك جيّداً.

على كلّ حال، هذا الموضوع فوق قدرتنا على الفهم والتصوّر حالياً، لأننا لم نَرَ ملك الموت ولا عالم ما بعد الموت "البرزخ"، وأساساً نحن لا نعرف عن أنفسنا وعالم الدنيا إلا القليل، ونعرف النوادر عن عالم الملائكة (ع) والجنّ... لذا

من الواضح أنّ أي خبر إلهي عن هذه الأمور، هو مجرّد خبر توصيفي لما نراه من موت لأحد ما، والاحتفاظ بهويته عبر توفّيه، وذلك لإعادته هو نفسه إلى الحياة في الآخرة.

لا يهمّ إن كانت الروح غير النفس، أو النفس هي العرض والروح هي الجوهر... أو الجسد هو الماهية والنفس هي الجوهر والروح هي الحياة... لأنّها كلّها تعابير وضعوا لها تعريفات لا دليل عليها من القرآن، وأصلاً لن تزيدنا فهماً للقرآن، إنّ كل ما يريدنا القرآن أن نفهمه: عندما تموتون لا تفنون ولا تنمحون، بل تبقون كما أنتم ولكن بلا جسد "طيني"، ويقوم بأخذكم بالتمام ملك الموت، وتبقون محفوظين. أمّا كيف، وأين... فهذا حالياً فوق قدرتنا على الفهم والتصوّر، وسنعرفه عندما نصير في الآخرة، وأمّا محاولة التعرفّ فكرياً أو مخبرياً على ما يحصل حين موتنا وكيف سيتم إعادة بعثنا، فلا مانع دينياً من البحث في الموضوع لمعرفة آليات حدوثه، ولا مانع دينياً من محاولة إرجاعنا نحن للميّت إلى الحياة، ولا مانع دينياً من أي شيء... وسيكون رائعاً لو استطعنا إعادة الحياة لميّت أو محاكاة ذلك، حيث فعله النبي عيسى(ع) بقدرة ممنوحة منه تعالى، مما يعني أن محاكاتنا لها ليس مستحيلاً، وسيكون رائعاً لو استطعنا سحب معلوماتنا بما فيها من ذاكرة وأفكار ومشاعر لتخزينها في آلة متفاعلة، وسيكون رائعاً إعادة وضعها في جسد حيّ آخر...

بقي شيء عمّا ورد في الآية 42 من سورة الزمر أنّه تعالى يتوفّى الأنفس {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا}، وورد في الآية 27 من سورة محمد أنّ الملائكة(ع) تتوفّانا {فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ}، وهنا في الآية لدينا تعبير عن ملك واحد للموت يتوفّانا، وببساطة نفهم الكلام أنّه تعالى يتوفّانا عبر ملائكة تقوم بهذا العمل، وملاك ما يتوفّى هذا وملاك آخر يتوفّى ذاك. درج في أدبياتنا أنّ ملاكاً اسمه عزرائيل مسؤول عن ملائكة آخرين يقومون بالتوفّي.

من ناحية أعمق، كما عبّر القرآن عن نزول الماء بأنّه من الله تعالى، وعبّر عن إنباته تعالى للنبات، وعن تسييره تعالى للفلك في البحر، وقتله للأعداء... وهي أمور نراها من وجهة نظرنا بأن الغيم أنزل الماء، والبذرة والماء أنبتت النبات، والريح حرّكت السفن، والمؤمن قتل العدو... لذا نفهمها بأنّه تعالى هو صمّم وخطّط لحصول هذه الظواهر، وهو خلقها هكذا، وهو الذي يجعلها تعمل، في الحقيقة إنّه تعالى هو يُنزل الماء ويحرّك الرياح وينبت النبات ويقتل الأعداء... لأنّه صمّم وخلق وهذا ما نتج، وهنا نفس المفهوم، إنّ تعامل ملك الموت معنا هو الطريقة التي صممها تعالى لتوفّينا، سواء لتوفّينا بعد حادث مسبّب لعطل مميت لنا، أو بأمر إلهي مباشر يتخطّى الأسباب المعروفة لتوفّي أحد ما فجأة، علماً أنّه لا يحضرني الآن ولا مثال قرآني صريح عن فعله تعالى لشيء كهذا، وتسبيبه تعالى لكارثة مميتة هو عادة طريقة تدخله لإماتة بعض الناس، وغير معلوم إن كانت وفاة النبي سليمان(ع) من سبب طبيعي أو من تدخّل إلهي، ولكن المعلوم أنّ الكيفية والتوقيت لموته (ع) كان من تدبير إلهي ولسبب ذكرته الآية 14 من سورة سبأ {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ}.

(وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ{12})
{وَلَوْ تَرَى}، ولو حصلت لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: لو شفت. {إِذِ الْمُجْرِمُونَ}، حين يكون المرتكبون للأعمال التي يستحقون عليها العقاب، {نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ}، فرؤوسهم حين تراها تصفها بأنها منكوسة ليست باتجاهها العادي، وبدل أن يكون وجههم إلى الأمام، سترى وجههم باتجاه الأرض وهم واقفون في حضرة المسؤول عنهم من مستوى إلهي. حيث إنّهم كانوا ينكرون اللقاء به تعالى، ولكن حين يحصل سيقولون: {رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {أَبْصَرْنَا}، وفهمنا ووعينا الصورة الصحيحة، ورأينا ما لم نكن نصدّق أنّه سيحصل، ورأينا اللقاء معك، {وَسَمِعْنَا}، كلام محاسبتنا الذي كنّا ننكر أنّنا سنسمعه... حيث فهمنا وصرنا نعي كل هذا، {فَارْجِعْنَا}، أي ردّنا إلى حيث كنّا إلى حالة نتكلّف فيها من جديد مثلما كنّا في الدنيا، {نَعْمَلْ صَالِحاً}، لنقوم بالأعمال الموصوفة بأنها جيدة حسنة ولا نقوم بالأعمال الباطلة العاطلة، {إِنَّا مُوقِنُونَ}، حيث لدينا الآن اعتقاد بمطابقة الآخرة للواقع والحقّ، لأنّ اللقاء معك حصل فعلاً وصرنا نعتقد بأن كلامك عن محاسبتنا ومجازاتنا حقيقي.

هم الآن في الدنيا يتفلسفون ويتذاكون ويتبجحون بعلومهم وقوّتهم ومالهم ومراكزهم... وينكرون ما يخبرهم به تعالى عن لقائه في الآخرة لمحاسبتنا ومجازاتنا، واتهموا كلام القرآن عن ذلك أنّه فرية، بأنّ الإله لم يقله، ولكن لو رأيتهم حين يحصل اللقاء... وهم ناكسو رؤوسهم...

ضع في بالك أنّ ما سيأتي من كلام هو ردّ نقرؤه من الآن على من سيطلب في الآخرة فرصة ثانية، والبداية مع القرار الإلهي النهائي الحاسم بأنّه لا عودة لأحد إلى الامتحان من جديد... وبعدها مروراً بوصف الأعمال الصالحة وتحديده تعالى الجنّة كجزاء عليها، وتوصيف الأعمال السيّئة والجزاء عليها بالنار... وصولاً إلى الآية 21 التي ذكرت أنّ العذاب بتدخّل إلهي والذي يحصل في الدنيا مع بعض الناس هو نموذج مصغّر عن عذاب الآخرة، ومن المفروض من هذا النموذج أن يجعلهم يؤمنون بعذاب الآخرة. استعجلتُ وذكرت لك ما أخّرته السورة، لأن الآية هنا تشير إلى رؤيتهم للعذاب في الآخرة وتيقّنهم به، وادّعائهم أنّهم لو أتيحت لهم فرصة ثانية لآمنوا، وحصل عذاب في الدنيا لهم أو لغيرهم وهو عيّنة عن عذاب الآخرة، ولم يؤمنوا.

انتبه دائماً أنّ المشكلة معهم أنّهم عناداً لم يؤمنوا بالحق ولم يعملوا صَالِحاً، صحيح أنّه عمليّاً هو نفسه معصيتهم له تعالى، ولكن القرآن دائماً ينبّهك أنّه تعالى لن يجازيك بالعقاب على عنوان: مخالفة أوامره سبحانه. بل على عنوان: كفرك بالحق الواضح وفعلك للسوء. إنّ لبّ هذا الدين الإلهي ومحورية كلام القرآن معنا، عن دفعنا للحقّ وللصلاح، والمجازاة عليهما في الآخرة. وهذه تصير عنوان: أوامره تعالى لنا، ومجازاته تعالى لنا على طاعته ومعصيته.

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ{13})
{وَلَوْ شِئْنَا}، من بين الخيارات العديدة المتاحة أمامه تعالى لو قرّر، {لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ}، كل واحد، {هُدَاهَا}، لوضعناها على الأشياء الصحيحة التي توصلها للغاية الصحيحة.

تفهمها بسهولة إذا تذكّرت أنّه تعالى جعل فينا بعض الأمور التي نمشي عليها غصباً عنّا، وهي أمور مزروعة فينا نسميها ونصطلح عليها بالفطرة أو الغريزة... حيث إنّ الطفل بمجرد خروجه إلى الحياة يلتقم ثدي أمّه ليرضع، وبتعبير القرآن هذا نوع من الهداية، وهذا شيء صحيح يوصل الطفل إلى غاية سدّ جوعه، وهنا الكلام في الآية عن الإيمان، لذا لو شاء تعالى لوضعنا كلّنا على الشيء الصحيح حتى نؤمن، مثلما فعل سبحانه مع الطفل حين هداه ليرضع، ولكن هذا سيعني سحب الإرادة منّا، وهذا القرار يمكنه تعالى أن يفعله لو شاءه، ولكنّه تعالى لم يشأه، بل شاء منحنا حرية الإرادة والاختيار.

بدلاً من اتخاذ قرار بهداية كلّ الناس "بإجبارهم غصباً عنهم على الإيمان"، {حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي}، صدق وتحقّق القول الإلهي، وقال تعالى:

{لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ}، المكان الموصوف بسوء ما فيه حيث تتأجّج فيه النيران حيث سوف يضع فيه تعالى، {مِنَ الْجِنَّةِ}، "بكسرة على حرف الجيم" من الكائنات من نوع الجنّ، و{وَالنَّاسِ}، من البشر، {أَجْمَعِينَ}، حيث من كلا الجنسين سيرمي في جهنّم، ومن الواضح جداً أنّ أجمعين لا تعني كلّ الجنسين، بل تعني: كل من فعل سوءاً من كلا الجنسين. حيث هناك وعد آخر نعلمه من القرآن بأنّه تعالى سيجعل المؤمنين في الجنّة.

كما ترى الآية تركّز على الخلفية التي بسببها يقولون إنّ القرآن افتراء، حيث إنّ هؤلاء لا يريدون الالتزام بالحقّ والصلاح، ويرفضون الإيمان بمحاسبتهم ومجازاتهم، ويقولون إنّ كلام القرآن عن الآخرة هو افتراء عليه تعالى لأنّه لم يقله ولن يفعل ذلك.

تأتي آيتنا هنا لتخبرنا الكثير، حيث سيقول بعضهم: لماذا لم يَهْدِنَا تعالى طالما بإمكانه ذلك؟ والجواب أنّه تعالى لن يهديكم بالقوة وغصباً عنكم بسحب حرية الإرادة منكم. وما فيكم من قدرة على تمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ هو أكثر من كافٍ لكم لتهتدوا، ومن اختار السوء فليتحمّل مسؤولية نتيجة عمله.

ليعترضوا وليقولوا إنّهم لا يعجبهم ذلك، هذا لن يغيّر أي شيء، لأنّ ما قرره تعالى سيحصل حتماً، وبالحق "بالعدل"، هم في الآخرة سيطلبون فرصة ثانية ليؤمنوا ويفعلوا الصالحات، فلماذا من الآن لا يفعلون الصالحات؟ ماذا يطلب منهم

تعالى غير ذلك؟ والذي منهم لا يرى هذا القرار منطقياً وعقلانياً فإنّ كلامه في الحقيقة لا منطقي ولا عقلاني، لأنّه اختار الكفر أو الشرك أو اتباع الهوى السيّء... لو كان فعلاً عقلانياً منطقياً لاختار الصلاح المتمثّل بالدين الإلهي، ولما كان لديه أي اعتراض على تعذيب من لم يؤمن.

نلاحظ العديد من الآيات القرآنية التي تحدّثت عن موضوع الفرصة الثانية عبر رجعة العصاة إلى حالة كالتي كانوا فيها في الدنيا ليكونوا مؤمنين صالحين، ونلاحظ أنّها أجابت بانتفاء إمكانية حصول ذلك لأسباب عديدة، وكل مرّة كان الجواب بحسب ما يناسب سياق السورة، حيث مرّة كان الحديث عن نفسية وعقلية المجرمين فقال القرآن إنّهم لو رجعوا إلى التكليف كما كانوا في الدنيا التي انتهت، لعادوا إلى كفرهم وإجرامهم كما كانوا من قبل، وتقرأ ذلك في الآية 28 من سورة الأنعام {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}، وضمناً فإنّ الآيات المشابهة لذلك تنفي الأمل الخادع بوجود فرصة ثانية، حيث جاء الجواب عن إخبارنا من الآن بأنّه لا توجد فرصة ثانية، فمن يتأمّل بفرصة ثانية فهذا لن يطيعه تعالى، وإذا ذهب وعاد فسيتأمّل بفرصة ثالثة... وثالثاً أنّه وعد إلهي وسبحانه صادق الوعد ولن يغيّر قراره كما تقرأ في العديد من الآيات منها كمثال الآية 68 من سورة التوبة {وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} لذا لا فرصة ثانية، وهذا ما تقوله الآية هنا بتعبير آخر.

نلاحظ التعبير بـ: {لَأَمْلَأَنَّ}، الذي تدعمه آيات عديدة للدلالة على أنّ الكثير من الجنّ والإنس سيدخلون النار، ومنها الآية 179 من سورة الأعراف {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ}. حيث من الأساس يعلم سبحانه بأنّ العدد الأكبر من الجنّ والإنس ستكون نهايته في النار، وليس لديه سبحانه أي مشكلة، لأنّهم هم بإرادتهم اختاروا النار، وهذا الكلام الصريح مع الجميع بأنّه لا يوجد بعد الآخرة فرصة ثانية.

أخيراً تنتبه للخطأ الدارج في أدبياتنا عن إعادة صياغة أمثال آيتنا هنا بأنّهم يطلبون فرصة للعودة إلى الدنيا، وهذه الصياغة خطأ ولم يستعملها القرآن لأنّ الدنيا هي المكان والزمان الحاليان، وحين تتبدّل السماوات والأرض تصير الآخرة، وأي شيء يحصل بعد ذلك فهو يحصل في الآخرة، ولا يمكن الرجوع إلى الدنيا لأنّ هذا كلام لا معنى له لأنّ الدنيا تكون قد انتهت.

مثله الخطأ الدارج في كلامنا عن الذي مات وأنّه ذهب للآخرة، لا، بل هو لا يزال في الدنيا وبعدما تتبدّل السماوات والأرض تصير الآخرة. ومثله الخطأ في كلامنا عن الجنّة التي كان فيها آدم وزوجه أنّها جنّة الآخرة، وهذا مستحيل لأنّنا الآن في الدنيا والآخرة لم تأتِ بعد. ومثله الكلام عن ذهاب النبي محمّد(ع) معراجاً إلى الآخرة لرؤية الجنّة والنار، وهذا لم يقله القرآن وأصلاً لا يتطابق مع الواقع لأنّنا الآن في الدنيا ولم تأتِ الآخرة بعد. ومثله الكلام عن كون الجنّة التي يدخلها المؤمنون بعد موتهم موجودة الآن في السماء، في سماء من سماوات الدنيا، وهذا دارج كثيراً في أدبيات المسيحيين...

(فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{14})
{فَذُوقُوا}، تحسّسوا واشعروا، {بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا}، بسبب نسيانكم ليوم القيامة الذي ستواجهون فيه ربّكم سبحانه، والكلام عن أنهم سيذوقون العذاب.

{إِنَّا نَسِينَاكُمْ}، نعلم بعذابكم ولكن لا نهتم بكم، حيث نسيكم سبحانه من رحمته، مثلما أنتم علمتم بلقائه تعالى ونسيتموه فلم تهتمّوا به.

{وَذُوقُوا}، تحسّسوا واشعروا، {عَذَابَ الْخُلْدِ}، ضررا لا ينتهي، {بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، بسبب أعمالكم السيئة التي قمتم بها.

لاحظ أنَّ الآيات تذكر سبب تعذيبهم وأنه تعالى لم يظلمهم، فهم يتعذّبون بما عملوا من سوء.

للنسيان تدرجات، تبدأ من اختفاء المعلومة تماما من ذاكرتك، وصولا إلى بقائها في ذاكرتك مع خروجها من اهتمامك وتركيزك بسبب انشغالك بشيء آخر أو بسبب تنزيلك لمستوى أهميتها، أو النسيان عن قصد. ووصفه تعالى بالنسيان، فالمقصود منه إخراجهم من رحمته تعالى، فهو تناسيهم عن قصد من قاموس الرحمة والعناية والرأفة... لأنه سبحانه لا

تختفي المعلومات من عنده ولا بأي شكل، ولا ينشغل بشيء يسبب له ترك الاهتمام بأشياء أُخَرَ... وقصدت الآية من تعبيرها بنسيانه تعالى للكافرين وهم يتعذّبون، قصدت توصيل تعبير قاس جدا جدا لنا عبر التأكيد على انقطاع اهتمامه تعالى بهم عن قصد، فهو نسيان عن قصد، وليس مَحْواً لهم من علمه تعالى، بل مَحْواً لهم من رحمته تعالى، وليس لانشغاله تعالى بأمور أخرى بل لِتَقَصُّدِهِ تعالى نسيانهم.

للتقريب لنقل إنك تسجّل أسماء الناس الذين ستوزّع عليهم جوائز أو هدايا، وأنا أوافق على الأسماء، وتقترح اسم فلان وفلان... وأنا أوافق... وتذكر اسما لا أريده في اللائحة، فأقول لك: انْسَهُ. يعني تَقَصَّدْ نسيانه ومُرَّ عنه، لأنَّ اسمه في بالنا ونتذكّره ولكني لا أريد ذكره في اللائحة.

هذا التطويل في الكلام عن كلمة "نسيان" حتى لا نسلك الطريق السهل "غير الصحيح" في فهمها ونقول إنها تعبير مجازي هربا من تعارضها مع وصفه تعالى بالعليم، لا، فكل تعابير القرآن حقيقية وتقصد معنى الكلام الذي تستعمله، وهو سبحانه عليم لا ينسى أيَّ شيء، ولا يغيب عنه أيُّ شيء، ويمكنه تعالى تقصّد النسيان للكافرين من رحمته، ويخبرهم من الآن بذلك، وهناك في الآخرة سيخبرهم سبحانه بذلك، حتى يتعذّبوا نفسيا من فقدانهم الأمل بالنجاة.

يعني الوصف بالنسيان هو الكلمة التي من لغتنا والتي نسحب منها الخصائص البشرية حتى يُوصَفَ بها تعالى مثلها مثل بقية الكلمات التي نصفه تعالى بها، كنسبة اليد والوجه والعين والحب والانتقام والكره والغضب... له تعالى.

كما تعلم، ضِمْنَ هذا الكلام عن نسيانهم يتعذبون، لنعلم من الآن أنَّ أيَّ أفكار وهمية نخترعها عن رحمته تعالى ورأفته وحنانه وعطفه... هي صحيحة فيما يناسبها، ولن تنطبق على فاعلي السوء من العيار الثقيل ولا بأي شكل، حيث تسمع من حولك فاعلي السوء يقولون: {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}. على أساس أنه تعالى سيغفر لهم ويرحمهم مهما فعلوا من سوء، لا، ليست المغفرة والرحمة لهذه النوعية من الناس.

(إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ{15})
{إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا}، فقط يعتقد بالأمور المميزة المنسوبة له تعالى، {الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا}، إذا قيلت لهم واستحضروها في فكرهم ومشاعرهم، {خَرُّوا سُجَّدًا}، سقطوا لا إِرَادِيّاً وقرّبوا وجههم من الأرض أو وضعوا جبهتهم على الأرض، وهذا تعبير عن أقصى حالة الخضوع والاحترام، {وَسَبَّحُوا}، فأعلنوا تنزيهه تعالى عن الصفات الناقصة والمعيبة، {بِحَمْدِ رَبِّهِمْ}، بالاعتراف بأن كل أعمال المسؤول عنهم من مستوى إلهي حميدة جيّدة، فنزّهوه تعالى من أي فعل سيّء غير حميد، {وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}، وهم لا يرون أنفسهم أكبر من طاعة أوامره تعالى.

محور كلام السورة عمّن كفر بكلام القرآن عن الآخرة ووصفه بالافتراء عليه تعالى... وكفر بقدرته تعالى على إعادة خلقنا مُسْتَنِداً على خلفية رفضه لمحاسبته ومجازاته على ما يفعله من سوء... فلم يَرَ من خلقه تعالى لنا من طين دَلِيلاً على قدرته تعالى على إعادة إحيائنا لمجازاتنا... وبالعكس، هناك من اعتقد به تعالى إِلَهاً أَحَداً قَادِراً... بسبب رؤيته للآيات في نفسه وفي بيئته، فنزّهه تعالى وحمده، ومن شدّة تأثّره سجد.

طَبْعاً لا تقصد الآية أن المؤمن في حالة خرور دائمة على الأرض، بل كلما قلت للمؤمن شَيْئاً عن أفعاله تعالى سيسقط سَاجِداً على الأرض، لا، لأنَّ حتى أرقى المؤمنين من الرسل والأنبياء لم يكونوا كذلك، فالآية تأخذنا إلى حالة نموذجية عن الإيمان العالي، إلى حالة من يعبّر عن أقصى الاحترام والخضوع له تعالى بفقدانه القدرة على الوقوف من شدّة تأثّره بآياته تعالى، وهذه الحالة تصيب المؤمنين من الدرجة العالية في أثناء صلاتهم له تعالى، وتصيبهم في بعض الأحيان في حالات استثنائية شبيهة بالحالة التي نقلتها سورة ص في الآية 24 عندما خرّ النبي داوود (ع) راكعا من شدّة تأثره من الخطأ الذي وقع فيه ... {وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ}.

فَهْمُ أمثال هذا الكلام القرآني يكون أسهل حين تتذكّر أن عموم كلام القرآن عن نماذج.

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{16})
{تَتَجَافَى}، لا تتوافق وتبتعد، {جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ}، عن الأماكن التي يستلقي عليها جسدهم، مثل حالة من يتقلّب في فراشه قبل نومه من كثرة تفكيره بأمر يشغل باله، {يَدْعُونَ رَبَّهُمْ}، يشهرون يعلنون للمسؤول عنهم من مستوى

إلهي، {خَوْفًا}، حيث لديهم شعور بخطر أكيد من عقابه تعالى لمن عصاه ويشعرون بأنهم لا يمكنهم تجنّب العقاب إن عصوه تعالى وإن لم يَرْضَ عنهم، ويدعونه تعالى، {طَمَعًا}، فيرغبون بشدّة مع أمل بالحصول على الجنّة التي وعدهم بها تعالى. هذا هو الشيء الذي يشغل بالهم ويصعّب عليهم النوم سَرِيعاً، وَطَبْعاً الكلام عن حالات مثل هذه كنماذج، وليس المقصود أنهم لا تَغْفَى عينهم، بل لمدة قليلة أو دقائق أو أكثر... لأنَّ هذا آخر ما يفكرون به ويخطر ببالهم.

{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}، ومن الأشياء التي صارت معهم منه تعالى مما يحتاجونه لأمور حياتهم المعيشية وسدّ رغباتهم، من طعام ومال... {يُنفِقُونَ}، يصرفون على المحتاجين فلا يحتفظون به كلّه ولا يَكْنِزُونَهُ.

نتذكّر دَائِماً أن الإنفاق على المحتاجين واجب دَائِماً طالما هناك محتاج، ولا يوجد في هذا الدين الإلهي شيء اسمه: زكّيت الزكاة الواجبة وكفى. ساعدت الفقراء بما يكفي. لن أساعد المحتاج لأني دفعت ما عليّ وزيادة... لا، لا يوجد في دين الله تعالى شيء كهذا، بل هناك أمر إلهي دائم للمؤمن إن استطاع مساعدة من يجده مُحْتَاجاً للمساعدة ليعيش مَسْتُوراً بكرامة، فالتعبير هنا أعمّ من الزكاة الواجبة، فهو مثله مثل الكثير من الآيات التي تأمرنا بالإنفاق دَائِماً على المحتاجين لنساعدهم في شؤون حياتهم الأساسية، طَبْعاً إذا كنّا قادرين على مساعدتهم بِنَاءً على القاعدة التي ذكرتها الآية 29 من سورة الإسراء {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا}.

(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{17})
{فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}، هؤلاء المؤمنون الداعون المنفقون، لهم أشياء عنده تعالى وهي مخفية الآن لا يرونها، وهي الجنّة، وما فيها موصوف بأنه من الأمور التي عندما تثبت عينهم عليها، عندما تقع عينهم عليها فإنها تقرّ فلا ترغب برؤية شيء آخر من شدة ما تفرح بها.

الذي سَيَنَالُونَهُ هو: {جَزَاءً}، لقاء وبدل، {بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، لأنهم آمنوا وعملوا الصالحات والجزاء والمقابل على هذه الأعمال هو جنّة رائعة.

نلاحظ العديد من تلميحات وتصريحات القرآن عن روعة الجنّة، وأن ما يخبرنا القرآن عنه ليس كلّ شيء، بل هو مجرّد نماذج تقريبية لتوصيف روعة الجنة، ومَثَلاً النهر في الجنة هو نهر بالوصف ولكن يختلف في لونه وصوته وطعمه عن نهر الأرض هنا. والآية هنا من أصرح الآيات التي تشير إلى أن كل التوصيف القرآني عن الجنة، من حورها وقصورها ولذّة طعامها... هو مجرّد استعمال لنفس الكلمات ولكن الفرق شاسع واسع تطبيقيا بين ما تشير له الكلمة هنا وما تشير له الكلمة هناك في الآخرة، والكلام هنا مثل التعبير القرآني الوارد في الآية 64 من سورة العنكبوت عن جنّة الآخرة بأنها {الْحَيَوَانُ}، {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}، بأنها فعلا توصف بالحياة على أكمل الوصف بالحياة، حيث هناك لا مرض ولا تعب ولا ألم... لِذَلِكَ، لا نعلم فعلا على ماذا سيحصل المؤمنون من قرّة أعين، ونحن فقط نسمع الكلمات ونتصوّر معانيها، لأنَّ ما في الجنّة من روعة يفوق قدرتنا على التصوّر الآن، ونتخيّله بالتقريب فقط، وتختصر حالة المتواجدين فيها ما ورد في الآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}.

(أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ{18})
{أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا}، كان معتقدا بشيء، والكلام عن الاعتقاد بعموم الدين الإلهي، والسياق هنا خصوصا عن الاعتقاد بالآخرة، وضِمْناً هذا يعني فعله للصالحات وترك السيئات، {كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا}، خارجا عن عموم صريح ما يقوله الدين الإلهي، وهنا الكلام بالخصوص عن الكفر بالآخرة وضِمْنَاً فعله للسيئات لأنه لا يؤمن بأنه تعالى سيجازيه عليه بالعقاب.

{لَا يَسْتَوُونَ}، ليسوا في نفس القيمة والاعتبار، ليسوا مثل بعض "لا يتساوون".

بالنسبة لكلمة "آمن" لم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإسلام أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن،

وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، إِذْ إِنَّ (آمن) على أصل معناها اللغوي، و(اعتقد) على معناها الاصطلاحي الدارج، كلاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

ننتبه للاصطلاح الدارج في ثقافتنا الدينية عن معنى النفاق والفسق، حيث قالوا إنَّ الفسق هو الخروج عن شيء ديني علنا أمام الآخرين، والنفاق خروج بالسرّ عن الدين، وهذا كلام غير دقيق، لأنَّ النفاق هو عموم إظهار الإيمان مع كفر من الداخل، سواء فعل بالسرّ حراما أو لم يفعل، والفسق هو عموم مخالفة ما صرّح به الدين، فإذا كان هناك شيء معلوم إنَّ الدين يُحَرِّمُهُ وهو يفعله عالما بسوئه، فهو فاسق، وسواء فعله بالسر أو بالعلن فهو فاسق لأنه وصله بصراحة ما قاله الدين ولكنه فسق وَخرج عنه. ولذلك درجات من مخالفة كل الأساسيات أو بعضها، أو مخالفة بأمور ليست بخطورة الشرك والزنا...

بهذا المعنى الأساسي الواسع لكلمة فسق، فإنها تشمل من خالف كل أو غالبية الأساسيات وأهمها التوحيد، وهذا عادة يكون كافرا، أو خالف ببعضها وهذا يشمل بعض الكفّار وبعض المنتمين لدينه تعالى، وصولا إلى وصفنا بالفسق نحن متوسطي وضعفاء الإيمان بسبب فعلنا لبعض ما نعلم أنه مخالف لدينه تعالى ولكنه ليس سوءا من العيار الثقيل.

وفي الآية هنا عمق مرتبط بترسيخ مفاهيم الحقّ والباطل كأمور ثابتة لا نسبية فيها في أصلها، لأنَّ أساس خلقه تعالى لنا بحرية إرادة ليجازينا على ما نختاره، مَبْنِيٌّ على ما جعله تعالى فينا من قابلية على تمييز الحقّ من الباطل، وسيحاسبنا سبحانه على السوء الذي نفعله ونحن نعلم بسوئه، طَبْعاً بعدما نتمرّس على السوء لن نَعُودَ نراه سيئا.

هل الخير مثل الشرّ؟ وهل الحقّ مثل الباطل؟ هل تقبل مني أذيتك وتساويها مع إسعادي لك؟ ونفس المفهوم عن الفرق بين المؤمن والفاسق، وهل من المعقول أن يعاملهما تعالى مثل بعض فَيَمُوتَا ولا يَتَجَازَيَا؟ حيث واحد التزم بالحقّ والصلاح، والآخر فعل ما يحلو له من سوء، وكلاهما نتيجتهما الموت بلا حساب ومجازاة؟ أم كلاهما في الآخرة سيجعلهما في الجنّة؟ لا، {لَا يَسْتَوُونَ}، وهذا يعلمه أي إنسان عاقل يميّز بين من يضرّه ويؤذيه، وبين من ينفعه ويسعده.

(أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{19})
لا، ليس الفاسق مُسَاوِياً للمؤمن عنده سبحانه وتعالى:

{أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا اعتقادهم بالحقّ، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، وَقاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، حيث خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، عَمَلِيَّاً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادة نفسّر "عملوا الصالحات" على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إِنَّهُمْ صلّوا وصاموا... وهذا عَمَلِيّاً صحيح، ولكن بالأصل الكَلامُ أَنَّهُمْ قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عُمُوماً وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، حتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دَائِماً أَنَّهُ تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فَيُؤْمِنُونَ به.

هذا الكلام له عمق، حيث لا تُوجَدُ حالة نقول فيها: لست مُقْتَنِعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. لأنَّ هذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت مُحِبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فِعْلاً سيّء" سَيَكُونُ في الحقيقة اخْتِرَاعاً من البشر أَلْصَقُوهُ بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أَمْراً إلهيا.

{فَلَهُمْ جَنَّاتُ}، لهم أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين ومباهج... {الْمَأْوَى}، التي يأوون إليها وَيَذْهَبُونَ إليها، وبضمّ التعابير القرآنية الأخرى عنهم نتذكّر أن الجنة "لهم" يَرِثُونَهَا وَيَمْلِكُونَهَا فَتَصِيرُ لهم... والجنّات، {نُزُلًا}

لهم، حيث بعد رحلتهم في الحياة الدنيا، وفي يوم القيامة، نزلوا أَخِيراً في الجنّة، وفي مقابلهم من نزل في النار بعد رحلته في الامتحان والحساب، والجنات {نُزُلًا} لهم، {بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، بسبب أعمالهم الحسنة.

ضع في بالك دَائِماً الآيات المشابهة لآياتنا هذه، لأنَّ بعض الناس يخترعون تفسيرات لبعض الآيات، ويخترعون مفاهيم دينية من خيالهم، وَيَقُولُونَ إِنَّهُ تعالى حرّ ويفعل ما يشاء، حتى لو آمنت وصلّيت وزكيت "وسكعت وركعت..." ففي النهاية قد يغيّر سبحانه "رأيه" ويرميني في النار لأني "سئيل" وثقيل الدمّ... ويمكن أن يجعل سبحانه في الجنّة كافرا ملحدا لم يُصَلِّ ولم يُزَكِّ لأنه قام بعمل واحد حسن أعجبه تعالى... هذه السخافات نسمعها من بعض الناس، لِذَلِكَ تأتي آيتنا هنا وأشباهها لتخبرنا أن دخول الجنة مشروط بالإيمان والعمل الصالح على المقياس الذي ذكره القرآن، فلا يمكنني أَنْ أَخْتَرِعَ إِيمَاناً وَعَمَلاً صَالِحاً على مزاجي وكأن هذا سيغيّر من الواقع أَيَّ شيء، لا، فهذا لا ينفع.

كما ترى، فسّرت لك "عملوا الصالحات" بتكرار الكلام بشكل يبدو سَخِيفاً قائلا: قاموا بالأعمال الموصوفة بأنها صالحة. وكنت أقصد أن وصف الصلاح للأعمال ليس على مزاجي، بل هناك وصف حقيقي للأشياء، وسبحانه وتعالى جعل ذلك دينه، لأنَّهُ ما يأمرنا بفعله وينهانا عن تركه، إِذْ إِنَّ دينه بالتمام نفس الأمور الموصوفة بأنها صالحة، حيث إِنَّ هناك من يقول إِنَّهُ تعالى إذا أمرنا بأي شيء، فهذا الشيء يصير صَالِحاً مهما كان نوعه، حتى لو كان تقييمنا له أنه سيّء، فإنه يصير صَالِحاً لأنه تعالى أمر به... وهذا مفهوم مخالف تَمَاماً لما يقوله القرآن صَرَاحَةً وَمِرَاراً وَتَكْرَاراً، حيث سبحانه يأمر بالعدل والإحسان و... ويأمر بالصالحات...

لن أطيل عليك أكثر وَأَرْجِعُ إلى الآية هنا التي تقول بأن الجزاء بالجنّة كان على ما عملوه، لأنه سبحانه ليس مِزَاجِيَّاً ولا عَبَثِيَّاً، والإيمان مع العمل الصالح فقط وفقط هو الموصل إلى الجنّة وَحَتْماً بضمانة إلهية.

الآية التالية تعرض الحالة المعاكسة، فَلْنُتَابِعْ:

(وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ{20})

{وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا}، وأمّا الذين خرجوا عن شيء واضح، والكلام هنا عن خروجهم عمّا يعلمون أنّ الدين الإلهي يعاقب عليه، وخرجوا عنه في الأشياء الأساسية كالتوحيد والإيمان بالآخرة... {فَمَأْوَاهُمُ}، حيث سيذهبون ليكونوا، ومسكنهم، {النَّارُ}.

هم يستحقون النار لأنهم فسقوا، وكما ترى إن كان دينه تعالى يأمر فقط بالأمور الصالحة، يكون الفسق عملياً عن دينه تعالى فسقاً عن الأمور الصالحة، وبالتالي القيام بالأعمال الفاسدة، فهل من الحكمة دخول المرتكب للأعمال الفاسدة إلى الجنّة؟ لا، بل مأواه النار.

{كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا}، من النار، {أُعِيدُوا فِيهَا}، لاحظ {فِيهَا} لأنهم لم يخرجوا منها حتى يعيدوهم "إليها"، بل لا يزالون فيها ويحاولون الهرب ولن ينجحوا، ومَن اعتاد التعذيب لن يفكّر في الهرب من مكان يستحيل الهرب منه، وأمّا من لا يتحمّل التعذيب ولا يعتاد عليه، فسيفكّر دائماً بالهرب حتى من مكان يستحيل الهرب منه، وهذه حالة أهل النار.

{وَقِيلَ} للمحاولين الهروب:

{ذُوقُوا}، تحسّسوا واشعروا، {عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ}، كنتم لا تصدّقون بأنها ستحصل وأنها ستصيبكم بالضرر، إلى أين تهربون، لأنها معدّة ومجهّزة خصيصاً لكم، إلى أين تحاولون الهرب ولا يوجد مكان آخر ليستقبلكم!

من مجمل القرآن نفهم أنه لا يحصل هروب فعليٌّ ولكن محاولة هروب وهو التحرّك في الاتجاهات المختلفة حتى يتخلّصوا من المكان الذي هم فيه، ولكن لا مجال للخروج من جهنم وأقصى ما يحصل هو انتقالهم من مكان لآخر فيها، من الحفرة إلى حافتها ثم يسقطون فيها ثانيةً، من وادٍ إلى الجبل ثم يسقطون ثانيةً... فلا يوجد مكان سيشعرون فيه بأن العذاب أخفّ، ولكن عندهم دائماً شعور الحاجة للهرب من هذا المكان التعيس، ونفس المعنى ورد في الآية 22 من سورة الحج {كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ}، ولمزيد من التوسّع في تصوّر

سوء المكان راجع الآيات حول الآية 30 من سورة المرسلات {انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ}، فسَعَةُ الجنّة كسَعَةِ السماوات والأرض، وبالقياس لما نعرفه عن المجرات نتصوّر بناءً على هذه المعطيات أنّ الجنّة كواكب، ويمكننا تصوّر النار ككوكب مشتعلٍ والملائكة تعذّب أصحابه فلا مجال للهرب منه.

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{21})
{وَلَنُذِيقَنَّهُمْ}، سنجعلهم يشعرون ويتحسّسون، {مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى}، من الضرر الأقرب لهم، أي هنا في الدنيا سيذوقون عذاباً، {دُونَ}، أقل من، {الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ}، الذي في نار الآخرة، {لَعَلَّهُمْ}، ومن المفروض ومن المتوقّع منهم إذا تعرّضوا لعيّنة دنيوية من تعذيبه تعالى، {يَرْجِعُونَ}، من الواضح أنّ المقصود رجوعهم عن ضلالهم ليغيّروا اتجاههم باتجاه الإيمان من بعدما يلمسون نماذج عن عذابه سبحانه.

من مختلف آيات القرآن نعلم أنّ البلاءات التي تمرّ علينا في الدنيا، من مرض أو فقر أو فقدان الأمن أو الكوارث... هي عذابات، وهنا تسمّيه الآية بالعذاب الأدنى، الأقرب، لأننا في عالم الدنيا، وهو العالم الأول، العالم القريب، والآخرة هي العالم الآخر، العالم البعيد.

من الآية التالية ستفهم معنى كلمة {لَعَلَّ} بشكل واضح، حيث استعملها القرآن كثيراً ليشير إلى العذاب أو الآيات بأنها كافية لمن يريد أن يؤمن، ويطرحها سبحانه على الناس ومن المفروض ومن المتوقّع أن يؤمنوا {لَعَلَّهُمْ يُؤْمِنُونَ} بناءً على أنها كافية، لا تفهم أنّه تعالى من ناحيته لا يعلم إن كانوا سيؤمنون ويقول: أعرض عليهم الآيات ولا أدري إن كانوا سيؤمنون. لا، ولا تفهم من أمثال الآية 132 من سورة آل عمران أنّه تعالى لم يقرّر بعد ما سيفعل {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}، لا، لأنّ الرحمة من ناحيته تعالى جاهزة لمَن أطاع، ولكن الترجيح من ناحية المكلّف الذي يطيع بشكل جيّد أو لا يستمر على الطاعة...

تطبيق معنى كلمة {لَعَلَّ} هنا تعني: تعريضهم هنا في الدنيا لبعض العذاب من المفروض أن يكون كافياً لهم ليؤمنوا بعذاب الآخرة، ولكنه لم ينفع معهم لأنهم مصرّون مصمّمون على الفسق ولا يرغبون بالتغيّر.

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ{22})
{وَمَنْ أَظْلَمُ}، من هو الشخص الأشد ابتعاداً عن العدل والإنصاف، {مِمَّنْ}، من الشخص الذي، {ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ}، بطريقة أو بأخرى عُرضت عليه الأمور المميّزة المنسوبة له تعالى، {ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا}؟! واعتبرها بلا أهمية واهتمّ بأمور أخرى؟!

لو كان معه حقّ، وكانت الآيات غير كافية، أو كانت ناقصة أو مشوّهة، أو لو كانت غير مقنعة... لكان معه حقّ بالإعراض عنها، ولكنها آيات من الإله العليم الحكيم الخبير البصير، لأنها حتماً واضحة جداً، وهي حتماً أكثر من كافية، ومن المفروض ومن المتوقّع أن يؤمن بها مَن يراها أو يسمعها، فهل يوجد أظلم من هذا المنكر لها؟!

{إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ}، من المرتكبين للأعمال التي يستحقّون عليها العقاب، {مُنتَقِمُونَ}، لن نتركهم بلا عقاب بل سنأخذ حقّنا منهم بسبب إجرامهم.

طبعاً لا ارتباط للانتقام الإلهي بالمشاعر التي ترتبط بنا نحن عندما ننتقم ونتشفّى ويرتاح غضبنا... لأنّ الانتقام هو عموم الإضرار بالآخرين عن تبييت للردّ على ما قاموا به، وحقّه سبحانه علينا أن نؤمن بآياته الواضحة والكثيرة والمتنوّعة، وهناك مَن كفر وأنكر الجزاء الإلهي على فعل السوء، وفعله، لذا ينتقم منه سبحانه ويأخذ حقّه كإله أَمّن لعبده الآيات الواضحة حتى يكون صالحاً، واختار العبد الإجرام، وفعل ما يستحقّ عليه العقاب، وسيأخذ سبحانه من عبده الحقّ فيعاقبه.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ{23})
{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ}، وهو التوراة، {فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ}، لأنّ في ذلك الكتاب مذكورٌ أيضاً حصول اللقاء معه تعالى، وأي كلام غير ذلك يُعَدُّ مراءً، {مِرْيَةٍ}، ككلام تافه أمام حقيقة واضحة.

المرية عموم الكلام الفارغ التافه، من الخلاف على أمر تافه، أو الجدال بشكل تافه مع مَن يرمي الكلام بدون دراسة ولا يفهم بالعقل والمنطق، أو لا يقبل الحق والمنطق فيجادل فيه بدلاً من تقبّله.

هناك لقاء معه تعالى في الآخرة وهو مذكور في كتاب نزل من قبلك بآلاف السنين، وما ينزل عليك الآن من قرآن لا يحمل معلومات جديدة كبدعة أو اختراع عن خبر اللقاء معه تعالى، بل هذه معلومة مدعومة بكتاب قديم جداً.

{وَجَعَلْنَاهُ}، ذلك الكتاب، {هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ}، فيه ما يضع ذرية النبي يعقوب(ع) على الأشياء الصحيحة التي توصلهم للغاية الصحيحة، حيث كان فيه العقيدة والشريعة الإلهية، وكان فيه الكلام عن الآخرة... وأي كلام آخر معارض لكلامه تعالى هو تفاهة وسخافة وهذه ستكون حالتك لو أنكرت الآخرة ولقاءه سبحانه.

سترى من الآية التالية سبب تحديد بني إسرائيل هنا بالهدى من التوراة، لأنهم حملوا دينه تعالى وكانوا دعاة له...

هنا الآية تتوجّه بكلامها إلى النبي محمّد(ع) الذي نزل عليه الكتاب، والذي يتعرّض للاتهام بالفرية على الله تعالى من الكفّار، لأنّ نفس الذي نزل عليه (ع) نزل مثله من آلاف السنين على النبي موسى(ع)، وما بينهما خطّ من الأنبياء والرسل، وأمام هذا الواقع الصلب اتهام النبي محمّد(ع) بالافتراء عليه تعالى على أساس أنّه تعالى لم يقل بأنه سيعيد إحياءنا في الآخرة لمجازاتنا، هو كلام {مِرْيَةٍ}، هو كلام تافهٌ وسخيف.

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ{24})
بمناسبة الحديث عن بني إسرائيل:

{وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ}، من بني إسرائيل، {أَئِمَّةً}، قدوة يقتدي بهم الناس، {يَهْدُونَ}، يضعون مَن يريد أن يؤمن على الأشياء الصحيحة التي توصله للغاية الصحيحة، {بِأَمْرِنَا}، بما يريده سبحانه، {لَمَّا صَبَرُوا}، عندما بقوا يتصرّفون عن وعي ودراسة ولم يفقدوا السيطرة على تصرّفاتهم، {وَكَانُوا بِآيَاتِنَا}، بالأمور المميّزة المنسوبة له تعالى، {يُوقِنُونَ}، حيث لديهم اعتقاد بأنها حقّ وهي فعلاً حقّ ومطابقة للواقع.

عندما صبروا، عندما لم تتحكّم بهم شهواتهم ولا غرائزهم السيئة، عندها جعلهم سبحانه أئمة وجعلهم قدوة للآخرين، كنموذج يكون مرجعاً أساسياً للهداية، مثلما أنت أيها الرسول محمّد تقوم بهداية الناس بهذا القرآن، ولست أوّل شخص يقوم بهذه المهمّة، حيث سبقك النبي موسى أيضاً بكتاب التوراة، وعلى هدى التوراة كان هناك أئمة هداية... وهم الأنبياء والرسل والصالحون...

كتاب القرآن بما فيه من كلام عن الآخرة هو ليس افتراءً عليه تعالى، ولا أنت يا محمّد أوّل مَن ينقل الخبر عن الآخرة، ها هي مجموعة كبيرة مشهورة جداً من الناس "بنو إسرائيل"، ولآلاف السنين، يأتي فيهم أنبياء ورسل ينقلون منه تعالى للناس نفس كلامك يا محمّد.

ضمناً تريك الآية سبب اختياره تعالى لبني إسرائيل ليكونوا أئمّة، واختارت وصفهم بالصبر لأن الذين توجّه السورة كلامها لهم فقدوا صبرهم أمام الأفعال السيئة، ولذلك أنكروا الآخرة...

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ{25})
{إِنَّ رَبَّكَ}، إنّ المسؤول عنك من مستوى إلهي، {هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ}، بين بني إسرائيل، {يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، في زمن القيام من الموت، {فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}، حيث اختلف بنو إسرائيل وصاروا فرقاً وطوائف ومذاهب ومدارس... فلم يبقوا خطّاً واحداً خلف الكتاب الإلهي، ولم يمشوا خلف أئمة الهدى، وصار الباطل مخلوطاً ممتزجاً مع الحق، والحق صار مبهماً، وفي يوم القيامة من الموت، سوف يفصل سبحانه بينهم في الخلافات التي وقعت بينهم، وهي الخلافات التي سبّبوها هم بإدخالهم للباطل في الحقّ.

لاحظ أنّ القرآن لا يعرض أشياء ناقصة، ولا يخفي أي شيء، ويتكلّم معنا سبحانه بكل شفافية، حيث يخبرنا أنّ كتاباً إلهياً نزل من قبل ليهدي الناس، ولكن حصل خلاف بين المنتمين لذلك الكتاب... وهذا لا يشوّه حقيقة الامتداد التاريخي

لدينه تعالى، وخذ علماً أنّه لا مشكلة عنده تعالى فيما فعله بنو إسرائيل باسم الدين الإلهي، لأنّه في يوم القيامة سيحاسبهم سبحانه.

يحضرني الكلام القليل جداً وشبه النادر في التوراة عن جنّة الآخرة ونارها، فالفارق هائل بين كلام القرآن عنهما بشكل متكرر، وبين الاختصار الشديد عنهما في مختلف أسفار التوراة التي كتبوها بهواهم.

(أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ{26})
{أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ}، ألم يصيروا على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة من معرفتهم بما يلي: {كَمْ أَهْلَكْنَا}، كم استنفد سبحانه، كم أمات، {مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ}، من الناس الذين كانوا مقرونين مع بعض، فيعيشون في نفس المكان والزمان، {يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ}، فمَن يسمع هذا الكلام سار في مساكن القرون التي أهلكها سبحانه، والآثار منتشرة هنا وهناك لبيوت وقلاع وقرى خالية لأناس كانوا يعيشون فيها، واختار القرآن منها أبرز نماذج، كقوم عاد وثمود وقوم النبي لوط(ع)... مع العلم أنّ الكوارث أصابت العديدين وأهلكتهم، والآثار على ذلك منتشرة على عموم الأرض... أليس هذا كافياً لهم ليهتدوا؟ لأنّ كلامه تعالى عن عذاب الآخرة للكافرين سبقته نماذج هنا في الدنيا، حيث هناك أقوام سمعتم عن انتهائها، وهناك أماكن رأيتم خرابها، فهذه نماذج ملموسة لكم لتهديكم إلى الإيمان بلقائه ومجازاته سبحانه.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، في مساكن القرون التي أهلكها سبحانه، {لَآيَاتٍ}، لأمور مميّزة، {أَفَلَا يَسْمَعُونَ}، ألا يدخل هذا الكلام إلى وعيهم عبر أذنهم؟ لأنهم يكفرون بكتبه ورسله سبحانه وبناءً عليه يفعلون السوء لأنهم لا يؤمنون بالآخرة وحسابها، وقبلهم كفر أناس وفعلوا السوء فأهلكهم سبحانه وها مساكنهم خربة خالية تشير لما حصل معهم من جزاء إلهي، أفلا يسمعون ما يقوله سبحانه عن هلاك مَن سبقهم؟ لا، لا يسمعونه، حيث إنّ طبلات أذنهم تتحرّك ولكن الكلام لا يدخل إلى قناعتهم.

لاحظ وانتبه أنّنا بضبابية نتعامل أحياناً مع كلامه تعالى على أنه مجرد أخبار وتعليمات لا دليل عليها ولا تبرير، بينما القرآن مشحون بلفت الانتباه للأدلة لكلام الحقّ عنه تعالى وعن أفعاله وقراراته حتى نؤمن بها لأنها حق وهي التي نصطلح عليها بتسميتها بالعقيدة، وبتبريرات للتشريعات والسلوكيات الصالحة، وكما ترى حيث إنها معلومات لفت القرآن انتباهنا لصحّتها، والتشريعات والسلوكيات التي أمرنا بها تعالى اختصرها بوصف صلاحها، وبرّرها سبحانه، فلم يتعامل سبحانه معنا بصلابة القوي الذي يفرض كلامه على الضعيف بدون شرح ولا تبرير.

هنا في السورة ترى نماذج عن ذلك، حيث قيل أنّ الكلام عن الآخرة والجزاء هو افتراء عليه تعالى لأنه سبحانه لم يقله ولن يفعله، فأتى الردّ منه تعالى بأدلة عبر لفت الانتباه لما فعله تعالى بخلقنا هنا وبالتالي يكون خلقنا مرّة ثانية ليس مستحيلاً، وعبر لفت انتباهنا لضرورة مجازاة المجرم، وأنّ هذا الكلام مذكور في كتاب إلهي مشهور وعمره آلاف السنين وليس كلاماً بدعة، ومدعوم بقوم مشهورين كان فيهم رسل منه تعالى على امتداد الزمن، وصولاً إلى الآية هنا بلفت انتباهنا لنماذج أهلكها سبحانه لأنها فعلت السوء كدليل "مصغّر" عن عذاب الآخرة عبر عرض تدخله تعالى للمجازاة لبعض المجرمين هنا في الدنيا.

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاء إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ{27})
إن كانوا لم يقتنعوا بآثار الذين هلكوا:

{أَوَلَمْ يَرَوْا}، ألم تحصل لديهم صورة محدّدة كما نقول بالعامية: ما شافوا، ما التفتوا. {أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ}، نجعله ينتقل، والإشارة إلى جريان الغيوم وهطول المطر، يسوقه تعالى ويسيّره إلى حيث يريد وورد هذا أيضاً في الآية 9 من سورة فاطر {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ}، يسوقه تعالى، {إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ}، إلى الأرض التي لا نبات عليها، {فَنُخْرِجُ بِهِ}، بالماء يخرج، {زَرْعًا}، من الحشائش والبقول والخضار... {تَأْكُلُ مِنْهُ}، تستهلك من الزرع، {أَنْعَامُهُمْ}، الحيوانات الموصوفة بأنها نعمة لهم لأنهم يستفيدون منها، كبقرهم وغنمهم ودجاجهم... {وَأَنْفُسُهُمْ}، أيضاً يأكلون من الزرع ويأكلون البقول والبندورة والخيار... {أَفَلَا

{يُبْصِرُونَ}؟ من بعد رؤيتهم لسوق غيوم الماء وخروج الزرع... ألا يصير عندهم وعي وفهم للصورة التي أمامهم والتي تدل عليه سبحانه؟

الطعام "الحيّ" الذي يأكلونه ألم ينتبهوا لمصدره؟ سبحانه ساق الماء ليتساقط على الأرض ليصير عليها نبات، وأكل الناس منه وأكلت الحيوانات التي يأكلها الناس من الزرع، أفلا يبصرون هذه الآية الربانية وكيف ينكرون إعادتهم إلى الحياة وهم يرون خروج الحياة من الأرض الميتة يتكرّر باستمرار.

تذكّر دائماً أنّ القرآن يفترض بك معرفة معلومات مسبقة بديهية، حيث الآية هنا وأمثالها لا تقصد هطول المطر لمرّة واحدة ومن بعده خروج النبات، مع أنّ هذا يحدث في بعض بقع الصحراء التي من هطلة مطر واحدة تخرج بكثرة أزهارٌ قصيرة الساق لتملأ المكان... ولكن الكلام عن عموم هطول المطر في مواسمه المعتادة، وبسببه تصير حياة نباتيةٌ.

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{28})
{وَيَقُولُونَ}:

{مَتَى هَذَا الْفَتْحُ}؟ بيننا وبينكم خلاف، كحالة مغلقة لا تفتح، حيث لا نحن مقتنعون معكم ولا أنتم تتراجعون عن كلامكم، وتقولون لنا عن يوم سنقوم فيهِ من الموت لنتحاسب... فمتى هذا اليوم الذي يكون لكم فيه الفتح علينا؟ ويحصل ونصير فيه ويظهر أنكم صادقون وأننا كاذبون، {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، بأنه يوجد يوم للقيام من الموت والحساب.

نحن أصلاً لم نصدّقكم حين قلتم عن يوم القيامة، ولكن على كل حال، متى تقولون بأنه سيحصل ليثبت صدقكم؟

لاحظ أنّ هذا السؤال يبدو مهمّاً، ومن الضروري الجواب عليه.

(قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ{29})
{قُلْ}، لهم عبر هذا القرآن:

{يَوْمَ الْفَتْحِ}، في الزمن الذي سيتم فتح ما هو مغلق بيننا وبينكم من خلاف حول يوم القيامة، في ذلك اليوم، {لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ}، عندما يرى المنكرون يوم القيامة حتماً سيؤمنون به وسيتبين أنكم كنتم صادقين، ولكن لن ينفعهم الإيمان حينها، {وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ}، لن يتم إعطاؤهم أي مهلة انتظار، وبعد يوم القيامة يأتي الحساب، وبعده فوراً إلى النار، فلا عودة إلى دار يُكَلّفون فيها كالتي كانوا فيها في الدنيا، ولا في الآخرة سيقبل سبحانه إيمانهم بها ولا توبتهم ولا محاولة إصلاحهم لسوء ما فعلوه...

لاحظ أنّ الجواب يريك كم هو سخيف وساذج السؤال الذي كان يبدو مهمّاً، متى يوم القيامة إن كنتم صادقين؟ وكمؤمن ترى أنك يجب أن تجيب، وإلا أفحموك، لذا يأتي الجواب الإلهي ليسألهم عن الجدوى والفحوى والمعنى من سؤالهم، ما الفائدة منه ومن الجواب عليه؟ حين يأتي ذلك اليوم ستؤمنون به، ولكن حينها لن ينفعكم إيمانكم، لأنكم صرتم في حالة الحساب والمجازاة، ولن يحصل معكم أي تأخير أو تأجيل ولن تحصلوا على فرصة ثانية.

(فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ{30})
{فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ}، اعتبرهم بلا أهمية أيها النبي(ع)، لأنهم يتهمونك بالفرية بنسبة كلام له تعالى لم يقله عن الآخرة... حتى بعدما يسمعون الكلام الإلهي المناسب عن ذلك في هذه السورة لن يؤمنوا، لذا أدر ظهرك لهذه النوعية من الناس ولهذه النوعية من الكلام، {وَانْتَظِرْ}، لأنّ يوم الفتح سيأتي وكن مرتاحاً نفسياً ومعنوياً، {إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ}، لأنهم غصباً عنهم سيمرّ عليهم الزمن ويصيرون في يوم القيامة.

هم لا يؤمنون به ويريدون أن يروه حتى يؤمنوا، ومستعجلون لرؤيته حتى يؤمنوا به، وهم أصلاً خلقهم سبحانه ويسيطر على مصيرهم، حتى لو قرّروا ألّا ينتظروا يوم القيامة، فهم غصباً عنهم في حالة انتظار حصوله.

سورة الأحزاب (33) ص 418
تتمحور السورة حول النهي عن إطاعة غيره تعالى، وَهي أمر إلهي لنا بالالتزام بدينه تعالى مُتَخَطِّينَ تعليقات الكافرين والمنافقين المعارضين لدينه تعالى المتمسكين بتشريعات وعادات فاسدة، والمضادين للمؤمنين وَالْمَانِعِينَ لتطبيق التشريعات الحقّ.

عَرَضَتْ السورة أبرز نَمَاذِجَ وَاضِحَةٍ عن تشريعات إلهية تتعارض مع عادات وثقافات المجتمعات التي نزل القرآن في زمنها كنموذج، وتنتقل منها لترينا نَمُوذَجاً مما فعله ويفعله الكافرون والمنافقون الذين يحرجوننا بتعليقاتهم ومعارضتهم لتشريعاته تعالى، والذين بسببهم نَبْتَعِدُ عن تطبيق تشريعه تعالى، حيث تعرض السورة حالة معاداة الكفّار للمتدينين لمنعهم من تطبيق الشريعة الصالحة لدرجة قتلهم لإنهاء دينهم، وتعرض ما فعله المنافقون من تخاذل في الدفاع عن تدينهم لأنهم أَصْلاً لا يرغبون بتطبيق شرعه تعالى.

عَرَّجَتْ على نموذج الدائرة القريبة من الحاكم باسمه تعالى "بعض أزواج النبي"، اللَّوَاتِي يَضْغَطْنَ عليه لِيَسْتَفِدْنَ مَادِّيّاً مما تحت سلطته من أموال ليخالف دينه تعالى على حساب راحتهن المالية في مصاريفهن الحياتية. وَمُضَافاً لذلك أكملت السورة معهن لتبيّن لهن السلوكيات الدينية المفترضة لزوجة الحاكم باسمه تعالى، بعكس الصورة السائدة في أعراف مجتمعاتهن المتأثرة بعادات وتقاليد غير متوافقة مع دينه تعالى "مع الحقّ"...

ثم دخلت على نموذج تطبيقي بارز لأمر حلال امْتَنَعَ النبي(ع) عن تطبيقه تَحَاشِياً لتعليقات الكافرين والمنافقين في مجتمعه، وهو الزواج من طليقة ابنه بالتبني...

بَعْدَهُ عرضت سُلُوكِيَّاتٍ عَامَّةً وَمُتَعَلِّقَةً بالنبي(ع) لترفع الحرج عن النبي والمؤمنين في تطبيقهم لتشريعاته تعالى...

عَرَّجَتْ باختصار على العواقب في الآخرة على معارضة أو تطبيق دينه تعالى...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{1})
{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}، يا أيها الشخص الذي يصله نبأ، يصله خبر غير منتشر علمه بين الناس، وسياق الكلام عن وصول النبأ منه سبحانه إلى النبي محمّد(ع)، {اتَّقِ اللَّهَ}، وسياق كلام السورة عن تجنّب مخالفة كلامه تعالى وبالتالي تجنّب غضبه وعقابه فلا تعصه وأطعه سبحانه، {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ}، لا تنفّذ ما يقوله المنكرون للدين الإلهي، ولا تطع {الْمُنَافِقِينَ}، الذين يظهرون التدين ولكنهم في الحقيقة من داخلهم كافرون به، {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا}، ما أنت عليه من تشريع وسلوكيات صدر عن العليم، فهل هم أعلم منه تعالى لتتبعهم؟ وصفه تعالى بالعليم يشير إلى علمه بالحقّ الصحيح وبما هو أنسب، وللتقريب لديك طبيب درس سنينَ طويلة من تراكمات تجارب علمية لأطباء عبر التاريخ... ولديك مدّعٍ للعلم بالتشخيص والدواء قرأ كلمتين في كتاب طبّ أعشاب لم تُجْرَ عليه دراسات لأنها مجرد ادعاءات أكثرها تخرصات تخريفات، فأيهما أعلم لتسمع كلامه؟ وهنا تلفت السورة انتباهنا لعلمه تعالى حين يشرّع، وإلى علم المخلوقات التي تشرّع، فتجنّب مخالفة كلام العليم وإلا ستكون مطيعا لجهلة.

{وَكَانَ حَكِيمًا}، ما يقوله تعالى لك هو ضبط الأمور على المطلوب بالصواب، لا ينبع عن عبث ولا للتسلية، أمّا غيره تعالى فلن يكون حكيما من مستوى إلهي فمن البديهي أن تطيع الحكيم وتترك طاعة غيره.

هذا هو موضوع السورة، وهو تنبيه للنبي(ع) كنموذج عن تنبيه عامّة المؤمنين، بأن لا يتركوا شرع الله تعالى في بعض أمورهم بسبب ضغط ومعارضة الكافرين والمنافقين المعلّقين بشكل سلبي على بعض تشريعاته تعالى.

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً{2})

{وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}، ما يصلك بلا كلام مباشر من المسؤول عنك من مستوى إلهي سبحانه، كن عليه، افعل مثلما أوحينا إليك، {إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}، إن صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" سبحانه لديه كل أخبار أعمالكم فأنتم تحت المراقبة من مستوى إلهي.

كأول مؤمن بدينه تعالى لأنك أول من يصله الكلام الإلهي، وكنموذج عن المؤمنين الآخرين، عليك بالالتزام بما يصلك منه تعالى. كلام السورة عن مقابلة بين كلام الله الإله التشريعي وبين كلام الكافرين والمنافقين التشريعي، فأيهما تطيع؟

الوحي هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خيرا أم شرّا، وبناء عليه كلّ أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وحيا لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وترى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}، وحتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...}.

ينطبق فعل الوحي على أي كائن كان "إنساناً حيواناً مَلَكاً أو جنّاً" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم.

طرق فعل الوحي أنواعه متعددة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}. ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}، وما ورد في الآيتين 193 و 194 من سورة الشعراء {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ}. أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ...}، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل كما هو مشهور في تراثنا الديني. ووحي عبر إصداره تعالى صوتا في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، مضافا لها الآية 13 من سورة طه {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}، فكلامه تعالى معه(ع) وحي لأن الكلام ليس صادرا مباشرة منه تعالى حيث إنّ هذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، فيصير وصف الحالة أن كلامي يصلك وحيا.

هناك وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} ففي النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

الوحي يصدق على وحي الخير والشر، فالشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا...} ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... والوسوسة في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيرا أو شرا فهو وحي.

(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً{3})
{وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}، واعتمد على صاحب الاسم المحدّد المميز "الله" لتسيير أمورك كما يجب. طاعته تعالى تجعلك على تشريعات تسيّر أمورك كما يجب على الأحسن، تطبيقك لأوامره تعالى لن ينتج عنه أمور سيئة، {وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا}، إن أردت أن تسير أمورك كما يجب على الأحسن، يكفيك لذلك الاعتماد عليه تعالى عبر الاعتماد على تشريعاته.

ضع في بالك دائما أن القرآن لا يمنعك من التوكّل على عمّالك لإنجاز العمل، أو على صديقك لفعل شيء لك... حيث إنّ الدارج بيننا كمسلمين أننا لا نحبّذ قول: اتكلت عليك. لنعترض ونقول: اتكّل على الله تعالى. وكأني كفرت حين قلت: اتكلت عليك! أعتذر إن خرجت عن موضوع الآية ولكن أكثر الناس تفسّر هذه الآيات بهذه الطريقة الملتوية، هم بالأصل لو كانوا متدينين حقيقيين، لعلموا أن من واجبهم الالتزام بما توكّل به الناس عليهم، حيث توكّلت عليّ ببناء بيتك، وتوكّلت على ذاك بإدارة مالك، وتوكّلت على تلك بتدريس أولادك... فأنت اعتمدت عليهم لتسيير هذه الأمور على

الأحسن كما هو مطلوب، وهم مسؤولون عمّا توكّلوا به، ويمكنك أن تقول: توكّلت عليهم. لأنك لم تتوكّل عليهم لفعل شيء ربّاني إلهي! بل لفعل شيء يخصّك ويخصّهم من مستوى بشري.

(مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ{4})

{مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ}، لكل رجل يوجد قلب واحد في داخله، لديه أساس واحد للتفكير والنفسية، ولا يوجد شيء اسمه مركزان للتفكير والنفسية في نفس الشخص، فإمّا أن يكون "قلبك" تفكيرك ونفسيتك متماشية مع تقواه تعالى فتطيعه وتسير على تشريعه، أو أنت كافر أو منافق.

السورة تنبّه المؤمنين من ترك دينه تعالى لإطاعة الكافرين والمنافقين، لأنها حالة تخرجهم عن الوصف بالإيمان، لأن الإيمان نابع من القلب، من أساس الفكر والنفسية، فإما أن يكون هذا الأساس مطيعا له تعالى أو مطيعا للكافرين والمنافقين، وحين صمّمنا سبحانه "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" لم يجعل فينا أساسين للفكر والنفسية حتى أصف نفسي بأني في هذه وتلك التشريعات مؤمن بقلبي المؤمن، وفي الأخرى وغيرها مطيعٌ للكافرين بقلبي الآخر، لا، هذا غير صحيح، بل لدينا قلب واحد.

تذكّر دائما أن كلمة قلب في عموم اللغات تشير لأساس الشيء، وفي عموم اللغات وفي اللغة العربية وفي استعمال القرآن كلمة القلب كوصف حالة للإنسان تشير إلى أساس الفكر والنفسية، إلا إذا كان الكلام عن تشريح الإنسان فعندها ستشير الكلمة إلى شيء أساسي في جسدنا وهو مضخّة الدمّ.

انتبه، الآية لا تنفي وجود حالة انفصام في شخصية أحد ما، فهذا مرض وليس أساسا.

كلمة رجل استعملها القرآن أحيانا في الخطاب معنا مختصراً توجيه الكلام للذكر والأنثى بتوجيهه لمن هو عادة له سيطرة أعلى في المجتمع، لأن واقع حال الغالبية الساحقة من مجتمعاتنا يميل بشكل قوي إلى ذكورية في عموم أشكال السلطة، حتى لو وصلت بعض النساء إلى مراكز مرموقة في الحكومة، فالواقع العمومي للمجتمعات ذكوري، وهذا متعلّق بالخلقة والطباع، وتأييد القرآن لقوامية "بدرجة" للرجال على النساء، لا يعني أن كل الرجال أفضل من كل النساء، ومن البديهي أنه لا يعني أن كل ما يفعله الرجال صحيح.

كلام السورة هنا عن عمومية فرض الآخرين تشريعاتهم على المؤمنين، وغالبا يفعل ذلك الرجال لأنهم عادة لهم السلطة في المجتمعات وفي بيوتهم، ولهذا وجّهت الآية كلامها باستخدام وصفهم كرجال، كقادرين على فرض ما يريدونه على الآخرين.

الجملة تريك أنك لا توصف باتّباع شريعته تعالى، فلا تكون من المنتمين فعلا لدينه تعالى، إلا إذا اتبعت شريعته فعلا، فالقلب "أساس الفكر والنفسية" إمّا مقتنع ومؤمن بعلمه وحكمته تعالى، وإما لا، ونفهم ذلك من أنفسنا نحن متوسطي وضعيفي الإيمان، والمشكلة تصير أكبر إذا كان من له سلطة من هذا النوع، كرئيس أو وزير أو قائد أو عالم دين أو مشرّع... فهؤلاء يدّعون أن الخير والحقّ والصلاح هدفهم، بينما العادات والتقاليد وتشريعات الهوى الفاسد أقوى عندهم ومعتمدة وغالبة على تشريعاته تعالى...

لذلك تبدأ السورة مع نماذج عن تشريعه تعالى لأمور تتعارض مع تشريعات كانت منتشرة في المجتمعات التي نزل في زمنها القرآن، والتي تحرّج المسلمون فيها من تطبيق كلامه تعالى لأن عادات وثقافة مجتمعهم مخالفة لما يقوله تعالى:

{وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ}، يقول الواحد منكم لزوجته مثلا: أنت عليّ كظهر أمي. وهو تعبير كانوا يقصدون به مقاطعة معاشرة الزوجة جنسيا بشكل مؤبّد، فبعد إعلان الرجل أنه من الآن وصاعدا يعتبر زوجته مثل أمّه التي يستحيل أن يقربها "جنسيا"، ويقول الزوج ذلك كعقاب للزوجة فتبقى الزوجة هكذا حتى إذا خطر على بال زوجها طلّقها أو تركها هكذا كما هي... فتقول الآية: لم يجعل الله تعالى زوجتك أمّك لمجرّد أنك قلت لها تعبيرا يشير لذلك، فمثلا تقول لها: أنت حرام عليّ كأمي. ظهرك بطنك... عليّ حرام كما تحرم عليّ أمي... فكل هذا الكلام فارغ ولا يجعل زوجتك كأمّك.

هذه أقوال يقولها الكافرون الذين اخترعوا شريعة فاسدة من رأسهم، ويساندها المنافقون في المجتمع الإسلامي، وهي شريعة مخالفة لشريعته تعالى، وعليك كنبي "كنموذج عن المؤمنين" أن تلتزم بما يقوله سبحانه، ولا يوجد شيء اسمه: مرّة يعجبني ما يقوله الدين الإلهي، ومرّة يعجبني ما يقوله مجتمعي عن الظهار. لا يوجد قلبان في جوفك، فأنت كمؤمن لا يمكن أن يكون وضعك هكذا، فحالة التقلّب هي حالة المنافق أو الكافر، ولهؤلاء قلب واحد وهو قلب منكر لهذا الدين الإلهي.

{وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ}، إذا كنت تدعو أحدا ما بأنه ابنك، تتبنّى شخصا وتشهر وتعلن فتقول عنه إنه ابنك، فهذا لا يجعله ابناً حقيقيا لك، فهذه عقلية الكفار والمنافقين.

{ذَٰلِكُمْ}، الدعاء بالبنوّة لأحد ما عبر القول لأحد ما: يا بني. والقول للزوجة أنها صارت كالأم لزوجها... {قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ}، بما تتفوهون به من الشفاه والحلق واللسان... فهو مجرد لفظ منكم ولن يغّير شيئا من الحقيقة والواقع، فلن تصير والدا لذلك الشخص الذي تناديه: يا بني. ولن تصير زوجتك أمّك.

{وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ}، الصواب الصحيح، وهذا واضح في مقابل قولهم عن الزوجة أنها تصير كالأم وأن الابن بالتبني يصير ولدا حقيقيا. {وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ}، المسلك الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة فسبحانه هو الذي يضعنا عليه، فسبيله تعالى ينفي أي قيمة للظهار والتبنّي وهذا حقّ، فهذا هدى.

كما تلاحظ، كلا التشريعين الجاهليين متشابهان، حيث لن تصير زوجتك أمّك مهما قلت لها، ولن يصير الغريب ابنا حقيقيا لك مهما ناديته، اختارت السورة هذين النموذجين البارزين الباطلين بوضوح من شريعة اخترعها الناس لتتنبّهنا من اتّباع أي شريعة أخرى غير ما يقوله تعالى، وبالنسبة للمنافقين، فهم يدّعون أنهم متدينون بدينه تعالى ولكنهم معارضون للتشريعات الإلهية التي تخالف تشريعات الكفّار، فيريدون البقاء على ما ورثوه من تشريعات الكفّار، وبناء عليه صدرت تعليقات سلبية من الكافرين والمنافقين على هذا النوع من تشريعاته تعالى والتي تعارض تشريعات مجتمعاتهم وعاداتهم.

ضع في بالك أن هذين التشريعين الجاهليين نموذج عن أي شريعة مخالفة لدينه تعالى وتروج بين الناس وتدخل في ثقافتهم وتصير مخالفتها عيبا وحراما بينهم، فحتى لو لم يرثوا تشريعاتهم وعاداتهم من كافرين، فهي نفاق ظهر على شكل تشريعات وعادات معارضة للحقّ الذي يقوله دينه تعالى.

كلمة قلب بمعناها العامّ عند العرب تعني: أساس الشيء وما هو مركزي فيه. معنوياً تشير لأساس الفكر والنفسية فينا، ولأساس ما يجعل الشيء يعمل... وماديا تشير لعضو أو لجهاز... مركزي في الشيء، كالعضو مضخة الدم، وكقلب المحرّك...

في استعمال العرب قديما وحديثا، ولأسباب عديدة، تجد تساهلا وتراخيا في استعمال الكثير من الكلمات، وتجد مجازا واستعارة وكناية... وكمثال كلمة فؤاد ولبّ وقلب... مترادفة في عموم الاستعمال إلا اللهم حين تدفعهم العادة من مجمل استعمالهم لكلمة ما، أنها لا يناسب استبدالها بكلمة أخرى في سياق ما، وهم لا يستطيعون صياغة سبب صريح لذلك، وهذه حالة عامّة منتشرة في كل اللغات، فتراهم في القواميس يحتارون في إيجاد الفرق بين كلمتين متقاربتين بالمعنى مع أنهم كناطقين بتلك اللغة يعلمون من أنفسهم أنهم في جملة ما لا يرون استبدال كلمة بأخرى مناسبا... وهذا ما تراه منتشراً بكثرة في تفاسير القرآن حيث يفسرون الخوف بالخشية مرة وبالحذر مرة وبالاتقاء مرّة... علما أن لكل كلمة معنى دقيقاً نشعر به ولكن لا نستطيع تحديده بدقة...

سبحانه باستعماله للّغة العربية لتنزيل كلامه مقروءاً، قرآنا، قوّم لغتنا وجعلها أدق، فلا مقارنة بين تقانة استعمال الإله سبحانه للغة من لغات البشر، وبين كل البشر مجتمعين وفوقهم بقية المخلوقات لو كانوا كلّهم ناطقين بنفس اللغة، فالدقة التي يصل إليها المستوى الإلهي فائقة، وبالتالي فقرآنه تعالى فرصة غير عادية لكل اللغات للاستفادة من استعمال الإله سبحانه للّغة العربية مقوّما ومحددا بدقة المعاني...

للأسف ترى الكثيرين يتبجحون بالكلام الدعائي الرنّان عن عظمة القرآن لكونه كلامه تعالى، وفي نفس الوقت في تفاسيرهم ودراستهم للقرآن يجعلون كلام أعرابيّ جاهل يبول على عقبيه، حاكما على كلام القرآن! بدلا من دراسة استعمال القرآن للكلمة واكتشاف الدقة فيها...

على أي حال، في عموم اللغات نستعمل التعبير بالقلب للدلالة المعنوية على مركز الشعور والأحاسيس والفكر في الإنسان، فنقول: أحبك من قلبي. قلبي لم يهتف له. قلبي تعب من شدة الهم. قلبي معمي ولا أستطيع التركيز... ولا أي لغة تقصد بهذا الكلام خصوص العضو الذي يضخ الدم، بل المقصود هو مركز شعورنا وأحاسيسنا وتفكيرنا، وبهذا المعنى استعملها القرآن "معنويا لنا" مثلما يستعملها أهل اللغة كمعنى حقيقي لمركز الشعور "النفسية" والفكر.

ما قاله البعض عن اعتقاد "محمد" بأن عضلة القلب هي الفاعل بدل الدماغ الذي في الجمجمة، وأنه "محمد" يعتقد أن عضو القلب مسؤول عن الفكر والمشاعر، ولذلك في الكتاب الذي ألّفه وادّعى أنه نازل عليه من الإله، استعمل كلمة قلب بدلا من الدماغ، بكلمة واحدة لهذه النوعية من فطاحل النوابغ، أكرهكم من كل دماغي، أو أكرهكم من العضو المسؤول عن انتاج مشاعر الكره والذي تحدّدوه أنتم، فأكرهكم من تفاعل كيميائي لهرمونات جسمي... فهل هذا ما يجب أن يقوله القرآن لو كان نازلا من عند الإله وليس من تأليف محمّد؟! أم التعبير العربي عن ذلك: أكرهكم من صميم قلبي. فهذه هي لغتنا وهكذا نفهم الكلام، وسبحانه قوّمها وحدّدها فصاغها بتقانة من مستوى إلهي، فطالما هناك كلمة عربية تفيد المعنى المطلوب بدقة أعلى من كلمة أخرى، وسنفهمها، فسبحانه استعملها، ونحن البشر مع مجموع المخلوقات كلّهم مجتمعين مع بعض فلا قدرة إحصائية لنا على إحضار كل الكلمات في لحظة واحدة لاختيار الأنسب منها، وحتى محمّد ابن عبد الله ذات نفسه ليس له معرفة بكل الكلمات التي استعملها القرآن، فهناك كلمات اختصاصية لا يعرفها إلا المتعاطون بها، ككلمة سندس واستبرق ومرجان ولؤلؤ وسفر ودسر ورحيق وكوب وكأس... فبعض هذه الأشياء لم يرها (ع) في حياته... ومن المحسوم لدينا أنه تعالى علّم رسوله معاني أمثال هذه الكلمات الغريبة عن محيطة، ولكن للأسف نشطح بالكلام غافلين عن نتائجه السلبية، فنمدح رسولنا على أنه أبلغ العرب وأشجع العرب وأفهمهم بالطب والزراعة والعسكر والإدارة... لنبالغ ونبالغ حتى نقع في المحذور، ونعطي للآخرين حججا لتكذيب كلامه تعالى، فمحمّد البليغ بل أبلغ العرب بحسب قولنا، استفادوا منها ليماروا ويجحدوا ما هو واضح بالأدلة على إلهية مصدر هذا القرآن ليقولوا إنّ محمدا ألّف القرآن!

(ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{5})
{ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ}، هؤلاء الأشخاص الذين تقولون لهم: يا بُنَيَّ. وهم ليسوا أولادكم، أشهروا وأعلنوا بالكلام عنهم لآبائهم ونادوهم: يا ابن فلان، نسبة لأبيهم الحقيقي. {هُوَ}، هذا الدعاء للولد باسم أبيه الحقيقي، {أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ}، فحقّ الوالد أن تنسب له ولده وهذا ما له بالضبط كحقّ وسبحانه يراه كذلك، وسبحانه يؤيّد ذلك.

{فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ}، إذا لم تعلموا من هو والد هذا الشخص "الذي تبنيتموه"، ولم تستطيعوا مناداته باسم أبيه لأنكم لا تعرفون اسم أبيه، {فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ}، ليس بالضرورة أن تنادوه باسم أبيه، ولن تنقص قيمته إن لم تعرفوا اسم أبيه، فهو على كل حال أخ لكم في الدين، وأنتم وهم متشاركون بشكل متساوٍ بدين واحد بلا فرق بينكم، كلكم تدينون لله تعالى ولرسوله(ع)، وكلكم عليكم نفس التبعات كمسلمين له تعالى، {وَمَوَالِيكُمْ}، يوالي لكم كتابع لكم، كخادم، أو عبد، أو موظّف دائم الوظيفة كخادم، أو تعاملوه كأنه ابنكم فيكون تابِعاً لكم مثلما أولادكم تابعون لكم بالعناية بهم... وهو موصوف بأي وصف من نظرتكم له ولكنه ليس ابناً حقيقيا لكم.

{وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ}، لا مشكلة عليكم فيما أخطأتم به، فعلتموه وأنتم لا تدرون بأنه غير صحيح ولا سليم، حيث بعض الناس ينجرفون مع الموجة الدارجة ولا يفكرون مرتين بالموضوع، ويسمعون الآخرين ينسبون ولدا لغير أبيه ويمشون معهم في التسمية... وبعض الناس يكونون شجّعوا على إلحاق الولد بغير أبيه حتى يفرح قلب من تبناه، أو حتى يضمنوا حقوقا للولد ممن تبناه... حيث الآية تشير إلى وجود نوايا حسنة عند بعض من شارك في نسب الولد لمن تبناه، فهذا لن يتحاسب على خطئه، طبعا من بعدما يعلم بالحرمة وتبريرها سيتحاسب إن لم يَنْتَهِ.

{وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ}، مَا فَعَلْتُمُوهُ وفي أساس فكركم ونفسيتكم تقصدون مخالفة الحقّ، عندها يكون عليكم جناح، وتكونون في مشكلة، من بعدما علمتم أن النسبة لغير الأب الحقيقي سيئة وممنوعة في دينه تعالى، ونسبتم ولدا لغير أبيه، فأنتم في مشكلة.

{وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً}، يتجاوز سبحانه عن الأخطاء وليس صلباً قاسياً لئيماً... يحاسب حتى الذي لم يقصد الخطأ، أو يجمد على موقفه ليحاسب من أخطأ حتى لو تاب، لا.

{وَكَانَ}، {رَحِيماً}، لديه تعالى عناية خاصّة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، أمّا الآخرون فلا مغفرة لهم.

تلاحظ كلام القرآن هنا عن شيء ممنوع، حتى لو حصل بالخطأ، وهنا بالنسبة لما تتحدث عنه الآية، حتى لو كنت لا تعلم بأنه ممنوع نسبة ولد لغير أبيه، ونسبته، حتى لو كنت لا تعلم، وقع الخطأ، ومن القرآن فهمنا أن المغفرة على هذا الخطأ فقط للمؤمنين، وهذا مفهوم غير متعارف عليه بيننا، وما تظنّه تحصيل حاصل من إلغائه تعالى العقاب على شيء لم تعلم بأنه ممنوع، صار تحصيل حاصل بعدما أخبرنا تعالى أنه سيغفره لأنه رحيم، وبالرحمة الخاصة بالمؤمنين غفر الخطأ لهم، أمّا الكافر، فحتى لو لم يكن يعلم بأن ما يفعله خطأ، وفعله، فهو لن ينال مغفرة عليه، بل سيتحاسب عليه، لأنه يتحاسب بالنظر لكامل تفعيل القدرة التي فينا لتمييز الحقّ من الباطل، فلو اتبع سلامة قلبه لعلم الحقّ من الباطل والصحّ من الخطأ، وهذا المعنى منتشر في القرآن، وتراه مرتبطاً بصفتي: غفور رحيم.

جميع الخلق أصلا مشمولون بالرحمة الإلهية، إلى أن هم يقرّروا الخروج من تحتها بإرادتهم، ونتيجة لذلك سيتحاسبون على كل خطأ فعلوه مهما كان نوعه حتى لو لم يكن مقصوداً، بينما الراغبون بالبقاء تحت رحمته تعالى، يحاولون أن يكونوا صالحين، ويستغفرون... فهؤلاء يغفر سبحانه لهم...

بقي شيء، القرآن لم يمنع تبنّي الأولاد، ولم يمنع توريثهم "من الثلث أو النصف، أو حتى كل الميراث إن وافق بقية الورثة"، ولم يمنع من العناية بهم... إنما منع نسبتهم لغير أهلهم ومنع اعتبارهم أولاداً حقيقيين، ويحقّ لهم الزواج من بنات الذي تبناهم وبالعكس، وستأتيك في السورة حالة زواج الرسول(ع) من طليقة "ابنه" بالتبني زيد.

يعني ما هو دارج في بعض الفتاوى من حرمة التبني ليس دقيقاً، وسترى ذلك في كلام الآية التالية بكلامها عن فعل المعروف مع الأولياء، حيث الحرمة فقط في نسبة الولد أو البنت لغير أهلهم، ويمكن تربيتهم والعناية بهم وتوريثهم... ولكن يبقون من الأجانب من ناحية الستر باللباس ومن ناحية الزواج منهم، وعادة الناس يلجؤون في هكذا ظروف لعقد زواج يسبّب التحريم مؤبداً، فلنقل أَنَّكَ تبنيت ولداً، حين يصير مميزاً لا يحق له رؤية زوجتك بلا حجاب، وتعقد له على ابنتك وتطلقه فوراً، وهكذا يحرم على زوجتك مؤبداً، ويصير بإمكانها التعامل معه مثلما تتعامل مع أولادها... أو تبنيت بنتاً وتعقد لها على ابنك وتطلقها فوراً، وتحرم عليك مؤبداً ويمكنك معاملتها كما تعامل بناتك... وهذا مثال من عدة أمثلة تسبّب الحرمة مؤبداً لتسهيل التعايش مع ولد أو بنت بالتبني.

(النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفاً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً{6})
{النَّبِيُّ}، الموصوف بأنه يصله النبأ، والكلام هنا عن محمّد(ع)، {أَوْلَى}، له الأولية، الأحقيّة، له أفضلية، {بِالْمُؤْمِنِينَ}، بالمعتقدين بهذا الدين، {مِنْ أَنْفُسِهِمْ}، فإن كان من البديهي أَنَّنِي يمكنني التصرّف بنفسي بما أراه مناسباً، فالنبي(ع) أولى منّي بنفسي، فإن قال (ع) لي أن أفعل شيئاً ما، ولم يكن لي خاطر بفعله، فيجب عليّ فعل ما قاله النبي(ع).

ننتبه، فهذه التبعية واضحة لأن النبي (ع) سيأمرني بما يتناسب مع أوامره تعالى، بالقتال أو ترك القتال، بالزكاة، بالأمر بالمعروف، بإعطاء الحقّ للناس... حيث الآية لا تتحدّث عن تبعية خارج ما هو معروف من ولاية النبي "كنبي" وليس كمحمّد الشخص، والكلام ليس عن ولايته عليّ في أموري الخاصة التي منحني سبحانه حرية فيها، بل عن كلامه معي انطلاقاً من كونه نبياً يتواصل معه الإله سبحانه، وسياق الكلام السابق والتالي في السورة عن أمره (ع) لي بمخالفة تشريعات وعادات وسلوكيات لا يرضى عنها تعالى.

{وَأَزْوَاجُهُ}، زوجات النبي(ع)، {أُمَّهَاتُهُمْ}، في مقابل منعكم من ادعاء زوجتكم كأم لتحرم عليكم... هنا نخبركم بأمر إلهي أن تعتبروا زوجات النبي(ع) كأمهاتكم في الحرمة، وسترى في السورة حرمة الزواج منهن بعد وفاة النبي(ع)، ومن جهة ثانية هُنَّ أمهات في الاحترام.

بعد تحديد حكم الشريعة الإلهية في موضوع التبني والظهار، عطفاً جاء تحديد موقع النبي(ع) وزوجاته في المجتمع الإسلامي، بأن ما يأمر به (ع) يسري على جميع المسلمين، فهو كالأب بالنسبة لهم علماً أن الآية لم تستعمل هذا التعبير ولم يحبّذه تعالى، وزوجات النبي(ع) يجب أن تتعاملوا معهن على أساس أنهن بمرتبة أمهاتكم، فإن تعامل أحد من المسلمين مع زوجة من زوجات النبي(ع) فعليه أن يضع في فكره أنها بمنزلة أمّه، فلا يفكّر فيها نهائياً من النواحي الأخرى...

{وَأُولُوا الْأَرْحَامِ}، المشتركون بالعلاقة الرحمية، الأقارب بالنسب، {بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ}، فالقريب أولى بقريبه، وله الأحقية والأفضلية بقريبه، فالوالد أولى بولده والأخ أولى بأخيه، والجدّ والعمّ والخال أولى بأقاربهم... وهذه الأولوية منصوص عليها، {فِي كِتَابِ اللَّهِ}، مسجّلة عنده تعالى كتشريع، فهي إلزامية علينا، وأولو الأرحام لهم الأولوية على بعضهم، {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ}، صحيح أن المؤمنين إخوة، ولكن في تشريعه تعالى القريب بالنسب له أولوية على قريبه أكثر من بقية المؤمنين، وفي حالة المهاجر الذي ليس له أرحام في مهجره، فالحكم الإلهي لا يتغيّر ويبقى أقرباؤه لهم الأولوية عن غيرهم إن صار تواصل معهم.

الأرحام مثلما لهم الأفضلية بالحصول على الخير منك، من مساعدة أو توظيف أو دعم أو ضيافة... أو من ميراثك... كذلك هم أولى بردّك عن الشرّ، ويتحملون من مسؤولية أفعالك السيئة، وعليهم دفع الديّات وردّ المظالم وحقوق الناس... وهم أولى بعقابك... وهذه تفاصيل معروفة في المجتمعات الإسلامية، وتنبّه الآية الأرحام إلى أن بقيّة المؤمنين مهما كان موقعهم ومكانتهم فهم بعد أولوية الأرحام، وإن كان موضوع الحديث عن مهاجر هاجر مع أناس من أهل بلده ولكنهم ليسوا من أرحامه، فلا أولوية لهم عليه لمجرد أنه مهاجر معهم، ولا أولوية عليه للمؤمنين الذين استضافوه حيث هاجر، بل تبقى الأولوية بالدرجة الأولى لأرحامه.

مخالفة ما سبق ممنوعة، {إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ}، إلى الذين أنتم ولاة عليهم، لديكم ولاية عليهم "كالخدم، كالعبيد، أو كالذين ولدوا كخدم عندكم، أو شخص تولّيتم تربيته، أو تولّيتم العناية به..." بشكل من الأشكال تعتبرون لأنفسكم على هؤلاء ولاية على أساس أنهم تابعون لكم، كأنهم أبناؤكم، أو كأنهم أبناء إخوانكم، أو كأنهم من العائلة، أو محسوبون عليكم... فهؤلاء لهم استثناء بالولاية عليهم أن تفعلوا إليهم، {مَعْرُوفاً}، شيئاً متعارف عليه بين المؤمنين العقلاء أنه حسن، وتفعلوا معهم أكثر مما تفعلونه مع الغريب، وأقل أو مشابهاً لما تفعلوه مع القريب، بل الآية تؤكّد على معاملة من تولّيتموهم بشكل مميّز من غير أقربائكم أن تكون ولايتكم عليهم ضمن حدود ما هو متعارف بين الناس المتدينة العاقلة.

قالوا في الكتب كلاماً كثيرا حول الآية، ومما قالوه أن الآية تقصد أن يكتب من إرثه شيئاً لأوليائه الذين بالأصل لا يرثونه، وهذا صحيح يشمله ما تقوله الآية، ولكن الآية أعمّ من ذلك وتشمل كلّ معروف بين المؤمنين العاقلين، كسدّ الديون ودفع الغرامات والديّات...

كما ترى، الكلام هنا عن الولاية عامّ يشير في جوانبه إلى التدخّل في الشؤون الخاصّة للآخرين، في كيفية تصرّفهم بوقتهم، وفي كيفية إنفاقهم لمالهم... وفي تحديد علاقاتهم... وفي دراستهم وتخصّصهم... وفي زواجهم... وأعطت الآية عنواناً عامّاً وتركت التفاصيل للعقلاء بما يتماشى مع العادات المختلفة للمجتمعات.

يعني، ليس ممنوعاً الولاية على الغرباء بالمعروف، وهذا يعني أن التبنّي بمعنى صيران الولد ابناً يبقى ممنوعاً، ولكن الولاية عليه للعناية به ومساعدته بمختلف الشؤون، مسموحة.

{كَانَ ذَلِكَ}، الحكم بفعل المعروف مع الأولياء ومن ضمنهم الذين ترغبون بالعناية بهم كما تعتنون بولد لكم، {فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً}، مكتوب سطراً بعد سطر، مسجّلاً، فهو ليس حكماً نبع الآن، وقررّه تعالى الآن فجأة، فكما في كتابه تعالى في حكمه لنا مسجّل أن الأرحام أولى ببعض، فكذلك فعل المعروف مع الأولياء مسجّل كأمر إلهي.

كما ترى، الآية تعرض بعضاً من تعليماته سبحانه المقوّمة لسلوكياتنا مباشرة بعد عرضها لسلوكيات من عادات وثقافة الكفّار الفاقعة الفجاجة في سوئها، فمقابل ظهار الزوجة واعتبارها كالأم والذي لا معنى له إلا السوء، فليكن اعتبار الأم لزوجات النبي(ع)، كنموذج عن زوجات أي قائد حيث تصير زوجاته معروفات عند الناس بسبب شهرة زوجهن بين الناس، وهكذا يصرن محطّ نظر وانتباه الآخرين، وأحيانا يضطررن للتعامل مع عموم الناس كاستقبالهم في بيت النبي(ع)... وهذا عادة يثير اهتمام الآخرين بهن لتأملهن والتدقيق فيهن وفي تصرفاتهن... وهكذا تنبهنا الآية من الانجرار في هذه المطبات...

مقابل تشريعه تعالى لأولوية الأقارب ببعضهم ولأولوية النبي بالمؤمنين، وفعل المعروف مع الأولياء عموماً، مقابل ذلك لدينا تشريع الكفّار المزاجي بحيث يصير الغريب ولداً لمجرد تبنّيه.

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً{7})
هل أنت أيها النبي محمّد(ع) أوّل من تكلّف بشريعة تنزل عليه وحيا منه تعالى ومأمور بترك أي شريعة أخرى "سيئة" اخترعها الناس؟

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ}، أخذ سبحانه من الأشخاص الذين يصلهم النبأ، والكلام عن الذين يصلهم النبأ منه تعالى، يصلهم منه تعالى خبر غير منتشر علمه بين الناس، {أَخَذْنَا}، {مِيثَاقَهُمْ}، الشيء المؤكّد بشكل شديد، ونتذكّر بداية السورة التي أمرت النبي (ع) "الذي تصله الأنباء منه تعالى" فأمرته بأن يتقي الله تعالى ولا يطع الكافرين والمنافقين في تشريعاتهم... وهذا هو الميثاق، فهو التزام النبي بالشريعة الإلهية.

تذكّر دائماً أن أخذ الميثاق منّا له تعالى هو عرضه تعالى علينا دينه، فلا تتصوّر دائماً حالة الميثاق والعهد كحالة الجلوس على طاولة وتوقيع الاتفاقيات، أو الوقوف أمام أحد ما وإعلان كلام عن ميثاق وعهد، فمعه تعالى ليس هذا ضرورياً، فبما فينا من قدرة لتمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، فهذا يلزمنا بترك الباطل والشرّ، ومجرد وصول كلامه تعالى لنا فإن كفرنا فنحن خارج العهد والميثاق وإلى نهاية حتمية بالعذاب، وإن آمنا صِرْنَا تحت عهد ميثاقي معه تعالى. وهناك حالة مميزة كرّرها القرآن عن رفع جبل فوق بني إسرائيل كعلامة إلهية على إمضاء ميثاق أعلنه بنو إسرائيل حينها بالالتزام بدينه تعالى، وتقرأ ذلك في الآية 154 من سورة النساء {وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ...}، وأمّا بقية حالات الميثاق مع بقية الناس، فترجع إلى الأساس، ترجع إلى ما فينا من قدرة على تمييز الخير من الشرّ، وعرضه تعالى علينا لدينه المتماشي مع الحقّ والصلاح الذي نميّزه، وهكذا نصير تحت شيء شديد لا يتحمّل التهاون به، ويصير وصف الحالة ميثاقاً لمن تعهد باتباع الحقّ. فأنا وأنت تحت ميثاق معه تعالى، فلدينا تعهد شديد له تعالى بالالتزام بدينه.

كما ترى، هذا لا يعني أن من كفر بدينه تعالى لا التزامات عليه لأنه لم يتعهد ولم يواثق، وبالتالي فلا عقاب له، لا، فهذا أساساً حالته سيئة جداً لأنه منكر للحقّ وفاعل للسيئات ورافض للالتزام بكلامه تعالى، وعلى هذا عقاب شديد.

من النبيين عموماً أخذ سبحانه الميثاق، {وَمِنْكَ}، أنت يا محمّد(ع)، {وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} (عليهم السلام)، فمن النبيين كلّهم أخذ سبحانه الميثاق، وبالخصوص يشير سبحانه لمجموعة مميزة من النبيين، وهم أنت وهؤلاء الأطهار الأربعة، {وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ}، منك ومن الأربعة، {مِيثَاقاً}، شيئاً مؤكّداً بشدّة، {غَلِيظاً}، لا لين فيه، فلا تهاون ولا تساهل فيه نهائياً.

إن أنا أخطأت والرسول أخطأ، هناك فرق بين التعامل الإلهي معي وبين التعامل مع الرسول(ع)، فالتعامل معه (ع) سيكون بشكل أغلظ لأنه نبي ورسول، فهو ممثّل له تعالى كخليفة له بالنسبة للآخرين، وبالتالي فالالتزام بكلامه تعالى عليه أشدّ، فالميثاق المعقود معه هو حمل الرسالة الإلهية للناس، فهذا أشدّ أهمية من ميثاقي الشخصي بأن أؤمن.

عملياً ومما نعرفه من القرآن، نفهم الميثاق بأنه فرضاً لو خالف النبي أي معلومة نزلت عليه، فلم يتق الله تعالى في شيء يعلم بسوئه، أو ترك شيئاً يعلم بوجوبه، أو أطاع الكافرين أو المنافقين... فمن القرآن نعلم أن العقاب الإلهي فوري وشديد للنبي بحسب الجرم، فمن التهديدات التي نجدها متفرقة هنا وهناك في القرآن للنبي محمّد(ع) كما ورد في الآية 44 وما بعدها من سورة الحاقّة {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (

46)} ومن عقاب بعض الأنبياء على أشياء تبدو بسيطة في نظرنا كحالة ذي النون كما ورد في الآية 87 من سورة الأنبياء {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}، نعلم أن الميثاق غليظ، فمخالفته عقابها شديد وفوري للأنبياء(ع).

مما هو مشهور بين المسلمين بتسمية هؤلاء العظام الخمسة بأولي العزم، بأصحاب الرسالات، وبأنهم أصحاب كتب إلهية تشريعية، وبأن رسالاتهم كانت عالمية... فميّزتهم الآية عن بقيّة الأنبياء على الأقل لأنهم نزل عليهم كتب إلهية فيها تشريعات حلال وحرام، فهذا نعرفه من سورة الشورى الآية 13 من تميّز هؤلاء الخمسة عن غيرهم من الأنبياء بنزول الشريعة عليهم {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ...}، وعلى كل حال فالميثاق الغليظ من جميع الأنبياء، ويبدو بشكل ما أنه من هؤلاء الخمسة أغلظ ولو بدرجة.

تلاحظ تركيز القرآن الكريم على تسمية النبي عيسى(ع) هكذا: "عيسى ابن مريم". ورد في تاريخ اليهود العديد من الشخصيات المهمة التي تحمل اسم عيسى، وستجد أكثر من عشرة شخصيات بارزة جداً، وكلهم يحملون الاسم عيسى ولكن بعدة تصريفات، فهناك عدة تصريفات للاسم عيسى في اللغة العبرية والآرامية، ومنها: عيسو، يسوع، يشوع، جشوا، يشوا... وكلها بالنسبة لليهود "وللعرب" ترجع في اللغة العربية والعبرية والآرامية... إلى اسم عيسى، "مثل أحمد محمد محمود حمود... فكلها من حمد"، ولهذا السبب وحتى يتميّز ويتحدد النبي الرسول عيسى الحقيقي بالضبط عن هؤلاء، وحتى يتميز عن الأشخاص المزيفين الذين ادعوا أنهم المسيح، يسميه القرآن مع اسم أمه مريم التي ولدته من دون أب، ومضافاً له تكريم السيدة مريم بذكر اسمها مع اسم ولدها المميز لأنها هي كانت مميزة جداً.

إذاً الالتزام بشريعته تعالى أمر لا تهاون فيه، وما يقوله الناس وهو مخالف لشريعته تعالى، وحتى لو كان جزءاً من ثقافتهم وعاداتهم... فيجب مخالفته واتّباع كلامه سبحانه، وبضمانة إلهية صار النبي محمّد(ع) تحت ميثاق غليظ مثله مثل حملة الرسالات من قبله، فلن يخالف كلامه تعالى، وبناء عليه صار له (ع) أولوية على المؤمنين حين يأمرهم بشيء ما، لأنه سيكون مستنداً إلى ما وصله وحياً منه تعالى...

بعبارة أصرح، ما يرد في القرآن من تشريعات مخالفة لعادات وتقاليد وتشريعات الناس، فالقرآن ليس من اختراع النبي محمّد(ع)، وما يقوله لكم من تشريعات فلن تكون من رأيه بل استناداً إلى كلامه تعالى، وهذا ليس شيئاً جديداً، فمن قبل هناك مثله (ع) سلسلة طويلة من الأنبياء عبر آلاف السنين من تاريخ البشرية، وهناك محطات بينهم لخمسة حملوا كتباً إلهية بتشريعات.

(لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً{8})
هذا الميثاق الإلهي المأخوذ من الأنبياء الذين ذكرتهم الآية السابقة:

{لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ}، ليعبّر سبحانه عن إرادته للحصول على جواب منهم، {عَن صِدْقِهِمْ}، وكما ترى السؤال للمساءلة وليس للاستجواب، حيث هنا في هذه السورة وصلنا أمرٌ أن نعتبر النبي محمّداً(ع) أولى منّا بأنفسنا فنطيعه مخالفين العاداتِ والتقاليد والتشريعات... والنبي بينه وبين ربنا سبحانه ميثاقٌ غليظ، وفي يوم القيامة عند محاسبتنا، ومَن صدق في تصرفه واعتقاده فتصرّف على أساس أن النبي (ع) له الأولوية عليه، ولم يطع الكافرين والمنافقين، فسيسأله تعالى عن هذا الصدق، ويجازيه بالحسنات...

{أَعَدَّ}، وجهّز تعالى، {لِلْكَافِرِينَ}، للمنكرين للدين الإلهي، والكلام هنا عن الرافضين لتشريعاته تعالى، {عَذَابًا أَلِيمًا}، ضرراً لا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه، ومِن الواضح أنهم كذّبوا فلم يصدّقوا فكفروا وسيسألهم سبحانه سؤال حساب عن تكذيبهم لرسوله في الشريعة الحقّة التي نقلها لهم، وسيجازيهم سبحانه عذاباً أليماً.

كلمة {سَأَلَ} معناها الأساسي: عامّة التعبير لآخر عن إرادة شيء ما منه. بهذا المعنى تكون مرادفة تقريباً لكلمة "طلب" كما نستعملها، ومن سياق الكلام يتحدّد المطلوب: جوابٌ أو غرضٌ أو فعلٌ أو استعلامٌ أو استفهامٌ أو تعجبٌ... ومن الدارج بيننا استعمال اشتقاق كلمة "مسؤول، مسؤوليتي..." بالمعنى الذي تعرفه، وهذا من تبعات استعمال كلمة

"{سَأَلَ}" على أساس أن هذا الشخص "المسؤول" ستتوجّه له الأسئلة عن شيء ما، والكلمة التي استعملها القرآن لهذا المعنى الدارج لكلمة "مسؤول، مسؤوليتي" هي "وكيل، حفيظ".

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً{9})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الناس الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ}، استحضروا في فكركم ومشاعركم الشيء الجيّد الذي حصلتم عليه من الله تعالى، والكلام عمّا حصلتم عليه منه تعالى بسبب إيمانكم وتطبيقكم لشريعته، {إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ}، حيث جاءكم أناس ملتزمون بتنفيذ عمل عسكري ضدّكم، أناس ملتزمون بقتالكم، {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ}، على الجنود، {رِيحًا}، هواءً قوياً، وأرسلنا على الجنود الأعداء، {وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا}، فلم تحصل عندكم صورة محدّدة لتلك الجنود، ومما نعرفه من القرآن أنَّ سبحانه يرسل الملائكة(ع) الملتزمة بتنفيذ أوامره سبحانه لتنفيذ هذا النوع من المهمّات، فالجنود التي لم يروها كانت من الملائكة(ع) وكان لها هدف محدّد وهو الدفاع عن المؤمنين كما هو واضح من الكلام.

{وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا}، صورة أعمالهم يدركها تعالى ويعي معناها، فسبحانه ليس مثل كاميرا المراقبة التي تسجّل ولا تفهم ما يجري، أو مثلنا حين يشرد ذهننا ولا نعي ما نرى... فسبحانه لم يكن مجرد مراقب يشاهد ما يحصل معكم، لا، بل ببصيرته تعالى رأى حاجتكم للمساعدة فأنعم عليكم بمساعدته...

من بقية السورة ستعرف بأن الآية هنا تتحدّث عن معركة مشهورة في التاريخ الإسلامي، حين حاصر الكفّار مدينة يثرب التي كان فيها الرسول(ع) والمؤمنون معه، وكان عدد الكفّار لا يقلّ عن قرابة العشرة آلاف مقاتل من مختلف قبائل العرب، وبعض المؤرخين قالوا إنهم كانوا قرابة الخمسة عشر ألفاً، وعدد المقاتلين مع النبي(ع) لم يكن يتجاوز الثلاثة آلاف على أكثر تقدير، والأرجح أن عدد المقاتلين الفعليين مع النبي(ع) كان قرابة الألف، بخاصة إن تعمّقت في التفاصيل التاريخية والنثرات المنتشرة هنا وهناك، لوجدت كلاماً عن أسماء مشهورة أبدت التخاذل...

المشهور في التاريخ أن المسلمين حصّنوا المدينة "مدينة يثرب" من كل جهة بما يناسبها، فهنا سدوا الطريق بالرمل، وهناك وضعوا مقاتلين في البيوت، ومن الجهة التي يسكنها اليهود اتفق معهم المسلمون ألّا يسمحوا للكفّار بالعبور من جهتهم... ومن الفسحة الكبيرة لواجهة المدينة، حفر المسلمون خندقاً عريضاً وذلك بإشارة من سلمان الفارسي كما يقولون... وهكذا صارت مدينة يثرب محصّنة من كل النواحي، وحاصرهم الكفّار لمدة تقارب الشهر، وحصلت مناوشات قتالية متفرقة، أشهرها القتال بين علي بن أبي طالب وعمرو بن ودّ... ومرّ الشهر على حالة من الرمي بالنبال والحجارة وبعض الخروقات والمناوشات، والمسلمون ينتظرون الهجوم عليهم من أي نقطة من النقاط العديدة التي يرونها ضعيفة ويمكن اختراقها بسهولة...

أثناء الحصار خانت إحدى قبائل اليهود العهد مع النبي(ع)، وأعلنت أنها ستسمح للكفّار بالمرور من جهتهم للهجوم على المسلمين، وأنها "القبيلة اليهودية" ستهجم على المسلمين مع الكفّار حين يعلنون الهجوم... ولكن الهجوم لم يحصل...

بعد ذلك جاءت ريح قوية ضربت معسكر الكفّار، فملّوا من الحصار ومن الريح القوية وغبارها ومن البرد ليلاً... وانسحبوا فجأة! ومن دون أي بوادر على الانسحاب! حتى إنّ المسلمين بقوا لعدّة أيام ينتظرون الهجوم! لأنهم ظنّوا أن الكفّار غيّروا خطّتهم فانسحبوا وهم يحضّرون لهجوم مفاجئ في أي لحظة من أي نقطة!

هنا الآيات تذكّر المؤمنين بهذه النعمة الإلهية التي ردّت عنهم عشرة آلاف مقاتل، وتخبرهم بأنه هو تعالى أرسل الريح وأرسل الملائكة(ع) لتخيف الأعداء... {وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا}.

لأنكم آمنتم وهذا يعني أنكم التزمتم بكلامه تعالى، وبخصوص محور السورة هنا فأنتم التزمتم بتطبيق تشريعه تعالى ولذلك حصلتم على عنايته تعالى، وأبرز نموذج عن ذلك ما حصل معكم حين اجتمعت الأحزاب ضدّكم وتقريباً فقدتم الأمل من النجاة... ومن جهة ثانية فما معنى تركيكم لشرعه تعالى في بعض الأمور بسبب تعليقات الكفّار السلبية على شرعكم لأنه مخالف لعاداتهم وتقاليدهم وتشريعاتهم الظالمة؟ هم أصلاً أعداء لكم! ويريدون قتلكم كرهاً بدينكم!

من الآية التالية وما بعدها سترى ما فعله المنافقون من داخل المجتمع الإسلامي، وتخاذلهم، فهل تعليقات هذه النوعية من الناس على شريعته تعالى تستحق أن تسبب لكم تركها! هل أصلاً هم موضع ثقة لمصلحتكم لتعتنوا بتعليقاتهم على التشريعات؟ أم فعلاً يهتمون بما فيه مصلحتكم فيطرحون تشريعاتهم بدلاً من تشريعاته تعالى على أساس أنها أفضل لكم؟

(إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا{10})
{إِذْ جَاءُوكُم}، الجنود، {مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ}، جاءوا من الجهتين للمدينة التي أنتم فيها، من واجهة المدينة حيث الخندق ومن الخلف حين انقلبت القبيلة اليهودية "قريظة" ضد المسلمين واتفقوا مع الكفّار للهجوم على المسلمين من الخلف، {وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ}، حين علم المسلمون بالاتفاق بين يهود بني قريظة والكفّار... لم تثبت ولم تركّز عندهم القدرة على وعي وفهم الصورة، فقدوا التركيز وصاروا لا يفهمون ما يرونه، وشرد ذهنهم، وهذا الزيغان ناتج من شدّة الرعب والخوف، وهذه حالة سببها هبوط الضغط أو ارتفاعه ودقّات غير منتظمة للقلب، وهبوط السكري أو ارتفاعه، واختلال إفراز الهرمونات... {وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ}، وهذا تعبير وصفي لحالة الشعور بفقدان القدرة على التنفس ولا على بلع الريق من شدّة تصلب البلعوم والحنجرة.

{وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا}، استناداً للمعلومات التي لديكم عن حالتكم العسكرية المزرية، حيث تعتقدون بالله تعالى اعتقادات غير جيّدة...! تظنون أنه تعالى ترككم، خذلكم...

كما تعلم من التاريخ، مخطّط خيانة اليهود لم يتم، لأن الكفّار فجأة انسحبوا من دون توصيل سابق إنذار لليهود، والآية هنا تعرض الفترة التي علم فيها المسلمون بأنهم سيتعرضون للهجوم من ناحيتين وهم بالكاد يقدرون على مواجهة جبهة واحدة.

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً{11})
{هُنَالِكَ}، في ذلك الموقف الصعب، {ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ}، أصاب المعتقدين بهذا الدين الإلهي شيء من المحتمل أن يغيّرهم، امتحانٌ اختبارٌ، {وَزُلْزِلُوا}، جرى تحريك ثباتهم، {زِلْزَالًا شَدِيدًا}، تحريكاً "معنوياً" قوياً جداً، وهذا من شدة الرعب من عشرة آلاف مقاتل مع قبيلة من اليهود خانتهم من الخلف حيث لا تحصينات لحماية المسلمين والطرفان يريدون قتلهم بلا رحمة، حاصروهم، فتعرّض إيمان المسلمين لزلزال، لاهتزاز شديد.

(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً{12})
صرنا أمام حالة من حصار الكافرين للمسلمين من الخارج، وتنتقل السورة للمنافقين في الداخل:

{وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ}، الأشخاص الذين أظهروا الإيمان وهم من داخلهم ليسوا مؤمنين، {وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}، قلبهم أي أساس فكرهم ونفسيتهم مريض غير سليم، ففيه خلل يجعلهم يظنون به تعالى سوءاً... وكلا النوعين من الناس المنافقون وذوو القلوب المريضة يقولون:

{مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ}، قالوا لنا بأننا سننتصر على الكفار، ولكن هذا ليس {إِلَّا غُرُورًا}، أغرونا بالوعود الكاذبة، جعلونا نطمع بالانتصارات علماً أنها لن تحدث، وهذا واضح جداً مما حولنا من محاصرة عشرة آلاف مقاتل لنا وخيانة القبيلة اليهودية لنا من الخلف.

نلاحظ القرآن يشير بتعبير {الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ} لعموم الذين لديهم خلل يمنعهم من رؤية الحق والصلاح وبالتالي يمنعهم من الإيمان بشيء، أو يمنعهم من الالتزام بفعل شيء ما، والمرض قد يكون مستفحلاً ضارباً بالخلل أساسيات الإيمان، فيكون من عيار الكفر والشرك، ومن سياق كلام الآيات تعلم إن كانت تقصد هذه الدرجة العالية من المرض، وهنا ترى الكلام عن أشخاص ليس عندهم نية ثابتة بالكفر أو النفاق أو الفسق، ولكن دائما لديهم شكوك واعتراضات قوية جداً قريبة من الكفر أو خفيفة، لم يسلّموا بالتمام أمرهم للنبي(ع)، بعضهم لا يؤمن بالغيب، وبعضهم يرفض التسليم في أوامر الشريعة، وبعضهم يهرب من القتال. وقد يتساوى الذين في قلوبهم مرض أحيانا مع الفاسقين، وأحيانا مع المنافقين، وأحيانا مع الكفّار إذا كان مرض قلبهم مستفحلاً.

إذاً، الكفّار "كعدو صريح" يحاصرون المدينة، وداخل المدينة يوجد عدو آخر هم المنافقون ومرضى القلوب، وأول آية في السورة كانت تنبّه منهم جميعاً، فالكافرون ظاهرون معلوم كفرهم، وأمّا المنافقون وذوو القلوب المريضة فهؤلاء من داخل المجتمع المسلم ولديهم أفكار وآراء مخالفة لدينه تعالى... وها نذكّرك بوضوح من هم وماذا فعلوا حتى لا تشعر بأي حرج يمنعك من تطبيق دينه تعالى بسبب تعليقاتهم السلبية...

(وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً{13})

{وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ}، مجموعة من المنتمين للإسلام وهم في الحقيقة منافقون أو في قلوبهم مرض، فهم مجموعة من داخل مجموعة الإسلام، قالوا:

{يَا أَهْلَ يَثْرِبَ}، يا أيها الناس المنتمون لمدينة يثرب "المحاصرة بعشرة آلاف مقاتل"، {لَا مُقَامَ لَكُمْ}، أنتم هنا محتشدون كخط مواجهة بالقرب من واجهة المدينة خلف الخندق، وهذا خطأ، لا مقام لكم هنا، {فَارْجِعُوا}، عودوا إلى المدينة بدلاً من المرابطة بالقرب من الخندق بعيداً عن البيوت.

يبدو من الآيات ومما هو مشهور في التاريخ، أنه لم تحصل استجابة جماعية لهذا العرض بالانسحاب، وبقي الأكثرية من أهل المدينة مرابطين خلف الخندق.

{وَيَسْتَأْذِنُ}، يطلب الإذن، {فَرِيقٌ مِّنْهُمُ}، مجموعة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض، يطلبون من {النَّبِيَّ} أن يسمح لهم حيث {يَقُولُونَ} له (ع): {إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ}، نحن هنا بعيدون عن بيوتنا فإذا هاجم العدو من ناحيتها بيوتنا ليست منيعة، ليست حصينة حتى نتركها مكشوفة للعدو، فنحن هنا في الواجهة وبيوتنا في الخلف وفيها عائلاتنا، وتراصف بيوتنا لن يحمينا من هجوم العدو لأنها بيوت عادية وليست بأسوار وحيطان عالية، بسهولة يمكن للعدو اختراقنا منها، وإذا ذهبنا إلى بيوتنا فيمكننا منها الدفاع مانعين تسلل الأعداء منها.

{وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ}، يخبرنا سبحانه أن بيوتهم لم تكن عورة كما يقولون، بل هي كافية لردّ الأعداء، {إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا}، فقط يريدون الابتعاد عن أرض المعركة، وهم لا يريدون البقاء لمواجهة الأعداء، وحجّتهم وعذرهم أن بيوتهم ضعيفة وهم فقط يريدون مغادرة أرض المعركة ولا يهمّهم أين يذهبون.

تحدّدت جهات المدينة، من جهة فيها الخندق الذي حفره المسلمون على واجهة المدينة بعيداً "نسبياً" عن بيوتها لاستغلال تضاريس الأرض التي تساعد على إعاقة العدو من التقدّم، والجهة الخلفية للمدينة فيها بيوت اليهود، وقد عاهدوا الرسول(ع) ألّا يسمحوا للعدو بالمرور من جهتهم، وسيتبين لك فيما بعد أن بعض اليهود خانوا العهد واتفقوا مع الكفّار... ولكن لم يحصل التنفيذ بسبب تخاذل الكفّار وانسحابهم، والجهات الجانبية فيها بيوت للمسلمين وقد جعل الرسول(ع) فيها عدداً قليلاً من المقاتلين لرد الهجمات المباغتة... وهؤلاء يفترضون أن العدو يمكنه أن يترك الخندق ويهجم فجأة من جهة البيوت كتبرير حتى يتركوا المرابطة من الجهة الخطرة حيث الخندق.

(وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً{14})

{وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا}، ولو دخل الأعداء على المدينة من أقطارها من جوانبها المتعددة، {ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ}، حيث عبّر واقع حال دخول الأعداء عن تغيير المنافقين والذين في قلوبهم مرض لدينهم، ليصيروا على دين وشريعة وسلوك الأعداء، {لَآتَوْهَا}، لذهبوا إلى الفتنة ولم يرفضوها ولم يعارضوها، لتغيرت أحوالهم وتصرفاتهم وأعلنوا الاستسلام والعودة إلى الكفر، {وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا}، ولن يمرّ عليهم زمن وهم في حالة الفتنة، {إِلَّا يَسِيرًا}، إلا بوقت كافٍ لتمشي فيه أمورهم براحة، على الأكثر سيعارضون لمدة قليلة وبعدها وفي مدة قصيرة سينقلبون إلى الكفر تماماً ويتركون الإيمان.

لو فعلاً حصل ما يقولونه عن دخول الكفار على المدينة، فبمجرد دخولهم وقبل أن تنحسم الأمور بخسارة المسلمين، هؤلاء "المنافقون والذين في قلوبهم مرض" أصلاً ليس لديهم مشكلة قوية مع الكفر، لأنهم مستعدون للتراجع عن إيمانهم بدينه تعالى والعودة إلى الكفر ومسالمة الكفّار، ولن يستغرقهم وقت طويل في الفتنة، وهي حالة ما سيتعرضون

له بسبب دخول العدو إلى المدينة، ولن يلبثوا في حالة الفتنة إلا يسيراً، حيث لن يعارضوا الكفّار لوقت طويل، وفي مدة يسيرة سيتركون الدين الإلهي وحتى قبل أن تنحسم المعركة، بل حتى قبل أن تبدأ المعركة.

اقتراحاتهم التي تبدو عقلانية منطقية وهدفها حماية المدينة من الأعداء، هي ليست كذلك لأنهم من داخلهم جاهزون للرجوع إلى الكفر بمجرد دخول الكفّار إلى المدينة، حيث إنّ اقتراحهم ليس ممن يخاف على دينه ولا رغبة له بالعيش تحت حكم الكفّار، لأنّ هذا سيقترح ويقبل بأي شيء إلا الهزيمة.

ضع في بالك أن القرآن لم يستعمل كلمة "طلب" بمعناها الدارج بيننا، واستعمل بدلاً منها لنفس المعنى كلمة "{سَأَلَ}" على معناها العام، الذي يتضمّن معنى طلب شيء منهم، لأنّ المعنى العام لكلمة "{سَأَلَ}" هو: عبّر لآخر عن عامة إرادته "رغبته أو تطفّله أو استجوابه..." في الحصول على عموم أي شيء منه، على جواب على مساعدة على معلومة... وهنا التعبير بـ"{سُئِلُوا الْفِتْنَةَ}" يصير بتعابيرنا الدارجة: انعرض عليهم "طلب" التغيّر للتماشي مع الكفر.

نرجع لأساس محور السورة، هل هؤلاء المنافقون المتخاذلون... الجاهزون لإتيان الفتنة للرجوع إلى الكفر عند أول محنة... هل فعلاً يؤثرون عليكم بتعليقاتهم السلبية على دينه تعالى لتتركوا تشريعه تعالى! يعني لا تقرأ الآيات هنا على أنها تؤرّخ لحادثة حصار الأحزاب للمدينة والمسمّاة بمعركة الخندق، لا، بل الحادثة وقعت وحاول الكفّار السيطرة على المسلمين لفرض دينهم عليهم بالقوّة، والمنافقون والذين في قلوبهم مرض فعلوا كذا وكذا... وحالتهم كذا وكذا... فهل لأجل تعليقات هذه النوعية من الناس "كفّار ومنافقون وفي قلوبهم مرض" ستتركون تشريعه تعالى أيها المسلمون وتتّبعون تشريعاتهم!

(وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً{15})
هؤلاء الذين لديهم الاستعداد للدخول في الفتنة:

{وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ}، من قبل أن يصير الحصار للمدينة هم أعطوا لله تعالى عهداً، أعلنوا التزامهم بأنهم، {لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ}، لا يديرون دبرهم عقبهم ظهرهم، حيث أعلنوا أنهم لن يهربوا من المعركة.

{وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا}، العهد الذي تتعاهدون به مع الله تعالى، ما تعلنون أنكم ملتزمون به وستنفّذونه، وهو عهد سيسألكم تعالى عنه، حيث سيعبّر لكم سبحانه عن إرادته للحصول على جواب منكم عمّا فعلتموه بالعهد، ولن تمرّ خيانتكم من دون حساب.

ضع في بالك دائماً أن "مسؤول مسؤولتي..." لم يستعملها القرآن بالمعنى الدارج بيننا، لأن هذا المعنى ليس من أساس معنى كلمة "سأل" بل من اشتقاقات استعمالها، والمرادف العربي القديم والقرآني لمعنى "مسؤول مسؤوليتي" هو "وكيل كفيل حفيظ..."، وعلى أساس المعنى العام لكلمة سأل: عبّر أحدهم عن إرادته للحصول على "جواب مساعدة..." من أحد آخر. وينطبق على من تعهّد والتزم بشيء، ستسأله عن التزامه، وهو مسؤول عن التزامه، وبالتالي سيتعرّض للسؤال عن التزامه...

(قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً{16})
قل لهم عبر هذا القرآن:

{لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ}، عموم ابتعادكم بأي وسيلة عن الموت عن فقدان الحياة، أو عموم الابتعاد بأي وسيلة عن القتل عن إنهاء الآخرين لحياتكم بتسبيب أذى جسدي قوي لكم، {وَإِذًا}، من بعد الفرار، {لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا}، لا تستفيدون ولا تنتفعون مما هو متاح لكم في الحياة، إلا قليلاً، فكم تتوقعون أن تستمر حياتكم إن فررتم من القتل أو الموت؟ على كل حال ستفرون لسنوات قليلة وبعدها ستموتون من المرض أو الشيخوخة أو يقتلكم أحد ما، ولن تبقوا متمتعين بالحياة إلى الأبد.

لو كان فراركم من مواجهة العدو سيضمن لكم حياة طويلة جداً جداً أو مؤبّدة، لقلنا إنّ لفراركم من الموت سبباً وجيهاً، أو فيه وجهة نظر، ولكن حياتكم أصلاً قصيرة جداً. ويبدو من التاريخ أن معدّل حياتهم العام كان في حينها أقل من ستين سنة.

أمام وعده تعالى لكم بالجنّة الخالدة إن آمنتم وعملتم الصالحات، ووعده تعالى لكم بالنار خالدين إن فررتم من القتال، فهل تختارون الفرار للتمتّع بحياة معلوم كم هي قصيرة؟!

(قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً {17})

{قُلْ}، أيها النبي(ع) قل عبر هذا القرآن لهذه النوعية من الناس:

{مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ}، من يمنع وصول شيء منه تعالى إليكم، {إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا}؟ إذا قرّر تعالى أن يصيبكم بشيء سيّئ، فمن هذا الذي يمكنه منع حصوله معكم؟!

{أَوْ}، ومن هذا الذي يمكنه أن يعصمكم إن، {أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً}؟! إن أراد أن يصيبكم سبحانه بعناية فيها مصلحتكم فمن يمكنه منع حصولها؟!

{وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا}، ليكونوا تابعين له ليهتم بهم، ولا يجدون، {نَصِيرًا}، يحقّق لهم ما يريدون، فينصرهم من عقابه تعالى أو من الأعداء ويحميهم من السوء.

يا أيها الذين تريدون الفرار، إن قرّر سبحانه إصابتكم بسوء، فلا الفرار ولا أي قدرة في الدنيا يمكنها حمايتكم، وإن قرّر سبحانه أن يرحمكم فلا الأعداء ولا أي قدرة في الدنيا يمكنها أن تضرّكم.

لاحظ كيف تغافلت الآية عن "الفرار" الذي يظنون أنه سيخلّصهم من الموت أو الأسر أو الجرح... وتوجّهت لشيء أعمّ بكثير من الفرار الذي لا ينجيهم لسبب أو لآخر، حيث سألت عموماً: من ذا الذي... فأي حالة أو وسيلة أو كائن... يمكنه الوقوف بوجه القرار الإلهي لتغييره إن أراد تعالى الضرر لكم!

(قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً {18})

{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ}، تحقق وحصل علمه سبحانه بالذين يضعون العوائق، الذين لديهم حجج وأعذار تعيق فتمنع أو تصعّب مشاركتهم في القتال، {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ}، للمشاركين لهم في المعركة، {هَلُمَّ إِلَيْنَا}، اتركوا الحراسة والمرابطة ومناوشة الأعداء، وتعالوا إلينا لتكونوا معنا ولا تشاركوا في الحرب، وهؤلاء، {وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ}، لا يحضرون إلى الأمور الشديدة، وهنا المقصود القتال، {إِلَّا قَلِيلًا}، فهم ليسوا نهائياً مقاطعين للحرب، حيث يحضرون في بعض الأحيان حين تكون الأوضاع هادئة أو السيطرة لهم واضحة، وأمّا إذا كان هناك بأس، بقتال شديد فنادراً ما يكونون مشاركين.

ضع في بالك أن الحصار الذي تتحدّث عنه الآيات استمرّ لمدة شهر تقريباً، وهذا يعني توقّع الهجوم في أي ساعة، وهذا يعني الحراسة والمرابطة والاستعداد... حيث إنّ مجموعات من العدو بين الحين والآخر تقوم بالغارة ورمي النبال والحجارة ويحاولون الاختراق من أطراف المدينة... وبين المسلمين هناك جماعة يخترعون من الأعذار ما يعيقهم عن المشاركة في الدفاع، ويخترعون الأعذار، حيث يقولون إنهم متعبون، ولا يقدرون على السهر، ولديهم أشغالٌ حياتية أو اجتماعية مهمّة جداً... والأنكى من ذلك أنهم يقولون للآخرين أيضاً إنكم أنتم مثلنا أوضاعكم صعبة ولكنكم تستحون من قولها والإعلان عنها، لذا نحن نتبرّع عنكم بقول ما تخفونه، فاتركوا الاستعداد للعدو وتعالوا لنرتاح... ولن يحصل شيء إن نمتم في بيوتكم... تعالوا كلنا نرتاح ونأكل ونشرب وننام... بدلاً من هذه "البهدلة" من السهر للفجر والنوم على الرمال وفي العراء...

الآية تقول عن بعضهم إنهم في بعض الأحيان يشاركون في بعض الأعمال الحربية، فلا يغرّك إن رأيتهم أحياناً يقاتلون، لأنّ هذا حجمهم، فهم يقاتلون على المزاج وساعة يريدون، ولكن حين يشتدّ القتال فلن تراهم، فلا ينخدع المؤمنون بهم ولا يجعلوهم نموذجاً لهم.

كلمة "قد" استعملها القرآن حصراً لتفيد التحقيق، حيث استعملها قرابة 400 مرة عن تحقق "الفعل، الشيء، الحالة" في الماضي البعيد أو القريب أو القريب جداً للحظة الحال، إما لعلاقة سببية أو المقارنة أو لمجرد الإخبار. ولم يستعملها القرآن للترديد بين شيئين: قد تأكلون وقد تصومون. ولم يستعملها للتوقع مثل جملة: انتبه قد تموت.

نلاحظ استعمال قد مع الفعل الماضي كما ورد في الآية 4 من سورة ق {قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ} ونفهمه بسهولة على معنى أنه تعالى فعلاً علم بهم من الماضي، ولكن يجد البعض مشكلة في فهم استعمال "قد" مع فعل المضارع كما ورد في الآية 18 من سورة الأحزاب {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ}... حيث يُفهم منها أنه تعالى الآن لا يعلم، وربما يحصل لديه علم فيما بعد، وربما لا يحصل لديه علم، فتصير الجملة مرادفة لـ: يمكن أن يحصل علم لله بـ... ولكن القرآن استعمل "قد" مع الفعل المضارع عند كلامه تعالى عن نفسه حتى يشير إلى نفس ما تشير إليه "قد" باستعمالها مع الفعل الماضي، كما تقول: "قد" حصل لديه تعالى العلم بشيء وقع في الماضي، أيضاً تقول: "قد" حصل لديه تعالى العلم بشيء يقع الآن أو سيقع في المستقبل.

نحن البشر لا يمكننا وصف أنفسنا بهذه الطريقة لأننا لا يحصل لدينا علم بما سيقع، بل يحصل لدينا العلم فقط بما وقع في الماضي أو يقع أمامنا الآن، أمّا تعالى فهو عالم الغيب، فيعلم ما حصل في الماضي وما يحصل الآن وما سيحصل في المستقبل، ولذلك يمكنه سبحانه التعبير عن علمه بالمستقبل بقد يعلم، أمّا نحن البشر فلا يمكننا التعبير بهذه الطريقة عن أنفسنا إلا بخبر علمناه من الإله عالم الغيب، أو بالتقدير والاحتمال القوي من التحليل والتوقّع.

(أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً{19})
هؤلاء المعوقون: {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ}، يُعْطُونَكُم القليل بالرغم من قدرتهم على العطاء أكثر، ولا يقدمون لكم ما تحتاجون ليس عن بخل "ليس عن حبّ الاحتفاظ بما لديهم" بل لكرههم أن يعطوكم الكثير أنتم بالذات، وهذا هو معنى الشحّ، حيثُ أنتم تحتاجون منهم ما يساعد نشاطكم العسكري من طعام ومال وسلاح... وتحتاجونهم للحراسة والمرابطة والمناوشة العسكرية... ولكنهم دائما لديهم أعذار حتى لا يقدموا الكثير! {فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ}، فحصل ما يسبّب الشعور بالخطر الذي يشعرون بأنهم لا يمكنهم تجنّبه، {رَأَيْتَهُمْ}، فحصلت عندك صورة محدّدة لهم وهم، {يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ}، موجّهين اهتمامهم العام ناحيتك، {تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ}، كالذي يأتيه شيء من الموت ليحيط به وينتشر عليه، مثل شخص يتعرّض لفقدان السيطرة على جسده نهائيا، فيفقد السيطرة على عينيه، فيحاول تثبيتهما ولكنه يفشل، فتدوران.

{فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ}، إذا لم يعودوا يشعرون بخطر لا يمكنهم تجنّبه، {سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ}! لسانهم الذي يتكلمون به، سيصدر منه كلام حادّ، كلام قاسٍ مُؤْذٍ، يسلقونكم به، يؤذونكم به، والجملة تستعمل نفس الكلمات التي نستعملها لتوصيف من يضربك بالسوط "الكرباج"، فيسلق جلدك بالسوط الحادّ، وهؤلاء يسلقون بلسان حادّ، فيبدؤون بالتعليقات والانتقادات والسخرية بشكل قاسٍ... لأنهم منذ قليل كانوا سيغمى عليهم من الخوف من الأعداء! وفجأة حين ذهب الخطر صاروا كالسباع والأسود عليكم!

{أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ}، إذا فعلوا خيرا فهو شحيح، فهو قليل جدا مما يمكنهم تقديمه.

{أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا}، هم أصلا لم يعتقدوا بهذا الدين الإلهي، {فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ}، أعمالهم الحسنة أفقدها تعالى قيمتها، فلم يعد لها قيمة، {وَكَانَ ذَٰلِكَ}، الحبط لأعمالهم الحسنة، {عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا}، سهلا، بكل سهولة يجعل سبحانه أعمالهم بلا قيمة.

العمل الحسن يبقى توصيفه حسنا حتى لو فعله الكافر، ولكن عنده تعالى لا قيمة للعمل الحسن إلا مع الإيمان، ولا يعطي سبحانه الأجر على العمل الحسن إلا للمؤمنين، وغيرهم تحبط أعماله الحسنة فتفقد قيمتها، ومن تصدّق أو ساعد الناس،

أو قاتل في معركة حق ضد الباطل... أو... أو... ولم يكن مؤمنا بالله تعالى وملتزما بدينه تعالى، فلا أجر له عند الله تعالى، فيحبط عمله الحسن، وعمليًّا يصير بلا قيمة عنده تعالى، وهؤلاء الذين تتحدّث عنهم الآيات شاركوا أحيانا في حراسة أو في مرابطة أو في قتال... أو تصدّقوا... ولكنهم لن يكسبوا أي أجر منه تعالى على هذه الأعمال، لأن الإيمان لم يدخل في قلوبهم.

تذكّر محور السورة عن حرج المؤمنين من تشريع إلهي بسبب معارضة المنافقين له، هنا الآيات تريك حقيقة المنافقين لترى أنك لست مُضْطَرًّا للتأثّر بتعليقاتهم على شرعه تعالى...

(يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً{20})
تلك النوعية من الناس، {يَحْسَبُونَ}، يخطر ببالهم ومن دون فحص أو تمحيص، أَنَّ {الْأَحْزَابَ}، أَنَّ المجموعات الحزبية وهي المجموعات من مختلف قبائل العرب والتي اتفقت على قتال المسلمين وكانت تحاصرهم، يخطر ببالهم أنهم، {لَمْ يَذْهَبُوا}، لم ينسحبوا بالكامل بل سيرجعون ليقاتلوهم.

عندما كانت أحزاب الكفّار محيطة بالمدينة، كان هؤلاء المنافقون والذين في قلوبهم مرض مرعوبين، وعندما انسحب الأحزاب، ذهب الرعب فبدؤوا بالكلام العنيف الحادّ من ملاحظات واعتراضات واتهامات... على القرارات التي اتخذّها الرسول(ع) وعلى تصرفات المؤمنين... ولكن في داخلهم لا يزال الخوف مَوْجُودًا، ولكن ممن؟ من الأحزاب! انسحب الأحزاب ولكن هؤلاء لا يزالون من داخلهم خَائِفِينَ منهم ويحسبون أَنَّهُمْ لم يذهبوا! يعني في اللحظة التي يظهرون كل قسوتهم على المؤمنين، فهم من داخلهم لا يزالون خائفين من الأحزاب!

{وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ}، لو فعلا رجع الأحزاب لقتال المسلمين، {يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ}، والأعراب هم الذين لا يسكنون في أماكن ثابتة، والبداوة هي السكن في البادية، فإذا رجع الأحزاب ليهجموا على المدينة، فهم يحبون لو أنهم ليسوا في المدينة بل يتمنون لو كانوا يعيشون في البادية مع الذين ليس لهم أماكن سكن ثابتة، {يَسْأَلُونَ}، يعبّرون للآخرين عن إرادتهم للحصول على معلومات، {عَنْ أَنْبَائِكُمْ}، عن أخباركم التي لم تنتشر لأنهم صاروا بعيدين عنكم.

إذا حصل الهجوم يودون لو أن سكنهم ليس في المدينة بل في البادية مع الأعراب، مع أناس وفي مكان لا علاقة له بما يجري في المدينة بتاتا، ومن هناك يسألون من يصادفونه عن أخبار الهجوم الذي حصل عليكم.

{وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ}، لو كانوا فعلا معكم حين حصول الهجوم عليكم، {مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا}، أكثر ما يمكن أن تتوقعوه من هذه النوعية هو القليل من القتال، مشاركتهم "إن شاركوا" لا يمكن الاعتماد عليها، ولن تغيّر من واقع المعركة لصالحكم.

تلاحظ أن الفقرة لم تقصد سرد الحادثة للتأريخ، حيثُ تنقل لك مشهدا من نهاية الحصار لتريك عنف ما يقوله المنافقون والذين في قلوبهم مرض على المؤمنين وفي نفس الوقت خوفهم من داخلهم من الأحزاب، فمن المفروض أن يكونوا أشداء على الأحزاب ورُحَمَاءَ بالمؤمنين كما ترى في عرض القرآن لصفات المؤمنين الحقيقيين كما ورد في الآية 29 من سورة الفتح {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}...

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً{21})
{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ}، أيها الناس، {فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}، تتأسون به فتقيسون ما حصل ويحصل معكم بما حصل معه، وترون ما فعله الرسول محمّد(ع) فتفعلون مثله، وعندها تَكُونُونَ تَأَسَّيْتُمْ به، والتأسّي بالرسول(ع) حسن جيّد لأنه نموذج جيّد لتتأسّوا به، {لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ}، فيتوقّع ويرغب بشيء من الله تعالى، ويرجو {الْيَوْمَ الْآخِرَ}، فيتوقّع حصول اليوم الآخر بعد الموت ويرغب بحصوله، {وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}، ولمن استحضره تعالى في فكره ومشاعره وعمله وقوله، وهذا فعلا سيكون الرسول(ع) أسوة له، نموذجا له، مثالا له، وقبل أن يفعل أي شيء يستحضره تعالى ليرى إن كان عمله متماشيا مع أوامره تعالى كما كان يفعل الرسول(ع).

الرسول(ع) بينه وبين ربنا تعالى مِيثَاقٌ غَلِيظٌ مما يؤكّد أن الرسول(ع) ملتزم بشكل حرفي بالأوامر الإلهية ولا يطيع الكافرين ولا المنافقين، وهذا لبّ سورتنا هذه، وبناء عليه، ففي مقابل المنافقين والذين في قلوبهم مرض هناك الذاكر لله تعالى الراجي لثواب منه تعالى في الآخرة، وهذا تخبره الآية أن يتأسّى بالرسول(ع) للوصول إلى ما يرجوه.

سياق الكلام هنا كنموذج منقول عن حالة معركة تبدو خاسرة وصعبة، فالمدينة واسعة ومنتشرة البيوت ولم تتهندّس حين بنوها لتواجه هُجُومًا عليها، وما قرّره المسلمون كخطّة دفاع عن المدينة هُوَ أفضل الممكن... وإلا فالحلّ الآخر هو الاستسلام للعدو أو الهرب... والرسول(ع) مشى على خطّة الدفاع، ومن كان يريد ثوابه تعالى في الآخرة فليتأسّى بالرسول(ع).

عِلْمًا أَنَّ الآية عمومية المعنى لِلتَّأَسِّي بالرسول(ع) بتقليده فيما فعله في مختلف شؤون الحياة، وآيتنا هنا استعانت بحادثة معركة الخندق كنموذج لما فعله الرسول(ع) وتأمر المؤمنين الحقيقيين بِالتَّأَسِّي به في هذه الظروف الصعبة. ضع في بالك أن الكثير من القادة يضعون خطّة هرب لهم لوحدهم في حال خسارة المعركة... ويشاركون من بعيد من الخطوط الخلفية بالمعارك من مكان آمن، أمّا الرسول(ع) فقد كان في موقع المواجهة.

بقي شيء، بعضنا يجمد على النص ولا يرى ظروفه وتفاصيله، ويهتمّ بالفضلة ويجعلها فضائل، فما قيمة التَّأَسِّي بالرسول بقصّة شعره؟ بنوع عطره؟ بلون وتفصيل لباسه؟ بخاتمه؟ فهل هذا ما يأمرنا تعالى به! أم يأمرنا بالأعمال الصالحة؟

للأسف لم يفهم الكثيرون معنى التأسّي بالرسول(ع) وخلطوه مع ما يسمّى بسنّة الرسول ويقصدون بذلك المحافظة على كل عادات وتقاليد عصره(ع) في الأكل واللبس والأثاث... بل لا يميّزون بين هامش المرونة الذي تركه تعالى لنا في التشريعات وبين الأساسيات التي لا يجوز التهاون بها، فيفتون بإلزامنا بما فعله الرسول(ع) تَشْرِيعِيًّا بينما هو (ع) تحرّك في هامش المرونة المناسب لعصره وزمانه...

(وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً{22})
{وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ}، الذين هم في حالة اعتقاد عندما صار لديهم صورة محدّدة للـ، {الْأَحْزَابَ}، لجماعات الناس من مختلف قبائل العرب المتحازبين المجتمعين تحت عنوان قتال المؤمنين، {قَالُوا}:

{هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ}، حيثُ قال تعالى وقال رسوله(ع) بأننا سنحارب الكفر، {وَصَدَقَ اللَّهُ} تعالى {وَرَسُولُهُ} (ع)، وها نحن نحارب الكفّار.

{وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا}، رؤيتهم لجموع الأحزاب أضافت إيمانا إلى إيمانهم السابق، فترسّخ إيمانهم، وزادهم، {تَسْلِيمًا}، انقيادا وَطَاعَةً لله تعالى وللرسول(ع)، فمشهد الأحزاب بدل أن يرعبهم أو يخيفهم، وبدل أن يتخاذلوا، وبدل أن يفكروا بالهرب، بدل كل ذلك زاد إيمانهم وزادت طاعتهم للرسول(ع).

لاحظ، كمؤمنين بالرسول(ع) الذي حاربه قومه وبقية العرب، وَهُمْ يعلمون أن إيمانهم يعني تعرّضهم لمحاربة الكفّار، وهم لا يرون من قدوم الأحزاب أكثر من تحقّق للوعد الإلهي بقتال الكفّار، لاحظ جيدا كيف تعبّر الآية: {هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ}. يعني مثلما ننتظر نحن الجائزة والهدية الْمَوْعُودِينَ بها، فهم يرون هجوم الأحزاب عليهم كتحقّق للوعد الإلهي الذي كانوا ينتظرونه.

لنتابع لنسمع المزيد عن هذه النوعية الراقية:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً{23})
{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، بعض المعتقدين بهذا الدين الإلهي يوجد، {رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ}، حيثُ أعلنوا له تعالى أنهم ملتزمون بدينه ولم يكذبوا فالتزموا بعهدهم، وهذا الكلام عام وهنا بالخصوص وعمليا فهم التزموا بحرب الكفّار.

{فَمِنْهُمْ}، من هؤلاء الرجال الصَّادِقِينَ، {مَنْ قَضَى}، أتمّ وأنهى، {نَحْبَهُ}، وهذا التعبير لم يرد في القرآن إلّا مرة واحدة هنا ويشير إلى الموت، ويبدو أن أصل الكلمة نقلها العرب من: مات وَنَحَبُوا عليه، فبكوا عليه ونعوه، ونقلوها إلى "قضى نحبه" للدلالة على موته وانقضاء النحب عليه.

{وَمِنْهُمْ}، من المؤمنين، {مَنْ يَنْتَظِرُ}، يمرّ الزمن عليه متوقعا أن يقضي نحبه، ليموت مؤمنا، {وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}، وعهدهم لله تعالى لم يتبدّل ولا بأي شكل للتبديل ولو لشعرة فهم ثابتون على عهدهم.

إذًا هناك من مات بالمرض أو بالشيخوخة أو بحادث أو في قتال في سبيله تعالى وهو على صدقه للوعد، وهناك من ينتظر فيعتبر حياته ممرا للآخرة فيعمل منتظرا ليموت مؤمنا، ولم يبدّل عهده فهو محافظ على صدقِهِ وَعْدَهُ لله تعالى ومستعد لكل الظروف ليبقى مؤمنا عاملا للصالحات، وَمُسْتَعِدٌّ للمشاركة في القتال في سبيله تعالى. وَالْعَهْدُ معه تعالى ليس حالة نادرة أو عابرة بالنسبة له، وَالْآيَةُ تشير إلى نوعية صادقة في عهدها حتى آخر لحظة في حياتها وفي مختلف الظروف.

ألفت انتباهك يا عزيزي، بعد البحث تبيّن أن كلمة "نحب" لها معنى واضح صريح لا خلاف عليه، وهو النواح والبكاء ونعي الميّت، وأمّا المعاني الأخرى التي قالوها كالنذر والموت... إنما هي مَعَانٍ مستوحاة من سياق كلام الآية وليست معنى الكلمة، ولذلك التزمنا بمعنى الكلمة ومعنى جملة "قضى نحبه" المعلوم معناها عند العرب بقصدهم موت الشخص، أمّا في عموم كتب التفاسير فقد اخترعوا معنى للكلمة ليس مستعملا عند العرب في حين نزول هذا القرآن، وذلك ظنّا منهم أن الآية تشير للمعنى الذي اخترعوه، وهذا منتشر بكثرة في الروايات وكتب التفاسير لكلمتنا هذه وللكثير الكثير من الكلمات الأخرى.

بقي شيء، حيث درج في بعض الأدبيات استعمال آيتنا هنا حصرا للمقتولين في سبيله تعالى، فبعضهم قضى نحبه "فاستشهد" كما يقولون، وبعضهم ينتظر أن يستشهد، عِلْمًا أَنَّ الآية عمومية وتتضمّن المقتولين في سبيله تعالى، وتتضمّن من مات من المرض أو بحادث أو بالشيخوخة... محافظا على إيمانه، ومن المؤمنين من لا يزال حَيًّا يتابع حياته محافظا على إيمانه ويعمل الصالحات... فلا الآية خاصة بالمقتولين في سبيله تعالى ولا كلمة شهيد خاصة للمقتولين في سبيله تعالى.

(لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً{24})
{لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ}، ليعطي سبحانه المقابل للذين لم يكذبوا بعهدهم، {بِصِدْقِهِمْ}، فَصِدْقُهُمْ يُتَرْجَمُ عمليا بمشاركتهم في القتال وهذا سيكون عليه مقابل منه تعالى، {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ}، ويصيب سبحانه بالضرر الذين كذّبوا وَأَعْلَنُوا أنهم مؤمنون ولكن من داخلهم هم كاذبون ولذلك لم يلتزموا بالعهد، حَيْثُ اقترحوا الاستسلام أو الهرب أو استهزؤوا واستخفّوا بواجباتهم العسكرية... فهؤلاء يعذّبهم سبحانه، {إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة وقد يقرّر سبحانه أن يميتهم قبل أن يتوبوا فيعذّبهم، وقد يتركهم حتى يتوبوا ويتوب عليهم.

{إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا}، فلا يجمد سبحانه على موقف صلب بل يتجاوز عن ذنوب من استغفره، وَكَانَ {رَحِيمًا}، فلديه عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم.

نتذكّر دائما أن القرآن استعمل كلمة "{رَحِيمٍ}" للدلالة على معاملة إلهية خاصة للمؤمنين، ونتذكّر دائما أن المغفرة الإلهية هي حصرا للمؤمنين، وأمّا الكفّار فلا مغفرة لهم ولا بأي شكل، وهنا كما تلاحظ، حَيْثُ إِنَّ المنافق يبدو عليه الإيمان ولكنه من داخله ليس مؤمنا، والمنافقون درجات في الإيمان، فبعضهم كافر وبعضهم منافق في بعض الأشياء، فالآية لا تريد إِغْلَاقَ الباب أمامه، بل تريده أن يرى باب التوبة مفتوحا، فالله تعالى غفور وليس صلبا قاسيا لا يتراجع عن موقفه ممن كذّب بعهده، فمن كذّب بعهده وبعدها آمن فعلا، وتاب فعلا، فسينال العناية الخاصّة بالمؤمنين وَسَيَغْفِرُ له سبحانه ذنوبه.

نلاحظ أن هذا المعنى مع الألفاظ، وَرَدَ في بداية السورة حين تحدّثت عن أخذه تعالى للميثاق من الأنبياء، وبعدها قال تعالى إِنَّهُ سيجازي الصادقين بصدقهم... وهنا ترى نفس المعنى مع المؤمنين الَّذِينَ صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه، فسيجزيهم سبحانه بصدقهم...

(وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً{25})
كانت نهاية حصار الأحزاب الذي دام قرابة الشهر لمدينة يثرب:

{وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ}، رجع الكفّار مرتدين عن المدينة إلى قراهم مع ظهور الانزعاج الشديد عليهم، فغضبهم كان ظاهرا، {لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا}، لم يحصلوا على أي شيء جيّد، {وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ}، فلم يحصل قتال لأنه تعالى كفاهم القتال، وَهَدَّمَ العزيمة والحماسة عند الكفّار، ودبّ فيهم الرعب، وأزعجهم بالريح التي تثير الغبار وتسبّب الحرّ نهارا والبرد الشديد ليلا كما يقولون في كتب التاريخ، فلم يحصل قتال حربي كمعركة حقيقية، وَمَا حصل كان مجرّد مناوشات هدّمت عزيمة الكفّار، ومنها مناوشة قتل علي بن أَبِي طالب لواحد من أكبر فرسان الكفّار "عمرو بن ودّ".

{وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا}، لديه صفات عالية لتحقيق الأشياء، حَيْثُ إِنَّ عشرة آلاف مقاتل من الكافرين هم لا شيء بالنسبة له تعالى، وَبِكُلِّ سهولة يمكنه تعالى أن يفعل بهم ما يشاء، وبأقل شيء "بريح وبرد وملل... وقتل عمرو..." جعلهم سبحانه ينهزمون، {وَكَانَ اللَّهُ}، {عَزِيزًا}، منفيا عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره أو يُنْفَرَضُ عليه ما يريده غيره... وبناء عليه يُمْكِنُهُ سبحانه فعل أي شيء ويمكنه قهر أي جيش.

من المشهور في التاريخ أن كل هذه الضجّة والزوبعة انْقَضَتْ واستشهد أقل من عشرة مسلمين وقيل ستّة، وهذا بعد تجهيزات واستعدادات وسفر وحصار وقرارات بمسح المسلمين عن الخريطة ومن التاريخ... فانتهى كلّ ذلك بخسائر أقل من عادية!

جيش الكفّار "عشرة أو خمسة عشر ألفا" بالنسبة للجيوش الضخمة، فهو مجرد فرقة، ولكن أنا أَسْتَغِيثُ بالله تعالى من شخص يريد أن يعتدي عليّ وهو يفوقني حجما وقدرة وتدريبا وتسليحا، وَمِنْ شخص واحد أَشْعَرُ بالرعب والخوف، فليس العدد هو المهمّ لإظهار قدرة الإله سبحانه على التدخل، ولو قال تعالى عند تدخله لإبعاد شرّ هذا الشخص عنّي، إِنَّهُ قوي عزيز لأنه أبعد هذا الشخص عني، فهذا مثله مثل ردّ عشرة آلاف، مثل ردّ مليون جندي... فلا يتم تقدير قوّة الله تعالى بحجم العدو، حَيْثُ إِنَّ قُوَّتَهُ تعالى معروفة بفوقيتها وعلوّها على قدرات كل مخلوقاته، وبالنسبة له تعالى فالبعوضة وكل المخلوقات بنفس الحجم، وَبِأَقَلِّ من لمحة يختفي كل شيء إن أراد تعالى، وَنُلَاحِظُ القرآن أصلا لا يفرّق في لغة "القوّة والعزّة والسهولة" بين أي عمل من الأعمال الْإِلَهِيَّةِ، من خلقنا لموتنا لبعوضة لجيش فرعون لتدمير إرم... أو لردّ الأحزاب في الحادثة هنا...

ألفت انتباهك للصفات الإلهية التي استعملها القرآن وصارت بالنسبة لك كتحصيل حاصل، سميع عليم بصير قوي... ترى القرآن يذكر صفة الإله العظيم بأنه سميع، وذلك في أثناء حديثه تعالى عن شخصين، فهل تستدعي لأجل شخصين أو ثَلَاثَةٍ أن يعرض الإله صفاته العظيمة؟ من طريقة هذا العرض، تَشْعُرُ بسخافة وتسخيف للصفات الإلهية، وسخافة وتسخيف لمحتوى القرآن، ولكن هذا الكلام يصدر عمّن لم يفهم أن الجملة القرآنية التي يتبعها صفة إلهية، هي خبر، والقرآن الآن صار بين يديك لتقرؤه، فإن اهتديت وآمنت بصفاته تعالى، فقد اهتديت من هذه الأخبار القرآنية عن صفاته تعالى كسمعه وبصره وقوته وعزّته... في كل الأمور والأشياء، الصغيرة والكبيرة، فلو ذكر القرآن صفاته تعالى فقط في الأمور الكبيرة، "بغض النظر عن معيار كلمة كبيرة لكل شخص"، ولم يذكر صفاته سبحانه في مواضيع "صغيرة"، ألن تستنتج أن صفاته ممتدة أيضا لهذه المواضيع الصغيرة؟ وإن لم تستنتج ذلك وآمنت بأنه تعالى تفوته الأمور الصغيرة لأنه لا يهتمّ بها، فهل هذا الاعتقاد صحيح!

أقول لك هذا الكلام لأني وجدت تركيزا قويا على فكرة تسخيف آيات القرآن من كفّار عصرنا والكفّار السابقين من هذا الباب، وَلَفَتَ القرآن انتباه المؤمنين لهذه الخزعبلات في العديد من الآيات منها ما ورد في الآية 26 من سورة البقرة {إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا...}.

أيضا هناك شيء أحبّ لفت انتباهك له، مثلما ترى من الآيات ذمّها لأناس من المسلمين "منافقين وفي قلوبهم مرض" ومدحها للمؤمنين الحقيقيين، ولكنها تنسب انتهاء حصار الأحزاب بطريقة لم يكن يتوقعها أحد، فتنسبها إلى الله تعالى،

فرغم ما نجده في التاريخ عن بسالة بعض المسلمين، وحتى إنَّ بعضهم أَضَاءَ على قتل الإمام علي لعمرو بن ودّ على أنها كانت النقطة الهادمة لمعنويات الكفّار، حتى إنَّ بعض الصحابة كان يزيد على آياتنا هنا عندما يقرأها فيقول: {وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ} بِعَلِيٍّ، وهو يقصد التفسير العملي للتدخّل الإلهي عبر علي بن أبي طالب... وما سيأتي من بعد انتهاء هذه المعركة من حرب مع يهود المدينة الَّذِينَ خانوا عهدهم مع المسلمين، وما بعدها مع يهود الجزيرة العربية، فهذه الحروب والمعارك كان فيها أدوار بارزة لعدد قليل من الصحابة... ولكن الآيات أصرّت على مدحهم بتوكّلهم عليه تعالى وثقتهم به، وأنه هو تعالى أمّن لهم النصر.

هذه الحادثة "معركة الأحزاب" نموذج عام لكل التاريخ، ولن تعطي الآيات أي ميزة غير عادية لأي مسلم من الجيل الأول لمجرد أنه من الجيل الأوّل، وحتى لو كان ذلك الشخص المميز علي بن أبي طالب بإنجازاته غير العادية، وسألفت انتباهك لأكثر من ذلك، فالاسم الآخر لهذه الحادثة هو: معركة الخندق، وأيضا لم تشر الآيات للخندق ولا لمن أشار إليه ولا لكونه الحاسم في ردّ الأحزاب... ولم تشر للتعب في حفره بسرعة وبأدوات بدائية قبل وصول الأعداء... فلم تقصد الآيات إغفال قيمة هذه النقاط التي نراها مهمّة، والتي نروي لها الروايات ونبحث عن دقائق تاريخها... وَلَمْ تقصد الآيات هنا تسخيفها، بل اعتبرتها حادثة قام فِيهَا المسلمون المؤمنون بواجبهم العسكري وَسَاعَدَهُمْ سبحانه وخلّصهم من مأزق عويص، فأرجو أن تضع في ذهنك دائما هذه الفكرة المنتشرة في القرآن وهي بعكس ما نَحْشُو به تفسير القرآن من تفاصيل أحداث تاريخية تجعلنا نحيد عن بوصلة القرآن التي تشير له تعالى كإله هدفنا في كل الحياة نيل رضاه.

لو أطلت عليك، بدراستي هذه التي استغرقتني سِنِينَ طِوَالًا، أحبّ أن يمدحني الناس بالمجهود الذي قدمته، ولكن ماذا سأستفيد من مدحهم وتقديرهم لجهودي؟ وإذا ساعدت الظروف مع حملة إعلامية مناسبة أَصِيرُ مشهورا وَأَسْتَفِيدُ ماديا ومعنويا، ولكن ما قيمة هذا أمام ما يمكن أن أحصل عليه كجزاء حسن في الآخرة منه تعالى؟ لا شيء.

نحن عادة لا نفهم هذا، ولا نفهم أن الرسول مُحَمَّدًا(ع) بذات نفسه، والمرموقين من المؤمنين الحقيقيين من الصحابة، لا تَهُمُّهُمُ الدعاية الإعلامية لرفع شأنهم ليفرحوا بها، بل هذا ما نفعله نحن وما نرغبه نحن، ونتناحر عليه بيننا باعتبار هذا وذاك من الصحابة لنا، لنرفع شأنهم ونقلل أو نهين من شأن الآخرين، ويعتبر الآخرون هذا وذاك الآخر من الصحابة لهم، فَيَرْفَعُونَ من شأنه وَيُقَلِّلُونَ أو يُهِينُونَ الآخرين... وكتب التفاسير مشحونة بهذا النوع من الكلام الذي يُقْحِمُونَهُ في تفسير كلامه تعالى لينطبق على هذا أو ذاك من الصحابة!

غَرِقُوا بغالبيتهم الساحقة في أفكارهم الطفولية ولم يعودوا يَرَوْنَ كلامه تعالى كما هو، فتفسيري للآيات هنا ولغيرها من الآيات التي اشتهر بينهم إقحام أسماء الصحابة فيها، تَفْسِيرِي لها كما هي سيكون مرفوضا منبوذا بل ومكروها مبغوضا متهما بالضلال...

قاوم هواك، وحاول الرجوع إلى حالة الإسلام له تعالى، وَانْسَ كل ما تعرفه متخيّلا نفسك مؤمنا من عهد النبي نوح(ع)، حَيْثُ إنَّ كل ما تعرفه من تاريخ المسلمين وعن الصحابة لم يحصل بعد، وانظر عندها لكمية المعلومات التاريخية والمذهبية... التي تعتبرها مهمّة جدا والتي اختفت.

هل إيمانك في عهد النبي نوح(ع) ينقصه شيء ما؟ أم من الواضح أن الإضافات الحالية التي انشحنت بها وتظنّها شديدة الأهمية، مَا هي إلا فضلة لا قيمة لها؟

(وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً{26}) ردّ سبحانه أحزاب الكفّار، {وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ}، الذين أعانوا وساندوا الكفّار، {مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}، من المنتسبين لكتاب إلهي، ومن المشهور جدا أنهم بعض يهود المدينة، أنزلهم سبحانه، {مِنْ صَيَاصِيهِمْ}، من الأماكن العالية، من بيوتهم المحصّنة ببنائها على تضاريس وجدران عالية، {وَقَذَفَ}، رمى سبحانه بقوّة، {فِي قُلُوبِهِمُ}، في أساس نفسية وفكر أهل الكتاب الخائنين للعهد مع النبي محمد(ع)، {الرُّعْبَ}، أقصى درجات الشعور بخطر شديد جدا، فجعلهم تعالى يرتعبون من المسلمين، وَصَارَ يهود المدينة فريقين: {فَرِيقًا تَقْتُلُونَ}، مجموعة من مجموعة أهل الكتاب تنهون حياتهم، {وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا}، مجموعة أخرى تحجزون حريّتهم من أثر عمل حربي قاموا به واستسلموا بعده.

من المشهور تاريخيا أنه في جهة من مدينة يثرب كان فِيهَا أحياء لليهود، وَتَعَاهَدَ معهم الرسول(ع) بأن لا يهاجمهم ولا يهاجموه، ولا يُعِينُوا أعداءه عليه... وحين جاءت أحزاب الكفّار، وجد الكفّار خندقا على الجهة الرئيسية من المدينة، ومن الجوانب وجدوا البيوت شبه متراصة وممراتها ضيّقة وفيها مُقَاتِلُونَ، ومن جهة اليهود، وفي بداية الحصار رفض اليهود السماح لأحزاب الكفّار بِالْمُرُورِ من جهتهم بسبب المعاهدة بينهم وبين النبي محمّد(ع)، ولكن مع مرور الوقت، اقتنع بعض اليهود بالتعاون مع الكفّار، بل واتفقوا على الهجوم معهم، على أساس أن يهجم الكفّار من جهة الخندق ومن بين البيوت، واليهود مع مجموعة من الكفّار من جهة فوق، وهكذا يكون النصر سريعا ومضمونا، وَعَلِمَ المسلمون بهذا بعد أن تسلّح اليهود وصاروا يمنعون المسلمين من المرور من منطقتهم لتفقّدها... وهناك روايات تقول بأن اليهود وبالسرّ هم حَزَّبُوا أحزاب الكفّار ودعوهم للهجوم على مدينة يثرب... وأنهم أعلنوا عداوتهم للمسلمين أثناء الحصار في اجتماع حضره سعد بن معاذ وسعد بن عبادة... ولم يكن حينها بإمكان المسلمين فعل أي ردّ عسكري عليهم، لِأَنَّ عددهم لا يكفي للهجوم على اليهود وللبقاء في مواجهة الخندق ولسدّ المفارق بين البيوت ردعا لهجمات أحزاب الكفّار. وبقيت الحال بلا حسم إلى أن انسحب الأحزاب فجأة، وَبَعْدَهَا توجّه المسلمون نحو اليهود الخائنين للعهد، وَحَارَبُوهُمْ في مناوشات قليلة، وقتلوا منهم... وأسروا البقية.

(وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً {27})
{وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ}، انتقلت من اليهود ملكية أراضيهم الزراعية... إليكم بلا استرداد، وأورثكم سبحانه، {وَدِيَارَهُمْ}، الأماكن التي كانت تدور فيها شؤون حياتهم، بيوتهم وَمَتَاجِرَهُمْ... وأورثكم، {وَأَمْوَالَهُمْ}، النقدية والذهب والفضّة... والمواشي... وأورثكم سبحانه، {وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا}، والوطء هو عامة تماس وفعل صدر عنه أثر على المفعول، وهنا التوصيف أنهم ملكوا أرضا لم يدوسوها بأرجلهم، حَيْثُ إِنَّ المعركة جرت مع بعض اليهود في المدينة، وهؤلاء لهم أَرَاضٍ زراعية بعيدة عن ساحة المعركة، وَانْتَصَرْتُمْ عليهم هنا وحصلتم على أراضيهم التي لم تذهبوا إليها.

{وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا}، حَيْثُ يُمْكِنُهُ تعالى فعل أي شيء يريده بأي شيء.

عليك يا عزيزتي ويا عزيزي أن تعيش الموقف، من الرعب المنتشر من أحزاب تحاصر المسلمين، فلو هجموا لكان النصر مرجّحا للأحزاب الكافرة من الناحية العسكرية، فهم قرابة العشرة آلاف، والمسلمون قرابة الثَّلَاثَةِ آلاف غالبيتهم خلف الخندق والبقية بين البيوت وعلى الممرات الجبلية... أضف إليه حين تعقّد الموقف من مرور أيّام على الحصار مما يشير إلى استمراره حتى نَفَادِ المياه والطعام... أضف إليه المنافقين الذين يخاف المسلمون من انقلابهم مع الكفّار في أي لحظة، وفوق ذلك دعاية المنافقين المزعجة من التخويف والتشجيع على الفرار... وفوق ذلك كلّه أضف خيانة اليهود للعهد، وَكَانَ لأولئك اليهود قوّة عسكرية واقتصادية كبيرة بالنسبة للمسلمين... ولديهم بشكل عام كره واضح للدين الإسلامي، وَلَمْ يكن هجوم المسلمين عليهم فيما بعد بالقرار السهل، ولو راجعت التاريخ لوجدت كيف قامت قلّة قليلة من المسلمين المؤمنين الشجعان بكسر شوكة اليهود خلال أيام وبلا خسائر على المسلمين... وَكُلُّ الدعاية التي ضخّمت قوتهم القتالية تبخرت مع أوّل تَنَاوُشٍ قتالي حقيقي بينهم وبين المؤمنين.

الآن لننظر للصورة التي كان عليها المسلمون، من أجواء الحصار والرعب والخوف من القتل والأسر... مع ثبات المؤمنين الحقيقيين... إلى حيازة أموال وأملاك ضخمة من اليهود الخائنين. وَمَنْ كان يخطر بباله أن هذه ستكون نهاية هجوم الأحزاب؟! طبعا إن الله تعالى على كلّ شيء قدير.

إِذًا، اتّباع دينه تعالى ومخالفة الكافرين والمنافقين سَيَتْبَعُهُ دعم إلهي، ومعركة الأحزاب أبرز نموذج عَلَى ذلك، وهذا ما تريد السورة قوله، فهي لا تريد التأريخ لأحداث جرت في عهد النبي محمّد(ع).

من اللَّافِتِ جدا عرض السورة للحادثة من الزاوية التي اختارتها بشكل مختلف تماما عمّا نحن نفعله، فلو كان هذا القرآن من تأليف محمّد بْنِ عبد الله، لرأيت حتما وبالتأكيد فلتاته البشرية في طَيَّاتِهِ، لمدح نفسه كقائد، أو مدح حبيبه وابن عمّه وصهره علي الذي قتل جبّار القتال عَمْرَو بْنَ ودّ... ولأشار للخندق... أو نعى قتلى المسلمين... أو ذمّ أَبَا سفيان قائد الأحزاب والعدو اللدود في حينها للمسلمين ولمحمّد شخصيا... ولكن في كل القرآن لا ترى أثرا لأي شخصانية، بل ترى طرحه (ع) كنموذج عن المؤمن وكنموذج عن القائد وكنموذج عن القاضي وكنموذج عن شخص له مكانة

اجتماعية ودينية... وَتَرَى التهديد الإلهي له ولزوجاته ولأقاربه إن لم يؤمنوا ويعملوا الصالحات... وفيما سيأتي سترى ذلك بوضوح، حيث بعكس الشخصانية سترى توجيهات غالبيتنا الساحقة لا تقتنع بها...

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً{28})
سبق أن قرأنا في الآية 6 من السورة أمراً إلهياً لنا باعتبار زوجات النبي(ع) أمّهات لنا، وكان تشريعاً إلهياً سلوكياً باعتبارهن أمّهات للمؤمنين مقابل تشريعٍ فاسدٍ يجعل الزوجة كالأم... وعلى كل حالٍ كان الكلام في بداية السورة موجَّهاً للمؤمنين ليتبعوا شريعته تعالى متجاهلين التعليقات السلبية من الكافرين والمنافقين عليها، وهنا تبدأ السورة بالكلام مع وعن زوجات النبي معتبرة النبي محمّد(ع) كنموذجٍ لأي قائد يتولّى أمور المسلمين، فأمومة زوجات الرسول المعنوية على بقية المسلمين لم ولن يَحْصُلْنَ عليها كتحصيلٍ حاصلٍ مهما فعلن لمجرد أنهن زوجات للرسول، بل هناك شروط، وهي تأسِّيهِنَّ بالرسول مَثَلُهُنَّ مَثَلُ بقية المؤمنين، وتَرَفُّعُهُنَّ عن العادات السيئة المتعارف عليها لزوجات الحكّام.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}، يا أيها الشخص الذي يصله النبأ، وصارت هذه الكلمة مصطلحاً لمن يصله خبر منه تعالى غير منتشر علمه بين الناس، والكلام هنا عن النبي محمّد(ع)، {قُل لِّأَزْوَاجِكَ}، زوجاتك، عبر هذا القرآن:

{إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ}، مقصدكن ورغبتكن، {الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا}، إن كانت لديكن رغبة في هذه الحياة الحالية وفي الأشياء التي تُجمِّلُهَا من مالٍ وأثاثٍ وبيوتٍ... {فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ}، أعطيكن متاعاً، أعطيكن أشياء تَسْتَفِدْنَ منها، كالمال والأغراض... {وَأُسَرِّحْكُنَّ}، أترككن تذهبن من عندي، {سَرَاحاً جَمِيلاً}، أطلقكن وتذهبن من عندي بلا ضجّةٍ ولا مشاكل، بل عن تفاهم ورِضىً.

لا يمكنكن البقاء عند النبي(ع) بما يمثله من خلافة لله تعالى على الأرض، وبما يمثله من قائد للمؤمنين، واعتباركن أمهات للمؤمنين، لِذَلِكَ لن تَبْقَيْنَ زوجاته وأنتن على هذه النفسية من التعلّق بالدنيا وزينتها التي نخبركن أنكن لن تحصلن عليها وأنتن زوجات للنبي(ع)، ومن جهة ثانيةٍ الحلّ موجود، حيث يُعْطِيكُنَّ النبي(ع) حقوقكن من المهر والنفقة "المتاع" ويُطَلِّقُكُنَّ وتذهبن في سبيلكن... وبذلك لا تَعُدْنَ محجوزات عند رجل لن يُؤَمِّنَ لَكُنَّ الحياة الدنيا وزينتها من المال العام للمسلمين.

يقولون في الكتب إنَّ السورة هنا أكملت كلامها من وحي الغنائم التي حصل عليها المسلمون من اليهود، حيث إنَّ النبي(ع) وزّع كلّ شيء على المسلمين ولم يستحوذ لنفسه على حصّة خاصّةٍ منها، وقيل إنَّ بعض نسائه(ع) اسْتَأْنَ من هذا وَتَوَقَّعْنَ ولو زيادةً قليلةً ترفع من مستوى معيشتهن لتصير مترفةً ولو قليلاً... على أي حالٍ، الكلام عن نموذج قائدٍ تحت إمرته الأموال العامة، ويتعرّض لضغط من أقرب دائرة في حياته الخاصة "زوجاته" ليأخذ من المال العام ما يزيد عمّا يأخذه بقية المسلمين.

السورة تمحورت حول شرعه تعالى من جهة، وحول اعتراضات وتعليقات الكافرين والمنافقين عليها، على أساس أنها تخالف عاداتهم وثقافتهم، وهنا تنتقل بنا السورة إلى ما يشبه ذلك ولكن بوجه جديدٍ، حيث إنَّ زوجة المسؤول ترى لنفسها حقّاً أكثر من بقية الناس في الترفّه بالأخذ من الأموال العامّة لأنها زوجة القائد، وترى أنَّهُ ليس من المعقول أن تكون ثيابها ومسكنها وطعامها ومصاريفها... مثل الناس العاديين... وكما ترى هذه ثقافة وعادات مخالفة لشرعه تعالى.

(وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً{29})
{وَإِن كُنتُنَّ}، يا زوجات النبي، {تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، لَدَيْكُنَّ رغبة في نيل الرضا والتقرّب من الله تعالى ورسوله(ع)، وَتُرِدْنَ {الدَّارَ الْآخِرَةَ}، حيث تدور شؤون الحياة في العالم الذي سيأتي في الآخِرِ، وهي الجنّة، {فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ}، جهّز وحضّر، {لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ}، للتي قامت منكن بالأعمال الحسنة الجيدة، {أَجْراً عَظِيماً}، لَهُنَّ أجراً، لَهُنَّ شيئاً حدّده تعالى كاستحقاق لهن على أعمالهن الحسنة، ولن يكون عادياً، بل عظيماً.

مقابل رغبتكن بالحصول على رضاه تعالى ورضا رسوله(ع) ورغبتكن في الآخرة، وترجمة ذلك عملياً هو قيامكن بالأعمال الحسنة، فَسُبْحَانَهُ يعدكن بأجر عظيمٍ.

إذَنْ، يأمر سبحانه نبيه(ع) بتقديم العرض التالي لأزواجه: إمّا أن تُرِدْنَ الدنيا وزينتها، وأنا لن أؤمّنها لزوجاتي بأكثر مما اعتدتُنَّ عليه مني وتعرفنَهُ عن قدرتي المالية، ولن أستغل موقعي وسلطتي على الأموال العامّة، عندها أطلّقكن وأعطيكن مهركن المؤجّل ومتاع المطلّقة وَتَسْرَحْنَ من عندي على حبّ ورضىً، أو إن كنتن تُرِدْنَ، ترغبن وتقصدن، الله تعالى ورسوله والدار الآخرة، فابْقَيْنَ على الحال التي أَنْتُنَّ عَلَيْهَا الآن، ولن تحصلن على مالٍ ولا طعامٍ ولا وجاهةٍ ولا زينةٍ... زيادة عن الناس العاديين، ولن أستغلّ منصبي لجعلكن مترفاتٍ.

يوجد كلام حول اشتقاق حكم شرعي من الآية هنا، ودعموه بالروايات المتنافرة كالعادة، وخرجوا بأحكام مختلفة... والحكم هو عن زوج يخيّر زوجته أن تبقى على ذمّته أو أن تُطَلَّقَ، كما عرض النبي(ع) هنا على زوجاته هذا العرض، فإن اختارت الطلاق قالوا إنَّ الزواج انتهى ويجب على الزوج أن يتلفظ بصيغة الطلاق... وقالوا إنَّ العرض يبقى ساريَ المفعول إلى أن تقرّر الزوجة، حتى لو بعد أيام... وقالوا إنَّ الطلاق في هذه الحالة يكون بائناً لأن الزوجة طلبته فلا تبقى في منزله لتكمل العدّة... وآخرون قالوا يكون رجعياً لأن الزوج عرض الطلاق... وقالوا إنَّ الحكم هنا خاص بالنبي(ع)...

لو نظرت للآيات لما فهمت منها أي شيء مما استنبطوه! وهي مجرّد اعتراض من النبي(ع) على طلبات زوجاته الدنيوية، وعرضه عليهن إمّا البقاء معه على معيشته التي يعرفونها من المصاريف العادية مثل أي مسلم متوسّط الدخل، أو يُسَرِّحَهُنَّ، وهذا تصرّف راقٍ من أرقى التصرفات، لأنه من تعليم إلهيٍ، ولن يجبر النبي(ع) زوجته على العيش في ظروف ماليةٍ تقول إنها لا تتحمّلها، ولذلك عرض(ع) عليهن عرضاً حقيقياً: هذه قدراتي المادية بالحلال بما يحقّ لي من المال العام كأجْرٍ على تفرّغي لتولّي أمور المسلمين، فالتي ترغب بالبقاء معي وسلوكها يكون إيمانياً، فأهلاً وسهلاً، ومن لا ترغب فلن أجبرها على البقاء وسأسرّحها "عبارة ملطّفةٌ عن أطلّقها لأنها هي طلبت التسريح".

كما ترى، تفسير هذه الآيات حصراً بالنبي(ع) وزوجاته، باحثين في التاريخ عن تفاصيل عن حياتهم، يجعل الآيات هنا تاريخيةً بلا قيمة حقيقيةٍ، وقيمتها ستظهر عندما ترى النبي(ع) نموذجاً يعرضه القرآن عن عموم أي مؤمن، وبالخصوص، كنموذجٍ عن عموم أي متولٍّ لشأن عامٍ من شؤون المسلمين وتضغط عليه زوجته أو أولاده أو أقاربه... ليخصصهم من المال العام بشيء ما أكثر مما يأخذه بقية المسلمين.

بمقارنة سريعةٍ خاطفةٍ بين ما تقوله الآيات هنا، وبين ما هو منتشر كالنار في الهشيم في مجتمعات المسلمين من ترف المسؤولين وزوجاتهم وأفراد عائلاتهم وأقاربهم والموالين لهم... بترفهم من المال العام للمسلمين بالمعاشات العالية، أو بالسرقة منها والاختلاس والاحتيال... أو من استغلالهم لمناصبهم بأخذهم الهدايا التي هِيَ في الحقيقة رشاوى... أو احتكارهم للأعمال المنتجة والتجارية للتلزيمات العامّة... أو فرضهم للخوّات وللنسب على من سيأخذ التزاماً عامّاً... أو يحتاج لتراخيص من الدولة تمرّ عبر نفوذهم... بمقارنة هذه العناوين مع الوضع الاقتصادي والمعيشي للنبي(ع) ولزوجاته، ترى بسهولة المعنى الممتد تاريخياً للآيات هنا كتشريع إلهيٍ يحرّم على المسؤولين وعلى زوجاتهم وعلى عموم أقاربهم أي امتيازات تجعلهم فوق الطبقة المتوسطة مالياً من الناس.

إذا غضضنا النظر عن المجرمين الفاسدين السارقين الغاصبين... فإنَّ غالبية المسؤولين يرون أنفسهم يستحقون مداخيلَ عاليةً، على أساس أنهم بفكرهم المنير يديرون شؤون البلاد وتستفيد الناس من جهودهم... لِذَلِكَ يستحقّون الترفّه... ولا يعودون يرون أنهم موظّفون لخدمة الناس وحقّهم مثل حقّ باقي الناس بالتساوي بالعيش في كرامة.

بعض زوجات النبي رَأَيْنَ أن سلطة زَوْجِهِنَّ على المال العام تُعْطِيهِنَّ حقّاً بالاستفادة من ذلك، وبغض النظر عن تبريراتِهِنَّ التي تغاضت عنها الآيات والتي عنونتها باختصارها كلّها بالرغبة في التمتّع وزينة الدنيا، فلا تبرير مقبولٌ لذلك مهما كان نوعه، نقطة انتهى.

أحيلك إلى أوّل آية من سورة الأنفال لترى أن التشريع الإلهي بحاكمية الرسول على الأموال العامة للمسلمين لم يَكُنْ يَقْصِدُ جعله(ع) حرّاً ليصرفها على نفقاته الشخصية... وهنا لِنُكْمِلْ من مثال بسيطٍ من التاريخ المشهور حيث أعرب الخليفة الثاني أبو بكر عن تضايقه من استغراق تولّي شؤون المسلمين لكامل وقته بمعاش زهيدٍ، وهو نفسه المعاش الذي كان يتقاضاه الرسول(ع) شهرياً، وهنا الكلام عن مدّة أشهر من بعد وفاة الرسول، ولم يحصل تضخّم ماليٌّ أنزل

قيمة المعاش الشهري مقابل أثمان السلع... وبهذا المثال ترى أن الرسول حدّد معاشاً لنفسه بالضبط يكفيه ليعيش بكرامة هو وزوجاته كما يعيش أي مسلم من متوسّطي الحال، وبتعبيرنا الحالي: متوسطي الدخل.

نذكر أن أبا بكر وبعد إلحاح شديدٍ من الصحابة قبل زيادة معاشه بشكل طفيفٍ جداً... ويقولون إنَّهُ عرض على الصحابة التنحّي عن الخلافة لأن أوضاعه المالية ساءت بعدما استغرقت الخلافة كل وقته... عندها عرضوا عليه زيادةً على المعاش، وقبل بزيادة طفيفةٍ جداً... وبعض المسلمين يعتبرون أبا بكر مثالاً لهم ويلهجون باسمه في كل مناسبة بينما هم ناهبون للمال العام... وبعضهم يسبّه لسبب أو لآخر بينما هو السبّاب ناهب للمال العام وللصدقات بل وتصله الهبات من المتعصبين مذهبياً لأنه من السبّابين الشتامين! على الأقل لِيَنْظُرِ المحبّون لأبي بكر والسابون له إلى هذه المزية بترفعه عن المال العام! ولينظروا إلى تجنّبه توظيف أقاربه في الوظائف العامّة، وتجنّبه الاستفادة من منصبه لمصلحته الشخصية أو مصلحة أقاربه... ومثله الخليفة عمر وعلي، أين أنتم من حسنات هؤلاء حتى تعتبروا أنفسكم شيعة لبعضهم وأعداء لآخرين؟ على الأقل تساووا في حسنات الذي تعلنون كراهَتَهُ حتى تَكُونَ لكم عين لتسبّوهم! أنتم فيكم سيئات من العيار الثقيل جداً ولم تكن فيهم!

(يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً{30})
{يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ}، {مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ}، بعمل جنسيٍّ سيّءٍ، {مُّبَيِّنَةٍ}، بشكل واضحٍ فعلته عن قصد مع علمها بحرمتها، عندها، {يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ}، تتم زيادته، {ضِعْفَيْنِ}، مثله مرتين، {وَكَانَ ذَلِكَ}، التضعيف للعذاب، {عَلَى اللَّهِ يَسِيراً}، بكل سهولة يمكنه تعالى زيادة العذاب لهن، لأنَّ كونهن زوجات للنبي(ع) لن يُؤَمِّنَ لهن أي حصانة أو تمييز أو إحراج له تعالى... بل العكس في حال ارتكبن معصية فعذابهن مضاعف.

نلاحظ أن جملة "نساء النبي(ع)" عادة تشمل بنته وربائبه وزوجاته، وسياق الآيات وخاصة الآية الآتية 34 يشير إلى كلامها مع زوجاته فقط.

تعبير الضعفين يعطي معنى الضعف عن الأساس ثم ضعفٍ فوقه، فإن كان الأساس عشرة، فالضعف عشرون، والضعفان أربعون، وعلى كل حالٍ حتى لو كان ضعفاً عادياً لمرة واحدة، فأساس التعذيب هو بحدّ ذاته ألم شديدٌ.

حسناً، مات النبي(ع) وماتت أزواجه، فما نفع قراءتنا لهذه الآيات؟ ضع في بالك أنَّ عموم كلام القرآن عن نماذج، والآيات هنا نموذج لزوجات أي رجل له موقع دينيٌّ أو رئاسيٌّ، حيث إنَّ من أخطر ما يصيب عالم الدين أو الرئيس أو القائد أو القاضي... هو فساد زوجته وأولاده ثم فساد أقاربه. وهنا الآيات يفهمها نساء عالم الدين والقائد والرئيس... أَنَّهُنَّ محطّ أنظار الناس، فأي عمل سيّءٍ يقمن به فهو فضيحة وتضعيف لمقام زوجهن.

في الحالة العادية، أي عمل سيّءٍ يقوم به أي شخص عليه عقاب إلهيٌّ، سواء فعله في السرّ أو العلن، ولكن العقاب يزيد كلما كان للسوء أثرٌ أكبر على الآخرين، فإذا ارتكب الخطأ من له موقعية في المجتمع، هذا سيشوّه صورة الدين الإلهي وسيشجّع الآخرين على ارتكاب الأخطاء، لذلك يتضاعف عقابه في الآخرة... ونفس الشيء للمرأة التي زوجها أو ابنها أو أخوها... له موقع اجتماعيٌّ، فموقع الرجل الاجتماعي سيتأثر بما فعلته، وسيفقد قسماً من طاعة الناس له، ولن يبرِّئَهُ من فساد عائلته... ونساء النبي(ع) أبرز نموذج يمكن أن يتأثّر به المجتمع ويتأثّر به مقام زوجهن (ع) إن ارتكبن عملاً سيئاً، وزوجات بقية المسؤولين فإثمهن المضاف على أصل العقاب يكون بحسب درجة تأثر الناس بما يفعلنه وبحسب درجة مسؤولية زوجهن ومدى تأثيرها على الناس.

(وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً{31})
{وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ}، أي واحدة تعلن أنها تحت طاعة الله تعالى ورسوله(ع)، {وَتَعْمَلْ صَالِحاً}، وتقوم بالأعمال الصالحة الجيدة، حيث خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، والكلام عن التي باشرت بالتصرفات التي تراها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، عملياً هو تركها لما حرّمه تعالى وفعلها لما أوجبه تعالى. وبشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموماً وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، حتى لو كنت غير مقتنعٍ بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح،

ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائما أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به. وهذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو سيّء" فهو في الحقيقة اختراع من البشر وليس أمراً إلهياً.

{نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا}، سيصير معها ما حدّده تعالى كاستحقاق لها، {مَرَّتَيْنِ}، مرّة لأنها مؤمنة صالحة، ومرّة ثانية لأنها زوجة رجل له منصب، لأنها راعت مصلحة دينية أكبر من مصلحتها الشخصية، {وَأَعْتَدْنَا لَهَا}، وجهّزنا لها، في جنّة الآخرة، {رِزْقاً}، أشياء لسدّ حاجاتها الحياتية ورغباتها، {كَرِيماً}، من ناحية النوعية والكمية فالرزق كريم وهو محترم له قيمة عالية، ومن ناحية ثانية فهن يشعرن بأنهن محترمات، وقارنها مع شعور أهل النار بالإهانة من الأشياء المقرفة المتاحة لهم ليأكلوها في جهنّم، ومن المعاملة المهينة... وسترى أن وصف الرزق بأنه كريم يتضمّن شعور من يحصل عليه بأنه هو نفسه مكرّم محترم موقّر.

لاحظ استعمال حرف المضارعة "الياء" بدل "التاء" في كلمة "يقنت"، وستجد في كتب النحو والتفسير تبريرات قواعديةً اشتقوها من كلام العرب بهذه الطريقة، على أساس أن التاء للمؤنث والياء للمذكر، ولكن هنا ترى أن "تقنت" ستشير للواحدة منهن، "ويقنت" تشير لهنّ جميعاً، والقصد هو تشجيع جميع الزوجات على القنوت.

(يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً{32})

{يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ}، زوجاته وَإِمَائِهِ... {لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ}، إنْ تجنبتن غضب وعقاب رَبِّكُنَّ سبحانه وتعالى، وَتَرَكْتُنَّ السوء وقمتن بالصالحات، فأنتن مختلفات عن بقية النساء، لِأَنَّكُنَّ زوجات النبي(ع) التَّقِيَّاتُ.

أي رجل مُهِمٍّ لديه زوجة تهتم بسمعة زوجها واحترام الناس له، لن يكون زوجها بمكانة النبي(ع) عند الناس كممثِّلٍ للإله سبحانه، ولذلك زوجات النبي(ع) التَّقِيَّاتُ، لا يمكن قياس حالتهن مع أي زوجة رجل مُهِمٍّ آخر.

طَبْعاً هذا الكلام نتدرّج به من بعد النبي(ع)، حَيْثُ إِنَّ زوجاته(ع) لَسْنَ كالبقيات لأن موقع زوجهن فَرِيدٌ، وبعده(ع) زوجات علماء الدين والحكّام... وصولاً إلى الأثر الأقل ضرراً على المجتمع من أخطاء زوجات الرجال الذين ليس لديهم مناصب اجتماعية.

{فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ}، لا يكن قولكن قول خضوع، مثل كلام المجاملات واللياقة الزائدة عن الحدّ، كالردّ على صباح الخير بصباح الخير بدلاً من المجاملات الزائدة: يسعدلي هالصباح نورتنا... {فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ}، فإذا سمع كلامكن رجل في أساس فكره ومشاعره مرض، فساد وخلل، وَسَمِعَهُ رجل لديه أفكار ونوايا سيّئة، يَطْمَعُ وَيَرْغَبُ في أشياء أخرى مع أمل بالحصول عليها بسبب الخضوع بالقول، فهذا لن يفهم أنكن لائقات زيادة عن اللزوم بل سيفهمها كمجاملة إعجابٍ به لأنه مريض فكرياً ونفسياً. {وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً}، قولاً متعارفاً عليه بين المؤمنين العقلاء، قُلْنَ ما يقوله هؤلاء عادة، فلا يكن قاسياً ولا لَيِّناً رِخْواً.

بعبارة أخرى، نساء النبي(ع) يتعرّضن للتعاطي مع الناس لفتح باب البيت أو لتقديم الضيافة أو من مرافقته... أو على الأقل إِنَّهُنَّ محطّ نظر عند الناس بشكل عام وعند أقاربهن، لِذَلِكَ تُنَبِّهُهُنَّ الآية أنهن عندما يتعاطين مع الناس لَا يتكلمن معهم بطريقة اللياقة الزائدة عن حدّها والتي يُفَسِّرُهَا من في قلبه مرض على أن زوجة النبي(ع) تلاطفه! وَتُنَبِّهُهُنَّ الآية أن يتعاملن بالكلام المتعارف عليه بين الناس، مثلاً: أهلاً وسهلاً. هي جملة متعارف عليها عند الاستقبال، أمّا جملة: أهلاً وسهلاً بالمؤمنين أحباب الله الطاهرين، وأحباب هذا البيت، مشتاقون لهذه الوجوه الطيّبة... فهذا كلام لا يقال للغرباء، وهذه نوعية الكلام الذي فيه خضوع وَفِيهِ ليونة يفسّرها المريض فكرياً ونفسياً على أنها تتقرّب منه.

عَادَةً نحن نعتبر الطمع شيئاً سيئاً، لأننا نقول إِنَّ الطمع هو حرمان الآخرين من شيء أرغب بشدة في الحصول عليه وَحْدِي، أما في اللغة فالطمع هو مجرد الرغبة الشديدة في حصول شيء أو الحصول على شيء مع أمل بحصوله، وللطمع تفريعان، واحد يريد حرمان الآخرين من شيء ما والحصول عليه وَحْدَهُ، وواحد لا يريد حرمان الآخرين بل

يصبّ اهتمامه فقط بالحصول على ما يريد لنفسه، ولكلا النَّوْعَيْنِ تفريعان أيضاً، إذْ يطمع بالحصول على شيء حرام أو حلال، وفي الآية هنا الكلام عن الطمع بالحصول على شيء سيّءٍ.

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً{33})
{وَقَرْنَ}، واثبتن وابقين "من جذر الفعل قرر، والذي منه القرار والاستقرار"، {فِي بُيُوتِكُنَّ}، {وَلَا تَبَرَّجْنَ}، لا تظهرن بشكل مُلْفِتٍ بالثياب والزينة ومساحيق الزينة... {تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى}، كما كانت النساء تتبرج في الجاهلية في حالة الطيش قبل أن يَصِلَهُنَّ العلم الربّاني عبر الإسلام.

هذه الحالة تمرّ فيها المجتمعات عبر تغيّر الأزمنة، حيث ترى النساء لا يَهُمُّهُنَّ لا حلال ولا حرام ولا حشمة ولا عفّة... وكلّ ما يَهُمُّهُنَّ هو ظُهُورُهُنَّ بمنظر مُلْفِتٍ للآخرين، وهذا جهلٌ وطيشٌ، وهي تقصد أو لا تقصد أن يشتهيها الرجال... الآية تقول، أيتها الزوجة، إن لم يكن لديك شيء تخرجين لأجله من المنزل، فلا تخرجي فقط للتبرّج، وهذه حالة نراها منتشرة بين الشباب والصبايا "وبين الكبار المتصابين" لأنهم يخرجون من البيوت ويتمشّون فقط ليراهم الآخرون "ويُعْجَبُوا بهم..."، هنا الآية تنبّه الزوجات مِنْ فعل هذا العمل، لأنها زوجة، وإذا تبرّجت وخرجت، فلمن تتبرّج؟ وتلاحظ أنّ القرآن يسمّي هذه الحالة بأنها تبرّج الجاهلية الأولى القديمة، لأنها من حركات وتصرفات الطيش الأولى التي كانت دارجة قبل هذا الدين الإلهي الذي بيّن لكم وقوّم لكم التصرفات حتى تَتَعَلَّمُوا الصلاح.

{وَأَقِمْنَ}، فلا تعطّلن ولا تهملن أو تتركن، {الصَّلَاةَ}، التوجّه والإقبال، والمقصود هي الحركات والكلمات التي تعبّر عن العبادة لله تعالى، وهي الصلوات الخمس اليومية الواجبة.

{وَآتِينَ الزَّكَاةَ}، اجْعَلْنَهَا عند من يوزّعها بحسب ما يأمر سبحانه أو وَزِّعْنَهَا أنتم بحسب ما يأمر سبحانه، وكلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، حيث تشير لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زَكِيَّةٌ، مال زَاكٍ، طعام زَاكٍ..."، ومنذ القدم صارت مصطلحاً دينياً يشير إلى دفع نسبة محدّدة من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ}، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، يدفع منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ}، لِتَكُونَ نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

{وَأَطِعْنَ اللَّهَ} تعالى {وَرَسُولَهُ}(ع)، نَفِّذُوا ما يَقُولُهُ تعالى وما يقوله رسوله(ع) لكم.

{إِنَّمَا}، بهذه الأوامر فقط، {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ}، الأشياء المُنَفِّرَةَ غير المحببة بسبب سوئها، حتى لو كانت بسيطة، يا {أَهْلَ الْبَيْتِ}، أيها المنتمون لبيت النبي(ع)، ويريد سبحانه أن {يُطَهِّرَكُمْ}، حيث يريد جعلكم خالين من الشوائب والأشياء المكروهة، {تَطْهِيرًا}، بشكل تام بكل ما تحمل كلمة طهارة من معنى.

كلمة رجس يناسب تعريفها في استعمال القرآن وأشعار العرب قديماً بِأَنَّهُ مُنَفِّرٌ منه لسوئه، وفهمها أسهل بمضاداتها بالبركة، والرجز يناسبها في استعمال القرآن: المكروه المؤذي لسوئه. وفي استعمال العرب قديماً تشير لعموم الشيء المسبب للاضطراب، سواء الإيماني أو النفسي أو الجسدي، ويشمل وصف السوء المكروه لأنه مُؤْذٍ مع الاضطراب، وبهذا المعنى استعملها القرآن.

إذن، هذه التنبيهات ليست لاتهامكن بها للتقليل من قيمتكن أمام الآخرين، ولم يتكلّم عنكن سبحانه كمكسر عصا لتتعظّ الآخريات بكن، لا، بل لتنتبهن منها حتى تَتَمَاشَيْنَ مع إرادته تعالى لَكُنَّ لِتَكُنَّ لائقات بالموقعية المعنوية كنساء ينتمين لرجل له مكانة دينية فريدة كنبي، ولن تتكرّر من بعده هذه المكانة لأي امرأة أخرى، فمهما علت مسؤولية زوجها فلن تصل إلى حساسية موقعكن كزوجات لرسوله تعالى على الأرض.

كما تعلم، بين المسلمين كلام كثير حول هذه الآية التي صارت نزاعاً مذهبياً عقيماً بين أنصار السيدة عائشة وأبيها... وأنصار السيدة فاطمة وزوجها... وكل فريق يريد مدح شخصياته وبالطريق "أو علنا" يريد ذمّ شخصيات الطرف الآخر! وهناك فريق ثالث يحترم شخصيات كلا الفريقين ولكنه إمّا مال لهذه الفرقة أو تلك أو لم ينجح في حسم النزاع...

أنا لا أفهم هذا الدين وهذا التدين! ولا أفهم كيف يكونون "علماء دين" وهم بهذا المستوى من البعد عن الدين بمشيهم خلف العصبية والمذهبية! وسأقول كلاماً مختصراً، هذه العقلية هي التي سبّبت وجود روايات يستند عليها كلّ فريق لإثبات وجهة نظره، وهي روايات نابعة من الجيل الأول والثاني والثالث... من المسلمين الذين كانوا يفكرون بنفس الطريقة من الخلاف والاختلاف مع الطرف الآخر عبر تأليفهم أو تزييفهم أو تلاعبهم بالروايات عن النبي(ع)، أو تحويرها أو تضخيمها أو عرضها بما يخالف الظروف التي حصلت فيها... وتدعيم هذا الهجوم على الآخرين بآيات القرآن! ومنها هذه الآية التي يؤكّد فريق من المسلمين بأنها نزلت في نساء النبي خاصَّةً، ويؤكّد فريق آخر بأنها نزلت في علي وفاطمة وأولادهما خاصَّةً، وفريق ثالث وسطي شمل الزوجات مع أقارب النبي(ع) عامَّةً، حيث ضمّ بني عقيل وبني جعفر وبني العبّاس، ومن ألطف ما قرأت رواية تقليدية لرواية أهل الكساء المشهورة عن أم سلمة، حيث ألّف أحد ظرفاء "الكذّابين الوضاّعين" رواية مماثلة يقول فيها إنّ النبي(ع) نشر رداءه على عمّه العباس وأولاد عمّه العباس، ودعا لهم وقال بأنهم أهل بيته... وقال: إنما يريد الله ليذهب عنكم... وألطف ما في الرواية أن الأبواب والحيطان نطقت "لتؤمّن" لدعاء النبي(ع) لآل العبّاس وقالت الحيطان والأبواب: آمين!

إن بدا لك بوضوح أن هذه الرواية كذب بكذب من متملّق "مسّاح جوخ" للعباسيين، فهناك من المعتبرين من المحترمين علمياً مَنْ يقول بأن سندها حسن! ويبدو واضحاً أنّ من ألّفها يريد تحطيم رواية أم سلمة التي ذكرت المشهورين بوصف أهل الكساء من الطالبيين "علي وزوجته وأولاده"، حيث زاد عليها نطق الحيطان والأبواب! وهذا يا عزيزي من مصائبنا المستمرة التي لم تنقطع ولن تنقطع طالما الناس بهذه النفسيات العصبية والمذهبية والعشائرية والعائلية والمناطقية... لذا دائماً ستجد من يشدّك إلى ناحيته، وندر أن تجد من يشدّك إلى ناحية الله تعالى، وهم في تفاسيرهم فعلوا نفس الشيء، إذ يريدون شدّنا نحو أي شيء مذهبي مدّعين أنه مرضاته تعالى!

النسبة للآية هنا، هي تقول إنَّهُ تعالى أنزل توجيهات لنساء النبي(ع) ويريد من هذه التوجيهات أن يطهّرهن من الرجس، حيث يريدهن أن يعملن لِيَكُنَّ خَالِيَاتٍ من الشوائب حتى لو كانت بسيطة، فهو لم يطهّرهن بقدرة قاهرة ولا بميزة خاصة، بل إن اتَّبَعْنَ التنبيهات فقد طهرن من الرجس وإلاّ فلم يطهرن. هذا هو معنى الآية، إذ نالت تلك النساء عناية التنبيهات الإلهية لأجل أنهن زوجات الرسول(ع) الذي يمثّل الدين الإلهي، وحتى يكنّ نموذجاً لبقية النساء اللواتي لأزواجهن موقع مسؤولية عامّة.

لا علاقة لي بكل الروايات المذهبية، ولست مضطراً لتوجيهها، ولا أنصحك بالاهتمام بها، فهو الإله "الله" إلهك، ومرضاته هدفك، ودينه منهاجك، وقرآنه كتابك، ورسوله قدوتك، والكثيرون بعقلية العصبية والجهل والكذب... ألّفوا وتلاعبوا بأحاديث النبي(ع)، لدرجة أنطقت الأبواب والحيطان لآل العبّاس! فلا تظنّن أن جماعتك أصدق من جماعة الآخرين، لأن كلّهم فيهم الخير والبركة في الكذب والمبالغة والزيادة والنقصان والتلاعب على الكلام، وفيهم ما يكفي من عمى القلب من المذهبية والعصبية.

بالنسبة لحبّ "علي وفاطمة والحسن والحسين"، فقد ندر بين المسلمين من تجده يشك في مكانتهم الإيمانية الرفيعة، وندر أن تجد من يكرههم... نعم مرّ ويمرّ في التاريخ جماعة أوباش منتمون للإسلام بالاسم فقط، وأصلاً هم يكرهون الإسلام، ويتحركون تحت أي راية ضلال، لذا يكرهون آل علي، أمّا الغالب الأعم من بقية المسلمين فهم من المحبين لآل علي، وبالأصل حبّ عليّ وآله نموذجٌ لحبّ أي مؤمن وليس فرضاً علينا لهم فقط.

تاريخياً حصل خلاف سياسي بقالب ديني بين المسلمين، حيث انقسموا سياسياً لمذاهب طائفية دينية، وبعضهم حمل حبّ آل البيت راية لهم ضد كلّ الآخرين علماً أن الحكّام وقلّة قليلة نادرة من الناس آذوا ذرية آل بيت النبي(ع)، والبقية الغالبة من المسلمين هم من المحبّين لهم، ولكن العصبية أعمت القلوب لاتهام كل الآخرين ببغض أهل البيت واحتكار محبّتهم لجماعة محدّدة كسلاح قوي موجّه ضد الآخرين... ومن الطرف الآخر تحزّب الآخرون بشكل مضاد متّخذين من الشخصيات الإسلامية الأخرى راية لهم... وبعضهم مدافعون حتى عن حكّام السوء الذين عاصروا أهل البيت

والأجيال الأولى من ذرية علي وفاطمة الذين حملوا لقب الإمام وكانوا مطروحين كخلفاء للرسول... ومن بين عصبية هذه الطائفة وتلك نتج تفسير سياسي مذهبي ديني للقرآن، حيث يفسّرون كلامه بما يدعم شخصياتهم الدينية...

خذ علماً يا عزيزي ويا عزيزتي أن أي نقطة ماء تسقي بها تربة لمزروعات الفتنة، وأي كلمة تشجّع على الفرقة والانقسام بين المسلمين، وأي جملة تضيء على الخلافات بين المسلمين... فليتحمّل قائلها نصيبه من دم المسلمين الذين يقتلون بعضهم البعض باسم الدين الإلهي، وليتحمّل نصيبه من الفساد الناتج عن الفرقة بين المسلمين والذي أتاح لأعدائنا التحكّم بنا وتمزيقنا، ولا يضحك أحدكم على نفسه ويقول: لا علاقة لي بقتل الأبرياء أنا فقط أضيء على الحقائق التاريخية... لا، أنت شريك في الفتنة والقتل والفساد وشرذمة المسلمين وتفرقتهم.

بقي شيء، من بين الكلام الكثير الذي تجده في الكتب حول التفسير المذهبي للآية هنا، بين المصرّين على قصد الآية بأهل البيت لخصوص "علي وفاطمة والحسن والحسين"، والآخرين المصرّين على حصرها بنساء النبي(ع)، فإنّ سياق الآيات لا يتحمّل إلا كلامها عن نساء النبي(ع)، حيث إن كلمة "أهل" لغوياً تشملهم وتشمل عموم من انتمى لبيت النبي(ع)، وكلمة "آل" لا تشمل إلا أقارب النسب، وما قيل عن تذكير "عنكم" ليشمل ذكراً أو ذكوراً مع أهل البيت، وعليه لا يكون الكلام موجهاً حصرياً لنساء النبي، فإن ما ورد في الآية 73 من سورة هود {قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ}، لا يؤيّده، لأنه هناك إن كان التذكير ليشمل النبي إبراهيم(ع) فهنا يمكن القول أن التذكير ليشمل النبي محمّد(ع).

وما قيل عن تقديم وتأخير في آيات القرآن تحريفاً أو تلاعباً بالقرآن، أو هو حالة متكررة في القرآن بإقحام آية من خارج سياق الفقرة... ويقولون ذلك لتبرير سحبهم لآية ما من سياقها لتتناسب مع تفسيرهم لها... فهذا شيء فعله غالبية المفسرين من مختلف الطوائف بناءً على كمّ هائل من الروايات التي جاء فيها تفاسير للآيات يخرجها عن سياقها، وبمراجعة تلك الآيات في دراستنا هذه يتبيّن لك فساد رواياتهم وآرائهم، وهذا باب فتحوه وسيتحاسبون عليه بتقديمهم كذباً دليلاً للكافرين والمنافقين على حصول تحريف في هذا القرآن... وهم أصلاً لديهم هذه المساهمة بموافقة جماعية عندما قبلوا بتعدّد القراءات، وتعدد معاني الكلمات والجمل... واتّبعوا روايات مخالفة لصريح القرآن...

بعضهم يجادل بمصطلحات الفلسفة وعلم الكلام ليقول: إنّ الإرادة الإلهية هنا إرادة "تكوينية" حتمية الوقوع، بمعنى أن الله طهّرهم وانتهى الأمر وصاروا معصومين، وليست إرادة "تشريعية" مرتبطة بأفعالهم! وهذا تلاعب عجيب بالكلمات للّيّ عنق القرآن، فلو كانت الطهارة حتمية ومفروغاً منها وعصمةً لا مجال للنقاش فيها، بسبب جملة "يطهركم" فالقرآن يستعمل نفس التعبير {يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ} في الآية 6 من سورة المائدة بعد الأمر بالوضوء والتيمم: {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ}، فهل كل من توضأ أو تيمم صار معصوماً طهارته حتمية تكوينية؟ لا، بل هو تشريع، إن التزمت به وعملت بمقتضاه تحققت لك الطهارة.

أخيراً، كاتب هذه السطور ليس ناصراً لأي مذهب ولا لأي طائفة، ولا معادياً لأي منهم، إلا المجرمين الظالمين من أي مذهب أو طائفة كانوا، وها القرآن أمامك من أوّله لآخره يمنعنا من التمذهب والتحزّب دينياً وسياسياً، وذمّ من سبقنا من أهل الكتاب مراراً وتكراراً وحذّرنا أن نكون مثلهم أحزاباً دينية وشيعاً سياسية وعسكرية... وخذ مثلاً ما ورد في الآية 105 من سورة آل عمران {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.

لا للغلو في حبّ بعض الشخصيات الدينية لدرجة تأليههم أو تربيبهم أو التعامي عن أخطائهم... ولا للتساهل عن أخطائهم وتبريرها وتقديسهم... وبما أننا لسنا على درجة الوعي الكافي للتحدّث في الأمور التاريخية علمياً، وبما أن أي كلام حول تاريخ تلك الشخصيات سيحرّك نعرة العصبية، فلنتركه لأنه لم ولن يغيّر أي شيء من واقعنا المرير من التناحر والتشرذم وتحكّم أعداء دينه تعالى بنا، ونحن كالمهزلة في بلدان عاث فيها الفساد بكل أنواعه، ويديرنا في كل بلد ضابط مخابرات "فاسق فاجر قاتل للنفس المحترمة..." تابع لدول لا تريد لنا الخير...

(وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً{34})

{وَاذْكُرْنَ}، يا نساء النبي(ع)، استحضرن في فكركن ومشاعركن وقولكن وعملكن، {مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ} تعالى {وَالْحِكْمَةِ}، فأنتن في بيت فيه نبي يقرأ عليكن جمل القرآن نَقْلاً عن الوحي، وهي آيات لأنها أمور مميزة بنسبتها له تعالى، وهي حكيمة حيث فيها الصوابية وليست عبثية أو للتسلية، وتجعل من يفهمها يرى الصوابية في الأمور.

{إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا}، وهنا الكلام عن إمكانية تعامله سبحانه مع الأمور الدقيقة، ومن دون أن نراه أو نسمعه أو نلمسه سبحانه فهو معنا، حتى في بيوتنا الخاصّة بنا المغلقة على الآخرين وما يجري فيها لا يخفى على اللطيف في تواجده في كلّ السماوات والأرض.

كَانَ، {خَبِيرًا}، لديه سبحانه تفاصيل أخبار كل شيء. وكما تلاحظ، التعبير يريد أن يشعرهن بالخصوصية رغم أنهن تحت المراقبة الإلهية، حيث عبّرت الآية بالمراقب: اللطيف، غير الفجّ ولا المزعج ولا الواضح... بل لطيف لأنه موجود ولكن لا تشعرن به بالحواس الجسدية.

كما ترى، نساء النبي(ع) لديهن نبي قريب منهن جِدًّا لتعليمهن دينه تعالى، ولتنبيههن من السلوكيات السيئة ولترقيتهن إلى الأحسن إيمَانِيًّا، حيث تأتي الآية هنا لتلفت انتباههن للفرصة المتاحة لهن وغير المتاحة للكثير غيرهن، طَبْعًا هنّ نموذج "مع فارق التشبيه" بحالة أي زوجة لزوج لديه علم ديني لتستفيد من علمه وسلوكياته الإيمانية...

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً{35})

{إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ}، إنَّ المنقادين المطيعين، وهنا المقصود المنقادين لله تعالى، وكذلك بقية الصفات التي تذكرها الآية فَهِيَ تشير لصفات دينية، {وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}، الذين أعلنوا أنهم معتقدون بهذا الدين الإلهي، {وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ}، الذين أعلنوا أنهم تحت الطاعة لله تعالى، {وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ}، الذين لا يكذبون فَإِيمَانُهُمْ حقيقي وليس عن نفاق، {وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ}، الذين لا تفلت أعصابهم وشهواتهم السيئة لتتحكّم بهم، فَيَتَصَرَّفُونَ عن وعي ودراسة تحت الضغوط.

{وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ}، الذين يشعرون بالضعف أمام قدراته تعالى، {وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ}، الذين يقدمون من أموالهم وأملاكهم لمن يحتاج المساعدة، {وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ}، الممتنعين عن الطعام والشراب، وذلك في الشهر الذي أمرهم سبحانه بصومه، {وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ}، الصائنين فروجهم الذين يصونون ما بين أرجلهم، {وَالْحَافِظَاتِ}، فَلَا يَفْعَلُونَ السوء الجنسي، {وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ}، حَيْثُ يستحضرونه تعالى في فكرهم ومشاعرهم وقولهم وعملهم بكثرة في أوقات كثيرة.

لكل من هو أو هي بهذه الصفات التي مرّت: {أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم}، جهّز وهيّأ سبحانه لهم، {مَّغْفِرَةً}، تجاوزا عن ذنوبهم، وأعدّ سبحانه لهم، {أَجْرًا عَظِيمًا}، فَعَلَى الصفات التي يحملونها يوجد أجر، أَجْرٌ، شيء حدّده تعالى كاستحقاق لهم، شيء قال تعالى إِنَّهُمْ يستحقونه منه إن كانوا بهذه الصفات، وسيكون الأجر، {عَظِيمًا}، فَلَنْ يكون أَجْرًا عاديا، وعندما يقول الإله سبحانه وتعالى: {أَجْرًا عَظِيمًا}. الإله سبحانه الذي يعتبر تصميمه وخلقه لهذا الكون الهائل شَيْئًا عَادِيًّا وَسَهْلًا وما فيه من متاع يعجبنا فَسُبْحَانَهُ لم يصممه ليكون أَجْرًا لسعادة للمؤمنين، فَلَا يمكنك الآن ولا بأي شكل أن تتخيّل عظمة الأجر في جنّة خالدة صمّمها سبحانه لسعادة المؤمنين.

نتذكّر أن القرآن لم يفرّق بين صدقة واجبة وصدقة مستحبّة، بل ركّز حديثه على مساعدة المحتاجين للمساعدة الملحّة، فَإِنْ كانوا بحاجة ماسّة للمساعدة فَالصَّدَقَةُ عليهم واجبة إن كنت قادرا على مساعدتهم، وترك مساعدة الفقراء والمساكين سوء وعليه عقاب.

الآية هنا من نوادر كلام القرآن المادح للناس بصفات تعتبر دينية مخلوطة مع صفات الخير، فَعَادَةً يكون كلام القرآن عن الحقّ والصلاح بما فينا من قابلية تمييزهما، ولا يتغيّر هذا عند استعماله لتوصيفات نعتبرها دينية، ولتفهم قصدي قارن بين هذا الدين الإلهي وبين الأديان الأخرى، واشمل معهم حتى الذين يدّعون أنهم لا دين لهم، فَهُمْ لهم عقيدة

وشريعة، وهذا دين. وهكذا سترى أن سوء معتقدات الآخرين بأمور غير صحيحة ولا واقعية، وسوء تشريعات الآخرين الفاسدة... بِنَظَرِكَ تَمْنَعُ من وصفهم بالصلاح على المعيار الحقيقي للصلاح.

اَلْوَصْفُ مدحا بالمسلمين، والمؤمنين والقانتين... سيبدو أنه وصف نابع من الالتزام بدين، فَنَسْتَعْمِلُهُ نحن الْمُسْلِمُونَ المنتمون لهذا القرآن المصنّف بأنه دين في مقابل أديان أخرى، ويستعملها أهل الديانات الأخرى بصيغ وتعابير مشابهة بحسب ما يناسب ثقافتهم وعاداتهم، وَمِنْ بعض عادات بعض الديانات الهندية أن يأخذ العريس عروسه ليمارس معها الجنس كهنة المعبد قبله، ويعتبرونه مؤمنا صالحا تَقِيًّا...

انْتَبِهْ أنه تعالى ركّز في قرآنه على الخير والصلاح ليس مما يقوله تعالى لمجرد أنه سبحانه قاله، بل على معيار مرجعي، وعلى أساس المعيار تصير الأوصاف المذكورة هنا في الآية حسنة صالحة، وَمَا تراه من أفعال سوء وإجرام يقوم بها بعض المسلمين، وهم جماعات وجماعات كبيرة لها جماهير وتصف نفسها بالمؤمنة الصالحة الخاشعة القانتة... المدافعة عن دين الله، والإسلام الأصيل، وعلى نهج السلف الصالح... فَهَذِهِ الأوصاف لن تجعلهم يختلفون عن المجرمين الفاسدين الظالمين من أهل الديانات الأخرى.

لو حاولت تثبيت القيم الصالحة على مرجعية يتّفق عليها الجميع، فَهَا هِيَ الدِّرَاسَاتُ أمامك والفشل فيها واضح إلا التي اعتمدت على مرجعية كلامه تعالى وبالخصوص على قرآنه كمرجع لم يتعرض متنه للتحريف، وللأسف تَفَاسِيرُهُ فيها الكثير من الفساد...

لأختصر لك ما قيل عن ذلك، أَقْوَى مرجعية هي ما ترفضه أنت من الآخرين، وما تريده منهم وتقبل أنت أن تقوم به. ومضافا له ما تحدّد كمصلحة عامّة للجميع لاستمرار الحياة المدنية... وأمور أخرى.

يبقى كل ما قالوه ضعيفا لأن وجهات النظر المختلفة المبنية على ذلك أَنْتَجَتْ تشريعات مختلفة، فَمَا معنى ترك القاتل عن عمد حيا والحكم عليه بالسجن غير المؤبّد وهو لم يعلن ندمه ولا توبته بل ويعلن أَنَّهُ سيكرّر إجرامه!

القلب السليم، أساس الفكر والنفسية السليمة، بدرجاتها العالية جدا توصلنا إلى الحكمة، وهي قابلية ممنوحة لنا ممن خلقنا، وطبيعته سبحانه بقدراته الفائقة نتج عنها حكمة، فَلَا سبب عنده تعالى ليكذب أو ليستعجل أو ليتصرّف بعصبية أو ليكون مزاجيا عبثيا... وَمَرْجَعِيَّتُنَا نحن المخلوقات للحقّ والصلاح نراها بالقابلية الممنوحة لنا من صاحب القدرات الفائقة التي نتج عنها صفات حسنى لا يصدر عنها إلا الحقّ والصلاح.

بأساس الخلقة كل إنسان منّا صالح ليكون مرجعا للحقّ والصلاح إن فعّل فقط سلامة قلبه، ومرارا ضرب القرآن مَثَلًا نَمُوذَجًا عن ذلك بشكل بارز عموم الأنبياء وبالأخص النبي إبراهيم(ع). ولكن حالتنا عموما ليست حالة صلاح القلب بسبب انجرارنا وراء عمل سوء سبّب خللا في حكمتنا.

يكفي من الإطالة عليك، والخلاصة أن الأوصاف التي تَعْتَبِرُهَا دينية كشيء غريب، فِي دينه تعالى ما هي إلا أوصاف نابعة من الصلاح على المعيار الإلهي للصلاح، ولو حافظنا على سلامة قلبنا لتماشينا بالتمام مع كلامه تعالى وَنَرَاهُ حقّا وصلاحا.

الوصف بالمسلم مدح لمن انقاد وأطاعه تعالى، ومعلوم من قرآنه ما يأمر به تعالى لنطيعه به، وكلّه واضح حسنه وصلاحه، وأي نفور من سوء ما فَهُوَ حتما ليس كلامه تعالى بل كلام المنتمين بالاسم لدينه سبحانه، أو فينا مرض قلبي منعنا من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى، لِنُرَاجِعِ القرآن لنرى أنه تعالى شرح وبرّر لنا كل شيء أمرنا بالإيمان والالتزام به.

يعني لا تفهم الأوصاف الحسنة هنا كأوصاف للتابعين لهذا الدين، ومشابهة لنفس الأوصاف التي يطلقها الآخرون على من يتّبع دينهم، لا، لِأَنَّ الْأَوْصَافَ هنا على مسطرة الحقّ والصلاح، وأي إنسان يتبع الحقّ والصلاح فَهُوَ موصوف بها، وإلا فَلَا.

بقي شيء، حَيْثُ درج بين بعض جماعات المسلمين تصنيفات ومزايا يرون أنها الإيمان من الدرجة العالية، ولم يذكرها القرآن، وَلَمْ يعد يَكْفِهِمْ وصف الإيمان والعمل الصالح ليحترموا بعضهم البعض وليعتبروا بعضهم البعض مؤمنين

صالحين، بل يحترمون أكثر الذي يفسّر المنامات، والذي يأخذ خيرة تخرق المستقبل، وَيَعْتَبِرُونَهَا علامات الإيمان العالية! وينسبون لآخرين خوارق ناتجة عن إيمان عال... وهكذا حتى طاروا وحلّقوا بعيدا عن بساطة ووضوح كلامه تعالى المادح للمؤمن العامل للصالحات، وصار لديهم شروط للإيمان العالي ما أنزل بها تعالى من سلطان، فَهَلِ الذي كان عنده علم من الكتاب وأتى بالعرش برمشة عين كان مؤمنا أكثر من النبي سليمان(ع)؟ أم العفريت من الجنّ كان مؤمنا أكثر؟ أم النبي عيسى(ع) أكثر إيمانا من بقية الأنبياء لأن ما جرى على يديه من شفاء للمرضى وإحياء للموتى وخلق للطير مباشرة من طين... هِيَ أمور لم يفعلها الكثير من الأنبياء ومن ضمنهم النبي نوح وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَمُحَمَّدٌ صلواته تعالى عليهم.

لتكن الآية هنا نموذجا لك عن كل كلامه تعالى والذي لا ترى فيه ما هو دارج في كثير من أدبيات جماعات تدّعي أنها مؤمنة أكثر من الآخرين، وأنها تعلم ما لا يعلمه الآخرون عن أسرار الإيمان العالي وعن أسرار المؤمنين من الدرجة العالية.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً{36})
نرجع لأولوية الرسول (ع) بالمؤمنين من أنفسهم لتطبيق شرعه تعالى، حَيْثُ إِنَّ بداية السورة وجّهت كلامها ضد الكافرين والمنافقين المعارضين لتشريعاته تعالى، وأرتنا قيمتهم لنرى منها قيمة تعليقاتهم... وانتقلت لبيت النبي كأصغر دائرة وكنواة لتنبّه أهله من أي مخالفة سيكون لها أثر أعمق على الآخرين لأنهم أهل النبي... وهنا الكلام مع الذين قالوا إِنَّهُمْ مؤمنون، لِأَنَّ هَؤُلَاءِ ليس لديهم نيّة فسق ولا نيّة نفاق، ولكن بعض الأحيان تتحكّم بقلوبهم مصالح شخصية ورغبات دنيوية تَمْنَعُهُمْ من الالتزام بشرعه تعالى:

{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ}، لذكر أو أنثى يعلنون أنهم معتقدون ملتزمون بهذا الدين الإلهي، حَيْثُ لَا يحق لهم ومن غير المفترض منهم، {إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا}، أَيْ صَدَرَ حكم أو قرار نهائي من الله تعالى أو من رسوله(ع) في أمر ما، في موضوع ما، وَمَا كان للمؤمن أو للمؤمنة، {أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ}، إِذْ مِنَ غير المفترض منهم اعتبار أنفسهم مخيّرين في تنفيذ ما قاله تعالى أو قاله الرسول(ع)، وَلَيْسَ من المفترض منهم أن يختاروا بين تنفيذه أو تركه، بل يجب الالتزام بتنفيذه.

{وَمَن يَعْصِ}، والذي لا يطيع، {اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا}، بِشَكْلٍ واضح صَارَ على الشيء الخطأ الذي لا يوصله للنتيجة الصحيحة.

اَلْآيَةُ تعطي معنى أدقّ، حَيْثُ تَقُولُ إِنَّهُ لا يتماشى في نفس الوقت إعلان الاعتقاد والالتزام بالدين الإلهي مع مخالفة كلامه تعالى وكلام رسوله(ع). وَمَنْ أعلن أنه مؤمن فَمِنَ المفروض أن يطيع الله تعالى ورسوله(ع)، وَلَيْسَ على مزاجهم يتبعون دينه تعالى فيما يعجبهم وَيُخَالِفُونَهُ فيما لا يعجبهم، لِأَنَّ هَذَا ليس إيمانا.

(وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً{37})
الْآنَ تعرض السورة نموذجا عن تشريع إلهي حقّ، ومخالف لعادات وثقافات الناس الباطلة، وقبل أن نبدأ بدراسة الآية ألفت اِنْتِبَاهَكَ أن الحادثة حصلت وانتهت وبعد ذلك نزلت الآيات، وَلَوْلَا الْمُنَافِقُونَ والذين في قلوبهم مرض لمرّت حادثة زواج النبي(ع) من طليقة ربيبه من دون أن يهتم القرآن بذكرها...

سَتَرَى بوضوح من الآيات أن الخلافات بين زيد وزوجته تفاقمت حتى وصلت إلى الطلاق، وكان زيد يراجع النبي(ع) في ذلك وَزَيْدٌ مُصِرٌّ على تطليق زوجته، وأثناء ذلك جاء أمر إلهي للنبي(ع) بالزواج منها بعدما يطلقها زيد، وإلى هنا لا مشكلة في الموضوع، وَلَكِنَّ زَيْدًا ربيب للنبي(ع)، حَيْثُ تبناه مذ كان ولدا، وفي عادات الناس أنه سيصير مثل ابنه وَبِالتَّالِي لا يحق له الزواج من طليقة ربيبه... ويبدو من الآية أنه هنا جاء أمر إلهي للنبي(ع) أن يتزوج من طليقة زيد بعدما يطلقها زيد، وَاسْتَصْعَبَ ذلك النبي(ع) وأخفاه في نفسه وحاول جعل زيد يتراجع عن الطلاق... وَحصل الطلاق

وتزوجها النبي، وسبحانه أمر بذلك ليكون النبي (ع) نموذجا تطبيقيا لشرعه تعالى لكسر الثقافة المنتشرة عن اعتبار الربيب ابْنًا حَقِيقِيًّا، وَبِالتَّالِي كَانُوا يحرّمون على المبتنّي الزواج من طليقة الإِبْنِ المتبنّى.

يَبْدُو واضحا أن النبي (ع) كان يحاول بشتى الطرق التفلّت من هذا الوضع، حَيْثُ يُحَاوِلُ إقناع زيد بالتراجع عن قرار الطلاق، حتى لا يصير في موقف محرج أمام الناس إذا تزوج طليقة ربيبه، لِأَنَّهُ جاءه أمر إلهي بذلك، وَزَيْدٌ "الربيب" أصلا ليس على وفاق مع زوجته ويريد طلاقها، والرسول يحاول بشتى الطرق منعه عن ذلك حتى لا يصير مُجْبَرًا على تنفيذ الأمر الإلهي بالزواج من طليقة ربيبه، وبذلك سيصير حديث الناس وتسليتهم لأنه تزوّج ربيبة ابنه بالتبني، وسيتهمونه بأنه اخترع شرعا يجيز له الزواج من طليقة ربيبه... وسيتهمونه بالإعجاب بزوجة ربيبه... وهذا ما يبدو من الآية هنا ومن الآية 57 و 60 تلميحا وفي الآية 69 صريحا، وَحَصَلَ فعلا وتسلّى بعض الناس بتلفيق قصص كاذبة عن الرسول بسبب زواجه من طليقة ربيبه، ودخل من كلامهم إلى سيرته (ع) ما صار الناس يتناقلونه وكأنه حصل فعلا بينما هو تلفيق وكذب!

نرجع للآية، {وَإِذْ تَقُولُ}، أيها النبي محمّد(ع)، {لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ}، حَيْثُ خَلَقَهُ وسوّاه ورزقه وهداه... {وَأَنْعَمْتَ} "أنت" عليه، حَيْثُ رَبَّيْتَهُ واعتنيت به، وكما ترى إِنَّ الْآيَةَ استبدلت "تبنيته" بـ "أنعمت عليه"، فتقول له:

{أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ}، وموضوع الكلام عن أن لا يطلّقها وَيُمْسِكَهَا وَيُبْقِيَهَا زوجة له، {وَاتَّقِ اللَّهَ}، أَيْ تَجَنَّبْ شيئا لا يحبّه تعالى. وهذه الجملة توحي بأن زيدا فعل شيئا مخالفا للتقى على معنى أنه سيفعل شيئا يعاقب عليه سبحانه، ونحتمل بشكل ضعيف أنه قال كلاما غير لائق عن سيئات زوجته وهو يشرح سبب نفوره منها، حَيْثُ يَأْمُرُهُ النبي(ع) بالتقى ليتوقف عن الكلام السيء عن زوجته، ولكن نحتمل بشكل أقوى أن نفوره منها كان لأسباب لا تستدعي طلاقها... لِأَنَّ السُّلْطَةَ الإلهية الممنوحة للزوج والتي تمكّنه من طلاق زوجته ساعة يشاء، فهذه السلطة لم يمنحها تعالى للزوج ليكون عبثيا مزاجيا ليطلّق بدون موجبات عقلانية للطلاق، وهذا هو الاحتمال الأقوى الذي تفهمه من أمره بالتقوى في خصوص موضوع إصراره على الطلاق، ولنفهم ذلك بسهولة نتذكّر بعضا من المرويات التي بمعناها العام تشير لبغضه تعالى للطلاق، وَهُنَا الكلام عن تقواه تعالى فيما لا يحبّه للمؤمن.

أَطَلْتُ عليك لأنهم قالوا كلاما بعيدا عن العقلانية لتبرير استعمال الآية لكلمة تقوى في حالة الطلاق، على أساس أن التقوى تشير فقط لترك عمل حرام، ولكن تقواه تعالى تتدرجّ من ترك ما لا يرضيه تعالى حتى لو كان حلالا، كالعفو عمّن ظلمك... وَتَرْكُكَ لذلك هو ضعف في تقواه تعالى مع أنه ليس واجبا، وَفِعْلُ ما يرضيه تعالى حتى لو لم يكن واجبا كالقيام بنافلة الليل... وَهَذِهِ من أعلى درجات التقوى مع أنه ليس واجبا، لِذَا يُمْكِنُكَ القول: اتق الله واعف عنه. واتق الله وصلّ صلاة الليل. وتتدرج التقوى لتصل إلى ترك ما يسبّب غضبه وعقابه سبحانه، إِذِ الطَّلَاقُ حلال ولكن لا يرضى سبحانه عنه إن لم يكن له موجبات عقلانية، كحالة فقدان الزوج لصبره على تصرفات مزعجة من زوجته...

{وَتُخْفِي}، أيها النبي(ع)، {فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ}، أَيْ هُنَاكَ شيء لا تظهره للناس ولكنه سبحانه سيجعله ظاهرا، ويبدو لك واضحا من بقية الآية أن الأمر الإلهي للنبي بالزواج من طليقة ربيبه كان لا يعلمه من الناس إلا النبي، وكان يحاول (ع) أن لا يُطَبَّقَ، لِذَا حَاوَلَ ردّ زيد عن الطلاق حتى لا يعلم به الآخرون، وَيُخْفِي في نفسه الأمر الإلهي الذي وصله بالزواج من طليقة ربيبه، ولكنه سبحانه سيبدي هذه المسألة، لِأَنَّ زَيْدًا في النهاية سيطلق زوجته وسيصير النبي(ع) مُجْبَرًا على الزواج من طليقة ربيبه بسبب تنفيذه للأمر الإلهي.

{وَتَخْشَى النَّاسَ}، حَيْثُ لَدَيْكَ أيها النبي (ع) شعور بضرر من الناس ويمكنك تجنبّه إذا أخفيت هذا الشيء في نفسك، لِذَا تَخْشَى أن يعلم الناس بالأمر الإلهي لك بالزواج من طليقة ربيبك. {وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ}، لِأَنَّ الِاهْتِمَامَ بتجنّب الضرر الذي يمكن أن يأتيك منه تعالى أبدى وأولى من خشية الناس، حَيْثُ أمرك سبحانه بالزواج منها وإن لم تفعل فعندها ستواجه ما كان يستحقّ أن تخشاه وهو عقابه تعالى.

{فَلَمَّا قَضَى}، أَيْ بَعْدَمَا مرّ وانتهى، {زَيْدٌ مِّنْهَا}، المدعو زيد من زوجته، {وَطَرًا}، ولم ترد هذه الكلمة في القرآن إلا هنا، وَهُوَ مَا كان يرغبه منها، حَيْثُ سَابِقًا كان له وطر بها، رغبة بها، والآن لم يعد يرغب فيها كزوجة له ويريد طلاقها، والتعبير هنا بانقضاء الوطر كدلالة واضحة أَنَّ زَيْدًا هُوَ مَنْ أراد طلاق زوجته لأنه لم يعد يرغب بها كزوجة، وبعد طلاقها، {زَوَّجْنَاكَهَا}، أمرناك أيها النبي(ع) "سابقا" بالزواج من التي طلّقها زيد "ربيبك"، {لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ}، لا يكون عندهم شعور بالإحراج، شعور بأنهم فعلوا شيئا يجب أن يخجلوا به، {فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ}، فإن كان للمؤمن دعي، للمؤمن شخص يدعونه له، للمؤمن ولد بالتبني وقد طلّق زوجته، فلا حرج على المؤمن أن يتزوّج طليقة دعيّه، طليقة ابنه بالتبني، {إِذَا قَضَوْا}، إذا أَنْهَى أَوْ أَتَمَّ الْمُتَبَنَّوْنَ، {مِنْهُنَّ}، من زوجاتهن، {وَطَرًا}، رغبة، حَيْثُ لَمْ يَعُدِ الْمُتَبَنَّى راغبا نهائيا بزوجته وَطَلَّقَهَا، ولا أمل برجوعهما لبعض.

{وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ}، حين أمر نبيّه(ع) بِالزَّوَاجِ مِنْ طليقة ربيبه، {مَفْعُولًا}، منجزا محقّقا، لِأَنَّهُ تعالى من يقرّر ويشرّع، وَسَمَحَ بالزواج من طليقة الربيب وهذا الأمر مَفْعُولٌ مُحَقَّقٌ وَلَنْ يبقى حبرا على ورق، لِذَا لَا يَسْمَحُ سبحانه لكم بالقول بأنه ممنوع أو عيب أو غير لائق.

نكرّر الكلام، كَمَا ترى أَنَّ زَيْدًا كان ربيبا للرسول(ع)، وكان الناس يدعون زيدا وَيَقُولُونَ: زيد محمّد. وبعد إخبار زيد للرسول بقراره بطلاق زوجته، جاء أمر إلهي للرسول بالزواج منها بعد تطليقها، حَيْثُ شَعَرَ النبي بالإحراج وحاول منع زيد من تطليق زوجته لدرجة استعماله عبارة "اتق الله" ليردع زيدا عن الطلاق... ولكن زيدا أصر وطلّق... وبعدها نفّذ الرسول الأمر الإلهي وتزوج طليقة ربيبه، وبعدها صار الرسول تسلية للمنافقين والذين في قلوبهم مرض... وبعدها نزلت سورتنا هذه بكلام إلهي يحسم الموضوع، ورغم ذلك دخل أشياء من كلام المنافقين الكاذب، وروّج له البعض من الرواة، حتى أنهم قالوا إِنَّهُ (ع) مدحها ولاطفها بالكلام الغزلي قبلما يطلقها زيد... وقالوا كلاما آخر معيبا... وكلّه من تلفيقات المنافقين والفاسقين، وَهَا هِيَ الآية أمامك ومعناها واضح، ولكن الناس في الأخلاق مستويات، وبعضهم في الحضيض، ولا يرى الأمور إلا من هذا المستوى، وَيُرَوِّجُ لهكذا مرويات ولا يهمّه مصدرها...

فِي بداية السورة وبصراحة الكلام المباشر بتشريع إلهي، منعت أن ينادي الناس الربيب إلا باسم أبيه الحقيقي... وهنا تخبرنا عن أمر نزل على الرسول(ع) بأن يتزوّج من طليقة ربيبه، حتى ينتهي أي اعتبار تشريعي بين الناس للربيب ومساواته بالابن الحقيقي، إِذْ فِي شرعه تعالى لا يحقّ للأب أن يتزوّج طليقة ابنه الحقيقي فقط.

أُكَرِّرُ الكلام، إِذْ مِنَ المشهور في التاريخ أن زيدا كان عبدا للسيدة خديجة التي اشترته طفلا صغيرا ووهبته لزوجها النبي محمّد(ع) الذي عامله كولد له... حتى كبر زيد وصار الناس يقولون له: زيد محمّد... وبعدها تزوّج زيد... وصار بينه وبين زوجته خلافات، وجاء إلى من يعتبره كأب له وهو الرسول(ع) ليخبره عن قراره بطلاق زوجته، ويبدو واضحا هنا من الآية أن الرسول(ع) قد نزل عليه أمر إلهي بأن يتزوج من زوجة ربيبه بعد تطليقها، وكان الرسول(ع) يخفي هذا الأمر شاعرا بالإحراج من تنفيذه، وكان يقول لزيد أن يمسك زوجته ولا يطلّقها، لأن الرسول(ع) لا يريد أصلا أن يحصل هذا الطلاق لأنه (ع) يخشى الناس، وَلَا يريد أن يتحدّث عنه الناس بالسوء إذا تزوّج طليقة ربيبه، ولكن في الأخير طلّق زيد زوجته التي لم يعد راغبا بها نهائيا كزوجة له "قضى منها وطرا"، لِذَا لَا مجال لإصلاح الحال بينهما، وَكَرَّرَتِ الآية التعبير "بانقضاء الوطر" مرتين "... فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا..."، لتريك بصراحة أن الحالة كانت حالة انتهاء رغبة زيد منها كزوجة بشكل بَاتٍّ قَطْعِيٍّ.

نَتَذَكَّرُ أنه في حالة الطلاق هذه تبقى الزوجة في مدة العدّة في بيت زوجها عسى أن يغيّر رأيه ويتراجع عن طلاقها، ولكن زيدا قضى منها وطرا، لِسَبَبٍ أو لآخر لم يعد يرغب بها كزوجة، ونفّذ النبي (ع) أمر ربّه سبحانه وَتَزَوَّجَ من طليقة ربيبه طبعا بعد انتهاء عدّتها، وجاءت الآيات هنا بكلام إلهي مباشر وصريح لترينا من هذه الحادثة نموذجا لكل الناس عبر التاريخ أن الربيب ليس ولدا حقيقيا، لِذَا لَا يحقّ معاملته شرعا على أنه ولد حقيقي لكم، وأن أي تشريع من اختراع الناس نابع من عاداتهم وثقافتهم ولا يتماشى مع أساس دينه تعالى، لِذَا لَا قيمة ولا أهمية لتلك التشريعات.

ننتبه جيّدا، فإن كان في دراستنا هذه مَرَّ ما تعتبره هجمات على الروايات، فأحيلك إلى ما سَتَقْرَؤُونَهُ في الكتب من كلام فارغ وخزعبلات من تأليف مرضى بحبّ الشهرة اخترعوا الأحاديث والقصص عن النبي(ع) ليتميّزوا بأنهم من أصحاب المعارف والخبايا حتى في الأمور الخاصّة بالنبي(ع)، وليشتهروا بين الناس ويصير لهم قيمة... وكل ذلك على حساب قيمة الرسول(ع)، حيث ألصقوا له(ع) قصصا معيبة، حَيْثُ فِي رواية مسرحية معيبة قالوا إِنَّهُ(ع) قد أعجبته زوجة زيد... وعلم زيد بذلك وَأَرَادَ تطليقها حتى يتزوّجها النبي(ع)! وهي رواية مهينة معيبة وللأسف ذكروها في كتبهم نقلا في البداية عن كذّاب ألّفها، وبعدها انتشرت هنا وهناك لتصير رواية محترمة ذكرها علماء محترمون في

كتبهم المحترمة! وللأسف إنَّ مَا ورد في الآية 69 و 70 هنا في السورة وما قبلها لم يكن كافيا لردع هؤلاء المنافقين ومرضى القلوب من تأليف ونشر قصص معيبة مسيئة للنبي محمّد(ع).

قَالُوا بأن النبي(ع) زَوَّجَ ربيبه زَيْدًا بِابْنَةِ عمّته المدعوّة زينب بِنْتِ جحش، وقالوا إِنَّهَا في البداية رفضت عرض الزواج لأن زيدا عبد حَرَّرَهُ النبي(ع) وتبناه، مِنْ وقتها وكما يبدو من كلامهم لِمَاذَا لم يطلبها النبي (ع) لنفسه! وَالَّذِي اخترع رواية إعجاب النبي (ع) بزينب وهي عند زيد، ألم يتذكّر أن زينب وغيرها كُنَّ يَتَمَنَّيْنَ أن يتزوجهن النبي(ع)، لِمَاذَا لم يتزوجها النبي من أول ما رآها وهي ابنة عمّته ومن البديهي أن بينهما تواصل عائلي! والأنكى من ذلك، كَيْفَ سيصرّ زيد على تطليق زوجته ليتزوجّها النبي(ع) والموضوع كلّه أصلا عن إحراج الزواج من طليقة الربيب! حَيْثُ إِنَّ زَيْدًا حتى تلك اللحظة كان يعتبر نفسه ابنا معنويا للرسول(ع)، والناس حتى تلك اللحظة لا يزالون ينادونه: زيد محمد. وحتى تلك اللحظة لَمْ يخطر بباله أن الرسول سيتزوّج من طليقته، لِأَنَّ مُجْتَمَعَهُمْ يحرّم ذلك، وحتى لو كان شرعه تعالى يحلّل ذلك فمن سيتجرّأ على مخالفة ما يعتبره المجتمع شيئا معيبا...

لَا أدري كيف يبلعون مثل هذه الروايات الكاذبة! مَا معنى إخفاء النبي شيئا في نفسه أثناء محاولته مع زيد للتراجع عن الطلاق، وهم في رواياتهم يقولون بأن زيدا كان يعلم بأن الرسول معجب بزوجته! بينما الآية تقول بأن النبي يخفي في نفسه! وَمِنَ الواضح من الآية أن النبي كان يخفي الأمر الإلهي بالزواج منها بعد تطليقها وَأَنَّهُ لَا واحد من الناس كان يعلم بذلك حتى زيد، مَا أوقحهم وما أسخفهم وما أتفههم هم ورواياتهم المعيبة.

بَدَلَ أن تكون هذه الروايات وأمثالها دليلا على الكذب والدسّ والوضع، بِالْعَكْسِ صارت موثوقة، لأن الناس تحب غريب الكلام ومستهجنه، وتحب سماع الشائعات والفضائح، ويحبون تنزيل مستوى النبي لمستواهم المتدنّي... ويبدو جليا أن العديد من الرواة ومن يسمونهم بالعلماء لَمْ يَسْلَمُوا من هذا الطبع البشري المنحطّ، وَأَخَذُوا دور برامج وجرائد ومجلات فضائح المشاهير، المليئة بالكذب والأخبار المضخّمة، حَيْثُ لَمْ ينفع تدينهم لردعهم عن الكذب والمبالغة حتى عن النبي(ع).

وَهَا هِيَ السورة أمامك من أوّلها لآخرها تتناول موضع تطبيق شرعه تعالى في مقابل العادات والثقافات الفاسدة، وبدأت بالكلام عن المنافقين والكافرين المعارضين علنا لتشريعاته تعالى... وانتقلت لتنبيه أهل بيت النبي من هكذا مواقف... وصولا إلى تنبيه المؤمنين، حتى أنه تعالى أمر رسوله بالزواج من طليقة ربيبه ليكون تطبيقا عمليا كاسرا للعادات والتقاليد المخالفة لشرعه تعالى، علما أن الرسول ذات نفسه، وكما هو واضح جدا جدا من الآية، كان يحاول تغيير الظروف التي تسير باتجاه تطليق زيد لزوجته، حتى لا يصير مجبرا على تنفيذ الأمر الإلهي بالزواج من طليقة ربيبه، لَا كانت تعجبه قبل زواج زيد منها، ولا أعجبته من بعد زواج زيد منها، ولا كان سيتزوجها من بعد طلاق زيد منها... وَلَكِنَّ أَمْرًا إِلَهِيًّا وصله يخبره بأن زيدا سيطلّق زوجته ويجب عليك أن تتزوجها لتكسر عادات الجاهلية.

(مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً{38})
{مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ}، لا يتماشى مع الإحراج على النبي أي شيء يفرضه ويحدّده ويأمر به الله تعالى، ولن يصير النبي مُحْرَجًا فيشعر بالحاجة إلى إخفاء شيء أو الاعتذار عن شيء أمر الله تعالى به، وهذا غير وارد ولا يمكن أن يحصل، لأن تشريعاته سبحانه حكيمة لا فساد فيها ولن يشعر من يطبقها بالإحراج.

{سُنَّةَ}، طريقة منهاج، {اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ}، الذين خلت منهم الحياة وكانوا قبلنا وذهبوا، كان لديهم نفس الحكم، الربيب ليس وَلَدًا حَقِيقِيًّا وهذا الحكم قديم لأنه منهاج إلهي، والولد الحقيقي غير الولد المُتَبَنَّى.

{وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا}، ما يأمر به الله تعالى كان قَدَرًا كان شَيْئًا له قَدَرٌ، شَيْءٌ له مقدار وهو مُحَدَّدٌ بكل ما تحمله كلمة قَدَرٍ من معنى الدقّة بالتحديد، وكمثال على ذلك هذا الحكم عن انتفاء شرعية اعتبار الربيب وَلَدًا حَقِيقِيًّا وهو أَمْرٌ مُحَدَّدٌ بدقّة وليس عَبَثِيًّا أو غير محسوب أصله ونتائجه وتفرعاته...

لاحظ أنك ربما لا تَهْتَمُّ كثيرا لهذه المسألة، ولكن اعلم أنه يوجد أناس يهمّهم هذا الموضوع، هناك من تبنّى وَلَدًا وتعلّق به... وهناك من تبنّى وَلَدًا وسجّله على اسمه... وهناك من يعيش ولد التبني معه في منزله مع بناته... كل هذا الذي لا يخطر ببالك وتقتنع بسهولة بأن الربيب ليس وَلَدًا، فاعلم أن غيرك يراه صَعْبًا جِدًّا، ويراه حُكْمًا غير محسوب بعناية

لأنه لا يراعي حقيقة وضع ومشاعر المتبني والمُتَبَنَّى... هنا الآية تتحدّث مع من وضعه حسّاس وتنبهه بأن الأوامر الإلهية محسوبة جيدا على ما فيه الصلاح.

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً{39})
الأنبياء ليس من المفروض أن يشعروا بالحرج من أوامره سبحانه، وهم:

{الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ}، يَنْقُلُونَ الكلام الذي يريد سبحانه توصيله للناس، {وَيَخْشَوْنَهُ}، يَشْعُرُونَ بضرر منه سبحانه ويمكنهم تجنّب ذلك بطاعته تعالى، {وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ}، لَا يشعرون بضرورة العمل على تجنّب أي ضرر إلا الضرر الإلهي، {وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا}، إِنْ كنت تحتسبه تعالى وَتَعْتَمِدُ عليه فيما حصل وسيحصل معك كجهة وحيدة ترعاك فسبحانه فعلا يكفيك لوحده لرعايتك.

يَشْعُرُ النبي(ع) بتوقّع تعرّضه لضرر من الله تعالى إن عصاه، وضرر من الناس إن لم يَتَمَاشَ مع عاداتهم وثقافتهم، فإذا خشي الناس حتى لا يتضرر منهم فلن يطيعه تعالى، وإذا خشيه تعالى فإنه سيتعرّض لضرر من الناس، والآية هنا تقول له كنموذج لنا، بأن من يحمل الرسالة الإلهية للناس لا يجب أن يخشى إلا الله تعالى، لأنه إن احتسب الله تعالى في أمور ففعلا سيكفيه تعالى، وما سيحصل معه بعد ذلك سيكون في مصلحته.

الخَشْيَةُ شعور سببه تصوّر التلبّس بحصول غير المرغوب كالضرر المعنوي أو المادي ولكن مع الشعور بضرورة تجنّب الشيء غير المرغوب الذي تتوقّع حصوله فتشعر بإمكانية تجنبّه، فهو أمر لا تريد اقتحامه، سواء أكان ماديا أو معنويا، كزعل ومشاعر فلان، كالكره والعداوة والضرب والقتل... فمن الناحية العملية الخَشْيَةُ تشابه التقوى كتصرّف لتجنّب الشيء، ومن ناحية الشعور تشابه الخوف.

الخَشْيَةُ ليست مرادفة للخوف، فالخوف شعور سببه تصوّر التلبّس بحصول الضرر المعنوي أو المادي من شيء تشعر بفقدان إمكانية تجنب ضرره، والحلّ باقتحامه لتحمّل نتائجه أو الفرار منه إن استطعت. أمّا الخشية فشعور سببه تصوّر التلبّس بحصول الضرر المعنوي أو المادي، ولكن مع الشعور بضرورة تجنّب الشيء غير المرغوب والذي تتوقّع حصوله، فتشعر بإمكانية تجنبّه، ولا تريد اقتحامه. وكمثال المُؤْمِنُ يخاف من عقابه تعالى إن عصاه لأنه يعلم أن العقاب لا يمكن تجنّبه، والمؤمن يخشاه تعالى فلا يرتكب الذنب لأنه يتوقّع العقاب. ففي حالة الخوف تصير المواجهة مع الخطر حتمية، أمّا في حالة إمكانية تجنّب الخطر فهي الخشية. ضع هذا المعنى في بالك وسترى روعة في الدقّة القرآنية عند استعمال هذه التعابير.

(مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً{40})
ما هذا التشريع عن لصق زيد كابن للنبي محمّد(ع)!

{مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ}، سُبْحَانَهُ لم يعطه صفة الأبوة المعنوية لأي واحد منكم، وهذا في مقابل صفة الأمومة المعنوية لزوجاته على المؤمنين والتي وردت سابقا في الآية 6 من هذه السورة، فتلك الصفة تحرّم عليكم الزواج منهن إن طلقّهن النبي أو مات (ع) وصرن أرامل، وهذا حكم إلهي سيأتي صريحا في الآية 53 في هذه السورة، أمّا النبي فلم يجعله تعالى في صفة الأبوة المعنوية على أي أحد منكم حتى تحرم عليه (ع) طليقة أو أرملة أحد منكم.

{وَلَكِنْ}، مُحَمَّدًا(ع) هو، {رَسُولَ اللَّهِ}، ناقل لكلامه تعالى إلى الناس، فهذه هي الصفة المعنوية الوحيدة له، وما يتفرع عن ذلك كونه أولى بكم من أنفسكم... ولا يتفرع عن كونه رَسُولًا إِلَهِيًّا أن يصير بمنزلة الأب الحقيقي لكم. وهو (ع)، {وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}، فهو ختام النبوّة، حَيْثُ قبله كان هناك أنبياء وهو خاتمهم، فهو من الناس آخر من سينزل عليه نبأ منه تعالى، {وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}، والكلام هنا أنه عن علم قرّر تعالى أن لن يبعث بنبي بعد النبي محمّد(ع).

بعبارة أبسط، مَنْ يستهجن زواج النبي محمّد(ع) من طليقة ربيبه، فالصفات المعنوية التي تتفرّع من كون محمد(ع) رَسُولًا إِلَهِيًّا، لَا تتضمّن ولا بأي شكل أن يصير (ع) كالأب ولا لأي واحد منكم طالما لم يكن (ع) أبا حقيقيا أَوْلَدَهُ من صلبه. سَوَاءٌ زيد أو غيره، فلا يوجد مشكلة في أن يتزوّج النبي(ع) طليقة أو أرملة أي أحد منكم.

بِالمُنَاسَبَةِ، هناك صفة أخرى له (ع) فهو خاتم النبيين فلا نبي بعده، وعمليا هَذَا يعني أن التشريعات التي نقلها (ع) لكم، هِيَ غير قابلة للتغيير ولا للتبديل بسبب تغيّر ثقافاتكم وعاداتكم، فهي لا تتغيّر إلا بِكَلَامٍ منه تعالى، ومن بعد موت النبي محمّد(ع) لن ينزل كلام إلهي إلى الناس فيه تشريعات، لأنه (ع) خاتم النبيين.

للأسف، إذا كان هناك سوء في توسع المفسرين في معاني الكلمات التي استعملها القرآن، فكلمة خاتم التي وردت هنا هي من أبرزها، رَغْمَ وضوح معناها أن النبي محمد(ع) هو آخر الأنبياء، ولا نبي بعده، ووضوح سياق الكلام عن إغلاق باب وصول التشريعات منه تعالى بوفاة آخر نبي والذي هو محمّد(ع)... إلا أنهم توسعوا في طرح احتمالات لمعنى هذه الكلمة الواضحة! وفي بعض اقتراحاتهم لم تعد تعني أنه (ع) آخر الأنبياء! مما جعل مجالا لبعض المَرْضَى نفسيا وفكريا أن يتجرؤوا ويقولوا بأنهم أنبياء من بعد النبي محمّد(ع)!

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً {41})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين الإلهي، {اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا}، فَاسْتَحْضِرُوا صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز في فكركم ومشاعركم وقولكم وعملكم لأكثر وقت ممكن.

نلاحظ تركيز القرآن وتكرار أمره للمؤمنين بذكر الله تعالى كثيرا وفي مختلف الأوقات، فهل المقصود ترك الأعمال والأشغال والتفرّغ للذكر؟ لا، فإن كان لديك عمل يجب إنجازه لتعيش وتترزّق منه أو ليعيش الآخرون أو فيه مصلحة دنيوية أو دينية للآخرين... فلا يجوز لك ترك العمل للتفرّغ للذكر باللسان، وَتَذْكُرُهُ تعالى أثناء عملك.

هل المقصود أنك لو تخيّرت بين العمل وبين الذكر، فالذكر أفضل؟ لا، فَهَا كلّ القرآن يقرن بين الصلاة والزكاة، فكيف ستزكّي إن لم تكن عملت على تحصيل المال؟

لاحظ أننا عادة سنستعمل كلمة عبادة بدلا من الذكر، وَنَسْأَلُ إن كانت العبادة أفضل من العمل، علما أن كلمة عبادة تعني الطاعة، وعليه فالصلاة والصوم وعموم أي أعمال وأشغال حتى لو كانت من شؤوننا الحياتية كالزراعة والحياكة والطبابة والتجارة... فطالما هي صالحة فهي عبادة، لِأَنَّهَا في طاعته تعالى.

هل المقصود أن أكرّر تسبيحا أو حمدا أَوْ استغفارا؟ نعم كثرة قول الذكر مطلوبة ولكن هناك فرق بين "الذكر" وبين لسان يتحرّك بكلام عن الله تعالى بينما الفكر والمشاعر في مكان آخر، حَيْثُ دَرَجَ بين بعض الناس أن يكرروا ذكرا محدّدا بعدد محدّد كل يوم، وَاخْتَرَعُوا لكل ذكر أثرا، فقالوا مثلا: إذا أردت أن تصير غنيا فقل يا "غني يا كريم" عشرين ألف مرّة كل يوم... وإذا أردت النجاح فقل "يا قوي يا متين" لكذا مرة... وإذا أردت رؤية نوره تعالى ونور ملائكته (ع) فقل "يا نور" عشرة آلاف مرّة كل يوم... وغيرها من الخزعبلات والاختراعات الكاذبة التي لا علاقة لها بذكر الله كثيرا، والتي من تكرارها مع الاعتقاد بأثرها يحصل وهم ما...

سوف أطيل عليك لأننا مدّة بعد مدة نُبْتَلَى بمجموعة تنشر هذه الخزعبلات، على أساس أنهم لا يضرّون أحدا فيظنّون أنهم ينفعون الناس لأنهم يجعلونهم من الذاكرين! فمن وكّلكم بجعل الناس من الذاكرين عبر الكذب عليهم بأنهم إن صلّوا على النبي (ع) مليون مرّة فإن حاجتهم حتما مقضيّة! حرام عليكم، لا تفتروا على الله تعالى الكذب وأنتم تعلمون، ولا تخترعوا في الدين، فلن تكسبوا أجرا من ترويجكم لهذه الأكاذيب، وأنتم لستم تركضون وراء الأجر أصلا، لأن الكذب حرام، وأنتم تقولون الكذب وتنقلون الكذب، فأين الأجر في الكذب! وتريدون الشهرة بين الناس أنكم من أهل الله الذاكرين!

ذكر الله تعالى كثيرا هي مسألة إيمان، وليست سحرا ولا شعوذة، ولا خرقا للعادة، ولا خرقا لقوانين الطبيعة، فلن تطير ولن تخرق الأرض لأنك اكتشفت الذكر المناسب لذلك، فهذه خرافات، وغالبيتنا ومن دون أن نشعر نحبّ أن يكون الكلام عن الأذكار التي تغيّر واقعنا بلمسة إلهية عجائبية أو ككرامة إلهية، نحب أن تكون صحيحة، لأن حياتنا العادية فيها مشاكل وفيها أمور تخرج عن سيطرتنا... فنحب السيطرة على الأمور بقدرة مدعومة إلهيا، عبر الذكر عبر الصلاة عبر الدعاء... فما أجملها لو كان فعلا يوجد ذكر مخصوص للحصول عَلَى قدرة السفر من منطقة لأخرى بلمحة عين! هذه الرغبة، هذا الحبّ لهكذا أمور، هو ما يجعلنا نرفض التصديق بأنها كذب رغم أننا لم نر شخصا يفعلها! بل دائما نسمع، ونسمع، ولكن هل رأيت! لا. لأنها كذب وكلام فارغ، ولا علاقة لها بالدين الإلهي، فلا تجعلوها جزءا من الدين،

لِأَنَّ الكَثِيرَ من الناس يعتبرون الدين والتدين هو هذه الأمور الخارقة، كأمور تفسير المنامات ومعرفة الغيب... فإن كان الدين عاديا، فلن يهتمّوا به! ولكن ما شأنك أنت إن لم يهتمّوا بالدين الإلهي؟ فإن لم يحترموا دين الله المحترم، فهل نسخّف الدين الإلهي حتى يعجب السخفاء؟ فيخرج منه العقلاء؟

اتقوا الله أيها الناس ولا تكذبوا، ولا تخترعوا، والتزموا بالدين الإلهي كما هو، لِأَنَّكُمْ لَنْ تَخْتَرِعُوا شيئا جيّدا لا يعلم الله تعالى أنه جيّد، فلا تزيدوا على الدين الإلهي، ولا تنقصوا منه، لِأَنَّكُمْ لَسْتُمْ أعلم من ربّكم سبحانه، فإن أعجبكم الدين الإلهي كما هو، فأهلا وسهلا، وإن لم يعجبكم وتلاعبتم به، فلا يوجد فيما تفعلونه شيء اسمه "نيّة حسنة"، بل يوجد شيء اسمه: الكذب. وترويج الدين بالكذب سوء عليه عقاب، وإقحام الأمور السخيفة في الدين سوء وعليه عقاب.

بالنسبة لذكر الله تعالى كثيرا باللسان والفكر، ففي أي وقت كان فيه بالك غير مشغول بعمل، فليكن لسانك أو فكرك مَشْغُولًا بذكره تعالى، يا كريم، يا سبّوح... الحمد لله... أَسْتَغْفِرُ الله... سبحان الله... أمّا إن كنت تعمل وتحتاج للتركيز، أو تتحدّث مع شخص ما، فلا تكن سخيفا وتستمر بذكر الله تعالى، بس بس بس...اس اس اس... وَمِنَ السُّرْعَةِ لا تسمعهم يقولون سبحان الله فتسمع: سب.. سب... فهذا شيء لم يفعله الأنبياء ولا الصالحون، فلا تزايد عليهم، وكن عاديا بلا تمثيل، ولتكن علاقتك مع إلهك محترمة وحقيقية، ودعك من قول الناس عنك بأنك من الذاكرين، ومن المؤمنين الصالحين... لِأَنَّ هَذِهِ مُرَاءَاةٌ وحبّ ظهور ونفاق... وكل هذا لا ينفع، ولا مليارات الأذكار على هذه العقلية والنفسية ستنفعك، فَذِكْرٌ وَاحِدٌ لله تعالى، وأنت تدرك ما تقوله، وتفهم ما تقوله، فهو خير لك من مليارات التكرار للذكر.

ذكرك له تعالى لمرّة واحدة مع تركيز وقناعة وعمق، يعتبره تعالى ذكرا كثيرا، وَوَرَدَ هذا الكلام كثيرا جدا في الروايات التي واقعيتها وعقلانيتها لم تعجب الكثيرين فأهملوها، ففي تلك الروايات أن الثلاثين والأربعين مرّة والسبعين مرّة لذكر الاستغفار أو التسبيح كان الجيل الأول من المسلمين يعتبرها من الذكر الكثير، وكذلك اعتبرها القرآن، وفي الروايات ستجد أن أكثر التسابيح عددا هو التسبيح الذي علّمه الرسول (ع) لابنته والمشهور بتسبيح السيدة الزهراء، ومجموع تسبيحاته مئة! ولكن يأتيك الكذّابون فيزيدون ويزيدون حتى تصل إلى أرقام خيالية بالملايين لتصير برأيهم من الذاكرين، وتصير الملائكة(ع) في خدمتك!

يا عزيزتي ويا عزيزي، لست أشجعك على ترك التسبيح والتحميد والاستغفار... ولا على ترك ذكر أسمائه الحسنى سبحانه، ولا أقول لك إنَّ المليون مرة حرام، بل هو شأنك وأنت أدرى بنفسك، فليكن تسبيحك للتقرّب منه تعالى، وليكن عَدَدُهُ مليارا إذا شئت، وداوم على ذكره تعالى بلسانك وبفكرك، ولكن إيّاك إيّاك أن تمثّل، وإيّاك أن ترائي، وإيّاك أن تحبّ أن يقول الناس عنك أنك مؤمن من الذاكرين... فأنت حينها تذكر نفسك ولا تذكره تعالى.

(وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً{42})

{وَسَبِّحُوهُ}، نَزِّهُوهُ عن الصفات الناقصة المعيبة والسيئة التي لا تليق به تعالى فله الأسماء الحسنى فقط، {بُكْرَةً}، في أول الوقت وهو عادة باكورة الشمس في أول اليوم، عند الصباح "الباكر" أوّل ما تستيقظ، وسبّحوه، {أَصِيلًا}، في آخر الوقت وهو عند وصول الشمس إلى آخر رحلتها، إلى غروب قرص الشمس. يعني سبّحوه من أوّل النهار إلى آخره، في أول وقت نشاطكم إلى آخره، كما نقول بالعامية: من الصبح للمسا.

تَحَدَّثْنَا في الآية السابقة مطولا عن هذا الموضوع، لَا تقصد الآية أن تترك عملك وتتفرّغ للتسبيح، بل أثناء النهار وأثناء عملك وأثناء استراحتك لا تَنْسَ ذكر الله تعالى، وَتَحْمَدُهُ على إصباحك وَإِمْسَائِكَ وعلى خلقك واعتدالك... وتشكره على الصحّة وعلى العمل وعلى الطعام... تسبّحه على جمال الطبيعة والكائنات، وعلى البيئة، وتستغفره عن ذنوبك...

التَّسْبِيحُ هو التنزيه، سواء نفيت الصفات السيئة عنه تعالى أو وصفته بصفاته الحسنى، فليس له شريك يقابلها لا إله إلا الله. هَلْ تفوته الأمور ولا يدري بها؟ لا، ويقابلها العليم الخبير المحيط.. وَهَلْ هو مزاجي، ويعبث ويظلم؟ لا، ويقابلها العادل الحقّ...

(هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً{43})

{هُوَ}، الله سبحانه وتعالى، {الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ}، يقبل ويتوجّه عليكم بالاهتمام، وَعَمَلِيًّا سبحانه يتوجّه عليكم برحمته وبمغفرته وهدايته... {وَمَلَائِكَتُهُ}، أيضا تصلّي عليكم وَتَتَوَجَّهُ وَتُقْبِلُ عليكم، وعمليا بالاستغفار لكم وتشجيعكم على فعل الصالحات وترك السيئات... {لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ}، من العتمات، {إِلَى النُّورِ}، إلى الانكشاف، والنور واحد لأن الهداية واحدة كمنهاج. فالسلوك والقول المنحرف عن الدين الإلهي هو سواد وخراب وفساد، وأنواعه كثيرة متنوعة فيوصف بالظلمات لكثرة أنواعه، وعليه العقاب بالنار... وهذا طريق الظلام حيث الأعمى يسير ولا يرى أن نهايته سيّئة، وأمّا طريق النور فهي مسلك الذي يرى نهاية طريقه إلى رضاه تعالى والثواب.

{وَكَانَ}، سبحانه، {بِالْمُؤْمِنِينَ}، بالمعتقدين الملتزمين بهذا الدين، {رَحِيمًا}، فلديه عناية خاصّة بهم لما فيه مصلحتهم، وَتَكَرَّرَ كثيرا في القرآن أنه تعالى لديه رحمة عامّة شاملة لكل مخلوقاته، ولديه سبحانه رحمة خاصة للمؤمنين، فاستعمل القرآن كلمتين للإشارة لهذين المَعْنَيَيْنِ، فَالرَّحْمَنُ هي الصفة العامة لتعامله تعالى مع عموم كل المخلوقات، حيث خلقهم وأمّن لهم ما يحتاجونه وهداهم... والرحيم كصفة لتعامله تعالى حصرا وفقط مع المؤمنين، فَالْآخَرُونَ هم بسوئهم يخرجون من رحمته تعالى، وَعَمَلِيًّا الرَّحْمَةُ للمؤمنين هي الصلاة عليهم، المغفرة لهم، الشفاعة لهم، مضاعفة الثواب... أما البقية فلا صلاة عليهم ولا مغفرة لهم...

كَمَا ترى، كَلِمَةُ صلاة تشير لِعُمُومِ أَيِّ توجّه، سواء أكان عباديا أو غيره، ويتحدّد نوع التوجه بحسب سياق الكلام، فربنا يصلي علينا فيقبل علينا بالعناية عبر المغفرة والثواب، والملائكة(ع) والنبي(ص) يصلون علينا فيطلبون توجّه ربنا سبحانه إلينا بالعناية، ونحن نصلي على النبي(ص) فنطلب منه سبحانه العناية الإلهية به (ص) بتزكية زائدة، ونحن نصلي لربنا سبحانه فنتوجه إليه بالذكر شاكرين حامدين وبالمديح، والكافرون يصلون النار فهم موجّهون نحو حرارتها.

(تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً{44})
{تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ}، الكلام اللطيف للمؤمنين الذي سيقال لهم في الزمن الذي سيتواجهون فيه معه تعالى، في الآخرة: {سَلَامٌ}. فلا تتوقّعوا أي شيء يَسُوءُكُمْ، {وَأَعَدَّ لَهُمْ}، وجهّز وهيّأ لهم سبحانه، {أَجْرًا}، شيئًا حدّده تعالى أنهم يستحقّونه، {كَرِيمًا}، له قيمة عالية، والكلام عن كرامة الأجر، وهو شعورهم بأنهم محترمون مُوَقَّرُونَ ولهم قيمة عالية.

كلمة {كَرِيمٍ} لها معنى دارج غير معناها الأساسي، حيث درج أن معناها: العطاء بكثرة. ولكن معناها الأساسي هو القيمة والمكانة العالية، ويقابلها مُهِينٌ وإهانة، وبهذا المعنى فقط استعملها القرآن، ومن الاشتقاق التطبيقي لذلك أحيانا الوصف بالكرم لما تعطيه بكثرة للآخرين. ولنفهمها ببساطة تصوّر رميك لأَجْرِ العامل على الأرض ليلتقطه، فهذا أَجْرٌ مُهِينٌ، بينما تَسْلِيمَكَ الأجر باليد مع ابتسامة وكلام لطيف، سيشعر منه بالكرامة، وهذا ما قصده القرآن بوصف الأجر بالكريم، وكثرة ما يُسَبِّبُ السعادة ونوعيته العالية في الجنّة هما الترجمة العملية لوصف الأَجْرِ بالكريم.

روعة الجنّة تفوق تصوّرنا الآن، لدرجة أن من في الجنّة لا يفكّر ولا للحظة في شيء آخر غيرها، كما ورد في الآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}، ولا يخطر بباله للمحة أنه يوجد شيء أروع مما هو فيه، لا يشعر بالملل، وهو في سعادة دائمة... كما ورد في الآية 35 من سورة ق {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً{45})
{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}، يا أيها الذي يصله النبأ، الخبر غير المنتشر علمه بين الناس، والكلام هنا عمّن يصله النبأ منه تعالى، {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ}، أطلقناك ناقلا لكلامنا، {شَاهِدًا}، تشهد بحضورك بسمعك ورؤيتك بأننا أوصلنا الحقّ للناس، وأرسلناك، {مُبَشِّرًا}، تحمل الخبر المفرح، وهو خبر دخول المطيعين إلى جنّة خالدة، وأرسلناك، {نَذِيرًا}، تحمل الخبر عن شيء سَيِّئٍ قادم حتما لمن توافرت شروط حصول العقاب الإلهي له، وهو دخول العاصين إلى النار.

(وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً{46})

أرسلناك، {دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ}، معلنا مشهرا للناس أن يوحدوا ويعبدوا ويطيعوا صاحب الاسم المحدّد المميّز الله عزّ وجلّ، تاركين عموم أي عقيدة أو شريعة غير ما يقوله تعالى، {بِإِذْنِهِ}، فلم تقم بالدعوة لله تعالى من رأسك وقرارك بل هو سبحانه أذن لك وأنبأك بما ستقوله للناس.

أرسلناك، {سِرَاجًا}، يصدر منك النور، نور الهداية، حيث إن السراج وصف لعموم من يصدر منه ضوء، مثلما يصدر من القنديل واللمبة والمصباح... {مُنِيرًا}، كاشفا للظلام، وهذا يبدو تشبيها مجازيا استعاريا، ولكن بالنظر لمعاني الكلمات الحقيقية، فإن تعابير الآية حقيقية، لأن النور هو الانكشاف، حين تخبرني عن شيء أجهله وتكشف لي جهلي فيصير الموضوع واضحا أمامي، وهذه هي الإنارة التي نحصل عليها من حمل النبي(ع) للقرآن لنا، ومن أخلاقه وتصرفاته(ع)، وكما أن السراج "اللمبة القنديل..." ينير المكان، فكذلك النبي(ع) ينير طريق الهداية.

ننتبه لتعبير الآية {بِإِذْنِهِ} عن دعوة النبي محمّد(ع)، وهذا معنى مهم جدا جدا، حيث إن البعض يقولون إن محمّدا مصلح اجتماعي، درس أوضاع مجتمعه الفاسد وكانت النتيجة أن يجذبهم إليه عبر إعلانه عن دين إلهي يفرض عليهم الصلاح مع تهديد بعقاب في الآخرة... اختصرت لك كلاما مطولا جدا يقوله بعض المحللين الكافرين أصلا به تعالى وبرسله وأنبيائه، وهم يحللون حالة الأنبياء على أنهم محطات مميزة من تاريخ البشرية في محاولة إصلاح شؤون الناس... وتأتي أمثال آيتنا هنا وغيرها وبشكل صريح لتخبرنا أنه تعالى وبإذن منه قام محمّد (ع) بنقل الدين الإلهي للناس، فهو ليس مصلحا اجتماعيا اخترع دينا وشريعة، لا، بل ناقل للكلام الإلهي وبإذن منه تعالى. ومضافا لذلك شخصيته (ع) كانت قيادية استطاعت تغيير وجه التاريخ ببناء نواة دولة، وهذا شيء لم يستطع غالبية الأنبياء فعله.

من ناحية ثانية، موضوع السورة عن تشريعه تعالى ومعارضة الكافرين والمنافقين لها، وللأسف لدينا من المؤمنين من يقترح في دينه تعالى، ومتصرفا بما يراه مناسبا في العقيدة والتشريعات والأخلاقيات والسلوكيات، مفترضا أنها نواقص ويجب أن تكون في الدين وزادها، وكما ترى من آيتنا هذه بصراحة قولها عن النبي الرسول أنه {بِإِذْنِهِ} تعالى ينطق بالكلمة التي تعبّر عن أي شيء يتعلّق بدينه سبحانه. وهؤلاء المقترحون في دينه تعالى بين متزّمت يضيّق على الناس تطبيق دينه تعالى، جاعلا المؤمنين الملتزمين خارج دائرة من يراهم هو مؤمنين حقيقيين، ويدّعي في العقيدة عمقا جهله الآخرون، ويدّعي في الشريعة عمقا يغيّر في حلال وحرام ما تعارف عليه المسلمون... وبين مستهتر يحوّل دينه تعالى إلى شكليات فارغة من الالتزامات والتطبيق ليحاكي سلوكيات الفاسقين...

(وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً{47})
{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}، احْمِلِ الخبر السارّ المفرح للذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين الإلهي، {بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا}، سيمنحهم سبحانه أمورا جيدة كبيرة وليس مفروضا ولا واجبا عليه تعالى منحها لهم، فلن يكون ثواب التصدّق بتفاحة على فقير بإرجاع تلك التفاحة للمؤمن في الآخرة، أو إرجاعها كصندوق تفاح، أو بستان تفاح... بل سيتفضّل سبحانه عليهم بشكل كبير هائل بالخلود في جنّات رائعة.

نعلم من القرآن أنه تعالى سيغفر ذنوبهم، وسيخفي قسما منها، وسيضاعف حسناتهم، وسيعطيهم الخلود في الجنّة الرائعة...

تعابير القرآن لا تشير إلى فرض واجب عليه تعالى بإدخال المؤمنين إلى الجنّة، بل تنفيه أن يكون فرضا واجبا، وبالتعبير الدقيق فَشَاءَ "قرّر" تعالى إدخال المؤمنين العاملين للصالحات إلى الجنّة، وبتعبير متساهل فيه ودارج ولكنه غير دقيق، أَوْجَبَ سبحانه ذلك على نفسه وبالأصل هو ليس واجبا عليه.

سبحانه لا يستفيد منّا بإيماننا وعملنا الصالح، ولا يتضرّر إن لم نؤمن، فالأَجْرُ لنا ليس على شيء له علاقة به تعالى كمنفعة له منّا.

بالأساس نحن لا نستحقّ منه تعالى أي شيء كفرض واجب عليه لأننا آمَنَّا وعملنا الصالحات، فإيماننا هو الاعتقاد بالحقّ وعملنا الصالح هو العمل الصالح، وليس أمرا لنا بالإيمان بشيء غريب عجيب غير عادي... وليس أمرا لنا بفعل السوء وما نُجْبِرُ أنفسنا على قبوله لأننا بالعقلانية والحكمة سنرفضه، لا. ونفهمها بمثال بسيط عنّي أني أطالبك بِأَجْرٍ

مالي لأني لم أفعل معك شرّا، فلم أسرقك ولم أُهِنْكَ... فأنا من المفروض منّي أن أكون هكذا معك، ولم أفعل شيئا غير عادي معك لأطالبك بِأَجْرٍ عليه.

كلمة "أَجْرٍ وَأُجْرَةٍ..." لعموم استحقاق أخذ شيء مقابل شيء بسبب تحديد قيمة الاستحقاق سلفا، ومنه التجارة التي صارت وصفا لحالة ابتغاء الربح. فبالنسبة لاستعمالنا نحن لها فيما بيننا تتضمّن أنك تعمل لي ويجب عليّ دفع الأَجْرِ لك، أمّا بالنسبة له تعالى فمن فضله حدّد أَجْرًا لمن آمن وعمل الصالحات، فحدّد ما سينالونه على ذلك، وبعد هذا القرار الإلهي يصير وصف الحالة أنهم سينالون ما يستحقونه مما حدّده تعالى، فلهم أَجْرٌ... فليس واجبا عليه تعالى ولا بأي شكل مجازاتهم بالجنّة ولا بأي شيء آخر، ولهذا المعنى جاء التعبير "بغير حساب" في عدة آيات حتى لا نفهم أن لهم حسابا فرضا واجبا عليه تعالى، كما في الآية {لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}، وترى هذا المعنى بوضوح في وصف دخولهم الجنة من فضله تعالى كما في الآية 35 من سورة فاطر {الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ}...، فالفضل هو التفضّل بإعطاء الآخرين ما ليس واجبا عليك إعطاءهم.

(وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً{48})
تلاحظ بوضوح عطف آيتنا هنا على بداية السورة، وَصَارَ معنا خبر ببعض من نماذج تعليقات الكافرين والمنافقين على تشريعه تعالى، وستكمل السورة من هنا بعرض بعض التشريعات الإلهية.

ويا أيها النبي(ع):

{لَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ}، لا تنفّذ ما يريد المنكرون لدينه تعالى، ولا تطع، {الْمُنَافِقِينَ}، الذين يظهرون لك التدين ولكنهم من داخلهم منكرون للدين الإلهي.

{وَدَعْ أَذَاهُمْ}، ولا تضع أمام عينيك لتصب اهتمامك على الأذية التي صدرت منهم، كما نقول بالعامية: كبّ في البحر. كبّ وراك.

{وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}، واعتمد عليه تعالى أنه يسيّر أمورك كما ينبغي، فسيساعدك ويدير شؤونك... {وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً}، فإن توكّلت عليه فأنت في كفاية لأنه يكفيك ولن تحتاج لأحد آخر معه سبحانه وتعالى.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً{49})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ}، إذا عقدتم عقدا يتضمّن حق المعاشرة فتزوجتم مؤمنة، {ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ}، ففسختم عقد الزواج بالطلاق، {مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ}، حيث حصل الطلاق قبل حصول المسّ، وهنا الحديث عن طلاق بعد نكاح وكلمة نكاح تشير لاتفاق يتضمّن إقامة علاقة جنسية بين العاقدين، والمسّ هنا هو تعبير لائق عن علاقة مسّ بالأعضاء الجنسية التناسلية، حيث حصل الطلاق قبل حصول مقاربة جنسية كاملة بين الرجل والأنثى، {فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا}، وبعد الطلاق ليس لها أية عدّة أي زمن تعدّه فتزيده على زمن آخر، وليس لك عليها أن تنتظر مدّة من الزمن قبل زواجها من غيرك، وكما ورد في سور أخرى أن عدّة الطلاق، عدد الأيام التي من بعدها يحق للأنثى أن تتزوج من رجل آخر من بعد إيقاع طلاقها مما تضمّن قبله إقامة علاقة جنسية، هي "مسمّى" الثلاثة أشهر المساوية لثلاثة قروء لمن كان لها عادة شهرية كما ورد في الآية 228 في سورة البقرة.

بعبارة أبسط، إنْ عقدا عقد الزواج، "كتبوا الكتاب"، ولم يحصل "دخول" جنسي بين الرجل والمرأة، وتطلّقا، فلا يجب على المطلّقة أن تعتدّ، ولا تعدّ ثلاثة قروء حتى يحقّ لها أن تتزوّج من رجل آخر، بل يمكنها الزواج على الفور من بعد هذا الطلاق. وصياغة الجملة هنا {فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ} تشير لفقدان الطليق لحقّ انتظار طليقته له لمدّة يَتَرَاجَعُ فيها عن قراره، أو ليعلم إن كانت حاملا منه... والانتظار "الاعتداد" يجب أن يحصل حيث تبقى الطليقة في بيت زوجها في مدّة العدة، إلا إذا هي طلبت الطلاق ووافق هو...

{فَمَتِّعُوهُنَّ}، أَعْطُوا المطلقات متاعا وهي الأشياء التي ينتفعن بها ويستفدن بها في حياتهن، ووَرَدَ في الآية 237 من سورة البقرة أنه يحقّ لها نصف المهر، {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ}...، وكلمة متاع هنا تشير للمهر وتشير لعموم ما تحتاجه المطلقة لتيسير أمور حياتها... {وَسَرِّحُوهُنَّ}، اتْرُكُوهُنَّ يذهبن من عندكم، {سَرَاحًا جَمِيلًا}، ذهابا بلا أمور قبيحة، بلا عنف ولا مشاكل، عن تفاهم ورضى. ولا تعش الطلاق والانفصال على أنه حالة يجب أن تكون عظيمة مع ضجّة وصخب... لا، لِيَكُنْ طلاقا عاديا وانفصالا بلا مشاكل.

نلاحظ كلاما بين المفسرين والفقهاء حول تحديد المتاع، فما هو وكم قيمته؟ وهل هو واجب أو مستحب؟... وسأضرب لك مثلا متطرفا حتى تنتبه لما تشير له الآية هنا، لِنَقُلْ إِنَّ الزوجة انتقلت لبيت زوجها، ولم يحصل بينهما مسّ جنسي، وطلّقها، فهي فورا صارت حراما عليه وبحاجة لعقد جديد، ويجب أن تخرج من بيته، فهل يحقّ لها الخروج بالثياب التي اشتراها لها الذي طلّقها؟ وهل يحق له أن يأمرها بترك كل ما ليس لها والخروج؟ وفرضا لم يكن لها معارف أو أقارب حيث انتقلت معه فهل تنام في الشارع؟... كما ترى هَذِهِ حالة متطرفة جدا، ومنها تفهم أمر الآية للزوج أن يؤمّن للمطلقة أشياء تستفيد منها حتى تبقى مستورة الحال، سواء حين خرجت من منزله أو بعد ذلك، وبتعابير القرآن يصير على طليقها حق تمتيعها، أي تأمين موارد العيش لها "بالمعروف" إن كانت بسبب زواجها منه فقدت مصدر رزقها... وكانت في دولة لا توزّع الصدقات من بيت المال للمحتاجين... هذا مضافا إلى نصف المهر...

لَا تَنْسَ موضوع السورة عن عموم تشريعاته تعالى التي يرفضها الكافرون والمنافقون المصرّون على تشريعات عاداتهم وثقافاتهم، وهم ذكوريون في تشريعاتهم، وَيَظْلِمُونَ الإناث، وهكذا ترى شرعه تعالى يعطي الإناث حقوقا صاغها في قرآن ككلام إلهي مقدّس، ورغم ذلك وللأسف بقيت الذكورية منتشرة عموما بين المسلمين.

وهنا ترى أنه تعالى أراد حفظ الأنثى من الرجال المزاجيين الذين لا يرون قيمة إنسانية في الإناث ولا في الزواج منهن، ففرض عليهم نصف المهر والمتاع المناسب إذا حصل طلاق بدون مسّ، وطبعا مع المسّ فللمطلقة كامل المهر... وهكذا مِنْ جانبه تعالى أَمَّنَ أرضية أساسية ضامنة لحقوق الإناث، فَإِنْ على مستوى التطبيق لم يهتم الناس بتحديد مهر مناسب يؤمّن حياة كريمة للزوجة في حال طلاقها... أو كان المشرّعون والقضاة فَاسِدِينَ ذُكُورِيِّينَ يحكمون بغير ما أنزل الله تعالى، فلا يرون سوء أخلاق الزوج الذي تعاني منه زوجته وتطلب الطلاق... فيحرمونها من المهر... فأين دينه تعالى في أحكامهم؟

لِيَكُنِ الكلام العمومي هنا عن المتاع بدون تحديد، لِيَكُنْ نموذجا لك عن هامش المرونة والمساحة التي تركها تعالى لنا لنحدّدها بما يناسب مختلف الظروف والأمكنة والأزمنة، وَمَا نعتبره في زمننا الحدّ الأدنى من كرامة العيش، كان أكثره في زمن نزول هذا القرآن غير موجود، فلا برّاد ولا فرن كهرباء أو غاز... وبعض المجتمعات حينها تعتبر الخيمة مسكنا لائقا... وهكذا ترى أن ما شَرَّعَتْهُ الأجيال السابقة من الفقهاء كان تطبيقا مناسبا لزمنهم، وفي كلّ زمن ومكان يتوجّب على الفقهاء الإفتاء بما يراه عقلاء المؤمنين مناسبا...

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{50})
كما تعلم، السورة تتحدّث عن أمور حصلت وتثبّت فيها الحكم الإلهي، فهي لا تخبر النبي(ع) ولا تخبرنا عن الأحكام المجهولة، بل تثبّتها، وَحَصَلَتْ هذه الأمور، وتصرفات الرسول(ع) في تلك الأمور لن تكون مخالفة للدين الإلهي، ولكن طالما لم يسمع الناس التأييد الإلهي لما فعله الرسول(ع) عبر ذكره في القرآن، فسيبقى عند البعض منهم شك، وَهُنَا لا تخبرنا الآية عن تحليل الزواج من هذه النساء للنبي(ع) بل تذكّر المعترضين عليه (ع) بأن ما فعله الرسول (ع) هُوَ أمور حلال عليه:

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}(ع)، يا أيها الذي يصله منه سبحانه خبر غير منتشر علمه بين الناس، {إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ}، فلك حرية التصرف بدون عقاب أو مساءلة، {أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ}، فدفعت لهن "المهر" كأجر كبدل مالي يستحقونه

مقابل تقديم أنفسهن لك كزوجة حتى حصل عقد الزواج، وهذا التعميم يشمل أي امرأة، طالما هي ليست من محارمه (ع) ودفع لها مهرا وقبلت بالزواج، فتلك النسوة حلال لك.

وَأَحْلَلْنَا لك، {وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ}، ممن هنّ تابعات لك بملكية الاقتدار، من إِمَاءٍ، عبدات، {مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ}، من اللاتي جعلهن تعالى في فيئك، كما نعبّر بالدارج: تحت ظلّك. فهن تابعات لك. وفي الآية بعد التالية سنتوسّع قليلا بالكلام عن ملك اليمين.

{وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ}، وكما تعلم فإن أقرباء النبي محمّد(ع) سكنهم الأساسي في مكّة، وكانوا كلّهم كُفَّارًا، وَهُنَا الآية تقول بأنه (ع) يمكنه أن يتزوّج من قريباته ولكن بشرط أن يكنّ من المهاجرات من مكّة يعني من مؤمنات تركن الكفّار.

لا تَنْسَ أن الآية لا تخبرنا عن حكم الحلية، فهو معروف، وفيه آيات فصّلته، بل تخبرنا عن شيء حصل مع النبي(ع) وكان للمنافقين والذين في قلوبهم مرض تعليقات...

وَأَحْلَلْنَا لك، {وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ}، فأعطت نفسها للنبي(ع) من دون مقابل أي من دون أن تأخذ مهرا، فقالت للنبي(ع) إِنَّ قرار زواجها بيده (ع) ومن دون مهر، {إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا}، أن يعقد عليها الزواج، {خَالِصَةً لَكَ}، تحصل عليها لوحدك، {مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ}، فهي وهبت نفسها للنبي(ع) فصار بإمكانه (ع) تزويجها لنفسه، فهي حلال له بهذه الطريقة ولكن ليس فرضا واجبا عليه(ع) أن يقبلها، فهي يمكنها أن تهب نفسها له (ع) ولكنها لا يمكنها بهذه الطريقة أن تفرض عليه أن يقبلها. وفي الآية بعد التالية سنتحدّث عن هذه المرأة.

{قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ}، على المؤمنين، {فِي أَزْوَاجِهِمْ}، وفي، {وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ}، فبعض النساء قمن بوهب أنفسهن للنبي(ع) حتى يختار لهن زوجا، سواء اختارهن لنفسه أو اختار لهن زوجا غيره، وحتى لا يعتبر الناس أن النبي(ع) يستغل موقعه الديني ويتزوّج من تلك النسوة ويحرم الْآخَرِينَ منهن، فتقول الآية إِنَّهُ تعالى يعلم ما أحلّ للمؤمنين من زوجات وملك يمين، فبقية المؤمنين ليسوا محرومين ولا مقطوعين ولا ممنوعين من الزواج ولا من ملك اليمين، فلا يحق للآخرين الاعتراض إن أحبّ النبي(ع) أن يتزوّج واحدة وهبت نفسها له.

وسبحانه حلّل لك ما سبق من نساء، {لِكَيْلَا}، حتى لا، {يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ}، فلا تشعر بالإحراج بالشعور بالحاجة للتعذّر للناس من شيء سيتهمونك به، حَيْثُ سَيَتَّهِمُونَكَ باستغلال موقعك كنبي(ع) للزواج ممن تريد، فلا تكن محرجا لأننا حلّلنا لك ما ذكرته الآية هنا.

{وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا}، فيتجاوز عن الذنوب، فمن عارض أَيًّا مِنْ تشريعاته تعالى في السابق أو من ظنّ أو شكّ أو قال كلاما غير لائق عنه (ع) فليستغفر وسبحانه يغفر له، {وَكَانَ رَحِيمًا}، فلديه سبحانه عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، وعلى هذا الأساس يغفر سبحانه لهم.

بقي شيء عن مسألة تعدد زوجات النبي(ع)، حَيْثُ قبل نزول الآية الثالثة من سورة النساء {... فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ...} لم يكن هناك كلام عن تحديد لعدد الزوجات، وأصلا تلك الآية لا يبدو منها تحديد تشريعي لعدد الزوجات بل تشير للعدد الكثير، فراجع دراستها لمزيد من التفاصيل...

على أي حال يَبْدُو مما قالوه في كتب السيرة أن النبي محمد(ع) كان لديه تسع زوجات قبل نزول سورة النساء وحتى حين نزول سورتنا هذه في أجواء السنة السابعة للهجرة.

ما يقوله الكثيرون عن تبريرات تعدد زوجاته(ع) فأكثره كلام فارغ لا يجاري الواقع، وبعضه كلام كاذب كقولهم بزواجه من بعضهن لمصلحة المصاهرة مع القبائل، فهذا أصلا غير صحيح تاريخيا، لِأَنَّ زوجاته لسن من مختلف القبائل.

ومختصر الكلام أن الرجل وشأنه فيمن تزوّج وكم عددهن طالما لم يأت أمر إلهي بتحديد عدد الزوجات، حَيْثُ إِنَّ السورة هنا أمرته بالتوقّف عند الحدّ الذي هو عليه وَالْتَزَمَ (ع) بذلك، وهذا ما سيأتيك الكلام عنه بعد الآية التالية. فإن كنت لا تؤمن بمحمد(ع) نبيا ولا تؤمن بأن هذا القرآن من عنده تعالى وتتهمه(ع) بالتشريع لنفسه على هواه بتعدد

زوجاته لتسعة، فمشكلتك بالأساس ليست مع مسألة تعدد زوجاته، بل مع الإيمان به كنبي لا يفعل السوء ولا يخالف كلامه تعالى، ومشكلتك مع الإيمان بهذا القرآن أنه من مصدر إلهي، فحلّ هذه المسألة أولا، وأعلن إيمانك أو كفرك بنبوته وقرآنه، وبعدها أفهم عليك من أي خلفية تتكلّم معي، ولا تقل إنَّكَ من مسألة تعدد زوجاته اكْتَشَفْتَ أنه ليس بنبي، راميا بذلك عددا وافرا من الأدلة الدامغة على نبوته وعلى كون هذا القرآن من مصدر إلهي.

فإن كنت معارضا لتعدد الزوجات، فما هي أسباب اعتراضك؟ وَهَلْ أنت مدافع عن حقوق النساء؟ وَمَاذَا عن رجل لديه رغبة وقدرة أكثر من عادية، وَمَاذَا يفعل؟ وَأَيْنَ حقوقه ولماذا لا تدافع عنه؟ ومن ناحية ثانية مَنْ قال لك بأن شرعه تعالى لم يُرَاعِ امرأة لديها رغبات غير عادية، فدعك من الفتاوى الذكورية الظالمة للمرأة وانظر في كلامه تعالى وسترى أن المرأة يحق لها طلب الطلاق لعموم أي سبب وجيه كما ورد في الآية 229 من سورة البقرة {... فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ...}.

وبالنسبة للكلام عن زواجه(ع) من السيدة عائشة بعمر تسع سنين، فمن المفهوم مما قالوه في كتب السيرة أنه ربما عقد عليها " خطبها، كتب كتابه" في هذه السنّ، ومعلوم انتقالها للعيش معه كزوجة بعد ذلك بسنين، والأرجح من كلام بعضهم أن العقد "كتب الكتاب" جرى وهي بعمر يقارب اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، وبعده بسنتين انتقلت للعيش معه كزوجة.

على أي حال، ذَاكَ زمان ومكان له عاداته، وَهَلْ يحقّ لك محاسبتهم على عادات مكانك وزمانك؟ أم أن هذه المسألة عقلية ولها تحديد عقلي يسري على كل الأزمنة والمجتمعات؟

ما بالكم مرّة تعترضون على تقييد الفقهاء للناس بِفَتَاوَى وسنن سلوكيات تعتمد على مرويات من العصر القديم والتي ترونها مناسبة للعصر القديم لزمن النبي(ع)... وهي لا تتماشى مع عصرنا، ومعكم حقّ في كل ما تركه تعالى من هامش مرونة لنتحرّك فيه بما يناسب كل زمان ومكان، ومعكم حقّ بالتمييز بين عادات المجتمعات وبين شرعه القرآني الأساسي سبحانه... ولكنكم تنسون أن لكل زمان ومكان عَادَاتٍ خَاصَّةً به وتعلقون على زواج النبي محمد(ع) من فتاة صغيرة السنّ؟

لا تتغابوا ولا تتعاموا عن هذه الحقيقة، ففي غالبية المجتمعات كان دارجا تزويج الفتيات صَغِيرَاتٍ، وإلى حدود الحرب العالمية الثانية كان الدارج في منطقتنا وفي أوروبا وأميركا... زواج الفتيات بعمر أَرْبَعَةَ عَشَرَ عَامًا.

ولا تتغابوا ولا تتعاموا، حَيْثُ إِنَّ تَشْرِيعَهُ تعالى ترك لنا هامش مرونة في هذه المسألة لنتصرّف فيها بما يناسب مختلف الأزمنة والأمكنة، فلم يحدّد العمر الذي يجب أن تتزوّج فيه الفتاة، بل حدّد العمر الذي يمكن فيه للفتاة من بعده الزواج، وَالْعُرْفُ في زمان ومكان ما، لَيْسَ ملزما للآخرين بالتقيّد به، وهذا هو شرعه تعالى.

(تُرْجِي مَن تَشَاء مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاء وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً{51})
{تُرْجِي} "من الإرجاء" {مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ}، فأمامك الخيار بحيث يمكنك أن تُرْجِيَ وَتُؤَخِّرَ وَتُعَلِّقَ التعامل مع أي واحدة من نسائك حتى يحدث شيء ما أو يتغير شيء ما لتعيد التعامل مع من أرجأت، {وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ}، أَيَّ واحدة تختارها لتجعلها معك في بيتك أو حجرتك... وَهُوَ كرسول "كشخص ربّاني" كان تحت ضغط أن يكون مرضيا للجميع، وإرضاء زوجاته كما تريد كل واحدة على خاطرها أمر مستحيل، وَجَاءَتِ الآية هنا لتخبر نساءه أنه(ع) حَصَلَ على رخصة إلهية كتشريع في تحديد من سيؤخّر من زوجاته ومن سيؤويها إليه في أي ليلة يشاء، وبذلك لَمْ يعد يحق لهن المطالبة بأي تقسيم للوقت للمبيت مع النبي(ع) على خاطرهن.

{وَمَنِ ابْتَغَيْتَ}، ومن أردت ورغبت، {مِمَّنْ عَزَلْتَ}، من نسائك، أَيَّ واحدة منهن ترغب في عزلها في إبعادها عن الإيواء معك، وَلَا تكن معك في يومها، {فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ}، فلا مشكلة عليك، وَيُمْكِنُكَ أن تفعل ذلك.

{ذَلِكَ}، الذي نقوله لك عن التصرّف مع نسائك، {أَدْنَى}، أقرب، {أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ}، تثبت أعينهن على شيء يسرّهن، فلا يَرَيْنَ تصرفا يزعجهن، {وَلَا يَحْزَنَّ}، فلا يشعرن بالمضايقة، {وَيَرْضَيْنَ}، وَيَقْبَلْنَ بمحبّة، {بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ}،

لأنك صرت أنت الذي تحدّد بما تراه مناسبا لك ولهن، وَهَذِهِ الطريقة هي أقرب شيء ليكنّ قريرات العين لأنك لن تظلم أي واحدة منهن...

الآية هنا لا تعطي الرسول(ع) سلطة القهر على زوجاته، وَيَبْدُو واضحا أنها تشير على الرسول(ع) لإرضاء زوجاته، ولكن في نفس الوقت ترفع عنه همّ إرضائهن كما هنّ يردن، وَلَا تجعله (ع) تابعا لهن حتى هنّ يُحَدِّدْنَ تصرفاته، بعبارة أصرح، وَكَمَا تستوحي من كلام السورة، إنَّ زوجات النبي(ع) كنّ بطريقة أو بأخرى يُفَسَّرُ تصرفهن على أنه استغلال لموقع النبي(ع)، لأنه يعظ الناس، ويكلمهم عن الأخلاق، والمعاملة الحسنة... فإذا رفض طلبا لزوجة من زوجاته فإنها ستذكّره بأنه يعلّم الناس الأخلاق العالية فالحري به أن يرضيها ويسعدها ويحقق لها ما تريده... ولو كان على حساب زوجاته الأخريات... هذا ما يبدو من الآيات، لِذَلِكَ جَاءَتِ الآية هنا حتى ترفع هذا الضغط عن الرسول(ع) وعن كلّ زوج يتعرّض لهذا النوع من الضغط.

{وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ}، يَعْلَمُ ما في أساس فكر ونفسية زوجات الرسول(ع) وما في قلب الرسول(ع)، فإن كنّ بنيّات صافية أو سيّئة، فسبحانه يعلم ذلك، وكذلك من ناحية الرسول(ع)، فإذا أردنا تعميم الآية كنموذج لبقية المسلمين، فالله سبحانه يعلم ما في قلبك إن ظلمت إحدى نسائك بإرجائها أو عزلها ظلما.

{وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا}، يعلم كلّ شيء، {حَلِيمًا}، بتعبيرنا الدارج "طويل البال"، وَلَا يمكن استفزازه تعالى بسبب مخالفة أوامره، وَلَا يعجل.

مِنْ مجمل السورة نفهم أنها نزلت لتتحدّث عن أمور جَرَتْ ومرّ عليها زمن، وبعدها نزلت سورتنا هذه لتثبيت صحّة تصرفات الرسول(ع)، ولبيان الحكم الإلهي بقرآن يثبّت النظرة الإلهية للأمور، وَهُنَا أيضا حَصَلَ ما حصل من زوجات النبي(ع) من اعتراضات مختلفة، والنبي(ع) رجل تحت مراقبة الجميع، وَهُنَاكَ من يعتبره قدوة وسيقلّده، وهناك من يشكك في نبوّته وينتظر تصرّفا لا يعجبه حتى يتّخذه دليلا ضد النبي(ع)، وهناك الكارهون له(ع) وينتظرون أي حركة أو همسة ليتلاعبوا بها ويجعلوا منها فضيحة للنبي(ع)، وبيت النبي(ع) أكثر شيء خصوصي، وأي ضربة هناك من الكارهين سَتَكُونُ مؤذية، ولذلك نجد القرآن اهتم بهذه المسألة في هذه السورة بشكل واسع، حتى يقطع أي تعليق من أي كان على النبي(ع)، وحتى زوجاته قطع عليهن طريق الاعتراض على تصرفاته (ع) التي لا توافق مزاجهن... والله حليم، وبتعبيرنا الدارج "طويل البال" حَيْثُ صَدَرَ منهن ومن الناس كَلَامٌ بَاطِلٌ عنه(ع) ولم يعاقبهم سبحانه ليس لأنه لم يرهم سبحانه أو لا يعنيه الموضوع أو... بل لأنه حليم وَأَعْطَاهُمْ فرصة حتى يتوبوا.

بتعبيرنا الدارج "طويل البال"، وَلَا يمكن استفزازه تعالى بسبب مخالفة أوامره، وَلَا يعجل، كما نقول: باله طويل.

اسْتَعْمَلَ القرآن كلمة "صبر" ومشتقاتها أكثر من مئة مرة، ولم يستعملها لوصفه تعالى، مع أنه دارج في أدبياتنا وصفه تعالى بالصبور، ودارج في كلامنا القول مثلا بأنه تعالى يصبر على الناس حتى يتوبوا، وهذا تعبير غير سليم لأن معنى كلمة صبر كما يبدو من كلام العرب قديما واستعمال القرآن: أن لا تتصرف بشكل غير مناسب أو سيّء بسبب تعرّضك لشيء غير مريح أو لا تحبّه أو تكرهه، ويكون الصبر على شيء له حلّ أو سيزول. وكما ترى بِهَذَا المعنى لا تناسب وصفه تعالى بها، بينما الحليم أنسب.

(لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاء مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيباً{52})

{لَّا يَحِلُّ}، هناك منع ولا نجيز لك، {النِّسَاءُ مِن بَعْدُ}، النساء اللاتي معك الآن لا نجيز لك أن تزيد عليهن بعد، {وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ}، فإن فهمت بأن الزيادة ممنوعة، على أساس أن العدد الذي معك هو المسموح به، لا، بل نقصد النساء هنّ لا نحلّ لك الزيادة عليهن ولا تبديلهن، معك تسع نسوة "كما هو مشهور، وتحدثنا عن شيء من ذلك في الآية 50 السابقة"، فلا تترك واحدة منهن وتأتي بواحدة أخرى ليبقى العدد تسعة، لا، فلا تزد عليهن ولا تبدّل بهن، {وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ}، حتى لو كان تقييمك لأخريات أنهن حسناوات فيهن مواصفات جمالية توافق توقعاتك عن الحسن، فلا نسمح لك بالزواج منهن.

{إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ}، من العبدات من الإماء، حيث يمكنك التبديل والزيادة، وسيأتيك توسّع بالكلام عن ملك اليمين بعد قليل.

{وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا}، موجها سبحانه اهتمامه على كل شيء، فلا يغفل عن أي شيء، وهنا المقصود أنه تعالى يراقبك فيرى تصرفاتك.

بمراجعة ما يقولونه في كتب التاريخ، لاحظت أن آخر حركة زواج "موثوقة" للنبي(ع) كانت من ميمونة بنت الحارث وهي التي يقول بعضهم إنها وهبت نفسها للنبي(ع)، ويقولون إن ذلك حدث في العام السابع للهجرة، وآخر حركة زواج من "جارية" كانت لماريا القبطية وأيضا يقولون إن ذلك حدث في العام السابع للهجرة. بغض النظر عن بعض تعليقاتي على هذا الكلام ولكنه يشير بقوّة لكون هذه السورة نازلة في أجواء السنة السابعة من بعد الهجرة، علما أن حادثة زواجه (ع) من زينب بنت جحش طليقة ربيبه زيد يقدّرون حدوثها في العام الخامس من الهجرة، وكذلك حادثة هجوم الأحزاب الذي استخدمته السورة كنموذج عن حال المنافقين وقع في العام الخامس من الهجرة. جمعت السورة عدة أحداث مع بعض من مختلف التواريخ بسبب مناسبتها لموضوع التشريعات الإلهية التي يعترض عليها الكافرون والمنافقون والذين في قلوبهم مرض...

ذكر سور القرآن لحوادث قديمة كنماذج عملية تاريخية مناسبة لذكرها في موضوع سورة ما، هو شيء متكرر في القرآن وكمثال بارز عن ذلك حادثة الغار التي وقعت فيها الهجرة، وذكرتها سورة من أواخر السور النازلة بعد قرابة عشر سنين، ولمزيد من التوسّع راجع دراسة الآية 40 من سورة التوبة {إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ}...

على أي حال، أي كلام في الروايات والكتب عن حركة زواج للرسول(ع) من بعد نزول هذه السورة فهو كلام كاذب، وتؤيده دراسة التاريخ حيث لا ترى فيه أثراً حقيقياً لزواج الرسول(ع) بأي امرأة من بعد ماريا، ولا من بعد التي وهبت نفسها، من بعد السنة السابعة للهجرة لا أثر حقيقياً لأي زواج، وما يقوله البعض عن خطبته (ع) لهذه أو تلك، فهو كلام كاذب.

عطفا على الآية الثالثة من سورة النساء {وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ}...، وعطفا على الآية التالية من هذه السورة {...وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا}، والآية هنا التي جمّدت حركة الزواج للنبي(ع) على الحال التي هو عليها حين نزول السورة، وبدراسة التاريخ الذي تجد فيه نزول سورة النساء قريبا جدا من تاريخ نزول هذه السورة، أي في أجواء السنة السابعة للهجرة، وبدراسة التاريخ الذي تجد فيه جمود حركة الزواج للرسول(ع) في أجواء السنة السابعة للهجرة، من هذا المجموع يصير لدينا اعتبار الآية الثالثة من سورة النساء أن عدد الأربع زوجات "كثير" لعموم المسلمين، ونقدر نزولها في السنة السابعة للهجرة، ونزول الآية هنا يحدّد للرسول(ع) البقاء على الحال التي هو عليها فلا يتزوج من جديد، والسبب الاستثناء الإلهي الخاص لرسوله بتحريم زواج نسائه بعد وفاته، لو كان هناك فعلا أمرٌ إلهيٌّ بتحديد الزوجات بأربعة وسرى الحكم على الرسول(ع) لوجب عليه (ع) تطليق بعضهن وهذا يتعارض مع مشيئته تعالى بالاستثناء له(ع) بتحريم زواج أرملاته من بعده، لو طلقهن(ع) لسرى عليهن حكم تحريم الزواج عليهن حتى أثناء حياته(ع)، وهذا "بالتحليل" ما لم يشأه تعالى...

لهذا يبدو أن سورتنا هذه نزلت قبل سورة النساء المحدّدة لأربع زوجات كعدد كثير، أو بعدما نزلت سورة النساء جاء وحي للرسول(ع) بالاكتفاء بزوجاته، ونزول الوحي بهكذا خبر بدون قرآن مشابه لما ورد في هذه السورة بمضمون كلامها عن علم الرسول بأمر إلهي ليتزوج من طليقة ربيبه، والأرجح عندي أن الآية في سورة النساء لم تحدد عدد الزوجات بأربعة للجميع، وبالتالي زواج الرسول(ع) من أكثر من ذلك ليس استثناءً، أو على أقصى تقدير أنه فرضا يوجد تقدير لأربعة ولكنه نازل بعد زواج الرسول(ع) من تسع، وبعدها جاء هذا الاستثناء هنا وللسبب الذي ستذكره الآية التالية عن قراره تعالى بمنع زوجات النبي من الزواج من غيره بعد وفاته، وسنتحدث عن ذلك في الآية التالية.

بالنسبة للعبودية، على مرّ التاريخ اختلفت نظرة الناس للعبودية، كانت العبودية دارجة قديما في غالبية الأمم، ومنذ مدّة قليلة في القرن العشرين صار دارجا النفور من العبودية، نسي الجميع ما كان دارجا متعارفا عليه أنه مقبول لدرجة

جعلت المفسرين والفقهاء والمفكرين المسلمين، جعلتهم في عصرنا يشعرون بالحرج من الآيات التي تتحدّث عن العبيد، وتراهم مباشرة يغيّرون الموضوع ويشيرون لعدالة الإسلام، ومسحه للعبودية عبر تحرير العبيد وعتقهم ومكاتبتهم، وجعل تحريرهم فِدْيَةً كتكفير عن بعض السيئات...

كلامهم صحيح، ولكن الصحيح أيضا أن العبودية كانت منتشرة، ولها تشريعات في القرآن، ولست بوارد نفي أفضلية كون جميع الناس أحرارا، إن كان المزاج العام للناس الآن مضادا للعبودية، فأين المشكلة! في حين نزول هذا القرآن وإلى زمن غير بعيد لم يكن هذا المزاج العام موجوداً، بل كانت العبودية واقعا منتشرا بين الناس، إن وقع المسلمون تحت الأسر من أعدائهم كان مصيرهم العبودية، لم يكن المسلمون وحدهم يستعبدون...

لننظر لأحكام العبيد في القرآن، لن تجد فيه حكما أو تشريعا يأمر باستعباد أحد، وأقصى ما ستجده عن تقييد الحرية هو عن أسر الأعداء المحاربين فقط، وما فعله الرسول محمّد(ع) من استعباد للأسرى "كما نقلوا في التاريخ" كان حكم الأمر الواقع بسبب اعتماد الطرف الآخر له، وبسبب الخيارات الأخرى الضيقة، فإما قتل أسرى الأعداء أو تركهم أحرارا وفي ذلك خطر إعادة تشكيل قوّة معادية، أو سجنهم ليموتوا في السجن أو سجنهم لمدة طويلة جدا وهذا ليس حلا عمليا للسجين أو للسجّان، أو استعباد الأسرى.

قونن النبي محمّد(ع) هذا الواقع بناء على مبادئ القرآن، بتحرير أسرى الأعداء من بعد أسرهم إن كانت الأمور تشير لاستبعاد الخطر منهم، أو استعبادهم وتفريقهم إن كان هناك خطر من تجمّعهم من جديد كمعادين مقاتلين.

علما أننا لا نجد في التاريخ سوى "زعم بعضهم" استعباده(ع) لبعض أعدائه، بينما لا تجد أي أثر في التاريخ بعد ذلك لأولئك الذين قيل عنهم مستعبدون! لا تجد ولو اسماً واحدا لرجل أو امرأة من الأقوام الذين قيل عنهم إن الرسول(ع) استعبدهم ولا يزالون عبيدا، يبدو واضحا أن كلامهم عن استعباد الرسول(ع) لبعض أسرى أعدائه كان في حدّه الأقصى لمدة قصيرة جدا جدا لا تتعدّى الأيام، وبعدها إطلاق سراحهم، ولكن أصحاب العقلية الإجرامية تعاموا عن ذلك مبيحين استعباد الآخرين واغتصاب نسائهم...

أكرّر لك لتنتبه جيدا، على الرغم مما قاله البعض عن استعباد الرسول(ع) لأعدائه، ورغم التعارف على ذلك أنه من المسلمات التاريخية، بأدنى نظرة عقلانية لكل التاريخ ستجد أن هذا الزعم كاذب، والدليل عليه واضح لأنك لا تجد في الروايات اسماً واحدا لعبد في المدينة من الذين أسرهم الرسول(ع)، ولا تجد اسماً واحدا لأي طفل منهم صار بعد ذلك مسلما، علما أن كفّار العرب كلّهم أسلموا بعد مدة قليلة من الزمن، ولا تجد في التاريخ اسماً ولو لابن واحد من أبناء الصحابة ولّدته عبدة مأسورة من الأعداء، نعم تجد في التاريخ زواجا من مملوكات وتجد أولادا منهن، وكمثال على ذلك إبراهيم ابن النبي محمد(ع) من ماريا القبطية التي أعتقها(ع) ثم تزوجها...

كل الكلام المنتشر عن حالات استعباد الرسول (ع) لأسرى الأعداء لمدة طويلة، وعن استعباد واغتصاب نساء الأعداء، هو كذب من أوهام المسلمين المجرمين، ومن أحلامهم بالبقاء على دين الجاهلية...

هذا ما تراه من تاريخ تطبيق الرسول محمّد(ع) للقرآن، لم يكن له (ع) عبيد سوى ما قالوه عن زيد بن حارثة الذي اشترته السيدة خديجة ولدا صغيرا ووهبته للرسول الذي ربّاه كولد له وليس كعبد، وبلال بن رباح الذي قالوا عنه في كتب التاريخ إن أبا بكر اشتراه لتحريره من ظلم أمية بن خلف ويقولون إنه وهبه للرسول(ع)، ومعلوم من التاريخ أن بلالا لم يعش بين المسلمين كعبد، ولم يعمل عند الرسول(ع) أصلا لا في بيته للخدمة ولا كعبد في وظيفة ما...

بالنسبة للنساء، كلهن أعتقهن النبي(ع) وتزوجهن، لم يقارب أيّ واحدة منهن وهي مملوكة يمين "عبدة أو أمة".

بحسب ما نقلوه في كتب التاريخ، حالات تسريح الرسول محمّد(ع) للأسرى أو فدائهم أكثر بكثير من حالات استعبادهم "التي زعموها ولا تجد لها بعد ذلك أثرا في التاريخ"، وأشهرها طلقاء مكّة من بعد الفتح، وبعدهم تسريح هوازن من بعد معركة حنين، وقبلها فداء أو تسريح حصل لمختلف جماعات يهود المدينة وخيبر... وهكذا ترى أنه تعالى ترك لنا هامشا واسعا في القرار المناسب لمختلف الظروف والأزمنة والمجتمعات... لاستعباد الأعداء أو سجنهم أو مفاداتهم أو قتلهم "إن ثبتت عليهم جرائم...".

أكرّر لك لتنتبه أشدّ الانتباه مما يقال عن إبادة الرسول(ع) لكل ذكور بعض أعدائه، ولما يقال عن سماحه(ع) لأصحابه باستعباد نساء الأعداء ومعاشرتهن غصبا عنهن... هذه أكاذيب ألّفها مجرمون مشابهون في إجرامهم لبعض المعاصرين للرسول(ع)، أولئك بقوا على عقليتهم الإجرامية القديمة بلا ناموس ولا قرآن، واستمرّ الحال هذا من بعد الرسول عمليا وإفتائيا مخالفا لكلام القرآن الصريح حتى صار من المتعارف عليه والمنتشر فتاوى تبيح اغتصاب العبدات "ملك اليمين"، درج ذلك بين المسلمين! وصار منتشرا في ثقافتنا الحريم والجواري...

التصرفات المشهورة عن الرسول(ع) هي وحدها العاكسة لدينه تعالى، وأمّا تصرفات كل بقية المسلمين وفتاويهم فهي عاكسة لدينهم هم، هو (ع) لم يكن له عبيد يخدمونه، ولا قارب أنثى "أمة عبدة ملك يمين" قبل أن يتزوجها، وما ينقله البعض من أخبار شاذّة عن ذلك، وما قاله البعض كفتوى تجعل اغتصاب المملوكة رغما عن إرادتها حلالا، فما هو إلا انعكاس لعقليتهم الذكورية الإجرامية.

ما قاله القرآن يساوي بين الزوجة وملك اليمين من ناحية حليّة المقاربة كما ورد في الآيتين 6 من سورة المؤمنون والآية 30 من سورة المعارج {إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ}، لمقاربة مملوكتك لا تحتاج لعقد قران عليها ويكفي موافقتها، وإن رفضت وطلبت الزواج من مالكها حتى تسمح له بمقاربتها، أو طلبت الزواج من أي أحد آخر حرا كان أم عبدا، فهي وشأنها، وهذا واضح من كل كلام القرآن الذي عليك بإعادة قراءته من دون أفكار "ذكورية إجرامية" مسبقة عن هذا الموضوع، وسترى بوضوح أن للعبدة "الأمة المملوكة" حرية اختيار من تقاربه ومن تتزوجه، وهذا واضح وصريح من الآية 25 من سورة النساء {وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}...

نعيد ونقول إن القرآن لم يذكر من موضوع تشريع تقييد الحرية إلا الأسر للأعداء، لم يذكر أي شيء عن الكيفية التي تبيح استعباد الآخرين، ومن ناحية ثانية كان الأمر الواقع المنتشر بين الناس استعبادهم للشعوب الضعيفة من أي دين أو عرق كان، فهل تشريعات القرآن التي تضمّنت كلاما عن العبيد وملك اليمين قصدت واقع الحال هذا، أو قصدت فقط الهامش المسموح التحرّك به في حالة استعباد الأسرى من الأعداء المقاتلين من غير المسلمين؟

من عموم القرآن وبالخصوص من سورة الممتحنة وبالأخص من الآية 8 منها {لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، تجد منعا قرآنيا بكل أشكاله من التعرّض بالأذى لأي إنسان كان مهما كان عرقه أو دينه إلا إذا كان معاديا محاربا، وأي آية يفسّرها أحدهم ويقول بأنها تشرعن استعباد المسالمين من الكفّار أو من أهل الكتاب، راجع دراستنا هذه لترى معناها، وسترى أن كلامهم غير صحيح. أمّا ما في الروايات عن هذا الموضوع ومخالف لصريح القرآن فمصيره الرمي والإهمال وتكذيب ناقليه عن الرسول(ع)...

ننتقل الآن إلى واقع الحال الذي كان عليه الناس في عصر النبي محمّد(ع)، حيث كانوا يشترون ويبيعون العبيد المسالمين المخطوفين من مختلف الجنسيات ومختلف الأديان، فهل في عهده (ع) تعامل المسلمون بذلك أم انحصرت تعاملاتهم في العبيد من الأعداء؟

طبعا حين نقول "المسلمون" نقصد المؤمنين الحقيقيين منهم، اشتهر في عهده (ع) بعض المسلمين "المنافقين والفاسقين" الذين يجبرون عبداتهم على الزنا، منعهم النبي(ع) من ذلك بأمر إلهي كما ورد في الآية 33 من سورة النور {...وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا...}، ومن منطوق الآية بكلامها عن الإحصان تفهم أنه حتى مالكها لا يحقّ له مقاربتها إن لم تقبل، وبالتالي لا يحق له السماح للآخرين بمقاربتها غصبا عنها... ويحقّ لها اختيار زوجها مع موافقة أهلها ومن ضمنهم مالكها...

أكتفي بهذا المقدار الذي فيه الأساسيات القرآنية لترى نظرة قرآنية مختلفة عن العبيد مما هو دارج في مختلف الكتب المسمّاة إسلامية.

ما تجده في القرآن عن العبيد وما تجده في كتب التاريخ من تصرفات المؤمنين الحقيقيين مع العبيد والإماء، كتطبيق عملي للإيمان في التعامل مع الآخرين، ترى فيه فرقا عمّا تجده في الكثير من كتب الفقه عند كلّ المسلمين، التي بعضها كتبها فقهاء مجرمون، يحلّون استعباد أي إنسان ليس من طائفتهم أو مذهبهم! بل يهدرون دم وعرض الآخرين! حتى المسلمين المسالمين! اعتمدوا في ذلك على روايات كاذبة رواها مجرمون أمثالهم، واعتمدوا على سيرة مجرمين من المسلمين اتخذوا منهم منارة للدموية، ها هو القرآن أمامك، وها هي دراستنا له، راجع أي آية قالوا إنها تدعم كلامهم لترى أنهم كاذبون ومجرمون.

بالنسبة لتعبير ملك اليمين، معنى كلمة ملك: هو عموم أي شيء يرجع إليك أمره فيتبع لك مع التحكّم به والسيطرة عليه. وكلمة يمين لعموم التعامل مع أي شيء براحة واقتدار وقوة وتحكّم. يصير تعبير ملك اليمين يعني: السيطرة مع اقتدار. هو شخص تتصرّف به فتأمره بقوة اقتدارك عليه. وكلمة عبد تشير لمن مفروضة منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

من هذا المعنى اللغوي الأساسي للكلمات ترى أن استعمال القرآن لها للتعبير عمّا يقصده بعيد كل البعد عن الممارسات السيئة للناس مع المملوكين ملك يمين والمستعبدين، قارن معنى كلمة "ملك يمين وعبد" مع خادم أو خادمة أو عامل أو عاملة مقابل المبيت والطعام، وسترى أن القرآن يقصد هذا المعنى حصريا، أمّا ممارسات "المسلمين" ورواياتهم وفتاويهم فهي تمثّلهم هم ولا تمثّل دينه تعالى المطروح في قرآنه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً{53})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين:

{لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ}، فبيوت النبي(ع) ليست أماكن عامّة، وليست بلا حرمة، ووقت النبي(ع) ليس مِلكاً لكم لتحدّدوا أنتم مواعيد الدخول عليه، فإن لم تحصلوا على إذن، على سماح من النبي(ع) بالدخول إلى بيته فاذهبوا، وعودوا في وقت آخر.

{إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ}، {إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ}، فإذا أذن (ع) لكم بالدخول إلى بيته فهذه ليست دعوة مفتوحة حتى قدوم وقت الطعام، فلا تبقوا {إِلَىٰ طَعَامٍ} {نَاظِرِينَ} تنتظرون، {إِنَاهُ} أي نضجه، وتبقون عند النبي(ع) وتنتظرون حتى يحين موعد الطعام، وتنتظرون حتى يطبخوا الطعام، وتبقون جالسين هكذا كضيوف وتنتظرون تحضير الطعام لكم، لا، فهذا غير مسموح.

ننتبه، ليست المسألة مسألة تكلفة الطعام، فهذا شيء آخر ممنوع أيضا لأنك لا يحقّ لك أن تتقصّد تحميل الآخرين تكاليف طعامك، بل المسألة مسألة خنق حياته الخاصّة (ع)، حيث لك الحرية في التصرّف ببيتك، وتأكل متى تشاء، ومن أي نوع تشاء، وترتاح متى تشاء، وتستقبل الضيوف متى تشاء... ووقتك معك... ولكن النبي(ع) "ومن في مركزه"، محكومٌ لك ولمزاجك!

{وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا}، فإذا قال لكم الرسول(ع) أو أهل بيته أن تتفضّلوا على الطعام، فادخلوا فلا مشكلة، {فَإِذَا طَعِمْتُمْ}، فإذا أكلتم، {فَانتَشِرُوا}، فتوزّعوا ولا تبقوا في البيت، {وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ}، فلا تفتحوا أحاديث أنس، أحاديث لا علاقة لها بموقع النبي(ع) كشخصية تتعاطى الشأن العام، بل أحاديث أنس للتسلية وعن الذكريات وعن أحوال الطقس... لتمضية الوقت، فلا تفعلوا ذلك، {إِنَّ ذَٰلِكُمْ}، الدخول إلى بيته (ع) بلا إذن، والبقاء عن قصد حتى يحين موعد الطعام، والجلوس الطويل بلا عمل أو بأحاديث الأنس، {كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ}، ويتضايق منه (ع)، {فَيَسْتَحْيِي}، النبي(ع)، {مِنكُمْ}، ويشعر بأنه (ع) يفعل شيئا معيبا إذا قال لكم إنه متضايق مما تفعلونه، {وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ}، فالحقّ أن تحترموا بيت النبي(ع) ووقته وراحته... وأنتم لم تحترموها والله تعالى لا يعتبر التنبيه على الحق بأنه عمل معيب، ويجبهكم سبحانه بصراحة لتنتبهوا وتتوقّفوا عن أذية النبي(ع).

عليك بدمج ما ورد هنا مع ما ورد في الآية 58 من سورة النور إذا أردت دراسة السلوكيات التي يأمرنا بها سبحانه في احترام أوقاتنا وأماكننا الخاصة، وستفهم منها أن توافر وسائل الاتصال عن بعد، الهواتف، هي وسيلة جيدة جدا لإعلام الآخرين بقدومك إليهم، وذلك لإفساح المجال أمامهم لقبول توقيت زيارتك لهم أو تغييره... وهذا سلوك ممتاز بتماشيه مع أوامره سبحانه.

{وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ}، فعبّرتم لأزواج النبي(ع) عن إرادتكم للحصول على {مَتَاعًا}، على أمتعة على شيء تنتفعون به من طعام أو ثياب أو أغراض... {فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ}، حيث بعض الناس يقصدون بيت النبي(ع) إذا كانوا بحاجة للمساعدة من مال أو ثياب أو طعام أو غرض ما... ويتوقعون أن تستقبلهم زوجة النبي(ع) بالترحاب والتأهيل، وأن تدعوهم فورا لاستضافتهم قبل معرفة سبب مجيئهم... على أساس أنها زوجة النبي رسول الله القدوة الكريم الخلوق... وهذا بيت النبي(ع)... وهكذا تصير زوجة النبي(ع) أيضا مضطرة لتصير شخصية اجتماعية تتعاطى الشأن العام للناس، ووقتها وبيتها وراحتها... ليست لها. وهذا غير منطقي، فاسألوا نساء النبي(ع) متاعا من وراء حجاب، من خلف الباب أو من خلف الشبّاك... حيث زوجة النبي(ع) ليست مضطرة لاستقبالكم في بيتها كلما قرع أحدكم الباب لتعطيكم متاعا أو تقول لكم بأنها ليس لديها متاع لكم، بل يكفي أن تردّ عليكم من وراء الباب.

{ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ}، لأن التعامل من وراء حجاب من المفروض أن لا يسبّب أي أشياء سيّئة من أفكار سيئة أو مشاعر سيئة بين زوجة النبي(ع) ورجل غريب.

للنبي (ع) عدّة زوجات، ولكل واحدة منهن بيتٌ، والناس تقصد بيتا من تلك البيوت لتطلب المساعدة، وكما ترى في أكثر الأحيان لن يكون النبي(ع) في البيت الذي قصدوه، فهل من المنطقي أن تقوم زوجاته باستقبال كل "رجل أو امرأة" يطرق بابهن طالبا المساعدة لتدعوهم إلى الدخول للمنزل؟! وإذا لم تستقبلهم سيقولون: لم يستقبلوني في بيت الرسول.

{وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ}، فليس من المفروض منكم أن تؤذوه لا بمسألة الدخول بلا إذن والبقاء لحين الطعام... ولا بالتعاطي مع زوجاته وبيوته كأنها أماكن عامّة وبلا حرمة لها ولا لساكنيها.

{وَلَا أَن تَنكِحُوا}، ولا تتزوّجوا، {أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ}، فإن مات فلا يحقّ لكم أن تتزوجوا من زوجاته، {أَبَدًا}، مهما مرّ من زمن، حتى لو بعد عشرين أو مئة سنة، {إِنَّ ذَٰلِكُمْ}، الزواج من زوجة النبي(ع) بعد وفاته، {كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا}، كان شيئا غير عادي أبدا في شدّة سوئه.

هل هذا الحكم الإلهي المانع لزوجات النبي(ع) من الزواج بعد وفاته، ظلم لهن؟ لا، فمستحيل أن يظلمهن سبحانه، أو أن يحملهن ما لا طاقة لهن به، ونقيس ذلك على قرار تتخذّه العديد من النساء اللاتي يرفضن الزواج من بعد وفاة أزواجهن، وخاصة نساء الشخصيات التي لها مكانة سياسية أو اجتماعية أو دينية تعتبر عالية.

في حالة الرسول(ع) كانت الأمور تستدعي قرارا إلهيا يحسم مسألة تعاطي زوجاته (ع) مع الأغراب، لينهي أيّ أفكار سيئة، والآية التالية ستكمل مع هذه النقطة:

نسأل: هل هذا الحكم استثناء للرسول محمّد(ع) أم لكل الرسل السابقين؟ لا نعلم. نسأل: هل هكذا حكمٌ خاص بمحمد كرسول(ع) أم يشمل كل قائد أو رئيس؟ لا يبدو من القرآن ولا من الروايات أي شيء، بل يبدو أنه الحكم الاستثنائي القرآني الوحيد الخاص بالرسول(ع).

ما قيل عن زواج بعضهن بعد وفاته(ع)، فمعلوم من كتب السيرة أنه من التسع اللاتي كُنَّ زوجات له(ع) حين وفاته، فلا واحدة منهن تزوجت، ولكن قبل وفاته(ع) عقد "كتب كتابه" على بعض النسوة ولم يحصل الزواج فعليا، فطلقهن قبل أن يمسّهن، فهذه النسوة تزوجن ولَسْنَ مشمولات بالمنع من الزواج المذكور هنا.

(إِن تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً{54})
{إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا}، إذا ظهر منكم شيء ما، {أَوْ تُخْفُوهُ}، لا تجعلوه يظهر، {فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}، يعلم كل شيء.

عند تعاطي أي رجل مع أي امرأة ستخطر في بالهما أفكار متنوعة من مستويات مختلفة، وتعاطي الناس مع زوجات النبي(ع) ليس خارجًا عن هذه القاعدة، ولكن هل من المنطق أن يدفع النبي(ع) ثمن نقله رسالة الإله سبحانه للناس أن تصير زوجاته معرّضاتٍ لكل أنواع الناس من المحترمين ومن السفلة، ليتعاطين معهم ولا يمكنهنّ فعل أي شيء، لأنه بيت النبي(ع) ويجب أن يستقبل كل الناس! لا، لا يرضى الله تعالى بهذا، ولذلك قطع سبحانه الموضوع نهائيًا، ومن رأى زوجة من زوجات النبي(ع)، أو كان يعرفها سابقًا، فليمحِ من رأسه أي فكرة إعجاب بها، لأنه حرام عليه أن يتزوجها أبدًا مؤبّدًا، ونفس الشيء من ناحية زوجات النبي(ع).

التنبيه في الآية يقصد مسح الناس أي أفكار من بالهم عن زوجات النبي(ع)، لأنه تعالى يعلم ما يخفونه، حيث بينهم منافقون وفاسقون سفلة، فليمحوا من بالهم الإعجاب بزوجة من زوجاته (ع) وينتهوا منه، حيث لا يحقّ لأي أحد الزواج من زوجات النبي من بعد وفاته(ع).

(لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاء إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاء أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً{55})
{لَا جُنَاحَ}، لا مشكلة، {عَلَيْهِنَّ}، على نساء النبي(ع)، {فِي آبَائِهِنَّ}، والكلام عن التعاطي مع آبائهن، ولا مشكلة في التعاطي مع، {أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ}، زوجات وبنات المذكورين سابقًا، ولا مشكلة في التعاطي مع، {مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ}، من العبدات أو العبيد، والكلام هنا في الآية فقط عن التعاطي وليس عن إبداء الزينة، حيث ذلك موضوع تكلمت عنه الآية 31 من سورة النور، وكلامها هناك عن جواز إبداء الزينة أمام مَمْلُوكِي اليمين حيث فهمنا منه بالبداهة قصد الإناث المملوكات وأنها بالبداهة لا تشمل الذكور المملوكين "... {وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ... أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ}...". وتحدثنا مطولًا عن ملك اليمين في دراسة الآية 52 منذ قليل.

لاحظ أنَّ العمّ والخال لم تذكرهما الآية، وقيل إنَّ "آبائهن" تشمل العمّ والخال، ولكن بالتحليل ترى الآية تماشت مع أقرب الأقارب الذين عادة يزورون بعضهم بدون رسميات بينهم ولا شكليات.

{وَاتَّقِينَ اللَّهَ}، فهذا أمر منه تعالى لنساء النبي(ع) أن يَجْتَنِبْنَ غضبه وعقابه تعالى إن تعاطين مع رجال ونساء من داخل أو خارج هذه الدائرة.

{إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا}، يَشْهَدُ كلّ شيء، وَيَرَى ويسمع كلّ شيء، فاتقينه لأنه سبحانه يراقبكن.

إذًا، هذه دائرة الأقارب التي عادة يزورون بعضهم، فلا حرج على زوجات النبي(ع) في استقبال هؤلاء الأشخاص في بيتهن حتى في غياب النبي(ع)، أمّا البقية فبيت النبي(ع) ليس مشاعًا لهم ليدخلوه ساعة يشاؤون، فزوجات النبي (ع) لسن مجبرات على استقبال أيًّا كان من الناس.

ننتبه، حيث مات النبي(ع) وماتت نساؤه، فهل هذه الآيات صارت للتاريخ وبلا تطبيق؟ لا، فكل شخصية قيادية أو تتعاطى الشؤون العامّة فهذا هو حكمها وحكم التعامل معها إلا في مسألة حرمة الزواج من زوجته بعد وفاته، فحالة الرسول كانت استثنائية لأن الناس تعاطوا مع بيته وكأنه بيت للعموم لأن صاحبه نبي... وفرضوا على زوجاته تعاطي الشأن العام باستقبال الناس، وتأمين احتياجات الناس... وفي غياب الرسول عن البيت فمن بدور نقل ما يريده الناس إلى الرسول حين يحضر... وهذه الحالة الاستثنائية تتكرر مع شخصية تتعاطى الشأن العام إذا كانت الظروف دافعة لزوجته أن تتعاطى مع الناس، وتأتي آيتنا هذه لتنبيه عموم الناس من سلبيات تعاطي نساء الشخصيات القيادية مع عامّة الناس الذين من ضمنهم حتمًا منافقون وفاسقون وسفلة...

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً{56})
{إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ}، يتوجهون يقبلون عليه (ع)، حيث سبحانه يتوجّه عليه (ع) برحمته وعنايته، والملائكة(ع) تتوجّه عليه (ع) بالاستغفار له وطلب الرحمة، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا

الدين، {صَلُّوا عَلَيْهِ}، أقبلوا وتوجّهوا عليه (ع) واعتبروه وجهة محترمة لكم، عمليًا عبر احترامه وتقدير جهوده كرسول، وبدعائكم له... {وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}، أعلنوا له (ع) أن لا يتوقّع منكم أي أذى، بكل ما تحمل كلمة سلام من معنى.

الصلاة والتسليم بالتلفّظ هو قولنا: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله. ولكن المطلوب الصلاة والتسليم عمليًا عبر ترسيخ القيمة العالية لشخص الرسول(ع) في أنفسنا، طبعًا بسبب إيمانه المميّز وتحمّله أعباء توصيل الرسالة الإلهية، ونشر الدين والدفاع عنه... وما نتج عن ذلك من معاناته مع الأعداء وأفراد المجتمع المسلم...

سياق كلام السورة عن موقفنا من تصرفات وسلوكيات قام بها الرسول(ع) مستندًا على شرعه تعالى، فالمؤمن الحقيقي لن يصدر منه أي تعليقات سلبية على أي شيء فعله أو قاله الرسول. فما هو دارج في ثقافتنا من قولنا: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، فهذا ليس تطبيقًا عمليًا للآية هنا، بل مجرد تلفّظ لم تقصده الآية، فهي قصدت تطبيقنا العملي لاحترامه بشخصه من أخلاق عالية وبما يمثله من إيمان عبر اتباع ما قاله وفعله من تطبيقات لشرعه تعالى.

لاحظ الآية تعطي معنويات عالية للمؤمنين وللنبي(ع)، فنحن بصلاتنا عليه(ع) صار لنا قيمة، وصرنا نطلب من الله تعالى أن يصلّي عَلَى نبيّه(ع)، وصرنا في الوسط بين قيمتين عاليتين، حيث إننا لن نقدّم أي شيء لا للنبي(ع) ولا لله تعالى، والله سبحانه أصلًا يصلّي على النبي(ع) ويتوجّه عليه بالرحمة واللطف والحنان وزيادة الثواب ومسح السيئات... ولا ينتظرنا حتى نطلب منه سبحانه فعل ذلك، وأصلًا النبي(ع) هو من أكثر الأشخاص الذين يستحقون صلاة الإله سبحانه عليهم، ونحن في هذه الحالة فقط حصلنا على قيمة اعتبارية، فأعطانا سبحانه قيمة لنتعامل مع موضوع بهذا المستوى العالي بين الإله العالي وبين الرسول(ع)، حيث نكسب قيمة ونكسب حسنات عندما نطلب منه سبحانه أن يصلّي على نبيّه(ع).

أمّا بالنسبة لكلام المعلقين الناقدين لشخصية الرسول محمّد(ع)، القاصدين تدمير قيمته حتى لا يكون أهلًا لصلاته تعالى عليه، بناءً على كفرهم بالقرآن، وتكذيبهم لهذه الجملة المنقولة عنه تعالى بالمدح والقيمة العالية لرسوله محمّد(ع)، فما تسمعه من هنا وهناك من روايات قليلة ونادرة وكاذبة ومعيبة يتناقلها الناس عن أحداث نسبوها للرسول(ع)، وكانت تلك الروايات وقودًا اعتمده المغرضون للتعليق على الرسول(ع)، فحسبنا الله تعالى في الكاذبين عليه (ع)، فكلامهم مردود بما هو مشهور جدًا جدًا عن أخلاقه العالية(ع)...

سنختار من تلك الروايات شيئًا صحيحًا علّقوا عليه، فسنتحدّث عن كثرة زوجاته (ع) كنموذج فقط لتقيس عليه بقية تعليقاتهم التي لم يقصدوا منها الحقّ، بل قصدوا فقط وفقط تشويه صورته (ع)... فهؤلاء المعلّقون على موضوع تعدّد زوجاته(ع) والمصوّرون له (ع) كوحش جنسي، تناولوه متجاهلين عن قصد وتغابٍ أنَّ الكثيرين في عهده (ع) كان لهم عدة زوجات، والعديد من الأنبياء (ع) كان لهم العديد من الزوجات، والمشهور منهم النبيان داوود(ع) وسليمان(ع)، فلم يكن النبي محمّد(ع) حالة منفردة مميّزة بتعدد الزوجات لا بالمقارنة مع رجال عصره ولا بالمقارنة مع من سبقه (ع) من الأنبياء، نعم بالمقارنة مع غالبية مجتمعات عصرنا سيبدو تعدّد الزوجات حالة غير عادية، ولكن هذا سلوك اجتماعي تحكمه ثقافة وعادات المجتمع، فقارنها مع عادة الأكل لمجموعة من الناس من صحن واحد وباليدين "بدون ملاعق" والتي كانت دارجة قديمًا في عموم الأرض، وقارنها مع ما كان دارجًا بين العديد من أهل الأرض من الشرب ومضمضة الفم من وفي نفس الآنية... وقارنها مع عادات بعض الشعوب بالاستحمام وغسل الثياب نادرًا... وقارنها مع ما كان دارجًا على عموم الأرض في كلّ القارّات من زواج البنات بعمر تحت الأربعة عشر عامًا، وبقي ذلك عاديًا جدًا ومنتشرًا إلى زمان ما يسمّى بالحرب العالمية الأولى والثانية... والكثير الكثير من الأمثلة عن اختلاف ثقافات المجتمعات عن بعضها وعبر الزمن.

اختلاف المزاج العام لأهل الأرض من بعدما صار التواصل سهلًا بين الجميع عبر التلفاز والانترنت والهواتف... لا يجب أن يكون معيارًا نحاكم به ثقافات وعادات من سبقنا، ولا الحكم منه على شريعته تعالى التي أجازت ولم تأمر بتعدّد الزوجات...

(إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً{57})

{إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، وكلمة أذية غلب استعمالها في القرآن على عموم ما تتضايق منه ولا تريده وهو أقل من الضرر، وغالبًا للشيء السيئ الناتج من الشتم والإهانة والمعاندة، حيث سبحانه فعليًا لا يتأثّر متأذيًا أو متضررًا من أي شيء، فعلى عمومية معنى كلمة أذية فهم يسبّونه تعالى ويستهزئون به وبرسله وبكتبه وبشرعه... والتوصيف المناسب لذلك هو أذيتهم له تعالى، فهذا الوصف لما قصدوه أو كناتج متوقّع لما يفعلونه، وعلى الرسول(ع) له أثر لأنه بشري، وعليه تعالى فلا أثر له. كحالة ذبابة ضربتني، فالوصف أنها ضربتني بيدها على يدي، ولكن الأثر لا شيء بالنسبة لي، ونفس الشيء لوصف أذاهم له تعالى.

أولئك، {لَعَنَهُمُ اللَّهُ}، طردهم من رحمته، {فِي الدُّنْيَا}، هنا، ولن يحصل معهم أي شيء يصبّ في مصلحتهم، بل كل شيء سيزيد في تعذيبهم في الآخرة، ولعنهم في {الْآخِرَةِ}، فلن يحصلوا على أي رحمة ولا مغفرة ولا تخفيف لعقابهم... بل سيحصلون على أشدّ العذاب، {وَأَعَدَّ}، وجهّز لهم سبحانه، {عَذَابًا مُهِينًا}، فسيشعرون بالإهانة بأنهم بلا قيمة أثناء تعرّضهم للضرر، لأنهم آذوا الله تعالى ورسوله(ع)، ومرارًا أكّد القرآن على العذاب النفسي بشعورهم بالإهانة كعقاب على إهانتهم له تعالى ولرسوله وللمؤمنين.

هناك أناس من المسلمين، يؤذون النبي(ع) بتعاملهم معه بقلّة أدبهم، بكلامهم، باستغلالهم لمنصبه ووصفه كنبي ليحرجوه بأمور سيئة... باستغلالهم لطيبة قلبه وأخلاقه... وهناك من يؤذونه فيما ينقله ويطبقّه من شرعه تعالى، والذي تناولت منه السورة هنا بعضًا من نماذجه، كالتبني والظهار...

ننتبه جيدًا، فالأذية له تعالى لها توصيف من طرف واحد، فهؤلاء يقولون كلامًا مهينًا عنه تعالى وعن دينه، وسبحانه مستحيل أن يتضرّر ولا بأي شكل، ومستحيل أن ينفعل كما نحن تفعل فينا المشاعر، فلن يتأذّى سبحانه بمعنى تأثّره بأفعالهم وأقوالهم، بل هو توصيف لما يقصدونه هم به تعالى، ويردّ عليه سبحانه بلعنهم، بطردهم من رحمته سبحانه من هنا من الدنيا، وبعذاب مهين في الآخرة، لا لأنه سبحانه تأذّى منهم فتأثّر بما فعلوه، لا، بل بما قرّره تعالى من عقاب لمن لا يحترم ربّه ورسوله.

(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً{58})

{وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا}، فلم يفعل الذي "أو التي" أعلن أنه معتقد وملتزم بهذا الدين، فلم يكسب، ولم يحصل على أي شيء "سيئ" كناتج من عمل قام به ليستحق أن يؤذوه عليه بالكلام أو بالمعاملة، ورغم ذلك تؤذونه أو تؤذونها بالغيبة والإهانة والشتم والكلام العاطل الباطل السيئ، وهم أبرياء لم يفعلوا أي شيء ليستحقّوا الأذية، فمن يؤذيهم، {فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا}، فصاروا موصوفين بأنهم قالوا وفعلوا تلفيقًا، شيئًا لا أساس له من الصحّة ولا علاقة له بالواقع، فتسجّل عليهم أنهم اتهموا الناس بأمور لا أساس لها، واحتملوا، {إِثْمًا مُبِينًا}، فتسجّل عليهم ارتكاب ذنب واضح وهم يعلمون أنه سيئ. فالإثم هو عموم أي عمل تعلم أن له عواقب عليك، والكلام هنا دينيًا عن السوء الذي ترتكبه وأنت تعلم أنَّ عليه عقابًا إلهيًا، فأذية المؤمن أو المؤمنة الأبرياء فهي بهتان وهي أذية من شيء لم يفعلوه ولا أساس له، وهذا إثم واضح.

ننتبه لدقة التعابير، فلو فعل المؤمن أو المؤمنة عملًا سيئًا، لنتج عنه أن يتحدّث عنهم الناس بالسوء الذي فعلوه، فهم اكتسبوا الأذية من الناس كناتج عمّا فعلوه من سوء، فآذاهم الناس بالإهانات والشتم والغيبة بالكلام عن سوء ما فعلوه، وفي هذه الحالة لم يرتكب الناس بهتانًا، فهذه الأذية نتجت عن عمل سيئ قام به الذي آذوه بالكلام عمّا فعله من سوء.

طبعًا تتذكّر عموم القرآن الذي يمنع عن الكلام بالسوء عن الآخرين حتى بذكر ما فعلوه من سوء، فهذه غيبة عليها عقاب إلهي، وفي بعض الأحيان هناك عقاب منّا لمن يذكر السوء الذي فعله الآخرون، فهنا الآية تشير لأبشع فعل وهو البهتان، ولا تقصد أن الناس معذورون إذا آذوا المؤمنين الذين فعلًا قاموا بعمل سيئ، لا، فهذا موضوع آخر تجد كلامًا عنه في الآية 148 من سورة النساء {لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا}، وفي الآية 4 من سورة النور {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}، والآية 12 من سورة الحجرات "... {وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا}...".

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ علَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{59})
{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}، يا أيها الذي يصله نبأ، خبر غير منتشر علمه بين الناس، والكلام عن النبي محمّد الذي يصله الخبر منه تعالى، {قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ}:

{يُدْنِينَ}، يقرّبن ولا يغطين بالتمام، {عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ}، والجلباب قطعة قماش كبيرة توضع فوق الثياب وليس لها تفصيل محدّد، وفيما بعد نزول هذه الآية صار الجلباب مُتَعَارَفاً عليه لتغطية شعر الرأس والصدر كمصطلح للستر الشرعي، فتقريب الجلباب سيكون بزيادة المساحة التي يسترها من الرأس والصدر، وقبل ذلك كانت النساء "بالعموم" أحيانا يغطين به رأسهن وأحيانا يُسْدَلُ على أكتافهن، وبعضهن تَظْهَرُ رقبتهن وأعلى صدرهنّ... وطبعا بعضهن كنّ لا يضعن الجلباب، تأتي الآية هنا لتحدّد للمؤمنات ما يجب ستره، {ذَٰلِكَ}، التقريب للجلباب ليستر المزيد من الرأس والوجه والرقبة والصدر، {أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ}، أقرب شيء حتى تصير "المؤمنة" معروفة تعرفها الناس، حيث لم تُغَطِّ كامل وجهها بل أبقت بعضه مكشوفا ويمكن التعرّف عليها، {فَلَا يُؤْذَيْنَ}، لا يتعرّضن للأذية من كلام الناس.

{وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا}، لا يأخذ سبحانه موقفا صلبا جامدا ممن خالف أوامره بل يتجاوز عن الذنب لمن استغفر، {رَّحِيمًا}، لديه عناية خاصّة بالمؤمنين، ومن هذه العناية الخاصّة يغفر لهم ويضاعف ثوابهم... وأمّا غير المؤمنين فلا مغفرة لهم إلا بعد أن يؤمنوا ويعملوا الصالحات.

نلاحظ أنَّ هذه الآية والتي تليها تتعاملان مع واقع مرّ في المجتمع الإسلامي، بأي منطق يوجد شيء اسمه أذية للنساء؟ حيث تتعرّض المرأة العفيفة لكلام فيه قلّة حياء، ويغازلها الغرباء في الشارع ويصفون مفاتنها ويحاولون التحرّش بها؟ يبدو من الآيات أن هذا الواقع كان موجودا في زمن النبي(ع)، وأكرر لك بأن الآيات هنا تتعامل معه كواقع مرّ، وستلاحظ بأنها لم تقبل به أن يستمر، حيث تهدد "بالقتل" أولئك الأشخاص المُؤْذِينَ للنساء...

بعبارة أخرى تقول الآية: فلتتميّز نساء المؤمنين بلباس محتشم زيادة عن بقية النساء الأخريات غير الملتزمات أو من الثقافات الأخرى الَّذِينَ لديهم عادات أخرى لا تعارض مغازلة النساء في الشارع... حتى يصير لدى المنافقين والذين في قلوبهم مرض، يصير لديهم خبر أن هذه المرأة من المحتشمات، فلا يتحرّش بها، وإن تحرّش بها فلا يمكنه الاعتذار بحجّة أنه اشتبه بها بامرأة مبتذلة معتادة على التحرّش وتقبل بالتحرّش، بل وتلك المرأة تَتَعَمَّدُ إظهار مفاتنها للآخرين... وهذه المؤمنة وجهها ليس مستورا بالكامل حيث يمكنه معرفتها ولم يعد لديه حجّة أن يقول: ظننتها امرأة أخرى لا تمانع من التحرّش بها أو المزاح معها.

في نفس المجتمع يوجد أناس من المؤمنين المحافظين، ويوجد مؤمنون وسط، ويوجد منافقون وفاسقون وسفلة... وهذه الحال عامّة وعادية في كل المجتمعات، ويوجد أناس لا يقبلون بالتحرّش، إمّا لأنه حرام دينيا، أو لديهم غيرة، أو يعتبرونه تصرفا سافلا... ويوجد أناس يقبلون بالتحرّش لأنهم بلا دين ولا ناموس وليس لديهم غيرة ولا حشمة... بل هناك إناث تَتَقَصَّدُ التعرّض للتحرّش! حيث تَفْرَحُ بمغازلتها من الأغراب في الشارع... وفي هذه المَعْمَعَةِ، أمرت الآية نساء المؤمنين أن يتميّزن باللباس، ويزدن من السترة حتى يصير لدى أولئك المتحرشين علم وخبر بأن هذه الأنثى مختلفة، ولا ترضى بالتحرّش بها.

هذا يأخذنا إلى تحليل الوقائع، ما معنى إظهار المرأة لمفاتنها؟ وتأتيك الأجوبة أنه جسدها وهي حرّة به، إلى أي حدّ هي حرّة؟ ما بين التعرّي الكامل وبين الستر الكامل أين هو الحدّ المسموح المقبول؟ ويأتيك جواب أنها تريد أن تكون جميلة مزيّنة، والسؤال: لمن؟ ولماذا؟ وبعقلانية ترى أن الآية هنا تعاملت مع الواقع بِمَرَارَتِهِ، إذ هناك إناث يرغبن بأن ينظر الآخرون لهن ليرونهن جميلات ومثيرات... وَيَتَعَمَّدْنَ لبس ما يحقّق لهن هذه الرغبة، والكلام عن أنهن لا يقصدن إلا التجمّل لأنفسهن ولا يقصدن لفت نظر الآخرين، فهذا كلام فارغ يَضْحَكْنَ به على أَنْفُسِهِنَّ.

يأتي الأمر الإلهي لهن عبر رسوله(ع) أَلَّا يتبعن عادات وثقافات مجتمعهن السيئة، وهذا ما يحصل في عموم المجتمعات التي تعيب على المرأة المحتشمة على أنها شاذّة بلباسها عمّا هو متعارف عليه من إظهار لمفاتن جسدها.

بل منطوق الآية يريك وجود اتفاق غير معلن بين التي لم تحتشم وبين من نظر إليها وقال لها كلاما غير لائق، لِأَنَّ هذا واقع الحال، وهذا معنى تزيّنها وإظهارها لمفاتنها، لِذَا يأتي التوجيه للمؤمنات أنهن بسترهن لمفاتنهن يصرن محميات من التحرّش لِأَنَّ حشمتهن إعلان منهن أنهن لا يرضين بالتحرّش.

تفهم قصدي حين تسمع ذات ثياب مبتذلة تعترض على سماعها لكلام الشباب في الشوارع أنهم بلا أدب وتحرّشوا بها، حيث إنَّ تحليل الآية هنا يريك أنه أصلا لا تبرير لما فعلته هي، وسيأتيك في الآيات التالية أنه أيضا لا تبرير مَقْبُولٌ لما يفعله المتحرشون.

(لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً{60})

{لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ}، إذا لم يتوقف نهائيا بلا رجعة، {الْمُنَافِقُونَ}، الذين يقولون بأنهم مؤمنون ولكنهم من داخلهم ليسوا كذلك، والكلام هنا يقصد المتحرشين بالنساء العفيفات، وإن لم ينته، {الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}، الذين أساس فكرهم ونفسيتهم مريض فيه خلل لَمْ يَقْتَنِعُوا بالدين تماما ولديهم دائما شكوك واعتراضات على الدين، والكلام هنا أيضا عن المتحرشين بالعفيفات، وإن لم ينته، {وَالْمُرْجِفُونَ}، الَّذِينَ يقولون الأراجيف وهو الكلام غير العقلاني من كل أنواعه، فإن كان المجتمع في حرب فأراجيفهم عن قوّة العدو وضعف المسلمين والخسارة... وإن كان المجتمع في السِّلْمِ فأراجيفهم عن الأحكام الدينية بأنها تتعارض مع سعادة وحريّة الناس... أو يَخْتَرِعُونَ "يُفَبْرِكُونَ" الإشاعات عن المؤمنين وأعراضهم وَيَبُثُّونَهَا بين الناس... والكلام هنا عن الذين يقولون عن تحريمه تعالى للتحرّش بالنساء أنه تحريم غير صحيح، فهي سعيدة بذلك وأنا سعيد بذلك فلماذا تحريمه؟ وماذا لو حصل من بعد المغازلة تعارف وزواج..؟

هذه الأنواع الثَّلَاثَةُ التي {فِي الْمَدِينَةِ}، فإن لم ينتهوا عن الأذية، عن أذيتك أيها النبي(ع)، وأذية نسائك، وأذية المؤمنين ونسائهم، {لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ}، نُغْرِيكَ حتى تتعامل معهم بشكل مضرّ، سَنُتِيحُ لك مجالا واسعا للتعامل معهم بأي طريقة تنهي سوءهم، وبالتالي أَيُّ تصرّف سيّء يقومون به فلن ترى نفسك مضطرا لتكرار ما سبق من فشل من ردعهم بالكلام، وستنتقل إلى خطوات قاسية في التعامل معهم، وهذا هو معنى الإغراء الذي تقصده الآية، حيث هُنَاكَ مجالات مفتوحة "مغرية" لاستخدامها لردع هؤلاء... {ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ}، لَا يَبْقَوْنَ في جوارك بقربك في المدينة، {إِلَّا قَلِيلًا}، وبعدها يغادرون المدينة لأنك ستطردهم أو تضيّق عليهم بشكل يضطرهم لمغادرتها.

كما ترى أَنَّ الآية السابقة والحالية تتعاملان مع واقع فساد موجود في المدينة حيث قلّة الأدب تحصل في شوارعها وَيَقُومُ بعض الشباب والرجال بمعاكسة النساء... ولا يرتدعون عن ذلك بالكلام المهذّب أو القاسي معهم لينتهوا، وَلَا يَتَوَقَّفُونَ مهما قلت لهم، حيث تُهَدِّدُهُمْ الآية أنه تعالى سيجعل نبيّه(ع) ينتقل لمرحلة ثانية معهم أكثر من الكلام، وَتُنَبِّهُهُمْ إن لم يتوقفوا فمن المضمون المحسوم أنهم سيخرجون من المدينة إذا أغرى سبحانه نبيّه(ع) بهم، لِنُتَابِعَ لنرى ما هو الإغراء للنبي الذي يتهددون به:

(مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً{61})

{مَّلْعُونِينَ}، مطرودين من الرحمة الإلهية، وهذا إعلان إلهي تبريري لجعلهم بلا حرمة أيضا عند المؤمنين، كما لعنهم سبحانه وَلن يرحمهم فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ أيضا مطلوب منهم أَلَّا يرحموهم، {أَيْنَمَا ثُقِفُوا}، في أي مكان يمكن أن يتم تناولهم فيه، {أُخِذُوا}، لَمْ يُتْرَكُوا، {وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا}، حيث تَكُونُ ضربة المؤمن لهم ضربة قتل، ضربة إنهاء لحياتهم، لا ضربة للجرح ولا للأسر، يعني نعطي أمرا إلهيا بقتلكم أينما كنتم أيها المنافقون ومرضى القلوب والمرجفون إذا لم تنتهوا عن التحرّش بالعفيفات.

بعبارة أخرى، مَنْ وجّه له المؤمنون إنذارا بالتوقّف عن التحرّش بالنساء ولم يتوقّف، وكرّرها، فالخيار متاح للمؤمنين بالتعامل معه وصولا إلى إعلان للجميع عن قتله أينما وجدوه.

ننتبه، هُنَاكَ نقطة تَكَرَّرَتْ في مواضيع هذه السورة، وهي: تعامل الناس مع الدين الإلهي وبالتحديد مع ناقل الدين "النبي(ع)" على أساس أنه يجب أن يتحمّلهم كما هم، يُمْكِنُهُمْ أن يفعلوا ما يَحْلُو لهم، ويمكنهم أن يعلّقوا على تشريعاته

تعالى بل ويمكنهم رفض الالتزام بها... ويمكنهم البقاء على عاداتهم وثقافتهم السابقة المخالفة لشرعه تعالى، وهنا في الآية ترى عرضا لحالة شائعة في عموم المجتمعات لدرجة تغاضينا عنها لأنها منتشرة ودارجة وَسَتَتَكَرَّرُ مهما فعلنا... وهنا الكلام عن نموذج عاصره النبي ويعتقدون أنه(ع) يجب أن يتماشى مع عاداتهم وثقافتهم، مثلا يَتْرُكُ الشباب والرجال يَتَحَرَّشُونَ بالنساء في الشوارع والأسواق... وَأَلَّا يكون (ع) صلبا قاسيا معهم لِأَنَّهُ المستجد بشرعه الذي لا يعجبهم، ومن ناحية ثانية لِأَنَّهُ الرسول الناقل للرسالة الإلهية المتديّن الخلوق الذي يأمرنا بمساعدة الناس وتحمّلهم والتغاضي عن أخطائهم ومساعدتهم وخدمتهم... فيجب أن يتحملنا...

فِي النموذج هنا نَحْنُ أمام نوعية من الناس يدّعون أن الجلوس في الطرقات وعلى المفارق لمشاكسة الإناث، هو عادة وثقافة لا يحقّ للنبي "ولا لدينه" تغييرها، وإذا تُهُدِّدُوا لترك ذلك فهم أعصابهم باردة وَمُسْتَبْعِدُونَ لأي خطر لأنهم يضمنون أن المتدينين لن يفعلوا لهم أي شيء، لأن أقصى ما يأمر به الدين الإلهي هو الردّ على الأذية بمثلها، فماذا سيفعل المؤمن إن غازلوا زوجته أو ابنته؟ وكما ترى طَفَحَ الكيل من تصرفات هؤلاء لدرجة أن الآيات هنا أباحت للمؤمنين تَهْدِيدَهُمْ بالقتل في أي مكان، وَبَدَلَ هذه الفكرة المريحة لهم عن ركوبهم على ظهر المؤمنين، صَارَ هناك إمكانية إصدار أمر للمؤمنين بقتلهم.

لِنَتَوَقَّفْ قليلا هنا، لأننا أمام مسألة لم أر إضاءة كافية عليها في الكتب، حيث كثيرا ما يرى المؤمن نفسه مُرَبَّطًا مُقَيَّدًا بشرعه تعالى، والآخرون يؤذونه مُعْتَمِدِينَ على الحدود التي يعرفونها من التزامٍ بدينه تعالى المانع للمؤمن من الردّ عليهم... وهنا ترى في الآيات فتحا للمجال أمام المؤمنين لإيجاد حلول مع السفلة المنافقين والفاسقين، وتبدأ من نهيهم عن الأذية بالكلام اللين ثم القاسي ثمّ وصولا إلى إعلان إباحة قتلهم لأي مسلم تطالهم يده وليس فقط للذي آذوه.

(سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً{62})
{سُنَّةَ اللَّهِ}، عَادَتُهُ وطريقته سبحانه في التصرّف، {فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ}، في الناس الذين كانوا قبلكم وخلت منهم الأرض فماتوا وأتيتم بعدهم، حيث إنَّ هذا ليس تشريعا جديدا إِذْ حصل في السابق أن أمر سبحانه المؤمنين بقتل المنافقين والمرجفين والذين في قلوبهم مرض لأسباب كهذه.

{وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا}، ولا يوجد أي أحد ولا أي سبب يجعله تعالى يغيّر طريقته في التعامل مع هذا الموضوع.

يعني، لِيَأْخُذْ علما أولئك السفلة بأن الأمر بقتلهم جاهز، وَصَدَرَ سابقا، وهذه هي الطريقة الإلهية للتعامل مع نوعيتهم، وَلَا يَتَصَوَّرُوا أن هذه الطريقة ستتغيّر، لا، فإن لم يتوقفوا، فأمر القتل سيصدر.

(يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً{63})
{يَسْأَلُكَ النَّاسُ}، حيث يُعَبِّرُ الناس لك أيها النبي محمّد(ع) عن إرادتهم للحصول على معلومة منك، {عَنِ السَّاعَةِ}، عن الزمن المحدّد، وَاسْتَعْمَلَ القرآن هذه الكلمة بشكل متكرر مشيرا بها غالبا إلى ساعة رجوعنا من الموت، حيث إنَّ أول يوم من الآخرة بالنسبة لنا هو يوم قيامتنا من الموت، وأوّل ساعة فيه هي ساعة عودتنا إلى الحياة، وهي الساعة التي ينكرها المنكرون للحياة بعد الموت، لِذَا يسألون النبي(ع) عن هذه الساعة، وبعدها تأتي أيام فيها ساعات حشرنا زمرا والمحاسبة الجماعية والمحاسبة الفردية والشفاعة... وصولا إلى آخر يوم وآخر ساعة ندخل فيها إلى النار أو الجنة.

{قُلْ}، أيها النبي(ع): {إِنَّمَا}، فقط وحصرا، {عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ}، وَلَا أحد غيره تعالى يعلم متى ستحصل، وحتى الملائكة(ع) لا تعلم، بل بالتقريب يخمّنون وقتها كما تفهم من الآية 15 من سورة طه "إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى".

{وَمَا يُدْرِيكَ}، {لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا}، لِأَنَّ السؤال عن متى ستحصل، والجواب: الله تعالى وحده فقط يعلم متى ستحصل، وإذا لم تحصل على الجواب، ولا على التقريب، فهذا لا يعني أن تستبعد حصولها، فلا تستبعد حصولها في أي لحظة، وَمَا يدريك إِذْ أنت في حالة سماع للمعلومات عن شيء لم تعشه فلا يحقّ لك أن تحكم عليه، إِذْ هُنَاكَ احتمال أن تكون قريبة.

وَأَشَارَ القرآن كثيرا لمسألة توقيت حصول الساعة، وأخبرنا أننا بعدما نموت لن نشعر بمرور الزمن، وسنفتح أعيننا في ساعة رجعتنا إلى الحياة غير شاعرين بمرور الزمن، حيث بَعْضُ الناس تشعر بمرور ساعة، وبعضهم بمرور ليلة، وبعضهم سيقدّرها بعشرة أيام... وَعَلَى هذا المقياس فَإِنَّ السَّاعَةَ قريبة جدا من أي واحد منّا، ولكن الآية تقول: بما أنه لا أحد يعلم متى ستحصل، فلا تستبعدها، رُبَّمَا تكون قريبة.

كما ترى عَرَضَتِ السورة تشريعات لسلوكيات اجْتِمَاعِيَّةٍ وهناك من لم ولن تعجبه ولن يلتزم بها، وَقَفَزَتِ السورة لتطرح سُؤَالًا يخطر في بال الجميع عن زمن قيامنا من الموت، وبالطبع الْأَهَمِّيَّةُ لما سيأتي بعد القيام من الموت، لِأَنَّ السُّؤَالَ عن الساعة هو سؤال عن وقت الحساب والمجازاة على الالتزام بما مرّ من تشريع...

(إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً{64})
{إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ}، طرد من رحمته، {الْكَافِرِينَ}، المنكرين لدينه، وَلَا يغفر لهم ولا يخفف عنهم العذاب... {وَأَعَدَّ لَهُمْ}، جهّز وَهَيَّأَ لهم، {سَعِيرًا}، نارا مستعرة تَتَأَجَّجُ ويصدر منها ألسنة لهب طويلة.

والكلام عامّ لكل كافر، وسياق كلام السورة عمّن كفر بالتشريعات الإلهية والتي عرضت السورة نَمَاذِجَ منها.

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَّا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً{65})
{خَالِدِينَ فِيهَا}، لا يخرجون من النار ولا يموتون ولا يفنون، {أَبَدًا}، مهما مرّ من زمن.

{لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا}، حيث لَنْ يجدوا من يَكُونُونَ تابعين له ويعتبرهم تابعين له ليساعدهم في النجاة من النار، {وَلَا} يجدون {نَصِيرًا}، يحقّق لهم ما يريدون، لِأَنَّهُمْ يريدون الخروج من النار ولن يجدوا من يحقّق ذلك لهم.

(يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا{66})
{يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ}، في الزمن الذي تحترق وجوههم من هذه الجهة ويتم تقليبها لتحترق من الجهة الثانية.
{يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا}، حيث نَرْغَبُ بشيء فَاتَنَا ومن المستبعد حصوله الآن، يَا ليتنا، {أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا}. ولكن هذا شيء فات ولم نعد نَسْتَطِيعُ تداركه.

نلاحظ تركيز القرآن كثيرا على حالة الندم التي يعيشها الكفّار بشكل دائم في جهنّم، فَوْقَ الألم الجسدي حيث كُلُّ أنواع الأذى النفسي تصيبهم، من القهر والحزن والندم...

لاحظ رسم كلمة "رسولا" بالألف ليس تبعا لقواعد اللغة الصرفية بل تصنيف رسمها النحوي هكذا: لإطلاق الصوت. إذا توقّفت عند كلمة "رسول" قبل أن تكمل الجملة التالية، فعادة ستلفظ آخر حرف ساكن، أمّا مع رسم الألف في آخر الكلمة، وَلو توقّفت عندها فستلفظ الحركة التي على الحرف "لام مع فتحة". وهذا شيء نادر الحدوث في طريقة كتابة الجيل الأول للقرآن، وهذه الطريقة كانت ولا تزال مستخدمة خصوصا في كتابة قوافي الشعر.

(وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا{67})
{وَقَالُوا}، الكفّار الذين لم يطيعوا الله تعالى ولم يطيعوا رسوله(ع):

{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا}، سمعنا ونفّذنا كلام الذين كنّا نعتبرهم أسيادا رؤساء علينا، {وَكُبَرَاءَنَا}، حيث فِي مجتمعاتنا كان هناك رجال نعتبرهم كبارا، ككبير العائلة، وكبير القرية... وَسَمِعْنَا كلامهم ونفّذناه، {فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا}، وَجَعَلُونَا نتوه عن المسلك الصحيح الذي يوصلنا للغاية الصحيحة.

وربطا مع موضوع السورة، الْكَلَامُ عن مخالفتهم لتشريعاته تعالى وتبريرهم لذلك بأنه لم يكن قرارا نابعا منهم بل بتوجيه من سادتهم وكبرائهم، زعمائهم ورؤسائهم... إِذْ هَؤُلَاءِ يأمرون بعادات وثقافة مخالفة لشرعه تعالى.

وترى ذلك جليا في المجتمعات التي تحكمها العائلات، أو الأحزاب، أو الذين لهم قانون دولة فيه تشريعات مخالفة لشرعه تعالى، وكمثال عن ذلك ما شهدناه في عصرنا من إصدار رئيس دَوْلَةٍ مصنّفة إسلامية قرارا بمنع الحجاب!

وتتغاضى عن الْمُخَدِّرَاتِ، وتبيع القمار والسكر والربا... وما نشهده من عائلات يشعر أفرادها بقوّة الانتماء لها بطاعة كبرائها في الباطل لأن العائلة ستقف مع أفرادها وتساندهم حتى على الباطل... وَهَذِهِ نماذج عن الذين سيقولون في الآخرة: ربنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا...

(رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً{68})
{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {آتِهِمْ}، أَعْطِ سادتنا وكبراءنا، {ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ}، لأنهم هم أضلونا، وَأَعْطِهِمْ ضعفا عن الأساس وضعفا فوقه، إن كانت درجة الألم عشرة، فضعفها عِشْرُونَ، وضعف الضعف "ضعفين عن الأساس" يصير أربعين. على كل حال إِنَّهُمْ يقصدون أن يزيد تعذيب من أضلّوهم بشكل كبير، ولم يجروا حسابات رياضية عن الأضعاف وكميتها...

{وَالْعَنْهُمْ}، اطْرُدْهُمْ من رحمتك، {لَعْنًا كَبِيرًا}، وَأَقْصَى ما يمكن فليكن طردهم من الرحمة.

هُنَا في الدنيا ستجد الكثيرين يبرّرون أفعالهم بأنها تنفيذ لما قاله الرئيس، أو السيّد، أو الزعيم، أو كبير العائلة، أو رئيس الحزب أو العالم الديني... وَيُخْبِرُهُمْ تعالى بأن هذا التبرير لن ينفعهم بأي شيء في الآخرة، لِذَا يَجِبُ عليهم اتباع ما أنزل تعالى، ولو قيل لهم عن شيء ما أنه تعالى أمر به، فعليهم أن يتحقّقوا منه، ويفهموه... لَنْ يقبل سبحانه ولا بأي شكل حتى أن يقولوا: أطعنا ساداتنا وكبراءنا من علماء الدين على العمى. وَهَذَا غير مقبول لأننا كلنا فينا قابلية تمييز الخير من الشرّ، ويمكننا رؤية حسن أو سوء ما يقوله علماء الدين الذين فيهم أتقياء، وفيهم العديد من المنافقين والفاسقين وذوي القلوب المريضة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً{69})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا}، حيث اتهموه (ع) بأمور سيّئة وتدخّل سبحانه لتبرئته، {وَكَانَ}، النبي موسى(ع)، {عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا}، ولم يكن شخصاً عادياً بل من الذين لهم الوجاهة "الواجهة" عنده تعالى، فأول ما يعدّ سبحانه "المحترمين" من الناس فهو (ع) من الأوائل، مما يعني أنهم أساؤوا لرجل قيمته عالية عنده تعالى.

كما ترى، الآيات لم تذكر ما هو الكلام المؤذي الذي قالوه عن النبي موسى(ع)، ولكنه كلام صدر عن أشخاص أعلنوا بأنهم مؤمنون، وهنا الخطورة، وهنا التنبيه للمؤمنين أن لا يؤذوا النبي محمّد(ع)، إذ لم تقل الآية مباشرة: محمّد وجيه عند الله تعالى فانتبهوا إن أخطأتم مع هذا الشخص الذي له قيمة عالية عنده تعالى، بل جاءت بها من باب النبي موسى(ع)، لأن كلاهما "موسى ومحمّد" نبيان رسولان من أصحاب الكتب... وكلاهما وجيهان عند الله تعالى.

عند اطلاعنا على تاريخ النبي موسى(ع) من كتب اليهود، نجد أنهم اتهموه مرّة بنقصان الرجولة، ومرّة اتهموه بمرض جلدي مزمن يشوّه جلده... ومرة لفّق قارون له (ع) تهمة مع زانية... على كلّ حال، تشير الآية إلى براءة النبي موسى(ع) من أي تهمة اتهموه بها وهو حي، أو أي تهمة لفّقوها له (ع) فيما بعد حين اخترعوا عنه القصص بعدما مات.

لو راجعت الروايات التي لدينا عن النبي محمّد(ع) لوجدت في البعض منها الكثير من الأذية له (ع)، وهي روايات صادرة عمّن يقولون بأنهم مؤمنون ملتزمون بهذا الدين! وهنا الآية تحذّر الجميع من أذيّة الأنبياء، ولكن، لا حياة لمن تنادي، حيث وقعت الأذية من الكذّابين الأوائل، ولا تزال تقع من الكذّابين على طول الزمن.

نتذكّر ما مرّ في السورة في مسألة زواج النبي محمّد(ع) من طليقة ربيبه زيد، والتي وصلنا الآن في الكتب مرويات عن مغازلة النبي(ع) لها... وإعجابه بها عندما كانت لا تزال متزوجة من زيد، بل يقولون إنها كانت على وفاق مع زوجها إلى أن تغزّل بها النبي(ع)، وقرّر زيد طلاقها حتى يتزوّجها النبي(ع)!

هذا الكلام قول المنافقين والذين في قلوبهم مرض، وقيل هو نفسه أو شيء مثله في السوء في عصر النبي محمّد(ع) حين تزوّج طليقة ربيبه، ومثلما برّأ سبحانه نبيّه موسى(ع) مما اتهموه به من سوء، فإن السورة هنا نزلت لترينا أن زواج النبي محمّد(ع) من طليقة ربيبه حَصَلَ بأمر إلهي، وما قاله المنافقون والذين في قلوبهم مرض من إعجابه(ع)

بزوجة ربيبه وتحليله لنفسه الزواج منها مخالفاً عادات مجتمعه، كلامهم كاذب، لأن الزواج حصل بأمر إلهي، وهذا كلام إلهي بذلك.

دعك من روايات أسباب النزول التي توحي لك أو تصرّح بنزول آية ما قبل أو أثناء حصول حادثة ما، حيث حصل ما حصل من قرار زيد بطلاق زوجته، وزيد حتى هذه اللحظة لا يدري بأن النبي محمّد(ع) مأمور بالزواج من طليقته، إذ وصله (ع) خبر من الإله أن زيدا سيطلق زوجته ويأمره تعالى بأن يتزوجها حتى تنكسر عادة اعتبار الربيب كالابن... ولمزيد من التفاصيل راجع دراسة الآية 37 من هذه السورة، وحصل الطلاق، ونفّذ الرسول (ع) الأمر الإلهي، وبدأت ألسنة المنافقين والذين في قلوبهم مرض تشتغل بتلفيق واختراع القصص عن إعجابه ومغازلته (ع) لزوجة ربيبه عندما كانت على وفاق مع زوجها.

يعني لولا هذه الأقاويل المفتراة على الرسول محمد(ع) ربما لما تطرّق القرآن لذكر هذه الحادثة من تاريخ حياته (ع)، ولاكتفى بالقول إن الربيب لا يصير ابناً حقيقياً، ولكن وبسبب تعليقات وافتراءات المنافقين والذين في قلوبهم مرض على النبي(ع) عرّج القرآن على ذكر ما حدث لتبرئته (ع) من أي كلام سوء. هل نفع هذا وشفى الذين في قلوبهم مرض أو هدى المنافقين؟ لا، فهم أصرّوا على نقل افتراءاتهم للآخرين حتى وصلتنا كروايات وسيرة... وتلقفها المنافقون وأصحاب القلوب المريضة، و"على محمل حسن" وسذّج المؤمنين الذين لم يفهموا ما قالته السورة ولا ما تقوله الآية هنا.

قبل أن نكمل مع الآية التالية، ننتبه للتعبير القرآني الذي يوجّه خطابه للذين آمنوا ثم ينهاهم عن عمل سيّئ، فكيف يكونون موصوفين بالإيمان إن فعلوا سيئاً؟

ضع في بالك دائماً أنه تعالى يوجّه هذا الكلام إلى الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بدينه تعالى كإرشادات لهم ليلتزموا بها حتى يبقوا موصوفين بالإيمان، وإلا فما معنى توجيه هذا الكلام إلى من لم يعلن إيمانه بهذا الدين؟ بعبارة أبسط، إن كنت أنت على خلاف مع شخص ما، فأنت تحتاج إلى أساسيات تتّفق عليها معه لتحلّا الخلاف، وإلا فالحلّ بينكما يكون بانتصار الأقوى الذي يفرض ما يريده على الآخر بالقوّة، وهذه هي شريعة الغاب. فإن كان خصمك مسلماً ستخاطبه بصفة الإيمان بهذا الدين حتى يقتنع بما يشرّعه هذا الدين، ويكون "الإيمان" قاعدة بينكما لحلّ الخلاف.

نفس المفهوم تراه حين يخاطبنا سبحانه بوصفنا بالمؤمنين على أساس أنه تذكير لنا بما ننتمي له وأعلنّا التزامنا به، وبناء عليه يأتي الإرشاد لنلتزم به... وهذا ما تجده في الآية 9 {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا}، والآية 11 {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ} من سورة الحجرات.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً{70})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {اتَّقُوا اللَّهَ}، تجنّبوا غضبه وعقابه، وعملياً التزموا بأوامره سبحانه حتى لا يعذّبكم، {وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا}، كما نقول: سدّد على الهدف. قولوا كلاماً صائباً في محلّه ولا تنكروا الحقّ ولا تقولوا الباطل.

يعني لتكن القاعدة الأساسية عندكم تقواه تعالى، وانطلاقاً منها قولوا ما تعرفونه صائباً، وادرسوا وتعلموا الصواب، وإذا سمعتموه فكونوا عليه نابذين العادات والتقاليد الفاسدة.

هذا التنبيه عمومي فلا تزيدوا على الكلام، لا تبهّروه ولا تملّحوه، ولا تضيفوا تصوراتكم وتوقعاتكم عند نقلكم لقصّة أو حادثة فتتلاعبوا بالقصّة أو الحادثة، ولا تنقصوا منه ما هو مهمّ... وبالنسبة لمحور سورتنا هذه، فآراؤكم وقراراتكم في العقيدة والتشريعات والسلوكيات لتكن مبنية على تقواه تعالى خوفاً من عقابه على الكلام الباطل، ومبنية ومشتقة من كلامه سبحانه بسلامة القلب، تاركين العادات والثقافات المخالفة للحقّ وبالتالي المخالفة لدينه تعالى.

كما ترى، السورة نقلت لنا نماذج من بعض الأشياء التي كانت تؤذي الرسول(ع) والتي قالها المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون، حيث كانت تعليقاتهم على تصرفات الرسول مبنية على رأيهم الخاص الفاسد فيما فعله الرسول، فلم يقولوا قولاً سديداً مبنياً على الحقّ.

يبدو واضحاً من السورة أن النبي(ع) تعرّض لكلام جارح من الناس حول زواجه من طليقة زيد، وكلامهم مخالف للدين الإلهي، فلم يرتكب النبي(ع) أي سوء، ورغم ذلك آذاه الناس... ويبدو من الآيات أن بعض "المؤمنين" دخلوا في المعمعة أيضاً ولم يفكّروا مرتين فيما يسمعونه أو سيقولونه... ويقولون إن بعض "المؤمنين" أيضاً توعّد النبي(ع) بأن يتزوّج من نسائه بعد موته...

فهمنا أن المنافق والذي في قلبه مرض لا يحترمان الدين الإلهي ولا الرسول(ع)، ولكن، أنت الذي يصلّي ويزكّي ويصوم ويحجّ... أليس من المفروض أن تنتبه لكلامك ليكون مبنياً على تقواه تعالى والذي ينتج عنه قولك للصواب! وبشكل عام انتبه لكلامك بالتعليق السيّء عن أي شخص كان، وبشكل خاص انتبه إن أخطأت مع نبي ملتزم بالحرف بما يصله منه تعالى.

(يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً{71})
إذا انتبهتم لأقوالكم:

{يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ}، فيقوم سبحانه بإصلاح أعمالكم السيئة أو الناقصة... كصلاة فيها تركيز قليل، فيحسبها سبحانه لكم أجرها كصلاة مع تركيز أعلى، وأعمال خير مع نيّة ضعيفة للقربى منه تعالى، فيصلح سبحانه العمل ويحسب الأجر على نيّة قربى أقوى... وبذلك تحصلون على حسنات أكثر. وأمّا على المعنى الأعمق فنفهمها بعكس الآية 55 من سورة التوبة {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ}، والآية 178 من سورة آل عمران {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرًا لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}، بالعكس يصير تدخله تعالى لصالح المؤمنين ليزدادوا إيماناً وثواباً.

{وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}، فيجاوز عن مخالفتكم لأوامره فلا يحاسبكم عليها، طبعاً إن استغفرتم منها...

{وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، ينفّذ ويلتزم بما وصله منه تعالى ومن رسوله، {فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا}، حيث حصل على شيء له قيمة عالية بكل ما تحمله كلمة فوز من معنى، ومعلوم أنه دخول جنّة رائعة خالدة.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً{72})
وصلنا إلى الختام بعد التفاصيل العديدة التي ذكرتها السورة عن تصرفات مختلف أنواع الناس، من كافرين ومنافقين والذين في قلوبهم مرض والمؤمنين من الدرجات المختلفة، كيف وصل بهم الحال إلى هنا؟ هل هناك أساس يجعلنا نتحاسب على ما فعلناه؟ ماذا لو لم نختر نحن التكليف؟ بشكل أصرح: هل يحق للإله سبحانه أن يحاسبني على تصرفاتي في الدنيا وأنا أصلاً لم أختر الدخول إلى عالم الامتحان في الدنيا؟

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، ما ذكرته الآيات السابقة من تشريعات وسلوكيات فهو مبني على قبولكم أنتم لعرض الأمانة الإلهية عليكم لتحفظوها:

{إِنَّا عَرَضْنَا}، طرح سبحانه شيئاً له أهمية، وهو، {الْأَمَانَةَ}: حفظ شيءٍ له قيمة، {عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ}، على هذه المخلوقات الضخمة، {فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا}، رفضن حمل الأمانة بشكل قاطع لا رجعة عنه، {وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا}، صار لديهم معايشة شعور "بطريقة ما" بوجود ضرر كبير عليهم إذا حملوا الأمانة، كما نتصوّر نحن الضرر الذي نتوقّع حصوله على أنفسنا من شيء ما، ووصف هذه الحالة إشفاقٌ، حيث إنهم "بشكل ما" عايشوا وتصوّروا الضرر الذي سيصيبهم من حمل الأمانة فلم يقبلوا حملها.

{وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ}، الكائن الموصوف بالإنسانية حمل الأمانة.

{إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا}، لم يكن مُحِقّاً مُنْصِفاً بحملها، ومن النتيجة التي تراها من الغالبية الكافرة المشركة المنافقة الفاسقة تعلم أنهم ظُلماً اختاروا حمل أمانة لن يحافظوا عليها.

{جَهُولًا}، كثير الجهل، يتصرف عن طيش بكثرة، حيث في أكثر الأحيان لا يتصرّف عن دراسة وتفكير ولذلك لم يحافظ على حمل الأمانة.

يعني هو لم يكن ظالماً جاهلاً حين حملها، بل تعامل معها ظالماً جاهلاً فلم يحفظها.

الخلاصة مما سيأتي من كلام لدراسة الآية، أن الإنسان بعد تكوّنه متمتّعاً بالصفات والقدرات الابتدائية، يكون بقلب سليم في حالة الجنين يختار الأمانة، لأن تركيبة خلقته تدفعه لاختيار ذلك، مثلما أختار شرب الماء بإرادتي ولكن بالأصل تكويني دافع لي لاختيار شرب الماء.

حمل الإنسان للأمانة لا يلغي حمل كائنات أخرى لها، حيث إن الجنّ مكلّفون مثلنا، ولديهم حرية إرادة ولديهم شهوة وغريزة مثلنا، وحتى بالقدر المناسب للملائكة إنهم أيضاً حملوا أمانة، حيث يبدو بوضوح من كلامه تعالى معهم حين أمرهم بالسجود لآدم(ع) أن لديهم مساحة كبيرة من حرية الإرادة، وكان بإمكانهم الرفض. حملنا للأمانة ليس شيئاً فريداً لم يحصل مع مخلوقات أخرى، وحملنا للأمانة سيكون بما يناسب طبيعة خلقتنا، ولن نتكلّف بحفظ ما لا معنى له بالنسبة لخلقتنا، وبعبارة أصرح عرض الأمانة عنوان عام يتخصّص بما في المعروض عليه من قابليات، مثلاً الامتناع عن شرب الخمر بسبب ضرره الأكبر من نفعه، ليس شيئاً له معنى مع الجبال، ولكن الأساس بالأمانة هو عموم التكليف، وحين يتوجّه لكائن ما، بحسب قدرات وصفات الكائن تترجم تطبيقات الأمانة.

بعبارة أبسط، جرى عرض الأمانة "والذي سيأتيك الكلام عن نوعها بعد قليل"، حيث عرضها تعالى على مختلف أنواع مخلوقاته "وسيأتيك الكلام بعد قليل عن وعي ما نسميه بالجمادات"، ولكنهم أبوا حملها، واعتبروها ثقيلة جداً عليهم، ولكن الإنسان حملها.

حسناً، لدينا الكثير من الأسئلة هنا، أوّلها: ما هي الأمانة؟ والجواب نستوحيه من الآية التالية التي تقول إن حمل الأمانة ظُلماً وجهلاً أنتج منافقين ومنافقات ومشركين ومشركات، وأنتج مؤمنين ومؤمنات... إذن هي أمانة الإيمان بالمعلومات الحقّ، والذي نسميه عقيدة، وأمانة الالتزام بالحقّ الذي نسميه بالشريعة والسلوكيات والأخلاقيات الصالحة. هذا بالعناوين الكبيرة، وأمّا العنوان الجامع لكل ذلك فهو التوحيد المذكور في الآية 172 من سورة الأعراف اختصاراً لكل ذلك {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا}...

متى حصل هذا العرض لحمل الأمانة؟ في ثقافتنا الإسلامية يقولون عن احتمالين، الأول أنه لم يحصل مشهد فيه العرض والقبول وإنما هو واقع الحال، حيث إن الكائنات التي تتحمّل التكاليف والجزاء يكون واقع حالها قبول الأمانة من بعد عرضها عليهم، والملائكة ستكون تحت الالتزام بالتكليف الإلهي بحسب صفاتها، وبما أنهم بلا غريزة ولا شهوة مثل النابعة عن جسدنا الطيني، فإن واقع الحال أن عرض التكاليف الإلهية عليهم لن يتضمّن تحريم أمور غرائزية عليهم لأنهم أصلاً بلا غريزة، والجنّ لديهم غريزة وشهوة... لذا واقع حالهم مثل واقع حال البشر طبعاً مع اختلاف التطبيقات بما يناسب طبيعتهم التي من نار وطبيعتنا التي من طين، لأن حمل الأمانة متضمَّنٌ في خلقتنا التي فيها حرية الإرادة والاختيار وإمكانية الامتناع عن بعض الأمور أو الالتزام ببعض الأمور.

هذا الاحتمال يتماشى مع عموم ما ورد في القرآن ومنه ما جاء في الآية 30 من سورة الروم التي تحدّثت عن دخول التعرّف عليه تعالى في تركيبتنا {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}...، حيث حين فطرنا تعالى جعل في كل واحد منّا ما يؤهله لحمل الأمانة. ويتماشى مع فهمنا للآية 172 من سورة الأعراف أنها تتحدّث عنّا حين خرجنا إلى الحياة أجنّةً أو أطفالاً {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا}...، أثناء تشكّلنا انزرع فينا التعرّف عليه تعالى بشكل مشابه لما انزرع فينا من قدرات بدائية أخرى، كالتقام الثدي للرضاعة... ولكن هذا الاحتمال الصحيح ينقصه إرادة اختيار حمل الأمانة لأنه يلغي إمكانية رفضنا لها، وسنتحدث عن ذلك بعد قليل.

الاحتمال الثاني وبناءً على تفسير آخر غير الذي قلناه للآية 172 من سورة الأعراف، يقولون إننا كلنا خاطبنا وحذّرنا سبحانه من تناسيه وتناسي آخرته وعقابه لمن خالف قواعد حمل الأمانة... ويقولون إن هذا العرض وقع قبل خروجنا إلى هذا العالم، ويسمونه في بعض الروايات والكتب بعالم الذرّ كوصف لعالم كنّا فيه في حالة ما قبل أن نولد في هذا

العالم. وهذا التفسير لا يتماشى بل يتعارض مع بعض الآيات الصريحة التي تؤكّد بأن الموت هو حالتنا الأولى "كالأرض الميتة" وأول حياة لنا هي حين ولدتنا أمهاتنا "كإحياء الأرض بالمطر وخروج النبات"، راجع دراسة الآية 11 من سورة غافر عن إحيائنا وإماتتنا مرتين {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ}.

هل تمّ عرض الأمانة على سكّان السماوات والأرض والجبال؟ لا، بل العرض تم على نفس السماء ونفس الأرض وعلى الجبال، وهذا سبب ذكر الجبال بالتحديد حتى لا يخطر ببالنا أن العرض كان لساكني الجبال، فمن هم؟ وهكذا ترى أنه ليس لدينا جواب له معنى إلا نحن، وبالتالي لا معنى لتفسير عرض الأمانة على الجبال بأنه عرض على ساكنيها وأنهم أبوا...

نحن الآن لا نتصوّر أبداً أن لهذه الكائنات وعياً وفهماً، ولكن يبدو صريحاً جداً من القرآن أن الإله سبحانه بطريقة ما لا نفهمها يتواصل مع هذه الكائنات، وما ورد في الآية 44 من سورة الإسراء يخبرنا بأننا لن نفقه تسبيحهم {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}...، وبالتالي من الطبيعي ألا نستوعب نحن أي شيء عن وعي وفهم السماء والأرض والجبال لعرض الأمانة عليها، لأن هذا خبر قرآني نؤمن به كما هو، ونقيسه على أنفسنا بما لدينا من وعي وعلى الملائكة والجنّ ذوي التركيب المختلف عنّا ولهم وعي يناسب طبيعتهم، وهكذا نتوسّع مع الخبر الإلهي عن وعي "ما" لبقية تراكيب المادة، إذ إن الكلام ليس عن تواصلنا نحن مع تلك الكائنات بل عن تواصل الإله سبحانه معها بما يناسب وعيها المختلف عن وعينا، أمّا من ناحيتنا فتصنيفها بالنسبة لنا: جمادات.

ستجد في الكتب كلاماً كثيراً عن الأمانة، أنها الروح، العقل، الشهوة، حريّة الإرادة... وغالبية هذه الأمور صحيحة جزئياً، لأنها من تبعات حملنا للأمانة، أو أنها مما نتج عنه حملنا للأمانة، ولكنها ليست الأمانة، إذ لا معنى للثواب على حمل الأمانة ونحن مجبورون مبرمجون غصباً عنّا على الالتزام بها، لذا حتماً سيكون لدينا حريّة الإرادة لقبولها... ولا معنى للثواب على حمل الأمانة إن كنّا بلا شهوة ولا أحاسيس، لأنه بدون الغريزة والحسّ لن يكون لدينا دوافع لمخالفة الأمانة...

كل ما تحدّثت عنه السورة من مراقبة لتصرفاتنا بشكل دقيق، ومحاسبتنا بشكل "عظيم" على جهة العقاب خلوداً في النار وعلى جهة الثواب الحسن خلوداً في الجنّة، كان بسبب قبولنا نحن للأمانة، لذا لا نلومه تعالى، ولا نلوم الرسول(ع)، بل اللوم علينا لأننا باختيارنا الناتج عن طبيعة خلقتنا وصلنا إلى دنيا التعرّض للامتحان، وفيما بعد سنوصل أنفسنا للنار أو الجنّة.

فيما ورد في دراستنا للآية 172 من سورة الأعراف ستجد مزيداً من الكلام حول هذا الموضوع، وأختصر لك هنا منه، أننا لا ولن نتذكّر ما جرى من عرض للأمانة علينا كمشهد نراه أو ككلام سمعناه، لأن هذا أصلاً لم يحدث بهذا الشكل، بل هو شيء انغرس في خلقتنا ونرى أثره في تعلّقنا به تعالى عند الشدائد، وفي فكر يرشدنا إليه مما نراه مما خلقه سبحانه... ونرى أثره في تمييزنا للسيّء والحسن من الأمور، وينتج عن ذلك أن نفهم معنى سوء اختراع إله وهمي وترك توحيد الإله الحقيقي... ونراه في تعلّق المؤمنين بثواب على التزامهم بالحقّ في مقابل المتفلتين من أي ضابط أو رادع، وهم المتعلقون بمتاع وزينة الدنيا التي أعمتهم عن جنة الآخرة التي صاروا يريدونها الآن في الدنيا... هذه وغيرها بشكل ما هي من آثار عرض الأمانة علينا...

بعبارة أخرى، بحسب خلقة الكائنات الناتج عنها وعي وصفات وقدرات مختلفة، تُعرَض عليها تكاليف مختلفة، كل ما خلقه تعالى له ما يشابه بشكل ما وعينا، وكل الكائنات عُرِضَت عليها أمانة، شيءٌ ما لتحفظه، لتصونه بالالتزام به، وبعض الكائنات لم تقبل العرض، لأنها بخلقتها رأته أكبر من قدرتها على التعامل معه، وتصوّرها كحالة عرض أن تحمل 50 كيلو من الوزن بيديك العاريتين لمدة ساعتين، حيث أنت تستطيع حمل عشرين كيلو، لذلك تأبى حمل الخمسين لأنك لن تقدر، ورغم علمك بأنك لن تقدر فإن لديك مساحة اختيار لتقبل، ما عُرِضَ على السماوات والأرض والجبال كان يناسب صفاتها وقدراتها، وكانت أمانة تناسب وعيهم وخلقتهم، ولكن لها عواقب لا يريدونها.

القرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، وكونهم ذكراً وأنثى، وأنهم يتناسلون... أو متعلّقٍ بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات كالابتكار والاختراع... أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

استعمل القرآن كلمة "إنسان، ناس" حين كان الكلام عن التكليف بشيء ما، ولم يستعمل كلمة "بشر" في سياق الكلام عن التكاليف.

بناءً عليه نفهم آيتنا هنا أن الموصوف بالإنسان، ومع علمه بعواقب حمل الأمانة، قَبِلَ حملها، وذلك بتكليفه بما يستطيعه ولكنه لن يكون سهلاً، حيث بمقدار وعيه البدائي حين تشكّل جنيناً، وافق على حمل الأمانة، والنتيجة معلومة حيث إن الغالبية الساحقة كانت ظالمة جاهلة فلم ترع حمل الأمانة.

طبعاً سيكون من الأسهل صياغة فهمنا للآية على أن روحنا وقبل أن تصير في جسدنا عُرِضَت عليها الأمانة، ولكن لا يوجد أي تصريح أو تلميح قوي بذلك في كل القرآن، وسيكون من الأسهل فهمنا للآية أن واقع حال خلقتنا بإرادةٍ وتمييز بين الخير والشرّ هو نفسه تحميلنا للأمانة، ولكن هذا يلغي صريح ما تقوله الآية عن اختيارنا نحن لحمل الأمانة.

هكذا يبقى لدينا الاحتمال الثالث، حيث أثناء خلقتنا وبما صار فينا من قابليات، انزرع فينا التعرّف عليه تعالى، واكتمل تشكّل ما يجعلنا نميّز الحقّ من الباطل وبالتالي ما يجعلنا نتعرّف عليه تعالى وعلى صالح الأعمال، وبمساحة بدائية من الوعي والاختيار، اخترنا التكليف بشكله البدائي، حيث إن هناك تعقيدات ستنتج لاحقاً سببها الإخلال بتوحيده تعالى، بعبادة الهوى والشيطان، ولهذه الأسباب نقترف السيئات...

معلوم أن الكلام ضمناً يشير إلى أننا لن نستطيع رفض الأمانة بسبب مجموع الصفات التي فينا، وهذا الكلام واضح من معنى كلامه تعالى في الآية 4 من سورة التين {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}، حيث إن بداية الجميع كانت من قلب سليم مع إرادة حرّة بالقدرة على اختيار الخير أو الشرّ والذي ورد في الآية 8 من سورة الشمس {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}.

من الابتداء جنيناً بقلب سليم اخترنا حمل الأمانة، لأن هذه نتيجة حتمية لمن قلبه سليم، واستمراراً مع الطفولة تنمو قلوبنا "أساس فكرنا ونفسيتنا" من قراراتنا، وصولاً إلى صيران غالبيتنا ظالمين جهلة مفرّطين بالأمانة، والتي ذكرت لنا السورة هنا بعض نماذجها عبر ترك ما هو واضح صلاحه لاتباع عادات وتقاليد سيئة...

(لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{ }73)

من علمه بالغيب سبحانه بما سيخرج من البشر "من المخلوقات الطينية ذات الطبيعة الإنسانية" من منافقين ومشركين ومؤمنين، عرض عليهم الأمانة ليتحملوا هم مسؤولية اختياراتهم:

{لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ}، الذين يظهرون أنهم متدينون ولكنهم من داخلهم لم يقتنعوا بالدين سيعرّضهم سبحانه للضرر، لأنهم ظالمون جاهلون فرّطوا بالأمانة، وليعذّب سبحانه، {الْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ}، الذين أطاعوا وعبدوا غير الله تعالى.

{وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}، عند توبتهم، وعند فتحهم لصفحة جديدة مقلعين عن الأعمال السيئات يفتح سبحانه لهم صفحة جديدة، وهذا في مقابل تعامله تعالى مع المنافقين والمشركين الذين لن يتوب سبحانه عليهم أبداً لأنهم لم يؤمنوا.

{وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا}، يغفر ويتجاوز ويسامح عن الذنوب، ولا يأخذ سبحانه موقفاً صلباً قاسياً مع من أساء، بل يغفر سبحانه له إن آمن وعمل الصالحات.

وَكَانَ اللَّهُ {رَحِيمًا}، لأن لديه سبحانه عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، وقد فرّق القرآن بين صفة الرحمن والرحيم، حيث استعمل صفة الرحمن لعنايته تعالى بكل المخلوقات، والرحيم كصفة لعنايته تعالى بالمؤمنين خصوصاً،

بينما الآخرون بكفرهم ونفاقهم وفسقهم هم بإرادتهم خرجوا من تحت مظلة الرحمة الإلهية. ومن نتائج الرحمة الخاصة بالمؤمنين: المغفرة وإصلاح الأعمال ومضاعفة الثواب والشفاعة... والآخرون لن يحصلوا على أي شيء من ذلك.

إذن، عندما عرض سبحانه الأمانة على مخلوقاته عَرَضَ معها الثواب والعقاب ضمناً، وكنتيجة لذلك صار للناس تصنيف: مؤمنون في مقابلهم المنافقون والمشركون، كصفتين جامعتين لكل ما عدا المؤمنين بنوعيهم: المشرك به تعالى الرافض لتوحيده ولطاعته تعالى علناً، والذي ظاهره الإيمان ولكنه من داخله ليس مؤمناً، عملياً هما متشابهان.

سورة سبأ (34) ص 428

تتمحور حول الحمد له تعالى بعموم كل ما شاءه، وركزت على الكافرين بذلك في مسألة إعادة إحيائنا في الآخرة، لأنه في نظرهم عمل غير حميد. سور أخرى ذكرت أدلة على قدرته تعالى على إعادة إحيائنا، وصدق وعده تعالى، وأن إعادة إحيائنا ومجازاتنا حقّ... أمّا هنا فطريقة العرض للمسألة مختلفة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ {1})

{الْحَمْدُ لِلَّهِ}، إنّ صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز "الله" عزّ وجلّ كل أعماله محمودة حميدة، توصف بأنها جيّدة، {الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، واستعمل القرآن هذا التعبير "السماوات والأرض" كتعبير مرادف لكل شيء مخلوق، وهذه حدود ما خلقه تعالى في الدنيا، وهذا التعبير يشابه ولا يرادف قولنا: كل الوجود، لأن كلّ الوجود يشمله تعالى والكلام لا يقصد شمله تعالى مع مخلوقاته، لذا كل شيء من كائنات وبيئة وظواهر... هو لله تعالى، ومنسوب له تعالى تصميمه وخلقه والسيطرة عليه... وبنظرة على كل ما هو له تعالى سترى أن خلقه لها بهذه الطريقة هو عمل جيّد، لذلك الحمد لله بشكل واضح على أفعاله الحميدة المتمثلة بالسماوات والأرض.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائماً أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرضٌ، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}... وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراضٍ "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرضٌ، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراضٍ.

عادة نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير ونستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، حيث نقول: خلق سبحانه الدنيا. أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيراً صحيحاً دقيقاً بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى}. لأنه سبحانه دقيق في تعابيره ويحدّثنا بدقّة عمّا يعلمه، وكلامه تعالى عن السماوات والأرض هو كلام عن علم بما أمامه سبحانه، حيث إنه سبحانه دائماً يتكلم بشفافية عمّا أمامه فقط، أمّا الكلام عن كلّ ما في الدنيا، فهو كلام عمومي ويشمل "نظرياً" ما هو خارج العلم، ولذلك لم يستعمله تعالى، بينما ترى استعماله في كلام عموم البشر لأننا نتساهل ونتراخى في التعبير.

نرجع للآية، {وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ}، فهناك عالم سيأتي في "الآخر" بعد تبدّل عالم الدنيا "الأوّل" المتكوّن من السماوات السبع والأرض الموجودة حالياً، وكما أن أعماله تعالى حميدة هنا في الدنيا كذلك له الحمد تعالى هناك في الآخرة. وبالنسبة لنا بما أن الكلام هنا موجّه لنا، فإن خلقه تعالى لنا في بيئتنا بالشكل الذي نعيشه يعدّ عملاً حميداً،

وانتقالنا للآخرة أيضاً عمل حميد، وسيأتيك بعد قليل الفرق بين ما يفعله هو سبحانه والذي كلّه حميد، وبين ما يحصل من سوء ناتج عن أفعال مخلوقاته...

{وَهُوَ الْحَكِيمُ}، وكلمة حكمة ومشتقاتها تشير لعموم ضبط الشيء على المطلوب: على الصوابية على الحقّ... وعلى نفس المعنى الأساسي نقول: أحكم الوثاق، حكم بالعدل، حكومة على الناس... وتفسير الحكمة بالأهداف والغايات السامية يعدّ من تبعات تطبيق صوابية الحقّ، ووصفه تعالى بالحكيم يشير لصوابية نظرته في الأمور وأن قراراته وأفعاله كلها على الصوابية، لأنه لا يعبث ولا يلعب وقراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول بأن أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، لأنه لا يفعل لغاية له سبحانه.

وهو {الْخَبِيرُ}، الذي لديه أخبار كلّ شيء، حيث يعلم بتفاصيل تفاصيل كل شيء، وعندما يخبرنا سبحانه بأن الحمد له وأنه حكيم، فإن ذلك عن علم بكل شيء يخبرنا بذلك. بعبارة فيها تساهل: بعلمه الواسع الدقيق سبحانه "خبير" لم يجد ولا عمل من أعماله غير حميد ولا حكيم.

تصوّر لو كان هناك شيء لا يعلمه الله تعالى، أو أنه تعالى لم يحسبها جيداً ولم يقدّر بشكل مضبوط لأن النتائج لم تكن معلومة له، فهذا مناف للحكمة بشكلها المطلق الفائق، لتصبح حكمة على مستواي أنا الذي بحسب معطياتي الناقصة سأتخذ قرارات ستكون نتيجتها غير صائبة ولا محقّة... ولذلك عقّبت الآية بأنه تعالى خبير، لأنه من علمه سبحانه بكل شيء تصير حتماً كل أعماله حميدة وحكيمة.

من ناحية ثانية، علينا أن نضع دائماً في بالنا الصراحة الإلهية، الشفافية، حيث سترى خلال السورة إضاءتها على نماذج متنوعة من أفعاله تعالى والتي تريك بسهولة وصف أعماله بالحميدة.

بالنسبة للحمد على كل ما فعله تعالى، يقول أحد ما: هل الأمراض والكوارث أعمال حميدة؟ وهل خلود الكفّار في النار عمل حميد؟ وهذه نقاط ستتحدّث عنها السورة، والجواب بشكل مباشر غير ملطّف يكون: نعم، لأن الحمد غير الشكر، حيث إن الشكر تعبير عن حصولي على أشياء أرغب بها وتنفعني، لذا لا أشكره تعالى على المرض... ولكن أحمده عليه لأن المرض من تصميمه تعالى لنا لخلقتنا في دنيا البلاء، لأن هذه الدنيا ليست الجنّة، بل هي مكان للامتحان، وهذه الآفات والكوارث من ضمن الامتحان، ونتيجة المدّة القليلة جداً في حياتنا في الدنيا مع هذه الأمور "السيّئة"، ستكون نتيجة النجاح: جنّة خالدة.

قطع الطبيب لليد الميتة من جسد المريض هو عمل حميد، ولكنك فقدت عضواً مهماً من أعضاء جسدك لذا لن تكون شاكراً على فقده، ولكنك ستكون حامداً على فقده لأنه كان يسبب لك الألم وسيسبب لك الموت... وطبّق هذا المثال على كل أفعاله تعالى وسترى الفرق بين الحمد كوصف ثابت على كل ما قرره وفعله تعالى، وبين الشكر.

هل تشكره تعالى على ولد معاق بمرض عقلي أو جسدي؟ لا، ولكن تحمده لأن دنيا البلاء سينتج هكذا شيء، علماً أنه تعالى وعدنا بتغيير حال دنيا البلاء لتكون لنا على أفضل ما يمكنها تحمّله "تقديمه" إذا آمنا واستغفرنا، وراجع في ذلك دراسة الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، حيث إننا بسيئاتنا نحرم أنفسنا من العناية الإلهية بنا في الدنيا بما يجعلها سعيدة هانئة بأقل ما يمكن من سوء.

صرّح القرآن مراراً أنّ البلوى والفتنة بالجوع والفقر والخوف والمرض... هي أشياء سيئة، ولكنها عندما تكون جزءاً من امتحان، ونتيجة الامتحان "خلود" في الجنّة، تصير هذه الأشياء حميدة، وهكذا يراها المؤمن ولن يراها الآخرون كذلك. طبعاً مع تداخلات لأمور أخرى سببت السوء على رأسها سوء معتقداتنا وأفعالنا نحن، وسيأتيك في السورة هنا نماذج عن عبدين تميّزا بالإيمان والعمل الصالح حيث تدخّل سبحانه في حياتهما لتسير أمورهما على أحسن ما يمكن في الدنيا، وما حدث معهما متاح لنا لحصوله معنا جميعاً...

نفس الشيء بالنسبة لخلود الكفّار في جهنّم، والذي سببه انطباع قلبهم وفكرهم على الكفر بدون أي بذرة بيضاء، لأنهم مهما بقوا أحياء في الدنيا فهم سيبقون كافرين مجرمين، لذلك معاقبتهم عملٌ حميدٌ.

يمكن تلخيص كل ما سبق وما سيأتي في السورة مع تسهيل للعبارات، أن كل ما يفعله تعالى حميد، والسوء ينتج من أفعال مخلوقاته، حيث لو أطعناه تعالى واستغفرناه كمجتمع، فسنعيش بسلام واطمئنان وراحة شبه خالين من الكوارث والآفات بقدر ما تتحمّله بيئتنا، كما ورد في الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، وسيأتي الكلام في السورة عن نموذج سبأ كمجتمع وعن نموذج العبدين داوود(ع) وسليمان(ع) كأفراد، ولكن تدخل النفس الأمارة بالسوء على الخط مع وسوسة إبليس وبقية الشياطين لنا، ومن ذلك تنتج الكوارث والآفات التي من صنع أيدينا والتي من الطبيعة، حيث ترى هذا المعنى في الآية 41 من سورة الروم {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، وسترى في السورة نموذج نتيجة فساد سبأ، ومن سوء ما نفعله نحن في الدنيا ينتج عذاب للمفسدين والمجرمين منّا في الآخرة.

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ {2})
لأي درجة هو تعالى خبير:

يعلم، الله تعالى، {مَا يَلِجُ}، ما يدخل مُحْتَوِياً، {فِي الْأَرْضِ}، من قطرة ماء، من حشرة، من بذرة... تصير مُحْتَوِيَةً في الأرض، ويعلم سبحانه، {مَا يَخْرُجُ مِنْهَا}، من الأرض من نبات أو حجر أو حيوان...

يَعْلَمُ سبحانه، {مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ}، من ملائكة(ع) وشهب وماء... ويعلم سبحانه، {مَا يَعْرُجُ فِيهَا}، والعروج منه التعرجات وأَعْرَجُ وعَرَّجْتُ عليه في طريقي، وغلب استعمالها في الصعود، بينما هي وصف لعموم الانتقال غير المستقيم بسبب التواء أو انعطاف أو محطات بمعنى ما، أَوْ بسبب اختلاف وسيط الانتقال من الْأَرْضِ لِهَوَاءٍ، أو بسبب اختلاف وسيط السماء، من السماء الأولى للثانية فتكون السماوات كمحطات...

عِلْمُهُ تعالى ليس مَحْصُوراً بما في بيئة الأرض وبيئة السماء، بل سبحانه متابع لكل ما يجري في الدنيا في كل نقطة فيها، وَلا حدود لعلمه تعالى بِحَصْرِهِ على ما يجري على وجه الأرض، وَلو انتقل شيء من سماء لِأُخْرَى فَلَنْ يتسلل خفية عن علمه تعالى به...

{وَهُوَ الرَّحِيمُ}، حَيْثُ لديه تعالى عناية خَاصَّةٌ بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، وبناء عليه بالعنوان الكبير للرحمة بالمؤمنين صَمَّمَ وخلق سبحانه ما في الدنيا لتتماشى مع وصول المؤمنين إلى جنّة خالدة، وهو {الْغَفُورُ} الذي يتجاوز عن الذنوب، وَلا يأخذ مَوْقِفاً وَاحِداً صُلْباً جَافّاً قَاسِياً ممن أذنب، وَمن رحمته سبحانه الْخَاصَّةِ بالمؤمنين يغفر لهم إذا استغفروا أمّا الآخرون فَلا مغفرة لهم لأنهم هم بإرادتهم فعلوا السوء فَخَرَجُوا من الرحمة الإلهية، وهذا ما سبّب لهم الكفر بالحمد له تعالى خُصُوصاً في مسألة الآخرة.

من الآية التالية سترى أن الكلام يجرّ الكلام من حمده تعالى ونسبة كل ما في الدنيا له، مُرُوراً إِلَى علمه الواسع الدقيق، ومن هنا ستنتقل السورة إلى الآية التالية لتشير إلى علمه تعالى بحصول ساعة نقوم فيها من الموت، لأنه هو سبحانه قرّر حصولها ويعلم حتما أن الأمور تسير باتجاهها، حَيْثُ إِنَّ الساعة ستحصل حتما كَتَحْصِيلِ حَاصِلٍ لمجريات أحداث الدنيا الذاهبة حتما في اتجاه تَبَدُّلِهَا لِيَتَكَوَّنَ عالم الآخرة، وأوّل ساعة من الآخرة بالنسبة لنا هي ساعة عودتنا إلى الحياة في أوّل يوم وهو المسمّى بيوم القيامة، وقراره تعالى بحصولها حَمِيدٌ، إِذِ المشكلة ليست فيما قرّره تعالى بل فيما اخترناه نحن من كفر وسوء، وَمجازاة المؤمنين العاملين للصالحات بالجنة هُوَ عمل حَمِيدٌ، ومجازاة الكافرين المجرمين بالنار هُوَ عمل حَمِيدٌ...

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ{3})
أبرز مسألة ينكر فيها الناس حمده تعالى هي مسألة قراره تعالى بعودتنا لمحاسبتنا ومجازاتنا.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، وسياق الكلام التالي عن الذين أنكروا الآخرة، قالوا: {لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ}، لن يأتي زمن نرجع فيه من الموت، ويستعمل القرآن تعبير الساعة غالبا للإشارة إلى الزمن الذي يرجع فيه الناس من الموت في يوم القيامة

الذي فيه ساعات كثيرة، وأول ساعة منها بالنسبة لنا هي ساعة قيامنا من الموت، ويلي يوم القيامة أيّام فيها ساعات حشرنا وفرزنا زمرا، ومحاسبتنا الفردية وأخرى جماعية... وأخيراً تنتهي أيام القيامة والحساب بساعة دخول آخر واحد إلى الجنّة أو النار.

{قُلْ}، عبر هذا القرآن للكافرين بالساعة:

{بَلَى}، نفي لقولهم لن تأتينا الساعة، حيث بالتأكيد ستأتي، {وَرَبِّي}، أؤكّد "قسما" على حصول ذلك بالمسؤول عني من مستوى إلهي، {لَتَأْتِيَنَّكُمْ}، حيث إن الساعة حتما آتية.

ربي سبحانه الذي يقول بأنها آتية هو: {عَالِمِ الْغَيْبِ}، حيث يعلم كل ما غاب عن الآخرين، ويعلم ما جرى في الماضي، وما يجري في الحاضر وما سيجري في المستقبل.

{لَا يَعْزُبُ عَنْهُ}، حيث لا ينفرد أي شيء ليصير خارج ما يشهده سبحانه، {مِثْقَالُ}، أي شيء بقدر حجم أو وزن، {ذَرَّةٍ}، وهي وصف لأصغر شيء له كيانه الخاص المنفصل، والعرب قديما استعملوها لأصغر شيء يمكن أن نراه، فالنمل الصغير جدا كنمل الخشب نقول له: ذرّ. ورماد الفحم لأنه ناعم وصغير جدا نقول له: ذرّ. وغبار الهواء ذرّ... فكل شيء صغير جدا فصفته "ذرّ"، فلا يذهب فكرنا للذرة المؤلفة من بروتون ونوترون وإلكترون كما يقول الفيزيائيون، فالذرّة بالتعبير العربي هي: كل شيء صغير جدا. ولكننا الآن لم نعد نستعملها هكذا كثيرا، وصرنا نستعملها أكثر في معنى مصطلح الذرة الفيزيائية للمواد، كذرة كربون وذرة نحاس...

لا يغيب عنه سبحانه ولو ذرة منفردة أينما كانت، {فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ}، {وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ}، فحتى لو كان الشيء أصغر من الذرة ومهما صغر حجمه فلا ينفرد ويغيب عنه تعالى، {وَلَا أَكْبَرُ} من ذلك، فلا يعزب عنه سبحانه حتى لو كان أكبر ومهما كبر حجمه، {إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، في الكتاب الرئيسي الأساسي المبين أي الواضح الذي ليس مسجلاً فيه تخمين أو احتمالات، وليس فيه نقصان أو تشويه أو خطأ... في المعلومات المذكورة فيه.

تذكّر دائماً إنّ الكتاب الذي يقول عنه القرآن أن فيه كلّ شيء، فهذا الكتاب ليس من ورق ولا من شيء نعرفه، فتصوّر ذاكرة الكمبيوتر الآن، وكم هو صعب شرح كيف تخزّن المعلومات فيها لشخص كان يعيش قبل ألف سنة مضت! فكذلك نحن لا يمكننا فهم طبيعة ذلك الكتاب، ولا كيف تسجلت فيه المعلومات، فهو شيء يفوق قدرة عقولنا على الفهم حالياً، فكيف يمكننا فهم شيء فيه تسجيل تفاصيل كل ذرة بل وأصغر، وكل ما جرى وسيجري في كل لحظة في الدنيا والآخرة... ففي الكتاب ماضي كلّ شيء وحاضره ومستقبله، فهل يمكن أن تتصوّره! ولمزيد من التوسّع راجع دراسة الآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

بقي شيء، فكما الأمور الصغيرة نستصعب نحن رؤيتها ولا نراها بسبب صغرها حتى لو كانت أمامنا، فكذلك الأمور الكبيرة حتى لو كانت أمامنا فهذا لا يعني أننا يمكننا رؤيتها والانتباه لها، فانظر إلى السماء، فهي مليئة بالمجرات ولكنك لا ترى المجرات مع أنها أمامك، فترى نقاطاً بيضاء، وأصلاً مجال رؤيتنا للأشياء ضيّق ومحصور بمساحة صغيرة أمامنا مباشرة، ومضافاً له ما شهدناه من تجارب الملاحظة عند البشر أنّ اختفاء شيء كبير من الصورة مثله مثل اختفاء الأشياء الصغيرة حيث إننا لا نلاحظ غيابه... فسبحانه يخبرنا بشكل عام أن ما كان حجمه صغيراً جداً جداً أو كبيراً جداً جداً، أو وسطاً بينهما، فسبحانه وتعالى لا يغيب عنه إدراك ذلك الشيء والإحاطة به. ونفس الجملة هنا شبه متكررة في الآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

إذاً، من يخبرنا عن الساعة هو المنسوب له كل شيء والذي يعلم كل شيء بأدق التفاصيل، وبالتحديد هو تعالى يخبرنا عن علمه بما سيحدث في المستقبل وبناء عليه يخبرنا سبحانه أن الساعة حتما آتية لأنه هو تعالى قرّر حصولها، والأمور جارية باتجاه حصولها.

لماذا الساعة آتية؟ ولماذا التخطيط لحصولها، وما الحكمة منها؟:

(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ{4})
التفسير العملي لوصفه تعالى بالحميد الحكيم في مسألة الساعة، حيث إن الساعة آتية: {لِيَجْزِيَ}، ليعطي سبحانه المقابل لـ {الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين الإلهي، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، فقاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، حيث خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، عملياً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادةً نفسّر {عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إنهم صلّوا وصاموا... وهذا عملياً صحيح، ولكن بالأصل الكلام أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموماً وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائماً أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به.

هذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلاً سيئٌ" فسيكون في الحقيقة اختراعاً من البشر لصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمراً إلهياً.

تلاحظ دائماً دمج القرآن بين الإيمان والعمل الصالح مع بعض، والنتيجة للاثنين معاً دخول الجنة، فلا الإيمان بدون عمل صالح ينفع، ولا العمل الصالح من دون إيمان ينفع، بل كلاهما معاً ينفعان.

{أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ}، لهم تجاوز عن أعمالهم السيئة التي قاموا بها حيث لن يتحاسبوا عليها، {وَرِزْقٌ}، فيحصلون على ما يحتاجونه لسدّ حاجاتهم ورغباتهم، {رِزْقٌ كَرِيمٌ}، فمن ناحية النوعية والكمية وطريقة الحصول عليه الرزق كريم إذ هو محترم وله قيمة عالية، ومن ناحية ثانية هم أنفسهم يشعرون بأنهم كرام محترمون. ويخطر ببالنا أنّ كريماً معناها بكرم أي بكثرة القصور والبساتين... وهذا صحيح ولكن استعمال كلمة كريم في القرآن عند وصفها للجزاء تعني أنه بكرامة، أي بقيمة عالية، فالكافر يلقى التعذيب مع إهانة، والمؤمن يلقى الثواب الحسن مع كرامة، مع احترام وشعور بقيمة عالية.

هنا في الدنيا يعتبر البعض أن الرزق "طعام وشراب" شيئاً عادياً إن كنّا من الميسورين والأغنياء، ولو كنّا فقراء، لكان الوعد بالرزق في الآخرة شيئاً مغرياً، حسناً، هذا الوعد بالرزق مغرٍ حتى للأغنياء لأن الرزق في الجنّة لا يمكن قياس لذّة طعمه مع أشهى شيء في الدنيا، فالفرق كبير جداً جداً وفوق الوصف، ولا ينتج عن أكله أي ضرر صحي أو تخمة أو انزعاج... ومضافاً لذلك هو رزق هنيءٌ إذ إنّ المكان تعمّه الطمأنينة والسلام وأجواء السعادة...

لنتوسّع قليلاً هنا، حيث إن بعض الناس وبضبابية يخوضون في تعليقات غير مدروسة ولا عقلانية عن الجنّة، فيختصرون ما فيها مما يقوله القرآن من طعام شهي وسعادة جسدية مقللين من قيمته، وكأنها أمور ليست مهمّة، فهل هذا ما يعدنا به القرآن إن آمنّا وعملنا الصالحات؟ فنذهب إلى الجنّة ونبقى هناك نأكل ونشرب ونتمتّع بجسدنا، فهذا مملّ.

بل ويقول بعضهم إنهم هنا في الدنيا متاح لهم ذلك، فهذه الوعود مغرية للفقراء وللذين يعيشون ظروفاً قاهرةً في مجتمعات ظالمة فاسدة... ولو هؤلاء تحسّنت ظروفهم لما عاد وعد الجنّة مغرياً لهم.

كما ترى هذا النوع من الكلام البسيط الساذج غير المدروس، تسمعه في عموم شؤون الحياة والدين والاقتصاد والسياسة... من الغالبية من الناس، وحتى أنا المدّعي للفهم، فحين أخوض في مسائل لست خبيراً بها، وأظنّ أن المعلومات التي معي كافية، سيصدر عنّي كلام سخيف ساذج يلاحظه المتخصصون في الموضوع الذي نتكلّم به، وحتى لو خضت فيما قضيت فيه وقتاً طويلاً لدراسته، فالخطأ وارد ولكن من المفروض أن يكون بنسبة أقل...

هم بهذا الكلام التسخيفي لجنّة الآخرة يلغون أصلاً معنى السعادة التي صارت فارغة بلا معنى ولا تطبيق، وكأن السعادة ليست مغرية، بل وكأن السعادة أصلاً لا معنى لها. فبضبابية فكرية وبذاكرة هامشية لا تستعيد المعلومات بدقة، ينفون شعورهم هم بالسعادة من شيء حصل معهم في الدنيا، وقد يكونون تحت ضغوط لا يعترفون بها ويتجاهلونها أو تعايشوا معها كجزء ملتصق بحياتهم ولم يعودوا يرونها.... أو... ومن هذه الضغوط صاروا منكرين لمعنى السعادة التي لم يعودوا يشعرون بها بدرجة عالية مرضية لهم...

هؤلاء بعضهم فاقدون لمعنى السعادة ولذلك يسخّفون الكلام عن سعادة الجنّة. وينتج عن ذلك تسخيفهم لكل مفردات السعادة، فينفون معنى لذة الطعام والشراب، وينفون معنى اللذة الجسدية، وينفون معنى لذّة باقي الحواس من رؤية المناظر الجميلة وشمّ الروائح العطرة... وينفون معنى الراحة النفسية من الاطمئنان والانشراح... وينفون معنى السعادة من الحفلات والسهرات واللعب...

المؤمن من الدرجة المقبولة في سلامة القلب، أساس فكره ونفسيته لم يتشوّه بالكامل، فهذا لا يفقد معنى السعادة، فحتى لو كان غنياً ومتاحاً له كل ملذات الدنيا المقدور عليها، فهو يطمع بجنّة الآخرة التي يؤمن بها بسبب وعده تعالى بسعادة فيها من درجة لا يمكنه تصوّرها الآن، أمّا الآخرون فلأسباب عديدة يسخفون سعادة جنّة الآخرة، فمن فقدانهم لمعنى السعادة بسبب مشاكلهم، ومن فقدانهم الأمل بدخول الجنّة بسبب سوء أعمالهم، أو من... بينما خالقنا يقول بأن الذي يصير في الجنّة فلن يرغب ولن يفكّر بأي شيء غيرها وتقرأ ذلك صريحاً في الآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}.

(وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ{5})
{وَالَّذِينَ سَعَوْا}، كان لهم تحرّك يقصدون منه شيئاً محدّداً، {فِي آيَاتِنَا}، في الأمور المميَّزة المنسوبة له تعالى، الأمور التي تدل على انتساب كل شيء له تعالى كإله مُصَمِّمٍ وخالق ومالك ومُدَبِّرٍ... وعلى وصفه تعالى بالحميد الحكيم...
وعالم الغيب... وآياته التي تدل على تحقّق كلامه تعالى عن ساعة قيامنا من الموت... {مُعَاجِزِينَ}، يقصدون جعل آياته عاجزة عن الدلالة عليه وعلى صفاته الحسنى وعلى ما سيفعله سبحانه... حيث يقولون عن آياته تعالى أنها أمور عادية، ظواهر طبيعية، بالصدفة، أمّنا الطبيعة فعلتها... أو هناك آلهة غيره تفعلها... فتصير الآيات فاقدة لأي قيمة، وبالتالي فلا عودة للناس إلى الحياة بعد موتهم بحسب زعم المعاجزين.

{أُولَئِكَ}، المعاجزون لآياته تعالى، {لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ}، من شيء سيئٍ سيسبّب لهم الاضطراب الجسدي والنفسي، {أَلِيمٌ}، لا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه، فهو دائماً مؤلم.

كلمة رجس يناسب تعريفها في استعمال القرآن وأشعار العرب قديماً بما هو منفور منه لسوئه، وفهمها أسهل بمضاداتها بالبركة، والرجز يناسبها في استعمال القرآن: المكروه المؤذي لسوئه. وفي استعمال العرب قديماً تشير لعموم الشيء المسبب للاضطراب، سواء الإيماني أو النفسي أو الجسدي، ويشمل وصف السوء المكروه لأنه مؤذٍ مع الاضطراب، وبهذا المعنى استعملها القرآن.

إذن الحكمة من الساعة هي الرزق الكريم للمؤمنين والعذاب الأليم للكافرين، وهذا قرار حميد.

(وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ{6})
بعكس المعاجزين في آياته تعالى:

{وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}، حيث إنّ الذين صار عندهم علم مما أتاحه تعالى لهم من قدرة على التعلّم ومن معلومات ليصير لديهم صورة محدّدة للـ، {الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ}، حيث يرون القرآن النازل من المسؤول عنك من مستوى إلهي، يرونه، {هُوَ الْحَقَّ}، هو الصواب الصحيح والصدق، ويرونه، {وَيَهْدِي}، يضع على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة، {إِلَى صِرَاطِ}، إلى طريق "رئيسي" التابع للـ: {الْعَزِيزِ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو

يحتاج للأشياء من غيره... وهنا الكلام عن حكمته تعالى بمرورنا في بلاء الدنيا وصولاً إلى الجزاء في الآخرة، فلا يمكن ولا تحت أي ظرف أن تسير الأمور بغير ما يريده العزيز.

وَ يهدي إلى صراط، {الْحَمِيدِ}، الذي عمله موصوف بأنه محمود، فكل أعماله جيدة حميدة.

سبحانه أتاح لنا أن نُوصَفَ بالعلم في مقابل ما نقول عنه بالدارج: الجهل. حيث إنّ فينا قدرة على التعلّم ومتاحة لنا المعلومات، وسياق الكلام لا يشير إلى كمية تجميعنا للمعلومات بل حصراً يشير للمعلومات ذات القيمة لأنها حقيقية وعلى معيار الحقّ، ويشير لفهمها ووعيها والتماشي معها، لذا قارن الحالة مع من تقول له كلام حقّ في أي موضوع كان، ويرفض قبوله لأنه لا يتماشى مع ما يريده ولا يوافق مزاجه ورغباته... سبحانه أنزل إلينا قرآنا فيه معلومات معروضة على الجميع، والموصوف بالعلم سيرى أن كلام القرآن صواب صحيح، وفي القرآن خبر عن ساعة قيامة من الموت وحساب... والموصوف بالعلم يفهم ويقتنع بذلك فيرى ما نزل على الرسول محمّد(ع) أنه صراط الإله الحقيقي بصفتيه المميَّزَتَيْنِ: العزيز التي تحوي معاني مُتَوَسِّعَةً عن فرض الإرادة لتشمل الوحدة في الألوهية والقوّة الفائقة والرفعة والقدر العظيم... والحميد التي تحوي معاني الرحمة والحكمة و...

بناء عليه، ما نزل منه تعالى من كلام عن الآخرة هو صادر عن عزيز يفرض ما يريده ويستحيل ألا يحصل ما يريده، وفي نفس الوقت موصوف بأنه حميد فلا يفعل أي شيء سيئٍ أو شيء سينتج عنه سوء...

نتذكّر دائماً وصف القرآن لبعض الناس بالعمى والصمم وانطباع القلب... وبتعبيرنا الدارج نصفهم بالجهلة، فهم هكذا من قبل أن تأتيهم آياته تعالى، ولدينا الحالة المعاكسة لأناس قلبهم سليم ولديهم علم له قيمة فهم يحترمون عقلهم ولا يتبعون هواهم وخيالاتهم الفاسدة... وهؤلاء عندما يَرَوْنَ هذا القرآن فوراً يعلمون أنه الحقّ ويهدي إلى الحقّ، لأنه يتماشى مع ما هم عليه من سلامة الفكر والنفسية، ولمزيد من التوسّع راجع في ذلك دراسة الآية الثانية من سورة البقرة {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}.

بعبارة مباشرة، هم موصوفون بالعلم من قبل أن يصلهم القرآن، وعندما وصلهم القرآن رأوه يتماشى مع علمهم، فرأوه حقاً وهدى. لذا لا يذهب فكرك إلى حصر أوتوا العلم بأشخاص مُحَدَّدِينَ تقصدهم الآية في زمان نزولها، ولا تحصرهم في أشخاص من أهل الكتاب أسلموا في زمن نزول هذا القرآن... لا، فهي عامّة لأي زمان ومكان وشخص، حتى أنها وصف لي ولك في حال تحسّن إيماننا وسلوكنا من تحسّن علمنا من تقويمه وتصويبه بما في القرآن والمؤثر على سلامة قلبنا، وهذه حالة ترى بعضاً منها في الكثير من المسلمين الذين يتحسّن إسلامهم بعد تقدّمهم في العمر فتخف قوّة شهواتهم وغرائزهم... ويملّون من الأمراض الجسدية... ويشعرون باقتراب الموت... وبالتالي تصير رؤيتهم للسيئات أوضح بعدما خفّت رغبتهم بها...

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ{7})

نكمل مع أوّل مسألة تناولتها السورة من كفر البعض بحمده تعالى وهي مسألة الكفر بالآخرة، وضمناً هم لا يرون الحمد في محاسبتهم ومجازاتهم على سوء ما فعلوه، وهذا ما ركّزت عليه السورة هنا حيث في سور أخرى ترى تركيزها على عرض أدلة على صوابية قراره تعالى بحصول آخرة، وترى أدلة على قدرته تعالى بإعادة إحيائنا، وهذه الأمور متضمنة هنا في الكلام ولكنها لم تعرض بشكل صريح لأن التركيز على محمودية القرار بحصول آخرة.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، والكلام هنا بالخصوص عن المنكرين لخبر الساعة الذي جاء به الرسول محمّد(ع) في هذا القرآن، قالوا: {هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ}، ويقصدون به النبي محمد(ع)، وذلك الرجل، {يُنَبِّئُكُمْ}، حيث يخبركم بشيء علمه غير منتشر بينكم، أنه، {إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ}، حيث تحولتم لقطع صغيرة سواء بالتقطيع أو بالفرم أو بأكل الوحوش لكم... أو بتفتّت لحمكم وعظمكم في القبور... بكل ما تحمله كلمة تمزّق من معنى، {إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ}؟ حيث سوف يتم تركيبكم وتأليفكم من جديد لتعودوا أحياء؟!

ننتبه لطريقة السخرية في كلامهم، وهنا علينا ألا نستغرق ونبحث فيمن قال هذا عن النبي محمد(ع) في عصره، لأن نوعية الناس "الناكرة للساعة والمعاجزة في آياته تعالى" ما تزال موجودة في مختلف الأمكنة والأزمنة، وهم يسخرون ويعاجزون القرآن والمؤمنين، ولا يوجد استفادة من البحث التاريخي عمن قال هذا الكلام عن النبي محمّد(ع)، حيث إنّ

معرفته أو جهله لن تقدم لنا ولن تؤخّر أية معلومات جديدة عن موضوع السورة، بل ولأسباب عديدة إنّ البحث في الروايات يجعل ذهنك يتشتت عن الموضوع الذي تريدك السورة التركيز عليه، بل ربما البحث التاريخي يضرّ في حال علق في ذهن القارئ أنّ الموضوع قديم ويتحدث عن أشخاص ماتوا، فيصير عند القارئ تجميد للقرآن، فيشعر بأنه يقرأ تاريخاً وقصة قديمة، ويفقد بذلك القيمة التطبيقية للمواضيع التي يتحدث عنها القرآن.

كثيراً ما تحوي الروايات أموراً لا علاقة لها بالآية أو بالسورة، فتكون ناتجة عن استنساب بعضهم لحادثة ما مع كلمات وردت في الآية... والأكثر منه روايات إكمال السيناريو، فيختارون شخصية تناسب برأيهم ما تقوله الآية ويلصقون الآية به على أنها نزلت فيه أو أنها تقصده... أو هناك حادثة مبهمة التفاصيل ولكن مع قليل من البهار والملح ستنطبق على الآية، والكثيرون من المروي عنهم خبراء في مجال تأليف وتوليف القصص مع القرآن... لذا اترك كلّ هذا ولا تجعله معياراً لفهم القرآن وسوف تلاحظ كيف تظهر أهمية المواضيع عندما لا نعلّقها ولا نربطها بالروايات التاريخية.

ليس القصد إغفال أهمية البحوث التاريخية، ولكن فيما يخص مواضيع القرآن، من الأفضل فصل الأحداث التفصيلية التاريخية عن أساس الشرح، حتى يبقى الموضوع القرآني عاماً وشاملاً، وينطبق على كل الحالات المشابهة في كل زمان ومكان، ولنبتعد عن الروايات التي شوّهت مواضيع القرآن.

بعبارة أصرح، لو كان لدينا رواية من شاهد موثوق معاين لنزول الآية في شخص ما، فعلى الرأس والعين، ولن نتجرّأ على مخالفة الرواية بالرأي أو بالهوى... ولكن النادر جداً من الروايات موثوق، وأكثره نعلم بأنه كذب أو مبالغة أو اشتباه أو افتراض لتكميل مشهد الأحداث... فكيف سنعتمد عليه ونحن نرى بوضوح مخالفة الروايات لبعضها، وللقرآن! ونرى تقطيعها لمواضيع سوره وإخراجها عن معانيها...

(أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ{8})
هذا الرجل "محمّد" الذي يقول هذا الكلام عن بعث الإنسان الممزّق:

{أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}؟ ألّف القرآن وألصق كلامه بالله تعالى كاذبا لأنه تعالى لم يقل له هذا الكلام "افْتِرَاءً"، وأصلا لم يقله تعالى لا له ولا لغيره "افْتِرَاءً كَاذِبًا".

هُنَاكَ احتمال أن يفتري محمّد (ع) بتأليف كتاب ويقول إِنَّهُ نازل عليه من عنده تعالى، وفي كتابه يقول إِنَّهُ سبحانه سيعيد إحياءنا، وهناك احتمال أن يكون كُلُّ أو بعض ما في هذا الكتاب فعلا مُوَافِقًا لما يقوله تعالى، فيكون افْتِرَاؤُهُ مَحْصُورًا بِنِسْبَةِ الكتاب لله تعالى، أمّا جملتنا هذه المنقولة عن الكافرين، فهم يقصدون بها أن مُحَمَّدًا (ع) ألّف الكتاب، وافتراه عليه تعالى بنسبة الكلام له تعالى، وما في كتابه أكاذيب أصلا لا توافق ما يقوله تعالى، وبالتالي هِيَ افتراء كاذب، وَهِيَ تلفيق كلام لم يقله سبحانه أصلا من قبل، وبالنسبة لإعادة إحيائنا فلن يفعله سبحانه.

لِنَقُلْ إِنِّي ألّفت كتابا أدّعي أنه نزل عليّ وحيا، ووضعت فيه أشياء قالها سبحانه للرسل، فأنا مُفْتَرٍ عليه تعالى لأنه لم يقل هذا الكلام لي، ولكني لست مفتريا كاذبا لأنه تعالى فعلا قال هذا الكلام للرسل، ولو ذكرت في كتابي شيئا لم يقله تعالى أصلا، فأنا مُفْتَرٍ كذّاب.

{أَم بِهِ جِنَّةٌ}، أو "محمّد" فيه لمسة جنون، فهو مجنون بشكل جزئي؟! كما نقول بالعامية: فيه وشّة. وَفي هذه المواضيع عقله غير راكز ومشوّش ولا عقلاني... وَرجل عاقل لن يقول هذا الكلام عن إعادة خلقنا. وهذا الاتهام بالجنون للرسول نَقَلَهُ القرآن مرارا، وكمثال عَلَى ذلك الآية 51 من سورة القلم {وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ}.

{بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ}، الذين لا يعتقدون بالحياة التي ستأتي في الآخر بعد انتهاء الحياة الدنيا، هم، {فِي الْعَذَابِ}، نهايتهم في الضرر لهم، {وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ}، فهم أبعد ما يكون عن الشيء الصحيح.

هَذَا الرجل الذي يحدّثكم عن البعث "النبي محمّد(ع)" لا يكذب، وليس مجنونا، وكلامه عن الساعة ليس افْتِرَاءً عليه تعالى، بل المشكلة فيكم أيها الناكرون للآخرة، فأنتم الضالون ونهايتكم العذاب.

كثيرا ما يذهب فكرنا لفهم كلمة {ضَلَّ} كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيرا أم شرا، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضَلَّ عنك صيدها. وَاسْتَعْمَلَ القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، وَلَمْ تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، وَلَنْ يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون لِأَنَّهُ ليس على طريقهم، بل ضَالٌّ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ{9})

{أَفَلَمْ يَرَوْا}، القائلون باستحالة حصول الآخرة ألم تحصل لديهم صورة محدّدة كما نقول بالعامية: ما شافوا، ما التفتوا. {إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ}، إلى الذي أمامهم، إلى الأمور التي تحصل أَمَامَهُمْ، وألم يروا، {وَمَا خَلْفَهُمْ}، من أمور لا تحصل أمامهم فليست بين أَيْدِيهِمْ، من أمور لا يتعاطون معها وتحصل من دون معرفتهم، من أمور، {مِّنَ السَّمَاءِ}، من عموم ما هو فوقهم، {وَالْأَرْضِ}، وعموم ما هو تحتهم وحولهم. ألم يروا "ما شافوا" كل هذا! من ليل ونهار ومطر وأناس وحيوان ونبات وشمس وقمر... وَهِيَ كلّها أمور تحصل وهم لا دخل لهم بها ويجهلون الكثير عنها وعن تفاصيلها، وحوادث تقع وهم ليسوا على علم بلحظة حصولها فيعلمون بها فيما بعد، أو أصلا لا يرونها ولكن يدركون أنها حصلت، أو أصلا لا يعلمون بما حصل... فإن لم يكن لهم علم بكل ما يحدث، فكيف يحدث ما يحدث؟ فهم المخلوقات الواعية المفكرة من مستوى أعلى مما حولهم ويتعاملون معه، فإن هم لم يكن لهم علم بما تحتهم وفوقهم، وبالتالي فهم لا علاقة لهم بما يجري، فكيف حصل تصميم وخلق كل ذلك؟ وَمَنْ فعله؟

{إِن نَّشَأْ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة ولو قرّر، {نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ}، فيجعلهم سبحانه تحت مستوى سطحها، فتهبط كما يحصل عند حصول الزلازل القوية حيث تهبط مساحات من الأراضي بسبب الفراغ الذي يحصل تحتها.

{أَوْ}، لو نشاء، {نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ}، فنجعل أشياء تنزل وتكسف السماء فتحجب السماء كليا أو جزئيا وهي نازلة عليهم بسبب كبر حجمها أو كثرتها، من النيازك والشهب والحمم وحجارة البراكين التي تطير وتسقط...

ما قاله بعض المفسرين كتفسير لكلمة {كِسَفًا} كمرادف للقطعة، كَانَ تخمينا تطبيقيا منهم وللأسف لم يلتزموا بالمعنى العربي الأصلي للكلمة وهذا واضح من استعمال الآية 48 من سورة الروم {فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا}، وبناء على كلام المفسرين علّق بعضهم على القرآن بتعبيره عن سقوط {كِسَفًا} من السماء متّهما النبي محمّد(ع) بتأليف القرآن على أساس أنه(ع) كان يظن أن اللون الأزرق قبّة زجاجية أو من الزمرّد... وستسقط قطعا على الناس... بينما بمراجعة كلام العرب القديم ستجد تعبيرهم عن عموم ما يسقط من فوق أنه كسف إذا حجب السماء، فهذا ما كانوا يصفون به النيازك والغيوم وعموم ما يحجب السماء عن الرؤية، وَكَانُوا ولا نزال نصف به كسوف الشمس حين لا نعد نراها بسبب مرور القمر من أمامها.

{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ}، الذي بين أيديهم مما يتعاطون معه من آيات كالمطر والفلك والحيوانات والنباتات... وما خلفهم ووضوح سيطرته تعالى عليهم ليفعل بهم ما يشاء، {لَآيَةً}، لهو شيء مميّز، كعلامة ودليل على قدرة الله تعالى وأنه تعالى ما يزال قادرا على أن يفعل ما يشاء، وبالتالي فهو قادر على إعادة إحيائهم، وذلك آية، {لِّكُلِّ عَبْدٍ}، لكل مخلوق مفروض منه الطاعة لمن خلقه، {مُّنِيبٍ}، ليس لديه أَفْكَارٌ وَقَرَارَاتٌ خاصة منفصلة عن الأوامر الإلهية فلديه عادة الرجوع في أموره وأفكاره وأفعاله فقط لله تعالى، فإذا كان العبد منيبا فما بين يَدَيْهِ وما خلفه، آيات له، وإن لم يكن منيبا فالآيات لن تعني له أي شيء.

بعبارة أخرى، أليس من الواضح جدا لهم أنهم الآن تحت سيطرته تعالى؟ فما معنى إنكارهم لسيطرته عليهم لإعادة خلقهم؟ وكما تلاحظ اَلْفَرْقُ بين سورتنا هنا وبين سور أخرى ركّزت على أدلة متنوعة على إعادة خلقه تعالى لنا، أن السورة هنا تركز على جانب الحمد له تعالى بقرار إعادة خلقنا.

ضع في بالك أن الشيء الحقيقي يمكن صياغته بتسلسل ومنطقية، أمّا ما ليس حقيقيا فسيحصل فيه اختلاط وتشويش، فلا تفكّر في دين الكفّار على أنه عقيدة واحدة واضحة... كمقابل للعقيدة الثابتة الراسخة من المعلومات التي يطرحها القرآن، لا، لِأَنَّ لكل كافر فِكْرًا كُفْرِيًّا مُخْتَلِفًا عن الآخرين، وَلو كان كلامهم صحيحا لوجدت وحدة عقائدية على مستوى الطرح، لِنَقُلْ لو ألّف أحدهم كتابا لعقيدة الكفر ونقّحوه لوجدت على الأقل تسلسلا لعقائدهم وترابطا ولو وهميا.

ضع هذا دائما في بالك لأن الغالبية من المفسرين والباحثين بشكل أو بآخر كان في خلفية كلامهم اعتبار الكفر عقيدة واحدة وكأن لها بنية تسلسلية مترابطة... بينما الذي تجده في القرآن بكلامه عن الكفّار يعكس واقعهم المتشابك، هَذِهِ جماعة كفر على إنكار الإله... وتلك جماعة كفر على الشرك... وآخرون على الكفر بالرسل... وركّز معي جيدا: هُنَاكَ مؤمنون بالله تعالى ولا ينكرون أساس عقلانية وحسن دينه تعالى بعقيدته وشريعته، ولكنهم ولسبب أو لآخر منكرون لرسول من رسله، أو منكرون لآيات جرت على يد الرسل، أو منكرون فقط وفقط للآخرة... أَطَلْتُ عليك فأكتفي بهذه التلميحات التي ستساعدك على فهم كلامه تعالى عن مختلف أنواع عقلية ونفسية الكفر.

هنا في الآية ترى أَنَّهُمْ يتكلمون عن الله عزّ وجلّ، بالاسم المحدّد المميّز له سبحانه، مع أنهم كفّار، وستفهم الكلام القرآني بسهولة عندما تنتبه أن الكفر أنواع عديدة، وعندما تضع في بالك أن نفس الكافر لا تَسْتَقِرُّ على عقيدة كفر واحدة، وعادة ينتقل من واحدة لأخرى، أو تكون عقيدته ضبابية "هوائية" من الأصل فيقول جملة فيها شرك وجملة فيها توحيد... وجملة فيها إنكار لله تعالى، وجملة إعلان بأن الله تعالى هو الإله الأكبر... وهكذا...

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ{10})
{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا}، حَيْثُ حصل النبي داوود (ع) على أمور منه تعالى ولم تكن واجبة عليه سبحانه تقديمها لداوود(ع)، بل تفضّل سبحانه عليه بالتالي: {يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ}، لِأَنَّهُ (ع) يصدر منه شيء "حالة ذهاب" ويا جبال قومي بالردّ المناسب "حالة إياب"، ونفهمها بأنه (ع) بينما يدعو ويناجي ويسبّح ويمدح... تقوم الجبال بالترديد معه، فيقول (ع) جملة ما والجبال تردّ من بعده، وَتكرّرها، وَيخطر ببالك أن ردّها هو صوت الصدى، ولكن هذا لن يكون شيئا مميزا كفضل منه تعالى خُصُوصِيٍّ لعبده، بل حصل (ع) على قدرة فهم تماشي الجبال مع دعائه.

{وَالطَّيْرَ}، الطيور أيضا كانت تُؤَوِّبُ وَتردّد مع أدعية وتسابيح النبي داوود(ع)، ولا يذهب فكرنا بأن الزقزقة العادية هي التسبيح، لِأَنَّنَا لَيْسَ لدينا أي فكرة أو معلومة أو تصوّر لا عن تأويب الجبال ولا عن تأويب الطيور، وكل ما نعرفه أنه (ع) كان يفهم أنها تردّ عليه ومعه أثناء دعائه.

{وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ}، جعلنا المعدن الحديد، المعدن القاسي ليّنا له، طيّعا طريّا، مِمَّا جَعَلَ بإمكانه (ع) ليّ عموم أي معدن قَاسٍ. وَكلمة حديد لم تكن قديما مخصصة لنوع من المعدن بل لعموم أي معدن قَاسٍ. والمشهور بين الناس أنه (ع) كان يلوي المعدن الصلب بيديه كأنه معجون طَرِيٌّ، ولكن كلام القرآن لم يشر لذلك صراحة، علما أنّه التفسير الأنسب لمعنى تفضّله تعالى عليه(ع) بليّ الحديد، حَيْثُ لا معنى لذكرها إن كانت شيئا عاديا يقدر على فعله أي حدّاد، إلا إن كان تعامله (ع) مع المعادن الحادّة بطريقة "فنيّة" جديدة لم يسبقه عليها أحد، ولكن سياق الكلام عن أمور غير عادية كتأويب الجبال والطير وهذا يجعل مسألة التقنية الجديدة مُسْتَبْعَدَةً عن معنى التفضّل بشيء غير عادي.

ما المقصود من الفقرة هنا وما ربطها بمحور كلام السورة؟ لا أدري بالضبط، ولدي تخمين تحليلي سأعرضه عليك، ولكن قبل ذلك لِنَتَذَكَّرْ أن رؤيتي لمحور كلام أي سورة، وفهمي لربط فقراتها ببعضها وبالمحور، مَحْدُودٌ باهتماماتي وخلفيتي الثقافية ومخزون معلوماتي، ودرجة إيماني وصلاحي، وعادة نحن بضبابية نفترض القدرة في ذكي ما على التعامل مع مختلف العناوين، ولكن التخصّص في مجال ما هو ما يميّز هذا عن ذاك، إِذْ إِنَّ طبيبا حَاذِقًا يَجْهَلُ ميكانيك السيارات وَيَعْجِزُ عن إصلاح عطلها، وعادة نفترض أن مفسّر القرآن يجب أن يفسّر لنا كل القرآن، وكأن التفسير اختصاص كاف لذلك، بينما دراسة القرآن تحتاج لتخصصات متنوعة، منها اللغوية بفروعها المختلفة، والفقهية وَالْأَخْلَاقِيَّةِ... وقبل ذلك درجة مقبولة من التقى، ودرجة مقبولة من الحصافة ورزانة العقل، ودرجة مقبولة من المعلومات العامة... وأي خلل في واحدة منها سيسبّب خللا في فهم معنى كلامه تعالى.

أضف إلى ما سبق أنه تعالى يتحدّث في قرآنه معنا جميعا بمختلف أطيافنا، لِأَنَّ الكلام موجّه للبسيط وللفهيم، للمشرك والموحّد، وهؤلاء درجات وأنواع مختلفة... ولكل منهم هدى قرآني مناسب له في سورة ما.

أضف إلى ما سبق تنوّع المواضيع التي تتفرّد متفرعة من الهدى والضلال، وخذ مثلا حالة خصوصية القائد والتي أكثر ما ضرب لنا القرآن مثالا عنها بكلامه عن النموذج محمّد(ع)، وخذ مثلا مسألة الذكورية التسلطية على الإناث والتي بالنظر لها جاءت صياغة عموم الأحكام التي لها علاقة بالإناث لتضيء على حقوقهن...

نحن لدينا أفكار كثيرة، بعضها جعلنا لها عناوين تحصرها بمجموعات، كالتشريعات، وبعضها متداخل مع عدة عناوين كالسلوكيات المتداخلة بين التشريعات والأخلاقيات، وبعضها له عنوان عام كأنواع الشرك وأنواع النفاق والفسق... هذا على مستوى التبويب، وبعضها يبقى بلا عنوان، وخذ مثلا عن ذلك شَخْصًا يقول الشيء وبعد قليل يقول عكسه، لأنه ليس متخصصا فيما يتحدّث، أو لم يفكّر فيه ويخوض فيه باستهتار... وَهذه حالة غالبيتنا الساحقة في شتى المواضيع، وبما أننا هكذا فكلام القرآن معنا لهدايتنا سيراعي ذلك، لِأَنَّهُ لهداية قلبنا، والذي عمليا يعني: تقويم فكرنا ونفسيتنا.

لِذَلِكَ تجد قربا شديدا في محورية كلام العديد من السور، لأننا نحن لسنا عقلانيين بأفكار مرتبة ولسنا مستقرين نفسيا، وَما معنى علماني ملحد في كلامه مع الناس وفي كتاباته، وحين يمرض ولده بينه وبين نفسه يدعو الله تعالى؟ وهكذا تأتي سور القرآن المختلفة باختيار حالات مختلفة والكلام عنها بكل جوانبها المتعلقة... وإن كنت لم تفهم مع من تتحدّث وعن من، فعندها سترى سور القرآن متشابهة وفيها تكرار...

مُضَافًا لما سبق هناك عناوين أنا لم أحتك بها، وَلَمْ أَعِ أهميتها، وكمفسّر للقرآن سيكون في دراستي له فراغ في تلك العناوين التي لم أرها أصلا، أو لم أَنْتَبِهْ لأهميتها، كبعض الأمراض الفكرية والنفسية التي أنا مصاب بها ولست أراها مرضا، وكحالتي ذكرا لن يفهم خصوصية ما تعاني منه الإناث، وكحالتي شابا عازبا لم يختبر الزواج والأولاد ومسؤوليات العائلة، وكحالتي مُتَقَدِّمًا في السنّ ناسيا لهموم ومشاكل الشباب... وكبعض شؤون الحياة التي لا تعني لي شيئا لأني لم أُعَانِ منها أو لم أعمل فيها، كحالتي فردا عاديا من المجتمع لم يَتَوَلَّ منصبا قياديا، وكحالتي المدنية التي لم أختبر فيها ساحات القتال...

أطلت عليك مبررا افتقادي للرؤية الواضحة لربط الفقرة هنا بمحور كلام السورة، ويبدو لي بالتقريب أنها شبيهة بحالات وصف الجمال في الأشياء، والذي أشارت له عدة آيات أصرحها الآية 6 من سورة النحل {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ}، إِذْ إِنَّ الدافع الذي فينا للسؤال عمّن صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا، بِدِرَاسَتِنَا له يبدو جافًّا فلسفيا عقليا، بينما غالب عرض القرآن له مبسّط لأقصى درجة ممكنة ومتضمن للمشاعر من تفاعلنا مع بيئتنا، كالانشراح صباحا والاستئناس ليلا... وروعة جمال وتناسق الأشياء.

وَالكلام في السورة هنا عن حمده تعالى لا يتوقّف عند تصميمه وخلقه سبحانه للسماوات والأرض، وَتراه يصل إلى تفضّله تعالى على بعض عباده بأمور تشابه اللمسة الجمالية في المخلوقات، وَهي اللمسة الجمالية في الحمد، وَما أثر تأويب الجبال والطير مع النبي داوود(ع) على هداية الناس إن كانوا لن يلحظوه أَسَاسًا؟ وما أثر فهمه (ع) لمنطق الطير على هداية الناس إن كانوا لا يسمعون إلا زقزقة؟ وهكذا ترى أنها أمور يرغب ويسعد بها النبي داوود(ع) فقط.

وهكذا أراها نموذجا عن حمده تعالى حتى لا نفهم أن أفعاله تعالى تهتم فقط بالعناوين الكبيرة الأساسية، وَحتى هذا الفضل على عبديه داوود(ع) وسليمان(ع) أساسي رغم أنها بشكل ما أمور خاصة مَحْصُورٌ أَثَرُهَا فقط بهما.

ستفهم قصدي حين تنتبه أن القرآن غالبا ما اعتمد على نماذج فاقعة وبارزة، حَيْثُ تكلّم عن تعلّق أغنياء ووجهاء الكفّار بزينة الدنيا، لأنه لا معنى عَقْلَانِيًّا للكلام عن كافر فقير متعلق بزينة الدنيا وهو بالكاد يشبع بطنه! وهنا في الكلام عن تفضله تعالى على عبديه بما هو محمود، إِنَّهُ نموذج فاقع تقيس عليه تفضّله تعالى عليك بعموم القدرات المتاحة لك، كقدرتك على كسر العيدان، وفهم كلامي... وعموم ما تدخّل به تعالى لتيسير أمورك عبر تهيئة ظروف مناسبة أو عبر مساعدة الآخرين لك...

سَتَرَى أن الكلام القصير جدا عن النبيين له تفريعات، مِنَ الكلام عن التفضّل على النبي داوود(ع) انتقالا لما تفضل به تعالى على ابنه سليمان(ع) ومن ضمنه تسخير الجنّ له، وبطريقة موته لنعلم أن الجنّ لا يعلمون الغيب... ومن النبي سليمان(ع) ننتقل لسبأ كنموذج عن قرية لم تؤمن بحمده تعالى فأصابها ما أصابها...

هناك شيء من خارج تفسير الآية ولكنه مهمّ، حَيْثُ فِي هذه الدراسة بيّنا أن نزول الوحي على أي أحد لَنْ يجعله مؤمنا، وَلَوْ مثلا نزل الوحي على أبي جهل لكان جنّ جنونه من الكلام الذي يسمعه في وعيه والذي لا يتماشى مع فكره ونفسيته، ومن المعلوم أنه لن يطبّقه ولن يؤمن به... بل لحاول بشتى الطرق إيقاف سماعه للوحي... وهنا نفس الشيء، لِأَنَّ سِيَاقَ السورة عن الإيمان بِالسَّاعَةِ عبر ما يصلنا من كلامه تعالى مع رسوله(ع) الذي يلفت انتباهنا لعظيم قدرة من صمّم وخلق ما في هذه الدنيا وَهُوَ قادر على إرجاعنا إلى الحياة... ومن لم ير ذلك آية كافية ويريد آية من نوع الشيء غير العادي كقدرة بشرية غير عادية، ليؤمن أنه تعالى قادر... فهذا لن يؤمن حتى لو صار هو بنفسه يلوي الحديد بيديه، وحتى لو وعى تسبيح الجبال والطير...

فَكِّرْ فيها بعمق لا بسطحية وضبابية، وَتَصَوَّرْ أبا لهب وأبا جهل يسمعان الطَّيْرَ يسبحه تعالى، وأن الحديد صار ليّنا بيديهما... هَلْ كانا سيؤمنان؟ وَلَوْ تميّزت أنت عني بقدرة سماع الطير يسبحه تعالى، فما الذي سيتغيّر فيك؟ ولماذا ستفترض أنك ستصير مؤمنا أكثر؟ ولماذا ستفترض أن سلوكك الإيماني سيكون أرقى؟ وَهَا هُوَ القرآن أمامك من أوله لآخره يؤكّد أن الأساس الفكري والنفسي الذي فينا لا يتغيّر إلا بقرار داخلي منّا، وَمَهْمَا رأينا من أمور غير عادية "آيات، والتي نسمّيها معاجز" فإن كنّا متعلقين بحبّ الدنيا وزينتها فلن نتغيّر بتاتا حتى لو حصلت على أيدينا ومعنا أُمُورٌ غَيْرُ عَادِيَّةٍ، لِأَنَّ تَبْرِيرَ حصولها سيكون بنفس مستوى فهمنا لبقية الآيات التي فينا ومن حولنا ويراها كلّ الناس، إِمَّا أن نراه تعالى من خلالها أو نراها عادية طبيعية لا تدل عليه تعالى.

يَبْدُو واضحا جدا جدا من القرآن أن القدرات غير العادية التي تمتّع بها القليل النادر من الأنبياء، لَوْ منحها تعالى لغيرهم فلن يزيد إيمانهم، وهنا الآيات وغيرها تشير لعبدين من عباده تعالى نالا قدرات غير عادية، فقط وفقط لتكون نموذجا تاريخيا عن تدخّله تعالى لتغيير بعض الأمور عن العادة. ولو راجعت الآية 40 من سورة النمل لرأيت عبارة صريحة عن امتحان النبي سليمان(ع) بالقدرات التي أتيحت له... وعبّر (ع) عنها أنها بلوى، أيكفر أم يشكر من بعدها... {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}.

سأطيل عليك حتى يترسّخ هذا المفهوم عندنا، إِذْ إِنَّ قُدْرَتِي على طي وليّ العيدان الطرية وشريط المعدن الرقيق والبلاستيك والقماش... أمور عادية نشترك بها كلّنا، هَلْ سبّبت لنا الإيمان بمن صمّمنا وخلقنا بهذه القدرات؟ لا، حَيْثُ إِنَّ البَعْضَ آمن والآخر كفر، لِنَقُلْ إِنِّي طلبت منه تعالى ودعوت... وَمَنَحَنِي سبحانه قدرة ليّ وطي ما لا يمكنك أنت وغيرك فعله بأيديكم، وَصِرْتُ ألوي وأطوي ما هو أقسى... وصار عاديا عندي مثل طي ولي أي شيء آخر، لِمَاذَا سيزيد إيماني؟ وَمَا يخطر ببالك عن المفاجأة لأول مرّة ألوي بها الحديد، بَعْدَ أيام ستذهب المفاجأة وتصير عادية... وَفَرْضًا لو كنت على عهد النبي داوود(ع) حِينَ أَرَاهُ يفعل ما يفعله بالحديد إِنَّ إِيمَانِي بدينه تعالى لن يتغيّر، ومن كان من الكفّار المنافقين، سَيَقُولُ إِنَّهَا حتما خدعة، أو أن داوود(ع) اكتشف طريقة لفعل ذلك ولم يخبرنا بها...

كَمَا ترى إِنَّ الكثير من الكلام القرآني سيفقد معناه حين نمدح الأنبياء بذكر وصف النبوة قبل اسمهم، حَيْثُ هُنَا تسمّي الآية "داوود" كعبد عادي تميّز بإيمانه العالي وَحَصَلَ على فضل إلهي بكذا وكذا... وبإضافتنا لوصف النبوة له بقولنا "النبي داوود" فَوْرًا يقفز مخزون تراثنا الثقافي عن الأنبياء إلى ذهننا، وتتشوّه الصورة التي يعرضها القرآن، لأننا بغالبيتنا نعتقد بأن وصف شخص ما بالنبوّة سيجعله مميزا وكأنه حصل على شيء إلهي، بدلا من الانتباه أنه هو تميّز بإيمانه وصلاحه وبعدها صار يصله النبأ الإلهي.

(أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {11})
{أَنِ اعْمَلْ}، يا داوود(ع) {سَابِغَاتٍ}، مِمَّا هو مشهور بين الناس وبضمّ الآية 80 من سورة الأنبياء للكلام هنا {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ}، نعلم أنه (ع) صنع الدروع الحربية، وَالسَّابِغَاتُ هي

وصف لتلك الدروع، حَيْثُ قَبْلَ أن يصنعها(ع) لم تكن سابغة وتميّز(ع) بتصنيعها سابغة فصارت ملائمة أكثر لمن يلبسها، ونتصوّر أن الدروع السابغة هي الأخف والحركة فيها أسهل...

{وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ}، حِينَ تنسج الدرع من الحديد، وَحِينَ تجعل الخيوط الحديدية أو الحلقات الحديدية تتداخل مع بعضها لتصير قطعة واحدة كقطعة القماش، قَدِّرْ أثناء عملك لها، وَاجْعَلِ المقادير محددة ومضبوطة، حتى يكون الدرع كلّه مَتِينًا وبنفس المواصفات وبلا فراغات ولا سماكة متفاوتة...

اَلْمَسْأَلَةُ بحاجة لدراسة، فإن كان التفضّل الإلهي بالتقنية فيكون (ع) استطاع تركيب خليط يسمح له بسحب المعدن كخيوط قابلة للّي ليصنع منها حلقات متداخلة مترابطة تشكّل درعا من زرد.

{وَاعْمَلُوا صَالِحًا}، أيها الناس بشكل عام فليكن عملكم مَوْصُوفًا بالصلاح وَجَيِّدًا فاتركوا ما هو فاسد، وهنا الكلام بعد الحديث عن صنع الدروع، فهي تؤمّن قوّة لمن يلبسها، فليعمل بها صالحا ولا يستعملها للشرّ مهاجما الأبرياء...

{إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}، لِأَنَّ صورة أعمالكم يدركها تعالى ويعي معناها، وَهُوَ ليس مثل كاميرا المراقبة التي تسجّل ولا تفهم ما يجري، فأنتم تحت المراقبة الإلهية فانتبهوا من استعمال المعدات العسكرية المتفوقة بشكل سيّء بالتعديّ على الآخرين.

لاحظ التنبيه الإلهي للنبي داوود(ع) أن يقدّر في السرد، وهذا يعني أن يتقن عمله، بِأَقْصَى طاقته يعمل بدقة لينتج دروعا على أفضل الصفات التي يعلمها، وهذا له بعد على ما نفعله نحن ولا نتقنه مسببين سوءا يسبب موت الآخرين من دواء أو تشخيص غير دقيق لمرض مميت أو من بناء ينهار على ساكنيه بسبب سوء التصميم والبناء...

(وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ{12})
فضلا منه تعالى آتينا، {لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ}، الهواء القوي، ومشهور أنه نبي وابن للنبي داوود(ع)، والريح، {غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ}، وعموم المفسرين فسّروا الغدو بفترة الانتقال ما قبل الظهر وكلمة رواح لمن ينتقل بعد الظهر، ولكن في أشعار العرب قبل الإسلام ستجد أن الغدوة للوقت وللفعل بشكل منفصل، فَغَدَوْتَ على معناها الأساسي تشمل عموم صيران في المستقبل "غدا" وحين تصير فيه تَكُونُ غدوت، وهذا يصلح لوصف أتيت فصرت عند كذا، ولكن استعمال العرب لها في سياق وصف الانتقال "غدوت فرحت" كان للأوقات القصيرة، ولوصف الزمن كان مفتوحا، فَالْغَدُ تقال لما بعد اليوم التالي إلى سنين... وهكذا استعملها القرآن كما تقرأ في الآية 18 من سورة الحشر {وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ} لليوم التالي ممتدا لما بعده إلى الآخرة، وفي الآية 121 من سورة آل عمران {وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ} لليوم التالي فقط، وفي بضع آيات قابلها كزمن مع العشي أو الآصال، وفي الآية 22 من سورة القلم {أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ} كفعل سيحصل بعد زمن قصير. والرواح بالعكس لعموم ذهبت من كذا. وَمَا يقطعه الإنسان العادي في مدة بوسائل السفر العادية المعتمدة على الريح وهي السفن، فَإِنَّ النبي سليمان(ع) في غدوة "في عموم ذهابه لعند مكان ما" يقطع خلال نهار ما تقطعه السفن في شهر، وفي رواح "عموم ترك مكان ما" أيضا يقطع فيما بقي من النهار مع ليله ما تقطعه السفن في شهر، وَالتَّعْبِيرُ لا يقصد حصر سفرياته (ع) من وإلى نفس المكان، حَيْثُ من محطة لأخرى يقطع بسفرة واحدة "بليلة أو نهار" ما تقطعه السفن العادية في مدة شهر.

بغض النظر عن بعض الموروث الثقافي فَإِنَّ أسهل وأقرب تفسير للكلام أن الريح كانت تجرّ سفنه في البحر بهذه السرعات، وَمَا تسمعه من كلام الناس عن طيرانه (ع) في الجو لَا يوجد له مستند تاريخي موثوق، ولا تصريح له في القرآن.

{وَأَسَلْنَا لَهُ}، للنبي سليمان(ع)، {عَيْنَ الْقِطْرِ}، وكلمة عين مستعملة لِلدَّلَالَةِ على أصل الشيء، كما نقول: هو بعينه. ولكن بالنظر للكيفية القديمة لاستخراج النحاس "من فوّارات المياه الكبريتية"، فسنحمل كلمة عين على معنى عموم الفتحة، كعين الماء، وأقرب شيء وجدته في كتب اللغات المختلفة التي كانت محكية في منطقة الشرق الأوسط، وكتب الكيمياء القديمة، أن معدن النحاس كانوا يجدونه على شكل كبريتات، واسم القطر هو لتلك الكبريتات التي يتصفّى منها معدن النحاس، وَالْقِطْرُ هو النحاس مع الشوائب قبل التنقية، وَتَدَاخَلَتْ هذه الكلمات مع عملية استخراج المعدن، حَيْثُ

قَرَأْتُ فيما كتبه الأقدمون، "وأيّد ذلك كيميائيون معاصرون"، أن تعريض القطر "كبريتات النحاس" للنار يجعله يحترق بدون دخان، وقالوا إنَّ هذه الحالة اسمها نحاس، ولذلك تجد في بعض القواميس أن كلمة نحاس معناها النار بلا دخان، علما أنها كلمة كانت مخصوصة للمعدن المعروف حاليا باسم النحاس، وحين يصير لونه أَصْفَرَ يسمونه صُفْرًا، وكانوا أيضا يسمون معدن الذهب صُفْرًا. وهذا أقصى ما وصلت إليه في هذه الكلمة، وأعتذر عن الإطالة في موضوع يبدو أنه لا يقدّم ولا يؤخّر ولكنها كلمة كبقية كلمات القرآن، وَتَوَرَّطَ فيها من لا يعرف معناها من الأقدمين من مفسري القرآن بدل أن يتركوها لمن يعرف معناها، فأبدوا فيها رأيهم حتى ضاع وصعب علينا معناها الحقيقي الذي يعرفه غيرهم... وغيرهم تضيع كلماتهم لأن السيطرة للجيل المسلم الأول للصحابة ومن تعرّف على الصحابة "التابعين"، وهؤلاء لم يوسّعوا أفقهم كما يجب، والذين هم من أهل الصنعة والاختصاص لاستعمال كلمة ما لم يصلنا أثر منهم بسبب طغيان الروايات على كل شيء...

اَلْخُلَاصَةُ أنه تعالى أتاح للنبي سليمان(ع) استخراج معدن النحاس الذي كان مرغوبا جدا في حينها أكثر من معدن الحديد الذي كان يصدأ بسرعة ولم يكن تحويله لفولاذ متاحا لهم... أمّا النحاس فَصَنَعُوا منه بسهولة مع الشوائب "البرونز" الصلب، ومنه يصنعون الأواني والسيوف والسكاكين والحلي والعملة النقدية...

{وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ}، عند النبي سليمان(ع)، {بِإِذْنِ رَبِّهِ}، حَيْثُ جرى استخدامه(ع) للجنّ وَتَرَكَهُ تعالى يستخدمهم، وهذه الجملة توحي بأن النبي سليمان(ع) بطريقة ما تمكّن من التواصل مع الجن، وتمكّن من جعلهم يعملون لديه، وَسَمَحَ سبحانه بحصول ذلك، علما أننا استوحينا من الآية 35 وما بعدها من سورة ص أنه تعالى أتاح له(ع) السيطرة على الجنّ وتسخيرهم {وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ}، وتكملة الجملة أيضا تشير لذلك، وَبِتَدَخُّلٍ إلهي تسلّط (ع) على الجنّ.

{وَمَن يَزِغْ}، من لا يكن من الجنّ على ما هو مفروض ومستحسن منه، {عَنْ أَمْرِنَا}، عن الأمور عن الأشياء التي يريدها سبحانه أن تحصل، فأوامره سبحانه عمليا هي أوامر عبده سليمان(ع) على الجنّ، وَمَنْ يتهرّب أو يقصّر في تنفيذ الأوامر، {نُذِقْهُ}، نجعله يتحسّس، {مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ}، من الضرر من النار المستعرة أي المتأججة فيصدر عنها ألسنة طويلة وَأَصْوَاتٌ قَوِيَّةٌ، فهم مكلّفون بإطاعة أوامر النبي سليمان(ع) وموعودون بالعقاب في الآخرة إن لم يطيعوه(ع).

سؤال طرحوه قديما، فالجن من النار، فكيف يتعذّبون في النار؟ وَأُجِيبَ عن هذا السؤال قديما جدا، فنحن عندما نموت وتجف خلايانا من الماء نصير ترابا، فنحن إذا مَخْلُوقُونَ من طين، فكيف أشعر بالألم إذا رميتني بحجر؟ وأنا والحجر مُكَوَّنَانِ من نفس المادة! فهذه مثل تلك.

لاحظ الآية تعرض تسخير الجنّ للنبي سليمان(ع) ليعملوا بأمره، وَتَعْرِضُهُ كقدرة حصل عليها(ع) بتدخّل إلهي، ولكن هذا لا يجعلها مختلفة عن منحه تعالى القدرة لملك يتحكّم بالناس ليعملوا بأمره، وَلَوْ افترضت أنك أنت ملكت قدرة تسخير الجنّ، فهل سيزيد إيمانك؟ لا، وبمراجعة ما ورد في الآية 40 من سورة النمل تفهم أنك قد تستخدم هذه القدرات وتكفر به تعالى لتستعملها في هواك بمخالفة دينه تعالى، وَهَا هُوَ النبي سليمان(ع) نقلت عنه الآية {أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ}، تصريح بأنه (ع) واقع تحت ضغط هذه القدرات، أو فلنقل إِنَّهُ مبتلى بالإمكانيات التي يمكن استخدامها في الشرّ ومعصيته تعالى...

كما ترى إِنَّ الآيات هنا بشكل مباشر تشير إلى قدرات غير عادية منحها تعالى لعبدين من عباده الصالحين، كنموذج تاريخي مشهور جدا يشير إلى تدخّله تعالى بتقديم آيات غير الآيات العادية من خلق البشر وخلق الظواهر... وكنماذج عن حمده تعالى في كل ما يفعله وصولا إلى منحه بعض عباده قدرات غير عادية.

حتى لو كان من يسمع هذا الكلام عن النبيين (ع) وقدراتهما غير العادية سيقول إِنَّهَا خرافات، فَإِنَّ الآيات لم تهتم بإيمانه بها، بَلْ ذكرتها كنماذج عن أفعاله الحميدة سبحانه من خارج المألوف المتاح للجميع، وضمنا أشارت لما يقترحه هو ليؤمن إن لم تكفه الآيات التي فيه وحوله، حَيْثُ حصلت هذه الأمور سابقا، وَلَوْ حصلت أمام الكافر ليرى شيئا من تدخّله تعالى وَغَيْرَ عادي، مَاذَا سيتغيّر؟ وَهَلْ سيؤمن بحمده تعالى؟ هذا ما تسأل عنه الآيات هنا بعرضها لأمور غير عادية حصلت قديما، وإلى الآن لا تزال غير عادية.

(يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ{13})

{يَعْمَلُونَ}، الجنّ للنبي سليمان(ع)، {مَا يَشَاءُ}، ما يختاره ويقرّره، {مِن مَّحَارِيبَ}، وَالْمِحْرَابُ هو الغرفة المميزة الخاصة، وهم كانوا يبنون له العديد من الغرف المميزة. ويعملون له(ع)، {وَتَمَاثِيلَ}، وهي المنحوتات "أو المصبوبات أو التشكيلات" التي تمثّل حيوانا أو إنسانا... أو فكرة ما، وهذه التماثيل للزينة والفخامة وربما أَشَارَتْ لرموز دينية أو تاريخية...

ويعملون له(ع)، {وَجِفَانٍ}، مفردها جفنة وهي الوعاء الكبير، {كَالْجَوَابِ}، فحجمها يقارب حجم الحوض الصغير، وهذه لوضع الأكل فيها بعدما يجهز، ولوضع السلطات والفاكهة... نسميها الآن: صدور أكل كبيرة.

ويعملون له(ع)، {وَقُدُورٍ}، مفردها قدر وهي وعاء كبير مخصص للطبيخ "طنجرة كبيرة جدا" لطهي الطعام، {رَّاسِيَاتٍ}، مثل رسو السفينة في الميناء فهي في مكانها لا تتحرّك ولكن يمكن تحريكها فيما بعد، وَالْقُدُورُ ليست مبنية على الأرض، بل هي على وجه الأرض مستقرة على قوائمها بسبب وزنها الكبير.

{اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ}، اعملوا أيها المنتسبون للنبي داوود(ع) بالنسب، {شُكْرًا}، فليكن عملكم عمل من يشكر، عمل من يعلن أنه حصل على أشياء جيّدة وليكن عملكم عمل الشاكرين. تَصَوَّرْ مَنْ يصير عنده نفوذ وقوّة مالية وسلطة، وَتَصَوَّرْ تجبّره وتكبّره وتفرعنه... هُنَا تخبرنا الآية أن آل النبي داوود(ع) حصلوا على كل ما سبق منه تعالى حتى يعملوا عمل الشاكرين، عمل المعترفين بجميل ما قدّمه تعالى لهم، لِيَبْقَوْا على الخطّ الإيماني.

{وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}، اَلَّذِينَ من المفروض منهم الطاعة لأنه تعالى إلههم، اَلْقَلِيلُ منهم يعبّرون عن حصولهم على أشياء جيّدة منه تعالى، وَيَعْتَبِرُونَهَا أمورا حصلوا عليها بشطارتهم وبذكائهم... أو من فرص الحياة التي أتيحت لهم... ولا يرون أنها كلّها متاحة وبتوفيق منه تعالى ويجب شكره عليه تعالى.

ترى بشكل واضح أن الأمور غير العادية التي منحها تعالى لآل النبي داوود(ع) تساوي عنده تعالى الأمور العادية التي تَحْصُلُ مع أي واحد كان، وَالصِّحَّةُ والمال والوظيفة وملك بيت ما أو سيارة... أو الحصول على أولاد... كلها مثل حصول آل النبي داوود(ع) على شيء يستوجب الشكر.

بعبارة صريحة ومباشرة، هُنَاكَ احتمال "تخيّلي" أن يكفر آل النبي داوود(ع) وأن لا يشكروا، مع أنه شيء لم يحصل ولن يحصل لأنه تعالى يعلم الغيب ويعلم أن داوود(ع) وسليمان(ع) سيبقيان مُؤْمِنَيْنِ مهما حصل ولذلك جعلهما سبحانه رَسُولَيْنِ، وكما ترى هُنَا الآيات لم تذكر أنهما نَبِيَّانِ أو رَسُولَانِ لأنها تشير إليهما (ع) كشخصين عاديين حصلا على قدرات غير عادية وبقيا مؤمنين.

رَبْطًا مع محور كلام السورة عن حمده تعالى، يبدو أن الكلام عمّا تفضّل به تعالى على النبيين نموذج بارز متميز يلفت انتباهنا لعموم ما تفضّل به تعالى علينا كلّنا، ومن المفروض أن نكون كلنا مؤمنين بأن كل أفعاله تعالى حميدة وأن نكون شاكرين لأفضاله علينا.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، كَأَنَّ كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، لِأَنَّ كِلَيْهِمَا بِنَفْسِ المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، فهي جمع الجمع، وَأَثْنَاءَ الكلام بدقّة تَكُونُ الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، فتقول الآيات: عبيد. وَوَرَدَتْ في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وَتَكُونُ لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وَتَكُونُ لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، فهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخَرِينَ جاءهم رسول، وعبيد آخَرِينَ... وَجَمْعُ الجمع "عباد"، وَكَلِمَةُ عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جدا عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

بقي شيء، اَلْآيَتَانِ 128 والتي تليها من سورة الشعراء {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ} فيهما مذمّة للأبنية العبثية التي بناها قوم عاد، وهنا بِنَاءُ المحاريب وبقية الأمور يمكن أن تفهمها بشكل لا ترى فيها ترفا عبثيا، فتقول إِنَّهَا بنيت بسبب الحاجة لها، أمّا التماثيل التي لا ندري ماذا كانت تمثّل، فربما مثّلت شخصيات دينية، أو ربما مثّلت حيوانات كالأسود والنسور... أو الصرح الممرد من قوارير والذي ورد ذكره في الآية 44 من سورة النمل {قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ} فهذه كيف خرجت عن العبثية حتى يجيز النبي سليمان(ع) لنفسه استخدام الموارد المتاحة له لبنائها؟

لتبرير ذلك علينا افتراض ما يبعد هذا الفعل عن العبثية، فهل يوجد فرق بين اعتماد النبي(ع) على إظهار قدراته أمام الآخرين عبر الأبنية والتماثيل، وبين فعل المشركين لها؟ وَلَا تعدّ عبثية إن فعلها نبي لأنها بشكل ما هي لإظهار ما تفضّل به تعالى على عبده المؤمن وبالتالي يصير واضحا للآخرين أن آلهتهم لم تقدّم لهم أي شيء؟

أم أن الذين عاشوا تحت حكمه كانوا كلهم أغنياء ومرفهين وَلَمْ يعد الإنفاق على هذه الأمور حرمانا للآخرين؟

أم هي استثناء له (ع) ليكون نموذجا كمبالغة في تطبيق فعله الحميد سبحانه على عبد مؤمن من الدرجة العالية طلب منه تعالى ملكا لا ينبغي لأحد من بعده؟ ونفهم ذلك من طلبه (ع) الوارد في الآية 35 من سورة ص {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ}، دمجا مع ما ورد في الآية 39 من سورة ص {هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} التي تجيز له (ع) التصرف بالقدرات المتاحة له بحسب ما يشاء وليس مضطرا لتسخير قدراته لخدمة الآخرين...

ربما هناك احتمال آخر لم أره ورأيته أنت، ولكن ضع في بالك دائما أن الآيات هنا تريك تقصّده سبحانه تَفَضُّلَهُ على عبدين بأمور غير عادية لمجرد سعادتهما بها شخصيا، لترى أن وصفه تعالى بالحمد ليس محصورا فيما نشترك به جميعا بل يتعداه لأفعال استثنائية لمجرد سعادة عبد مؤمن صالح بها.

(فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ{14})
{فَلَمَّا قَضَيْنَا}، عندما حصل ما أمر به تعالى، {عَلَيْهِ}، على النبي سليمان(ع)، {الْمَوْتَ}، حَيْثُ صَدَرَ قراره تعالى بأن تنتهي حياته(ع)، {مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ}، لم يعطهم دلالة وَلَمْ يشر ويؤكّد على فقدان النبي سليمان(ع) لحياته، {إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ}، إلّا شيء يدبّ يتحرك على الأرض، {تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ}، تستهلك المنسأة، وبما أن الكلام عن الجنّ الذين يعملون فَإِنَّ الْمِنسَأَةَ هي العصا التي كان (ع) يحثّهم ويزجرهم بها إذا تأخروا أو تباطؤوا في عملهم. والدابة هي وصف لأي حيوان يدبّ يتحرّك فيغيّر مكانه، والتي أكلت العصا هي "دويبة" دابة صغيرة، حشرة، سوسة... أكلت العصا التي يبدو من الكلام أنه(ع) كان مُتَّكِئًا عليها وعلى ما يبدو فهي نفسها العصا التي كان (ع) يستخدمها لزجرهم بها.

{فَلَمَّا خَرَّ}، عندما وقع جسد النبي سليمان(ع) على الأرض، وسياق الكلام عن نخر الحشرات للعصا فانكسرت ووقع(ع)، {تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ}، صار واضحا للجنّ، {أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ}، لو كَانَ الجنّ فعلا يعلمون ما غاب عنهم، {مَا لَبِثُوا}، لم يمرّ عليهم زمن، في "حالة" {الْعَذَابِ الْمُهِينِ}، في حالة الضرر من العمل المتعب الشاقّ وهم مُهَانُونَ بلا قيمة لأنهم غصبا عنهم كانوا يعملون بأمر النبي سليمان(ع) وقد مات وهم لا يدرون واستمرّوا يعملون.

اَلْآيَةُ تعبّر عن ظنّ بعض الجنّ بأنهم "بطريقة أو بأخرى" يعلمون الغيب، ولكن حصول وفاته(ع) أمامهم وجهلهم بها، مِنْ هذا تبيّنوا بالمعاينة أنهم لا يعلمون الغيب، هذا إن اقتنعوا!

من الآية 82 من سورة الأنبياء نعلم أن الجنّ الشياطين والمجرمين كانوا يعملون غصبا عنهم تحت إمرة النبي سليمان(ع) {وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ}، وَالْعَمَلُ كان عذابا مهينا لهم، لأن حريّتهم مقيّدة ويعملون بلا أجرة ويتحاسبون على الوقت ونوعية العمل، وَيَعْمَلُونَ بأشغال شاقّة بمهانة: من دون أن يعطيهم (ع) قيمة أو أجار كعمّال كحرفيين كمهندسين... طبعا لأنهم شياطين، فَتَصَوَّرْهُمْ كالمحكومين بالأشغال الشاقة بسبب جرائمهم.

إذًا، كان النبي سليمان(ع) واقفا متكئا على منسأته، على عصا غليظة يستند عليها، وصدر الأمر الإلهي بموته، فمات وهو لا يزال واقفا، وَبَقِيَ الجنّ يعملون ليلا نهارا لأنهم يظنون بأنه(ع) يراقبهم، وبعد مرور مدة من الزمن، أكلت السوسة العصا، فوقع جسد النبي(ع) على الأرض، وعندها تبيّن بشكل واضح للجنّ أنهم لا يعلمون أن الذي يخافون منه ويرهبونه كَانَ واقفا ولكنه كان ميتا.

كم من الناس يعتقدون بأن الجنّ يعلمون الغيب؟ وكم من الناس يعتقدون أن الجنّ يعرفون السارق، ويجلبون الغائب والحبيب، وَيُخْبِرُونَكَ عن المسافر... وعن المستقبل... ومدّة بعد مدّة تستشري كتب وبرامج عن توقعات للعام القادم! وكلّه كلام فارغ وهو كذب... حَتَّى لو كانوا يقولونه على نحو الاحتمال، فهم لا يطرحونه كاحتمال من التحليل وَهَذَا لا مشكلة فيه، بل المشكلة أنهم يطرحونه من باب معرفتهم بما سيحدث.

ضع في بالك آيتنا هذه وتذكّر دائما أنه تعالى وحده يعلم الغيب من مستوى إلهي، ونحن الكائنات فقط وفقط يمكننا أن نحتمل ونخمّن ما سيحدث في المستقبل ولكننا لا يمكننا أبدا وبقدراتنا الذاتية أن نكون متأكدين مما سيحصل. وَهَا أَنْتَ ترى هذه الحادثة التي أراد سبحانه منها نفي أي قدرة للجنّ على معرفة الغيب، إِذْ إِنَّ الْوَاقِفَ أمامهم ميّت وهم يعملون بالأشغال الشاقة خوفا منه، واستمرّ الحال هكذا حتى وقع على الأرض لأن حشرة نخرت العصا التي كان يَتَّكِئُ عليها، ورغم وضوح ذلك ترى من لا يزال من المسلمين يؤمن بأن الجنّ يعلمون الغيب!

أمّا بالنسبة للمدة التي بقي (ع) واقفا ميتا حتى انكسرت العصا، فلا أهمية لها بالنسبة لنا لنعرفها، رُبَّمَا هي شهر أو أشهر أو سنة... وَالْعِبْرَةُ أن الجنّ مرّ عليهم ولو يوم أو يَوْمَانِ وهم لا يعلمون أنه (ع) ميّت مع أنه واقف أمامهم، وهم في اللحظة التي يعلمون فِيهَا أنه مات سَيَتْرُكُونَ العمل فورا. علما أن اختيار حالته متكئا ليموت، وبقائه واقفا حتى انكسرت العصا، يبدو منه واضحا تقصده تعالى أن تكون المدة طويلة، لتكون الحادثة عبرة دامغة عن جهل الجنّ بالغيب، بل عن جهلهم بما حصل أمامهم.

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ {15})
بعد الحديث عن شخصين حصلا على النعم غير العادية فشكرا، ننتقل لقوم حصلوا على النعم فكفروا ولم يشكروا منكرين وصفه بالحمد سبحانه، وكنموذج وبمناسبة الحديث عن النبي سليمان(ع) الذي ارتبط اسمه باسم مدينة سبأ، فليكن الحديث عن سبأ كنموذج:

{لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ}، وهو اسم مشهور لمدينة في اليمن، {فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ}، حيث مكان سكنهم كان مميّزا، {جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ}، مكانان موصوفان بروعة ما فيهما من حدائق وبساتين على جانبي القرية، البلدة في الوسط وعن جنبيها أراضٍ صالحة للزراعة وفيها مياه...

{كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ}، استهلكوا من الأشياء التي تسدّ حاجاتكم ورغباتكم والتي صارت معكم من المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {وَاشْكُرُوا لَهُ}، أعلنوا أنكم تعترفون وتشعرون بالامتنان من الأمور الجيدة التي منحها سبحانه لكم.

كما تلاحظ محور كلام السورة عن حمده تعالى والذي ينتج عنه الشكر.

{بَلْدَةٌ}، مكان محدّد على الأرض وعادة له اسم، والكلام هنا عن أرض سبأ، {طَيِّبَةٌ}، محبّبة مَرْضِيٌّ عنها وليست خبيثة، والكلام عن طيبة الأرض مما يعني أنها جيدة جدا للعيش فيها، حيث فيها المياه وأرضها خصبة للزراعة وما يتبعه من تربية مَواشٍ... {وَرَبٌّ غَفُورٌ}، مسؤول عنكم من مستوى إلهي يتجاوز عن الذنوب، لأنه ليس صلباً قاسياً جافاً لا يسامح، لا، بل آمنوا واعملوا الصالحات فَيُسَامِحَكُم سبحانه عن ذنوبكم في الآخرة، ويبدو لك من سياق الكلام وعموم القرآن أن للمغفرة أثراً هنا في الدنيا فهي مسبّبة لاستمرار النعم، وهنا الكلام عن بلدة ليس كل سكانها أتقياء من الدرجة العالية، فلولا مغفرته تعالى لهم لما تفضّل عليهم ببلد طيّب.

لا تَنْسَ أن سبأ مجرّد نموذج عن أي قرية كانت عامرة وخربت بسبب كفر أهلها، وتطرحها السورة بسبب شهرتها تاريخياً بين الناس بسدودها المائية... كنموذج عن تدخّله تعالى في رخائها وخرابها... فلنكمل:

(فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ{16})
{فَأَعْرَضُوا}، اعتبروا شكره تعالى بلا أهمية، ومن سياق الكلام تعلم أنهم تركوا شكر الله تعالى على الجنتين اللتين منحهما لهم، {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ}، على أهل سبأ، {سَيْلَ الْعَرِمِ}، جريان الشيء المتراكم الكثير، ويبدو الكلام هنا عن إرسال كمية ضخمة من المياه في المجاري التي ترفد سدودهم لدرجة فاقت قدرة السدود على تحمّلها فانهارت السدود، وسال الماء الكثير على البلدة وغمر كل شيء، فكسّر وحطّم جَنَّتَيْهِمْ وبيوتهم، وبانهيار السدّ الجامع للمياه، فقدوا مصدر ريّ المزروعات وَنَمَا في منطقتهم فقط أنواع الأشجار التي تتحمّل الجفاف...

وبعد السيل، {بَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ}، غيرهما، {ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ}، وكلمة خمط مستعملة لوصف طعم أو رائحة المرارة أو الحموضة، ومستعملة لوصف شكل مشوّه، والكلام هنا عن عموم أي نبات من حشائش أو أشجار وثماره غير مرغوبة عادة للأكل، ولكنهم مجبورون على الأكل منها لأنها الوحيدة المتوافرة. وما ستجده في بعض الكتب عن أن الخمط اسم لنوع من شجر الأراك فهو مستحدث منهم كتخمين تطبيقي لتفسير الآية.

{وَأَثْلٍ}، وهو نوع من الشجر له عصارة حلوة واسمه العلمي Tamarix articulata، {وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ}، والسدر هو نوع من شجر النبق، له ثمار طيبة، والسدر والعنّاب من نفس الفصيلة.

نلاحظ أن هذه الأشجار من النوع الذي يتحمّل ملوحة التربة والجفاف، فهي أشجار صحراوية بالأصل، لِذَلِكَ نفهم أن بلدة سبأ فقدت حدائقها وبساتينها بالسيل الناتج عن انهيار سدّ "خزّان" المياه الذي كانت بلدة سبأ تروي منه جنتيها، ولم يبق في منطقتهم إلا نباتات صحراوية طعمها خمط وأشجار أَثْلٍ والقليل من شجر السدر.

من المشهور أن سبأ في اليمن، ومن المشهور أن مواسم الأمطار في اليمن على شكل هطول كثيف مفاجئ للماء، واشتهرت اليمن قديما وحديثا ببناء السدود والبحيرات لتجميع المياه لاستخدامها للشرب وري المزروعات في أوقات الجفاف، ولمنع حصول سيول جارفة للبيوت والمزروعات، كما تفهم من الآيتين ورغم قلّة الكلام، فإن سبأ كانت تستفيد من تجمعات مائية "سدود"، وبسبب نزول كمية كبيرة من الأمطار دفعة واحدة انهارت السدود لأنها لم تتحمل ضغط المياه، فتدمرت سبأ، وهذا ليس كل شيء، ففقدان السدود هو فقدان لتجميع المياه، وبالتالي ستتحوّل المدينة إلى صحراء، فبناء السدود يحتاج لدولة قويّة، ويحتاج لخبرة هندسية، ويحتاج لعمال كثر... وهذا شيء لم يتوافر بعد القرار الإلهي بالسيل على سبأ، فصارت منطقتهم قاحلة وبقيت فيها فقط النباتات الصحراوية.

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ{17})
{ذَلِكَ}، السيل وتدمير الجنتين، {جَزَيْنَاهُم}، أعطيناهم كمقابل، {بِمَا كَفَرُوا}، ومن الواضح أنهم كفروا بنعمته تعالى وأنكروها ولم يشكروا له، فسحب سبحانه النعمة منهم.

{وَهَلْ نُجَازِي}، هل نقابل بهذه الطريقة، {إِلَّا الْكَفُورَ}، الناكر للنعمة الإلهية عليه.

بعبارة أبسط، من يفعل معك عملا جميلا، ألا يجب أن تعترف له بأنه أحسن إليك، بأنه أمّن لك ما تحتاجه، بأنه أسعدك، بأنه وفّر لك أمورا جيّدة... فهذا الاعتراف بالقول أو بالشعور هو كلّه شكر لمن تفضّل عليك، أمّا سبأ، فهي بلدة في منطقة صحراوية، صار لها جنتان من حدائق وبساتين، وهذا شيء غير عادي، ولذلك عبّرت الآية ما قبل السابقة عن مسكنهم بأنه "آية" مميّزاً، فهو من فضل الله تعالى عليهم بما أتاحه لهم بشكل واضح، وكانت بلدة طيبة وربّها غفور، ونحن نعلم أن المغفرة فقط للمؤمنين، فالبلدة كان أهلها عموما مؤمنين، وبعد ذلك تغيّر الحال، ولم يعد أهل سبأ يشكرونه سبحانه على ما هم فيه، فسحب تعالى منهم الرخاء والراحة وردّهم إلى أجواء الصحراء.

ننتبه جيدا، حيث إن كلمة كافر هي لعموم الناكر الرافض للتماشي مع شيء ما، وهي وصف اشتهر في استعماله لوصف من يكفر بالله تعالى، وبالخصوص لمن يكفر بوحدانيته تعالى، أمّا في القرآن فَاسْتَعْمَلَهَا بمعنى عموم الناكر لأي شيء والرافض للتماشي معه، كناكرٍ لوحدانية الله تعالى، أو ناكر لشريعته تعالى، أو ناكر لرسله أو لكتبه أو لملائكته أو لآخرته، أو ناكر لآياته لفضائله ونعمه... وحتى الناكر لدين الشرك فهو كافر بالشرك... وهنا من الواضح جدا أنها تقصد بالكافرين: الناكرين للنعمة الإلهية عليهم، لأنهم لم يشكروه. ولم تقصد أنهم كفروا به تعالى بإنكار ألوهيته أو

بإنكار توحيده عبر جعل شركاء له... وربما حصل ذلك، ولكن تقصد أنهم لم يعترفوا بأن ما لديهم من نعمة هو منه تعالى، فهذا ما أنكروه.

وبالنسبة لمحورية كلام السورة فسبحانه حميد لا يفعل السوء، وها سبأ كنموذج آمنوا وعملوا الصالحات فرغدت عيشتهم، وعندما أنكروا فضله تعالى فهم بقرار منهم خرجوا من الرحمة الإلهية إلى الغضب عليهم.

(وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ{18})
{وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ}، بين أهل بلدة سبأ، {وَبَيْنَ الْقُرَى}، وبين الأماكن التي تجتمع فيها الناس لتعيش فيها، {الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا}، حيث كانت تحصل على رضاه تعالى وموافقته على تصرفات أهلها وعلى ما يجري فيها من أعمال، والمقصود أنها قرى فيها رزق وصالحة للعيش... إذ صارت سبأ بلدة غير طيبة ولا مباركة، وكان بين بلدة سبأ وبين القرى المباركة، كان يوجد، {قُرًى ظَاهِرَةً}، أماكن للسكن واضحة يرونها بسهولة.

بعبارة أبسط، إن سبأ لم تعد مكانا صالحا للسكن، وأهل سبأ كانوا يرون القرى المسكونة من حولهم، وهناك قرى مباركة فبقيت على حالها من النعمة لأهلها، في مقابل سبأ التي كانت مباركة مثلهم والآن تغيّر حالها...

{وَقَدَّرْنَا}، في تلك القرى، {السَّيْرَ}، حيث جعلناه محسوبا لأجل شيء ما، وسياق الكلام عن المسافة بين القرية والتي تليها بحيث يمكن قطعها بسهولة للمسافر الذي لا يضطر لحمل الماء والطعام، ولا يخاف اللصوص وقطّاع الطرق... لأن طريق سفره عليه قرى قريبة من بعضها.

{سِيرُوا فِيهَا}، في تلك القرى، {لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ}، مستبعدين حصول الأخطار. وانتبه أن فعل الأمر "سيروا" خبري عن شيء حصل في الماضي، فالكلام وصف لحال الناس حينها بأنهم كان يمكنهم السير آمنين، فبديهي أن الكلام ليس موجها لنا لنسير فيها الآن آمنين.

إذاً خارج حدود بلدة سبأ، كانت الحياة جيدة بل ممتازة، حيث كان هناك قرى عادية بالقرب من سبأ، وأبعد منها بقليل يوجد قرى مباركة، وبين تلك القرى يمكنك السير لأيام ولَيَالٍ ولن يتعرّض لك أي أحد بسوء، فلا تخاف من اللصوص والقتلة... ولا تحمل همّ الماء والطعام في الصحراء لأنك بسهولة ستصل إلى قرية مباركة... أمّا سبأ فَكَانَتْ تعيسة غير مباركة ولا آمنة... وعلى ما يبدو لذا لم تعد مكانا يرغب المسافرون بالمرور فيه.

لاحظ توصيف الآية للمنطقة للمقارنة بين حالة سبأ قبل السيل، وبعد السيل، حيث إن في تلك المنطقة قرى عديدة، وبعضها مبارك مثلما كانت سبأ، وضرب السيل لسبأ بالتحديد يريك أنها مقصودة بحصول الدمار لها حصرا، ويريك تدخلا إلهيا استثنائيا لحصول سيل فقط على سبأ لأنهم كفروا بنعمته تعالى، بينما بقية المناطق بقيت مزدهرة، بل ويتنقّل فيها الناس بأمان فلا دوافع لاختلال أمن الطرقات من اللصوص بسبب وفرة الموارد للجميع...

(فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ{19})
{فَقَالُوا}، أهل بلدة سبأ:

{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا}، لا نريد أن يكون بالقرب منّا بلدات مسكونة مباركة، لأنهم لوحدهم كان وضعهم تَعِيساً، وبقية القرى من حولهم كان وضعها أفضل، وهناك قرى وضعها ممتاز، لا يريدون أن يكون أحد بقربهم، وَلا يريدون رؤية أَحَدٍ ما عليه النعمة التي فقدوها.

تلفت الآية انتباهك أنهم كانوا في النعمة، ولم يشعروا بقيمة ما كانوا فيه حتى فقدوه، وصاروا يقارنون بين النعمة عند غيرهم والمصيبة التي فيهم، والآن من شدة غيظهم، لا يريدون رؤية النعمة التي فقدوها موجودة مع الآخرين، ولا يريدون أن يراهم أحد وهم في الشقاء... وهذا الحسد الجماعي "للأسف" نسمعه من أهل القرى التي تحسد بعضها، ومن أهل البلدان الذين يحسدون بعضهم.

{وَظَلَمُوا}، أهل سبأ، {أَنفُسَهُمْ}، لأنه لم يكن معهم حقّ حين كفروا وَلم يشكروا، سَبَّبُوا لأنفسهم الشقاء، {فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ}، حيث صارت الناس تتحدّث عنهم كأناس من التاريخ كانوا يعيشون هناك، إذ كانت بلدتهم مزدهرة وضربها سيل دمّرها... {وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ}، لأنهم لم يبقوا قطعة واحدة كمجتمع، وَصارت كل عائلة أو أفراد من نفس العائلة في ديار مختلفة عن الآخرين، وَلم يعد لهم كيان واحد، كَانُوا "سبأ" مجموعين تحت هذا الاسم، سواء أكان اسم قبيلة أو اسم مكان، ولم يعد هذا الاسم يجمع أَحَداً تحته، وَصاروا مشتتين.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، الذي ذكرناه عن سبأ، {لَآيَاتٍ}، فَهِيَ أمور مميّزة، من الأفعال الإلهية المميزة، {لِّكُلِّ صَبَّارٍ}، لكل من هو كثير الصبر، يَتَصَرَّفُ عن وعي ودراسة ولا تفلت منه أعصابه أو شهوته أو غضبه في مختلف الظروف...
{شَكُورٍ}، يشكر كثيرا، يُعَبِّرُ عن حصوله على أمور جيدة منه تعالى.

عندما تقرأ عن سبأ الذين لم يشكروا فأصابهم السيل، ستنتبه أن تشكره تعالى ولا تكفر به، وتنتبه أن لا تشكر غيره حتى لا يحصل معك ما حصل معهم، فتصبر إن أصابك مكروه وتحافظ على إيمانك وتشكر إن حصلت على النعمة كدرس تعلمته مما حصل مع سبأ حتى لا يصيبك مثلهم.

نتذكّر من القرآن طرحه للعلاقة بين الصبر والشكر والإيمان، وَمن يرد الآن الشهوات والمتاع حتى بالطرق السيئة، ولا يقتنع بتأجيل الحصول عليها في جنّة الآخرة، فهذا لديه قرار عميق بالتعلّق بالشهوات ولن يصبر على فقدانها، ولا يريد شكر الذي منحها له هنا لأنه في هذه الحالة سيعترف به تعالى وبدينه وسيضطر للالتزام بترك السيئات والصبر على ترك ما يشتهيه من محرمات، والصبر على ما لم يحصل عليه بالطرق المقبولة، وهذا ما لا يريده.

(وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ{20})
{وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ}، إذْ إبليس وهو اسم لواحد من الجنّ قرّر غواية الناس ليكفروا ويشركوا ولا يشكروه تعالى على نعمه، وذلك ليبرهن لله تعالى أنهم لا يستحقون أن يسجد لهم، وراجع في ذلك كمثال الآية 39 من سورة الحجر "قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ"، وصار إبليس مَشْهُوراً بصفة الشيطنة هذه حتى صار وصفه كاسم له: الشيطان. والتي تعني: الموصوف بالقيام بأعمال الضلال لنفسه وللآخرين، وَإبليس هذا كان لديه ظنّ، وَكان لديه اعتقاد يستند فيه إلى معلومات عنده، ظَنَّ أنه بإمكانه جعل الناس تكفر بالله تعالى، صَدَّقَ ظنّه، وَأضلّ الكثير من الناس وتحقّق ظنّه فيهم، {فَاتَّبَعُوهُ}، إذ كان الناس على ما يأمرهم به إبليس، وَنفّذوا ما يقوله لهم، {إِلَّا فَرِيقاً}، جماعة من جماعات الناس، {مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ}، المعتقدين بالله تعالى، فهؤلاء لم يتّبعوا إبليس.

ونعلم من القرآن أن إبليس يوسوس في صدور الناس، يُوحِي لهم بالأفكار السيئة، والكثير من الناس تعجبهم تلك الأفكار فَيُنَفِّذُونَهَا، وقسم قليل من الناس آمن بالله تعالى ولا يتبع الوسوسة الإبليسية.

والكلام من وحي نموذج سبأ الذين اتبعوا إبليس فكفروا بنعمته تعالى عليهم...

و"الظنّ" هو اعتقادك بشيء ما مُسْتَنِداً إلى شيء ما، فإن كان ما تستند عليه صَحِيحاً كان ظنّك صَحِيحاً، وهذه حالة المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم سبحانه كما ورد في الآية 46 من سورة البقرة "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"، فهم مستندون في ظنّهم على آياته وكلامه تعالى.

وإن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران "... وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ..."، وَاسْتِنَاداً للحالة الحرجة التي كانوا فيها ظنّوا أنه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء.

وبين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند عليها ولكنه ليس مُقْتَنِعاً بها، وَلا تزال الأمور عنده مرجّحة لاحتمالات أخرى، فهذا ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية "وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ"، لأنهم يريدون أن يلمسوا مباشرة حصول ساعة قيامهم من الموت حتى يعتقدوا بها ولا يكفيهم الاستناد إلى معلومات تدلّ عليها، وَيريدون اليقين بها عِيَاناً حتى يؤمنوا.

وهذه الحالة قريبة جِدّاً من الاصطلاح "في علم المنطق" والدارج لمعنى كلمة ظنّ على معنى وجود عدة احتمالات. وها صرت تعلم المعنى اللغوي الأساسي لِكَلِمَةِ "ظنّ" فانتبه للفرق بينه وبين المعنى الاصطلاحي حتى لا تفسّر القرآن على أساس المعنى الاصطلاحي.

وفي عموم كتب التفاسير ستجد كَلَاماً آخر عن الظنّ، ولا ينطبق معناه على كلّ آيات القرآن، سَتَجِدُهُمْ لا يثبتون على معنى واحد للظنّ، حيث مرة يرادفونه باليقين، ومرّة بالشك، ومرة بالحسبان... وهي مَعَانٍ غَالِباً ستجدها صحيحة لأن الآيات واضحة وتدل على المعنى الذي ذكروه بالشكل العمومي الذي يتحمله الاشتقاق والتدرّج من أصل معنى كلمة ظنّ، ولكنها ليست المعنى الدقيق لكلمة ظنّ، بل كلامهم توصيف لحالة العلم الذي استند إليه الظنّ، وها صرت تعلم معنى الكلمة العام، وأن القرآن دائما يوضّح لك نوع العلم الذي يستند الظنّ له إن كان صَحِيحاً أو فَاسِداً، فلن تضيع في معرفة الظنّ الصحيح من الظنّ الخطأ.

(وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ{21})
{وَمَا كَانَ لَهُ}، لإبليس، {عَلَيْهِمْ}، على الناس الذين اتّبعوه، {مِّن سُلْطَانٍ}، فلم يكن له سلطة قاهرة عليهم ليجعلهم غصبا عنهم يُطِيعُونَهُ، ففي الأصل والأساس هو قادر فقط على الوسوسة، أمّا بعدما يَلْحَقُونَ به، وَيُسَلِّمُونَهُ فكرهم ومشاعرهم، فيصير له عليهم سلطان فيسيطر عليهم من بعدما هم استسلموا لوسوسته، ولم يسمح سبحانه بحصول ذلك، {إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ}، من يعتقد بالحياة التي سَتَأْتِي في الْآخِرِ بعد انتهاء هذه الحياة الدنيا، {مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ}، حيث يصله الخبر مع الآيات التي تدل على الآخرة ويقول: أشك فيها. وَيُعْلِنُ إنكاره لها بدون الاستناد لأي شيء. ولمزيد من التوسّع حول معاني كلمات شك وريب وظن ويقين، رَاجِعْ دراسة الآية 54 من هذه الدراسة.

{وَرَبُّكَ}، الْمَسْؤُولُ عنك من مستوى إلهي، {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ}، يَصُونُ ويرعى سبحانه كلّ شيء، وسياق الكلام هنا عن إبليس والكثيرين الذين اتبعوه، حيث سبحانه في الأساس لم يسمح لإبليس بأكثر من الوسوسة حتى يتبيّن المؤمن من الكافر، وسبحانه حفيظ يصون كلّ شيء، لِذَلِكَ لن يصير لإبليس أي قدرة قاهرة على أي شخص، طبعا إلا إذا هو الشخص قرّر أن يصير تابعا لإبليس.

بعبارة أخرى، عندما نرى سلطة إبليس على الكثير من الناس، فهل لم يعد الله تعالى حفيظا "مسؤولا عن حفظ" مخلوقاته؟ لا، ففي نفس الوقت الذي منح الكثيرون من الناس إبليس السلطة عليهم، هذا لم يكن مفاجأة لله تعالى، بل هو تعالى سمح بذلك، ليعلم أيّاً من الناس سيؤمن بالآخرة فيلتزم بالأوامر الإلهية الصالحة متقيا العذاب على السيئات، ومن منهم سيكفر بالحساب والجزاء في الآخرة ويطيع إبليس، وعلى كل حال ومهما حصل، الله تعالى يصون ويرعى كلّ شيء، إِذْ إبليس تحت السيطرة وتحت ما سمح تعالى به.

بعبارة أبسط، هل يقوم إبليس بتخريب ما يريده الله تعالى؟ هل سبحانه خلقنا لنصير مؤمنين وتدخّل إبليس لِيُفْشِلَ المشروع الإلهي وَيَجْعَلَنَا كافرين؟ لا، من الأساس كان المخطط الإلهي يتضمّن وجود إبليس، وكان يتضمّن سُلْطَةَ إِبْلِيسَ على الناس الذين اتبعوه... كل شيء تحت الحفظ وَلَمْ يفلت أي شيء من قدرته تعالى.

الآن يبرز سؤال من وحي الكلام، ماذا لو لم يخلق سبحانه إبليس، هل كنّا سنؤمن كلّنا؟ لا، لِأَنَّ إبليس يقف على رأس الأسباب الخارجية للكفر، وهو فقط محفّز لما فينا من هوى ورغبات وشهوات سيئة... لنشبعها بما يخالف الخير وهو نفسه مخالفة كلامه تعالى، من دون إبليس نحن أصلا واقعون تحت تأثير هوانا ورغباتنا وشهواتنا، وترى ذلك بوضوح من دراسة الآية 30 من سورة البقرة "{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...}"، الأمر بالسجود لآدم(ع) حصل بعد هذا الكلام عن استفهام الملائكة (ع) لجعله تعالى من البشر القتلة المفسدين خليفة له، حينها لم يكن إِبْلِيسُ يوسوس... وما زاد عن ذلك من تدخّل إبليس بالوسوسة فينا، حدث من بعد رفضه السجود لآدم(ع)، وكان لجرّنا نحو السوء بالكفر به تعالى ومخالفة أوامره سبحانه ليبرهن له تعالى أن آدم(ع) كممثّل عن البشر هُمْ لا يستحقون أن يسجد لهم...

ما قرأناه في سورة البقرة عن بشر مُفْسِدِينَ في الأرض ويسفكون الدماء قبل وأثناء حياة آدم(ع)، هل كانوا واقعين تحت وسوسة إبليس؟ لا، كانوا واقعين تحت تأثير شهواتهم وغرائزهم... السيئة، إِذْ كانوا واقعين تحت تكليف ما جعله تعالى

فيهم من قابلية وقدرة على تمييز الخير من الشر والحقّ من الباطل... وبعدما تأهّل أوّل بشري "آدم(ع)" ليتكلّف بدينه تعالى، بسبب محافظة آدم(ع) على سلامة قلبه "سلامة أساس فكره ونفسيته"، من بعد ذلك صار عُنْوَانٌ جَدِيدٌ لما يفعله الناس من سوء، وهو مخالفة ما قاله تعالى. وتحت هذا العنوان يعمل إبليس، ومن قبل كان وصف أعمال البشر ابْتِدَائِيّاً أَوَّلِيّاً: فعل السيئات أو الصالحات.

بعبارة أبسط، قبل تواصل الإله مع البشر، قبل توصيف آدم كخليفة، كانوا يميّزون بين الخير والشر، ولديهم فطرة الإيمان بالإله، وسيتحاسبون على ذلك، ولو وصلوا بسلامة قلوبهم لفهم غضبه تعالى على فعل السوء، لبقيت المسألة أنهم يفعلون ما لا يرضى عنه الإله، أمّا من بعد تواصل الإله مع بشري، فَصَارَ وصف الحالة مخالفتهم لما قاله الإله، وهنا ترى تدخّل إبليس من هذه الزاوية.

نعيد السؤال لنراه من زاوية أخرى: هل إن لم يكن إبليس مخلوقا، فَسَنَكُونُ بألف خير ومن المؤمنين الطائعين؟ لا، هذا غير صحيح ولم يقله القرآن ولم يشر إليه، وَاسْأَلْ نفسك: إن كان الشرّ يأتي من الوسوسة الخارجية فقط، فَمَنْ وسوس لإبليس؟ وهكذا ترى أن نفس العقلية والنفسية التي جعلت إبليس يتكبّر هي موجودة فينا، ونحن نُقَرِّرُ أن نعصي أو نطيع، وإبليس يقدّم لنا الاقتراحات السيئة عبر الوسوسة، وسبحانه جعل فينا عقلا وفهما يقدّمان لنا الاقتراحات، وأنت وأنا نختار، ولا سلطة لإبليس علينا، إلى أن نعطيه نحن السلطة.

آيتنا هنا من الضروري جدا صَيْرُورَتُهَا عندك من أساسيات مفاهيم القرآن، حيث سبحانه وتعالى من الأساس صمّمنا وخلقنا بحيث نتعرّض لبلاء إشباع الشهوة والغريزة وحبّ المناصب والمال... حتى لو لم يتدخّل إبليس، وسبحانه من حين ما قرّر خلق ما في الدنيا علم بما سيحصل فيها بالتفصيل، لِذَلِكَ سبحانه لم يتفاجأ بقرار إبليس بإغواء الناس ليكفروا، بل تركه سبحانه كإضافة "معلومة مسبقا" على بلائنا. وحالة شيطنة إبليس لا تختلف عن حالة أي واحد من الناس قرّر أن يصير شيطانا يغوي الآخرين كما تقرأ في عدة آيات منها الآية 14 من سورة البقرة "{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}"، ولم يتفاجأ سبحانه بذلك، بل هذا من ضمن تصميمه وخلقه تعالى لنا.

يعني دع من بالك حصرية وصف إبليس بالشيطان وأنه المسؤول عن كل الشرّ، هذا غير صحيح، بل كلنا نحن المخلوقات الواعية ذات الإرادة الحرّة من بشر وجنّ ومعنا إبليس، فينا القابلية والقدرة على الاِتِّصَافِ بالشيطنة لنوسوس للآخرين، وهذا ما حصل فعلا وصرّح لك به القرآن مرارا وكمثال عن ذلك الآية 112 من سورة الأنعام "{وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ}".

أي كلام عن اتهامه تعالى بخلق الشرّ فيما يخصّ حالة إبليس، يمكن فكّ الكثير منه بسهولة من آيتنا هنا، لِأَنَّ إبليس ليس شرّا محضا، هو مثلنا مخلوق لديه حرية الإرادة والاختيار، وقرّر إغواءنا، وهناك بشر مثله هم شياطين الإنس. وأصلا لا يوجد شيء ككائن اسمه شرّ، بل هذا وصف يصحّ إطلاقه فقط على الذين لديهم حرية الإرادة والاختيار فَيَصِيرُونَ أَشْرَاراً باختيارهم.

وهكذا نفصل بين السوء من أذية أو ضرر كناتج عن ظروف ما، وبين الكلام بضبابية غير مدروسة عن اتهامه تعالى بخلق أشياء شريرة، حيث في كلامهم عن هذا الموضوع الكثير من التراخي في المفاهيم ومعاني الكلمات لدرجة فقدان الدقة في التعبير وَصَيْرُورَةِ الكلام ككلام الأطفال، ما معنى الجملة التي يسمّون فيها إبليس والكوارث الطبيعية والأمراض والعاهات بأنها شرّ؟ إِذْ إبليس من الجنّ، وفي الجنّ مؤمنون صالحون كما تقرأ في الآية 11 من سورة الجنّ "{وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا}"، هم "وإبليس من ضمنهم" لا يختلفون عن أي واحد منّا نحن البشر اختار فعل السوء.

نعم، لبّ المشكلة اتهام إبليس بكل سوء فعلناه، وأنه بسببه ومنه ولولاه لما فعلناه، لا، هذا غير صحيح، بداية وسوسة إبليس لنا هِيَ تحفيز خفيف جدا جدا كشيء يخطر بالبال كاحتمال لخيار متاح يمكننا اختياره من بين مجموعة ما يخطر على بالنا من أفكار، نحن بإرادتنا سنميل لخيار من الخيارات، ويصير دور إبليس كدور أي إنسان يوسوس لك لتفعل السوء لأنه يكره الصلاح وَيُرِيدُ انتشار ما يحبّه من فساد... وهذا ما تقرأه في الآية 112 من سورة الأنعام "{وَكَذَٰلِكَ

جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ...}"، ولكن شاء تعالى خلقنا بحيث يمكن أن يوسوس الجنّ لبعضهم وللناس، وأن يوسوس الناس لبعضهم البعض، ليعلم من منهم يؤمن بالآخرة.

بقي شيء ضعه في بالك دائما أنه تعالى لا يقوم بإضلال من يريد الاهتداء، لا ينصب سبحانه وتعالى الأفخاخ للناس ليضلّوا وَيَكْفُرُوا ويشركوا ويفسقوا وينافقوا، لا، بل الناس يكون عندهم فسق كامن، يهديهم تعالى للحقّ المبين وَيَرْفُضُونَهُ ظلما، عِنْدَهَا يبتليهم تعالى بما يجعل السوء الكامن فيهم يظهر، ومن ضمن الِابْتِلَاءَاتِ إبليس بوسوسته.

بعبارة أصرح ومباشرة، إبليس لا يتعدّى علينا، بل نحن بإرادتنا نطيع وسوسته، ويمكننا صدّها بسهولة إذا حافظنا على سلامة قلبنا، ولا أقول بسهولة قاصدا قياس المسألة على نفسي، لا، بل بما أعرفه من نفسي من كرهي لبعض السيئات وصعوبة "أو استحالة" اقتناعي بفعلها، كقتل طفل بريء، علما أن بعض الناس يفعلونها ولا يرفّ لهم جفن بقصف المدن مع علمهم الأكيد بموت الأطفال والأبرياء... من هذا أعلم أنه يوجد من يكره سيئات أنا أحبها حتى مع علمي بأنها سيئة، مثلما من الصعب على إبليس إقناعي بقتل الأطفال، من الصعب عليه إقناع المؤمنين من الدرجة العالية بفعل أي سوء كان، بل تصل الأمور لدرجة استحالة إقناعهم.

(قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ {22})
{قُلِ}، عبر هذا القرآن:

{ادْعُوا}، أعلنوا وَأشهروا، {الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ}، زعمتم فقلتم ومن دون الاستناد إلّا إلى قولكم فقط أنه من دون الله تعالى يوجد آلهة، كما نقول: ذهبتم من دوني، ونقصد: ذهبتم مع غيري. هنا هم تركوا "توحيد" الله تعالى واعتبروا غيره آلهة، فدعوا إلهاً للمطر وآخر للحرب... وكان هذا زعماً أي لا يستند إلى أي شيء سوى ما يقولونه هم، ادعوهم ولكنهم، {لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ}، وزن أو حجم، {ذَرَّةٍ}، شيء منفصل لوحده له كيان منفصل وهو صغير جداً جداً، كحبة غبار، كبذرة صغيرة، كنملة صغيرة جداً... فهم لا يملكون ولو هذا المقدار القليل، {فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ}، وهذه حدود كل دنيا المخلوقات التي يملكها كلّها سبحانه.

بكل سهولة تستنتج ما يلي: إن كان الذين تدعونهم، فتشهرون وتعلنون أنهم آلهة، وإن كانوا لا يملكون ولو ذرة من هذه الدنيا، فما معنى وصفهم بالآلهة! فهم آلهة على ماذا ولماذا!

ضَعْ في بالك دائماً أن أكثر الجمل القرآنية المشابهة لآيتنا هذه لم تقصد بشكل خاص أنهم يدعون على معنى يطلبون أشياء وأموراً من آلهتهم، بل قصدت العمومية، حيث قصدت أنهم يعلنون ويشهرون عن غيره تعالى أنهم آلهة، ولن يجدوا رَدّاً من تلك الآلهة على هذا الإعلان، وهذا عملياً يتضمّن التوجّه بالدعاء لتلك الآلهة أن ترزقه أو تشفيه... وقارن هذا الكلام مع دعاء نتوجّه به نحوه تعالى لإعلان توحيده أو إعلان مدحه بحمده... فهذا دعاء لا يحوي على أي طلب، فهو مجرد إعلان منك أن الله تعالى إلهك وصفاته كذا وكذا... وتمدحه تعالى... وتذكر فضائله عليك لتشكره... فضع هذا في بالك دائماً لأن أكثر استعمال القرآن لكلمة دعاء قصدت ذلك ولم تقصد الدعاء على معنى طلب الأمور والأشياء.

انْتَبِهْ دائماً للشفافية في كلامه تعالى معنا، حيث سبحانه يعلم من نفسه أنه وحده الكائن بالصفات والقدرات الفائقة وبطبيعة منفردة يستحيل أن يكون منها اثنان، أخبرنا بذلك في الآية 11 من سورة الشورى "... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ..." وفي الآية 4 من سورة الإخلاص "وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ"، وبناء على ذلك وَمُضَافاً له أنه تعالى لم يلمس أي أثر ولا بأي شكل لأي كائن غير الكائنات التي خلقها هو سبحانه من لا شيء، وكل شيء بالنسبة للكائنات فهو محصور ضمن حدود السماوات والأرض، وكلّها صمّمها وخلقها ويتابع شؤونها هو سبحانه، فبكل شفافية يسألنا: إن كانت كل الكائنات غيري محصورة ضمن السماوات والأرض، وكلها خلقتها أنا، فمن أين اخترعتم آلهة غيري؟ ولمزيد من التوسّع حول هذه النقطة رَاجِعْ دراسة الآية 18 من سورة يونس "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ"، فهل أنتم البشر تعلمون بوجود آلهة وسبحانه لا يعلم بها؟

{وَمَا لَهُمْ}، وليس للآلهة التي زعموها، {فِيهِمَا}، في السماوات والأرض، {مِن شِرْكٍ}، لَيْسَ لهم أي حصّة أي شراكة، لأن كل شيء منسوب تصميمه وخلقه وملكه وإدارته... لله تعالى، فليس نصفه لله تعالى ونصفه لهم، ولا لهم جزء منه ومهما كان صغيراً ولو حتى معنوياً على فرض أنهم أشاروا عليه تعالى بالفكرة أو ساعدوه في التصميم أو منحهم تعالى قدرة السيطرة عليه... فلا ولا بأي شكل لهم شراكة في السماوات والأرض.

أيضاً بكل سهولة تستنتج: لماذا تدعونهم آلهة ولأي سبب!

{وَمَا}، وليس، {لَهُ}، لله تعالى، {مِنْهُم}، من الذين يزعمون أنهم آلهة، {مِّن ظَهِيرٍ}، من مساند بالعون. لَا يوجد أحد من تلك الآلهة المزعومة مُعِينٌ له تعالى ليساعده على فعل شيء ما ولا بأي شيء، فلا من مستوى المساعدة ولو بالمشورة، ولا من تصميم صمّموه واستعان به تعالى لخلق ما في الدنيا، ولا استخدم سبحانه شيئاً من مواد هم خلقوها ليخلق ما في الدنيا، ولا اعتمد عليهم لإدارة شيء مما في الدنيا، ولا... ولا... ولا شيء أبداً بتاتاً، فلا أحد منهم له أي علاقة معه تعالى، فهو سبحانه وحده وبدون أي تدخّل من أي أحد قرّر فصمّم وخلق وتابع وأدار...

وَحْدَهُ سبحانه هو الإله، ووحده خلق ويملك كل شيء، ووحده يفعل كل الأفعال على المستوى الإلهي. وغيره لا يملك حتى ذرة غبار، ولا يشارك في الحكم ولا في القرار ولا في الخلق... وحتى لم يشاركه تعالى أي أحد في اتخاذ القرار ولو من باب الاستشارة.

أصل الكلمة "ذرّ" لأي شيء مفرد منفصل عن غيره، ومنه الذرية للأولاد، وكلمة "ذرّة" بالاستعمال العربي القديم هِيَ لأي شيء صغير جداً يمكن رؤيته بالعين فنقول للنمل الصغير جداً الذي يأكل الخشب: ذرّ. ونقول لبذر نبات الخردل الصغير جداً: ذرّ. ونقول للرماد والغبار الناعم جداً: ذرّ... فلا يذهب فكرك لذرة المواد التي تتألف من إلكترون وبروتون ونيوترون، فهذا اصطلاح جديد لتتوسّع كلمة ذرة للانطباق عليه لأن قديماً لم يكن غالبية عامّة الناس يعلمون بوجود ما هو أصغر مما يرونه بأعينهم...

(وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ {23})
بعض المشركين يقولون: فرضا لو فعلا حصل قيامنا من الموت، فآلهتنا ستتدخّل لصالحنا ولن تتركنا نتعذّب، فتجيبهم الآية:

{وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ}، والشفاعة هي عموم استخدام القيمة المعنوية أو السلطوية لتغيير الظروف نحو الأحسن، الوساطة التدخّل، {عِندَهُ}، عند الله تعالى، {إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ}، فقط من يسمح له تعالى بالوساطة باستخدام قيمته المعنوية سَيَتَوَسَّطُ.

كما نفهم من القرآن، فإن شخصا ما يكون الحكم عليه في الآخرة بالعذاب، فيشفع له وَيَتَوَسَّطُ له أحد ما مستعملا قيمته المعنوية عنده تعالى كالملائكة (ع) أو المؤمنين الصالحين، فيخفّف سبحانه عنه العذاب أو يسامحه، وفهمنا من القرآن أن الشفاعة ممنوحة للملائكة(ع) وللمؤمنين من الدرجة العالية ليتوسّطوا للمؤمنين من الدرجة الأقل، أمّا الآلهة الوهمية التي لا وجود لها أصلا، كالآلهة التي لا كيان لها فاخترعوا لها اسْماً وصفات، فهذه وهمية ولا كلام مفيد عنها، كإله النار وإله الخمر وإله السفر... وأمّا الكائنات التي قالوا إِنَّهَا آلهة، فَهِيَ ومهما كانت فهي مخلوقات وليست آلهة، وليس لديها سلطات ذاتية من مستوى إلهي، ولم يسمح لها تعالى بالشفاعة لمن عبدها، فلا يمكنها أن تفرض عليه تعالى وساطتها لتخليص من عبدها من عذابه، ولا لها قدرة ذاتية قاهرة لقدرته تعالى لتشفع بشكل مستقل لمن تريد.

ننتبه جيّدا، فالآيات تتحدّث بشكل عام عن أي عقيدة تمسّ بالذات الإلهية، بأي شكل كان، ممن جعل له تعالى شركاء في الألوهية، إلى الشراكة في الملك، إلى الشراكة في القرار والخلق والإدارة... فنفت الآية كلّ ذلك وصولا إلى هنا، إلى الشفاعة، فنفت نفعها إلا لمن حصل على الإذن منه تعالى، فهناك في الآخرة قرار إلهي يصدر على الناس، فإذا تدخّل أحد ما ليطلب تغيير القرار الإلهي فهل هذا ممكن؟ نعم ممكن واسمه شفاعة، ولكن هل تحصل هذه الشفاعة رغما عن الإرادة الإلهية؟ فتفرض شفاعة الشفيع نفسها على الحكم الإلهي بشكل إجباري؟ لا، وهذا ما تقوله الآية هنا، فهو سبحانه صدر عنه الحكم على الناس في الآخرة، وهو سبحانه يعطي الإذن للملائكة(ع) وللأنبياء وَالرُّسُلِ والصالحين ليشفعوا بإذنه تعالى. مثلا: إن حكم سبحانه لفلان بدخول النار لعشرين مليار سنة "مثلا"، فلو جاءت كل الكائنات لتشفع، فلا

يمكنها أن تفعل أي شيء، وبالتحديد: فلن تنفع شفاعتها إن لم يأذن سبحانه، فإن أذن تعالى، فيمكن أن يشفعوا ويتم تخفيف الحكم أو إلْغَاؤُهُ.

لَوْ كَرَّرْتُ لك يا عزيزي ويا عزيزتي فليرسخ هذا المفهوم القرآني في بالنا، فلا يوجد أي كائن يمكنه أن يضرب برجله على الأرض في يوم القيامة، ويفرض على ربّنا عزّ وجلّ أن يغيّر قراره الذي اتخذه بتعذيب شخص ما. وهنا الآيات تنبّه الذين أشركوا ويزعمون أن آلهتهم يمكنها أن تشفع لهم لتنجيهم من القرارات الإلهية، فإن حصل وصار يوم قيامة من الموت وحساب، مع أنهم لا يؤمنون بحصول ذلك، ولكنهم يقولون إِنَّهُ لو فرضا حصل فآلهتهم ستنصرهم، فتنبههم الآية بأن يرموا هذا التفكير من بالهم نهائيا، فلا سيطرة لآلهتهم المزعومة على الله تعالى، وللدقّة، فهناك شفاعة ولكنها من بعد أن يأذن الله تعالى، فلا أحد يمكنه أن يفرض على ربّنا سبحانه أن يجعلني أدخل إلى الجنّة، بل يأذن سبحانه أو لا يأذن.

هَكَذَا نفهم كلام القرآن عن الشفاعة، فهناك آيات يبدو منها نفيها لحصول الشفاعة، وصرت تعلم أنها تقصد أنه لا يوجد كائن يمكنه أن يفرض عليه تعالى حقّه بالشفاعة "كحقّ الفيتو" اللاغي لأي قرار، لا، بل يأذن سبحانه فتحصل الشفاعة. ومن عموم القرآن نفهم أن الأمل بالشفاعة أصلا مقطوع لمن أشرك به تعالى، فلا ولا أي أحد سيشفع لمن أشرك به تعالى، وهذا واضح في العديد من الآيات منها الآية 48 من سورة النساء "إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ..."، ومعهم مُرْتَكِبُو الجرائم الكبيرة التي توعّد عليها القرآن بالخلود في النار، كالقتلة للأبرياء، والمفسدين في الأرض من العيار الثقيل، والصادين عن سبيله تعالى والفارّين من الزحف والزناة... فهؤلاء إن لم يتوبوا ويعملوا صالحا فلا شفاعة لهم من أي أحد، بل يتبرّأ سبحانه منهم والملائكة(ع) والمؤمنون.

{حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ}، ذَهَبَ الشعور المفاجئ بالخطر الذي أصاب أساس فكرهم ونفسيتهم، والكلام هنا لتصوير مشهد عن عموم المحتاجين للشفاعة عن ذنوبهم وهم يتوجهون بالسؤال لبعضهم البعض، كالمشهد الذي تنقله الآيات 103 و 104 من سورة طه "يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا"، وكالمشهد الذي تنقله الآيات 31 وما بعدها من هذه السورة عن كلام بين المستضعفين والمستكبرين. قال المحتاجون للشفاعة لبعضهم البعض: {مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ}؟ طَلَبْتُمُ الشفاعة فهل حصلتم على الإذن من المسؤول عنكم من مستوى إلهي ليشفع أحد ما لكم؟ ويمكن تصوّر حدوث ذلك في عدة مشاهد مختلفة من الآخرة، فنتصوّر المشهد وجماعة أو الجميع انتهى حسابهم، والذين لم ينته حسابهم بعد يسألون من انتهى حسابه إن نال الشفاعة... ونتصوره في حالة انتهاء الحساب للجميع وبعضهم سيئاتهم أقل من الآخرين، فالمجرمون من العيار الثقيل يسألون صغار المجرمين إن نالوا الشفاعة...

{قَالُوا}، مجيبين: {الْحَقَّ}، تسألوننا ماذا قال ربّنا سبحانه عندما سألنا عن الشفاعة، قَالَ سبحانه الحقّ الصواب الصحيح. وكما تعلم من عموم القرآن أنه تعالى لا يسمح بالشفاعة إلا لمن ارتضى كما ورد في الآية 28 من سورة الأنبياء "يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى..."، لمن لم يكن مشركا مجرما مفسدا... فهو تعالى لا يقول كلاما باطلا، فلن يعبث ولن يأخذ قرارات عصبية أو مزاجية... بل الحقّ يقول فقط، فمن استحقّ الشفاعة فكانت أعماله السيئة من القياس الذي يمكن تمريره بدون عقاب، فسينال الشفاعة.

الآية كما ترى أبقت الكلام عموميا فنتصوّر الحالة هنا أن بعضهم حصل فعلا على الشفاعة لأنه لم يكن مشركا وليس مجرما من العيار الثقيل، فالحقّ أن ينال الشفاعة لأنه تعالى يرتضي ذلك... ونتصوره في حالة الذين لم ينالوا الشفاعة وهم يعترفون بأنه تعالى قال الحقّ لأنهم لا يستحقونها.

{وَهُوَ الْعَلِيُّ}، الأعلى من كل شيء، لأن الصفات والقدرات عند غيره تعالى هي تحت، {الْكَبِيرُ}، الأكبر من كل شيء في كل شيء والآخرون أصغر، فصفاته وقدراته أكبر من أي صفة أو قدرة يملكها أي كائن غيره سبحانه. فأعلى وأكبر قدرات وصفات وسلطة هي له تعالى وبسبب ذلك يصدر عنه تعالى فقط القرار الأخير بالشفاعة.

الكلام عمومي حتى مع الذين ستطالهم الشفاعة، وخصوصي مع الذين يزعمون أن آلهتهم ستشفع لهم إن حصلت الآخرة وعادوا من الموت، فهؤلاء هنا في الدنيا لا يرون أنفسهم مضطرين لتوحيده تعالى ولا مضطرين للإيمان بدينه والالتزام بشريعته سبحانه، فإن حصلت الآخرة فآلهتهم جاهزة لتشفع لهم... سَبَقَ وقالت الآيات إِنَّهُ لا أحد يملك أي شيء

في السماوات والأرض، وآلهتهم ليست آلهة حقيقية، وبالنسبة للشفاعة ففعلا هناك شفاعة في الآخرة ولكنها تحصل من بعدما يأذن العلي الكبير، وها يخبركم سبحانه عبر هذا القرآن أن المشركين لا شفاعة لهم بتاتا ولا بأي شكل، ويخبركم أكثر من ذلك، فحتى هناك في الآخرة، مَنْ يحتمل طَمَعاً أن تناله الشفاعة فهو ليس مُطْمَئِنّاً بالحصول عليها، ويسأل الآخرين إن حصلوا على الشفاعة... وجملة بعد أن {فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ} تعطيك معنى كونهم في حالة الخوف بانتظار إذنه تعالى للشفاعة لهم، ولسبب ما تغيّرت حالهم، ومعلوم أنهم سيرون آخرين حصلوا على الشفاعة فطمعوا بها، فـ {فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ} تشير لأملهم بالحصول على الشفاعة ويسألون الآخرين عن ذلك...

تَرْكِيزُ الآية أيضا على اعتراف الجميع في الآخرة أنه تعالى يقول الحقّ، فمن حصل على الشفاعة فبالحق حصل عليها فنال تخفيفا أو غفرانا كاملا... لأن سيئاته وحسناته بالحقّ تتيح له الحصول على الشفاعة، وأمّا الذين لم ينالوها فلن يعترضوا لأنهم يعلمون أنهم لم يستحقّوها.

أيضاً تركّز الآية على اعتراف الجميع بأنه سبحانه العلي الكبير، منكرين لألوهية كل الآلهة التي كانوا يؤمنون بها غيره تعالى.

لاحظ أن محور كلام السورة عن الحمد، وقراره تعالى بالشفاعة في الآخرة لمن ارتضى فهو من تطبيقات أفعاله الحميدة سبحانه.

(قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{24})
{قُلْ}، عبر هذا القرآن:

{مَن يَرْزُقُكُم}، من يتيح لكم ما يسدّ حاجاتكم ورغباتكم، {مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}؟ هذا هو محيطكم وبيئتكم، عَلِمْتُمْ أنها له تعالى لوحده فمن الذي يرزقكم إذاً؟

{قُلِ}، لهم: {اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميز هو الذي يرزقكم. وهذا هو الجواب الوحيد الصحيح بما هو واضح من الآيات فيما نراه في أنفسنا ومن حولنا.

تَتَذَكَّرُ مثال تصوّرك لنفسك أنت صمّمت وخلقت كائنات، وجعلتها تجوع، وأتحت لها في بيئتها ما تأكله، فأنت رزقتها، ومن هذه النظرة ينسب سبحانه كل شيء لنفسه، فهو خلقنا ورزقنا وأطعمنا وسقانا وشفانا وهدانا وأضلّنا... إنْ لم تؤمن بك الكائنات أنك أنت رزقتها إلا حين ترى وجبات الطعام مطهية ومع التحلية... تنبثق من الفراغ أمامها فجأة، فهي حتى لو حصل هذا فلن تؤمن بأنك رازقها، وستجد له تبريرات من الصدفة والطبيعة و... وهذا ما يقوله القرآن عن الذين ورغم وضوح آياته تعالى يكفرون به كرازق لهم...

{وَإِنَّا}، نحن المؤمنون به تعالى وبرزقه لنا، {أَوْ إِيَّاكُم}، أنتم القائلون عن غيره تعالى أنه يرزقكم، إمّا نحن أو أنتم، {لَعَلَىٰ هُدًى}، على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة، {أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}، أو بشكل واضح على الأشياء الخطأ التي توصل للغاية الخطأ. فلا يوجد حل وسط، فإمّا نحن على الهدى وأنتم في ضلال، وإمّا نحن في ضلال وأنتم على الهدى.

نحن نقول: الله تعالى هو رازقنا ولا يوجد رازق غيره، وأنتم تقولون إنَّ غيره تعالى يرزقكم، أو الطبيعة ترزقكم... فخذوا علماً أن كلا الجملتين لا تتماشيان، فواحدة صحيحة والأخرى حتماً خطأ.

هنا الكلام على معنى مشابه لما ورد في الآية 18 من سورة السجدة "أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ"، فالمؤمن لا يستوي مع الفاسق، حيث بعض الناس يستهترون بالأمور العقائدية، ويعتبرونها أموراً يمكن التهاون فيها، فلا مشكلة إن كنت تعتقد بأن الله هو الرازق لوحده أو أن تعتقد بأن غيره يرزق... لا، هناك مشكلة كبيرة، فهناك واحد على ضلال حتماً وفي مقابله واحد على الهدى حتماً، وبالتالي:

(قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ{25})

بناء على ما سبق، {قُل}، لهذه النوعية من الناس، {لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا}، لن يعبّر لكم أحد ما عن إرادته للحصول على أجوبة منكم عن أفعالنا التي نستحقّ عليها العقاب، فإن كنّا نحن من ارتكب الجريمة، وَإِنْ قمنا بالعمل الذي يستحق العقاب عليه، فلن يسألكم أحد عن جريمتنا، لأننا نحن ارتكبناها، ونحن سنتحاسب ونتجازى عليها، فنحن نقول بأن الله تعالى وحده الرازق، وحده الإله... فإن كان هذا ضلالاً وجريمة، فأنتم لن تتحاسبوا على هذه الجريمة، بل نحن سنتحاسب عليها.

{وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ}، أَيَّ عمل قمتم به ومهما كان نوعه فلن يَسْأَلُونَنَا عنه في يوم القيامة، لأننا لم نعمله ولم نوافق عليه، ولا دخل لنا به.

الآية هنا على معنى وجود فرق هائل في الآخرة بين من آمن وعمل صالحاً وبين من أشرك وأجرم، حيث إنَّ بعض الناس يقولون إِنَّهُمْ لا يرون فرقاً بين المؤمن وغيره، فتراهم يساوون بين أعمالهم الإجرامية وبين ما يقوم به المؤمنون، بل ويرون المؤمنين ككفّار وكخارجين عن دينهم كما نراهم نحن كفّاراً وخارجين عن ديننا، ومن هذه النظرات نفهم الآية هنا.

(قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ{26})
{قُلْ}: {يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا}، بعد موتنا لن نَخْتَفِيَ ولن نَنْدَثِرَ أو نذهب إلى عالم لا يحكمه تعالى، أو... لا بل سيجمعنا كلّنا في مكان واحد المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا}، ما كان مغلقاً بيننا، والكلام هنا عن الخلافات التي كانت سدوداً بيننا، فنحن موحّدون وأنتم مشركون، ولا نحن نقتنع معكم ولا أنتم تقتنعون معنا، حيث الطرق كانت مسدودة وبعد اجتماعنا في الآخرة سيفتح الله تعالى بيننا ما هو مسدود، {بِالْحَقِّ}، بالصواب، فسيقول سبحانه إن كُنَّا نَحْنُ عَلَى حَقٍّ أم أنتم، فلن يميل سبحانه للباطل ولن يحابي المنتمين لدينه...

{وَهُوَ الْفَتَّاحُ}، الذي يفتح كل ما هو مسدود ومغلق، فَأَيُّ خلاف تعرف أو لا تعرف الكائنات حلّه والصواب والحقّ فيه، سبحانه فتّاح لا يقف شيء بوجهه والكلام هنا عن إعطاء المعلومات الصحيحة، {الْعَلِيمُ}، عَنْ علم واسع يقوم سبحانه بفتح ما هو مغلق بين الناس، لا عن علم ناقص أو تخمين، بل عن علم دقيق تفصيلي يصدر عنه تعالى "الفتح" الحسم والحلّ بين الناس.

(قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاء كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{27})
{قُلْ}، لهم عبر هذا القرآن:

{أَرُونِيَ}، اجعلوا عندي صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: فرجوني، خلوني شوف. {الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ}، بالله تعالى، {شُرَكَاءَ}، فقلتم إِنَّهُمْ شركاء له تعالى في الألوهية! مثلما نحن نقول: أين هو؟ دعني أراه... فأين الشركاء التي قلتم عنها إِنَّها شركاء لله تعالى في الألوهية، دعونا نراهم؟

{كَلَّا}، هذا غير صحيح، فهم ليسوا شركاء له تعالى.

{بَلْ} "الصحيح" {هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... فما معنى أن يكون له شركاء غير الذلّة؟ فلا معنى لألوهيتهم إن لم تكن تنفيذية فارضة عليه تعالى رأيها وقرارها، {الْحَكِيمُ}، الذي يقرر ويفعل الصواب، فلا يعبث ولا يتسلى.

لو كان سبحانه يبدو عليه الضعف، أو يبدو على عمله النقص، لكنّا فهمنا قولهم عن وجود شركاء له تعالى في الألوهية حتى يكملوا العمل الإلهي بشكل جيّد، ولكن الله عزيز وحكيم، فيفرض بحكمته ما يريده، ونفهمها بمقارنتها مع ملك قوي ولكن أحكامه عبثية مزاجية لأنه معتز بجبروته ومتكبّر وليس مضطراً للتفكير إلا بمصلحته... أما سبحانه فرغم قدراته الفائقة فلا يتصرّف إلا عن حكمة، وها نرى كل ما حولنا من صنعه تعالى يعكس قدراته وحكمته، وأمّا الذين اخترعتموهم كآلهة فأين هم؟ أين عملهم؟ أين مخلوقاتهم...؟ وماذا فعلوا؟

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ{28})
{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ}، ولم نطلقك نَاقِلاً لكلامنا أيها الرسول محمّد(ع)، {إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ}، قاطبة من دون استثناء لكل الناس في زمانك وما بعده وفي كل الأماكن، {بَشِيراً}، تنقل الخبر السارّ، ومعلوم أنه خبر دخول المؤمنين العاملين للصالحات إلى الجنّة، وأرسلناك كافة للناس، {نَذِيراً}، تنقل خبرا عن شيء سيّء قادم حَتْماً وهو العقاب الإلهي لمن توافرت فيه شروط حصول العقاب له.

{وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}، لِأَنَّ هذه المعلومة ليست من قناعات أكثر الناس وَهِيَ بالنسبة للكثيرين مجرد كلام لا يمثّل أي واقع عن وجود جنة ونار في الآخرة.

هُمْ علموا أن مُحَمَّداً(ع) يدّعي أنه رسول، وبشّر وأنذر، ولكن فقط سمعوا هذا الكلام، ولم يصر بالنسبة لهم عِلْماً يستندون عليه كشيء صحيح، فلا آمنوا به كرسول ولا آمنوا بكلامه عن الجزاء في الآخرة.

نفهم من الآية بوضوح أن النبي محمّد(ع) هو رسول لكل الناس، وليس رَسُولاً للعرب، ولا لمنطقة الشرق الأوسط، بَلْ رسول للجميع من عصره لما بعد في عصرنا، ليس رَسُولاً خَاصّاً بالمسلمين "كما يقول بعض المتذاكين"، حَيْثُ درج أن نسمع من مسلمين متذاكين ومن غير المسلمين: محمّد رسول المسلمين. ونسمع عبارة: نبيّنا... هذا كلام فارغ، لِأَنَّ مُحَمَّداً(ع) رسول إلهي لكل الناس من زمنه إلى آخر الدنيا.

لمزيد من التوسّع مِنَ المفيد مراجعة دراسة الآية 47 من سورة يونس "{وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}".

إذاً الآيات السابقة تحدّثت عن أمور عديدة، محورها اختراع بعض الناس لآلهة... فأرسل سبحانه رَسُولاً لكل الناس ليبشّر الموحدين وينذر الكافرين المشركين.

بالنسبة لمسألة عالمية رسالته (ع) سأشير لنقاط مختصرة، منها واقع حال البشرية أنهم لم يتأهّل من كل مجتمعاتهم من وصل إلى درجة عالية من الإيمان ليجعله تعالى خليفة له كممثّل له، ولذلك لم يرسل سبحانه في مختلف البلدان والأزمنة رُسُلاً من أقوامهم، ومعلوم أن المتأهلين ليكونوا رُسُلاً انْحَصَرُوا في ذرية آدم(ع)، وبعده في ذرية النبي نوح(ع)، وبعده في ذرية النبي إبراهيم(ع)، وراجع في ذلك دراسة الآية 34 من سورة آل عمران "{ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}". وهذه العائلة عاشت فيما يسمى بمنطقة الشرق الأوسط، لِذَٰلِكَ هذا الدين الإلهي الذي اشتهر منه ثلاثة فروع "يهودية ومسيحية وإسلام" ليس دِيناً شرق أَوْسَطِيّاً، بل عالمي، وها القرآن بمنطوقه ليس فيه أي خصوصية لقريش أو للعرب سوى أنهم كانوا مضرب مثل ونموذج في الأحداث التي جرت بينهم وبين الرسول الإلهي محمّد(ع).

بالنسبة لكيفية وُصُولِ كلامه تعالى للبقية، أنزل سبحانه كُتُباً "تَوْرَاةً وَإِنْجِيلاً وَقُرْآناً"، واعتبر أي ناقل لكلامه سبحانه كنذير وبشير لقومه كما نفهم من عموم القرآن ومن الآية 24 من سورة فاطر "{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}"، ومن الآية 122 من سورة التوبة "{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}".

ضَعْ في بالك دَائِماً الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى مَعَانِيَ قرآنية رائعة، تَصَوَّرْ شَخْصاً أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، هنا تحذّره من سلوك الطريق السيّء، لِأَنَّهُ حَالِيّاً ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية "{وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلاً مَّعْرُوفاً وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ...}"، والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران "{لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ...}".

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{29})
حَسَناً، نشر الرسول محمد(ع) التبشير والإنذار الإلهي، ومفاده أننا سنموت هنا في الدنيا، وسنعود إلى الحياة في الآخرة لنتحاسب ونتجازى... يَسْأَلُ بعض الناس السؤال التالي:

{وَيَقُولُونَ}: {مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ}، هذا الكلام عن حصول حساب بعد القيام من الموت متى سيحصل؟ ومن الآية التالية نفهم بوضوح أنهم يسألون عن الوعد بعودتهم إلى الحياة ومحاسبتهم، مَتَى الزمن لتحقيق هذا الوعد، {إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، إن كَانَ أَصْلاً سيحصل عودة إلى الحياة.

حتى لا يخطر ببالك أنهم يؤمنون بالآخرة ويسألون عن موعدها، تنقل الآية سؤالهم بطريقة تتضمّن أنهم لا يعتقدون بصدق وجود آخرة من أصله.

(قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ{30})
{قُلْ}، لهم عبر هذا القرآن:

{لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ}، لكم موعد في زمن لحصول ما يقوله سبحانه لكم عن رجعتكم إلى الحياة، {لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ}، عن الميعاد، {سَاعَةً}، لَا تَسْتَطِيعُونَ أن تجعلوا الموعد يتأخّر ولو لساعة، ولو لفترة قصيرة من الزمن، {وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ}، ولا يمكنكم أن تجعلوا الموعد يتقدّم عن وقته المحدّد ولو لساعة.

نلاحظ أَنَّ السؤال كان عن الموعد متى حصوله، والجواب لم يحدّد لهم الموعد بل وعدهم بأنه حين يأتي فلن يتأخّر ولن يتقدّم عمّا هو محدّد، فما الفرق إذا علمتم أم لم تعلموا بزمن الموعد؟

علينا أن ننظر للكلام من المنظور الإلهي لنفهمه، بِالنِّسْبَةِ له سبحانه الموعد محدّد معلوم له تعالى وسيحصل حَتْماً، ولكن لا معنى أَصْلاً لإخبارهم عنه، لأن من يموت سيفقد وعيه، ولو مرّ عليه مليارات السنين فلن يشعر بشيء... ومن ناحية ثانية سيأتي زمن تتبدّل فيه السماوات والأرض بينما نحن أموات، وحينها لا يوجد مقياس للزمن يمكن أن نفهمه نحن البشر، حيث لا دوران للأرض حول نفسها ولا حول الشمس... والشمس والقمر وبقية الكواكب والنجوم يتغيّر حالها...

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ{31})
{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا هذا الدين الإلهي بهذه العقيدة عن الآخرة:

{لَن نُّؤْمِنَ}، لن نعلن اعتقادنا، {بِهَٰذَا الْقُرْآنِ}، بهذا الذي تقرؤه وتقول بأنه نازل عليك من الإله، {وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ}، ولن نؤمن بالذي بين يديه من كتب أخرى قيل إِنَّهَا نازلة من الإله كالتوراة والإنجيل. لَا كتابك يعني لنا شيئا ولا ما تقول إِنَّهَا كتب نزلت من قبلك، وَهي بالنسبة لنا لا تعني أي شيء، وَهذا الامتداد التاريخي لدينك لا يقنعنا بأنه صحيح.

{وَلَوْ تَرَىٰ}، ولو يحصل عندك صورة محدّدة، {إِذِ الظَّالِمُونَ}، حين يكون الذين لم يكونوا محقين ولا منصفين، وهنا المقصود الأشخاص الذين أعلنوا أنهم لن يؤمنوا بالكتب الإلهية، فهم ظالمون بهذا القول، وَلم يكن معهم حق بل ظُلْمًا رفضوا الإيمان بها لأنها أدلّة وَاضِحٌ صحّتها، لو تراهم، {مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ}، لَا يمكنهم الذهاب حيث يريدون بل محجوزون عند المسؤول عنهم من مستوى إلهي، واقفون أمامه تعالى ولا يمكنهم الذهاب من أمامه، وطبعا أنت تعلم أنهم واقفون يتحاسبون، {يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ}، وَهذا الظالم يقول لذاك الظالم شيئا وذاك يرجع فيردّ القول له، وكمثال عن ترجيع الكلام لبعضهم البعض:

{يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا}، الذين كانوا ضعافا وتحت أمر غيرهم، وَكان موقعهم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي... ضَعِيفًا، وَهم من الناس العاديين التابعين للمسؤولين، يقولون، {لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا}، للذين رأوا أنفسهم أكبر من الآخرين وَكانوا يقودون الآخرين ويصدرون إليهم الأوامر:

{لَوْلَا أَنتُمْ}، لولا ما فعلتموه أيها المستكبرون، {لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ}، لكنا معتقدين ملتزمين بالدين الإلهي، وَبسببكم لم نؤمن.

بِالنِّسْبَةِ لكلمة "آمن"، لَمْ أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإِسْلَامِ أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بِالصِّحَّةِ..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، وَآمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كِلْتَاهُمَا تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ{32})
الآن يرجع القول من الظالمين الآخرين:

{قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا}، الذين رأوا أنفسهم أكبر من الآخرين، {لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا}، للذين عاملهم المستكبرون على أنهم ضعفاء: {أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى}؟! فهل أنتم كنتم تريدون أن تكونوا على الأشياء الصحيحة التي توصلكم للغاية الصحيحة ونحن اعترضنا طريقكم وَمنعناكم عن سلوك الهدى؟ {بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ}، بعد أن صار الهدى أمامكم. فما معنى كلامكم بأننا نحن سبب ضلالكم! فأنتم تقولون الآن إنَّ الهدى جاءكم ولكن بسببنا لم تؤمنوا، فهل حقا نحن منعناكم أن تؤمنوا! فإن كان الهدى واضحا كما تقولون ولم تؤمنوا به فلماذا تلوموننا؟!

{بَلْ كُنتُمْ مُّجْرِمِينَ}، لَيْسَ بسببنا لم تؤمنوا، بل كنتم مرتكبين للأعمال التي تستحقّون عليها العقاب، وَكان فكركم وسلوككم الإجرامي يتعارض مع دينه تعالى ويتماشى مع ديننا ولذلك لم تؤمنوا بالهدى.

هذه النقطة شائكة وفيها الكثير من التداخل، فالذي يتصدّى لرئاسة الناس، كزعيم عشيرة أو عائلة أو رئيس حزب أو نائب أو وزير أو رئيس... إنْ لم يكن له جماهير تدعمه أو عصابة صغيرة تنفّذ أوامره وتفرض ما يريده على الآخرين الساكتين... لَنْ يصير كبيرا مُسْتَضْعِفًا للآخرين. فإمّا الاستضعاف ناتج عن السكوت والخنوع بدلا من مقاومة عصابة المجرمين قليلة العدد، وإمّا ناتج عن الحالة التي تعرضها الآية هنا، وهي حالة رِضَا الناس أصلا بالفساد، فهم محبّون للعصبية والمذهبية والقومية... وجاءهم من يدغدغ هذه الرغبات فاتّبعوه... وهم محبّون للفساد من أفعال السوء كالمخدرات والقمار والزنا والتحايل على القانون... فيرفعون من يعتقدون أنه سيؤمّن لهم ذلك ليصير زعيما...

هُنَاكَ جانب آخر من الكلام وأوضح، تَحْتَ كل الظروف والأوضاع، وحتى لو كنت ممنوعا من الصلاة ومن أي ممارسة لدينه تعالى، وتتماشى غصبا عنك مع محيطك الكافر الذي سيعذّبك أو يقتلك أو يعذّب أحباءك... فإما أن تقاوم إن استطعت، أو تهاجر إن كانت المقاومة مستحيلة، أو تبقى مجبورا إلى حين يمكنك المقاومة أو المهاجرة، ولكن، من داخلك لن يتغيّر أي شيء، وَالكلام هنا في الآية عن يوم القيامة، حَيْثُ كل ما في داخلنا صار علنيا، وَالذي كان مؤمنا مستضعفا سَيَبْدُو إيمانه بوضوح في الآخرة، وَهنا كلام المستكبرين مع المستضعفين يسخر منهم، لأنه يبدو واضحا للجميع أَنَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ لم يكن في قلبهم ما يكفي من إيمان، فكانوا خانعين خاضعين للمستكبرين بإرادتهم ولم يفكروا لا بالمقاومة ولا بالمهاجرة.

(وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنداداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{33})
الآن يرجع القول من المستضعفين للمستكبرين:

{وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا}:

{بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}، مكرتم وَخطّطتم عن دراسة، وَكان شغلكم وضمن برنامجكم اليومي صدّنا عن الهدى. وما تسمعه في عصرنا هو نفسه الذي قاله المستكبرون قديما، يَقُولُونَ للناس إنَّ الدين الإلهي يقيّد حريتنا ويمنعنا مما نحبّ ونشتهي وفيه سعادتنا... وسيسبب تعاستنا... وَإِنَّ الرَّسُولَ "وَالْمُؤْمِنِينَ" يُرِيدُونَ التسلط علينا كحاكم ليفرض علينا ثقافته وعاداته...

حَتَّى نفهمها بشكل جيّد، نلتفت إلى غالبية الزعماء وَالسِّيَاسِيِّينَ على مرّ العصور بوعودهم الفارغة الكاذبة للناس التي لا يقصدون منها مصلحة الناس، فَهَمُّهُمُ الوحيد هو البقاء على رؤوس الناس، والبقاء في السلطة، ونهب المال... ومثلهم الكثير من علماء الدين الذين في الليل والنهار ليس لديهم كلام آخر غير العصبية المذهبية وبث ونشر الكراهية بين المسلمين، والكثير من المسلمين يظنون أن هذا هو الدين الصحيح! فيكرهون بعضهم ويقتلون بعضهم... وفي الحقيقة ما هو إلا مكر من المستكبرين من أكثرية علماء الدين وأكثرية السياسيين حتى يبقوا هم في مناصبهم ومراكزهم ينتفعون بالسلطة والمال والجاه...

لِنَرْجِعْ للآية: {إِذْ تَأْمُرُونَنَا}، أيها المستكبرون، {أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ}، ننكر أنه الإله الأحد، {وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا}، فنقول هذا ندّ لله تعالى وذاك ندّ لله تعالى... أي هذا مُسَاوٍ وَمُشَابِهٌ وَمُمَاثِلٌ لله سبحانه فهو ندّ له فهو إله مثله، وذاك ندّ لله... وبسبب أقوالكم هذه جعلنا لله تعالى شركاء في الألوهية.

{وَأَسَرُّوا}، أخفوا ولم يظهروا، {النَّدَامَةَ}، الشعور بالمضايقة من الأمور السيئة التي ستحصل معهم بسبب فعلهم للأشياء الْخَاطِئَةِ، {لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ}، عِنْدَمَا صار للضرر الذي سيصيبهم صورة محدّدة عندهم، وَصاروا والنار أمامهم تتأجج، يرونها ويسمعونها ويشعرون بحرارتها.

كما تلاحظ فِي يوم القيامة يوجد مرحلة يمكنهم فيها أن يسروا الندامة قبل أن يصيروا في العذاب، ولكن بعد أن يبدأ العذاب، يَصِيرُ الندم عَلَنِيًّا بالصريخ والعويل. ضَعْ في بالك أنك أمام مشهد ساعة من ساعات أيّام الآخرة، فهي ساعة يتلاوم فيها المستضعفون والمستكبرون، وهذا من تفاصيل مشاهد الحساب الجماعي للناس الذين كانوا مع بعضهم كقوم في مكان وزمان واحد...

{وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ}، وَالغلّ وصف لعموم ما هو ثقيل مزعج والكلام هنا عن القيود والأربطة، {فِي أَعْنَاقِ}، في رقاب، {الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا هذا الدين الإلهي. وَالعنق هو عموم ما كان ضيقا وقبله اتساع، وفي الإنسان هو ما تطاول من الوصلة بين الرأس والجسد، وبالعامية نسميها رقبة.

{هَلْ يُجْزَوْنَ}، هل المقابل الذي حصلوا عليه بهذا التعذيب، {إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}؟ هُمْ عملوا الكفر وفسدوا وأجرموا... فماذا سيعطيهم سبحانه بالمقابل على أعمالهم هذه؟ فما هو العدل والحقّ والإنصاف مع هؤلاء؟ إِنَّ هذا التعذيب هو المقابل التمام الصحيح الصواب المنصف العادل على كفرهم وظلمهم وإجرامهم.

ننتبه لهذه النقطة جيدا، هُنَاكَ أناس يقولون: هل التعذيب في جَهَنَّمَ بشكل لا نهائي "خالد"، هو جزاء عادل على الكفر والظلم وَالْإِجْرَامِ؟ مهما كانت جريمة الشخص، فهل يستحق الخلود في جهنّم! نعم يستحق الخلود والتعذيب العنيف، لِأَنَّ الهدى كان واضحا، ولم يكن معهم حقّ أبدا حين تركوه، وَقللوا من قيمة الإله سبحانه الذي خلقهم وَكفروا وأشركوا به واخترعوا آلهة من أوهامهم وخيالاتهم وفعلوا ما يعلمون أنه سيّء.

حَسَنًا، بعض الأحيان يكون الكلام العاطفي غير المدروس، خادعا: خلود في التعذيب القاسي في مقابل سبعين سنة من الإجرام كمعدل لحياة الناس؟ فليكن التعذيب سبعين سنة، مئة، أَلْفًا، حتى عشرة آلاف... ولكن خَالِدًا مؤبّدا! وبشدة عنيفة لا انقطاع لها! ويقولون إِنَّ هذا الكلام العنيف يصدر عن كائن غير طبيعي، يَصْدُرُ عن كائن عنيف لديه مشاكل نفسية... نعم هذا ما قاله البعض عن تحليلهم لنفسية الإله عزّ وجلّ، على أساس أنهم على مستوى عال من الفهم لدرجة تحليل نفسية الإله سبحانه! ولكنهم نسوا العدل والإنصاف، وَنسوا أنهم هم ليس لديهم معيار ثابت للعدل والحقّ، أمّا الإله سبحانه فمعياره ثابت، أَيُّ واحد من هؤلاء الإنسانيين العاطفيين الذين قلوبهم مليئة بالرحمة ولا يؤمنون بالعنف ولا بالعقاب العنيف، لو التقط مجرم ما طفلا لهم، وصار يعذّب الطفل أمامهم، حتى قتله أبشع قِتلة، فهل يبقى معيار العدل عندهم التعامل مع المجرم بأحسن معاملة في سجن لطيف في منطقة هادئة ويتغذّى بأحسن الطعام، ويبقى لفترة لا تتجاوز السبع سنين في السجن! لا، لن يقبلوا بهذا، بل سينقلب المعيار عندهم، وسيريدون أشدّ وأبشع العقوبات لقاتل طفلهم، وحتى القتل لن يشفي غليلهم، يَتَمَنَّوْنَ لو يتعذّب القاتل للأبد.

ماذا لو قتل المجرم وعذّب كل أَحِبَّائِهِمْ؟ بل لاحقهم حتى حطّم كل ما يسعدهم، وعمل على كل ما يتعسهم؟ فهل سيبقون عطوفين حنونين لا يؤمنون بالعنف مع شخص كهذا؟ هذا كلام فارغ، لِأَنَّ الكلام عن الإنسانية في هكذا حالات ما هو

إلا دغدغة خادعة للمشاعر ولكنه غير صحيح وليس على المعيار الصحيح، أما الله سبحانه وتعالى، فمعياره واحد: الكفر عقابه الخلود في جهنّم. الجريمة الواحدة كافية لتكون جريمة تستحق العقاب العنيف... وأمّا السبب الذي لا يفهمه المتذاكون من المحللين النَّفْسَانِيِّينَ، ويعلم به تعالى، أن قلب المجرم منطبع بالإجرام، فلو كان هناك فرصة ليتغير، لمنحه تعالى تلك الفرصة، ولكنه لن يتغير، ولذلك استحق العقاب الذي لا ينتهي.

من جانب آخر يتداخل سُوءُهُمْ هم مع رأيهم، لأنهم فاعلون للسيئات، ولا يرغبون بقانون دقيق سيطالهم هم ليجازيهم على سيئاتهم، ويصير هذا كخلفية عميقة ينبع مِنْهَا كلامهم عن الرأفة بالمجرمين، لأنهم بذلك ضمنا يطلبون الرأفة لأنفسهم.

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ{34})
{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ}، في مجتمع سكاني من البشر، {مِّن نَّذِيرٍ}، من شخص ينذرهم وَينقل لهم الخبر عن شيء سيّء قادم حتما لمن توافرت فيه شروط الحصول على العقاب الإلهي، {إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا}، المتطرفون باستعمال الشهوة والغريزة والمال والسلطة بشكل سيّء: {إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ}، أيها الرسول النذير، نحن ننكر العذاب على مخالفة ما تقوله وَلا نعتقد بأنه صحيح.

تلاحظ أَنَّ القرآن دائما يتعامل مع واقع الناس، عَادَةً هناك حكّام ووجهاء "ملأ" للمجتمعات ويتبعهم بقية الناس، وهؤلاء النافذون المطاعون عادة يشكلون معارضة لدينه تعالى الذي يتعارض مع مصالحهم السيئة، ويستفيدون من الهوى السيّء الذي تشاركهم فِيهِ الجماعات التابعة لهم، ومع لمسات محفزّة على التمسك بالعادات والتقاليد والموروث... ومحفزات النعرات المميزّة للمجموعات عن بعضها... والإضاءة على تحقيق مصالح خاصة لجماعاتهم... يُسَيِّرُونَ الجموع تحت تلك العناوين، ضاربين بعرض الحائط الحقّ والصلاح.

هذه المحركات تراها جَلِيًّا في حركة تاريخ المجتمعات وَهي على رأس أسباب النزاعات الفردية والاجتماعية وصولا إلى نزاعات على مستوى الدول، تَرَى زعيما أو زعماء يسيّرون الناس باتجاه الحروب بأشكالها المتنوعة من القتالية إلى الاقتصادية والثقافية... مستغلين عناوين العصبية للعرق أو الدين أو المصالح...

من وجهة نظر قرآنية لهذه الأحداث ترى تلخيصا لأسبابها بربطها بالصفات السيئة التي في مسيّري المجتمعات، بوصفهم بالمترفين أو المستكبرين أو المفسدين... أو الملأ. ووصفهم بالملأ كوجهاء ونافذين، يقصد السيئين الرافضين للدين الإلهي الذي يرون فيه ضربا لمواقع سلطتهم، حَيْثُ سيسحب البساط من تحتهم ليستلم السلطة العدول وَاللَّائِقُونَ بالوظائف العامّة من الصالحين... ومن جهة ثانية تلخيص أسباب وجاهتهم بنفسية وعقلية التابعين لهم، وَالتابعون لهم متماشون مع العناوين التي يطرحها الوجهاء.

هنا ترى وصف الملأ بالمترفين، ويتضمّن هذا الوصف معارضة الدين الإلهي لترفهم السيّء الذي لا يقبلون بالتخلّي عنه، وإن لم يتخلوا عنه وانتشر الدين الإلهي بين الناس فسيتجردون من سلطتهم.

(وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ{35})
{وَقَالُوا}، المترفون:

{نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا}، {وَمَا نَحْنُ}، لسنا، {بِمُعَذَّبِينَ}، أنتم تنذروننا من الضرر ونحن لن نتضرّر.

لاحظ أن بعض الكلام محذوف ولكن الجملة تبقى واضحة عندما تكمل قراءة الآيات، مَنْ يقول: {نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا}. يُشِيرُ إلى من يقابله من الْمُؤْمِنِينَ الذين لديهم أموال أقل وأولاد أقل، لو كان إلهكم أو آلهتنا تهتم بكم لكنتم أغنياء ولكان عندكم الكثير من الأولاد والأموال، ولكن يبدو الاهتمام بنا، مما يشير إلى صحّة طريقتنا في الحياة وخطأ ما تقولونه.

{وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}، هذا واضح لأننا هنا في الدنيا نرى حالتنا الجيّدة التي تؤكّد أن تديننا جيّد، وثقافتنا تقول بأننا لن نتعذّب.

بعبارة أخرى، نحن لن نتعذّب كما تُهَدِّدُونَنَا، وَهذا كلام فارغ عن تعذيب إلهكم لنا، لو كان كلامكم صحيحا لكان إلهكم غَاضِبًا علينا، وبما أنكم تقولون إِنَّهُ الإله الواحد الأحد المسيطر على كل شيء، فما تفسيركم لحالتنا الجيدة؟ لو كان إلهكم غير راض عنّا لكان من المفروض أن يحرمنا من النعمة بينما الواقع بالعكس، نحن أكثر مالا وولدا منكم... وطالما هذا غير صحيح، فَإِنْذَارُكُمْ لنا غير صحيح أيضا.

في الآية التالية وما بعدها سترى صَرَاحَةً أنهم هذا ما كانوا يقصدونه في كلامهم، ولكن قبل ذلك ضع في بالك أن كلام القرآن عادة عن نماذج، عادة الوجهاء أثرياء، ولكن ليس كلّهم لديهم أولاد، هُنَا الكلام عن نموذج المجتمعات القديمة التي كان من شروط الوجاهة فيها أن يكون للمتزعّم أولاد كثر يشكّلون عصابة كقوة ضاربة لمن يعارض أباهم أو عمّهم... المتزعّم. ومقاييس النموذج تختلف من عصر لآخر، في عصرنا يتبجّح الوجهاء بالمال وبالعصابة وبالحزب وبالجيش وبالأسلحة وبالقدرة الإعلامية... فلا تجمد على كلام الآية عن الأولاد وكأنه عامّ لكل الحالات والأزمنة والمجتمعات، لا، بل كلام القرآن عادة عن نماذج بارزة واضحة تقيس عليها ما يناسبها في الأزمنة والأمكنة الأخرى.

عبر التاريخ مرّت مجتمعات كافرة حالتها الاقتصادية والاجتماعية والأمنية... مزرية أمام مجتمعات منتمية لدينه تعالى حالتها أفضل، هؤلاء الكفّار لن يقولوا للمؤمنين بأن آلهتهم تعتني بهم... وَالآية هنا تتحدّث عن نموذج ملأ من الكفّار حالتهم بشكل عام أفضل من المؤمنين.

نفس الشيء بغالبية كلام القرآن عن شخص كافر غني، هُوَ يَتَكَلَّمُ عن تعلقّه بمتاع الدنيا كسبب يمنعه من الإيمان بدينه تعالى المانع له من المشتهيات السيئة، ولكن نفس الكلام لا معنى له مع كافر فقير، إِذْ لا معنى للكلام عن تعلقه بمتاع الدنيا بينما هو محروم من الكثير من ملذاتها، علما أنه حتى الكافر الفقير يكفر بدينه تعالى لانه يحرّم عليه مشتهيات سيئة، ولكنه بسبب فقره أو حالته العادية ماليا لن يكون مثالا واضحا عن التعلّق بمتاع الدنيا، والأسهل منه نموذج الكافر الغني، ولذلك ينتشر في القرآن استعمال الكافر الغني كنموذج، ومنه قصة صاحب الجنتين الكافر بنعمته تعالى كما ورد حول الآية 39 من سورة الكهف {وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا}

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ{36})
{قُلْ} عبر هذا القرآن للمترفين:

{إِنَّ رَبِّي}، إنَّ المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {يَبْسُطُ الرِّزْقَ}، يمدّ الأشياء التي نحتاجها لسدّ حاجاتنا ورغباتنا، {لِمَن يَشَاءُ}، أمامه تعالى خيارات عديدة وهو سبحانه لوحده يقرّر لمن سيبسط الرزق يَجْعَلُهُ غنيا أو ثريا... {وَيَقْدِرُ}، يجعل سبحانه الرزق بقدر والكلام عن كمية محدّدة قليلة، {لِمَن يَشَاءُ}، يقرر سبحانه من سيكون رزقه بكمية قليلة، يكون فقيرا أو مسكينا أو متوسّط الحال.

{وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}، سيطرته تعالى على الرزق واضحة ولكن هذه المعلومات مرّت على آذانهم وعقولهم ومشاعرهم ولم تستقر فيها ولم يقتنعوا بها أنها صحيحة.

نلاحظ أَنَّ العديد من آيات القرآن تشير لكفر أكثر الناس، وأكثر الناس لن يؤمنوا، وأكثر الناس لا يعلمون... ضع في بالك أنه من الأساس كان سبحانه يعلم بأن أكثر الناس لن تؤمن، هذه ليست مفاجأة له سبحانه، وَمرّ معك كلام عن ذلك في الآية 20 من هذه السورة.

إذًا هذا الرزق الذي حصلتم عليه، إنَّ ربي سبحانه هو الذي يمدّه لهذا من الناس يَجْعَلُهُ غنيا وثريا، ويقدّره لآخر يَجْعَلُهُ فقيرا أو متوسّط الحال، وتكملة الكلام في الآية التالية:

ولكن قبل ذلك، ها كلّنا بغالبيتنا الساحقة نريد الثروة والأولاد، فهل إصرارنا على ذلك كفيل بتأمينه لنا؟ لا، القلة القليلة منّا أثرياء، علما أَنَّ الكثيرين حاولوا وبشتى الطرق ليثروا ولم ينجحوا! وهذا بوضوح يريك أن تسيير الأمور نحو ثراء أحد ما ليس من قدرته الذاتية، هُنَاكَ قدرة فوقنا جميعا تقرّر ما سيحصل من توفيق أو تعسير.

طبعا لم يترك القرآن أسباب فقر هذا وثراء ذاك غامضة، وذكر لنا العناوين الأساسية لأن واقع حالنا فيه الكثير من التعقيدات، وسأذكر لك بعضا من التبريرات، هناك من يسّر له تعالى الثراء حتى يغرق أكثر في كفره، وتقرأ ذلك في

الآيتين 55 و 56 من سورة الْمُؤْمِنُونَ {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ، نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ}، والآية 178 من سورة آل عمران {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}، وهناك تبرير متداخل آخر تجده في الآية 27 من سورة الشورى {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ}، وَيَتَدَاخَلُ مع ما تقوله الآية 33 من سورة الزخرف {وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ}، وَمُتَدَاخِلًا مع 41 من سورة الروم {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، ومن هذا المقدار صار لديك صورة كافية ترى منها أسباب مشيئته تعالى الغنى لهذا الشخص أو المجتمع والفقر لذاك الشخص أو المجتمع.

أمّا عن آلية تدخله تعالى وكيفية فعله لذلك، عادة نحن نرى الأسباب الطبيعية لأسباب الأحداث، هذا خامل ولا أقارب أثرياء له ليرثهم أو يتفضّلوا عليه بثروة... سبب فقره معلوم، وذاك عامل نشيط يستغلّ الفرص ويخطّط... غناه سببه معلوم، بغض النظر عن تدخّله تعالى بشكل مباشر كما في حالة النبي سليمان(ع) حتى صار معه(ع) إمكانيات تؤمن له ملكا عظيما، هذا التدخّل الإلهي عادة نادر، هناك عادة تدخّل إلهي لا نفهمه! ولا نراه! بل نرى فقط الأمور تجري على الأسباب المعلومة، يوسف حسده إِخْوَتُهُ ورموه في البئر، وصادف مرور قافلة ذاهبة إلى مصر الْتَقَطَتْهُ من البئر، وَأُعْجِبَ عزيز مصر بالولد فاشتراه... والخلاصة أن يوسف صار في مصر في بيت عزيزها، وهذا ما سيمهّد له الاحتكاك بالطبقة الحاكمة... هكذا جرت الأمور كما نراها نحن بأسبابها الطبيعية، ولكن هي نفسها المجريات يقول عنها تعالى إِنَّهَا من تسييره لها بهذا الشكل وصولا إلى هذه النتيجة، وتقرأ ذلك في الآية 21 من سورة يوسف {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ...}.

نفس الشيء مع نموذج الشاب موسى الهارب إلى مدين بسبب قتله للمصري... وبعد سنين فيها عاد مع زوجته وأولاده إلى مصر مارّا بمنطقة سيناء، حيث في ليلة من تلك الليالي كلّمه تعالى... ويصف القرآن كل المجريات بأنها سارت مثلما قدّرها سبحانه إلى أن يصير موسى في سيناء في الليلة الفلانية في المكان الفلاني، كما تقرأ في الآية 40 من سورة طه {إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى}.

يعني هناك تدخّل إلهي في مجريات بعض الأمور بشكل مباشر، كفلقه تعالى للبحر... وهناك تدخّل إلهي لا نراه بل نرى الأمور تجري كأحداث متسلسلة مترابطة بينما سبحانه يقول بأنها سارت كما قدّر هو سبحانه حتى وصولها إلى النتيجة التي يشاؤها تعالى.

نفس الشيء بالنسبة لتوسعة الرزق وقدره علينا، عادة لن نرى تدخله تعالى المباشر في الأمور، وسنرى هذا غنيا بسبب نشاطه وتخطيطه... وآخر بسبب احتياله ونصبه وسرقته وَمُتَاجَرَتِهِ بالممنوعات... وآخر فقيرا بسبب كسله أو بسبب معاكسة الظروف له...

(وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ{37})

{وَمَا}، وليست، {أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى}، لا تصيرون أقرب إليه تعالى بدرجة أو درجات عندما يكون لديكم أموال وأولاد أكثر، فإن رزقكم سبحانه فهذا لا يعني أنكم مقرّبون منه تعالى أكثر من الآخرين، ولا يعني أنَّ لكم احتراماً ومكانةً عنده على قدر ما حصلتم عليه من أموال وأولاد، لا، لأنَّ هذه ليست القاعدة الصحيحة لتحليل ما حصل، {إِلَّا مَنْ آمَنَ}، من اعتقد بهذا الدين الإلهي، {وَعَمِلَ صَالِحًا}، وقام بالأعمال الصالحة الجيدة، خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، عملياً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادةً نفسّر {عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إنهم صلّوا وصاموا... وهذا عملياً صحيح، ولكن بالأصل الكلام أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموماً وحتى بين المؤمنين، أنَّ الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، حتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائماً أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأنَّ القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به.

هذا الكلام له عمق، حيث لا توجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. وهذا يعني إمّا أنه في قلبك خللٌ منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلاً سيئ" سيكون في الحقيقة اختراعاً من البشر ألصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمراً إلهياً.

{فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا}، يقابل سبحانه إيمانهم وعملهم الصالح بالضعف في الآخرة، وبدل الحسنة يحصلون على حسنتين "وأكثر"، وبدل الجنّة على جنتين "وأكثر" وبدل القصر على قصرين "وأكثر"... {بِمَا عَمِلُوا}، بسبب أعمالهم، لأنَّ أعمالهم ينتج عنها ما يسعدهم، وتتذكَّر أن أجر الصدقة بتفاحة لن يكون في الآخرة بردّها له تفاحتين، أو صندوق تفاح، أو بستان تفاح، لا، لأنَّ الحسنة بمثلها عنده تعالى تعني أن تفاحة واحدة كصدقة على فقير قربة لوجهه تعالى تساوي جنّة من الجنّات... {وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ}، لا يشعرون بأي نوع من الخوف أو القلق ولا أي احتمال لأي شيء يزعجهم ولا بأي شكل.

و{الْغُرُفَاتِ} جمع غرفة، وهي عامةٌ وصف الاحتواء في حيّز، كمغرفة أو غرفة باليد للتراب... وبالنسبة لنا هي المكان الذي له حيطان وباب أو أكثر ونافذة أو أكثر، ولم تصف الآية محتواها ولا شكلها... وأشارت لها بالاسم على أنها شيء مميزٌ، كما نقول نحن: هو الرجل. يعني فيه مواصفات الرجل التي تعجبنا. وفي القرآن هكذا أشار لكل ما في الجنّة على أنه الرائع فعلاً، تذكَّر مثلاً التعبير: {الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ}. فهي الحياة التي تسمّى الحياة لشدة روعتها. وهنا الغرفات نتصوّر أنها المجهّزة بكل وسائل الراحة والترفيه والسعادة... والإشارة لهذه الأماكن بسبب تميّزها كما نميّز نحن هنا غرفتنا الخاصة التي نجهزها بما يريحنا ويسعدنا.

نلاحظ أنَّ القرآن لم يصف ما في الجنّة بأنه حجرة أو حجرات، ويبدو أن السبب هو الفرق البسيط بين معنى الغرفة والحجرة، لأنَّ كلمة حجرة مشتقة من الحجر أي المنع، وهي اسم مكان يوصف بأنه مانع "يحجر" دخول الآخرين عليه، ولم يرد في القرآن وصف "الحجر، حجرات" لبيوت الجنّة، لأنَّ فيه شيئاً لا يتناسب مع واقع الجنّة، فهناك الأمان والراحة والسلام والطمأنينة... بحيث إنه ولا لحظة سيمر شعور بإمكانية انزعاج من الآخرين حتى يحتجر المؤمن في حجرة مانعة من رؤية الآخرين له أو مانعة من دخول الآخرين عليه، وهنا سنتصوّر المؤمن إن أراد الاختلاء عن الآخرين من أهل الجنّة فيمكنه ذلك بسهولة ولا يحتاج للاختباء بحجرة، لأنَّ الجنة للجميع بعرض السماوات والأرض، وبناءً عليه هناك مساحات هائلة كجنان لكل مؤمن لوحده...

نلاحظ تعابيرَ قرآنيةً مختصرة تحوي الكثير من المعاني في داخلها وفهمناها من آيات أخرى، هناك الشعور بالأمن في تلك الغرف من أصغره لأكبره، حيث لن يخطر ببالك أن أحداً ما سيعتدي على أملاكك ويدخل عليك بالقوة، ولن يخطر ببالك أن يطردك أحد من ذلك المكان، ولن يخطر ببالك أن المكان سيخرب... وهذه أمور فهمناها من مختلف القرآن ولذلك توسّعنا في تطبيق معنى الأمان، لأن الآية قصدت المقارنة بين ما للمؤمن في الآخرة وبين من يملك المال والولد هنا في الدنيا، من أين له الأمان ببقائهما له ومعه؟ لا يوجد أمان بذلك، والمشترك بيننا كلّنا أننا سنموت ونفقد كل أملاكنا... فالأمان الحقيقي هناك فقط في الآخرة.

وردت عدَّة مرات في القرآن نفس المعاني عن معايير الكرامة عنده تعالى وحصرها بالإيمان وبالعمل الصالح وليس بكثرة الرزق الذي معنا في الدنيا، وأهمها ما ورد في سورة الفجر من أولها لآخرها.

(وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ{38})

{وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ}، لديهم فعل وحركة يقصدون بها شيئاً، {فِي آيَاتِنَا}، في الأمور المميَّزة المنسوبة له تعالى، والتي تدلُّ على توحيده سبحانه وعلى قدراته وصفاته الفائقة، وتدل على صدق وعده تعالى بالآخرة... {مُعَاجِزِينَ}، يسعون أن تبدو الآيات عاجزة وعادية وليست آيةً فتفقد دلالتها.

الآيات الإلهية مميَّزةٌ وهي دلائل... وتدلُّ على أشياء عديدة، حيث تدلُّ على التوحيد، وعلى وجوب اتباع الرسل، وتدل على حقيقة وجود الآخرة والحساب... ولكن هناك أناسٌ يسعون ويعملون عن قصد ليجعلوا تلك الآيات تبدو عاجزة عن إثبات أي شيء، ويقصدون جعلها كاذبة أو بلا قيمة.

{أُولَئِكَ}، المعاجزون في آياته تعالى، {فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ}، حيث لديه سبحانه ضرر جاهز لهذه النوعية من الناس، وهم سيحضرون إليه ومعلوم أنهم سيأتون إليه حتماً من بعد بعثهم من الموت.

حسناً، الفقرة هنا بدأت بالحديث عن رسل ينذرون الناس، فقال المترفون إنَّ كلام الرسل غير صحيح، بدليل أنهم أغنياء ولديهم أولاد مع أنهم لا يؤمنون بدين الرسل، وبالتالي لو كان كلام الرسل صحيحاً لما حصلوا على الرزق وهم يكفرون بربّ الرسل الإله الأحد الرازق... هنا تخبرنا الآية أن هذا الكلام هو سعي في معاجزة آيات الله تعالى، لأنَّ بكلامهم غير الصحيح عن آيات الله تعالى، وبالخصوص عن آية تقديره وبسطه للرزق، حوَّروها وصارت دليلاً على فساد الدين الإلهي!

تصوَّر أن كل من كفر غنيٌّ! فهل هذا صحيح؟ لا. الآن تصوَّر أن كل متدين فقير! فهل هذا صحيح؟ أيضاً لا، ولكنَّ المترفينَ يصوِّرون الوضع كأنه حالة عامّة شائعة، بل يحاولون تثبيت قاعدة أنَّ الدين لو كان صحيحاً لكان المؤمنون كلّهم أغنياء، ولما كان يوجد بين الكفّار أغنياء. وهذا الكلام غير صحيح، ويسمّيه القرآن: محاولة إعجاز بآيات الله تعالى. الآية الإلهية هي سيطرته تعالى على بسط وتقدير الرزق، وهذا واضح جداً جداً، حيث إنَّ الغالبية منّا يسعون ليكونوا أغنياء وأثرياء، والقلّة ينجحون بذلك، مما يشير إلى ما يفوق قدرتنا على فرض ما نريده ونرغب به، وهو سبحانه الذي يبسط ويقدر، بحكمته، وهذا على معنى الكلام المنسوب للإمام علي: عرفت الله بفسخ العزائم وحلّ العقود ونقض الهمم. فمهما صمَّمتَ وخطَّطتَ... فالنجاح ليس محسوماً لأنه تعالى قد يشاء بحكمته أن لا تنجح... وهؤلاء المترفون تلاعبوا بهذا الواقع الذي هو آية واضحة حتى صارت تبدو عاجزة عن إثبات السيطرة الإلهية، وبالعكس، حوّروا الآية "سيطرته تعالى على الرزق مدّاً وقدراً" وصارت دليلاً على صحَّة كفرهم!

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ{39})
{قُلْ إِنَّ رَبِّي}، إن المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {يَبْسُطُ}، يمدّ، {الرِّزْقَ}، الأشياء التي تحتاجونها لسدّ حاجاتكم ورغباتكم، {لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}، أمامه تعالى خيارات عديدة لتحديد مستوى رزق الذين مفروض منهم الطاعة لأنه تعالى إلههم، ووحده سبحانه يقرّر لمن سيبسط الرزق فيجعله غنياً أو ثرياً، {وَيَقْدِرُ}، ولمن يشاء سبحانه يحدّد كمية الرزق فيجعلها بقدر قليل.

ما ترونه من بسط وتقدير هو آية ربانية، وكلامك عن تحريفها لن يغيّرها، حيث من الواضح أنه يوجد قدرة قاهرة فوقكم جميعاً تحدّد رزقكم، ولولا ذلك لكنتم اخترتم أن تكونوا كلّكم أغنياء، لماذا لستم كلكم أغنياء أيها الكفّار؟ من الواضح وجود قدرة فوقكم هي تتحكّم بالرزق.

هناك آيات أخرى من القرآن تحدّثت بالتفصيل عن أسباب بسط أو قَدْر الرزق، وهنا التركيز فقط على ظهور السيطرة الإلهية على الرزق.

{وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ}، أيُّ شيء تصرفونه، {فَهُوَ}، سبحانه، {يُخْلِفُهُ}، لأنَّ الرزق لن ينتهي من بيئتكم إن أنفقتموه، لن يذهب ما صرفتموه ويختفي كأنه شيء حصل وانتهى ولم يبق شيء للآخرين، لا، لأنَّ بيئتكم صمَّمها تعالى ليكون الرزق فيها متوافراً باستمرار، {وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}، والفعل الإلهي الذي وصفه خير، كخير الرازقين الوارد هنا فهو وصف مطلق، سبحانه وبدون المقارنة مع أي أحد آخر فهو خير من يوصف بهذه الأوصاف بشكل تامّ كامل، الغافر يتجاوز عن الخطأ، ومن يتّصف فعلاً ودوماً بأنه غافر "بحكمة وعدل" فهو خير موصوف بالمغفرة حتى لو كانت كل

المخلوقات لا تغفر، وحتى لو لم يسبق في التاريخ وجود أي كائن يغفر أو يرزق أو يخلق... وكان وحده تعالى يغفر أو يرزق أو يخلق، فهو خير الغافرين وخير الرازقين... لأنه تعالى يصدق عليه ذلك تماماً بلا أي عيب أو نقص.

هذا لا ينفي المقارنة بينه تعالى وبين المخلوقات التي ترزق غيرها، حيث إنها تَمُنُّ عليهم، وتعطيهم من الفضلات، ولا تعطيهم النوعية التي يرغبون بها، وتقيّد موارد رزقهم عبثياً ومزاجياً... أما الرزق الإلهي فهو دائماً حسَنٌ.

تذكَّرْ ما ورد في السورة عن بسط الرزق للنبيَّينِ داوود(ع) وسليمان(ع)، وبسط الرزق ثم قَدْرَه عن سبأ.

توسَّعنا في معنى كلمة عباد في الآية 13 من هذه السورة فراجعها.

بالنسبة لكلمة "خير" في استعمال القرآن كثيراً ما نستنسب تفسيرها على معنى "أفضل"، وأحياناً يصدق هذا المعنى بالتبعية من فحوى الكلام، ولكن بعض الاستعمالات القرآنية لنفس الصياغة تريك أنه لم يقصد بكلمة خير أن تكون رديفاً لكلمة أفضل، وكمثال واضح عن ذلك ما ورد في الآية 16 من سورة العنكبوت {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، لأنَّ مرادفتها بأفضل في أمثال هذه الآية سيعطيك معانيَ غير دقيقة بل وغير مقبولة إلا إذا حملت معنى الأفضل على عموم المقابلة بين الأسوأ والأحسن، ولكن هذا ليس معناها بل هذا معنى كلمة خير، وكلمة "أفضل" في أشعار العرب قبل الإسلام محصورةٌ بين الحسن والأحسن، لو قلت إنَّ الإيمان أفضل لكم فهذا يعني أن الكفر حسنٌ والإيمان أحسن، لا، لأنَّ الإيمان خير لكم مما يعني ضمناً أنَّ الكفر سوءٌ لكم.

لم يستعمل القرآن كلمة أفضل بتاتاً، واستعمل التعبير بالخير وهو أوسع بالمعنى، حيث إنه يقابل الشرّ كما في الآية 11 من سورة النور {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}، واستعملها بمعنى ما يقابل الحسن فالآخر أحسن وليس شراً، كما ورد في الآية 271 من سورة البقرة {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}، لأنَّ إبداء الصدقة ليس سوءاً وإنما إخفاؤها أحسن، وهنا يمكن استعمال كلمة أفضل.

يعني لا ترادف "خير" بـ "أفضل"، فهما في بعض سياق الكلام يتقاطعان تطبيقياً حيث يكون اللذانِ تقارن بينهما كِلَيْهِمَا جيدينِ، عندها يصدق قول خير أو أفضل، ولكن حين يكون الكلام عمومياً يشمل ما كلاهما جيِّدان ويشمل أيضاً ما أحدهما جيد والآخر سيِّئٌ، ويشمل الوصف مطلقاً بمقارنة الحسن مع مطلق الوصف بالحسن، فحتى لو لم يكن هناك طرف آخر للمقارنة والمقارنة مع مطلق الوصف، كوصفه تعالى بخير الرازقين وخير الحاكمين... فهو تعالى بالمقارنة مع وصف الحسن مطلقاً كرازق وحاكم فهو خير موصوف بذلك، فكلمة أفضل ليست وصفاً صحيحاً لهذه الحالات وكلمة خير صحيحة.

بقي شيء تشير له الآية وستراه لو افترضت نفسك أنت صمّمت وخلقت بيئة فيها كائنات، وجعلت الكائنات تجوع لتأكل وتنمو وتتكاثر... وجعلت بيئتهم ينتج عنها الطعام، هذا رزقٌ أتحته لهم، وأنت رازقهم حتى لو هم زرعوا وحصدوا وطهوا... لأنَّ كل ما يفعلونه هو التصرّف بالقدرات التي جعلتها فيهم وفي البيئة التي خلقتها لهم، وها أنت ترى الكافرينَ لم يؤمنوا برازقهم ويرون أنهم أغنياء بمجهودهم، فهم خطّطوا وهم عملوا، ونتج عن ذلك تجميعهم للرزق من معادن ومنشآت وطعام... وعلى نفس المفهوم للرزق ينسب سبحانه بقية الأمور لنفسه كنزول الماء وجريان الرياح وموتنا... لأنَّ هذه تحدث من تصميمه وخلقه تعالى لنا ولبيئتنا.

لنتطرَّف في الكلام، هل سيؤمن الكافرون برازقهم لو فجأةً انبثقت أمامهم وجبات طعام مطهية ساخنة ومعها شراب صودا بارد وتحلية؟ وعندها سيقولونَ إنَّه تعالى رزقهم؟ لا، لن يؤمنوا، وسيخترعونَ نظريات عن الطاقة والمادة نتج عنها سندويشات شاورما جاهزة.

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ{40})
{يَوْمَ}، وفي الزمن الذي، {يَحْشُرُهُمْ}، يجمعهم بقرار منه تعالى سواء قبلوا أو رفضوا، {جَمِيعًا}، بدون استثناء، {ثُمَّ يَقُولُ} سبحانه {لِلْمَلَائِكَةِ}(ع):

{أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ}؟ هل كانوا يتصرفون على أساس أنهم عبيد لكم فمفروضٌ منهم طاعتكم، فيؤلّهونكم ويدعونكم ويتقربون منكم...؟

ننتبه جيداً، عبر التاريخ قلّد بعض المنتمين لدينه تعالى المشركين في بعض عقائدهم وتشريعاتهم، وأبرز حالة عن ذلك عقيدة التثليث "الإله الأب والابن والروح القدس"، وبعض العقائد الأخرى... فانبرى بعض المتذاكين ليصوّر كل الدين الإلهي كتقليد لأديان المشركين، على أساس أنَّ الإله والدين شيءٌ اخترعه البشر، والدليل هو استنساخ المنتمين لدينه من المشركين العقائد والتشريعات مع التعديل عليها... وفاتهم أن دينه تعالى يمتدّ إلى آدم(ع)، إلى آلاف من السنين من الوحي الإلهي الذي استمر على نفس العقيدة وأساسيات الصلاح بالشريعة إلى الرسول محمَّدٍ(ع)، وفاتهم أنَّ الشواذ الذي فعله بعض المنتمين لدينه تعالى تحدَّث عنه القرآن بصراحة وشفافية ووضوح ولم يتهرّب منه ليخفيه، وتلاحظ ذلك مراراً في القرآن أثناء كلامه مع الكفّار عن شيء خطأ سيّء يفعلونه، وهذا الشيء هو نفسه فعله بعض المنتمين لدينه تعالى، حيث ترى الآيات تقفز من الكلام مع الكفّار إلى الكلام مع أهل الكتاب عموما أو مع بني إسرائيل أو النصارى بالخصوص... وراجع كمثال عن ذلك الآية 138 من سورة الأعراف {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}.

فاتهم أنَّ المشركين نسخوا الكثير من كلام الدين الإلهي العقائدي والتشريعي وشوَّهوه ليصير كفراً... وخذ مثلاً عقيدة الانتقال إلى عالم الأرواح بعد الموت، التي لها نسخ متعددة مختلفة من ثقافة إلى أخرى، والمشهور منها عقيدة المصريين القدماء وعقيدة اليونان والرومان القدماء... وعموم الأرواحيين من طاوِيِّينَ وبوذيين... حالياً. وكما ترى بالمقارنة مع ما يقوله القرآن وما يقوله هؤلاء، فالامتداد التاريخي للعقيدة الإلهية الصحيحة هو الأصل وهؤلاء نسخوا بعض ما فيها وشوَّهوه ليصير على هواهم.

هنا نحن أمام من عبد الملائكة(ع)، وهذه تسمية قديمة جداً لنوع من الكائنات، وملتصقة بالدين الإلهي، وها ترى أنَّ بعض المشركين تلاعب بشيء أساسه من دينه تعالى، ليصير جزءاً من ثقافتهم الشركية، حيث سمعوا من الدين الإلهي عن كائنات بقدرات عالية وسبحانه يوظفها بتنفيذ مهامّ متعلِّقةٍ بنا وببيئتنا وشؤون من الدنيا... فهذا مَلَكٌ لتوفّي الأنفس وذاك للحفظ وكتابة الأعمال والشهادة... ولنصرة المؤمنين... فنسخ الكفّار ذلك واخترعوا آلهة لهم من خيالهم تشابه في بعض مواصفاتها ما ورد في كلامه تعالى عن الملائكة(ع)، بل بعضهم أخذ تسمية الملائكة من دينه تعالى وجعلهم آلهة.

كمؤمن بدينه تعالى ستستغرب أن يعبد المشركون الملائكة(ع)، وتقول إنهم لو عرفوها فهذا يعني أنهم على شيء من دينه تعالى فكيف انحرفوا عنه سبحانه ليعبدوا الملائكة(ع)؟ أمّا كمتفلسف متذاكٍ مثل مؤلفي الكتب التحليلية عن الدين الإلهي، فبكل بساطة ومن دون دليل، سيقولون إنَّ الكفّار اخترعوا فكرة الملائكة(ع) و"إبراهيم" طوّر الفكرة لتصير من عقيدته!

قرأت للكثيرين منهم ولم أفهم كيف سحبوا كلّ شيء عقائدي وتشريعي من الأنبياء وجعلوا أساسه عند الآخرين كحمورابي والفلاسفة... حتى لو تماشينا معهم في تحليل الآثار والتاريخ، واقتنعنا بأن البشر اخترعوا الدين ومن ضمنه سلّمنا جدلاً اختراعهم حتى لهذا الدين الإلهي... "وبشكل ما هذا الكلام صحيح حيث اخترع الناس أشياءَ كثيرة فاسدةً وألصقوها بدينه تعالى"، فلو تغاضينا عن كلّ ذلك مع أنه غير صحيح تماماً، فلم أفهم كيف لم ينسبوا ولا اختراعاً واحداً لأي واحد من الأنبياء والأمم المؤمنة بدينه تعالى! ويصرّون على أنَّ ديننا كلّه بعقيدته وشريعته وسلوكياته وأخلاقياته وتاريخه ومجريات الأحداث المتعلِّقة به... كلّها منحولة من الآخرين!

حتى توحيد الإله الذي هو لبّ هذا الدين، لم يسلم منهم وكذباً قالوا إننا استوردنا هذه العقيدة من الآخرين! يعني ولا شيء "اخترعه" المنتمون لدينه تعالى، ولا شيء، وكلّه استوردوه من الآخرين؟! هذا ما لم أفهم كيف يقولونه وهم يدّعون الفهم والعلمية والأكاديمية... على الأقل فلينسبوا ولو شيئاً واحداً للمنتمين لدينه تعالى أنهم هم اخترعوه!

أطلت عليك ولكن لترى شدّة سخافتهم وقصدهم لمحاربة دينه تعالى، وأنهم فيما يسمّى بدراساتهم لا يحللون عن عقل ومنطق، بل لديهم نيّة مبيّتة للصدّ عن دينه تعالى، فسلسلةٌ طويلة ممتدة لآلاف السنين من الأنبياء والمؤمنين، لم يخترع ولا واحد منهم أي شيء، بل نقلوا كلّ شيء عن "حضارات" كافرة! هذا ما تجده في كتب هؤلاء المتذاكينَ المتلاعبينَ بالكلام، المنمِّقينَ لكتبهم بأخبار عن آثار قديمة ومخطوطات... المروِّجينَ لكتبهم بشهادات يوزعونها على بعضهم كإحالات ومراجع من هذا لذاك لتعطيهم المصداقية "العلمية"... فالأصل عندهم هو اختراع الإنسان للدين والإله، والبداية مع دين الشرك وبعده اخترع الناس دين التوحيد وكان كلّه تقليداً لدين الكفر! ولا واحد من الموحدين اخترع ولا

أي شيء، فقط إبراهيمُ اخترع التوحيد "أو نسخه من دين ما" والباقي كلّه تقليد! وكأن ذلك سيغيّر الحقيقة ويخدع ذوي القلوب السليمة... لا، سيتماشى معكم الجهلة أمثالكم، ويحترمكم ويعتبركم علماء فقط السخفاء أمثالكم.

أمّا بالنسبة لاختراع البشر للدين، فهذا في جانب منه صحيح ولكن ليس على المعنى الذي يقوله الذين نسميهم بالملحدين "المنكرين للإله" أو المنكرين من أصله تواصل الإله مع البشر، بل على الطريقة القرآنية التي ترينا أنه تعالى جعل فينا قدرة التعرّف عليه مما فعله تعالى من تصميم وخلق لما في الدنيا، فنحن لم نخترع الدين بشقيه العقائدي والتشريعي، بل تعرّفنا عليه تعالى من أفعاله، فآمنا به من آياته، وسبحانه جعل فينا قدرة تمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، حتى تكون تشريعاتنا وسلوكياتنا صالحة، وهذا هو نفسه تشريعه تعالى، ودينه تعالى "عبر قرآنه هذا أو عبر كتبه وأنبيائه السابقين" لا يعرض علينا معلومات غريبة عجيبة لتؤمن بها على عماها، بل يؤكد لك ما ستصل إليه من تعرّف على الإله ووحدانيته وصفاته الحسنى وقدراته الفائقة من تفكّرك بآياته تعالى، ويعرضه عليك عبر رسله وكتبه لتقوّم ما فسد من فكرك بسبب تعلّقك بسوء ما... ونفس الشيء بالنسبة للتشريعات فدينه تعالى يعرض علينا ما يمكننا نحن رؤيته صلاحاً ولنقوم تشريعاتنا وسلوكياتنا بعدما فسدت بسبب حبّنا للسوء...

نعم وبشكل ما اخترع البشر الدين، والعقيدة الصحيحة هي الناتجة عن التفكّر في آياته تعالى بسلامة قلب، والشريعة الصالحة هي الناتجة عن سلامة القلب، وكلاهما يتماشيان مع كلامه تعالى معنا عبر أنبيائه ورسله وكتبه.

الكلام يجرّ الكلام عن هؤلاء المدّعين للعلمية والأكاديمية، فأحدهم له كتاب سمّاه "أنبياء سومريون"، مدّعياً فيه أن الدين الإبراهيمي نسخة محدّثة منقحة عن ديانات كانت منتشرة قديماً في بلاد ما بين النهرين، وغرق في إصراره على هذه الفكرة حتى صار لا يرى أمامه إلا ما في خياله، ومثله كتّاب آخرون تناولوا نفس الموضوع مصرّين أنه لا إله من أصله، أو مصرين أنه لا إله تواصل مع البشر وكل الأديان من اختراع الناس...

في كتابه عرض مطوَّلٌ لأديان المشركين في منطقة ما بين نهري دجلة والفرات "العراق حالياً"، وافتتن بحضارة بلده مثله مثل أي باحث آخر لا ينتبه لخلفيات السوء هذه التي تعميه عن رؤية الواضحات أمامه، فما عرضه لا يتشابه مع القرآن بأكثر من واحد في المئة من قصص الأنبياء من آدم إلى ما قبل النبي نوح(ع)، والتشابه مع قصة الطوفان درسناها في سورة نوح، وما ذكره لا يتشابه مع الروايات "التي نعتبرها بلا قيمة ونسميها بالإسرائيلية لأنها منقولة من مصادر يهودية"، ولا يتشابه مع التوراة بأكثر من خمسة في المئة على أحسن تقدير، ويتشابه بقرابة العشرة في المئة مع كتب روائية يهودية لا يعتبر عموم علماء اليهود لها قيمة علمية، ورغم ذلك تراه يدّعي بإثبات صحّة كلامه وأن اليهود استوردوا دينهم من حضارات بلاده السومرية والكلدانية والأكادية والأشورية... وذلك من بعد ليّ وتعديل وتنقيح واحتمالات وتقريب واحتمالات ترجمات مختلفة... للأسماء حتى تشابه أسماء الأنبياء!

لسنا ننفي تأثّر العديد من المنتمين لدينه تعالى بثقافات الآخرين، ولذلك جاء هذا القرآن إلهياً صافياً من جديد، وللأسف عاد الناس من بعده إلى الموروث وإلى استيراد ما يعجبهم من الآخرين، ودخل ذلك فيما يسمونه بالمرويات التي فسروا القرآن بها، ولن أطيل عليك هنا بما عالجناه في عموم الآيات التي حرّف الناس معناها بمروياتهم، فراجع في دراستنا لترى المعنى الأساسي لكلامه تعالى خالياً من إضافات الروايات.

(قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ{41})
{قَالُوا}، الملائكة(ع):

{سُبْحَانَكَ}، نعلن أننا ننزّهك حيث لستَ موصوفا بأي صفة ناقصة، لو طلبنا منهم أن يعبدونا لكنّا بذلك لا ننزّهك لأننا نجعل أنفسنا شركاء لك في الألوهية، وهذا يعني أنك لست الإله الأحد ولا الأعلى ولا الأكبر ولست بالقدرات الفائقة فوق الجميع... وهذا غير صحيح، لأننا ننزّهك عن أن يكون لك شريك وننزهك عن أي عيب أو نقص أو صفة سيئة، {أَنْتَ وَلِيُّنَا}، حيث نعتبر أنفسنا تابعين لك، {مِنْ دُونِهِمْ}، ونترك كل شيء ونواليك، عندما عبدونا لم نوالهم ولم نعتبر أنفسنا معبودين، ولم نتجاوب معهم، لأننا نواليك أنت وحدك، ونعتبر أنفسنا تابعين لك ولن نقبل أن يعتبر أحد ما نفسه تابعاً لنا.

{بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ}، يعتبرون أنفسهم عبيداً مملوكين للجنّ، ويألّهون الجنّ ويدعونهم... ونحن لا علاقة لنا، {أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ}، بالجنّ، {مُؤْمِنُونَ}، يعتقدون بأن الجنّ لديهم قدرات عالية من مستوى إلهي.

تذكَّرْ أن الجنّ مخلوقات من نار، وإبليس منهم، ولديه أعوان من الجنّ شياطين مثله يعملون على الوسوسة في عقول الناس ليضلّوهم عن دينه تعالى، يوسوس الجنّ في عقول الناس ليعبدوا الملائكة(ع)، والملائكة(ع) لا علاقة لها بالموضوع، وبهذا يكون الناس عبدوا الجنّ لأنهم تركوا طاعة خالقهم وأطاعوا الجنّ.

يوجد حالات يوسوس بها شياطين الجنّ للناس ليعبدوهم على أساس أنهم ملائكة، يتصرَّف فيها بعض الناس بشكل مباشر كأنهم عبيد للجنّ "على أنهم ملائكة"، ويعبدونهم صراحة، ويدعونهم ويصلّون ويصومون ويقدمون لهم النذور والبخور... لأنهم يعتقدون أن الجنّ "الملائكة" يعلمون الغيب، ويمكنهم كشف الخبايا، وإحضار الغائب وجلب الحبيب وإلقاء المحبّة واستخراج الكنوز... تورَّط الكثير من الناس بترك الله تعالى واتباع السحرة ومحضّري الجن والأرواح... وهم لا يدرون أنها ولاية شرك، وأنه تعالى يعتبرها عبادة للجنّ. راجع ما يفيد حول هذا الموضوع الآيتين 101 و 102 من سورة البقرة اللتين تتحدثان عن ترك اليهود لكتابه تعالى واللهث حول تعلّم السحر.

نلاحظ أنَّ الآيتين هنا تشرحان لنا أن عبادة الناس للملائكة لم يتورّط فيها الملائكة(ع) لا من قريب ولا من بعيد، ولكن الجنّ تورطّوا فيها، ضَعْ في بالك دائماً عندما يقول القرآن إنَّ الناس وما يعبدون من دون الله تعالى هم في جهنّم، وكمثال عن ذلك الآية 98 من سورة الأنبياء {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ}، صار واضحاً أن الملائكة(ع) والأنبياء(ع) والصالحين لا علاقة لهم بهذا الموضوع، ولن يتحاسبوا عليه، بل الكلام عن الجنّ والإنس، وبالتحديد عن شياطين الجنّ والإنس الذين سيتم رميهم في النار مع المشركين، أمّا الجنّ الصالحون والناس الصالحون والملائكة(ع) فهؤلاء حتماً لا علاقة لهم بمن عبدهم لأنهم لن يقولوا للآخرين أن يعبدوهم.

تتذكّر أن الكثير من كلام القرآن عن نماذج، وتتذكّر أن عقائد المشركين ليست ثابتة، بل هي متنوّعة ومختلفة ومتقلبة، حيث يعتقد بعضهم أن الجن ملائكة عصاة، وحتى بعض المسلمين والكثير من أهل الكتاب يقولون إنَّ إبليس كان من الملائكة... وهكذا تفهم كلام الآية هنا أنه عن نموذج الذين عبدوا الجنّ معتقدين أنهم يعبدون الملائكة، سواء اعتقدوا أن الجنّ ملائكة، أو الجنّ وسوسوا لهم ليعتقدوا أنهم ملائكة... أو...

هناك مسألة أخرى، كلمة ملك ملاك ملائكة، بالأساس هي اشتقاق وصفي لمن يملك شيئاً ما، وبعدها صارت اصطلاحاً كاسم لنوع من الكائنات، أو وصفاً لعموم من يملك صفات أو قدرات تملكها تلك الكائنات، نقول عن الطفل إنه ملاك، ونقصد أنه محبوب وعاقل... ونقصد حمله لبعض الصفات المميزة التي في الكائنات المسماة بالملائكة، وكلمة بشر نفس الشيء حيث تشير للبشرة وبعدها صارت اسماً لنوع من الكائنات...

ما أقصده أن الآية هنا بكلامها عن الناس الذين عبدوا الجن معتقدين بأنهم يعبدون الملائكة، هم وبضبابية يؤمنون بقدرات عالية من مستوى إلهي عند بعض الكائنات، والدارج "عادة" تسمية من يملك هذه الصفات بأنه ملاك حتى لو كان من الجنّ، وكما ترى صار الكلام فاقداً للعقلانية والسبب أن المشركين عقائدهم فاقدة للعقلانية ومتقلبة...

(فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعاً وَلَا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ{42})

{فَالْيَوْمَ}، في زمن الحساب في الآخرة، {لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا}، لا يمكنكم أن تنفعوا بعضكم، ولا تستفيدون من بعضكم بإعطاء الثواب، بالشفاعة، بالدفاع عن بعضكم، بأخذ الذنوب عن بعضكم... {وَلَا}، يملك بعضكم لبعض، {ضَرًّا}، لا يمكن أن يغيّر أحدكم حالة أحد آخر إلى الأسوأ بإرادته، ولا يمكنه أن يزيد من عذاب غيره، ولا يمكنه تشديد نوعية العذاب لغيره... في ذلك الزمن لا حول لكم ولا قوّة أيها الجنّ السيئون وأيها الناس الذين عبدوهم.

طبعاً لا ننسى أن الملائكة(ع) أيضاً لن تنفع ولن تضر المشركين الذين عبدوهم لأنَّ قرار تعذيبهم ليس بيد الملائكة، ومن البديهي أن الملائكة(ع) لا تأخذ القرارات في الآخرة، ولكن الملائكة(ع) تضرّهم، لأنها تلعنهم ولعنتها مستجابة، بل البعض من الملائكة(ع) موظّف بإلحاق الضرر بهم بالضرب والإهانات... ونعرف من القرآن منهم ملاكاً ورد الكلام عنه في الآية 77 من سورة الزخرف {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ}، المقصود هنا أنّ الجنّ

الشياطين والناس المشركين لا يمكنهم نفع أو ضرّ بعضهم في يوم الحساب، وبالنسبة للضر الكلام عن قرار بتعذيب الآخرين، ولا تشير الآية بكلامها إلى ضمّ الملائكة(ع) مع الذين تخاطبهم.

{وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا}، للذين لم يكونوا منصفين ولا عادلين حين عبدوا غير الله تعالى، حيث لم يكن معهم حق ولم يكن تصرّفهم محقّاً بكفرهم بالآيات الإلهية الواضحة الدلالة على الآخرة، يقول سبحانه لهم: {ذُوقُوا}، تحسّسوا واشعروا، {عَذَابَ النَّارِ}، الضرر من النار، {الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ}، حيث لم تصدّقوا بأنها ستحصل حين سمعتم عنها في الدنيا، وها صرتم تذوقون وتلمسون حرارتها.

غالب استعمال القرآن لكلمة ظلم ومشتقاتها جاء على معناها الأساسي لعموم الذي لم يكن معه حقّ ولم يكن منصفاً، وغالباً استعملها القرآن للكلام عن الذين ظلماً كفروا بدينه تعالى الواضح أنه حقّ، فلو كان دينه تعالى فاسداً أو غير واضح أنه حقّ وصلاح، لكان معهم حق بالكفر به، ولكنهم ظالمون، ظلموا أنفسهم، ولم يكن معهم حقّ ولم يكونوا منصفين حين كفروا.

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ{43})
{وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا}، تتمّ قراءة الأمور المميّزة المنسوبة له تعالى عليهم عن مستند، وهنا المقصود قراءة القرآن عليهم استناداً بالنقل عن الوحي الإلهيّ، حيث تتمّ قراءته على الكافرين، عندها، {قَالُوا}:

{مَا هَذَا}، الذي يقول عن نفسه أنّه رسول، وهو ليس {إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ}، فطرحه الدينيّ ليس من مصدر إلهيّ بل فقط يريد منعكم عن اعتبار أنفسكم عبيداً مفروضاً منكم الطاعة لآلهة آبائكم حتى تعتبروا أنفسكم عبيداً لإلهه هو، فتطيعوا إلهه.

علينا دائماً أن نفهم هذا النوع من الكلام انطلاقاً من العقليّة العصبيّة، من عقلية مشجعي فريق كرة قدم المتعصبين لفريقهم حتى لو أساء فريقهم اللعب... فهم يعتبرون آلهتهم خاصّة بهم، وهم لوحدهم ينتمون لها، وهم مشجعون لهذا الفريق، والنبي محمّد(ع) يعرض عليهم تشجيع فريق آخر! من هذه العقلية تنطلق الكثير من الأفكار عن انتماء المشركين لدين آبائهم. وللأسف ونفس الشيء يصيب الكثير من المسلمين أيضاً، حيث يدافعون عن دينهم والقرآن والتشريعات... لا لقناعة بها، بل لمجرد العصبية يفعلون ذلك، وترى ذلك جليّاً في العقائد المذهبية والتشريعات المميّزة لهذا المذهب عن ذاك...

وقال الكافرون: {مَا هَذَا} "الذي تتمّ تلاوته علينا" {إِلَّا إِفْكٌ}، وهو فقط قلب وعكس للكلام الصحيح، {مُّفْتَرًى}، فالإله لم يقله، وجرى إلصاقه به بقلب الكلام الإلهيّ، لأنّ الصحيح بنظرهم هو دين آبائهم، والإفك العكس للصحيح هو ما يتلوه هذا الرجل، فهو يقلب الكلام الإلهيّ عن حقيقته ويخترع كلاماً وينسبه للإله، فالإله لم يقل له هذا الكلام "افتراءً" وأصلاً لم يقل هذا الكلام بل قال شيئاً آخر فهو يأفك كلام الإله.

نفهمها لو أفكت أنا كلامك، وقلت عن لسانك كلاماً أعكس فيه كلامك، فأنا أفّاك، وأنسب لك كلاماً لم تقله لي، فأنا أفتري. وهم يقولون بأن محمّداً(ع) يدّعي بأن وحياً من الإله نزل عليه وأخبره عن القيامة من الموت والحساب، فهذا إفك لأن الإله لن يفعل ذلك، والكلام الذي قاله محمّد(ع) افتراء لأن الإله لم يقله له.

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا الدين الإلهيّ قالوا، {لِلْحَقِّ}، للصواب الصحيح، {لَمَّا جَاءَهُمْ}، عندما سمعوه عبر الرسول(ع) قالوا:

{إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ}، لأنّ هذا فقط كلام لخداعنا لنتوهّم وهذه خدعة واضحة أمامنا ولن تنطلي علينا، حيث يظهر من أقوال هذا الرجل أشياء تبدو صحيحة ولكنها ليست صحيحة، تماماً مثل الساحر الذي يجعلك ترى أموراً تظنها صحيحة ولكنها في الحقيقة خدعة ووهم.

النبي(ع) عرض عليهم الحقّ، حيث عرض عليهم كلاماً منطقيّاً عقلانيّاً، فيقولون: يبدو الكلام جميلاً ومنطقيّاً وعقلانيّاً وصحيحاً... ولكنّ هذا خداع، مثل السحر الذي يبدو حقيقيّاً وتخرج الحمامة من يد الساحر، ويختفي الأرنب في القبعة...

ولكن كلنا نعلم أنّها خدعة وليست حقيقة، وكلام هذا الرجل وآياته وبراهينه عن بطلان ديننا وعن صحّة دينه، فهي سحر، وهي خدعة من كلام منمّق ليجعلنا نقتنع به، ولكنّه غير صحيح.

ضع في بالك دائماً أن السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهّمُونَ شيئاً غير حقيقيّ أنّه حقيقيّ. والساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد بأنّه أوهمك بطريقة ما أنّها اختفت، مع أنّها لم تختف، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر والذي تراه صريحاً في الآية 66 من سورة طه {قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ}. وما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوّة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحريّة، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، فهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنّهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية أنّها سحر، فهذا كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

القرآن كرّر عدّة مرّات هذا القول عن لسان هذه النوعيّة من الناس باتهام الأنبياء بالسحر، وهذه الجملة لم تعد دارجة كثيراً في عصرنا من الكافرين بالدين الإلهيّ، ولكن تسمع المرادف لها والذي يعطي نفس المعنى، حيث يقولون أنّ الدين للبسطاء، وهذا معناه أنّ البسطاء ينخدعون بالكلام الدينيّ الخرافيّ ليروه حقيقة، ولغويّاً هذا هو معنى كلمة سحر.

حسناً، هذا ما يقوله الكافرون، فهل نحن المتديّنون نمارس السحر حين نتلو الآيات؟ نعم، فما تسمعه الآن على القنوات من دعاة الإسلام، حيث في أغلبيّتهم الساحقة لا يختلف كلامهم عن كلام أهل العقائد الكافرة أو المنحرفة، فتسمع الدعاة يعرضون الكذب بالإعجاز العلميّ والطبيّ والليزر والثقوب السوداء... التي تكلّم عنها القرآن! وتسمع الكذب عن أسرار الحلال والحرام التي لم تظهر إلا بعد تقدّم العلم ليتبيّن أنّ السجود على الأرض يسحب منك الطاقة السلبيّة ويجعل الدم يتحرّك ليصل إلى المخيخ... وعن الجرثومة التي في لحم الخنزير والتي لا تموت بالتجميد ولا بالطهي... وعن وعن... وهو كلام فارغ وهراء ما أنزل الله به من سلطان. فهذا الجانب المنحرف من ديننا الذي يخترعه الناس هو المساوي للسحر الذي يمارسه أهل العقائد الأخرى.

مثله في الكذب والانحراف والسحر: الكلام المذهبيّ بين المسلمين، الذي فعلاً يوقع الأغبياء تحت تأثيره حتى يرتكبوا السوء بالفرقة بين المسلمين وصولاً إلى قتل المسلم الآخر!

أمّا القرآن، بدون التلاعب به، فهو الحقّ، وليس بسحر لأنّه لا يخدعنا بل يقدّم الواقع والحقيقة، وعلينا عرضه على أنفسنا وعلى الناس كما هو، والأمور غير العاديّة التي ذكرها القرآن كفلق البحر للنبي موسى (ع)، ولبث النبي يونس (ع) في بطن الحوت وغيرها... فهي أمور حقيقيّة حصلت بتدخّل إلهيّ لتكون آيات، ولتكون نموذجاً عن تدخّله تعالى فيما يطلبه الناس من تدخّل إلهيّ مباشر... ونؤمن بها لأن القرآن بمحتواه العقائدي الحقّ والتشريعي الصالح يدلّنا بوضوح أنّ مصدره إلهيّ... وأمّا خزعبلات الإعجاز العلميّ والعدديّ... وأشباهها، وخزعبلات الروايات الكاذبة، وخزعبلات الطائفيّة والمذهبيّة والعصبيّة... فهي سحر خادع لا علاقة للقرآن بها.

إنذار وتبشير الرسول للناس بكلام مقنع، بيّن فيه فساد كلامهم وصحّة كلامه وهو منقول عنه تعالى، وحين لم يجد الكافرون أي ردّ يدافعون به عن عقيدتهم، قالوا عن كلام الرسول أنّه سحر، على أساس أنّ الرسول بكلامه تلاعب بعقولهم مما جعلهم يرون دينهم الصحيح فاسداً، وجعلهم يرون دينه الفاسد صحيحاً.

(وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ {44})
على أي مستند إلهيّ اعتمدوا ليقارنوا كلامك به ويقولوا إنّك أفَكْتَ الحقائق وافتريت عليه تعالى؟

{وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا}، حيث لم نعطهم كتاباً من عندنا ليدرسوه فيقرؤوا ما فيه بتمعّن، ويقارنوا بين معانيه ليتعلموا مما فيه... سياق الكلام عن النموذج أهل مكّة والعرب في محيطهم، فمع أي كتاب إلهيّ قارنوا كلامك أيها الرسول محمّد(ع) ليروا أنّه إفك مفترى وهم لم ينزل عليهم كتاب؟

كما ترى لو قارنوه مع كتب قديمة نزلت منه تعالى كالتوراة والإنجيل لوجدوا فيهما نفس الكلام عن البشرى والإنذار والقيامة في الآخرة والحساب والجزاء.

{وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ}، حيث لم نبعث لهم قبلك شخصاً يحمل لهم الخبر عن شيء سيّئ سيحصل حتماً لهم بسبب توافر شروط حصوله فيهم، وهو العقاب الإلهيّ على ما يفعلونه من شرك. لو كانوا يعتمدون على رسول إلهيّ سابق كمستند ليقارنوا بين كلامه وكلامك لفهمنا اتهامهم لك بالافتراء عليه تعالى، ولكن لم يأتهم رسول إلهيّ، والآية هنا تحدّثهم بدون أي تلطيف بالكلام، حيث تقصّد سبحانه القساوة معهم عاكساً واقع حالهم، إذ لم يردّ سبحانه عليهم بلفت انتباههم إلى أنّهم بلا كتاب ولا رسول ليقارنوا بينهم وبين ما يقوله محمّد(ع)، بل ردّ سبحانه بقساوة بأنّ هذا القرآن كتاب إلهيّ فادرسوه، ولو جاءكم رسول من قبل على الحالة التي كنتم فيها وما زلتم فهو مثل هذا الرسول وسيكون نذيراً لكم، لأنّكم في حالة من يستحقّ العقاب لأنكم مشركون، وتحتاجون للإنذار من الخطر القادم حتماً عليكم.

بالنسبة لما ورد في الآية 24 من سورة فاطر {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}، فحالة الفراغ قبل النذير محمّد(ع) شيء عاديّ نفهمه من نظرة سريعة لكل التاريخ، ونراه بوضوح في الآية 19 من سورة المائدة {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ...}، لأنّه من الطبيعي أن تمرَّ فترة على الأرض بلا رسل، ومن الطبيعي أن يمرّ زمن على الأمم بلا رسل، ونحن الآن على فترة منهم لأنّ محمّداً(ع) آخر الأنبياء. لن تجد تعبيراً قرآنيّاً يشير إلى وجود نبي أو رسول لكل أمّة في كل أزمنتها وعلى انتشار أماكنها، لأنّ هذا لم يحصل ولا داعي له، إذ يكفي نذير يمرّ في تاريخها، وينتقل خبره بين الناس، ومن بعد ذلك فالمسؤولية تقع علينا إن آمنّا أو كفرنا، لأنّ سلامة القلب "الفكر والنفسية" المتاحة للجميع بالخلقة هي دليل كافٍ لترينا هداه تعالى...

(وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ{45})

{وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}، حيث إنّه حين جاء نذير للأمم التي كانت قبل قومك كذّبوه، {وَمَا بَلَغُوا}، وأهل مكّة "النموذج عن بقية الكفّار" لم يصلوا إلى {مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ}، حيث لم يصلوا إلى نسبة الواحد من عشرة مما حصل عليه الأقدمون، والدارج حالياً استعمال النسبة المئوية فنقول: عشرة بالمئة. هناك أناس قبل أهل مكّة كذّبوا النذير وأهل مكّة لم يبلغوا عشرة بالمئة من القوّة الاقتصادية والعسكرية والعمرانية... لمن سبقهم من بعض الكفّار كعاد وثمود وفرعون... {فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ}؟ والمنكر من مقابلتها مع "عرف معرفة" تعطي معنى حصول صورة أو مفهوم ونفي تطابقها مع ما لديه، فهو عموم ما ليس معروفاً على الوجه المطروح، كرفض لتصنيفه. والكلام هنا على معنى: فعل معه منكراً. حيث فعل تعالى معهم ما تصنيفه ليس ما يتوقعونه من تركهم على سوئهم، تلك الأقوام أصابهم تعالى بالكوارث كزلزال أو عاصفة... فما قولك بما فعلناه بهم وهو شيء ليس مصنّفاً بأنّه حسن، فكيف كان إهلاكي لهم بشيء لا يرغبون بحصوله؟

يا أيها الذين جاءهم النذير محمّد(ع)، لا تروا أنفسكم مميزين بقوتكم العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية... ولا يكن هذا سبب كفركم بدينه تعالى، لأنّ كل عظمتكم لا تبلغ عشرة بالمئة مما كانت عليه بعض الأقوام التي سبقتكم بالكفر ودمّرها سبحانه، فاعرفوا حجمكم ولا تتبجّحوا بقدراتكم.

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ{46})

{قُلْ}، عبر هذا القرآن لهؤلاء الكفّار: {إِنَّمَا}، فقط وحصراً، {أَعِظُكُم}، أقول لكم كلاماً يحدّد لكم الصحيح لتفعلوه والخطأ لتتركوه حتى لا تقعوا في المشاكل، أعظكم {بِوَاحِدَةٍ}، بجملة واحدة، بالمختصر المفيد: {أَن تَقُومُوا}، تتفعّلوا، {لِلَّهِ}، فقط لصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {مَثْنَىٰ}، من اثنين وصاعداً، فليقل أحدكم للآخر ما في باله ليتداولوا بدراسة الموضوع، {وَفُرَادَىٰ}، وكل واحد لوحده فليفكّر وليدرس الموضوع، لتكونوا في حالة تفعيل لفكركم ومشاعركم لوحدكم أو بالتشارك مع بعض، وتتفعّلوا "مفكّرين" لله تعالى وليس للشيطان وللغريزة والهوى السيّئ، بل تقصدون تفعيل "التفكير" بما يرضي الله تعالى وهو نفسه ما فيكم من قابلية لتروه صالحاً بالفكر والعمل، {ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا}، وبعدها تحرّكوا أفكاركم، {مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ}، لأنّ هذا الذي تصاحبونه هو معكم، وتعرفون جيّداً أنّه ليس مجنوناً

كليّاً ولا جزئيّاً، {إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم}، حيث فقط ينقل لكم الخبر عن شيء سيّئ سيحصل لكم حتماً بسبب توافر شروط حصوله فيكم، {بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ}، فهناك ضرر لا يمكن الاعتياد عليه ولا تحمّله وهو حتمي لكم ومن بين يدي هذا العذاب يأتيكم الإنذار، وانطلاقاً من هذا العذاب الشديد القادم يأتيكم الإنذار.

من الواضح أنّ صاحبكم "الرسول" رجل عاقل وكلامه عقلانيّ منطقيّ، وليس لديكم ولا أي سبب لرفض كلامه، ودعكم من الهجمة الإعلامية عليه باتهامه بالسحر والجنون والإفك والكذب... لو فكّرتم لعلمتم أنّه عاقل وكلامه موزون، ولانتبهتم أنّكم أنتم على ضلال، لأنّكم فاسدون بالفكر والعمل وهذا تستحقّون عليه العقاب الإلهيّ، وأنتم ذاهبون حتماً إلى مصير سيّئ إن لم تؤمنوا به وتغيّروا إيمانكم وعملكم.

قارنها مع شخص يسير باتجاه الهاوية، وتُنذره، ولا يطيعك، ولنقل إنّه قبل الهاوية منحدر شديد، إذا وصل إليه فلن يستطيع التراجع للنجاة من السقوط في الهاوية، وتُنذره، ويتولى عنك! وهنا الكلام نفس الشيء، فهم الكفّار يعلمون يقيناً أنّ آلهتهم من اختراعهم ومن اختراع آبائهم، وشريعتهم على قياس الأقوياء منهم وعلى هواهم الفاسد... وجاءهم من ينذرهم أي يقول لهم بأنكم على هذا السوء وأنتم على طريق نهايته حتماً العذاب الشديد، فكذّبوه ليس لأن كلامه غير عقلانيّ، بل لأنه يتعارض مع هواهم الفاسد، وقاموا بحملة إعلامية ضدّ الرسول برمي التهم عليه من كل نوع... وتقول الآية هنا لهم: فكروا قليلاً بما تفعلونه وتوقفوا عن الضحك على أنفسكم بتكذيب الرسول الإلهيّ، ولا تعتّزوا بقدراتكم، لأنّ هذا لن يغيّر أي شيء من مصيركم باتجاه العذاب.

طبعاً تتذكّر دائماً أنّ كلام القرآن عن نماذج، وكلامه مع وعن أهل مكّة أو العرب في وقت نزوله، ما هو إلا إنذار موجّه لجميع الناس مستخدماً نماذج عن مختلف الأفكار والعقائد والسلوكيات السيئة التي كان عليها أهل مكّة والعرب في محيط نزول القرآن كنماذج صالحة للانطباق على أي قوم آخرين.

تلاحظ ما هو معلوم عن حال عموم المجتمعات، فأهل مكّة ليسوا كلّهم أغنياء، ولا كل مجتمعهم أقوى من بقية القرى الأخرى، والكلام عن أقوام سابقين أقوى منهم بعشرة مرات هو نموذج ترى منه بوضوح أنّه لا نفع من القوّة الاقتصادية والعسكرية... أمام قراره تعالى بتعذيب الكافرين، وبناء عليه لو فرضاً صارت قوّة قوم ما مليونية بالجيوش، وتريليونية بالذهب والمال، ونووية بالأسلحة... فهذا وبكل وضوح لا يعني أي شيء أمام قدرته تعالى، حيث إنّنا بالتقريب التمثيلي التخيّليّ لملاك من الملائكة العالية، مجرد نمل والكرة الأرضية بحجم ظفر عملاق يمكنه عصرنا بيديه كالمعجون، وبالنسبة للمقارنة مع قدرته تعالى فنحن لا شيء بتاتاً، إذ يمكن أن تزول السماوات والأرض فوراً إن أراد تعالى وتقرأ ذلك صريحاً في الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ...}.

(قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ{47})
{قُلْ}، لهم عبر هذا القرآن:

{مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ}، أي تعبير منّي عن إرادتي للحصول على أجار منكم على تبليغي للرسالة لكم، لحصولي على شيء محدّد لي كاستحقاق على تعبي في تبليغكم رسالته تعالى، فالأجار لكم، أي لا تعطوني إيّاه فليبقَ معكم فخذوه، والرسول(ع) لم يطلب أي شيء منهم، ولكن مثلما نقول نحن لشخص ليس له أي شيء عندنا: إذا كان لك عندي شيء فتعال خذه. وإن كنت تعطيني مالاً فليبقَ معك.

لو طلبت منكم مالاً أو أرضاً أو قصراً... وأعطيتموني، فتعالوا خذوه... وفي الحقيقة هو (ع) لم يطلب أي شيء ولكن من يسمع هذا الكلام سينتبه فعلاً أنّ الرسول(ع) لم يطلب منهم أي شيء كأجار.

{إِنْ أَجْرِيَ}، فقط وحصراً ما أستحقّه على قيامي بوظيفة الرسول، {إِلَّا عَلَى اللَّهِ}، حيث سبحانه حدّد لي ما أستحقّه على تبليغي لكلامه، فهناك ثواب لي منه تعالى في الآخرة على ذلك وأنا هدفي ذاك الأجار.

{وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}، إذ سبحانه يشهد كل شيء، ويرى ويسمع كلّ شيء.

تحت شهادته ومراقبته تعالى لنا أنتم تعلمون أنّي لم أطلب منكم أي شيء لي كأجار منكم بدل أتعاب توصيلي رسالته تعالى لكم، فلماذا يوجد لديكم شكوك حولي كرسول إلهيّ وحول رسالتي؟! لو تصرّفت كمن يريد الزعامة عليكم، أو يريد أن يكون مَلِكاً عليكم، أو يريد الاستيلاء على أموالكم وأملاككم... لكان معكم حقّ بالشكّ فيَّ كرسول إلهيّ، ولكنّي لم أطلب منكم أي شيء! والجهد الذي أبذله والمعاناة التي أعانيها منكم وليس لي أيّ مصلحة شخصيّة في عملي، ألا يدلّكم هذا على أنّها وظيفة إلهيّة؟

نلاحظ من التاريخ أنّ النبي(ع) عاش حياة عاديّة بيسرها وعسرها ماليّاً، ولكن حياته (ع) كانت بعيدة كل البعد عن حياة الأغنياء، حيث بيته عاديّ وأقل، وملبسه عاديّ، ومصروفه عاديّ، ولم يكن يملك ماشية كثيرة، بل أقل من أي إنسان عاديّ متوسّط الدخل في زمنه، ورغم كل الهدايا التي جاءته، إنّه (ع) لم يحتفظ بالذهب والفضّة ووزّعها، ورغم سيطرته التامّة على الغنائم وبيت المال والأراضي، إلّا أنّه كان يأخذ سبعة دراهم شهريّاً مثله مثل غيره من المسلمين، حتى أنّ الخليفة الأول أبا بكر التزم بنفس المعاش، وقبل أن يموت بقليل زادها لثمانية دراهم تحت إصرار الصحابة عليه لأنّها بالكاد تكفيه لمصاريف حياته، والخليفة الثاني مات مديوناً، والخليفة الرابع كان يلزمه عبد لخدمته فمات وكل ما تركه من مال كان ما ادّخره لشراء عبد. ومن هنا، فأي شخصيّة من تلك الشخصيات تحترمها، من الرسول(ع) إلى الخليفة الرابع، اختر أيّاً منها، واقتد بها في مال المسلمين، فاتقوا الله يا أولياء المال، واتقوا الله أيها المتسلطون على بيوت المال، من جامعي الزكاة وزكاة العيد والخمس والمساعدات... اتقوا الله أيها المتسلطون على ثروات وأراضي المسلمين ونفطهم وغازهم ومعادن أرضهم وفوسفاتها... إذ إنّ الرسول(ع) سلّطه تعالى على كل ما تحت يده، وعاش عاديّاً ولم يجز لنفسه ولا لمن حوله التسلّط على الأموال والأراضي وعموم خيراتها... فلا تحكموا باسم الإسلام وأنتم ملوك وأمراء وحكّام مترفون بخيرات لم يجز سبحانه لكم تملّكها باسم الحكومة على الناس.

أجار الرسول محمّد(ع) ذي أهمّ وظيفة دينيّة وقياديّة والذي كان مشاركاً بنفسه في الحملات القتاليّة، كان دخله من بيت المال يكفيه على الشعرة كمصروف أي مسلم متوسّط الدخل، أمّا أنتم من زعماء ورؤساء وملوك وأمراء ونوّاب ووزراء وعلماء دين... فما قيمة ما تقدّمونه من تعب في وظائفكم الإداريّة أمام ما كان يقدّمه محمّد بن عبد الله حتى تجيزوا الثراء واستغلال المناصب ومصّ خيرات العباد والبلاد... لأنفسكم ولأقاربكم وللمحسوبين عليكم؟

إن أصررتم على ذلك فرجاءً افعلوه بدون صبغة دينه تعالى، ولا تبرروه باسم الدين فهذا ذنب أعظم تضيفونه على سيئاتكم، ومعكم علماء الدين المترفون بالمال المجموع باسم الدين وباستغلال مكانتهم الاجتماعيّة ومناصبهم...

(قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ{48})
{قُلْ}، لهم عبر هذا القرآن:

{إِنَّ رَبِّي}، إنّ المسؤول عنّي من مستوى إلهيّ، {يَقْذِفُ}، يرمي بقوّة، {بِالْحَقِّ}، بالصواب الصحيح، حيث ينزل منه تعالى وحي يردّ به بقوّة على اعتقادات الكافرين الفاسدة الباطلة ليحطّمها.

{عَلَّامُ الْغُيُوبِ}، موصوف بعلمه لكل ما غاب عن مخلوقاته، ويعلم الماضي والحاضر والمستقبل.

من منطلق علمه الواسع المحيط لدرجة علمه ما يعرفه مخلوقاته وما لا يعرفه مخلوقاته، والبعض منهم وبدون دليل ينكرون التوحيد والآخرة... وسبحانه يعلم أنّه أحد وأنّ الآخرة آتية... من هذا المنطلق يقذف سبحانه بالمعلومات التي نزلت وحياً على الرسول(ع) ليحطّم الباطل.

لاحظ وانتبه أنّ القرآن لم يستعمل ولا مرّة في حقّه تعالى كلمة "عرف" أو أي من مشتقاتها، لأنّ المعرفة من التعرّف وهي العلم بالاعتماد على الأمَارَاتِ بطريقة غير مباشرة، وذلك عبر مقارنة ما دخل حواسك وتصوراتك ومفاهيمك مع ما في ذاكرتك، أو تسجيل معلومة جديدة، والعلم حديثاً بشيء لم تكن تعلمه أو العلم بالتلقين من آخرين لشيء لا تعلمه... هو التعرّف، لذلك لا يوصف تعالى بالمعرفة ويوصف فقط بالعلم، إذ سبحانه لا تغيب عنه أي معلومة حتى يتعرّف عليها أو حتى يقارن بينها وبين ما يعلمه، لأنّ علمه فائق.

(قُلْ جَاء الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ{49})
{قُلْ جَاءَ الْحَقُّ}، قل عبر هذا الوحي أنّه جاء الصواب الصحيح، وهو الكلام عن توحيده تعالى في الألوهية وعن الآخرة... {وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ}، فالأمور غير الصحيحة العاطلة لا يمكنها أن تبدأ بشيء، {وَمَا يُعِيدُ}، فالأمور الباطلة العاطلة لا يمكنها أن تعيد الأشياء.

بعبارة أبسط، هذا الكون الذي نحن فيه، له بداية حتما، وبغضّ النظر عن النهاية بموتنا جميعا وإعادة خلقنا، وَلْنَنْظُرْ لبدايتنا، هل يبيّن لهم ذلك الاعتقاد الفاسد بآلهة زعموها كيف بدأ الخلق وصاروا موجودين؟ مرّ معك ما فهمناه من السورة عن عقائد متشابكة مشوّشة وغير مترابطة وضبابية للكفّار، فهم يؤمنون بالآلهة ولكن ليس لديهم ما يقولونه عن كيفية بداية خلق ما في هذه الدنيا، أيُّ إله خلقها؟ وإن شاركه الآخرون فمن هم؟ ولماذا شاركوه هل لضعف فيه؟ وماذا فعل كل واحد منهم من خلق ما في الدنيا؟ وأنت تعلم أن أسماء وصفات آلهتهم تختلف من قرية لأخرى! فإن كانت عقيدتهم لا تبيّن كيف بدأ الخلق، فمن خلق ما في الدنيا.

ننتبه جيدا، في العمق يقول القرآن بأنه لو كان أي كلام يقوله المشركون عن الله تعالى صحيحا، لما بدأ أصلا هذا الكون، وأصلا لم نكن موجودين، إذ إنّ زعمهم آلهة معه تعالى يجعل طبيعته أضعف من المواصفات الإلهية الحقيقيّة والمطلوبة للبدء بخلق الكون، فطبيعته تعالى ليست مخلوقة، فليست مركبة، ولا معنى لوجود طبيعة ثانية مثلها... وكلامهم عن آلهة تفرض إرادتها عليه تعالى، وتتصرّف بحسب ما تريده هي حتى لو عارضها تعالى، ويتحقّق ما تريده تلك الآلهة... هذا الكلام الباطل لا يمكن أن يكون صحيحا، لأن ما في الدنيا لا يمكن أن يوجد في ظلّ هكذا ظروف، وأصلا لا نرى إلا تصميما واحدا وقرارات واحدة تمشي على الجميع، وللتوسّع في ذلك راجع دراسة الآية 22 من سورة الأنبياء {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}، وبناءً على عقيدة المشركين لا يمكنهم تفسير ما نحن فيه، حيث لا يبدو آلهة متعددة خلقتنا، ولا يبدو أي تدخّل حقيقي لغير إله واحد، إذ لسنا نرى تعارضا في الظروف التي نعايشها بل نراها تمشي على قانون واحد... والرسل على امتداد آلاف السنين جاءت من نفس الإله سبحانه، والكتب كذلك، والحوادث غير العادية لإهلاك الأقوام الكافرة جرت مع وجود نذير منه تعالى... وغيرها من الآيات التي جرت على يد رسله تعالى... وهذا القرآن منه تعالى... وها نرى أن أديان الكفر والشرك لها بداية حديثة بالنسبة لدينه تعالى، وأديانهم تضمحلّ أو تختفي أو تتغيّر... أمّا دينه تعالى فواحد مستمر منذ آلاف السنين.

فعلاً وبناءً على العقائد الأخرى الباطلة، لا تفسير ولا معنى لوجود حياة في الآخرة، ومن الدين الإلهي نرى معنى الدنيا كونها مرحلة وممراً يُبْتَلَى بها الناس ويموتون ويعيد سبحانه إحياءهم ليجازيهم على ما عملوا، وهكذا نرى معنى البداية والإعادة لخلقنا، أمّا على أي عقيدة أخرى فلا تفسير لوجودنا ولا معنى لإعادة خلقنا، أيُّ إله سيحاسبنا وعلى ماذا طالما معلوم اختراعهم للآلهة، ومعلوم أن عقيدتهم وشريعتهم ليست على معيار الحقّ بل بالباطل، حيث يفعلون الباطل ويطلبون من آلهتهم مساعدتهم لتحقيقه!

للأسف نسمع ونرى من البرامج الوثائقية كلاما لفلسفة وجود الكون ممن يسمّون بالعلماء، وهم علماء في اختصاصهم الفيزيائي والبيولوجي والكيميائي... ولكن عميت قلوب الكثيرين منهم عن العلم الذي له معنى حقيقي، إذ إنّ هذا الدين الإلهي والأديان الأخرى تُعْرَضُ علينا على أساس أن جوهرها وأساسها ولبّها تفسير سبب وجودنا، وعلى أساسه انطلقت الأديان بتفريع عقائدها، وما يسمونه بالأديان السماوية "يهودية، مسيحية، إسلام" تشترك في الجواب عن ذلك بأنه تعالى خلق الإنسان في هذه الدنيا ليمتحنه، وبعدها ليحاسبه ويجازيه في الآخرة، وهذا سبب خلقنا. ومن هنا ينطلق أولئك العلماء الكافرون كليا أو جزئيا بالدين الإلهي، ليقولوا بأننا لسنا مضطرين للبحث عن سبب لوجودنا، لأنّ هذا ضمنا يفترض وجود إله لديه سبب حتى خلقنا، بل نستبدل كل هذا ونقول بأن كوننا نتاج طاقة تكاثفت لتصير مادّة لها خصائص أدّت في النهاية إلى حصول حياة على كوكب الأرض. وبزعمهم، هكذا لم نعد نحتاج للبحث عن سبب لوجودنا، إذ لا سبب له وإنما هي فرصة أتيحت لنا لنصير أحياء لفترة من الزمن وسنموت وينتهي كل شيء بالنسبة لمن مات...

إذا هضمت المفاهيم القرآنية التي أضأنا عليها في دراستنا هذه فسترى سذاجة كلامهم، ولن نظلمهم، فسذاجة كلامهم مبنية على كلام ساذج عرضه غالبية المتدينين كتفسير لكلامه تعالى، وما يقولونه عن الطاقة التي صارت مادّة ولها خصائص أدت إلى ظهور حياة على الأرض... فإن صحّت فرضياتهم ونظرياتهم فما هي إلا تفسير للآلية التي خلقنا

سبحانه بها، ولا مشكلة دينية مع أي فرضية أو نظرية، بل يحفّزنا سبحانه على التفكّر في آليات خلق ما في الدنيا لنرى ونلمس عمليا عظمة قدرته وروائع تصميمه وخلقه.

للأسف، سذاجة تفسير "المؤمنين" لكلامه تعالى التي قالوا فيها إنّه تعالى يقول للشيء {كُنْ فَيَكُونُ} فورا، وركز على كلمة فورا، هي المشكلة التي أدت إلى تعارض النظريات العلمية مع الدين الإلهي، إذ إنّه سبحانه يقول للشيء {كُنْ فَيَكُونُ} حتما وليس بالضرورة أن يكون فورا، لأنّ غالبية أفعاله تعالى لا معنى لها لو كانت فورا، وها هي الدنيا من أولها لآخرها وبكل تفاصيلها تسير على {كُنْ} حتما، وليس على {كُنْ} فورا، ها أنا أقضي حياتي لسنين وأموت، ومرّت من قبلي مليارات السنين، فأين الفورية؟ وسيعيد تعالى إحيائي ليجازيني وأدخل الجنّة أو النار، فأين الفورية؟ في حالتي لو كانت الأمور "فورا" لتنشّط وتفعّل وعيي لأول مرة لأجد نفسي في النار أتعذّب أو في الجنّة أتنعم على أساس أنه تعالى بعلمه بالغيب يعلم أنه لو خلقني لكنت كافرا، وهو ليس مضطرا لخلق ما في الدنيا كدار امتحان، لَخَلَقَنِي فَوْراً لأول مرة في النار...

بهذا المثال المتطرّف ترى بسهولة أنه لا معنى للفورية في الكثير "أو كل" ما يتعلّق بخلق ما في الدنيا التي صراحة قال تعالى إنّه خلقها {فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}، ومن فسّرها بسذاجة ستة أيام من الأسبوع بدلا من فهمها كستّ مراحل، حيث قالوا إنّه سبحانه بدأ بخلق السماوات والأرض يوم الأحد وفي يوم الجمعة انتهى منها وفي يوم السبت استراح، وعلى هذه التفاسير لا لوم على من أنكر الدين الذي يقول هذا الكلام الساذج.

(قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ{50})
{قُلْ} لهم عبر هذا القرآن، {إِن ضَلَلْتُ}، ففرضا لم أكن على الشيء الصحيح، {فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي}، فأنا أيضا مثلي مثلكم رجل عادي، يَصْدُرُ مني شيء غير صائب ولكنه سيكون من نفسي، من تصرفاتي الشخصية أنا، من أفكاري...

{وَإِنِ اهْتَدَيْتُ}، وَكُنْتُ على الشيء الصحيح الذي يوصلني للغاية الصحيحة، باعتقادي وعملي، {فَبِمَا}، بسبب ما، {يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي}، بسبب المعلومات التي تصلني من المسؤول عني من مستوى إلهي، ومعلوم أنها تصل إلى وعيه (ع) مباشرة عبر الملائكة (ع)، فهذه فقط مضمونة أنها هداية.

لِنَقُلْ إِنَّكَ لا ينزل عليك الوحي الإلهي وأنك مصلح اجتماعي تريد تغيير مجتمعك وإنهاء الفساد فيه ونشر العدالة... فمن المحتمل أن يصدر عنك شيء باطل، حتى لو جهدت بالتفكير فحتما هناك أمور لن تستطيع الحكم فيها بحقّ، سواء أكانت أُمُوراً عقائدية أو تشريعية، خذ مثلا فكرة أن الإله واحد أحد، وَوَصَلْتَ إليها بالعقلانية من ملاحظة نفسك وبيئتك... ولكن فرضا لو سبحانه لا يمانع من عبادة الصنم حتى لو كنت أعلم أنه من اختراعي، فما الضرر عليه تعالى من تمثيلية أنا مرتاح لها نفسيا؟ وهذا شيء يقوله الكثير من الطَّاوِيِّينَ الأرواحيين الذين يشجعونك على عبادة ما ترتاح له على أساس أن الموضوع نفسي ولن يغيّر أي شيء في الواقع إلا راحتك النفسية... أو كالذي يؤمن بالحظّ، ويتفاءل بِصَبَاحِ الغنم ويتشاءم من الاستصباح بالماعز... وهذا مثال عن شيء باطل فاسد من الصعب أن تردّ عليه إلا بكلام مباشر من الإله سبحانه يمنع فيه عن عبادة غيره وتحت أي عنوان كان... وأن المقادير بيده سبحانه فلا صدف ولا نحس ولا تفاؤل على الطريقة التي يؤمن بها الناس وكأن الأمور بينها ترابط عجائبي سحري خرافي...

لِنَأْخُذْ أمثلة تشريعية ذكرها القرآن كالظهار والتبنّي وحرمة الزواج من أختين في نفس الوقت... وحرمة القمار على طريقة اللوتو التي يساهم فيها كثيرون بمبلغ تافه قليل والجائزة الكبيرة المتراكمة منه يفوز بها شخص واحد... فهذه النماذج من التشريعات لولا تبيانه تعالى لفسادها لما توصّل مصلح اجتماعي لرأي حقّ فيها...

لَكِنَّ وضعك أيها الرسول ليس كذلك، فأنت تنقل لهم ما يوحى إليك من ربّك، فلا يمكن أن تنقل لهم شيئا فيه ضلال، لا عن المعلومات عنه تعالى وعن أفعاله وقراراته ولا عن التشريعات التي يرضاها، وعلى هذا الأساس فليكن تعاملهم مع كلامك، فهو ليس كلامك أنت الذي يحتمل الهدى والضلال، إنما هو كلام الوحي الإلهي الحق الهادي دائما.

{إِنَّهُ سَمِيعٌ}، يسمع كل شيء، {قَرِيبٌ}، غير بعيد عن أي شيء. وعلى هذا الأساس يصل الوحي إلى فكر الرسول تحت سمعه وقربه سبحانه، مما يؤكد وصول الوحي صحيحا بالتمام كما يريده تعالى.

ننتبه جيدا، فالآية لا تفترض أنّ محمّدا(ع) سيرتكب السوء من بعدما صار نبيا، بل تؤكّد "فقط" على الفصل بين تصرفاته كشخص لو لم ينزل عليه وحي بالدين الصحيح، وبين تبليغه للرسالة والتزامه بها، فالقرآن يؤكّد أن هذا الشخص "محمّد(ع)" ستتم مراقبته فقط وفقط للتأكد من توصيله لرسالته سبحانه بشكل صحيح، أمّا لو قرّر محمّد(ع) فعل سيئة ما عن قصد فلن يمنعه سبحانه، بل سيتركه ويحاسبه أشدّ الحساب، خُذْ مثلا على ذلك الآية 44 وما بعدها من سورة الحاقة {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ...}، طبعا هذا لم يحصل، فلو علم سبحانه أنه سيحصل لما اختار محمّدا رسولا، ولكنه نظريا فهو احتمال لأن النبي(ع) ليس آلة مبرمجة، وليس مجبورا على الطاعة، وَنَفْهَمُ من الآية أن شخص النبي(ع) كشخص عادي لا يَخْتَلِفُ عمّن يقف قبالته من الكفّار، إلا بسلامة القلب، بالفكر والنفسية السليمة، وَإِذَا تكلّم من دون الاستناد إلى الوحي، فمثله مثلهم، "قَدْ" يضل، ولكن عموم كلامه فيما يتعلق بالشؤون الدينية، هَذَا الكلام ليس مِنْ عِنْدِهِ، بل إمّا نقلا للوحي الإلهي أو تطبيقا لما تعلّمه (ع) من مفاهيم الوحي الإلهي، وفي هذا الجانب فقط لدينا ضمانة إلهية بالتدخّل إنْ فَرَضاً بِالْخَطَأ سَيَقُولُ الرسول شيئا لا يتماشى مع دينه تعالى، وللتوسّع في ذلك راجع الآية 21 وما بعدها من سورة ص {وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ...}.

(وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ{51})
{وَلَوْ تَرَى}، لو يصير عندك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: لو تشوف. {إِذْ فَزِعُوا}، فالتفتوا مع المفاجأة، وهذا سيحصل في أول لحظة حين يفتحون أعينهم في يوم القيامة، {فَلَا فَوْتَ}، فأنا بسبب قدراتي العادية يَفُوتُنِي أن أجمع الناس كلّهم لأني نسيت أحدهم أو اختبأ عنّي... أمّا معه تعالى فلا فوت فلا يمكن ولا لأي أحد ولا بأي شكل الإفلات منه تعالى، طبعا المقصود إفلاتهم عبر نسيان أحدهم من إعادته إلى الحياة، أو إفلاتهم بهربهم من الحساب والعقاب...
{وَأُخِذُوا}، فلم يتركهم سبحانه ومعلوم أن الملائكة تأخذهم، {مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ}، من أرض الحدث، فهم فعلا سَيَكُونُونَ هناك في يوم القيامة وعلى أرضها، وَالْمَكَانُ قريب، وَلْنُكْمِلِ الآية لننتبه للصورة:

(وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَكَانٍ بَعِيدٍ{52})
{وَقَالُوا}، الكفّار: {آمَنَّا بِهِ}، اعتقدنا بيوم القيامة من الموت والحساب، {وَأَنَّى لَهُمْ}، فكيف وبأي طريقة يمكن للكفّار، {التَّنَاوُشُ}، مدّ يدهم لشيء قريب، {مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}!

لاحظ الآيتين "هنا والتالية" تعرضان صورة مشهد، فالتناوش هو مدّ اليد لتناول شيء قريب منك، وهم في يوم القيامة، صاروا بعيدين عن المكان والزمان الذي كان مفروضا عَلَيْهِمْ أن يقولوا فيه: آمنا. فهنا في الدنيا كان من المفروض أن يعلنوا إيمانهم، وَصَارَتِ الدنيا بعيدة، وصاروا في يوم القيامة، فكيف سيمدّون يدهم لتناول شيء من الدنيا! فهذا مستحيل، إِذْ إِنَّ إعلانهم للإيمان بالآخرة في الآخرة لا معنى له، لِأَنَّ الشيء البعيد لا يمكن أن تتناوشه أليس كذلك.

(وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ{53})
{وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ}، فأنكروا يوم القيامة من الموت، {وَيَقْذِفُونَ}، فيرمون بقوة توصل رميهم، {بِالْغَيْبِ}، بما غاب عنهم، {مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ}! فحين كانوا في الدنيا كانت الآخرة بعيدة عنهم، وغائبة عنهم فلا علم لهم بها إلا عن طريق الإله سبحانه الذي يعلم بأنها قادمة حتما، ولكنهم ورغم بعد الآخرة عن متناول يدهم، كَانَ لا يحق لهم إنكار وجودها "أو اختراع وجودها"، ولا يحقّ لهم التعليق عليها بنفيها... فهم كائنات مخلوقة محدودة، فليلتزموا بحدودهم، ولكن لا، بل قذفوا فرموا بأقوالهم عن التكذيب بيوم القيامة في الآخرة، من مكان بعيد، فهم واقفون هنا في الدنيا يرمون كلامهم عن الآخرة البعيدة عن متناول معلوماتهم!

لِنَقُلْ إِنّي كنت على كوكب ما ورجعت أخبرك عن الحالة الحرجة لنواة الكوكب الظاهرة من اضطرابات... وَأَنَّهُ سينفجر... وأنت لم تر الكوكب ولا حتى بالمنظار، ولا اتصال لك به ولا بأي شكل ولا معلومات عندك عنه... تَقْذِفُ بالغيب من بعيد وتقول: لا لن ينفجر. وَهُنَا الآية تعرض نفس المفهوم، فسبحانه خالق ما في الدنيا ومصممها لتسير باتجاه تبدلّها لتتشكل الآخرة ويأتي زمن نستعيد فيه حياتنا... الإله يقول هذا. ومقابله، ورجما قذفا رميا من مكان بعيد بالغيب بما غاب عنهم يقولون: لا، لن يحصل هذا. وكما ترى فالآية ترينا حجمنا الحقيقي، فقدرتنا على التخيّل والتصوّر والتحليل والتوقّع... لها حدود، أولها احتكاكنا ولمسنا واختبارنا... للشيء، وتجميع المعطيات اللازمة للخروج بنتيجة،

وهذه النتيجة يسميها العقلاء "فرضية" طالما لا دليل أكيد حسي ملموس عليها، وتصير نظرية إن بَدَا لها آثار من الصحة، وتصير قانونا إن كانت تطبيقاتها صحيحة على عامّة الحالات... وفي موضوع يوم القيامة مِنْ أين لنا لمسها واختبارها مباشرة ودراستها وهي ستتشكل بعد تبدّل الدنيا؟ وَمِنْ أين لنا نفي حصولها وبناء على أية معطيات؟ وبخاصة إن كانت لدينا معطيات مستندة إلى دين ممتد لآلاف السنين مَشْحُونٍ بالعديد من الأنبياء والكتب، ويشيرون إلى حصول يوم للقيامة، ولدينا أدلة كثيرة على قدرته تعالى على إحياء الأموات، ولدينا الحكمة الواضحة من خلقنا بحرية إرادة حتى نتجازى عليها...

(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ{54})
{وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ}، هُمْ في يوم القيامة يشتهون الماء والطعام، ويشتهون الراحة... ويشتهون دخول الجنة... وَصَارَ حَائِلٌ كشيء يحول فيمنع بينهم وبين ما يرغبون به ويحبونه، {كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ}، هُنَاكَ قبلهم من الناس الكفّار كانوا يشايعونهم كمتضامنين معهم على الكفر، وَكَانَ لديهم أفكار كفرية متوافقة مع أفكار قوم النموذج أهل مكّة الذين تتحدّث عنهم ومعهم السورة، وفي الآخرة أَوْضَاعُهُمْ هي نفس أوضاع كفّار مكّة حيث منعهم سبحانه مما يشتهونه من رزق وثواب حسن في الآخرة، فلا تفترضوا أنكم كأفراد أو كَجَمَاعَاتٍ سَتَكُونُونَ مُمَيَّزِينَ لسبب ما، لا، كُلُّ الكفّار مثل بعض في الآخرة.

{إِنَّهُمْ}، الجدد والقدماء من المتشايعين على إنكار الآخرة، {كَانُوا فِي شَكٍّ}، في حالة إِنْكَارٍ للآخرة اسْتِنَاداً للشك فأنكروها من دون أي استناد لأي علم، {مُرِيبٍ}، وحتى أقل احتمال، ولو أقل من الشك فهو غير موجود عندهم. فِي بعض الأحيان تسمع عن شيء ما، أَوَّلُ ما يخطر ببالك هو الريبة، وهو الإحساس بصحة أو كذب الشيء، وَيَحْصُلُ لديك شك في صحّته أو في تكذيبه، هكذا قبل أن تفكّر فيه، تَصِفُ الآية حالة منكري الآخرة أنهم لم يفكّروا بها فبقي عندهم الموضوع في دائرة الشكّ، بل حتى أقل من الشك هُمْ وبسبب نفورهم من التفكير بالآخرة بعقلانية، بَقُوا في حالة الشكّ المريب، في حالة من سمع شيئا واعتمد على أول ما خطر بباله.

الريب هو أوّل وهلة تصيبك من سماع الشيء، فتنكره أو تصدّق به لمجرد سماعك له دُونَ أي تفكير. والشكّ هو اختيارك للتصديق أو الإنكار مع إعلانك أنك لم تستند لدراسة أو تفكير. والظن هو تصديقك أو إنكارك لشيء وأنت مستند إلى معلومات أو تفكير به، طَبْعاً هذا وصف لك بغضّ النظر عن صحّة ما استندت إليه وبغضّ النظر عن صحّة أو فساد النتيجة التي وصلت إليها، قَدْ تكون غير مطابقة للواقع. واليقين هو تطابق اعتقادك مع الحقيقة، من تعاملك مع الشيء مباشرة أو من خبر ممن تثق به... إنْ لم يطابق الواقع فهو لا يوصف باليقين حتى لو وصفت أنت نفسك باليقين من شدة تأكدك منه. وهكذا صرت تعلم الفرق بين ما اصطلحوا عليه في كتب المنطق عن هذه الكلمات وبين معناها اللغوي الأساسي الأصلي الذي استعمله القرآن بدقة مع تقويمها عبر تحديد استعمال دقيق لها.

سورة فاطر (35) ص 434
قَدِيماً كانت تسمى سورة الملائكة.

تتمحور السورة حول فتح وإغلاق الرحمة الإلهية، بدليل أنه الخالق لكل شيء والمسيطر على كل شيء، مَنْ يدعو إِلَهاً غيره تعالى حتى يتحقق له شَيْءٌ يريده فلن ينال شَيْئاً، لا هنا ولا في الآخرة.

فِيهَا مقاربة الرزق الذي نحصل عليه هنا في الدنيا مع خلقتنا وبيئتنا بما سنناله في الآخرة مما نكسبه هنا، مِنْ هنا في الدنيا الرَّحْمَةُ متاحة للجميع، بخلقنا وبيئتنا والرزق... ومن يرفض هنا البقاء تحت ظلّ رحمته تعالى بالإيمان والعمل الصالح فلن ينال الرحمة هناك في الآخرة.

بَعْدَهَا ترى تَرْكِيزاً على أهمية معنى الإيمان بالحقّ وأن المسألة ليست وجهة نظر، وليست اعْتِبَارِيَّةً قابلة للتغيّر... وأن الاستهتار بها لن يغيّر من قيمتها ولا من آثارها، لِأَنَّ النُّورَ وَالْهُدَى لَيْسَا مثل الظلمات والضلال.

تَكَرَّرَ فيها وصفه تعالى بالحمد والحميد لما لهذه الصفة من ارتباط بفتح الرحمة الإلهية.

بِسَبَبِ ورود نفس المفاهيم في سور عديدة، سَوْفَ نستصعب أن يكون هذا مَوْضُوعاً خَاصّاً بهذه السورة، ولكن، هذا الموضوع العقائدي أساسي في الدين الإلهي، ومرتبط ببقية العقائد بشكل جذري، ولذلك انتشر هذا الموضوع في عموم السور مع بقية المواضيع التي طرحها القرآن، وتخصّصت السورة هنا بطرحه مُنْفَرِداً كواحد من أهم المعلومات عنه تعالى والتي نسميها بالعقيدة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {1})
{الْحَمْدُ لِلَّهِ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز "الله" عزّ وجلّ لأنّ كل أعماله موصوفة بأنها حميدة جيدة حسنة، {فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، والتعبير القرآني بالسماوات والأرض يرادف قولنا: كلّ شيء مخلوق. وهذه كل ما في دنيا المخلوقات التي لم تكن وفطرها سبحانه وجعل لها كيانا. وبتعبيراتنا الفلسفية الدارجة: شقَ سبحانه العدم وأخرج كل شيء إلى الوجود. ولكن هذا التعبير الفلسفي "الكلامي" غير دقيق بالنظر لمعاني الكلمات العربية وما قصده القرآن، حيث إنّ كلمتَي "العدم والوجود" لم يستعملهما القرآن وهما لا تتماشيان مع مفاهيمه، لأنّ العدم اصطلاح "وهمي" عن لا شيء، والوجود اصطلاح تصوّري لعموم ما هو شيء، وهذا يشمله تعالى مع ما في الدنيا، ولم يرد القرآن شمله تعالى عندما يذكر حدود ما في الدنيا بالسماوات والأرض. ولم يستعمل القرآن التعبير بالوجود ومشتقاته واستعمل تعبيرات أخرى: شيء، مخلوق، فطر، خلق، ذرأ... وأقرب تعبير للمعنى القرآني بدون كلمات اصطلاحية أن السماوات والأرض لم تكن وسبحانه جعلها شيئا.

أنت تعلم من نفسك أنك لستَ أزليًّا ولا أبديًّا، لأنك لست بلا بداية ولست بلا نهاية، حيث صار لك كيان في زمن ما، ومن قبل لم يكن لك كيان، وكذلك كلّ شيء غيره تعالى له بداية من حين ما خلقه تعالى، وبالنسبة لكوننا له زمان تكوّن فيه، وله انتقال من حال إلى حال، وعبّر القرآن عن تكوّن السماوات والأرض في ستة أيام، ست فترات زمنية، وفطرها يشير إليها كلّها بعدما مرّت في مراحل تكوّنها.

عندما يقول القرآن: {الْحَمْدُ لِلَّهِ}. يقصد لفت انتباهنا لهذا العمل الحميد الجيّد لفطر السماوات والأرض. أيهما أفضل: الفراغ ولا شيء فيه، أم سماوات وأرض مليئة بالكائنات؟ ومن الواضح أن فطر السماوات والأرض عمل حميد.

سبحانه، {جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا}، والملائكة(ع) مخلوقات ليست من طين وهي ليست من مادة تكويننا المؤلفة من ذرات... ولها عالمها الخاص، وهي أنواع كثيرة باختلاف القدرات بينها كما ستقول الآية هنا، وباختلاف الصفات بينها وبعضها روح... وجعلها سبحانه رسلا له، ويرسلها سبحانه لتقوم بأعمال مختلفة، كنقل الوحي منه سبحانه للأنبياء(ع)...

الكلام هنا عن جعلها رسلا يتضمّن أنها بالصفات "أمينة صادقة..." وبالقدرات المناسبة للأعمال التي توظّفت بها...

الملائكة (ع) التي جعلها ربنا سبحانه رسلا خلقها سبحانه بقدرات مختلفة وبعضها، {أُولِي}، موصوف وينسب له، وله، {أَجْنِحَةٍ}، قدرات وقوّة، {مَّثْنَى}، اثنان من الأجنحة، وقدرتها محدّدة بالنسبة للملائكة(ع) الأخرى الأقوى والأقدر منها وبعضها له أجنحة، {وَثُلَاثَ}، وبعضها، {وَرُبَاعَ}، أربعة أجنحة، وللتقريب التشبيهي نتصوّر يدا عادية لرجل، ورجلاً آخر عضلة يده أكبر بمرتين، وآخر أقوى بعضلة يد أكبر بثلاث مرات... أقول لك هذا حتى لا تتصور الأجنحة كأجنحة الطير الريشية، لأنّ هذا تصوّر غير صحيح.

{يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ}، حيث إنّ أمامه تعالى خيارات عديدة ويقرّر سبحانه ويركّب ويؤلّف سبحانه بعض الملائكة(ع) ولها زيادة أكثر من أربعة أجنحة.

الجناح هو القوة والقدرة، سواء القدرة والقوة الجسدية أو السلطوية... وهذا المعنى واضح من استعماله في الآية 88 من سورة الحجر {لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ}، حيث إنّ جناح الطير الذي عليه ريش يعطي الطائر القدرة والقوة على الطيران، والجناح العسكري للدولة يعطيها القدرة والقوة على القتال، والجناح للملاك هو القوة والقدرة على توفّي الأنفس ورجم الشياطين وتسجيل أعمالنا وتعذيب الظالمين... فلا

تتصور الملاك كما يصوره البعض كرجل أو امرأة لها أجنحة عليها ريش! لأنّ هذا غير صحيح ولا معنى له أصلا، بل هذه مجرد رسومات لا علاقة لها بحقيقة شكل الملائكة (ع)، وهي رسومات ترجمة حرفية ساذجة وطفولية للكلام عن الأجنحة، ولتصورات تمثيلية عن حالات "تمثّلت" فيها الملائكة لبعض البشر ليروها وكان التمثّل للملائكة(ع) على شكل رجال من البشر كما حصل مع السيدة مريم(ع) ونقلته لنا الآية 17 من سورة مريم {فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا}. والملائكة بالنسبة لنا لا شكل لها ولا قدرة لنا الآن على رؤيتها لأن تكوينها مختلف عنّا، وعندما تمثّلت ليراها بعض الناس تمثّلت بشكل رجال.

{إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، ولديه القدرة على فعل أي شيء يريده بأي شيء، لأنّ الذي يملك القدرة على خلق السماوات والأرض، والقادر على خلق مخلوقات عظيمة وقوية جدا كالملائكة(ع) ذات القدرات العالية جدا، فهو سبحانه بالطبع يمكنه فعل أي شيء يريده.

ضع في بالك دائما أن القرآن لفت انتباهنا في العديد من المناسبات للقدرات العالية للملائكة(ع)، مقارنة مع قدرات الجنّ العالية جدا عن قدراتنا، ليخبرنا سبحانه أن قدرات الملائكة(ع) أعلى بكثير جدا جدا من قدرات أقوى الجنّ، وأن الملائكة(ع) قدراتها لا شيء أمام قدراته تعالى الفائقة، لأنّ الملائكة(ع) مخلوقات بقدرات عالية جدا ورغم ذلك فهي لا تزال بعيدة جدا جدا جدا عن تكوينه تعالى، ولا تشبهه سبحانه وتعالى في طبيعته وليست قريبة من طبيعته، ولا يمكنها تحمّل التعامل معه سبحانه بشكل مباشر بسبب الفرق الهائل بينه سبحانه وبين طبيعة تكوين الملائكة، ومن وراء حجاب يتعامل سبحانه معها لأنها لن تتحمّل التواصل المباشر، ولمزيد من التوسّع راجع الآية 51 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ...}.

في العديد من اللغات "إن لم تكن كلّها" يوجد استنساب استذواقي لأهل اللغة لتذكير وتأنيث بعض الكلمات، حيث في العربية نقول: هذه الشمس. ونستذوق اللفظ مؤنّثا. ونقول: هذا القمر. ونستذوق لفظ الكلمة ليكون مذكرا. وهذا تأنيث وتذكير لفظي وليس حقيقيا، فلا الشمس أنثى ولا القمر ذكر. وكلمة ملائكة نفس الشيء، لأنها كلمة مؤنّثة لفظيا، وأصلا لا معنى للذكورة والأنوثة بالنسبة للملائكة(ع) فهم نوع واحد، ولا يتزاوجون.

لمزيد من التوسّع حول كلمة ملائكة لغويا فراجع دراسة الآية 77 من سورة الزخرف {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ...}.

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{2})
هذا هو محور كلام السورة الأساسي:

{مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ}، أي عناية إلهية لما فيه مصلحة الناس يفتحها تعالى ويجعلها متاحة للناس ولا تعد مغلقة عليهم، من خلقهم ورزقهم و... {فَلَا مُمْسِكَ لَهَا}، فلا أحد يستطيع مسك الرحمة الإلهية ليمنع حصولها، حيث إنّ قدراته الفائقة سبحانه كانت ترجمتها العملية خلق السماوات والأرض، وخلق كائنات بقدرات عالية جدا "الملائكة"، ومن هذه الأفعال صار من الواضح أنه قدير وبالتالي فإنّ الرحمة المتاحة لنا منه تعالى لن يستطيع أي أحد ولا أي ظروف منع حصولها.

{وَمَا يُمْسِكْ}، الشيء الذي يمسكه سبحانه ويحجزه ويمنع حصوله، {فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ}، فلا أحد يمكنه أن يرسله ليجعله ينطلق ويتحرك ويحصل من بعدما أمسكه تعالى، فإن صدر قراره تعالى بمسك الرحمة عن أحد، فلا أحد بعد الله تعالى يمكنه إرسال "إطلاق" الرحمة، لا الملائكة(ع) ولا الجنّ ولا الآلهة الوهمية...

قال بعضهم إنّه تعالى لا يمسك رحمته بالكامل عن أحد ما، ويمسك بعض الرحمة عنه، حيث اعتبروا أن رحمته تعالى لا يمكن أن تنقطع عن أي مخلوق، فإذا انقطعت سيزول المخلوق فورا، لأن نفس وجود المخلوق من الرحمة الإلهية به، ولذلك قالوا إنّ الآية هنا عندما قالت: {وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ}، قالوا إنّها تشير إلى شيء من الرحمة إذا أمسكه تعالى فلا أحد يمكنه إرساله، ولم تكن تشير إلى إمساك كلّ الرحمة.

نـنتبه إلى أن كل قطعة من كلامهم صحيحة، ولكن جمعها مع بعض خطأ، حيث إنّ الآية تتحدّث عن الناس، الذين نـالوا الرحمة حين خلقهم سبحانه، ولكنها تتحدّث عن معاملته تعالى لهم، فلا تشير الآية إلى إمساك "كلّ" الرحمة عن الناس، بل عن الرحمة في المعاملة الإلهية لهم، ونتذكّر أن اللعنة هي الطرد من الرحمة، فهي طرد من المعاملة بالرحمة وليست طردا من كل الرحمة مما يعني طردا من الوجود ليصيروا بلا كيان! وغوصهم في بعض الكتب في اشتقاق معان من الآية صحيح لكل جملة على حدة، حيث إنّ إمساك الرحمة الإلهية كليا عن كائن ما يـعني زوال الكائن فورا، ولكن هذا لا تقصده الآية هنا، لأنّ كلامها موجّه للناس الذين لهم كيان وسيبقى لهم كيان بعد إمساك الرحمة، وسترى في بقية السورة كلامها عن الرزق كنموذج عن أهم ما يفتحه تعالى ويمسكه، وأهميته نابعة من كون حياتنا متعلقة به.

{وَهُوَ الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... وبناء عليه فإذا أراد سبحانه أن يعطي أو أراد أن يمنع فلا أحد يمكنه منعه.

{وَهُوَ} {الْحَكِيمُ}، وكلمة حكمة ومشتقاتها تشير لعموم ضبط الشيء على المطلوب: على الصوابية، على الحقّ... وعلى نفس المعنى الأساسي نقول: أحكم الوثاق، حكم بالعدل، حكومة على الناس... وتفسير الحكمة بالأهداف والغايات السامية هـو من تبعات تطبيق صوابية الحقّ، ووصفه تعالى بالحكيم يشير لصوابية نظرته في الأمور وأن قراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب، وقراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول إن أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فلا يفعل لغاية له سبحانه. فإذا فتح سبحانه أو أمسك رحمته فعن حكمة يحصل ذلك.

فـي العديد من الآيات التي وصفته تعالى بالعزيز والحكيم معا، فهمنا منها أن إلهنا يخبرنا عن صفاته الراقية، فبالرغم من قدراته الفائقة وعزّته الفائقة، سبحانه لا يتعامل باستخفاف أو عبثية مع مخلوقاته التي لا يمكنها أن تؤثّر عليه ولا بأي شيء، بل موصوف بالحكمة وعلى أساسها يتعامل مع الأمور، وقبلها موصوف بالرحمة الشاملة للجميع إلى أن تقرر المخلوقات ذات الإرادة الحرّة أن تفعل السوء، وبذلك هم يسحبون أنفسهم من تحت رحمته تعالى إلى غضبه.

بـناء عليه:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ{ 3})
بناءً على كون فتح وإغلاق الرحمة بيده تعالى، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ}:

{اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ}، فاستحضروا في فكركم ومشاعركم وعملكم النعمة، الأشياء الموصوفة بأنها نعم ما هي، الجيّدة، التي حصلتم عليها من صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، وحياتكم نعمة، وجسدكم نعمة، وحواسّكم وفكركم نعمة... والأرض التي تعيشون عليها نعمة، والماء نعمة، و... وكلّها منه سبحانه.

{هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}؟ رزقكم، أي الأشياء التي تسدّون بها حاجاتكم ورغباتكم مصدرها السماء والأرض، فـهل يوجد خالق "يؤلّف ويركّب الأشياء" التي صارت رزقاً لكم، غير صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله"؟ بالطبع لا.

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، إذ لا يوجد كائن موصوف بالقدرات والصفات الفائقة غير صاحب الاسم "الله" عزّ وجلّ، والبقية كلّهم هو سبحانه خلقهم، وتعقيباً على الآية السابقة وتكملة الجملة هنا: كيف ستحصلون على الرزق إن منعه عنكم الإله الذي لا إله غيره ليتدخل ويغيّر الحال؟ {فَأَنَّى}، أي كيف وبأي طريقة ولأي سبب، {تُؤْفَكُونَ}، مـا الذي يجعلكم لا تبقون على هذه الحقيقة الواضحة وتـنقلبون عنها؟ وبأي حجّة ولأي سبب تنكرون رازقكم، أو تقولون عن آلهة مع الله تعالى أو بدونه ترزقكم!

لاحظ وانتبه جيداً كيف قفزت الآية هنا، وعموم القرآن، عن سؤال: كيف تنكرون رزقه تعالى لكم، مـن أين جاءكم الرزق من المطر أو النبات أو الحيوان... إن لم يـركّبه ويؤلّفه إله؟ حيث اعتبر القرآن الكلام عن الصدفة والدهر

والطبيعة... وأنه بلا إله تركّبت وتألّفت الأشياء، اعتبره كلاماً فارغاً لا معنى له، لذا قفز عنه معتبراً من يقوله منّا مخالفاً للواقع ومخالفاً لـلعقلانية التي بأدنى تأمّل ترشدك إلى إله مصمّم خالق... ومخالفاً لما في داخله من فكر ومشاعر تدلنا على خالق خلق، فاطر فطر، ذارئٍ ذرأ، رازق رزق...

مـن ناحية هناك الإله سبحانه وتعالى المختلف كلياً عنّا وليس كمثله شيء، فهو ليس مركّباً ولا مؤلّفاً وليس مخلوقاً... ومن ناحية ثانية كل البقية، وهم كائنات مخلوقة مركّبة مؤلّفة، وهناك بيئة الكائنات والظواهر التي تحدث فيها، فكلّها مركبة مؤلفة، ومن المستحيل قبول عقلنا تركّبها وتألّفها من دون من صمّمها وركّبها وألّفها، لذا عادةً يعتبر القرآن كلامه متضمّناً لذلك ويقفز عنه ويسأل: أي إله رزقكم غير الله تعالى؟ ويجيب: لا يوجد إله غير الله تعالى، فهو رازقكم... وأي جواب آخر فهو كذب وردّ عليه القرآن حين لفت انتباهنا لوهمية الآلهة التي اخترعها الناس، وحين لفت انتباهنا لما نراه من انعكاس لسيطرة إله واحد، وحين لفت انتباهنا إلى أنه سبحانه الوحيد الذي وصلنا منه أثر على بشر عبر الوحي والكتب منذ آلاف السنين... وتأتي أمثال سورتنا هذه لتخبرنا بتفاصيل تعامله تعالى معنا، وحكمة تصميمه وخلقه لنا...

كـلمة رزق تشير لعامة النصيب من النعمة التي لها ارتباط بحاجات ورغبات الإنسان، وأهمها ما يحافظ به على حياته وهو الطعام، والمال لشراء الطعام والمطر لإنتاج الطعام، وفي الاستعمال قديماً وفي القرآن تشمل الحصول على الولد والزوج... ولكن القرآن لم يستعملها في كل الآيات بهذه العمومية، إذ إنّ سياق الكلام يحدّد المقصود بالرزق، ومن الخطأ التعميم والتوسّع في كل آية ليشمل كل مصاديق الرزق المختلفة. والغالب هو الإشارة إلى الطعام وما نحصل به على الطعام كالمال، لا لأهمية الطعام كمادّة، بل لأهمية المحافظة على حياتنا به، حيث في العديد من الآيات ترى العديد من المفسّرين يندفعون نحو الترفّع عن الحيوانية المتضمنة بكلمة رزق بإشارتها لاستهلاك الطعام كشيء دوني نتشارك مع بقية الحيوانات به، ويميلون لتفسير الرزق بالعلم، وبأمور أخرى يرونها أعلى شأناً وأليق بتفسير كلامه تعالى.

للأسف هـذا النوع من الكلام المعروض على أنه تفسير للقرآن فيه مشكلة كبيرة، وكانت أخف لو كانت معروضة كآراء خاصة استلهموها تحفيزاً من كلام القرآن لا من مقاصد ومعاني كلامه، كشيء خطر على بالهم عند قراءة الآيات وليس تفسيراً للآيات.

مـدّةً بعد مدة نتعرّض لموجات ثقافية متلاطمة، مـرّةً ينتشر ما يسمّونه بالرقي الروحي العالي مقابل الانحطاط الحيواني الشهواني... ومرة تنتشر ثقافة التوازن بين ما يسمونه بغذاء الروح والجسد... ومرة تنتشر ثقافة إشباع الجسد وإهمال القيم... وهذه موجات لا يحقّ لنا تفسير القرآن بناءً على تأثّرنا بها، علماً أنّنا حتماً سنتأثّر بها وبالتالي سيتأثّر تفسيرنا للقرآن، لذا أينما وجدت تطرّفاً يُؤَوِّل الكلام القرآني فكن على حذر منه، ولا تعتبره غير صحيح، ولكن لا تتخذه منهاجاً، وأبقه دائماً محل نظر...

كـمثال عن ذلك حين ترى الناس ينسجون هالة القداسة والبركة على متصوفين وعرفانيين ودراويش... داعين إلى الزهد بالدنيا وتوجيه بوصلة حياتنا كلّها إلى الآخرة... ويفسرون القرآن من هذه النظرة الحادّة، وحتى أوضح الكلمات يأوّلونها لتناسب هواهم، يـصير الرزق حصراً لرزق الإيمان والعلم الإلهي، وحتى كلمة طعام تصير إشارة للطعام الروحي من تسبيح وتحميد... وينجرف الناس بهذه الكلمات ذات الرهبة بالمقارنة مع آثامهم وحبهم لشهوات الدنيا...

يا عزيزي ويا عزيزتي، لا كلامهم ولا سلوكهم ولا تفسيراتهم فعلها الرسول(ع)، ولا فعلها المحترمون من الجيل الأول من المسلمين الذين عاصروا الرسول(ع)، وها هو القرآن من أوله إلى آخره لـن ترى فيه تشجيعاً على ترك ما حلّله تعالى بل ترى فيه ذمّاً وتهديداً لمن يحرّم الملذات الحلال، بل ترى أنه تعالى كرامة للمؤمنين خلق الدنيا بخيراتها وملذاتها، كما ترى من الآية 32 من سورة الأعراف {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ...}.

للأسف، وبدون انتباه، نحاول معارضة طبيعتنا التي خلقنا تعالى عليها، فمن الطبيعي في حالة الكبير في السنّ أن يكون زاهداً في الدنيا متجافياً عن ملذاتها، لأنّ جسده أصلاً أرهقه فكرياً ونفسياً حتى زهّده غصباً عنه، ومن الطبيعي رؤية فقير زاهد "غصباً عنه" إذ إنّ ظروف الحياة عاكسته حتى ملّ من طلب ملذاتها... وليس من الطبيعي ترويج هذه السلوكيات على من هم في ريعان شبابهم والحياة مفتوحة أمامهم، وها هو القرآن بتحفيزه على الزواج والتمتّع بما هو

حلال من ملذات الأكل والزينة كما تقرأ صريحاً في الآية 3 من سورة النساء {فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ...}، والآية 15 من سورة الملك {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ...}.

نعم، العمل على توجيه سلوكيات الشباب باتجاه ما حلّله تعالى، شيء رائع، وأمّا العمل على تزهيدهم بالدنيا على معنى تكريههم بملذاتها على أساس أنها ستبعدهم عنه تعالى، فـهذا ليس دينه تعالى، بل دين اخترعه الناس، وفسّروا به كلامه تعالى مخالفين صريح عباراته.

بـالنسبة لوصفه تعالى بالرازق بسبب ما أتاحه لنا في بيئتنا، ففي ذيل الآية التاسعة من هذه السورة سنتوسّع قليلاً في ذلك.

بـالنسبة لكلمة إله، فتذكّر دائماً أننا كبشر حيث جعل سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرّف عليه سبحانه من ملاحظة أفعاله "آياته في خلقه" ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء... وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق بالقوّة الإلهية الفائقة عند الوقوع في الشدائد... لـذلك وضعنا كلمة نصف بها الكائن ذا الصفات والقدرات العالية جداً عن قدراتنا، وهي كلمة "إله" كوصف لذي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلّق به عند الوقوع في الورطات...

فـي الحقيقة الكائن الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة، والذي ليس مخلوقاً هـو الله سبحانه، حيث تساهل الناس في استعمال كلمة إله لتنطبق على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، ويطلقونها على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أن فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي...}.

الـقرآن يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهي، ويقوّم اللغة ككلّ، ويُقَوِّم دقة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة "إله"، حيث يخبرنا أنها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرّج في استعمالها.

الـمشركون الناطقون باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... استعملوا كلمة إله بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

قـارنها مع كلمة "ربّ"، فـأنا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... وهذه كلمة تتحمّل التدرّج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهي، فهي لا تتحمّل التدرّج، بـل هي حصراً له تعالى ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهي.

كـلمة إله في حقيقة معناها لا تتحمّل التدرج لينوصف بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، حـين يخبرك أنه خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، وسبحانه وظّف الملائكة(ع) التي خلقها لتنفيذ بعض أوامره... وهكذا ترى بوضوح أنه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، مـاذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدّد له والمميّز "الله" جلّ جلاله فعل كل شيء، وما معنى ألوهية غيره! وهذا ملخّص مبسّط للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

ألفت انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، حيث حصروا استعمال كلمة إله للإله الكبير، واستعملوا للآخرين وصف الربّ، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربّة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون: إله المطر وإله الحرب... وعلى كل حال إذ إنّ القرآن رفض توصيف غيره تعالى بالألوهية والربوبية من مستوى إلهي، حيث إنّ المشركين يعتقدون بوجود كائن "ربّ" مسيطر على المطر من مستوى إلهي وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم أنه توصيف لألوهية أربابهم.

مـن ناحية ثانية لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، حيث يصير الهوى إلهاً كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ...}، إذ هي لا تشير لاعتقاد الشخص بأن هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لدين فيه ما يهواه، و عـملياً هو يعبد هواه.

بالنسبة لأصل كلمة "الله" هناك كلام كثير حولها، ويبدو من تتبّع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حالياً بالسامية... أن الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة "إله" ومنها جرى اشتقاق اسم العلم "الله"، وهذا الاسم لم يكن متداولاً في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط إذ للآخرين نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، إذ إنّ كلمة إله واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات ما يسمّى بأصل اللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة الله من وصف الإله ومتى، هل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قديماً عبر الوحي، فالأرجح عندي "استذواقاً" أنه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك "استذواقاً" لأن المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين بلا مستند صريح لتأكيد كلام ما، إذ هو بطبيعته يصير استذواقياً لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا ذات نفسي في سياق كلام آخر أستذوق أنه تعالى هو سمّى نفسه، لذلك ليس من المعقول ولا من المقبول منك أن تطلب حسماً من الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دليلاً حاسماً، ولا مقبول من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنه الصحّ إلا اللهم إن قدّم دليلاً دامغاً، وهذا لا يبدو ممكناً في مسألتنا هذه.

(وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ {4})
{وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ}، أي يقولوا عن كلامك إنّه غير صادق أيها النبي محمّد(ع) وبالخصوص بموضوع: {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}، حيث قالوا إنّ آلهة أخرى رزقتهم... {فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ}، "كُذِّبَتْ" بالضمّة على الكاف فعل مبني للمجهول، إذ إنّ أحداً ما أو جماعة قالوا عن الرسل الذين سبقوك إنّهم ليسوا صادقين وكلامهم ليس حقيقياً. حيث أرسلنا من قبلك مثلك أشخاصاً للناس ليذكروهم أنّه لا يوجد إله رازق راحم لهم... إلا الله تعالى، وأنه وحده الذي يفتح الرحمة ويمسكها... حيث قال الكفار عنهم إنّهم كذّابون، لذلك تكذيبك من المعاصرين لك ليس شيئاً جديداً، بل هو عادي وتكرّر كثيرا من قبل.

{وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}، فكل الأشياء وكل المواضيع بيده تعالى، وهنا الكلام عن أمر أو عن موضوع تكذيب الرسل، فالتعامل مع هذا الموضوع عنده تعالى، وعملياً هو محاسبة ومجازاة المكذّبين للرسل في الآخرة.

نلاحظ القرآن عندما يتحدّث عن تكذيب الناس للرسول(ع) فهو يلفت انتباهه "وانتباهنا" إلى أن التكذيب شيء عادي عنده تعالى، مثلما لو كنت أنت تراقب خلية نحل تذهب وتجيء وتعمل... ويمكنك نقل الخلية أو قتلها... حيث هنا الآية وأشباهها تقول إنّ كل ما يحصل وتراه مزعجاً وكأن الأمور خارجة عن السيطرة، ولا تستطيع فعل شيء، إذ الحكم والقوّة والغلبة تبدو للكفّار... فكل هذا عادي، فإلى الله سبحانه ترجع الأمور، ولن تبقى الأمور فالتة، بل أصلاً هي ليست فالتة كما قد يبدو لأحد ما، لأنّه هنا في الدنيا يتركهم تعالى يكذبوك وهناك حساباً وجزاءً عسيراً لهم في الآخرة.

وكما ترى، دائماً يلفت القرآن انتباهنا للامتداد التاريخي للدين الإلهي لآلاف من السنين عبر سلسلة طويلة من الرسل، وكلّهم على خطّ واحد، إذ كلّهم يعرضون نفس المعلومات عنه تعالى وعن قراراته وأفعاله "العقيدة" ونفس أساسيات الشريعة المبنية على الصلاح.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ {5})
بعد المقدمة عن نعمه وقدرته وسيطرته سبحانه على فتح وإغلاق الرحمة، وبالخصوص سيطرته لوحده تعالى من مستوى إلهي على النعم والرزق، سبحانه يخاطب كل الناس وينبههم:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ}: {إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ}، إذ ما يقوله تعالى عن حصول الآخرة هو صواب صحيح وليس وعداً باطلاً كاذباً، حيث سيحصل حساب وجزاء وتوجد جنة ونار... وهذا الشيء سيتحقق حتماً.

{فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}، فلا تخدعكم بشيء غير واقعي الحياة التي تعيشون فيها الآن، فلا تتعلقوا بها وتحبونها وتنسون وعد ربكم سبحانه عن وجود آخرة وحساب.

{وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ}، أي لا يخدعكم بشيء غير واقعي، {بِاللَّهِ الْغَرُورُ}، وهو أي شيء يسبب تشويه الحقيقة ويخدعكم، فلا تجعلوا أي شيء كالمال والسلطة والشهوة السيئة... أو شخصاً يخدعكم فيقنعكم أنّ وعد الله تعالى ليس حقيقياً وأنه لا يوجد آخرة وحساب.

الاغترار هو عموم الخدعة التي تجعل الشخص يُعجب أو ينجذب أو يطمع... بشيء هو بالأصل غير جيد وغير صحيح مع أن الظاهر يبدو جيداً ولكن الباطن غير جيد، أو مخالف للواقع، والغرور "بفتح الغين" هو الشيء أو الأشياء التي تسبب الاغترار، كالأمور السيئة التي تبدو محببة، أو الشيطان من جنّ أو إنس يحبّب الأمور السيئة وينفّر من الأمور الصالحة.

مسألة الإيمان به تعالى الرازق المنعم مسألة لها عواقب، فهناك وعد بمحاسبة من ينكرها ولا يؤمن بها، والحساب وعد حقّ، والسبب الرئيسي لغرور وانخداع الناس وتعلقهم بالدنيا ونسيانهم لوعد الله تعالى:

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ {6})

{إِنَّ الشَّيْطَانَ}، أي الموصوف بالقيام بأعمال الضلال لنفسه وللآخرين، وغالباً عندما يستعمل القرآن هذا الوصف بالمفرد فهو يشير لإبليس، علماً أنّ التطبيق عمومي ويشمل أي شيطان سواء إبليس أو أي واحد آخر من الجنّ أو الإنس موصوف بالشيطنة، فاعلموا أيها الناس أنه، {لَكُمْ عَدُوٌّ}، يعمل على الإضرار بكم جميعاً، {فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا}، فليكن كذلك، فلا تتناسوا عداوته، ولا تتعاموا عن عداوته، أو تعتبروه صديقاً أو ناصحاً أميناً، فانتبهوا منه واستعدّوا دائماً لمواجهته لأنه لن ينفعكم بل هدفه ضرركم ولن يترككم بحالكم من دون وسوسة حتى تفسدوا...

{إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ}، حيث فقط يشهر ويعلن للناس ليكونوا محازبين له مجتمعين معه على الضلال، {لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ}، ليكونوا مع بعض في النار التي لها ألسنة لهب وتتأجج.

نتذكر العديد من سور القرآن التي نقلت لنا قول إبليس أمام ربنا سبحانه عن تصميمه على جعل كل الناس يكفرون به تعالى حتى يبرهن أنّ آدم (ع) وذريته ليسوا أفضل منه ليسجد لهم، وحتى يبرهن أنه أفضل منّا، وكمثال على ذلك الآية 16 من سورة الأعراف {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ}، فقد أعلن عداوته لنا، ولا يريد إلا الضرر والشرّ لنا عبر دفعنا لنكفر ونعمل السيئات، وفقط وفقط يجمع من يجمعهم من الناس على ولايته ليكون مصيرهم إلى النار المتأجّجة، ولا يوجد ولا أي احتمال آخر.

ولا تنسَ أنّ المسألة ليست مسألة محازبة وجماهير وأتباع، فسبحانه لا يدفعنا عن اتباع إبليس حتى لا يخسرنا كمؤمنين به وكجماهير لدينه، لا، بل الكلمات تعطيك المعنى المقصود من مشكلة اتباع الشيطان وأنه عدو واضح، فكلمة "شيطان" وصف لفاعل السوء والكافر بالحقّ، فهل هذا صديقك أم عدوّك؟

وكما ترى، القرآن كتاب هداية للراغبين بالهداية، حيث إنّ الكثيرين لا مشكلة لهم مع الشيطان الموسوس لهم بالسوء، فهم يرغبون بذلك، والشيطان من أعزّ أحبابهم، وهم يعلمون أنّ كفرهم ظلم وسلوكهم فاسد، ولا يريدون التغيّر.

كلام الآية يعيد تذكير الناس بما هم عليه، فهل هم راغبون بالحقّ والصلاح؟ إذَنْ فلينتبهوا إلى أنّ كل ما له علاقة بالشيطنة سواء من وسوسة الجنّي المدعو إبليس أو من أي شيطان جنّي أو إنسي غيره، كلّه دعوة للذهاب حتماً إلى نار الآخرة.

أمّا من ليس راغباً بالحق فليعلن ذلك صراحةً، وعندها نفهم أنّ القرآن ككتاب هداية لا يعنيه، ولكن نادراً ما نعترف بذلك، فكلنا عندما نرغب بسوء ما فإننا نجد له تبريرات لتلميعه حتى يبدو جيداً للآخرين، ومع التمرس نصير كالتماسيح ولا نجد أنفسنا مضطرين للبحث عن تبريرات لسوء ما نفعله، وعندما يصير لدينا السلطة والقوة ترانا نعلن أنّ السوء الذي نرغبه هو الحق.

(الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ {7})

{الَّذِينَ كَفَرُوا}، وهنا في السورة التركيز على الذين أنكروا سيطرته تعالى على فتح وإغلاق الرحمة من نعمة ورزق... فكانوا من حزب الشيطان، {لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ}، أي لهم ضرر لا يمكنهم تحمّله أو الاعتياد عليه، بل هو دائماً مؤلم.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا}، أي اعتقدوا به تعالى إلههم رازقهم الأحد... {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، أي قاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، إذ خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، و عملياً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عـادةً نفسّر "عملوا الصالحات" على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إنّهم صلّوا وصاموا... وهذا عملياً صحيح، ولكن بالأصل الكلام أنّهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

وبشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموماً وحتى بين المؤمنين، أنّ الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائماً أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به.

وهذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلاً سيّء" سيكون في الحقيقة اختراعاً من البشر لصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمراً إلهياً.

{لَهُمْ مَغْفِرَةٌ}، أي لهم تجاوز عن أعمالهم السيئة التي صدرت منهم، فلن يحاسبهم سبحانه عليها، {وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}، أي لهم شيء حدّده تعالى أنهم يستحقونه منه على إيمانهم وأعمالهم الصالحة، وسيكون كبيراً جداً جداً.

نـنتبه إلى أنّ الذي يقول عن الأجر كبير هو الإله الخالق لهذا الكون الضخم الهائل، والذي هو بكل مجراته مجرّد سماء واحدة من سبع سماوات، ونعلم من القرآن أنّ الجنّة عرضها كعرض كل السماوات الحالية، والذي خلقنا بهذه الأحاسيس يقول بأن السعادة ستكون أكبر.

تـرى القرآن دائماً يذكر الإيمان مع العمل الصالح أنهما مع بعض يجعلان الإنسان يدخل إلى الجنة، فلا الإيمان لوحده من دون عمل صالح ينفع، ولا العمل الصالح من دون إيمان ينفع، بل كلاهما مع بعض ينفعان.

(أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ{8})
هنا تشرح لنا الآية كيف نصير من أتباع الشيطان:

{أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ}، الشخص الذي يقوم بأعمال عديدة حسنة وسيّئة، والذي نفسه أو الشيطان زيَّنَ له العمل السيِّئَ ليبدو حسناً جميلاً، {فَرَآهُ حَسَناً}، فـأقنع نفسه أو من بعد تمرّنه من تكرار السوء لم يَعُدْ يراه سيئاً، كالغشاش الذي يرتجف أوّل مرّة غشّ فيها، لأنه يعلم أنّ الغشّ عمل سيِّئٌ، وبعد التمرّس على الغشّ، لا يَعُودُ يرفّ له جفن، وإذا قلت له إنَّ الغشّ سيِّئٌ يجادلك ليقنعك وبمبررات عديدة أنّ الحقّ معه! مثله مثل السرقة ونهب الأموال العامة والكذب و... بل حتى اللصوص يدعونه تعالى لتوفيقهم بسرقة ذات قيمة عالية!

هنا السورة لم تتحدّث عن الزنا أو القتل أو أذيّة المؤمنين... فهذه مواضيع تناولتها سور أخرى بالتفصيل، وسورتنا هنا تركيز كلامها عن الذين ينكرون أن النعم والرزق منه تعالى، فهذا عمل سيِّئٌ، ومع تمرّسهم وتكرارهم له، لـم يعودوا يرونه سيئاً، ولا يرون أي أهمية للكلام فيه، بل يناقشون فيه ليبرهنوا على صحّة وجهة نظرهم!

{فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ}، فـأمامه تعالى خيارات عديدة وقرّر سبحانه وضع البعض من عبيده على الأشياء الخطأ التي توصل لنتيجة سيئة، إذ قرّر سبحانه إضلال أصحاب القلوب السوداء كما تعلم من عموم القرآن، حيث صمّمهم وخلقهم سبحانه هكذا، وشاء تعالى تركهم يَضِلُّونَ ولن يجبرهم على الهداية.

سبحانه أعطانا حرية الاختيار والإرادة هنا في الدنيا، فعندما نقرر نحن بإرادتنا أن نضلّ عن سبيله تعالى، فبعد تكرارنا للسوء سنراه حسناً، ولن يتدخل سبحانه ليجبرنا على الهدى، وسنضلّ لأنه سبحانه تركنا وسمح لنا باختيار الضلال، فمثلما نصفه تعالى بالرازق لنا لما نحن زرعناه وحصدناه، لأنه هو تعالى خلقنا بالقدرات المناسبة لنزرع ونحصد، وأتاح لنا بيئة مناسبة لذلك، ينسب سبحانه لنفسه الرزق على أنه رازقنا، ونفس المعنى عند نسبة إضلالنا له تعالى.

الآية تقول إنّي أنا أضلّ بإرادتي ولكن ليس فوق إرادة ربنا سبحانه. حيث إنّ بعض الناس يقولون: لو أراد سبحانه أن يجعلنا مؤمنين لكان جعلنا مؤمنين، ولكنه لم يرد أن يجعلنا مؤمنين، وها هو القرآن يقول إنّه تعالى يضلّ من يشاء وشاء لي أن أضلّ، فما ذنبي؟ ذنبك أنّه سبحانه شاء لك حرية الإرادة والاختيار، ولم يجبرك لا على الهدى ولا على الضلال، وكل كلام القرآن صريح بذلك ومنه الآية 8 من سورة الشمس {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}، وأنت اخترت أن تكون من غير المؤمنين، والله تعالى لن يجبرك أبداً على الهدى، إذ لن يغير لك عقليتك ونفسيتك حتى تهتدي، حيث شاء سبحانه أن تكون ضالاً إن أنت اخترت الضلال، وسيتركك على اختيارك ولن يجبرك على الهدى.

سبحانه لن يجبرنا على الإيمان لأن الإيمان الإجباري لا معنى له ولا فائدة منه، وسنصير مثل الرجال الآليين، بلا إحساس وبلا إرادة، ومبرمجين على الصلاة والصوم و... فعلى ماذا يعطينا سبحانه الثواب إذا كنا مبرمجين وليس عندنا إرادة؟

الكلام يجر الكلام، حيث إنّ بعضهم يظن أنّ الملائكة(ع) مُجْبَرُونَ على الإيمان وكأنهم بلا حرية إرادة، لا، لأنّ مدحه تعالى لهم في القرآن على إيمانهم وطاعتهم لا معنى له لو كانوا مبرمجين غصباً عنهم على ذلك، وكمثال ما ذكرته الآية 6 من سورة التحريم {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}، وتلاحظ حرية الإرادة فيهم في مسألة أمرهم بالسجود لآدم(ع) إذ كان بإمكانهم رفض السجود...

أيها النبي(ع) وأيها المؤمن، {لَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ}، على الكفار، {حَسَرَاتٍ}، فلا تَخْتَرْ لنفسك التحسّر عليهم بسبب ما فاتهم من الإيمان واستبداله بالكفر والنتيجة تعذيبهم، لأنّ هذا قراره تعالى بتصميمنا وخلقنا مع حرية الإرادة والاختيار، وهم اختاروا الكفر بالإرادة الممنوحة لهم. وكما نقول: ذهبت في تفكيري إلى ما بعد العاصفة... ذهب تفكيري إلى البعيد... وهنا التعبير بـ{تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ}، يعني أَلّا تترك نفسك تذهب باتجاه الحسرة عليهم، فلا داعي لذلك بل امنع نفسك من التحسّر عليهم...

{إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ}، أي لديه علم كامل شامل وتفصيلي، {بِمَا يَصْنَعُونَ}، أي بما ينتج عنهم من قول أو فعل في حياتهم.

بعبارة أخرى: لا تحزن وتتحسر على الكفار فيخطر ببالك أنهم مساكين ولم يفهموا الإيمان ولم يفهموا أنه يوجد آخرة وحساب عسير، فلو فهموا كل هذا لكانوا آمنوا... لا، لا تحزن عليهم، إذ إنّ تفكيرك هذا غير صحيح، إن الله تعالى يعلم أكثر منك، بل يعلم بالتفصيل وتفصيل التفصيل بما كانوا يصنعون، حيث إنّ الكفّار وصلهم الإنذار، وفهموا أنه يوجد آخرة وحساب ونار على الأعمال السيئة، والله تعالى يعلم أنهم لم يكترثوا ولم يهتموا، وهم بإرادتهم كفروا لدرجة رؤيتهم لعملهم السيِّئ حسناً، فلا تحزن عليهم، لأنّهم يستحقون العذاب.

لاحظ وانتبه لكلام الكثيرين الذين لا تعجبهم تهديدات القرآن بالنار، حيث إنّهم يتجاهلون ويتعامون عن التهديد بالنار للكافر بالحقّ والذي سينتج عنه حتماً أفعالُ سوء من العيار الثقيل، ويخلطون كلام القرآن مع الموروث من المرويات الذي فيه كلام عن تعذيب شديد خالدٍ في نار الآخرة على أعمال سيئة ولكنها تافهة أو غير خطيرة، ويخرجون بنتيجة مفادها أن كلام القرآن عن العذاب في نار خالدة غير صحيح، وأنه مجازي، أو مبالغ فيه حتى يخاف الناس ولكن في الحقيقة لن يحصل ذلك... أو... أو... وصولاً للكفر بإلهية مصدر القرآن وأنه من تأليف بشر لديهم عقد نفسية...

هؤلاء لو كانوا صريحين مع أنفسهم معترفين بحبّهم لبعض السيئات، ولو قرؤوا القرآن بحثاً عن التعرّف على الهداية، لكانت حالتهم مثل حالتي أو حالة أي مؤمن عادي، إذ نحن لا ندّعي الصلاح من درجة الأنبياء، بل نعترف بسيئاتنا ونستغفر منها، ونرى كلامه تعالى عن السيئات أنه حقّ، وبعيداً عن التراث الديني لن تجد في القرآن تهديداً بعذاب خالد في النار إلا للجرائم من العيار الثقيل "كقتل النفس البريئة"، وبعده تجد تهديداً بالعذاب بدون خلود على سيئات من

العيار الوسط "كأكل مال اليتيم..."، وبعدها تجد تهديداً بدون ذكر النار للسيئات التي قد لا تكون أحياناً بخطورة سيئات أخرى "كالغيبة".

(وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ {9})

من هنا تبدأ السورة بلفت الانتباه لنماذج واضحة جداً عن النعم الإلهية على الناس، وفي نفس الوقت لفت انتباه لقدرته تعالى على إعادة إحيائنا لمحاسبتنا، وستلاحظ أنَّ الآية هنا تطرح موضوع السورة الأساسي من أن الرحمة والنعمة والرزق بيده تعالى، وأن الحساب على إنكار هذه العقيدة شيء سيحصل حتماً:

{وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ}، أطلق الهواء القوي، {فَتُثِيرُ}، تُهَيِّجُ وتحرِّكُ الرياح، {سَحَاباً}، وهي تجمعات بخار المياه التي في الغلاف الجوّي لسماء الأرض، الغيوم التي ينزل منها المطر، وللغيوم أسماء مختلفة يعرفها المتخصصون، وبعضها لا يمطر وبعضها يمطر، والسحاب اسم للغيوم التي ينزل منها المطر.

{فَسُقْنَاهُ}، حَرَّكَ سبحانه السحاب إلى حيث يريد، فالسحاب وحده لن يتحرّك، فمن تصميمه تعالى لخصائص المواد والبيئة تتحرَّك الريح وتنقل السحاب، {إِلَى بَلَدٍ}، إلى بقعة محددة على الأرض وعادة لها اسم، {مَيِّتٍ}، لا توجد فيها حياة نباتية، {فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ}، بذلك الماء الذي نزل من السحاب صار في تلك الأرض حياة نباتية، {مِن بَعْدِ مَوْتِهَا}، لأن أي بقعة من الأرض عندما ينقطع عنها الماء تموت، فتصير جرداء قاحلة، وعندما تصلها كميات كافية من الماء تنمو فيها النباتات...

{كَذَلِكَ النُّشُورُ}، بِمِثْلِ هذه العملية السهلة يحصل نشوركم أي إخراجكم من التراب أيها البشر مرة ثانية. فلنتصور إخفاءَك لأوراق في جيبك، ثم تنشرها، فتخرجها من جيبك وتضعها أمام غيرك وتعرضها عليهم ليروها، فالنشور هو إخراج الناس من التراب وجعلهم كائنات أحياءً معروضين أمام ربهم سبحانه.

تكرّر في القرآن كلامه تعالى عن إنباتنا من الأرض كما تقرأ في الآية 17 من سورة نوح {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً}، وتكرر قوله تعالى عن خلقنا من ماء وتراب أي من طين، وكمثال على ذلك الآية 2 من سورة الأنعام {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ...}، ولدينا تصوير جميل لذلك في الآية 20 من سورة الروم {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}.

تكرّر تشبيه بعثنا من الموت بخلق النبات بسبب نزول الماء كما تقول الآية هنا، وكما ستجد في تكملة الآيات في سورة نوح من بعد الآية 17، وكما تقرأ في الآية 11 من سورة ق {رِزْقاً لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ}، وهذا ليس تشبيهاً تقريبياً، بل حقيقياً، مِنْ ناحيته تعالى فنحن والنبات مخلوقون "مركَّبون مؤلَّفون" من ماء وتراب، من هذه المواد التي في عالمنا من كربون وكالسيوم وهيدروجين... فنحن والنبات شِبْهُ التَّمامِ من حيث المادة التي نتكوّن منها، ومن ناحيته تعالى فإنَّ خلقنا "تركيبنا وتأليفنا" مرّة ثانية لا يختلف كثيراً عن تركيبنا أوّل مرّة، ولذلك عبّر القرآن بشكل حقيقي عن تشابه خلقنا مرّة ثانية مثل خروج النبات من الأرض الميتة، فهي نفسها الأرض التي تحوي رفات الأموات، ونفسها الأرض الميّتة بلا نبات، وبسبب هطول ماء المطر يخرج النبات، ويؤكّد القرآن أنَّ عملية مشابهة تماماً تحصل ويعود تشكيل أجسادنا نحن البشر مرّة ثانية، لأننا نتألف من ماء وتراب، وهذا ظاهر في العديد من الآيات.

أمّا فهم الآيات بأننا سنرجع إلى الحياة بسبب سقوط المطر على الأرض فهو الذي سبّب للكثيرين نفيهم للمعنى الظاهر من الآيات، علماً أنَّ الآيات لم تقل أبداً أنَّ المطر سيتساقط ونرجع إلى الحياة، بل قالت: عندما يتواجد الماء والتراب، فإن الحياة ترجع إلى النبات، وهكذا سترجع الحياة لنا نحن البشر في الآخرة.

لاحظ الآية بعد التالية التي تشير إلى مراحل خلقنا من تراب ثم من نطفة...

الأرض الميتة لا ترى فيها غير التراب، مثل الصحراء، ولكن حتى الصحراء القاحلة الجرداء، إذا نزل عليها المطر لفترات طويلة فستصير ضاجّة بالحياة النباتية والحيوانية وتصير واحات خضراء، بل تتحول إلى غابات كثيفة مع مرور أعوام من المطر الموسمي... وبشكل عام فإنَّ الآيات المشابهة لآيتنا هذه تتحدّث عن نموذج ولا تقصد أنَّ هطلة مطر واحدة على أي بقعة كفيلة بجعلها غابة، لا، ولا تقصد أنَّ الصحراء تصير خضراء من هطلة واحدة، لا، بل الكلام

عمومي عن نموذج أي بقعة يحصل فيها هطول للأمطار لتزدهر الحياة النباتية بما يتناسب مع طبيعة المنطقة وعدد نزلات المطر عليها...

بقي شيء كررناه في دراستنا عن تصورك نفسك أنك قررت خلق كائنات في بيئة، وصممتها تنمو بالأكل، فتجوع لتأكل، وصرت أمام خيارين، إمّا أن تخلق لها الطعام جاهزاً ينبثق من الفراغ أمامها فجأة كلما جاعت، وإما أن تصمّم البيئة بحيث ينتج عنها الطعام. وهكذا نفهم نظرته تعالى لرزقنا أنه منه، نزل من عنده، وهذه التعابير لم تقصد إلا ما هو متاح لنا من نتاج بيئتنا، ولم تقصد وجبات طعام جاهزة ساخنة وحسب الرغبة نجدها فجأة تنبثق أمامنا كلما جعنا. وبهذا الكلام المباشر المبالغ فيه تَرَى بوضوح وسهولة معنى رزقه تعالى لنا، ومعنى تحريكه تعالى للرياح وإنزاله للمطر... فهو صمّمها وخلقها لتحصل... فهو رازقنا وهادينا ومضلّنا...

نرجع إلى السورة:

(مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ {10})

{مَن كَانَ}، من الناس، {يُرِيدُ}، رغبته ومقصده، {الْعِزَّةَ}، أن لا يكون ذليلاً، فيريد الرفعة والمقام العالي والمكانة المحترمة، {فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً}، فكلُّ العزّة بكل أنواعها هي عند الله تعالى، وسبحانه منفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية أو الحاجة أو فرض إرادة الآخرين عليه... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره...

{إِلَيْهِ}، إلى من له كل العزّة، {يَصْعَدُ الْكَلِمُ}، الكلام، {الطَّيِّبُ}، الحسن الجيّد، فإذا قلت كلاماً طيباً فيه توحيد وحمد وشكر لله تعالى... وأي كلام حسن مع الآخرين، وفي مختلف المواضيع والآراء... فهذا الكلام يصعد ويرقى ويصل إلى ربنا سبحانه، فيهتمُّ به سبحانه.

{وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ}، وما نقوم به وهو موصوف بأنه صالح جيّد، خلقنا تعالى وفينا القدرة على تمييز الصالح من الفاسد، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، عملياً سيتماشى ما نراه صالحاً مع ما يأمر به تعالى، وسنطيعه سبحانه بترك ما حرّمه وفعل ما أوجبه، وهذا العمل الصالح، {يَرْفَعُهُ}، هذا عمل يهتم به تعالى فيرفعه إليه، ويسجّله عنده باهتمام.

بشكل سطحي نفهم أنه بالكلام الطيّب وبالعمل الصالح تتقرّب من صاحب العزّة لتصير عزيزاً، كالتابع لجهة قوية قديرة، كالمحسوب على زعيم أو رئيس أو عموم أي شخص له سلطة عالية... ولكن من عموم مفاهيم القرآن ترى عمقاً آخر، فالعزّة بأساس معناها تشير إلى من ليس منقاداً مفروضاً عليه تنفيذ ما يريده الآخرون ولا يحتاج ما عند الآخرين... ويقابلها الذليل، والعمق في الذلّة والعزة تعرضه الآية على شكل الاستقلالية فيما "يريد" ذو القلب السليم فعله، فهذا لا يريد إلا الصلاح لنفسه وللآخرين، وهو يحب هذه السلوكيات، وسيرى نفسه ذليلاً إن لم يستطع تطبيقها، وسيرى نفسه عزيزاً إن لم يمنعه شيء من التصرف بما يرتاح من صلاح، وعلى هذا التصميم خلقنا تعالى لنتماشى مع ما يريده هو سبحانه منّا، ومن ناحية ثانية فإنَّ سبحانه يخبرنا عن مدى اهتمامه بهذه النوعية من الناس، فهو العزيز بكل ما تحمله كلمة عزّة من مستوى إلهي، ويهتم بالأقوال والأعمال الطيبة الصالحة لأنَّ قيمتها عالية عنده سبحانه.

من جانب آخر، {وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ}، الذين يقومون بالأعمال السيئة عن تخطيط وتصميم وعلم بما يفعلونه، {لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ}، لهم ضرر مؤلم دائماً ولا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه، {وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ}، وقيامهم بالأعمال السيئة عن تخطيط وعن قصد، {هُوَ يَبُورُ}، هو الذي يخرب ولا ينتج عنه أي شيء جيد. نقول عن الأرض العاطلة التي ليس فيها نبات وخضار وفيها الشوك إنها أرض بور، وإن كان هناك شيء موصوف بأنه "هو يبور" لأنه عاطل لن ينتج عنه خير، فهو المكر السيّء.

الآية تشير إلى رفضه تعالى للعمل السيّء، فصفاته الحسنى لن تقيّم السوء بالصلاح، ولن يكون مرتكب السيئات عزيزاً عنده سبحانه، بل ذليلاً، وبدقّة عبرت الآية بمكر السيئات، بالقيام بها عن تخطيط وتصميم ومعرفة بسوئها، لتخبره ألا يتوقّع منه تعالى إلا توصيفه بالسوء.

بالنسبة لصعود الكلم الطيب ورفع العمل الصالح، فهو صعود ورفع كتوصيف حقيقي معنوي، فأصلاً العزّة وصف لحالة معنوية كتقييم، ولا يوجد شيء اسمه عزّة أو حبّ أو كُرهٌ أو ذلّة... وتشير له بإصبعك، وكذلك الصعود والرفع لشيء تقييمه طيّب وصالح، لا تشير إليه بإصبعك فهو تقييم، كرفع رتبة العسكري، والصعود في الدرجات العلمية... سبحانه لطيف واسع محيط، قريب من كل شيء، وتعامله تعالى مع ما في الدنيا كلّها لا معنى ملموساً فيه لنزول وصعود الأشياء بالنسبة له سبحانه، إذ إنه ليس في مكان كحيّز موقعه عال وتصعد إليه الأشياء، لا، فالكلام هنا عن صعود ورفع يعبّر عن اهتمامه تعالى بالكلام الطيب والعمل الصالح، وسينال من فعلهما تصنيفاً بقيمة عالية وثواباً عالي القيمة كترجمة عملية لاهتمامه سبحانه، ولكن تركيز الكلام في الآية على تقييم الأقوال والأفعال من جهته تعالى، وذلك في مقابل كرهه تعالى للعمل السيّئ الذي لن يهتم به ولكن ليس على معنى إهماله لأنَّ كل شيء يتسجّل، ولكن على معنى تقييمه كسيّءٍ فاسد، وفاعله فاقد للقيمة الحسنة وليس عزيزاً ولا على أي معيار.

(وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {11})
أساس فتح النعمة الإلهية علينا بخلقنا:

{وَاللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {خَلَقَكُم}، ركّبكم ألّفكم أيها الناس، {مِّن تُرَابٍ}، ويشير القرآن بكلمة تراب إلى المواد المنتشرة على الأرض من كربون وكالسيوم وحديد وأكسجين... وبعض الآيات اختصرت الماء فلم تذكره، وبعض الآيات ذكرت الماء بدون التراب، وبعض الآيات جمعت الاثنين معاً بكلمة طين، فتكويننا من أساسين "ماء وتراب" من المواد التي في بيئتنا هو معلومة بديهية، فذكر آيةٍ مّا لمكوّنٍ أساسي وإغفالها للآخر ليس المقصود منه إلغاء المكوّن الآخر بل الإشارة إلى مكوّن منهما.

{ثُمَّ}، خلقكم، {مِن نُّطْفَةٍ}، والنطفة وصف لعموم أي شيء صغير الحجم جداً، ونستعمل هذه الكلمة "عادة" لوصف مكونات سائل التلقيح الذي يخرج من الرجل، وحالياً نستعملها اسماً للحيوانات المنوية، علماً أنها في أساس معناها ليست مخصصة لذلك، فيمكنك القول "نطفة" عن أي كمية صغيرة جداً من الماء العادي أو البهار أو الملح أو...

واستعمل القرآن الوصف بالنطفة للإشارة إلى الحجم الصغير جداً جداً لما سيصير إنساناً، أي من شيء صغير جداً تركّبنا وتألّفنا لنصير إنساناً.

{ثُمَّ جَعَلَكُمْ}، سبحانه، {أَزْوَاجاً}، أصنافاً مختلفة، وبحسب سياق الكلام يُفْهَمُ المقصود من الوصف بالزوجية، وهنا الكلام عن ذكر وأنثى.

{وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ}، أي أنثى يصير في بطنها جنين، {إِلَّا بِعِلْمِهِ}، فقبل حملها كان سبحانه يعلم أنَّ الحمل سيحصل لها.

{وَلَا تَضَعُ}، الأنثى ما في بطنها فتلد، {إِلَّا بِعِلْمِهِ} سبحانه، فقبل أن تلد كان يعلم سبحانه أنها ستلد.

{وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ}، أي إنسان يعيش عمراً طويلاً، وما يعيش من عاش لمدة طويلة بحسب ما يتحمّله جسده، {وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ}، ومن لم يعش مدة طويلة بسبب خلل داخلي في جسده أو من طارئ خارجي كجرثومة أو من حادث ضرّر جسده... {إِلَّا فِي كِتَابٍ}، مسجل سلفاً في كتاب عند الله تعالى، وهذا تعبير مشابه لعلمه تعالى سلفاً بمدى عمر أي واحد منّا.

{إِنَّ ذَٰلِكَ}، من خلق بمراحل ومتابعة للتكوين والحياة إلى الموت، {عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}، سهل وليس فيه أي صعوبة.

بعبارة أخرى سبحانه سجّل بالتفصيل في كتاب: أن تولد البشرية وتتناسل وتحبل النساء وتلد، والأولاد منهم من يعيش حتى يصير معمَّراً أي كبيراً في العمر، ومنهم من يموت أبكر من ذلك، وعلمه تعالى بالتفصيل بكل ما سيحدث سهل ويحصل بكل سهولة.

كما ترى فإنَّ الآية تشير لكوننا نتاج تصميمه تعالى بخلقتنا من تراب ثم نطفة... وسبحانه من أوّل ما قرّر خلق ما في الدنيا صمّمها عالماً بتفاصيل ما سيجري فيها، فسبحانه لا يخمّن ولا يحتمل بل يعلم بما سيحصل، وسجّل ذلك في كتاب

ليس من ورق ولا مثل ذاكرة الكمبيوتر... بل هو تعبير عن شيء تحصل كل الأمور في الدنيا بناءً على ما هو مسجّل فيه...

بالنسبة للكلام عن نشأة الحياة، فإنَّ القرآن قدّمها لنا بشكل يفهمه أي إنسان عادي، فتكوينا من المواد التي على الأرض، وهذا بديهي واضح، فجسدنا مكوّن من الكربون والكالسيوم والحديد والهيدروجين... وفي مرحلة ما صرنا نتوالد بالتلقيح حيث صرنا ذكراً وأنثى... فهذا مختصر أهمّ مراحل نشأة الحياة على الأرض.

أمّا البحث عن آليات تشكّلها، فالباب مفتوح للجميع للبحث فيه، فالقرآن لم يطرح آليات البيئة والمواد المناسبة لتشكّل سلسلة بوليمر كأساس للرنا "RNA" أو الدنا "DNA"، ولم يطرح آليات تناسخها وتحوّلها لخلية... لتصير كائناً بدائياً... وهذا كلام يعتمد على نظرية النشوء والارتقاء بنسختها الأساسية عن الحيوان والمعدّلة بإدخال الجينات عليها... والتي لا يرفضها القرآن، بل ومن دراسة القرآن يبدو أنها متماشية مع المراحل التي ذكرها عن تكويننا. وأقول "تتماشى" ولست مؤيداً ولا نافياً لها إلا بحدود ما اطَّلعتُ عليه وأقنعني كأي شخص عادي يقرأ عن النظريات العلمية، فالعلوم البيولوجية ليست مجال اختصاصي، فلا تفهم من كلامي أنني أؤمن بها وأفسّر القرآن على أساسها، لا، وإنما كمثقَّف أرجّحها وفي نفس الوقت أعلم أنها مبلغ علمنا الحالي ومن الأكيد أنه في المستقبل ستتطوّر علومنا لننقِّحها حتى نصير أمام شيء جديد مختلف كلياً أو جزئياً عنها، بينما كلامه تعالى عمومي يفهمه أي إنسان عادي في كل العصور، هذا إن لم نفسّر كلامه تعالى من خلفيات معطيات غير صحيحة، كتفسير كلامه تعالى بصنع تمثال من الطين ونفخ الروح فيه ليصير إنساناً... فهذه سذاجة طفولية، بينما هو وصف للمؤدّى مختصرين المراحل والآليات وناظرين لنموّنا على أنه تشكّل لهيكل طيني وفي مرحلة ما صار إنساناً متميّزاً عن الجماد...

سبب ما يبدو كتعارض بين الدين الإلهي وبين هذا النوع من النظريات يرجع إلى فهم المتدينين بشكل ساذج طفولي لكلامه تعالى، وعرضهم لكلامهم هم على أساس أنه الدين الإلهي، ومنعهم الآخرين من أي تفسير آخر لكلامه سبحانه. قديماً كانت معلومات الناس عن آليات حدوث المطر قليلة، ويربطونها فقط مع وجود غيوم، أمّا كيف تشكّلت الغيوم ولأي سبب ينزل منها المطر، فقد كان مجهولاً عند الغالبية الساحقة من الناس، طبعاً مع علمهم من الضباب بأن الغيوم بخار ماء... ولهذا فهم المتدينون قديماً كلامه تعالى عن تنزيله للمطر أنه سبحانه وبدون آليات "أسباب" طبيعية، يأمر فتتشكّل الغيمة وينزل الماء، هكذا بدون سبب، وعلى نفس العقلية الطفولية الساذجة اخترع الآخرون إلهاً للمطر، فاخترعوا كائناً بقدرات عالية يأمر فينزل الماء...

هذه العقلية التي انبنى عليها تفسير كلامه تعالى وعُرضت على أنها دينه هي السبب في هجران المثقفين للدين الإلهي، ونجا منها الأجيال الأولى من المسلمين لأنهم تعاملوا مع القرآن ككتاب هداية يلفت الانتباه لأمور نعرفها بسهولة ونراها ونحتك بها، وليس ككتاب يطرح نظريات علمية عن آليات حدوث الأشياء، فترى الغالبية الساحقة من أولئك العلماء في المجالات المختلفة من طب ورياضيات وفلك وفيزياء وكيمياء... تراهم من أشد الناس التزاماً بدينه تعالى، إلى أن سيطرت على الساحة الروايات وتراكم التراث والتفسير بها مقتحمة المجالات العلمية لترفع يد العلماء المتخصصين عمّا اعتبره علماء الدين دينياً وجوابه يجب أن يكون حصراً في الكتب الدينية، ومنه مسألة بداية خلق ما في الدنيا، وبداية خلقتنا، وبعثنا... فصار البحث في هذه الأمور دينياً! وأي مخالفة لما يقوله علماء الدين فهي مخالفة للدين وكفر! في حالة كشِبْهِ التَّمامِ مع مشكلة الكنيسة مع كوبرنيكوس.

للتوسّع أكثر عن نشأة خلقتنا راجع ما ورد في دراستنا هذه في الآية 30 من سورة البقرة والآية 45 من سورة النجم.

(وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{12})
لفت انتباهنا للنعم الإلهية علينا الواضحة من حولنا:

{وَمَا يَسْتَوِي}، ليسا نفس الشيء، ليسا مثل بعض، {الْبَحْرَانِ}، التجمعان الكبيران للمياه، {هَذَا عَذْبٌ}، هذا ماء كثير طعمه طيب "غير مالح"، {فُرَاتٌ}، يروي من العطش، {سَائِغٌ شَرَابُهُ}، إذا استهلكه الإنسان يمشي بسلاسة في حلقه والمريء، {وَهَذَا}، البحر الآخر، {مِلْحٌ أُجَاجٌ}، ملوحته عالية لدرجة الشعور بالانزعاج عند نزوله في الحلق.

كلمة بحر تشير لكلّ تجمّع "مائع أو سائل" كبير، سواء أكان بحراً أو نهراً ضخماً أو بحيرة كبيرة... وسواء أكان مالحاً كالبحر المتوسّط والأسود والأطلنطي والأطلسي... أو حلواً كالبحيرات الكثيرة المنتشرة في العالم، ومنها المشهورة بالبحيرات العظمى في شمال القارة الأمريكية، وكالأنهار الكبرى كالنيل والأمازون... أو في الآخرة لبحار السوائل الحارقة في جهنّم... والكلام هنا يشير للفرق الذي نعرفه بين البحر المالح والبحر ذي المياه العذبة، ويشير للرزق بالشرب وباستخراج ما ينفعنا منهما، ويشير إلى ارتباط شيء بنا ولا علاقة إرادية لنا به، فهو وحده له مواصفات خاصة به، فما علاقته بنا وبصلاحية هذا للشرب منه والآخر يضرّنا إذا شربنا منه ولا يروينا ولا نرغب بطعمه؟!

قارنها مع الآيات التي لفتت انتباهنا للبن البقر الذي نشربه والذي نتج من بين فرث ودم، فما علاقتنا به نحن ليكون صالحاً لنا لشربه وللتغذية منه؟ وهنا نفس الشيء مع الماء ووصفنا له بالعذب الفرات السائغ... فكيف يمكن تفسير وصولنا إلى هذه الحياة مع هذه الرابطة مع الماء الحلو من دون إله صمّم ذلك؟

{وَمِن كُلٍّ}، من البحرين الحلو والمالح، {تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً}، وهو السمك، {وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً}، تخرجون من البحار شيئاً يجعل مظهركم أحلى، {تَلْبَسُونَهَا}، يضعها من استخرجها على جسده أو يعطيها للآخرين ليضعوها على جسدهم، مثل الصدف واللؤلؤ والمرجان من البحر المالح أو البحيرات والأنهار المائلة إلى الملوحة.

{وَتَرَى الْفُلْكَ}، يصير عندك صورة محدّدة للسفن والقوارب والمراكب والفلوكة... كما نقول بالعامية "بتشوف" تراهنّ، {مَوَاخِرَ}، يمخرن البحر، تَشُقُّ طريق سيرها فيه، تَمْشِي في ماء البحر تَشُقُّ سطحه، {لِتَبْتَغُوا}، لتطلبوا أيها الناس، {مِن فَضْلِهِ}، من الأمور الجيدة التي منحها تعالى لكم وهي من الأساس ليست مفروضة عليه تعالى ليمنحها لكم، كالانتقال في البحر والسفر للتجارة أو لمكان أفضل...

صنع سبحانه البحار بأنواعها، وجعل منها المحبّب للشرب، وجعل اللحم الطري "السمك" فيها، والأشياء التي يمكن استخدامها للزينة كالصدف، وعوّم الفلك عليها... كل ذلك، {وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، فمن المفروض ومن المتوقّع منكم إعلانكم عن حصولكم على أشياء جيدة منه سبحانه.

الفلك "السفن" هي نموذج عن بقية المنشآت والآلات التي نصنعها، نحن لاحظنا طفو الأشياء على الماء... فصنعنا الفلك، وتقول الآية إننا واجب علينا شكره تعالى على استعمالنا السفن، لأنها سهّلت حياتنا وفتحت لنا آفاقاً جديدة، ونشكره سبحانه لأن فكرنا وخيالنا وقدرتنا على الملاحظة... وخصائص الماء والخشب والمواد... كلّها منه تعالى، ومن الأساس أعطانا سبحانه القدرة على الوصول إلى اختراع السفن، والآية لا تخبرنا عمّا حصل "بعد أن حصل" بل تخبرنا عن اختراعنا للسفن أنه كان من تخطيطه لنا سبحانه وتعالى، واختراع الطيّارة والسيّارة والهاتف... كلّها نفس الشيء.

بعبارة مبسّطة نحن لم نستعمل فكرنا لنخترع شيئاً لم يخطر على "باله" تعالى، لا، من الأساس يعلم سبحانه ما سنصنعه بهذه القدرات وفي هذه البيئة، وتوصلنا إلى الاختراعات عبر بذرة زرعها سبحانه في تفكيرنا عندما صمّمنا وخلقنا وخلق البيئة الملائمة لذلك من حولنا، وليس من ابتداعنا بما لا يعلمه تعالى بل عن تخطيط إلهي مسبق لما يمكننا نحن صنعه بهذا الفكر وهذه البيئة قمنا بصناعة السفن والسيارات والطائرات، والفلك مجرد نموذج، ويمكنك تعميمه بكل سهولة على الطائرات والسائرات "السيارات" والقاطرات... وكلّها يجب أن نشكره تعالى عليها.

بقي شيء يظهر من عموم كلام القرآن الذي يعرض بعض الأمور التي نفهمها بسهولة ليسألنا عن تفسيرنا لها كيف حصلت؟ أوحدها حصلت من دون من صمّمها؟ هذا الترابط الغريب العجيب بين شعوري بالعطش وتلذّذي بشرب الماء العذب الفرات السائغ، ونفوري من المالح الأجاج، ما معناه؟ وكيف حصل؟

خذ مثلاً السؤال عن الحلية التي نستخرجها من البحر لنتحلّى بها كزينة، حلّل نفسية البشر وهذه الرغبة بالتزيّن مع تناسب شيء من قاع البحر للزينة، ما استخرجته ليكون حلية لي كيف صار لي معه هذه العلاقة؟ وما معنى صيرورتنا بشراً برغبة التحلّي؟ وما معنى وجود مواد لنتحلّى بها؟ وما علاقة الشكل واللون الذي صارت عليه صدفة الحيوان بي لأرغبها كزينة؟

وما معنى حياتنا لولا رغبة شرب الماء، ولولا رغبة رؤية الحلي، ولولا رغبة الانتقال إلى البعيد لاستكشافه... وما معنى حياتي إن كنت لا أجوع ولا أعطش وبدون حواس ولا رغبات؟ وما معنى حياتي معها ولا أجد في بيئتي ما آكله وأشربه ويعجبني...؟

المرور السريع على كلام القرآن عمّا فينا وارتباطه ببيئتنا يجعل الآيات جافّة بلا معنى، ويقع الكثيرون في مشاكل عقائدية بسبب كلام المنكرين للدين الإلهي حين يفلسفون ما حولنا قائلين إنَّ الطبيعة الأمّ خلقته، وبلا إله صمّم وخلق حصل كل ما نحن فيه! أو بالصدفة وكثرة تكرارها حصل ما نحن فيه بلا إله!

كما ترى، ها الإله سبحانه يخبرك عن جعله التفاصيل كثيرة عن قصد ليجعلنا نتعرّف عليه سبحانه بسهولة، وذلك من التفاصيل الهائلة ومن الترابط بيننا وبين بيئتنا بشكل مذهل، لعلنا نشكره تعالى، فمن المفروض ومن المتوقّع منّا شكره تعالى، ولكن وكما ترى الكثيرون كافرون بذلك!

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ {13})
الله سبحانه، {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ}، فيجعل فترة العتمة من اليوم تلج فتدخل على منطقة الضوء، وهذا شيء نراه من بعد غروب الشمس، {وَيُولِجُ النَّهَارَ}، فيجعله تعالى يدخل في الليل، وهذا شيء نراه من بعد الفجر.

{وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ}، حيث ينيران لنا ويحددان اليوم والشهر والسنة، وبهما نحدّد الاتجاهات على الأرض "وفي المستقبل نحدد من الشمس موقع الأرض في الفضاء"... ويسببان المدّ والجزر، والحرارة... وهما مسخّران فنحن لا نقدّم لهما أي شيء مقابل ما يقدمانه لنا، فهو تعالى سخّرهما لنا، وكما ترى فهما نعمتان لا علاقة لنا بهما نهائياً، بل وبعيدتان عنّا.

{كُلٌّ}، من الشمس والقمر، {يَجْرِي}، فنراه يسير في السماء، {لِأَجَلٍ}، لزمن انتهاء الشيء، {مُسَمًّى}، فهو معلوم محدّد. فالشمس نراها تجري في النهار في السماء من نقطة شروقها إلى نقطة غروبها فتنتهي رؤيتنا لجريانها حين تصير خلف الأفق، ومثلها القمر الذي نلاحظ حركته بالأيام من جهة الشرق إلى الغرب.

{ذَلِكُمُ}، الذي فعل هذه النعمة العظيمة هو، {اللَّهُ رَبُّكُمْ}، الكائن المحدّد باسمه الخاص به "الله" المسؤول عنكم من مستوى إلهي. فكلمة ربّ عامّة لمن كان مسؤولاً عن شيء، فأنا ربّ بيتي، وزوجتي ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... أمّا اللهُ سبحانه فربّ من مستوى إلهي على الجميع.

{لَهُ الْمُلْكُ}، فكل شيء مملوك له، كما تملك أنت هاتفك وسيارتك وبيتك، فسبحانه يملك كل شيء، فيملكك ويملك ما تملكه أنت أيضاً.

{وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ}، فتشهرون وتعلنون أنهم آلهة، وفي ذيل الآية التالية سنتحدث قليلاً عن الدعاء، {مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ}، وهذه الكلمة استعملها القرآن مرة واحدة فقط هنا، وهي القشرة الرقيقة التي تغطي عموم أي بذرة نبات، كالقشرة الرقيقة التي تغلّف نواة حبّة البلح، حتى هذه الجلدة الرقيقة الصغيرة التي لا تساوي شيئاً، حتى هذه هم لا يملكونها، فهم لا يملكون مما في الدنيا أي شيء نهائياً، فما معنى أن تشهروا وتعلنوا أنهم آلهة؟ وما معنى ألوهيتهم وهم لا يملكون حتى قشرة نواة تمرة أو أي بذرة! بينما اللهُ سبحانه خالق كل شيء وسخّر لكم الشمس والقمر والأرض وبرّها وبحارها...

نتذكّر تمحور كلام السورة عن سلطته تعالى على فتح وإغلاق الرحمة، فتريد الآيات هنا إيصالنا لمعلومة أن الملك لله تعالى وحده، وبناءً عليه فالرزق منه وحده سيأتينا.

بقي شيء، حيث إن القرآن يوجّه كلامه لإنسان واقف على سطح الأرض، وهذا بالنسبة له، فإن الشمس تجري من جهة المشرق إلى جهة مغربها لتتوقف بالنسبة له عن الجريان لأنه لم يعد يراها من تحت الأفق، والقمر يجري ويستغرق ذلك أياماً حتى يصل إلى جهة مغرب الشمس، وأي تحوير بالكلام لنجعل الآيات تقصد أن الأرض تدور حول الشمس، أو أن الشمس تدور في ذراع المجرّة... فهو كلام لا معنى له، لأن الآيات لا توصّف المشهد لمن يقف في الفضاء البعيد،

ولا تعطينا معلومة فلكية، بل تتحدّث معي ومعك كواقفين على وجه الأرض نرى منظر جريان الشمس في السماء، فكيف ستوصّفه لك الآية بأي كلام؟ وهذا المنظر للحركة الظاهرية للشمس تسأل عنه الآية، فما علاقتك به حين يحصل؟ وماذا تفعل أنت حتى يحصل؟ لا شيء، إذن كيف تفسّر ارتباط حركتها بتفاصيل حياتك المرتبطة بها؟ من ضوء وعتمة وحرارة ومدّ وجزر وتحريك الهواء وخروج النبات...

ولو أطلت عليك بشيء تكرّر مراراً في هذه الدراسة، فتصوّر نفسك أنت تصمّم بيئة وكائنات، فقدراتك ستنعكس على ما ستخلقه، وكثرة التفاصيل تحدّدها قدراتك، فكلما زادت قدراتك زادت التفاصيل، مثل كرسي للجلوس عليه، فأي سطح صغير أملس مرتفع قليلاً عن الأرض يمكن الجلوس عليه، ولكن مع ارتفاع القدرات ترتفع صفات الكرسي ليصير على قوائم وله ظهر ومساند... ومزخرف من الخشب ومقعده قماش محشو بالإسفنج... وعموم آيات القرآن التي تحدّثت عن صفاتنا وصفات بيئتنا وارتباطنا بها، كانت تشير لقدراته الفائقة سبحانه التي قصد منها ترابطي مع الماء، وترابطي مع الليل والنهار، ومع لبن البقر، ومع الفاكهة، ومع الألوان، ومع ظواهر الشفق وأنس ليلة مقمرة وروعة نهار مشمس... ومن دون إله صمّم وخلق، فما التفسير العقلاني لما تراه؟

دعك من فكرة الإعجاز العلمي في القرآن، فهذه ترهات، فهو كتاب هداية يعرض الحقّ والصلاح، ويكفي لذلك لفت انتباهك للأمور المفهومة ببساطة لتلتفت إلى إلهك خالقك رازقك... ولا داعي أصلاً بل لا معنى لذكره لمعلومات لن تفهمها إلا بالتخصّص بالعلوم الفلكية والطبية... فيكفي لفت انتباهك لخلقتك من تراب ولحركة الشمس ولخروج النبات... وعلى هذا جاءت الغالبية الساحقة من كلامه تعالى عن الآيات الدالة عليه سبحانه.

كما تعلم، من دون نزول القرآن، هي نفسها المسمّاة بالآيات الدالة عليه تعالى، وهي نفسها باقية كما هي دالة عليه سبحانه كإله حكيم قدير... وإنما ذكرها القرآن للذكرى، للفت الانتباه، للتأكيد، واختار منها السهل على الفهم على مرّ العصور، وفي دراستنا هذه التي لم تعقّد الأمور بل طرحتها على بساطتها اللغوية السهلة، سترى كفاية ما اختاره تعالى من أمور سهلة على الفهم لتذكيرنا بها ولفت انتباهنا لها حتى نعيد تصويب فكرنا ونفسيتنا بالاتجاه الصحيح للتعرّف عليه سبحانه من أفعاله.

هذا لا يعني أن الأمور المعقدة من أفعاله تعالى والتي تحتاج لتخصّص ودراسة مطولة لفهمها، أنها ليست آيات، لا، فكل أفعاله تعالى آيات دالة عليه بوضوح، والآيات الناتجة عن دراسة عميقة هي آيات لمن يفهمها، ولا حاجة لذكرها في القرآن، فلفت انتباهنا لخلق بعوضة كافٍ لمن يريد الاهتداء.

إطالة الكلام بعد هذا المقدار تجعلنا ندخل في تحليل عقليات ونفسيات المدّعين للإعجاز العلمي في القرآن، فهؤلاء عندهم مشكلة ما، أهمّها أن الكلام القرآني الواضح البسيط السهل على فهم أي إنسان عادي، لم يكن كافياً لهم، فهم لم يفهموا أن المسألة بالأساس هي الهداية للحق والصلاح وترك الباطل والسوء، وليست المسألة إثبات ألوهية مصدر هذا القرآن عبر إلصاق معجزات علمية له، فيكفي الالتفات لخلقي لكياني لحياتي وللنبات وللسماء والليل والنهار... لأرى إلهي خالقي العظيم... ومن لم يستطع رؤية الحقّ في كلامه تعالى بمعلومات عن نفسه في قرآنه، ولم يستطع رؤية الحق في التشريعات والسلوكيات المطروحة فيه، فهذا يتوجّه نحو أمور أخرى مستعملاً الباطل ليدافع عن الحق! ويخترع معارك في الفراغ مع الهواء، والمشكلة أنه يساعد على نشر حالة السذاجة والتفاهة في فكر المسلمين عبر تغذيتهم بكلام معسول ولكنه كاذب، فينزل مستوانا الفكري نحو السذاجة التي يطرحونها في تفسير كلامه تعالى بنظريات حديثة، متعامين عن قصد وتصميم أنهم يحمّلون الآيات معانيَ لا تتحمّلها لغوياً، وأن النظريات دائماً تتبدّل وتتغيّر، وبعضها سيثبت أنه غير صحيح، وها التاريخ أمامك يريك أن نظريات الأقدمين أضحوكة في عصرنا، ونظرياتنا الحالية حتماً مصيرها أن تصير أضحوكة بعد ألف سنة، بينما كلام القرآن يشير لأمور بسيطة نفهمها بسهولة بدون نظريات علمية.

(إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ{14})

{إِن تَدْعُوهُمْ}، إذا أشهرتم وأعلنتم لغيره تعالى على أنهم آلهة، {لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ}، فكلامكم لا يصل إلى مسامعهم، وهنا الآية "كما نفهم من سياق السورة" تتحدّث مع وعن نموذج مشركي مكّة الذين كانوا يعبدون آلهة مختلفة، من

الأصنام إلى الجنّ إلى أرواح الأجداد إلى الكواكب والملائكة(ع)... ويمكن تعميم أي إله "غير الله تعالى" ويعبده أي إنسان لتجري عليه الآية.

{وَلَوْ سَمِعُوا}، الذين تدعونهم من دون الله تعالى فلو فرضاً وصل إليهم كلامكم عنهم بأنهم آلهة، {مَا اسْتَجَابُوا لَكُم}، فلن يحصل منهم ردّة فعل لتحقيق طلبكم، لأنهم ليسوا آلهة ولأنهم لا يملكون أي شيء.

الآلهة الوهمية التي لا كائن لها يمثّلها كإله المطر وإلهة الحبّ... مع أصنامها وتماثيلها، فهذه خارج الكلام عنها أصلاً فهي وهمية خيالية، والتي يزعمون أنها آلهة ولها كيان حقيقي، كالجنّ أو ملاك أو إنسان ميت... فوحده تعالى يسمع كل شيء، والبقية كلهم ليس لديهم الانتشار العلمي والسمعي والبصري... المحيط بالدنيا ولا بالأرض، وفرضاً لو أن كائناً من المخلوقات التي قالوا عنها آلهة، ملاكاً، أو جنياً "أو نبياً"... فرضاً سمعهم لقربه منهم، فهو ليس إلهاً! ولا يستطيع الاستجابة لطلباتهم التي لا يقدر عليها إلا إله.

الكلام هنا بالتحديد بالنسبة لموضوع السورة فلو سمعوا طلبكم للرزق، أو للنعمة بأمور تحتاجونها، فلا قدرة إلهية لديهم لاستجابة طلبكم، ومنذ قليل في الآية السابقة لفتت انتباهنا لنماذج من أفعاله تعالى على مستوى إلهي من تسخير الشمس والقمر لنا، فأي إله من آلهتهم له ملك شيء ما من مستوى إلهي حتى يقول عنه إنه إله؟ وماذا فعل حتى يقول إنه إله؟ وهل إذا دعوه إلهاً وفرضاً سمعهم فهل لديه القدرة الإلهية للتفضّل عليهم بشيء ما؟

نتذكّر بداية السورة في حديثها عن الملائكة(ع) ومن المعلوم أنها موظّفة منه تعالى للقيام بالأعمال التي يأمرها بها تعالى، وتسمع الملائكة(ع) دعاء الناس لها، ولكنها ليست آلهة ولا تتخّذ أي قرار من عندها.

{وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ}، وفي زمن قيامكم من الموت، فهؤلاء الذين قمتم بالدعاء لهم، {يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ}، ينكرون تأييدهم لشرككم وجعلكم لهم مع الله تعالى شركاء.

وهذا الذي سيحصل في يوم القيامة من كفرهم بمن كانوا يدعونهم... {وَلَا يُنَبِّئُكَ}، فلا يخبرك بهذا الخبر غير المنتشر علمه، {مِثْلُ خَبِيرٍ}، مثل ربنا سبحانه الذي لديه أخبار كلّ شيء بالتفصيل، فهذا حتماً سيحصل وها نخبرك به.

بالنسبة لكلمة "دعاء" ومشتقاتها، في عموم استعمال العرب فالكلمة يائية وواوية "دعوت ودعيت" مثل "طغوت وطغيت". وهذا في استعمال العرب ولكن كل القرآن استعملها فقط بالواو من الأصل الصرفي "دعو"، ووردت مرتين للمبني للمجهول مع ياء في الآية 12 من سورة غافر "... إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ..."، وفي الآية 53 من سورة الأحزاب "... وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا..."، فهذا مما جرى به لسان العرب بإضافة الياء في هكذا حالة، وكما ترى فمن الاستعمال لا يمكن حمل الكلمتين "بالواو أو بالياء" على نفس المعنى إلا إذا كانتا على معنى عموم الإشهار والإعلان، وكذا الحال فيما جرى عليه لسان العرب بما ورد مرتين في الآية 4 و 37 من سورة الأحزاب "أَدْعِيَاءَكُمْ، أَدْعِيَائِهِمْ".

ضع في بالك دائماً أن أكثر الجمل القرآنية المشابهة لآيتنا هذه والتي سبقتها، لم تقصد بشكل خاص أنهم يدعون على معنى يطلبون أشياء وأموراً من آلهتهم، بل قصدت العمومية، فقصدت أنهم يعلنون ويشهرون عن غيره تعالى أنهم آلهة، ولن يجدوا رداً من تلك الآلهة على هذا الإعلان، وهذا عملياً يتضمّن التوجّه بالدعاء لتلك الآلهة أن ترزقه أو تشفيه... وقارن هذا الكلام مع دعاء نتوجّه به نحوه تعالى لإعلان توحيده أو إعلان مدحه بحمده... فهذا دعاء لا يحوي على أي طلب، فهو مجرد إعلان منك أن الله تعالى إلهك وصفاته كذا وكذا... وتمدحه تعالى... وتذكر فضائله عليك لتشكره... فضع هذا في بالك دائماً لأن أكثر استعمال القرآن لكلمة دعاء قصدت ذلك ولم تقصد الدعاء على معنى طلب الأمور والأشياء.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ{15})
لفت انتباهنا لصراحة فقرنا إلى نعمه ورزقه تعالى:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ}:

{أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ}، أنتم تنقصكم الأشياء التي تحتاجونها ويملكها صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" تعالى، فتحتاجون للرزق الذي أتاحه تعالى لكم في بيئتكم، وهناك نظرة أعمق لحاجة كل شيء له تعالى إلى درجة زوالنا إن لم

يمسك سبحانه السماوات والأرض من الزوال كما تقول الآية 41 من السورة هنا {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}، وسترى إشارة لهذا المعنى في الآية التالية.

{وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ}، المستغني عن أي شيء، فلا يفتقر لأي شيء، {الْحَمِيدُ}، الذي كلّ أعماله جيّدة محمودة حميدة، فلا يقوم إلا بأعمال جيّدة حسنة. فاستغناؤه لا يدفعه للعبثية والظلم... لأنه حميد.

بالنسبة لوصفه تعالى بالغني فليس تفسيرها أنه تعالى يملك كل شيء وبالتالي يصير المعنى أنه سبحانه يملك ما يحتاجه، فهذا غير صحيح، فكلمة "غني" تفيد معنى الاستغناء، وهو عموم انتفاء عموم الحاجة لعموم أي سبب، إمّا لأنك لا تحتاج أصلاً للشيء، وهذه حالته تعالى "الغني" بالنسبة لكل شيء، وحالة الملائكة بالنسبة لطعامنا... أو غني لأنك لديك ما تحتاجه وهذه حالتنا حين نملك الطعام والشراب... أو غني لأنك تملك ما يمكّنك من الحصول على ما تحتاج، وهذه حالتنا حين نملك المال لنشتري به ما نحتاجه. وترى هذا المعنى للاستغناء بشكل مباشر وواضح لأصل معنى كلمة "غني" في تعبير {وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} كما ورد في الآية 97 من سورة آل عمران، فبوضوح يشير الوصف بالغني للاستغناء، فلا حاجة له تعالى بهم ولا بإيمانهم ولا يتضرّر منهم مهما فعلوا.

نفهم صفة الحميد بشكل أوضح إذا تذكّرت ما يقوله المشركون عن آلهتهم أنها مزاجية، فتؤذي الناس هكذا من دون سبب وجيه، أو لاحظ ما يقوله بعض المتدينين عن الله تعالى حين يشككون بأنه حميد فيعترضون على بعض الأمور ويقولون بأنها منه تعالى وليست جيّدة، فإذا فقد المال وافتقر وضاقت عليه الظروف... تراه يتّهم الله تعالى بأنه استقصده ليفقره ويعذّبه... وراجع في ذلك سورة الفجر، وإذا مرض هو أو من يحبّ بمرض عويص فإنه يتهم الله تعالى بإهماله فأمرضه ولا يستجيب لدعائه... فغالبية الناس في الورطات الصعبة يدعونه سبحانه وإذا لم يستجب لهم فوراً اتهموه سبحانه وتعالى بأنه ليس حميداً ولا حكيماً ولا عليماً، وأنه لا يبالي ولا يهتم ولا يستجيب للدعاء... وقد تحدّث القرآن مراراً عن هذه الأمور عندما تحدّث عن نفسيات بعض الناس في الحرب، وأثناء حصار الأعداء، وبعد خسارة الحرب... ولمزيد من التوسّع راجع الآية 121 من سورة آل عمران وما بعدها... وفي الفقر والمرض والخوف من الموت... وعند فقد الأحبّة... وذكر القرآن بصراحة الأمور السيئة التي يقولها بعض الناس عنه تعالى في تلك الحالات... وقد بينت الإجابات القرآنية أن صفة الحميد ملتصقة به تعالى، ولا تنفصل عنه وليست مؤقتة ولا تتغير... فالسوء ينتج من أفعالنا نحن في أنفسنا وفي الآخرين...

هنا في موضوع سورتنا، فتركيزها واضح جداً على هذه الصفة، لأن السورة تريد عرض النعم، الأمور الجيّدة التي صمّمنا سبحانه على أساسها، وتعرض البيئة الرائعة التي وضعنا سبحانه فيها، وتركّز السورة ومن أول كلمة فيها على أنه تعالى حميد، وألصقت صفة الحميد بما حصل معنا في خلقتنا وخلقة البيئة التي نعيش فيها، فكلها توصف بأنها أعمال حميدة جيّدة قام بها الإله سبحانه وتعالى.

باختصار، فما يحصل معنا ولا نراه حميداً، فهذا ليس من أفعاله تعالى، فنحن في بيئة الامتحان، ولو آمن الجميع، لمرّت الامتحانات بسلام، ولرزقنا سبحانه من فوقنا ومن تحتنا كما تقرأ في الآية 66 من سورة المائدة {وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم}، وتراه في الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، أمّا وقد اختار الأكثرية الكفر وفعل، فسينتج عن ذلك بلاء الفقر والحروب والكوارث... وهذه ليست من أفعاله تعالى بل نتيجة أفعالنا نحن، وسينتج عن ذلك أن لا يعتني بنا سبحانه فتصيبنا الآفات والكوارث... ولمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 96 من سورة الأعراف.

(إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ{16})
{إِنْ يَشَأْ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة وإذا قرّر يمكنه سبحانه أن، {يُذْهِبْكُمْ}، فيمكنه سبحانه أن يبقيكم ويمكنه أن يذهبكم فلا تبقون، {وَيَأْتِ بِخَلْقٍ} بكائنات، فيؤلّف ويركّب كائنات جديدة غيركم.

لا تعطوا لأنفسكم أهمّية، فدرجة فقركم إليه تعالى تصل إلى حدّ عميق جداً، لدرجة أن بقاءكم ككائنات مرتبط بمشيئته سبحانه، فهناك خيارات عديدة أمامه سبحانه، وشاء أن يبقيكم، مع العلم أنه تعالى يمكنه أن يذهبكم فلا يبقيكم ويخلق مخلوقات أخرى، تشبهكم أو لا تشبهكم، فلهذه الدرجة أنتم لستم مهمّين بالنسبة له سبحانه.

ننتبه جيداً لتعبير الآية بـ{يُذْهِبْكُمْ}، لأنها ببساطة تريد القول: إن قرّر سبحانه فلن تبقوا موجودين ككائنات. ويمكننا فهمها بشكل واضح على معنى ذهابنا من ناحية جسدنا، فإذا تحللنا "نذهب" من الدنيا، فلا يعد لنا كيان، ومن ناحية وعينا فعندما ننام أو نموت فإننا نفقد وعينا "فنذهب" ولا يبقى لنا وعي.

نلاحظ الآية تشرح لنا معنى الخالق المالك الغني... والحميد... بالنسبة لنا، فسبحانه يمكنه إنهاءنا لأنه العزيز الذي يفرض ما يريده، وباستطاعته وبكل سهولة فعل ذلك ولن يتضرّر ولن ينقصه أي شيء لأنه الغني، وهو سبحانه الحميد ولذلك خلقنا على الحال الجيدة التي نحن عليها، وإلا لتسلّى بنا لهواً وعبثاً مسبباً عن قصد الضرر لنا.

(وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ {17})
{وَمَا ذَلِكَ}، وليس الذي قالته الآية السابقة عن إذهابنا عن إنهائنا وفنائنا، {عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}، بل مذلّل له تعالى، فليس بصعب المنال أو صعب أو تحقيقه، بل ولا أسهل منه عليه تعالى أن يجعلنا نذهب بالفناء أو الزوال... فهذا هو حجمنا الحقيقي كمخلوقات لا قدرة ذاتية لها حتى على الحفاظ على كيانها.

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ {18})
قاعدة عامة عن الحساب الإلهي حتى ينمسح أي تفكير غير صحيح من عقول الناس، وسترى الآيات الأربع المقبلة تلفت الانتباه للحساب من زاوية الفرق بين المؤمن والكافر:

{وَلَا تَزِرُ}، فلا تحمل حملاً ثقيلاً مزعجاً حمله، {وَازِرَةٌ}، نفس وازرة، نفس حاملة لأشياء ثقيلة مزعجة، والكلام هنا عن الحاملة لأعمالها السيئة التي ارتكبتها في الدنيا فلا تحمل، {وِزْرَ أُخْرَى}، فلا تحمل حملاً ثقيلاً لنفس غير نفسها. فلا أحد في يوم القيامة سيحمل ذنوباً عن أحد، فكل واحد سيحمل أعماله ولن يجد من يحمل عنه، وهو أصلاً لن يتبرع ليحمل ذنوباً عن غيره، فكل واحد يحمل وزره الشخصي.

الوزر هو الحمل والثقل، مثل الحقيبة والخرج والشنطة... فنحن في يوم القيامة سنحمل أعباء الأعمال السيئة التي قمنا بها في الدنيا، فكل نفس تحمل أوزارها الخاصة بها فقط لأنه تعالى لن يظلمك بتحميلك ذنوب غيرك، وهناك لن يتبرع أحد ليحمل عنك، ولا أنت ستتبرع بحمل ذنوب عن غيرك، وحتى لو هنا في الدنيا قال أحد ما إنه يتبرّع بحمل ذنوب الآخرين، فهذا كلام فارغ ولن يجريه تعالى وأصلاً في يوم القيامة سيغيّر المتبرع رأيه بسبب هول وشدة ما يراه من عذاب، وترى ذلك من الآية 12 من سورة العنكبوت "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ"، فعلى الحالتين يكذبون لأن القانون الإلهي لا يجيز ذلك ولأنهم في الآخرة لن يقبلوا بحمل ذنوب عن الآخرين.

{وَإِنْ تَدْعُ}، فإن تشهر وتعلن نفس، {مُثْقَلَةٌ}، تحمل وزناً ثقيلاً، {إِلَى حِمْلِهَا}، فتدعو الآخرين ليحملوا ما هو لها، فيعلن شخص للآخرين ليحملوا عنه وزره، {لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ}، فلا أحد سيتبرّع ليحمل من أوزاره أي شيء، فتبقى أوزاره له لوحده، {وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى}، حتى لو كان من أقربائه، كأبيه وأمه وأخته وأخيه وابنته وابنه... فسيمرّون من جنبه ولن يحملوا عنه أي شيء حتى لو طلب منهم وترجّاهم...

بعبارة أخرى، فأي واحد منكم في يوم القيامة عليه حمل "وزر"، وهو الأعمال السيئة التي قام بها في حياته هنا، وفي الآخرة لن يجد من يحمل عنه، حتى لو دعا أقرب أقربائه وأعز أعزائه ليحملوا عنه، فلا أحد مستعد ليحمل عن غيره أي شيء، وهو أيضاً لن يحمل عن غيره، لأن أي شيء تحمله سيكون عذاباً إضافياً لك في نار جهنم، فمن سيحمل عن من؟!

الكلام عن حمل الوزر معناه أن آخذ عنك تبعات العقاب على أعمالك السيئة، مثلما آخذ عنك وزر الدين الذي عليك، فأصير مجبوراً بسداد ديونك، وحمل وزر السيئات يعني أن أتعذّب أنا عليها بدلاً عنك، فمن سيتبرّع بذلك في الآخرة وهو يرى ألسنة النار تتطاير...؟

{إِنَّمَا}، حصراً وفقط، {تُنذِرُ}، تحمل أيها النبي (ع) الخبر عن شيء سيّء قادم حتماً لمن توافرت فيه شروط حصوله، فتنقل الكلام الإلهي عن العقاب الأكيد لمن فعل السيئات التي ستصير وزراً إلى، {الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ}، فلديهم شعور بوجوب القيام بعمل لتجنّب الخطر من عذاب المسؤول عنهم من مستوى إلهي، فهم عليهم وزر سيئاتهم ومصيرهم الحتمي العقاب عليها، والذين لديهم شعور من هذا الخطر فسينفع معهم الإنذار من شيء غائب عنهم لأنه سيحصل في المستقبل.

يعني هناك كفّارٌ صلبةٌ قلوبهم كالحجارة، وهؤلاء تصف حالتهم الآية 10 من سورة يس "وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ"، فهؤلاء لن يخشونه تعالى إن أنذرتهم، ولكن هناك كفّار ليسوا صلبين ولا عنيدين فلديهم قابلية الإيمان بالحق واتباع الصلاح، وهناك ضعاف المؤمنين أمثالنا الذين لديهم أعمال سيئة وأخرى صالحة، فالكفّار من الدرجة المنخفضة بالكفر والمؤمنون من الدرجة المنخفضة من الإيمان، حين تنذرهم من العقاب على السوء الذي يفعلونه، فهؤلاء وبسبب وجود بذرة خشية في قلوبهم منه تعالى ينفع معهم الإنذار، وتكملة الجملة تريك توجيه الكلام مع المؤمنين الذين يفعلون سوءاً ما وصاروا بحالة توجيه الإنذار لهم ليتركوا السوء.

وأنت أيها النبي تنذر الذين، {وَأَقَامُوا}، فلم يعطّلوا ولم يهملوا، {الصَّلَاةَ}، التوجّه والإقبال، والمقصود هو القيام بالحركات والكلمات التي تعبّر عن العبادة له سبحانه إلههم الأحد، وبالنسبة لنا فهي التي نسمّيها الصلوات اليومية الخمس الواجبة، فالمصلّون عندما تنذرهم من المواجهة معه تعالى في الآخرة فسينفعهم الإنذار.

{وَمَنْ تَزَكَّى}، ومن صار موصوفاً باللياقة، فصار لائقاً في إيمانه وعمله، فابتعد عن الشرك والسيئات، {فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ}، فيصير لائقاً ليفيد نفسه، فعملياً هو المستفيد بالمغفرة والحسنات في الآخرة، وقبل ذلك فالقيمة العالية لنفسه كشخص تتحدّد بزكاته، بكونه لائقاً.

لهذا الكلام عن الزكاة للنفس عمق مبني عليه كل تكليفه تعالى لنا، فمزروع فينا تمييز قيمة الصلاح ورغبة الانوصاف بها، كرغبة عالية لقيمة ذاتية نشعر بها بمعزل عن أي مديح، وعملياً فالمؤمنون به تعالى لا يميّزون بين رغبتهم بالانوصاف بالصلاح وبين رضاه تعالى عنهم على أساس أنه تعالى المعيار للخير بصفاته الحسنى.

{وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}، فآخر ما تصل إليه الأمور، فنهاية الأمور وخاتمتها حيث لا صيرورة فلا حال أخرى بعدها، ستكون إليه سبحانه، لأننا كلنا في النهاية سنقف بين يديه تعالى لنتحاسب. فأمره تعالى لنا بعبادته لن يكون بلا نتيجة ففي النهاية كل الأمور ترجع إليه تعالى فهناك حساب وعقاب وثواب حسن.

نلاحظ القرآن يسمّي ما يحمله الناس في يوم القيامة من ذنوب أنها "وزر" فهي ثقيلة على من يحملها، فيشعر بالتعب والألم منها، وأمّا الحسنات فلم يعبّر عنها القرآن بالوزر أبداً، ولم يعبّر عنها حتى بالحمل، وعبّر عنها بأن لها ثقلاً كما ورد في الآية 8 من سورة الأعراف "وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"، والمقصود هو ثقلها المعنوي الحسن، في مقابل الأعمال الحسنة لغير المؤمنين التي تحبط فتفقد قيمتها كما تفهم من العديد من الآيات منها الآية 23 من سورة الفرقان "وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا".

على كل حال لا تتصوّر أكياساً فيها السيئات "الثقيلة المتعبة" ويحملها الناس، ولا أكياس حسنات خفيفة، لا، فهناك أوزار معنوية نعيش تحت ضغطها كالعيش تحت وزر الدين، وزر الاتهام، وزر الإهانة... أمّا الأعمال والنيّات والأقوال في الآخرة فهي معنوية وملموسة، فهي التي تبني جسدك وتبني محيطك من أول ما تفتح عينيك من الموت في الآخرة، وكما عبّرت الآيات عن الإيمان والعمل الصالح أنه ثواب، حسنات، فرح، عطاء إلهي... فهذا لا يصحّ وصفه بالوزر ولا بالحمل، أمّا السيئات، فيعيش من قام بها تحت وطأتها، تحت أثر عذابها وآلامها، فيحملها معه كوزر كحمل ثقيل يلازمه ويعذّبه ولا يفارقه.

بالنسبة لكلمة إنذار، فهو إخبار الآخر عن حتمية حصول شيء سيّء بسبب توافر الشروط، كالذي يمشي على طريق نهايته واحدة إلى الهاوية، ففي البداية تحذّره أن لا يسلك الطريق، ولكن حين يصير عليه مصرّاً على سلوكه فحينها تنذره. والخشية هي الشعور بالخطر الذي يمكن تجنّبه، وهنا الكلام عن خطر العقاب الإلهي الذي يمكن تجنّبه عبر الالتزام بدينه تعالى. والخوف شعور بخطر لا يوجد حلّ لإنهائه فالوقوع فيه حتمي إلا إذا تمكن من الهرب أو استسلم له غصباً عنه... وبهذا المعنى للكلمات فالمؤمن عموماً لا توجّه له الإنذار لأنه مؤمن ولن يسلك طريقاً سيئاً عن قصد، بل تحذّره من سلوك الطريق السيّء، ومن النادر استعمال القرآن الإنذار للمؤمنين، فهنا الإنذار لهم من الوصول إلى يوم القيامة وعليهم أوزار سيئاتهم، فالسيئات عليها عقاب، فيأتيهم الإنذار ليتخلصوا منها هنا في الدنيا لأنهم يخشونه تعالى بدرجة ما، فيتركوا ما حرّمه ويلتزموا بما يأمر به، وبالصلاة وتزكية النفس.

بقي شيء، فهناك أوزار يحملها البعض فوق أوزار أعماله، وهي ليست أوزاراً عن غيره، بل أوزاره هو مما سبّبه هو ليفعله غيره، فإن شجّعت أحداً على سوء، وفعله، فلك حصّة من ذلك، وهي ليست حصّتك من سيئاته، فلن تنقص سيئاته، بل تبقى سيئاته "أوزاره" له، وتنال أنت وزرك الخاص بك لأنك شجعته على فعل السوء، فتحمل أوزاراً مع أوزارك، فتحمل سيئات ما فعلته أنت مباشرة، وتحمل أوزار ما فعله غيرك وكنت أنت السبب فيه أو المشجّع عليه. وقد ورد هذا المعنى في الآية 25 من سورة النحل "لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ".

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ {19})
{تُنْذِرُ مَنْ يَخْشَى}...

{وَمَا يَسْتَوِي}، لا يكونون مثل بعضهم في نفس المستوى والاعتبار، لا يتساوى، {الْأَعْمَى}، الذي لا يرى وهنا المقصود الذي لا يرى بفكره، {وَالْبَصِيرُ}، الذي لديه القدرة على وعي وفهم الصور، وهنا المقصود أنه يرى الحقّ فيعرفه "ويتبعه"، وهما ليسا مثل بعضهما.

في الآية 19 من سورة الرعد {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى}...، وفي غيرها من الآيات استعمل القرآن العمى لمن يرى بعينيه ولكن لم يَرَ الحقّ الذي نزل على النبي محمد(ع)، حيث لا تقصد الآيات عمى العينين بل تقصد عمى القلب، وعمى الفكر والنفسية، لأن القيمة العالية للمؤمن الأعمى معلومة من سورة عبس.

الإنذار من العقاب الإلهي مطروح أمام الجميع، ولكنهم بين بصير وأعمى، وما سينتج عن هاتين الصفتين سيكون مختلفا، لأن إنذارك للناس سينفع فقط مع البصير، سواء أكان كافرا من الدرجة المنخفضة بالكفر حيث فيه بذرة بيضاء في قلبه، أو كان مؤمنا ضعيف الإيمان يفعل السيئات والصالحات...

تتذكّر دائما أن الناس هم هكذا موصوفون بهذه الأوصاف بغض النظر عن الدين الإلهي، وقبل أن يأتيهم رسول ناقل للكلام الإلهي، كان البعض منهم موصوفاً بأنه أعمى، وآخرون موصوفين بأنهم يبصرون، ويُعْرَضُ عليهم كلامه تعالى، والأعمى لا يراه حقّا فيكذّبه ويكفر به، والبصير يراه حقّا فيؤمن به.

لهذا الكلام عمق، إذ أساس الهدى يبدأ من الاعتراف بالحق والصلاح، والاعتراف بالسوء والفساد، وفي مسألة الإيمان على معنى إعلان صحّة المعلومات التي تراها عنه تعالى، عن صفاته وأفعاله وقراراته، فهذه فيها تفاصيل كثيرة، وأولها توحيده تعالى الواضح بسهولة من أفعاله، وبعدها رؤية صفاته الحسنة، وبعدها فهم قراراته بما يتعلق بنا بخلق الدنيا والحساب في الآخرة... والبصير من الدرجة العالية يرى كل ذلك ويؤمن به، وهناك درجات بصيرة أخفّ...

في مسألة التشريعات والسلوكيات على معنى القرار باتباع الحقّ من بعد معرفته، فهذا هو المستوى العالي، ويأتي بعده مستويات أقل، حيث نرى الحقّ ولكن لا نريده لأنه يتعارض مع رغباتنا السيئة...

هكذا ترى أن البصير والأعمى وصف لأساس أساس التعامل مع الإيمان والتشريع، فأنا كمؤمن عادي بعيد جدا عن درجة إيمان وصلاح الأنبياء، وأكون بصيرا لمجرد اعترافي بما أراه حقّا وصلاحا حتى لو لم أؤمن به عمليا، لأن القرآن لا يتحدّث فقط مع المؤمنين من الدرجة العالية، وهؤلاء أصلا لا يحتاجون لكتاب إلهي مثل هذا القرآن الذي وجّه

كلامه للجميع من كافرين من الدرجة العالية إلى الأقل منهم مروراً بنا نحن المؤمنين من الدرجة المنخفضة وصولا إلى المؤمنين من الدرجة العالية.

يعني أول خطوة هي الاعتراف بالحق، والاعتراف بالصلاح حتى لو لم تلتزم به، وهكذا تصير موصوفا بالبصير من درجة تجعل فيك قابلية تطوير إيمانك، ويتوجّه لك هذا القرآن بالإنذار والتحذير، ويقوّم لك فكرك ونفسيتك، ويريك الحق والصلاح مع أدلتها... وأما الأعمى فهو الرافض للحق الواضح والرافض للاعتراف بالسوء الواضح، فهذا لا أمل له بالهداية.

(وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ {20})
{وَلَا تَسْتَوِي}، {الظُّلُمَاتُ}، العتمات من كل الجهات، {وَلَا النُّورُ}، ولا انكشاف الأشياء، لأنَّ من الواضح جدا أن الفرق بينهما كبير، حيث الهدى نور، والضلال ظلمات.

من ناحية ما هو معروض على الناس فهناك الدين الإلهي وهو الهدى وهناك أي شيء آخر غيره وهو الضلال، وعند النظر إليهما لتقييمهما بالفكر والنفسية السليمة فالفرق هائل بينهما، ومن ناحية ثانية سلوكنا في واحد منهما مختلف عن سلوكنا في الآخر، لأنَّ واحداً خير والآخر شر.

من ناحية ثالثة مسير حياتنا في الدنيا على الهدى أو الضلال بَعْدَهُ الموت وبعده الآخرة، حيث الوقوف بين يديه تعالى لِنُحَاسَبَ ونُجَازَى، وبعدها الجنّة والنار، فمن يمشي على الهدى الإلهي فنهايته إلى الجنّة، لأنه يمشي على نور، ويمشي على ما يرضاه تعالى، على إيمان وشريعة وسلوكيات حكيمة صالحة... ومن يترك الهدى فهو يمشي في الظلام على خطى الشيطان الفاسد... وفي النهاية يصل إلى النار.

النور واحد وهو الحقّ والصلاح، أمّا الظلمات فكثيرة، وخذ مثلا الإيمان به تعالى إلها واحداً أحداً فرداً صمداً حكيماً عزيزاً... لأنَّ هذا كلام عن شيء واحد، عن توحيده تعالى عن صفاته الحسنى... أمّا غير ذلك فله تفرعات كثيرة منها الكفر به تعالى على المعنى الذي نصطلح عليه بالإلحاد بإنكار وجود إله من أصله، وظلمة أخرى مختلفة وفي نفس المسألة الإيمان بآلهة متعددة، وظلمة أخرى في نفس المسألة الإيمان بآلهة وهمية لا وجود لها أصلا، وظلمة أخرى مختلفة وفي نفس المسألة الإيمان بكائنات خلقها تعالى على أنها آلهة...

هكذا في بقية المسائل فإنَّ الحقّ واحد، وهو نور "بالمفرد" وليس أنوارا، بينما الفساد والشرّ ظلمات "بالجمع" حيث في نفس المسألة تجد العديد من الظلمات.

لِنَفْهَمَ الآيات هنا بشكل أفضل، لنتذكّر أن بعض الناس لا يشعرون بقيمة للخير والشرّ إلا إذا هم تعرّضوا للشرّ، ولا يهمّهم إن تعرّض الآخرون لشرّهم، وهذه عقلية العصابات والمجرمين والحكّام الفاسدين... إنَّ الكلام مع هؤلاء عن تقييم الأمور لوصفها بالهدى أو الضلال أو بالظلمات أو النور، هو كلام في الفراغ والنظريات والمثاليات... التي لا تَهُمُّهُمْ. وبعض الناس يقولون: حسناً، أنت مؤمن تصلي وتصوم وتزكّي... ونحن لسنا مثلك، ولكن هذا ليس فرقا كبيرا بيننا وبينك، وأصلا لا نراه فرقا يميّزك عنّا، حيث إنك تعتقد بشيء ديني، وتلزم نفسك بطقوس دينية... وهذه أمور خاصّة بك، أمّا ما يجعل بيننا فرقا فعلا فهو الأخلاق ومعاملة الناس، لأنَّ هذا شيء له أثر فعلي حقيقي...

تأتي أمثال آيتنا هنا لتخبرنا أن الهدى والنور لهما قيمة حقيقية نميّزها بفكرنا ونفسيتنا، وبسبب تشويهنا نحن لقلبنا بفعلنا للسيئات لدينا كلامه تعالى الواصل إلينا عبر رسله وكتبه كمرجع لتمييز الحقّ من الباطل بالأدلة ولتقويم قلوبنا "فكرنا ونفسيتنا" على أساسه، إذ إنَّ كلامه تعالى هدى ونور ليس على معنى أنه كذلك لأنه تعالى قاله، بل لأنه الحقّ والصلاح فعلا.

بناءً عليه، بين الهدى والضلال فرق جوهري حقيقي تمتد آثاره على كل شيء في حياتنا الدنيا وصولا إلى الآخرة، لأنَّ الفرق ليس اعتبارياً على المزاج ويتغيّر بتغير زاوية النظر إليه، لا، بل له معيار ثابت واضح يرجع في أساسه إلى صفات الذي خلقنا حيث انعكست صفاته الحسنى سبحانه في الأمور وهي الحقّ والصلاح، وغيرها الباطل والفساد، ومنحنا سبحانه قدرة التمييز بين الخير والشرّ، وعلى أساسها سيحاسبنا.

الدين الإلهي ليس شيئا فرديا لا أثر له على الآخرين، وهو ليس شيئا غريبا عجيبا، بل هو نفسه ما نميّزه من صلاح لنفعله، أو نراه سُوءاً لنتركه.

خذ مثلا رجلين أحدهما مؤمن ملتزم، والآخر ليس مؤمنا ملتزما، حيث كلاهما يَقُومَانِ صباحا وينطلقان إلى عملهما... لأنَّ مجريات حياتهما اليومية متشابهة جدا، مع فروقات بسيطة في عشر دقائق للصلاة، وانقطاع عن الأكل صوما في شهر رمضان، ودفع الزكاة... وإذا بقيت تعدد هذه الأمور التي يقول الآخرون إنها فروقات بسيطة فستراها في النهاية مترابطة ومستهلكة لكل الوقت، إذ في عملك الذي تعيش منه تَفْعَلُ الغشّ أو تكون أمينا... وبالتالي ستبدأ ترى فرقا في كل شيء.

المؤمن لا يكذب، لا يخون، لا يسرق... ولْنَقُلْ إنَّ الرجل الآخر كذلك، ولكن الإيمان يعطي ضمانة الالتزام بذلك، لأنَّ الرجل الآخر إن استطاع سرقتك بدون أن يعلم أحد به، فما الضمانة أن لا يفعلها؟ وأما من ناحية المؤمن فالضمانة هي ممارسته العملية لتطبيق كلامه سبحانه في مختلف شؤون حياته، ومن ضمنها النهي عن السرقة وعن الغشّ...

أنت تعلم أننا هنا نفترض حالة مثالية للمؤمن المثالي، حيث على أرض الواقع يَنْدُرُ أن تجد مؤمنا مثاليا، والقرآن اعتبر هؤلاء المؤمنين من الدرجة العالية والنادرين، واعتبرهم نموذجا لنا لنقيس أنفسنا عليهم ونحاول الاقتداء بهم نحن الأكثرية الباقية، إذ إنَّ كل القرآن يخبرنا بالعدد القليل للمؤمنين الحقيقيين عبر التاريخ، وكمثال على ذلك بداية سورة الواقعة {أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ} (11) {فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} (12) {ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ} (13) {وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ} (14)، وإن لم تفهم كلام القرآن عن الأنبياء أنه يقصد بهم النماذج القليلة النادرة المؤمنة حقا من تاريخ البشرية، وذلك بسبب التصاق صورة ضبابية في بالك عن الأنبياء أنه تعالى ميّزهم بالنبوة وبالوحي وبالمعجزات... وتظنّ أنك لو نزل عليك الوحي وحصلت معك الخوارق لكنت مثلهم أو قريبا منهم، فهذا غير صحيح.

إذن، لْنَأْخُذْ كلام القرآن دائما على مقياس أبعد الطرفين: إيمان مثالي ونموذجه الأنبياء، ويقابله كفر بتوحيده تعالى أو كفر بشيء واحد من أساسيات دينه تعالى. وبالنسبة لما بينهما من تدرجات أشارت إليها العديد من الآيات وعالجت الخلل الإيماني بالشرح والتحذيرات...

هنا الآيات تتحدّث عن فرق نعرفه بسهولة بين العمى والبصر، الظلمة والنور، الظلّ والحرور... حيث تريدنا الآيات أن نقارن ما نعرفه بسهولة لنرى الفرق الكبير الهائل بين الإيمان والكفر من كلّ النواحي، لأنَّ الفرق واضح بين العمى والبصر... طبعاً لن نفهم الفرق الهائل إن لم نستحضر في بالنا النماذج الراقية العالية من المؤمنين الحقيقيين لنقايس فكرهم ونفسيتهم معنا ومع الآخرين، إذ أنا كمؤمن إن قايست نفسي مع الآخرين غير المؤمنين فسأجد فرقا هنا وهناك بأشياء... بهذه أنا أفضل من ذاك، حيث أَتَجَنَّبُ السخرية من الناس، وبتلك ذاك أفضل منّي، حيث انتخب الأنزه والأجدر ليكون رئيسا للبلاد... لذلك لن أجد بيني وبينه فرقا هائلا كالفرق بين العمى والإبصار وبين النور والظلام... لأنَّ هذا فرق حادّ قوي لا يظهر إلا بمقايسته مع نموذج من المؤمنين الحقيقيين "النادرين".

(وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ{21})
{وَمَا يَسْتَوِي}، {الظِّلُّ}، المكان الذي يقع تحت ساتر يحجب عنه النور، {وَلَا الْحَرُورُ}، وهو المكان الذي تضربه الشمس بحرارتها العالية القوية، فيصير حارّاً.

لاحظ أنَّ الآية تعبّر عن الوقوف تحت حرارة الشمس الحارقة وتحت الظلّ، حيث بسهولة ترى الفرق بينهما، لأنَّ هذا ستضربه الشمس الحارقة وتؤذيه وذاك مُحْتَمٍ منها، وأنت كعاقل من المفروض في ظروف كتلك أن تختار الوقوف في الظلّ لأنَّ الفرق واضح بين الحالتين، وهكذا تريدك الآية أن ترى الفرق بين الهدى والضلال والنور والظلمات بقياسها بالعقلانية على ما تعرفه بسهولة من الفرق بين الحرارة الحارقة والاحتماء منها.

يذهب فكرنا من تعابير الآية إلى ظلال الجنّة وحرور النار اللذين وردا في سور أخرى، كالوارد في الآية 41 من سورة المرسلات {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ}، والآية 43 من سورة الواقعة {وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ}، وهذا كلام صحيح هناك في الآخرة حيث إنهما لا يستويان، أمّا هنا فالكلام عن أمور نلمسها الآن في الدنيا، عن تجنّبنا لحرارة الشمس الحارقة صيفاً لنقف في الظلّ، إذ إنهما ليسا مثل بعضهما، وكذلك الحقّ والباطل والصلاح والفساد... ليسا مثل بعضهما.

بعبارة أخرى الكلام مع الذين يسخّفون ويستهترون بمسألة الحقّ والصلاح والهداية والضلال... حيث إنه بلا مبالاة يتجاهل الفرق بينها، وبلا مبالاة يتحدث عنها وكأنهم مثل بعض وبقيمة بعض، ويسخّف لك اهتمامك بالهداية... هل فعلاً هي الأمور هكذا بلا قيمة حقيقية وهي مجرد اهتمام بأمور اعتبارية قيمتها نظرية؟ لذلك تأتي الآية هنا لتسأل: هل الوقوف في الشمس الحارقة في صيف قاسٍ بدرجات حرارة مرتفعة، مثل الوقوف في الظلّ؟ بالطبع لا لأنَّ الفرق بينهما ملموس وواضح، ونفس الشيء الظلمات والنور حيث إنَّ الكلام عنهما ليس كلاماً فارغاً بلا قيمة وكأنه لا أثر له ولا مفعول، لا، لأنَّ الكفر هو إنكار للحق، وفعل للسوء، وشرٌّ على أنفسنا والآخرين، هل الكلام عن هذا بلا قيمة؟

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ {22})

{وَمَا يَسْتَوِي}، حيث إنهم ليسوا مثل بعضهم في نفس المستوى والاعتبار، ولا يتساوى، {الْأَحْيَاءُ}، الذين يفعلون وينفعلون، {وَلَا الْأَمْوَاتُ}، الذين لا يفعلون ولا ينفعلون، لأنَّ من لا يؤمن بالحقّ ولا يفعل الصالحات يعتبره عموم القرآن فاقداً للصفات التي لها قيمة، ما معنى حياة من لا يتفاعل مع الكلام الحقّ؟ إذ إنه مثله مثل الميّت، لأنَّ معنى الحياة الحقيقي للذي يتفاعل مع الحقّ فيؤمن به ويعمل صالحاً.

لاحظ من نظرة أخرى معنى الحياة في تعبير الآية 64 من سورة العنكبوت {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}، فإن كان هناك معنى حقيقي لحياة تتمتّع فيها بحياتك، بحواسك وإشباع رغباتك، فهي في الجنّة حيث لا مرض ولا تعب... وبالعكس فإنَّ الذين في النار لا يُوصَفُونَ بالأحياء ولا بالأموات، لأنه لا معنى مفيداً من حياتهم التي يقضونها في العذاب، وهذا المعنى متضمن في الآية 74 من سورة طه {إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى}. وهنا الكلام عن حالتنا الآن في الدنيا، ومثله الكلام عن العقلانية والبهائم، ما معنى وجود عقل لي وأنا لا أستعمله بما يفيد رافضاً الحق والصلاح؟ وهكذا يصف القرآن الكافرين بالبهائم كما تقرأ في الآية 44 من سورة الفرقان {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا}، وهنا يصفهم بالأموات لأنهم فاقدون للمعنى الحقيقي المفيد من حياتهم إذ إنهم أعموا قلوبهم بإرادتهم حتى صاروا لا يتفاعلون بشكل إيجابي مع الحقّ والصلاح وهم كالأموات أمام هذه الأمور.

الكافر على المستوى الجسدي حي يسمع ويرى... ولكن ما قيمة وصفه بالحياة إن كان يرى ما حوله ويتفاعل معه، ولكنه لا يتفاعل متماشياً مع الحقّ الواصل إليه عبر الأوامر الإلهية التي وصلته عبر الرسول أو الكتاب الإلهي! وكما ترى لا قيمة لحياته، إذ إنه ميّت فكرياً ونفسياً فيما يتعلّق بالهدى. ولولا تكملة الجملة لكنّا اخترنا تفسير الكلام هنا على أنه تشبيه، لقلنا إنَّ الآية تشبّه الكافر بالميّت... ولكنه توصيف حقيقي لأنَّ الكافر ميّت لا يتفاعل مع الحقّ والصلاح.

{إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ}، لأنَّ الخيارات أمامه تعالى عديدة ومعلوم أنه شاء أن يُسْمِعَ كلامه الذي قلبه سليم، الذي أساس فكره ونفسيته سليمة.

{وَمَا أَنْتَ}، ولست أنت أيها النبي(ع)، {بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ}، لأنَّ الأموات الذين دفنهم الناس بأيديهم ووضعوا على أماكن دفنهم علامات تحدّد مكان دفنهم، لن تتمكّن من جعلهم يَسْمَعُونَ كلامك، لأنَّ الذي قلبه مطبوع على الكفر، وسمعه يرفض إدخال الكلام الإلهي إلى فكره ومشاعره، هل يمكنك جعله يسمعك بالقوّة ويقتنع بكلامك؟ إذا استطعت أن تجعل الأموات الذين دفنتهم أنت بيدك أن يسمعوك فستنجح في إقناع الكفّار "الأموات" بدينك.

ننتبه دائماً، لأنه سبحانه يمكنه جعلنا مؤمنين غصباً عنّا، حيث يمكنه تعالى التلاعب بعقولنا ويبرمجها لنؤمن ونطيع غصباً عنّا، ويمكنه سبحانه سحب الإحساس والشهوة والغريزة منّا، ونصير مطيعين له تعالى بسبب غياب أي دافع لدينا لمعصيته، ويمكنه ويمكنه... لأنَّ الخيارات عديدة، ولكنه سبحانه شاء التفضّل علينا بحرية الإرادة والاختيار، وشاء أن يهتدي من اختار أن يكون فكره ونفسيته سليمة، لذا ارْمِ من فكرك أنك يمكنك هداية أي إنسان كان لأنك تحمل رسالة من الإله سبحانه، هل يمكنك جعل الميّت الذي قبره الناس أو أنت قبرته أن يسمعك؟ لا، وكذلك الكفّار المصرّون على الكفر لا يمكنك جعلهم يسمعون كلامك.

لاحظ وانتبه جيداً لما كررناه مراراً في دراستنا هذه عن اعتماد القرآن للنماذج، إذ أنت لن يسمعك أي مَيِّتٍ وليس الذي فقط في القبر، ولكن تصوّر الحالة يكون أقوى حين يتضمّن المشهد ميتاً شاركت بنفسك في دفنه في قبر، أو حين يتضمن المشهد صورة مقبرة فيها أموات، لأنَّ هؤلاء أنت ترى مكانهم ولن يحصل منهم أي تفاعل معك.

أقول لك هذا لأن الآيات المختلفة استعملت تصاوير مختلفة مناسبة لسياق كلامها، حيث إنه سبحانه في يوم القيامة سيأتي بنا جميعاً أينما كنّا كما تقرأ في الآية 148 من سورة البقرة ...{أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، لأنَّ هذا خبر شامل لأي مكان أو حالة متنا فيها... ولكن سياق الآيات في سورة الانفطار يحتاج لصورة قوية لمشهد القيامة لذا عبّرت بالخروج من القبور حتى تقفز الصورة عن الأموات على بالنا {وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ}.

بقي شيء، حيث رووا عن النبي محمد(ع) كلامه مع قتلى الكفّار في بدر، وقوله لمن حوله من المسلمين إنَّ الكفّار يسمعون كلامه... إن صحّت هذه الرواية كلّها فهي على ذمّة الرواة، هل هي مخالفة لما تقوله آيتنا هنا؟ كما ترى بقليل من التأمّل أنه تعالى يمكنه إسماع الذين في القبور، لذا ربما فعل سبحانه ذلك استثنائياً في تلك الحادثة، وكما ترى إنَّ الكلام في الآية هنا عن انعدام إمكانية هداية المقبورين عبر الكلام معهم، إذ أصلاً لا علاقة لما تقوله الآية بالرواية هذا إن صدقت، أو نقلوها بالكامل أو نقلوها مع حيثياتها... علماً أن عموم القرآن ينفي أي وعي لأي إنسان بعد موته إلا المقتولين في سبيله تعالى، وليس معلوماً إن كان هؤلاء يتواصلون مع عالمنا، والأرجح من عموم مفاهيم القرآن أن الحالة العادية هي فقدان الجميع لوعيهم بعد موتهم، والاستثناء فقط للمقتولين في سبيله تعالى بدون أي تواصل بينهم وبين الأحياء بجسد طيني، أي نحن الأحياء. وأي كلام غير ذلك فهو ليس من صريح القرآن، وربما يكون صحيحاً ولكنه ليس قرآنياً، حيث يبقى المؤمنون من الدرجة العالية أيضاً أحياء مثل المقتولين في سبيله تعالى، ولكن الكفّار كلّهم حتماً يفقدون وعيهم والقرآن مشحون بالآيات التي ترينا مفاجأتهم حين يستعيدون وعيهم في الآخرة، ومنه كمثال الآية 52 من سورة يس {قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ}.

(إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ {23})
إن أنت، فقط أنت، نذير، تحمل خبراً عن شيء سيِّئٍ سيحصل حتماً لمن لا يؤمن بالحقّ ويفعل السيئات.

هذه حال الناس بالأوصاف التي ذكرتها الآيات السابقة، حيث منهم من سيسمع وهو البصير الحي... ومنهم من لن يسمع وهو الأعمى الميّت... أمام هذا الواقع، أنت في نظرته تعالى لك ولهم، حيث إنك مجرّد نذير مرسل لتنذرهم من العقاب، لا أكثر ولا أقل، فلا تتحمّل أيها الرسول أية مسؤولية غير مسؤولية توصيل الإنذار بشكل مبين، لأننا لن نحاسبك إن كفروا.

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ {24})
{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ}، أطلقناك ناقلاً لكلامنا أيها الرسول محمد(ع)، {بِالْحَقِّ}، بالصواب، لأنَّ قرارنا بإرسالك كان صواباً، وما أرسلناك به من معلومات كانت حقاً وليست كذباً أو فاسدة، وما قررناه وقلناه لك فهو حقّ لأنه عن حكمة صدر... وأرسلناك، {بَشِيرًا}، تحمل الخبر السار المفرح "الحق" لمن آمن لأنه سيدخل الجنة، وبالحقّ، {وَنَذِيرًا}، تنقل الخبر عن الشيء السيّء الحتمي لمن لم يؤمن لأنه سيدخل النار.

بعبارة أخرى: لم نبعثك عبثاً أو للتسلية... ولم نبعثك لتكون مفسداً طاغيةً، ولم نبعثك لتفسد الناس وتقول لهم كلاماً فاسداً باطلاً... بل بالحقّ بالصواب بعثناك، إذ من ناحيته تعالى كان إرساله لك حقّاً، عملاً صائباً لتبشيرهم وإنذارهم، وما حملته منه تعالى للناس كان حقّاً، صادقاً صالحاً.

{وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ}، حيث لا توجد مجموعة من الناس توصف بشيء مشترك بينها ولها امتداد تاريخي، {إِلَّا خَلَا فِيهَا}، إذ كان في زمان من حياتها، ومرّ عليها، {نَذِيرٌ}، شخص ينقل لها الخبر السيّء الحتمي عن العقاب الإلهي إذا توافرت شروط حصوله فيهم.

بعبارة أخرى، أنت أيها النبي(ع) لست وحيداً في وظيفة الإنذار للناس، بل لا توجد مجموعة من الناس لها امتداد تاريخي إلا وكان فيها شخص ينذرهم من حساب ربهم سبحانه.

بضم الآية 47 من سورة يونس {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}، والآية 51 من سورة الفرقان {وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا} نرى الفرق بين الأمة وبين القرية، حيث إنَّ لكل أمة نذيراً وليس لكل قرية نذيرٌ، فإن مرّ في تاريخ أمة ما رسول، ولو منذ مئات أو آلاف السنين، فهو رسول تلك الأمّة.

نفهم هذا المعنى بسهولة بالنظر إلى واقع حالنا، إذ إنَّ الرسول محمّد(ع) الذي بيننا وبينه ألف ومئات من السنين، هو رسول أمّة المسلمين أليس كذلك؟ أو رسول أمّة العرب؟ لا، بل هو رسول لكل الناس من وقت بعثته إلى يوم الدين، لأنه خاتم النبيين حيث لا رسول من بعده كما هو واضح من الآية 40 من سورة الأحزاب {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}، و هو رسول لكل الناس وهذا واضح من الآية 28 من سورة سبأ {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}، ومن الآية 107 من سورة الأنبياء {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}، والآية 158 من سورة الأعراف {قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}...

كما هو واضح جداً أن الرسول محمد(ع) نذير للأمة التي أتت بعده، وهي تشمل كل الناس في كل قارات الأرض، وكذلك الرسل من قبله كانوا لأممهم رسلاً لكل الناس. ولمزيد من التوسع راجع دراسة الآية 47 من سورة يونس {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}.

(وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ {25})
{وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ}، إن لم يصدقك الناس بأنك نذير منه سبحانه، فهذا ليس شيئاً جديداً، {فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، حيث إنَّ الكفّار الذين كانوا قبلهم قالوا عن الرسل إنهم كاذبون ولم يصدقوهم.

{جَاءَتْهُمْ}، تلك الرسل والأنبياء، {بِالْبَيِّنَاتِ}، بالأشياء الواضحة، إذ فيها قابلية الوضوح لمن تمعّن فيها ودرسها وكان لديه قابلية فهمها، والتي تبين أن ربهم الله الخالق المنعم... وأنه توجد آخرة وحساب لمن لم يتبع أوامره تعالى...
وأرسلهم سبحانه، {وَبِالزُّبُرِ}، بالكلام المكتوب، وهي الكتب التي كتبها الأنبياء نقلاً عن كلام إلهي، كصحف النبي شيث(ع) ونوح(ع) وإبراهيم(ع) وإدريس(ع) ويحيى(ع)... وجاءتهم تلك الرسل، {وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ}، الذي يكشف الطريق الحقّ بالتفكير والسلوك، وهي الكتب الكاملة عن كلّ شيء ديني والتي نزلت من عنده تعالى ككتب، كالتوراة والإنجيل وأخيراً القرآن.

إذن أنت لست لوحدك نذيراً، ولست أوّل نذير، بل لك امتداد تاريخي سحيق لآلاف من السنين، إذ كان هناك الكثيرون من قبلك من الرسل، وأيضاً جرى تكذيبهم رغم إظهارهم للناس الآيات وكلمات ربهم سبحانه.

المشكلة ليست في دينك أو فيك، بل المشكلة في الكفّار المصرّين على الكفر، وتكذيبهم للرسل شيء عادي حصل من قبل مراراً.

(ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ {26})
هؤلاء الذين كذّبوا الرسل لم يتركهم سبحانه، بل:

{ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا}، طبعاً لم يأخذهم سبحانه في نزهة، إذ إنه سبحانه لم يتركهم على كفرهم بل أخذهم إلى عذاب شديد كالطوفان والزلازل والبراكين والأعاصير...

وصلك من الناس وعبر هذا القرآن كلام عن أبرز النماذج التي نالها العقاب الإلهي، {فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ}؟ ماذا تقول عن الشيء النكر، الشيء الذي يُنْكِرُونَهُ ولا يحبون أن يصيبهم، العذاب الذي لا يحبه أحد فينكره ولا يريده ولا يريد أن يراه أو يتعرّف عليه، وأخذهم تعالى به، فكيف تراه؟ وماذا تقول عنه؟ فما رأيك بالعذاب الذي فعلناه بهم؟

كما ترى، بغض النظر عن عموم توافقهم الأساسي على نوع الكفر أو تفاصيل اختلافاتهم وتبريراتهم، فإنَّ هناك نهاية حتمية لهذه النوعية من الناس، وهي نهاية منكرة، لذا ليؤمنوا أو يكفروا فهذا خيارهم الذي يحدّد نهايتهم.

ضع في بالك دائماً أن القرآن يعتبر ما يذكره لك عن العذاب الذي أصاب بعض الأقوام هنا في الدنيا بسبب كفرهم، يعتبره دليلاً ملموساً كعيّنة ونموذج لنا عن كلامه تعالى عن عذاب الكافرين في الآخرة. كما تعلم إنَّه سبحانه لم يعذّب

هنا في الدنيا كل قوم كفروا، بل هناك شروط لذلك، منها انتشار السوء من العيار الثقيل بينهم بالغالبية، والحالات الكثيرة تركها تعالى لتتعذّب بنتائج فسادها بالحروب والكوارث والأمراض... وهذا ما تفهمه من الآية 41 من سورة الروم {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ{27})

ترجع السورة لوضوح النعم الإلهية على الناس، فكيف يكفر هؤلاء بربهم سبحانه وبرسله؟ وهم يرون بوضوح وجود إله نوّعهم كبشر، ونوّع بيئتهم كما سنرى من الآية هنا:

{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت. {أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}، المطر، {فَأَخْرَجْنَا بِهِ}، بتساقط المطر أخرج تعالى، {ثَمَرَاتٍ}، نتاج النبات، وتشمل الفاكهة والخضار والبقول... وهنا تقصد الآية الثمرات التي تنتج على الأرض وليس في البحر، وكما نقول بالعامية: ما شفت هذه المنتوجات النباتية، {مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا}؟ من التفاح الأحمر والأخضر والأبيض والموشّح... والفاصولياء بألوانها السوداء والبيضاء والحمراء والعاجية... والكثير الكثير من نتاج النباتات بألوانها التي لا تحصى.

أي تفسير سيقولونه لتنوّع النباتات بثمارها وألوانها؟ وما سبب ذلك وكيف حصل؟ وهل من دون إله صمّمها، صارت وَحْدَهَا! أم بالصدفة! أم هي الطبيعة نوّعتها ولا يوجد إله صمّم الطبيعة لينتج عنها هذا التنوّع!

تتذكّر أن تَعَرُّفَنَا على آليات حدوث الأمور ليس إلغاءً للإله المصمّم الخالق، بل هو محاولة التعرّف على آليات خلقه تعالى لما في الدنيا من وجهة نظرنا بما نفهمه نحن.

{وَمِنَ الْجِبَالِ}، والتفت إلى التنوع أيضاً في الجبال حيث منها، {جُدَدٌ}، وهي المسالك والخطوط من طبقات الصخور المختلفة من الترسبات والانزياح والضغط... {جُدَدٌ}، خطوط، {بِيضٌ}، كلسية أو جصيّة... و{جُدَدٌ}، خطوط، {حُمْرٌ}، بسبب معدن الحديد فيها... {مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا}، والجدد بألوان عديدة، وهي من تدرجات اللونين الأبيض والأحمر وغيرهما... وطبعاً هناك جبال من لون واحد أو بلا خطوط ولكن الآية تشير إلى الجبال ذات الطبقات الملونة كنموذج بارز واضح.

ومن الجبال، {غَرَابِيبُ}، بعيدة "اللون"، {سُودٌ}، لونها بعيد في السواد، أسود كالح غامق.

بعبارة أخرى لو انتبه الكفار فقط إلى اختلاف ألوان ثمار النباتات، مع أن الماء الذي يبعث فيها الحياة تركيبته واحدة، والتراب واحد، ولكن ينتج عنه نباتات بألوان مختلفة! والجبال بطبقاتها الملونة... ألا يجعلنا ذلك نسأل: من صمّمها؟ من المسؤول عن جعلها هكذا؟ لأن الألوان تلفت نظرنا، وجعل سبحانه الثمار والصخور متنوعة الألوان عن قصد حتى تلفت انتباهنا لعظمة الخالق الذي صمّمها.

التنوّع وَحْدَهُ دليل على وجود من نوّع، ولا يمكن بأي منطق أن تبرّر وجود التنوّع الهائل بدون إله صمّم وخلق، وهذا مشابه للفت الانتباه للجمال، لجمال النبات والبيئة والانجذاب والرغبات...

نعيد الكلام لأن الألوان تبدو أموراً عاديةً، ولكن فكّر فيها من منظور الخالق الذي كان بإمكانه تصميمنا وخلقنا بلا ألوان، أو بلون واحد أو لونين، ولكنّه سبحانه نوّع بالألوان ليسهل استدلالنا عليه أنه صمّم وخلق بيئة متنوّعة "الألوان" تدل عليه كمصمّم وخالق، طبعاً مضافاً لبقية ما قصد تعالى منه تعرّفنا عليه، كظاهرة الليل والنهار...

نعيد تكرار الكلام الذي ورد مِرَاراً في هذه الدراسة، ولو أنت صمّمت كائنات وبيئة، لانعكست قدراتك على ما ستخلقه، وكلما علت قدراتك، كثرت الدقّة والتفاصيل في مخلوقاتك، وهنا يلفت انتباهك سبحانه لنماذج عن التفاصيل المتنوعة الهائلة من حولك والتي من الأساس قصدها سبحانه لتكون دليلاً لك على قدراته وصفاته الفائقة سبحانه وتعالى.

(وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ{28})

ألم تر، {مِنَ النَّاسِ}، و{الدَّوَابِّ}، الحيوانات التي تدبّ على الأرض ومن ضمنها الطيور والحشرات، و{الْأَنْعَامِ}، الحيوانات الموصوفة بأنها نعمة وهي التي نستفيد من لحمها أو لبنها أو صوفها أو بحملها للأثقال... {مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ}، فالناس ألوانها مختلفة من الأبيض والحنطي والأسمر والأسود والأصفر... والدواب كالطيور بألوانها الرائعة والحشرات كالفراشات... والأنعام كالأحصنة والدجاج والحمام... بألوانها المختلفة...

الدابة وصف لكل ما فيه حياة ويدبّ فيتحرك مُغَيّراً مكانه على الأرض، وهذا بالأساس يشمل كل الكائنات الحية من عائلة الحيوان من الحشرات والزواحف وذوات الأرجل والطيور والأسماك، وندر استعمالها في كلامنا لتشمل الحشرات والأسماك، عِلماً بِأَنَّ القرآن استعملها للحشرات كما في حالة الحشرة "السوسة أو غيرها" التي أكلت العصا التي كان يتّكئ عليها النبي سليمان(ع) كما ورد في الآية 14 من سورة سبأ {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ...}، واستعملها شاملاً بها الزواحف كما في الآية 45 من سورة النور {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ...}، واستعملها بمعناها الأعم لتشمل كائنات حية من غير عالمنا كما في الآية 29 من سورة الشورى {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ}.

هنا فصلت الآية الناس والحيوانات المأكولة عن الدواب للفت الانتباه لنا وللحيوانات التي نأكلها وللحيوانات الأخرى التي لا نأكلها. وورد في القرآن فصل للطير عن الدواب في الآية 38 من سورة الأنعام للفت الانتباه إلى الطير وليس لاعتبار الطير فصيلاً مختلفاً عن الدواب {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ...}، وهنا ورد فصل للأنعام والناس لنفس السبب، للفت الانتباه، فالآية لا تعرض تصنيفاً للحيوانات، بل تلفت الانتباه لبعض أنواعها المختلفة فقط، فكل الحيوانات ومن ضمنها الإنسان والحشرات موصوفة بأنها من الدواب.

{كَذَلِكَ}، بالذي ذكرناه عن تنوع الألوان فيكم وفي بيئتكم وطعامكم، {إِنَّمَا}، حصراً وفقط، {يَخْشَى اللَّهَ}، لديه شعور بالخطر من عقابه عند مخالفته ويمكن تجنّب هذا العقاب بطاعته تعالى، يخشى الله تعالى {مِنْ عِبَادِهِ}، من الكائنات المفروض منها طاعة إلهها، وهنا الكلام عن الناس، {الْعُلَمَاءُ}، الموصوفون بوجود علم حقيقي عندهم.

ننتبه جيداً، العلماء بتعبير الآية هم الذين يرون هذا التنوّع في الألوان فيصير لديهم علم بوجود خالق عظيم منعم، وهذا علم، ولا تقصد الآية بالعلماء أنهم حملة الشهادات الجامعية والمناصب العلمية والدارسون للكتب وفي المدارس الدينية... لا، لا، بل كل من حصل على علم صحيح، فهو عالم، ومن البديهي أنه لا يوجد إنسان عالم بكل شيء، ومن البديهي أن تكون كلمة عالم تشير لمن يعلم ولو شيئاً واحداً له علاقة بموضوع الكلام، وهنا العلماء هم عموم الناس من بسطاء أو أذكياء أو متوسطي الذكاء، أو أمّيّين أو حملة شهادات عليا... لا يهمّ، المهمّ أنهم علموا من تنوّع الألوان "كنموذج عن بقية الآيات" أنه لا بدّ من خالق عظيم أنعم علينا بوجودنا وبوجود بيئتنا وبهذا التنوّع، فهم علماء في هذه المسألة.

قارنها مع وصف القرآن للكفّار بالعمى والصمم والموت، لنفهم أن العلم الذي له قيمة هو العلم الذي يجعلك ترى الأمور الحقيقية الصحيحة، وهذا ما تقصده الآية، ولا معنى للعلم ومهما كان نوعه إن لم يوصلنا إلى رؤية خالق عظيم من صنائعه تعالى، والكلام هنا عن نموذج تنوّع الألوان في الحيوان والنبات والصخور الذي يدلّنا على الذي صمّمها وخلقها.

الآن فكّر بتدرجات الألوان التي تصل للملايين كخليط من الألوان الأساسية! فكّر بصور الأبيض والأسود، ما نفع كثرة الألوان لنا؟ وما نفع كثرة ألوان التفاح والتراب والطيور؟ هل هذا التنوّع بالألوان مصيري لنا أو لبقية الحيوانات ولولاه لما استمرّت الحياة؟ وهل له متغيّر حسّاس في المعادلة الفيزيوكيميائية لنشأة الحياة؟ من الواضح أن نشأة وجودنا لا تتعلّق بكثرة الألوان، ومن الواضح أن الذي لوّن الكائنات والبيئة، وجعل لها ارتباطاً بحياتنا، قصد لفت انتباهنا إليه كخالق ذي قدرات وصفات فائقة.

{إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز منفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... وهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... وهنا الكلام نفهمه عن فرضه سبحانه لما يريده، أراد هذا التنوّع بالألوان فينا وفي بيئتنا وحصل ذلك، وهذا صحيح، ولكن

وصفه تعالى بالعزيز للذين يقال لهم: ألم تروا أنه تعالى فعل كذا وكذا... وبعضكم كفر وبعضكم آمن، وهذه حالتكم أمام عزيز لن يتأثّر ولا بأي شكل من كفركم أو إيمانكم. قارنها مع جهد تبذله في صنع طعام، وتتوقّع المديح ممن سيأكله، ولكنك لم تحصل على الشكر ولا على التقدير مع أنه لذيذ، هنا تقريباً نفس المقصود، هذه الأعمال الإلهية الرائعة يقابلها بعضهم بالكفر وآخرون بالإيمان، وعلى كلا الحالين سبحانه لا ينتظر تقييمنا لأعماله.

و{غَفُورٌ}، يتجاوز عن الأخطاء، يسامح عن ذنوب من رأى هذا التنوع فكفر أو لم يقدّر قيمته، ولكنه بعد ذلك آمن وقدّر قيمة ما حوله، سبحانه لا يجمد على موقف صلب ممن أساء.

للأسف مدّة بعد مدّة يدخل على المسلمين كلام الشياطين، ونسمع من يقول بأن القرآن يقول بأن الله تعالى هو نفسه يخشى من العلماء! ويتلون آيتنا هنا! وهم إمّا شياطين أو جهلة منغمسون في الجهل، لأن الفاعل للفعل يخشى هم العلماء، بالرفع بالضمّة على الهمزة، واسم الجلالة "الله" واقع إعراباً في محل مفعول به للفعل يخشى بالنصب بالفتحة على الهاء، لأن العلماء يخشون الله.

بقي شيء، قديماً كان لدينا تبريرات لاختلاف ألوان البشر، ولاختلاف صفات الحيوانات والنباتات... والآن تطورت علومنا وصارت تبريراتنا أدق... وصرنا نتحدّث عن الجينات وطفراتها المتأثرة بالبيئة التي يعيش فيها الحيوان... وبعضهم إذا علم بآلية خلقنا فلن يؤمن به تعالى إذا لم ير "يده" تعالى! ولم ير تدخّله تعالى بشكل سحري من دون أي ترابط مع أي شيء... ولا نلومه وَحْدَهُ لأن التراث الثقافي الديني مشحون بما يدفعنا إلى هذا النوع من التفكير، والبداية من الكلام عن صنع تمثال طيني ونفخ الحياة فيه ليصير إنساناً "آدم"... وأخذ ضلع منه لخلق أنثى "حوّاء"... مروراً بتحريمهم التصوير الصوتي للحامل لمعرفة نوع الجنين قبل ولادته... وصولاً إلى تحريم بعضهم لتناول حبّة الدواء لأن الشافي فقط هو الله تعالى! وها القرآن أمامك من أوّله لآخره ولن تجد فيه أي كلام من هذا النوع، ولكنه كلام تجده صريحاً في كلام الكثير من المتدينين!

لا أريد رمي ذنب من أنكر آياته تعالى على المتدينين بثقافتهم التفسيرية الساذجة الطفولية لكلامه تعالى، كل واحد ذنبه على جنبه، وآيتنا هنا والتي سبقتها موجّهتان للجميع، تسألهم عن سبب وجود هذا التنوّع في الألوان، وأمّا البحث عن آلية حصوله فمن اهتماماتنا، وهذه هي علومنا البحثية... ولكن سبب حصوله من الأساس فهذا ما تسأل عنه الآية، كيف ومن دون تصميم وصلنا إلى ما نراه؟ كيف من دون إله صمّم وخلق وقدّر حتى صارت الأمور هكذا؟

(إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ{29})
هنا تبدأ الآيات بالحديث عن المؤمنين بالله تعالى وحده كإله خالق منعم رازق... محاسب... وتخبرنا كيف وصلوا إلى صفة الإيمان:

{إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ}، يقرؤون ما نزل منه تعالى استناداً إلى مصدره، يعتمدون على ما أنزله تعالى على رسوله(ع) وهو كتاب "القرآن". {وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ}، لم يعطّلوا ولم يهملوا التوجّه والإقبال بالحركات والكلمات التي تعبّر عن ذكرهم له تعالى، وعملياً قاموا بما نسمّيه بالصلوات الخمس الواجبة، {وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ}، أعطوا الآخرين من الأشياء التي حصلوا عليها منه تعالى لسدّ الحاجات والرغبات، من المال والطعام... أنفقوا منه، {سِرًّا}، لم يعرف إلا الفقير، أو أوصلوها إلى الفقير عبر شخص ما لم يخبر الفقير عن اسم الذي أنفقها عليه... وأنفقوا منه، {عَلَانِيَةً}، كما ندفع في صناديق الصدقة الموضوعة في الأماكن العامة أو عندما يكون هناك حفل تبرعات خيري فيذيعون أسماء المتبرعين... أولئك التالون المصلون المنفقون، {يَرْجُونَ}، يتوقّعون ويحبون شيئاً جيداً، {تِجَارَةً}، عملاً تبادلياً مربحاً لهم ليكسبوا منه، {لَنْ تَبُورَ}، دائماً سينتج عنها أرباح ومكاسب.

يعتقد الكثيرون أن صدقة السرّ التي لا يعلم بها إلا أنت والفقير أفضل من الصدقة التي يعرف بها الناس، لا، لا فرق عنده تعالى، لأن المؤمن الحقيقي على كلا الحالين يقصد التقرّب منه تعالى، وهناك حالات ينحرج فيها الفقير من الصدقة عليه أمام الآخرين، يتصدّق عليه المؤمن بالسرّ، وهناك حالات لا تستدعي الصدقة سرّاً، كلاهما أجرُهما مثل بعض والأهمية ليست للسرّ أو العلن بل للنيّة ولما تقتضيه الحالة، كما ورد في الآية 9 من سورة الإنسان {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ

لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا}، وفي الظروف الصعبة كما ورد في الآية 14 من سورة البلد {أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ}، أو لما ورد في الآية 92 من سورة آل عمران {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ...}، أو...

نتذكّر دائماً من عموم كلام القرآن، أن الصدقة على المحتاج واجبة دائماً، الزكاة اصطلاحاً هي الضريبة التي تدفعها ولا يعد يجب عليك زكاة إلى السنة التالية... أمّا الصدقة على المحتاجين فهي دائما واجبة.

(لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ {30})
مقابل هذه التجارة:

{لِيُوَفِّيَهُمْ}، ليعطيهم سبحانه بالتمام، {أُجُورَهُمْ}، أُجُورَهُم، ما حدّده تعالى أنهم يستحقونه على أعمالهم "تلاوتهم وصلاتهم وإنفاقهم..."، {وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ}، يزيد ويضيف سبحانه فوق ما عندهم من الأمور الجيدة التي منحها لهم من دون أن يكون فرضاً واجباً عليه تعالى منحها لهم، وعملياً يزيد لهم سبحانه أجورهم أضعافاً مضاعفة. حيث حصلوا بالتمام على ما وعدهم به من أجر عظيم، وفوق ذلك سينالون زيادة عما حدّده تعالى أنهم يستحقونه وليست واجبة عليه تعالى ولكنها ستكون تفضّلاً من الله تعالى.

{إِنَّهُ غَفُورٌ}، يتجاوز عن السيئات، لا يأخذ سبحانه موقفاً صلباً جافاً ممن أساء، بل يسامح من طلب المسامحة، وإلا فحالة دخول الناس إلى الجنّة ستكون شبه مستحيلة لأننا بالغالب الأعمّ كلّنا خطّاؤون.

{شَكُورٌ}، يشكر لعباده ما فعلوه من أعمال جيدة، يعبّر لهم سبحانه بتكريمهم وإثابتهم عن تقييمه لأعمالهم أنها كانت جيدة، ولا يعني هذا أنهم فعلوا معه هو سبحانه شيئاً جيداً استفاد منه سبحانه، لا، لأنه تعالى غني عزيز ولا بأي شكل يمكن أن يستفيد أو يتضرّر سبحانه من مخلوقاته، ولكنه تعالى يشكر لهم ما فعلوه بنيّة طاعتهم له وبنيّة رغبتهم برضاه عنهم حين يكونون صالحين.

ضع في بالك دائماً أن تعابير القرآن لا تشير إلى فرض واجب عليه تعالى بإدخال المؤمنين إلى الجنّة، وبالتعبير الدقيق قرّر تعالى إدخال المؤمنين العاملين للصالحات إلى الجنّة، وبتعبير متساهل فيه ودارج ولكنه غير دقيق، أوجب سبحانه ذلك على نفسه. كلمة أُجْرَة بالنسبة لاستعمالنا نحن لها فيما بيننا تتضمّن أنك تعمل لي ويجب عليّ دفع الأُجْرَة لك، أمّا بالنسبة له تعالى فتؤمن وتعمل صالحاً لنفسك، أنت تؤمن بما هو حقّ وتعمل ما هو صالح هل تريد أُجْرَةً على ذلك؟ وتصلّي وتصوم وتتصدّق لتنغفر ذنوبك... وتجاهد دفاعاً عن نفسك وعن حقوقك في حرية معتقدك بالحق وانتشار الصلاح في مجتمعك... لا يوجد ولا أي شيء ديني تفعله أو تقدّمه لله تعالى ولا علاقة لك به، مثلاً الصدقة على المحتاج عمل صالح واجب عليك كإنسان صالح...

هكذا نفهم أنه تعالى من فضله حدّد أجراً لمن آمن وعمل الصالحات، حدّد ما سينالونه إن آمنوا وعملوا الصالحات، وبعد هذا القرار الإلهي يصير وصف الحالة أنهم سينالون ما يستحقونه مما حدّده تعالى كأجر من فضله، ليس واجباً عليه تعالى ولا بأي شكل مجازاتهم بالجنّة ولا بأي شيء آخر.

(وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ {31})
{وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ}، المعلومات التي وصلتك من دون كلام مباشر صادر منه تعالى، وكما تعلم الملائكة(ع) نقلاً عن الكتاب الرئيسي وبأمر منه تعالى أنزلت هذا القرآن على وعي الرسول محمّد(ع)، لم يسمعه منه تعالى مباشرة عبر الأذنين... {أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ}، {مِنَ الْكِتَابِ}، الرئيسي الذي فيه كل شيء عن الدنيا والآخرة، {هُوَ الْحَقُّ}، هو الصواب وليس كلاماً باطلاً كذباً أو فاسداً، {مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ}، مؤيداً ومؤكّداً للذي أمامه، وهي الكتب التي سبقته وهما التوراة والإنجيل، ما يقوله القرآن يوافق ما قالته الكتب الإلهية التي سبقته، مما يعني أنهم كلّهم من نفس المصدر.

{إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ}، بالذين مفروض منهم طاعته، {لَخَبِيرٌ}، لديه علم وخبر بكل شيء يفعلونه حتى بأدق وأدق التفاصيل، {بَصِيرٌ}، يدرك "بمستوى إلهي" ويعي معنى صورة ما يحصل، سبحانه ليس مثل كاميرات التصوير التي تسجّل الأحداث ولا تفهم منها شيئاً، لا سبحانه يرى ويسمع ويعي ما يجري وهذه هي البصيرة.

سبحانه يخبر ويبصر بمن صدّق بالكتب، وبمن كذّب بها، وبمن حرّفها.

التعبير بالقرآن مصدقاً لما بين يديه، لا يعني أن التوراة والإنجيل ليسا محرّفَين، بل يشير إلى التوافق بالأساسيات التي تدل على كونهما من مصدر واحد، وترى من عموم كلام الباحثين من المتدينين وغير المتدينين، ترى تسميتهم للأديان الثلاثة "اليهودية والمسيحية والاسلام" باسم واحد: أديان التوحيد الإبراهيمي. بسبب التوافق بينها في الأساسيات في مقابل بقية الأديان التي تختلف بالأساسيات عن هذا الدين الإلهي، وهذا ما يشير إليه تعالى حين يقول بأن القرآن مصدّق للكتب السابقة، وكمثال على ذلك حديث الكتب الثلاثة عن نفس الصفات الأساسية له تعالى، وعن نفس القرارات، وعن نفس الأنبياء... وعن الآخرة والحساب، ونفس التشريعات الأساسية... كعموم حرمة الظلم وحرمة الزنا وحرمة شهادة الزور...

الآية هنا تشير مثلما أشارت آيات عديدة في مختلف السور، تشير إلى الامتداد التاريخي لهذا الدين الإلهي، هذا القرآن لم يخرج بكلام جديد لم تعرفه البشرية من قبل، بل هو تكرار لما سبقه من كتب عبر آلاف السنين.

الوحي هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خيرا أم شرّا، وبناء عليه كل أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وحياً لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وترى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}، وحتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...}.

ينطبق فعل الوحي على أي كائن كان "إنساناً حيواناً مَلَكاً أو جنّاً" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم.

طرق فعل الوحي أنواعه متعددة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}. ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}، وما ورد في الآية 193 و 194 من سورة الشعراء {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ}. أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ...}، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل كما هو مشهور في تراثنا الديني. ووحي عبر إصداره تعالى صوتاً في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، مضافاً لها الآية 13 من سورة طه {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}، كلامه تعالى معه(ع) وحي لأن الكلام ليس صادراً مباشرة منه تعالى فهذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، يصير وصف الحالة أن كلامي يصلك وحياً.

هناك وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} حيث في النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

الوحي يصدق على وحي الخير والشر، الشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا...} ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... الوسوسة في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيراً أو شرّاً فهو وحي.

كلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، كأن كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، كلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، فهي جمع الجمع، أثناء الكلام بدقّة قد تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، تقول

الآيات: عبيد. وردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وقد تكون لكل العبيد بكل أنواعهم تقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وقد تكون لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، فهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخرين جاءهم رسول، وعبيد آخرين... جمع الجمع "عباد"، كلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جداً عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ {32})
بعد كل كتاب نزل كانت الحالة التالية تحصل:

{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ}، انتقل الكتاب الإلهي من السابقين إلى اللاحقين، {الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا}، الذين اخترنا من المميزين، {مِنْ عِبَادِنَا}، من الذين مَفْرُوضٌ منهم طاعته تعالى، وفي الآية السابقة توسعنا في معنى كلمة عبد. قديماً وبعد مدة من الزمن من نزول كتاب إلهي، وصل الكتاب إلى أناس جُدُدٍ اختارهم سبحانه عن بقية الناس، سترى من تكملة الكلام أن الاصطفاء للمجموعة ليرثوا الكتاب لم يكن بسبب تميّز كلّ المجموعة بل لوجود مميزين في تلك المجموعة، وهم السابقون بالخيرات...

ومن هؤلاء الذين اصطفينا واخترنا ليكونوا ورثة للكتاب الإلهي، {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ}، لم يكن معه حقّ فيما فعله لنفسه، كان الدين الإلهي وَاضِحاً أمامه ولم يلتزم به كما يجب وهذا تصرّف ظالم، لأنَّ حَقَّ نفسه عليه أن يؤمن ولا يعاند الحقّ الواضح.

ننتبه، الظلم للنفس ليس بالضرورة أن يكون أقصى الظلم بالكفر، لأنَّ النَّبِيَّ يونس(ع) من المصطفين وكان من الظالمين، كما ورد في وصفه لنفسه في الآية 87 من سورة الأنبياء {... سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}، ارْتَكَبَ عَمَلاً وَاحِداً جعله من الظالمين، لأنه في ذلك العمل بالذات لم يكن عَادِلاً مُنْصِفاً فيما فعله، ولم يخرجه هذا من صفة المؤمنين الصالحين، هنا نفس الشيء، لأن الآية التالية تخبرنا أن الأصناف الثلاثة "الظالم لنفسه والمقتصد والسابق" هم من أهل الجنّة، ويمكنك مقارنتها على حالتنا نحن بظلمنا في سيئات نفعلها ثم نستغفر منها... والنهاية التقييمية لنا: التزام جزئي بدينه تعالى، وهذا ظلم لأنفسنا.

{وَمِنْهُمْ}، ومن الذين اصطفى سبحانه بالكتاب، {مُقْتَصِدٌ}، يَكْتَفِي بمقدار ما، كَمَا المقتصد بالمال ليس بَخِيلاً ولا كَرِيماً، كَذَلِكَ المقتصد بالإيمان، لَيْسَ مُؤْمِناً كَامِلاً وليس مُؤْمِناً ظَالِماً، وَعَمَلِيّاً هُوَ مُكْتَفٍ بحاله الإيماني ولا يرغب بأن يكون من المؤمنين من الدرجة العالية في تصرفاتهم كالمسارعين في الخيرات، ولا يرغب بأن يكون مستواه الإيماني مُتَدَنِّياً، الظالم لنفسه والمقتصد هو وصف يتدرّج بينهما حالة متوسطي الإيمان من أمثالنا، نَحْنُ بغالبيتنا بين ظالم ومقتصد.

{وَمِنْهُمْ}، ومن الذين اصطفينا بالكتاب، {سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ}، كُلَّمَا سنحت له فرصة لفعل الخير للتقرّب منه تعالى بالذكر والصلاة وعمل الخير... مثل الأنبياء والأوصياء وخالص المؤمنين... الْأَوْلَوِيَّةُ عنده للمسارعة إلى فعل الخيرات، نَجِدُ نفس المعنى صَرِيحاً في الآية 61 من سورة المؤمنين {أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}.

{بِإِذْنِ اللَّهِ}، حَصَلَ هذا التوريث للكتاب لهؤلاء بسماح منه تعالى، لَمْ يحصل بإرادة بشرية، ولا بالصدفة، بل بمجريات الأحداث تحت الموافقة الإلهية، {ذَلِكَ}، الميراث للكتاب من ربنا سبحانه لهؤلاء، {هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}، هو شيء من الأمور التي يمنحها تعالى لنا من دون أن نكون قَدَّمْنَا له سبحانه أي شيء، ومن دون أن يكون فَرْضاً وَاجِباً عليه تعالى تقديمها لنا، لَوْلَا فضله تعالى لما قرأنا الكتاب ولما اهتدينا ولما تعرفنا على الآخرة.

الفقرة هنا تريك ما حصل بعد نزول الكتب السابقة، آمَنَ بها البعض بالدرجات المذكورة هنا، والتي يصنفها تعالى أنها مسبّبة لدخول الجنّة، وَاضِحٌ لك أن في الجنّة درجات أعلى من الأخرى، والدرجات العالية للمسارعين في الخيرات...

الكلام عن توريث الكتاب عمومي ناظر لكل من آمن به وعمل صَالِحاً سواء أكان من بني إسرائيل أو غيرهم، السور التي تحدّثت عن توريث الكتاب الإلهي لبني إسرائيل كان سياق كلامها يقصد شَيْئاً يخصّهم هم وتتحدّث عنه السورة كنموذج للاستفادة من العبرة من شيء فعلوه أو حدث معهم...

الكلام هنا عن أي شخص وصله الكتاب فآمن وعمل صَالِحاً وكان مَوْصُوفاً بالظالم لنفسه إيمَانِيّاً بدرجته المنخفضة، أو كان مُقْتَصِداً أو كان سَابِقاً بالخيرات، سواء أكان من ذرية النبي إبراهيم(ع) أو من الشرق الأقصى أو من أفريقيا أو أوروبا أو أميركا...

(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ {33})
{جَنَّاتُ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها، {عَدْنٍ}، وهي للإقامة الدائمة، لَا تخرب المساكن ولا يجبرهم أحد على الخروج منها ولا يضطرون لهجرها... {يَدْخُلُونَهَا}، يصير فيها المؤمنون من الدرجات المختلفة من الوارثين للكتاب من الظالمين لأنفسهم والمقتصدين والسابقين بالخيرات.

{يُحَلَّوْنَ}، يَضَعُونَ الحلي على جسدهم، {فِيهَا}، في تلك الجنات، {مِنْ أَسَاوِرَ}، وهي الحليّ التي توضع في الأيدي "المعصم" {مِنْ ذَهَبٍ}، وهو معدن معروف بأنه لا يصدأ ولونه من تدرجات اللون الأصفر، {وَلُؤْلُؤًا}، وهو الذي نستخرجه هنا من صدف يعيش في الماء وهو كرة صغيرة، المشهور منه ما لونه أبيض وله تموجات ألوان على سطحه، عِلْماً أنه يوجد عدّة ألوان منه.

{وَلِبَاسُهُمْ}، مَا يضعه المؤمنون على جسدهم، {فِيهَا}، في تلك الجنات، {حَرِيرٌ}، وهو وصف للقماش الخفيف والناعم جِدّاً على الجسم، وهنا نستخرجه من شرنقة دودة القزّ أو نصنعه من مواد ناعمة.

بالنسبة لوصف الجنّات بالعدن، بَعْضُهُمْ اختلط عليه التوصيف بما ورد في مرويات عن الجنّة التي كان فيها آدم(ع)، فِي التراث الديني لأهل الكتاب، وَانْتِقَالاً منهم إلى تراثنا، صارت كلمة "عدن" اسْمَ مكان خاص على الأرض، "أو في السماء حَالِيّاً كما يقولون"، بينما هي باللغة العربية وصف لأي مكان للإقامة الدائمة بسبب توافر ما تحتاجه فيه ولسعادتك فيه... وَصْفُ القرآن لجنّة الآخرة بأنها "عدن" لا تخلطه مع الموروث الذي سمّى الجنّة التي كان فيها آدم وزوجته بأن اسمها عدن، لِأَنَّ القرآن لم يذكر هذه الصفة لها، بل حصر استعماله لهذه الصفة فقط وفقط بجنّة الآخرة التي ليست موجودة الآن لأننا الآن في الدنيا، وحين تنتهي الدنيا بتبدّل السماوات والأرض، نصير في الآخرة، وتصير جنّة العدن الخالدة.

هل قَدِيماً جِدّاً منذ آلاف السنين كلمة عدن "وما يشبهها في اللفظ في اللغات القديمة" كانت وَصْفاً عُمُومِيّاً وصارت اسْماً لمكان ما على الأرض؟ أو كانت اسْماً لمكان مرغوبة الإقامة فيه وبعدها صارت وَصْفاً لعموم أي مكان مرغوبة الإقامة فيه؟ هكذا نفسّر كيف اشتركت الكلمة بين الوصف والتسمية لأماكن هنا على الأرض سمّاها الناس قَدِيماً وَحَدِيثاً "عدن" وهم لا يقصدون الجنّة التي كان فيها آدم، وهكذا نفسّر كيف اشترك الوصف أو التسمية مع الجنّة على الأرض التي كان فيها آدم وزوجته، واشترك الوصف مع جنّة الآخرة التي وصفها عدن لأن الإقامة فيها مرغوبة...

بالنسبة لكلمة إِسْوَارَة قَالَ الراغب الأصفهاني في كتاب المفردات أن كلمة "إسوارة، سوار" معرّبة من الأصل الفارسي "دستواره"، ومن بعده "بحسب اطلاعي" كُتُبُ التفاسير نقلت جملته هذه ونشرتها. حَالِيّاً لدينا معايير لإرجاع الكلمات لأول شعب وضعها حتى ننسب تلك الكلمة لهم، مِنْ تلك المعايير أن نجد مُسْتَنَداً تَارِيخِيّاً وفيه الكلمة مستعملة عند شعب ما قبل الآخرين، أو تكون التسمية لشيء ما هم اخترعوه قبل الآخرين، أو نجد اشتقاقات من تلك الكلمة مستعملة بِمَعَانٍ قريبة... لَوْ وجدنا مُسْتَنَداً باللغة الفارسية، يذكر كلمة "دستواره" وهذا المستند أقدم من أي مستند عربي، لاحتملنا أن يكون أصل الكلمة فَارِسِيّاً وتعرّف عليها العرب من الفرس، ولو وجدنا في الآثار أن العرب لم يعرفوا الإسوارة في تاريخهم، واخترعها الفرس قبلهم، لاحتملنا أن العرب تعرّفوا على الإسوارة وعلى الكلمة الخاصّة بها من الفرس، وأن العرب أعادوا صياغة الكلمة بما يناسب تلفظهم للكلمات لتصير "اسوارة" بَدَلاً من "دستوارة"...

لَكِنَّ الراغب وغيره من اللغويين القدماء كانت معاييرهم رخوة أكثر من المقبول، مِعْيَارُهُمْ هو تشابه لفظ الكلمة العربية مع الفارسية، وَيَحْكُمُونَ أن أصل الكلمة فَارِسِيٌّ! والعجيب أنهم لم يحكموا أن أصل الكلمة عَرَبِيٌّ! مَا هذا المعيار!

اخْتَرْتُ هذه الكلمة بالتحديد لأبين لك أن أكثر ما قالوه عن أصل الكلمات العربية الواردة في القرآن أنها أعجمية "أجنبية" هُوَ مجرد تَخَرُّصَاتٍ بلا دليل، وهنا كمثال الْأَسَاوِرُ من أقدم ما اخترعه الإنسان، هِيَ منتشرة في آثار كل الحضارات القديمة، وتشابه اللفظ بين اللغتين لنفس الشيء، يشير "ولا يحتّم" إلى أصل واحد للكلمة، لِمَاذَا لا يكون عَرَبِيّاً؟ أو آرَامِيّاً أو سُرْيَانِيّاً أو... وَلِمَاذَا لا تكون كلمة "إسوارة، سوار..." عربية ولدينا كلمة "أسير" التي تحتمل الاشتقاق بسبب "تكبيل" يدي الأسير!

لا أريد البرهنة لك أن أصل كلمة إسوارة عَرَبِيٌّ، لَكِنْ ألفت انتباهك إلى أكثر ما قالوه في التفاسير والقواميس عن أصل بعض الكلمات العربية الواردة في القرآن أنه كان تَخْمِيناً، وبلا دليل، ونتج عنه كلام غير صحيح لتفسير معاني بعض الكلمات... لِلْأَسَفِ إِنَّ من يعيد دراسة ما قالوه متّهم في علمه! لِأَنَّ النَّاسَ يقدّسون القديم، وكأن القديم لم يكن جَدِيداً حين قالوه!

لِمَزِيدٍ من التوسّع حول هذا الموضوع راجع دراستنا للآية 21 من سورة الإنسان {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ...}، والآية 47 من سورة الصافات {لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ}، والآية 3 من سورة الزخرف {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}.

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ{34})
المؤمنون في تلك الجنات، قالوا:

{الْحَمْدُ لِلَّهِ}، نعلن أن صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز "الله" كل عمله محمود فكله جيد، {الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ}، ما كنّا نعاني منه في الدنيا من هموم وغموم ومشاكل نحن لا نشعر بشيء من ذلك الآن، بالتالي يشعرون بالفرح والسعادة...

{إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ}، إن المسؤول عنّا من مستوى إلهي يغفر كثيراً جداً، يتجاوز عن الأخطاء، لا يأخذ موقفاً صلباً جافاً ممن أخطأ بل يسامح عن الكثير من الذنوب، {شَكُورٌ}، يشكر لعباده ما فعلوه من أعمال جيدة، يعبّر لهم سبحانه عن تقييمه لأعمالهم أنها كانت جيدة عبر إكرامهم وثوابهم.

كما ترى، لا أحد بلا ذنب، ولو عن غير قصد، وكما ترى من عموم القرآن من ابتعد عن الكبائر، أو تاب منها واستغفر فعلاً، في الآخرة سيكون متفاجئاً فرحاً بأنه تعالى سامحه ولم يعاقبه على ذنوبه، بل سامحه تعالى وفوق ذلك شكر له عمله القليل جداً جداً بالمقارنة مع ما حصل عليه من جنّة رائعة خالدة.

هذا تشجيع لنا حتى لا نعتبر دخول الجنّة مستحيلاً وأنه حصري للمؤمنين من الدرجة العالية، وحتى نرى أن ما يعدنا به تعالى يستحقّ العمل لأجله بترك السوء وفعل الصالحات، حيث هناك يذهب الحزن نهائيا بكل أشكاله وأنواعه.

(الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ{35})
يكمل المؤمنون دعاءهم: الحمد لله...

{الَّذِي أَحَلَّنَا}، جعلنا نحلّ ونسكن في، {دَارِ الْمُقَامَةِ}، في مكان تدور فيه شؤون حياتنا وهو ليس للزيارة أو مؤقتا بل للإقامة فيه، وهو بالطبع مكان ممتاز للإقامة فهو الجنة، وهذا، {مِنْ فَضْلِهِ}، ليس فرضاً واجباً عليه تعالى مجازاتنا وإعطاءنا الأجر، ونحن لم نقدّم له تعالى أي شيء، بل من فضله تعالى أدخلنا الجنّة. راجع في ذلك دراسة الآية 30 السابقة.

{لَا يَمَسُّنَا فِيهَا}، لا نشعر ولا يصيبنا في الجنة، {نَصَبٌ}، تعب شديد، {وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ}، وهو الشعور بالإعياء وفقدان القوة. يشعرون دائماً بقوّة في جسدهم ويتمتعون بالنشاط... لا يشعرون بالتعب ولا حتى بالإعياء رغم المجهود الكبير الذي يقومون به في التسلية والمرح...

نحن الآن نشعر بجسدنا الضعيف الذي يمرض وينكسر ويحترق... ونعرف بأننا إذا قمنا بمجهود جسدي فإننا سنصل إلى مرحلة ننهار فيها ونقع على الأرض... أمّا في الجنة فالوضع مختلف تماماً، هناك يشعرون بأنهم لا يموتون

فيشعرون بالخلود، ويشعرون بطاقة جسدية هائلة، مهما فعلوا فلن يتعبوا، ومهما فعلوا فلن يضعف جسدهم... مرّ عليك في دراستنا هذه لفت القرآن انتباهنا لأهل النار وأهل الجنّة أنهما كلاهما يشعران بأنهم لن يفنوا ولن يموتوا، وهذا الشعور رائع لأهل الجنّة وهو نفسه مرعب مدمّر لنفسية أهل النار الذين يشعرون بأن العذاب ومهما اشتد فلن ينهيهم ليرتاحوا منه، وسترى هذا المعنى في الآية التالية.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ {36})
في مقابل المؤمنين هناك:

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا دين ربّهم سبحانه، {لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ}، لهم نار في مكان موصوف بسوء ما فيه، وهناك في النار، {لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا}، لا تنتهي حياتهم من شدة التعذيب فيموتوا، مهما اشتدّ التعذيب فلن يموتوا لا بسببه ولا لأي سبب آخر.

{وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا}، لا ينزل مستوى شعورهم بالألم ولا يوجد فترات راحة، بل دائماً يشعرون بنفس الإزعاج والألم المستمر الذي لا يتوقف، يزداد الألم ولا يخفّ ولا يتوقّف أبداً.

تذكّر الآية 74 من سورة طه {إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى}، والآية 13 من سورة الأعلى {ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى}، الذي في النار من شدّة العذاب يكاد يموت، ولكن لا يموت، وهذه حالته دائماً، وبتعبيرنا الدارج: تكاد روحه تخرج ولكنها لا تخرج.

{كَذَلِكَ}، بهذا النوع من العذاب الدائم، {نَجْزِي}، نعطي المقابل لـ، {كُلَّ كَفُورٍ}، كل شخص كفر، أنكر دينه تعالى.

الكفر بشكل عام، أي نوع من الكفر، يسبب العذاب، ولكن لا تَنْسَ موضوع السورة وتركيزها على الكفر بنعمته تعالى، تريدك الآيات هنا أن تفهم أنه مشمول مندرج تحت الكفر الذي يسبّب العذاب.

(وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ {37})
{وَهُمْ}، الكفّار، {يَصْطَرِخُونَ فِيهَا}، وهم في جهنّم يقولون كلاماً بالصراخ "بالصوت القوي المعبّر عن الانزعاج والألم" فهو ناتج عن شدّة ألمهم:

{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ}، إن أخرجتنا من جهنّم ستكون أعمالنا كلّها موصوفة بالصلاح، كان فينا قدرة تمييز الفاسد من الصالح واخترنا الفاسد وها نحن نتعذّب بسببه، لو أتحت لنا فرصة ثانية فلن نعمل إلا الصالحات، وعملياً سنتصرّف كما أمرت سبحانك، نترك ما حرّمته ونفعل ما أوجبته.

الردّ منه سبحانه: {أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ}، ألم تعيشوا في الدنيا عمراً؟ هناك مدة عشتم فيها وكانت الفرصة متاحة لكم لتعملوا صالحاً، كانت الفرص يومياً متاحة أمامكم ولسنين طويلة.

أتاح لكم سبحانه عمراً في الدنيا، {مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ}، عمراً كافياً ليستحضر في فكره وعمله من يريد أن يتذكّر، يستحضر في فكره الفرق بين الحقّ والباطل والخير والشرّ. مرّ معك في السورة كلام مع الذين استهتروا بالكلام عن الهدى والضلال وكأنهما بلا أي فرق حقيقي بينهما... حتى أن السورة لفتت انتباهنا للفرق بين الظلّ والحرور كمثال لننتبه أن الفرق بين النور والظلمات ليس مسألة وجهة نظر، بل بينهما فرق حقيقي، وهناك في الآخرة سيعيد تعالى تذكيرهم بأنهم علموا بذلك ولكنهم استهتروا واستخفّوا بالمسألة.

عبارة الآية هكذا: لقد أعطيتكم عمراً في الدنيا يكفي حتى تتذكروا ربكم سبحانه، وتتذكّروا الفرق بين الهدى والضلال، أسأتم ولم أعاقبكم فوراً، كان لديكم فرصة خلال عمركم للتصحيح ولم تستغنموها، يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر وسنةً بعد سنة... كان معكم آخرون ولكنهم تذكّروا كلامه تعالى عن الهدى والضلال في فكرهم ومشاعرهم فآمنوا وعملوا الصالحات في ذلك العمر، وأنتم مرّ عليكم العمر ولم تتذكروا ربكم سبحانه، المشكلة ليست أنكم لم تحصلوا على فرصة، بل المشكلة أنكم لم تستغلوا الفرصة.

هذا يتضمّن أنه تعالى تركهم أحياءً في الدنيا يتعرضون لمختلف الظروف والفرص ليتوبوا، وهم لم يتغيّروا، لم يمِتْهُم تعالى إلا بعد إلزامهم الحجّة، في الآخرة لن تراهم يعترضون على الدنيا أنها لم تكن فرصة كافية، ولن يعترضوا محتجّين أن الظروف المناسبة للإيمان لم تتوافر لهم...

{وَجَاءَكُمُ}، في ذلك العمر، {النَّذِيرُ}، الذي أرسلته لكم لينقل الخبر عن عقابي الحتمي لمن عمل سيّئاً، ولم تؤمنوا، فوّتُّم عليكم الفرصة الوحيدة التي كانت متاحة لكم في الدنيا.

{فَذُوقُوا}، فتحسّسوا واشعروا بالعذاب، {فَمَا}، ليس، {لِلظَّالِمِينَ}، للذين لم يكن معهم حقّ، ظلماً لم يؤمنوا ولم يعملوا الصالحات ولم يرتدعوا حين جاءهم نذير، ليس لهم، {مِنْ نَصِيرٍ}، لن يجدوا من يحقّق لهم ما يريدونه، فهم يريدون الخروج من جهنّم ولن يجدوا من يخرجهم منها.

ننتبه، عندما تنقل لنا الآية هذا الكلام من مشاهد الآخرة، فهي تخبر الجميع هنا بأن الفرصة مرة واحدة، لا يخطر ببالكم أنكم ستنجون من جهنم إذا طلبتم فرصة ثانية وعرضتم أن تعبدوه سبحانه عبادة متواصلة بالصلاة والصوم... خذوا علماً جميعكم من الآن: هذا لن يحصل.

نلاحظ سوراً أخرى من القرآن ذكرت أسباب الحرمان من فرصة ثانية، أبرزها سبب ما ورد في الآية 28 من سورة الأنعام {بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}، ومنها ما ورد في الآيات التالية: الآية 44 وما بعدها من سورة ابراهيم {وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ}، إن لم يحصل الآن "في الآخرة" العقاب على كفرهم فمتى يحصل؟ والآية 13 من سورة السجدة {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} فهذا قراره المحسوم سبحانه.

والآيات قبل وبعد الآية 110 من سورة المؤمنين {فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ}، والآيات قبل الآية 12 من سورة غافر {ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ}... هنا تقول الآية بأنكم فيكم قدرة تمييز العمل الفاسد من الصالح، وأنتم اخترتم فعل السيئات، وحصلتم على عمر كاف، يوماً بعد يوم وسنةً بعد سنة... كانت كلّها فرص لكم لتتراجعوا، وفوق ذلك جاءكم نذير يخبركم بأنكم إلى جهنّم حيث لا فرصة ثانية، وها أنتم صرتم "في الآخرة" حيث لا يوجد فرصة ثانية.

بقي شيء، القرآن ينقل كلاماً دقيقاً، وكما ترى فسّرنا قولهم أنهم إذا رجعوا سيعملون الصالحات، بأنهم عملياً سيتركون ما حرّمه تعالى ويفعلون ما أوجبه تعالى، ولكن هناك عمق آخر في هذا الكلام ضعه دائماً في بالك حين يتحدّث القرآن عن الإيمان وعمل الصالحات، الإيمان ما هو إلا الاعتقاد بصحة المعلومات، وما يقوله تعالى عن نفسه وأفعاله وقراراته فهو الصحيح الواضح وعليه أطنان من الآيات "الأدلة"، وعمل الصالحات ما هو إلا الابتعاد عن السوء والفساد والشرّ، نحن ومن دون أوامره تعالى، يمكننا تصنيف الصالحات، القرآن لم يحصر الصالحات بما يأمر به تعالى، بل أراد دائماً أن يعرضها كما هي، كما يراها الإنسان العاقل ذو القلب السليم، ودائماً تجد فحوى الكلام القرآني عن أوامره تعالى أنها تتماشى مع القلب السليم لأنه تعالى لا يأمر إلا بالصالحات.

بعبارة أخرى، عملياً العمل الصالح هو كلّ يأمر به سبحانه، والعمل السيّء كلّه ينهى عنه سبحانه، ونحن لدينا القدرة على رؤية الصالح من الفاسد، هكذا خلقنا سبحانه، وعلى هذا الأساس يحاسبنا إن فعلنا السيّء، ولولا ذلك لم يكن للدين الإلهي أي معنى، أصل وأساس ما يطرحه القرآن عن دينه تعالى، أنه كلام عقائدي وتشريعي وسلوكي... يتماشى معه من كان من الناس قلبه سليماً.

أهل النار هناك يعلمون أنهم أنكروا الحقّ الواضح فلم يؤمنوا بكلامه تعالى، ويعلمون أنهم قاموا بالأعمال السيئة التي يستحقون العقاب عليها، وهي نفسها عملياً مخالفة أوامره تعالى، وحتى تتوضّح لك الصورة بشكل أبسط، فلنقل أن مجرما فاسدا قام بأعماله السيئة، وهو يعلم بأن دينا ما يحرّم هذا العمل، ولكنه أصلا غير مهتمّ بالأديان، ولا يعرف ما يحرّمه تعالى وما جعل عليه عقابا، فهل في يوم القيامة يحقّ له القول: لم أكن أعلم بأن هذه عليها حساب، فلا يحق لكم محاسبتي عليها. لا، فهو يعلم بأنها عمل سيّء، وليس بالضرورة أن يسمع آية قرآنية تخبره بذلك.

هكذا نفهم عندما يقول أهل جهنّم بأنهم إذا حصلوا على فرصة ثانية فسيعملون الصالحات، نفهم أنهم ومن دون أي نبي ولا رسول ولا مؤمن صالح، يمكنهم معرفة الأعمال السيئة ليبتعدوا عنها، كل ما يتحاسبون عليه ويتعذبون بسببه، يعلمون أنه سيّء، ولم يتعلّموا أنه سيّء هناك في الآخرة.

طبعاً هذا الكلام يتضمّن حالة اغترارهم وتكرارهم للسيئات حتى ينطبع قلبهم عليها فتتزيّن لهم ولا يعودون يرونها سيئةً، وذلك أثناء انغماسهم فيها ورفضهم لتركها، ولكن على المستوى النظري هم جاحدون، يعلمون بسوء ما يفعلونه.

خذ مثلاً مجموعة من اللصوص سارقي المال، تزيّن لهم هذا العمل السيّء حتى فعلوه ليصيروا أغنياء، وأخذوا أموال الآخرين ظلماً وعدواناً، الآن ننتبه للّصوص وهم يتقاسمون المال فيما بينهم، إن لم يتوافقوا على توزيع الحصص بينهم بشكل يرونه عادلا، فسيتخالفون! هل لاحظت؟ فيما بينهم يريدون العدل وإلا تقاتلوا، ويتجاهلون أصلا أن المال مسروق وليس لهم... ونفس الحالة في الآخرة، الظالمون يعلمون بسوء ما فعلوه ولم يتعلّموا سوءه هناك.

(إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {38})
إن الله {عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، فكل ما هو غائب مخفي عن المخلوقات في كل السماوات السبع أو في عموم أي أرض لتلك السماوات، أو في أرضنا، وهذه هي حدود كلّ دنيا المخلوقات، يعلمه تعالى، فيعلم سبحانه ماضي السماوات والأرض وحاضرهما ومستقبلهما، وكل التفاصيل لكل ما فيهما، ولكل ما جرى ويجري وسيجري فيهما، ومهما كان صغيرا أو كبيرا.

{إِنَّهُ عَلِيمٌ}، فلديه علم شامل تفصيلي، {بِذَاتِ الصُّدُورِ}، بما نتفاعل به مع ما نتعرّض له، فيعلم سبحانه تفاعلنا الداخلي الفكري والنفسي مع ما نراه ونسمعه ونعيشه.

بعض الناس يقولون: إذا متنا وكان عن جدّ وحقّ يوجد نار، فإننا سنعرض على ربنا إرجاعنا إلى الحياة الدنيا لنعمل صالحا ولنذكره بشكل غير عادي بالصلاة والصوم والمناجاة... وسيكون ذكرا مستمرا بلا انقطاع، وسبحانه سيستجيب لطلبنا طبعا، فهذا عرض ممتاز نقدّمه، ولن يرفضه سبحانه، فماذا يريد منّا أكثر من ذلك؟ وهذا ما يدور في صدور بعض الناس، والآية السابقة قالت لن ترجعوا إلى الدنيا لأنها زالت، ولا توجد فرصة ثانية لأنها صارت الآخرة حيث المجازاة، وهنا الآية تقول بأنه سبحانه من الآن يعلم بأن البعض منكم هذا هو تفاعله مع عرض الكلام الإلهي عليه، فهذه أفكاره ونفسيته من كلامه تعالى. وفي نفس الوقت ومما نجده في بقيّة القرآن، فإن علمه سبحانه بما في صدورهم هو السبب لرفض إعطائهم فرصة ثانية، فتفاعلهم مع دينه تعالى لن يتغيّر إن حصلوا على فرصة ثانية، وبعدها سيطلبون فرصة ثالثة ورابعة... وهذا تقرأه صريحا في الآية 28 من سورة الأنعام: {بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}.

انتبه مما هو رائج في بعض الأدبيات غير الدقيقة، حيث يفسرون كلامه تعالى المشابه للآيات هنا بأن الظالمين يطلبون العودة إلى الدنيا كفرصة ثانية ليؤمنوا ويعملوا الصالحات، بينما القرآن لم يقل ذلك، فالدنيا هي حالة الزمن الآن، وبعدما تتبدّل السماوات والأرض، تنتهي الدنيا وتبدأ الآخرة، فلا معنى لجملة: العودة إلى الدنيا.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضا على قبّة النجوم التي نراها ليلا ونطلقه أيضا على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنويا على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائما أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنويا" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضا بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراض.

عادة نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير ونستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، ونقول: خلق سبحانه الدنيا. أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيرا صحيحا دقيقا بالنظر إلى معنى كلمة دُنْيَا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم: {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى}. فسبحانه دقيق في تعابيره ويحدّثنا بدقّة عمّا يعلمه، وكلامه تعالى عن السماوات والأرض هو كلام عن علم بما أمامه سبحانه، فسبحانه دائما يتكلم بشفافية عمّا أمامه فقط، أمّا الكلام عن كلّ ما في الدنيا، فهو كلام عمومي ويشمل "نظريا" ما هو خارج العلم، ولذلك لم يستعمله تعالى، بينما ترى استعماله في كلام عموم البشر لأننا نتساهل ونتراخى في التعبير.

بالنسبة لكلمة "صدر، صدور" فإن لم يكن القصد بها لأعضاء الجسد للقفص الصدري وما تحته من أعضاء... فاستعملها القرآن كما يستعملها الناطقون باللغة العربية وكما هي مستعملة في العديد من اللغات الأخرى، حيث نشير بالصدر للتفاعل الداخلي للإنسان مع ما يراه ويسمعه ويشعر به مما يتعرّض له... حيث إننا عندما نتعرّض لمختلف الظروف، نشعر بالانقباض أو الانشراح... في صدرنا، فاستعملنا كلمة صدر لتوصيف حالة تفاعلنا مع الأمور، وحتى لو لم تشعر بأي شيء في قفصك الصدري، من انقباض أو صعوبة في التنفّس أو راحة... فمجرد تفاعلك مع ما تعرّضت له، فإن مختلف اللغات البشرية تعبّر عن هذا التفاعل بأن شيئا حصل في صدرك، وحتى السرّ الذي تخفيه عن الآخرين تعبّر عنه مختلف اللغات بأنه في صدرك، وكلّنا نعلم أن السرّ ليس في القفص الصدري، فليس تحته في الرئة أو القلب أو المريء... بل هو تعبير يشير لحالة تفاعلنا مع ما ندركه سواء بقي مخفيا أو ظهر له أثر حسّي في منطقة الصدر أو على تعابيرنا وحركاتنا.

(هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً{39})

{هُوَ}، الله سبحانه، {الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ}، جعل في بقع مختلفة أناساً تَخْلُفُ أناساً، فيموت أناس ويخلفهم ويأتي أناس غيرهم، {فَمَن كَفَرَ}، من أنكر الدين الإلهي ولم يؤمن به، {فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ}، أثر إنكاره للدين الإلهي سيرتد عليه، وسيتحاسب ويُجازى على كفره.

تذكّر الآيات السابقة التي نبّهت على القيمة الحقيقية للنور والظلمات، للهدى والضلال، للصالحات والسوء، هنا في الدنيا يستهتر بعض الناس بالإيمان والصلاح وكأنه شيء بلا قيمة ولا أثر له... وتذكّر ما قالته السورة عن الكفّار في الآخرة حين طلبوا فرصة ثانية ليؤمنوا من بعدما لمسوا عقاباً على الكفر وفعل السوء... وهنا تقول الآية إنَّه سبحانه صمّم وخلق الناس بحيث يتبدّلون ويتغيّرون، وكل واحد من الذين كفروا أخذ فرصته في الظهور في الحياة الدنيا، {فَمَن كَفَرَ} في حياته التي قضاها هنا {فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ}، وسيتحاسب على إنكاره للحق والصلاح المطروح عبر هذا الدين الإلهي، وهذا هو القرار الإلهي الحاسم ولن نحصل على فرصة ثانية.

{وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ}، إنكارهم للدين الإلهي لن يزيدهم عند المسؤول عنهم من مستوى إلهي، {إِلَّا مَقْتًا}، إلا تقييماً سيئاً لهم ومَنفوراً من ذكرهم، وكلما أنكروا الدين الإلهي أكثر كلما كان تقييمهم أسوأ وسيكرههم سبحانه أكثر، وهذا سيعود بالضرر عليهم هم لأنهم لن ينالوا رحمته تعالى.

{وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ}، عند ربهم سبحانه، {إِلَّا خَسَارًا}، فتزيد خسارتهم، ويزيد فقدهم للأمور التي لها أهمية، ويفقدون المغفرة والثواب والرحمة والرأفة الإلهية... وبالتالي يزيد عذابهم شدةً وألماً.

بعبارة أبسط أنتم تأتون وتذهبون ويأتي غيركم إلى الحياة... وهذا ما صمّمه وخلقه تعالى، وهذا ما يحصل، ومن جاء دوره إلى الحياة وكفر سيموت بعدها والضرر من الكفر سينعكس عليه ولن يتأثّر سبحانه بذلك، بل كلما زادوا كفراً كلما زاد مقته تعالى لهم. وعملياً هذا يعني تعرّضهم لعذاب أشدّ في جهنّم، ولكن الآية تصوّر الحالة من ناحية الخسارة من الكفر بأن نتيجته تنعكس فقط على الذي مرّ في الدنيا وأساء استغلال الفرصة.

نتذكّر دائماً أنّه تعالى يفعل، ولكن لا ينفعل، ووصفه تعالى بالانتقام أو الغضب أو الحبّ أو الكره أو المقت... هو استعمال لكلمات من لغتنا التي وضعنا كلماتها مما نتعامل معه نحن بحواسنا، وسبحانه ليس كمثله شيء، ومستحيل أن

نتعامل معه مباشرة بسبب الفرق الهائل بين طبيعته عزّ وجلّ وبين طبيعة تكويننا، ولذلك كلمات لغات البشر التي اخترعناها للتعامل فيما بيننا، حين نستعملها للكلام عمّا لا نتعامل معه مباشرة يجب تجريد الكلمات من الخصائص البشرية.

كلمات لغتنا عند انطباقها علينا تتضمّن تأثّرنا وانفعالنا... أمّا بالنسبة له تعالى فهي تنطبق عليه مع تجريدها من خصائصها الإنسانية، أنا وجهي يمتقع احمراراً من الغضب، وتفلت أعصابي من الغضب... أمّا سبحانه فغضبه هو وصف تعامله مع الأمور بأنه غير راضٍ عنها ولن يمررها أو يسكت عنها. وانتقامي أنا يتضمّن أني سأنفجر إن لم أشْفِ غليلي... أمّا سبحانه فانتقامه هو وصف تبييت نية الضرر كعقاب على حقّ له تعالى علينا ولم نلتزم به. وحبّه تعالى للمؤمنين هو وصف تعامله معهم بما يسعدهم، وكرهه تعالى للكافرين هو وصف تعامله تعالى معهم بما يتعسهم. وهكذا بقية صفاته تعالى نفهمها بما يناسب أنه تعالى ليس كمثله شيء.

المقت وصف لحالة شيء منفور منه لقبحه، ومن آثاره النفور حتى من ذكر الشيء، وهنا الكلام عن الكافرين أنَّه تعالى يمقتهم حيث إنهم منفور منهم ومنفور من ذكرهم، ونفهمها بشكل أبسط بتذكّر الآية 51 من سورة الأعراف {الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ}، فسبحانه يمقتهم لدرجة أنه منفور حتى من الكلام عنهم لدرجة نسيانه تعالى لهم عن قصد من رحمته فيهملهم في جهنّم يتعذبون ولا يبالي بهم. وكما ترى كل الكلام القرآني الذي يستعمل كلمات هي بالنسبة لنا مشاعر، فهي بالنسبة له تعالى موقف من شيء ما، ولها تطبيق عملي بالثواب عقاباً أو سعادة.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً{40})
{قُلْ}، للناس عبر هذا القرآن:

{أَرَأَيْتُمْ}، أسألكم حين يصير عندكم صورة محدَّدة، كما نقول بالعامية: شفتوا. {شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ}، أنتم تعلنون وتشهرون لغيره تعالى وقلتم إنهم شركاء له سبحانه في الألوهية، ولكن في الحقيقة هم ليسوا شركاء له سبحانه، بل أنتم اعتبرتم أن بينكم وبينهم شراكة، فتدعونهم وتعلنون وتشهرون لهم أنهم آلهتكم، فاعتبرتم أن بينكم وبينهم شراكة عبد وإله، وفي الآية 14 من هذه السورة توسعنا في دراسة كلمة دعاء فراجعها، فهؤلاء الذين عبدتموهم هم شركاء لكم، وحتى يكونوا آلهة حقيقية ولا كيان لها، {أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا}، اجعلوا عندي صورة محدَّدة لشيء ركّبوه وألّفوه، {مِنَ الْأَرْضِ}؟ هذه الأرض بما عليها من كائنات، وبيئة، فدلوني ولو على كائن واحد، أو ظاهرة تحدث، ولو على أي شيء واحد خلقته آلهتكم؟ فإذا لم تخلق أي شيء فكيف تكون آلهة؟! وما معنى القول عنها آلهة؟!

{أَمْ لَهُمْ}، لهؤلاء الذين تدعونهم، {شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ}؟! هنا على الأرض لم يخلقوا أي شيء فهل خلقوا شيئاً ما في السماوات! فإن كان أمام أعين المشركين هنا على الأرض لا يمكنهم أن يحدّدوا أي شيء خلقته آلهتهم، فهل سيخترعون شيئاً ما في السماوات ويقولون إنَّ آلهتهم خلقتها! أم سيقولون إنَّها شريكة في اتخاذ القرارات مع الله تعالى حين يخلق؟

{أَمْ آتَيْنَاهُمْ}، هل أعطيناهم، {كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ}، على وضوح من صحّة شركهم؟ فهنا أمام أعينهم لا يمكنهم أن يجدوا مخلوقاً صنعته آلهتهم، ومن السخافة أن ينسبوا مخلوقات لآلهتهم في السماوات هكذا رمياً للكلام الفارغ في الهواء، ومن السخافة أن يقولوا إنها شريكة في القرارات معه تعالى حين خلق، فبقي أن يصلهم كتاب من الإله سبحانه يقول لهم فيه إنَّ آلهتهم خلقت شيئاً ما، أو إنها آلهة رغم أنها لم تخلق أي شيء، أو إنها مشاركة في قراره تعالى حين يخلق، فهذه هي الطريقة الوحيدة لقول كلام صحيح عن آلهتهم، ولكن هل نزل عليهم كتاب منه سبحانه يقول فيه إنَّ آلهتهم هي فعلاً آلهة وتشاركه تعالى في قراراته أو أنها خلقت شيئاً ما؟ لا، وكل الكتب التي تجدها بين أيدي الكفّار هي من تأليفهم وليست إلهية المصدر، ولا امتداد تاريخي لتلك الكتب مع تاريخ البشرية، بينما في المقابل لدينا امتداد دينه تعالى من أوّل بشري تأهّل ليتكلّف وهو آدم(ع) وقد أوحى تعالى إليه بالمعلومات المشابهة لما في هذا القرآن...

{بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ}، الذين لم يكونوا منصفين ولم يكونوا عادلين ولم يكن معهم حقّ حين أشركوا بربهم سبحانه، فهم يعدون بعضهم فيقولون لبعضهم: نحن على حق والآلهة إلى جانبنا وستنصرنا. وهذا الوعد، هذا الكلام عن تحقّق شيء

ما غير صحيح، فهم فقط يعدون بعضهم، {بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا}، يخدعون بعضهم ويجعلون بعضهم يطمعون بأشياء غير صحيحة.

كما يقول المؤمن لأخيه المؤمن: اصبر في الدنيا فإن موعدنا الجنة في الآخرة. وهذا وعد صادق، هؤلاء المشركون وعدهم لبعضهم البعض كاذب، فيقول أحدهم للآخر: لا تترك آلهتك لأنها ستنصرك إن كان هناك آخرة. وهذا الكلام غير صحيح.

تذكّر أن القرآن عادة لا يوجّه كلامه بشكل مباشر للمنكرين لأي إله "ونسميهم بالملحدين"، بل وجّه كلامه للمشركين، وضمناً هو نفس الكلام موجه للملحدين، فالسؤال عن تحديد المصمّم الخالق لما في الدنيا، من هو؟

والقرآن لم يترك "الملحدين" من دون ردّ عليهم، أكَّد على وجود الإله بشكل بديهي من خلال حديثه عن توحيده سبحانه، فألصق القرآن كلامه مع الملحدين ضمناً في كلامه مع المشركين، وكانت الأدلة على وجوده تعالى وعلى توحيده واحدة في الأساس، فالقرآن لا يعتبر الإلحاد شيئاً حقيقياً واقعياً بل يعتبره حالة تمثيلية بحتة لا تستحق الحديث عنها بصراحة، لأن الذي خلقنا يعلم بشعورنا الداخلي بوجوده، وحتى لو قال بعض الناس بأنهم لا يؤمنون بالإله، فهم يكذبون، وهذا يبدو واضحاً جلياً من الكلام الإلهي في القرآن. وعلى أي حال وللمزيد من الدراسة لهذا الموضوع راجع سور الرعد والجاثية والواقعة فهم مناسبة جداً لمن نسمّيهم بالملحدين.

بقي شيء، فسبحانه دائماً يتحدّث معنا بشفافية، هنا السؤال عن نزول كتاب منه سبحانه على المشركين ليخبرهم أن الذين يقولون عنهم آلهة أنهم فعلاً آلهة، فهو كلام بشفافية، فلو كانوا فعلاً آلهة لظهر أثرهم في خلق شيء ما، وهذا لم نره، ولو نزل منهم كتاب أخبروكم به أنهم آلهة، لكان دليلاً على صحة كلامكم، علماً أنَّه لا معنى لألوهيتهم إن لم يخلقوا ولا أي شيء، ولكن على أي حال فلنقل إنَّهم فعلاً آلهة، ولا يريدون فعل أي شيء، فلنقل فرضاً ذلك فقط لتبرير القول عنهم إنهم آلهة، وكما تعلم لا يوجد كتاب منسوب لتلك الآلهة من تأليفها. أخيراً فرضاً أنَّ الله سبحانه في كتبه قال عن وجود آلهة أخرى، فهذا سيكون دليلاً على صحّة كلام المشركين، ولكن هذا أيضاً لم يحصل. على أي أساس تعلنون عنهم أنهم آلهة! واستناداً على ماذا؟

وبالنسبة لخلق النبي عيسى(ع) من الطين طيوراً، فهذا لم يحصل من مستوى إلهي للنبي عيسى(ع)، بل بسماح من الإله سبحانه، واستعمل النبي عيسى(ع) قدراته التي منحها تعالى له، وهذه ليست حالة إله، بل حالة مخلوق يخلق مستخدماً قدرات منحها له الإله، ومستعملاً موادَّ "طين" خلقها الإله سبحانه وجعل فيها خصائص قابلية الحياة.

وهنا السؤال في الآية عن خلق من مستوى إلهي، من لا شيء وليس من مواد وتصاميم خلقها الله سبحانه، ومن قدرة شخصية للخالق ليكون مستواه إلهياً ولا يكون بقدرات ممنوحة له، فهذا ليس إلهاً. فالنبي عيسى(ع) خلق، وأنت وأنا نخلق، فنركّب ونؤلّف، وبديهي أننا لسنا آلهة. ونَدَرَ استعمال القرآن لكلمة خلق لغيره تعالى، استعملها مع النبي عيسى(ع) مرتين في آيتين حين خلق الطير من الطين كما ورد في الآية 49 من سورة آل عمران {أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ}، والآية 110 من سورة المائدة {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي}، وفي كلا الآيتين تنبيه بأن القدرة ليست ذاتية للنبي بل ممنوحة، واستعملها القرآن مرّة واصفاً خلق المشركين لآلهة من خيالهم كما ورد في الآية 17 من سورة العنكبوت {إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، فلغوياً كلمة خلق تعني التركيب والتأليف، سواء من الصفر من لا شيء حيث لا مواد، أو من المواد، وبالدقة استعمال القرآن تعابيرَ أخرى لذلك، فاستعمل الفطر ليشير إلى خلق ما في الدنيا من لا شيء، واستعمل الخلق ليشير لتركيب وتأليف ما في الدنيا، واستعمل الإنشاء ليشير إلى خلق شيء من شيء سابق.

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً{41})

{إِنَّ اللَّهَ}، ولا أحد غيره ولا معه، {يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا}، حيث إنَّ الحالة التي عليها الدنيا الآن تتوقف عن الاستمرار، فتنهار ولا تبقى، إذا تركها سبحانه بدون عناية.

تصور نفسك تمسك بيدك بتفاحة، وإذا تركتها وقعت على الأرض، والآن تخيل نفسك تمسك بالذرات التي تؤلف التفاحة، فإذا تركتها ستنهار الذرات فتزول التفاحة، والآن وللتقريب والتبسيط تخيّل إمساكه سبحانه لذرات ما في الدنيا، فإذا تركها تعالى ستنهار. طبعاً هذا التخيّل مبني على علمنا الحالي بعمق تكوين المادّة، والآية عبّرت بتعبير عمومي بسيط يستطيع فهمه أي إنسان بتصوّره لزوال أو انهيار وتحلّل جسده والأرض... ولم تقصد الآية التعبير عن اختفاء ما في الدنيا، عمّا نسميه بانمحاء المادة من الوجود، حيث لم يرد سبحانه الكلام عن هذا العمق، "أو أنه لا معنى له في الحقيقة"، واكتفى بلفت انتباهنا لارتباط كيانات وظواهر ما في الدنيا به سبحانه، لنرى أنها ليست لوحدها قائمة، ولولاه تعالى لزالت ولم يعد للسماوات والأرض كيان كمكان وككائنات متكونة فيها وكظواهر تحدث.

الكلام هنا على معنى كلام الآية 255 من سورة البقرة: {وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}.

{وَلَئِن زَالَتَا}، حيث لم يعد سبحانه يمسكهما ولم يعد لهما كيان، فانهارتا، {إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ} سبحانه؟! فهل من أحد من بعده سبحانه سيمسكهما حتى تبقيا؟ ومن لديه القدرة على ذلك؟ وهكذا ترى معنى قدرة الإله وتنتبه حين تقول عن غير الله تعالى إنَّه إله، فهذا هو المستوى الإلهي، فهل من أحد غيره تعالى قادر على الحفاظ على كيان كل ما في دنيا المخلوقات؟

كيف يفكر هؤلاء الكفار المشركون! وعلى أي أساس يقولون عن غيره تعالى إنَّهم آلهة ومن الواضح أنَّه تعالى وحده الإله الذي يمسك الدنيا وبسببه تعالى لها كيان.

{إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا}، بتعبيرنا الدارج "طويل البال"، فلا يمكن استفزازه تعالى بسبب الشرك به، وبتعبيرنا الدارج مع الكثير من البساطة في التعبير: لا يفقد سبحانه أعصابه ليتصرّف عن غضب. ولن يأخذ سبحانه قراراً بترك الدنيا لتزول بسبب ما يقوله المشركون حين يدّعون بوجود آلهة غيره تعالى أو حين ينكرون نعمته سبحانه عليهم.

بعبارة أبسط، سبحانه يمسك السماوات والأرض ولذلك هما باقيتان، ومن ضمنها المشركون به تعالى القائلون عن غيره سبحانه إنَّهم آلهة، ولفتت الآية انتباهنا لكل ما في الدنيا أنَّه سيزول لو لم يمسكه تعالى، فأعطتنا الصورة الأكبر، وتفهم منها أنَّه لولا حلمه تعالى لترك المشركين حتى تمسكهم آلهتهم، ومعلوم أنهم حينها سيزولون ولن تمسكهم آلهتهم من الزوال لأنه تعالى الإله الأحد، وهذا هو المعنى الحقيقي لقدرة الإله.

و{إِنَّهُ كَانَ}، {غَفُورًا}، يتجاوز عن السيئات، يسامح بكثرة عن الذنوب، فلا يأخذ موقفاً صلباً جافاً قاسياً بوجه من أساء بل يسامحه تعالى إن تراجع وآمن حتى لو كان من قبل كافراً بنعمته ومشركاً...

نفهم معنى وصفه تعالى بالحليم والغفور هنا على معنى ما سيرد في الآية 45 الآتية: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ}، فلولا حلمه تعالى ومغفرته لما أمسك السماوات والأرض فيما يخصّ بقاء الكائنات ذات الإرادة الحرّة، حيث في الأرض مشركون به تعالى، والبقية بغالبيتهم الساحقة فاعلون للسيئات...

من هنا سنبدأ بكلام فضولي لا تتعب نفسك بقراءته إن لم تكن من هواة الترف الفكري، وسنبدأ بمشكلة إدخال عموم الأبحاث مع مصطلحاتها على تفسير القرآن، فهذا سبّب تشويهاً لحقيقة أو دقّة كلامه تعالى، حيث إنَّ الدارج بين عموم المنتمين لدينه تعالى أنَّ لديهم حرية مطلقة في الأبحاث الفكرية ذات الارتباط العقائدي طالما الكلام موصوف بالعقلانية، وفي نفس الوقت الغالبية لديهم تقييد في الأبحاث التشريعية فلا يؤمنون بقدرة العقل على الوصول إلى تبرير الأحكام الشرعية الإلهية، ولا بقدرته على وضع أحكام تشريعية إلّا بالاستناد إلى أشخاص متصلين به تعالى...

فيما يخصّ الأبحاث الفكرية يطلقون قدرة العقل، وفيما يخصّ الأبحاث التشريعية يقيّدون العقل، وآخرون يقيدون العقل مطلقاً على أساس أنَّه لا في العقيدة ولا في التشريع يمكننا الوصول إلى نتائج صحيحة، ونحتاج في كل شيء لمرجع كمستند منه تعالى. وكلا الكلامين غير دقيق، فالقاعدة الأساسية القرآنية هي القلب السليم، حيث بدرجته العالية جداً من سلامة أساس الفكر والنفسية يصل الإنسان إلى أقصى ما يمكن لنا معرفته من عقائد وتشريعات وسلوكيات صالحة، وأبرز مثال قرآني عن ذلك الإنسان هو إبراهيم(ع) وراجع في ذلك كمثال دراسة الآية 81 من سورة الشعراء: {وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ} التي تريك أن كل أساسيات العقائد يمكن الوصول إليها بالقلب السليم، وراجع دراسة الآية 2 من سورة البقرة: {ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} وهي واحدة من العديد غيرها التي ترينا أن أصل تكليفه تعالى لنا

مبني على قدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والصلاح من الفساد، وبسلامة القلب يمكننا الوصول إلى أساسيات التشريعات والسلوكيات الحسنة.

يعني بالفكر والنفسية السليمة يمكننا الوصول إلى كل أساسيات العقائد والتشريعات الصالحة، وهذا صريح كلام كل القرآن.

ننتقل إلى الذين أطلقوا العنان لعقلهم لتفسير القرآن بناء على أفكارهم هم، وهم لم ينتبهوا أن قدرة العقل الممنوحة لنا لا تعني تمتّعنا كلّنا بعقل سليم لم يتشوّه بأفكارنا ونفسياتنا السيئة... وآيتنا هنا ستجدها واردة في أبحاث فكرية عديدة، وبعضهم غاص فيها لدرجة أن القلّة القليلة من المتخصصين بالاصطلاحات سيفهمون من كلامهم معنى الآية، ولدرجة أن المعنى البسيط الظاهر من كلمات الآية لم يعد تفسيراً لها! والسبب اعتقادهم بمعانٍ باطنية للقرآن لا يفهمها إلا هم، واعتقدوا بتعدّد بطون المعاني، فصار للآية الواحدة أكثر من معنى، ويقولون إنها كلها صحيحة مع أنها مختلفة بل ومتخالفة!

نعم هناك عمق ما في معاني بعض الآيات، ولكنه ليس عمقاً باطنياً، بل عمق دراسي يريك المعنى العميق لنفس المعنى الظاهر من الكلام، بينما هم بغالبيتهم لهم معانٍ باطنية لا تظهر من كلام الآيات، فلا تظهر من المعنى اللغوي لكلمات الآيات.

لنأخذ مثالاً الكلام في الآية هنا عن الإمساك والزوال، فقال بعضهم إنَّ الزوال يقصد معنى الانعدام بانمحاء مادة الوجود، وهذا المعنى كان مقبولاً ولا يزال عند الذين بنوا التفاسير على معطياتهم الفكرية، ظانين أن المعطيات الفكرية ثابتة راسخة لا تتبدّل على أساس أنها ليست مثل المعطيات التجريبية التي تتبدّل. وهذا نقاش آخر حول أصل بناء المعلومات فكرياً بدون حسّ، أو أن الحسّ هو المزوّد الأساسي للمعطيات الفكرية وبعدها ننتقل للتجريد...

معطياتنا الحالية عن كوننا ترينا أنه لا معنى ولا يمكن أن يحصل انعدام للشيء، فالمادة لا تنعدم بل تزول لتتحوّل إلى طاقة، وهذا البحث كانوا يظنّونه فكرياً تجريدياً بينما وكما ترى معطياته ملموسة وتريك أنه مخالف لأقوالهم... وكما رأيت أنا لم أفسّر كلام الآية بناء على ذلك بل التزمت بالمعنى الظاهر للكلمات والذي يتماشى مع هذا المعطى الحالي عن تبدّل المادة لطاقة وبالعكس، وبديهي أني أنا ذات نفسي المدّعي لمحاولة الفصل بين المعطيات وبين تفسير كلامه تعالى، من البديهي أني لن أستطيع التخلّص من كل خلفياتي المعرفية، وحتمًا ستحكمني وبدون أن أدري سأفسّر كلامه تعالى بناء عليها...

ضع هذا في بالك وحاكم أي تفسير تقرؤه باحثاً عن المعطيات التي في خلفية الذي فسّر كلامه تعالى.

على أي حال، ها نحن فكرياً بحثنا في كوننا، ومن يعتقد بأن هذه الأبحاث الفكرية مجردة وليست منطلقة من خلفية تجريبية، وبناء عليه فهي قادرة على الوصول إلى حقائق لا تطالها التجربة، فهذا الكلام له حدود وليس صحيحاً بالمطلق، حيث من زمن أرسطو مروراً بابن سينا وصولاً إلى باقر الصدر من جهتنا كمسلمين، وصولاً إلى علماء النهضة الأوربية من جهة أخرى، أثبت جهابذة الفكر أن أوليات فكرنا منذ ولادتنا لن تتحرّك ولن تتفعّل بدون معطيات تجريبية، فالاستقراء هو المغذّي الأوّلي للفكر. وأكتفي بهذا المقدار حتى لا نطيل الكلام ويصير جدلياً.

السؤال الآن عن فكرنا وقدرته على الوصول إلى معلومات عن بقية السماوات، بكل بساطة ظنّ الكثيرون أن ما يستنتجونه بفكرهم "المجرد" سيسري على بقية السماوات، وما يقولونه عن تفسير للآية بكلامها عن الزوال أنه الانعدام، فهو يسري على بقية السماوات المختلفة عن كوننا بتكوينها، لأنهم ظنّوا أن المفاهيم المجردة قابلة للانطباق على كل شيء.

لا، هذا الادعاء فرضية لم تثبت صحّتها ولا بأي شكل، وكل ما سيقولونه كنتائج فكرية سيبقى حبراً على ورق لا سبيل لإثباته لأننا "حالياً" لا نطال تلك السماوات إلا بخيالنا.

لقد أطلت عليك، وسنستفيد من ذلك لتضع مفهوماً قرآنياً راسخاً في بالك، حيث إنَّ دقة تعابيره تعالى في قرآنه حاوية للعمق المتوافق مع ظاهر الكلام الإلهي، وأي تفسير لن يظهر من ظاهر الكلام القرآني فهو محلّ شكّ في صحّته.

أي إسقاط للاصطلاحات من أي نوع على المعاني العربية للكلمات القرآنية، فالمعنى سيكون محلّ شكّ في صحّته.

خذ مثلاً التعبير القرآني الوارد في الآية 9 من سورة مريم: {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا} فلا هو ولا بقية الآيات المشابهة يشير إلى ما يسمّونه بحالة العدم التي لن تجد لها أي أثر في كلامه تعالى، والغوص في هذا الكلام بالمعطيات القليلة أدى إلى نتائج فاسدة، فقال بعضهم إنَّنا في أصل أساس تكويننا من تدرجات الطبيعة الإلهية البسيطة "نور" التي نتج عنها عالم وكائنات تبدأ من الأبسط "الملائكة" إلى الأعقد "العالم الطيني". وقال آخرون إنَّه في الأساس لا يوجد أي شيء حقيقي ونحن مجرد فكرة في باله تعالى كما يرى النائم مناماً... وقالوا وقالوا... وكلّه كلام فاسد من تخمينات وتخرصات لأن معطياتنا وقدراتنا الفكرية ليست بالمستوى المطلوب للبحث في هكذا مواضيع والوصول إلى نتائج صحيحة، فيمكننا البحث فيها، ولكنه مجرد ترف فكري لا يعكس ولن يعكس حقيقة الأمر الواقع.

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً {42}) {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ}، فَأَكَّدَ المشركون قسما بالله تعالى، {جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ}، بأقصى قوة من القسم، {لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ}، إذا جاءهم من ربهم سبحانه من ينقل لهم الخبر عن عقاب حتمي في الآخرة لمن لم يؤمن ويفعل كذا وكذا من السيئات... {لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ}، فَسَيَكُونُونَ على الأشياء الصحيحة التي توصلهم للغاية الصحيحة بشكل أفضل من إحدى الأمم، من إحدى الجماعات التي توصف بوجود شيء مشترك بينها ولها امتداد تاريخي، والكلام عن الجماعات المعروفة بأنها جاءها نذير، وهي المسيحية أو اليهودية.

تَتَذَكَّرُ أن عموم كلام القرآن عن نماذج، فالقليل أو الغالبية من الكافرين في عصر النبي محمّد(ع) أو قبله أو بعده... قَالُوا هذا الكلام فعلا، أو لو عُرِضَ عليهم لَتَبَنَّوْهُ، وعلى أي حال، تَكْمِلَةُ كلام الآية يريك أنه حتى هذا الكلام الذي يبدو جِدِّيًّا عَقْلَانِيًّا، فهو صادر من أناس يرمونه هكذا في الفراغ بدون أي جدية.

كما ترى، هُمْ يعرفون أن المسيحيين جاءهم رسول من ربنا سبحانه، وكذلك جاء لليهود، وكانوا يعرفون أن المسيحيين واليهود لم يكونوا ملتزمين بالدين الإلهي كما يجب، مثل حالة المسلمين الآن حيث تجد منهم من لا يصلّي ولا يصوم... وبعضهم مجرمون وبعضهم يحرّفون الدين... وَأَقْسَمَ المشركون، فمثلا قالوا: والله العظيم، يمين الله، وحقّ الله... لو أن ربهم سبحانه أرسل إليهم رسولا فإنهم سوف يَكُونُونَ أهدى من اليهود والمسيحيين، فسيلتزمون بدينه تعالى بالضبط كما يقول.

{فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ}، جاء لهؤلاء المشركين منه سبحانه من ينقل لهم الخبر عن العقاب الحتمي لمن توافرت فيه شروط العقاب، {مَا زَادَهُمْ}، هذا النذير، {إِلَّا نُفُورًا}، ابتعادا بأي اتجاه كان عن الدين الإلهي! كَانُوا من قبل ينفرون من دينه تعالى حَيْثُ سمعوا بدين النصارى ودين اليهودية ولم يلتزموا بأي منهما، وعندما جاءهم دينه تعالى لم يزد إيمانهم بل فَضَّلُوا أي شيء آخر إلا دينه تعالى!

كما تلاحظ، قُدُومُ النذير الإلهي لم ينفع مع الذين قرّروا أن يكفروا، والآن في عصرنا تسمع من هنا وهناك أُنَاسًا يقولون: لو كان في عهدنا نذير "نبي أو رسول" لكنّا آمنا، ولكنّا مهتدين أكثر من كل الناس الذين جاءهم نذير... وهذا كلام غير صحيح، والدليل هو ما تراه عبر التاريخ، وهو ما تعرضه الآية هنا، فمن يرد أن يؤمن لن يَحْتَاجَ لأكثر من خبر عن الأوامر الإلهية، سواء وصلته عبر شخص، أو عبر كتاب... لِأَنَّ أوامره تعالى ليس فيها فساد وكلّها صلاح فماذا يريدون غير ذلك ليؤمنوا!

أكرر لك، الْكَلَامُ عن حالة تصوّرية تخطر ببال الكافرين ويقولونها من دون التفكير بها، وهي حالة مشابهة لحالة الكثيرين من المؤمنين بظهور المهدي، وكأن ظهوره سيغيّر في إيمانهم هم ليصير أقوى، ولديهم مبررات لذلك فيقول بعضهم إِنَّهُ بظهوره ستنتفي الكثير من مسببات ارتكاب السوء إمّا بسبب منعه لها أو بسبب توفير وسائل السعادة للجميع، فسيصير الجميع أغنياء... ولو راجعوا تصوّراتهم وأسباب إيمانهم بظهوره وانتبهوا فقط للدافع الشخصي لإيمانهم به، لوجد أكثرهم أَنَّهُ لم يَبْقَ أي شيء غير شخصي؟ لِأَنَّهُمْ يريدونه أن يحقّ الحقّ ويأخذ حقّ المظلوم الذي هو هم أنفسهم، وكأننا لا تكاليف علينا نحن لإحقاق الحقّ، وكأننا قمنا بما يجب علينا ولكن لم نقدر على تحقيق الحقّ... لا،

فالمفهوم القرآني يريك أن أي مجتمع كان، مع رسول أو نبي أو إمام... أو بدونهم، آمنوا واستغفروا وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، فسبحانه بذات نفسه سيعتني بهم كناصر لهم ومدافع عنهم... وَفَاتِحٌ لبركات السماء والأرض عليهم...

أَمَّا التعلّق بشخص ما ليحقّ الحقّ، فهذا مفهوم لا مستند قرآني صريح له، وآيتنا هنا تريك جانبا كَبِيرًا من فساد هذا المفهوم، فليست المشكلة في فقدان شخص مؤمن من الدرجة العالية بيننا، بل المشكلة فينا، وفينا كلّنا، وبدايتها مع علماء السوء مع جماهيرهم الغفيرة الفاسدة المتعصبة الجاهلة... حتى صار الدين الإلهي رعبا مخيفا بالصلافة والجلافة والقساوة... وَمُفَسّرِينَ كلامه تعالى من خلفيات إجرامية تبيح قتل الأبرياء، بينما صريح القرآن ينهى حتى عن قتل الكافرين المسالمين كما تجد صريحا في الآية 8 من سورة الممتحنة {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، وينهى عن التفرقة بين كل المنتمين لدينه تعالى بآيات عديدة منها الآية 103 من سورة آل عمران {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}.

هل هذا الكلام من خارج آيتنا؟ لا، لأن الكلام عن الهدى إن كان بيننا رسول، قَدْ يخطر ببالي أني لو كنت في عهد الرسول محمّد(ع) لكان إيماني أقوى، لا، لن يتغيّر من حالي الإيماني الحالي أي شيء، ونفس المفهوم الفاسد من أمنية العيش في زمن المهدي، فإن لم يكن همّي من ظهوره إيماني، فما هو همّي؟ وما أهمية أي شيء آخر؟ وهكذا ترى أن الكثير من أفكار الناس عن المهدي شخصانية لا علاقة لها بالهدى.

سَتَتَّهِمُنِي بأني لا أؤمن بالمهدي، وأني أرمي بعرض الحائط تفسيرات عديدة لآيات القرآن ولروايات شريفة ولآراء علماء كبار... بِالنِّسْبَةِ للآيات هَا هِيَ الدراسة أمامك فكن منصفا وراجع الآيات التي فسّروها بظهور المهدي، ولن أناقشك في الروايات المعلوم فساد غالبيتها الساحقة بالوضع والدسّ، وأكتفي بإخبارك بأن أكثر الكتب اعتمادا على أخبار آخر الزمان، فِي أوّل ذلك الكتاب رواية عن اشتباه الملاك جبريل(ع) بنزوله على محمّد(ع) بدلا من عمر! وَبِالنِّسْبَةِ لإيماني، لَدَيَّ رغبة بصحّة مسألة المهدي كفضول فقط لأرى نموذجا عن القلب السليم كيف يكون، وكيف يكون القرآن الناطق، ولا شيء آخر، لِأَنَّ تكاليفي الآن هي نفسها دائما ولن تتغيّر، وهي ما سأقابله بها سبحانه لأتجازى عليها.

(اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً{43})
لماذا لم يزدهم النذير إلا نفورا بدلا من الإيمان؟:

{اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ}، النَّذِيرُ الذي جاءهم من ربهم لم يكن على خاطرهم، حَيْثُ نقل لهم أشياء من ربهم سبحانه لم تعجبهم، فَرَأَوْا أنفسهم أكبر من اتباع كلام النذير الذي كانوا يقسمون أنهم سيتبعونه! ورأوا أنفسهم أكبر من أن يتركوا عاداتهم وتقاليدهم المخيّطة على قياس أهوائهم الفاسدة...

{وَمَكْرَ السَّيِّئِ}، وَخِطَطَهُمُ السيئة، عِنْدَمَا أقسموا لله تعالى أن يطيعوا ويسمعوا ويهتدوا إن أرسل لهم نذيرا، وَأَرْسَلَ سبحانه لهم نذيرا، ولكنهم لم يهتدوا! هَذَا مكر وَهَذِهِ خطة سيئة منهم، لِأَنَّهُمْ أعلنوا عن شيء ولكن في باطنهم كان يوجد مخطط آخر سَيِّئٌ.

{وَلَا يَحِيقُ}، ولا يدور ويحيط، {الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ}، التَّخْطِيطُ السيئ لا يؤثّر إلا بالذي ينتمي إليه، وَهُوَ لوحده سيتحاسب عليه وسيتضرّر منه، مَرَّ معك نَفْسُ الكلام حين تحدّثت السورة عن حمل كل واحد لأوزاره.

{فَهَلْ يَنْظُرُونَ}، مشتقة من الإنظار، وأكثر استعمال هذه الكلمة مع تاء: انْتِظَار. هَلْ ينتظر هؤلاء المشركون، {إِلَّا سُنَّةَ}، عادة ما جرى على، {الْأَوَّلِينَ}، الذين كانوا قبلهم؟ هُمْ بانتظار ماذا ليؤمنوا؟ وسبحانه عادة يصيب هذه النوعية من الناس بالعذاب وهذا ما جرى مع من كان قبلهم هَلْ ينتظرون أن يحصل معهم العذاب ليؤمنوا؟

{فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا}، الْقَوْمُ الذين يكفرون ولا يهتدون سَوْفَ ينطبق عليهم ما يفعله سبحانه عادة سَيُعَاقِبُهُمْ هنا في الدنيا وفي الآخرة، ولن يتبدل ولن يتغيّر هذا القانون الإلهي بقانون آخر، لَنْ يتركهم تعالى بلا عقاب ولن يسامحهم إن لم يؤمنوا ويتوبوا.

{وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا}، لَنْ يتحوّل عنهم ما يفعله تعالى عادة بأمثالهم، الْعِقَابُ تصرّف يفعله سبحانه عادة مع هذه النوعية، وهم من هذه النوعية، والعقاب متوجّه باتجاههم، ولن يتحوّل العقاب عنهم، بل سيصيبهم حتما.

مِنْ ناحية هناك من بيده زوال كلّ شيء، وإذا قرّر فعل شيء ما فلا يمكن ولا بأي شكل ولا لأي سبب أن لا يحصل ما قرّره تعالى، ومن ناحية ثانية هُوَ نفسه سبحانه إذا قرّر شيئا ما، فلا يتراجع ولا ينسى ولا يغيّر قراره، وهنا الكلام عن ومع الذي أشرك، وَهَذَا عادة يعاقبه تعالى في الدنيا إذا توافرت في قومه شروط حصول العقاب الجماعي، وحتما هناك عقاب لهم في الآخرة، ولن يتبدّل قراره تعالى فيهم، ولن يتحوّل عنهم، لِأَنَّهُ باتجاههم وسيصيبهم حتما. طبعا إن ماتوا ولم يؤمنوا ويتوبوا، وإن كان فسادهم من العيار الثقيل ومنتشر فيهم.

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً{44})
{أَوَلَمْ يَسِيرُوا}، ألم يتنقّل هؤلاء المشركون، {فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا}، وَمِنْ بعد السير فيها يُوَجِّهُوا اهتمامهم العام، {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، ما عقب ما أتي بعد شيء، وهنا الكلام عمّا عقب وَأَتَى بعد كفر الناس الذين كانوا قبلهم، دَمَّرَهُمْ سبحانه، وَهَذِهِ سنّته تعالى وَهَذِهِ عادته في التصرّف مع الكفّار، وهناك قرى مشهورة تدمّرت، مثل قرية النبي لوط(ع) وقرية النبي صالح(ع)، وغيرها من القرى المهجورة... وَهَذِهِ أدلة ملموسة مرئية من آثار بعض القرى المشهورة بحصول دمار لها لأنها كفرت، فلماذا لا يَنْتَبِهُونَ لمصير تلك القرى وأن مصيرهم لن يكون مختلفا إذا استمرّوا على كفرهم.

{وَكَانُوا}، هؤلاء المشركون القدماء، {أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً}، حَيْثُ إِنَّ بعض تلك القرى التي أصابها العقاب كانوا ماليا واقتصاديا وعسكريا... أقوى من نَمُوذَجِ كفّار قريش، {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ}، ليجعله سُبْحَانَهُ عاجزا غير قادر، {مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ}، لَا شيء في كل الدنيا يمكنه الوقوف في طريقه سبحانه ليجعله عاجزا عن فعل عموم ما يريده، وهنا الكلام بالخصوص عن إهلاكه تعالى للأقوام الكافرة، والكلام مع نَمُوذَجِ كفّار مكة ومتوجّه لكل الكافرين عبر التاريخ لينتبهوا مع من يتعاملون.

{إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا}، يعلم تعالى كلّ شيء بكل تفاصيله، وَالْكُلُّ تحت مراقبته تعالى.

{قَدِيرًا}، لَدَيْهِ القدرة وَالِاسْتِطَاعَةُ على فعل أي شيء يريده، وَيُمْكِنُهُ تعالى بكل سهولة تدمير المشركين الذين يظنون أنفسهم أقوياء.

يجب أن لا نوقف القرآن أبدا على الزمن الذي نزل فيه، لِأَنَّهُ ينطبق على كل حالة متكررة، وَالَّذِينَ كانوا قبل كفار مكة جرت معاقبتهم هنا في الدنيا عندما توافرت فيهم الشروط لذلك، وهذه السنة "القاعدة الإلهية بطريقة التصرّف" ليست جامدة بل هي نفسها لا تزال جارية، وَكَلَامُ الآيات ليس مخصصا لكفّار مكة، لِأَنَّهُمْ ليسوا إلا نموذجا تحدّث عنه القرآن لنقيس عليه بقية الحالات، وَالْكَلَامُ مع وعن كل الكفّار من أوّلهم لآخرهم وعبر التاريخ كلّه.

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً{45})
مرّ معنا في الآية 41 السابقة أنه سبحانه رغم قوته القاهرة فهو حليم غفور، وبناء عليه تقول الآية هنا:

{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ}، يُسَجِّلُ عليهم ويحاسبهم، {بِمَا}، بالذي، {كَسَبُوا}، حصلوا عليه مما نتج من أعمال سيئة قاموا بها، "ولم يكن حليما غفورا، فعندها لكان حاسبهم تعالى فورا"، {مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا}، على وجه الأرض، {مِنْ دَابَّةٍ}، لأباد تعالى كل مخلوق يدب وَيَتَحَرَّكُ على الأرض، وهنا الحديث موجّه لِلدَّابَّةِ البشر خصوصا، لَأَبَادَهُمْ كلهم سبحانه.

نلاحظ القرآن يشير بكلمة الدابة إلى كل الحيوانات ومن ضمنها الحشرات، لأنها كلها تدبّ وَتَتَحَرَّكُ على الأرض، في الماء أو على اليابسة، من البشر والأسماك والأنعام والنمل والطيور... وهنا من الواضح أن المقصود بالدواب ليس كلّ الدواب بل المقصود خصوصا الناس، لِأَنَّهُمُ الذين لو آخَذَهُمْ سبحانه على ما نتج من أعمالهم لما تركهم أحياء.

وكما نقول: لا تُؤَاخِذْنِي. عندما أفعل شيئا نتج عنه شَيْءٌ سيء، أَطْلُبُ منك أن لا تعاملني على أساس الشيء السيّء الناتج منّي. لَوْ عاملنا تعالى على أساس ما نتج من أعمالنا السيئة لكان سبحانه أبادنا كلّنا وأنهانا لأننا نستحقّ ذلك.

نُلَاحِظُ الآية تشير للمكان الذي عادة يتواجد فيه الناس "على ظهر الأرض"، ولكن هذا لا يعني أبدا أن التهديد لا يطال من في البحر أو تحت الأرض أو في السماء، وَالْآيَةُ هنا مجرّد تهديد افتراضي لم ولن يحصل لأنه تعالى يؤخّر الناس ليستغفروا ويؤمنوا... ولا يعاقبهم فورا على أي سوء.

{وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ}، هُمْ يستحقّون العقاب الآن ولكنه سبحانه سيعاقبهم فيما بعد وَأَجَّلَهُمْ لمجازاتهم، {إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}، إلى وقت حدّده سبحانه لمجازاتهم، {فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ}، حَانَ الوقت المحدّد، وهنا الكلام عن قدوم زمن مجازاتهم سواء في الدنيا أو الآخرة، {فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ}، بالذين مَفْرُوضٌ منهم طاعته، {بَصِيرًا}، يُدْرِكُ "بمستوى إلهي" ويعي معنى ما يحصل، وليس مثل كاميرات المراقبة التي تسجّل كل شيء وَلَكِنَّهَا لا تعي شيئا، لا، بل سبحانه بصير، وعلى أساس هذه البصيرة سيحاسبهم ويجازيهم. ولمزيد من التفصيل حول كلمة عبد راجع دراسة الآية 31 من هذه السورة.

ضع في بالك دائما أن القرآن كثيرا ما دمج عذاب الدنيا والآخرة معا في كلامه، فعندما يهدّد بالعذاب، فكثيرا ما أشار للتهديد بلا فرق بين عذابي الدنيا والآخرة، فكلاهما عذاب، وعلى أساس أن عذاب الدنيا قد يحصل لجماعة ما، وقد لا يحصل لجماعة أخرى لأن الشروط لم تتوافر فيهم.. ولكن عذاب الآخرة حتمي لا مفرّ منه للكافرين والمجرمين. ولذلك بعض الأحيان لا ترى القرآن يفصل في كلامه بين التهديد بالعذابين، فلا يذكر أي من العذابين يقصد، والسبب أن كليهما عذاب، أحدهما قادم حتما وهو عذاب الآخرة، والآخر محتمل وهو عذاب الدنيا. وهنا الكلام عن الأجل المسمّى نفس الشيء، فالكلام عن تعذيبهم عندما يحين الأجل المسمّى فربما يبدأ من هنا من الدنيا، وربما يبدأ من الآخرة.

سورة يس (36) ص 440

تتمحور السورة حول الإيمان بالرسول الإلهي، الذي يَظْهَرُ الهدى من كلامه بكل وضوح، وبالتالي هناك مشكلة عند فئة من الناس الذين قرروا أَلَّا يؤمنوا بتوحيده تعالى وبالبعث من الموت... وَأَلَّا يلتزموا بالصلاح، وهم ثابتون على قرارهم هذا حتى لو سمعوا كلام الهدى من رسول إلهي يدعم بكلامه ما يعرفونه هم من الهدى بالقدرة الممنوحة لهم لتمييز الحقّ من الباطل وَمِمَّا يعرفونه من آياته تعالى... يرفضون الهدى حتى لو جاءهم أكثر من رسول، حتى لو جاءتهم شروحات ودلائل مُفَصَّلَةٌ، حتى لو جرت الإجابة عن كل أسئلتهم، وحتى لو جرى تهديدهم بالتعذيب في الحياة الآخرة فهم لن يؤمنوا.

ضمن هذه المحاور تخبرنا السورة عن حقيقة هؤلاء الناس، وكيف يفكرون، وتجيب عن أسئلتهم وإشكالاتهم على كلام الهدى والتي يعتقدون أنها تُبَرِّرُ لهم كفرهم بالرسول الإلهي وبما يقوله، وتوضّح السورة لنا أَنَّ أسئلتهم ليست بريئة وليست صادرة عن باحث عن الحقيقة، وليست نابعة عن تفكير سليم، ولا تصدر من شخص يريد فِعْلًا الاهتداء للحق، بل من شخص قرّر الكفر وهو يناقش ويجادل ويطرح الإشكالات ولا يَهُمُّهُ سماع الإجابة عنها لمعرفة الحقّ، ولا يهمّه إن كانت الإجابات تبيّن ضلاله...

سبحانه يعلم بالذين يهمهم الاهتداء للحق، ولكنهم يسمعون الإشكالات التي تصدر عن الكفّار، وقد لا يملكون القدرة للردّ عليهم، فَيَحْصُلُ عندهم تشويش أو زيغ، وهكذا تأتي السورة بالأجوبة والشروحات التي يستفيد منها الذي يريد الإيمان بالحقّ.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(يس{1})
هذان الحرفان يلفظان "يا سين"، دَرَجَ فيما بعد زمن طويل تَسْمِيَةُ النبي محمّد(ع) بـ"ياسين وطه"، وهذا اصطلاح مستحدث لم يكن معروفا في زمن النبي(ع) وَاخْتَرَعَهُ المسلمون من بعد وفاته (ع) بزمن طويل، فانتبه لذلك.

قيل إنَّ الحرفين {يس} اختصار لنداء: يا إنسان. بلغة الحبشة وَطَيِّئٍ. وهذا كلام لا يؤيّده القرآن الذي لم يستعمل إلا لغة قريش، ولا يؤيده الواقع ولا أساس له فلن تجد بلغة طَيِّئٍ ولا الحبشة استعمال هذه الكلمة للإشارة للإنسان، إنما هي مجرد تخمينات فاسدة لا تستند لأي شيء.

{ي س}، هما حرفان مقطّعان مثلهما مثل بقية الحروف المقطعة التي وردت في أوائل بعض سور القرآن، والواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للّغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد(ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوّل سبحانه قسما منه إلى اللغة العربية "طبعا باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنا: صار يمكننا قراءته من بعدما تحوّل إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوّل إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة(ع) والجنّ والإنس، ومسجّل فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فَالتَّسْمِيَةُ هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مِمَّا يتكوّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة(ع) لأن تكوينها مختلف جدا جدا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيليّة أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنا واشتقاقا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة، إنجيل، صحف الأنبياء..." نَزَلَتْ من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنا واشتقاقا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تتسجّل فيها أعمالنا مُتَّصِلَةٌ به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنا "كتابا يمكن للبشر قراءته".

أمّا بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد مَعَانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطّعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرّد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلا شيء مميز فيها ولكني شخصيا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطا متماشيا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحّة نفسه.

أمّا البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تَرْكِيبِهَا مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، لَوْ كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح عَلِيًّا بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الانترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطّعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السريّة بينه تعالى وبين نبيّه محمّد(ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مِرَارًا وتكرارا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسّط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمّل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصّص في مصطلحاتهم المطّاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوّف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قدّيسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمّق مزخرف لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرا آخر لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدّد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "قِ" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطّعا في سورة {ق}"، هذا أيضا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلا من فهم الأحرف مستعصيا إلا على قلّة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفّقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطا بالاستذواق، ممّا لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطّعة ستكون جاذبة مستفزّة للكفّار الذين كانوا يسدّون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثّر ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نقوّم هذا الاحتمال ليكون عامّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصوّر مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدّون آذانهم، فهو تصوّر بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سُوَرًا تبدأ بأحرف مقطّعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، وَتَكَرَّرَ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدما في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرّر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، فماذا كنت تتوقّع منها؟ السحر؟ القوّة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السرّ الخاصّ بينك وبين الإله سبحانه وَبَقِيَّةُ الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوّة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرّها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كلّ ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، فلا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميّز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقْتَرِحْ تفسيرا للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنا بالحق وملتزما بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميّز ما بعده تميّز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، وَاتْرُكِ الشواذ وحبّ الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... فأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

(وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ{2})
{وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ}، تأكيد إلهي يُستعمَل لِلَفتِ الانتباه لهذا القرآن الحكيم، يؤكّد سبحانه صحّة ما سيرد في الآيتين التاليتين، وهذا الوحي الإلهي الذي تحوّل من الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية وصار مقروءاً وصار اسمه: قرآن، سوره وجمله حكيمة كلّها على الصوابية على ضبط الأمور على المطلوب الأحسن، وهي حقّ وصلاح ولا عبث فيها، وتوصل من يسمعها أو يقرؤها لأهداف وغايات سامية وحسنة، ولها قيمة عالية، ويصف سبحانه كلامه في هذا القرآن بالحكيم ويستعمله كنوع من التأكيد للآيتين التاليتين "3 و4".

القرآن ليس عبثياً أو كتاباً قصصياً، أو مثل كتب الميثولوجيا التي تحوي أساطير وخرافات، بل فيه تعريف بالإله الله الخالق وبصفاته وقراراته، وفيه تعاليم تشريعية وأخلاقية صالحة، وتنبيهات من تهديد وتخويف بالعذاب في جهنم لمن يقوم بالأعمال السيئة ويكفر أو يشرك بالله تعالى... ومن جانب آخر فيه ترغيب ووعد بالفرح والسعادة في الجنة لمن يؤمن ويطيعه سبحانه، وفيه القصص والعبر والمواعظ... لهداية من يريد أن يهتدي، وكل ذلك هو حكمة لأن المقصود بها هداية الناس لعبادة الله سبحانه واتباع تشريعه، فينعمون بحياة هانئة هنا في الدنيا، ويدخلون إلى الجنة الخالدة في الآخرة.

أنت كمسلم قد تشعر بأننا لسنا بحاجة لشرح معنى حكمة القرآن، ولكن نقول هذه التفاصيل لأن الكفار القدماء ومن أتى بعدهم، ومعهم الذين في عصرنا، لم يعتبروا القرآن حكيماً، بل جادلوا في صحّة وصوابية كلامه وناقشوه، وقالوا عنه إنه كتاب خرافات أو شعر أو أساطير. في عصرنا هناك من يعتبره كتاباً قديماً تراثياً من تراث العرب! لذلك نجد تنبيهات دائمة للناس في القرآن بأنه من الله تعالى وأنه كتاب حكيم.

نتذكّر أن كلمة قرآن تعني الشيء القابل للقراءة، والمعلومات التي في الكتاب الإلهي الرئيسي لا يقدر ولا يستطيع البشر قراءتها، وبأمر منه سبحانه قامت الملائكة(ع) بتحميل قسم من ذلك الكتاب باللغة العربية وتنزيله على النبي محمد(ع)، فصار قابلاً للقراءة، صار قرآناً، وهذا هو معنى قرآن أي: الذي يمكن قراءته. ولذلك ننتبه دائماً بأن الآية الواحدة وصفها قرآن، والسورة وصفها قرآن، فلا يذهب فكرنا بأن كل الكتاب الذي بين أيدينا فقط وصفه قرآن.

حسناً، كانت هذه افتتاحية ولكن الغرض منها هو التأكيد على صحة:

(إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ{3})
هذه الآية والتي تليها هما جواب التأكيد، "يمكنك أن تقول: جواب القسم بالقرآن الحكيم"، وهما محور كلام السورة:

إنك، أنت أيها النبي محمد(ع) تتلقى من الكتاب الأساسي معلومات يمكن قراءتها وصار اسمها الوصفي قرآناً، وهي من مصدر إلهي، وهي رسالة من الله تعالى للناس، فأنت في حالتك وفي وضعك توصف بأنك: من المرسلين، أنت من الذين أطلقهم تعالى لينقلوا كلامه للناس.

هنا نفهم بأن النبي محمد(ع) لا يتكلم هذا القرآن من نفسه، بل ينقل لنا كلام الله سبحانه.

ننتبه لمفهوم قرآني أساسي، فسبحانه خلقنا وفينا قابلية تمييز الخير من الشر، والفساد من الصلاح، والحكمة من العبثية... وبناء عليه يلفت انتباهنا لهذا القرآن الذي من المفروض أن نراه حكيماً لأنه تعالى حكيم وهذا القرآن من "تأليفه" سبحانه، وعندما تقرأ الحكمة القرآنية الدالة على مستوى إلهي راقٍ من الحكمة، فمن المفروض أن ترى ناقلها لك كرسول إلهي. قاربها مع الدعاء المشهور بدعاء "كميل بن زياد" الناقل له عن الإمام علي، فهو دعاء من مستوى راقٍ جداً، ولا تحتاج للتحقّق من سنده لشدة روعته، ودليل صدوره عن شخصية غير عادية في مستواها الإيماني كشخصية علي بن أبي طالب، واضح من مضامين الدعاء الرائعة في اشتقاقها من القرآن بدون أي شائبة تعيبها. وهذا القرآن الرائع في حكمته، لوحده دليل على صدوره من الإله سبحانه، ومن البديهي أن من قاله لنا هو رسول من الإله عزّ وجلّ.

يعني الآية هنا كخبر ليست من نوع المصادرة على المطلوب، ليست هي الدليل على أن محمداً(ع) رسول إلهي، وليست الدليل على أن هذا القرآن ينقله الرسول محمّد(ع) من الله تعالى، لا، بل القرآن مشحون بالأدلة الواضحة على إلهية مصدره، أهمّها وأوّلها محتواه الحكيم، الذي يعرض المعلومات الصحيحة وبالأدلة عنه تعالى وعن أفعاله وقراراته، ويعرض تشريعات وسلوكيات صالحة مع أدلتها، فهاتان المسألتان هما أهم دليل، وبعدهما الدقة المميزة في استعمال اللغة العربية، وبعدهما كون محمّد بن عبد الله بعيداً كل البعد عن القدرة على تأليف كتاب بهذا المحتوى، بل كل البشر بعيدون بل يستحيل عليهم تأليف كتاب مثل القرآن يدعو لدين "حقّ وصلاح"، فما في هذا القرآن مما نسميه ديناً، من توحيد الإله وصفاته وقراراته... والتشريعات والسلوكيات للبشر، هو الأساس الذي يستحيل على البشر اختراع دين صلاح مخالفٍ لما فيه، وهذا هو التحدي الذي ورد في بعض الآيات ومنها الآية 88 من سورة الإسراء "قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا"، وإن نسخوا ما في القرآن من معلومات لتأليف كتاب مثله، فهم لم يفعلوا شيئاً من التحدّي، وللأسف يدرج بين الناس أن التحدّي بالبلاغة! وللأسف لم يسأل ولا واحد منهم نفسه إن كان هذا الكلام صريحاً في القرآن! هل قال القرآن إنهم لا يستطيعون الإتيان بمثل بلاغته؟ وأين هذا الكلام؟ ومن أين جاؤوا به؟ تقانة كلام القرآن شيء جانبي نابع من استعمال الإله "بقدرته الفائقة" لغتنا البشرية لتأليف كتاب لنا.

(عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{4})

أنت أيها الرسول، على صراط، على طريق أساسي، مستقيم، يوصف بأنه على الأحسن فليس فيه انحراف أو اعوجاج.

هذا الشخص المبعوث "الرسول" يمشي على النهج الصحيح، ولا يميل عنه إلى نهج سيِّئٍ. هذا لفت انتباه منه سبحانه لنا حتى يحفِّزَنا على اتباع رسوله(ع) وحتى يرينا أنه تعالى يأمرنا باتباع رجل صالح.

نعلم أنه تعالى يختار رسله من بين الناس لأنهم مميزون أصلاً بسلامة قلوبهم، ولمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 124 من سورة الأنعام "وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...".

بعبارة أخرى، لنتصوّر شخصاً يدّعي النبوة والرسالة ولديه ماضٍ سيِّئٌ، أو حالياً لديه تصرفات سيئة، هذا كيف سأقتنع به كشخص يتواصل معه الإله ليجعلني أقتدي به!

نرى هذا المعنى في بعض المسلمين الذين يعملون كدعاة للآخرين لضمّهم للإسلام، بينما الآخرون لا يرون مسلماً صالحاً كنموذج عملي للصلاح الذي تتم دعوتهم ليكون عليه، مثلما يرى الأولاد أهلهم كمنافقين حين يأمرونهم بالسلوكيات الحسنة بينما الأهل أنفسهم سلوكياتهم سيئة!

هكذا نفهم لماذا يختار سبحانه أشخاصاً من مستوى عالٍ ليجعلهم أنبياء ورسلاً، لأنهم من المفروض أن يكونوا نماذج عملية لما يأمروننا به، وهم يطبقونه قبل طلبهم منّا تطبيقه.

القرآن لا يعطي موثوقية عبثية لنفسه ولناقله، وحكمة القرآن لوحدها دليل كافٍ على إلهية مصدره، وناقله سيكون حتماً رسولاً إلهياً، وإلا فمن أين سيأتي بهذا المستوى من الحكمة. توصيف الرسول بأنه على صراط مستقيم يصير كتحصيل حاصل، كخبر توصيفي منه تعالى للحال، لأن الرسول يتبع هذا القرآن كلام إلهه سبحانه.

نلاحظ دائماً أنه تعالى في كلامه عن الهدى والحقّ لا يفرّق بين ما يمكننا نحن رؤيته صواباً وبين ما يقوله سبحانه، فسبحانه دائماً يقول الحقّ في كل شيء، وهنا توصيف الرسول بأنه على صراط مستقيم، تفسّره بأنه (ع) على المنهاج الإلهي، وهذا صحيح، ولكن هذا يتضمّن أن المنهاج الإلهي دائماً حقّ ليس لأنه تعالى قاله فيصير هو الحقّ، بل لأنه تعالى لا يقول إلا الحقّ، قارنها مع ملك يعتبر المنفذون لأوامره أن كلام ملكهم مقدّس، لأن ملكهم دائماً على حقّ فينفذون أوامره ولا يبدون رأيهم فيها ولا يعارضونها. للأسف بعض المسلمين شطح فكره ليقول إنه تعالى هكذا، متجاهلين أنه تعالى وصف نفسه بالحكيم والحقّ، فقالوا إن ما يقوله تعالى يصير الحقّ لمجرد أنه تعالى قاله، بدون معيار ولا مرجعية منفصلة عندهم للحقّ، وبناء على كلامهم يمكن أن يقول أو يأمر تعالى بشيء نراه سيئاً، وكمؤمنين يجب علينا تغيير رأينا لنراه حقاً، لأنه تعالى قاله، ويفترضون أنه تعالى يرمي المؤمن في النار، ويجعل فرعون في الجنّة، لأنه تعالى يفعل ما يشاء، وإذا فعل ذلك ففعله الحقّ.

هذا التصور يغفل عن جوهر الحكمة الإلهية ويجعل من الدين عملية قسرية تتناقض مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ويدغدغ أفكاراً شيطانية لتشويه صفاته الحسنى سبحانه، ويدمّر أساس معنى تكليفه تعالى لنا، فلماذا سأقتنع بدينه تعالى وأختاره إن كان فيه سوء؟ إذا لم يكن واضحاً لي أنه دين هدى وحقّ وحكيم، وكان مفروضاً منّي تغيير قناعتي لأرى ما يقوله حقاً، فما الفرق بين هذا الدين وبين الأديان الأخرى؟ وما معنى الهداية؟ وما معنى الحقّ؟

باختصار لأساس معنى توجيه كلامه تعالى لنا عبر هذا القرآن، جعل تعالى فينا قدرة تمييز الخير لأحبائنا ولأنفسنا وحبّه والرغبة به... وتمييز الشرّ وكرهه والنفور منه لأحبائنا ولأنفسنا، وجاءنا كلامه تعالى الذي يجب أن نرى فيه كل الخير لأنه تعالى لا يقول إلا الحقّ، وعلى هذا الأساس نؤمن بدينه تعالى، وبتعبير مشتق من تعابير القرآن، فعلى هذا الأساس "نهتدي" فنتماشى مع كلامه تعالى، لأن حالتنا الأساسية أننا كل واحد منّا لديه رغبة في الهدى للحقّ، ومن استمر في فكره وسلوكه على ذلك، فهذا حين يصله الكلام الإلهي لن يجده غريباً عجيباً، بل يجده يتماشى مع ما يرغب به، فيؤمن به، ولمزيد من التوسّع حول هذا راجع دراسة الآية 2 من سورة البقرة "ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ".

(تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ{5})

{تَنْزِيلَ}، هذا القرآن جرى نقله من مكان عالٍ مادياً أو معنوياً إلى مكان منخفض مادياً أو معنوياً، وأنزله، {الْعَزِيزِ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو سبحانه فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... هذه الصفة هنا تعطي معنى: الذي فوق الجميع بكل شيء أنزل هذا القرآن.

{الرَّحِيمِ}، واستعملها القرآن: للموصوف بالعناية بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، وهذا هو سبب تنزيل القرآن. بينما استعمل القرآن كلمة الرحمن لعموم العناية الإلهية بجميع المخلوقات.

نلاحظ صفة العزيز ترينا أنه تعالى يفعل ما يريد ولا يمكن لأي أحد أو أي شيء منع حصول ما يريده تعالى، وترينا أنه تعالى لا يتأثّر ضرراً أو نفعاً من أي شيء، ولكنه تعالى رحيم، رغم عزّته التي يفعل بها ما يشاء ولن يتضرر من أي شيء فأفعاله سبحانه دائماً نابعة من رحيمية، ودائماً أفعاله تعالى تصب بالعناية بالمؤمنين.

الرحمن صفة عامة واسعة تشمل عنايته تعالى بكل مخلوقاته "حتى الكافرين" حين خلقهم وأمّن لهم بيئة معيشتهم... أمّا كلمة الرحيم فهي صفة خاصة لا تشمل الجميع بل هي فقط للمؤمنين، والآخرون هم بفكرهم وتصرفهم السيِّئ قرّروا الخروج من تحت مظلة الرحمة الإلهية، لذلك صار هناك صفة رحمة خاصة لمن آمن، وأبرز تطبيق عملي على وصفه تعالى بالرحيم، المغفرة، التي لا ينالها إلا المؤمنون، ومثلها الشفاعة، ومضاعفة الثواب... هنا نرى أن نزول القرآن سيستفيد منه فقط المؤمنون كرحمة إلهية لهم.

ما تنقله أيها الرسول ويكفر به بعض الناس، نازل من الإله، فهل ما ينزل منه تعالى سيكون فيه شكّ أنه الحقّ والهدى؟!

تذكّر دائماً أنه تعالى يصنّف الناس وقبل نزول القرآن، وقبل نزول أي كتاب منه تعالى، وقبل إرسال أي رسول أو نبي إليهم... هم بالأساس مصنّفون: أعمى وبصير، يعقل ولا يعقل، بقلب سليم أو بقلب مدموغ... هم بهذه الأوصاف يأتيهم كلامه تعالى، سواء نزل سابقاً أو في عصرهم، فهم مؤمنون أو فيهم بذرة إيمان من قبل أن يأتيهم كلامه تعالى، وحين يأتينا كلام منه تعالى فمن سيستفيد منه؟ طبعاً الذين كانوا من قبل مؤمنين أو فيهم بذرة إيمان، وهم العاقلون العالمون... أصحاب القلوب السليمة بدرجة مقبولة ليتماشوا مع الحقّ والصلاح.

بالنسبة لما تجده في بعض الكتب عن الفرق بين كلمتي نزل وتنزيل، فكلاهما وصف لعموم الانتقال من علو " مادياً أو معنوياً " إلى مكان منخفض مادياً أو معنوياً. معنوياً نقول: نزلت رتبته العسكرية. ومادياً نقول: نزل على الدرج. كلا الكلمتين "نزل وتنزيل" تتحملان معنى النزول دفعة واحدة أو على دفعات، ويتحدّد ذلك مما تتكلّم عنه، وتتحملان النظر للفاعل لوحده، أو للمفعول لوحده، أو للحالة. لا فرق بالمعنى بين الأصل "نزل" وبين الاشتقاق "تنزّل تنزيل نزول..."، ولا أساس لما يقولونه عن الفرق بينهما في نزول القرآن دفعة واحدة أو بالتدريج على دفعات.

ما تجده هنا وهناك في ثقافتنا عن نزول القرآن كلّه من السماء السابعة إلى السماء الرابعة... ومن الرابعة جرى تنزيل القرآن "فنزل" على دفعات على الرسول(ص)، فبهذا التفصيل "وأشباهه" يقصدون تفسير كلمتي نزل وتنزيل بتوصيف مختلف للفعل، وهذا تفصيل لا ضرورة له وأصلاً لا دليل قرآني عليه، ويمكن فهم نزول القرآن تدريجياً على دفعات وفهم نزوله كلّه كوجهين لعملة واحدة، فبعضه نزل "تنزّل" في ليلة القدر، ثم نزل "تنزّل" بعضه في زمن بعدها... وبالنظر للقرآن كلّه فجرى تنزيله "نزوله" على دفعات استمرت لقرابة العشرين سنة حتى وفاة الرسول(ص).

يبدو أن الفهم الضبابي لكلمة "قرآن وكتاب" دفع بالكثيرين للبحث عن فرق بين التنزيل والإنزال بالمعاني التي ذكروها، حيث فهموا أن كلمة قرآن تشير لكل ما بين الدفتين، لكل القرآن من أوله لآخره، وفهموا كلمة كتاب كذلك إشارتها لكل القرآن من أوّله لآخره، وبناء عليه أرادوا تبرير الآيات التي تذكر نزول "كتاب القرآن" على أساس أنها تشير لنزول كتاب القرآن كلّه من أوّله لآخره دفعة واحدة، ومن المعلوم أنه كلّه لم يكن نازلاً على الرسول(ص) حين جاءت الآيات التي تقول إن القرآن نزل...

بناءً على فهمهم هذا، بدأت تبزغ الآراء المختلفة لتبرير الموضوع، فقال بعضهم إنه كلّه من أوّل مرّة نزل على الرسول(ع)... وبعدها عاد ونزل عليه (ع) على دفعات. آخرون قالوا: لم ينزل أولاً كلّه على الرسول(ع) وإنما نزل كلّه من السماء السابعة إلى الرابعة، ومن هناك صار ينزل على دفعات على الرسول(ع)... وغيرها من التبريرات التي لا

داعي لها، لأن الآية الواحدة قرآن، والسورة قرآن، والسورتان قرآن... فكلمة قرآن وصف إمكانية قراءتنا لما نزل منه تعالى، وأي تعبير يشير لنزول أو تنزيل "القرآن" فهو لا يعني أكثر من نزول شيء يمكن قراءته، ولا داعي لنفهم أن كل تعبير قرآني يشير إلى نزول كلّ القرآن.

كلمة كتاب تشير لعموم أي موضوع تامٍّ مسجّل محفوظ، فالسورة الواحدة كتاب، والفقرة أو الآية الواحدة من السورة إن كانت تامّة الموضوع فهي كتاب، وكلّ القرآن كتاب، وهكذا عندما تجد آية تتحدّث عن نزول القرآن أو نزول الكتاب لن تكون بالضرورة تشير إلى نزوله كلّه، فلو نزلت آية فهي نزول لقرآن، ولو نزلت آية موضوعها تامٌّ فهي نزول لكتاب...

(لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ{6})
أنزله العزيز... {لِتُنْذِرَ}، لتنقل خبراً عن شيء سيِّئ قادم حتماً إذا توافرت شروطه وهو العقاب من الله تعالى لمن كفر وعصى، لِتُنْذِرَ {قَوْماً}، أناساً لهم كيان الجماعة حيث يعيشون في زمان ومكان واحد ومتفاعلين مع شيء، وهنا الكلام عن تفاعلهم مع مسألة الهدى والضلال، {مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ}، لم يصل لآبائهم الإنذار من العذاب الإلهي، {فَهُمْ غَافِلُونَ}، فهم مشغولون بأمور أخرى ويتجاهلون العقاب الإلهي الحتمي في الآخرة لمن أشرك وكفر.

الغفلة وصف حالة حصول شيء لا تنتبه له سواء عن إهمالك له أو تقصّد تجاهله باعتباره غير مهم، أو عن قصور فلم تعلم بما يجري أصلاً. الكلام هنا عن مسير حياتنا الدنيا إلى موتنا، وبعدها الآخرة والحساب والمجازاة، وهذا شيء سيحصل حتماً، وبعض الناس غافلون عن ذلك، ومنهم من سمع به ولم يهتم.

التهديد بالعذاب الذي هم غافلون عنه ليس على شيء لا يعلمون بسوئه، فإنذارهم يعني أنهم على شيء سيِّئ يستحقون عليه العقاب، لأنهم يكفرون بالحقّ ويفعلون السوء.

نتذكّر من الآية 24 من سورة فاطر "إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ"، كلّ أمّة يمر في تاريخها نذير إلهي، وليس لكل قوم نذير في مكانهم وزمانهم، بشكل أوضح، فالنبي محمّد(ع) نذير لكل الناس الذين كانوا في زمنه ومكانه وإلى كل الناس إلى يوم القيامة كما نفهم من عموم القرآن ومنه الآية 28 من سورة سبأ "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"، وعلى امتداد تاريخ أي أناس ستجد نذيراً، نبياً أو رسولاً، وتمرُّ فترة من الزمن على جيل أو جيلين أو أجيال ولا يمرّ نذير، وما ورد في الآية 46 من سورة القصص "... وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ"، يؤكّد أن النبي محمداً(ع) هو أوّل نذير لأهل مكّة، لقومه الذين كانوا في عصره، وحتى آباؤهم يعني جيلين أو ثلاثة... من قبل، أيضاً لم يأتهم نذير.

لمزيد من التوسّع حول مسألة اختيار توقيت وزمان وشخص الرسول، راجع دراسة الآية 47 من سورة يونس "وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ".

نضع في بالنا دائماً الفرق بين الإنذار والتحذير، وسنرى معانيَ قرآنية رائعة لن نراها من مرادفة كتب التفاسير لهما مع بعض "أنذر يحذِّر وبالعكس" أو تفسيرهما بالخوف أو الخشية... حيث ستجد في عموم التفاسير استعمالهم هذه الكلمات لتفسير بعضها البعض كمترادفات، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لترى المعنى الدقيق لهذه الكلمات في أي آية تظن أنها ستكون مترادفة فيها لترى الفرق، ومثلها كلمة يرجو المختلفة عن يأمل ويطمع...

لفهم الفرق بين كلمتي "حذر وإنذار" تصور شخصاً أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، في هذه الحالة "تحذّره" من سلوك الطريق السيِّئ، لأنه حالياً ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة.

أمّا إذا سلك طريق الخطر فـ"تنذره" لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله.

الإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتماً ما يضرّه، فتنذر الكافر لأنه في حالة ستسبّب له العقاب حتماً. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يصير فيما سيسبّب له الضرر، فتحذّر المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

هذا لا يعني حصر الإنذار للكافرين والتحذير للمؤمنين، لأن المؤمن يقوم بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، عندها تنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة النصارى المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف "وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا".

(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ{7})
{لَقَدْ حَقَّ}، لقد انطبق وتحقق، {الْقَوْلُ}، قول الله تعالى، {عَلَى أَكْثَرِهِمْ}، على القوم وعلى آبائهم، {فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}، لا يعتقدون بالله تعالى ولا بك ولا بالقرآن.

هنا يخبرنا سبحانه بأنه لم "يتفاجأ" بكفر النموذج قوم مكّة وآبائهم، بل سبحانه كان يعلم سلفاً، و"قال" بأن أكثرهم لن يؤمن بدينه تعالى، وبالتأكيد حقّ قوله تعالى وانطبق عليهم، لأنه سبحانه لا يخمّن ولا يحتمل بل من أول ما شاء خلق ما في الدنيا علم بكل تفاصيل ما سيجري فيها، وهنا نموذج عن علمه تعالى سلفاً بكفر أكثرية أهل مكّة الذين نزلت السورة في زمانهم "الحاليين مع السابقين" بدينه وبرسوله.

بعبارة أخرى، لقد حقّ القول عليهم بأن الأكثرية لن تؤمن لأنه سبحانه يعلم ما سيختاره هؤلاء بمحض إرادتهم، يعلم مسبقاً أنهم سيختارون الكفر، ولم يجبرهم سبحانه على الكفر.

هذا هو نوع الناس الذين تركّز السورة كلامها معهم وعنهم، وسوف نرى في آيات هذه السورة أنه رغم الدلائل والبراهين والأجوبة والشروحات التي تقدمها، فإن أكثر الناس لا يريدون أن يؤمنوا بدينه تعالى وليس النموذج أهل مكة وآباءهم فقط.

معلوم من التاريخ أن أهل مكّة أسلموا حين فتحها المسلمون وصاروا طلقاء.... وبالمقارنة بين من مات منهم كافراً محارباً للرسول(ع) وبين عدد الذين أعلنوا إسلامهم في فتح مكّة، ترى أن الأكثرية أسلمت والأقلية ماتت كفّاراً، وكما ترى الأكثرية "أسلمت" وصار الخطاب يتوجّه إليهم بوصف الذين آمنوا لا على معنى حقيقة الإيمان العالي، بل على معنى توجيه الخطاب إلى من أعلن أنه مؤمن وبالتالي من المفروض منه أن يلتزم بكلامه تعالى، وترى ذلك من الآية 14 من سورة الحجرات "قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ..." كانت تتحدث عن الأعراب كنموذج عن عموم من أعلن إسلامه، وأهل مكّة أسلموا بعد فتح مكّة، ولكن هل صاروا كلّهم أو بغالبيتهم من المؤمنين من الدرجة العالية؟ لا.

نفهم هذا الكلام بسهولة حين ننظر لمجتمعاتنا التي نحمل فيها كلنا تسمية المسلم، وكلنا مسلمون، ولكن هل كلنا مؤمنون؟ مصلّون مزكّون صائمون آمرون بالمعروف ناهون عن المنكر...؟ لا، ولكن هذا لا ينفي أن يخاطبنا القرآن بوصف "يا أيها الذين آمنوا..." وهي على معنى: يا أيها الذين أعلنوا أنهم مؤمنون بهذا الدين، حتى تكونوا مؤمنين حقيقيين فعليكم بفعل كذا وكذا...

هنا يبرز السؤال التالي: إن كان سبحانه يعلم أن أكثرنا لن نؤمن، وسنذهب إلى النار، فلماذا خلقنا؟ وتلاحظ أن المؤمن الحقيقي لن يسأل هذا السؤال، حيث بالنسبة له يرى خلقنا شيئاً جيّداً، لأنه في النهاية سينال جنّةً خالدةً. ولكن من لا يريد التقيّد بالصلاح "وهو نفسه يعني أنه لا يريد الالتزام بدينه تعالى"، سيطرح هذا السؤال وهو معترض على إخراجنا إلى الحياة وفوق رأسه التهديد بالعقاب من الكفر وفعل السوء.

أمّا إن كان السؤال معناه أن المشروع الإلهي فاشل لأن الأكثرية ستدخل النار، فمن قال بأن مشروع خلقنا كان يهدف إلى إدخالنا كلنا أو أكثريتنا إلى الجنة؟ يبدو من القرآن أن أصل المشروع الإلهي أننا كلنا لدينا القابلية والقدرة على دخول الجنّة، طبعاً إذا آمنّا وفعلنا الصالحات، ولكن لم يكن الهدف الإلهي من خلقنا دخولنا كلنا إلى الجنّة، ولم يكن الهدف خروجنا إلى الحياة لنعبده سبحانه، وعبادته تعالى واجبة ولكنها ليست هدفاً إلهياً، وراجع دراسة الآية 56 من سورة الذاريات "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" التي سياقها في الآيات حولها يعطي معناها الصحيح بعكس المعنى الذي يبدو منها عندما تقطعها لوحدها، وكانت تقصد أنه تعالى لم يخلق الجن والإنس عبثاً ليفعلوا السوء من دون محاسبتهم... ومن التفصيل التالي ستفهم هذا أكثر.

أصلاً لا يوجد هدف "إلهي" بالمعنى الواسع لكلمة "هدف"، بل يوجد حكمة إلهية، ولديه تعالى هدف ليس له بل لمخلوقاته ليسيروا عليه، ومن لديه هدف يريد تحقيقه هو نحن المخلوقات، نحن ننتظر الاستفادة من الوصول لهدفنا، ولكن أي استفادة سينالها سبحانه إن خلقنا؟ لا شيء. وأي استفادة له سبحانه إن دخلنا إلى النار أو إلى الجنة؟ لا شيء.

لديه سبحانه وتعالى القدرة على إيجاد المخلوقات، بأشكال متنوعة ولا تخطر على بالنا، واختار سبحانه خلق الناس "بهذا الشكل والعقل وحرية الإرادة..." بحكمة وليس عن عبث، وتصوّر لو خلقنا سبحانه كلنا مجانين وفي النهاية سيحاسبنا كعاقلين! أو تصوّر أننا لا نميّز بين الخير والشرّ وسيحاسبنا سبحانه على أعمالنا! أو تصوّر أن يأمرنا سبحانه بطاعته ولكن في يوم الحساب سيكون مزاجياً ويرمي المؤمن في النار!...

حتى لو تساهلنا في الكلام وقلنا بأن الحكمة الإلهية هي الأعمال الإلهية التي لها غايات صالحة محترمة سامية راقية... فلا نجد في القرآن أي شيء يشير إلى هدف أو غاية خاصة بالإله سبحانه وتعالى، ولن يفرح بخلقنا، ولن يفرح بإيماننا ولن يستفيد، بل دائماً نجد في القرآن أننا لا نؤثّر عليه تعالى أبداً ولا بأي شكل، وهذا ما تشير إليه صفتا العزيز والغني، وحتى عندما يغضب سبحانه وتعالى على الكفّار، أو يحبّ المؤمنين، فالغضب والحبّ مشاعر وأحاسيس بالنسبة لنا، نحن يتعكّر مزاجنا أو يتحسّن بسبب المشاعر، ولكن الإله سبحانه وتعالى يغضب ويحبّ ولا يتعكّر ولا يتحسّن مزاجه، وعندما تفصل بين معنى الكلمات التي تتحدّث عن المشاعر "كالحب والودّ والرضى والكره والبغض والغضب..." وبين ما ينتج عنها من أثر علينا، بشكل أوضح: حين تسحب الخصائص البشرية من هذه الكلمات وتتركها على معنى الموقف من الأمور، ستجد أن الإله سبحانه لا يتأثّر "نفسياً" ولا يتضايق ولا ينشرح، بل موقفه من فعل الشرّ الغضب ومن فعل الخير الحبّ... وهكذا تصير هذه الكلمات كوصف لنوعية تعامله تعالى معنا.

إن استعمال أوصاف الغضب والحب في الحق الإلهي ليس انفعالاتٍ نفسية أو تغيراتٍ 'مزاجية' كما هي عند البشر، بل هي توصيفٌ لموقف الإرادة الإلهية، فغضبه يعني استحقاق العبد للعقاب، وحبه يعني الرضا والثواب، دون أن يلحق بالذات الإلهية تأثرٌ أو انفعال.

إذاً، ليكن مصير أكثر الناس إلى النار، أين المشكلة عنده تعالى؟ المشكلة عندنا نحن، والاعتراض على المشروع الإلهي بخلقنا يصدر منّا نحن، فليعترض من يعترض وهذا لن يغيّر أي شيء، مع العلم أن الفرصة متاحة له ليكون من الفائزين بجنّة خالدة، باتباع دين صالح عادل عقلاني... يؤمّن له وللآخرين حياة سعيدة في الدنيا والآخرة.

(إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ{8})
{إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ}، العنق هو الوصلة "المتطاولة" بين الجسد والرأس، جَعَلَ في رقبة الذين لا يؤمنون، {أَغْلَالًا}، عموم ما هو ثقيل ومزعج، والكلام هنا عن قيود كرباطات شديدة ثقيلة، وهي حديدة أو حبل ثخين كالطوق حول رقبته. العنق هو عموم ما كان ضَيِّقاً وله تطاول وقبله اتساع، عنق الزجاجة، وفي الإنسان هو ما تطاول من الوصلة بين الرأس والجسد، وبالعامية نسميها رقبة، ومعنويا للعنق استعمالات عديدة.

هنا الوصف للكافر مثل الشخص الذي عنده تكلّس أو ضعف في فقرات رقبته، يضع طوقا يساعده على حمل رأسه، لأن عظام أو عضلات الرقبة ضعيفة، والغلّ في العنق هو نفسه ما نسمّيه الطوق ولكنه طوق ثقيل مُؤْذٍ.

{هِيَ}، الأغلال، الطوق من أول رقبتهم، {إِلَى الْأَذْقَانِ}، من بداية رقبة الكافر، من أول ما تتصل رقبته بصدره وصولا حتى ذقنه، {فَهُمْ مُقْمَحُونَ}، يرفع الطوق رأس الكافر إلى الخلف بشكل مزعج بحيث لا يَعُودُ يرى أمامه.

أول ما يتبادر إلى ذهننا من الآية هنا والتالية أنهما تتحدثان عن عذاب في الآخرة للكافرين، ولكن الكثير من توصيف القرآن للكافرين بأنهم هنا في الدنيا عُمْيٌ وأموات ولا يعقلون... يجعل من الآيات هنا فَرِيدَةً في وصف دنيوي للكافرين على نفس سياق التوصيفات التي تمنعهم من الإيمان، ووصفهم بالأموات هنا في الدنيا كان يشير إلى حالة انتفاء تفاعلهم مع كلامه تعالى وبقائهم على كفرهم، وتصوير عنقهم مع غُلٍّ كالطوق يرفع رأسهم، يشير إلى وصف حالة أنهم وبسبب سواد قلبهم، لا يرون الحقّ الذي أمامهم، والكلام هنا عن الإنذار الذي لا يستطيعون رؤية نتيجته فهم غافلون عنه عن قصد، وسترى ذلك من الآية التالية بشكل أوضح.

بعبارة أبسط، الذي في عنقه غُلٌّ يكون رأسه مرفوعا قليلا للأعلى، لن يستطيع توجيه بصره لما هو أمامه، وهذه هي الحالة الفعلية للمعرضين عن الإنذار عمّا هم عليه من سوء، يكون الحقّ أمامهم ولكنهم لا يستطيعون رؤيته لأنهم لا يريدون توجيه بصرهم إليه.

نتذكّر الآية 18 من سورة البقرة {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ}، ونوعية توصيفها لغير المؤمنين مُنْتَشِرَةٌ في عموم القرآن، وتراه في الآية التالية عن الغشاوة، ولكن توصيفهم بما تذكره الآية هنا فريد، ولا يخطر ببالي شيء مثله في بقية القرآن، وهو ما دفع بالعديدين لتفسير الآية هنا على أنها من مشاهد الآخرة، وترى شبها لها في الآية 30 وما بعدها من سورة الحاقة {خُذُوهُ فَغُلُّوهُ}، ولكن سياق الكلام هنا في الآيات التالية أقرب لتوصيف حالتهم هنا في الدنيا، وخصوصا الآية بعد التالية {وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} فهي تتحدّث عنهم الآن.

استعمال وصف حالهم برؤوس مقمحة بسبب الأغلال، حَقِيقِيٌّ بِنَاءً على استعمال الكلمات على الوصفية، مثل توصيف الملاك جبريل(ع) بالنجم في سورة النجم، راجعها لمزيد من التفاصيل عن استعمال القرآن للكلمات على الوصفية، ومثله توصيف ما ترميه الملائكة على الجنّ بأنه شُهُبٌ، ومثله استعمال كلمات الأعضاء "وجه ويد وعين..." لله تعالى فهي على الوصفية، ولمزيد من التفاصيل حول استعمال الكلمات على الوصفية راجع أيضا دراسة الآية 77 من سورة الزخرف {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ}.

خلاصة الكلام هنا أن الوصف لرؤوسهم المقمحة بأغلال هو وصف حالهم، وليس هناك أغلال ملموسة، بل مثل عمى بصرهم، رغم سلامة عيونهم ورؤيتهم لما حولهم ولكنهم في مسألة رؤية الحقّ عُمْيٌ، وأعناقهم مُقْمَحَةٌ بأغلال إصرارهم على رفض رؤية الحقّ.

(وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ{9})
{وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ}، جعل سبحانه من أمامهم، {سَدًّا}، حاجزا وستائر سميكة، ويبدو من الاستعمال اللغوي أن السدّ هو المعارض الدائم لخصوص ما كان مُتَحَرِّكاً فيسدّه مانعا تقدمه أو انتشاره أو وصوله... بشكل دائم، مثل سدود المياه. الحاجز مثل السدّ ولكنه مانع مؤقت لما كان مُتَحَرِّكاً، مثل حاجز الشرطة على الطريق. ولم ترد كلمة حجز ولا مشتقاتها في القرآن.

{وَجَعَلْنَا}، {مِنْ خَلْفِهِمْ}، من ورائهم، {سَدًّا}، حاجزا، {فَأَغْشَيْنَاهُمْ}، حيث جعلنا السدود تنتشر وتحيط بهم، {فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ}، فلا يدرك وعيهم معنى الصورة التي أمامهم لأنها غير واضحة كليا أو مشوّشة جدا.

ورد شبيه للآية هنا والتالية في الآية 6 و 7 من سورة البقرة {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7)}، ومثله ما ورد في الآية 23 من سورة الجاثية {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً...}، صَمَّمَنَا تعالى بحيث من يرد منّا عنادا واستكبارا أن يكفر بالحقّ الذي يصله منه تعالى، فهذا ستحيط به السدود ولا يَعُودُ يرى الحقّ من أي جهة أتاه، ولن يقتنع ولا بأي طريقة، وورد في الآية 41 من سورة الأعراف وصف بالغشاوة لحالتهم في الآخرة حيث الدخان من فوقهم {لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}، ولكن اعتبار آيتنا هنا كواصفة لحالتهم في الدنيا هو الأقرب للفهم.

(وَسَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ{10})
{وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ}، مثل بعضها بلا فرق لهذه النوعية من الناس، {أَأَنْذَرْتَهُمْ}، أخْبَرْتَهُمْ بالعقاب الحتمي لمن لم يؤمن، {أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ}، وهم، {لَا يُؤْمِنُونَ}، لا يصيرون في حالة اعتقاد والتزام بالحقّ، لأن هذه النوعية من الناس لا ينفع معها شيء، وهم في حالة فقدان الفهم والاستيعاب لما تقول، ونفس النتيجة: أنذرتهم أم تركتهم فهم على كلا الحالين لن يؤمنوا.

رأسهم مقمح إلى الأعلى وبالتالي أعينهم لن ترى الحقّ الذي أمامهم، ومحاطون بالسدود التي تمنعهم من رؤية الحقّ.

سنلاحظ في المثل الذي ستقوله لنا السورة بعد قليل عن المرسلين تصديقا لهذه الآية، حيث هناك أناس سواء جاءهم رسول أو رسولان أو أكثر... نفس النتيجة، سيبقون مصرّين على إنكار الحقّ.

بالنسبة لكلمة {أَنْذَرَ}، راجع التوسّع في معناها في ذيل الآية السادسة من هذه السورة.

بالنسبة لكلمة {آمَنَ}، لم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الاسلام أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة {آمَنَ} ومشتقاتها في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، حيث {آمَنَ} على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كلاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ{11})
{إِنَّمَا}، فقط، {تُنْذِرُ}، تحمل أيها الرسول(ع) الخبر عن العقاب الإلهي الحتمي لمن توافرت فيه شروط العذاب، {مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ}، من كان على الأمور التي تجعله يستحضره تعالى في فكره ومشاعره وعمله، {وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ}، حيث حصل لديه شعور بضرورة العمل على تجنب عقاب الذي يعتني به لما فيه مصلحته من مستوى إلهي، وهم يخشونه، {بِالْغَيْبِ}، بما غاب عنهم، فهم لا يرون التهديد بل يسمعون به فقط، لأن العقاب في الآخرة غائب عنهم ولم يروه بعد، ولكنهم رغم ذلك يخشون عذاب ربهم فيعملون على تجنّبه.

الكلام في الآيات عن أناس من نوعية الكفر العالي العنيدين الذين لن يؤمنوا ولا بأي كلام معهم، وهناك غيرهم أناس كافرون ولكن فيهم قابلية للإيمان إن سمعوا الحقّ، فهؤلاء ينفعهم الإنذار، لأن في قلوبهم خشية من الله تعالى بدرجة مقبولة.

{فَبَشِّرْهُ}، أيها النبي(ع) احمل الخبر السارّ لهذا الخاشي الذي نفعه الإنذار فآمن، أخْبِرْهُ، {بِمَغْفِرَةٍ}، حيث سيتم التجاوز عن سيئاته، وسيسامحه تعالى على ذنوبه، وبشّره بـ {أَجْرٍ}، بشيء حدّده تعالى له كجزاء على إيمانه وعمله الصالح، وهذا الأجر، {كَرِيمٍ}، أي ذو قيمة وشأن ومكانة عالية، وعكسها في المعنى: مهين. في مقابل الإهانة والاحتقار للكافرين هناك كرامة للمؤمنين بحيث يشعرون بأن قيمتهم عالية ومحترمين جدا.

كلمة {كَرِيمٍ} لها معنى دارج غير معناها اللغوي الأساسي القديم، حيث درج أن معناها: العطاء بكثرة. وورد في القرآن كلام كثير عن مضاعفة الحسنات وزيادة الثواب، ولكنه استعمل كلمة {كَرِيمٍ} فقط للإشارة إلى الكرامة، إلى الاحترام والمكانة العالية، وكمثال ما ورد في الآية 19 من سورة التكوير {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ}، حيث بسهولة نرى أنها ليست مقابلها بخيل بل يقابلها مهين وإهانة. لم يقصد بها القرآن زيادة الثواب حين وصف الأجر بالكريم، بل قصد أنهم سيحصلون على أجرهم وهم يشعرون بأنه أجر ذو قيمة محترمة عالية وهم سيشعرون أن لهم قيمة عالية عنده تعالى، وأحيانا من الاشتقاق التطبيقي لذلك الوصف بالكرم لما تعطيه بكثرة للآخرين. قارنها مع أجر ترميه على الأرض للعامل، أو تعطيه الأجر على عمله مع إهانته بالكلام... سيحصل على الأجر ولكنه لن يكون كريما، وهكذا ركّز القرآن دائما على اهتمامه تعالى بالمؤمنين من الناحية النفسية، ويخبرنا سبحانه مرارا وتكرارا أنهم سيشعرون بالكرامة بالقيمة العالية وبالاحترام الشديد...

لنعد للسورة، تنفيذ هذا التحذير بالعقاب والتبشير بالثواب متى يحصل؟:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ{12})
{إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى}، سبحانه يجعل الحياة "حالة الفعل والانفعال" في الميّت "الفاقد للفعل والانفعال"، والكلام هنا عن إعادته سبحانه الأموات إلى الحياة في يوم القيامة، {وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا}، كما نقول قدّم لي الطعام، فما قدّموه لأنفسهم من أعمال خير أو شرّ، ومعلوم أنه سيكتبها تعالى عبر أمره سبحانه للملائكة(ع) بمرافقتنا وتسجيل كل ما نفعل كما نفهم

من الآية 18 من سورة ق {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}، {وَآثَارَهُمْ}، ويكتب سبحانه ما تركته أعمالهم وأقوالهم من آثار، وهو ما بقي من أعمالهم، ويشمل ما نتج عنها في أثناء حياتهم أو من بعد موتهم.

بعد إحياء الأموات في الآخرة سيجري عرض تسجيل لما فعلوه في حياتهم الدنيا لمحاسبتهم ومجازاتهم عليه.

بالنسبة للآثار التي تتسجّل، عِنْدَمَا يسخر أحدهم من الدين الإلهي، يجعل غيره يتجرأ ويسخر، وَيَتَحَاسَبُ عن سخريته، وهي العمل الذي قدّمه وَقَامَ به في حياته "ما قدموا"، ويتحاسب على الأثر "آثارهم" وهو المفعول الذي نتج عن عمله وهو سخرية الآخرين من الدين الإلهي وَتَشَجَّعُوا على ذلك بسببه، فله عقاب على ما فعله "ما قدّمه لنفسه" وعليه أيضا عقاب الأثر، الساخر من دينه تعالى يموت ولكن بسببه بقي أناس آخرون يسخرون ويعلّمون غيرهم السخرية من الدين الإلهي، فهذا الشخص ورغم موته، لا تزال الملائكة(ع) تضيف على سجل أعماله سيئات يقوم بها غيره لأنها حصلت بسببه، لأنها من آثار ما فعله هو، وعلى هذا المعنى جاء كلام الآية 25 من سورة النحل {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ}. بالعكس، الْمُؤْمِنُ الذي علّم غيره الصلاة، كلما صلّى ذلك الشخص إنَّ من علّمه الصلاة يحصل على حسنات... وكذلك من بنى مسجدا أو مدرسة أو دار أيتام أو شقّ طريقا... يحصل على آثار حسنة من عمله.

{وَكُلَّ شَيْءٍ}، من دون استثناء من أفعال البشر: السيئة والحسنة، والآثار الناتجة وارتباط أفعال البشر ببعضها... {أَحْصَيْنَاهُ}، سميّناه وَعَدَّدْنَاهُ من أوله لآخره، فكل شيء سجّله سبحانه بتفاصيله بالتمام، {فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}، في كتاب هو إمام أي مرجعي أساسي، وهو مبين أي واضح وليس فيه تشويه أو لغط أو خطأ. عبر تسجيل دقيق وواضح ومفصّل ستتم محاسبتنا بمنتهى الدقة.

وصف شيء بالموت لا يعني دائما أنه كان حيّا وبعدها مات، لا، فالموت هو عموم وصف حالة فاقد الفعل والانفعال، حتى لو كان كذلك بالأصل، كحالة الأرض الميتة، التي حتى لو لم تكن حيّة من قبل، فهي توصف بأنها ميتة طالما ليس فيها حياة، والتراب هو حالتنا نحن" أموات" بعدما نفقد الحياة، وأيضا قبل أن يصير فينا حياة من الأساس كنّا أمواتا. تعلم من سياق الكلام ومن مخزون معطياتك إن كان الكلام القرآني عن ميّت يقصد الحالة الأصلية "الحالة صفر قبل الحياة"، أو يقصد حالة ميّت بعد أن كان حيّا. هنا الآية تتحدّث عن إحياء ميّت كانت أعماله تتسجّل، وقبل حالة موته كان حيّا في الدنيا.

أطلت عليك فيما تظنّه بلا فائدة ولكني أردت ترسيخ هذا المفهوم في بالك لأن الكثير من الكتب فسّرت بعض الآيات التي وردت فيها كلمة "ميّت" مفترضين دائما حالة حياة قبل الموت مما أدّى إلى معان غير صحيحة لتفسير كلامه تعالى، ومنها الآية 11 من سورة غافر {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ}، ولمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 67 من سورة مريم {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}.

(وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءهَا الْمُرْسَلُونَ{13})

بعد كلام السورة بشكل صريح عن أناس مصرّين على الكفر مهما جاءهم من رسول أو كتاب أو تهديد، وسواء أنذرتهم أم تركتهم نفس الشيء، ولا فرق عندهم. من الآية هنا ستذكر لنا السورة نفس الحالة ولكن بمثل أي بقصة تشبيهية لها نفس المضمون والمعنى.

{وَاضْرِبْ لَهُمْ}، أقم أيها النبي(ع) للناس، {مَثَلًا}، شيئا يشبه الحالة التي يعيش فيها هؤلاء الكفار وغيرهم من شدة الكفر والعناد، وأنه يوجد أناس مهما حاولت معهم ليؤمنوا بالحق وَلاَ فائدة معهم، وَمَثَلُهُمْ مثل، {أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ}، المجموعة من الناس التي تعيش مع بعضها في مكان واحد، {إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ}، حيث جاء إليهم أشخاص ينقلون كلامه تعالى إليهم.

ننتبه جيّدا لصيغة الجمع {الْمُرْسَلُونَ} حَيْثُ جاء لتلك القرية مجموعة من ثلاثة رسل وليس رسولا واحدا كما سترى من الآية التالية.

الآيات لم تذكر لنا أسماء المرسلين أو اسم القرية، لأن القرآن ليس كتاب تاريخ والفائدة من القصّة منحصرة بذكر ما اختارت الآيات نقله.

أما القصص الموجودة في كتب الروايات عن اسم القرية وأسماء المرسلين والملك وما حصل... هي مروية أو منقولة عن كتب أهل الكتاب "بتصرّف" أو عن أشخاص كانوا مسيحيين أو يهود ثم أسلموا، وأخذوا يحدّثون الناس بقصصهم الدينية، أو تلك القصص منقولة عن كذّابين نسبوها للصحابة... ويبدو التصرّف والتلاعب فيما نقلوه واضحا بسبب التناقضات والاختلافات في قصصهم، وَطَبَّقُوا تلك القصص على القرآن، وأكثر قصصهم فيها تشويه وإضافات، وتبدو من تأليف نسج الخيال بشكل واضح، وتفاصيلها لا تنطبق على ما ذكره القرآن رغم محاولة تطبيقهم له عليها، حَيْثُ كانوا مهرة في التأليف وفاشلين في ملاءمة ما ألّفوه مع القرآن... لذلك من الأفضل الاكتفاء بما ذكره القرآن وترك تلك المرويات الكاذبة، فلو كانت التفاصيل والأسماء المذكورة في الروايات مفيدة وضرورية لكان الله تعالى ذكرها لنا.

على كل حال، نلاحظ العديد من تلك الروايات تقول بأن الرسل هم من تلامذة النبي عيسى(ع)، وهذا أقصى ما يمكن أن تستفيده من كل تلك الروايات الطويلة المتخالفة فيما بينها... للأسف لا يمكننا بناء أي شيء على تلك الروايات، وفيما سيأتيك من آيات سترى أنهم مرسلون منه تعالى وصيغة الكلام هي نفسها بالضبط المستعملة قرآنيا مع الرسل الموظّفين منه تعالى.

بناء عليه، هم أنبياء رسل موظفون رسميا منه تعالى عبر وحي نازل عليهم شخصيا، ومن المستبعد من سياق كلام الآيات أن يكونوا رسلا منه تعالى موظّفين عبر النبي عيسى(ع)، أو رسلا منه تعالى عبر الوحي إليهم وهم ليسوا أنبياء، إلا اللهم إن صدق ما في التراث المسيحي عن أن تلامذة النبي عيسى(ع) كانوا يتلقون وحيا منه تعالى لهداية الناس ولم يوصفوا بالنبوّة، وهذه حالة لا دليل عليها من القرآن، بل لغويا سيصدق عليهم حتما وصف النبوة لو حصل معهم ذلك.

بالنسبة لكلمة قرية، نحن الآن لدينا تصنيف جديد حَيْثُ نقول: بلد، محافظة، مدينة، وقرية و... ولكن هذا التصنيف جديد، وكلمة قرية في أساس اللغة وفي استعمال القرآن تعني: الناس المجموعين مع بعض، سواء كان عددهم كبيرا أم صغيرا، وسواء كان لديهم مساكن وبيوت أم في الخيام... وهنا الحديث عن أصحاب القرية أي عن مجموعة أناس يعيشون مع بعض، وسترى أنهم كانوا في بيوت ثابتة أي في مدينة.

لنعد للسورة لنرى ماذا حدث مع تلك القرية:

(إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ{14})
{إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ}، حيث أرسل تعالى إلى أصحاب القرية شخصين ينقلان كلامه تعالى لهم، {فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ}، دعمنا وأضفنا رسولاً ثالثاً، {فَقَالُوا}، هؤلاء الثلاثة لأصحاب القرية: {إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ}، نحن ناقلون لكلامه تعالى إليكم.

تلاحظ أنَّ الآياتِ تُلَخِّصُ وقتاً طويلاً من دعوة الرسولين للناس والنقاشات، ربما أيّاماً أو أسابيعَ أو أكثرَ... وبعدها جاء الثالث... وتعطينا التلخيص فقط، لأن التركيز هنا على عدد الرسل الذي رغم كثرته لم ينفع في هداية الناس المصرّين على الكفر.

ما كانت نتيجة هذه الدعوة؟ وبماذا أجابهم أصحاب القرية؟:

(قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمن مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ{15})
بعد جدال طويل وأيام عديدة كان ملخص ما جرى أنْ {قَالُوا}، قال أهل القرية للمرسلين:

{مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا}، لستم سوى كائنات من نوع البشر لا تختلفون عنّا، لستم مميزين عنّا بشيء، فقط تدّعون أنكم رسل من الإله، أمّا غير ذلك فلا شيء غير عادي فيكم.

نفهم الحالة بسهولة إذا قلت أنا إنّي رسول الله، فتردّ عليّ بأنك أيضاً يمكنك الادّعاء بأنك رسول، وأي بشري يمكنه ادّعاء ذلك، وكيف سنميّز الرسول الحقيقي من المزيّف إن كان كل البشر يمكنهم الادعاء أنهم رسل؟

إنذاركم لنا لن يؤثّر فينا لأنه مجرد كلام من أشخاص عاديين مثلنا، هل تتوقعون منّا اتباع كلام أي شخص يأتينا ليقول لنا افعلوا هذا واتركوا ذاك مُدَّعِياً أنه رسول من الإله! بغض النظر عمّا يقوله فهل من المعقول إطاعة بشرٍ كبقية البشر لنترك ديننا وثقافتنا وعاداتنا؟

بنظر هؤلاء الناس تكون الرسل من الملائكة(ع)، وأمّا إذا كان شخصاً من البشر فيجب تميّزه بأمور غير عادية، كأن يطير، أو يأمر الأشياء والكائنات فتستجيب فوراً لأمره، أو يملك مالاً كثيراً جداً أو أملاكاً كثيرة... يجب اتّصافه بشيء غير عادي يميّزه عن بقية الناس حتى يصدّقوه بأنه رسول من الإله، وبما أنكم أيها المدّعون للرسالة غير مميزين عنا، فأنتم تكذبون، وأي واحد آخر من البشر يمكنه الادعاء بأنه رسول ناقل للكلام الإلهي، فهل سنصدّقه؟

{وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَانُ مِنْ شَيْءٍ}، الموصوف بأنه يعتني بمخلوقاته لم ينزل من عنده أي شيء يخالف ما نحن عليه، ولم ينزل عليكم شيء لتنقلوه لنا، فما تنقلونه لنا ليس نازلاً من عنده تعالى، {إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ}، أنتُم لستم صادقين بوصف أنفسكم بالرسل الإلهية.

مَا سيأتي من كلام السورة عن لفت الانتباه لآياته تعالى "أفعاله" وعن الانتباه من الأفعال السيئة والأمر بالصالحات... هو ما اعتمده القرآن كردّ على المعترضين على بشرية الرسل الإلهية، لأن المعيار هو صحّة ما يقولونه، فإن وجدتموه خيراً وحقّاً عندها ما معنى الاعتراض على كونهم من البشر؟ ما الفرق إن نقله لكم بشر أو جنّ أو ملاك؟ المشكلة في عقيدتكم وأفعالكم التي من الواضح فسادها، وهذا الشخص لا يدعوكم لدين غريب عجيب، بل يدعوكم لما يمكنكم رؤيته حقّاً وصالحاً...

أهل تلك القرية كانوا يعرفون الله سبحانه ويسمونه بالرحمان، واسم "الله" هو اللفظ العربي لاسمه سبحانه، وفي العبري والآرامي... لفظ كلمة "الله" يختلف قليلاً ولكنه يحافظ على الاشتقاق من كلمة إله، وبالنسبة لبقية اللغات غير السامية "كما يصفونها"، فعندهم لفظ كلمة "الله" سيكون غريباً بعض الشيء عليهم.

بعض أهل الكتاب لديهم عادة استبدال اسمه تعالى بصفة من صفاته سبحانه، ونقل القرآن مراراً استخدام بعض الناس صفة الرحمان له تعالى بدلاً من ذكر اسمه "الله" سبحانه، كما تقرأ في الآية 18 من سورة مريم {قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا}. هنا ربما هؤلاء المشركون ليسوا من الناطقين بكلمة "الله"، ليسوا من الناطقين باللغات السامية، ولذلك يستخدمون الوصف بالرحمان، وربما لديهم عادة تسمية الإله بالرحمان، ربما استخدامهم لاسم الرحمان من باب التهكم "السخرية" أو استخدام حجة الرسل ضدهم، أي: إن كان الإله الذي أرسلكم رحماناً كما تزعمون، فالرحمان لا يهددنا بالعذاب.

على كل حال، المُرسَلون الثلاثة كانت مهمتهم تصحيح اعتقاد وشريعة هؤلاء الناس الذين يعرفون الله "باسم الرحمان" ولكنهم مشركون به تعالى ومنحرفون عن دينه.

الآن ننتقل لجواب الرسل:

(قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ{16})
الرسل الثلاثة قالوا: {رَبُّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ}، إن كنتم لا تصدقوننا فالله تعالى يعلم أنه أرسلنا، نحن واثقون من أنفسنا وسبحانه يراقبنا ويراقبكم ويرى تكذيبكم لنا. رد المرسِلين بعبارة "ربنا يعلم" يمثّل قمة الموثوقية، بدلاً من: نحن ثلاثة أشخاص كل واحد يشهد بأن بقيتنا رسل.

سوف نرى في بقية السورة أن المرسلين قالوا أشياء كافية لتقنع من يريد أن يؤمن، حيث إن هناك شخصاً من القرية آمن وكرّر كلامهم الهادي... والسورة لم تذكر تفاصيل عن كلام الرسل مع أهل القرية لأن تركيزها على العدد ثلاثة "رسل" وأنه لم ينفع مع من لا يريد أن يؤمن، وبقية السورة ستتكفّل بكل ما يخطر ببالك أن أهل القرية قالوه للمرسلين لأنها ستتناول أساسيات إشكالات وأسئلة المشركين "عموماً" وتجيب عليها.

الآية هنا مع التالية سترينا أن جوابهم عن تكذيب الناس لهم بأنهم رسل، يختلف عما يتوقعونه، تَصَوَّرْ نفسك أنت أمامي وأنا أدّعي أنّي رسول منه تعالى، كيف ستعلم أنّي لست كاذباً؟ وما الدليل الذي تريده؟ وماذا يمكنني أن أفعل لأثبت لك صدقي؟

الجواب الإلهي عن هذه الحالة والذي نقله لنا عبر القرآن يختلف عمّا نتوقعه، حيث إن سبحانه يعتبر نوعية الكلام الذي أنقله لك هو الدليل، ومن المفروض أن يكون كافياً لإقناعك بأنه من الإله، ونوعية الشخص الناقل لكلامه تعالى، صفاته العالية من صدقه وأخلاقه، دليل آخر على كونه مرسلاً من الإله، وهذه نقطة جوهرية مركزية استند عليها القرآن في كل كلامه دفاعاً عن مصداقية الرسل، وبالعكس حتى تعرف أنّي كذّاب ولست مرسلاً، مِن نوعية كلامي ستعلم، ومن نوعيتي أنا بتصرفاتي ستعلم، فإن كنت أنقل لك الكذب والسوء، وتبدو لي مصالح شخصية من ادعائي أنّي رسول، فهل سأكون رسولاً إلهياً؟ وإن كنت أنذرك مما تفعله أنت من سوء، ولا أسألك عليه أجراً، وتعلم من تصرفاتي أنّي ملتزم بالصلاح، فما المطلوب أكثر من ذلك لتعلم أنّي رسول؟

بعبارة أخرى إن وظيفة الرسول هي البلاغ كما سترى من الآية التالية، والقيمة المعنوية للشخص الذي تواصل معه الإله ليكون رسولاً، فهذا موضوع لا علاقة لك به، لأن الرسول الكذّاب هو فقط الذي يجعل الناس يشعرون بقيمة عالية له عليهم ليستفيد من هذا الادعاء، أمّا الرسول الإلهي فهو فقط يعرض عليك الحقّ والصلاح.

(وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ{17})
{وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}، نحن الرسل مهمتنا أن نبلّغكم، أن ننقل إليكم بالتمام والكمال دينه سبحانه بشكل مبينٍ، واضح، وفقط هذا هو المطلوب منا.

صدقتمونا أو كذبتمونا، لا يغير ذلك من حقيقة مأموريتنا، وأعجبكم أننا بشر مثلكم أو لم يعجبكم، أيضاً لا فرق عندنا لأن الله سبحانه يعلم أنه أرسلنا، ونحن لم نتبرع بهذه المهمّة من رأينا، وتنحصر مهمتنا في تبليغكم رسالة ربّكم، وبعد ذلك إن آمنتم أو لم تؤمنوا فليست مشكلتنا.

بعبارة أخرى تقول الآيتان: ليست مهمتنا أن نثبت لكم بأننا رسل من الله تعالى، لأننا لدينا تكليف منه سبحانه ولا يهمنا إن لم تقتنعوا بذلك، وسنقوم بمهمتنا بتبليغكم الإنذار الإلهي، فأنتم على الضلال والفساد، وهذا واضح، ومن بعدها لا علاقة لنا بأي شيء، لأن مهمّتنا تنتهي هنا، وبعدها يفعل سبحانه ما يراه مناسباً.

بقية الآيات سوف ترينا أن البلاغ الذي بلّغوه للناس هو توحيده تعالى وترك الشرك، والإيمان بالحساب في الآخرة لمن فعل السوء، وهذا ما سنراه من كلام رجل من القرية آمن...

(قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ{18})
{قَالُوا}، أهل القرية للمرسلين:

{إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ}، بتعبيرنا الدارج: أنتم نحس علينا. الطيرة هي ربط حصول شيء سيِّئٍ بشيء آخر أصلاً لا علاقة مباشرة بينهما، هذا هو معنى الكلمة بغض النظر عن قناعتك بها، وعندما قال الكافرون إنّهم يتطيرون من إنذار الرسل لهم، قصدوا أنّه أصلاً لن يحصل عقاب إلهي لمن كفر، وكلام الرسل عن الإنذار غير حقيقي، ولكن مجرد الكلام عن شيء سيِّئٍ قادم، سيسبّب حصول شيءٍ سيِّئٍ، مثلما أقول لك: سيارتك هذه سريعة جداً والسيطرة عليها صعبة. وتقول أنت إنّه بسبب كلامي صرت تتوقّع شيئاً سيئاً سيحدث، فأنت تتطيّر منّي، علماً أنّه لا ربطَ حقيقيٌّ بين كلامي وبين وقوع الحادث.

أهل القرية كانوا يعيشون حياتهم العادية، وجاءهم ثلاثة أشخاص يقولون لهم إنَّ عقاباً إلهياً آتٍ لأهل القرية بسبب فساد دينهم، عندها ردّ أهل القرية بأنهم لن يصيبهم شيء، ولكن الكلام عن أمور سيئة ستأتي جعلهم يتوقعون حصولها فقط بسبب كلام الرسل عنها وليس بسبب شرك أهل القرية، ولهذه الحالة يكون التعبير: تطيّرنا بكم.

{لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا}، إذا لم تتوقفوا نهائياً بلا رجعة عن الكلام المزعج الذي تقولونه لنا عن أمور سيئة ستصيبنا، {لَنَرْجُمَنَّكُمْ}، سوف نرميكم بالحجارة حتى تموتوا، وهذا تهديد بأشد أنواع القتل. {وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا}، وسوف يصيبكم وتشعرون مما سنفعله بكم، {عَذَابٌ أَلِيمٌ}، ضرر يصيبكم ولا يمكنكم تحمّله، غيرَ الضرب بالحجارة سوف نجلدكم معه ونضربكم بالعصي... فالخيارات أمامنا متعددة لتعذيبكم.

بالنسبة لما يقوله الناس عن النحس والطيرة والتشاؤم، نجد في مختلف البلاد تحديداً لأزمنة مختلفة من الأسبوع أو الشهر ويقولون إنَّ الأمور تتعثّر فيها، مثلاً الأربعاء في بلد ما يقولون إنّه نحس، وفي بلد آخر يقولون إنّه جيّدٌ ويوم الثلاثاء نحس، وبعضهم إن وافق يوم الجمعة الثالث عشر من الشهر يكون عندهم يوم نحس... وبعضهم يقول عن رؤية طائر البوم إنّه نحس وآخرون يتفاءلون من رؤيته... ونفس الشيء عن الغراب والغنم والماعز...

هذه سخافات من المعيب إقحام الدين الإلهي فيها، وتجد في بعض كتبنا الإسلامية "وخصوصاً في غالبية تفاسير القرآن" كلاماً مؤكِّداً لبعض هذه الأمور!

نظراً لمعاني الكلمات بغض النظر عن الثقافات، في اللغة الطيرة هي ربط حصول شيء سيِّئٍ بشيء آخر أصلاً لا علاقة مباشرة بينهما، هذا هو معنى الكلمة بغض النظر عن قناعتك بصحة ذلك. عندما قال الكافرون إنّهم يتطيرون من إنذار المؤمنين لهم، كما ورد في الآية هنا {قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ}، قصدوا أنّه أصلاً لن يحصل عقاب إلهي لمن كفر، وكلام المؤمنين عن الإنذار غير حقيقي، لكن مجرد كلام المؤمنين عن شيء سيِّئٍ قادم، سيسبّب حصول شيء سيِّئٍ، مثلما أتوقّع أن يقع ابنك عن الدراجة، وأكرر قولي هذا... وعندما يقع تقول إنّه وقع بسببي، علماً أنّه لا ربطَ حقيقيٌّ مباشر بين كلامي ووقوعه وهو أصلاً لم يسمعني. انتبهْ للفرق بين معنى الكلمة الأساسي، وبين ما تعتقده أنت مستعملاً كلمة طيرة على أنها فعلاً حقيقية، وهي مثل استعمالك لكلمة عنقاء مشيراً بها إلى تنين يطير وينفخ النار، فوجود كلمة لكائن بهذه الصفات لن يجعل وجوده حقيقياً.

النحس: هو عموم تعثّر الأمور بالرغم من محاولة إنجاحها، فلا يوجد شخص منحوس ولا يوم منحوس... ولكن يوجد يوم حصل فيه تعثّر للأمور، وذلك اليوم كان نحساً وانتهى، والصفة "نحس" لما حصل في ذلك اليوم بالتحديد، وليست صفة ملازمة له كلما تكرّر اليوم، ويوجد شخص كثيراً ما تتعثّر أموره، ففي حالة تعثّر أموره هو منحوس، والصفة لما جرى معه وليست صفة ملازمة له دائماً.

العاقل يبحث عن سبب عقلاني لتفسير تعثّر الأمور، حتماً هناك سبب، والبسيط يستسهل استعمال تعابير ضبابية مهملاً التعمّق في التفكير ليرمي ما حصل على الحظ والنصيب والنحس والتشاؤم... ليصير لهذه الكلمات عنده معانٍ لها دلالات حقيقية على تفسيراته هو، وهكذا بالنسبة له يصير النحس شيئاً من الأشياء الحقيقية التي لها أثر وكأنه كائن أو ظاهرة... بينما في الحقيقة هو مجرد وصف لحالة تعثّر الأمور وليس سبباً لها.

خذ مثلاً من هذه الأجواء عن العلاقات الزوجية المتوترة والتي بدلاً من البحث عن عمق أسبابها لإيجاد حلول لها، ترى البسطاء ينسبونها للجنّ والتابعة والقرين والكتبة والحسد... وبذلك يبرّئون أنفسهم من سوء أخلاقهم وسوء تصرفاتهم ونواياهم!

الكلام يجر الكلام، حيث التفاؤل استبشار للخير من بوادر عادة مسببة لحصوله، وهذا هو المعنى العقلاني للكلمة، وأمّا البسطاء وبدون أي رابط معلوم بين الأمور، لديهم لائحة طويلة من الأمور التي يستبشرون منها خيراً، كرؤيتهم للغنم أو لفراشة بيضاء... ومثلها لائحة طويلة مما يتشاءمون منه كرؤيتهم للماعز والبوم والغراب...

كما ترى مما سبق، حتى لو كان للكلمة معنى محدّدٌ في اللغة ومتعارف عليه بين الناس، هذا لا يعني أن معناها حقيقي واقعي، وحين قلت لك عن المعنى العقلاني للكلمات، لم أقصد منع الآخرين من استعمال المعنى غير العقلاني للكلمات وكأنه ممنوع لغوياً أن يكون لكلمة ما معنى عقلاني ومعنى آخر عبثي، لا، فهذه أصلاً حالة كل الناس من مختلف اللغات عند استعمالهم للكلمات، ويستعملونها بعقلانية أو بجهالة، مثلما يعتقد البعض بالقوة السحرية، على أساس تعريف غير عقلاني لكلمة سحر عن قوة خارقة يفعل بها الساحر ما يريد...

ننتبه لحالة استعمال الإله سبحانه للغة من لغات البشر، حيث حتماً سيحصل تقويم لمعاني الكلمات لتكون "عقلانية"، ككلمة سحر التي بعقلانية تشير فقط للخدعة وليس لقوة خارقة عجائبية لفعل الأمور بمجرد التلفظ بكلمات غريبة، حتى لو كان بعض الناس يعتقدون بذلك، وكاستعمال كلمة إله التي لا تنطبق فعلاً إلا على الله سبحانه بينما الناطقون باللغة العربية تساهلوا في حقيقة معناها وأطلقوها على حجر منحوت!.

للتبسيط كمثال من أجواء الآية 19 من سورة القمر {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ} والأفضل مراجعة دراستها لمزيد من التوسّع.

لنقل إنَّ كلمة شؤم في استعمال الناس كلّهم تشير إلى ربط حصول شيء سيّئ من الاستصباح بالماعز، هذا لا يعني أي شيء حقيقي، ولن يحصل شيء سيّئ حتماً من بعد رؤية الماعز صباحاً وإلا لما عاش معّاز! مع أنه صار للناس كلمة في لغتهم لها معنى محدّد، فهذا لا يعني بتاتاً أبداً أن المعنى حقيقي، ومثله في السخافة إيمان الكثيرين بما يسمونه بالقرين الذي يأتي في المنام "على شكل طفل أو امرأة أو كلب..." ليرعب الناس وخصوصاً الحوامل حتى يسقطن جنينهن... إيمان الكثيرين بذلك لن يجعل القرين المزعوم كائناً حقيقياً، ولا يعني أي شيء سوى أنهم بسطاء، ولو دققوا لعلموا أنها هواجس نفسية "واعية أو غير واعية" نابعة من مخاوف من أمور حياتية لا قدرة لهم على التعامل معها بشكل مباشر للتخلّص منها، أو أنها ناتجة عن خلل في تكيفات الجسد مع الطعام أو البيئة، حيث ارتفاع حرارة الجسد الداخلية أو من الغرفة الحارّة... والتواء الرقبة أثناء النوم... هو من المسببات القوية لرؤية الكوابيس، أو أنها ناتجة عن خلل ما في الجسد نفسه، في الدماغ أو الغدد التي تفرز الهرمونات... ومثلهم في السخافة المؤمنون بالأبراج وقراءة الفنجان والكفّ...

خذ مثلاً كلمات المشعوذين، بطلاسمهم وأحرازهم وأسماء فنيّة خاصّة بالأمور التي يتعاطون بها... هذه كلّها كلمات لها معانٍ مفهومة عندهم وعند من يتعلّم مصطلحاتهم، ولكن هذا لا يعني أنها صارت حقيقية، لأن طلسماً من كتابة أحرف أو رسومات مبهمة في أشكال هندسية على ورقة جلد غزال بحبر من ماء الزعفران... لا يعني أي شيء، لن يصير لتلك الورقة مفعول سحري عجائبي، لن تجلب الخير ولن تسبّب الشرّ، لن تنفع ولن تضرّ.

(قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ{19})
أجاب المرسلون الثلاثةُ فقالوا:

{طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ}، توقّع حصول شيء سيّئ ليس ناتجاً عن قولنا له وإنما ناتج عمّا معكم، عن عقيدتكم وشريعتكم الفاسدة، {أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ}، حين نقول لكم أشياء تجعلكم تستحضرون عقابه الحتمي سبحانه لمن أشرك فهل نكون نحن سبب تطيّركم! أنتم المشركون الفاعلون للسوء وهذا سبب توقّع حصول عقاب لكم.

{بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ}، أناس لكم كيان الجماعة المتفاعلة مع دينه تعالى، {مُسْرِفُونَ}، تبالغون في الأمور بشكل زائد عمّا هو صحيح، وهذا تعبير مرادف لتعابير القرآن عن تعلّق الناس بمتاع الدنيا بحيث يصرفون مالهم وشهوتهم بما يزيد عن حاجتهم وصولاً إلى فعل السيئات، وهذا سبب ما سيحصل معكم من سوء وليس السبب إنذارنا لكم.

تصوّر حالة شخص تريد إخباره عن الدين الإلهي، فيقول لك: دعني بحالي فإذا تعرّفت على الدين الإلهي أقتنع به، وعندها أصير ملزماً به وأنا لا أريد التقيّد بشريعته. تردّ عليه قائلاً: ولكن سيصيبك العذاب إن لم تؤمن وتعمل صالحاً. يردّ: لا، طالما لم أسمع عنه فأنا لا علاقة لي بما تقوله عن العذاب، فلا دخل لي بك ولا بدينك، وفكرة العذاب ستكون لمن آمن بالدين وقام بالمخالفات وليست لي فأنا لست مؤمناً لا بالدين ولا بالعذاب... تكرر له التهديد بنار الآخرة، فيقول لك: بسبب كلامك عن العذاب سيحصل العذاب معي، تطيّرت منك، توقّف لأني لا أريد سماع المزيد من كلامك...

هذه الحالة مشابهة لحالة أهل القرية التي تتحدّث عنها الفقرة هنا.

(وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ{20})

{وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ}، من الناحية البعيدة من بيوت المدينة جاء، {رَجُلٌ يَسْعَى}، يتحرّك من المكان البعيد إلى حيث يجتمع الناس ويقصد شيئاً محدّداً، يسعى لشيء محدّدٍ في باله، ومن تكملة الكلام سترى أنه أتى قاصداً "ساعيا" إعلان إيمانه.

عندما وصل إلى الساحة أو إلى حيث يجتمع الناس، أعلن موقفه بصراحة وجرأة قائلاً:

{يَا قَوْمِ}، يا أيها الناس الذين أنتمي لجمعتهم، {اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ}، تغيّروا وكونوا على ما يقوله لكم الذين أرسلهم سبحانه.

هذا موقف شجاع، فأهل المدينة كانوا يهدّدون الرسل بالرجم، ويبدو أنهم قرّروا تنفيذ تهديدهم، ولم يعد يتجرأ أحد من الناس بالتفكير ليؤمن بما يقوله الرسل.

نلاحظ، ثلاثة مرسلين اقتنع معهم شخص واحد فقط! ولم يكن هناك أي فائدة من كثرة الرسل مع هؤلاء الناس المصرّين على الشرك بالله تعالى وعبادة غيره كما سنرى. لهذا السبب ذكرت لنا السورة هذا المثل، لتبين أن كثرة عدد الرسل لا يساعد ولا يؤثر على هداية الناس.

كلمة مدينة في الأساس تعني: المكان الثابت الذي فيه مساكن ثابتة وتقيم فيه الناس، سواء كان كبيراً أم صغيراً، فلا يذهب فكرك لما نستعمله نحن الآن من مصطلحات، قائلين قرية للتجمع الصغير ومدينة للتجمع الكبير، فهذا التصنيف جديد على اللغة العربية.

(اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ{21})
تكملة كلام الرجل الذي آمن:

{اتَّبِعُوا}، كونوا على خطى، {مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً}، من لم يعبّر لكم عن إرادته للحصول على شيء يستحقّه منكم لقيامه بعمل تبليغكم الكلام الإلهي، {وَهُمْ مُهْتَدُونَ}، وهم على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة، فكيف لا تكونوا على طريقهم ومن الواضح أنهم لا مصلحة شخصية لهم في هذا العمل، لأنهم ليسوا مثل العرافين أو الكهنة أو علماء الدين السيئين أو الزعماء... الذين يأخذون من أموالكم ليستفيدوا منها... كيف لا تتبعوهم وكلامهم الحقّ العقلاني لوحده دليل كافٍ على هداهم.

(وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{22})
{وَمَا لِيَ}، ولماذا ولأي سبب، {لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي}! لا أعتبر نفسي ولا أتصرّف على أساس أنّي مفروض منّي طاعة الذي جعل لي كيانا، {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، أنتم ستموتون وستعودون إليه ليحاسبكم ويجازيكم فكيف لا أحسب حساباً لهذا الموقف!

الآية هنا والتي تليها تخبرنا ما هو البلاغ المبين الذي قاله الرسل لأصحاب القرية، ردّده هذا الرجل المؤمن.

أيضاً سنلاحظ في بقية السورة الفرق بين هذا الرجل وكيف بكل بساطة فهم وآمن أنه سبحانه الذي خلقنا أول مرة في هذه الدنيا وسوف يخلقنا مرة ثانية، وسنلاحظ في بقية السورة الفرق بين هذا الرجل "كنموذج" وبين عموم الناس الذين على مرّ العصور يجادلون وينكرون مسألة عودتنا إلى الحياة مرة ثانية.

(أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ{23})
{أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً}! كما نقول: ذهبتم في رحلة من دوني. أي تركتموني واصطحبتم غيري معكم. يقول هذا المؤمن: هل أترك تأليهه سبحانه وأعتبر كائناً غيره تعالى إلهاً، فأعتقد بصفات وقدرات فائقة من مستوى إلهي عند غيره تعالى!؟ هل هذه هي الهداية!

{إِنْ يُرِدْنِ}، إذا قصدني فقرر لي، {الرَّحْمَنُ}، الموصوف بأنه يعتني بي لما فيه مصلحتي، لأن الرحمة صفته الأساسية في تعامله معي سبحانه فإذا أراد أن يصيبني، {بِضُرٍّ}، بشيء يضرني بشيء سيّئٍ لي، والكلام هنا عن تعذيبه

سبحانه لي لأني اتّخذت غيره إلهاً، عندها، {لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً}، لا تنفع ولا ترد عني شفاعة "وساطة" تلك "الآلهة" شيئاً، فتدخلهم عنده تعالى وطلبهم منه تعالى العفو عني، لن ينفع ولو بشيء صغير، {وَلَا يُنقِذُونِ}، وهؤلاء لا يمكنهم إنقاذي من العذاب على الشرك به تعالى.

نلاحظ في بقية السورة أن بعض الناس يعتقدون بقدرة الآلهة المزعومة على نصرة الذي يعبدهم يوم القيامة، وهم يقولون: هذا إذا كان هناك يوم للقيامة، فآلهتنا ستقف إلى جانبنا وتدافع عنّا... هي آلهة ونحن عبدناها فلن تنسانا إن كان هناك فعلاً يوم قيامة من الموت.

لاحظ استعمال كلمة الرحمان، بدلاً من اسمه تعالى "الله".

انتبه لطريقة عرض القرآن مراراً لمفهوم حصر الإرادة القاهرة به تعالى، حيث لا ولا أي كائن يمكنه أن يفرض عليه سبحانه أي شيء، بغض النظر عن كذب وصف آلهتهم بالألوهية، فلا هي ولا أحد يمكنه فرض أي شيء عليه سبحانه، وينتقل القرآن من هذا المفهوم البديهي، إلى الاحتمال الخيالي عن وساطة آلهتهم للتدخّل والطلب بل فرض قيمتهم المعنوية عليه تعالى ليعفو عمّن عبد تلك الآلهة، وحتى النزول إلى هذا المستوى من التأثير لآلهتهم عليه تعالى، هو غير صحيح، وافتراضاً وتخيّلاً لو تدخلت آلهتهم لتشفع لهم، وكانت آلهتهم كائنات واعية، فكلامها في الهواء والفراغ ولا تأثير له وسيتعذب المشركون حتماً.

طبعاً هناك في الآخرة شفاعة على معنى عموم استخدام القيمة المعنوية أو السلطوية لتغيير الظروف نحو الأحسن، فسبحانه بسلطته يشفع والمؤمنون من الدرجة العالية وأيضاً الملائكة فكلاهما بقيمتهم المعنوية الممنوحة منه تعالى يشفعون لضعفاء الإيمان حتى يعفو تعالى عنهم، ليقبل سبحانه الشفاعة لمن ليس مشركاً ولا مرتكباً للسيئات من العيار الثقيل كقتل الأبرياء والزنا والفرار من الزحف...

الشفاعة هي عموم استخدام القيمة المعنوية أو السلطوية لتغيير الظروف نحو الأحسن، والآيات القرآنية التي تحدّثت عن الشفاعة تناولتها من عدّة جوانب، أهمّها نفي الشفاعة لأي مخلوق كحقّ مفروض ملزم "مرغم" للإله سبحانه وتعالى، كحقّ النقض "الفيتو"، وتقرأ ذلك في الآية 255 من سورة البقرة {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}، فلا تتصوّر أن ملاكاً أو شخصاً من خيرة المؤمنين يملك حقّ الشفاعة وسيفرض تنفيذها على مجرم لينقذه من العذاب، ضارباً رجله بالأرض "يحتجّ معترضاً" ويقول: معي حقّ الشفاعة وأريد أن يدخل فرعون إلى الجنّة. هذا شيء لا يمكن أن يحصل لأنه لا أحد يمكنه فرض أي شيء من أي نوع عليه تعالى.

هناك آيات أخرى أكّدت على وجود شفاعة من الملائكة (ع) والمؤمنين من الدرجة العالية للمؤمنين من الدرجة المنخفضة، وكمثال عن ذلك الآية 28 من سورة الأنبياء {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}، فالشفاعة تتنفّذ بعدما يسمح الإله سبحانه بها، فضمن القرار الإلهي الأساسي يوجد أشخاص على ميزان العدل المستقيم يجب أن يتعذّبوا حتماً، ولكن القرار الإلهي فيه رحمة، والذي ابتعد عن الشرك والكبائر كقتل الأبرياء والزنا... قرّر له تعالى أن يكون له مخرج من العذاب، فسمح بالشفاعة له، أمّا المشركون والمرتكبون للكبائر من السيئات فلا تنفعهم الشفاعة كما ورد في الآية 123 من سورة البقرة {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ}، فنفي الشفاعة هنا في الآية ينبهنا أن لا نفعل ما نريد من سيئات معتمدين على شفاعة أحد ما لنا في الآخرة، لأن هذا طريق يؤدي إلى فعل نوع من السيئات التي لا تنفع معها الشفاعة.

لا ننسى أن الشفاعة لا تعني دائماً أنها للنجاة من النار، بل التخفيف من عذابها أو التخفيف من وقت المكوث فيها، هو أيضاً من آثار الشفاعة.

الجانب الثالث من الشفاعة الذي تجده في بعض الآيات هو نفيها عن الآلهة التي اخترعها المشركون، فآلهتهم الوهمية التخيلية كإله الحرب وإله الخمرة... أو التي لها كيان كملاك أو إنسان أو جنّي، فلا قدرة لهم حتى على الوساطة عنده تعالى للعفو عمّن عبدهم، وعادة سياق كلام هذا النوع من الآيات يريك أنه تعالى وحده الإله وأن الآخرين ليس لهم سلطة من مستوى إلهي بل حتى ليس لديهم القدرة على فرض قيمتهم المعنوية عليه تعالى، وكمثال عن ذلك الآية 51 من سورة الأنعام {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}، سبحانه

وحده بسلطته يشفع ويسمح بالشفاعة. مثال آخر الآية 13 من سورة الروم {وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ}، حيث كان الكلام عن الذين أشركوهم معه تعالى في الألوهية، وسبحانه لا شريك له، فهم بينهم وبين آلهتهم شراكة وهمية بين عبد وإله، ولا قدرة لها لتشفع لهم... مثال آخر الآية 43 من سورة الزمر {أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ}، وهذه شاملة لكل أنواع الآلهة التي اخترعوا ألوهيتها، فحتى لو كان لها فعلاً كيان ولم تكن وهمية كإله الخمرة وإلهة الحبّ، وكانت ملاكاً أو إنساناً أو جنياً، فهؤلاء لا يملكون شيئاً من مستوى إلهي.

(إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{24})
نكمل مع ما قاله الرجل المؤمن، فإذا أشركت بالله تعالى:

{إِنِّي إِذًا}، فإذا عبدت أحداً من دون الله سبحانه، {لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}، فبشكل واضح لن أكون على الطريق الصحيح الذي يوصلني لغاية صحيحة.

هذا الرجل حديثه نابع عن إيمان قوي، وهو يقول إنَّ الإيمان بالله الإله الواحد الأحد فقط وفقط هو الصحيح، وأن عبادة غيره تعالى هي بشكل واضح شيء فاسد.

عادة لا نتوسّع في معاني كلام كهذا، ولكن بناء على عموم مفاهيم القرآن ومنها ما تجده في هذه السورة عن نفع الإنذار مع من يخشاه تعالى، سنفهم كلام هذا الرجل أنه يشير للعقلانية في الطرح الذي يقوله الرسل الثلاثة، وأن كلامهم لا يحتاج لأدلة تثبت كونهم رسل منه تعالى للاقتناع بكلامهم، وكلام الحقّ لوحده كافٍ لمن كان قلبه سليماً، وأي كلام آخر غيره فهو كلام ضلال بشكل واضح.

هذا يذهب بنا إلى عمق مفاهيم القرآن، لأننا عادة نفسّر كلمة هدى بما يوصلنا إلى الجنّة، ونفسّر كلمة ضلال بالضياع عن الطريق الموصل للجنّة، وهذا تفسير اشتقاقي تطبيقي صحيح للهدى والضلال، ولكن وكما ترى هنا فالموضوع عن كلام الرسل الصحيح أمام أناس اخترعوا آلهة لم ترسل لهم رسولاً ولم تعرض حكمتها من خلقهم... ولم يروا أي أثر لها... ولكن واحداً من هؤلاء القوم كان كافراً مثلهم، ولكنه بدرجة ما يخشاه تعالى، فهذا ينفعه الإنذار وقد نفعه كما ترى من كلامه هنا.

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواءٌ أكان خيراً أم شراً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فقد ضلّ عنك صيدها. وقد استعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، فلم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، ولن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضالٌ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ{25})
{إِنِّي آمَنْتُ}، اعتقدت، {بِرَبِّكُمْ}، بالمسؤول الحقيقي عنكم من مستوى إلهي، فالذين تؤمنون بهم ليسوا ربّكم الحقيقي، {فَاسْمَعُونِ}، فليدخل كلامي إلى وعيكم، فكّروا بما أقول.

كلام هذا الرجل هو ملخص عقيدة الإيمان، وكل جملة قالها سنرى كيف يقول بعكسها "الكافرون من بقيّة الناس" في بقية السورة.

ضع في بالك أن كلمة ربّ تقال لعامة من لديه مسؤولية عناية بالآخرين، فربّ البيت كوصف للأب، وربّة المنزل كوصف للأم، وربّ العمل... على مستوى كل واحد ومسؤولياته يكون الوصف، وبالنسبة له تعالى فهو ربّ من مستوى إلهي، أمّا كلمة "إله" فلا تتحمّل التدرّج في معناها، والموصوف بها فقط الله تعالى.

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ{26})
{قِيلَ}، لهذا الرجل المؤمن:

{ادْخُلِ الْجَنَّةَ}، كن في المكان الموصوف بروعة ما فيه، {قَالَ}: {يَا لَيْتَ}، فأرغب بشيء قد فاتني ومن المستبعد حصوله الآن، {يَا لَيْتَ قَوْمِي}، الناس الذين أنتمي لجمعتهم، {يَعْلَمُونَ}، بوجود الثواب لمن آمن.

هنا تختصر لنا السورة الأحداث قائلة بأن الرجل المؤمن مات ودخل الجنة "المؤقتة التي في الدنيا فيما يسمّى بالبرزخ"، وهي جنّة نعلم بوجودها من الآية 169 وما بعدها من سورة آل عمران {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}، ونسميها بالبرزخية استنادا لوصف الآية 100 من سورة المؤمنين لهذه الحالة {لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}.

هذا الرجل المؤمن دخل الجنّة التي في الدنيا ولا يزال قومه في الدنيا، ويتمنّى لو أنهم يعلمون بالجنّة التي دخلها كثواب منه تعالى على التوحيد، فهذه الجنّة ليست جنّة الآخرة بل هي نفسها "حالة" الجنّة المؤقتة التي يدخلها المقتولون في سبيل الله تعالى إلى حين تبدّل السماوات والأرض حيث يفنى الجميع، وعندها تنتهي الدنيا ونصير في زمن الآخرة، وبعده يأتي يوم القيامة من الموت وما بعده من حساب والدخول إلى الجنّة الخالدة...

ننتبه جيداً، آيتنا هذه فريدة في كلامها عن مؤمن دخل جنّة "البرزخ" ولم تحدّد أنه مقتول في سبيله تعالى، فالصراحة الواضحة في كلام القرآن عن جنّة "البرزخ" كانت فقط للمقتولين في سبيله تعالى كما ورد في الآية 169 من سورة آل عمران، ولم يرد ولا أي شيء صريح عن انتقال الأنبياء والرسل إلى جنّة "البرزخ"، ولم يرد في القرآن أي كلام صريح عن نار في "البرزخ" للكافرين أو المنافقين أو الفاسقين، ويمكنك مراجعة أي آية تظنّها تتحدّث عن هذا الموضوع في دراستنا هذه، لترى أن ما قيل عنها لا يتوافق مع صريح القرآن الذي كرّر مراراً وتكراراً الكلام عن مفاجأة من مات ولم يكن مؤمناً بأنه استعاد وعيه من بعد موته في الدنيا ليجد نفسه في الآخرة، ولم يشعر بمرور الزمن عليه ليجد نفسه في الآخرة التي كان يكذّب بها، وسترى ذلك صريحاً في الآية 52 من هذه السورة {قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ}.

إذاً، لا يمكن من القرآن الجزم بدخول غير المقتولين في سبيله تعالى إلى جنّة "برزخية"، ولا يمكن من القرآن ولا بأي شكل الجزم بدخول الأنبياء والرسل إلى جنّة "برزخية"، ولا يمكن من القرآن إثبات وجود نار "برزخية"، ولا إثبات احتفاظ الأموات بوعيهم في القبر... ومفاهيم عموم آيات القرآن العديدة الواصفة لمفاجأة غير المؤمنين باستعادة وعيهم في الآخرة لأول مرة بعد موتهم هنا، فهذا يدعم بقوّة أنهم كانوا فاقدين لوعيهم ولم يكونوا في نار "برزخية". ومثلما كلامنا لا يؤكّد دخول المؤمنين من الدرجة العالية إلى جنّة "برزخية" من القرآن، فأيضا لا يمكننا نفي ذلك من القرآن، وبحدود اطلاعي لم أتوصّل إلى آية تنفي أو تثبت ذلك، وتبقى آيتنا هنا جدلية إذا قلنا أن هذا المؤمن مات ميتة طبيعية ودخل جنّة "البرزخ"، أو احتملنا أن قومه قتلوه، وصار من المقتولين في سبيله تعالى، وبناء عليه دخل جنّة "البرزخ"، وهو الأرجح عندي بتحليلي، وخاصة بعدما سمعناه من تهديد للمرسلين بالرجم...

(بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ{27})
هذه تكملة الجملة السابقة، حيث الرجل المؤمن كان يتمنى لو أن قومه يعلمون:

{بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي}، حيث المسؤول عنّي من مستوى إلهي تجاوز عن سيئاتي فسامحني، {وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ}، من المحترمين الذين لهم كرامة، لهم مكانة ورفعة ومقام وشأن عال، فالمعاملة والتقديمات التي يجدها في الجنّة "البرزخية" تجعله يشعر أنه محترم وذو قيمة عالية جداً جداً.

نحن أمام خبر إلهي عن حالة من بقي حيا من بعد موت جسده، وبعد الفقرة التالية سنجد لفت انتباهنا للآيات الإلهية المنتشرة من حولنا والدالة على وحدانيته وعظمته... وبعدها سيأتي كلام مطوّل عن إعادة إحيائنا في الآخرة، وهكذا نفهم سبب لفت الآيات هنا لاحتفاظ هذا المؤمن بوعيه بعدما مات جسده، فقد حصل له تغيّر في انتقال وعيه من عالمنا

الملموس إلى عالم آخر هنا في الدنيا لا نعرف عنه أي شيء مثلما لا نعلم أي شيء عن تكوين الملائكة، ونعلم عن تكوين الجن فقط أنهم مخلوقون من نار.

حسن، قد علمنا بما حصل معه، ولكن ماذا حصل مع قومه الذين لا يزالون أحياء:

(وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ{28})
{وَمَا أَنْزَلْنَا}، لم ينزل منه تعالى، {عَلَى قَوْمِهِ}، على الناس الذين لهم كيان الجماعة وهذا الرجل الذي صار في جنّة "البرزخ" كان ينتمي لجمعتهم المتفاعلة مع دينه تعالى، {مِنْ بَعْدِهِ}، من بعد موت الرجل المؤمن، {مِنْ جُنْدٍ}، من أي أحد من الملتزمين بتنفيذ الأوامر، {مِنَ السَّمَاءِ}، وعادة ينصرف الذهن إلى وصف الملائكة (ع) بالجنود لأنهم في عموم القرآن تجدهم يوظّفهم تعالى في أعمال ما.

بعبارة أبسط، من بعد موت الرجل المؤمن ودخوله جنة "البرزخ"، حصل موت جماعي لقومه كما يبدو من الآية التالية، وهذا العذاب لقومه لم يحتج منه تعالى إنزال دفعات من الجنود "الملائكة" لتنفيذه:

(إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ{29})
{إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً}، أمر إلهي واحد وصل إلى الجميع، لا يحتاجون غيره، {فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ}، بعد الصيحة صاروا بلا حركة، فقدوا الحياة.

نحن نعلم أنه تعالى إذا أراد فعل شيء لا يحتاج سوى أن يأمر، وحتما سيحدث ما يريد، وهنا التعبير بأن الأمر عندما صدر على أهل القرية، كان مجرد {صَيْحَةٍ} واحدة "موتوا"، فحلّ بهم الموت جميعاً. واستعمال كلمة {صَيْحَةٍ} وصفٌ متعلّقٌ بعددهم الكبير، لأن انتشار الكلمة على جماعة كبيرة يصير توصيفه في اللغة بأنه {صَيْحَةٌ}.

الصيحة في استعمالنا العادي هي وصول الصوت لعدد كبير من الناس، وحتى يصل إليهم يجب أن يكون الصوت قوياً، استعمل القرآن كلمة {صَيْحَةٍ} بعد تفريغ معناها من كلّ الإضافات، وهذا التفريغ للمعنى من الإضافات منتشر في عموم استعمال القرآن لكلمات اللغة العربية، وهو نفسه ما أسميه باستعمال الكلمات على الوصفية وليس على الاسمية، وبهذه الطريقة لم يضطر القرآن لاستعمال مجاز أو استعارة أو كناية... حيث استعمل أقرب كلمة للمعنى المقصود بالوصفية، وعامّة أهل اللغات يفعلون ذلك، مثلما نفعل مع كلمة باب، نافذة... في اللغة لا نخصّص هذه الكلمات لمستطيل من الخشب، بل نسحبها من التسمية لمادة الخشب ونفرّغها من الإضافات الخاصة بمادة الخشب، ونستعملها لعموم أي ممر أو إطلالة مادية أو معنوية... وعند توصيفه سبحانه، بالحي القيوم البصير... أحبّ غضب انتقم... يد، ووجه الله تعالى... سنفهم هذه الكلمات بشكل صحيح عند استعمالها على الوصفية وتفريغها من الإضافات التي تخصّص استعمالها للبشر.

{الصَّيْحَةُ} هي وصول كلمة ما "أمر ما" إلى عدد كبير، وهنا هو أمر بالموت. استعمل القرآن كلمة {صَيْحَةٍ} في سور أخرى للتعبير عن أمر برجوع كل الناس إلى الحياة كما ورد في الآية 53 من السورة هنا {إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ}. فرّغها القرآن من التصاقها بالصوت القوي، واستعملها على معنى وصول الأمر الإلهي لعدد كبير من الناس في وقت واحد.

إلى هنا انتهى المثل الذي تضربه السورة عمّن لم يتّبع الرسول الإلهي، مرّ في التاريخ قوم ما نذير "القوم الذين هم محور كلام الآيات السابقة كمثال لنا" أتاهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا!

(يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون{30})
يرجع الحديث الآن إلى من لا يزال على قيد الحياة ويسمع هذا القرآن ويسمع الإنذار، يقول سبحانه:

{يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ}، المفروض منهم طاعته تعالى لأنه إلههم الذي خلقهم ويملكهم، وفاتهم شيء مهمّ جدا لهم، فبسبب القرارات السيئة التي اتخذوها سببوا لأنفسهم العقاب وخسارة الجنة، {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ}، أي شخص ينقل

لهم كلامه تعالى، {إِلَّا كَانُوا بِهِ}، بالرسول، {يَسْتَهْزِئُونَ}، يتعاملون معه من خلفية الاستهانة والاستخفاف فيعتبرونه بلا قيمة ويستهينون به.

نلاحظ تعبير {مِّن رَّسُولٍ} يعطي معنى التنوع في شخصيات الرسل، فأي شخصية، أي صفات، من أي قوم... وسواء الرسول الذي حصلت على يديه آيات كثيرة، أو الغني أو الفقير، أو قويّ الشخصية أو العادي، أو الذكيّ جدا أو العادي... كل هذه الحالات المختلفة من الرسل تعرضوا للاستهزاء! مما يدل على أن المشكلة حتما لم تكن في الرسل.

ألفت انتباهك لتقرأ بدقة معنى كلمة {حَسْرَةً}، لأن ما هو دارج لمعناها في بعض أدبياتنا ليس معناها اللغوي الأساسي التالي: عامة فوات نهائي أو جزئي لشيء له قيمة كنت ترغب به، من الحسرة على ما فاتك، أو الحسرة على ما أنت فيه من ضرر كان بإمكانك ألا تصير فيه... وحسرته تعالى على عباده وصف لحالتهم هم لما فاتهم من خير ووقوعهم في سوء كان بإمكانهم تجنّبه.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، وكأن كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، بل كلتاهما تحملان نفس المعنى بلا أي فرق "كلتاهما تصفان الذي مفروضٌ منه الطاعة"، والفرق بينهما أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، فهي جمع الجمع.

أثناء الكلام بدقّة تكون الإشارة لمجموعة عبيد "واحدة" بينهم شيء خاص مشترك، فتقول الآيات: عبيد. وردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة "واحدة" مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم.

يكون الكلام لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، حيث يكون لدينا مجموعات مختلفة من العبيد "عبيد مشركون، وعبيد آخرون منافقون، وعبيد آخرون مؤمنون..."، فيجمعهم القرآن بكلمة عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد الآخرين من الكافرين والمشركين...

يكون الكلام موجّهاً لمجموعات من العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 هنا من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، فهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيدٍ آخرين جاءهم رسول، وعبيد آخرين... فجمع الجمع "عباد"، وهكذا تعلم أن كلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جدا عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

(أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ{31})
الحديث في كل القرآن موجّه لكل من يصله الصوت، حيث كان موجها لمن كانوا في زمن النبي محمد(ع) وهو الآن موجه لنا وللذين في عصرنا، ومن هنا تدخل السورة في صلب الإنذار لتتحدّث عن البعث بعد الموت فهناك سيتحقّق الإنذار:

{أَلَمْ يَرَوْا}، ألم تحصل لديهم صورة محدّدة كما نقول بالعامية: ما شافوا، ما التفتوا. {كَمْ أَهْلَكْنَا}، كم استنفد سبحانه حياة، كم أمات سبحانه، {مِّنَ الْقُرُونِ}، من جماعات البشر التي كانت مع بعضها في مختلف الأزمنة، جماعة قبلها جماعة وبعدها جماعة... ألم يلتفتوا أن هؤلاء الذين ماتوا، {أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ}، لأنهم ماتوا ولا يرجع تفاعل منهم كجواب على أي شيء يصدر ممن يحاول التعامل معهم. هي على معنى قولنا بالعامية: خلص راحوا. وعلى معنى ما ورد في الآية 98 من سورة مريم {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا}.

بعضهم يقول إنّ آلهته ستشفع له إن حصل وصار يوم قيامة وحساب، فتسأله الآية هنا عن الذين أهلكهم الإله "الله" سبحانه، وكانوا يعبدون آلهة أخرى، فلماذا لم تعدهم تلك الآلهة إلى الدنيا إن كان بمقدورها فعل شيء ما من مستوى إلهي؟ هلكوا بقرار من الله تعالى فلماذا لم تقم آلهتهم بشيء ما لمنع حصول هلاكهم؟ لماذا لم تُحْيِهِمْ أو تتدخّل حتى يحييهم تعالى؟ إذن من الواضح أن القرار من مستوى إلهي محصور فيه تعالى ولا يوجد أي كائن آخر لديه صفة أو قدرة ليتّخذ قرارا من مستوى إلهي من نوع إعادة الحياة إلى الموتى بقدرة إلهية.

(وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ{32})
مثلما تعلمون بنماذج أهلكها تعالى ولم يقدر أحد من آلهتهم على التدخّل لمنع إهلاكهم، ولم يقدر أحد من آلهتهم على إعادتهم إلى الحياة:

{وَإِن كُلٌّ}، كلّ الناس بدون استثناء، {لَّمَّا جَمِيعٌ}، إلا وكلّهم ومن دون استثناء أي أحد منهم، {لَّدَيْنَا}، لديه تعالى، {مُحْضَرُونَ}، سيتم إحضارهم عبر إعادتهم من موتهم ليتحاسبوا، فلن يغيب منهم ولا واحد.

(وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ{33})
{وَآيَةٌ لَّهُمْ}، وشيء مميّز للناس، كدليل على سيطرته تعالى على كلّ شيء، مما يدلّ على خلقه تعالى لنا وسيطرته على إماتتنا وقدرته تعالى على إعادة خلقنا، {الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ}، التي لا حياة نباتية فيها، التي مرّ عليها فترة جفاف أو فترة صيف... {أَحْيَيْنَاهَا}، فجعل سبحانه النبات يخرج منها، ونزول الماء "مطرا" أو مرور نهر يسبّب خروج النبات، {وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا}، من الأرض، {حَبًّا}، كحبوب القمح والعدس والذرة... {فَمِنْهُ}، من الحبّ، {يَأْكُلُونَ}، يستهلكونه ليسدّوا جوعهم ويكون غذاء لهم.

في كل يوم وفي كل لحظة ترون آية، ترون شيئاً مميزاً كدليل ملموس على سهولة إحيائه تعالى لكم في الآخرة كما يحيي سبحانه الأرض الميتة بإخراج النبات منها، فمن فعل هذا؟ هل لوحدها هكذا ومن دون مصمّم خالق يصير فيها نبات من بعد المطر! هل الخصائص التي فيها ذاتية لتحيا ومن دون إله صمّمها لتكون هكذا؟

فكّر فيها لو أنت صمّمت كوكباً، وصمّمت موادّه، وصمّمت خصائص التربة... وصمّمت ظاهرة نزول الماء، فتكون عملياً أنت الذي أحييت الأرض بالنبات.

كما تلاحظ فالتفاصيل الضرورية لخروج النبات من الأرض تشمل لائحة طويلة جداً جداً، من تشكّل المواد، وتنوّعها، واختلاف خصائص كل واحدة منها... للترابط الكيميائي... للتجاذب... لتشكّل الأرض في المجموعة الشمسية على بعد محدّد من الشمس بحيث الحرارة على مقدار معتدل مناسب لخروج الحياة من الأرض... لتشكّل القشرة الصلبة على الأرض، والغلاف الجوي، والماء... لتشكّل النبات بأشكاله المتنوّعة، لثمر النبات الصالح للأكل... والتفاصيل أكثر بكثير... فالنبات حيّ، ينمو ويتكاثر ويموت، فهل هكذا لوحده خرج إلى الحياة! وهكذا لوحده صار مناسباً لنا لنأكله! خروج الحياة من الأرض الميتة هو علامة على وجود إله قادر على إعادة الحياة للأموات من الناس.

بالنسبة له سبحانه وتعالى، حياتنا وحياة النبات متشابهة، مثلما يتكرّر خروج الحياة من أرض ميتة لا نبات فيها، فكذلك سنخرج نحن من الأرض بعدما يتحلّل جسدنا، وهذا شيء كرّره القرآن كثيراً مراراً وتكراراً، وراجع عن ذلك كمثال الآية 11 من سورة ق {رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ}.

آليات خروج النبات نعلم عنها الشيء الكثير، فتترطّب البذور والجذور والأغصان... بعدها تتحرّك آلية انقسام الخلايا بعدما تتغذى من الماء وعناصر من التراب... أمّا آلية خروجنا نحن من التراب، فلا تزال قيد البحث ومطروحة لها فرضيات ونظريات، والجواب عن هذه الآلية ليس من اختصاص الدين ولا الروايات ولا الاعتماد على استخراجه من القرآن، لأن القرآن كتاب هداية يتحدّث معنا بما يفهمه أي إنسان لديه مستوى مقبول من الثقافة وسيدرس القرآن ليفهمه... كما تحدّث القرآن عن نزول الماء مكتفياً بالإشارة إلى الرياح والغيوم بدون ذكر آليات حدوثه، كذلك اكتفى بالكلام عن خروج النبات بسبب الماء والتراب، ومثله الكلام عن ستة أيام "ست مراحل" لخلق الدنيا، ومثله خلقتنا من طين مثلما النبات مخلوق من طين... كلّه كلام عن مراحل ولفت انتباه كآيات وليس كلاماً عن آليات تفاعل الأشياء وترابطها، لأن هذا متروك لنا لنتعمّق فيه عبر الفكر والملاحظة والخيال... المزروع فينا لنرى أنفسنا وما حولنا آية تدل عليه سبحانه.

بالنسبة لكلمة "حبّة"، حالياً نستعملها كمرادف لكلمة "واحدة"، فنقول "بتساهل": ناوليني حبتين من ذاك. ونشير بها للسجّاد أو الغسّالات... كبضاعة. ولكن معناها الأساسي ليس واسعاً لهذه الدرجة بل هي لخصوص ما كان صغيراً

منفرداً، كحبّة لؤلؤ وحبّة رمان... ومن سياق الكلام يتخصّص معناها إذا كانت تشير لحبوب النبات، وبالخصوص للكيان النباتي شبه الكروي الذي يتم أكله كما هو بلا غلاف عليه، كالقمح والشعير والفول...

بالنسبة لكلمة آية فمعناها العام يشير لأي شيء مميز بشيء ما، سواء مميز بدلالته أو بقيمته أو بشكله... فنقول: آية في الجمال، أفعاله تعالى آية، كلامه تعالى آية... ومن سياق الكلام ترى ما المميّز في الشيء حتى وصف بالآية، فجملة "آية في الجمال" تشير لجمال مميز، وآية في العلم تشير لعلم مميز. وكل أفعاله تعالى مميزة لأنها من مستوى إلهي، هكذا تكون كلها آيات لأنها تحتاج لقدرة إلهية لفعلها، وكل أفعاله تعالى دالة عليه فهي آيات بتميزها بدلالتها عليه سبحانه، وكلامه تعالى في قرآنه آيات، لأنه كلام مميز بصدوره عن الإله.

هذا هو المعنى الأساسي لكلمة آية، وهكذا استعمله القرآن، فلا تخلطه مع أمور أخرى اصطلاحية اشتقاقية، فبعض سياق الكلام القرآني يشير بالآية لكلامه القرآني "المميّز" سبحانه، وبعضه يشير لأفعاله "المميزة" سبحانه، وبعضه يشير لدلالة أفعاله عليه "المميزة" سبحانه.

(وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ{34})
{وَجَعَلْنَا فِيهَا}، جعل سبحانه في الأرض، {جَنَّاتٍ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها، بالنسبة لنا هي أماكن موصوفة بمناظرها الطبيعية الخضراء الرائعة من حدائق وبساتين... {مِّن نَّخِيلٍ}، وهو الشجر الذي ينتج منه البلح والتمر والرطب، وجعل تعالى فيها جنات من، {أَعْنَابٍ}، وهو نبات ينتج منه ثمر عناقيد فيها العديد من حبوب العنب وعندما تيبس "تجفّ" تصير زبيباً، {وَفَجَّرْنَا فِيهَا}، وأخرج سبحانه بقوّة من تلك الأرض، {مِنَ الْعُيُونِ}، من الفتحات، وسياق كلام الآية يشير لفتحات ينابيع المياه من الأرض.

من الأرض الميتة خرج النخل والأعناب والماء، وهذا الأمر العادي المنتشر على سطح الأرض هو نتاج تصميم وخلق الله تعالى، وهو بحسب القرآن لا يختلف عن خلق الحياة البشرية، فكلاهما من ماء وتراب.

ننتبه جيداً، إلى أنّه لا خاصية مميزة للنخيل والعنب عن بقية الأشجار وفاكهتها، اختارهما القرآن لذكرهما كنماذج عن بقية الأشجار ذات الثمر، لأن التمر والزبيب كانا من أهم نتاج الثمر في المنطقة التي نزل فيها القرآن، وكان اعتماد الناس عليهما في حياتهم وبالخصوص للتموين للاستهلاك في الشتاء كوجبات طعام... وتجد هنا وهناك في الأحداث التاريخية القديمة كلاماً عن تموين بيت ما بالتمر والزبيب بكميات تكفي لمدة سنة وأكثر، ونحن لا ننتبه أنّه كلام عن تموين لمادة أساسية يعتمدون عليها كطعام يومي، حيث في حينها لم يكن لديهم معلبات للطعام، ولا استيراد من أماكن بعيدة يختلف موسم إنتاجها الزراعي عن مكانك... والتمر والزبيب الآن في غالب المجتمعات صار للتحلية كفاكهة فقط ولم يعد مادّةً أساسيةً كوجبة طعام أساسية.

كل بقية ثمار النبات التي تأكلها الناس مشمولة بكلام القرآن عن ثمار النبات، حيث إنّ الكلام هنا عن النخيل والأعناب نموذج عن ثمار الذين نزل القرآن في زمانهم ومكانهم، وهؤلاء يفهمون قيمة النخل والعنب، والآخرون الذين لديهم نباتات أخرى أساسية في حياتهم كالأرز والذرة والموز... هؤلاء يقيسون أهمية هذه النباتات بالنسبة لهم على أهمية النخل والعنب بالنسبة للنموذج أهل مكّة.

أقول لك هذا راجياً منك رمي كل الكلام عن الخصائص المميزة للفاكهة والخضار التي ذكرها القرآن على بقية الفاكهة والخضار التي لم يذكرها، لأن هذا غير صحيح ولم يقصده القرآن وأصلاً لا معنى له، لأن كل الفاكهة والخضار من خلقه تعالى، وكلها فيها منافع ونكهة مميزة رائعة، أنا شخصياً أحب كل الفاكهة ولكن لي هوى بالمانجو الأحمر الحلو والأناناس والقشطة والبلح البرحي... أكثر من العنب والزبيب والتمر، وعندي مشكلة حساسية مع الزيتون وزيته... وأفهم كلامه تعالى عن بعض الفواكه كنماذج. أساساً عموم كلام القرآن في مختلف المواضع عن نماذج، أمّا الكلام في أدبياتنا الإسلامية عن فوائد النباتات التي ذكرها القرآن فمن المعيب "علمياً" أن يكون لاغياً لفوائد بقية النباتات أو جاعلاً لها بقيمة أقل، وأصلاً هذا غير صحيح، وكلها آيات من خلقه تعالى، وكلها فيها منافع رائعة، وكلها لها راغبون بطعم بعضها أكثر مما يرغبون في الأخريات.

نرجع للآية، خلق تعالى الحياة النباتية بهذه الطريقة لتكون آية للناس ليعلموا بأن خلق الحياة سهل جداً على الله سبحانه، ومن ناحية ثانية:

(لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ{35})
{لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ}، ليستهلكوا من نتاج هذه النباتات، والثمر هو كل أنواع المأكول من نتاج النبات، حيث ورق النبات غير المأكول ليس ثمراً. لأن الثمر يشمل: الفاكهة كالتفاح والموز، والخضار كالملفوف والقرنبيط والبقول والبقدونس والزعتر وغيره... ويسدّوا به جوعهم وتتغذّى به أجسامهم...

وليأكلوا من ثمر، {مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ}، لدينا العملية السابقة التي تجري من دون تدخل الإنسان، ولدينا تدخل الإنسان في معالجة الثمر ليعمل منه دبساً أو خلاً أو عصيراً أو زبيباً... وطهي "طبخ" الطعام.

{أَفَلَا يَشْكُرُونَ}! أليس من المفروض ومن المتوقّع أن يعبّروا له تعالى عن حصولهم على شيء جيّد منه؟! لأن الأرض وبيئتها والبذر والمياه... وتصميم العمليات والعلاقات والنتائج... كلها فضل منه سبحانه لنا، أفلا نشكره!

رجّح البعض من المفسرين أن تكون {مَا} نافية، ليكون المعنى: ليأكلوا من ثمر النبات وأيديهم لم تعمل أي شيء ليصير للنبات ثمرٌ، أفلا يشكرون لحصولهم على ما لم تعمله أيديهم. وهذا المعنى صحيح في جانب منه، ولكن الآية لم تقصده، وتلاحظ التكلّف لفهم {مَا} على أنها نافية، لأن سلاسة الجملة تشير إلى ما الموصولة بمعنى الذي، ليشكروا على ما لم يتدخلوا فيه، وليشكروا على ما تدخّلوا فيه.

بقي شيء نراه صريحاً أكثر في سور أخرى، كيف وبدون إله صمّم وخلق وصلنا إلى حيث نأكل من ثمار النبات لنسدّ به جوعنا وينمو به جسدنا؟ ما الافتراض لنشوء الحياة والذي يمكنه تفسير آلية وصولها إلى ما هي عليه، هل نقول إنّ خواصَّ كيميائية وفيزيائية أساسية نتج عنها خواص بيولوجية حتى صارت الكائنات الحيوانية والنباتية بالترابط الذي بينهما حيث تأكل الحيوانات النباتات... ولكن هذا تفسير للآلية، هو تفسير للكيفية التي تحقّق بها تصميمه تعالى لما في الدنيا، ولكنه لوحده ومن دون رؤية إله فائق الصفات والقدرات خلفه، لن يفسّر كيفية حصوله من الأساس.

بعبارة أبسط، معرفتنا لآلية تكوّن النبات كحياة نشأت في هذا الكون على كوكب الأرض، معرفتنا هذه ليست لاغية للذي صمّم الدنيا لينتج عنها نبات على كوكب الأرض، بل هو كلام عن الآلية التي تنفذ بها تصميمه تعالى لخلق الحياة النباتية على الأرض.

ما هي علاقتي أنا بالنبات حتى صار لها ثمر يسدّ جوعي ويغذّيني؟ وما علاقة أساس الخواص الفيزيائية التي نتج عنها خواص كيميائية، التي نتج عنها خواص بيولوجية... التصميم الأصلي الذي أدى لظهور هذه العلاقات إلى نتيجة تجعلني آكل ثمرة تغذّيني وتبقيني حيّاً، بل وألتذّ بأكلها وأرغبها...؟!

لاحظ القرآن يضرب أمثلة عن أفعاله تعالى من نماذج مختلفة، من أمور لا دخل لنا فيها، كنزول الماء هنا وهناك في أوقات مختلفة، وأمور نحن بأيدينا نفعلها، كالسفن وركوب الدواب والزراعة ومعالجة ثمار النباتات لتصير دبساً وخلاً... يعني لم يحصر القرآن أفعاله تعالى بما لا دخل لنا به فقط، بل قال صراحة إنّه تعالى جعل لنا الفلك... وعندما تعلم الآلية التي مشت عليها الأمور لتصير النتائج، وعلمتَ أنّ البذرة فيها جينات، وحول الجينات بيئة تحتاج للماء والمغذيات حتى تبدأ عملية تكاثر الخلايا النباتية لتنمو النبتة على مخطّط الجينات ويصير لها ثمر... هذه آلية حصول الشيء، ومثلها مثل آلية زرعي لبذرة في الأرض وريّها بالماء، وتزويدي لها بالمغذيات... لتصير نبتة لها ثمر، وهذه آلية معلومة، وفي نفس الوقت يقول سبحانه وتعالى إنّه هو أخرج النبات الذي أنت زرعته، كما ورد في الآيتين 63 و 64 من سورة الواقعة {أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ، أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}، لأن عملك فيها جزء من الآلية، أمّا فعله تعالى فهو التصميم من الصفر ليصير هناك آلية تمشي عليها الأمور وينتج عنها ثمر تأكله ويغذّيك وترغب به وتلتذّ بطعمه.

(سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ{36})

{سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا}، تنزّه عن الصفات السيّئة والناقصة، تنزّه الذي ركّب وألّف كلّ الأنواع والأصناف، {مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ}، من الأشياء التي تتشكل في الأرض وتنمو وتكبر، من البكتيريا البسيطة بأنواعها، للطحالب بأنواعها، للنبات للشجر...

{سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا}، {مِنْ أَنْفُسِهِمْ}، حيث من البشر خلق سبحانه أيضاً الأزواج أي الأصناف باللون وشكل الجسم و... والذكورة والأنوثة...

سبحان الذي خلق الأنواع والأصناف العديدة، {وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ}، من مادّة وآلية لا نعلم عنها أي شيء، مما ليس أمامنا ولا تدركه حواسنا وتجاربنا، وكمثال على ذلك الملائكة(ع) حيث لسنا ندري مما هم مخلوقون ولا كيف، والجنّ المخلوقون من نار... وربما توجد كائنات أخرى لا نعلم عنها أي شيء...

إذن، هناك الكائنات المخلوقة من المادة التي تشكّلنا منها نحن والنبات والحيوان وهي الماء والتراب، وهذا التعبير القرآني يشير لما نسمّيه بالجدول الدوري للعناصر من حديد ونحاس وكربون وكالسيوم... وهناك مواد أخرى تشكّلت منها كائنات أخرى.

نحن وبقية الكائنات التي نعرفها ونتعامل معها من حولنا في بيئتنا، تعكس صفاته وقدراته الفائقة سبحانه وتعالى، التي من خلالها نرى أنه تعالى منزّه عن أي صفة ناقصة أو معيبة لأنها بتصميمها وخلقها نرى من خلالها حكمة وقوّة وقدرة وعلم... الذي صمّمها وخلقها.

كلمة زوج نقولها لعموم أي شيء مادي أو معنوي بخاصية الاقتران بشيء أو الانتماء لصنف أو نوع، هم أو هما أو هو مقترن مع آخر بالشبه أو بالنوع أو بالتلازم مع بعض... فهو زوج. وتقال للأنثى البشرية كزوجة بخاصية الاقتران بالذكر، وبالعكس تقال للذكر بخاصية الاقتران بأنثى كالاستعمال في الآية 39 من سورة القيامة {فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى}، ليس القصد أنهما متزوجان من بعض بعقد نكاح، بل القصد أنهما من نفس النوع وبينهما تشابه وإمكانية اقتران. مثله ما ورد في الآية 21 من سورة الروم {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا}...

نقول زوج للنبات بخاصية تشاركهم لوحدهم في شيء ما والاختلاف عن الأزواج الأخرى في الشكل أو الثمر كما ورد في الآية 53 من سورة طه ...{وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى}، أي أصنافاً وأنواعاً من النبات. ونستعملها للإنسان بخاصية الانتماء لجماعة والاختلاف عن الآخرين في المال أو السلطة كما ورد في الآية 88 من سورة الحجر {لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ}... حيث إنّ الكلام ليس عن زوجات الكفّار بل عن أصناف من الكفّار، وبعضهم أغنياء فلا تمدّن عينك عليهم...

أيضاً كلمة زوج تشير لعموم التنوّع في نفس الصنف كاختلاف أصناف التفّاح، وتشير للاختلاف بين الأنواع كاختلاف التفّاح عن الموز، وحتى أنها مستعملة في التشابه في شيء والاختلاف في شيء آخر معنوياً كما ورد في الآيتين 57 و 58 من سورة ص حيث وصفت أصناف العذاب بالأزواج {هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ، وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ}، ومعنوياً في الآية 7 من سورة الواقعة {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً}، حيث هناك جماعة مؤمنين من الدرجة العالية وجماعة أخرى للمؤمنين من الدرجة الأقل وأخرى لبقية عموم من سيدخل النار.

الآية تشير إلى تصميمه تعالى لنا ولما حولنا ليتكاثر وينمو من هذه المادة التي في كوننا "الماء والتراب" والتي صنّفناها بما نسميه بعناصر الجدول الدوري للمواد من حديد وألمنيوم وكربون... وبالتوقّف قليلاً عند الآية هنا ترى أن فكرنا وقدراتنا على الملاحظة والاختبار ستوصلنا لاكتشاف بعض آليات تنفيذه تعالى لما صمّمه، ولكن دائما ننتبه إلى أن معرفة الآلية لا تلغي أصل وجود من صمّم ونفّذ، فهي فقط معرفة لطريقة تنفيذه تعالى لخلق الكون.

عبر تاريخ البشرية يأتي أشخاص يظنّون أنهم فكّوا شيفرة خلق الكون، وعلموا كيف صارت الحياة، وبعدها تتغيّر معلوماتنا، ويأتي آخرون ليقولوا إنهم وصلوا لأعمق مما وصل إليه السابقون، وبعدهم يأتي آخرون ليقولوا إنّ النظريات السابقة خطأ ورأينا الحالي هو الصواب... وسيأتي في المستقبل من يقول نفس الكلام ومعه معلومات أعمق من معلوماتنا... على كلّ حال، ما هذا إلا خدش على سطح المعرفة ولن نصل إلى المعرفة العميقة، والباب مفتوح أمام مليارات الاكتشافات التي لم تخطر على بالنا الآن، لأن لكوننا أعماقاً معرفية أكثر مما نتصوّر، والجاهل المتبجّح بعلمه

القليل وحده فقط يتسرّع ليعلن وصوله إلى معلومة عن أساس خلقة الكون، ليقول إنه علم أوّل شيء حصل وأن بقية الأمور جرت على كذا وكذا وصار الكون وفيه حياة...

نعم يمكننا التخمين والاقتراب قليلاً من حقيقة ذلك، ولكننا ما زلنا بعيدين جدا جدا جدا عن فهم أساس آلية الخلق، وسبحانه لم يقيّدنا أو يمنعنا من الاكتشاف والبحث، بل بالعكس حفّزنا وشجّعنا بل وأمرنا سبحانه بالتفكّر حين سألنا لماذا لم نتفكّر كما ورد في الآية 8 من سورة الروم {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ}، وأمامنا الكثير الكثير من الأمور الرائعة التي سنكتشفها من آليات خلقه تعالى لما في الدنيا...

(وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ{37})
{وَآيَةٌ لَّهُمْ}، هناك شيء مميّز للناس، {اللَّيْلُ}، فترة العتمة من اليوم، {نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ}، نسحب عنه فترة الضوء من اليوم، حيث تصوّر الآية الضوء كطبقة منتشرة على وجه الأرض ويتم سلخها، إبعاد طبقة الضوء عن سطح الأرض، {فَإِذَا هُمْ}، الناس الذين يعيشون على الأرض، {مُظْلِمُونَ}، كل ما حولهم ظلام لا ضوء فيه. هذا أمر نشاهده باستمرار ونعتبره عادياً، ولكنه سبحانه صمّمه وجعله يحصل للدلالة لنا على عظمة قدرته.

لاحظ القرآن يكرّر الحديث عن ظاهرتي الليل والنهار في مختلف السور، ليشير إلى عظمة الظاهرتين، ونحن نعلم بالصعوبات والتعقيدات التي تمكننا من إضاءة غرفة، لأننا نحتاج لمولدات ومواد تتحوّل لطاقة ولصيانة الآلات ومشكلة التحميل الزائد وقصور في الطاقة والوقود... الآن تصوّر مشروع إضاءة كل الكوكب، من السهل جداً لفت انتباهنا لضخامة ظاهرتي الليل والنهار، هذا من ناحية.

ما يقوله البعض في التفاسير عن شبه مقصود في الآيات بين الليل والنهار وبين الموت والحياة، لا الشبه ولا التشبيه ظاهر من العبارات.

من ناحية ثانية نجد التوصيف في عموم القرآن لاختلاف الليل والنهار، وهذا تعبير مرادف لتعاقب الليل والنهار، ومرادف لانسلاخ النهار من الليل... نجد الكلام موجّهاً للشخص الواقف على سطح الأرض، لذلك علينا ألا نستغرق في التفسير الفلكي للآية، لأن مشهد الليل ومشهد النهار، مشهد الظلمة والنور، هما المقصودان في الآية فقط، وليس تفاصيل حركة الأرض ودورانها حول الشمس... ورؤية انسحاب الضوء عن سطح الأرض من الفضاء... هذا كلام لتوصيف الليل والنهار للواقف في الفضاء، بينما الكلام القرآني موجّه للإنسان العادي الواقف على سطح الأرض. الآية هنا وعموم بقية كلام القرآن ليسوا بصدد تعليمنا علم الفلك، لا، بل الآيات تتحدث مع أي إنسان عاقل بثقافته العادية التي خزّنها من تجارب حياته اليومية، ليلتفت إلى آياته تعالى...

أمّا ظاهرة استمرار النهار لعدة أشهر على القطبين وبعده استمرار الليل لعدة أشهر، فهي أيضاً آية، لأن عموم كلام القرآن عن نماذج، ومعلوم للجميع فترات تعاقب الليل والنهار على عموم مناطق الأرض، وهي آية دالة على إله صمّم وخلق، لا تجمد على كلام القرآن عن ظاهرة ما لتعتقد أنه يعممها وكأنه يعطيك درساً في الفلك أو الطب أو الفيزياء... بل ضع في بالك دائماً أنه فقط وفقط يلفت انتباهك لما تراه وتفهمه بسهولة كآية من أفعاله تعالى ودالّة عليه سبحانه، وهذا ما جعله تعالى فينا من قدرة على التعرّف عليه مما فعله، وكل ما فعله سبحانه هو آية، هو مميز، ويدل عليه وعلى صفاته...

(وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{38})
{وَالشَّمْسُ}، التي ترونها في النهار تعطيكم الضوء، {تَجْرِي}، تسير في السماء، {لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا}، تستقر الشمس تحت الأفق، بحيث لا نراها حتى تعود وتشرق من جديد.

ليس المقصود أبداً أنها تجري وستتوقف في يوم القيامة، أو تجري حول ذراع المجرة أو حول نفسها، لا، بل الذي يقف على الأرض يراها تجري من الشرق إلى الغرب، وتستقر تحت الأفق كلَّ الليل لتشرق من جديد، والآية وكلّ القرآن يتحدّث مع شخص يقف على الأرض يرى ما حوله، ولا تتحدّث مع شخص يرى المشهد من الفضاء.

للأسف ترى الناس ينقسمون بين الإفراط والتفريط، بين تخريف وشطح ومبالغة بتفسير أمثال آيتنا هذه بما يسمونه بالعلوم الباطنية لتصير تتحدّث عن حالات إيمانية... أو بتفسيرها بتطبيقها على معطيات علمية لتصير تتحدّث عن دوران الشمس حول نفسها وحول ذراع المجرة... وبين المتهمين للقرآن بأنه يعتمد معلومات علمية قديمة غير صحيحة، لأن الأرض هي التي تدور حول نفسها مسببة الليل والنهار، والشمس لا تدور حول الأرض، فليست "تجري" حول الأرض كما كان مشهوراً بين عوام الناس.

كلُّهم كلامهم مردود عليهم ولا علاقة للقرآن به، لأن القرآن أصلاً لا يطرح علينا معلومات "علمية فلكية" أو نظريات، بل يلفت انتباهنا للمنظر الذي نراه ونحن واقفون على الأرض، حيث نرى الشمس تجري فوقنا، وهذه آية دالة على إله خالق عظيم...

الأبعد عن الصواب من كلام الكافرين بالقرآن كلام من دافع من المسلمين عن القرآن، مُحَمِّلاً الآية معنى جريان الشمس حول ذراع المجرّة! وأننا الآن فهمنا الآية، وطوال كلّ السنين السابقة كانت الناس تقرأها كالببغاء، لأن الآية انتظرت ألف سنة لتصير مفهومة! هذا كلام غير صحيح، ونكرّر ونكرّر أن كلّ القرآن يتحدّث مع شخص واقف على الأرض يرى الشمس تجري لتستقر تحت الأفق، ولا يوجد في كل لغات أهل الأرض كلمات لتوصيف هذا المشهد إلا الكلمات المرادفة للكلام القرآني باللغة العربية، وكلّ أهل الأرض بمختلف لغاتهم وثقافاتهم قديماً وإلى الآن، وحتى من بعد علمنا بأن الأرض تدور حول نفسها والشمس مستقرة "تقريباً" بالنسبة للأرض، إلى الآن لا يزال كلّ أهل الأرض يصفون المشهد بأنه جريان للشمس من المشرق إلى المغرب، قائلين: أشرقت الشمس، جرت من المشرق إلى المغرب، نزلت تحت الأفق... لأنه هو المشهد هكذا.

{ذَٰلِكَ}، الذي لفتت الآية انتباهكم له من جريان الشمس في السماء هو، {تَقْدِيرُ}، شيء محسوب سلفاً وليس لوحده من دون تصميم وتخطيط، حيث قدّر سبحانه جريانها بهذا الشكل، {الْعَزِيزِ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... هنا سياق الكلام عما نراه يحصل من جريان للشمس، فهذا ما قرّره تعالى حين صمّم الدنيا وحتماً سيحصل. وهو تقدير، {الْعَلِيمِ}، عن علم فائق صمّم ونفّذ سبحانه وقدّر المدّة لما نراه من جريان الشمس في السماء.

ننتبه دائماً ونتذكّر أن القرآن لم يستعمل كلمة "قدر" بالمعنى المصطلح بيننا في مقابل القضاء، فنحن لدينا استعمال اصطلاحي لهاتين الكلمتين، واستعمل القرآن كلمة "قدر" بمعناها العادي الأساسي في اللغة العربية، بمعنى الشيء المحسوب وليس متروكاً للصدف وللظروف المتبدّلة غير المتوقعة لتتحكّم به، وهذا المعنى جزء من المعنى الاصطلاحي الذي يستعمله المتكلمون والفلاسفة، ولديهم تفاصيل أخرى أضافوها لمعنى كلمة قدر ولكنها ليست من المعنى اللغوي للكلمة بل هي معانٍ اصطلحوا عليها، حيث قالوا إنَّ القدر هو الشيء غير المحسوم، في مقابل القضاء الذي يشير لما هو محسوم، فلا تخلط بين هذا المعنى الاصطلاحي مع المعنى اللغوي الأصلي الذي عليه استعمل القرآن كلمة قدر.

بقي شيء، فالتقدير لحصول جريان للشمس من المشرق إلى المغرب هو ما تقصده الآية، وما تعلمه وذكرته آيات أخرى عن المشارق والمغارب بإشارتها لتغيّر النقطة التي تشرق منها الشمس وتغيب، وما تعلمه من قصر الليل والنهار، وما تعلمه من استمرار النهار لعدة أشهر على القطبين، وبعكسه استمرار الليل لعدة أشهر، فهذه أيضاً آيات ولكن الآية هنا لم تشر لها، بل كلامها عن نموذج محدّد.

(وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ{39})
{وَآيَةٌ لَّهُمُ}، {الْقَمَرُ}، التابع للأرض الذي نراه ليلاً، {قَدَّرْنَاهُ}، حسب سبحانه له مساره وشكله... خطّط سبحانه للقمر أن يكون له، {مَنَازِلَ}، في كل شهر يكون القمر "بالنسبة لنا" في منزل في مكان، والنزلة هي حطّ الرحال بعد رحلة،

تسير لمسافة طويلة، وكل مكان تتوقف فيه يكون نزلة، والقمر في كل شهر له نزلة يمشي من بقعة إلى أخرى من السماء، من برج إلى آخر.

المشهور قديماً وحالياً بين الناس تقسيم نزول القمر في الأبراج الاثني عشر المشهورة في القسم الشمالي من الكرة الأرضية: دلو حمل قوس... ولكن قديماً جداً كان المشهور بين العرب تقسيم منازل القمر بطريقة مختلفة على ثمان وعشرين "منزلة" نجماً أو مجموعة نجوم: الشرطان، البطين، الهقعة، سعد السعود... وهي نفسها لها أسماء أخرى: الثريا الجوزاء السمّاك... وكانوا يقسمون الفصول على غياب هذه النجوم من السماء، كلما صار أحد تلك النجوم في جهة المغرب، وغاب تحت أفق مغرب الشمس في وقت الفجر انتهى نوؤه، انتهت منزلته، انتهى الوقت من الفصل السنوي، وبدأ نوء جديد... وهكذا كان العرب يحددون بداية فصل الشتاء أو الربيع...

القمر قدّره تعالى منازل، {حَتَّىٰ}، إلى أن، {عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ}، والعرجون هو وصف لعموم أي التواء وأشهره الخشبة الملتوية التي تكون عليها ثمار شجرة النخيل "البلح"، حيث يمر القمر بمرحلة يكون شكله كالعرجون "هلال"، ومرّة ثانية يعود ويمّر بنفس المرحلة عرجوناً على شكل العرجون الذي تقدّم وكان. قديماً "في الشهر الماضي" كان كالعرجون، وهذا الشهر عاد كالعرجون القديم الذي تقدّم وحصل في الشهر الماضي، وبعده سيصير بدراً وبعدها يعود كالعرجون القديم...

هنا أيضاً التغير في شكل القمر فقط وفقط للناظر من الأرض، ولا تطرح الآية أي نظرية فلكية بل تلفت انتباهنا لمشهد يراه كل الناس من سطح الأرض ويعرفونه بسهولة.

ننتبه أنه سبحانه استعمل تشبيه القمر في حالة الهلال بالعرجون، من الواضح أنَّ لمسة الجمال في الأشكال التي يمرّ فيها القمر مقصودة منه سبحانه، والحديث هنا عن عظمة الذي خلق الحياة والكون الذي يحوي هذه الحياة، وأن هذا الكون الذي يسير بانتظام ليس جافاً، بل فيه نظرة جمالية مقصودة منه سبحانه.

نحن ننتبه لجمال الأشياء ونختار الثياب وتفصيلها وألوانها... ونختار الأثاث وأشكاله و... مع العلم أنَّ أي قطعة ثياب تكفي لستر الجسم مثلاً، لكن الجمال مطلوب من قطعة الثياب أيضاً، وهكذا خلقنا سبحانه بهذه الرغبة، وكما ترى سبحانه خلق بلمسة جمالية، ولفت سبحانه انتباهنا لذلك نلاحظه في العديد من الآيات ومنها 6 من سورة النحل {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ}، وأصلاً هو تعالى زرع فينا بذرة لمس الجمال في الأشياء، وجعلها من الدلائل عليه سبحانه.

(لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ{40})
{لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا}، ليس هناك مقدمات أو ظروف تجعل الشمس، {أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ}، أن تلحقه في جريانها وتصل إليه بحيث ننظر ونراهما معاً بقرب بعضهما "وليس أن تصل إلى قربه"، فلن تصير هي والقمر يسيران مع بعض دائماً. كلمة "ينبغي ولا ينبغي" تفهمها بسهولة من تعبير الآية 92 من سورة مريم {وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا} حيث يمكن أن يحدّد من مخلوقاته من يعتبره ولداً له سبحانه ولكن لا ينبغي ذلك، لأن هذا تصرّف غير حكيم ولن يفعله تعالى، وتفهمها على نفس المعنى في الآية 18 من سورة الفرقان {قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا}، فما كان ينبغي لهم ولكنهم فعلوه. وهكذا نرى دقّة التعبير هنا، فهناك إمكانية لحصول ترافق لمسار الشمس والقمر فوق رؤوسنا، بحيث بالنسبة لنا نحن الواقفين على الأرض نراهما يسيران معاً، ولكن لا ينبغي لأنه تعالى لم يقدّر حصول ذلك.

{وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ}، فترة العتمة من اليوم لها تقدير لزمانها ولن يتغيّر، عادةً يمر الليل وتتوقّع بعده النهار، وهذا لن يتغيّر، ولن "تتباطأ" الشمس فجأة ليطول النهار، ولن يحصل العكس، وما تراه عادياً ويتكرر من طول الليل وقصر النهار خلال السنة ثم قصر الليل وطول النهار... سيستمر هكذا، ويمكنك أن تفكّر فيها عندما نحن نؤمّن الإضاءة لمكان ما، ويحصل خلل في المولدات أو خطوط الكهرباء أو في أجهزة الإنارة... أمّا بالنسبة للأرض وهي بيئة ضخمة، فالذي خلقها صمّم لها زمناً لإنارتها ولعتمتها، ويتكرّر يومياً.

لا معنى للنقاشات التي نجدها في الكتب حول معنى نفي سبق الليل للنهار وأن الشمس لا ينبغي لها إدراك القمر، لأن الآية لا تقدّم بحثاً علمياً عَمَّن يسبق الآخر، ويمكنك إكمال الآية لتقول: ولا القمر ينبغي له أن يدرك الشمس، ولا النهار سابق الليل. البعض بحثوا في الآية مثل بحثهم في موضوع من سبق الآخر: الدجاجة أم البيضة. وكلام الآية هنا لا يتحدّث عن ذلك.

آخرون حاولوا تخريج الآية بتغيير معناها الظاهر من الكلام البسيط الذي رأوه يتعارض مع معطياتنا الفلكية حول دوران الأرض حول نفسها، بينما كل كلام القرآن من هذا النوع يشير لما يراه الواقف على الأرض، وما نراه بالنسبة لنا جريان للشمس بمعزل عن جريان القمر بحيث لا يترافقان هو الآية.

بعبارة أبسط، كل أفعاله تعالى، ومهما كان نوعها، من أعقد المعلومات بالنسبة لنا والتي تحتاج لتخصصات علمية ودراسة سنوات لفهمها، مروراً بما تفهمه بعد تعمّق قليل به، وصولاً إلى أبسط ما تفهمه بمجرد الانتباه له، كله آيات، كله أمور مميزة، وكلّه يدلّ عليه تعالى، وللأسف ولأسباب عديدة غير سليمة، يصرّ البعض على أن القرآن لا يعرض أموراً بسيطة سهلة على الفهم، وكأن آيات أفعاله تعالى إن كانت سهلة على الفهم لن تكون آية! ويصرّون على إلصاق إعجاز علمي بالقرآن، وأن آياته كانت مبهمة وفككنا شيفرتها من بعد تطوّر علومنا، وكأنه يجب على القرآن أن يقدّم لنا معلومات جديدة، وكأنه من المعيب أو بلا قيمة لفته انتباهنا لأمور معلومة بالبساطة للجميع.

هذه العقلية أدّت منذ القدم إلى بروز تفاسير لم يقصدها القرآن، ولها جمهور كبير يرغب بسماع ما يبهره مما يستغربه، وما لا يفهمه، وهكذا بنظرهم يصير لكتابهم المقدّس الخاص بهم، يصير له قيمة عالية بنظرهم لأنه معقّد وغريب عجيب، وكلما استعصى عليهم فهمه زادت قيمته في نظرهم! ويتباهون أمام الآخرين بكتابهم المقدّس المليء بالأسرار التي لا نفهمها... وتحتاج لتقدّم علمي لنفهمها... هؤلاء لا يرضون ببساطة الكلام القرآني المفهوم بسهولة، وهم ناسون متجاهلون أنه تعالى بكلامه يريد لفت انتباهنا لأفعاله مما نفهمه بسهولة لنتعرّف عليه سبحانه، هذا هو أصلاً المقصود بكلامه تعالى معنا فيما يسمّى بقرآنه هذا، لهدايتنا بأبسط الطرق، للفت انتباهنا وتذكيرنا بأفعاله التي نفهمها ونراها بسهولة دالة عليه سبحانه، وهو سبحانه تقصّد في خلقه لما في الدنيا الإكثار من الأفعال "الآيات" وتنوّعها وبساطتها وتعقيدها ليكون تعرفنا عليه سهلاً جداً.

نرجع للآية، {وَكُلٌّ}، من الشمس والقمر، {فِي فَلَكٍ}، في مسارات وطرقات، {يَسْبَحُونَ}، كل واحد منهما له فلك خاص يسبح فيه، كما تسبح السمكة في الماء حيث تراها معلّقة في الماء، تنزل وتصعد وتقف ولا ترى أي شيء يمسكها كذلك الشمس والقمر مثل السمكة في الماء، تراهم سابحين "معلّقين بلا خيوط ولا دعائم..." في الفضاء.

كلمة يسبحون من أروع الوصف لحالة سيران الشمس والقمر في أفلاكهم، في مشهد مسارهم وطريق دورانهم للواقف على الأرض، وبالخصوص إذا نظرت إلى القمر في الليل معلقاً في الفضاء هكذا لوحده في فضاء أسود، عندها ستنتبه لجمال وصفه بالسباحة في الفضاء.

ضع في بالك استعمال كلمة يسبح هنا، لأنها نموذج واضح لك عن استعمال القرآن لكلمات اللغة العربية من بعد تفريغها من الإضافات، وصف السباحة هنا للشمس والقمر يشير لشيء عائم بلا خيوط أو دعائم... وهذا المعنى بعد تفريغ "السباحة" من الإضافات التي تخصّصها للشيء العائم على الماء، ونفس الاستعمال لوصفه تعالى بأنَّهُ له يدٌ ووجهٌ وسميعٌ وبصيرٌ... ويحبّ ويكره... هذه الكلمات مع الإضافات لاستعمالها لوصف البشر سينتج عنها أمور لا تنطبق عليه سبحانه، لأنه سبحانه لا يتأثر بأي شيء، ولكن موقفه من الأمور غضب أو كره أو حبّ... وسبحانه ليس كمثله شيء فليس له أعضاء، ولكن تعامله مع الأمور نصفه بكلمات من لغتنا البشرية بكلمات نستعملها نحن لوصف البشر، حيث يرى سبحانه ولكن من بعد تفريغ كلمة يرى من الإضافات البشرية التي تحتاج لعضو العينين، وعندها يصير الوصف لرؤيته تعالى للأشياء بدون عينين، وكذلك حين يفعل تعالى شيئاً ما، فنحن بالعضو "يدنا" نفعل، ومن بعد تفريغ الكلمة "يد" من متعلقاتها البشرية نستعملها لوصف ما يفعل به تعالى.

(وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ{41})

{وَآيَةٌ لَّهُمْ}، وشيء مميّز للناس، كعلامة ودلالة من أفعاله سبحانه بأنَّهُ هو الإله المصمّم المخطّط والخالق المقدِّر... {أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ}، حملنا المنفصلين عنهم "بالولادة أو بغيرها"، أولادهم وأولاد أولادهم... {فِي الْفُلْكِ}، في الأشياء التي تعوم على وجه الماء، {الْمَشْحُونِ}، الذي يمكنه حمل "شحن" الأشياء لتنتقل من شاطئ لشاطئ في مكان آخر. الفلك يشمل السفينة والمركب والعبّارة والفلوكة والقارب والزورق وغيره، والفلك المشحون هو السفن أو المراكب التي نستعملها لشحن الناس أو الأغراض عليها، والآية تتحدث عن الذين يستعملون البحر للسفر والانتقال ونقل الأغراض والبضائع... من بلد إلى بلد.

لاحظ كيفية توجيه الحديث، لأنه سبحانه لا يفصلنا عن بعض، وينظر إلينا كلنا كمجموعة بشرية واحدة، متحدثاً معنا كمجموعة واحدة، بحيث إذا استعمل بعض الناس السفن وانتقلوا بها من مكان لآخر، تراه سبحانه يخاطبنا كلنا، كجنس بشري استعمل التنقّل في البحر، أوّل جيل اكتشف استعمال الفلك، بعده انتقلت ذريته من مكان لآخر في الفلك. يمكنك مقارنتنا مع غالبية الحيوانات التي لا يمكنها نقل خبراتها واكتشافاتها لذريّتها، حيث هناك جيل من البشر صنع الفلك ومن بعده أجيال ورثت الخبرات وانتقلت بالفلك من مكان لآخر.

استعمال السفن أمر عادي، ولكن له عمق، الماء ونوعيته وكثافته وحجمه وتركيبته و... والمستوعب الذي يحويه، والأرض التي تحوي الكل، والجاذبية، والخشب وكيف نما من بذرة وصار خشباً... ثم سفينة... والكثير الكثير من التفاصيل... ومعها فكرنا وملاحظتنا لعوم الأشياء على الماء وخيالنا وتصوراتنا التي جعلها تعالى فينا... نتج عن ذلك صناعتنا للفلك... وهكذا ترى أنها غير عادية بل من ورائها خالق دبّر الأمور بعظمته.

لو أنت قررت خلق كائنات، وصمّمتها جاعلاً في الكائنات فكراً وملاحظة وخيالاً... ووضعتها في بيئة فيها قابلية صنع المخلوقات لسفينة، فأساس تصميمك تضمّن علمك بقابلية وصول الكائنات إلى زمن يصنعون فيه سفينة. هكذا سبحانه صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا، ولم نفاجئه سبحانه باستخدام قدراتنا وما حولنا لنصنع شيئاً لا علم له به سبحانه، وبعبارة مبسطة فيها الكثير من التساهل، نحن لم نخترع شيئاً لم يخطر على "باله" سبحانه وتعالى. بناء عليه كل ما نصنعه يعلم سبحانه به سلفاً، وكان من ضمن تصميمه تعالى لنا ولبيئتنا، وهو العالم بكل ما يمكن أن ينتج عن ذلك، وبالتالي يكون كل ما نصنعه نحن صنعه تعالى على معنى الآية 64 من سورة الواقعة {أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}.

(وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ{42})
{وَخَلَقْنَا لَهُم}، ركّب وألف سبحانه للناس، {مِّن مِّثْلِهِ}، من الأشياء المشابهة لتلك الفلك، وهي الأشياء التي تنقل البشر وأغراضهم من مكان إلى مكان، {مَا يَرْكَبُونَ}، ما يستقرون على متنه ويقطعون به المسافات في البحر، أو في البرّ كالأحصنة والعربات التي تطورت لسيارات وبعدها لقطارات، أو في الجو كالطائرات. مثلما نعلم أنَّهُ في الطبيعة لا يوجد سفن جاهزة ولكنَّهُ تعالى خالقنا وخالق بيئتنا والعالم بما سينتج عن ذلك... لذلك ينسب لنفسه إنشاء السفن والسيارات والطائرات... مثلما سبحانه ينسب خلق السماوات والأرض لنفسه، وينسب خلق الحياة على الأرض لنفسه، وينسب خلق النبات والشجر الذي نزرعه نحن لنفسه كما ورد في الآية 64 من سورة الواقعة {أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}، وينسب خلق السفينة لنفسه.

الغالبية الساحقة من المؤمنين عادةً يقولون أنَّ خلق السماء والأرض والحياة كان مباشرة منه سبحانه "بلا آليات"، يقولون: خلق الله تعالى الأرض، وخلق الإنسان. ويقصدون أنَّهُ تعالى خلقهم مباشرة "وفوراً"، كن فيكون فوراً، ولكن يقولون: خلق سبحانه السفينة لأنه هو تعالى خلق الإنسان مع فكر وخيال مكّناه من ملاحظة عوم الأشياء على الماء... وهو تعالى خلق الشجر الذي نصنع منه السفينة، فسبحانه لم يصنع السفينة مباشرة بل صنعها بشكل غير مباشر.

هل لاحظت؟ الأشياء التي كنّا أو لا نزال نجهل كيفية حصولها، ونجهل آليات حصولها، كالمادة والسماء والأرض والمطر ونشأة الحياة... قلنا عنها أنّها من صنعه تعالى مباشرة، ولكن الذي نعرف كيفية صنعه كالسفينة... نقول أنَّهُ سبحانه خلقه بشكل غير مباشر، ولكن هذا غير صحيح، لأنَّهُ سبحانه خالق كل شيء، سواء الذي نعرف آلية صيرانه،

أو الذي نصنعه نحن، أو الذي لا نعرف عنه أي شيء، فجهلنا لآليات حدوث الأشياء ليس الدليل على أنَّهُ تعالى صنعها، ومعرفتنا بآليات حدوث الأشياء ليس دليلاً على أنَّهُ لا حاجة لإله ليصنع الأشياء، كلا التفكيرين خطأ.

نفهم ذلك بسهولة من مثال تصوّرك لنفسك أنت وقرّرت خلق كائنات في بيئة، وكانت قدراتك عالية لدرجة توقّعك لكل ما سيحدث في تلك البيئة ولكل ما ستفعله الكائنات في تلك البيئة، بينما سبحانه لا يخمّن ولا يحتمل بل يعلم بالتفصيل بكل ما سيجري، وسلفاً كان من ضمن تصميمه لما في الدنيا أن يحدث فيها ما حدث وسيحدث، وكل شيء من فعله سبحانه، ومن عموم كلام القرآن نفهم أنَّهُ تعالى صمّم بذرة ما "ولست أقصد حصراً الإشارة لشيء صغير كما هو دارج في نظرية الانفجار الأعظم"، ومن البذرة سينتج سبع سماوات في ستة أيام "مراحل"، وصولاً إلى نشأة الحياة على الأرض... وآلية ترابط الأمور المؤدية إلى النتيجة، إلى صيران ما في دنيا المخلوقات، كلّها من فعله سبحانه.

أمّا الفهم الساذج الطفولي لكلامه تعالى على أن كل الأمور أو معظمها تحدث بشكل عجائبي بدون أي سبب، وتحدث فقط لأنَّهُ تعالى قال لها كوني، فهذا فهم ساذج طفولي لا نراه من كلامه تعالى بعد مقارنة أفعاله تعالى التي نجهل آليات حصولها مع أفعاله تعالى التي نعرف آليات حصولها، حيث نجد أنَّ الكل وبنفس المعنى من فعله تعالى.

(وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ{43})
{وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ}، أمامه تعالى خيارات عديدة ويمكنه تعالى أن يقرّر موت الناس غرقاً: بانقطاع نفسهم تحت الماء. الفلك ينقلنا على سطح الماء، ولكننا لا نزال ضعفاء وبقدرات محدودة، وحياتنا هشّة وأضخم السفن لن تحمينا من الغرق إذا قرّر تعالى "بحكمته لسبب أو لآخر" أن يغرقنا، {فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ}، أي صوت عالٍ يصدر منهم لطلب النجدة لن ينفعهم لأنَّهُ لا يوجد من يمكنه سماعهم وينقذهم غير الذي قرّر موتهم، هم سيصرخون ولكن لا يوجد من يسمع صراخهم ويمكنه مساعدتهم، {وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ}، ولا يمكن إنقاذهم "تخليصهم" من الغرق. إذا شاء تعالى أن يغرقهم لا يوجد أي قوة يمكنها منع حصول ذلك مهما علا صراخهم لها لتنقذهم.

نفهم الكلام إذا قارنّاه مع المتبجحين بالاختراعات من الطيارات والسفن البحرية النووية... والسفن الفضائية، والجرافات الضخمة التي تقضم الجبال... الذين بعضهم يتكلّم من خلفية الزهو بالعظمة، مثل ما يسمّى بالقوى العظمى التي تمتلك ترسانة من القنابل النووية، ولكن أصغر كارثة طبيعية من زلزال أو إعصار... تبيّن أنهم ضعاف جداً جداً. هنا الكلام عن حالة الضعف هذه، كلما اكتشف الإنسان شيئاً، نبذ من يزهو متفاخراً وكأنَّهُ مسيطر على الدنيا! هكذا تأتي أمثال آيتنا هذه لتذكّره بحجمه الطبيعي كإنسان مخلوق ضعيف أمام ما يقرّره سبحانه.

بالمناسبة، نتذكّر أشهر حادثة في التاريخ عن غرق السفينة المسمّاة "تايتنك" وشبيه هذه الكلمة بالعربي "المارد"، التي قالوا في الدعاية لها عن استحالة غرقها، وغرقت في أوّل رحلة لها، هي نموذج تطبيقي بارز لما تقوله الآية هنا.

كلام الآية عن نموذج "إن شاء تعالى" إغراق سفينة، والكلام هنا يهدف للفت انتباهك لحجم قدرتنا العاجزة أمام عاصفة تميتنا غرقاً، فلا تجمد على الآية وكأنَّهُ تعالى عبثي في قراراته فإن شاء أغرق هذه السفينة أو تلك، ولا تكن متجاهلاً للمعنى المحدّد لسياق الكلام هنا، ومتجاهلاً لبقية القرآن الشارح لك لماذا تحدث معنا الحوادث، وتوسّعنا في دراسة ذلك في عدة آيات كان كلامها عن ذلك ومنها الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، وملخص الكلام القرآني عن ذلك أنَّهُ تعالى خلقنا في بيئة امتحان نتعرّض فيها للكوارث بشكل طبيعي، وأحيانا يتدخّل سبحانه مانعاً حدوث الكوارث وذلك بحسب درجة صلاح المجتمع الذي سيتعرض لكارثة... وبالعكس يتدخّل سبحانه أحيانا لإحداث كوارث مميتة كعقاب سببه الفساد من العيار الثقيل عند بعض المجتمعات من الناس، وبين الحالتين حالة تركه تعالى للكوارث تحدث والناتجة عن فساد الناس من حروب وفساد حكومات مؤدية إلى الإهمال وحدوث أضرار من كوارث كان بالإمكان تفاديها...

مقابل ذلك هناك حالة النعمة الناتجة عن صلاح مقبول من مجتمعات من الناس في تصرفاتهم، حتى لو كانوا كافرين مشركين ملحدين به تعالى، فليس في القرآن كلام عن تدخّله تعالى لإحداث كوارث لهم فقط بسبب كفرهم به، بل دائماً السبب لتعذيبهم في الدنيا هو فساد تشريعاتهم وسلوكياتهم من العيار الثقيل، وبالخصوص يكون سبب تعذيبهم هو أذية المجتمعات الأخرى، وذكر لنا القرآن نماذج عن أقوام عذّبهم وذكر لنا مراراً سلوكهم وتشريعاتهم الفاسدة التي أدّت

لذلك، ولكن في حالة قوم النبي نوح(ع) لم يكثر الكلام عن فساد سلوكهم وتشريعاتهم إلا مرة واحدة في الآية 52 من سورة النجم {وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ} من قوم عاد.

(إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ{44})
{إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا}، يمكن إنقاذهم من الغرق برحمة منه تعالى، بعناية لما فيه مصلحتهم ليكون عمرهم أطول، {وَمَتَاعًا}، استفادة من الحياة وما فيها، {إِلَىٰ حِينٍ}، إلى زمن لاحق محدّد لموتهم.

بعبارة ثانية، إذا حصل حادث غرق ونجا الناس من الموت فليس بقدرة فوق قدرته سبحانه نجوا، بل لأنَّهُ تعالى سمح بنجاتهم وتمتعهم بالحياة حتى يحين لهم موعد الزمن الذي سيموتون فيه.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{45})
{إِذَا قِيلَ لَهُمُ}، إذا قال الرسل للكافرين، أو شخص مؤمن أو عبر هذا القرآن قال لهم: {اتَّقُوا}، تحاشوا وتجنّبوا، وهنا الكلام عن تجنّب عقابه سبحانه في، {مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ}، في الأمور التي تتصرفون فيها مباشرة، في تصرفاتكم في أثناء حياتكم، {وَمَا خَلْفَكُمْ}، وبالأشياء التي تحصل خلف حياتكم أي بعد موتكم، وهي الأمور السيئة التي قمتم بها وبقي لها أثر، كتشجيعكم للآخرين على فعل السيئات، فهذه أولاً من بين أيديكم، وبعد ذلك إن فعلها الآخرون بسببكم، ستتحاسبون أيضاً عمّا فعلوه، وحتى بعدما تموتون سيتم إضافة السيئات إلى حسابكم كلما فعل أحد ما سيئة لكم علاقة بها، فهذه من خلفكم، ولمزيد من التوسّع حول وزر السيئات المضاف لشخص ما والناتج عمّا فعله الآخرون راجع دراسة الآية 12 من هذه السورة وراجع أيضاً دراسة الآية 13 من سورة العنكبوت {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ}.

نرجع للآية، {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}، فإن اتقيتم فمن المفروض ومن المتوقّع أن تشملكم العناية الإلهية بما فيه مصلحتكم، فيغفر سبحانه لكم ويضاعف حسناتكم...

تعامله سبحانه معنا معلوم وواضح، فمن كفر له عقاب، ومن آمن سيعامله تعالى بعناية خاصّة أهمّها مغفرة ذنوبه، وعندما نقرأ في آية ما كآيتنا هنا {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} فهذه "العلّ" ليست من جانبه تعالى، بل محسوم من جانبه تعالى الرحمة لمن آمن، وأمثال آيتنا هنا {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} معناه: إن اتقيتم، {لَعَلَّكُمْ}: فمن المفروض ومن المتوقّع، أن تصيروا تحت الرحمة الإلهية الخاصّة بالمؤمنين، وإن لم تتقوا فقد خرجتم من تحت مظلة الرحمة الإلهية.

نلاحظ الآية مقطوعة الجواب، حيث قيل لهم اتقوا الله لعلكم ترحمون، من المتوقع أن تكون تكملة الآية وجوابهم: نعم سنتقي الله تعالى. لكن لم يحصل هذا الجواب من الناس المعاندين، ولذلك نلاحظ الآية مقطوعة وكأنها متوقفة عن الكلام فجأةً وناقصة لأن الكافرين من العيار الثقيل لم يتقوه تعالى، كما ستعرف من الآيات التالية، لذلك لم تذكر لنا الآيات جوابهم، وانتقلت إلى سبب تركهم للتقوى، وهو إهمالهم وكفرهم بالآيات التي تصلهم.

سترى في الآية التالية والتي بعدها أن تقواه تعالى هي نفسها فعل الصالحات وترك السيئات وأن على ذلك جزاءً في الآخرة، وأقول لك هذا لأن أساس حسابه ومجازاته تعالى لنا مبنيٌّ على ما فينا من قدرة على تمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، حيث إنَّ القرآن لا يدعونا للتدين بأشياء غريبة عجيبة، بل يدعونا لتفعيل الصلاح وهجران السوء، وهذا هو نفسه تقواه تعالى بلا فرق...

ضع في بالك دائماً أن كلمة "العل" تشير لعموم ما هو مفروض ومتوقّع حصوله، وتارة يكون الكلام عني وعنك، فآمرك بشيء وتتوقّع أنت مني شيئاً، فأقول لك: ...لعلّي أجازيك بمكافأة. وهناك احتمالات، لربما لا تقوم بما أمرتك به عندها لن تستحقّ المكافأة، وربما أنا يتغيّر حالي ولا أستطيع مكافأتك، أو ربما أغيّر رأيي... أمّا بالنسبة لاستعمال كلمة "العلّ" حين يكون سبحانه طرفاً فيها، فمن ناحيته سبحانه جاهز دائماً للعناية للرحمة بمن اتقاه، فيغفر له ويضاعف حسناته... ولكن الناحية الثانية من جانبنا نحن هي التي فيها الاحتمالات، فإذا اتقيناه تعالى تماماً في كلّ شيء عندها حتماً سننال الرحمة، ولكن من المعلوم أن التقوى بهذا الشكل حالة قليلة، وغالبيتنا سنتقيه تعالى في أشياء ونعصيه في أشياء، ومن غير المحسوم نيلنا الرحمة، وربما اتقيناه تعالى في كلّ شيء ولكن قتلنا ظلماً وعدواناً نفساً بريئةً، وهذا

سيسبب اللعن وهو الطرد من الرحمة الإلهية، ولهذا وأمثاله لم يحسم القرآن شمولنا بالرحمة حتماً واستعاض عنه بتعبير "العلّ".

استبدل كلمة "العلّ" في كل المواضع التي وردت في القرآن بـ: من المفروض ومن المتوقّع. وسترى معاني الآيات سهلة ليست بالتعقيد والشرح الطويل المنتشر في التفاسير لتبرير ما يظهر منها من معانٍ غير سليمة بسبب حملها على معنى التمني والترجي والإشفاق والإطماع... مثل قولك: ادرس لعلك تنجح. إن لم تدرس ليس من المتوقّع ولا من المفروض نجاحك، وإذا درست بالشكل المطلوب وكنت فاهماً لدروسك عندها من المفروض والمتوقّع نجاحك.

(وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ{46})
لم يقولوا سنتقي الله تعالى، لأن هذا النوع من البشر قلبه قاسٍ لدرجة أنه:

{وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ}، أي شيء مميز، بدلالته على صفاته وقدراته سبحانه وعلى صحّة ما يقوله الرسل(ع)، {مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ}، من الأمور المميزة المنسوبة للمسؤول عنهم من مستوى إلهي، مثل ما سبق وذكرته السورة من آيات النبات والليل والنهار والفلك... سواء أكانت الآية قرآناً أو رسولاً يتكلم بالحقّ أو لفت الانتباه إلى إخراج النبات أو للنظام الشمسي أو عوم السفينة أو... {إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ}، لا يرون أهمية لتلك الآيات، فلا يعتبرونها شيئاً له قيمة، ولذلك هم لا يتقونه تعالى لأنهم لا يؤمنون بإعادة إحيائهم في الآخرة.

بالنسبة لكلمة آية فمعناها العام يشير لأي شيء مميز بشيء ما، سواء مميّزٌ بدلالته أو بقيمته أو بشكله... فنقول: آية في الجمال، أفعاله تعالى آية، كلامه تعالى آية... ومن سياق الكلام ترى ما المميّز في الشيء حتى يوصف بالآية، فجملة "آية في الجمال" تشير لجمال مميز، وآية في العلم تشير لعلم مميز. وكل أفعاله تعالى مميزة لأنها من مستوى إلهي، هكذا تكون كلها آيات لأنها تحتاج لقدرة إلهية لفعلها، وكل أفعاله تعالى دالة عليه فهي آيات بتميّزها وبدلالتها عليه سبحانه، وكلامه تعالى في قرآنه آيات، فهو كلام مميز بصدوره عن الإله.

هذا هو المعنى الأساسي للكلمة وهكذا استعمله القرآن، فلا تخلطه مع أمور أخرى اصطلاحية اشتقاقية، وبعض سياق الكلام القرآني يشير بالآية لكلامه القرآني سبحانه، وبعضه يشير لأفعاله سبحانه، وبعضه يشير لدلالة أفعاله عليه سبحانه.

نقول هذا لأن بعض الناس وبضبابية يفسرون كلمة آية في العديد من السور بإشارتها لما يصطلحون عليه بالمعجزة، وهي كلمة لم ترد في القرآن وصفاً لأفعاله تعالى بالمعنى الذي اصطلحوا عليه.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{47})
{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ}، إذا قال لهم الرسل أو أحد المؤمنين أو عبر هذا القرآن: {أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ}، أعطوا المحتاجين من الأشياء التي جعلها تعالى معكم مما تسدّون به حاجاتكم ورغباتكم، من المال أو المحاصيل الزراعية أو الحيوانية التي حصلتم عليها منه تعالى حيث أتاحها لكم وقدّر لكم أن تصير ملككم.

{قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، قال الذين أنكروا دينه تعالى: {أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ}! هل يجب علينا تأمين الطعام للناس الذين تركهم الله تعالى بلا طعام؟!

أنتم تقولون لنا بأنه سبحانه رزقنا، ويأمرنا بالإنفاق على الآخرين، حسناً، بدل أن يأمرنا كان بإمكانه سبحانه أن يرزقهم، فمن الواضح أنه تعالى لم يشء أن يرزقهم وتركهم هكذا، فهل نتدخل نحن في المشيئة الإلهية ونخالفها!؟

سواء اعتبرناهم يؤمنون بالله تعالى إلهاً، ويؤمنون بآلهة أخرى معه "أو لا يؤمنون بأي إله"، وليسوا مقتنعين بالشريعة التي تأمرهم بمساعدة الفقراء، أو اعتبرناهم يسخرون من الكلام الديني الذي يقول بأنه تعالى رازقهم، بناءً على كل الأوجه هم يقولون: هي الإرادة الإلهية أن نكون نحن أغنياء وهم فقراء، فليموتوا من الجوع وهذه ليست مسؤوليتنا طالما تؤمنون بأن الرزق بيد الله تعالى فلماذا لم يرزقهم هو.

{إِنْ أَنتُمْ}، أيها القائلون لنا بأن نتصدّق فأنتم فقط، {إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}، من الواضح بأنكم لستم على الحقّ والعقلانية ولا تدرون ماذا تقولون.

لاحظ الآية قبل السابقة أيضاً كان جوابها مقطوعاً، والآية التي تلتها كانت شارحة للجواب، وهنا الجواب مقطوع والآيات التالية شارحة للجواب، نراهم هنا الآن يقولون هذا الكلام، وأمّا بعدما يموتون ولا يعد بإمكانهم الاستجابة للأمر الإلهي بالإنفاق على المحتاجين، ولا توصية أهلهم بالإنفاق مما تركوه بعدما ماتوا... هل سيبقى كلامهم الذي قالوه هنا في الدنيا هو نفسه بعدما يموتون؟ لا... وحين نصل إلى تلك الآيات سترى هذه المعاني.

نتذكّر من الآيات 33 وما بعدها لفت انتباهنا لخروج النبات كونه فعلاً إلهياً، لأنه سبحانه المالك الأصلي، وأتاح الأرزاق لكل عباده، وسمح لهم باقتنائها، فمن الواضح من النظرة الإلهية، أن رزقه تعالى مفتوح متاح للجميع، حيث رزق الجميع ما يكفيهم ويزيد عن حاجاتهم، والأغنياء إنما صاروا أغنياء بتجميعهم لرزقه تعالى فوق ما يحتاجونه، ولذلك صار هناك فقراء، طبعاً تجميع الثروة "الغنى" ليس مذموماً في القرآن، إنما المذموم ألا ينفق منه الغني على الفقراء، لذلك عندما يأمر سبحانه الأغنياء بالإنفاق على المحتاجين، فمن الواضح أمره تعالى لهم بالرجوع إلى الوضع الطبيعي حيث سبحانه أتاح الرزق للجميع ولكن أنتم جمّعتم فوق ما تحتاجون، فأنفقوا منه على من يحتاج... أو على الذي حالياً يمرّ بظروف صعبة، فساعدوه...

هناك أمور عديدة ذكرها القرآن كأسباب لحالة الفقر والمسكنة، بعضها يتعلّق بالفساد التشريعي بين الناس، وبعضها يتعلّق بالذنوب كأسباب لحدوث فقر... ولن نتوسّع فيها لأن السورة هنا تركيزها على الأمور التي من الواضح أنها حقّ وصلاح "مساعدة المحتاجين" وفي مقابلها أناس يرفضونها.

ضع في بالك أن القرآن جعل الإنفاق واجباً دائماً على من يحتاج المساعدة، وكلامه عادةً ليس عمّا نسمّيه بالصدقة المستحبة، التي تعني مساعدة الآخرين في أمور غير ضرورية، وبناء عليه، ما معنى أي كلام أمام حالة جائع ترفض إطعامه مما زاد عنك من طعام؟ مهما فلسفت الأمور وطرحت جملاً منمقّةً... هل هذا سيغيّر من وجوب مساعدة الغني للمحتاجين؟

من أهمّ ما يعرضه القرآن ولا ننتبه لأهميته هو ما نسمّيه: الجوانب الإنسانية. مساعدة الآخرين المحتاجين للطعام وإلا سيموتون من الجوع أو سيسوء وضعهم الصحّي، فهل يناقش في هذا إنسان عاقل؟ هذا ما يأمر به تعالى مراراً وتكراراً حتى ألصقه القرآن بالتوحيد والصلاة، فإمّا أن يذكر القرآن الزكاة أو الصدقة أو يستعمل تعبير الإنفاق...

هنا ترى كلام السورة عن توحيده تعالى وذكر الآيات الدالّة على ذلك، وانتقالاً مباشراً منه إلى الأمر الإلهي بالإنفاق على المحتاجين، كأنه قفزة وخروج عن الموضوع، لا، بل هذا هو دينه تعالى مترابط بالعلاقة بيننا وبينه تعالى "الإيمان بالحقّ" وبين بعضنا البعض "بالعمل الصالح"، ومساعدة المحتاجين من أوليات ما يدعونا إليه تعالى، فبماذا يكفرون؟ هل يرفضون دينه تعالى لأنه يدعوهم لمساعدة المحتاجين، وينكرون الآخرة لأنهم لا يريدون الإيمان بعقاب لهم على تركهم المحتاجين بلا مساعدة؟

هذا هو لبّ كل القرآن في كلامه الهادي، فلو كان القرآن يدعونا لفعل عمل سيّء، ولو عملٍ صغيرٍ سيّءٍ، لكنت أنت "وأنا" من الكافرين به والمحاربين له، فأي دين هذا الذي ستدين به وأنت تعلم بأمره لك بفعل السوء؟ من هنا نفهم دعوته تعالى لنا فقط وفقط للهداية للحقّ والخير والصلاح بمعناها الذي نفهمه نحن بما نميّزه "بسلامة القلب" بين الحقّ والباطل... وبناء عليه فالذين يكفرون بدينه تعالى، الرافضون لتوحيده حتى لا يكونوا مجبورين على الالتزام بدينه، المنكرون للآخرة حتى لا يصيروا ملزمين بدينه تعالى وإلا تجازوا بالعقاب... ولذلك ينكرون كل الآيات الدالة على صحّة التوحيد وحتمية حصول الآخرة... فهؤلاء ماذا يرفضون؟ هكذا نرى آيتنا هنا الآمرة بالإنفاق على المحتاجين تأتي مباشرة بعد الكلام عن الآيات الدالة عليه تعالى، وتلك لفت انتباه لما هو حقّ واضح ظاهر، والإنفاق نموذج عن أوامره تعالى التي سنتجازى على مخالفتها.

ليكن هذا نموذجاً لنا عن سلامة القلب، عن العاقلين، عن العالمين، عن الأحياء، عن ذوي الألباب... التي يشير إليها القرآن كصفات للذين يؤمنون بكلامه، وهؤلاء حين يسمعون أمراً بالإنفاق على المحتاجين، سيتماشى هذا الأمر مع

فكرهم ونفسيتهم، وسينظرون نظرة احترام إلى الدين الذي يأمر بذلك، وسيؤمنون به... وبالعكس، هناك من سيكفر بالدين الإلهي بسبب أمره بالإنفاق على الآخرين! وهم فلاسفة في تبريراتهم كما تقرأ من النموذج الذي تطرحه الآية هنا! هذا ما تشير له آيتنا هنا مستخدمة مسألة الإنفاق على المحتاجين كأبرز نموذج واضح عن صلاح ما يأمر به تعالى ويحاسب عليه.

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{48})
هؤلاء يسخرون من المؤمنين الذين هددوهم بأنَّهُم إذا لم يتقوا الله تعالى عموماً بترك السيئات وكنموذج عن ذلك: إذا لم ينفقوا في سبيله، فإن يوم الحساب قادم، لذلك يسخرون منهم قائلين:

{مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ}، ما هو توقيت تحقّق الكلام عن حصول الآخرة والحساب والجزاء، متى سيأتي اليوم الذي تهددوننا به؟ {إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، إن كان أصلاً هناك يوم نعود فيه إلى الحياة لنتحاسب ونتجازى.

سنرى من الآيات التالية أن عدم معرفة زمن وقوع الحدث لا ينفي حتمية وقوعه.

(مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ{49})
{مَا يَنظُرُونَ}، من كلمة إنظار التي درج استعمالها مع تاء: انتظار. والزمن الذي سيمرّ لحصول الوعد، {إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً}، صوت ينتشر على عدد كبير، أمر واحد ينتشر ويصل إلى عدد كبير من الناس، حيث يرون حصول موتهم ومحاسبتهم بعيداً بل مستحيلاً، بينما هو متوقّف على أمر واحد منه تعالى، ولمجازاتهم ينتظرون صيحة، ويكون الأمر الإلهي منتشراً على عدد كبير من الناس ليقع عليهم، ويعبّر القرآن عنه بالكلمة العربية الواصفة لهذه الحالة بالصيحة، وتساهلاً نقرّبها بالصرخة القوية.

لمزيد من التوسّع حول كلمة صيحة راجع ما ذكرناه في دراسة الآية 29 من هذه السورة.

{صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ}، فلا تتركهم أحياء وتسحبهم من الحياة، يموتون، {وَهُمْ يَخِصِّمُونَ}، يخاصمون المؤمنين، والخصام هو عموم أي خلاف يسبّب حالة نفسية بين شخصين من النفور والكره وصولاً إلى العداوة، حيث يختلفون مع المؤمنين مع نفسية النفور والكره والعداوة.

بعبارة ثانية، بينما هؤلاء الكفار يختصمون مع المؤمنين ويقولون لهم: لا يوجد يوم للحساب ومعنا حقّ. في هذه اللحظة من المخاصمة هم تحت قدرته سبحانه الذي يسمعهم، ويستطيع أن يأمر الآن بموتهم كلّهم دفعة واحدة، وبأمر واحد منه تعالى ينتشر عليهم فينفّذونه كلّهم غصباً عنهم، بصيحة واحدة: موتوا. كما حصل مع أصحاب القرية التي جاءها المرسلون، وكما حصل مع عاد وثمود... وعندها:

(فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ{50})
هؤلاء الكفار عندما يفقدون الحياة فجأةً، ويفقدون السيطرة وحرية التصرف التي كانت ممنوحة لهم في الدنيا ويموتون فجأةً:

{فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً}، لا يمكنهم ترك تعليمات لتصير من مسؤولية غيرهم تنفيذها، ولا يمكنهم ترك وصية لمن بقي حيّاً حتى ينفّذ لهم شيئاً ما، وهنا وبحسب سياق الآيات السابقة وكمثال، هم ماتوا وفي هذه الحالة لا يمكنهم الطلب ممن بقي حيّاً أن ينفق مما تركوه على الفقراء، لأنهم ماتوا وخرجوا من حالة التكليف، ولم يعد هناك تواصل بينهم وبين مالهم لينفقوه على المحتاجين، ولم يعد بإمكانهم التواصل مع الأحياء ليوصوهم بإنفاق مالهم على المحتاجين.

{وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ}، ولا إلى الذين ينتمون إليهم كأقاربهم وعائلتهم... {يَرْجِعُونَ}، لأنهم من بعد موتهم ينقطع التواصل مع الأحياء ليوصوهم، وأيضاً لن يرجعوا من الموت إلى الدنيا، لا رجعة لهم إلى الحياة الدنيا مرة ثانية لأنهم صاروا في حالة الموت وبانتظار يوم القيامة، وعملياً هم لا يمكنهم تدارك ما فاتهم ولا بأي طريقة، لأنهم ماتوا وانتقلوا للمرحلة

الثانية وهناك لا يمكنهم أن يصلّوا أو يصوموا أو ينفقوا... هم فاقدون لوعيهم، ولا يمكنهم الرجوع إلى الحياة إلى حيث كانوا بين أهلهم ليؤمنوا ويطيعوا الله تعالى، ومن بعد موتهم لن يحصلوا على فرصة ثانية ليؤمنوا ويعملوا الصالحات.

يعني هي فرصة واحدة لهم الآن في حياتهم ليفعلوا الصالحات وكنموذج بارز عنها الإنفاق على المحتاجين، والكلام هنا عن الذين أثناء حياتهم لم ينفقوا، وبديهي أنهم أثناء حياتهم لم يوصوا بالإنفاق من مالهم على المحتاجين، وبعد موتهم هم بأمسّ الحاجة للصالحات، وفاتتهم الفرصة، حيث لا مجال لتواصلهم مع الأحياء ليوصوهم بالإنفاق، ولا مجال لعودتهم هم إلى الحياة للإنفاق، حيث تركوا ما جمعوه من مال بدون الاستفادة منه للآخرة بل سيتحاسبون لأنهم لم ينفقوا منه.

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ{51})
وصلنا إلى مرحلة مات فيها من كفر وكان يجادل، ومرّت الأجيال وماتوا وجاء آخرون... إلى أن انتهت الحياة الدنيا، بتبدّل السماوات والأرض...: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ}، قام أحد ما "الملاك إسرافيل(ع) كما هو مشهور في عموم ثقافتنا وثقافة أهل الكتاب" ينفخ فيضع في الصور في شيء ينشر النداء على مساحة كبيرة، ليصدر من الصور أمر ينتشر على كل البشر الأموات، وَيَتَنَفَّذُ أمره تعالى فيهم، {فَإِذَا هُم}، فإذا بالأموات من بعد النفخ في الصور، {مِّنَ الْأَجْدَاثِ}، من المكان الذي فيه جثثهم، من قبورهم، من بقايا رمادهم، ومن بين حبات التراب من قاع البحر... {إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ}، كما ننسل ساحبين الخيط من قطعة القماش، هكذا يخرجون من بين التراب يَتَشَكَّلُونَ من جديد ليقفوا بين يدي المسؤول عنهم من مستوى إلهي.

لا داعي لبقاء جسمهم مَحْفُوظاً بالكامل أو بالعظام أو بالرماد... حتى يستطيع الله تعالى إحياءهم من جديد، مثلما في الحياة الدنيا نرى كيف تخرج بذرة واحدة من بين التراب لتصير شجرة تدب فيها الحياة، كذلك نخرج نحن للحياة مرة ثانية من بين حبات التراب، وأمّا آلية حدوث ذلك فأمر مختلف، مثله مثل فهمنا لصنع الفلك ونزول الماء وحصول ليل ونهار... حيث لا حاجة لمعرفتنا بآليات حصولها حتى نؤمن بها كآيات دالّة على من صمّمها وخلقها، وبالنسبة للإيمان بعودتنا من الموت، يكفينا الأدلة التي ستطرحها السورة على ذلك، ومنها كوننا الآن حَالِياً فِعْلِياً مَخْلُوقِينَ من تراب.

بالنسبة لتعبير النفخ بالصور، فمن الآية 68 من سورة الزمر {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ}، علمنا أَنَّ حادثة النفخ في الصور ستحصل مرتين، وأوّل نفخة ستسبّب موت كلّ المخلوقات في الدنيا "إلا من شاء تعالى"، وثاني نفخة ستحصل بعدما تتبدّل الدنيا وتأتي الآخرة، وهذه النفخة ستسبّب عودتنا إلى الحياة، ويسميها القرآن بالساعة لأنها بالنسبة لنا هي أول ساعة من يوم قيامنا من الموت.

المشهور بين المسلمين أَنَّ مَلَاكاً اسمه إسرافيل(ع) يقوم بالنفخ في الصور، ولكن القرآن لم يذكر اسم النافخ ولم يقل أَصْلاً أَنَّهُ مَلَاكٌ ولكن اشْتِقَاقاً من عموم ما نفهمه من القرآن عن توظيفه تعالى للملائكة للقيام بهكذا أعمال، ومما هو مشهور في عموم ثقافة المنتمين لهذا الدين الإلهي من اليهود والمسيحيين، تَمَاشِياً مع ذلك سنقول أَنَّ مَلَاكاً اسمه إسرافيل هو النافخ في الصور.

الصور في اللغة هو الشيء الذي نستعمله لنصدر صَوْتاً قَوِيّاً، حيث يسمعه عدد كبير من الناس، كالبوق قَدِيماً، وكمكبر الصوت حَالِياً. طَبْعاً الصور الذي تتحدّث عنه الآية هنا ليس بُوقاً مَصْنُوعاً من خشب أو من معدن، وليس مُكَبِّراً للصوت، ولكنه "على الوصفية" شيء يستعمله "الملاك إسرافيل(ع)" نَافِخاً فيه، جَاعِلاً في داخله "شَيْئاً لا نعرفه"، مثلما نجعل نحن الهواء داخل البوق "أو البالون"، ليصدر من الصور "شَيْءٌ" يسبّب قيام كل الناس من موتهم، دفعة واحدة.

وصف النفخ في الصور مثل الوصف بالصيحة الوارد في العديد من الآيات ومنها الآية 53 من سورة يس {إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ}، حيث أمام عدد هائل من المخلوقات الميتة، يصدر أمر إلهي بإعادة هذا العدد الهائل إلى الحياة بنفخ "الملاك" في شيء ينشر الأمر الإلهي على عدد كبير، ونفس الحدث يوصف بالصيحة كتعبير عن أمر إلهي سينتشر على عدد كبير، فهي ليست صرخة "عِلْماً أَنَّ كلمة صرخة أَصْلاً غير مناسبة لوصف

الحالة"، ولا الصيحة مسموعة بالصوت، بل التعبير بالنفخ في الصور وبالصيحة هو وصف لانتشار الأمر الإلهي على عدد كبير لِيُتَنَفَّذَ.

النفخ في الصور ليس كما ننفخ نحن البالون بالهواء، وكلمة "نفخ" استعملها القرآن مِرَاراً لتوصيف حالة سريان الحياة في المادة الجامدة مثل التراب، كما في الآيتين 29 من سورة الحجر و72 من سورة ص اللتين تنسبان النفخ له سبحانه في آدم(ع) ليصير حَيّاً، والملائكة(ع) نفخت في بطن السيدة مريم(ع) حتى صارت حبلى، راجع في ذلك الآية 19 من سورة مريم {قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} مع الآية 12 من سورة التحريم {وَمَرْيَمَ ... فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا...}، والنبي عيسى(ع) كان ينفخ في الطين ليصير طَيْراً، كما ورد في الآية 110 من سورة المائدة {... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي...}، وهنا ينفخ "الملاك اسرافيل" في الصور لِنَتَشَكَّلَ نحن من التراب ونعود إلى الحياة.

صرت تعلم أَنَّ اسْتِعْمَالَ هذه الكلمات "نفخ وصور وصيحة..." على معناها الوصفي الحقيقي وليست تَعَابِيرَ مَجَازِيَّةً، ولكن تصوّرنا لحصولها غير ممكن لنا حَالِياً لأنها توصّف شَيْئاً من عالم آخر، من عالم الملائكة التي لا يمكننا رؤيتها الآن، لأنه في عالمها يوجد صور "بوق" يناسب تكوينه تكوين الملائكة، والنفخ فيه فعل يناسب تكوين الملائكة، بينما نحن لدينا رئتان ننفخ منهما، والملائكة تكوينها مختلف، ولكن لديها فعل توصف فيه بأنها تنفخ. نفس الكلام عن الشهب التي ترجم بها الملائكة لتبعد الشياطين عن السماء العالية، لأن الشهب توصيف لشيء يناسب تكوين تلك السماء، وليست شُهُباً من المادة التي يتشكّل منها كوننا "سماءنا"... ونفس الشيء وصف سجود الملائكة بتعبير يناسب تكوينها...

خلال مراجعاتي المتكررة لهذه الدراسة تبيّن لي أنه تعالى لم يقل لنا تَشْرِيعاً بلا تبرير أو خَبَراً بلا دليل فكري وملموس إن أمكن، وإعادة إحيائنا شبّهها تعالى هنا في السورة بإعادة إحياء الأرض الميتة بخروج النبات... وسيأتيك كلام آخر عن خلقه تعالى لنا أول مرة كدليل على قدرته على إعادة خلقنا مرة ثانية، وإن كنت تريد دَلِيلاً مَلْمُوساً باليد عن ذلك راجع الآية 246 من سورة البقرة {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} والآيات من 259 وما بعدها أَيْضاً من سورة البقرة، حيث لدينا الذي أماته تعالى مئة عام ثم بعثه، ولدينا الطيور المقطّعة الموزعة والتي عادت إلى الحياة، ولدينا خلق حياة من الطين مُبَاشَرَةً ولدينا إعادة لإحياء الأموات على يدي النبي عيسى(ع) كما ورد في الآية 49 من سورة آل عمران {...أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ... وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ...}.

بحث عودتنا إلى الحياة كنسخة أم الأصل؟

بالنسبة لآلية عودتنا إلى الحياة، لا نجد في القرآن كَلَاماً صَرِيحاً مُبَاشِراً عن إعادتنا إلى الحياة عبر إرجاع الروح أو النفس لأجسادنا القديمة أو لأجساد أخرى جديدة، وهذه الفكرة عن خروجنا إلى الحياة عبر وضع الروح أو النفس في الجسد، هي فكرة متجذّرة في عموم ثقافتنا وعموم ثقافة أهل الكتاب وآخرين من فلاسفة اليونان وغيرهم... ومتجذرة في ثقافة الناس حتى الذين كانوا في زمن النبي محمّد(ع) من عموم العرب، ورغم ذلك لا ترى لها أي أثر في القرآن، وليكن هذا من أدلة إلهية مصدر هذا القرآن بالفرق الواضح بين كلامه عن كلام النبي محمّد(ع) من معطياته (ع) التي كانت منتشرة في كلام أهل زمانه...

لن تجد في القرآن كَلَاماً صَرِيحاً عن رجوع الروح أو النفس إلى جسد، وثقافتنا حول ذلك هي أسهل تبسيط من ناحيتنا "كاقتراح" لفهم آلية نشأة الحياة ورجوعنا إليها، على أساس أن جسدنا مؤلّف من المواد، التي تتحلّل بعد موتنا لتعود كما كانت تُرَاباً، تتحلّل لتعود إلى موادّها الخام من كربون وكالسيوم وحديد... ولا فرق بين هذا العمق وبين النظرة السطحية لتحلّلنا إلى تراب، والمنتشر في عموم ثقافتنا أن المواد تشكّل الجسد، والجسد مجرد وعاء لِلرُّوحِ وَالنَّفْسِ أو الجوهر، وحتى لو اختلف الجسد، ولكن روحي أو نفسي أنا عندما تسقط في أي جسد كان فسأرجع "أنا" بذاتي "بوعيي وذاكرتي وفكري ونفسيتي..." إلى الحياة.

المنتشر في عموم ثقافتنا أَنَّ الروح أو النفس أو الجوهر... لا تفنى ولا تتغيّر وهي شيء غير مادي، وإذا مات جسدنا فإن روحنا "أو نفسنا" محفوظة عنده تعالى، ويعيد سبحانه تلبيسها لجسد جديد وهكذا نرجع إلى الحياة.

هذه طريقة سهلة للإجابة على إشكالات المنكرين لعودتنا إلى الحياة، الذين يرون جسد الميّت قَدِيماً مُتَحَلِّلاً مُخْتَلِطاً بالتراب ولا أثر له، فكيف سيعود إلى الحياة؟ والجواب "من ثقافتنا" سهل، فسبحانه سيخلق جَسَداً من المواد "من أي مواد كانت" وينفخ فيه رُوحَ أَوْ نَفْسَ أَوْ جَوْهَرَ الذي مات.

هذا الكلام بهذا العرض المبسّط تجده بشكل معقّد مَعْرُوضاً بكلمات فلسفية اصطلاحية في عموم كتبنا وكتب أهل الكتاب والكثير من كتب الفلاسفة القدماء.

السؤال الكبير: طالما تعتقدون أن هذا هو الجواب "السهل البسيط" على كلام منكري عودتنا إلى الحياة، فلماذا لا نجده صَرِيحاً في القرآن؟

علينا الانتباه من التعامل بضبابية مع هكذا أمور، حيث يقول البعض أَنَّ النفس والروح ذكرهما القرآن... صحيح ذلك، ولكن لنذهب للآيات التي ذكرت الروح والنفس، لنرى ماذا تقول وعمّاذا تتحدّث، ولن تجدها تتحدّث عن عودتنا إلى الحياة بالآلية المنتشرة في ثقافتنا، وهذا ما ألفت انْتِبَاهَكَ له.

طَبْعاً هذا المخزون الثقافي عن "الروح والنفس والجوهر" مشحون بأمور أخرى مترابطة متناسقة مع بعضها، وبعضهم يقولون أَنَّنَا عندما نموت، إنما جسدنا الذي يموت، وروح المؤمنين تذهب إلى جنّة البرزخ، وروح الكافرين تتعذّب في نار البرزخ، والبرزخ عالم وَسَطِيٌّ للأموات بين الدنيا والآخرة "بحسب تعابيرهم"، وهو الآن موجود في عالم الدنيا ولكنه ليس من المادة التي نتألّف منها، والذي في البرزخ يبقى هناك بانتظار الآخرة.

بعض التعابير الشعبية أو من تفلّت الذاكرة عند بعض العلماء تجعلهم يسمّون حالة موتنا بالانتقال إلى الآخرة وكأن الآخرة موجودة الآن!

نعم، ورد في القرآن كلام عن البرزخ في الآية 100 من سورة المؤمنون {لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ}، وورد في القرآن كلام صريح مباشر عن "جنّة" للمقتولين في سبيله تعالى حيث يحيون فيها الآن قبل انتهاء الدنيا كما تقرأ في الآية 169 من سورة آل عمران {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}. لكن لم يرد في القرآن كلام عن روحهم ولا عن نفسهم بالمعنى الاصطلاحي لهاتين الكلمتين، عِلْماً أَنَّ العرب المشركين في لغتهم وثقافتهم يَسْتَعْمِلُونَ كلمة روح ونفس لوصف حياة الإنسان، وأساس معاني هذه الكلمات باللغة العربية لا يتضمّن ما يقوله المؤمنون بالحياة بعد الموت، حيث في اللغة يختلف معنى هاتين الكلمتين عن الاصطلاح الفلسفي والشعبي. بمراجعة دراستنا هذه لأي آية تخطر على بالك وقد تحدّثت عن النفس، ستجد أنها كانت تقصد ما يرادف الشخص، الفرد، الواحد من الناس... هذا هو معناها في اللغة العربية، ولا تجدها في القرآن تعبّر بصراحة عن وجود شيء اسمه نفس لوحده كشيء مغاير للجسد، حتى أنه تعالى استعملها بكلامه عن "نفسه" بالمعنى اللغوي الأساسي التي استعملها في كل بقية القرآن كما تقرأ في الآية 41 من سورة طه {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}. بالنسبة للروح هي في اللغة وصف لأي شيء صَافٍ، ولا تجد تَعَابِيرَ قرآنية صريحة كالتي يقولونها عن الروح بأنها تبقى بعد موت الجسد، أو أنها المنفوخة في الصور لنستعيد حياتنا... لا أثر في القرآن لكل ذلك الكلام.

سورتنا هذه أمامك نموذج عن كلام القرآن عن عودتنا إلى الحياة، ولن ترى فيها أي كلام مشابه لما هو منتشر في ثقافتنا عن الروح أو النفس.

لو قلت أَنَّ آيتنا هنا وأشباهها تجيب عن أسئلة الكفّار بطريقة من المفروض بها إقناع الكفّار، ولم تعرض الموضوع بالطريقة التي يفهمها المؤمنون، فكلامك غير صحيح، لأن كلّ القرآن عرض نفس الموضوع عن عودتنا إلى الحياة وبنفس الطريقة، من الطين، وكان كلامه دَائِماً مع الجميع، وَمُضَافاً لذلك وَأَصْلاً بين عوام الناس ومنذ القدم وفي عهد نزول هذا القرآن وفي كلام الكافرين به ستجدهم يقولون: مات وزهقت روحه، وفاضت روحه... ولم يستعمل القرآن أَبَداً بَتَاتاً هذه التعابير.

ما هو التفسير للآلية التي نعود فيها إلى الحياة؟ لا شيء ذكره القرآن، بل مجال البحث فيه مفتوح للجميع، لأن القرآن يذكر مراحل تَتَضَمَّنُ إشارات لبعض الآليات ولكنه لم يذكر آليات صريحة، حيث أشار في موضوع حياتنا وموتنا إلى المواد التي نتألّف منها حَالِياً، ووصف خروجنا أول مرّة بالإنبات من الأرض كما تقرأ صَرِيحاً في الآية 17 من سورة نوح {وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا} فادمجها مع الآية 37 من سورة آل عمران {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا...} لترى أن الإنبات لنا شبه للنمو بيننا وبين النبات، وهو تشبيه لآلية خروجنا بآلية خروج النبات من الأرض نُمُوّاً من موادّها، من الكربون والماء والكالسيوم والحديد... وقال القرآن أَنَّنَا سنعود ونتشكّل من المواد، مثلما تحيا الأرض بخروج النبات وتجد ذلك صريحا في العديد من الآيات ومنها الآية 11 من سورة ق {رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ}، وبذلك نستعيد وعينا مع فكرنا ونفسيتنا التي كنّا عليها بالضبط.

ستقول: هذه التي رجعت بهذه الطريقة هي نسخة مطابقة لي ولست أنا. وهذا ما دفع مفكري المسلمين ومن قبلهم دفع أهل الكتاب والفلاسفة إلى إدخال كلمتي الروح والنفس والجوهر على الموضوع، حيث قالوا أَنِّي "أنا" بفكري ونفسيتي مَحْفُوظٌ في روحي "أو نفسي أو جوهري" التي لا تموت عندما يموت الجسد، وإذا حلّت روحي "أو نفسي أو جوهري" في أي جسد فسأرجع أنا بذاتي إلى الحياة.

هذا الكلام في رأيهم يردّ على الكثير من الإشكالات التي طرحها الناس، ومنها ما يسمّونه بشبهة الآكل والمأكول، حيث يقولون: أكلتني الحيوانات أو امتصّت النباتات المواد التي كانت تؤلّف جسدي، فأي جسد سيرجع إلى الحياة إن كانت مواد جسدي تَحَوَّلَتْ لأجساد حيوانات أخرى؟

القرآن من أوله لآخره لم يهتمّ بهذا الكلام التفصيلي، وكان جوابه وَاحِداً: سيعيد سبحانه تركيب أجسادنا، من قبورنا، من رفاتنا، من التراب... وكلّها تعابير مرادفة لقولنا: سيعيد تعالى تشكيلنا نحن من المواد.

الآن نسأل ونحن مُتَابِعُونَ لكلام القرآن: ما أهمية المواد التي ستشكّلنا من جديد إن كنت سأرجع بفكري ونفسيتي إلى الحياة؟ ستقول: لا بد من بذرة خاصة بي "روحي أو نفسي" لأعود أنا إلى الحياة وإلا سيكون الفكر والنفسية التي عادت مشابهة لي وليست أنا، ولذلك لا بد أَنِّي محفوظ بشكل آخر غير المواد، بروحي، بنفسي، بجوهري، بطاقتي... وهكذا لا أهمية للجسد الذي سأنزل فيه، في أي جسد وضع تعالى فيه روحي أو... سأكون أنا عُدْتُ إلى الحياة.

أكرر لك، هذا كلام لم يقله القرآن، وحين نزول القرآن كان هذا الكلام مُنْتَشِراً في ثقافة من سبقنا من أهل الكتاب، وأثناء نزول القرآن بدأ المسلمون بتكرار شيء من كلام أهل الكتاب، وبعد وفاة الرسول(ع) تطورت ثقافتنا سَرِيعاً وصارت تَكْرَاراً مُطَابِقاً لثقافة أهل الكتاب مع لمسة من فلسفة اليونان وبالخصوص من كلام أفلاطون وأرسطو، والقرآن لم يذكر صَرَاحَةً أي شيء من هذا الكلام!

أسألك ماذا تقول عن الآية 148 من سورة البقرة {وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، وعن سياق الآية 22 من سورة العنكبوت {وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ...} العمومية في كلامها أننا لسنا معجزينه تعالى في الأرض ولا في السماء، لسنا خارجين عن سلطته وقدرته في أن يفعل تعالى بنا ما يشاء، وسياق الكلام في الآية كان يشمل إعادتنا إلى الحياة لمحاسبتنا، والإشارة إلى حيث متنا في أي مكان من الدنيا لو كان كلامهم صَحِيحاً لما أشار القرآن إلى حيث تبقّى شيء من جسدنا الميّت ولقال أَنَّكُمْ محفوظون بروحكم أو بأنفسكم عنده تعالى، وبالنسبة لجسدكم فلا أهمية له.

مُضَافاً إلى هذا العديد من الآيات التي وبصراحة تحدّثت عن إعادتنا إلى الحياة من القبور والأجداث ومن الأرض... الكلام عن الطين، ومضافا لكل ما سبق العديد من الآيات التي شبّهت خروجنا إلى الحياة بالنبات... ولا تجد في هذا الكمّ الكثير من الآيات ولا أي إشارة إلى الروح أو النفس كشيء مغاير للجسد! بعبارة أخرى أدق تعابير القرآن دَائِماً تشير إلى خروجنا إلى الحياة من تأليف المواد ولا تشير إلى صنع أوعية من المواد للروح أو النفس أو الطاقة أو الجوهر...

لتبسيط ما يقوله القرآن لنفهمه، علينا أَوَّلاً أن لا نحصر العلوم فيما نعلمه، حيث ما يعلمه تعالى أعمق بكثير مما نعلمه، حيث نحن الآن نعلم أن خلية جذعية واحدة كافية لإعادة تركيب نفس الجسد، فإن مات كلّ الجسد وبقيت خلية جذعية واحدة منه يمكن إعادة تشكيل نفس الجسد السابق إذا كانت بيئة الخلية متطابقة مع البيئة التي تألّف منها الجسد أوّل

مرة... ونعلم أعمق من ذلك، لأن "جينة" أساسية واحدة من نواة خلية جذعية، إذا وضعتها في محيط مناسب من المواد، يمكنها إعادة بناء نفس الجسد التي كانت فيه إذا توافرت لها نفس البيئة للجسد السابق... هل يوجد أعمق من ذلك ويمكنه تشكيل نفس الجسد بالتمام؟...

لأول وهلة نرى هذا الكلام مُهِمّاً وَمُفِيداً، ولكنه ليس كذلك ولا يهمّنا هذا الكلام، لأن المقتولين في سبيله تعالى، يبقى جسدهم هنا، بينما هم يحيون في البرزخ، وكما ترى أَنَّ فِكْرَةَ البذرة من جسدي التي ستتشكّل من جديد لأعود أنا بنفسي إلى الحياة، ليست فكرة دقيقة ولا تعطينا الجواب الكامل.

هنا يدخل قصور علومنا وضعفها أمام علمه تعالى، لأننا نفترض أن هذه المادة التي على الأرض، من كربون وكالسيوم وهيدروجين... هي المادة الوحيدة لبناء كيان حيّ، لا، وليست هي المواد الوحيدة التي يمكنني العيش فيها بوعي وبفكري ونفسيتي، وهنا لدينا مشكلة موروثة من الفلسفة اليونانية التي ألقت بظلالها على عموم ثقافتنا وثقافة أهل الكتاب حيث قالوا أَنَّ مَا نسميه بعناصر الجدول الدوري، من حديد ونحاس ورصاص وكالسيوم... هي المادّة، بأشكالها الأربعة "ماء وهواء ونار وتراب" وكما ترى النَّارَ نفهمها الآن كموجات كهرومغناطيسية أو فوتون وهذه خارج الجدول الدوري للعناصر، وهي من الأساسيات التي تشكّل منها كوننا مُضَافاً لها بقية ما نسميه بالجسيمات الأولية من فيرميونات وبوزونات... لذلك ترى في الفيزياء العالية تَصْنِيفاً مُخْتَلِفاً للمادة والطاقة التي يتشكّل منها كوننا...

لنرجع للتقسيم الفلسفي الأرسطي الذي يقسّم ما هو موجود إلى مادي، وغير مادي. المادي هو عموم ما نتعامل معه ونطاله بحواسنا وتجاربنا، وما ليس مَادِيّاً هو عموم ما كان من غير ذلك، وهذا الكلام جعلنا لا نستعمل كلمة مادة لما يتألّف منه الجنّ، ولا مما تتألّف منه الملائكة(ع)، وقلنا أَنَّهَا مجردات، نعم هي مجردة عن المادة التي نتألّف نحن وبيئتنا الملموسة منها، ولكنها كائنات لها كيان، ومخلوقة من شيء ما، والجنّ مخلوقون من نار، ولم يذكر القرآن مما خلقت الملائكة(ع)...

من كل هذا الكلام أريد لفت انتباهك إلى وجود مواد غير المواد التي في عالمنا، والتي يمكن أن تشكّل جسدنا، هناك كائنات غيرنا متشكّلة من مواد غير التي في عالمنا، وأي تشكيل لجسدي من أي مادة كانت، فهو يؤمّن ما يناسب لعودة وجودي بفكري ونفسيتي، حيث أَنَا "بذاتي" من تلك المادّة تشكّلت وعدت إلى الحياة.

نحن مصرّون على وجود شيء جوهري وأنه هو كياني الحقيقي، كشيء لا يتغيّر ولا يتبدّل، روحي، نفسي جوهري طاقتي، وهذا الإصرار لن يوصلنا إلى فهم كلام القرآن الذي لم يهتم بهذه التفاصيل ولم يذكرها، وأكرر لك لتراجع في دراستنا هذه أي آية تظن أنها تعطيك شَيْئاً يشير لوجود جوهر ثابت لنا كنفس أو روح لا تفنى، لترى أنها لا تشير إلى ما ورثناه من ثقافتنا الدينية.

هكذا نصل إلى كلام يتداولونه حين يقولون أَنَّ المعدوم لا يمكن أن يرجع، ما انمحى لن يعود، وإذا تشكّل كيان مطابق لما انعدم إنما هو نسخة وليس الأصل لأن الأصل ذهب ولن يَعُودَ، وبالتالي لو كنت أنا مُؤَلَّفاً فقط من ذرات، وانهارت تلك الذرات، وجرت إعادة تشكيلها من جديد كما كانت، يَقُولُونَ أَنَّهَا ليست أنا، لِأَنِّي انعدمت وهذه نسخة عنّي.

أسألك إن كنت تجد في القرآن كلمة عدم أو وجود؟ لا، في القرآن نجد حياة، فناء، شيء، يكون... وموت، ولست أجد نفسي مُضْطَرّاً للتماشي مع كلامك الذي جعلت فيه اصطلاحات على قدر فهمك للأمور، والعدم اصْطِلَاحاً هو اختفاء الشيء من الوجود، ولا يوجد في القرآن تعبير يعطيك هذا المعنى ولا بأي شكل، لماذا تظن أَنِّي مُضْطَرٌّ للردّ على كلام كهذا؟ القرآن لم يعطه أي أهمية، ومن غير المعقول أن تخترع اصطلاحات لا تمثّل الواقع، وتجبرني على استعمالها للتحدّث مثلك، كالجوهر والعرض والماهية والعدم... وتجبرني على تفسير القرآن على أساس الالتزام بهذه الاصطلاحات.

إن قالوا أَنَّ المعدوم لا يرجع، فما المعدوم؟ ومن أين علمتم بشيء يختفي من الوجود؟ ومن قال لكم أَنَّهُ يوجد شيء اسمه جوهر ولا ينعدم؟ وهل تفكّك المادة هو الانعدام؟ عندما أموت ويتحلّل جسدي أكون انْعَدَمْتُ؟ أم اختفاء العناصر التي كنت أتكوّن منها هو الانعدام؟ أم هناك ما لا ينعدم وكأنه شيء بطبيعة إلهية؟ هكذا نصل إلى ما نجده هنا وهناك عمّا

يقولونها عن طبيعة إلهية للروح التي هي أساسنا "كما يقولون" وَأَنَّهَا منه تعالى؟ وهذا باب الهاوية الذي يجعل له تعالى جُزْءاً وَكُفُواً وَمَثِيلاً...

هذا ابتعاد شاطح عن كلام القرآن، الذي يؤكّد أَنَّ أَيَّ مادّة ومهما كان نوعها كفيلة أَنْ تَكُونَ تَجْدِيداً لفكرنا ووعينا نحن بالذات.

المقتولون في سبيله تعالى يتوفّاهم سبحانه من جسد مؤلّف من المواد التي نعرفها، ويشكّلهم من مادة أخرى في عالم دنيوي موجود الآن ولكن مادّته مختلفة عن المواد التي نتعامل معها ونختبرها، وفي الآخرة يعيد تعالى تشكيلنا بفكرنا ووعينا من التراب في عالم تبدّلت فيه السماوات والأرض، ولن يكون شكل جسدنا ولا تكوينه مُطَابِقاً لما نحن عليه الآن، وفي الآخرة وكما تعلم، الكافرون لا يتغذون من الشراب والطعام، فكيف سيعيش جسدهم إن كان تكوينه مثل جسدنا الحالي؟ هكذا ترى أنه تعالى وباستعمال أي مادة وأي تركيب منها يمكنه تعالى إعادة فكر ونفسية أي كائن، ليعيده هو بالتمام وبذاته، وإن كنت لا تزال مُصِرّاً أَنَّهَا ستكون نسخة ولن تكون الأصل إذا لم يكن هناك جوهر محفوظ لا يتغيّر ولا يفنى، فهذا شأنك، ولكن خذ عِلْماً أَنَّكَ غير مدعوم من كلام القرآن.

الآن صرنا أمام طرح عن عمق معنى النسخة والأصل، فإذا انمحيت نِهَائِيّاً أنا وذرات جسدي، وبعدها أعاد تعالى خلق ذرات جديدة وبناها بالتمام مثل ذراتي القديمة، فهل هذه نسخة بمعنى أَنَّهَا ليست أنا؟ لا، هذه أنا مكرّر وليست نسخة.

لو أعاد سبحانه تشكيل جسدي من مواد مختلفة عن مواد عالمنا، ولكن في الجسد الجديد يوجد بالتمام فكري وذاكرتي ونفسيتي، هل هذه نسخة؟ لا، بل هي أنا مكرّر.

لا أريد إِقْنَاعَكَ بوجه نظري هذه، وليس لدي أي شيء يقيني عن "آلية" إعادة خلقنا، ولكن ألفت انتباهك لفتح الأفق أمام احتمالات عقلانية أغلقها المفكرون المتدينون.

وَمُضَافاً لِمَا سَبَقَ لم يهتم القرآن بإيمانك بأي آلية، فإن لم تعرف آلية خلقك، أو آلية إعادة خلقك، لن يحاسبك سبحانه طالما آمنت به تعالى وبدينه من الآيات التي تراها من حولك حتى لو لم تفهم كيف حصلت، ولكنك تراها دَالَّةً على الذي صمّمها وخلقها... فآمنت به تعالى وبكلامه عن الآخرة...

كلامهم الفلسفي والكلام عن الروح والنفس... حتى لو لم يكن ظَاهِراً من صريح القرآن حول آلية خلقنا أو آلية إعادة خلقنا، لا مشكلة في طرحه للبحث فيه طالما نؤمن بإعادة خلقنا لمحاسبتنا، نحن لسنا فقط في هذا الموضوع نجهل ما يحصل، ولا نزال أَطْفَالاً في مختلف العلوم نتلمّس المعرفة ونبحث عن عمقها ليتبيّن فيما بعد أَنَّنَا نخدش السطح وهناك عمق أعمق بكثير مما علمناه.

الآن لنطرح شَيْئاً مُخْتَلِفاً عمّا يقولونه، ومستخرج من مفاهيم القرآن، فأنا الآن موجود بذات نفسي حَيٌّ أُرْزَقُ، وقبل ذلك، أي قبل خلق السماوات والأرض حين شاء تعالى خلقها، في ذلك القرار أنا بذات نفسي التي أنا عليها الآن، كنت من ضمن المخطّط، وأنا لست نسخة، وراجع في ذلك دراسة الآية 104 من سورة الأنبياء {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ...} ، وادمجها مع الآيات التي تقول أَنِّي لم أك شَيْئاً، وخلقني سبحانه أنا، وبعدما أموت، يعيد سبحانه خلقي أنا، راجع الآية 27 من سورة الروم {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ...} ، والآية 78 و 79 من سورتنا هذه {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79)}.

حالة موتي الآن مشابهة لحالة موتي قبل أن يخلقني سبحانه، وحين قرّر سبحانه خلقي "أنا" وتشكّلت مَوْلُوداً... لم أولد كَمُفَاجَأَةٍ له تعالى، لا في تكويني ولا بفكري ولا بنفسيتي ولا بما سأفعله... بل كنت بذات نفسي مُسَجَّلاً عنده تعالى حين شاء خلق ما في الدنيا، وخلقني عَالِماً سبحانه بكل تفصيل التفاصيل لكل ما سيحدث معي.

نفس الشيء حين أموت هنا، فسيعيد تعالى خلقي في الآخرة أنا بذات نفسي. في الحالة الأولى عند تصميم ما في الدنيا، لم يكن لي روح ولا نفس ولا جوهر ولا طاقة ولا كيان ولا جسد... ولا داعي ليبقى بعد موتي هنا أي شيء منّي حتى يستعمله تعالى لإعادة إحيائي، وهذا الكلام مشابه بشكل ما لبرامج الكومبيوتر "التي فيها شخصية ما" والتي لا تحتاج

لحفظها صلبة لإعادة صنعها، بل يكفي الاحتفاظ بأسطر برمجتها على الورق أو في فكرك... وتعيد كتابتها، لتعود هي مكررة وليس نسخة... طَبْعاً هذا كلام تقريبي تشبيهي ولا أدري إن كان عمقه مُلَائِماً لإعادة خلقتنا من حفظ معلوماتنا...

أَخِيراً وَتَعْقِيباً على كل ما سبق ننتبه جَيِّداً، فالكلام يوحي بالبحث عن آلية واحدة لعودتنا إلى الحياة، عِلْماً أَنَّنَا أمام آليات مختلفة لذلك، فإحياء النبي عيسى (ع) للأموات من جثث أو من رفات... ورجوع الحياة إلى الطير على يد النبي إبراهيم(ع) من أجساد ممزقة مخلوطة مع بعضها... وإعادة خلقه تعالى لنا من التراب الذي تداولته أجساد الكائنات المختلفة، فأكلته الحيوانات أو امتصتّه النباتات... وقبلها خلقه تعالى لنا من لا شيء... يضعنا أمام آليات وتقنيات وطرق مختلفة تؤدّي كلّها إلى عودة الحياة إلى الميّت، وسيكون من الناحية العلمية شَيْئاً رَائِعاً لو قدرنا نحن على فعل ذلك بطريقة ما...

البحث عن آليات حصول أي شيء يمكن أن يطاله فكرنا وحواسنا وتجاربنا، من الخطأ تسميته باسم ديني ليصير البحث فيه مَحْصُوراً في كلامه تعالى وكلام علماء الدين وفي كتب الدين، هذا أكبر خطأ ارتكبه الذين سبقونا من الكثير من المنتمين لدينه تعالى، ها أمامك القرآن يستفزّك لتبحث عن أمور أمامك، مثل لفت انتباهك لخلقتك وفكرك ونفسيتك وللنبات والجبال وألونها وللسماوات... ويستفزّك بالكلام عن أمور خيالية بالنسبة لقدراتنا الحالية، يحدّثك عن النفوذ في أقطار السماوات كما ورد في الآيتين 33 و 35 من سورة الرحمن حيث سنصل إلى سماء نتعرّض فيها للرمي بالشهب {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ... يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ}، وعن نقل عرش من سبأ إلى أرض كنعان برمشة عين كما ورد في الآية 40 من سورة النمل {قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ...}، وعن وجود كائنات من نار وهم الجنّ... ويحدّثك عن النبي عيسى(ع) الذي شفى المرضى وخلق من الطين مُبَاشَرَةً حَيَاةً على شكل طيور وأعاد الحياة للموتى... وسيكون رَائِعاً لو استطعنا تحقيق هذه الأمور بطرق وآليات نبتكرها لتحقّق أو تقلّد الآليات التي منحها تعالى لبعض الكائنات... هذا لن يحصل من كتب الدين، بل من الدراسات المتخصّصة في المجالات المختلفة، لأن القرآن بالأساس للهداية وللهداية فقط، وما ورد فيه من كلامه تعالى عن آياته من نظرته لها، ومقحما أُمُوراً غَرِيبَةً، مُطَوِّراً بذلك سبحانه فكرنا عبر الاستفزاز المقصود لتحفيزنا على التفكير والاكتشاف.

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ{52})
{قَالُوا}، الكافرون بالآخرة، {يَا وَيْلَنَا}، يا لمصيبتنا العظيمة، {مَن بَعَثَنَا}، من أنهضنا إلى الحياة، {مِن مَّرْقَدِنَا}، من حيث كنّا بلا حركة؟ هم ماتوا ولم يتوقعوا عودتهم إلى الحياة مرة ثانية، وصُدِموا عندما رجعوا مرة ثانية إلى الحياة.

الجواب: {هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ}، هذا ما قال عنه إنه سيحصل الذي يعتني بمخلوقاته لما فيه مصلحتهم، {وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ}، وهذا ما قاله الذين أرسلهم تعالى لكم وها ترون أنه صحيح.

نلاحظ أن هذا الجواب هو خبر الحال، وصف واقع الحال، ووردت في القرآن تعابير متعددة عن ردّة فعل مفاجأة الكافرين بالآخرة، والآية هنا نموذج وصفي عن العنوان العام لبقية ردود الفعل، ربما سيقولها أحد ما كما هي، أو أنها توصيف واقع الحال، وعموم الجمل التي نسبها القرآن لمنكري الآخرة منطلقة من هذا العنوان.

ننتبه لاستعمال صفة الرَّحْمَن للذي يعدنا بالبعث، ويخطر بالبال أن بعث المجرمين ليس فيه رحمة لأنهم سيتعذّبون، ولكن التصميم الأساسي لخلقتنا كان فيه حدوث مرحلة ثانية من حياتنا في الآخرة لننال فيها الثواب على أعمالنا الحسنة، وهذه حتماً رحمة، ولكن بعض الناس لم يجمعوا الحسنات بل جمعوا السيئات محوّلين نعمة بعثهم إلى نقمة، والذي بعثهم يبقى موصوفاً بالرحمة التي هم رفضوها وخرجوا منها بأعمالهم السيئة.

المفيد وضع هذه الآية دائماً في بالنا، علماً أن أمثالها عديدة في القرآن وبوضوح تشير لمفاجأة الكافرين بالآخرة، وما هو دارج في بعض ثقافاتنا عن نار فيما يسمّونه "البرزخ" قبل الآخرة ويتعذّب فيها الكافرون، لن تجده صريحاً في القرآن، ولا تتمسك برأيك بضبابية وراجع دراستنا هذه لأي آية تظن أنها تشير لنار في البرزخ وسترى أنه غير صريح.

الأمور الدينية ليست مختلفة عن عموم بقية الأمور التي يتعاطى بها الناس، حيث هناك موجات تنتشر وتصير من الثقافة المعتمدة، ومع مرور الزمن تترسّخ لتصير من المسلمات... أما في الروايات الإسلامية فستجد الشيء ونقيضه، لأن بعضها تحدّث عن نار في البرزخ وبعضها الآخر نفى ذلك، والجمع بينهما مستحيل لأنهما يتحدثان عن نفس الأشخاص والحالات، وبسبب تقديس الروايات فلا بد من الأخذ بإحدى الطريقتين، والموجة التي غلبت وسادت كانت الاعتقاد بنار البرزخ، علماً أن الرأي الآخر المعروض في المرويات متوافق أكثر مع القرآن في أمثال آيتنا هنا التي ترينا المفاجأة من بعدما ماتوا هنا في الدنيا ليستعيدوا وعيهم فجأة في الآخرة، وبدون مرور بما يسمونه في المرويات والكتب بعالم البرزخ.

(إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ{53})
{إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً}، فقط أمر واحد انتشر بشكل يصل إليهم جميعاً، أي لا يحتاج أمر إرجاعكم إلى الحياة لأكثر من أمر واحد يصدره الله تعالى: عودوا إلى الحياة. {فَإِذَا هُم جَمِيعٌ}، كلّهم بدون استثناء، {لَّدَيْنَا}، لديه سبحانه، {مُحْضَرُونَ}، يتم إحضارهم ليقفوا أمامه تعالى "ليتحاسبوا" بقوة قاهرة وليس بإرادتهم. للتوسع في معنى كلمة صيحة، راجع الآيات 49 و 51 من هذه السورة.

(فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{54})
{فَالْيَوْمَ}، في هذا الزمن الذي عدتم فيه إلى الحياة في الآخرة، {لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا}، لن يتعرض أي أحد للمعاملة بشكل غير عادل أو غير منصف، مهما فعل ومهما كفر، فلن يزيدوا في عذابه فوق ما يستحق، وإن كان مؤمناً فلن تنقص حسناته... {وَلَا تُجْزَوْنَ}، ولا تنالون من مقابل "عذاب أو نعيم" {إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، ما عملتم في الدنيا من حسنات أو سيئات فستحصلون عليها.

بعض الناس يستسخف نفسه ويفعل السيئات ويقول: إذا كان هناك حساب فالله كبير ورحيم وغفور... وماذا يستفيد من تعذيبي؟ بل سيرحمني ويعفو عني... وبعضهم يقول: كل ما يقوله القرآن هو مجرد تخويف حتى نكون صالحين وفي الآخرة سيصدر عفو عام عن الجميع... في هذه الآية وأمثالها جواب واضح لأصحاب هذه الأفكار وغيرها، لأنها تخبرك بالقرار الإلهي، وسبحانه صادق الوعد لا يلهو ولا يلعب.

حسن، لدينا أناس لا يؤمنون ولا يتقونه سبحانه، وسينالون التعذيب على ما عملوه... ولكن ماذا سينال المؤمنون الأتقياء؟ هل اتباعهم للدين الإلهي سيفيدهم؟:

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ{55})
{إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ}، الذين مع بعض في المكان الموصوف بروعة ما فيه هم، {الْيَوْمَ}، في هذا الزمن، من يوم القيامة وما بعده، {فِي شُغُلٍ}، نشاطهم في وقتهم وحيث هم، {فَاكِهُونَ}، يقضونه في أمور غير جدّية، يقضونه بقصد المرح والفرح وما يسعدهم.

الشغل هو تمضية الوقت في عمل تصبّ عليه اهتمامك، وعادة يكون لتحصيل معاشك أو لصيانة جسدك كالاستحمام والعناية بأملاكك... أمّا في الجنّة فأصحابها شغلهم التفكهن، قاربها مع من لديه مدخول مالي عال بدون عمل، أو لديه مال كثير ولا يحتاج للعمل... ويقضي وقته في التمتّع بالحياة بالرحلات والسهرات والمطاعم... هذا مشغول بالتفكهن.

ضع في بالك الفرق بين المعنى الدارج لكلمة "صاحب" التي أحياناً نستعملها على معنى الملكية، فنقول: صاحب دكّان وصاحب منزل... وبين معناها اللغوي الأساسي الذي استعمله القرآن على المعنى العمومي: مع الآخر. وترى كمثال ذلك في الآيات 11 و 12 من سورة المعارج "يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12)".

(هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ{56})

{هُمْ}، أصحاب الجنّة، {وَأَزْوَاجُهُمْ}، مع القرناء لهم من الحور العين، كما نفهم من الآية 25 من سورة البقرة "وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ... وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ..."، والآية 15 من سورة آل عمران "... لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ ... وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ..."، والآية 54 من سورة الدخان "كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ". وللتوسّع في كلمة زوج راجع دراسة الآية 36 من هذه السورة. {فِي ظِلَالٍ}، تحت شيء يحجب عنهم السماء أو الشمس أو المطر... تحت الشجر أو الخيم أو تحت سقف... {عَلَى الْأَرَائِكِ}، ومفردها أريكة وهي الكلمة العربية لكنبة ولها جنب للاتكاء عليه، {مُتَّكِئُونَ}، يلقون ثقل جنبهم على جنب الكنبة.

بالنسبة للأزواج في الجنّة يتداول بعض الناس أفكاراً غير معتمدة على مفاهيم القرآن، حيث هناك زوجة تكره زوجها هنا في الدنيا، أو لا تحب معشره، أو... وتسأل إن كانت في الآخرة مضطرة لأن تكون مع زوجها إذا دخلا الجنّة... بالنسبة لهذه النقطة فأوّل مفهوم قرآني ينساه الناس هو الآية 47 من سورة الحجر "وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ"، كل أهل الجنّة يحبّون بعضهم بشدّة ناسين أي مشاعر سيئة تجاه الآخرين، وتفهم ذلك من الآيات 25 و 26 من سورة الواقعة "لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا، إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا"، كلهم لطفاء ومحببون... وأشكال أهل الجنّة كلّهم تتغير ليصيروا أجمل كما نفهم من منطوق العديد من الآيات منها الآية 11 من سورة الإنسان "فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا".

مضافاً لما سبق لدينا الآية 108 من سورة الكهف "خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا"، ولا لأي سبب سيشعر أهل الجنّة بأنهم مزعوجون أو يرغبون بشيء لا يجدونه في الجنّة. من بعد هذا نفهم أنه ومهما كانت الظروف هناك، الكل سعداء لأقصى درجة السعادة بحسب درجة كل واحد منهم.

سأنقل هنا كلاماً قلناه في سورة الرَّحْمَنِ عن كلام القرآن عن المتاع الجنسي في الجنّة: نقلوا قديماً عن عموم الكفّار في أوائل دعوة النبي محمّد (ع) وما بعد ذلك، ونقلوا عن آحاد أشخاص عاشروا الجيل الأول من المسلمين بعد انتشار الإسلام، وعن بضعة أشخاص من العهدين الأموي والعباسي، نقلوا في الكتب تعليقات أبداها أولئك الأشخاص على القرآن، وكانت تعليقات ساخرة من وعود القرآن بالجنّة للمؤمنين، وتسخر مما ذكره القرآن عن الإناث اللاتي يحظى بها المؤمنون في الجنّة، على أساس أن القرآن تخطّى وكسر حدود الخجل والحشمة المفترضة بالكتاب الإلهي ليصير كتاباً فيه إيحاءات وتعابير جنسية.

استمرّت هذه النوعية من الناس بالظهور، واستفحلت في عصرنا انتشار مقولاتهم على الإنترنت عن هذا الموضوع المعيّب على القرآن، وهي صفحات لها تمويل مخابراتي بشكل واضح، لأن لها تكاليف لن يتحمّلها شخص عادي ليفرّغ وقته وماله لها... بعض تلك الصفحات يبدو وراءها فريق عمل غير قليل العدد، ومتفرغون بكامل وقتهم لمتابعة الأحداث ونشر المقالات التي بشكل مباشر تشكّك في الإسلام، وتلك الصفحات تعمل في نفس الوقت بشكل مباشر وغير مباشر على الفرقة بين المسلمين ببث وتغذية النعرات المذهبية، وهناك صفحات مدعومة من جهات دينية "مسيحية ويهودية وغيرها" مناهضة للإسلام...

على تلك الصفحات إحياء لكلام قديم من التعليقات على هذا الدين الإلهي القرآني، وإعادة الصياغة والتنميق لذلك الكلام والإضافة عليه... للوهلة الأولى قد تصدّقهم وتشعر بالخلل في القرآن والدين الإلهي، ولكن بأدنى جهد تفكير سترى أنهم كاذبون، وكلامهم مغرض وليس منطقياً ولا عقلانياً...

في تلك الأكاذيب ستجد تجميعاً لبضع آيات قرآنية تحدّثت عن المتعة الجنسية في الجنّة، ويبالغون في الكلام عن تلك الآيات ليجعلوا القرآن يبدو ككتاب إباحي جنسي، ويسخرون مما يعرضه القرآن على أساس أنه كلام معيب وتحفيز جنسي وإغراء ووعد بالجنس حتى يرغب الناس في الدخول إلى الإسلام... كدعاية جنسية للانضمام للدين.

أولاً، القرآن يزيد عن ستة آلاف آية، والآيات التي أشارت لإناث الجنّة بشكل مباشر أو غير مباشر قرابة الست عشرة آية، والصفات التي ذكرها القرآن لتلك الإناث: حور عين، عرباً أتراباً، كواعب أتراباً، كأنهن الياقوت والمرجان، بيض مكنون، أبكاراً، كأمثال اللؤلؤ المكنون، أزواج مطهّرة، والطمث. هذه هي الكلمات التي بالكاد تزيد عن سطر واحد وهي كلّ الإيحاءات الجنسية الفظيعة التي حوّلت القرآن لكتاب جنسي إباحي كما يقولون!

وننتقل للداخل، حيث هناك مسلمون أصرّوا على مخالفة ظاهر القرآن حين ادّعوا أن الجنّة "روحانية" ليس فيها مادة ولا ملمس حسّي، وفسروا الآيات التي وصفت ما في الجنّة على أنها لذّة روحية وليست حيوانية "المتعة الجنسية حيوانية دونية المستوى بحسب تعبيرهم"، وقد برّروا لما يظهر من القرآن أنها لذّة حيوانية "بحسب تعبيرهم" وأن غالبية الناس لن تفهم ولن تقتنع باللذّة الروحانية، ولذلك عبّر القرآن عن اللذات الروحانية بتعابير ماديّة، مما يعني أنهم هم وحدهم تلك المجموعة فهموا القرآن على حقيقته، وقد غشّ القرآن بقية الناس حين وعدهم بمتاع جسدي جنسي!؟

ما هذه الترهات؟! نعم هناك انشراح وراحة نفسية غير عادية لأهل الجنّة وقد عبّر عنها القرآن مراراً، وتلك المشاعر الداخلية هي بحدّ ذاتها سعادة رائعة، "وهم يستبدلون كلمة نفسية بالمعنى الدارج حالياً بكلمة روحية"، ولكن ما معنى تأويلهم لصريح ما يقوله القرآن بغير معناه الصريح؟ الأكل والشرب والإناث والأبكار والطمث... لقد ذكرهم القرآن صراحة وفصّل في بعض مواصفاتهم!

أنتم أيها المجموعة الغارقة في حبّ التميّز عن الآخرين، أنتم الذين تدّعون أنكم من أقرب الناس إلى الله تعالى وأكثرهم معرفة به سبحانه وبكلامه، لقد وقعتم في الفخر والزهو والتكبّر من حيث لا تشعرون، فقد تطرّف من أنكر وسخر من ملذات الجنّة، وأنتم غاليتم بها وجعلتم فهمها حكراً عليكم حتى أفقدتموها معناها! فلا التعابير القليلة المؤدبة عن الملذات الجنسية التي ذكرها القرآن أقنعتكم، ولا أقنعت من رفض الدين الإلهي، فكلاكما في نفس المشكلة.

(لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ{57})
{لَهُمْ فِيهَا}، لأصحاب الجنّة في الجنّة وهم تحت الظلال التي هم فيها على الأرائك، {لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ}، الأشياء التي يرغبونها ويطلبونها ويريدون منها المزيد لشدة طعمها اللذيذ كثمار النباتات أو الحلوى وغيرها... يبدو أن كلمة فاكهة شاملة لكل أنواع الطعام من لحم وغيره... إذا كان تناولها بقصد التلذذ بها لا بقصد الشبع من جوع.

فوق ذلك، {وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ}، عموم ما يشهرونه ويعلنون عنه، عموم ما يقولونه عمّا يريدونه، فالذي يريد تغييراً في الطعم أو النكهة أو الشكل أو أي شيء يدّعيه، سيجده، ويمكنه إضافة لمسته الخاصة على ما يريده. هو توصيف لمشهد الدلال وأن طلباتهم بل ورغباتهم أوامر.

تلاحظ توصيف الطعام بالفاكهة، لأن الذين يأكلون في الجنة لا يأكلون لأنهم يشعرون بالجوع المزعج، بل يأكلون طلباً للذة الطعام، فالفاكهة نأكلها لا لنشبع، بل لأننا نحب طعمها ونريد التلذّذ بها، ونلاحظ توصيف القرآن في العديد من الآيات لطعام الجنة بأنه فاكهة.

التعبير بـ: {لَهُم مَّا يَدَّعُونَ}، يشير إلى من يريد إجراء تغييرات ولمسة خاصة لهندسة جنّته "على ذوقه ومزاجه" بشجرها وجبالها وأنهارها... وتغييرات لقصوره وأزواجه وطعامه وشرابه... فيمكنه ذلك. مثلما هنا نحب الاستذواق ونتفنن في الزخرفة والجمال والطعام... هناك في الآخرة أيضاً سيكون مجال الإبداع والاستذواق واللمسة الخاصة مفتوحاً، فتبني قصراً على ذوقك، وتعدّ طعاماً على ذوقك، وتبتكر وسائل ترفيه على ذوقك... طبعاً كل ذلك يكون بالإضافة لما هو أصلاً موجود بالأساس. أضف إليه أن أهل الجنة يزورون بعضهم، ويعرضون ما تفنّنوا به من لمسات خاصة بالمكان والحدائق والطعام على بعضهم، ويقيمون الولائم والحفلات لبعضهم...

(سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ{58})
هل في الجنة شيء حرام؟ هل فيها شيء ممنوع فعله وعليه عقاب؟ لا، بل: {سَلَامٌ}، خلو من أي شيء سيئ يزعجكم، وهذا الإعلان لهم عن حالة السلام، {قَوْلًا} من رب، كلام يقوله المسؤول عنهم من مستوى إلهي، {رَّحِيمٍ}، الموصوف بالعناية الخاصّة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم.

تعلم من عموم القرآن أن أهل الجنّة لا يشعرون ولا بأي شكل بأي شيء يزعجهم، وهم دائماً في حالة سعادة وفرح.

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ{59})

من هنا تبدأ فقرة بكلام عن واقع الحال، بكلام يحاكي حالة الكافرين في الآخرة وليس بالضرورة أن يكون كلاماً موجّهاً منه تعالى لهم.

{وَامْتَازُوا}، انفصلوا عن الآخرين بسبب اختلافكم عنهم، {الْيَوْمَ}، في هذا الزمن، في الآخرة، {أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ}، أيها الموصوفون بارتكابكم للجرائم، الفاعلون للأمور التي تستحقون عليها العقاب، وهذا ما ميّزكم عن الآخرين.

معلوم لك من العديد من الآيات أنه في يوم القيامة وما بعده هناك أصحاب اليمين وفي مقابلهم أصحاب الشمال، ويتم فرز الناس زمراً بحسب درجات كفرهم وإيمانهم في مجموعات منفصلة، فيميزهم سبحانه، ونفهم معنى الميز بشكل أسهل من الآية 179 من سورة آل عمران "مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ..."، والتميّز كلمة عامة شاملة لأي انفصال بسبب الاختلاف، وليست حصرية للمعنى الإيجابي كالتعبير عن عمل بالامتياز لأنه جيد، لا بل شاملة لأي تميّز.

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{60})
{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ}، ألم أعرض عليكم شيئاً وأنتم أعلنتم أنكم ستلتزمون به، {يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ}، يا أبناء أول بشري تأهّل ليتكلّف بدينه تعالى وهو آدم(ع)، فأعلنتم أنكم لن تتصرفوا على أساس أنكم عبيد كمطيعين للموصوف بالعمل على إضلالكم؟

{إِنَّهُ}، الشيطان، {لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ}، فأوصلت إليكم خبراً عبر الرسل والكتب وبشكل واضح عن الشيطان أنه لا يريد لكم الخير بل يعمل على الضرر بكم.

نتذكّر من القرآن أن كلمة الشيطان وصف لأي كائن خبيث يقوم بأعمال الضلال، وكل من يضلّل الناس عن الحقّ والصلاح هو شيطان، ورأس الشياطين إبليس الذي ركب رأسه ليغوينا حتى يبرهن له تعالى أن آدم وذريته ليسوا أفضل منه ليسجد لهم... هنا الكلام وصف لحالة الذي دخل النار، الذي من قبل جاءه إنذار يخبره عن كائن لا يريد له الخير ويوسوس له حتى يكفر، ولم يكترث لهذا الإنذار وكانت نهايته العذاب.

توصيف من في النار بأنه عبد الشيطان لا يشير إلى أشخاص أعلنوا أنهم عبّاد للشيطان وأنه إلههم، بل يشير للتفسير العملي لفكرهم ونفسيتهم وعملهم أنه كان على نهج شيطاني مخالف لنهجه تعالى، وبالتالي فهم تصرّفوا بالضبط على أساس أنهم عبيد مطيعون للشيطان وتاركون لطاعته تعالى، وسنتوسّع قليلاً في الكلام عن الوسوسة في الآية 62 الآتية.

معاني كلمات الآية هنا ترينا المعنى العام من هذا القرآن، بكلامه عن الهداية للحقّ والصلاح، فإن أعلن أحد ما أن هذا الموضوع لا يهمّه، ويتجاهل مصدراً يعرض عليه الحق والصلاح الصافيين، وهو راضٍ بما هو عليه من فكر ونفسية وسلوكيات ولا يريد التغيّر عنها حتى لو أثبتّ له فساد وشرّ ما هو عليه، وهؤلاء هم الذين أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون.

كلمة شيطان تحوي معنى الذي يريدك كافراً بالحق وفاعلاً للسوء، وكلام الرسل يوجّهك نحو الإيمان بالحق وفعل الصالحات، وإن لم تكن هذه القضية مهمة لك، أو كنت شاكاً في صلاح وصوابية ما يقوله الرسل، عندها راجع هذا القرآن بتفسيره كما هو على المعاني الأساسية لكلماته باللغة العربية كما عرضناها في دراستنا هذه، وانظر هل ترى من سوء؟ وانتبه أن المسألة لها عواقب حتى لو تجاهلتها واعتبرتها بلا أهمية، وكلنا سائرون بالاتجاه الذي قرّره خالقنا، نحو الآخرة والحساب والمجازاة، وهذا ما لفتت له انتباهنا الآيات السابقة والعديد من سور القرآن.

تذكّر دائماً أن أخذ الميثاق منّا له تعالى هو عرضه تعالى علينا دينه، ولا تتصوّر دائماً حالة الميثاق والعهد كحالة الجلوس على طاولة وتوقيع الاتفاقيات، أو الوقوف أمام أحد ما وإعلان كلام عن ميثاق وعهد، ومعه تعالى ليس هذا ضرورياً، بل بما فينا من قدرة لتمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، فهذا يلزمنا بترك الباطل والشرّ، ومجرد وصول كلامه تعالى لنا فإن كفرنا نكون خارج العهد والميثاق وإلى نهاية حتمية بالعذاب، وإن آمنا صرنا تحت عهد ميثاقي معه تعالى.

هناك حالة مميزة كرّرها القرآن عن رفع جبل فوق بني إسرائيل كعلامة إلهية على إمضاء ميثاق أعلنه بنو إسرائيل حينها بالالتزام بدينه تعالى، وتقرأ ذلك في الآية 154 من سورة النساء "وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ..."، وأمّا بقية حالات الميثاق مع بقية الناس، فترجع إلى الأساس، إلى ما فينا من قدرة على تمييز الخير من الشرّ، وعرضه تعالى لدينه علينا، وهكذا نصير تحت شيء شديد لا يتحمّل التهاون به، ويصير وصف الحالة ميثاقاً لمن تعهد باتباع الحقّ. أنا وأنت تحت ميثاق معه تعالى، ولدينا تعهد شديد له تعالى بالالتزام بدينه، ودينه تعالى هو الإيمان بالحقّ وفعل الصالحات.

هذا لا يعني أن من كفر بدينه تعالى يكون بلا التزامات عليه لأنه لم يتعهد ولم يواثق، وبالتالي لا عقاب له، لا، فهذا أساساً حالته سيئة جداً لأنه منكر للحقّ وفاعل للسيئات ورافض للالتزام بكلامه تعالى، وعلى هذا عقاب شديد.

كلام الآية هنا مع بني آدم(ع)، فهل كل البشر أبناؤه؟ لا أعلم، والاحتمالات مفتوحة على مصراعيها، وأولاً عليك بالتذكّر أن هذا القرآن كتاب هداية، وليس الغرض منه تعليمك ما لا علاقة له بالهداية، وأحياناً بالتبعية يعرض معلومات لها اشتقاقات علمية تجريبية أو تاريخية أو طبية...

ما نعرفه من القرآن من الآية 30 من سورة البقرة "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ"، أن آدم(ع) وزوجته ليسا أوّل بشريين على الأرض، بل في زمانهما كان هناك بشر يفسدون ويسفكون الدماء وتستغرب الملائكة من جعله تعالى خليفة له من هؤلاء ومن ذريتهم... وبعدها ترى من القرآن أن آدم(ع) هو أوّل بشري تأهل ليتكلّف بدينه تعالى عبر التواصل معه وحياً وإخباره عن آخرة وحساب ومجازاة...

أمّا السؤال عن تاريخ آدم(ع) في زمن البشرية، وكم ألف سنة خلت على حياته؟ لا نعلم، وكل ما تجده في كتب المنتمين لدينه تعالى إنما هو فرضيات بدأت كتخمينات وبعدها صارت تراثاً مقدساً كمعلومات دينية، وأقحموها في ضمن كلامه تعالى في كتبه السابقة، والقرآن أمامك ولن تجد فيه تصريحاً بالتاريخ، قد يرجع عهد آدم(ع) إلى عشرة آلاف سنة أو عشرين أو خمسين أو مئة ألف سنة... لا أدري، ولحد الآن لا أحد يدري.

قد يكون آدم(ع) وذريته الناجين الوحيدين من الانقراض، وقد يكون الناجون خليطاً من ذرية آدم وآخرين، وقد يكون الكلام القرآني الموجّه لبني آدم(ع) نموذجاً لأنه أول من تعرّض للغواية من إبليس، وبالتالي فالتحذير لنموذج الذين أغوى إبليس جدّهم، علماً أن العديد من الآيات جاءت بالعمومية بالتحذير من إبليس لكل الناس وكمثال عن ذلك الآية 168 من سورة البقرة "يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ". وقد يكون تسمية بني آدم بالتبعية شاملاً لذريته وللآخرين على أساس أن آدم من ضمن أجدادهم مثلما النبي إسماعيل(ع) موصوف بالأبوة لبني إسرائيل بينما هو عمّ لجدّهم النبي يعقوب(ع) كما تقرأ في الآية 133 من سورة البقرة "أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ".

قد يخطر ببالنا احتمالات أخرى، أمّا سبحانه يرى حادثة آدم(ع) وما فعله إبليس بغوايته، ومن بعد ذلك النظرة لحالنا بعد آلاف من السنين عن تلك الحادثة ولا يزال الشيطان ينجح بإضلالنا. الآن وصّف أنت هذه الحالة، هل جملة: يا بني آدم لا تعبدوا الشيطان، تراها مناسبة؟ طبعاً مناسبة وعلى عدّة أوجه، وربما آدم هو جدّ الجميع، وربما هو من أجدادهم لناحية أمهاتهم، وربما لأنه قديم جداً في الزمن وكالأب للجميع، وربما هو وذريته نموذج، وربما...

(وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{61})
{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ}:

{وَأَنِ اعْبُدُونِي}، أنا إلهكم ومفروض منكم طاعتي فتصرفوا على هذا الأساس، {هَذَا صِرَاطٌ}، هذا طريق أساسي، نهج أساسي في التفكير والتصرّف، {مُسْتَقِيمٌ}، يوصف بأنه على الأحسن فلا اعوجاج فيه.

ضع في بالك اصطلاحنا على الصلاة والصوم والزكاة... بأنها عبادة، وهذا بالمجمل صحيح، لأن العبادة له تعالى هي طاعته فيما أمرنا به وأمرنا بالصلاة والصوم... ولكن لم يستعمل القرآن هذا التوصيف بهذا الشكل المباشر، وأقول لك هذا لأن عموم أدبياتنا راكمت في بالنا معنى كلمة عبادة على بعض تطبيقاتها، فنقول: أعبد الله تعالى بالصلاة له. بينما الكلمة عامة لكل طاعته تعالى فيما يرضيه، كل الأعمال الصالحة عبادة، التجارة بالحلال عبادة، العمل عبادة...

هنا نستذكر أساسيات مفاهيم القرآن عن العمل الصالح، حيث خَلَقَنا سبحانه وفينا قابلية تمييز الصالح من الفاسد، ولهذا السبب صرنا مكلّفين باتباع ما نراه صالحاً، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، وبناءً عليه ستتماشى أوامره تعالى مع ما نراه صالحاً، وهنا الكلام عن الصراط المستقيم بعبادته تعالى، مبنيٌّ على قابليتنا لرؤيته طريقاً مستقيماً، وسبحانه لا يأمرنا بسلوك هذا الصراط وكأنه شيء لا نعرفه، بل يلفت انتباهنا له، ويؤكّد لنا بأن بقية الصُّرُط الأخرى سيئة، وعليها عقاب.

بعبارة أبسط، لا يأمر سبحانه بشيء تراه أنت سيئاً، وعبادته تعالى لا تعني تأليهه بل هي تطبيق تأليهه، فالعبد مفروض منه الطاعة، وكلمة عبادة مشتقة من كلمة عبد، وسبحانه لا يأمر إلا بالصلاح والخير ولذلك يصف عبادته بأنها {صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}، وأمّا نكران الحقّ وفعل السيئات فهي صراط "طريق" فاسد.

(وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ{62})

{وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ}، جعل الشيطان أناساً على الطريق الخطأ، {جِبِلًّا كَثِيرًا}، عدداً ضخماً بكثرة، أضلّ عدداً ضخماً من الناس وبعده عدداً ضخماً آخر... بكثرة أضلّ مجموعات بأعداد ضخمة، {أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ}؟ ألم يكن عندكم عقل تفكرون به؟ أهكذا بكل سهولة جعلكم الشيطان تتبعونه وكأنكم بلا فهم وبلا عقل! ورغم وضوح فساد ما يدعوكم إليه ورغم التحذيرات والإنذارات التي وصلتكم!

نتذكّر دائماً اعتماد كلام القرآن على العقلانية التي منحها تعالى لنا، حيث ما يأمر به الشيطان يكون شيطانياً، ولن يوسوس لنا الشيطان بما يصبّ في مصلحتنا ولا بما يكون عقلانياً منطقياً وفيه خير، فكلمة شيطان تشير حصراً لمن يفعل الضلال، والعقلانية والمنطقية فقط وفقط في كلام الهدى، وهو كلامه تعالى، وهكذا نفهم من مختصر الكلام هنا عن عبادة الشيطان أن وسوسته كانت بأمور شيطانية، أمور مضادة للعقلانية والصلاح، أمور سيئة فاسدة باطلة... ومن الواضح لمن كان فكره ونفسيته سليمة، لمن كان يعقل، أنه يوجد أمور سيئة يجب عليه تجنّبها، وكلام الآيات هنا عن حال أصحاب النار، لتسأل: ألم يكن لديهم قدرة على عقل المعروض عليهم وما يأتي على بالهم ليروا أنه شيطانيٌّ سيّئٌ؟

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، لأنها لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شراً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فقد ضلّ عنك صيدها. استعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، ولم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضالٌّ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} رداً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

معلوم لنا أن الشيطان إبليس ليس المسؤول الوحيد عن ضلالنا، بل هو فقط يوسوس لنا، ونحن لوحدنا وبدونه لدينا رغبات وشهوات تغلب علينا لنفعل السوء لإشباعها، نحن نوسوس لأنفسنا إن جاز التعبير، وقبل قرار إبليس بإضلالنا كان البشر يفسدون ويسفكون الدماء كما هو واضح من الآية 30 من سورة البقرة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا} "خليفة لك" {مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...}.

أيضاً يمكننا السؤال عمّن وسوس لإبليس إن كان فعل السوء لا يحصل إلا من وسوسة!

بالمختصر إبليس وبقية الجنّ مثلنا مثلهم، كلانا لدينا قابلية تمييز الخير من الشرّ وممنوحون حرية الإرادة والاختيار منهما، هذه حالة كل واحد منّا لوحده، وبعدها يأتي الاتصاف بالشيطنة، فأنت تغويني أو أنا أغويك مشجعاً لك على السوء، قائلاً لك أو فاعلاً أمامك أو أوحي لك أو أوسوس لك... لأصير موصوفاً بالشيطنة.

مضافاً لحالتنا نحن البشر مع بعضنا بالشيطنة، هناك الجنّ مع قدرتهم فقط وفقط على الوسوسة في صدورنا، وهم مثلنا أيضاً يضلّون بعضهم البعض، وهم مثلنا مشغولون بحياتهم العادية ويعلمون أن الوسوسة للبشر عمل سوء وعليه عقاب إلهي، ولكن بعضهم يفعلونه، وإبليس من الجنّ، وقرّر التفرّغ لإضلالنا عبر الوسوسة لنا وجعل ذلك هدفاً لحياته متفنناً في الأساليب، وقراره هذا من يباسة رأسه ليبرهن له تعالى أنه كان معه حقٌّ برفض السجود لآدم(ع) لأن البشر لا يستحقون ذلك...

معلوم لنا بشكل واضح جداً من القرآن أن إبليس لا سلطة له علينا إلا حين نحن نقرّر اتباعه، وبعضنا يصير كالعبد له، مطيعاً في كل ما يوسوس له، وكمثال قرآني صريح وواضح عن ذلك ما ورد في الآية 42 من سورة الحجر {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}.

(هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ{63})
{هَذِهِ جَهَنَّمُ}، هذا هو المكان الموصوف بسوء ما فيه، فيه النار المتأججة للعذاب الجسدي وفيه العذاب النفسي، {الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ}، التي قيل لكم عنها أنكم ستدخلونها إن لم تعبدوه تعالى.

هكذا نفهم بأنه تعالى يضع كامل المسؤولية على عاتق البشر، وأن الكافرين فعلاً يستحقون التعذيب، لأنهم بقرارهم أقفلوا عقلهم واتّبعوا الشيطان ولم يؤمنوا وفعلوا السيئات، وكفرهم بالآخرة لن يغيّر أي شيء، وسيتحاسبون ويتجازون حتماً بوعد من الإله سبحانه.

(اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{64})
{اصْلَوْهَا}، تعرّضوا لها، قفوا أمامها، والكلام عن نار جهنّم التي سيكونون أمامها لتحرقهم، {الْيَوْمَ}، في هذا الزمن في الآخرة، {بِمَا}، بالذي، {كُنتُمْ تَكْفُرُونَ}، فقد أنكرتم وحدانيته تعالى وأنكرتم دينه وآخرته... وليس ظلماً ولا عدواناً أنتم في جهنّم، بل بسبب ما فعلتم تتعرضون لنار جهنّم.

كما نرى تكرّر السورة استعمال كلمة يوم، وهذه الكلمة معناها العام يشير لأي زمن مهما طالت مدّته ويقع فيه حدث أساسي، ويكون قصيراً كيومنا على الأرض من ليل ونهار، ويكون طويلاً بمليارات وتريليونات من السنين، طالما الوصف لنفس الحدث فمهما مرّ من زمن تكون الحالة هي يوم لذلك الحدث، ومثله الكلام عن ستة أيام لخلق السماوات والأرض، حيث كل يوم عبارة عن مرحلة أساسية، وعندما تنتهي وتبدأ مرحلة أخرى فهي يوم آخر حتى لو طالت المرحلة لمليارات من السنين، ومن سياق الكلام تفهم ما هو الحدث الأساسي وما هي مدته.

بناءً عليه، لا تفهم من كل آية استعملت كلمة يوم وكانت تشير للآخرة، لا تقل إنها تشير ليوم القيامة حصراً، لا، فهو يوم قيامتنا من الموت وبعده أيام محاسبتنا فردياً وجماعياً... وبعده أيام في النار والجنّة، ومن سياق الكلام يتحدّد أي يوم هو المقصود، وهنا في الآية الكلام باليوم عن مجموع كل تلك الحوادث بالنظر لكونه الزمن الذي نتجازى فيه، فكله يوم، كله زمن المجازاة، ومعلوم أنه لا نهاية له، لأنه من بعد يوم قيامتنا من الموت يأتي بعده الخلود.

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ{65})
{الْيَوْمَ}، في هذا الزمن، {نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ}، نضع شيئاً على نهاية الأعضاء التي يتفوّهون بها، يغلق تعالى فمهم، كما تختم على فم القنينة لتسدّها، فسوف يسدّ سبحانه لهم فمهم فلا يستطيعون التفوّه، لأنهم سيحاولون تبرير أفعالهم السيّئة، وسيكذبون ويقولون إنهم أبرياء ولم يقصدوا... لذلك يتم ختم أفواههم، {وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ}، فتقول الأيدي ما فعله أصحابها بها، {وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ} لأنها كانت حاضرة على أفعال أصحابها لتؤكد وجود أصحابها في مكان الحدث وما حصل فيه من سوء، وتتكلّم الأيدي وتشهد الأرجل، {بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، بالذي كانوا يحصلون عليه مما نتج من أفعالهم، فالعامل في الزراعة يكسب الحصاد، والكفار ارتكبوا السيئات وتركوا الصالحات فكسبوا ما نتج عن أعمالهم السيئة.

الآية 20 من سورة فصلت قالت بأن الجلود والبصر والسمع أيضاً يشهدون على صاحبهم {حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، فكل عضو جرى استعماله في السوء سيشهد على صاحبه، وهنا الآية ذكرت لنا بعض الأعضاء كمثل.

بعض الناس يخطر ببالهم أنهم يمكنهم الكذب في يوم القيامة، أو يجدون مبرراً لتصرفاتهم حتى ينقذوا أنفسهم من العذاب، فيخبرنا القرآن الآن بأن هذا لن يحصل، لأن الجلد والعين والرجل وبقية الأعضاء ستشهد بالصدق علينا.

الختم على أفواه الكفّار ليس من بداية الرجوع إلى الحياة في الآخرة وحتى دخول النار، لا، بل في مرحلة من مراحل الحساب حين يبرّر الكفّار أو يقصّون حادثة ما بطريقة مخففة أو ناقصة حينما فعلوا السوء، عندها يتم ختم أفواههم وإنطاق الأعضاء لتتكلّم وتشهد بالحقيقة، فختم الأفواه ليس حدثاً مستديماً، بل حدث من الأحداث، بدليل أنهم فيما بعدها بثانية سيقولون لأعضائهم: لِمَ شهدتم علينا؟ وهذا ما تجده في الآية 21 من سورة فصلت {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ...}.

الآن نحن نستصعب تصوّر نطق الأعضاء لتشهد على أصحابها بما فعلوه، فهل يصدر منها صوت؟ أم تنطق بحركاتها؟ أو تعيد تمثيل ما جرى...؟ القرآن وصف أعضاء جسد المجرمين بالكلام والنطق ليشهدوا، ونحن نعلم بأن عالم الآخرة مختلف عن عالمنا، وأجسادنا هناك تكوينها مختلف عن تكوين أجسادنا هنا، فأهل الجنّة لا يشعرون ولا بأي نوع من الألم مهما حصل، وأهل النار لا يشعرون بالراحة ولو لثانية في أي بقعة من جسدهم، ويشربون الحميم فتتقطّع أمعاؤهم ولا يفقدون وعيهم من شدّة الألم... فمهما حاولنا الآن تصوّر كلام الأعضاء، سنجده صعباً بل مستحيلاً، وهذا خبر عن شيء سيحصل في عالم سنرى فيه الملائكة(ع) التي يستحيل علينا رؤيتها الآن بتكوينها الأصلي...

(وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ{66})
الآية السابقة نبّهت الذي يفكّر الآن باستعمال الحيلة في يوم القيامة، تنبّهه الآية بأن أعضاء جسده ستشهد عليه بالصدق، فهل يخطر ببال أحد ما أنه سيهرب ويدخل إلى الجنّة خِلْسَةً! سوف ترى الآية هنا تقصد هذا المعنى عندما تقرأ الآية بعد التالية التي تبين لمن يشعر الآن بالقوّة أنه سيمرّ عليه زمن من الضعف...

{وَلَوْ نَشَاءُ}، من بين خيارات عديدة، {لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ}، لأخفينا معالم أعينهم، لجعلنا جلداً يغلق مكان أعينهم فلا يرون أمامهم، {فَاسْتَبَقُوا}، في أول فرصة يحاول كل واحد منهم الوصول إلى، {الصِّرَاطَ}، الطريق الأساسي، وهنا المقصود هو الطريق الموصل إلى الجنة، {فَأَنَّى يُبْصِرُونَ}! كيف يمكن وبأي طريقة يمكنهم وعي وفهم الصورة التي أمامهم؟ بأيّ وسيلة سيصيبون طريق الجنّة ولن يسقطوا في جهنّم بينما هم عميان!

حتى نفهم الآية، علينا سماع ما يقوله بعض الكافرين الذين يتمتعون بجسد سليم في الدنيا، الذين "ولشدة كفرهم" يظنون بأنهم كما هم هنا في الدنيا أقوياء وأصحّاء، يظنون أنهم سيكونون أقوياء وأصحاء في الآخرة! إذا كان هناك آخرة، فسيستعملون قوتهم الجسدية ليفرضوا إرادتهم على الله عز وجل، وعلى الملائكة(ع)، وسيدخلون الجنة بالقوة. بل ويقولون: هذا إن كان هناك آخرة فسندخل إلى الجنّة بالقوة أو بالحيلة؟ هكذا تأتي أمثال آيتنا هنا لتخبرهم بأن السيطرة الإلهية كاملة على كل شخص لدرجة متابعة تفاصيل ما فعله كل واحد من الناس، والخيارات أمامه تعالى عديدة ويمكنه سبحانه بسهولة إلغاء قدرة الكافرين على الرؤية ليتركهم سبحانه والنار تقترب منهم وهم يعلمون أن المؤمنين ذاهبون من طريق "من صراط" إلى الجنّة، فليجرّبوا إن كان بإمكانهم الوصول إليه.

من يعتقد نفسه "فلهوي، حربوق، شاطر، محنّك..." وسيجد في الآخرة طريقة ينجو بها من النار، تأتي الآية هنا لتخبره أن لا يعتمد على ذلك، ومستحيل أن يمرّ على الصراط ليدخل الجنّة إن لم يكن من أهلها، وسبحانه أخبرنا في القرآن أن أهل النار يتم رميهم فيها، حيث تقترب منهم ويسقطون فيها، وهم طبعاً سيحاولون الهرب، وسيحاولون الوصول إلى الصراط الذي يوصل إلى الجنّة، ولكنه بينهم حجاب مانع من ذلك... ويمكنه تعالى مسح أعينهم إذا شاء... فلا يستخف أحد منكم نفسه بهذه الأفكار التي لن تنجيه...

الكفّار مربوطون بالأغلال، وتجرجرهم وتضربهم بعض الملائكة(ع)، وأصلاً لن يفلت ولا واحد منهم للهرب من النار، ولذلك تقول الآية هنا إنّه على فرض أراد أحد منهم الهروب، فسبحانه وبكلمة واحدة منه تنطمس أعين الكفّار، فيفقدون القدرة على الرؤية، وبالتالي سيفقدون قدرة سلوك الطريق المؤدّي إلى الجنّة.

بالنسبة لما هو مشهور في ثقافتنا عن صراط فوق جهنّم يمرّ عليه المؤمنون لدخول الجنّة، وعادة يذكرون له الآية 74 من سورة المؤمنون {وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ}، وبمراجعة القواميس واستعمال العرب قديماً لكلمة نكب ومنها منكب "مثل كتب ومكتب..."، ستجد أنها لمعنى عامة العدول والميل لسلوك طريق آخر، وهي مختلفة عن كبا يكبو التي لعامة الوقوع، وما هو منتشر في ثقافتنا عن الصراط كطريق فوق جهنّم يمرّ عليه المؤمنون إلى الجنة، ويقع عنه أهل النار في النار... هذا المعنى غير سليم لغوياً للآية، ولا يوجد آية أخرى في القرآن تعطي المعنى المنتشر في ثقافتنا عن الصراط كجسر فوق النار، بل الكلام القرآني عن الآخرة يوصّف جهة يمين فيها المؤمنون لناحية الجنّة، وجهة شمال فيها الكافرون لناحية حفرة النار، ويمرّ المؤمنون بالقرب من حفرة النار أثناء مرورهم إلى الجنّة، وهذا ما تفهمه من الآية 81 من سورة مريم {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا}، فورودها هو المرور بقربها أو من ناحيتها، وراجع دراسة الآية لمزيد من التوسّع.

الآية هنا والتالية كلامهما عن فقدان الكافرين لأي قدرة في الآخرة وأنهم تحت أمره تعالى فيهم، وهي افتراض وصف حالة محاولة الكافرين الدخول إلى الجنّة، كمحاولة منهم للابتعاد عن حفرة النار لسلوك الطريق الذي يؤدي إلى الجنة، وهذا لن يحصل فهناك حاجز يمنعهم من ذلك كما تقرأ في الآية 46 من سورة الأعراف {وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ...}، الآية هنا تفترض فقط، وكلامها أصلاً لا يساعد على تصوّر الصراط كجسر فوق النار كما يقولون، فما معنى محاولتهم الوصول للجسر المؤدّي إلى الجنّة إذا كان الجميع سيمر عليه وهم سيقعون عنه؟ كلام الآية صريح عن محاولتهم الوصول إلى صراط يوصلهم للجنة.

تختلط الصور للمشهد مع اختلاط المعاني غير الصحيحة لبعض التعابير، فالغالبية يفهمون تعابير القرآن عن أبواب لجهنّم وللجنّة أنها مثل باب البيت، أو كباب في سور مدينة، بينما الباب وصف لعموم أي ممر حتى لو لم يكن كشيء تشير له، كالتعبير الوارد في الآية 11 من سورة القمر {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ} فما يمر منه الماء صار مفتوحاً وهو ليس باباً محدداً بحجم... والجنّة بوساعة السماء والأرض كما تقرأ في الآية 21 من سورة الحديد {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...}، وأقرب صورة لها بالنسبة لمعطياتنا الحالية المبنية على ما نعرفه عن كوننا أن الجنّة فيها كواكب في مجرات، وذلك في مقابل تصوّرها ككوكب ضخم كما يبدو من غالبية موروثنا الثقافي، فالصورة المنتشرة في ثقافتنا عن مكان واحد لكل الجنّة، وفيه أبواب للمرور إلى أماكن مغلقة على الذين من الدرجة المنخفضة... فهذا لن تجد ولا آية تخبرك به، وهو لا يتماشى مع عموم كلام القرآن عن تلاقي وتخالط جميع من في الجنّة ساعة يشاؤون، وأصرحها الآية 21 من سورة الطور {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}، حيث كل واحد منهم يشعر بأقصى السعادة التي لا يتصوّر فوقها سعادة، وكل واحد منهم درجة سعادته مرتبطة بدرجة إيمانه وعمله الصالح، وفعلياً هناك من يشعر بالسعادة أكثر من الآخرين... ولكل واحد منهم أماكنه الخاصة... والمؤمن من الدرجة العالية يلتحق به أهله المؤمنون من الدرجة المنخفضة ليعيشوا مع بعض أو ليقيموا الحفلات... ولا تتغيّر درجة سعادة أي واحد منهم فكل امرئٍ بما كسب رهين.

على أي حال، ليس مهماً إن كان هناك صراط كجسر فوق النار أم لا، فالنتيجة واحدة، ولكن المهم هو الالتزام بالمعاني الصريحة لما يقوله تعالى، لأن تفسير كلامه تعالى بما يناسب تصوراتي بعيداً عن المعنى الصريح للكلام، هو المشكلة، وقد لا يكون التفسير الفاسد لبعض الآيات ذا نتائج عقائدية أو تشريعية مضرّة بالإيمان بشكل مباشر وقوي، كالحالة هنا بالكلام عن وجود ممر كجسر فوق جهنم أو لا، وسواء أكان أم لم يكن فالنتيجة واحدة والاختلاف فقط في تصوّر المكان... ولكن يبقى الضرر من ترسيخ ثقافة التلاعب والتهاون في فهم كلامه تعالى، وهذا حتماً في آية ما سيؤدي إلى ضرر من العيار الثقيل في العقيدة أو الشريعة بسبب التلاعب والتهاون في معاني آيات تطبيقاتها خطيرة، وهو فعلاً ما تجده منتشراً في التفاسير والكتب والمقالات...

(وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِياً وَلَا يَرْجِعُونَ{67})
{وَلَوْ نَشَاءُ}، من بين الخيارات العديدة أمامه تعالى، {لَمَسَخْنَاهُمْ}، لحوّلنا شكلهم بالتشويه، وهذه الكلمة لم ترد إلا هنا في القرآن، {عَلَى مَكَانَتِهِمْ}، على الناحية التي هم فيها، هم في مكانة معنوية في ناحية الكفر الكريهة، وأمامه تعالى خيارات عديدة، ولو قرّر سبحانه لحوّل أشكالهم بما يتناسب مع الناحية المعنوية التي هم فيها، لحوّلهم تعالى إلى شكل كريه لا يتمكنون فيه من التحرّك كما يريدون، ولنقل أن أرجلهم وأيديهم ستلتصق ببدنهم ولا يقدرون على المشي أو الزحف إلى حيث يريدون... من دون الحاجة لجعلهم عمياناً كما قالت الآية السابقة، يمكنه تعالى أن يشوّه خلقتهم، {فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا}، فلا يمكنهم المضي قدماً إلى الأمام، فلا يمكنهم المشي أو التحرك من مكانهم إلى الأمام، باتجاه الصراط المؤدّي إلى الجنّة، {وَلَا يَرْجِعُونَ}، ولا يستطيعون الرجوع إلى الوراء هرباً من السقوط في جهنّم.

لن يطمس سبحانه أعينهم ويتركهم يحاولون الوصول إلى الصراط، ولن يمسخهم تعالى ليثبتوا في مكانهم ويسقطوا في جهنّم التي تقترب منهم، وتبيّن لك الآيات سيطرته تعالى عليهم ويمكنه تعالى فعل أي شيء بهم، ولنتابع:

(وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ{68})
أولئك المتبجّحون بقواهم الجسدية والعقلية كيف ينسون أنهم هنا في الدنيا لا يتمتعون بالقوة الجسدية بقدرتهم الذاتية! فقوّة الشباب التي منحها سبحانه لهم هنا في الدنيا تنتهي!

{وَمَنْ نُعَمِّرْهُ}، الذي نجعله يعيش عمراً طويلاً ليصير عجوزاً، {نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ}، كان طفلاً ضعيفاً عقلياً وبدنياً، ثمّ صار رجلاً قوياً بعقله وبدنه، ثم ينكسه تعالى فيقلبه ليجعله هرماً ضعيفاً في عقله وبدنه.

{أَفَلَا يَعْقِلُونَ}، أليس لديهم قدرة لعقل "لفهم واستيعاب" هذا الحال! أفلا يحرّكون فكرهم وفهمهم؟

الآيات تنبّه المغرورين بعقولهم وبذكائهم وبحيلتهم وبقوتهم البدنية... بأنه لن ينفعهم شيء من هذا للهروب من العذاب في الآخرة، فإن فكّروا بالكذب لتبرير أفعالهم عندها أعضاء جسدهم ستشهد عليهم ضدّهم، وإن فكّروا بالهرب لعبور الصراط فهذا لن يحصل وأمامه تعالى خيارات عديدة بسيطة جداً لمنعهم من ذلك...

هنا تقول الآية: كيف تفكرون بهذه الطريقة؟ كيف تضمنون بقاء قوتكم الجسدية والعقلية في الآخرة؟ أنتم هنا في الدنيا لا تملكون السيطرة على جسدكم ولا على عقلكم، فمن نعمّره، من يُبْقِهِ تعالى حياً حتى يصير عجوزاً هرماً، ينتكس "ينعكس ينقلب" فيصير غير سليم وغير معافى، فيذهب عقله وتذهب قوته البدنية، أفلا تعقلون؟! ألم تنتبهوا لهذا قبل أن تفكروا بهذه الطريقة وتتكلموا بهذا الكلام؟ كيف يخطر ببالكم أنكم بقوتكم الفكرية والجسدية في يوم القيامة ستحتالون على محاسبتكم أو أنكم ستقاتلون الملائكة(ع) وتدخلون إلى الجنة، وبالقوة! وأنتم ترون الآن أنكم تحت سيطرته تعالى الذي صمّمكم بحيث تفقدون قواكم إن طال عمركم!

(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ{69})
سمعنا في الآيات السابقة بعض أقوال وأفكار الكفار حول طرق نجاتهم من العذاب في الآخرة، وسمعنا إجابات القرآن، وهذه ليست أول مرة يجادلون فيها النبي محمّد(ع) ويأتيهم الجواب الواضح عبر الآيات، وبدل إيمانهم لأن كل أسئلتهم وأفكارهم جرت الإجابة عنها وتصحيحها، بدل ذلك، قالوا: حسن يا محمد أنت ماهر في اللعب على الكلام، وتغلبنا بقولك كلاماً منمّقاً مثل كلام الشاعر الماهر. أقوالك ليس لها قيمة حقيقية، وهي مثل تحدّي الشعراء لبعضهم البعض، وفي النهاية لا يتنفّذ من كلامهم أي شيء. ما تسمّيه قرآناً وآيات، وتقوله عن التهديد والوعيد في الآخرة، لا قيمة له، لأنه مثل الشعر، زخرفة "صفصفة" كلام. فيأتي الجواب:

{وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ}، من ناحية الإله سبحانه علّم رسوله محمّداً(ع) القرآن، ولم يعلّمه الشعر، {وَمَا يَنبَغِي لَهُ}، فلا يوجد ولن توجد مقوّمات ولا لوازم تعلّمه (ع) للشعر، فسبحانه لا يعلّم رسوله الشعر وصفصفة الكلام الفارغ، بل:

{إِنْ هُوَ}، الذي علّمه تعالى للرسول(ع) هو فقط، {إِلَّا ذِكْرٌ}، فقط كلام منه سبحانه لتستحضروه في فكركم ومشاعركم وعملكم، وهو، {وَقُرْآنٌ}، شيء مقروء، {مُّبِينٌ}، كلامه ومعانيه واضحة لمن درسها. ظاهر وواضح على كلام

الرسول(ع) أنه وحي من الله تعالى، وهي معلومات حوّلها سبحانه لكلمات من لغة البشر فصارت مقروءة، لذلك هي قرآن، ومن الواضح بأنه ليس شعراً ولا يشبه الشعر.

تحدّث المفسّرون حول روايات عن النبي(ع) بأنه قال بضعة جمل قصيرة على وزن الشعر، وتحدّثوا عن بضعة أشعار نقلها بطريقة صحيحة أو أخطأ (ع) في نقلها... وبنوا على الروايات التي نقل فيها النبي(ع) أبيات شعر عن الشعراء بطريقة غير صحيحة، واستنتجوا بأنه (ع) ممنوع إلهياً من حفظ وتأليف الشعر، ومن كلّ هذا الكلام نستفيد شيئاً بسيطاً واضحاً: لم يكن الرسول(ع) مشهوراً بنظمه للشعر ولا حفظه.

العديد من الناس غير المشهورين بالشعر، صدر منهم في حياتهم بيت أو بيتان أو أكثر، ولكن هذا لا نقول عنه شاعر مثل الشعراء امرئ القيس والفرزدق وعنترة... فلو كان النبي(ع) شاعراً لاتهمه الناس بأنه هو من ألّف القرآن بقدراته الكلامية "البلاغية"، وتكلّم القرآن عن هذه النقطة من عدّة زوايا، منها أن النبي (ع) أمي والناس من حوله لا يعرفون بأكثر المعلومات التي في القرآن، فمن أتى بها؟

ومنها حين لفت انتباههم أن شخصاً لديه القدرة على تأليف القرآن لن ينام لقرابة الأربعين سنة من دون أن يصدر عنه في كلامه أي نموذج مشابه للقرآن وفجأة يبدأ بتأليف القرآن، وتقرأ ذلك في الآية 16 من سورة يونس {قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}.

ومنها حين تحدّاهم بتأليف سورة من مثلها إن كان يمكن للبشر تأليف سورة مثله كما تقرأ في الآية 23 من سورة البقرة {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ...}، وهذا التحدي والكلام هنا في الآية يريك أن المسألة تتمحور حول الموضوع وليس حول البلاغة كما يقول البعض.

ومنها أن القرآن نزل على مدة تفوق العشرين سنة ولم يعدّل فيه النبي(ع) أي كلمة، وتقرأ ذلك في الآية 101 من سورة النحل {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}.

ومنها، بل أساسها وأهمّها النظر في نفس عقلانية وصلاحية كلام القرآن الذي لوحده يدل على إلهية مصدره كما ورد في العديد من الآيات، منها الآية 57 من سورة يونس {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}، وكل ما سبق وذكرته لك فهو قرآنياً يتمحور حول هذه المسألة...

هناك شيء آخر، فالشعر يتميّز بالصور الذهنية والخيال والمبالغة... وبكلام له موسيقى، وبكلام يتميّز بابتعاده عن الجديّه بتصاويره الخيالية ومبالغته، وهذا ما أرادك القرآن الالتفات له، وهذا ما كان الكفّار يتحدثون عنه، بينما القرآن كلام جدّي حقيقي واقعي، وهم يقولون عنه بأنه خيالي، فلم تكن المشكلة عندهم أن محمداً (ع) بليغ قادر على نظم الشعر، والقرآن ليس شعر القافية، بل كانت المشكلة أن كلامه (ع) بالنسبة لهم مثل الشعر، ككلام خيالي غير واقعي، عن عالم الآخرة والعذاب والجنة... ولن يؤمنوا به لأن قيمته بقيمة كلام الشاعر.

يعني لا داعي لتثبت أن الرسول محمّداً(ع) لا يقدر على نظم الشعر أو حفظ أشعار الآخرين، حتى تثبت لهم أن قرآنه ليس شعراً، فالقرآن أصلاً ليس شعراً، ولمزيد من التوسّع حول هذه النقطة راجع دراسة الآية الأولى من سورة القمر {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}، فهم لا يقولون عن القرآن أنه شعر "القصائد والقافية"، بل يقصدون أن الشعر في أصله وأساسه ليس خبراً حقيقياً ينقل الواقع، بل كلاماً تصويرياً يحفّز ويثير الأذن بموسيقاه ويثير الصور التي يفعّلها في ذهن المستمع، ولا يعبّر عن واقع حقيقي، فحتى لو نقل لنا الشاعر في قصيدته قصّة معركة جرت، فلن ينقلها مثل نشرة الأخبار، بل سينمقّها ويذوّقها مبالغاً في تصوير مجريات الأحداث... وإذا سمعنا شاعرين يتبارزان في الكلام، فكلاهما يقنعك أن معه حق لشدّة حدّة لسانه على الشاعر الآخر... وهذا ما قصدوه بقولهم عن القرآن أنه شعر، لأنه بنظرهم هو صفصفة كلام خيالي موسيقي بليغ لا يعبّر عن أي حقيقة.

والهدف من تعليمه تعالى القرآن لرسوله(ع):

(لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ{70})

لِيُنْذِرَ، حتى ينقل الرسول(ع) عبر هذا القرآن خبراً عن خطر قادم حتماً لمن توافرت فيه شروط حصول العقاب الإلهي، من كان حياً، من كان موصوفاً بأنه يتفاعل مع الهداية، لمن كان في أذنه حياة فيسمع الكلام الحق، وفي عينيه حياة فيرى الحق، وفي عقله حياة فيفهم الحق... هذا الشخص يكون حياً إن كان فعلاً موصوفاً بمعنى كلمة حياة حين يتفاعل مع كلامه تعالى فينفع معه الإنذار من العقاب في الآخرة.

أمّا الذي لم يتفاعل مع الإنذار فهو غير موصوف بالمعنى الحقيقي لكلمة حياة، وهذا القرآن، يحقّ القول على الكافرين، فينقل للمنكرين لدينه تعالى قوله تعالى عن انطباق كلامه سبحانه عليهم لأنهم سيتعذّبون في الآخرة.

"قال" سبحانه إنه سيعاقب من كفر، وحتى "يحقّ" هذا القول فيتحقّق العقاب على من أنكر توحيده ودينه تعالى، لذلك أنزل القرآن على رسوله(ع) الذي بدوره بلّغه للناس ليكون إنذاراً لهم، ومن بعد وصول الإنذار فكما نقول: صار ذنبهم على جنبهم. هم سيتحملون نتيجة قرارهم.

ليقولوا إن القرآن مثل الشعر، ليقولوا لا قيمة له، ليقولوا... هذا لن يغيّر أي شيء من نهايتهم إلى جهنّم وهم يتحمّلون مسؤولية نهايتهم، فسبحانه أوصل لهم الإنذار بقرآن مبين.

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ{71})
من هنا تبدأ السورة بالتذكير بنعم الله تعالى على البشر، فمن منحهم إيّاها؟ من أين حصلوا عليها؟ وتختم الفقرة كلامها بأنه تعالى يستحق منهم الشكر، لا الكفر ولا الشرك.

هناك شيء آخر في الآية له عمق مرتبط بأصل مرجعية القيمة الحسنة والصلاح المزروعة فينا، فمن صفاته الحسنى سبحانه، والتي سببها قدراته الفائقة التي ينتج عنها كونه تعالى يستحيل أن يتضرّر ولا بأي شكل من أي شيء، ولذلك فسبحانه موصوف بالحليم والغفور... ولن يفعل السوء لأنه سبحانه وتعالى لا سبب له لذلك، ولنفس السبب هو رحمن، وهذا تحليل مما نعلمه عنه تعالى من خبراتنا وتفكيرنا... ومضافاً له ما أخبرنا به سبحانه عن نفسه صراحة في قرآنه.

هذه هي مرجعية الخير كمعيار ثابت، وهي ترجع للكائن "سبحانه" الذي صفات تكوينه لا تجعل له سبباً لفعل السوء، وتجعل له سبباً لفعل الخير، ونحن البشر منحنا سبحانه قدرة تمييز الخير من الشرّ بناءً على مرجعية رؤيته هو سبحانه للخير والشرّ، وبتعبير متساهل فيها، فنحن ورثنا معنى قيمة الصلاح والخير منه تعالى.

هذا الموضوع في غاية الأهمية كأساس لكل شيء مهمّ تقريباً، بالنسبة لنا لن يكون لأي شيء قيمة إن لم نحدّد مرجعية للخير والشرّ، فالذين يقولون بأن الأمور نسبية، وأنها هي بذاتها من زاوية ما تبدو خيراً، ومن زاوية أخرى تبدو شراً، وهؤلاء هم الغالبية من البشر، ورأيهم على سخافته له جمهور من الطبقة المثقفة من الدرجة العالية، وطبقاً لهذا الرأي لا يعد للإيمان بالحقّ أي معنى، ولا يعد للالتزام بالأخلاق أي معنى، ولا يعد للإنسانية على معنى الشفقة والرحمة والعون... لا يعد لها أي معنى.

نحن بقايا المعلنين الانتماء للدين الإلهي، نعاني من معركة تضييع الحقّ الواضح واستبداله بالزيف، وبالتحديد نعاني مما نفعله نحن أكثر مما يفعله الآخرون، فنحن غارقون في المذهبية والطائفية وحبّ التميّز والخوض في الباطل وتقديس الموروث...

نظن أن المعاناة الكبيرة من الخارج، لأن الحق واضح بالنسبة لنا، والآخرون يعاندون. لا، الكل معاندون للحق الواضح، والمرجعية لتبيانه هي فقط وفقط كلامه تعالى بدون تشويه، ومرجعية الخير تستند على تكوينه تعالى، لأنه لا سبب ولا معنى لفعله سبحانه للسوء.

الآن نرجع لآيتنا هنا وللآيتين التاليتين لنرى الخير الذي فعله تعالى معنا، وهو الحافز لنا على فعل ما هو صالح، وبناءً عليه يحاسبنا تعالى على تركنا للصلاح وفعلنا للسوء، فالسورة في بدايتها قفزت في الآية 47 من لفت انتباهنا لآياته تعالى التي ينكرها من يكفر بالرسول الإلهي، لتعرض علينا نموذجاً واحداً من أبرز نماذج الصلاح الذي يأمر به تعالى، والكافرون لا يريدون الالتزام به، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}.

السورة القرآنية "عامّة" تعالج محوراً واحداً، وأثناء ذلك تصل لنقطة بحاجة لتوسيع، أو تصل لمعاني بحاجة للفت النظر لشيء مرتبط بها، مثل هذه الفقرة التي بدايتها من هنا، فتكملة الموضوع عن الناس الذين لا يريدون أن يؤمنوا مهما وضّحت وشرحت لهم، ويخترعون من أوهامهم بأن آلهتهم يمكنها نصرهم ومساعدتهم إذا أراد الله تعالى معاقبتهم في الآخرة، وقبل إكمال القرآن الكلام معهم، من المناسب لفت انتباههم لما فعله الله تعالى معهم من أمور رائعة تثبت أنه الإله الأحد وتشير لقدراته الفائقة، وفي هذه الفقرة نجد التركيز على نعمة الأنعام والتفاصيل الكثيرة فقط لهذه النعمة كنموذج يمكن تعميمه بسهولة على بقية النعم الكثيرة التي أعطانا إياها تعالى، ولا شريك له فيها.

{أَوَلَمْ يَرَوْا}، ألم تحصل لديهم صورة محدّدة كما نقول بالعامية: ما شافوا، ما التفتوا. {أَنَّا خَلَقْنَا}، أنه تعالى ركّب وألّف، {لَهُمْ}، للناس، {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا}، بالوسائل والأدوات التي يفعل بها تعالى الأشياء، {أَنْعَامًا}، وهي الدواب الموصوفة بأنها نعمة، كالبقر والجمل والماعز... {فَهُمْ لَهَا}، لتلك الأنعام، {مَالِكُونَ}، يتصرفون فيها بحرية، فيأكلونها ويركبونها و... ويبيعونها ويشترونها من بعضهم...

نلاحظ استعمال كلمة {أَيْدِينَا}، فاليد بالنسبة لنا هي الكفّ مع الأصابع وهي أداة من جسدنا نستعملها لإنجاز أعمالنا، أما الله تعالى فلديه أدوات ووسائل وبالطبع ليست من جسده لأنه ليس له جسد، ويستعمل تلك الأدوات والوسائل ليخلق، إذن يد الله تعالى هي الأدوات والوسائل لتنفيذ ما يريده، بتعبير تقريبي هي قدرته، وبالتساهل سنقول أيضاً إن ملائكته(ع) وغيرها من الوسائل التي يستعملها سبحانه ليخلق ليؤلف ويركب الأشياء، هي يده، ولكن لم يستعمل القرآن هذا التعبير ولم يشر له.

كلمة يد كاسم لعضو تختلف عن اليد على الوصفية لما تحقّق به ما تريده، فوصفه تعالى بكلمات من لغتنا يحتم علينا سحب الخصائص الإنسانية من الكلمات، لتصير على الوصفية بدلا من الاسمية فعينه تعالى ووجهه ويده... على الوصفية لما يرى به، وتوجّه به، ويفعل به... هو استعمال حقيقي ولكنه ليس على الإسمية لأنه سبحانه ليس له أعضاء حتى نسمّيها.

الله تعالى لا يشبهه شيء، وليس له جسد ولا أعضاء، والتعبير هنا {بِأَيْدِينَا} ليدل على أنه تعالى ليس له شريك بل لوحده سبحانه خلق كل شيء، ولم يخلق سبحانه مخلوقاً آخر له القدرة والتصرف من مستوى إلهي ليخلق، بل كل شيء مخلوق إنما هو مخلوق بأمر من الله تعالى لا بأمر من أي أحد غيره.

أنت كمسلم ربما لا تفهم جيداً معنى هذه الآيات، لأنك أصلاً تعتقد بالله تعالى وتعتقد بأنه الخالق... وربما لم تتحدث مع مشرك أو كافر ولم تنتبه أن القرآن يتحدّث معهم أيضاً، ولكن إعلم بأنه يوجد أناس يعتقدون أنه يوجد آلهة متخصصة، يعتقدون بآلهة تخلق البحر وآلهة تخلق البرق والرعد وآلهة تخلق الحيوانات... وهناك أناس تقول بأننا بالصدفة انخلقنا... والآيات تخبرهم بأن هذا كله غير صحيح وهو من اختراع رؤوسهم الفارغة، ومن ناحية ثانية يجب أن تجعلك الآيات صلباً متيناً في عقيدتك، ولا تنخدع بكلام من يسمون أنفسهم بالعلماء حيث يتحدثون عن كثرة التكرار ونجاح الحياة بالصدفة على الأرض نافين بذلك وجود إله صمّم وخلق...

من السخيف القول إن كوننا لوحده صار، أو بالصدفة، أو بسبب كبر الكون وكثرة اختلاف الظروف فيه نجحت الحياة على الأرض... وهذه أحدث سخافة نسمعها في عصرنا وتردّدها المحطات والكتب المسمّاة بالعلمية، وها ترى القرآن يردّ على هذه النقطة بالتحديد في الكثير الكثير من آياته، وهنا في السورة مرّ سابقاً كلام عن هذا، وهنا نموذج عن الأنعام، فهذه التفاصيل التي لا يمكننا إحصاؤها فينا ومن حولنا، هل بالصدفة حصلت ولوحدها! إن لم يكن هذا سخافة، فما هي السخافة!

أضف إليه ما نتج عن وجود الأنعام من علاقات بشرية بالملكية لها، فلنتماشى مع كلام المنكرين لوجود إله، ما هو تفسيرهم لتفاعلنا مع جمال الأشياء؟ وما تفسيرهم لاستهلاك جسمنا والتغذّي من بعض الأشياء؟ وما تفسيرهم لملكيتنا للأشياء؟ كيف صارت بملكنا وتحت تصرفنا؟ إن كانوا يرون أن معرفتنا "السطحية" بآلية حصول الأشياء، حيث لدينا فكرة وفرضيات ونظريات عن كيفية نشوء الكون والأشياء فيه، هل هذا يلغي ما نراه من ترابطات ونتائج كعلاقة بين الكائنات، ولا نسأل كيف وصلت الأمور إلى هنا؟ أنا أملك ثيابي، وهذا يملك بيتاً وسيارةً، وذاك يملك دجاجة وآخر يملك

بقرة... هذه الملكية تدفعنا للسؤال عن المالك لما لا نملكه، وللمالك لنا، وللمالك لما نملكه، ومن ناحية ثانية يدفعنا للسؤال عن حالة الملكية، كشيء واقعي ملموس بيننا، من صمّمنا لنصل إلى مرحلة يصير فيها مفهوم الملكية؟

تراها بشكل أفضل إذا قلنا بأنه لسبب أو لآخر، وبطريقة أو بأخرى، صار الكون وصار فيه كائنات، ما معنى صيران حياة فيها من دون من يصمّم الحياة؟ لنقل إنه بطريقة أو بأخرى صارت الحياة، وتحركت الكائنات، ما معنى العلاقة بينها غير التصادم إذا تلاقوا على نفس المسار! يعني هم كالآلات التي تمشي بلا هدف ولا علاقة مقصودة مع الآخرين، إن حصل شيء، سيكون التصادم بينها... ولنقل إنه بطريقة أو بأخرى صارت الكائنات تأكل لتنمو وتتكاثر... ما معنى استذواقهم للطعام؟ وما معنى استخدام الكائنات بعضها البعض؟ وما معنى الانتباه لجمال الأشياء؟ وما معنى الملكية للأشياء؟

معرفتي لآليات نشأة الحياة ليس معناه انتفاءه سبحانه من المعادلة، بل هو محاولة تعرّفي على كيفية فعله تعالى للأشياء، فهل تتوقّع رؤيته تعالى بعينك شخصياً يفعل شيئاً بطريقة عجائبية من دون ترابط بين الحوادث؟ هذه الفكرة التي روّج لها عموم المتدينين عبر التاريخ بسبب فهمهم الساذج الطفولي لكلامه سبحانه، وهذا ما نفر منه العلماء الأكاديميون والمثقفون، وها ترى القرآن يحدّثك عن ستة أيام "مراحل" مترابطة لخلق الدنيا، وعن مراحل مترابطة لخلقنا من طين... بينما عموم المنتمين لدينه تعالى نفوا المراحل والآليات مفسّرين أكثر الأشياء بالفورية على معنى "كن فيكون" كما فهموه هم بدلاً من فهمها كما قصدها تعالى عن الحتمية، فما يريده تعالى حتماً يحصل وليس بالضرورة حصوله فوراً.

تذكّر دائماً أن القرآن عادة لا يتحدّث بشكل مباشر مع الملحد الذي لا يؤمن بالإله من أصله، بل وجّه كلامه إلى المشرك الذي يؤمن بالإله ولكن جعل مع الإله شركاء في الألوهية، ولكن هو نفس الكلام مع المشركين بالبراهين عن وجود إله واحد، فهو نفس الكلام يدل على الإله سبحانه، وترى ذلك في سورة الرعد والجاثية والواقعة، مثلما اعتبر القرآن أن التفكير بطريقة سليمة يوصل بسهولة إلى وحدانيته سبحانه، لأن الآلهة مجرد أسماء اخترعها الناس، فكذلك يعتبر أن التفكير بطريقة سليمة يوصلنا بسهولة إلى الإيمان به سبحانه، فبمجرد الالتفات لأنفسنا وما حولنا سندرك بأن إلهاً قادراً عظيماً حكيماً... صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا وخلق ما حولنا، ومن لم يعلن إيمانه بوجود إله، فهو جاحد، منكر للحقيقة الواضحة التي أمامه.

كمثال على ذلك آيتنا هنا، حيث السؤال عمّن خلق الأنعام موجه مباشرة للمشركين، ولكنه ضمناً موجّه للملحدين "المنكرين لوجود إله من أصله".

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ{72})
{وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ}، وجعل سبحانه الأنعام منقادة تحت أمر البشر، فجعلها تحت سيطرتهم وتتبع أوامرهم، جعلها قابلة للترويض والسيطرة عليها، {فَمِنْهَا}، من تلك الأنعام، {رَكُوبُهُمْ}، يركبون الحصان والجمل... لينقلهم من مكان إلى مكان، {وَمِنْهَا}، من تلك الأنعام {يَأْكُلُونَ}، يستهلكون لحم البقر والغنم و...

هنا أيضاً نلتفت بأننا نحن تعرّفنا على كيفية استعمال الأنعام للتنقل، ولكن هذا كان ضمن المخطط الذي وضعه سبحانه حيث جعلها تستطيع حملنا وحمل أغراضنا، ونحن فقط تعرّفنا على هذه الخاصية. هذه الآية والكثير من آيات القرآن تؤكد أن هذه الأمور كانت بعلمه تعالى من بداية ما صمّم ما في الدنيا، ونحن فقط نتعرّف على هذه الأمور. بعبارة أخرى، سبحانه من أوّل ما خلق ما في الدنيا كان من ضمن مخططه أن نكون قادرين على ركوب الخيل، فيخطر ببالنا تجربة ركوبها... وهكذا حصل...

تصوّر نفسك قرّرت خلق كائنات في بيئة، وصممتها تنمو وتتكاثر فتجوع لتأكل... هل ستجعل الطعام ينبثق أمامهم من الفراغ جاهزاً للأكل؟ أم ستجعل بيئتهم ينتج عنها الطعام، وتجعل في الكائنات قابلية التعامل مع ما يجدونه في بيئتهم ليأكلوه؟ كما ترى فأنت رزقتهم وأنت أطعمتهم بإتاحة بيئة ينتج عنها الطعام، وبجعلك صفات مناسبة فيهم للتعامل مع بيئتهم لاستخراج الطعام... ونفس الحال بالنسبة لما سيخترعونه من بيئتهم، من الأساس سيتضمّن تصميمك لهم إتاحة اكتشافهم لما يمكن أن يصنعوه في بيئتهم.

من هذا التصوّر ومع الفارق الهائل جداً جداً بيننا وبينه تعالى، لأنه سبحانه لا يخمّن ولا يحتمل، بل يعلم يقيناً بما سيجري، وبتعبير فيه الكثير من التساهل والبساطة، نحن مهما فعلنا ومهما اخترعنا، لن نفاجئه سبحانه بشيء لم يتوقّعه "ولم يخطر على باله"، علماً أنه سبحانه لا يتوقّع ولا يخطر على باله لأنه العليم.

(وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ{73})
{وَلَهُمْ}، وللناس، {فِيهَا}، في الأنعام، {مَنَافِعُ}، فينتفعون بها بأشكال أخرى غير الركوب والأكل، كنقل الأغراض واستعمال جلودها... {وَلَهُمْ}، {مَشَارِبُ}، فيشربون محلوبها، "حليبها، لبنها"، {أَفَلَا يَشْكُرُونَ}، لماذا لا يقولون له تعالى: شكراً! لماذا لا يعلنون عن اعترافهم بالحصول على أمور جيدة منه تعالى!

الأنعام نموذج مما أتاحه تعالى للناس، وهم يستفيدون من الأنعام كل هذه الاستفادة، يستفيدون منها وهي على قيد الحياة، بركوبها واستخدامها لحراثة الأرض وغيره... ويستفيدون منها بأكلها، وباستخدام كل أجزائها حتى عظامها وجلودها وأمعائها و... وحتى ظلفها الذي في أسفل قائمتها يستعملونه لصناعة الصمغ!... هل خُلقت من تلقاء نفسها بهذه الفوائد لهم! أهم خلقوها؟! أهم صنعوها؟ أم لهم علاقة بتصميمها؟ ومن منحها لهم ليملكوها؟ أفلا يشكرون الله تعالى الذي خلقها؟! للأسف لا. وماذا فعلوا بدل أن يشكروا الإله المنعم:

(وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ{74})
{وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً}، وتركوا توحيد صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" عزّ وجلّ، وتركوا شكره تعالى على إتاحة الأنعام لهم بكل منافعها كنموذج عن بقية ما ينتفعون به، وقالوا عن غيره تعالى بأنهم آلهة! بعضهم اعتبر الأصنام آلهة، وآخرون اعتبروا أرواح الأجداد آلهة... أو بعض الأشخاص من الناس أو الملائكة(ع) أو الجنّ... آلهة.

{لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ}، يفترضون ويتوقعون أن تنصرهم، أن تحقّق لهم تلك الآلهة التي اخترعوها ما يريدونه!

تذكّر دائماً أن كلمة إله بالمعنى الحقيقي تشير لكائن لديه صفات وقدرات فائقة، وهنا في القرآن كلام من إله يرى الأمور على حقيقتها لأنه إله حقيقي، ويقول لنا وبكل شفافية بأنه وحده الإله والبقية كلّهم مخلوقات هو خلقها، لأن الدنيا كلّها خلقها هو تعالى ولم يلمس ولا حتى أثر لأي كائن غيره وغير ما خلقه سبحانه في الدنيا، فهو الإله الأحد والبقية كلّهم مخلوقات، والمخلوق لا يمكن أن يكون إلهاً.

الناس مخلوقات، وقدراتهم المعرفية محدودة، وحين قالوا عن بعض الكائنات إنها آلهة، نزّلوا مستوى الألوهية من معناها الحقيقي لتصير ممسوخة مشوّهة يتّصف بها كائن بعيد كل البعد عن الألوهية، فالذي لديه القدرات الفائقة ليكون إلهاً يجب ألا يكون مخلوقاً، فما هذه القدرة الفائقة وهو خلقه غيره!

أمّا الله عزّ وجلّ فطبيعته مختلفة تماماً عن طبيعة المخلوقات، وليس مرّكباً ولا مؤلّفاً من شيء، ولا معنى أصلاً للقول عنه تعالى بأنه مخلوق لأنه ليس مركّباً ولا مؤلّفاً، وطبيعته سبحانه وتعالى لا يمكن أن تكون مخلوقة، ووحده تعالى فيه صفات وقدرات فائقة تفوق كلّ صفات وقدرات المخلوقات التي خلقها سبحانه كلّها بدون أي استثناء.

مسألة اعتبار المشركين لآلهة خاصة بهم قادرة على تحقيق ما يريدونه وما يحتاجونه وتساندهم في الشدائد، تتحدّث الآية عنهم هنا من خلفية نفسية مشجعي فريق كرة القدم، الذين يعتبرون آلهتهم خاصّة بهم، لهم، تعاملهم معاملة خاصة لأنهم يعبدونها "يشجعونها"، وهناك أناس آخرون يعبدون آلهة أخرى "يشجعون فريقاً آخر"، وبقدر إخلاص كل فريق للآلهة التي يعبدها، ستنصره على الآلهة الأخرى وعلى الناس الذين يعبدونها! عقيدة المشركين تحصر فهمهم للألوهية بما يخصّهم هم، ولا تفسير لديهم للأمور المشتركة بينهم وبين الآخرين، إذ أن كل الناس تأكل الأنعام وتركبها... فأي إله فعل ذلك؟ وأنت تعلم أنه لكل قوم من المشركين آلهة خاصّة بهم، وهي تختلف بالصفات والأسماء والمهامّ والقدرات... عن آلهة القوم الآخرين، فإله أي قوم منهم خلق الأنعام؟ أنتم ترون نفس الأمور الحياتية والبيئية مشتركة بين كل الناس، وبدون أي فرق، ومن الواضح أنها كلّها من نفس التصميم، كيف تفسّرون ذلك وأنتم كل قوم منكم لديهم آلهة مختلفة عن آلهة الآخرين!

نتذكّر دائماً أننا كبشر جعل سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرّف عليه من ملاحظة أفعاله "آياته في خلقه" ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء... وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق بالقوّة الإلهية الفائقة عند الوقوع في الشدائد... لذلك وضعنا كلمة نصف بها الكائن ذا الصفات والقدرات العالية جداً عن قدراتنا، وهي كلمة "إله" كوصف لذي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلّق به عند الوقوع في الورطات.

الكائن الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة، والذي ليس مخلوقاً هو الله سبحانه، وتساهل الناس في استعمال كلمة إله لتنطبق على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، فيطلقونها على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أن فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي...}.

القرآن يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة بمستوى إلهي، فيقوّم اللغة ككلّ، ويقوّم دقة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة "إله"، ليخبرنا أنها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرّج في استعمالها.

المشركون الناطقون باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... استعملوا كلمة إله بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

قارن كلمة إله مع كلمة "ربّ"، فأنا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... هذه كلمة تتحمّل التدرّج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهي، فهي لا تتحمّل التدرّج، وهي حصراً له تعالى ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهي.

كلمة إله في حقيقة معناها لا تتحمّل التدرج لينوصف بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، وحين يخبرك أنه خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، وسبحانه وظّف الملائكة(ع) التي خلقها لتنفيذ بعض أوامره... وهكذا ترى بوضوح أنه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، ماذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدّد له والمميّز "الله" جلّ جلاله قد فعل كل شيء، ما معنى ألوهية غيره! هذا ملخّص مبسّط للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

وألفت انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، حين حصروا استعمال كلمة إله للإله الكبير، واستعملوا للآخرين وصف الربّ، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربّة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون: إله المطر وإله الحرب... وعلى كل حال، رفض القرآن توصيف غيره تعالى بالألوهية والربوبية من مستوى إلهي، فالمشركون يعتقدون بوجود كائن "ربّ" مسيطر على المطر من مستوى إلهي وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم أنه توصيف لألوهية أربابهم.

من ناحية ثانية لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، ليصير الهوى إلهاً كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ...}، التي لا تشير لاعتقاد الشخص بأن هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لدين فيه ما يهواه، فعملياً هو يعبد هواه.

بالنسبة لأصل كلمة "الله" هناك كلام كثير حولها، ويبدو من تتبّع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حالياً بالسامية... أن الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة "إله" ومنها جرى اشتقاق إسم العلم "الله"، وهذا الاسم لم يكن متداولاً في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط فللآخرين نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، فكلمة إله واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات ما يسمّى باللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة الله من وصف الإله ومتى، وهل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قديماً عبر الوحي، فالأرجح عندي "استذواقاً" أنه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك "استذواقاً" لأن المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين

بلا مستند صريح لتأكيد كلام ما، هو بطبيعته يصير استذواقياً لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا في سياق كلام آخر قد أستذوق أنه تعالى هو سمّى نفسه، فليس من المعقول ولا من المقبول منك الطلب حسماً من الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دليلاً حاسماً، ولا مقبول من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنه الصحّ إلا اللهم إن قدّم دليلاً دامغاً، وهذا لا يبدو ممكناً في مسألتنا هذه.

(لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ{75})
لا يستطيعون نصرهم، لا تستطيع تلك الآلهة المزعومة سواء كانت من الجنّ أو الملائكة(ع) أو الأصنام أو النار أو من البشر أو...، لا تستطيع أن تحقّق لهم ما يريدونه، وبالخصوص الكلام هنا عن نصرتهم في الآخرة من عقابه تعالى لمن أشرك به سبحانه، لأنه سبحانه سيعيد إحياءهم ومحاسبتهم ومجازاتهم وآلهتهم لا يمكنها منع ذلك، وحتى على مستوى أقل من ذلك، على مستوى التدخّل لنصرة الذي عبدها بفرض ما تريده أو حتى بالشفاعة... أيضاً لا قدرة لها على فعل أي شيء.

{وَهُمْ}، أولئك الناس، {لَهُمْ}، للآلهة المزعومة، {جُندٌ مُّحْضَرُونَ}، تلك الآلهة مع من عبدها كلّهم حاضرون مع بعض فيما بعد يوم القيامة من الموت، ليكن الناس جنوداً لآلهتهم التي عبدوها، ولتقودهم آلهتهم لتنفيذ ما تريده، ولتهجم بهم على الملائكة(ع)... فلا الآلهة المزعومة لوحدها يمكنها فعل شيء لمن عبدها لتنصره من العذاب، ومضافاً لها الذي عبدها كمساند لها كجندي لها، أيضاً لا يمكنهم فعل أي شيء في الآخرة ومضاد لما قرّره تعالى.

بعبارة أخرى، سوف يجتمع كل الكفار في يوم القيامة مع آلهتهم المزعومة، هذا إن كانت آلهتهم لها كائن حقيقي، كالجنّ والملائكة (ع) والأجداد... ولم تكن وهمية من أصله كربّ الخمرة وربّة الحبّ... وهكذا لدينا أناس "مشركون" لهم هدف النجاة من العقاب الإلهي، ولدينا آلهتهم، فصار المشهد: آلهة وجنودها المجتمعون على هدف النجاة من العقاب الإلهي لهم، فهل يمكنهم فعل شيء؟ هل يمكنهم محاربته تعالى؟ هل يمكنهم منعه تعالى من رميهم في النار؟

(فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ{76})
{فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ}، فلا تشعر بالانزعاج على الكفّار أيها النبي(ع) مما يقولونه عن دينك وإلهك، {إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ}، ما يخفونه ولا يقولونه علناً، ما في قلوبهم، ونعلم، {وَمَا يُعْلِنُونَ}، ما يظهرونه علناً وبشكل صريح. هم تحت المراقبة الإلهية العميقة الدقيقة لكل شيء لهم علاقة به، ومن ناحية ثانية يعلم سبحانه أنهم من داخلهم ومن خارجهم لديهم قرار حاسم أنهم لن يؤمنوا مهما قلت لهم، ومهما برهنت لهم، فلا تحزن عليهم بسبب علمك بالعذاب الذي سيلاقونه في الآخرة.

لنراجع لنرى ما الذي يحزن النبي(ع)؟ من بداية السورة نراها طرحت وستطرح أدلة وبراهين على أن الله تعالى سوف يعيدنا إلى الحياة في الآخرة ليحاسبنا، وردّت وستكمل الردّ على أسئلة وإشكالات طرحها الكفّار عن ذلك، فمن المفروض بعد التوضيح والبرهنة أن يؤمن الكفار، وأن يحيدوا عن مسار الشرك الذي نهايته عذاب أليم، ولكن كل ذلك وصل لطريق مسدود ولم يؤمنوا!

هم يقولون للنبي محمد(ع): أنت غلبتنا بالكلام، وأجبت عن كل إشكالاتنا، ومعك كل الحقّ، ماذا تريد أكثر من هذا؟ رغم ذلك لن نؤمن لك وسنبقى نؤمن بآلهتنا أنها لن تتخلى عنا، وستنصرنا من إلهك، إن كان هناك آخرة.

أجابهم سبحانه بأنه الإله الأحد بدليل كل ما يرونه من حولهم، وآلهتهم مزعومة وليست آلهة حقيقية، ومهما كانت الكائنات التي قالوا عنها إنها آلهة وكان لها فعلاً كيان حقيقي "جني إنسي أو ملاك..." فهي لن تنصرهم، لأنها مجرد مخلوقات، ولكنهم يصرّون ويقولون: بلى ستنصرنا.

هم ليس لديهم دليل على قولهم، ولكنهم يغلقون طريق الحوار بهذا الكلام، وهذا الذي سبّب الحزن للنبي محمد(ع) على نهايتهم السيئة، وحين حاول هدايتهم وقالوا له هذا الكلام، ماذا سيقول النبي لهم؟

الأمر ذاته عندما يطرح عليهم الرسول (ع) الآيات الأكثر من كافية ليؤمنوا، ويجيب عن كل تعليقاتهم، وعندما لا يعد لديهم ما يقولونه ويصير الحقّ واضحاً، يقولون للرسول: أنت ساحر أو مجنون. بعد قولهم هذا بماذا ستحاول أيها الرسول إقناعهم؟ هم بهذا الكلام الفارغ يغلقون الباب على عقولهم حتى لا يقتنعوا بما تقوله.

هنا نتذكر بداية السورة التي جاء فيها وصف الذين مهما جاءتهم الحجج بكل أنواعها فهم لا يبصرون الحق، والله تعالى يعلم ما يسرون في قلوبهم، هم من الداخل لا ينوون الإيمان مهما قلت ومهما فعلت، ويعلم سبحانه ما يعلنونه لك من الكفر الصريح، فلا تحزن عليهم لأنهم يستحقون العقاب.

(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ{77})
ذلك الكافر الذي يكذّب الرسول الإلهي ويشرك ويقول عن القرآن إنه شعر... ذلك المجادل المناقش الذي يظن نفسه ذكياً وقوياً: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ}، ألم يحصل عند الغالب الأعمّ من الناس صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شاف، ما انتبه. {أَنَّا خَلَقْنَاهُ}، ألّفناه ركّبناه، {مِن نُّطْفَةٍ}، من شيء صغير جداً يتدرج ليكبر ويصير إنساناً كاملاً. معلوم للجميع أننا نولد من العلاقة التي يصير فيها مني ذكر في رحم أنثى، ومعلوم أن الكمية التي سينتج عنها إنسان هي كمية قليلة جداً، هي نطفة، فلا يذهب فكرك إلى إشارة الآية لما نسميه بالحييمن "الحيوان المنوي"، فهذا تفصيل يتخطّى المعلومات العامّة التي يعرفها كل الناس وخاصة حين نزول هذا القرآن، فالكلام هنا عمّا يعرفه عموم الناس من المني القليل "نطفة" والذي ينتج عنه إنسان...

المخلوق بهذه الطريقة من نطفة، بدل أن يفهم ويشعر بقدرة الله الخالق العظيمة ويحترمها، {فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ}! الخصام هو عموم أي خلاف يسبب حالة نفسية بين شخصين من النفور والكره وصولاً إلى العداوة، والكلام هنا عمّن لا يخجل ولا يستحي ولا يواري، متناسياً أنه مجرد مخلوق من نطفة ويخاصم خالقه! بكل وقاحة وعلناً يقول أشياء تخالف ما يقوله الإله الأحد، ويقول بأن معه الحقّ ويكفر بما نقوله له عبر رسلنا! أفلا يخجل من المجاهرة بشكل واضح علني من معارضة كلام الذي خلقه! فليعرف حجمه وقدره ولينتبه إن كان نداً ليخاصم رسله تعالى.

نضع في بالنا دائماً أن القرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموماً ذكراً وأنثى، وأنهم يتناسلون... أو متعلق بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

هنا الآية من الواضح أنها لا تقصد أن كل إنسان هو خصيم مبين، بل الأغلب. بالنسبة لكلمة "نطفة"، هي وصف لعموم أي شيء صغير الحجم جداً، ونستعمل هذه الكلمة "عادة" لوصف مكونات المني، وحالياً بالعاميّة نستعملها اسماً للحيوانات المنوية، علماً أنها في أساس معناها ليست مخصصة لذلك، فيمكنك القول عن أي كمية صغيرة جداً من الماء العادي أو البهار أو الملح أو...: نطفة.

(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ{78})
هذا الخصيم، {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً}، أقام له تعالى كلاماً تشبيهياً ليبرهن على صحّة اعتراضه على كلامه تعالى، وأثناء ضربه للمثل، {وَنَسِيَ خَلْقَهُ}! هو يعلم بأنه مركّب ومؤلّف من المواد ولكن غاب هذا عن باله وقال:

{قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ}، من يجعل العظام "الهيكل العظمي أو بقاياه" حيّة من جديد لتصير إنساناً يفعل ويتفاعل، {وَهِيَ رَمِيمٌ}، وهي رمّة بالية بسبب مرور الزمن عليها، فقد تحلّلت ولا قوّة حياة فيها، صارت بلا لحم عليها ولا دم ولا عصب، هي مجرّد فتات من العظام، من سيجعلها حيّة مرة ثانية!

هنا المشهد أمام عظام على الأرض لإنسان ميّت، والسؤال عمّن سيعيد الحياة لهذه العظام لتعود إنساناً من لحم ودم! هذا ما قاله المنكر للكلام الإلهي عن عودتنا مرّة ثانية إلى الحياة، ونسي أنه هو مخلوق! فليسأل قبل ذلك عمّن أحياه أوّل مرّة.

ركّز على عبارة {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً}، أمام كلام الإله بوعده بإعادتنا إلى الحياة، تنطّح إنسان ما متذاكياً متفلسفاً وضرب للإله سبحانه مثلاً ككلام تشبيهي، فاعترض منكراً عودتنا إلى الحياة، ولديه أمثلة عديدة تثبت صحّة رأيه، ومنها مثلاً السؤال عن العظام الرميم التي كانت إنساناً ولم يبق من حياة جسده إلّا رمّة عظام، من سيعيدها إلى الحياة!

كما ترى، هو لا يوجّه مثله معترضا على شيء أنا قلته، بل يضرب الأمثلة للإله سبحانه ليثبت أن كلام الإله غير صحيح! ونسي خلقه حين ضرب هذا المثل! قبل السؤال عن إعادة إحياء رمّة العظام، ألم تنتبه أنك لم تكن شيئاً، وخلقك سبحانه؟

(قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ{79})
{قُلْ}، يا أيها النبي(ع) "وأيها المؤمن" لذلك الذي يخاصم ويضرب الأمثال والحجج، {قُلْ}:

{يُحْيِيهَا}، يعيد الحياة لتلك العظام لتعود إنساناً يفعل ويتفاعل، {الَّذِي أَنشَأَهَا}، الذي كوّنها من المواد، {أَوَّلَ مَرَّةٍ}. الله تعالى من قبل بناها من المواد وصارت إنساناً، ويمكنه مرّةً ثانية بناؤُها. لو تذكّر الإنسان خلقه، لو تذكّر كيف خرج إلى الحياة أولَ مرّةٍ، لما استغرب كيف سيرجع إلى الحياة مرّةً ثانية، فالذي أنشأه وكوّنه أوّلَ مرّةٍ "من الصفر"، لماذا لا يمكنه إنشاؤه ليبنيه ويكوّنه مرّةً ثانية! حتى لو بليت العظام، ولو صارت رماداً، نحن أين كنّا قبل ولادتنا؟ نحن لم يكن لنا كيان، وبعد موتنا نعود كما كنّا بلا كيان، فالذي أنشأنا مُكَوِّنُنا من المواد أولَ مرّةٍ، لماذا تفترض أنه لا يمكنه إنشاؤُنا مرّةً ثانية! ما المانع طالما أنه تعالى فعلها أولَ مرّةٍ، ويفعلها باستمرار، حيث في كل يوم يُولد الملايين من الناس والحيوانات...

كان من الأجدر أن يفكّر الإنسان بذلك قبل مجادلة ربّه سبحانه ورسوله حول العودة إلى الحياة.

{وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ}، وسبحانه بكل طرق وأساليب تركيب وتأليف وصنع المخلوقات، أو بإعادتها إلى الحياة هو: {عَلِيمٌ}، لديه علمٌ تامٌّ يشمل كل التفاصيل، يعلم سبحانه كيف يصنع وكيف يُحوِّل وكيف يُطوِّر و...

في كلامنا السابق عن آلية عودتنا إلى الحياة، أشرنا لمدى الفرق الهائل بين علمنا وبين علمه تعالى، بين فكرنا النابع من دماغ صغير، وعلمه تعالى النابع من قدرة إلهية فائقة، فأينما تصل بنا معلوماتنا من عمق لفهم آلية حدوث الأشياء، ستبقى سطحيةً ساذجةً أمام حقيقة آلية فعله تعالى للأشياء، والذي يحتار بكيفية إعادته تعالى لنا إلى الحياة، تخبره الآية هنا بأن الطرق للخلق عديدة ومتنوعة، حيث أنت محتار كيف سيعيد تعالى إحياءنا وتكفر بالبعث بينما سبحانه {بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}، بينما أمامه تعالى خيارات عديدة كطرق متنوّعة لإعادة إحيائنا.

(الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ{80})
{الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ}، هو:

{الَّذِي جَعَلَ لَكُم}، أيها الناس، {مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا}، من المشهور المنتشر في الكتب تفسير الآية هنا بفرك الخشب "وهو أخضر" ببعضه لترتفع حرارة الخشب ويتساقط منه نثرات "شظايا" مشتعلة يضعها الناس فوق القشّ ومنها يوقدون ناراً للتدفئة أو الطهي... ومن المشهور عند العرب استعمال نوعين من الخشب لهذه العملية هما: المَرْخ "أي نوع من الخشب الاسفنجي" والعَفَار "أي من نوع الخشب الصلب". كونهما أسرع من الأنواع الأخرى من الخشب لإشعال النار، وحالياً نستعمل لنفس السبب القداحات الغازية أو أعواد الكبريت... وقالوا في الكتب أَنَّ المرخ والعفار وهما خضراوان يقطر منهما الماء بعد نزعهما مباشرة من الشجرة سيصدر عنهما شررٌ إذا احتكا بسرعة لمدة قليلة من الزمن، ورأيت أحدهم يقوم بها بطريقة سهلة لفعلها بعيدان يابسة، ولكني لست متأكداً من إمكانية فعلها بعيدان خضراء "من المرخ والعفار" يقطر منها الماء كما قالوا، وما قرأته عن ذلك في بعض كتب التفاسير بقولهم أَنَّ الخشبتين الخضراوين تشتعلان بالاحتكاك ليس مدعوماً بالتجربة بالنسبة لي، ولا يبدو كلاماً ممن فعلها أو رآها، ولا تجد في الآثار كلاماً قريباً من عصر الرسول(ع) عن فعلها بعيدان خضراء.

على كلّ حال، سواء بعيدان خضراء أو بعيدان يابسة، تشير الآية لشيءٍ خرج منه شيء مختلف، من الخشب الذي كان أخضر "أو لا يزال أخضر" صدر منه نارٌ، والذي صمّم الخشب ليخرج منه نار، هو نفسه يخبرنا أنه سيخرجنا إلى

الحياة من رِمَّةِ العظام، وسترى من الآية التالية أن الكلام هنا يشير إلى خروج شيء مختلف من شيء سابق، كخروج جسد من لحم ودم... من التراب، كخروج نار من الخشب.

(أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ{81})
لا يزال الكلام مع الكافر المنكر لقدرة الله تعالى على إعادة الرفات والرماد إلى الحياة، تسأله الآية:

{أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ}، الذي ركّب وألّف، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وهذا التعبير القرآني يشابه قولنا: خلق كلّ شيء، وهذه حدود كلّ دنيا المخلوقات. أليس {بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم}؟! لأنه خلقهم أوّل مرّة "من الصفر"، وأنتم وبقية الكائنات من ضمنهم، ولماذا يخطر ببالكم أنه تعالى لن يقدر على خلقكم مرّة ثانية؟!

على المقياس الصغير أنتم تتساءلون عن إعادة خلقنا نحن البشر، وتقولون إنه مستحيل، خذوا نظرة أكبر، والتفتوا الى السماوات والأرض، لأنَّ الذي خلق كلّ شيء، ولنقل أنَّ كل شيء انتهى، مات، تخرّب... أليس الذي خلقه أوّل مرّة بقادرٍ على خلقه مرّة ثانية!

{بَلَىٰ}، نفي لجملة: ليس بقادر، بل بالتأكيد هو سبحانه قادر بلا أي شك على إعادة خلق كلّ شيء حتى لو مات أو فني كلّ شيء.

بل أكثر من ذلك، حيث لا يقف سبحانه عند هذه الحدود، {وَهُوَ الْخَلَّاقُ}، الذي خلق ولا يزال يخلق كثيراً في السماوات السبع والأرض وأكثر مما نرى ونعلم، {الْعَلِيمُ}، إذ لديه سبحانه علم فائق وبناء عليه يقدر سبحانه على خلق ما يمكننا تصوّره ولا يخطر ببالنا وبطرق متنوّعة... ويمكنه إعادة خلق كلّ شيء مرّة ثانية، ومن الناحية العلمية لكيفية خلق الأشياء هو تعالى عليم، ومن ناحية علمه تعالى بحال الأشياء وصفاتها وخصائصها... هو تعالى عليم فيمكنه إعادة خلقها بالتمام كما كانت.

لاحظ كيف صارت صورة الذي يتساءل عن إعادة إحياء البشر، صار يبدو سخيفاً أمام لفت الآية انتباهنا للخالق الذي خلق كلّ شيء، وصاحب هذه القدرة العظيمة الهائلة هل يعجز عن خلقها مرّة ثانية!

هذا المفهوم القرآني الذي تطرحه الآية تلاحظه منتَشِراً في عموم السور التي عرّجت على مسألة إعادة خلقنا، قبل خلق أي شيء، قبل خلق السماوات والأرض "وتساهلاً نحن نقول: قبل خلق الدنيا"، ماذا كنّا نحن؟ لا شيء، ومن يقول من المسلمين وغيرهم بأن روحنا أو نفسنا خُلقت أولاً، وبعدها ألبسها تعالى في جسد مادي، كلامه هذا غير مدعوم من القرآن بهذه الصراحة التي يقولها، وهنا الآية وما سبقها يُشيران إلى حالة الصفر "لا شيء" ومن بعدها انخلق ما في الدنيا وصار لنا كيان، وبعد موتنا، أليس خالقنا أول مرة قادراً على خلقنا مرّة ثانية؟

توسعنا كثيراً في دراسة الآية 51 من هذه السورة حول آليات "كيفية" إعادة خلقنا، وترى هنا أن ما قاله الفلاسفة المسلمون والآخرون عن استحالة إعادة المعدوم، لا معنى له بالنسبة له تعالى، وهنا بالصراحة المدعومة بالعديد من الآيات الأخرى منها الآية 27 من سورة الروم {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، حيث يقول تعالى بأنه سيعيد خلقنا نحن بأنفسنا ذاتها مرّة ثانية، مثلما أوّل مرّة صمّمنا وخلقنا نحن حتى من بعدما يفنى ويتبدّل كل شيء.

بالنسبة لكلمة سماء، نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائماً أنَّ التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها

فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراض.

عادة نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير مستبدلين تعبير السماوات والأرض بالدنيا، قائلين: خلق سبحانه الدنيا. أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيراً دقيقاً بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ}. لأنه سبحانه دقيق في تعابيره ويحدّثنا بدقّة عمّا يعلمه، وكلامه تعالى عن السماوات والأرض هو كلام عن علم بما أمامه سبحانه، وسبحانه دائماً يتكلم بشفافية عمّا أمامه فقط، أمّا الكلام عن كلّ ما في الدنيا، هو كلام عمومي ويشمل "نظرياً" ما هو خارج العلم، ولذلك لم يستعمله تعالى، بينما ترى استعماله في كلام عموم البشر لأننا نتساهل ونتراخى في التعبير.

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ{82})
{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا}، إذا قرّر سبحانه وأراد "أمراً" شيئاً أن يحصل، وقرّر تعالى خلق شيء ما، كائنٍ كإنسانٍ، أو سماء، أو فلق البحر... {أَن يَقُولَ لَهُ}، فقط يقول سبحانه للشيء: {كُن}، تحقّق، صِرْ. {فَيَكُونُ}، فيتحقق فيصير، فحتما سيكون. وهذه الجملة لا تعني أن الشيء فوراً سيكون، حيث يحصل فوراً وقد يحصل في حينه المناسب، ولكن حتماً سيكون.

لا موضوع إعادتكم إلى الحياة، ولا موضوع خلق السماوات والأرض "الدنيا" كلها، لا شيء صعبٌ على الله تعالى، بل بالعكس فالأمور عنده تعالى سهلةٌ، بسهولة أن يأمر وسيتحقق أمره حتماً، وهنا سياق الكلام عن عموم بداية وإعادة خلق السماوات والأرض، وبالخصوص عن إعادتنا نحن البشر إلى الحياة، فهذا أمرٌ، فهذا موضوع يتحقّق بمجرد أن يقرّره تعالى، ولا يمكن حدوث ظروف قاهرة مانعةٍ له من التحقّق، ولا يمكن تدخّل أي أحد ليمنع الأمر الإلهي من التحقّق، ولا ينقصه تعالى أي شيء من قوّة أو قدرة أو استطاعة... أو حكمة أو علم... يسبّب أن لا يتحقّق ما يريده تعالى...

ننتبه جيداً ولا نخلط بين مقاصد آيتنا هذه مع الآيتين اللتين أشارتا إلى أمره تعالى كلمح بالبصر، حيث تلك الآيات كانت عن أمره تعالى بحصول ساعة استعادتنا لوعينا في الآخرة، هذا من جهة، ومن جهة ثانية هناك آيات تخبرنا أن ما يريده، أن ما يقرّر سبحانه حدوثه فهو حتماً سيحصل، يقول تعالى له {كُن}، {فَيَكُونُ}. وهذا لا يعني أن الشيء فوراً يحدث، أو فوراً يتكوّن.

قال سبحانه عن السماوات والأرض أن تكون، فإنّ اتخاذ القرار وتصميمها وكيفية حصولها... بقدرته وبعلمه وحكمته الفائقة سبحانه، تجعل اتخاذ القرار فورياً بالنسبة لنا لأن الزمن بلا معنى بالنسبة له تعالى، واستغرقت السماوات السبع والأرضون ستة أيام "ست مراحل" حتى انتهى تكوّنها، وهي لم تتكوّن فوراً، فعبارة {كُن فَيَكُونُ} لم تقصد فورية حصول ما يأمر به تعالى، بل قصدت حتمية تكوّن ما يأمر به تعالى، وراجع الآية 117 من سورة البقرة {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}، لتجد فيها كلاماً عن بدع السماوات والأرض وأنه مثال عن {كُن فَيَكُونُ} ومعلوم استغراق ذلك ستة أيام، ست فترات زمنية نقدرها حالياً بين 13 و30 مليار سنة.

مثال آخر من كلام القرآن في الآية 47 من سورة آل عمران {قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}، حيث استعمل فيها عبارة {كُن فَيَكُونُ} عند كلام الملائكة(ع) مع السيدة مريم(ع)، فحتماً سيخلق سبحانه النبي عيسى(ع) ولكن ليس فوراً، بل سيستغرق تكوينه (ع) في بطنها بضعة أشهر.

نعم هناك بعض الأمور التي نعتقد أنها حصلت فوراً، وتلك الأمور كانت "الفورية" فيها مطلوبة، حيث فوراً انشقّ البحر من ضرب النبي موسى(ع) له بالعصا، وفوراً خرجت ناقة من الصخرة لقوم النبي صالح(ع) "كما هو مشهور في تراثنا الديني"، وفوراً تحوّلت العصا لحيّة على يد النبي موسى(ع)، وفوراً أنبت تعالى على النبي يونس (ع) شجرة من يقطين... ولكن بالتدقيق في تلك الأمور سترى أنه حتى هذه الفورية لم تكن بلا زمن، ولو لثوانٍ، وبالضبابية نعتقد أن بعض الأمور حصلت بأسرع من لمح البصر، ولكن بالتدقيق سترى أنها استغرقت وقتاً أطول من ذلك، لأن حصول

شيء بسرعة لمح البصر حصره القرآن في الآيتين 77 من سورة النحل {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، والآية 50 من سورة القمر {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}، وكان الكلام في الآيتين عن زمن استعادتنا لوعينا في الآخرة، ولم يكن الكلام عن تكوّن عموم الأشياء أو عن عموم حدوث ما يأمر به تعالى، وعلى كل حال فحالات حصول الأشياء بسرعة غير عادية، هي حالات نادرة جداً جداً قصد منها تعالى أن تكون مثالاً ونموذجاً عن قدرته الفائقة وعن تدخّله المباشر هنا في الدنيا... والفورية لم يعتمدها تعالى كأساس في تعامله مع شؤون الدنيا.

ليست نتيجة كلامنا هنا أنه تعالى لا يقدر على فعل الأشياء فوراً، ولكن كلامنا عن التنبيه عن خلقها فوراً أنها ستفقد معناها، لأنه هناك أشياء أصلاً لن يكون لها معنى إن صارت فوراً، فما معنى خلقه تعالى والداً وولداً له فوراً؟ إن "كانا" فصارا فوراً، فما معنى وصفنا لواحد منهما أنه ولد للآخر؟ وبناء على ما يقوله تعالى عن نفسه واصفاً نفسه بالقدير القوي العليم الحكيم الخبير العزيز... نفهم قدراته الفائقة سبحانه، ولكن هذا لا يعني أن سماوات وأرض الدنيا يمكن أن تتكوّن فوراً، بل هي الدنيا بتصميمه تعالى لها كما هي الآن، فيها أمور ستفقد معناها إن كوّنها تعالى كلّها فوراً وفجأةً، وبناء على ما نفهمه من قدراته وصفاته سبحانه، لو صمّم سبحانه سماوات وأرض الدنيا حيث لا ترابط بين الأمور فيها، لكان تعالى كوّنها فوراً وبلمح البصر، أمّا دنيانا فقصد منها تعالى الضخامة وكثرة التفاصيل والترابط... لتدلنا عليه تعالى لنفكّر لنعرفه سبحانه من مخلوقاته ومن الظواهر والترابط "كترابط تغذّي البشر من الأنعام الذي ورد في هذه السورة"، وقصد تعالى "لنا" من دنيانا أن تكون دار ابتلاء وفتنة "لنا" ليحاسبنا في الآخرة...

لو أطلت عليك، لنرى إن كان هناك معنى من حصول كل الأشياء بلمح البصر، معتبرينها قاعدة لكل ما يريد تعالى حصوله، وهذه الفكرة موجودة عند الكثيرين وسببها ضبابية سطحية نظرتهم للأمور، فما معنى خلق السماوات والأرض فوراً؟ علماً أنها تكونت في ستة أيّام "في ست فترات زمنية". وما معنى خلق الناس فوراً؟ علماً أننا تناسلنا من طين. وما معنى فتح عيني لأول مرة في حياتي لأجد نفسي أتعذّب في النار؟ على أساس أنه تعالى لو خلقني لعشت كافراً، فتخطّى سبحانه خلقي في مرحلة الامتحان، وخلقني فوراً في النار لأخلد فيها!

أطلت عليك في ذكر أمور تجعل الكلام واضحاً خارج ضبابية الأفكار غير المدروسة، لأن فكرة الفورية في أفعاله سبحانه تجد لها أثراً مخفياً خلف بعض الأمور الدينية، كالاعتقاد بفورية خلق آدم(ع)، بناء على ما ورد في الآية 59 من سورة آل عمران {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}، وغيرها من الآيات، والتي بمراجعة دراستنا هذه ستجد أنها لا تشير للفورية بل للحتمية، على الرغم من عموم مفاهيم القرآن الواضحة وبالرغم من الروايات الكثيرة التي تعطي معنى إبائه تعالى إلّا أن تجري الأمور بأسبابها... رغم ذلك نجد هنا وهناك ثقافة فهم فورية حصول الأمور الإلهية منسحبة على العديد من الأمور الدينية، حيث ندعو وفي بالنا إمكانية فورية حصول الأشياء التي نريدها وبدون مقدمات، عندها لأكن غنياً ثرياً وأنا جالس في بيتي أدعو... لينتشر الحكم الإلهي العادل على الأرض وأنا لا أتحرك ولا أشارك بواجباتي في ذلك... بل أعمل ضدّه عبر تأييدي للفاسدين ولدعاة الفرقة والمذهبية والعصبية بين المسلمين...!

هذه وغيرها الكثير من الأمور المخزّنة في فكرنا ونفسيتنا هي التي تجعل الكثيرين منّا لا يفهمون معنى الدعاء له تعالى، ففكرة فورية استجابة الدعاء منّا له تعالى، وكأن في يدنا عصا "سحرية" تتخطّى كل المقدمات والوسائل والأسباب... لتتحقّق الأمور فوراً وبأسرع من لمح البصر، هذه الفكرة من أكبر الأمور المانعة لفهم كلامه تعالى عن الدعاء واستجابته، والدافعة إلى الشكّ باستجابته تعالى لطلباتنا، ونتيجتها ضعف الإيمان العقائدي ويليه تطبيق هذا الضعف بالملل من الدعاء واعتباره من الكماليات الترفية للمؤمنين البسطاء، والاتجاه نحو السيئات لتحقيق ما نريد لأن الدعاء لم ينفع!

هكذا ترى بعضاً من الآثار العديدة الخطيرة لثقافة غير صحيحة نابعة من أساس واحد فاسد، وتبدو لنا لأول وهلة أنها لا تقدّم ولا تؤخّر، بل يبدو لنا أن الاعتقاد بحصول الأمور الإلهية بأسرع من لمح البصر هو مدح عالٍ له تعالى، فلا ضرر منه بل فيه إيمان عالٍ بصفاته وقدراته تعالى، كنوع من الارتفاع والرقي الإيماني للتقرّب منه تعالى! وها ترى ببعض الأمثلة النتيجة السلبية العكسية لهذا النوع من الأفكار غير الصحيحة.

أخيراً، ما يقولونه عن تحقّق الأوامر الإلهية فوراً في عالم الملكوت، واستغراقها من ناحيتنا وقتاً لتتنفذ في عالم الملك، أو أشباه هذه الأقوال، إنما هي افتراضات لا أساس قرآنياً لها، وراجع دراستنا هذه لترى البعد الشاسع بين اصطلاحاتهم وبين معاني الكلمات التي استعملها القرآن عن الملك والملكوت، ومنها الآية التالية، هذا ناهيك من استعمالهم لمصطلحات أخرى كعالم المثال وعالم الشهود وعالم الظلال... هذه افتراضات فكرية ترفية لا مستند قرآنياً لها، إلا التفاسير "الباطنية" لكلامه تعالى والتي تحرف الظاهر من الكلام عن معناه المبين لتجعله مطّاطاً متناسباً مع أي فكرة ترفية خيالية يستنسبونها... وهذه طامة كبرى أصابتنا كآفّة فكرية سبّبت البعد عن الفهم الدقيق لكلامه تعالى، وصار فاقداً لقيمته ككتاب فصل مبين وفيه تبيان كل شيء، على الأقل لو توافقوا على البطون التي استخرجوها، ولم يكن بينها تعارض، لنظرنا إلى ما يقولونه بعين الاعتبار، أمّا وكلّ منهم يدّعي رؤيته لبطن غير ما يراه الآخرون، فما معنى ذلك! وعلى أي أساس نحاسبهم فيما قالوه! أم نطمس ما قالوه في ضباب هالة القدسية لشخصياتهم، ليصير كلامهم مقدّساً!

دراستنا هذه أمامك قابلة للنقاش ولإبطال بعض ما توصّلت إليه أو تحسينه وتشذيبه عبر محاكمتها على الظاهر المفهوم من كلام اللغة العربية، أمّا الكلام عن البطون "التأويلية" المخالفة لظاهر الكلام القرآني فكيف نحاسبه وقد تلبّس بتقديسنا للذين قالوه!

(فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{83})
{فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ}، فهو منزّه عن كل الصفات الناقصة والمعيبة، والذي يقول بأنه تعالى لا يمكنه إعادة خلقنا، إنما ينسب صفة الضعف والنقص في قدراته تعالى، وسبحانه منزّه عن هذه الصفة السيّئة، ومن يقل بأنه تعالى له شركاء في الألوهية إنما ينسب صفة نقص له تعالى، لأن الكمال أن يكون وحده الإله، فهو منزّه عن أن يكون له شركاء في الألوهية... {وَبِيَدِهِ} سبحانه، وتحت سيطرته، {مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ}، فهناك أشياء كثيرة جداً جداً، هي أملاك كثيرة، حيث السماء ملك، والسماء الأخرى ملك... وما في كل سماء ملك... هي ملكوت، هي عدد كبير من الأملاك.

{وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، كلكم ستعودون إلى الحياة مرّةً ثانية لتقفوا بين يديه تعالى، فإن كان يملككم ويملك كل شيء، فأين تذهبون بعدما تموتون؟ هو سبحانه خالقكم يخبركم الآن بأنكم لن تنتهوا ولن تختفوا ولن تنعدموا حين تموتون، ولن تذهبوا إلى عالم لا يملكه تعالى بعدما تموتون... بل سترجعون إليه سبحانه، والكلام عن هذا الرجوع يشير إلى محاسبتكم ومجازاتكم على ما فعلتم فانتبهوا.

هكذا تختصر هذه الخاتمة كل السورة، لتوضّح لنا مدى قدرة الله تعالى العظيمة جداً، وأن كل شيء تحت تصرفه هو فقط سبحانه.

بالنسبة لما يقولونه في الأدبيات الفكرية عن عالم للملك وآخر للملكوت قاصدين أن عالم الملكوت يشير إلى عالم الملائكة(ع) المجرّد وعالم الملك يشير لعالمنا المادي، أو قاصدين عالماً حيث لا مادة ولا زمن.... ويسمونه بعالم الملكوت في مقابل عالمنا المادي... فكل هذا الكلام من نوع الترف الفكري ولا مستند قرآنياً صريحاً عليه.

سورة الصافات (37) ص 446
تعالج السورة موضوع عبادة بعض الناس للملائكة والجنّ، كنموذج بارز عن عبادة كائنات لها وجود حقيقي ولها قدرات عالية، حيث هناك من عبد كائنات وهمية لا كيان لها أو عبد حجراً، وهذا المستوى المتدني من الشرك مشمول بعموم الكلام مع الذين عبدوا كائنات غيره تعالى.

تعرض السورة في مقدمتها وخاتمتها الملائكة كمخلوقات قدراتها أعلى بكثير من قدرات كل بقية المخلوقات، وأنها موحدة له تعالى وداعية إلى توحيده فيما تنقله من وحي... وبعدها مقارنة بين قدرات الملائكة وبين ثاني أقوى المخلوقات بعدهم وهم الجنّ الذين لا حول لهم ولا قوة أمام قدرات الملائكة العالية جداً، وهكذا ترى بسهولة أن الملائكة والجن مخلوقات وليسوا آلهة، وليسوا أصلاً بقدرات إلهية.

بعدها تنتقل السورة إلى العذاب في الآخرة للمشركين، حيث لا يوجد أي تبرير سينفع الذين لم يؤمنوا ويعملوا الصالحات، والتحجّج بوسوسة وغواية الشياطين والوجهاء لن ينفع.

بعدها تنتقل السورة إلى نموذج الشخص الذي كاد ينجر للكفر ولكنه تماسك، وكانت نهايته الجنّة الخالدة الرائعة، لتنتقل منه إلى المصير السيّء لقرينه في جهنّم.

من بعدها تدخل على موضوع تبرير المشركين لشركهم باتباع آبائهم، عارضة لأبرز نماذج مشهورة بين الناس عن الامتداد التاريخي لهذا الدين الإلهي، لنرى أن الأصل هو دين التوحيد وأن الشرك هو البدعة والسوء، وتعرض علينا حوادث تدل على تدخله تعالى في حياتنا، كمقارنة بين أفعاله تعالى وبين أوهام اختراع آلهة معه، وسترى تركيز السورة على نموذج حادثة مشهورة جداً عن فداء النبي إسماعيل(ع)، وهو جدّ غالبية أهل مكّة المشركين، لتحاججهم بأن جدّهم كان موحداً وكلامهم عن آبائهم المشركين ليس الأصل.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(وَالصَّافَّاتِ صَفّاً{1})
{وَالصَّافَّاتِ صَفًّا}، تأكيد إلهي بـ{الصَّافَّاتِ} بالواقفات مع بعض لأجل هدف محدّد، {صَفًّا}، بكل ما لكلمة صفّ من معنى، حيث لا يشذّ منهن أحد وكلّهن مجموعات مع بعض على أهدافهن بدون استثناء...

نلاحظ افتتاحية السورة بوصف للملائكة(ع) بثلاث آيات، وتقول إنهن {صَافَّاتٌ صَفًّا}، مثلما يعبّر القرآن عن المقاتلين في سبيله تعالى بأنهم {صَفًّا}، وهذا لا يعني أبدًا أن المقاتلين يقفون على خطّ واحد، بالطول أو بالعرض، لا، بل المقصود أنهم مجموعون على هدف واحد ولا يتراجع أو يتخاذل أو يهرب منهم أحد، كذلك هنا الوصف للملائكة(ع) بأنهن على هدف واحد من دون تراجع أو تخاذل أو تقصير، وسترى من الآيات الآتية أن الوصف لهن بـ{الصَّافَّاتِ} أثناء حراستهن للسماء العالية من اقتراب الشياطين منها، وحماية الوحي النازل من السماء العالية على النبي محمّد(ع) بإبعاد الشياطين عن الوحي النازل وعن الرسول(ع).

كلمة "ملائكة" لفظًا مؤنّثة، ولا تعبّر عن أنوثة الملائكة(ع) لأنهم ليسوا إناثًا ولا ذكورًا، مثل الشمس التي لفظها مؤنّث "هذه الشمس". ولكن من البديهي أن الشمس ليست ذكرًا ولا أنثى، وإنما الناطقون باللغة العربية يستذوقون لفظة كلمة: شمس، رجال، ملائكة، جيوش، شجرة... على أنها لفظة مؤنّثة ولا يستسيغون التعامل معها بألفاظ المذكّر، فلا يحبون قول: هذا شمس، هذا رجال، هذا جيوش... وهناك لغات أخرى "الفرنسية والألمانية..." فيها نفس الحالة. وبناءً على اللفظة المؤنثة لكلمة ملائكة جاءت الأوصاف في الآيات هنا للملائكة بالمؤنث.

نلاحظ السور التالية: الصافات، الذاريات، الطور، النجم، المرسلات، النازعات، الطارق، الليل، العاديات، والعصر، بدأت بواو القسم وبعد عدّة آيات نجد "إن... كذا"، وهو جواب القسم، وهنا في سورتنا جواب القسم المراد تأكيده سيأتي في الآية الرابعة {إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ}.

نكمل مع السورة وبعض مواصفات الملائكة(ع).

(فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً{2})
{فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا}، تأكيدٌ بالملائكة(ع) التي تزجر وتطرد بعنف، ونعلم من عدة سور قرآنية أن الملائكة(ع) تطرد بعنف الجنّ عن الاقتراب من السماء العالية، وتزجرهم عند محاولة الاقتراب من الملائكة(ع) التي تنقل الوحي من السماء إلى النبي محمّد(ع)، كما ورد في الآية 18 من سورة الحجر {إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ}، والآية 27 من سورة الجنّ {إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا}.

من الآيتين 33 و 35 من سورة الرحمن نعلم بأننا نحن البشر في المستقبل سنصل إلى السماء التي يحصل فيها رمي الملائكة للجن بالشهب {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ... يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ}.

كما في الآية السابقة باستعمالها كلمة {صَفًّا}، هنا استعمال {زَجْرًا} للتأكيد، فبكل ما تحمله كلمة زجر من معنى تكون الملائكة(ع) زاجرات.

(فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً{3})
{فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا}، تقرأ الملائكة(ع) على النبي محمد(ع) نقلًا عن مصدر، والكلام عن قراءتها له (ع) القرآن نقلًا عن الكتاب الرئيسي الذي في السماء العالية المحمية من دخول الجنّ، تتلو ذكرًا، وهي أمور تجعل من يسمعها يستحضر في فكره ومشاعره شيئًا ما، والآية التالية ستشير إلى أهمّ ذكر تنقله الملائكة(ع)، وهو استحضار توحيده تعالى في فكرنا ومشاعرنا.

كلمة "التلاوة" ومشتقاتها تشير لنقل المعلومات التزامًا بمصدر، نقلًا عن كتاب، نقلًا عن وحي، نقلًا عن شخص آخر... وهنا الملائكة تالية للكلام الإلهي على الرسول محمّد(ع) نقلًا عمّا اختاره تعالى من الكتاب لينقلوه لنا ليكون ذكرًا لنا.

إلى هنا ذكرت لنا الآيات وصف الملائكة(ع) أثناء نقلها للقرآن من السماء العالية إلى الرسول محمّد(ع)، حيث الملائكة(ع) صافّاتٌ أي مجتمعات مستعدات لا تتخاذل ولا تفشل، ولديها قوّة خارقة على بقية المخلوقات، وتزجر من يحاول الاقتراب من السماء العالية أو يحاول العبث بالوحي، وهي تنقل كلامًا من المصدر السماوي ليكون ذكرًا للناس، وأهمّ ولبّ وجوهر ما تنقله الملائكة(ع):

(إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ{4})
جواب القسم، جواب التأكيد:

{إِنَّ إِلَهَكُمْ}، إن الذي له الصفات والقدرات الفائقة، {لَوَاحِدٌ}، لا ثاني له، يوجد كائن واحد بصفات وقدرات فائقة فوق الجميع والبقية كلّهم أقل منه. كما ترى، بما أنه تعالى إله واحد للجميع، مما يعني أن الجميع مخلوقات إلا هو تعالى، وحده الخالق.

تأكيدٌ بالملائكة(ع) التي لها قوّة تفوق قدرات بقية المخلوقات، وهي الناقلة لخبر توحيد صاحب القدرات الفائقة على كلّ الكائنات.

من أبسط دلالات الجمل السابقة كما سنرى من بقية السورة، أن الملائكة(ع) التي اعتبرها بعض الناس آلهة، هي نفسها ناقلة لخبر توحيده تعالى، لأن الملائكة(ع) لم ولن تعلن نفسها آلهة لأنها لا تكذب وأمينة وذات كرامة... ومطيعة له تعالى تمامًا. سنرى من بقية الكلام أنها كائنات بقدرات عالية جدًا، وهي تخبرك بنفسها هنا عبر نقلها للكلام الإلهي أنها لا تعتبر نفسها إلهًا.

قارن ما تريد الآيات قوله مع حالة شخص قوي جدًا ومفتول العضلات تعجبك قدراته البدنية الأقوى من قدراتك، وهذا الشخص يخبرك أنه ضعيف أمام قدرات شخص آخر، وبسبب قوّته العالية ستعتبره كمرجع موثوق لك للمعلومات عن الأقوياء بدنيًا. تقريبًا على نفس المعنى تشير السورة للملائكة ككائنات ذات قدرات عالية جدًا عن كل بقية المخلوقات، والملائكة تنقل كلامًا عن ذي قدرة فائقة، عن الإله سبحانه، وتخبر الجميع بما تتلوه "بما تقرؤه" عن مصدر إلهي، أنه تعالى الإله الواحد الأحد ولا إله غيره، ولا نصف إله ولا ربع إله ولا أحد من المخلوقات بنفحة إلهية...

في الآية التالية سنتوسّع قليلًا بالكلام عن كلمة إله وربّ.

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ{5})
{رَبُّ}، المسؤول من مستوى إلهي عن، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وهذا التعبير القرآني يشير إلى كل ما في دنيا المخلوقات، فهذه حدودها، وربّ {مَا بَيْنَهُمَا}، ما بين السماوات والأرض من كائنات وظواهر، {وَرَبُّ الْمَشَارِقِ}، ربّ النواحي التي تشرق منها الشمس، لأن كلّ شيء في الدنيا وحتى الظواهر التي تحصل فيها، وكنموذج واضح عنها مشارق الشمس، فهو سبحانه المسؤول عنها وهي تحت سيطرته سبحانه.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضًا على قبّة النجوم التي نراها ليلًا ونطلقه أيضًا على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنويًا على الجنّة... لذلك نضع في بالنا دائمًا أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنويًا" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...} وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراضٍ "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضًا بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراضٍ.

بالنسبة لكلمة إله وربّ، نرى العديد من الثقافات عبر التاريخ ميّز مثقّفوهم بين الإله والربّ، وعامّة الناس لم يميّزوا بينهما وتراخوا في استعمال كلمتي ربّ وإله، لأن كلمة ربّ وما يساويها في بقية اللغات، يمكن إطلاقها على الإله سبحانه وعلى غيره، مثلًا إذا أردت وصف مسؤول البيت، تقول: الأب ربّ البيت، الأم ربّة منزل، ولمكان العمل تقول: ربّ العمل... ونلاحظ الإنجيل نقل عن المتكلمين باللغة الأرامية قولهم للنبي عيسى(ع): يا معلّم، يا سيدي، يا ربّاني "رباي"... وللأسف الشديد نجد تحريفًا فاضحًا في ترجمة النص الإنجيلي إلى بعض اللغات، حين استبدلوا كلمات سيّدي ورباي، بـ: يا ربّي ويا إلهي، وأرادوا بذلك تثبيت ألوهية النبي عيسى(ع)! وهذا مشابه تمامًا لما فعله المشركون "عبّاد الأصنام والظواهر الطبيعية..." حين تراخوا في وصف من يعتبرون لهم قدرات عالية وسيادة، فوصفوهم بأنهم أرباب في أمور خاصة بالشؤون الإلهية كالسيطرة على مقادير الأمور... من رزق وشفاء... ثم تراخوا أكثر ووصفوهم بأنهم آلهة!

نلاحظ من القرآن أن صفة الإله لا يصح إطلاقها ولا بأي شكل من الأشكال على غير الله سبحانه وتعالى، لأنها تعني أن الموصوف بها ليس مخلوقًا ولديه صفات وقدرات تفوق صفات وقدرات المخلوقين، كلمة الإله صفة لمن صمّم وخلق ويتابع رعاية مخلوقاته، هي صفة السيطرة الكاملة التامة على المخلوقات من البداية إلى النهاية، وصاحب هذا الملك يخبرنا أنه وحده إله والبقية هو تعالى خلقهم، ويخبرنا عن نفسه أن صفاته من المستوى الفائق مستحيل أن توجد في كائنين، وطبيعته تعالى ليست مخلوقة، ليست مركبة ولا مؤلفة، ولذلك لا يصحّ أن تسأل عمّن خلقه سبحانه.

بينما المشركون الناطقون باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... وغيرهم من أهل اللغات الأخرى، استعملوا كلمة إله "بالعربية أو بما يرادفها من اللغات الأخرى" بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

القرآن يخبرنا أن إطلاق صفة الربّ على غير الله تعالى بمعناها الألوهي أيضًا ممنوع، فيمكنك القول: الأب ربّ البيت، بمعنى سيدّ البيت والمسؤول عنه، لأنك تقصد أنه مسؤول عن أمور لا علاقة لها بالألوهية، أمّا حين يقولون عن الملائكة(ع) أو الجنّ أو النبي عيسى(ع) أنه ربّ، هم يقصدون أن له سلطة ألوهية على الكائنات، له سلطة تقرير مصيرهم من مكانة ألوهية، فيرزق ويشفي ويميت ويحيي... من قدرات ألوهية ذاتية ومنفصلة وغير مستمدّة منه تعالى، ويمكن أن تتعارض قراراتهم مع قرارات الله عزّ وجلّ وتتنفّذ قراراتهم... وهذا غير صحيح بتاتًا.

هنا وصف الله عزّ وجلّ بأنه ربّ السماوات والأرض، وهو تعبير قرآني مرادف لعبارة: ربّ كلّ شيء ضمن هذه الحدود، وربّ ما بينهما على أساس أن السماوات والأرض هي الوساعة لكل دنيا المخلوقات، وهذا كلام منه تعالى في منتهى الشفافية معنا، ويخبرنا سبحانه بما يعلمه مما يراه ويتعامل معه... أنه كلّه محصور ضمن السماوات وبكل شفافية يخبرنا سبحانه أنه لم يلمس ولا أي أثر لأي كائن في حدود السماوات والأرض التي لا يوجد أي مخلوق خارجها، ولمزيد من التوسّع حول الشفافية في كلامه تعالى معنا فراجع دراسة الآية 18 من سورة يونس {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

لا ربوبية من مستوى إلهي لغيره سبحانه ولا على أي مكان ولا على أي كائن ولا على أي ظاهرة، وتعبير "ربّ المشارق" نموذج عن ربوبيته تعالى حتى على الظواهر، حيث بأسبابها "بآليات حدوثها وحصولها"، كلّها تحت ربوبيته تعالى، تحت سيادته ومسؤوليته، وهو سبحانه صمّمها ونفّذها ويحافظ على بقائها ويجعلها تعمل وتستمر... ولمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ...}.

الآية هنا اختارت لفت انتباهنا للمشارق من بين الظواهر الكثيرة جدًا جدًا، لأن كل الناس تعلم أن الشمس لا تشرق دائمًا من نفس النقطة، بل تنحرف إلى الشمال إلى أن تصل إلى أقصى نقطة انحراف، ثم تبدأ بالانحراف في نقطة شروقها إلى جهة الجنوب، وهكذا يتكرر الانحراف من جهة الشمال إلى الجنوب وبالعكس، فيصير لدينا مشارق، وهي ظاهرة حصلت كنتيجة مقصودة من تصميمه تعالى لخلق السماوات والأرض، ولن ولم تحصل ولن يستمر حصولها لولاه تعالى.

(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ{6})
{إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ}، هو سبحانه جعل ما فوقنا في هذه البيئة "الدنيا، القريبة منّا" السماء الحالية "مقابل سماء الآخرة"، جعلها أحسن أجمل، بِزِينَةٍ وهي: الكواكب. كل الأجرام "الأشياء" التي تلمع في السماء اسمها كوكب، سواء أكانت ثابتة أو سيّارة، منيرة بذاتها أو عاكسة لنور غيرها، هكذا استعمل القرآن كلمة كوكب وهكذا استعملها العرب قبل الإسلام في أشعارهم، والكواكب زينة السماء تجعلها تبدو جميلة.

ننتبه للقراءة، فـ"زِينَةٍ" بكسرتين على التاء المربوطة، تجعل المعنى يختلف كثيرًا عن كسرة واحدة، فلو كانت بكسرة واحدة لكان المعنى أن للكواكب زينة خاصة بها، وهذه الزينة للكواكب جرى استعمالها أيضًا لتزيين السماء، ولكن بكسرتين تصير الكواكب هي الزينة للسماء، لتتوقّف تخيليًا عند كلمة "بزينة" لتسأل ما هي؟ والتكملة "الكواكب"، لتصير: السماء مزيّنة بالكواكب.

نلاحظ آيات أخرى من القرآن تحدّثت عن تزيين السماء بمصابيح، كما ورد في الآية 5 من سورة الملك {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ...} وهو تعبير مشابه للتعبير هنا، وما نصطلح عليه الآن لتسمية الكواكب لخصوص الأجرام التي لا تنير بذاتها والتي تعكس ضوء الشموس كالأرض والمشتري... بالنسبة لمجموعتنا الشمسية، فهذا اصطلاح حديث لا يتوافق مع أصل معنى كلمة كوكب التي تعني أي شيء "منير" في السماء، وكلمة نجم تعني أي شيء له "مكان" في السماء، مضيئًا مشتعلًا أو عاكسًا لضوء غيره، وهكذا استعملها القرآن وهكذا استعملها العرب في أشعارهم قبل الإسلام. لذلك ننتبه بين الاصطلاح وبين المعنى اللغوي الأصلي الذي استعمله القرآن.

القرآن استعمل التعبير "دنيا" مقابل "الآخرة"، لأن كل ما هو كائن الآن محصور في السماوات السبع والأرض، وهذا كلّه حاليًا هو الدنيا التي فيها المخلوقات، وسيأتي زمن تتبدّل فيه، وتأتي الآخرة. آيتنا هنا ليس بالضرورة إشارتها إلى كلّ السماوات السبع أنها مزينة بالكواكب، فليس لدينا خبر تفصيلي عن السماوات الأخرى لأن ما نراه بأعيننا وبالتلسكوبات الموجية البصرية والراديوية... هو في السماء الخاصة بنا نحن البشر، وهي سماء واحدة من سبع سماوات أخرى.

بعبارة أخرى، كل ما علا إنما هو سماء بالنسبة لنا، والسماوات السبع هن سماوات فوقنا، وتشير إليها الآية بالسماء، وواحدة منها مزينة بالكواكب وهي سماء كوننا، وربما السماوات الأخرى أيضًا فيها ما يصح وصفه بالكواكب، لا أدري.

(وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ{7})
{وَحِفْظًا}، صونًا ورعاية للسماء الدنيا، {مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ}، من كل كائن يقوم بأعمال الضلال "أعمال السوء" يفعلها بنفسه أو لإضلال الآخرين، {مَّارِدٍ}، متمرّد، خارج عن طاعة الأوامر بكثرة، وهنا الكلام عن متمرّد متمرّس في مخالفة الأوامر الإلهية.

كما تعلم من آيات أخرى عديدة من القرآن ومن الآيات التالية، أن الملائكة(ع) تصدّ الشياطين عن المرور إلى السماء العالية التي فيها الكتاب الإلهي الرئيسي والملائكة العالية (ع)... وتمنعهم حتى من الاقتراب منها للاستماع لما يجري في تلك السماء، وعبّر القرآن عن رمي الملائكة(ع) للجنّ بالشهب ليمنعوهم من الاقتراب من تلك السماء التي فيها الكتاب الرئيسي والملائكة العالية(ع) وسيأتيك الكلام عن ذلك في الآية التالية.

عادة نفترض في أدبياتنا أن السماء السابعة هي سماء الملائكة والتي فيها الكتاب الرئيسي، ولكن لن تجد تصريحًا قرآنيًا بذلك، ربما هي السماء السادسة وما فوق أو الخامسة وما فوق أو...

(لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ{8})
{لَا يَسَّمَّعُونَ}، لا يتسمّع الشياطين، {إِلَى الْمَلَإِ}، إلى الجماعة التي لها وجاهة وهنا الكلام عن الملائكة المميزة بقدراتها وبما يوظّفها به تعالى، {الْأَعْلَى}، أعلى ملأ، أعلى كائنات لها سلطة، وهم الملائكة العالية(ع) التي خلقها تعالى بقدرات أعلى من بقية الملائكة(ع) ومن بقية الكائنات، ويكلّفها سبحانه بمهمات... والشياطين لا يمكنهم الاستماع إلى كلام الملائكة العالية(ع) التي تنقل الوحي وتنفّذ الأوامر الإلهية... وبالتالي لا يمكنهم الدخول ولا حتى الاقتراب من سماء الملائكة العالية(ع).

نلاحظ المديح القرآني عبر الإشارة للقيمة العالية لتلك الملائكة بوصفها {الْمَلَإِ الْأَعْلَى}.

الآية الأولى من سورة فاطر {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، أخبرتنا أن الملائكة(ع) تختلف عن بعضها، حيث بعضهم لديهم قدرات أعلى من الآخرين، وعبّر القرآن عن هذا الاختلاف بوصف الأجنحة "القوة" بمثنى وثلاث ورباع، وذكر القرآن من الملائكة العالية بالاسم فقط: جبريل(ع) وميكال(ع) "ومالك(ع)"، ومن الروايات المشهورة جدًا نعلم من الملائكة العالية الملكين إسرافيل(ع) وعزرائيل(ع)، وهناك أسماء كثيرة يتداولها الناس عن ملائكة عالية وملائكة ذات قدرات أقل... ولا دليل على صحّة تلك الأسماء من القرآن.

يبدو من دراسة تراث أهل الكتاب الذي تراكم فيه أسماء بالمئات للملائكة، أنهم بالغالب اعتمدوا على اللاحقة "إيل" بما يناسب لفظ لغة ولهجة زمانهم، وأضافوا لها وصفًا مما يظنونه مناسبًا لوظيفة ما، وهكذا صاروا يخترعون أسماء للملائكة مع وظيفة أو وصف، وللأسف استورد بعضهم أسماء وصفات من آلهة المشركين، والمشركون استوردوا بعض صفات الملائكة من تراث المنتمين لدينه تعالى، وهكذا نجد عند دراسة التاريخ القديم أنه في بعض الأحيان تتداخل أسماء وصفات ووظائف الملائكة بين التراث الشعبي للمنتمين لدينه تعالى والذي مع مرور الزمن وجد طريقه ليصير بعضه من أساسيات دينه تعالى، وبين تراث المشركين، وحتى أننا نجد تشابهًا بينهم في بعض القصص عن الملائكة وبخاصة في موضوع الملائكة الساقطة أو العاصية لله تعالى... والحاقدون على دينه تعالى فرحوا بهذه الخرافات على الرغم من علمهم بأنها من إضافات المنتمين لدينه تعالى على دينه وليست من الأصل، فتغاضوا وتعاموا عن قصد عن ذلك ولم يعتبروها تحريفًا كما هي، بل اعتبروها الأصل وأن كل ما هو منسوب لله تعالى من كتاب فهو من تأليف البشر! وبالتالي لا يرون أنفسهم ملزمين باتباع ما ألّفه البشر، وهم معهم حقّ في هذه النقطة، فيما ألصقه البشر بدينه تعالى، ولكن هذا القرآن صافٍ من كلامه تعالى، وهل تجدون فيه من تلك الهرطقات حتى تكفروا به وتقولوا إنه من تأليف البشر؟

{وَيُقْذَفُونَ}، القذف هو الرمي بقوة عند الانطلاق، ومن الآية 8 من سورة الجنّ {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا}، ومن الآية بعد التالية علمنا أنه يتم رمي الشهب بقوّة على كل شيطان يحاول الاقتراب من السماء العالية للملائكة(ع) يُقذفون، {مِن كُلِّ جَانِبٍ}، من كل ناحية واتجاه، أي لا يوجد أي جانب مفتوح يمكنهم الاقتراب منه، بل كل الجوانب محميّة بالتمام.

الملائكة(ع) بأصنافها العديدة منتشرة في كل السماوات، وهي غير محصورة في سماء واحدة، ولكن الملائكة العالية التي تصفها الآية هنا بأنها من "الملأ" أي الوجيهة المميزة جدًا عنده سبحانه وتعالى، فهذه لها سماء خاصّة بها، وهناك في تلك السماء يوجد الكتاب الرئيسي الذي فيه كل شيء، وهذا ما تحاول الشياطين الوصول إليه عبر الاستماع للملائكة

العالية أثناء تنفيذها للأوامر الإلهية التي في ذلك الكتاب، وطبعًا أنت تتذكّر من دراستنا هذه أن ذلك الكتاب الرئيسي ليس من ورق ولا مثل الكومبيوتر... بل هو مستودع وحاوية للمعلومات ومرتبط بكل شيء في السماوات والأرض، ولا يمكننا تصوّره الآن مثلما لا يمكننا تصوّر الملائكة(ع)، ولا يمكننا تصوّر آلية اطلاع الملائكة(ع) على الكتاب لتنفيذ ما فيه.

نلاحظ أن معلوماتنا عن الشهب التي تقذفها الملائكة(ع) تشوّهت بفعل بعض الروايات التي اعتبرت ما نراه بأعيننا من شهب في سمائنا أنها هي نفسها التي قصدها القرآن، مما سبّب الخلط بين الشهب التي نراها في السماء والناتجة عن احتراق الأجسام التي تخترق الغلاف الجوّي للأرض، وبين الشهب التي تقذفها الملائكة(ع) لرجم الشياطين. ظاهر القرآن واضح بأنه في السماء الدنيا يتم قذف الشهب على الشياطين التي تحاول استراق السمع، ولكن الشهب التي نعرفها لا تناسب الموضوع، فهذه لها مسارات محددة وتوقيت محدد وليست تأتي من الفراغ أو تنقذف في اتجاهات عشوائية... والذي اعتقد أنها هي نفسها الشهب التي تقذفها الملائكة على الجنّ فقد فاته بأن الحادثة تحصل في واحدة من السماوات السبع غير سمائنا ولن نرى الشهب المقذوفة عليهم من سمائنا.

كلمة شهب ليست حصرًا لما نراه نحن في سمائنا من المواد التي في عالمنا، لأن أي نار أو ضوء متحرك يمتد من شيء ثابت أو متحرك فهو شهاب، وأكثر استعمالها لعامّة أي جسم مرمي محترق، حيث النبل المحترق شهاب، ومقذوف المنجنيق المحترق شهاب، وما يحترق في الغلاف الجوي للأرض شهاب، وما يخرج من لهب حرّاق المازوت والزيت أيضًا شهاب... ترى هذه الوساعة في الاستعمال لكلمة شهاب على الوصفية لكل ما امتد منه نار أو نور وليس على الاسمية لخصوص ما نراه في سمائنا، ترى ذلك كمثال في الآية 7 من سورة النمل {إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ}، ونفس التصريف لكلمة شهاب ورد في الآية 18 من سورة الحجر {إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ}، والآية 9 من سورة الجن {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا}، والآية العاشرة من هذه السورة.

ما ترميه الملائكة(ع) على الشياطين أيضًا شهب، على الوصفية، هو موصوف بأنه شهب، وهذه الحادثة تحصل في سماء غير سمائنا وليس في سماء غلافنا الجوّي، بل لا تحصل فيما نسميه بكوننا بمجراته التريليونية لأن كوننا سماء من السماوات السبع. أي شيء له شعلة أو لهب من أي مادّة كانت توصيفه بالعربية أنه شهاب، وليست مخصصة لما نراه في سمائنا.

في كلام القرآن وفي ثقافتنا الدينية نجد كلامًا عن استجداد حالة الحرس والشهب، مما يشير أنه قبل النبي محمّد(ع) لم تكن موجودة، وهذا كلام غير دقيق، صحيح أن القرآن أكّد على استجداد حالة الحراسة والشهب ومن فحوى كلامه تفهم أنها حالة جديدة بسبب نقل معلومات من تلك السماء إلى الرسول الجديد محمّد(ع)، ولكن هذا لا يلغي الحراسة القديمة عن تلك السماء، بل هي حراسة دائمة لمنع الشياطين من دخولها أو الاقتراب منها، ولكن الحراسة "المستجدّة" بالشكل المذكور في الآية 8 من سورة الجنّ مخصّصة لحماية نزول الوحي على الرسول محمّد(ع) من أي تدخلات من الجنّ.

أمّا في بعض المرويات التي تفهم منها أن ظاهرة الشهب في سمائنا وهي التي نراها بأعيننا، بحسب قولهم هي ظاهرة مستجدة من بعد بعثة النبي محمّد(ع)، وهذا غير صحيح ولم يقله القرآن، لأن الشهب التي نراها بأعيننا كانت من أول ما تكون كوننا، وهي لا علاقة لها بالشهب التي تقذفها الملائكة(ع) على الشياطين، تلك الحادثة في سماء أخرى غير سمائنا، إلّا أن شهب كوننا وتلك الشهب تتشاركان في الوصف: مقذوف له لهب أو شعلة.

من أوّل نزول الوحي على الرسول محمّد(ع) لاحظ الجنّ حراسة جديدة مضافة للحراسة القديمة، وهي حراسة تمتد من السماء العالية التي هي أصلًا محمية بالملائكة الرامية للشهب، من تلك السماء إلى الأرض حيث النبي محمّد(ع) يتلقّى الوحي، لاحظ الجنّ حراسة مشددة، واتبعوا مسار الحراسة ليصلوا إلى الإنسان الذي حوته الحراسة، وهكذا تعرّفوا على النبي محمّد(ع) كرسول إلهي تتواصل معه ملائكة السماء...

(دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ{9})

يتم قذفهم، {دُحُورًا}، كما نقول: اندحر الأعداء، ونقصد أنهم جرى إرجاعهم مع الإذلال من شعور الهزيمة، كذلك الشياطين تندحر، تتراجع عن السماء العالية مع شعورها بالمهانة من الهزيمة.

{وَلَهُمْ}، للشياطين، {عَذَابٌ وَاصِبٌ}، ضررًا ممتدًا، فإن أصابهم الشهب سيتألمون منه بشكل دائم.

هذه الحالة الأولى للبعض من الشياطين المصرّين على الاقتراب من السماء العالية مع علمهم بتعرضهم للضرب بالمقذوفات، فلا تحبسهم "تعتقلهم" الملائكة(ع) لتضربهم... بل تكتفي بقذفهم بما يؤذيهم حتى يضطروا للهرب مهزومين مع الشعور بألم دائم مما أصابهم.

(إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ{10})
{إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ}، إلا الذي قام بحركة سريعة ومفاجئة، الذي يقترب من السماء العالية قليلًا وبسرعة عالية، ولكن قبل أن يستطيع الاستماع، {فَأَتْبَعَهُ}، فكان على مساره، {شِهَابٌ}، شيء يصدر عنه شهب لهب، {ثَاقِبٌ}، قوي جدًا بالنسبة لما هو أمامه مخترقًا ما يقع أمامه، وتصير جملة الشهاب الثاقب: شيء مشتعل يسير ويخترق ما يصيبه.

هذه الحالة الثانية لشيطان قرّر الاقتراب بسرعة خاطفة من السماء العالية وهو لا يريد البقاء بقربها لأنه يعلم بتعرّضه للرمي بالمقذوفات، لذلك يجرّب المرور بالقرب من تلك السماء بأقصى سرعة، وتقول الآية بأنه حتى هذا لن يستطيع الاقتراب مرورًا بسرعة لأن ما تقذفه الملائكة(ع) عليه سيتبعه ليصيبه.

كلمة شهب توصّف أي جسم له لهب أو شعلة أو نار أو نور... وفي سمائنا ومن المواد التي في كوننا يصير الشهب وصفًا للمقذوفات التي تحترق حين دخولها إلى الغلاف الجوّي للأرض تاركة خط احتراق على مسار دخولها... ونحن لا نرى الملائكة(ع) ولا الجنّ وبالتالي لذلك نحن لا نرى الشهب التي تقذفها الملائكة(ع) على الجنّ، ولكن وصف ما يجري من رمي الملائكة(ع) بشيء مشتعل يخترق الجنّ إذا أصابهم يكون باللغة العربية: {شِهَابٌ ثَاقِبٌ}. تلك الشهب في سماء لا نراها ومختلفة عن سمائنا ومن مواد مختلفة عن مواد سمائنا...

الآيتان 33 و 35 من سورة الرحمن {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ... يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ}، تخبراننا بأننا سنكون مشتركين في القدرة على النفوذ في أقطار السماوات نحن والجنّ، وكما ترى، الجنّ سبقونا وبإمكانهم التنقّل بين السماوات وصولًا إلى سماء الملائكة(ع)، وفي المستقبل سنرى نحن البشر تلك الشهب حين ننتقل إلى سماء فوق سمائنا، بل ربما حاليًا يكون لتلك الشهب أثر ما ملحوظ تأثيره على شيء ما في سمائنا، من يدري.

إلى هنا انتهت مقدّمة السورة التي أعطتنا معلومات عن الملائكة(ع) والجنّ، وهذه المعلومات كافية لما تريدنا السورة فهمه من موضوعها، لتبيّن لنا أن الملائكة(ع) كائنات ذات قدرات عالية جدًا جدًا، وملتزمة بتنفيذ أوامره تعالى وهي أقوى من شياطين الجنّ بكثير، والجنّ أقوى من البشر كما يبدو بشكل واضح، لأنهم الآن يستطيعون اختراق السماوات، وسترى ذلك جليًا في الآية التالية التي تقارن بين قوانا وقوى الملائكة والجنّ. ضع هذا في بالك لأنك سترى في آخر السورة عودة للحديث عمّن عبد الملائكة(ع) أو الجن، ولنتابع:

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ{11})
{فَاسْتَفْتِهِمْ}، اسأل الناس أيها النبي محمّد(ع) "وأيها المؤمن" واطلب منهم جوابًا عن السؤال التالي:

{أَهُمْ}، هل الناس، {أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا}؟ من بين الذين خلقهم سبحانه، هل الناس أشدُّ خلقًا، هل تركيبهم وتأليفهم فيه قوّة أكبر من الآخرين، {أَم مَّنْ خَلَقْنَا}، أم الكائنات التي مرّ الكلام عنها في الآيات السابقة من ملائكة(ع) وجنّ أليست أشدُّ خلقًا من الناس؟ تلك الكائنات بينها اشتباك على حدود إحدى السماوات العالية! ومن الواضح أنهم أشدُّ خلقًا من البشر حتمًا، من الجلي أن قدرات تلك الكائنات أعلى من قدراتنا بكثير.

{إِنَّا خَلَقْنَاهُم}، ركّب وألّف سبحانه الناس، {مِّن طِينٍ}، من ماء وتراب، {لَّازِبٍ}، رخو يلتصق ببعضه، مثل عجينة الطحين الرخوة التي تلتصق ببعضها وبيد من يلمسها.

يعني، انتبهوا أيها الناس وخذوا علمًا أنكم أضعف بكثير من الجنّ، والجنّ أضعف بكثير من الملائكة(ع)، والجنّ والملائكة(ع) خلقهم سبحانه، وقدراتهم العالية بالنسبة لكم لا تعني أبدًا أنهم آلهة، حيث الشؤون الإلهية من تصميم وتدبير وخلق وتقدير... ليست من شؤونهم وهم مجرد مخلوقات قوية بالنسبة لكم.

الكلام هنا من ناحية يؤكّد بأن تلك الكائنات لديها قدرات أعلى من قدراتنا بكثير، ويريك أنها مجرد مخلوقات وليست آلهة، ومن ناحية ثانية يريك حجم قيمتنا بالقدرة كمخلوقات، لأننا نحن كائنات من طين، من ماء وتراب، مما نسميه بالمواد من كربون وكالسيوم وهيدروجين... وعندما ينعجن يصير لازبًا ويلتصق باليد، يعني تلك المخلوقات "ملائكة وجن" طبيعة تكوينها من مادة أخرى غير الطين وهي تتيح لهم قدرات لن تتوافر في المخلوقين من طين، تلك الكائنات أشد خلقًا من الكائنات من طين.

لتقريب الفكر، لنقل إنه يوجد مخلوق من الفولاذ أو من ألياف الكربون المجدولة، هذا مخلوق أشد قوّة منّا نحن المتكونين من عضلات على عظام كالسيوم وكربون، ونفس الكلام هنا عن مخلوقات أشد خلقًا منّا لأن طبيعة تكوينها تجعلها أشد منّا، بقدرات أقوى منّا.

وصف الطين باللازب هو مرحلة قديمة جدًا من مراحل تشكّل الحياة، ولا تقصد الآية إخبارنا عن مراحل بداية خلقتنا بل مثلما قصدت الآية 77 من سورة يس بكلامها عن خلقتنا من نطفة أن نعرف حجمنا وقيمتنا {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ}، حتى نعرف قدرنا ولا نكفر بربنا سبحانه ولا ننكر قدرته على إحيائنا، وهنا الكلام يقارن بين المخلوق الناتج عن طين لازب وبين المخلوقات الأخرى الأشدّ التي خلقها سبحانه من مادّة أخرى نتج عنها كائنات بقدرات أعلى من قدراتنا.

المفيد هنا تذكّر ما وصفنا به إبليس متكبرًا علينا حين قال {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} كما ورد في الآية 76 من سورة ص، وما نقلته الآية 61 من سورة الإسراء عنه {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا}، تكبّر علينا لأن خلقتنا من طين تجعلنا بقدرات أقل بكثير من قدرات نوعه من الجنّ المخلوقين من نار، وهنا الآية تؤكد ذلك من ناحية شدّة الخلق، من ناحية القدرات الناتجة عن المادة التي يتألّف منها الكائن.

لا ننسى أننا نحن البشر بنظر الكائنات نبدو لهم كائنات من طين، بلا فرق بين مادة تكوين جسدنا وبين الحائط والكنبة والسجادة... وكلّه من طين، من كربون وكالسيوم وحديد... ولو استطعنا رؤية الجنّ المخلوقين من نار، سيكونون بالنسبة لنا هم وبيئتهم من نار، ولن نرى فرقًا بينهم سوى أنهم كتل وبقع منفصلة من النار مثلما نحن نبدو لهم كبقع وكتل من طين منفصلة عن بعضها.

(بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ{12})
من تكملة الآيات سترى أن السورة انتهت من الافتتاحية، وبناءً على ما في الافتتاحية من قدرته تعالى على خلق كائنات بقدرات عالية جدًا، انتقلت إلى الحديث عن قدرته تعالى على إعادة الموتى، وهنا الآية افتتاحية للدخول في موضوع البعث:

{بَلْ عَجِبْتَ}، تقييمك لآياته تعالى الدالة على ما تسمعه من كلامه تعالى عن إعادة الموتى أنها عجيبة، أي أنها أمور غير عادية، أنها حقائق مذهلة تأخذك للتفكير في عظمته تعالى وللإيمان بكلامه تعالى... {وَيَسْخَرُونَ}، والكلام عن الآيات الدالة على بعثه تعالى لنا من الموت "وعموم كلامك عن دينه تعالى" هم ينتقدونه بازدراء ونظرة دونية على اعتبار أنه غير عقلاني وسخيف.

أنت تعجب وترى أفعاله تعالى غير عادية وبالتالي تؤمن بقدرته على إعادة خلقنا، وهم يسخرون من نفس هذه النقطة.

(وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ{13})
{وَإِذَا ذُكِّرُوا}، وإذا سمعوا ما يجعلهم يستحضرون في فكرهم ومشاعرهم أنه تعالى قادر على إعادة الحياة للموتى، فهم، {لَا يَذْكُرُونَ}، لا يحصل لهم أي شيء في فكرهم ومشاعرهم، ولا يصدّقون ببعث الأموات.

الكلام العقلاني معهم عن الحكمة من خلقه تعالى لنا... وعن منحه تعالى لنا حرية الإرادة والاختيار مع شهوات وغرائز وقدرة على تمييز الفساد من الصلاح... ولفت الانتباه للآيات الدالة على عظيم قدرته تعالى... وبناءً عليه سيكون هناك حساب إلهي لنا في الآخرة... كل هذا الكلام بالنسبة لهم صفصفة كلام فارغ.

(وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ{14})
{وَإِذَا رَأَوْا آيَةً}، وإذا صار عندهم صورة محدّدة لشيء مميّز من مستوى إلهي، وهنا الكلام عن براهين ملموسة كأدلّة على بعثنا من موتنا، {يَسْتَسْخِرُونَ}، يصيرون من بعدها في حالة فعل السخرية، في حالة الانتقاد بازدراء لأنهم يعتبرونها غير عقلانية وسخيفة.

(وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ{15})
وقال المنكرون للبعث:

{إِنْ هَذَا}، الكلام عن البعث، {إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}، الكلام الذي يبدو عقلانيًا ومقنعًا والآيات الدالة عليه، ما هو إلا خدعة واضحة توهمنا بعكس الحقيقة ولا يمكنكم خداعنا بها.

ضع في بالك دائمًا أن السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شيئًا غير حقيقي أنه حقيقي، حيث الساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد بأنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع أنها لم تختف. هذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر والذي تراه صريحًا في الآية 66 من سورة طه {قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}. أما الدارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، فهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية أنها سحر، إنما كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

إنذار وتبشير الرسول للناس بكلام عقلاني وعليه أدلة تبيّن فساد كلام الكافرين وصحّة كلام الرسول المنقول عنه تعالى، وحين لم يجد الكافرون أي ردّ يدافعون به عن عقيدتهم، قالوا عن كلام الرسول إنه سحر، على أساس أن الرسول بكلامه تلاعب بعقولهم وجعلهم يرون دينهم الصحيح فاسدًا، وجعلهم يرون دينه الفاسد صحيحًا.

(أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ{16})
{أَئِذَا مِتْنَا}، إذا فقدنا حياتنا، {وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا}، تحلّل لحمنا وصار ترابًا، وعظامنا بسبب صلابتها ومقاومتها العالية للتحلّل بقيت لمدة طويلة، نحن وبهذه الحالة من التراب والعظام، {أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ}! هل سيتم إنهاضنا إلى الحياة مرّة ثانية!

(أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ{17})
نحن ربما سيكون في قبورنا تراب لحمنا وعظامنا ولكن:

{أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ}! أجدادنا وأجداد أجدادنا وصولًا إلى أكبر جدّ والذي بيننا وبينه مئات وآلاف السنين، والذي لا نعرف أين قبره! والذي لم يبق له عظام! ولا تراب... هل هم أيضًا مبعوثون! أتقول إنهم ستتم إعادتهم إلى الحياة!

(قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ{18})

{قُلْ}، أيها الرسول محمّد(ع) "وأيها المؤمن" عبر هذا القرآن نقلًا عنه تعالى:

{نَعَمْ}، أؤكّد أن هذا صحيح وسيحصل، {وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ}، وأنتم محكومون بأمر إلهي سيحصل حتمًا، فلا يمكنكم ممانعته أو مقاومته أو معارضته أو تفشيل حصوله...

أنتم تفكّرون في الأموات الذين لم يبق لهم أي أثر، وتفكرون في الذي أكلته الوحوش، وفي الذي حرقوا جثّته ورموها في النهر ولم تبق من بقاياها حبّة تراب منها ملتصقة بحبّة تراب أخرى... وتفكرون وتفكرون... فمهما كانت حالتكم، حتمًا سترجعون إلى الحياة ولا يمكنكم فعل أي شيء لمنع بعثكم أو رفضه أو تفشيله...

(فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ{19})
أنتم أيها المنكرون للبعث تتصورون أنه أمر مستحيل وتسخرون من قائله ولكن:

{فَإِنَّمَا هِيَ}، ليس أمر إعادتكم إلى الحياة إلا، {زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ}، صوت واحد فيه عنف ويسبّب لكم الخوف، وعبّرت آيات عديدة عن تلك الزجرة بأنها صيحة تأمر كلّ الأموات بالرجوع إلى الحياة، وعبّرت آيات أخرى أنها نفخة في الصور، بسبب سهولة بعثكم عليه سبحانه فلن يكرّر أمره لكم بالقيام من الموت بل صيحة واحدة، نفخة واحدة، زجرة واحدة "قوموا" فقط كافية ليرجع الجميع إلى الحياة، وتكتمل أجسامهم بشكل مناسب ليوم القيامة.

{فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ}، صار أمامهم منظر، صار عندهم توجّه عام، مشهد عام أمامهم، فيرون أنهم عادوا إلى الحياة، كالمفاجأة غير السارة للكافرين.

كما ترى، سياق الكلام مع وعن بعث الكافرين ولذلك عبّرت الآية عن ذلك بالزجرة، ومن ناحية ثانية بعث المؤمنين سيكون بلطافة وسلاسة وتستقبلهم الملائكة بالبسمة كما تقرأ في عدة آيات منها الآية 103 من سورة الأنبياء {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ}.

(وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ{20})
{وَقَالُوا}، المنكرون للبعث حين صاروا ينظرون من حولهم أنهم عادوا إلى الحياة:

{يَا وَيْلَنَا}، يا مصيبتنا العظيمة، وهنا الكلام عن مصيبة سيئة، والويل كلمة عامة لتوصيف أي مصاب عظيم حتى لو كان مفرحًا وعبّرت الآية 72 من سورة هود عن ذلك نقلًا عن كلام زوجة النبي إبراهيم(ع) التي فرحت بالبشرى بحبلها بولد {قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ}.

{يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ}، يا لمصيبتنا العظيمة، هذا هو الزمن الذي ندان فيه بما علينا من تبعات، فسبحانه إلهنا، وذلك ينتج عنه تبعات، وفي هذا اليوم سيطالبنا سبحانه بما فعلناه وقلناه، حيث كان يجب علينا طاعته سبحانه، واليوم سنتحاسب على ذلك.

تلاحظ في سورة المرسلات تكرار التهديد بويل يومئذ للمكذبين، وهنا ذكرت لنا السورة أن أول كلمات ينطقون بها تعبّر عن شعورهم بالمصيبة الفظيعة، وكنموذج عن ذلك يذكر لنا القرآن جملة "{يَا وَيْلَنَا}" لنفهم أنهم يتملكهم الرعب والخوف منذ اللحظة الأولى.

صرت تعلم أن كلام القرآن عمومًا عن نماذج، والآية هنا لا تقصد أن كل الكافرين سيقولون في تلك اللحظة "{يَا وَيْلَنَا}..."، بل سيقولون ما يفيد هذا المعنى، وسيكون هذا المعنى واقع حالهم حتى لو بعضهم لم يقل شيئًا وبقي مصدومًا مرعوبًا...

كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، وهي ليست اصطلاحًا مخصّصًا كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، وهي عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئًا ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني وبالتالي أنا

مدين له، فخلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعًا بسبب وساعة تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى، عندها أكون مدينًا له تعالى بما رزقني... ومدينًا له تعالى بتوحيده... ومدينًا له بالطاعة، ومدينًا له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدينًا له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... وكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة، فهناك ندان بأعمالنا، ما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هو التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. هنا في الدنيا أيضًا يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسبًا بحكمته قد يديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ{21})
يأتيهم الجواب بعد ويلهم:

{هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ}، هذا هو الزمن الذي نفصل فيه الحق عن الباطل، أنتم في الدنيا جعلتم الباطل ممتزجًا مختلطًا بالحق، وها صرتم في الزمن الذي يفصل فيه سبحانه الحقّ عن الباطل، {الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ}، لا تصدّقون به، كنتم تقولون بأن يوم عودتكم إلى الحياة ومحاسبتكم كذب ولن يحصل.

لاحظ أننا في أدبياتنا نستعمل تعبير "العقيدة والشريعة والسلوكيات" بينما القرآن يستعمل غالبًا تعبير "{آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}"، الذي نعتبره نحن عقيدة إنما هو قرآنيًا عرضه تعالى علينا الإيمان بالمعلومات الحقّ الصحيحة عن صفاته وأفعاله وقراراته سبحانه، بما جعله تعالى فينا من فكر ومشاعر دالة عليه سبحانه من ملاحظة آياته، لتدلنا على معلومات حقيقية مطابقة للواقع، وبعبارة أبسط فمسألة الاعتقاد به تعالى إلهًا واحدًا أحدًا، ما هي إلا خبر حقيقي ينقله لنا تعالى عبر قرآنه لتأكيد ما يمكننا التوصّل إليه عبر فكرنا ومشاعرنا من آيات أفعاله تعالى في خلقنا وخلق بيئتنا وخلق ما في الدنيا.

بعبارة أخرى، هذا الدين الإلهي عبر هذا القرآن، لا يعرض علينا عقيدة، بل يعرض علينا معلومات حقيقية مطابقة للواقع لنؤمن بها لأننا سنراها حقًا، وهذا المعنى البديهي البسيط الذي لا ترى أي داع للكلام فيه، سترى أهميته عندما تنظر لعقائد الآخرين الباطلة، وعندما هم ينظرون إليك مصنّفين عقائدك باطلة، لأنك تراهم يؤمنون بأمور أنت لا تؤمن بها ولأنك تعتقد أنها سيئة أو فاسدة أو غير صحيحة، وتحلّل حالتهم لتقول إنهم لسبب أو لآخر هم يؤمنون بالباطل، وهذا التحليل هو نفسه ما يقوله القرآن عنهم، لأنهم في مسألة ما تعلّقوا بحبّ الدنيا وليسوا مستعدين لترك ما يشتهونه حتى لو علموا بسوئه، فمن ذا الذي يناقش في الضرر الجسيم الناتج عن المخدرات في الحوادث السيئة التي تنتج عن متعاطيها قتلًا واغتصابًا وحوادث سير... وتهديم للقوّة الشبابية العمّالية المنتجة... بالرغم من علمهم بسوء ذلك هم يرفضون الإيمان به تعالى إلهًا مفروضًا منهم طاعته، ويكفرون بالآخرة وإلا لتركوا السوء خوفًا من العقاب.

عندما يدعوك أحد ما إلى ترك دينه تعالى، فإلى ماذا يدعوك؟ هو يدعوك لتفعل السوء وتنكر العقاب الإلهي عليه، يدعوك لتنكر حقيقة واضحة عليها أطنان من الأدلّة "الآيات".

للأسف، تلاعب الناس قديمًا بدينه تعالى حتى حشوه بعقائد وتشريعات وسلوكيات فاسدة، ونحن كمسلمين لم ننجُ من ذلك حتى صرنا لا نتميّز عن الآخرين بفتاوينا الإجرامية المحللة لقتل الأبرياء، وتحليلنا للربا تحت حجّة الاضطرار له، وتحليل زواج مؤقت من زانية، وتحليل سلب أموال المخالفين لمذهبنا وديننا... وترانا مقتنعين بصحّة ذلك!

هذا ما يجعل ديننا نحن كعقيدة، نعتقد به لا على مقياس الحقّ والباطل، بل مثلنا مثل بقية العقائد الأخرى، نعتقد به لأنه يعجبنا بتوافقه مع أهوائنا السيئة، حيث تلاعبنا بدينه تعالى وحرّفناه وحرّفنا معاني كتابه حتى صار على هوانا، وهذا هو الدمار لكل مفهوم الهداية التي يعرضها تعالى علينا في قرآنه.

دعك من تفسيراتهم للقرآن وادعائهم اتّباع سنة الرسول(ع)، والتي أنتجت معهم عقائد وتشريعات فاسدة تدغدغ هواهم الفاسد، وانظر في قرآنه تعالى عبر دراستنا هذه التي لم أستطع الوصول بها إلى حيث أتمنّى بسبب الانشغال برمي الموروث وإعادة بناء كلّ شيء تقريبًا من الصفر... ولكنها بداية مختلفة عن طريقتهم، فانظر لترى إن كان في القرآن خبر غير صحيح أو خبر مطلوب منك الإيمان به بدون دليل؟ وانظر لترى إن كان في القرآن تشريعٌ أو أمرٌ سلوكيٌّ سيّئٌ مطلوبٌ منك الالتزام به متعاميًا عن سوئه؟

هكذا سنفهم أن هذا القرآن لا يعرض علينا عقيدة ولا شريعة ولا سلوكيات، بل يعرض علينا الاهتداء للحقّ عبر طرحه لمعلومات عليها أدلة أنها مطابقة للواقع وطرحه لتشريعات وسلوكيات يبرّر لنا فيها صلاحها لنفعلها ويرينا سوء الأخريات لنتركها، فبما جعله تعالى فينا من قدرة على تمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، من المفروض أن نؤمن بالقرآن ونلتزم بتشريعاته وسلوكياته.

هذا المفهوم القرآني البديهي الأساسي صار من المنسيات في أدبياتنا، وحلّ محلّه ما يسمّونه بالتسليم، وإقفال العقل لأنه غير قادر على فهم الكثير مما يقوله تعالى عن نفسه وعن قراراته وعن تشريعاته لنا! وحلّ محلّه ما يقوله المدّعون لصفة علماء دين، حتى لو قالوا لك شيئًا تراه سيئًا، فأنت ملزم بفعله أو الإيمان به! لأنك لا تفهم بالدين الإلهي وهم العلماء! بينما القرآن يريك أنك أنت بذات شخصك ستتحاسب على معيار الحقّ والباطل والصلاح والفساد، ولا يوجد في الآخرة عذر مقبول لك مفاده: فعلت ذلك ولم أفكّر به لأنهم قالوا لي إنه أمر إلهي. لا، لن ينفعك ذلك، بل ستتحاسب على ما كان يمكنك رؤية صلاحه من فساده، وتعاميك عن الفساد بإرادتك قمعًا للقدرة التي جعلها تعالى فيك لتمييز الحقّ من الباطل، أو فعلك للسوء عن رغبة به ومنتشيًا بحماية دينية لذلك عبر استنادك إلى تفسير ما أو حديث ما أو فتوى ما... فهذا ليس دينًا ينفعك، بل ستتحاسب وتتجازى وعذرك غير مقبول أبدًا بتاتًا.

الآية هنا ليست أنسب آية قرآنية للتوسع في مفهومها وصولًا إلى حالتنا الإيمانية والتشريعية المزرية، ولكن المفهوم الأساسي هو نفسه، حيث هناك من يكذّب بيوم الفصل، ونسأله على ماذا استند في إنكاره؟ على دليل أو على انتمائه لعقيدة تكفر بالآخرة؟ وهكذا ترى أن نفس الأساس الذي سنتحاسب نحن المسلمون عليه، هو نفسه الذي سيتحاسب عليه المكذّب للآخرة.

(احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ{22})
{احْشُرُوا}، اجمعوا "أيها الملائكة(ع)" بقرار منّا وسواء قبلوا أم لا، اجمعوا، {الَّذِينَ ظَلَمُوا}، الذين لم يكن معهم حقّ حين أنكروا البعث، بل ظُلْمًا بلا وجه حقّ ولا إنصاف أنكروا الآيات الواضحة الدالّة على صحة كلام الإله سبحانه عن بعثهم من الموت، احشروا الظالمين، {وَأَزْوَاجَهُمْ}، مع أشباههم، الذين من نوعهم وصنفهم، من ناكري البعث المشركين من مختلف الأنواع، منكري البعث العابدين للأصنام، منكري البعث العابدين للأرواح... منكري البعث المجرمين... احشروهم، {وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ}، اجمعوهم مع من كانوا يعبدونهم، مع من كانوا يتصرفون على أساس أنهم آلهتهم ومفروضٌ منهم طاعتهم، إن كانوا يعتبرون أنفسهم عبيدًا تابعين لإنسان أو جنّي يستحق أن يكون في النار، فاحشروهم معهم.

القرآن عادة يفترض بك كقارئ أنك لديك مفاهيم أساسية ومعلومات سابقة، ومن بعدها يتكلّم معك، خذ مثلًا كلامه عن الوضوء، مفترضًا أنك لن تسرق ولن تغصب الماء من الآخرين لتتوضّأ به... وما تجده من تفاصيل كثيرة حول ماء الوضوء في كتب الفقه ولا تجده في القرآن، سببه أن القرآن افترض بك معرفة تلك التفاصيل البديهية... الآية هنا نموذج من الكثير من الآيات التي افترضت أنك لن تتصوّر رمي نبي أو ملاك في النار لأن الناس عبدوه وهو لا علاقة له بذلك. إذًا الكلام هنا عن المشركين الذين عبدوا أجدادهم أو الجنّ، وإن كان أجدادهم أو الجنيّ الذي عبدوه يستحقون العقاب، عندها سيتم حشرهم لمحاسبتهم ومعاقبتهم مع الذين عبدوهم، وإمّا إن كانوا يعبدون إلهًا وهميًا لا كيان له، عندها يحشرونهم مع بعض كمجموعات عابدة لإله خيالي وهمي.

نلاحظ شيئًا مهمًّا أشار له القرآن، حيث أساس أساس كل شرك بالله تعالى يرجع إلى إبليس بوصفه الشيطان الأكبر الذي يوسوس في عقول الناس ليتركوا توحيد الله تعالى، ويتشارك مع إبليس شياطين الجنّ والإنس، هؤلاء أيضًا مسؤولون

عن الوسوسة للناس ليصيروا مشركين، ومن العديد من الآيات القرآنية نرى أنه تعالى اعتبر أي مشرك كان، ولأي إله عبد، يعتبره عبدًا للشيطان، فمن أطاع الشيطان فقد عبده، وصار الشيطان مولاه وإلهه كما نفهم من الآية 60 من سورة يس {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ...}، ومثل الذي اتّخذ إلهه هواه كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ...}.

هنا وفي آيات غيرها نفهم أنه سيتم حشر كل المشركين مع إبليس في ناحية، ومعهم بقية الشياطين الذين أطاعهم المشركون، وبالإضافة لهم هناك الناس والجنّ الذين دعوا الناس لعبادتهم كالفرعون الذي عاصر النبي موسى(ع) والذي نقل عنه القرآن ادعاءه للألوهية في الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي...}.

لا تتصوّر ضرورة أن يكون هناك أعداد غفيرة لهذا التصنيف، ولا داعي لوجود كائنات عديدة عبدها مجموعات عديدة وتلك الكائنات من أصحاب النار، لأن كلام القرآن عادة عن نماذج، وتريك أمثال آيتنا هنا أن أي كائن عبده الناس تاركين توحيده تعالى، فالعابد والمعبود كلاهما سيقفان أمامه تعالى في الآخرة ليتحاسبوا ويُجَازَوْا.

(مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ{23})
احشروهم مع من كانوا يعبدونهم:

{مِن دُونِ اللَّهِ}، كما نقول: ذهبتم من دوني، ونقصد: ذهبتم مع غيري. هنا الكلام عن المشركين الذين تركوا توحيد الله تعالى وعبدوا غيره، احشروهم جميعًا، {فَاهْدُوهُمْ}، ضعوهم على الشيء الذي يوصلهم لنتيجة أعمالهم، {إِلَى صِرَاطِ}، إلى طريق أساسي يوصلهم إلى، {الْجَحِيمِ}، المكان الموصوف بشدّة سوء ما فيه، الذي فيه النار المتأججة والعذاب بالضرب الشديد والإهانات.

كلهم سيمشون غصبًا عنهم إلى الطريق المؤدّي إلى النار ليتعذبوا فيها، وهو طريقهم الناتج عن أعمالهم السيئة.

قارنها مع الذي يريد ويرغب بالسوء بقرار منه، راغبًا بطريق السلب والنهب والزنا والمخدرات... وجاءه من يهديه إلى الوسائل لتحقيق ذلك، وهنا الكلام نفس الشيء، فهؤلاء الظالمون لهم طريق إلى النار، ولن يتوهوا عنه بل ستهديهم الملائكة إلى الطريق التي اختاروها هم بأعمالهم السيئة.

من دراسة أشعار العرب قديمًا قبل الإسلام وجدت فرقًا بين كلمتي جحيم وجهنّم، حيث جهنّم باستعمال القرآن هي اسم مكان مشتق من الوصف بجهنم الذي يشير لسوء الحالة أو المكان، واستعمال هذا الوصف لمكان تعذيب في الآخرة، هو وصف للأنواع المختلفة المسببة للعذاب مما في المكان وليس بسبب وجود النار فيه فقط، لأن فيه النار المحرقة وفيه الضرب وفيه طعام كريه ورائحة كريهة... وتفهم ذلك من فحوى الآية 49 من سورة غافر {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ...}.

في بيتين من الشعر قبل الإسلام وجدت إشارة بكلمة جحيم لضخامة النار، ويناسبها ذلك في القرآن كما ورد في الآية 97 من سورة الصافات {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ}، وهكذا يكون الجحيم وصفًا للضخامة في السوء.

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ{24})
{وَقِفُوهُمْ}، المشركون بعد حشرهم مع بعض وفصلهم عن المؤمنين، ووضعهم على الطريق المؤدّي إلى جهنّم، أوقفوهم، ليجمدوا في مكانهم حيث هم قبل الدخول إلى النار، {إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ}، هناك سؤال سنوجهه لهم، هناك جواب نريد الحصول عليه منهم.

كلمة سأل معناها الأساسي: عامّة التعبير لآخر عن إرادة شيء ما منه. بهذا المعنى تكون مرادفة تقريبًا لكلمة "طلب" كما نستعملها، ومن سياق الكلام يتحدّد المطلوب: جوابًا أو غرضًا أو فعلًا أو استعلامًا أو استفهامًا أو تعجبًا... ومن الدارج بيننا استعمال اشتقاق كلمة "مسؤول، مسؤوليتي..." بالمعنى الذي تعرفه، وهذا من تبعات استعمال كلمة "سأل"

على أساس أن هذا الشخص "المسؤول" ستتوجّه له الأسئلة عن شيء ما، والكلمة التي استعملها القرآن لهذا المعنى الدارج لكلمة "مسؤول، مسؤوليتي" هي "وكيل، حفيظ".

(مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ{25})
والسؤال هو: {مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ}؟ لماذا لا تنصرون بعضكم البعض، كلّكم الآن مع بعض مع آلهتكم فلماذا لا تتعاونون لتحققوا لأنفسكم ما تريدونه وتمنعوا الملائكة(ع) من رميكم في النار؟

الآن تعرض الآيات علينا مشاهد من المستقبل للذين كانوا يستهترون بالآخرة، ويقولون إنهم سيدبّرون أمورهم هناك إن فرضًا صدق كلام القرآن عن الآخرة، وأنهم بالحيلة أو بتدخّل آلهتهم أو بالقوة... لن يتعذّبوا.

(بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ{26})
لا يمكنهم أن ينصروا بعضهم البعض:

{بَلْ هُمُ الْيَوْمَ}، في هذا الزمن فيما بعد القيام من الموت وأثناء مسيرهم إلى النار هم، {مُسْتَسْلِمُونَ}، منقادون غصبًا عنهم لا يمكنهم مخالفة أوامره تعالى القاضية بسحبهم إلى النار.

(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ{27})
{وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}، تواجهوا ووجّهوا كلامهم لبعضهم البعض، {يَتَسَاءلُونَ}، هذا الكافر يسأل ذاك وذاك يسأل الآخر والآخر يسأل غيره... يعبّر الكثيرون منهم عن إرادتهم للحصول على جواب من الآخرين.

نتذكر ما قلناه قبل قليل أن كلمة سأل معناها الأساسي: عامّة التعبير عن إرادة شيء ما من أحد ما. وبهذا المعنى هي مرادفة تقريبًا لكلمة "طلب" كما نستعملها، ومن سياق الكلام يتحدّد المطلوب: جوابًا أو غرضًا أو فعلًا، استعلامًا، استفهامًا، تعجبًا... ومن الدارج بيننا استعمال اشتقاق كلمة "مسؤول، مسؤوليتي..." بالمعنى الذي تعرفه، وهذا من اشتقاق استعمال كلمة "سأل" على أساس أن الشخص ستتوجّه له الأسئلة عن شيء ما، والكلمة التي استعملها القرآن بهذا المعنى الدارج لكلمة "مسؤول، مسؤوليتي" هي "وكيل، حفيظ".

بالنسبة لتصريف "تساءل يتساءلون"، الدارج بيننا أنه تصريف مستعمل للاستفهام والاستغراب، حيث لدينا "سؤال" ولدينا "تساؤل"، أمّا المعنى الأساس لأي تصريف من مشتقات كلمة "سأل"، فسياق الكلام يحدّد إن كانت الجملة للاستفهام أو الاعتراض أو إرادة الجواب... والمعنى الأساسي لها هو المرادف تقريبًا لمعنى كلمة "طلب" حاليًا، ولم يستعمل القرآن كلمة "طلب" بالمعنى الدارج حاليًا واستعمل بدلًا منها كلمة "سأل" لعامّة إرادة شيء ما من أحد ما، سواء أراد جوابًا "بكل أنواعه ومن ضمنه الاستفهام" أو أراد غرضًا أو مساعدة...

وكلمة يتساءلون قرآنيًا تشير لحالة توجيه سؤال من أكثر من شخص إلى عدة أشخاص.

(قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ{28})
قالوا، المشركون: إنكم، أيها الذين أغويتمونا حتى نشرك، كنتم تأتوننا عن اليمين، كان تفكيرنا ومشاعرنا فِيهِ يَمِينٌ، فيه قوّة الأشياء الصحيحة، فيه بذرة إيمان، وأنتم استهدفتم هذه الناحية فينا، استهدفتم بذرة إيماننا حتى أقنعتمونا بالكفر.
هناك تعابير مشابهة نقلها القرآن عن هَؤُلَاءِ الناس مِثْلَمَا ورد في الآية 31 من سورة سبأ {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ}.

لاحظ كلمة يمين، التي في أصل اللغة تشير لعموم التعامل مع أي شيء براحة واقتدار وقوة وتحكّم... هي واصفة، وَعَادَةً الناس تستعمل يدها "العضو اليمين" للتعامل مع الأشياء لأنها عادة أقوى وأكثر سيطرة من اليد الشِّمَالِ عند الكثير من الناس، ولا أدري في تاريخ وضع اللغة، أيها سبق بالتسمية، العضو أو وصف الحالة، أو خليط منهما، حيث في بعض الكلمات التسمية سبقت الوصف، وفي كلمات أخرى الوصف سبق التسمية. لدينا العديد من الجمل التي

نستعمل فيها كلمة يمين ولا نقصد بها العضو "الْيَدَ" ولا الجهة "اليمين كجهة مقابلة للشمال"، كعهد اليمين، وَقَسَمِ يمين، وَمِلْكِ يمين... وكلها تشير فيها كلمة "يمين" إلى القوّة والاستحكام والراحة في التعامل مع الشيء، وما تجده في القرآن عن حشر المؤمنين "على" اليمين، يشير بالأساس لوصف الحالة وليس لوصف الجهة، فهم في حالة يمين، في حالة راحة وتحكّم وَمُرْتَاحِينَ...

التعبير هنا يشير إلى ضرب الناس فِكْرِيًّا من الجهة التي كانت قوية فيهم، النَّاسُ متعلقة بما تظنّه يسعدها، وفيهم بذرة إيمان، بذرة العقلانية لتمييز الحقّ من الباطل والتي ترشدهم لما يهديهم ويسعدهم في الدنيا والآخرة، وَبِنَاءً على كلامهم مع من أغواهم، لولا الغواية لكان "اليمين" كفيلا بجعلهم مؤمنين، لكانت قوّة تمييزهم بين الحقّ والباطل كافية ليؤمنوا، ولكن بسبب ما عرضه عليهم الوجهاء والزعماء... ضُرِبَ عندهم اليمين، ضُرِبَتْ فيهم القوة التي كانت ستجعلهم مؤمنين، ومشوا على الكفر من الوسوسة التي غرّرتهم وزينة الدنيا التي أعجبتهم...

كما ترى، لوم الآخرين على إضلالنا ليس نَافِعًا بِشَيْءٍ، لأننا سَنُحَاسَبُ وَنُجَازَى ولا نفع من لوم الآخرين.

(قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ{29})
قالوا، أيِ الذين وسوسوا وأغروا غيرهم لِيُشْرِكُوا:

{بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}، لا تلومونا وتطالبونا... أَصْلًا أنتم لم تكونوا معتقدين بالدين الإلهي، أَسَاسًا لم تكونوا محبّين للإيمان، أَسَاسًا لم نأتكم عن اليمين بل أَصْلًا كانت الرخاوة منتشرة في فكركم ونفسيتكم.

بالنسبة لكلمة "آمن"، لم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الْإِسْلَامِ أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، آمَنَ على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كلاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وَتَمَاشِيكَ معه.

(وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ{30})
{وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ}، نحن لم نكن نملك قوّة قاهرة عليكم لنجعلكم مشركين بِالْقُوَّةِ، {بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا}، أناسا لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الحقّ والخير، {طَاغِينَ}، متخطّين لحدودكم، لم تكونوا أَصْلًا من الملتزمين بالحقّ والخير وهو نفسه الالتزام بالأوامر الإلهية.

في الأصل ليس للشياطين "إبليس وأمثاله من شياطين الجنّ والإنس" ليس لهم أي سلطان على الناس، وتقرأ ذلك صَرِيحًا في الآية 42 من سورة الحجر {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}، ليس للشياطين من الجنّ أو الإنس قوّة قاهرة لإجبار أي أحد على الشرك بالله تعالى أو على دفعه لارتكاب معصية ما بِالْقُوَّةِ، ولكن هم الناس يعطون الشياطين السلطان على أنفسهم، حيث الكافر هو بإرادته يجعل الشيطان يتحكّم به، ليصير مُنْقَادًا مُطِيعًا للشيطان لدرجة تحكّم الشيطان به بشكل كامل.

هنا الجواب يشير إلى أن الشياطين من زعماء ووجهاء ورؤساء... لم يكن لديهم في الأساس قُوَّةٌ قاهرة على إجبار الناس على الشرك، وهذا الجواب بغضّ النظر عمّا حصل فيما بعد الاستسلام الكامل للشياطين، حيث يصير فِعْلًا للشياطين عليهم سلطان، ففي البداية هم الناس بإرادتهم يسلّمون رقابهم للشياطين.

بعبارة أخرى: يشعر القوم المشركون بأنهم كانوا فاقدين للسيطرة على أنفسهم وأن الشياطين خرّبوا عقولهم وجعلوهم مشركين، وهذا صحيح ولكنها الحالة النهائية من بعد طغيان القوم، من بعد طول استسلام القوم واتّباعهم للأوامر الشيطانية صاروا ضعفاء وَمُسَيْطَرًا عليهم، أمّا في البداية فكل الناس لديهم حريّة اختيار اتباع الضلال أو الهدى، وهم اختاروا الضلال ولم يكونوا من المعتقدين بالحقّ، ولم يلتزموا بالصلاح فكانوا طاغين... وبعدها سيطر عليهم الشياطين.

(فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ{31})
{فَحَقَّ}، تَحَقَّقَ وانطبق وصدق وصار صَوَابًا، {عَلَيْنَا}، نحن وأنتم العابدون لنا، {قَوْلُ رَبِّنَا}، ما قاله المسؤول عنّا من مستوى إلهي، قَالَ سبحانه أنه سيعذّب الكافرين بالحقّ الفاعلين للسيئات، سواء من وسوس لغيره أو هو بنفسه خالف الأوامر الإلهية، وهذا القول تحقّق علينا، فنحن وأنتم، {إِنَّا لَذَائِقُونَ}، سوف نتحسّس ونشعر فِعْلًا، طَبْعًا المقصود أننا نحن وأنتم سنتعرّض لعذاب، سَنَذُوقُهُ الآن في الآخرة بعد أن كنّا نسمع به في الدنيا.

(فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ{32})
الجواب عن تساؤلكم:

{فَأَغْوَيْنَاكُمْ}، صحيح أننا عرضنا عليكم شَيْئًا فَاسِدًا غير جَيِّدٍ واقتنعتم به، {إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ}، وكانت قدرتنا فقط تقتصر على الإغواء ولم نجبركم ولم نتحكّم بكم غَصْبًا عنكم.

تذكّر أن التساؤل كان: كنتم تأتوننا عن اليمين. يعني كان فكرنا ونفسيتنا قَوِيَّيْنِ في تمييز الحق من الباطل والخير من الشرّ، وهذا ما استهدفتموه حتى تراخى وجعلتمونا مشركين... ثم نقلت الآيات زبدة الجواب عن هذا الكلام حتى نفهمه ونتنبه لمحتواه وَلَا نَقَعَ في الغواية، ونقلت لنا قول الزعماء والأسياد والحاكمين... وعموم الشياطين: لا، نحن فقط أغويناكم، وكل ما عرضناه عليكم كان يبدو عليه بشكل واضح أنه فاسد وغير صحيح، ولم نضرب لكم قدرتكم على تمييز الحقّ من الباطل، بل عرضنا عليكم أشياء فاسدة، وواضح أنها فاسدة، وأنتم اخترتم اتباعها.

كل أشكال وأنواع الشرك بالله تعالى من الواضح أنها فاسدة عاطلة، وخذ مَثَلًا عبادة الناس للأصنام، فيقولون عن حجر أنه إله! ومن عبد الحجر سيقول في يوم القيامة لمن عرض عليه عبادة الحجر: كُنْتَ تأتيني عن اليمين؟! لا، بل أنت يا غبي عابد للحجر فَأَصْلًا لم يكن عندك يمين، وَعَرَضْنَا عليك شَيْئًا فَاسِدًا عَاطِلًا بَاطِلًا، عرضنا عليك تأليه الحجر، وهو عرض سخيف ضعيف، هل بهذا العرض تحكّمنا بك! ألم يكن يبدو سَخِيفًا فَاسِدًا! والآن تتهمنا بأننا استهدفنا يمينك ولولانا لكنت مؤمنا!

يمكنك يا عزيزي أن تقيس على هذا المثال كلّ العقائد والشرائع الفاسدة التي تعرضها علينا شياطين الجنّ والإنس، لأنها كلّها فاسدة وواضحة الفساد أمام وضوح الحق والهدى، ولكن هذا كلّه يتبدّل ويتحوّل بعدما نَخْطُو أوّل خطوة خلف غواية الشياطين، التي أولها الاستهتار بفعل شيء فاسد، ومع تكراره لَا نَعُودُ نراه فَاسِدًا... وسيجرّنا لشيء فاسد آخر... إلى فساد أكبر منه، وهكذا وُصُولًا إلى ارتكاب أعظم المحرمات، وُصُولًا إلى الشرك بالله تعالى.

(فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ{33})
{فَإِنَّهُمْ}، المشركون مع الذي أغواهم، {يَوْمَئِذٍ}، في زمان يوم القيامة وما بعده هم، {فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ}، كلاهما لا عذر لهما، كلاهما ارتكبا ما يستحقان عليه العذاب.

طَبْعًا لا تقصد الآية اشتراكهم في شدّة ونوعية العذاب، لأن بينهم من سيتعرّض لتعذيب أكثر من الآخرين لأن جرائمه أكثر أو أكبر، ولكن تقصد الآية أنهم كلهم سيتعذّبون، فالعذاب شيء مشترك لهم كلّهم ولكن درجات الألم ستكون مختلفة. كلّ درجات الألم عالية جِدًّا جِدًّا ولا يمكن تحمّلها أو الاعتياد عليها، ولكن يبقى هناك درجات ألم أعلى من الأخرى.

يعني، لا تفكّر الآن بأنك بريء لأن الشياطين أغووك، وإذا أغويت غيرك على الإيمان بالباطل وارتكاب السيئات، فلا تفكّر بأنك بريء لأنك لم تفعل شَيْئًا وفقط أغويت، هنا الآية تنبّهنا من الآن أن هذه التَّبْرِيرَاتِ لن تنفع، لأن الذي غوى والذي أغواه، كلاهما في العذاب مشتركون ولا عذر لهما.

هل لاحظت ما تنبّه له الآية؟ هناك سخافة في تفكير غير المؤمنين، وهي سخافة تبرير شركهم وكفرهم ومعاصيهم، فإن كان من أغوى غيره يبرّر ويقول، لا تحاسبوني لأني لم أكن مُسَيْطِرًا عليه أو مُتَحَكِّمًا به بل فقط عرضت عليه أشياء من الواضح فسادها، والحق كلّه عليه لأنه اتبعها، وأنا بريء. وإن كان من أُغْوِيَ يقول، لا تحاسبوني، أغووني ولولاهم لكنت مُؤْمِنًا، فذنبي عليهم وأنا بريء. هل لاحظت، هذا ما تعرضه الآيات، ولذلك اختتمت هذه الفقرة كلامها عن هذه

المهزلة ونهايتها أنهم كلّهم في العذاب مشتركون، لذلك خذوا عِلْمًا بذلك من الآن أثناء حياتكم في الدنيا حيث لا يزال يمكنكم إصلاح أنفسكم، وإلا فمصيركم العذاب ولن ينفعكم أي تبرير.

ربما بل حَتْمًا هناك من يفكّر بطريقة التبرير هذه، ولكنه لم يسمع الآيات هنا ليعلم رَسْمِيًّا أن هذا التبرير لن ينفع. هل هذا مقبول تبريره لأنه لم يسمع الآيات ولم يعلم بأن التبرير لم ينفع؟ بالطبع لا، لأن التعامي عن الحقّ الواضح، لا تبرير له ولا بأي شكل. هل تقبل تبرير من قتل عَزِيزًا على قلبك بقوله، لم أقرأ قانون الدولة، ولذلك لا علم لي بأن القتل ممنوع. أنا شَخْصِيًّا لم أقرأ قانون الدولة التي أعيش فيها، وهذا لا يعفيني من مخالفته لأنه من المفروض أن يكون بَدِيهِيًّا في غالبية جوانبه التي تعاقب على الممنوعات... ونفس الكلام عمّا يقوله هذا القرآن.

(إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ{34})
{إِنَّا كَذَٰلِكَ}، بالذي ذكرناه من العذاب، {نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ}، نفعل بالذين ارتكبوا أَعْمَالًا يستحقون عليها العقاب.

الآية معناها بسيط ومفهومة ببساطة، ولكن لها عمق، وَبِنَاءً على معنى كلمة "مجرم" كوصف لمن قام بعمل يستحقّ عليه العقاب، نرى أنه تعالى يعذّبهم كعقاب لهم على ما فعلوه هم بإرادتهم، فلم ولن يظلم سبحانه أي أحد، والجملة تفيد بأن التعذيب للمجرمين قرار إلهي لا رجعة عنه أَبَدًا، لذلك لا يفكر أحد من المجرمين الآن بأن هذا التهديد لن يتحقق وأنه تعالى يرأف به أو يغيّر تعالى قراره ويتراجع عن تعذيبه... أو سيصدر في الآخرة عفو إلهي عَامٌّ عن الجميع... لا، ولا يفكّر أحد أن قرار التعذيب صادر عن غير الله تعالى وذلك الغير يملك قرار إلغاء التعذيب، كلا، بل القرار بيده تعالى ولا رجعة عنه.

(إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ{35})
{إِنَّهُمْ}، المجرمون، {كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ} {لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ}، إذا قال لهم أحد ما، لا يوجد أحد يتصّف بصفة الإله إلا الله تعالى، فلا يوجد ولا أي كائن لديه الصفات والقدرات الفائقة غير صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" عزّ وجلّ، وبالتالي تكون كل تبعات ذلك محصورة به تعالى، حيث لا مخطّط ولا مصمّم ولا خالق ولا متابع للمخلوقات... ولا رازق ولا شَافٍ... ولا أحد يستحقّ العبادة... إلا الله تعالى فقط وفقط، فإذا قيل لهم ذلك {كَانُوا}، {يَسْتَكْبِرُونَ}، يرون أنفسهم أكبر من الإيمان بالله تعالى إِلَهًا أَحَدًا.

بما أنك من الموحدين المسلمين، فلن تفهم معنى استكبارهم، ولكن لو فكّرت فيها وشبهتها بالناس الذين لديهم زعيم من بلدهم أو عشيرتهم أو دينهم أو طائفتهم، ويوجد زعيم من بلد آخر أو من عشيرة أخرى أو من دين آخر... أفضل وأفهم وأعدل... من زعيمهم، ولكن يستكبرون عن طاعة ذاك الآخر لأنهم يعتبرونه لا يخصّهم وليس منهم وليس لهم... هكذا تتحدّث الآيات عن المشركين بالله تعالى، الذين لا يعتبرونه إلههم الخاصّ بهم، ولذلك هم متعلّقون بآلهتهم التي يعتبرونها تخصّهم ولهم، وهم جمهورها المخلص، ومن ناحية ثانية يشير استكبارهم لرفضهم طاعته سبحانه، مثلما نفعل نحن برؤيتنا لأنفسنا أكبر من إطاعة شخص آخر حتى لو كان أفهم وأعلم ويقول الحقّ، معتبرين طاعتنا له اسْتِصْغَارًا لأنفسنا، كذلك هم يرون طاعته تعالى اسْتِصْغَارًا لأنفسهم، ويريدون الحرية في المعتقد حتى لو بالباطل، ويريدون الحرية بالشريعة حتى لو كانت فاسدة، وسيرون أنفسهم صِغَارًا إن أطاعوه تعالى.

من ناحيته تعالى كإله أحد، يرى سبحانه عبيده يتركون توحيده وعبادته وطاعته بلا مبرّر، ويعبدون غيره! ويرون أنفسهم أكبر من أن يعبدوه سبحانه، ويرون أنفسهم أكبر من أن يتركوا دين وآلهة أجدادهم وقومهم!

لمزيد من التوسّع حول كلمة إِلَٰهٍ راجع دراستنا للآية 5 من هذه السورة، وَهَٰذِهِ دراسة مشابهة لها بعبارات مختلفة:

تذكّر دَائِمًا أننا كبشر، جعل سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرّف عليه سبحانه من ملاحظة أفعاله "آياته في خلقه" ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء... وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق بالقوّة الإلهية الفائقة عند الوقوع في الشدائد...
لهذا وضعنا كلمة نصف بها الْكَائِنَ ذَا الصفات والقدرات العالية جِدًّا عن قدراتنا، وهي كلمة "إله" كوصف لذي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلّق به عند الوقوع في الورطات...

فِي حَقِيقَةِ الأمر فالكائن الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة، والذي ليس مَخْلُوقًا، هو الله سبحانه، وتساهل الناس في استعمال كلمة إله لتنطبق على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، فيطلقونها على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أن فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي...}.

القرآن يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهي، مُقَوِّمًا اللغة ككلّ، وَيُقَوِّمُ دقة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة "إله"، ليخبرنا أنها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرّج في استعمالها.

المشركون الناطقون باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... وغيرهم من أهل اللغات الأخرى، استعملوا كلمة إله "بالعربية أو بما يرادفها من اللغات الأخرى" بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

قارنها مع كلمة "ربّ"، فأنا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... هذه كلمة تتحمّل التدرّج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهي، فهي لا تتحمّل التدرّج، وهي حَصْرًا له تعالى ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهي.

كلمة إله في حقيقة معناها لا تتحمّل التدرج لِيُوصَفَ بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، وذلك حين يخبرك أنه خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، وسبحانه وظّف الملائكة(ع) التي خلقها لتنفيذ بعض أوامره... هكذا ترى بوضوح أنه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، فماذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدّد له والمميّز "الله" جلّ جلاله فعل كل شيء، وبناء عليه ما معنى ألوهية غيره! هذا ملخّص مبسّط للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

أَيْضًا ألفت انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، حيث حصروا استعمال كلمة إله للإله الكبير، واستعملوا للآخرين وصف الربّ، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربّة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون، إله المطر وإله الحرب... وعلى كل حال رفض القرآن توصيف غيره تعالى بالألوهية والربوبية من مستوى إلهي، فالمشركون يعتقدون بوجود كائن "ربّ" مسيطر على المطر من مستوى إلهي وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم أنه توصيف لألوهية أربابهم.

من ناحية ثانية لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، ليصير الهوى إِلَهًا كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ...}، التي لا تشير لاعتقاد الشخص بأن هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لدين فيه ما يهواه، وَعَمَلِيًّا هو يعبد هواه.

بالنسبة لأصل كلمة "الله" ستجد كَلَامًا كَثِيرًا حولها، ويبدو من تتبّع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حَالِيًّا بالسامية... أن الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة "إله" ومنها جرى اشتقاق اسْمِ العلم "الله"، وهذا الاسم لم يكن مُتَدَاوَلًا في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط، حيث للآخرين نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، فكلمة إله واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات مَا يُسَمَّى بأصل اللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة الله من وصف الإله ومتى، وهل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قَدِيمًا عبر الوحي، فالأرجح عندي "اسْتِذْوَاقًا" أنه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك "اسْتِذْوَاقًا" لأن المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين مضت بلا مستند صريح لتأكيد كلام ما، يصير بطبيعته اسْتِذْوَاقِيًّا لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا ذات نفسي في سياق كلام آخر أستذوق أنه تعالى هو سمّى نفسه، فليس من المعقول ولا من المقبول منك أن تطلب حَسْمًا من

الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دَلِيلًا حَاسِمًا، وَلَا مَقْبُولٌ من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنه الصحّ إلا اللهم إن قدّم دَلِيلًا دَامِغًا، وهذا لا يبدو مُمْكِنًا في مسألتنا هذه.

(وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ{36})
يقول المستكبرون باستغراب: {أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ} هل فينا عقل ونترك مَن نعتبرهم بصفات وقدرات فائقة لأجل شخص يقول كلاماً شعرياً لا يعبّر عن الحقيقة؟ بل كلامه مجرّد تصويرات بلاغية تحفّز الخيال، ومجنون كلامه غير منطقي ولا عقلاني! هل نحن سخفاء وبسطاء لنسمع كلامه؟!

تذكّر دائماً أنهم لا يقولون عن القرآن إنه شعر القصائد والقافية، بل يقصدون أن الشعر في أصله وأساسه ليس خبراً حقيقياً ينقل الواقع، بل كلاماً تصويرياً يحفّز ويثير الأذن بموسيقاه، ويثير الصور التي يفعّلها في ذهن المستمع، ولا يعبّر عن واقع حقيقي، حتى لو نقل لنا الشاعر في قصيدته قصّة معركة جرت، لن ينقلها مثل نشرة الأخبار، بل سينمقّها ويذوّقها فيبالغ في تصوير مجريات الأحداث... وإذا سمعنا شعراً بين شاعرين يتبارزان في الكلام، كلاهما يقنعك أن الحق معه لشدّة حدّة لسانه على الشاعر الآخر... وهذا ما يقصدونه بقولهم إن القرآن شعر، إذ هو بنظرهم صفصفة كلام خيالي موسيقي بليغ لا يعبّر عن أي حقيقة، وبرأيهم أن الإله ليس واحداً ولا توجد آخرة...

تَذَكَّرْ أنهم لا يقولون إن تاريخ محمد بن عبد الله (ع) بينهم هو تاريخ شخص مجنون مخبول وعقله خفيف، لا، بل المجنون هو الذي لا يقول كلاماً موزوناً منطقياً، وهم يعتبرون كلام النبي (ع) عن توحيد الإله وترك آلهة الأجداد وعن البعث من الموت كلاماً غير موزون وغير منطقي، ذلك أنهم متعلقون بآلهتهم لدرجة العمى، ومشجعون ومخلصون لدينهم وشريعتهم لدرجة الهوس والجنون. وإن كنت ستجد سبباً منطقياً للمتعصبين لفريق كرة القدم الذين يقتل بعضهم مشجعي الفريق الخصم، ستجد منطقاً في إخلاص المشركين لآلهتهم وشريعتهم الفاسدة، وستجد منطقاً لإخلاص المتعصبين دينياً لدينهم لدرجة الخروج عن تعاليم دينهم وقتل الأبرياء! وستجد تبريراً للتناحر المذهبي والطائفي بين المسلمين!

إن وصفهم له (ع) بالجنون مثل وصفنا لبعض الناس عندما نسمع منهم كلاماً لا نعتبره عقلانياً، إذ لا نقصد أنهم دائماً في سيرة حياتهم مجانين، بل في هذا الموضوع أو ذاك نراهم غير عقلانيين.

(بَلْ جَاء بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ{37})
ليس محمد (ع) شاعراً ولا مجنوناً، {بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ}، أي بالقول الصواب الذي لا باطل فيه ولا كذب. كما أنه (ع) {صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ}، إذ إن دعوته لم تكن شيئاً غريباً، بل سبقه أنبياء كثر أرسلهم الله بالرسالة ذاتها عبر التاريخ. وكلامه (ع) ينسجم ويؤكد كلام من سبقوه من الرسل، كنوح وإبراهيم ويوسف وموسى وعيسى عليهم السلام، فهو حلقة في سلسلة إيمانية طويلة ممتدة لآلاف السنين.

علينا أن ننتبه جيداً لهذه النقطة التي كررها القرآن بوضوح من خلال ذكر قصص الأنبياء السابقين، فكلام النبي محمد (ع) ليس أوهاماً أو خيالات مبالغاً فيها، بل هو كلام عقلاني ومنطقي لم يخترعه من تلقاء نفسه. وهنا تبرز النقطة الأساسية الثانية: الله سبحانه يرسل للبشر منذ آلاف السنين من يبلغهم وحيه، وهم جميعاً يشكلون سلسلة مترابطة تنقل نفس العقيدة (أصول الإيمان)، كما تنقل الأساس التشريعي الواحد (قواعد الحلال والحرام)، مع بعض التغييرات البسيطة في "التشريعات" (الأحكام التفصيلية) التي تختلف باختلاف الظروف والأزمان.

إن هذا الترابط العجيب بين الرسل، رغم تباعد أزمانهم، يُعدُّ وحده دليلاً قوياً على أن مصدر هذا الخط التوحيدي واحد وهو الله عز وجل.

(إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ{38})
خذوا علماً أيها المجرمون من الآن: {إِنَّكُمْ لَذَائِقُو}، أي ستتذوقون حقيقة الألم فتشعرون به وتحسونه بكل جوارحكم. {الْعَذَابِ الْأَلِيمِ}، وهو ذلك الضرر البالغ الذي لا يمكنكم تحمّله ولا الاعتياد عليه.

(وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{39})
{وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا}، أي إن الذي ستحصلون عليه مقابل أفعالكم من العذاب ما هو إلا جزاء عادل.

{مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، فهذا العذاب هو بسبب ما قمتم به فقط، بلا زيادة.

الله سبحانه لا يظلمكم ولا يعتدي عليكم، والعذاب الشديد هو ما تستحقونه بالضبط.

نسمع هنا في الدنيا اعتراضات على كلام القرآن عن شدّة العذاب المقابل للشرك، حيث يقول البعض إن شدّته ومدّته غير منطقية، فكيف لمن كفر مئة سنة (وهي مدة حياته) أن يخلد في العذاب؟

اَلْآيَاتُ الكثيرة تؤكّد أن العذاب مساوٍ تماماً لما فعلوه. وفي الآخرة، لن يعترض المشركون على ذلك لأنهم سيرون استحقاقهم له.

اعتمد القرآن صراحةً وصف الخالق بأنه حكيم ولا يظلم، وأن الخلود في النار هو ما يستحقّه الكافرون بدقة وبلا زيادة. ونجد تبريرات لذلك في مواضع كثيرة، فالكافر لمئة سنة، لو عاش مليارات السنين لما آمن، ولو رُدَّ من الآخرة إلى حياة جديدة ليعيد الامتحان، لعاد كافراً كما كان. وهذا ما نلمسه في الآية 28 من سورة الأنعام: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ}.

تحدّث القرآن صراحة عن قلوبهم "المطبوعة" (أي المختوم عليها)، مما يعني أن لديهم قراراً عميقاً بالكفر لن يتغيّر. ويؤكد المفهوم القرآني العام أن هؤلاء الذين لم يؤمنوا بالآيات المشهودة في الخلق، لن يؤمنوا بأي حال، كما في الآية 111 من سورة الأنعام: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى... مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا}.

من ثنايا الآيات، نفهم أنه لو كانت هناك فرصة ليؤمنوا لو عاشوا مدة أطول، لمنحها الله لهم، فهو "الحليم" الذي أعطاهم الفرصة تلو الأخرى في الدنيا.

خلاصة القول: صحيح أنهم كفروا مدة حياتهم القصيرة مقابل عذاب خالد، لكن هذا الخلود كان بسبب استمرار كفرهم تحت أي ظرف كان. فلو عاشوا مليارات السنين، ولو رأوا كل أنواع المعجزات، ولو رُدوا للدنيا بعد رؤية الآخرة، لبقوا كافرين. هؤلاء هم من قرر القرآن خلودهم في النار.

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ{40})
{إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ}، أي الذين يتصرفون يقيناً بأنهم مملوكون لله، ويؤمنون أن طاعته فرض عليهم لأنه خالقهم ومالكهم.

{الْمُخْلَصِينَ}، بفتح اللام، والمقصود بهم الذين صفت نفوسهم من شوائب الشرك، واختارهم الله لصدقهم، فهؤلاء لن يذوقوا العذاب أبداً.

هناك فرق بسيط في النطق يوضح المعنى:

أنا مُخْلِصٌ بكسر اللام، أي فاعل للإخلاص، أوحّد الله ولا أشرك به.

أنا مُخْلَصٌ بفتح اللام، أي وقع عليّ فعل الإخلاص من الله، فصارت هذه صفتي الدائمة التي ميزني الله بها.

بعبارة أخرى، نحن جميعاً عبيدٌ لله، ومن المفروض علينا طاعته، ولكن المخلصين منهم بالتحديد هم الذين لن يمسهم العذاب، ولن يشعروا بأي انزعاج في الآخرة، فمنذ اللحظة الأولى التي يفتحون فيها أعينهم هناك، سيغمرهم الشعور بالسعادة.

نلاحظ أن السورة تبدأ من هنا بالحديث عن الفئة الطيبة من الناس، وهم الذين لم يتبعوا "قرين السوء"، فلم يشركوا ولم يكفروا بالآخرة. يفتتح الكلام بعرض السعادة التي ينالونها، ثم يعرض نموذجاً لمؤمن "عادي" دخل الجنة فاندهش من مصيره الرائع، وبعدها يُعرض مصير "قرين السوء"، وصولاً إلى سيرة أشخاص تميزوا جداً في توحيدهم وطاعتهم.

كلمة عَبْدٍ، تشير إلى من تجب عليه الطاعة، وهي مقابل "الحر"، فبما أن الله هو المالك، فإن مقتضى هذه الملكية هو عبودية الخلق له بمعنى وجوب طاعتهم له.

الفرق بين كلمة عِبَادٍ وكلمة عَبِيدٍ، يعتقد البعض أن كلمة "عباد" ألطف وتختص بالمؤمنين، بينما كلمة "عبيد" قاسية وتختص بالمملوكين، لكن هذا غير دقيق لغوياً. كلاهما يؤدي نفس المعنى، "عبيد" جمع عبد، و"عباد" هي جمع الجمع (أي مجموعات من العبيد).

أثناء الكلام بدقة، تُستخدم كلمة عَبِيدٍ للإشارة لمجموعة يجمعها شيء مشترك، وقد وردت في القرآن خمس مرات كلها تشير لمجموعات اشتركت في تقديم السوء لأنفسهم. أما كلمة عِبَادٍ فتُستخدم للدلالة على كل العبيد بكل أنواعهم (مؤمنهم وكافرهم)، كما في الآية 18 من سورة الأنعام: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}، فهي تشمل الجميع.

تُسْتَخْدَمُ كَلِمَةُ عِبَادٍ للإشارة لمجموعات متعددة اشتركت في فعل السوء، كما في سورة يس: {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، فهي تشير لمجموعة عبيد جاءهم رسول فكذبوه، ومجموعة أخرى فعلت الشيء ذاته، وهكذا. لذا فإن كلمة "عباد" ليست حصرية للمؤمنين، والمثال الواضح قوله تعالى في سورة الإسراء: {وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

(أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ{41})
{أُولَئِكَ}: الإشارة هنا للمُخلصين الذين ذكرتهم الآية السابقة.

{لَهُمْ رِزْقٌ}: أي لهم عطاء وأشياء تلبي حاجاتهم ورغباتهم، وسوف تفصّلها الآيات التالية.

{مَعْلُومٌ}: لم يترك سبحانه نوعية وكمية رزقهم لِتُقَرَّرَ في حينها، بل هو معلوم عنده ومُقَدَّرٌ منذ الأزل.

لتقريب الصورة، تخيّل أنك تنتظر ضيفاً سيأتيك بعد أيام، إما أن تجهّز "قائمة الطعام" مسبقاً، وإما أن تنتظر يوم قدومه لتقرر ماذا ستعدّ له. أما الله سبحانه، وبسبب قدرته الفائقة، فمنذ لحظة أمره بخلق السماوات والأرض، تقرر أيضاً نوع الرزق المتميز الذي سيحصل عليه المؤمنون في الآخرة. وهذا المعنى منتشر في القرآن، فكل شيء في الآخرة مصمم سلفاً، وحين يحين وقتها سيمضي كل شيء بحسب المخطط الإلهي، لأنَّ كل الأمور "معلومة" ومقدرة لديه تعالى.

الرزق في اللغة هو النصيب من النعمة التي ترتبط بحاجات الإنسان للحياة أو لإشباع رغباته. والأساس فيه هو "الطعام" كحاجة حياتية أولية، ثم يتوسع المعنى ليشمل ما يرتبط به كالمال والمطر، وصولاً إلى عموم النعم مثل الزوج والولد.

بالنسبة لرزق الآخرة في الجنة، نحن ننزع عنه خصائص الدنيا المتعبة، ليصبح رزقاً مخصصاً لإشباع الرغبات فقط بلا عواقب (مثل الجوع أو المرض أو التعب). حيث إنَّ في الجنة، الأجساد خالدة ولا تموت إن لم تأكل، بل يأكل أهلها بدافع الرغبة في الطعم اللذيذ والتمتع بالنعيم، وهذا ما ستوضحه الآية التالية.

(فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ{42})
هذا هو تفصيل الرزق المعلوم:

{فَوَاكِهُ}: الفاكهة في الأصل هي ما نأكله عادةً بقصد التحلية والتلذذ بطعمه، لا بقصد الشبع وسد الجوع. وهذا يؤكد أن سكان الجنة يأكلون من طعامها لمجرد الاستمتاع واللذة فقط.

{وَهُم مُّكْرَمُونَ}: أي إنَّ لهم مكانةً ومقاماً واحتراماً عالياً. وهذا المعنى تكرر كثيراً في القرآن بتعابير متنوعة، منها ما ورد في سورة سبأ: {أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}.

في مقابل الإهانة والاحتقار اللذين يلقاهما أهل النار، يشعر أهل الجنة بأنهم مكرمون وقيمتهم عالية جداً. وفوق ذلك، يشعرون بأن نوعية الرزق الذي يحصلون عليه هي بحد ذاتها تعبير عن تقدير الله لهم وعن قيمتهم الكبيرة عنده سبحانه.

(فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ{43})
لهم تلك الكرامة والمكانة:

{فِي جَنَّاتٍ}: أي في أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين غنّاء.

{النَّعِيمِ}: بكل ما تحمله الكلمة من معنى، إذ إنَّ كل ما في الجنة يوصف بأنه نعمة طيبة وممتعة.

نلاحظ أنَّ القرآن يعبّر مرة بكلمة "الجنة" (بالمفرد) ومرة بكلمة "الجنات" (بالجمع)، فالمكان الشاسع الذي أعده الله للمؤمنين في الآخرة، والذي تبلغ سعتُه سعة السماوات والأرض، يسمى كله "جنة". لكن هذا المكان العظيم يضم في داخله "جنات" كثيرة، ولكل مؤمن نصيب من هذه الجنات المتعددة. لذلك، حين تأتي الإشارة بالمفرد "الجنة"، يقصد بها كل دار الآخرة أو جنة محددة من جناتها، وحين تأتي بالجمع "جنات"، يقصد بها خصوصية كل بقعة وتنوع الأماكن التي يملكها الشخص الواحد.

هذا الاستعمال يشبه قولنا عن كوكب الأرض كله إنَّهُ "أرض"، وفي الوقت نفسه أنت تملك "أرضاً"، وتكون قطعة واحدة أو عدة قطع (دونمات أو فدادين)، فيبقى وصفك صحيحاً بأنك تملك أرضاً.

بإجراء مقارنة تقريبية بين سمائنا الحالية بمجراتها التريليونية وبين جنة الآخرة التي تمتد وَسَاعَتُهَا لحجم سبع سماوات، ندرك بسهولة معنى كلمة "جنة" التي تتسع لتريليونات الجنات. ومن خلال هذا التقريب، نرى أن الفكرة القديمة التي صورت الجنة كأنها أرض واحدة كبيرة—والتي كانت تشكل خلفية كلام المفسرين—هي مجرد تطبيق لمعلوماتهم المتاحة في زمانهم، بينما الحقيقة قد تكون أن جنة الآخرة عبارة عن كواكب شاسعة، وقد يكون لكل مؤمن كواكب خاصة به. الله أعلم.

(عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ{44})
هؤلاء العباد المخلصون يكونون:

{عَلَى سُرُرٍ}: أي على أسرّة, وهَذَا على سرير والآخر على سرير.

{مُّتَقَابِلِينَ}: وجوههم قبالة بعضهم البعض.

معنى السرير:

السرير هو قطعة أثاث ترتفع قليلاً عن الأرض، سواء بقوائم أو بلوح، ويوضع عليه فراش ويسع للاستلقاء. يعني أنَّ تلك الأسرة ليست للنوم فقط، بل للنوم والاستلقاء.

تذكّر دائماً الوساعة الهائلة جداً للجنة، وتذكّر أن جميع أهلها يحبون بعضهم البعض، كما نجد في سورة الحجر:
{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ}. والآن، تصوّر ما تصفه الآيات من اجتماع لمجموعة من المؤمنين في الجنة, حيثُ يجلسون مستلقين على الأسرّة في جو من الألفة والراحة والصفاء.

(يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ{45})
ورد تعبير مشابه لهذا في سورة الواقعة: {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ}.

{يُطَافُ عَلَيْهِم}: أي يذهب ويأتي الخدم عليهم في جولات مستمرة لخدمتهم.

{بِكَأْسٍ}: الكأس هو كوب لا "عروة" له (أي بلا حلقة أو يد على جانبه)، وله "خاصرة" تتيح حمله بالأصابع من وسطه.

{مِّن مَّعِينٍ}: وصف للمشروب الذي فيه "الإعانة", لأَنَّهُ يعينهم على تحقيق رغباتهم والاستمتاع بنعيمهم.

فَسَّرَ كثيرون كلمة {مَّعِينٍ} بأنها "الخمر"، وأطالوا الحديث عن أنواعها وتعتيقها، لكن أساس هذا التفسير لم ينبع من أصل اللغة العربية، بل ربما من اجتهاد مفسر رأى في الخمر أحد مصاديق "المعين" فتبعه الآخرون بلا دراسة عميقة. وهذا التكرار في التفسير حصل كثيراً في كلمات القرآن, إذ إنَّ كلمة "معين" ليست اسماً ولا وصفاً خاصاً بالخمر وحدها، وإن كان القرآن ذَكَرَ وجود أنهار من لبن وخمر في الجنة.

المعين هو مشروب متميز يعين أهل الجنة على ما يطلبونه من التذاذ بالشراب، وشعور بالنشوة والسعادة، كما يمدهم بالقوة والنشاط. والدليل على أن "المعين" ليس خبراً حصرياً عن الخمر قوله تعالى في سورة المؤمنون: {وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ}, حيثُ من الواضح هنا أنها تشير لعموم ما "يعين" على الحياة والراحة، وفي آيتنا تشير لما يعين على لذة الشرب والنشاط.

تنوع الأواني:

نلاحظ في حياتنا الدنيا أن الأغنياء والفقراء يستخدمون أواني خاصة لكل مشروب, فمثلاً هناك فنجان القهوة، واستكانة الشاي، وكوب الماء، وكأس العصير. وهذا التنوع له أسباب تتعلق بكمية المشروب، وحرارته، ومدى استذواق طعمه, إذ ليس من اللذيذ شرب الشاي في كوب معدني، بينما يكون المعدن ألذّ لبعض المشروبات الباردة.

إن تنوع أشكال ومواد أواني الشرب في الجنة ليس لمجرد تغيير الشكل، بل هو جزء من "الترف" والرفاهية، حيث تناسب كل آنية نوع المشروب الذي بداخلها لتعطي أقصى درجات اللذة. أما بخصوص حيرة البعض في تفسير "المعين" بالخمر وشكل الكأس، فسوف نتوسع في توضيح ذلك في الآية بعد التالية.

(بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ{46})
هذا الكأس موصوف بأنه: {بَيْضَاءَ}: أي نقية وصافية جداً. {لَذَّةٍ}: تمنح متعة التذوق الكاملة. {لِّلشَّارِبِينَ}: مخصصة لمن يشربها ويستمتع بها.

تلاحظ ميلنا الفطري للتلذذ بالمشروب النقي, إذ في شرب الشاي مثلاً، نجد أن نقاوة لونه وصفاءه من العوامل المرغّبة في شربه.

دلالات الألوان عند العرب:

لاحظ كلام العرب "والآخرين" قديماً وحديثا عند استعمال كلمات الألوان, حيثُ استخدموها لوصف "اللون" الظاهر، وكذلك لوصف "الدلالة" والمعنى الذي يحمله ذلك اللون:

الأخضر: يدل على اليناعة والطراوة، مثل أوراق النبات وبراعمه.

الأزرق: يدل على الاشتداد والقوة.

الأحمر: يدل على بلوغ "الأوج" (الذروة) والحماوة، كما في جمر النار ونضوج الثمار (كالتفاح والرمان).

الأبيض: يدل على النقاوة والخلو من الشوائب.

هذا الفهم يأخذك إلى عمق استعمال الكلمات كـ "وصف" لا كاسم مجرد. حيثُ في الطبيعة، يكون الشيء الأخضر عادةً طرياً يانعاً، لكننا اصطناعياً قد ندهن قطعة معدن باللون الأخضر, هنا تسمى خضراء "بالاسم" فقط، ومعلوم أنها ليست طرية.

وكذلك البياض, إذ هو دلالة على النقاء، ومنه قولنا في العامية: "وقع له على بياض"، أي على ورقة نقية خالية من الكلمات. ووصولاً إلى هذا العمق، قد تُوصف الأشياء بلونٍ يخالف لونها الحقيقي للدلالة على حالها, حيثُ قديماً كان العرب يقولون عن الثمر الذي لم ينضج بعد إنه لا يزال "أزرق"، رغم أن لونه ليس كذلك. كما وصفوا السماء بالخضرة أحياناً رغم زرقتها، ووصفوا الوجه بالأسود للدلالة على الكلح والعبوس، مع أن لون الجلد الحقيقي هو تدرجات البني.

إذن، وصف الكأس في الآية بأنها "بيضاء"، يشير إلى قمة النقاء والصفاء الذي يغري الشارب ويحقق له اللذة.

(لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ{47})
{لَا فِيهَا}: أي ليس في شراب الجنة. {غَوْلٌ}: والغول هو حيازة الشيء أو السيطرة عليه ومنع الآخرين منه, إذ إنَّ شراب الجنة متاح للجميع ولا يستأثر به أحد دون غيره. {وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ}: "عنها" أي عن الشراب المعين، "ينزفون" من فعل النزف وهو إفراغ السائل أو إزاحته، ومنه استعمالنا للكلمة في وصف الجروح التي تنزف دماً. والمقصود هنا أنه لا يتم إبعادهم عن هذا الشراب ولا يفرغ أبداً.

المشروبات في الجنة عبارة عن أنهار دائمة، كما نجد في سورة محمد: {فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ... وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ}, والمعين مستمد من تلك الأنهار التي لا تجف ولا تتحول لمكان آخر، بل تبقى متاحة بشكل دائم فلا يُبعدون عنها.

ورد تعبير مشابه في سورة الواقعة: {لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ}, حيث قُرن "الصدع" بـ "النزف"، وكلاهما يعني إبعاد المشرب عن الشارب. ومعنى الصدع يظهر من قوله تعالى: {وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ}, وهو الانشقاق والابتعاد. إذن:

الصدع: هو انشقاق النهر ومنع وصول الماء لمن يملأ الأباريق.

النزف: هو إزاحة الماء وإبعاده.

الغول: هو الاستيلاء على الماء ومنع الآخرين من استعماله.

كُلُّ هذه المعوقات لا وجود لها في نعيم الجنة.

نقد التفسيرات السائدة:

هذا المعنى لـ "الغول" (السيطرة والاجتياح) هو المتناسب مع استعمال العرب في أشعارهم قبل الإسلام. أما مفسرو القرآن فقد ذهبوا إلى أن الغول هو "فقدان التركيز" الناتج عن السكر، واعتمدوا في ذلك على مرويات ضعيفة، حتى إنهم نسبوا بيتاً من الشعر لامرئ القيس لم يجده أحد في دواوينه!

إن هذه الروايات تكشف أحياناً عن جهل ببعض المعاني الدقيقة للقرآن. أَعْطَى الكثيرون لأنفسهم قيمة لغوية أكبر مما هم عليه، فإذا لم يفهموا كلمة قالوا إنها "أجنبية"، أو اخترعوا لها معنى قريباً لمجرد أنهم لا يتصورون أن تمر عليهم كلمة لا يعرفونها وهم "أساطين اللغة".

لكن التدقيق في تفاسيرهم يؤكد أن قدراتهم اللغوية كانت عادية، بل ربما أقل, إذ خلطوا بين اشتقاقات مختلفة، وجهلوا معاني كلمات لا توجد في بيئتهم الصحراوية (كالمرجان واللؤلؤ والرحيق)، أو كلمات ترتبط ببيئة الأثرياء (كالسندس والاستبرق والديباج والكأس). بل وصل الأمر إلى جعل غالبية الكلمات "مترادفات" لعدم إدراك الفروق الدقيقة بينها, إذ جعلوا الزجر صياحاً، والتلاوة قراءة، والقذف رمياً، والإنذار تحذيراً، مع أن لكل كلمة معنى خاصاً يميزها عن غيرها.

بسبب هذه التخمينات في تفاسير (معين، وغول، ونزف)، آثرنا الالتزام بالمعنى اللغوي الأصيل بناءً على أشعار العرب قبل الإسلام وبناءً على سياق القرآن نفسه. وهذا الطرح ليس نهاية التحقيق، بل هو محاولة لكسر حاجز "قداسة" تلك التفاسير القديمة وتقديم دراسة عقلانية رصينة.

نحن نستفيد من دقة القرآن المتناهية من جهة، ومن أشعار العرب من جهة أخرى، مع الحذر من "التراخي" الذي قد يقع فيه الشعراء (البشر) في استعمال الكلمات لمناسبة القافية أو الموسيقى. أما كلام الله سبحانه، فقد قوّم اللغة باستعمال كل كلمة في معناها الدقيق المحكم الذي لا تجده في أي كلام آخر.

(وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ{48})
وعندهم: أي عند هؤلاء العباد المخلصين في جناتهم.

{قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ}: الطرف هو الجفن أو النظر، والمقصود أن نظرهنَّ يقتصر على أزواجهن فقط، فلا ينظرن ولا يشتهين غيرهم.

{عِينٌ}: وصف لعيونهنَّ بكل ما تحمله العين من معاني الجمال والكمال، سواء كانت واسعة ونقية، أو لامعة، أو مشطوبة ومنحرفة بجمال دقيق.

ورد وصفهن بكلمة "العين" مقترناً بكلمة "الحور" في مواضع أخرى، مثل سورة الدخان: {وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ}.

تنبيه حول التفسير:

لاحظ هنا أيضاً وجود "إسقاطات" من خلفيات بعض المفسرين، حيث فسروا كلام الله بناءً على مقاييس الجمال في بيئتهم أو أذواقهم الخاصة. فكلمة "عِين" لغوياً لا تعني "العين الواسعة" حصراً، ولكن بعض المفسرين -لأن العين الواسعة كانت تمثل قمة الجمال في تصورهم- حصروا المعنى فيها وفسروا الآية بها. أما التعبير القرآني فهو أوسع، ويشمل كل أشكال جمال العيون التي قد تخطر أو لا تخطر على بال البشر.

(كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ{49})
{كَأَنَّهُنَّ}: أي إن هؤلاء النسوة (قاصرات الطرف) يشبهن في صفائهن.

{بَيْضٌ}: والمقصود هنا تشبيه لون أجسادهن ونضارة جلدهن بلون البيض ونقاوته قبل أن تلمسه الأيدي. وهذا التشبيه لا يزال دارجاً في بعض المناطق العربية لوصف البياض المشرب بنضارة، وقد ورد هذا الوصف قديماً في معلقة امرئ القيس.

{مَّكْنُونٌ}: أي مستور ومحفوظ، لم يتعرض لما يغير نقاوته أو يذهب بصفائه، تماماً كاللؤلؤة المصونة داخل صدفتها.

هذا التعبير يشير من جانب إلى الخصوصية، كما في قوله تعالى في سورة الرحمن: {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ}، فأول من يلمسهن هم أزواجهن في الجنة. كما يشير من جانب آخر إلى الجمال والنضارة، كالفرق بين شيء مكشوف يتعرض للغبار والشمس فيبهت ويتجعد، وبين شيء محفوظ يبقى نضراً نظيفاً. وقد شبههن القرآن في موضع آخر باللؤلؤ: {كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ}، وهو تأكيد على ذات المعنى من النعومة والجمال.

وقفة مع الشبهات المثارة حول ملذات الجنة

نُقل قديماً عن الكفار، وعن بعض الأشخاص في العصور الأموية والعباسية، تعليقات ساخرة على وعود القرآن بالجنة، وخاصة ما يتعلق بالإناث (الحور العين). ادعى هؤلاء أن القرآن كسر حدود الحشمة المفترضة في الكتب الإلهية وصار يحتوي إيحاءات جنسية.

هذه النوعية من الناس لا تزال تظهر في عصرنا، خاصة على منصات الإنترنت التي تديرها جهات ممولة تهدف للتشكيك في الإسلام وزرع الفرقة بين المسلمين. هؤلاء يعيدون صياغة الكلام القديم وتنميقه، وللوهلة الأولى قد يظن القارئ أن لديهم حجة، لكن بأدنى تفكير يتبين زيف كلامهم.

وللرد على هذه الأكاذيب نوضح ما يلي:

حجم الآيات: القرآن يزيد عن ستة آلاف آية، والآيات التي أشارت لإناث الجنة (مباشرة أو غير مباشرة) لا تتجاوز 16 آية فقط.

الألفاظ المستخدمة: الكلمات التي استخدمها القرآن هي: (حور عين، عُرباً أتراباً، كواعب أتراباً، كأنهن الياقوت والمرجان، بيض مكنون، أبكاراً، لؤلؤ مكنون، أزواج مطهرة). هذه الكلمات بمجموعها بالكاد تزيد عن سطر واحد، وهي قمة في الأدب والوصف الجمالي الرفيع، فكيف يحولها هؤلاء إلى "كتاب إباحي" كما يزعمون؟!

في المقابل، هناك من المسلمين من أراد الهروب من هذه الشبهة فادعى أن الجنة "روحانية" فقط، ليس فيها مادة ولا ملمس حسي، واعتبروا المتعة الجسدية "حيوانية" دونية المستوى! وزعموا أن القرآن استخدم تعابير مادية فقط لأن الناس لن تفهم اللذة الروحية.

هذه ترهات، فنحن لا ننكر وجود انشراح وراحة نفسية (روحية) هائلة لأهل الجنة، وهي سعادة رائعة بحد ذاتها، لكن لماذا نؤوّل صريح القرآن؟ فالأكل، والشرب، والإناث، والأبكار... كلها أمور ذكرها القرآن صراحة وفصل في مواصفاتها.

إن هؤلاء الذين يدعون التميز والارتقاء، وأنهم أكثر معرفة بالله، وقعوا في الزهو والتكبر من حيث لا يشعرون. لقد تطرف من سخر من الملذات، وتطرفتم أنتم حين جعلتم فهمها حكراً عليكم وأفقدتموها معناها الحقيقي. إن التعابير القرآنية القليلة والمؤدبة عن الملذات لم تقنع الرافضين للدين، ولم تقنعكم أنتم كذلك، فكلاكما وقع في نفس المشكلة بسبب البعد عن الفهم المتوازن للنص.

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ{50})
{يَتَسَاءَلُونَ}: أي يوجه كل واحد منهم سؤالاً للآخر، فيعبر عن رغبته في الحصول على جواب.

سنتعرف على تفاصيل هذه الأسئلة في الآيات التالية، ولكن قبل ذلك نتذكّر دائماً أن كلمة "تساؤل" في لغتنا الدارجة تُستعمل غالباً للاستفهام أو التعجب، فنحن نفرق بين "السؤال" وبين "التساؤل". أما المعنى الأساسي لأي تصريف من مشتقات كلمة "سأل"، فإن سياق الكلام هو الذي يحدّد إن كانت الجملة للاستفهام، أو للاعتراض، أو لطلب جواب ما.

إن المعنى الأساسي لكلمة "سأل" هو المرادف لكلمة "طلب" في عصرنا الحالي. والقرآن الكريم لم يستعمل كلمة "طلب" بالمعنى الشائع حالياً، بل استعمل بدلاً منها كلمة "سأل" للتعبير عن إرادة الحصول على شيء من أحد ما، سواء كان ذلك الشيء جواباً (بكل أنواعه ومن ضمنه الاستفهام)، أو كان غرضاً مادياً أو مساعدة. وكلمة {يَتَسَاءَلُونَ} هنا تشير إلى حالة اجتماعية وتفاعل متبادل، حيث يوجّه أكثر من شخص أسئلة لعدة أشخاص في جلسة أنس ومودة.

(قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ{51})
بدأ الحديث أحد المؤمنين المستلقين على أسرّة النعيم، {قَائِلٌ مِّنْهُمْ}: واحد من هؤلاء المؤمنين المجتمعين. {إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ}: كان لي صاحب أو رفيق في الدنيا، عشت أنا وهو في نفس الزمان والمكان، فقد يكون قريباً، أو زميلاً في عمل أو دراسة، أو جاراً، أو من المعارف المقربين.

نستذكر ما ورد سابقاً في هذه السورة (من الآية 27 إلى 36)، حيث كان الكلام عن انتفاء النفع من أي تبرير يقدمه الكافر، وفي يوم القيامة لن ينفعه أن يقول: "هم جعلوني أكفر" أو "هم أغروني". هنا تعرض علينا الآيات نموذجاً مقابلاً لشخص نجح في اتباع طريق النجاة الوحيد رغم وجود "قرين" يحاول إغواءه.

يجب أن نفرق بين "القرين" المذكور هنا وبين ما ورد في سورة (ق) في الآيتين 23 و27: {وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ}، و{قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ}، هناك في سورة (ق) الكلام عن "القرين الملك" الموكل بتسجيل الأعمال، أما في آيتنا هذه، فالكلام عن "قرين السوء" من البشر الذي يصاحب الإنسان في رحلة حياته الدنيا.

(يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ{52})
قرين السوء كان، {يَقُولُ}، لي:

{أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ}: هل فعلا يدخل في قناعتك! بعباراتنا الدارجة: فيك مخ وبتمرق عليك أنه:

(أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ{53})

{أَئِذَا مِتْنَا}: أي إذا فارقنا هذه الحياة الدنيا. {وَكُنَّا تُرَابًا}: أي بعد أن يتحلل لحمنا ونختلط بالتراب. {وَعِظَامًا}: أي بعد أن يبلى كل شيء ولا يبقى من أجسادنا إلا العظام النخرة.

{أَئِنَّا لَمَدِينُونَ}: {أَئِنَّا} لمحاسبون ومطالبون بتبعات أفعالنا؟ هل يُعقل أن نعود من الموت بعد كل هذا الوقت لِيُحَقَّقَ معنا ويُسْأَلَ عما فعلناه؟

هذا التساؤل الاستنكاري يحمل معنى الاستهزاء، ويشبه قولنا في اللهجة الدارجة: "هل أنت مصدق حقاً أننا سنرجع بعد الموت لنتحاسب ونتجازى؟!". إذْ إنَّ القرين هنا يربط بين استحالة العودة الجسدية من وجهة نظره، وبين نفي فكرة "الدِّين" أو الحساب الذي ينتظر الإنسان.

بالنسبة لمعنى كلمة "دين" في القرآن، وتفصيل دلالاتها على الحساب والجزاء والقضاء، يرجى مراجعة ما ذكرناه في دراسة الآية 20 من هذه السورة.

(قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ{54})
قال، هذا المؤمن الذي يتساءل:

{هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ}: هل لديكم اطلاع على مكان هذا القرين، هل تعلمون أين هو؟

لأن أهل النار مستورون عن أهل الجنّة، فهل أحد منكم اطَّلَعَ وقَصَدَ رؤية هذا المستور عنّا ليرى القرين الذي أتحدّث عنه؟

(فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاء الْجَحِيمِ{55})
{فَاطَّلَعَ}: تَخَطَّى الحاجز الذي يفصل أهل النار عن أهل الجنّة، حيث صار بإمكانه رؤية أهل النار بعد أن كانوا مخفيين مستورين عنه هم وكل النار. {فَرَآهُ}: صَارَ عنده صورة محدّدة للقرين السَّيِّئِ، {فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ}: لا يحيد عن المكان الموصوف بشدة سوء ما فيه، حيثُ لَمْ تكن قدماه فقط تشتعلان أو يداه فقط... بل الجحيم يحيط به من كُلِّ الجوانب ولا يميل عنه ولا يحيد، وهذا التعبير مشابه لما نقوله: أصبته في سواء رأسه، أو رميته في سواء النار... ونقصد في منتصف رأسه ومنتصف النار. كما ترى لا تقصد الآية أنه على المتر في منتصف جهنّم، بل في مكان منها وهو محاط بها من كل الجوانب.

من دراسة أشعار العرب قديما قبل الإسلام وجدت فرقا بسيطا بين كلمتي جحيم وجهنّم، حيث جهنّم باستعمال القرآن هي اسم مكان مشتق من الوصف بجهنم الذي يعني أَنَّ كل ما فيه سَيِّئٌ، فهو وصف للأنواع المختلفة مما يسبب العذاب مما فيها، لأن فيها النار وفيها الضرب وفيها طعام كريه ورائحة كريهة... وتفهم ذلك من فحوى الآية 49 من سورة غافر {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ}. وفي بيتين قبل الإِسْلَامِ وجدت إشارة بكلمة جحيم لضخامة النار، ويناسبها ذلك في القرآن كما ورد في الآية 97 من السورة هنا {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ}، وهكذا يكون الجحيم وَصْفًا للضخامة في السوء.

(قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ{56})
قال المؤمن للقرين:

{تَاللَّهِ}: تَأْكِيدٌ على صحّة كلامي بالله، {إِنْ كِدتَّ لَتُرْدِينِ}: على شعرة لو أني اتبعت كلامك لأرديتني وَأَوْقَعْتَنِي متضررا، وَلَوَقَعْتُ معك في جهنّم.

ضع هذه الجملة في بالك لأننا سنتحدّث عنها في الآية 61.

(وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ{57})

{وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي}: لولا الشيء الجيّد الذي حصلت عليه من المسؤول عنّي من مستوى إلهي، والكلام هنا عن نعمة الإيمان، وَلَوْلَا هدايته تعالى لي وإنارته لطريقي... {لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ}: لكانوا أحضروني إلى جهنّم، ولن أغيب عن التعذيب في جهنم لو اتبعت كلامك.

(أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ{58})
نكمل مع كلام المؤمن الذي فاز بالجنة:

{أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ}: لن نموت، لن نفقد الحياة بعد الآن. وتعلم من عموم القرآن أن أهل الجنّة خالدون وهم يشعرون بذلك من جسدهم الذي لا يتضرّر ولا يتأذى وهم في حالة نشاط دائم... ومن إخباره تعالى بخلودهم.

(إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ{59})
{إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى}: التي متناها في الدنيا ولن نموت مرّة ثانية، {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}: لن نتعرّض لأي ضرر.

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{60})
{إِنَّ هَذَا}: الذي نحن فيه في الجنّة، {لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}: هو الحصول على شيء له قيمة عالية جدا جدا، حيثُ من بعدما مررنا في الامتحان في الدنيا ونجحنا فيه {فَآمَنَّا وَعَمِلْنَا الصَّالِحَاتِ} وصلنا إلى نتيجة الحصول على الجنّة وروعة ما فيها خالدين.

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ{61})
الآن تتوجّه السورة بالحديث معنا:

{لِمِثْلِ هَذَا}: لهذا الوصف الذي ذكرته السورة عن النعيم والخلود في السعادة، {فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ}: فليكن عملكم هنا في الدنيا للحصول على ما نخبركم عنه من خلود في الجنّة.

ننتبه جيّدا لهذا النموذج عن مؤمن في الجنّة، وبخاصّة عندما قال: إنْ كدت لتردين. حيث يبدو واضحا أن هذا الشخص كان عاديا في إيمانه، ملتزما بالواجبات وتاركا الكبائر من السيئات، وعليه بعض الذنوب، وَانْدَهَشَ بالنجاة من العذاب، وفي الدنيا على شعرة كاد يقتنع من قرينه بأنه لا يوجد آخرة وحساب، لذلك ننتبه أن القرآن لا يريدنا أن نتساهل بترك الواجبات وارتكاب السيئات لأنه يوجد مغفرة، بل يريدنا أن نستغفر ونعتمد على المغفرة على ذنوبنا ولكن لا يريدنا أن نستهتر، لأن نتيجة الاستهتار ستكون ترك كل أو بعض أساسيات الواجبات، وبعدها فعل أكبر المحرمات، ولذلك طرح لنا القرآن هذا النموذج عن شخص من متوسطي الإيمان، ولا تنسى أبدا أن الفقرة بدأت حديثها عن العباد المخلصين وما لهم في الجنّة، فهذا الذي كاد يتردى هو من العباد المخلصين، لأنه لم ينجرّ لوسوسة قرينه السَّيِّئِ، الذي يُمْكِنُ أَنْ يكون زوجته أو أباه أو أخاه أو عمّه أو قريبه أو من معارفه...

أكرّر لك لترى أن القرآن عرض نماذج راقية من الذين صاروا أنبياء وَرُسُلًا، وهنا يعرض نموذجا راقيا إيمانيا حيث التزم بالأساسيات الدينية ولم يصل إلى مرحلة من النقاوة الإيمانية التي تؤهله لنزول الوحي عليه، وكاد يقتنع بكلام قرين السوء، ولكنه ضبط نفسه، واستمرّ على الالتزام بدينه تعالى، إلى أن مات ووصل إلى الآخرة موصوفا بأنه من العباد المخلصين لِأَنَّهُ لم يشرك ولم يكفر... ولكن أيضا لم يكن من المؤمنين من الدرجة العالية جدا من طبقة الأنبياء والمرسلين.

(أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ{62})
{أَذَلِكَ}: الذي ذكرته الآيات عن النعيم في الجنّة لمن آمن، {خَيْرٌ نُّزُلًا}: حطة بعد رحلة موصوفة بأنها جيدة، مكان تنزل فيه من بعد رحلة، {أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ}: الزقم هو البلع لما تضعه في الفم كما هو بدون أي مضغ، كما يزقم الطير طعامه، والذي سيأكل من هذه الشجرة لن يمضغ ثمارها بل سيزقمها، لأنه جائع جدا جدا ومضطر للأكل، وثمر الزقوم مقرف جدا جدا فيبلعه بلا مضغ أثناء محاولته ليسدّ جوعه.

بعد رحلتنا في الدنيا، ونزول المؤمنين في الجنّة، هل هي خير أم من نزل عند شجرة الزقوم؟

شجرة الزقوم التي في الآخرة هي شجرة من حيث الشكل فقط وليست نباتا "من خشب أو ألياف..."، ولا يوجد مثلها على الأرض هنا، ومن مختلف آيات القرآن نعلم بعضا من مواصفاتها، ونعلم أن عليها كُتَلًا من الحميم لأنها تغلي في بطن الذي يأكل منها، وتقرأ ذلك في الْآيَتَيْنِ 44 و 45 من سورة الدخان {إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (43) طَعَامُ الْأَثِيمِ (44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45)}، ورؤوسها "نتاج ثمرها" مقرف مرعب مقزز كأنه رؤوس الشياطين، وسيأتي هذا الوصف بعد آيتين، ورغم ذلك فإن حالة جوع الكفار لا توصف، لذلك يأكلون منها ولكن زقما بلعا بلا مضغ، ويحاولون رميها في بطنهم مباشرة ليسكت جوعهم من دون الشعور بطعمها الكريه جدا جدا، ولكن من دون جدوى لأنها لا تنزل في الحلق بسهولة، وتسبب المرارة والألم والغصّة... وينزل من هذه الشجرة غسلين وهو ما يتقاطر منها من كتل حمم كما ورد في الآية 36 من سورة الحاقة {وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ}، وهي ضريع فلا تسبب النشاط كالغذاء ولا تسبب الشبع كما ورد في الآية 6 من سورة الغاشية {لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ}. هذا ما ورد في القرآن عن مواصفات شجرة الزقوم وطعام أهل النار، والكثير مما تجده في الروايات لا يتناسب مع الآيات القرآنية لِذَلِكَ انتبه أنه لا يوجد نبات "سيليلوزي، خشبي" في جهنّم.

ما قالوه عن شجر "نبات" له شوك وطعمه مرّ مثل بعض النباتات التي على الأرض، قائلين إِنَّ القرآن يقصدها كطعام لأهل النار، فَمَا في القرآن بعيد كل البعد عن ذلك، ولو فعلا كانت هذه النباتات موجودة في النار لكان أهل النار سعداء بها كالفاكهة بالمقارنة مع ما في جهنّم فعلا.

بالنسبة لكلمة "خير" في استعمال القرآن، كثيرا ما نستنسب تفسيرها على معنى "أفضل"، وأحيانا يصدق هذا المعنى بالتبعية من فحوى الكلام، ولكن بعض الاستعمالات القرآنية لنفس الصياغة تريك أنه لم يقصد بكلمة خير أن تكون رديفا لكلمة أفضل، وكمثال واضح عن ذلك ما ورد في الآية 16 من سورة العنكبوت {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}، لأن مرادفتها بأفضل في أمثال هذه الآية سيعطيك مَعَانِيَ غير دقيقة بل وغير مقبولة إلا إذا حملت معنى الأفضل على عموم المقابلة بين الأسوء والأحسن، ولكن هذا ليس معنى كلمة أفضل بل هذا معنى كلمة خير، وكلمة "أفضل" في أشعار العرب قبل الإسلام محصور بين الحسن والأحسن، فلو قلت إِنَّ الإيمان أفضل لكم فهذا يَعْنِي أن الكفر حسن والإيمان أحسن، لا، بل الإيمان خير لكم مما يعني ضمنا أن الكفر سوء لكم.

لم يستعمل القرآن كلمة أفضل بتاتا، واستعمل التعبير بالخير وهو أوسع بالمعنى، لأنه يقابل الشرّ كما في الآية 11 من سورة النور {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}، واستعملها بمعنى ما يقابل الحسن فالآخر أحسن وليس شرا، كما ورد في الآية 271 من سورة البقرة {إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}، فإبداء الصدقة ليس سوءا وإنما إخفاؤها أحسن، وهنا يمكن استعمال كلمة أفضل.

يعني لا ترادف "خير" بـ "أفضل"، لأنهما في بعض سياق الكلام يتقاطعان تطبيقيا حيث يكون الذي تقارن بينهما كلاهما جيدان، وعندها يصدق قول خير أو أفضل، ولكن حين يكون الكلام عموميا يشمل شيئين كلاهما جيدان ويشمل أيضا شيئين أحدهما جيد والآخر سَيِّئٌ، ويشمل الوصف مطلقا بمقارنة الحسن مع مطلق الوصف بالحسن، فحتى لو لم يكن هناك طرف آخر للمقارنة والمقارنة مع مطلق الوصف، كوصفه تعالى بخير الرازقين وخير الحاكمين... فهو تعالى بالمقارنة مع وصف الحسن مطلقا كرازق وحاكم يَكُونُ خَيْرَ موصوف بذلك، وكلمة أفضل ليست وصفا صحيحا لهذه الحالات وكلمة خير صحيحة.

(إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ{63})

{إِنَّا جَعَلْنَاهَا}، شجرة الزقوم، {فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ}، شيئاً يتعرّض له الذين لم يكن معهم حقٌّ حين كفروا بالدين الإلهي، لأنهم بعد تعرّضهم للزقوم سيتغيّر حالهم.

الفتنة وصف لعموم أي شيء يعجبك فيغيرك، أو لا يعجبك ولكن يجبرك على التغيّر، أو تتماشى معه فتتغيّر، وهنا الكلام عن شيء معروض على أهل النار ولا يوجد شيء آخر بديل له ليأكلوا منه، فهم مجبورون على التغيّر للأكل منه رغم نتانته وأذيته، لذلك يوصفون بالمفتونين.

(إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ{64})
{إِنَّهَا}، شجرة الزقوم، {تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ}، {الْجَحِيمِ} وصف لضخامة السوء، وراجع ما ذكرناه عن معناها في الآية 55 السابقة، حيث المكان فيه النار المتأججة والعذاب الشديد... وتلك الشجرة تخرج {فِي أَصْلِ} من أكثر نقطة سوءاً وتأجّجاً، ويبدو أنها تتفرّع لتتمدّد لمختلف فروع جهنّم.

انتبه وتأكّد تماماً أن هذه الشجرة فقط شكلها كشجرة من حيث الجذع والأغصان والطلع، ولكنها ليست من النبات، وكل ما ستجده عن هذه الشجرة في أقوال المفسرين بتشبيهها بنبتة، سواء شبهوها بنبتة على الأرض في بلد ما، أو صوّروها كنبات في جهنّم، فهو غير صحيح، لأنه لا نبات "سيليلوزيّ، خشبيّ" هناك، بل فقط حميمٌ وحجارةٌ ملتهبة وسوائل ملتهبة منتنة كريهة...

(طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ{65})
{طَلْعُهَا}: ما يخرج وينبت منها، لأن الثمر لا يكون بادياً في البداية ثم يظهر ويطلع، تماماً كما نقول: "طلع البدر" أو "طلعت الشمس". ولم تصف الآية هذا النبت بكلمة "ثمر"، بل اكتفت بالتعبير بأنها "يطلع منها شيء". {كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ}: {الشَّيَاطِينِ} وصف لكل من يقوم بأعمال الضلال والسوء، وهي صفة تحمل معاني الخبث والقبح. وبمجرد ذكر هذه الكلمة، تقفز إلى الذهن صورة قبيحة جداً، وهذا هو المقصد، أن ما يخرج من هذه الشجرة قبيح ومكروه إلى أقصى حدٍّ.

إن التشبيه بالشياطين يحمل دلالة أن شجرة الزقوم هي نتاج "شيطنتهم" وخبثهم، فهي من جنس أعمالهم الكريهة وتشكّلت في الآخرة بصورة أعمالهم القبيحة.

زعم بعض المعلقين أن هذه الآية تخالف قواعد البلاغة، لأنها -حسب قولهم- عرّفت مجهولاً بمجهول آخر، حيث نحن لم نرَ شجرة الزقوم، كما أننا لم نرَ "رؤوس الشياطين"، فكيف يُشبّه الغائب بغائب مثله؟

لكن علينا الانتباه للمقصود هنا وهو استحضار "أبشع صورة" تخطر ببالك، صورة ذلك الكائن الخبيث الذي يشجع على السوء. وهذا الأسلوب دارج في القرآن، حيث في سورة يوسف وصف النساءُ الجمالَ الباهر للنبي يوسف (ع) بقولهن: {إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ}، ومن الواضح أنهن لم يرين ملاكاً حقيقياً، لكنهن عبّرن عن أجمل صورة يتخيلها العقل البشري. ولا يزال الناس إلى اليوم يشبهون الطفل الجميل بالملاك، ولم يعترض أحد على ذلك التشبيه بأنه "تعريف بالمجهول"!

لماذا اعترضوا هنا؟ لم يعترضوا هناك لأننا في كلامنا العادي نتقبل تشبيه الجميل بالملاك، وهنا اعترضوا رغم أننا في حياتنا اليومية نشبه وجه مَن نكرهه بوجه الشيطان.

الآية تريد إفهامنا أنه لا يوجد في دنيانا شيء "معروف" يصل في قبحه إلى قبح نبت الزقوم، فأخبرنا الله بأبشع شيء يمكننا تصوّره ولو تخيّلاً. وهذا المنهج مطرد في وصف الآخرة، حيث التعابير غالباً تأتي بصيغة التشبيه: "كأنهن" بيض مكنون، "كأنهن" الياقوت والمرجان، لتقريب الفكرة فقط، لأن عالم الآخرة مختلف تماماً وأشياؤه لا تشبه أشياءنا، بل لا توجد لها أسماء في لغاتنا البشرية.

خذ علماً بأنك مهما حاولت تصور الجنة أو النار فلن تفلح في الوصول للحقيقة، لأن كل صورة جميلة تصنعها عن الجنة هي أقل بكثير مما هناك، وكل صورة مرعبة عن النار هي أيضاً أقل بكثير مما هناك. الآية هنا لا تعرّف بمجهول، بل تُفَعِّل في ذهن المؤمن "أبشع الانطباعات" المرتبطة بكلمة شيطان.

العجب مما يتداوله البعض من صور لزهرة نبات يابس تشبه جمجمة الإنسان ويقولون إنها المقصودة بـ {رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ}، وهذا غير صحيح. لأن الآية تستهدف تفعيل صورة بشعة في ذهنك، ولا علاقة لتلك النبتة بطلع شجرة الزقوم. والمفارقة أن هؤلاء يقبلون بسهولة تشبيه رأس الشيطان بصورة زهرة يابسة، وفي الوقت نفسه يقول آخرون إن الآية عرّفت بالمجهول!

أما المتشدقون بقواعد البلاغة الذين يتهمون الآية بمخالفة أصول اللغة، فـهؤلاء فاتهم أن قواعد البلاغة يجب أن تُشتق من استعمال الناس الفعلي للغة وتصوراتهم الفطرية، لا أن نضع قواعد جامدة ونطالب الناس بتغيير عاداتهم اللغوية لتوافقها. حيث إن الناس عبر التاريخ استخدموا "الملاك" كرمز لقمة الجمال، و"الشيطان" كرمز لقمة القبح، وهذا هو أبلغ أنواع التشبيه.

(فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ{66})
{فَإِنَّهُمْ}، الظالمون، {لَآكِلُونَ مِنْهَا}، يستهلكون ما يطلع منها بالبلع، {فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ}، يأكلون من شجرة الزقوم المقرفة لدرجة امتلاء بطنهم، وهي إشارة لحالة الشعور بالجوع بشكل شديد يدفعهم للأكل من هذه الشجرة المقرفة.

(ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّنْ حَمِيمٍ{67})
{ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ}، لأهل النار، {عَلَيْهَا}، على شجرة الزقوم، {لَشَوْباً}، مزيجاً خليطاً، من الشوب الشائبة: الشيء غير الصافي، {مِّنْ حَمِيمٍ}، من شيء حرارته مرتفعة جداً، حيث من بعد الأكل الكريه يستتبعه شرب سائل حار جداً يمتزج بما أكلوه.

قارنها مع تصوير السورة سابقاً لمشهد شرب المؤمنين في الجنّة من كأس لذّةٍ بيضاء...

(ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ{68})
{ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ}، إلى المكان الموصوف بشدّة وضخامة سوء ما فيه، حيث بعد العذاب بالطعام والشراب المقرف يكون مرجعهم للتعذيب بالنار المتأججة والضرب والإهانات.

هذا الوصف للطواف بين أنواع العذاب المختلفة، ورد أيضاً في الآيات 43 و 44 من سورة الرحمن {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (44)}، حيث هناك مكان فيه نار متأججة، ومكان فيه حمم، ويتخلّل ذلك الضرب والإهانات.

(إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءهُمْ ضَالِّينَ{69})
{إِنَّهُمْ}، الذين يأكلون الزقوم ويشربون الحميم... {أَلْفَوْا}، وجدوا شيئاً منتشراً ويتكرّر، {آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ}، وجدوا الأجيال التي سبقتهم من أقاربهم لم يكونوا على الشيء الصحيح، يعني فتحوا أعينهم على الحياة في مجتمع ورث الضلالة عن آبائه وهذا ما يألفونه عن الدين، هذا ما وجدوه وبقوا عليه.

لاحظ السورة تسلسلت في كلامها إلى هنا وستكمل مع نماذج اتبعت ضلال آبائها، لترينا أنه ليس مبرراً ولا عذراً مقبولاً، لأن آباءهم وصلهم دينه الحقّ تعالى ولكنهم اختاروا طريق الضلال...

(فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ{70})
{فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ}، هؤلاء الظالمون ساروا على ما تركه وبقي من أعمال وأقوال الأجيال التي سبقتهم من آبائهم وأسلافهم. {يُهْرَعُونَ}: (بضم الياء)، وهو فعل مبني للمجهول، مما يشير إلى وجود دافع داخلي أو "محرّك" جعلهم يسرعون في هذا الاتجاه، وهو إعجابهم الشديد بضلال آبائهم. والمقصود أنهم يمشون بسرعة وراء كل خطوة من آثار من سبقوهم ويقلدونهم بلا تفكير.

ألغى هؤلاء عقولهم ولم يختبروا دين آبائهم إن كان صحيحاً أو فاسداً، بل اندفعوا وراءهم رغبةً فيما وجدوا عليه أسلافهم. تتبعوا كل أثر ناتج عن أفعالهم، حيث بمجرد أن عبد الآباء الحجر، سارع الأبناء من بعدهم لعبادة الحجر ذاته، مستسلمين لهذا التقليد الأعمى.

(وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ{71})

{وَلَقَدْ ضَلَّ}، وكان على الطريق غير الصحيح، {قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ}، حيث إنّ أكثرية الناس الذين كانوا أولاً عبر التاريخ كانوا ضالّين لنفس سبب ضلال هؤلاء، حيث يبدأ الانحراف من جيل من الناس، ومن يأتي بعدهم يمشي على خطى ضلال مجتمعه ويطوّر الانحراف... وهكذا حتى يشركوا ويتركوا الدين الإلهي... ويستمر الحال جيلاً بعد جيل.

الأكثرية اختاروا بملء إرادتهم المشي على طريق الضلال.

بعبارة أخرى، ما معنى اتباع الآباء؟ وعلى أساس أي مصداقية؟ وما الذي يجعلهم يعتقدون أن آباءهم كانوا على الهدى؟ أليس من المحتمل أن يكونوا ضالين؟ وبالخصوص بعدما سمعوا عن بعض النماذج التي كانت مثل آبائهم وأنزل سبحانه عليهم العذاب، وستبدأ السورة بعد قليل بذكر بعضٍ من جوانب تلك الحوادث.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ{72})
{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم}، حيث حمّل تعالى كلامه لأشخاص لينقلوه، {مُّنذِرِينَ}، إذ هناك أشخاص أوصلوا لهم الخبر عن خطر العقاب الحتمي في الآخرة لمن كفر بالحقّ.

سلوك آبائهم ليس مصداقية لمعرفة الحقّ، لأنّ قبلهم أناسٌ ضالون مثل آبائهم وجاءهم منه تعالى من يخبرهم عن العقاب الحتمي على الشرك، مما يشير بوضوح إلى ضلال الاعتماد على ما وجدوا عليه آباءهم.

السورة هنا اختصرت كلامها عن الضلال في موضوع الشرك به تعالى، علماً أن الشرك هو العنوان الكبير الجامع تحته لبقية ما يتفرّع من ضلال، لذلك لا ترى في السورة أي كلام عن ترك الصلاة أو الزكاة... أو أي تصرّف سوء عليه عقاب، وركّزت السورة على الشرك وإنكار الآخرة والحساب فقط. سورتنا هذه تعرض الموضوع الديني من جذره بدون النظر إلى تفاريعه التي ركّزت عليها سور أخرى.

(فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ{73})
{فَانظُرْ}، وجّه اهتمامك العام، {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ}، ما عقب، ما أتى بعد كخاتمة ونهاية، {الْمُنذَرِينَ}، الذين وصلهم إنذاره تعالى، حيث وصل لهم منه تعالى الخبر عن الخطر الحتمي من العقاب الإلهي لمن كفر، ومن الآية بعد التالية ستذكر السورة نماذج بارزة منهم.

ضع في بالك دائماً الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى معانيَ قرآنيةً رائعة لن تراها من مرادفة كتب التفاسير لهما مع بعض "أنذر بحذّر وبالعكس" أو تفسيرهما بالخوف أو الخشية... حيث ستجد في عموم التفاسير استعمالهم هذه الكلمات لتفسير بعضها البعض كمترادفات، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لترى المعنى الدقيق لهذه الكلمات في أي آية تظن أنها ستكون مترادفة فيها لترى الفرق، ومثلها كلمة يرجو المختلفة عن يأمل ويطمع... ولفهم الفرق بين كلمتي "حَذَر وإنذار" تصور شخصاً أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، في هذه الحالة "تحذّره" من سلوك الطريق السيّء، لأنه حالياً ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، أمّا إذا سلك طريق الخطر فتنذره لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. الإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتماً ما يضرّه، فتنذر الكافر لأنه في حالة ستسبّب له العقاب حتماً. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يصير فيما سيسبّب له الضرر، حيث تحذّر المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

هذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، لأن المؤمن قد يقوم بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، عندها تنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة النصارى المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف {وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}.

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ{74})
{إِلَّا}، الذين يتصرفون فعلاً أنهم مفروض منهم طاعته تعالى، حيث يؤمنون أنه خلقهم ويملكهم ومفروض منهم طاعته، {الْمُخْلَصِينَ}، "فتحة على حرف اللام"، وبالخصوص هؤلاء الذين لا يوجد شوائب في إيمانهم لن يذوقوا

العذاب، أنا مُخْلِص "بالكسرة على اللام" لله تعالى أوحّده ولا أشرك به، فالكلام هنا عن الإخلاص بالتوحيد، وأنا مُخْلَص "فتحة على اللام" فهذه صفتي.

بعبارة أخرى، كلنا عبيده سبحانه، ومفروض منّا طاعته، ولكن بالتحديد من بين عبيده، المخلصون لن يذوقوا العذاب، بل بتاتاً ولا بأي شكل سينزعجون في الآخرة، حيث من أول لحظة يفتحون عيونهم هناك سيشعرون بالسعادة...

لمزيد من التوسّع حول كلمة "عباد" راجع ما ذكرناه في دراسة الآية 40 من هذه السورة.

من هنا ستسرد الآيات نماذج عن المنذرين والمخلصين:

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ{75})
{وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ}، توجّه بكلامه إليه تعالى، {فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ}، حيث إن كان أحد ما يجيب على النداء فسبحانه نعم من أجاب، إذ جوابه تعالى من أحسن وأفضل الردّ على النداء.

من تكملة الآيات نعلم أن نداء النبي نوح (ع) كان طلباً لإبادة الكفّار، وورد ذلك أيضاً في الآيات 26 و 27 من سورة نوح (ع) {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27)}، والإجابة كانت بحصول الطوفان الذي أنهى كلّ الكفّار ونجا منه المؤمنون فقط.

النداء هو عموم إصدار صوت ضعيف أو قوي يتوجّه به إلى سامع محدّد، ومن مشتقاته: يريد المنادي من السامع الالتفات للكلام أو يعلن المنادي للسامع أنه متوجّه إليه حصراً بكلامه.

إذن وبالنسبة لما سبق من عناوين طرحتها السورة، مَن يقل بأنه على دين أجداده كتبرير لشركه فليلتفت إلى قوم النبي نوح (ع) الذي يرجع إلى آلاف السنين كإشارة إلى عمق تاريخ إنذاره تعالى للناس، وليَرَ إن كان عذر اتباع الآباء نفع في السابق.

(وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ{76})
{وَنَجَّيْنَاهُ}، خلّصناه من الخطر، {وَأَهْلَهُ}، مع الذين ينتمون له، أولاده، وربما كان له (ع) زوجة أخرى نجت غير الزوجة الكافرة التي لا نعلم إن ماتت في الطوفان، أو ماتت قبل ذلك، أو كانت من الناجين وكفرت بعد ذلك، إذ المعلوم من الآية 10 من سورة التحريم أن النبي نوحاً (ع) كان له زوجة كافرة {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ} ولا نعلم من القرآن أي تفاصيل أخرى عنها.

على أي حال نجّاه تعالى مع أهله، {مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}، من الحالة الصعبة المتعثر الخلاص منها جداً.

كما تعلم من القرآن ومما هو مشهور من تراث أهل الكتاب أنّ قوم النبي نوح (ع) كانوا بغالبيتهم كفاراً، وكانوا يعاندون النبي (ع) ويسخرون منه ويستهزئون به بشكل مزعج جداً جداً، حيث حصل الطوفان ونجا النبي نوح (ع) مع أفراد عائلته إلا واحداً من أولاده كما نعلم من الآية 42 وما بعدها من سورة هود {... وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ...}، وزوجته كانت كافرة كما نعلم من الآية 10 من سورة التحريم، كما حمل معه (ع) المؤمنين القلائل، والسورة هنا لم تذكر ذلك لأنها أرادت التركيز فقط على أهل النبي نوح (ع) لذلك لم تشر لبقية المؤمنين بشكل صريح، وسترى عمق ذلك في الآية التالية.

(وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ{77})
{وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ}، جعل تعالى مَن انفصل بالتوالد من نسل النبي نوح (ع) هُمُ الباقين. حيث كان معه على السفينة مؤمنون آخرون كما نعلم من الآية 40 من سورة هود: {...قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا... وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}، ولكن هؤلاء لم تستمر ذريتهم فانقطع نسلهم، وبعد مدة بقي فقط الناس الذين جَدُّهم النبي نوح (ع)، والكلام عن المنطقة التي وقع فيها الطوفان.

أما عن معنى عذر وتبرير من أشرك بأن آباءه مشركون، وهل ترى أنه بعد الطوفان كان الناجون من تلك المنطقة كلهم موحدين؟

نسأل هنا: هل كان الطوفان عالمياً شاملاً لكل وجه الأرض، ومبيداً لكل البشر والحيوانات عليها إلا من نجا في السفينة؟ هذا احتمال وارد إن كان تاريخ الطوفان يرجع لأكثر من خمسين ألف سنة بكثير، لأنها الفترة التقريبية الكافية لإعادة انتشار البشر والحيوانات على وجه الأرض كما هو معلوم الآن.

أما بعد هذا التاريخ، وبحسب معطياتنا الحالية عن جيولوجيا الأرض وانتشار الحيوانات، فإن الطوفان لم يكن عالمياً وكان محصوراً بمنطقة ما، وهو الأرجح، وسبب ذلك وجود آثار قديمة وحيوانات في جزر لا سبيل لوصولها إليها إلا عبر البر حين كانت القارات متصلة، أو عبر الجليد، وذلك قبل 50 ألف سنة.

هل أباد الطوفان كل البشر؟ هذا السؤال مرتبط باعتقادنا بأمور أخرى، ففي دراستنا هذه اعتبرنا ما ورد في الآية 30 من سورة البقرة دليلاً على وجود بشرٍ سابقين ومعاصرين لآدم (ع)، وفهمنا منها أن آدم كان أول بشري تأهل ليُكلَّف بالدين الإلهي. وبناءً عليه، فإن احتمال استمرار ذرية البشر الآخرين المنتشرين على الأرض بعد الطوفان هو احتمال وارد، مع احتمال إغفالهم في الخطاب الديني لأنهم لم يصلوا لمستوى التأهل للتكليف في حينها كما وصلته ذرية آدم. لذا، هناك احتمال قوي أن يكون الطوفان قد وقع في منطقة من تأهل من البشر لحمل التكاليف، مع وجود بشر آخرين بعيدين عن منطقته.

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ{78})

{وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ}، على النبي نوح (ع) ولم نقطع الإيمان به وبدينه، {فِي الْآخِرِينَ}، فيمن أتى من بعده (ع) الذين أكملوا الطريق على إيمانه ودينه. حيث لم ينقطع الإيمان بين الناس، وبقي النبي نوح (ع) وإيمانه ودينه مذكوراً معروفاً يتناقله المؤمنون "والأنبياء والرسل" عبر التاريخ.

هذه الجملة ستتكرّر في السورة أربع مرّات.

إذن، من آلاف السنين مرّ على تاريخ البشرية رجل اسمه نوح (ع) وكان مؤمناً ربّانياً ولم تنقطع سيرة إيمانه ولا سيرته من بين الناس.

إن كان المشركون يحتجّون بأن دينهم هو دين آبائهم وأجدادهم... هكذا منذ بداية البشرية، فهذا غير صحيح، لأن الأصل هو دين التوحيد في أجدادهم، والكلام هنا يخص نموذج أهل مكّة وما جاورهم من العرب الذين هم من ذرية النبي نوح (ع)، وها قد مرّت قديماً فترة انقطاع لدين الشرك والكفر عندما أبادهم سبحانه ولم يترك إلا المؤمنين.

عندما تذكر سورة من القرآن قصّة أو قصصاً للأنبياء، تكون القصة مرتبطة بموضوع السورة، وهنا تلاحظ أن الفقرات عن الأنبياء تريد التركيز على العناية الإلهية الدنيوية بالعباد المخلصين، في مقابل عاقبة الكفّار، وتلاحظ أنها تركّز على إنذار الناس عبر هؤلاء المخلصين، وأكثر ما يلفت في هذه القصص بيانها لدين التوحيد لله تعالى أنه قديم جداً بين الناس، حيث هناك حادثة قديمة جداً منذ آلاف السنين ومشهورة جداً، وهي حادثة الطوفان التي أباد فيها تعالى المشركين، لنرى أن حجّة من اتبع دين أجداده هي حجّة واهية، لأن المشركين ليس لهم امتداد تاريخي لدينهم كدين واحد، لأن المشركين في زمن النبي نوح (ع) ماتوا كلّهم، وبقي فقط المؤمنون، وعلى مرّ الزمن عاد الناس واخترعوا دين الشرك به تعالى! وذلك رغم بقاء امتداد لخط النبي نوح (ع) عبر رسل متتالية، وهو الخط العقائدي التوحيدي الواحد الذي لم يتغير وصولاً إلى آخر الرسل ناقل هذا القرآن محمّد (ع)، أمّا المشركون فـآلهتهم دائماً جديدة وتختلف عن آلهة من سبقهم أو من في زمانهم ويعيش في بلد آخر! وعقيدتهم في آلهتهم جديدة ومختلفة! وشريعتهم بغالبيتها فاسدة! مما يشير بوضوح لفساد دينهم عموماً.

الآية هنا تشير لاستمرار دين التوحيد من بعد النبي نوح (ع)، وكلام الكافرين عن عمق تاريخي سحيق لدين آبائهم، دين الشرك، وكأن دين التوحيد الذي يطرحه النبي محمّد (ع) جديد كبدعة، فكلامهم غير صحيح، وحادثة الطوفان مشهورة

بين الناس حيث تناقلوا خبرها منذ قديم الزمان، فما سببها؟ وما نتيجتها؟ وهكذا نفهم كلام الآيات هنا عن عمق بآلاف السنين لدين التوحيد وعن عقاب إلهي قديم جداً لمن أشرك، حيث منذ القدم لا يسمح تعالى بالشرك ويعاقب عليه.

(سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ{79})
{سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ}، من ناحيته تعالى لا يوجد سيئ، بل كل الخير لنوح (ع). وعملياً، هو موصوفٌ بأنه لا شائبة فيه ولا نقص، وبالتالي لن يعامله ولن يصفه تعالى بأي شيء سيئ، بل على العكس؛ سينال (ع) الخير منه تعالى {فِي الْعَالَمِينَ}، أي بين كل الناس. ففي رؤية الله تعالى لكل البشر من أولهم لآخرهم، نوح (ع) من الذين يستحقون هذا السلام الإلهي.

نفهم السلام الإلهي على بعض العباد أنه تعبير عن رضاه تعالى عن عقيدتهم وسلوكهم، وتعبير عن عنايته بهم في الدنيا والآخرة. وهنا، في سياق السورة عن الرسل، ستلاحظ ذكرها للسَّلام على أغلب من تحدثت عنهم، بينما في الختام لم يأتِ ذكر السلام الإلهي (الخاص) على الرسولين لوطاً ويونسَ؛ ولكن في نهاية السورة نجد سلاماً (عاماً) على كل المرسلين.

(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{80})
{إِنَّا كَذَلِكَ}، بما ذكرته الآيات السابقة عن نجاة أهل النبي نوح (ع) وبقاء ذريته، والترك عليه في الآخرين، والسلام عليه... بهذا الجزاء {نَجْزِي}: نعطي المقابل لـ {الْمُحْسِنِينَ}، فَمَنْ حَسُنَ عمله وفكره هكذا نجازيه، وهذا هو المقابل الذي نمنحه لمن كان دينه حَسَناً جيداً.

إذن، نحن أمام نموذج بدليل ملموس عن تدخله تعالى في مجريات حدث تاريخي، وهو تدخل يستدعي وصف مَن تدخّل بأن قدراته فائقة، فهو إلهٌ قد تدخّل لصالح المؤمنين به، فنجّاهم وأغرق الكافرين.

نلاحظ اختيار القرآن عادةً للنماذج التي تمر عليها السورة هنا من حوادث جرت عبر تاريخ البشرية، حيث بعضها نماذج لها شهرة تاريخية منتشرة بين الناس لتكون دليلاً ملموساً مشهوراً على تدخله تعالى في مجريات الأحداث، في مقابل ترهات من اخترع آلهة ليس لها أي أثر ولا فعل، وفي مقابل ترهات من كفر به تعالى ولم يؤمن به سبحانه مستنداً إلى دين آبائه، وكأن دين الشرك هو الأصل والتوحيد بدعة.

(إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ{81})
{إِنَّهُ}، نوح (ع)، {مِنْ عِبَادِنَا}، من الذين مفروض منهم الطاعة لأننا خلقناهم ونحن نملكهم، {الْمُؤْمِنِينَ}، المعتقدين به تعالى.

إذا وضعنا في فكرنا أن نوحاً (ع) نبي ينزل عليه الوحي، وبالتالي من الطبيعي أن يكون مميزاً صالحاً مؤمناً... بهذه الطريقة من التفكير لن نفهم ما يقوله القرآن عن المؤمنين، لأن غالبية قصص هؤلاء الأطهار "أنبياء ورسل" في القرآن كانت تريدنا أن نرى نماذج لأشخاص مثلنا مثلهم، ولكنهم آمنوا بالحقّ، وسلوكهم كان ممتازاً، ونزول الوحي عليهم لم يكن أبداً بتاتاً مؤثراً على زيادة إيمانهم، لأنهم أصلاً تميزوا بسلامة قلبهم، ولم يتميّزوا بالإيمان من بعد نزول الوحي عليهم، وعندما تمدح الآية هنا "نوحاً" إنما تمدحه لأنه نموذج ممتاز من البشر، وهو مثلك مثله ولكنه مؤمن من الدرجة العالية.

لمزيد من التوسّع حول هذه المسألة راجع دراسة الآية 33 من سورة مريم {وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}.

(ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ{82})
{ثُمَّ أَغْرَقْنَا}، أَماتَ سبحانه اختناقاً بالماء، {الْآخَرِينَ}، الذين لم يكونوا مؤمنين.

نلاحظ الفقرة تلفت انتباهنا للمعاملة والقيمة الإلهية لمن آمن "نوح وأهله ومن معه من المؤمنين"، ولمن كفر "قومه الذين غرقوا"، وهكذا نرى هنا في الدنيا تطبيقاً ملموساً لعقابه تعالى كنموذج عن عقاب الآخرة الذي ينكره الكافرون، ونرى نموذجاً عن تدخّله تعالى الواضح لصالح من آمن بدينه تعالى، وهذا التدخّل له امتداد تاريخي ومتكرر، وأمّا آلهة المشركين فلا امتداد تاريخيّ لها، وليس لها أثر لتدخّلها في تاريخ الناس ... إنّ أقصى ما يمكن أن يخترعوه عن أفعال آلهتهم سيكون محصورا بقوم وببقعة صغيرة وفي زمن قصير، ممّا يدلّ بكل وضوح على اختراعهم لتلك الأفعال وأنها ليست حقيقة، وذلك في مقابل أفعاله ورسله تعالى الممتدة عبر تاريخ طويل جرى فيه العديد من الأحداث، وأبرزها حادثة الطوفان المشهورة عالمياً في مختلف الثقافات على الأرض...

(وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ{83})
{وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخَرِينَ}، {وَإِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ}... {وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ}، من المتضامنين تاريخياً مع النبي نوح (ع) بالتوحيد ضد الشرك، من الماشين على خطى ونهج النبي نوح (ع) التوحيدي، {لَإِبْرَاهِيمَ} (ع).

أيضاً ضع في بالك أن إبراهيم (ع) مجرد رجل عادي مثلك مثله، تميّز بالإيمان، ونتيجة لذلك نزل عليه الوحي فصار نبياً. حديث القرآن عنه (ع) دائماً يشير إليه كنموذج راقٍ من البشرية، حيث آمن لوحده في مدينة كلّها كفّار، وتعرّف عليه تعالى كما نقول "بالفطرة" وسترى ذلك بوضوح وبتعبير أدق في الآية التالية، وإن لم نفهم أن إبراهيم تميّز بإيمانه وبقينا عالقين في الصورة الضبابية عن تمييزه تعالى له (ع) بجعله نبياً، عندها لن نفهم كلام القرآن عنه (ع) كنموذج عن رجل آمن بالتوحيد بسبب اتباعه لسلامة قلبه، ولم يخترع آلهة، ولم يتماشَ مع دين مدينته... وهذا ما تعرضه السورة للكافرين بدينه تعالى ليقيسوا عقيدتهم على عقيدة هذا الرجل...

(إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ{84})
{إِذْ جَاءَ رَبَّهُ}، جاء إبراهيم (ع) إلى المسؤول عنه من مستوى إلهي، {بِقَلْبٍ}، بأساس تفكير ونفسية، {سَلِيمٍ}، خالٍ من أي عيوب، فكان مُتَّبِعاً لما يراه حقّاً صالحاً.

هذه نقطة جوهرية في كلام القرآن، وهذا لبّ الكثير من كلام القرآن عن المؤمنين، حيث نحن وقبل أي شيء لدينا نفسية وفكر خاص بكل واحد منّا، وكل واحد منّا قلبه مختلف عن الآخر، فبعضنا ميّت لا يتفاعل مع آياته تعالى من كون فسيح وخلقة في بيئة فيها تفاصيل هائلة العدد والدقّة... وبعضنا أعمى لا يرى ذلك آيات دالة عليه تعالى، وبعضنا بصير يرى ذلك ويستدل منه عليه تعالى وعلى صفاته، توسّعنا في هذا الموضوع في دراسة الآية 2 من سورة البقرة "ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ"، وإبراهيم من النماذج الراقية جداً جداً بقلبه السليم، وما رآه في نفسه وحوله تعامل معه بفكر ونفسية سليمة، رافضاً وراثة دينه من أهل مدينته، ورأى بكل وضوح أن آلهتهم مخترعة من خيالهم...

كلمة قلب بمعناها العامّ عند العرب تعني: أساس الشيء وما هو مركزي فيه. ومعنوياً تشير لأساس الفكر والنفسية فينا، ولأساس ما يجعل الشيء يعمل... ومادياً تشير لعضو أو لجهاز... مركزي في الشيء، كالعضو مضخة الدم، وكقلب المحرّك...

في عموم اللغات نستعمل التعبير بالقلب للدلالة المعنوية على مركز الشعور والأحاسيس والفكر، فنقول: أحبك من قلبي. قلبي لم يهتف له. قلبي تعب من شدة الهم. قلبي أعمى ولا أستطيع التركيز... ولا أي لغة تقصد بهذا الكلام خصوص العضو الذي يضخ الدم، بل المقصود هو مركز شعورنا وأحاسيسنا وتفكيرنا، وبهذا المعنى استعملها القرآن "معنوياً لنا" مثلما يستعملها أهل اللغة كمعنى حقيقي لمركز الشعور "النفسية" والفكر.

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ{85})
إذا كان أحد ما يبرّر لعقيدته المشركة باتباع دين آبائه فليعتبر من هذه القصّة:

{إِذْ قَالَ}، إبراهيم (ع)، {لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ}، للناس الذين لهم كيان الجماعة وهو (ع) ينتمي لجماعتهم المتفاعلة مع الدين، قال لهم:

{مَاذَا تَعْبُدُونَ}؟ لمن تتصرفون على أساس أنه مفروض منكم طاعته؟ إبراهيم (ع) يعلم أنهم يعبدون الكواكب والأصنام... وما تنقله الآية هنا هو خلاصة ما جرى من محاورات عديدة بينه (ع) وبينهم. لذلك لا تتصوّر ما تنقله الآيات حصل فجأة وفي دقائق أو في يوم، بل هو خلاصة واختصار لمدة طويلة بينه (ع) وبينهم، وكما تعلم نقلت سور أخرى كلامه (ع) مع أبيه لوحده، وكلامه (ع) مع جماعات منفردة من قومه عبّاد الكواكب المختلفة...

هناك خلاف في الروايات والتفاسير حول هذا الشخص الذي يناديه النبي إبراهيم (ع) في القرآن: أبي. بعضهم قالوا: هو أبوه الحقيقي "والده الذي أولده". وآخرون قالوا: لم يكن والده بل عمّه، وربّاه منذ طفولته، واعتاد النبي إبراهيم (ع) أن يسميه أبي.

ورد في التوراة أن اسم والد النبي إبراهيم (ع): تارخ. بينما الشخص الذي يتحدث عنه القرآن اسمه: آزر. وورد ذلك في الآية 74 من سورة الأنعام "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ..."، هكذا يمكننا الاستنتاج أن الذي ربّاه اسمه آزر، ووالده تارخ، وهذا على ذمّة من كتب التوراة...

لا ننسى أن العرب ينادون العم بكلمة: أبي. والقرآن استعمل نفس التعبير وكمثال على ذلك حين تحدّث أولاد النبي يعقوب (ع) عن آباء أبيهم وذكروا من ضمنهم عمّه النبي إسماعيل (ع) كما ورد في الآية 133 من سورة البقرة "أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...".

على كل حال نجد الآية 41 من سورة إبراهيم (ع) نقلت عن النبي إبراهيم (ع) دعاءه بالاستغفار لوالديه "وليس لأبويه" حين كان شيخاً كبيراً "رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ"، ونعلم أن النبي إبراهيم (ع) استغفر فعلاً لأبيه "آزر"، وكان النبي إبراهيم (ع) حينها "شابّاً"، ولكن بعدما تبيّن للشابّ إبراهيم (ع) أن آزر عدو لله تعالى، تبرّأ منه كما تقرأ في الآية 114 من سورة التوبة "وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ..."، إذن كما هو واضح، لدينا استغفار حين كان (ع) شابّاً "لأبيه" لآزر، وبعدها تبرّأ منه، ولدينا استغفار "لوالديه" وكان كبيراً في السنّ. ممّا يعني أنه (ع) حين صار شيخاً كان يستغفر لوالديه اللذين "ولداه"، فآزر "الممنوع من الاستغفار له" لم يكن "والده" بل عمّه أو أحد أقاربه أو شخص تولّى العناية به وتربيته... ولذلك كان يناديه أبي.

(أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ{86})
الله سبحانه صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز هو الإله، هو الكائن الواحد الأحد ذو الصفات والقدرات الفائقة، وعبادته لوحده تعالى هي الصحيحة، والعبادة الإفك أي المقلوبة المعكوسة غير الصحيحة وهي عبادة آلهة غيره تعالى، فتتركون توحيده تعالى وتعتبرون أنفسكم عبيداً لغيره، {إِفْكاً آلِهَةً}: تقلبون حقيقة توحيد الإله وتعبدون آلهة غير حقيقية؟

كما نقول: ذهبتم من دوني. ونقصد: ذهبتم مع غيري. هنا المقصود {دُونَ اللَّهِ} أنهم لم يعتبروا أنفسهم عبيداً لله تعالى بل اعتبروا أنفسهم عبيداً لآلهة أخرى من دونه، فتركوا توحيده تعالى الصحيح وإفكاً عبدوا غيره سبحانه، عبدوا الكواكب والأصنام...

(فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ{87})
ما هو اعتقادكم المبني على علمكم بالمسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس؟ ماذا تعتقدون سيفعل بكم ربكم وأنتم مشركون به؟ هل سيرضى بذلك أم يجازيكم بالعقاب؟

أنا ربّ بيتي لأني المسؤول عن شؤونه، وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... وهذه ربوبية على مستوى المسؤوليات البشرية، وسبحانه رب العالمين من مستوى إلهي، وهذا واضح لأن البيئة "من ليل ونهار ونزول مطر..." مشتركة بين جميع البشر، والصفات البشرية مشتركة... وهذه تدل على أنّ ربّاً واحداً عمّم ما أراده على الجميع، فهو ربّي وربّ كل البشر في مختلف الأزمنة والأمكنة.

هل تشركون به تعالى وتظنون أنّه لا عواقب لذلك؟ ومن ناحية ثانية أنتم لديكم آلهة متعددة، وهذا غير منطقي، بل يجب أن يكون لكلّ الناس إله واحد، كربّ من مستوى إلهي واحد، فأين المنطق فيما سيأتي عن عبادة أناس للشمس وآخرين للقمر وغيرهم يعبد الزهرة وآخرون يعبدون المريخ... وأبوه (ع) والكثير من قومه يعبدون الأصنام! كيف يكون ذلك صحيحاً طالما كلنا بشر، وعلى نفس الأرض وتحت نفس السماء وفي نفس الظروف البيئية الحياتية المشتركة... فمن الواضح أنّ ربّاً واحداً صمّم وخلق، وماذا سيفعل إلهكم بكم وأنتم توجّهتم نحو غيره لتعبدوه بينما من الواضح انتشار مسؤوليته سبحانه "ربّ" على الجميع؟

هذا المفهوم كرّره القرآن مراراً صراحة وفي طيات كلامه، وبعبارة أبسط، فإن كان القمر إله هذه المجموعة، يعني القمر خلقها أو خلق بيئتها أو يرزقها أو يستجيب لأدعيتها... والمجموعة الأخرى تعبد الشمس، على أساس أنّها خلقتهم أو... ومجموعة أخرى تعبد صنماً... فأين المنطق في هذا؟ وبأقل تفكير في حالة شخص ترك عبادة القمر وانضمّ لعبادة الشمس، مغيّراً إلهه، فماذا يعني هذا؟ علماً أنّ المشركين يحترمون آلهة غيرهم! هل أنا أحدّد ربي من مستوى إلهي وأعبده، وبعدها أغيّر رأيي وأعبد غيره! فمن البديهي جدّاً أنّه يوجد ربّ واحد لنا كلّنا لأننا كلنا نشترك في الخلقة والبيئة...

"الظنّ" هو اعتقادك بشيء ما مستنداً إلى شيء ما، فإن كان ما تستند عليه صحيحاً كان ظنّك صحيحاً، وهذه حالة المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم سبحانه كما ورد في الآية 46 من سورة البقرة "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"، فهم مستندون في ظنّهم على آياته وكلامه تعالى. وإن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران "... وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ..."، استناداً للحالة الحرجة التي كانوا فيها، ظنّوا أنّه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء. وبين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند عليها ولكنه ليس مقتنعاً بها، هذا لا تزال الأمور عنده مُرجَّحة لاحتمالات أخرى، وهذا ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية "وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ"، هم يريدون لمس حصول ساعة قيامهم من الموت مباشرةً حتى يعتقدوا بها ولا يكفيهم الاستناد إلى معلومات تدلّ عليها، يريدون اليقين بها عياناً حتى يؤمنوا. وهذه الحالة قريبة جدّاً من الاصطلاح "في علم المنطق" والدارج لمعنى كلمة ظنّ على معنى وجود عدة احتمالات. وها صرت تعلم المعنى اللغوي الأساسي لكلمة "ظنّ" فانتبه للفرق بينه وبين المعنى الاصطلاحي حتى لا تفسّر القرآن على أساس المعنى الاصطلاحي.

عموم كتب التفاسير تعرض كلاماً آخر عن الظنّ، ولا ينطبق معناه على كلّ آيات القرآن، وستجدهم لا يثبتون على معنى واحد للظنّ، حيث مرة يرادفونه باليقين، ومرّة بالشك، ومرة بالحسبان... وهي معانٍ غالباً ستجدها صحيحة لأنّ الآيات واضحة وتدل على المعنى الذي ذكروه بالشكل العمومي الذي يتحمله الاشتقاق والتدرّج من أصل معنى كلمة ظنّ، ولكنها ليست المعنى الدقيق لكلمة ظنّ، بل كلامهم توصيف لحالة العلم الذي استند إليه الظنّ، وها صرت تعلم معنى الكلمة العام، وأنّ القرآن دائماً يوضّح لك نوع العلم الذي يستند إليه الظنّ إن كان صحيحاً أو فاسداً، فلن تضيع في معرفة الظنّ الصحيح من الظنّ الخطأ.

(فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ{88})
تذكّر دائماً أنّنا احتراماً نقول: النبي إبراهيم (ع)، أمّا غالبية قصصه في القرآن تريدنا أن نراه كإنسان عادي، ولكن قلبه كان سليماً، ولا علاقة للوحي والنبوة والرسالة بحالته الأساسية (ع) كإنسان بفكر ومشاعر سليمة خالية من العيوب لأنّه لم يتّبع هواه السيّء ولم يقلّد غيره معطّلاً فكره... هذا ما يريدنا القرآن رؤيته حين يكلّمنا عن النموذج الراقي إبراهيم (ع).

{فَنَظَرَ}، من بعد كلامه معهم وجّه "إبراهيم" اهتمامه العام، {نَظْرَةً}، اهتماماً عامّاً غير تفصيلي، {فِي النُّجُومِ}، فكّر بعموم ما يرى له موقعاً في السماء، هل هذه آلهة وأرباب؟

كلمة نجم وبحسب استعمال القرآن واستعمال العرب لها في أشعارهم قبل الإسلام، تشير لأي جرم له مكان في السماء بغض النظر عن ضوئه ولمعانه، وسواء أكان منيراً بذاته مشتعلاً كشمس أو غازيّاً ساخناً، أو كان صلباً يعكس ضوء غيره كالأرض والمشتري... الكلمة تشير لعموم أي شيء له موضع في السماء، لتشمل الشمس والقمر والكواكب السيارة وبقية النقاط البيضاء في سماء الليل.

أمّا كلمة كوكب في كلام العرب والقرآن، تشير لعموم أي شيء مضيء في السماء.

نعلم من آيات أخرى من القرآن أنّه (ع) نظر إلى عدّة نجوم تعبدها الناس، وسخر منهم بطريقة مُلفتة للأنظار حين استسخف عبادتهم لنجم صغير، وآخرون عبدوا القمر وهو أكبر من النجمة، وآخرون عبدوا الشمس وهي أشدّ ضوءاً من النجمة... راجع في ذلك الآية 76 وما بعدها من سورة الأنعام.

نتذكّر أنّ الآيات هنا تختصر زمناً طويلاً من النقاشات بين النبي إبراهيم (ع) وقومه، وعندما نظر في النجوم كانت نظرة موزّعة على أيام، نقل منها القرآن نظرة إلى نجم ثم نظرة إلى القمر وبعدها نظرة إلى الشمس، أقول لك هذا حتى تنتبه عمّا قالوه عن هذه الآيات وغيرها أنّها حدثت في زمن قصير، وبناءً عليه فسّروا ما بعدها من آيات بأنّها أحداث حصلت مباشرةً بعد النظرة، وهذا غير صحيح.

نلاحظ الآية حدّدت بنظر "نظرة"، ولم تقتصر على: نظر في النجوم. والسبب أنّ التعبير بـ: "نظر" أوسع من استعمال النظر بالعينين، ويشمل التأمّل الفكري، ولذلك حدّدت الآية هنا أنّه (ع) من ضمن نظره في عقائد الناس نظر في مسألة عبادتهم للنجوم.

(فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ{89})
{فَقَالَ} "إبراهيم (ع)":

{إِنِّي سَقِيمٌ}، حصل عندي اعتلال فكري ونفسي، فالصحّة العقلية العقائدية والنفسية لم تحصل لي من التفكير بعبادة النجوم، بل أشعر بالاعتلال من هذه الديانة. وكلمة سقيم لم ترد في القرآن إلا مرتين في السورة هنا.

بعبارة أخرى، صرت مريضاً عقائديّاً وفكريّاً عندما رأيت الناس يعبدون النجوم، لأنّها مجرّد كائنات تأتي وتذهب، لتغيب عنّا ولا نراها، وما تقولونه من مبررات لعبادتها فهو كلام سخيف، يسبّب لي السقم: الخلل المرض.

نلاحظ بعضهم فسّر السقم الوارد هنا بأنّه حجّة قالها النبي إبراهيم (ع) ليظنوا أنّه مريض، وحين ذهب قومه إلى العيد والمرح، استغلّ (ع) الفرصة ليكسر الأصنام، وهذا الكلام مبني على فهم الآيات على أساس أنّ النظر في النجوم والتكسير حصلا في يوم واحد، وعلى أساس أنّه (ع) كان يعيش في مغارة بمعزل عن الناس مذ كان طفلاً، وبعد أن شبّ احتك بالناس وجرى معه ما جرى خلال يوم أو أيام... وهذا غير صحيح.

من ناحية ثانية، هذا الكلام مبني على رفضهم قبول توصيف نفسه (ع) بأنّه سقيم نفسيّاً، ورأوا هذا يتعارض مع توصيف قلبه بالسليم، علماً بأنّ السقم حالة أصابته من النظر في ألوهية النجوم، لمجرّد التفكير بأنّها آلهة يعبدها الناس سبّب له السقم، وهذا شيء أعلنه أمام الناس كحجّة عليهم من نظرة عاقل لما يعبدونه، ونقل لنا القرآن صريحاً اتهامهم له وحده بتكسير الأصنام لأنّه كان يتحدّث عن آلهتهم علناً بأنّها ليست آلهة، وكما ترى فبقي قلبه سليماً وإلا لكان عبد النجوم.

بعضهم الآخر فسّر سقمه (ع) بأنّ سببه نظره في النجوم، أو أنبأته النجوم بأنّه سيسقم، وكلا القولين سخيفان ولا علاقة لهما بما جرى، بل مبنيان على اعتقاد من قال هذا الكلام بنحس النجوم وسعدها وتأثيرها على الطباع والمزاج، ومن اعتقاد بعضهم بأنّ النجوم كأنّها كتاب فيه الغيب، وفيها تحديد لمستقبل ما قد يحصل معنا! وهذه خرافات حتى لو نسبوها للنبي (ع) ولأطهار المسلمين من الصالحين، وهو كذب، وقلّة عقل، وسخافة، وأقصى ما يمكن قبوله من كلامهم، رغم أنّه لا دليل عقلانيّ على صحّته، فأقصى ما يمكن قبوله أنّ للكواكب تأثيراً فيزيائيّاً على جسدنا وبيئتنا، كتأثير المدّ والجزر للبحر... حيث قد تؤثّر على مزاجنا، مثل تأثير الضباب المعتم على إحداث شعور بالغمّ لدى بعض الناس، أمّا

كل الكتب والرسومات والأسماء والحسابات للطالع "الحظّ والبخت والمستقبل..." هو كلام فارغ لا يصدّقه إلّا قليل العقل.

للأسف نسبوا للنبي وللصحابة ولأطهار من الأمّة أحاديث عن دعمهم لفكرة طوالع النجوم ونحوسها وبختها... ومثله في السخافة كتابة الأحراز والنقوش على الخواتم... كلّها سخافات لم تثبت صحّتها ولم تثبت رواياتها، علماً أنّ الروايات عن هذا الموضوع كثيرة، ولكن هذا لا يعني أبداً أنّ البعض منها ربما يكون صحيحاً، وها أمامك كتب ومجلّدات ألّفها اليهود والمسيحيون عن دينهم، وغالبيتها ترهّات وخرافات وتحريفات، ونحن المسلمون لم نختلف كثيراً عنهم، حيث بيننا الكثير من الكذّابين الوضّاعين للأحاديث.

(فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ{90})
{فَتَوَلَّوْا عَنْهُ}، لم يبق قومه معه بل ذهبوا وتركوه، {مُدْبِرِينَ}، أداروا له ظهرهم، وذلك رغم كلامه المنطقي العقلاني الواضح جدّاً، أداروا له ظهرهم وبقوا على عبادة آلهتهم!

نتذكّر من القرآن من الآية 75 وما بعدها من سورة الأنعام، أنّه (ع) حاججهم بأنّها مجرّد كواكب تأتي وتذهب، وهذا أصغر وذاك أكبر... وضمنيّاً نفترض قوله لهم إن هذا أبعد وذاك أقرب، وهذا أشد لمعاناً وذاك أخفت... وأنّه سألهم عن المعيار الذي اعتمدوه لعبادة واحد منها، ممّا يثبت أن الكوكب الآخر ليس إلهاً! فما هذه السخافة!

قال الكثير من المفسرين إن القوم تولوا عنه فتركوه وغادروا المدينة بسبب عيد لآلهتهم! ولكن أكثر استعمال القرآن لهذا الوصف لم يكن لوصف حالة الترك وحيداً جسديّاً، بل كان لتوصيف إدبارهم عن كلامه، حيث قال لهم: إن التفكير بعبادتكم للنجوم يجعلني سقيماً... فأداروا ظهرهم لكلامه هذا.

(فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ{91})
{فَرَاغَ}، قام بالخفاء عن الناس، {إِلَى آلِهَتِهِمْ}، إلى التي يعتبرونها فائقة الصفات والقدرات، وهنا الكلام عن أصنامهم، قائلاً:

{أَلَا تَأْكُلُونَ}؟

تذكّر دائماً أن عبّاد الأصنام عادة يضعون الطعام والبخّور أمام آلهتهم، وهنا تفهم بوضوح أن إبراهيم (ع) لم يحضر طعاماً للأصنام، بل سألهم عن الطعام الذي أمامهم والذي يقدّمه لهم الناس ويبقى كما هو!

كيف تفهم كلامه (ع) مع الأصنام؟ ولماذا لم يكسرها من دون التحدّث معها؟ إذا سألت نفسك هذه الأسئلة سترى أنّه (ع) كان كما نقول: فطريّاً. يتصرّف بعفويّة تامّة، ممّا يؤكّد لنا أن الوحي لم يكن هو السبب في إيمانه، ولا في زيادة إيمانه، وحتى هذه اللحظة فإنّه فقط وفقط بقلبه السليم رفض عبادة الأصنام، مثله مثل بقية الصالحين، وهذا القرآن أمامك من أوّله لآخره ولن تجد تصريحاً بحصول تواصل إلهي من أي نوع معه (ع)، إلا اللهم آيتين توحيان بذلك وهما الآية 75 من سورة الأنعام "وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ"، والآية 18 من سورة العنكبوت "وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ"، فراجع دراستهما.

الاحتمال الأقوى من القرآن أنّه لم ينزل الوحي على إبراهيم (ع) قبل وأثناء حصول هذه الحوادث إلى أن غادر المدينة مهاجراً... وهذا بالضبط ما أرادتك السورة أن تراه فيه (ع) كنموذج رائع عن إنسان وصل إلى أرقى درجات الإيمان رغم أنّه لم ينزل عليه وحي ولم يحصل معه تعالى أي نوع من التواصل، ومثله تاريخ النبي محمّد (ع) الذي ورغم التلاعب في نقل أحداث تاريخ حياته، وصلنا أنّه لم يعبد أي صنم في حياته، وعارض قومه في دينهم، وذلك قبل نزول الوحي عليه، ويمكنك من ناحية سلامة القلب أن تشبّه سيرة محمّد (ع) قبل سن الأربعين "قبل البعثة بنزول القرآن" بسيرة ما تسمعه هنا عن الفتى إبراهيم (ع).

نقول هذا للتوسّع في هذه النظرة لتشمل كل بقية الذين صاروا أنبياء، فهم من قبل نزول الوحي أطهار متقون... والحالة التي تراها غير عاديّة للنبيّين عيسى (ع) ويحيى (ع)، حيث أعلنهما تعالى نبيّين قبل أن يولدا، ولم يميّزهما سبحانه

عنّي وعنك، بل بعلمه تعالى بما سيكونان عليه من سلامة قلب، وأنّهما سيكونان بدرجة إيمان عالية جدّاً، لذلك مسبقاً أخبرنا أنّهما سيصيران نبيّين، وراجع في ذلك دراسة الآية 33 من سورة مريم "وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا".

(مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ{92})
انتظر (ع) منهم جواباً، ولم يسمع، فقال:

{مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ}؟! لا يصدر منكم ولا صوت؟!

ما تقرؤه هنا ليس مسرحيّة قام بها إبراهيم (ع) الذي كان وحده مع الأصنام، فأمام من هذه المسرحيّة وما معناها!

تصوّر العاقل من المستوى الراقي جدّاً حين يكون متأكّداً من معلوماته ولكن يترك مجالاً ولو لشعرة لما قد يكون غاب عنه ويجهله، ولو على نحو الاحتمال الذي لا يرى له أي وجه لاحتماله، فهو (ع) كان متأكّداً أنّهم ليسوا آلهة ولا أرباباً من مستوى إلهي، وأنّهم نتاج سخافات وأوهام الناس، لكن رغم ذلك واجههم وتحدّث معهم على نحو الاحتمال الذي لا وجه له.

نحن نستصعب فهم هذه الحالة الراقية من العقلانيّة لأنّنا نميل إلى الصلابة في مواقفنا وآرائنا، وبسبب أمراضنا النفسيّة من التكبّر والزهو وحبّ الظهور... نطرح أفكارنا بصلابة لا تتحمّل التراجع عنها، وأنا فعلت ذلك في دراستي هذه مراراً لا عن قصد، بل عن خلفيّة من قلّة في العقلانيّة التي لا تترك مجالاً لقبول الرأي الآخر، أو لا تترك مجالاً لما قد أجهله، فمن أنا حتى أحسم الأمور بعلمي وكأنّي عليم من مستوى ربّاني؟ ونبّهني لذلك أخوان لي وصلهم مني نماذج أوّليّة من هذه الدراسة لينتقدوها ويعلّقوا عليها، ونبّهوني من صلابة في الطرح ومن تسخيف الرأي الآخر، ونصحوني بالابتعاد عن ذلك بعرض ما توصّلت إليه وما قاله الآخرون وتاركاً القارئ حكماً، بدلاً من القساوة مع أصحاب الرأي الآخر.

على المستوى النظري أنا مقتنع بما قالوه، ولكن عمليّاً هيهات هيهات، لأنّ هذا المستوى أعلى بكثير ممّا نقدر عليه بغالبيتنا الساحقة، وأتذكّر سيرة النبي محمّد (ع) مشاوراً لأصحابه بمرونة في قبول طروحاتهم، وغيّر مكان الجند قبل معركة بدر بناءً على رأي صاحب من أصحابه، وحفر خندقاً حول المدينة من رأي صاحب... وكان (ع) سلساً مرناً لدرجة سخرية بعض من حوله منه متهمين إياه بأنّه يدير أذنه لأي كان، وهذا موضوع تناولته الآية 61 من سورة التوبة "وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ...".

هذه النفسيّة الطاهرة المعروض منها في الآيات هنا جانباً منها، نتناولها بالتحليل والتنظير مثلما نتناول بقية الأمور التشريعيّة والسلوكيّة من حلال وحرام وواجب... وهي مثل كلامنا عن الأخلاق ومعلوم أنّنا تطبيقيّاً لسنا من المستوى النظري الذي نتحدّث عنه.

لو كان كلامي الأخلاقي والتشريعي صحيحاً، وأنا غير ملتزم به، فهذه مشكلة ولكن الطامة الكبرى أنّنا نعتقد بإمكانيّة البحث النظري الصحيح في التشريعات والأخلاقيات حتى لو لم نكن ملتزمين أو موصوفين بها! وهذا غير صحيح، لأنّه حتماً سيدخل من سوء فكري ونفسي شيء على كلامي النظري عن التشريع والأخلاق.

هنا في الآيات نستصعب القبول بصراحة ما تقوله، ونميل إلى جعل كلامه (ع) مع الأصنام كمسرحيّة بلا جمهور، بينما عقيدته (ع) فيهم معلومة، لأنّه (ع) لا يعتقد بأنّها آلهة ولا أرباب، ولكنّه من باب الاحتمال الذي لا يرى له أي وجه، ترك المجال ليرى ردّة الفعل.

خذ مثالاً قريباً من ذلك كلامه تعالى مع إبليس الرافض للسجود، وسأله تعالى عن سبب ذلك، وسبحانه يعلم الغيب فلم يسأل ليعلم، بل سأل لأنّ صفاته الحسنى سبحانه تستدعي إتاحة المجال للآخر لسماع التبرير.

(فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ{93})

{فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً}، بالخفاء عن الناس قام بضرب الأصنام، {بِالْيَمِينِ}، ضربهم بقوّة نابعة عن قدرة عالية.

لاحظ أن كلمة يمين بالتسمية تشير لليد اليمين، واليد الثانية لها وصفان: يسرى وشمال. ومن استعمال كلمة "يمين" في القرآن وعند العرب نرى أن أصل الكلمة ليس محصوراً كاسم لليد، بل وصف للقوّة النابعة عن قدرة وتحكّم وسهولة تعامل مع الشيء، ولأنّ غالبية الناس تستعمل اليد اليمنى لذلك انتقلت الكلمة من كونها تسمية للعضو الذي به تتعامل باقتدار مع الأشياء، انتقلت لتصير صفة اليمين لعموم ما تتعامل به أو معه باقتدار، واستعملها القرآن وصفاً لقوّته تعالى ولقوّة ملائكته (ع)... كوصف قوّة مع القدرة والتحكّم، وهنا قام إبراهيم (ع) بضرب آلهة قومه، انتبه: يضرب آلهة. الكلام كبير "يضرب آلهة"، ولكن إبراهيم (ع) متأكّد تماماً بأنّها مجرّد أصنام، لذلك ضربها باليمين، بقوّة تعتمد على قدرة وتحكّم، ضربها من اعتقاد قوي بأنّها مجرّد أصنام وليست آلهة.

بعبارة أخرى، ضرب آلهة قومه بقوّة فكسّرها وهو لا يخاف منها ولا من ضررها في المستقبل لأنّه يعلم أنّها مجرّد أصنام.

(فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ{94})
{فَأَقْبَلُوا}، تعلم من القرآن ومما يمكنك أن تستوحيه من الآيات هنا، أنهم رأوا آلهتهم مضروبة مكسّرة، فاجتمعوا ليبحثوا عمن كسّرها... وقرّروا أن المتهم المرجّح هو فتى اسمه إبراهيم... كما تقرأ في الآية 60 من سورة الأنبياء "قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ"، فجاؤوا من مكان اجتماعهم، {إِلَيْهِ}، إلى إبراهيم(ع)، {يَزِفُّونَ}، بحماسة وهيصة، مع حركات وأصوات، يعني أشبه بالمظاهرة لأنهم يريدون إلقاء القبض على من كسّر آلهتهم.

بعبارة أخرى تصوّر الآية سخافتهم وأنهم بنظرهم صار لديهم شيء مهم، فجاؤوا إليه {يَزِفُّونَ}، هم همج يتحركون مندفعين بعقلية الغوغائية والصخب، مثل الجماعات التي تراها يندفعون للقتال والعراك والتكسير... وإذا سألتهم عن سبب ذلك ستسمع أجوبة لا عقلانية فيها لأنهم يتحركون مع المجموع المندفع بالغوغائية.

(قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ{95})
سألوه عن تكسير الأصنام... قال إبراهيم(ع): {أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ}؟! أتعتبرون أنفسكم عبيداً مفروضاً منكم طاعةُ تماثيل أنتم نحتموها وأزلتم القطع الصغيرة من الخشب أو الحجارة ليصير للقطعة شكل، وبعدها تعتبرون أنفسكم عبيداً لها! وتعبدون ما تشكّلونه بأيديكم؟

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ{96})
{وَاللَّهُ}، وصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {خَلَقَكُمْ}، ألّفكم ركّبكم من المواد، وخلق {مَا تَعْمَلُونَ}؟! أيضاً المادة التي تتألّف منها الأصنام التي عملتموها خلقها هو سبحانه. من الواضح أنهم هم نحتوا الأصنام، ولكن من الواضح أيضاً أن المادة التي تتألّف منها الأصنام، سواء الخشب أم الحجر أم المعدن... هي مادة مصنوعة مخلوقة، فالله سبحانه خلقكم أيها الناحتون للتماثيل، وخلق المادة التي تنحتون منها تماثيلكم، وبكل سخافة تعبدون تماثيلكم!

(قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ{97})
{قَالُوا ابْنُوا لَهُ}، لإبراهيم، {بُنْيَاناً}، مثلما تبنون البيوت بوضع الحجارة فوق بعضها، لنبنِ له مكاناً نحرقه فيه، واضعين الأخشاب فوق بعضها حتى تصير بناءً ضخماً، {فَأَلْقُوهُ}، ارموه ليستقر، {فِي الْجَحِيمِ}، في المكان الضخم في سوئه، فسيكون في النار المتأجّجة الضخمة. لاحظ وانتبه أنهم لم يردّوا عليه (ع) بأي جواب يبيّن ذنبه الذي سيسبّب له الحرق! وتجد ذلك صريحاً في الآية 63 وما بعدها من سورة الأنبياء "قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65)".

(فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ{98})
{فَأَرَادُوا بِهِ}، كان مقصدهم ورغبتهم بإبراهيم، {كَيْداً}، أمراً لا مصلحة لهم فيه إلا الإضرار بإبراهيم(ع)، لأن غايتهم إسكات كلمة الحقّ بقتل الذي يقولها. {فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ}، لم يكونوا من فوق، ولم يكونوا غالبين منتصرين محققين

لغايتهم، بل من تحت، مهانين محقّرين، لأن النار لم تحرق إبراهيم(ع) وخرج منها سليماً كما تعلم من القرآن حيث صارت النار برداً وسلاماً عليه بأمر من الله تعالى، كما ورد في الآية 69 من سورة الأنبياء "قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ".

(وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ{99})
{وَقَالَ}، إبراهيم(ع): {إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي}، سأترككم وأذهب إلى المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {سَيَهْدِينِ}، سيضعني على الأشياء الصحيحة التي توصلني للغاية الصحيحة. هنا تعارضونني وتمنعونني من توحيده تعالى، لذلك سأترككم وأرحل إلى حيث ييسّر سبحانه لي الأمور لأمارس ديني من دون أن يمنعني أي أحد. كما ترى، لم يقضِ سبحانه على القوم بالعذاب هنا في الدنيا رغم شركهم ورغم محاولتهم قتل مؤمن، بل شاء تعالى حلّ المسألة بإنجاء المؤمن، وهذا يأخذك إلى عمق تحليلي للقصص التي عرضها القرآن عن أقوام نزل عليها العذاب الإلهي هنا في الدنيا، لأن الكفر والشرك به تعالى ليس وحده سبباً لنزول العذاب على قوم ما، بل الشرك به تعالى ليس سبباً ضرورياً لنزول العذاب الإلهي، ففي الآية 65 من سورة البقرة "وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ"، ترى عذاباً ليهود موحدين ولكنهم فسدوا، فمن عموم القرآن نفهم أن انتشار فساد ما في قوم ما ويكون الفساد من العيار الثقيل في سوئه، هو السبب الرئيسي لنزول عذاب إلهي في الدنيا عليهم... قوم النبي إبراهيم(ع) حاولوا قتله مرّة واحدة، وعندما حصلت آية نجاته من النار، بتدخّل إلهه(ع) بينما آلهتهم لم تدافع عن نفسها من التكسير، لم يؤمنوا، ولكنهم لم يصرّوا على قتله، ولم يحاولوا قتله مرّة ثانية بطريقة أخرى، ولا تجد في القرآن أي إشارة لأي نوع من فعل سوء من العيار الثقيل منتشر بينهم، وهذا لا يعني أنهم كانوا صالحين في قوانينهم وتشريعاتهم، ولكنهم وكما يبدو كانوا مسالمين مع بعضهم ومع جيرانهم، ولديهم ضوابط مدنية مقبولة كسلوكيات فيما بينهم... ومشكلتهم كانت فقط الشرك به تعالى، وهذه ليست سبباً كافياً لنزول عذاب إلهي هنا في الدنيا علماً أنها سبب كافٍ للخلود في نار الآخرة، والمشكلة الثانية محاولة قتلهم للمؤمن إبراهيم الذي كسّر آلهتهم، وهذه المشكلة انتهت حين فشلت محاولتهم الأولى ولم يكرّروها. الكلام يجرّ الكلام، حيث ثماني آيات لفرعون وقومه خلال سنين طوال، أراد تعالى منها أن نرى صلابة هذا النموذج الكافر أمام آيات عديدة متنوعة، وأنه تعالى لسبب أو لآخر لم يُرِدْ إهلاك فرعون وقومه بالرغم من كفرهم وشركهم، إلى أن وصلت الأمور حيث لحقوا ببني إسرائيل لإرجاعهم بالقوة... وهكذا كانت الآية التاسعة بفلق البحر، ولم يؤمنوا، بل اقتحموه للقبض على بني إسرائيل!

(رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ{100})
{رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {هَبْ لِي}، أعطني من دون مقابل منّي، {مِنَ الصَّالِحِينَ}.

يبدو واضحاً انتقال الآيات إلى ما بعد هجرته بسنين من المدينة التي حاولت إحراقه، ومن تكملة الآيات ومما نعرفه من بعض سور القرآن نعلم أن النبي إبراهيم(ع) كان متزوجاً "من سارة" لمدة طويلة ولم تنجب زوجته أولاداً، ونعلم من المشهور جداً بين أهل الكتاب وفي رواياتنا، أن زوجته سارة قامت بتزويجه من أمتها "عبدتها" هاجر لينجب منها ولداً... فطلب النبي (ع) منه سبحانه أن يهبه أولاداً صالحين جيّدين في عقيدتهم وعملهم، عندها استجاب له تعالى أوّل مرّة ومنحه إسماعيل(ع) من هاجر، وبعدها منحه تعالى إسحاقَ(ع) من سارة، وهنا الكلام عن وهبه إسماعيل(ع).

(فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ{101})
{فَبَشَّرْنَاهُ}، فأوصلنا له خبراً مفرحاً، {بِغُلَامٍ}، بولدٍ بالغ، {حَلِيمٍ}، طويل البال فلا يتم استفزازه ولا يستعجل في اتخاذ القرارات. وقد سبق أن وصف القرآن النبي إبراهيم(ع) مرتين بأنه حليم. يعني ستعيش لترى ابنك وقد بلغ "غلام"، وسيكون ولداً بصفة مميزة، فسيكون حليماً، وسترى بعد قليل أن هذا الولد عندما قال له النبي(ع) أني أرى في المنام أني أذبحك... لم ينفر ولم يغضب... بل كان حليماً لدرجة غير عادية... بتحليلي فهذه البشارة غير البشارة الثانية عبر الملائكة التي نزلت لإهلاك قوم النبي لوط(ع)، فتلك البشارة كانت بولادة إسحاق(ع) من سارة، وهنا البشارة بولادة إسماعيل(ع).

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ{102})
{فَلَمَّا بَلَغَ}، عندما وصل النبي إبراهيم(ع)، {مَعَهُ}، مع ابنه، {السَّعْيَ}، وينصرف الذهن من كلمة السعي إلى الطقس من طقوس الحج، حيث يمشي الحاج بين الصفا والمروة، وكما هو مشهور جداً فإن زوجة النبي إبراهيم(ع) هاجر هي أوّل من سعى بين الصفا والمروة، وذلك عندما تركها النبي إبراهيم(ع) هناك مع ابنها إسماعيلَ(ع) بأمر من الله تعالى،

حيث تركت السيدة هاجر ابنها في المكان الذي فيما بعد نبعت منه المياه "المسماة زمزم"، وابتعدت قليلاً عن ولدها إلى تلة صغيرة لتنظر من حولها إن كان يوجد ماء... ثم اتجهت إلى تلة أخرى باحثة عن الماء، والمرتفعين البسيطين هما "الصفا والمروة"... وفيما بعد أثبت سبحانه "طقساً عبادياً" ما فعلته هذه المرأة الجليلة وجعله طقساً عبادياً يسمّى بالسعي بين الصفا والمروة. وهكذا فقد كان النبي إبراهيم(ع) "وكما هو مشهور" يقوم بمناسك الحجّ، فلما سعى هو وابنه بين الصفا والمروة، وهذا الموقف مع الغلام يأخذنا إلى ذكريات سعي أمّه للبحث له عن الماء... قال النبي إبراهيم(ع): {يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ}، فقد صارت عندي صورة محدّدة أثناء نومي، أثناء فقداني للوعي والإحساس بما حولي، أني أقوم بذبحك، بتمرير سكين على رقبتك لتقطع أوداجك، {فَانْظُرْ}، فمن بعد ما أخبرتك به وجّه اهتمامك العام إلى ما قلته لك، {مَاذَا تَرَى}؟ ما هي الصورة المحدّدة التي تصير عندك من بعد الذي قلته لك؟ يعني، أنت يا ولدي تعلم أني عندما أرى شيئاً في المنام فسيكون وحياً إلهياً، وهذا كان يحصل معي في السابق، وها قد رأيت أني أذبحك، مما يعني أنه أمر إلهي بذبحك، فماذا تقول عن هذا؟ ننتبه جيداً، فمنام النبي إبراهيم(ع) لم يكن مثل منامي أنا ومنامك أنت، بل كان (ع) متأكداً بأن منامه وحي إلهي، وهذا شيء لا نفهمه أنا وأنت لأننا لم نتلق وحياً إلهياً حتى نعرف الفرق بين المنام "الوحي" وبين المنام "العادي". قال الولد: {يَا أَبَتِ}، يا أبي، {افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ}، فهذا أمر إلهي فنفّذه، {سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}، فبمعونة منه تعالى سأتصرف بعقلانية ومطاوعة لك، ولن تفلت منّي أعصابي وهدوئي، وسأجعلك تنفّذ ذبحي بسهولة. ننتبه جيّداً، فأنا وأنت لن نتلقى أمراً إلهياً بذبح أولادنا، لأننا لسنا من مستوى إبراهيم(ع)، وهذا الأمر لم يصدر منه تعالى إلا هذه المرّة فقط، ولهذا الشخص فقط، وبتحليل الآيات التي تتحدّث عن هذا الموضوع، سترى أن أمر الذبح كان مجرد امتحان، ففي الحقيقة لن يسمح سبحانه بحصول الذبح، وفقط كان يمتحن نبيّه إبراهيم(ع)، أمّا لماذا امتحنه بهذه الطريقة؟ فبالتحليل عطفاً على ما سبق من رغبته (ع) بأن يكون له ولد لدرجة طلبه ذلك منه تعالى، ففي قلب النبي إبراهيم(ع) حبٌّ واشتياقٌ لولده "إسماعيلَ(ع)"، الذي كان يعيش مع أمّه في مكّة، فبأمر إلهي نقلهما النبي إبراهيم(ع) من أرض كنعان "كما هو مشهور" إلى مكّة وتركهما هناك، وكان (ع) يزورهما مدّة بعد مدّة فيشتاق لولده، وخاصة أن الولد كان صالحاً حليماً، وهذه صفات ستجعله محبوباً جداً جداً من أبيه، وكان النبي إبراهيم(ع) ينفّذ كل الأوامر الإلهية، فامتحنه تعالى بأمر ذبح ابنه الذي يحبّه كثيراً... لاحظ وقارن بين إبليس بإعلان طاعته لله تعالى وسقوطه في امتحان السجود لآدم(ع)، فقارنها مع الأمر بذبح الولد هنا، ولاحظ ما نفعله نحن، فنحن لم يمتحننا سبحانه لهذه الدرجة، وبامتحانات أقل منها بكثير نسقط، فنسقط في أمور سخيفة بسيطة ولا نتمكّن من تخطيها! وها نحن نقرأ عن نموذج من أرقى النماذج في طاعة الله تعالى. ولاحظ وقارن بين من اتّبع أثر آبائه المشركين وبين هذا الغلام الذي اتّبع أثر أبيه الموحّد... وهناك جدل عند بني إسرائيل حول شخصية الولد الذي تعرّض لهذه الحادثة، فبعضهم قال إنه النبي إسحاق(ع)، وآخرون قالوا إنه النبي إسماعيل(ع)، وسبب هذا الخلاف "كما يبدو" من العصبية، فإسماعيل(ع) صار جداً عربياً لقوم آخرين، وإسحاق(ع) جدٌّ لبني إسرائيل، وهذه الحادثة تدل على أهمية وقيمة الذي لم يعترض بل أطاع ذبحه بصبر غير عادي، فتعصّب بعض بني إسرائيل لتقليل قيمة إسماعيل(ع) ورفع قيمة إسحاق(ع) فتلاعبوا بالتاريخ وأعلنوا أن الذبيح هو إسحاق(ع)، وحصل بين المسلمين أيضاً خلاف على تحديد المذبوح، والقرآن لم يذكر اسم الذبيح صراحة، ولكن هنا في السورة وفي غيرها من السور، يبدو واضحاً أن إسماعيل(ع) هو الذبيح، فمن المشهور جداً أنه أول ولد للنبي إبراهيم(ع)، والولد الثاني إسحاق(ع)، وسور القرآن ذكرت النبي إسحاق(ع) بعد الانتهاء كلياً من حادثة الذبح، كما سترى هنا بعد بضع آيات في الآية 112، فبشكل واضح ترى أن إسحاق(ع) هو الولد الآخر الذي بشّرت به الملائكة سارة ولم يكن مولوداً في وقت حصول حادثة الأمر بالذبح. وبالتحليل يبدو أنه تعالى لم يرد من هذه المسألة أن تكون سبباً لنفور بعض الناس من قرآنه، فلم يحدّد أن الذبيح إسماعيل(ع) بل لمّح له، وذلك حتى لا يتحسّس من قرآنه تعالى المتأكدون أن الذبيح إسحاق(ع)، وهذه مسألة لا تستحق الخلاف عليها "هذا بتحليلي".

(فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ{103})
{فَلَمَّا أَسْلَمَا}، فعندما صارا منقادين مطيعين بالنسبة لموضوع تحقيق المنام، {وَتَلَّهُ}، بطحه مستلقياً، {لِلْجَبِينِ}، فالجبهة لما بين وسط وفوق العينين، والجبين على جانبي الجبهة فلدينا جبين يمين وجبين شمال، يعني: استلقى الولد بكامل جسده أو بالقسم الأعلى من جسده بشكل يصير فيه جبينه لجهة ورقبته إلى اليمين أو الشمال. وأتصوّر المشهد بالنبي إبراهيم(ع) مديراً وجه ولده عنه، فهو خلف وجه ولده الذي وضع جبينه على الأرض... ويقول بعضهم إن الحادثة جرت في منطقة منى التي يقدّم فيها الحجّاج الأضاحي.

(وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ{104})
... لم تذكر الآيات مشهد التنفيذ حيث وضع النبي إبراهيم(ع) السكين على رقبة ابنه كما هو مشهور، ويقولون إنه (ع) مرّرها ولكنه تعالى قلبها إلى الجهة غير الحادّة... ولكن لا أثر قرآنياً لذلك. {وَنَادَيْنَاهُ}، فتوجّه تعالى إلى النبي إبراهيم(ع) بكلام، {أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ}... والنداء هو عموم إصدار صوت ضعيف أو قوي يتوجّه به إلى سامع محدّد، ومن

مشتقاته: يريد المنادي من السامع الالتفات للكلام أو يعلن المنادي للسامع أنه متوجّه إليه حصراً بكلامه. ويقولون إن ملاكاً نقل النداء الإلهي...

(قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{105})
{قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا}، لم تكذّب الصورة المحدّدة التي حصلت معك في منامك، حيث رأيت أنك تذبح ابنك، وعلمت يقيناً أنها أمر من عنده تعالى، وقمت بتصديقها بتحقيقها فلم تكذّبها، {إِنَّا كَذَلِكَ}، بالذي حصل معك "بتعطيل ذبحك لابنك" {نَجْزِي}، نقابل، {الْمُحْسِنِينَ} الذين كان عملهم حسناً جيّداً.

من المشهور جداً في التاريخ أن النبي إبراهيم(ع) شرع في التنفيذ فعلياً، ويبدو أنه (ع) وصل في التنفيذ إلى مرحلة وضع السكين على رقبة ابنه (ع)، وبعدها سمع (ع) الصوت من الملائكة(ع) في وعيه وحياً أو في أذنيه... التي قالت له "فيما قالت" أن يتوقّف حيث أنجزت ما أمرك به ربّك سبحانه.

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ{106})
{إِنَّ هَذَا}، الذي حصل معك من أمرك بذبح ابنك، {لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ}، بشكل واضح هو التعرّض لشيء يمكن أن يغيّر الإنسان، بتعبيرنا الدارج: هو الامتحان الاختبار الصعب. فإن كان هناك شيء يمكن أن يمرّ على الإنسان ويؤثّر عليه ليغيّره، فما حصل مع النبي إبراهيم (ع) ومع ابنه (ع) فهو فعلاً الشيء الذي يمكن أن يغيّر الإنسان.

كما ترى لا النبي إبراهيم(ع) ولا ابنه (ع) تراجعا عن تنفيذ هذا الأمر الإلهي الصعب، ولم يتغيرا عن خطّهما الإيماني.

(وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ{107})
{وَفَدَيْنَاهُ}، جرى استبدال حصول الضرر على الولد، {بِذِبْحٍ}، بما يتم ذبحه "عادة"، {عَظِيمٍ}، كبير. ومن المشهور أن الفداء كان بكبش، بذكر الضأن "خاروف" كبير الجثّة.

سؤال: من أين أتى هذا الكبش؟ لا يبدو من القرآن أي شيء صريح في هذه المسألة، والجملة هنا توحي "ولا تصرّح" بتدخّل إلهي بخلق كبش أو نقله إلى حيث تحصل الحادثة، وعلى كل حال لا ينفع هذا البحث عن الكبش بأي شيء.

هنا نلاحظ أن مناسك الحج تتضمّن تقديم أضحية، فهل هذا الفداء هو أول أضحية حصلت ومن بعدها صار تقديم الأضحية منسكاً في الحج؟ لا نعلم، لأن القرآن عندما تحدّث عن أصل وأساس تشريع الحجّ أخبرنا أن الأساس هو شكر الله تعالى على بهيمة الأنعام كما تقرأ في الآية 28 من سورة الحج "لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ"، وهذا يتضمّن توحيده تعالى كإله رازق، ويتضمن التعبير عن طاعته تعالى والتقرّب منه... فهل هذا يعني أن أصل الحجّ قبل النبي إبراهيم(ع) كان يتضمّن طوافاً حول الكعبة، وأضحية؟ أم أن الأضحية صارت مع المناسك بعد هذه الحادثة؟ أو تجدّدت كمنسك من بعد هذه الحادثة؟ أو لا علاقة أصلاً بين حادثة الفداء والأضحية التي من مناسك الحج؟ كما ترى فأي جواب عن هذه الأسئلة استناداً لما بين أيدينا من معلومات سيكون مجرد احتمال، وهو لا يقدّم ولا يؤخّر في أي شيء تشريعي أو عقائدي.

وتلاحظ في الروايات استنسابهم حصول هذا الفداء بمنى، وهو الأرجح نظراً لافتراضنا برغبة النبي إبراهيم(ع) الابتعاد عن الكعبة للابتعاد عن الناس لتنفيذ هذا الأمر الإلهي... وورد عن المسمّى كعب "وهو يهودي أسلم" حيث قال إن مكان حصول الحادثة في بيت المقدس، وهذا بناءً على ما هو منتشر عند الغالب الأعم من اليهود أن الذبيح كان النبي إسحاق(ع) وأقحم كعب وأمثاله ممّن قرأ كتب اليهود، أقحموا هذه الإسرائيليات في تراثنا.

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ{108})
{وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ}، بقي للنبي إبراهيم(ع) أثر، ولم نقطع الإيمان به وبدينه، {فِي الْآخِرِينَ}، فيمن أتى من بعده(ع) حيث أكملوا الطريق على إيمانه ودينه (ع). ولم ينقطع الإيمان بين الناس، وبقي النبي إبراهيم(ع) وإيمانه ودينه مذكوراً معروفاً يتناقله المؤمنون "والأنبياء والرسل" عبر التاريخ.

وهذه الجملة وردت سابقاً في السورة وسترد مرتين بعد.

فإن كان المشركون يحتجّون بأن دينهم هو دين آبائهم وأجدادهم، فهذا غير صحيح، لأن الأصل هو دين التوحيد في أجدادهم، وبالخصوص الكلام هنا مع النموذج أهل مكّة، ودين أجداد أهل مكّة التوحيد، فهم بغالبيتهم من أولاد النبي إسماعيل(ع) ابن النبي إبراهيم(ع)، فأساس دين أجدادهم القديم كما ترى هو التوحيد، وبقي هذا الدين الصحيح مستمراً بين بعض الناس، والآخرون اخترعوا ديناً خاصاً بهم...

مثلما اختارت السورة الإشارة للطوفان المشهور جداً بين عموم الناس، والذي أباد الكفّار وترك الموحدين فقط، واختارت مسألة محاولة حرق إبراهيم(ع) بسبب تكسيره للأصنام، اختارت نقل قصّة النبي إسماعيل(ع) المشهورة جداً جداً بين عموم العرب وبالخصوص بين أهل مكّة، فهو (ع) جدّهم، وهم يعرفون قصّة ذبحه وفدائه، وهذه القصّة من المفروض أن تذكّرهم بدين أجدادهم الأصلي، لأن كل محاورها حول أشخاص تواصل معهم سبحانه وليس فيها ولا بذرة ولا إشارة لأي إله من آلهتهم، التي اخترعها بعض أجدادهم فيما بعد...

(سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ{109})
من ناحيته تعالى لا شيء سيئ بل كل الخير للنبي إبراهيم(ع)، وعملياً النبي إبراهيم(ع) موصوف بأنه لا سوء ولا عطل فيه، وبالتالي لن يعامله ولن يصفه تعالى بأي شيء سيئ بل بالعكس سينال (ع) الخير منه تعالى.

(كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{110})
{كَذَلِكَ}، بالذي ذكرناه من نجاته من النار العظيمة، ورزقه بالولد، والفدو... {نَجْزِي}، نقابل، {الْمُحْسِنِينَ}، الذين كان عملهم حسناً جيّداً، فمن كان عمله جيّداً نقابله بهذه الأمور الجيّدة.

هذا نموذج مشهور جداً عن تدخّله تعالى، وأي كلام من المشركين عن تدخّل آلهتهم، فهو كذب، ولو تماشينا مع كذبهم فأين الامتداد التاريخي لآلهتهم ولتدخّلها في شؤون الناس، وترى هنا التذكير بنوح من آلاف السنين... إلى إبراهيم وتكسير الأصنام، وذبح ولده... وما بينهما من أحداث يتجاوزها القرآن عادة للتركيز على ما هو مشهور منتشر بين الناس ليتذكّر أن دين التوحيد هو الأصل الصحيح وهو الخط المستمر عبر التاريخ الطويل من الرسل.

(إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ{111})
{إِنَّهُ}، النبي إبراهيم(ع)، {مِنْ عِبَادِنَا}، من الذين يتصرفون على أساس أنهم مفروض منهم طاعته سبحانه، {الْمُؤْمِنِينَ}، المعتقدين به تعالى بشكل صحيح.

لمزيد من التوسّع حول كلمة "عباد" راجع ما ذكرناه في دراسة الآية 40 من هذه السورة.

(وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ{112})
{وَبَشَّرْنَاهُ}، أوصلنا الخبر المفرح للنبي إبراهيم(ع)، عبر الملائكة الذين تمثّلوا على شكل بشر كما ورد في الآية 69 من سورة هود "وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ"، حيث حضّر لهم الطعام لأنه ظنّهم من البشر... والبشارة كانت، {بِإِسْحَاقَ}، بولد اسمه إسحاق(ع)، ونجد في التراث العبري أن معنى كلمة إسحاق في اللغة التي كان النبي إبراهيم(ع) يتكلّم بها: الضحوك البشوش. من مناسبة ضحك "سارة" الذي نقلته الآية 71 من سورة هود "وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ..." وأخبرتها الملائكة(ع) تسمية الولد اشتقاقاً من مناسبة ضحكها.

{نَبِيّاً}، يتلقى منه تعالى النبأ، يتلقى منه تعالى الخبر غير المنتشر علمه بين الناس، {مِنَ الصَّالِحِينَ}، فكره وسلوكه حسن جيّد لا فساد فيه.

ننتبه جيداً، بعد انتهاء قصّة الذبح تتحدّث السورة عن البشارة بإسحاق(ع) مما يؤكّد بأنه ليس الولد الذي كان في حادثة الذبح.

(وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ{113})
{وَبَارَكْنَا}، أعطى سبحانه صفة الرضى والقبول، {عَلَيْهِ}، على النبي إبراهيم(ع)، وعلى ولده النبي إسحاق(ع). وهل البركة مستمرّة في كلّ هذه الذريّة؟ لا:

{وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا}، ومن الذين انفصلوا عنهما "بالولادة أو بغيرها"، من أولاد وأولاد أولاد... هذين النبيين يوجد، {مُحْسِنٌ}، من حسن فكره وعمله، ويوجد، {وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ}، بشكل واضح لم يكن معه حقّ مع نفسه حين لم يلتزم بدينه تعالى منحرفاً عن خطّ الدين الصحيح لأجداده المؤمنين. كما نسأل: ماذا فعلت بنفسي؟ حين تورّطت في شيء سيئ. الجواب: ظلمت نفسي. وهنا التوصيف نفس الشيء.

تذكّر نقل السورة عن المشركين قولهم: هذا دين آبائنا وأجدادنا. لفتت هذه الفقرة انتباه الجميع عن النماذج الطاهرة التي كانت فقرات في تاريخ الناس، هؤلاء أجدادكم، النبي نوح(ع) جدّكم، وبعده النبي إبراهيم (ع) جدّ للكثير من الناس وبالخصوص فهو (ع) جدّ غالبية أهل مكّة النموذج الذي وجّه القرآن كلامه له في هذه الآيات وغيرها، فهؤلاء الأجداد كانوا نماذج راقية عالية جداً في التوحيد والطاعة لله تعالى، وكانوا محطّ عنايته ورعايته تعالى بشكل واضح "سفينة استغرق بنيانها سنينَ طويلةً لطوفان ساحق... نار بنيت بضخامة هائلة نجا منها... جدّ استسلم للأمر الإلهي بذبحه لولده... وولدان سبقت ولادتهما بشارة إلهية"، وها سلسلة أنبياء أطهار من نسل النبي إسحاق(ع) ومنهم النبي عيسى(ع)... فهذه محطّات في تاريخ أجدادكم أيها النموذج أهل مكّة، فما معنى قولكم إن الشرك هو الدين الأصلي لأجدادكم!

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ{114})
مَنَنَّا على موسى(ع) وهارون(ع)، فهما لم يقدّما أي شيء له تعالى، وسبحانه أعطاهما أشياء تستوجب منهما شكره سبحانه عليها.

تلاحظ بوضوح في هذه الفقرة التركيز على المنّة الإلهية على نموذجين صالحين، وتعلم مدى العناية التي حصل عليها النبي موسى(ع) منذ طفولته، وأخيرا حصل هو(ع) وأخوه (ع) على منّة نزول الوحي عليهما ومقام الرسول الإلهي.

لا زالت السورة بتركيزها على الامتداد التاريخي لتدخّله تعالى وعنايته بالمؤمنين وإرساله للرسل إلى الناس... في مقابل الآلهة الوهمية التي اخترعها الناس ولم تفعل أي شيء عبر التاريخ...

(وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ{115})
{وَنَجَّيْنَاهُمَا}، خلّصناهما من الخطر، {وَقَوْمَهُمَا}، مع الناس الذين كانا (ع) ينتميان لجمعتهم، وهم بنو إسرائيل، نجّاهم سبحانه، {مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}، من حالة الأوضاع الصعبة جدا المتعثّر الخروج منها، حيث نجّاهم من حكم فرعون المانع لهم من ممارسة إيمانهم والقاتل لمواليدهم الذكور مدّة بعد مدّة...

(وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ{116})
{وَنَصَرْنَاهُمْ}، حيث حقّقنا لهم ما يريدونه، {فَكَانُوا}، القوم وموسى(ع) وهارون(ع)، {هُمُ الْغَالِبِينَ}، الأكثرية راجحة لهم، لأن القوة من ناحيتهم أكثر، فانتصروا على فرعون وجنوده.

كما تعلم لَحِقَ فرعون بهم ليقتلهم ويأسرهم ولكن أغرقه تعالى مع جنوده...

هذا نموذج من التاريخ الطويل عن تدخّله تعالى في حياة الموحدين التابعين له.

(وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ{117})
{وَآتَيْنَاهُمَا}، حيث صار معهما منه سبحانه، {الْكِتَابَ}، وهو التوراة، {الْمُسْتَبِينَ}، الذي يجعل الأمور بيّنة واضحة، فتقيس الأمور العقائدية والتشريعية عليه فتجدها واضحة، لأن هذه صحّ وحقّ وتلك خطأ وبطلان، طبعاً هذه الحالة قبل تحريف التوراة وإضافة كتب أخرى لها من تأليف علماء اليهود وتحريفاتهم لبعض كتب الأنبياء.

نقف قليلا لنتذكّر تركيز السورة هنا على الامتداد التاريخي لدينه تعالى، حيث صار منه تعالى للناس كتاب، كأثر ملموس عن دينه تعالى، وهذا شيء تميّز به دينه تعالى عبر تاريخ البشرية، فلا تجد أي دين آخر له هذا الامتداد التاريخي مع كتب فيها نفس العقيدة ونفس أساسيات التشريع.

(وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ{118})
{وَهَدَيْنَاهُمَا}، ووضعهما سبحانه على الشيء الصحيح الذي يوصلهما للغاية الصحيحة، {الصِّرَاطَ}، الطريق الأساسي، {الْمُسْتَقِيمَ}، الذي يوصف أنه على الأحسن فلا انحراف ولا اعوجاج فيه، وهو الطريق الإلهي في الفكر والعمل.

تتذكّر أنه تعالى لا يكلّفنا بالإيمان بشيء غريب عجيب، ولا يكلفنا بالالتزام بأفعال سيئة، بل جعل فينا قابلية تمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، وكلّفنا بالإيمان بالحقّ وفعل الخير، لا يوجد شيء باطل أو سيّء ونحن مكلفون منه تعالى بفعله، لأن هذا دين من صنع الناس وليس دينه تعالى، حيث إن التعبير عن الهداية للصراط المستقيم مرادف عمليا لتطبيق كلامه تعالى لأن كلامه تعالى الحقّ والصلاح، ولكن تثبيت المفهوم القرآني الأساسي، أن معيار الحقّ والصلاح معلوم لنا، وسبحانه يهدينا عبر تزويدنا بمرجعية نقايس عليها الأمور، عبر كلام منه تعالى ككتاب فيه الحقّ واضحا، حيث إن تثبيت هذا المفهوم مهمّ جدا لأنه أساس وأصل معنى الدين الإلهي، وتكليفنا ومحاسبتنا ومجازاتنا قائمة على تمييزنا نحن للخير من الشرّ والحقّ من الباطل، وسننال العقاب على فعل السوء، حتى لو فعلناه ونحن نضحك على أنفسنا كاذبين بنسبة الأمر بالسوء إليه تعالى.

بعبارة أبسط، الصراط المستقيم هو الحقّ والصلاح، وأي اعتقاد لا يقبله العقل السليم، فهو كذب لم يقله تعالى، وأي عمل سوء، فسبحانه لن يأمر به، وإن وجدت عقيدة باطلة أو فعل سوء يروّج لهما الناس أنهم من دينه تعالى، فاعلم أنه دين الناس وليس دينه تعالى.

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ{119})
{وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا}، فلم نقطع الإيمان بهما وبدينهما، {فِي الْآخِرِينَ}، فيمن أتى من بعدهما(ع) حيث أكملوا الطريق على إيمانهما ودينهما.

يعني لم ينقطع الإيمان بين الناس بهما وبخطّيهما عبر التاريخ. وهذا الدين المطروح عبر هذا القرآن هو امتداد لذاك الدين الذي كان عليه النبيان موسى(ع) وهارون(ع).

كما ترى فإن هذه الجملة المتكررة تشير للامتداد التاريخي لدينه تعالى، وأن أي تبرير أو عذر عن اتباع أحد ما لآثار آبائه المشركين فهو غير مقبول، لأن الخطّ الأساسي عبر التاريخ هو دينه تعالى وبقية الخطوط انحرافات اخترعها الناس فترة بعد فترة في حياتهم.

(سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ{120})
من ناحيته تعالى لا شيء سيّء بل كل الخير لموسى(ع) وهارون(ع)، وعمليا هما(ع) موصوفان بأنه لا سوء ولا عطل فيهما، وبالتالي لن يعاملهما ولن يصفهما تعالى بأي شيء سيّء بل بالعكس سَيَنَالَانِ الخير منه تعالى.

(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{121})
{إِنَّا كَذَلِكَ}، بالذي ذكرته الآيات من المنّة بالنبوّة والرسالة، وإعطائهما الكتاب، وتخليصهم من حكم فرعون، والنصر... بهذه الأمور، {نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}، فمن كان فكره وعمله حَسَناً فبأمثال هذه الأمور يقابل سبحانه إحسانه.

(إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ{122})
{إِنَّهُمَا}، موسى(ع) وهارون(ع)، {مِنْ عِبَادِنَا}، من الذين مفروض منهم الطاعة لإلههم وهم يتصرفون على هذا الأساس، {الْمُؤْمِنِينَ}، المعتقدين به تعالى بشكل صحيح.

لمزيد من التوسّع حول كلمة "عباد" راجع ما ذكرناه في دراسة الآية 40 من هذه السورة.

(وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ{123})
من المشهور جدا أن هذا النبي(ع) كان من أنبياء بني إسرائيل، وأن تحرّكه كان في منطقة بعلبك "البقاع" فيما يسمّى لبنان حاليا، ويؤيّد ذلك ذكر إلههم بعل في الآية بعد التالية، حيث إن اسم المدينة مشتق من ذلك "بعل بك". ويوجد مدفن له معروف عند أهل المنطقة باسم: النبي أيلا(ع)، ولاسمه تصريفات أخرى مشهورة في الكتب: إيليا، أيلي، أيليجا.

(إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ{124})
{إِذْ قَالَ}، الرسول إلياس(ع)، {لِقَوْمِهِ} للناس الذين ينتمي (ع) لجمعتهم: {أَلَا تَتَّقُونَ}؟! لماذا لا تتجنبون وتتحاشون؟ ولكونه مُرْسَلاً منه تعالى لهم فيكون مقصوده(ع): لماذا لا تتجنبون السوء وهو نفسه تجنّب غضب وعقاب ربّكم سبحانه. وسترى من الآية التالية أنهم كانوا مشركين.

(أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ{125})
{أَتَدْعُونَ بَعْلاً}، أستغرب توجّهكم بالدعاء بالإشهار بالإعلان لبعل على أساس أنه إلهكم، {وَتَذَرُونَ}، تتركون ولا تهتمّون بـ، {أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ}؟! خير من ركّب وألّف الكائنات والظواهر؟ والآية التالية تحدّد أنه تعالى المقصود بأحسن من خلق.

وَصْفُ الحسن مُطْلَقٌ ولا داعي لمقابلته بشيء أقل حُسْناً أو سيّئاً، وتفهم ذلك من الآية 145 من سورة الأعراف "وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ... وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا..."، فليس في التوراة شيء سيء أو شيء أحسن من شيء، ونفس المعنى بشكل واضح في الآية "وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"، ونفس المعنى في الآية 96 من سورة النحل "مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"، والتعبير في الآية هنا لا يقصد أن الآخرين يخلقون وسبحانه أحسن منهم، بل سبحانه مطلقا أحسن الخالقين حتى لو لم يكن كل الآخرين يخلقون أي شيء.

من المشهور بين الناس وفي التاريخ أن "بعل" اسم لإله عبده الناس في منطقة بعلبك، "بعل بك" فيما يسمّى بلبنان حاليا، وكانوا يصفونه بإله الخصوبة، فكل ما يتعلّق بالمطر والزرع والنتاج الزراعي والإنجاب للإنسان والبهائم... كانوا ينسبونه لبعل، حتى إن معنى كلمة بعل كان "ولا يزال" يشير إلى الخصوبة والذكورة في الكثير من اللهجات العربية، حيث إن النبتة التي تعيش بلا سقي يصير وصفها "بعل"، والزوج الذي يخصّب زوجته وصفه بعل...

هنا تشير الآية إلى ظواهر خلق "خصابة إنتاج توالد..." ينسبها الناس لبعل، فيستغرب الرسول(ع) كيف يتركون عبادة الله تعالى الخالق المركّب المؤلّف لكل شيء، ويتوجّهون نحو غيره على أساس أنه يخلق؟! وكلمة خلق معناها: ركّب ألّف. فالناس كانت تزرع وتربّي الماشية وتتزوّج... وكل ما ينتج عن هذا هو خلق، وقوم الرسول إلياس(ع) المشركون يضيفون إلههم بعلاً ليكون مساهما في الخلق أو مسؤولا منفردا عن الخلق، فينبههم الرسول(ع) بأنه تعالى أحسن الخالقين، فما ترونه من حسن في الخلق فهو من فعله تعالى.

(اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ{126})
من هو أحسن الخالقين؟ الله، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، ربّكم، المسؤول عنكم من مستوى إلهي، وربّ آبائكم الأولين، والمسؤول من مستوى إلهي عن آبائكم وأجدادكم الذين كانوا أولا وأنتم جئتم بعدهم ثانيا.

فإن كنتم تقولون كلاما فارغا عن أن آباءكم كانوا يعبدون بعلا، وتتخذونه دليلا على صحّة عبادتكم له، فانتبهوا أن هذا الإله له يوم محدّد اخترعه الناس فيه، وقبل ذلك لم يكن له وجود، ولم يكن له اسم ولا وصف ولا تمثال، أمّا الله سبحانه فهو الإله الحقيقي القديم لآبائكم.

تذكّر دائما أن كلمة ربّ تشير لمسؤولية العناية بالآخرين، فأنا ربّ بيتي، وزوجتي ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... وسبحانه ربّ من مستوى إلهي. وهذا الاستغراب هنا من الرسول إلياس(ع) ذكره القرآن مرارا وبطرق مختلفة حين وجّه كلامه لعموم المشركين، فإن كنتم تعبدون أي إله غيره تعالى وليكن "بعلا" على أساس أنه ربّكم، فمن ربّ

الآخرين؟ وأين كان بعل قبل أن تخترعوه، وما هو تاريخه؟ ومن كان ربّكم في الأمور التي تنسبونها لبعل قبل أن يخترع آباؤكم بعلا؟...

بقي شيء، فالقصص التي طرحها القرآن كنماذج مختارة من التاريخ تحمل العبرة التي يريدنا سبحانه الالتفات إليها، ونقرؤها كمسلمين متخطين مواضيع كثيرة متعلقة بها لأننا مؤمنون بإلهية مصدر هذا القرآن، ويتجاهلها عن قصد الكافرون بإلهية مصدر هذا القرآن، لأنهم عاجزون عن تفسيرها بناء على اتهامهم للنبي محمّد(ع) بتأليف هذا القرآن، ومنها هذه الآيات القليلة هنا عن النبي إلياس(ع)، وعبادة قومه لبعل، فخذها كنموذج واسأل: إن كانوا يقولون بأن هذا القرآن من تأليف محمّد(ع)، فمن أين له بالمعلومات الصحيحة دائما عن حوادث يجهلها قومه ومحيطه؟

من أين له المعرفة بإلياس(ع) وبعل؟ وهذا تاريخ غير مشهور إلا في منطقة بعلبك؟ وستأتيك إضافة صغيرة حول ذلك في الآية التالية:

(فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ{127})
{فَكَذَّبُوهُ}، لم يصدّقوا كلامه عن الله تعالى، {فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ}، بالتأكيد سوف يأتي بهم تعالى إليه ليحاسبهم على شركهم وتكذيبهم، هم ماتوا ولكن لم يختفوا ولم يذهبوا إلى عالم خارج عن سيطرته تعالى... بل سيأتي بهم تعالى ليحاسبهم.

لا يظهر من الآية هنا نزول عذاب على قوم النبي إلياس(ع)، ومما هو منتشر عن تاريخه (ع) يبدو كمقاتل صلب خاض المعارك، علماً أن ما تجده من خلط وتشويه في رواياتنا هو نفس الخلط والتشويش في روايات اليهود حول هذه الشخصية، ولولا شهرة اسمه وقبره وبعل... في منطقة بعلبك لكان الموضوع أشدّ صعوبة في الإضاءة ولو على شيء قليل من أهم تاريخه (ع)، وسبب ذلك معلوم، وهو استهتار الناس بالدقة في نقل الأمور التاريخية.

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ{128})
{إِلَّا} الذين يتصرفون فعلاً أنهم مفروض منهم طاعته تعالى، حيث يؤمنون أنه خلقهم ويملكهم ومفروض منهم طاعته، {الْمُخْلَصِينَ}، "فتحة على حرف اللام"، بالخصوص هؤلاء الذين لا يوجد شوائب في إيمانهم لن يذوقوا العذاب، حيث أنا مخلص "بالكسرة على اللام" لله تعالى أُوَحِّدُهُ ولا أشرك به، فالكلام هنا عن الإخلاص بالتوحيد، فأنا مخلص "فتحة على اللام" فهذه صفتي.

بعبارة أخرى، كلنا عبيده سبحانه، ومفروض منّا طاعته، ولكن بالتحديد من بين عبيده، المخلصون لن يذوقوا العذاب، بل بتاتاً ولا بأي شكل سينزعجون في الآخرة، من أول لحظة يفتحون عيونهم هناك سيشعرون بالسعادة...

لمزيد من التوسّع حول كلمة "عباد" راجع ما ذكرناه في دراسة الآية 40 من هذه السورة.

(وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ{129})
{وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ}، فلم نقطع الإيمان به (ع) وبدينه، {فِي الْآخِرِينَ}، فيمن أتى من بعده(ع) حيث أكملوا الطريق على إيمانه ودينه. حيث لم ينقطع الإيمان بين الناس، وبقي النبي إلياس(ع) وإيمانه ودينه مذكوراً معروفاً يتناقله المؤمنون "والأنبياء والرسل" عبر التاريخ.

نلتفت الآن إلى اندثار عبادة بعل، بل اندثرت منذ زمن طويل، ولم يبق لها ذكر إلا في كتب التاريخ، وهذا حال بقية آلهة المشركين التي لا امتداد تاريخي لها.

(سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ{130})
من ناحيته تعالى لا شيء سيئ بل كل الخير لإل ياسين(ع)، وعملياً هو(ع) موصوف بأنه لا سوء ولا عطل فيه، وبالتالي لن يعامله ولن يصفه تعالى بأي شيء سيئ بل بالعكس سَيَنَالُ (ع) الخير منه تعالى.

من سياق القصص السابقة عن الأنبياء نعلم أن المقصود بإل ياسين هو نفسه الرسول إلياس(ع) لأن كل المقاطع السابقة ذكرت الشخص ثم سلمت عليه. وما تجده في بعض الروايات التي لم تعتبر تسمية إل ياسين للنبي إلياس متعارض مع بعضه في تشخيص المقصود بإل ياسين... ومتعارض مع سياق الآيات... وكما أشرنا لك سابقاً حيث إن هذا النبي من عصره ولا يزال إلى الآن يتداول الناس اسمه بتصاريف مختلفة، إلياس، أيلا، إليجا، إيلي، إليّا... والظاهر أن منطقة نشاطه كانت ممتدة على بقع فيها لهجات مختلفة للنطق باسمه، أو أن اسمه وصف لشيء يختلف النطق به باللهجات المختلفة.

(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{131})
{إِنَّا كَذَلِكَ}، بالذي ذكرته الآيات عن نجاة المؤمنين حين يحضرهم تعالى ليحاسبهم، {نَجْزِي}، نقابل به، {الْمُحْسِنِينَ} الذين كان فكرهم وعملهم حسناً جيداً.

(إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ{132})
{إِنَّهُ}، الرسول إلياس(ع)، {مِنْ عِبَادِنَا}، من الذين خلقهم تعالى وهو يملكهم وهم عبيده ومفروض منهم طاعته، {الْمُؤْمِنِينَ}، المعتقدين به تعالى بشكل صحيح.

(وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ{133})
لوط (ع) من المجموعة التي قامت بنقل كلامه تعالى للناس.

لم تذكر السورة هنا تفاصيل قصّته الطويلة مع الملائكة(ع) التي نزلت على شكل بشر... وهجوم أهل القرية على بيته... لأنها لم ترد التركيز عليهم، وأرادت التركيز على الامتداد التاريخي للرسل الإلهية في مقابل آلهة وهمية اخترعها الناس في بقع مختلفة وأزمنة مختلفة ولا رسل لها ولا امتداد تاريخي لها ولا أثر لتدخلها...مع التركيز على العبد المخلص ونجاته من تدمير المشركين.

(إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ{134})
{إِذْ نَجَّيْنَاهُ}، خلّصه تعالى من الخطر، {وَأَهْلَهُ}، مع المنتمين له (ع)، {أَجْمَعِينَ}، كلّهم، ومن الآية 71 من سورة الحجر "قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ" نعلم أنه(ع) كان لديه بنات بالتأكيد، ويقولون إنه لم يكن له أولاد ذكور، وهذا لا يمكن تأكيده ولا نفيه من القرآن، ويقولون في الروايات إنه كان معه(ع) أصهرة، وهذا يتعارض مع توصيف من نجوا أنهم من آله، وقد ورد ذلك في الآية 59 من سورة الحجر "إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ" وغيرها، حيث إن الأصهرة ليسوا من الآل إلّا إن كانوا من الأقارب، ومعلوم أنه (ع) لم يكن له أقارب في تلك القرى لأنه مهاجر من مدينة أخرى كما تعلم وذكرته الآية 26 من سورة العنكبوت "فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي...".

(إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ{135})
{إِلَّا}، استثناء من الأهل، {عَجُوزاً}، امرأة فقدت قواها لأنها صارت كبيرة جداً في السن، {فِي الْغَابِرِينَ}، كما نقول: في الزمان الغابر. ونقصد الزمان الذي مضى ومرّ منذ مدة طويلة. وقومها مضوا وماتوا وصاروا في خبر كان وهي لحقت بقومها "الغابرين" بالعذاب حيث إنها معهم من الماضين ولم تكن من الناجين. وبتعبيرنا الدارج: راحت مع الذين راحوا. وزوجته من أهله ولكنها لم تنج.

نلاحظ استعمال القرآن لكلمة الغابرين سبع مرات، وفقط لامرأة النبي لوط(ع)، وكما نعرف من القرآن، سبحانه أمر نبيه لوطا(ع) بالخروج مع أهله في الليل من القرية، وألّا يلتفتوا إلى الخلف عندما يبدأ العذاب، وخرجت زوجته معهم أيضاً، "لأنها من أهله وليست من آله"، ولكنها لم تكن مؤمنة أصلاً وكانت موافقة على ما يفعله قومها، وكان يجب أن تموت مع قومها، وبعد ابتعادهم عن القرية وابتداء العذاب، التفتت ورأت الحجارة والحمم تنزل على القرية، وفي هذه اللحظة نزل حجر عليها وألحقها بهم، راجع الآية 81 من سورة هود التي تشير لذلك "... فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ..."، حيث التفتت وكانت من الغابرين، ولم تكن من الناجين بل من الذين ماتوا وصاروا من الماضي.

(ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ{136})
حَصَلَ لقومه(ع) تغيير في الهيئة ناتج عن التعرّض للضرب بالحجارة التي نزلت عليهم وانخساف الأرض، فانطحنوا وتكسروا وترضرضوا...

(وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ{137})
تَقْطَعُونَ الطريق بقربهم حين تسافرون، {مُصْبِحِينَ}، في الفترة الأولى من النهار...

(وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ{138})
{وَبِاللَّيْلِ}، وأيضا تمرون عليهم في فترة العتمة من اليوم، يعني مثلما نقول: تمرون عليهم صبح ومسا، على الرايح والجاي، في الذهاب والإياب... لأنهم على طريقكم وتعرفون مكان حصول الحادثة.

من المشهور في التاريخ الديني استناداً إلى التوراة أن قوم النبي لوط(ع) كانوا يسكنون في أربع قرى بالقرب من البحر الميّت، ويبدو من الكلام هنا أنها كانت على طريق سفر أهل مكّة بين المناطق.

ننتبه، حيث إن كلام القرآن مع أهل مكّة لا يجعل الكلام القرآني مخصصاً لهم، بل وجّه القرآن الكلام لهم على أنهم نموذج عن البقية، وكل من كان على طريقه مكان معلوم له حصول دمار فيه، أو سمع من الناس عن مكان حصل فيه دمار لأناس اشتهروا بفسادهم... فالكلام موجّه له أيضا. كما تعلم فإن الكثيرين من أهل مكّة لم يسافروا منها، لأن الآية لا تقصد أبدا أن كل شخص من أهل مكّة مرّ على تلك القرى، ولكن خبر تلك القرية مشهور، ومكانها مشهور.

{أَفَلَا تَعْقِلُونَ}؟! لماذا لا تحركون عقولكم؟! لماذا لا تفهمون أن هذه عاقبة المخالفين للرسل، وقد يصيبكم مثلهم؟!

حالياً في البلد الذي يسمى الأردن، يوجد منطقة تسمّى غور الأردن، وهي منطقة كانت مسكونة منذ القدم، ويقع فيها البحر الميت، وهو البحر الصغير المشهور بارتفاع نسبة الملح في مائه لقرابة الثلاثين من المئة، ومن المشهور بين المسلمين أنه في زمن النبي لوط(ع) كان في منطقة غور الأردن أربعة تجمعات سكنية، لكل واحدة منها اسم، وهي مذكورة في التوراة ولم يذكرها القرآن وهي: سادوم، عامورة، أدومة، صبييم. وهذه التجمعات هي القرية التي كان فيها النبي لوط(ع). والمشهور في عموم ثقافة المتدينين أن البحر الميت لم يكن موجوداً في عصر النبي لوط(ع) بل كان مكانه واحدة من التجمعات السكنية، "وهذا غير صحيح فالبحوث الحالية تثبت بأن البحر الميّت عمره بعشرات آلاف السنين"، ويقولون إنه عندما نزل العذاب على تلك المنطقة حيث حصل زلزال وفوران للحمم من الأرض، وانخسفت قطعة من الأرض وصارت فيما بعد بحيرة كبيرة هي الآن البحر الميت.

كما تلاحظ استعملتُ كلمة "المشهور ويقولون" بسبب وجود الكثير من الاختلافات بين كتب التاريخ حول مكان وأسماء وتواريخ وماذا حصل في تلك المنطقة، ولا يتماشى ما قالوه عن ولادة البحر الميّت من تلك الحادثة مع العمر الذي يقدّره علماء الجيولوجيا له، فربما حصل خسف فعلاً وتوسّع البحر الميّت ليغطي تلك القرى... وربما لا... على كل حال حتى عهد نزول القرآن يبدو أنه كان هناك آثار ما لتلك القرى وكان مشهوراً بين الناس حصول دمار هناك لقوم سوء كانوا يعتدون جنسياً على الغرباء... حيث إن القرآن أشار لمعرفة المسافرين من أهل مكّة لمكان قوم النبي لوط(ع) ولقصّتهم، ومعرفتهم تلك لم تكن مستندة لمصدر ديني بل مستندة لما يعرفه الناس عن تاريخ المنطقة، وهذا ما يبدو من الآية هنا والآية 137 السابقة من هذه السورة "وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ"، ومضافاً لذلك إن تسمية فعل الشذوذ بـ "اللوطي" يريك أن قصّتهم أيضاً كانت مشهورة لمدة طويلة جداً سببت اختصار النسبة من "قوم النبي لوط" إلى "اللوطي" للأسف.

(وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ{139})
هُوَ (ع) من المجموعة التي قامت بنقل كلامه تعالى للناس.

النبي يونس(ع) مشهور جداً بين الناس، حتى إن حضارات من أديان غير الأديان التوحيدية المسماة إبراهيمية، غير اليهودية والمسيحية والإسلام، سمعوا بقصّته وأدمجوها مع ثقافتهم، وصار لديهم شخص باسم مختلف عن يونس عاش

في بطن الحوت... ولقّبه القرآن في الآية 87 من سورة الأنبياء بذي النون "وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ"، وفي الآية 48 من سورة القلم لقبّه بصاحب الحوت "فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ".

(إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ{140})
{إِذْ أَبَقَ}، وكلمة أبق مستعملة لوصف عموم الهارب من تكاليف سيّده، وهنا الكلام عن هربه (ع) من تكاليفه سبحانه بهداية قومه... {إِلَى الْفُلْكِ}، إلى الشيء الذي يعوم على الماء، {الْمَشْحُونِ}، الذي يشحن ينقل الناس والبضائع من مكان إلى آخر.

النبي يونس(ع) عبد لله تعالى، وإذا هرب العبد ممّا كلّفه به سيّده، فيصير وصفه: آبق. وكما تعلم من القرآن أنه(ع) كان مكلّفاً بنقل الرسالة الإلهية إلى قومه، ولم يستجيبوا له، حيث وصله خبر إلهي عن نزول العذاب عليهم... وخرج من القرية... ولكن أهل القرية "وكما هو مشهور" عندما رأوا الغيوم السوداء الكثيفة جداً في السماء، استغفروا ربّهم سبحانه... فلم ينزل عليهم العذاب، وترى فحوى ذلك في الآية 98 من سورة يونس "فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ"، أمّا النبي يونس(ع) فلم يعجبه ذلك لأنه لم يقتنع بإيمانهم! ولم يرجع إليهم وركب في سفينة لتنقله إلى مكان بعيد عن قومه، وأبق من تكليفه كرسول، ولذلك حكم عليه سبحانه أن يبتلعه الحوت...

هناك هفوات لبعض الأنبياء ذكرها القرآن، منها ما ورد في الآية 34 من سورة ص "وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ"، ومنها ما ورد في فقرة الآية 26 من سورة ص "يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى..."، وترى الاختلاف الجذري في الطرح القرآني لقصّة تلك الهفوات، مع القصص التي نجدها في التوارة، إذ في القرآن ولا واحدة من تلك الهفوات نابعة عن إيمان ضعيف، أو سوء فهم للصفات الإلهية، ولكن في التوراة تجد تلك القصص نقلوها بحيث تعبّر عن عقائد ركيكة وفهم غير صحيح لإيمان الأنبياء(ع) بالله تعالى!

النبي يونس(ع) لم يتزلزل إيمانه بالحكمة الإلهية التي اقتضت تحييد العذاب عن قومه من بعد استغفارهم... ولكن شعر(ع) بأنه إذا رجع إليهم فسيسخرون منه من جديد وبشكل أشدّ، لأنه هدّدهم بنزول العذاب ولم ينزل! وشعر بأنهم لم يؤمنوا وأن استغفارهم كان مجرد تمثيلية... وبأن موقفه أمامهم سيكون ضعيفاً جداً جداً، حيث ذهب مغاضباً... حيث كان من المفروض منه(ع) الرجوع إليهم ليكمل مهمّته عندما علم أن العذاب لم ينزل... حتى لو كان هناك احتمال أن يسخر قومه منه ومن تهديده، وحتى لو كان استغفارهم تمثيلية...

لكنه(ع) كره الرجوع إليهم وكان غاضباً من كفرهم ومن سخريتهم منه ومن رسالته في السابق... ولكنه لم يشك أبداً بتاتاً بالحكمة الإلهية.

بعبارة أصرح، خرج من قريته مبتعداً على أساس أن العذاب سينزل عليها، ولم ينزل العذاب، ولم ينزل عليه وحي يخبره بالرجوع ولا بالبقاء بعيداً عن القرية، ولكنه غاضب من قومه بسبب كفرهم وفسادهم وسخريتهم منه في السابق... وبنظره هم يستحقون العذاب... ولم يرجع لقومه، واعتبرها سبحانه أَبْقاً، هَرَباً من تكليفه بتوصيل كلامه تعالى لقومه.

هل تتصوّر أنه (ع) كان سيعتزل وظيفته كرسول؟ أو لن يتصرّف كمؤمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟ وذهب بعيداً ليعيش حياة جديدة كشخص عادي لا علاقة له بدينه تعالى؟ لا، ولكن وبسبب جعله المسألة مع قومه شخصية، كخلاف شخصي بينه وبينهم، عاقبه تعالى واعتبره آبِقاً من وظيفته كرسول لقومه.

(فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنْ الْمُدْحَضِينَ{141})
سافر في سفينة... {فَسَاهَمَ}، حيث شارك بسهم بحصّة، {فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ}، فلم يثبت حيث هو، ولم يبق على ظهر السفينة وأزلق نفسه (ع) منها بسبب وقوع القرعة عليه.

من المشهور جداً بين الناس وفي كتب أهل الكتاب، أن حوتا اقترب من السفينة، وأخذ يدور حولها، فخاف ركّاب السفينة أن يقلب الحوت سفينتهم... ولسبب أو لآخر يبدو أن ركّاب السفينة استنتجوا أن الحوت لن يذهب عنهم إلا إذا بلع واحدا منهم، فقرروا إجراء قرعة، والخاسر سَيَرْمُونَهُ في الماء، حيث ساهم النبي يونس(ع) بالقرعة وخسر، فرمى بنفسه إلى الماء.

لا علم يقينيٌّ لنا بعقائد الذين كانوا معه في السفينة، ولا علم لي إن كان من الدارج قديما في حالات كهذه أن يرموا واحدا منهم من السفينة إن اقترب منهم حوت، حيث قيل في بعض المرويات أن ركّاب تلك السفينة كانوا يؤمنون بإله للبحر يريد أضحية لإسكات هيجان البحر، وحين يقصّون مسألة القرعة يبدو لك من الكلام وكأن إجراء القرعة في هكذا حالات شيء عادي معلوم بين البحارة... علماً أن هذا ليس منتشرا علمه في كتب التاريخ عموما، والأرجح بالتحليل أن حادثة اقتراب الحيتان من السفن وقلبها أحياناً معلوم عند البحّارة، ولكن حادثة إجراء قرعة لرمي واحد من الركاب ليبلعه الحوت كانت استثنائية، والملابسات التي جعلتهم يصلون إلى هذه النتيجة أيضا استثنائية.

بغض النظر عن الظروف التي فهموا منها أن الحلّ برمي واحد منهم في الماء، والتي أوصلت الأمور إلى إجراء القرعة لاختيار واحد منهم لرميه... فإن النبي يونس(ع) يعلم بالخطأ الذي ارتكبه، ويبدو من الآية هنا أنه ساهم بالقرعة بإرادته، ووقوع القرعة عليه وهو رسول إلهي جعله لوحده من بين بقية الركّاب يفهم أن ما يحصل هو من قرار إلهي بسبب خطأ ارتكبه هو...

(فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ{142})

{فَالْتَقَمَهُ}، التقطه الحوت بفمه كوصف حالة وضع لقمة الطعام في الفم، يعني فقط وضعه في فمه بدون مضغ، وعادة نخمّن نحن أن الحوت بلعه بناء على ما هو مشهور وبناء على تعبير الآية بعد التالية "لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ"، ولكن يمكن للكلمات أن تعطي معنى بقائِهِ (ع) في فم الحوت، فطالما صار في داخله فهو في بطنه، ولم يستعمل القرآن تعبير البلع كما هو دارج بيننا حين كلامنا عن الحادثة، ومثلها في تساهلنا في التعبير عن حادثة "تلقُّف" ثعبان النبي موسى(ع) لما صنعه السحرة، فنقول: ابتلع الثعبان... بينما التعبير القرآني "تلقف" ثلاث مرات حيث استعمل هذا الوصف لتلك الحادثة، راجع في ذلك كمثال دراسة الآية 45 من سورة الشعراء "فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ".

{وَهُوَ مُلِيمٌ}، في حالة يستحق فيها اللوم، فهو بالذات لم يكن يفترض به القيام بما قام به، وصار مستحقاً للعتاب والتأنيب والعقاب.

أنت لا تلوم إلّا حين يعني لك المرتكب للخطأ شيئاً، حيث تلومه بناء على معرفتك به أنه هو بالذات ليس من المفترض أن يقوم بهذا الخطأ، كمعلّم البناء إذا أخطأ في البناء، تلومه، أمّا إذا أخطأ في الخياطة فلا تلومه لأنها ليست مهنته. يونس (ع) نبي مرسل، وليس من المفترض منه أخذ الأمور الدينية بشكل شخصي ليكون له موقف شخصي من قومه، فاستحقّ اللوم.

بقي شيء، بعض الآيات التي يسمّيها العوام "معاجز" كالتقام الحوت للنبي يونس(ع) لمدة من الزمن، وكفلق البحر للنبي موسى(ع)... ترى الناس منقسمين حولها، هناك المؤمنون بها كما هي كعمل من فعل إلهي لسبب كذا وكذا... وبعضهم من المنتمين لدينه تعالى ولكنهم جعلوا أمثال هذه الحوادث مجازية، فلا يؤمنون بحصولها حرفياً كما هو مذكور في التوراة والقرآن، ويصوّرونها كمبالغات أو كقصص تمثيلية أو يجدون لها إمكانية لحصولها بالأسباب التي نعرفها من تجاربنا العلمية فيصير انفلاق البحر كحالة مدّ وجزر، وأن الحيّة كانت متجلدة متصلبة من ظروف ما وبعدها تعود للحركة فهي لم تكن خشبة... وآخرون يسخرون منّا لإيماننا بهكذا حوادث خرافية...

المشكلة الأساسية المنتشرة في مسألتنا هذه وفي غيرها، أننا وبضبابية وعلى المستوى النظري نفترض بأنفسنا رقياً فكرياً ورزانة، وكأننا عقلاء من الدرجة العالية في كل أمورنا، بينما نحن نفتقد لأبسط تعاليم القرآن السلوكية، حيث إن السخرية والغيبة والزهو والفخر والتكبّر والحسد والطمع... من الأمراض المنتشرة بعنف بيننا.

نتناسى أننا كبشر في تاريخنا عبدنا الحجر، وعبدنا المال والهوى والسلطة والشهرة... ونتعامى عن فعلنا لما هو سيّء بل وصرنا نراه حسناً كالربا والزنا والغشّ والشذوذ والمخدرات...

في المسائل الدينية عموماً، وفيما يشابه مسألة الآيات "المعاجز" خصوصاً، ترى الكثيرين يتعالون مستكبرين على الحقائق مفترضين بأنفسهم عقلانية غير موجودة أصلاً، فهم في شؤون حياتهم العادية يفشلون بأبسطها، ولكنهم أمام الأمور الدينية يتصرفون وكأن مستواهم الفكري والنفسي راقٍ وكامل الجودة.

هم أنفسهم الكافرون بالآيات "المعاجز"، أليسوا يطلبون آية ليؤمنوا؟ حيث يريدون لمس فعل إلهي غير الذي يألفونه حتى يؤمنوا به تعالى وبدينه؟ ما نوع ما يطلبونه؟ أليسوا يطلبون شقّ البحر وإحياء ميّتٍ وتنزيل كنز ورؤية الملائكة وتحويل العصا لحيّة و... حيث نقلت لنا عدة سور من هذه الاقتراحات ومنها الآية 12 من سورة هود "فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ".

حين حدثت هذه الأمور وأمثالها، الكافرون الذين عاصروها لم يؤمنوا بها كآيات من أفعاله تعالى وقالوا إنها سحر! وسبحانه يخبرنا في قرآنه أن أي شيء آخر غير الإيمان به تعالى من الآيات في خلق السماوات والأرض، وغير القرار الداخلي لكل واحد منّا بعمل الصالحات، لن يجعلنا مؤمنين طالما نحن نتمتع بحرية الإرادة والاختيار، راجع دراسة أي آية تظن أنها تشير لإيمان أحد ما بسبب آية غير عادية "معجزة" وسترى أن هذا غير صحيح ولم يحصل.

هناك فهم ضبابي فاسد عن دينه تعالى أننا نقتنع ونؤمن به بسبب الآيات من النوع الذي يسمّيه الناس بالمعاجز والخوارق، وها القرآن أمامك ولن تجد فيه كلاماً كهذا، بل كلّه يؤكّد لك أن طريق الإيمان به تعالى مزروع فينا عبر فكرنا الذي يميّز بين الحقّ والباطل والذي يتفعّل من خلال رؤيتنا لما خلقه تعالى، حيث نتعرّف عليه تعالى من أفعاله في خلق السماوات والأرض بما فيهما من كائنات وظواهر، وينتج عن ذلك مشاعر نحوه تعالى ومنها التعلّق به سبحانه عند الشدائد، ومضافاً لذلك دعمنا سبحانه بأنبياء ورسل وكتب.

أمّا الإيمان بسبب حدوث آية غير عادية كمعجزة، فهذا ليس صحيحاً ولم يحدث، وإنما هو استجابة منه تعالى للمتذاكين المفترضين أنفسهم أرقى فكرياً من الإيمان بدينه تعالى.

هنا حادثة التقام الحوت للنبي يونس(ع) لم تكن أصلاً مقصوداً منها أن تكون آية للناس ليؤمنوا، بل كانت درساً للرسول ولكل مؤمن وخبراً لكل الناس أنه ولا واحد على رأسه خيمة زرقاء، فبحسب نوع الخطأ هناك عقاب، وأن التكليف الذي على المؤمن "كمؤمن" فهو ليس مسألة شخصية ليأخذ موقفاً شخصياً من الناس...

على أي حال، الآية آية، فهي موصوفة بأنها عمل مميّز، فهذا هو معنى كلمة آية، وما معنى الآية إن كانت عادية لا تميّز فيها؟ المنكرون للآيات بكل أنواعها سواء آيات خلقه تعالى للسماوات والأرض وما بينهن وما فيهن، أو المنكرون للآيات من نوع الأعمال غير العادية الاستثنائية كفلق البحر... فالمنكرون لدلالتها عليه تعالى وعلى الآخرة بالجزاء على ما نفعله في حياتنا الدنيا، فهؤلاء أصلاً خاطبهم القرآن مراراً وتكراراً وبأساليب مختلفة وسألهم: إلى ماذا يدعوكم هذا القرآن حتى كفرتم به؟ فهل يأمركم بسوء؟ أو ينهاكم عن خير؟ أم العكس تماماً؟ وتقرأ ذلك في كل القرآن وكنموذج مباشر وبكلمات صريحة ما ورد في الآية 90 من سورة النحل "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ".

يؤكد القرآن دائماً أن هذه المشكلة هي السبب الرئيسي للكفر به تعالى وبآخرته، حيث إن الذي لديه قرار بفعل الصالحات وترك السيئات فهذا لن يجد أي مشكلة في تفعيل فكره ونفسيته بشكل يوصله للإيمان به تعالى وبالآخرة، أمّا الآخرون، فهم حتماً لديهم مشكلة ليست محصورة بالمستوى الفكري النظري، فهم لا انفكاك بين ما يحبون فعله من سوء وبين كفرهم بالآخرة.

الخلاصة أن بعض الناس يرون هذا النوع من القصص صبيانياً خرافياً أسطورياً تراثياً... على أساس أنهم عقلانيون، بينما سبحانه أصلاً لم يفعل ذلك إلا لمحاكاة المستوى المنخفض عند غالبية الناس الذين شوّهوا النعمة العظيمة التي منحها تعالى لهم من العقلانية حين عاندوا الإيمان بآياته المنتشرة في السماوات والأرض وهي أكثر من كافية ليؤمنوا،

فكفروا طالبين حدوث آيات مما يسمّيه الناس بالمعجزة، وعندما حصلت أمامهم قالوا إنها سحر! وعندما سمع بها آخرون قالوا إنها قصص خرافية "أساطير"، وأحيلك إلى دراسة سورة الشمس حيث إن طلب ثمود لناقة تخرج من صخرة وكفرهم بها وقتلهم لها... يريك المستوى الحقيقي لفكر ونفسية غالبية الناس، ولمزيد من التوسّع أحيلك إلى دراسة الآية 59 من سورة الإسراء "وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا".

(فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ{143})
{فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ} لولا أنه، النبي يونس(ع)، كان من المسبحين، كان من الذين نزّهوا الله سبحانه عن الصفات الناقصة، لأننا عادة كضعاف الإيمان نشك بالحكمة الإلهية من بعد مصيبة ما... فنتهّمه تعالى بأنه ليس حكيماً ولا خبيراً ولا عليماً بما يجري... أمّا هو (ع) فكان يفهم ويؤمن بالصفات الإلهية الحسنة، فنزهه تعالى.

نعلم من الآية 87 من سورة الأنبياء ملخّص ما قاله النبي يونس(ع) وهو في بطن الحوت "... أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ"، فهذا موجز ملخّص عن تسبيحه (ع). يعني هو إعلان منه (ع) عن اعترافه بخطئه.

(لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{144})
لولا التسبيح، {لَلَبِثَ}، لمرّ عليه زمن من التقام الحوت له، {إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}، إلى الزمن الذي يأمر سبحانه الناس بالقيام من الموت في الآخرة.

نلاحظ من الآية التالية وأشباهها أن الآيات هنا لا تريدنا أن نفهم أنه(ع) كان سيبقى حياً في بطن الحوت إلى يوم القيامة، لأن هذا لا يتناسب مع ما نعرفه من القرآن عن تبدّل كلّ الأرض قبل يوم القيامة، ولذلك نرى القرآن يذكر لنا أن النبي يونس(ع) صارت حالته الصحية متردية مما يشير إلى موته لو بقي في بطن الحوت لزمن أطول، حيث الحالة تشبه حالة أي إنسان مات وصار في قبر، فللبث في قبره الذي هو بطن الحوت إلى يوم البعث، حيث سيموت النبي(ع) ويموت الحوت... مثله مثل الناس التي تلبث في قبرها تحت الأرض، ويتحللون إلى تراب، وتتقلّب الأرض ويندمج تراب جسدهم ويتفرّق مع تراب الأرض... ولكن يبعثهم الله تعالى مرّة ثانية إلى الحياة.

واستطراداً نلاحظ القرآن عبّر عن إرجاعنا من القبور، والأجداث، ومن التراب... وأينما تكونوا... حيث ضع في بالك أن كلام القرآن عن القبور كان عن أبرز نموذج فيه أموات ولم يكن يقصد أنها المكان الوحيد الذي يرجع منه الناس، بل تقصّد تفعيل صورة المكان الذي يخطر ببالك عادة عند الكلام عن الأموات، حيث إن تفاعلك الفكري والنفسي مع الكلام باستعمال كلمة "قبر" أفعل من الكلام عن الأموات بلا إشارة إلى حيث عادة ندفنهم.

(فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ{145})
{فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ}، فأبعده تعالى من بطن الحوت إلى العراء إلى الجو المكشوف، فأخرجه تعالى من بطن الحوت إلى أرض مكشوفة لا ستر فيها، {وَهُوَ}، النبي يونس(ع)، {سَقِيمٌ}، فهو متضايق من وضعه الصحي المعتلّ غير السليم، بسبب البقاء في بطن الحوت "لوقت طويل نسبيا".

كما تلاحظ في هذه الآية وأمثالها إشارة إلى موت النبي يونس(ع) لو بقي في بطن الحوت لمدة أطول.

نلاحظ الآيات تلفت انتباهنا إلى قبول توبته(ع)، ولا تقصد بالنبذ هنا الاشارة لأي قلّة قيمة للنبي(ع).

بالنسبة للمدة التي بقي فيها(ع) في بطن الحوت فلم يذكرها القرآن، ونجد روايات تقول ساعة واحدة، وأخرى تسع ساعات، ويوم، ويومين، وثلاث، وأربعين يوما... وقد أغفل القرآن هذه النقطة لأنها غير مهمّة.

المهم في المسألة هو إمكانية بقائه حيا لمدة طويلة في بطن الحوت، حيث نفترض نحن ذلك، ولكن القرآن لم يذكر ذلك، وبالتالي إذا اعتبرنا بقاءه حيا لمدة قصيرة جدا، ساعة أو أقل "بضعة دقائق"، وخروجه مهترئ الجلد من عصارة معدة

الحوت، أو مرضرضا من البقاء في فم الحوت لدقائق، ثم لفظه ليصل إلى الشاطئ، عندها يكون التدخل الإلهي في التقامه لتعليمه درسا قاسيا، وليس التدخل الإلهي لبقائه حيا لمدة طويلة "أيام" كما يقولون في بعض الروايات.

(وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ{146})
حيث جعل سبحانه نبتة من صنف اليقطين تنمو فتكبر على النبي يونس(ع)، وسياق الكلام عن معالجته من آثار لبثه في بطن الحوت حيث تعرّض جلده للاهتراء من الماء بلا شمس، حيث إن إنبات يقطينة عليه يشير لستره بورقها الكبير من حرارة الشمس أو معالجته بوضع ورقها على جلده...

اليقطين نبات من عائلة القرعيات وهي تنام على الأرض ولا تنتصب على ساق، وعائلة القرعيات تشمل اللقطين والبطيخ والقثاء والخيار والكوسى... فكلها قرع، والنوع الذي حجم نباته كبير "اللقطين" يصفونه "ويسمونه" بالدبّاء بسبب حجمه الكبير، وتلاحظ انتفاء دقة استعمالنا للكلمات، حيث ترى الناس تخلط بين كلمة قرع كنوع واسم، حيث تارة يقولون قرع لكل أفراد عائلة القرعيات: قرعة باذنجان، قرعة كوسى، قرعة دبّاء... وتارة يقولون فقط عن اللقطين قرع، وتارة يقولون إن القرع غير اللقطين... وكل هذا خلط ناتج عن التساهل في استعمال الكلمات وهذا شيء منتشر بين الناس بين مختلف اللغات في مختلف الكلمات، وتجد أهل الاختصاص بشيء ما فقط يستعملون الكلمات الدقيقة، فالمزارع عادة أدقّ في استعمال الكلمات المتعلّقة بالزراعة، والنجّار عادة أدق في مهنته، والطبيب عادة أدق في وصف الأعضاء... على كل حال أشارت الآية أن النبتة من فصيلة اليقطين وقد تشجّرت عليه (ع)، حيث صار لها فروع وأغصان وأوراق حتى غطّته من حرارة الشمس أو داوى بها جلده أو تداوى بالأكل من ثمارها، أو أن ثمارها مناسبة له من بعد قضائه مدّة طويلة ليتعافى بدون طعام أو شراب...

(وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ{147})
{وَأَرْسَلْنَاهُ}، حيث حمّل سبحانه النبي يونس(ع) كلاما إلهيا، {إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ}، من الناس، {أَوْ يَزِيدُونَ}، عن المئة ألف. ويبدو لي أنه(ع) رجع إلى مدينته السابقة كما سنتكلم في دراسة الآية التالية.

لم ترد الآية ذكر العدد بالضبط، فلم تقل مثلاً: مئة وسبعة آلاف وستمئة واثنان وعشرون. وكما تلاحظ فإن ذكر الرقم بهذه الدقة لا معنى له، حيث هنا الإشارة للعدد الكبير، والآية لا تعرض لنا الإحصاء السكاني لعدد أهل القرية ولذلك اختصرته، وللدقّة في التعبير نبّهت الآية أنهم أكثر من ذلك بقليل، وفي الأساس فإن الآية تلفت انتباهنا لرسول تولّى نقل الرسالة الإلهية لعدد كبير جدا، مما يعني محافظته على قيمته الإيمانية العالية وتمتعه بالصفات اللائقة ليكون رسولا إلهيا ليتوظّف بمهمة هداية مجتمع بعدد ضخم.

هذا الرقم السكاني الكبير "مئة ألف" لم يكن رقماً عادياً، حيث قديما كانت المدن بهذا العدد الكبير من الناس قليلة بل نادرة. وقد ورد في التوراة أن المدينة كان اسمها نينوى، ودخلت هذه المعلومة من التوراة إلى المسلمين، ويقولون إن "نينوى" هي المدينة التي في محافظة الموصل شمال العراق حاليا، وفيها مقام للنبي يونس(ع)... أمّا في التوراة فنجد أن المدينة "نينوى" كانت في منطقة فلسطين، ولفظ الحوت للنبي يونس(ع) أيضاً يقولون أنه حصل على ساحل فلسطين... وليس لدينا دلائل ملموسة علمية على هذا الكلام... على كل حال أقول لك هذا لتلتفت إلى سخافة الذين قالوا إن الآية معناها أنه تعالى لا يعلم عدد سكان المدينة بالضبط، فما معنى كلامهم هذا؟ فطالما هؤلاء لا يؤمنون أن القرآن كتاب إلهي فإن كان من تأليف محمّد أو غيره، فما الذي منعه من ذكر العدد بالضبط طالما تظنون أنه اخترع هذه القصّة؟ فإن فهمتم أن الجملة تفيد عن تخمين العدد، فلماذا يخمّن من اخترع القصّة ولا يخترع رقماً محدداً!

هل لاحظت أن هذا النوع من الإشكالات وغيره الكثير أمثاله، لم يقولوه وهم يريدون معرفة الحقيقة، لأن هدفهم فقط وفقط تشويه القرآن والدين الإلهي، فانتبه عندما يكون نوع السؤال مخلوط بين أساس إيماني وأساس كفري، كخليط بين الخطّين، فيصعب عليك إيجاد الجواب لأن السؤال يتضمن الإيمان والكفر في نفس الوقت، لأن أساس التعليق على القرآن ينبع من الكفر بمصدره الإلهي، حيث يجب الرجوع إلى هذا الأساس قبل سماع أي إشكال على القرآن، وسنجد القرآن نفسه قد أعطانا البراهين على أن مصدره إلهي، بداية مع محمّد الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، فلا مجال لنقله للكلام من كتب الآخرين... ولمدة تقارب الأربعين سنة قبل إعلانه عن نفسه أنه رسول فلم يصدر منه أي كلام مشابه

لكلام القرآن، فلو كان من تأليفه لبان منه في كلامه شيء مشابه للقرآن... ومدة العشرين سنة الطويلة التي نزل فيها القرآن وبنفس المعلومات ونفس الأسلوب، ولم يعدّل فيه الأمي أي كلمة! ودقّة التعابير والمعلومات التي في القرآن تفوق قدرة محمّد اللغوية والمعلوماتية، بل تفوق قدرة الجنّ والإنس مجتمعين مع بعض. وامتداد هذا الدين عبر التاريخ، حيث ما أتى به محمد ليس بدعة بل سبقه رتل من الرسل منذ آلاف السنين يقولون نفس الكلام... والكثير من الأدلة...

من التحليل للقرآن تلاحظ أن أكثر سوره بعيدة كل البعد عن أي شيء شخصي له ارتباط بمحمّد (ع)، حيث إن المرأة الوحيدة التي ذكر اسمها القرآن كانت مريم ابنة عمران (ع)، ولا شيء عن السيدة خديجة! وتجد إشارات نادرة فقط لابنته السيدة فاطمة حتى من دون أي تصريح عنها! ولا تجد بطولات شخصية لمحمّد (ع) في القرآن... وهذا باب واسع جدا ندر أن تجد من انتبه له ليقارن بين تأليف البشر لو كان القرآن من تأليفهم، وبين محتوى القرآن وطريقة كلامه من النظرة الإلهية البعيدة كل البعد عن كلام أي إنسان... من هنا يبدأ الكلام مع هؤلاء الذين يشككون بكلام القرآن، وبعد الاقتناع بإلهية مصدر القرآن فلا يعد لإشكالاتهم أي معنى طالما أن الإله سبحانه وتعالى يتكلّم، وللأسف ستجد أناساً لا يرجون حسابا ولا لله تعالى وقارا، ولم يقدروه تعالى حقّ قدره... حيث بكل جرأة يطرحون الإشكالات السخيفة الواهية على كتابه سبحانه!

(فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ{148})
هؤلاء القرابة مئة ألف، {فَآمَنُوا}، أعلنوا اعتقادهم بالدين الإلهي، {فَمَتَّعْنَاهُمْ}، وتركناهم يتصرفون بالمتاع الذي في الدنيا، بما فيها من بيئة للعيش والرفاهية، إلى حين، فلم يستمرّ تمتّعهم بالحياة.

لم يكمل القرآن سرد قصّتهم، فلا ندري بعدها إن ماتوا أو تشتّتوا أو كفروا وتعذّبوا... أو قضوا حياتهم بشكل عادي كبقية الأقوام بدون حدوث أي شيء مميّز لهم... فهذا ليس تركيز السورة.

كما ترى، ليس صريحا من الكلام إن كان (ع) رجع إلى القرية التي أبق منها، ولكن بالنظر إلى لومه(ع) لمغادرته لهم نفهم أنهم كانوا بحاجة له كرسول بينهم، وكان من المفروض به(ع) الرجوع إليهم... لذلك عاقبه تعالى، مما يعني أنه من المفروض من بعد العقاب أن يرجع إليهم، وبالنظر إلى الآية 98 من سورة يونس "فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ"، ترى استعمال نفس التعبير مما يشير إلى كونهم هم أنفسهم المئة ألف الذين أرسله تعالى إليهم.

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ{149})
{فَاسْتَفْتِهِمْ}، اسألهم واطلب منهم الجواب في مسألة محدّدة: {أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ}؟! هل البنات "الإناث" للمسؤول عنك من مستوى إلهي، والمشركون لهم الأولاد الصبيان "الذكور"؟!

كما تعلم من القرآن، مشركو مكّة والعرب عموما في حينها كانوا يفضّلون إنجاب أولاد ذكورٍ ولا يحبّون إنجاب البنات، وفي نفس الوقت قالوا إنّ الملائكة (ع) بنات الله عزّ وجلّ، فإن كانوا يرون الذكور أفضل من البنات فلماذا جعلوا الملائكة(ع) بنات لله تعالى؟! وطالما بنظرهم الذكور أفضل فلماذا لم يخلق تعالى لنفسه أولادا ذكورا؟! كما ترى، اختارت السورة نموذجا فاقعا من عقائد المشركين حتى تلتفت بسهولةٍ إلى سخافة دينهم.

ننتبه، جمع كلمة مَلَك أو مَلاك هو ملائكة، وهذه اللفظة للجمع مؤنثة، ولكنها مثل بقية الألفاظ المؤنثة "اللفظية" التي لا تدل لا على الذكورة ولا على الأنوثة، مثل لفظة رجال، جنود، طاولة، شمس... اللفظة مؤنثّة، لذلك نقول: هذه الرجال، هذه شمس... وهنا التعليق على المشركين الذين قالوا إنّ الملائكة(ع) بنات لله تعالى لم يكن خلافا على تأنيث اللفظة بل على مدلول اللفظ، ولا أحد يقول بأن لفظة رجال تدل على أنوثة المدلول عليهم لأن لفظ كلمة "رجال" مؤنث، وكذلك الأمر بالنسبة للفظة ملائكة، ولا أحد يقول إنهن إناث لأن اللفظ يدل على الأنوثة، ولكن هم المشركون وبغضّ النظر عن اللفظ أعلنوا إنّ الملائكة (ع) بنات لله عزّ وجلّ، بينما الملائكة أصلا كائنات مختلفة عنّا ولا معنى للذكورة والأنوثة بالنسبة لتكوينهم، فهم أصلا بلا شهوات جسدية ولا يتناسلون...

في نهاية هذه الفقرة ستجد نقلا لكلام عن الملائكة(ع) وهم يصفون أنفسهم، وفي كلامهم تصريح تصحيحي لما يقوله المشركون عنهم.

(أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ{150})
{أَمْ خَلَقْنَا}، ركّب وألّف سبحانه، {الْمَلَائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ}؟! هل كانوا حاضرين وشهدوا بأعينهم خلقه تعالى للملائكة(ع) ورأوا أنهم إناث "نساء"؟

تذكّر بداية السورة التي تحدّثت عن القدرات العالية جدا للملائكة(ع)، وتذكر الفرق الكبير بين الملائكة(ع) والجنّ، وبينها (ع) وبيننا نحن البشر، حيث إنّ الملائكة (ع) مطيعة دائما ولا تخالف أوامر ربّها سبحانه. السورة تؤكّد أن الملائكة (ع) مخلوقات قوية جدا بقدرات عالية ومقرّبة منه تعالى، وتريد نفي صفة الألوهية والبنوّة والأنوثة عنهم.

نتذكّر من القرآن أن الملائكة(ع) كائنات لا معنى للذكورة والأنوثة في تكوينها، وهي لا تتزاوج ولا تتكاثر، وليس لها شهوة أو غريزة جسدية، وأصلا ليس لها جسد كجسدنا لا من حيث الشكل ولا من حيث التكوين والمادة.

هنا لفتُ انتباه ثانٍ لنوع من التخرصات والتخريفات واضحة السخافة يقولها المشركون، لأنهم لم يروا ملاكا أصلا، ولم يتواصل معهم ملاك أصلا، ومن البديهي الواضح جدا أنهم لم يكونوا حاضرين حين خلق سبحانه الملائكة، مما يدلّك بكل سهولة على سخافة عقائدهم وأنها لا تستند على أي شيء، بعكس كلام هذا القرآن الصادر عن إله أدرى بمخلوقاته.

بقي شيء، لسبب أو لآخر تراخى المسيحيون في تعابيرهم التي تتعلّق بالملائكة "وعموم الأمور الدينية"، ونحتوا ورسموا وتكلّموا عنهم مشبّهين لهم تارة بأولاد صغار وتارة أخرى على شكل رجال أو إناث، ورسموهم ونحتوهم وتكلّموا عنهم بأن لهم أجنحة كأجنحة الطيور، ورسموهم ونحتوهم بلا حشمة عراة أو شبه عراة... ولا تبرير مقبولاً لكل هذا، لا المجازية مقبولة، ولا تقريب الفكرة مقبول، وإنما هو انعكاس الاستهتار والاستخفاف والتراخي في القيم حتى تتماشى مع الأهواء الفاسدة.

للأسف، هذا الاستهتار والتراخي هو الأساس أصلا لكل فساد عقائدي أو تشريعي أو سلوكي لعموم المنتمين لدينه تعالى، من التراخي بوصف الأبوة له عزّ وجلّ لكل البشر، إلى التراخي بتمييز ابن له تعالى من بينهم، إلى التراخي بجعل النبي عيسى(ع) ولدا له تعالى!

أيضا للأسف، نحن لم ننجُ من ذلك، لدينا روايات منتشرة في كتبنا وفيها كلام مشابه لكلام أهل الكتاب عن الملائكة ومزاجيتها ومخالفتها لأوامره تعالى... وعن زواج البشر منهم... وخذ مثلا ما تجده صريحا في بعض كتبنا عن أن إبليس من الملائكة؟ ومؤوّلين صريح عبارة الآية 50 من سورة الكهف "... فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ..." لتصير من "جنّ الليل" كوصف لما هو مستور! بدلا من صراحة الكلام بوصفه للنوع "من الجنّ" في مقابل الإنس والملائكة!

(أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ{151})
{أَلَا إِنَّهُم}، الذين يقولون إنّ الملائكة(ع) بنات لله عزّ وجلّ هم فقط، {مِّنْ إِفْكِهِمْ}، من قلبهم وعكسهم للحقائق، {لَيَقُولُونَ}:

(وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ{152})
{وَلَدَ اللَّهُ}، هناك كائنات لها صلة ولادة منه عزّ وجلّ، وخرجوا منه، وكان لهم اتصال بكيانه الذاتي، {وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}، وهذا غير صحيح، لأنّ الله سبحانه وتعالى يستحيل أن يلد ولا بأي طريقة، بل يخلق فقط.

كما ترى، هذا الكلام ردّ على الذين ينسبون له الولد سبحانه وتعالى، حيث يخبرهم سبحانه بأن ذلك أصلا مستحيل وهذه هي الحقيقة التي أفكوها، قلبوها.

لاحظ وانتبه للتعابير المختلفة عن هذا الموضوع، {وَلَدَ اللَّهُ}، تعني مثلما نحن البشر نلد وتنتقل جيناتنا عبر النطفة والبويضة منّا إلى المولود الجديد، وهم يقصدون ذلك عنه تعالى، وهناك تعبير آخر عن اتخاذه تعالى من مخلوقاته ولدا،

وبهذا يقصدون تحديده تعالى لواحد من مخلوقاته كولد "اعتباري" له عزّ وجلّ، فانتبه للفرق بين هذه التعابير مع أنها ليست صحيحة، لأنه سبحانه لم يلد ولم يتّخذ ولدا.

(أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ{153})
سؤال:

{أَصْطَفَى الْبَنَاتِ}، هل وجد الإله سبحانه ميزة ما في الإناث، {عَلَى الْبَنِينَ}، ووجد أن الإناث أفضل من الذكور ولذلك ولّد بنات؟!

يعني، إن كنتم تفضّلون الذكور فهذا يعني أنكم وجدتم فيهم ميزة تميّزهم عن الإناث، فكيف تقولون إنّ ربكم سبحانه يفضّل البنات على الذكور! كان بإمكان مخترعي كذبة إنّ الله تعالى عنده أولاد أن ينتبهوا، ويخترعوا ويجعلوهم ذكورا، حتى تتماشى مع فكرتهم بأن الصبيان أفضل من البنات!

كما تلاحظ شدة السخرية في الآيات من هذه الأفكار السخيفة حول تفضيل البنات على الصبيان.

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{154})
أنتم ترون الذكور أفضل من البنات، ولماذا قلتم إنه تعالى ولّد فقط بنات، ولماذا لم تحكموا له تعالى بأنه سيلد ذكورا! وبالنسبة للطريقة التي تفكّرون بها فهذا سيكون أفضل! وكيف يمكن له تعالى حرمان نفسه من الصبيان إن كانوا أفضل من البنات كما تقولون؟

الآية هنا على معنى الآية التي سخرت منهم وقالت إنّ اختيارهم للذكور لأنفسهم الذي هم يرونه أفضل من الإناث، ونسبة الإناث له تعالى إنها قسمة غير عادلة، قسمة ضيزى كما ورد في الآية 22 من سورة النجم.

(أَفَلَا تَذَكَّرُونَ{155})
أفلا تذكرون؟ لماذا لا تستحضرون في فكركم هذه الأشياء!

كما ترى، بوضوحٍ تسخر الآيات منهم، نفس المعلومة التي في فكركم عن أفضلية الذكور على البنات، لماذا لم تستحضروها في بالكم عندما قلتم عن الملائكة(ع) إنهم بنات لله تعالى! فلو استحضرتم أفكاركم السخيفة وانتبهتم لقلتم: الملائكة(ع) أولاد ذكور لله تعالى، أليس كذلك.

بما أنه صارت سخافة كلامكم عن الملائكة(ع) واضحةً، فهل انتبهتم لسخافة دينكم الذي اخترعه آباؤكم؟!

(أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ{156})
هل لديكم شيء قوي قاهر جدا بشكل واضح؟!

الآيات السابقة لفتت الانتباه لاختراعاتهم عن الملائكة(ع) كونهم بناته تعالى وهذا شيء لا علاقة له بالواقع، لا الملائكة إناثٌ ولا ذكورٌ، ولا هم أولاده تعالى، وليسوا آلهة... وتبيّن أن كلّ كلامهم نابع من تخريفاتهم وخيالاتهم، وهنا الآية تسأل: هل لديكم شيء قوي تستندون عليه في كلامكم هذا عن الملائكة(ع)؟

لاحظ وانتبه جيدا، رغم أن كلامهم عن الملائكة(ع) نابع من اختراعاتهم الوهمية، لا تزال الآيات تسألهم عن كلامهم من كلّ جانب، وتسألهم عن "سلطان"، عن دليل قوي يحتجون به لتثبيت صحّة كلامهم.

(فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{157})
إن كان كلامكم عن الملائكة(ع) إنهم بناته تعالى، فهاتوا الكتاب الذي فيه هذه المعلومات.

نحن البشر لا نرى الملائكة(ع) ولا نلمسهم، ولا نسمعهم إلّا إذا هم تواصلوا معنا، وعلى هذا الأساس فكل كلام نقوله عنهم سيكون مجرّد تخمين، إلا إذا وصلتنا معلومات عنهم من عالمهم، فهل لدى المشركين كتاب نازل من عالم الملائكة(ع)؟ وهل لديهم كتاب من الإله خالق الملائكة(ع)؟ فإن كان لديهم شيء كهذا فسيكون لديهم سلطان، وسيكون بيدهم مستند قوي يعتمدون عليه في كلامهم عن الملائكة(ع)، ولكن، كما نعلم جميعا، ليس لديهم أي كتاب من هذا النوع، وكلّ كلامهم عن الملائكة بدون دليل.

(وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ{158})
ننتقل إلى نوع آخر من تخريفات المشركين:

{وَجَعَلُوا}، المشركون، {بَيْنَهُ} سبحانه {وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً}، فقالوا إنّ الجنّ متسلسلون من حيث الخلقة مع الله تعالى، مثلما نقول عن الورد الجوري بأنواعه الأحمر والأصفر والأبيض والبنفسجي... إنّ بينهم نسبا ونقصد إنهم كلهم متسلسلون من أصل واحد، وقالوا إنه تعالى بينه وبين الجنّ قرابة نسب، وسنتحدّث عن ذلك بعد قليل.

بعبارة أبسط، هم مصرّون على تصوّر الإله سبحانه بعقولهم، ومصرّون على أنه يمكنهم اختراع أي صورة عنه تعالى وستكون صحيحة، لديهم معلومات عن الجنّ، "أكثرها غير صحيح ومن اختراعاتهم الوهمية"، وكبّروا تلك المعلومات ونسبوها للإله عزّ وجلّ، وصار الإله يشبه الجنّ ولكنه أقوى منهم! أو أصلهم! أو كبيرهم...

لاحظ الآيات لم تكثر الكلام عن هذا الموضوع رغم أن المشركين قالوا كلاما كثيرا عنه سبحانه، وقالوا كلاما مختلفا عنه سبحانه، لأنّ كلّ كلامهم ومهما كان نوعه هو مجرد خرافات، ولذلك نرى الآية اختصرت كل كلامهم المتنوّع وتحدّثت عن الأساس الذي ينبع منه كلامهم، ونسفته من أصله، وبذلك نسفت كلّ ما قالوه من تخريفات وأوهام مهما كان نوعها.

{وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ}، وصل علم للجنّ أنهم سيتم إحضارهم إلى مكان ما، والكلام عن إحضارهم في الآخرة ليقفوا بين يديه تعالى ليحاسبهم ويجازيهم، فلو كان الجنّ بينهم وبينه عزّ وجلّ قرابة ونسب، لكانوا آلهة، وبالتالي لن يحاسبهم تعالى لأنهم مثله في الطبيعة الإلهية... فإن كانوا هم لا يقولون إنهم أنسباء لله عزّ وجلّ ومماثلون له في الطبيعة الإلهية، ولا يقولون عن أنفسهم إنهم آلهة، ووصلهم خبر منه سبحانه أنه سيحاسبهم على أعمالهم... فكيف ومن أين حصلتم أنتم أيها الناس المشركون على معلومة النسب بينه تعالى وبين الجنّ!

الآية ترجع بنا لأصل وأساس التفكير الخيالي الوهمي للمشركين، حيث إنّ المشركين أصلا لم يعتبروا أنفسهم تحت أمر الله سبحانه، وهم ليسوا متدينين بالدين الإلهي، ولا يعتقدون أنهم سيقفون بين يديه تعالى ليحاسبهم، وانطلاقا من هذا التفكير لم يعتقدوا أن الجنّ أيضا سيحضرون بين يديه تعالى ليتحاسبوا، وبناء عليه أطلقوا العنان لخرافاتهم وقالوا إنّ الله تعالى والجنّ أقارب، علما بأنّ الجنّ أنفسهم يعلمون إنهم مخلوقات، ويعلمون أنه ليس بينهم وبينه تعالى أية قرابة، ووصلهم خبر منه تعالى بأنه سيحاسبهم على أعمالهم... كيف يعلم المشركون من الناس بشيء عن الجنّ، والجنّ أنفسهم لا يعلمونه ولا يشعرون به!

نتذكّر بداية السورة التي تحدّثت عن الجنّ وأنهم ورغم قدراتهم التي تفوق قدرات البشر، هم أضعف بكثير من الملائكة(ع)، والملائكة(ع) مخلوقات تنفّذ أمر خالقها القوي القدير، وهكذا نتذكّر الفرق الهائل بين الجنّ "المخلوقين" وبينه تعالى "الإله الخالق".

لا تتعب نفسك في تصوّر النسب الذي اخترعوه بينه تعالى وبين الجنّ، ربما قالوا إنه عزّ وجلّ أخوهم الكبير، أو أبوهم، أو جدّهم، أو يشتركون معه تعالى في جدّ قديم... أو تزوّج سبحانه وتعالى من الجنّ... أو هم وهو سبحانه من نار... أو من نور... طالما كلّه كلام خرافات، لا يوجد أهمية لمعرفة تفاصيل الخرافات.

بقي شيء، ستجد بعض الكلام حول كلمة "جِنّة" بكسرةٍ على حرف الجيم، بعضهم قال إنّ الآية تقصد الملائكة(ع)، وبعضهم قال إنّ الآية تقصد نوعاً من الملائكة(ع)، وبعضهم قال إنّ الملائكة(ع) نوع من الجنّ وكلاهما مخلوقان من نار... وهذا الكلام وأشباهه نابع عن هفوات "من بنات أفكار" لم يقارنوها بشكل جدي مع القرآن، كلمة جنّة استعملها

القرآن كتصريف آخر لكلمة جنّ، مثل كلمة إنسان وناس، كما ورد في الآية 119 من سورة هود "إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" والآية 6 من سورة الناس "مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ"، هذا جنّ وذاك جنّ وكلّهم جنّة، وهذا إنسان وذاك إنسان وكلّهم ناس. والجنّ مخلوقات من نار تتزواج ولديها نزوات وشهوات بحسب ما يناسب جسدهم الذي مادته النار، ولا تشبه الملائكة(ع) في تكوينها.

للأسف في كتب أهل الكتاب خرافات عن الجنّ والملائكة(ع)، تسرّبت إلى تراثنا، وحوّلها البعض إلى روايات... ولو اطّلعت على تراث أهل الكتاب وقارنته مع رواياتنا التي تحدّثت عن الجنّ والملائكة(ع)، لوجدت أن بعض المسلمين نقلوها بالحرف من هناك، وآخرون أجروا عليها تعديلات... أبرزها قول بعضهم إنّ إبليس كان من الملائكة العالية مثل جبريل(ع) وميكال(ع)، وقالوا إنه من نفس نوعهم ولكنه حين عصى أفقده تعالى قدراته، وقطع أجنحته... وانضم إلى إبليس في معصيته تعالى ملائكة آخرون... وصاروا موصوفين بالملائكة الهابطة أو الواقعة أو الساقطة... وكلها خرافات، لأنه من الجنّ بصريح عبارة الآية 50 من سورة الكهف "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ...".

(سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ{159})
تنزّه صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" عن الصفات الناقصة السيّئة التي يصفونه بها، وصفوه تعالى بأنه والد للملائكة(ع) ووصفوه تعالى بأنه بينه وبين الجنّ نسبٌ... وهو تعالى منزّه عن هذه الصفات الناقصة.

نلاحظ من القرآن تركيزه على التسبيح، أي على تنزيهه تعالى عن الصفات السيئة والناقصة، فلو كانت واحدة من هذه الصفات صحيحة، لكان سبحانه ناقصا ضعيفا، ولا يمكن أن يكون إلها بالمعنى الحقيقي للألوهية، خذ مثلا كلّ ما تسمعه من كفر وشرك وكلام معيب عن الإله سبحانه، عن أنه مزاجي أو تغيب عنه بعض المعلومات أو لديه شركاء في الألوهية... وانتبه لما يفعله الإله مع الكفّار والمشركين، ترى أنه تعالى ينذرهم ويرسل لهم الرسل، ويعطيهم فرصة، ويعدهم بالمغفرة ومسح ذنوبهم... مهما قالوا عنه تعالى من كلام مسيء معيب، سبحانه يعدهم بأنهم إن تابوا فسيغفر سبحانه لهم ويدخلهم الجنّة... فلو كان فيه سبحانه وتعالى أية صفة سيّئة، لما كانت هذه قراراته مع الذين يقولون كلاما معيبا عنه.

الآن فكّر في قولهم عنه تعالى إنّ له أولادا، أو إنّ الملائكة(ع) بناته، أو الجنّ أقاربه بالنسب... كل هذا الكلام وأشباهه لو كان شيء منه صحيحا لرأينا فيما حولنا أثرا لهذا الكلام، لأنّ كل ما نراه من حولنا هو نتاج الصفات الفائقة للإله، الأحد، الذي ليس كمثله شيء، فلو صحّ أن الملائكة(ع) بناته، والجنّ أنسباؤه، لكنّا رأينا عالما مختلفا، ولرأينا ما نجده في الميثولوجيا والأساطير عن خلافات بين الآلهة، وحرب بين الآلهة... ولكن كل ما تراه من حولك هو كون ساكن يسير بأمر إله واحد أحد، ولا ترى اختلالا في تعاقب الليل والنهار، ولا اختلالا في نزول الماء بالأسباب والمقدمات المهيّئة له... فلا ترى تدخلا لإلهين. وهذه النقطة ركّز عليها القرآن مرارا، وعبّر عنها باختصار: سبحان الله. فلو كانت فيه سبحانه ولو صفة واحدة من الصفات التي ينسبها له المشركون وهو سبحانه وتعالى ينفيها، فلو صدقت ولو صفة واحدة سيئة أو ناقصة، لشاهدنا كونا مختلفا من حولنا من ناحية آثار تدخّل أكثر من إله فينا وفيما حولنا، ولشاهدنا آثار الصفات السيئة العبثية المزاجية فينا وفيما حولنا...

(إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ{160})
إلا الذين يتصرفون فعلا على أنهم مفروض عليهم طاعته تعالى، فيؤمنون أنه خلقهم ويملكهم ومفروض عليهم طاعته، المُخْلَصِينَ، "فتحة على حرف اللام"، وبالخصوص هؤلاء الذين لا توجد شوائب في إيمانهم فلن يذوقوا العذاب، أنا مُخْلِصٌ "بالكسرة على اللام" لله تعالى أوحّده ولا أشرك به، والكلام هنا عن الإخلاص بالتوحيد، أنا مُخْلَصٌ "فتحة على اللام" وهذه صفتي.

سبحانه منزّه عمّا يصفه الناس وبالخصوص المشركون إلّا ما يصفه به المُخْلَصُونَ، فهؤلاء يصفونه بالصفات الحسنة.

الآن نسأل: هل ينتظر المؤمنون منه تعالى إخبارهم عن صفاته، فيخبرهم أنه أحد صمد سميعٌ بصيرٌ ليس كمثله شيء... ويردّد المُخْلَصُونَ هذه الصفات، فيكون وصفهم له تعالى صحيحا؟ ما رأيك؟ هل تمدحهم الآية لأنهم ببغاوات تردّد الكلام؟ لا وألف لا، بل تمدحهم وتعتبر لهم قيمة عالية وتصفهم بالمُخْلَصِينَ لأن قلبهم السليم أوصلهم للتعرّف عليه تعالى من آياته في خلقه للسماوات والأرض، ومن فهمهم وقناعتهم بكلامه عن نفسه وأفعاله سبحانه.

سألفت انتباهك لشيء يحصل معنا نحن الذين نقول عن أنفسنا إننا مؤمنون متدينون، عندما نقع في ورطة عويصة، أو عندما نتأثّر من مصيبة مهولة نزلت على غيرنا، أليس البعض منّا يقول: أين الله؟ ولماذا لا يساعدنا؟ ولماذا تركنا؟ ولماذا لا يجيب دعواتنا؟ ولماذا خلقنا؟ هل خلقنا ليعذّبنا في الدنيا؟ ويعدنا بعذاب أشدّ في الآخرة؟...

البعض من هؤلاء الناس يقرؤون القرآن، ويقرؤون فيه أن الله حكيم، هل هم معتقدون فعلا بأنه حكيم؟ لاحظ أدبيات أهل الكتاب في توراتهم وإنجيلهم التي حرّفوها، وفي كتبهم وكلامهم وأفلامهم... تراهم مرارا يتصوّرونه سبحانه مزاجياً، عصبياً، عبثياً، يغفل عن أمور تحصل، يلعب بمخلوقاته، ولديه مخططات لا تناسبنا... وصولا إلى قولهم إنّ الإنسان يفهم بمصلحته أكثر منه تعالى! ولو أنهم لم يحرّفوا كتبهم، ولو أنهم فكّروا بقلب سليم، ولو أنهم لم يتراخوا في عقيدتهم وشريعتهم، لما قالوا هذا الكلام عن الإله سبحانه وتعالى.

كما ترى، نحن الذين نقول عن أنفسنا بأننا متدينون لسنا نختلف كثيرا عن أهل الكتاب حين نعترض على حكم الله تعالى، وبعض كلام المسلمين فيه شبه كبير بكلام أهل الكتاب، ولولا القرآن الذي بين أيدينا، ولو كان الإسلام مبنيا على كلامنا نحن، لوجدت كلامنا تساوى مع كلام أهل الكتاب، ولوجدت كلاما معيبا بحق الإله سبحانه والأنبياء (ع)، لأننا لسنا دقيقين في التفكير والتعبير، وتتحكّم بنا مشاعرنا المهتاجة وشهواتنا السيئة، وسنعرض الدين من خلفية أهوائنا السيئة مثلما عرض أهل الكتاب دينهم في كتبهم، ومثلما نجد الكثير من المسلمين يعرضون الدين الإسلامي وتفسير القرآن انطلاقا من عصبيتهم وغرائزهم وشهواتهم السيئة.

(فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ{161})
{فَإِنَّكُمْ}، أيها المشركون، {وَمَا تَعْبُدُونَ}، مع الذين تعتبرون أنفسكم عبيدا لهم ومفروض عليكم طاعتهم:

(مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ{162})
لستم على ما تعبدونه بفاتنين، ولن تعرّضوا غيركم لما يسبّب له التغيّر، ولن تؤثّروا إلّا على:

الفتنة هي عموم التأثّر وتغيّر الحال "معنويا أو ماديا" بعد التعرّض لشيء ما، وتتدرّج من أعجبه وتعلّق به وتغيّر بسببه، إلى أجبروه عليه وتماشى معه وتغيّر بسببه، أو تعرّض للشيء ولم يتغيّر، حيث افتتن ولم يتغيّر.

(إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ{163})
فقط الشخص الذي سيقف أمام المكان الموصوف بضخامة سوء ما فيه، حيث فيه النار المتأجّجة بشكل قوي. لن تفتنوا إلا من مصيره سيكون إلى الاحتراق بنار الآخرة، فهو لا يؤمن بحسابه تعالى وبنار العذاب لمن أشرك، وسيفتتن ويشرك، وسيكون مصيره إلى النار.

طبعا لا أحد "يريد" الذهاب إلى النار، ولا أحد من المشركين يعبد آلهته عن رغبة وقصد ليكون مصيره إلى جهنّم، ولو آمن بجهنّم لما أشرك، ومن النظرة الإلهية لمن افتتن، لن يفتتن إلا من سيقف أمام النار ليتعذّب. أمّا الذين مصيرهم إلى الجنّة "العباد المُخْلَصِينَ" فلن يفتتنوا بعبادتكم لآلهتكم، ولن يتغيّروا من الإيمان إلى عبادة آلهتكم مهما عرضتم عليهم من مغريات، وكما تعلم، عبادة الله تعالى تعني الالتزام بأوامره التي حلالها وحرامها فيه خير ومصلحة الجميع في الدنيا والآخرة، وأما ترك عبادته تعالى وعبادة غيره فهو فساد إيماني بالاعتقاد بالباطل وتشريع الهوى والرغبات السيئة... وهذا نتيجته فساد وتعاسة للفرد وللمجتمع هنا في الدنيا وفي الآخرة.

(وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ{164})

من هنا تبدأ السورة بنقل كلام من الملائكة(ع) شخصيا وهم يصفون أنفسهم، وسترى الاختلاف بين كلامهم(ع) عن أنفسهم وبين كلام المشركين الذين عبدوا الملائكة(ع).

من الواضح جدا مما تعلمه من القرآن أن الآيات التالية حتما من كلام الملائكة(ع) حتى لو لم تقل الآيات بأن الملائكة(ع) تتكلّم، فهذه هي نوعية كلامها حتما بالمقارنة مع ما نقله القرآن عن كلام الجنّ والإنس من أنبياء وصالحين وكافرين...

{وَمَا مِنَّا}، لا واحد منّا "نحن الملائكة"، {إِلَّا لَهُ مَقَامٌ}، كل واحد منّا له مقام حيث يتفعّل، حيث يقوم بعمل، عمليا يعني: له توصيف كمركز وظيفي، {مَّعْلُومٌ}، وتكملتها تعرفها بالبداهة فمقامهم معلوم عند الله تعالى، يعني هم الملائكة (ع) لا يختارون مقامهم ولا يختارون أين يكونون لينجزوا عملا ما، بل كل واحد منهم مخلوق لمقام محدّد سلفا يعلمه الله تعالى.

فكّر فيها لو أنه تعالى خلقهم وفيما بعد قرّر توظيف هذا الملاك بهذه المهمّة وذاك بتلك المهمّة... لا، هذا لم يحصل وهذا ما تقوله الملائكة(ع) هنا في الآية، فهم يعلمون أنه سبحانه خلقهم ولكل واحد منهم مقام محدّد سلفا، وعمليا لكل واحد منهم شيء محدّد يفعله، ويتحدّد ما سيتوظّف به بحسب قدراته لأن الملائكة تختلف بين بعضها بالقدرات.

بالرجوع لموضوع السورة، نلتفت للذين قالوا عن الملائكة(ع) بأنهم آلهة أو بناته تعالى، هنا ترى أنهم لا يملكون القرار في عمل أي شيء يريدونه، بل فقط يقومون بما أمرهم تعالى به.

ضع في بالك أن العرب حين نزول القرآن لم يكونوا يستعملون كلمة "مقام، مقامي" على معنى مكانتي، قيمتي، مركزي... بشكل صريح مباشر، ولا على معنى تقدير القيمة "بتصريف تقييم" ولا على معنى المسؤولية "بتصريف قيّم"... ولا على معنى المكان أو كاسم مكان، ودرج فيما بعد استعمال هذه الاشتقاقات بهذه المعاني. لم يستعمل القرآن كلمة "قوم" واشتقاقاتها إلا بمعناها كما كان يستعملها العرب حين نزوله: حيث أقوم بعمل ما، وضعي حين أكون مفعّلا... ما أقوم به من أعمال في مكان ما... والمعنى الجامع لمختلف الاستعمالات: الكون مفعّلا على ما هو محمود. وكما ترى، عمليا هذا المعنى سيأخذك إلى الاشتقاقات بالمعاني التي درجت بين الناس، وتصير الكلمة مشيرة لمكان أو قيمة أو مسؤولية...

ما هو دارج عن معنى كلمة "قيّم، قيمة، مقام" كتقدير للشيء، "قيمته عالية"، هو من مشتقات معنى الكلمة وليس معناها الصريح، إلى حين نزول القرآن لم أجد في أشعار العرب "قبل الإسلام" أي استعمال لهذه الكلمة بهذا المعنى الصريح الذي نعرفه الآن، بل معناها مثل ما تفهمه الآن عندما تقول: تقويم الأسنان، هذا لا يعني جعلها كلّها متشابهة بالطول أو الانحراف، بل جعلها مفعّلة على الأحسن المناسب، والدين القيم، دينا قيما... وصف للتفعيل الذي على الأحسن المناسب. ومن مشتقات المعنى أنّ له قيمة عالية ولكنه ليس أصل معنى الكلمة.

(وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ{165})
مجموعون على هدف واحد، لسنا مشتتين بل كلّنا نقوم بتنفيذ الأوامر الإلهية. كلامهم هذا مثل القول عن العسكر بأنهم صفوف متراصّة في القتال لتوصيف ثباتهم والتزامهم بتنفيذ الأوامر العسكرية، ولا يعني أبدا أن الملائكة(ع) أو الجنود يقفون على صفّ على خط واحد، لا، بل يعني أنهم جاهزون وغير مشتتين ولا يقصّرون... ولا تقوم مجموعة من الملائكة(ع) بأعمال تتخالف أو تتعارض مع أعمال مجموعة أخرى.

هذا المعنى عادة نحن عموما كمسلمين لا نلتفت له، ولكن هناك من يؤمن بأن الملائكة(ع) تتعارك وتتخالف، ولديها مساحة مزاجية في تنفيذ أوامره تعالى، حيث ترفض أمرا إلهيا... وهذا شيء نجده في أدبيات أهل الكتاب وعند المشركين، وكل هذه الأقوال تنتفي عن الملائكة(ع) عندما يصفون أنفسهم بأنهم صافّون، جاهزون متراصّون لتنفيذ أوامره تعالى.

هذا الخبر هنا عنهم منقول منه تعالى بواسطة الملائكة (ع) إلى الرسول محمّد(ع)، فهو خبر إلهي عن حالهم، ومنقول "مقول" عن لسانهم، والبعض منهم هم الناقلون له كخبر إلى البشر، وهم موافقون عليه وعلى النطق به بلسانهم وكأنه صادر عنهم، وهي معلومة عن واقع حالهم وصادقوا عليها أثناء نقلهم لها.

ربما سألهم تعالى كيف يصفون أنفسهم للبشر بناء على محورية سورتنا هنا والتي ركّزت على المشركين العابدين للجن والملائكة، والمعتبرين بينه تعالى وبين الملائكة نسبا... فأجابوا... وربما هي معلومة مسجلة في الكتاب الرئيسي الذي تطّلع عليه الملائكة وذلك الكتاب هو حقائق نابعة مما هو فعلا موجود في السماوات والأَرَضِينَ، وربما وربما... وكلّ هذا لا أهمية له طالما محتوى القرآن الحقّ الصالح أهم دليل على إلهية مصدره، وتناسق معلوماته عن الفرق الهائل بين طبيعة الخالق وبين طبيعة المخلوقات، ووضوح كونه تعالى الإله الواحد الأحد، وإخباره تعالى لنا عن توظيفه لمخلوقات "الملائكة" قدراتها عالية وأمينة لتنفيذ بعض المهام، ورؤيتنا لآثار ذلك عبر توفّيها لأنفسنا وتنزيلها للوحي وإحداثها لكوارث عذاب لبعض الأقوام... وهذه لم تعد مجرد أخبار، لأنّ آثارهم ملموسة لنا.

(وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ{166})
نحن الذين ننزهه تعالى عن كل صفة سيئة أو ناقصة، وأبداً بتاتا ولا واحد منّا يقول عنه تعالى إلا الصفات الحسنة.

هنا أيضا ننتبه لما نجده في أدبيات أهل الكتاب والمشركين، حيث نجد عندهم أن الملائكة(ع) أحيانا لا تحترم ما يقوله تعالى ولها رأي آخر! على أساس أنهم لا يعتقدون بحكمته وعلمه الواسع! وهذا علميا لا يتماشى مع تسبيحهم له تعالى، وهنا الآية تنفي كلّ تلك الأفكار الوهمية عن استقلالية الملائكة(ع) في أعمالها، وعن أي نقص في تقدير واحترام الملائكة(ع) له تعالى، وبما يخصّ موضوع سورتنا هنا، أوّل تسبيح للملائكة (ع) هو تنزيهه تعالى عن أن يكون له شريك في الألوهية، لا هم (ع) ولا غيرهم شركاء معه تعالى في الألوهية، والفرق واضح بين الاعتقاد بتوحيده تعالى في الألوهية وبين الاعتقاد أن صفاته وقدراته تعالى ليست فائقة فوق صفات وقدرات كلّ الآخرين.

انتهينا من توصيف الملائكة(ع) لنفسها، وفي هذا الكلام ردّ مباشر من الملائكة(ع) على الذين قالوا عنهم إنهم (ع) بناته تعالى أو آلهة معه تعالى، أو لهم (ع) استقلالية ومساحة يخالفون فيها أوامره تعالى... هذا سلطان، وهذه معلومة من شهود هم أنفسهم محور الكلام، ومسطورة في كتاب إلهي، بينما كلام المشركين تخريصات أوهام، راجع وقارن الكلام هنا مع ما ورد منذ قليل في السورة من الآية 150 وما بعدها "أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ... أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ، فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ".

(وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ{167})
ترجع السورة إلى المشركين المعتقدين بألوهية الملائكة(ع) أو الجنّ، أو المعتقدين بوجود قرابة نسب بينه سبحانه وبين الجنّ والملائكة (ع).

وإن كانوا، أي المشركون، ليقولون:

(لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً مِّنْ الْأَوَّلِينَ{168})
{لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْراً}، لو لدينا شيء نستحضره في فكرنا ومشاعرنا، {مِّنْ الْأَوَّلِينَ}، من الذين كانوا أولا قبلنا، لأنّ هذا القرآن وهذا الرسول(ع) شيء جديد علينا، وهو بدعة، لو من تاريخ الناس الذين كانوا أولا، لو وصلنا منهم شيء مما يقوله القرآن والرسول(ع)...

(لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ{169})
{لَكُنَّا}، لاعتبرنا أنفسنا عبيدا ومفروضٌ منّا الطاعة لصاحب هذا الاسم المحدّد "الله"، ونطيعه وحده، وكانت صفتنا الإخلاص له ولن نشرك به.

هذا الذكر الذي نسمعه حاليا لم يقنعنا لسبب وجيه، لأننا من قبل في التاريخ لم نسمع بهذا الكلام، وكما ورد في الآيتين 69 و 70 من هذه السورة، هم لم يجدوا آباءهم ينقلون هذا الذكر الذي يسمعونه الآن، ولو كان آباؤهم على هذا الدين، لكانوا آمنوا به، ولكن آباءهم كانوا مشركين.

تتذكّر كيف رجعت بهم السورة إلى النبي نوح(ع) والطوفان لتريهم أن الأساس هو هذا الدين التوحيدي وأن الناس مدة بعد مدة يخترعون أديانا أخرى... مرورا بالنبي إبراهيم(ع) وابنه النبي إسماعيل(ع) جدّ غالبية أهل مكّة الذين اعتبرتهم السورة وعموم القرآن كنموذج عن كذب بقية المشركين...

لاحظ في عصرنا الحالي أن كتاب التاريخ المدرسي لا يذكر أي شيء عن الأنبياء! نرى بشكل واضح فصلا لتاريخ الأنبياء عن تاريخ الناس، حيث تجد تاريخ الأنبياء في الكتب الدينية، وتاريخ البشرية كأمم وشعوب وملوك وحكّام وحروب... في كتب التاريخ التي ندرسها في المدارس والجامعات! المؤرخون يعتبرون تاريخ الأنبياء شيئاً دينياً ولا علاقة لهم به، وليس من اختصاصهم، بل من اختصاص علماء الدين، وأيضا، المؤرخون لا يثقون بالمعلومات التي في الكتب الدينية، حيث عرضت لهم التوراة تاريخا مشوّها "لأنها محرّفة"، والإنجيل "المحرّف" هو أشبه بسيرة لشخص النبي عيسى(ع)، ومن وجهة نظر تاريخية بحتة، هناك معلومات غير صحيحة حتما في هذين الكتابين، وألحق المؤرخون القرآن بهما على أساس الظلم بالسوية! طالما أنّ القرآن كتاب تابع للدين الإبراهيمي، عاملوه مثلما عاملوا الكتابين "التوراة والإنجيل" المنسوبين للدين الإبراهيمي! واعتبروا القرآن مصدرا غير موثوق للتاريخ!

لماذا نتحدّث عن هذا الموضوع؟ نتحدّث عنه لأن الآيات هنا نقلت لنا كلاما عن أناس يفكرون بعقلية مثل عقلية المؤرخين المعاصرين لنا ومن سبقهم، وبالإضافة للمؤرخين، كثيرٌ من الناس في عصرنا يفكرون بنفس الطريقة! ويبدو أن الحجج التي جعلتهم يسحبون الأنبياء من كتب التاريخ مقنعة، ولكن ننتبه، هذا الفصل لشخصهم عن الأشياء الدينية، التي لا علاقة لهم بها لأنها من اختصاص المتدينين، يدل بشكل واضح على رفضهم للتدين بدينه تعالى، بل وأنكى من ذلك، وهو يدل على احتقارهم واستصغارهم للأنبياء، ولا يرون أي قيمة لما قام به الرسل عبر التاريخ! وأرتحشستا وتحوتمس ونيرون وجنكيز وصلاح الدين والظاهر بيبرس وهتلر وتشرشل... شخصيات بارزة في التاريخ! والأنكى من ذلك اهتمامهم بشريعة حمورابي، حيث اعتبروا شريعته كأول طرح لشريعة تحاول ترسيخ العدالة!

في دراستنا هذه تبيّن معنا أن النبي موسى(ع) عاصر الفرعون خوفو، وفترته في الألف وخمسمئة سنة قبل الميلاد، بينما حمورابي في فترة الألف وثمانمئة قبل الميلاد، فكيف تكون شريعة حمورابي الأولى بينما التوراة نزلت قبلها ببضعة مئات من السنين؟!

أضيف لك أن الكثيرين من المتشدقين بشريعة حمورابي هم لم يقرؤوها، ولم يروا عبثية وفساد الكثير مما فيها، وأنها حتى بالمقارنة مع التوراة المحرفة التوراة أرقى منها تشريعيا بكثير، وكلاهما بعيدان عن كلام هذا القرآن الحقّ الصافي.

هم ينطلقون من تفكير علماني ولا يؤمن بما يقوله الدين الإلهي، ويعتبرون حمورابي علمانياً مثلهم ولا علاقة له بالدين التوحيدي، ولذلك يرون شريعته مهمّة، وشريعة موسى(ع) لا تستحق النظر فيها ولا أهمية لها بسبب علاقتها بالدين التوحيدي الذي من أسسه الإيمان بالآخرة، بل بعضهم يقولون عن موسى(ع) وعيسى(ع) بأنهما ليسا موجودين فعلا في التاريخ وأنهما من اختراع المتدينين، وفي أحسن الأحوال هما مجرد رجلين قاما بحركات صغيرة على مستوى صغير ولا تهمّ البشرية.

نعم، وصل الأمر بهذه النوعية من الناس حتى شكّكوا بوجود الشخصيات الدينية! وفوق تكذيبهم للدين التوحيدي، قال البعض منهم إنّ الشخصيات الدينية كنوح(ع) وإبراهيم(ع) وموسى(ع) وعيسى(ع)... هم شخصيات وهمية، وعلى الأكثر هي أسماء لأشخاص عاديين جدا، قاموا بأعمال صغيرة عادية، وكبّرها المؤمنون بهم لتصير مهمّة، ولكنها تبقى أعمالا صغيرة لم تغيّر في مجرى تاريخ البشرية بشكل كبير، وأقصى ما يمكن قوله عن النبي عيسى(ع)، أن أتباعه غيّروا دين الامبراطورية الرومانية، وبدورهم الرومان عدّلوا دين النبي عيسى(ع) ليتوافق مع ثقافتهم السابقة... وبذلك

صار دين النبي عيسى(ع) مجرّد اسم، ودين المسيحيين روماني وبولوسي وبرنابي... فهل يستحق عيسى أي ذكر في كتب التاريخ؟

وأقصى ما يمكن قوله عن موسى(ع) أنه عبد قام بثورة لتخليص قومه من العبودية، وهربوا من مصر، وبعد ذلك لا شيء مهمّ أبدا، وبنو إسرائيل مجرد شعب تلاعبت به الأمم الكبيرة التي برأيهم تستحق أن نقرأ عنها، ونهتم بملوك وفراعنة مصر وبنبوخذنصر والأكاسرة والأباطرة وجنكيز والمغول... وهذه تواريخ تستحق الاهتمام، قارن تاريخ الدين مع توسّع الامبراطورية الفارسية، والرومانية، واليونانية، والمغولية، والحرب العالمية... لا يوجد مقارنة بين هذه الضخامة وبين الأحداث الصغيرة لأشخاص ومجتمعات لها تاريخ مثل تاريخ قرية على جزيرة معزولة في المحيط.

بل حتى تجد أناسا يشككون في وجود شخص النبي محمّد(ع)! يريدون مصدرا مكتوبا من عصره يؤكد وجوده، متعامين عن كل الوثائق من عصره (ع) من رسائل وأحداث موثقة... وكأن كل هذا الأثر له (ع) وللشخصيات التي عاصرته بالتغييرات التي حصلت في المنطقة، وحكومة الخلفاء الراشدين وأثرها على المنطقة، والقرآن والمكاتيب والحروب مع العرب واليهود والرومان... كلّه لم يؤكد لهؤلاء أن النبي محمّد(ع) شخصية حقيقية!!!

هذه العقلية بالتشكيك في كل ما هو ديني، وإعطاء الأهمية للأحداث غير الدينية، هذه العقلية نابعة كما ترى وبوضوح من كفر هؤلاء الناس بالآخرة، لأنّ خبراً واحداً عن الآخرة في كهف في قعر المحيط، هو أهم من الحرب العالمية الثانية ومن كل تاريخهم، كما تقول الآية التالية: فسوف يعلمون نتيجة كفرهم بالرسل والاستهزاء بهم.

الأنكى مما سبق، هم أنفسهم الباحثون السابقون إن جاؤوا على ذكر الدين الإلهي، يجعلونه سببا لتعاسة البشرية! يصوّرون لك كل المصائب البشرية نابعةً من اختراعنا للأديان، وكره الناس لبعضهم البعض سببه اختلافهم في الأديان والمذاهب... والتاريخ الديني المذكور في الكتب الدينية هو تاريخ دموي من قتل واحتلال... وليس فيه حضارة العمارة والثقافة والفنّ... كالتي تجدها في الثقافة العلمانية الكافرة بالدين... ويبالغون بهذا الكلام بشكل سخيف ساذج متناسين متعامين عن قصد أن الحروب الكبيرة المدمّرة في تاريخ البشرية لم يكن للدين التوحيدي أي علاقة بها، لا اجتياحات الفراعنة أو الهكسوس أو الرومان أو اليونان أو المغول أو النازيين أو الشيوعيين... كانت دينية، ومن الواضح جدا جدا أنه إن كان للدين الإلهي أي علاقة بعمل حربي سيّء نتيجته الضرر على أبرياء، فستجد أن الناس استخدموا الدين الإلهي كغطاء لسوء أفعالهم...

بالعودة للسورة، كل الأمور التي تراها في عقلية العلمانيين، هي نسخة مطابقة لعقلية المشركين تجاه التاريخ الديني للرسل، وقديما قال المشركون كما نقلت السورة هنا عنهم: لو أن عندنا ذكرٌ من الأولين لكنا عباد الله المخلصين. لأنهم لم يعتبروا تاريخ الرسل الإلهية تاريخا يستحق الاهتمام، وهم كانوا يريدون تاريخا بحجم داحس والغبراء، وبحجم أساطيرهم عن ذي يزن والتبّع اليماني وسنباد... مثلما يريد الناس في عصرنا تاريخا بحجم الفتوحات والحروب التي يموت فيها الملايين!

الكلام في هذا الموضوع طويل جدا وله تفريعات كثيرة، ونادرا ما تجد من التفت إليه، وعرضت لك منه هنا ما يجعلك تفهم ما نقلته الآية عن كلام المشركين المشتركين في العقلية مع المؤرخين من غير المتدينين الذين لم يروا أي قيمة للرسل الإلهية عبر تاريخ ممتد لآلاف السنين، وأهملوهم وكأنهم أصلا لا وجود لهم! أو إذا ذكروهم ركّزوا على الجانب السيّء من الدين كمحرّض ودافع ليقتل الناس بعضهم البعض!

(فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{170})
كفروا به، وأنكروا هذا الذكر الإلهي الذي له امتداد لآلاف من السنين، ولم يؤمنوا بهذا القرآن وهذا الرسول(ع)، فسوف يعلمون.

ألفت انتباهك هنا للجملة المقطوعة، يعلمون ماذا؟ فهذا الأسلوب في قطع الجملة متكرر في القرآن، وتلاحظ أن معرفة تكملة الجملة تكون سهلة، فهنا ماذا سيعلم الذي كفر؟ من البديهي أن يعلم نتيجة كفره، فنتيجة كفره العذاب في النار.

يعني، كما نقول بالعامية: فليتفلسفوا على الذكر الإلهي فسوف يعلمون نتيجة فلسفتهم.

(وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ{171})
هل صحيح ما يقوله المشركون عن أن الأولين لم يأتهم ذكر؟ فلنرَ:

{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ}، فيما سبق، فيما مضى، قال تعالى كلمة {لِعِبَادِنَا} الذين مفروض منهم طاعته، {الْمُرْسَلِينَ} الذين حمّلهم رسالة منه تعالى إلى الناس.

الآية التالية ستذكر الكلمة التي قالها تعالى لرسله، ولكن قبل ذلك نتوقّف عند الكلام السابق حين قال المشركون إنهم لم يأتهم ذكر من الأولين، فهل هذا صحيح؟ بالطبع لا، فمجرد كلام الآية عن المرسلين يلفت الانتباه لسلسلة طويلة من الرسل عبر التاريخ، فالذكر لهذا الدين التوحيدي مشهور امتداده التاريخي لآلاف من السنين وغير صحيح كلام المشركين، وقبل قليل تحدثنا مطولا عن مشكلة نظرتهم للتاريخ.

بالنسبة لكلمة {عِبَادِنَا} فراجع ما قلناه في دراسة الآية 40 من هذه السورة.

نرجع للسورة، فالكلمة التي قالها تعالى للرسل:

(إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ{172})
{إِنَّهُمْ}، الرسل الإلهية، {لَهُمُ الْمَنصُورُونَ}، سوف يتحقّق ما يريدونه.

ننتبه جيداً لكلام الآيات هنا، فعلى حرفية معنى كلماتها هي صادقة، فكل الرسل نصرهم تعالى بمنع تحقيق ما يريده الكافرون، فالانتصار لا يعني دائما فرض الإيمان وتطبيق الدين الإلهي على الآخرين، بل منع الآخرين من منع الرسل من الإيمان والتزامهم بدينه تعالى، وعادة ترى إشكاليةً وكلاماً جدلياً وتبريراتٍ لآيتنا هذه وأمثالها، لأن الغالبية فهموا منها أن الانتصار العسكري محسوم للرسل ليحكموا ومحسوم للمؤمنين، وهذا غير صحيح واقعا ولا تقوله الآيات، فتذكّر التحليل القرآني لمجريات أحداث معركة أحد والتي تناولتها فقرة طويلة تبدأ من الآية 121 من سورة آل عمران، فهناك شروط للانتصار العسكري المدعوم إلهيا، فالفشل والتخاذل... في جند الرسل لن يحقّق لهم نصراً من تدخل إلهي، وقول الآية التالية إن جنده تعالى هم الغالبون، يتماشى مع الآية 47 من سورة الروم {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}، فالجند الغالبون هم المؤمنون الحقيقيون وليسوا أي واحد قال إنه مؤمن.

لنفهم معنى الانتصار، نتذكّر محاولة حرق النبي إبراهيم(ع) فنصره كان بإنجائه من النار، وليس بجعله حاكماً مسيطراً... ونصر النبي نوح(ع) بإبادة كفّار قومه، ونصر النبي موسى(ع) بغرق فرعون وجنوده... ونصر النبي محمّد(ع) في بدر كان عسكرياً على يد المؤمنين كما تقرأ في الآية 123 من سورة آل عمران {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، وأوضح معيار من معايير النصر العسكري الإلهي ما ذكرته الآية 25 من سورة التوبة {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ}.

إن نصر الرسل لا يعني فقط أنهم سيحكمون، بل المعنى واسع من الحفاظ على حياتهم وتطبيقهم لدينهم وصولاً إلى حالات اكتملت فيها شروط جعل الرسول حاكماً على مجتمعه...

هل هذا يتعارض مع ما قالته بعض الآيات عن قتل النبيين كما ورد في الآية 21 من سورة آل عمران {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ...}؟ لا، إذ ليس لدينا في القرآن أي تصريح عن موت لأي نبي قتلاً، وليس لدينا مصدر تاريخي موثوق بأي موت لنبي قتلاً إلا ما توارثناه من تراث أهل الكتاب وأقحمناه في ثقافتنا، لأن عمل القتل هو وصف قصد محاولة إنهاء حياة الآخر، حتى لو لم يحصل موت فهو عمل قتل، وترى ذلك واضحاً من عموم تعابير القرآن والعرب، فيقولون عن اثنين إنهما تقاتلا حتى لو لم يمت أي منهما، لأنهما كانا يقصدان إنهاء بعضهما ولذلك يوصفان بالقتال.

على نفس معنى الآية هنا جاء كلام الآية 81 من سورة الإسراء {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} فراجعها لمزيد من التوسّع.

(وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ{173})
{وَإِنَّ جُندَنَا}، أي الملتزمين بتنفيذ أوامره تعالى، {لَهُمُ الْغَالِبُونَ}، والغلبة والأكثرية من القوّة والسيطرة والسلطة لهم، لذا لا يهزمهم جنود الشرك والكفر.

الكلام عن عموم الملتزمين بتنفيذ أوامره تعالى، إذ لله تعالى جنود السماوات من ملائكة، والأرض من المؤمنين، وتجد ذلك في الآية الرابعة من سورة الفتح {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...}. والكلام عن الجنود أعمّ من الأعمال العسكرية حيث إن أي شخص أو أشخاص ملتزمون بتنفيذ أوامر لفرضها وتنفيذها على الآخرين فهم جنود، كوصف ملائكة النار بالجنود الوارد في الآية 31 من سورة المدثّر {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا... وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ...} وهم لا يحملون السلاح ولا يخوضون معارك، ورغم ذلك بناءً على أصل معنى كلمة جنود فهم جنود.

سواء الملائكة الموظّفة بعمل ما، أو المؤمنون من البشر المقاتلون في سبيله تعالى إن كانوا مؤمنين من الدرجة العالية، فالغلبة ستكون لهم حتماً. ولهذا الكلام عن الجنود المؤمنين تفاصيل وتفاصيل، وللتوسّع في ذلك راجع دراسة الآية 65 وما بعدها من سورة الأنفال {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ...}، حيث إن الكلام عن متى يجب القتال ومتى يسقط وجوبه... لأن حسم الآية هنا بالغلبة للمؤمنين مشروط باكتمال صفات المؤمنين فيهم، وإلا فإن نصرهم إلهياً سيكون جزئياً أو لحكمة أخرى...

أحياناً يحتار الباحثون في مسألة السبط الحسين، وللأسف إذ إن حادثة كربلاء المأساوية بثقلها الشديد على قلوب المؤمنين سبّبت فقدان أكثرهم للعقلانية في تحليلها، حتى إن بعضهم فسّر الكلام الذي وصلنا عن الإمام الحسين بأنه كان يعلم بأنه حتماً مقتول في كربلاء، ورغم ذلك انطلق إليها، وأنه مأمور بذلك منه تعالى... ولذلك لم ينصره تعالى عسكرياً ونصره بانتصار الدم على السيف، فتخلّدت كربلاء كنموذج تاريخي بارز... ولن أدخل في هذا الجدل وأطلب منك إعادة قراءة التاريخ لترى أن الإمام الحسين توافرت له معطيات تشير لوجود الناصر في الكوفة بما يكفي للإطاحة بحكم ولاة يزيد الظالم الفاسد الطاغية... ولذلك انطلق، وأنه ومع العديدين من الصحابة والتابعين كان عندهم احتمال قوي بخذلان أهل الكوفة له... لذا كان موقفه أنه منطلق رغم هذا الاحتمال، وإن حصل وخذلوه وانهزم فهذه إرادته تعالى في إجراء الأمور...

لنتحدّث بفجاجة حتى نرى الخلفيات التي تجعلنا لا نفهم كلام الآية هنا بوضوح، فهل أعلن أني لوحدي سأقوم بواجبي وأنطلق كجندي لمواجهة جيش يتعدّى على الأبرياء، وسينصرني سبحانه حتماً؟ فلو نزل عليّ وحي بذلك فسبحانه بقدرته الفائقة سينصرني على مليارات الجنود؟ ولكن هذا لم يحدث في التاريخ ولا تقصده الآية هنا، ومن بعد هذا المثال الفجّ ترى أن الآية تقصد الواقعية من جانب توافر المعطيات مع الميزة التي في المؤمنين الحقيقيين من الثبات والصبر، وقبلها الاستعداد والتدريب... وتوافر العدد والعدّة المناسبة... وبعد توافر هذه الشروط سيحصلون على الدعم الإلهي والغلبة، وحادثة الانتصار في معركة بدر من نماذج ذلك، وحادثة معركة أحد في بدايتها أيضاً من النماذج عن النصر الإلهي، وفي منتصفها نموذج عن فشل المؤمنين المسبّب لهزيمتهم...

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ{174})
تولّ عنهم، واتّجه باتجاه آخر، ومن بعد نقل الكلام الإلهي لهم وإنذارهم لا تُعطِ اهتمامك للمشركين الذين يتذرّعون بحجّة أن الذكر الإلهي لم يصلهم، فهم كاذبون ومصرّون على التعامي عن الحقائق، ومثلهم مثل الذين سبقوهم "ويلحقوهم من المشركين والعلمانيين"، فاتركهم، حتى حين، أي حتى وقت محدّد، لأن على جحودهم للحقّ حساباً وجزاءً في الآخرة.

كما سبق ولفتّ انتباهك للآيات المقطوعة في آخرها لأنك تعرف نهايتها بالبداهة، فهنا كان الكلام عن النصر الإلهي للرسل والجند، فتقول الآية: اترك المشركين حتى يحين موعد حصول النصر الإلهي عليهم. ومعلوم أن النصر الإلهي العسكري على يد المؤمنين أو بعذاب ينزل، قد يحصل في الدنيا، ولكنه حتما سيحصل في الآخرة كما تقرأ في الآية 51 من سورة غافر {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ}.

في بعض الأبحاث القرآنية ستجدهم يحتارون في تفسير أمثال آيتنا هذه، ويحيّروك معهم، فهم يرون تعارضاً بين التولّي عن المشركين والإعراض عنهم، وذرهم... وبين الأمر بقتالهم الوارد في العديد من الآيات، وهذا النوع من الاشتباه سببه اعتقادهم بوجوب تغيير دين الآخرين بالكلام الحواري وصولا إلى فرضه عليهم بالقوّة بالقتال، وهذا يعني "بنظرهم" أنه بعد أمثال آيتنا هنا يجب أن تكون تكملة الكلام أن يقاتلهم الرسول(ع)، بينما العديد من الآيات تتوقّف لتخبره بأنه من بعد تبليغه الكلام الإلهي لهم فليتركهم لأن حساباً عسيراً ينتظرهم في الآخرة.

أحيلك في موضوع قتال الكافرين إلى الآية 8 من سورة الممتحنة {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ...}، فإذا جعلتها معياراً فستفهم كل بقية الكلام القرآني وسترى معناه بوضوح وسينزاح عن بالك أي تعارض في كلام القرآن، فالآيات الآمرة بقتال الآخرين أياً كانوا، هي فقط وفقط للذين يعلنون أو يقومون بعمل عدائي قتالي ضد المؤمنين.

الرسول ينذرهم، وبعدها تنتهي مهمّته سواء آمنوا أو كفروا، فإن كان الكافرون مسالمين فلا شغل للرسول ولا للمؤمنين بهم، فحسابهم عند ربّهم سبحانه، حتى لو كانت حالتهم حالة العداء العقائدي للمؤمنين، وهذا ما تحدّث عنه أمثال آيتنا هنا. أمّا إن أعلنوا أو قاموا بعمل عدائي قتالي ضد المؤمنين، فيجب على الرسول والمؤمنين قتالهم، فراجع كل الآيات القرآنية التي تحدّثت عن وجوب قتال الآخرين لترى دائما فيها أو قبلها أو بعدها تبريره تعالى لأمره بقتال الكافرين بأنهم هم بدؤوا بالعداوة ذات الأثر الفعلي، وهم من صدّ عن سبيله تعالى بمنع الناس من الإيمان أو تهجير أو حبس أو قتل... للمؤمنين.

(وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ{175})
{وَأَبْصِرْهُمْ}، قل عنهم كلاماً يتيح لهم إدراك صورة عن حالتهم في الآخرة، {فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ}، حيث سيأتي زمان ويصير لديهم وعي وفهم لصورة تعذيبهم، وسيرون ماذا سيحصل معهم، وسترى من الآيات التالية معنى آيتنا هذه بشكل أوضح.

(أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ{176})
هل يطلبون حصول العذاب الإلهي الآن وقبل وقته المحدّد له؟ من بعد إنذارك لهم من عذاب الآخرة يقولون: كفاك تهديداً فليحصل العذاب الآن. فيستعجلون حصول العذاب الإلهي! فهم لم يروه بعد، ولا يتصوّرونه سيحصل معهم، ويستهزئون من شدّته، ولذلك يقولون: فليحصل الآن.

(فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاء صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ{177})
{فَإِذَا نَزَلَ}، العذاب، {بِسَاحَتِهِمْ}، في منطقتهم، فأصابهم مباشرة. كما نقول عن مكان ما إنه ساحتي. ونقصد أنه مكاني الخاص بي والذي أفرض فيه سيطرتي وقوّتي... فعندها، {فَسَاءَ}، ما أسوأ ما أتعس، {صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ}، ما أسوأ أول ما حصل في أول حدث في النهار مع الذين وصلهم الخبر عن الشيء السيئ القادم حتما بسبب توافر شروطه.

بعبارة أخرى هناك صباح حسن بسبب حصول أمور جيدة في بقية يومه، وهناك صباح سيئ بسبب حدوث أمور سيئة في بقية يومه، والمشركون وصلهم الإنذار بالعذاب، فإذا حصل في ساحتهم، في المكان المنسوب لهم، فما أسوأه من صباح حصل بعده في تكملة يومه عذاب.

نتذكّر من القرآن كلّه من أوّله لآخره أن العذاب الإلهي بكارثة طبيعية لم ينزل على المشركين المعاصرين للنبي محمّد(ع)، والقرآن ذكر أسباب ذلك، منها وعلى رأسها أنه فيما بعد الكثيرون منهم أعلنوا إسلامهم، وعملياً هذا يعني أنهم توقّفوا عن الأعمال العدائية ضد المؤمنين، وتوالد منهم مؤمنون... وما تجده في التفاسير في بحثهم عن عذاب إلهي نزل على المشركين في عهد النبي محمّد(ع)، لتفسير بعض الآيات التي هدّدتهم بنزول العذاب، فيقولون هي معركة

بدر، أو معركة الأحزاب أو حنين... استناداً على مفهوم الآية 14 من سورة التوبة {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ...} فالآية تتحدّث عن عذاب للكافرين على معنى تأييده تعالى للمؤمنين في قتالهم. ويقولون إنها فترة من القحط... ويتحدّثون عن حوادث فردية، فهذا أكلته الكلاب، وذاك هوى وجرجره حصانه... وكلّه كلام لا علاقة له بالآيات، ولا نجد في تاريخ الرسل السابقين تعبيراً قرآنياً عن العذاب الإلهي بالعذاب بقتال المؤمنين، بل عبّر عن العذاب الإلهي صراحة بكارثة كزلزال، طوفان، بركان...

الآية هنا تهديد نعلم أنه لم يحصل لمن تحدّثت عنهم الآية كنموذج، فلم يحصل مع مشركي العرب المعاصرين للنبي محمّد(ع)، ولكن هذا لا يعني أنه فيما بعد لن يحصل عذاب إلهي بكارثة طبيعية على قوم ما في أي بقعة من الأرض.

(وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ{178})
{وَتَوَلَّ عَنْهُمْ}، اتّجه باتجاه آخر، ولا تهتم بهم، {حَتَّى حِينٍ}، حتى يحين فيأتي زمن ما، وسياق الكلام عن موعد تعذيبهم، ومن التاريخ تعلم أنه لم ينزل على الكفّار المعاصرين للنبي محمّد(ع) عذاب إلهي بكارثة، ولكن من مات منهم ولم يؤمن فعذاب الآخرة بانتظاره.

نتذكّر أن القرآن عموماً لم يفرّق في كلامه بين عذاب الدنيا والآخرة، فكلاهما عذاب، والتهديد للكافرين عادة بكليهما معاً، فإن لم يحصل عذاب في الدنيا فعذاب الآخرة آت حتماً.

(وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ{179})
{وَأَبْصِرْ}، ليكن لديك صورة عن تعذيبهم، {فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ}، فإن كانوا لا يبصرون صورة تعذيبهم الآن فسيأتي عليهم وقت ويبصرونها لأنهم سيكونون فيها.

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ{180})
{سُبْحَانَ رَبِّكَ}، المسؤول عنك من مستوى إلهي منزّه عن الصفات الناقصة والسيئة، {رَبِّ الْعِزَّةِ}، كما نقول: ربّ الدار، ربّ العمل... فالعزّة ضدّ الذلّة، ضد التبعية والانقياد تحت إمرة الغير، وهو سبحانه رب العزّة، سيّد السيطرة القاهرة الفائقة.

{سُبْحَانَهُ}، {عَمَّا يَصِفُونَ}، فهم وصفوه بأن له تعالى شركاء في الألوهية، وله بنات، وبينه وبين مخلوقاته قرابة نسب... وهذه كلّها صفات ذليلة تجعله تعالى شريكاً لغيره في الألوهية، فلم يعد لوحده سبحانه يتّخذ القرارات، ولم يعد لوحده ربّاً مسيطراً، ولم يعد متميّزاً بصفاته وقدراته الفائقة إذ هناك آخرون مثله... وهو سبحانه منزّه عن هذه الأوصاف لأنه لا إله غيره، ولا شبيه له ولا مثيل ولا كفؤ.

(وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ{181})
من ناحيته تعالى لا شيء سيئ بل كل الخير للمرسلين(ع)، وعملياً فالمرسلون موصوفون بأنهم لا سوء ولا عطل فيهم، وبالتالي فلن يعاملهم ولن يصفهم تعالى بأي شيء سيئ بل بالعكس سينالون الخير منه تعالى.

الآية هنا تذكير بالذين كلّفهم سبحانه بنقل كلامه إلى الناس، فليس صحيحاً ما يقوله المشركون عن امتداد تاريخ آلهتهم، بل الصحيح هو الامتداد التاريخي للدين الإلهي عبر العديد من الرسل عبر التاريخ، وهؤلاء قاموا بواجبهم على أكمل وجه، فسلام إلهي عليهم.

بعد قراءة كلّ السورة ستلاحظ أن لهذه الآية معنى أعمق، إذ من وجهة نظر المشركين المرسلون كذّابون مجانين...
وهنا الآية وغيرها في مختلف السور، هي مدح منه سبحانه للرسل، فلا تفكّر فيها من ناحية أن الرسل بلا إحساس ولا مشاعر، أو معصومون غصباً عنهم وممنوعون من فعل السوء، أو بسطاء "على البركة"، والوحي نازل طالع عليهم، ويرون الملائكة(ع) تمشي بجانبهم... فهذه الأفكار غير الصحيحة تسبّب لنا ألا نفهم القرآن بشكل صحيح، فالسلام على الرسل منه تعالى هو سلام على أناس يستحقونه عن جدارة، فهم أناس مرّوا بامتحانات صعبة ولم يسقطوا. إلا الحادثة

العابرة التي ذكرها القرآن عن النبي يونس(ع) الذي لم يقصّر في واجباته كرسول، ولكنه كبشري مثلنا مثله، تعرّض لضغط نفسي هائل فذهب مغاضباً... ولكنه تراجع وتاب.

(وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{181})
{وَالْحَمْدُ لِلَّهِ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز {اللَّهِ} كل أعماله محمودة جيّدة، نابعة عن صفات حسنة، {رَبِّ الْعَالَمِينَ}، المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس.

كل مجتمع من المشركين اتخذوا إلهاً خاصاً بهم، وهذا لا معنى له! وما معنى تشاركنا في الصفات والبيئة على كلّ الأرض إن كانت آلهة مختلفة مسؤولة عن خلقنا وبيئتنا! لو كان هذا صحيحاً لوجدنا أثراً للاختلاف في قرارات الآلهة منعكساً على اختلاف خلقتنا وبيئتنا والظواهر... وما معنى تشابه البشر والحيوان والنبات والبيئة والظواهر...؟ الحقيقة إذاً أنه تعالى ربّ لكل الناس من أولهم لآخرهم بعكس ما يقوله المشركون.

تذكّر دائماً أن الشكر تعبير عن حصولك على شيء جيد من أحد ما، بينما الحمد هو وصفك لفعل ما أنه خير وحسن وجيد... ويتداخلان حين يقوم أحد ما بعمل حميد نتيجته حصول شيء جيد معك، ويفترقان فيكون العمل حميداً ولكنك لم تحصل على شيء جيد، حيث إن خلقه تعالى للسماوات والأرض وما فيهما من مخلوقات هو عمل حميد، وبالنظر لما سيحصل مع المخلوقات في الآخرة فالمؤمنون شاكرون له تعالى على خلقهم وعلى مجازاتهم بالجنّة، أمّا الآخرون فمن نظرة شاملة للأمور خلقه تعالى لهم عمل حميد، وهم بقرار منهم سبّبوا لأنفسهم عذاب الآخرة، وتعذيبهم عمل حميد، لأن عقاب المجرم حقّ، ولكن لا معنى للشكر هنا بالرغم من أن العمل الإلهي حميد.

من ناحيته تعالى كل أعماله حميدة، ومن ناحية النتيجة على المخلوقات بعض الأعمال يشكرونه تعالى عليها لأنهم حصلوا على شيء جيّد، وبعض الأعمال تبقى موصوفة بأنها محمودة ولكن لسبب أو لآخر لا معنى للشكر عليها، لذا لا معنى لشكر الكافرين على تعذيبه تعالى لهم رغم أن تعذيبهم عمل حميد لأنهم يستحقون العقاب بسبب كفرهم بالحقّ وإجرامهم.

سورة ص (38) ص 453
تتوجّه السورة بكلامها لمن يفكّر بالوجاهة بالشكل الخطأ وتصحّحه له، ومدخلها وتركيزها على {الْمَلَأِ} الذين عارضوا دينه تعالى وكذّبوا رسوله(ع)، وتعرض نماذج صحيحة عن الوجاهة النابعة من الأوب إليه تعالى، ومن ثم تعرض جزاء الأوابين وجزاء الطاغين، وبين ذلك علّقت على نفسيات وكلام عامّة الكفّار بخصوص تعليقاتهم التي لها ارتباط بالوجاهة... وأخيراً عرضت نموذجاً بارزاً عن واحد كان من الملأ الأعلى {إِبْلِيسَ} سقط وصار ملعوناً مرجوماً...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(ص...
هذا حرفٌ نتهجّاه هكذا:صاد.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوِّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها

أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

... وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ{1})
تلفت السورة انتباهنا في أول كلمة لها لحرف الصاد، وبعدها القرآن، الشيء الذي يمكن قراءته، ذي الذكر، الذي له صفة الذكر، حيث إن فيه أموراً "إلهية" تتعلّق بالهداية للإيمان بالحقّ والعمل الصالح ليستحضرها الناس في فكرهم ومشاعرهم وعملهم، لذا هذا المقروء مخصّص لتذكير الناس بالدين الإلهي.

مما سبق منذ قليل صرت تعلم أن القرآن كلمة تشير لعموم ما هو مقروء، فالآية قرآن، والسورة قرآن، والسورتان قرآن... وكل ما نزل منه تعالى ككتاب إلهي على الرسول(ع) فهو أيضاً قرآن. والكلام هنا عن لفت الانتباه لما نزل منه تعالى ووصلنا وهو مقروء، ويمكننا أخذ المعلومات منه.

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ{2})
{بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا القرآن ولم يكن بالنسبة لهم ذكراً، ولم يعتقدوا أنه وحي منه سبحانه، وبدل أن يؤمنوا به كانوا {فِي عِزَّةٍ}، حيث يشعرون بأنهم فوق اتباع ما يقوله لهم سبحانه، ولا يرون أنفسهم مجبرين على اتباع الذكر القرآني لأنهم مُكتفون بما لديهم من عقائد وقوانين ومعلومات تناسبهم، وهم أيضاً {فِي شِقَاقٍ}، في مفارقة للقرآن وذكره، مشقوقون عنه وليسوا معه في نفس الجانب بل في الجانب الآخر.

إذن لدينا كلام وصلنا من إلهنا سبحانه وهناك من يرى نفسه أعزّ من اتباع كلامه تعالى ويفصل نفسه عنه. وهذه هي نفس حالة الرافضين للدين الإلهي حتى لو كانوا "ثقافياً وتراثياً" منتمين للإسلام أو المسيحية أو اليهودية، حيث ترى الناس بغالبيتهم يريدون الاستقلالية عن الارتباط بدينه تعالى، ويريدون قوانين دولة ومجتمع متفلّتة من الحلال والحرام، ليفعلوا ما يشاؤون حتى لو كان بالنظرة العقلانية سيئاً، لأن الارتباط بدينه تعالى يحكم بقيود مرجعية أساسية ثابتة تقيس عليها ما تريد تفريده وتبنيده من أحكام وقوانين، وهي أساسيات قليلة ولكنها حاكمة على كل شيء، طبعاً مع مجال مرونة وهوامش تتحمّل اختلاف الظروف والأزمنة والأمكنة.

هذا يأخذنا للكلام في مشكلة احتكار جماعة لاختصاص التشريع باسم الدين الإلهي، على مرّ التاريخ صار للمنتمين لدينه تعالى مدارس خاصّة بالشريعة، وهذا شيء جيّد، ولكن تراكمت الأمور حتى صار احتكار التشريع بيد علماء الدين الذين ضيّقوا نظرتهم للأمور لتصير مذهبية وطائفية، وصار ما يصدر عنهم يحمل قوة صفة قداسة كلامه تعالى! وهم متخالفون وكلهم علماء لنفس الدين وكلهم كلامهم يتم التعامل معه على أنه مقدس!

الخلاصة أن وضعنا الحالي كمنتمين لدينه تعالى هو بشكل عام ضعيف وسيئ أمام مدارس الحقوق والتشريعات العلمانية، لأنهم في عزّة عن الخضوع لأساسيات دينه تعالى ومعهم عذر قوي يستند على فظائع ما شرّعه المنتمون لدينه تعالى من سوء بناءً على تفسيرهم السيّء لكلامه سبحانه، وهم في شقاق متفلتون من أي أساس تشريعي على

معيار الحقّ والصلاح، وإن كان المزاج العام يميل لعمل ما، أي عمل كان، فإنهم بالتصويت عليه يشرّعونه حتى لو كان بالعقلانية فاسداً، كتشريعهم للزنا والمخدرات والقمار...

كما تلاحظ إن لم نَرَ أنفسنا بوضعنا المزري مخاطبين بالآية هنا وحصرناها فقط بالآخرين، فإن الآخرين سيردّون علينا بمصيبة اختلافنا الشديد فيما بيننا وكلّنا مدّعون للانتماء لنفس الدين، وكلّنا مصابون بالعزّة حتماً برفضنا لتشريعات المذاهب الأخرى، وكلّنا في شقاق حتماً لأن أبناء المذهب الواحد مختلفون فيما بينهم...

كلامه تعالى في أمثال آيتنا هنا موجّه للمعلنين كفرهم بكتبه، ولكنه ليس حصراً لهم، ولدينا نماذج قرآنية عديدة تشمل المنتمين لدينه تعالى مع الكافرين في نفس مشكلة الفساد، ومنها الآية 11 من سورة البقرة {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}.

على أي حال أطلت عليك لأن آيتنا هنا تصير كلاماً في الفراغ إن قلناها نحن بلساننا واصفين بها الآخرين على أساس أننا نحن منتمون لدينه تعالى والآخرون في عزّة وشقاق، لأن هذا الكلام منّا للآخرين لن يزيدهم إلا نفوراً لأنهم يروننا على مستوى التطبيق منافقين فاسقين لا نلتزم بما ننظّر له، وعلى مستوى التنظير أيضاً نحن لسنا متوافقين فيما بيننا!

(كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ{3})
{كَمْ أَهْلَكْنَا}، كم استنفد حياة، كم أمات سبحانه، {مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ}، من أناس مقرونين بالزمان، أناس كانوا يعيشون كمجموعة واحدة في نفس الزمن، كسكّان مدينة أو قرية، وهؤلاء الناس حين نزل عليهم الهلاك عبر عاصفة أو بركان أو زلزال... {فَنَادَوْا}، توجّهوا بكلامهم إليه تعالى، ليوقف عنهم العذاب وينجيهم، {وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ}، ولكن ليس لهم مهربٌ من الهلاك، حيث كان هناك "حين" وقت للمناص كمخرج أو حلّ عبر إعلانهم لإيمانهم، ولكن "لات" ذهب وصار بعيداً وفات وقت الهرب أو حلّ المشكلة، وإعلانهم إيمانهم الآن وقت حصول العذاب لن ينجيهم.

ملاحظة: في استخراج قواعد اللغة من الكلام قال بعضهم إن "لات" هي "لا" بمعنى ليس وأضيفت لها تاء، مثل "ثمّ" ثمّت، "ربّ" ربّت، ولكن سياق استعمال العرب لها في كلامهم لا يبدو متماشياً مع هذا الاستخراج، فهي تشير للفوات بصيران الشيء بعيداً عن المتناول على معنى فات الأوان، وتصير الجملة "لات حين مناص" على معنى: فات الأوان على فعل شيء مفيد.

بعبارة أخرى هناك كافرون وصلوا بسبب كفرهم إلى مرحلة يستحقون فيها نزول العذاب الإلهي عليهم هنا في الدنيا، وأنذرهم الرسل بأن يتوبوا قبل نزول العذاب عليهم، ولم يتوبوا، وحين نزل العذاب وتأكدوا من الموت عندها نادوا معلنين إيمانهم، ولكن بعد فوت الأوان، إذ صدر الحكم منه تعالى عليهم بإهلاكهم وبدأ التنفيذ، فلا مجال لإيقاف العذاب بعدما يبدأ.

الكلام الحالي أن هذا القرآن ذكر، للذين نزل في زمنهم ولمن بعدهم، ومن لم يؤمن بالقرآن فليتذكّر الذين أنذرهم تعالى من قبل، فإن توافرت فيهم شروط نزول عذاب في الدنيا عليهم، فسينزل، وتنتهي فرصتهم، ولا مهرب من عذابه تعالى حتى لو نادوا معلنين إيمانهم.

(وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ{4})
{وَعَجِبُوا}، حصل شيء مخالف لتوقعاتهم والكلام هنا عن شيء لم يعتبروه إيجابياً، {أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ}، جاءهم من يوصل لهم الخبر عن خطر حتمي في الآخرة لمن يخالف الدين الإلهي، وهو شخص منهم مثله مثلهم من البشر، وهذا الإنذار من شخص منهم أثار استعجابهم! لأنهم يتوقعون أن يكون النذير مخلوقاً غريباً كملاك أو جني أو... ولا يتوقعون أن يكون النذير من البشر.

{وَقَالَ الْكَافِرُونَ}، المنكرون للدين الإلهي: {هَذَا} النذير {سَاحِرٌ كَذَّابٌ}، السحر هو أن تخدع الذي أمامك فتجعله يتوهم شيئاً غير حقيقي، وعندما تراه أخرج الوردة من الفراغ من يديه الفارغتين، فأنت تعلم يقيناً بأنه خدعك، ومهما كان بارعاً فستقول بأنه سحرك، وتقصد أنه خدعك فجعلك تتوّهم. ونقل القرآن وصف الكفّار للرسل بأنهم سحرة بهذا المعنى، فهؤلاء يقصدون أن الواقع الحقيقي شيء، وما يقوله هذا الرجل شيء آخر، فهو يريد إقناعنا بخدعة أنه نذير

إلهي، وأنه يوجد عذاب... فهو مخادع كذّاب، لأن الساحر العادي الذي يخفي الحمام تحت القبعة... لا يدّعي امتلاكه لقدرات خارقة بل يقول عن نفسه إنه ساحر، ولو قال عن هذه الحركات التي يقوم بها إنها حقيقية لكان: ساحراً كذّاباً. وهذا الرجل يقول عن نفسه إنه رسول ويهددنا بالعذاب، يخدعنا ويكذب أيضاً، ولا يعترف بأنه يحاول خداعنا!

ما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، فهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، ونقل القرآن عن الكفّار اتهامهم للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقولهم عن الآيات الإلهية إنها سحر، كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

بالنسبة لكلمة {عَجِبُوا} نقول منها: أعجبني، على معنى رأيته غير عادي. ومن تبعات ذلك أنه راق لي، فتردّ عليه أنه عادي لا داعي للإعجاب به. ويرجع المعنى إلى عجيب، إلى تقييمي له أنه غير عادي "لا روتيني" بتدرج واختلاف، من المنكر المكروه إلى المرغوب المحبوب، وتصدق على الشيء والخبر بالشيء.

(أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ{5})
دليلهم على أنّ النذير البشري ساحر كذّاب:

{أَجَعَلَ الْآلِهَةَ}، الكائنات المتعددة التي نعتقد بصفاتها وقدراتها الفائقة، والمتخصّصة بأعمال مختلفة لكل واحد منها، فواحد مسؤول عن المطر وآخر عن الريح وغيره عن التجارة والغزوات و... فهل جعلهم إلهاً واحداً! {إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}، شيء تقييمنا له أنه مخالف للتوقعات ومخالف لما هو مفترض، فهذا الكلام لا يتوافق مع ما نتوقع أنه صحيح.

هم معتادون أن يكون لهم آلهة غير آلهة باقي القبائل، وكما تعلم، لِكل قبيلة آلهتها الخاصة بها! حيث إنّ لكل جماعة إله حصري لهم! وهم معتادون على تعدد الآلهة، وكل شخص منهم يعبد الإله الذي يرتاح معه! ويشعر بعلاقة حميمة معه! فما معنى اعتبار هذه الآلهة وهمية غير صحيحة والاعتقاد بإله واحد للجميع!

نتذكّر أنّ المشركين جعلوا أمور الحياة العادية مرتبطة بتلك الآلهة، والله سبحانه أعطى كل الناس عقولاً وأجساداً وأرضاً و... ولم يحرم أحداً من خيرات الأرض، ولكن الذين يقولون إن لله تعالى شركاء في الألوهية، اخترعوا إلها للمطر، وإلها للرعد، وآخر للبرق، وإلها للرزق... وصاروا متعلقين بهم، وترسّخت هذه الأفكار المنحرفة في عقولهم وصاروا يعتقدون فعلاً "وبالدليل" أن هذه الآلهة فعلاً هي التي تؤمّن لهم مطالبهم، وحالتهم الوهمية هذه مثل حالة من يؤمن بالأبراج وتحضير الجنّ والقرين والتابعة... ومثل المستغرقين في تفسير الكوابيس وأضغاث الأحلام على أنها نبوءات من المستقبل... فهؤلاء الناس يربطون مجريات حياتهم مع هذه الأفكار، ومع التكرار اليومي لهذا النمط من التفكير الأعوج، وصلوا لدرجة القناعة التامة بربط مجريات حياتهم مع الأبراج وقراءة الفنجان! وهي نفس العقلية العوجاء لدى المشركين الذين مع تكرار تفكيرهم الأعوج، ربطوا حصولهم على الرزق والتوفيق في العمل والتجارة والسفر والزواج... بآلهتهم الوهمية، حيث لديهم قصص عن الفضائل التي منحتها لهم تلك الآلهة! وقيمة أقوالهم بقيمة سخافة من يعتقد أن مخلّفات بذور نبتة البنّ القهوة المحمّصة المطحونة المغلية... والتي تعلق في فنجان، فيها نظرة على غيب المستقبل!

(وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ{6})
{وَانطَلَقَ}، سار من نقطة محددة، {الْمَلَأُ مِنْهُمْ}، الوجهاء الزعماء أصحاب المناصب الاجتماعية أو السياسية أو الدينية أو الاقتصادية... بعدما سمعوا ما يقوله الرسول، وحصل لديهم الاستعجاب، انطلقوا من الكفر بهذا القرآن وقالوا لبعضهم البعض وللناس التابعين لهم والماشين على كلامهم:

{أَنِ امْشُوا}، اتركوا ما يقوله هذا الرجل، {وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ}، لا يجعلكم كلامه تنفلتون عن عبادة آلهتكم، لأنّ هذا تصرّف غير واعٍ وغير مدروس، {إِنَّ هَذَا}، إن الصبر على آلهتنا، {لَشَيْءٌ يُرَادُ}، فإن كان هناك شيء تريدونه فعلاً وترون له قيمة عالية وترغبون به، فهو البقاء على آلهتكم وترك ما يقوله هذا الرجل.

تلاحظ تركيزاً قرآنياً على "الملأ" لأنهم مدّعون للعقلانية والحكمة وحسن الإدارة والفطنة... ولذلك هم وجهاء وزعماء وأصحاب مراكز وشؤون... ومِن هذا الادّعاء يكون الكلام عنهم بما يدّعونه من فهم وعقل، ومن ناحية ثانية والكلام القرآني معهم بسبب ما لهم من تأثير على الآخرين.

(مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ{7})
آلهتنا المتعددة وهمية وهناك إله واحد فقط!

{مَا سَمِعْنَا بِهَذَا}، الكلام، {فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ}، في ثقافة وعادات الذين سبقونا وكانوا في الآخر، حيث إنّ الثقافة والعادات المنتشرة في مجتمعنا، كانت من آبائنا وأجدادنا، وقد عاشرناهم وتكلّمنا معهم وهم آخر أمّة بالنسبة لنا، وهم عاشروا وتكلّموا مع من سبقهم وهكذا... ولم يقولوا لنا إنّ الإله واحد، وهم نقلوا الملّة من الجيل الذي سبقهم وهكذا...

{إِنْ هَذَا}، فقط الكلام عن الإله الواحد، {إِلَّا اخْتِلَاقٌ}، هو فقط وفقط شيء اختلقه واخترعه هذا الرجل من رأسه، ولا أساس له، وليس بصحيح.

ننتبه جيداً لهذه الحجّة، حيث إنّ المشركين معهم حق من ناحية نقل خبر تاريخي، صحيحٌ أن آخر جيل من آبائهم وأجدادهم نقل لهم دين الشرك، ولكن هل هذا يعني أن ما قاله آباؤهم وأجدادهم صحيح! وهل يصير كلام الرسول الإلهي اختلاقاً عِلْماً بأنه من الإله سبحانه! واختلاق آبائهم وأجدادهم يصير صحيحاً لمجرد أنهم نقلوه للجيل التالي! وهذه النقطة أشار لها القرآن في الكثير من السور، حيث نبّه على أن كلامهم عن الامتداد التاريخي لدينهم غير صحيح، والصحيح هو امتداد دين الله تعالى عبر رسل منتشرة على طول الزمن لآلاف من السنين، وأمّا آلهتهم وشريعتهم فليس لها امتداد تاريخي طويل، إذ إنّ كل أناس اخترعوا آلهة خاصة بهم، ولا نجد آلهة منها لها امتداد تاريخي أو جغرافي، ومن الواضح أنها من اختراع أحد ما في تاريخ ما.

(أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ{8})
{أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا}! هل الذكر، هل الشيء الإلهي الذي يجب أن نستحضره في فكرنا ومشاعرنا وعملنا نزل على هذا الرجل العادي ولم ينزل علينا نحن الملأ، نحن الوجهاء والزعماء! وهم يفهمون أنّ الرسول الإلهي منصب وجاهة وزعامة، وهم الوجاهة والزعامة، فلو كان الإله سبحانه فعلاً يريد إعطاء منصب الرسول لإنسان ما، فهم الأجدر به، وليس هذا الرجل العادي من عامّة الناس.

{بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي}، وهم بدون الاستناد إلى أي شيء أنكروا الكلام الذي ينقله الرسول والذي قاله تعالى ليستحضروه في فكرهم وعملهم، ولم ينظروا في سلامة وعقلانية ومنطقية الكلام بل هكذا وبلا سبب عقلاني أنكروه، متحججين بأنهم هم الملأ ومن المفروض أن يقوم سبحانه بالتواصل مع واحد منهم لتوصيل ما يريده تعالى للناس.

{بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ}، حيث إنهم يشعرون بحرية كفرهم بالرسول وبالذكر الإلهي لأنهم يسمعون بالتهديد بالعذاب ولحدّ الآن هم لم يتحسّسوا العذاب الإلهي، ولذلك هم يشعرون بالحرية والراحة ليقولوا ما يحلو لهم من كلام فارغ.

ننتبه لما هو دارج من اصطلاح للشك والظن واليقين... وهو ليس متوافقاً مع المعنى العربي الأساسي للكلمات، حيث في استعمال العرب قديماً لهذه الكلمات وفي استعمال القرآن مع التقويم لها بدقة، الريب هو أوّل وهلة تصيبك من سماع الشيء، وتُنكره أو تصدّق به لمجرد سماعك له وبدون أي تفكير. والشكّ هو اختيارك للتصديق أو الإنكار مع إعلانك أنك لم تستند لدراسة أو تفكير. والظن هو تصديقك أو إنكارك لشيء وأنت مستند إلى معلومات أو تفكير به، طبعاً هذا وصف لك بغضّ النظر عن صحّة ما استندت إليه وبغضّ النظر عن صحّة أو فساد النتيجة التي وصلت إليها، وقد يكون استنادك على معطيات غير صحيحة... واليقين هو تطابق اعتقادك مع الحقيقة، من تعاملك مع الشيء مباشرة أو من خبر ممن تثق به ويكون خبره مطابقاً للواقع...

(أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ{9})
{أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ}؟ هل يملكون السلطة على التصرف بالأشياء التي يملكها المسؤول عنك من مستوى إلهي والموصوف بالعناية بمخلوقاته لما فيه مصلحتهم؟ {الْعَزِيزِ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... وسياق الكلام بالخصوص عن اعتراض ملأ المشركين على اختياره تعالى غيرهم كرسول بينما برأيهم من المفروض أن يعيّن تعالى الرسول منهم لأنهم الأغنياء ولديهم أتباع وجماهير... حيث تجيب الآية هنا والتالية عن هاتين النقطتين، إذ تسألهم الآية إن كانت وجاهتهم كملأ سببها ثروتهم، فهل هم بقرار منهم يحدث التصرّف في خزائن رحمته تعالى؟ فهل بقرار منهم صار معهم ثروة منه تعالى؟ فليتذكّروا ذلك ليعرفوا حجمهم أمام العزيز الذي يفرض ما يشاؤه {وَالْوَهَّابِ} الذي يعطي الجميع بقرار منه، فهم صاروا أغنياء مما وهبه تعالى لهم من خزائن رحمته، وهم لا قرار لهم بذلك فلو شاء تعالى لحرمهم مما أتاحه للناس...

{الْوَهَّابِ}، الذي يهب بكثرة، الذي يعطي كثيراً جداً جداً من دون أن يأخذ أي مقابل، وسياق الكلام بالخصوص عن وهبه تعالى للملأ المال والأملاك الذي جعلهم وجهاء.

بعبارة أخرى، من خزائنه تعالى صار متاحاً لكل الناس الأملاك والأموال... فهو سبحانه وهبها لهم، وهو العزيز فلم يفرض عليه سبحانه أحد أن يهبهم، والبعض من الناس صار لديه أكثر من غيرهم أموالاً وأملاكاً، وصاروا ملأ، فصاروا وجهاء ونافذين ولهم سلطة، فليتذكّروا أن وصولهم لحالة وصفهم بالملأ سببها ما وهبه تعالى لهم من خزائن رحمته.

أمّا وقد نسوا ذلك، فصاروا يظنون أن لهم قيمة عالية بسبب وصفهم بالملأ، ونسوا أنهم لولا وهبه تعالى لهم من خزائن رحمته لما صاروا ملأ.

بالنسبة لتعبير "خزائن الله تعالى" فهي الأشياء التي يمكن خلقها ولم يخلقها بعد ربنا سبحانه، أو الموجودة ولكنها بحاجة لأمر إلهي لتصير معنا، حيث يعبّر عنها القرآن أنها في الخزائن. الله سبحانه ليس عنده خزائن من حديد أو غرف أو مستودعات، بل قدرته سبحانه على فعل أي شيء يريده هي الخزائن بالنسبة له تعالى، حيث أنا أسحب الماء من خزان المياه، وأسحب الطعام من خزانة الطعام، وأسحب المال من الخزنة الحديدية... أما ربنا سبحانه فيأمر فتسير آليات التنفيذ ليحصل ما أمر به تعالى، وفي الحالات العادية صمّم سبحانه السماوات والأرض لتصل إلى حيث ستنشأ الأرض ويصير عليها ظاهرة المطر، وهكذا تفهم الحالة العادية لأمره تعالى بنزول الماء حيث تجري آليات ذلك من تبخّر وريح وفرق حرارة وضغط... فينزل الماء... وأمر تعالى أن تخرج المخلوقات إلى الحياة فمشى تصميمه سبحانه للسماوات والأرض عبر مراحل وآليات وصولاً إلى نشأة الحياة على الأرض... ويأمر سبحانه أن تمحو الملائكة(ع) سيئاتي فتمحوها... وعادة نربط خزائنه سبحانه برحمته، لأنّه من رحمته حصلنا على أشياء من خزائنه، فمن رحمته خلقنا ومن رحمته نزل الماء ومن رحمته غفر لنا... عملياً خزائنه هي أوامره سبحانه وتعالى.

بعبارة أخرى سبحانه وتعالى يأمر فتحصل الأشياء، فلا يوجد علب أو صناديق أو غرف تخرج منها الأشياء، فخزائنه عملياً هي أوامره سبحانه وتعالى، وبما أنها جاهزة لتصير فور صدور الأمر الإلهي، مثلما الأشياء في الخزائن جاهزة لإخراجها، وصّف تعالى ما يمكن خلقه وإتاحته بأنه في الخزائن.

(أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ{10})
{أَمْ لَهُم}، لملأ لوجهاء المشركين، {مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}؟ حيث إنّ دنيا المخلوقات محصورة في السماوات والأرض وما بينهما من كائنات وظواهر، فهل الملأ يملكونها حتى شعروا بالعظمة لدرجة فرض أنفسهم عليه تعالى ليختار منهم رسولاً؟ أو حتى يقرّروا من الرجل المناسب لنزول الرسالة الإلهية عليه؟ فإن كانوا ملأ وجهاء زعماء في قريتهم، ألم ينتبهوا أن حدود وجاهتهم صغيرة جداً جداً جداً... بالقياس إلى ملكية السماوات والأرض وهم "الملأ" من ضمنها من أملاكه تعالى، فعلى أي أساس لهم الوجاهة والرأي لاختيار الرسول الإلهي؟

فإن كانوا فعلاً لهم ملك السماوات والأرض، حيث يرون وجاهتهم وزعامتهم واسعة إلى أبعد من حدود البقعة التي هم فيها، {فَلْيَرْتَقُوا}، فلينتقلوا للمرحلة التالية، {فِي الْأَسْبَابِ}، في الوسائل والنفوذ والقدرات التي يملكونها لتحقيق ما يريدون.

حيث اختار تعالى ذاك الرجل "النموذج محمّد(ع) مثلاً" ليكون رسولاً، وهم لم يعجبهم ذلك، والآية السابقة سألت: هل هم في منصب تحديد إنفاق ما في خزائنه تعالى على من يرونه مناسباً، فوهبوا أنفسهم المال وصاروا ملأ؟ وهنا تسألهم: هل تملكون كل ما في الدنيا حتى تقرروا من تجعلونه رسولاً؟ مثل الملك الذي يقرّر من سيكون وزيراً؟ فأنتم الآن معترضون على الرسول المعيّن منه تعالى ولكن هل انتبهتم أنكم تتصرفون على أساس أنكم وجهاء على مستوى السماوات والأرض وليس على مستوى قريتكم، فإن كان هذا صحيحاً، فارتقوا في الأسباب فانتقلوا لمرحلة أعلى من الاعتراض واستعملوا وجاهتكم العالية لإلغاء قراره تعالى، وألغوا قراره تعالى بتعيين ذاك الرجل رسولاً.

بعبارة أخرى، بالأساس من أنتم لتتدخّلوا في تعيين أو اختيار الرسول الإلهي؟ وما معنى رفضكم للرسول المعيّن منه تعالى؟ فهل نسيتم أنكم ملأ لأنكم حصلتم منه تعالى على ما جعلكم ملأ؟ وإن نسيتم ذلك وتشعرون بعظمة السلطة فهل لديكم قدرة على تعيين رسول إلهي أو تغيير الذي عيّنه تعالى؟ فقولوا لنا ما معنى رفضكم له كرسول إلهي بحجّة أنه ليس من الملأ؟!

(جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ{11})

{جُندٌ مَّا هُنَالِكَ}، أيّ شخص أو أشخاص أياً كانوا، وموصوفون بالالتزام بتنفيذ نفس الأوامر، فهم، {مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ}، فالأحزاب هم الناس المجتمعة على هدف واحد ويمكن انضمام الآخرين إليهم إذا وافقوهم في الرأي، والذين هم جنود بالتزامهم بفعل ما يريدونه، فكلّهم مهزومون ولن يتحقّق ولا شيء مما يريدونه إذا تعارض ما يريد تعالى حصوله.

فأيها المشرك الذي ترى نفسك وجيهاً زعيماً كبيراً مهماً... ولديك جنود، انتبه، فلا تتكبّر وتتعالى، وخذ حجمك الحقيقي أمام إلهك، فلا أنت ولا حزبك بجنوده ولا أي جند في السماوات والأرض يمكنهم معارضة ما يريده تعالى، وستضرب لنا الآيات التالية أمثلة ملموسة عن ذلك:

قبل أن نكمل مع الأمثلة نلاحظ أنّ الآيات السابقة تعطي معنى سنقوله بعبارات نبالغ فيها، أيها الملأ هل تشعرون أنكم صرتم من مستوى عالٍ جداً لدرجة ملامستكم لمستوى الألوهية؟ طبعاً الآيات لم تقل هذا ولكن بالغت في التعبير لأنها تعطي معنى قريباً جداً من هذا: أنتم لديكم مال وأملاك، فمن أين وممّن؟ وأنتم صار لكم نفوذ وسلطة فما حجمها؟ ولكم جنود فما مدى قدرتهم؟ هل نسيتم أنكم بشر مخلوقون وأن ما معكم كلّه منه تعالى؟ نسيتم ذلك وصرتم معترضين على اختياره تعالى لرجل عادي ليس من الملأ ليكون رسوله، فهل أنتم بالأساس غير الرجل العادي؟ نسيتم كيف ولماذا صرتم ملأ وكأنكم متميزون عن الرجل العادي!

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ{12})

هم ليسوا أول أناس متبجّحين بوجاهتهم ويكفرون بالرسل، وها نماذج عن جنود أحزاب انهزمت:

{كَذَّبَتْ}، لم تصدّق الرسل، {قَبْلَهُمْ}، قبل الذين جاءهم الرسول الحامل لهذا القرآن، {قَوْمُ نُوحٍ}، الناس الذين كان ينتمي النبي نوح(ع) لجمعتهم والكلام عن تفاعلهم مع مسألة الدين الإلهي، وتعذّبهم بالطوفان بسبب كفرهم مشهور، وقبيلة، {وَعَادٌ}، التي أرسل سبحانه لها النبي هود(ع) وعذّبوا بعاصفة، {وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ}، وقد أماته تعالى بإطباق البحر عليه.

تتذكّر أن فرعون هو لقب للشخص الذي كان يتولى أعلى سلطة "في مرحلة ما" من تاريخ مصر القديمة، كلقب الملك عند العرب وكسرى عند الفرس... والفراعنة الذين حكموا مصر كثيرون، وعادةً القرآن يشير إلى فرعون واحد محدّد منهم وهو الذي عاصر النبي موسى(ع)، ويحدّده سبحانه لنا بذي الأوتاد. أي صاحب الأبنية الضخمة التي مثل الجبال،

فالوتد كلمة استعملها القرآن كوصف للجبل في الآية 7 من سورة النبأ "وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا"، ومن سورة الفجر التي تحدثّت عن "أبنية" عاد وثمود، وفرعون ذي الأوتاد، نعلم أن الأوتاد وصف لأبنية ضخمة جداً، ومباشرة ينصرف الذهن إلى الأهرامات والمسلات بهذا التوصيف، وقد ورد في دراستنا هذه كلام عن تحديد هذا الفرعون في الآية 6 من سورة القصص، وأنه الذي بنى أهرامات في منطقة الجيزة وبنى مسلّات، فراجعها لمزيد من المعلومات.

(وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الْأَحْزَابُ{13})
نكمل مع نماذج من جنود انهزمت، وأيضًا كذَّب الرسل:

قبيلة، ثمود، التي كانت على عهد النبي صالح(ع) وكان عذابها بالزلزال، وقوم لوط، الناس الذين كان ينتمي (ع) لجمعتهم، وتعذّبوا بتساقط الحجارة عليهم والخسف، وأيضًا، أصحاب الأيكة، الذين كانوا مع الشجرة ذات الأغصان الكثيرة الملتفة أغصانها على بعضها، وربما الأيكة اسم نوع من الشجر ذات الأغصان الكثيرة الملتفة على بعضها، فتكون الإشارة إلى شجرة مشهورة في زمنهم من نوع الأيكة، ونعرف من سورة الشعراء ابتداءً من الآية 176 "كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ" أنّ أصحاب الأيكة هم قوم النبي شعيب(ع) الذين تعذّبوا بزلزال.

قيل في بعض المرويات أنّ أصحاب الأيكة كانوا يعبدون الشجرة، ولكن في القرآن لا نجد أي أثر يدعم هذا التفسير، ولولا الروايات والتفاسير التي قالت ذلك لانصرف ذهننا إلى السوق الشهير الذي كان أهل مدين يغشّون الناس فيه، ولقلنا إنّ سوقهم نشأ في المكان الذي فيه شجرة مناسبة ليتظللوا تحتها، فتكون الإشارة بالأيكة إلى مكان سوقهم.

{أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ}، هذه الجماعات من الناس المتفرقة عبر التاريخ والتي كانت متفقة على العمل على أمور مشتركة فيما بينها في زمانها، ونكمل في الآية التالية ماذا فعلوا:

(إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ{14})
{إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ}، من دون استثناء، كلّ الأحزاب من هذه الأقوام أرسل تعالى إليهم رسولًا ولكنهم كذّبوا رسوله، {فَحَقَّ}، فاستحقّ، {عِقَابِ}، معاقبتهم على تكذيب الرسل، فاستحقّوا شيئًا يعقب فيأتي بعد تكذيبهم للرسل، وكما تعلم أصابتهم كوارث.

(وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَاء إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ{15})
{وَمَا يَنظُرُ}، ليس ينتظر، {هَؤُلَاء}، الأحزاب الجدد الذين يسمعون هذا القرآن ويكفرون بالرسول محمّد(ع) الناقل له، {إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً}، أمرًا ينتشر عليهم كلّهم، والمقصود بها الصيحة التي تصيبهم هنا في الدنيا لتميتهم كما أصابت النماذج التي ذكرتها الآيات السابقة، وسماع الصيحة لا يكون بالأذن بل بتنفيذ الأمر الإلهي واستجابتهم غصبًا عنهم بموتهم بكارثة... وبما أنّها أمرٌ "إلهيٌّ" ينتشر على عدد كبير فتوصيف ذلك باللغة العربية هو صيحة، {مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ}، ليس لها رجعة أو ترديد، لأنه بعد الصيحة الواحدة لا حاجة لأي شيء ثانٍ بعدها، لا فواق لها، وقديمًا استعملوا التعبير بالفواق للإشارة إلى ما يشبه فترة إعادة التعبئة، كفترة عودة المريض إلى حالة الصحّة، وفترة إعادة امتلاء الضرع باللبن، وهنا نقول إنّنا فهمنا الصيحة كالصرخة تقريبًا من حيث المدلول، لأنّ أمرًا واحدًا كافٍ للجميع ليموتوا ولا حاجة للانتظار لفترة حتى تصدر صرخة ثانية لمن بقي حيًّا ليموت، وكلّ مَن قصده تعالى بالموت فسيموت مع الجميع من صيحة واحدة.

إذًا هؤلاء المكذّبون لك أيها الرسول محمّد(ع) إن بقوا كما هم على شركهم فماذا ينتظرون أن يحصل معهم؟ هل ينتظرون أن يأمر تعالى بموتهم هنا في الدنيا بعذاب مشابه لعذاب النماذج المشهورة التي ذكرتها الآيات السابقة؟

الآية هنا والتالية على معنى ما ورد في الآية 8 من سورة هود "وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ".

الصيحة في استعمالنا العادي هي وصول الصوت لعدد كبير من الناس، وحتى يصل إليهم يجب أن يكون الصوت قويًّا، واستعمل القرآن كلمة صيحة بعد تفريغ معناها من كلّ الإضافات، وهذا التفريغ للمعنى من الإضافات ليصير الاستعمال

على الوصفية العمومية وهو منتشر في عموم كلمات القرآن، وبهذه الطريقة لم يضطر لاستعمال مجاز أو استعارة أو كناية... واستعمل أقرب كلمة للمعنى المقصود، وعامّة أهل اللغات يفعلون ذلك، مثلما نفعل مع كلمة باب ونافذة... في اللغة لا نخصّص هذه الكلمات لمستطيل من الخشب، بل نفرّغها من الإضافات لتصير على الوصفية ونستعملها لعموم أي ممر أو إطلالة مادية أو معنوية... وعند توصيفه سبحانه، بالحي القيوم البصير... أحبّ غضب انتقم... يد، ووجه الله تعالى... سنفهم هذه الكلمات بشكل صحيح عند تفريغها من الإضافات التي تخصّص استعمالها كأسماء.

هنا الصيحة هي وصول كلمة ما "أمر ما" إلى عدد كبير، وهنا هو أمر بالموت. واستعمل القرآن كلمة صيحة في سور أخرى للتعبير عن أمر برجوع كل الناس إلى الحياة كما ورد في الآية 53 من سورة يس "إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ". وكما ترى فرّغها القرآن من التصاقها بالصوت القوي، واستعملها على معنى وصول الأمر الإلهي لعدد كبير من الناس في وقت واحد، ومثلها التعبير بالنفخ في الصور.

(وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ{16})
{وَقَالُوا}، المنكرون للدين الإلهي، {رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا}، عجّل لنا ما تعدنا به من عذاب ولا داعي لتأخيره، {قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ}، الآن بلا انتظار للآخرة التي تُهدّدوننا بها ليحصل العذاب. يعني لن نؤمن برسولك ولا بما يقوله ولا داعي للتهديد بعذاب سيأتي وانتقل فورًا إلى التنفيذ وعذّبنا الآن.

طبعًا هم يقولون هذا الكلام غير آبهين لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ويعتبرون التهديد بالتعذيب كلامًا فارغًا.

بهذه الآية اختتمت السورة فقرة المقدمة عن كلامها مع وعن الملأ من الناس الذين كفروا، وفيما يلي عرض نماذج من ملأ مؤمنين من مختلف الظروف، لنتابع:

(اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ{17})
{اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ}، حافظ على تصرفك عن وعي ودراسة ولا تفلت منك مشاعرك وأعصابك بسبب معاندتهم وتكذيبهم لك، {وَاذْكُرْ}، واستحضر في كلامك، {عَبْدَنَا}، الذي مفروض منه الطاعة، {دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ}، صاحب الإنجازات، حيث كان له إنجازات إيمانية عديدة، وهذا التعبير يشابه القول: له أيادٍ عندي. وتقصد أنه "بيديه بقدراته" فعل لك شيئًا جيّدًا. وهنا التعبير عن النبي داوود(ع) بذي الأيدِ يقصد أنه(ع) قام بأعمال "إيمانية" جيّدة كثيرة.

{إِنَّهُ أَوَّابٌ}، إنّ النبي داوود(ع) في حياته العادية يذهب في أمور متعدّدة ولكن في النهاية فإنّ إيابه رجوعه من بعد ذهابه فقط إلى الله تعالى، وموقفه وإيمانه ودينه و... كلّه تحت مظلّته تعالى، ولا يرجع ولا ينتسب ولا يؤمن... بأي جهة أخرى.

من هنا بدأت السورة بعرض نماذج بارزة عن أشخاص من التاريخ الديني كان لهم مناصب، كانوا ملأً، للمقارنة بينهم وبين ملأ الكافرين الذين يرون لأنفسهم أهمية كبيرة بينما هم بلا قيمة عنده تعالى ولا عند المؤمنين.

اختارت السورة البداية مع أشهر نبيّ رسولٍ ملكٍ، وفي التراث اليهودي اشتهر النبي داوود(ع) بتسميته هكذا: داوود الملك. حيث كان أول نبي بهذا المنصب كما يبدو من التاريخ...

(إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ{18})
{إِنَّا سَخَّرْنَا}، التفسير الحرفي لهذه الآية أنّه سبحانه سخّر ووضع تحت إمرة النبي داوود(ع) وبدون أي مقابل من النبي(ع)، {الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ}، وتسبّح الجبال مع النبي(ع)، وعندما يقول (ع) كلامًا ينزّه به الله تعالى عن الصفات الناقصة أو السيئة فإنّ الجبال كانت تردّد معه التسبيح، {يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ}، بالفترة التي يكون فيها الضوء خفيفًا من دون ظلّ وهي فترة تمتد من قبيل المغرب حتى المساء، وتسبح معه (ع) الجبال، {بِالْإِشْرَاقِ}، في الوقت الذي نرى فيه ضوء الشمس بعد أذان الفجر ولكن قبل رؤيتنا لقرص الشمس. وورد في القرآن تعابير مختلفة تذكر وقتين من اليوم وتقصد بهما كما نقول نحن: صبح ومسا، من الصبح للمسا، كل النهار... وهذه تعابير مقصود منها الاستمرارية في أي وقت سبّح(ع) فإنّ الجبال يسبحن معه.

هذا هو المعنى الحرفي للآية، ولكن بما أنّ الجبال لا تنطق مثلنا، وليس لها صوت تسمعه أذننا، فالمقصود هو شيء آخر، لأنّ النبي داوود(ع) وهبه تعالى فهم التفاعل والإحساس مع الأشياء التي هي بنظرنا جمادات ولا تتحرك وليس فيها حياة، ولكن بالنسبة لله تعالى فهي مثلنا مخلوق مؤلف من مواد، وإذا كنّا نعرف بأنّنا واعون وأذكياء ولدينا حواس وقدرة على الكلام و... فهذا لا يعني بأنّ باقي المخلوقات التي نسمّيها "جمادات وأشياء" أنّها ليس لها مواصفات خاصة بها لا تخطر على بالنا، وجاء في الآية 44 من سورة الإسراء "تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ" حيث كان القرآن يتحدث مع الجنّ والإنس بهذه الآية ويخبرهما بأنّ كلّ الكائنات والموجودات "غير الإنس والجنّ" تسبح الله تعالى، وتقول الآية بأنّنا لا نفقه تسبيح تلك الكائنات، وهكذا ينغلق البحث علينا عن كيفية تسبيحها فلن نستطيع ربط المعلومات بشكل صحيح لنفهم معنى تسبيح الجمادات.

لا معنى للأقوال عن تسبيح الجبال بوجودها، أو بلغتها الخاصة... وقالوا إنّ للجمادات كالجبال والكواكب فهمًا خاصًّا، ويكون تسبيحها بسباحتها في الفلك، والملائكة(ع) تسبيحها بالطاعة... لذا علينا الانتباه بأنّ الاستنتاج والبحث في هذا المجال ما جدواه إن كان القرآن يخبرنا بأنّنا لا نفقه تسبيحهم!

لنفترض أنّ النبي داوود(ع) كان موجودًا الآن، وسألناه أن يشرح لنا هذه العلاقة والتفاعل مع الجبال، فلن يفيدنا كثيرًا، لأنّها منحة منه تعالى خاصّة بنبيّه داوود(ع)، ولو شرح لنا لاستعمل نفس العبارات التي نقرأها في هذه الآيات، ولن نفقه تسبيح الجبال إلا بمنحة من الله تعالى مثلما منح عبده داوود(ع) قدرة فقه تسبيح الجبال.

على كلّ حال، الآية تعرض أمورًا غير عاديّة وصل إليها واحد من الناس بمنحةٍ إلهيّةٍ، ومن المعلوم الواضح أنّ أيّ زعيم أو وجيه من ملأ الكفّار ستذوب وجاهته أمام شخص تسخّرت له الجبال بمنحة إلهية لتكون متابعة له في تسبيحه.

(وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ{19})
{وَالطَّيْرَ} "الطيور"، {مَحْشُورَةً}، تأتي من عدة نواحٍ لتكون قريبة منه(ع) بأمر إلهي، {كُلٌّ}، وكل طير من هذه الطيور، {لَّهُ}، للنبي داوود(ع)، {أَوَّابٌ}، تعيد وتكرّر الدعاء الذي صدر منه(ع)، والدعاء والتسبيح... يصدر منه(ع) "وهذه حالة ذهاب" وتقوم الطيور بتكرار الدعاء والتسبيح..."وهذه حالة إياب".

للتقريب نقول إنّ بعض الناس تربّي العصافير فتصير أليفة وتأكل من يد صاحبها وترافقه وتطير حوله وبقربه، ولكن العلاقة بين النبي داوود(ع) وبين هذه الطيور هي أكثر من علاقة طائر أليف، فمن الآية 16 من سورة النمل "وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ..."، نعلم أنّ النبي داوود(ع) كان يفهم على الطيور وكانت الطيور تفهم عليه، ولكن هذا لا يعني أنّ الطيور لديها قاموس للكلمات مثل قاموسنا، وأنّ النبي داوود(ع) كان يصدر منه أصواتٌ مثل أصوات الطيور، فهذا التفاعل وهذه العلاقة هي فوق فهمنا "الحالي" ونستطيع في المستقبل التوصّل إليها.

هنا سؤال: لماذا يذكر القرآن الكريم لنا هذه الأشياء إن كنا لن نفهمها "الآن"؟

بالتحليل يبدو أنّ السورة في هذا المقطع تريد أن تحدثنا عن الصفات الخاصة العالية التي تحلّى بها النبي داوود(ع) كوجيه عنده تعالى فمنحه قدرة خاصة جدًّا كميزة تسعده هو(ع) شخصيًّا بلا أي أثر على عمله كرسول. وهذه المواهب مضافةً لاختياره كرسول إلهي هي من خزائن رحمة الله سبحانه التي مرَّ ذكرها في الآية رقم 9، وسبحانه يعطيها لمن يشاء، وفي نفس الوقت فهي مع بقية الأمور الغريبة الواردة في القرآن كنقل عرش ملكة سبأ بأسرع من رمشة عين، وإمكانية الانتقال بين السماوات... فهي استفزاز لنا بأمور تبدو مستحيلة حتى ينفتح أفق خيالنا محاولين محاكاتها بتقليدها، وسيكون رائعًا لو استطعنا ذلك.

السورة دخلت من هنا على المقارنة بين ملأ الكفّار وبين نموذج من ملأ المؤمنين، وبدأت بالملك داوود(ع) وبما ناله من منحة إلهية مميزة جدًّا جدًّا.

(وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ{20})
{وَشَدَدْنَا}، متّن سبحانه، {مُلْكَهُ}، له سلطة التصرف القوية في المنطقة التي حكمها، فلم يكن هناك خطر على زوال مملكته من الداخل أو من الخارج، أو تعرضها لهجوم أو غارة من الأعداء.

{وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ}، صار لديه رؤية الصوابية في الأمور، وعلى أساسها نتجت التصرفات الصحيحة، فصارت أقواله وأفعاله(ع) على الحق والصلاح، ومن تبعات ذلك صارت تصرفاته ذات أهداف حسنة وسامية وليست عبثية أو سيئة...

وأعطاه الله سبحانه، {وَفَصْلَ الْخِطَابِ}، خطابه وما يقوله للآخرين وهم ينصتون له، لا إبهام ولا تشويش فيه، فهو (ع) يقول كلام الحقّ الواضح.

إلى هنا انتهت الآيات التي كانت كمقدمة لتوصيف مدى الوجاهة التي وصل إليها النبي داوود(ع)، كنموذج عن واحد من الملأ من المؤمنين، ولكن رغم ذلك علم الله سبحانه أنّه يوجد جانب في شخصية النبي داوود(ع) بحاجة للمعالجة، فالنبي الذي يأمره سبحانه بتبليغ رسالته وينصِّبه حَكَمًا بين الناس، "فيصير من الملأ"، يتكفّل سبحانه أن يتصرف ويحكم هذا النبي بين الناس بالحقّ والصواب، فرغم كل هذه الصفات الراقية التي ذكرتها الآيات عن النبي داوود(ع) علم سبحانه أنّه يوجد خلل بحاجة لمعالجة... فلنتابع القصة التالية التي جرت مع النبي داوود(ع):

(وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ{21})
انتهى التعريف بالنبي الوجيه داوود(ع) ومن هنا تبدأ السورة بذكر حادثة جرت معه(ع) ولها علاقة بالعزة والشقاق اللذين يتصف بهما "ملأ" الكفار ولا يتصف بهما ملأ الأنبياء كنموذج راقٍ عن المؤمنين.

{وَهَلْ أَتَاكَ}، هل وصلك أيها النبي محمد(ع)، {نَبَأُ}، خبر غير منتشر بين الناس، {الْخَصْمِ}، والخصام هو عموم أي خلاف يسبب حالة نفسية بين شخصين من النفور والكره وصولًا إلى العداوة، وكما سترى فهناك شخصان بينهما خصومة وبينهما خلاف لدرجة النفور من بعضهما بسببه، {إِذْ تَسَوَّرُوا}، حين تسلَّقوا السور، فدخلوا عبر تسلقهم الحيطان ولم يدخلوا من الباب، وتسلقوا سورًا وهو ما يحيط بالبيت من حيطان، {الْمِحْرَابَ}، وهي غرفة في البيت مخصصة لشيء مميز، فغرف البيت: غرفة نوم وغرفة راحة والمطبخ... أما الغرفة الشخصية الخاصة أو المخصصة لشيء آخر غير الاستخدامات العادية كالخلوة للعبادة أو الدعاء... فهي محراب.

وكما نقول "فريق" ونفهم منها مباشرة أنّها تعني مجموعة من الناس، فكلمة خصم هنا معناها: أشخاص بينهم خصومة أي منازعة وخلاف لدرجة النفور من بعضهم.

الذين تسوروا هما شخصان كما سنرى، ولكن استعمل القرآن الفعل تسوروا بصيغة الجمع، لأنّها أتت بعد كلمة الوصف "الخصم" التي بصيغة الجمع، وجاء في بعض الروايات أنّه سبحانه أرسل ملكين، وتشبَّها بشكل البشر، وذلك ليقوما بمهمة تنبيه النبي داوود(ع) قبل أن تحصل معه هذه الحادثة مع خصمين حقيقيين من البشر... وهذا الكلام متوافق مع الآيات.

(إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاء الصِّرَاطِ{22})
{إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ}، دخل الخصوم على النبي داوود(ع) وهو في المحراب فجأة بعد أن نزلوا عن السور ولم يكن يتوقعهم، {فَفَزِعَ مِنْهُمْ}، تفاجأ وارتبك.

وكلمة "فزع" ليست مرادفًا لكلمة خاف، لأنّ الخوف هو توقع الأذية من شيء، ولكن الفزع حالة نصاب بها نتيجة المفاجأة وتسبب الخوف أو الارتعاب أو الارتباك من شيء لم نتوقّعه.

{قَالُوا}، الذين فاجؤوا النبي داوود(ع): {لَا تَخَفْ}، لا تشعر بأنّنا سنؤذيك، لا تصيبك مشاعر سيئة أو تتصرف بشكل عدائي فنحن، {خَصْمَانِ}، نحن شخصان بيننا خلاف سبّب النفور بيننا، {بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ}، طالب أحدنا بشيء ليس له حق فيه من الآخر، فأنا أقول أنّه بغى عليّ، وهو يقول بأنّي بغيت عليه.

{فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ}، اضبط الأمور بيننا على الصواب الصحيح، {وَلَا تُشْطِطْ}، لا تذهب أبعد من الحق، ولا تبتعد عن العدل، ولا تنحز إلى واحد منَّا، ولا تشفق على واحد وتقسو على الآخر، ولا تحاول عرض حلٍّ وسطيٍّ يرضي

الطرفين، بل نريد الحقّ، {وَاهْدِنَا}، ضعنا على الشيء الصحيح الذي يوصلنا للغاية الصحيحة، {إِلَى سَوَاء الصِّرَاطِ}، دلّنا على ما يحلّ الخلاف بيننا بالسويّة المتناسبة مع الطريق الأساسي الصحيح.

عادةً سنقول أنّهما طلبا منه الحكم بما يأمر به تعالى كمعنى مرادف للصراط السوي، وهذا عمليًّا صحيح لأنّه تعالى لا يأمر إلا بالحقّ، ولكن عموم غالبية صياغة القرآن لأمثال هذا الكلام تشير للقابلية التي فينا على تمييز الحقّ من الباطل، فهناك معيار ثابت أساسي للخير والشرّ، وعلى أساسه نعلم ما يحقّ لكل واحد منّا، وأصلًا هذا ما يطلبه تعالى منّا حين يأمرنا بعمل الصالحات، وحين تشتبه علينا الأمور ويختلط الحقّ بالباطل فهذا يعني أنّنا فقدنا سلامة القلب وصرنا نحتاج لمرجعية نعيد ضبط الأمور على أساسها، وهنا في المثال عاد المتخاصمان إلى نبي على أساس أنّ قلبه سليم وأنّه يستند على ما يحكم به تعالى كمرجعية...

ننتبه للشرط الذي طلبوه من النبي(ع)، حيث قالوا له: لا تشطط. يعني لا تذهب بعيدًا عن الحق، فنحن فقط نريد منك أن تدلنا على الحقّ بالضبط. وننتبه بعد قليل أنّ النبي(ع) وقع في الخطأ، حيث ترك الحقّ الذي يطلبانه، وأعطاهما نصيحة هو يراها جيدة، ولكنها لم تكن على قياس ما اشترطا به عليه.

(إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ{23})
بدأ أحدهما بالكلام مشيرًا إلى الشخص الثاني الذي تسلّق سور البيت معه وقال عنه: {إِنَّ هَذَا أَخِي}، أنا وهو لنا انتماء واحد، وسياق الكلام يشير إلى كونه من المفروض أن يكون لعلاقة الأخوة تأثير على الخصم حتى لا يفعل ما يفعله مع أخيه، {لَهُ}، لأخي، وسياق الكلام عن نسبة ملكية، عنده، {تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً}، وهي أنثى الضأن "الخروف"، {وَلِيَ}، وأنا أملك، {نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ}، وليس عندي غيرها. {فَقَالَ}، لي أخي: {أَكْفِلْنِيهَا}، أعطني إياها لأرعاها لك مع نعجاتي.

أخي لا يريد أخذها مني لتصير له، ولا يريد شراءها منّي، ولكن يريدها أن تسرح مع نعاجه وتأكل مع نعاجه، وعادة الرعاة في هذه الحالة يتقاسمون الإنتاج كالحليب والصوف والمواليد. وأنا لم أقبل معه أن يكفلها، {وَعَزَّنِي}، أصرَّ وألحَّ، {فِي الْخِطَابِ}، في كلامه الموجّه لي وأنا أنصت له.

إلى هنا كلّ من يسمع هذه القصة سوف يقول إنّ صاحب النعجة الواحدة رجل فقير وحرٌّ في أن يفعل في نعجته ما يشاء، وليس لأخيه الغني أي حق حتى يُصِرَّ عليه بضم هذه النعجة الواحدة إلى نعاجه، فالصورة من الكلام عن رجل فقير يملك نعجة واحدة في مقابل رجل غني طمَّاع يريد أن يكفلها ويُكمل نعاجه لتصير مئة! وبضم ما هو مشهور بين الرعاة من هكذا كفالة، فهو يريد مشاركة أخيه فيما تنتجه نعجته الواحدة...

أجاب النبي داوود(ع) مباشرة:

(قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ{24})
{قَالَ}، النبي داوود(ع) حكمه في المسألة:

{لَقَدْ ظَلَمَكَ}، لم يكن أخوك منصفًا عادلًا معك، {بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ}، حين عبّر لك عن إرادته للحصول على نعجتك، بأن يطلب منك ضمّ نعجتك الواحدة، {إِلَى نِعَاجِهِ}، التسع والتسعين، فهو غني ويملك الكثير وأنت فقير ويريد أن يتقاسم معك نتاج نعجتك الواحدة! ويبدو أنّه مزاجي ويريد أن تصير النعاج مئة نعجة، وهذا ليس عدلًا ولا إنصافًا بل ظلمٌ.

من ناحية ثانية أعطى النبي داوود(ع) رأيه في الشراكة بشكل عام فقال:

{وَإِنَّ كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَاء}، أكثر الناس الذين اختلطت ممتلكاتهم، الكثير من الناس الذين بينهم شراكة في مصلحة تجارية أو أرض زراعية أو معاملات مالية... {لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}، يأخذ أحدهم أكثر من حقِّه، ويطلب ويرغب فيما هو فوق حقه.

يكمل النبي(ع): {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا}، وسياق الكلام عن الذين اعتقدوا به تعالى ربًّا محاسبًا فيخافون إن بغوا على الآخرين أن يعذّبهم سبحانه فهؤلاء لا يبغون، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، فهؤلاء لا يبغون على بعضهم إذا تشاركوا، حيث خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، عمليًّا هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى. وبشكل أو بآخر يشيع بين الناس عمومًا وحتى بين المؤمنين، أنّ الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائمًا أنّه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأنّ القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به. وهذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعًا ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنّه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبًّا لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنّه أمر إلهي "وهو سيّء" فهو في الحقيقة اختراع من البشر وليس أمرًا إلهيًّا.

النبي داوود(ع) الذي كان يأتيه الكثير من الناس لحلّ الخلافات، تكوّن عنده رأي أنّ الخلطاء المؤمنين فقط هم الذين لا يتعدُّون على بعضهم، {وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ}، هم أقليّةٌ، وعددهم قليل. والقاعدة التي رسخت في ذهن النبي داوود(ع) من كثرة المشاكل بين الشركاء، أنّ القليل من الناس تلتزم بالحق، ولذلك فضّل بقاء كل واحد من المتخاصمين على النعجة لوحده من دون شراكة.

انصرف الشخصان، وراجع النبي داوود(ع) فكره، وانتبه لما فعله، {وَظَنَّ}، صار لديه علم مستند على ما صدر منه للخصمين، {أَنَّمَا فَتَنَّاهُ}، اعتقد أنّ ما مر به كان شيئًا تعرّض له ليغيّره، كامتحان واختبار من الله تعالى.

عندما راجع ما حصل معه انتبه أنّه انحاز للفقير ولم يسمع للشخص الآخر، بل أنهى المسألة بحسب قناعته هو من كثرة المشاكل التي تنتج عن الشراكة.

أيضًا فكّر النبي(ع): لماذا لم يدخل هذان الشخصان من الباب؟ وخلافهما ليس خطيرًا حتى يستعجلا؟ ومسألتهما سهلة؟

علم أنَّ الزائرين كانا مرسلين من عند الله تعالى في هذه المسألة عن قصد، وأنّه كان من المفروض أن يتصرف بطريقة أفضل، {فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ}، طلب منه تعالى التجاوز عن سوء ما فعله، {وَخَرَّ رَاكِعاً}، لم يستطع الوقوف على رجليه فوقع وسقط على ركبتيه من شدة خوفه من الله تعالى وركع وأحنى ظهره كتعبير عن خضوعه وطلبه للمغفرة، {وَأَنَابَ}، ترك الشخصانية من أفكار ومشاعر... ورجع إلى أوامره تعالى، وتراجع فكريًّا وشعوريًّا عمّا قاله، فلم يركب رأسه مصرًّا على موقفه... بل أعلن اعترافه لله تعالى بالخطأ الذي صدر منه.

انتبه أنّ حكمه بين ذانيك الشخصين لم يكن كما يحبّ سبحانه، فبسبب خوفه على الفقير من الشراكة أراد حمايته، وحسم الأمر ولم يسمع كلام الشخص الآخر! وهذا تقريبًا مثل ما نراه يحصل من بعض الوجهاء الدينيين أو أصحاب النفوذ والسلطة والزعامة... الذين يعتبرون أنفسهم أفهم من البقية فيصدرون أوامرهم ولا يقبلون النقاش فيها، بل ولا يعتبرون لكلام الآخرين أي قيمة ولا يلتفتون له من أصله، وشيءٌ من هذا حصل هنا حيث لم يسمع(ع) للطرف الآخر، طبعًا مع الفارق أنّ النبي داوود(ع) ليس متكبرًا ولا متعجرفًا... ولكنه أنهى الموضوع بما يراه مناسبًا ولكن ليس على مسطرة الحقّ بما يأمر به تعالى كما طلب الخصمان.

بالنسبة لكلمة سأل الواردة في جملة "لقد ظلمك بسؤال نعجتك..."، فالمعنى الأساسي لها هو تقريبًا المرادف لمعنى كلمة "طلب" حاليًّا، ولم يستعمل القرآن كلمة "طلب" بالمعنى الدارج حاليًّا واستعمل بدلًا منها كلمة سأل التي هي لعامّة إرادة شيء ما من شخص آخر، سواء أراد جوابًا أو أراد غرضًا أو مساعدة...

(فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ{25})
بعد طلب النبي داوود(ع) المغفرة من ربه سبحانه، {فَغَفَرْنَا لَهُ}، تجاوز سبحانه عن الخطأ وسامحه.

{وَإِنَّ لَهُ}، بالتأكيد للنبي داوود(ع)، {عِنْدَنَا لَزُلْفَى}، والزلف هو وصف اقتراب شيء من شيء بينهما درجات مواضع، وهنا الكلام عن اعتباره تعالى لنبيه(ع) من القريبين منه سبحانه معنويًّا، وله عند ربنا سبحانه، {وَحُسْنَ

مَآبٍ}، لأنه حكم (ع) بما لا يرضى عليه تعالى "وهذه حالة ذهاب" ثم آب وتراجع وانتبه (ع) لخطئه وعاد لتحت المظلّة الإلهية "وهذه حالة الإياب" وسبحانه لديه حسن مآب، ولديه تعالى مكانة حسنة لاستقبال رجعته (ع).

نلاحظ أنّ تعبير "حسن مآب" ورد في القرآن عدة مرات وكان يشير إلى الإياب إلى الجنّة، ولكن هنا سياق الآية يجعل هذا التعبير يشير إلى الإياب إليه تعالى هنا في الدنيا، وأنّه تعالى هنا استقبله (ع) بعد رجوعه عن خطئه، وسيرد نفس التعبير وبهذا المعنى أيضًا في حقّ النبي سليمان(ع).

قارنها مع اعترافك بالخطأ عند لئيم لا يقبل اعترافك ولا توبتك، والآن قارنها مع اعترافه(ع) بالخطأ أمامه تعالى، حيث سيستقبل سبحانه هذا الاعتراف بشكل حسن، ويغفر له، ويمسح الذنب، ويعتبره لم يحصل.

هذه القصة لم ترد في التوراة بهذا الشكل، حيث قالوا إنّ النبي داوود(ع) أعجبته زوجة أحد الرجال الذين كانوا في جيشه واسمه أوريا، فأرسل النبي داوود(ع) أوريا مع الجيش حتى يخوضوا معركة مع الكفّار، وأمر النبي داوود(ع) أوريا أن يقاتل أمام التابوت، وبحسب التوراة فإنّ اليهود كانوا يحملون التابوت "الصندوق الخشبي" الذي كان فيه رفات النبي يوسف(ع) أو الذي كان فيه ألواح التوراة ويضعونه أمام الجيش، وكانوا يؤمنون بأنّه يجب ألا يتقدم أي أحد منهم أمام التابوت أثناء المعركة وإلاّ سيموت، وتقول القصة المزعومة إنّ النبي داوود(ع) أمر أوريا بالتقدّم أمام التابوت أثناء المعركة، وذلك حتى يضمن أنّه سيموت وتصير امرأته أرملة ويتزوجها النبي داوود(ع)...

ربط بعض المسلمين الأوائل بين هذه القصة "الزائفة" وبين الآيات هنا على أساس أنّ النبي داوود(ع) كان لديه "بحسب زعمهم" تسع وتسعون زوجة وكان لأوريا زوجة واحدة أرادها النبي داوود(ع) لنفسه، ويقولون إنّه سبحانه عاتبه وأرسل الملكين ليقوما بهذه التمثيلية كتنبيه على الخطيئة التي ارتكبها (ع).

تداول المسلمون هذه القصة الكاذبة السخيفة، وبعضهم أجرى عليها إضافات وتعديلات للتشويق القصصي، حيث اخترع بعضهم طائرًا من ذهب ولؤلؤ لاحقه النبي داوود(ع) على الأسطح من بيت إلى بيت إلى أن شاهد في أحد البيوت زوجة أوريا وهي تستحم! مما استدعى من الإمام علي في أثناء خلافته أن يهدّد كل من يروي هذه القصص ويروّجها بين الناس، حيث ورد عن الحارث الأعور عن الإمام علي أنّه قال: من حدَّث بحديث داوود(ع) على ما يرويه القصَّاص معتقدًا صحّته، جلدته حدَّين لعظيم ما ارتكب وجليل ما احتقب. وفي حديث آخر أنّه قال: لا أوتى برجل يزعم أنّ داوود(ع) تزوج امرأة أوريا إلا جلدته حدَّين، حدّ النبوة وحدُّ الإسلام. وللأسف ورغم هذا الموقف الشديد من الإمام علي فإنّ عابدي المرويات استمروا على نقل القصة...

إلى هنا نسأل: هل ارتكب النبي داوود(ع) معصية تستوجب منه أن يستغفر الله سبحانه؟

سواء أكان اللذان دخلا عليه هما شخصين حقيقيين من البشر بينهما مشكلة؟ أو كانا ملكين وقاما بتمثيلية لتنبيه النبي داوود(ع) وهو الأرجح والأوضح، فعلى كل الأحوال فإنّ المشكلة كانت من دون أثر فعلي، بل فقط شخص يصر ويلح على شخص آخر أن يضُم نعجته إليه، والنبي داوود(ع) طلب منه التوقف عن الإلحاح. والمسألة كانت سهلة جدًّا، ولكن الدرس والعبرة من هذه القصة أنّ النبي داوود(ع) كان يجب عليه الاحتفاظ برأيه في المسألة لنفسه، لأنّهما لم يقصداه ليسألاه رأيه الشخصي بل يسألانه عن الصراط السوي بما أنّه نبي، وكان يجب ألا يصدر عنه أي كلام حتى يسمع كلام الطرف الثاني، وإذا كان النبي داوود(ع) اعتبر ما حصل منه يستوجب الاستغفار فهو فعلًا يستوجب الاستغفار من شخص مثل النبي داوود(ع)، والآية التالية ستشرح أكثر:

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ{26})
{يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ}، فأنت أيها النبي داوود(ع) لا تمثّل نفسك، وأنت تخلفه تعالى فتحمل عنوانًا معنويًّا كممثّل لدينه تعالى في الأرض التي عليها البشر، وبناء عليه كلّ ما تقوم به سيعتبره الناس موافقًا لكلامه سبحانه.

{فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ}، ما يطلبه الناس منك لتقوله لهم كحكم، كشيء يعكس الصوابية في الأمور، فليكن بالحقّ، فهذا هو واجبك بما أنّك خليفة لله تعالى، {وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى}، لا تكن على أفكارك من دون اتباع أصول إصدار الحكم

بين الناس، ولا تتصرف بأول ما يخطر ببالك، وفي نموذج الحادثة السابقة الخصمان لم يطلبا رأيك وطلبا الحقّ وأنت لم تحكم بالحقّ بل أبديت رأيك... {فَيُضِلَّكَ}، يجعلك هواك "ما ترغبه وتشتهيه" على الطريق غير الصحيح، {عَن سَبِيلِ اللَّهِ}، ويبعدك عن المسلك المؤدِّي إلى مرضاة الله سبحانه.

هذا لبّ ما هو مطلوب تذكّره من قصّة النبي داوود(ع): احكم بالعدل ولا تتّبع الهوى. فكونك في منصب "من الملأ" فهذا لا يعني أن تتصرف على هواك، فعليك الالتزام بالحقّ وهو نفسه أوامره تعالى.

لاحظ وانتبه وقارن بين الكلام هنا وبين القتال في "سبيل الله"، ففي حالة الأمر بالقتال يشيع بين الغالبية الساحقة أنّه أمرٌ إلهيٌّ كشيء مفروض علينا ونفعله ليرضى سبحانه، وكأننا لا مصلحة لنا بالقتال ومصلحتنا فيه إرضاؤه تعالى، راجع أي آية ورد فيها أمر بالقتال وسترى أنّه تعالى سمّى القتال في سبيله بينما سببه ما تعرّض له المؤمنون من الآخرين المقاتلين لهم.

هنا لاحظ من الآية 22 أنّ الخصمين طلبا الحكم بالصراط السوي، والآية هنا وصفت مخالفة ذلك بأنّه ضلال عن سبيله تعالى، فالحقّ هو نفسه سبيله تعالى.

{إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ}، يجعلون الآخرين على غير المسلك الإلهي، {لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}، عمومًا الناس يعلمون من كلامه تعالى عن الزمن الذي سيتحاسبون فيه على أعمالهم، والذي منهم لم يستحضر ذلك وتصرّف على أساس أنّه لن يتحاسب فضلّ وأضلّ الآخرين، فله عذاب شديد.

هذا الكلام يأخذنا إلى الاستهتار الذي نفعله من التقصير في الالتزام بدينه تعالى وصولًا إلى المخالفة عن قصد وتصميم لأوامره تعالى، ونهاية ذلك العذاب الحتمي، فالمسألة ليست لعبة حتى نستهتر ونتجاهل أو يغيب عن بالنا أو ننكر الآخرة، فهذا لن يغيّر من مصيرنا الحتمي بملاقاتها ومحاسبتنا ومجازاتنا فيها.

ننتبه جيّدًا، افتتاحية السورة تحدّثت عن ملأ الكافرين، وهنا تتحدّث السورة عن وجيه ملك حاكم من المؤمنين، ونرى فيها صفاته العالية، ونرى فيها العناية الإلهية به ليبقى مستقيمًا، مما يشير إلى تقصّد السورة عرض المعنى الحقيقي لقيمة كون الشخص وجيهًا من الملأ، فإن كان مؤمنًا فله قيمة وله عناية إلهية خاصة، وإن كان مشركًا كافرًا فلا قيمة له عنده تعالى. تذكّر هذا عندما تنقل الآيات القرآنية اعتراض المشركين على حصول "محمّد" الفقير على منصب الرسول الإلهي... فقيمته (ع) ليست لمنصبه ولا لماله ولا... بل لإيمانه وعمله الصالح ولهذا السبب اختاره تعالى ليكون رسولًا.

شيء آخر، ترى في الفقرة هنا أنّ داوود(ع) لم تأخذه العزّة فلم يصرّ على موقفه، ولم يشاقق الحق بعدما علم به، بينما الملأ الكافرون في عزّة وشقاق.

هذا التشديد الإلهي على النبي داوود(ع) وعلى كل من يقرأ هذه الآيات أصل سببه:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ{27})
{وَمَا خَلَقْنَا}، لم يركّب ويؤلّف سبحانه، {السَّمَاء}، عموم ما كان فوق، {وَالْأَرْضَ}، عموم ما كان تحت، {وَمَا بَيْنَهُمَا} من مناطق وكائنات وظواهر، وهذا التعبير القرآني "سماوات وأرض وما بينهما" يشير إلى حدود دنيا المخلوقات وما فيها، فلم يخلقه سبحانه، {بَاطِلاً}، بحيث لا تجرى الأمور بشكل صحيح.

{ذَلِكَ}، القول بأن الخلق للسماوات والأرض بالباطل ... هو، {ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا الدين الإلهي واستنادًا إلى معلومات غير صحيحة قالوا بأنّ السماوات والأرض لا معيار للحقّ فيها، فلم يخلقها سبحانه عن حكمة، والأمور تجري فيها بلا حكمة، ونحن لسنا ملزمين بأي شيء، فنفعل ما نراه مناسبًا لنا حتى لو كان سيّئًا وباطلًا... {فَوَيْلٌ}، المصيبة الكبيرة، {لِّلَّذِينَ كَفَرُوا}، للذين أنكروا حكمته تعالى ومرجعية الحقّ والباطل على شيء ثابت، {مِنَ النَّارِ}، فهناك نار في الآخرة ستحرقهم.

كما ترى نحن أمام عنوان أساسي كبير لمرجعية مفهوم الحقّ والباطل، قارن الكلام هنا مع كلام الذي يعتقد بأنّ الأمور مطّاطة ولها أوجه عديدة، فمن زاوية ما ترى الحقّ كذا وكذا، ومن زاوية أخرى ترى الحقّ مختلفًا، فمن هذه الزاوية يصير باطلًا ما رأيته من زاوية أخرى حقًّا.

خذ مثلًا خلقنا نحن البشر بحرية إرادة واختيار نتج عنه أناس يفعلون السوء من العيار الثقيل ويتجازون عليه بالخلود في جهنّم الآخرة، فمن زاوية سترى أنّ منحنا الحياة شيء جيّد، ومن زاوية أخرى فهو نفسه منحنا الحياة سيّئٌ لمن سيخلد في نار الآخرة، فلو لم يخلقه تعالى لكان أفضل له. وهكذا لا يثبت مفهوم وصف الحكمة بخلقنا فقد صار له وجهان.

الآية هنا تريك مرجعية أساسية لوصف الأمور، فالأوصاف ليست مطّاطة بل الوصف بالحقّ ثابت والوصف بالباطل ثابت، والوصف بالخير والصلاح ثابت، والوصف بالشرّ والفساد ثابت.

أوّل سؤال من ناحيتنا سيكون عن معنى الحقّ والباطل والخير والشرّ، والعديد من المفكّرين عبر التاريخ حاولوا تثبيت قواعد لذلك، وأبسطها قاعدة: ما لا ترضاه من الآخرين أن يفعلوه معك فلا تفعله مع الآخرين. وهكذا ترى أنّهم بالعموم حاولوا حلّ المسألة عبر تثبيت قواعد للحياة الفردية وبالتالي الاجتماعية السعيدة، واصطدموا بمسائل تحتاج للتضحية كالدفاع القتالي ضد المعتدين، فمصلحتي كفرد أن يذهب غيري ليقاتل دفاعًا عنّي، فإذا قاتلت وقتلوني فأين مصلحتي؟

لن أطيل عليك وأحيلك إلى دراسات من نوع دراسات المدينة الفاضلة وفلسفة القانون... وسترى أنّهم يفتقدون لمعيار أصيل للحقّ والباطل والخير والشرّ، وسترى أنّهم لا يريدون رؤية أو لأسباب عديدة فهم غير قادرين على رؤيته.

من القرآن نفهم أنّه تعالى منحنا قدرة تمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، ومنحنا قدرة اختيار فعل ما نريد منها، وعلى هذا الأساس ابتنى تأهلنا لنتكلّف ونتحاسب ونتجازى، ولو كانت الأمور مطاطية لانهار معنى تكليفنا ومجازاتنا، وهو نفسه المفهوم العلماني بالقوانين والتشريعات العلمانية والتي تعاقب من يخالف القانون، فلا معنى للقانون والعقاب على مخالفته إن كانت الأمور مطّاطة والحقّ يمكن أن يصير باطلًا وبالعكس.

السؤال يعود لينطرح: أين المعيار المرجعي الذي نقيس عليه الأمور لنحدّد أنّها حقّ وصلاح أو باطل وفساد طالما نختلف فيها؟

بالنسبة لنا كمنتمين لدينه تعالى ومؤمنين بكتابه، فمن كلامه تعالى نعلم أنّه خلقنا كلّنا من ولادتنا بقلب سليم "بأساس نفسية وفكر" يميّز بدقة بين الحقّ والباطل والخير والشرّ، وخلقنا بشهوات ورغبات مع حرية إرادة واختيار لنفعل ما نريد، وهذا ما قالته بصراحة عدة آيات منها الآية الثامنة من سورة الشمس "فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا"، وأي اختيار لفعل سوء مدفوع برغبة أو شهوة سيئة، نتيجته بداية فساد في القلب "في أساس الفكر والنفسية"، ومن بعد ذلك يبدأ الضباب بالتكاثف وتصير الأمور غير واضحة وينخلط الحقّ بالباطل، ونصير في حالة فقدان التمييز الصريح واختلاف التصنيف لنفس الشيء عند النظر إليه من زوايا مختلفة، فمرّة نراه باطلًا ومرة نراه حقًّا، وهذا ما قالته الآيات الرابعة والخامسة والسادسة من سورة التين "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ".

في كل كلامه تعالى في قرآنه ترى الأمور على معيار واحد ثابت، فقتل النفس عمل سيّء، ولا يتغيّر توصيفه بأي حال، وحتى قتل المجرم والمحارب المعتدي فهو عمل سيّء، ولو وضعت هذا في بالك فسترى في طيات كلامه تعالى عند أمره للمؤمنين بقتال الكافرين، سترى التبرير الإلهي لهذا التشريع، فلن تجد تجميلًا ولا تحسينًا ولا تغييرًا للمعايير بل ستجد التبرير الجاعل قتلهم حقًّا لأنّهم مفسدون أو مجرمون من العيار الثقيل، مع أنّ قتلهم عمل سيّء بالأصل.

مثله فعلنا للسوء بالخطأ من دون قصد، فلن يتغيّر وصف السوء عمّا فعلناه، ومطلوب منّا الاستغفار منه للنجاة من العقاب عليه، وهو مغفور لنا من بعد الاستغفار منه لأنّنا مؤمنون به تعالى، وأمّا الآخرون فيتجازون بالعقاب حتى على ما فعلوه بالخطأ وهم لا يقصدون فعله، وراجع في ذلك الآية 286 من سورة البقرة "لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا...".

الآن ننتقل بالسؤال عن أصل مرجعية ما فينا من قدرة على تمييز الحقّ من الباطل، حيث قلنا إنّه تعالى جعلها فينا، فما هو المعيار الإلهي لتصنيف الأمور؟ وبعبارة أصرح على ماذا يعتمد تعالى ليقول إنّ هذا حقّ وذاك باطل؟ وبناء عليه زرع فينا رؤية هذا حقًّا وذاك باطلًا.

يبدو بالتحليل لمفاهيم القرآن أنّه تعالى اكتفى بالجواب عن ذلك بعرضه لصفاته الفائقة، ومنها وصف نفسه بالحقّ والحكيم وتبارك... وبمراجعة صفاته تعالى يتبين لنا ارتباط بينها، وهذا ما دفع بالعديدين للبحث عن الصفات الأساسية التي تسبق بقية الصفات، علمًا أنّ هذا التصنيف فقط وفقط من ناحية المخلوقات وليس من ناحيته تعالى، فالصفات ليست مستجدة له تعالى... وليكون الكلام أوضح خذ مثلًا ما قالوه عن صفتي الحي القيوم، فصفة الحياة أساسية وتسبق كل بقية الصفات من حيث الترتيب، فلو لم يكن حيًّا لما كان فيه كل بقية الصفات، ولو لم يكن قيّومًا لما كان الأول كأصل لكل ما انخلق، ولكان معتمدًا على شيء ما كوّنه، وعندها نعود لنسأل نفس السؤال عن الذي كوّنه إن لم يكن سبحانه قيّومًا، فمن كونه؟ علمًا أنّه تعالى يخبرنا عن نفسه أنّ طبيعته ليست مخلوقة حتى نسأل عمّن خلقه، فهو ليس مركّبًا ولا مؤلّفًا، وطبيعته مختلفة كلّيًّا عن طبيعة كل المخلوقات...

نرجع لصفاته الفائقة سبحانه، فقبل وصفنا له تعالى بالحكمة لتكون مرجعية لما زرعه تعالى فينا لنرى الصوابية في الأمور... لدينا الوصف بالحيّ القيوم، وبناء عليه لا يتأثّر سبحانه ولا بأي شيء، وأخبرنا في الآية 16 و 17 من سورة الأنبياء عن نفسه بأنّنا لا نشكل له مادة لهو أو لعب "وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ، لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ"، فلا أهمية لنا بالنسبة له تعالى ولا بأي شكل من الأشكال ولا حتى للتسلية، وبناء عليه لا سبب عنده تعالى ليظلم أو يعبث، وللنظر متصوّرين الفراغ قبل خلقه تعالى للسماوات والأرض، فهل خلق الأشياء ووهب الحياة حقّ أم باطل؟ وهل هذا هو أصل اتصافه تعالى بالرحمة التي نشتقّ منها أنّه يفعل الخير ولا يظلم؟

كما تلاحظ صرنا ندور في حلقة، فمن ناحية نقول إنّه تعالى زرع فينا قدرة تمييز الحقّ من الباطل، ومن ناحية ثانية من هذه القدرة نحاول تثبيت معيار للحقّ والباطل، فالنتيجة ستكون نابعة من القدرة المزروعة فينا، فلو كان المزروع فينا يرينا الباطل حقًّا، فلن نستطيع التمييز بينهما!

هل نعتمد على كون ما نميّزه حقًّا أنّه حقّ لأن الخبر بذلك جاءنا منه تعالى؟ لا.

نفس المعايير التي نستنتجها من صفاته تعالى والتي توصلنا إلى أنّه لا سبب عنده لفعل السوء وأنّ البداية مع الرحمة بخلق الكائنات فهو عمل خير، فعلى مقياس مصغّر بوعينا وتصنيفنا للأمور، والمجعول فينا بالخلقة منه تعالى، نحن فينا من هذه الناحية وجه شبه لرؤية الحكمة مثله تعالى وممنوح منه تعالى، وإلا فلا معنى لتكليفنا بالإيمان بالحقّ وفعل الصالحات من دون قدرة ممنوحة لتمييز الحقّ والصلاح، ومن دون أن يكون نفس المعيار الذي نفهمه وسبحانه يعتمده.

يمكن تبسيط الكلام بتذكّر الشفافية التي يخاطبنا بها سبحانه، فيعطينا سبحانه قيمة ممنوحة بسبب الوعي والفكر وحرية الإرادة التي منحها لنا، فيسأل القائلين بأنّ له سبحانه شركاء في الألوهية إن كان ممكنًا أنّهم هم المخلوقات المحدودة بقدراتها علمت بهم وسبحانه لم يعلم بهم؟ وهذا مثال من العديد من الأمثلة العديدة عن الشفافية في كلامه تعالى معنا عمومًا في كلّ شيء، وتجده صريحًا في الآية 18 من سورة يونس "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ، قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ".

الكلام هنا في الآية عن توصيف أفعاله تعالى عمومًا أنّها ليست باطلة بحيث تجري الأمور في السماوات والأرض بما ليس صحيحًا ولا مناسبًا، وكان سياق كلام السورة وصل إلى نقطة لتحديد مرجعية ثابتة للحقّ والباطل وأنّ الأمور ليست مطّاطة وليست تتحمّل تعدّد التوصيف بتعدّد زوايا النظر إليها.

بشفافية يلفت سبحانه انتباهنا لما فعله، فلو كان سبحانه يفعل الباطل، لكانت النتيجة واضحة في السماوات والأرض، فأين الباطل في قرار خلقه للسماوات والأرض؟ وأين الباطل في تصميمها وإدارتها؟

كمؤمنين به تعالى، وكمسبحين له، كمنزهين له عن الصفات الناقصة أو السيئة بناء على القدرة التي فينا للتفكّر فيما نراه مما خلقه سبحانه، نراه تعالى مرجعًا في أفعاله للحقّ والحكمة.

لا نشكّ أبدًا بثبات المعايير الإلهية لأنّنا مخلوقاته الضعيفة جدًّا جدًّا أمام طبيعة إلهية فائقة، وبالمقارنة الافتراضية التخيلية فأنا قدرتي على التفكير ستختلف لو كان لي دماغان أو عشرة أو... وأعلم أنّ قدراته تعالى فائقة، وبالتساهل الشديد في العبارات لدرجة الطفولية والسذاجة سنقول بأنّ ما يسبب قدرته تعالى على التفكير فهو بحجم مجرّة بالمقارنة

مع دماغي الصغير. ومن هذا التصوّر الساذج أفهم أنّ وصفه تعالى لنفسه لا مجال للخطأ فيه، فوصفه تعالى لأفعاله بالحق والحكمة لا مجال للخطأ فيه.

بهذا الكلام المبسط صرت بسهولة أمام كائن فائق القدرات، قرّر خلق كائنات من مختلف الأنواع والقدرات والصفات، فاختار الخليط المناسب لكل منها، وخلقهم في بيئة مناسبة لهم... رحمة منه، فمن ناحيتنا نحن سنرى أنّ أول صفة مشتقة من خلقه تعالى لنا هي الرحمة، وبعدها نفهم معنى الحقّ حين نرى حسن أفعاله سبحانه.

هذا هو المعيار الأساسي الثابت للحقّ والباطل، فهو أوصافه الفائقة سبحانه، والتي لا سبب فيها ليفعل سبحانه السوء، وبشفافية سألنا عن رؤيتنا لأفعاله بما فينا من فكر لنقيّمها، ولنؤمن به كإله واحد أحد من تعرّفنا عليه من أفعاله، ولنؤمن بصفاته الحسنى من رؤيتنا لجميل ما صمّمه وخلقه، وهذا هو الطريق الأساسي الذي جعله تعالى فينا للتعرّف عليه والإيمان به.

أمّا الذين في قلوبهم مرض، المضروب سلامة قلبهم بسبب شهوة أو غريزة سيئة لم يقاوموها، أو المحبّون لسوء وهم عالمون بسوئه وبعد انغماسهم فيه يصيرون رافضين لتصنيفه سيّئًا، فهؤلاء فسدت قلوبهم، وسيرون الحقّ مطّاطًا قابلًا للتغيّر إذا نظرت له من زوايا مختلفة.

(أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ {28})
أساساً خلق سبحانه السماوات والأرض بالحقّ:

{أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا}، اعتقدوا بالدين الإلهي، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، كانت أعمالهم موصوفة بأنها صالحة جيّدة، حيث خلقنا سبحانه مع قابلية تمييز الصالح من الفاسد، وهم يتركون الفاسد ويفعلون ما يرونه صالحاً، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالحٌ، عملياً تركوا ما حرّمه تعالى وفعلوا ما أوجبه تعالى، فهل يجعلهم سبحانه، {كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ}! مثلهم مثل الذي يقوم بأعمال فاسدة، ويخترع عقيدة وآلهة من خياله وهواه، ويخترع شريعة على مشتهاه وغرائزه السيئة، ويفعل السوء كالربا والغصب والقتل والكذب والزنا... ويترك الصالح كالصدقة والوفاء بالعهد... فهل خلق سبحانه السماوات والأرض وكلاهما المؤمن الصالح والكافر المفسد يعيشان هنا في الدنيا ويموتان ولا يحصل أي شيء بعد موتهما! ولا يحاسبهما ويجازيهما سبحانه!؟

{أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ}، الذين يتجنبون ويتحاشون، وهنا الكلام عن عموم تجنّب السوء، وهو نفسه تجنّب غضب وعقاب ربّهم سبحانه ويطيعونه، فهل سيجعلهم سبحانه، {كَالْفُجَّارِ}، كالذين صدرت منهم أمور قوية، وهنا الكلام عن فعلهم للسيئات وهي نفسها المسمّاة بالمعاصي، وقتلوا وزنوا وتعاطوا الخمر والربا ودمّروا المجتمع بالغيبة والفتنة...

ننتبه جيداً، فما تعرضه الآية نراه واضحاً في الحكومة، حيث نفترض سَعْيَ "العقلاء" من الناس إلى حكومة المجتمع بما يكفل استمراريته كمجتمع سعيد "مترفّه"، وفي تفاصيل الحكومة تنبع القوانين والشرائع لتردع الناس عن تهديم المجتمع، فتصدر التشريعات التي توجب على أفراد المجتمع بعض الواجبات "الاجتماعية الإنسانية الوطنية..." وبعض الممنوعات، وإلا فلن يستمرّ أي مجتمع من دون قانون، وحتى لو كان قانوناً جائراً ظالماً... فهناك أساسيات إن لم تتوافر فسينهار المجتمع.

خذ مثلاً مجتمعاً ما لا يعاقب على القتل! أو على غصب الأموال من الآخرين! أو على ترويج المخدرات للأطفال!... فما تطرحه الآية هنا ليس محصوراً بنظرة دينية منه تعالى لنا، فحتى الذين لا يؤمنون بالأديان يتوافقون مع كلام الآية هنا عن ضرورة وجود تشريعات وقوانين، ومن هنا تسأل الآية: إن كان على مقياسكم أنتم ترون ضرورة وجود قوانين، فخذوا علماً أنه من النظرة الإلهية كلّكم في حياتكم الدنيا تمرون بامتحان، ونهايته موت ثم حياة ثانية ثم حساب وجزاء، وليس من المعقول أن يخلقكم سبحانه ويزوّدكم بفكر يريكم الخير من الشرّ، ويجعلكم كائنات اجتماعية بحرية إرادة... ويترككم من دون محاسبتكم ومجازاتكم على استعمال فكركم بالإيمان بالحقّ وعملكم بالصلاح.

ما معنى أن تكون عاقلاً محترماً لا تعتدي على الآخرين... بينما الآخرون يعتدون عليك! وهم لا يقبلون أن تعتدي عليهم... ولديهم فكر يقول لهم بأن الاعتداء مدمّر لأفراد المجتمع وسينعكس عليهم إن جاء من هو أظلم وأقوى منهم! فهل تقبل بالعيش في هكذا مجتمع مع بقائك على عقلانيتك أم تصير فاسداً مثلهم؟

ما معنى أن يجعل تعالى فينا قدرة ترينا الصحّ من الخطأ "الصالح من الفاسد" ولا يحاسبنا ويجازينا خيراً أو شراً على ما اخترنا فعله بالإرادة الممنوحة لنا!

كما ترى، فبالإضافة إلى تزويده تعالى لنا بالفكر والنفسية أرسل سبحانه الرسل بالعقيدة والشريعة الحقّ، وذلك من أوّل بشري تأهّل ليتكلّف بأوامره تعالى "آدم(ع)" وعلى امتداد تاريخ البشرية جاءنا منه تعالى رسل وأنبياء وكتب، فما معناها؟ معناها أنه تعالى سيحاسبنا على أعمالنا وهذا هو المعنى من خلقنا ككائنات واعية عاقلة لديها حرية اختيار أفعالها، وإلا فسيكون خلقه تعالى للسماوات والأرض باطلاً.

إذاً، كل ما يحصل هنا في الدنيا أو سيحصل في الآخرة، فهو مبني على هذه النظرة الإلهية لنا، فلم يخلقنا سبحانه ويتركنا على هوانا، بل أنزل لنا ديناً مستقيماً، ولم يخيّرنا على راحتنا بين اتباع دينه أو تركه من دون عواقب، بل أمرنا باتباع دينه لأنه الصلاح، وغيره الفساد، وأخيراً وبعد موتنا، فهل من اتقى ستكون نهايته كمن فجر! والتفكير بهذه الطريقة سبّب الظنّ للذين كفروا بأننا مخلوقون باطلاً لا عن حكمة، فهم لا يؤمنون بالحقّ والباطل على المعيار الصحيح، ويؤمنون ويفعلون ما يشاؤون لأنهم لا يعتقدون بآخرة وجزاء.

(كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ{29})
هنا عاد الحديث صراحةً إلى بداية السورة، فالكفّار وخصوصاً الملأ منهم، تعجّبوا أن الله الكبير الخالق الواحد "كما يقول الأنبياء" سيتدخّل ويُرسل رسولاً ليرشدهم كيف يسيّرون حياتهم؟! فلماذا؟ فليتركهم يعيشوا كما يريدون وليُدخلهم إلى الجنة إذا ماتوا. فكانت الإجابة في الآيات السابقة أنَّه سبحانه لم يخلق الكون باطلاً فلن يجعل المتقين كالفجار، وهنا تقول الآية كخلاصة عن الحكمة الإلهية من الرسول ورسالته:

{كِتَابٌ}، كلام تامّ المعنى وهو هذا القرآن، {أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ}، أيها الرسول محمّد(ع)، {مُبَارَكٌ}، ليس فيه شرّ بل فيه الخير وسبحانه راضٍ عن محتواه، وعملياً فهو كتاب فيه ما يضمن لكم حياة سعيدة في الدنيا والآخرة، {لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ}، ليتدبّروا، ليفحصوا ويتأمّلوا وبناء على دراسة الأمور المميزة التي فيه يتصرّفوا، على أساس أن فيه جملاً مميزة تدلهم على العقيدة والشريعة الصحيحة، {وَلِيَتَذَكَّرَ}، ليستحضر المعلومات التي في القرآن في فكرهم ومشاعرهم، {أُوْلُو الْأَلْبَابِ}، المنسوب لهم اللبّ، الذين عندهم شيء له قيمة في داخلهم، لديهم قلب سليم، ولديهم تفكير ونفسية سليمة، ويفكرون ويفهمون الأمور بطريقة صحيحة.

ومن لا لبّ له، من ليس موصوفاً بوجود شيء له قيمة في داخله، من لا يستعمل عقله ولا يتماشى مع نفسية سليمة، فهذا لن يعني له القرآن أي شيء.

بالنسبة لما تجده في بعض الكتب عن الفرق بين كلمتي نزل وتنزيل، فكلاهما وصف لعموم الانتقال من علو "مادياً أو معنوياً" إلى مكان منخفض مادياً أو معنوياً. ومعنوياً نقول: نزلت رتبته العسكرية. وكلا الكلمتين "نزل وتنزيل" تتحملان معنى النزول دفعة واحدة أو على دفعات، ويتحدّد ذلك مما تتكلّم عنه، وتتحملان النظر للفاعل لوحده، أو للمفعول لوحده، أو للحالة. فلا فرق بالمعنى بين الأصل "نزل" وبين الاشتقاق "تنزّل تنزيل نزول..."، خصوصاً فيما يقولونه عن الفرق بينهما في نزول القرآن دفعة واحدة أو بالتدريج على دفعات.

ما تجده هنا وهناك في ثقافتنا عن نزول القرآن كلّه من السماء السابعة إلى السماء الرابعة... ومن الرابعة جرى تنزيل القرآن "فنزل" على دفعات على الرسول(ص)، فبهذا التفصيل "وأشباهه" يقصدون تفسير كلمتي نزل وتنزيل بتوصيف مختلف للفعل، وهذا تفصيل لا ضرورة له وأصلاً لا دليلَ قرآنيٌّ عليه، ويمكن فهم نزول القرآن تدريجياً على دفعات وفهم نزوله كلّه كوجهين لعملة واحدة، فبعضه نزل "تنزّل" في ليلة القدر، ثم نزل "تنزّل" بعضه في زمن بعدها... وبالنظر للقرآن كلّه جرى تنزيله "نزوله" على دفعات استمرت لقرابة العشرين سنة حتى وفاة الرسول(ص).

يبدو أن الفهم الضبابي لكلمة "قرآن وكتاب" دفع بالكثيرين للبحث عن فرق بين التنزيل والإنزال بالمعاني التي ذكروها، حيث فهموا أن كلمة قرآن تشير لكل ما بين الدفتين، لكل القرآن من أوله لآخره، وفهموا كلمة كتاب كذلك أنها تشير لكل القرآن من أوّله لآخره، وبناء عليه أرادوا تبرير الآيات التي تذكر نزول "كتاب القرآن" على أساس أنها تشير لنزول كتاب القرآن كلّه من أوّله لآخره دفعة واحدة، ومن المعلوم أنه كلّه لم يكن نازلاً على الرسول(ص) حين جاءت الآيات التي تقول إنّ القرآن نزل...

بناءً على فهمهم هذا، بدأت تبزغ الآراء المختلفة لتبرير الموضوع، فقال بعضهم إنه كلّه من أوّل مرّة نزل على الرسول(ع)... وبعدها عاد ونزل عليه (ع) على دفعات. وآخرون قالوا: لم ينزل أولاً كلّه على الرسول(ع) وإنما نزل كلّه من السماء السابعة إلى الرابعة، ومن هناك صار ينزل على دفعات على الرسول(ع)... وغيرها من التبريرات التي لا داعي لها، فالآية الواحدة قرآن، والسورة قرآن، والسورتان قرآن... وكلمة قرآن وصف إمكانية قراءتنا لما نزل منه تعالى، فأي تعبير يشير لنزول أو تنزيل "القرآن" فهو لا يعني أكثر من نزول شيء يمكن قراءته، فلا داعي لنفهم أن التعبير يشير إلى نزول كلّ القرآن.

كلمة كتاب تشير لعموم أي موضوع تامّ، فالسورة الواحدة كتاب، والفقرة أو الآية الواحدة من السورة إن كانت تامّة الموضوع فهي كتاب، وكلّ القرآن كتاب، وهكذا عندما تجد آية تتحدّث عن نزول القرآن أو نزول الكتاب فهي ليست بالضرورة تشير إلى نزوله كلّه، فلو نزلت آية فهي قرآن، ولو نزلت آية موضوعها تامّ فهي نزول لكتاب...

(وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ{30})
{وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ}، وأعطى سبحانه للنبي داوود(ع) من دون مقابل ابناً وهو سليمان(ع)، {نِعْمَ الْعَبْدُ}، عبد جيّد من أفضل الذين مفروضةٌ منهم الطاعة، {إِنَّهُ أَوَّابٌ}، كان إيابه رجوعه إلى الله تعالى، ففي حياته العادية "يذهب" في أمور متعدّدة ولكن في النهاية فإن إيابه "رجوعه" من بعد ذهابه يكون فقط إلى الله تعالى، فموقفه وإيمانه ودينه وتصرفاته وآراؤه... كلّها تحت مظلّته تعالى، فلا يرجع ولا ينتسب ولا يؤمن... بأي جهة أخرى.

تكمل السورة مع الأمر للنبي محمّد(ع) بالصبر على ما يقوله المشركون، وأن يذكر فلاناً وفلاناً من "الملأ" المؤمنين كنماذج راقية لمن تولّوا مناصب عالية في تاريخ البشرية، ليفهم الملأ من مشركي قومه(ع) معنى الوجاهة والقيمة الحقيقية. وكما تعلم لم يصل أي إنسان في تاريخ البشرية إلى ما وصل إليه النبي سليمان(ع) الذي سيطر على كل ما طالته يده من عالم الجنّ والإنس والحيوان.

(إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ{31})
{إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ}، أظهروا أمام النبي سليمان(ع) شيئاً له أهميّة، كما يعرض البائع البضاعة التي يعتقد أن الناس سيهتمّون بها، وجرى استعراض أمام النبي سليمان(ع)، {بِالْعَشِيِّ}، في الفترة من النهار التي فيها الضوء خفيف من دون ظل فتمتد من قبيل المغرب حتى ما قبل العتمة التامّة في المساء، وجرى استعراض، {الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ}، الصافنة وهي التي ترفع إحدى قوائمها ثم تضعها وترفع القائم الثاني وهكذا... فيقال للحصان إنه صافن إذا وقف على ثلاث قوائم، ويقال له جواد "جمعها جياد" عندما يكون سريعاً نشيطاً.

المشهد عن النبي سليمان(ع) أنه بعد العصر وقبل غروب الشمس كان جالساً وكان جنوده والعاملون معه يستعرضون أمامه بعض الأحصنة السريعة العدو "جياد" والتي تقوم بحركات استعراضية فترفع قوائمها بحركات استعراضية "صافنات".

انشغل النبي سليمان(ع) بذلك الاستعراض وانتبه لشيء:

(فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ{32})
قال النبي سليمان(ع): {إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ}، فهذا الذي جرى أمامي من استعراض للجياد الصافنة لم يكن شيئاً سيئاً بل كان نابعاً من حبي لحبّ الخير، وتلك الأحصنة أستخدمها في طاعته تعالى، فأحببت ذلك {عَن ذِكْرِ رَبِّي}، في وقت

العشي كان لديه (ع) موعد لذكر ربّه سبحانه، لاستحضار المسؤول عنه من مستوى إلهي في فكره ومشاعره، بالصلاة أو التسبيح أو قراءة التوراة أو قراءة الزبور... {حَتَّىٰ تَوَارَتْ}، غابت عن النظر، {بِالْحِجَابِ}، وصارت وراء ما يحجبها ولذلك غابت عن النظر، فالكلام السابق عن العشي يشير هنا إلى الكلام عن الشمس أنها غربت بينما هو جالس يشاهد استعراض الخيل، وفاته ذكرٌ لربّه سبحانه كان يقوم به عادة في العشي وما بعده.

ننتبه، التعبير بالخير عن الأشياء الجيّدة منتشر في كلام العرب، فلا نزال إلى الآن نعبّر عن الزرع والماشية بالخير، ونقول: خيرات بلادي. ورد في القرآن هذا التوصيف لأي شيء جيّدٍ، سواء المال أو الأملاك أو المزروعات أو الماشية، أو الأحصنة "أو السيارات..." سواء أكان قليلاً أو كثيراً، فلا تحصر الكلمة وتعتبرها كمرادف لكلمة حصان، فهذا ما ستفهمه من بعض الكتب فانتبه منه.

كما نعلم من بعض الأحاديث ومن إشارات وردت في القرآن منها ما ورد في الآية 79 من سورة الإسراء {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً}، أنّ الأنبياء يفرضون على أنفسهم إقامة النوافل "الصلوات المستحبة"، ويتعاملون معها كأنها واجبة عليهم، وهنا النبي سليمان(ع) أثناء استعراض الجياد يبدو أنه فاتته نافلة، حيث مرّ زمن صلاة غير واجبة، أو فاتته تسبيحات أو أدعية اعتاد عليها في العشي... أو فاتته فضيلة صلاة المغرب...
ولذلك تضايق (ع) واعتبر أن حضوره لاستعراض الجياد الذي هو طاعة لله تعالى وعمل مهمٌّ، ولكنه ليس أهم من ذكر الله سبحانه بصلاة مستحبة أو دعاء أو تسبيح...

هذا لبّ الذكر هنا من هذه القصّة مع النبي سليمان(ع)، أن لا نحبّ شيئاً حسناً لدرجة تفويت شيء أحسن منه، فذكره تعالى أهم من استعراض الخيول المعدّة للقتال في سبيله تعالى، لأنه مجرد استعراض لا يرقى في أهميته للذكر.

نلاحظ مما نعلمه عن النبي سليمان(ع) أنه كان لديه جيش، فيمكننا الافتراض بسهولة أن هذا الاستعراض كان استعراضاً عسكرياً ممزوجاً بلمسة جمالية، بدل أن تمشي أمامه الفرق العسكرية بشكل عادي، قدّمت فرقة خيّالة استعراضاً قامت الأحصنة فيه بالمشي بطريقة الصفن... والمرجّح أنه كان استعراضاً لمختلف العروض ولكن ما لفت النبي منها كان الصافنات الجياد، حيث كان التركيز عليها لمقارنتها بالذكر، ولو كان تفقداً ضرورياً للجيش وتجهيزاته... لكانت أهميته أعلى من النافلة والدعاء... ولكنه كان مجرد استعراض.

بقي شيء من الفضول، فالصلوات اليومية الخمس الواجبة علينا هي نفسها كانت واجبة قديماً، ونفس توقيت النوافل أيضاً... مع اختلاف فيما نقرؤه في الصلاة... هذا ما نجده من كتب اليهود، وأقصى ما يمكننا افتراضه هو فوات وقت فضيلة المغرب المحصورة بما قبل غياب الحمرة المغربية، وعلى أي حال دائماً نعتقد أنه (ع) لم يترك واجباً ولم يفعل حراماً.

على كلّ حال قرَّر(ع) معاقبة نفسه لتفويته ذكراً لله تعالى بالعشي وما بعده فقال:

(رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ{33})
قال النبي(ع): {رُدُّوهَا عَلَيَّ}، وسياق الكلام يشير لردّ الأحصنة "الجياد"، أعيدوها إليَّ، لأنها التي ألهتني عن ذكر ربّي سبحانه، {فَطَفِقَ}، شرع بعمل، وباشر عملاً، {مَسْحاً}، يمسح، {بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ}، بقوائم وأعناق "رقاب" الخيل. العنق هو عموم ما كان ضيقاً وقبله اتساع، وفي الإنسان والحيوان هو ما تطاول من الوصلة بين الرأس والجسد، وبالعامية نسميها رقبة.

المشهد الثاني من القصة أن النبي سليمان(ع) أراد معاقبة نفسه، فقال لأعوانه أعيدوا الخيل، حيث انتهت من استعراضها وهي ذاهبة للإسطبلات حتى يغسلوها ويمشطوها... فردّوها عليّ، وما أن ردّوها أخذ يفعل كما يفعل سائس الخيل الذي يعتني بها، مشّطها وسرَّحها على قوائمها وأعناقها، تواضعاً منه ومعاقبة لنفسه وتعويضاً عن عمل مستحبّ فاته أداؤه، والآيات التالية سوف تعطينا صورة عن المكانة العالية التي كان يتمتع بها النبي سليمان(ع) كونه ملكاً ذا هيبة ونفوذ وسلطة وجيش وخدَّام، عندما ينزل عن كرسيِّه ليمسح قوائم الخيل وأعرافها التي على أعناقها فهذا عقاب بالنسبة لمقامه الملوكي(ع)، حيث أخذ يعمل كسائس للخيل، ومضافاً إليه عوّض عن ذكر الله تعالى بعمل في سبيله تعالى حيث ساس الخيل.

جاءنا في بعض الروايات أنّ النبي سليمان(ع) طلب ردَّ الشمس حتى يصلِّي، يعني جملة: ردّوها عليّ. هو ردّ للشمس. ولدينا روايات تقول إنه قتل الخيل، باعتبار أنّ المسح هو الضرب بالسيف. وقيل إنه أمر أصحابه بالمسح على السيقان والأعناق كوضوءٍ كانوا يتوضّؤونه للصلاة... وقيل إنّ الخيل كان لها أجنحة... وغير ذلك من الأقوال، لكن ما ذكرناه هو الظاهر من الآيات بدون أي تكلّف ولا سيناريوهات. وتوجد روايات تقوله، ولكن لأنها روايات ليس فيها غرابة وإثارة وتشويق، نرى الناس تتركها وتركض خلف الروايات الأخرى! حيث رجعت الشمس! وفاتته(ع) صلاة واجبة! وقتل (ع) كذا ألفاً من الخيل...

إذاً، هذا نموذج راقٍ جداً جداً تعرضه السورة للملأ الكفّار لتريهم مكانتهم الممسوحة أمام ملك النبي سليمان(ع) الذي أنّب نفسه لفوات عمل مستحبّ "نافلة أو غيره" يتقرّب به إلى الله تعالى، بينما هم يرون أنفسهم أكبر من الإيمان به تعالى وبرسوله!

(وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ{34})
قصّة ثالثة مختصرة جداً:

{وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ}، عرّضناه لشيء يجعله يتغيّر، كامتحان، {وَأَلْقَيْنَا}، ورمينا شيئاً كان ممسوكاً، {عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ}، على مكان جلوس النبي سليمان(ع)، {جَسَداً}، لا يأكل ولا يشرب ولا يصدر صوتاً ولا حركة، ونفترض أنها جثّة إنسانٍ ميّت جرى رميها على الكرسي الذي يجلس عليه النبي(ع)، و، {ثُمَّ}، بعدما رآه النبي سليمان(ع)، {أَنَابَ}، ترك ما كان يفعله عن رأيه الخاص ورجع إلى الله تعالى.

لم أجد في القرآن ما يساعد على إعطاء تفاصيل أكثر عن هذه القصّة، ولكن الجسد لا بدّ أن يكون مهمّاً للنبي سليمان(ع) لأنه جسد لإنسان كان يهتمّ به كثيراً جداً كما يبدو. الظاهر أنّه تعالى لم يرد إعطاءنا تفاصيل أكثر عن هذه القصّة لسبب ما، وشرح الكلمات يعطينا المعنى التالي: لقد فتنّا وعرضّنا النبي سليمان(ع) لاختبار يمكن أن يغيّره، حيث وهبناه قدرات عالية، وهناك شخص أحبّه كثيراً، واهتمّ به وبصونه، وسقط جسداً ميتاً على الكرسي الذي كان مخصصاً للنبي سليمان(ع)، وعندما رآه النبي سليمان(ع) أدرك أن تعلّقه بصاحب ذاك الجسد كان زائداً عن حدّه المقبول منه كوجيه عنده تعالى. صحّح نيته وأفكاره، وبذلك يكون أناب أي رجع إلى الله سبحانه، فآخذ نفسه واعترف بخطئه وعاد إلى ما يرضيه تعالى.

نجد في بعض الروايات بأن الجسد كان لأحد أولاده وأحبه (ع) كثيراً، فقالوا إنه (ع) سلّم ولده للسحاب فوضعه فوق الغيوم حتى لا يصيبه مكروه... فمات الولد، ووضعته الريح على كرسي النبي سليمان(ع)... ولكن الآية التالية تقول إنّ تسخير الرياح حصل بعد وقوع الحادثة! ونجد روايات تستبدل الولد بزوجة كان يحبها... وروايات تقول بأنه(ع) رأى نفسه ميتاً على كرسيّه...

على كلّ حال لا يمكن أن تُفهم الآيات بطريقة أخرى، غير أن الجسد كان لعزيز عليه(ع)، سواء أكان ولداً له أو زوجة "أو عصفوراً أو حصاناً..." وحاول حفظه وحمايته "بطريقة ما" ولكنه مات، إذ إنها تبدو غامضة للوهلة الأولى ولكن عندما تفكّر فيها فلن تجد معنى آخر غير هذا. يبدو واضحاً أنّه تعالى لم يرد سوى لفت انتباهنا لاهتمام النبي سليمان(ع) "بصاحب الجسد" بشكل يفوق الحالة العادية من العناية بشخصٍ تحبّه، وبشكل غير مقبول من وجيه عنده تعالى.

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ{35})
بعد هذه الحادثة قال النبي(ع):

{رَبِّ اغْفِرْ لِي}، أتوجّه إلى المسؤول عني من مستوى إلهي ليتجاوز عمّا فعلته، لا تعاقبني على سيئتي، {وَهَبْ لِي}، أعطني من دون أي مقابل منّي، {مُلْكاً}، مملكةً، حكومةً وسلطةً ونفوذاً، وهذا الملك يكون من الضخامة والقوة بحيث إنه، {لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي}، حيث لا تجتمع المقومات ولا الظروف التي تسمح لأحد غيري للحصول على هذا النوع من الملك من القدرة والسلطة. {إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ}، أنت الذي يهب بكثرة، أنت الذي يعطي كثيراً جداً جداً من

دون أن يأخذ أي مقابل. كما ترى من التاريخ الديني لم يتسخّر شياطين الجنّ لأحد من بعد النبي سليمان(ع)، ولم تجر الريح بأمر أحد من بعده(ع) وهذان هما اللذان ذكرهما القرآن عنه (ع).

ننتبه جيّداً لتعبير "لا ينبغي" لو راجعت وروده في كل القرآن لوجدت مرادفته لـ: انتفاء مقوّمات وظروف مناسبة. حيث كان(ع) يطلب شيئاً وهو يعلم أن الظروف في أي زمان كان لن تكون مناسبة ومهيّأة لتحقيق هذا الشيء، لا له ولا لغيره، حيث طلب تحقيق ما لم ولن يتحقق لغيره، طالباً (ع) أن يتحقّق في زمنه عبر تهيئة الظروف المناسبة، ومن بعد زمنه لتتغيّر تلك الظروف وليرجع كلّ شيء كما كان.

لمس النبي سليمان(ع) بعضاً من الأشياء غير العادية التي أعطاه الله سبحانه إيَّاها، حيث كان يعلم منطق الطير، وسياق الكلام من بعد حادثة الصافنات الجياد وإلقاء الجسد على الكرسي يشير إلى أنه (ع) يريد أن يدخل في امتحان أقوى، فأيّ قدرة جديدة تُتاح له سوف يصرفها في خدمته سبحانه، ولن يلتهي بها لينسى ذكره تعالى أو ليستعملها في حفظ "صاحب الجسد الذي سقط ميتاً"، لأنه طلب أن تزيد مسؤوليَّاته في خدمة الله تعالى، وذلك عبر توسُّع القدرات التي بين يديه بشكل استثنائي، فاستجاب سبحانه لطلبه وسيأتيك في الآية 39 أنّه سبحانه لم يقيّده(ع) باستخدام القدرات بكل ما ينفع الآخرين، لأنه طلب (ع) القدرات ليستخدمها في سبيله تعالى، فاستجاب له سبحانه ولكن لم يقيّده ليحاسبه إن لم يستخدمها في سبيله تعالى، لتكون هبة إلهية وله (ع) كامل حرية التصرّف بها...

(فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ{36})
{فَسَخَّرْنَا}، جعل تعالى تحت أمره(ع) وبدون مقابل، {الرِّيحَ تَجْرِي}، الهواء القوي يسير "بشكل سريع" بأمر النبي سليمان(ع)، لتحقيق الأمور التي يريدها النبي سليمان(ع)، {رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ}، حيث يصيب يكون بِرَخَاءٍ، والكلام عن الانتقال من مكان لآخر باستخدام الريح، فلا تجري به الريح وتصدمه وتجرّه لترميه بعنف... بل بِرَخَاءٍ بلطافة بلين ينزل حيث أصاب إلى حيث يريد الذهاب.

أعطاه تعالى القدرة على استعمال الريح لتنقله (ع) إلى المكان الذي يريده، والريح مطيعة له سخرة فهو (ع) لم يقدّم لها أي شيء حتى تصير بأمره، وحتى لا يذهب فكرنا للعواصف وصعوبة ومشقة التنقل باستخدام العواصف نبهتنا الآية أنّ الريح تعصف حتى يصير فيها قوّة لنقله(ع) ولكنها لا تقذفه ولا ترميه بعنف إلى المكان الذي يقصده، بل بِرَخَاءٍ، براحةٍ يصل (ع) إلى مقصده.

أمّا كيف تسخَّرت الريح للنبي سليمان(ع)؟ فليس لدينا أية معلومات تفصيلية عن آلية تحكّمه بها، ونجد في تراث القصص الخرافية شيئاً مشابهاً لبساط الريح وسندباد عن السجَّادة التي تطير، ولكن لا يوجد أي مستند تاريخي له علاقة بهذه السجّادة وتسخير الريح للنبي سليمان(ع) كما يتصور البعض عن طريق الطيران بالسجّاد أو بمراكب... وللأسف إنّ تصورات أهل الكتاب "وتصوراتنا" عن هذه الحوادث القديمة، جعلتنا نتصوّر تطبيقاً لهذا التسخير بالريح لا يكون له أي علاقة بالواقع، ولا أدري لماذا نحمّل الآيات أكثر مما تحمله، حيث بكل بساطة يمكننا فهمها على أنها تحريك لسفنه(ع)، خاصةً عندما نتذكّر أنه في ذلك الزمن القديم كانت المراكب الشراعية منتشرة، والريح مسخرة للجميع، ولكن تميّز النبي سليمان(ع) بأن يأمر الريح بالهبوب في الاتجاه الذي يريده، وبذلك استطاع أن يقطع رحلة الشهر البحرية في نصف نهار.

أنا بذلك لا أنفي إمكانية حصول طيران في الجو باستخدام الريح بشيء يماثل الطائرات، ولكن للأسف لا مصادر موثوقة لدينا عن ذلك ولا عن أي شيء آخر، أعود وأكرر لك أنّ المتبادر للذهن من تسخير الريح هو استخدامها للانتقال بالسفن، علماً أنّ عجائب ما جرى في عهده(ع) تقبل فكرة حصول طيران أو شيء آخر لا يخطر ببالنا حالياً...

(وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ{37})
سخَّرنا للنبي سليمان(ع)، الشياطين، الموصوفين بقيامهم بأعمال الضلال لأنفسهم وللآخرين، العصاة لله تعالى من الجنّ والإنس، كلّ من كان يقوم بعمل مضاد لعمل الأنبياء ويفسد ويضلّ الناس كان عقابه أن يتسخّر ليعمل بدون مقابل للنبي

سليمان(ع)، {كُلَّ بَنَّاءٍ}، من الشياطين من عمل في البناء، في إنشاء المباني كالقصور والمعابد، ومن الشياطين من تسخّر كـ {غَوَّاصٍ}، يغطس في الماء، ويستخرج اللؤلؤ والمرجان وغير ذلك...

هناك روايات كثيرة حول خاتم النبي سليمان(ع) الذي من خلاله يسيطر على الجنّ... وعن السحر في عصره(ع)... لكنها من أوهام القصّاصين وتحريفات أهل الكتاب، وجهلة الرواة وإفك الكذّابين... إذ إنّ غالبيتها الساحقة روايات وقصص بلا دليل ولا أساس تاريخي ولا استناد على مصدر موثوق.

ورود هذا النوع من الأمور غير العادية "الخارقة" عن الأنبياء في القرآن، شجّع الناس على تأليف قصص خرافية ولصقها بالدين الإلهي، حيث صار عندهم تساهل في طرح أفكار وآراء مضخّمة ومبالغ فيها، وتساهل في قبولها لدرجة الانعجاب بها! وقد سبقنا أهل الكتاب في هذه المبالغات وورثنا منهم الكثير من قصصهم، وأدخلها المسلمون كما هي أحياناً، وأكثر الأحيان مع التصرّف في محتواها، لتصير بحلّة إسلامية! لهذه الظاهرة أسباب كثيرة، منها فقدان الرواية الأصلية للأحداث التاريخية، وبقاء تلميحات من تلك الأحداث ممزوجة بآراء وإضافات الذين نقلوها، فكما نحن نكمل الفراغات في القصص بما نراه مناسباً بحسب قناعاتنا ومعلوماتنا، فهم أيضاً فعلوا نفس الشيء، يوجد أناس كثيرون يحبون جذب الانتباه بتفرّدهم بقصص من تأليفهم ونسبتها للأنبياء، حيث يحبون أن يكون لهم جمهور يسمع قصصهم! ويؤلفون القصص الدينية، وتدخل في تراثنا، وتصير جزءاً من ثقافتنا، وهي لا علاقة لها بالواقع!... لهذه الأسباب ولغيرها الكثير حصلنا على روايات بساط الريح وخاتم سليمان(ع) والسمكة التي ابتلعت الخاتم، والشيطان الذي حكم بدل النبي سليمان(ع) بعدما تمثّل بشكل النبي... وخبر ردّ الشمس اتركه بحاله، فمن يتحدّث عنه ليقول إنه لا دليل عليه صار في زماننا معتبراً خارجاً عن الدين الإلهي!

(وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ{38})
سخَّر سبحانه ووضع تحت إمرة النبي سليمان(ع) شياطين، {آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ}، مربوطين مقيدين، {فِي الْأَصْفَادِ}، والدارج استعمال كلمة قيود كمرادف لكلمة أصفاد، وكلاهما يشير للحبل أو المعدن الذي يربط شيئاً بشيء، حيث إنّ الحبال والسلاسل والجنازير ممتدة من عنق هذا لعنق ذاك، أو من أيدي هذا لأيدي ذاك، أو الربط بالأرجل... كل مجموعة منهم مربوطون مع بعض لتنفيذ أوامر النبي سليمان(ع) كالنحت والتعدين والحياكة و...

لدينا نوعان من الشياطين المسخّرين، نوع يطيع ولا يحاول الهرب، عملوا من دون تقييدهم، ونوع آخر يحاول الهرب، وهم مسخرون مقيدون بالأصفاد.

نتذكّر أنّ كلمة "شيطان، شياطين" استعملها القرآن كوصف لمن يقوم بعمل ضلال، سواء بتصرفاته أو بتشجيع الآخرين، سواء أكان من الجن أو الإنس. وكما تعلم من التاريخ القديم والحالي بعض الدول تأمر المساجين بالقيام بالأعمال العادية أو الشاقة، من تكسير الصخور وشقّ الطرقات... وهنا استخدم النبي سليمان(ع) الجنّ والناس المرتكبين للجرائم في البناء والتعدين والتزيين... ونتذكّر من الآيات رقم 12 وما يليها من سورة سبأ قولها بوضوح أنّ قسماً من هذه الشياطين التي عملت لدى النبي سليمان(ع) كانوا من الجنّ.

(هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ{39})
أنت أيها النبي سليمان(ع) طلبت مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعدك، فسخّر سبحانه لك قدرات الشياطين لتصير تحت أمرك، وتسخرّت الرياح لك...

{هَذَا عَطَاؤُنَا}، هذا منه تعالى لك، {فَامْنُنْ}، أعطِ لمن تشاء كمِنَّة فتعطيه وتستحق أن يشكرك، ما معك هو لك بالأساس ولم نعطه لك ولمن معك، أو لتخدم به الآخرين، {أَوْ أَمْسِكْ}، أمسك ما تملكه عندك، واحتفظ به لنفسك، وفي كلتا الحالتين، {بِغَيْرِ حِسَابٍ}، إذ لا أحد له عليك واجب حتى تتعامل معهم بالحساب.

الذي حصل عليه النبي سليمان(ع) هو هبة شخصية له (ع) من الله سبحانه، وليس لأحد من البشر شراكة فيها، وللنبي سليمان(ع) حرية التصرف بأن يُعطي بالقدر الذي يُريد أو يمنع عمّن يريد، طبعاً هذا في خصوص القدرات التي هي هبة منه سبحانه، ولكن في شؤون الناس العادية النبي سليمان(ع) يرعى مصالح الناس ويُلبّي حاجاتهم.

بعبارة أخرى لم يجبره تعالى على استخدام هذه القدرات لمنفعة غيره من الناس كفرض واجب عليه (ع)، فهذه القدرات ينتج عنها تفاصيل كثيرة تهمّ الناس، فمنهم من يريد السفر في البحر، ومن يريد دواء لمرض، من يريد مالاً، من يريد بيتاً... لذا فالنبي سليمان(ع) ليس مجبوراً على استخدام هذه القدرات غير العادية وسلطته على الشياطين لفائدة الذين حوله.

(وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ{40})
{وَإِنَّ لَهُ}، للنبي سليمان(ع)، {عِندَنَا لَزُلْفَىٰ}، هناك زلف، درجات للقرب منه تعالى والنبي سليمان(ع) متقدّم بالقرب منه تعالى في تلك الدرجات، وله عند ربنا سبحانه، {حُسْنَ مَآبٍ}، حيث تصرّف بما لا يرضى عليه تعالى "وهذه حالة ذهاب" ثم آب فتراجع وانتبه لخطئه وعاد لتحت المظلّة الإلهية "وهذه حالة الإياب" وسبحانه لديه حسن مآب، حيث لديه تعالى مكان ومكانة حسنة لاستقبال رجعته (ع).

نتذكّر أنّ تعبير "حسن مآب" ورد في القرآن عدة مرات وكان يشير إلى الإياب إلى الجنّة، ولكن هنا سياق الآية يجعل هذا التعبير يشير إلى الإياب إليه تعالى هنا في الدنيا، وأنه تعالى استقبله بعد رجوعه(ع) عن خطئه في حادثة الصافنات الجياد والجسد الملقى على الكرسي، وقد مرّ سابقاً في الآية 25 نفس التعبير لنفس الموقف عن والده النبي داوود(ع).

(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ{41})
{وَاذْكُرْ}، واستحضر في كلامك أيها النبي محمد (ع)، {عَبْدَنَا}، الذي مفروضةٌ منه طاعتنا، {أَيُّوبَ}.

هذا النبي مشهور عنه أنه كان من الأغنياء، وتلفت مزروعاته ومات أولاده ونفقت ماشيته، ولم تبق إلا زوجته من أهله، ومرض مرضا شديدا، وصار جلده ولحمه يهترئ، ويقولون إنَّ أهل قريته خافوا أن يكون مرضه (ع) معديا فينتشر بينهم كوباء، فنفوه إلى خارج القرية... وصارت زوجته تعمل لتحصل على الطعام لها وللنبي (ع)... ولا يبدو أي مخالفة بين هذه النقاط المشهورة بين الناس وبين الآيات القرآنية، إلا ما ذكروه عن قيام الشيطان بإتلاف المزروعات وقتل الأهل والأولاد، فمن كلّ القرآن لا نجد شيئا كهذا عن الشيطان، بل نجد فقط وفقط قدرته على الوسوسة في عقول الناس، لا أكثر ولا أقل، فلا نجد في القرآن الشيطان يقتل بيده، ويتلف الزرع بيده، أو يعطي الولد أو الزرع أو المال... وهذه نقطة مهمّة جدا يجب الالتفات إليها، لأن ما ذكروه في الروايات يخالف هذا المعنى القرآني، ففي بعضها أنَّ الشيطان وهب الثروة والأولاد للنبي أيوب (ع) وسحبها منه... فانتبه من هذا.

{إِذْ نَادَى}، النبي أيوب (ع)، {رَبَّهُ}، أصدر صوتا يتوجّه به إلى المسؤول عنه من مستوى إلهي: {أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ}، بتعب وإرهاق ولم أعد أستطيع الاحتمال، {وَعَذَابٍ}، من الألم النفسي، لأنَّ الكائن الموصوف بالعمل على إضلال الناس أتعبني جدا.

هذا النداء من النبي أيوب (ع) لا يعني أنَّ الشيطان بيده وشخصيا أمات أهله وماشيته وأتلف مزروعاته وأمرضه... لا، بل حصلت تلك الأمور، والشيطان استخدم ما حصل ليخرّب إيمان أيوب (ع)، وأرهقه نفسيا وإيمانيا من الوسوسة بشكل لا يوصف... فأي إنسان تحصل معه هذه الأزمة غير العادية، فسيستغلّها الشيطان ليوسوس له للاعتراض على الحكم الإلهي، وعلى الشك بالله تعالى وبصفاته الحسنى... حارب النبي أيوب (ع) هذه الأفكار، حيث كانت صور أولاده تقفز إلى ذهنه فيحنّ لهم، ويذكر العزّ الذي كان فيه، ويذكر صحّته وقوته... ورغم ذلك كلّه لم يشتك ولم يعترض ولم يشكّ في رحمة وحكمة ربّه تعالى... "إلى أن جاءت القشّة التي قسمت ظهر البعير"، حيث حصل معه شيء أوصله إلى اهتياج مشاعره المزعجة لأقصى درجة، وصار الشيطان يصوّر له صورا مزعجة جدا جدا... عندها نادى ربّه سبحانه.

طوال مدّة الأزمة صبر النبي (ع) ولم يطلب أي شيء، وهذا ما أرادنا القرآن الالتفات إليه، تذكَّرْ النبي زكريا (ع) الذي بلغ من الكبر عتيا وحين توجّه إلى ربّه سبحانه بالدعاء لطلب الولد قدَّم عريضة يذكر فيها الأسباب التي دعته لهذا الطلب، فهؤلاء الأطهار لا يتعاملون مع الله عزّ وجلّ مثلنا نحن ضعاف الإيمان، فهم يؤمنون فعلا بأن كلّ ما يجري معهم فهو بعينه تعالى، وهو حكيم خبير، وطالما يرى تعالى كلّ شيء، فلماذا سيطلبون تغييره! لو كان التغيير أفضل

لهم فهل كان الله تعالى ليترك الأمور بدون تغيير! وهنا النَّبيُّ أيوب (ع) عَلِمَ من بداية الأزمة أنها بعينه تعالى، ولم يطلب أي شيء، إلى أن حصل شيء أزعجه جدا جدا، وبحسب الروايات ومن وحي الآية ما بعد بعد التالية، نرى أنَّ زوجته قامت بشيء أزعجه جدا، وأرهقه الشيطان من الوسوسة بأفكار مزعجة... عندها توجّه إلى ربّه بالنداء، وتمَّت الاستجابة فورا، لأنَّه تعالى قدَّر سلفاً الأمور إلى وصولها إلى هذه النقطة، ومرَّ عبده أيوب (ع) بالامتحان كلّه إلى آخره بنجاح، حتى اهترأ جسده وشارف على الموت، ولم يبق ألم أعنف من الذي عاناه (ع)، ولم يبق فقر أقسى من الذي يعيشه... وتحمّل (ع) كلّ ذلك.

(ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ{42})
استجاب سبحانه وأوحى إلى النبي أيوب (ع): {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ}، اضرب بقدمك على الأرض، نحن الآن نستعمل كلمة "لبط أو ركل" وعندما يضرب الحيوان برجله نقول "رفس"، ولكن ضرب باطن القدم بالأرض هو ركض. وضرب النبي أيوب (ع) الأرض برجله فنبع الماء من مكان الضربة. {هَذَا مُغْتَسَلٌ}، مكان لتفعل الغسل، {بَارِدٌ}، حرارة الماء منخفضة لتغسل جسمك، ومن السياق نفهم أن الغسل بهذا الماء سيشفيه (ع) من الأمراض الجلدية، وهذا الماء، {وَشَرَابٌ}، لتشربه فتُشفى من الأمراض التي في باطن جسمك. كلمة بارد كتوصيف لحرارة الماء المنخفضة عن البيئة التي فيها النبي (ع)، توحي بشدة الحرارة التي كان يشعر بها النبي أيوب (ع)، لأنَّه كان في العراء بدون طعام ولا ماء، ويبدو أن جلده المهترئ يحترق من حرارة الشمس ويزيد من آلامه.

(وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ{43})
بعد أن شُفي من أمراضه وتعافى، عاد إلى حياته الطبيعية مع مباركته سبحانه حيث: {وَوَهَبْنَا لَهُ}، أعطاه تعالى ولم يطلب منه أي شيء بالمقابل، {أَهْلَهُ}، الأشخاص الذين ينتمون له، أفراد عائلته، وتقول الروايات إنَّهم كانوا ماتوا أثناء مرض النبي أيوب (ع) وأنه سبحانه أعاد إحياءهم، وهذا لا يبدو صريحا من الآيات التي يمكن فهمها على أنهم تشردوا في البلاد من الفقر الذي أصابهم، وأعاد تعالى جمعه (ع) بهم، {وَوَهَبْنَا لَهُ}، أعطيناه من دون مقابل، {وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ}، إذا كان أولاده قبل الأزمة عشرة أعطاه تعالى عشرة معهم، أي أنجبت زوجته المزيد من الأولاد أو أنَّ أولاده صار لهم ذرية. هذا الشفاء والاجتماع بالأهل... {رَحْمَةً مِّنَّا}، عناية منه سبحانه لما فيه مصلحة عبده أيوب (ع)، {وَذِكْرَى}، شيء يستحضرونه في فكرهم ومشاعرهم، {لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ}، للمنسوب لهم اللبّ، للذين عندهم شيء له قيمة في داخلهم، يُفكرون ويفهمون الأمور بطريقة صحيحة، وليسوا مجرّد هياكل من لحم ودم وعظم بلا لبّ، بلا تفكير ومشاعر. كما ترى، النبيُّ أيوب (ع) ثالث نموذج تعرضه السورة عن شخص كان ثريا وذا نفوذ مادي ومعنوي، لكنه تعرّض لأقصى الخسارة، ولم يهتزّ إيمانه، وذلك في مقارنة مع الملأ الكفّار، الذين في حالة النعمة التي يعيشونها لم يؤمنوا به تعالى، فكيف إذا فقدوا عزّهم؟ قارنها مع حالتنا نحن المدَّعين للإيمان، بعضنا حين يتعرّض لظروف قاسية، يسأل: أين الله؟ ولماذا لم يتدخّل؟ فهل إيماننا به صحيح أم أنه عزّ وجلّ غير موجود؟... مع العلم أن السورة توجّه كلامها مع وعن الملأ من الكفّار، واختارت لذلك نماذج من ملأ من المؤمنين، لأنَّ هناك نوعية من الناس تربط الدين والإيمان بالعافية، ولا تستوعب التعرّض للمشاكل على أساس أنهم يشترطون عليه تعالى العافية في الدنيا حتى يبقوا مؤمنين، وهكذا ترى النموذج أيوب (ع) الذي لم يختلف إيمانه في مختلف الظروف.

(وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ{44})
في نهاية القصة المختصرة جدا أشارت السورة إلى ما جعل النبي أيوب (ع) يطلب التدخّل الإلهي، ولا يبدو من الآية توجيهها الكلام عن زوجته ولكن من المنتشر في ثقافة أهل الكتاب وثقافتنا يبدو أنها المقصودة، حيث يقولون إنَّ امرأة النبي (ع) اضطرت لفعل شيء حتى تؤمّن الطعام لزوجها، وكرهه النبي أيوب (ع)، وأقسم أن يعاقبها ويضربها على فعلتها، ولم تذكر السورة ما الذي فعلته الزوجة، وسيبدو لك واضحا من كلام الآية أنه لم يكن عملا سيّئا لتستحق العقاب عليه، ورد في بعض الروايات أنها في يوم من الأيام لم تجد عملا وباعت شعرها لتشتري لزوجها طعاما، وغضب (ع) منها وأقسم أن يضربها مئة ضربة، وفي حينها لم يكن قادرا على الحركة، وشُفي بعد ذلك، فاستدركه الله سبحانه، وأوحى إليه أنها لم تكن تستحق هذا العقاب، ولكن بما أنك أقسمت أن تضربها فعليك تنفيذ قسمك وأن لا تؤذيها في نفس الوقت على الشكل التالي: {وَخُذْ بِيَدِكَ}، احمل بيدك، {ضِغْثًا}، خليطا من مجموعة صغيرة، كومة صغيرة، من الحشيش أو القش أو البذور، {فَاضْرِب بِّهِ}، اضرب بهذه القبضة من الحشيش، وبناء على المنتشر في الثقافة التاريخية الدينية عن الحادثة نفترض أن الكلام يقصد رمي الضغثة على الزوجة، لأنَّه من المنتشر في ثقافتنا أنه (ع) أقسم أن يضربها مئة ضربة، وهكذا برمي الضغثة يصطدم بجسدها ما يقارب المئة جزء وأكثر من الحشيش والعيدان أو البذور الصغيرة جدا، وبذلك لا يكون آذاها، {وَلَا تَحْنَثْ}، لا تكن خالفت قسمك ولم تَفِ به. أخيراً في ختام القصة يقول

سبحانه عن عبده ونبيه أيوب (ع): {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا}، يتصرف عن وعي ودراسة ولم تفلت أعصابه ولا إيمانه في أثناء محنته ومُصيبته، {نِعْمَ الْعَبْدُ}، عبد جيّد فعلا، فهو مطيع، {إِنَّهُ أَوَّابٌ}، حين كان غنيا كان مؤمنا يَؤوب ويعود في أموره إليه تعالى، ويتصرّف على أساس أوامره تعالى وما يرضيه، وحين صار فقيرا مريضا... بقي يعود في أموره إليه تعالى. من هذه الآيات القليلة عن النبي أيوب (ع)، يبدو واضحا أنه (ع) تحمّل كلّ شيء إلّا أن تهان زوجته التي ضاقت بها السبل وقامت بشيء عادي ولكن النبي (ع) لم يتحمّله، وأقسم أن يضربها، واهتاجت مشاعره للدرجة القصوى، وإن اعتقدت أن الشيطان لم يسمح له تعالى بأكثر من الوسوسة، فستفهم أن النبي (ع) لم يشتك من المرض والفقر وفقدان الأهل والمال والعزّ والجاه، بل اشتكى (ع) من التصورات والوسوسة الشيطانية بأفكار مؤذية تدعمها حالته الصحية والمالية وما فعلته زوجته، حتى أقسم أن يضربها، عندها طلب المساعدة من الله تعالى حتى لا يقوم بأي عمل يخالف مرضاته تعالى. بالتحليل مقارنين بين ما نفعله نحن عادة بغالبيتنا وما يفعله أمثال النبي أيوب (ع)، نحن في الحالة العادية نطمع بالمزيد حتى لو كان سيئا، فكيف بنا إذا تعرّضنا لظروف صعبة؟ أما أمثال النبي أيوب (ع) فهم أبعد ما يكون عن فعل أي سوء لا في الحالة العادية ولا تحت أشدّ الظروف، وكما يبدو من الحالة هنا حتى التصرفات التي نعتبرها نحن عادية ونفعلها في الظروف السيئة، فهم لا يفعلونها، وبخاصة حالة النبي أيوب (ع) الذي كان ثريا فهذه النوعية لا تقبل حتى الاستدانة، أو لا تقبل الهدية التي سيعتبرها كصدقة عليه بالنظر لظروفه، وهكذا نفهم أن تصرّف زوجته العادي بالنسبة لنا "بيعها لشعرها كما يقولون" كان بالنسبة له الشعرة التي قسمت ظهر البعير، ولم يتحمّله واعتبره نهاية المطاف فيما يقدر عليه لمواجهة حالته السيئة، وصار محتاجا لتدخّل إلهي لحلّ مشكلته. لو كنّا مكانه فمن أوّل مشكلة نطلب فورا التدخّل الإلهي، بينما هو (ع) واجه الظروف الصعبة متحمّلا ومحاولا حلّ مشاكله إلى أن فقد الأمل نهائيا بحلّها بقدراته وقدرات زوجته... ألفت انتباهك يا عزيزي ويا عزيزتي إلى خطورة قراءة قصص الأنبياء من المصادر السيئة، فنحن لا نقرأها كلمة بكلمة مع الانتباه، بل يجترّها عقلنا كقصّة، وتدخل فيه كما هي على علّاتها، وتصير جزءا من وعينا وذاكرتنا، ومع وقوع الآخرين في نفس الفخّ، تصير تلك القصص غير الحقيقية، تصير حقيقية من كثرة تكرارها في مختلف الكتب وعلى ألسنة الناس، لأنَّ الكثيرين اجترّوا فكرة تدخّل الشيطان في أمور عملية في حياة النبي أيوب (ع)، واقتنعوا أنَّ الشيطان أخذ إذنا منه تعالى ليقتل أولاد النبي (ع)، وليحرق مزروعاته، وييبسها، ويجفّف ماء بساتينه، ويمرض خدمه وعبيده، وأخيراً أمرض النبي (ع)، ويقولون إنَّه تعالى منع الشيطان فقط وفقط من أذية لسان النبي (ع)! لأنه كان (ع) يسبّحه به!... هذه المعلومات اجترَّتها عقولنا، وصرنا مقتنعين بأن الشيطان مسموح له بالتدخل عمليا في حياتنا، وهذا لم تقله الآيات، ولم يقله القرآن أصلا، بل نفاه من أصله، وأثبت للشيطان القدرة على الوسوسة فقط وفقط. العجيب في بعض الكتب ممن ذكر آيات قرآنية تدل على تدخّل الشيطان عمليا، وحين لم يجد آيات عن ذلك، ذكر الآيات التي تدل على تدخله فقط وفقط عبر إلقاء الأفكار السيئة! ولكن جمالية القصّة التي اخترعوها عن النبي أيوب (ع) "وعن غيره"، بما فيها من إثارة وصور شاعرية، ومن بهار وملح، وترك لسان النبي (ع) فقط بدون أذية يهيّج تصورات إيمانية... وهو أصلا كلام تخريط وتخريف! والكثيرون منّا في كلامهم الديني لا يميزون بين أهمية الالتزام الحرفي بالحقيقة في كلّ الأمور، وبين ما يرونه هم حسنا، علما أن قلوبهم غير صافية السلامة! فما يرونه حسنا "بناء على رأيهم" يلصقونه بالدين الإلهي! لأنهم في حياتهم العادية في سلوكهم اليومي، هم يبالغون في كلامهم، ويحللون انطلاقا من هواهم السيّء ويضيفون البهار والملح على الأحداث التي ينقلونها لغيرهم، لأنهم يكذبون ويضيفون أمورا لم تحصل، وهم ... والنتيجة: تحريف مفاهيم الدين الإلهي.

(وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ {45})
رداً على كلام ملأ كفّار مكّة وهم النموذج عن عموم بقية الكفّار، رداً على ما قالوه عن دين آبائهم وأجدادهم والذي نقلته الآية 7 من هذه السورة حين قالوا إنَّه الشرك وإنَّ التوحيد وإرساله تعالى للرسل هو شيء جديد لم يسمعوا به في تاريخهم، تأتي الآيات هنا بالخصوص حول هذه النقطة.

{وَاذْكُرْ}، استحضر في كلامك أيها النبي محمد (ع)، {عِبَادَنَا}، الذين مفروضةٌ منهم طاعتنا، {إبْرَاهِيمَ} (ع)، وهو شخصية مشهورة جدا جدا في المنطقة العربية كلّها، وهو جدّ للكثيرين من أهل مكّة، ومشهور جدا جدا بكونه داعية لدين التوحيد، وابنه، {إِسْحَاقَ} (ع)، وحفيده {وَيَعْقُوبَ} (ع)، وهو المسمّى إسرائيل وينتسب إليه بنو إسرائيل، وهو أيضا شخصية مشهورة جدا، {أُولِي الْأَيْدِي}، المنسوب لهم الأيادي، أي الذين قاموا بأعمال الخير الكثيرة، مثلما نقول نحن عن شخص أحسن إلينا: أياديه بيضاء. له أيادٍ عندي... ونقصد أنه قام بأعمال الخير. وهم أيضا أولي،
{وَالْأَبْصَارِ}، منسوب لهم القدرة على إدراك ووعي الأمور، فمن يرى الأمور والحوادث بوعي وفهم، فهو فعلا يبصر ما يجري، وإلا فهو أعمى حتى لو كانت عيناه سليمتين.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، وكأنَّ كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، لأنَّ كليهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، فهي جمع الجمع، وأثناء الكلام بدقّة تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، حيث تقول الآيات: عبيد. وردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وتكون لكل العبيد بكل أنواعهم حيث تقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام "وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ"، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وتكون لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس "يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ"، فهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخرين جاءهم رسول، وعبيد آخرين... فجمع الجمع "عباد"، وكلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جدا عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء "وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا".

(إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ{46})
{إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ}، جعلناهم ينفردون، {بِخَالِصَةٍ}، بشيء متفرّد، وهو، {ذِكْرَى الدَّارِ}، حيث كانوا يستحضرون في فكرهم ومشاعرهم الدار، المكان الذي تدور فيه شؤون الحياة، ومن الواضح أن الكلام هنا عن دار الآخرة، حيث كانت دائما في بال هؤلاء، وهذه ميزة تفرّدوا بها هم وبقية الأنبياء والصالحين عن بقيّة الناس.

عملياً جنَّة الآخرة دائما في بالهم، وبذلك تهون عليهم المصائب، ويزهدون بأي سوء يعود عليهم بمنفعة أو إشباع رغبة... لأنهم يؤمنون بشدة روعة جنّة الآخرة.

(وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ{47})
{وَإِنَّهُمْ}، هؤلاء الأنبياء إبراهيم وابنه وحفيده عليهم السلام، {عِنْدَنَا}، عنده تعالى، {لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ}، من الذين اعتبرهم سبحانه الصفوة، من المميزين عنده سبحانه بسبب مواصفاتهم الإيمانية العالية، ومن، {الْأَخْيَارِ}، من الموصوفين بالخير. وصفة الأخيار لم يذكرها القرآن إلا مرة واحدة هنا وفي الآية التالية، وفي استعمال العرب عموما تشير للنخبة من الناس، حيث تشير لخيرة الناس في صفاتهم وأفعالهم الحسنة.

نلاحظ أنَّ القرآن استعمل وصف الاصطفاء لحالتين: حالة الإنسان المميز وأكَّد سبحانه له التميّز وقال سبحانه إنَّه اصطفاه، وحالة أخرى عن منح شيء مميز بشكل خاص لإنسان مميز، حيث قال تعالى إنَّه اصطفاه بكذا، اصطفاه على الآخرين بكذا.

(وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنْ الْأَخْيَارِ{48})
{وَاذْكُرْ}، استحضر في كلامك، وبالإضافة لمن سبق من وجهاء ملوك وأغنياء من المؤمنين من الدرجة العالية أضف، {إِسْمَاعِيلَ} (ع) بْنَ إِبْرَاهِيمَ (ع).

هنا نتوقّف مليا، لأنَّ هذا جدّ غالبية أهل مكّة، ومشهور بكونه من سلسلة أنبياء التوحيد، فما معنى كلام مشركي مكّة عن دين أجدادهم الأصلي إنَّه الشرك؟ وإنَّهم لم يسمعوا في تاريخهم عن رسول يتحدّث عن التوحيد؟

قبل أن نكمل ننتبه إلى أنَّ السورة لم تصف المذكورين بأنهم أنبياء، وأصلا لم ترد كلمة نبي في كل السورة، ووصفنا لهم بالنبوة عادة يوقعنا في مشكلة فهم كلامه تعالى عنهم، حيث تقفز مع هذا تصورات موروثة وغير صحيحة عن الموصوفين بالنبوّة، لأنَّ القرآن يذكرهم كنماذج عن أرقى البشر في سلامة قلوبهم، وأنَّه تعالى اصطفاهم بسبب ذلك، بينما نحن بغالبيتنا نتصوّر أنَّه تعالى اصطفاهم وجعلهم أنبياء، وكأنهم لم يكونوا مميزين وبعدما جعلهم سبحانه أنبياء صاروا مميزين، وفي العامية الشعبية نقول عن أي واحد منهم تعرّض لظروف صعبة وتصرّف فيها برقي، إنَّه مفروضٌ منه ذلك لأنه نبي. فإذا كنا نقصد أنَّه لو لم يكن كذلك لما اختاره تعالى نبيا، فهذا صحيح، ولكن إن كنا نقصد أنَّ جعله نبيا أجبره على أن يكون راقيا إيمانيا، فهذا غير صحيح. ولمزيد من التوسّع راجع في ذلك دراسة الآية 33 من

سورة مريم "وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا" ففي تلك السورة ورد كلام عن صبي وطفل جعلهما تعالى نبيين...

{وَاذْكُرْ} {وَالْيَسَعَ} (ع)، وهذا الشخص لم يرد في القرآن أي تفصيل عنه، ورد في الروايات أنَّه أحيا الموتى وشفى المرضى ومشى على الماء، وبعضهم قال إنَّ إلياس واليسع هما اسمان لشخص واحد لأن لفظ إلياس "إليجا" في العبري قريب جدا من لفظ ليسع بالعربي... ولكنهما شخصان مختلفان وترى ذلك في الآيات 85 و 86 من سورة الأنعام حيث ذكرت النبيين بشكل منفصل "إلياس... إليسع". وبعضهم قال بأن اليسع هو تعريب الاسم العبري الآرامي يوشع، فيكون المقصود يوشع بْنَ نون وصيّ النبي موسى(ع)... وللأسف يمكنك أن ترى أنَّ ما قالوه كلّه تخمينات لا تستند على شيء أساسي، وللأسف يمكنك أن ترى كيف يرمون الأسماء هكذا بدون دليل، ويسببون البلبلة وضياع الحقيقة، وهذا نابع من اعتمادهم على معلومات ناقصة مشوشة، وعلى جرأتهم على اختراع التاريخ! ويبدو من التراث اليهودي أنَّ النبي اليشع(ع) الذي كان معاصرا للنبي إلياس(ع) هو أقرب اسم للفظ اليسع الوارد في الآية هنا.

على كلِّ حال، ما لدينا الآن من معلومات لا يكفي لبتّ موضوع تاريخ هذا النبي، ولا للنبي {وَذَا الْكِفْلِ} (ع)، الذي يوجد له مقامات متعددة في العراق وفلسطين وسوريا... وقد قالوا إنَّه هو نفسه النبي حزقيل(ع)، والأسوأ من ذلك حينما قال البعض إنَّه النبي أيوب(ع)! وقد سبق ذكره قبل قليل في السورة فما الداعي لذكره مرّة ثانية بلقب أو اسم آخر يسبّب التشويش على القارئ!... ولو دقّقت جيدا فيما قالوه في الروايات والكتب لما وجدتهم يتحدثون عن دليل أو مستند.

{وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ}، كل واحد من هؤلاء الثلاثة أيضا من مجموعة الأخيار، لأنَّهم من الذين حصلوا على صفة اختياره تعالى لهم بسبب كونهم هم متميزين.

ننتبه جيّداً، ليس المقصود من السورة هنا ولا من القرآن أن يكون كتاب تأريخ للأنبياء، بل المقصود من قصصهم هو الذكرى وأخذ العبرة، حيث ترى القصص السابقة هنا في هذه السورة، تراها مختصرة جدا جدا، وفيها غموض عن تفاصيل لم يرها تعالى مهمّة لإيرادها، لأنَّه لم يُرِدْ أن تتحوّل السورة للقصص للتسلية أو التأريخ، بل للتركيز على العبرة فقط وفقط بكونهم نماذج عن ملأ مؤمنين... وهنا وفي سور أخرى عندما ذكر القرآن أنبياء ليسوا مشهورين عندنا، فهذا لمجرد إخبارنا بأنه يوجد أنبياءُ آخرون منتشرون على الأرض لا تعرفونهم ولكن ناسب أن ننبهكم لوجودهم ولمواصفاتهم العالية، ونذكرهم فقط لنخبركم عن وجود نماذج أخرى، لا أكثر ولا أقل.

(هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ{49})
{هَذَا}، الذي قالته السورة من قصص مختصرة لأنبياء وعن أنبياء اكتفت بذكر أسمائهم، هو، {ذِكْرٌ}، شيء تستحضرونه في فكركم ومشاعركم، لتنتبهوا للامتداد التاريخي لدين التوحيد، ولنماذج عن ملأ من المؤمنين، {وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ}، للذين يتجنبون ويتحاشون، والكلام عن تجنّب فعل السوء وهو نفسه تجنّب غضب وعقاب ربّهم سبحانه فيطيعونه، لحسن مآب، {لَحُسْنَ مَآبٍ}، حيث في الآخرة لديه تعالى مكانة ومكان حسن جدا لإيابهم إليه سبحانه، لأنَّهم الآن في الدنيا في الحالة الأولى "حالة الذهاب"، وعودتهم إليه تعالى في الآخرة هي حالة الإياب، وعنده تعالى مكان حسن وهي الجنّة الخالدة، وعنده المكانة الحسنة وهي الاحترام والتقدير لمن آب وعاد من بعد الحياة الدنيا إليه تعالى.

تذكَّرْ العديد من الآيات القرآنية التي تحدّثت عن رجوعنا كلّنا لنقف بين يديه تعالى لنتحاسب ونتجازى، وهنا في هذه الآية والآيات الآتية نجد كلاما عمّا بعد رجوع المتقين ورجوع الطاغين إليه تعالى، والبداية مع المتقين:

(جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ{50})
حسن أوب المتقين، رجوعهم الحسن سيكون إلى:

{جَنَّاتِ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها من البساتين والحدائق وكثرة الشجر والزرع والورود وكل وسائل الراحة والسعادة... وهي جنات، {عَدْنٍ}، أي للإقامة الدائمة فيها، للسكن الدائم، فلا تنهار ولا تخرب ولا يضطرون للانتقال منها ولا لأي سبب... حتى يكون التعبير دقيقاً عن الجنَّات التي في الآخرة أنها ليست مثل غابات الدنيا التي تحترق وتيبس... أو أنها مجرد مكان مليء بالأشجار والنباتات، إضافةُ كلمة "عدن" للجنَّات تعني أنها أماكن للسكن وللإقامة

وليعيش الناس فيها بشكل دائم، حيث لا يحتاجون لشيء ولا يجدونه فيها، ولن يتعرّضوا لشيء يدفعهم للخروج منها، ولا هي سيصيبها شيء يخربها أو يفسدها.

بالنسبة لوصف الجنّات بالعدن، بعضهم اختلط عليه التوصيف بما ورد في مرويات عن الجنّة التي كان فيها آدم(ع)، ففي التراث الديني لأهل الكتاب، وانتقالا منهم إلى تراثنا، صارت كلمة "عدن" اسم مكان خاص على الأرض، أو في السماء "حاليا كما يقولون"، بينما هي وصف لأي مكان للإقامة الدائمة بسبب توافر ما تحتاجه فيه وسعادتك فيه... لا تخلط الموروث الذي سمّى الجنّة التي كان فيها آدم وزوجته بأن اسمها عدن، وصفتها عدن، علماً أنَّ القرآن لم يذكر هذه الصفة لها، بل حصر هذه الصفة فقط وفقط بجنّة الآخرة التي ليست موجودة الآن لأننا الآن في الدنيا، وحين تنتهي الدنيا بتبدّل السماوات والأرض، نصير في الآخرة، وتصير جنّة العدن.

للمتقين جنَّات عدن، {مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ}، حيث إنَّ ممراتها متاحة أمامهم، ولا يوجد أبواب مغلقة وأماكن ممنوعة.

الباب هو عموم المعبر للانتقال من شيء لشيء آخر، وباب الغرفة هو مكان الدخول إليها، وهو المعبر لتصل إلى الغرفة، وما هو دارج في كلامنا من تسمية الباب لخصوص اللوح الخشبي أو الحديدي... الذي له قفل... لأنَّ هذا أصلاً ليس المعنى الحرفي للكلمة، وهذا في العربية القديمة اسمه رتاج، وهنا الكلام ليس عن ممر عليه مانع "كباب خشبي يمكن إغلاقه"، بل عن عموم الانتقال من منطقة لأخرى، مثلاً: هذه جنّات فيها حفلات مختلفة، وتلك جنّات فيها وسائل الترفيه المتنوعّة... ويترك هذه الجنّة وينتقل لتلك ولا يجد أي مانع أمامه.

نعلم من الآية 133 من سورة آل عمران "وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ..." أنَّ وساعة الجنّة بعرض السماوات والأرض، هي هائلة الضخامة، ولكل مؤمن فيها جنّات خاصّة به، وبتصورنا الحالي من معطياتنا عن المجرات يكون لكل مؤمن كوكب أو كواكب... ويزوره المؤمنون الآخرون، وينتقل هو إلى جنّاتهم ليزورهم... وهكذا نفهم أنَّ أبواب الجنّة ليست إشارة إلى أماكن معزولة بل إلى الضخامة المتاح لهم الانتقال فيها... وفي نفس الوقت الذي يجلس فيها المؤمنون مع بعض في الجنّة إنَّ شعورهم بالسعادة مختلف، حيث كلُّ واحد منهم يشعر بأنَّه في منتهى السعادة، ولكن درجة سعادته مرتبطة بدرجته في الجنّة، لأنَّهم لا يمكنهم أن يميّزوا فرق درجات السعادة بينهم، والله تعالى وملائكته (ع) فقط يميّزون الفرق، لذا لا يخطر ببال أحد من أهل الجنّة أنَّ مَن بجواره سعيد أكثر منه لأنَّه من درجة أعلى، لا. ولمزيد من التوسّع حول اختلاف درجة السعادة للمتجاورين في الجنّة راجع دراسة 21 من سورة الطور "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ".

الباب في اللغة هو الوسيلة أو الممر للوصول إلى شيء، وباب البيت هو ممر الدخول وليس ما نسدّ به الفتحة، وهذه التسمية لباب الخشب والحديد... درجت فيما بعد، وكما يبدو من أشعار العرب قبل الإسلام فما نسدّ به الفتحة اسمه رتاج.

في فترة نزول القرآن لم يكن دارجاً في مكة والمدينة ولا عند عموم العرب، إغلاق مداخل بيوتهم بلوح خشبي أو عصيان خشبية... حيث كانوا يضعون قماشاً أو جلد حيوان أو لا شيء على مدخل البيت، وكانوا يعتمدون أحيانا بناء البيوت بممر ملتوٍ بين المدخل الأساسي والغرف الداخلية لحمايتها من إمكانية رؤية ما فيها من المدخل... وترى من أثر ذلك إلى الآن أننا نقول "باب" لفتحة الدخول إلى البيت أو الغرفة، ونفس الكلمة نقولها للوح الخشب أو الحديد... الذي نسدّ به المدخل، وهناك كلمة عربية مستعملة في أشعار العرب قبل الإسلام يبدو أنَّها تشير لما نسدّ به الباب وهي كلمة: رتاج.

بتذكُّرِ كلمة نافذة يسهّل علينا فهم كلمة باب، لأنَّ النافذة هي عموم الفتحة وليس ما يسدّ الفتحة، وبالأصل النافذة مادياً عموم الممر الصغير كمعبر أو إطلالة... ومعنوياً عموم الوسيلة للاطلاع أو التواصل مع شيء... والباب مادياً هو عموم الممر الواسع للوصول إلى الشيء، ومعنوياً هو الوسيلة للوصول لشيء. على كلّ حال سريعاً درج بين الناس وضع "رتاج" لبيوتهم قبيل وفاة النبي(ع) بقليل بحسب ما يبدو من التاريخ.

ترى في القواميس فقداناً للدقة للتفرقة بين كلمة باب ورتاج ومغلاق، وكما يبدو واضحاً استسهل الناس التوسعة في استعمال كلمة باب "ونافذة..." التي هي أصلاً واسعة التطبيقات لمعناها واستعملوها لتشمل عموم الممر وما يسدّ الممر، وألغوا كلمة رتاج ومغلاق من الاستعمال.

ستجد في الأشعار قبل الإسلام وفي بعض ما وردنا من كلام عن الجيل الأول من المسلمين أنَّ بعضهم استعمل كلمة رتاج ليشير إلى ما نسدّ به الباب. وصرت تعلم أنَّ كلمة رتاج لم تكن دارجة بكثرة بين الناس لأنهم لم يكونوا يسدّون أبواب بيوتهم به، وكانوا يرونه في القصور والبيوت الكبيرة، ولهذا ظنّ بعضهم أنَّ الرتاج اسم للباب "المغلاق" الكبير فقط، أو للباب "المغلاق" الصغير في الباب الكبير الذي يرونه على مداخل القلاع والحصون، وهذا ما ذكره بعضهم في القواميس.

(مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ{51})
أهل الجنَّات، {مُتَّكِئِينَ}، مُستندين على المساند، يضعون مساند تحت جانبهم، وهو تصوير عن جلوسهم بشكل مريح جداً جسدياً ونفسياً، {يَدْعُونَ فِيهَا}، يشهرون ويعلنون للخدم، مثلما نحن ندعو الخادم في المطعم ليحضر لنا الطعام، وهم يدعون في الجنة، {بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ}، بأنواع الطعام التي يأكلونها للتفكُّه للتلذُّذ بطعمها، وهي كثيرة، حيث هناك الكثير من الأنواع التي يدعونها أي يستمرون في طلبها من الخدم، وتتنوّع باستمرار... ويدعون، {بِشَرَابٍ}، بسوائل للشرب من مختلف الأنواع، يطلبون من الخدم إحضار الشراب، وبعده شراب مختلف وهكذا...

طبعاً الفاكهة والشراب في الجنة طعمها ورائحتها وأشكالها وألوانها... متعدّدة ومتنوّعة بشكل مختلف بما يفوق تصور عقولنا حالياً، أشارت الآية لذلك عند تعبيرها بالجمع عن الفاكهة والشراب كإشارة للأنواع الكثيرة جداً جداً...

ننتبه لاستعمال كلمة فاكهة بدلاً من كلمة طعام، فكلمة فاكهة تشير للأشياء التي نأكلها لنتلذّذ بطعمها، فأهل الجنة يأكلون للتلذذ فقط، وليس لإشباع جوعهم.

ننتبه أيضاً لتعابير وصف مجالس الجنّة بأنها دائماً بالجمع، فهنا كلمة {مُتَّكِئِينَ}، وغيرها {عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ}، {وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ}... في بقية القرآن تجد العديد من التعابير بالجمع، مما يشير لعموم حالة اجتماع المؤمنين للتسلية والفكاهة والمرح، مع الالتفات لورود بعض التعابير القرآنية التي يمكن أن تشير للخصوصية.

(وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ{52})
{وَعِنْدَهُمْ}، عند المتقين في جنَّات عدن: {قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ}، اللواتي يقصرن ما يطرفن به، فعل إطباقهنَّ لجفونهن محدّد على شيء واحد، فقط تتوجّه أنظارهن على أزواجهن، وهذا تعبير عن أنهن لا يشتهين إلا أزواجهن، وتلك الحسناوات هن، {أَتْرَابٌ}، أي متقاربات في الحسن والجمال، متماثلات في شدة جمالهن، فلا يوجد بينهن واحدة قبيحة أو عادية أو أقل جمالاً من الأخريات، لا بل كلّهن جميلات متقاربات في الجمال.

بعبارة أخرى في الجنة سوف يكون للرجل زوجات كلّهن جميلات ومتعلقات به، ولا يعني لهن شيئاً أي رجل آخر.

هنا سؤال: إذا كان هذا للذكور، فماذا للإناث؟

نلاحظ القرآن اكتفى بالقول عن سكَّان الجنَّات أن لهم كل ما يشتهونه ويرغبون به، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً، ولم يُفصِّل للإناث صراحة كما فصَّل للذكور من ناحية الأزواج، حتى أن بعض الناس يظنون أن القرآن لم يذكر أي شيء للإناث في الجنّة لأن الله تعالى سيقلب الإناث ذكوراً في الجنة! والبعض الآخر يظن أن المرأة مُلزمة بالبقاء مع الذي كان زوجها في الدنيا! حتى لو كانت تكرهه في الدنيا! هذه وغيرها من الأقوال كلُّها خرافات، والصحيح أن للنساء في الجنة ثواباً بحسب أعمالهن في الدنيا مثلهن مثل الرجال، وينطبق عليهن نفس الذي ينطبق على الرجال من الثواب، ولكن القرآن اكتفى فقط بالإشارة من دون أي تفصيل، لأنه كما في أمور الشرع هنا في الدنيا أراد سبحانه للمرأة المسلمة أن تكون عفيفة، وأراد إبعادها عن أفكار الشهوة خارج إطار الزوجية، فلذلك أشار لما لها في الجنّة إشارة فقط، بدون أي تفاصيل، ويدعم ذلك عبارة "الحور العين، وكواعب أتراباً" التي جاءت عامّة تنطبق على الذكور والإناث.

أبسط سؤال عن ثواب المؤمنات اللاتي كُنَّ عوانس في الدنيا... هؤلاء لا زوج لهن فهل في الآخرة لا متاع جسدي لهن؟ بالطبع لا. ويكفيك هذه الإشارة ولن أدخل في تفاصيل تحليلية أكثر طالما القرآن لم يرد الدخول فيها ولم يذكر أية تفاصيل مباشرة صريحة، وفعلياً نحن لا ندري ماذا سيجري هناك، ولكننا متأكدون مما يقوله القرآن بأن المؤمن والمؤمنة سيكونان في غاية السعادة حتماً.

سأنقل لك هنا كلاماً قلناه في سورة الرحمن عن كلام القرآن عن المتاع الجنسي في الجنّة: نقلوا قديماً عن عموم الكفّار في أوائل دعوة النبي محمّد(ع) وما بعد ذلك، ونقلوا عن آحاد أشخاص عاشروا الجيل الأول من المسلمين بعد انتشار الإسلام، وعن بضعة أشخاص من العهدين الأموي والعباسي، نقلوا في الكتب تعليقات أبداها أولئك الأشخاص على القرآن، وكانت تعليقات ساخرة من وعود القرآن بالجنّة للمؤمنين، وتسخر مما ذكره القرآن عن الإناث التي يحظى بها المؤمنون في الجنّة، على أساس أن القرآن تخطّى وكسر حدود الخجل والحشمة المفترضة بالكتاب الإلهي ليصير كتاباً فيه إيحاءات وتعابيرُ جنسية.

استمرّت هذه النوعية من الناس بالظهور، واستفحل في عصرنا انتشار مقولاتهم على الإنترنت عن هذا الموضوع المعيّب على القرآن، وهي صفحات لها تمويل مخابراتي بشكل واضح، ولها تكاليف لن يتحمّلها شخص عادي ليفرّغ وقته وماله لها... وبعض تلك الصفحات يبدو وراءها فريق عمل غير قليل العدد، ومتفرغون بكامل وقتهم لمتابعة الأحداث ونشر المقالات التي بشكل مباشر تشكّك في الإسلام، وتلك الصفحات تعمل في نفس الوقت بشكل مباشر وغير مباشر على الفرقة بين المسلمين، وهناك صفحات مدعومة من جهات دينية "مسيحية ويهودية وغيرها" مناهضة للإسلام...

على تلك الصفحات إحياء لكلام قديم من التعليقات على هذا الدين الإلهي القرآني، وإعادة صياغة وتنميق لذلك الكلام والإضافة عليه... وللوهلة الأولى تصدّقهم وتشعر بالخلل في القرآن والدين الإلهي، ولكن بأدنى جهد تفكير سترى أنهم كاذبون، وكلامهم مغرض وليس منطقياً ولا عقلانياً...

في تلك الأكاذيب ستجد تجميعاً لبضع آيات قرآنية تحدّثت عن المتعة الجنسية في الجنّة، ويبالغون في الكلام عن تلك الآيات ليجعلوا القرآن يبدو ككتاب إباحي جنسي، ويسخرون مما يعرضه القرآن على أساس أنه كلام معيب وتحفيز جنسي وإغراء ووعد بالجنس حتى يرغب الناس في الدخول إلى الإسلام... كدعاية جنسية للانضمام للدين.

أولاً، القرآن يزيد عن ستة آلاف آية، والآيات التي أشارت لإناث الجنّة بشكل مباشر أو غير مباشر هي قرابة الست عشرة آية، والصفات التي ذكرها القرآن لتلك الإناث: حور عين، عُرُباً أتراباً، كواعب أتراباً، كأنهن الياقوت والمرجان، بيض مكنون، أبكاراً، كأمثال اللؤلؤ المكنون، أزواج مطهّرة، والطمث. فهذه هي الكلمات التي بالكاد تزيد عن سطر واحد وهي كلّ الإيحاءات الجنسية الفظيعة التي حوّلت القرآن لكتاب جنسي إباحي كما يقولون!

ننتقل للداخل، هناك مسلمون أصرّوا على مخالفة ظاهر القرآن حين ادّعوا أن الجنّة "روحانية" ليس فيها مادة ولا ملمس حسّي، وفسّروا الآيات التي وصفت ما في الجنّة على أنها لذّة روحية وليست حيوانية "فالمتعة الجنسية حيوانية دونية المستوى بحسب تعبيرهم"، وبرّروا لما يظهر من القرآن أنها لذّة حيوانية "بحسب تعبيرهم" وأن غالبية الناس لن تفهم ولن تقتنع باللذّة الروحانية، ولذلك عبّر القرآن عن اللذات الروحانية بتعابير ماديّة، مما يعني أنهم هم وحدهم تلك المجموعة فهموا القرآن على حقيقته، وغشّ القرآن بقية الناس حين وعدهم بمتاع جسدي جنسي!؟

ما هذه الترهات؟! نعم هناك انشراح وراحة نفسية غير عادية لأهل الجنّة وعبّر عنها القرآن مراراً، وتلك المشاعر الداخلية هي بحدّ ذاتها سعادة رائعة، "وهم يستبدلون كلمة نفسية بالمعنى الدارج حالياً بكلمة روحية"، ولكن ما معنى تأويلهم لصريح ما يقوله القرآن بغير معناه الصريح؟ فالأكل والشرب والإناث والأبكار والطمث... ذكرهم القرآن صراحة وفصّل في بعض مواصفاتهم!

أنتم أيتها المجموعة الغارقة في حبّ التميّز عن الآخرين، أنتم الذين تدّعون أنكم من أقرب الناس إلى الله تعالى وأكثرهم معرفة به سبحانه وبكلامه، وقعتم في الفخر والزهو والتكبّر من حيث لا تشعرون، حيث تطرّف من أنكر وسخر من

ملذات الجنّة، وأنتم غاليتم بها وجعلتم فهمها حكراً عليكم حتى أفقدتموها معناها! فلا التعابير القليلة المؤدبة عن الملذات الجنسية التي ذكرها القرآن أقنعتكم، ولا أقنعت من رفض الدين الإلهي، فكلاكما في نفس المشكلة.

(هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ{53})
{هَذَا}، الذي ذكرته الآيات عن الجنّات وما فيها هو، {مَا تُوعَدُونَ}، ما يقول تعالى أنه سيجعل فيه المتقين، {لِيَوْمِ الْحِسَابِ}، هو ما تحصلون عليه من بعد زمن محاسبتكم على أعمالكم، في الآخرة.

ما نخبركم به عن الجنّة وما فيها فهو ما ينتظركم أيها المتقون وستحصلون عليه في زمن محاسبتكم على أعمالكم. كما نقول: هذا الكبش لحمه طيب ولذيذ، ولكنه ليوم الأضحى. لن نحصل عليه الآن بل موعده يوم عيد الأضحى.

(إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ{54})
{إِنَّ هَذَا}، الذي ذكرته لكم الآيات من جنَّات وما فيها، {لَرِزْقُنَا}، أشياء منه تعالى تحتاجونها لسدّ حاجاتكم ورغباتكم، فهذا رزق هو سبحانه مسؤول عن تأمينه لكم، وليس مطلوباً منكم يومها أن تفعلوا أي شيء لكي تحصلوا على هذه الأرزاق، {مَا لَهُ}، ليس للرزق، {مِنْ نَفَادٍ}، تستهلكونه ولا ينفد ولا ينتهي.

الآية تخبرنا بأن أهل الجنّة لا يعملون ولا يبذلون أي جهد للحصول على أي شيء يريدونه، وتأمين ما يريدونه على الله تعالى هو سبحانه متكفّل به، ولا يستدعي منهم أكثر من الإعلان عن رغبتهم بشيء ليقوم الخدم بإحضاره، ونقطة ثانية أنه لا نهاية لهذا الرزق فهو غير محدود، وهو مستمر دائماً أبداً.

(هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ{55})
كلمة {هَذَا} هنا تعطي معنى ما نقوله: هذا الذي سبق سيقدّمه تعالى للأخيار، ومن الناحية الثانية. {وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ}، للذين طغوا للذين تعدوا حدودهم، فكفروا بالحقّ وفعلوا السيئات، وهو عملياً كفرهم بتوحيده وعبادته وإطاعة أوامره ورسله سبحانه، فإن لهم عنده سبحانه، {لَشَرَّ مَآبٍ}، فهم هنا في الحياة الدنيا يعيشون ويفعلون ويقولون... "وهذه حالة الذهاب"، وعندما يموتون ويقفون بين يديه تعالى "وهذه حالة الإياب" فسيرجعون لمكانة ومكان شرّ لا خير فيه.

(جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ{56})
مآبهم إلى، {جَهَنَّمَ}، المكان الموصوف بسوء ما فيه، فيه النار المتأججة والعذاب، {يَصْلَوْنَهَا}، يتوجّهون نحو لهيبها، ويتعرضُون لنارها، كما نصلي الدجاج على النار، نضعه أمام النار حتى ينضج لحمه "مشوي"، فالطاغون سينشوون بالنار، {فَبِئْسَ}، ما أتعس، ويا لسوء، {الْمِهَادُ}، الأرضية، المكان الذي تمّت تهيئته ليقفوا أو يجلسوا أو يستلقوا فيه، فالفراش على الأرض هو مهاد جيد، ولكن لو فرشت الأرض بالشوك، وأجبرت شخصاً بالنوم عليه، فالشوك أيضاً مهاد ولكنه عاطل، فجهنم أرضها وحيطانها ملتهبة حامية وفي أجوائها النيران، فهل هناك مهاد أسوأ من ذلك؟

(هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ{57})
{هَذَا}، الوصف عن الصلي في جهنّم، {فَلْيَذُوقُوهُ}، في الدنيا كانوا يسمعون عنه ويكفرون به والآن في الآخرة ليحسُّوا بطعمه، ليشعروا بألمه. وما هي الأنواع التي سيذوقونها؟ هي، {حَمِيمٌ}، أشياء شديدة الحرارة، تحرق وتُذيب. ونقول للمائع الذي يسيل من البراكين حمم، وكل شيء في جهنم حميم أي مثل الحمم، كأرضها وجدرانها وسوائلها و...
{وَغَسَّاقٌ}، وهي سوائل نتنة، مُقرفة، وبهذا المعنى وردت في شعر قديم لوصف ماء سيِّئ للشرب.

تعلم من آيات أخرى من القرآن أن أهل النار فوق ألمهم بالحريق فهم جائعون وعطشى، وفي جهنّم لن يجدوا إلا المعادن الحامية الذائبة وشبه الذائبة، وهي نتنة ولها طعم ورائحة مقرفة جداً جداً.

تذكّر دائماً أن عالم الآخرة مختلف عن عالمنا، وأجساد أهل النار والجنّة مختلفة عن أجسادنا الحالية، فالحميم هناك يذيب جسدهم ولا يموتون، ينبت لحمهم من جديد ويحترق وينمو ويحترق، وتفهم ذلك من الآية 56 من سورة النساء {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا...}، وبتعبير أدق وبحسب ما ورد في الآية 13 من سورة الأعلى {ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى} فإنهم دائماً في حالة شعور بأنهم سيموتون من شدّة

الألم ولا يشعرون ولا للحظة بمعنى الحياة كحياة لها قيمة، فما نجده في القرآن عمّا في النار هو أشدّ بكثير مما نجده في الروايات وكتب التفاسير، حيث قالوا إن الغسّاق هو السوائل النتنة التي تنزل من أجساد أهل النار، ولكن حتى هذه لم يذكرها القرآن، ولم يذكر أي شيء عن سوائل أو أطعمة يمكن "بشكل أو بآخر" أكلها وشربها، بل تحدّث عن معادن ذائبة وحمم وسوائل تغلي وكلها نتنة مقرفة محرقة... فلا تتصوّر ولا للحظة أن أهل النار يمكن أن يستلذوا أو يطفئوا جوعهم أو عطشهم ولو لثانية من الغسّاق أو الحميم أو الزقوم...

(وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ{58})
{وَآخَرُ}، تعذيب من نوع آخر مختلف، {مِنْ شَكْلِهِ}، من شكل هذا التعذيب مشابه له، {أَزْوَاجٌ}، أصناف متعددة من التعذيب.

كما تحدث القرآن الكريم عن وسائل التمتع والترفيه الموجودة في الجنة، وأشار لنا بوجود أكثر مما ذكره لنا بكثير، فهنا أيضاً ذكر لنا القليل مما سيلاقيه سكّان جهنم، ونبّهنا أن هذا ليس كل شيء، بل ويوجد تعذيب آخر يشبه هذا التعذيب، ويوجد منه أصناف عديدة أيضاً.

(هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ{59})
أهل الجنة يفرحون بلقاء بعضهم، ويزورون بعضهم بعضاً... بينما في جهنم يحصل العكس:

{هَذَا فَوْجٌ}، هذه دفعة من الناس من مجموعة أكبر منها، {مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ}، سيقتحم جهنم، فالاقتحام هو دخول بشكل عنيف على شيء عادة نهاب دخوله، كالدخول إلى مكان فيه حرب... فدخول أفواج الطغاة إلى جهنّم لا يكون بزفّة عرس، بل يكون اقتحاماً بشكل عنيف رمياً وضرباً وصراخاً، {لَا مَرْحَبًا بِهِمْ}، ومن الآية التالية ستعلم أن من سبقهم ودخل النار لن يرحّب بهم، بل بالعكس سيلاقون الإهانات والشتم من كل من يصادفهم، {إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ}، سيتوجهون إليها لتحرقهم.

عندما تتجهّز للترحيب بشخص عزيز، سترتب منزلك ودارك وتزيّنها، وتجهّز الطعام والضيافة... ونرى شبهاً لذلك في الآية 103 من سورة الأنبياء {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ} فاستقبال الملائكة للمؤمنين من أول ما يستعيدون وعيهم في الآخرة يستمر حتى دخول المؤمنين إلى الجنّة وهناك الملائكة(ع) يزورونهم ويثنون عليهم كما نفهم من الآيتين 23 و 24 من سورة الرعد {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}... وأمّا فوج الطغاة فلا مرحباً بهم، إن جهنّم التي اقتحموها سيصلون فيها النار، فهي أصلاً مكان تتأجّج فيه النيران وهم سيدخلونها ليصلوها، ومن سبقهم أصلاً يصلاها قبلهم، فلا مجال لأي ترحيب.

بقي شيء لم أجده صريحاً في القرآن ولكنه يبدو من الآيات هنا، فرمي أهل النار فيها سيتم على دفعات، وبالتحليل يبدو أن أول الداخلين هم الأشد كفراً وإجراماً، وبعدهم الأقل فالأقل، وربما هناك معيار آخر حيث يدخلون بحسب تاريخ حياتهم في الدنيا من الأقدم للأجدد، وربما كأفواج من مختلف العصور بحسب أكبر سوء فعلوه، فوج الكافرين القتلة الزناة... وبعده فوج المشركين الأقل فساداً...

(قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ{60})
{قَالُوا}، أجاب الفوج الجديد مباشرة:

{بَلْ أَنْتُمْ}، يا من سبقتمونا إلى جهنم، {لَا مَرْحَبًا بِكُمْ}، فهل جئنا لمكان فيه الرفاهية وحوّلناه إلى نار؟! أنتم الذين رموكم قبلنا في هذا المكان، {قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا}، كما نقول قدّمت لي الطعام، فالذين قبلهم في النار قدّموا لهم مكاناً متأججاً بالنار مما نتج عن كفرهم وإجرامهم، {فَبِئْسَ الْقَرَارُ}، ما أتعس المكان الذي استقرينا وثبتنا فيه.

نلاحظ من القرآن أنه كلّما دخل فوج جديد إلى جهنّم فإن حرارتها تزداد، والانزعاج والألم يزدادان، ونلاحظ نقل القرآن لأجواء التشاحن والشتم والإهانات بين أهل جهنّم، وهنا الصورة عن فوج جديد يدخل إلى جهنّم، ويتم الترحيب به بالشتم

ممن سبقهم، ويردّ الفوج الجديد بأن المكان لم يكن جيداً ونحن حوّلناه لنار، بل هو أصلاً ما قدمتموه أنتم لنا، فهو يتأجج قبل أن نقتحم فيه.

ننتبه لتركيز القرآن على العذاب النفسي من تشاحن أهل النار فيما بينهم بالكلام المهين والقاسي، فكلّ واحد منهم سيشعر بأنه مهان حقير ومكروه، وسيتأذّى من كلام الذين حوله وسيؤذي الباقين بكلامه، ولن يشعر بأي راحة عندما يهين الآخرين بل سيبقى لديه شعور الانزعاج الشديد مهما قال ومهما فعل.

(قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ {61})
{قَالُوا}، الفوج الجديد: {رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، من قدّم لنا هذا، كما نقول: قدّم لي الطعام. فالشخص الذي جعل هذا المكان متأججاً مؤذياً، فأجّجه بسبب ذنوبه الكبيرة، فزده عذاباً ضعفاً في النار، فاجعله يشعر بعذاب زائد عن شعورنا، فاجعله يا رب يتعذّب أكثر منّا، لأنه هو أغوانا وأضلنا عن طريق الحقّ وشجّعنا على السوء...

نلاحظ من القرآن أنه كما كلُّ واحد في الجنّة ومن أي درجة كان، سيشعر بأقصى درجات السعادة ولا يتصوّر سعادة فوق سعادته، فبالعكس، كل واحد في النار، سيشعر بأنه في أقصى درجات التعذيب، ولا يتصوّر عذاباً أشد مما هو فيه، فلذلك يطلبون زيادة التعذيب لمن أضلّهم وأغواهم، علماً أنهم كلّهم في حالة عذاب مضاعف، فكل واحد منهم يشعر بأنه في أقصى درجة تعذيب، وينقل القرآن كلامهم عن طلبهم لتعذيب شديد لمن كان مساهماً لهم في دخول النار لترى كرههم لبعضهم.

(وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ {62})
تُكمل لنا السورة جانباً آخر من العذاب النفسي للطغاة، فبعد أن اقتحموا في جهنم، وتجادلوا متشاتمين مع من فيها، وقالوا:

{مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ}؟! فعندما نقوم بتعداد الأشرار السيئين واحداً بعد واحد فقد كنّا نعدّهم معهم، فما لنا لا تحصل عندنا صورة محدّدة لهم هنا في النار، فلماذا ليسوا هنا؟! وفي الآية التالية سنفهم ما يقصدونه:

(أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ {63})
{أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً}، كنا ننتقدهم بازدراء ودونية معتبرين تفكيرهم وتصرفهم غير عقلاني وسخيف، وتكملة الجملة التي تركتها الآية: وهم لم يكونوا كذلك. بل كانوا جدّيين ومعهم حقّ، وهم الآن ليسوا في جهنّم... {أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ}، هم في جهنّم ولكن لم تثبت عليهم قدرتنا على وعي وفهم صورتهم؟ هل هم موجودون معنا في جهنم ولكننا لم نرهم من الألم الذي يصيبنا أو من اللهب والدخان؟!

أنت كمؤمن ترى المؤمنين من الدرجة العالية محترمين راقين وموقرين... وما تنقله الآيات هنا عن كافر مجرم كان في الدنيا يرى المؤمنين أشراراً، فقد نفر منهم وكرههم وعاداهم وآذاهم وحاربهم... فيراهم يريدون فرض دينهم عليه ليمنعوه من مشتهياته ورغباته السيئة... وهذا الكره نقله القرآن مراراً بعبارات مختلفة، منها إعلان وإبطان العداوة للمؤمنين، ومنها التهديد بالقتل أو الطرد... ومنها الأذية... والذي مرّ من الكفّار في حياته بعذاب سبّبه له المؤمنون، فخسر حياته أو جرحوه أو أسروه أو خسر ماله أو فقد عزيزاً قتله المؤمنون... سترتفع عنده درجة الكراهية للمؤمنين، ويموت وهو يتمنّى لهم أقصى الضرر... وحين يصير في جهنّم سيتحسّر على مصيره ويتعذّب نفسياً عندما يعلم أن الذين كان يكرههم ليسوا في جهنّم، بل يتنعمّون في الجنّة، والآيتان هنا تنقلان هذا الشعور المستمر معه بالكره للمؤمنين، فصار في جهنّم وهو لا يزال يكرههم ويتألّم نفسياً لأنه يتعذّب ولا يراهم في جهنّم وهذا يعني أنهم في الجنّة يتنعمون، فيزيد ألمه النفسي.

(إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ {64})

{إِنَّ ذَلِكَ}، الذي ذكرته الآيات السابقة، {لَحَقٌّ}، لصحيح وسيحصل حتماً، {تَخَاصُمُ}، والخصام هو عموم أي خلاف يسبّب حالة نفسية بين شخصين من النفور والكره وصولاً إلى العداوة، {أَهْلِ النَّارِ}، المنتمون للنار، فهم بين بعضهم سيتعاطون بالكلام القاسي والشتم والإهانة.

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ {65})
تذكر افتتاحية السورة بحديثها عن "ملأ" الكفّار الذين اعترضوا ورفضوا الاعتراف برسالة النبي محمّد(ع)، وتذكّر عندما أمرته(ع) السورة بالصبر على ما يقولون وأن يذكر نماذج عن "ملأ" المتقين الأوابين، وخلال ذلك ردّت على أبرز إشكالاتهم على رسالته(ع)، بعدها تحدّثت عن مصير الأوابين ومصير الطغاة، فهنا عادت السورة لبداية الكلام:

{قُلْ}، أيها الرسول محمّد(ع) عبر هذا القرآن لكل الناس، وللكفّار، ولملأ الكفّار بالتحديد:

{إِنَّمَا}، فقط وحصراً، {أَنَا مُنْذِرٌ}، أنقل إليكم خبراً عن خطر قادم حتماً بسبب توافر شروط حصوله فيكم، وطبعاً هذا الخطر هو العقاب الإلهي الأكيد في جهنّم لمن أشرك وكفر، وقد يحصل عقاب هنا في الدنيا قبله للأقوام الكافرة إن اجتمعت فيهم الشروط المناسبة لحصوله... {وَمَا مِنْ إِلَهٍ}، لا يوجد أحد موصوف بوصف الألوهية، فلا يوجد ولا كائن لديه الصفات والقدرات الفائقة فوق الجميع، كخالق قدير قوي حكيم عليم... {إِلَّا اللَّهُ}، فقط وفقط الذي اسمه الله هو إله، وهو، {الْوَاحِدُ}، لا إله آخر معه، وهو، {الْقَهَّارُ}، الذي يقهر غيره، فأي صفة قوية موجودة عند أي كائن كان، وتلك الصفة تخوّله القيام بعمل ما، فإنه تعالى قاهر لكل الكائنات بكل صفاتهم، وعملياً صفاته أعلى وأكبر ويفرض إرادته عليهم، ولا يمكنهم فعل أي شيء إن لم يسمح سبحانه لهم...

ننتبه جيّداً، فهناك استخفاف في معنى كلمة إله عند الكثيرين من الناس، فتراهم وبكل سهولة، يقولون: هذا إله وذاك إله، والآخر نصف إله، وغيره ربع إله، وذاك بمسحة أو نفحة إلهية... وتعلّمنا من القرآن أننا إذا دقّقنا في كلامهم وفي الأسباب التي تدفعهم لهذه الأقوال، لوجدنا أنهم لا يفهمون حقيقة معنى كلمة إله، وبكل سهولة يتراخون في معناها! فالرزق والشفاء والمطر والنجاح والحياة والموت والنصر... والخلق والتدبير واستمرار الحياة... والدين والشريعة والحكمة من الحياة... والآخرة والحساب والجزاء... وغيرها الكثير من الأمور هي من أفعال الإله بشكل مباشر من حيث التصميم والتنفيذ أو عبر الآليات والمخلوقات التي صمّمها وخلقها سبحانه، وقد لاحق القرآن كل تعليقات المشركين الأساسية على الدين الإلهي وردّ عليها بشكل مفصّل، فلا يمكن أبداً بتاتاً أن يتشارك اثنان إلهان فيما نراه من حولنا من سنّة واحدة في الخلق والتدبير... ولكان الإله الآخر بعث برسله... ولتخالف الإلهان... أمّا هنا "وفي آيات أخرى من القرآن"، نجد كلمة واحدة مختصرة للرد على كل كلام المشركين، فمواصفات الإله، لا تحتمل وجود إلهين، وأعذرني لو أطلت عليك قليلاً ولكن لننتبه لما يلي:

يمكنك وصف البيئة التي حولك لأنك تعيش فيها، وتتعامل معها، ويمكنك وصف الإنسان، لأنك إنسان وتعيش مع بقية الإنس وتتعامل معهم، الآن تصور أن الله تعالى يخبرك عن الألوهية، فهو إله، فيعلم معنى الألوهية، ويعلم بصفاته، وصادق معك حين يخبرك بأنه يرى نفسه واسع العلم والقدرة والإحاطة، ويرى نفسه لوحده قد خلق كل شيء، وبكل صراحة وصدق وشفافية يقول لك: كل الدنيا محصورة فيما صمّمته وخلقته، في السماوات والأرض وما بينهما، ولم أجد أثراً فيهم أو خارجهم لإله غيري، وهذا شيء كرّره القرآن مراراً وكمثال عنه ما ورد في الآية 33 من سورة الرعد {... وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ...}، من هذه النقطة نفهم بعمق ما تقوله الآية هنا أنه هو الإله سبحانه يخبرك أنه واحد ولا يوجد إله آخر.

الله تعالى يرى ويسمع ويعلم بكل شيء، فيرى سبحانه أن كل الكائنات هو قد خلقها، ويرى أنها كلّها مجتمعة ولو استعملت أقصى قوّتها، فلا يمكنها أن تؤثّر فيه ولا بأي شكل، بل مستحيل أن يقدروا على فعل أي شيء لا يريده الله تعالى أن يحصل ولم يسمح به، وبعمق أكبر فهو تعالى إن للمحة واحدة قرّر ترك ما في الدنيا بلا عنايته فكل شيء فوراً سينهار، وبتعبير قرآني: لو أنه تعالى أخذته سنة "نعوسة" أو نوم، ولو أنه تعالى لم يمسك السماوات والأرض، فوراً ينهار كلّ شيء كما تقرأ في الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ...}، فلا يعد هناك كائنات ولا سماوات ولا أراض، لأن كل شيء وفي كل لحظة متعلّق به تعالى، فمن هذه النقطة يخبرك تعالى بأنه قهّار، فلا معنى لقولك عن أحد غيره سبحانه أنه إله طالما ذلك الغير مقهور

وتحت قدرة الله تعالى، ولدرجة أن أي كائن سيزول فسينهار كيانه بلمحة لو قرّر "أو فرضاً سهى أو غفل" عنه الإله سبحانه، وطبعاً هو الله سبحانه أخبرنا عن نفسه أنه لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يغفل... ولذلك ترى كل شيء من حولك بشكل مستقر ويسير ويستمر بشكل عادي.

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ {66})
الإله الواحد القهار، {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}، المسؤول من مستوى إلهي عن كل ما في دنيا المخلوقات من كائنات وبيئة وظواهر... فهو تعالى صمّمها وخلقها وتابعها لتسير...

نقول للأب إنه ربُّ البيت، لأنه المسؤول عن كل شيء في البيت، فهو مسؤول عن تأمين المسكن والملبس والمعاش والحماية، ولا أحد يتصرف في البيت من دون إذنه، ونقول للزوجة: ربّة منزل، ونقول: ربّ العمّال... وعلى معنى أوسع، فإن الله سبحانه ربُّ السماوات والأرض من مستوى إلهي، فهو تعالى خالقها المسؤول عنها ومُدبِّر أمورها و...

{الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره...

{الْغَفَّارُ}، الذي يغفر بكثرة، فبالرغم من الصفات والقدرات الفائقة والسيطرة المطلقة، سبحانه لا يأخذ موقفاً صلباً جافّاً ممن أخطأ، فإن تراجعنا عن خطئنا فسبحانه لا يحاسبنا عليه مهما كان كبيراً، وحتى الكفر به تعالى يسامحنا عليه، طبعاً هذه الفرصة للمغفرة متاحة لنا فقط في الدنيا، وهذا واضح جداً من القرآن.

إذن، يا من كفر وأشرك، ها قد أخبرك سبحانه عبر رسوله وعبر القرآن بالإنذار إن لم تؤمن، وها يخبرك أنه تعالى يغفر لك إن تبت وآمنت، فالاختيار لك، ولكل اختيار عواقب ستتحمّلها أنت.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائماً أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...} وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراض.

عادة نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير فنستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، فنقول: خلق سبحانه الدنيا. أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيراً صحيحاً دقيقاً بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى}. فسبحانه دقيق في تعابيره ويحدّثنا بدقّة عمّا يعلمه، وكلامه تعالى عن السماوات والأرض هو كلام عن علم بما أمامه سبحانه، فسبحانه دائماً يتكلم بشفافية عمّا أمامه فقط، أمّا الكلام عن كلّ ما في الدنيا، فهو كلام عمومي ويشمل "نظرياً" ما هو خارج العلم، ولذلك لم يستعمله تعالى، بينما ترى استعماله في كلام عموم البشر لأننا نتساهل ونتراخى في التعبير.

(قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ{67})
قل، أيها النبي محمد(ع) عبر هذا القرآن للناس: هو، ما أقوله لكم من الإنذار عبر القرآن، نبأٌ، خبرٌ غير منتشر بينكم، عظيمٌ، ليس خبراً عادياً، ليس خبراً يمكن تجاهله، فهو خبر عن عذاب شديد جداً خالدٍ في جهنّم، فهل هناك خبر أعظم من هذا؟

(أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ{68})
{أَنْتُمْ عَنْهُ}، عن هذا النبأ العظيم، {مُعْرِضُونَ}، تعتبرونه بلا أهمية، وأنَّ الاهتمام به مضيعة للوقت والجهد.

لاحظ يا عزيزي أن هذه الجملة ليست جافّةً بل حركية، وتعتمد على طريقة النطق التي يقولها الناطق أو التي تتصوّرها في ذهنك، في كتابة الجملة على الورق، سيختفي منها التعبير الصوتي، لو أغمضت عينيك، وسمعت أحدهم يقول: صباح الخير، فمن نبرة صوته ستعلم إن كان عادياً، أو سعيداً، أو متثاقلاً من النعاس، أو نشيطاً، أو منزعجاً... أما لو كَتَبَ لك على الورقة: صباح الخير، فتصير الجملة جافة لا تعبّر عن مشاعر.

يمكن الاستعانة ببعض الرموز للتعبير عن حركية الجملة، مثل إشارة التعجّب والسؤال، وفي القصص المصوّرة يعتمدون على تكبير الخط للتعبير عن الصراخ، وتصغير الخط وترقيقه للتعبير عن الهمس، وعلى سطر رموز متنوّعة للتعبير عن صدور أصوات غير مفهومة... في القرآن نجد علامات الوقف المتنوّعة، ورؤوس الآيات، ونجد حركية للجملة في غالبية قراءة التجويد، كتضخيم الصوت عند آيات العذاب... ونعومته عند آيات النعيم... ونجد جفافاً في حركية الآيات في غالبية قراءة الترتيل، علماً أنَّ العديد من الآيات كانت على شكل تعجّبٍ، وسؤالٍ، واستفهامٍ، واستنكارٍ... ولكن ماتت هذه التعابير الحركية بسبب اعتماد الترتيل على الطريقة التي نسمعها من القرّاء، ويظن الكثيرون "إن لم نقل الجميع فلنقل الأغلبية الساحقة" يظنون أن ترتيل الشيخ الحصري والمنشاوي وعبد الباسط... هو الطريقة التي كان النبي محمّد(ع) يقرأ بها القرآن على الناس، وهذا غير صحيح بتاتاً، حيث من آياتنا هنا وغيرها الكثير من آيات القرآن نرى الحركية في التعابير، وهي ليست جافة كفرمان أو بلاغ أو إعلان أو نشرة أخبار... سمعت للقارئ الطبلاوي تجويداً فيه حركية بشكل متميّز عن بقية القرّاء...

هنا الآيتان السابقتان مع الآية اللاحقة هما على صيغة: جملة خبر مهمٍّ، جملة خبر تعجّبي. فضع في بالك الآية السابقة وانطقها مع شعورك بأن الإنذار خبر عظيم، وآيتنا هنا اقرأها مع شعورك بالتعجّب من إعراضهم، واقرأ الآية التالية مع رفع يديك للتعجّب مع فتح الشفّة السفلية للأمام كعلامة على تعجّبك وانتفاء أي علاقة لك أو أي معرفة بما حصل.

ربما تستغرب ما أقوله لك، وربما تستنكره، وربما لا تقبله، والسبب أننا كلنا اعتدنا على ما نسمعه من القراءة للقرآن والتي صارت متداولة ولا نسمع قراءة أخرى غيرها، مما رسخ في ذهننا عن وعي وبدون وعي أن هذه القراءة ورثناها كما هي من النبي(ع) عبر نقل الصحابة لها منه(ع)، وهذا غير صحيح، والتاريخ يشهد بذلك، حيث نقلوا لنا من العصر الأموي ومن بعده من العصر العباسي، نقلوا اعتراضات العلماء على العديد من قرّاء القرآن الذين تغنّوا في القرآن طرباً ولحناً، وأشهرها جملة قالها أحدهم لقارئ: فوق البياض البرص. ومن استحباب التغنّي بالقرآن على اللحن العادي لأي إنسان عادي، انتقلوا إلى الغناء المحترف مع التلاعب الاحترافي بطبقات الصوت! ومن التاريخ الحديث وبحسب اطلاعي "المقبول" على هذا الموضوع، نجد أن موجة التجويد مع قرب كبير من الغناء "والغناء أيضاً" بدأت من بداية القرن العشرين في مصر، وفي حينها واجهت هذه القراءة "الغنائية" اعتراضاً من العلماء، إلى أن انتشرت إلى بقية البلدان وصارت الآن مقبولة، بل منتشرة لدرجة أن الكثيرين يتصورون أن الصحابة كانوا يجوّدون ويرتلون القرآن بهذه الطريقة!...

زاد الطين بلّةً نقل ما هو دارج حالياً بيننا من قراءة ترتيل بمد الأحرف بما يزيد عن طريقة الكلام العادي بالفصحى، حيث جرى نقلها إلى المسلسلات والأفلام الدينية التي تناولت زمن الرسول(ع) والصحابة! وبذلك يترسّخ أكثر فأكثر بيننا أن هذه هي طريقة القراءة التي كانت دارجة في حينها! علماً أن تلاوة القرآن على الناس لتبليغ الكلام الإلهي لهم، ستكون فجّةً مستهجنةً إن تليت بطريقة الترتيل بمدّ الأحرف المتعارف عليها "حالياً" كقراءة صحيحة، ناهيك عن مدّ الأحرف بقراءة التجويد!

(مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ{69})
قل عبر هذا القرآن أيها النبي محمد(ع) للناس، وبخاصة للمشركين، وبالخصوص للملأ من المشركين:

{مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ}، لم يكن عندي أي علم أو خبر، {بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى}، بالوجهاء الذين في السماء العالية، {إِذْ يَخْتَصِمُونَ}، والخصام هو عموم أي خلاف يسبب حالة نفسية بين شخصين من النفور والكره وصولاً إلى العداوة، ومعلوم لك أن الخصام حصل بين إبليس والملائكة وصار بينهم عداوة.

ما سأقوله أنا محمّد لكم بكلامي هذا فهو ليس من معلوماتي، بل نقلاً عن مصدر يعلم ما جرى.

الملأ كما سيبدو من تكملة الآيات هم الملائكة(ع) من جهة، وإبليس من جهة، وسبحانه وتعالى عَرَضَ عليهم ما سبّب خصامهم مع بعض البعض وهو أمره تعالى لهم بالسجود لآدم(ع)، ولا نجد في القرآن كلاماً بين الملائكة(ع) وإبليس، ونفهم من فحوى بعض الآيات أنهم تكفّلوا بطرده من السماء العالية... نقول هذا لأن كلمة "ملأ" لا يناسب أن تشمله سبحانه وتعالى، علماً أن الآيات التالية نقلت كلام إبليس معه سبحانه وتعالى.

نتذكّر بداية السورة بكلامها مع وعن ملأ الكافرين، وانتقلت للكلام عن ملأ المؤمنين، وخلال ذلك بيّنت فساد عقلية ملأ الكافرين، وأرتهم القيمة الحقيقية للوجاهة، والآن انتقلت السورة إلى أسوأ نموذج من الملأ، إلى واحد كان من الملأ الأعلى، حيث كان هناك في السماء العالية من الذين لهم قيمة ومكانة، إلى إبليس... فلنتابع.

(إِن يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ{70})
{إِنْ يُوحَى إِلَيَّ}، فقط تصلني المعلومات إلى وعيي، {إِلَّا أَنَّمَا أَنَا}، فقط وحصراً أنا، {نَذِيرٌ مُبِينٌ}، أنقل لكم بشكل واضح الخبر عن خطر قادم حتماً لمن توافرت فيه شروط حصوله.

نسترجع بداية السورة، والآيات السابقة التي دخلت من كون النبي محمّد(ع) فقط وفقط رسولاً يحمل الإنذار، ولا علاقة له بأي شيء آخر، فهو (ع) فقط ينقل ما ينزل عليه، والقرار بتنفيذ الإنذار على الله تعالى وليس للرسول أي علاقة بأي شيء، وبعدها انتقلت السورة في الآيات هنا لخبر آخر يحمله الرسول (ع) وأيضاً لا علاقة له (ع) به، وأصلاً لا علم له به، وهو اختصام الملأ الأعلى.

لاحظ، أرادنا سبحانه أن نفهم أن النبي محمد(ع) ينقل لنا ما ينزل عليه وهو فقط مجرّد ناقل، وهناك أمور أصلاً لا يعلم عنها النبي محمّد(ع) أي شيء، حيث هناك خصام حصل في السماء العالية بين الملأ الأعلى، ومحمّد(ع) رجل عادي يعيش على الأرض، وعبر وحيه تعالى إليه(ع) سينقل لكم حادثة من هناك لتكون لكم عبرة وتذكرة أيها الناس عموماً وأيها الملأ من الناس خصوصاً.

الوحي هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خيراً أم شرّاً، وبناء عليه فكل أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وحياً لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وترى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ"، وحتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال "إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...".

ينطبق فعل الوحي على أي كائن كان "إنساناً حيواناً مَلَكاً أو جنّاً" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم.

طرق فعل الوحي أنواعه متعددة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم "فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا"، ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا"، وما ورد في الآية 193 و 194 من سورة الشعراء "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ"، أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات "فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ..."، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل كما هو مشهور في تراثنا الديني، ووحي عبر إصداره تعالى صوتاً في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص "فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ"، مضافاً لها الآية 13 من سورة طه "وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى"، فكلامه تعالى معه(ع) وحي لأن

الكلام ليس صادراً مباشرة منه تعالى فهذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، فيصير وصف الحالة أن كلامي يصلك وحياً.

هناك وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ" ففي النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

الوحي يصدق على وحي الخير والشر، فالشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا..." ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... فالوسوسة في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيراً أو شراً فهو وحي.

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ{71})
{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ}، قال المسؤول عنك من مستوى إلهي للكائنات المسمّاة ملائكة والتي نقل القرآن صفاتها من حيث امتلاكها لقدرات عالية فوق بقية المخلوقات، وأنها مطيعة له تعالى وأمينة...:

{إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا}، سوف أركّب كائناً ذا بشرة، {مِنْ طِينٍ}، من التراب المعجون بالماء.

نتذكّر دائماً أننا مؤلفون من المواد الموجودة في التراب مع ماء، فتقريباً 70 بالمئة من جسدنا من الماء، والبقية من الكالسيوم والكربون والحديد والزنك... والله سبحانه خَلَقَنا فركّب وألَّفَ جسدنا من هذه المواد المنتشرة في التراب مع الماء.

نتذكّر جيداً أن المحاورة الآتية لم تَجْرِ باللغة العربية، ولا بتركيب الكلام الذي نعرفه من لغات البشر، ونتذكّر جيداً أن القرآن في نقل المحاورات والكلام اعتمد على ما يريده القائل والسامع من تناقل معلومات، فتذكّر اختلاف الجمل التي نقلها القرآن عن لسان النبي موسى(ع) أثناء محاوراته لفرعون، حيث وردت جمل مختلفة عن نفس الحادثة في مختلف السور، لأن القرآن لم ينقل لنا تقريراً حرفياً بالكلمة عن الحادثة، فلم يعرّب لنا من المصري الفرعوني إلى العربي، لا، بل نقل لنا ما فهموه من كلام بعضهم مع بعض، وما قصدوه من كلامهم مع بعضهم، وبحسب تركيز كل سورة على موضوع محدّد نقلت لنا السورة زاوية محدّدة مما فهمه وقصده المتحاورون، ونفس الشيء في محاورة السيدة مريم(ع) مع الملاك... ومحاورة النبي إبراهيم(ع) مع الملائكة... ومحاورة أولاد النبي يعقوب(ع) معه ومع النبي يوسف(ع)... ونفس الشيء هنا، فالتركيز هنا على الملأ، فنقلت لنا الفقرة جانباً مما أراد سبحانه من كلامه أن يفهمه الملائكة(ع) وإبليس(ع)، ونقلت الزاوية التي لها علاقة بموضوع السورة بالتركيز على كون إبليس "سابقاً" كان من الملأ وحصل معه كذا وكذا...

لا تنظر أبداً لقصّة سجود الملائكة(ع) لآدم(ع)... في القرآن، ولا لأي قصّة أخرى على أنها مبعثرة هنا وهناك ومهمّة تجميعها عليك، لا، بل افهمها كما وردت في كلّ سورة بحسب الزاوية التي تناسب موضوع السورة، فتجميع القصص والأفكار على أساس أنها متبعثرة، وتسمية هذا المنهج بالتفسير الموضوعي، هو مسخ وتضييع لموضوع كل سورة، فمن البديهي استعانتنا بما ورد في سور أخرى عن نفس الحديث أو الحادثة لتصير المعلومات كخلفية متركّزة في ثقافتنا، ولكن ليس مقبولاً تضييع موضوع السورة على أساس أن القرآن قصد تفريق القصص على السور بهدف التفريق فقط!

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ{72})
نفس الآية وردت في الآية 29 من سورة الحجر.

{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ}، جعلت آدم(ع) سوياً، وصار بالتمام بشراً "جسد إنسان بشري تام"، {وَنَفَخْتُ فِيهِ}، جعلت في داخله، {مِنْ رُوحِي}، منّي شيئاً صافياً، {فَقَعُوا}، ارتموا، {لَهُ سَاجِدِينَ}، وعبّروا له عن فائق احترامكم.

تلاحظ أننا لا نعرف الشيء الكثير عن الملائكة(ع)، إذا حاولنا تصوّر سجودها، فسنتصوّرها كإنسان يقرّب أو يضع جبهته على الأرض، وهذا تصوّر لشكل بشري، لكن الملائكة(ع) ليست كذلك، لا نعرف كيف سجدت، ولا تتعب نفسك في تصوّرها تسجد، فهذا مستحيل الآن، ولكن في عالم الآخرة سيتغيّر جسدك وتركيبتك وستتمكّن من رؤية الملائكة(ع) لأنك ستصير في عالم مختلف عن عالمنا، وهناك ستفهم كيف سجدت، أمّا الآن فنفهم أنها قامت بشيء يعبّر عن فائق خضوعها واحترامها لآدم(ع).

السجود ليس تعبيراً حصرياً للعبادة، بل بالأساس هو تعبير يتدرّج من أقصى الاحترام كحالة سجود إخوة النبي يوسف(ع) وأبويه له كما ورد في الآية 100 من سورة يوسف "وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا..."، وصولاً إلى التعبير به كعبادة، وعبّر الملائكة عن أقصى احترامهم لآدم(ع) بما يناسب تكوينهم.

ننتبه، تعبير: روحنا، يشبه تعبير: رزقنا رحمتنا... عبدنا... ومثلما نفهمها تشير للعبد للمخلوق الذي خلقه تعالى ويملكه، فكذلك "روحنا" تشير لشيء صافٍ "منّا نفخناه" فيه، وإضافة الروح للإله سبحانه "روحنا" لا تعني أن الإنسان حصل على جزء أو قسم من روح الإله سبحانه وتعالى، أو حتى نفحة من الإله، لا، بل تعني أنه مثلما عبدنا نحن خلقناه، فمن روحنا من شيء صافٍ نحن خلقناه وجعلناه في الإنسان.

الروح ككلمة عربية معناها: الشيء الأساسي الخالي من الإضافات، الجوهر، "الإسانس". ودرج أن يقول العرب قديماً "وحديثاً" عمّا ينتج من عملية تقطير المواد: روح العنب، روح الزهر، روح النعناع... المشروبات الروحية... يعني الشيء الصافي من العنب من الزهر من النعناع...

الروح التي فينا، والروح الذي نزل بالوحي، وروح العنب... فكلها كلمة روح فيها تعني: شيء خالٍ من الإضافات. فهي وصف لحالة، وصف لحالة هذه الأشياء، وأكرّر لك أنَّ الروح ليست شيئاً واحداً، بل هي وصف لأي شيء حالته الخلو من الإضافات. فلا تتصوّر الملاك الروح الذي نزل بالقرآن، والروح التي نفخها تعالى في آدم(ع) هما نفس الشيء، لا بل مختلفان، ويشتركان بوصفهما بنفس الشيء "بالروح" لأنهما صافيان بحسب ما يناسبهما، مثلما يناسب وصف ما ينتج من تبخير وتبريد عصير العنب بالروح.

قيل كلام كثير عن معنى الروح التي صارت في البشر، وأقرب شيء نفهمه أنه شيء ما يجعلنا نختلف عن الطين والماء، فلسنا تمثالاً ولا آلة، فالروح وصف لشيء موجود في كائنات أخرى غيرنا، وما حصلنا عليه "بدرجة ونوعية مختلفة عمّا هو في الكائنات الأخرى" يجعلنا كائنات تقبّل التكليف الإلهي الحلال والحرام من مستوى عالٍ بهذا الجسد الطيني.

أي كلام قالوه عن الروح التي فينا، على معنى أنها اسم لشيء وليست وصفاً ينطبق على أشياء مختلفة، فستراه لا يتماشى مع تطبيق نفس المعنى على الملاك الروح جبريل(ع)، وعلينا وعلى بقية الحيوانات والنباتات لأنها حية، وعلى الجنّ، فبعضهم قال إنَّ الروح هي الحياة، فالجنّ أحياء؟ والنبات أحياء؟ فهل فيهم روح مثل روحنا؟ أم الروح فينا هي ما يجعلنا نحن والآخرون أحياء وأمّا النباتات ففيها شيء آخر يجعلهم أحياء؟... وبعضهم قال إنَّ الروح هو الفكر، وأيضاً الملائكة (ع) والجنّ يفكّرون؟ وهكذا لن أطيل عليك بنقل ما قالوه لأنك بأدنى تأمّل سترى تعارض انطباق المعنى الذي اقترحوه للروح كشيء واحد، ككيان واحد موجود هو نفسه هنا وهناك في مختلف الكائنات، فهذا يتعارض مع أصل المعنى اللغوي للكلمة ويتعارض مع كلام القرآن ومع ما نعرفه عن الكائنات.

بالمختصر الشديد خوفاً من القفو بما ليس لنا به علم، فالروح وصف عام لأي حالة صفاء مع تدرجات في الصفاء، فهي في كائنات مختلفة مع الاختلاف في نوع الروح بما يناسب خلقة كلّ كائن، ويبدو أنها بالنسبة لما فينا فهي ما يجعل المادة "التي انخلقنا منها" يجعلها تخرج عن جفاف آلية العلاقة الميكانيكية بين تراكيب المادة، وأقرب تصوّر تقريبي لذلك هو تشبيهها بالبرنامج الكومبيوتري "بمستويات مختلفة" التي تجعل كامل الكائن حيّاً يعي بحواس... يعمل يفعل يتفاعل... طبعاً هذا تحليل كاقتراح للتقريب وليس تفسيراً لكلامه تعالى.

الآن ننتقل للتعبير عن التسوية، فلا تفهم منه الفورية، فهذا الفهم البسيط فهمه قبلنا أهل الكتاب قديماً من كلامه تعالى، وقالوا إنَّ آدم(ع) صار من تمثال طيني نفخ فيه تعالى فتحوّل إلى لحم ودم... وهذا التصور لا يبدو صحيحاً مما نجده في كلام القرآن عن وجود بشر قبل آدم(ع)، وراجع في ذلك دراسة الآية 30 من سورة البقرة "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ..."، مما يشير إلى ولادته(ع) من أبوين...

التصوّر عن الخلق الفوري لا يتماشى مع استعمال القرآن لنفس وصف التسوية كمرحلة وليس كشيء فوري كما ورد في الآية 37 من سورة الكهف عن كلام المؤمن مع كافر بنعمته تعالى أنه نسي من "سوّاه" رجلاً "قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا"، وما ورد في الآيات 7 و 8 و 9 من سورة السجدة صريح جداً بكلامها عن مراحل سابقة من الخلق من سلالة من طين وصلت إلى التسوية "وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ..."، فواضح لك أن وصف التسوية في هذه الآيات لا يشير للفورية التي يتصوّرها البعض في خلق آدم من تمثال من طين، بل يشير للانتقال من مرحلة لأخرى أثناء التشكّل...

طبعاً تتذكّر أن كلمة طين استعملها القرآن كمرادف لما نسمّيه الآن بالمادة أو بعناصر الجدول الدوري من كربون وكالسيوم وهيدروجين... فالكلام عن خلقنا من طين يشير إلى هذه المواد التي تركّبنا منها.

دع من بالك فهم الصورة بسذاجة تشكيل تمثال من الطين ونفخ الروح فيه ليصير بشراً، لأن تعابير القرآن التي أوحت بهذا التصوّر اختصرت مراحل الخلقة لتذكر الأساسيات، من المادة مع إضافة شيء لها، أو بالدقّة هو حدوث شيء من هذا التركيب الخاص للمواد "فنتج عنه روح، فنتج عنه شيء صافٍ"، فصار بشراً...

لنكمل مع مفهوم قرآني أساسي يساعدنا على فهم كلامه تعالى، لأن القرآن لم يعرض لنا آليات وتقنيات حدوث الأمور، واكتفى بالكلام عن الأمور كأفعال نتعرّف منها عليه سبحانه، وأقصى ما نجده هو الكلام عن بعض مراحل حدوثها، مثلا: ريح سحاب مطر. ولا تجد في القرآن لا في هذا الموضوع ولا في غيره كلاماً تفصيلياً عن آلية حدوث الأمور، فلم يذكر شيئاً عن فرق حرارة الهواء كسبب لحدوث الرياح... ولا عن فرق كثافة وحرارة بخار الماء عن محيطه ليرتفع إلى طبقة يتعادل معها في الكثافة ليشكّل غيمة... ولا عن تكاثف البخار على الغبار أو اختلاف تعادل شحنة سحابتين... كسبب لتساقط المطر... وكما ترى فهذه آليات حدوث الأمور وليس من المفروض أن تجدها في كتاب هداية يشير لحدوث الأمور ودلالتها على من خلقها، وأساساً ما الفائدة من ذكر كيفية حدوثها للهداية؟! ولو شرحها تعالى بالعمق الذي يسبّبها فعلاً من نظرته تعالى لها، فهل سنفهم الكلام؟

نفس الكلام عن خلق النبات، الذي تمتص خلاياه الماء والمغذيات لتنمو وتنقسم، وبعضها يتّجه نحو الحرارة والضوء... وبعضها يتجه نزولاً نحو الرطوبة... إلى أن ينتج الثمر... وبعدها يصير حطاماً... حيث بوضوح ترى كلام القرآن عن مراحل وليس عن آليات حدوث النبات.

كذلك الحال بالنسبة لخلقنا نحن البشر عبر مراحل من طين، وسلالة من ماء مهين "من نطفة" وتشكّل في بطن حاضن "بويضة"... هي مراحل.

الحال ذاته عن حياتنا وموتنا وإعادتنا إلى الحياة، والمنتشر في عموم ثقافة الناس أنه شيء ديني جوابه في الكتب الدينية، وهذا خطأ، لأنه سبحانه لم يذكر آليات حدوث أي شيء، ولم يذكر آلية موتنا ولا آلية إعادة إحيائنا، وما هو منتشر في ثقافة المتدينين عن الروح والنفس عموماً، وخصوصاً في موضوع خروج الروح والنفس من الجسد... وإعادتهما في الآخرة إلى جسد... فلا مستند قرآني له، وهي تفسيرات نابعة من خلفيات أسقطوها على كلام القرآن الذي لم يذكر ولا أي شيء تفصيلي عن آلية حدوث هذه الأمور، وتركه القرآن مثله مثل بقية الأمور الأخرى لنبحث نحن فيها ونكتشف أسبابها بالتدرج والتقدم في العلوم.

نفس الشيء في كلام القرآن عن رزقه تعالى وعن الشفاء... فمن السخافة البحث عن دواء للأمراض الجسدية من القرآن، فهذا كتاب هداية وليس كتاب طبّ ولا فيزياء ولا فلك... وكلامه عن أمور تتعلّق بهذه الفروع العلمية إنما كان

حصراً وفقط بطريقة مبسطة سهلة يفهمها أي إنسان متوسط الثقافة، فتكون له لفت انتباه إلى أفعاله تعالى التي تدلّ عليه كإله عظيم فائق القدرات والصفات صمّم وخلق، لا أكثر ولا أقل.

نسأل من كلام آيتنا هنا، عن سبب الأمر بالسجود لآدم(ع)؟ مما يبدو من الآية 31 من سورة البقرة أن بني آدم(ع) فيهم متميّزون لدرجة تفوق تميّز بقية الكائنات التي خلقها تعالى، فيهم متميّزون أكثر من كلّ الملائكة العالية(ع) ومن كلّ الجنّ، ولهذا السبب أمر سبحانه ملائكته أن تعبّر عن فائق احترامها لهذه الكائنات التي علّم تعالى أسماءها لآدم(ع) "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ...".

تبرير ذلك أننا نحن البشر كائنات مشحونة بالأحاسيس والغريزة والشهوة، نحن مخلوقات فيها ضعف كبير، ونتأثر بما قبل ولادتنا بجينات أجدادنا، ونتأثّر ببيئتنا من الناس في طفولتنا وشبابنا... ونتعرّض لمغريات حتى لو كنّا منعزلين في وسط صحراء قاحلة... وفي هذه الظروف التي لا تعيشها الملائكة(ع)، علم سبحانه بخروج أفراد من البشر سيكونون نماذج راقية جداً جداً بإخلاصها لله تعالى، فقاومت كل الإغراءات وأخلصت فكرها ومشاعرها وعملها بحسب ما أمرها ربّها سبحانه، وتقديراً لهذه الكائنات التي ستظهر، كان الأمر للملائكة(ع) بالسجود لآدم(ع)، ولمزيد من التوسّع راجع في دراستنا هذه الآية 31 من سورة البقرة.

بقيت نقطة يجب أن ننتبه لها، فكثير من الناس يتصورون آدم(ع) في السماء، وخلقه تعالى هناك، أو خلقه تعالى هنا على الأرض ورفعه تعالى إلى السماء العالية وجرى أمر السجود له وهو هناك... وهذا غير صحيح، فآدم(ع) من طين، ومخلوق على الأرض، وعندما تسوّى هنا على الأرض "بولادته من أمّه"، جرى أمر السجود له من هناك، من السماء العالية، فلا تتصوّر آدم(ع) واقفاً هناك بجسده في السماء العالية، مع العلم أن الآيات تشير لعلم آدم(ع) بشيء ما يجري في السماء العالية، فترى ذلك من الآية 31 من سورة البقرة، والآية 117 من سورة طه "فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى".

(فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ{73})
بعد أن تسوّى آدم(ع):

فسجد الملائكة(ع) كلّهم أجمعون، أظهرت كل الكائنات المسمّاة ملائكة احترامهم، فأظهروا اعترافهم بأن آدم(ع) أفضل منهم، فكلّهم سجدوا بدون أي استثناء.

في الآية السابقة تحدّثنا عن كيفية سجود الملائكة ومعناه، والخلاصة أننا لا يمكننا الآن فهم التعبير الذي فعلوه ووصفه سجود، وأن السجود ليس حصراً للتعبير عن العبادة، فهم لم يعبدوا آدم(ع) بالسجود له، فالسجود تعبير يتدرج من أقصى الاحترام كحالة سجود إخوة النبي يوسف(ع) وأبويه له كما ورد في الآية 100 من سورة يوسف "وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا..." وصولاً إلى التعبير بالسجود للعبادة كحالة سجودنا له تعالى.

(إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ{74})
{إِلَّا إِبْلِيسَ}، وهذا اسم لواحد من الجنّ كما ورد في الآية 50 من سورة الكهف "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ..."، {اسْتَكْبَرَ}، فرأى نفسه أكبر من السجود لآدم(ع)! {وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}، من الناكرين لحقّ الله سبحانه في توجيه الأوامر له.

إبليس لم يكفر بإنكاره تعالى إلهاً خلقه، ولم ينكر أنه تعالى وحده لا شريك له، ولكنه كفر بالله سبحانه حين لم يسجد فأنكر إطاعته تعالى في مسألة السجود لآدم(ع).

نتذكّر من القرآن أن إبليس من الجنّ وعنده قدرات عالية، وكان بإمكانه التواصل مع الملائكة العالية (ع)، وقد كان يعيش ويعبد الله تعالى في السماء الخاصّة بالملائكة العالية (ع)، وعندما أمر سبحانه الملائكة(ع) بالسجود لآدم(ع) فإبليس كان حاضراً بينهم، ولكنه رفض السجود.

تتصورها مثل انضمام شخص عادي لفرقة قوات خاصّة، فأبدى كلّ الرغبة في أن يكون معهم، وشاركهم في لباسهم ومنامهم وطعامهم... وأمضى معهم مدّة طويلة حتى اعتبر نفسه واحداً منهم، وعندما جاء الضابط الذي يعلم أن هذا الشخص ليس من القوات الخاصة، وأمر كل الفرقة بالقفز في الماء، قفزوا، وبقي صاحبنا واقِفاً لوحده ولم ينفّذ الأمر. هنا ماذا تتوقّع من الضابط أن يقول له؟ من الطبيعي أن يقول له الضابط: إن كنت تعتبر نفسك من القوّات الخاصة فيجب أن تطيع كلامي، فلماذا لم تقفز؟ وبهذا المثال التقريبي نفهم أنه من الطبيعي أن يسأل سبحانه إبليس الذي كان يعتبر نفسه من الملأ الأعلى:

(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ{75})

{قَالَ}، ربنا سبحانه وتعالى: {يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ}؟ لماذا لم تعبّر عن احترامك لآدم(ع) مثلما فعلت الملائكة(ع)، {لِمَا}، للذي، {خَلَقْتُ}، ركّبت وألّفت، {بِيَدَيَّ}، للذي خلقته وبناء عليه أعلم سبب أمري بسجودكم له، ففيه ما يستدعي إعلانكم لفائق الاحترام له، {أَسْتَكْبَرْتَ}؟ هل أصابك التكبُّر؟ فهل رأيت نفسك أكبر من أن تطيعني؟ {أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ}، فترى نفسك أعلى من أوامري، فترى لنفسك الخيار في إطاعة أو معصية أوامري وكأن مستواك عالٍ ويسمح لك بذلك؟!

يمكن فهم هذه الأوصاف "استكبرت ومن العالين" أن السؤال يقارن بين إبليس وبين آدم(ع)، فهل رأيت نفسك يا إبليس أكبر وأعلى من آدم؟ ولكن عموم كلام القرآن عن هذه الحادثة يشير لعموم السؤال عن السبب إن كان تكبُّراً وتعالياً على أمره سبحانه فيكون الرفض عصياناً لأمره تعالى بغض النظر عن السبب، وهذا ما يعطيه الوصف الوارد في الآية 44 من سورة مريم "يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا"، وفي نفس الوقت يكون السؤال ناظراً للسبب وهذا ما تفهمه من الآية التالية، فهل رأيت يا إبليس نفسك أكبر وأعلى من آدم وبالتالي فهو من يجب أن يسجد لك؟

تذكّر دائماً أن السورة تركّز بكلامها مع وعن عموم الملأ من البشر وغيرهم، والملائكة العالية (ع) هم الملأ الأعلى، وقد سجدوا كما أمرهم تعالى، فهنا السؤال طبيعي لإبليس الذي ليس من الملائكة ولكنه كان هناك معهم حين صدر الأمر بالسجود لآدم(ع) منه تعالى، بالنظر لهذا فإبليس بشكل ما كان من الملأ الأعلى، فإن كان إبليس يعلن أنه مطيع لأوامره تعالى مثله مثل الملائكة(ع) التي لا تعصيه تعالى أبداً بتاتاً، فلماذا لم يستغل هذه الفرصة ويسجد ويبيّن لله تعالى أنه فعلاً مطيع لأوامره مهما كانت مثلما تطيع الملائكة(ع)!؟

كلمة "يد" بالوصفية تشير لعموم أي وسيلة أو قدرة لفعل شيء، فنقول: سمير له أيادي بيضاء عندي. ونقصد أنه بوسيلة خير قد ساعدني، ولا نقصد أبداً أن أعضاء يديه لونها أبيض، أو كما تقول الآية 10 من سورة الفتح "إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ..."، يعني معنوياً يده سبحانه التي تقبل مبايعتهم... ففي الآية هنا بوصفها خلقه سبحانه آدم(ع) بيديه، تقصد الوسائل المناسبة حتى يتألف آدم(ع) كما أمر سبحانه.

الآيات التي نقلت لنا قصة إبليس مع السجود وكلامه تعالى مع إبليس، توحي بأن إبليس كان يستطيع التواصل مع الله سبحانه وتعالى مباشرة، وهذا غير صحيح، وهذا من الأمور التي افترض فينا القرآن استخراجها من كونه سبحانه وتعالى بعيد كلّ البعد عن طبيعة مخلوقاته، وقد تحدّثنا عن ذلك في دراسة كلمة وحي في الآية 70 السابقة.

على كل حال فما أرادت الآيات إظهاره هو تواصل إبليس معه تعالى، ورغم ذلك فقد عصاه! وبعدها سترى أن كونه من الملأ الأعلى لم ينفعه...

بضبابية قد يقول أحد ما إنَّ إبليس كان يعلم أن مصيره العقاب فكيف عصى؟ على أساس أننا نحن لا نعلم أن السوء عليه عقاب، وأيضاً رغم ذلك نعصي! وقد نبّه القرآن في عدّة مناسبات على أن التواصل معه سبحانه عبر الوحي أو من وراء حجاب، لن يسبب الإيمان ولا زيادة الإيمان، وقد ضرب تعالى لنا حالة إبليس كمثل على ذلك مراراً في مختلف سور القرآن.

ننتبه أيضاً، فالآية جاءت على شكل سؤال، لأنه سبحانه يعطينا السبب الحقيقي لرفض إبليس السجود عبر السؤال الذي طرحه، أمّا إبليس فلديه وجهة نظر أخرى! بأنه ليس متكبراً ولا متعالياً على أوامره تعالى، بل معه حقّ بالرفض حيث يقول:

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ{76})
أجاب إبليس عن السؤال وقال:

{أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ}، أنا أفضل من هذا الإنسان، فعندي صفات ومميزات أعلى من آدم(ع)، {خَلَقْتَنِي}، ركّبتني ألّفتني، {مِنْ نَارٍ}، {وَخَلَقْتَهُ}، آدم(ع)، {مِنْ طِينٍ}، من خليط التراب بالماء.

لم يقل إبليس نعم تكبَّرت أو تعاليت، وأصلاً لم يعترف بأنه ارتكب أي خطأ! بل اعتبر أن ربنا عز وجل أخطأ!

ننتبه جيّداً لكل الآيات التي نقلت هذه الحادثة، فإبليس يريد أن يبرهن لله تعالى أنه كان معه حقّ حين لم يسجد! فمن ناحية تركيبة الجسد فنحن بنظره مركّبون من مادة أدنى قيمة من النار، ومعلوم أن قدرات الجنّ أعلى من قدراتنا ولديهم قدرات لا نملكها وهذا ناتج عن خلقتهم من نار.

تصور نفسك من الجنّ بقدرات عالية جداً جداً عن البشر، أو تصوّر نفسك من الملائكة(ع) ذات القدرات الأعلى بكثير من قدرات الجنّ، وقد قضيت السنين الطويلة في التسبيح والحمد تاركاً الشهوات والملذات والتسلية... وتصور أمراً إلهياً لك بالسجود لذبابة كتعبير منك عن احترامها بأنها أفضل منك! هذا تقريباً ما تصوّره إبليس، القوي المخلوق من النار، ذو القدرات العالية، الذي ترك كلّ شيء وتفرّغ لعبادة الله تعالى، حتى لم يجد مجتمعاً يناسبه في عبادته العالية إلا مجتمع الملائكة العالية! فهل بعد كل هذا يسجد لمخلوق من طين!

ضع في بالك أن التعبير القرآني عن خلقتنا من طين يقصد خلقتنا من هذه المواد المنتشرة في عالمنا، من كربون وحديد وكالسيوم... فهذا ما تركّبنا منه وصار لحماً ودماً وعظاماً ودماغاً... فعلينا أن ننتبه لنفس الشيء حين نقرأ تعبيراً بخلق الجنّ من نار، فلا نتصوّره على بساطة بتشبيه كيان الجنّ بالنار التي نتعامل معها من الاشتعال.

وشيء آخر، فنحن في نظر الكائنات المخلوقة من غير المادة التي نتألّف منها، المخلوقون من غير الماء والتراب، فهم يروننا طيناً متحركاً، فلا يرون فرقاً في تكويننا عن الحائط والكرسي والأرض والثياب... فكل ما في عالمنا "كوننا سماؤنا" فهو مؤلّف من نفس المواد، وكلّهم بالنسبة للملائكة (ع) والجنّ أشياء مركبة من تراب وماء "طين". ومن هذه النظرة نتقدّم قليلاً في فهم تكبّر إبليس علينا، حيث يرانا كائنات من مستوى منخفض جداً، بلا فرق بيننا وبين الحجارة والتراب والصخور... سوى أننا نتحرك ونفكّر... فما تراه أنت من لحم ودمّ... تراه الملائكة(ع) والجنّ تماثيل طينية.

ضع هذا في بالك وسيسهل عليك فهم تعبيره تعالى حين قال للملائكة أنه خالق بشراً من طين، قديماً قفز على ذهن المنتمين لدينه تعالى من هذا التعبير أنه تعالى صنع تمثالاً من الطين ونفخ فيه فتحوّل للحم ودم وعظم... بينما أنت وأنا في حالتنا الآن ونحن أحياء، فنحن من طين، وهكذا يرانا تعالى والملائكة والجنّ، ككتلة متحركة من الطين.

(قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ{77})
قَالَ اللَّهُ تعالى لإبليس: {فَاخْرُجْ مِنْهَا}، بِنَاءً على تبريرك غير المقبول أُخْرُجْ من السماء العالية للملائكة(ع)، وَاخْرُجْ من هذه الطبقة التي هي فقط للمقربين منه تعالى، {فَإِنَّكَ رَجِيمٌ}، سَيَتِمُّ رمي أشياء عليك من بعيد، ومعلوم من القرآن أنه صار مَرْمِيّاً "بالشهب"، وَسَتَطْرُدُهُ الملائكة(ع) من هذه السماء برجمه، برميه بالشهب، وإذا حاول الرجوع أو الاقتراب فَأَيْضاً سترجمه الملائكة(ع) وَتَرْمِي عَلَيْهِ ما يؤذيه وَتَمْنَعُهُ نِهَائِيّاً من العودة إلى هذه السماء العالية، وتفهم ذلك من فحوى كلام القرآن عن رمي شياطين الجنّ بالشهب كلما حاولوا الاقتراب من سماء الملائكة كما ورد في الآية 18 من سورة الحجر {إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ}.

يبدو مِنْ عموم كلام القرآن أنه منذ بداية تشكّل السماوات لِلْمَلَائِكَةِ سماء "أو سماوات" خاصة بها وممنوع على الجنّ الاقتراب منها، وهذا ما تفهمه من تواجد الجنّي إبليس فقط هناك بين الملائكة، وبالتحليل المدعوم بالروايات ترى أنه بسبب ما أبداه إبليس من تقوى وعبادة سَمَحُوا له بالنفوذ إلى سماء عالية، وبقية الجنّ كانوا وَمَا يَزَالُونَ ممنوعين من الدخول إليها عبر رمي الملائكة الحارسة لهم بالشهب.

هنا الكلام في الآية لا يبدو حالة خاصة لإبليس بالرجم، بل هو إرجاعه إلى حيث كان وحيث بقية أبناء جنسه من الجنّ المرجومين إن اقتربوا من سماء الملائكة.

تَذَكَّرْ دَائِماً وجود سبع سماوات ولكن من القرآن ليس مَعْلُوماً من أي سماء تبدأ الملائكة بمنع الجنّ من نفوذها، وَرُبَّمَا السماء السابعة فقط للملائكة، وربما السادسة والسابعة، وربما...

(وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ{78})
{وَإِنَّ عَلَيْكَ}، يا إبليس، {لَعْنَتِي}، الطرد والابتعاد عن رحمتي، خَرَجْتَ منها بمعصيتك، لَنْ أخصصك بأي نوع من الرحمة التي أتعامل بها مع المؤمنين، وذلك من الآن، {إِلَى يَوْمِ الدِّينِ}، إِلَى الزمن الذي أدين فيه المخلوقات المكلّفة بالتبعات التي عليهم حيث أحاسب الجنّ والإنس.

نلاحظ من القرآن أن كلّ المخلوقات بالأساس مشمولة بالرحمة الْإِلَهِيَّةِ، خَلَقَهَا تعالى ومنحها كيانها وبيئتها المناسبة... وعلى هذا الأساس سُبْحَانَهُ الرَّحْمَنُ للجميع إلى أن تقرّر الكائنات الخروج من تحت مظلّة الرحمة الْإِلَهِيَّةِ، وذلك بكفرهم وفعلهم للسوء، وهكذا سيختلف تعامله سبحانه معهم، فَلِلْمُؤْمِنِينَ العاملين للصالحات معاملة خاصة، منها المغفرة... والدعم الإلهي للتدخل في مجريات حياتهم بما يناسب ويدعم إيمانهم... وَصَاغَ سبحانه لنفسه صفة الرحيم كوصف خاص لهذه الحالة، فالبقية خارجون من تحتها، وهناك درجات للخروج من تحت مظلة الرحمة الإلهية ومن كان منهم سيّئا جدا يَصِلُ إلى درجة اللعنة، حيث كل ما يجري معه سيكون سببا لشدّة تعذيبه في الآخرة.

كَمَا ترى، هَذِهِ نهاية واحد كان من الملأ الأعلى، وَذَكَرَتْهُ السورة بالخصوص كإنذار لملأ الكافرين من البشر الذين يرون لأنفسهم قيمة ووجاهة... لتريهم أن أي كائن سيصير بلا قيمة إذا عصاه تعالى.

(قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{79})
{قَالَ} إبليس: {رَبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {فَأَنْظِرْنِي}، أَخِّرْنِي أَمْهِلْنِي وَاتْرُكْنِي حيا، {إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}، إلى الزمن الذي تقيمهم فيه من الموت، إلى يوم القيامة من الموت.

سترى بعد قليل أن إبليس طلب أن يبقى حيا إلى يوم القيامة حتى يتمكّن من غواية كل البشر من دون استثناء، فلو مات قبلهم فسيعيش بعض البشر بدون أن يغويهم.

(قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ{80})
{قَالَ} اللَّهُ سبحانه لإبليس: {فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ}، من الذين سيتأخر موتهم، ولكن ليس حتى يوم البعث بل:

(إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ{81})
سَتَبْقَى حيا إلى حين يأتي زمن معلوم محدّد لموتك، لِأَنَّ هُنَاكَ وَقْتاً مَعْلُوماً لموتك، وحين يأتي اليوم الذي فيه وقت موتك فستموت.

ننتبه، مِنَ الآية التالية نعلم أن إبليس يريد أن يبقى حيا إلى أن يموت كلّ الناس، لأنه يريد غوايتهم كلهم بدون استثناء، ومن القرآن نفهم أنه لا معنى لبقاء إبليس حيا إلى يوم القيامة حتى يغوي كل الناس، لأننا قبل يوم القيامة نموت كلّنا نحن والجنّ وذلك حين تبدأ مرحلة تبدّل السماوات والأرض، وبعدها يعيد سبحانه خلقنا ليحاسبنا، فلا داعي لبقاء إبليس حيا في فترة تبدّل السماوات والأرض وهي فترة طويلة لا يوجد فيها أناس أحياء ليغويهم، وَالْآيَتَانِ هنا تؤكدان أن إبليس حَصَلَ على فترة انتظار طويلة قبل موته، ولكنها لن تمتد حتى يوم القيامة.

يعني يحتمل الكلام أن إبليس سيبقى حيا مرافقا للبشرية حتى آخر واحد فيهم، وَيَمُوتُ حين يَمُوتُونَ كلّهم قبل تبدّل السماوات والأرض الذي بعده سيحدث تشكّلها من جديد بشكل مغاير عن حالتها الحالية، وبعده قيامنا من الموت. ويحتمل أن إبليس سيموت قبل ذلك، ولكن من الآية التالية ومن عموم كلام القرآن نميل إلى أنه باق معنا في الدنيا حتى آخر واحد منّا.

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{82})
{قَالَ} إبليس: {فَبِعِزَّتِكَ}، أقسم بما أؤمن به من أنك فوق الجميع، من نفي الذلّة عنك بأي شكل كان، وَلَا أحد ولا شيء يؤثّر عليك، {لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}، كُلُّ البشر بدون استثناء سأجعلهم يعتقدون بالأمور الفاسدة العاطلة أنها جيدة.

سَأَجْعَلُهُمْ كلّهم يرون الشرك بك حقّا، وتكذيب محاسبتك وعقابك حقّا، ومعصيتك حقّا... وَكُلَّ الأمور الفاسدة سأجعلهم يرونها صحيحة.

كما ترى إِبْلِيسُ يعتبر نفسه لم يخرج عن إيمانه وأدبه معه سبحانه، وَهُوَ يقول له سبحانه: إِنَّكَ يا رب لا تضرك معصيتي هذه، ولا غوايتي لبني آدم، ولذلك سأبرهن لك أنهم ليسوا أفضل منّي، ولا يستحقون المكانة العالية التي وضعتهم سبحانك فيها.

مَعْلُومٌ لك أن الشيطان إبليس ليس المسؤول الوحيد عن ضلالنا، بل هو فقط يوسوس لنا، ونحن لوحدنا وبدونه لدينا رغبات وشهوات تغلب علينا لنفعل السوء لإشباعها، وَنُوَسْوِسُ لأنفسنا إن جاز التعبير، قَبْلَ قرار إبليس بإضلالنا كان البشر يفسدون ويسفكون الدماء كما هو واضح من الآية 30 من سورة البقرة "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا "خليفة لك" مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ..."، وَنَسْأَلُ عمّن وسوس لإبليس؟

بالمختصر إِبْلِيسُ وبقية الجنّ مثلنا مثلهم كِلَانَا لدينا قابلية تمييز الخير من الشرّ وَمَمْنُوحُونَ حرية الإرادة والاختيار منهما، وَهَذِهِ حالة كل واحد فينا لوحده، وبعدها يأتي الِاتِّصَافُ بالشيطنة، أَنْتَ تغويني أو أنا أغويك مشجعا لك على السوء، وَأَقُولُ لك أو أفعل أمامك أو أوحي لك أو أوسوس لك... وَأَصِيرُ موصوفا بالشيطنة.

مُضَافاً لحالتنا نحن البشر مع بعضنا بالشيطنة، هُنَاكَ الجنّ مع قدرتهم فقط وفقط على الوسوسة في صدورنا، وهم مثلنا أيضا يُضِلُّونَ بعضهم البعض، وهم مثلنا مشغولون بحياتهم العادية ويعلمون أن الوسوسة للبشر عمل سوء وعليه عقاب إلهي، ولكن بعضهم يفعلونه، وإبليس من الجنّ، وَقَرَّرَ التفرّغ لإضلالنا عبر الوسوسة لنا وجعل ذلك هدفا لحياته متفننا في الأساليب، وقراره هذا من يباسة رأسه ليبرهن له تعالى أنه كان معه حقّ برفض السجود لآدم(ع) لأن البشر لا يستحقون ذلك...

مَعْلُومٌ لك بشكل واضح جدا من القرآن أن إبليس لا سلطة له علينا إلا حين نحن نقرر اتباعه، وبعضنا يصير كالعبد له، وَيُطِيعُهُ في كل ما يوسوس له، وكمثال قرآني صريح وواضح عن ذلك ما ورد في الآية 42 من سورة الحجر "إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ".

(إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{83})
{إِلَّا عِبَادَكَ}، إلّا الذين مفروض منهم طاعتك، {مِنْهُمُ}، من البشر، {الْمُخْلَصِينَ}، الَّذِينَ هم خَالِصُونَ في عقيدتهم وعملهم لك، وَهَؤُلَاءِ لن يكفروا، وَهَؤُلَاءِ سأحاول معهم ولكن لن أنجح في جعلهم مغويين.

الحديث هنا مختصر، مِنْ آيات أخرى من القرآن نجد إبليس تَوَعَّدَ بالغواية لكل العباد، لكل البشر، وَاحْمِلْ معنى كلمة عباد على معناها الأصلي حَيْثُ كُلُّنَا عباد له تعالى، المؤمن والكافر عبيد له تعالى وَالْكُلُّ مفروض منهم طاعته سبحانه، ولكن الله تعالى ردّ عليه وأخبره بأنه لن يسمح له بالسيطرة على العباد المؤمنين من الدرجة العالية، وسيسمح له بالسيطرة على البشر الذين هم قرّروا أن يسلّموا رقابهم لإبليس كما ورد في الآية 42 من سورة الحجر "إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ". هُنَا يكمل إبليس كلامه على أساس أنه إن وجد عبادا مخلصين له تعالى، وعلى ما يبدو هُنَاكَ احتمال لذلك بسبب أسماء المخلصين التي تلاها آدم(ع) كما ورد في الآية 31 من سورة البقرة "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"، وَهِيَ أسماء للعباد المخلصين من ذرية آدم(ع) ولن يستطيع إبليس غوايتهم.

لَا يوجد شيء اسمه هذا عبد مخلص فلا تقترب منه يا إبليس، لا، بل سيغوي إبليس الجميع، ولكن هناك أناس لن ينخدعوا ولن يغتروا، وَلَنْ يغيروا نظرتهم للأمور الصحيحة، وَهَؤُلَاءِ لن ينغووا.

سُبْحَانَهُ يعلم سلفا وبالتفصيل ماذا سيجري مع كل واحد منّا، وَيَعْلَمُ بأن غالبية البشر "أكثر الناس" لن تؤمن كما يجب، وَأَخْبَرَنَا عن ذلك مِرَاراً في القرآن وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 103 من سورة يوسف "وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ"، وإبليس من ناحية ثانية يعلم بأنه تعالى سيمتحن البشر "والجنّ" قبل يوم القيامة وبعدها سيحاسبهم ويجازي من عصاه ومن أطاعه، وإبليس يرى البشر "مخلوقات الطين" ضعفاء جدا، وسيسقطون كلّهم إن وسوس لهم، وَيُرِيدُ البرهنة له تعالى أنهم لا يستحقون سجوده لهم... مِنَ القرآن نعلم أنه سبحانه وتعالى من الأساس كان يعلم بأن إبليس سيسقط في امتحان السجود للبشر، وسيطلب الإذن بغوايتهم، وَغَوَايَةُ إبليس لنا كانت من ضمن المخطط الإلهي لامتحاننا، وَلَمْ يتفاجأ سبحانه بمعصية إبليس، ولم يخرّب إبليس المخطط الإلهي... لا، وَكُلُّ ما جرى كان بعلم مسبق منه تعالى، وترى ذلك في الآيات 20 و 21 من سورة سبأ "وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (20) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (21)".

إِبْلِيسُ يوسوس لكل الناس، ولا يميّز بينهم، وَكُلُّهُمْ أعداؤه، وَيَعْمَلُ على غواية الجميع، ولا يتوقّف عن غواية الأنبياء والرسل وبقية الناس حتى يموتوا، وَمِنَ الخطأ أن تفهم من الآيات بأن إبليس تزوّد بلائحة أسماء العباد المخلصين، وسيبتعد عنهم، لا، بل أخبر تعالى إبليس والملائكة أن بين البشر مخلصين كمؤمنين من الدرجة العالية وهم الذين علّم تعالى أسماءهم لآدم(ع) وتلاها آدم(ع) على الملائكة وإبليس كما ورد في الآية 31 من سورة البقرة "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"، وهؤلاء هم سبب الأمر للملائكة وإبليس بالسجود لآدم(ع) وهؤلاء ليس لإبليس عليهم سلطان، وجواب إبليس يتضمن معنى: فَلْنَرَ إن كان سيصمد لك عباد مخلصون من بين البشر.

فِي الآية 45 من هذه السورة توسّعنا في معنى كلمة عبد.

(قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ{84})
قَالَ تعالى: {فَالْحَقُّ}، الصَّوَابُ الصحيح، {وَالْحَقَّ أَقُولُ}، سُبْحَانَهُ لا يقول إلا الصواب، وَالْكَلَامُ التالي سيحصل حتما هو ما يلي:

(لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ{85})
{لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ}، سَوْفَ أجعل المكان الموصوف بشدّة سوء ما فيه يمتلئ، {مِنْكَ}، يا إبليس، {وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ}، من الذين كانوا على خطاك من بني آدم، {أَجْمَعِينَ}، بدون استثناء، مَهْمَا كان العدد كبيرا فلا يهم، ومهما كان اسم الشخص أو صفته... سَوْفَ أرمي كل من عصاني في جهنم.

إِبْلِيسُ يراهن على العدد الكبير الذي سيعصيه تعالى من بني آدم(ع) أنه سيكون كفيلا ليبرهن له تعالى أنه أفضل من آدم(ع) وبنيه، وأنه كان معه حقّ ولذلك لم يسجد لآدم(ع)!

الآن وبعد انتهاء فقرة المشكلة مع إبليس، نتذكّر افتتاحية السورة ومحتواها، هَذَا إبليس كان من الملأ الأعلى، من الوجهاء في السماء العالية، يَا من ترون أنفسكم وجهاء هنا في الدنيا في قومكم، وَجَاهَتُكُمُ التي تمنعكم من الإيمان ما هي إلا نسخة مصغرة عن وجاهة إبليس الذي يغويكم لتكونوا مثله من العصاة لله تعالى... والتي لم تنفعه بل جعلته من أكبر الساقطين إيمانيا، ومصيره إلى جهنّم هو وأمثالكم.

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ{86})
{قُلْ}، أيها النبي محمّد(ع) لكل الناس عبر هذا القرآن، وبالخصوص للكافرين، وبشكل أخص لوجهاء الكفار:

{مَا أَسْأَلُكُمْ}، أنا لا أعبّر لكم عن إرادتي للحصول، {عَلَيْهِ}، على قيامي بتبليغ رسالته سبحانه لكم، {مِنْ أَجْرٍ}، من مقابل أستحقّه كبدل عن أتعابي، وَلَسْتُ أطلب منكم لقاء تبليغي كلام الله سبحانه أن تعطوني من أموالكم وأملاككم... وَبِشَكْلٍ واضح ليس لي أي مصلحة شخصية في ما أقوله لكم.

يَقُولُ (ع) بأنه رسول، مما يعني أن على الناس الإيمان به وإطاعة كلامه المنقول عنه تعالى... وهذا بشكل ما منصب رئاسي على الناس، وجاهة، ليصير الرسول من الملأ، وهذا لم ينفه القرآن عن الرسول لأنه أمر واقع، وَالْمَعْنَى العملي من إيمانهم بما يقول(ع) أن يطيعوه، وما ينفيه القرآن عنه(ع) أنه لا مصلحة شخصية خاصة له من تبليغ الرسالة، وَلَمْ يطلب من الناس مالا أو أملاكا لنفسه.

{وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ}، لَسْتُ أتلبّس الرسالة أو أتصنّعها، وَلَسْتُ أَتَنَطَّحُ لشيء لست مختارا له منه تعالى، لِأَنَّنِي فعلا رسول منه تعالى. طبعا كل ما سبق من كلام في هذه السورة وفي عموم القرآن يدلّ على أنه (ع) فعلا رسول إلهي، وهنا الجملة نتيجة لتلك الأدلة.

المعنى الذي ذكرناه للتكلّف موجود في أشعار العرب قبل الاسلام، علما أنها مذكورة مرّة واحدة في القرآن في آيتنا هنا فقط.

خذ مثلا ما نراه من أفعال الوجهاء من حولنا، من سياسيين وزعماء... يفرضون على أتباعهم أن تكون حياتهم متميزة عن بقية الناس، وَيَخْتَارُونَ الأراضي الجميلة الهادئة الكبيرة... لبناء بيوت فخمة... ولديهم خدم وحرّاس وأناس يقومون بشؤونهم الخاصة... ويأكلون موارد الدولة بمعاشات عالية ومخصصات، والتزامات ومشاريع بأرقام خيالية... وهذه هي الوجاهة التي يرونها طبيعية لأنهم يحملون مسؤوليات كبيرة... وهذه هي الوجاهة التي نفاها القرآن عن الرسول(ع)، وَكَانَ وجهاء الكفّار يرونه يدّعي شيئا كبيرا جدا، لِأَنَّهُ يدّعي حمله لرسالة من الإله سبحانه، وهذه يرونها سببا لوجاهة من النوع الثقيل جدا.

لِنَقُلْ أن أحدهم يرى نفسه وجيها مهمّا جدا عند الناس لأنه المسؤول عن علاقاتهم التجارية، والآخر يرى نفسه مهمّا جدا لأنه مسؤول عن العلاقات الدبلوماسية مع الآخرين وبسببه لا تحصل الحروب، وإن حصلت نزاعات فهو كفيل بحلّها مع الآخرين بطرق سلمية... وآخر وجيه لأنه عسكري يَمْلِكُ قوة الهجوم وردع الأعداء... كما ترى هَذِهِ الوجاهات لا تصمد أمام وجاهة: حامل رسالة من "الإله" سبحانه وتعالى وَكَلَامُهُ فوق كلام الجميع. وهكذا الكفّار يرون محمدا(ع)، ولهذا رفضوه، كما رفض إبليس اعتبار آدم(ع) وذريته المؤمنين أعلى منه وجاهة...

لهذه الأسباب وغيرها نرى آيات صريحة تخبرهم بأنه (ع) وجيه من القياس الإيماني بعقيدته الحقّ وعمله الصالح، ولم يطلب ولن يطلب منهم أجرا أو أي شيء آخر كمصالح شخصية دنيوية سيستفيدها من وجاهته كرسول إلهي، ومن الواضح من كلامه الحقّ الصالح... واستنادا على الامتداد التاريخي لنفس هذا الدين من آلاف السنين... ومن قرآنه المبين بكونه حقّ... أنه فعلا رسول وليس يخترع ذلك، وَمُشْكِلَتُكُمْ أيها الملأ الكفّار معه (ع) من الواضح أنها من طرفكم وليس في الرسول أي عيب حتى ترفضوا وجاهته كرسول إلهي، والتي ترونها تهديدا لوجاهتكم حيث تصيرون أقل قيمة من الرسول ومضطرين للخضوع له... وهي نفس حالة إبليس التي ترى بكل وضوح أنه ليس وجيها إيمانيا حقيقيا بل كان يدّعي ذلك وبالدليل الواضح ومن فمه ذكر ما يؤكّد أنه عاص له تعالى ومخالف لأوامره ومعترض على قراراته سبحانه... بل ويريد أن يبرهن له تعالى رفضه السجود لأنه معه حقّ في ذلك...!

نكرر ما قلناه بعبارات أخرى لأن عموم كتب التفاسير لم تدخل في هذه الصورة التي تعرضها السورة هنا: إِبْلِيسُ وكما رأينا، لم يكن إيمانه صادقا، وَلَمْ يكن من الدرجة العالية من المؤمنين حقّا، بل تكلّف ومثّل وأقحم نفسه مع الملأ الأعلى معتبرا نفسه مهمّا... وسقط... والكثير بل الأغلب من ملأ الناس لا يستحقون مناصبهم، حَيْثُ هُنَاكَ من هو أفهم منهم، وأعلم وأحكم... منهم، ولكنهم متكلفون، يدّعون أنهم الأجدر، وَأَثْبَتَ التاريخ أن الرسول محمّد(ع) استطاع وبمدة زمنية قصيرة جدا، وفي ظروف غاية في الصعوبة، استطاع تشكيل نواة دولة حقّ، سرعان ما توسّعت من بعده... بالرغم من معاداة ومعاندة ومعارضة ومحاولة الملأ في عصره لتفشيله، وهذا يريك صفاته القيادية العالية (ع)، أمّا من الناحية الثانية والأهم، فَبَعْدَ سنين قليلة من وفاته (ع)، ومن جهوده(ع) وممّا أسّسه هو (ع)، اختفى دين الشرك نهائيا من جزيرة العرب في سنين قليلة، وهذا إنجاز باهر لم يسبقه إليه (ع) أحد من الأنبياء.

من خارج الكلام نزيد شيئا، تَصَوَّرْ لو أن هؤلاء الملأ من الكفّار تماشوا مع الحقّ والصلاح الذي يعرضه عليهم الرسول(ع)، وَلَمْ يعارضوه، مَاذَا ستتصوّر كان سيحقّق النبي محمّد(ع)؟ وتصوّر لو أنهم دعموه، ولكن للأسف فِي كل زمان ومكان تجد ملأ متكلفين مدّعين للفهم ومدّعين للحقّ ومدّعين أنهم يعملون لمصلحة الناس، والنتيجة مجتمعات

ودول فاسدة تعاني الويلات من الفساد في الأخلاق الفردية والعائلة والمجتمع، وتعاني الحروب والفقر والأمراض، وتعاني من فقدان أساسيات البنى التحتية للمدنية...

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{87})
{إِنْ هُوَ}، ما أنقله لكم، {إِلَّا}، فقط، {ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ}، شيء ليستحضره كل الناس في عقولهم ومشاعرهم وعملهم.

من الواضح أنه كلام عن الدين، عن العقيدة والشريعة والسلوكيات، لتستحضروه في فكركم ومشاعركم، وَتُؤْمِنُوا به وتلتزموا به.

ما أقوله لكم لا يسبب لي وجاهة بالمعنى الذي تَفْهَمُونَهُ، وأنا مجرّد ناقل للرسالة، ولا يحقّ لي أن أطلب منكم أي شيء شخصي لي، وَوَاقِعُ الحال الذي يجعلني وجيها من الملأ لكوني رسولا إلهيا، مُخْتَلِفٌ عن وجاهتكم لأني لن أكون وجيها يستفيد من ذلك لمصالحه الشخصية، وبتعابيرنا الحالية، هُوَ (ع) بوظيفة رسول إلهي، وليس بمنصب لمجرد الوجاهة، وَانْظُرُوا لما يقوله لكم كما هو، لِأَنَّهُ ذكر لكل الناس حتى يؤمنوا، لا أكثر ولا أقل.

(وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ{88})
{وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ}، خبر هذا الذكر الذي نقلته لكم وهو غير منتشر بينكم، وها أنشره عليكم، سَوْفَ تعلمونه، {بَعْدَ حِينٍ}، الْآنَ أنتم لا ترون من عرضي للرسالة عليكم إلا طمعي بالرئاسة والوجاهة، وَتَخَافُونَ على فقدانكم لوجاهتكم وأني سأصير أعلى منكم، كما حصل مع إبليس وآدم(ع)، ولا ترون سخافة وفساد عقيدتكم وشريعتكم... ولا ترون أن صفة الرسول وظيفة وليست منصب وجاهة، وها أنبهكم من الحساب والعقاب... وبعد حين بَعْدَ موتكم وَرُجُوعِكُمْ إلى الحياة في الآخرة لتتحاسبوا وتتجازوا، سَتَعْلَمُونَ خبر الذكر، وَسَتَرَوْنَ أمامكم العقاب الذي أخبركم به الآن.

نتذكّر الآية 67 وما يليها من هذه السورة حين نبّهتهم من النبأ العظيم الذي هم عنه معرضون، وبذلك نفهم هنا بسهولة الكلام عن النبأ الذي سيعلمونه بعد حين.

سورة الزمر (39) ص 458
تركيزها على أصل إِخْلَاصِ الدين على معنى تبعات كوننا عَبِيدَهُ تعالى ولا إله غيره، فلم تدخل في تفاصيل أنواع الشرك به تعالى، من عُبَّادِ أصنام أو جنّ أو أجداد... وخلال آياتها تردّ حصرا وفقط على نوع محدّد من الشرك: الْمُعْتَقِدِينَ بالله تعالى ولكنهم ليسوا مخلصين له الدين.

تُلَاحِظُ في الآية 49 تعليق السورة على من اعتقد بحصوله على رزقه بعلمه منفصلا عن تقديره تعالى لِلرِّزْقِ، وَشَمَلَتْ هذه الحالة مع حالات الخلل في إخلاص الدين لله تعالى، ولم تعتبرها مبنية على الشرك بشكل صريح ولكن اعتبرتها مَبْنِيَّةَ سُوءٍ في إِخْلَاصِ الدين وَتَسَاوَتْ مع الشرك بوجه ما.

لَا ترى السورة تلفت الانتباه للاختراعات الوهمية بلا أساس للآلهة المتعددة، ولا لانتفاء الامتداد التاريخي لتلك الآلهة، ولا لمسألة وراثة المشركين دينهم من آبائهم... بل تضرب أساسيات عقيدة الشرك، أَيُّ مشرك من أي نوع كان، طَالَمَا بشكل ما يعتقد بالله تعالى ربّا إلها، بهذا الاسم "الله" المحدّد المميّز له سبحانه، أو اخترع لنفس المكانة الإلهية اسْماً آخر... فهذه السورة تصحّح له عقيدته.

افْتِتَاحِيَّةُ السورة وبعدها فِي الْمَتْنِ تجد مرتين تَنْبِيهاً على القرآن ككتاب نازل من الإله سبحانه وفيه الكلام الصحيح عن الدين وعن العاقبة في الآخرة لمن آمن ولمن كفر، وفيها أُسْلُوبُ "القول" عن الرسول محمّد(ع) على اعتباره شَخْصاً مُكَلَّفاً مثله مثل بقية الناس، وهو في نفس الوقت ناقل للرسالة...

رَأَيْنَا أن سورة الرعد والجاثية والواقعة كَلَامَهَا مناسب توجيهه للذين نصطلح عليهم بالملحدين أي المنكرين للإله من أصله، وسورتنا هنا مناسبة لكل من يعتقد بإله ولكن لا يوحده، فمهما كانت عقيدته أو دينه، مُسْلِمٍ أَوْ يَهُودِيٍّ أَوْ مَسِيحِيٍّ

ولديه خلل في عقيدته، أو سِيخِيٍّ أَوْ بُوذِيٍّ أَوْ أَرْوَاحِيٍّ... فكلام هذه السورة مناسب له لتريه أن الله تعالى الإله الواحد الأحد.

فِيهَا بشكل ملفت أُسْلُوبُ قطع الكلام والقفز بالجمل، وَالْعَطْفُ المعنوي يربط جملها ولكن كَلَامِيّاً مَقْطُوعٌ، حَيْثُ أَغْفَلَتْ وسائل العطف اللغوية "كأحرف العطف وأسماء الوصل وحروف التراتب والتراخي والتحقيق..." وسترى الجمل المقطوعة معطوفة بالمعنى على ما حولها من كلام.

تَكَرَّرَتْ فيها بشكل ملفت مشتقات كلمة عبد.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ{1})
{تَنْزِيلُ الْكِتَابِ}، هذا الكتاب "القرآن" الذي استمر نزوله سوراً على دفعات لمدة تزيد عن العشرين سنة، نزل من العالي إلى الأخفض منه، معنويّاً منه تعالى إلى رسوله (ع)، وماديّاً من كتاب في السماء العالية إلى الأرض، من {اللَّهِ}، من صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {الْعَزِيزِ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... {الْحَكِيمِ}، وكلمة حكمة ومشتقاتها تشير لعموم ضبط الشيء على المطلوب: على الصوابية على الحقّ... وعلى نفس المعنى الأساسي نقول: أحكم الوثاق، حكم بالعدل، حكومة على الناس... وتفسير الحكمة بالأهداف والغايات السامية هو من تبعات تطبيق صوابية الحقّ، ووصفه تعالى بالحكيم يشير لصوابية نظرته في الأمور وأنَّ قراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب وقراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول إنَّ أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فلا يفعل لغاية له سبحانه.

هاتان الصفتان تعطيان معنى: {الْعَزِيزِ} بالقوّة والصفات الفائقة التي تجعل الجميع تحته تعالى، ورغم ذلك سبحانه {حَكِيمٌ} ويتصرّف معهم بالصوابية، وبمقارنة هذا مع سلوك ملك من البشر نفوذه وسلطته قوية تجعله لا يرى نفسه مُضْطَرّاً للتفكير مرتين قبل إصدار أوامره، لأنه لا يرى أي ضرر على نفسه من أي شيء يفعله، ويستهتر ويعبث... نفهم تقدير تعامله تعالى باحترام معنا ونحن المخلوقات الضعيفة جدّاً جدّاً أمامه، ومضافاً لذلك بصراحة تجد في كلام المشركين بعض أوصاف الذلّة والعبثية لآلهتهم، وحتى المنتمين لدينه تعالى إنَّ الكثيرين منهم على المستوى العملي يظنون به تعالى ظنّ السوء خاصّة عند المصائب التي يريدون منه تعالى التدخّل فيها لتحقيق ما يريدونه، وإن لم تتغيّر الأحوال السيئة اعتبروه تعالى ضعيفاً أو مُهْمَلاً أو مُتَجَاهِلاً...

ستلاحظ أنَّ السورة تتحدّث عن لسان الرسول محمّد (ع) كشخص عادي مثله مثل غيره من الناس لتأمره أن يعلن إخلاصه للإله الأحد، واعتماداً على هذا الكتاب الذي ينزل من الإله الأحد، كمستند موجّه للجميع ليصحّحوا دينهم بناءً عليه.

بالنسبة لما تجده في بعض الكتب عن الفرق بين كلمتي {نَزَلَ} و{تَنْزِيل}، فكلاهما وصف لعموم الانتقال من علو "ماديّاً أو معنويّاً" إلى مكان منخفض ماديّاً أو معنويّاً. فمعنويّاً نقول: نزلت رتبته العسكرية. وكلتا الكلمتين {نَزَلَ} و{تَنْزِيل} تتحملان معنى النزول دفعة واحدة أو على دفعات، ويتحدّد ذلك مما تتكلّم عنه، وتتحملان النظر للفاعل وحده، أو للمفعول وحده، أو للحالة. فلا فرق بالمعنى بين الأصل {نَزَلَ} وبين الاشتقاق {تَنَزَّلَ}، و{تَنْزِيل}، و{نُزُول}...، خصوصاً فيما يقولونه عن الفرق بينهما في نزول القرآن دفعة واحدة أو بالتدريج على دفعات.

ما تجده هنا وهناك في ثقافتنا عن نزول القرآن كلّه من السماء السابعة إلى السماء الرابعة... ومن الرابعة جرى تنزيل القرآن ونزل على دفعات على الرسول (ص)، وبهذا التفصيل "وأشباهه" يقصدون تفسير كلمتي {نَزَلَ} و{تَنْزِيل} بتوصيف مختلف للفعل، وهذا تفصيل لا ضرورة له وأصلاً لا دليل قرآنيّ عليه، ويمكن فهم نزول القرآن تدريجيّاً على دفعات وفهم نزوله كلّه كوجهين لعملة واحدة، حيث إنَّ بعضه نزل {تَنَزَّلَ} في ليلة القدر، ثم نزل {تَنَزَّلَ} بعضه في

زمن بعدها... وبالنظر للقرآن كلّه فجرى تنزيله "{نُزُولُهُ}" على دفعات استمرت لقرابة العشرين سنة حتى وفاة الرسول (ص).

يبدو أن الفهم الضبابي لكلمة {قُرْآن} و{كِتَاب} دفع بالكثيرين للبحث عن فرق بين التنزيل والإنزال بالمعاني التي ذكروها، حيث فهموا أن كلمة {قُرْآن} تشير لكل ما بين الدفتين، لكل القرآن من أوله لآخره، وفهموا كلمة {كِتَاب} كذلك أنها تشير لكل القرآن من أوّله لآخره، وبناءً عليه أرادوا تبرير الآيات التي تذكر نزول "كتاب القرآن" على أساس أنها تشير لنزول كتاب القرآن كلّه من أوّله لآخره دفعة واحدة، ومن المعلوم أنه كلّه لم يكن نازلاً على الرسول (ص) حين جاءت الآيات التي تقول إنَّ القرآن نزل...

بناءً على فهمهم هذا، بدأت تبزغ الآراء المختلفة لتبرير الموضوع، فقال بعضهم إنَّه كلّه من أوّل مرّة نزل على الرسول (ع)... وبعدها عاد ونزل عليه (ع) على دفعات. وآخرون قالوا: لم ينزل أوَّلاً كلّه على الرسول (ع) وإنما نزل كلّه من السماء السابعة إلى الرابعة، ومن هناك صار ينزل على دفعات على الرسول (ع)... وغيرها من التبريرات التي لا داعي لها، فالآية الواحدة قرآن، والسورة قرآن، والسورتان قرآن... وكلمة {قُرْآن} وصف إمكانية قراءتنا لما نزل منه تعالى، فأي تعبير يشير لنزول أو تنزيل {الْقُرْآن} فهو لا يعني أكثر من نزول شيء يمكن قراءته، فلا داعي لنفهم أن التعبير يشير إلى نزول كلّ القرآن.

كلمة {كِتَاب} تشير لعموم أي موضوع تامّ، فالسورة الواحدة كتاب، والفقرة أو الآية الواحدة من السورة إن كانت تامّة الموضوع فهي {كِتَاب}، وكلّ القرآن {كِتَاب}، وهكذا عندما تجد آية تتحدّث عن نزول القرآن أو نزول الكتاب فهي ليست بالضرورة تشير إلى نزوله كلّه، فلو نزلت آية فهي قرآن، ولو نزلت آية موضوعها تامّ فهي نزول لكتاب...

(إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ{2})
{إِنَّا}، الإله صاحب الاسم المحدَّد المميَّز الله والموصوف بـ{الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}، {أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ}، أيها الرسول محمّد (ع)، {الْكِتَابَ}، وهو هذا القرآن، {بِالْحَقِّ}، بالصواب، فما فيه من معلومات وتشريعات فهي حقٌّ صوابٌ صحيحٌ، وتنزيله عليك لتتبعه أيضاً حقٌّ صوابٌ صحيحٌ، فمن يفكّر بأن الإله لا علاقة له بهذا الكتاب لأن الإله لن يُنَزِّلَ كتباً علينا، ولأنَّ الإله خلقنا وتركنا ولن يتدخّل في حياتنا، ولا حكمة من خلقه لنا... ولا يؤمن بحقّه تعالى بالتدخّل في حياتنا... فها حصل ونزل كتاب منه تعالى ينسف كلّ هذه الأفكار، فالحقّ الصواب أن يتدخّل الإله سبحانه ويُنَزِّلَ على واحد منّا كتاباً ليخبرنا بالحقّ بما هو مفروض بنا كعبيد له تعالى...

{فَاعْبُدِ اللَّهَ}، هو خالقك ومالكك وأنت عبده ومفروض منك طاعته، وتصرَّف على هذا الأساس، واتَّبِعِ الكتاب الإلهي، وكلمة عبد تشير لمن مفروض عليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، وملكيته من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

{مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ}، ما تدين به لإلهك فلا تخلطه بأمور سيئة، والتبعات التي عليك كونك عبداً له تعالى فتصرّف على أساسها ولا تفعل شيئاً آخر، وعمليّاً هو أمر لك لتنفيذ ما في الكتاب الإلهي.

كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، وليست اصطلاحاً مخصَّصاً كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، فهي عامَّةُ تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئاً ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني فأنا مدين له، وخلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعاً بسبب وساعة تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نُمَيِّزُهُ عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... وكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة فهناك نُدانُ بأعمالنا، فما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هو التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضاً يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسباً بحكمته يُديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ {3})

{أَلَا لِلَّهِ}، فقط لصاحب هذا الاسم المحدَّد المميَّز، {الدِّينُ الْخَالِصُ}، تبعات كوننا عبيداً فمفروضٌ علينا طاعة الذي خلقنا ويملكنا لوحده، وهذا بديهي فهو الإله الأحد، ولا أحد آخر له علينا أي شيء من مستوى إلهي حتى ندين له.

{وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ}، لم يعتبروا أنفسهم تابعين له تعالى لوحده واعتبروا أنفسهم تابعين لآلهة غيره، وعادة هذا التعبير القرآني لا يشير إلى تركهم بالكامل لولايته تعالى وأنهم لا يعتبرونه إلهاً لهم، بل عادة يشير إلى موالاتهم لغيره سبحانه على أساس أن الله تعالى إله وهناك آلهة آخرون غيره، وهذا مفهوم قرآني عام منتشر في مختلف السور حيث لا يقبل سبحانه بموالاة غيره من مستوى إلهي ولا بأي شكل، وهذه موالاة غير صحيحة لأنه تعالى وحده الإله...

تلاحظ أنَّ الآية قطعت الكلام الذي تعرفه لوحدك، والذين اتَّخذوا من دونه أولياء "فهؤلاء يقولون: كذا..." وهذا القطع للكلام ستراه منتشراً في هذه السورة.

يقولون: {مَا نَعْبُدُهُمْ}، لسنا نتصرّف على أساس أننا عبيد مفروضةٌ علينا الطاعة للذين واليناهم من دونه تعالى، {إِلَّا}، فقط، {لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى}، حيث هناك درجات للتقرّب منه تعالى ونحن كلما عبدنا آلهتنا بجدّ وإخلاص أكثر كلما تقرّبنا منه تعالى أكثر.

هذه واحدة من أبرز عقائد الشرك التي تركّز عليها السورة، إذ تتكلّم عن أناس يعترفون بالله تعالى إلهاً، ولكن اخترعوا آلهة أخرى معه سبحانه، ويقولون إنَّ عبادتهم لتلك الآلهة تجعلهم من المقربين عنده تعالى، بل بشكل أدق، تلك الآلهة يمكنها أن تقرّبهم منه تعالى، لأنَّ التعامل مع الآلهة الأصغر أسهل من التعامل مع الإله الكبير، وإذا رضي عنّا الإله الأصغر فسيرضى عنّا الإله الكبير، وهدفهم التقرب من الله تعالى ولكن عبر التقرب من هذه الآلهة الصغيرة، وليس لهم هدف آخر من عبادتها.

ضع في بالك أن الكلام هنا عن نموذج شركي بارز، كما تعلم، فالمشركون ليس لهم عقيدة متناسقة ثابتة، وآراؤهم تتغير وليسوا مضطرين ليثبتوا على رأي واحد، إذ أصلاً ليس لديهم كتاب لعقيدة ثابتة... وكما تعلم هناك بسطاء مشركون لا يفهمون أي شيء معقّد عقائدي عن دينهم، وهناك محنّكون في الشرك، وحتى هؤلاء المحنّكين فمن الصعب أن تجد عدداً كبيراً منهم على رأي واحد إذا دخلت معهم في التفاصيل، ولذلك ترى القرآن يدخل على الكلام معهم من زوايا مختلفة، وهنا عرض القرآن أبرز ما يمكن أن يبرّر به بعض المشركين عبادتهم لآلهة غير الله تعالى، وهو أنهم باقون على اعتقادهم به تعالى، ولكن تلك الآلهة وسيلة يتقربون بها منه سبحانه.

لو أطلت عليك، ففي حدود اطلاعي المقبول على الهندوسية والسيخية والبوذية، هم على مستوى غالبية عامّة الناس يؤمنون بآلهة تقرّبهم منه تعالى زلفى، أمّا في بعض كتبهم الأساسية، فجرى خلط كلمة ربّ مع كلمة إله، بشكل يمكن الاستشفاف منه إيمانهم بإله واحد والأرباب "المميزون، الرسل..." الآخرون مخلوقات مميزة، وهي ليست آلهة صريحة، ولكنها تملك صفات عالية ولديها مهمّات ربوبية، فهذا ربّ للشفاء من الأمراض، والآخر ربّ للتوفيق في التجارة، وغيره ربّ لإيجاد الأغراض المفقودة... والقدرات الفائقة القاهرة عند الإله الكبير الأحد، وهناك "أرباب" بقدرات محدودة. طبعاً حتى هذا المقدار لا يقبله تعالى إذ لا ربّ من مستوى إلهي غيره سبحانه... وكلام السورة يشمل هذه النوعية من العقائد ولذا أحببت لفت انتباهك له.

{إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}، هم مختلفون وليسوا متوافقين على الدين الإلهي الخالص، وتختلف أفكارهم وتصرفاتهم ومشاعرهم... حيث لديهم آلهة وأرباب غيره تعالى، وسيحكم سبحانه بينهم ويصدر تعالى حكمه في خلافهم

على توحيد العبادة له تعالى، وتعلم أن الحكم سيكون بمعاقبتهم في جهنّم خالدين، وسترى هذا الحكم فيما سيأتي خلال السورة.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي}، لا يضع على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة، {مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ}، وكلّ كلامهم عن أولياء، عن آلهة أو أرباب أو مخلوقات بنفحة إلهية... تقرّبهم منه تعالى زلفى، كلّه كذب، ويقولونه وهم يعلمون أنه كذب، وكل كلامهم هو كفر وهو إنكار عن قصد للدين الخالص له تعالى، ولن يعتبر سبحانه دينهم هذا صحيحاً موصلاً لغاية صحيحة، ولن يتماشى تعالى مع ما اخترعوه ليعتبره عملاً حسناً... لا. وكذبهم باختراعهم آلهة وأرباباً، وكفرهم بتوحيده تعالى، لا ولا بأي شكل سيوصلهم إلى شيء يرغبون به منه تعالى، وليس لهم الرضا ولا البركة ولا الثواب... بل لهم العقاب الشديد فقط.

ضع في بالك دائماً أنه تعالى في قرآنه وبشكل صريح، كرّر لنا أن نتعامل معه سبحانه مباشرة، ونستغفره هو، وندعوه هو، ولا وسائط بيننا وبينه سبحانه، ولا من أي نوع كانت، وأي كلام غير ذلك ومنسوب للقرآن فراجع دراسة الآيات التي يذكرونها لترى أن تفسيرهم لها نابع من الهوى السيّء، وأنه نسخة محدّثة من وسوسات إبليس الذي وجد طريقة أخرى ليجعل بعض المنتمين لدينه تعالى يشركون به عبر اتخاذ وسطاء بينهم وبينه تعالى، ويدعونهم وينذرون لهم... وهم يظنّون أنهم من أشدّ الناس إيماناً...

(لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ {4})
المشركون أنواع كثيرة وبينهم بعض العناوين العامة المشتركة، وستتناول السورة فقط العناوين العامّة، حيث هناك مجموعة تعتبر "أبولو أو فينس..." ولداً له تعالى، ومجموعة أخرى تعتبر مناة واللات بناته تعالى، وآخرون اعتبروا النبي عيسى (ع) ولداً له تعالى... والبوذيون والهندوس والسيخ لديهم أسماء لمن اعتبروهم "بشكل ما" أولاداً له تعالى... ولن تتحدّث السورة عن كل اسم من أسماء آلهتهم، بل ستتحدّث عن العنوان المشترك بين هذه النوعية من المشركين الذين يقولون إنَّ الله تعالى لديه ولد "تولّد منه عزّ وجلّ"، أو اتّخذ ولداً من مخلوقاته، واعتبر واحداً منهم بقيمة ولد له...

{لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً}، فرضاً لو كان عنده سبحانه قرار أن "يتّخذ" ويحدّد من بين الكائنات كائناً يعتبره ولداً له تعالى، {لَاصْطَفَى}، لاختار شيئاً فيه ميزة، {مِمَّا يَخْلُقُ}، من الكائنات التي ركّبها وألّفها، {مَا يَشَاءُ}، لأنَّ هناك خيارات عديدة ويشاء تعالى منها ما يريد.

إذن، يستحيل أن يلد الله عزّ وجلّ، ويستحيل أن ينقسم، أو يخرج منه ولد، أو يتحوّل قسم منه لولد أو... لدينا الله الإله من جانب، ولدينا من جانب آخر مخلوقاته، ولا يوجد شيء ثالث، فلو أراد تعالى أن يتّخذ ولداً، فرضاً لو كان هذا سيحصل، فسيختار تعالى كائناً مما خلق ويقول عنه بأنه اتّخذه واعتبره ولداً له، ولكنه في الحقيقة مجرّد مخلوق وليس مولوداً منه تعالى، وسيكون مجرّد اتخاذ، مجرد اعتبار، ولن يكون إلهاً حقيقياً هذا الذي "فرضاً" تحدّد واختير كولد.

تذكّر استعمال القرآن لنفس التعبير عندما نقل في الآية 21 من سورة يوسف عن عزيز مصر كلامه مع زوجته عن النبي يوسف (ع): {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً}، ونعتبره ولداً لنا من بين كل العبيد الذين نملكهم، يعني هو لن يصير في الحقيقة ولداً لنا، لأنهما لم يلداه، بل نتّخذه ونعتبره كذلك، وبالتمام نعامله كما لو أنه ولدنا الحقيقي، ونفس المعنى ورد في الآية 9 من سورة القصص: {وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً} بكلامه عن الطفل موسى (ع).

إذن هذا الكلام لوحده يتضمّن كل الردّ على الذين اتّخذوا من دونه تعالى آلهة على أساس أنهم أولاد له تعالى، وبغضّ النظر عن فلسفة نسبة الولد له تعالى، كولادة أو تمثّل أو حلول... أو اعتبار... فالآية هنا تقول إنَّه هناك الله عزّ وجلّ الإله من جهة، ومن جهة ثانية هناك فقط وفقط مخلوقاته سبحانه، وأي فلسفة لن تغيّر من هذا الواقع، وفرضاً لو حدّد سبحانه ولداً اعتبارياً، كاعتبار عزيز مصر للنبي يوسف (ع) كولد، فرضاً فرضاً سيحصل ذلك، فهذا الولد سيبقى مخلوقاً ولن يصير إلهاً ولا بأي شكل، وأقصى ما يمكن أن يمنح تعالى لهذا الولد المخلوق قدرات عالية "كالملائكة"، وهذا لن يغيّر أي شيء، ولن يصير الولد إلهاً.

{سُبْحَانَهُ}، تنزّه عن الصفات الناقصة، لأنَّ اتخاذ الولد من المخلوقات هو نقص وتصرّف سيّء. وتعتبر الآية بكل بداهة استحالة أن "يلد" تعالى ولداً، وتقفز الآية عن هذه الفكرة المستحيلة وتبدأ من فكرة ممكنة، إذ من الممكن أن يتّخذ تعالى ولداً "اعتبارياً" من بين مخلوقاته، ولكن هذا لن يعني أبداً أن المخلوق صار إلهاً، ثمّ تنفي بشدّة أن يكون الله تعالى سيتّخذ ولداً، وتسبّحه وتنزّهه عن هذه الفكرة لأنها لا تصدر عن إله حقيقي كامل الصفات الحسنة، لأنَّ ناقص المواصفات الحسنة الفائقة يفعل ذلك، فإن كان ذهنكم الخفيف أيها المشركون يبلع فكرة اتخاذه تعالى لولد "ولو اعتبارياً"، ففي الحقيقة لا يمكن لله تعالى أن يتّخذ من مخلوقاته ولداً له، إذ هذا لا معنى له، ولا قيمة له، وهذا سخافة بالنسبة للإله، ولماذا سيفعل ذلك؟ وما الدافع لذلك؟ وهل يحتاج لذلك؟ وهل سيرتاح لو فعل ذلك؟... وأي جواب سيدلّك على أنه تعالى ناقص لديه حاجة، أو عنده عزّ وجلّ ضعف أو خلل "فكري أو نفساني..." إذا اتّخذ ولداً، وهو سبّوح منزّه عن ذلك.

{هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز "الله" لا يوجد غيره، ولا يوجد الله صغير والله كبير، ولا يوجد نصف الله أو ربع الله، ولا يوجد ابن الله ولا بنت الله، ولا قطعة من الله، ولا نفحة من الله، ولا تجلٍّ من الله، ولا حلول من الله... ولا يوجد الله في السماء والله في الأرض، ولا الله النوراني والله الجسماني، ولا الله العلوي والله السفلي، ولا الله الغائب والله التجلّي، ولا... فقط فقط هو الله الواحد.

{الْقَهَّارُ}، الذي يقهر ويغلب ويفوق بقدراته وصفاته أي قدرة أو صفة لأحد غيره، والحقيقة أنه تعالى يرى كلّ من حوله كمخلوقات ضعيفة جدّاً جدّاً جدّاً أمامه، وهو قاهر لهم، وأي قوّة أو قدرة تملكها الكائنات، فهي لا شيء بالمقارنة مع قدرته تعالى، فما معنى أن تقولوا عن غير الله تعالى عن هذا وذاك أنه إله؟! وما معنى أن تقولوا عن هذا وذاك: ولد لله؟! فإن كان لا يوجد ولا أدنى مقارنة بين صفاته وقوّته وقدراته تعالى مع أي كائن آخر، وإن كانت "أصلاً" كل الكائنات هو تعالى خلقها، فما معنى كلامكم عن ولد إله له!

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ {5})
{خَلَقَ}، ركّب وألّف، {السَّمَاوَاتِ}، كل ما علا وَهُنَّ سبع سماوات، {وَالْأَرْضَ}، كل ما قابل سماء ومنها الأرض التي نحن عليها، ومن الآية 12 من سورة الطلاق ننتبه لوجود سبع سماوات ومن الأرض مثلهن: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}، وَكَلِمَةُ سماء لعموم ما علا من فضاء وغيره ويجب أن يقابلها أرض، وسماؤنا نحن يقابلها كوكب الأرض وسطح القمر وسطح المريخ... وهكذا لبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أَرَاضٍ...

هذا التعبير القرآني بالسماوات وَالأَرَاضِي يشير لكلّ شيء، فهذه هي كل الدنيا التي فيها المخلوقات وَخَلَقَهَا تعالى، {بِالْحَقِّ}، بالصواب، فأي فكرة تخطر في بالكم عن سوء هذا القرار، أو أنه حصل لا عن حكمة ولا عن دراية، أو خلقكم سبحانه في هذه البيئة وسيترككم بلا حساب وجزاء، أو لعباً ولهواً خلقكم ليتسلّى... فهذا غير صحيح، بل كان قراراً وعملاً صالحاً صائباً صحيحاً حكيماً.

تذكّر أنَّ غالبية آيات القرآن ذكرت جملة "السماوات والأرض" على أساس أن كل ما في الدنيا محصور به تعالى من جانب، والسماوات والأرض التي خلقها تعالى من جانب آخر، فلا يوجد ولا أي شيء آخر سوى الإله والسماوات والأرض التي خلقها سبحانه، وبناءً عليه فبكل شفافية يخبرنا سبحانه أنه لم يُلْمَسْ أَيُّ أثر لأي كائن أو ظاهرة أو... إلاّ لما صمّمه وخلقه هو سبحانه والمحصور في حدود السماوات والأرض.

لِدِقَّةِ كلامه سبحانه وبشفافية مطلقة يخبرنا بالتحديد عمّا خلقه، فلا تجد في القرآن تعابير عمومية ضبابية غير دقيقة، ولتفهم ما رأيته تَخَيَّلْ ولو تخيّلاً أَنَّه هناك شيء ما غيره تعالى وسبحانه لا يدري به، مهما كان ذاك الشيء ولو حبّة تراب، فعندها لا يصحّ التعبير بأنه تعالى خلق كل ما في الدنيا، أو خلق الدنيا. ولذلك وبكل شفافية يخبرك تعالى أنه خالق للسماوات والأرض، خالق لكل شيء "يعلم به سبحانه".

{يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ}، كنموذج عن ظاهرة من ظواهر السماوات والأرض التي صمّمها وخلقها تعالى، وهي تحصل وترونها أيها الناس حيث يجعل سبحانه الليل يَتَكَوَّرُ وَيَلْتَفُّ ويحيط بالنهار، فإذا حملت أنت شيئاً ما، وقرّبته من

بطنك، وحنيت جسدك عليه لتغطيه، فهذا تكوّر، وهو التفاف لجسدك على الشيء، وبشكل مشابه يغطي الليل النهار فيغشاه من بداية غروب الشمس.

بِالْعَكْسِ، {وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ} فيغطيه من بداية الفجر...

يعني هناك الكائنات المخلوقة، والتي تقع كلّها ضمن السماوات والأرض، وهناك ظواهر تحصل في تلك البيئة، ومنها كنموذج واضح بارز "الليل والنهار"، فالكائنات كلّها خَلَقَهَا تعالى، والظواهر التي تنتج عنها أيضاً خلقها تعالى، وَلَمْ تحصل لوحدها ولا بالصدفة... أو أنها حصلت ولم تخطر على باله تعالى أنها ستحصل... وَلَا إِلَهٌ أَوْ رَبٌّ آخر خلقها، وَلَا إِلَهٌ أَوْ رَبٌّ آخر سبّبها... فالليل والنهار حالة عامّة على كل الأرض، فمن البديهي أن إلهاً واحداً أحداً صمّمها وخلقها، وكلام جماعة المشركين هنا عن الإله كذا، وكلام جماعة مشركين آخرين هناك عن إله آخر... وغيرهم، فهذا يتنافى مع عمومية أفعال الإله الواحدة، فهي نفس الظواهر تحدث بالتمام على كل الأرض، والليل والنهار يَتَكَوَّرَانِ على بعض، وَنَفْسُ الليل يمتد ويمتد متكوراً على النهار، ونفس النهار يمتد ويمتد متكوّراً على الليل، وبالتالي فمن البديهي أن نفس الإله سبّب الليل والنهار على الجميع.

نَمُوذَجٌ آخر واضح جدّاً، {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ}، فهما يقدمان لكم أشياء من دون أي مقابل منكم، وَيُقَدِّمَانِ النور والحرارة والمواقيت ومعرفة الاتجاه... وأنتم فقط تستفيدون منهما وَلَا تُحَرِّكُونَهُمَا ولا تشعلون الشمس ولا... ولا تفعلون أي شيء لهما، فمن الواضح جدّاً أنكم لا علاقة لكم بهما، ومن الواضح جدّاً أنه تعالى هو خلقهما وسخّرهما لكم بالظواهر التي تنتج عنهما.

{كُلٌّ}، من الشمس والقمر، {يَجْرِي}، يسير، {لِأَجَلٍ}، لموعد زمني لنهاية شيء، {مُسَمًّى}، محدّد، وَلَهُمَا شروق وغروب محسوب.

ننتبه جيّداً، اخْتَارَتِ الآية ظاهرة الليل والنهار وَسَيَرَانِ الشمس والقمر في السماء بالنسبة للواقف على الأرض، كنموذج بارز عن شيء يحصل على كلّ الأرض، فلا معنى لاختراع إله في آسيا لم يسمع به الناس في أفريقيا وهو مسؤول عن الليل والنهار، واختراع إله في أفريقيا لم يسمع به الناس في آسيا وهو مسؤول عن الليل والنهار! فهذه ظواهر مشتركة تدل على إله واحد مسؤول عنها، وسترى نفس المعنى في الآية التالية.

{أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ}، وهكذا ترى معنى الألوهية الحقيقي، فهو المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره...

وهو {الْغَفَّارُ}، يَتَجَاوَزُ عن السيئات، فالذي بهذه القدرات العالية والمكانة العالية جدّاً جدّاً جدّاً، يتجاوز عن ذنب فاعل السيئات، وهنا بالتحديد لفت الانتباه لمن جعل له تعالى شركاء، فحتى هذا السوء الكبير مع الإله العظيم العظيم جدّاً جدّاً، يغفره تعالى لمن تاب وتراجع عنه، حَيْثُ إِنَّهُ سبحانه ليس صلباً جافاً قاسياً على موقف واحد انتقامي ممن أخطأ بحقّه تعالى، بل يغفر وبكثرة لمن آمن واستغفر.

دائماً تذكّر أن كلام القرآن عن الظواهر الأرضية موجّه لنا، ونحن نعيش على سطح الأرض، وبالتالي فالكلام عن الظواهر للفت انتباه الواقف على سطح الأرض، وليس معروضاً من نظرة الواقف في الفضاء، فنحن نرى الشمس تجري من جهة الشرق إلى جهة الغرب، ولا معنى لوصف هذا المشهد بالقول عن الأرض أنها تدور حول نفسها بينما الشمس مستقرة، فهذا وصف مشهد لشخص في الفضاء واقف فوق المجموعة الشمسية لجهة أحد قطبي الأرض، فماذا لو وقف بعيداً ليرى ذراع المجرة؟ فسيرى الشمس تتحرّك مع الذراع. وماذا لو وقف بعيداً ليرى كل المجرة؟ فسيرى ذراع المجرة في حركة دائرية حول نواة المجرة... إذن فكلام القرآن عن الليل والنهار وجريان الشمس والقمر ليس مبنياً على علوم العصر الذي كان فيه النبي محمّد (ع)، بل مبني على وصف المشاهد لكل عصور الواقف على الأرض.

رَغْمَ رؤيتنا كلّنا ومنذ زمن بعيد لصورة الأرض من الأقمار الاصطناعية سابحة في الفضاء تدور حول نفسها، فلا يزال كل الناس على كل الأرض يصفون الشمس بأنها تسير فوقنا من الشرق إلى الغرب، لأن المشهد هكذا أمامنا، وَلَفْتُ الانتباه في القرآن على هذا المشهد لتسأل عمّن صمّمه وخلق البيئة التي يحدث فيها...

بقي شيء مهمّ جدّاً، فِي تراثنا الثقافي الديني المعتمد على الروايات، ستجد كلاماً عن جرّ الملائكة للشمس، وعن تنزيلهم للمطر، وعن قيامهم بأمور أخرى مسبّبة للرعد والبرق وغيرها... وَتَشَرَّبَتْ هذه الثقافة فينا لدرجة صيرانها كنظّارات نرى من خلالها القرآن، بينما لا تجد لذلك أي أثر من أي نوع في القرآن، وَسَتَجِدُ في القرآن حصول عذاب قوم النبي لوط (ع) مع وجود ملائكة وبتعبير يمكن فهمه أن التعذيب جرى على أيديهم ومن فعلهم، وَوَرَدَ ذلك في الآية 31 و34 من سورة العنكبوت: {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ... إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}، ويمكن فهم هذا الكلام على عموميته بحصول العذاب بأمر إلهي بدون توظيف للملائكة لفعله كما هي الحال في صريح وصف القرآن لحادثة الطوفان في الآية 11 وما بعدها من سورة القمر: {فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ}، ووصف عذاب عاد الوارد في الآية 7 من سورة الحاقة: {سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى...}، ووصف فلق البحر للنبي موسى (ع) وغيرها العديد من الأمور التي لم يرد فيها حتى تلميح لأي تدخّل من الملائكة بتوظيفه تعالى لها لفعل أي شيء.

مِنْ ناحية ثانية لدينا صراحة توظيفه تعالى للملائكة بالعديد من الأمور منها توفّي الأنفس الوارد في الآية 11 من سورة السجدة: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ...}، وتسجيل أعمالنا كما ورد في الآية 21 من سورة يونس: {... إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ}، وتثبيت قلوب المؤمنين الوارد في الآية 12 من سورة الأنفال: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا...}، ولدينا وصف توفّيهم لأنفس فرعون وجنوده في بداية سورة النازعات: {وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً...} ولكن ليس لدينا أي وصف لأي فعل لهم في فلق البحر...

هذا والأمثلة عديدة من تنزيل الملائكة للقرآن وحماية السماء العالية من الشياطين ورجمهم وطردهم لإبليس...

المجموع من كل هذا الكلام القرآني يريك صراحة توظيف الملائكة (ع) في بعض الأعمال، ولكن ليس في كلّ الأعمال، وهذا فرق هائل بين منطق القرآن ومنطق الموروث الذي تفهم منه توظيف الملائكة بكل شيء، بحيث لا وجود لأي ترابط سببي "طبيعي" للحوادث كالظواهر والكوارث إذْ كلها وبحسب الروايات تقوم بها الملائكة.

هذه إشكالية عويصة لاغية لآليات حدوث الأمور بأسباب طبيعية مترابطة، مَثَلاً هي إلغاء لما نسمّيه بالجاذبية التي على أساس حساباتها نفهم سبب حركة الكواكب، ولاغية لأسباب نزول الماء الذي نعلم الآن سلفاً بالتقدير القوي لحالة الأنواء لبضعة أيام ستأتي وبتقدير كمية المطر الذي سينزل، وهذا النوع من المرويات بمجملها لاغٍ حتى للأمراض لأنها تجعلها من أفعال الشياطين...

الفرق الهائل بين كلام القرآن وبين ما في الروايات لن تراه بوضوح بسبب تشرّب الروايات في خلفيتنا الثقافية بحيث نفسّر من كلامها القرآن من دون أن نشعر بأننا نلبسه ما لم يقله، وهذا الفرق الهائل هو من أوضح الأدلة على إلهية مصدر هذا القرآن الذي لم يَتَمَاشَ مع الكثير من الأمور التي كانت كثقافة منتشرة بين الناس في دائرة زمن النبي محمّد (ع) وقبله.

الروايات الناسبة لأعمال ما للملائكة "كتنزيل المطر وحدوث البرق والرعد وتوزيع الرزق..." وأخرى للشياطين "كالمرض والفقر وعموم الشرور"، هي محاولة منهم لتبرير آلية حدوث الأمور التي جهلوا آليات حدوثها، وهي نفس الخلفية التي فسّروا بها كلامه تعالى عن خلق السماوات والأرض... لاغين آليات حدوث الأمور، وَصَارَ في كلامهم كل شيء يحدث بأمر منه تعالى بشكل فوري أو بالتدرج ولكن من دون ترابط، وهذا يأخذنا إلى خلفية أخرى مخفية في نفوسنا حيث نعتقد بأن كلمة "سحرية" نقولها وتجعل الأمور تحدث، كالذين يعتقدون بوجود اسم أعظم لله تعالى، وإن علمته فحين تتلفّظ به سيحدث ما تريده متخطياً الأسباب والمسببات الطبيعية...

انتبه لكل هذا وسترى الفرق الهائل بين القرآن وبين المرويات التي اعتمدت على معطيات عصرها لتفسير القرآن، بينما نحن نعتبر تلك الروايات مقدسة ومتخطية لمعطيات عصرها.

هِيَ نفس المشكلة المتكررة دائماً وستبقى كذلك، وَفِي دراسة كتب التفاسير سترى بوضوح الفرق بينها بسبب اختلاف عصرها، إذِ المعطيات العلمية والثقافية اختلفت من جيل لآخر، ونتج عن ذلك اختلاف في تفسير كلامه تعالى بناءً على

المعطيات الجديدة، وبدراسة علمية رصينة سترى بوضوح التغيّر عبر الزمن لقبول تفسير الروايات للقرآن، هذا طبعاً وأنت تعلم أننا لسنا أمام روايات متفقة فيما بينها، فهي بغالبيتها الساحقة متعارضة على نفس النقاط.

على أي حال، الِادِّعَاءُ بالتمسّك بالروايات لتفسير القرآن، وأن من يفعل غير ذلك فهو يفسّر القرآن برأيه، هي كذبة متوافق عليها ضمناً بين غالبية مفسري القرآن، خُذْ أي تفسير مشهور، وانظر فيه، وسترى أن كميّة كلام المفسرين ونقاشاتهم وآراءهم هي أكثر بكثير مما اعتمدوا عليه من الروايات التي ذكروها كذرّ للرماد في العيون، فكثيراً ما ذكروا الروايات، ولكن قليلاً ما اعتمدوها!

على أي حال، الخُلَاصَةُ التي أريد لفت انتباهك لها ليست تسخيف الروايات، بل رؤية الفرق الهائل بين كلامه عزّ وجلّ وبين كلام البشر، وخذ مثالاً آخر أوضح وأسهل، فِي عصر النبي محمّد (ع) كان عموم الناس ومعهم أهل الكتاب يستعملون تعابير توصّف فقدان الميّت لروحه، ورغم المرات الكثيرة التي تحدّث فيها القرآن عن الموت، لَمْ يذكر ولا مرّة ما ستجده منتشراً عن الروح في كلام أهل الكتاب قبل النبي محمّد (ع)، وفي كلام النبي محمّد (ع) والمعاصرين له من عموم الناس، ولا الذين أتوا من بعده (ع) واعتمدوا نفس المعطيات والثقافة.

نَسْتَفِيدُ من الكلام السابق تثبيت قاعدة أساسية لتفسير القرآن، فأي تفسير مبني على معطيات من عصرنا، ولم يكن هذا التفسير واضحاً للذين سبقونا، فهو ليس تفسيراً صحيحاً لكلامه تعالى، وسيأتي بعدنا زمن في معطيات مختلفة، وسيكون لديهم تفسير للقرآن لم يخطر على بالنا، وهذا أيضاً ليس تفسيراً لكلامه تعالى بل إسقاط لمعطياتنا على كلامه تعالى، فحتى يكون التفسير صحيحاً يجب أن يكون قابلاً للفهم لكل الناس في كل العصور.

(خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ{6})
{خَلَقَكُم}، ركّبكم وَأَلَّفَكُمْ، {مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ}، فالذين في آسيا وأفريقيا وأوروبا وأوقيانيا وأميركا، كلّهم تركّبوا من كائن واحد، {ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا}، من تلك النفس، {زَوْجَهَا}، قرينها المشابه لها، ومن الواضح أن الكلام عن الذكر والأنثى.

فلا يوجد بدايات متعددة لخلق الناس، فكلّهم بدايتهم من نفس واحدة، وبالتالي لا يوجد إله لكل أناس لوحد، بل كلّهم مصمّمهم وخالقهم واحد، فما معنى سخافة أسماء الآلهة التي اخترعها أناس هنا واخترع غيرها أناس هناك! فأنتم كلّكم أناس متشابهون ومن الواضح أن خلقكم بدأ من نفس الجدّ، فمن البديهي أنكم كلّكم من تصميم وخلق نفس الإله.

عادة ينصرف ذهننا للنفس الواحدة بأنها آدم (ع)، ومن "جعل منها زوجها" لزوجته حواء وأنها انخلقت من ضلع آدم (ع)، وهذا الكلام سببه غالبية روايات المسلمين الموروثة والمشتقة من روايات أهل الكتاب وليس من القرآن، فمن القرآن نعلم فقط أن آدم (ع) أوّل من تأهّل ليتكلّف من البشرية، وأن نسله هو الذي استمرّ فكلنا منه، وقد تبين من الآية 30 من سورة البقرة أن آدم (ع) ليس أول بشري بل أوّل من تكلّف بالدين الإلهي، وبعبارة أدق فهو أوّل من تأهّل من البشر ليتكلّف بالأوامر الإلهية، وبناء عليه فالكلام هنا يبدو عن مرحلة قبل آدم (ع)، حيث كان تسلسل البشرية في مرحلة ما قبل انفصال التركيب الجسدي لذكر وأنثى.

وهذا الكلام يأخذنا إلى موضوع نشأة الحياة على الأرض، حيث تكوّن نظرية لدى المؤمنين بدينه تعالى، من يهود ومسيحيين ومن بعدهم المسلمين، فبنوا نظرية مبنية على ما فهموه من كلامه تعالى بناء على معلوماتهم "معطياتهم"، ففهموا أنه تعالى خلق أول بشري فجأة من تمثال من طين ونفخ فيه الروح، فتحوّل الطين فجأة إلى لحم وعظم ودم وأعصاب... وجعلوا كلامه تعالى يوحي بأن زوجة آدم (ع) مخلوقة مما بقي من العجينة التي جبلها تعالى ليخلق آدم (ع)، أو خلقها تعالى من ضلع آدم (ع)... وهذا تفسيرهم "الخلق منها زوجها وخلقكم من نفس واحدة" وهكذا برأيهم صار لدينا أول زوجين ومنهما تولّد البشر...

هذا الكلام لا تجده بهذه الصراحة في القرآن، وإنما ورثنا ممن سبقنا من أهل الكتاب هذه النظرية وأسقطناها على كلام القرآن، وقديما لم يبد في الإسقاط خلل، فاستمرت هذه النظرية معنا... علما أن هذه النظرية لا تتضمّن جوابا عن خلقة النبات ولا بقية الحيوانات، فمن أين جاؤوا وكيف؟

وهذا الكلام فيه خلل كبير، فسبحانه ليس من سنّته فعل الأشياء فورا، فقد خلق السماوات والأرض على مراحل، ستة أيّام "مراحل"، والأمور فيها تجري بحسب ما صمّمه تعالى، من بخار يتصاعد فيتجمّع فتنقله الريح فيتكاثف فيسقط مطرا، وهذه المعلومات كانت مجهولة عند الناس قديما، فكانوا يعتقدون بقوّة خارقة تسبّب نزول الماء، فاخترع بعضهم إلها للمطر، والمتدينون قالوا أنه تعالى "مباشرة" بأمر منه وبلا أي سبب ينزل الماء، وقد قالوا "بلا سبب" لأنهم يجهلون آلية نزول الماء.

من هذا الكلام تفهم عمق الأساس الذي انبنى عليه فكر المتدينين الأوائل، ولا تزال هذه الطريقة في الكلام مستمرة معنا في أي موضوع نجهل آليات حصوله، ففي حالة المطر صرنا نقول بأنه تعالى مسؤول عن نزول الماء لأنه المصمّم الخالق للبيئة التي تتجمّع فيها الظروف المناسبة لنزول الماء، ولم نعد نقول إنه تعالى يأمر، فينزل الماء بلا سبب ولا آلية تحضيرية لنزوله... لأننا صرنا نعلم بآليات نزوله...

في موضوع خلقتنا، نشأة الحياة، لا زلنا نعاني من صعوبة التخلّي عن الأفكار القديمة، فإن انعرضت فرضية أو نظرية تشرح آلية نشأة الحياة، فوراً نتّهم قائلها بالإلحاد لأنه لم يضعه تعالى في الفرضية التي تفسّر نشأة الحياة عبر آلية سبّبت حصولها، وكما ترى فهي نفس المشكلة التي كانت مع نزول الماء، والتي استغرقتنا وقتا لنفهم أنه تعالى ينزل الماء بآليات مترابطة وليس بأمر مباشر منه وبدون آليات.

المشكلة الأخرى هي اعتقادنا بأن بعض الأمور جوابها يجب أن يكون في الكتب الدينية، وإن انسحبت من الدين وصارت عند العلماء والباحثين، فقد صار الدين فارغا، وصرنا ملحدين... فإن كان لكل شيء آليات معروفة لحصوله، عندها صار اعتقادنا بالله تعالى فارغا، لأنه لم يعد الفاعل للأمور.

أساس أساس هذا التفكير غير صحيح، فهو مثله مثل موضوع نزول الماء الذي فهمنا فيما بعد أن البيئة التي نتج عنها كانت من تصميمه وخلقه تعالى لتجري فيها الأمور بأسبابها، فينزل الماء، والقرآن لم ينسب فقط ما نجهل آليات حصوله له تعالى بل نسب كل شيء له تعالى على أساس أنه المصمّم الخالق لكل شيء، فالسفن التي صنعناها نحن منسوبة له تعالى، وراجع كمثال الآية 12 من سورة الزخرف: {وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ}، وما نزرعه بأيدينا فهو تعالى زرعه، راجع في ذلك كمثال الآية 64 من سورة الواقعة: {أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}، والنار التي نشعلها من فعله تعالى كما ورد في الآية 71 وما بعدها من سورة الواقعة: {نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ}.

فسبحانه صمّم وخطّط للسماوات والأرض أن تسير على مراحل حتى تصل إلى ما نحن عليه مما فيها من كائنات حيّة وظواهر، وأمّا فهمنا لآليات حدوث ذلك، فلم يذكره القرآن، واكتفى بذكر بعض مراحل حدوث بعض الأمور، ومنها نشأة الحياة البشرية التي نشأت من سلالة من طين، أي من هذه المواد التي على الأرض من كربون وكالسيوم وحديد... كما ورد في الآية 12 من سورة المؤمنين: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ}.

هنا الآية تذكر شيئا كرّره القرآن في سور أخرى بتعابير مختلفة، بل والبعض منها بنفس التعبير، من نفس واحدة، فراجع الآية 1 من سورة النساء، والآية 98 من سورة الأنعام، والآية 189 من سورة الأعراف، وصراحة معنى الآيات أنه في مرحلة ما من خلقة البشرية لم يكن فيها تميّز للكائن من الذكورة والأنوثة، وبعدها صار زوجين. أمّا آليات حدوث ذلك، فهي مطروحة للبحث فيها وطرح الفرضيات والنظريات التي في حدود علومنا الحالية نرشّح بقوّة منها نظرية النشوء والارتقاء، المشهورة بالاسم السيّء الصيت عند غالبية المؤمنين بنظرية التطوّر.

لا تفهم أني أفسّر القرآن بناء على هذه النظرية، ولا تفهم أني دينيا أؤيدها، فهذا مجال مفتوح للبحث فيها للمتخصصين في علوم الأحياء، وأنا لست منهم، ولكني أفتح الأفق أمامك لترى الفرق بين الأساس الذي بنى عليه المتدينون فكرهم وورثناه مع تقديسه على أنه كلام الديني الإلهي، وبين الواقع وكلام القرآن الصريح الذي يعرض مراحل خلقتنا، وفيه إشارات كافية لنفهم أن إلها صمّم وخلق، ولم يدخل في الكلام في آليات حصولها.

تخيّل أن يجد أحد ما في عهد النبي نوح (ع) كتاب فيزياء من عصرنا، فماذا سيفهم منه؟ تخيل أن تجد أنت كتاب فيزياء من عصر سيأتي بعدنا بألف أو ألفي سنة، فماذا ستفهم منه؟ نفس الشيء مع ضخامة هائلة لو كان كتابه تعالى للناس

يتضمّن آليات حدوث الأشياء من نظرة إلهية مع تبسيط للغة تفهمها البشر، فلن نفهم ولا أي شيء، وبناء عليه جاء كلامه تعالى في حدود ما يمكننا فهمه ببساطة، ومحافظا في نفس الوقت على عرض الأمور كما هي بواقعها الحقيقي.
وآيتنا هنا تعرض علينا مرحلة كانت فيها البشرية قبل تميّز الذكر عن الأنثى، أمّا آلية ذلك فمجال البحث فيها مفتوح للجميع ومن الخطأ البحث عنها في الكتب الدينية.

فلنعد للآية هنا والتي لم ترد الدخول في هذا الكلام عن تاريخ خلقتنا، واكتفت بشيء بسيط واضح نفهمه جميعا بكل بساطة: كلّ الناس في كلّ الأماكن على الأرض متشابهة، فمن البديهي أنهم أقارب من نفس البداية، ومن كائن واحد، وهذا يعني بالبداهة أن الذي صمّمها وخلقها إله واحد، فلا معنى لأي كلام عن إله آخر خلق مجموعة ما من الناس!

{وَأَنزَلَ لَكُم}، فمن خزائنه فمن قدرته على خلق ما يريد قد جعل سبحانه بين أيديكم وبتصرّفكم، {مِّنَ الْأَنْعَامِ}، من الحيوانات التي توصف بأنها نعمة بأنها جيّدة، لأنكم تأكلونها وتستخدمونها، أنزل تعالى من الأنعام، {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ}، ثمانية أصناف، وهي كما نعلم من القرآن من سورة الأنعام الآية 143 و 144: البقر والمعز والضأن والإبل، وكل واحد منها له ذكر وأنثى، فَيَصِيرُونَ ثمانية.

والتعبير القرآني بأنزل نزّل... لا يعني أبدا أن هذه الحيوانات قد نزلت من السماء كما هي، بل مثل أنزلنا الحديد، أنزلنا عليهم المنّ والسلوى، أنزلنا المطر... فهذا التعبير بالنزول ناظر لحالة أنها لم تكن من قبل، ثمّ صارت، فلم تكن موجودة وتشكّلت وتكوّنت من تسلسل الأحداث والظروف التي صمّمها تعالى... فصارت موجودة، فعبّر عنها القرآن أنها نزلت منه تعالى بالنظر إلى علوّه الاعتباري لمكانته كإله خالق سبحانه، وبالنظر إلى علوّه الحقيقي سبحانه عن مخلوقاته فهو إله ليس كمثله شيء وهم مخلوقات مركّبة من المواد، ونزلت من خزائنه تعالى حيث سبحانه بقدراته الفائقة ويمكنه ساعة يشاء أن يخلق أو يسبّب حدوث الأشياء، وهذا المعنى نجده واضحا في الآية 21 من سورة الحجر: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ}.

وننتبه أيضا، فكل الحيوانات قد خلقها سبحانه، ولكن الآية تشير إلى الحيوانات الأكثر إفادة لنا عبر التاريخ، الأنعام، وأبرز نماذجها ما ذكره القرآن من بقر وجمال وضأن ومعز، وهذا لا يلغي الأنعام الأخرى من الأهمية، ولكن يشير كنموذج لأهمية هذه الأنعام بالتحديد بحسب ما يفهمه الذين نزل القرآن بينهم وفي زمانهم، ومنه نفهم أهمية بقية الأنعام من مختلف أنواعها في مختلف المناطق، كأهمية القمح عندنا وأهمية الأرز في مناطق أخرى، وأهمية الذرة في مناطق أخرى... فلا أحد يناقش في مدى أهمية هذه الأنعام في حياة البشرية بشكل عام، فالآية فقط تريد لفت انتباه الجميع لشيء استفادت منه غالبية البشرية، ولدينا سور أخرى من القرآن فصّلت أكثر عن مختلف النعم الإلهية على البشر،
وبخصوص الحيوانات فالتعبير القرآني الأشمل: بهيمة الأنعام. فهذا يشمل الطير وعموم ذوات الأربع قوائم... الأليفة والوحشية المحللة الأكل.

دائما تتذكّر أن كلام القرآن غالبا عن نماذج وليس عن أمور محدّدة، فإن كان هناك حيوانات غير البقر والمعز والضأن والإبل، كاللاما والنعامة والغزال... ومعتمدة عند قوم ما في أكلهم لحمها واستخدامهم لها، فهم ليسوا خارج كلام القرآن معهم، فنزول ثمانية أنعام هو كلام مع الذين نزل بينهم القرآن، وهم نموذج لغيرهم الذين نزل عليهم أنعام من نوع آخر.

{يَخْلُقُكُمْ}، يركّبكم يؤلّفكم سبحانه، {فِي بُطُونِ}، في داخل، {أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ}، فَتَكُونُونَ في تركيب وتنتقلوا لتركيب آخر، تَكُونُونَ حييمن وبويضة وتصيروا علقة، ثم مضغة... ثم جنينا، {فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ}، في ثلاث طبقات تجعلكم في الظلمة، من كيس المشيمة، وجدار الرحم، والجلد.

{ذَلِكُمُ}، الذي خلقكم من نفس واحدة... وأنزل لكم من الأنعام... وخلقكم في بطون أمهاتكم... {اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {رَبُّكُمْ}، المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {لَهُ الْمُلْكُ}، هو المالك لكل شيء، {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، فلا يوجد كائن غيره تعالى لديه صفات وقدرات فائقة فوق كلّ البقية.

{فَأَنَّى}، فكيف ولأي سبب، {تُصْرَفُونَ}، تتحوّلون عن التوحيد إلى الشرك! فكيف لا تخلصون الدين له تعالى؟!

(إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {7})

{إِنْ تَكْفُرُوا}، تُنْكِرُوا أن الله تعالى إلهكم الأحد خالقكم وخالق كل شيء، {فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ}، أصلا مُكْتَفٍ عن إيمانكم، أصلا ليس له حاجة أو استفادة من إيمانكم ولا يتضرّر من كفركم، ولكن في نفس الوقت، {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}، لَا يقبل للذين مفروضةٌ عليهم طاعته لأنه خلقهم وهو يملكهم أن ينكروا وحدانيته، فهذا شيء لا يوافق عليه تعالى. وفي دراسة الآية 46 من هذه السورة سنتوسع في معنى كلمة عبد.

بالنسبة لوصفه تعالى بالغني ليس تفسيرها أنه تعالى يملك كل شيء وبالتالي يصير المعنى أنه سبحانه يملك ما يحتاجه، فهذا غير صحيح، لأنَّ كلمة "غني" تفيد معنى الاستغناء، وهو عموم انتفاء عموم الحاجة لعموم أي سبب، إمّا لأنك لا تحتاج أصلا للشيء، وهذه حالته تعالى "الغني" بالنسبة لكل شيء، وحالة الملائكة بالنسبة لطعامنا... أو غني لأنك لديك ما تحتاجه وهذه حالتنا حين نملك الطعام والشراب... أو غني لأنك تملك ما يمكّنك من الحصول على ما تحتاج، وهذه حالتنا حين نملك المال لنشتري به ما نحتاجه. وترى هذا المعنى للاستغناء بشكل مباشر وواضح لأصل معنى كلمة "غني" في تعبير {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} كما ورد في الآية 97 من سورة آل عمران، حيث يشير الوصف بالغني للاستغناء بوضوح، وَلَا حاجة له تعالى بهم ولا بإيمانهم ولا يتضرّر منهم مهما فعلوا.

يعني: يمكنكم أن تكفروا بوحدانيته، ولن يتضرّر سبحانه لأنه غني وَلَيْسَ بحاجة لإيمانكم ولن ينتفع منه، ولكن اعلموا أنه تعالى غير رَاضٍ عن ذلك، حتى لو منحكم حرية الإرادة لتكفروا به إن شئتم، وحتى لو ترككم تكفرون به، فهذا لا يعني أنه رَاضٍ عن كفركم، ولا يعني أنه لن يهتم بكفركم لأنه لا يتضرّر منه، لا بل سيجازيكم عليه بالعقاب الشديد.

هناك من يستهتر ويسخّف موضوع إخلاص الدين له تعالى، ويقول: إلهكم العظيم بالصفات التي تقولونها عنه هل سيهتم بموضوع سخيف عن اعتقادي بإله غيره! وسيهتمّ إن عبدته أم لم أعبده؟ طالما هو غني عني لَنْ أضرّه بشيء وَسَيَتْرُكُنِي على راحتي أعبد ما أشاء... لا، سبحانه لا يرضى وَلَا يقبل ولا يعتبر الكفر شيئا يمكن التماشي معه أو اعتباره عاديا، وأنت لا تحدّد له تعالى ما يرضى وما لا يرضى عنه، وها أخبرك أن اختيارك للكفر له عواقب سيئة جدا... وَمِنْ تكملة الجملة سترى قراره تعالى بالعقاب الشديد على الكفر.

{وَإِنْ تَشْكُرُوا}، إذا عبّرتم عن اعترافكم له تعالى بالجميل لأنه خلقكم وخلق البيئة والظواهر التي أنتم فيها... وَتُعْلِنُوا أنكم حصلتم على أمور جيدة منه تعالى، وهذا عمليا إخلاص الدين له تعالى بشكره هو فقط، {يَرْضَهُ لَكُمْ}، فهذا شيء يقبله سبحانه منكم بمحبّة وَيَعْتَبِرُهُ جيّدا.

لاحظ وانتبه جيدا، عادة نحن والآخرون ننظر لهذا الدين "دين الإسلام"، على أنه يطرح علينا "عقيدة" لنؤمن بها، بينما القرآن يلفت انتباهنا لحقائق واضحة نراها بفكرنا ونفسيتنا، ويحذّرنا من عواقب تكذيبها والكفر بها، انْظُرْ للآية هنا من هذا المنظار وسترى كل القرآن يتحدّث معنا بهذه الطريقة، وَتَوْحِيدُهُ تعالى حقيقة واضحة، والشكر له تعالى فكريا ونفسيا هو تحصيل حاصل كنتاج طبيعي للتعبير عمّا حصلنا عليه من أمور جيدة منه تعالى لأنه الإله الأحد، وَلَا يطالبنا القرآن بالشكر له تعالى كعمل بلا معنى واقعي، كعمل جافّ، كعبادة مفروضة، كحركات وكلمات فارغة من المعنى لمجرد أَدَاءِ عبادة... بل كعمل عادي مشابه لأي شكر منّا للآخرين كردّ فعل طبيعي على الخير الذي نلناه منهم...

{وَلَا تَزِرُ}، أَيْ لَا تحمل حملا ثقيلا مزعجا حمله، {وَازِرَةٌ}، نفس وازرة، نفس حاملة لأشياء ثقيلة مزعجة، والكلام عن حملها لأعمالها السيئة التي ارتكبتها في الدنيا، لا تحمل، {وِزْرَ}، حملا ثقيلا لنفس، {أُخْرَى}. إِذْ لا أحد في يوم القيامة سيحمل ذنوبا عن أحد، وَكُلُّ واحد سيحمل أعماله السيئة ولن يجد من يحمل عنه، وهو أصلا لن يتبرع ليحمل ذنوبا عن غيره، وَكُلُّ واحد يحمل وزره الشخصي، ومن جهة ثانية هناك من غير المسموح أن يحمل أحد عن أحد.

الوزر هو الحمل والثقل، مثل الحقيبة والخرج والشنطة... وفي يوم القيامة سيحمل كل واحد منّا أعباء الأعمال التي قام هو بها في الدنيا، وَكُلُّ واحد ذنبه على جنبه، وها أخبركم سبحانه صراحة أنه لا يرضى بالكفر، ومن بعدها كُلُّ واحد منكم يتحمّل مسؤولية كفره، وطبعا يتحمّل مسؤولية ما نتج عنه من أعمال قام بها الآخرون بسببه، فإن روّج للكفر وبسببه كفر الآخرون، فهو عليه ذنب إضافي مما فعله الآخرون، وَكُلُّ سيئة فعلوها وهم متأثرون به، سيتحاسبون على ما فعلوه، وهو سيتحاسب أيضا عمّا فعلوه بسببه، وَهَذَا وزر نتج عن أعماله وليس وزرا يحمله عن غيره، وراجع في

ذلك دراسة الآية 25 من سورة النحل {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ...} ودراسة الآية 13 من سورة العنكبوت {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ...}.

لو رأيتم كل من حولكم مُشْرِكِينَ به تعالى، فهذا لا يعني أي شيء ولا يعطيكم العذر لتشركوا به تعالى، وَكُلُّ واحد منكم يحمل ذنوبه، وكل واحد يتحاسب عن أعماله، ولن تتحاسب عن غيرك، وَاهْتَمَّ بشؤونك وانتبه لنفسك.

{ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ}، حَيْثُ تقضون حياتكم هنا في الدنيا وتموتون ولكن لا تنتهي القصّة هنا، وَلَنْ تنتهوا ولن تختفوا ولن تذهبوا لعالم لا علاقة لله تعالى به... بل سترجعون إلى المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {فَيُنَبِّئُكُمْ}، وَيُخْبِرُكُمْ بالأمور غير المنتشر خبرها، {بِمَا}، بالذي، {كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، لِأَنَّكُمْ تحت المراقبة وسترجعون إلى ربّكم سبحانه وستتحاسبون على شرككم به.

{إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}، يَعْلَمُ سبحانه بتفاعلكم الداخلي الفكري والنفسي الذي يحصل معكم مما تتعرضون له، وَأَنْتُمْ تحت المراقبة حتى على المستوى الداخلي، وليس فقط المعلومات التي في داخلكم يعلمها تعالى بل حتى تفاعلكم، ردّة فعلكم، مشاعركم... يعلمها تعالى.

لا يُمْكِنُكَ الكذب عليه تعالى، فإن أعلنت توحيده وشكرته وكنت صادقا فهو تعالى يعلم، وإن كنت كاذبا تميل لشكر غيره، وَلَا تتفاعل بالشكر له تعالى بسبب الأمور الجيدة التي حصلت معك، وَلَا تشعر بالتمام أنه هو تعالى فقط وفقط يستحقّ الشكر، فهو تعالى يعلم ذلك، وَانْتَبِهُوا فهو تعالى يعلم حتى ما تخفونه في صدوركم.

نلاحظ أَنَّ القرآن يسمّي ما يحمله الناس في يوم القيامة من ذنوب أنها "وزر" فهي ثقيلة على من يحملها، وَيَشْعُرُ بالتعب منها، وأمّا الحسنات فلم يعبّر عنها القرآن بالوزر أبدا، ولم يعبّر عنها حتى بالحمل، وعلى كل حال لا تتصوّر أكياسا فيها السيئات "الثقيلة المتعبة" يحملها الناس، ولا أكياس حسنات خفيفة، لا، حَيْثُ هنا في الدنيا نضع الأحمال المادية من الأغراض في مستوعبات، وهناك أوزار معنوية نعيش تحت ضغطها كالعيش تحت وزر الدين، وزر الاتهام، وزر الإهانة... أمّا الأعمال والنيّات والأقوال ففي الآخرة هي الوزر الثقيل المزعج حمله، وَتَصَوَّرْ بالتقريب أنك في يوم القيامة طالبتك أنا بمال لم تردّه لي، فأنت تحت وزر الدين، ونفس الشيء لو طالبتك بعمل سيّء قمت به معي في الدنيا، فأنت تحت وزر العمل السيّء، وهو هذا المعنى عن عموم السيئات التي قمنا بها وَنَحْنُ تحت وزرها في الآخرة.

عَبَّرَتِ الآيات القرآنية عن الإيمان والعمل الصالح أنه ثواب، حسنات، فرح، عطاء إلهي... فهذا لا يصحّ وصفه بالوزر ولا بالحمل، أمّا السيئات، فيعيش من قام بها تحت وطأتها، تحت أثر عذابها وآلامها، وَيَحْمِلُهَا معه كوزر كحمل ثقيل يلازمه ويعذّبه ولا يفارقه.

بالنسبة لكلمة "صدر، صدور" فإن لم يكن القصد بها لأعضاء الجسد للقفص الصدري وما تحته من أعضاء... استعملها القرآن كما يستعملها الناطقون باللغة العربية وكما هي مستعملة في العديد من اللغات الأخرى، حَيْثُ نشير بالصدر للتفاعل الداخلي للإنسان مع ما يراه ويسمعه ويشعر به مما يتعرّض له... وَنَحْنُ عندما نتعرّض لمختلف الظروف، نشعر بالانقباض أو الانشراح... في صدرنا، وَاسْتَعْمَلْنَا كلمة صدر لتوصيف حالة تفاعلنا مع الأمور، وحتى لو لم تشعر بأي شيء في قفصك الصدري، من انقباض أو صعوبة في التنفّس أو راحة... فمجرد تفاعلك مع ما تعرّضت له، فإن مختلف اللغات البشرية تعبّر عن هذا التفاعل بأن شيئا حصل في صدرك، وحتى السرّ الذي تخفيه عن الآخرين تعبّر عنه مختلف اللغات بأنه في صدرك، وكلّنا نعلم أن السرّ ليس في القفص الصدري، وَلَيْسَ تحته في الرئة أو القلب أو المريء... بل هو تعبير يشير لحالة تفاعلنا مع ما ندركه سواء بقي مخفيا أو ظهر له أثر حسّي في منطقة الصدر أو على تعابيرنا وحركاتنا.

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ {8})
{وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ}، إذا الغالب الأعم من الناس أصاب واحدًا منهم، {ضُرٌّ}، ضرر كأذية كبيرة في جسده أو مصالحه، عندها، {دَعَا رَبَّهُ}، أشهر وأعلن للمسؤول عنه من مستوى إلهيّ، والكلام هنا عن طلب كشف الضرّ، {مُنِيبًا

إِلَيْهِ}، تاركًا لكل شيء وراجعًا فقط إلى ربّه سبحانه، تاركًا الآلهة الأخرى التي كان يعتقد بها ومتحوّلًا فقط نحو الله تعالى.

ركّز القرآن مرارًا على هذه النقطة، ففي الورطات الثقيلة يقوم الناس بالتوجّه فقط وفقط نحو الله تعالى، ناسين كل ما عداه من آلهة كانوا يعتقدون بها.

{ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ}، بعد الضرّ أعطى سبحانه لهذا الذي دعاه إمكانية الحصول على، {نِعْمَةً مِّنْهُ}، شيء يوصف بأنه جيّد من الله تعالى، وبعد حصوله على النعمة من الله تعالى برفع الضرر أو تبديل الظروف أو إتاحة فرصة للخروج من المأزق... عندها، {نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ}، وما أعلن عنه سابقًا طالبًا المساعدة منه تعالى حين كان في ورطة، ذهب من تركيزه، وصار من الماضي، {وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا}، جعل آلهة ندّةً مقارنة مشابهة لله تعالى في الألوهية، {لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ}، حتى يصير هو نفسه والآخرون على المسلك غير المسلك المؤدّي إلى الإيمان بالله تعالى، وهنا الكلام عن تركه وتشجيع الآخرين على ترك توحيده تعالى.

لو اعترف بالنعم التي حصل عليها منه تعالى لكان تحفيزًا لنفسه وللآخرين للسلوك على شكره وتوحيده تعالى، ولكنه نسي ذلك عن قصد وتجاهل، وصار على المسلك غير الصحيح وسيؤثّر على غيره أيضًا فيشجعهم على إنكار توحيده في فضله تعالى عليهم.

{قُلْ}، يا محمّد(ع) لهذه النوعية من الناس عبر هذا القرآن:

{تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا}، استفد مما حولك من متاع من مقوّمات وموارد، واستفد من صحّتك ومالك وطعامك... بكفرك وأنت بحالة إنكار لوحدانية الله تعالى، ولكن قليلًا فهذا التمتّع لن يدوم ولن يطول وزمنه ينتهي بانتهاء عمرك القصير وبعد ذلك، {إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}، أنت حتمًا مع الذين سيكونون في نار الآخرة.

تذكّر أنه تعالى جعل فينا ما يعرّفنا عليه، ومنحنا الفكر القابل لملاحظة السماوات والأرض وما فيها لنرى أن إلهًا فائق القدرات وبصفات حسنة خلقها، وأنه واحد أحد... وينتج عن ذلك مشاعر الإعجاب بما فعله تعالى ومشاعر التقدير والاحترام والحبّ... للإله الذي لم نَرَ منه إلا كلّ خير، وينتج عن ذلك تعلّقنا بذي القدرة الفائقة عند وقوعنا في المصائب ليساعدنا.

وهذا هو الذي على أساسه نتحاسب ونتجازى إن أنكرنا ما نراه بفكرنا ونشعر به نحوه تعالى، ومضافًا لذلك زوّدنا تعالى بكتب وصلتنا عبر رسله وبكل سهولة سنعرف أنها إلهية المصدر من محتواها الحقّ الصالح... ومضافًا لذلك حصلت بعض التدخلات الإلهية غير العادية كإهلاك أقوام بسبب كفرهم وكالآيات التي جرت على يدي النبي موسى(ع) وعيسى(ع).

ما يقولونه في بعض الدراسات عن "اختراع" الإنسان "البدائي" للإله ناسبًا له ما يجهل سببه، فينسب له تنزيل المطر مثلًا، ومتعلّقًا به عند الشدائد، فكلامهم صحيح ولكنه ليس اختراعًا للإله بل تعرّف عليه، وإلا فكيف سنتعرّف عليه تعالى؟ والمشكلة أن كلام الباحثين هذا فيه تسفيه لعقيدة الدين الإلهي، بينما هم معهم حقّ في الكثير من الجوانب في تسفيه دين الطفولية والسذاجة المنتشر في غالبية المنتمين لدينه تعالى، وهو نفس العطل الذي جعل الآخرين يخترعون آلهة متعددة من خيالهم، فاخترعوا إلهًا للمطر وآخر للنار وغيره للريح...

الغالبية الساحقة من الباحثين لم يميّزوا بين كلامه تعالى وبين كلام المنتمين لدينه، فحاسبوا دينه تعالى بناءً على كلام المنتمين لدينه، ولم يعتمدوا صراحة وبساطة وظاهر ما يقوله القرآن، وهو المصدر الوحيد الموثوق حاليًا لكلامه تعالى، فساووه مع كتب أهل الكتاب التي لم تَبْقَ على حالها كما نزلت منه تعالى وجرت إعادة صياغتها بما فهمه منها المنتمون لدينه تعالى، وبما أضافوه وحذفوه مما لم يعجب هواهم السيّء... والباحثون ساووا القرآن مع الروايات والتفاسير التقليدية الشارحة له.

كيف سنطلب من أولئك الباحثين العلمانيين ألّا يظلموا دينه تعالى المختلف عن الدين الساذج الطفولي لعموم المنتمين لدينه تعالى؟ وكيف سنطلب منهم اعتماد ظاهر القرآن الصريح ليروا دينه تعالى على حقيقته الصافية بينما المنتمون

لدينه تعالى ليسوا معتمدين على القرآن؟ فهم لديهم آراء عقائدية وفقهية مذهبية وآراء علمية مبنية على معطيات قديمة، ويلوون القرآن ليتوافق مع آرائهم!

(أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ{9})

في مقابل ذلك الذي لا يدعو الله تعالى وحده إلّا في حالة الضرّ وبعد ذلك ينسى ويشرك، هل حالته مشابهة لـ:

{أَمَّنْ هُوَ}، هل الشخص الذي، {قَانِتٌ}، يعلن أنه تحت الطاعة والحاجة، والكلام هنا عن قنوته لله تعالى، {آنَاءَ اللَّيْلِ}، خلال فترة أو فترات من وقت العتمة من اليوم، {سَاجِدًا}، يقوم بالحركات التي تعبّر عن أقصى درجات الخضوع، وبالنسبة لنا هو تقريب أو وضع جبهة الوجه على الأرض، ويقضي وقتا من ليله، {وَقَائِمًا}، واقفا منتصبا، {يَحْذَرُ الْآخِرَةَ}، ينتبه من احتمال شيء سيّئ قادم في الزمن الذي سيأتي في الآخر بعد انتهاء الدنيا، إذا توافرت فيه شروط حصول السوء، {وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ}، يتوقّع ويحبّ الحصول على العناية لما فيه مصلحته من المسؤول عنه من مستوى إلهيّ.

{قُلْ} عبر هذا القرآن للناس:

{هَلْ يَسْتَوِي}، هل هما في نفس مرتبة القيمة والاعتبار، هل يتساوى ويتماثل، {الَّذِينَ يَعْلَمُونَ}، بالآخرة والحساب والجزاء، {وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}، يتصرفون على أساس أنه لا يوجد آخرة ولا حساب ولا جزاء؟

الجواب معلوم: طبعًا لا. ذلك الذي يشرك ولا يشكر ولا يتوقّع أي حساب في الآخرة، لا يتساوى مع من يعلن أنه تحت الطاعة ويتعبّد ويتقرّب إلى الله تعالى...

{إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ}، فقط يستحضر في فكرهم ومشاعرهم، {أُولُو الْأَلْبَابِ}، الذين عندهم لُبٌّ وعندهم شيء له قيمة في داخلهم، ويفكّرون ويفهمون الأمور بطريقة صحيحة، أمّا الذين قالب بلا قلب، كجسد ودماغ ولكن بلا لبّ بلا فهم ولا مشاعر صادقة فهم لن يستحضروا ربّهم سبحانه في فكرهم ومشاعرهم لأنهم لا لبّ لهم، ولا شيء له قيمة في داخلهم.

ننتبه لتعبير الآية بالحذر من الآخرة ورجاء الرحمة، دائمًا يعرض القرآن صورة دقيقة، وبحسب المرويات لدينا حالة نادرة جدًّا في سورة الإنسان عن أهل بيت الرسول(ع) المشهورين بأهل الكساء، أنهم وُعِدوا بالجنّة وهم لا يزالون أحياء، وهذه حالة نادرة جدًّا جدًّا لا نجد غيرها في القرآن بهذا التصريح الصريح، وبقية تصاريح القرآن بالوعد بالجنّة كانت عمومية لكل من حمل مواصفات الإيمان والعمل الصالح، ولدينا حالة نادرة جدًّا معاكسة بوعد أبي لهب وزوجته أم جميل بالنار وهم لا يزالون أحياء تحت التكليف، وإبليس مثلهم، وبغضّ النظر عن هاتين الحالتين الصريحتين، فإن بقية الناس المؤمنة تعيش حالة الحذر من الآخرة، لأنهم ليس لديهم براءة صريحة من النار، ولا يدرون إن كانوا سينجون في الآخرة، ويعيشون حالة الحذر وهي حالة توقّع الخطر إن فعلوا السوء، ويقومون بالواجبات ويتركون المحرمات حذرًا من الآخرة، وفي نفس الوقت لديهم رجاء من الوعود الإلهية وحصل لديهم توقّع مرجّح لحصولهم على الرحمة الإلهية، وهم مؤمنون ملتزمون يستغفرون... ويعلمون من الله تعالى أنه وعد الذين بهذه المواصفات أن ينالوا المغفرة والجزاء الحسن المضاعف.

نلاحظ من عموم كلام القرآن وجود تصنيفات لدرجات المؤمنين من حيث تقرّبهم منه تعالى، هناك الأساس بالالتزام بالواجبات وترك المحرمات، وهناك ما هو فوقه من المبادرة للأعمال الحسنة والدعاء وصوم التطوّع والصلاة النافلة... وراجع في ذلك الآية 32 من سورة فاطر {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ}... وهنا الآية تضرب مثالًا متطرّفًا من الجهة الثانية المعاكسة تمامًا لمن كفر ولم يخلص الدين له تعالى، وذكرت الفرق بين الطرفين البعيدين، بين من لم يخلص، وبين من أخلص لدرجة قيامه تطوّعًا للعبادة في الليل.

نجد اهتمامًا قرآنيًّا بخصوص العبادة ليلًا، على أساس أنها من أشدّ علامات التقرّب إليه تعالى، ومن أشهرها صلاة الليل وقراءة القرآن والاستغفار والتسبيح والحمد وعموم الدعاء المادح والمتضمن لرغبة التقرّب منه تعالى.

ضع في بالك دائمًا الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى معانيَ قرآنيةً رائعة لن تراها من مرادفة كتب التفاسير لهما مع بعض "أنذر بـ حذّر وبالعكس" أو تفسيرهما بالخوف أو الخشية... حيث ستجد في عموم التفاسير استعمالهم هذه الكلمات لتفسير بعضها البعض كمترادفات، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لترى المعنى الدقيق لهذه الكلمات في أي آية تظن أنها ستكون مترادفة فيها لترى الفرق، ومثلها كلمة يرجو المختلفة عن يأمل ويطمع... ولفهم الفرق بين كلمتي "حذر وإنذار" تصوَّرْ شخصًا أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أيًّا منهما بعد، في هذه الحالة "تحذّره" من سلوك الطريق السيِّئ، لأنه حاليًا ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، أمّا إذا سلك طريق الخطر "فتنذره" لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. الإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتمًا ما يضرّه، وتنذر الكافر لأنه في حالة ستسبّب له العقاب حتمًا. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يصير فيما سيسبّب له الضرر، وتحذّر المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

هذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، لأن المؤمن يقوم بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، عندها تنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة النصارى المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف {وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}.

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ{10})
{قُلْ}، يا محمّد(ع) عبر هذا القرآن:

{يَا عِبَادِ}، يا أيها الذين مفروض منهم طاعتي، {الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا أنهم معتقدون بي إلهًا، وفي دراسة الآية 46 من هذه السورة سنتوسع في معنى كلمة عبد. قل لعبادي:

{اتَّقُوا رَبَّكُمْ}، تجنبوا غضب وعقاب المسؤول عنكم من مستوى إلهيّ، وأطيعوا أوامره بترك ما ينهاكم عنه وفعل ما يأمركم به، وهو نفسه ترك السوء وفعل الصالحات.

{لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا}، الذين كانت أعمالهم موصوفة بأنها حسنة، لأنَّ كل ما يأمر به تعالى حسن، والعقلانيون منّا يرونها أوامر حسنة ولهم، {فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ}، هنا في هذه الحياة التي يعيشونها الآن سينالون أمورًا منه تعالى وموصوفة بأنها حسنة، وسينالون عنايته تعالى كما نعلم من القرآن بإنارة قلوبهم وأبصارهم وهدايتهم للطريق الصحيح... وإن عاشوا في مجتمع مؤمن يستغفر فستنزل عليهم بركات من السماء... وإن تعرضوا لعدو سينصرهم تعالى... {وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ}، ليست ضيّقة، فإن كنتم في مكان يمنعونكم فيه من تقواه تعالى والعمل الحسن، فهاجروا إلى مكان آخر على أرض الله تعالى الواسعة.

{إِنَّمَا يُوَفَّى}، فقط يحصل بالتمام بدون نقص، {الصَّابِرُونَ}، الذين لم تفلت أعصابهم ولا أفعالهم ولا مشاعرهم ولا أفكارهم وبقيت رصينة حكيمة أمام الأزمات والمشتهيات... وهؤلاء يحصلون بالتمام والكمال على، {أَجْرَهُم}، على مقابل حدّده تعالى سلفًا على أعمالهم، {بِغَيْرِ حِسَابٍ}، لأنه ليس بينهم وبينه تعالى حساب حتى يطالبوا بالأجر، ولم يقدّموا أي شيء لربّهم سبحانه حتى يطالبوه بالأجر، بل هو سبحانه قرّر أن يعطيهم الأجر على الحسنات.

بعبارة أخرى هم عبيده لأنه تعالى إلههم المفروض منهم طاعته، وتوحيده واجب عليهم وليس تقدمة منهم له تعالى لأن الحق هو وحدانيته تعالى كإله، والعمل الحسن واجب عليهم وتصرّفهم الحسن لا يوجب على الله تعالى كفرض واجب أن يؤجرهم عليه ويرزقهم وينعّمهم، ولا أحد يتصوّر أنه سيضرب رجله بالأرض "يحتجّ معترضًا" في يوم القيامة ويقول: آمنت وكنت أصلّي والآن أريد أجري على ذلك. لا هذا ولا غيره يمكن أن يحصل، لأنه لا أحد له فرض واجب عليه تعالى، بل هو سبحانه وبغير حساب بينه وبين عبيده المؤمنين سيعطيهم الثواب.

أمّا تفسير "بغير حساب" على معنى فتح أفق العطاء بلا حدود، فهذا صحيح أنه سيحصل ولكنه ليس تفسيرًا للجملة هنا، وهذه مشكلة منتشرة في عموم التفاسير حين يذكرون كلامًا صحيحًا كتفسير لآية ما، ولكنه ليس المعنى الذي تقصده الآية، وخذ مثلًا سهلًا عن ذلك تفسيرهم للآيات التي تتحدّث عن الأجر الكريم في الآخرة على معنى العطاء بكثرة،

وهذا الكلام صحيح ولكن كلمة "كريم" ليس معناها المباشر ذلك لأنها في مقابل "مهين"، وتلك الآيات كانت تتحدّث عن القيمة العالية التي سيشعرون بها عند حصولهم على أجرهم.

ضع في بالك دائمًا أن تعابير القرآن لا تشير إلى فرض واجب عليه تعالى بإدخال المؤمنين إلى الجنّة، وبالتعبير الدقيق قرّر تعالى إدخال المؤمنين العاملين للصالحات إلى الجنّة، وبتعبير متساهل فيه ودارج ولكنه غير دقيق، أوجب سبحانه ذلك على نفسه. كلمة أجر بالنسبة لاستعمالنا نحن لها فيما بيننا تتضمّن أنك تعمل لي ويجب عليّ دفع الأجر لك، أمّا بالنسبة له تعالى فتؤمن وتعمل صالحًا لنفسك، وأنت تؤمن بما هو حقّ وتعمل ما هو صالح فهل تريد أجرًا على ذلك؟ وتصلّي وتصوم وتتصدّق لتُغفر ذنوبك... وتجاهد دفاعًا عن نفسك وعن حقوقك في حرية معتقدك بالحقّ وانتشار الصلاح في مجتمعك... لأنه لا يوجد ولا أي شيء ديني تفعله أو تقدّمه لله تعالى ولا علاقة لك به، مثلًا الصدقة على المحتاج عمل صالح واجب عليك كإنسان صالح...

وهكذا نفهم أنه تعالى من فضله حدّد أجرًا لمن آمن وعمل الصالحات، وحدّد ما سينالونه إن آمنوا وعملوا الصالحات، وبعد هذا القرار الإلهي يصير وصف الحالة أنهم سينالون ما يستحقونه مما حدّده تعالى، وليس واجبًا عليه تعالى ولا بأي شكل مجازاتهم بالجنّة ولا بأي شيء آخر.

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ{11})
{قُلْ}، يا محمّد(ع) عبر هذا القرآن لكل الناس:

{إِنِّي أُمِرْتُ}، وَصَلَني أمر ويجب أن أنفّذه، {أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ}، مفروضٌ منّي طاعة صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز ويجب أن أتصرف على هذا الأساس، وتذكّر دائمًا أن كلمة عبد تشير لمن مفروض منه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

{مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ}، ما أدين به، وما عليّ كتبعات لكونه تعالى إلهي وأنا عبده، هناك أمر منه تعالى أن يكون ديني له تعالى فقط، وممنوع عليّ أن أدين لأحد آخر بأي شيء من مستوى إلهيّ، ولا أحد غيره تعالى إلهي حتى يكون له عليّ تبعات العبودية.

كما ترى هذه الآية تعيدنا إلى محورية كلام السورة عن إخلاص الدين له تعالى.

في الآية الثانية من هذه السورة توسعنا في دراسة كلمة دين فراجعها.

(وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ{12})
{وَأُمِرْتُ}، لا مجال لرأيي في الموضوع، {لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ}، أوّل المنقادين المطيعين.

ورد نفس هذا التعبير في الآية 163 في سورة الأنعام {لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}، وليس معناها أني الأول والبقية ثانٍ وثالث... مثل الانطلاق من خطّ السباق، لا، فهذا غير صحيح حيث سبقه (ع) عبر التاريخ مسلمون كثر من الأنبياء والرسل والصالحين، ولا يقصد أنه الأول في تاريخ البشرية، ولا يقصد أنه حاصل على المرتبة الأولى من بين الذين أسلموا، لا، بل يقصد أنني لست مثل الملوك والرؤساء والزعماء الذين فوق القانون، ولست أقول لكم شيئًا لتلتزموا به أنتم وأنا لن ألتزم به، كالواعظين بالأخلاق وهم بلا أخلاق... بل أنا أوّل من يسلم وينقاد للأوامر الإلهية، وما أنقله لكم عن إخلاص الدين لله تعالى، أنا لست فوقه، ولست مختلفًا عنكم، بل أوّل من يعتبر نفسه تنطبق عليه أوامر الاستسلام والانقياد لله تعالى، فأعتقد وأجري على نفسي الانقياد له تعالى.

تصوَّرْ شخصًا يقول للآخرين: فلنذهب إلى الحرب وأنا أوّل واحد. يعني آمركم أو أعرض عليكم الذهاب إلى الحرب وأنا من ضمنكم وذاهب معكم، ولا يقصد أنه سيمشي أوّل واحد، ولا يقصد أنه سينطلق أول واحد، ولا يقصد أنه سيكون في الأمام وأوّل من يهجم... لا، بل أنا أوّل واحد ينطبق عليه ما يقول.

أنت وأنا مأموران بأن نكون أوّل المسلمين، فأيّ معلومة حقّ تصلنا فأنت وأنا مأموران بالإذعان لها والإيمان بها، وأي عمل صالح أو فاسد نميّزه فنحن مأمورون بالتقيّد بفعل الخير وترك الشرّ، وعادة نحن لسنا كذلك، ومستوانا أقل من هذا المستوى، ولذلك تصدق الآية هنا بتنفيذ أمرها على المؤمنين من الدرجة العالية.

ولكن يمكننا على الأقل وعلى المستوى النظري أن نعلن إيماننا بتوجّه هذه الآية بكلامها لنا، مع اعترافنا بأننا لسنا من المؤمنين من الدرجة العالية. وأقول لك هذا لأن النفاق يتضمّن أن أكذب على نفسي مدّعيًا بيني وبين نفسي أني مؤمن من الدرجة العالية، وقد أقول ذلك صراحة، وقد أقوله ضمنيًّا حين أستغرب إن لم يستجب سبحانه لدعائي وكأني من المؤمنين من الدرجة العالية الذين لا يردّ لهم سبحانه أي دعاء.

الفسق أسوأ حالاته رفض الاعتراف بسوء ما خالفنا به صريح كلامه تعالى، والأخف منه اعترافنا بسوء ما نفعله، وهذه هي عادة حالة عموم المنتمين لدينه تعالى من الدرجة المتوسطة إيمانيًّا.

أطلت عليك الكلام لأننا عمومًا حتى على المستوى النظري بالإسلام له تعالى نكون ظالمين، وبدل الاعتراف بسوء عقيدتنا وشريعتنا وسلوكياتنا، نقوم بتبريرها لتصير هي إسلامنا بدلًا من الإسلام له تعالى، ومضافًا لها نفاقنا بمخالفة ما نقوله للآخرين ليسلموا به!

هذه مشكلة تراها بوضوح في نظرة المنتمين للأديان الأخرى والعلمانيين لنا، فهم يروننا فاسقين منافقين حتى عن ديننا، وهم مسرورون بذلك ولا يحبّون لنا الإيمان، ولكنهم يستغلون فسقنا ونفاقنا لمحاربة دينه تعالى وجعله يبدو فاسدًا.

الآية هنا وعموم كلام القرآن يأمرك ويأمرني بالإسلام له تعالى، ومعلوم أننا درجات في الإيمان والعمل الصالح، بداية من المتقين مرورًا بالمقتصدين وصولًا إلى الفاسقين والمنافقين من العيار الثقيل، وطبعًا عادة نحن ندّعي وسطية الإيمان، ومضافًا لذلك علينا أن نفصل علنا بين التنظير في دراسة قرآنه تعالى وبين تطبيقنا نحن له، فنعترف بالسوء الذي فينا حتى نتمكّن من تركه أو الاستغفار منه، وبذلك ننجو من النار، وهذه مهمّة ليست بالسهلة لأن فعل أي سوء ومهما كان صغيرًا سيترك أثرًا على أفكارنا ونفسياتنا، وسيظهر أثره على المستوى النظري حتى لو حاولنا أن نكون صادقين.

ولكننا على الأقل لن نعرض كلامنا عن إسلامنا نحن على أنه الإسلام الحقيقي له تعالى، عَلَنًا نقول لأنفسنا وللآخرين: هذا إسلامي أنا على مستواي أنا، والأنبياء وحدهم النموذج المثالي المضمون للإسلام له تعالى، ولا أحد غير الأنبياء "والصالحين من الدرجة العالية" مؤهّل ليكون قدوة إيمانية للآخرين.

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ{13})
{قُلْ}، يا محمّد(ع) عبر هذا القرآن:

{إِنِّي أَخَافُ}، أشعر بخطر لا يمكنني تجنّبه، {إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي}، إن لم أطع المسؤول عني من مستوى إلهيّ، أخاف، {عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، هناك زمن يحصل فيه عذاب غير عادي لمن لم يطعه تعالى، وأنا أشعر بذلك الخطر وأعلم بأنني إن عصيت لا يمكنني الفرار منه.

تذكّر الفرق بين الخوف والخشية، كلاهما شعوران بقدوم خطر، ولكن الخوف شعور بانتفاء إمكانية تجنّب الخطر، والخشية شعور بخطر يمكن تفاديه وتجنّبه، وهنا ترى الخوف إن عصيت... فإن عصيت فهناك عذاب لا يمكن تجنّبه.

بعبارة دارجة: ليس عليّ خيمة زرقاء، لست مميّزًا ولي عقاب مثل أي واحد منكم إن خالفت الأوامر الإلهية. وهكذا ترى معنى الجملة السابقة "أول المسلمين" بشكل أوضح، فأنا أوّل من يطيع وينقاد وإلا فمصيري العقاب.

لمزيد من الوضوح لمعنى كلمة خوف وفرقها عن الخشية راجع الآية 21 من سورة الرعد {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ}.

(قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي{14})

{قُلِ}: {اللَّهَ أَعْبُدُ}، أعتقد وأعتبر نفسي وأشعر بأني مفروض مني طاعة صاحب الاسم المحدّد المميّز الله سبحانه وأتصرّف على هذا الأساس، {مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي}، أشعر وأعتقد بأني مدين فقط لله تعالى، وبالتالي لن أشعر ولن أتصرف على أساس أني أدين لغيره تعالى بأي شيء.

في الآية الثانية من هذه السورة توسعنا في دراسة كلمة دين فراجعها.

(فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ{15})
{فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ}، كما نقول: ذهبتم من دوني. وتقصد ذهبتم مع غيري وتركتموني، وهذا التعبير يشير لتركهم اعتباره تعالى وحده مفروضًا عليهم طاعته وتصرفوا على أساس أنهم مفروض منهم طاعة إله غيره تعالى، فهم ربما في مسألة ما فقط عبدوا غيره تعالى، وربما في مسائل كثيرة، وربما دائمًا، وربما في مرّات عبدوا الله تعالى مع عبادتهم لغيره... لا يهمّ، لو لمرة واحدة اعتبروا أنفسهم وتصرّفوا على أساس أنهم عبيد لغيره تعالى، فهم عبدوا من دونه، أطلت عليك الكلام في هذه النقطة لأن السورة كما تراها من أولها لآخرها تتحدّث مع أناس يعترفون بالله تعالى إلهًا ربًّا، بصراحة أو بشكل غير مباشر، ولكن بطريقة أو بأخرى اعتبروا أنفسهم عبيدًا لغيره أو لم يعتقدوا أنه تعالى ربّهم إلههم في شيء ما محدّد.

إذًا هذا ما يأمر سبحانه رسوله(ع) أن يعرضه عليكم من إخلاص الدين لله تعالى، وهناك خيارات أخرى، وإذا لم تخلصوا الدين لله تعالى، فاعبدوا ما شئتم من الخيارات الأخرى، ولكن، {قُلْ}، لهم إن عبدوا غيره تعالى: {إِنَّ الْخَاسِرِينَ}، إن الذين فقدوا شيئًا مهمًّا له قيمة، هم، {الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ}، فقدت أنفسهم قيمتها وصارت مهانة، ولم يخسروا مالهم ولا بيوتهم... بل سبّبوا لجسدهم ولنفسيتهم الألم الشديد لأنهم فقدوا قيمتهم عنده تعالى فسيهينهم ويعذّبهم، والخاسرون هم الذين، {وَأَهْلِيهِمْ}، فقدوا الناس المنتمين لهم، {يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، في زمن القيام من الموت، فالكافرون حتى أهلهم وهم أقرب الناس لهم سيخسرونهم، وإن كان أهلهم من المؤمنين لن يهتمّوا بهم، وإن كانوا مثلهم كفّارًا فأيضًا لن يهتمّوا بهم لأن كل كافر تركيزه على مصيبته.

تذكّر آيات عديدة ذكرت تفاصيل عن أقارب وأحبّاء وأخلّاء... الكافر، أنهم في يوم القيامة يتبرؤون منه، راجع كمثال الآية 34 وما بعدها من سورة عبس {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ}، والآية 67 من سورة الزخرف {الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ}، وهنا الآية اكتفت بذكر الأهل كنموذج عمّا هو عادة من أقرب الأقرباء للشخص.

{أَلَا ذَلِكَ}، فعلًا الخسران للنفس والأهل، {هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}، بشكل واضح لا يوجد خسارة أكبر من هذه الخسارة، لا يوجد فقدان لشيء له أهمية أكثر من خسارة النفس والأهل.

إذًا يمكنكم أن تعبدوا ما تشاؤوا ولكن عليكم تحمّل تبعات ذلك.

(لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ{16})
{لَهُم}، للخاسرين، {مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ}، طبقات فوق بعضها من النار فوقهم تظللهم تحتها، والمظلّة تحملها لتظللك وتصير تحتها، وهم فوقهم مظلّات من طبقات من النار، {وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ} أيضًا من النار، كما لو أنهم في وسط كرة، ومن حولهم طبقات من النار، أو على سطح كرة وفوقهم طبقات من النار والأرضية تحتهم مكوّنة من طبقات من النار.

{ذَلِكَ}، الوصف للمظلات من النار، {يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ}، يَذْكُرهُ تعالى للذين مفروض منهم طاعته حتى يشعروا بخطر العذاب الذي لا يمكن تجنّبه إن شاؤوا عبادة غيره تعالى.

بناءً على هذا التخويف: {يَا عِبَادِ}، يا أيها الذين مفروض منهم طاعتي، {فَاتَّقُونِ}، تجنّبوا غضبي وعقابي، وهنا الكلام عن الالتزام بتوحيده تعالى وإخلاص الدين له وإلا فستنالون العقاب الشديد.

لاحظ لحدّ الآن كم كرّرت السورة كلمة عباد ومشتقاتها، لأنَّ محورية السورة عن إخلاص الدين له تعالى من عبيده، وكما ترى، كلامها عن إله وعبيد، وإخلاص الدين.

سنتوسع في دراسة كلمة عبد في الآية 46 من هذه السورة.

(وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ{17})
{وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ}، ابتعدوا ولم يقربوا الطغيان بأي شكل كان، وابتعدوا عن التعدّي على حدود الله تعالى بأشكاله المتنوّعة، {أَن يَعْبُدُوهَا}، أن يتصرّفوا على أساس أنهم مفروض منهم طاعة الطغيان بأنواعه وأشكاله المختلفة، {وَأَنَابُوا}، تركوا كلّ شيء ورجعوا فقط، {إِلَى اللَّهِ}، إلى صاحب هذا الاسم المحدّد فقط وهؤلاء، {لَهُمُ الْبُشْرَى}، لهم الخبر السارّ بشيء قادم، وهو فوزهم بالجنّة، {فَبَشِّرْ عِبَادِ}، احمل الخبر المفرح للذين تصرفوا على أساس أنهم مفروض منهم طاعتي فقط، طبعًا البشرى للعباد الذين يجتنبون الطاغوت وتكملة البشرى في الآية التالية...

لاحظ أن كلمة طاغوت تبدو غريبة بعض الشيء، لأنها غير منتشرة الاستعمال، ويبدو أنها اشتقاق قرآني "من الطغيان" وربما لم يسبق أن استعمله العرب، أو ربما استعملوه قبل نزول القرآن ولكن لم يصلنا أثر عن ذلك منهم عبر أشعارهم، ومثلها حالة كلمة إستبرق، ومن البديهي أن أشعارهم قبل الإسلام لم تستعمل كل كلمات اللغة العربية وكل الاشتقاقات من الكلمات.

أشار القرآن بكلمة طاغوت للشخص وللقانون وللشريعة... التي تخالف حدود الحقّ والصلاح وهي نفسها الحدود الإلهية، وأي مخالفة هي طغيان، وهي خروج عمّا حدّده لنا تعالى، فإن اعتبرت نفسك عبدًا لإنسان أو لإله غيره تعالى فقد طغيت وعبدت الطاغوت، وإن اعتقدت بعقيدة تخالف العقيدة الإلهية فقد طغيت وعبدت الطاغوت... وهكذا، الطاغوت صفة عامة لكل أنواع وأشكال الطغيان، والقرآن قصد بها الطغيان على الأوامر الإلهية.

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ{18})
{فَبَشِّرْ عِبَادِ}، {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}، ما يسمعونه من أمور جيدة يلتزمون بها، وهم يسمعون كلامًا كثيرًا من هنا وهناك، ولكنهم يتبعون أحسن الكلام، وأحسنه بالطبع هو الكلام الإلهي.

{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ}، هم الذين وضعهم تعالى على الأشياء الصحيحة التي توصلهم للغاية الصحيحة، {وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ}، هم الذين عندهم لُبٌّ، وعندهم شيء له قيمة في داخلهم، ويفكّرون ويفهمون الأمور بطريقة صحيحة. وطريقة صياغة الجملة مدح لهم وذمّ للآخرين، وهي على معنى أنهم هم فقط الذين فيهم شيء له قيمة والآخرون فارغون بلا فهم ولا عقل.

لاحظ وانتبه جيّدًا للفرق الهائل بين عرضه تعالى لدينه وبين عرضنا نحن له، لأنَّ أصل الدين الإلهي هو أهليتنا للتكليف، وقد زوّدنا سبحانه بما نميّز به بين الحقّ والباطل والخير والشرّ، ومنحنا حرية الإرادة والاختيار لفعل ما نريد، وهناك مجازاة على ما اخترناه... وتختصر الآية 7 وما بعدها من سورة الشمس كل ذلك {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (10)}، وهنا الآية وبقية كلام القرآن يشير للحقّ والصلاح فيما يأمرنا به تعالى مما نحن فينا قابلية لرؤيته حقًّا وصلاحًا، وبشكل مبسّط لا يوجد شيء سيِّئ في دينه تعالى ويجب علينا الالتزام به، بل نسمع كل شيء، ونتبع أحسنه، وهكذا نكون على دينه تعالى الذي لا يأمر إلا بما هو حسن.

وصف الحسن "أحسن" مطلق، ولا داعي لمقابلته بشيء أقل حُسْنًا أو سيِّئ، وتفهم ذلك من الآية 145 من سورة الأعراف {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ... وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا}... وليس في التوراة شيء سيِّئ أو شيء أحسن من شيء، ونفس المعنى بشكل واضح في الآية {وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، ونفس المعنى في الآية 96 من سورة النحل {مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، والتعبير في الآية 125 من سورة الصافات {أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ}، لا يقصد أن الآخرين يخلقون وسبحانه أحسن منهم، بل سبحانه مطلقًا أحسن الخالقين حتى لو لم يَكُنْ كل الآخرين يخلقون أي شيء.

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ{19})
{أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ}، هل من حقّت وانطبقت، وهنا الكلام عمّن استوجب أن تنطبق عليه، {كَلِمَةُ الْعَذَابِ}، الكلمة التي قالها الله تعالى عن تعذيبه لمن عصاه، {أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ}؟! هل يمكنك تخليصه منها بعد أن يرميه تعالى فيها؟!

الله سبحانه قال كلمته: سأعذّب من لم يؤمن بالحقّ وقام بفعل السيئات. ومن حقّت عليه هذه الكلمة، وانطبقت عليه، ورماه تعالى في النار فهل أنت بإمكانك إخراجه منها؟!

لاحظ السؤال مع الاستفهام، الآية لا تشير إلى رغبة النبي محمّد(ع) لكسر كلام الله تعالى، ولكن الآية تلفت انتباهنا جميعًا إلى من استحق العذاب فلا يمكن لأحد أن يخلّصه منه.

ننتبه أكثر، محمّد(ع) كائن بشري له قدرات بشرية، وله مكانة كرسول، ولكن هذه حدوده، وبالتالي هذه هي حدود جميع البشر، ولا يمكنهم فعل أي شيء إذا عذّب تعالى العصاة، وفكّر فيها من ناحية من يؤمن بأن القدّيسين يمكنهم أن ينجّوه من النار حتى لو عصى الله تعالى، وهم يعلنون أنهم يحبّون القدّيسين، ويتقرّبون منهم في حياتهم أو بعد موتهم، وينذرون لهم، ويبنون لهم المقامات والمزارات، ويدعونهم، ويستشفعون بهم... ولكن إن كنت من العصاة ومن الذين حقّت عليهم كلمة العذاب، فحتى شخصية مرموقة كالرسول محمّد(ع) لا يمكنها إنقاذك. نعم قبل دخول النار يمكن أن يشفع المؤمن من الدرجة العالية للمؤمنين الذين لديهم بعض السيئات التي لم تُغْفَرْ لهم... ولكن من صار في النار يعني أنه تعالى لم يجده مستحقًّا للشفاعة وهذا لا يمكن لأي أحد إنقاذه.

النجاة وصف الإفلات من الخطر قبل تحقّق الخطر فعلًا، ونقول: أنجاه من الغرق وكان في سفينة تلاطمها الأمواج. وفي هذه الحالة بالدقّة لا نقول أنقذه من الغرق، لأنَّ الإنقاذ هو التخليص من حالة غير مرغوبة من عموم السوء كخطر أو ضرر... وهو فيها أو بعد لحظة سيصير حتمًا فيها، فإن صار في الماء يغرق أو انكسرت السفينة... وجرى تخليصه فعندها يكون الوصف دقيقًا بالإنقاذ.

(لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ{20})
{لَكِنِ}، في مقابل الذي عصى وحقّت عليه كلمة العذاب، ونال ظللًا من النار، هناك، {الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ}، تجنّبوا غضب وعقاب المسؤول عنهم من مستوى إلهيّ، {لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ}، لهم مساكن تحتويهم وتشبه الأبنية من طبقات ولكن طبعًا مع تصاميم القصور والفخامة، {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، من تحت تلك الغرف تسير السوائل من مختلف الأنواع من اللون والطعم كما نفهم من الآية 15 من سورة محمد {مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى}... وهذه الغرف، {وَعْدَ اللَّهِ}، هذا ما قال تعالى أنه سيعطيه للمتقين وسوف يحقّق تعالى هذا.

{لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ}، هناك ميعاد وهناك زمن سيحصل فيه المتقون على تلك الغرف وحتمًا سيحصل ولن يتأخر ولن يفوت.

في أمثال آيتنا هذه لا تبالغ لتظن الوصف لمستنقعات، بل قارنها بالبيوت الفخمة الرائعة التي نراها هنا في الدنيا، والمبنية على جداول الأنهار، بحيث تجري المياه من تحت ومن جنب البيوت، ويتخللها الأزهار والأشجار، والخضار وزرقة السماء... وهذه المناظر الدنيوية الخلّابة هي لا شيء بالقياس إلى روعة وفخامة ما في الجنّة، ولا تَنْسَ أيضًا أن الآية تقارن بين ظلل النار للعاصين وطبقات الغرف للمتقين.

الحجرة وصف مكان فيه موانع من دخول الآخرين، والغرفة وصف حالة احتواء المكان للشيء مثل غَرْفَة باليد للماء، وعمليًّا الغرفة إشارة إلى المسكن المجهّز بكل ما يحتاجونه ويرغبون به، ولم يستعمل القرآن لمساكن الجنة وصف الحجرات واستعمل الغرف، لأن الحجر كمانع للآخرين له دوافع غير موجودة في الجنّة التي فيها الوساعة والأمان والأماكن الخاصة للخلوة التي لن يدخل أحد إلى منطقتها إلا برغبة من مالكها...

بقي شيء، مرّة واحدة "بحسب بحثي" وصف القرآن لما في الجنّة بالقصر كما ورد في الآية العاشرة من سورة الفرقان {تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا}، ومعلوم لك أن للمؤمن مختلف أنواع الأماكن التي يرغبها من خيام أو عرازيل أو بيوت أو قصور...

لفتني تعليق بعضهم على كلام القرآن عن الخيام وأنها تدغدغ عقل بدوي في الصحراء، وهذا يحبّ الخيام، وليست مغرية لأهل المدن والحضارة... وبالتالي هذا القرآن من تأليف بشري يحبّ الخيام ويجدها مغرية له... وهؤلاء يتعامون عن قصد عن الآيات التي ذكرت القصور والغرف المبنية كالتي تصفها الآية هنا، ويتعامون عن قصد ويتغابون على أنفسهم حين يتهمون بشرًا بتأليف القرآن، لو فرضًا كان هذا صحيحًا، أليست النتيجة المتوقعة أن يذكر البدوي ما يحلم به بدلًا مما هو فيه فعلًا؟ ألم يسمع البدوي بالقصور ولا بالبيوت حتى يتمنّاها ويؤلّف كتابًا يصف الجنّة ويضع فيها ما يحلم به؟

كما ترى، ذكر القرآن مختلف التعابير الواصفة لمختلف أنواع الدور في الآخرة، وكلها بأنواعها المختلفة لكل مؤمن متوافرة في جنّته الخاصة به من قصور وبيوت وخيام ومجالس فيها أَسِرَّة... ولكن عمي القلوب سيكفرون بأي كلام كان، ومهما قلت لهم فسيجدون تعليقات عليه، وحتى لو سألتهم عمّا يجب ذكره في الكتاب حتى يقتنعوا بأنه كلام الإله سبحانه، وأعطوك مثلًا، ووجدته في القرآن ولفتّ انتباههم له، فستجدهم يعلّقون ويكفرون حتى بما هم اقترحوه! صم بكم عمي فهم لا يعقلون.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ{21})
من يعدكم بحسن الثواب في الآخرة فلديكم نماذج ملموسة عن أفعاله التي تدلكم على عظيم قدرته وسيطرته لتحقيقِ وعده:

{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت، {أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}، وهو ماء المطر، {فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ}، وَجعل المطر يسلك في الأرض ليصير ينابيع، ليخرج من داخل الأرض من نقاط تسمّى ينابيع لأن الماء يَنْبُعُ وَيَخْرُجُ من تحت الأرض إلى سطحها، وَالمياه الحلوة مصدرها ماء المطر "بحسب معلوماتي"، وينزل الماء ويصير له مسالك في الأرض بعد أن كان في غيوم السماء، ويتخزّن في الأرض بكميات كبيرة وينبع من فتحات أو رشحات، لمدة طويلة.

لاحظ حاجتنا للمياه الحلوة يوميا لنشربها ولنسقي بها الحيوانات ولريّ المزروعات، فلو كانت متوافرة فقط من نزول الماء علينا، لكان شاقا علينا تخزينها لاستعمالها فيما بعد، لِأَنَّهُ أحيانا يمرّ بين فترات نزول الماء أيام وأسابيع وأشهر، فتلفت الآية انتباهك لعملية تخزين المياه الحلوة في الأرض، وتوافرها لنا عبر نبعها من فتحات "ينابيع"، وهكذا تتوافر المياه على مدار السنة، وأنت تعلم أن الأنهار الدائمة أساسها من ينابيع، وهناك مياه راكدة كالبرك الصغيرة أو الكبيرة والتي أيضا يمدّها ينبوع بالماء. ففكّر في التصميم الذي جعل الماء يخرج إلى سطح الأرض ينبوعا.

{ثُمَّ يُخْرِجُ}، الله تعالى، {بِهِ}، بماء الينابيع، {زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ}، عِنْدَمَا تنظر إلى مرج أو حقل أو بستان أو غابة، فسترى نباتات ألوانها مختلفة من الأحمر والأصفر والأزرق والزهر... {ثُمَّ يَهِيجُ}، وَيَصِلُ الزرع إلى الذروة، وَيَصِلُ إلى آخر نموّه، {فَتَرَاهُ}، وَتَصِيرُ عندك للزرع صورة محدّدة، {مُصْفَرًّا}، لونه أصفر لأن عمره انتهى، {ثُمَّ يَجْعَلُهُ} تعالى {حُطَامًا}، فلا يَعُودُ على كيانه، وَيَجِفُّ ويتكسّر ويصير مجرّد خشب وعيدان وقشّ يابس.

مَعْلُومٌ لك أن كلام القرآن عادة عن نماذج، علما أن كل النباتات التي نعرفها لَهَا عمر لتموت مهما كان طويلا، فالكلام هنا بالبداهة ليس عن نبات نَمَا ومات فورا أو بعد يوم، بل لأي حالة نبات تعرف عمره أو شاهدته يابسا.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، الذي ذكرناه عن نزول الماء من السماء وخروجه ينابيع... ونمو النبات وهيجانه وتحطّمه، {لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ}، لهو شيء يستحضره في فكرهم ومشاعرهم الذين لديهم لبّ، فليسوا مجرّد قوالب من لحم وعظم، بل لديهم شيء له قيمة في داخلهم حَيْثُ لديهم فكر منير ومشاعر صادقة تجعلهم يرونه تعالى من آياته.

إذًا، فمن لديه لبّ ويرى ما تصفه الآية، فسيعلم أن من وراء هذه الظاهرة يوجد إله عظيم قدير صمّم وخطّط ونفّذ، ومن الواضح أنه قادر على تحقيق وعده بخلق جنّة الآخرة...

(أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ{22})

{أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ}، فهل الذي رفع سبحانه عنه انقباض صدره، حَيْثُ فكره ونفسيته تَفَاعَلَا بشكل إيجابي مع الانقياد لله تعالى، {فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ}، فَمَكْشُوفَةٌ الأمور أمامه بسبب ما حصل عليه من المسؤول عنه من مستوى إلهي، وَليس في ظلمات الجهل، لأن الانقياد لله تعالى هو اتباع للحقّ والصلاح، وترك الْإِسْلَامِ لله تعالى هو اتباع للظلمات أي لأمور فاسدة سيّئة عاطلة.

{فَوَيْلٌ}، فَالْمُصِيبَةُ الكبيرة، {لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ}، الَّذِينَ أساس فكرهم ونفسيتهم قَاسٍ صُلْبٌ متصخّر عند استحضار أفعال وصفات الله تعالى أمامهم، حَيْثُ قَلْبُهُمْ لا يلين ولا يتفاعل بل يرفض التماشي مع ما يذكّرهم به تعالى، وَيَرْفُضُ إخلاص الدين له، وَيَرْفُضُ الْإِسْلَامَ له، لَهُمُ الويل وَلَهُمْ مصيبة عظيمة وهي العقاب الشديد، {أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}، بشكل واضح هم ليسوا على الطريق الصحيح.

الإنسان ذُو اللُّبِّ ينشرح صدره لِلْإِسْلَامِ لله تعالى، فَيَشْعُرُ بالارتياح له لأنه يتماشى مع فكره ونفسيته، أمّا غيره فيشعر بالانقباض والضيق من الإسلام لله تعالى، فهو لا يحب هذا الدين، ويتضايق منه، ولا يريد تطبيقه، لأن فكره ونفسيته يتماشيان مع الهوى السيّء.

لاحظ القرآن استعمل كلمة "صدر، صدور" للإشارة إلى تفاعلنا مع الأمور، نَحْنُ إذا ارتحنا نشعر بانشراح صدرنا، وَنَشْعُرُ فعلا براحة في القفص الصدري، وبالعكس نشعر بألم وضيق في التنفّس في صدرنا عند الانزعاج، وبذلك عمّم العرب وعموم أهل اللغات الأخرى، عمّموا هذا المفهوم ليشيروا إلى حالة الصدر لكل تفاعلاتنا مع الأمور، وسترى في عموم القرآن أنها ترادف: تفاعلنا الفكري والنفسي مع ما يجري معنا.

لاحظ القرآن استعمل كلمة قلب للإشارة إلى مركز أساس فكرنا ونفسيتنا، الْأَشْخَاصُ الذين تعرفهم جيدا، وتعرف أيضا رأيهم في الأمور التي لم تسمع فعلا رأيهم فيها، وذلك بناء على معرفتك السابقة بهم، مُسْبَقًا تعلم ما سيكون موقفهم من الموضوع الفلاني إذا انطرح عليهم، وهذا هو الشيء الثابت الأساسي فيهم، وهو ما يعبّر عنه العرب والقرآن بالقلب، نَقُولُ: قلبه أسود، وذاك قلبه أبيض، وآخر قلبه طيّب... ويصف القرآن بعض الناس بأن قلبهم أعمى، وَمَطْبُوعٌ، وعليه غِلَافٌ، وَقَاسٍ... فهذه الأوصاف تشير لأساس الفكر والنفسية عند هؤلاء.

لاحظ من عموم كلام القرآن اعتباره الْإِسْلَامَ لله تعالى هو نفسه الإيمان بالحقّ وفعل الصالحات، وَمَرَّ معك ذلك صريحا منذ قليل في الآية 18 بكلامها عن الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه، مَا نسميه نحن بالعقيدة فهو معروض في القرآن على أنها معلومات صحيحة عنه تعالى وعن أفعاله وقراراته، والإيمان بها فهو ليس إلا التماشي مع ما هو صحيح، وَالْإِلَهُ واحد أحد وصفاته حسنى... وما نسميه بالشريعة والسلوكيات فمعروض في القرآن على أنه التصرّف الذي يمكننا نحن رؤيته صالحا إن لم نسوّد ونفسد قلوبنا.

هكذا نفهم آيتنا هنا بكلامها عن الذين يرتاحون بِالْإِسْلَامِ له تعالى لأنه الإيمان بالحق وعمل الصالحات، وعن الذين قلوبهم قاسية فهم كانوا وَلَا يَزَالُونَ يميزون "الحدّ ما" بين الحقّ والباطل، ولا رغبة لهم بالحقّ والصلاح.

هناك مثال ليس بعيدا عمّا تقوله الآية، بَعْضُ الناس من الملل المختلفة تناقشهم في العقيدة وتصل معهم إلى حيث تبرهن لهم بأن ما يعرضه هذا القرآن حقّ وصلاح، فيقولون لك: حسن، كلامك عقلاني ويبدو صحيحا ولكني لا أريد إعلان إيماني به ولا الالتزام بشريعته. والسبب أنهم لا يريدون أن يصيروا ملزمين بترك السوء.

هذا ليس أَسْوَأَ ما في الأمر، وَالْأَسْوَأُ منه حالة الفساد في عقيدتك وشريعتك أنت وأنا، وَادِّعَاؤُنَا أنها مبنية على القرآن، وَعَرْضُنَا لها على الآخرين مع حجج وأدلّة متراكمة لمئات من السنين وجاهزة للردّ على أي إشكال، وَيُمْكِنُكَ إفحام الآخر وإيصاله إلى العجز بالردّ عليك، وليس لأنك على حقّ، بل لأنك تمرّست على الجدل.

الْأَسْوَأُ منه الدعوة للإيمان بدينه تعالى على العمى، حَتَّى لو رأيت المعروض عليك سيئا من عقيدة أو شريعة أو سلوكيات، فعليك أن تغمض عينيك وتلتزم به، ويقولون إنَّ هذا هو المعنى الراقي لِلْإِسْلَامِ له تعالى!

أنا والكثيرون غيري من الذين نعتبر أنفسنا مثقفين نَحْنُ نرتعب من هكذا إسلام كدين، وَالنَّاتِجُ عنه هو ما تراه في كل المذاهب والطوائف الْإِسْلَامِيَّةِ بلا استثناء، من كره وتحقير وتسفيه... للآخر، بل وسحب وصف الإيمان عن كل المخالفين، بل وسحب صفة الْإِسْلَامِ عن الآخرين ليصير دمهم ومالهم وعرضهم مُبَاحًا.

كل المذاهب الْإِسْلَامِيَّةِ بدون استثناء وقعت بطريقة أو بأخرى في هذا الوحل، فعليك أن تميّز بين دينهم، وبين دينه تعالى المعروض في قرآنه، وأن تنتبه لتفاسيرهم له والمنطلقة من أهوائهم المذهبية والطائفية المدعومة بروايات منسوبة للنبي محمّد(ع)، وغالبيتهم كذّابون عن قصد أو متعامون عن الكذب أو منجرفون فيه ومطبوع قلبهم عليه فيرونه حقّا.

نعم يوجد فلتات هنا وهناك من مختلف المذاهب لكلام حقّ، ولأفراد نادرين منطقهم مبني على قلب سليم بدرجة عالية، وتراهم رافضين للباطل الذي في مذهبهم وطائفتهم، وهؤلاء منبوذون، مرفوض الدعاية لهم، ومتهمون من الجميع بأنهم خونة... وَتُلَاحِظُ أن أفرادا ومجموعات مختلفة من الساذجين الطفوليين في عقائدهم وفقههم والمخالفين به لمذهبهم ومذاهب الآخرين، تراهم محميين ومتاحة لهم المنابر ونشر كتبهم ومقالاتهم... وَهُمْ على راحتهم لأنهم لا يعرضون الحقّ لِأَنَّهُمْ لا يشكلون خطرا حقيقيا على المذاهب والطوائف ولذلك هُمْ متروكون بل مدعومون! بينما قائل الحقّ يُحَارِبُونَهُ!

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ{23})
{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ}، الَّذِي ينزل على النبي محمّد(ع) واسمه القرآن، نَزَلَ من صاحب الاسم المحدّد المميّز الله جلّ جلاله، وهو، {أَحْسَنَ الْحَدِيثِ}، هُوَ شيء ليتم نقله للآخرين عبر الكلام وموصوف بأنه حسن. فِي دراسة الآية 18 من هذه السورة توسّعنا قليلا في دراسة كلمة أحسن فراجعها.

هَذَا الحديث الإلهي نزل، {كِتَابًا}، موضوعا تامّا، فيه مواضيع تامّة المعنى والمقصد، {مُتَشَابِهًا}، مَا فيه يشبه بعضه البعض في فحواه، حَيْثُ تَجِدُ العقيدة والتوحيد، والحساب والآخرة، والجنّة للصالحين... لَا تجد شيئا في سورة لا يتشابه مع ما في سورة أخرى، إلّا اللَّهُمَّ التفاصيل والقصص التي تنفرد بها بعض السور، وعلى الأقل كُلُّ السور محورها الهداية، وهذا الكتاب المتشابه، {مَثَانِيَ}، مَثْنِيٌّ وَمَعْطُوفٌ بعضه على بعض، لَا تجد شيئا ما في سورة ولا ينثني وَلَا يَنْعَطِفُ وَيَتَمَاشَى مع ما في السور الأخرى، فإذا وجدت تفصيلا متميزا في سورة ما عن شيء محدّد، فغالبا لن يكون منفردا، بل تراه معطوفا على ما في سورة أخرى، مَثَلًا في سورة ما تجد تفصيلا شاملا عن المتخاذلين عن الجهاد... وتجد شرحا لنفسيتهم وعقليتهم، ولا تجد هذه التفاصيل ذاتها في بقية الكتاب ولكن تجد عطفا على موضوع التخاذل والأمر بالجهاد من ناحية أخرى في سور أخرى.

هَذَا المعنى لكلمة مثاني كوصف للجمع مَأْخُوذٌ من ثني الشيء، نَقُولُ: ثناه عن كذا. أَيْ أبعده عنه، وَنَقُولُ: ثناه على كذا. أي جعله عليه. كُلُّ كلام القرآن مَثْنِيٌّ على بعضه على معنى توافقه وتماشيه مع بعضه على نفس الأساسيات.

{تَقْشَعِرُّ مِنْهُ}، من الكتاب تصيب القشعريرة، وهي الرجفة الخفيفة التي ينتج عنها استثارة لمسام الجلد وبصلات الشعر، {جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ}، الَّذِينَ عندهم خشية عِنْدَهُمْ شعور بخطر العذاب الإلهي الذي يمكن تجنبّه عبر إخلاص الدين للمسؤول عنهم من مستوى إلهي، هَؤُلَاءِ يَقْشَعِرُّ جلدهم بمسامه وشعره عندما يقرؤون أو يسمعون الكتاب الإلهي، {ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ}، تَذْهَبُ عنها القشعريرة، وتلين، {وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ}، حَيْثُ إِنَّ أَسَاسَ فكرهم ونفسيتهم يتفاعل بشكل إيجابي مع الكلام عنه تعالى.

الْكَلَامُ النازل منه تعالى يسبّب لهم شعور الخشية وَتَقْشَعِرُّ جلودهم كردّ فعل على تأثّرهم من العقاب الذي يتحدّث عنه الكتاب، ثم تلين قلوبهم وجلودهم بسبب الراحة من استحضاره تعالى في فكرهم ومشاعرهم وَيَرْتَاحُونَ عندما يقرؤون في الكتاب عن رحمته تعالى ومغفرته وثوابه الحسن...

{ذَلِكَ}، الكتاب الذي يسبّب الخشية والقشعريرة واللين هو، {هُدَى اللَّهِ}، هَذِهِ هي ظواهر وعلامات الذي على الأشياء الصحيحة منه تعالى والتي توصل للغاية الصحيحة، {يَهْدِي بِهِ}، بكتابه، {مَنْ يَشَاءُ}، أَمَامَهُ تعالى خيارات عديدة وَشَاءَ وَقَرَّرَ هداية من كان قلبه وفكره سليما.

بِالنِّسْبَةِ لكلمة "شاء" مُخْتَلِفُ تصريفاتها في القرآن لغويا تعني: فعل أو نوى شيئا لنفسه أو لغيره من خيارات عديدة غير متساوية، وكان يمكن اتخاذ قرارات أخرى غير الذي استقر عليه الرأي، أو هناك شيء يجري ولا يزال احتمال حصول شيء آخر وارد، وَتَحْتَمِلُ دخول "لو" شاء. بِهَذَا المعنى يمكنك فهم كل الآيات التي وردت فيها كلمة من تصريفات "شاء يشاء تشاؤون..." بكل بساطة وبدون تعقيدات، الْمُشْكِلَةُ التي أدّت لاختراع الناس أَبْحَاثًا عن المشيئة الإلهية أنهم تركوا المعنى البسيط للكلمة وخلطوا بين وصف حالة تطبيقاتها كفعل، وَصَارُوا يفسرونها على معنى الرضا أو الإذن أو السماح أو الرفض أو الكره أو ... بينما أصل المعنى عن فعل أو نيّة لاختيار من بين خيارات. بَعِيدًا عن اصطلاحات الفلسفة وعلم الكلام والتصوّف والعرفان... لكلمة مشيئة، هَذَا هو معنى المشيئة في القرآن.

عَلَى بساطته هُوَ الصحيح لغويا، ويبيّن معنى الآيات بشكل دقيق، هُنَا وفي الكثير من الآيات تجد في الكتب كلاما طويلا وأبحاثا عن معاني الآيات بسبب تركهم للمعنى البسيط لكلمة "شاء، يشاء..." التي تعني بكل بساطة أنه كان أمامه تعالى خيارات عديدة، فِي مسألة خلق البشر كمثال بِإِمْكَانِهِ سبحانه خلقهم من الأساس غصبا عنهم مبرمجين على الإيمان كالآلات، وبإمكانه سبحانه إجبارهم فيما بعد على الإيمان بطرق عديدة... ولكن شاء تعالى أن يهدي فقط من منهم يريد أن يهتدي، ولم يشء أن يهدي من قلبه أسود وفكره منحرف، بل شاء سبحانه أن يتركه على هواه ليحاسبه ويجازيه فيما بعد على اختياره للضلال.

{وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ}، مَنْ يتركه، أو يسهّل له، أو... ليصير على الأشياء الخطأ التي توصله للغاية الخطأ، {فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}، لَنْ يجد من يضعه على الأشياء الصحيحة التي توصله للغاية الصحيحة. الْكَلَامُ عمومي شامل لكل الأمور، صَمَّمَنَا وخلقنا سبحانه جاعلا فينا القدرة على تمييز الهدى والضلال، وفينا حرية الإرادة والاختيار بينهما، ولذلك عواقب تنعكس علينا... هَكَذَا نفهم كل جوانب ما تقوله الجملة هنا وأمثالها في القرآن، الضَّلَالُ لن يصير هدى، ولا العكس لأن قيمتهما ثابتة ومعلومة بالقلوب السليمة، ومهما كان التبرير لَنْ يغيّر سبحانه وصف الضلال من كذب أو سوء ليجعله هدى... إِمَّا اتباع الهدى أو الكون على ضلال. طَبِيعَتُنَا التي خلقنا عليها تعالى لَنْ تتغيّر، مَنْ قرّر أن يضل فَلَنْ يَهْتَدِيَ بالقوّة من أي مخلوق، وسبحانه لن يهديه بالقوّة غصبا عنه. هَكَذَا بقية التفاصيل التي تخطر على بالك ستجد أجوبتها في هذا الملخص.

مِنْ كلّ القرآن نفهم أنه تعالى كما لم ولن يتلاعب بعقل ونفسية أي أحد ليجعله مؤمنا غصبا عنه، بِالْعَكْسِ أيضا لَمْ ولن يتلاعب سبحانه بعقلية ونفسية أي شخص ليضلّه، مَا يبدو لك من ظاهر الآيات أنّه تعالى يضلّ من يشاء، فهو صحيح، لأنه تعالى لم يجبره على الاهتداء، وَتَرَكَهُ ليضلّ، هَذَا المعنى صحيح ولا غبار عليه وهو المقصود من إضلاله تعالى لشخص ما، حَيْثُ تعالى خلقه ومنحه حريّة الإرادة، وعرض تعالى عليه الهدى، وهذا الإنسان اختار الضلال، وَتَرَكَهُ سبحانه ولم يجبره على الإيمان مع أنه سبحانه قادر على إجباره، عَلَى هذا الأساس يكون الله تعالى تركه يضلّ، ولكن حتما وقبل ذلك أَخْبَرَهُ عن الهداية، والإنسان اختار الضلال، الْقَرَارُ الإلهي الثابت أن لا يعطّل حريّة الإرادة لأي إنسان، هَكَذَا يمكن أن تقول: أضلّه الله تعالى.

بعبارة أشمل، إذا أنت صمّمت وخلقت كائنات، وجعلت فيها خصائص محدّدة، فَأَيُّ نتيجة سَيَكُونُ سببها تصميمك لهم، وبالتالي فَأَنْتَ أضللتهم أو هديتهم، بِمِثَالٍ آخر أبسط إذا صمّمت وخلقت كائنات تجوع، وجعلت لهم في بيئتهم ما يأكلونه، وصمّمت بيئتهم لتمطر ما يشربونه، فَأَنْتَ أطعمتهم وأسقيتهم، بِهَذَا العمق ينسب القرآن كل شيء له تعالى، هُوَ يحيي ويميت، علما أننا نحن نقتل بعضنا البعض، وهو يبسط الرزق ويقدر، علما أننا نحن نعمل ونتكاسل، وهو يضلّ ويهدي، علما أن فينا القدرة على اختيار الضلال والهدى.

طبعا اختيارنا الهدى أو الضلال عليه تبعات نتحمّلها نحن، سَتَرَى ذلك في الآية التالية.

كَمَا ترى هُنَاكَ سور عديدة فصّلت في موضوع تعامله تعالى مع من قرّر الكفر، بتزيين السوء له، بتغليف القلب، بمدّه بما يغريه... هَذَا هو الامتحان الذي نمرّ فيه كلنا وبعضنا ينجحون... أمّا هنا فَالْكَلَامُ مختصر بما يناسب محورية السورة.

(أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ{24})
{أَفَمَنْ يَتَّقِي}، فهل من يتجنّب ويتحاشى، {بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}! فهل من يجعل وجهه، وَيَجْعَلُ ما يتوجّه به وَيَتَجَنَّبُ العذاب الْأَسْوَأَ في زمن القيامة من الموت، وبالتالي كَانَ توجّهه نحو رضاه تعالى.

{وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ}، قال الآخرون "الملائكة(ع) أو المؤمنون" للذين لم يكونوا منصفين ولا عادلين وَلَمْ يكن معهم حقّ بكفرهم رغم الأدلة الواضحة على التوحيد، وهم الذين لم يتقوا بوجههم سوء العذاب بل سبّبوا لوجههم السواد والإهانة وَالْجَرَّ والسحب على الأرض... فقيل لهم: {ذُوقُوا}، تحسّسوا واشعروا، {مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ}، ما حَصَلْتُمْ عليه مما نتج من أعمال قمتم بها، عملتم السيئات في الدنيا وكسبتم منها وَحَصَلْتُمْ منها على التعذيب في الآخرة، وبالخصوص كسبتم سحبكم على وجوهكم في النار، فتحسسوا واشعروا بما كسبتموه أنتم بسبب كفركم ظلما بما كان واضحا لكم أنه حقّ.

كما تلاحظ فهنا الآية من أبرز نماذج الكلام المقطوع الذي تكرّر في هذه السورة، وَكَمَا لسورة الرَّحْمَنِ نسق واضح في اختلافه عن بقية سور القرآن، فالسورة هنا نسقها واضح بكثرة قطع الجمل، وربما هناك وصف أفضل من وصف قطع الجمل، ولكن هذا أبسط وصف يخطر ببالي، حَيْثُ تريد الآية هنا جعلك تلتفت للفرق بين من اتقى بوجهه ومن لم يتق بوجهه، فهما لا يتشابهان في النتيجة، وَعَرَضَتْهُ لك بشكل جملتين مقطوعتين عن بعض بلا ربط كلامي بأدوات الربط ولكن معناهما واضح الربط. فأساس الجملة هو هكذا: في يوم القيامة يوجد ظَالِمُونَ سيحصلون على ما كسبوا وَسَيَتِمُّ سحبهم على وجوههم في النار، ويوجد أتقياء جنّبوا وجوههم السحب على النار، فهل هما متساويان؟!

(كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ{25})
{كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، لَمْ يصدّق الذين كانوا مثلهم كافرين من قبل بوجود عذاب في الآخرة، {فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ}، جَاءَهُمْ ما يضرّهم في وقت وكيفية لم يتوقّعوها، مثل عذاب ثمود وعاد وأصحاب الأيكة... جَاءَهُمُ العذاب فجأة.

مِنْ تكملة الكلام في الآية التالية سترى أنه لفت انتباه لنماذج ملموسة دنيوية عن عقابه تعالى للكافرين فيما يعدهم به في الآخرة:

(فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ{26})
{فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ}، جَعَلَهُمْ سبحانه يشعرون ويتحسّسون، {الْخِزْيَ} في الدنيا، الشعور بالمهانة من كذبهم القبيح عبر تعذيبهم هنا في الدنيا، {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ}، الضَّرَرُ الذي سيصيبهم في الحياة التي في الآخر وهي التي ستأتي بعد الحياة الأولى، {أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}، فهم حين يتعرضون لعذاب الدنيا ويشعرون بالخزي فهذا ليس أقصى عذاب جسدي ونفسي يتعرضون له، لِأَنَّ العذاب الجسدي والنفسي في الآخرة أكبر بكثير من عذاب الدنيا.

هَذَا الكلام القرآني المتكرر عن تعذيب الكافرين هنا في الدنيا بعبارات متنوّعة، وكلّه عن تعذيبهم المعلوم بزلزال أو فيضان أو... وبعده عذاب في الآخرة، فليكن هذا الكلام أساسا لك في مقابل الكلام المنتشر بين الناس عن تعذيب فيما يسمّونه بعالم البرزخ هنا في الدنيا الذي لن تجده صريحا في القرآن، والآيات التي تلمّح بذلك فراجعها في دراستنا هذه وسترى أنها لا تدعم أقوالهم.

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ{27})
{وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ}، هَذَا الكتاب الذي كانت معلوماته في كتاب رئيسي في السماء، وتحوّل قسم من تلك المعلومات إلى اللغة العربية، ونزلت على الرسول محمّد(ع) وَصَارَ يمكن قراءتها، وَصَارَتْ قرآنا، أَيُّ

شيء نزل منه فهو قرآن فلو نزلت سورة كاملة فوصفها قرآن، ولو نزل بعض السورة فهو قرآن، وجميع ما نزل وصفه قرآن.

هناك مواضيع محدّدة يعتني بها القرآن، وهناك أمثال تقريبية تشبيهية كثيرة لتفهيم الناس وتقريب فكرة المواضيع التي يتحدّث عنها القرآن، فِي هذا القرآن ضرب تعالى من كل مثل، وَلَمْ يضرب كلّ الأمثال التي يمكن ضربها، لِأَنَّ هذا سيستهلك كلاما كثيرا، بل لكل موضوع يحتاج لتشبيه تقريبي اختار تعالى مثلا وذكره في القرآن.

{لَعَلَّهُمْ}، مِنَ المفروض ومن المتوقّع من الناس أن، {يَتَذَكَّرُونَ}، يستحضروا في فكرهم ومشاعرهم ماذا يقصد القرآن من المثل الذي ضربه.

بإمكان الآية القول: ولقد "قلنا" للناس في... ولكن أهل اللغة العربية يستعملون كلمة "ضرب" في هكذا جمل بمعنى أقمنا شيئا وصار قائما. كما نقول: ضرب الخيمة. يعني أقامها، وَضَرْبُ المثل هو إقامته أمامك، وَتَسْمَعَهُ أو تقرؤه.

إذًا لا تقصير في توصيل الدين الإلهي الصحيح، وصل للناس بصيغ وعبارات مختلفة متنوعة وبأمثلة تقريبية تشبيهية، وبناء عليه الْعِقَابُ لمن كفر حقّ، لأنه كذّب بما عليه أدلة وأمثلة.

(قُرآناً عَرَبِيّاً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ{28})
الذي ضرب تعالى فيه من كل مثل هو: {قُرْآنًا عَرَبِيًّا}، قابل للقراءة باللغة العربية، {غَيْرَ ذِي عِوَجٍ}، هناك كلام عربي فيه عوج فيه التواء ففيه تراكيب غير صحيحة، ففيه استعمال للكلمات بشكل غير دقيق، وفيه معاني غير دقيقة... أمّا هذا القرآن فهو غير ذلك، فلا عوج فيه. إذًا فهذا الكلام واضح فهو باللغة العربية الصحيحة الدقيقة.

{لَعَلَّهُمْ}، من المفروض ومن المتوقّع من الناس، أن، {يَتَّقُونَ}، أن يتجنبوا ويتحاشوا، وهنا الكلام عن تجنّبهم غضبه وعقابه تعالى، فَيَنْتَبِهُونَ لما يقوله القرآن لأنه مفهوم فهو كلام واضح بلغة من لغات البشر، وَيَتْرُكُونَ ما يأمر تعالى بتركه وَيَفْعَلُونَ ما يأمر تعالى بفعله حتى لا يتعرضوا لغضبه وعقابه سبحانه.

نَنْتَبِهُ، لا يوجد خاصية تميّز اللغة العربية عن بقية اللغات، فلا يخطر ببالك أنه سبحانه أنزل القرآن باللغة العربية لأنها متفوقة على بقية اللغات في التعبير أو المفردات أو تركيب المعاني... خُذْ علما أن ما تسمعه من العرب تمجيدا بلغتهم وبتميزها وتفوّقها على بقية اللغات فهو نفسه ما يقوله أهل اللغات الأخرى، وكل هذا كلام فارغ، لِأَنَّ كل اللغات لديها القدرة على التعبير عن أي معنى بطريقتها الخاصة، وبعض اللغات تتميّز بشيء ولكنها تفتقد لما تتميّز به اللغات الأخرى، بَعْضُهَا أسهل على التعلّم، وبعضها أقصر لفظا بالنسبة لكمية التعابير، وبعضها ذو جذور كثيرة... واللغة العربية تعدّ من أفقر اللغات في الجذور...

فكّر في اللغة التي نزلت بها الكتب الإلهية التوراة والإنجيل، والتي نزلت بها صحف الأنبياء، غَالِبِيَّتُهَا لم تكن باللغة العربية، وأصلا الأنبياء العرب قلائل جدا "ويقولون إنهم أربعة فقط: شعيب وهود وصالح ومحمد عليهم السلام"، كُلُّ رسالة نزلت بلغة الرسول الذي ينقلها، وفكّر في اللغة التي تكلّم بها تعالى مع عبده موسى(ع)، وأقول: تكلّم بها تعالى. فلا خاصية مميزة ولا مقدّسة لأي لغة على أخرى عند ربنا سبحانه وتعالى.

هنا الآية قصدت القول أن القرآن نزل باللغة العربية بشكل دقيق وسليم بلا أي اعوجاج عنها، وَالْمَعْلُومَاتُ التي أراد تعالى إيصالها للناس تَحَوَّلَتْ للّغة العربية بدون تغيير أو تعديل في اللغة، بل باستعمالها بدقّة.

نعم، صارت اللغة العربية مميّزة لأنه تعالى استعملها فصار لدينا مصدر متقن من مستوى إلهي كمرجع للاستعمال الدقيق للّغة العربية، وَحَتْمًا تعرّضت للتقويم حين ألغى القرآن في كلامه التساهل والتراخي في استعمال الكلمات وتراكيب الجمل.

انتبه دائما للفرق الكبير بين أبلغ بلغاء العرب حين يتكلّم، وبين الإله العظيم حين استعمل اللغة، فلا مجال في كلامه تعالى لاستعمال كلمة بغير معناها، ولا مجال لاستعارة كلمة بديلة مع وجود الكلمة الصحيحة الأصيلة، ولا مجال للتراخي في معنى كلمة ما وهناك كلمة محدّدة للمعنى المطلوب... وكل هذه الأمور من التراخي والتساهل والاستعارة... نراها في الشعر وفي كلام الناس كلّهم، أمّا القرآن فدقيق بشكل يفوق قدرتنا، فلا أحد من البشر يمكنه أن يختزن

ويسترجع كل كلمات لغته، وَحَتْمًا هناك كلمات يجهلها... ولذلك سيضطر لاستعمال كلمة شبيهة أو يستعير كلمة قريبة من المعنى، أو يتراخى في معنى كلمة ما لتقريب ما يريد قوله... وهذا لن يحصل معه تعالى حين يستعمل لغة ما للكلام معنا... وما حاولنا التركيز عليه في دراستنا هنا هو استخراج المعاني الدقيقة للكلمات اعتمادا على استعمال القرآن لها، حَيْثُ قَوَّمَ سبحانه معناها بدقة استعمالها، وبالاستئناس بأشعار العرب قبل الإسلام، وَتَرَى بوضوح الفرق بين معاني الكلمات في دراستنا هذه بالمقارنة مع بقية التفاسير وكتب اللغة.

هذا لا يعني أن كاتب هذه الدراسة تَوَصَّلَ لمعنى دقيق لكل الكلمات، لا، ولا يعني أني لم أجد هنا وهناك من وجد معنى دقيق لكلمة ما ونقلتها منه، ولكنه كان قليلا، وبالمناسبة كلمة "لعلّ" الواردة هنا في الآية، هي من الكلمات التي أرهقتني، ووجدت أحدهم في كتاب لتعليم اللغة العربية للأجانب قد ذكر معناها محاولا شرحها للأجنبي... وهو لا يعلم بروعة ما توصّل إليه، ولا يعلم بتفرّده بهذا التعريف "الذي استعملته منه في هذه الدراسة"، فِي حدود اطّلاعي لم أجد من سبقه إليه، علما أنه لم يكن موفقا في كثير من الكلمات الأخرى التي حاول شرحها، على كل حال جزاه الله تعالى خير الجزاء، فلو ترى التطويل بالشرح في كتب التفاسير عند ورود كلمة لعلّ لأنهم لم يصلوا إلى معناها الدقيق، وَتَاهُوا في أبحاث كلامية وفلسفية... لعلمت لماذا اخترت المديح لهذا الشخص الذي وللأسف لا أذكر اسمه ولا اسم كتابه من كثرة ما قرأت من كتب واكتفيت بتسجيل الملاحظات منها لأستفيد بها لفهمي للقرآن، وفي حينها لم أكن ناويا لكتابة تفسير للقرآن، ولهذا السبب وللأسف كانت هذه الدراسة فاقدة للمصادر، والذين لهم إسهام فيها بنقلي لمجهودهم من دون ذكرهم، فحسبهم أجرهم عليه تعالى، وما لهم ولمديح الناس.

لو انشغلت من جديد بتقصّي مصادر بعض ما نقلته في هذه الدراسة من الآخرين، لانتهى العمر بلا جدوى، حَيْثُ عندي كمّ هائل من الملاحظات المتراكمة من سنين طوال من قراءة مختلف الكتب والمقالات في مختلف المجالات، والتي الآن لا أذكر حتى اسمها، ولا أدري هذه الملاحظات أو تلك من أي واحدة منها سجّلتها...

بقي شيء، هل يجب على الناس تعلّم العربية لقراءة كتابه سبحانه؟ لا لم يقصد القرآن ذلك، وإنما قصد بشكل واضح أنه تعالى استعمل لغة من لغات البشر وأنزل بها رسالته للناس، وبالتالي صار بإمكان عموم البشر الوصول للمعلومات التي نزلت منه تعالى، سواء عبر تعلّمهم للعربية، أو عبر الترجمة أو عبر نقل الفحوى...

دراستنا هذه تقدّم للمترجمين أفضل مما قدمته القواميس والتفاسير، لأنها تقدّم معنى واحدا "دقيقا" للكلمة، حَيْثُ أثناء بحثي في القواميس عن معاني الكلمات القرآنية والفروقات بين المتشابهات، كنت أعرج على قواميس اللغة الانجليزية بكثرة، وأستفيد مما تقدحه في بالي من دقة للمعنى... وكنت أراجع ترجمات القرآن للانجليزية لأرى ما استنسبوه من معنى للكلمات، ولاحظت نفس المشاكل في قواميسنا العربية وبقية قواميس اللغات الأخرى، ونفس المشكلة في الترجمات المختلفة والتفاسير المختصرة، فلم يثبت ولا تفسير أو ترجمة منهم على معنى واحد لنفس الكلمة، فِي كل جملة يرادفونها بشيء مختلف عمّا رادفوها فيه في جملة أخرى...

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ {29})

{ضَرَبَ اللَّهُ}، أقام سبحانه للناس في هذا القرآن، {مَثَلًا}، كلاما تشبيهيا تقريبيا: {رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ}، رجلا تابعا لعدة شركاء بينهم مشاكسة فهم غير متفقين بخصوص الرجل التابع لهم، فلنقل إن هذا الرجل عبد لهم، أو خادم عندهم، أو أجير لديهم، وكل واحد منهم عنده أمر أو طلب مختلف عن الآخر يريدونه في نفس الوقت من عبدهم، فواحد يريده أن ينظّف البيت، وآخر يريده أن يشتري بعض الأغراض، وذاك يريده أن يعمل في الحديقة... هذه هي المشاكسة، ولم ترد هذه الكلمة إلا هذه المرّة في القرآن.

{وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ}، سالما خاليا من أي تبعية إلا لرجل واحد، فيأمره رجل واحد فقط.

{هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا}؟ الرجل التابع لشركاء يصدرون له أوامر مختلفة في نفس الوقت، ورجل تابع لرجل واحد فقط، فهل هما مثل بعض متساويان بالتماثل فيما بينهما؟ فهل هما مثل بعضهما على نفس مستوى تنفيذ الأوامر؟ بالطبع ليسا مُتَسَاوِيَيْنِ بالتماثل، بل الاختلاف كبير جدا.

{الْحَمْدُ لِلَّهِ}، كل ما يصدر عنه تعالى فهو محمود، فيوصف بأنه حميد جيّد، وهنا سياق الكلام عن الوضع الجيّد لنا لأننا تحت حكم إله واحد وبالخصوص لأنه الله الحميد. مِنْ جانب فهو تعالى حميد فأفعاله كلّها حسنة، ومن جانب آخر فواقع حال كوننا تحت حكمه تعالى كإله أحد فهذه الحال نعمة لنا، لِأَنَّ الحال ممتاز لأننا تابعون لإله أحد هو الله تعالى ذو الصفات الحسنى.

{بَلْ أَكْثَرُهُمْ}، برغم وضوح وقوعنا تحت حكم إله واحد، ووضوح كون كل أفعاله تعالى حميدة جيدة حسنة، فأكثر الناس، {لَا يَعْلَمُونَ}، ليس توحيده وحمده تعالى من المعلومات المعتمدة عندهم، والكلام بالتحديد عمّن اخترع آلهة، حَيْثُ حالته الحقيقية الأصلية هي التبعية لإله واحد حميد، وبالعقل أصلا هذه الحالة أفضل من التبعية لإلهين، فما السبب الذي دفعهم لاختراع آلهة معه تعالى!

بالعودة للبّ السورة وتركيزها على إخلاص الدين لله تعالى، الرجل التابع لعدة شركاء، إمّا أن يمارسوا كلّهم حقّهم عليه بتنفيذ أوامرهم، أو يتركوه لواحد منهم، أو يتداوروا عليه بالدور، فيوم ما يكون تحت أمر هذا، ومدّة أخرى تحت أمر ذاك... فأنتم أيها الناس مخلوقون وعبيد تابعون لمالككم، فهل تصلكم أوامر "إلهية" متشاكسة لا تتوافق مع بعضها؟

إذًا من الواضح أنكم تحت حكم إله واحد، وهذا يستدعي وصفه تعالى بالحمد لأننا لا نرى أوامر متعارضة منه تعالى ولأنه إلهنا وبهذه الصفات الفائقة الرائعة... مَا تجدوه في هذا القرآن عن سنّته تعالى في معاملته لكم في الدنيا، ولفت انتباهكم لجريان الأمور معكم وفي بيئتكم على ما صمّمه تعالى... فهذا يدل على مركزية واحدة للقرار، فبشكل واضح أنتم تحت حكم وسلطة إله واحد، ولو كان هناك إله آخر، لرأيتم أثرا لتدخّله في حياتكم وبيئتكم وفي تغيّر الظواهر من حولكم... بينما ترون كل شيء يسير بانتظام وعلى قوانين واحدة... فله الحمد تعالى.

وبناء على هذه الحالة الجيدة، لماذا تخترعون آلهة أخرى؟ فَرْضًا فرضا كانت حالة تبعيتكم للإله الأحد تسبّب مشكلة ما، فَرْضًا كان هذا الإله مزاجيا، عبثيا، لئيما... لا يرحم ولا يغفر وأوامره فاسدة... فَرْضًا ذلك، لكنّا فهمنا السبب الذي دفعكم لاختراع آلهة غيره، ولكن الوضع ليس هكذا، حَيْثُ إِنَّ إلهكم حميد، فما السبب الذي دفعكم لاختراع آلهة!

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ{30})
ننتقل الآن إلى فقرة وصف الحالة النهائية للرسول ولمن كذّبه.

{إِنَّكَ مَيِّتٌ}، أيها الرسول محمّد(ع) لن تبقى في حالة الفعل والانفعال، {وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}، كلّكم ستفارقون الحياة الدنيا. فأنت الرسول النموذج عن بقية المؤمنين، والبقية من الذين لم يؤمنوا، كلّكم في النهاية ستفقدون حياتكم:

(ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ{31})
ثمّ إنكم، بعد الموت في الدنيا، يوم القيامة، في زمن القيام من الموت، {عِنْدَ رَبِّكُمْ}، عند المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {تَخْتَصِمُونَ}، الخصام هو عموم أي خلاف يسبب حالة نفسية بين شخصين من النفور والكره وصولا إلى العداوة.

ورد في الروايات كلام عن تفسير هذه الآية باقتتال المسلمين هنا في الدنيا بين بعضهم البعض، وبالتالي اختصامهم في يوم القيامة، وَالِاخْتِصَامُ هناك بين المسلمين المتقاتلين هنا في الدنيا مع بعضهم صحيح، ولكن آيتنا هذه لم تقصده، حَيْثُ كَلَامُهَا عن المؤمنين وبخاصّة عن الرسول محمّد(ع) من جهة، ومن كذّب برسالته(ع) وبالخصوص من كذّبه شخصيا من جهة أخرى، مِثْلُ هذه التفاسير كتطبيقات للآيات مجتزأة بفصلها عن سياقها، وذكر هذه التطبيقات أثناء دراسة سور القرآن، هُوَ من أسباب ضياع الموضوع الواحد للسورة، فالسورة محور كلامها عن إخلاص الدين وبالخصوص توحيد الإله الربّ سبحانه، وقد اخترت لك هنا ذكر نموذج عن الروايات المفسّرة لآية بعد قطعها عن سياقها وتفسيرها بشكل مخالف لموضوع السورة، وذلك بسبب وضوح مخالفة التطبيق هنا لسياق كلام الفقرة، فخذها نموذجا، ولو ذكرت لك كل ما قالوه من مخالفات في مختلف السور لصارت دراستنا هذه أضعافا مضاعفة في حجمها، ولضاع هدف الهداية من القرآن ومن دراستنا له.

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ{32})
حين تختصمون، {فَمَنْ أَظْلَمُ}، من هو أكثر شخص لم يكن منصفا ولا عادلا ولا معه حقّ، {مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ}؟ الكلام هنا بالخصوص عن الذين لم يخلصوا الدين واتخذوا من دونه تعالى أولياء فجعلوا له تعالى شركاء في الألوهية، وهذا كذب ليس بصحيح، لِأَنَّهُ لا يوجد غيره تعالى إله، فهل يوجد شخص ليس معه حقّ أكثر ممن قال عنه تعالى كلاما كاذبا؟ فهذا لم يكذب عليّ أو عليك، بل كذب على الله تعالى الإله الأحد عِنْدَمَا جعل له شركاء في الألوهية.

من أظلم ممن أيضا، {وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ}؟ هنا سياق الكلام عمّن أشرك به تعالى، قَبْلَ أن يصله الكلام الإلهي كَانَ قَدِ اخترع آلهة وجعلها شريكة له تعالى، وبعدما جاءه الصدق، الكلام الصادق الصحيح منه تعالى بأنه الربّ الإله الأحد الذي لا إله غيره والواحد للجميع... كذّب بهذا الكلام أيضا! فهل يوجد أظلم منه؟ فهل يوجد من ليس معه حقّ أكثر من هذا؟

{أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ}، في المكان الموصوف بسوء ما فيه، ففيه النار المتأججة، {مَثْوًى}، مكان إقامة، {لِلْكَافِرِينَ}، للمنكرين توحيد الله تعالى كإله وربّ ووليّ واحد أحد؟

هم يكذّبون في أكبر وأهمّ قضية في حياتهم، في توحيد الإله سبحانه، فأمام هذه القضية الكبيرة وقولهم الكذب عنه تعالى حين جعلوا له شركاء، وأمام تكذيبهم لكلامه تعالى، أليست جهنّم هي المكان المناسب لهم؟

نَنْتَبِهُ، دائما يريد القرآن إفهامنا أن هذه النوعية من الناس فعلا يستحقون العقاب القاسي جدا في جهنّم، وكما تلاحظ هنا هل هناك سوء أكبر من تأليف الكذب عليه تعالى وعن عمد وعن معرفة وعن قصد، بل وتكذيب الكلام الحقّ الواصل إلينا منه تعالى عن وحدانيته... مع وضوح ما يسمعونه منه تعالى بكلام عربي واضح!

كما ترى فالآية هنا تشير بكل وضوح إلى الذين يتساهلون في موضوع توحيده تعالى، فلا يعتبرونه مهمّا، ولا يعتبرونه يستحق العقاب، فيقولون: ما معنى اهتمام الإله العظيم بعبادتي لغيره! فأنا مرتاح مع آلهتي حتى لو برهنتم لي أنها ليست آلهة، فلماذا سيتدخّل الإله معي في شيء يخصّني؟ فأنا حرّ وأعبد ما أشاء... فتأتي آيتنا هنا وأمثالها لتقول لهم: لا، هذا كلّه من كل النواحي كذب، وتستحقون العقاب على هذا الكذب.

بالنسبة لكلمة "ثوي، مثوى" فقد درج في أدبياتنا أن نقول: جعل تعالى مثواك الجنّة. ولكن من استعمال القرآن لهذه الكلمة نعلم أن معناها: إقامة شخص في مكان لا يملكه وليس له، كالضيف والسجين والعبد... وهي حالة النبي يوسف(ع) في قصر العزيز كما ورد في الآية 21 من سورة يوسف "{وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ}..."، وكحالة النبي موسى(ع) في مدين كما ورد في الآية 45 من سورة القصص "...{وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا}..."، وكحالة أهل النار في النار كما ورد مرارا ومنه ما ورد في الآية 12 من سورة محمّد "... {وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ}".

أهل الجنّة يرثون الجنّة فيملكونها وهي لهم... كما ورد مرار ومنه الآية 11 من سورة المؤمنين "{الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}"، فلغويا لا يصحّ وصف من في الجنّة بأنه ثاو فيها، ولم يرد وصف كهذا أبدا في القرآن، وأمّا أهل النار فثاوون فيها لأنها ليست ملكا لهم، فهم مسجونون فيها مؤبّدا، فالسجين لا يملك السجن وليس وارثا له بل ثاو فيه.

(وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ{33})
{وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ}، هو الرسول محمّد(ع) الناقل لهذا القرآن، وضمنا المؤمنون الذين أعمالهم جاءت مع وصفها بأنها صادقة، لَمْ يقولوا الكذب، ونقلوا الكلام الحقّ لأنه مطابق للواقع، وفي مقابلة هذه الجملة مع كلام الآية السابقة تصير إشارتها إلى الذين وحدّوه تعالى فهذه تقوى من الشرك به تعالى ومستندة لواقع كونه تعالى فعلا الإله الأحد، وأخلصوا له الدين فلم يعبدوا غيره سبحانه وهذا حقّ صادق لأنه لا معنى لعبادة غيره تعالى.

{وَصَدَّقَ بِهِ}، لم يكذّب الصدق، وَأَعْلَنَ اعتقاده بالكلام الصحيح، وفي مقابلة هذا الكلام مع الآية السابقة ترى أنها تقصد الذي جاءه الكلام الإلهي الصادق فصدّق به مقابل الذي كذّب به فبقي على شركه.

{أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}، هم الذين فعلا يتجنّبون ويتحاشون، والكلام هنا عن تجنّبهم لغضب وعقاب ربّهم سبحانه عبر تركهم للكذب وتصديقهم الحقّ.

الآية هنا والتي سبقتها فعلى بساطة ظاهر معناهما فيهم عمق التأكيد على ثبات الحقّ، فالحقّ ليس مرنا مطّاطا يتغيّر إذا نظرت إليه من زوايا مختلفة، حَيْثُ إِنَّ الكلام عن مطابقة المعلومات للواقع، فواقعا هناك إله، وواقعا هو واحد أحد لا شريك له، وكلامه الواصل إلينا عبر هذا القرآن فلا كذب فيه، فكلامه تعالى عن نفسه أنه الإله الواحد الأحد وأنه سيحاسبنا ويجازينا على ما آمنّا به وفعلناه، فهذه ليست عقيدة كشيء مطروح لنؤمن به على عماه، أو لنؤمن به بسبب الكلام المنمّق الجدلي ليبدو كأدلة على صدقه، أو... بل هي معلومات صادقة لأنها مطابقة للواقع.

الآية هنا مبنية وبانية للإيمان به تعالى على الواقع، فما معنى عرض معلومات صادقة عليّ ورفضي لها؟ سواء أكان ذلك في موضوع الإله أو أي موضوع آخر، فلنفترض أن أحدا ما قال: يبدو من كل النواحي أن كلام القرآن صادق، فواقعا هناك إله... وهو واحد، ولكني لن أؤمن ولن ألتزم بتبعات ذلك. فإن كان يفعل ذلك في كل بقية الأمور في حياته، وكنّا نحن نقبل من بعضنا تكذيب الوقائع فعندها لن يعود لتكليفه تعالى لنا ومجازاتنا أي معنى، لأننا كلّنا لا نجد أي قيمة للتصديق بالحقّ، فأكذبك بكل ما تقوله حتى لو قلت لي إنك الآن واقف أمامي تكلّمني، فأنكر ذلك وأكذّبك. فهل هذا معقول ومقبول؟

هكذا نرى أن تزويدنا بقابلية تمييز الحقّ من الباطل متضمنة لضرورة إعلاننا المصادقة على المعلومات المطابقة للواقع، وضرورة الإيمان بها، والتعامل معها على أنها حقيقة.

خذ مثالا متطرفا عن قول من قال من الفلاسفة أو المفكرين بأننا مجرد أشباح خيالات ولا وجود حقيقي لنا، فهذا بالبداهة غير صحيح، فمهما فلسف كلامه هل سنتوقّف عن التعامل مع بعضنا لأنه أقنعنا بأننا أشباح؟ وهل سنتوقّف عن الأكل والشرب والعمل لتحصيل المال... لا، لأن واقع وجودنا قوي فله ارتباطات فكرية ونفسية وجسدية بنا، وهكذا في أي مسألة كانت معيار الصدق فيها هو مطابقتها للواقع، ويصير العنوان كبيرا شاملا لمرجعية نقيس عليها الحقّ والباطل، فلا يوجد شيء له قيمة واسمه عقيدة كمعلومات نؤمن بها على عماها، بل هناك معلومات مطابقة للواقع فنؤمن بها، ولا يوجد شيء له قيمة واسمه شريعة أو سلوكيات نلتزم بها على العمياني، بل يوجد معيار للصلاح والفساد ونقيس عليه الشريعة والسلوكيات، ولدينا دوافع متعددة للالتزام بما هو خير وترك السوء...

(لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ{34})
{لَهُمْ}، للمتقين، {مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ}، فالمسؤول عنهم من مستوى إلهي سيضع أمامهم في الآخرة خيارات عديدة وكلّها رائعة ويمكنهم أن يشاؤوا ويختاروا أيّاً منها، وهم على راحتهم وعلى خاطرهم يفعلون ما يشاؤون في الآخرة ويجدون ما يشاؤونه، فلا أماني هناك لأن كل ما يريدونه يتحقّق.

{ذَلِكَ}، الوساعة في الخيارات المتاحة أمام المتقين وتحقيق كل ما يريدونه، {جَزَاءُ}، بدل ومقابل، {الْمُحْسِنِينَ}، الذين حَسُنَ وكان جيّداً عملهم وفكرهم وقولهم.

نلاحظ التعبير بـ{مَا يَشَاءُونَ} لوساعة وحركية الرغبة وأنها ليست جامدة على ما هو متوافر، مما يشير للخلّاقية والابتكار، فالجنّة ليست مكاناً تتكرّر فيه الأشياء، بل فيها خيارات عديدة بشكل هائل، وإمكانية التصرّف والتعديل متاحة في تلك الخيارات على حسب هوى ساكنها، من إضافة لمسة ذوق خاصة بكل مؤمن في بيئة من بيئات جنّته، في بيت، في خيمة، في لباس، في حفلة...

تذكّر دائماً أن كلمة "مُحْسِن" ومشتقاتها هي وصف لعموم من قام بعمل حَسَن، أمّا التنازل عن حقّكَ للآخرين، أو منحهم ما لا يستحقون، أو التفضّل عليهم... فهو من تطبيقات الاتّصاف بالعمل الحَسَن، فليست كلمة مُحْسِن، مُحْسِنِينَ، إِحْسَان... مخصصة لهذه العناوين.

(لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ{35})
هناك في الآخرة:

{لِيُكَفِّرَ اللَّهُ}، لسوف يستر ويغطّي سبحانه، {عَنْهُمْ}، عن المتقين، {أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا}، كما نقول: ما أسوأ عملك. ولا نقصد أنك لديك أعمال سيّئة وهذه الأسوأ، بل هي أسوأ بالقياس إلى الأعمال الأصلح، فكل أعمالهم السيّئة الكبيرة والصغيرة تتم تغطيتها.

ربما هناك متقون بالأساسيات "موحّدون مصلون مزكون مجاهدون..." ولكن قاموا ببعض الأعمال السيئة وطبعاً استغفروا منها، وسيأتيك بعض التوسّع في الكلام عن هذا بعد قليل، سوف تتم التغطية على أعمالهم السيئة، {وَيَجْزِيَهُمْ}، يعطيهم كمقابل، {أَجْرَهُمْ}، أجرهم، ما حدّده تعالى أنهم يستحقّونه على تقواهم، {بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، كما نقول: ما أحسن عملك. ولا نقصد الإشارة إلى حسن هذا العمل بالقياس إلى أعمالك السابقة الحسنة، بل نقصد حسن العمل مطلقاً، تتم محاسبتهم فقط بالأعمال الحسنة التي قاموا بها، وهي بالقياس إلى أي شيء آخر تكون الأحسن.

لدينا مفهوم منتشر عن الحساب بأنه من كان له عمل سيِّئ، وله حسنة مساوية في قيمتها لذاك العمل السيِّئ، فسيتم مسح السيئة والحسنة مع بعض، وهكذا إن كان المتقي لديه عمل سيِّئ سينزل أجره، وهنا الآية تقول لا، فهناك معاملة إلهية خاصّة للمتقين، ستتم التغطية على أعمالهم السيّئة حتى لا يتأثّر أجرهم على أعمالهم الحسنة، وبذلك يتحاسبون فقط على كم سيحصلون من أجر على أعمالهم الحسنة وكأن السيئة أصلاً غير موجودة لأنه تعالى كفّرها فسترها وغطّاها فلم تظهر أثناء محاسبتهم.

يبدو أن مفهوم احتراق الحسنات بسبب السيئات ليس جارياً على المتقين من الدرجة العالية والمقبولة، بل يبدو أنه يجري على ضعفاء الإيمان الذين مجموع حسناتهم في مقابل سيئاتهم لا يكفي لدخولهم الجنّة، والكلام هنا ليس عن هؤلاء.

راجع الآية 7 من سورة السجدة {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}، والآية 145 من سورة الأعراف {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا...} وستجد بوضوح أن استعمال القرآن لكلمة الأحسن لا يقصد بها التدرج من الحسن إلى الأحسن، بل هو وصف لمطلق العمل الحسن في مقابل الأسوأ الذي يشير لأي عمل سيِّئ سواء أكان كبيراً أو صغيراً.

من القرآن نعلم أن تكفير الذنوب معناه سترها وتغطيتها، ونعلم أيضاً أن المؤمنين "من الدرجة العالية والمقبولة" لا خوف عليهم ولا هم يحزنون كما ورد في الآيات العديدة منها الآية 112 من سورة البقرة {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}، ونعلم أنهم نهائياً لا يشعرون بأي نوع من الانزعاج أثناء محاسبتهم، بل بكل احترام تتم معاملتهم وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 12 من سورة الحديد {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ...}، وهنا الآية تعرض المعاملة الإلهية الخاصّة بالمتقين من الدرجة العالية والمقبولة، فسوف لن يعلم أحد بالأعمال السيئة التي قاموا بها لأنها ستكون مُكَفَّراً عنها فهي مغطّاة مستورة، فهي مسجلة ولكن لن يراها أحد، فلن يشعروا بأي انزعاج من الفضيحة والشماتة... من الآخرين عند محاسبتهم، فقط سيتم تعداد أعمالهم الحسنة وكم سيحصلون من الأجر عليها، وليكن هذا نموذجاً عن الرحمة الإلهية الخاصّة بالمؤمنين عندما تجد القرآن يستعمل كلمة "رحيم" عند وصفه تعالى في معاملته للمؤمنين، أما الآخرون فَسَيُهَانُون.

من القرآن نعلم أن تكفير الذنوب مشروط بالابتعاد عن الكبائر، أو بالتوبة الصادقة منها، وهذا ما نفهمه من الآية 31 من سورة النساء {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا}.

لدينا عموماً صورةٌ غير صحيحة عن المتّقي والصالح والنبي والرسول... فنظن أن القرآن يقصد بهذه الأوصاف أناساً لم يرتكبوا ولا أي خطأ في حياتهم، وهذا غير صحيح بتاتاً، ومن القرآن نعلم أنه تعالى عندما يختار نبياً أو رسولاً يختاره بسبب مواصفات عالية جداً فيه، وسبحانه يعلم سلفاً ما سيفعله هذا الشخص وذاك، فلو كان تعالى يعلم أن هذا الشخص إذا جعله نبياً أو وظّفه رسولاً فسيرتكب في أثناء حياته سيئة من النوع الكبير أو الفاضح أو غير المقبول، وعن قصد، لَمَا كان سبحانه اختاره من الأساس ليكون نبياً أو رسولاً، وحتى لو كان سيقوم بهذه السيّئة المقصودة ولو لمرة واحدة ولن يكرّرها وسيتوب منها، لأن النبوة والرسالة لا تتحمّلان أي زلل من هذا النوع، لأن الناس ستفقد ثقتها بهم،

وبما سيقولونه، وبما يمثلونه... والمؤمنون من الدرجة العالية جداً لا يفعلون السوء عن قصد لأنهم يكرهونه، ويضمن سبحانه لنا أنهم حتى بالخطأ لن يفعلوا السوء فيما يخصّ وظيفتهم كخلفاء رسميين له تعالى.

أمّا بالنسبة لبقية المؤمنين من المستوى الثاني وما بعده فهؤلاء يرتكبون بعض السيئات عن قصد، ومن كان منهم بشكل عام تقياً، وزلّ في شيء ما، وتاب، فرغم ذلك فهو لا يفقد صفته كتقي من الدرجة الثانية أو الثالثة... أو السابعة، ولا يفقد صفته كصالح من الدرجة الثانية... أو السابعة، وهذا شيء نراه بوضوح في القرآن، بل نرى في سورة الصافات شخصاً تحدّثت عنه السورة كصالح مخلص مصيره في الجنّة، وقبلها في الدنيا كان له قرين سوء "كاد" يرديه في النار، فلم يكن من داخله مؤمناً معتقداً من الدرجة الأولى، فلنفترض أنه كان مؤمناً من الدرجة السابعة الأخيرة التي تؤهلّه لدخول الجنة، ورغم ذلك فلم يفقد صفته كصالح، وراجع في ذلك ما قبل وما بعد الآية 56 من سورة الصافات.

هنا، لا تتوهم التعارض بين صفة التُّقَى وارتكاب السيئات، فالتُّقَى عملياً هو تجنّب غضبه وعقابه تعالى عبر الالتزام بكل أوامره تعالى، وهذا هو التُّقَى الصافي من الدرجة الأولى، ويليه تُقَىً من الدرجة الثانية والثالثة... وصولاً للسابعة جرياً تطبيقياً تحليلياً مدعوماً بالمرويات لما نعرفه من سبعة أبواب للجنّة، والباب الثامن لمن قضى فترة من العقاب في النار... فترك الشرك والاعتقاد بالتوحيد هو من أوّليات أساسيات الإيمان، ومعه برّ الوالدين وحفظ مال اليتيم واحترام النفس المحترمة... أمّا المبالغة بالكلام بدون قصد الأذية، والتقصير أو الاستهتار أثناء القيام بعمل دفع لك الناس أجره... فهذا من أقل درجات السوء، فهي سيئات وعليها عقاب ويجب الاستغفار منها ولكنها من النوع المنخفض الذي لا يسبّب الخلود في جهنّم، وأعلى منها الكذب على الناس في أمور تعتبرها عادية مثلما يفعل البائعون المادحون لبضائعهم... والغيبة في أمور تعتبرها عادية... وأعلى منها النميمة والبهتان فيما يؤذي الناس... وهكذا وصولاً إلى الكبائر... فما بين أوليات أساسيات التُّقَى، والدرجات التي بعدها، وما تراه من أوليات أساسيات كبائر الذنوب وصولاً إلى الذنوب الأقل ضرراً، فهناك درجات من التقوى، وكلّ الحالات مع التوبة فصاحبها سيتأهّل من جديد لصفة التقوى.

بقي شيء، فهل هذا الكلام يسوّغ لنا أن نطمع بتكفيره تعالى للذنوب فنرتكب السيئات؟ لا، لم تقصد الآية أن نطمع سلفاً ونرتكب الذنوب عمداً، بل لأننا لسنا من الدرجة الأولى في التُّقَى سنفكّر بهذه الطريقة، فتلك الفئة المؤمنة من الدرجة العالية تصل إلى مرحلة كره السوء بكل أنواعه، أمّا نحن فلسنا كذلك ولذلك نفكّر في ارتكاب السيئات التي لم نكرهها لأننا لم يترسّخ فينا كرهها بسبب سوئها، فقلبنا ليس سليماً بالدرجة الكافية حتى نكره السوء... والآية الآن حين أقرؤها تريدني أن أفهم أن ما سلف من ذنوبي فهو مُكَفَّرٌ عنه بشرط البقاء على التُّقَى، وليست تشجعني على ارتكاب السوء ليكفّره تعالى عنّي.

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ{36})
{أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ}؟ من كل الجوانب، وكل ما تراه من حولك ألست ترى أنه من أفعال الله تعالى وأنه لا يوجد معه إله أو ربّ من مستوى إلهي آخر يقوم بتأمين ما تحتاجه؟ هل أنت كعبد مفروضةٌ منك طاعته تعالى، هل تحتاج لشيء ما ولا تجده حتى تعبد غيره سبحانه؟ ومن جانب آخر أنت اعتقدت بالله تعالى إلهك، هل هناك نقص في الله تعالى يجعلك تبحث عن إله غيره ليؤمّن لك ما تحتاجه... ومن جانب الآخرة رأيت كيف يكفيك تعالى بتكفير سيئاتك إن كنت تقياً... وغيرها الكثير من جوانب الكفاية لأنه تعالى هو الإله الأحد بصفاته الحسنة الفائقة جداً.

بالرجوع إلى محور السورة، ما معنى اختراعهم لآلهة غيره تعالى طالما هم مكتفون بما فعله تعالى لهم!

{وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ}، يقولون لك كلاماً ليجعلوك تشعر بخطر لا يمكنك تجنّبه من الآخرين غيره تعالى، من الذين قالوا عنهم آلهة، يخوّفونك من آلهتهم من أربابهم أن يؤذوك لأنك تقول عنهم بأنهم ليسوا أرباباً ولا آلهة، سَيُؤْذُونَكَ في الدنيا بحرمانك مما تحتاجه وبجعلك محتاجاً أو بإلحاق الضرر بك ويجعلونك مريضاً فقيراً مهاناً... وفرضاً إذا كان هناك آخرة، فهناك أيضاً سيعاقبونك أشدّ العقاب على إهانتك ونكرانك لهم... وهذا كلام فارغ، لأن الله الإله الأحد كافٍ عبده من كلّ النواحي، وتخويفهم لك مجرد كلام فارغ.

ستجد في الآية بعد التالية ردّاً صريحاً على كلامهم هذا، وقبل ذلك ننتبه جيداً، لأن الطبيعة البشرية فيها ميل للخوف من التهديد حتى لو كان بشيء غير حقيقي، حيث إنَّ الرسول محمّد(ع) متأكّد أن آلهتهم ليست آلهة وليست قادرة على أذيته،

ولكن تجد من يخاف من آلهتهم بسبب اعتياده على الخوف من الوهميات، من البعبع ومن أبي طاقية وأبي كيس ومن الجنّ في الليل ومن المرور في المقابر ليلاً... ولذلك ترى الآية هنا تشير للأساس الصلب بالاعتقاد به تعالى أنه كافٍ عبده، فلم تتكلّم عن الخوف من أمور وهمية لا تأثير لها، وركّزت على الجانب الحقيقي، فمن يعتقد به تعالى إلهاً فائق القدرات والصفات، فهل سيخاف من غيره تعالى؟ فاعتبرت الآية الخوف من الوهميات شيئاً سخيفاً، وقفزت عنه لتعيدنا إلى أصل وأساس الإيمان به تعالى أنه كافٍ عبده من كل مخوف حقيقي.

تفهمها بشكل أسهل عندما تتذكّر التوكّل عليه تعالى.

{وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ}، أي من لا يضعه تعالى على الطريق الصحيح، وهو الذي لم يوافق تعالى على دينه ولم ولن يجبره على الاهتداء، كمثل الذين لم يعتقدوا أنه سبحانه كافٍ عبده، وهدّدوك بآلهتهم وأربابهم، {فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}، فلن يهديه أي أحد، فطالما ترك هداية الله تعالى فلن يهتدي أبداً للطريق الصحيح، لأن أي طريق آخر غير الطريق الإلهي مصيره إلى جهنّم.

تكرّر الكلام كثيراً في دراستنا حول استحالة إضلاله تعالى للناس على معنى إجبارهم على الضلال، فمن يرد أن يؤمن فمن المستحيل أن يضلّله تعالى بل سبحانه سينير قلبه ويهديه... ولكن الذي قرّر أن لا يهتدي، فقرّر أن لا يسلك طريق الحقّ، فقد خلقه تعالى بطريقة تجعل فكره وقلبه منطبعاً بالضلال من كثرة ممارسة الضلال، وهكذا يضلّه تعالى حين لم يجبره على الاهتداء، ولم ولن يتلاعب بعقله غصباً عنه ليؤمن، بل خلقه سبحانه مع ميزة اختيار الضلال "والهدى" واستحالة الهداية "إن لم يتدخّل سبحانه بالقوّة" إن قرّر العبد أن لا يهتدي.

تلاحظ دائماً مفهوماً قرآنياً نستخرجه من أمثال آيتنا هذه، لو خالف سبحانه الحكمة ووافق على شركهم به سبحانه، وفرضاً لو حصل ذلك، ولم يعاقبهم سبحانه، فالنتيجة أنهم ضالون عن الحقّ، ولكن لا عقاب لهم، فهل هذا ممكن؟ لا، وهذا شيء تحدّثت عنه الآيات السابقة.

ماذا لو جاء منه تعالى كلام غير صحيح وفيه أنه تعالى يمزح معنا أو يلعب أو يلهو... ويقول تعالى أنه يوجد آلهة أخرى... وهو سبحانه يعلم بأن هذا غير صحيح؟ لا، لن يحصل هذا فسبحانه الحقّ... وفرضاً لو... وفرضاً لو... وكما ترى كل الافتراضات التي تجعل الشرك هدى فلن تجد لها أي مخرج مقبولٍ، وهكذا تفهم أن عبارة: من لم يَهْدِ الله تعالى {فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}. وأمثالها من الآيات... تشير لهذا المعنى أيضاً، ليس هناك طريق آخر للكون على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة إلا ما جاءنا منه تعالى فقط وفقط، وسترى معنى هذا الكلام أوضحَ عندما تقرأ الآية التالية.

(الإيمان البدائي بالإله الناتج عن الخوف من الوهميات)

سلامة القلب، سلامة أساس الفكر والنفسية التي نولد بها جميعاً، تخوّلنا أن لا نخاف من الوهميات، وأن نخاف فقط من الإله الحقيقي الأحد الذي نتعرّف عليه من آياته ومن رسله وكتبه، ولكن تراكم ثقافتنا من اختياراتنا السيئة ومن الناس المحيطين بنا، يشوّه سلامة قلبنا مُوَلِّداً خوفاً من الوهميات، من البعبع ومن الجنّ في الليل... وهذا شيء منتشر في الغالبية الساحقة من الناس، ومنه تنتشر المشاعر المتنوّعة حول مختلف الأمور، والتي اختصرها الباحثون بالطوطم والتابو، كتفسير للدافع عند الناس لاختراع عقيدة الإيمان بإله أو آلهة، وكتفسير لاختراع شريعة يلتزم بها خوفاً من عقاب الإله له على مخالفتها.

للأسف كلام الباحثين هذا صادق حتى على غالبية المنتمين لدينه تعالى، وبسبب تفسيراتنا المشوّهة لكلامه تعالى ليس لدينا ردّ ولو نظريّ كمخرج لإيماننا وشريعتنا يفصلهما عن الأديان الأخرى، عملياً غالبيتنا بفكرنا ونفسيتنا "المنحرفين" فنحن واقعون تحت عنوان الطوطم والتابو "اختراع الخوف من الوهميات واختراع الخوف من مخالفة التشريعات"، ونظرياً لم نستطع فصل سوء حالنا الإيماني هذا عن الإيمان الحقيقي.

ها القرآن بمنطقه المختلف عن عموم كلامنا عن دينه تعالى، ترى فيه أن أساس الإيمان به تعالى ليس مبنياً على الخوف منه تعالى والمبني على خوفنا من الوهميات، ومما نجهله، ومما لا نعلم سببه... بل الأساس هو التفكّر بالآيات، التفكّر في روائع ما صمّمه وخلقه تعالى، وينشأ عن ذلك مشاعر، أهمّها مشاعر التقدير والاحترام، والدافعة للتعبير بالحمد والشكر... فافصل هذا لوحده عن الخوف، واسأل السؤال البسيط: الخوف منه تعالى لماذا؟

هذا على المستوى النظري، أمّا عملياً فالإنسان البدائي تشوّه قلبه وعبد ما يخاف قوّته، وما لا سيطرة له عليه، وما يجهل سببه، فعبد النار والبرق والرعد... خائفاً منها وراجياً ابتعاد الخطر عنه... وللأسف الكثيرون من المنتمين لدينه تعالى وهم عملياً ونظرياً يتشاركون مع الآخرين في منشأ إيمانهم الفاسد هذا. ونعود لنسأل: ما سبب الخوف منه تعالى وما معناه؟

سأتوسّع قليلاً هنا لأرسخ بيني وبينك مفهوماً قرآنياً آخَرَ له ارتباط بما نتحدّث عنه هنا، في ثقافتنا أن القتال في سبيله تعالى والذي قد ينتج عنه موتي، أشارك فيه ولا أكترث بموتي لأني أنفّذ أمراً إلهياً، ونقول هذا معتقدين بشكل أو بآخر أننا نقاتل لأجل الله تعالى، وكأنه لا سبب للقتال إلا بما يتعلّق به تعالى، وكأنه لولاه تعالى ولولا إيماننا به لما قاتلنا في حياتنا.

ركّز معي وانتبه جيداً، ها القرآن أمامك من أوّله لآخره ولن تجد فيه أمراً بقتال الآخرين من دون تبرير، والتبرير أنهم هم قاتلوك، هم سلبوك حقّك فهجّروك من ديارك واستولوا على أملاكك... ولا يمكنك استرجاعها منهم إلا بالقوة، ولا يحق لك قتال أو الاعتداء على الكافر أو المشرك المسالم، حيث إنك مأمور باحترام ماله وخذ مثالاً عن ذلك ما ورد في الآية 75 من سورة آل عمران {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}، والكلام عن منتمين لدينه تعالى الذين شوّهوا دينه وصاروا يستحلون خيانة الأمانة من الآخرين طالما هم من الأميين أي ليسوا من دينهم، فيأتي القرآن لينبّه عن سوء فعلتهم هذه.

من البديهي احترام نفس الآخر وعرضه وماله حتى لو كان كافراً مشركاً أو منكراً للإيمان بالإله طالما هذا الآخر مسالمٌ مهما كان دينه، ونهانا تعالى عن أذيته بأي شكل بصريح الآية 8 من سورة الممتحنة {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}. وهكذا ترى أن الأمر بالقتال قد أعطاه تعالى صفة "سبيله" عندما يكون حقاً كدفاع عن النفس والأملاك والأعراض... ولا يوجد شيء اسمه "قتال في سبيل الله" ولا علاقة شخصية لك بسببه.

نرجع لكلامنا السابق عن جعل الغالبية للخوف منه تعالى "أو من الآلهة" بناءً لعقيدتهم الإيمانية، فلماذا وعلى ماذا الخوف منه تعالى؟ فهل تخاف من عقابه إن لم تؤمن به؟ وإن لم تعبده؟ وإن لم تلتزم بكلامه؟... أم المسألة أنك أمام حقيقة ناصعة بأن إلهاً واحداً أحداً فائق القدرات والصفات وتراه بسهولة من أفعاله، وأنت تكفر به؟ فتكذّب الحقيقة الملموسة بأطنان من الأدلة على صدقها، لماذا؟

نحن عادةً كمؤمنين لا نفسّر القرآن مخاطباً الكافرين، بل لا يهمّنا كثيراً هذا الموضوع، فلا نميّز بين آيات القرآن المقوّمة للإيمان وبين الآيات الدالة على سبب الكفر والشرك، فنخلط بينهما لأننا لسنا كافرين ولا مشركين، بينما القرآن وجّه كلامه للهداية معالجاً كل أساسيات أسباب الضلال ومقوّماً للإيمان، فيدلّنا سبحانه عليه بلفت انتباهنا لآياته، ويخبرنا سبحانه عن نفسه وعن صفاته، وينبهنا من الإيمان المخترع بآلهة ليست آلهة... وهذا من نوع تقويم الإيمان.

الآن نأتي إلى أسباب الكفر والشرك، فالعطل في أساس الفكر والنفسية، فالعطل في سلامة القلب الذي يمرض ممّا نختاره ونقرّره نحن، فالحقّ والباطل معروضان أمامنا، فهناك أدلة بالأطنان ودالة على الإله الأحد، وهناك هوى اختراع إله خاص بي أو بنا كجماعة، واختراع صفات مناسبة لنا نجعلها في الإله لينصرنا على الذين نحن اعتدينا عليهم، كاللص ذي خلفية انتماء لدينه تعالى والذي يدعو أن يوفقّه الله بالسرقة وأن يهرب بها...!

وهكذا ترى أن الرغبة بالسوء هي الدافع الأساس في اختراع إله بصفات مناسبة لنا، وبشكل يغطي ويوافق على السوء الذي نرغب به.

من بعد هذا ستجد القرآن يحدّثك عن تقواه تعالى والخوف منه، ولن تجد كلاماً قرآنياً عن الإيمان به تعالى خوفاً منه لمجرد الخوف منه بلا أي ارتباط بسوء يسبّب لنا الكفر أو الشرك به. ولهذا المعنى قمت بلفت انتباهك لمسألة القتال في سبيله تعالى كمثال عن عامّة حصرية الصلاح بما يأمر به تعالى والسوء بكافة ما ينهانا عنه، وأن أوامره التشريعية سبحانه كلّها لها ارتباط بصلاحنا نحن، لأنه ليس فيها شيء له تعالى ولا علاقة لنا به.

الآن صار واضحاً أن الإيمان الصحيح بالله سبحانه لا علاقة له بالخوف من قدرة قاهرة قوية فائقة... كالذي خاف من البركان فاخترع إلهاً له وعبده حتى يرضى عنه إله البراكين ولا يثور البركان المجاور له، فكلام الباحثين التحليلي عن نشأة الإله في ثقافة البشر كاختراع منّا بسبب الخوف من الظواهر الطبيعية ومما نجهل سبب حدوثه... هو تحليل يبدو صحيحاً، وهذا هو الذي تكلّم القرآن عنه وبيّن فساده بكلامه مع المشركين والكافرين من مختلف الأنواع. وللأسف هذا التحليل للإيمان النابع من الخوف يتضمّن ويشمل لنوعية إيمان العديد من المنتمين لدينه تعالى، ولكن هذا هو تحليل حالة السوء، تحليل حالة الإيمان النابع من قلب فاسد أو مريض.

لاحظ آيتنا هنا بكلامها مع وعن النموذج محمّد(ع)، حتى يكون نموذجاً لنا عن الإيمان بسلامة قلب، فهو (ع) لا يخاف آلهتهم لأنه يعلم بأنهم ليسوا آلهة، ولن يتأثّر من التخويف بهم ولو لشعرة، وأكرّر لك أن السبب هو سلامة قلبه، أي إنسان في فكره ونفسيته خلل أدّى إلى اعتقاده أو تأثّره في عمق وعيه بالوهميات، كالتابعة والقرين وجنيّة الليل والبعبع وأبي كيس... فبدرجات مختلفة سيخاف من التهديد بالآلهة التي حين يفكّر فيها يعلم بأنها وهمية، وبالرغم من ذلك وبسبب خلل في قلبه فسيجد الخوف سبيلاً إليه من الوهميات.

(وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ{37})
{وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ}، مَنْ يضعه تعالى على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة، لن يستطيع أحد أن يضعه على الشيء الخطأ الذي يوصله للغاية الخطأ.

{أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ}؟ المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره...

{ذِي انْتِقَامٍ}؟ منسوبة له تعالى صفة الانتقام، فلن يترك الذين أخطؤوا من دون حساب، وانطلاقاً من صفته تعالى كعزيز لن يتمكّن أحد من معارضة أو توقيف تنفيذ الانتقام ممن اختار الضلال.

ننتبه، نحن إن لم ننتقم يصيبنا الاضطراب والانزعاج، وهذا ليس من معاني كلمة انتقام، لأنَّ الانتقام أن لا تترك من ارتكب السوء مع إصرارك على ضرورة معاقبته، وهو بالنسبة لنا يرتبط بالمشاعر، ولكنه بالنسبة له تعالى هو التأكيد على أخذ الحقّ منهم، حيث كفروا به تعالى، وأهانوا مكانته، واستهتروا وسخّفوا كلامه... فمحاسبتهم على هذه الأمور بالتعذيب هو انتقام منهم لقلّة أدبهم على المقام الإلهي ولارتكابهم السوء.

بالنسبة لجملة "{وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ}..." نتذكّر من كلّ القرآن أنه تعالى لا يجبر أحداً على الاهتداء ولا على الضلال، وكما أنه من غير الصحيح أن تفهم من كلام القرآن أنه تعالى يجبر بعض الناس على الضلال، كذلك من غير الصحيح أن تفهم أنه تعالى يجبر بعض الناس على الاهتداء، حتى الأنبياء والرسل لا يجبرهم تعالى على ترك معصيته، لأننا كلّنا خلقنا سبحانه بطريقة الاعتياد والارتياح الفكري والنفسي لبعض الأشياء، وكما ترى بكل سهولة سخافة عبادة صنم منحوت من الحجر أو الخشب أو الذهب، فهذه هداية لن يستطيع أي أحد إقناعك بعكسها، وهذه هداية الله تعالى لك لأنك في هذه النقطة اتّبعت سلامة القلب التي منحها تعالى لك وهكذا تكون حصلت على هداية إلهية لن تفارقك، وبالعكس، مَنْ سخّف فكره ومشاعره لدرجة عبادته لحجرة أو خشبة منحوتة، فهذا تعمّد ترك الفكر السليم واتّبع الفكر الأعوج، وإذا لم يترك هذا الطريق فلن يهتدي أبداً لأن هذا الطريق نهايته حتماً إلى جهنم وليس له نهاية أخرى، ومن جانب آخر إذا ركب الإنسان رأسه على الكفر وفعل السوء، فسينطبع قلبه "أساس فكره ونفسيته" بهذا الضلال، وهكذا خلقه تعالى مع خاصيّة الانطباع، ولن يتمكّن من التراجع إذا وصل إلى الدرجة العالية من الانطباع على الكفر والسوء، وراجع كمثال الآية 101 من سورة الأعراف {تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ}، والآية 125 من سورة الأنعام {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}.

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ{38})
{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ}، إذا عبّرت لهم عن إرادتك للحصول على جواب منهم:

{مَنْ خَلَقَ}، من ركّب وألّف، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}؟ وهذه الحدود التي تتواجد فيها كلّ المخلوقات، وهذا التعبير يشابه قولنا: من خلق كلّ شيء بدون استثناء؟ من خلق كل ما في دنيا المخلوقات؟ {لَيَقُولُنَّ}، سوف يقولون مع التأكيد: {اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز هو خالقها. وأي جواب آخر فهو إنكار لحقيقة دامغة واضحة جداً، لأنَّ كل الأدلة تشير بسهولة لله تعالى.

بعد هذا السؤال والجواب {قُلْ} لهم: {أَفَرَأَيْتُمْ}، أسألكم تعقيباً على جوابكم السابق إن حصلت عندكم صورة محددة، كما نقول بالعامية: شوفوا، التفتوا إلى. {مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، إلى الذين تشهرون وتعلنون لهم فتتوجهون إليهم على أساس أنهم أرباب وآلهة وتتركون الله تعالى، والسؤال هو: {إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ}، بضرر بشيء مُؤْذٍ مالياً أو جسدياً أو نفسياً، {هَلْ هُنَّ}، الذين تدعون من دونه، {كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ}؟ هل يمكن لآلهتكم وأربابكم رفع وتغيير حالة الضرر حالة السوء عني؟ هل يمكنهم معارضة الأمر الإلهي وتغييره لحالة أخرى؟

{أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ}، بشيء فيه عناية بي لما فيه مصلحتي، بشيء يجعلني مرتاحاً، {هَلْ هُنَّ}، الذين تدعون من دونه، {مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ}؟ هل يمكنهم منع تحقّق عنايته تعالى بي لما فيه مصلحتي؟

تذكّر ما ورد في الآية قبل السابقة من تخويفهم الرسول (ع) بآلهتهم، هنا الجواب عن التخويف تستخرجه الآية منهم هم، فإن كان الجواب العقلاني المنطقي الوحيد بأنه الله تعالى الخالق لكل شيء، لأي سبب وبأي منطق تهددون بآلهتكم التي لا تملك أي شيء! ولأي سبب تعبدونها!

ننتبه جيداً، لا تفهم الآيات على مزاجك ومزاجي، ولا على تفكيرك وتفكيري، لأنها لا تتحدّث عن شيء أنا وأنت نؤمن به، بل هي تتحدّث مع نوعية محدّدة من المشركين، فافهمها كما يفهمها المشرك صاحب تلك العقلية، الذي يؤمن بأرباب وآلهة معه تعالى، وهو في نفس الوقت يؤمن بالله تعالى خالقاً لكلّ شيء، وإن لم يؤمن بذلك فالآيات السابقة أكدّت له بالدليل أن كل ما فيه وحوله وما في الأرض وما في كلّ السماوات يبدو بوضوح تابعاً لإله واحد... وتسأله الآية انطلاقاً من هنا سؤالاً بسيطاً: الله إله خالق لكل شيء، وأنت تعتقد بآلهة تتدخل فينا، وفي كل لحظة أنا كمخلوق في حالة ضرّ أو رحمة، وفي كلّ لحظة هناك قرار إلهي بحالتي، فهل تجري عليّ فقط قرارات الله تعالى أم تجري عليّ أيضاً قرارات آلهتك؟ كيف تجري عليّ قرارات آلهتك إن كنت أنا في كلّ لحظة تحت قرارات الله تعالى؟ إذاً وبكل وضوح كلامك عن تدخّل آلهتك بي هو مجرد وهم، لا وجود لآلهتك كآلهة أو أرباب، حتى لو كانت صنماً أو ملاكاً أو جنياً أو إنساناً أو روحاً... فوصفك لها بأنها آلهة هو وصف وهمي غير حقيقي.

{قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ}، لا أحتاج لأحد معه سبحانه، ولا أتطلع لأحد غيره سبحانه، معتقداً به إلهي الأحد المسيطر... ولا ضارّ ولا راحم غيره.

{عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ}، مَنْ توكّل فاعتمد على غيره تعالى لتسيير أموره فهو في الحقيقة لم يتوكّل، فقط التوكّل عليه تعالى كإله هو التوكل الذي له معنى.

لاحظ ما تقول الآية: هم توكّلوا على أرباب وآلهة غيره تعالى، معتمدين عليها في كشف الضرّ وإنزال الرحمة، وفعلياً آلهتهم وأربابهم لا تفعل أي شيء، فتوكّلهم عليها مجرد كلام فارغ ولا يوجد أي توكّل ولا أثر لهذا التوكّل، والمتوكّلون الحقيقيون الذين يوجد أثر فعلي لتوكّلهم، هم فقط الذين توكّلوا على الله تعالى.

تهديدكم لي بالضرر من آلهتكم هو مجرد كلام فارغ، وأصلاً اعتقادكم بها تضرّ وترحم هو اعتقاد فارغ.

بقي شيء عن السؤال عمّن خلق السماوات والأرض، والجواب أنه الله تعالى، ولا إمكانية لاستمرارية السؤال عمّن خلقه تعالى، لأن الكلام لوحده يوقف السؤال، لأن السؤال كان عن "مخلوقات" عن مركّبات مؤلّفات، وسبحانه طبيعته مختلفة ولا يوصف بأنه مخلوق حتى نسأل عمّن خلقه.

معنى التوكّل عليه تعالى صار في ثقافتنا بعيداً جداً عنّا بسبب ثقافة الدعاء له تعالى على معنى الطلب منه لتحقيق أمور دنيوية لنا، حيث صرنا نتعامل معه تعالى كما لو أننا نتعامل مع جنّي الفانوس السحري الخرافي، بل وصار معيار إيماننا وعلاقتنا به تعالى مبنياً على مقدار ما يتحقّق من رغباتنا الدنيوية، وصار لدينا كمّ هائل من الصلوات والأدعية والأذكار وأنواع النذور والأحراز ونقوش الخواتم... المخصّصة كل واحدة منها لشيء، حيث لطلب الرزق الوفير صلاة خاصة تقرأ فيها كذا وكذا... ودعاء خاصّ في وقت خاص... وذكر خاص... ونذر من نوع خاص... وخاتم من حجر خاص منقوش عليه طلاسم وصفات إلهية خاصّة...

هذه الثقافة المنتشرة بكثرة هي الدمار للإيمان الصافي، وبسبب كثرة ما وردت كلمة "دعاء" ومشتقاتها في القرآن، وبسبب كثرة التفاسير التي سحبت تلك الآيات من سياقها لتعطي المعنى الضبابي لكلمة دعاء على معنى الطلب منه تعالى لتحقيق ما نريد، صرنا نعتقد بأن ما نفعله من أدعية وأذكار... لطلب الرزق وللشفاء وللنجاح في المدرسة ولتأمين العريس... هو عمل نابع من الإيمان العميق به تعالى.

لم نعد نرى للتوكّل عليه تعالى لتيسير الأمور أي معنى، ولم نعد نرى الدعاء لتيسير الأمور أي معنى، بل نريد منه تعالى تحقيق ما نريد! وصرنا ندعوه تعالى إذا صارت بطارية الهاتف تنفَد بسرعة طالبين منه تعالى التدخّل حتى تعود البطارية كالجديدة! وندعوه تعالى لننجح في الامتحانات المدرسية والجامعية! هل معنى ذلك أن تكون كسولاً خمولاً، أو فاقداً للمقومات المطلوبة للنجاح، وتريده تعالى التدخّل لتنجح؟ ماذا لو صرت طبيباً بسبب استجابته تعالى لدعائك ونجحت وأنت لست مؤهلاً لتنجح، عندها هل ستدعوه تعالى ليعرّفك على علّة المريض والدواء المناسب له؟

لمزيد من التوسّع حول الدعاء أحيلك إلى دراسة دعاء النبي زكريا(ع) الوارد في بداية سورة مريم، ومنه ستفهم معنى التوكّل عليه تعالى لإبعاد الضر وتوقّع الرحمة، وأحيلك أيضاً لدراسة الآية 41 من سورة ص {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}، هناك سترى أن المؤمنين من الدرجة العالية يخجلون من الطلب منه تعالى لتحقيق ما يريدونه إلا من بعدما تنقطع بهم السبل ومحاولتِهم لكل ما يمكنهم فعله ويعرفونه.

التوكّل عليه تعالى له درجات في فهمه وتتعلّق بدرجة ونوعية إيماننا وأعمالنا، ويمكنني التنظير لذلك بما هو فوق مستواي الإيماني، متكلّماً عنه من نظرتي لإيمان الأنبياء والرسل، ولكني حتماً لن أصيب وسأخيب، حتى على المستوى النظري لن أتمكّن من الخلاص من أمراض قلبي التي تريني الحقّ باطلاً وبالعكس، والتي تريني السوء حسناً وبالعكس، وسيتدخل هواي السيّء فارضاً نفسه كخلفية على كل كلامي...

أفضل ما يمكنني عرضه عليك هو تشبيه حالتي معتمداً على صديق أو قريب لي قوي بطّاش يهابه الناس، متوكّلاً عليه كي لا يؤذيني الناس. مثل حالتي معتمداً على أبي الثري أو أخي أو ولدي أو .... فإذا احتجت للمال أعتمدُ عليهم مرتاحاً لسند قوي يسدّ حاجتي. هكذا أفهم أن توكّل المؤمنين من الدرجة العالية عليه تعالى يشابه هذه الحالة، طبعاً مع الفارق الأهمّ وهو أنهم ينظرون للدنيا كدار ممر، فأوّل همّهم الفوز بجنّة الآخرة، وقبل ذلك أوّل همّهم رضاه تعالى...

(قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ{39})
{قُلْ}، لهذه النوعية من الناس عبر هذا القرآن:

{يَا قَوْمِ}، أيها الناس الذين أنتمي لجماعتهم، والمتفاعلون مع الدين، {اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ}، على المكان، على الناحية المعنوية التي أنتم فيها، فأنتم في ناحية الكفر فاعملوا بحسب رأيكم وما ترونه مناسباً متماشياً مع كفركم، حيث لم تخلصوا دينكم لله تعالى... هذه هي مكانتكم، هذا مكانكم المعنوي، {إِنِّي عَامِلٌ}، وتكملة الجملة واضحة: إني عامل على مكانتي، لأن عملي سيكون متماشياً مع مكاني المعنوي مع الناحية الإيمانية التي أنا فيها، لأعمل بما يتماشى مع إخلاص ديني لله تعالى.

{فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}، سيصير عندكم ما يطابق الواقع، أنتم الآن لا تعلمون نتيجة عملكم على ناحية الكفر ولا نتيجة عملي على ناحية الإيمان، ووصلكم خبر لم تؤمنوا به عن نتائج عملي وعملكم، ولكن سيأتي زمن ترون فيه النتيجة وسيصير كلامي معلومة صحيحة عندكم، وتكملة الكلام في الآية التالية.

(مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ{40})

{فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}: {مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ}، ضرر يجعله يشعر بالمهانة من قبيح ما فعله، {وَيَحِلُّ عَلَيْهِ}، يأتيه ويرافقه، {عَذَابٌ مُقِيمٌ}، ضرر يقيم معه، بعبارة أبسط: يسكن معه كملازم له لا ينقطع ولا يفارقه ولو للحظة.

نلاحظ تكرّر نفس الجمل على لسان النبي شعيب(ع) في الآية 93 من سورة هود {وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ...}، ونلاحظ كثرة تكرار ذكر الانتظار لعذاب الآخرة في القرآن، والعديد من تلك الآيات كانت كآخر الكلام مع من لم يؤمن رغم كل الدلائل، فهي على معنى: حَسَناً، إن كنتم مُصِرّينَ على موقفكم وتخترعون التبريرات والجدالات... فأنا مصرّ على موقفي وسنرى نتيجة إصرارنا، فهناك عذاب عظيم دائم للذين لا يخلصون الدين له تعالى.

(إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ{41})

{إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ}، سبحانه أنزل مواضيع تامّة وهو مجمل هذا القرآن، {لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ}، حيث لم ينزل عليك ليكون لك بل لتنقله للناس، وبالحقّ نزل، بالصواب من ثلاث نواحٍ، محتوى الكتاب حقّ صواب صادق وليس فيه باطل أو سوء أو كذب، وتنزيله كان عملاً حقاً فكان تنزيله صائباً، ومن حقّ الإله أن يأمر عبيده ومن حقّ عبيده أن يعلموا بقرارات إلههم التي سيحاسبهم عليها، ولم ينزله تعالى عبثاً بل أنزله حتى نتّبعه. وهذه المعاني الثلاثة نجدها منتشرة في عموم الآيات التي وصفت تنزيل القرآن بالحقّ.

{فَمَنِ اهْتَدَى}، أي مَنْ صار على الأشياء الصحيحة "التي في هذا الكتاب" والتي توصل للغاية الصحيحة "إلى رضاه تعالى والجنّة"، {فَلِنَفْسِهِ}، له الهدى وهو المستفيد، عطفاً على كل حديث السورة هنا عن إخلاص الدين لله تعالى، وخصوصاً على الفقرة السابقة عن عمل كل واحد على مكانته، ها هو كتاب إلهي فيه الهدى، ومن اهتدى به فلنفسه اهتدى، لمصلحته اهتدى، ولنتيجة آخرته اهتدى، ولن يتعذّب بل سيتنعّم في الجنة.

{وَمَنْ ضَلَّ}، وكان على عقيدة وشريعة وسلوك مخالفٍ لهدى هذا الكتاب، {فَإِنَّمَا}، حصراً، {يَضِلُّ عَلَيْهَا}، على نفسه، نتيجة ضلاله على نفسه وهو المتضرّر، لأنه سيتعذّب في النار.

{وَمَا أَنْتَ}، أيها الرسول(ع)، {عَلَيْهِمْ}، على الناس، {بِوَكِيلٍ}، حيث لم نوكلك بهم لتكون هدايتهم من مسؤوليتك، فلا نطالبك إن لم يؤمنوا، ولم نوكلك عنهم لتكون مسؤولاً عنهم عمّا يقررونه ويفعلونه، لست رئيس إدارة شركة هداية الناس، ولست مثل رئيس شركة إنتاج، ولست مثل مسؤول عن العمّال... فلا يخطر ببالك ولا ببال غيرك أننا سنحاسبك إن لم يؤمن الناس. وهذا المعنى تكرّر بكثرة في القرآن، فأنت مجرّد رسول ناقل للرسالة، كنذير وبشير، وهذا هو المطلوب منك فقط، وسواء اهتدى الناس كلّهم، أو لم يَهْتَدِ ولا واحد منهم، فلا علاقة لك بذلك.

بالنسبة للفرق بين نزّل وتنزّل راجع دراسة أوّل آية من سورتنا هذه.

بقي شيء، فسّرنا {مَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَعَلَيْهَا} بالاستفادة والضرر المعنوي بالقرب أو البعد منه تعالى وعملياً من المجازاة على ذلك بالجنّة أو النار، وهذا تفسير صحيح، ولكن عموم القرآن بأمثال هذا الكلام يشير أولاً لك ولي كأشخاص موصوفين بالهدى أو الضلال، كما تصف الناس بأن هذا سيّئ فاسد مجرم... وذاك خيّر صالح... وهو نفسه كلام الآية هنا عن المهتدي بأنه على الشيء الصحيح، والضالّ بأنه على الشيء الخطأ، وهي مثل وصف الذين آمنوا وعملوا الصالحات، حيث إن الإيمان الصحيح هو التصديق بالمعلومات المطابقة للواقع، والعمل الصالح هو ما تراه بقلبك السليم صالحاً خالياً من الشرّ والسوء والفساد.

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ{42})

{اللَّهُ يَتَوَفَّى}، صاحب هذا الاسم المميز الله سبحانه يأخذ بالتمام، {الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا}، الشخص الفرد حين يفقد حياته، حين يتعطّل كامل الجسد ويتوقّف عن الفعل والانفعال، فسبحانه يكون أخذ ذات الواحد منّا تماماً من الحياة. وإلى هنا انتهت الجملة ونبدأ مع حالة من الحالات التي نكون فيها فاقدين للوعي ولكننا لسنا أمواتاً:

{وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا}، في حالة لم يتعطّل الجسد أثناء النوم، أثناء فقدان الوعي والإحساس بالمحيط مع البقاء حيّاً وهي ما نسمّيه بالنوم، هناك حالتان: {فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ}، التي أثناء نومها حصل لها الموت فسبحانه يتوفّاها، وفي حالة ثانية، {يُرْسِلُ الْأُخْرَى}، وهي النفس النائمة التي لم ينهها الموت فلا يمسكها تعالى بل يرسلها فيطلقها فيستيقظ الإنسان من النوم. وهذا الإرسال للنفس بعد النوم يكون، {إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}، لزمن تنتهي فيه حياته ومحدّد معلوم عنده تعالى، لأنه تعالى يعلم متى ستموت كلّ نفس، فيرسلها تعالى إلى حين يأتي موعد موتها، وعندها يتوفّاها.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، في التوفّي وإمساك وإرسال النفس في النوم وبعد النوم، {لَآيَاتٍ}، لَهِيَ أمورٌ مميزةٌ، {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة مع هذه الحالة، {يَتَفَكَّرُونَ}، فيرون هذه الحالات المميزة ويفكّرون فيها فتدلّهم على إله متحكّم بموتهم وحياتهم ونومهم ويقظتهم.

مَنِ المسيطر عليكم لتبقوا أحياء أو تموتوا؟ قبل قليل في الآية 38 تحدّثت السورة عن سيطرته وحده تعالى علينا بالضرر أو الرحمة من مستوى إلهي، وتلفت الآية انتباهنا هنا لشيء حصري من مستوى إلهي، فما معنى موتكم؟ وما معنى نومكم المشابه لموتكم لأنكم تفقدون وعيكم وإحساسكم الكامل بالمحيط؟ وما معنى استعادتكم لوعيكم من نومكم؟ ومن صمّمكم هكذا؟ ومن المسيطر على آجال موتكم؟ من الواضح جداً جداً فقدانكم للسيطرة على هذا الموضوع وأنكم محكومون بقدرة أعلى منكم، مَنْ قرّر منكم أن لا يموت، هل يمكنه فعلاً أن يبقى حيّاً ولا يموت؟

موضوع إنهاء الإنسان لحياته "الانتحار" خارجٌ عن كلام الآية لأنه خارج عن العادة البشرية ومخالف لعامّة تعلّقنا بالحياة، حيث يمكن لأي واحد أن يحاول إنهاء حياته وهذا لا يختلف عن قتل الآخرين، عن محاولة إنهاء حياة الآخرين، وهذا ليس موضوع الكلام هنا، لأنَّ الغالبية الساحقة من الناس تعيش حياتها العادية ولا تعيش هذا الهاجس، ولفت الانتباه هنا ليس موجّهاً لحالات الانتحار أو حالات القتل الشاذّة عن المسار العادي لحياة غالبية الناس، علماً أنه أيضاً تحت السيطرة الإلهية التي صمّمتنا بحيث نفقد حياتنا إذا عطّلنا جسدنا بإرادتنا، ونفس الشيء لو أنَّ شخصاً آخرَ عطّل حياة غيره فقتله...

لاحظ أنَّ الآية هنا عبّرت عن وفاة النفس بفعل الله تعالى، وغيرها من الآيات في القرآن تحدّثت عن ملائكة(ع) تتوفّى الأنفس، كما ورد في الآية 32 من سورة النحل {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ...}، وغيرها تحدّثت عن ملك الموت يتوفّى الأنفس كما ورد في الآية 11 من سورة السجدة {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ...}، ومن هذه التعابير نفهم أنه تعالى يعتبر تنفيذ أوامره عن طريق ملائكته(ع) هو نفسه تنفيذ الأمور منه تعالى، كما نقول: قتله الملك. بينما الملك في قصره أصدر أوامره لجنوده الذين قاموا بقتل شخص ما.

بالنسبة لكلمة نفس استعملها القرآن ومشتقاتها بالمئات، وكانت كلّها تشير لما يرادف "الذات، الشخص، الواحد..."، والخلط بين معناها الفلسفي الاصطلاحي مع تفسير بعض الآيات، سيذهب بنا إلى ما لم يقله القرآن، حيث يقولون إنها تشير لشيء يخرج من الجسم عندما نموت، ويختلفون بين بعضهم كثيراً في صفات هذا الشيء... ومضافاً إليه تدخل الروح على الخط أيضاً كشيء يخرج من الجسم عند الموت "كما يقولون"، ويختلفون كثيراً مع بعضهم حول الصفات الخاصة بالنفس والروح... دخلت تلك المباحث على ثقافتنا الإسلامية الدينية ممن سبقنا من أهل الكتاب ومن الفلاسفة وخصوصاً اليونان... وتجذّرت حتى صرنا نعتقد أنها من أصل قرآني، علماً أنه لم يرد في القرآن أي شيء عن خروج الروح من الجسد، ولا عن خروج شيء اسمه "النفس" من الجسد.

هذا الموضوع مثله مثل الكثير غيره من المواضيع التي منها ننطلق لنفسّر القرآن بدلاً من التعلّم مما يقوله القرآن، فيصير خروج الروح والنفس من الجسد حين الموت، يصير عندنا شيئاً دينياً ثابتاً غير قابل للنقاش! وعلى أساسه نفسّر القرآن! ركّزوا كلامهم على بضعة آيات ومنها آيتنا هنا للاستفاضة في أبحاث لا تتماشى مع مئات الآيات التي ذكرت كلمة نفس، أهمّها الآيات التي نسبت كلمة نفس له سبحانه وتعالى، كالآية 30 من سورة آل عمران {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ

نَفْسَهُ...} والآية 41 من سورة طه {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}، والآية 45 من سورة الأنعام {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}... فهذه الآيات وغيرها بالمئات التي وجّهت كلامها لنفسنا نحن البشر، تحمل معنىً واحداً بسيطاً: ذات الكائن، الشخص، الواحد، النفر...

أمّا بالنسبة لموضوع ما يبقى منّا بعد الموت ويرجع في الآخرة، فنهائياً لم يشر القرآن لأي شيء بهذا الخصوص وأصلاً لم يستعمل تعابيرَ تشير لبقاء شيء منّا بعد موتنا، والتفسير البسيط لبعض الآيات التي استعملت كلمة نفس لفهمها أنها تشير لشيء اسمه النفس يخرج من جسدنا ويبقى محفوظاً عنده تعالى ويتم إرجاعه لجسد في الآخرة... هذا التفسير غير صحيح، لأنه يصير لكلمة نفس فيه معنى غير المعنى العربي للكلمة الذي استعمله القرآن مئات المرات.

نتذكّر دائماً أن القرآن في كل المواضيع المختلفة لم يذكر آليات حصول الأمور، فاكتفى بالتعبير بنزول الماء ولم يذكر آلية حصوله، ولم يذكر تكاثف البخار لدرجة حرجة، أو تراكمه على الغبار، أو فقدان التعادل الكهربائي وتشكيل شحنة... واكتفى بالتعبير بجريان الفلك "السفن..." ولم يذكر آلية صنعها ولا ميكانيكية عومها... واكتفى بالكلام عن الظواهر مثلما نراها، كسيران الشمس واختلاف الليل والنهار... ولم يذكر آلية حصولها... ومثله أيضاً إغفال تفاصيل كيفية خروج النبات وتنوّع الثمر... وكما ترى، الكلام يجرّ الكلام حتى نلامس الكثير الكثير من الأمور المنتشرة في ثقافتنا والمتجذرة فيها لدرجة اقتناعنا بأنها من الثوابت الدينية علماً أنها ليست كذلك! القرآن ليس كتاباً علمياً للأمور التجريبية، وما قاله ببساطة لم يقصد منه إلغاء علومنا أو توجيه نظرياتنا... بل تحدّث معنا بكلام يفهمه أي شخص عادي سيفهم القرآن حين يدرسه من دون أن يكون متخصصاً في الفلك أو الطبّ أو الفيزياء...

إذاً، لم يذكر القرآن آلية خروجنا إلى الحياة أول مرة ولا ثاني مرّة، وقرّب لنا الفكرة بالتقريب البسيط فقط، وهكذا نفهم أن الأبحاث الفكرية أو التجريبية عن الحياة وفقدانها واستعادتها... ليست ممنوعة، ولا داعي للإصرار على اشتقاقها من القرآن على أساس أنها موضوع ديني، فهي مثل الأبحاث عن النبات وزراعته وتحسين إنتاجه وتهجينه... وعن الحيوان وزيادة إنتاجه وتحسين نوعه... ليس هناك أي داعٍ للبحث عن الآيات التي ذكرت النبات والحيوان والمرض والضوء والنجوم... لاستخراج نظريات علمية قرآنية، فهذا كتاب هداية فقط وفقط، والبحث في آليات وتقنيات حدوث الأشياء متروك لنا متحفّزين ومتحمّسين لاكتشافه والغور في روعته، وأجمل ما في الموضوع خلقه تعالى لنا في بيئة عميقة جداً بتفاصيل هائلة، وبالنسبة لي فهو أشبه بلعبة مسلية رائعة لا نهاية لها مع تنوّع واختلاف في مراحلها.

حتى لا أتركك تائهاً سأقرّب لك صورة تشبيهية تقريبية لخلقنا وإعادة خلقنا بعيداً عن كلامهم الفلسفي، ولكن قبل ذلك ننتبه لكلمة "عدم" التي يستعملونها مع اصطلاحهم على معناها أن الشيء يختفي نهائياً ولا يعد له أثر، فهذا الاصطلاح لم يرد في القرآن ولا بأي لفظ أو تعبير، وأقرب شيء قرآني له: الفناء والزوال. وهذا لا يعني اختفاء الشيء نهائياً. وستسأل نفسك: لماذا دخلنا إلى هذا الكلام؟ وأجيبك بأن هذه المفاهيم سبّبت غوصهم في أمور بعيدة كل البعد عن كلام القرآن، فقالوا إننا إن متنا "وانعدمنا" فمن المستحيل أن نرجع نحن بذاتنا، وأن ما سيرجع سيكون نسخة عنّا، فلنقل إنه تعالى أعاد تركيب ذرات جسدي بالتمام من ذرات كوكب آخر غير الأرض، فيقولون إنَّ هذه نسخة عني ولست أنا، ولذا قالوا لا بدّ من وجود شيء خاص بي ويكون محفوظاً لا يتغيّر من بعد موت جسدي، وقالوا إنه الروح أو النفس أو الجوهر... وهنا وقع الخلاف بين القرآن وبينهم، لأنهم استعملوا كلمات القرآن وآياته لتطبيق نظرياتهم، وكما ترى، لا مانع من طرح النظريات مهما كان نوعها وفي أي موضوع كان، ولكن الممنوع هو إسقاط نظرياتنا على آيات القرآن، فموضوع الفلك والطبّ والفيزياء... ليس موضوعاً دينياً، وموضوع الحياة ونشأتها ومعناها ومعنى فقدانها واستعادتها... ليس دينياً أيضاً، وها أنا أقرّب لك الصورة عنه، وكلامي في ذلك لا يعني أنه من الدين، فالخطورة في كلامهم أن بعضهم طرحوه على أساس أنه هو العقيدة الدينية، وهنا لن نفعل مثلهم.

فكّر في مسألة الموت والحياة بتشبيهها بإنسان آلي "روبوت"، إذا انقطعت عنه الكهرباء مات، وإذا فككته لقطع مات، وإذا نثرت مادته لذرّات مات... وإذا احتفظت بذاكرته ووضعتها في آلة جديدة عاش، فهو نفسه بأعضاء جديدة عاش... وإذا احتفظت بالكتابة على الورق لسطور برمجته، وسجّلت ذاكرته ورقياً بطريقة رقمية، وأعدت كتابتها في ذاكرة ما، فما الفرق بين هذه الحالة وحالة الاحتفاظ بذاكرته على قرص صلب "هارد ديسك" أو على قرص مدمج "دي في دي" أو على ذاكرة مغناطيسية أو ضوئية...؟ فما الفرق حتى نقول عن هذه الحالة إنه هو بذاته عاد حيّاً لأننا احتفظنا بذاكرة "فيزيائية" له، وعن حالة كتابة برمجته على الورق وإعادة كتابتها على ذاكرة، لنقول إنها نسخة؟

هنا ستقول: إن لم يَبْقَ شيء من الأصل، فتكرار كتابة الذاكرة لأكثر من مرة سيصنع نسخاً متعددة عن نفس الروبوت، ونفس الشيء سيحصل معنا إن لم يكن هناك شيء خاص بكل واحد منّا.

ننتبه جيداً، فرضاً استطعت نسخ ذرات جسدي بالتمام لتشكيل نسخة طبق الأصل عنّي، وصار لدينا وعيان في نفس الوقت، فما هو الشيء الأصلي المحفوظ الذي لا يتغيّر في نسختي؟ يعني إن ماتت نسختي أليس لها شيء ثابت لا يتغيّر كما هو مشهور؟ فمن أين أتى؟ وكيف صار هناك شيء ثابت لي لا يتغيّر، وصار لنسختي شيء ثابت لها لا يتغيّر وهو نفسه بالتمام ما كان لي؟

كما ترى، هذا الكلام مثله مثل الكلام في عمق فيزياء الجسيمات وعمق تكوين الخلايا... فهو ليس دينياً، ومفتوح للبحث فيه فكرياً وتجريبياً.

القرآن لم يذكر آلية إرجاعنا إلى الحياة، ولم يذكر صراحة وجود شيء خاص بكل واحد منّا وينحفظ ليعود في جسد جديد في الآخرة، وما تفهمه من القرآن بشكل باتٍّ قطعي أننا نحن كلّ واحد منّا بذات نفسه سيرجع، أمّا كيف، والبحث عن الجواب في القرآن، فهذا لن يفيدك بأكثر من إشارات من الصعب فهمها إن لم نتطوّر بعد في علومنا، مثل كلام القرآن عن خلقنا وعموم نشأة الحياة. والكلام هو نفسه عن سبب نزول الماء، وسبب ظاهرتي الليل والنهار، والجاذبية والدواء وصنع الآلات والكمبيوترات والهواتف... فلا يعارضه الدين ولا يؤيده ولا علاقة له به.

الكلام عن الحياة وسببها وافتراض نظريات لها ومحاولة تقليدها وإرجاعها أو نسخها... لا يعارضه القرآن ولا يطرح نظرية له، بل التعمّق فيه بالتجارب وتحليلها سيجعل بشكل ما فهمنا لكلام القرآن أوضح.

لمزيد من التوسّع حول الحياة والموت أحيلك إلى دراستنا للآية 67 من سورة مريم {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}.

(أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ{43})
هنا تطرح السورة تبرير البعض للشرك به تعالى بسبب حاجتهم لشفعاء "هنا في الدنيا" لطلبات "دنيوية"، وهذا عادة ما يقصده المشركون باعتقادهم أن المسافة بعيدة بينهم وبين الله تعالى وهم لديهم طلبات يريدونها هنا في الدنيا ولذلك يعبدون غيره ليشفع لهم عند الله تعالى لتحقيق طلباتهم، وسترى في الآية التالية إشارة عامة لتطبيق الشفاعة أينما كان حتى لو احتمل المشركون أن آلهتهم ستشفع لهم في الآخرة "إن" كان هناك آخرة... وهذا شيء نقله القرآن عن بعضهم.

{أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ}!؟ هؤلاء المشركون تركوا الاعتقاد بالله تعالى إلهاً أحداً شفيعاً يتدخّل بمكانته المعنوية وبسلطته كوسيط لصالحهم لتغيير ظروف أمور سيئة وقعوا فيها بإرادتهم، واعتقدوا بوجود من يستطيع بقيمته وبقدرته وسلطته الذاتية من مستوى إلهي أن يشفع لهم ويتدخّل لما فيه مصلحتهم، وينجيهم من الفقر أو المرض أو يمنع عنهم العقاب الإلهي...

{قُلْ}، لهؤلاء عبر هذا القرآن:

{أَوَلَوْ}، حتى لو، {كَانُوا}، الذين يطلبون الشفاعة منهم، {لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً}! هم وغيرهم يمكنهم الشفاعة فيما يملكونه ولهم السيطرة عليه، أمّا لو كانوا لا يملكون أي شيء، والكلام هنا عن فقدانهم المكانة المعنوية الإلهية وفقدان السلطة كإله، فكيف يشفعون للمشرك فيما لا يملكونه!

{قُلْ} لهم: {أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ}!؟ هل تطلبون شفاعة من الذي لا عقل له ليعقل به ولا تعني له الأمور أي شيء؟! والأسوأ من اعتقادهم بإله غيره تعالى له سلطة الشفاعة بشكل منفصل وقاهر للسلطة الإلهية من كائن عاقل وله فعلاً وجود، كعبادتهم لملاك أو جنّي أو إنسان... أسوأ من ذلك اعتقادهم بأصنام لا تعقل الأشياء، ولا تفهم معنى الأشياء، ويعتقدون بشفاعتها!

تذكّر دائماً أن السورة تتحدّث عن ومع نوع محدّد من الناس لم يخلص الدين لله تعالى، لأنهم نوعية تؤمن بشكل ما بالله تعالى إلهاً، ولكن بشكل ما تسحب صفة خاصة بالإله وتنسبها لغيره سبحانه، سواء قالوا عن هذا الغير أنه إله أو ربّ أو ولي أو ندّ أو مميّز أو... ولم تحدّد السورة تسميته ولا وصفه، وعمّمت كلامها ليشمل أي تسمية أو وصف يطلقونه على

أي كان، وكما تعلم وبعض المشركين يعبد كائنات عاقلة، ويعبد ملاكاً أو إنساناً... وبعضهم يعبد حجراً أو معدناً أو خشباً... منحوتاً ليصير تمثالاً... فالأول كائن حقيقي عاقل ولكنه مخلوق لا يملك حتى نفسه لأنه تعالى المالك لكل شيء، والثاني مجرد معدن لا يعقل الأمور! فكيف ستشفع هذه المخلوقات وبأي صفة إلهية طالما هي مخلوقات! وكيف ستفرض إرادتها عليه تعالى لترزق هذا وتشفي ذاك وتمنع العذاب عن المشركين؟ وكيف ستعارضه تعالى وتصيب المشركين بالرحمة وبما ينفعهم!؟

بكلام الآية مع عموم المشركين من أي نوع كانوا، اختارت نموذج المشركين العابدين لما لا يعقل، وهم العابدون للأصنام، فالصنم جامد لا يعقل، ولا يرى ولا يسمع ولا يفهم ما يجري أمامه ولا معه... فهل هذا سيشفع؟

يخطر هنا ببالي شيء لاحظته في سور أخرى، وحين يكون الكلام موجّهاً لعموم المشركين، وتختار السورة نموذجاً ما منهم لتبيّن سخافة ما يعتقدون به أو يشرّعونه، وخذ مثلاً هنا مجموعة المشركين من عابدين لملائكة وجنّ، وعابدين للأصنام، بعد لفت انتباه الجميع لسخافة طلب شفاعة من الذي لا يعقل، وهو الصنم، سيقول المشرك العابد للملائكة أو الجنّ أو لإنسان، إنّ المشرك العابد للصنم سخيف ونحن لسنا مثله.

بعد هذا من المفروض أن تحصل حرب فكرية عقائدية بين عابدي المخلوقات وعابدي الأصنام، أليس كذلك؟ ولكن بالعكس ترى توافقاً جماعياً بين المشركين على التراخي والتساهل في قبول عقائد بعضهم البعض لأن الجميع راضٍ عن النتائج، لأنهم ليسوا مضطرين ليكون الحقّ معياراً يضبط فكرهم وسلوكياتهم، ومرتاحون على هواهم يخترعون ما يشاؤون من آلهة ومن عقائد وشرائع وسلوكيات مناسبة لأهوائهم.

هكذا ترى جانباً مهماً في كلام هذا القرآن عمّا يعرضه علينا لنؤمن به ونلتزم به، ويريك المستوى المنخفض جداً جداً الذي وصل إليه الناس باختراع عقائد يؤمنون بها وهي لا تعكس الواقع، لأنها ليست مبنية على الحقّ، ما هذا المستوى المنخفض من التفكير؟ وهل توافقون عليه؟ ويريك اختراعهم لتشريعات وسلوكيات ليست مبنية على اعتماد الصلاح، فهل هذه قيمتكم؟

(قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{44})
{قُلْ}، لهذه النوعية من الناس عبر هذا القرآن:

{لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً}، وأي وجه من وجوه الشفاعة، وهي المكانة المعنوية الإلهية والسيطرة من مستوى إلهي لدفع ضرر أو إتاحة منفعة، فهي حصرية لذي الاسم المحدّد المميّز لله تعالى، فلا إله غير صاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى، لأنه سبحانه يشفع بشكل قاهر فارضاً مكانته كإله وإرادته كإله، ويرزق ويشفي... ويغفر الذنوب لمن يشاء ولا يمكن لأي أحد منع تنفيذ قراره تعالى، ولا أحد يمكنه أن يشفع ولا بأي شكل إلا إذا سمح الله تعالى له، ولا أحد يمكنه أن يفرض عليه تعالى ولا بأي شكل ليشفع...

ننتبه إلى أن تفسير الشفاعة حصراً بما سيحصل في الآخرة نابع من عادتنا على فهم حصريتها هناك، ولكن عموم كلام القرآن مع وعن المشركين، يشير لعموم الشفاعة حتى هنا في الدنيا، ولو راجعت سياق الكلام في الآيات السابقة لرأيته بالأساس يشير إلى دفع الضرّ وإتاحة المنفعة هنا في الدنيا، حيث يقصد المشركون أن آلهتهم تتدخّل لصالحهم هنا في الدنيا لتدفع عنهم الضرّ منه تعالى أو من عموم ما يقعون فيه من مصائب، ولتتيح آلهتهم لهم المنفعة منه تعالى...

{لَهُ}، سبحانه، {مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وبتعبير مشابه: وكل شيء منسوب له تعالى لوحده. لأنّ السماوات والأرض هي البيئة التي فيها كلّ المخلوقات بدون استثناء، وكلهم منسوبون له تعالى كنتاج عن تصميمه وخلقه لهم، وهو المالك لهم والمسيطر عليهم والمدير لشؤونهم... وسبحانه دائماً يتكلّم معنا بشفافية، حين يذكر السماوات والأرض على أساس أن كل ما في دنيا المخلوقات محصور فيهما، ولا يرى سبحانه أي شيء آخر، ويعلم من نفسه أنه سبحانه خلقهم، وعلى هذا الأساس يخبرنا سبحانه وبكل شفافية أنه لم يلمس أي أثر لأحد غير نفسه والمخلوقات التي هو خلقها والمحصورة في السماوات والأرض، وبناء عليه يخبرنا أنه يرى نسبة كل شيء له كإله لمخلوقاته، ويمكنه التصرّف فيما خلقه كيفما يشاء، ولم يلمس سبحانه ولا أي أثر لأحد غيره يتصرّف بشكل إلهي في السماوات والأرض... وبناء عليه لا أحد غيره تعالى يمكنه ولا بأي شكل أن يشفع أو يفرض شفاعته لأنه هو نفسه سيكون مملوكاً لله تعالى،

وسيحاول التصرف فيما يملكه الله تعالى الذي لم يُعْطِ أي أحد سلطة أو قدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى للتصرّف على هواه.

لنتوسّع قليلاً بالكلام عن الشفافية، إذ سبحانه لا سبب عنده حتى لا يعرض الأمور كما هي وبشفافية، ومراراً كرّر لنا لفت انتباهنا للسماوات والأرض مشيراً إلى ما نراه فيهما من وضوح إله واحد أحد لهم، ولا تجد أي أثر فيهما لإلهين تعارضا في قرارهما، فلماذا ستفترض وجود إلهين متّفقين في كل شيء طالما كل الدلائل تشير لإله واحد؟ وراجع في ذلك كمثال الآية 91 من سورة المؤمنون {... وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ...}، وبناء عليه سبحانه وبكل شفافية يخبرنا من علمه بما يراه، وبعبارة نتساهل فيها كثيراً سنقول إنّه تعالى يقول لنا: بناء على المعلومات التي عندي عن طبيعتي، أخبركم أنه يستحيل وجود كائن آخر مثلي. وبناء على المعلومات التي عندي عن المخلوقات، فكلّها أنا صمّمتها وخلقتها وخلقت بيئتها المحصورة ضمن السماوات والأرض، ولا يوجد أي مخلوق لم أخلقه أنا. وبكل شفافية أخبركم أني أنا بنفسي "شخصياً" خالقكم وخالق بيئتكم، لأنني لم ألمس ولا أي أثر لأي كائن أو شيء أو حالة أو ظاهرة أو أثر أو... لأي شيء ومن أي نوع كان، إلا لنفسي ولما خلقته أنا.

هذا الكلام مع أنه مبسّط عنه تعالى ولكنه صريح وعميق، ولو أضفت إليه ما تعرفه وما أخبرك به تعالى عن اختلاف طبيعته سبحانه عن كل مخلوقاته، لرأيت أعماقاً أخرى، لأننا إذا أردنا وصف الكائنات التي يمكننا التعامل معها فمعطياتنا الحالية تشير لصفات الزمان والمكان والحركة "والطاقة"، وسبحانه طبيعته مختلفة عن كل شيء، وبالتالي سبحانه وتعالى خارج الوصف بالمكان والزمان والحركة "والطاقة". الآن من هذا العمق انظر لكلامه تعالى معنا بشفافية عن نفسه وعن مخلوقاته وأنه تعالى لم يلمس أي أثر لأي كائن إلا نفسه وما خلقه.

لأكون أكثر صراحة معك وأضيف على الشفافية الإلهية، رغم أنه يستحيل تواجد إله آخر غيره تعالى بناء على ما يراه تعالى من علمه بطبيعته، وبالتالي يستحيل وجود مخلوق لم يخلقه تعالى، رغم ذلك سبحانه وبكل شفافية يخبرنا عن الواقع، وبكل شفافية لا ينفي لنا ولو على مستوى الافتراض الخيالي الذي لا معطيات تساعد عليه، لا ينفي لنا إمكانية وجود شيء آخر حتى هو سبحانه لا يعلمه، وأنا بهذا الكلام لا أتجرّأ على الذات الإلهية، بل أعكس لك المستوى الإلهي بالشفافية وقول الحقّ، لأن كلامنا مشحون باستعمال تعابير استحالة وجود إلهين، وأمّا كلامه تعالى فكان صريحاً شفّافاً يخبرك عن واقع الحال، لأن كلامه تعالى ليس فيه تحليل فكري عقلي... ليقول لك فقط أنه يستحيل وجود كائن آخر مثله، بل عرض للوقائع بناء على المعطيات، ويخبرك مما يعلمه مما يراه ويسمعه ويطاله علمه... أنه لم يلمس أثراً إلا لنفسه، ولما صمّمه وخلقه هو، لأن كل المعطيات التي عنده بمعلوماته عن طبيعة نفسه وعمّا فعله فهي تشير لوحدانيته، ولو فرضاً كان هناك شيء آخر غيره تعالى وغير مخلوقاته، فلا بد أن يظهر لهم أثر ما، ولا نحن ولا هو تعالى لمسنا أي أثر لذلك، وهذا المعنى متضمّن في الآية 91 من سورة المؤمنون {... وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ...}، وفي الآية 22 من سورة الأنبياء {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}.

{ثُمَّ إِلَيْهِ} تعالى {تُرْجَعُونَ}، وهذا التعبير القرآني واسع، حيث يشير إلى أننا لا نختفي "ننعدم" بعد موتنا، ويشير أننا لا نذهب إلى عالم آخر فيه إله أو آلهة أخرى غيره تعالى، بل سنرجع إلى الله تعالى.

كيف تتصوّرون وبأي شكل أن صفة الشفاعة من مستوى إلهي يمكن أن تكون في غيره تعالى! فإن كان كلّ شيء منسوب له تعالى، ووحده تعالى يملك قدرة التصرّف فيما يملكه كما يشاء، وإن كنتم ستموتون وترجعون إليه تعالى فلن تذهبوا إلى إله غيره، فكيف وبأي طريقة ولأي سبب تتصورون وجود كائن ما يملك صفة الشفاعة الإلهية القاهرة لإرادته تعالى!

بالنسبة للشفاعة من القرآن نعلم أنه تعالى هو نفسه يشفع ويمنح الشفاعة للملائكة (ع) وللمؤمنين من الدرجة العالية... ليتوسطوا لضعفاء الإيمان حتى يسامحهم سبحانه عن ذنوبهم لأنهم مؤمنون من الدرجة المنخفضة... وهذه شفاعة أثبتها القرآن في بعض آياته، منها الآية 28 من سورة الأنبياء {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}، ولكن القرآن في آيات أخرى نفى أن يكون لأي كائن كان حقّ الشفاعة إلا الله تعالى، كما ورد في الآية 4 من سورة السجدة {... مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ...}، وكانت تلك الآيات تقصد نفي الشفاعة

من مستوى إلهي أو بشكل مفروض عليه تعالى، لأن وحده تعالى من مستوى إلهي يشفع، والبقية مخلوقات ومن بعد إذنه تعالى يشفعون، كما ورد في الآية 255 من سورة البقرة {... مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ...}، لا أحد يقف في يوم القيامة ويضرب رجله بالأرض "يحتجّ معترضاً" ويقول: عندي حقّ الشفاعة وأريد تنفيذها كيفما أشاء، وشئت تنفيذها على فرعون فنفذّوها غضباً عنكم. أستغفر الله عن هذا التعبير ولكن قلته لك بفجاجة حتى تنتبه له، لأن هذا المعنى متضمّن فيما يريده عموم القرآن حين ينفي الشفاعة، فهو ينفي فرض الشفاعة عليه سبحانه وتعالى.

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ{45})
{وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ}، المؤمنون استحضروا الكلام عنه تعالى أمام بعض الأشخاص من هذه النوعية من المشركين، وتحدّثوا عنه أنه الإله الأحد الكامل الصفات الحسنة الفائقة، المنفرد بالصفات الإلهية الخالق الرازق المنعم... عندها، {اشْمَأَزَّتْ}، نفرت وانزعجت، {قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ}، ولو آمنوا بالآخرة لحسبوا حسابا لله تعالى ولقدروه حقّ قدره كإله أحد يحاسب ويجازي، ولكنهم منكرون للآخرة فهم لا يكترثون بحسابه ولا بعقابه سبحانه، وبديهي أن الكلام عمومي عن الحساب عمّا يُؤْمِنُونَ به وعن الحساب عمّا يشرّعونه، لأنهم مؤمنون بآلهة اخترعوها بالصفات التي تناسب مزاجهم، والله تعالى صفاته حسنة وهي لا تناسبهم! وهم يريدون إلها ينصرهم عندما يغيرون على الأبرياء ليسرقوهم أو يستعبدوهم... ويريدون آلهة لا تعارض تشريعاتهم السيئة التي يهوونها بينما سبحانه لا يأمر إلا بالخير والصلاح ويعاقب على السوء والفساد...

{وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ}، حيث جرى الحديث عن غيره تعالى، عن آلهتهم أو آلهة أقوام آخرين، {إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}، عندها يتوقعون ويتأمّلون الأخبار المفرحة! على أساس أن هذا الكلام هو الذي فِيهِ خيرهم وما يسعدهم... طبعا هم في هذه الحالة على هواهم كما نقول بالعامية: فلتانين على حلّ شعرهم، بلا قيود الالتزام بالصدق والحقّ والصلاح...

هذه عقلية ومشاعر أناس مشركين بشكل صريح أو غير صريح، وسترى السورة تعمّم كلامها لكل حالات الخلل في إخلاص الدين له تعالى، وهنا تصوّر الآية مشركا يعبد الأصنام، أو الملائكة(ع) أو الجنّ أو إنسانا ما... وعندما تتحدّث أمامه عن الله تعالى، فيشمئزّ! ولكن عبّاد الأصنام والملائكة(ع) والجنّ... فيما بينهم حين يتحدّثون عن آلهتهم يستبشرون بالخير، ولأنَّ آلهتهم التي صفاتها على مزاجهم يتوهمّون أنها ستؤمّن لهم سعادتهم حتى لو كانت سعادتهم في سوء وفساد...

هناك سور من القرآن تحدّثت بشكل خاص عن اليهود والمسيحيين وغيرهم من أتباع الدين الإلهي والذين عبدوا غير الله تعالى، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دونه تعالى... كما ورد في الآية 31 من سورة التوبة {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، ولم تتحدّث عن المسلمين لأن تلك الحالات لم تظهر في عصر الرسول(ع) بشكل علني وظهرت بعده، فاعتبر القرآن أن تصحيحه لأي عقيدة باطلة قديمة هو تصحيح لكل العقائد الباطلة الجديدة من نفس النوع، وكانت السور تنبيهات لمن هو فعلا خرج عن الخط الصحيح، وتنبيهًا لمن لم يخرج حتى لا يشذّ، هنا في الآية نرى شبها كبيرا بين الناس التابعين للدين الإلهي المتعلّقين بالأولياء الصالحين والقدّيسين والشخصيات الدينية، لدرجة نفورهم من ذكر الله تعالى وحده، وإقحامهم لشخصياتهم المرموقة في كل كلام ديني! فإن كان أصل شعورهم وأساسه نابعاً عن شيء مشترك مع الذين تتحدّث عنهم السورة من الاشمئزاز من ذكره تعالى وحده، فلينتبهوا لأنهم خرجوا عن إخلاص الدين لله تعالى.

(قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ{46})
{قُلِ}، عبر هذا القرآن:

{اللَّهُمَّ}، إلهي الذي أعتقد به، أتوجّه إلى الذي أعتقد فيه الصفات والقدرات الفائقة فوق الجميع، {فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، حيث لم يكن هناك شيء، وصارت السماوات والأرض، وهذا التعبير القرآني يشابه قولنا: أخرج كلّ شيء، كوّن ما في دنيا المخلوقات. شقّ العدم وأخرجهم للوجود... ولكن تبقى الدقّة بالتعبير القرآني الذي لم يستعمل كلمة وجود ولا كلمة عدم، واستعمل كلمة فطر، بدع، ذرأ، أنشأ، خلق... مع الفارق الكبير بين تعابيرنا وتعابير القرآن، لأنَّ العدم

مفهوم تخيّلي لا حقيقة له، والوجود مفهوم تصوّري لما يمكننا التعامل معه بشكل مباشر كالمادة التي نتكوّن منها والتي حولنا، ولكن أي شيء آخر فإنّ انطباق مفهوم الوجود عليه سيكون تخيّليا لأننا لا نملك عنه أي معلومات مباشرة... وهكذا ترى أن شقّ العدم وخروج الموجودات كتفسير لكلمة "فطر" هو تعبير فلسفي تخيّلي تقريبي، وأمّا المرادف للتعبير القرآني الدقيق لفطر فهو: كوّنها وهي لم تكن من قبل.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضا على قبّة النجوم التي نراها ليلا ونطلقه أيضا على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنويا على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائما أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنويا" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}... وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها وهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضا بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر هو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراض.

عادة نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير ونستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، نقول: خلق سبحانه الدنيا، أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيرا صحيحا دقيقا بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى}. سبحانه دقيق في تعابيره ويحدّثنا بدقّة عمّا يعلمه، وكلامه تعالى عن السماوات والأرض هو كلام عن علم بما أمامه سبحانه، لأنه دائما يتكلم بشفافية عمّا أمامه فقط، أمّا الكلام عن كلّ ما في الدنيا، فهو كلام عمومي ويشمل "نظريا" ما هو خارج العلم، ولذلك لم يستعمله تعالى، بينما ترى استعماله في كلام عموم البشر لأننا نتساهل ونتراخى في التعبير.

نرجع للآية، اللهم، {عَالِمَ الْغَيْبِ}، حيث تعلم "كل" ما غاب عن المخلوقات، سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، {وَالشَّهَادَةِ}، وتعلم ما شهدته المخلوقات، وتعلم ما جرى معهم وأمامهم.

أنا لم أشهد إلا ما سمعته أو رأته عيناي أو تعاملت معه بأحاسيسي... وكل بقية المخلوقات مثلي، وهذا علم الشهادة لدينا، والله تعالى يعلمه، ويعلم تعالى ما غاب عنّي وجرى معك، وما غاب عنك وجرى معي، وما غاب عنّي وعنك وجرى مع غيرنا... في الماضي والآن... ويعلم تعالى حتى ما سيجري في المستقبل.

{أَنْتَ}، بهذه الصفات يا إلهي، {تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}، عبيدك المفروض منهم طاعتك اختلفوا ولم يكونوا متوافقين، وبعلمك الواسع جدا ستصدر حكما في خلافهم، وتقول سبحانك: هذا أخطأ وذاك أصاب...

كلمة "حكم" وصف لعموم ضبط الأمور كما هو مطلوب على الصواب، وعندما تكون صفة أو وصف فعل له تعالى فهي تحمل الناحيتين من معناها، حيث تحمل معنى صوابية الأمور التي قرّرها وفعلها تعالى وهي حقّ، وتحمل معنى الحكومة الدارج بيننا وهو معنى اشتقاقي من الحكم ويشير إلى تنفيذ ما حكم به، وتشير للسلطة على تنفيذ الحكم.

كلمة عبد تشير لمن المفروض منه وعليه الطاعة وهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، حيث كأنّ كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، لأنّ كليهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، وهي جمع الجمع، وأثناء الكلام بدقّة تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، لتقول الآيات: عبيد، ووردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وتكون لكل العبيد بكل أنواعهم لتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وتكون

لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، حيث تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخرين جاءهم رسول، وعبيد آخرين... فجمع الجمع "عباد"، وكلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جدا عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

(وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ{47})
{وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا}، لو للأشخاص الذين لم يكن معهم حق حين لم يخلصوا دينهم لله تعالى، ظُلْماً بغير عدل ولا إنصاف ولا وجه حقّ لم يخلصوا الدين له تعالى، لو أن لهم، {مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}، يَمْلِكُونَ أو لهم سلطة كلّ ما في الأرض من بقاع وبيوت ومنشآت وأملاك وناس وحيوان وزرع ومال... {وَمِثْلَهُ مَعَهُ}، بِقَدْرِ ما على الأرض بمرتين لو كان لهم، {لَافْتَدَوْا بِهِ}، قَدَّمُوهُ فدية، كبدل يُقَدِّمُونَهُ حتى لا يصيبهم ضرر، {مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ}، من الضرر السيّء، {يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، في زمن القيام من الموت. فلو كان يملك الأرض وما عليها، ويملك أيضا فوقها أرضا أخرى بما عليها... فسيقول: خذوا كلّ شيء واتركوني ولا تعذّبوني. وَهُوَ مستعد للتخلّي عن كل شيء لِيُقَدِّمَهُ كبدل عن تعذيبه.

لاحظ، هنا في الدنيا بعض الناس مستعدون للموت ليحموا أملاكهم أو أحباءهم، أو يُعَرِّضُونَ أَنْفُسَهُمْ للخطر للحفاظ على أَمْلَاكِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَحِبَّائِهِمْ... أمّا في الآخرة فلا أحد يتحمّل تعرّضه للعذاب بسبب شدّته، وسيقدّم أي شيء ليتخلّص من العذاب.

الْكَلَامُ هنا عمومي لنا جميعا وخصوصي مع المشركين، حَيْثُ ترانا نحن المنتمين لدينه تعالى عموما لسنا مستعدين للتخلي عن استفادة ما من عمل سوء، وَيَقُولُ أحدهم: أنا لا أشرب الخمر، ولكن عملي في تقديم الخمور يدرّ عليّ رزقا لتأمين عائلتي... ولست أجد عملا آخر... وأنا وأنت نستهتر بأموال الآخرين حين نعمل لهم بالأجرة وَنَسْتَفِيدُ منهم ماليا ولا نعمل بِالْإِتْقَانِ والأمانة المفروضة عَلَيْنَا... أو نغشّهم أو... وَالْآيَةُ هنا أيضا مناسبة لنا لنتذكّر أن أي منفعة حصلنا عليها من السوء فعليها عقاب، ولو فرضا كنّا في الآخرة نملك "كوكب" الأرض وما عليها من عقارات ومال وناس وحيوانات... لتخلّينا عنها حتى ننجو من العذاب.

انْتَبِهْ جيدا، لِأَنَّكَ كمؤمن ربما سيكون في بالك شيء آخر، وَتَفْتَرِضُ أنك لو واجهت مشكلة كهذه في الآخرة فستفتدي بكل شيء لتدخل إلى الجنّة، لا، لِأَنَّ الكلام ليس عن شراء تذكرة لدخول الجنّة، بل عن الاتقاء من العذاب حتى لو كان فِدَاءً لتبقى حيا بدون عذاب... أو لتموت بدلا من دخول النار. يعني هذا الفداء ناظر فقط للخلاص من النار حَيْثُ إِنَّ أي حالة أخرى سيقبلون بها حتى لو كانت الموت.

{وَبَدَا لَهُمْ}، حَيْثُ ظهر وصار واضحا للذين لم يخلصوا دينهم، {مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ}، حَيْثُ في حساباتهم الفكرية أو على الورقة والقلم لم يتوقّعوا الآخرة، وإذا احتملوا ولو بشكل ضعيف أنها ستحصل فهم لم يتوقّعوا أن يعذّبهم تعالى، ولم يتوقّعوا أن العذاب سيكون شديدا لهذه الدرجة.

بَعْضُ الناس لا يريدون أن يفهموا الكلام القرآني على حقيقته حين يخبرهم عن عذاب شديد في الآخرة، وَيَتَصَوَّرُونَ أنه مهما كان شديدا فهم سيتحملونه، لِذَلِكَ تأتي آيتنا هنا بمثل يوضّح لنا صورة شدّة العذاب لدرجة التخلّي عن كلّ شيء للتخلّص منه والقبول بالموت بدلا منه.

(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون{48})
{وَبَدَا لَهُمْ}، حَيْثُ ظهر وصار واضحا للذين ظلموا، {سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا}، حَيْثُ كسبوا وَحَصَلُوا على أشياء سيئة نتيجة كفرهم ظلما بالحقّ، وها هِيَ ظهرت أمامهم في يوم القيامة على شكل نار ودخان وتشوّه في الخلقة وضرب وإهانات...

{وَحَاقَ بِهِمْ}، حَيْثُ التفّ وأحاط بهم، {مَا كَانُوا بِهِ} "من العذاب" {يَسْتَهْزِئُونَ}، لِأَنَّهُمْ عندما سمعوا هنا في الدنيا عن عذاب الآخرة تَعَامَلُوا معه من خلفية الاستهانة والاستخفاف وَلَمْ يعتبروا له قيمة وَاسْتَخَفُّوا به ولم يتعاملوا معه بجديّة،

وهناك في يوم القيامة مِنْ كل الجوانب لا يجدون مهربا من الذي كانوا يستهزئون به، لِأَنَّ العذاب دار والتفّ حولهم، ولا يوجد أي ممر للرحمة الإلهية لتصل إليهم، لَا مغفرة ولا شفاعة ولا قيمة لأي عمل حسن قاموا به...

(فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ{49})
{فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ}، شَعَرَ بشكل واضح بضرر وَصَارَ بحالة سيّئة، عندها، {دَعَانَا}، أشهر وأعلن وَتَوَجَّهَ نحوه تعالى بالكلام طالبا رفع الضرّ عنه، {ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا}، إذا أَتَاحَ تعالى له ومنحه، شَيْئاً جَيِّداً من عنده تعالى، وَارْتَفَعَ عنه الضرّ وصار في حالة مريحة، عندها، {قَالَ}:

{إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ}، حصلت على النعمة، على علم، بسبب علمي وَمَهَارَتِي وَشَطَارَتِي، فأنا بذكائي غيّرت حالة الضرّ وحوّلتها لنعمة ولا دخل لله تعالى بها.

ضع في بالك دائما أن القرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموما ذَكَراً وَأُنْثَى، وأنهم يتناسلون... أو مُتَعَلِّقٍ بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

{بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ}، حالة الضرّ وبعدها النعمة ليست من قدراتك العلمية بل شيء تتعرّض له ليغيّرك، فالفتنة هِيَ عموم أي شيء يعجبك فيغيرك أو لا يعجبك ولكن يجبرك على التغيّر أو تتماشى معه فتتغيّر، كَامْتِحَانٍ وَاخْتِبَارٍ.

مَا يمرّ به الإنسان من تغيّر الحال من ضرّ لنعمة، ومن نعمة لضرّ، ومن ضُرٍّ لنعمة... فهو قرار إلهي ليمتحنه به، فليس بقرار منّا نعيش هذه الحالات، ولسنا بقدرتنا الذاتية المنفصلة عن قدرته تعالى ندخل ونخرج من تلك الحالات، بل نعيشها لأنه تعالى خلقنا هنا في الدنيا ليمتحننا في هذه الحالات التي صمّمها تعالى، فلا معنى لكلام من يقول إِنَّهُ بعلمه وَبِذَكَائِهِ وَبِشَطَارَتِهِ وَبِفِطْنَتِهِ وَبِتَخْطِيطِهِ... صار في نعمة، بل هو مجرّد مخلوق ضعيف يعيش في بيئة صمّمها الله تعالى لنمرّ في ظروف الضرّ والنعمة.

{وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}، لِأَنَّ هَذَا الكلام عن خلقه تعالى لهم في بيئة يتعرضون فيها للفتنة، وَهَذِهِ ليست بالنسبة لهم معلومة صحيحة أو راسخة عندهم، فهم لا يؤمنون بذلك.

لاحظ كيف عرضت الآية الشعور بحالة الضعف في حالة الضرّ، والتوجّه بالدعاء للإله سبحانه، وشعور الإنسان بالعظمة في حالة الرخاء ونسيانه لإلهه!

نَنْتَبِهُ لأبسط سؤال توجّهه الآية بشكل مبطّن لهذه النوعية من الناس، فلو كانت الظروف تمشي بأمر الإنسان وعلمه وَقُدُرَاتِهِ الذاتية... وليس تحت سيطرة من صمّمه للمرور بظروف مختلفة... فلماذا لا يعيش الإنسان الفهيم الذكي دائما في حالة نعيم؟ إذاً فِي كلا حالتي النعيم أو الضرّ أنت تحت السيطرة الإلهية.

لِأَنَّ المغزى من الآية ملفت جدا، ومنتشر بكثرة في القرآن، اسمح لي أن أمثّله بعبارة أخرى من المنظور الإلهي للناس وهم على الأرض، تَصَوَّرْ نفسك بقدرة على خلق كائنات، وَمَنَحْتَهَا حياة وفكرا وخيالا... وجعلتها في بيئة تعرّضها لما يضرّها من الكائنات الأخرى ومن كوارث البيئة، وَكُلُّ ما يحصل معها من نعمة أو ضرّ إِنَّمَا هُوَ ناتج عن تصميمك أنت لهم ولبيئتهم، وهكذا نفهم معنى كلامه تعالى في أمثال آيتنا هنا عن تعرّضنا للفتنة، وَمِنْ تصميمه تعالى لما في دنيا المخلوقات صرنا حتما معرّضين لما يغيّرنا، وهذا هو معنى كلمة فتنة، وهذا هو الامتحان فيما سنختاره مما نتعرّض له... فعن أي علم وعن أي قدرة وعن أي فطنة وذكاء وشطارة يتحدّث الناس الَّذِينَ يعيشون في نعمة! وما معنى نسيانهم للإله العظيم الذي خلقهم في بيئة الامتحان ويراقبهم! ولماذا بعلمهم لا يتجنبون كل أنواع الضرّ من أساسها؟

نُلَاحِظُ في غالبية كتب التفسير أَنَّهُمْ أَشَارُوا إلى قارون كأبرز نَمُوذَجٍ عمّن قال: {أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي}. وهذا صحيح بحسب معلوماتنا، ولكن الملاحظ في كلّ هذه السورة أنها لم تشر أبداً إلى أي معلومة تاريخية لها ارتباط بالدين الإلهي، حَيْثُ لَمْ تَذْكُرِ الأنبياء ولا أقوامهم، لِأَنَّ السُّورَةَ نفسها عامّة شاملة لكل حالات الشرك، حَتَّى لَوْ لَمْ يَكُنْ لَدَى مَنْ يقرأها معلومات عن هذا الدين الإلهي، ولا عن تاريخه، أو حتى لا يؤمن أصلا بهذا الدين ولا بتاريخه، فالسورة مخصّصة له،

ولذلك لم تشر الآية إلى قارون ولا إلى غيره، واكتفت بِالْإِشَارَةِ لعموم من ظن أنه بقدرته صار في النعمة متعاميا عن كونه مَخْلُوقاً في بيئة صُمِّمَتْ من الإله لتكون النعمة متاحة للمخلوقات كفتنة لهم.

تَعْرِضُ الآية نموذجا مختلفا عن الانحراف عن إخلاص الدين له تعالى، حَيْثُ فِيمَا سبق وبالخصوص في الآية 8 قرأنا عمّن يعتقد بغيره تعالى كإله، وهذا الغير يتدخل لمصلحة المشرك لرفع الضرّ... وهنا نقلتنا الآية إلى من يعتقد أنه بقدراته الذاتية تمكّن من السيطرة على الظروف وبدونه تعالى وبدون إله غيره تعالى، علما أنه قبل قليل حين كان في الورطة وفاقدا للسيطرة، فإنه لم يجد حلا لمشكلته إلا بالتوجّه لقدرة من مستوى إلهي لحلّها!

اَلْقُرْآنُ لا ينفي أثر جهدنا بالدراسة والتخطيط لنصير في النعمة ونبتعد عن الضرر، بل ينبهنا أن هذه الحالة هي من نتاج تصميمه وخلقه تعالى لنا ولبيئتنا لتكون فتنة لنا، وَنَتَعَرَّضُ للنجاح أو الفشل أو نصير في نعمة أو في ضرر... ليرى سبحانه كيف سنتغيّر إيمانيا وسلوكيا بسبب أوضاعنا، ومن حافظ على سلامة قلبه وصلاح عمله فله جنّات خالدة في الآخرة...

بقي شيء بالنسبة للدعاء، فِي عُمُومِ استعمال العرب فَإِنَّ الْكَلِمَةَ يائي وواوي "دعوت ودعيت" مثل "طغوت وطغيت". أمّا في القرآن حَيْثُ استعملها فقط بالواو من الأصل الصرفي "دعو"، ووردت مرتين بالياء في الآية 12 من سورة غافر {... إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ...}، وفي الآية 53 من سورة الأحزاب {... وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا...}، وَهَذَا ممّا جرى به لسان العرب في حالة تصريف الفعل بصيغة المبني للمجهول، وَأَيْضاً فيما جرى عليه لسان العرب بالياء ما ورد مرتين في الآية 4 و 37 من سورة الأحزاب {أَدْعِيَاءَكُمْ}، {أَدْعِيَاءَهُمْ} لِأَنَّ هَذَا التصريف لا يعني أننا أمام كلمتين واحدة بالواو والأخرى بالياء، وبالتالي لا يعني أننا أمام مَعْنَيَيْنِ لكلمتين. ويمكن حمل التصريفين بالواو أو بالياء على معنى عموم الإشهار والإعلان بكل أنواعه، كالإعلان والإشهار لعبادة كذا، أو للحضور إلى مكان ما، أو لفعل شيء ما... ومن ضمنه الإعلان والإشهار لطلب تحقيق شيء كَالْوَارِدِ نادرا في القرآن ومنه ما في الآية 38 من سورة آل عمران {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ}.

من خلفية ثقافة التعامل معه تعالى كالتعامل مع جنّي الفانوس السحري الخرافي الذي يحقّق لك ثلاث أَمَانِيَّ، ومن كثرة ما وردت مشتقات كلمة "دعو" في القرآن، بِضَبَابِيَّةٍ نَظُنُّ أن ممارساتنا بالدعاء طالبين منه تعالى عموم ما نريده أن يتحقّق، نَظُنُّ أننا نمارس تديّنا صحيحا، بل ونظن أنه من أعلى درجات الإيمان طلب كلّ شيء منه تعالى، وهكذا صار لدينا دعاء مخصّص للشفاء من المرض، ودعاء مخصّص لاستدرار الرزق، وللسلامة في السفر، ودعاء لكل شيء من مفردات حياتنا... وترسّخت هذه العادة والثقافة حتى صرنا ندعوه تعالى ليحقّق لنا النجاح في الامتحانات وأن لا تتعطّل السيارة وأن تجد الفتاة عريسا وأن يقبلوني في الوظيفة...

نَتَجَ عن ذلك بناء علاقة المنفعة معه تعالى في أمورنا الدنيوية من صغيرها لكبيرها، حتى صرنا نستهجن إن لم يتحقّق ما طلبناه، ونبرّره بأن حكمة إلهية لمصلحتنا الإيمانية قرّرت أن لا يحصل ما نظنّه حسنا، أو على مستوى آخر نبرّره بأن مصلحتنا في الدنيا تتعارض مَعَ مَا ظَنَنَّاهُ حسنا وطلبناه، أو يبدأ الشك بهذا الدين الإلهي الذي نظن أن ثقافة الدعاء بالطلب شيء ديني إلهي، أو يبدأ الشكّ بصفاته تعالى ناسبين له إهمالنا وإغفالنا من اهتماماته... أو يبدأ الشكّ به تعالى متزعزعا إيماننا به كإله...

نَتَجَ عن ذلك أننا نريده تعالى أن يحارب الظالمين ويبيدهم ونحن لم نستعدّ لمواجهتهم... وأن يحمي الأطفال من القتل في الحروب...

نَتَجَ عن ذلك جَمَاعَاتُ الأسرار بطقوس وأدعية وألبسة وسلوكيات خاصة... حتى يحقّق سبحانه لنا طلباتنا فورا ومهما كان نوعها...

نَتَجَ عن ذلك تقديسنا لمن نظنّ أنهم صاروا بقدرات خارقة لأنهم من المؤمنين من الدرجة العالية بسبب طقوسهم المميزة بالأذكار والأدعية السرية التي لا يُعَلِّمُونَهَا للآخرين... معتقدين أن هؤلاء دعوتهم تهدّ الجبال وتبيد الجيوش وتعيد إحياء الأموات... وما عدنا نحترم المؤمن العامل للصالحات لأنه عادي وليس من جماعة مميزة...

نَتَجَ عن ذلك خَوَاتِمُ من حجارة ملونة عليها نقش مميز مُخَصَّصَةٌ لفعل العجائب، فخاتم للشفاء من الأمراض المستعصية وآخر لجلب الرزق وغيره ليهابك ويحبّك الناس...

نَتَجَ عن ذلك الدعاء طالبين منه تعالى تحقيق شيء ما ونحن أصلا لسنا من الملتزمين بدينه، أو نحن من الفاعلين للسيئات من العيار الثقيل، أو من الفاعلين للسيئات من العيار المتوسّط باستمرار... حَيْثُ فِي دقيقة من الزمن نشعر فيها بمصيبة وَنَطْلُبُ منه تعالى التدخّل ونظن أننا في الدقائق القليلة التي أجبرتنا فيها الظروف على التوقّف عن فعل السيئات، فإننا في هذه الدقائق تَحَقَّقَتْ فينا صفات الأتقياء من الدرجة العالية والتي تستوجب أن يحقّق لنا سبحانه ما نريده...

هذا كلّه دين الناس وليس دينه تعالى، هَا هُوَ القرآن أمامك مُثْبِتٌ أنه تعالى يحقّق أحيانا بعض ما يطلبه منه عباده، ولكننا طوّرنا ذلك بهوانا ليصير أساس تديننا مرتبطا بالإيمان بتحقيقه تعالى لمطالبنا حتى تسير أمورنا في الدنيا على ما نشتهيه مخالفين بذلك ما نبّهنا تعالى منه في الآية 200 من سورة البقرة {... فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ}.

ناسين أن الدعاء له تعالى لتحقيق شيء دنيوي لنا، هُوَ نتاج وليس أساس، لِأَنَّ أَسَاسَ أساس الأمور هو الحقّ، وَتُؤْمِنُ بما هو صحيح وتفعل ما هو صالح، وَهَكَذَا وبالقدرة الممنوحة لك لتمييز الخير من الشرّ، وَحُرِّيَّةِ إرادتك لتختار أيهما تفعل، تصير موصوفا بالصلاح أو الفساد، وبالظلم لتركك الحقّ، أو موصوفا بالعاقل المحسن... وغيرها من الأوصاف التي وبغضّ النظر عن أي شيء "نسمّيه ديني"، وَهَكَذَا لوحدك كشخص صار لك تقييم لحالتك بالمجموع من فكرك ونفسيتك أنك صالح أو فاسد.

مِنَ النموذج إبراهيم(ع) الذي كرّر القرآن عنه الكلام مرارا، نعلم أننا جميعا أتيح لنا قلب سليم، أساس فكر ونفسية سليمة، وهذا ما ذكرته آيات عَدِيدَةٌ منها الآية الرابعة من سورة التين {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}، ومن القلب السليم يمكننا الوصول إلى المعلومات الصحيحة حوله تعالى للإيمان به وتوحيده والتعرّف على صفاته الحسنى، وأنه لم يخلق السماوات والأرض باطلا بحيث يجعل فيها كائنات تميّز الخير من الشرّ وبحرية إرادة بدون أن يحاسبها ويجازيها على ذلك.

بعد ذلك يأتينا الوحي الإلهي مؤكدا لما يمكننا معرفته إذا كان قلبنا سليما، ومخبرا للجميع من مختلف أنواع قلوبهم بصفاته تعالى وبقراراته ليصوّب ويقوّم لهم المعلومات.

هذا هو معنى الإيمان والتديّن في القرآن، وكما ترى لَيْسَ فيه أنني أدعوه تعالى ليوفقني لشراء بيت وسيارة وَأَصِيرَ ثريا، وأن يشفيني من الأمراض وأن يطول عمري... بل أدعوه تعالى ليغفر لي ويعفو عني لأني أسأت، وأكرّر لك، لأني أسأت. وَهَذَا مفهوم قرآني صار من المنسيات المهملة بسبب تراكم ثقافات دينية اخترعناها من هوانا، متجاهلين قيمة الحقّ والخير، ناسين قيمتي أنا كإنسان أؤمن بما هو حقّ، وأفعل الصلاح، وأنه تعالى لا يعرض عليّ ولا أي شيء آخر، وَلَيْسَ هناك شيء بالمعنى الوصفي الدارج أنه "ديني" وهو لا علاقة له بالخير والصلاح، أو يجب عليّ أن أرمي معايير الخير والشرّ من فكري لألتزم به لمجرد أنه شيء ديني.

هذا دين الناس ودمار للدين الإلهي الحقيقي.

نرجع للكلام عن الدعاء على معنى طلب تحقيق شيء دنيوي لي، مَاذَا تريد؟ وماذا لو تحقّق كل ما تريد؟ ولو قلت أنك ستختار بعناية الأمور المهمّة الحرجة جدا التي تريد منه تعالى تحقيقها لك، هَلْ هي لاغية لما هو مطلوب منك؟ وَتَطْلُبُ منه تعالى كسر شوكة الظالمين قتلة الأبرياء... وإثراء المؤمنين الفقراء... وإبعاد الكوارث الطبيعية عن المسلمين... بينما سبحانه أصلا ضمن لك ذلك إن كان مجتمعك مؤمنا عاملا للصالحات التي تتضمّن الاستعداد لمواجهة الأعداء، ومساعدة المحتاجين، وعندها سيفتح تعالى عليهم بركات من السماء ويتدخّل ليبعد عنهم الكوارث... كما هو صريح في الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

نَعَمْ، ورد في القرآن ما يفيد بأنه تعالى حقّق طلبا لأحد ما، رَاجِعْهُ وستجد أنهم طلبوا حين لم يعد باستطاعتهم فعل أي شيء، وخذ مثالا عن ذلك حالتي النبي أيوب(ع) والنبي زكريا(ع)، حَيْثُ مِنْ قبل حاولوا تحقيق ما يريدونه ولم ينجحوا، وعندما يئسوا دعوه تعالى كآخر حلّ لمشكلتهم.

وَرَدَ قبل ذلك تدخّله تعالى بدون دعاء كحالة نجاة النبي إبراهيم(ع) من النار.

اَلْحَالَةُ النادرة الوحيدة التي ستجدها في القرآن عن طلب شيء يبدو أنه شخصي وخاص جدا، هي طلب النبي سليمان(ع) ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، لِنَعْتَبِرْهَا طلبا شخصيا لرغبة دنيوية خاصّة، ولكن هل سنجعلها أساسا لتعاملنا معه تعالى؟ مَاذَا لو لم يحقّق سبحانه ما طلبه عبده سليمان(ع) هَلْ سيتزعزع إيمانه؟ أم سنجعلها معيارا لمستوى علاقته بنا سبحانه ومحبته لنا؟ أم معيارا لصحة تديننا ودِيننا؟

هَا هُوَ القرآن أمامك دينه تعالى الأصيل، بعقلانيته التي نصرّ بهوانا تنزيل مستواها للتفاهات والسخافات، ومخالفين سيرة النماذج الراقية من الأنبياء الذين تعاملوا مع عموم أمور حياتهم بالأسباب والمسببات التي يستطيعون هم التأثير بها، فيقولون في التاريخ أَنَّ النبي محمّد(ع) مات له ثلاثة أطفال من المرض، لِمَاذَا لم يدع لهم ليشفوا؟ وهو نفسه مات تقريبا في معدّل أعمار أهل زمانه، وقبل أن يهرم، لِمَاذَا لم يدع لنفسه ليشفى من علّته؟ ولماذا لم يتزعزع إيمان من حوله به كنبي بناء على ثقافتنا الحالية المشحونة بظنون تحقيقه تعالى لأي طلب لنا ومهما كان نوعه إذا دعا لنا وَاحِدٌ من الأولياء الصالحين؟

ما معنى فهمنا لغالبية ما ورد في القرآن من اشتقاقات كلمة "دعاء" على معنى تحقيق طلب ما، قاطعين للآيات عن سياقها الذي يعطي معنى آخر؟ وَمُصِرِّينَ على هذا المعنى لبعض الآيات بينما الأسهل والأصوب فهما حملها على معنى آخر؟

ما معنى تركيزنا على بعض الروايات التي تتحدّث عن عجائب استجابته تعالى للأولياء الصالحين أدعيتهم لأنفسهم وللآخرين، متجاهلين الحياة الطبيعية العادية الواضحة للصالحين أنفسهم مع اسْتِثْنَاءَاتٍ نادرة جدا جدا كحادثة أو حادثتين في حياة البعض منهم؟ بحيث نضخّم كل ذلك حين نجمعه مع بعضه لنتصوّره كحالة منتشرة بينما هي النادرة.

مَا معنى تجاهلنا للعديد من الأدعية الواردة يقينا عن بعض الصالحين من الدرجة العالية، والتي فيها أدب قرآني مبني على ما ورد في الآية 201 {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}، فِي تلك الأدعية أدب رفيع بالكلام مع الإله عزّ وجلّ بالحمد والثناء والاستغفار والتوبة... ومرور سريع خاطف على طلب دنيوي، وأبرز نماذج عن ذلك دعاء الجوشن المنسوب للنبي(ع) ودعاء كميل المنسوب للإمام علي، والصحيفة المسمّاة بالسجادية المنسوبة للإمام زين العابدين...

قَارِنْ هذه النماذج مع أدعية مشحونة بطلبات الرزق والصحّة والأمن والعريس والنجاح والتوفيق... ومجافية لأدب الكلام مع الإله سبحانه وكأننا نخاطب جنّي الفانوس السحري الخرافي!

كن واقعيا عقلانيا، وسترى القرآن عَقْلَانِيّاً وَاقِعِيّاً، وسترى أن مجريات أحداث حياتك لم تتغيّر من أدعيتك التي لا نهاية لها والتي تقحم فيها كل شيء من سخيفه إلى العالي في الأهمية "بنظرك".

كن سخيفا متوهّما ولن ترى القرآن بل سترى أفكارك يصيغها القرآن بعبارات تحتاج لبعض التعديل لتصير معانيها أوضح! أو من شدّة تحكّم أفكارك بك سترى الآيات انعكاسا واضحا لأفكارك! وهنا الخطورة، لِأَنَّهُ ليس منتشرا بيننا ثقافة رمي كل ما نعرفه لنتعلّم من القرآن، بل الدارج ثبات ما نعرفه وتفسير القرآن بناء عليه.

وهكذا نصل إلى مفهوم التوكّل عليه سبحانه، الَّذِي هُوَ الشامل لكل ما يحدث معنا من كبيره وصغيره، وَنَتَعَامَلُ مع الأمور بعقلانية الواقعية، وَنَعْمَلُ جهدنا لتحقيق ما نريده من صلاح لحياتنا الدنيا ولآخرتنا، متوكّلين عليه تعالى لنجاح مساعينا لأنه تعالى وعدنا بمساعدتنا على نجاحها إن كنّا مؤمنين عاملين للصالحات، والمؤمنون عَقْلَانِيُّونَ وَعَمَلَانِيُّونَ، ويعملون الصالحات من احترام حقوق الآخرين ومساعدتهم...

اَلْمُسْتَوَى المتدني من التديّن يصير عَصِيّاً فَهْمُهُ على المنتمين لدينه تعالى الذين يعانون في بلادهم من ويلات الحروب والفلتان الأمني والعسرة الاقتصادية... وهم بعضهم يصلّون وكلّهم يدعون... ولكن لا من مجيب، بينما الفاسقون المنافقون لديهم بلدان يعيشون فيها براحة على قدر ما يمكن لهذه الحياة الدنيا تأمينه، وهم ليسوا بحاجة لدين يؤمنون وَيَلْتَزِمُونَ به ليحقّق لهم الإله سعادة الدنيا، لِأَنَّهُمْ أصلا في سعادة يفقدها المنتمون لِلْأَدْيَانِ الأخرى لِمَاذَا سيتدينون وبماذا سيتدينون؟ هَلْ سيعتنقون دينا فشل في تأمين سعادة المنتمين له والداعين لإلههم الذي لا أثر لأفعاله الحسنة فيهم لأنهم يعانون من كل النواحي...

للأسف، هذا هو المستوى الذي وصلت إليه الأمور بسبب التراخي والاستهتار والسخافة... التي انشحنت بها ثقافتنا الدينية بأدعية وَأَعْمَالٍ وخواتم وأحراز... ليحقّق لنا سبحانه طلباتنا، متجاهلين السبب الحقيقي لحدوث ذلك من فسادنا في فكرنا وأعمالنا من عصبيات عائلية ومذهبية وطائفية... وترئيس الفاسقين والفاسدين علينا... ناسين أنه تعالى لم يطلب منّا أي شيء، بل عرض علينا فقط الإيمان بالحقّ والقيام بالعمل الصالح، وهذا نتيجته معلومة من سعادة في الدنيا بأقصى ما يمكنها تأمينه، وسعادة خالدة في الآخرة.

(قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ{50})

{قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، فهناك أناس قبلهم قالوا هذا الكلام عن قدراتهم الذاتية للحصول على النعمة وكانوا ناسين للإله سبحانه وكأنهم هم المسيطرون من مستوى إلهي وكأنهم لا يعيشون بكيان وبيئة من نتاج تصميمه تعالى وتحت سيطرة إلهية.

{فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}؟ ما كسبوه وما حصلوا عليه من ظنّهم أن النعمة حصلوا عليها بعلمهم بذكائهم، ماذا أمّن لهم وبماذا نفعهم هذا الإيمان؟ ومن الآية التالية سترى أن هذا النوع من الاعتقاد الفاسد يسبّب العذاب الإلهي.

بالنسبة لكلمة {غَنِيّ} ومشتقاتها، فهي تشير لعموم الاستغناء، من الاكتفاء الذاتي، لنفي الحاجة من أصله، إلى توافر ما يُحتاج، حيث سبحانه غني بسبب الاكتفاء الذاتي بطبيعته تعالى التي لا تحتاج لأي شيء من أي أحد، ولا نصفه سبحانه بالغنى على معنى امتلاكه لما يحتاج، أو لامتلاكه لكل الأشياء، وسبحانه يملك كل الطعام، ولكنه تعالى أصلاً لا يأكل، وهذا نفي للحاجة من أصله، فغناه تعالى لا يشير لامتلاكه لما يحتاج أو لامتلاكه لكل الأشياء، بل يشير لاستغنائه العام عن أي شيء. أما بالنسبة لنا فنحن أغنياء بما يناسب طبيعتنا، وأكثر تطبيقاتها بامتلاكنا لما نحتاج، عندما أملك الطعام فأنا غني بالطعام، علماً أن بعض الأشياء أيضاً منفية عنّا الحاجة لها من أصله، حيث إن السيارة تحتاج للبترول لتعمل، وأنا غني عن ذلك. وهذا المثال المتطرّف يريك الفرق الهائل عن غناه تعالى عمّا نحتاجه نحن البشر.

هنا في الآية هم بحاجة للنجاة من عقابه تعالى لأنهم لم يخلصوا له الدين واعتقدوا أنهم بقدراتهم الذاتية بعلمهم وذكائهم سبّبوا لأنفسهم النعمة، وهذا كسبهم، فهذا اعتقاد فاسد نتج عن تفكيرهم، ولن يغنيهم عن العذاب الإلهي، أمّا المؤمن به تعالى إلهاً مسبّباً لكل شيء فمن هذا سيكسب ما يغنيه عن العذاب، ويكسب القبول والرضا عن إيمانه بالحقّ ويكسب المغفرة... لو كان معي المال، فسيغنيني عن الجوع لأني سأشتري به الطعام، وتجميع المال تصرّف صحيح لشراء الطعام، وكسب الاعتقاد الصالح يغني للتخلّص من عذابه تعالى، أمّا كسب الاعتقاد الفاسد فبماذا يغني؟

(فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاء سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ{51})

{فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا}، مِنْ اعتقادهم بالغنى بقدراتهم الذاتية المنفصلة عن القدرة الإلهية، ونسيانهم أنهم في دار الفتنة حيث وضعهم تعالى، كسبوا اعتقادا فاسدا وهذا شيءٌ سيّء سيصيبهم وسيتأثرون به بالعذاب بسببه.

نتذكّر دائما أن القرآن في كلامه عن العذاب كثيراً ما شمل به عذابي الدنيا والآخرة معا، على أساس أن كِلَيْهِمَا عذاب، فإن لم يحصل العذاب لقوم ما في الدنيا لأنهم كفروا فلهم حتما عذاب في الآخرة، وبدل أن يقول القرآن: قد يحصل لهم عذاب في الدنيا ولكن حتما لهم عذاب في الآخرة، أو بدل أن يقول: من الكفار السابقين من تعذب في الدنيا وسيتعذب في الآخرة، وبعضهم لم يتعذب في الدنيا وسيتعذب في الآخرة... فبدل ذلك تجد العديد من الآيات شملت العذابين معا

بكلامها عن العذاب، مثل الكلام هنا الذي ترك التفصيل الذي تعرفه لوحدك، ولم يقل عمّن كان قبلهم ومثلهم في التفكير إن نال أو لم ينل عذابا في الدنيا وحتما سينال عذابا في الآخرة، فلا داعي لتفاصيل تعرفها لوحدك.

{وَالَّذِينَ ظَلَمُوا}، و{مِنْ هَؤُلَاءِ} الناس الذين يسمعون هذا الكلام من القرآن وهم ليس معهم حقّ في ما يقولونه وظُلماً قالوه لأنه تعالى بيده الضرّ والنفع، {سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا}، مثلهم مثل الذين سبقوهم، حيث سَتَنْتُجُ أشياء سيّئة عن قولهم واعتقادهم هذا، وسيصيبهم الشيء السيّء.

تكملة لكلام الآية السابقة، مِنْ سبق وعاش قبل نزول هذا القرآن وكسب السيئات فستصيبه السيئات، ومن كان على عهد هذا القرآن أيضا ستصيبه سيئاته، ومن جاء بعدهم إلى آخر الدنيا أيضا ستصيبه سيئاته.

{وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ}، ليس لديهم قدرة على إعجازه تعالى، على منعه تعالى من إصابتهم بالأشياء السيئة التي كسبوها، لأنهم اعتقدوا أنه تعالى عاجز هنا في الدنيا وهم لديهم القدرة، وبقدرتهم الذاتية حصلوا على النعمة، حسناً، فليعلموا أن الذين سبقوهم من أمثالهم من الناس بعضهم نال عذابا في الدنيا، وعلى كل حال فللجميع عذاب حتمي في الآخرة وحينها لن ينفعهم علمهم وذكاؤهم وشطارتهم...

(أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ{52})

{أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز الله سبحانه، {يَبْسُطُ}، يمدّ يسهّل، {الرِّزْقَ}، عموم ما نحتاجه لسدّ حاجاتنا وما نرغبه، من طعام أو مال نشتري به ما نحتاجه... {لِمَن يَشَاءُ}، أَمَامَهُ تعالى خيارات عديدة وشاء خيارا من الخيارات فبسط الرزق، {وَيَقْدِرُ}، حيث يجعل تعالى الرزق بقدر والكلام عن "مقدار" كميّة قليلة لمن يشاء، وهذه المعلومة ألم تصلهم أو يتوصّلوا إليها مما يرونه لتصير قناعة عندهم؟

هُوَ القرار الإلهي الذي يجعل هذا غنيا وذاك متوسّط الحال والآخر فقيرا... ثمّ يغيّر تعالى حالهم مرّة ومرّات... ونحن مجرّد مخلوقات تمرّ في تلك الظروف التي يمتحننا بها تعالى.

{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ}، في البسط والقدر للرزق، {لَآيَاتٍ}، لهي أمور مميزة من مستوى إلهي، {لِّقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة، {يُؤْمِنُونَ}، حيث إنهم في حالة الاعتقاد بالله تعالى إلها مسيطرا متابعا لمخلوقاته وخلقهم في بيئة الدار الدنيا ليمتحنهم.

نتذكّر موضوع السورة ولبّها عن إخلاص الدين لله تعالى، وهنا ترى نموذجا عن نوعية من الناس اعتقدوا بقدراتهم الذاتية وانفصالهم عن القدرة الإلهية في الحصول على الرزق، لذلك تعتبر السورة هذا التفكير مخالفا لإخلاص الدين لله تعالى، وكما ترى، لم تقل إنه كافر أو مشرك أو منافق أو فاسق، ولم توجّه كلامها لمشرك أو يهودي أو مسيحي أو مسلم أو... بل تحدّثت فقط عن نقطة واحدة في نفسية الغالبية من الناس، وهي الاعتداد بالنفس، الاعتقاد بالاستقلالية عنه تعالى في تحصيل الرزق... واعتبرتها مخالفة لإخلاص الدين لله تعالى.

هناك شيء من تبعات هذه الفقرة، حيث يذهب فكرنا مباشرةً إلى حالتنا المادية، ونقارنها مع ما يقوله القرآن عن المشيئة الإلهية ببسط الرزق وتقديره، ونتساءل: لماذا لم يبسط تعالى لي الرزق؟! ولماذا بسط سبحانه لذاك الرزق؟! وإذا كنّا نمرّ في ظروف صعبة قد نعترض على المشيئة الإلهية ولا يعجبنا أن يكون سبحانه شاء أن يقدر علينا الرزق... وكما ترى من هذه الفقرة التي فيها الأجوبة عن كل هذه الأفكار، أوّلاً لنفهم جملة "لمن يشاء" ولنفهم المشيئة التي ذكرها القرآن كثيرا، حيث إنها ككلمة لا تعني أكثر من وجود خيارات عديدة أمامه تعالى واختياره سبحانه لواحد منها، أضف إلى هذا دائما أنه تعالى حكيم عليم... لذلك يختار على معيار الحق والصوابية، لا عن عبث. لَيْسَ معنى بسطه تعالى الرزق لمن يشاء أنه حرّ وبشكل مزاجي يبسط أو يقدر سبحانه الرزق، بل عن حكمة يقرّر سبحانه، وهذا معنى المشيئة من القرآن، وأي كلام آخر فلسفي أو عرفاني أو كلامي أو صوفي... عن المشيئة فهو ترف فكري وأفكار نظرية لا علاقة لها بالواقع ولا بتفسير القرآن.

الآن بعد فهمنا لمعنى المشيئة صرنا نفهم أنه تعالى وأمامه الناس وأمامه خيارات عديدة من نسبة بسط وقدر الرزق، من الفقر المدقع للغنى وصولا للثراء وما بينهما من حالات، ونفهم أنه تعالى عن حكمة شاء لهذا الإنسان البسط وشاء لذاك

الغنى، حيث إننا في دار فتنة، ويفتننا تعالى بحالتي الفقر والغنى ليمتحننا، ومن كسب تصرفات وعقيدة فاسدة من امتحانه سقط وسيتعذّب بسيئاته، ومن كسب الإيمان والعمل الصالح من امتحانه فاز وسيتنعّم بحسناته.

نعم، من الصعب جدا على الكثيرين منّا قبول فكرة العيش في حالة الفقر، ونرى الكثيرين يتوجّهون بالدعاء والنذور لله تعالى بشكل كثيف ليحصلوا على الرزق، ولدينا آمال وأحلام تتخطّى واقع وجودنا في دار امتحان نعيش فيه لفترة محدودة، أين الأغنياء الذين كانوا قبلنا؟ وماذا استفادوا من غناهم حيث ماتوا وهم إمّا حصلوا على السيئات أو الحسنات، وهذا هو السؤال المهمّ الآن، ولم يعد مهمّا كم من المال كان معهم، وكيف عاشوا بهناء، حيث انتهى هذا وانقضى وصار مجرّد ذكريات، والمهمّ الآن: ماذا كسبوا من سيئات أو حسنات؟ هذا ما سيلصق بهم بشكل خالد في الآخرة.

ها أطلت عليك لِنكمل، مِنَ الغباء تصوّر المشيئة الإلهية بشكل عبثي، هل من المنطقي والعقلاني أن تسير الدنيا على الدعاء بلا عمل؟ حيث إن هناك "مؤمنون" يتعاملون مع العبادة على أساس التجارة المالية الدنيوية، حيث يريد بسطا للرزق هنا في الدنيا لأنه يصلّي ويصوم ويمشي على الصراط المستقيم، لذلك لا يعتبر نفسه يعبد الله تعالى بل في الحقيقة يتعامل معه عزّ وجلّ بنفسية التعامل مع جنّي الفانوس السحري "الخرافي" الذي أطلب منه ويحقّق أمنياتي!

الله تعالى في قرآنه أمرنا بالسعي والتوكّل عليه، كلاهما معا، وأمرنا بطلب الرزق بالعمل وبالطلب منه تعالى، كلاهما معا، وأمرنا بأن لا نعتدي على حقوق الآخرين، ولا نغصبهم أو نسرقهم، ولا نستغلّ مناصبنا ووظائفنا لنحصل على فوائد لنا تحرم الآخرين من فرص الحصول على الرزق... نهاية الكلام: ارتكابنا للسيئات وتقاعسنا عن العمل الصالح واستهتارنا بتنظيم حياتنا، سبب دنيوي رئيسي لوجود الفقراء، كَمَا ترى أمامك وبكل وضوح: لم يشء الله تعالى بسط الرزق لقوم فاسدين كسولين، وشاء تعالى بسط الرزق لمن نظّموا حياتهم، ولو آمن أهل الأرض لفتح عليهم سبحانه بركات من السماء... التديّن عمليا هو العمل الصالح وبتعابيرنا هو العمل بالحلال، وترك الغصب والسرقة واستغلال المناصب والرشوة... وكتحصيل حاصل من ذلك المجتمع المؤمن بدينه تعالى والعامل للصالحات أن ينال الجميع رزقا يكفيه... وفوقه عناية إلهية لما فيه مصلحتهم... وهذه مشيئته تعالى.

بعد هذا الكلام سيكون سهلا علينا فهم العمق في كل كلامه تعالى عن عموم أفعاله وقراراته، مِثْلَمَا فهمنا أنه تعالى وبسبب تصميمه وخلقه لما في الدنيا، ونتج عن ذلك ظاهرة نزول الماء، وهكذا ينسب سبحانه لنفسه تنزيل المطر بوصف حقيقي علما أن المطر صار ينزل بسبب العوامل والأسباب الطبيعية، ولكن هذه الأسباب ناتجة عن تصميمه تعالى وخلقه لما في الدنيا...

نفس الكلام عن هدايتنا وإضلالنا، حيث نهتدي كنتيجة لتصميمه تعالى لنا بحيث يصير الإنسان الذي قرّر اتباع الحقّ مهتديا، وهكذا يصف تعالى نفسه بأنه هداه. وبالعكس مِنْ قرّر الكفر بالحق فسبحانه ينسب لنفسه إضلاله لأنه هو سبحانه جعل في الإنسان حرية الإرادة والاختيار ليكفر إن أراد.

نفس الشيء بالكلام عن نسبة كل ما لدينا من أرزاق أنها منه تعالى، لأنه سبحانه جعلنا في بيئة فيها أرزاق، ومنحنا القدرة على تحصيلها، لذلك هو رزاقنا.

نفس الشيء عن صيران بعضنا فقيرا والآخر غنيا، حيث إن الظروف التي تجعل هذا فقيرا وذاك غنيا هِيَ من نتاج تصميمه تعالى لنا ولبيئتنا، حيث شاء تعالى أن نكون في بيئة يصير البعض منّا أغنياء فيها والبعض الآخر فقراء.

مثلما من الخطأ فهم كلامه تعالى عن مشيئته بهدى هذا وضلال ذاك أنه تعالى يجبر هذا على الهدى ويجبر ذاك على الضلال، هَذَا غير صحيح، بل شاء تعالى منحنا قابلية الكفر أو الإيمان بإرادتنا، ولذلك ينسب لنفسه سبحانه أنه هدى هذا وأضلّ ذاك.

كذلك من الخطأ فهمنا لكلامه تعالى أنه أراد الغنى لهذا والفقر لذاك كحالة إجبارية، على معنى أنه مكتوب لي الفقر كل عمري ولن أغنى مهما فعلت. لا، هذا غير صحيح، وكثيرا ما يخلط الناس بين علمه تعالى بالغيب بكل ما سيحصل معي، وبين واقع كوني ما زلت حيا بقدرات على تغيير مجريات حياتي، حيث إنني لا أعلم الغيب "المستقبل"، وأعمل محاولاً كسب الرزق الوفير، ولا أدري إن كنت سأنجح، "وفي الحالة العادية" ليس هناك شيء اسمه أنه تعالى لديه

قرار بمنعي من تحصيل الرزق لمنعي من صيراني غنيا، وهناك شيء اسمه "علمه تعالى بالغيب" حيث يعلم سبحانه إن كنت سأصير غنيا.

بتعابير نتساهل فيها لتكون الأمور واضحة، فِي اللحظة التي صمّم فيها تعالى كل ما في الدنيا، في تلك اللحظة علم بكل تفاصيل ما سيجري فيها، وعلم بما سيحصل مع كل واحد منّا، وعلم بمقدار ما سأحصل عليه من رزق في حياتي الدنيا، وبعدها خلق ما في الدنيا.

الآن صرت ترى من أي منظور يتكلم معنا سبحانه حين يخبرنا بأنه قدّر الأرزاق.

كما ترى لَيْسَتِ الأمور فلتانة وخارجة عن سيطرته تعالى، لأنها تحدث تماما كما علم تعالى أنها ستحدث.

كما ترى قَبْلَ خلق كل ما في دنيا المخلوقات، وبعلمه سبحانه بكل ما سيحصل، رَسَمَهُ تعالى بحكمته.

كما ترى أَنَا الآن لست مقيدا ممنوعا من صيراني ثريا، حيث إن المجال مفتوح أمامي، ولكني لن أصير ثريا بقدرة قاهرة ستغيّر ما يعلم سبحانه أنه سيحصل معي، ولن أصير ثريا بموارد لم يخلقها سبحانه ويتيحها لي، ولن أصير ثريا بقدرات ذاتية ليست ممنوحة منه تعالى، وهذه هي نقاط الكفر به تعالى والتي ينبّهنا سبحانه منها عبر قرآنه هذا.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{53})
قل عبر هذا القرآن:

{يَا عِبَادِيَ}، يا أيها الذين مفروض منهم طاعتي، {الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ}، بَالَغُوا على أنفسهم، والكلام عن مبالغتهم بنوعية أعمال سيّئة قاموا بها، {لَا تَقْنَطُوا}، لا تقطعوا الأمل نهائيا بسبب مرور وقت طويل على ممارستكم للإسراف، {مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ}، من عنايته تعالى بكم لما فيه مصلحتكم.

{إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}، حَيْثُ يتجاوز سبحانه عَنْ كلّ أنواع السيئات، وَيَتَجَاوَزُ عَنْ كل أنواع مخالفة أوامره وما يرضى عنه مهما كان نوعه أو حجمه.

{إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ}، الذي يغفر بكثرة، حَيْثُ لَيْسَ صُلْبَاً جَافّاً قَاسِياً مع من أساء، {الرَّحِيمُ}، الموصوف بالعناية الخاصة لما فيه مصلحة من آمن، وعمليا لِلْمُؤْمِنِينَ عناية خاصة لا ينالها غيرهم منها المغفرة والشفاعة ومضاعفة الحسنات...

إذاً سُبْحَانَهُ يغفر حتى للذين أشركوا به، وحتى للذين أنكروه، وحتى للذين كذّبوا عليه، وحتى للذين تلفّظوا بكلام مشين بحقّه تعالى... فإن آمنوا وتابوا هنا في الدنيا فسيغفر سبحانه لهم كلّ ذلك.

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ{54})
{وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ}، اتْرُكُوا كلّ ما عداه وارجعوا فقط إلى المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {وَأَسْلِمُوا لَهُ}، وانقادوا له تعالى وَنَفِّذُوا أوامره، {مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ}، حَيْثُ هُنَاكَ عذاب لمن لم يؤمن ويعمل الصالحات والآن في حياتكم الدنيا ينفعكم إسلامكم، أمّا إذا متّم فبعدها لن ينفعكم أن تؤمنوا... {ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ}، لَنْ تجدوا من يحقّق لكم ما تريدون، وَلَنْ تجدوا من يحميكم من العذاب.

بعبارة عامية الْآيَةُ تقول: لّحقوا حالكم قبل ما تروح عليكم. وبالرغم من كثرة تكرار القرآن لهذا المفهوم الذي تطرحه الآية هنا بوضوح عن حتمية حاسمة بحساب الآخرة، لَا تزال تسمع من العديد من المؤمنين كلاما متساهلا باستهتار أنه يُحْتَمَلُ أَنْ يصدر في الآخرة عفو إلهي عامّ للجميع لأنه تعالى رحمان. لا، رَحْمَتُهُ تعالى مظلّة منشورة للجميع، والذي هنا في الدنيا خرج من تحتها بمعصيته تعالى وَلَمْ يسلم، فله حساب وعقاب مما كسبه من سيئات، نقطة انتهى.

(وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ{55})
{وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم}، حَيْثُ كُلُّ ما نزل إليكم من المسؤول عنكم من مستوى إلهي عبر رسله وأنبيائه كان حسنا جيّدا، فكونوا عليه، {مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً}، قبل أن يأتيكم ما يضرّكم فجأة بسرعة من دون

أن تتوقّعوه، {وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ}، عَادَةً هناك مقدمات قبل حصول الأمور، مَثَلاً قبل المطر هناك تجمّع للغيوم... وإذا لم تنتبه للمقدمات ونزل الماء، فأنت نزل عليك المطر ولم تشعر بأنه سينزل.

تذكّر دائما أن الأحسن لا يقابله الْأَسْوَأُ، يُمْكِنُ أن تقول: ما أحسن عمله. وأنت لا تقصد أنه قام بأعمال سيئة وهذا العمل حاليا أحسن، بل تشير لمطلق وصف العمل بنفسه، فهو حسن وأحسن. يعني لا يوجد شيء نازل من عنده تعالى سَيِّئٌ، ولا يوجد شيء نازل من عنده تعالى وفيه حسن وشيء أحسن، بل كل ما نزل منه تعالى موصوف بأنه ما أحسنه، كما هو واضح في مثال الكلام عن التوراة الوارد في الآية 154 من سورة الأنعام {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ...}، والآية 7 من سورة السجدة {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} حيث ستجد بوضوح أن "أحسن" ليست لمقابلة شيء مع السوء.

تَتَذَكَّرُ أن القرآن كثيرا ما شمل عذابي الدنيا والآخرة مع بعض على أساس أنهما عذابان بلا فرق إلا في شدّتهما، هُنَا الكلام عن بغتة العذاب يصدق على عذاب يُحْتَمَلُ أَنْ يحصل لهم "بغتة" في الدنيا قبل الآخرة، حَيْثُ يَأْتِي فجأة ومن دون سابق إنذار، ويصدق على عذاب الآخرة الذي يرونه مباشرة "بغتة" من بعدما أغلقوا أعينهم هنا في الدنيا ليفتحوها مرة ثانية ليجدوا أنفسهم في الآخرة فجأة. وبناء عليه فِي العديد من أمثال آيتنا هنا تراها لا تميّز بين العذابين، بل تتكلّم عنهما معا، وذلك بدل أن يقول تعالى عن عذاب في الدنيا أنه محتمل الحصول إذا توافرت شروطه، وأن عذاب الآخرة حتمي، حَيْثُ افْتَرَضَ بك معرفة ذلك وَمِرَاراً شمل الكلام عنهما معا.

(أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ{56})
{أَن تَقُولَ نَفْسٌ}، حِينَ يأتي العذاب بغتة لمن لم يؤمن ويعمل الصالحات لَنْ ينفعه أن يقول ما يلي:

{يَا حَسْرَتَى}، يا حسرتا، حَيْثُ هُنَاكَ شيء جيد فات وصرت في حالة سيئة وكان بإمكاني أن أكون في الحالة الجيدة، {عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ}، حَيْثُ كَانَ بين يدي "بمقدوري" أن أكون بجنبه تعالى من المقرّبين، وَكُنْتُ أصلا قريبا منه تعالى وأنا اخترت الابتعاد، وَفَرَّطْتُ أي أهملت وتعاملت بسوء مع ذلك وَكَانَ بين يدي ويمكنني التعامل معه بما يفيدني.

{وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ}، كنت من المنتقدين بازدراء ونظرة دونية وَاعْتَبَرْتُ هذا الموضوع الديني غير عقلاني وسخيف، وَفَعَلْتُ ذلك بدل أن أكون مهتما به.

ضع في بالك ما وصف به تعالى نفسه مرارا بالرحمة وَالرَّحْمَنِ، حَيْثُ هَذَا هو أساس تعامله تعالى مع كل مخلوقاته إلى أن هم وبقرار منهم ومعرفة، يخرجون من تحت مظلة الرحمة الإلهية بكفرهم بالحقّ وفعلهم السيئات التي عمليا تعني كفرهم به تعالى ومعصيته، وَالتَّفْرِيطُ بجنب الله تعالى، هو التفريط فيما كنّا به جميعا بجنبه تعالى تحت مظلة رحمته.

قال بعضهم إنَّ "يا حسرتا" على معنى "يا حسرتي"، ولكن الدقة بالكلام تنقل لك صورة وصف الحسرة لما كان بين اليدين ومتاح وَذَهَبَ، ولا تنقل لك صورة تحسّر الشخص، فهي على معنى "يا حسرتاه".

بالنسبة لرسم الكلمة بالياء المقصورة "حسرتى" أو بالألف "حسرتا"، حَالَتُهَا مثل حالة كلمة ويل التي رسموها في القرآن مرتين بالياء المقصورة في الآية 72 من سورة هود {قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ}، وفي الآية 28 من سورة الفرقان {يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا}، ومرة بالألف الممدودة كما في الآية 31 من سورة المائدة {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}. وكما ترى اللَّفْظُ لا يتغيّر وَلَا مدّ لهذه الألف كما نفعل في كلمة "سمااااء"، فهي كما نلفظ كلمة "كما" بلا مدّ، وبناء عليه الْأَنْسَبُ من وجهة نظري رسمها بالياء المقصورة.

طالما اللفظ لا يتأثر مَسْأَلَةُ كيفية الرسم تصير ثانوية لأن القرآن نزل ملفوظا، والناس رسموه "كتبوه" بما يرونه مناسبا ليعين على لفظ الكلمة. والتحليلات لرسم الكلمات القرآنية بَعْضُهَا عقلاني انْتَبَهَ لمسألة تداخل علم اللغة مع جمالية رسم الكلمة مع الطريقة المعينة أكثر من الأخرى على اللفظ... مع تطوّر علوم اللغة وبالتالي تطوّر رسم كلماتها... وللأسف أَكْثَرُ الدراسات ليست عقلانية حَيْثُ يحاولون البحث عن أسرار قرآنية بلاغية ومعنوية و... من رسم كَلِمَاتِهِ وهي أصلا

غير موجودة وَلَا يوجد أسرار، ولا مقصودة لِأَنَّهُ لَا دخل له تعالى بها لتكون منسوبة لكلامه حَيْثُ سُبْحَانَهُ لم ينزّل علينا القرآن مكتوبا بل ملفوظا فقط، ولا معنى حقيقي له قيمة للكثير من تلك الأسرار التي يستخرجها البعض من رسم كلمات القرآن، بل والكثير منها غير صحيح وفاسد لغويا!

بالمختصر المفيد لَا مشكلة تحريف في اختلاف رسم كلمات القرآن طالما لم تغيّر في لفظ الكلمة، ومع تطوّر علوم اللغة العربية تطوّر رسم كلماتها وصارت أفضل وأقرب للّفظ، ولكن المشكلة في قراءة القرآن بدون الالتزام الحرفي بما ورثناه عن الرسول محمد(ع)، حَيْثُ هَذَا تحريف، لأن القرآن نزل ملفوظا على النبي(ع)، وبضمانة إلهية نقله لنا النبي(ع) بالحرف تماما كما وصله، حَيْثُ تَدَخَّلَ سبحانه وثبّته في ذاكرة رسوله، وبالتالي لَا مجال لورود قِرَاءَاتٍ مختلفة عن الرسول(ع)، وما يقوله البعض عن تعدد الْقِرَاءَاتِ ونسبتها للرسول(ع)، هُوَ كلام فارغ.

لمزيد من التوسّع حول تعدد قِرَاءَاتِ القرآن راجع دراسة الآية 16 من سورة القيامة {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ}.

(أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ{57})
{أَوْ تَقُولَ}، {نَفْسٌ} في يوم القيامة حين ترى العذاب:

{لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي}، لو وضعني على الأشياء الصحيحة التي توصلني للغاية الصحيحة، {لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ}، من الذين يتجنّبون ويتحاشون، وهنا الكلام عن تجنّب غضبه وعقابه تعالى، حَيْثُ كُنْتُ من المطيعين لأوامره تعالى بترك ما حرّمه وبفعل ما أمر به. فخذوا علما من الآن أن هذا الكلام في الآخرة لن ينفع.

نحن نكرر جملة "اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ" عشر مرات يَوْمِيّاً في صلاتنا، طالبين منه تعالى الهداية، وحين يستعصي علينا ترك ذنب ما، نراجع أنفسنا ونطلب هدايته تعالى، وهذا شيء صحيح.

هناك من ليس مُلْتَزِماً بالصلاة والصوم والزكاة... ولكنه يطلب منه تعالى أن يهديه! وكأن الهداية شيء سيصير في داخله فيشربه أو يأكله... وكأنه سيهتدي بلا أي جهد منه، لِيَصِيرَ فجأةً مُهْتَدِياً... هنا الكلام نفس الشيء، حَيْثُ أَتَاحَ سُبْحَانَهُ لنا جميعا الهداية، ومن قرّر أن يهتدي فسبحانه يساعده بما يراه مُنَاسِباً، ولكن لا يبعد عنه الفتنة والبلاء... ولا يجبره أو يتلاعب بعقله ليؤمن غَصْباً عنه، هنا تنقل الآية نفس الكلام الذي كانوا يقولونه في الدنيا، وتريك أنه لم ينفع هنا ولن ينفع هناك في الآخرة، حَتَّى إِنَّ المشرك سيقول هنا في الدنيا: هذه راحتي وقناعتي بديني، ولو هي غير صحيحة، فليهدني الله تعالى لدينه الصحيح... وكما ترى فهو يقول ذلك على أساس أن الهداية شيء تشربه أو تأكله ويصير فيك فتهتدي! أو أنه تعالى يختار من عباده الَّذِينَ سيجعلهم غَصْباً عنهم مُتَّقِينَ! بينما الهداية هي الإيمان بصدق المعلومات الصحيحة المطابقة للواقع والابتعاد عن الإيمان بالمعلومات الكاذبة، وهذا ما ستقوله الآية بعد التالية، وَمُضَافاً لذلك فَإِنَّ الهداية هي العمل الصالح وترك السيئات، فما معنى قول: لو أن الله هداني؟ وَالآية هنا تسخر من سخافة قولهم هذا الفارغ بلا معنى.

(أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ{58})
{أَوْ تَقُولَ}، {نَفْسٌ}، {حِينَ تَرَى الْعَذَابَ}، حين يصير عندها صورة محدّدة للضرر الذي يصيبها، وتكملة الجملة تُشِيرُ لما ستراه في يوم القيامة:

{لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً}، لو أعود لشيء سبق أن مرّ، فأعود إلى ما يشبه الحياة الدنيا بكونها دار تكليف كامتحان، {فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}، فأكون من الذين حَسُنَ عملهم. أَيْضاً هذا الكلام لن ينفع، فخذوا عِلْماً من الآن بذلك.

تذكّر دَائِماً أن كلمة "محسن" ومشتقاتها هي وصف لعموم من قام بعمل حسن، أمّا التنازل عن حَقِّكَ للآخرين أو منحهم ما لا يستحقون أو التفضّل عليهم... فهو من تطبيقات الِاتِّصَافِ بالعمل الحسن، لِذَلِكَ ليست كلمة محسن محسنين إحسان... مخصصة لهذه العناوين.

سياق كلام السورة هنا عن عرض جمل تَخْطُرُ ببال الناس ليقولوها في الآخرة... ولذلك لم تتوسّع السورة بالكلام عن السبب الذي لأجله لن يمنحهم تعالى فرصة ثانية من بعد موتهم، وستجد كَلَاماً مُطَوَّلاً عن ذلك في دراسة الآية 28 من سورة الأنعام {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}.

(بَلَى قَدْ جَاءتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ{59})
{بَلَى}، حَيْثُ هداك تعالى وكان لك فرصة ولكنك لم تكن من المحسنين، {قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي}، حَيْثُ وَصَلَتْكَ الأمور المميزة والمنسوبة له تعالى، {فَكَذَّبْتَ بِهَا}، وَلم تقل إِنَّهَا صادقة فرفضتها، {وَاسْتَكْبَرْتَ}، فرأيت نفسك أكبر من أن تؤمن بها، {وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ}، من المنكرين لآياته ودينه تعالى.

كل كلام يخطر ببالكم أن تقولوه هناك في الآخرة لينجيكم، تنقله لكم السورة من هناك وتخبركم أنكم ستقولونه، ولكنه لن ينفعكم، حَيْثُ هُنَاكَ ستندمون، وتتمنون لو رجعتم إلى دار كدار الدنيا لتتقوا، وتتمنون لو أَنَّ الله تعالى هداكم... وكلّ ذلك حصل لكم، هَا أنتم فيه الآن حَالِيّاً في الدنيا فلا تنتظروا حتى تفارقوها وتتمنوا العودة لتتّقوا، وَها هداكم سبحانه ورفضتم الهداية، وها وعدكم سبحانه بالمغفرة فرفضتموها، وعرض سبحانه عليكم القرب منه فسخرتم...

(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ{60})
{وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ}، وفي زمن قيامكم من الموت، {تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ}، حَيْثُ يَصِيرُ عندك صورة محدّدة للذين قالوا عنه تعالى كَلَاماً غير صحيح، فاتخذوا من دونه تعالى أولياء وشفعاء وقالوا إِنَّهُ تعالى اتخذ وَلَداً، أو أنه تعالى لا علاقة له بغناهم... تراهم، {وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ}، لونها أسود من قباحة خلقتهم ومن سخام الدخان على وجههم، ومن امتقاع وجههم بسبب اختناقهم... {أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ}، في المكان الموصوف بسوء ما فيه، {مَثْوًى}، مكان إقامة لا يملكونه، {لِّلْمُتَكَبِّرِينَ}، للذين رأوا أنفسهم أكبر من أن يكونوا مخلصين لله تعالى؟

نلاحظ أَنَّ القرآن يُفْهِمُنَا أن جهنّم بعذابها الشديد جدا جدا فوق حدّ التصوّر حَالِيّاً، وَيُرِيدُنَا أن نفهم أنهم يستحقّونها، ونعلم من القرآن أنهم لا يعترضون هناك في يوم القيامة على شدّة العذاب، لأنهم يرون أنهم يستحقّونه، وهنا ونحن في الدنيا تخبرنا الآية وتلفت انتباهنا الآن حتى نحن كمؤمنين حتى لا نرى هذا العذاب العظيم كأنه زائد عن حدّه، أو مبالغ فيه، أمّا من ناحية الكافرين، فتخبرهم الآن أن العذاب ضخم وفوق ما تتصوّرون، وَيُمْكِنُكُمْ أن تسخروا منه الآن، ولكن أخبركم تعالى وبكل صراحة عن فظاعته وشدّته، وإن لم تصدّقوا، فذنبكم على جنبكم.

بعبارة أبسط، الْعَرْضُ والتصوّر الذي قدّمه القرآن عن شدّة العذاب، هُوَ أكثر من كَافٍ كَإِنْذَارٍ بَلِيغٍ عمّا سيحصل، وَلَنْ يقول أحد ما في الآخرة إِنِّي لم أكن أعلم أن العذاب شديد لهذه الدرجة وإلا لكنت آمنت، لا، مِنَ الآن وبكل وضوح وصراحة يخبركم تعالى وبشكل متكرر، وبعبارات وأوصاف مختلفة... عن جهنّم.

المفارقة، أن كلام القرآن عن شدّة العذاب في الآخرة بَدَلاً مِنْ أن يَكُونَ رَادِعاً لنا، الْبَعْضُ منا اعتبرها مبالغة! وأنها فقط للتهديد حتى نحسّن سلوكنا هنا في الدنيا، وبعضهم "من المسلمين ومن أهل الكتاب" يقول إِنَّهُ أصلا لا يوجد آخرة، وبعضهم يقول إِنَّهُ يوجد آخرة ولن تكون بقساوة كلام القرآن عنها للمسيئين، وَأَنَّ هَذِهِ مبالغات غير عقلانية...

مشكلة هَؤُلَاءِ الناس أنهم لم يدرسوا كلامه تعالى جَيِّداً، بل ولديهم شكّ أصلا في أن القرآن كلامه تعالى، حيث بِشَكْلٍ عام يرونه كَلَاماً إِلَهِيّاً، ولكن يعترضون ويشككون في بعض النقاط. ومعلوم لك أن مشكلتهم بالأساس هي نفس مشكلتي ومشكلتك ومشكلة بقية المؤمنين، حَيْثُ إِنَّنَا كلنا نفهم الأمور بفكرنا ونفسيتنا، بقلبنا، وبيننا اختلافات، فبعضنا يفعل هذا السوء ولا يفعل ذاك السوء، وبعضنا الآخر بالعكس... وهكذا ينتج خليط لكل واحد منّا ويسبب له فَسَاداً فِكْرِيّاً وَنَفْسِيّاً خَاصّاً به مُخْتَلِفاً عن الآخرين، وهكذا يصير لكل واحد منّا وجهة نظر مختلفة لكلامه تعالى، وَلَوْ كنّا باقين على سلامة قلوبنا لكنّا كلنا متفقين على فهم واحد لكلامه تعالى.

من هذا ترانا لا نفهم كلامه تعالى بدقة، وبالخصوص لا نفهم كلامه عن العذاب الشديد في الآخرة، ولدينا تراث ديني ضخم انشحنت به عقولنا لدرجة سيطرتها علينا وَمَنْعِنَا من رؤية كلامه تعالى كما هو.

العذاب الشديد والخلود المؤبد في جهنّم هو للكفر والشرك به تعالى، ولفاعلي السيئات من العيار الثقيل جدا. وبعده يتدرج العذاب وصولا إلى الذين سيقضون مليارات السنين في النار وَيَخْرُجُونَ منها، أو سيقضون فيها أقل من ذلك.

الحكم الإلهي بدرجة شدة العذاب مبني على فكرنا ونفسيتنا وأعمالنا كتطبيق لفكرنا ونفسيتنا، حيث إنَّ قاتل الأبرياء الذي لم يتب، لو عادت نفس الظروف لعاد وقتل الأبرياء، ولهذا يُجَازَى بالخلود في النار. وهكذا بقية السيئات التي نفعلها فإن لم نتب منها فحتما سنفعلها مرة ثانية كلما عدنا لنفس الظروف، ولكن ليست كل السيئات بنفس العيار حيث بعضها عِيَارُهُ ثقيل جدا كالشرك وقتل الأبرياء والزنا... وبعضه عياره أقل فأقل...

لكن يبقى العقاب دَائِماً على مقدار السوء، فإن كان من النوع الذي يمكن العفو عنه، وكان فاعله لديه حسنات، فهذا ينجو من العقاب بالشفاعة الإلهية... وإن لم يكن لديه حسنات كافية لاستحقاق الشفاعة فهذا إنسان كان لأعماله السيئة الصغيرة أثر سيّء كبير على الآخرين...

هكذا ترى أن الكلام يطول ويطول في التفاصيل التي جمعها القرآن في كلام مختصر بِأَنَّهُ تعالى لن يظلم أحدا ولو بمقدار حبة خردل كما هو واضح في العديد من الآيات ومنها الآية 47 من سورة الأنبياء {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}.

للذين يتفلسفون على كلامه تعالى بأنه للتهديد فقط، وأنه مبالغ فيه... وأنه لن يحصل... هَذِهِ الفقرة القرآنية هنا لكم، حيث إنَّ كُلَّ كلامكم لن يغيّر أي شيء مما يقوله لكم القرآن إِنَّهُ سيحصل هناك في الآخرة.

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ{61})
{وَيُنَجِّي اللَّهُ}، ويخلّص سبحانه من العذاب في الآخرة، {الَّذِينَ اتَّقَوْا}، والكلام عن الذين تجنّبوا غضبه وعقابه بإيمانهم وبتركهم للسيئات وفعلهم للصالحات، {بِمَفَازَتِهِمْ}، بما فازوا به، حَيْثُ بسبب تقاهم حصلوا على شيء له قيمة عالية، وَحصلوا على مغفرته تعالى وتكفير ذنوبهم، فنجوا لهذا السبب.

{لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ}، لا يشعرون ولا يطالهم الأمور السيّئة ولا من أي نوع أو درجة من السوء، لا يصيبهم أي ألم أو جوع... {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}، حَيْثُ لن يحصل لهم أي شعور سيّء، وَجسدهم وفكرهم ونفسيتهم ستكون مرتاحة.

لاحظ قولنا: اللهم نجّنا من الحرب أو المرض... ولا نقول ذلك دائما حين نكون في حالة حرب أو مرض، بَلْ نقولها حين يكون هناك احتمال لذلك، وهنا كلام الآية نفس الشيء، فهناك احتمال وارد لكل واحد منّا أن يدخل إلى جهنّم وسبحانه ينجّي المتقين منها.

بعبارة أخرى، فهم البعض من أمثال هذه التعابير القرآنية ومما جاء في الآية 71 من سورة مريم {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا}، فهموا أن كل المؤمنين أيضا سيدخلون إلى جهنّم وسبحانه سيخرجهم منها، وهذا غير صحيح أبدا بتاتا، وراجع في دراستنا هذه أي آية تظنّها تعطي هذا المعنى لترى أنه غير صحيح، وآيتنا هنا على معنى: نجّنا من جهنّم. فلا تجعلنا أصلا فيها.

كما ترى فهذا الكلام يشمل الذين لم يرتكبوا ولا أي سيئة عن قصد، وهم الرسل والأنبياء والصالحون، ويشمل المتقين من الدرجة الأقل، وهم الذين بشكل عام متّقون مع بعض السيئات كهفوات والتي غفرها تعالى لهم... ولكن ضع في بالك أن القرآن عندما لم يفصّل في درجات الإيمان والتقى في سورة ما، فهو يشير إلى الطرف المضاد تماما للكفر، وَيشير إلى أقصى التقى، ويتحدّث القرآن بهذه الطريقة عندما يكون محور الكلام عن الكفر والشرك في مقابل الإيمان، وليس عن تفاصيل درجات الإيمان، فمعلوم أن بعضنا سيتحاسب ولا تكفيه حسناته لدخول الجنّة فيدخلها بالشفاعة، فهذا سيمسّه السوء وسيحزن، ومعلوم أن بعضنا يمرّ في جهنّم للمحة وآخر لساعة وغيره ليوم وآخرون لسنين... وبعدها يدخلون إلى الجنّة لأن ذنوبهم ليست من العيار الذي يستحقون بسببه الخلود في جهنّم.

هكذا تفهم أن القرآن عموما افترض معرفتك بذلك، ولم يجد داعيا لتكراره والدخول في تفاصيل درجات الإيمان في سياق كلام لا علاقة له بالموضوع، فاختار عادة نموذج المؤمنين من الدرجة العالية فتكلّم عن سعادتهم المطلقة في الآخرة في مقابل عموم بقية الآخرين من الموصوفين بالكفر الذين مصيرهم النار حتما.

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ{62})
{اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {خَالِقُ}، مركّب مؤلّف، {كُلِّ شَيْءٍ}، كل الكائنات وكل الظواهر... بدون أي استثناء، {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}، المعتمد لتسيير الأمور كما يجب، فلم يترك سبحانه ما خلقه لغيره، وَلم يوكل أحدا بمخلوقاته ليتبعوا له كإله، ولا ليسيّر شؤونهم من دون الرجوع له تعالى، ولا للصدف... لا، بل هو الإله الأحد الذي يتوكّل إدارة ومتابعة مخلوقاته وبيئتهم، وإذا احتاجت مخلوقاته لشيء فهو تعالى يتابعه بحكمته، بما يراه مناسبا...

من كثرة تكرار كلمة "الله" في القرآن قد لا ننتبه أنها في بعض الآيات تقصد الإشارة لتحديد الإله باسمه المحدّد المميّز، حَيْثُ إِنَّ الله ككلمة هي اسم علم، مثل اسمك الذي يحدّدك أنت ويميّزك عن غيرك، فانظر لآيتنا هنا هكذا: من الخالق لكل شيء؟ حَيْثُ إِنَّنَا نحن وبيئتنا مركّبون من المواد، فمن الذي صمّمنا وركّبنا؟ الله هو خالق كلّ شيء، ولم يترك مخلوقاته لتتخذ وكيلا غيره لتتوكّل عليه، فإن تركها تعالى للحظة، زالت مباشرة ولم يعد لها كيان كما عبّرت الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ...}، وفرضا سهى تعالى عنها لثانية، لانهارت وتلخبط كيان كلّ شيء... وهذا من أبرز المعاني لوكالته تعالى لكل شيء.

طبعا سبحانه لا تَأْخُذُهُ سنة ولا نوم كما هو واضح من استمرار جريان الأمور على التمام في السماوات والأرض وكما تقرأ في الآية 255 من سورة البقرة {... لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ...}، ونفس المعنى عن الوكالة ضمّنه القرآن بوصفه تعالى على العرش والكرسي وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 129 من سورة التوبة {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}، فهذا الوصف يشير للإدارة الإلهية المركزية المستمرة لكل السماوات والأرض.

كلّنا مرتبطون به تعالى، وهو سبحانه محيط بنا، ليس من كلّ الجوانب فقط، بل حتى في داخلنا في فكرنا وقلوبنا، حتى في الذرات التي يتألف منها جسدنا، حتى فيما تتألّف منه ذرّاتنا، فأي شيء في السماوات والأرض فهو بهذا الشكل مرتبط به تعالى، حَيْثُ إِنَّنَا لا نتحرّك ولا نفكّر ولا نفعل أي شيء إلا وهو تعالى سمح بحصوله، مثل نملة في يدك، تضغط عليها فتمنعها من الحركة أو تتركها فتسمح لها بالتحرّك، وهذا مثال تقريبي لتنتبه لمدى عمق سيطرته تعالى علينا، فيمكنك بسهولة أن تفهم أنه حتى المخلوقات إن خلقت شيئا ما، فهي بإذنه تعالى خُلِقَتْ...

بالنسبة لمعنى كلمة "خلق"، فهو التركيب والتأليف وليس الاختراع من لا شيء، حَيْثُ إِنَّهُ ليس إخراجا لشيء ما من لا شيء، بل توجد مادّة أساسية "مهما كان نوعها" وتركّبها لتصير كائنا ويصير وصفه: مخلوق. لِذَلِكَ نحن المخلوقات حين نخلق شيئا ما نركّب ونؤلّف في المادّة والبيئة التي خلقها الله تعالى، حَيْثُ إِنَّنَا لم نخلق المادة ولا مواصفاتها، فنحن نخلق ولكن ليس من مستوى إلهي، وبإذنه وبسماح منه تعالى نخلق، وبالقدرات التي منحها تعالى لنا نخلق.

النبي عيسى(ع) خلق من الطين طيورا كما ورد في الآية 110 من سورة المائدة {... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي...}، ولكنه مجرّد تركيب وتأليف من مستوى منخفض، فلا إحاطة للنبي عيسى(ع) بذرّات الطين، وقبل أن يلمس (ع) الماء والتراب ليصنع تمثالا لم يكن يشعر بهما أصلا، وبعد أن ركّب منهما طيرا كائنا حيا، وطار، فلا اتصال له (ع) بالطير بعد ذلك... وقبل ذلك كلّه فهو (ع) لم يبتدع من قدراته الذاتية فكرة الحياة من الطين وفكرة الطير بمواصفاته... وهذا هو مستوى الخلق من مخلوق، وأبسط منه خلقنا نحن لمخلوقات ليس فيها حياة، كتركيبنا لسيارة... وأعقد منه خلقنا لحياة من بويضة وحييمن، وأعقد منه خلقنا لكائن من الجينات... وهو كلّه تركيب وتأليف، فكلّه وصفه خلق، أمّا الخلق من المستوى الإلهي، من مستوى السيطرة التامّة التي لا مسيطر فوقها، فهو بيده تعالى فقط وفقط.

هناك بحث بين الناس عمن خلق الشرّ؟ وهنا الآية وغيرها في القرآن تقول: الله تعالى خالق كلّ شيء. فهل الله تعالى خالق الشرّ؟ ولكن لو انتبهت جيدا لمعنى كلمة خلق ومشتقاتها في كل القرآن، لما وجدت للسؤال أي معنى! حَيْثُ إِنَّ الشرّ ليس كيانا مخلوقا "مركّبا مؤلّفا" ولا ظاهرة، بل هو وصف ما تفعله الكائنات ذات الإرادة الحرّة، لِذَلِكَ خلقه تعالى لإبليس ليس خلقا للشرّ بل خلق لمن يمكنه باختياره فعل الشرّ... أو الشرّ نتاج عن ظاهرة سببت ضررا لكائنات، فالزلزال ليس شرّا... وكما ترى ليس صحيحا لغويا ولا مفهوميا القول "خلق الشرّ"، فلا معنى للسؤال من أصله،

وسبحانه لا يفعل شرّا، بل بالتعبير القرآني الدقيق الوارد في الآية 17 من سورة الأحزاب {قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً...}، فمما نختاره نحن بإرادتنا نحظى برضاه تعالى أو نخرج من رحمته، وأي تعبير قرآني آخر عن فعله تعالى لسوء ما سَتَجِدُهُ مَبْنِيّاً على هذا المفهوم، فنحن المخلوقات ذات الإرادة الحرّة نسبّبه لأنفسنا، ولن تجد أي شيء آخر.

يتداخل هذا الكلام مع عقابه تعالى بالنار، فهل هو فعل شرّ؟ فهل معاقبة المجرم على إجرامه شرّ؟ بالطبع لا، فهو المجرم بإرادته استحقّ العقاب، ومعاقبته عمل حميد. ونفس الكلام عن عموم أي شرّ يصيبنا في الدنيا، فهو من صنع أيدينا، أو من استحقاقنا لحصول العذاب لنا على سوء فعلناه.

هكذا ترى أن وصفه تعالى بالحميد، على معنى أن كلّ ما يفعله تعالى فهو موصوف بأنه حسن جيّد وخير، فهو ينطبق حتى على معاقبته تعالى بالنار للمجرمين.

بعضهم ذهب عميقا بالكلام عن خلق الشرّ كخلق لأصل المفهوم ليصير متحققا كوصف لكائن أو حالة، وهذا بحث عن أصل القيمة المعنوية للخير والشرّ، وهو نفسه البحث عن مرجعية لأساس معنى الحقّ والباطل والفاسد والصالح... وتفهمها ببساطة إذا فكّرت أن وصف الأمور بالخير والشرّ مَطَّاطٌ مُتَغَيِّرٌ بحسب وجهات النظر، فالشيء خير من وجهة نظر ما، وهو نفسه شرّ من وجهة نظر أخرى، فإن كانت هذه خلفيتك فالنتيجة ستكون أنه تعالى كان بإمكانه تصميم السماوات والأرض بدون حصول أي شيء فيهما يوصف بالشرّ، وهذا صحيح فهذه حالة جنّة الآخرة، ولكن في هذه الحالة هل يختفي مفهوم الشرّ كمفهوم؟ لا، فمرجعية الخير والشرّ ليست متعلقة بتحققهما كأوصاف لحوادث، بل مفهوم الخير منبعه من صفاته تعالى، ومفهوم الشرّ نابع من المخلوقات التي منحها تعالى الإرادة الحرّة، وسيأتيك المزيد من الكلام عن ذلك.

هذا الكلام يأخذك إلى التفكير في قول من قال بأنه تعالى مهما فعل ففعله يوصف بالخير، فالآن لدينا تصنيف للأمور الشريرة، ولكن لو فعلها تعالى فنحن لن نراها شرّا، حَيْثُ سيختفي مفهوم وصفها بالشرّ من فكرنا لأنه اعتباري يمكن تغييره.

بناء عليه قالوا إِنَّهُ تعالى قد يرمي المؤمنين في النار ويدخل الكافرين إلى الجنّة وسيكون فعله هذا سبحانه خيرا لمجرد أنه تعالى فعله، وفي تلك الحالة نحن أيضا سنرى ما فعله تعالى خيرا... وبعضهم يقول إِنَّنَا الآن يجب أن نرى ذلك خيرا إن فعله تعالى...

إن لم تكن هذه هي السفسطة والتفاهة فما هي إذاً؟ حَيْثُ إِنَّ هذا الكلام يصدر عمّن هو في أموره عادة سفسطي يريد أن تكون الأمور مطاطة، فيصير فاقدا للرؤية ولا يعد عنده معيار ثابت للحقّ والخير... وهذا ما تراه عمليا في الخلافات بين الناس في عموم شؤونهم وكلّهم يدّعون أن الحقّ معهم وأن وجهة نظرهم فيها الخير، على أساس أن مجرد تغيير زاوية النظر للأمور سيغيّر من قيمتها، وبتحليلي فهذه الخلفية حاكمة على غالبية الذين خاضوا في مسألة "خلق الشرّ".

من كلام القرآن صريحا نقوّم فكرنا ونتعلّم بأن المفاهيم ثابتة، فقتل النفس عمل سيّء، حتى لو كان المقتول معتديا عليك ويريد قتلك، ولكنه تعالى يأذن بذلك للمؤمنين ويذكر لنا سبحانه تبريره للسماح للمؤمنين بقتل أعدائهم لأن أعداءهم يريدون قتلهم... وفعل السوء حتى لو بالخطأ فهو لا يغيّر وصف سوء ما حصل، وهذا هو سبب عموم كلامه تعالى مع نبيّه محمّد(ع) آمرا له بالاستغفار، ولمزيد من التوسع حول هذا راجع دراسة الآية 55 من سورة غافر {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ...}.

من القرآن قوّمنا فكرنا وتعلّمنا أنه تعالى لا سبب لفعله لأي سوء "له الأسماء الحسنى"، وبالتالي تسبيحه على معنى تنزيهه عن الصفات السيئة أو الناقصة أو المعيبة، ما هو إلا انعكاس لقدراته الفائقة، فسبحانه لا يتأثّر بأي شيء، وبالتالي لا سبب لفعله لأي شرّ، وأمّا الدافع لفعل الخير فسببه ثبات مفهوم الخير وانفصاله عن أي شيء، فسبحانه حكيم رحمان... كصفات ذاتية له، وكل هذا الكلام تعلمناه من كلامه تعالى عن نفسه في قرآنه.

"طبيعته" تعالى هي منبع ثبات مفهوم الخير والرحمة، والعمل على جعل مفهوم الخير والشرّ مفصولا عنه تعالى بتصوّر حالة الفراغ "كون بدون إله"، ما هو إلا ترف فكري خيالي لا واقعية له، فسبحانه الأول بطبيعته التي لا نفهمها، والتي على التقريب نحاول تصوّر عظمتها فنقول إِنَّهُ تعالى لا يجري عليه الزمان ولا المكان ولا الحركة...

بناء على هذه الواقعية الأزلية مَرْجَعِيَّةُ ثبات مفهوم الحقّ ويقابله الباطل والخير ويقابله الشرّ تَرْجِعُ له تعالى، فالحقّ والخير نابع من صفاته الحسنى وقدراته الفائقة سبحانه، فصفاته ثابتة سبحانه ولا تتبدّل ولا تتغيّر، وبناء عليه الشرّ والسوء والباطل... ليست مَفَاهِيمَ لأوصاف مطاطة قابلة للتبدّل، وليس صحيحا أنه تعالى إن فعلها تغيّرت وصارت خيرا.

هكذا ترى أنه تعالى أورثنا بالخلقة من صفاته حتى صرنا نميّز بين الخير والشرّ، وترى ذلك موسّعا في دراسة الآية الرابعة من سورة التين {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}، والنادر منّا حافظوا على سلامة قلوبهم، ولذلك جعلهم تعالى رسلا وأنبياء، هؤلاء منذ وعيهم حافظوا على الاستقامة "الحكمة" التي تجعلهم يرون الأمور واضحة جدا بخيرها وشرّها، وهؤلاء يتماشون بالتمام مع كل كلامه تعالى، ومن بعدهم تأتي تدرجات الناس بسلامة القلوب، مرورا بالمحافظين على تمييز الخير والشرّ في الأمور ذات الأهمية الشديدة، كتصنيف قتل الأبرياء بالسوء، وصولا إلى الذين لا يرون السوء فيما يفعلونه هم، ويرونه فقط إن فعله الْآخَرُونَ معهم، فيبقى تمييز الخير والشرّ عندهم فعّالا ولكنه مزاجي.

ما معنى السلوكيات المنتشرة في بعض المجتمعات والتي يعتبرها تعالى سيئة بينما هم يعتبرونها جيدة؟ هؤلاء إن قَرَأُوهَا في قرآنه تعالى سيكفرون به، وهي سيئات تبدو مطاطة بحسب ما اعتاد عليه الناس، وجدلية حتى عند العقلاء، كالزواج من المحارم، والشذوذ، وشرب الخمر...

المفروض انتباهنا لسفسطة الطرح، فقد ضرب القرآن أمثالا عن هذه الحالات التي يَنْتَشِرُ فيها سوء واضح لا يناقش العقلاء بسوئه، ورغم ذلك تجد مجتمعا بأكمله يراه خيرا! كمثال عن ذلك غشّ مدين قوم النبي شعيب(ع)، فاستحضر قصّتهم في بالك، واحكم أنت على الحالة، ومنها انطلق لترى القرآن يعرض عليك تَقْوِيماً إِلَهِيّاً للفرد وللمجتمعات حتى يصوّبوا نظرتهم للأمور "إذا أرادوا الحقّ".

ليس المعيار للصلاح والفساد فيما يفعله أو يقبله مجتمع من الناس، حَيْثُ إِنَّهُ بالنسبة لهم خير بسبب اعتيادهم عَلَيْهِ وتوارثه، وكحالة في غاية الغرابة اعتداء قوم النبي لوط(ع) جنسيا على الغرباء! كل ذاك المجتمع كان يراه عملا حقّا لهم!

بل المعيار هم أصحاب القلوب السليمة من الناس، وهؤلاء هم الذين اختارهم تعالى رسلا ليكونوا خلفاء له، وزوّدنا عبرهم بكتب من عنده لنقوّم رؤيتنا للخير والشرّ على ما يقوله تعالى.

هكذا وبدون موروث ديني، تنظر للقرآن على أنه كتاب يدّعون أنه من مصدر إلهي، فإن كان فيك سلامة قلب كافية، سترى نفسك متماشيا مع الكثير مما يقوله، وهكذا تؤمن بشكل ما أنه من مصدر إلهي، وعندما ترتفع معه بالتقويم الفكري والعملي بالالتزام بالصلاح الذي تعرفه واقتنعت به، عندها سترى نفسك تترقّى ليستوعبك أغلب أو كل ما ورد في القرآن، ولمزيد من التوسّع حول هَذَا المفهوم راجع دراسة الآية الثانية من سورة البقرة {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}، فإن بقي عندك ما لم تقتنع به، فانتبه أن يكون تفسيرك للكلام الإلهي غير سليم، أو أنك لست على المستوى الفكري والخبرات المطلوبة وبعد النظر لما يقوله تعالى.

بالعكس، فإن لم يكن عندك سلامة قلب كافية وَعُرِضَ عليك القرآن، فسترفض الالتزام بما فيه من خير، بالرغم من رؤيتك له خيرا ولا تفعله، كإطعام في يوم ذي مسغبة، وسترى ما يصفه القرآن بالسوء مناسبا لك فقط لوصف الآخرين به حين يَفْعَلُونَهُ معك، وذلك مع رفضك لوصفه بالسوء إن فعلته أنت!

هذه الحالة وللأسف، أصابت الكثير من المسلمين "مع الكثير من علماء الدين" الذين لم يَتَرَقَّوْا مع القرآن عبر التزامهم بالخير الذي يَعْرِفُونَهُ ليرتفع مستواهم، فأنزلوا القرآن لمستواهم هم بتحميله مفاهيم إجرامية سلطوية فاسدة سيئة هم

يحبونها ولا يريدون الخروج منها، وكمثال متعارف عليه ومنتشر بينهم تكفيرهم وسبّهم وقتلهم لبعضهم البعض مدعومين بآيات فسرّوها وأفتوا على أساسها!!!

هكذا ترى تداخل واندماج فكرة خلق الشرّ مع فكرة مطاطية الشرّ مع مسألة مرجعية معيار الخير والشرّ، فكل المسائل مطّاطة ونسبية وضبابية عند الفاقدين للدرجة المقبولة من سلامة القلب.

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{63})
{لَهُ}، مَنْسُوبٌ لله سبحانه، {مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، كما نقول: تقلّد الحكم أي تَلَبَّسَ واستلم وصار في منصب الحكم، في الدنيا مواقع سلطة كثيرة، مقاليد كثيرة، وكلّها له تعالى، من مقاليد التخطيط والتصميم والخلق والتدبير والسيطرة والرزق وتسيير الأمور والرحمة... وكلّها لله تعالى، ولم تستعمل الآية التعبير الذي نستعمله نحن مع بعضنا البعض، فلم تقل: يتقلّد سبحانه مقاليد السماوات والأرض. بل هي المقاليد له تعالى أصلا وأساسا فهو الإله الأحد، وأي مكانة أو سيطرة أو صفة سيطرة ألوهية فهي له تعالى، فلا يمكن أن يمرّ عليها فترة تكون فيها ليست له ويتقلّدها تعالى، بل هي المقاليد من الأساس له سبحانه وتعالى، لأنه الأول...

نتذكّر أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما عَلا "معنويا" أو من فضاء أو غيره، وتقابله أرض لعموم ما كان تحت، فلا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، لأن عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} وهي إشارة إلى وجود سبع أَرَضِينَ مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وكوكبنا الترابي أرض بالنسبة لسمائنا، ومثله سطح القمر فهو أرض لسمائنا، وسطح المشتري الغازي أرض لسمائنا... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراض.

التعبير القرآني بالسماوات والأرض يشير إلى كل ما خلقه تعالى فهو محصور ضمن هذه الحدود.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ}، أنكروا الأمور المميزة بمستواها الإلهي المنسوبة لصاحب الاسم المميّز المحدّد "الله" تعالى، وأنكروا الأمور التي تدل على خلقه ووكالته وأن له مقاليد كل شيء سبحانه، {أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}، بسبب كفرهم بآياته تعالى سيفقدون أمورا لها أهمية كبيرة، حيث سيفقدون رحمته تعالى ومغفرته وثوابه، وسيسببون لأنفسهم العذاب الدائم الشديد.

نتذكّر أنه تعالى لا يخبرنا بشيء لنؤمن به ونحن لا قدرة لنا على تمييزه أنه حقّ يعكس الواقع، حيث جعل سبحانه فينا القدرة على تمييز الأمور بالفكر، وهذا معنى وصفه سبحانه للمنكرين للآيات، لأنها أمور مُمَيَّزٌ فعلها تعالى وتَعَرَّفْنَا عليه سبحانه منها بفكرنا، ومنها نعلم بسهولة أن لنا إلها خالقا مسيطرا... والكفر بذلك هو تكذيب لحقيقة واضحة، وعلى هذا عقاب.

نلاحظ في عموم التفاسير والقواميس القديمة بحثهم عن أصل بعض الكلمات العربية، حيث قالوا في بعض الكتب إنَّ كلمة "مقاليد" أصلها فارسي من كلمة كليد ومعناها المفتاح، وهذه بساطة طفولية ساذجة تعبّر عن الحاجة لتطور في التفكير لبناء معطيات أفضل، لِمُجَرَّدِ الشبه بين الكلمتين جعلوا الأصل فارسياً! وهذا كلام لا أساسَ علمياً صحيحاً له، مثله مثل الغالب الأكثر من كلامهم عن أصل بعض الكلمات التي استعملها القرآن، ولا ننفي أبدا أن اللغات تستعير من بعضها الكلمات، لأن كل اللغات تستعير، واللغة العربية بالتأكيد استعارت من لغات أخرى، وباستعمال العرب لكلمة ما من لغة أخرى بصيغة تناسب طريقة العرب باللفظ والكلام، عندها تصير الكلمة عربية من أصل أعجمي "أجنبي".
ولكن مجرّد الشبه بين لفظ الكلمتين لا يعني أبدا أن الأصل فارسيٌّ! والأنكى من ذلك أن المعنى مختلف! حيث المقاليد من قلادة والفعل تقلّد، وتعطي معنى: تلبّس بشيء ما فصار معه. "لبست القلادة أو لبست الحكم" تقلّدت القلادة أو تقلّدت الحكم، أو صارت مقاليد الحكم بيده... وهكذا نستعملها كعرب، ولم أفهم لماذا الإله عزّ وجلّ إن كان يريد أن يتحدّث عن المفاتيح ليقول "إنَّ له مفاتيح السماوات والأرض" يترك كلمة عربية ويستعمل الكلمة الفارسية! ألم يسألوا أنفسهم هذا! أم هم معجبون بهذه اللفتات والنكات التي تدل على وساعة علمهم!

على كلّ حال القدماء الذين قالوا هذا الكلام معذورون بشكل ما، أمّا الذين لا زالوا إلى الآن يستعيدون ما في تلك الكتب وينشرونه ويروّجون له على أساس أنه كلام من مصادر موثوقة، فهؤلاء لا عذر لهم بعد أن صار لدينا تخصصات وقواعد وبحوث علمية تاريخية رصينة عن أصل الكلمات، ولو راجعتها لوجدت أكثر ما في قواميسنا وكتب التفاسير عن أصل بعض كلمات القرآن ليس صحيحاً.

الأغرب من ذلك كلّه وجود نوع من التوافق عندهم على إمكانية استعمال القرآن لكلمات أجنبية لم يسبق أن نقلها أو استعملَها العرب! وكأنهم يقبلون أن يستعمل القرآن ولأوّل مرّة كلمة من أصل أجنبي يُعَرِّبَها ويجعلَها بلفظ عربي ويستعملَها! وتجد بذوراً لهذا الكلام في بعض الروايات المنسوبة للجيل الأول من المسلمين الذين جهلوا معاني بعض الكلمات ولم يعلنوا عن جهلهم بها، وقالوا إنها قبطية أو نبطية أو حبشية أو فارسية أو رومية... أكتفي بهذا المقدار لتضعه في بالك، ولتراجع في دراستنا هذه أي كلمة ادّعوا أنها أجنبية، لترى أنها كلمات عربية استعملها العرب قبل القرآن، وأقل من عشر كلمات فقط لم أجد لها مصدرا في كلام العرب قبل الإسلام، وهذا لا يعني أنها ليست عربية، لأنه مَن قال إنَّ كل كلمات اللغة العربية واشتقاقاتها موجودة فيما وصلنا من كلام العرب قبل الإسلام؟ وخذ مثلا سهلا عن أسماء الأدوات الخاصة بأي حرفة أو مهنة، أزاميل النجارين لها أسماء مختلفة، وعدّة صيد البحر، وأدوات الأطباء وموادّهم... والكثير من الأسماء والصفات التي لن تجدها فيما قاله العرب من أشعار "قبل الإسلام".

لمزيد من التوسّع حول هذا الموضوع راجع دراستنا للآية 21 من سورة الإنسان {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ}، والآية 47 من سورة الصافات {لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ}، والآية 3 من سورة الزخرف {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}.

(قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ{64})
تَذَكَّرْ محورية السورة عن إخلاص الدين له تعالى.

{قُلْ}، عبر هذا القرآن: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ}، أعتقد وأتصرّف على أساس أني مفروض منّي طاعة غيره تعالى، {أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ}؟! الذين لا يعرفون ما يقولون فيقولون هذا عن جهل لا عن علم وتفكير.

فإن كان الله تعالى هو الخالق لكل شيء والوكيل وله مقاليد السماوات والأرض، فما معنى أمركم لي بعبادة غيره؟!

(وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ{65})
{وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ}، وَصَلَتْكَ معلومات إلى فكرك بلا كلام مباشر منه تعالى، {وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ}، من أنبياء ورسل، أوحينا لك ولهم ما يلي:

{لَئِنْ أَشْرَكْتَ}، إذا جعلت لله تعالى شريكا في الألوهية، {لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ}، سيفقد كل عملك الحسن قيمته الحسنة، وعمليا لن تحصل على الأجر منه تعالى على عملك الحسن.

{وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}، سوف تفقد شيئا له أهمية كبيرة، وستخسر رحمته ومغفرته وثوابه تعالى، وبالتالي ستتعذّب في جهنّم خالدا فيها وتخسر الجنّة.

تذكّر دائما أن لبّ السورة هو إخلاص الدين لله تعالى، وعلى رأس الإخلاص له تعالى: توحيده.

يعني ليس فوق رأس أي أحد خيمة زرقاء، لأن الرسول أوّل المأمورين بتوحيده تعالى، وأوّل المهدّدين بالعقاب، وهذا يتضمّن إفهام من يسمع هذا الكلام أنه لا مجال للرسول "النموذج عن المؤمنين" لذا لا مجال له للتهاون بالتوحيد وإلا فحسناته ستصير كلّها بلا قيمة.

قارنها مع من يقول: عندي حسنات كثيرة، والكثير من أعمال الخير، فلو خالفت أوامره تعالى بشيء ما، فلدي مخزون هائل من الحسنات ولن يتأثّر مركزي الإيماني عنده تعالى... مع أن الفكرة غير مقبولة قرآنياً، ولكنها تقرّب لنا الصورة عن كلام آيتنا هنا، مهما كنت، ومهما فعلت من حسنات، فإن أشركت، ذهَبَ كل ما سبق مع الريح، هباءً منثوراً، وسيفقد قيمته الحسنة، وعمليا ستقف يوم الحساب وليس معك أي شيء له قيمة حسنة.

تذكّر دائماً أن المشكلة هي الصدق، لأنَّ توحيده تعالى حقّ وهذا هو الواقع، والكفر به تعالى من إنكاره إلى جعل شركاء له، هو تكذيب للواقع، لِمَاذَا سنكذّب هكذا حقيقة واضحة بسهولة من آياته تعالى في خلق السماوات والأرض وخلقنا وإرسال رسلٍ وكتبٍ...

بعض الناس في عصرنا يهزؤون من مسألة العقاب الخالد في جهنّم بسبب الكفر أو الشرك لمدة حياتنا القصيرة نحن المئة سنة، وأحيانا نشعر وكأننا نسمع كلاماً جديداً كتعليق على إيماننا، بينما هو هذا ما تكلّم عنه القرآن مراراً مشيراً إلى عقوبة شديدة على هذه الكذبة، ويعتبرها سبحانه مسألة لا تغتفر، والسبب وضوح صحّتها وسهولة رؤيتها، وأنها أهم قضية، لأنها إنكار من خلقنا مانحاً لنا الحياة، وهو يعلم بأن ما فينا من فكر وما خلقه من آيات أكثر من كافٍ لنؤمن به، والعقوبة في عمقها على سوء استخدامنا للفكر والإرادة.

عادَةً يربط القرآن ذلك بالهوى السيّء، لأن الكفر والشرك ناتج عن كرهنا الحقّ والخير والصلاح، وفي نفس الوقت نحب أن يلتزم الآخرون بهذه العناوين حتى نضمن بأنهم لن يؤذونا، وفي نفس الوقت نحن نؤذي أنفسنا ونؤذي الآخرين!

هل نفصل بين نتيجة الكفر والشرك به تعالى كرها من الالتزام بالصلاح، ولا تعتبرها دائماً السبب؟

من الصعب ذلك، راجعْ سورتنا هذه كمثال وسترى بذور ربط حبّ السيئات بالشرك للتفلّت من الالتزام بأوامره الصالحة سبحانه، ولكن يبقى الاستهتار والاستخفاف والاستهزاء، ونفهم ذلك مما نفعله نحن من التعامل باستهتار مع بعض المواضيع المهمّة، حيث لا ربط بين حبّنا لفعل السوء وبين استهتارنا بإنكارنا لحقيقة واضحة، وخذ مثلاً حالة المدنيين الواقعين في منطقة نشاط عسكري حربي، بالعقلانية التي لا تحتاج لكثير من التفكير يجب عليهم إخراج أطفالهم من منطقة الخطر موتاً، وأي ظروف صعبة أخرى ناتجة عن تركهم لبيوتهم فهي عادة أقل ضرراً من الموت...

بعض الناس بهذا الاستهتار يتعاملون مع مسألة توحيده تعالى وإخلاص الدين له، وهم معرضون يتولّون... وبعضهم مستهزئون ساخرون... وسواء أعجبنا أم لم يعجبنا فالعقاب على ذلك شديد، وسنراه زائداً عن حدّه إن كنّا نحن فينا شيءٌ من الاستهتار ببعض المسائل المهمّة، أنا على المستوى النظري أحاول أن أريك مدى سوء الكفر والشرك به تعالى لدرجة استحقاق الخلود في جهنّم عقاباً عليه، وقراءتي له في القرآن هو بالنسبة لي وللمشرك خبر، وبالقدر الذي عندي من الاهتمام بالمسائل عموماً، سأرى مدى أهمية وخطورة الكفر والشرك به تعالى، وبالقدر الذي عند الآخرين من استهتار بالمسائل عموماً، بعضهم لن يرى أي أهمية لمسألة الكفر أو الشرك به تعالى، مهما حاولت إقناعه فمن مستوى الخطورة التي تراها أنت ستحاول إقناعه، ولن تصل إلى درجة الدقّة في فهم المسألة مثلما سبحانه يراها، وَعَرَضَها علينا بكلام صادر منه سبحانه، وفهمنا لكلامه سبحانه يتحدّد بمستوى ما فينا أصلاً من الصفات التي صقلناها بخياراتنا، وهكذا نصير أمام عرضه تعالى للحقائق ولفت انتباهنا للآيات الدالة عليها، ولفت انتباهنا للعمل على الرجوع إلى حالة سلامة القلب لنفهم ونؤمن بكلامه، وإلا فسيبقى الكلام القرآن كخبر نسمعه عن ادّعاء وجود إله أحد سيعاقب بشدّة من يكفر أو يشرك به.

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ{66})
{بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ}، تصرَّفْ على أساس أنك مفروض منك طاعة صاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى.

تذكّر أن عبد تشير لمن مفروض عليه الطاعة لأنها مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك. ما يخطر ببالنا من طقوس أو حركات أو كلمات.... كالصلاة تُعَدُّ من تطبيقات العبادة لأنه تعالى أمرنا بها ونطيعه ونصلّي.

{وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ}، أعْلِنْ له وحده تعالى بحصولك على الأشياء الجيّدة منه.

نتذكّر لبّ السورة عن الإخلاص له تعالى، أول مسألة هي توحيده تعالى كإله لا إله غيره، وثاني مسألة هي توحيد العبادة له تعالى، لذا وحده مفروض منّا طاعته، وكل ما لدينا من أمور جيّدةٍ هي منه تعالى ولذلك وحده نعبّر له عن حصولنا على أشياء جيدة منه كإله ونشكره.

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ { 67})

{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ}، لأنَّ صفاته العالية الحسنة سبحانه تستحق منهم تقديراً أعلى، ولكنهم أشركوا به سبحانه، ولم يخلصوا له الدين ولم يطيعوه... وهذا ليس تقديراً حقيقياً لمكانته سبحانه كإله، بل أقل بكثير جداً جداً مما هو عليه.

{وَالْأَرْضُ جَمِيعًا}، كلّ الأرض بما عليها وتحتها وفوقها "ككوكب" لأن الكلام معنا نحن البشر وإلا فالكلام عمومي لأي أرض تقابل أي سماء، لأن كلمة سماء لا تقال إلا لما يقابله أرض، وليس بالضرورة أن تكون أرضاً واحدة، حيث سماؤنا هي ما يقابل كل أسطح كل الكواكب التي ضمن كوننا، {قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، في زمن القيام من الموت في الآخرة إذ إنَّ كلّ الأرض محكومة وتحت سيطرته التامة التفصيلية سبحانه، والقبضة هي اليد التي أغلقت الأصابع، وهو إمْسَاكُكَ لشيء وإغلاق يدك عليه، وهو تعبير عن سيطرتك الكاملة المطلقة على ما في يدك، كما نقول على الوصفية: قبضت عليه الشرطة. وقع في قبضتي... ولم تقل الآية إنَّ الأرض "في" قبضته تعالى، صحيحٌ أنه تعالى ليس له قبضة من كفّ وأصابع ولذلك لا يصح على الإسمية القول بأنها "في" قبضته"، ولكن الآية عبّرت بأقوى تعبير عربي عن السيطرة، بحيث تصف المفعول "الأرض ومن عليها" هم الشيء المسيطر عليه، هم قبضته تعالى في زمن قيامكم من الموت لأنه في ذلك الزمان لن يترك لكم مساحة التصرّف بحرية كما هو متاح لكم الآن، في وقتها سَتَكُونُونَ مجبورين على التحرك في المجالات التي يحدّدها تعالى لكم، وسترون أنكم محكومون ولستم على راحتكم لا في وقوفكم ولا مكان وقوفكم ولا في تغيير البيئة التي تقفون فيها، ولا تغيير ما بكم ويحصل معكم ولا بأي وسيلة أو طريقة... أنت في قبضته تعالى، بل الأرض كلّها قبضته تعالى وأنتم ضمنها.

لا تَنْسَ أن الأرض في يوم القيامة غير الأرض التي نعرفها الآن من حيث التكوين، ولكن هذا لا علاقة له بكونها قبضته تعالى، لأن الأرض التي هنا أيضاً تحت السيطرة الإلهية، ولكننا فيها الآن في حالة امتحان، ومتاح لنا أن نفعل ما نريد، يمكننا التصرّف بحريّة، حيث بعضنا كفر وبعضنا آمن ونفعل السوء... أمّا في أرض الآخرة فالأمر مختلف، وهذا ما تريد الآية قوله.

وفي يوم القيامة، {وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}، لدينا الآن سبع سماوات كما نعلم من القرآن، وكما الأرض حينها قبضته تعالى، السماوات السبع في يوم القيامة مطويات الواحدة فوق الأخرى، وَوَرَدَ نفس التعبير في الآية 104 من سورة الأنبياء في إشارة لإعادة الخلق كما بدأ أوّل مرة، قبل أن تأخذ كل سماء حجمها وتصير كطبقة "يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا..."، وهنّ مطويات بيمينه تعالى، بقوّته وسيطرته، طَبْعاً ليس له تعالى يد من كتف وساعد وكفّ، لأن هذا معنى كلمة يمين كاسم للعضو، ولكن اليمين على الوصفية هو تعبير عن القوّة المتحكّمة، كما نحن بيدنا القوية نفعل الأشياء، وبيمينه تعالى السماوات مطوية، والأرض قبضته. يعني رغم الوساعة الهائلة جداً جداً للسماوات، وهي طبقات الواحدة فوق الأخرى، هنّ مطويات فوق بعضهن البعض بقوّته وتحت سيطرته تعالى.

في يوم القيامة يسحب سبحانه كل أنواع الاستقلالية في التصرف من كلّ المخلوقات، ويبسط نوعاً جديداً من الحكومة الإلهية في السماوات والأرض، بشكل لم نعرفه هنا، حيث هنا بحرية الإرادة نفعل السوء، أمّا هناك فحتى الكلام ممنوع على الجميع إلا بإذن كما تقرأ في الآية 38 من سورة النبأ {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا}.

{سُبْحَانَهُ}، منزّه عن كل الصفات السيئة أو الناقصة أو المعيبة، {وَتَعَالَى}، حيث كل البقية تحته تعالى في القدرات والصفات، {عَمَّا يُشْرِكُونَ}، فقولهم إنَّ لديه شركاء في الألوهية واعتقادهم بهم رازقينَ وعبادتهم وشكرهم... لذا هو منزّه وأعلى عن هذه الصفات التي تعني أنه ضعيف أو غير حكيم أو مستهتر أو عابث...

تلاحظ بشكل واضح تعمّد السورة "لحدّ الآن" أن لا تتطرّق لأية تفاصيل بتعابيرنا الحالية نعتبرها أموراً دينية عن الملائكة(ع) والجنّ والأنبياء(ع) والميزان والصراط... لأنها تريد أن تكون عامَّةً ومخصَّصَةً لموضوع أساس أساس إخلاص الدين لله تعالى.

تلاحظ أن الكواكب الأخرى كعطارد والمريخ والزهرة... لها أرض، ولكن لها اسْمٌ، أمّا كوكبنا فاسمه أرض، ولذلك يحصل لدينا نحن خلط في الفرق بين الكلام عن أرض كقطعة أرض صغيرة أو لبلد، وبين الأرض كلّها وهي الكوكب، لو كان لكوكب الأرض اسْمٌ كبقية الكواكب، بتحليلي لوجدت القرآن استعمله في آيتنا هنا، وبهذا تلتفت إلى أنَّ تعابير القرآن اعتمدت على سياق الكلام لتفهم منه قصدها من كلمة أرض إن كانت تشير لكل الأرض أو لبقعة ما منها.

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ {68})

تعقيباً على الكلام عن يوم القيامة:

من الآية هنا علمنا أن حادثة النفخ في الصور ستحصل مرتين، وأوّل نفخة ستسبّب موت كلّ المخلوقات في السماوات والأرض "إلا من شاء تعالى"، وثاني نفخة ستحصل بعدما يتبدّل ما في الدنيا ونصير في الآخرة، وهذه النفخة ستسبّب عودة المخلوقات إلى الحياة، ويسمي القرآن زمنها بالساعة لأنها بالنسبة لنا هي أول ساعة من يوم قيامنا من الموت.

المشهور بين المسلمين أن ملاكاً اسمه إسرافيل(ع) يقوم بالنفخ في الصور، وتذكّر دائماً أن القرآن لم يذكر اسم النافخ ولم يقل أصلاً إنه ملاك ولكن اشتقاقاً من عموم ما نفهمه من القرآن عن توظيفه تعالى للملائكة للقيام بهكذا أعمال، ومما هو مشهور في عموم ثقافة المنتمين لهذا الدين الإلهي من اليهود والمسيحيين، سنقول إنَّ ملاكاً اسمه إسرافيل هو النافخ في الصور.

الصور في اللغة هو الشيء الذي نستعمله لنصدر صوتاً قوياً، لِيَسْمَعَهُ عدد كبير من الناس، كالبوق قديماً، وكمكبر الصوت حالياً. طبعاً الصور الذي تتحدّث عنه الآية هنا ليس بوقاً مصنوعاً من خشب أو من معدن، وليس مكبراً للصوت، ولكنه "على الوصفية" شيء يستعمله "الملاك إسرافيل(ع)" وَيَنْفُخُ فيه، ويجعل في داخله "شيئاً لا نعرفه"، مثلما نجعل نحن الهواء داخل البوق "أو البالون"، فَيَصْدُرُ من الصور "شيءٌ" يسبّب قيام كل الناس من موتهم، دفعة واحدة.

وَصْفُ النفخ في الصور مثل الوصف بالصيحة الوارد في العديد من الآيات ومنها الآية 53 من سورة يس {إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ}، حيثُ أمام عدد هائل من المخلوقات الميتة، يصدر أمر إلهي بإعادة هذا العدد الهائل إلى الحياة بنفخ "الملاك" في شيء ينشر الأمر الإلهي على عدد كبير، ونفس الحدث يوصف بالصيحة كتعبير عن أمر إلهي سينتشر على عدد كبير، لأنها ليست صرخة "علماً أن كلمة صرخة أصلاً غير مناسبة لوصف الحالة"، ولا الصيحة مسموعة بالصوت، بل التعبير بالنفخ في الصور وبالصيحة هو وصف لانتشار الأمر الإلهي على عدد كبير لِيُتَنَفَّذَ.

النفخ في الصور ليس كما ننفخ نحن البالون بالهواء، لأنَّ كلمة "نفخ" استعملها القرآن مراراً لتوصيف حالة سريان الحياة في المادة الجامدة مثل التراب، حيث الآيتان 29 من سورة الحجر و72 من سورة ص تنسبان النفخ له سبحانه في آدم(ع) فصار حياً، والملائكة(ع) نفخت في بطن السيدة مريم(ع) فصارت حبلى، وراجع في ذلك الآية 19 من سورة مريم {قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} مع الآية 12 من سورة التحريم {وَمَرْيَمَ} ... {فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا}...، والنبي عيسى(ع) كان ينفخ في الطين فَيَصِيرُ طَيْراً، كما ورد في الآية 110 من سورة المائدة ... {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي}...، وهنا ينفخ الملاك في الصور فَنَتَشَكَّلُ نحن من التراب ونعود إلى الحياة.

صِرْتَ تعلم أن استعمال هذه الكلمات "نفخ وصور وصيحة..." على معناها الوصفي الحقيقي وليست تعابيرَ مجازية، ولكن تصوّرها في ذهننا غير ممكن لنا حالياً لأنها توصّف شيئاً من عالم آخر، من عالم الملائكة التي لا يمكننا رؤيتها الآن، ففي عالمها صور "بوق" يناسب تكوينه تكوين الملائكة، والنفخ فيه فعل يناسب تكوين الملائكة، حيث نحن لدينا رئتان ننفخ منهما، والملائكة تكوينها مختلف، ولكن لديها فعل توصف فيه بأنها تنفخ. ونفس الشيء الكلام عن الشهب التي ترجم بها الملائكة لتبعد الشياطين عن السماء العالية، لأنَّ الشهب توصيف لشيء يناسب تكوين تلك السماء،

وَليست شهباً من المادة التي يتشكّل منها كوننا "سماؤنا"... ونفس الشيء وصف سجود الملائكة بتعبير يناسب تكوينها...

نرجع للآية، {فَصَعِقَ}، بسرعة حصل شيء، وهنا المقصود الموت، فمات بسرعة، {مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، في كل مكان خلق الله تعالى فيه كائنات، إذْ إنَّ كل الكائنات الحيّة التي في عالم الدنيا ستموت، {إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ}، حيث هناك كائنات مستثناة من هذا الصعق، وَلن تموت من هذه النفخة، ونحتمل مفترضين أنها الملائكة أو بعض الملائكة العالية، وليس معلوماً لنا إن كانت هذه أيضاً ستموت فيما بعد بطريقة ما قبل الآخرة. والكلام يجرّ الكلام، إذْ من المنتشر في عموم ثقافة المنتمين لدينه تعالى أن النافخ في الصور ملاك اسمه إسرافيل(ع)، مِنَ البديهي أنه سيبقى حياً من بعد النفخ لأنه النافخ، ومن غير المعلوم إن كان ملائكة آخرون سيبقون أحياء معه، ومن غير المعلوم من القرآن إن كان تعالى أيضاً سينهي حياة تلك الملائكة ليحييهم مرّة ثانية.

{ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى}، جَرَى النفخ في الصور مرة ثانية، وَمرة ثانية انتشر أمر إلهي على عدد كبير، {فَإِذَا هُمْ}، الكائنات التي في السماوات والأرض التي ماتت من قبل النفخة أو بالنفخة، {قِيَامٌ}، في حالة تفعّل، فَقَامُوا من الموت، وَعادوا إلى الحياة، {يَنْظُرُونَ}، صار لديهم من جديد القدرة على توجيه اهتمامهم العام بمنظر أمامهم، وَعاد وعيهم وصار أمامهم منظر الآخرة وحشر الناس والملائكة(ع)...

ننتبه جيداً، دَرَجَ بين الناس فهم مشوّش لهذه الآية وما يشبهها، حيث درج استعمال كلمة يوم الدينونة على اليوم الذي ينفخ فيه الملاك إسرافيل(ع) ليموت الناس، فصار لدى الغالبية من الناس التصوّر التالي: تكون الناس في حياتها العادية وفجأة يحصل النفخ في الصور... فَيَبْدَأُ دمار الأرض والكون... وهذا يوم القيامة حيث يقوم الناس من الموت... ولكن هذه الصورة غير واقعية تماماً، بل نفهم من القرآن أن الدنيا ستستمر تعمل كما هي الآن على المخطّط الذي رسمه سبحانه، وَقَدَّرَ تعالى لهذه الدنيا نهاية، ولا نجد في القرآن تعابيرَ تؤيّد ما يظنّه الناس عن فجأة يوم القيامة، إذ يقولون: ربما الآن تحصل، ربما غداً... وهناك أصلاً خلط في تعابيرهم بين يوم القيامة من الموت مع يوم خراب الأرض والدنيا، لأنهم يقولون للاثنين معاً: يوم القيامة. علماً أن يوم القيامة من الموت يقع بعد تبدّل السماوات والأرض.

نعم، نجد تعابيرَ قرآنية تفيد عن قرب يوم القيامة، وفهمنا قصدها بشكل واضح عن كل من يموت ويفقد وعيه أنه لن يشعر بمرور الزمن، حتى لو مرّ عليه مليارات السنين، فَيَوْمُ القيامة بالنسبة له لن يكون أكثر من إغماض عينيه هنا، وفتحها بعد لحظة "بالنسبة للميت" في يوم القيامة، وهذا عامَّةً معنى قرب يوم القيامة في القرآن الذي لم يقصد أن مدّة حصول يوم القيامة قريبة بالساعات أو بالأيام من قياس أيامنا من ليل ونهار.

بعبارة أبسط، قبل انتهاء الدنيا، وَقبل أن يبدأ تبدّل السماوات والأرض، هناك زمن يصدر فيه أمر إلهي بإنهاء حياة الكائنات التي في السماوات والأرض، نعلم منها نحن البشر والجنّ، ولا ندري إن كان هناك كائنات أخرى غيرنا... لأن التعبير القرآني بالسماوات والأرض، لا يشير حصراً بالأرض لكوكب الأرض الذي نعيش عليه، لأنَّ مقابل كل سماء يوجد أرض، كما في حالتنا الأرض تحتنا وهناك سماء فوقنا، وبقية الكواكب التي في عالمنا هي أراض والسماء فوقها، وَسطح الشمس والمشتري والقمر... أرض أيضاً. وكذلك بقية السماوات يقابلها أرض "أراض..." وسماء فوقها... لذا كلّ من في السماوات والأرض الدنيا سيموتون إلّا بعض الكائنات ستبقى حيّة، ومن تراثنا الثقافي الديني نفترض أن الملائكة(ع) أو بعض الملائكة العالية، سيبقون أحياء، وهذا افتراض تحليلي لا يظهر له تأييد صريح من القرآن. بعدها يبدأ تبدّل السماوات والأرض ونصير في عالم الآخرة، وأثناءها تَحْصُلُ نفخة أخرى وترجع كل الكائنات إلى الحياة، وهذا اليوم اسمه: يوم القيامة من الموت، وبعده أيّام الحساب، وفي الآخر يدخل الناس إلى الجنّة والنار...

أطلت عليك حتى نقول الجملة التالية بشكل واضح: عند انتهاء الدنيا وبداية تبدّلها سيحصل دمار الأرض أثناء ذلك، وسيحصل موت لكل الكائنات الحية "إلا ما شاء تعالى" ولم ينقل لنا القرآن صراحة أنه سيكون هناك بشر يشاهدون التبدّل، وهنا حصل الخلط مع المشاهد التي نقلها القرآن عمّا بعد ابتداء قيامنا من الموت حيث سنرى الآخرين يقومون من موتهم ونرى تكملة تبدل السماوات والأرض متقارنة مع رجعتنا إلى الحياة، وتقرأ ذلك في الآية الثانية من سورة الحج {يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى}...، لَنْ يبقى أحد منّا حياً ليرى تبدّل السماوات والأرض وقيام الناس من الموت، لأنَّ هذا معناه أن البعض منّا

يبقون أحياء يشاهدون تبدّل الدنيا ويشاهدون عودة الأموات، وهو أصلاً سيكون مات عند انتهاء الدنيا وبداية تبدّل السماوات والأرض، وبعدها سيقوم من الموت مع بقية الذين ماتوا عبر التاريخ ليروا تكملة تبدّل السماوات والأرض في عالم الآخرة، وكلنا سنرى بعضنا الآخر نعود إلى الحياة، أنت ستراني في حالة استرجاعي لجسدي وَوَعْيِي وأنا سأراك تسترجع جسدك ووعيك، وسنرى بيئتنا لا تزال متحرّكة تستكمل تبدّل السماوات والأرض.

الكلام يجرّ الكلام لأنَّ الكثير من الناس يظنّون أن جنّة الآخرة ونار الآخرة موجودتان الآن، وترى أثراً لهذا الاعتقاد في كلام العديد من العلماء المرموقين كسقطات في كلامهم لم ينتبهوا لها بالرغم من علمهم بأن الآخرة تأتي في الآخر، وحتى أن أفضل التفاسير للقرآن وقع مفسروها في سقطات كهذه ولم ينتبهوا منها، ولذلك تجد أحياناً في كلامهم خلطاً بين فترة تبدّل السماوات والأرض وهي فترة انتهاء الدنيا، وبين يوم القيامة فَيَعْتَبِرُونَهُمَا نفس اليوم، وترى خلطاً بين الموت والانتقال للآخرة، حيث يصفون من مات بأنه انتقل لدار الحق، للآخرة، إلى ما بين يدي ربّه ليحاسبه، إلى الجنّة أو النار... وكما ترى إنَّ هذا النوع من التعابير ليس دقيقاً بل غير صحيح.

(وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ{69})
وبعد قيامنا من الموت...

{وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا}، عَبَّرَ سبحانه في آيات أخرى قليلة عن نفسه بأنه نور ومنها ما ورد في الآية 35 من سورة النور {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}...، فانكشفت الأشياء به تعالى، حيث كانت ميتة وأحياها، وكانت لا شيء فصار لها كيان، وجعل لها صفات... لأن كل السماوات والأرض من آثار أفعاله التي هي من آثار صفاته سبحانه، فالحياة والعلم والقدرات التي في طبيعته سبحانه نتج عنها كل شيء.

فلا تفهم من الوصف بالنور أنه وصف للطبيعة التي يتكون منها سبحانه، كمادة له تعالى، لا، بل هو تقريب تشبيهي لحالة تعامله تعالى مع مخلوقاته بلا تماس وبانتشار قدراته ونعمته...

إشراق الأرض التي نعرفها هنا يكون بالشمس، حيث من أفقها تبدأ الشمس بالظهور وينتشر الضوء، وفي يوم القيامة نعلم أنه لا أحد يفعل أي شيء إلا بإذنه تعالى، وحتى الكلام ممنوع على الجميع ولن ننطق إلا بإذن، ويحكم سبحانه بالحقّ والعدل والصواب، وهذا ما تصوّره الآية هنا بإشراق نوره تعالى على الأرض التي عليها الذين يتحاسبون ليتجازوا، حيث سينفرض على الجميع معايير مختلفة عن التي كانت سابقاً في الحياة الدنيا.

في آيات أخرى لدينا وصفه تعالى بالنور، وبالنور للسماوات والأرض الدنيا، وهنا لدينا توصيف لحالة في الآخرة بإشراق نوره تعالى على الأرض التي يتحاسب عليها الناس، لذا الآية هنا تشير لفرض الحكومة الإلهية لأن الحالة حالة محكمة بحساب وجزاء.

{وَوُضِعَ الْكِتَابُ}، من أجواء الكلام تعلم أن المقصود كتاب أعمال الكائنات المكلّفة، لأن سبب إعادتها إلى الحياة هو محاسبتها بناء على أعمالها المسجلة في كتاب. ولا تتصوّره كتاباً ضخماً من ورق، ولا تحاول أصلاً أن تتصوّره فلن تصل إلى أي نتيجة، لأن ذاك العالم مختلف عن عالمنا، فهو كتاب فيه كلّ شيء بالصوت والصورة والرائحة والأحاسيس... وبما نتج عن كلّ حادثة من حوادث مرتبطة بها على مرّ الزمن... وبما نتج عن كلّ حادثة من سيئات وحسنات...

{وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ}، يتم إحضار الأنبياء، الأشخاص الذين كانوا يتلقون النبأ منه تعالى، حيث كان يصلهم خبر منه تعالى وينقلونه للناس في الدنيا، فيتم إحضارهم ليشهدوا أنهم وصّلوا كلامه تعالى للناس، {وَالشُّهَدَاءِ}، جيء بهم أيضاً، وهم الأشخاص الذين كانوا موجودين حين حصلت الحوادث مع الناس، كالعلماء والمؤمنين الدعاة، والمؤمنين الذين كان لهم مواقف في مجتمعاتهم... وعموم أي نذير... جيء بهم أيضاً ليشهدوا على من لم يخلص دينه لله تعالى، فيشهدوا أن الإنذار الإلهي قد وصل للناس، ويشهدوا بما رأوا الناس يفعلونه...

{وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ}، هناك أمور بحاجة لبتّها لحسمها ومطلوب حصولها بين عموم الناس من جهة وبين النبيين والشهداء، فصدرت الأحكام الإلهية في الخلاف بين النبيين والشهداء وبين الذين لم يخلصوا دينهم لله تعالى، وهم لا يظلمون، فلن تتم معاملتهم إلا بدقة بدون أي زيادة، لأنه بالعدل والإنصاف يقضي تعالى بين الناس.

مهما بلغ كفر وإجرام الناس، سيتحاسبون فقط وفقط على قدر أفعالهم بدون أي زيادة، حتى لو كفروا وقالوا كلاماً قبيحاً سيئاً عن الحضرة الإلهية في حياتهم الدنيا... فقط وفقط يتحاسبون على ما فعلوا وبالضبط بدون زيادة.

هناك كلام كثير حول تعبير الآية هنا عن إشراق نوره تعالى، وهناك مزاج عامٌ عند غالبية المثقفين المنتمين لدينه تعالى يميلون فيه إلى التوسّع في تصوّراتهم وأفكارهم منجرفين بالميل للترف الفكري والنفسي، الذي يصل معهم بسهولة إلى حدّ الخيال والوهم متخطّين حدود ما يمكننا معرفته عنه تعالى...

هنا التزمنا بمعاني كلمات الآية وأعدنا صياغة معناها بعبارات أبسط، وللتوسّع في معناها نستحضر صفاته الحسنى الفائقة سبحانه والتي لها علاقة بحالة محاكمة الناس في الآخرة، ومنها الحكيم العليم الخبير البصير القدير... لأن نوره تعالى دائماً منتشر على كل شيء في الدنيا والآخرة، وانعكاس صفاته الحسنى سبحانه منتشر على كل ما فعله، ولكن حالة محاسبة الناس في الآخرة يناسبها توصيف إشراق نوره تعالى على الأرض التي يقفون عليها، كما نقول: أشرقت شمس الحرية. فالحالة حالة الحرية من حكم الأغراب. أو قولنا: أشرقت علينا شمس الربيع. فالحالة حالة طقس جميل لطيف. وهنا تعبير الآية يقصد حالة الحكومة الإلهية التي لا ظلم فيها، حالة انتشار صفاته الحسنى سبحانه وفرض السلطة النابعة من تلك الصفات.

نفهم جانباً من الكلام إذا تذكّرنا ما أشرك به الناس من آلهة، وإذا تذكّرنا جبروت وتكبّر وإجرام وظلم الناس... لأن كل هذا سينتهي حين يشرق نوره تعالى فارضاً حكمه سبحانه.

أمّا كلامهم الفلسفي والصوفي والعرفاني... عن العلم الحضوري، وعن ارتفاع بعض الحجب بيننا وبينه تعالى، وعن... فهي معان على فرض صحتها فمعرفتها ليست ضرورية لفهم الآية. مثل توسّعي في دراسة الآية 62 لتثبيت مرجعية للحقّ والباطل والخير والشرّ، لأن ما دفعني للتوسّع فيها هو كلامهم في كتب التفسير وعموم بقية الكتب الدينية عن هذا الموضوع، فإن لم أحاول تقويمه بناء على المفاهيم التي استخرجتها من دراستي للقرآن، فهذه الدراسة ستكون ناقصة لأن من سيقرأها سيريد رأياً فيما يجده في الكتب الأخرى.

انتبه أشد الانتباه من الانجرار نحو ترف فكري تظنّ أن معرفته ستزيد من معرفتك به تعالى وبالتالي ستزيد من درجة إيمانك، وهذا ما يشيع بين الناس عموماً، ولأجله يتعلّمون المصطلحات الفلسفية والصوفية والعرفانية ويدرسون أبحاثهم، فانتبه أن كلام القرآن الظاهر البسيط على الفهم من دراسة ملتزمة بمعانيه الصريحة، هي أضمن لمزيد من التعرّف عليه سبحانه، لأن الكثير من أبحاثهم الترفية أوصلتهم إلى نتائج وهمية ومخالفة لصريح القرآن، ومع تراكم تلك الثقافة وتسرّبها إلى عوام الناس، ومع بناء هالة قداسة لبعض المتعاطين بتلك المجالات، دخل من كلامهم إلي ثقافتنا الشيء الكثير الخطير في فساده...

(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ{70}
بعد وضع الكتاب ومواجهة الناس مع النبيين والشهداء، ومحاسبتهم...:

{وَوُفِّيَتْ}، أعطيت بالتمام، {كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ}، حيث ما عمله كل شخص في الدنيا من خير أو شر، سيحصل عليه بالتمام، لذا حصل على الأجر من الخير وعلى العقاب من الشرّ، بالتمام من دون أي نقصان.

{وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ}، لأنَّ هذا الوضع للكتاب المسجّل فيه ما عملوا والمجيء بالنبيين والشهداء لمواجهتهم مع الناس... لم يحصل حتى يعلم الله تعالى ماذا فعلوا في الدنيا، لأنه أصلاً أعلم من أي عالم آخر بأفعالهم.

ننتبه جيداً لهذا العمق القرآني المنتشر في مختلف السورة وفي مختلف المواضيع، حيث كلامه تعالى مع إبليس لم يكن للتعرّف على نفسية إبليس، لأنك أصلاً لا تجد في كل القرآن ولا بأي شكل لا استعمال كلمة "عرف" في حقّه تعالى،

ولا مشتقاتها، ولا ما يشبهها، وتجد دائماً استعمال "علم" ومشتقاتها وما في معناها عن علمه تعالى مسبقاً بكل ما سيجري في الدنيا وفي الآخرة.

المعرفة من التعرّف وهي العلم بالاعتماد على الإمارات بطريقة غير مباشرة، عبر مقارنة ما دخل حواسك وتصوراتك ومفاهيمك مع ما في ذاكرتك، أو تسجيل معلومة جديدة، فالعلم حديثاً بشيء لم تكن تعلمه أو العلم بالتلقين من آخرين لشيء لا تعلمه... هو التعرّف، ولذلك لا يوصف تعالى بالمعرفة ويوصف فقط بالعلم، لأنه سبحانه لا تغيب عنه أي معلومة حتى يتعرّف عليها أو حتى يقارن بينها وبين ما يعلمه، فعلمه فائق.

الملفت في الموضوع هو تعامله تعالى بهذه الطريقة مع الأمور، حيث لا يحاسب من دون محاكمة واستجواب وشهود وبيانات وأدلّة... بالرغم من علمه سبحانه وتعالى بكل التفاصيل. وقد أمرنا سبحانه أن نتعامل مع الأمور بهذه الطريقة أيضاً، لذا ممنوع علينا إصدار الأحكام من دون أدلّة وشهود، وأبرز مثال عن ذلك ما ورد في حالة الملاعنة من الزوج الذي شهد زنا زوجته كما ورد في الآية 6 من سورة النور فلا يمكن الحكم على الزوجة بالزنا بشهادة الزوج لوحده...

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ{71})
{وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، ساقت الملائكة(ع) الذين كفروا بتوحيده تعالى وحرّكتهم باتجاه هي تريد تحريكهم إليه، {إِلَى جَهَنَّمَ}، إلى المكان الموصوف بسوء ما فيه، حيث فيه النار المتأججة، وساقوهم، {زُمَرًا}، مجموعات محدّدة لا يدخل فيها أحد ولا يخرج منها أحد، لأنه انتهى الحساب وجرى تقسيمهم لمجموعات لزمر، وكل زمرة "مجموعة مكتملة" ستتعذّب بنفس الدرجة في جهنّم، {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا}، لما وصلوا إلى جهنّم بعد سوقهم، {فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا}، صار الدخول إليها ممكناً، حيث ليس لجهنّم باب مثل باب البيت أو الغرفة، لا، بل تشير الآية إلى انضباط مراسم الآخرة، إذ قبل انتهاء الحساب لم يكن متاحاً أو مسموحاً لأحد منهم أن ترميه الملائكة(ع) في جهنّم، وبعد انتهاء محاسبتهم وفرزهم لمجموعات محدّدة العدد، وإحضارهم إلى جهنّم، عندها جرى فتح الأبواب، لذا لكل زمرة باب كنقطة دخول محدّدة إلى مكان مخصّص لهم يناسب درجة تعذيبهم، ولذلك جاء الوصف بالأبواب للإشارة إلى مكان مخصص لكل زمرة وفيه ما يناسب من عذاب لسيئاتهم، لأن هناك درجات تعذيب أعلى من الأخرى بحسب عيار السيئات... وفي الآية التالية سنتوسع قليلا في معنى كلمة باب.

عند فتح الأبواب، {وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا}، لأنَّ المسؤول عن مخزن أو مستودع أو مستوعب أو مكان لوضع الأشياء فيه يصير وصفه: خازن. كاسم فعل من التخزين. والكلام هنا عن الملائكة المسؤولة عن تولّي شؤون مكان المرميين في جهنّم حيث قالوا لمن سيدخلها:

{أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ}، أما كان لكم في الدنيا أشخاص منكم يتحدّثون مثلكم وتعرفونهم وتفهمون عليهم أنهم رسل لكم من ربّكم سبحانه، {يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ}، حيث يقرؤون عليكم عن مستند كلاماً مميزاً منسوباً للمسؤول عنكم من مستوى إلهي، لذا تسمعون منهم دلائله تعالى نقلا عن الوحي الذي ينزل عليهم والتي تدل على توحيده تعالى، {وَيُنْذِرُونَكُمْ}، ويوصلون لكم الخبر عن خطر حتمي قادم لكم بسبب توافر شروط حصوله فيكم، والخطر هو محاسبتكم على السيئات في، {لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا}، في تواجهكم في هذا الزمن مع ربّكم سبحانه ليحاسبكم ويجازيكم؟

{قَالُوا}، قال الكافرون: {بَلَى}، نفي لجملة ألم يأتكم رسل... حيث بالتأكيد حَصَلَ كلّ هذا وأتت الرسل، {وَلَكِنْ حَقَّتْ}، تحقّقت وانطبقت، {كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ}، على المنكرين للتوحيد وللدين الإلهي، لأَنَّهُ قال تعالى كلمة وهي: سأعذّب الكافرين حتماً. لذا حَقَّتْ وانطبقت وصدقت علينا هذه الكلمة.

دائماً نلاحظ تركيز عموم السور على العذاب النفسي بالإضافة للعذاب الجسدي، وهنا على نقاط الدخول إلى جهنّم يتعرّض الكافرون لضغط نفسي، لكلام يهدّم نفسيتهم المحطّمة أصلاً...

وكما ترى إنَّ الكلام مع هؤلاء عن وصول رسله تعالى إليهم لا يشير إلى تقابل كل شخص منهم شخصيا مع رسول إلهي، لأنَّ هذا لم يحصل، والحالة عامّة مثل حالة مرسل من الحاكم إلى الناس ليبلّغهم كلاماً ما، لذا من سمعه ونقله

للآخرين، حيث الحاضر بلّغ الغائب، وهكذا نقول إنَّ كلام الرسول وصل للجميع، وإضافة لذلك توجد كتب منه تعالى، وعلم الناس بها، لذا هم مسؤولون عن الاطلاع عليها لمعرفة ما يقوله ربّهم سبحانه...

لمزيد من التوسّع مِنَ المفيد مراجعة دراسة الآية 47 من سورة يونس {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}.

(قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ{72})
{قِيلَ}، قال تعالى أو الملائكة(ع) للزمر:

{ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ}، حيث المداخل للمكان الموصوف بسوء ما فيه مفتوحة أمامكم، وصيروا في الداخل، {خَالِدِينَ فِيهَا}، لا تخرجون من جهنّم ولا تموتون فيها ولا تفنون ولا هي تخرب...

{فَبِئْسَ}، مَا أسوء، {مَثْوَى}، مكان إقامة لا يملكه الذي فيه، لذا ما أتعس وأسوأَ مكان، {الْمُتَكَبِّرِينَ}، الذين رأوا أنفسهم أكبر من أن يخلصوا الدين لله تعالى.

تذكّر دائماً أن القرآن يوحي بشعور كل واحد منّا في يوم القيامة بأنه خالد لا يموت ولا يفنى، حيث يسعد المؤمن بهذا الشعور لأنه سيقضيه في الملذات، وفي كلّ لحظة يتضايق الكافر من هذا الشعور لأنه يشعر بأن العذاب لن ينتهي.

وبالنسبة لكلمة "ثوي، مثوى" دَرَجَ في أدبياتنا أن نقول: جعل تعالى مثواك الجنّة. ولكن من استعمال القرآن لهذه الكلمة نعلم أن معناها: إقامة شخص في مكان لا يملكه وليس له، كالضيف والسجين والعبد... وهي حالة النبي يوسف(ع) في قصر العزيز كما ورد في الآية 21 من سورة يوسف {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ}...، وكحالة النبي موسى(ع) في مدين كما ورد في الآية 45 من سورة القصص ... {وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا}...، وكحالة أهل النار في النار كما ورد مرارا ومنه ما ورد في الآية 12 من سورة محمّد ... {وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ}.

أهل الجنّة يرثون الجنّة فيملكونها وهي لهم... كما ورد مراراً ومنه الآية 11 من سورة المؤمنين {الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، لذا لغوياً لا يصحّ وصف من في الجنّة بأنه ثاو فيها، ولم يرد وصف كهذا أبداً في القرآن، وأمّا أهل النار فثاؤونَ فيها لأنها ليست ملكاً لهم، حيث مسجونون فيها مؤبداً، لأنَّ السجين لا يملك السجن وليس وارثاً له بل ثاوٍ فيه.

الباب في اللغة هو الوسيلة أو الممر للوصول إلى شيء، حيث باب البيت هو ممر الدخول وليس ما نسدّ به الفتحة، لأنَّ هذه التسمية لباب الخشب والحديد... درجت فيما بعد، وَكما يبدو من أشعار العرب قبل الإسلام إنَّ ما نسدّ به الفتحة اسمه رتاج.

في فترة نزول القرآن لم يكن دارجاً في مكة والمدينة ولا عند عموم العرب، إغلاق مداخل بيوتهم بلوح خشبي أو عصيان خشبية... حيث كانوا يضعون قماشاً أو جلد حيوان أو لا شيء على مدخل البيت، وكانوا يعتمدون أحياناً بناء البيوت بممر ملتوي بين المدخل الأساسي والغرف الداخلية لحمايتها من إمكانية رؤية ما فيها من المدخل... وترى من أثر ذلك إلى الآن أننا نقول "باب" لفتحة الدخول إلى البيت أو الغرفة "أو الخيمة"، ونفس الكلمة نقولها للوح الخشب أو الحديد... الذي نسدّ به المدخل، وهناك كلمة عربية مستعملة في أشعار العرب قبل الإسلام يبدو أنها تشير لما نسدّ به الباب وهي كلمة: رتاج.

وبِتَذَكُّرِ كلمة نافذة يسهّل علينا فهم كلمة باب، لأنَّ النافذة هي عموم الفتحة وليس ما يسدّ الفتحة، وبالأصل النافذة مادياً عموم الممر الصغير كمعبر أو إطلالة... ومعنويا عموم الوسيلة للاطلاع أو التواصل مع شيء... والباب مادياً هو عموم الممر الواسع للوصول إلى الشيء، ومعنويا هو الوسيلة للوصول لشيء. على كلّ حال سريعاً درج بين الناس وضع "رتاج" لبيوتهم قبيل وفاة النبي(ع) بقليل بحسب ما يبدو من التاريخ.

وترى في القواميس فقداناً للدقة للتفرقة بين كلمة باب ورتاج ومغلاق، وكما يبدو واضحاً استسهل الناس التوسعة في استعمال كلمة باب "ونافذة..." التي هي أصلاً واسعة التطبيقات لمعناها فاستعملوها لتشمل عموم الممر وما يسدّ الممر، فألغوا كلمة رتاج ومغلاق من الاستعمال.

وستجد في الأشعار قبل الإسلام وفي بعض ما وردنا من كلام عن الجيل الأول من المسلمين أن بعضهم استعمل كلمة رتاج ليشير إلى ما نسدّ به الباب. وصرت تعلم أن كلمة رتاج لم تكن دارجة بكثرة بين الناس لأنهم لم يكونوا يسدُّون أبواب بيوتهم به، وكانوا يرونه في القصور والبيوت الكبيرة، ولهذا ظنّ بعضهم أن الرتاج اسم للباب "المغلاق" الكبير فقط، أو للباب "المغلاق" الصغير في الباب الكبير الذي يرونه على مداخل القلاع والحصون، وهذا ما ذكره بعضهم في القواميس.

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ{73})

{وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ}، الذين تجنّبوا غضب وعقاب المسؤول عنهم من مستوى إلهيٍ فآمنوا بالحقّ ولم يفعلوا السوء، ساقتهم وحرّكتهم الملائكة(ع) وأخذتهم باتجاه، {إِلَى الْجَنَّةِ}، إلى المكان الموصوف بروعة ما فيه، حيث فيه بساتين وحدائق وما يسرّهم... {زُمَرًا}، مجموعات محدّدة لا يدخل فيها أحد ولا يخرج منها أحد، لأنه جرى فرزهم بحسب درجة إيمانهم حين حاسبهم سبحانه، ولكل زمرة منهم باب مدخل خاص بهم إلى الجنّة، {حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا}، صاروا أمام الجنّة، {وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا}، وصارت ممراتها معابرها متاحة لهم للعبور للدخول، {وَقَالَ لَهُمْ}، للمتقين، {خَزَنَتُهَا}، فالمسؤول عن مخزن أو مستودع أو مستوعب أو مكان لوضع الأشياء فيه يصير وصفه: خازن. كاسم فاعل من التخزين. والكلام هنا عن الملائكة المسؤولة عن تولّي شؤون الداخلين إلى الجنّة:

{سَلَامٌ عَلَيْكُمْ}، خلوٌّ من أيّ شيء سيّئ، لا تتوقعوا أيّ شيء يَسُوءُكُمْ، {طِبْتُمْ}، فأنتم صالحون محبّبون وليس فيكم شيء خبيث أو مكروه ولذلك لا تتوقّعوا منّا ولا في الجنّة أيّ مكروه، {فَادْخُلُوهَا}، الجنّة، {خَالِدِينَ}، لا تموتون ولا تفنون ولا تخرجون منها أبدًا... ولا هي ستخرب... ولن تتعرّضوا لظروف تدفعكم للخروج منها...

في الآية السابقة توسّعنا في دراسة كلمة باب، وفي الآية التالية سنتوسّع في دراسة أبواب الجنّة.

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ{74})

{وَقَالُوا}، المتقون: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ}، لأنه وعدنا سبحانه فقال لنا تعالى إنه سيملّكنا الجنّة، وصدق بوعده وها نحن ورثناها فانتقلت ملكيتها لنا ولن يتم استردادها، ونحمده تعالى على ذلك فنعلن أن هذا العمل محمود جيّد.

الأرض هنا ليست إشارة لكوكب الأرض، فالعديد من آيات القرآن التي تحدّثت عن أمور هنا في الدنيا، كانت تشير إلى كل الأرض كوكب الأرض، والكثير من الآيات استعملت كلمة الأرض بمعناها الأعمّ في مقابل أي سماء، فأرضنا أرض لما فوقنا من سماء، وسطح القمر أرض لما يقابله من سماء وهكذا بقية الأراضي الصلبة أو الغازية... في عالمنا، أمّا بقية السماوات الست، فتسميتها بالسماء ليس بالنسبة لأرضنا نحن فقط، بل لما يقابلها من عموم أي أرض في عالمها ومن نوع تكوين تلك السماوات، ولهذا جاء تعبير الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...}.

تتذكّر من الآية 133 من سورة آل عمران {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ...}، ومن الآية 21 من سورة الحديد، أن الجنّة بوساعة كعرض السماوات والأرض، فالأرض هنا اسم عام لكل أرضية، لأراضي الجنّة المنتشرة على وساعة هائلة، وبالنسبة لمعطياتنا الحالية سنتصورها على كواكب في مجرات... وقديما كانوا يتصورون الجنّة كأرض واحدة كبيرة جدا، وكما ترى حيث باختلاف التصور سيختلف تصور أبواب الجنّة، فعلى تخيّلها كقطعة أرض واحدة للجميع تصير صورة الأبواب كممرات بين قناطر... وبتخيّلها كواكب في مجرات تصير الممرات الأبواب هي الاتجاهات حيث كل زمرة باتجاه كوكب أو كواكب، ولا تنسَ أن هذا الكلام تحليلي.

نكمل مع كلام أهل الجنّة: {نَتَبَوَّأُ}، نصير في مكان محدّد، {مِنَ الْجَنَّةِ}، {حَيْثُ نَشَاءُ}، فلدينا خيارات عديدة ونحدّد الآن أننا نريد أن نكون هنا وبعدها هناك وبعدها في مكان آخر... نحن نتبوّأ ونحن نحدّد أين سنذهب.

{فَنِعْمَ}، يا لحسن ويا لجودة، {أَجْرُ}، ما تحدّد كاستحقاق، ما يحصل عليه، {الْعَامِلِينَ}، فمن عمل حسنا فالجنّة نعم الأجر، حيث لا يوجد لديهم أي اعتراض على ما في الجنّة، بل يرونها أحسن وأجود ما يمكن الحصول عليه.

ننتبه لهذه النقطة التي كثيرا ما نسمع الناس من حولنا يسألون عنها، يقولون: سيكون هناك ملل في الجنّة لأن كلّ شيء متاح وروتيني متكرّر بلا حماسة ولا محفزات... وتأتي آيتنا هنا والعديد أمثالها وبالخصوص ما نجده في الآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}، فأهل الجنّة لا يخطر ببالهم ولو لثانية أنه يمكن أن توجد ظروف أسعد مما هم فيه في الجنّة، نحن أمام كلام يقوله تعالى عن سعادة فائقة حيث لا ملل ولا ضجر، وحالة الفرح والسرور دائمة... وأمام تخمين البعض منّا وتصوّره الضيّق للجنّة المملة من الروتين، لأنه يقيس ما يحصل معه هنا بهناك، حيث هنا يأكل ويلتذّ بالطعام ولكنه يملّ لأن معدته لن تتحمّل المزيد فتعطيه شعورا مزعجا ليتوقّف عن الأكل، وأعضاء الذوق في فمه تصل إلى مرحلة الروتين التكرار فتتوقّف عن إعطاء الشعور بلذّة الطعام... وننسى أن جسد أهل الجنّة مختلف، حيث لا مرض ولا تخمة ولا تعب ولا إرهاق... والشعور باللذة مضاعف أضعافا ولا يخفّ بل يزداد مع مرور الوقت، وننسى تنوّع وتجدد ما في الجنّة باستمرار...

توريث الجنّة للمؤمنين ورد عدة مرات في القرآن، وكلمة إرث تشير لصيرورة ملكية بلا استرداد من المالك السابق، وهذا نصف به أنفسنا حين نرث من ميّت، فتنتقل الملكية منه إلينا ولن يستردّها الميّت منا، ولكن الميراث ليس محصورا بانتقال الملكية من ميّت، فالمؤمنون يرثون الجنّة أي ستصير لهم بلا استرداد منه تعالى لها، حيث ستبقى لهم ما داموا فيها، ومعلوم لك أنهم خالدون فيها.

ضع في بالك دائما أن تعابير القرآن لا تشير إلى فرض واجب عليه تعالى بإدخال المؤمنين إلى الجنّة، وبالتعبير الدقيق قرّر تعالى إدخال المؤمنين العاملين للصالحات إلى الجنّة، وبتعبير متساهل فيه ودارج ولكنه غير دقيق، أوجب سبحانه ذلك على نفسه. كلمة أجار وأجر وأجرة... بالنسبة لاستعمالنا نحن لها فيما بيننا فهي تتضمّن أنك تعمل لي ويجب عليّ دفع الأجار لك، أمّا بالنسبة له تعالى فمن فضله حدّد أجارا لمن آمن وعمل الصالحات، وحدّد ما سينالونه على ذلك، وبعد هذا القرار الإلهي يصير وصف الحالة أنهم سينالون ما يستحقونه مما حدّده تعالى لهم، وليس واجبا عليه تعالى ولا بأي شكل مجازاتهم بالجنّة ولا بأي شيء آخر، ولهذا المعنى جاء التعبير بغير حساب في عدة آيات حتى لا نفهم أن لهم حسابا فرضا واجبا عليه تعالى، كما في الآية {لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}، وترى هذا المعنى بوضوح في وصف دخولهم الجنة من فضله تعالى كما في الآية 35 من سورة فاطر {الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ...}.

(وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{75})
{وَتَرَى}، وفي ذلك الزمان سيصير عندك صورة محدّدة لـ {الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ}، يقفون أو يتحركون على حواف جوانب العرش، وعرش الملك على الاسمية هو الكرسي الذي يجلس عليه ويكون على منصّة، وبما أنه تعالى ليس كمثله شيء، ولا جسم له، ولا حيّز له، ومحيط بكلّ شيء، فعرشه تعالى بوساعة كلّ السماوات والأرض، فيكون التعبير بالعرش على الوصفية يشير للإدارة والسيطرة المركزية على كل السماوات والأرض. وكما تعلم في يوم القيامة سنتمكّن من رؤية الملائكة(ع)، والمؤمنون سيرون ملائكة(ع) العرش، ونتصوّر أنه منظر غير عادي بروعته، فالمقصود هنا أن المؤمنين سيسعدهم منظر الملائكة(ع) القريبة جدا جدا منه تعالى، وسيعبّر عن الكرامة للمؤمنين عن درجة الاحترام العالية لهم بتمكينهم من رؤية هكذا مشهد للملائكة العالية.

يرون الملائكة(ع)، {يُسَبِّحُونَ}، ينزّهونه تعالى عن الصفات الناقصة أو السيئة التي لا تليق به تعالى، {يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ}، بالاعتراف والإعلان أن كل ما صدر عن المسؤول عنهم من مستوى إلهي فهو محمود جيّد، فينزهونه عن أي وصف يتعارض مع حمده تعالى لأنه سبحانه لم يفعل أي سوء.

{وَقُضِيَ بَيْنَهُم}، فتمّ حسم الأمور التي بين الناس، {بِالْحَقِّ}، بالصواب والصحيح، فلن يظلمهم تعالى ولن يجور عليهم ولن يغيّر قراره تعالى في ثواب المتقين...

يعني انتهى الموضوع وصار أهل النار في النار يتعذّبون، وصار أهل الجنّة في الجنّة يتنعمون ولا جديد بعد ذلك، فلن يغيّر تعالى قراره ولا حكمه ولا وعده... وستبقى الأمور على ما هي عليه.

{وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، فسيقول الملائكة(ع) والمؤمنون ويعلنون أن كل ما صدر عنه تعالى فهو محمود جيّد، وهو رب العالمين، أي المسؤول من مستوى إلهي عن كلّ الناس.

الكلام في الآية موجّه لمن الآن يتذاكى ولا يعجبه ما يقوله القرآن عن الآخرة والحساب على ما نفعله في الدنيا، على أساس أنه فهيم وآراؤه المنيرة أصوب من كلامه تعالى! أو هو لم يؤمن بالدين الإلهي لأنه اعتبر هذا الكلام سخيفاً! أو... وكأن آراءه ستغير شيئا من الواقع، لا وألف لا، مصيره إلى جهنّم، والمؤمنون يحمدونه تعالى على قراره بخلق ما في الدنيا ومسيرهم نحو الآخرة في جنّة خالدة.

تذكّر موضوع السورة عن إخلاص الدين لله تعالى، ستنتبه أن ما عرضته في آخرها عن الحكومة والمجازاة الإلهية في يوم القيامة هو تنبيه لمن بطريقة أو بأخرى لم يخلص له تعالى وأعطى لغيره سبحانه صفة ألوهية.

نتذكّر دائما أن ما ينقله القرآن من حمد أهل الجنّة له تعالى هو نابع منهم، من شعورهم بالسعادة، حيث لا واجب عليهم هناك ولا من أي نوع، ولا صلاة ولا صوم ولا... وحتى التلفّظ بشكره أو حمده تعالى ليس مطلوبا منهم، ولكن من شدّة سعادتهم تنفلت منهم تعابير الحمد والتسبيح له تعالى، لأنهم معتادون على ذلك من الدنيا، واستمر معهم هذا الاحترام والتقدير له تعالى في الآخرة حيث يجدون روعة تذهلهم في كل لحظة...

وهكذا ترى أننا أمام اختيارين، إمّا إخلاص الدين له تعالى، وإمّا غير ذلك، فلنخترْ من نشاء ولكن علينا تحمّل عواقب ذلك، حيث خيار منهما نتيجته الخلود في جنّة، والآخر نتيجته الخلود في النار.

بالنسبة لكلمة عرش، فالعرش الذي نعرفه نحن هو الكرسي الفخم الضخم الموضوع على منصّة ويجلس عليه الملك أو الحاكم، وأصلا كلمة عرش وصف لعموم ما علا ويقابلها فرش، وعرشه سبحانه تعبير عن الإدارة المركزية من مستوى ربوبي، تعبير عن مركزية السيطرة والقرار لكل ما في الدنيا والآخرة، وبما أن سيطرته تعالى ممتدة على كل الدنيا والآخرة فعرشه سبحانه ممتدّ بامتداد الدنيا والآخرة، على كل ما في الدنيا والآخرة كما هو واضح من تعبير الآية 255 من سورة البقرة {... وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}.

لدينا تراث ديني ثقافي يشير البعض منه إلى وجود شيء محدّد كعرش له سبحانه، كشيء مشابه بشكل ما لمكان تتم فيه إدارة شؤون الدنيا، واستندوا على ذلك قرآنيا بالآية 17 من سورة الحاقة {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، وكلامهم خليط من تصوّرات مختلفة، بعضها سببه استعمال لغتنا لتوصيف أمور لا يمكننا نحن البشر تصوّرها، وبالتالي فالكلمات التي نستعملها لذلك تنقل نفس المعنى ولكن لأمور مختلفة، حيث هناك ملك صلب لا يهتز وإدارة إلهية مركزية لما في الدنيا، ولكنه سبحانه واسع محيط، وهناك ملائكة بقدرات عالية خلقها سبحانه ووظّفها لإدارة بعض شؤون ما في الدنيا، وأشهرها وضوحا من القرآن ملك الموت، وهذه موصوفة بلغتنا أنها حاملة للعرش، فالكلام القرآني الذي يشير لقوّة الملك ولنواة الحكم والسيطرة لا يشير إلى مكان، ولا إلى شيء، بل إلى حالة، وهذا واضح جدا من تعبير الآية 255 من سورة البقرة بوصفها وساعة الكرسي بوساعة السماوات والأرض.

لذلك من السذاجة تصوّره تعالى جالسا على كرسي على منصّة وثمانية ملائكة يحملون المنصّة، ضاربين بعرض الحائط كلامه سبحانه عن نفسه بأنه واسع محيط وليس كمثله شيء فلا يمكن لأي مخلوق تصوّره...

والوصف القرآني لملائكة حافين حول العرش أو حاملين له هو وصف حالة وليس وصف مكان.

بعبارة أخرى، كل السماوات... وهذه الأرض التي نحن عليها، هي كل ما في دنيا المخلوقات، خلقها كلّها ربنا الله سبحانه، ويخبرنا سبحانه أنه هو بنفسه ولوحده ركّبها وألّفها في ست فترات زمنية، وبعد اكتمالها، لم يتركها سبحانه

لغيره ليديرها، بل استوى على العرش حيث كل شيء صار بالتمام وانبسطت سلطته عليها كلها، ومن دون تهديد من أحد بالقدرة على التدخل.

على الاسمية لكلمة عرش كاسم لشيء، فكل السماوات والأرض كرسيه عرشه تعالى، وعلى الوصفية للملك القوي والسيطرة والإدارة المركزية والتي بلغتنا البشرية نستعمل لها وصف العرش، سبحانه حالته أن عرش السماوات والأرض منسوب له، ذو العرش، واستوى على العرش، وهناك ملائكة موظفون منه تعالى بتنفيذ مهمات رئيسية فيكون وصف حالتهم كحاملين للعرش وحافّين حول العرش.

سورة غافر (40) ص 467
كانت تُسَمَّى حم المؤمن نسبة لمؤمن آل فرعون الذي ورد كلام عنه في السورة.

من هنا إلى ست سور أخريات كلّهن بَدَأْنَ بـ "حم" ستجد في بعض الروايات أنهن مرتبات في كتاب القرآن كما نَزَلْنَ بالترتيب، والملاحظ أن حمعسق بهذا الترتيب هي الثالثة.

موضوع سورتنا عن جدال بعضهم بالآيات الإلهية لتثبيت صحة كفرهم بها، وبالتالي لتثبيت صحة كفرهم بدينه تعالى، وتُركِّز السورة على نموذج فرعون وهو من أعتى الكفّار عبر التاريخ وتعرض واحدا من أقاربه عاش في نفس بيئة فرعون وملئه ولكنه رأى الآيات وآمن، مما يعني أن الآيات الإلهية أكثر من كافية لمن يريد أن يؤمن.

تُرينا السورة الدعم الإلهي لمن آمن، كتحفيز لنا لنؤمن، وترينا المصير السيِّئ جدًّا لمن كفر، كتهديد ليفهم أن الموضوع جدّيٌّ والعقاب شديد جدًّا.

تعرض أبرز نماذج عن آياته تعالى كدلالة عليه سبحانه ودلالة على وجوب اتّباع رسله وكتبه...

تُلاحِظُ السورة لم تتطرّق للآيات التي نسمّيها "معاجز" كتحويل العصا لحيّة وغيرها... فلم تذكر منها نماذج مما حصل في التاريخ، واكتفت ببديهيات نماذج بارزة من خلقتنا وبيئتنا وأنها آيات أكثر من كافية لمن أراد أن يؤمن بالحقّ.

تُلاحِظُ السورة لم تعرض ما يقوله المجادلون واكتفت بعرض نماذج من آياته تعالى لتريك بوضوح وتركيز ما يجادلون بصحته.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(حم{1})
هذه حروف نتهجّاها مقطّعة هكذا: حا ميم.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوَّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ

وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{2})
هذان الحرفان "حاء وميم" هما نموذج من اللغة التي جرى منها: تنزيل الكتاب، حيث هناك كتاب رئيسي فيه كلّ شيء وموجود في واحدة من السماوات العالية، ومن الكتاب تمّ تنزيل هذا الكتاب "القرآن"، من العالي إلى الأخفض منه، من السماء العالية إلينا، منه سبحانه العالي "معنويا" إلى عبيده... نزل على دفعات لمدّة تقارب العشرين سنة، والتنزيل كان بأمر وانتقاء للمحتوى: من الله، من صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، العزيز، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... وهكذا نفهم أن هذا الكتاب نزل إلينا من أقوى قوّة في الدنيا، بل من القوّة الفائقة القاهرة. قارنها مع كتاب يصلك من رئيس أو زعيم أو ملك... فمدى عظمة الذي أرسل إليك الكتاب سيكون لها أثر أكبر عليك لتحترم وتهتم بما وصلك.

تنزيل من، العليم، الذي يعلم كلّ شيء، فكما نحن نعطي قيمة كبيرة لكتاب ألّفه عالم كبير، تريد الآية لفت انتباهنا أن هذا الكتاب ألّفه إله بعلمه الواسع جدا جدا، حيث اختار سبحانه لنا محتواه وحدّثنا انطلاقا من كميّة معلومات مضبوطة صحيحة هائلة الكميّة نظرا لعلمه تعالى بالماضي والحاضر والمستقبل لكل ما في السماوات والأرض.

بالنسبة لما تجده في بعض الكتب عن الفرق بين كلمتي نزل وتنزيل، فكلاهما وصف لعموم الانتقال من علو "ماديا أو معنويا" إلى مكان منخفض ماديا أو معنويا. فمعنويا نقول: نزلت رتبته العسكرية. وكلا الكلمتين "نزل وتنزيل" تتحملان معنى النزول دفعة واحدة أو على دفعات، ويتحدّد ذلك مما تتكلّم عنه، وتتحملان النظر للفاعل لوحده، أو للمفعول لوحده، أو للحالة. فلا فرق بالمعنى بين الأصل "نزل" وبين الاشتقاق "تنزّل تنزيل نزول..."، خصوصا فيما يقولونه عن الفرق بينهما في نزول القرآن دفعة واحدة أو بالتدريج على دفعات.

ما تجده هنا وهناك في ثقافتنا عن نزول القرآن كلّه من السماء السابعة إلى السماء الرابعة... ومن الرابعة جرى تنزيل القرآن "فنزل" على دفعات على الرسول(ص)، فبهذا التفصيل "وأشباهه" يقصدون تفسير كلمتي نزل وتنزيل بتوصيف مختلف للفعل، وهذا تفصيل لا ضرورة له وأصلا لا دليل قرآنيًّا عليه، ويمكن فهم نزول القرآن تدريجيا على دفعات وفهم نزوله كلّه كوجهين لعملة واحدة، فبعضه نزل "تنزّل" في ليلة القدر، ثم نزل "تنزّل" بعضه في زمن بعدها... وبالنظر للقرآن كلّه جرى تنزيله "نزوله" على دفعات استمرت لقرابة العشرين سنة حتى وفاة الرسول(ص).

يبدو أن الفهم الضبابي لكلمة "قرآن وكتاب" دفع بالكثيرين للبحث عن فرق بين التنزيل والإنزال بالمعاني التي ذكروها، حيث فهموا أن كلمة قرآن تشير لكل ما بين الدفتين، لكل القرآن من أوله لآخره، وفهموا كلمة كتاب كذلك أنها تشير لكل القرآن من أوّله لآخره، وبناء عليه أرادوا تبرير الآيات التي تذكر نزول "كتاب القرآن" على أساس أنها تشير لنزول كتاب القرآن كلّه من أوّله لآخره دفعة واحدة، ومن المعلوم أنه كلّه لم يكن نازلا على الرسول(ص) حين جاءت الآيات التي تقول إنّ القرآن نزل...

بناء على فهمهم هذا، بدأت تبزغ الآراء المختلفة لتبرير الموضوع، فقال بعضهم إنّه كلّه من أوّل مرّة نزل على الرسول(ع)... وبعدها عاد ونزل عليه (ع) على دفعات. وآخرون قالوا: لم ينزل أولا كلّه على الرسول(ع) وإنما نزل كلّه من السماء السابعة إلى الرابعة، ومن هناك صار ينزل على دفعات على الرسول(ع)... وغيرها من التبريرات التي لا داعي لها، فالآية الواحدة قرآن، والسورة قرآن، والسورتان قرآن... فكلمة قرآن وصف إمكانية قراءتنا لما نزل منه

تعالى، لذا أيّ تعبير يشير لنزول أو تنزيل "القرآن" فهو لا يعني أكثر من نزول شيء يمكن قراءته، فلا داعي لنفهم أن التعبير يشير إلى نزول كلّ القرآن.

كلمة كتاب تشير لعموم أي موضوع تامّ، فالسورة الواحدة كتاب، والفقرة أو الآية الواحدة من السورة إن كانت تامّة الموضوع فهي كتاب، وكلّ القرآن كتاب، وهكذا فعندما تجد آية تتحدّث عن نزول القرآن أو نزول الكتاب فهي ليست بالضرورة تشير إلى نزوله كلّه، فلو نزلت آية فهي قرآن، ولو نزلت آية موضوعها تامّ فهي نزول لكتاب...

(غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ{3})
تنزيل الكتاب من الله، {غَافِرِ الذَّنبِ}، الذي يتجاوز عن مخالفة أوامره، فيسامح على العمل السيّئ، {وَقَابِلِ التَّوْبِ}، فيقبل توبة من تاب، ومن أقلع عن السيئات وفتح صفحة جديدة فسبحانه يغلق صفحة السيئات القديمة فلا يحاسبه عليها.

سبحانه ليس صلبا جافا قاسيا... فلا يجمد على موقف واحد ممن خالف أوامره، بل يسامحه ويفتح له صفحة جديدة، وهل هذا يعني تساهلنا في الالتزام بأوامره تعالى، فنخالفها اعتمادا على مغفرته لها؟ لا، فسبحانه يغفر لمن استغفر، ويفتح صفحة جديدة متجاهلا الماضي لمن فتح صفحة جديدة فأقلع عن مخالفة أوامره تعالى، وإن لم نستغفر ونتب فسبحانه:

{شَدِيدِ الْعِقَابِ}، من ارتكب عملا يستحقّ أن يعقبه ضرر لمن ارتكبه، يستحقّ العقوبة عليه، فسبحانه عقابه ليس سهلا ولا عاديا.

{ذِي الطَّوْلِ}، صاحب القدرة التي تطال كل شيء، حيث يمكنه تعالى بقدراته أن يفعل أي شيء، وكلّ الكائنات بمتناول قدرته تعالى.

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، لا يوجد ولا كائن لديه الصفات والقدرات الفائقة فوق الجميع إلا هو سبحانه وتعالى، فلا يوجد نصف إله، ولا ربع إله، ولا يوجد أحد بنفحة بنسمة إلهية... فقط وفقط إله واحد.

{إِلَيْهِ الْمَصِيرُ}، آخر ما تصل الأمور إليه تعالى تصل، فنهاية ومرجع الأمور إليه تعالى، وهذا بشكل عام ينطبق على كلّ شيء، من رجوع أمور القرارات والتحكّم والسيطرة له تعالى، ولكن وكما سترى من الآيات التالية فالإشارة هنا لمصيرنا نحن، فلن نختفي حين نموت، ولن ننتقل لعالم ليس تحت سيطرته تعالى... بل مصيرنا وخاتمة ونهاية أمورنا ترجع إليه تعالى، فنقف بين يديه تعالى ليحاسبنا، وهناك في الآخرة ستتطبّق الترجمة العملية للمغفرة والتوبة وأيضا لطوله تعالى فهناك نتحاسب ونتجازى ولا يمكننا فعل أي شيء.

نلتفت إلى كلمة طَوْل، فهي بالفتحة على الطاء والسكون على الواو، ويختلف معناها عن الكلمة التي لها ضمّة على الطاء، فكلاهما من الفعل: طال يطول. ولكن واحدة تدل على الامتداد للمسافة حصرا، كطول القامة، وطول البناء... وكلمة الآية تدل على امتداد القدرة وتناول الأشياء.

إذًا نحن أمام هذه الصفات للّذي نزّل الكتاب، وبالتأمّل فيها نفهم مختصر أساسيات من هو إلهنا، وقدراته الفائقة، وكيف يعاملنا، وأنّ مصيرنا إليه.

تذكّر دائما أننا كبشر جعل سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرّف عليه سبحانه من ملاحظة أفعاله "آياته في خلقه" ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء... وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق بالقوّة الإلهية الفائقة عند الوقوع في الشدائد... فوضعنا كلمة نصف بها الكائن ذا الصفات والقدرات العالية جدا عن قدراتنا، وهي كلمة "إله" كوصف لذي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلّق به عند الوقوع في الورطات...

في الحقيقة الكائن الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة، والذي ليس مخلوقا هو الله سبحانه، وتساهل الناس في استعمال كلمة إله لتنطبق على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، ويطلقونها على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أن فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي...}.

القرآن يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهي، فيقوّم اللغة ككلّ، ويقوّم دقة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة "إله"، يخبرنا أنها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرّج في استعمالها.

فانتبه جيدا، فالمشركون الناطقون باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... وغيرهم من أهل اللغات الأخرى استعملوا كلمة إله "بالعربية أو بما يرادفها من اللغات الأخرى" بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

قارنها مع كلمة "ربّ"، فأنا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... فهذه كلمة تتحمّل التدرّج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهي، فهي لا تتحمّل التدرّج، فهي حصرا له تعالى ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهي.

كلمة إله في حقيقة معناها لا تتحمّل التدرج لِيُوصَف بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، فحين يخبرك أنه خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، وسبحانه وظّف الملائكة(ع) التي خلقها لتنفيذ بعض أوامره... وهكذا ترى بوضوح أنه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، فماذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدّد له والمميّز "الله" جلّ جلاله فعل كل شيء، فما معنى ألوهية غيره! وهذا ملخّص مبسّط للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

ألفت انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، فحصروا استعمال كلمة إله للإله الكبير، واستعملوا للآخرين وصف الربّ، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربّة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون: إله المطر وإله الحرب... وعلى كل حال فالقرآن رفض توصيف غيره تعالى بالألوهية والربوبية من مستوى إلهي، فالمشركون يعتقدون بوجود كائن "ربّ" مسيطر على المطر من مستوى إلهي وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم أنّه توصيف لألوهية أربابهم.

من ناحية ثانية لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، فيصير الهوى إلها كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ...}، فهي لا تشير لاعتقاد الشخص بأنّ هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لدين فيه ما يهواه، فعمليا هو يعبد هواه.

بالنسبة لأصل كلمة "الله" فهناك كلام كثير حولها، ويبدو من تتبّع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حاليا بالسامية... أن الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة "إله" ومنها جرى اشتقاق اسم العلم "الله"، وهذا الاسم لم يكن متداولا في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط فللآخرين نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، فكلمة إله واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات ما يسمّى بأصل اللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة الله من وصف الإله ومتى، فهل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قديما عبر الوحي، فالأرجح عندي "استذواقا" أنّه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك "استذواقا" لأن المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين بلا مستند صريح لتأكيد كلام ما، فهو بطبيعته يصير استذواقيا لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا ذات نفسي ففي سياق كلام آخر أستذوق أنّه تعالى هو سمّى نفسه، فليس من المعقول ولا من المقبول منك أن تطلب حسما من الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دليلا حاسما، ولا من المقبول من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنه الصحّ إلا اللهم إن قدّم دليلا دامغا، وهذا لا يبدو ممكنا في مسألتنا هذه.

(مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ{4})
{مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ}، الجدل هو عموم محاولة كل طرف إقناع الآخر، وتدرجاته تتحدّد من السياق، من التمسّك بالرأي إلى الليونة، وهنا الكلام عن المصرّ على رأيه ومحاولٍ إقناع الآخرين حول الأمور المميّزة المنسوبة له تعالى

التي تدل على توحيده ووجوب طاعته سبحانه... كالقرآن وبقية الكتب الإلهية وكلام الرسل والأنبياء... وخلقته والظواهر من حوله... وهو يقصد أن يبيّن خطأ تلك الآيات الإلهية، {إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا}، فالذين أنكروا الدين الإلهي من أصله يجادلون في الآيات الإلهية، فهم من الأساس لديهم قرار بإنكار دينه تعالى.

لدينا أمور مميزة منسوبة للإله عزّ وجلّ، وهناك من الناس من يتكلّم عنها ليجعلها عادية بلا أي دلالة على توحيده وصفاته تعالى، لأنهم من الأساس لديهم قرار بإنكارها، فالتعبير هنا معاكس لتعابير القرآن الكثيرة التي توصّف المؤمنين، فالمؤمنون بالأساس هم متقون محسنون وذوو ألباب... وراجع في ذلك دراسة الآية 2 من سورة البقرة {ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}، فهم من الأصل لديهم سلامة قلب، سلامة في أساس فكرهم ونفسيتهم، فيسمعون القول فيتبعون أحسنه كما تقرأ في الآية 18 من سورة الزمر {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ}، وبالعكس فهناك الأموات ذوو القلوب الغلف المطبوعة العمي الصمّ... وانطلاقا من هذه الصفات يتكلمون عن آياته تعالى.

خذ مثلا حالة مصاب بعمى الألوان وُضِعَتْ أمامه مستوعبات مختلفة الألوان وطلبت منه طلاء بيت، فمن المحسوم أن الطلاء سيكون كارثيًّا... فلا تتوقّع ذلك على الاحتمال بل تتأكّد من هذه النتيجة، وهنا الكلام نفس الشيء، فمن لديه قرار بالكفر فهو وحده الذي يجادل في آياته تعالى ليبرهن للآخرين أنها لا تدل عليه تعالى ولا على صحّة دينه.

{فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ}، فانتقالهم من مكان له اسم لمكان آخر على الأرض، مما يعني سيطرتهم وارتياحهم على الأرض، فلا تظنّ أن هذا الوضع ممتاز لهم، مثلما ترى في عصرنا ارتياح دول لا تؤمن بالدين الإلهي ولا ملتزمة به، فلا يغررك فلا تنخدع بهذا المنظر، وسترى من الآية التالية أن منظر تقلّبهم في البلاد منظر خادع لا يعني أي قيمة أو فائدة حقيقية لهم.

آياتنا هنا تطرح محورية السورة حول المجادلين بالآيات انطلاقا من الكفر، وبدأت بنموذج بارز عن الكافرين المرتاحين على أوضاعهم الدنيوية، وهذه حالة عادة تدفعنا وتدفعهم للتفكير بأنهم مرتاحون في حياتهم رغم كفرهم، وتختلط لدينا الأمور ونقول إنّ التدين بدينه تعالى لا فائدة منه، بل الدين الآخر يسبّب الرفاهية، أو عموم ترك الدين سبب للرفاهية... والكلام عن العقاب الإلهي لمن كفر ما هو إلا تهديدات فارغة... فلا يغرّك ذلك فلا تنخدع بهذا المظهر الخادع الذي لا يعبّر عن سلامة دينهم ولا عن فساد دينك ولا عن أن تهديداته تعالى فارغة... وسترى ذلك من الآية التالية:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ{5})

{كَذَّبَتْ}، أعلنت إنكار صدق آيات الله تعالى، {قَبْلَهُمْ}، قبل الكافرين الذين في عصرك أو العصور التي ستأتي، {قَوْمُ نُوحٍ}، الناس الذين كان ينتمي (ع) لجمعتهم، ومعلوم مشهور أنهم كانوا قبلكم بآلاف من السنين، {وَالْأَحْزَابُ}، وجماعات الناس الذين كان لهم عقيدة وسلوك وغايات مشتركة، {مِن بَعْدِهِمْ}، من بعد قوم النبي نوح(ع) أيضًا كذّبوا بآيات الله تعالى، فكان هناك العديد من الجماعات من الناس منذ آلاف السنين بأفكار مختلفة عن الدين الإلهي، وكذّبوا بآياته تعالى.

{وَهَمَّتْ}، فنوت بقوّة ولكن لم ينجح التنفيذ، {كُلُّ أُمَّةٍ}، كل جماعة من الناس لها امتداد تاريخي وبينها شيء مشترك، وهنا الكلام عن أناس يشتركون بإنكار آياته تعالى، فنووا وحاولوا، {بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ}، فحاولوا أن لا يتركوا الرسول الإلهي يبلّغ الرسالة ويهدي الناس، فهمّوا بقتله أو سجنه أو نفيه... ولكنها بقيت نوايا قويّة لم تتحقّقْ، ومعلوم أنه تعالى يتدخّل لحماية رسله وراجع في ذلك دراسة الآية 21 من سورة آل عمران {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ...}.

{وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ}، فأخذوا وأعطوا بالحديث بأفكار وكلام غير سليم ولا صحيح ومتمسكين برأيهم حتى يبينوا أن الآيات الإلهية لا تدلّ عليه تعالى ولا على دينه الحقّ، فمثلا يقولون إنّ دينهم صحيح لأنه دين أجدادهم وأن ما يقوله الرسل بدعة، وها ترى الامتداد التاريخي لدينه تعالى عبر رسله ممتدا إلى زمن النبي نوح (ع) كأبرز نموذج عن

كلامهم الباطل، فيجادلون، {لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ}، فبالباطل يقصدون أن يجعلوا الحقّ لا يثبت فينزلق ولا يبقى، فاستعملوا كلامًا وأساليب باطلة عاطلة فاسدة، يريدون أن يغلبوا الحق بها! فبأي طريقة ومهما كانت يريدون أن يذهب الحق ولا يبقى، وعمليا هي محاولة إنهائهم لدينه تعالى وللمؤمنين بدينه تعالى.

{فَأَخَذْتُهُمْ}، فلم يتركهم سبحانه على تقلّبهم في البلاد ولا على محاولة أخذهم للرسول ولا على مجادلتهم بالباطل، {فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ}؟ فكيف كان ما عقب ما أتى منه تعالى بعد جدلهم بالآيات؟ وتعلم من القرآن ومن تاريخ الناس أنهم تعرّضوا للدمار بكوارث طبيعية أمر تعالى بحصولها، فكيف كان العقاب الإلهي على تكذيبهم وكفرهم بآياته تعالى؟ فلن تبقى مغترًّا بما تراه من سيطرة هذه النوعية من الناس على البلاد بعدما لفتنا انتباهك لمن كان مثلهم من قبل وعاقبناهم.

تلاحظ القرآن يشير لقوم النبي نوح(ع) كأقدم حضارة تعرّضت لعقاب دنيوي منه تعالى، ونتذكّر أن القرآن بكلامه عن النبي نوح(ع) وقومه يشير إلى الامتداد التاريخي لدينه تعالى من آلاف السنين إلى نزول هذا القرآن، وفي نفس الوقت يشير إلى نماذج من الأمم الكافرة التي دمّرها تعالى عبر التاريخ لنكون أمام دليل تاريخي ملموس عن عقابه تعالى على الكفر بآياته.

لاحظ وانتبه لوصف الآية لهم بالمجادلة بالباطل ليدحضوا الحقّ، فمن عموم كلام القرآن عنّا نعلم أنه تعالى جعل فينا قابلية تمييز الحقّ من الباطل، ومنحنا حرية الإرادة للاختيار بينهما، وعلى ما نختاره سنتحاسب ونتجازى. وكما ترى فلا معنى لمحاسبتنا ومجازاتنا إن كنّا لن نميّز بين الخير والشرّ، فنحن نصل إلى حالة رؤية الحق باطلا وبالعكس من بعدما نميل إلى سوء ما كنّا نراه سوءًا ولكننا اخترناه لمناسبته لهوانا السيّء، وبعد ذلك ومن الإصرار عليه ومن التكرار نبدأ بتسويد قلوبنا، فنبدأ بتشويه فكرنا ونفسيتنا، ويبقى لدينا بقايا من التمييز بين الحقّ والباطل إلى أن تَعْمَى قلوبنا تمامًا فتصير كالحجارة لا تقبل الحقّ بكل أو بغالبية أنواعه.

المجادلون المتمسكون بأفكارهم الباطلة ليدحضوا الحقّ، بعضهم وأثناء المجادلة هو يعلم بأن كلامه باطل، ولكنه جاحد معاند لديه أطنان من الأسباب التي تدفعه لإنكار الحقّ لأن مصالحه السيئة تتعارض مع الاعتراف بالحقّ، وبعضهم أعمى تمامًا ولا يرى الحق بسبب كثرة تمرّسه على حالة الجحود والعناد.

المسألة كل المسألة هي الحقّ ضد الباطل، فسبحانه لا يعرض علينا عبر رسله وفي قرآنه أمورا غريبة عجيبة، بل فقط وفقط يلفت انتباهنا للحقّ الذي نعرفه لنتبعه، وللصلاح الذي نميّزه لنفعله، وينذرنا من العقاب على الكفر بالحق وعلى فعل السوء.

(وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ {6})
كذلك، بالعقاب الذي لفتنا انتباهك له لهذه النوعية من الناس المجادلة في آياته تعالى، {حَقَّتْ}، تحقّقت انطبقت، {كَلِمَةُ رَبِّكَ}، التي قالها المسؤول عنك من مستوى إلهي عن معاقبته لمن كذّب وكفر بآياته وتحقّقت، {عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا}، على الذين أنكروا آياته ودينه تعالى، {أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ}، فهم مع بعض في النار، وهذه هي تكملة كلمة ربّك سبحانه، فالكلام الذي قاله تعالى نعلمه من هنا ومن بقيّة القرآن: الأمّة التي تكذّب وتكفر بآياته تعالى، فهنا في الدنيا وفي الوقت الذي يراه تعالى مناسبًا، ينالون عقابًا دنيويًّا، وفي الآخرة حتما سيكونون في النار مع بعض.

(الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ{7})
{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ}، والعرش بالنسبة لنا هو كرسي على منصّة يجلس عليه الملك لإدارة شؤون مملكته، كإشارة لمركزية القرارات والسلطة، والله تعالى ليس كمثله شيء فلا جسم ولا شكل له، وسبحانه واسع محيط لطيف... فعرشه واسع محيط بكل السماوات والأرض، فمركزية إدارته تعالى وسيطرته بوساعة الدنيا، ومن الآية 75 من سورة الزمر ومن عموم مفاهيم القرآن عن الملائكة(ع) ومن المشهور جدا في عموم ثقافة أهل الكتاب وثقافتنا، هناك ملائكة(ع) من النوع العالي يحملون العرش ونفهم من هذا التوصيف أنه تعالى وظّفهم بمهمّة تتعلّق بأساسيات إدارته تعالى للسماوات والأرض، وكما تعلم من القرآن وجود ملائكة(ع) تقوم بمهام تنزيل الوحي وتسجيل أعمالنا وتتوفّى الناس... فهناك ملائكة(ع) تقوم بمهام أساسية لدرجة وصفها بأنها تحمل العرش، وهناك ملائكة(ع) أخرى

"حول" العرش يقومون بالمهام الأساسية من الدرجة الثانية، وهكذا... بناء على اختلاف قدراتهم كما ورد في الآية الأولى من سورة فاطر {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ...}. هؤلاء الملائكة(ع) المميّزون جدًّا، {يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ}، فينزّهون المسؤول عنهم من مستوى إلهي عن أي صفة ناقصة أو معيبة تخالف الاعتقاد "بحمده" بكونه تعالى كلّ ما يصدر عنه حميد جيد.

في الآية 15 من هذه السورة سنتوسع قليلًا في دراسة كلمة عرش.

هؤلاء الملائكة(ع)، {وَيُؤْمِنُونَ بِهِ}، فيعتقدون به إلهًا أحدًا له حق الطاعة المطلقة ويعتقدون بأسمائه الحسنى.

{وَيَسْتَغْفِرُونَ}، يطلبون المسامحة، {لِلَّذِينَ آمَنُوا}، للناس الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بدينه تعالى...

هؤلاء الملائكة(ع) يقولون:

{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا}، فعنايتك لما فيه مصلحة مخلوقاتك وعلمك منتشر على كلّ شيء، {فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا}، فتجاوز عن أخطاء الذين فتحوا صفحة جديدة فأعلنوا تركهم مخالفة أوامرك، {وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ}، فكانوا على ما أمرتهم، فهم ارتكبوا بعض السيئات، ولكنهم عمومًا مؤمنون بك ولديهم رغبة بالسير على طريق الهدى وإن أساءوا فهم بعدها يتوبون فاغفر لهم، {وَقِهِمْ}، فجنّبهم الشيء المحذور منه، وهو، {عَذَابَ الْجَحِيمِ}، الضرر من المكان الموصوف بشدّة سوء ما فيه، ففيه النار المتأجّجة والعذاب النفسي.

قبل أن نكمل مع كلام هذه الملائكة(ع) ننتبه لناحيتين، حيث قبل قليل كان كلام السورة عمّن يجادل في آياته تعالى، وعن مصيره، والآن انتقلت السورة لملائكة العرش ومن حوله، في مقابل سخافة الناس المجادلين في آياته تعالى، تجد كائنات من درجة عالية جدًّا بالقدرات والصفات، وهي مؤمنة محترمة لائقة تسبّح بحمده تعالى، ولن نفهم هذا الكلام إن كنّا نعتقد أنّ الملائكة تراه سبحانه، فهذا مستحيل، أو نعتقد أنّ الملائكة(ع) كالآلات مُجْبَرَة على طاعته تعالى، فهذا غير صحيح، فالملائكة(ع) ليس لها جسد كجسدنا وليس لها ما ينتج عن هذا الجسد من شهوات وغرائز، ولكن يمكنها أن تجادل ويمكنها أن تكفر، ولكنها اختارت عن قناعة بالحقّ أن تسبّح بحمده تعالى، وراجع في ذلك سؤالها الاستفهامي عن جعله تعالى من البشر خليفة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ...}، فمن هذه الجملة ترى فيهم حرية إرادة واختيار وأنه بإمكانهم الاعتراض وصولًا إلى رفض السجود لآدم(ع)، وهذا لم يحصل لأنهم مؤمنون... هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية سوف تلاحظ خلال السورة أنها تريد لفت انتباهك للدعم الإلهي والملائكي للمؤمنين، وفقدان المجادلين في الآيات لأي دعم له قيمة.

بعبارة أبسط، انتقلت السورة فورًا من الكلام عن الناس الكافرين المجادلين بالآيات الإلهية، وهم مخلوقات ضعيفة جدًّا جدًّا أمام المخلوقات الحاملة لعرشه تعالى، المتمتّعين بقدرات هائلة لدرجة ارتباطهم بمركزية إدارة شؤون السماوات والأرض، لترينا تفاهة الكافرين وتكذيبهم لما فعله ويقوله تعالى في مقابل كائنات عالية القدرات جدًّا مؤمنة به تعالى وطالبة منه سبحانه الرحمة والمغفرة للذين آمنوا وكان لديهم سيئات، لأنهم يعلمون بشدّة عقابه تعالى...

قارنها مع نظرتك لمتخصصين بالطبّ، وشخص من عامّة الناس بثقافة متوسّطة، وشخص يعرض على الآخرين التداوي من الأمراض بالبخّور ورش الملح أمام البيت... فسخافة الكافرين بإنكارهم لآيات من الإله عزّ وجلّ مشابهة لسخافة التداوي عبر تحضير الجنّ والبخور والأحراز ونقوش الخواتم... وحملة العرش برزانة وحكمة المتخصصين بالطبّ، وأنت بين هؤلاء وهؤلاء. فبالتشبيه التقريبي هذا ما قصدته الآية هنا.

هناك كلام في الكتب حول من يحمل العرش ومن حوله، ونحن افترضنا أنهم ملائكة(ع) لأن القرآن لم يخبرنا إلا عن الملائكة ككائنات عالية القدرات مطيعة بالتمام له تعالى، ونجد في الكتب كلامًا كثيرًا حول تسميات مختلفة لصنف تلك الملائكة من مقرّبين وعلّيّين وكروبيين... ونجد أسماءً وأوصافًا لهم... وهو إمّا منقول بالضبط من كتب اليهود والمسيحيين "الذين نقلوا عن اليهود وتصرّفوا بالمحتوى"، وإمّا منقول مع تشويه من الناقل "المسلم" لضعف ذاكرته أو اختراعاته فيها أو... وكلّه كلام لا أساس قرآنيّ له إلا القليل الذي ذكرته لك.

استغفار الملائكة للمؤمنين هو التطبيق العملي لشفاعة الملائكة للمؤمنين.

من دراسة أشعار العرب قديمًا قبل الإسلام وجدت فرقًا بسيطًا بين كلمتي جحيم وجهنّم، فجهنّم باستعمال القرآن هي اسم مكان مشتق من الوصف بجهنم الذي يشير لسوء الحالة أو المكان، واستعمال هذا الوصف لمكان تعذيب في الآخرة، فهو وصف للأنواع المختلفة المسببة للعذاب مما في المكان، ففيه النار المحرقة وفيه الضرب وفيه طعام كريه ورائحة كريهة... وتفهم ذلك من فحوى الآية 49 من سورة غافر {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ...}. وفي بيتين من الشعر قبل الإسلام وجدت إشارة بكلمة جحيم لضخامة النار، ويناسبها ذلك في القرآن كما ورد في الآية 97 من سورة الصافات {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ}، فالجحيم وصف الضخامة في السوء.

(رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{8})
نكمل مع كلام الملائكة(ع): {رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {وَأَدْخِلْهُمْ}، فاجعل المؤمنين التائبين المتّبعين سبيلك في، {جَنَّاتِ عَدْنٍ}، في الأماكن الموصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين وما يسرّ... وهي عدن لأنها محّل إقامة دائم بسبب توافر ما هو مطلوب ومرغوب فيها، فليست مؤقتة أو سيسكنها غيرهم أو ستنهار أو يضطرون للانتقال منها... أو سيرغبون بالانتقال منها لنقص فيها لما يحتاجونه أو يرغبونه...

أسكنهم الجنات، {وَمَن صَلَحَ}، ومن كان اعتقاده وعمله صالحًا ليس فاسدًا، {مِنْ آبَائِهِمْ}، {وَأَزْوَاجِهِمْ}، الذين كانوا مقترنين بهم بزواج، {وَذُرِّيَّاتِهِمْ}، المنفصلين عنهم "بالولادة أو بغيرها"، أولادهم وأولاد أولادهم، وأيضًا ألحقهم بهم ليسكنوا معهم في الجنّات.

{إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ}، فإن كان أحد ما موصوفًا بالعزّة فأنت أتم من يوصف بها، فأنت المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فأنت فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... فمن هذه الصفة يمكنك أخذ قرار لن يستطيع أحد معارضته، وأنت، {الْحَكِيمُ}، الذي يفعل الصواب فلا يعبث ولا يتسلّى، فإن استجبت دعاءنا بحقّ المؤمنين فسيكون قرارًا نابعًا بما تراه مناسبًا عن حكمة، وأصلًا نحن نعتقد بحكمتك ونعتقد أنك لست بحاجة لكلامنا حتى تفعل ما هو صحيح، ولا نطلب منك على أساس أننا نلفت انتباهك لشيء لم تنتبه له... بل نطلب ما نراك ترضى عنه وضمن المساحة المسموح لنا بها.

ننتبه، فهناك عائلات بين أفرادها خلافات وكره، فهل يناسبهم أن يلتحقوا ببعضهم البعض في الجنّة؟ أوّلًا، المؤمنون يكون بينهم خلافات ولكن ليس من المفروض أن تصل بهم إلى درجة العداوة، والخلافات قد توصلهم لدرجة النفور من بعضهم ولكن لا تصل لدرجة الكره، هذا إن كانوا مؤمنين حقيقيين، فالخلافات ستحصل بسبب سوء التفاهم... وحتما لا يجب أن تصل لدرجة تمنّي جهنم لبعضهم البعض، والملائكة(ع) يعلمون أن خلافات المؤمنين بين بعضهم البعض إنما هي خلافات سخيفة لا قيمة لها في يوم القيامة، وخاصّة بعد أن ينزع الله تعالى الغلّ من قلوب المؤمنين في ذلك اليوم، وهناك لن تجد مؤمنًا في قلبه ذرة من غلّ أو عداوة أو نفور من مؤمن آخر، وتقرأ ذلك في الآية 47 من سورة الحجر {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ}.

حسن، ما معنى طلب الملائكة(ع) إلحاق أهل المؤمن معه في الجنّات؟ معناها شفاعتهم للمؤمن أوّلًا، وشفاعتهم لأهله الأقل إيمانًا، فهم يعلمون أن هذا المؤمن سيحبّ أن يلتحق أهله به في الجنّة، وهكذا فكل عائلة يصير محورها الشخص الأكثر إيمانًا، فتشفع له الملائكة(ع) وتشفع لعائلته المؤمنة من الدرجة الأقل ليلتحقوا به، وتقرأ ذلك في الآية 21 من سورة الطور {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} فراجع دراستها لمزيد من التوسّع.

من الواضح جدًّا في القرآن أنه لا شفاعة لكافر كائنًا من كان، فهذا حتى لو كان ابنًا أو أبًا أو زوجة لرسول، فمصيره جهنّم خالدًا فيها حتمًا إن كان مشركًا أو فعل سوءًا من العيار الثقيل.

بالنسبة لوصف الجنّات بالعدن، فبعضهم اختلط عليه التوصيف بما ورد في مرويات عن الجنّة التي كان فيها آدم(ع)، ففي التراث الديني لأهل الكتاب، وانتقالًا منهم إلى تراثنا، صارت كلمة "عدن" اسم مكان خاص على الأرض، "أو في السماء حاليًّا كما يقولون"، بينما هي باللغة العربية وصف لأي مكان للإقامة الدائمة بسبب توافر ما تحتاجه فيه ولسعادتك فيه... فوصف القرآن لجنّة الآخرة بأنها "عدن" لا تخلطه مع الموروث الذي سمّى الجنّة التي كان فيها آدم

وزوجته بأن اسمها عدن، فالقرآن لم يذكر هذه الصفة لها، بل حصر هذه الصفة فقط وفقط بجنّة الآخرة التي ليست موجودة الآن لأننا الآن في الدنيا، وحين تنتهي الدنيا بتبدّل السماوات والأرض، نصير في الآخرة، وتصير جنّة العدن الخالدة.

هل قديمًا جدًّا منذ آلاف السنين كلمة عدن "وما يشبهها في اللفظ في اللغات القديمة" كانت وصفًا عموميًّا وصار اسمًا لمكان ما على الأرض؟ أو كانت اسمًا لمكان مرغوبة الإقامة فيه وبعدها صارت وصفًا لعموم أي مكان مرغوبة الإقامة فيه؟ وهكذا اشتركت الكلمة بين الوصف والتسمية لأماكن هنا على الأرض سمّاها الناس قديمًا وحديثًا "عدن" وهم لا يقصدون الجنّة التي كان فيها آدم، واشترك الوصف أو التسمية مع الجنّة على الأرض التي كان فيها آدم وزوجته، واشترك الوصف مع جنّة الآخرة التي وصفها عدن لأن الإقامة فيها مرغوبة...

(وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{9})
الْمُؤْمِنُ وَأَهْلُهُ، {قِهِمُ السَّيِّئَاتِ}، جَنِّبْهُمُ الأمور السيئة الناتجة عن أعمالهم السَّيِّئَةِ، وَلَا تجعلهم يعيشونها ويتحسسون عذابها في الآخرة، {وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ}، فِي يوم القيامة وما بعده من حصل منك على تجنيبه للأمور السيئة، {فَقَدْ رَحِمْتَهُ}، نَالَ عنايتك لما فيه مصلحته، {وَذَلِكَ}، الاتقاء للسيئات المبني على رحمتك، {هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}، هو الحصول على شيء له قيمة عظيمة عالية وكبيرة جدا.

لَا نجاح أعظم من الفوز بالرحمة الإلهية في الآخرة، حَيْثُ سَتُسَبِّبُ لنا النجاة من النار التي لا يمكن تَحَمُّلُهَا ولا الاعتياد على عذابها، وَسَتُسَبِّبُ دخول الْجَنَّةِ التي أقل درجة فيها أروع من كل ما في الدنيا.

إلى هنا انتهت السورة من نقل كلام حملة العرش ومن حوله، لِتُقَارِنَ بين من قاله وبين أهمية ما يقولونه عن مصيرنا... وبين من كفر من الناس وجادل بآياته تعالى.

لَاحِظْ ما أرادتك هذه الفقرة أن تفهمه: إن آمنت بالآيات الإلهية فَآمِنْ بدلالتها عليه تعالى، ومعلوم أن الآيات الإلهية واضحة وأكثر من كافية كأدلة عليه تعالى، وصرت مؤمنا صالحا، وكنت من أفضل أهلك إيمانا فَسَتَكُونُ منقذا لنفسك ولهم، وإن كان من أهلك من هو أعلى منك إيمانا فَهُوَ المحور وستنال دعما بسببه... فَهُنَاكَ دعم للمؤمن، في مقابل الذي يجادل في آياته تعالى، فَلْنَرَ حال هذه الجهة الثانية:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ{10})
{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، وسياق كلام السورة عن الذين أنكروا آيات الله تعالى، {يُنَادَوْنَ}، يَسْمَعُونَ نداء موجّها لهم، وَتُوَجِّهُ الملائكة(ع) والمؤمنون الكلام لهم ليلتفتوا:

{لَمَقْتُ اللَّهِ}، تَوْصِيفُهُ وَتَصْنِيفُهُ تعالى السلبي جدا لكم لدرجة كرهه الكبير لكم بسبب قبح ما فعلتموه، {أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ}، فَفِي الآخرة هم سيكرهون أنفسهم بسبب قبح ما فعلوه، {إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ}، تَمَّتْ دعوتكم، حَيْثُ يُشْهِرُ وَيُعْلِنُ لكم الرسل والكتب الإلهية والمؤمنون لتعتقدوا بآياته تعالى ودينه، {فَتَكْفُرُونَ}! تُعْلِنُونَ إنكاركم!

تُلَاحِظُ انتقال السورة إلى مشهد من يوم القيامة لتلفت انتباهنا للكفّار الذين لا دعم لهم هناك، وَهُمْ يمقتون أنفسهم، وهذا يشابه تعبيرنا: كرهان حالي، مش طايق نفسي... بسبب السيئات التي قاموا بها ويرونها هناك في يوم القيامة مُسَبِّبَةً لهم العذاب... ولكن هل من شفقة عليهم؟! لا، بل مقته تعالى لهم أكبر من مقتهم لأنفسهم، فهم مهما كرهوا أنفسهم بسبب رؤيتهم لقبحها فَسَيَبْقَى لديهم بعض المشاعر الراغبة بالحصول على الراحة لأنفسهم، وَيَتَمَنَّوْنَ النجاة من النار... أمّا سبحانه فبالكامل تقييمه سلبي لهم ويكرههم لقبح ما فعلوه ولن ينظر إليهم برحمة ولو للمحة، وهذا من معاني وصفهم بالملعونين، والسبب أنهم عُرِضَ عليهم الإيمان الواضح أنه حقّ واختاروا الكفر.

تَذَكَّرْ دائما أن الكفر ليس مثل مشكلة بيني وبينك، أَنْ أَقُولَ لك شيئا وَتُكَذِّبَنِي، لِأَنَّ هُنَاكَ فعلا احتمال أن أكذب عليك، وَأَقُولَ لك أدلة لأبرهن لك شيئا ما وَتُنْكِرَ ما أقوله، لِأَنَّ هُنَاكَ فعلا احتمال أني مشتبه وأدلتي تبدو صحيحة ولكنها خادعة... أمّا الكفر بآياته تعالى فمختلف، لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ الإله المصمّم الخالق، وَحِينَ يتيح لنا آيات لنتعرّف عليه، فَتِلْكَ

الآيات ستكون حتما واضحة وأكثر من كافية لتدلنا عليه تعالى، وهكذا ترى عمق معنى كلام القرآن عن سوء كفرهم بآيات الإله عزّ وجلّ.

(قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ{11})
{قَالُوا}، الكفّار هناك في يوم القيامة وما بعده: {رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ}، وبالاستناد لما في الآية 28 من سورة البقرة {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} والتي تعطي نفس معنى الآية هنا، نفهم أن حالتنا قبل خروجنا إلى الدنيا يصفها القرآن بحالة الموت الأولى، وخروجنا إلى الدنيا هي حالة الحياة الأولى في الدنيا، وموتنا في الدنيا حالة الموت الثانية، وحياتنا في الآخرة هي حالة حياتنا الثانية بعد الحياة الدنيا.

هنا يستعطف الكفّار ربّهم سبحانه أن الموت كان مرتين والحياة بعدها مرتين، {فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا}، نَحْنُ نعترف بأننا قمنا بأعمال مخالفة لأوامرك وصار لك حَقُّ معاقبتنا، {فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ}، من هذه الحالة التي تلبّسنا فيها بالذنب، {مِّن سَبِيلٍ}؟ هَلْ من مسلك يمكن أن تمشي فيه قضيتنا بحلّ للخروج من الحالة التي نحن فِيهَا والتي ستوصلنا إلى النار؟

في مختلف السور تجد اقتراحات مختلفة ومتنوعة للكافرين في الآخرة حتى يُزَاحَ عنهم العذاب، حَيْثُ يُحَاوِلُونَ تبسيط الموضوع وأن العفو عنهم ممكن، وهذا ما يُفْهَمُ من الآية هنا ومن أمثالها، وَيَطْلُبُونَ فرصة ثانية ليعودوا إلى دار امتحان مثلما كانوا في الدنيا على أساس أنهم سَيَكُونُونَ من المؤمنين كما تفهم من عدة آيات منها آيتنا هنا والآية 102 من سورة الشعراء {فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، وهنا اختصرت الآية عموم اقتراحاتهم عن أي مخرج للحالة التي هم فيها ومهما كان نوع الحلّ، سَابِقًا مرّ عليهم مَوْتَتَانِ وَحَيَاتَانِ، فَهَلْ من الممكن تكرار موتهم في الآخرة، وإعادة إحيائهم من جديد في حياة يتكلّفون بها فَيُؤْمِنُونَ، وَيَمُوتُونَ مرة ثالثة، وَيَعُودُونَ للحياة مرة ثالثة للحساب مُؤْمِنِينَ وَيَنْجُونَ من العقاب؟

أَمَّا بالنسبة للموت هنا في الدنيا والانتقال للحياة فيما يسمونه بعالم البرزخ من وحي الآية 100 من سورة الْمُؤْمِنُونَ {لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ}، فلا يبدو أن كلام الكفّار هنا في الآية ولا في عموم القرآن يشير إليه، إِذْ إِنَّ بعض التفاسير لآيتنا هذه تقول إِنَّ الكفّار يشيرون لموتهم في جسدهم الذي نحن فيه الآن، وانتقالهم لما يسمّونه بعالم البرزخ، وبعده موتهم الثاني، وبعده الحياة في الآخرة، ولكن هذا يتضمّن موتين وَثَلَاثَ حَيَوَاتٍ! بينما الكلام عن حياتين، واحدة هنا الآن، والأخرى في الآخرة، وَلِذَلِكَ لا ترى أثرا في كلامهم في الآية عن حياة لهم في عالم البرزخ.

يُؤَيِّدُ ذلك العديد من الآيات التي تحدّثت عن مفاجأتهم في الآخرة حين يَفْتَحُونَ أعينهم فيها لأول مرة بعد إغلاقهم لها عندما ماتوا هنا في الدنيا... خذ منها مِثَالًا ما ورد في الآية 52 من سورة يس {قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا}. ولا تَنْسَ قول القرآن بصراحة عن الحياة هنا في الدنيا بعد الموت أنها فقط وفقط للمؤمنين المقتولين في سبيل الله تعالى كما ورد في الآية 169 من سورة آل عمران {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}، ولم يذكر صراحة أي شيء عن حياة للكافرين فيما يسمّى بِالْبَرْزَخِ، ولا حتى عن حياة للمؤمنين من الدرجة العالية كالأنبياء فيما يسمّى البرزخ، طَبْعًا هذا لا ينفي أن يكون للمؤمنين من الدرجة العالية حياة فيما يسمّى بالبرزخ ولكن لا دليل قرآني صريح عَلَيْهَا.

فَهْمُ آيتنا هنا وغيرها من الآيات على أنها إشارات لوجود كفّار أحياء فيما يسمّى بالبرزخ، لَيْسَ مَبْنِيًّا على تصاريح لغوية واضحة من الآيات، بل على ظنّ مسبق منّا بوجود عذاب في البرزخ لبعض الناس، وبالتالي تفسير الآيات على خلفية هذا الظنّ غير الصحيح، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أنها تشير لحياة للكفّار في البرزخ لترى أَنَّهَا لم تشر لذلك، ويمكنك مراجعة الروايات التي تحدّثت عن ذلك بشرط أن لا تتعامى عن الروايات التي تؤيّد ما قلناه، إِذْ إِنَّهَا مهملة لأن الموجة العامّة تميل نحو الروايات الأخرى!

(ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ{12})

{ذَٰلِكُم}، المقت الإلهي وانقطاع الأمل بأي سبيل لنجاتكم، {بِأَنَّهُ}، بسبب، {إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ}، سَمِعْتُمْ إِعْلَانًا وَإِشْهَارًا لتأليهه وتوحيده وطاعته لوحده تعالى، {كَفَرْتُمْ}، أنكرتم ذلك وَتُكَذِّبُونَهُ! {وَإِن يُشْرَكْ بِهِ}، تَسْمَعُونَ كلاما عن آلهة أو أرباب أو كائنات بمواصفات إلهية معه تعالى، {تُؤْمِنُوا}! تُعْلِنُونَ اعتقادكم بهذا الكلام أنه صحيح!

كَمَا ترى إِنَّ الكلام هنا من إله يعلم أنه أحد، وبالتالي مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أن يكون هنا دليل على وجود إله آخر معه لأنه أصلا غير موجود، وَالْكَلَامُ هنا من إله أتاح لنا الآيات الواضحة الدلالة عليه وعلى توحيده، وَبِالتَّالِي شِرْكُهُمْ به تعالى وكفرهم بدينه كان عن هوى وجهل... ويستحقون عليه العقاب.

{فَالْحُكْمُ لِلَّهِ}، إِصْدَارُ القرار بكفركم به تعالى وإيمانكم بالشرك، هُوَ لصاحب الاسم المحدّد المميّز لله، وكلمة "حكم" وصف لعموم ضبط الأمور كما هو مطلوب على الصواب، وعندما تكون صفة "حكيم" أو وصف فعل له تعالى فَإِنَّهَا تحمل الناحيتين من معناها، حَيْثُ تحمل معنى صوابية الأمور التي قرّرها وفعلها تعالى لِأَنَّهَا حقّ، وتحمل معنى الحكومة الدارج بيننا وهو معنى اشتقاقي من الحكم ويشير إلى تنفيذ ما حكم به، مِمَّا يُشِيرُ للسلطة على تنفيذ الحكم.

{الْعَلِيِّ}، الأعلى من كل شيء، مَهْمَا اخترعتم آلهة بمواصفات عالية، أو فكّرتم في أحد لديه قدرات عالية، فَكُلُّهُ "منخفض، تحت" الله العلي الأعلى من كل شيء، بل أعلى حتى من أي تصوّر نحن الْمُؤْمِنِينَ نتصوّره له تعالى، حَتَّى لو أنت كمؤمن أردت أن تتصوّر صفة له تعالى، واستشعرت بها في أحاسيسك، وارتقيت بها في أعلى قدرات فكرك، فَأَنْتَ لن تصل أبدا إلى فهم العلو الإلهي الحقيقي.

والله، {الْكَبِيرِ}، أكبر من كل شيء، أكبر من أي كائن آخر، وَالْبَقِيَّةُ "أصغر"، وَصِفَاتُهُ وقدراته أكبر من أي صفة أو قدرة يملكها كائن آخر، ويمكننا فقط تقريب صورة كبره تعالى، ولا يمكننا أبدا أن نفهم حقيقة كبره تعالى، لأن عقلنا وقدراتنا محدودة.

إذًا كَفَرْتُمْ وَأَشْرَكْتُمْ ومصيركم للحكم عليكم من العلي الكبير، فلا مفرّ ولا خلاص من حكمه تعالى وهو بهذه الصفات والقدرات الفائقة، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية مَا الدَّاعِي لإيمانكم بغيره وكفركم به سبحانه وهو بهذه الصفات والقدرات من العلو والكبر! مَنِ الذي تركتم تأليهه؟! وَمَنْ عبدتم غيره؟!

بَقِيَ شيء بالنسبة للدعاء، فِي عموم استعمال العرب الْكَلِمَةُ يَائِيَّةٌ وَوَاوِيَّةٌ "دعوت ودعيت" مثل "طغوت وطغيت". أَمَّا في القرآن فَاسْتَعْمَلَهَا فقط بالواو من الأصل الصرفي "دعو"، ووردت مرتين بالياء في الآية 12 من سورة غافر {إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ}، وفي الآية 53 من سورة الأحزاب {وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا}، وَهَذَا ممّا جرى به لسان العرب في حالة تصريف الفعل بصيغة المبني للمجهول، وأيضا فيما جرى عليه لسان العرب بالياء ما ورد مرتين في الآية 4 و 37 من سورة الأحزاب {أَدْعِيَاءَكُمْ}، {أَدْعِيَاءَهُمْ} وَهَذَا التصريف لا يعني أننا أمام كلمتين واحدة بالواو والأخرى بالياء، وَبِالتَّالِي لا يعني أننا أمام مَعْنَيَيْنِ لكلمتين. ويمكن حمل التصريفين "بالواو أو بالياء" على معنى عموم الإشهار والإعلان بكل أنواعه، كالإعلان والإشهار لعبادة كذا، أو للحضور إلى مكان ما، أو لفعل شيء ما... ومن ضمنه الإعلان والإشهار لطلب تحقيق شيء كالوارد نَادِرًا في القرآن ومنه ما في الآية 38 من سورة آل عمران {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ}.

ضَعْ في بالك دائما أن أكثر الجمل القرآنية المشابهة لآيتنا هذه لم تقصد بشكل خاص أنهم يدعون على معنى يطلبون أشياء وأمورا من آلهتهم، بل قصدت العمومية، حَيْثُ قصدت أنهم يعلنون ويشهرون عن غيره تعالى أنهم آلهة، وَلَنْ يجدوا رَدًّا من تلك الآلهة على هذا الإعلان، وهذا عمليا يتضمّن التوجّه بالدعاء لتلك الآلهة أن تَرْزُقَهُمْ أو تَشْفِيَهُمْ...
وَقَارِنْ هذا الكلام مع دعاء نتوجّه به نحوه تعالى لإعلان توحيده أو إعلان مدحه بحمده... وَهَذَا دعاء لا يحوي على أي طلب، لِأَنَّهُ مجرد إعلان منك أن الله تعالى إلهك وصفاته كذا وكذا... وتمدحه تعالى... وتذكر فضائله عليك لتشكره...
ضَعْ هذا في بالك دائما لأن أكثر استعمال القرآن لكلمة دعاء قصدت ذلك ولم تقصد الدعاء على معنى طلب الأمور والأشياء.

(هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ{13})

{هُوَ}، الله تعالى، {الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ}، مِمَّا يَجْعَلُ عندكم صورة محدّدة للأمور المميزة المنسوبة له تعالى، حَيْثُ خَلَقَكُمْ مع القدرة على التفكير وَنَشَرَ فيكم وحولكم ما يمكنكم رؤيته من أمور مميزة تدلّ عليه سبحانه، وأمّا الذين يقولون عنهم آلهة فأين الآيات الدالة عليهم! وكما ترى إِنَّ كَلَامَ السورة عمومي لأي إله كان، حتى لو كان الاعتقاد بالطبيعة أو بالصدفة... فهذا نفس الشيء، فهو شرك به تعالى.

{وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا}، يُنَزِّلُ تعالى أشياء لسدّ حاجاتكم ورغباتكم، وعلى رأسها ما يضمن استمرارية حياتكم، وهو ماء المطر الذي به يخرج النبات وترعاه الماشية... لتأكلوا...

{وَمَا يَتَذَكَّرُ}، لَا يستحضر في فكره ومشاعره هذه الآيات والرزق من السماء، {إِلَّا مَن يُنِيبُ}، من ليس لديه أفكار وقرارات منفصلة عنه تعالى وَلَدَيْهِ عادة ترك كلّ شيء والرجوع إليه تعالى فقط، أمّا من يجادل في الآيات فهذا لن يتذكّر وَلَنْ يستحضر من الآيات في فكره ومشاعره أي شيء يعرّفه عليه تعالى.

تَصَوَّرْ نفسك أنت قررت خلق كائنات في بيئة، فعلى قدر صفاتك وقدراتك ستكون النتيجة، حَيْثُ إِنَّ كَثْرَةَ ودقّة التفاصيل ستكون أكثر كلما كانت صفاتك وقدراتك أعلى، ولنقل أنك خلقت كائنات تنمو وتتكاثر وتجوع... كأسماك في حوض، إِذْ إِنَّ آثار أفعالك "آياتك" واضحة في خلقتهم وصفاتهم وبيئتهم، ومن الواضح أنهم تابعون لك في تصميمهم وخلقهم وسدّ حاجاتهم... الآن هَلْ ستقدّم لها الطعام مطهيا جاهزا في الصحون إذا جاعوا؟ أو ستجعل بيئتهم تنتج لهم الطعام؟ وكما ترى، إِنْ نزل الطعام جاهزا من السماء على مخلوقاتك فهل سيقولون بأنك أنت أنزلته؟ أو لوحده نزل؟ أو هو نتاج ظواهر طبيعية تحصل في السماء؟ أو... وإن أنتجت بيئتهم الطعام فهل سينكرون أنك صمّمتهم وصمّمت بيئتهم بحيث تنتج طعاما يناسبهم! هَلْ ينكرون فضلك لأنهم لم يروك مباشرة تنبت لهم الطعام، ولم يروك مباشرة تنزل لهم الطعام من السماء؟

كما ترى، مِنْ هذه النظرة يتحدّث سبحانه معنا، إِذْ إِنَّ الرِّزْقَ لن يأتي من لا شيء، ولا من الصدفة ولا من الفراغ ولا من إله وهمي يخترعه الناس، بل فقط وفقط منه تعالى يأتينا الرزق لأنه هو تعالى صمّم بيئتنا بحيث ينتج عنها الرزق، ومن لم يؤمن بذلك فليجب عن السؤال الذي تطرحه الآية: من أين وكيف ولأي سبب صرت أنت تجوع وتنمو وتتكاثر ومتوافر في بيئتك ما تحتاجه من طعام وشراب؟ ألم يظهر لك تصميمه تعالى لك ولبيئتك؟ أليست هذه آياته تعالى؟ أليست أمورا مميزة من الواضح أنها من أفعاله تعالى؟

(فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ{14})
بناء على رؤيتكم لآياته تعالى وعلى نزول رزقكم منه: {فَادْعُوا اللَّهَ}، أَشْهِرُوا وَأَعْلِنُوا لصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز "الله" تعالى، والكلام هنا عن الإعلان أنه سبحانه الإله الأحد، {مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}، لَا تعتقدوا بأنكم مدينون وعليكم تبعات لغيره تعالى بالعبودية والطاعة، {وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}، حتى لو لم يحبّ المنكرون للآيات دعاءكم "إعلانكم" وإخلاصكم بتوحيده تعالى.

إِخْلَاصُ الدين له تعالى مسألة لا تتحمّل التهاون فيها، لِأَنَّ نِهَايَتَهَا الخلود في الجنّة للمؤمن، والخلود في النار للكافر.

ننتبه لكلمة "دعاء" التي وردت مشتقاتها كثيرا في القرآن، وللأسف إِنَّ كَثِيرًا من التفاسير والمقالات والمحاضرات... تقحم بعض آيات القرآن في مواضيع لا علاقة لها بما تقوله الآيات، حَيْثُ بضبابية نحمل معنى كلمة دعاء ومشتقاتها على معنى الطلب منه تعالى لتحقيق شيء ما لنا، بينما النادر استعمالها في القرآن على هذا القصد، فهي لعموم الإشهار والإعلان والذي يشمل الإشهار وَالْإِعْلَانَ عن شيء تريد منه تعالى تحقيقه لك، بينما غالبية قصد استعمالها لإشهار وإعلان توحيده تعالى وأنه الخالق الرازق... كما في آيتنا هنا، وفي الآية السابقة توسعنا حول معنى كلمة "دعاء" فَرَاجِعْهُ.

كَلِمَةُ دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، فهي ليست اصطلاحا مخصّصا كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الْإِسْلَامِ"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، فهي عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئا ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني فأنا مدين له، حَيْثُ إِنَّ

خَلْقَهُ سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعا بسبب سَعَةِ تبعات الخلقة، فَإِنْ كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، وَهَذَا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... وَكُلُّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة هُنَاكَ نُدَانُ بأعمالنا، إِذْ إِنَّ مَا قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هو التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضا يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسبا بحكمته يَدِينُنَا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ{15})
نكمل مع لفت الانتباه لصفات الإله الذي كفر به بعض الناس، وأخلص له الدين آخرون:

{رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ}، تعبير عن المكانة العالية له تعالى في كلّ شيء، نَحْنُ نصنّف الناس درجات فوق بعضهم في القيمة والقدرة والملكية... فهذا درجته منخفضة وذاك وسط وذاك أعلى، هنا الله تعالى يصف نفسه بأن درجته مكانته، رفيعة مرتفعة عالية من كلّ النواحي من السلطة والقوة والسيطرة...

كما ترى إِنَّ الْآيَةَ تُبَيِّنُ لنا من هو الإله الذي يدعونا لتوحيده وإخلاص الدين له، فَلْنُكْمِلْ:

{ذُو الْعَرْشِ}، الموصوف بنسبة العرش له، لَهُ السلطة المطلقة والإدارة المركزية، إِذْ إِنَّ الْعَرْشَ هو المكان الذي يجلس عليه الملك ليدير شؤون مملكته، وعادة هو كرسي على منصّة، ولكن الله تعالى واسع محيط لطيف... وَعَرْشُهُ منتشر على كل السماوات والأرض، ووصفه تعالى بأنه ذو العرش يشير للسلطة المطلقة المركزية له تعالى على كلّ شيء.

ضع في ذهنك الدرجات العالية والعرش، ومن هناك "معنويا":

{يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ}، هُنَاكَ كائن موصوف بأنه روح لأنه خال من الإضافات، وسيأتيك عنه الكلام بعد قليل، وهناك أمور يريد سبحانه وصولها للناس فَيُلْقِي الروح، {عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}، أَمَامَهُ تعالى خيارات عديدة ويقرّر على من سينزل الوحي من الذين مفروض منهم طاعته لأنه إلههم خالقهم مالكهم وَهُمْ مفروض منهم طاعته لِأَنَّهُمْ عبيده، ونعلم أنه تعالى شاء من بين الخيارات العديدة أن ينزّل الوحي على أناس طاهرين، وصار وصفهم بعد التواصل الإلهي معهم وحيا أنهم أنبياء، {لِيُنذِرَ}، الَّذِي تواصل معه الروح وَتَلَقَّى الوحي يَنْقُلُ الخبر للآخرين بوجود خطر حتمي إذا توافرت شروطه فيهم، {يَوْمَ التَّلَاقِ}، "الإنذار من" يوم لقائهم معه تعالى في الآخرة ليحاسبهم.

هنا وصلنا منه تعالى عبر وحيه إلى أشخاص منّا، وصلنا خبر عن خطر أكيد من العقاب الإلهي في الآخرة لمن لم يخلص الدين.

الروح الذي ينزل هو نفسه روح القدس وهو نفسه الملاك جبريل(ع) وهذا ما نجده في سورة النحل الآية 102 {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ}، مع ما في سورة البقرة الآية 97 {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ}، هُنَاكَ ملائكة عالية وصفها أنها روح، نعلم منها من القرآن الملاك جبريل(ع)، ومن المشهور بين الناس في ثقافتنا الدينية أن مثله في وصف الروح ميكال وَعِزْرَائِيلَ وإسرافيل... عليهم السلام، وهناك ملائكة أقل منهم رتبة...

الروح ككلمة عربية مَعْنَاهَا: الشيء الأساسي الخالي من الإضافات، الجوهر، "الإسانس". دَرَجَ أن يقول العرب قديما "وحديثا" عمّا ينتج من عملية تقطير السوائل: روح العنب، روح الزهر، روح النعناع... يعني الشيء الصافي من العنب من الزهر من النعناع... ومنه وصف بعض المشروبات بأنها مشروبات روحية على أساس أنها نتجت من التقطير الذي يصفّيها من الشوائب. وبناء عليه إِنَّ الرُّوحَ التي نفخها تعالى في آدم(ع) والروح الذي نزل بالوحي وروح العنب... ليسوا نفس الشيء، لِأَنَّ الرُّوحَ وصف لحالات مختلفة ينتج عنها آثار مختلفة.

لمزيد من التوسع حول كلمة روح رَاجِعْ ما ذكرناه في دراسة الآية 91 من سورة الأنبياء {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ}.

لمزيد من التوسع حول كلمة "عرش" رَاجِعْ دراسة الآية السابعة من هذه السورة.

ضع في بالك دائما الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى معان قرآنية رائعة لن تراها من مرادفة كتب التفاسير لهما مع بعض "أنذر بحذّر وبالعكس" أو تفسيرهما بالخوف أو الخشية... حيث ستجد في عموم التفاسير استعمالهم هذه الكلمات لتفسير بعضها البعض كمترادفات، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لترى المعنى الدقيق لهذه الكلمات في أي آية تظن أنها ستكون مترادفة فيها لترى الفرق، ومثلها كلمة يرجو المختلفة عن يأمل ويطمع... ولفهم الفرق بين كلمتي "حذر وانذار" تصور شخصا أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، فِي هذه الحالة "تحذّره" من سلوك الطريق السيّء، لأنه حاليا ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، أمّا إذا سلك طريق الخطر "فَتُنْذِرُهُ" لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. الإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتما ما يضرّه، فَتُنْذِرُ الكافر لأنه في حالة ستسبّب له العقاب حتما. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يصير فيما سيسبّب له الضرر، فَتُحَذِّرُ المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

هذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، لأن المؤمن قد يقوم بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، عندها تنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة النصارى المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف {وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}.

(يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ{16})
{يَوْمِ التَّلَاقِ}:

{يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ}، في الزمن الذي يخرجون فيه ليصيروا في المواجهة، لا يخفى على الله منهم شيء، إِذْ إِنَّ كل ما فعلوه من سيئات وحسنات سيكون حاضرا أمامه تعالى، وبالتالي ضِمْنًا هُمْ أيضا لا يخفى على الله تعالى منهم أحد كما تقرأ في الآية 47 من سورة الكهف "... {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا}".

{لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ}؟ في زمن القيامة من الموت في زمن التلاق معه تعالى، مَنِ الذي يملك كلّ السيطرة والحكم والقرارات؟

{لِلَّهِ الْوَاحِدِ}، لصاحب الاسم المحدّد المميّز الله الواحد الذي لا ثاني له في الألوهية، {الْقَهَّارِ}، الذي يفرض إرادته على كل شيء ولا أحد يستطيع إجباره تعالى على فعل أي شيء، لِأَنَّهُ ملك بشكل فريد لا شبه له.

هُنَا في الدنيا ترك لنا سبحانه وتعالى مساحة فيها لنفرض ملكنا وسيطرتنا، وهذه هي التي يمتحننا بها ليرى سبحانه ماذا سنفعل، أمّا في الآخرة، فَنَفْقِدُ أي ملك وأي حكومة وأي سيطرة، ونمشي فقط وفقط على الأوامر والقرارات الإلهية، حَيْثُ يُحَاسِبُ هَذَا ويدخله النار ولا يمكنه أن يفعل أي شيء، وَيُثِيبُ ذَاكَ ويدخله الجنّة وبالطبع لن يعترض.

بَقِيَ شيء ضعه في بالك دائما، إِذْ إِنَّ الآخرة أيّام، وأوّل يوم فيها بالنسبة لنا هو المسمّى بيوم القيامة، وأوّل ساعة بالنسبة لنا من ذلك اليوم هي ساعة قيامنا من الموت، وهي التي مرارا اكتفى القرآن بالإشارة إليها بـ"الساعة". وبعد يوم القيامة تأتي أيام حشرنا ومحاسبتنا... وصولا إلى آخر يوم وآخر ساعة فيها وَهِيَ ساعة دخول المؤمنين إلى الجنّة والآخرين إلى النار.

كَلِمَةُ يوم تشير لعموم أي زمن وقع فيه حدث أساسي، سَوَاءٌ كَانَ يَوْمًا من أقل من ليل ونهار "كان يومي سعيدا"، أَوْ يَوْمًا من ليل ونهار، أو من أيام "يوم العاصفة"، أو من أسابيع "يوم الطوفان"، أو سنين "يوم الحرب"... لا يهمّ، وَبِالنَّظَرِ للحدث الأساسي فَإِنَّ كل الزمن الذي استغرقه حصوله يُعَدُّ يَوْمًا، وهكذا اسْتَعْمَلَ هذه الكلمة العرب وعموم بقية أهل اللغات الأخرى، وعلى هذا جاء التعبير عن خلق السماوات والأرض في ستّة أيام، إِذْ إِنَّهَا ست مراحل كل مرحلة منها حدث أساسي حتى لو استغرق زمن حصوله بالسنين.

هُنَا في السورة تكرّر استعمال كلمة يوم، وهي لا تشير حصرا ليوم قيامتنا من الموت، بل تشير له ولبقية الأيام التي ستأتي بعده ويجري خلالها محاسبتنا، لِأَنَّهُ يوم محاسبتنا على أساس أن الحدث الأساسي محاسبتنا، ويتخلله أيام تحدث فيها أمور أساسية، كَيَوْمٍ لقيامتنا من الموت، وَيَوْمٍ لفرزنا وحشرنا، وَيَوْمٍ للمحاسبة الفردية، وَيَوْمٍ للمحاسبة الجماعية، وَيَوْمٍ لوقوف الأشهاد أمام أقوامهم...

(الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ{17})
بناء على الملكية المطلقة الظاهرة في يوم التلاق:

{الْيَوْمَ}، في زمن التلاق، {تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ}، يحصل كلّ شخص كل فرد كل واحد على مقابل ما عمل في حياته، {بِمَا كَسَبَتْ}، بالذي حصلت عليه مما نتج من أعمالها، حَيْثُ نَتَجَ مِنْ عقائدهم وأعمالهم ما يوصف بأنه حسن أو سيّء، وفي يوم القيامة وما بعده يحصلون على ما كسبوه.

{لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ}، فَفِي هذا الزمن كل التعامل والقرارات ستكون محقّة منصفة عادلة، وَلَنْ يزيد سبحانه في سيئات أحد.

لَا يمكنك القول: من الظلم محاسبة الكافر وزيادة الحسنات للمؤمن، ومن العدل محاسبتهما معا بما عملا بالضبط، لِأَنَّ العدل أن لا تزيد في سيئات الكافر ولا في حسنات المؤمن... هذا الكلام خلط بخلط، لأن الكافر سيتحاسب على سيئاته فقط بدون أي زيادة، وَلَا ظلم من هذه الناحية، وأمّا المؤمن فَهَلْ تظلمه إن زدت في حسناته؟ بالطبع لا، إِذْ إِنَّ كلمة ظلم لا تشمل هذا المعنى، وَهَذَا التعليق مبني على خلط في التعابير، وهي تعابير لم يستعملها القرآن أصلا، وَلَوْ انتبهنا لدقة تعابيره لرأيناه لم يصف الحساب في الآخرة بأنه عادل، لِأَنَّ هَذَا سيعني أن المؤمن أيضا لا بد أن يتعذّب على سيئة ارتكبها، ولن يحصل على زيادة في ثوابه... بل وصف القرآن الحساب بأنه حقّ، ولا ظلم فيه، إِذِ الحق والإنصاف أن لا تزيد في سيئات المسيء، ولكن أين المشكلة في زيادة حسنات المؤمن؟! نَحْنُ نفهم هذه القيم ونطبّقها في حياتنا العادية مثلما يقول عنها القرآن بالضبط، فَإِنْ كنّا لا نظلم، فَسَنُجَازِي المسيء بقدر إساءته بلا زيادة، وهنا ينطبق علينا وصف العادلين، ولكن، من منّا يعترض على زيادة أجر من أحسن عملا؟ بل إن لم يحصل المحسن عملا على إكرامية أو هدية أو زيادة على المعاش... سنستغرب.

الظُّلْمُ هو زيادة السيئات أو تنقيص الحسنات مطلقا في أي حالة كانت، وأمّا حالات مسح ذنوب المؤمن فَهِيَ من الرحمة الإلهية وهي حقّ، والقرآن لم يقل أبدا ولم يشر ولا بأي طريقة إلى مغفرة ذنوب كافر أو مشرك أو فاسق أو منافق، لأن غفران الذنوب لهؤلاء المجرمين هو الظلم ومحاسبتهم عليها هو الحقّ.

{إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}، يُمْكِنُهُ تعالى بكل سهولة وسرعة أن يحسب نتيجة كل ما فعله كل واحد منّا في كل تفاصيل حياتنا، وسنلتفت لهذا المعنى عندما نتذكّر أن مليارات البشر تتحاسب في الآخرة، وكلّ واحد منهم لديه تفاصيل هائلة في حياته، وله ارتباط بما فعله الآخرون حين شجّعهم على الكفر أو على الإيمان... كل ذلك يحسبه تعالى بسرعة ولن يحصل أي خطأ أو اشتباه.

بَقِيَ شيء، هُنَاكَ جدل بين الناس عن تحديد مفهوم الظلم والعدل، إِذْ إِنَّ بَعْضَهُمْ ولأسباب عديدة سببها الخلل في الفكر والنفسية، وبالتالي خلل رؤية الأمور بوضوح، وبالتالي خلل في فهم صريح كلامه تعالى، هَؤُلَاءِ من المسلمين المعلنين القرآن مصدرا لدينهم نَفَوْا أن يكون تعالى قد وضع فينا القدرة على تمييز الخير من الشرّ، والفساد من الصلاح، وأننا فقط من كلامه تعالى نتعرّف على الحسن والسوء، وبناء عليه مَا يفعله تعالى هو الحسن مهما كان، حتى لو كان تصنيفنا نحن له كَسَيِّئٍ!

بعض الأحيان تتشابك كلماتهم لتصل إلى تبرير يجعل كلامهم يبدو صحيحا، وَتَبْدُو لك البداية غير صحيحة، ولكن من بعد ما يَذْكُرُونَ فلسفتهم للأمور تَبْدُو لك صحيحة، حَيْثُ يَقُولُونَ لو أنه سبحانه رمى الأنبياء في النار، فَهَذَا لن يكون ظلما، لأنه خلقهم وهم عبيده وَهُوَ حرّ فيما يفعله بهم. وهكذا للوهلة الأولى ترى نفسك لو عارضتهم وكأنك ستحجّم إرادته تعالى لتجعله مجبورا على تنفيذ ما تراه أنت حسنا... وإن سألتهم عن معنى حكمته تعالى فَسَيَقُولُونَ إِنَّهُ تعالى حكيم دائما حتى لو رمى الأنبياء في جهنّم، وسيصير رميهم هناك عملا حسنا حكيما لأنه تعالى فعله...

لِنُعِدْ طرح ما سبق بشكل يجعل الأساس الذي بنوا عليه كلامهم أوضح، هَلْ سبحانه مجبور على إدخال الأنبياء إلى الجنّة؟ أليس هو القاهر وبالتالي هُوَ حرّ في أن يفعل ما يشاء؟ وهكذا ترى بشكل واضح خلطهم للأمور، إِذْ إِنَّهُ سبحانه ليس مجبورا على أي شيء وَأَخْبَرَنَا أنه شاء إدخال المؤمنين إلى الجنة والآخرين إلى النار. وهذا جواب مبدئي على كلامهم.

من ناحية ثانية كلامهم هذا نسف لمفهوم قرآني أساسي، إِذْ قَبْلَ الكلام عن توحيده تعالى وتحريمه لبعض الأمور... ترى القرآن في العديد من الآيات يخاطبك بناء على القدرات التي جعلها تعالى فيك من تمييز للحسن والسوء، ومنها الآية 10 من سورة البلد "{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}"، والآية 8 من سورة الشمس "{فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}"، وبناء عليه يعرض عليك سبحانه الحقّ عالما بإمكانيتك على رؤيته حقّا، ويعرض عليك فعل الصالحات وتجنّب السوء عالما سبحانه بقدرتك على التمييز بينهما، وأنت ستختار بإرادتك اتباع الحقّ أو تركه أو فعلك للسوء أو الصالح، وعلى هذا الأساس يحاسبك ويجازيك.

هَذَا هو الأساس الذي انبنى عليه تكليفه تعالى لنا ومرورنا في دار فتنة وبلاء وصولا إلى مجازاتنا على ما كسبناه، وَهَذَا ما شاءه تعالى بحكمته وليس مفروضا عليه عزّ وجلّ.

تَصَوَّرِ الحالة التالية عن إنسان عاش في الدنيا ومات ليفتح عينيه في الآخرة والملائكة بدؤوا بتأنيبه وضربه على ما فعله... يَقُولُ: مهلا، فعلته لأني رأيته حسنا ولم أر سوءه. هَلْ هذا ممكن؟ لا، وإلا مَا معنى محاسبته تعالى لنا وعلى ماذا إن كنّا لا نميّز بين الخير والشرّ؟ أو يقول إنه فعله لأنهم قالوا له إنه تعالى يأمر به، وَأَقْنَعَ نفسه بأنه حسن وفعله. لا، هذا ليس تبريرا مقبولا بصريح كل القرآن الذي لم يقبل أي تبرير على أي سوء مهما كان نوعه إلا في بعض الحالات للمضطر "كالجائع ولا يجد إلا لحم الخنزير ليأكله..." أو الفاقد لأهلية التكليف "كالمريض أو المعاق الَّذِي هُوَ معذور من المشاركة في القتال".

أخيرا هُنَاكَ عمق فينا يسبّب الفرق في فهمنا لكلامه تعالى، وتراه واضحا في الآيات الكثيرة المشابهة للآية 2 من سورة البقرة "{ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}"، هَذَا القرآن هدى للمتقين، لِأَنَّهُمْ بالأصل لهم لبّ، لهم عقل، لهم قلب سليم، يبصرون ويسمعون... وبناء عليه هُمْ من الأصل يتجنبون السوء ويعملون ما يرونه صالحا... وهكذا سيكون هذا الكتاب الإلهي هدى لهم، حَيْثُ يَتَمَاشَى فكرهم ونفسيتهم مع ما يقوله، وَيَتَّبِعُونَهُ.

أي كلام مخالف لصريح كلام القرآن مَنْشَؤُهُ خلل في القلب، تَنَاوَلَ القرآن في كلامه أساسيات أسباب الخلل الكامنة وراء مخالفة كلامه تعالى، وأحيانا يكون الخلل مباشرا وصريحا وأحيانا يكمن في العمق ويظهر أثره في مختلف الأمور.

خُذْ مثلا كلام القرآن مع المشركين، حَيْثُ إِنَّ الظاهر منهم رفضهم لتوحيده تعالى، ووجّه القرآن كلامه مباشرة معهم حول هذه النقطة مبيّنا العقلانية والمنطق "الحقّ" في توحيده تعالى، والفساد في الشرك، وسورتنا هذه من هذا النوع، وسور عديدة تخصّصت وَدَخَلَتْ إلى عمق أسباب شركهم به تعالى، إِذْ إِنَّ كرههم للتقيّد بدينه تعالى الذي حرّم السرقة والكذب والطغيان والزنا والمسكرات... دفعهم لإنكاره تعالى حتى لا يضطروا للالتزام بدينه تعالى.

في مسألة نفي الظلم عنه تعالى نتواجه مع أناس يقولون بأنهم ملتزمون بدينه تعالى، وهم يصلّون ويصومون... مَا الذي دفعهم لقول ذلك؟ وها كل القرآن أمامك، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لترى أي آية يقولون عنها تثبت نظريتهم لترى أن كلامهم غير صحيح.

مَا دفعهم لذلك هو التراخي في المفاهيم القرآنية الأساسية بسبب كثرة الطروحات والبحوث التي اخترعوها وكانت ترفا فكريا أبعدنا عن أساسيات ظاهر كلامه تعالى، حَيْثُ صرنا خلف التأويل على معنى استخراج باطن غير ظاهر من صريح كلام القرآن، وهذا ما فتح الباب على مصراعيه لانبثاق عقائد مختلفة متخالفة وكلّها يقولون إِنَّهَا مشتقة من القرآن! بينما الأغلبية الساحقة من كلام الجميع ليس مبنيا على ظاهر وصريح ما يقوله القرآن، بل مبني على المطّاطية التي اعتقدوا بها حين اعتقدوا ببواطن للقرآن تخالف ظواهره!

خذ عبارة آيتنا هنا مثلا "{لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ}"، مَا رأيك لو قال أحد ما إِنَّهُ قبل يوم القيامة كان هناك ظلم إلهي؟ وما رأيك لو قال أحد ما إِنَّهُ في يوم القيامة سيرمي تعالى المؤمنين في النار وهذا لن يكون ظلما؟ هؤلاء ألم يقرؤوا كل القرآن! ألم

يعلموا أنه تعالى مستحيل أن يفعل السوء مع أنه عزّ وجل قادر على فعله؟! إذْ إنَّهُ سبحانه شحن قرآنه بأخبار عمّا قرّره وسيفعله، فَمَا معنى "تأويل" بعض كلامه بخلاف الظاهر منه؟!

هذا الكلام يأخذنا للفرق بين من ولد بين مسلمين وورث الإسلام، وبين من ولد بين مشركين وورث الشرك، مَا الفرق الجوهري بينهما إن كانا يتلاقيان في خلل ما في أساسيات العقيدة والشريعة؟

لا تفهم أني أخرج بعض المسلمين عن صفة الإسلام، إذْ سبحانه شحن هذا القرآن بكلام عن سوء في أساسيات عقائد وتشريعات أهل الكتاب ولم يخرجهم من صفة المنتمين لدينه "أهل كتاب"، تَحَدَّثَ معهم مباشرة لينذرهم، وتحدّث معنا عنهم ليحذّرنا من الوقوع فيما وقعوا به، وإن لم ننتبه فَإِنَّ كل الاتهامات التي وجّهها القرآن لهم تصير موجّهة لنا... رَاجِعْ كمثال ما ورد في الآية 59 من سورة مريم، "{فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا}"، وأكتفي بهذا المقدار الذي منه يمكنك أن تدرس نفسك ومن حولك لترى إن كنّا من المسلمين حقّا أو بالاسم فقط مسلمين.

(وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ{18})
{وَأَنذِرْهُمْ}، أوصل لهم الخبر عن خطر قادم حَتْماً بسبب توافر شروط حصوله فيهم، فهم الآن لم يخلصوا له تعالى الدين وهذا سينتج عنه ضرر حتمي لهم، {يَوْمَ الْآزِفَةِ}، في الزمن الذي يقترب، وهذا التعبير ورد في الآية 57 من سورة النجم {أَزِفَتِ الْآزِفَةُ}، وورد بشكل مختلف مِراراً في بقية القرآن كتوصيف لقرب واقتراب يوم القيامة كما في الآيات 6 و7 من سورة المعارج {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا}، فمن يرى يوم التلاق بَعِيداً ينبهه القرآن أنه آزِفٌ يقترب.

تَعْلَمُ من بقية القرآن ومما نختبره نحن من حالة نومنا، عِنْدَمَا نموت لن نشعر بمرور مليارات السنين، وعندما نفتح أعيننا سنجد أنفسنا فَجْأَةً في يوم القيامة، وبهذا الشكل يكون وصف يوم القيامة بأنه آزفة يقترب، لأنه يقترب باقتراب نهاية عمرنا القصير جِدّاً جِدّاً، فمن بعده الموت، وفقدان الوعي، وفَجْأَةً نفتح أعيننا في الآخرة.

في ذلك اليوم، {إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ}، والحنجرة هي عضو للتحكم بالصوت مَوْجُودٌ في قصبة الهواء في رقبتنا، وعند الشعور بالانزعاج والمضايقة الشديدة نشعر بتحجّر الحنجرة ونستصعب الكلام، وهنا تصوّر الآية أن القلوب وَهِيَ أساس الفكر والنفسية وَصَلَتْ لحالة من الانزعاج للضغط على الحنجرة، فيبّستها، مِمَّا جَعَلَ الكافرين يشعرون كأنهم سيختنقون، وهم، {كَاظِمِينَ}، لديهم شعور نفسي مزعج جِدّاً ولن يتمكّنوا من فعل أي شيء ليريحهم من انزعاجهم، فحتى لو عبّروا عنه فلن يرتاحوا.

{مَا لِلظَّالِمِينَ}، لَيْسَ للذين لم يكونوا منصفين مُحِقِّينَ، فلم يكن معهم حَقٌّ بالكفر لأن الآيات الدالة على الإيمان كانت واضحة وأكثر من كافية، فليس لهم، {مِنْ حَمِيمٍ}، من كائن بينهم وبينه علاقة حميمة كعلاقة قَوِيَّةٍ، كعلاقة حبّ أو ودّ من الدرجة العالية وينتج عنها تدخّلهم لصالحه، بل بالعكس تَماماً، فكل الكائنات سَيَتَبَرَّؤُونَ من الكافر.

{وَلَا}، للظالمين، مِنْ {شَفِيعٍ يُطَاعُ}، أَصْلاً لن يوجد هناك أي كائن له كلمة مطاعة ليشفع ليتوسّط لمصلحة الظالمين مُسْتَخْدِماً قيمته المعنوية أو سلطته، وَالبعض يعتقد بآلهة كان يعبدها وستتدخّل لصالحه إن صدق الكلام عن حصول آخرة... وَتخبره الآية من الآن أن لا يتخيّل حصول ذلك لأنه لن يجد من يتوسّط له وله كلمة مسموعة منه تعالى، حَيْثُ الملائكة والمؤمنون من الدرجة العالية يشفعون للمؤمنين من الدرجة المنخفضة، وهؤلاء حين يشفعون يأذن سبحانه بوساطتهم فيغفر، وهؤلاء أَصْلاً لن يشفعوا لكافر، أمّا المشرك فكما اعتقد هنا بآلهة لها قرارات منفردة ومستقلة عنه تعالى، يَتَخَيَّلُ إن حصلت الآخرة أن آلهته ستتوسّط وَستتدخّل لصالحه وكلامها سيكون مُطاعاً وَتنجيه من العقاب، لا، لن يحصل هذا.

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ{19})
يَعْلَمُ، سبحانه وتعالى، {خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ}، ما تخون به عيننا من نظرة سيئة، ما نراه بأعيننا بغير ما هو متوقّع منّا وبغير ما هو موافق لأوامره تعالى، فسبحانه يعلم حتى هذه النظرة.

يَعْلَمُ تعالى، {مَا تُخْفِي الصُّدُورُ}، ما انستر عن الآخرين محتفظين به في مركز تفاعلنا مع الأمور، ففي صدرنا نشعر بالانقباض أو الانشراح متفاعلين مع ما نتعرّض له، ومن هذا صار التعبير بالصدر يشير إلى عموم تفاعلنا الداخلي مع الأمور، وحتى تفاعلاتنا الداخلية كرأينا وشعورنا بما يحصل معنا وأمامنا والمختفية عن الآخرين فسبحانه يعلم بها.

سَيُحَاسِبُنَا من يعلم أدق وأصغر التفاصيل عنّا.

بالنسبة لكلمة "صدر، صدور" فإن لم يكن القصد بها لأعضاء الجسد للقفص الصدري وما تحته من أعضاء...
فَاسْتَعْمَلَهَا القرآن كما يستعملها الناطقون باللغة العربية وكما هي مستعملة في العديد من اللغات الأخرى، حَيْثُ نشير بالصدر للتفاعل الداخلي للإنسان مع ما يراه ويسمعه ويشعر به مما يتعرّض له... فنحن عندما نتعرّض لمختلف الظروف، نشعر بالانقباض أو الانشراح... في صدرنا، فاستعملنا كلمة صدر لتوصيف حالة تفاعلنا مع الأمور، وحتى لو لم تشعر بأي شيء في قفصك الصدري، من انقباض أو صعوبة في التنفّس أو راحة... فمجرد تفاعلك مع ما تعرّضت له، فإن مختلف اللغات البشرية تعبّر عن هذا التفاعل بأن شيئا حصل في صدرك، وحتى السرّ الذي تخفيه عن الآخرين تعبّر عنه مختلف اللغات بأنه في صدرك، وكلّنا نعلم أن السرّ ليس في القفص الصدري، فليس تحته في الرئة أو القلب أو المريء... بل هو تعبير يشير لحالة تفاعلنا مع ما ندركه سواء بقي مخفيا أو ظهر له أثر حسّي في منطقة الصدر أو على تعابيرنا وحركاتنا.

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ {20})
مِنْ هذا العمق بعلمه تعالى بنا:

{وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ}، قضاؤه تعالى،الَّذِي مَطْلُوبٌ أن يحصل وهو أمره وحكمه فيما سيحل بنا ومعنا، سيكون بالحق بالصواب وليس بالباطل ولا بالعبث ولا بالظلم، لِأَنَّهُ لن يجور سبحانه علينا، ولن يحاسبنا بمعلومات ناقصة عنّا، ولن تختلط عليه سبحانه الأمور، ولن ينسى ولن يغفل... لِأَنَّهُ حكيم عليم، وبناء عليه سيكون قضاؤه علينا بالحق في أثناء محاسبتنا.

{وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ}، أمّا الذين يتوجّه إليهم المشركون بالإشهار والإعلان لهم على أنهم آلهة ويتركونه تعالى، فهؤلاء الذين يدعونهم، {لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ}، فالأمور التي تحتاج لقرار إلهي لحصولها لَنْ تحصل على أيديهم، لأن الإله فقط لديه هذه القدرة في الآخرة، ولا يوجد إله إلا الله سبحانه وتعالى.

{إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ}، الذي يسمع كلّ شيء بدون أي استثناء، فسمعه من مستوى إلهي شامل لكل شيء وهو، {الْبَصِيرُ}، فيدرك "بمستوى إلهي" ويعي معنى صورة ما يحصل، وَيَرَى كلّ شيء مع دراية بما يجري، فالكاميرا تسجّل كلّ شيء أمامها، ولكنها آلة جامدة لا تدري بمعنى ما يجري، أمّا تعالى فبصير، حَيْثُ يرى ويدري "يعي" ما يجري وَلِذَلِكَ نحن تحت مراقبة ومحاسبة وقضاء من لديه إحاطة بكل شيء.

لِمَزِيدٍ من التوسع حول كلمة "دعاء" راجع دراسة الآية 12 من هذه السورة.

(أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ {21})
هذه الجملة ستتكرر في الآية 82 من هذه السورة مع اختلاف بسيط.

{أَوَ لَمْ يَسِيرُوا}، أولئك المجادلون بالآيات الكافرون بها ألم ينتقلوا في الأرض، {فَيَنظُرُوا}، فمن بعد السير يوجّهوا اهتمامهم العام، {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}، ما عَقِبَ ما جاء بعد كفر الناس الذين كانوا من قبلهم أحياء على الأرض، {كَانُوا}، الذين من قبلهم، {أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً}، والحديث هنا مع أهل مكّة وجوارها كنموذج عن الذين كفروا ويجادلون بالآيات حين نزول هذا القرآن، فالذين قبلهم من الأقوام كانوا عسكريا واقتصاديا... أقوى من مجتمع مكّة وجوارها، {وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ}، مثلما نقول: الثور أثار الأرض. فأفعالهم أثارت الأرض أكثر، فحكموا وزرعوا وبنوا... أكثر من أهل مكّة، وكان لهم فتوحات ومدن ومنشآت... {فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ}، فلم يتركهم سبحانه على كفرهم وشركهم بل أخذهم بالعذاب الناتج عن مخالفتهم لأوامره تعالى.

{وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ}، فلم يكن هناك من يقيهم من يجنّبهم العذاب الإلهي.

سَتَرَى في الآيات التالية نموذجا عن قوّة عسكرية واقتصادية وعمرانية من أقوى النماذج التي مرّت على الأرض، فستتحدّث عن الفرعون الذي كان على عهد النبي موسى(ع)، وهذا النوع من الكلام القرآني عن نماذج أصابها تعالى بالعذاب، يعتبره القرآن دليلا تاريخيا ملموسا عن صدق كلامه تعالى عن العقاب على مخالفة أوامره.

نَنْتَبِهُ لما تجده صريحا أو في طيات كلام الذين يعتقدون أن القرآن قصد بتوصيف بعض أقوام الكفّار السابقين أنهم أشدّ قوة، أنه قصد أنهم هكذا حتى بالنسبة لكل من سيأتي عبر الزمن، وكأن المسألة هي شدة القوة، بينما المسألة هي لفت الانتباه إِلَى أن القوة ومهما كان مقدارها عند أي قوم، فهم لا طاقة لهم بمعارضة ما يأمر سبحانه بحصوله، حَيْثُ إِنَّ هناك أَقْوَاماً سَابِقِينَ كَافِرِينَ عذّبهم تعالى هنا في الدنيا ولم يكونوا أقوى من نَمُوذَجِ أهل مكّة، أو على الأقل لم يكونوا أشدّ منهم بكثير كقوم مدين "بتحليلي".

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ{22})
{ذَلِكَ}، الأخذ بذنوبهم، {بِأَنَّهُمْ}، بسبب أنهم، {كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ}، جاءهم أشخاص يجعلون كلامه تعالى عندهم بشكل واضح ويدل على الحقّ بشكل واضح، فقالوا لهم الآيات التي تدل على وحدانية الإله ووجوب طاعته، {فَكَفَرُوا}، فأنكروا هذه الأمور الواضحة، {فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ}، فلم يتركهم بل عذّبهم هنا في الدنيا، {إِنَّهُ قَوِيٌّ}، ليس ضعيفا فإذا قرّر سبحانه تعذيبهم فيمكنه سبحانه تعذيبهم بكل سهولة، {شَدِيدُ الْعِقَابِ}، فعقابه وَمَا أُتِيَ من عذاب بعد كفرهم فلا يمكنهم ردّه ولا تحمّله ولا النجاة منه.

{قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ} لا تعني أبدا أنه تعالى قوي يعاقب بشدّة على أمور صغيرة، بل تلفت انتباهنا للذين يرون أنهم أقوياء بالصواريخ النووية وبقاذفات القنابل وحاملات الطائرات... فمسألتهم ليست أكثر من كلمة منه تعالى لتصيبهم كارثة تدمّرهم.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ{23})
من هنا تبدأ فقرة طويلة عن نموذج لقوم كانوا تاريخيا قبل نموذج الكفّار أهل مكّة، ومشهور أنهم كانوا أشد منهم قوّة... أتتهم رسلهم بالبينات... فكفروا... فأخذهم الله تعالى. وخلال هذا النموذج سنرى شخصا من آل فرعون آمن بالبينات، فركّزت عليه السورة كنموذج عمّن لم يَعْمَ قلبه... ونتذكّر محور السورة عن: آيات إلهية، وهناك من آمن بها وهناك من جادل فيها، وعن الدعم الإلهي في الدنيا والآخرة لمن آمن، ولا دعم من أي جهة لا في الدنيا ولا في الآخرة لمن كفر. وسترى نماذج كاملة من هذه المحاور في هذه الفقرة.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا}، فهو نموذج عن رسله تعالى للناس لينقل لهم الأمور المميزة المنسوبة له تعالى، بما يدلّ على توحيده تعالى وعلى دينه، ومن القرآن تعلم أنها تسع آيات من العصا التي تحوّلت لحيّة، واليد البيضاء والضفادع...

الْآيَاتُ، {سُلْطَانٍ}، شيء قوي يغلب أي شيء آخر، شيء له سلطة قهر قوّة، {مُّبِينٍ}، واضح، فالآيات الدالة على دينه تعالى بشكل واضح وبقوّة تبين أن الرسول موسى(ع) الذي أتى بها مَدْعُومٌ منه سبحانه.

(إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ{24})
أرسله تعالى، {إِلَى فِرْعَوْنَ} وهو لقب كان لأعلى سلطة في مصر في حينها، كما نقول ملك وقيصر وكسرى...
وأرسله تعالى لِـ{هَامَانَ}، وهو اسم لشخص يبدو من القرآن أنه كان في المرتبة الثانية بعد فرعون، وزيره الأول أو نائبه، وأرسله تعالى، لِـ{قَارُونَ}، ونعلم من القرآن من الآية 76 من سورة القصص {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ...}، أنه شخص من بني إسرائيل كان مواليا لفرعون وكان ثريا جدا.

{فَقَالُوا}، هؤلاء الثلاثة الذين هم في أعلى موقع السلطة والقرار في زمن الرسول موسى(ع)، قَالُوا عَنْ الرسول موسى(ع):

{سَاحِرٌ كَذَّابٌ}، فالسحر هو أن تخدع الذي أمامك فتجعله يتوهم شيئا غير حقيقي، فعندما تراه أخرج الوردة من الفراغ من يديه الفارغتين، فأنت تعلم يقينا بأنه خدعك، وَمَهْمَا كان بارعا فستقول بأنه سحرك، وتقصد أنه خدعك فجعلك تتوّهم. وَنَقَلَ القرآن وصف الكفّار للرسل بأنهم سحرة بهذا المعنى، فهؤلاء يقصدون أن الواقع الحقيقي شيء، وما يقوله هذا الرجل شيء آخر، فهو يريد خداعنا ليجعلنا نقتنع أنه رسول، وأنه يوجد عذاب إلهي... فهو مخادع كذّاب، فالساحر العادي الذي يخفي الحمام تحت القبعة... لا يدّعي امتلاكه لقدرات خارقة بل يقول عن نفسه إِنَّهُ ساحر، ولو قال عن هذه الحركات التي يقوم بها إِنَّهَا حقيقية لكان: ساحر كذّاب. فهذا الرجل يقول عن نفسه إِنَّهُ رسول ويهددنا بالعذاب، فيخدعنا ويكذب أيضا وَلَا يعترف بأنه يحاول خداعنا!

مَا هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، فهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، ونقل القرآن عن الكفّار اتهامهم للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقولهم عن الآيات الإلهية إِنَّهَا سحر، فهذا كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

إِذَا خطر ببالك أن الاتهام بالسحر للنبي موسى(ع) بسبب تحوّل العصا لأفعى وبقية الأمور غير العادية التي حصلت، فظنّك صحيح، ولكن لا تَنْسَ أنهم يقصدون أيضا اتهامه بالسحر حين يتكلّم معهم عن العقيدة والشريعة الحقّ، فيعتبرون كلامه هذا سِحْراً، كخدعة تجعلهم يتوهمون أن الحقّ في كلامه، وهذا هو نفس الاتهام الذي نقله القرآن عن كفّار مكة للرسول محمّد(ع)، فكلامه الحقّ في نظرهم كان سحرا يوهمهم ببطلان الشرك.

هناك جدل بين المؤرخين وعلماء الْآثَارِ والمتدينين والمهتمين... حول تحديد "اسم وتاريخ" الفرعون الذي كان على عهد النبي موسى(ع)، ولم أجد أي واحد منهم يملك دليلا قاطعا أو قويا... واسم هامان الذي ورد هنا، فمن المفروض أن يكون مميّزا لتحديد اسم الفرعون الذي كان على عهد النبي موسى (ع)، وَتَتَبَّعْتُ اسم "هامان" في تاريخ الفراعنة، وكان تتبعا مرهقا، فوجدت شخصا مناسبا استبعده الكثيرون لأنه وزير للفرعون "خوفو" وهو أقدم بكثير من أي فرعون افترضوه، وفي التاريخ ذكروا أن هذا الوزير هو المسؤول عن بناء أهرامات الجيزة الضخمة، وهذا يشبه ما ورد في الآية 36 من سورة غافر من اعتماد فرعون عليه كمهندس أو كالرجل الأول لتنفيذ المهمات {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ}.

غَالِبِيَّةُ المؤرخين المتدينين لديهم تسلسل تاريخي ديني للأحداث من آدم(ع)... فالنبي نوح(ع)... فإبراهيم(ع) فيعقوب(ع) فيوسف(ع) الذي نقل بني إسرائيل إلى مصر، وبعد ذلك بسنين ولادة النبي موسى(ع)... وبعده مملكة النبي داوود(ع)... وولادة النبي عيسى(ع)... وهذا التاريخ الديني له روايات ومستندات عند المتدينين ولا يمكنهم مخالفتها، فهي تراثهم الديني، وبعضها كتبوه كملحق تاريخي ديني مع التوراة بما يماثل الروايات والأحاديث عندنا، فأي تغيير لتاريخ أي واحدة من تلك الأحداث سَيُسَبِّبُ لهم تشوّشا في بقية التواريخ، وتحديدهم للفرعون الذي كان على عهد النبي موسى(ع) برعمسيس "رمسيس" وتحديدنا له بخوفو سيسبّب رجوعا هائلا بألف سنة تقريبا في جميع الأحداث التاريخية مشوّها بذلك كل تراثهم التاريخي.

سَتَجِدُ في الويكيبديا العربية وَالْإِنْجْلِيزِيَّةِ، أن للفرعون خوفو "خوبوس، شوبس" وزيرا اسمه يتماشى بالعربية مع لفظ هامان "هم يونو، حم يونو، هامون"، وله تمثال محفور عليه اسمه محفوظ في المتاحف، وهذا المهندس "أو الإداري" بنى أهرامات الجيزة الضخمة، والقرآن عبّر عن الفرعون بأنه ذو الأوتاد، وَفَهِمْنَا منها أنه الآمر ببناء الأهرامات والمسلاّت، وراجع في ذلك دراسة الآية 7 من سورة النبأ والآية 12 من سورة ص، والآية 10 من سورة الفجر {وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ}، وخوفو نصّب نفسه إلها كما تقول دراسة الآثار، والفرعون الذي تحدّث عنه القرآن أَعْلَنَ نفسه إلها كما ترى في الآية 29 من سورة الشعراء {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}، ومن الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي...}.

هَذِهِ التفاصيل وغيرها ككلام الباحثين عن أنهم لم يجدوا مدفنا لزوجة خوفو، تَتَمَاشَى مع إيمان زوجة الفرعون الذي عاصر النبي موسى(ع)، وَوَرَدَ ذلك في الآية 11 من سورة التحريم {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}، وبالتالي نفترض كره زوجها لها وحرمانها من مدفن ملكي، أو خروجها من مصر مع بني إسرائيل...
كل ما سبق يجعلنا نعتقد بقوّة أن "خوفو" هو الفرعون الذي كان في زمن النبي موسى(ع). والمشكلة عند الآخرين الَّذِينَ بنوا تاريخا دينيا بناء على كون "رعمسيس، رمسيس" هو الفرعون المعاصر للنبي موسى(ع)، وبين تغييره ليكون خوفو، المشكلة أن بين الفرعونين قرابة ألف ومئتي سنة، فتاريخ خوفو في فترة 2500 سنة قبل الميلاد، ورعمسيس في 1300 قبل الميلاد، وعليه تندفع قرابة الألف سنة إلى الخلف كل الأحداث التاريخية ويتشوّه بذلك التراث التاريخي الديني الذي افترضوه...

(فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ{25})
{فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا}، فالكلام الحقّ والآيات التي من الواضح أنها إلهية بدأت تحصل على يدي الرسول لتثبت لهم أنهم ضالون... كتحوّل العصا لحيّة... ومحاججة النبي موسى(ع) لهم بالكلام العقلاني المنطقي وعرضه عليهم الحقائق وبيان ضلال عقيدتهم وتصرفاتهم... فكما تعلم من القرآن فإن سِنِينَ طويلة مرّت بين أخذ وردّ بين الرسول موسى(ع) وهؤلاء الثلاثة، وخلال تلك السنين توزّعت الآيات التسع، والبداية كانت مع العصا التي تحوّلت لحيّة واليد البيضاء، وبعد ذلك تبعها القمّل والضفادع ونقص الثمرات... فبدل أن يؤمنوا قالوا:

{اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ}، حَيْثُ سَابِقاً كانت لَدَى فرعون وجماعته عادة قتل المواليد الذكور لبني إسرائيل مدّة بعد مدّة حتى لا يزيد عددهم ولا يصير لديهم قوّة تفوق قوة قوّات فرعون التي تدير الأمن في المدن، فهنا يقترح عليه المساعدون أن يبقي على هذا الإجراء ولكن لينفّذه الآن فقط في المواليد الذكور للذين أعلنوا إيمانهم مع النبي موسى(ع)، وبذلك يعاقبهم ويخاف الْآخَرُونَ... {وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ}، واتركوا المواليد الإناث أحياء فهن لا يشكّلن أي خطر عسكري، ونستفيد منهن في العمالة في الزراعة وتربية الماشية والحياكة...

{وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ}، وما الأعمال التي يَقُومُ بِهَا المنكرون لدينه تعالى بقصد الضرر للدين وللمؤمنين، {إِلَّا فِي ضَلَالٍ}، فلن يصلوا إلى النتيجة التي يريدونها، فسيتحقّق ما يريده تعالى.

كثيرا ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيرا أم شرا، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فَضَلَّ عنك صيدها. وَاسْتَعْمَلَ القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، فلم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضَالٌّ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ{26})
{وَقَالَ فِرْعَوْنُ}: {ذَرُونِي}، لا تتدخّلوا بي فاتركوني، {أَقْتُلْ مُوسَى}، أنهي حياته بتعطيل جسده... {وَلْيَدْعُ رَبَّهُ}، فليشهر وليعلن طالبا الحماية من المسؤول عنه من مستوى إلهي، فلست أخاف من ربّه إذا قرّرت قتله. بالعامية: بقتلو ومش فرقانة معي دعا ربه.

{إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ}، فلدي شعور أكيد بأنه حتما سيضرّكم فسيجعلكم تؤمنون بدينه وتتركون دينكم الصحيح، {أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ}، فيحكم بقوانين وعقائد فاسدة باطلة تضرّ بمصالحكم ومصالح الناس، فيكون دينه الظاهر المنتصر المنتشر وهو دين فاسد بعقيدته وشريعته.

من دراسة بقية القرآن تعلم أن هذا التهديد من فرعون لقتل النبي موسى(ع) كان اسْتِعْرَاضِيّاً من فرعون أمام ملئه، وفلتة كلام لن يطبقّها خوفا من النبي موسى(ع) الذي مدّة بعد مدّة تحصل بسببه أو على يديه آية مهولة...

كَمَا ترى، فما نسمعه في عصرنا فهو بالتمام ما تقوله الآية، فالغالبية الساحقة من الدول ترفض اعتماد دينه تعالى في تشريعاتها، والكثير من الناس حتى من المسلمين يرفضون تطبيق دينه تعالى، على أساس أن قوانينهم أفضل، وهذا هو نفسه ما قاله فرعون عن دين النبي موسى(ع) واصفا إيّاه بالفساد.

نحن هنا في كلام فرعون لسنا أمام حالة مثل حالة ما بعد وفاة النبي محمّد(ع)، حيث انتشر دين من صنع الناس باسم الْإِسْلَامِ، وأنت وأنا نخاف منه ومن انتشاره، ففيه القتل للأبرياء وإجبار الناس على اتباع مزاج جواميس متحجرين يدّعون أنهم علماء دين... بل نحن في الآية هنا أمام رسول إلهي يطبّق ما أمر به تعالى، وليس فيما يأمر به تعالى أي سوء.

(وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ{27})
خلال سنوات طوال من دعوة النبي موسى(ع) لفرعون وقومه، حصلت لِقَاءَاتٌ كان ملخّص وأهمّ ما ورد فيها بعد علمه (ع) بتهديدهم له بالقتل:

{وَقَالَ} النبي موسى(ع): {إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ}، فَأَلْتَجِئُ إلى المسؤول عنّي وعنكم من مستوى إلهي وأنا أعتقد أنه منيع لأنكم أنتم أيضا تحت سلطته، فأعوذ به تعالى، {مِن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ}، من كل من يرى نفسه أكبر من أن يخضع لله تعالى، {لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ}، فلا يعتقد بصدق حدوث الزمن الذي يتحاسب فيه الناس، فقد يؤمن بحياة بعد الموت، ولكن لا يؤمن بحساب الله تعالى له بعد الموت على أعماله التي قام بها في الدنيا.

هَذِهِ نقطة أشار لها القرآن مرارا على أساس أنها من الأسباب التي تدفع الناس لارتكاب السيئات، فإن كانوا لا يؤمنون بأنهم سيتحاسبون على أعمالهم فلن يخافوا من فعل ما يريدونه حتى لو كان سيئا طالما لا حساب ولا عقاب.

لاحظ وانتبه فيما وصلنا من دراسات آثار الحضارات الفرعونية، ففيه أن بعضهم كانوا يؤمنون بحياة بعد الموت مباشرة، فهنا في الدنيا يموت الإنسان وتذهب "روحه" إلى عالم الأموات فيستعيد وعيه من جديد... وأن التحنيط الموميائي من الطقوس الضرورية للحفاظ على جسد الميّت لاستمرار حياته بعد الموت... وما يضعونه من مال وطعام مع الميت فَيَسْتَفِيدُ مِنْهَا في عالم الموت طالما هذه الأشياء معه في قبره... وأن الأغنياء يضعون في قبورهم مالا يضمن لهم شراء تذكرة عبور لعالم الأموات، وهناك أيضا وبسبب المال الذي في قبورهم سَيَكُونُونَ أغنياء...

كَمَا ترى فهذه عقيدة لا تتشابه مع دينه تعالى إلا بمسألة الحياة بعد الممات، وأما كل بقية التفاصيل فلا شبه بينها، ففي دينه تعالى الحياة بعد الممات لعموم الناس في الآخرة بعد تبدّل الدنيا وليس الآن، ولا نأخذ معنا إلا إيماننا وأعمالنا فهي التي تقرر مصيرنا.

فَرْضاً كان المصريون في عهد النبي موسى(ع) يؤمنون بالحياة بعد الموت، ولكنهم لا يؤمنون بالحساب والمجازاة على الإيمان والأعمال على معيار الحقّ والصلاح، بل على معيار أنه من كان هنا غنيا ففي الحياة بعد الموت يبقى غنيا! ومن كان ملكا أو ذا سلطة ففي الحياة بعد الموت سيبقى ملكا وذا سلطة...

(وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ{28})
من هنا تبدأ السورة بعرض نموذج ممن آمن بالآيات:

{وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ}، رجل من أقارب فرعون بالنسب، {يَكْتُمُ إِيمَانَهُ}، لا يبدي اعتقاده بدين الرسول موسى(ع)، حَيْثُ آمن ولم يخبر أحدا بذلك إلى أن هدّدوا النبي موسى(ع) بالقتل، فقال بعد ذلك المجلس الذي تهدّد فيه النبي موسى(ع) بالقتل:

{أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ}! فتقرّرون إنهاء حياته لأنه يقول إنَّ الله تعالى هو المسؤول عنه من مستوى إلهي! فما هذه الجريمة التي ارتكبها حتى تقتلوه!

{وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ}، فجاءكم بالأمور الواضحة التي تدل على صدق كونه رسولا من المسؤول عنكم من المستوى الإلهي، فما جاءكم به ليس سحرا ولا كذبا، بل من الواضح أن الإله سبحانه دعمه بتلك الآيات، فهل تقتلونه ومعه دليل على صدق كلامه!

{وَإِن يَكُ كَاذِباً}، غير صادق في ما فعله ويقوله، {فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ}، فأنتم لن تتضرّروا من كذبه حين يهدّدكم بعذاب منه تعالى طالما هو كاذب، {وَإِن يَكُ صَادِقاً}، عندها، {يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ}، فقد قال لكم إنَّ ضررا سيصيبكم إن لم تتركوا بني إسرائيل يذهبون معه، وهذا الضرر سيحصل حتما إن كان صادقا.

يعني لِنَحْسِبَ الأمور بالمصلحة والمنفعة، فتكذيبكم له وتهديدكم له بالقتل لن يغيّر الواقع، فإن كان تهديده لكم صحيحا فهناك ضرر سيصيبكم حتما إن قتلتموه، وإن كان تهديده لكم كاذبا فلن تتضرّروا، وحساب هاتين الحالتين بالعقلانية يشير إلى تركه لأنها الحالة الوحيدة المضمون فيها أن لا تتعرّضوا للضرّر، خاصّة وأنه جاءكم بالبينات وهي أمور واضحة تثبت أن كلامه صحيح، علما أنكم قلتم عنها إِنَّهَا سحر، ولكن دعونا لا نخدع بعضنا ونضحك على بعضنا فهي بيّنات.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي}، لا يضع على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة، {مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ}، متجاوز في حدود تصرّفه فيما معه، {كَذَّابٌ}، في أقواله، فلن يترك سبحانه شخصا ادّعى أنه رسول من دون أن يبيّن كذبه بشكل واضح.

بقي شيء، وَلِحَدِّ الآن لم أقع على كلام له مستند مقبول حول اسْمِ هذا المؤمن ودرجة قرابته من فرعون أو أي تفاصيل أخرى عنه، وعلى كلّ حال فلا أهمية لهذه الأمور لأن السورة عرضته كنموذج تاريخي لشخص آمن بالآيات وكان من العائلة الحاكمة وقد خاطر بحياته لإعلان الحقّ، وكنموذج بارز للفرق بينه وبين من جادل بالآيات الإلهية البيّنة.

(يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ{29})

لَا تَنْسَ دَائِماً أن الآيات هنا تلفت انتباهك لما طرحه النبي موسى(ع) من آيات بينات بكلامه الحقّ وبما حصل على يديه من أمور غير عادية... وأنها كانت أكثر من كافية لهداية الناس، وَهَذَا واحد من أقارب فرعون ومن العائلة الحاكمة آمَنَ، ولم يكن إيمانه سطحيا بل كان عميقا وبحجّة ومنطق كما سترى.

تَتَذَكَّرُ أن القرآن لا يعرّب الكلام الذي ينقله من لغات أخرى، فلا ينقل المحاورات حرفيا بعد تحويلها للغة العربية، بل ينقل سبحانه المعنى الذي قصده القائل، وإذا نقل نفس الكلام في سورة أخرى مع نقص أو زيادة فيه، فلأنه تعالى اختار زاوية من الكلام المنقول تتعلّق بمحور السورة التي تنقله.

نُكْمِلُ مع كلام مؤمن آل فرعون:

{يَا قَوْمِ}، يا أيها الناس الذين أنتمي لِجَمَاعَتِهِمْ والمتفاعلين مع الدين، {لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ}، ففي هذا الزمان أنتم المالكون بشكل علني، {ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ}، متعاونين مع بعض وبجيشكم وقوّتكم الاقتصادية وَقراراتكم هِيَ التي تمشي على الأرض التي تمتدّ عليها سلطتكم، حَيْثُ كَانَ آل فرعون وملئه لا يخضعون لأي ملك أو سلطة أخرى على الأرض، بل بالعكس كانت بقية ملوك الأرض "في محيطهم" تحت أمرهم.

{فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا}؟ وَهُوَ الشيء الشديد جِدّاً من الله تعالى، والكلام هنا عن العقاب على الكفر به تعالى وبرسوله وبدينه، فإن جاءنا الشيء القوي فمن يحقّق لنا ما نريده؟ وَمن يمكنه دفع البأس عنّا؟

{قَالَ فِرْعَوْنُ}، ردّا على كلام المؤمن:

{مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى}، حَيْثُ إِنَّ الصورة المحدّدة التي عندي أعرضها لكم لتصير صورة محدّدة عندكم، لِأَنَّنِي لم أطرح عليكم إلا ما أنا مقتنع به، وَاقتراحي بقتله هو أنسب شيء رأيته. يعني لم يعجبه ما قاله المؤمن، ولم يجد كلاما منطقيا يرد به عليه، لِذَلِكَ طرح أمام الكلّ أنه يوجد رأي لي أنا، وآراء أخرى، وطبعا أنا الفرعون، وَمُجَرَّدُ طرحي لرأي سيكون أقوى من أي كلام آخر، لِأَنَّنِي الكبير بينكم، {وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ}، فَلَا أضعكم إلا على مسلك التفكير والتصرف بشكل صحيح سليم.

كما يبدو من الآيات ففرعون وحاشيته كانوا في موقف صعب جِدّاً جِدّاً، حَيْثُ يبدو أنهم تعرّضوا لمصائب قوية "قمل ضفادع جدب..." ضَعَّفَتْ موقف فرعون الذي لم يجد حلا لتلك المصائب، وانفتح المجال لِمُنَاقَشَةِ آراء فرعون لأن المصيبة قوية، لِذَلِكَ ترى هنا المؤمن مرتاحا في الدفاع عن دين الرسول موسى(ع) لأن آل فرعون وحاشيته كانوا في موقف ضعيف حيث يتعرّضون للمصائب ويبحثون عن حلّ، والمؤمن طرح حلا بمطاوعة النبي موسى(ع) وترك بني إسرائيل يغادرون مصر، فإن كان موسى كاذبا فخسارتنا ليست قاضية علينا بذهابهم، ولكن إن كان صادقا، ويبدو مما حصل معنا من أمور غير عادية أنه صادق، فهناك تهديد لوجودنا... ولم يستطع فرعون طرح حلّ بديل وَدافع عن فكرته باقتراحه قتل النبي موسى(ع) على أساس أن ما يحصل من مصائب سببها موسى(ع) وبقتله ستنتهي ولن يحصل بعدها أي ضرر لهم...

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ{30})
{وَقَالَ الَّذِي آمَنَ}، ردّا على كلام فرعون بكلام يدلّ على مرور عقاب إلهي في التاريخ لأقوام سابقة، وأن نفس الخطر محدق بهم:

{يَا قَوْمِ}، يا أيها الناس الذين أنتمي لِجَمَاعَتِهِمْ، {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم}، لَدَيَّ شعور بخطر قادم لا يمكنكم تجنّبه، {مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ}، حَيْثُ سبقنا جماعات من الناس كان لها هوى وعقلية وهدف مشترك، مثلكم الآن كما تتحازبون ضدّ الرسول موسى(ع)، وجاءهم زمن تعذّبوا فيه وأخاف عليكم أن يصيبكم مثلما أصابهم.

(مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ{31})
{مِثْلَ}، شبه التمام، {دَأْبِ}، ديدن أي عادة تصرف مستمر، {قَوْمِ نُوحٍ}، الجماعة التي كان النبي نوح(ع) ينتمي لها حَيْثُ استمروا بالكفر حتى ماتوا، وكذلك قوم، {وَعَادٍ}، الذين كان نبيّهم هودا(ع)، {وَثَمُودَ}، وكان نبيّهم صالحا(ع)، {وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ}، من الكفّار، لِذَلِكَ أخاف عليكم عذابا دنيويا يصيبكم مثلما أصاب هؤلاء الذين دأبوا وَاستمروا على كفرهم مثلكم.

{وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ}، بل يريد معاملة الذين مَفْرُوضٌ منهم طاعته بإنصاف وَبحق، وَحين يعذّبهم سبحانه فلأنهم كفروا يعذّبهم، وَتعذيبهم ليس ظلما بل إنصاف وحقّ.

نُلَاحِظُ أن هذا المؤمن لديه معرفة بتاريخ حوادث وقعت قبلهم مع قوم النبي نوح وهود وصالح عليهم السلام، وكلامه عن هذه الأقوام أمام فرعون وملئه في ذاك الاجتماع، يدل على معرفة القوم ولو تلميحا بقصص إبادة تلك الأقوام، وَرُبَّمَا وصلتهم تلك الأخبار من آثار السفينة والدمار... أو من الكلام الذي يتناقله الناس... وخاصة كونهم انْتَشَرَ وتوسّع حكمهم وأرسلوا البعثات الاستكشافية للبلدان المجاورة... وبعض تلك الأحداث لم تكن قديمة جدا بالنسبة لهم... ولا تَنْسَ مرور النبي يوسف(ع) مشاركا في الحكم في مصر في تاريخ سابق، حَيْثُ بَقِيَ حَتْماً من النبي يوسف(ع) أثر لكلامه الديني بين الحاكمين عبر التاريخ المصري القريب من زمن النبي موسى(ع) وفي الآية التَّالِيَةِ سترى كلاما يشير لذلك.

(وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ{32})
{وَيَا قَوْمِ}، يا أيها الناس الذين أنتمي لِجَمَاعَتِهِمْ، {إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ}، حَيْثُ أشعر بخطر أكيد عليكم ولا يمكنكم تجنّبه، وهو، {يَوْمَ التَّنَادِ}، زمن المناداة، كما نقول: تناديني وأناديك. وهو يوم النداء لنا للقيام من الموت، ويوم توجّه الملائكة(ع) كلامها لنا لنسير إلى الحساب...

لاحظ وانتبه جيدا، بِغَضِّ النظر عن عقيدة قومه عمّا يحدث بعد الموت، فَإِنَّ المؤمن هنا يخبرهم بما يعرفونه عن عقيدة دين النبي موسى(ع)، نَحْنُ حاليا من دراسة الآثار لدينا معطيات تشير للإيمان بحياة بعد الموت في الدين الفرعوني القديم، وَرُبَّمَا تتعرّض تلك الدراسات لتحديث وتدقيق وتقويم... ولكن المجموع العام منها يشير لاختلاف جذري بين كلام القرآن كمصدر أصيل لم يتحرّف بعد لكلامه تعالى، وبين عقيدة الفراعنة التي تكلمنا قليلا عنها في دِرَاسَةِ الآية 27 السابقة. وَمَا تقرؤه هنا هو ما يعرفه هذا المؤمن من دينه تعالى، ويبدو أن قومه كانوا يعرفونه ولكنهم لا يؤمنون به،

حَيْثُ إِنَّ لديهم عقيدة خاصة بهم من اختراع أهوائهم وتضمن لهم حياة سعيدة بعد الموت بالرغم من شركهم وقتلهم للأبرياء...

(يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ{33})
{يَوْمَ تُوَلُّونَ}، حَيْثُ في ذلك الزمن تتركون وجهتكم وتتوجهون نحو مكان آخر، {مُدْبِرِينَ}، وأنتم تديرون دبركم قفاكم، وَتُحَاوِلُونَ الهرب، {مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ}، حَيْثُ لن يعصمكم وَلن يمنعكم ولن يحميكم أي أحد منه تعالى، لأنه سبحانه سيحاسبكم ويعاقبكم ولا مهرب لكم.

{وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ}، من لا يضعه سبحانه على الطريق الصحيح، {فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}، فلن يضعه أحد على الأشياء الصحيحة التي توصله للغاية الصحيحة.

وهذه العبارة متكررة بكثرة في القرآن بعبارات متنوّعة، وضمنا هِيَ تشير لحالتين، حَيْثُ إِنَّهُ سبحانه لا يتلاعب بعقل ونفسية أي إنسان حتى يضلّ، بل خلقنا سبحانه وأعطانا القدرة على اختيار طريقنا، وبهذه النظرة من قدرته تعالى على إجبارنا على الهدى ومن قراره تركنا نضلّ، يَنْسِبُ سبحانه لنفسه إضلالنا على معنى تركنا نضل بما جعله تعالى فينا من إرادة لاختيارنا الضلال إن أردناه، وبالنظر لقدرته تعالى على إجبارنا لنهتدي.

ومن ناحية ثانية سَبِيلُهُ تعالى فقط هو طريق الهدى، وَالحقّ والصواب فقط فيما يقوله تعالى، لِأَنَّ الباطل ليس مَطَّاطاً قابلا ليصير حقّا لمجرد توصيفه بالكلام أنه حقّ، وبعبارة أبسط، وعمليا إِذَا تصورت بقعة أرض عليها طريق يوصل إلى الجنّة، وسبحانه وضع إشارات على الطريق تدلّ على الجنّة، وهي دينه تعالى، وبعض الناس تركوا هذا الطريق ومشوا على طرقات أخرى، وسبحانه قادر على مدّ تلك الطرقات وحرفها لتوصل من عليها إلى الجنّة، ولكنه تعالى لم يفعل ذلك، فهؤلاء لن يجدوا من يهديهم إلى الجنّة.

وهذا يعني أنه تعالى لم يوافق ولم يصادق ولم يقبل... بأي مسلك عقائدي أو تشريعي إلا الحقّ والصلاح وهذا هو دينه تعالى، لِنَقُلْ إِنَّهُ تعالى عرض علينا دينه ولكن في نفس الوقت لم يكن عنده أي مشكلة إن كفرنا، وبالتالي اعتبر سلوكنا مقبولا مهما فعلنا، وبالتالي سَنَدْخُلُ الجنّة حتى لو كفرنا، مثلنا مثل الذي التزم بدينه تعالى، وأنت تعلم أن هذا غير صحيح، لِأَنَّهُ سبحانه يصف طريقه "الإيمان بالحق والصلاح" فقط بأنه الهداية، ومن لم يهتد لهذا، فبقية كل الطرقات ضلال وفساد وسوء ولن توصله إلى الجنّة.

(وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ{34})
{وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ}، بالأمور الواضحة، التي تدل على الطريق الإلهي الصحيح، بكلامه الحقّ "العقلاني المنطقي..."، {فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ}، حَيْثُ من دون أي تفكير ولا دليل لا زلتم إلى الآن تنفون صحّة ما جاءكم به الرسول يوسف(ع)!

أَنْتُمْ في تاريخكم في مصر جاءكم الرسول يوسف(ع) وهو مشهور جدّاً جِدّاً عندكم بما جرى معه، وَبِسَبَبِ نبوءته عن القحط بنيتم مخازن تكفي لسبع سنين من تخزين الحبوب وحكمتم المنطقة بالطعام... لِمَاذَا إلى الآن لا زلتم لا تؤمنون به كرسول ولا تؤمنون بآياته!

{حَتَّى إِذَا هَلَكَ}، وَاستنفد الرسول يوسف(ع) حياته، وَمات، عندها، {قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً}. حَيْثُ انتهى ما كان يقوله الرسول يوسف(ع) بموته ولن نسمع برسول إلهي آخر، على أساس أن حالة يوسف(ع) شاذّة غريبة وانتهى الموضوع، وَاعتقدتم أنه مجرّد شخص كان لديه مميزات ولكن انتهى موضوعه بموته، مثله مثل أي شخص آخر يطرح فكرة ما وتموت فكرته إن لم يجد من يمشي عليها بعده.

{كَذَلِكَ}، بهذا التفكير عن انقطاع الدين الإلهي بموت الرسول يوسف(ع)، وبالشك بالبينات، {يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ}، من يتصرّف فوق الحد المقبول، وهنا ترجمتها العملية أنه يفرّط بالعقيدة الحقّ والشريعة الصالحة ولا يلتزم بهما، وسترى هذا المعنى في الآية التالية. ويضلّ تعالى من هو، {مُّرْتَابٌ}، حَيْثُ من دون أي تشغيل لفكره يرفض

الفكرة المعروضة عليه، وهنا ترجمتها رفضه للدين الإلهي، حَيْثُ عَلَى الريبة يرفض الدين، لِأَنَّ الدين الإلهي الحقّ لا يعجبه ولذلك يرتاب في أي شيء عن الدين الإلهي، وَيَرْفُضُهُ من دون التفكير فيه.

هناك كلام في الكتب عن المدّة الزمنية بين النبي يوسف(ع) والنبي موسى(ع)، ويحتملون أنها بين السبعين وَالْأَرْبَعِمِائَةِ سنة، وهي تخمينات لا تستند على شيء علمي أو مصدر ديني موثوق. وألفت انتباهك فقط لما نراه من كلام القرآن عن اختلاف بروتوكول الحكم بين "الملكية" على عهد النبي يوسف(ع) مع وصف الرجل الثاني في الدولة بالعزيز، و"الفرعونية" على عهد النبي موسى(ع)، ومن الآثار نعلم تقلّب الحكومات وأنواعها على مصر بين فرعونية وملكية، مضافا إليه بداية بناء مخازن ضخمة أو متعددة للحبوب في تاريخ مصر القديمة والتي تكفي لمدة سبع سنين، والتي جرت لأول مرّة على عهد النبي يوسف(ع)، حَيْثُ إِنَّ في هَذَيْنِ الْمَوْضُوعَيْنِ مِفْتَاحاً لتحديد الفترة بين النبيين (ع) ويصير التحديد أسهل إن صدق تحديدنا لخوفو على أنه الفرعون المعاصر للنبي موسى(ع).

لِتَحْدِيدِ فترة من تاريخ مصر جرى فيها إنشاء مستودعات عديدة أو كبيرة في عدة مدن، وبناء عليها نحاول تحديد فترة النبي يوسف(ع)، حَاوَلْتُ البحث عن قفزة في تاريخ بناء مخازن الحبوب في تاريخ مصر القديم، وكان مرهقا ومملا لأن المصادر التي وقعت تحت يدي لم تكن مرتبة بحسب التواريخ، وَكَانَ تركيزها على هندسة المستودعات، ولم أصل منها إلى نتيجة "الأني مللت"، والملفت فيها أن غالبية المستودعات لم تكن إِهْرَاءَاتٍ "اسطوانية مرتفعة عن الأرض كالبرج" بل كانت أبنية مستطيلة وبعضها تحت الأرض.

بِالنِّسْبَةِ لكلمتي شك وريب الْوَارِدَتَيْنِ في الآية، الرَّيْبُ هو أوّل وهلة تصيبك من سماع الشيء، حَيْثُ تنكره أو تصدّق به لمجرد سماعك له وبدون أي تفكير. والشكّ هو اختيارك للتصديق أو الإنكار مع إعلانك أنك لم تستند لدراسة أو تفكير. والظن هو تصديقك أو إنكارك لشيء وأنت مستند إلى معلومات أو تفكير به، طبعا هذا وصف لك بغضّ النظر عن صحّة ما استندت إليه وبغضّ النظر عن صحّة أو فساد النتيجة التي وصلت إليها، حَيْثُ إِنَّهَا رُبَّمَا تكون غير مطابقة للواقع. واليقين هو تطابق اعتقادك مع الحقيقة، من تعاملك مع الشيء مباشرة أو من خبر ممن تثق به... فإن لم يطابق الواقع فهو لا يوصف باليقين حتى لو وصفت أنت نفسك باليقين من شدة تأكدك منه. وهكذا صرت تعلم الفرق بين ما اصطلحوا عليه في كتب المنطق عن هذه الكلمات وبين معناها اللغوي الأساسي الأصلي الذي استعمله القرآن بدقة مع تقويمها عبر تحديد استعمال دقيق لها.

(الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ {35})
{الْمُسْرِفُ الْمُرْتَابُ} صفتان موجودتان في:

{الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ}، والجدل هو عموم محاولة كل طرف إقناع الآخر، وتدرجاته تتحدّد من سياق الكلام، من التمسّك بالرأي إلى الليونة، وهنا الكلام عن المتمسكين برأيهم ويحاولون إقناع الآخرين بأن الأمور المميزة المنسوبة له تعالى لا دلالة فيها على صحّة دينه تعالى، و{يُجَادِلُونَ}، {بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ}، بدون أن يحصلوا على شيء قوي يدعم رأيهم، حيث لم يحصلوا على علم يبيّن لهم أن الآيات غير صحيحة، ولم يروا في الآيات أي خلل... وهكذا من دون أي مستند قوي يغلب صحّة الآيات يجادلون فيها بدل أن يُؤْمِنُوا بها!

تُلاحظ أن هذه الجملة هي تفسير عملي للإسراف والارتياب، لأنهم أهملوا الآيات وفرّطوا بها وهذا إسراف، وجادلوا بغير سلطان، ومِنَ الارتياب رفضوا الإيمان، ومِنْ مجرّد عرض الآيات عليهم ومن دون تفكير فيها رفضوها وبدأوا بالجدل فيها.

تتذكّر افتتاحية السورة بكلامها عن المجادلين في الآيات، ووصلت إلى فقرة مؤمن آل فرعون في مقابل بقية آل فرعون المجادلين بالآيات، وهنا حيث أعادت السورة طرح الموضوع الذي تتمحور حوله: المجادلين في آياته تعالى.

هذا الجدال، {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا}، فتصنيف هذا الجدل للآيات عندهم أنه ممقوت بشدّة، وتصنيفه سيّء جدا لدرجة كرهه بشدّة لقبحه.

كذلك، بهذا الجدال بغير سلطان، {يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}، فكلّ من قلبه "أساس فكره ونفسيته" متكبر فيرى نفسه كبيرا أكبر من حجمه الطبيعي، وجبّارٌ يفرض ما يريده، مما يجعل تعالى أساس فكر ونفسية هذه النوعية من الناس مطبوعا حيث تصير طبيعتُه الإنكار للآيات.

صفة التكبّر مع التجبّر تجعلان الشخص صلبا عنيدا لا يقبل إلا بما يقوله هو، وهذا ستصير طبيعته الكفر بالآيات الإلهية.

مِنَ المشتقات الدارجة من معنى الطبع أن تطبع يدك على الطين، أو تطبع على الشمع الذائب، ولكن أصل المعنى في استعمال العرب هو الطبيعة، أي ما يصير عليه الشيء مترسّخا كصفة لا تنفصل عنه.

نتذكّر من العديد من الآيات أنه تعالى صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا بخاصية انطباع القلب، فكلما تكرّرت منّا التصرفات، انطبع قلبنا عليها، حتى يصير الانطباع قويا لدرجة استحكامه بنا، فمن كرّر التكبّر والتجبّر فقد عوّد فكره ونفسيته عليها، وسينطبع قلبه على رفض الحقائق التي تعارض رأيه، ومن درجة الريب أي من درجة أول سماعه بالآيات ومن دون أي تفكير بها يبدأ فورا بالجدل بها ليثبت أنها غير صحيحة... وهكذا يكون تعالى طَبَعَ على قلبه لأنه هو تعالى صمّمنا مع هذه الخاصية. وبسهولة قارنها مع نسبة نزول الماء له تعالى، لأنّ هذه النسبة سببها أنه تعالى هو صمّم هذه البيئة بحيث إذا تجمّعت الظروف المناسبة سينزل الماء...

تَفهم من الآية أننا كلنا تحت سيطرته تعالى، مِنْ قبل أن نخرج إلى الحياة، وأثناء الحياة، وبعدها، لَسْنَا بقدرتنا الذاتية، ولا بقدرة قاهرة لقدرته تعالى ينطبع قلبنا على الإيمان أو الكفر، بل هو تعالى صمّمنا هكذا، وهو سبحانه يسمح بحصول الانطباع.

لاحظ هنا عرض الآيات لما نسمّيه حاليا بدراسات نفسية البشر، "علم النفس"، بينما القرآن شمل أساس الفكر مع أساس النفسية واعتبرهما عاملَيْن مترابطَيْن حين استعمل لهما كلمة "قلب"، وكلمة قلب بمعناها العامّ عند العرب تعني: أساس الشيء وما هو مركزي فيه. معنوياً تشير لأساس الفكر والنفسية فينا، ولأساس ما يجعل الشيء يعمل... وماديا تشير لعضو أو لجهاز... مركزي في الشيء، كالعضو مضخة الدم، وكقلب المحرّك... ولمزيد من التوسع حول كلمة قلب راجع دراسة الآية 127 من سورة التوبة {صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ}.

لن أعرض عليك هنا دراسات علم النفس لأنني لست متخصصا بها بالرغم من سماعي لعشرات المحاضرات الجامعية فيها لأشهر أساتذتها، أو دراسات كلام القرآن عن القلب لأنها تحتاج لتخصص وتفرغ لدراستها، بل سأكتفي بالناحية التي تذكرها الآية هنا، وهي الحالة العامة الأكثر انتشارا في كلام القرآن، وهي الحالة السهلة الواضحة على الفهم من دون تعقيدات الدراسات العميقة والمتخصصة، وهي حالة تراها بسهولة في الآخرين الذين تختلف معهم في الرأي حول أي مسألة كانت من شؤون الحياة العادية، تَعرِض عليهم الحقّ وما هو صائب وحكيم، يَعترضون رافضين، تَنهاهم عن الغيبة، ويَرُدُّون عليك معترضين بأن الذي نتكلّم عنه "بالغيبة" فِعلاً فَعَلَ ما نقوله. فَتَرُدُّ عليهم أنّ هذه هي الغيبة ويجب التوقّف عنها، وأن الكلام عن شيء لم يفعله الناس هو بهتان وأصعب من الغيبة. ويَرُدُّون عليك بأننا لا نقصد أذية أحد بل فقط نخبرك بما فعلوه. فَتَرُدُّ عليهم ويَرُدُّون عليك...

هذا مثال بسيط يريك انطباع قلوب هذه النوعية من الناس على الغيبة، حيث إنّ طبيعتهم صارت استسهال الكلام العاطل عن الناس ولا يقبلون التغيّر عنه، وكثرة تمرسّهم على رفض الحقّ في هذه المسألة، يجعل طبيعتهم "رفض الحقّ" منتشرة على بقية المسائل الأخرى، وكلما تمرّس فكرهم ونفسيتهم على هذا الرفض، انطبع فيهم أكثر فأكثر، حتى يصلوا إلى مرحلة رفض أبسط الحقائق الواضحة عنادا وجحودا...

طبعا من السهل رؤية هذا الخلل الفظيع في الآخرين، ولكن هل يمكننا رؤيته في أنفسنا؟ لا، لأنّ كل واحد منّا يدّعي الليونة والعقلانية! مع أن كل واحد منّا لديه يباسة قلب أمام مسائل يرفض رفضا قاطعا تغيير رأيه فيها مع أنه ظالم فيها، وإذا فرضا اعترف بأنه مخالف للحقّ فيها، فسيرفض إعطاءها أي أهمية معلنا أنه في المسائل المهمّة والكبيرة يتعامل معها بالحكمة والعقلانية.

لا، لأنَّ أيّ يباسة قلب في أي مسألة تافهة، ستترك أثرا في قلبنا "في أساس فكرنا ونفسيتنا"، لأنّ هذه هي طبيعة عمل دماغنا الذي ينطبع متأثرا من تكرار أي شيء نفعله، فمقطوعو الأيدي المستعملون لأصابع أرجلهم للتعاطي مع الأشياء، تنسحب في دماغهم المساحة المخصصة لحركة اليدين وتحتلها ذاكرة آلية حركة أصابع الرجلين. ولهذا ينسب سبحانه لنفسه الطبع على قلوبنا لأنه هو تعالى صمّمنا هكذا.

لو أنت صنعت بيئة تحصل فيها عوامل مسببة لنزول الماء، فأنت أنزلت المطر، وهكذا ينسب تعالى لنفسه تنزيل المطر، والطبع على قلوبنا.

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ{36})
وقال فرعون، ردّاً على كلام المؤمن، وكعرض مسرحي من فرعون أمام ملئه أنه يبحث عن حلّ وسيجده:

{يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً}، اصْنَع لي بناء ضخماً، وهنا يقصد بناء برج، ومن الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ... فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى...} نعلم أنه تبجّح ببناء الطوب في إشارة إلى تقدّمهم في تقنيات هندسة العمارة، وبهذا الصرح، {لَعَلِّي}، مِنَ المتوقّع ومن المفروض أن، {أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ}، لأَصِلَ إلى سبب وجودنا ووجود الكون والإله...

نلاحظ من كلام القرآن عن هامان، أنه هو الوزير الأول لفرعون أو نائبه، وأنه مهندس معماري أو مسؤول عن تنفيذ المشاريع، وفي التاريخ المصري نجد شخصاً باسم قريب جداً باللفظ من "هامان" وكان مهندساً معمارياً للفرعون خوفو، ولمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 24 من هذه السورة.

(أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ{37})
{أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ}، لأَصِلَ إلى ما وراء السماوات لأرى من سبّبها ومن يقف وراء ما نراه، {فَأَطَّلِعَ}، أجِدَ وأنظر، {إِلَى إِلَهِ مُوسَى}، إلى الكائن الفائق الصفات والقدرات الذي يقول عنه موسى، {وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً}، عندما يتم بناء الصرح، وأصعد عليه، فلن أجد إله موسى هناك.

ننتبه لهذه الحركة المسرحية الهزلية من فرعون، فهو يرى نفسه الإله على الأرض كما نقلت عنه الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ}، لأنه الحاكم الآمر الناهي على الأرض، ولديه أعلى الصفات والقدرات من الآخرين، ولكن فرعون يعلم أنه لم يخلق الأرض ولا السماء، والنبي موسى (ع) يقول إنّ خالق الكون هو الله تعالى، فإله موسى هو سبب وجودنا، وسبب وجود الأرض وسبب وجود السماء... فهو وراء أسباب كل ما نراه على حدّ قول موسى، وإن كان هذا صحيحاً، فسأصعد إليه لأراه، ولا أظن أني سأجده.

{وَكَذَلِكَ}، بهذا الذي تسمعه من قوله عن بناء صرح للوصول إلى الإله سبحانه، {زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ}، حيث صار يرى عمله السيئ حسناً جميلاً، واقتراحه الصعود إلى السماء للاطلاع على الإله، بدل النظر إلى أعماله السيئة من ادعاء الألوهية والتسلّط على الناس، وبدل الاقتناع بالآيات من قمل وضفادع... التي يراها وتسبّب الضرر لقومه وهي غير مسبوقة في تاريخهم وليست عادية... وبدل ذلك كما نضع الزينة على الأشياء لتبدو أجمل، ما تمتّع به فرعون من سلطة وقوّة وتقنيات عالية... هذه الأمور زيّنت، جمّلت له إنكاره للآيات الإلهية فلم ير إنكاره لها سيئاً.

{وَصُدَّ} "مبني للمجهول، ضمّة على حرف الصاد" {عَنِ السَّبِيلِ}، لأنّ رؤيته لعمله جميلاً منعته من سلوكٍ على الطريق الإلهي الصحيح، وكما تعلم من القرآن، فإنّ الشيطان يزيّن للناس أعمالهم السيئة ويصدّهم عن سبيل الله تعالى، ولكن أيضاً هم الناس بنفسياتهم وأفكارهم العاطلة يزيّنون لأنفسهم ويصدّونها عن طريق الحق لوحدهم ومن دون وسوسة الشيطان.

{وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ}، وليست الأعمال التي يقوم بها فرعون لمحاربة الدين الإلهي وهو في الحقيقة لا مصلحة له بذلك، {إِلَّا فِي تَبَابٍ}، فقط معطّلة فاشلة في تحقيق ما يريده، حيث أراد من كلامه عن بناء الصرح أن يبيّن لمن حوله أن كلام موسى(ع) وكلام المؤمن من آله غير صحيح، ولكن كيده في كلامه هذا هو تباب وليس نجاحاً بل فشلاً واضحاً.

وكلمة تباب وردت أيضاً في الآية الأولى من سورة المسد {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}.

تلاحظ الآية لم تعلّق على كلام فرعون إلا بقولها إنه كيد في تباب، وبأبسط التفاتة إلى الجبال العالية، سترى أن أي صرح سيبنيه هامان لفرعون، لن يكون أعلى من الجبال، وبدل هذه المسرحية الفرعونية الهزلية من التبجّح بقدراته العالية في هندسة العمارة، المبنية على ما أنجزوه من مسلّات وأهرامات ومعابد وقصور... لو كان فرعون عاقلاً لكان التفت إلى صغر حجمه وحجم بنائه بالنظر إلى الجبال، ولا داعي لهذه المسرحية السخيفة، وليصعد إلى جبل عالٍ.

على كل حال، لا النبي موسى(ع) ولا المؤمن من آل فرعون قالا إنّ الله تعالى موجود ككائن محدّد في السماوات، كرجل أو كائن يجلس هناك، ولكن العرض المسرحي لفرعون عن كونه الإله هنا على الأرض، يستوجب "وبحسب فرعون" أن يكون إله موسى(ع) جالساً في السماء...!

(وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ{38})
{وَقَالَ الَّذِي آمَنَ}، المؤمن من آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه والآن أعلنه:

{يَا قَوْمِ}، يا أيها الذين أنتمي لجمعتهم، {اتَّبِعُونِ}، كونوا على ما أقوله لكم عن دين الله تعالى، {أَهْدِكُمْ}، أضعكم على الشيء الذي يوصلكم إلى، {سَبِيلَ الرَّشَادِ}، مسلك التفكير والسلوك الصحيح السليم، لأنّ السبل الأخرى سبل غيّ والسبيل الذي أهديكم عليه مسلك رجاحة عقل ومعرفة موزونة.

نتذكّر دائماً أن السورة في هذه الفقرة تلفت انتباهنا من هذه الفقرة لنموذجين أمام الآيات الإلهية البيّنة: نموذج فرعون الذي جادل في الآيات الواضحة والأكثر من كافية ليؤمن وأنكرها، ولن يحصل على أي نوع من الدعم الإلهي، ونموذج مؤمن آل فرعون الذي آمن ودافع عن الآيات أمام سخافات جدال فرعون وحاشيته فيها، وسينال الدعم الإلهي.

وبالنسبة لكلمة "آمن" لم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإسلام أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، فآمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كلاهما يعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ{39})
{يَا قَوْمِ}، يا أيها الذين أنتمي لجمعتهم، {إِنَّمَا}، فقط وحصراً، {هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}، التي نحن فيها الآن وهي، {مَتَاعٌ}، هي أمور وأشياء نتمتّع بها وننتفع بها ونستفيد منها، {وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ}، المكان الذي ستدور فيه أمور حياتنا حين تنتهي الدنيا سيكون في الآخر، وهو زمان ومكان نهائي لا تحوّل ولا تبدّل بعده، والآخرة ليست مؤقّتة كدار الدنيا، ولا انتهاء للآخرة ولا موت لنا في الآخرة.

نلاحظ أن المتاع هو عموم الاستفادة من مقومات الحياة الأساسية مع الثانوية من طعام وفاكهة ولباس ومسكن وزينة ومال ورغبات... وهو تعبير أعم من الاستفادة للسعادة، ويشمل الاستفادة العملانية كاللباس الحامي من البرد. ولم يرد في القرآن وصف ما في جنة الآخرة بالمتاع بل ورد حصراً للدنيا في إشارة للفرق بين ما في الدنيا لعموم الاستفادة وبين حصر كل ما في الجنّة بالسعادة منه، ففي جنّة الآخرة الثياب للزينة وليست للاتقاء من البرد، والأكل للتلذّذ به وليس لسدّ جوع مزعج... وكل ما في الآخرة هو فقط لإسعاد المؤمنين.

يعني أي خوف منكم على فقدان ما أنتم فيه الآن مما ترونه سعادة، فهو مجرد متاع مؤقّت، وبعده الموت، وبعده الآخرة الخالدة وهي دار القرار، وفرضاً فرضاً خطر على بالكم أن الإيمان بدينه تعالى سيسبب لكم فقدان متاع الدنيا، وفرضاً حصل ذلك، فإنّ التخلّي عنه للحصول على جنّة خالدة هو أفضل.

وتتذكّر دائماً أن النبي موسى(ع) لم يهدّد حكم فرعون، وبأمر منه تعالى عرض النبي(ع) الدين على فرعون وقومه، ولكنه لم يطلب منه إلا ترك بني إسرائيل يغادرون مصر، وسواء آمن هو وقومه أم لم يؤمنوا، لن يفعل لهم شيئاً، وما أصابهم من ضرر عبر القمل والضفادع والجدب... كان فقط لإقناعهم بترك بني إسرائيل يغادرون. وفعلياً ليس هناك ضرر على فرعون وقومه ولن يفقدوا مما هم فيه من متاع الدنيا أي شيء إن تركوا بني إسرائيل يغادرون، أو إن آمنوا بدينه تعالى.

(مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ{40})
{مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى}، من قام بأعمال سيّئة فلا يحصل على مقابلها، {إِلَّا مِثْلَهَا}، سيّئةً بما يقابلها بالتمام من عقاب وسيكون عقابه عليها بدون زيادة، وتعلم من القرآن أن لكل عمل نقوم به هنا في الدنيا يوجد مقابل له في الآخرة، فالعمل السيّء يقابله نار في الآخرة، وتزداد حرارتها ويزداد إحساسنا بحرارتها كلما كان العمل أسوأ، ولكل عمل سيّء يوجد مقابل مثله مساوٍ له، ولن يزيد تعالى في مدّة ولا في شدّة العقاب، وتلاحظ أنّ القرآن لم ينقل لنا أي اعتراض من الكفار في الآخرة عن الخلود في عذاب شديد كمقابل على أعمالهم السيئة، لأنهم هناك سيرون أنهم يتحاسبون بدقة بدون أي زيادة.

{وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى}، سواء كان الفاعل ذكرا أو أنثى وقام بالأعمال الموصوفة بأنها حسنة جيدة، وقاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، لأنّه خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، عمليّاً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادة نفسّر "عملوا الصالحات" على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إنهم صلّوا وصاموا... وهذا عملياً صحيح، ولكن بالأصل الكلام أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموماً وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، حتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائماً أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به.

هذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلاً سيّء" سيكون في الحقيقة اختراعاً من البشر لصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمراً إلهيّاً.

{وَهُوَ مُؤْمِنٌ}، ما هو دارج في عموم ثقافات الناس عن الإيمان الديني ليس متماشياً مع عموم مفاهيم القرآن، لأن القرآن لا يعرض علينا الاعتقاد بشيء ما على العمى، بل يعتبر سبحانه أن القدرات والقابليات التي فينا من فكر وملاحظة وتمييز بين الحقّ والباطل، كافية لنرى المعلومات المطابقة للحقّ والواقع لنعتقد بصحتها، وهي كافية لنراه تعالى إلهاً واحداً أحداً... قادراً على إعادة خلقنا... ومن الحتمي إعادة خلقنا وإلا لكان خلقنا عبثيّاً... وخذ مثلاً ما نقوله للمسيحيين عن مسألة الثلاثة في واحد أنها جملة لا عقلانية ولا منطقية، فكيف الله سبحانه واحد والنبي عيسى(ع) واحد والروح القدس(ع) واحد، وفي نفس الوقت هم واحد؟ فيقولون إنّ دينه تعالى فوق قدرة عقولنا على فهمه! كمسلمين ورثنا هذا المفهوم وأجريناه على الكثير من المعتقدات والتشريعات، فمن اعترض قلنا له إنّ دين الله لا يقاس بالعقول. وهكذا نسكته بدلاً من تقديم دليل على صحّة ما نقوله؟ بينما لا تجد في القرآن شيئاً من هذا النوع، لأنّ كلّ الكلام الإلهي جاء مع شروحات وتبريرات.

{فَأُولَئِكَ}، المؤمنون العاملون للصالحات، {يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ}، المكان الموصوف بروعة ما فيه من حدائق وبساتين ووسائل الراحة والسعادة، {يُرْزَقُونَ فِيهَا}، يحصلون فيها على أشياء لحاجاتهم ورغباتهم، {بِغَيْرِ حِسَابٍ}، حيث ليس لهم على الله تعالى فرض واجب أن يرزقهم بهذا الشكل الرائع، وأصلاً ليس من الواجب عليه تعالى أن يرزقهم من أصله، وهم بغير حساب بينهم وبينه تعالى يحصلون على الرزق، من فضله، مما قرّره هو تعالى من أجر للمؤمنين العاملين للصالحات.

طاعته تعالى تنجينا من العذاب، وهو تعالى من فضله قرّر إعطاءنا الثواب على الإيمان والعمل الصالح، ولا يمكن لأي أحد أن يقف ويقول: لي حساب معه تعالى لأنني جمعت الحسنات وأريد رزقي عليها، أريد أجري. فهذا ما تنفيه الآية هنا وعموم القرآن.

نلاحظ قول مؤمن آل فرعون عن الذكر والأنثى، ونحتمل منها أنهم في ثقافتهم يجعلون الأنثى أقل قيمة من الرجل، ولكن الأرجح أنها جملة تشير لعموم الناس، فأيّ ذكر وأي أنثى بشكل عام، ومن أي بلد كانوا، ومن أي عرق ولون، إن عملوا صالحاً وآمنوا سينالون الثواب، وإن كنتم "يا قوم فرعون" كعصابة حاكمة ترون أنفسكم متميزين، فهذا وهم، لأن أي ذكر كان وأي أنثى كانت، أسود أو أبيض أو حنطي... فهم مثل بعضهم يتميزون بالإيمان والعمل الصالح فقط وفقط.

ننتبه، بعض الآيات التي وصفت الرزق في الآخرة بأنه بغير حساب، ويستوحي منها القارئ معنى أن الرزق مفتوح بلا محاسبة على كمية ونوعية الصرف، يعني هم آمنوا وعملوا الصالحات ويستحقون الثواب، ولكن سيحصلون على ثواب أعلى بكثير مما يستحقون، ثواب بلا حساب، ثواب مفتوح بلا حدّ بالمقارنة مع ما يستحقونه، وهذا المعنى صحيح ونراه من الآيات التي تتحدّث عن مضاعفة الحسنات بأمثالها وعشر أمثالها وأكثر... وأنه تعالى لديه مزيد... ولكن جملة "بغير حساب" في كلّ القرآن تعني: ليس لهم على الله تعالى فرض واجب، والله تعالى قرّر أن يثيبهم، ولكن هم ليس بينهم وبينه تعالى حساب ليطالبوه به، فماذا قدّموا له تعالى حتى يطالبوه بالثواب؟ وبماذا استفاد سبحانه منهم؟ لا شيء، بل قدّموا لأنفسهم إيماناً بالحقّ وعملاً صالحاً فنجوا من العقاب وهو تعالى من فضله وعدهم بالثواب.

خذها على الاستعمال البسيط عندما تعمل بالأجر وتقول: حاسبوني. فأنت بينك وبين الذين استفادوا من عملك حساب.

بعبارة أبسط نضعها دائماً في ذهننا: لا أحد له فرض واجب على الله تعالى، ولا من أي نوع، حتى من أفنى عمره في العبادة مطيعاً، ولا يصير له فرض واجب عليه تعالى أن يدخله الجنّة، بل هو تعالى وعده بإدخاله للجنة من فضله، وسيفي تعالى بوعده وسيعطيه ما حدّده له من أجر.

(وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ {41})
{وَيَا قَوْمِ}، يا أيها الناس الذين أنتمي لجمعتهم، {مَا لِي أَدْعُوكُمْ}، أشهر وأعلن لكم، {إِلَى النَّجَاةِ}، إلى الخلاص من العذاب الإلهي قبل حصوله، وبينما أنتم، {وَتَدْعُونَنِي}، بما تعلنونه لي بكلامكم عن ترك الدين الإلهي، {إِلَى النَّارِ}!

الآية هنا تطرح مفهوماً قرآنياً عميقاً عن لسان مؤمن آل فرعون، فمن عموم القرآن نفهم أن ارتكاب السيئات يستحق العقاب منه تعالى، والابتعاد عنها يسبّب الابتعاد عن العقاب، فإن لم يكن هناك ثواب حسن منه تعالى للمؤمنين، فعلى الأقل ليكن الهدف الخلاص من العقاب. هذا من ناحية، ومن ناحية الحصول على الثواب من الأعمال الحسنة فهذا شيء يقدّمه تعالى كفضل منه علينا.

تفهمها بشكل أفضل حين يتباهى عليك العامل الأجير المستخدم... أنه لم يخنك وعمل بأمانة، لا، لا يحقّ له التباهي ولا الافتخار بذلك، فهذا مفروض منه وواجب عليه، مثله مثل الزوجة الصائنة لنفسها، مثل الولد البارّ بوالديه، والأب المعتني بعياله الحنون عليهم... فهذه واجباتنا... ومن نفس النظرة تحدّثت العديد من الآيات عن النجاة من النار، فواجبٌ علينا توحيده تعالى وعبادته ومدحه وشكره وإطاعة أوامره... لأنّ خلقه تعالى لنا ومنحه الحياة لنا، ومنحه الوعي والفكر والأحاسيس والملذات... تستوجب منّا بالمقابل أن نكون مؤمنين به سبحانه، ويتبع ذلك نجاتنا من العقاب.

توصيف القرآن للأعمال بأنها صالحة، بـ"عملوا الصالحات"، حاولت في هذه الدراسة أن أشرح لك أنه توصيف لنفس الأعمال بما منحنا تعالى من فكر ونفسية تجعلنا نرى الصالح صالحاً، وأنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح، لتفهم أنه

توافق بين أوامره تعالى وبين رؤيتنا نحن للأمور، وهكذا ترى أننا لا منّة ولا فضل لنا ولا يحقّ لنا التباهي... إن كنّا مؤمنين عاملين للصالحات، فبالأصل والأساس لا يتوجّب عليه تعالى أن يعطينا أي شيء مقابل إيماننا وعملنا للصالحات، وبناء عليه صرّح القرآن مراراً وتكراراً وبتعابير مختلفة أن ثوابه تعالى في الآخرة للمؤمنين فضل منه تعالى، كشيء يمنحه تعالى للمؤمنين وليس واجباً عليه سبحانه ذلك.

(تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ{42})
دعوتكم لي إلى النار حين، {تَدْعُونَنِي}، تشهرون وتعلنون لي، {لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ}، أنكر ألوهيته، {وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ}، أجعل له تعالى شريكاً في الألوهية، وأنا ليس لي علم بوجود شريك له تعالى في الألوهية، فلم ألمس إلا أثراً لإله واحد... ولم يصلني من ذاك الشريك الذي تدعونني إليه أي آية، وليس لي عليه أي دليل.

ودعوتي لكم للخلاص من النار حين أدعوكم، {إِلَى الْعَزِيزِ}، إلى المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... وأنا أدعوكم للإيمان بأقوى وأعلى وأكبر قوّة وقدرات في الدنيا.

ومضافاً لعزّته الفائقة هو، {الْغَفَّارِ}، الذي يغفر بكثرة فيتجاوز عن الذنوب، فلا يأخذ موقفاً صلباً جافاً قاسياً ممن كفر به، بل يسامح من تاب وآمن وعمل صالحاً، وهذه الفرصة متاحة لنا دائماً ليسامحنا عن سيئاتنا.

(لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ{43})
{لَا جَرَمَ}، حتماً وبالتأكيد، {أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ}، إن الذي تشهرون وتعلنون لي به من الاعتقاد بإله آخر، {لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ}، فهي دعوة وهمية لشيء ليس إلهاً حقيقياً. مثلما لو دعوتني إلى عزيمة غداء لن تحصل لأنه لا يوجد أحد سيقدّم الطعام مجاناً هناك... فلا في الدنيا هنا ولا في الآخرة لآلهتهم أي سيطرة، فما معنى الدعوة إلى تأليهها وهي لن تقدّم أي شيء لمن ألّهها!

{وَأَنَّ مَرَدَّنَا}، مرجعنا إلى حيث كنّا، {إِلَى اللَّهِ}، فهو إلهنا وسنرجع إليه تعالى في الآخرة.

{وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ}، الذين بالغوا في شيء ما إلى ما فوق الحدّ المعقول، وهنا المقصود الذين تجاوزوا الحدّ المعقول في كلامهم وإيمانهم وأفعالهم فوصلوا إلى الشرك، {هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ}، هم مع بعض في النار.

(فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ{44})
بعد رجوعنا إليه تعالى:

{فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ}، هناك حين ترون رميه تعالى للمسرفين في النار ستستحضرون كلامي هذا، {وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ}، حيثُ أسحب يدي وأعتمد عليه سبحانه في أمري هذا معكم، ومَا يجري بيني وبينكم من محاولتي لهدايتكم وصلتُ فيه لحدودي القصوى من الكلام معكم، وبعد ذلك لا تعودُ لي علاقة ولا قدرة على فعل أي شيء لكم، وهذا هو تفويض الموضوع إليه سبحانه وهُوَ تعالى سيتصرّف بما يراه مناسباً.

{إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}، الذين مفروض منهم طاعته سبحانه، وهُوَ تعالى يدرك "بمستوى إلهيّ" ويعي معنى صورة ما يحصل معهم، حيثُ لديه دراية شاملة وتفصيلية. سُبْحَانَهُ ليس مثل الكاميرا التي تصوّر المشاهد ولا تفهم معناها، بل يدرك ويعي معنى الصورة، لأنهُ سبحانه يرى كلّ شيء، ويتّخذ القرارات بناء على هذا الأساس.

مَا يجري بيني وبينكم الآن هُوَ تحت مراقبته تعالى، وأنا أحاول هدايتكم بأقصى ما يمكنني قوله، وهذه حدودي معكم، وسبحانه ببصيرته سيفعل ما يراه مناسباً لي ولكم.

نلاحظ أن كلمة "{أُفَوِّضُ}" ومشتقاتها لم ترد إلا مرّةً واحدةً هنا في القرآن.

كلمة {عَبْد} تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة وهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة {عِبَاد} على كلمة {عَبِيد}، حيثُ كأن كلمة {عَبِيد} قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة {عِبَاد} ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، حيثُ كلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن {عَبِيد} جمع {عَبْد}، و{عِبَاد} جمع {عَبِيد}، وهي جمع الجمع، وأثناء الكلام بدقّةٍ تكون الإشارة لمجموعة {عَبِيد} بينهم شيء خاص مشترك، حيثُ تقول الآيات: {عَبِيد}. وردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وتكون لكل العبيد بكل أنواعهم حيثُ تقول الآية {عِبَاد}، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وتكون لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، لأنها تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيدٍ آخرين جاءهم رسول، وعبيدٍ آخرين... وجمع الجمع {عِبَاد}، لذلك كلمة {عِبَاد} ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضحٍ جداً عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

(فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ{45})
{فَوَقَاهُ اللَّهُ}، حيثُ جعل سبحانه مؤمن آل فرعون يتحاشى ويتجنّب {سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا}، لأنهم خطّطوا لأمور سيّئة له وسبحانه حماه منهم.

{وَحَاقَ}، حيثُ التفّ وأحاط {بِآلِ فِرْعَوْنَ}، بأقارب فرعون بالنسب، {سُوءُ الْعَذَابِ}، الضرر السيِّئ، وكما نسرح في عظيم الثواب لأن المثيب هو سبحانه، فكذلك نتصوّر مدى ضخامة الضرر لأنه هو تعالى يتوعّد به.

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ{46})
{سُوءُ الْعَذَابِ} هو: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا}، والعرض يكون لشيء موضع اهتمام، وهنا الكلام عن الذين تتم مجازاتهم، وهم سيكونون معروضين واقفين أمام النار، {غُدُوًّا}، من أول النهار، {وَعَشِيًّا}، من أول الليل، ونجد في الآية 45 من سورة الشورى {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}... وفي الآية 20 من سورة الأحقاف {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ}... والآية 34 أيضاً من سورة الأحقاف {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ}... ففي يوم القيامة وما بعده من أيام الحشر والحساب الفردي والجماعي... يوجد غُدُوٌّ وَعَشِيٌّ، وخلاله سيتم عرض الكافرين على النار قبل دخولهم فيها. ولتصوّر أيام يوم القيامة وحالة الناس فيها فمن المفيد مراجعة الآيات حول الآية 50 من سورة الأعراف كمثال {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ}.

مِنْ عموم استعمال القرآن لهذه التعابير نفهم منها أنها لا تشير حصراً إلى التوقيت بفترتي عرض على النار، بل تشير لدوام العرض، حيثُ بعد يوم القيامة من الموت وطوال أيام الحساب التالية سيتكرر فيها الكثير من الغدو والعشي، وهُم على التوالي وباستمرار يتم عرضهم على النار، مثلما نقول: صُبْحاً ومَسَاءً، لَيْلاً ونَهَاراً.

{وَيَوْمَ}، وفي الزمن الذي، {تَقُومُ}، تتفعّل تحصل، {السَّاعَةُ}، الوقت القصير من يوم طويل، الزمن الذي يحدث فيه حدث فرعي من يوم لحدث أساسي، ومِنْ تكملة الكلام سترى أنها ساعة انتهاء الحساب، لأنَّ الآخرة بالنسبة لنا تبدأ من يوم قيامنا من الموت، وأول ساعة فيه هي ساعة قيامنا من الموت والتي غالباً يشير إليها القرآن بالساعة ومن سياق الكلام تفهم أنها ساعة قيامنا من الموت وهي التي يكفر بها المنكرون للآخرة، ويلي يوم القيامة أيام الحساب وآخر ساعة من آخر يوم حين دخولنا إلى الجنّة والنار، وعندما يصير الزمن المحدّد لشيء ما مفعّلاً، وهنا الإشارة لآخر ساعة من بعد انتهاء الحساب وحين السير بنا إلى الجنّة أو النار، عندها، {أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ}، هو وأقاربه بالنسب، {أَشَدَّ الْعَذَابِ}، الضرر الذي لا يمكن تحمّله ولا الاعتياد عليه، حيثُ يتم رميهم في النار المؤلمة جداً جداً إلى الأبد.

تذكّر دائماً أن كلمة يوم عند العرب وفي الكثير من اللغات الأخرى تعبّر عمّا هو أعمّ من ليل ونهار، لأنها تعبير عن عموم أي فترة زمنية تبدأ بحدث أساسي، وتنتهي بحدث أساسي، حيثُ إنَّ أيام خلق ما في الدنيا بسماواتها السبع وأراضيها وصولاً إلى حالة نشأة الحياة على الأرض، مرّت في ست فترات زمنية، وفي كل فترة حصل شيء أساسي، راجع كمثال الآيات 9 و 10 من سورة فصلت {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ}، ولدينا الكثير من تعابير القرآن والعرب التي يبدو منها بوضوح أن التعبير بكلمة يوم واسع وليس محصوراً بمرور ليل ونهار، حيثُ إنَّ هذا يوم نتّفق على بدايته من المغرب إلى المغرب، كما هو متعارف عليه في المسائل الشرعية... أو من الساعة الثانية عشر ليلاً إلى الثانية عشر من الليل التالي كما هو متعارف عليه حالياً بين الناس... والساعة تشير لزمن حدث فيه شيء فرعي مرتبط بأحداث اليوم. حيثُ إنَّ تحديد الساعة بستين دقيقة هو شيء جديدٌ جداً على البشرية، لأنهُ في حين نزول هذا القرآن كانت ساعات اليوم مطّاطة بتغيّر فصول السنة التي تغيّر مدّة الضحى والظهر والعصر...

بالنسبة لكلمة عرض ومشتقاتها نفهمها مثلما يعرض البائع بضاعته التي يعتقد بأهميتها لمن سيراها. ومثلما تفهم جملة: قدّم له عرضاً. يعني واجهه مع شيء يعتبره مهماً. حيثُ إنَّ التواجه مع النار كونه حدثٌ ضخمٌ مهول، وأهم حدث لهم، لذلك استعملت الآية التعبير بعرضهم عليها، بسبب أهمية موضوع تواجههم مع النار، حيثُ إنَّ أهمية ما يظهر أمامك للتعبير عنه بالعرض عليك لا علاقة لها برغبتك به أو نفورك منه، لأنَّ الأهمية ربما تكون لنفس الحدث حتى لو كان فظيعاً.

كما ترى فإنَّ الآية هنا لا تتحدّث عن عذاب في نار ما يسمونه بعالم البرزخ كما يقول البعض، حيثُ لدينا روايات تقول ذلك، ولدينا روايات تقول بعكس ذلك، ولكن للأسف درجت الروايات التي تخالف صريح القرآن بمفاجأة الكافرين باستعادة وعيهم في الآخرة من بعد موتهم هنا في الدنيا، والآيات عن المفاجأة عديدة منها الآية 113 من سورة المؤمنون {قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ}، فلو كانوا واعين فيما يسمّى بعالم البرزخ ويتعذبون فعندها لا معنى لمفاجأتهم عند رؤيتهم لعذاب الآخرة.

أرجو منك إكمال قراءة الآيات التالية لترى أنها هي نفسها العبارات التي استعملها القرآن ناقلاً لنا مشاهدَ من نار الآخرة، وأنك ستحتاج إلى ليّ وتخمين وافتراض... حتى تجعلها مناسبة لما يقولونه عن نار فيما يسمونه بعالم البرزخ، وأرجو منك مراجعة دراستنا لأي آية أخرى استشهدوا بها لدعم فكرتهم، لترى إن كانوا محقّين.

(وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ {47})
{وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ}، حيثُ أثناء وجودهم في النار يقول بعضهم حججه للآخرين ويقول كلاماً يؤكّد ويبرهن خطأ كلام الآخرين بالحجج بالأدلة، {فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ}، حيثُ يقول الذين كانوا تابعين لغيرهم لأنهم مادياً واجتماعياً وسياسياً... أضعف من غيرهم، يقولون {لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا}، للذين رأوا أنفسهم أكبر من الآخرين بسبب مناصبهم وأموالهم...:

{إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا}، في الدنيا تبعناكم حيثُ كنّا على ما قلتموه لنا، وفعلنا ما قلتم لنا، {فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا}، وهل يمكنكم أن تجعلُونَنَا بالغنى بحيثُ لا نريد، {نَصِيبًا}، قدراً محدّداً، حصّةً محدّدةً، {مِنَ النَّارِ}؟ لأننا نتعرّض للعذاب بالنار ونريد الاستغناء عنه، ولَا نريده، وبما أننا كنّا أتباعاً لكم في الدنيا على أساس أنكم تقولون لنا مصلحتنا وما ينفعنا هل هنا وبطريقة ما يمكنكم جعلنا نتحيّد ولو عن نسبة ما من النار. وكما ترى فإنَّ الكلام عمومي عن أخذ شيء من العذاب عنهم، سَوَاءٌ بتبرّع من المستكبرين ليأخذوا حصّة من عذاب الضعفاء، أو أن المستكبرين كما كانوا هنا في الدنيا هم أصحاب الآراء والخطابات والزعامة... والناس تتبعهم على أساس أن المستكبرين ينتبهون لمصالح أتباعهم، فهل لديكم حلّ ما ولو لتخفيف العذاب عنّا؟

كلمة "غني" تفيد معنى الاستغناء، وهو عموم انتفاء عموم الحاجة لعموم أي سبب، إمّا لأنك لا تحتاج أصلاً للشيء، وهذه حالته تعالى "الغني" بالنسبة لكل شيء، وحالة الملائكة بالنسبة لطعامنا... أو غني لأنك لديك ما تحتاجه وهذه حالتنا حين نملك الطعام والشراب... أو غني لأنك تملك ما يمكّنك من الحصول على ما تحتاج، وهذه حالتنا حين نملك

المال لنشتري به ما نحتاجه. وترى هذا المعنى للاستغناء بشكل مباشر وواضح لأصل معنى كلمة "غني" في تعبير {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} كما ورد في الآية 97 من سورة آل عمران، حيثُ بوضوح يشير الوصف بالغني للاستغناء، إذ لا حاجة له تعالى بهم ولا بإيمانهم ولا يتضرّر منهم مهما فعلوا.

تعبير {فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ}، مثلما نقول: معي الكثير من الطعام، وأنا جائع، لذلك أنا غني، لأنَّ ما أحتاجه معي. ولنقل أني لا طعام معي، وأنا جائع، لذلك أنا بحاجة لما يغنيني ليؤمّن لي الطعام، وبحاجة للمال لشراء الطعام. وبعبارة أدق حيثُ إنني أجوع لذلك أحتاج لما يغنيني حتى لا أجوع، إمَّا أن يكون معي الطعام أو المال لأشتري به الطعام.

هنا إنَّ الضعفاء من المنكرين لدينه تعالى هم في الآخرة يتعرضون للتعذيب، وهم بحاجة لما يغنيهم عن التعذيب حتى يتخلصوا منه، أو على الأقل هم بحاجة للتخفيف من تعذيبهم بتحييد قسم من النار عنهم، لذلك يطلبون من المستكبرين وهم الزعماء والوجهاء... الذين اتبعوهم في الدنيا، ويطلبون منهم إغناءهم ولو عن كمية ما من النار حتى يخفّ العذاب.

الآيةُ هنا تخبرنا بأن من جعل نفسه تابعاً لغيره، وذاك الغير لم يكن على الهدى، هل زعيمه مسؤوله قائده رئيسه... سيأخذ عنه نصيباً من النار؟ أو سيجد له طريقة ليخفّف عنه من عذابها؟ فلنَرَ:

لكن قبل ذلك، إنَّ الآيات هنا درس لكل الذين جعلوا أنفسهم في موقف ضعيف أمام أشخاص وضعوا أنفسهم في موقف التكبّر، حيثُ لا ترى تعابير مشابهة لهذه عند وصف حالة المؤمنين، لأنَّ المؤمنين إخوةٌ، حيثُ إنَّ المسؤول والقائد والزعيم... المؤمن هو أخ لكل بقية المؤمنين، بينما حالة الآخرين أحياناً مختلفةٌ، وللأسف ترى بلداناً من غير المسلمين يتصرّف فيها المسؤولون في الدولة على أنهم مواطنون عاديون بوظائف لخدمة الناس، وترى حكّاماً وموظفي الحكومة المسلمين مستكبرين.

على أي حال، فلا معنى عملياً لتكبّر المتكبّر إن لم تجعل نفسك ضعيفاً أمامه، وفي عموم القرآن تجد تحميل مسؤولية للضعفاء وللمستضعفين وأنه لا تبرير مقبولٌ منهم كعذر لفعلهم السوء متحججين أنهم كانوا ضعفاء أو مستضعفين، حيثُ هناك حالات استضعاف حيث يكون فيها المستضعفون قلّة أمام الآخرين الأكثر والأقوى منهم، والكلام هنا ليس عن هؤلاء حصراً، بل عمومي ويشمل كل الذين اتبعوا غيرهم من المستكبرين، لأنهُ يشمل الذين استضعفهم الآخرون ويشمل الضعفاء الذين اتبعوا المستكبرين بإرادتهم.

لِمزيدٍ من التوسع حول ذلك راجع الآيتين 97 و 98 من سورة النساء {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا، إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا}.

هل الضعفاء مساكين ولا لوم عليهم والحقّ كلّه على المستكبرين؟ لا، لأنَّ الشخص الواحد المستكبر إن لم يكن له أتباع، وإن لم تَقُمْ عصابته بإسكات الآخرين عن أفعاله السيئة، فلن يكون له أي أثر عملي سيِّئٌ إلا على نفسه، لكن المصيبة هم الضعفاء، لأنهم جماهيره وقاعدته الشعبية ومؤيدوه وناصروه وناخبوه... وقوّته الضاربة، وبسببهم يفرض المستكبر سوءه على المجتمع، حيثُ بسببهم صار للمتكبّر أثر سوء فعلي على الآخرين.

(قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ{48})
{قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا}، ردّ الذين كانوا يرون أنفسهم أكبر من بقيّة الناس بمناصبهم ومالهم وهم الزعماء والرؤساء الفاسدون الذين تبعهم الناس، وهنا تكملة الكلام عن النموذج الذي تحدّثت عنه السورة سابقاً من المتكبرين المجادلين في آياته سبحانه، نموذج فرعون وملئه وهامان وقارون:

{إِنَّا كُلٌّ فِيهَا}، بدون أي استثناء فكلّنا في النار، التابعون والمتبوعون، المستكبرون والمستضعفون، {إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ}، أصدر حكمه قراره تعالى في الذين مفروض منهم طاعته لأنه إلههم خالقهم وهو يملكهم.

لا يوجد أي مجال أصلاً لنحمل عنكم ولو القليل من تعذيبكم، لأنَّ الحكم منه تعالى صدر ولا مجال لتغييره ولا التلاعب به، وحتمًا كلّ واحد منّا سيحصل على نصيبه بالتمام من التعذيب.

خذوا علماً من الآن أن المستكبرين الذين تتبعونهم هنا في الدنيا لن ينفعوكم في الآخرة.

بالنسبة لكلمة عباد وفرقها عن عبيد راجع ما قلناه في دراسة الآية 44.

(وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ{49})
{وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ}، للملائكة (ع) الذين يتولَّوْنَ إدارة شؤون المكان الموصوف بسوء ما فيه حيث النار المتأججة، لأنَّ المسؤول عن مخزن أو مستودع أو مستوعب أو مكان لوضع الأشياء فيه يصير وصفه: خازن، كاسم فاعل من التخزين. والكلام هنا عن الملائكة المسؤولين عن تولّي شؤون مكان المرميين في جهنّم، فقال لهم الذين في النار:

{ادْعُوا رَبَّكُمْ}، أيها الملائكة أشهروا وأعلنوا وتوجَّهُوا بالكلام إلى المسؤول عنكم من مستوى إلهيٍّ واطلُبُوا وقولوا أنْ: {يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ}، ليمرَّ علينا نحن الذين نتعذّب زمن نرتاح فيه ولو فترة واحدة فقط. وكما ترى فإنهم بناءً على ما يعلمونه من كرامة الملائكة (ع) عنده تعالى يطلبون منهم الوساطة عنده تعالى لتخفيف العذاب بحيثُ يمرّ ولو يوم واحد من دون تعذيب.

تذكَّرْ أن اليوم وصف لفترة زمنية لها بداية بحدث أساسي ونهاية بحدث أساسي، بغض النظر عن المدّة، فيومٌ من ليل ونهار محصور أوله وآخره بحدث متعلق بحركة الشمس، ويوم من أيام خلق ما في الدنيا هو حدث يعبّر عن مرحلة لحدث أساسي وتنتهي بانتهاء الحدث، ولنقل فرضاً عن يوم تشكّلت فيه المجموعة الشمسية وأرضنا ضمنها، حيثُ حصل هذا قبل أن تصير الأرض وقبل يومها بليله ونهاره، واستمرّ ذلك لمليارات السنين لذلك هو يوم، وهو مرحلة...

هنا الكلام عن يوم ليس بالضرورة أن يشير إلى فترة من ليل ونهار، علماً أن الآخرة مختلفة عن الدنيا ولكن فيها أماكن فيها تعاقب للّيل والنهار، وليس بالضرورة على نفس مقدار زمن ليلنا ونهارنا، لأنَّ اليوم على القمر لدورة كاملة حول نفسه يساوي شهراً من أيام الأرض... على أي حال فإنَّ اليوم في النار هو مقطع زمني محدّد، وربما هو مقطع من التعذيب المتنوّع، وربما هو مقطع من تغيرات متكررة بالزمن لبيئة جهنم...

(قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ{50})
{قَالُوا}، الملائكة (ع) الذين يديرون شؤون جهنّم:

{أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ}؟ حيثُ إنَّ الذين أرسلهم الله تعالى لكم لهدايتكم ألم يأتوا إليكم بالأمور الواضحة التي تدل على الهداية والطريق المنجي من العذاب؟

يعني لن نشفع لكم للتخفيف عنكم ولو ليوم واحد، ونسألكم عن سبب دخولكم النار أصلاً، وهل جاءكم من يخبركم عنها؟

{قَالُوا}، قال أهل النار:

{بَلَى}، ننفي جملة أنه لم يأتنا رسل بالبينات، حيثُ بالتأكيد أتتنا الرسل بالبينات. يعني جاءنا من يخبرنا عن العقاب على السيئات.

{قَالُوا}، قال خزنة جهنّم لهم:

{فَادْعُوا}، أشهروا وأعلنوا وتوجّهوا بالكلام إلى الله تعالى أو اطلبوا منّا أن ندعوه تعالى ليخفّف عنكم، أو اطلبوا من المتكبّرين أن يأخذوا عنكم نصيباً من النار... {وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ}، وليس إشهار وإعلان المنكرين للدين الإلهي، {إِلَّا فِي ضَلَالٍ}، حيثُ لن يصل دعاؤكم إلى أي شيء مفيد لكم، لأنه دعاء في الفراغ بلا فائدة.

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، لأنها لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شراً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضلّ عنك صيدها. استعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، حيثُ لم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم

تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، لذلك لن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى (ع) عن دين فرعون حيثُ إنه ليس على طريقهم، بل ضالٌّ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} رداً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ{51})
{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا}، حيثُ يحقّق سبحانه ما يريده الذين أرسلهم للناس ناقلين لكلامه، {فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، هنا، وينصرهم تعالى، {وَيَوْمَ يَقُومُ}، في الزمن الذي يتفعّل ينتصّب فيه، {الْأَشْهَادُ}، الشهود الذين يشهدون على الناس فيما فعلوه لأنهم الآن معطّلون ليسوا مطلوبين للشهادة في محاكمة الكفّار، وسيتم تفعيل شهادتهم في يوم من أيام الآخرة، والشهداء هم الملائكة والأنبياء والرسل والمؤمنون الذين يشهدون على كفر وارتكاب مجتمعاتهم للسيئات...

السورة تلفت انتباهنا للدعم الإلهي لمن آمن، وفقدان من كفر لأي نوع من الدعم، حيثُ إنَّ لبّ السورة: آيات إلهية، وهناك من جادل فيها، ولن يحصل على أي نوع من الدعم الإلهي لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهناك من آمن وسيحصل على الدعم الإلهي في الدنيا والآخرة.

نلاحظ العديد من آيات القرآن التي تتحدّث عن النصر الإلهي للرسل وللذين آمنوا، وهو نصر له شروط يحدّدها سبحانه، حيثُ في حالة النبي إبراهيم (ع) كان شخصاً واحداً ضد مدينة، ونصره تعالى ونجّاه من النار، وفي حالة الأنبياء نوح وموسى ولوط... عليهم السلام نجد نصراً إلهياً لحالات مستحيلة أيضاً، حيث اقتضت الحكمة الإلهية بالتدخّل لنصرهم، ولكن من الآية 146 وما بعدها من سورة آل عمران نجد فقرة طويلة عن خسارة الرسول محمّد (ع) في معركة أحد، لأنَّ الرسل قد يخسرون في معاركهم، حيثُ هناك حتماً نصر إلهي للرسل وللمؤمنين ولكن بشروط، ولولا تلك الشروط لكان المؤمنون مستهترين، يذهبون إلى الحرب بلا استعداد، وبعدد قليل، ويتخاذل عن الذهاب قسم منهم، ويتخاذل في أثناء الحرب قسم منهم، ولا يضعون الخطط... وهذا غير مقبول، ولهذه الأسباب حصلت هزائم في تاريخ الأنبياء والمؤمنين، وكربلاء نموذج بارز عن ذلك، لأنَّ الناس قسم تخاذل عن النصرة، وقسم خان، وقسم انقلب وشارك في قتل الحسين! وما نفع النصر الإلهي حينها! أينتصر الحسين ليقيم دين الله تعالى على من؟ على أناس لا يريدون الدين، بل ويحاربونه! أو على ناس نيام مطموس على بصرهم وآذانهم من خوفهم من السلطان الجائر! إنَّ الحسين ليس رسولاً ولكنه نموذج مشهور تفهم منه بسهولة أنه لا معنى لنصر رسول ليكون حاكماً على أناس لا يريدونه ولم يؤيدوه... والذين ثاروا بعد الحسين حاملين لرايته هل كانوا فعلاً بغالبيتهم يريدون حكم الله تعالى؟...

إنَّ النصر الإلهي وبحسب معنى كلمة نصر، هو تحقيق ما يريده الرسل، ولا يعني أنهم دائماً منتصرون يغلبون عدوّهم مهما كانت الظروف، لأنَّ هذا غير صحيح، ولا منطقي، حيثُ هناك جهاد حقيقي ومعاناة للرسل وللمؤمنين لتحقيق النصر في الحالات الحربية، ومعاناة مع الناس لإقناعهم بالدين الإلهي... لذلك لا نصر إلهي لمن تخاذل وتكاسل وفشل... حتى لو كان رسولاً، مع العلم أن الرسول سيبذل كل جهده، ولكن إن لم يكن معه مؤمنون مخلصون، لن يحصل النصر لهم، وسيبقى التدخّل الإلهي محصوراً بالرسول.

مِنَ المفيد مراجعة ما ذكرناه في دراسة الآيات التي أشارت لقتل بني إسرائيل للأنبياء، حيثُ لم يثبت لدينا من تاريخ موثوق حصول قتل فعلي لنبي، بل تجد قيام الآخرين بعمل مقصود منه قتل الأنبياء، ولِمزيدٍ من التوسّع راجع كمثال عن ذلك دراسة الآية 21 من سورة آل عمران {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ...}.

طبعاً هذا الكلام عن نصر الرسل في الدنيا، أمّا في الآخرة فالملك للواحد القهّار حيث يقضي تعالى بين الناس بحكمه وحتماً ينصر المؤمنين فقط وفقط.

(يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ{52})
ينصر تعالى الرسل والمؤمنين يوم يقوم الأشهاد: {يَوْمَ}، في الزمن الذي، {لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ}، الذين لم يكونوا منصفين ولا محقّين حين تركوا الدين الإلهي حيثُ ظُلْماً تركوه ولم يكن معهم حقّ بتركه لأنه كان واضحاً، ولن

تنفعهم ولن تفيدهم الأعذار، لأنَّ الأمور التي سيقولونها كأسباب لتركهم للدين الإلهي، لن تنجيهم تلك الأسباب من العقاب ولن تكون أعذارهم مقبولة.

{وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ}، لهم الطرد من الرحمة الإلهية، ولن يحصلوا على المغفرة ولا على الشفاعة.

{وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}، حيثُ هناك مكان تدور فيه شؤون حياة البشر وهو ممتاز رائع وهو الجنّة، وهناك دار سيّئة وهي جهنّم، وللظالمين الدار السيئة.

غالب استعمال القرآن لكلمة ظلم ومشتقاتها جاء على معناها الأساسي لعموم الذي لم يكن معه حقّ ولم يكن منصفاً، وغالباً استعملها القرآن للكلام عن الذين ظُلْماً كفروا بدينه تعالى الواضح أنه حقّ، فلو كان دينه تعالى فاسداً أو غير واضح أنه حقّ وصلاح، لكان معهم حقٌّ بالكفر به، ولكنهم ظالمون، ظلموا أنفسهم، حيثُ لم يكن معهم حقّ ولم يكونوا منصفين حين كفروا بما هو واضح أنه صواب.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ{53})
{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى}، حيثُ صار معه ما يوصل للغاية الصحيحة، عبر كلامه تعالى معه (ع) وعبر الوحي، وعبر التوراة التي أنزلها تعالى عليه (ع)، وعبر الآيات "التي نسمّيها بالمعاجز"... {وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ}، حيثُ إنَّ كتاب التوراة انتقل إلى ذرية النبي يعقوب (ع) الذي يسمّى أيضاً بإسرائيل.

هذه إشارة للامتداد التاريخي للدين الإلهي عبر آلاف من السنين السابقة، ومدعومة بتاريخ مميّز للنبي موسى (ع) المشهور جداً بما حصل معه، ومدعوم بكتاب إلهي يمكن للناس تداوله وقراءته، فأي عذر للكفر بدينه تعالى حتى يقبله سبحانه ممن كفر؟

ما يسمّى الآن بالتوراة هي مجموعة كتب جمعها أحبار اليهود على مرّ التاريخ، وتوراة النبي موسى (ع) بَقِيَ منها الشيء القليل في التوراة الحالية، ويقولون بأن الأسفار الخمسة الأولى الموجودة الآن في كتاب التوراة، هي التوراة المنسوبة للنبي موسى (ع) وبقية الأسفار من تأليف أنبياء آخرين ومن تأليف الأحبار، وبمراجعة الأسفار التي ينسبونها للنبي موسى (ع) ستجد أن غالبيتها الساحقة مقولة عنه (ع) وليست مقولة منه ولا مقولة من الله تعالى، وهذا شيء لا ينفيه اليهود الذين يقرّون بأن التوراة أُحْرِقَتْ وتَلِفَتْ في زمن سبي البابليين، وكتبها من جديد الكاهن "عزرا" ممّا يتذكّره منها "وما أعجبه مما تذكّره"، وكتبها قبل ميلاد السيد المسيح (ع) بحوالى خمسمئة عام، وهذه النسخة هي المعتمدة حالياً والمنتشرة بين الناس...

تلاحظ دائماً أن القرآن اعتبر التوراة ورغم تحريفها، اعتبرها كتاباً فيه أساسيات الدين الإلهي العقائدي والتشريعي، وفي الجانب العقائدي فهي كتاب يدعو إلى توحيده تعالى والإيمان برسله وكتبه وآخرته... أمّا التحريف فَوَقَعَ في التفاصيل، وبالقياس بين الكفر وبين أساسيات الإيمان الذي تطرحه التوراة، فإنَّ الفرق هائل، لذلك يعتبر سبحانه ما في التوراة من أساسيات إيماناً مقبولاً حتى مع وجود بعض الخلل في التفاصيل، ولا أقصد بذلك أنه نوع من التساهل الديني بقبول التحريفات بل أقصد أنها بجملها ورغم التحريفات لا زالت تشير لنفس الدين الإلهي الممتد منذ آلاف السنين.

أيُّ دارس للأديان سيلاحظ بسهولة أن التوراة والإنجيل والقرآن هي كتب لنفس الدين، ولذلك يدرج بين العلمانيين تسمية هذه الأديان الثلاثة بالدين التوحيدي والأشهر منه تسميتها بالدين الإبراهيمي نسبة للنبي إبراهيم (ع).

(هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ{54})
{هُدًى}، حيثُ إنَّ كتاب التوراة يضع على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة، {وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ}، فَمَنْ له لبّ، وليس مجرّد جسد فارغ من الداخل فإنَّ هذه النوعية من الناس تجعلهم التوراة يستحضرونه تعالى في فكرهم ومشاعرهم.

تذكّر أننا لا نزال في حديث السورة عن نموذج مؤمن آل فرعون الذي نجا، وبقية آل فرعون الذين تعذّبوا في الدنيا وسيتعذّبون في الآخرة، وكلاهما كانا أمام الهدى الذي آتاه الله تعالى للنبي موسى (ع) وهو بدوره عرض الهدى على

الجميع، وفيما بعد نزلت التوراة وكانت ميراثاً ينتقل من جيل لجيل في بني إسرائيل، فمن كان له لبّ منهم ومن بقية الناس، فالتوراة كانت هدى له.

تكرّر في القرآن التركيز على بني إسرائيل كورثة للكتاب، علماً أن غيرهم من بقية الأعراق والملل آمنوا أيضاً، وصار لقب اليهود شاملاً لبني إسرائيل ولبقية المؤمنين برسالة النبي موسى (ع)، ولكن حين ركّز القرآن على بني إسرائيل في سورتنا هنا كان يقصد الإشارة لمن كانوا مستضعفين ونجّاهم، وأورثهم الكتاب، وإشارة للامتداد التاريخي الطويل جداً للدين الإلهي. ومن ناحية ثانية لسبب أو لآخر إنَّ العلوم الدينية عند اليهود انحصرت عبر التاريخ ببني إسرائيل، لذلك كان العلماء منهم، ولذلك تجد عامّة خطاب القرآن موجّهاً لهم لأنهم هم تصدّوا أكثر من غيرهم من اليهود للعلوم الدينية.

ننتقل لنقطة ثانية، هل رسالة النبي موسى (ع) كانت عالمية أو مخصّصة لبني إسرائيل؟ مِنَ الآيات القرآنية التي ركّزت على بني إسرائيل، ومن كلام النبي موسى (ع) مع فرعون أنه رسول لبني إسرائيل لإخراجهم من مصر، وتوريث الكتاب لبني إسرائيل... نستوحي أن رسالته (ع) كانت مخصّصة لبني إسرائيل، ولكن حين تفكّر في محتوى رسالته، وتنتبه أن كل الرسل حملوا نفس الرسالة، فعندها ترى أنه لا معنى لتخصيص رسالة النبي موسى (ع) فقط لبني إسرائيل، ونفهم أنه تعالى لم يأمر الرسول موسى (ع) بمهمّة نشر الرسالة عالمياً، وأمره بالاهتمام ببني إسرائيل، ليس لأن الرسالة مخصّصة لهم فقط، بل وكما يبدو أنَّ سببها التركيز على بناء نواة دينية بحسب القدرات المتاحة للنبي موسى (ع).

كلُّ الرسل حملوا نفس الرسالة، ويصحّ نشر أي رسالة منها على كلّ الناس، حيثُ إنَّ رسالاتهم عالمية بالأساس لأنها هي نفس الرسالة، وهناك رسل لم يكلّفهم سبحانه إلّا بقومهم وكان ذلك متعلّقاً بالظروف المحيطة بكل رسول، ومن هنا ترى بروز شخصية النبي محمّد (ع) من بين الرسل، حيثُ إنه بنفسه "وليس صحابته بعد مماته" راسل الأمم المعروفة في عصره ودعاهم إلى الإسلام، وكانت قوّته العسكرية في حينها مجرد قوّة محلية بالكاد تنافس قوّة بعض القبائل العربية...

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ {55})
بعد ذكر هذه النماذج عمّن وصلته الآيات وجادل فيها، نرجع إلى نموذج من نزل عليه القرآن والذين حوله من الناس:

{فَاصْبِرْ}، فَلْتَبْقَ تصرفاتك موزونة عن وعي ودراسة، فمجادلتهم لك بالآيات تسبب الغضب والانزعاج، فاصبر لأن إزعاجهم وإغضابهم لك لن يستمر، {إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ}، فما قال تعالى عنه أنه سيحصل فحتما سيحصل، ووعدك أن ينصرك في الدنيا والآخرة كما نرى من هذه السورة ومن غيرها من القرآن، ووعده تعالى حقّ صواب وليس باطلا فسيتحقّق حتما.

{وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ}، فاطلب منه تعالى التجاوز عن مخالفتك لأوامره.

عصمة الأنبياء

الكثير من المسلمين يعتقدون بأن النبي محمدا(ع) لا يرتكب الذنوب فلا يفعل السوء، فكيف تأمره عدة آيات بطلب المغفرة عن ذنوبه؟ حيث تكرّر هذا الأمر للنبي (ع) بالاستغفار في مختلف سور القرآن، ومنها كمثال الآية الثالثة من سورة النصر {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}، ونفس الكلام يسري على بقية الأنبياء الذين نَقَلَ عنهم القرآن استغفارهم وكمثال عن ذلك قول النبي إبراهيم(ع) المنقول في الآية 82 من سورة الشعراء {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ}.

بعضهم حسم فكرة عصمة الأنبياء بما يراه مناسبا، نافيا وقوع السوء كليا منهم، وبذلك يصير كلام القرآن الكثير عن استغفارهم له تأويلات يُخْرِجُ ظاهِرَ الصريح القرآني عن معناه الواضح... بل بعضهم نفى السهو عنهم، بل وجعلَ كل ما يقولونه وحياً يُوحَى مفسرا بذلك الآية الرابعة من سورة النجم {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}، علماً أن سياق الكلام هناك حصرا عن نقل النبي محمّد (ع) لهذا القرآن أنه وحي...

بالعكس، بعضهم سفّه الأنبياء ولم يستطع فهم طهارتهم العالية ونزّلهم إلى منزلته السافلة وجعلهم بإيمان مهزوز، ومستهترين بشرعه تعالى، ومعترضين على قراراته سبحانه، بل وجعلهم مجرمين كما تقرأ في التاريخ المكذوب على النبي محمّد(ع) ناسبين له قتل ذكور عائلات بأكملها وسماحه لجنده باغتصاب النساء، وهكذا فعلوا قديما بالافتراء على النبي داوود(ع) ناسبين له إعجابه بزوجةِ أحد جنوده فزعموا كاذبين أنه(ع) أرسله إلى معركة بتكتيك خاسر ليضمن موته وبعدها يأخذ أرملته...

لندع أقوالهم ومناقشاتهم وخلافاتهم عن العصمة جانبا، ولنُهْمِلْ ما نتج عنها من تفاصيل كثيرة شائكة كمتاهة يدخل رأسها بذنبها ثم يخرج من بطنها، ولنَنْظُرْ للموضوع من مخزون المفاهيم القرآنية حصرا.

أولاً ضع في بالك أن القرآن لا يغيّر وصف أي عمل، فإن كان عملا حسنا فسيبقى توصيفه حسنا على كلّ حال حتى لو كان الفاعل له كافراً منكراً للإله أو مشركاً "ولا ينال هذا الإنسان على فعل الخير أجرا في الآخرة لأن عمله يَحْبَطُ..."، وإن كان العمل سيئاً فهو سيئ على كل حال حتى لو كان الفاعل له مؤمناً، ولمزيد من التوسّع حول هذه النقطة أحيلك إلى دراسة الآية 60 من سورة الحج {ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} فالعفو والمغفرة للمؤمنين الذين اعتدوا على جماعة من الكافرين بالقتل والسلب، طبعا لأن تلك الجماعة من الكافرين اعتدوا على المؤمنين من قبل، ولكن ما فعله المؤمنون من قتل وسلب يبقى توصيفه سيئاً، ولكنه تعالى يعفو عنه ويغفره لأن المؤمنين تعرّضوا للاعتداء...

حتى لو عن غير قصد صدر من النبي شيء سيئ، وحتى لو كان النبي يقصد الخير ولكن وقع الشرُّ، فبحسب القرآن: لقد وقع السيئ وللنبي علاقة به، فيجب أن يستغفر.

مثلاً عندما اعتبر النبي محمد(ع) والمسلمون أن أرض معركة بدر صارت تحت السيطرة، وبالتالي فلا مشكلة في أخذ الأسرى، وخاصة أولئك المعروفين بأنهم ليسوا من المحاربين، بل هم مجرد تكملة عدد في جيش الكفّار... جاء اللوم الإلهي على ذلك ولعدة أسباب منها "بالتحليل" بأن تخويف وترهيب الأعداء بالشدّة سينفع المسلمين، وإلا فأي كافر لن يكون عنده مشكلة بالمشاركة في حرب ضد المسلمين طالما أن هذا الكافر سينتظر ليرى النتيجة، فإن بدا الانتصار للكفّار شارك، وإن بدا الانتصار للمسلمين فسيرمي سيفه ضامناً بأن المسلمين لن يقتلوه... ومنها "بالتحليل" بأن المعركة انتهت ولكنَّ الحرب لم تَنْتَهِ فما زال الكفّار أقوياء في مكة والطائف وغيرها من المدن، والأسرى الذين تريدون مفاداتهم "أخذ المال من أهلهم لتطلقوا سراحهم" فهم سيلتحقون من جديد بجيوش الكفّار ليقاتلوكم... لذلك كان يجب أن لا تأخذوا أسرى منهم، وفي حينها أمر تعالى نبيّه(ع) بالاستغفار عن ذلك، راجع الآيات 67 و68 و69 من سورة الأنفال {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

مثال آخر في سورة التحريم عندما تعرض النبي(ع) للمضايقة من زوجتين له عندما علمتا بنيته للزواج... نتيجةَ مضايقتهما له قرّر (ع) أن لا يتزوّج، واعتبر سبحانه نبيّه(ع) يحرّم على نفسه شيئاً حلالاً له، وأنه لا يحقّ له ذلك، وأمره تعالى بالاستغفار كما ترى من الآية الأولى من سورة التحريم {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، ويمكنك مراجعة دراستها لمزيد من التفاصيل.

مثال آخر ورد في الآية 43 من سورة التوبة {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ} حيث أعطى(ع) الإذن بالتخلّف عن الجهاد لأشخاص كاذبين أعذارهم ليست صحيحة، ولكنه تعالى عفا عن نبيّه(ع)...

مثال آخر "إن صدقت رواية البخاري" عن الجرائم التي ارتكبها بعض الذين أَمَّرَهُم النبي (ع) على جنود مسلمين، وقتلوا مسلمين آخرين أبرياء... كما فعل خالد بن الوليد بقبيلة جذيمة... وبعدها قال النبي(ع) إنّه يتبرّأ مما فعله خالد... ورغم أنه (ع) لم يقصد السوء فهو يتحمّل مسؤولية عن ذلك لأنه هو عيّن خالداً كقائد للمجموعة... وغيرها من الأمثلة التي لم يقصد بها النبي(ع) القيام بمخالفة أوامره تعالى، ولكنها حصلت وكان له (ع) علاقة بها ويجب عليه (ع) الاستغفار منها.

مثال آخر صريح تراه في تحمّل النبي موسى(ع) للخطأ غير المقصود بتولية النبي هارون(ع) مسؤولية القيادة في أثناء غيابه لأربعين يوماً، حيث لم يستطع النبي هارون(ع) منع بعض بني إسرائيل من عبادة العجل... وتقرأ ذلك في الآية 151 من سورة الأعراف {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}.

إذاً، فعل السوء يبقى توصيفه سيئاً حتى لو فعله النبي بغير قصد، ويجب على النبي الاستغفار منه.

ضع في بالك ثانياً أنك تكره بعض السيئات فلا تفعلها كرهاً بها، وفي المقابل هناك بعض السيئات التي تحبها، بالرغم من علمك بسوئها، وهذا حال عموم الغالبية الساحقة من الناس، ولكن هناك نوعية عالية من الناس الذين يكرهون كل ما يعلمون بسوئه، وهؤلاء الذين يتواصل معهم تعالى فيصيرون أنبياء، ويوظّف سبحانه البعض منهم ليصيروا رسلاً، ففيهم صفة الإيمان العالي وصفة الصلاح العالي، ولذلك فهم جديرون بحمل لقب: خليفة الله سبحانه. فهم نماذج راقية كمنارة للاقتداء بهم.

أنا لا أصلح لدعوة الآخرين إلى الإيمان الحقّ ولا للعمل الصالح، لأن الآخرين سينظرون إلى سلوكياتي، وسيرونني منظّراً أطلب منهم الالتزام بما لم ألتزم به أنا شخصياً! فينفرون منّي، بل لن يحترموا كلامي ولا ديني الذي لم يقنعني أنا للالتزام به، ومعهم حقّ... وهكذا ترى الفرق بيني وبين الأنبياء كمنارة "نور وهدى وحكمة..."، ونختصر كل الأوصاف القرآنية للأنبياء بالآية الرابعة من سورة القلم {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} الواصفة للنبي محمّد(ع).

نرجع لمنارات الهدى، وهم الأنبياء لأنهم يكرهون السيئات، فكرههم لها هو الرادع الداخلي لديهم حتى لا يفعلوها، ولكن هذا الحال لا ينفي فعلهم للسوء بغير قصد، ولذلك ترى تصاريحَ قرآنيةِ عن ضمانه تعالى لوصول كلامه للناس عبر رسله بالتمام، فيتدخّل سبحانه رافعاً احتمال الخطأ غير المقصود حتى يضمن تمثيل الخليفة له تعالى على أكمل وجه، ونضرب على ذلك مثالين، الأول ما ورد في الآية السادسة من سورة الأعلى {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى} التي تخبرنا عن تدخّل إلهي بذاكرة النبي محمّد(ع) حتى يصلنا القرآن بالتمام والكمال.

المثال الثاني تراه من مراجعة الآية 21 وما بعدها إلى الآية 26 من سورة ص {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}، حيث تدخّل سبحانه سلفاً بإرسال ملكين قبلما يتعرض رسوله داوود(ع) لحادثة فعلية يحكم فيها بين المتخاصمين قبل سماع كلا الطرفين...

نعم هناك التدخّل الإلهي لضمان تمثيل الرسل "كخليفة" على التمام، وضمان وصول كلامه تعالى لنا بالتمام، وهناك تدخّل إلهي لبقاء أنبيائه منارة للهدى، فيساعدهم سبحانه على تجنّب السوء، وإلا فسينفر الناس منهم ويكرهون دينهم إن رأوهم يفعلون السوء، أو سيلتف الناس حولهم كمنافقين مدّعين للحقّ والصلاح مع علمهم بسوء قائدهم مثل حالة مسيلمة الكذّاب المدّعي للنبوة في آخر حياة النبي محمّد(ع)، حيث رفض فرع ربيعة من العرب "الذين منه مسيلمة"، رفضوا أن يكونوا تابعين للنبي محمّد(ع) المتولّد من فرع مضر من العرب... وهذا بحث آخر فكلامنا هنا حصراً عن الحق والصلاح.

هل هذا التدخّل الإلهي هو عصمة إجبارية منه سبحانه لمنع أنبيائه من ارتكاب السوء؟ لا، ونعم. لا لأنهم هم بالأصل كارهون للسوء، فلن يفعلوه عن قصد، وتبقى مسألة فعل السوء عن غير قصد، ومسألة درجة الحكمة في التطبيق العملي للحقّ، وأحيلك للتوسّع في هذه النقطة إلى دراسة الآية {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ} الواردة في الآية 79 من سورة الأنبياء، حيث ترى نبيين قضيا بحكمين مختلفين في نفس القضية، ولكن حكم أحدهما كان أنسب من الآخر...

بالنسبة لفعل السوء عن غير قصد، فيبدو من القرآن أنه سبحانه لا يتدخل في كل كبيرة وصغيرة مانعاً أنبياءه من فعل كل سوء، وهذا واضح من النتيجة حين يأمرهم سبحانه بالاستغفار الذي لا معنى له لولا حصول السوء، وبالتحليل نرى أسباباً عديدة لذلك، منها أن السوء لا يكون من النوع المؤثّر على بقاء النبي كمنارة للهدى، ومنها صحة اعتراضنا على عصمته تعالى لأنبيائه "غصباً عنهم" ضامناً لهم بذلك دخول الجنّة، وتاركاً لنا بلا عصمة مع احتمال لدخول النار، فليعصمني أنا وسأصير تقياً كالأنبياء.

كما تعلم القرآن يصرّح بمساعدة الأنبياء على تخطّي السوء المؤثّر على صفة تمثيلهم له تعالى كخلفاء، ويصرّح أيضاً بمساعدة كل من يريد الاهتداء كائناً من كان، وتقرأ ذلك في عدة سور منها الآية 43 من سورة الأحزاب {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً}، بضمها مع الآية 122 من سورة الأنعام {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا}، والآية 28 من سورة الحديد {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ}، فهذه المساعدة العمومية حيث يصير للمؤمن نورٌ يرى به الحقّ، فهذه المساعدة تشتدّ وتخفّ مرتبطة بمدى شدة قرار كل واحد منّا على التقوى، وبذلك يستحقّ بعض الأشخاص مساعدة من الدرجة العالية، والآخرون ينالون مساعدة بدرجة أقل، وهكذا وصولاً إلى عُمْيِ القلوب الذين لديهم قرار صلب بكره الحقّ والصلاح، فلا منفعة من أي مساعدة لهم.

الكلام يجرّ الكلام، فلماذا الذين أصلاً يكرهون السوء سينالون عناية إلهية متميزة لتجنّب السوء غير المقصود، بينما أنا بأمسّ الحاجة للمساعدة العالية وأنال مساعدة خفيفة؟ الجواب واضح، فطالما هناك سيئات كثيرة أعرفها وأحب فعلها، فما معنى مساعدتي على تركها وأنا أصلاً غير راغب بتركها، بل أرغب بفعلها! فسأنال مساعدة عبر طرق عديدة ولكني لن أكترث، فيعظني أحد ما، أو أقرأها صراحةً في القرآن، أو تحدّثني نفسي ناهية عن السوء، أو يتعثّر فعلي للسوء ولكنّي أصرّ على فعله، أو يصيبني مكروه من فعل السوء... عادةً أغمض عيني عن المساعدة الإلهية الواضحة وأكمل مع رغبتي بفعل السوء.

أما المؤمنون من الدرجة العالية فهم أصلاً لا يحتاجون لهذا القدر من المساعدة الإلهية لتجنّب السوء، ووصف العناية الإلهية بهم لمساعدتهم بأنها من الدرجة العالية فهي معكوسة علينا على معنى كثرة المساعدة، فنحن متوسطو الإيمان ننال يومياً مساعدات جمّة، فوصفها بالعالية نسبة لنوعيتهم هم كأشخاص ترفّعوا عن الإثم والفواحش، وصارت مساعدتهم على تجنّب الخطأ غير المقصود.

بقيت نقطة مرتبطة بالكلام السابق كلّه، فهل هناك أشخاص حدّدهم تعالى "مزاجياً" ليجبلهم على التقوى فيصيروا فيما بعد مؤمنين من الدرجة العالية وأنبياء، ولم يختارني أنا؟ لا، فبعلمه تعالى بالغيب علم بما سيصير عليه كل الناس، وعلم أني أنا حتى لو نلت العناية التي نالها موسى(ع) وعيسى(ع) ويحيى (ع)... منذ لحظة ولادتي، حتى لو تكلمت في المهد، وحتى لو نزل عليّ الوحي، وحتى لو عرجت إلى سدرة المنتهى... فهذا لن يجعل الكافر مؤمناً أبداً، وأنا لن يتغير إيماني وتقواي ليصير من الدرجة العالية، وربما يتحسّن إيماني ولكن هذه الأمور وأمثالها لن تكون أبداً سبباً لصيراني مثل الأنبياء في التقوى والإيمان، فإيمانهم العالي وتقواهم العالي نابعان من قرار داخلي لديهم باتباع الحقّ وتجنّب السوء، ولمزيد من التوسّع حول هذه المسألة راجع دراسة الآيات 90 وما بعدها من سورة الإسراء {وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً}، حيث سترى وبكل وضوح أن ما يسمّيه الناس بالمعجزات، فإن حصلت أمامهم مراراً وتكراراً ويومياً وبالعشرات، فالذين لديهم قرار عميق بكره الحقّ وحبّ السوء، فهؤلاء لن يصيروا مؤمنين ولا بأي شكل.

أمّا الأنبياء والصالحون من الدرجة العالية فالعناية بهم نفعتهم، وتقرأ مختصر هذا ومختصر كل الكلام السابق بكل نقاطه، تقرأه فيما نقله القرآن من كلام النبي سليمان(ع) المنقول عنه في الآية 40 من سورة النمل {قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}، فالقدرات غير العادية المتاحة له (ع) قد تجعله يهوي مغتراً متكبراً... بل ومدعياً للألوهية في أقصى درجات السوء كما حصل مع فرعون النبي موسى(ع) الذي فقد عقلانيته بسبب القدرات الهائلة التي تمتّع حكمه بها.

الخلاصة، هناك مؤمنون من الدرجة العالية وهم لا يفعلون السوء لأنهم يكرهونه، ويتواصل سبحانه معهم بالوحي فيصير وصفهم "أنبياء"، ويوظف سبحانه البعض منهم رسلاً، ويتدخّل سبحانه مانعاً حصول أي خطأ منهم ومؤثراً على توصيفهم كخليفة له سبحانه، ومؤثراً على نقلهم لكلامه تعالى للناس، وذلك حتى يصل كلامه سبحانه بالتمام للناس.

كل البشر ينالون مساعدة إلهية لتجنّب "الكفر والشرك" وفعل السوء، ولكن هذه المساعدة تنفع بمقدار القرار الذي نتّخذه نحن كراغبين أو رافضين لفعل السوء.

كما ترى تناولنا مسألة ما يسمونه بالعصمة قرآنياً بطريقة مختلفة عمّا هو متداول في الكتب من تعاريف للعصمة، ومن حشو عقائدي مذهبي في المسألة، ذلك الحشو الذي يظهر منه ترك كلامه تعالى الواضح وَلَيِّهِ بالتأويل والبواطن لهثاً خلف المصالح الشخصية وحبّ التميّز والفرقة بين المسلمين... بأهواء ترسّخت حتى أعمت القلوب، وأقصد بذلك الغالبية الساحقة من كل علماء المسلمين من كل طوائفهم.

لم أُطِلْ عليك هنا بذكر مقولاتهم المنتشرة كمرض السرطان كتباً ومحاضرات ومنشورات... ولها جمهور غفير من العُمْيِ محبي الفتنة والتميّز عن الآخر... فهم المدّعون للحقّ الذين صاغوه على مزاجهم، الرافضون للحقّ الصريح من قرآنه تعالى.

مسألة العصمة عندهم لها تفرعات وارتباطات دينية مذهبية واجتماعية وتاريخية وسياسية ومالية... كلها متداخلة ويتم تعديل تعريف العصمة وبحوثها وتشعباتها بناءً على توافقها مع أهوائهم.

ربما يكون أسوأ ما أقحموه في بحوثهم تلاعبهم بتعريف العصمة وأبحاثها لتنحصر بقدّيسهم وتسفيهِ قديسي الآخرين من المذاهب الأخرى، على أساس أن قدّيسيهم منصوص عليهم بالعصمة منه تعالى، علماً أن نصوص التنصيب هذه معلوم تأليفها في أزمنة متأخرة جداً من بعد وفاة النبي محمّد(ع)، بل وتلك الروايات متعارضة حتى مع التاريخ التطبيقي للتنصيص بالاسم على الأشخاص حيث تفرّعت الإمامة متشعبة، وأبسط مثال عن ذلك مسألة الاسماعيلية فلو كان النص بالاسم سابقاً على الحادثة فَلِمَ بدا لله تعالى بتغيير الإمام...

من الجانب الآخر لدينا العكس، فلدينا مصيبة توسعة تعريف العصمة أو بالدقة توسعة تطبيق مفهوم العصمة عند بعضهم ليشمل المنافقين والفاسقين والمجرمين بحجّة أنهم تواصلوا أو رأوا رسول الله محمّد(ع)، فكل الصحابة معصومون!

أوضح مثال على ذلك كلام بعضهم عن شخص اسمه بسر بن أرطأة، وهو مجرم في رقبته الكثير من أبرياء المسلمين وأعراضهم وأموالهم، حيث أوكله معاوية بن أبي سفيان بالغارات الوحشية على المسلمين الموالين للإمام علي... ونقلوا له حديثاً انفرد به عن الرسول(ع) في حرمة حدّ السارق إذا كان مسافراً! فإذا سرق أثناء السفر فلا يتم قطع يد السارق! ودفع بُسْرٌ بذلك حدّ قطع يد سارق كان مسافراً معه... ومعلوم بلا نقاش أن بُسْراً هذا كان طفلاً حين مات النبي(ع)، وجعله البعض ملحقاً بالصحابة على قاعدة: كل من رأى النبي(ع) فهو صحابي، وله حرمة الصحابة العظام "المعصومين"... ورغم إجرام بسر، صار لزاماً عليك احترامه، والاعتقاد بهالة قدسية صحبته، والتسليم بحديثه لأنه من المعصومين.

نهاية الكلام، اختصاراً لعموم مذاهب المسلمين بتسمية الشيعة والسنّة كما هو دارج، فهؤلاء بينهم عقلاء محترمون مسلمون حقاً، نابذون للفرقة، متمسكون بالقرآن... ولكن صوتهم الخفيف الخائف غير مسموع، فهو ليس بمرغوب لأنه لا يدغدغ العصبية المذهبية وحبّ التميّز عن الآخرين "ونزعة الإجرام" عند الجماهير التابعة لزمرة مستفيدة من استمرار تباغض وتناحر المسلمين، فهؤلاء يتغذون على دماء المسلمين بالتربّع على عروش الرئاسة والاستفادة مالياً ومعنوياً من شدّ العصبية لاستمرارهم في مناصبهم وصفاتهم كعلماء "مدافعين عن الدين الأصيل"، وكسياسيين بمناصب حزبية أو حكومية، وكلّهم من الطرفين السنّي والشيعي يدّعون دفاعهم عن المذهب الحقّ!

(إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ {56})
تعرض السورة سبباً من الأسباب القلبية الكامنة في المجادلين بالآيات:

{إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ}، الأمور المميّزة المنسوبة له تعالى يحاولون إقناع الآخرين بأنها غير صادقة، {بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ}، من دون أن يكونوا حصلوا على شيء قوي يجادلون على أساسه، بغير علم وبلا خبر من السماء وبدون أن يظهر أي ضعف في الآيات الإلهية... هؤلاء، {إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ}، فلا يوجد في مركز تفاعلهم مع ما يتعرضون له إلّا شعورهم بأنهم أكبر من أن يؤمنوا بالآيات الإلهية، فهم لا يجادلون ليصلوا إلى الهدى بل ينطلقون من

الجدل وراسخةٌ عندهم رؤيتهم لأنفسهم أكبر من الاعتراف بدلالة الآيات الإلهية، {مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ}، فلن يصلوا إلى الكبر الذي يشعرون به لأنهم أصغر من قيمة الآيات الإلهية.

حالتهم مثل حالة الذي يأبى الاعتراف بالحق لأنه سيعتبر نفسه مهزوماً، ويصرّ على رأيه مخالفاً الحقّ الذي تقوله له حتى لو كان واضحاً فساد كلامه ولديك الأدلة وهو ليس لديه أي شيء يثبت فيه صحّة رأيه، فهذا هو الكبر الذي تصفه به الآية، حيث يرى نفسه أكبر من الاعتراف بأنه أخطأ.

{فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ}، التجئ إلى صاحب الاسم المحدَّد المميَّز الله تعالى وأنت تعتقد بأنه يحميك من كل شر، والكلام هنا عن حمايته تعالى من شرّ جدالهم وتكبّرهم وتكذيبهم...

{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ}، الذي يسمع كل شيء ويسمع جدالهم، وهو {الْبَصِيرُ}، يُدرك "بمستوى إلهي" ويعي معنى صورة ما يحصل، فهؤلاء المجادلون هم تحت المراقبة الإلهية وليسوا على راحتهم كما يبدو لهم.

لاحظ بداية السورة حين افتتحت كلامها عن المجادلين بالآيات الإلهية، وعادت في الآية 35 لتشير لنفس الشيء، وهنا أعادت التذكير بمحور السورة عن المجادلين، وتخبرك عن السبب النفسي والفكري المانع لهم من الإيمان بالآيات، وهو التكبّر.

في دراسة الآية 35 من هذه السورة توسعنا قليلاً بالكلام القرآني بما نسمّيه "بعلم نفس" الكفّار فراجعها.

بقي شيء، فسبحانه في كل كلامه يتحدّث معنا بشفافية، وهنا مثال عن ذلك، فالمجادلون في آياته لا يحسم سبحانه لنا وصفهم بالكذب، مع أنهم يكذّبونه هو سبحانه، فلا يأمرنا سبحانه بتصديق كلامه في قرآنه وتكذيب الآخرين على العمى، بل يسألهم سبحانه عن السلطان، عن الحجّة، عن المستند... وهذا ليس سؤالاً مسرحياً بسبب أن الجواب معلوم، لا، بل سبحانه بشفافية يتحدّث في كل الأمور، فحتى وحدانيته تعالى عن الشركاء حدّثنا عنها بشفافية سائلاً المشركين عن علمهم بآلهة أخرى غيره تعالى بينما هو سبحانه لم يلمس أي أثر لإله غيره، فكيف هم علموا بها والله تعالى لم يعلم بها وهو خالق السماوات والأرض، وتقرأ ذلك في الآية 33 من سورة الرعد "... {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ}...". وهنا الكلام في الآية على نفس مبدأ الشفافية، فلا يأمرنا سبحانه على العمى بتكذيب المجادلين في آياته، بل يلفت انتباهنا أن لا ننخدع ولننظر إن كان لديهم سلطان فيما يقولونه، لننتبه لكلامهم الفارغ.

(لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ{57})
{لَخَلْقُ}، إن تأليف وتركيب، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وهذه هي حدود كلّ الدنيا التي فيها المخلوقات، بسماواتها السبع التي تقابل كلاً منها أرض أو أراضٍ، {أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ}، فهؤلاء المجادلون إن كانوا يرون أنفسهم كباراً ولا يرون سوى ذلك فلينتبهوا لأنهم مجرد مخلوقات قليلة العدد، محدودة القدرات، وتفاصيل تعقيدات تركيبهم أصغر وأقلّ بكثير إذا قارنتهم مع خلقه تعالى للسماوات والأرض، فما معنى تكبّرهم على آياته تعالى وهم وبمقارنة بسيطة مع الأرض التي يعيشون عليها والسماء التي يرونها والسماوات التي يسمعون عنها، يمكنهم من ذلك الانتباه لصغر خلقهم، فعلى ماذا التكبّر؟! {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}، لأن معلومة أنهم مجرّد مخلوقات صغيرة ليست من قناعاتهم، ولذلك يشعرون بالكبر والتعالي.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائماً أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}... وهي إشارة إلى وجود سبع أَرَضِينَ مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراضٍ "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراضٍ.

درج بيننا أن خلق الإنسان هو نهاية تطور الكون، حيث وصلت الطبيعة في "تطورها" إلى مرحلة تشكيل الخلية الحيّة، وبعدها التطور الأخير والأعظم ببروز الإنسان بوعي وأحاسيس وفكر... وهذه المعلومة راسخة في ذهننا بشكل قوي، وهي كما ترى تتعارض مع ما تقوله الآية، فحتى لو كان ظهور الإنسان في الآخر بحسب الترتيب الزمني لخلق الكون بالنسبة لنا، فهذا لا يعني أنه قمّة ونهاية التطور بالنسبة لكل شيء، فما نحن عليه حالياً هو بالنسبة لنا تطوّر عن حالات سابقة، وليس تطوّراً يفوق ما عليه كل بقية الكائنات، والآية هنا بكل وضوح تشير لصغر خلقنا بالمقارنة مع خلق السماوات والأرض، ولو قارنت خلقتنا مع قدرات الجنّ المخلوقين قبلنا من نار، أو مع القدرات الهائلة للملائكة (ع) لرأيت كم نحن صغار.

هذا من ناحية المقارنة مع الكائنات، ولكن الكلام هنا أعمّ من ذلك، فنحن لا ندري إلا القليل جداً عمّا في بقية السماوات، ولكن لدينا معلومات كثيرة عن أرضنا وسمائنا، وبالمقارنة بين التفاصيل المرتبطة بخلقتنا وبين التفاصيل والأحجام والأعداد... المرتبطة بخلق السماء والأرض بما فيها من أشياء وظواهر، يبدو بوضوح أن خلقها أكبر من خلقنا، فتميّزنا بما يؤهّلنا لتلقّي التكاليف الإلهية من وعي وفكر وإرادة... وقدرات مختلفة ومتنوّعة على فعل الأشياء، ليس أكثر من ميزة سبّبت تسخير كائنات وظواهر لنا، أمّا بالنسبة لتعقيد خلقتنا التي نحن عليها، فعلى الأقل لننظر لما سبقها من مراحل تكوين بيئتنا التي نتجنا عنها، فتصميمها وخلقها أكبر من خلقتنا، وخذ مثلاً تكوين كوكب الأرض بتفاصيله الهائلة من جيولوجيا وكيمياء وميكانيكية وبيولوجيا... في موادّها وباطنها وقشرتها وغلافها الجوي... وهكذا ترى نموذجاً واضحاً عن خلقتها التي أكبر من خلقتنا، فعلى ماذا التكبّر؟ وعلى من؟ على آياته تعالى!

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ{58})
{وَمَا يَسْتَوِي}، فليسا في نفس المرتبة والاعتبار، فلا يتساوى {الْأَعْمَى}، الذي لا يرى، وهنا المقصود به أعمى القلب الذي لا يرى الآيات الإلهية فيتكبّر ويجادل فيها فهو لا يستوي مع {وَالْبَصِيرُ}، الذي يرى الأمور ويفهمها، فيرى الآيات ويؤمن بها.

{وَمَا يَسْتَوِي} فليسا في نفس القيمة والاعتبار، ليسا متساويين، {الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا اعتقادهم به تعالى وبتوحيده... {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، خلقنا سبحانه مع القدرة على تمييز الصالح من الفاسد وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بأنها صالحة حسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح فعملياً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى، وهذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى، أو أن ما ظننت أنه أمر إلهي فهو في الحقيقة اختراع من البشر وليس أمراً إلهياً.

{وَلَا الْمُسِيءُ}، لا يتساوى المؤمن العامل للصالحات مع الذي أساء في إيمانه وعمله، فكان اعتقاده وعمله سيّئَين.

{قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ}، فهناك أمور كثيرة يمكنكم استحضارها في فكركم ومشاعركم ولكنكم قليلاً ما تستحضرونها، فتنسونها ولا تهتمون بها إن عُرِضَت عليكم، ومنها الفرق بين المؤمن والمجادل، والفرق بين البصير والأعمى، والفرق بين آيات الله عزّ وجلّ وبين الكلام الفارغ...

تذكّر دائماً أن القرآن لا يقصد الإعابة والتقليل من قيمة فاقد البصر باستعماله صفة العمى، فكلامه ليس عن الخلل في العين وتوابعها... بل عن عمى قلوب بعض الناس عن رؤية الآيات الإلهية، العمى عن رؤية الحقّ، فقلبهم أعمى، أمّا المؤمن الفاقد للبصر فقيمته معلومة من سورة عبس فراجعها.

(إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ{59})
{إِنَّ السَّاعَةَ}، إن الزمن القصير من يوم طويل، وغالباً يشير بها القرآن إلى أول ساعة من يوم قيامنا من الموت في الآخرة، فهي الساعة التي ينكرها الكافرون بالآخرة، {لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا}، فحتى أقل احتمال بأنها لن تأتي فهو غير موجود، حيث حتماً ستحصل ولا يوجد ولا أي شيء يدل على عكس ذلك، فأوّل ما تُعرَض عليك هذه الفكرة فمن

المفروض أن تؤمن بها لأنه تعالى حسم أمرها وسيفعلها حتماً، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ}، لا يعتقدون بأنها حتماً قادمة.

نتذكّر دائماً أن أول يوم بالنسبة لنا من أيام الآخرة هو يوم قيامتنا من الموت، وأوّل ساعة فيه طبعاً هي ساعة قيامنا من الموت، ويلي ذلك أيّام وساعات آخرها ساعة دخولنا إلى النار والجنّة.

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ{60})
{وَقَالَ رَبُّكُمْ}، قال المسؤول عنكم من مستوى إلهي:

{ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}، أشهروا وأعلنوا لي، أني إلهكم الواحد الأحد، والكلام هنا يبدو عمومياً شاملاً للدعاء على معنى طلب أمور منه تعالى لتحقيقها لنا، ولكنه عن خصوص إعلاننا الإيمان به تعالى، والاستجابة منه سبحانه عن متعلقات إعلاننا لإيماننا به، ومحور الكلام عن النجاة من العقاب في الآخرة.

أقول لك هذا لأننا وبسبب أدبياتنا الدينية الثقافية المفسّرة للقرآن من دون النظر لسياق الآيات، فسوف ينصرف الذهن إلى الدعاء على معنى طلب أشياء منه تعالى لتحقيقها لنا، بينما الغالب الأعم من مقصد القرآن باستعمال كلمة دعاء ومشتقاتها كان لعموم أي إشهار وإعلان وخصوصاً فيما يتعلّق بإعلاننا لتوحيده سبحانه. وما مرّ معك في هذه السورة من استعمال لعدة مرات لمشتقات كلمة دعاء يريك بوضوح ما أقوله لك.

ترى المعنى بسهولة لو قارنتها مع من يدعو فيعلن ويشهر بأنه لا يعترف به تعالى إلهاً أو يدعو آلهة غيره سبحانه، فهذا في يوم الحساب "وهو محور الكلام هنا"، فلن تستجيب له آلهته لتنصره وتنجيه من جهنّم، وبالعكس فمن دعاه تعالى معلناً توحيده، فهذا سيجده تعالى مستجيباً له في الآخرة ليغفر له ويعفو عنه ويكفّر سيئاته...

لو أخذنا الآية على عموميتها "غير المقصودة من السياق" وفهمنا أنها للدعاء له تعالى لتحقيق ما نريده من أمور لها منفعة دنيوية من رزق وشفاء... فننتبه دائماً، أن القرآن لا يقول إنك إذا دعوته تعالى ليحقّق لك أموراً تريدها هنا في الدنيا فحتماً سيحقّق سبحانه مطالبك، لا، لا، هذا غير صحيح، بل غير منطقي ولا معقول، ولسنا نراه بهذا الشكل في تاريخ المؤمنين، فهنا الدنيا دار امتحان، دار فتنة وبلاء، ولا أحد منّا يحبّ أن يمرّ في أي نوع من المصاعب، فهل تتوافق استجابة أدعيتنا بالعافية والغنى والنجاح الدائم مع كوننا في دار امتحان؟ فأي امتحان هذا وكل ما نريده من خير نحصل عليه وكل ما نكرهه من شر سيندفع عنّا!

عموم الآيات القرآنية تنبّهك أنك إن تعرضّت لأي أمر من أي نوع، وشعرت بأنك بحاجة لتتوجّه للإله لمساعدتك من بعدما حاولت جهدك لحلّ أمورك... فتوجّه نحو الله تعالى لا نحو غيره، نكرر: توجّه فقط وفقط نحو الله تعالى في الأمور التي تتطلّب تدخّلاً إلهياً، وهو سبحانه الوحيد الذي يستجيب لهذا النوع من الأدعية. وترى ذلك جلياً في حالة النبي أيوب(ع) الذي وبعدما استنفد كل السبل دعاه تعالى طالباً العون، وراجع في ذلك دراسة الآية 41 من سورة ص {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}.

إن كانت الحكمة الإلهية باستجابة دعائك بما طلبت أو باستجابة دعائك بما هو أنسب، أو أن لا يستجيب سبحانه لدعائك من أصله، فهذا شيء يحدّده تعالى بحكمته بما يناسب وضعك الإيماني. ولمزيد من التوسّع حول الدعاء والاستجابة راجع في دراستنا أوائل سورة مريم الناقلة لكلام النبي زكريا(ع) طالباً الولد...

نرجع للآية، {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي}، الذين يرون أنفسهم أكبر من التصرّف على أساس أنهم مفروض منهم طاعته تعالى، {سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ}، سيكونون في المكان الموصوف بسوء ما فيه، {دَاخِرِينَ}، محكومين بالبقاء فيه ولا يمكنهم المقاومة أو تغيير حالهم للأحسن.

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ{61})

آيةٌ كنموذج من أبرز الآيات الإلهية التي نراها بسهولة ونعيش فيها والتي تدل على ألوهيته تعالى وعلى وجوب حصر التوجّه بالألوهية نحوه، هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فهي آية من النوع المتكرّر الذي يدل على متابعته سبحانه لإدارة شؤوننا، وبالتالي التوجّه نحوه تعالى على أنه الإله الأحد هو العمل الصحيح:

{اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدَّد المميَّز، {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ}، حيث جعل العتمة من اليوم مناسبة لكم لتتوقّفوا عن النشاط، ففي العتمة نميل إلى الاستراحة عن الأعمال ونميل للنوم، وجعل تعالى لكم، {النَّهَارَ مُبْصِراً}، يتيح لكم بضوئه فهم ووعي صورة ما حولكم، وبالتالي في النهار نميل إلى النشاط والعمل.

{إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ}، يُوصَف سبحانه بأن الفضل منسوب له على الناس، ويُوصَف سبحانه بتقديم الأمور الجيدة للناس من دون أن تكون فرضاً واجباً عليه سبحانه، فتقديماته "المجانية" سبحانه متاحة للناس، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ}، فلا يعلنون ولا يعبّرون له سبحانه عن اعترافهم بالأمور الجيدة التي حصلوا عليها منه.

ركّز القرآن مراراً على آيتي الليل والسكون والنهار والإبصار، وهما بالنسبة لنا شيء عادي يتكرّر يومياً ولا نفكّر به، ولا ننتبه لعظمته لأنه يتكرر ولا يحدث فيه أي اختلال، مثله مثل الكثير من الأمور والحالات والأشياء من حولنا، والتي تسير وتعمل بشكل عادي ولا ننتبه لها حتى تخرب أو تتعطل فعندها ننتبه لها، ونصبّ عليها اهتمامنا، وننتبه لطريقة عملها، ويلفت انتباهنا تصميمها... مثل السيارة والهاتف والتلفاز... أضراسنا وأصابعنا... صحّتنا وحواسّنا... الآن نسأل: لماذا نحن البشر نميل إلى السكون ليلاً والنشاط نهاراً؟ ولماذا هناك ليل ونهار؟ ولماذا هناك سكون ونشاط؟ ومن الذي حكمني بهذا التصميم؟ ومن الذي جعلني أسكن وأنشط؟ ومن الذي ربط بينهما وبين العتمة والضوء؟ إن الذين يقولون بوجود أكثر من إله فلن يجدوا أي دليل من آلهتهم الوهمية على أنها تدخلت في آيتي الليل والنهار وتوابعهما، وها نحن أمام كلام الله تعالى عن نسبة الآيتين له لوحده، وعن وضوح تصميمهما وإدارتهما من إله واحد، وهذا واضح جداً مما نراه ونتعامل معه...

نلاحظ السورة هنا وعموم القرآن لم يتحدّث بشكل مباشر مع من ينكر وجود الإله من أصله، فلم يتحدّث بشكل مباشر مع من يقول بأن الكون خُلِقَ بالصدفة، وأن تصميمه ذاتي من تفاعله وتكرار الأحداث فيه وصولاً إلى الشكل الذي نحن عليه، لأن هذه السخافة واضحة جداً جداً، فمن أين أتت المادّة؟ ومن أين أتت الطاقة؟ أهكذا لوحدها انوجدت؟ وهل كل هذا الكون بمجراته ونجومها وكواكبها صدفة؟ ونحن والنبات وبقية الحيوان صدفة؟ والترابط بين صفاتنا والبيئة من حولنا صدفة؟

حالياً نحن نسميهم بالعلمانيين أو الملحدين، أي المنكرين لأي إله، وشملهم القرآن بكلامه مع المشركين ضمنياً حين لفت انتباهنا لآيات خلقه تعالى للسماوات والأرض، وسورة الرعد والجاثية والواقعة مناسبة جداً لهذه النوعية من الناس.

على أي حال وبالمختصر، المشكلة مع بعض العلمانيين الملحدين أنهم اعتبروا دين المنتمين لدينه تعالى سبباً لكفرهم بدينه تعالى، لأن كلام المنتمين لدينه تعالى عامّةً كان طفولياً ساذجاً، فما جعله تعالى فينا من قابلية للتعرّف عليه من أفعاله "آياته" والذي سبّب للبعض أن يخترعوا إلهاً لكل ظاهرة جهلوا سبب حدوثها، والمؤمنون وبغالبيتهم وبنفس المستوى آمنوا به تعالى كفاعل لما يجهلون سبب حدوثه، وحتى أنهم فسّروا كلامه تعالى بناءً على إيمانهم بأنه تعالى يقول للشيء كن فيكون فوراً أو بدون سبب، فصنع تمثالاً من الطين ونفخ فيه فصار بشراً... وقبل ذلك قال أن تكون السماوات والأرض فكانت بدون آليات لحدوثها... هذه هي المشكلة، فهذا ما يراه الآخرون أنه دينه تعالى، وهم حين صار لديهم فرضيات ونظريات عن آلية تفسّر نشأة الكون والحياة، اعتبروا ديننا للجهلة والبسطاء.

بغض النظر عن دين المنتمين لدينه تعالى، وبحصر النظر على القرآن، فستجد أن كلامه تعالى عن مراحل لحدوث الأمور وليس نفياً لآليات لحدوثها، فما في الدنيا خُلِقَ في ستة أيام وهي ست مراحل كما تجد في الآيات من 9 إلى 12 من سورة فصلت، وخلقنا نحن البشر من سلالة من طين، وراجع في ذلك كمثال الآية 7 وما بعدها من سورة السجدة...

الفرضيات والنظريات عن نشأة الكون والحياة ما هي إلا تعرّف على الآلية التي صمّمها تعالى لخلق السماوات والأرض في ست مراحل.

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ{62})

{ذَلِكُمُ}، الجاعل الليل والسكن فيه وجاعل النهار والإبصار فيه، هو {اللَّهُ رَبُّكُمْ}، صاحب هذا الاسم المحدَّد المميَّز المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}، الذي ركّب وألّف كل شيء من دون أي استثناء، فالكائنات بصفاتها والبيئة بظواهرها كلّها من تصميمه وتركيبه وتأليفه هو سبحانه.

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، فلا يوجد ولا أي كائن لديه الصفات والقدرات الفائقة فوق الجميع إلا هو، {فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}! فكيف يمكن لكم وبأي طريقة، أن تُؤفَكوا أن تنقلبوا عن هذا الكلام! فهذا الكلام هو فقط الصحيح فكيف وعلى ماذا تستندون لتتركوا هذا الكلام وتقولوا غيره!

هناك أبحاث عن أصل اشتقاق كلمة "إله" وعن معناها، وهي أبحاث تجعلنا نتوه عن الاستعمال القرآني لمعنى هذه الكلمة، وبالتالي سنتوه عن المعاني التي تقصدها الآيات، حيث استعمل القرآن كلمة إله وقصد بها: كائن لديه صفات وقدرات فائقة تفوق قدرات كل بقية الكائنات، هذا من ناحية الإله سبحانه، وبالتالي من ناحية ثانية فهو خالق لكل الأشياء والكائنات والظواهر، وله سيطرة تفوق جميع الكائنات بشكل هائل جداً جداً. وهذا المعنى إذا عمّمته على جميع الجمل التي قالها القرآن عن الإله ستجد معنىً واضحاً للآيات، فهنا مثلاً يمكنك أن تسأل: النبي عيسى(ع) خلق من الطين طيوراً، فكيف تقول الآية هنا إنه تعالى خالق كل شيء؟ هل انتبهت، فالكلام هنا عن خلقٍ، عن تركيب وتأليف للأشياء والكائنات من مستوى إلهي، فأنا أخلق فأركّب سيّارةً وبيتاً وطيّارةً... ولكن هذا تركيب وتأليف من الدرجة المتأخرة جداً، فأنا لم أخلق نفسي ولا قدراتي ولا المواد التي ركّبتها ولا التصميم كان من بنات أفكاري التي لا يعلمها تعالى بل هي مما جعله تعالى فيّ من قدرات... وعليه فإن تلاعبنا بالجينات لخلق كائن ما فهو خلق متقدّم نسبياً، وخلق طير من الطين متقدّم أكثر، ولكن على المستوى الإلهي، على مستوى الخلق من الصفر من لا شيء، على مستوى تثبيت وجود ما تركّب وتألّف، على مستوى انهيار كلّ شيء لو تركه الإله للمحة كما تقول الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً}، فعلى هذا المستوى العميق من الدرجة الإلهية، فالله تعالى هو خالق كلّ شيء، لا إله إلا هو، فمن هذا المستوى الإلهي للخلق، لا يوجد خالق بالقدرات والصفات الفائقة غيره.

في الكتب هناك كلام حول خلقه تعالى للشرور، فيتحدّثون عن الأمراض والكوارث والحروب... ويسألون إن كان تعالى هو خالق كلّ شيء، فهو تعالى خلقها، فكيف يخلق أموراً سيّئةً شريرة؟ وكيف يخلق إبليس؟ والمسلمون مؤمنون بصريح القرآن أنه تعالى حميد فلا يصدر عنه سبحانه إلا أمور حميدة جيدة، ولذلك قدّموا تبريرات لتخريج هذا الكلام، وأعمق أقوالهم بأن الشر اعتباري فهو وصف لظواهر وليس اسماً لكائنات، وبحسب قولهم فلا يوجد شيء حقيقي اسمه شرّ، بل يوجد أشياء وصفها بأنها شرّ... وكلامهم من هذه الناحية صحيح، وليس معناه أنه لا يوجد شرّ، فهذا شيء لا يقوله أي عاقل، فالدنيا دار امتحان وفتنة وبلاء، وكيف يكون البلاء إن لم يتضمّن حصول شرّ وضرّ وأمور سيّئة معنا؟ فمن الطبيعي حصول أشياء شرّيرة سيّئة معنا، وكمثال نموذج عن ذلك نقرأ الآية 35 من سورة الأنبياء {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}، فقارن ما يقوله القرآن عن الجنّة بأنها دار لا يوجد فيها أي نوع من الإزعاج ولا بأي شكل، وهي سعادة دائمة مستمرّة بلا انقطاع ولا ملل... فقارنها مع دار الدنيا التي وصفها بأنها دار فتنة وبلاء، فهنا يوجد أمور تحصل معنا ووصفها بأنها شرّ، أمّا تركيب وتأليف الكائنات، خلق الكائنات، فلا يمكن وصفه بالشرّ، فالنار بأساسها كمخلوق، إذا نظرت إليها لوحدها، فلا يمكن وصفها بالشرّ، وتصفها بالشرّ إن احترقت بها، وإبليس بأساسه كمخلوق فهو كائن مثل فرعون وأبي جهل، فلا يمكن وصف خلقه بأنه خلق لشيء شرير، بل هو الكائن عندما يؤذي غيره يصير له وصف الشرير... وخلق جسدنا لا يمكن وصفه بأنه شرّ، ولكن هذا الجسد الدنيوي مصمّم ليكون مناسباً للفتنة والبلاء، فيمرض ويضعف ويعتلّ... وقد يقتل الآخرين...

نهاية الكلام أننا لا نرى فيما نعرفه أنه تعالى خلق شيئاً شرّاً من أصله وأساسه، كشيء لا يمكن أن يصدر عنه إلّا الشرّ حتماً، فحتى إبليس فهو مثلنا مثله، يمكن أن يصدر عنه شرّ ويمكن أن يصدر عنه خير، وقد اختار إبليس وبعض الجنّ والناس أن يصدر منهم الشرّ.

نعم سبحانه وتعالى صمّم ما في الدنيا بحيث يمكن أن يحصل فيها شرّ مع ومن الكائنات، وتحصل الأمراض والكوارث والحروب... لأن الدنيا ليست الجنّة، فالدنيا دار امتحان للبلاء والفتنة، ولا معنى لها بدون شرّ، فمن ضمن تصميمها

تتضمّن إمكانية حصول شرّ وسوء فيها، فبكل وضوح وبحسب ما نفهم من القرآن: الله سبحانه وتعالى لا يقوم بعمل شرير، وقد صمّم هذا الكون ليكون دار فتنة، وهذا يتضمّن حصول أشياء شريرة فيه ناتجة عن تصرفات المتعرضين للامتحان...

سترى من الآية بعد التالية كلاماً إلهياً يوضّح مسألة الشرّ...

(كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ{63})
{كَذَلِكَ}، بهذه الطريقة الغريبة العجيبة أمام وضوح كونه تعالى الإله الأحد الخالق لكل شيء، {يُؤْفَكُ}، ينقلب عن توحيده تعالى، {الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ}، بالأمور المميزة التي فعلها تعالى، كآية الليل والنهار، {يَجْحَدُونَ}، يُنكرون صدقها مع أنها صادقة بشكل واضح.

ننتبه جيداً لهذا المعنى الذي تكرّر عدة مرات في القرآن، فهو يؤكّد بأنّ الآيات الإلهية واضحة وتوصل للإيمان به تعالى، ومن ينكرها ينطبق عليه وصف الجاحد، وهو الذي يرى الأمور الصادقة ويقول عنها بأنها غير صحيحة وينكر صدقها.

كما ترى، عادت السورة بكلامها إلى محورها حول المجادلين بالآيات الإلهية، وهنا تنقلنا إلى جحودهم، إلى وضوح دلالة الآيات وصحّتها ورغم ذلك إنكارهم لها. ما ذكرته الآية ما قبل السابقة عن آية الليل والسكن فيه و... فكلّه واضح جداً جداً ويدلّ عليه تعالى وهناك من يجحد ذلك!

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاء بِنَاء وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{64})
{اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدَّد الذي يميزه سبحانه بالتسمية عن بقية الكائنات، {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً}، حيث نستقرّ ونثبت عليها ونعتبر استقرارنا عليها بتمضية حياتنا عليها كأنه شيء عادي وكتحصيل حاصل لوجودنا عليها، فلا نفكّر فيه، ولكن من النظرة الإلهية، من نظرة من يرى الأمور قبل أن نتكوّن، وصمّم البيئة التي سنستقر فيها، يُذكّرنا هنا ويلفت انتباهنا أنه هو تعالى جعل هذه الأرض قراراً لنا، نستقر عليها، فلم يخلقها إله آخر، ولم تتشكّل بالصدفة...

{وَالسَّمَاءَ بِنَاءً}، فكل ما هو فوقك فهو سماء، وتلفت الآية انتباهنا للسماء المبنية فوق الأرض، وهنا الكلام عن عموم السماء كفضاء نراها ليلاً وفيها نقاط النجوم والمجرات.

وُصِفت السماء بالمبنية لأنها سبع سماوات طباقاً، ولا تصف الفضاء بأنه سماء إلا إذا كان يقابله أرض، وهذا ما تفهمه من الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}...، وهذا لا يعني أنه يوجد أرض كوكب مثل كوكبنا تحت كل سماء، لا، فلكل سماء أرض تقابلها ومناسبة لما تتكون منه السماء، والكرة الأرضية أرض لسمائنا وسطح القمر أرض لسمائنا وحتى سطح الشمس والمشتري... أرض لسمائنا فليس بالضرورة أن تكون الأرض ترابية.

{وَصَوَّرَكُمْ} حيث جعل لكم صورة، وجعل لكم هيئة وقواماً وشكلاً لإنسان، وجعلكم كياناً فيه سمات "صفات مميزة" عن بقية الحيوانات، {فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ}، حيث اختار لكم صوراً حسنة، وأيضاً يبقى الكلام من منظور إلهي، فنحن الآن نميّز الحيوانات بصورها المختلفة عن بعضها، فإذا نظرت إلى الثدييات من الحيوانات "إنسان، قرد، خنزير، بقرة..." لوجدتها بغالبيتها تتشارك في كل أعضائها وتفاصيل جسدها التشريحية، ولكنها تختلف عن بعضها بالصورة، فما تراه بعينك من صفات للشكل الخارجي فهو صورة الحيوان، ومن الأساس اختار سبحانه للبشر صورة حسنة لكامل الجسد "ليس للوجه فقط"، وتلاحظ أن صورتنا الخاصة بنا "كبشر" هي التي تساعدنا لنقوم بحركات وتصرفات لا يتمكّن بقية الحيوانات من فعلها، فلدينا أصابع "قارنها مع الأظلاف والحوافر"، ولدينا قامة مستقيمة وساقان طويلتان فنمشي على قدمين "قارنها مع عموم الحيوانات"، ولدينا سواعد وأكتاف حركتها حرّة "قارنها مع الحيوانات التي تمشي على أربع"... وهذه الصورة لكفّ يدنا وساعدنا وساقينا ورقبتنا... طبعاً مع قدرات الفكر والخيال... أتاحت لنا التفوق

والسيطرة على بقية الحيوانات. أطلت عليك بالكلام عن الصورة حتى لا ينحصر ذهنك في صورة الوجه، فهي من ضمن الصورة لكل الجسد الذي تقصده الآية هنا.

{وَرَزَقَكُمْ}، حيث صار معكم منه تعالى ما تسدّون به حاجاتكم ورغباتكم، {مِنَ الطَّيِّبَاتِ}، من الأشياء المحببة والمرغوبة، وأيضاً تتحدّث معنا الآية من منظور إلهي، تذكّر طعام وشراب أهل النار الخبيث الكريه النتن المؤذي المؤلم... فيأكلونه ويشربونه بدافع رغبة الجوع والعطش علماً أنهم يتأذّون منه... أمّا نحن الآن فنأكل لنلتذّ بالطعم، ورائحة الطعام شهية ومنظره جميل... فالإله سبحانه عندما صمّمنا وخلقنا قرّر أن يجعل رزقنا هنا على الأرض طيّباً، ولا ننسى أنه يوجد أطعمة وأشربة كريهة مؤذية وصفها القرآن بالخبيثة وحرّمها تعالى علينا، فليس كل ما يمكن أكله موصوفاً بالرزق الطيب، فبعضه خبيث، والعاقلون لا يسمونه طعاماً.

{ذَلِكُمُ}، الذي جعل الأرض قراراً والسماء بناء... هو {اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد له تعالى، {رَبُّكُمْ}، المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {فَتَبَارَكَ اللَّهُ}، يصف سبحانه نفسه بأنه بركة، كما نقول نحن عن إنسان ما بأنه: جبلة خير. كلّه خير. ونقول عن إنسان ما بأنه مبارك ونقصد بأننا نحن نحبّ ونرضى ونوافق على أفعاله، وسبحانه أيضاً يبارك مكاناً ما أو شخصاً ما على أساس حبّه ورضاه تعالى عمّا جرى في المكان أو على ما يقوم به الشخص المبارك... فهنا وبقية تعابير القرآن لم تقل بأن الله تعالى مبارك لأن معناها أننا نحن أو كائنات أخرى نعطيه صفة البركة، فتصير أننا نحن نقيّم أعماله تعالى ونراها مباركةً مَرضيّاً عنها جيّدةً... ولكن القرآن استعمل تعبير: تبارك الله. فهو تعالى فيه صفة البركة، صفة الرضا عن أفعاله لأنها جيّدة، فهو تعالى تقييمه لنفسه أنه تبارك، وهنا عرضت الآية نماذج عن هذه البركة من خلقه للأرض وجعله الرزق الطيّب فيها وجعل الصورة الحسنة...

إذاً، تبارك الله، {رَبُّ الْعَالَمِينَ}، المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس، فهو الربّ للجميع ولا ربّ لهم سواه، ولا يوجد ربّ خاص لكل جماعة منهم... بل كلّ العالمين، كل الناس، لهم ربّ واحد لا ربّ غيره.

لاحظ وانظر لمجموع ما تحدّثت عنه الآية، واربط بينها على أساس أننا نحن محور الحديث كمخلوق يتم تصميمه وتصميم البيئة التي سيعيش فيها، فتصوّر أنت نفسك من الصفر تقوم بتصميم الكائن "الإنسان"، وتصمّم من الصفر البيئة التي سيعيش فيها الإنسان، والآن انتبه لدقة التفاصيل وكثرة الخيارات، وانتبه لتعارض بعض الخيارات مع بعضها... وتذكّر أننا دائماً نقوم بالتعديلات على ما صنعناه لأننا نجد أموراً أخرى أنسب، أو نجد أموراً تسبب انهيار النظام وخرابه... ومن هذا المنظور لِتنظر إلى ما فعله سبحانه من تصميم وخلق وتصوير وجعل، وهذا ما تريدنا الآية أن نراه.

مضافاً إلى لفت انتباهنا لكوننا تحت مسير واحد من التصميم، فلا معنى للآلهة المتعددة لأننا لا نرى إلا نظاماً واحداً تسير عليه كل الحوادث في الدنيا، مما يدل على مركز واحد للقرار، ولا معنى لإنكار الإله لأنه لا يوجد تفسير آخر عقلاني لوجودنا ووجود بيئتنا سوى خلقه تعالى لنا.

(هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{65})
{هُوَ الْحَيُّ}، ومعنى الحياة العملي بالنسبة له سبحانه أنه يتعامل مع غيره وغيره يتعامل معه، فليس ميّتاً أو جماداً، وليس وهمياً، فهو يفعل، يخلق ويرزق و...

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، فلا يوجد كائن بمواصفات وقدرات فائقة فوق الجميع غيره، فتصميم وخلق السماوات والأرض وإدارتها ومتابعتها... ونهايتها وما يحصل بعد ذلك... كلّها أمور وأعمال من مستوى عالٍ جداً جداً، ومن يسيطر على كلّ ذلك فهو الإله، فهو كائن فائق جداً جداً، ولا يوجد أي كائن لديه سيطرة وقدرة وقوة فوقه سبحانه وتعالى.

بناءً على كونه الحي ولا إله غيره، {فَادْعُوهُ}، أشهروا وأعلنوا له، وهنا الكلام عن إعلاننا لتوحيده، {مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}، منفرداً بلا اختلاط تدينون لله سبحانه فقط، فعليكم له تعالى لوحده فقط تبعات كونكم مخلوقاته وهو إلهكم الفائق الصفات والقدرات، فلا تعلنوا عن غيره إلهاً له تبعات عليكم.

{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، فكل ما يفعله الله سبحانه حميد يُوصَف بأنه محمود جيّد حسن، وهو المسؤول من مستوى إلهي عن كلّ الناس بلا استثناء، وليس ربّاً للمؤمنين بهذا القرآن فقط، أو لأهل الكتاب فقط، أو للعرب فقط، أو لبني إسرائيل فقط... بل هو سبحانه ربّ الجميع.

للتوسع في معنى كلمة "دين" راجع دراسة الآية 14 من هذه السورة.

لاحظ أن جملة {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} تخبرك عن صفته تعالى حول كل ما فعله ويفعله مع الذين يأمرهم بإخلاص الدين له، فمثلاً لو قلت لك أن تطيع ملكاً ظالماً جاهلاً... فسيختلف عن قولي لك أن تطيع ملكاً عادلاً حكيماً، وهذا ما تريد الآية قوله عن الله تعالى الذي فعل كذا وكذا وهو الإله الأحد فأخلص له الدين، فهذه الدعوة للإخلاص هي لإله حميد، بعبارة بسيطة جداً نتساهل فيها فـالآيات فيها دعوة محترمة لك لتكون مخلصاً لإله محترم، هكذا نحن نعبّر ببساطة والآيات عبّرت بدقّة: دعوة صحيحة وواجب عليك تلبيتها من الذي لا إله غيره وهو لا يفعل إلا الأمور الحميدة.

يمكنك يا عزيزي تخطّي هذه الفقرة إن كنت لا تحب الخروج عن سياق السورة، فهو كلام حول معنى كلمة حياة، التي يمكنك الاستغراق في معناها على أساس أن تستنتج منها صفات إلهية خاصّة، فتدخل في التمييز بين معنى حياته تعالى ومعنى حياة المخلوقات التي تنتهي حياتها وتموت وهو تعالى حي لا يموت، ومعنى حياته تعالى التي لا تعتمد على أي شيء لتستمر ومعنى حياة الكائنات التي تعتمد عليه تعالى لتستمر... ويمكنك بالعكس أن تحتار في معنى كلمة حياة، فأي تعريف تضعه لها ستجده غير دقيق! فإن قلت إنّ الحي هو المدرك لنفسه ومن له وعي لذاته، فالنبات حي حتماً من جهة نموه واخضراره وإثماره... في مقابل يباسه "موته"، فهل يمكنك القول إنّ النبات مدرك وواعٍ لذاته؟ وإن قلت إنّ الحي هو من يتفاعل ويفعل، فهل السيارة حيّة لأنها تتفاعل معك حين تقودها وتفعل حين توصلك لمكان آخر؟ وإن قلت إنّ الحي يستجيب على المستوى الفكري، فهل الحاسوب "الكومبيوتر" حي؟

لاحظ أن الموضوع ليس سهلاً إن أحببت تعقيده، والسهولة فيه مقارنة الحياة مع الموت واستبدال الكلمتين بالأثر العملي لهما بالفعل والانفعال، فالموت بكل بساطة هو حالة من لا يفعل، سواء أكان له كيان أم لم يكن له كيان، فالقرآن وصفنا بالموت في الحالة التي لم يكن لنا فيها كيان، وتقرأ ذلك في الآية 28 من سورة البقرة {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}.

الأثر العملي للاتصاف بالحياة يختلف تطبيقه على مختلف الكائنات، فسبحانه وتعالى يفعل ولا ينفعل، حيث لدينا جسد ينفعل فيمرض وينمو... ولدينا مشاعر تنفعل فتتداخل وتؤثّر على بعضها فإن اشتعل الكره فينا يمكنه محو كل الحبّ منّا... وفكرنا يزيد دقّة بازدياد معلوماتنا... أمّا هو تعالى فلا جسد له ولا من أي نوع، وحالات الكره والحبّ والغضب ليست انفعالات نفسية إلهية بل وصف لموقف الإله سبحانه من تصرّفات مخلوقاته، فهي ما يفعله تعالى في هكذا مواقف، وهي أيضاً بالنسبة لنا وصف لموقفنا من الأمور والكائنات، ولكن تركيبة كياننا تجعل موقفنا "مشاعرنا" تجاه الكائنات والحوادث لها تأثير علينا، فننعمي بالغضب، ونهيم بالحبّ... وهذه انفعالات، أمّا سبحانه فلا يتأثّر بأي شيء فلا ينفعل "بل يتفاعل".

الحياة وصف لكائن يفعل وينفعل ويتفاعل، ومع اختلاف تكوين الكائنات سيختلف تطبيق معنى الفعل والتفاعل والانفعال، فسبحانه يفعل ويتفاعل ولكن لا ينفعل، فلا يتأثّر تكوينه، ونحن البشر نفعل ونتفاعل وننفعل، والنبات يتفاعل وينفعل، والحجر ينفعل. ويمكنك المناقشة فيما قلناه لاقتراح تعريف أفضل، ولكنه شرح مقبول ويكفينا لنفهم معاني كلمات القرآن بشكل مقبول.

بالنسبة لعبارة {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} فراجع دراسة الآية الثالثة من هذه السورة.

(قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ{66})
{قُلْ}، أيها النبي محمد(ع) عبر هذا القرآن:

{إِنِّي نُهِيتُ}، فوصلني أمر "من الله تعالى" يمنعني نهائياً وبلا أي سماح لفعله، وَممنوع، {أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ}، وَممنوع نهائياً أن أعتبر نفسي وأتصرّف على أساس أَنِّي مفروض عَلَيَّ طاعة الذين تشهرون وتعلنون لهم

أنهم آلهة وأنتم عبيد لها، إلّا الله تعالى وَحده إلهي وأنا عبد له وَوحده أدعوه وَأعلن له أنه إلهي وأنا عبده، ونهيت عن دعوة غيره إلهاً، {لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي}، وَصَلَتْنِي الأمور الواضحة من المسؤول عني من المستوى الإلهي، وهو هذا القرآن الواضح بمنعي ومنعكم من الشرك به تعالى، وَيبرهن أَنَّهُ تعالى الإله الأحد...

لاحظ أن "لمّا" بالدقة هي أداة تنفي حصول الفعل من الماضي إلى زمن المتكلّم، وَخذ مثلاً عن ذلك ما ورد في الآية 16 من سورة التوبة {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ}، حيث من الزمن الماضي حتى زمن صدور الكلام هناك شيء لم يحدث، لذا يجب أن تمرّوا بالاختبار حتى يثبت فعلاً أنكم مؤمنون وليس فقط مجرد كلام. هنا في الآية يصير المعنى أنه قبل أن تأتي البينات "عموماً" ليس محسوماً توحيده تعالى، وعندما جاءت البينات على توحيده مِنْ بعد هذا الزمان صار محسوماً توحيده، وَعلى ذلك بيّنات.

{وَأُمِرْتُ}، وَوصلني أمر، {أَنْ أُسْلِمَ}، أن أعلن انقيادي وتبعيّتي، {لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}، للمسؤول من مستوى إلهي لِكل الناس. وَأفعل كل ما يأمرني به سبحانه وهو ليس ربّي وَحْدِي ولا ربّكم أنتم وَحْدَكُمْ، ولا ربّ العرب وَحْدَهُمْ... بل رَبٌّ لكل الناس من أوّلهم إلى آخرهم.

نلاحظ أنَّ القرآن يستعمل تعبير {رَبِّ الْعَالَمِينَ} وهي إشارة لكونه تعالى المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس، من أولهم لآخرهم، لكل الأعراق والأجناس والألوان، في أي بلد ومكان كانوا... وأنت أصلاً تعتقد بذلك، ولكن هناك مُشْرِكِينَ يعتقدون بآلهة خاصّة لكل قوم ولكل بلد ولكل عرق... وحتى أننا نسمع كلاماً عن دين الإسلام أنه دين العرب! وأن الله تعالى إله العرب! ونسمع كلاماً عن الأديان الثلاثة "اليهودية والنصرانية والإسلام" أنها ديانات خاصة بمنطقة الشرق الأوسط وَتُقَابِلُهَا ديانات "الأرواحية" البوذية والسيخية وَالطَّاوِيَّة... في الشرق الأقصى، وديانات وثنية في آسيا الوسطى وأوروبا... على أساس أن هذه الأديان كلّها من تأليف خيالات البشر واختلفت باختلاف تطوّر الأفكار والبيئة، وساعدتها عوامل مختلفة على الانتشار... وهكذا يصير لجملة {رَبِّ الْعَالَمِينَ} التي يذكرها القرآن مَعْنًى وَاضِحٌ، فالله تعالى ربّ كلّ الناس في كلّ العصور وأينما كانوا، وأمّا الآلهة التي اخترعوها فألوهيتها وهمية خيالية غير حقيقية.

نتذكّر أيضاً أن الربّ وصف لمن هو مسؤول عن آخرين، حَيْثُ أنا ربّ لأسرتي، والزوجة ربّة منزل وذاك ربّ العمل... ولكن على المستوى الإلهي، الرَّبُّ مسؤول عن أمور من مستوى إلهي، من خلق ورزق وتدبير ومغفرة... ولا ربّ من هذا المستوى إلا الله تعالى.

أخيراً لا ننسى أن النبي محمّد(ع) هو نموذج، عِنْدَمَا يأمره القرآن أن يقول ما ذكرته الآية هنا، فهذا أمر لنا جميعاً أن نقوله، ولنفهم وليفهم الآخرون أنه لا تهاون ولا تساهل في هذه المسألة، حَيْثُ بعض الناس يقولون: إن كنت مرتاحاً على دينك فلا بأس ولست بحاجة لتغييره، حتى لو ارتحت لعبادة الهواء... فإن لم ترتح لذلك فيمكنك أن تغيّر دينك وإلهك... بل حتى يمكنك أن تعتقد بعدة آلهة وأديان في نفس الوقت... وهذا الكلام منتشر في ثقافة العديد من اليابانيين والصينيين بشكل صريح، وفي كلام العلمانيين على أساس أن الدين مجرد حالة نفسية وهمية وإن كنت مرتاحاً لها ولا تؤذي الآخرين فاختر الدين الذي تريده... ومنتشر في ديانات المشركين عموماً بشكل غير صريح، إِذْ لا مانع عندهم من الاعتراف بآلهة الآخرين، ولكنها آلهة للآخرين وهم لهم آلهتهم الخاصّة... هذه الخزعبلات يتعامل معها القرآن بصرامة بإعلان الأمر الإلهي عبر هذا القرآن بأن الإيمان يجب أن يكون حقيقياً واقعياً ولا يحقّ للناس اختراع عقيدة وإله من خيالهم وعلى مزاجهم، وهناك عواقب وخيمة جداً لمن يفعل ذلك.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{67})

{هُوَ اللَّهُ} ربّ كل الناس، {الَّذِي خَلَقَكُمْ}، رَكَّبَكُمْ وألّفكم، {مِنْ تُرَابٍ}، وَذَكَرَ القرآن مِرَاراً أننا مخلوقون من تراب وماء، وهو الطين، وهنا وفي غيرها من الآيات أُخْتُصِرَتِ الإشارة إلى التراب، وفي آيات غيرها أُخْتُصِرَتِ الإشارة إلى الماء، وكما ترى القرآن لا يعطينا دَرْساً في البيولوجيا "علوم الأحياء"، بل يلفت انتباهنا إلى تركيبنا وتأليفنا من المواد المنتشرة في بيئتنا من كربون وكالسيوم وحديد... وهذا ما يبقى من جسدنا بعدما يبلى... حَيْثُ مرة يشير القرآن لعنصر الماء ومرة لعنصر التراب ومرة لِلاِثْنَيْنِ مَعاً بالكلام عن الطين والفخار والصلصال... وبالتالي نَحْنُ حَتْماً

مخلوقون، ومن الذي صممنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا من هذه المواد؟ هو الله تعالى {الَّذِي خَلَقَكُمْ}...

نَتَذَكَّرُ دَائِماً أن الجنّ مخلوقون من نار ونحن من طين، ويقصد القرآن بذلك أننا من هذه المواد تركّبنا وتألّفنا، فَانْسَ ما هو مشهور بين الناس من خلق آدم(ع) كتمثال من طين ثم تحويله فَوْراً إلى لحم ودم، وَهذا شيء حصل على يد النبي عيسى(ع) مع طين عجنه على هيئة الطير فَنَفَخَ فيها ودبّت فيها الحياة بإذن الله تعالى، وناقة ثمود خرجت من الصخرة كما هو مشهور بين المنتمين لدينه تعالى... نَحْنُ لَا ننفي قدرته تعالى على خلق آدم(ع) وبقية الحيوانات بشكل فوري، ولكن لم يرد ذلك في القرآن، وليست هذه سنّته تعالى في التعامل مع الأمور، وآدم(ع) خَرَجَ إلى الحياة وكان يوجد قبله أناس يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء... كما ورد في الآية 30 من سورة البقرة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، وبقية الحيوانات على الأرض لها تاريخ في ظهورها واختفائها مما يشير حَتْماً لارتباطها ببيئتها، ونحن لا نختلف عن بقية الحيوانات من حيث التكوين الجسدي الحيواني، وَبدأ سبحانه خلقنا من طين، أمّا كيف حصل ذلك، وَما هي آلية حدوث ذلك؟ فَكَلَامُ القرآن لن يعطيك نظرية علمية عن ذلك، لِأَنَّ هذا ليس مجاله ولا هدفه، وَالقرآن كلّه لا يدخل في آليات حدوث الأشياء، ويكتفي بالكلام العمومي عن الأمور بالشكل البسيط الذي يفهمه أي إنسان عادي.

فِي عصرنا نحتمل بِقُوَّةٍ أن خلقنا حصل من النشوء والارتقاء، "وَقَدْ يتغيّر ذلك في المستقبل وتحلّ محلّها نظرية أخرى"، وهذا لا يعني أننا علمنا كيف نشأت الحياة وبالتالي لَا ضرورة لافتراض إله مصمّم خالق، بل هو محاولة منّا للتعرّف على آليات خلقه تعالى للأشياء... وكما يبدو وَاضِحاً من القرآن أَنَّهُ سبحانه صمّم البيئة التي ينتج عنها حَيَاةٌ من طين، وصمّم أن يكون نسلها من التزاوج فيما بعد... وهذا ما نعرفه الآن من معطياتنا العلمية الحالية، ونستوحيه من القرآن من العديد من الآيات منها ما ورد في الآيات 7 وما بعدها من سورة السجدة {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}.

على كلّ حال الْبَابُ مفتوح لفرضيات ونظريات أخرى "غير النشوء والارتقاء" لأن القرآن فقط وفقط أشار للمادة التي خلقنا تعالى منها، وهي معلومة مما نراه مما يبقى من الأموات من رماد، وطبيعتنا المخلوقة التي تشير حَتْماً لوجود خالق، لِذَا لَا يوجد شيء اسمه أمّنا الطبيعة ولا الصدفة ولا كثرة التكرار... بل هو تصميم على مستوى إلهي لِتِرِيلْيُونَاتِ تِرِيلْيُونَاتِ التفاصيل المرتبطة ببعضها، وأي تغيّر في البعض منها سَيَكُونُ كَارِثِيّاً وسينهار كلّ شيء...

{ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ}، بَعْدَ خلقكم من تراب ركّبكم من شيء صغير الحجم جِدّاً، وَكلمة نطفة "عادة" مستعملة لوصف مكونات المني، وَحَالِيّاً نستعملها اِسْماً للحيوانات المنوية، عِلْماً أنها في أصل اللغة العربية غير مخصصة لذلك، حَيْثُ يمكنك القول عن أي كمية صغيرة جِدّاً من الماء العادي أو البهار أو الملح: نطفة.

{ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ}، من شيء وصفه بأنه عالق، ونستعمل هذه الكلمة لوصف المرحلة الثانية من بعد التحام الحيوان المنوي بالبويضة حيث يصير الحال بعد نمو الخلايا عبر الانقسام... شَبِيهاً بنقطة الدم وهي "عالقة، علقة" بجدار الرحم.

{ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا}، وهي المرحلة الْأَخِيرَةُ من حياة الجنين، حَيْثُ بَعْدَمَا يخرج من الرحم يصير طِفْلاً.

ننتبه جَيِّداً هنا، الْآيَةُ تشير لخلق بعد خلق، لتركيب وتأليف كيان الإنسان من المواد في عدّة مراحل، وتتم بنجاح بشكل متكرّر، هَلْ هذه المراحل كلّها نتجت عن صدف! بِالصُّدْفَةِ من التراب نجح تشكيل كائن، وبالصدفة نجح الكائن بالحياة، وبالصدفة صار يتناسل، وبالصدفة يتحوّل من علقة لطفل... تريليونات التفاصيل وكلّها صدفة! هذا غباء ما بعده غباء، وَقفز القرآن عن هذا الغباء ليصحّح عقيدة من آمن بغيره تعالى خَالِقاً، حَيْثُ تريد الآية لفت انتباه المشركين أن خلق الناس كلّهم يجري بطريقة واحدة، وَمِنَ المفروض أن يكون الخالق وَاحِداً، فَكَيْفَ تقولون بوجود آلهة متعدّدة وعلى أي أساس تتصرفون أنكم عبيد لتلك الآلهة؟!

{ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ}، أَيْ تَصِيرُونَ من بعد مرحلة الطفولة والنمو في مرحلة الفتية "الشباب، والرجولة والأنوثة"، وهي {أَشُدَّكُمْ} أشد مراحل قوتكم الجسدية والعقلية.

{ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً}، أَيْ تَصِلُونَ إِلَى مرحلة توصفون فيها بضعف الجسد بسبب تقدّمكم في العمر.

{وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ}، أَيْ قبل وصوله للشيخوخة يتم أخذ حياته بالتمام، وَيفقد جسده الحياة وَيموت.

{وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمًّى}، فَفِي كِلْتَا الحالتين إن بلغتم الشيخوخة أو توفّيتم قبل ذلك، ستسيرون على هذه المراحل حتى تصلوا إلى زمن نهائي محدّد ومعلوم، طَبْعاً معلوم عنده تعالى، وَتاريخ وفاة كلّ واحد منّا مَعْلُومٌ سَلَفاً له تعالى.

{وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، فَمِنَ المفروض ومن المتوقّع منكم أن تعقلوا وَتستوعبوا وتفهموا ما مرّ عليكم وما أنتم فيه، أَنْتُمْ في الواقع تعيشون مُرُوراً بهذه المراحل من حياتكم، وَجعلها تعالى بهذا الشكل وبهذه التفاصيل حتى تكون مُلْفِتَةً لانتباهنا، فَمِنَ المفروض ومن المتوقّع منّا أن نحرّك فكرنا ونفهم أن مُصَمِّماً خَالِقاً رَبّاً إِلَهاً وَاحِداً أَحَداً... سَيَّرَنَا على تصميمه لنا حتى صرنا إِنْسَاناً... لِنَعْبُدَهُ ونوحّده.

بَقِيَ شيء، الْمَعْلُومَاتُ التي تطرحها الآية عمومية ومعلومة بِبَسَاطَةٍ لأي واحد منا، عِنْدَمَا نموت ويتحلل جسدنا يبقى التراب، إذاً نحن مخلوقون من تراب، والمرأة لا تحبل بدون ماء الرجل، لِذَا نحن مخلوقون من نطفة، وهذا الكلام لا يلغي أننا مخلوقون من نطفة وبويضة ولكن معلومة البويضة ليست سهلة ولا كانت معلومة للناس، لِذَا تَرَكَ القرآن ذكرها مُكْتَفِياً بما يعلمه الناس، لِأَنَّ الهدف ليس عَرْضاً لبيولوجيا خلق الحيوان بل لفت الانتباه لبعض مراحل خلق الحيوان والتي تدل حَتْماً على إله صمّم وخلق ما سينتج عنه هذه العملية لخلق الإنسان.

فِي بعض الحالات يحصل إسقاط وَلا يستمرّ الحمل، نُشَاهِدُ ما يوصف بأنه علقة أو مضغة... يَخْرُجُ من المرأة، وهذا شيء لا يراه كل الناس، ولكن معرفته متوافرة بسهولة بسؤالنا لمن يعلم بذلك...

بَعْضُنَا الذي يجهل هذه المعلومات يظن أن القرآن يعرض معلومات لا يعرفها البشر وَيَتَعَلَّمُونَهَا منه، وهذا غير صحيح، الْغَالِبِيَّةُ الساحقة من كلام القرآن عن أفعاله تعالى "الآيات" كانت عن أمور ينتبه لها أي إنسان عادي لينتبه من هذه الأمور التي يعلمها بسهولة أن إِلَهاً فعلها، لِيَتَعَرَّفَ على إلهه.

هَكَذَا الحال لبقية كلام القرآن عمّا خلقه تعالى وعن الظواهر، إلا اللَّهُمَّ ما ندر ويبدو منه أنه تعالى تقصّد ذكر ما لا نعلمه كنموذج فقط عمّا فعله تعالى ويتخطّى علومنا وما نطاله بحواسنا، ككلامه عن سبع سماوات وعن الجنّ والملائكة...
وبذلك تنتبه للكثير مما فعله تعالى وتعلمه ولفت القرآن انتباهك له كآية دالة بسهولة عليه سبحانه، وتنتبه أن أفعاله تعالى تتخطى ما تعلمه البشرية في عصر ما وقد تعلمه في عصر آخر، وتتخطى ذلك وُصُولاً إلى ما ستتعلمه البشرية في المستقبل كالنفوذ في أقطار السماوات وُصُولاً إلى حيث وصل الجن وصاروا يتعرضون للرمي بالشهب من الملائكة كما ورد في الآيتين 33 و 35 من سورة الرَّحْمَنِ {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ، يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ}.

ملخص الكلام أن الغالبية الساحقة من كلام القرآن عن أفعاله تعالى لنلتفت إليه لنتعرّف منها عليه سبحانه، كان عن أمور معلومة، ومفهومة بسهولة، ومع بعض التمعّن، ومع بعض الدراسة... والنادر جِدّاً منها مما لم نختبره كنماذج حتى لا يبدو وكأن هذا القرآن محصور فيما يعلمه البشر، فَعِنْدَهَا يكون معنا حَقٌّ إذا خطر ببالنا أنه من تأليف البشر.

(هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ{68})
{هُوَ اللَّهُ} الجاعل الخالق الباني المصور الرازق الحي {رَبِّ الْعَالَمِينَ} {الَّذِي خَلَقَكُمْ} في مراحل حياتكم... هو {الَّذِي يُحْيِي}، فَيُعْطِي الحياة للكائنات، فَيَجْعَلُ المركّبات من المواد تفعل وتتفاعل وتنفعل مع اختلاف تدرجات ذلك بينها...
وهو الَّذِي {يُمِيتُ}، فَيَأْخُذُ الحياة من الكائنات فتصير بلا فعل ولا تفاعل ولا انفعال.

مَا تفسيركم لكونكم تنتقلون من حالة الحياة إلى الموت؟ حَيْثُ مِنَ الواضح جِدّاً أنكم تحت سيطرة خارجة عن إرادتكم، وَأَنْتُمْ تحت سيطرة من صمّمكم تموتون.

{فَإِذَا قَضَى أَمْراً}، أَيْ قَرَّرَ سبحانه أن يحصل أمر ما، قرّر أن يحصل شيء ما، {فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ}، للأمر الذي قضاه: {كُنْ فَيَكُونُ}. فيصير حَاصِلاً، وَحَتْماً يحصل.

كُلُّ ما سبق من كلام حول خلقتنا وبيئتنا وما يتعلّق بنا، هِيَ أمور قضى وَقَرَّرَ وشاء سبحانه بشكل نهائي أن تحصل، وَصَدَرَ منه تعالى الأمر، وحصل كما أمر تعالى.

يبدو لك وَاضِحاً جواب السؤال التالي: لماذا نموت؟ لَوْ لنا نحن أي علاقة بتصميمنا فَهَلْ سندع حياتنا تنتهي؟ وأي افتراض آخر غير أن إلها صمّمنا نموت، كجواب عن سبب موتنا لَنْ يكون عَقْلَانِيّاً وذا معنى، لِمَاذَا لم يحدث بالصدفة أن يتواجد كائن من تراب ولا يموت؟ ككائن من ألماس لا ينكسر ومن ذهب وفضة لا يصدأ...؟

أقول لك هذا الكلام المتطرّف لتوسّع أفقك لما هو أبعد مما تراه، وعطفا على الآية السابقة هَذَا النوع من الحياة "البشرية" ليس هو النوع الوحيد الممكن حصوله، وَقُرْآنِيّاً نعلم بأنه تعالى خلق كائنات من نار وهي الجنّ، وخلق كائنات من شيء لا نعرفه وهم الملائكة، حَيْثُ كَانَ قراره تعالى هكذا باختيار هذا الشكل من الحياة، وإلا فَلِمَاذَا لا يوجد إنسان من طين ولا يموت طالما أن الرغبة عُمُوماً لدينا جَمِيعاً أن نبقى أحياء، وطالما نجاح التصميم من كثرة تكرار الصدفة هو الحاكم ولا يوجد إله لِمَاذَا لم يصر نوع حياة طيني لا يموت؟ ولست أبالغ في هذا السؤال لأنه تعالى أخبرنا أننا سنعود إلى الحياة في الآخرة بجسد "من المواد" خالد، وسبب ذلك هو تصميمه تعالى لنا مرّة ثانية بجسد لا يعرف الموت...

ننتبه، إِذْ مِنَ الاستغراق في الأفكار نضيع ونتوه ونخرج بكلام غير صحيح، هَلْ تقصد الآية أنه تعالى فَوْراً بعد أن يقول للشيء {كُنْ فَيَكُونُ}، أنه في لمحة يصير الشيء مُتَكَوِّناً مَوْجُوداً؟ طَبْعاً يمكنه سبحانه وتعالى فعل ذلك، ولكن الآية تشير إلى حتمية حصول الشيء، ولا تقصد الاشارة إلى فورية حصول الشيء، مَا نراه من عظمته تعالى في خلقنا وخلق البيئة التي نحن فيها وما حولنا والسماوات وما فيهن... لَمْ يَصِرْ فَجْأَةً وفي لحظة، بل استغرق تكوّن السماوات والأرض ست فترات زمنية نقدّرها كلّها حَالِيّاً بين ثلاثة عشر إلى ثلاثين مليار سنة، وَسُبْحَانَهُ بقدراته الفائقة يمكنه فعل أي شيء وبلحظة، ولكن الكثير من الأمور ستفقد معناها، مَا معنى أن أفتح عيني لأول مرة لأجد نفسي في جهنّم خَالِداً فيها لأني لو مررت في الحياة الدنيا لكنت كَافِراً، لِذَا فَوْراً خلقني تعالى في جهنّم! وما معنى خلق الدنيا في لحظة بحيث تفقد الأمور الطبيعية ترابطها، وَلَا معنى للفيزياء ولا الكيمياء ولا البيولوجيا... لو لم ينشأ كل شيء من الصفر بتصميم تكون نتيجته خلق سبع سماوات وأرضين.

ونلاحظ كَلَاماً في الكتب حول كلمته تعالى {كُنْ}، وهي مجرّد تعبير عن صدور الأمر منه تعالى، فَسُبْحَانَهُ لا يتكلّم مثلنا ولا مثل الملائكة (ع) ولا مثل أي شيء يمكننا تصوّره لأنه تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}.

الْحَالَةُ إذاً حتمية حصول ما يقرره تعالى مع استغراقها للوقت حتى تتشكّل، مثل قوله تعالى {كُنْ} للنبي عيسى(ع) فكان في بطن أمّه(ع) من دون أب، ومن الواضح أن الآية لم تقصد أنه(ع) تشكّل فَوْراً وصار عيسى الطفل أو الرجل، بل صدر الأمر الإلهي وسيتنفّذ ويحصل حَتْماً، وراجع في ذلك دراسة الآية 47 من سورة آل عمران {قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}.

وبدراسة لمنشأ الفهم غير الصحيح لما يقصده تعالى بأنه يقول: {كُنْ} {فَيَكُونُ} الشيء "فَوْراً" وبدون آليات لحدوثه، سترى أن أساس ما جعله تعالى فينا من قابليات للتعرّف عليه من أفعاله، وبسبب اختلاف حالة أساس الفكر والنفسية من السلامة والفساد في كل واحد منّا، نَشَأَ فرع وحّده تعالى، ونشأ فرع اخترع إِلَهاً لكل ما يجهل سبب حصوله، حَيْثُ اخْتَرَعَ إلها للمطر وآخر للبراكين وآخر للعواصف والرعد والبرق...

والموحدون له تعالى وبسبب اختلاف سلامة قلوبهم بتدرجات سلامتها، نَشَأَتْ فروع في فهم أفعاله تعالى، وكما يبدو من تراثنا الديني الْغَالِبِيَّةُ فهموا بسذاجة وطفولية أنه تعالى يفعل الأشياء بمجرد أمره بحصولها وَتَحْدُثُ فَوْراً بلا آليات لحدوثها، وبناء عليه فهموا من تعابيره تعالى عن أنه يقول للشيء: {كُنْ} {فَيَكُونُ} أنها تقصد الفورية، فيقول تعالى: لِيَنْزِلِ الماء. فَيَنْزِلُ الماء. وفهموا كلامه تعالى عن خلقه لآدم(ع) أنه مختصر بمرحلتين، مرحلة تشكيل تمثال من الطين، ومرحلة الأمر بأن يصير إِنْسَاناً من لحم ودم... فَوْراً.

ولست أسخر أو أسخّف ما قالوه على أساس أني أفهم منهم، وأن قلبي سليم بدرجة أعلى منهم، لا، بل ألفت انتباهك لتعاملنا مع كلامه تعالى من المعطيات المتوافرة لدينا، ومن خلفية ثقافية حاكمة على رؤيتنا للأمور بَدَلاً من البحث في الأمور من الصفر بما نسميه حَالِيّاً بطريقة علمية بحثية.

وهكذا صار لدى المنتمين لدينه تعالى خَلْفِيَّةٌ ثقافية راسخة مستندة إلى تفاسيرهم لكلامه تعالى، وعندما علم الآخرون بوجود آليات لحدوث الأشياء، كفروا بالإله! لأن المنتمين لدينه تعالى عرضوا دينه تعالى على أساس أنه الإيمان بالإله الذي يفعل بيديه وَفَوْراً كل ما نجهل سببه...

وعندما فرضت المعطيات العلمية "التجريبية" نفسها مُتَسَلِّلَةً على ثقافتنا، تطوّرنا قَلِيلاً دافعين له تعالى إلى الخلف، حَيْثُ قَدِيماً قالوا إِنَّهُ تعالى يأمر بنزول الماء وَفَوْراً ينزل، وبعدها قالوا إِنَّهُ تعالى يأمر بنزول الماء فَتَتَشَكَّلُ الغيوم وينزل الماء، وَدَخَلَتْ آلية ما على سبب نزول الماء ولم يعد فَوْرِيّاً... وهكذا دفعوه تعالى إلى الخلف، كُلَّمَا علموا بآلية حدوث شيء ما، دفعوه تعالى إلى الخلف، ومن جديد عندما علموا بِمِيكَانِيكِيَّةِ سريان الهواء على وجه الأرض، وبسبب فرق الحرارة الناتج عن الاقتراب والابتعاد عن الشمس مع تداخل ميلان محور الأرض... دفعوه تعالى إلى هناك كمصمّم لذلك، وعن ذلك ينتج نزول الماء...

نضيف على ما سبق تشرّب فكرة حدوث الأشياء بلا آليات في عقول غالبية الناس من مختلف الأهواء، كالحالة الخرافية للاعتقاد بالسحر كحدوث لشيء بمجرد الرغبة فيه وبلا آليات لحدوثه، أو التلفظ بكلمات ينتج عنها أثر بلا ارتباط، أو القيام بحركات باليدين وحدوث شيء ما، أو لبس خاتم في الإِصْبَعِ عليه نقش ما ويمكّنك من فعل أمور ما بدون آليات... كل هذه الخلفيات حاكمة على فهمنا لكلامه تعالى بطريقة سيئة أوصلتنا إلى تفسير كلامه تعالى بدون الاعتماد على المعاني البسيطة لكلامه تعالى، وصرنا نفهم الجملة هنا أنه تعالى يقول للشيء {كُنْ فَيَكُونُ} فَوْراً، أو على الأقل صار لدينا في خلفيتنا أنه تعالى عادة أو غَالِباً أو أَحْيَاناً كثيرة... يفعل الأشياء فَوْراً، بينما الغالبية الساحقة من أفعاله تعالى والتي نعلمها لها مراحل...

هَا القرآن مصدر موثوق لكلامه تعالى، وتجد فيه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ومن الواضح أنها مراحل لتشكّلها وليست أَيَّاماً من أربع وعشرين ساعة، وخذ مَثَلاً على ذلك الآية 10 من سورة فصلت {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ}، وَمِنَ الواضح أن الكلام عن مراحل.

ونفس المشكلة في تحكّم الخلفيات بنا في فهم كلامه تعالى عن خلق آدم(ع)، ولمزيد من التوسع راجع في ذلك دراسة الآية 30 من سورة البقرة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...}، والآية 29 من سورة الحجر {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}، وَسَيَتَبَيَّنُ لك بوضوح وجود مراحل من الخلق من طين وُصُولاً لحالة البشرية... وُصُولاً لولادة آدم(ع) وزوجته...

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ{69})
{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم يصر لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت. {إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ}، يحاولون إقناع الآخرين، وهنا الكلام عن الذين لا يريدون أن يقتنعوا بالحقّ، وَيُجَادِلُونَ، {فِي آيَاتِ اللَّهِ}، بالأمور المميزة المنسوبة له تعالى ليثبتوا أنها ليست مميزة ولا تبرهن على صحّة دينه تعالى.

ألم تلتفت لهذه النوعية من الناس، {أَنَّى يُصْرَفُونَ}؟ كيف وبأي طريقة يتحوّلون عن الإيمان بالآيات! حَيْثُ إِنَّ الإيمان بما هو منسوب للعزّة الإلهية يعتبرونه شَيْئاً للجدل فيه!

تذكّر دَائِماً موضوع السورة عن الجدل في آياته تعالى، وكما ترى أَنَّ الإشارة للموضوع تتكرر.

وانتبه للطريقة الدارجة حَالِيّاً لقراءة القرآن عند مشاهير القرّاء والتي يظن غالب الناس أنها كانت هي نفسها شائعة في عهد النبي محمّد(ع) وهذا شيء غير صحيح بَتَاتاً، وحتى الترتيل على طريقة الحصري والمنشاوي وعبد الباسط... لم تكن طريقة شائعة في عهد النبي محمّد(ع)، وآيتنا هذه واحدة من غيرها الكثير من آيات القرآن التي تفقد صيغة السؤال التعجّبي عند قراءتها بالطريقة الدارجة حَالِيّاً بالترتيل أو التجويد، سَمِعْتُ للقارئ الطبلاوي محاولات لعرض صورة صوتية لأمثال آياتنا هذه بقراءتها بصيغة تفيد السؤال التعجّبي.

(الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{70})

{الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ}، فلم يصدّقوا بصحّة الكتاب الإلهي على مرّ التاريخ، من توراة وإنجيل وقرآن وزبور و... {وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا}، فلم يصدّقوا بصحّة ما نقله لهم الرسل منّا، {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}، ومن الآية التالية نعلم ماذا سيعلمون، فهم الآن لا يصدّقون بتهديده تعالى لمن كذّب بكتبه وما نقلته رسله عن توحيده والإيمان بآياته ولكن سيأتي زمن ستصير فيه هذه المعلومة من الثوابت الصحيحة:

(إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ{71})
{إِذِ الْأَغْلَالُ}، حين يكون عموم ما هو ثقيل مزعج حمله، وهنا الكلام عن القيود والأربطة الشديدة المزعجة المؤلمة من حبل أو حديد... {فِي أَعْنَاقِهِمْ}، في رقابهم، فالعنق هو عموم ما كان ضيقا وقبله اتساع، وفي الإنسان هو ما تطاول من الوصلة بين الرأس والجسد، وبالعامية نسميها رقبة، {وَالسَّلَاسِلُ}، أيضا هم مَرْبُوطُونَ بها، والسلسلة هي حلقات معدنية متسلسلة "جنزير" فتصير كالحبل، وَهُمْ، {يُسْحَبُونَ}، وتعلم من عموم القرآن أن الملائكة (ع) تتولّى تعذيبهم مما يعني أن الملائكة(ع) تسحبهم من السلاسل المربوطة بالأغلال التي في أعناقهم، فتشدّ السلسلة لتسحبهم من مكان إلى مكان...

(فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ{72})
{فِي الْحَمِيمِ}، في السائل المائع الذي درجة حرارته مرتفعة جدا، في المعادن الصلبة التي ذابت من الحرارة العالية أو السوائل الغالية من الحرارة العالية يتم سحبهم فيها كما قالت الآية السابقة، {ثُمَّ فِي النَّارِ}، في المكان المشتعل، {يُسْجَرُونَ}، يَتِمُّ رميهم بها وهي مسجرة فتتحرك في مكانها باضطراب شديد وهم سيصيبهم نفس الشيء من الحركة العنيفة في داخلها.

(ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ{73})
{ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ}، فقالت الملائكة(ع) والمؤمنون للمجادلين المكذّبين:

{أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ}؟ أين ما كنتم تقولونه عن شركاء لله تعالى، ونكمل مع الآية التالية:

(مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ{74})
{مِن دُونِ اللَّهِ}؟ كما تقول: ذهبتم من دوني. وتقصد أنهم ذهبوا وتركوك. فأين الذين قلتم عنهم آلهة وتركتم الإيمان بالله الإله الأحد وعبدتموهم؟ فأنتم الآن تتعذّبون بسبب شرككم، فأين الذين أشركتم بهم لينقذوكم؟

{قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا}، فها نحن نتعذّب هنا ونريدهم أن يساعدونا ولكنهم ليسوا آلهة وبالتالي لَنْ نحصل على مساعدة منهم.

كثيرا ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيرا أم شرا، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضَلَّ عنك صيدها. وَاسْتَعْمَلَ القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، فلم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، لَنْ يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

{بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئاً}، فكل ما أشهرناه وأعلنّاه بكلام توجّهنا به لإله غير الله تعالى أنهم آلهة، لَمْ يكن في الحقيقة دعاء لإله، إذْ كَانَ كلاما في الفراغ.

وكما تلاحظ سَحْبُ هذه الجملة من سياقها سيذهب بك بضبابية إلى الظنّ أنها تشير إلى دعائهم لآلهتهم على معنى طلبهم لأمور من آلهتهم كأن ترزقهم أو توفقهم... ولكن غالبية استعمال القرآن لكلمة دعاء ومشتقاتها كان عن إشهارهم وإعلانهم أنه يوجد إله غيره تعالى، وهنا يصير معنى الجملة أنهم حين كانوا يعلنون ويشهرون عن آلهة غيره تعالى هُمْ في الحقيقة كانوا يقولون كلاما في الفراغ، إذْ لَا يوجد آلهة إلا هو تعالى.

{كَذَلِكَ}، بهذا الذي ذكرته الآيات عن ضياع أدعيتهم التي كانت لغيره تعالى، {يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ}، الذين أنكروا توحيده تعالى وكتبه ورسله والآخرة والحساب والعذاب... فيجعلهم سبحانه على الشيء الذي لا يوصلهم إلى غاية مرغوبة.

ننتبه جيّدا، هَذَا المعنى عن تضليله سبحانه للكافرين تراه واضحا هنا، حيث دعوا لغيره تعالى وكان دُعَاؤُهُمْ في ضلال، فضلّل سبحانه الكافرين فلم يصل دعاؤهم إلى أي نتيجة، وكما ترى بوضوح لَا الآية هنا ولا الآيات التي تشبهها تقصد أنه تعالى يضلّل الإنسان الذي يريد أن يهتدي، أو يضلّل بعض الناس بإجبارهم على الضلال... بل هم أصلا قرّروا إنكار الحقّ فكفروا بدينه ورسله وكتبه... وهذا ضلال، وهو تعالى خلقهم بحرية الإرادة التي هم منها قرروا أن يضلّوا، ولم يجبرهم على الاهتداء غصبا عنهم عبر التلاعب بعقولهم أو ضربهم على يدهم وفمهم كلّما أخطؤوا، وَلَمْ يَتَغَاضَ سبحانه عن كفرهم... وبذلك ضلّ دعاؤهم لأنه لم يتوجّه بالاتجاه الصحيح، ولم يحسبه تعالى موجّها له، ولم يعتبر له قيمة بل بالعكس اعتبره سببا لتعذيب من قاله...

(ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ{75})
{ذَلِكُم}، العذاب والضلال في الآخرة، {بِمَا}، بسبب الذي، {كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ}، فكنتم في حياتكم الدنيا تشعرون بحالة نفسية جيّدة ولم يكن معكم حقّ فيما فرحتم به، فالصواب أن تفرحوا في حياتكم على الأرض ضمن توحيده وعبادته تعالى، ولكنكم شعرتم بالسعادة بخيراتها وأنتم مشركون وتفعلون السيئات وهذا ليس حقا ولا صوابا، وعليه عقاب.

{وَبِمَا}، وبسبب الذي، {كُنتُمْ تَمْرَحُونَ}، فلا تبالون ولا تهتمون، والكلام هنا عن المرح بآياته تعالى. والمرح هو حالة السرور مع اللامبالاة، على أساس الاطمئنان التامّ، ينتج عنها الاستهتار والزهو والتعالي، وينتج عنها التبختر بالمشي والحركات وطريقة الكلام.

كما ترى الْآيَةُ تشير للمجادلين بالآيات الإلهية أنهم عندما اعتبروها مادّة للجدل، شيئا للتسلية به، فَعَلُوا ما يَحْلُو لهم من دون أي تقيّد بأوامره تعالى، فيصير معنى الآية كما نقول بالعامية: فلتان على راسك. على كيفك. على راحتك. مش فرقانة معك... وكأنها حالة عرض مسرحي للفرح والمرح، مثل الهزل بأمور جدية، فتتحدّث عن أمور خطيرة بطريقة هزلية لأنك تمرح لَا تبالي ولا تهتم، وهم تعاملوا مع آياته تعالى والإيمان بها من هذه الخلفية، وأوضح مثال عن ذلك ما تراه وتسمعه من مسرحيات هزلية ونكات وتعليقات مضحكة وكتب ومقالات... ساخرة عن آياته تعالى ودينه ورسله وآخرته...

(ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ{76})
{ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ}، فكلّ واحد منكم بحسب درجة عذابه فليدخل من الممرّ إلى مكانه المخصّص في المكان الموصوف بسوء ما فيه، ففيه النار المتأجّجة، {خَالِدِينَ فِيهَا}، في جهنّم لا تموتون ولا تفنون ولا تخرجون منها وهي لا تخرب...

{فَبِئْسَ}، فيا لسوء، {مَثْوَى}، مكان إقامة لا يملكه، {الْمُتَكَبِّرِينَ}، الذين كانوا يرون أنفسهم أكبر من الاعتراف بالحقّ وأكبر من أن يوحدّوه تعالى ويطيعوه.

نتذكّر دائما أن المثوى هو المكان الذي تقيم فيه ولا تملكه، مثل الضيف في بيت فهو ثاو فيه، أو الغريب في بلد، أو المسجون... كحالة النبي يوسف(ع) في بيت العزيز كما تصف الآية 21 من سورة يوسف {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا}، والآية 23 من سورة يوسف {قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ}، وكحالة النبي موسى(ع) في مدين كَمَا تصف الآية 45 من سورة القصص {وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ}.

دَرَجَ خطأ أن يقول الناس: جعل الله تعالى "مثواه" الجنّة. اَلْجَنَّةُ ليست مثوى بل عدن وميراث، فهم يملكونها، ولم يُورِدِ القرآن استعمال المثوى لأهل الجنّة، ولم يرد أي تعبير يشير ولا بأي شكل إِلَى ملكية أهل النار للنار، بل دائما الكلام عن وجود الكافرين هناك بشكل خالد ولكن مثل وجود من في السجن فهو ثاو فيه لا يملكه.

لَا تتصوّر أن للنار أبوابا كأبواب البيوت والغرف، اَلْكَلِمَةُ وصف لعامة الوسيلة أو ما تمرّ منه للوصول إلى شيء، سواء كممر معنوي أو مادي، فالنار درجات مختلفة في شدّة العذاب، والدخول بأي شكل كان إلى درجة منها فهو عبور لباب، فهو وصول إلى مكان درجة التعذيب المناسبة.

اَلْبَابُ في اللغة هو الوسيلة أو الممر للوصول إلى شيء، فباب البيت هو ممر الدخول وليس ما نسدّ به الفتحة، فهذه التسمية لباب الخشب والحديد... درجت فيما بعد، فكما يبدو من أشعار العرب قبل الإسلام فما نسدّ به الفتحة اسْمُهُ رتاج.

في فترة نزول القرآن لم يكن دارجا في مكة والمدينة ولا عند عموم العرب، إِغْلَاقُ مداخل بيوتهم بلوح خشبي أو عِصِيٍّ خشبية... فكانوا يضعون قماشا أو جلد حيوان أو لا شيء على مدخل البيت، وكانوا يعتمدون أحيانا بناء البيوت بممر مُلْتَوٍ بين المدخل الأساسي والغرف الداخلية لحمايتها من إمكانية رؤية ما فيها من المدخل... وترى من أثر ذلك إلى الآن أننا نقول "باب" لفتحة الدخول إلى البيت أو الغرفة "أو الخيمة"، ونفس الكلمة نقولها للوح الخشب أو الحديد... الذي نسدّ به المدخل، وهناك كلمة عربية مستعملة في أشعار العرب قبل الْإِسْلَامِ يبدو أنها تشير لما نسدّ به الباب وهي كلمة: رتاج.

بِتَذَكُّرِ كلمة نافذة يسهّل علينا فهم كلمة باب، فالنافذة هي عموم الفتحة وليس ما يسدّ الفتحة، وبالأصل فالنافذة ماديا عموم الممر الصغير كمعبر أو إطلالة... ومعنويا عموم الوسيلة للاطلاع أو التواصل مع شيء... والباب ماديا هو عموم الممر الواسع للوصول إلى الشيء، ومعنويا هو الوسيلة للوصول لشيء. على كلّ حال سَرِيعاً درج بين الناس وضع "رتاج" لبيوتهم قبيل وفاة النبي(ع) بقليل بحسب ما يبدو من التاريخ.

تَرَى في القواميس فقدانا للدقة فِي التَّفْرِقَةِ بين كلمة باب ورتاج ومغلاق، وكما يبدو واضحا اسْتَسْهَلَ الناس التوسعة في استعمال كلمة باب "ونافذة..." التي هي أصلا واسعة التطبيقات لمعناها فاستعملوها لتشمل عموم الممر وما يسدّ الممر، فألغوا كلمة رتاج ومغلاق من الاستعمال.

سَتَجِدُ في الأشعار قبل الْإِسْلَامِ وفي بعض ما وردنا من كلام عن الجيل الأول من المسلمين أن بعضهم استعمل كلمة رتاج ليشير إلى ما نسدّ به الباب. وصرت تعلم أن كلمة رتاج لم تكن دارجة بكثرة بين الناس لأنهم لم يكونوا يَسُدُّونَ أبواب بيوتهم به، وكانوا يرونه في القصور والبيوت الكبيرة، ولهذا ظنّ بعضهم أن الرتاج اسم للباب "المغلاق" الكبير فقط، أو للباب "المغلاق" الصغير في الباب الكبير الذي يرونه على مداخل القلاع والحصون، وهذا ما ذكره بعضهم في القواميس.

(فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ{77})
{فَاصْبِرْ}، ابْقَ على التصرف بشكلٍ واعٍ ومدروس، ولا تفلت أعصابك فَتَصِيرَ أقوالك أو أفعالك سيئةً بسبب جدالهم وكفرهم وشركهم وتكبّرهم وتكذيبهم لك، فهذا الوضع المزعج لن يستمر، {إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ}، فما قاله سبحانه عن العذاب في الآخرة بهذا الشكل الشديد فهو حقيقي وسيحصل حتمًا وليس كلامًا باطلًا.

{فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ}، فهناك احتمال أن نجعل عندك صورة محددةً لبعض ما نقوله لهم أَنَّهُ سيحصل معهم من تعذيب، وَنَجْعَلَكَ ترى نموذجًا عن تعذيبهم هنا في الدنيا، بكارثة طبيعية، {أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ}، فَنَأْخُذَكَ بالتمام من هذه الحياة، قبل أن ترى تعذيبهم هنا، على كلّ حال، {فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ}، فَسَيَرْجِعُونَ إليه تعالى ولن يختفوا ولن يذهبوا لعالمٍ آخرَ لا سيطرة لله تعالى عليه... فلا ارتباط بين وجودك حيًّا بينهم لرؤية العذاب ينزل عليهم وبين القرار الإلهي بتعذيبهم، وقد يَحْصُلُ وأنت ميّتٌ، فإن لم يُقَرِّرْ تعالى تعذيبهم في الدنيا فعلى كلّ حال التعذيبُ في الآخرة حتميٌّ.

تلاحظ من التاريخ أن العذاب الإلهي لم ينزل على أهل مكّة المعاصرين للرسول(ع)، وما تجده في الكتب عن تسميتهم لبعض الأمور أنها عذاب أصاب أهل مكّة من قحط وغيره... فَتَسْمِيَتُهُ بعذاب ليس صحيحًا، انقطاعُ المطر على عهد

النبي محمّد(ع) في سنة ما لمدة طويلة يَبْدُو أنه حصل فعلًا من عموم ما نقرؤه في التاريخ، وضاقَتِ الأمور على أهل مكّة الكفّار، وطلبوا المساعدة بالمؤنة من طعام وماشية... من النبي (ع)... ولكن أيضًا من التاريخ تعلم أنه لم يكن قحطًا مخصصًا لأهل مكّة حيث أصابَ كل المنطقة وحتى المدينة، ولم يكن عذابًا من النوع الذي يَتَوَعَّدُ به تعالى، فلم تحصل حالات وفاة جماعية.

ما يقولونه في بعض الكتب عن عذاب أهل مكّة بالحرب ففيه وجهة نظر لولا ما ورد في القرآن عن تخصيص العقاب الإلهي للكافرين بكارثة طبيعية تقتل عددًا كبيرًا منهم، فخسارة الكفار بالحرب على يد المؤمنين هي عذاب، ولكنه ليس من النوع الذي يتوعّد به تعالى الكفّار عادة بسبب كفرهم، وَتَفْهَمُهُ أنه من نوع تعذيبهم على أيدي المؤمنين بسبب نشاطهم العسكري ضد المؤمنين.

أمّا لماذا لم ينزل عذاب إلهي على أهل مكّة المعاصرين للرسول(ع) أو لغيرهم من الكفّار حينها، فمعلوم من التاريخ أنهم في مدّة قليلة أسلم الكثيرون منهم على عهد الرسول(ع)، ومن بعده فيما يسمّى بعصر الخلفاء انمحى دين الشرك من شبه الجزيرة العربية...

تلاحظ عمومية كلام القرآن في العديد من الآيات بِشَمْلِهِ عذاب الدنيا بعذاب الآخرة، فبدل أن تُهَدّدَ بعذاب في الدنيا إن اكتملت شروط حدوثه، وإن لم تكتمل فهناك عذاب حتمي في الآخرة، العديدُ من الآيات افترضت بك معرفة ذلك واكتفت بالإشارة إلى ذلك بكلمة "عذاب"، وآيتنا هنا أتت لترينا عادتنا الضيقة في نظرتنا للأمور، فحياتنا قصيرة ولذلك نستعجل حصول الأمور، وتلاحظ أن بعض الناس لديهم بُعْدُ نظرٍ، وَيُحَلِّلُونَ ويخططون لأمور ستحدث بعد مدّة طويلة، ومن هذه العقلية تأتي آيتنا هنا لتقول للمعاصرين للنبي محمّد(ع) أَنَّ وجوده (ع) بينهم ليس آخر الدنيا، بل مجرد زمن يمرّ فيها، فكلامه (ع) عن العذاب الإلهي ليس مرتبطًا بوجوده بينهم.

نفهم ذلك إذا انتبهنا أَنَّ كلام الآية عن الرسول محمد(ع) والمعاصرين له هو مجرد نموذج، فحتى أنت قد تقوم بدور النذير إذا كنت في مجتمع يسود فيه الفساد، وَتُنْذِرَهُمْ من عقاب إلهي قد يحصل هنا في الدنيا إذا اكتملت شروط حصوله، ومن عقاب حتميٍّ في الآخرة، فإن لم يحصل خلال أيام، أو أشهر أو سنة... فالأمر ليس مرتبطًا بك، مثلما لم يكن مرتبطًا بالرسول محمد(ع)، بل مُرْتَبِطٌ بالقرار الإلهي بما يراه سبحانه بحكمته مناسبًا...

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاء أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ{78})

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ}، لَسْتَ أول رسول بل أنت "الأخير" من ضمن سلسلة ممتدة في تاريخ البشرية لآلافٍ من السنين، {مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ}، أَخْبَرْنَاكَ بأحداث من حياتهم، {وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ}، لَمْ نذكر لك أسماءهم ولا من قصص حياتهم، {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ}، من الذين تعرفهم أو لا تعرفهم، {أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ}، بشيء مميّز، وعامّة الناس يسمونها معجزة، {إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}، كُلُّ الرسل مثلك ليس لديهم قدرات ذاتية على فعل شيء يبرهن للناس أنهم رسل، فالأمور المميزة التي حصلت على يد الذين سبقوك من الرسل كانت بسماح منه تعالى وليس بقرار من الرسل.

فإن طالبك بعض الناس أن تأتيهم بآية بعمل غير عادي "هم يَقْتَرِحُونَهُ" ليصدّقوك ويؤمنوا بك كرسول، فأنت مثلك مثل رسل كثيرين، بعضهم تعرفهم وبعضهم لا تعرفهم، وكلّ الرسل ليس باستطاعتهم الاستجابة لِطَلَبَاتِ الناس بالإتيان بآية "من التي يسمّيها الناس معجزة" إلا إن حصلوا على الإذن منه تعالى.

{فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ}، حَصَلَ الأمر الشيء الذي يريده تعالى أن يحصل، ومن تكملة الآية تعلم أنه يوم القيامة من الموت، عندها، {قُضِيَ بِالْحَقِّ}، أنهى تعالى ما بين الناس بالصواب، فهناك من آمن برسله تعالى وآياته والآخرة... وهناك من أنكرها، وصاروا بحاجة لمن يقضي بينهم لِيُصْدِرَ حكمه في الخلاف بينهم، وفي يوم القيامة يقضي سبحانه بينهم بالحق بالصواب فلا يظلمهم ولا يجور عليهم...

{وَخَسِرَ}، فَقَدَ شيئًا له أهمية "كبيرة"، {هُنَالِكَ}، في يوم القيامة، {الْمُبْطِلُونَ}، الَّذِينَ قاموا بأعمال باطلة غير صحيحة ولا سليمة، فهم أشركوا وعصوا وهذا تصرّف باطل، فهم مبطلون، وبالتالي سيفقدون رحمته ومغفرته وشفاعته وثوابه... تعالى، وسيتعذبون في النار...

تلاحظ أَنَّ الآية اختصرت جملة طويلة من الكلام، فهناك أناس يقولون للرسول محمّد(ع): افْعَلْ كذا وافعل كذا كما فعل الذين تقول عنهم من الرسل من قبلك... أَحْيِ الموتى وافلق البحر ولتخرج ناقة من صخرة... حتى نصدقك بأنك رسول، فالكلام لا يكفينا. تُجِيبُ الآية بشكل موسّع في المعنى، فتقول إِنَّ هذا الرسول ليس أول رسول، وهناك رسل أخبرناك عنهم حصلت معهم آيات، وهناك رسل لم نخبرك عنهم، وكلّ رسول حصلت معه آية فهي بإذننا، لِيَقْتَرِحُوا عليك ما يشاؤون، وَلِيَعْلَمُوا أنه ليس بيدك شيء، فنحن نقرّر إن كانت ستحصل الآية، وعلى كلّ حال، لِيُصِرُّوا على موقفهم من الشرك والمعصية وأنهم لن يؤمنوا إلا أن تأتيهم بآية على مزاجهم، فعلى كل حال هم سَيَرْجِعُونَ إلينا وسنحاسبهم، فهذا الشعور الخادع بالأمان الذي يشعرون به الآن، ومنه ينطلقون لتحدّيك وتكذيبك وطلب آيات على خاطرهم، هُوَ حالة مؤقّتة وسيأتي يوم نحاسبهم فيه...

بعبارة أخرى، هُمْ يسمعون بآيات قام بها رسل في السابق فيطلبون آية يأتيهم بها الرسول حتى يؤمنوا، لِيَبْقَوْا على هذه الحالة من العناد حتى يصلوا إلى الوقوف بين يديه تعالى ليحاسبهم وسيرون مدى خسارتهم.

نلاحظ في الكتب كلاما عن عدد الأنبياء والرسل، ونجد في القرآن تصريحا بذكر اسم 26 نَبِيًّا، وتلميحا بذكر بضعة أنبياء بلا اسْمٍ، وفي الروايات نجد أرقاما عديدة، وكالعادة فإننا مهما بذلنا من جهد فلن نخرج بتوفيق بين الروايات لمعرفة عدد الأنبياء أو الرسل، وتقديرهم يبدأ من مئة وعشرين أَلْفًا "وأكثر" وَيَمُرُّ بالآلاف، والألف، وصولا إلى الثلاثمئة، وهذا البحث لا يغني ولا يسمن من جوع فلا فائدة فيه.

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ{79})
{اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا}، فالحيوانات الموصوفة بأنها نعمة لأنها تنقلكم فتريحكم من السفر للمسافات الطويلة ليس بالصدفة حصل ذلك، ولا الطبيعة كائن وَاعٍ يصمم ويخلق، ولا أنتم اخترعتم ركوبها، بل هو تعالى جعلها صالحة للركوب لكم وجعل فيكم ما يعرّفكم على إمكانيةِ استخدامها للركوب، {وَمِنْهَا}، من الأنعام، {تَأْكُلُونَ}، فبعضها تأكلونه كالبقر والغنم وبعضها لا تحبّذون أكله كالبغال والحمير والأحصنة.

هَذِهِ الأمور التي تبدو عادية إنما هي آيات، فهي من نتاج تصميمه تعالى لنا ولبيئتنا، فسبحانه من ضمن تصميمه للسماوات والأرض أَتَاحَ لنا ما يلزم حتى نصل إلى مرحلة استخدام الحيوانات للتنقّل.

(وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ{80})
{وَلَكُمْ فِيهَا}، في الأنعام، {مَنَافِعُ}، تَنْتَفِعُونَ بها بأمور أخرى غير الأكل والركوب، فتشربون لبنها، وتستعملون صوفها وشعرها وجلدها...

{وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا}، على الأنعام، {حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ}، تَكُونُ لديك حاجة وتحملها في صدرك، في تفاعلك مع الأمور وتريد تنفيذها، فيخطر ببالك الهجرة أو السياحة أو قتال الأعداء أو التجارة... ويصير عندك تفاعل داخلي مع هذا الموضوع، وترى أنك لن تستطيع السير على قدميك لمسافات طويلة، وتحتاج لنقل أوزان من البضائع لمسافات طويلة، وهذه الحاجة التي في صدرك تبلغها إذا استعملت الحيوانات لتنقلك وتنقل البضائع...

{وَعَلَيْهَا}، على الأنعام، {وَعَلَى الْفُلْكِ}، على الأشياء التي تعوم على الماء كالسفينة والمركب والقارب والفلوكة... {تُحْمَلُونَ}، "فعل مبني للمجهول نقرؤه بالضمّة على التاء"، فيتم حملكم بها من مكان لآخر.

كَمَا ترى من القرآن فتعاملنا مع البيئة التي نعيش فيها جَعَلَهَا تعالى بهذا الشكل، فسبحانه صمّم وخلق الأنعام لتكون صالحة لنركبها وننقل عليها الأغراض، وجعل تعالى فينا الفكر والخيال... الذي سيؤدّي بنا إلى اكتشاف هذه الخاصية في الحيوانات، فنحن لم نخترع الركوب عليها على أساس أنه تعالى خلقها ولم يعلم أننا سنركبها، لا، وكذلك جعل تعالى بين المواد والماء خاصية العوم والطفو، وزوّدنا بالفكر والملاحظة حتى نلتفت لذلك ونخترع السفن.

رُكُوبُ الأنعام والفلك نماذج عن بقية المنشآت والآلات التي نصنعها، حَيْثُ توصّلنا إليها عبر ما جعله تعالى فينا من فكر وخيال وعبر البيئة التي حولنا وليس من ابتداعنا بل عن تخطيط إلهي مسبق لما يمكننا نحن صنعه بهذا الفكر وهذه

البيئة، فالفلك مجرد نموذج، ويمكنك تعميمه بكل سهولة على الطائرات والسائرات "السيارات" والقاطرات... فمن الأساس كان تعالى خَلَقَنَا وخلق بيئتنا حتى نتوصّل لهذه الاختراعات.

نَنْتَبِهُ ونضع في بالنا دائما الفرق الهائل بين الموروث الثقافي عن نظرتنا لأفعاله تعالى وبين كلامه سبحانه، فعادة ينسبون له الأمور التي نجهل أسبابها وآليات حصولها، فقديما قالوا إِنَّهُ تعالى يأمر بنزول الماء فينزل... وأمر بخروج النبات فخرج... وصار عندهم أزمة فيما يفعلونه هم بأيديهم من زراعة وصناعة سفن وركوب الخيل... بينما الكلام الإلهي لا يفرّق بين ما يصنعونه هم وبين ما لا يصنعونه، وبين ما يجهلون أو يعلمون سبب وآليات حدوثه، فكلّه ينسبه تعالى لنفسه.

لِتَبْرِيرِ ذلك تراهم يطرحون التفسيرات لمواءمة كلامه تعالى مع أفكارهم، وأهمّها من الناحية الفكرية التجريدية أنه تعالى مسبّب الأسباب وخلف كل سبب طولي، فأنا أزرع، والله خلقني، فسبحانه الذي زرع، مثل تصوّرنا لآلة "روبوت" أصنعه ليزرع، فأكون أنا الزارع.

بِشَكْلٍ ما فهذه الفكرة مقبولة بشكل ما قُرْآنِيًّا، ولكن عرضها كما يعرضها القرآن من بعد تبسيطها سيريك دقّة أعلى، فتصوّر نفسك أنت قررت خلق كائنات، فصمّمتها جاعلا فيها خصائص، وتتوقّع سلفا ما يمكن للمخلوقات فعله، وحين تفعل مخلوقاتك شيئا ما، فما فعلوه ناتج عن تصميمك لهم، طبعا مع الفارق الهائل بالمقارنة معه تعالى لأنه سبحانه لا يخمّن بل يعلم بدقّة بكل ما ستفعله المخلوقات، هكذا ينسب سبحانه لنفسه كل ما فعلته المخلوقات، رَزَقَهُمْ وشفاهم وهداهم... وفتنهم فمرضوا وَفَقُرُوا... وأضلّهم... وأمثلة ركوب الأنعام والفلك وخروج الزَّرْعِ... فنحن نقبل بسهولة نسبتها لله تعالى على أنه الفاعل الأساسي، ولكن حين نعمّم كل ما تفعله الكائنات فهل تقبل بنسبة ما نفعله نحن من سوء له تعالى؟ فيكون سبحانه هو القاتل للنفس البريئة؟ ويكون ما يفعله إبليس منسوبا له تعالى كفاعل له؟

كما ترى بِسَطْحِيَّةٍ ستصل إلى نتائج فكرية غير مقبولة إن لم تكن دقيقا ملتفتا لمسألة حرية الإرادة والاختيار الممنوحة للمخلوقات، فسبحانه ترك لهم مساحة كافية ليقرروا فعل السوء أو الخير بها، وهم يتحملون مسؤولية ما اختاروه من سوء، فكل الكائنات ذات الإرادة الحرة ومهما اختلفت درجة إرادتها بانفلاتها مما يحكمها، فسبحانه هَدَاهُمُ النجدين من الهدى والضلال بما يناسبهم، ويرضى سبحانه عن اختيارهم للخير ويثيبهم خيرا عليه، ولا يرضى لهم اختيار الكفر ويعاقبهم بالعذاب عليه، وهذا هو المعنى للجمل القرآنية التي استعملت التعبير بِـ "يُرِيدُ" ويشاء... الله تعالى، فمن سياق الكلام تفهم إن كانت الجمل تتحدّث عن شيء قرّر تعالى حدوثه فأراده وشاءه، أو إن كانت تتحدث عن شيء يرضى ويحبّ تعالى حدوثه لتفعله المخلوقات بالإرادة الحرة التي منحها لهم سبحانه.

(وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ{81})
{وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ}، يَجْعَلُ سبحانه عندكم صورة محدّدة للأمور المميزة المنسوبة له تعالى، كأكلكم للأنعام وركوبكم الأنعام والفلك... فهي نماذج تدل على إله خطّط وصمّم وخلق وتابع... وبقية ما ترونه من حولكم في السماوات والأرض وفيكم كُلُّهَا آيات، كُلُّهَا أمور مميزة كعلامات ودلائل تدل عليه تعالى، كالليل والنهار والشمس والقمر والفصول والنبات...

{فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ}؟! فأي واحدة من تلك الآيات تنكرون فلا ترون أنها تدل عليه تعالى؟! دُلُّونِي على أي شيء فيكم أو من حولكم لا يدلّ على إله خالق مصمّم مخطّط.

كَمَا ترى فالقرآن لا يعرض علينا عقيدة لنؤمن بها على العمى، بل يلفت انتباهنا للآيات، للأمور المميزة التي فعلها تعالى والتي تدلّنا عليه لنؤمن به، فغالب القرآن استبدل التعبير بالبراهين والأدلة والحجج... ليستعمل بدلا منها تعبير "الآية" فهي الأدق والأصوب وصفا لأفعاله تعالى، وَحَتَّى إِنَّهُ سبحانه وصف كلامه عبر القرآن بأنه آيات، وضع في بالك أن أقل استعمال قرآني لكلمة آيات قاصدا بها الجمل الكلامية القرآنية، والأغلبية الساحقة قصد بها عموم ما فعله تعالى من خلق للسماوات والأرض وما فيهما من كائنات وظواهر.

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ{82})

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ}، ألم ينتقلوا وَيُسَافِرُوا في بقاع الأرض، {فَيَنْظُرُوا}، مِنْ بعد السير فيها يوجّهوا اهتمامهم العام، {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، الحديثُ هنا مع الكافرين المجادلين بالآيات، وهناك أناس من قبلهم كانوا أيضا مثلهم من الكافرين المجادلين بالآيات، والسؤال: ألم يروا عاقبة، ما عَقَبَ، ما حصل بعد الكفر والجدل بالآيات كيف كانت نهايتهم؟ هناك آثار عمرانية في الأرض تدل على وجود حضارات أو شعوب أو أمم، كآثار مصر ومدائن صالح(ع) وقرى قوم النبي لوط(ع) ومدين وإرم... ألم تسألوا أنفسكم: ماذا أصاب هؤلاء؟ ولماذا؟ هَا سبحانه يخبركم ويلفت انتباهكم أنهم كانوا مثلكم من الكافرين المجادلين بالآيات، وترون عاقبتهم، فَعَقَبَ وَجَاءَهُمُ الدمار بعد الكفر وَجِدَالِهِمْ بالآيات، وهذا دليل تاريخي ملموس على عقابه تعالى للذين أمثالكم.

{كَانُوا}، الكافرون المجادلون، {أَكْثَرَ مِنْهُمْ} عددا، والكلام هنا مع النموذج أهل مكّة، مكةُ فيها عدد سكّان أقل من بعض المدن التي دمّرها تعالى، {وَأَشَدَّ قُوَّةً}، عسكريا واقتصاديا... بَعْضُهُمْ كانوا أقوى من أهل مكّة، وأكثر وأشدّ، {آثَارًا فِي الْأَرْضِ}، أفعالهم أثارت وَحَرَّكَتِ الأرض أكثر عمرانيا... حكموا وزرعوا وبنوا أكثر من أهل مكّة، كَانَ لهم فتوحات ومدن ومنشآت... فأين قريش من عاد وثمود وفرعون؟

{فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، كَسَبُوا وَحَصَلُوا على أشياء سيئة نتجت من كفرهم وجدالهم بالآيات، وهم في حالة عددهم الكبير وقوّتهم وإثارتهم للأرض... فلم تُغْنِ عنهم من العذاب، كما نقول عن الغنى بالمال الذي يغنيك عن الحاجة وَيُغْنِيكَ من جوع... ولكن فرضا كسبت المال وجعت ولم تجد طعاما لتشتريه بالمال، فالمال لم يغنك في هذه الحالة ولا قيمة له، وهنا العذابُ الإلهي هو شيء يريدون الاستغناء عنه، ولكن ما كسبوه مع كفرهم لم يغنهم عن ذلك فوقع عليهم العذاب.

لاحظ وسترى أن الأقوام التي تعذّبت في الدنيا واختارها القرآن للحديث عنها، هِيَ أقوام مميّزة بعددها وقوّتها، وهذا لا يعني أن كل من عذّبهم تعالى كانوا أقوى وأشدّ من أهل مكّة، هذا ليس معيارا، الكلامُ عن نماذج. التهديدُ موجّه لأهل مكّة وهم أضعف بكثير من أمم نزل عليها العذاب، يُمْكِنُ أن ينزل العذاب الإلهي على أهل مكّة، مما يعني أن العذاب يمكن أن ينزل على أي عدد قليل أو أي مجتمع ضعيف ماليا وعسكريا... وما ذكره القرآن عن أقوام جبّارين هُوَ فقط نماذج اختارها سبحانه لتكون نموذجا لكل مجتمع يرى نفسه قويا بعيدا عن خطر العقاب الإلهي.

(فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون{83})
{فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ}، لتلك الأقوام التي كانت قبلكم كافرة وتجادل في الآيات، {رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ}، أشخاص نقلوا لهم منه تعالى الأمور الواضحة في دلالتها على التوحيد والدين الإلهي... {فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ}، شَعَرُوا بحالة نفسية جيّدة فوق العادة بسبب ما لديهم من علم، وَرَفَضُوا بيّنات الرسل وفرحوا بالمعلومات التي عندهم، مثل الذي تعرض عليه سيّارة ويقول لك: لا أَنَا مرتاح مع سيّارتي ولا أريد تبديلها، أنا فرح بها. المعلوماتُ التي وصلتهم مع الرسل عن توحيده تعالى وآخرته... لم تعجبهم وفضّلوا المعلومات التي معهم من الشرك والفلتان على راحتهم في العقيدة والشريعة التي على هواهم السيّء، فهم فرحون بها مرتاحون ولا يريدون تبديلها.

{وَحَاقَ بِهِمْ}، الْتَفَّ وأحاط بهم، {مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، فهم عندما سمعوا عن عذاب الآخرة اسْتَهْزَءُوا به وَتَعَامَلُوا معه من خلفية الاستخفاف والهوان فلم يعتبروا له قيمة وَاسْتَهَانُوا به ولم يتعاملوا معه بجديّة، وسيأتي يوم القيامة، وهو نفسه ما استهزؤوا به، وسيرون كيف دار والتفّ حولهم من كل الجوانب ولا يجدون مهربا منه.

نلاحظ أننا الآن نرى أنفسنا متطوّرين علميا ومتحضّرين فكريا، فننظر لمن سبقنا نظرة الإنسان القديم، الجاهل البسيط، مَا نحصل عليه الآن من علوم في مرحلة الدراسة المدرسية المتوسّطة والثانوية يفوق بكثير ما كان لدى العلماء من تلك العصور، ولكن هذه النظرة الدونية لمن سبقنا لا تتوقّف عندنا، فمن سيأتي بعدنا سينظر إلينا بدونية ويرانا متخلّفين. هنا وفي العديد من الآيات يعرض علينا القرآن هذه النفسية، ويبيّن أنه في كل عصر من تاريخ البشرية يرى المجادلون في الآيات الإلهية أنفسهم "فهمانين" أذكياء نبهاء متطورين... وعطفا على مفهوم الآية السابقة فهم يرون أنفسهم أقوى عسكريا واقتصاديا من السابقين، حَالِيًّا لدينا الصواريخ النووية العابرة للقارات... تَذَكَّرْ ما أشارت له السورة والقرآن عموما عن فرعون وهامان وقارون، الذين يرون الدين الإلهي متخلّفا عن علومهم وفهمهم وتطوّرهم، ونسمع هذا الكلام

حتى من الذين كانوا في عصر النبي نوح(ع)! ومن أهل مكّة! وعن هذين القومين نعلم تخلّفهما العلمي وَالتِّقَانِيَّ والعمراني الهائل بالنسبة لنا! يَشْمَلُ القرآن كل أصحاب هذه العقلية الفرحة بما لديها من علم والرافضة للآيات الإلهية رغم كونها بيّنات، وَيَشْمَلُهُمْ مَعَ بعض بنفس النتيجة: حاق بهم ما كانوا به يستهزئون. يَقُولُونَ كذبا وجحودا وتعاميا... إِنَّ علومهم لا تدلّهم على توحيد الإله ولا على آخرة وحساب، ويا لها من علوم باهرة أمام آياته تعالى! فليفرحوا بها فهذا خيارهم وليتحمّلوا عواقبه.

(فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ{84})
{فَلَمَّا رَأَوْا}، عِنْدَمَا صارت عندهم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: لَمَّا شافوا. {بَأْسَنَا} الشيء الشديد، وَرَأَوْا العذاب الشديد "في الدنيا"، {قَالُوا}:

{آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ}، اعتقدنا بصاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" إلها أحدا.

{وَكَفَرْنَا}، أنكرنا ولا نعتقد، {بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ}، فأي شيء آخر قلنا عنه إِنَّهُ شريك لله تعالى في الألوهية، هَا نحن نعلن كفرنا وَإِنْكَارَنَا به.

من كلام الآية التالية عن سنّته تعالى التي خلت، نفهم أن الكلام هنا عن عذاب يحصل في الدنيا، فِي العديد من آيات القرآن دمج لعذابي الدنيا والآخرة معا على أساس أنهما كلاهما عذاب، حِينَ لا تجد في سياق كلام الآيات ما يجعلك تحدّد أي عذاب هو المقصود، فالآيات عندها تقصد العذابين معا.

(فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ{85})
{فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ}، صَيْرُورَتُهُمْ في حالة الاعتقاد بتوحيده تعالى لن تفيدهم، {لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا}، عندما صار عندهم صورة محدّدة للشيء القوي الذي نفعله بهم، من العذاب، {سُنَّةَ اللَّهِ}، هَذِهِ طريقته سبحانه المحدّدة في التعامل ولن تتغيّر، مِنْ قبل عذّب تعالى هنا في الدنيا بعض الأقوام بسبب كفرهم وفسادهم، ولم يقبل سبحانه إعلانهم لإيمانهم بعدما صاروا في العذاب، وهذه السنّة، {الَّتِي قَدْ خَلَتْ}، التي كانت موجودة وذهبت، {فِي عِبَادِهِ}، التي سبق وتعامل بها تعالى مع الذين مفروض منهم طاعته لأنه إلههم خالقهم، سَابِقًا كان هناك أقوام وهلكوا بعذاب في الدنيا وهكذا يفعل سبحانه دائما فلا ولم يقبل إيمان من نزل عليهم العذاب.

{وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ}، حِينَ يأتي العذاب الإلهي، وهنا الكلام بالخصوص عن عذاب في الدنيا، المنكرون للتوحيد سيفقدون أشياء لها قيمة، سَيَفْقِدُونَ رحمته ومغفرته وثوابه وشفاعته... تعالى، وبالتالي سيتعذبون في نار الآخرة لأنهم ماتوا كافرين.

كلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، فكأن كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، فكلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، فهي جمع الجمع، أَثْنَاءَ الكلام بدقّة قد تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، فتقول الآيات: عبيد. وردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. قَدْ تكون لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. قَدْ تكون لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، فهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وَعَبِيدٍ آخَرِينَ جاءهم رسول، وَعَبِيدٍ آخَرِينَ... فجمع الجمع "عباد"، كلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جدا عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

ترى آيتنا هنا استعملت كلمة "عباد" في سياق كلامها عن الذين أصابهم العذاب وكانوا كافرين، وللأسف تجد في بعض الكتب والمقالات والمحاضرات جهلا أو تعاميا عن أمثال آيتنا هذه، فيقولون إنَّ كلمة عباد استعملها القرآن لخصوص المؤمنين الصالحين! فهم يحبّون الكلام الغريب وله جمهور يحبّه أيضا، والهدف هو الإعلان عن قرآننا العظيم وأن ديننا عظيم، وهذه مسرحية هزلية "عليها عقاب إلهي" ومنتشرة بين عموم بقية أهل الأديان الأخرى الذين لديهم مثلما لدينا أطنان من الخزعبلات والكلام السخيف الذي يظنون به أنهم منتصرون وفي القمّة على الآخرين!

هذه العقلية هي مستوى أولئك الناس في إيمانهم وتدينهم، بل بالأساس هي مستواهم في حياتهم العادية في تعاطيهم مع مختلف شؤون الحياة، فمن كان ساذجا سخيفا في بعض أمور حياته، ذَلِكَ يعكس نوعية قلبه، نوعية أساس فكره ونفسيته، وسيكون تعامله مع الأمور الدينية مبنيا على هَذَا الأساس، ولذلك ينتج عنهم سخافات وتفاهات وخزعبلات... يلصقون لها بعض آيات القرآن.

سورة فصلت (41) ص 477
كانت قَدِيمًا تُسَمَّى حم السجدة.

تتمحور حول الإِعْرَاضِ عن دينه تعالى في العقيدة والشريعة لَغْوًا وَجُحُودًا، وما ينتج عن ذلك من العقاب الشديد في الآخرة... وبعكسهم المؤمنون الذين أحسنوا عَمَلًا وأسلموا وَسَيَنَالُونَ ثَوَابًا حَسَنًا في الآخرة.

سَتَرَى تركيز السورة على عقلانية ما يطرحه القرآن النازل من عند الإله عزّ وجل، وأن من أعرض عنه فكلامه وَاهٍ وَيَقْصِدُ تشويه العقلانية والحكمة بالرغم من وضوحها له.

سُورَتُنَا هذه تناسب تَمَامًا المتذاكين المحللين لنشوء الدين على أساس أن كل الأديان من اختراع البشر، فلم توجّه كلامها لهم مباشرة تحت هذا العنوان، بل اعتبرت أَنَّ أَيَّ مُنْكِرٍ لدينه تعالى اخْتَرَعَ دِينًا من رأسه، فهو بالأصل كافر بدينه تعالى، وبعد ذلك هُوَ مشرك أو منكر لكل الأديان، وهذه بحدّ ذاتها عقيدة سينتج عنها شريعة وسلوكيات. الْمُشْرِكُ يعلم يَقِينًا أَنَّ أَحَدًا ما من الناس اخترع آلهة قومه المشركين، وَإِنْ هو أو أَحَدٌ ما من معارفه اكتشف إِلَهًا جَدِيدًا للبرق أو للحصاد أو للسفر... فلا مانع عندهم من تأليهه! ومثلهم من عصرنا تأليه الطبيعة واصفين لها بالطبيعة الأم، وتأليه الصدفة، وتأليه كثرة التكرار... كآلهة نتج عنها خلق كوننا.

سَتَرَى في السورة عَرْضًا تَحْلِيلِيًّا إِلَهِيًّا لعقليتنا ونفسيتنا من ناحية ما زَوَّدَنَا به تعالى من قدرات توصلنا إلى التعرّف عليه عبر الآيات التي تَقَصَّدَ تعالى أن تدلّنا عليه بسهولة، وهي نفسها النقاط التي ينتشر في عصرنا الكلام عنها كتحليل من الباحثين "اكتشفوه" لتفسير سبب اختراع البشر للدين والإله...

سَتَرَى كيف اختارت السورة التدرج من لفت الانتباه لكتبه تعالى التي يمتد تاريخها لِآلَافِ السنين، فكيف لا تكون من مصدر إلهي؟ وتنتقل من هذا إلى تقصّده تعالى جعل بيئتنا تدل بوضوح على خالق فائق القدرات... وتعرض بين الحين والآخر كَلَامًا عن الشرّ والخير في عقيدتنا وسلوكياتنا، وَأَنَّهَا ما سنتحاسب عليه، وهكذا تسألنا إن كان العاقل سيرفض قانون خير يلتزم به الجميع؟

تَعْرِضُ مشاهد من الآخرة لترينا أَنَّهَا حَتْمِيَّةٌ ولن يغيّر حدوثها الكفر بها... ولن يغيّر مصير الكافرين بالعذاب أي عذر مهما كان نوعه...

فِي آخرها ترى عَرْضًا يَبْدُو مُتَكَرِّرًا لما سبق ولكن بالتأمّل فيه ستراه كباقة مقصود جمعها مع بعض، وَمُشَابِهَةً بشكل كبير لما يتداول به الباحثون عن سبب نشأة الدين بين البشر كالخوف مما لا يستطيعون التعامل معه ولا سيطرة لهم عليه من ظواهر الطبيعة، ومن عموم السوء الصعب تغييره من الظروف الاجتماعية أو الصحية... السيئة التي تدفعنا لطلب المساعدة من الإله... هُمْ حتى يقتنعوا بأن هذا الدين ليس من أديان البشر، وأنه إلهي عن حقّ، فَهُمْ يُرِيدُونَ أن لا يكون له ارتباط بشيء من فكر ونفسية البشر! لَا أدري كيف يتصورون افتراضيا البشر في حالة قبل الدين، هَلْ يَفْتَرِضُونَهُمْ بلا فكر ولا نفسية ولا خوف مما لا يقدرون على التعامل معه... هَلِ الذين بدون هذه الصفات هم بشر

أَصْلًا؟ على أي حال لِنَتَمَاشَ مع تصوّرهم الافتراضي، لِنَقُلْ عن حالة البشر بِلَا أَيِّ دين، وفجأة وجد أولئك الباحثون قفزة في التاريخ حيث في عصر ما أو في سنين قلائل، جاء دين، هَلْ هم فقط في هذه الحالة سيقتنعون بدين الذي أنزل التوراة والقرآن لأن هذا الدين هو الوحيد الذي له امتداد لِآلَافٍ من السنين من الرسل؟ أم يريدون أَثَرًا تَارِيخِيًّا يدل على يوم نزول الدين الإلهي، ومن قبله كانت كل البشرية بلا دين، وفي نفس الوقت أن لا يكون لدى البشرية قابلية اختراع دين؟ عَلَى هذا المعيار كيف سيتقبّل البشر الدين الإلهي إن نزل عليهم!

أكتفي بهذا المقدار تَارِكًا لك تحليل ما سمعته من كلام أولئك المدّعين للعلم المحللين لسبب نشأة الدين، لترى أنه تعالى عرض علينا الحقّ بوضوح، وَأَنَّ هؤلاء لم يزعجوا أنفسهم بقراءة هذه السورة وهي الكلام الإلهي عن الموضوع الذي يبحثون فيه!

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(حم{1})
هذه حروف نتهجّاها مقطّعة هكذا: حا ميم.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوِّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف

مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

(تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ{2})
{تَنْزِيلٌ}، نقل من مكان عالٍ "ماديا أو معنويا" إلى مكان منخفض، ومن بقية السورة "وبقية القرآن" تعلم أن التنزيل هنا هو إشارة لتنزيل الكتاب الإلهي "القرآن"، الذي نزل على دفعات استغرقت قرابة العشرين سنة.

{تَنْزِيلٌ من الرَّحْمَنِ}، من الذي يعتني بمخلوقاته لما فيه مصلحتهم بشكل شامل عام، {الرَّحِيمِ} الذي لديه عناية خاصة للمؤمنين، وعلى أساس هاتين الصفتين نزل القرآن لهداية الناس كعناية بهم.

من استعمال القرآن لصفتي الرَّحْمَنِ والرحيم علمنا أنهما تشيران لرحمة عامة شاملة لكل المخلوقات، بخلقها وخلق بيئتها وحياتها ورزقها... فيصف تعالى نفسه بأنه "رَحْمَن". وهناك رحمة خاصة فقط للمؤمنين، تتضمن أمورا لا

تنطبق على غيرهم، كهدايتهم، إنارة قلوبهم، مغفرة ذنوبهم، نصرهم، مضاعفة ثوابهم، ونيلهم الشفاعة... فيصف تعالى نفسه بأنه رَحِيمٌ للإشارة إلى تلك الأمور الخاصة للعناية بالمؤمنين، فالآخرون هم بقرار منهم خرجوا من تحت مظلة الرحمة الإلهية ولم يعودوا يستحقون هذه العناية الإلهية الخاصة.

هنا كما ترى، تنزيل الكتاب الإلهي "القرآن" بما يتضمنه من هداية لكل الناس هو رحمة إلهية عامة "رَحْمَن"، ولكن عمليا الاستفادة منه تكون للمؤمنين وهم الذين فعلا بحاجة له لأنهم سيتبعونه، ومن هذه النظرة يكون الذي نزل القرآن "رَحِيمًا".

بالنسبة لما تجده في بعض الكتب عن الفرق بين كلمتي نزل وتنزيل، فكلاهما وصف لعموم الانتقال من علو "ماديا أو معنويا" إلى مكان منخفض ماديا أو معنويا. فمعنويا نقول: نزلت رتبته العسكرية. وكلا الكلمتين "نزل وتنزيل" تتحملان معنى النزول دفعة واحدة أو على دفعات، ويتحدد ذلك مما تتكلم عنه، وتتحملان النظر للفاعل لِوَحْدِهِ، أو للمفعول لِوَحْدِهِ، أو للحالة. لذا لا فرق بالمعنى بين الأصل "نزل" وبين الاشتقاق "تنزل تنزيل نزول..."، خصوصا فيما يقولونه عن الفرق بينهما في نزول القرآن دفعة واحدة أو بالتدريج على دفعات.

ما تجده هنا وهناك في ثقافتنا عن نزول القرآن كله من السماء السابعة إلى السماء الرابعة... ومن الرابعة جرى تنزيل القرآن "ونزل" على دفعات على الرسول(ص)، وبهذا التفصيل "وأشباهه" يقصدون تفسير كلمتي نزل وتنزيل بتوصيف مختلف للفعل، وهذا تفصيل لا ضرورة له وأصلا لا دليلَ قرآنيًّا عليه، ويمكن فهم نزول القرآن تدريجيا على دفعات وفهم نزوله كله كوجهين لعملة واحدة، فبعضه نزل "تنزل" في ليلة القدر، ثم نزل "تنزل" بعضه في زمن بعدها... وبالنظر للقرآن كله جرى تنزيله "نزوله" على دفعات استمرت لقرابة العشرين سنة حتى وفاة الرسول(ص).

يبدو أن الفهم الضبابي لكلمة "قرآن وكتاب" دفع بالكثيرين للبحث عن فرق بين التنزيل والإنزال بالمعاني التي ذكروها، حيث فهموا أن كلمة قرآن تشير لكل ما بين الدفتين، لكل القرآن من أوله لِآخِرِهِ، وفهموا كلمة كتاب كذلك أنها تشير لكل القرآن من أوله لآخره، وبناء عليه أرادوا تبرير الآيات التي تذكر نزول "كتاب القرآن" على أساس أنها تشير لنزول كتاب القرآن كله من أوله لآخره دفعة واحدة، ومن المعلوم أنه كله لم يكن نازلا على الرسول(ص) حين جاءت الآيات التي تقول إنَّ القرآن نزل...

بناءً على فهمهم هذا، بدأت تبزغ الآراء المختلفة لتبرير الموضوع، فقال بعضهم إنَّهُ كله من أول مرة نزل على الرسول(ع)... وبعدها عاد ونزل عليه (ع) على دفعات. وآخرون قالوا: لم ينزل أولا كله على الرسول(ع) وإنما نزل كله من السماء السابعة إلى الرابعة، ومن هناك صار ينزل على دفعات على الرسول(ع)... وغيرها من التبريرات التي لا داعي لها، فالآية الواحدة قرآن، والسورة قرآن، والسورتان قرآن... فكلمة قرآن وصف إمكانية قراءتنا لما نزل منه تعالى، وأي تعبير يشير لنزول أو تنزيل "القرآن" فهو لا يعني أكثر من نزول شيء يمكن قراءته، لذا لا داعي لنفهم أن التعبير يشير إلى نزول كل القرآن.

كلمة كتاب تشير لعموم أي موضوع تام، فالسورة الواحدة كتاب، والفقرة أو الآية الواحدة من السورة إن كانت تامة الموضوع فهي كتاب، وكل القرآن كتاب، وهكذا عندما تجد آية تتحدث عن نزول القرآن أو نزول الكتاب فهي ليست بالضرورة تشير إلى نزوله كله، فلو نزلت آية فهي قرآن، ولو نزلت آية موضوعها تام فهي نزول لكتاب...

(كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ{3})
هذا الذي نزل:

{كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ}، والمواضيع المميزة بمستواها الإلهي ليست مبهمة مجملة مشوشة، وجمله وفقراته وسوره تامة المعنى فهي كتاب، وموصوفة بأنها آيات لأنها مميزة، وفُصِّلَتْ فلم تكن مجملة بل مفصلة ومراميها ومقاصدها واضحة والحق فيها واضح. وهي تدل وتأمر بتوحيده تعالى وبطاعته والانتباه من الآخرة وحسابها... وهذا كله صحيح.

وُصِفَ هذا الكتاب بأنه {مُبِينٌ} و{فَصْلٌ}... فهذا لا يعني أنه مفهوم كله من دون الحاجة للدراسة والتأمل فيه للتمعن بمقاصده، حيثُ إنَّ أساسيات الحق المعروضة كمعلومات صحيحة، والتي نسميها عقيدة، هي عادة سهلة الفهم للغالبية

الساحقة من الناس، ولمتوسطي الثقافة، ونحن لدينا بعض التعقيدات الفكرية التي تستدعي الرد عليها لبيان خطئها أو تقويمها، وهذه تستوجب طرح مواضيع معقدة نسبيا، والرد عليها سيحتاج فهمه إلى دراسة، وهكذا بقية التعقيدات التي نشأت عن ابتعادنا عن الحق البسيط السهل الواضح في عموم شؤوننا من فكر أو عقيدة أو شريعة أو سلوكيات.

أيضًا ما يسبب الحاجة للتوقف قليلا للتمعن والتأمل والدراسة لفهم القرآن، سببه اعتماده تعالى الدقة في كلامه حتى يظهر لك بوضوح أن هذا الكتاب مصدره إلهي، ولو كان سهلا لدرجة الركاكة فمعك حق في أَلّا تؤمن به ككتاب من مصدر إلهي، وهكذا وازن تعالى بين الدقة في التعابير وبين توصيل المعاني بأبين ما يمكن للغتنا وعقولنا أن تتحمله...

الكتاب فُصِّلَ، {قُرْآنًا عَرَبِيًّا}، وصار مقروءا باللغة العربية، حيث إنَّ القرآن كتاب نازل من كتاب أساسي أكبر منه، وذلك الكتاب فيه كل شيء عن الدنيا والآخرة كما هو واضح من عدة آيات منها الآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، وهو ليس كتابا من ورق ولا يشبه أي شيء يمكنك تصوره، وكما لا يمكنك تصور الملائكة (ع) الآن لأنهم من مادة وعالم مختلف عنا، كذلك الكتاب من مادة سماء مختلفة عن سمائنا، وما في ذلك الكتاب من معلومات ليس مكتوبا بكلمات ككلماتنا، وعندما أمر سبحانه وتعالى بتنزيل شيء منه للناس، جرى تحويل ما سينزل إلى اللغة العربية وصار يمكن للناس قراءته، وصار قرآنا، إذْ إنَّ الآية الواحدة قرآن، والسورة قرآن، وكل الكتاب الذي نزل على النبي محمد(ع) قرآن.

التنزيل والتفصيل كان، {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة، {يَعْلَمُونَ}، بتعبيرنا الدارج لمن ليسوا جهلة ولا متغابين ولا الذين تتحكم بهم الغريزة والشهوة السيئة...

القرآن نزل على شخص من العرب يحيط به مختلف أنواع الناس، وعمليا لن يستفيد منه إلا من يعلم، إذْ عن علم يفهم أن ما نزل لا يمكن أن يكون إلا من الإله تعالى، أما الطائش المتغابي المتعلق بشهوته وغريزته السيئة، ومن فكره ونفسيته مبنيان على التعلق بالخرافات والاختراعات الوهمية ودين الأجداد الخرافي... فهذا عمليا لن يستفيد من تفصيل الآيات قرآنا بالعربي، لأنه سينكر إلهية مصدره على أي حال.

الآية تتحدث عن شيء طبيعي، حيثُ إنَّ الرسول محمد(ع) من العرب، وهو رسول لكل البشرية، والرسالة التي تنزل عليه من ربه سبحانه من المفروض أن تكون باللغة التي يعرفها الرسول، وهذا طبيعي، لأنَّ الإنسان الذي لا يعرف اللغة العربية لا يحق له أن يقول: محمد عربي، ورسالته بالعربي، لا علاقة لي به ولا بدينه. لا، هنا الآية تقول له: من الطبيعي أن تنزل الرسالة باللغة التي يعرفها الرسول، وإلا فكيف سينقلها للناس؟ ومهما كانت لغتك فمن واجبك الالتزام بما في رسالة ربك سبحانه.

لا توجد خاصية تميز اللغة العربية عن بقية اللغات، لذا لا يخطر ببالك أنه سبحانه أنزل القرآن باللغة العربية لأنها متفوقة على بقية اللغات في التعبير أو المفردات أو تركيب المعاني... وهذا كله كلام فارغ، لأنَّ كل اللغات لديها القدرة على التعبير عن أي معنى كان بطريقتها الخاصة، وفكر في اللغة التي تكلم بها تعالى مع نبيه موسى(ع)، واللغة التي نزلت بها التوراة والإنجيل، والتي نزلت بها صحف الأنبياء بلغات غير عربية، حيثُ إنَّ كل رسالة نزلت بلغة الرسول الذي ينقلها، هل تلك الكتب بلا قيمة! أو أقل قيمة من القرآن! إذًا لا خاصية مميزة ولا مقدسة لأي لغة على أخرى عند ربنا سبحانه وتعالى.

القرآن نزل باللغة العربية وبلهجة قريش، وهي القبيلة التي منها النبي محمد(ع)، وكل كلمات القرآن كانت مستعملة عند العرب في حين نزول القرآن، ولكن هذا لا يعني أن كل كلمات القرآن كان يعرف معناها كل قرشي، بل ستجد من بقية العرب أقواما بالتأكيد يعرفون معناها، التفت إلى أن مكة والمدينة بعيدتان "نسبيا" عن البحر، لذا أهلها لا يعلمون الكلمات العربية التي يستعملها العرب الساكنون على البحر، حيثُ تجد عموم أهل مكة والمدينة لا يعرفون معنى المرجان! وهذا واضح من الروايات التي وردتنا عن الأجيال الأولى من الصحابة.

مكة لم تكن فيها مدينة صناعية، لذا أهل مكة لا يعلمون صنعة تسفير الكتب، وصنعة القماش، ولا علم لهم باختلاف أسماء الأواني، وأكثرهم لا يعرف صنعة تربية النحل، ولا يعرفون معنى كلمة رحيق... ولذلك تجد أنه حتى أصحاب

القواميس يقعون في مشكلة جهلهم للكلمة الخاصة بأهل صنعة أو فن أو حرفة، ويخمنون ويخترعون لها أقرب معنى، ومن بعدهم نقع نحن في مشاكل معانيهم المخترعة.

بالنسبة للكلمات التي اخترع لها المفسرون وأهل القواميس معنى على لهجة أناس من غير قريش، فهذا في كثير من الأحيان غير صحيح، لأنه لم يكن عن دراسة، ولو تعمقت بما قالوه لوجدته افتراضات وتخمينات، والكثير منها افتراضات غير صحيحة.

بالنسبة للكلمات الأجنبية عن العربية التي قالوا إنها موجودة في القرآن، وبالتالي لا يصح وصف القرآن بأنه عربي، فهذا هراء وتفاهة فكر، لأن كل اللغات تشترك في استعمال الكلمات، والكلمة التي لها أصل أجنبي واستعملها القرآن هذا لا يعني أنَّ الكلمة ليست عربية، إذْ عندما يستعملها العرب تصير عربية من أصل أجنبي، ولا مشكلة في أن يستعمل القرآن كلمة يستعملها العرب وقد وصلت إليهم من لغة أخرى، وهذا حال كل اللغات، واللغة العربية ليست استثناء، إذْ إنها لغة لم تخرج من الحائط، بل تولدت مثلها مثل بقية اللغات، من الحاجة لتسمية الأشياء، وصار لها طريقة خاصة في تركيب الكلمات والنطق... وأخذت وأعطت من بقية اللغات.

أطلت عليك فلأكمل مع شيء غريب، حيثُ إنَّ بعض الكافرين بالقرآن علقوا على قوله عن نفسه إنَّهُ عربي، وجمعوا الكلمات التي وجدوها في القواميس والتي قيل في تلك القواميس عنها إنها ليست عربية وقد استعملها القرآن، ليثبتوا أن القرآن ليس عربيا مئة بالمئة وبالتالي حين يقول عن نفسه إنه عربي فهو يكذب...

تبين لك أن كل اللغات تتشارك مع بعضها في الكلمات لذا استعمال كلمة من أصل أجنبي لا يجعل كلامك أجنبيًّا، إذْ إنها مجرد كلمة من أصل أجنبي، أضف إليه أنه من دون دراسة علمية قام العديد من الأجيال الأولى ومن بعدهم ممن يحملون صفة علماء المسلمين، قاموا باستنساب بعض الكلمات العربية لينسبوها للغات أخرى، وصار مميزا بعلمه الواسع من يخترع لكلمة قرآنية أصلاً أجنبيًّا! بينما هو فقط وفقط وجد تشابها بين الكلمات وجعل الكلمة العربية من أصل أجنبي!

حاليا أنت تعلم من أبحاث "الألسنية" أن اللغة العربية من اللغات الغزيرة في العطاء للغات الأخرى، وليس كما يتصور لك من كلام الهواة المحبين للشواذ وحب الظهور... الذين جعلوا العديد من الكلمات العربية الأصيلة أجنبية!

على كل حال، الغريب في الموضوع، أنه فرضا لو صدق الكافرون بالقرآن أن الكثير الكثير من كلماته من أصل فارسي وسرياني وحبشي ونبطي وقبطي ويوناني... ولم يكن يستعملها العرب، فمن أين لمحمد بن عبد الله(ع) هذه المعرفة الغزيرة بمختلف اللغات ليستعمل كلمات صحيحة المعنى من لغات أجنبية في قرآنه! تذكر أن القرآن ليس فيه كلمات لم يستعملها العرب، وحتما فيه كلمات عربية من أصل أجنبي، ولكننا تماشينا مع الكافرين بالقرآن لنسألهم كيف حصل لمحمد هذه المعرفة الغزيرة بلغات أجنبية ليؤلف كتابا مشحونا "كما يقولون" بالكلمات الأجنبية من عدة لغات! ما هذا النبوغ غير المسبوق بهذه الفصاحة بعدة لغات مضافا لها اللغة العربية لتأليف كتاب دقيق يستعمل كلمة دقيقة من لغات أخرى ليصيغها بالعربي!

هم حين يتهمون القرآن بالكذب عندما يصف نفسه بأنه عربي، فبسبب استعماله لكلمات أجنبية يتهمونه بالكذب، وبالتالي هم يتهمون محمدا(ع) بتأليفه، وأنه لم ينتبه ووصف كتابه بالعربي بينما هو مشحون بكلمات أجنبية لم يستعملها العرب، واستعملها محمد(ع) لأول مرة، وكان الاستعمال صحيحا ودقيقا، وبالتالي بحسب كلامهم محمد(ع) خبير غير عادي بأكثر من سبع لغات!!!

يمكنك أن تراجع في دراستنا هذه الكلمات القرآنية التي قيل إنها ليست عربية وسترى الغرائب.

(بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ{4})
كتاب القرآن: {بَشِيرًا}، يحمل خَبَراً سَارّاً، ونعلم أنه خبر المغفرة ودخول الجنّة لمن آمن وعمل صَالِحاً، والقرآن، {نَذِيرًا}، ويحمل الخبر عن خطر قادم حَتْماً لمن توافرت فيه شروط حصوله، ونعلم أنه العذاب الحتمي في الآخرة لمن كفر وعمل السيئات.

{فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ}، أكثر الناس لم يروا كتابه النازل سبحانه مُهِمّاً، {فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ}، وهو قرآن عَرَبِيٌّ وَمُفَصَّلٌ وبلغة النموذج أهل مكّة والعرب الذين نزل بينهم "وقابل لترجمته إلى لغات أخرى، أو نقل معانيه..." وهم لا يسمعون ما يقوله! مثلما نقول: أتكلّم معك، ولكنك لا تسمع. حيث يصل الكلام إلى أذنيك وتتحرّك طبلة أذنيك، ولكن الكلام لا يدخل إلى وعيك كأنك أَصَمُّ أَطْرَشُ، وهؤلاء سمعوا القرآن بمعنى تَحَرُّكِ أدوات السمع لديهم، وهذا ليس سَمْعاً حَقِيقِيّاً بكل ما تحمله كلمة "سمع" من معنى لأن معنى الكلام الإلهي لم يَصِرْ في قناعتهم. وتكرّر عِدَّةَ مرات في القرآن وصف العمى والبكم والصمّ والموت... لهذه النوعية من الناس وهي أوصاف عَمَلِيَّةٌ، فمن لا يرى الحق نَصِفُهُ بالعمى، ونَصِفُهُ بالصمم لأنه لا يسمع الحقّ.

ضع في بالك أن مِحْوَرَ كلام السورة سيكون عمّا ذكرته الآية هنا من إعراض أكثر الناس عن الكتاب النازل من عند الإله سبحانه وتعالى، وستتطرّق السورة إلى مختلف جوانب ما يعرضون عنه، والبداية كما ترى هنا في مقدمة السورة مع إعراضهم ليس عن كلام محمّد (ع) ولا عن كلامك وكلامي، بل إعراضهم عن كلام الإله عزّ وجلّ.

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ{5})
{وَقَالُوا}، المعرضون عن الكتاب الإلهي قالوا كتبرير لكفرهم به: {قُلُوبُنَا}، أساس فكرنا ونفسيتنا، {فِي أَكِنَّةٍ}، مثل حبة اللؤلؤ في الصدفة فهي مكنونة في الصدفة، فقلوبهم تكنّ في شيء فهي في أغلفة تحيط بها، {مِمَّا}، من الذي، {تَدْعُونَا إِلَيْهِ}، فأنت تشهر وتعلن لنا الانضمام لدينك عبر هذا القرآن، وهناك أكنّة كأغلفة وحجاب على قلوبنا، على أساس فكرنا ونفسيتنا، تمنعنا من الاقتناع بدينك.

{وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ}، فيها ثقل في السمع، فنشعر بأن سمعنا ثقيل عندما تتكلّم بالقرآن أو بكلامك عن دينك، فلا نسمعه.

{وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ}، والحجاب هو عموم ما يحجب فيمنع الرؤية أو التواصل المباشر أو الانتقال. فهناك مانع كحاجز بيننا وبينك، فنحن على دين وثقافة وفكر ونفسية... تختلف عن دينك وثقافتك ونفسيتك... فليس بيننا وبينك اتصال بل نحن مفصولون عنك بحاجب بحاجز بمانع بعائق معنوي للتواصل والترابط.

{فَاعْمَلْ}، فأنت في حياتك ستعمل بناء على قرآنك "دينك"، {إِنَّنَا عَامِلُونَ}، على أساس أن قرآنك "دينك" لم يدخل قلبنا ولم نسمعه وسنبقى على ما نحن عليه، فأنت في جانب من الحجاب ونحن في الجانب الآخر.

بعبارة أخرى نَحْنُ لم نؤمن بكتابك لأنك المختلف عنّا وأنت الشَّاذُّ، فعلى راحتك، فاعمل بحسب قرآنك إن كنت مُصِرّاً على مخالفة الأكثرية من الناس، فنحن لن نعمل كما تعمل أنت.

هذه العقلية والنفسية تراها بوضوح من كلام عموم الذين لا يجدون أنفسهم مضطرين لِلتَّغَيُّرِ عن عقيدتهم وشريعتهم ليؤمنوا بهذا القرآن، فمن الآخر، لِأَنَّ كلام القرآن لا يهمّنا ونستصعب الاقتناع به وهو لك وليس لنا، فاهتم أنت به وآمن به واتركنا بحالنا.

تَسْمَعُ نفس الكلام بنسخة مخففة من الذين تطرح عليهم العقيدة والشريعة والسلوكيات القرآنية، وَيَجِدُونَ في كلامك كل العقلانية والصلاح، ولكنهم لا يريدون ترك أهوائهم السيئة، فَيَقُولُونَ لك: دينك جيد لك، ولا يناسبنا نحن، فلن نترك عقائدنا ولا شريعتنا ولا سلوكياتنا مع أنها تبدو باطلة بالتحليل العقلاني ولكنها تناسب أهواءنا.

هذه النسخة المخففة بسبب الاعتراف بعقلانية طروحات القرآن، فهي لا تختلف بالممارسة كثيرا بين هؤلاء وبين الكافرين بعقلانية ما يطرحه القرآن، فكلاهما وبالغالبية فلا مانع لديهم من قتل الأبرياء إن كانت مصالحهم تقتضي ذلك، كما يحصل في الدول الفقيرة من حروب تُسَبِّبُهَا لَهُمُ الدول "المتحضرة" للسيطرة على مواردهم... والكافرون بالقرآن تحكّمت بهم الشهوات والغرائز السيئة من تعاطي المخدرات والمسكرات والزنا... ولا يريدون التوقّف عنها...

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ{6})
{قُلْ}، لهذه النوعية من الناس أيها النبي محمّد(ع) "وأيها المؤمن" عبر هذا القرآن:

{إِنَّمَا}، فقط، {أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ}، مُسَاوٍ لكم تماما ولا أختلف عنكم بالبشرية، فأنا إنسان مكلّف مثلكم، فحالتي مثل حالتكم لكوني مضطرا للاعتقاد بشيء ومضطرا لاتباع شريعة، وأنا، {يُوحَى إِلَيَّ}، فتصلني معلومات لا عن طريق الأذن، "فتصلني مباشرة إلى فكري ووعيي"، وفيها: {أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ}، ففقط وحصرا أنتم كلّكم تابعون لكائن واحد عنده الصفات والقدرات الفائقة، {فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ}، فكونوا على الأحسن باتجاهه تعالى، فلا تنحرفوا أو تميلوا بتعاملكم وتوجّهكم نحو الإله، {وَاسْتَغْفِرُوهُ}، فاطلبوا منه أن يتجاوز عن سيئاتكم.

حَالَتِي مثل حالتكم البشرية، سواء كنّا باحثين عن الدين الصحيح، أو وارثين له، أو... فعلى كل حال لديّ ولديكم فكر وعقل للأمور وسينتج عن ذلك اعتقاد ما، فسواء من آمن بدين إلهي أو بالشرك بأنواعه... أو علماني يؤمن بالصدفة أو بالطبيعة أو هكذا بحصول الأمور من دون الإيمان بأي نموذج فكري... فكلّه عقيدة، فكله اعتقاد بصحة شيء ما ونفي لشيء آخر، وَوَصَلَتْنِي معلومات أن الإله واحد أحد... فحين تقولون لي أنني مقتنع بالقرآن وهذا شأني الخاص وأنكم لا يَهُمُّكُمُ الموضوع فانتبهوا أني ناقل لكلام من إلهي وإلهكم ولا إله غيره، فهو موجّه لي لأني بشري "مكلّف بالاستقامة"، وموجّه لكم فأنتم مثلي بشر.

يُوحَى إلي أيضا أَنَّهُ: {وَوَيْلٌ}، والمصيبة الكبيرة، {لِلْمُشْرِكِينَ}، لمن قالوا أنه تعالى لديه شركاء في الألوهية. فهذا القرآن يوجّه كلامه لكم أيضا بالتهديد الشديد، فلا معنى لإعراضكم عنه وكأنكم لا دخل لكم إن أعرضتم. فحالتكم كالمثل الذي يقولونه عن حيوان النعامة التي تضع رأسها في الحفرة، على أساس أنها إن لم تر الخطر، فالخطر لن يحصل، مع أن سلوكها هذا له تفسير آخر ولكنه مثل درج بين الناس، فعلى أي حال، فحين تعرضون عن كلامه تعالى فهذا لن يغيّر أي شيء من مصيركم، فهناك عقاب لكم إن لم تؤمنوا.

من الآية التالية التي ذكرت الزكاة ومن مجمل القرآن الذي قرن الصلاة مع الزكاة، كأبرز نموذج عملي تطبيقي للإيمان به تعالى، نفهم جملة {اسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ} أنها لعامّة الإيمان بالحق وفعل الصالحات وهذا يشمل الزكاة والصلاة، فلا داعي لتفسير توجيهي حصري لـ {اسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ} لتعني الصلاة حتى نتماشى مع عموم القرآن الذي قرن الصلاة بالزكاة، بل وكما سترى من دراسة الآية التالية فاختياره تعالى هنا في الفقرة الإضاءة على الزكاة له عمق مختلف عن ذكر الصلاة معه.

لاحظ، فإذا اعتبرت نفسك تقرأ هذه المعلومات لأول مرّة، فستجدها تختلف عن اجترارها على اعتبارها معلومات قديمة تعرفها لأنك مسلم، فهناك رجل يقف ويقول بين الناس: تصلني معلومات إلى فكري ووعيي، وهذه المعلومات تقول لي بأن إلهكم واحد، ويجب أن تطيعوه وحده... وهناك عذاب شديد لمن يعصيه بفعل السيئات... الآن وبغضّ النظر عن كونك مُسْلِماً أَوْ غَيْرَ مُسْلِمٍ، فتصوّر أنك تسمع هذا الكلام لأول مرّة، فستطلب دليلا على صحّة ما يقوله هذا الرجل، فربما هو كذّاب ولديه غاية الرئاسة الدينية والدنيوية على الناس، وربما كذّاب في ادّعائه رسوليته من الإله ولكن بالكذب يريد إصلاح المجتمع... وربّما يتوهّم، وربما... والكثير من هذه التصورات ستؤكدّها أو تنفيها معرفتك بهذا الرجل، فإن كان تاريخه قبل هذا الادعاء تاريخا يشهد له بالصدق والأمانة، وتاريخه بعد هذا الادّعاء يشهد بأنه لا يريد التسلّط على الناس كالملوك والزعماء، فعندها ستميل إلى تصديقه...

هذه الأمور وغيرها الكثير تَنَاوَلَتْهَا سور عديدة من القرآن، وفصّلت فيها ووضّحتها... أمّا هنا في سورتنا، فالنظرة معروضة من ناحيته تعالى، من نظرة إله أحد لا إله غيره، ويرى الناس تعتبر غيره إلها! لذلك تكتفي الفقرة من السورة هنا بتركيزها على نقاط من النظرة الإلهية، فتعرض تحذيره وتبشيره تعالى، وتلفت الانتباه لبيئتنا التي تدل على توحيده.

سَتَرَى السورة تعتبر مجرّد لفت انتباه الناس عبر الإيحاء لواحد منهم بالمعلومات "الصحيحة العقلانية الصالحة..." من الإله الحقيقي، فهذا يجب أن يكون كافيا لهم ليصحّحوا دينهم.

الآن، تصوّر نفسك ترى تَلَامِيذَ بلا أستاذ، ويقومون بتعليم الرياضيات لبعضهم البعض بطريقة غير صحيحة، وأنت مدير للتعليم، فتقوم بإرسال شخص واحد لتعليمهم، وهذا الشخص يحمل المعلومات الصحيحة، فتعتبر أن الكلام الصحيح الذي سيقوله الْأُسْتَاذُ، يجب أن يكون كافيا للتلامذة حتى يمشوا على تعاليمه، وسيقوم الْأُسْتَاذُ بالبرهنة على صحّة كلامه... وهذا ما ستراه في هذه السورة من لفت الانتباه للآيات الإلهية من حولنا عبر الوحي الذي نزل على واحد منّا، ولفت الانتباه لنماذج بارزة عن تعذيب الذين سبقونا من مشركين...

كَمَا في مسألة نقل العلوم بين المجتمعات ترى اهتماما بترجمتها أو نقلها عبر أشخاص يجيدون اللغتين ليدرسّوها ويعلّموها للآخرين، فسبحانه نزّل كتابا عَلَى وَاحِدٍ منّا، ومن المفروض اهتمامنا بالكتاب الإلهي والتعامل معه بأهمية تدفعنا إلى ترجمته وتعليمه للآخرين... وتدفع الآخرين للاهتمام بتعلّمه حتى لو كانوا من لغات أخرى وفي أماكن نائية، وأقول لك هذا لترى أن القرآن العربي ككتاب إلهي فيجب أن نتعامل معه مثلما نتعامل مع أي كتاب آخر له أهمية علمية.

الْوَحْيُ هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خيرا أم شرّا، وبناء عليه فكل أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وحيا لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وترى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}، وحتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ}.

يَنْطَبِقُ فعل الوحي على أي كائن كان "إِنْسَاناً حَيَوَاناً مَلَكاً أو جنّا" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم.

طُرُقُ فعل الوحي أنواعه متعددة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً}. ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً}، وما ورد في الآية 193 و 194 من سورة الشعراء {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ}. أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ}، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل كما هو مشهور في تراثنا الديني. ووحي عبر إصداره تعالى صوتا في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، مضافا لها الآية 13 من سورة طه {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}، فكلامه تعالى معه(ع) وحي لأن الكلام ليس صادرا مباشرة منه تعالى فهذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، فيصير وصف الحالة أن كلامي يصلك وحيا.

هُنَاكَ وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} ففي النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

الْوَحْيُ يصدق على وحي الخير والشر، فالشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً} ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... فالوسوسة في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيرا أو شرا فهو وحي.

(الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ{7})

...{وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ}، {الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ}، لا يجعلونها عند الآخرين، وكلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، وَتُشِيرُ لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زَكِيَّةٌ، مَالٌ زَاكٍ، طَعَامٌ زَاكٍ..."، ومنذ القدم صارت مُصْطَلَحاً دِينِيّاً يشير إلى دفع نسبة محدّدة من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ..."، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، حَيْثُ يَدْفَعُ منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة "...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ..."، وَتَكُونُ نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ

وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ".

{وَهُمْ}، المعرضون المشركون، {بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ}، هم منكرون للحياة التي ستأتي في الآخر بعد انتهاء الحياة الأولى الدنيا التي نحن فيها الآن.

تُلَاحِظُ أنه من بين كل أوامره تعالى اختارت السورة الزكاة لتخبرنا أن المعرضين عن دينه تعالى لا يدفعونها، لِمَاذَا الزكاة؟ وَلِمَاذَا لم تذكر الصلاة صراحة؟ وَلِمَاذَا نجد الزكاة مذكورة بتكرار في مختلف السور ولا نجد الكلام عن الصوم إلا نادرا جدا؟ الآن استجمع ما تعرفه عن الزكاة أنها مبلغ قليل بالنسبة لكمية ما تملكه "العفو"، وَلَنْ يَضُرَّكَ دفعه، وانظر إلى صرفه على المحتاجين حيث يؤمّن لهم حياة كريمة، والآن هل رأيت ما يقصده القرآن؟ فهذه إشارة إلى أمر إلهي لا يناقش فيه أي عاقل، كأمر ضروري وملحّ جدا لحياتنا نحن الاجتماعية، وبشكل واضح لَا فَائِدَةَ له تعالى منه ولا لرسوله(ع)... وَفَائِدَتُهُ مَحْصُورَةٌ بنا نحن بَيْنَ بَعْضِنَا.

تُلَاحِظُ الآية 47 من سورة يس "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" تعرض هذا الإشكال من الكافرين، ولا ترد عليه مباشرة، وَتَتْرُكُهُ لك لتفكّر فيه، فإن كنت تطلب جوابا منه تعالى على كلامهم، فعندك مشكلة، حَيْثُ هُنَاكَ من يحتاج للمساعدة، وَيَحْتَاجُ للطعام ليبقى حيا وبصحّة جيدة، وأنت يمكنك مساعدته وَمَعَكَ فائض من الطعام أو المال، ورغم ذلك لا تساعدهم وتحتجّ وتسأل عن سبب أمره تعالى لك بمساعدة المحتاجين؟ بل وتتفلسف سائلا: لماذا لا يساعدهم هو سبحانه؟ من هذا العمق جاء كلام القرآن عن الزكاة كنموذج بارز عن تطبيقات دينه تعالى.

هَلِ انتبهت ماذا اختارت السورة عرضه علينا كأبرز نموذج عن أوامره تعالى لنا؟ لقد اختارت شيئا من الغباء واللؤم... مخالفته، وَأَمَامَ ما ستطرحه السورة، وأمام النماذج المعرضة عن كلامه تعالى الموجودة في عصرنا وقبله وبعده، وأمام الذين اختاروا من كلامه تعالى أمورا للتعليق عليها بخبث لتبدو سيئة وهم يعلمون أنهم يكذبون ويقطعون الكلام الإلهي عن صورته الكاملة، وَيُصَوِّرُونَ دينه تعالى كدين دموي عنيف... علما أن القتال أمر إلهي حصري ضد المعادين المحاربين، وهذا لا يجعل دينه تعالى دمويا بل الآخرون المعادون المحاربون هم المجرمون... ويستغلون بِضْعَ آيات تتحدّث عن المتاع الجنسي للمؤمنين في الجنّة من قرابة سِتَّةِ آلاف آية ليصوّروا القرآن كلّه ككتاب جنسي إباحي! وغيرها من الأمور التافهة متجاهلين العديد من الآيات المشابهة لآيتنا هذه والتي تكررت كثيرا في القرآن والتي جعلت الزكاة النافعة لنا ولنا حصرا، جعلتها من أهمّ أوامره تعالى لنا.

عَبْرَ نموذج الزكاة كتكافل اجتماعي، نرى أن دينه تعالى ليس سلوكا شخصيا خاصّا بمن آمن، بل عموم دينه تعالى هو سلوكيات اجتماعية ينعكس أثرها علينا نحن، فما معنى الإعراض عن دينه تعالى وكأنه دين لسلوك شخصي خاص بكل واحد منّا بلا أثر على الآخرين! كتربية اللحية وحمل السبحة والصلاة والصوم... فهذه أعمال فردية أثرها المباشر على الفرد ولا تأثير لها بحدّ ذاتها كأعمال على الآخرين، إلا كدافع لهم لتطبيق دينه تعالى عمليا ليكونوا صالحين... أمّا الزكاة، فعمل للآخرين، ولا يناقش عاقل في أهميته، وَعَرَضَهُ تعالى علينا كثيرا في قرآنه كأبرز نموذج عن أوامره تعالى لنا، لننتبه إلى بقية أوامره تعالى أننا لو فكّرنا فيها فسنرى فيها عمقا اجتماعيا صالحا للجميع، هذا إذا التزمنا كلّنا بدينه تعالى.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ{8})
{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا اعتقادهم بالمعلومات الصحيحة وهي نفسها المعلومات التي يعرضها تعالى علينا في قرآنه من أدلتها، ونختصر ذلك فَنَقُولُ إِنَّهُمْ اعتقدوا بدينه تعالى، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، وَقَامُوا بالأعمال الصالحة الجيدة، حَيْثُ خَلَقَنَا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، وَعَمَلِيّاً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عَادَةً نفسّر {عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إِنَّهُمْ صلّوا وصاموا... وهذا عمليا صحيح، ولكن بالأصل الْكَلَامُ أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

بِشَكْلٍ أو بآخر يشيع بين الناس عموما وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، حَتَّى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائما أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فَيُؤْمِنُونَ به.

وهذا الكلام له عمق، حَيْثُ لَا تُوجَدُ حالة نقول فيها: لست مقتنعا ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. وَهَذَا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّا لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلا سيّء" فسيكون في الحقيقة اختراع من البشر أَلْصَقُوهُ بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمرا إلهيا.

{لَهُمْ أَجْرٌ}، لهم شيء حدّده تعالى أنهم يستحقونه على الإيمان والعمل الصالح، {غَيْرُ مَمْنُونٍ}، بلا منّة، حَيْثُ لَيْسَ مَطْلُوباً منهم الشكر على الأجر الرائع الذي سيحصلون عليه.

قارنها مع الأمر لنا الآن في الدنيا بأن نشكره تعالى ونحمده ونسبّحه... فِي الجنّة ليس مطلوبا من أهلها فعل أي شيء للتعبير عن شكرهم له تعالى، لأنه أجر غير ممنون، حَيْثُ حصلوا عليه من فضله تعالى ولم يمنّنهم عليهم، وَمَا نَقْرَؤُهُ في القرآن عن شكر أهل الجنّة لربهم سبحانه، فهو ينبع من خاطرهم كردّ فعل عفوي عن روعة ما هم فيه.

وَاسْتَعْمَلَ القرآن توصيف الفضل والإحسان لما يحصل عليه أهل الجنّة، ولم يستعمل توصيفه بالمنّة، لأن الفضل هو ما تحصل عليه من دون مقابل، وهذا واضح من عموم القرآن الذي يؤكّد دائما أنه ليس لأي مخلوق فرض واجب عليه تعالى، لِأَنَّ الأجر على الإيمان والعمل الصالح ليس فرضا واجبا عليه تعالى بل فضل منه تعالى، حَيْثُ قرّر سبحانه أجرا للمؤمنين العاملين للصالحات، وَأَنْتَ لم تقدّم له تعالى أي شيء، ولم يستفد سبحانه منك بأي شيء حتى تطلب أَجْرَكَ ويكون لك فرض واجب عليه بإدخالك إلى الجنّة. والإحسان هو وصف لما سيفعله تعالى مع المؤمنين بأنه حسن، وَ«أَحْسِنْ إليه» تعني: قم بعمل حسن معه. وكما ترى من دقّة القرآن في التعبير، نَبَّهَ على انتفاء أي واجب على أهل الجنّة، ولو حتى الشكر البسيط فهو غير واجب عليهم لأن أجرهم غير ممنون.

نُلَاحِظُ أَنَّ القرآن يقرن دائما بين الإيمان والعمل الصالح مع بعض، والنتيجة للإثنين معا هي دخول الجنة، فلا الإيمان بدون عمل صالح ينفع، ولا العمل الصالح من دون إيمان ينفع، بل كلاهما معا ينفعان.

(قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ{9})
{قُلْ}، أيها الرسول(ع) "وأيها المؤمن" عبر هذا القرآن:

{أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ}، وَحَالَتُكُمْ أنكم تنكرون ولا تعتقدون، {بِالَّذِي خَلَقَ}، ركّب وألّف، {الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ}، في فترتين زمنيتين، {وَتَجْعَلُونَ لَهُ}، سبحانه، {أَنْدَاداً}؟! وَتَقُولُونَ يوجد ندّ له سبحانه، بِأَنَّ هُنَاكَ آلهة مساوية مشابهة له في الألوهية؟! {ذَلِكَ}، الخالق للأرض في يومين هو، {رَبُّ الْعَالَمِينَ}، المسؤول من مستوى إلهي عن كلّ الناس في كلّ العصور وفي أي مكان.

فإن كان الله تعالى خالق الأرض، وبالتالي وضمنا فهو تعالى خالق لكل ما عليها ونتج منها ويحصل فيها وعليها من ظواهر... فما معنى قولكم عن غيره أنه إله مساو في الألوهية له تعالى؟! وما معنى ألوهية غيره سبحانه إن لم تتضمّن ألوهية آلهتكم أن تخلق الأرض وما عليها؟! لِمَاذَا وبماذا هي آلهة؟! كَرَّرْتُ لك الكلام بعدة صيغ حتى تنتبه جيّدا لهذا المعنى المنتشر بكثرة في القرآن، لأن القرآن يريدنا أن نفهم أن التنزيلات والتخفيضات والتخفيفات والتساهلات والسخافات... لمعنى كلمة "إله"، سَبَّبَتِ اختراع الناس لآلهة غيره تعالى، وَيُرِيدُكَ القرآن دائما أن ترجع لمعنى الألوهية الحقيقي، فمن ظنّ نفسه يفهم معنى كلمة إله، واخترع آلهة، فهو لم يفهم المعنى الحقيقي للكلمة... وَيَشْرَحُ مقوّما لنا سبحانه معنى كلمة إله عبر هذا القرآن من تقريبات وزوايا مختلفة عبر تطبيقات كلمة إله بمعناها الحقيقي.

فِي سياق كل سورة نرى زاوية مختلفة، مَرَّةً نجد لفت الانتباه للسيطرة على الموت والحياة، ومرة على نماذج الظواهر المتكررة من ليل ونهار وحركة الشمس والقمر... ومرات على تنوّع المخلوقات النباتية والحيوانية... ومرات عن

الرزق والمطر... ومرات عن الفكر والبيئة الدافعة لنا لاختراع السفن... وكثيرا ما نجد لفت انتباه لأصل خلق كلّ شيء، لخلق السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن... وَكَلِمَةُ إله التي تعني وصف كائن بصفات وقدرات فائقة، تَنْطَبِقُ بمعناها الحقيقي فقط وفقط على الله تعالى لأن صفاته وقدراته فائقة تفوق بفرق شاسع هائل جدا جدا صفات وقدرات كلّ بقية الكائنات، وحتى الملائكة العالية (ع) فَإِنَّ قُدُرَاتِهَا العالية الهائلة هي لا شيء أمام قدراته عزّ وجلّ.

نَتَذَكَّرُ دائما أن كلمة يوم معناها: فترة زمنية لحدث أساسي. ويتخلل اليوم ساعات من أحداث فرعية داخل اليوم، حَيْثُ إِنَّ الْيَوْمَ على الأرض من بداية الليل إلى بداية الليل التالي، ويتخلّله ساعات العشي والعتمة والفجر والضحى والظهر... ويوم القيامة هو أوّل يوم من أيّام الْآخِرَةِ بالنسبة لنا وفيه ساعات، وأولها بالنسبة لنا هي ساعة قيامنا من الموت، مرورا بأيام فيها ساعات المحاسبة الفردية والعرض على الأشهاد والشفاعة... وهكذا وصولا إلى آخر يوم وآخر ساعة بدخول الجميع إلى الجنة والنار، كما تفهم من الآية 46 من سورة غافر "النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ".

هُنَا في الآية خَلْقُ الأرض في يومين يعني وجود فترتين زمنيتين مختلفتين عَنْ بَعْضِهِمَا بالحدث الأساسي، وَفَصَّلَ القرآن عنهما معا بأنهما فترة مدّ "دحو" الأرض كما في الآية 3 من سورة الرعد "وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ..."، والآية 19 من الحجر "وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ"، ومن الآية 27 وما بعدها من سورة النازعات "أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (33)".

وَلِتَقْرِيبِ فكرة اليومين، لِنَفْتَرِضْ بناء على معطياتنا الحالية أن يوما بدأ بتشكّل الأرض من المواد المنتشرة في الفضاء، وصار لها كيان كروي، فهذا حدث أساسي وانتهى يومه، ويوم آخر حين صار سطحها صُلْباً وعليه ماء ولها غلاف، وهذا الكلام افتراضي فقط لتقريب معنى كلمة يومين الذي يشير لفترتين زمنيتين حصل في كل واحدة منها حدث مميّز وانتهى، وَاخْتَرْتُ افتراضا حدث تشكّل الأرض وحدث صيران جيولوجيتها المميّزة، أمّا تحديد آليات تشكّل الأرض بترابط مراحلها فمتروك للباحثين المتخصصين للبحث فيه، عَادَةً القرآن يكتفي بالكلام عمّا يمكن لأي إنسان عادي أو متوسّط الثقافة أن يفهمه، ولا يدخل في أعماق مراحل وآليات حدوث الأشياء، لِأَنَّ القرآن كتاب هداية فقط وفقط، ويلفت انتباهنا لما فعله تعالى ويمكننا فهمه بسهولة، وليس كتابا لفرضيات ونظريات وقوانين علمية تجريبية.

كَمَا ترى، فَإِنَّ أَيَّ إنسان عادي سيلتفت بسهولة للأرض التي تمتد بامتداد بصره وينتبه أنها مثله مخلوق اسْتَغْرَقَتْ وقتا لتتشكّل ويصير فيها أنهار وجبال... وَمِنْ معرفته البسيطة باستغراق وقت لتصير غابات بنمو الأشجار، وهطول مطر لتصير الأنهار... سيعلم أن عموم تشكّل الأرض يحتاج لوقت وله مراحل. وهكذا ترى أنه ورغم فهمنا الحالي لكلام الآية عن مَرَاحِلِ تشكّل "كوكب" الأرض، فهي لا تزال مفهومة وبنفس المعنى للذين كانوا قديما يجهلون أنها كوكب كروي.

بِمُقَارَنَةِ أيام تشكّل الأرض مع يومنا الحالي "من ليل ونهار، 24 ساعة" نعلم أنه يوم من ملايين "أو مليارات" السنين.

(وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ{10})
نُكْمِلُ مع ما فعله تعالى لتذكير الناسين لذلك، واختراعهم له تعالى أندادا:

{وَجَعَلَ}، سبحانه، {فِيهَا}، في الأرض، {رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا}، وهي الأشياء الثابتة ولكنها طافية وقابلة للحركة من فوق الأرض، مثلما نقول: رست السفينة في الميناء، فهي متوقفة ولكنها ليست مثبتة بل طافية وقابلة للحركة، ومن مختلف آيات القرآن نفهم أن الرواسي هي إشارة للجبال والهضاب بشكل خاص، كما تجد في الآية 32 من سورة النازعات التي استعملت فعل الرسو لوصف حالة الجبال "وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا"، وبحسب معلوماتنا الحالية عن طبقات الأرض، فقشرة وجه الأرض أيضا راسية، فكلها متحركة وطافية على طبقات تحتها.

نحن نفهم الآن أن الصفائح الأرضية تتحرك، وبالتالي فالجبال تتحرّك، علما أن الجبال تنشأ من حركة الطبقات التي تتكدّس في نقطة ما فتبرز على شكل مرتفعات تصير جبالا... فكيف فهمها الأقدمون؟ بكل بساطة الْكَلَامُ هنا عن تشكيل

الأرض، حيث لم يكن عليها جبال، وصار عليها جبال رست واستقرت في مكانها الحالي، هذا طبعا فهم مبني على معنى كلمة رسو التي نشبّه الموصوف بها بحالة رسو السفينة، وهذا المعنى من تبعات تعلّق دراستنا هذه بالمعنى الدقيق للكلمات القرآنية. على أي حال، كَانَ الْأَقْدَمُونَ يلاحظون الزلازل، ومنها وبكل وضوح وأدنى تأمّل يعلمون أن وجه الأرض قابل للحركة، وبالتالي فالجبال أيضا قابلة للحركة، وأحيانا يمرّ في تاريخ البشرية حوادث زلزالية تغير مكان الجبال والوديان وبالتالي تغيّر مجاري الأنهار في وقت قصير جدا بالثواني... وَمَا تطرحه الآية واضح للجميع إذا تذكّرنا ما تفعله الزلازل والهدّات...

{وَبَارَكَ فِيهَا}، فجعل سبحانه بركته في الأرض، فجعل أمورا جيّدة تجري فيها، وبالمقارنة مع معطياتنا الحالية مع بقية الكواكب الجرداء أو الغازية أو الجليدية الجامدة... والتي لا تحصل على سطحها "أو في باطنها" أية نشاطات أو أحداث لها قيمة بالنسبة لنا، وهكذا تنتبه أن الأرض عليها بركة إلهية بوجود أساسيات الحياة وتوابعها عليها. وحتى بدون هذه المعلومات يبقى لفت الانتباه للبركة التي على الأرض واضحا لنا أنه من جعل الإله.

{وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا}، فحسب سبحانه لها كميات وشكل وزمان... أقواتها، القوت من مختلف أنواعه، كحصص للأشياء التي تقتات منها الكائنات، فتستهلكها الكائنات لتعيش، فلم يترك سبحانه ما ستشربه النباتات وتتنفّسه وتمتصّه لتتغذّى للصدفة، ولم يترك سبحانه ما ستأكله وتشربه وتتنفسّه الحيوانات للظروف او للصدفة او لغيره تعالى ليحدّدها... لا، بل قدّرها سبحانه فحدّد مقاديرها فحسبها وخطّط لها لتكون على الشكل الذي تراه الآن. وراجع في ذلك أيضا الآيات من 27 إلى 33 من النازعات "أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (28) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (29) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (30) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (31) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (32) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (33)".

وقد حصل هذا الجعل للرواسي والبركة وتقدير القوت، {فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ}، في أربع فترات زمنية متميزة عن بعضها، ففي كل يوم أي في كل فترة حصل حدث مميز، وفي الآية السابقة تحدّثنا عن معنى كلمة يوم، وبعد قليل سنعيد الكلام.

وتقدير الرزق حصل، {سَوَاءً}، بلا فرق وبالتساوي، {لِلسَّائِلِينَ}، لمن يسأل عن القوت، لمن يطلب ما يقتات به، لمن يعبّر عن إرادته للحصول على ما يسدّ به جوعه ويعينه على استمرار حياته. فالقوت "الطعام" الذي على الأرض من ثمار نبات ولحم حيوان فهو متاح بالتساوي لعموم المخلوقات التي تحتاج للقوت.

نَنْتَبِهُ، فخلال اليومين الأولين لتشكّل الأرض، كانت السماء قبلها موجودة، ولكنها لم تكن مشكّلة، فبناها سبحانه فرفع سمكها فصار لها سماكة مرفوعة، وراجع في ذلك الآية 28 من سورة النازعات المذكورة قبل أسطر، ففي أي نقطة من السماء سترى فوقك سماكة "فضاء" مرفوعة، وأثناء ذلك بدأ تشكّل الأرض وصار عليها ليل ونهار واكتملت حين دحيت طحيت مدّت... ومن بعدها صار للأرض تضاريس من جبال وسهول ووديان... وهذا ما يبدو من آيتنا هنا أنه حصل في يومين، ومن بعدها صار فيها أقواتها... "راجع الآيات 29 وما بعدها من سورة النازعات"، وهذا ما يبدو من آيتنا هنا أنه حصل في أربعة أيام، وخلال تلك الأيام الأربعة كانت السماء تمرّ بمرحلة انقسامها لطبقات، وانقسمت في يومين من تلك الأيام الأربعة، فالمجموع من بداية خلق السماوات والأرض إلى اكتماله هو ستة أيام، ست فترات زمنية غير متساوية بالزمن، فكل فترة لها بداية ونهاية بحدث يميّزها عن بقية الفترات، فَانْتَهَى أول يومين بتسميك السماء ودحو الأرض، وخلال أربعة أيام اكتملت الأرض وصارت صالحة لعيش الكائنات الأرضية عليها، وخلال هذه الأيام الأربعة انفصلت السماء لسبعة سماوات في يومين.

نَتَذَكَّرُ دائما أن المعنى الأساسي لكلمة سأل، مرادف تقريبا لمعنى كلمة "طلب" حاليا، ولم يستعمل القرآن كلمة "طلب" بالمعنى الدارج حاليا واستعمل بدلا منها كلمة سأل التي هي لعامّة إرادة شخص لشيء ما من آخر، سواء أراد جوابا أو أراد غرضا أو مساعدة...

(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ{11})
نُكْمِلُ مع ما فعله تعالى لتذكير من أعرض عن كلامه سبحانه:

{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}، فصار الحال بشكل مناسب لتعامله سبحانه مع السماء، ومن ناحيته تعالى فدائما في حالة مناسبة للتعامل مع أي شيء بسبب قدراته الفائقة جدا، ولكن خلق "تركيب" الأشياء يقتضي المرور بمراحل، وحين صارت السماء جاهزة للانتقال للمراحل التالية، استوى سبحانه إليها فلم يهملها أو يتركها لغيره فوجّه أوامره تعالى لاستكمال تشكّلها فهي لم تكن مقسّمة بعد، فاستوى سبحانه إليها، فصار الحال مناسبا بينه تعالى وبينها لاستكمال تشكّلها، {وَهِيَ دُخَانٌ}، وبتعبيرنا الحالي نقول إنها في حالة غازية، كثيفة أو رقيقة...

{فَقَالَ}، سبحانه، {لَهَا}، للسماء، {وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا}، تعالا إستجيبا، {طَوْعاً}، برغبة منكما، {أَوْ كَرْهاً}، مجبورتان.

تَذَكَّرْ دائما أن التعبير بالسماء يصف عموم ما علا من فضاء ويقابله أرض لعموم ما تحته، فكوكب الأرض سطحه أرض للفضاء الذي فوقنا، وسطح القمر أيضا أرض وهكذا لأي شيء تحت الفضاء، ومعلوم لك من القرآن وجود سبع سماوات غير سمائنا، وبالتالي فتلك السماوات لها ما يناسبها من أرض "أو أراض"، وبناء عليه فكلمة أرض تكون اسم جنس لكل أرض تقابل أي سماء من السماوات السبع، وبحسب سياق الكلام تفهم التخصيص، فمن الآية التالية بكلامها عن سبع سماوات يبدو الكلام هنا عن عموم الأرض التي ستصير سبع أراض والتي كل واحدة منها تقابل السماوات، وكلمة سماء هنا أيضا اسم جنس يشير لما سيصير سبع سماوات.

وبالنسبة للتعبير بـ {ثُمَّ} بعد كلام الآية السابقة عن تشكّل "كوكب" الأرض، فبحسب النظريات الحالية لتشكّل كوننا نفترض أن الأرض تشكّلت متأخرة بعد قرابة العشرة مليارات سنة من نشأة كوننا، وبالاستناد لهذا الافتراض تكون العشرة مليارات فترة حدث فيها أمرين أساسيين من التشكّل، فهما يومان ضمنهما بداية تشكّل كوكب الأرض، وبعدها وبحسب افتراضانا الحالي لعمر كوكب الأرض بقرابة الأربع مليارات، فقد حصل فيها أربع أحداث أساسية فهي بالتعبير القرآني أربعة أيام حدث فيها تغيرات لكوكب الأرض بحيث صارت مهيئة ليصير عليها بشر ويصير لهم رزق فيها.

طبعا هذا تحليل ندمج فيه افتراضاتنا الحالية عن نشأة كوننا مع كلامه تعالى، فأي تحسين أو تطوير فيما نفترضه من نظريات، فسيغيّر من فهمي للآية، وهكذا ترى أنني وبسبب كثرة المعلومات النظرية عندي عن نشأة الكون، فقد منعني ذلك من رؤية كلامه تعالى لوحده لأتعلم منه من دون تأثيرات توجّه فهمي للآيات، فمن المفترض أن نفهم الآيات بمعزل عن أي نظرية علمية، ومن المفترض أن لا يؤثّر على فهمنا للقرآن أي تغيّر بنظرياتنا العلمية، فإن كان التفسير للقرآن مرتبطا بتظرية علمية قابلة للتغيّر، ولم يكن ملتصقا حصرا بالمعنى الظاهر للكلمات كما يفهمها أي إنسان عادي، فهذا ليس تفسيرا لكلامه تعالى بل إسقاط لمعلوماتنا على القرآن ليتماشى مع ما نعرفه بدلا من التعلّم من القرآن.

نرجع للآية، {قَالَتَا}، السماء والأرض: {أَتَيْنَا}، حضرنا واستجبنا، {طَائِعِينَ}، برغبة منّا.

لَاحِظْ مختلف الآيات القرآنية تخبرنا عن وعي لا نفهمه للسماوات والأرض، فنحن بالنسبة لنا يمكننا التعامل مع ما له لحم ودم من حيوانات، فلهم وعي يمكّننا من التعامل معهم فيتفاعلون معنا، ويتفاعل النبات معنا بشكل أبسط بكثير من تفاعل الحيوان، فنسقيه ونقلّمه... لينمو، ولكن تعاملنا مع الحجر والتراب والغاز... هو من جانب واحد، فتنفعل تلك الجمادات ولا تفعل أو تتفاعل معنا عن وعي، بل عن خصائص فيزيائية وكيميائية فيها تنفعل وتتفاعل، فينفعل المعدن فيذوب من تفاعله مع الحرارة، وتصدر الحرارة والنور من الشمس... ولكن لا نصنّف هذه الظواهر بأنها تصدر عن وعي، وهذا من رؤيتنا نحن لها بقدراتنا المحدودة، أمّا بالنسبة له تعالى فكلّ الكائنات لها نوع من الوعي ويتواصل سبحانه معها، وهنا ترى بوضوح أن للسماء وللأرض طريقة ما للتواصل معه تعالى، في نفس الوقت تبقى بالنسبة لنا كجمادات بسبب قدراتنا الضعيفة عن إدراك وعيها وفقه تسبيحها كما تقرأ في الآية 44 من سورة الإسراء "تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...".

وَنَفْهَمُ الأمر بالإتيان طوعا أو كرها، أنه عمليا هو استجابتهما لأوامره تعالى بتشكّلهما وحصول الظواهر فيهما كما أمر سبحانه، وننتبه لأي تفسير يجعل هذا الكلام مجازي أو كنائي أو تعبيري غير حقيقي، فيقولون أن السماء والأرض لهما قابلية الاستعداد لاستقبال الأوامر الإلهية، وأمرهما بالإتيان طوعا أو كرها معناه بتعبير بسيط: أعجبكم أو لم يعجبكم فسيحصل ما يريده تعالى. يعني هما بلا وعي ولا إدراك ولا فهم، فهما مجرّد كيانات لا يمكنها رفض الأوامر أصلا، مثل السيارة التي تديرها فتمشي بلا إرادة منها... وهذا كلام يتعارض مع العديد من الآيات القرآنية التي تثبت وعيا

وفهما وإدراكا من أنواع ومستويات مختلفة لكل الكائنات، من شمس وقمر وسماء وأرض وجبال... ونحن لا نفهم هذه القدرات عند هذه الكائنات، ولكن الذي خلقها سبحانه يقول لنا بأنه يتواصل معها، بطريقة ما لا نفهمها، فلماذا تحوير الكلام الإلهي؟! فهذا مجرد خبر عن تعاطيه تعالى مع السماء والأرض، فهو مجرد خبر، فتفهمه كخبر، وترى أثره في سيرانهما على ما هما عليه كنتيجة لأمره تعالى لهما، فنحن لا نملك المستوى "الإلهي" المطلوب للتعامل مع هذه الكائنات، وبالتالي فلن نفهم كيفية التفاهم معها من المستوى الإلهي.

طبعا نضع في بالنا أن ما نعرفه من معنى للوعي مما هو موجود فينا، فهو ليس النوع الوحيد للوعي، فوعي من نوع آخر سيكون لديه شؤون يعيها من نوع آخر ونحن لن نفهمها، مثلما نعلم أن بعض الحيوانات ترى ألوانا لا نراها نحن، وحتى ندرك ما يرونه فنحن نحوّل الصور بالكاميرات والبرامج لتعرض ألوانا نراها نحن كتمثيل لما تراه النحلة، ولكننا لن نرى ما تراه النحلة، واختلاف أنواع الوعي من حيث المفهوم هو نفس الشيء، فهناك أنواع أخرى من الوعي غير الوعي الحيواني المتدرج من أقصاه في الإنسان نزولا إلى حيوانات لا تملك إلا جهازا عصبيا بسيطا قادرا على التعامل مع القليل من المهمّات...

وَتُفْهَمُ المسألة إذا فكّرت في حاسّة تملكها كائنات أخرى وأنت لا تملكها، فلن تفهمها، فنحن نرى، فكيف ستشرح معنى الرؤية لكائنات لا ترى؟ أو كيف ستشرح معنى البصر لإنسان مولود أعمى لا يرى نهائيا ولا حتى الغباش ولا حتى أشباح الأشياء؟ فمهما شرحت له لن يفهم، وكذلك مسألة وعي الجمادات بالنسبة لنا، فمهما شرح تعالى لنا فلن نفهم.

بقي شيء فلم أجد في كلمات العرب القديمة أي مساوي لكلمة "غاز" التي نستعملها الآن لوصف حالة المادة "غير السائلة أو الصلبة أو المائعة "الجيلاتينية""، فيبدو أنهم استعملوا كلمة دخان لوصف ما يرونه من غازات لها لون، وبالأخص لما يرونه من انبعاثات الاحتراق، والغازات غير المرئية لم يعرفوها ولذلك لم يحدّدوا لها كلمة، وعلى التوازي استعملوا كلمة بخار للانبعاثات الشفافة. وحتى فيما بعد تطوّر العلوم عند العرب، وتعرّفهم على انبعاثات بلا لون، فقد بقيت كلمة بخار مستعملة كمرادف لما نقوله نحن الآن "غاز" وبقي استعمال كلمة دخان محصور بالغازات التي لها لون. أمّا حاليا فالغاز هي كلمة من أصل يوناني وهي وصف يشمل البخار والدخان وكل ما ليس مائعا أو سائلا أو صلبا، سواء أكان له لون أو شفّاف، وعلى هذا يكون الاستعمال القرآني لكلمة دخان مرادف لكلمة غاز، وبشكل أدقّ فهو من تطبيقات كلمة غاز بحسب تعريفها الحالي.

(فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ{12})

بعد أن أتت الأرض والسماء طائعتين، {فَقَضَاهُنَّ}، صَدَرَ قراره تعالى وهنا قراره تعالى أن تَصِيرَ، {سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}، من سماوات الملائكة العالية (ع) والجنّ والإنس... وحصل هذا القضاء، {فِي يَوْمَيْنِ}، في فترتين زمنيتين كل واحدة من الفترتين مُمَيَّزَة في بدايتها ونهايتها بحدث مميز عن اليوم الآخر.

{وَأَوْحَى}، أَوْصَلَ سبحانه معلومات بلا كلام مباشر منه سبحانه، {فِي كُلِّ سَمَاءٍ}، من السماوات السبع، {أَمْرَهَا}، الأمر الشيء الذي يريده تعالى أن يحصل لها وفيها. قارن هذا مع ما ورد في الآية 68 من سورة النحل عن الوحي للنحل الذي يبحث عن الرحيق ويبني قِفَارَهُ... فتفهم أن الوحي هو تشكّل كل سماء بحسب الأوامر الإلهية، لا بالصدفة ولا عبثا ولا لوحدها... وأن السماوات اسْتَجَابَتْ بمقدار ونوع الوعي الذي عندها وَنَفَّذَتِ الأوامر.

فِي الآية السادسة السابقة من هذه السورة توسعنا في دراسة معنى كلمة وحي.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضا على قبّة النجوم التي نراها ليلا، ونطلقه أيضا على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنويا على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائما أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنويا" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، لِذَلِكَ ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...} وهي إشارة إِلَى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تَقْصِدْ وجود أرض "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كل

سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضا بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراض.

{وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا}، وهي عموم السماء التي في هذه الحياة، مقابل السماء التي في الآخرة، حيث جعل تعالى فيها أشياء تجعلها أجمل، زَيَّنَهَا سبحانه، {بِمَصَابِيحَ}، بأشياء يصدر منها النور، كالشموس وعموم النجوم التي يصدر عنها الضوء والتي نراها كنقاط في السماء... فالتعبير بالسماء الدنيا لا يشير حصرا إلى سمائنا بل لعموم كل السماوات التي في عالم الدنيا، حَيْثُ هكذا استعمل القرآن كلمة دنيا في مقابل الآخرة.

جَعَلَهَا تعالى، {وَحِفْظًا}، مصونة محمية، ونعلم من آيات عديدة من القرآن أن السماء محفوظة من اختراق الشياطين لسماء الملائكة العالية كما تقرأ في الآيات التالية من سورة الحجر {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (17) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (18)}.

{ذَلِكَ}، القضاء بجعل السماوات سبعا وجعل المصابيح والحفظ في السماء الدنيا هو، {تَقْدِيرُ}، هو مقادير، عمل حساب لتكوينها ولعملها ولاستمرارها، من، {الْعَزِيزِ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، وَتُقَابِلُهَا صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... {الْعَلِيمِ}، الذي يعلم كلّ شيء لَمْ يَحْتَجْ أن يُعَلِّمَهُ أحد كيف يخطّط أو كيف ينفّذ... سبحانه وتعالى.

يعني لا أنداد في الألوهية له تعالى، وَحْدَهُ المصمّم الخالق المسيطر، وهو موصوف بِالْعِزَّةِ فأوامره فوق الجميع قاهرة، وعن علم من مستوى فائق جرى تصميم وخلق الدنيا بهذا الشكل، فأين تلك الآلهة التي يقولون عنها؟ وماذا فعلت؟

لاحظ وانتبه لكلام القرآن عن نماذج من أفعاله تعالى تَتَخَطَّى المعرفة البشرية بالتجربة، بِالرَّغْمِ من علمه تعالى بأننا لا نتعاطى مباشرة إلا مع سماء واحدة، لَكِنْ أخبرنا عن خلقه لهذه السماء والأرض أنها كانت تتشكّل مع سماوات أخرى، فلم يقتصر كلام القرآن على لفت انتباهنا لأفعاله تعالى مما نعرفه ويمكننا اختباره، بل أضاف نماذج مما لا نعرفه حتى يرينا أنه كلام إلهي لم يَتَقَيَّدْ بحدود المعرفة البشرية، ومثله الكلام في الآية السابقة عن شيء غريب جدا ولكنه هكذا، فللسماوات والأرض وعي من نوع ما.

نَتَذَكَّرُ أننا في المستقبل سنتعرّف على بعض السماوات الأخرى حيث سننفذ منها ونصل إلى السماء التي وصل إليها الجنّ قبلنا، وسنتعرّض للشهب إن حاولنا اختراق السماء التي لا يدخلها إلا الملائكة فقط... ولمزيد من التوسع حول هذا راجع دراسة الآيتين 33 و 35 من سورة الرَّحْمَنِ {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ... يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ}.

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ{13})
{فَإِنْ أَعْرَضُوا}، إِذَا لم يهتمّوا بهذا الكلام القرآني عن لفت انتباههم لما صمّمه وخلقه تعالى والذي يدل بوضوح عليه سبحانه وَلَمْ يؤمنوا بتوحيده، {فَقُلْ} لهذه النوعية من الناس عبر هذا القرآن:

{أَنْذَرْتُكُمْ}، أخبرتكم بخطر قادم حتما بسبب توافر شروط حصوله فيكم، {مِثْلَ}، شبه التمام لـ، {صَاعِقَةِ}، للشيء القوي المُفَاجِئ، الذي حصل مع، {عَادٍ}، وهي قبيلة كان رسولها النبي هود(ع)، {وَثَمُودَ}، وهي قبيلة كان رسولها النبي صالح(ع).

الصَّاعِقَةُ وصف لعموم الشيء القوي الذي يأتي فجأة، حَيْثُ إِنَّ الصاعقة وصف للحادثة الناتجة عن برق ورعد، ووصف القرآن نزول العذاب على الناس في الدنيا أنه صاعقة، ووصف حصول الموت المُفَاجِئ أنه صاعقة... هُوَ أي شيء قوي يأتي فجأة وبقوّة. وعلى نفس هذا المعنى نقول: صعقني الخبر...

لاحظ تكرار السورة لمحورها عن إعراض بعض الناس عن آياته تعالى.

(إِذْ جَاءتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاء رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ{14})
{إِذْ}، حيث، {جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ}، جاء أشخاص ناقلون لكلامه تعالى إلى قوم عاد وثمود، {مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ}، أمامهم في زمانهم جاءهم الرسل، {وَمِنْ خَلْفِهِمْ}، في الأزمنة التي سبقت جاء أيضا رسل، فلم يكن وجود الرسل بينهم شيئا حصل فجأة ولأول مرّة، بل في تاريخ القبيلتين يوجد رسل سَابِقُونَ، فكان لهما خبر منه تعالى سابق وَصَلَهُمْ من تراث الرسل السابقين والمنقول بين الناس، ووصلهم خبر حالي عبر رسل في حياتهم قبل حصول العذاب الدنيوي، وهذه الرسل حملت الرسالة التالية: {أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ}، لَا تتصرفوا على أساس أنكم مفروض عَلَيْكُمْ طاعة أحد ما من مستوى إلهي إلّا لصاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى.

{قَالُوا}، كفّار عاد وثمود اللَّتَيْنِ اختارتهما السورة كنموذج بارز معلوم من الناس: {لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً}، مِنْ بين الخيارات العديدة الموجودة ليهدينا، فلماذا سيرسل رسلا من البشر! فلو أرسل لنا ملائكة، كائنات غريبة بقدرات وصفات عالية تدلّ أنها آتية من عنده سبحانه لكنّا اهتدينا فورا، فهذه طريقة مضمونة لهدايتنا عبر إرسال ملائكة لا عبر إرسال بشر عاديين سنشكّ بأنهم رسل.

{فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}، نُنْكِرُهُ ولا نعلن اعتقادنا به لأنكم بشر عَادِيُّونَ، ومع وجود ملائكة عنده تعالى لِمَاذَا سيرسلكم أنتم كرسل؟

ستلاحظ السورة اعتبرت أنها ردّت على هذا الاعتراض بأنه لا معنى له، فالمعروض عليكم من لفت انتباهكم لما فعله تعالى حين خلقكم وخلق بيئتكم وبقية ما في الدنيا... والمعروض عليكم كلام عقلاني منطقي صحيح واضح... فماذا سيتغيّر إن قاله كائن شكله غريب؟ فهل سيصير عقلانيا وصحيحا لمجرد أن ملاكا قاله لكم؟

هناك سور ركّزت على اقتراحهم إِرْسَالَ الملائكة(ع) وردّت عليه بأن الملائكة(ع) كائنات مختلفة التكوين عن عالمنا وإذا أمر تعالى أن تنزل علينا لنراها فلا يمكننا أن نراها حتى لو وقفت أمامنا لأن تكوينها مختلف، وراجع كمثال الآية 9 من سورة الأنعام {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ}، فيجب أن تتمثّل الملائكة "بالطين" بشيء من المادة التي في عالمنا حتى نراها، فبماذا ستتمثّل حتى نقتنع أنها ملائكة؟ فإن تمثّلت على شكل رجل يشبهنا فما الفرق بينها وبين الرسول البشري؟ وإن تمثّلت بشكل غريب، فلن تكون إلا كائنات شكلها غريب لا يثبت أنها ملائكة، وإن طارت واختفت وعادت... فأي شيء سيجعلنا نتأكّد أنها ملائكة؟ وكما ترى فاقتراحهم للرسول الإلهي أن يكون ملاكا لا معنى له، والسورة هنا اكتفت بالآيات السابقة عن لفت انتباهنا لما فعله تعالى، وأنه كلام حقّ عقلاني منطقي واضح، ولو قالته نملة أو قاله إنسان أو ملاك... فقيمة الكلام العالية محفوظة ولن يتغيّر أي شيء إن قاله ملاك لهم.

(فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ{15})
{فَأَمَّا عَادٌ}، وعاد اسم لقبيلة كبيرة كانت منتشرة في شبه الجزيرة العربية، وهود(ع) أرسله تعالى في منطقة الأحقاف أي التي فيها تلال رملية كما ورد في الآية 21 من سورة الأحقاف {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ...}، ومدينتهم اسمها إرم كما ورد في الآية 7 من سورة الفجر {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ}، ويقولون إِنَّهَا تقع بين اليمن وعمان.

{فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ}، رَأَوْا أنفسهم أكبر وبقية الناس أصغر، {بِغَيْرِ الْحَقِّ}، لَمْ يكن مَعَهُمْ حقّ بتكبّرهم فلم يكن تكبّرهم عن صواب، فلا فرق بينهم وبين الآخرين إلا بالقوّة المالية والعسكرية والعلمية... وهذا شيء تمرّ به مختلف الأمم ولا يحقّ لهم التكبّر على الآخرين.

{وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً}؟ قُوَّتُنَا العسكرية والاقتصادية أشدّ من كل القوى التي على الأرض في منطقتنا، فمن أقوى منّا؟ فهم يبرهنون أَنَّ تكبّرهم هو واقع حال صحيح ويبرّر تكبّرهم، لأن كل الصفات التي تسمح لهم بالتكبّر موجودة فيهم بسبب قُوَّتِهِمْ التي فوق قوة الجميع.

{أَوَلَمْ يَرَوْا}، ألم تحصل لديهم صورة محدّدة كما نقول بالعامية: ما شافوا، ما التفتوا. {أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ}، الذي ركبّهم وألّفهم من المواد، {هُوَ}، سبحانه، {أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً}؟! فإن كان استكبارهم على الآخرين وخضوع الآخرين لهم، معياره القوّة، فالذي خلقهم حتما أقوى منهم، فلماذا استكبروا عن الإيمان به وطاعته سبحانه؟!

{وَكَانُوا بِآيَاتِنَا}، بالأمور المميّزة المنسوبة له تعالى، وهنا الكلام عن الأمور التي تبيّن قوته الفائقة سبحانه بخلق كل شيء... كانوا، {يَجْحَدُونَ}، ينكرونها مع أنها من الواضح صحّتها لهم!

ننتبه جيّدا، فعلى معيار عاد، الذي يملك القوّة يحقّ له التكبّر وإخضاع الآخرين، ورغم وجود آيات يرونها بوضوح وتدل على أن الله تعالى خلقهم وبالتالي فهو تعالى أشدّ منهم قوّة، أقوى منهم بكثير، فعلى نفس معيارهم تسأل الآية: لماذا لم يخضعوا لمن هو أشد قوّة منهم؟

هنا ترى عرض السورة لنموذج إعراض عن الآيات مع جحود بها، مع العلم بأنها صحيحة ورغم ذلك إنكارها والإعراض عنها بسبب التكبّر بالقوّة التي معهم، وحاليا نستعمل كلمة "غطرسة وعجرفة" لهكذا حالة.

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ{16})

{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ}، على عاد، {رِيحًا}، هواء قويا، {صَرْصَرًا}، للريح صرير، لَهَا صوت قوي جدا، {فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ}، لم يحصل فيها أي سعادة لهم، {لِنُذِيقَهُمْ}، لنجعلهم يلمسون ويتحسّسون بشكل مباشر، {عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، ضررا يصيبهم وفيه إهانة لهم بسبب قبيح ما فعلوه هنا في الحياة الدنيا التي عاشوها قبل الانتقال للحياة الآخرة، {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى}، هُنَاكَ في الحياة التي ستأتي في الْآخِرَةِ ستكون الإهانة بسبب قبيح ما فعلوه أكبر مما حصل معهم في الدنيا، فهناك الجرجرة على الوجوه والصفع والضرب والشتم المستمر بلا انقطاع، {وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ}، لَنْ يستطيعوا أن يحقّقوا ما يريدونه وَلَا غيرهم يستطيع تحقيق ما يريدونه، فلا حلول ولا احتمال للتخلّص من العذاب المخزي الذي هم فيه.

نلاحظ القرآن يَصِفُ دائما نزول عَذَابٍ على قوم كافرين بأنه خزي ومهين، وهو توصيف من ناحية نظرته تعالى لهم، حَيْثُ اعْتَبَرَهُمْ سبحانه بلا قيمة ولا كرامة ولذلك عذّبهم، فلا تفهمها أن الشتم هو الإهانة فقط، بل افهمها أنه تعالى عذّبهم لأنه سبحانه اعتبرهم بلا قيمة ولا احترام ولا مكانة، وهذه هي نظرة الخزي والمهانة لهم.

بِالنِّسْبَةِ لتعابيرنا نحن التي نستعمل فيها كلمة "نحس"، فهي خليط بين المعنى الصحيح للكلمة وبين اشتقاق معنى من الكلمة، فنقول: كان يومي منحوسا. ونقصد أني تعرّضت لأمور سيئة في ذلك اليوم. وهذا الاستعمال لكلمة نحس صحيح موافق لأصل معنى الكلمة، ونقول: هذا الشخص منحوس. ونقصد أنه دائما يتعرّض لأمور سيئة. وهذا الاستعمال أيضا صحيح كوصف لتقييمنا نحن لحالة ذلك الشخص الذي لاحظنا أنه في الغالب يتعرّض لأمور سيئة. ونقابل هذه الحالة بقولنا عن شخص آخر أنه محظوظ. ونقصد أنه غالبا يتوفّق في مقاصده، فتحصل معه الأمور الجيدة غالبا. وكما ترى فالنحس والحظّ مجرد وصف حالة، فلا أعطيك النحس، ولا أنقله لك، ولا أعديك به، ولا إن رافقتني يصيبك نحسي، بل هو مجرّد وصف لحالة تعرّضنا لأمور سيئة، فلا يوجد في الحقيقة شخص منحوس يصيبه السوء ولا يتوفّق مهما فعل، بل النحس هو وصف حالته عند تعرّضه لسلسلة من التعثرات والأحوال السيئة.

بعبارة أوضح، بَعْضُ الناس يعتقدون أن شعري أسود ولون بشرتي حِنْطِيٌّ و... وأنا منحوس، فالنحس صفة ملتصقة بي مثل لون شعري وبشرتي، وهذا غير صحيح، فلا كلمة نحس هذا معناها، ولا استعملها القرآن بهذا المعنى، ولا أصلا يوجد صفة نحس من الصفات الذاتية لأحد ما، وفي المقابل لا يوجد صفة حظّ ومحظوظ بشكل مستمر كصفة ذاتية لأحد ما.

مِنْ أمثلة التساهل في الكلام الذي نقوله ونسمعه: النحس موجود وَذَكَرَهُ القرآن. فهذا الكلام مشابه في بساطته غير المدروسة ولا المطابقة للواقع، مشابه لقول البعض: الله غفور رحيم. ويقصدون أننا مهما فعلنا فسيغفر سبحانه لنا. وكما تلاحظ فهما جملتان صحيحتان ولكن اشتققنا منهما مَعَانٍ غير صحيحة، فالنحس ورد الكلام عنه في القرآن ولكن ليس بالمعنى المتعارف عليه بين عوام الناس لكلمة نحس، وليس بمعنى وجوده الحقيقي كلون شعري... بل هو صفة لحالة

تعرّضنا لأمور سيئة، فقط لا غير. ومثله الكلام عن أنه تعالى غفور رحيم، فالمغفرة وردت في القرآن، ولكن ليس لكل ما نفعله بلا توبة وبلا إيمان وعمل صالح.

هُنَاكَ عمق فكري ونفسي فاسد ننطلق منه كخلفية في العديد من أفكارنا، فالاعتقاد بقوّة خارقة فوق الأسباب، ككلمة سحرية لها فعل عجيب هكذا بدون أي سبب، أو قدرة خارقة لفعل الأشياء بدون سبب، هو أساس فاسد نرى أثره في تفسيرنا للقرآن، وفي الكلام عن النحس ترى اعتقاد بعض الناس به مبني على أساس غير صحيح، فيعتقدون أن النحس شيء خارق يسبّب حصول السوء والشرّ... واعتقاد بعض الناس بطريقة فعله تعالى للأشياء مَبْنِيٌّ على هذا الأساس الفاسد، على أساس أنه تعالى يقول: كن. وفجأة وبدون سبب ولا آليات تحدث الأشياء، علما أننا لن نفهم بالعمق كيفية فعله تعالى للأشياء بسبب الضعف الهائل في علمنا وقدراتنا أمام علمه وقدراته الفائقة سبحانه، ولكن من غير السليم تفسير جهلنا لها بأنها تحدث فجأة وبدون آليات ولا أسباب، فمن ناحيته تعالى يرى ترابط ما خلقه وأمر به مع ما سبقه، فلا يوجد شيء سحري بِالْمَعْنَى الخرافي لكلمة سحر.

بقي شيء، فهنا الآية قالت عن الأيام الثمانية أنها كلها نحسات، فمن الواضح أنه لا معنى لكلامهم في الكتب والتفاسير عن النحس والحظ ليوم عن يوم آخر على طول الزمن، فالقرآن يصف كل أيام نزول العذاب على "عاد" بأنها نحسات، فما معنى اختيار بعض الناس ليوم الأربعاء أنه نحس دائما "كما يقولون" على أساس أنه أوّل يوم بدأ فيه نزول العذاب، طالما أن الوصف القرآني "بالنحس" كان لكل الأيام الثمانية لنزول العذاب؟! فكما ترى، إنَّ نزول العذاب في ذلك الزمان على "عاد" حَقَّقَ توصيف تلك الأيام فقط بأنها نحسات، وكل يوم يحصل فيه سوء فيمكنك توصيفه هو فقط بأنه مَوْصُوفٌ بالنحس وفي حينه فقط، ومن السخافة وصف يوم ما بالنحس بسبب حدث جرى في يوم مثله في تاريخ سابق.

لِمَزِيدٍ من التوسّع أيضا حول كلمة نحس راجع ما ذكرناه في دراسة الآية 19 من سورة القمر {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ}، فهناك توسعت فيها من زوايا أخرى أيضا.

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ{17})
أَمَّا ثمود، وهم قبيلة عربية كبيرة، كانت منتشرة في عدة أماكن في شبه الجزيرة العربية، والقرآن تحدّث عن القرية التي كان فيها النبي صالح(ع) الذي أرسله سبحانه على ما يبدو من الآية 80 من سورة الحجر إلى مدينة الحجر {وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ}، وَتُوجَدُ إلى الآن آثار لبيوت منحوتة في الصخر في مدينة الحجر، وَتُسَمَّى أيضا مدائن صالح، وهي تقع في ما يسمّى الآن بالمملكة السعودية، لجهة الشمال الغربي من المدينة المنورة.

{فَهَدَيْنَاهُمْ}، وَضَعْنَاهُمْ على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية المرغوبة، {فَاسْتَحَبُّوا}، رَغِبُوا وَفَضَّلُوا، {الْعَمَى}، أن لا يروا الهدى! فكان عمى القلب باختراعهم لآلهة وإعراضهم تكبرا على دينه تعالى أحبّ إليهم من رؤية الأشياء الصحيحة التي توصلهم لغاية مرغوبة فعلا، فكان الكفر والسوء أحبّ إليهم من الحقّ والصلاح والذي ينجيهم من العقاب الإلهي.

{فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ}، لَمْ يَتْرُكْهُمُ الشيء القوي الْمُفَاجِئُ "الصاعق" الذي عذّبهم بشكل مهين، فهو عذاب يجعلهم يشعرون بأنهم بلا قيمة، {بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، بالذي حصلوا عليه مما نتج من أعمالهم السيئة.

هُمْ قاموا بأعمال سيّئة، نتج عنها أشياء سيئة لهم، ونالوا العقاب عليها، ولم يعد لهم قيمة أو اعتبار عنده تعالى، فعذّبهم هنا في الدنيا، فهم مهانون محقّرون في اعتباره تعالى بسبب كفرهم وفسادهم.

نَعْلَمُ من بقية القرآن أَنَّ ما أتاهم فجأة وبشكل قوي أهلك الكثيرين منهم كان زِلْزَالًا.

(وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ{18})
{وَنَجَّيْنَا}، خلّصنا من الخطر قبل وقوعه، {الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا اعتقادهم، والكلام عن اعتقادهم بالحقّ وهو نفسه الاعتقاد بهذا الدين الإلهي، {وَكَانُوا يَتَّقُونَ}، كَانُوا يَتَجَنَّبُونَ، والكلام هنا عن تجنّبهم للسيئات، وعمليا هو تجنّب غضب وعقاب ربّهم سبحانه فابتعدوا عن معصيته تعالى.

(وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ{19})
{وَيَوْمَ}، وفي الزمن الذي، {يُحْشَرُ}، يتم جمع بقرار منه تعالى سواء قبلوا أو رفضوا، {أَعْدَاءُ اللَّهِ}، الذين كانوا في الدنيا يريدون الضرر بكل ما له علاقة به تعالى، وبالتالي فسبحانه قرّر لهم الضرر، فيوم يتم حشرهم، {إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ}، لَا يتاح لهم المجال، وَلَيْسَ لهم الحرية، حَيْثُ لَا أحد منهم يتحرّك كما يريد بل يقف حيث حشروه، وَلَا يمكنه الهرب ولا مخالفة الأوامر ولا الانتقال حيث يشاء...

لاحظ الصورة: حشرهم إلى النار، أي تجميعهم لإدخالهم إلى النار.

(حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{20})
{حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا}، صاروا قريبين من النار فعندها، {شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ}، هناك تسجيلات للأصوات التي دخلت إلى وعيهم، فقد سمعوا ما قاله الرسل منه تعالى وهم اختاروا أن لا يقتنعوا بها، {وَأَبْصَارُهُمْ}، قدرتهم على وعي وفهم الصورة أيضا تشهد عليهم أنهم لم يقبلوا فهم ووعي إلا الصور المخالفة للدين الإلهي، {وَجُلُودُهُمْ}، أيضا تشهد عليهم أنهم لامسوا وتحسسوا السوء بإرادتهم... بعبارة أبسط فقد سمعوا الآيات الإلهية وهناك تَسْجِيلٌ من سمعهم يثبت أنهم سمعوها، ورأوا الآيات وهناك تسجيلات من بصرهم تثبت رؤيتهم للآيات، ويظهر من تلك التسجيلات أن الآيات الإلهية كانت صحيحة ومقنعة ولكنهم رفضوها، وجلودهم تشهد عليهم "وسترى تفصيل ذلك في الآية التالية"، {بِمَا}، بالذي، {كَانُوا يَعْمَلُونَ}، أَعْضَاءُ جسدهم ستذكر كل ما عملوه أثناء محاسبتهم في يوم القيامة.

نتذكّر الآية الخامسة في بداية السورة {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ}، ونتذكّر ما ورد منذ قليل في الآية 17 {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى...}، لنرى عمق ما تقوله الآية هنا، فسبحانه لا يحاسبنا على شيء لا نعلمه، بل على مَوْقِفِنَا وردة فعلنا على ما دخل سمعنا وبصرنا وقلبنا يحاسبنا.

نَفْهَمُ كلام الآية هنا مع التالية أنه مماثل لما تسجّل في كتاب أعمالنا، فكما تُعْرَضُ علينا أعمالنا المسجلة في كتاب، فكذلك تشهد علينا أعضاء جسدنا لتؤكد سوء ما فعلناه. ولكن بالنظر للآيتين الخامسة والسابعة عشرة من هذه السورة بكلامهما عن العمى عن الحقّ، وعموم ما ورد في القرآن من أشباه هذا الكلام عن طبع قلوبهم وعماها والغشاوة... فسنرى عمقا آخر، فلن نرى فرقا بين ما سمعه الكافرون من هدى ورفضوه، وبين ما تسجّل مما سمعوه وكان ردّ فعلهم سيئا تِجَاهَهُ.

يعني إذا فسّرت الآية هنا أن سمعي سيشهد علي أني كنت أسمع الحاكم الظالم وأتماشى معه، وأسمع الغيبة والنميمة... فهذا صحيح، ولكن هو نفسه السمع سيشهد عليّ أيضا أني سمعت الحقّ ولم أتبعه، ولا فرق بين الحالتين، فالوقر والثقل المانع لهم من القبول بما يسمعونه من كلام حقّ فهو نفسه العطل الذي يجعلهم يقبلون الباطل.

(وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{21})
{لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا}؟ لماذا قلتم عن الأشياء السيئة التي فعلناها لتؤكدوا أننا قمنا بها؟ وكما ترى فهو سؤال يقصدون منه أننا سنتعذّب بكم، فأنتم جلدنا الذي سيحترق فلماذا قلتم ما سيسبّب لنا العذاب!؟ فلما شهدت عليّ أنا وأنت جلدي؟

{قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ}، فنحن حاسّة اللمس التي كانت لكم في الدنيا، ونحن ما أحسستم به، فجعلنا سبحانه ننطق فنفصح فنخبر عمّا حصل معنا، {وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ}، فهو تعالى ركّبكم وألفكم أول مرة مع جلد بهذه الخاصية، {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، وها قد رجعتم إليه تعالى مع جلد ينطق.

جلدنا هنا في الدنيا لا ينطق، ولكن الذي خلقه هنا، فقد جعل فيه خاصية تؤهّله ليشهد علينا في الآخرة، وعندما سألوا في الآخرة عن جلدهم الذي نطق، لماذا نطق، فهو جزء منهم وهو سيحترق معهم! جاء الجواب: نحن الجلد من الأساس كنا في خلقتكم في الدنيا بهذه الخاصية التي ستجعلنا نشهد عليكم في الآخرة، فشهادتنا عليكم هي من ضمن خلقتكم ومن ضمن المخطط الإلهي.

نلاحظ تَفَاسِيرَ ذكرت أن الجلد كناية عن الأعضاء التناسلية التي تشهد على الفحش والزنا، وكلامهم صحيح ولكنه ناقص، فالجلد استعماله أعمّ من ذلك، فلو أنت بنفسك آذيت جلدك "بلا سبب وجيه" فقد ارتكبت سيئة فيه، وسيشهد عليك...

سُؤَالٌ: كيف ينطق الجلد؟ لا ندري، فهذا شيء سيحصل في عالم الآخرة المختلف عن عالمنا الحالي، ولكن لدينا تخمينات تقريبية، ولكن أولا علينا أن لا نتصوّر النطق مَحْصُورًا بالفمّ، فمكبّر الصوت من المسجلة ليس فما ولا وعي له ويصدر منه معلومات مسموعة، وصفحات الكتاب ليست فما ولا وعي لها وتنطق بمعلومات غير مسموعة، والطير يزقزق والكلب يعوي... ولهما وعي وإذا فهمت على الحيوان أنه جائع أو مسرور أو خائف... فهو نطق بالنسبة لك حتى لو لم يكن بلغتك. وأمثلة أخرى عن النطق تجعلك تَفْتَحُ آفَاقَ فهمك لنطق السمع والجلد والبصر ومنتبها في نفس الوقت أنه ليس بالضرورة أن يكون نطقهم شيء يمكنك أن تتصوّره الآن، فأنت لا تعرف كل طرق النطق الممكنة، وتعرف فقط ما تؤمنه لك معطياتك مما تراه وتسمعه من الكائنات من حولك ومما تحاول تخيّله.

(وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ{22})

{وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ}، تخفون أعمالكم، {أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ}، وعيكم للأصوات، {وَلَا أَبْصَارُكُمْ}، وعيكم للصورة، {وَلَا جُلُودُكُمْ}، وعيكم للملامسة، فلن تستتروا منه تعالى حتى لو لم يشهد عليكم سمعكم وبصركم وجلدكم، {وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ}، فاعتقدتم واستنادا إلى علم غير صحيح، {أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ}! فلو فرضا استترتم بطريقة ما، فلم يشهد كيانكم الجسدي عليكم، فظننتم أنكم ستنجون لأنه تعالى لا يعلم كثيرا مما تعملون، على أساس أنه تعالى لم يكن يراقبكم، ولو لم تشهد الأعضاء لكنتم سترتم سيئاتكم، وهذا غير صحيح لأنه تعالى العليم.

بعبارة أخرى، فهو تعالى يعلم كلّ شيء وليس بحاجة لأعضائكم لتخبره بما فعلتم.

وسنتحدث في الآية التالية عن كلمة "ظنّ".

(وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنْ الْخَاسِرِينَ{23})

{وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ}، فاعتقدتم واستنادا لعلم "غير صحيح" أن المسؤول عنكم من مستوى إلهي لا يعلم كثيرا مما تعملون، وهذا الظنّ، {أَرْدَاكُمْ}، أوقعكم متضررين، فقد وقعتم في العذاب، {فَأَصْبَحْتُمْ}، فأول ما صرتم، فأوّل حالة لكم في الآخرة أنكم، {مِنَ الْخَاسِرِينَ}، من الذين فقدوا أمورا لها أهمية "كبيرة"، فراحت عليكم رحمته ومغفرته والجنّة.

تصوّرها بالعكس، فلو هنا في الدنيا ظنّوا أنه تعالى يعلم كلّ شيء، لشعروا أنهم تحت مراقبته تعالى ولما تجرّؤوا على مخالفة أوامره، ولكنهم ظنّوا أنه تعالى لا يعلم كثيرا من الأمور التي يفعلونها، فخالفوا أوامره، وخسارة رحمته تعالى هي أوّل حالة ستصيبهم من بعد ذلك.

اَلظَّنُّ هو اعتقادك بشيء ما مستندا إلى شيء ما، فإن كان ما تستند عليه صحيحا كان ظنّك صحيحا، وهذه حالة المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم سبحانه كما ورد في الآية 46 من سورة البقرة {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، فهم مستندون في ظنّهم على آياته وكلامه تعالى. وإن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران {... وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ...}، فاستنادا للحالة الحرجة التي كانوا فيها ظنّوا أنه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء. وبين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند عليها ولكنه ليس مقتنعا بها، فلا تزال الأمور عنده مرجّحة لاحتمالات أخرى، فهذا ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}، فهم يريدون أن يلمسوا مباشرة حصول ساعة قيامهم من الموت حتى يعتقدوا بها ولا يكفيهم الاستناد إلى معلومات تدلّ عليها، فيريدون اليقين بها عيانا حتى يؤمنوا. وهذه الحالة قريبة جدا من الاصطلاح "في علم المنطق" والدارج لمعنى كلمة ظنّ على معنى وجود عدة احتمالات. وها صرت تعلم المعنى

اللغوي الأساسي لِكَلِمَةِ "ظنّ" فانتبه للفرق بينه وبين المعنى الاصطلاحي حتى لا تفسّر القرآن على أساس المعنى الاصطلاحي.

وبالنسبة للتعبير بأصبح فالكلمة في أصل اللغة مجعولة لتوصيف الصيرورة لأول حالة بعد حدث، مُشَابِهَةً بذلك الإصباح لأول ما يستقبلك من النهار من بعد الليل. فهي أوّل حالة من بعد حالة سابقة، وخذ مثلا حالة أم النبي موسى(ع) التي أصبح فؤادها فارغا كما ورد في الآية 10 من سورة القصص {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا...}، فالذهول بتوقّف وجمود فكرها ومشاعرها هي أول حالة أصابتها بعد إلقائه (ع) في النهر. وترى هذا المعنى بوضوح في الآية 103 من سورة آل عمران {... وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا...}. فكلمة أصبح ليست مخصّصة لزمن أول طلوع الشمس بل لعامّة أول حالة من بعد حدث ما، وليست مرادفة لكلمة صار.

(فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ{24})
{فَإِنْ يَصْبِرُوا}، يُحَاوِلُوا التحمّل ويحاولوا التصرف كأنهم ليسوا متألمين، {فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ}، فهي مكان إقامة يبقون فيه ولا يملكونه، فهل من يقيم في النار يمكنه أن يصبر ولا يبدو عليه الألم؟ لا، ففرضا استطاعوا الصبر لدقائق أو يوم، مع أن هذا مستحيل، ففي النهاية سَيَنْهَارُونَ.

مَنْ يعتقد أنه بإمكانه الصبر، ويقيس عقاب الآخرة كعقاب السجون في الدنيا، فلينتبه أَنَّ نار الآخرة لا يمكن الصبر عليها لأنها شديدة جدا جدا وبلا نهاية، ولا معنى للصبر على شيء سيّء لن ينتهي، لأن الصبر يتضمّن معنى أن ما تتعرّض له سينتهي أو يصير محمولا عاديا، وهذه ليست حال من في النار، ولذلك تخبرك الآية أن النار مثوى لهم، فهم باقون فيها ولا معنى للصبر لأن ما هم فيه لن يفارقهم، ومعلوم أن شعورهم بالألم أيضا لن يتغيّر ليخفّ...

اسْتَعْمَلَ القرآن كلمة "صبر" ومشتقاتها أكثر من مئة مرة، ولم يستعملها لوصفه تعالى، مع أنه دارج في أدبياتنا وصفه تعالى بالصبور، ودارج في كلامنا القول مثلا بأنه تعالى يصبر على الناس حتى يتوبوا، وهذا تعبير غير سليم لأن معنى كلمة صبر كما يبدو من كلام العرب قديما واستعمال القرآن: أن لا تتصرف بشكل غير مناسب أو سيّء بسبب تعرّضك لشيء غير مريح أو لا تحبّه أو تكرهه، ويكون الصبر على شيء له حلّ أو سيزول. وكما ترى فبهذا المعنى لا تناسب وصفه تعالى بها، بينما الحليم أنسب.

ضع هذا المعنى للصبر في بالك، وبعد قليل سنتحدث عن معنى كلمة مثوى وبعدها سترى دقة استعمال القرآن للكلمات.

{وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا}، يَطْلُبُوا من أحد ما أن يسمع كلامهم ليقبل ندمهم واعتذارهم لمسامحتهم، {فَمَا}، لَيْسُوا، {هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ}، لَيْسُوا من أهل العتاب، فالمعاتبة كلام بين أحبّة أو بين الذين بينهم معزّة ومودّة بدرجة ما... فيذكرون ما فعلوه من سيئات مع الاعتراف بندمهم عليها ليسامحهم الآخر... أمّا أهل النار فلا أحد يعزّهم ولا يودّهم ولا يحبّهم ولا حتى يعتبرهم أصدقاء، ولن يغفر تعالى لهم مهما فعلوا، فهم ليسوا أصلا من أهل العتاب.

مِنَ المرات القليلة التي ذكرها القرآن عن العتاب ومن عموم كلام القرآن عن المؤمنين الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، نفهم أن المؤمنين من الدرجة المنخفضة يعاتبهم تعالى وتتمّ مسامحتهم، أمّا الكفّار فلا.

بِالنِّسْبَةِ لكلمة "ثوى، مثوى" دَرَجَ في أدبياتنا أن نقول: جعل تعالى مثواك الجنّة. ولكن من استعمال القرآن لهذه الكلمة نعلم أن معناها: إقامة شخص في مكان لا يملكه وليس له، كالضيف والسجين والعبد... وهي حالة النبي يوسف(ع) في قصر العزيز كما ورد في الآية 21 من سورة يوسف {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ...}، وكحالة النبي موسى(ع) في مدين كما ورد في الآية 45 من سورة القصص {... وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا...}، وكحالة أهل النار في النار كما ورد مرارا ومنه ما ورد في الآية 12 من سورة محمّد {... وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ}.

أَهْلُ الجنّة يرثون الجنّة فيملكونها وهي لهم... كما ورد مِرَارًا ومنه الآية 11 من سورة المؤمنين {الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، فلغويا لا يصحّ وصف من في الجنّة بأنه ثاو فيها، ولم يرد وصف كهذا أبدا في القرآن،

وأمّا أهل النار فَثَاوُونَ فيها لأنها ليست ملكا لهم، فهم مسجونون فيها مُؤَبَّدًا، فالسجين لا يملك السجن وليس وارثا له بل ثَاوٍ فيه.

الآن لاحظ أن الصبر لا معنى له على سوء لن ينتهي، فهذا لا يسمّى صبرا، فلا معنى للصبر على نار الآخرة للخالدين فيها لأن الألم لا نهاية له، وهم سَيَكُونُونَ ثاويين فيها خالدين.

(وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاء فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ{25})
{وَقَيَّضْنَا لَهُمْ}، أتحنا لهم وهم جاهزون ليكونوا لهم، {قُرَنَاءَ}، أشخاصا يَكُونُونَ معهم بشكل دائم أو شبه دائم، {فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ}، جَعَلُوا الأمور التي أمامهم تبدو جميلة، وَزَيَّنُوا لهم {وَمَا خَلْفَهُمْ}، فَالْأُمُورُ السيّئة التي سبق أن قاموا بها جعلوهم يرونها جميلة حسنة حتى لا يندموا عليها ويتوبوا منها.

هنا في الدنيا من كان بمواصفات أولئك الناس أَتَحْنَا أن يكون لهم مُرَافِقُونَ يزيّنون لهم أعمالهم السيئة، ونعلم من عموم القرآن أن هؤلاء القرناء هم الشياطين من الجنّ والإنس، وتقرأ ذلك صريحا في الآية 36 من سورة الزخرف {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}، وفي الآية 5 و 6 من سورة الناس {الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ، مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}.

{وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ}، تحقق وانطبق عليهم القول الإلهي {إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ}، {فِي أُمَمٍ}، في جماعات من الناس كان بينها شيء مشترك ولها امتداد تاريخي، {قَدْ خَلَتْ}، كانت موجودة وذهبت تاركة مكانها، {مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ}، أن كلّ من بهذه المواصفات، {كَانُوا خَاسِرِينَ}، فَاتَهُمْ شيء له قيمة عالية ولم يحصلوا عليه، وَفَاتَتْهُمُ الرحمة والمغفرة والثواب... فلن يدخلوا الجنّة، وَسَيَتَعَذَّبُونَ في النار.

هم ليسوا أوّل جنّ أو إنس بهذه الحالة، وقبلهم أمم مرّت مثلهم في نفس الحالة، وكل من أعرض عن آياته تعالى أينما كان وفي أي زمان، فهو تحت حالة تزيين أعماله السيئة ليراها حسنة.

في هذه الآية عمق، فأنت كمتديّن مولود في بيئة مسلمة، أو مرّ عليك عمر من التديّن... لَا تشعر بما يشعر به الآخرون، حيث بعض الناس يعتقدون أن كلامك معهم عن دينه تعالى شيء جديد، مثلما سأل فرعون عن القرون الأولى كما ورد في الآية 51 من سورة طه {قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى}، وهنا الآية تشير لنفس الفكرة لتخبرنا أن ما نتعرّض له فهو نفسه ما تعرّض له من سبقنا، ودينه تعالى ليس جديدا، ولا تزيين سوء عملنا لنراه حسنا جَدِيدٌ.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ{26})
{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا الدين الإلهي:

{لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ}، ما تتم قراءته عليكم من كلامه تعالى فلا تدعوه يدخل إلى وعيكم لتقتنعوا به. وتفهم ما يقصدونه عندما تتذكّر ما يقوله القرآن عنهم أنهم صمّ بكم عمي... فآذانهم تسمع كلمات القرآن ولكن لا تدخل الكلمات من وعيهم لها إلى قناعتهم، وهنا يقولون لبعضهم أن لا يجعلوا كلام القرآن يدخل إلى قناعتهم، فإذا سمعوه فليرفضوه فورا.

{وَالْغَوْا فِيهِ}، قُولُوا أي شيء مضاد لكلامه، فلا يهمّ إن كان ما ستقولونه لَاعَقْلَانِيًّا "وكلام فارغ فاضي بلا طعمة"، فإذا قال شيئا عن التوحيد والرسول والشريعة... وعن الصالحات والسيئات... فبدل أن تفكروا إن كان صحيحا ففورا قولوا أي شيء ضدّه يخطر ببالكم.

{لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}، تَكُونُ الغلبة لكم، فيكون كلامكم غَالِبًا على كلامه، فتكون أكثرية الكلام لكم، فيقول القرآن جملة وأنتم تَرُدُّونَ عليها بجمل من اللغو، فمن المتوقّع ومن المفروض إن لم تسمعوه ولغيتم فيه أن تغلبوه فَيَتَبَيَّنَ أنه ضعيف ولا يقتنع به الناس ويكون كلامكم أنتم مَسْمُوعًا.

ننتبه لهذا المعنى جيدا، فكما نرى في عصرنا أناسا مهمّتهم فقط تشويه القرآن، ولا يستحون من الكذب والخداع والتلاعب بالألفاظ وتقطيع الآيات ولصقها بشكل فاسد لتعطي مَعَانِيَ فاسدة... وتجميعهم لروايات من كتب مشهورة فيها ما لا يقبله الجمهور الغالب من عقلاء المسلمين... وهدفهم فقط وفقط أن يغلبوا ما يقوله القرآن، مثل سخافة قولهم عن الآية 28 من سورة فاطر {... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...}، فمن الواضح جدا أن الفتحة على آخر كلمة "الله" تعني أنه واقع في محلّ مفعول به، فليس الله تعالى الفاعل الذي يخشى بل العلماء هم الفاعل وهم يخشونه تعالى، ولكن من يصر على اللغو بالقرآن لا يهمّه أن يفهم الآية، ولا يهمّه الحقّ من الباطل، بل يهمّه اللغو بالقرآن، فيفسّر الآية للناس أن الله تعالى هو الذي يخشى من العلماء! وَهِيَ نَفْسُ العقلية موجودة دائما عند أناس يعارضون الدين الإلهي الحقّ، وهنا يشير القرآن لهذه النوعية من الناس، وفي الآية التالية يخبرنا عن مصيرهم.

لاحظ دائما أن أي شيء تسمعه الآن ضد الدين الإلهي، لَيْسَ جديدا، فهي نفسها العقلية المنحرفة منذ بداية تكليف البشرية، بلا أي اختلاف ولو لشعرة، فنفس الكلام قالوه منذ آلاف السنين عن الكتب الإلهية، وقيل في عهد النبي محمّد(ع) ونسمعه الآن وسيقولونه في المستقبل، فهو نفس الكلام النابع عن نفس العقلية والنفسية المريضة المنحرفة التي لا تفكّر بما تسمعه من كلامه تعالى لترى إن كان حقا صحيحا... وفورا تبدأ بالردّ عليه واللغو فيه!

ونحن أمام آية تتحدّث عن وجهاء الكفّار، عن رؤسائهم وزعمائهم المسموعة كلمتهم، الذين يقولون للآخرين أَنْ يَلْغَوْا في القرآن ولا يسمعوه ليفكروا فيه... وسترى بعد آيتين كلام الذين سمعوا كلمة وجهائهم ورؤسائهم حيث سيطلبون منه تعالى الانتقام منهم.

بقي شيء نستفيده من كلام منسوب للإمام علي في نهج البلاغة حين قسم الناس لفئات ثلاث، من عالم رباني ومتعلّم على سبيل نجاة وهمج رعاع، وها تضعنا الآية أمام صورة عن همج رعاع، ينصحون بعضهم البعض بتجاهل كلام الإله عزّ وجلّ بل وأن يلغوا فيه! فهم وجهاء ورؤساء لهم مناصب وثيابهم مرتبة ومعهم مُرَافِقُونَ وحرس... ولديهم اتصالات وعلاقات دولية... ولديهم شهادات جامعية... ومدراء لمراكز أبحاث... ومؤلفون للكتب... ولكنهم في الحقيقة همج رعاع يتبعهم همج رعاع.

(فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ{27})
{فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا هذا الدين الإلهي والقرآن سنجعلهم يذوقون يتحسّسون بشكل ملموس، {عَذَابًا شَدِيدًا}، ضررا لا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه، {وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ}، ونعطيهم المقابل على عملهم، {أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}، فعملهم السَّيِّئُ الفاسد العاطل سوف يحصلون على الجزاء المقابل المناسب له.

لا تفهمها أنَّ لهم أعمالاً سيّئةً من درجات مختلفة من السوء وأنه تعالى سيعذّبهم على سيئاتهم العظيمة، وبالتالي لَن يخفّ العذاب عنهم وسيكونون دائما بحالة الشعور الأقصى بالألم، فهذا صحيح ولكن ليس ما تقوله الآية، فهي المعاكس لجزاءِ المؤمنين بأحسن ما كانوا يعملون، وأصرحها التعبير الذي ورد في الآية 16 من سورة الأحقاف: {أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ...}، وعلى نفس المعنى ما ورد في الآية 55 من سورة الزمر: {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ...}. هناك الكلام عن الحسن مطلقا بدون المقارنة مع الحسن والأحسن، مثلما نقول: ما أحسن عملك. ولا نقصد أنَّ له أعمالا حسنة وهذه أحسنها. وهنا الكلام عن عموم أعمالهم السَّيِّئَةِ فما أسوأَها، مثلما نقول: ما أسوأ عملك. ولا نقصد أن لك أعمالا سيئة وهذه أسوأُها فليست الإشارة إلى سَيِّئٍ وأشدّ سُوءاً منه، بل وصف لعموم ما عملت فهو سَيِّئٌ فما أسوأَهُ.

لاحظ أيضا أن الذين يلغون في القرآن يقولون إنَّ العذاب الشديد الذي يهدّدنا به القرآن، هو غير منطقي! كفرتُ لسبعين سنة، لماذا سأتعذّب بشكل شديد بلا نهاية! لاحظ كيف تخبرهم الآية عن نفسيتهم أنها مصرّة على محاربة الدين واللَّغْوِ بالقرآن حتى لو كان كلامه منطقيا صحيحا مقنعا... فعقابهم على هذه العقلية والنفسية سيكون شديدا بلا انقطاع ولا انتهاء، ومن الآن يخبركم سبحانه بذلك، فالغوا وقولوا ما شئتم واعترضوا وعلّقوا واسخروا... على شدة ومدّة التعذيب كما شئتم، فهذا لن يغيّر أي شيء، ستتعذَّبون بشكل شديد حتما، أعجبكم أم لم يعجبكم، اعترضتم الآن أو وافقتم، لا أهمية لكلامكم، ولنتابع بعد:

(ذَلِكَ جَزَاء أَعْدَاء اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاء بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ{28})
{ذَلِكَ}، العذاب الشديد، {جَزَاءُ}، المقابل على ما فعله، {أَعْدَاءِ اللَّهِ}، الذين لم يكونوا معه تعالى بل ضدّه، ولم يحبّوه بل كرهوه... فكرهوا الخير لكل ما له علاقة به تعالى فجزاؤهم، {النَّارُ}.

{لَهُمْ فِيهَا}، لهم في النار، {دَارُ}، مكان تدور فتحصل فيه شؤونهم فيمضون وقتهم فيها، {الْخُلْدِ}، حيث لا موت ولا فناء ولا انتهاء، {جَزَاءً}، مقابل يحصلون عليه، {بِمَا}، بالذي، {كَانُوا بِآيَاتِنَا}، بالأمور المميزة المنسوبة له تعالى والتي تدل على الإيمان الحقّ، وعلى رأسها القرآن، كانوا {يَجْحَدُونَ}، حَيْثُ يَرَوْنَهُ صحيحا بشكل واضح ولكنهم ينكرون صحّته.

كما ترى لَا زالت السورة تتحدّث حول محورها، فالإعراض عن آياته تعالى له أسباب متعددة، ومنها ما تراه هنا من قرارهم باللغو فيها مانعين أنفسهم من التفكير فيها إن كانت صحيحة، وأثناء لغوهم بها سيرون أنها صحيحة ولكنهم سيجحدون وَيَسْتَنْكِرُونَهَا ولن يؤمنوا بها بالرغم من علمهم بصحّتها.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ{29})
تنتقل السورة بنا الآن إلى كلام التابعين للذين أمروهم باللغو في القرآن:

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا الدين الإلهي:

{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {أَرِنَا الَّذَيْنِ} "بالمثنى" {أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ}، فاجعل عندنا صورة محدّدة لمن أوحى لنا ووسوس لنا وأقنعنا وَحَبَّبَ لنا اللغو بالقرآن من الجنّ ومن الناس، وَأَتِحْ لنا مجال رؤيتهما حتى، {نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ}، مثلما يقول بعضنا الآن لمن يَكْرَهُونَهُمْ بشدّة إِنَّهُمْ يريدون دوسهم بأرجلهم، فهؤلاء يريدون الانتقام ممن شجعهم على اللغو بالقرآن على أساس أنهم سبّبوا لهم العذاب.

كما ترى هَذَا خبر من الآن ليعلمه كل من يطلب منه الآخرون الإعراض عن الحقّ واللغو فيه، فهو لا عذر له، ولن ينفعه في الآخرة لوم من وسوس له وشجعه على الإعراض عن الحقّ... فكلّهم في العذاب مشتركون.

مِنْ ناحية ثانية تعرض الآية الحالة النفسية المزرية السيئة التي يعيشونها في النار، من مشاعر الحقد والكره والغضب والقهر... في مقابل المؤمنين الذين يعيشون مشاعر الفرح إخوانا على سرر متقابلين...

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ{30})
نتعرّف الآن على الجهة المعاكسة:

{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ}، الذين اعتقدوا أن صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" سبحانه هو ربهم الأحد فلا مسؤول عنهم من مستوى الألوهية سواه، {ثُمَّ اسْتَقَامُوا}، كَانُوا يوصفون أنهم على الأحسن فلم ينحرفوا في فكرهم وعملهم وقولهم عن توحيده تعالى، بتعبير قرآني آخر: إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، {تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ}، والآيات لا تزال تتحدّث عمّا يحصل في يوم القيامة، وهناك تتنزّل الملائكة(ع) تَنْزِلُ دفعة تليها دفعة، ومجمل ما تقوله للمؤمنين: {أَلَّا تَخَافُوا}، لَا تشعروا بخطر لا يمكنكم تجنّبه، فما ترونه من أهوال يوم القيامة والحساب والنار... ليس لكم، فأنتم في الأمان ولا داعي لشعوركم بأي خطر، {وَلَا تَحْزَنُوا}، لَا تشعروا بأي مشاعر سيئة توصلكم إلى البكاء أو الكآبة... مهما كان نوعها.

{وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ}، تَوَقَّعُوا دخولكم إلى مكان موصوف بروعة ما فيه من حدائق وبساتين وبهجة وسعادة... وهي الجنة، {الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ}، قِيلَ لكم في الدنيا عنها إِنَّهَا لكم وها سَتَكُونُونَ فيها.

هناك بعض الروايات التي تتحدّث عن ندم المؤمنين وحزنهم على تقصيرهم في اكتساب المزيد من الحسنات في الدنيا، وَيَتَمَنَّوْنَ لو أنهم لم يشتغلوا في الدنيا بأي شيء سوى العبادة، وهذا غير صحيح بالنسبة للمؤمنين الصالحين، ولا نجده

في القرآن ولا حتى بالتلميح، بل نجد فقط وفقط أن من كان بصفة: آمن وعمل الصالحات، سيكون من أول لحظة في يوم القيامة مرتاحا مسرورا لا يحزن ولا يندم ولا يشعر ولا بأي شكل من الأشكال بأي نوع من الانزعاج. نعم الكافرون يشعرون بالخوف والحزن، والذين تركوا بعض الواجبات وارتكبوا ذنوبا كثيرة، وهم الذين نسميهم بضعفاء الإيمان "كحالتنا" فسيخافون ويندمون ويحزنون إلى حين انتهاء حسابهم، أمّا حين يدخل هؤلاء إلى الجنّة فهناك لن يشعروا بأنهم أقل درجة من الآخرين.

لو أطلت عليك، هناك روايات ألّفوها لتشجيع الناس على الأعمال الصالحة، وأشهرها بالنسبة لي روايات ثواب قراءة سور القرآن، وكما ترى نِيَّتُهُمْ تبدو جيدة، وَجَاءُوا بأحاديث عن فضائل سور القرآن يقولون فيها إنَّهُ لمن قرأ السورة كذا أجر كذا وكذا... ومن حفظها غيبا جاءته "السورة" يوم القيامة لتبشره بما حصل عليه من الأجر بسببها... إلى هنا يمكن بلع هذه الأحاديث مع العلم بأن أكثريتها الساحقة ألّفها الناس ونسبوها للنبي (ع)، الآن ننتقل إلى قولهم إنَّ المؤمن في الجنّة يرى مؤمنا آخر أعلى منه، لأن ذلك المؤمن قَرَأَ سورة كذا كلّ يوم، أو لأنه حفظ غيبا سورة كذا... وَيَنْدَمُ المؤمن ويشعر بالحسرة والحزن... فهم أرادوا بهذا الكلام تشجيع الناس على حفظ وتلاوة القرآن، ولكنهم سيتحاسبون على كذبهم على الرسول(ع) وعلى مخالفتهم لما يقوله القرآن، فأي رواية تجد فيها مؤمنا في الجنّة نادما متحسرا ويرى الآخرين أفضل منه، فهي كذب ومخالفة للقرآن الذي يؤكّد أن كل واحد في الجنة يرى نفسه الأشدّ سعادة مثله مثل الآخرين، ولا يرى غيره أسعد منه، ولا يفهم فرق الدرجة التي بينه وبين الآخرين لأنه يشعر بالسعادة الفائقة.

تَجِدُ في بعض التفاسير أن كلام الملائكة المذكور هنا في الآية يحدث مع المؤمنين هنا في الدنيا، ولكن وكما ترى سِيَاقُ الآيات هنا مدعوما مع ما تجده منتشرا في مختلف السور، فهو يشير إلى كلام الملائكة(ع) مع المؤمنين في الآخرة، وخذ مثلا ما ورد في الآية 103 من سورة الأنبياء {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ}.

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ{31})
نكمل مع كلام الملائكة(ع) مع المؤمنين في يوم القيامة:

{نَحْنُ}، الملائكة، {أَوْلِيَاؤُكُمْ}، أَنْتُمْ تابعون لنا ونحن نهتم بشؤونكم، {فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، التي كنتم فيها كُنَّا متابعين لأموركم، {وَفِي الْآخِرَةِ}، هنا أيضا نحن متابعون لشؤونكم وَلَمْ يتغيّر أي شيء، قَبْلَ الآن في الدنيا واليتمونا وَاعْتَبَرْتُمْ أنفسكم تابعين لنا بما نفعله ونقوله من أوامره تعالى، وكنّا بأمره تعالى نعمل على هدايتكم وإنارة قلوبكم وتيسير أموركم لما فيه مصلحتكم الإيمانية، طبعا بأمره تعالى، وفي هذا الكلام مقارنة مع قرين السوء الذي كان مرافقا للكافرين في الدنيا كما ورد قبل قليل في الآية 25. وها نحن في الآخرة أولياؤكم فنطلب لكم المغفرة ونشفع لكم ونعمل على إسعادكم...

{وَلَكُمْ فِيهَا}، لكم في الجنّة التي ستدخلونها، {مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ}، أَيُّ شيء ترغبونه مع حبّكم له فستحصلون عليه، من أي شيء كان، {وَلَكُمْ فِيهَا}، في الجنّة، {مَا تَدَّعُونَ}، مَا تشهرون وتعلنون عنه، مَا تطلبونه ستحصلون عليه.

لاحظ أن ما تشتهيه عادة يكون من أمور أمامك وتعرفها ولها صورة في بالك، وما تدّعيه يعطي معنى اختراعك لشيء من خيالك أو إضافة لمستك الخاصة، ذوقك الخاص على ما تطلبه، حَيْثُ تَطْلُبُ نكهة جديدة للطعام أو الشراب، أو تطلب لونا آخر أو زخارف تَتَخَيَّلُهَا لحيطان قصورك، أو تعيد تزيين حدائقك...

قِيلَ إنَّ الملائكة(ع) هنا في الدنيا تقول هذا الكلام للمؤمنين ولكن هذا لا يتناسب مع سياق الآيات كما ترى، فمن الواضح جدا أن الآيات تتحدّث عن مشهد من الآخرة.

(نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ{32})
الجنّة حيث لكم ما تشتهون وما تدّعون هي: {نُزُلًا}، مكان نزلتم فيه بعد رحلتكم في الحياة الدنيا وبعد رحلتكم في يوم القيامة وما بعده، {مِنْ غَفُورٍ}، ممن يتجاوز عن السيئات بكثرة، ولولا ذلك لما دخلتم إلى الجنّة، {رَحِيمٍ}، فلديه عناية

خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، ولولا ذلك لما اعتنى بكم بشكل خاص، حيث غفر لكم وضاعف ثوابكم وأخفى سيئاتكم... وأدخلكم إلى الجنّة.

نتذكّر دائما أن المغفرة الإلهية عن الذنب يُحْرَمُ منها الكفّار، فهم لا ينالون المغفرة ولو لشعرة، ونتذكّر أن صفة الرَّحْمَنِ عامّة لكل المخلوقات، فمن رحمته تعالى خلقهم ورزقهم وأرسل لهم الرسل... وهم بكفرهم وفعلهم للسيئات يخرجون من تحت مظلة الرحمة الإلهية، وتصير صفة الرحيم خاصة للعناية الإلهية بالمؤمنين، وعمليا تطبيقيا هُنَا في الدنيا هي النور في قلوبهم ونصرتهم... وفي الآخرة هي المغفرة ومضاعفة الحسنات... ودخول الجنّة، وهذه أمور لا ينالها إلا المؤمنون ولذلك خصّص القرآن وصفه تعالى بالرحيم لهم.

تذكّر دائما أنه هو تعالى وعد من يطيعه بالجنة، فهي بالأساس ليست حقا أو فرضا واجبا لأحد عليه تعالى، فكوني مؤمنا عاملا للصالحات فهذا لا يجعلني أستحق كفرض واجب عليه تعالى أن يجعلني في الجنّة، لا، والقرآن مشحون بالآيات التي تنبّهنا من هذا الفهم غير الصحيح، عِنْدَمَا نؤمن فنحن نؤمن بالمعلومات الصحيحة التي عليها آيات وأدلة وبراهين، وحين نلتزم بدينه تعالى فنحن نلتزم بالصلاح، بِنِعْمَةٍ منه تعالى وبفضل وإحسان... وكأجر هو تعالى قرّره... يدخل المؤمنون العاملون للصالحات إلى الجنّة.

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ{33})
بعكس الذي يلغو في القرآن ويأمر باللغو فيه، الجاحد، هَذَا السَّيِّئُ الذي مصيره العذاب يُوجَدُ في مقابله:

{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ}، فأعلن وأشهر مرغّبا ومحبّبا الناس بتوحيده تعالى وطاعته، وهذا بناء على إيمانه الناتج عن الآيات الإلهية الدالة عليه سبحانه، {وَعَمِلَ صَالِحًا}، فقام بالأعمال الصَّالِحَةِ الحسنة الجيدة، لِأَنَّهُ سبحانه جعل فينا قدرة تمييز الخير من الشرّ وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، عَمَلِيّاً المؤمن ترك ما يحرّمه تعالى وقام بما يوجبه تعالى، {وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}، من المنقادين المطيعين، فأنا مستسلم منقاد لأوامره تعالى.

هَلْ يوجد أحسن من هذا الشخص؟ بالطبع لا، لأنه آمن الحقّ الصحيح فلم يخترع إلها من هواه وخياله واتّبع الحق الذي سمعه ورآه من آياته تعالى، وعمل ما يعلم أنه صالح وترك ما يعلم أنه فاسد، فتماشى قلبه السليم مع العقيدة والشريعة الإلهية، هَلْ هناك من هو أفضل من هذه النوعية؟ لا.

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ{34})
{وَلَا تَسْتَوِي}، فليسا في نفس القيمة والاعتبار، "لا تتساوى"، {الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ}، مَا يراه العاقل الرصين أنه حسن جيّد، لا يتساوى مع الأمور السيّئة فهذا واضح جدا لنا، والتوحيد والعمل الصالح وَالْإِسْلَامُ لله تعالى هو تصرّف حسن، واللغو والجحود تصرّف سَيِّئٌ ومن البديهي أنهما ليسا بنفس القيمة، وانطلاقا من هذا: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، رُدَّ وَصُدَّ كلام اللاغين الجاحدين بالكلام الحسن، فلا تنزل لمستواهم وتتكلّم بِلَغْوٍ وجحد وكذب وتتلاعب عَلَى الكلام، أو بغضب وكره وحقد... لا بل بالأحسن ردّ كلامهم وتصرفاتهم.

{فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ}، لأنه يريد إنهاء ما أنت عليه من الإيمان وأنت تريد إنهاء ما هو عليه من الكفر، فعامله، {كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}، مثلما تَتَعَامَلُ مَعَ من يوالونك وتواليهم، الذين تعتبر نفسك تابعا لهم وهم تابعون لك بشكل حميم بعلاقة مودّة قوية جدا.

بِطَرِيقَةِ تحدّثك بالاحترام وطول البال والصدق... مع أعزّ من يوافقك في دينك، فهكذا تكلم مع اللاغي، ادْفَعْ كلام اللاغي الجاحد فلا تتكلّم معه انطلاقا من عداوته لك بل كلّمه كأنك تتحدّث مع أعزّ أحبابك، باللطف والمسايرة وتحمّل كلامه المخالف لما تؤمن به...

ننتبه جيّدا، فالتعامل مع اللاغي والجاحد بأحسن طريقة، فهذا لا يعني أبدا أنه لا فرق بين فكره وسلوكه وفكر وسلوك المؤمنين، بَعْضُ الناس يتصوّرون أن هذا النوع من الخلاف هو شكلي ولا عمق فيه، لَيْسَ مهمّا ولا جذريا، وَأَنَّ هَذَا النقاش حول الدين هو مجرد نقاش فكري لوجهتي نظر مختلفتين، فتسمع من لا يلتزم بالدين الإلهي يتحدّث على أساس أنه مثقّف ومتعلّم ولديه خزّان من المعلومات ويجادل في الدين الإلهي على أساس أنه مثقّف وهذا هو مستواه، فلديه

قابلية النقاش في كلّ أنواع الأفكار، سواء بدينك أو بدين غيرك، بسياستك أو سياسة غيرك، اقتصادك واقتصاد غيرك... فهو مثقّف ويمكنه البحث والنقاش في كلّ شيء... ومستواه الفكري لا يسمح له أن يكون تابعا لفكر ديني محدّد، فهذا النوع من الناس ومعه اللَّاغُونَ الْجَاحِدُونَ فهم في نفس الكفّة، فهم في كفّة السوء، وإذا جادلهم المؤمن بالتي هي أحسن، فهذا لا يعني أبدا أن عقيدته وسلوكه متساوية مع عقيدة "المثقّف" أو اللاغي، لا، لا تستويان.

كَمَا ترى فمن تحبّه كثيرا ستعمل على انتهاء الكلام بينك وبينه بدون مشكلة، حتى لو كان يخالفك في الرأي، وأمّا من تكرهه فستبدأ كلامك معه بنبرة الغضب والتعليق على الصغيرة والكبيرة... واحتمال نشوب عراك بينك وبينه وارد في كل لحظة بسبب احتدام النقاش... من هنا يأمرنا تعالى أن ندفع فنردّ على كلام الكافرين بدينه تعالى كأنهم حميمون لنا، وبكل لطافة وسعة صدر ومحبّة، فالإيمان به تعالى ليس قضية شخصية لك لتحارب عليها وكأنها تخصّك، وكأنها دينك الذي أنت أمرت الناس به وهم يُخَالِفُونَكَ أنت... لا، مَا يخصّك هو إيمانك أنت ولن يضرّك ولن ينفعك في الآخرة إيمان أو كفر الآخرين، مَا الفرق بينك كمؤمن وبين الآخرين إن كنت عنيفا لا تستوعب كلام الآخرين؟ وما الفرق إن كنت تستعمل طرقا ملتوية كاذبة لتقنعهم بدينك؟ الدَّفْعُ بالتي هي أحسن شَامِلٌ لكل ما هو موصوف بأنه حسن، فلا الكذب مسموح ولا المبالغة، ولا مسموح اختراع شيء لم يقله الدين لتقنع الآخرين...

لاحظ الآية السابقة والحالية تعرضان بصراحة ووضوح مفهوما قرآنيا يختصر فلسفة القانون والأخلاق، الْبَحْثُ في هذا المجال فيه مشكلة، لأن الباحثين فيه لم يضعوا في أوّل حسبانهم مسألة القلب السليم "أساس الفكر والنفسية السليمة"، فمن لم يكن كذلك فكيف سيبحث في موضوع تمييز الخير من الشرّ إن لم تكن قابليته للتمييز بينهما سليمة ولم يكن لاغيا جاحدا؟

فِي فلسفة القانون والأخلاق يبحثون عن السبب الدافع حتى يلتزم الناس بمعايير الصلاح الكفيلة بإنشاء المدينة الفاضلة، حيث يعيش المجتمع بهناء ورخاء، ويبحثون عن معايير لتحديد الخير من الشرّ، ويقعون دائما في مشكلة مطّاطية الأمور حيث يمكن لنفس المسألة أن تبدو خيرا ومن نظرة أخرى تبدو شرّا...

القرآن يقوّم لنا ذلك بانيا كل كلامه معنا على ما جعله تعالى فينا من قابلية لتمييز الخير من الشرّ والحقّ من الباطل، وإلا فما معنى محاسبته تعالى لنا على فعلنا للسوء بالعقاب إن كنّا لا نميّز السوء ونظنّه خيرا؟!

القرآن يؤكد لنا أنه تعالى خلقنا كلّنا بقلب سليم يميّز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية الرابعة من سورة التين {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}، ونحن في مسيرة حياتنا نشوّه ذلك باختيارنا لفعل السوء ورفض الحقّ، وصولا إلى الجحود بإنكار ما هو واضح أنه حقّ، واللغو فيه لنجعله يبدو باطلا! وتقرأ ذلك في تكملة سورة التين {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...}، وهذا ما تراه واضحا أو مُسْتَتِرًا في طيات كلام الباحثين في فلسفة القانون والأخلاق، فهؤلاء يحاولون تبرير الأفعال السيئة التي يحبّونها، فحتى لو كانوا من المنتمين لدينه تعالى، فطالما قلبهم ليس سليما بالتمام فسيفلت منهم شيء سيّء حتما ليصفوه بالخير ويحلّلوه...

الْمَطَّاطِيَّةُ والاختلاف في المسائل الفكرية والتشريعية والسلوكية، ما هو إلا نتيجة فساد القلوب، فحتى نقص المعطيات عند أحد ما فهي ليست عائقا أمام التعرّف على أساسيات الحقّ والباطل والخير والشرّ، فمسألة {فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ...} الواردة في الآية 79 من سورة الأنبياء، حيث حكم (ع) بما يناسب طرفي النزاع أكثر مما حكم به والده النبي داوود(ع)، يتبعها تكملة الآية {... وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا...}، دَاوُودُ لم يكن جاهلا عبثيا... والمسألة ليست مطّاطة ولكنها تتحمّل حلولا متعددة، وواحد من الحلول أنسب لأطراف النزاع أكثر من الحلول الأخرى...

هَذَا يأخذك إلى الاستغراب من الحديّة الصلبة والعنيفة التي تسمعها من بعض مصدري الفتاوى الدينية والرافضين النقاش فيها وكأن كلامهم بقوّة كلامه تعالى، بل أقوى، لأنه سبحانه في الْقُرْآنِ شرّع وبرّر، بينما هم يشرّعون ولا يبرّرون لما يُشَرِّعُونَهُ بل يعطونه المصداقية بإسناده لآية قرآنية فسّروها على مزاجهم، أو لحديث فسّروه على مزاجهم أو اخترعه أحد ما كان موافقا لهم في الهوى السيّء...

(وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ{35})

هذا التصرف بالتي هي أحسن أمام اللاغين الجاحدين أمر صعب، {وَمَا يُلَقَّاهَا}، لا يَحْمِلُهَا وَيَصْدُرُ منه، {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا}، فقط الذين لم تفلت أعصابهم وبقوا يتصرفون بشكل وَاعٍ ومدروس في الأزمات، هَؤُلَاءِ يقدرون على الدفع بالتي هي أحسن، {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}، والحظّ هو الحصّة التي سنحصل عليها ولا نعلم قيمتها إن كانت صفرا أو عاديّة أو كبيرة، مَا هو حظّك من طاعته تعالى، من الإيمان به وَالْإِسْلَامِ له؟ فإن كان حظّك عظيما، وَحِصَّتُكَ التي معك من الإيمان كبيرة، فأنت ستقدر على الدفع بالتي هي أحسن.

الآية السابقة وآياتنا هنا وأمثالها من القرآن بالحديث عن السلوكيات التي يصطلح الناس عليها بالأخلاقيات، دِرَاسَتُهَا للتعمّق فيها تحتاج لمن يتحلّى بها حتى يشرحها لنا، عَلَى المستوى النظري يمكنني التوسّع في دراستها، وَلَا تنتبه للأخطاء فيما أقوله لأنك مثلي لست من المستوى السلوكي العالي الذي تتحدّث عنه الآية، ولكن حتما سيصدر عنّي كلام غير صحيح أثناء دراستها، ولذلك قليلا ما ترى في هذه الدراسة تعمّقا في النصائح السلوكية "الأخلاقية" لأني لست من أهلها، ولست أتواضع حين أقول لك هذا، ولا قصدي إهانة نفسي، بل لتنتبه عندما تسمع أو تقرأ أنك على المستوى النظري تَصِيرُ من أرفع الناس بالمعلومات عن الأخلاق والعمل الصالح، ولكن على مستوى التطبيق سيحاسبنا ويجازينا سبحانه وليس على كمية ونوعية المعلومات التي بحوزتنا.

الْإِكْثَارُ من متابعة المحاضرات وقراءة الكتب من دون تطبيق لما تراه صلاحا، فِي كثير من الأحيان له نتائج سلبية جدا وخطيرة، يَصِلُ ببعضنا لدرجة كثرة القراءة في المصادر والتفكير لإيجاد تبرير يحلّل لنا سوءا نحبّه! ويكون تبريره علميا مبنيا على آية قرآنية أو حديث نبوي أو فتوى من كتاب ما! وهذا بتحليلي سيكون النتيجة الحتمية لكثرة التعلّم وإهمال التطبيق لأبسط الأمور الواضحة والمعلومة أنها صالحة.

سَيَكُونُ لهذا ارتداد على الفكر ليفسده، نَسْتَعْمِلُ المعلومات الكثيرة التي معنا لنصير متخصصين في فلسفة تحليل السوء الذي نرغبه، وتحريم الصالح الذي يجب علينا الالتزام به ولكننا نكرهه. وهذه هي الخلفية القلبية "الفكرية والنفسية" الناتج عنها اختلاف وتحريف في تفسير كلامه تعالى، وفي الفتاوى الفاسدة، وفي البغضة والتنافر بين المسلمين.

كُلُّ فرق المسلمين لديهم مُوَقَّرُونَ أخلاقيا وعلميا في نظرهم، بالله عليك، أين الوقار في غالبية هؤلاء والنتيجة تشرذم وتفرّق وتناحر وكره واقتتال... فيما بينهم!

(وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{36})
{وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ}، يُصِيبُكَ الذي يقوم بأعمال الضلال بشيء فاسد بشكل طفيف، وَتَخْطُرُ ببالك فكرة فاسدة من وسوسة الشيطان، عندها، {فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ}، اطْلُبِ الحماية منه سبحانه القادر على حمايتك من النزغ، {إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ}، يَسْمَعُ كلّ شيء، وَيَسْمَعُ النزغة وسيسمعك حين تعوذ به تعالى، {وَهُوَ الْعَلِيمُ}، يَعْلَمُ كلّ شيء حَيْثُ يعلم أنك تعرّضت للنزغ وبحاجة للحماية ويعلم سبحانه كيف يحميك.

لاحظ عمومية الآية عن أي نزغ شيطاني يصيبنا، أَيُّ فكرة سيّئة تخطر ببالنا فمباشرة يجب أن نعوذ بالله تعالى منها، ولكن سياق الآيات هنا يتحدّث عن خصوص الدفع بالتي هي أحسن، تُنَبِّهُ النبي(ع) والمؤمنين أن لا تفلت أعصابهم عند محاورتهم لِلَّاغِينَ والجاحدين، وتنبّهنا عن أي غضب أو سخرية أو تلاعب بالكلام... أثناء التعامل مع الآخر فهذا نزغ من الشيطان.

ادْرُسْ ما تقوله الآيات هنا عن أدب المؤمن في حواره، طَالَمَا المؤمن على حقّ، ومصيره الجنّة، فلا داعي لأي غضب أو عصبية، وَلِيَقُلِ اللاغي والجاحد ما يُرِيدَانِ، ولا تنزل كمؤمن إلى مستواهم.

نلاحظ القرآن استعمل صفة الشيطان ليصف بها كلّ من يقوم بعمل مضاد لعمل الأنبياء، النبي يعرض عليك الهداية، ومن يعرض عليك الفساد موصوف بأنه شيطان، ومن عموم القرآن نراه أطلق وصف الشيطان على عموم خبثاء الجنّ والإنس، وليس حصرا على إبليس، ولكن دائما اعتبر القرآن إبليس رأس الشياطين، زعيمهم، رئيسهم، وكل نزغ من أي شيطان كان، فَلِإِبْلِيسَ بذرة علاقة به.

تذكّر دائما أن لبّ السورة حول المعرضين عن الآيات، اللاغين الجاحدين بالآيات القرآنية والتي حولنا وفي أنفسنا، والآن ننتقل إلى آيات من حولنا:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ {37})

{وَمِنْ آيَاتِهِ}، من الأمور الْمُمَيِّزَةِ المنسوبة له تعالى، كعلامات ودلائل على وحدانيته وربوبيته تعالى:

{اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ}، فَتْرَتَا العتمة والنور من اليوم، هُمَا يتكرران باستمرار، تَصَوَّرْ نفسك مَسْؤُولًا عن مشروع إنارة الطرقات، تُؤَمِّنُ الطاقة، وَالْإِمْدَادَاتِ، والمعدّات... وتتابع صيانتها، وتوقيت إضاءتها... ويحصل أحيانا فشل في الكهرباء، وفي الْإِمْدَادَاتِ وفي الصيانة وفي المعدات... ويخرب المشروع... الآن فكّر في فترتي الضوء والظلام، بضخامة انتشارهما على الأرض، بأصل تصميم الضوء والعتمة، وتصميمك أنت ككائن يرى الضوء... ويتفاعل معه بالنشاط نهارا والنوم ليلا... فكّر بتكرار هذا الحدث يوميا وبلا انقطاع وباستمرار، وبنجاح... هَلْ هذا يحصل لوحده بلا إله مخطّط مصمّم متابع مدبّر قدير قوي عالم بصير...!

{وَمِنْ آيَاتِهِ}، {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ}، بِعَيْنِكَ فقط ومن الرؤية العادية من دون أي دراسات فلكية وفيزيائية وبيئية وكونية وجيولوجيا فضائية... من دون أي شيء، فقط من رؤيتك لهما، ألا ترى عظمة من صمّمهما وخلقهما وأدار وتابع بقاءهما ونورهما وَدَوَرَانَهُمَا!

كَمَا ترى القرآن كثيرا ما كرّر كلامه عن الليل والنهار والشمس والقمر كآيات إلهية، لِأَنَّهَا نموذج سهل وواضح جدا، ولا يحتاج لأي تعمّق حَيْثُ بسهولة ترى مِنْهَا قدرة فائقة صمّمت وخلقت.

تذكّر دائما أن القرآن عادة يوجّه كلامه للمشركين بالله تعالى، هُمْ مؤمنون بالإله تعالى ولكن جعلوا له شركاء، وَلَمْ يوحّدوه، وأمّا من يقول بأنه لا يؤمن بأي إله، والذي نسمّيه بالملحد أو العلماني، فهذا "عادة" لا يوجّه القرآن له الكلام بشكل مباشر، بل من فحوى الحديث مع المشركين ردّ القرآن عليه، ويناسبهم أكثر سورة الرعد والجاثية والواقعة.

الشِّرْكُ وهم واختراع من خيال المشركين وَلَا أساس لألوهية آلهتهم، ويكفي لفت انتباههم للآيات من الحجم الكبير والتي تشير بوضوح لوجود إله واحد مصمّم ومسيطر على كلّ شيء، لَا معنى لوجود آلهة أخرى، وبنفس المعنى هَذِهِ الآيات تشير حتما لِوُجُودِ إله، كما ترى هنا من الكلام عن لفت الانتباه لليل والنهار والشمس والقمر، السُّؤَالُ عمّن فعل ذلك يتخطّى افتراض أنها حصلت لوحدها أو بالصدفة أو... هَذَا كلام لا عقلاني ولا منطق فيه.

نرجع للآية، {لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ}، لَا تعبّروا عن خضوعكم لهما على أساس أَنَّهُمَا آلهة، هَذِهِ سخافة واضحة جدا.

{وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ}، عَبِّرُوا عن فائق احترامكم وخضوعكم لصاحب الاسم المحدّد المميّز الله سبحانه الذي ركّبهن وألّفهن من المواد، هُمَا وكما يبدو واضحا مخلوقان مركّبان مؤلّفان من المواد، مَا معنى سجودكم لهما على أساس أنهما آلهة! بل عبّروا عن احترامكم وخضوعكم لمن خلقهما، {إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}، إن كنتم تعتبرون أنفسكم مَفْرُوضًا منكم طاعته تعالى.

إِنْ كنتم ترون أن هذه الظواهر لا بد أن يكون وراءها إله، وأنتم تقصدون التعبير لهذا الإله عن احترامكم وخضوعكم له بالسجود على أساس أنكم عبيده "مفروض منكم طاعته"، فاتركوا السجود للمخلوقات واسجدوا لله تعالى.

من الآية التالية سنفهم أن هؤلاء المشركين يعتبرون أنفسهم مؤمنين متدينين على الصراط المستقيم، حَيْثُ أعطوا الإله حقّه حين آمنوا به إلها خالقا لهم ولبيئتهم وللظواهر من حولهم، وهم يعبّرون بالسجود بالخضوع بالعبودية له، إلى هنا وقبل السجود للشمس والقمر، نحن المسلمون والمشركون مشتركون في هذا الكلام، كِلَانَا نعتبر أنفسنا عبيدا ونسجد لإله، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فِي الحقيقة وفي الواقع، يوجد إله واحد، اسمه الله سبحانه، فإن كان المشركون يعتبرون أنفسهم عبيدا "لله" فلا معنى لِسُجُودِهِمْ للشمس والقمر، فهو الله خلقهما، وهما ليسا آلهة، مَا معنى سجودكم لهما إن كنتم تعبدون الإله الخالق! {إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}!

تذكّر دائما أن الناس سجدوا لصنم من الحجر ومن الخشب والمعدن! وللنار! ولكوكبي الزهرة والمريخ...! ولأشياء أخرى... واختصرت الآية هنا كلّ هذه السخافات، وأشارت لنموذج السجود للشمس والقمر، لأن السورة كلامها عمومي مع عموم من أعرض عن الآيات وَلَغَا بها وجحدها، ونجد في سور أخرى كلاما تفصيليا موجّها للمعتقدات الشركية بأنواعها المختلفة.

السُّجُودُ هو عموم أي تعبير يمتد من أقصى الاحترام إِلَى أقصى الخضوع. سُجُودُ الملائكة(ع) لآدم(ع) هو أَقْصَى تعبير الاحترام، والسجود له تعالى أَقْصَى تعبير الاحترام والخضوع. وهكذا ترى أننا نحن البشر نعبّر بجسدنا عن الاحترام والخضوع "عن السجود" بتقريب وجهنا أو ملامسته بالأرض، والملائكة بما يناسب تكوينها تسجد، وبقية الكائنات أيضا بِمَا يناسب تكوينها تسجد، فلا تفهم من كل وصف سجود لكل كائن أو ظاهرة أنه تقريب لوجهها باتجاه الأرض، لا، هَذِهِ حالتنا نحن البشر بما يناسب تكويننا، ولبقية الكائنات والظواهر ما يناسب وصفها بأنها تَحْتَرِمُ أو تخضع.

من المشهور المنتشر بين عامّة المسلمين وجوب السجود عند قراءة بعض آيات القرآن، وآيتنا هنا قالوا بوجوب السجود على الأرض بعد قراءتها، ويبدو لي أن السجود سلوك استحبابي عند قراءة آية تأمر بالسجود، وترى اختلافا بين المسلمين في تحديد عدد الآيات التي يجب السجود فيها، وهي تتراوح عندهم بين أربع آيات إلى أَرْبَعَ عَشْرَةَ آية مُوَزَّعَةً على سور مختلفة.

(فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ{38})
{فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا}، إذا رأوا أنفسهم أكبر من السجود لله تعالى وحده كما يأمرهم، {فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ}، هناك كائنات عند المسؤول عنك من مستوى إلهي يعلنون أنه منزّه عن الصفات الناقصة والسيّئة، {بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}، دائماً بلا انقطاع يسبّحون صباحا ومساء، {وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ}، لا يشعرون بالتثاقل والرغبة بالتوقف، وترى معنى الكلمة أوضح في استعمال الآية 282 من سورة البقرة {وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ}، فالكلام ليس عن الملل والضجر بل عن التثاقل وانتفاء الرغبة في فعل شيء ما، ومن عموم القرآن نعلم أن الملائكة (ع) يقضون كلّ وقتهم في تسبيحه تعالى بلا انقطاع ولا يسأمون من ذلك.

القرآن دائما اعتبر الملائكة (ع) كائنات لها قيمة عالية بالمقارنة مع بقيّة المخلوقات، لأن تكوينهم أرقى من تكوين بقية المخلوقات مما يجعل قدراتهم أعلى من قدرات بقية المخلوقات، فإن قارنت "الملائكة" بقدراتها العالية مع "الناس" المشركين الذين استكبروا عن عبادة الله تعالى، فسترى حشرةً تافهةً تستكبر، ومخلوقاً بقدرات عالية متواضعاً مستسلماً له تعالى.

نتذكّر أيضاً أن الصورة التي يعرضها القرآن عن الملائكة (ع) مختلفة بعض الشيء عمّا هو منتشر بين الناس، حيث إن غالبية الناس تنظر للملائكة (ع) على أنها مخلوقات لا تعصي الله تعالى لأنها مجبورة على الطاعة، مثل الآلات المبرمجة على الطاعة، ولكن هذا يخالف ما يقوله القرآن عنهم، فالقرآن مدحهم لأنهم مطيعون دائما وبأحسن ما يمكنهم، ولم يقل إنهم كالآلات! ولم يقل إنهم مجبورون! فما معنى مدح القرآن لهم بأنهم يسبحون ويعبدون ويطيعون... إن كانوا آلات مبرمجة على ذلك! بل بالعكس، هم مخلوقات مدحها سبحانه لأنهم يستحقّون المدح، إذ لديهم القدرة على الشرك والمعصية ولكنه، ومن علمه سبحانه بالغيب، يعلم أنهم لم ولن يختاروا هذا.

إن كنت تعتقد بشكل ما أن الملائكة (ع) تراه تعالى، أو تتكلّم معه سبحانه مباشرة، ولذلك هي مؤمنة به تعالى ولهذه الأسباب لا تعصيه، فأنت مخطئ، لأن الملائكة (ع) لا تراه تعالى، ولا تسمعه، بل يتعامل معها تعالى من وراء حجاب مثلما يتعامل مع كل الكائنات، إذ لا أحد من المخلوقات لديه القدرة على التعامل معه تعالى بشكل مباشر بسبب الفرق الكبير الهائل بينه سبحانه وتعالى وبين كلّ بقية المخلوقات.

أكرر لك لتضع في بالك أن حالة الملائكة (ع) بالتعرّف عليه سبحانه ليست أفضل من حالنا، إذ إنهم لا يرونه تعالى ولا يرون نوره ولا يسمعون كلاما مباشرا منه ولا... ولا... لأن هذا مستحيل لا يمكن أن يحدث بسبب الفرق الهائل جدا جدا بين طبيعته تعالى وبين طبيعة كلّ مخلوقاته. ونحن عبر الآيات نتعرّف عليه تعالى، والملائكة نفس الشيء، ونحن عبر التواصل غير المباشر معه تعالى نتعرّف عليه مما يقوله وحيا لواحد منّا، والملائكة نفس الشيء إذ سبحانه يوحي لها

كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا}، والوحي الإلهي على أحد ما لن يجعله مؤمنا، فلو نزل الوحي على أبي جهل لجنّ جنونه مما يصله إلى وعيه...

بقي أن تقارن بين الاستكبار والتسبيح، فالتسبيح هو تنزيهه تعالى عن صفات النقص، كأن يكون له جسم أو متمثلاً بكوكب أو إنسان... أو حالاً في النار أو الجبل... أو ينسى وينام... فمن بهذه الصفات لن يكون إلها، وتنزيهه تعالى عن الصفات المعيبة كأن يعبث ويلهو... ويكون هنا ويذهب لهناك... ولا يدري بما يجري بعدما يذهب... وكما ترى فالصفات المعيبة هي نفسها صفات ناقصة وصفات النقص تصير معيبة، يعني: الإله له صفات خاصّة به، وأي نقص في تلك الصفات يعني أنه ليس إلها، ولو واحدة فقط من صفاته ناقصة أو سيئة فهو ليس إلها، وهذا ما يريدنا القرآن أن نفهمه، والملائكة (ع) رغم قدراتها العالية جدا جدا بالمقارنة معنا، ومن معرفتها به تعالى "بقلب سليم"... تسبّحه تعالى دائما بلا انقطاع، فعلامَ تستكبرون أيها المشركون عن عبادته تعالى وحده وأنتم قدراتكم لا شيء أمام قدرات الملائكة!

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {39})

{وَمِنْ آيَاتِهِ}، من الأمور المميزة المنسوبة له تعالى، {أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ}، فتصير عندك صورة محدّدة للأرض التي تعيش عليها، {خَاشِعَةً}، فيها ضعف في قدراتها، ومن تكملة الجملة تعلم أن الأرض لا يمكنها إخراج النبات وحدها وتنتظر فضل ونعمة الله تعالى عليها، {فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ}، ونزل الماء على الأرض، {اهْتَزَّتْ}، وتحرّكت بسبب نمو الحياة النباتية فيها، {وَرَبَتْ}، وصارت تنتج شيئاً، وكلمة ربا يربو تَرْبُو... تعني ترعرع ونما، عاش وكبر، والوصف هنا لخروج النبات من الأرض من النظر إلى الأرض كأمّ حاضنة له.

{إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا}، الذي جعل في الأرض حياة، {لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ}، إذ قال سبحانه لكم أيها الناس إنكم سترجعون إلى الحياة مرّة ثانية بعد موتكم، وها هو دليل ملموس على قدرته على إحياء الأموات مثلما تحيا الأرض بنزول الماء.

{إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، إذ لديه تعالى القدرة على فعل أي شيء بأي شيء.

كما ترى فالآية هنا، وبحسب فهم عموم المنتمين لدينه تعالى، مشابهة لما فسروا به التوراة قديماً، حيث روّجوا لعقيدة فعله تعالى للأمور بلا أسباب ولا آليات، وبناء عليه جاء الردّ من الآخرين بالكفر به تعالى لأنهم لمسوا آليات حدوث بعض الأمور، فلم يروا إلهاً يفعلها، فكفروا به. وكفرهم به تعالى صحيح بناء على ما في عقيدة غالبية المنتمين لدينه تعالى، بينما كفرهم به تعالى غير صحيح لأنهم فقط تعرّفوا على آلية فعله تعالى للأشياء، وها ترى آيتنا هنا مثالاً عن الكلام الإلهي لخروج الحياة النباتية من بعد مرحلة نزول الماء، والتي يمكن أن تصيغها بطريقتنا نحن وتقول إن آلية خروج النبات تتضمّن سقوط المطر... وسبحانه شحن قرآنه بالكلام عن مراحل لحدوث الأشياء كما ورد في بداية هذه السورة عن خلق السماوات والأرض، بينما فهمها غالبية المنتمين لدينه تعالى على أنها أفعال إلهية مباشرة بلا آليات ولا أسباب، أو دفعوه تعالى إلى الخلف إلى ما يجهلون سبب حدوثه.

مراراً شبّه القرآن بين خروجنا إلى الحياة في الدنيا والآخرة وبين خروج النبات بتعابير صريحة منها ما ورد في الآية 17 من سورة نوح {وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}، وما جاء في الآية 9 وما بعدها من سورة ق {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (10) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (11)}، فراجع دراستها لمزيد من التوسّع.

(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {40})

{إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا}، الذين يحيدون عن الأمور المميزة المنسوبة له تعالى ويتحوّلون عنها، ولا يؤمنون بها، {لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا}، إذ سبحانه يراهم ويسمعهم، ويراقبهم، {أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ}، وهؤلاء الملحدون سيتم رميهم في نار الآخرة، فهل هم {خَيْرٌ}، ووضعهم موصوف بأنه جيد، {أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، حيث يصل إلى اليوم الذي سيقوم فيه من الموت وهو لا يشعر بأي خطر وبالتالي لا يشعر بالخوف ولا بالحزن؟ فمن وضعه ومصيره خير؟ الملحد بالآيات أم من آمن بها؟

{اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ}، أمامكم خيارات عديدة باشروا ما تريدونه منها، إذ يمكنكم أن تشاؤوا الإلحاد بالآيات أو الإيمان بها، وهناك مصيران مختلفان في النهاية لكل خيار، مصير في النار ومصير الأمان، فاختاروا ما تريدون منهما، {إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}، يدرك "بمستوى إلهي" ويعي معنى صورة ما يحصل، فسبحانه ليس مثل آلات التسجيل "الكاميرا" التي تسجّل ولا تفهم ما يجري أمامها بل سبحانه يرى ويسجّل ويعلم بما يجري، يعني أنتم تحت المراقبة فاعملوا ما شئتم ومصيركم في النهاية تحدّده أعمالكم.

كما ترى فالسورة لا تزال في تركيزها على المعرضين عن آياته تعالى ووصفتهم هنا بالملحدين بها.

بالنسبة لكلمة "خير" في استعمال القرآن، كثيراً ما نستنسب تفسيرها على معنى "أفضل"، وأحيانا يصدق هذا المعنى بالتبعية من فحوى الكلام، ولكن بعض الاستعمالات القرآنية لنفس الصياغة تريك أنه لم يُقْصَدْ بكلمة خير أن تكون رديفاً لكلمة أفضل، ومثال واضح عن ذلك ما ورد في الآية 16 من سورة العنكبوت {وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}، فمرادفتها بأفضل في أمثال هذه الآية سيعطيك معانيَ غير دقيقة بل وغير مقبولة إلا إذا حملت معنى الأفضل على عموم المقابلة بين الأسوأ والأحسن، ولكن هذا ليس معناها بل هذا معنى كلمة خير، وكلمة "أفضل" في أشعار العرب قبل الإسلام محصورة بين الحسن والأحسن، فلو قلت إن الإيمان أفضل لكم فهذا يعني أن الكفر حسن والإيمان أحسن، لا، فالإيمان خير لكم مما يعني ضمنا أن الكفر سوء لكم.

لم يستعمل القرآن كلمة أفضل بتاتاً، واستعمل التعبير بالخير وهو أوسع بالمعنى، فهو يقابل الشرّ كما في الآية 11 من سورة النور {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}، واستعملها بمعنى ما يقابل الحسن فالآخر أحسن وليس شراً، كما ورد في الآية 271 من سورة البقرة {إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ}، فإبداء الصدقة ليس سوءاً وإنما إخفاؤها أحسن، وهنا يمكن استعمال كلمة أفضل.

يعني لا ترادف "خير" بـ "أفضل"، فهما في بعض سياقات الكلام يتقاطعان تطبيقياً حيث يكون اللذان تقارن بينهما جيدين، فعندها يصدق قول خير أو أفضل، ولكن حين يكون الكلام عمومياً يشمل ما كلاهما جيدان ويشمل أيضاً ما أحدهما جيد والآخر سيئ، ويشمل الوصف مطلقاً بمقارنة الحسن مع مطلق الوصف بالحسن، فحتى لو لم يكن هناك طرف آخر للمقارنة والمقارنة مع مطلق الوصف، كوصفه تعالى بخير الرازقين وخير الحاكمين... فهو تعالى بالمقارنة مع وصف الحسن مطلقاً كرازق وحاكم يُعَدُّ خير موصوف بذلك، فكلمة أفضل ليست وصفاً صحيحاً لهذه الحالات وكلمة خير صحيحة.

هنا في الآية المقابلة بين الموصوف بالخير وبين الموصوف بالسوء، وسياق الكلام يتحمل "بالتساهل والتراخي" مرادفة كلمة خير بكلمة أفضل، ولكن تذكّر أن هذا ليس دقيقاً لأن الأفضل في كلام العرب يشير للحسن وما هو أحسن، فهذا أفضل من ذاك على أساس أن كليهما حسن، بينما الكلام هنا عن حالة حسنة وحالة سيئة وليس فصيحاً القول بأن الحسن أفضل من السوء، وإن تعمّقت فيه سترى أنك لن تعبّر بهكذا طريقة ولا بأي شكل إلا من بعد كلام سابق تحدّد فيه ما هو حسن وما هو سيئ من بعد خلاف في تحديدهما، بينما هنا في الآية فلا خلاف في تحديد سوء حالة الرمي في النار وحسن دخول الجنّة.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ{41})
{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ}، فأنكروا الشيء الذي يجعلهم يستحضرونه تعالى في عقلهم وقلبهم ولسانهم، {لَمَّا جَاءَهُمْ}... وانقطعت الجملة... {وَإِنَّهُ} "الذكر الذي جاءهم" {لَكِتَابٌ عَزِيزٌ}، فكلام هذا القرآن فوق أي كلام آخر من ناحية صحّته بمطابقته للحقّ والواقع.

بعبارة أخرى الكلام الذي جاءهم ليستحضروه تعالى وبدلا من ذلك كفروا به فهو كتاب نوعية كلامه الحقّ الصافي فوق أي كلام آخر، فبكتاب بهذه الصفات كفروا.

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ{42})

القرآن، {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ}، هذا الكتاب لا يدخل عليه كلام باطل غير سليم أو غير صحيح، لا، {مِن بَيْنِ يَدَيْهِ}، لا مما هو موجود الآن، ولا يأتيه الباطل، {وَلَا مِنْ خَلْفِهِ}، ولا فيما بعد سيأتي ما يبيّن أن القرآن ليس صحيحاً. فلا حين نزل كان بين الناس معلومات تثبت أن فيه خطأً أو كذباً أو فساداً... ولا فيما بعد سيصير لدينا معلومات تثبت أنه باطل.

السبب لعزّة هذا الكتاب وأنه لا باطل فيه لأنه، {تَنزِيلٌ}، وصلكم من العالي، {مِّنْ حَكِيمٍ}، من الذي قراراته وأفعاله وأقواله كلّها لها حقّ وصواب فلا يعبث ولا يتسلّى ولا يقصد السوء، وبالتالي ستنعكس هذه الصفة على كلامه فسيكون كتابه حكيماً.

وتنزيل، {حَمِيدٍ}، الذي كل ما يصدر عنه حميد جيّد ممدوح، يوصف بالحمد، فكل أعماله تعالى جيّدة. وبالتالي ستنعكس هذه الصفة على كتابه ليكون كل ما فيه جيّداً، ولن يؤلّف كتاباً فيه كلام سيّئٌ أو ليضلّ الناس به...

بقي شيء مهمٌّ ستراه في الآية التالية، حيث عادة يشير القرآن للامتداد التاريخي لدينه تعالى في مقابل الأديان الأخرى التي اخترعها الناس، لأن هذا الدين الإلهي له جذور ممتدة لآلاف السنين، فهل في القرآن شيء يتعارض مع شيء سابق من دينه تعالى؟ ما بين يدي القرآن، ما في زمن نزول القرآن من معلومات عن دينه تعالى أو غيره، هل يتعارض القرآن معه حتى نكفر به؟ وفيما بعد نزول القرآن، هل سنجد شيئاً فيه يتعارض مع العقلانية والحكمة والصلاح؟

الكلام في الآية هنا عمومي ويشمل السؤال عن أي نوع من المعطيات سواء المعطيات التي يخترعها الناس أو المعطيات الدينية القديمة.

خذ مثلاً كتابَ فيزياء، ففي زمن تأليفه ستجده متوافقاً مع علوم عصره، ولكن ستجده مختلفاً عن الكتب القديمة التي تبيّن لنا الخطأ في بعض قواعدها... وفي المستقبل سيأتي الناس بقواعد جديدة تبيّن خطأ قواعدنا الحالية... فحتماً من بين يدي كتاب الفيزياء تعارض ومن خلفه تعارض. وما تقوله الآية هنا عن القرآن أنك لن تجد فيه تعارضاً مع ما سبق من دينه تعالى، ولا مع ما سبق وموجود من معطيات عند الناس، ولا حتى فيما سيأتي من زمن مستقبلي ستكتشف في القرآن تعارضاً مع الحقّ.

(مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ{43})
{مَّا يُقَالُ لَكَ}، ما نقوله لك عبر هذا القرآن أيها الرسول (ع) فهو ليس {إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ}، فنفس الكلام قيل لهم وقلناه لك:

{إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ}، إن المسؤول عنك من مستوى إلهي منسوب له صفة التجاوز عن السيئات، وفي نفس الوقت، و{ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ}، فيعاقب بشدّة مؤلمة لا يمكن تحمّلها أو الاعتياد عليها.

فمغفرته سبحانه متاحة وعقابه متاح، فمن آمن وعمل الصالحات نال المغفرة، ومن حاد عن ذلك نال العقاب، وهذا الكلام هو نفسه قاله الإله سبحانه لكل من سبقك من الرسل.

كلام الآية كعموم كلام القرآن فهو يشير للخير والصلاح من جانب، وللشرّ والسوء من جانب آخر، فالمغفرة لما نقوم به من سيئات إن استغفرنا منها، والعقاب إن لم نستغفر منها، وهذا مبني على كوننا نحن نميّز بين السيئات والصالحات، وباختيارنا وبإرادتنا نفعل السوء أو الصلاح، ونؤمن بالحقّ أو نكفر به، فالآية هنا مبنية على هذا المفهوم، وهكذا ترى لفت الانتباه لآلاف من السنين لدينه تعالى على نفس المبدأ: مغفرة على السيئات لمن آمن وعمل صالحاً، وعقاب لمن لم يستغفر.

كما تلاحظ فالآية تختصر كلّ ما حصل في السابق ويحصل الآن، بالنتيجة. إذ خلقنا سبحانه وخلق من سبقنا، وشاؤوا وشئنا واحداً من طريقين: الكفر مع السوء أو الإيمان مع العمل الصالح. والنتيجة: إمّا وصولنا للحصول على المغفرة وبالتالي دخولنا إلى الجنّة، وإمّا حصولنا على العقاب ودخولنا إلى النار.

هذا من جانب، ومن جانب آخر نفهم أن هذا الدين له منطق واحد لم يتغيّر ولم يتبدّل عبر التاريخ الطويل للرسل، فقرار الإله سبحانه بالمغفرة أو العقاب، ليس قراراً جديداً نزل على الرسول محمّد (ع)، بل هو نفسه من أوّل ما بعث سبحانه الرسل، منذ آلاف السنين، إذ بعثهم بهذا الكلام للناس.

إن لم يكن لهذا الكلام معنىً لك، فانتبه لما يفهمه غيرك عن الدين، فهم يعرفون تاريخ نشوء الديانات الأرواحية والوثنية والبوذية... ويقيسون تلك الديانات التي من اختراع البشر، يقيسونها مع دين الله تعالى! أمّا في الحقيقة فدينه تعالى واحد مستمر من أول رسول منذ آلاف السنين إلى آخر يوم في حياة البشرية، وليس اختراعاً بشرياً، ولو كان كذلك، لرأيت فيه اختلافات، ولوجدت له بداية وانقطاعاً، ولكنك تراه ديناً واحداً مستمراً منذ آلاف السنين وكل بقية الأديان ليس لها هذا التاريخ السحيق، وملخّص هذا الدين أن الله هو الإله الأحد، وخلقنا سبحانه في دار امتحان، وفي الآخرة هناك مغفرة أو عقاب.

رغم تلاعب الناس بالدين الإلهي بالتحريف والتخريف، إلّا أنّ أساس الدين الإلهي لا يزال واضحاً منذ آلاف السنين، وهذا الكتاب "القرآن" يعيد طرح دينه تعالى من دون تحريفات وتدخلات البشر، والآية السابقة لفتت انتباهنا لخلو القرآن من أي باطل بالمقارنة مع تاريخ دينه تعالى...

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ{44})
{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ}، لو جعل سبحانه الذكر الذي أنزله، {قُرْآنًا}، شيئاً يمكن للناس قراءته، {أَعْجَمِيًّا}، بلغة مبهمة غريبة عن لغة الرسول محمد (ع) ومن حوله من الناس، بالفارسي أو اللاتيني أو الحبشي... لقالوا:

{لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ}! لولا كانت جمله المميزة لكونها نازلة من الإله مفصلةً غير مبهمة، وسياق الكلام عن الاعتراض على أعجميتها لو فصّلت آياته بلغتنا بدل تفصيل الكلام بلغة أجنبية، لكان من الأسهل علينا فهمه لو نزل بلغتنا.

إذن نحن أمام نموذج يطرحه القرآن عن المعرضين عن دينه تعالى الكافرين بقرآنه، وهم نموذج أهل مكّة وعموم العرب الذين حصلوا على فضل نزول كلامه تعالى بلغتهم، مما سهّل عليهم فهمه من دون الحاجة إلى تعلّم لغة أجنبية أو تعريبه "ترجمته"، وفرضاً لو نزل القرآن بلغة أخرى غير العربية، عندها فأصحاب هذه النفسية المعرضة الآن عن القرآن العربي الذي يفهمونه بوضوح، لتحجّجوا بعذر استصعابهم لفهم الكلام الإلهي لأنه بلغة أخرى، لقالوا: نحن طبعاً يهمّنا الاطلاع على كتاب قيل إنه من الإله سبحانه، فنحن نبحث عن الحقّ، ولكنه بلغة أجنبية ونعتذر عن الإيمان به لأنه بالنسبة لنا غير واضح.

{أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ}؟! فهل ننزله بلغتكم ولغة أخرى؟! ماذا يعني هذا الكلام، فهل من المفروض أن ينزّل سبحانه كلامه بلغة كل قوم حتى يؤمنوا؟

كما ترى افترض القرآن افتراضاً، ونقل لك ما سيحصل من بعد الافتراض، ووضّح معنى الافتراض، فافترض نزول القرآن بلغة غير العربية، وأخبرنا أن نوعية الناس "العرب" المعرضة عن القرآن "العربي" كانوا سيقولون: متأسفون، لن نتعب أنفسنا بكتاب من غير لغتنا، فلن نؤمن به لأننا لا نفهمه، ومن الترجمة قد لا يصلنا الكلام بدقّة بسبب أخطاء الترجمة... وهذا الاعتراض ستجده عند الآخرين من غير العرب من نوعية المعرضين عن كلامه تعالى كيفما جاءهم، أأعجمي بلغة كل أناس وعربي أيضاً تريدونه؟ وبعد قليل سنتكلم ببعض التفصيل عن هذه النقطة.

{قُلْ}، لهذه النوعية من الناس:

{هُوَ}، القرآن العربي، {لِلَّذِينَ آمَنُوا}، فأعلنوا اعتقادهم بهذا الدين الحقّ، {هُدًى}، فيضعهم على الأشياء الصحيحة التي توصلهم للغاية الصحيحة، {وَشِفَاءٌ}، فيخرجون بالقرآن من حالة المرض والعطل والفساد الفكري والنفسي والسلوكي فيدلهم على الصحّة. فاللغة ليست مشكلة، فطالما يمكنكم فهم ما يقوله لكم عبر الترجمة المكتوبة أو عبر الترجمة باللفظ أو بنقل فحوى المعنى... فمحتواه سيكون هادياً شافياً لكم ولا علاقة للّغة بذلك.

هنا ترى اعتماد الكلام على مفهوم قرآني تكررت الإشارة إليه في العديد من السور، فبالأساس يكون الناس عمياً أو مبصرين، فمن الأساس قلوبهم غلفٌ مطبوعة أو مريضة، أو سليمة، ومن الأساس وقبل سماعهم لكلامه تعالى لديهم فكر ونفسية، وإمّا أن يتماشى ويتوافق فكرهم ونفسيتهم مع كلامه تعالى، لأنهم لم يخترعوا آلهة من خيالهم، وشعروا

بأنفسهم وما حولهم يدلّهم على إله واحد عظيم القدرات والصفات... كارهين للظلم والفساد... فهؤلاء وبأي لغة كانت ومهما كانت جنسية قائل الكلام الإلهي، فسيتماشون ويتوافقون معه، وهكذا نفهم كلام الآية هنا أن القرآن هدى للذين آمنوا، فهم أصلاً موصوفون بالإيمان وسيرون القرآن هدى... ولمزيد من التوسّع حول هذه النقطة راجع دراسة الآية الثانية من سورة البقرة {ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}.

وإمّا الذين يتعارض فكرهم وسلوكهم مع ما يطرحه القرآن، لأنهم فاسدون مجرمون... فهؤلاء لن يؤمنوا بالقرآن سواء نزل بلغتهم أو بلغة أخرى.

{وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}، الذين لم يعلنوا اعتقادهم ولا التزامهم بالقرآن، لأنهم أصلاً لا يتماشى فكرهم ونفسيتهم مع كلام القرآن الحقّ، {فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ}، فيوجد لديهم ثقل في السمع، فسمعهم ثقيل فلا يسمعون القرآن بشكل جيّد، فهذا القرآن بلغتهم العربية ولكنه يبقى مجرد كلام يمر على أذنهم ولا يدخل إلى قناعتهم.

{وَهُوَ}، القرآن، {عَلَيْهِمْ عَمًى}، فبالنسبة لهم غير مرئي فهم لا يرون كلماته آيات بل يرونها جملاً غير صحيحة.

{أُولَٰئِكَ}، الذين لا يؤمنون بالقرآن، {يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ}، كأنك تناديهم فتتوجّه إليهم بالكلام ليلتفتوا إليك من مكان بعيد بحيث لا يصلهم صوتك، فالمشكلة ليست في القرآن بل المشكلة فيهم لأنهم هم في وادٍ والقرآن في وادٍ، فهم في الشرك والفسق والسيئات ولا يريدون التغيّر، والقرآن في التوحيد والاستقامة والحقّ وهم لا يريدونه.

نلاحظ عدة أمور طرحتها الآية، فنجد على مرّ العصور أناساً يكررون هذا الكلام! فيقولون: محمّد عربي، وقد ألّف كتاباً باللغة العربية يتحدّث فيه عن شؤون عربية، وقال إنه وحي من الإله حتى يتبعه الناس... وهو نفس الكلام قاله من كان في عصر نزول القرآن، فبعض أذكياء عصرنا يظنون أنهم اخترعوا البارود واكتشفوا الذرة بهذا النوع من تعليقاتهم على الدين الإلهي، وفي الحقيقة فهم لم يأتوا بأي جديد، بل هم مجرّد نماذج جديدة لعقلية الكفر القديمة، فالشبيه لهم بالعقلية والنفسية والذي نزل القرآن بلغته وفي عصره أعرض عن القرآن النازل بلغته، فتلفت الآية انتباه جميع الناس من كلّ اللغات إلى هذه العقلية المعرضة عن كلامه تعالى بالرغم من وصول الكلام الإلهي لهم بلغتهم العربية، وهذه ميزة لم يحصل عليها البقية من أهل اللغات الأخرى، وأيضاً لم ينتفع منها المعرضون الذين نزل القرآن بلغتهم، والآخرون من نفس العقلية والنفسية من غير العرب، فلا عذر لهم إن قالوا إن القرآن عربي ولا يفهمونه، فهم حتى لو نزل بلغتهم كانوا سيعرضون عنه، فمثلهم مثل العرب الذين أعرضوا عن هذا القرآن العربي.

ننتبه دائماً، فلا تتميّز اللغة العربية عن أي لغة أخرى، فليست متفوقة على بقية اللغات، ولم ينزل بها القرآن لأنها متميّزة، لا، ولا، وألف لا، فكل اللغات لديها القدرة على التعبير عن مختلف المعاني بطريقتها، بل لبقية اللغات كلمات محدّدة لمعنى محدّد لن تجده في اللغة العربية، فلا تكن معرفتك باللغة العربية وجهلك ببقية اللغات تجعلك تظن أنها متفوقة، لا، فكل شخص يتقن لغة من لغات الأرض، يظن أن لغته كاملة تامّة لا نقص فيها، ولجهله ببقية اللغات يرى اللغات الأخرى ناقصة بل ودون مستوى لغته.

نحن الآن نعلم بشكل شبه دقيق أن اللغة العربية لديها مخزون متوسّط من الكلمات بالمقارنة مع لغات أخرى أغنى منها بكثير، وهناك لغات فيها تراكيب أسهل من تراكيب اللغة العربية للتعبير عن المعاني الدقيقة، وهناك لغات تعلّمها أسهل من اللغة العربية... بشكل مختصر: لا توجد ولا لغة على الأرض متفوقة بكل شيء عن بقيّة اللغات، ولا يوجد لغة متميّزة بشيء عن بقية اللغات، بل تتشارك هذه الزمرة من اللغات بهذه الميزة، وتفتقر تلك الزمرة لتلك الميزة...

دعك من سخافة تميّز اللغة العربية عن بقية اللغات بقدراتها اللغوية، فهذه سخافة لا معنى لها سوى التأكيد للآخرين بأن هذا الدين عربي وللعرب المتعصبين لكل ما هو عربي، فهل هذا ما تريد أن تصل إليه؟ أم تريد أن تمشي خلف ما يقوله القرآن عن بديهية وطبيعية ومنطقية أن ينزل القرآن بلغة الرسول الناقل له؟

يبرز سؤال عن قلّة قيمة بقية الكتب الإلهية التي نزلت بلغات الرسل السابقين، فهي لم تكن بالعربية! فهل قيمتها بلغتها أم بمحتواها؟ أم ماذا تقول عن اللغة التي تكلّم بها تعالى مع نبيّه موسى (ع)؟ وكما ترى من الآية هنا ومن أواخر الآيات في سورة الشعراء من الآية 192 إلى الآية 201 أن اللغة لا علاقة لها بتاتاً بالإيمان بالقرآن، فلو نزل القرآن بأي لغة، لكان سينزل بشكل مبين متقن على قواعد تلك اللغة.

{وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (195) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (196) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (197) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (201)}

لنكمل الإطالة عليك، فهناك مجموعة الناس المتقنين البارعين للغتهم، البلغاء، الفصحاء، الأقحاح، العارفين بغالبية كلمات لغتهم وتراكيبها الصحيحة، المنشدين للشعر وللجمل البليغة... وهناك الإله بعظمته الهائلة، يستعمل لغة من لغات البشر لتنزيل كتابه عليهم، فماذا تتوقّع أن يحصل؟

لاحظ أن المسلمين "بشكل عام" اعتبروا القرآن كتابهم الخاص بهم، وبدل أن يرفعوا قيمة القرآن أنزلوه إلى مستواهم! فتراهم يبحثون عن شعر من هنا وقول من هناك لأعرابي يعيش في خيمة في الصحراء ليماثلوا كلامه بكلام الإله! وهم لم يقصدوا التقليل من قيمة القرآن، بل قصدوا تبيان معانيه باعتماد اللغة العربية من أفواه أقحاحها، وغفلوا عن حقيقة الفرق الشاسع بين استعمال الإله للغة وبين كلام كلّ البشر.

في دراستنا هذه تبين لك أنهم كناطقين باللغة العربية، مجيدين لاستعمال كلماتها الشائعة، وقعوا في مشكلة جهلهم التعريف الدقيق لكل كلمة، فالقلّة القليلة من علماء اللغة العربية لاحظوا أنه لا يوجد ترادف بهذا الكمّ الهائل بين كلمات اللغة، وأصرّوا على وجود فرق بين الكلمات، وهم محقّون في ذلك، فتبديل كلمة بأخرى مرادفة يجعل المعنى مختلفاً، بل لا نرى الاستبدال سليماً لكل الجمل فنقترح لنفس الكلمة مرادفاً آخر في جملة مختلفة! وقد رفض قلّة قليلة منهم ما يجدونه من مجاز واستعارة وكناية عن كلمات القرآن... وقد عمل هؤلاء القلّة على توضيح الفروقات، وقلّة آخرون عملوا على وضع معانيَ منفردةً لكل كلمة، وهؤلاء محقّون في أساس تفكيرهم، ونجحوا في تحديد معنىً دقيق لعدد قليل جداً من الكلمات، وأدّعي في دراستي هنا أنني نجحت أكثر منهم في تحديد معنىً دقيق لعدد أكبر من الكلمات، ولا تزال كلمات أخرى كثيرة تنتظر من يدقّقها ويحقّقها.

كما ترى من دراستي هذه، فلا البلغاء ولا الفصحاء ولا عرب البادية كان باستطاعتهم تمييز معنى كل كلمة من اللغة العربية، بل كانوا يجيدون استعمال اللغة بحسب قدراتهم البشرية التي تتفلّت منها الدقّة هنا وهناك، أمّا القرآن، فلا يتفلّت منه ولا كلمة، فكلّها مضبوطة بأحسن ما يكون، ومشكلة فهمها للجميع سببها شدّة الدقّة الإلهية "الطبيعية" بالنسبة لقدراته الهائلة، فلم يقصد سبحانه جعل القرآن مبهماً، أبداً لم يقصد، ولم يقصد جعله لغزاً لغوياً، أبداً، بل لا بدّ من تركيب جمله على الصحّة وبدقة حتى يكون معيناً لك لتؤمن بأنه من تأليفه تعالى، والعرب نالوا شرف نزوله بلغتهم، فليقدّروا هذه النعمة التي يسّرت لهم أكثر من غيرهم فهمه، وقوّمت لهم لغتهم على أحسن ما يكون، ففي دراستي هذه ومن استعمال القرآن للكلمات تعلّمنا معناها الدقيق، وسيأتي آخرون ليدققوها بشكل أفضل إن شاء الله تعالى، ويصححوا ما أخطأت به.

لا أخفي عليك، دراستي هذه ضعيفة جداً في مجال استخراج التركيب القرآني للجمل العربية بشكلها الدقيق، حيث اكتفيت بشرح الجمل من دون دراسة تركيبها لمقارنتها مع بقية طريقة تراكيب جمل القرآن.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ{45})
{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ}، أنزل عليه تعالى موضوعا كاملا تامّا، وهو التوراة، {فَاخْتُلِفَ فِيهِ}، حيث لم يكن للناس رأي واحد في التوراة، وبعضهم آمن بأنها منه تعالى وبعضهم شكّك وبعضهم كفر.

هَذَا القرآن كتاب إلهي يتعرّض للكفر به، وهذا ليس شيئا جديدا، لأنَّ التوراة الكتاب الإلهي الذي نزل على الرسول موسى(ع) منذ آلاف السنين أيضاً كفر بعض الناس بها.

بِالنِّسْبَةِ للعرب الذين وجّه القرآن كلامه لهم كنموذج للآخرين، هل فعلا أنتم مهتمون بكتاب قيل إنّه نازل من الإله؟ حين أعرضتم عن القرآن نسألكم عن كتاب مشهور جدا نزل منذ آلاف السنين منه تعالى، هل فعلا أنتم باحثون عن الحق ونظرتم ما فيه؟ أم تجاهلتموه لأنه بلغة أعجمية، أجنبية؟ وها صار لديكم كتابان إلهيّان بلغتكم وبلغة أجنبية، ماذا تقولون؟

{وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ}، قَبْلَ حصول اختلاف الناس في التوراة هناك كلمة قالها تعالى سبقت اختلافهم، وهذه الكلمة تفهمها من عموم القرآن: لن يوقف سبحانه حياة البشرية قبل أوانها ليحاسب الناس بشكل نهائيّ على ما فعلوه، بل سيؤخّر محاسبتهم النِّهَائِيَّةَ ليوم القيامة. ولولا هذه الكلمة الإلهية، {لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ}، لكان حصل ما يجب حصوله، لكان سبحانه حاسبهم فورا وعاقبهم ورماهم في جهنّم.

مَنْ أعرض عن التوراة وَلَغَا فيها وأَلْحَدَ فيها، ومن فعل نفس الشيء مع القرآن، فهم يستحقون العقاب الآن وفورا، ولكنه سبحانه كان قرَّرَ مسبقا أن يترك الحساب النهائي ليوم القيامة، وَمَنْ يعرض ويلغو ويُلْحِدُ ويقول في نفسه: لو أنَّ هذا الكتاب إلهي فعلا وأنا ألغو فيه مِنَ المفروض أن يعاقبني الإله، لكن لم يحصل معي شيء، إذًا هذا الكتاب ليس إلهيًّا. لا، بل تركك سبحانه لأنه سيحاسبك ويجازيك في الآخرة.

{وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ}، {شَكٍّ} من دون الاستناد لأي علم أو فكرة أو تحليل... {مُرِيبٍ}، وهو مجرد إحساس بلا أي تفكير، بِمُجَرَّدِ سماعهم للقرآن وبدون التفكير فيه وبالاعتماد على إحساسهم فقط كفروا به! وأنت تعلم أنهم عمي البصيرة وقلوبهم غلف، فاسدون مجرمون، يخترعون آلهة من خيالهم... مِنَ الطبيعي حين يَسْمَعُونَ القرآن أن يكون أول ردّة فعل لهم رفضه.

تذكّر دائما تركيز السورة على المعرضين الْمُلْحِدِينَ بالآيات، لأن الآيات واضحة وصحيحة ومنطقية وعقلانية... وهم رغم كل هذا ينكرون الآيات! بلا أي دليل ولا منطق.

مَا يسمّى الآن بالتوراة هي مجموعة كتب جمعها أحبار اليهود على مرّ التاريخ، وتوراة النبي موسى(ع) بقي منها الشيء القليل في التوراة الحالية، ويقولون إنَّ الأسفار الخمسة هي التوراة المنسوبة للنبي موسى(ع) وبقية الأسفار من تأليف أنبياء آخرين ومن تأليف الأحبار، ولكن بمراجعة الأسفار التي ينسبونها للنبي موسى(ع) ستجد أن غالبيتها الساحقة مقولة عنه وليست مقولة منه ولا مقولة من الله تعالى، وهذا شيء لا ينفيه اليهود الذين يقرّون بأن كتب التوراة أحرقت وتلفت في زمن سبي البابليين، وكَتَبَهَا من جديد الكاهن "عزرا" مِمَّا يتذكّره منها "وما أعجبه مما تذكّره"، حيث كتبها قبل ميلاد السيد المسيح(ع) بِحَوَالَيْ خمسمئة عام، وهذه النسخة هي المعتمدة حاليا والمنتشرة بين الناس...

ضع في بالك دائما أن الريب هو أوّل وهلة تصيبك من سماع الشيء، فتنكره أو تصدّق به لمجرد سماعك له وبدون أي تفكير. والشكّ هو اختيارك للتصديق أو الإنكار مع إعلانك أنك لم تستند لدراسة أو تفكير. والظن هو تصديقك أو إنكارك لشيء وأنت مستند إلى معلومات أو تفكير به، طبعا هذا وصف لك بغضّ النظر عن صحّة ما استندت إليه وبغضّ النظر عن صحّة أو فساد النتيجة التي وصلت إليها، وقد تكون غير مطابقة للواقع. واليقين هو تطابق اعتقادك مع الحقيقة، من تعاملك مع الشيء مباشرة أو من خبر ممن تثق به... أطلت عليك حتى تنتبه للفرق بَيْنَ تراخي وتساهل الناس في استعمال هذه الكلمات، وبين ما اصطلحوا عليه في كتب المنطق عن هذه الكلمات، وبين معناها اللغوي الأساسي الذي استعمله القرآن من بعد تدقيقه وتقويمه.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ{46})

{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ}، مَنْ قام بالأعمال الموصوفة بأنها جيدة حسنة فَلِنَفْسِهِ قام بهذه الأعمال، ومن عموم القرآن نعلم أنه سيكسب الحسنات، فَنَفْسُهُ ستستفيد من الأعمال الصالحة، وهذا هو التفسير العملي التطبيقي لنتيجة العمل، لَا تَنْسَ أصل المعنى أن العامل للصالحات سَيَكُونُ موصوفا بأنه صالح، فَالْقِيمَةُ لنفسه، وبعدها يأتي ما وعد به تعالى من ثواب حسن كنتيجة لذلك.

{وَمَنْ أَسَاءَ}، وَقَامَ بالأعمال الموصوفة بأنها سيئة، {فَعَلَيْهَا}، عَلَى نفسه يقع السوء، لأنه سيكسب السيئات وَيُحَاسَبُ عليها كنتيجة لعمله، وأصل المعنى أنه هو سيكون موصوفا بالسوء، عَلَى نفسه أساء حيث جعلها موصوفة بالسوء.

تتذكّر المفهوم القرآني الأساسي، سُبْحَانَهُ خلقنا وفينا القدرة على تمييز الخير من الشر، والصالح من الفاسد، وعلى هذا الأساس يحاسبنا، لَوْ لم نكن نميّز بينهما وفعلنا السَّيِّئَ، هَلْ من المعقول أن يحاسبنا عليه سبحانه؟ ومن ناحية ثانية سُبْحَانَهُ لا يأمر إلا بما هو صالح، عَمَلِيًّا عملنا للصالحات هو الالتزام بأوامره تعالى.

لِهَذَا الكلام بعد مهمّ جدا تراه واضحا في القرآن، حَيْثُ سبحانه ركّز على ما نراه نحن حسنا صالحا خيرا... ومن البديهي أنه سبحانه لن يأمرنا إلا بالخير، إنْ سمعت شيئا منسوبا لدينه تعالى ولم يعجبك، وَلَمْ تره خيرا، فأنت أمام احتمالين، إمَّا ما سمعته كان من اختراع الناس وليس من دينه تعالى، وإما في قلبك خلل منعك من التمييز بين الصالح والفاسد، ولذلك صرت ترى الخير فسادا.

{وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}، الَّذِينَ خلقهم المسؤول عنك من مستوى إلهي وَمَفْرُوضٌ منهم طاعته عِنْدَمَا يحاسبهم على طاعتهم أو معصيتهم له لَا يظلمهم، لِأَنَّهُمْ يعلمون الصالح من السَّيِّئِ، وهم اختاروا، وعلى أساس ما اختاروه سيكون الحساب.

ننتبه جيّدا، قيل إنَّ "ظلّام" صيغة مبالغة، تشير لِنَفْيِ كثرة الظلم ولا تنفي كلّ الظلم. يعني: سبحانه يظلم قليلا ولكن لا يظلم كثيرا. هذا ما قاله بعض المسلمين! لِمَاذَا لم يقولوا إنَّهَا مبالغة لنفي كل أنواع الظلم؟ عِلْمًا أَنَّ القرآن يقول عن الذين سيتعذبون ما تقرأه في الآية 47 من سورة {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}، وعن الذين سيدخلون الجنّة يقول في الآية 124 من سورة النساء {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا}، وغيرها العديد من صيغ الكلام التي نفت كل الظلم عنه تعالى، قليلا كان أو كثيرا، هُنَا صيغة المبالغة "ظلّام" مبالغة في نفي كل أنواع الظلم عن كل العبيد، لَا أي نوع من الظلم يمارسه تعالى أبدا ولو بقدر شعرة مع أي عبد من عبيده الذين عاقبهم على إساءتهم.

كَلَامُنَا مع مسلمين قالوا إنَّهُ تعالى يظلم، هَلْ يَدُلُّونَنَا على عمل إلهي فيه ظلم لمخلوق ما؟ هَلْ يفهمون فعلا تسبيحه تعالى عن النقص والعيوب والسوء؟ وهل يفهمون وصفه لنفسه بالحكيم القدوس الحميد السبّوح وتبارك... كُلُّهَا صفات لا تتحمّل معها أن يكون سبحانه ظالما ولو بمقدار ذرّة، ومن أصدق من الله تعالى حين يصف نفسه؟ أم في كلامه تعالى عن نفسه نقاش! أم هناك مشكلة أخرى عندهم!

كَلِمَةُ عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة وَهِيَ مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نَحْنُ نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، كَأَنَّ كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، كِلَاهُمَا نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، وَهِيَ جمع الجمع، أَثْنَاءَ الكلام بدقّة تَكُونُ الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، تَقُولُ الآيات: عبيد. وَرَدَتْ في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وَتَكُونُ لكل العبيد بكل أنواعهم تَقُولُ الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وَتَكُونُ لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، وَهِيَ تشير لعبيد جاءهم رسول، وَعَبِيدٍ آخَرِينَ جاءهم رسول، وَعَبِيدٍ آخَرِينَ... وَجَمْعُ الجمع "عباد"، كَلِمَةُ عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جدا عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

(إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ{47})
{إِلَيْهِ}، إلى الذي لا يظلم، {يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ}، وغالبا يشير القرآن بالساعة إلى ساعة قيامنا من الموت التي هي بداية ساعات يوم القيامة، مَرَدُّ العلم بها، وَالَّذِي نرجع له لنسأله عنها، وَالَّذِي يعلم متى ستحصل، هو الله تعالى، نَحْنُ المخلوقات نسأل: متى ستحصل؟ من لديه العلم بزمن حصولها؟ الجواب: علمها نردّه إليه تعالى، لَا يوجد أحد غيره تعالى يعلم متى ستحصل. واستكمالا للكلام السابق فِي تلك الساعة وما بعدها لا يظلم ربّك أحدا، حَيْثُ سَيُحَاسِبُهُمْ بما عملوا...

تلاحظ الآية هنا تعرض القدرات الإلهية البحتة التي لا يمكن اتِّصَافُ الآخرين بها، مَا معنى قولكم عن غيره أنهم آلهة وهم لا يرجع إليهم علم الساعة؟! مَنْ تنقصه هذه المعلومة لن يكون إلها.

{وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ}، من نتاج النباتات، {مِّنْ أَكْمَامِهَا}، من أوعيتها مما يغطيها، فإذا نظرت لعرق النبتة أو لغصن الشجرة قبل إزهارها وقبل حملها للثمر، ستجده أجردا لا شيء عليه، وبعد ذلك يصير للثمرة كمّ، فَيَصِيرُ لها ما ستخرج الثمرة منه، كما تخرج اليد من كمّ قميصك، وَيَخْرُجُ الثمر من انعقاد الزهرة.

{وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى}، يَصِيرُ في بطنها حمل، جنين. {وَلَا تَضَعُ}، تَلِدُ الأنثى ولدها، {إِلَّا بِعِلْمِهِ}، خُرُوجُ أي حبّة ثمر، وولادة أي حيوان لَا يحصل إلا بعلمه تعالى، كما تقول عن رئيس لمجموعة من الناس إنَّ كل ما يفعلونه يكون بعلم الرئيس، هُنَا خروج أي كائن حيّ جديد من النبات أو الحيوان، لا يحصل إلا بعلمه تعالى. كُلُّ شيء يحصل تحت مراقبته تعالى وسلطته وسيطرته.

إذًا، هناك علمان من أبرز نماذج العلوم الإلهية، وهما: علم الساعة، والعلم بخروج حياة جديدة، ومن لديه صفة الإله الحقيقي فَهُوَ وحده فقط يمكنه أن يعلمهما. والكلام هنا ليس عن حالة فردية أو لمجموعة بل عن علم بكل حالة حياة جديدة عبر الزمن.

{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ}، فِي الزمن الذي يتوجّه سبحانه وتعالى للناس "المشركين" بالكلام:

{أَيْنَ شُرَكَائِي}؟ وهذا السؤال سيكون في يوم القيامة وما بعده، يَسْأَلُهُمْ عزّ وجلّ: أين الآلهة التي قلتم عنها أَنَّهَا شريكة لي في الألوهية؟ هُنَا في الدنيا لَفَتُّ انتباهكم لصفاتي الخاصة بي كإله، ولكنكم أشركتم بي، وقلتم إِنِّي لديّ شركاء في الألوهية، حسن، أَيْنَ هم؟ لَوْ كانوا آلهة حقيقيين لكانوا الآن يَتَدَخَّلُونَ في حساب الناس، أليس كذلك؟

{قَالُوا}، المشركون جوابا عن السؤال:

{آذَنَّاكَ}، أعلنّا مصرّحين لك بشكل واضح، كما نقول عن أَذَانِ الصبح والظهر... صَدَرَ منّا أَذَانٌ كإعلان للتصريح عن شيء، وهو التالي: {مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ}، لَا واحد منّا يشهد بوجود آلهة غيرك، ولا واحد منّا يشهد على وجود شركاء لك. هُمْ في الآخرة ينظرون ويسمعون ويرون أن الله تعالى وحده المالك الحاكم القاضي المحاسب المقرّر الشافع الغافر... ولا يرون أي أحد غيره لديه القدرة على فعل ما يريد بدون إذنه تعالى، وَيُؤَذِّنُونَ معلنين له تعالى أنهم ولا واحد منهم يشهد بوجود آلهة غيره تعالى.

هُنَا في الدنيا لفت القرآن انتباههم لصفة الإله الحقيقية العالم بكل ما يحصل، وأن كلّ شيء بأمره سبحانه، ولم يؤمنوا وأشركوا، وفي يوم القيامة سيرون شيئا آخر، سيرون حسابا للناس، وسيرون تعذيبا ورميا في جهنّم، وسيرون تنعيما وإدخالا إلى الجنّة، ويرون الله تعالى وحده المسيطر على كلّ شيء، تُنَبِّهُهُمُ الآية هنا والآن، أن ينتبهوا للسيطرة من المستوى الإلهي على ما حولهم الآن، وليقيسوه على يوم القيامة وما بعده، إنْ لم يوحدّوه ويطيعوه تعالى، فَهُنَاكَ في يوم القيامة يكون الأوان قد فات.

نتذكّر دائما أن يوم القيامة من الموت هو أوّل يوم من أيام الآخرة بالنسبة لنا، وأوّل ساعة فيه بالنسبة لنا هي ساعة إعادة البشر إلى الحياة، وبعده أيام فيها ساعات من حشرنا وفرزنا، ومحاسبتنا... وعرض الأشهاد، الشفاعة، الحساب الجماعي للأمم، للأقوام، للأفراد... وأخيرا في آخر يوم تأتي ساعة دخول آخر شخص منّا إلى الجنّة أو النار.

(وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ{48})
{وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ}، هُنَا في الدنيا قبل الآخرة كانوا يدعون فَيُعْلِنُونَ ويشهرون بكلام يعبّر عن اعتبارهم لغيره تعالى أنهم آلهة، وهذا الإعلان ضَلَّ عنهم في يوم القيامة، لِأَنَّهُمْ بحاجة لمن ينجيهم وسيفقدون أي استفادة من إعلانهم عن غيره تعالى آلهة، وسيأتيك بعد قليل توسّع في شرح هذا.

{وَظَنُّوا}، واعتقد المشركون واستنادا لعلم صحيح بحسب ما يرونه في يوم القيامة من سيطرة الله تعالى وحده، ظنّوا أنهم، {مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ}، لَا يجدون أي حيصة أي حركة تنفعهم لتغيير ما هم فيه، لَا الركض ولا القفز ولا البحث عن آلهتهم ولا الاعتذار من الله تعالى... لَا يجدون أي شيء يمكن أن يفعلوه للخروج من المأزق.

لاحظ أنهم غير متيقنين، بل استنادا لما يرونه من تعذيب وتهديد في يوم القيامة، يظنون أنه لا مهرب لهم من العذاب في جهنّم، وَالْيَقِينُ سيحصل لهم عندما يتم رميهم في جهنّم.

كثيرا ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، وَهِيَ لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيرا أم شرا، إِذَا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضَلَّ عنك صيدها. وَاسْتَعْمَلَ القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، لَمْ تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، وَلَنْ يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون لِأَنَّهُ ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

بِالنِّسْبَةِ لكلمة ظنّ رَاجِعْ ما قلناه في دراسة الآية 23 من هذه السورة.

(لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاء الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُوسٌ قَنُوطٌ{49})
ندخل الآن على نفسية الغالب الأعمّ من الناس:

{لَا يَسْأَمُ}، لَا يشعر بالتثاقل وانتفاء الرغبة فيستمر ولا يشعر بحاجة للتوقّف، {الْإِنْسَانُ}، الغالب الأعمّ من الناس، {مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ}، بِكَثْرَةٍ يشهر ويعلن رغبته للحصول على الخير، على الصحّة على المال على النجاح...

{وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ}، حَصَلَ معه شيء لا يرى فيه الخير، كالفقر أو الخسارة في تجارة أو مرض شديد... {فَيَئُوسٌ}، يَتَوَقَّفُ عن محاولة تحقيق ما يريده لأنه لا يتحقّق، {قَنُوطٌ}، يقطع الأمل بشكل تام بسبب مرور الوقت الذي لم يحصل فيه ما يأمله. يَتَقَلَّبُ أمله نفسيا بين حالة استصعاب حصول ما يريده فَيَتَوَقَّفُ عن طلبه، وهذا اليأس، وبين حالة استحالة حصول ما يريده لَا حلّ لحصوله أو للحصول عليه، وهذا القنوط.

الدعاء هنا بمعناه الأعمّ، هُوَ أي إشهار وإعلان، وَهُوَ أي كلام من نوع الطلب أو التمنّي أو الترجّي... سواء من الله تعالى أو من غيره، أو هكذا مجرّد دعاء كإعلان عمّا يرغب به الإنسان من دون أن يطلبه لا منه تعالى ولا من غيره، نَحْنُ كمنتمين لدينه تعالى عَادَةً لا نفهم الدعاء بالإشهار والإعلان عن شيء نرغب بتحقّقه إلا بالطلب منه تعالى تحقيقه، نَذْكُرُهُ تعالى في أمانينا وما نرغبه حتى يحققه لنا، وهذا المفهوم تَرَكَّزَ في ذهننا وعمّمناه على الآخرين وَصِرْنَا نفسّر كلمة دعاء في القرآن من هذه الخلفية ولا نرى النوعية الأخرى من الناس الَّذِينَ يشهرون ويعلنون عمّا يريدون، يَدْعُونَ، من دون التوجّه بالطلب منه تعالى أو من غيره لتحقيق ما يريدون، مَسَحْنَا من قاموسنا عموم الأماني والرجاء والرغبة... وحصرناها بالطلب منه تعالى لتحقيقها. وهذا غير سليم، وبناء عليه نتج تفسيرنا لعامّة كلمة دعاء في القرآن بناء عليها.

خذ مثلا أمنية أن يكون شعري كثيفا، هَلْ لهذا الإعلان "دعاء بمعنى الطلب" منه تعالى لتحقيق ذلك لي؟ ونفس الشيء أمنيتي أن أكون ثريا بينما المعطيات كلها تشير إلى أني لن أصير ثريا إلا بحدث غير عادي، وهذا نادر جدا جدا حدوثه لِأَنَّ غَالِبِيَّةَ البشرية تتمنّى ذلك والنادرون جدا منهم حدث معهم شيء غير عادي وصاروا أثرياء.

اَلْكَلَامُ يجرّ الكلام، بِسَبَبِ هذا الاعتقاد بالدعاء أزحنا من فكرنا ونفسيتنا التوكّل عليه تعالى، وَلَمْ يعد له معنى بالنسبة لنا، لَدَيْنَا كمّ هائل من الأدعية والأذكار والأعمال ونقوش الخواتم والأحراز... التي تحقّق لنا ما نريده، ونحن مؤمنون بأنه حتى بدون أي عمل منّا سُبْحَانَهُ سيحقّق ما نريده؟! بينما حصر القرآن هذا بالطلب منه تعالى لتحقيق ما نريده فقط في حالة انقطاع السبل بنا ومحاولتنا لفعل كل ما يمكننا فعله، وإن كنّا مؤمنين من الدرجة العالية فسبحانه يستجيب لأن الذين في تلك الحالة الإيمانية العالية لن يطلبوا شيئا عبثيا أو فيه سوء... ولهم قيمة عنده تعالى ليحقّق لَهُمْ ما يرغبونه، وكمثال عن ذلك طلب النبي زكريا(ع) لولد، وطلب النبي سليمان(ع) لملك لا ينبغي لأحد من بعده... وإن كنّا من الدرجة الأقل إيمانيا فسبحانه بحكمته يُيَسِّرُ لنا الأمور إن كانت مصلحتنا الإيمانية تتماشى مع طلبنا... وهكذا وصولا إلى تيسيره تعالى أمور الكافرين به حتى يزدادوا إثما كما تقرأ في الآية 178 من سورة آل عمران {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}.

التوكّل عليه تعالى بمعنى الاعتقاد بسيطرته سبحانه على كلّ شيء، وأنا كمؤمن به أرغب بأن تكون أموري المعيشية والاجتماعية... ميسرة، وأعلم أنه تعالى قادر على تيسيرها إن أراد، وإن كان ذلك يصبّ في مصلحة إيماني، وإن كان هناك مقومات متوفرة لتحقيق التيسير في أموري، فالدعاء متوكّلا عليه تعالى لتيسير أموري هو دعاء له معنى، ولكن الدعاء له تعالى لتحقيق ما أريده هَذَا فيه مشكلة في الكثير من المواضيع التي لا معنى للدعاء فيها بهذا الشكل.

مَا معنى الدعاء له تعالى بتوفيقي في امتحان جامعي؟ هَلْ أنا درست جيدا وفهمت المواد وتدربت على الأسئلة ونمت جيدا قبل الامتحان و... وسأرسب؟ اَلتَّوَكُّلُ عليه تعالى من بعد قيامي بكل ما يمكنني فعله لأن أحداثا أكبر من قدرتي على التحكّم بها تُعِيقُ نجاحي... مَا معنى نجاحي في امتحان الطبّ لأنه تعالى استجاب لدعائي وصرت طبيبا وأنا لم أدرس جيدا ولكنه تعالى وفّقني وجاء السؤال الوحيد الذي كنت أعلمه، هَلْ أدعوه تعالى ليلهمني الدواء المناسب للمريض الذي أعالجه لأنه نجّحني بسبب دعائي أو بسبب أدعية أمّي ورضاها عنّي... أو بسبب الحرز أو النقش الذي على خاتمي... وأنا لست مؤهلا لأكون طبيبا! وهل يوجد في القرآن شيء من هذه الثقافة الدارجة بين الناس على أنها من نتائج الإيمان به تعالى!

نَنْتَبِهُ أيضا، اَلْآيَاتُ لا تتحدّث عن حالة نفسية واحدة لهؤلاء الناس، بل عن حالات نفسية متعدّدة متنوّعة، مَرَّةً ييأس، ومرة يقنط... ومرة يضع اللوم على الله تعالى، ومرة يضع اللوم على نفسه أو على الظروف أو على الناس أو على الآلهة التي اخترعها... اِنْتَبِهْ عندما يعرض القرآن الحالة النفسية لهؤلاء، اَلْقُرْآنُ لا يقول بأن حالة اليأس وحيدة، وحالة القنوط وحيدة وحالة الأمل بالله تعالى وحيدة... لا، هَذَا غير صحيح، بل يعرض لنا الحالات المختلفة التي يمر بها الغالب الأعم من الناس في ظروف مختلفة، هُمْ نفس الأشخاص يمرون بحالات مختلفة، مَرَّةً ييأسون ومرة يقنطون ومرة يدعون الله تعالى ومرة يضعون اللوم عليه سبحانه ومرة يلومون الظروف...

أطلت عليك الكلام لأن المعرضين الَّذِينَ يلغون في آيات الله تعالى قَالُوا في كتبهم ومقالاتهم إِنَّ القرآن فيه تناقض، مَرَّةً يقول بأن من يمسّه الشر يقنط ومرة يقول بأن من يمسّه الشرّ يدعو الله تعالى... وهذا تناقض في كلام القرآن... وكما ترى هُمْ لاغون في الآيات بالرغم من علمهم بسخافة ما يقولون، لأنهم يعلمون من أنفسهم مرورهم بحالات نفسية مختلفة، والقرآن يعرض مختلف الحالات النفسية كنماذج، ولكنهم معرضون لاغون، وهنا سورتنا هذه مخصّصة لهم لتنذرهم من العقاب الغليظ الشديد الأليم، ولكن في آذانهم وقر وهم عمي وآخرتهم إلى النار وهم يستحقّونها عن جدارة.

ضع في بالك دائما أن القرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموما ذكرا وأنثى، وأنهم يتناسلون... أو مُتَعَلِّقٍ بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ{50})

{وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا}، إِذَا جعل سبحانه الإنسان يشعر بالعناية به لما فيه مصلحته، وَحَصَلَ على الخير، {مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ}، من بعد أحوال سيّئة شعر بها بشكل قوي، مَرِضَ أو افتقر أو شعر بالخوف من خطر الأعداء... عندها، {لَيَقُولَنَّ}:

{هَذَا لِي}، هذا بسبب جهودي ولذلك حصل معي، وَوَضْعِي الصحّي أو المالي أو الأمني... الجيّد هُوَ بسبب تخطيطي وشطارتي لتخطّي الصعاب والتعامل مع الأمور بطريقتي الصحيحة. وَرَدَتْ صيغة أخرى لنفس المعنى في الآية 49 من سورة الزمر {فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}، ونفس التفكير والنفسية لقارون كما ورد في الآية 78 من سورة القصص {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي...}.

{وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً}، مَا يقولونه عن وجود ساعة لقيامنا من الموت اسْتِنَادًا لمعلوماتي هَذِهِ الساعة لن تقوم وَلَنْ تحصل وَهِيَ لن تتفعّل بَلْ مجرد كلام لن يتحقّق، {وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي}، فَرْضًا حصلت الساعة ورجعت من الموت لأقف بين يدي المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى}، سَأَجِدُ عنده الأمور الحسنة وَسَأَكُونُ مرتاحا.

لاحظ الآيتين عرضتا الصورة أمامك وتركتك أنت تستنتج، هَذَا الشخص من نوعية تندرج تحتها غالبية الناس، وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بالآخرة بشكل يقيني، ويتركون احتمالا ضئيلا جدا جدا لحصولها، وهؤلاء في حالات كثيرة من حياتهم لا يحضر سبحانه في بالهم إلا في الشدائد القوية، أمّا في الحالات العادية فهم يعتقدون أن هذه الحياة تسير لوحدها، وهم محظوظون أو بجهدهم وشطارتهم صارت ظروفهم أحسن، ولا يذهب فكرك فقط للأغنياء، حَتَّى الفقير الحامل لهذه النفسية السيئة والذي صار عنده إبريق شاي جديد، لَنْ يشكره تعالى عليه، وفي لحظات أو بعض أوقات حياته سيشعر بالزهو والفخر والانشراح وسيقول: هذا الإبريق لي. فيرى نفسه محظوظا وحاله أفضل من الآخرين لأن الحياة تسير لصالحه في مسألة إبريق الشاي...! والغني الثري لديه المال والبيوت وَالسَّيَّارَاتُ والعقارات... ويراها كلّها من حظّه من الحياة، وَلَا يريد سماع أي فكرة عن تقييد تصرفاته بما لديه من متاع الدنيا، فلا يريد سماع الوعظ الديني عن الحلال والحرام، والحسنات والصدقة، والجنّة والنار، وأن الرزق منه تعالى... بِسَبَبِ عمى قلب هؤلاء الناس يقولون: إذا فرضا كان يوجد آخرة كما يقول المتدينون، فلا أجد أي سبب لا يجعلني أحصل على حياة رائعة هناك أيضا.

{فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، سَنُخْبِرُ الذين أنكروا نعمة الله تعالى عليهم بخبر غير منتشر، {بِمَا عَمِلُوا}، وهنا الكلام عن إنكارهم لنعمته تعالى عليهم النابع من إنكارهم لآياته ودينه، فِي الآخرة سيذكّرهم سبحانه بذلك ليريهم أنهم لا يستحقون إلا العذاب... {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ}، اَلضَّرَرُ الشديد الذي لا تهاون فِيهِ ولا تساهل سَوْفَ يحسّون ويشعرون به كما هو بغلظته، هُنَا في الدنيا وبعد مدّة من التعذيب يفقد الناس الإحساس بالألم، أمّا في الآخرة فدائما سيشعرون بالألم القوي جدا.

نَتَذَكَّرُ أن السورة في لبّها تتحدّث عن المعرضين عن الآيات الإلهية، عن اللاغين الملحدين فيها، وَجَّهَتْ كلامها في بدايتها للذين جعلوا له تعالى شركاء، والآن توجّه كلامها لمن اعتدّ بنفسه فرأى أنه بذكائه وحنكته وجهده جعل ظروف حياته أفضل، أو اعتقد بأن الصدفة والظروف المناسبة جعلت حياته أفضل، أو... وَتَكَرَّرَ هذا الأسلوب فِي عِدَّةِ سُوَرٍ. وكما ترى اَلْقُرْآنُ جعل المعتدّ بنفسه مماثلا مشابها للمشركين من ناحية إخراجهم له تعالى من "كامل أو بعض شؤون" حياتهم وإدخال إله غيره، وفي الآية التالية سنتوسّع قليلا في الكلام.

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ{51})
{وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ}، إِذَا جعله تعالى في نعمة في أشياء جيّدة من الصحّة أو المال أو الأمن أو الأولاد أو النجاح في الدراسة أو العمل... وَالْغَالِبُ الأعمّ من الناس عندما يصيرون في نعمة، {أَعْرَضَ}، تَرَكَ المعروض عليه وَلَمْ يهتمّ به، {وَنَأَى بِجَانِبِهِ}، حَيْثُ ابْتَعَدَ إلى جانب إلى ناحية، إلى أي حالة غير الإيمان به تعالى كمنعم عليه، كالاعتقاد بآلهة أخرى أو بالصدفة أو بذكائه وحنكته... وَهُنَا الآيات لا تتحدّث عن المشركين فقط، بل عن عموم من لديه هذه النفسية الابتعادية "الإعراض" عن الاعتراف بنعمته تعالى "لأنه لم ير أي أهمية لذلك" والنأي بالذهاب لأي شيء آخر غيره تعالى كمؤثّر في حياته.

{وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ}، إِذَا حصلت معه أمور شريرة لا خير فيها كالفشل في الدراسة أو التجارة أو المرض أو الخوف... وتلبّس بشعور الإحساس بالشرّ، {فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ}! عندها يصير منسوبا له الإشهار والإعلان بشكل مفصّل مطوّل، حَيْثُ بشكل مطوّل غير عادي يعلن عن رَغْبَتِهِ بكذا وكذا أو يتوجّه نحوه تعالى بالطلب لكشف الشرّ الذي مسّه، كما نقول: قدّم عريضة. ونقصد أنه قَدَّمَ كَلَامًا مُسْهَبًا طويلا، هُنَا توصّف الآية غالبية الناس بإعلانهم عن عريضة عن الشيء الذي يريدونه عندما يقعون في ورطة.

لاحظ انتقال السورة من الإعراض عن آياته تعالى إلى الإعراض عن الاعتراف بنعمته تعالى، والاعتقاد بأنه تعالى لا علاقة له بالأمور الجيدة التي تحصل معهم، وأن آلهتهم أو شطارتهم سبّبت النعمة التي هم فيها، ولا تزال السورة تعرض التناقض في عقلية ونفسية الغالب الأعمّ من الناس، مَرَّةً يدعونه تعالى في الورطات وَمَرَّةً يعرضون عنه تعالى

معتقدين بأنهم هم سبب النعمة التي صاروا فيها... وفي الفقرات السابقة كان التركيز أكثر على المعتقدين بآلهة غيره تعالى أنها سبّبت لهم النعمة.

نَضَعُ في بالنا مرونة النص، إِذِ الْغَالِبُ على عموم ثقافتنا التعامل مع القرآن والروايات بصلابة النص، وكأنها دائما تتحدّث عن أمور مطلقة ثابتة، بينما أحيانا يكون النص يتحدّث عن نماذج أو حالات، هُنَا يَدَّعِي أحدهم وبضبابية أَنَّ آيتنا ليست صحيحة، فَهُنَاكَ الأثرياء الذين بمالهم ونفوذهم يحصلون على ما يريدون، وَأَيُّ مشكلة سيحلّونها بالمال الذي يملكونه... وَيَدَّعِي أحدهم وبضبابية أَنَّ هؤلاء لا يعانون من مشاكل، أو إن وقعوا في ورطة فَالْبَعْضُ منهم لن يدعونه تعالى لأنهم ملحدون على معنى إنكارهم لوجود أي إله...

نعم تَمُرُّ حالات كفر مستعصية تجعل الإنسان حتى في أحلك الظروف كافرا به تعالى، بل حانقا غاضبا عليه تعالى لأنه لم يتدخّل ليساعده قبل وقوع الورطة...

كما ترى، صَارَ في الآية مرونة متوسّعة تشمل عموم حالات تحصل، حَتَّى أعتى الملحدين به تعالى، سيمرّ عليهم ظروف يفقدون فيها السيطرة على أوضاعهم، ويطلبون تدخلّ قدرة إلهية لمساعدتهم، وربما هم مجرمون ارتكبوا جريمة قتل، أو نهب أو نصب... ويخافون من عقاب الدولة... وَيَطْلُبُونَ مساعدته تعالى! وفي نفس الوقت لا يعلنون توبتهم! أو يعلنون توبة كاذبة!

أطلت عليك الكلام لأن غبيا متذاكيا كتب مقالا عن أمثال آيتنا هذه ويقول فيها أَنَّهُ من وقت ما ألحد وكفر بكل شيء ديني، يَعْتَمِدُ على نفسه فقط وفقط في حلّ مشاكله ولا يدعوه تعالى أبدا بتاتا... وبالتالي آيَتُنَا هنا وأمثالها كاذبة، وهو شخصيا مثال عن كذبها...

هو الكذّاب، هَا التاريخ واعترافات عموم الناس تشهد بأنهم في الورطات التي لا يرون لها حلا بالطرق المعلومة، يَتَوَجَّهُونَ نحوه تعالى، وبالحدّ الأدنى يتوجّهون باللوم نحوه تعالى لأنه لم يتدخّل لمساعدتهم، وهكذا خلقنا سبحانه بحيث نشعر بقدرته الفائقة عندما نفقد الأمل من قدراتنا، لِأَنَّ مُحِيطَنَا مشحون بما يجعل هذه الخاصية متفعلة فينا، نَحْنُ ضعفاء أمام الطبيعة، لَا تحكّم لنا بالمطر ولا بالعواصف ولا بالزلازل ولا بالبراكين... ونحن ضعفاء أمام الظروف الإنسانية، حَيْثُ الأقوى والمتسلّط بالحكومة والعصابة... والأشرار... يفرضون علينا ظروفا قاهرة...

من هذه البيئة التصق بنا التعلّق بقدرة فائقة قادرة على تغيير أي ظرف كان، وترى في القرآن تأكيدا على ذلك، وترى تقصّد خلقه تعالى لنا بفكر وبيئة تدفعنا لذلك، وصياغة الكلام القرآني أشارت لخلقتنا ولبيئتنا والليل والنهار والشمس والقمر وموتنا... والظروف التي نتعرّض لها... لترينا أننا فاقدون للسيطرة على كثير من مفردات تتعلّق بحياتنا.

مِنْ ناحية ثانية هُوَ نفسه هذا العرض القرآني، وعمره إلى الآن قرابة الألف وخمسمئة سنة، تَجِدُ من يظن نفسه أبهرنا باكتشافه لأساس اختراع الإنسان للإله! يَقُولُ إِنَّ جهل الإنسان لأسباب حصول الأشياء جعله يخترع إلها، وضعفه أمام الظروف جعله يخترع إلها ليساعده. وكما ترى هَذَا كلام عرضه القرآن من قبل وصوّبه.

مَنْ "اخترع" إلها بناء على جهله بسبب نزول الماء وحصول العواصف... فَهَذَا لم يخترع إلها، وإنما تفعّلت فيه القدرة التي جعلها تعالى فيه للتعرّف عليه سبحانه في بيئة مشحونة بما يفعّل فيه التعلّق بإلهه. وها أمامك كل كلام القرآن الذي صوّب الفكرة من جهلنا بآليات ما يحصل لنسبتها لقوة خارقة واختراع إله لها، وَصَوَّبَهَا من ذلك إلى ظواهر صمّمها وخلقها الإله لتكون ملفتة لنا كدلالة على عظمة قدراته، وينسب كل ما فيها أَنَّهُ من صنعه تعالى وحتى الذي نفعله نحن بأيدينا، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 64 من سورة الواقعة {أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ} رَاجِعْ دراستها، إِذْ لَمْ يعتمد القرآن ولم يعرض عليك الإيمان به تعالى بسبب جهلك لأسباب ما يحدث من ظواهر.

نعم وللأسف، وكما يبدو من الكتب وَقَعَتِ الغالبية الساحقة من المنتمين لدينه تعالى قديما وحديثا فيما وقع فيه المخترعون للآلهة، وترى ذلك جليا في تفسير المتدينين لكلامه تعالى على أساس القدرة الإلهية العجيبة التي تفعل الأشياء بلا آليات، يَقُولُ للمطر: انْزِلْ. فَوْرًا ينزل الماء. وبعد اكتشافنا لآليات نزول الماء من تبخّر وتراكم وتكثّف... دفع المتدينون الإله إلى ما خلف ذلك مما يجهلونه، وَقَالُوا إِنَّ تصميم البيئة جرى بأمر إلهي سبّب نزول الماء بآليات نراها من ناحيتنا ولكنها في العمق إنما تحصل بأمر إلهي... وَهَكَذَا ترى كيف حافظ المتدينون على التمسّك بفكرة فعله

تعالى للأشياء بدون أسباب مع تطويرها، وأبقوه تعالى فاعلا بلا آليات للأمور التي يجهلون آليات حصولها، حَتَّى عَهْدٍ قريب تاه المتدينون من الصورة الصوتية للحامل وَالَّتِي يتبيّن منها نوع الجنين إن كان ذكرا أو أنثى... وَاعْتَبَرُوهُ خرقا لشيء كان من اختصاص الإله!

من أفكار المتدينين هذه التي تُعْرَضُ على الآخرين على أساس أنها دينه تعالى، انطلق غير المؤمنين للتعليق على دينه تعالى، والعلماء المتخصصون منهم في مجالهم معهم الكثير من الحقّ فيما قالوه ردّا على الدين الذي يعرضه عليهم المتدينون، أمّا أساس كلامه تعالى فمختلف.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ{52})
{قُلْ}، أيها النبي(ع) عبر هذا القرآن، {أَرَأَيْتُمْ}، إن صار عندكم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: شفتوا. {إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}، ما أنتم فيه من نعمة وخير، {ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ}، أنكرتم نعمته تعالى عليكم. والسؤال في هذه الحالة: {مَنْ أَضَلُّ}، من الأكثر بعدا عمّا ينفعه ويرغبه العاقلون، {مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ}، في مفارقة وانقسام، {بَعِيدٍ}، بعيد عمّن كفرتم به، بعيد عنه تعالى؟

بعبارة أخرى، هَذِهِ حالة هذه النوعية من الناس، ونسألهم: من كان يحصل على النعمة والخير في حياته من الله تعالى، ثم كفر به كإله منعم عليه بالحياة أو بالصحّة أو بالنجاح... فَهَذَا صار في شقاق بعيد، وَهُوَ مفارق مبتعد عنه تعالى المنعم عليه، هَلْ يوجد أحد أكثر منه موصوف بالابتعاد عن الطريق الصحيح؟

هذه الآية تفهمها مع استحضار حالة إعراضهم، لِأَنَّهُمْ لو فكّروا بعقلانية لوصلوا إلى نتيجة الاعتراف بنعمته تعالى عليهم، ولكنهم أعرضوا، تَسْأَلُهُمُ الآية: ماذا لو كان صحيحا ما أعرضتم عنه؟ ألن تكونوا حينها من الضالين من نوعية المبتعدين عنه تعالى؟ وهذا موضوع لا يقبل التهاون فيه والاستهتار، لِأَنَّهُ شقاق معه تعالى، الإله، وليس شقاقا مع إنسان حتى يكون شيئا لا تأثير كبير له. هَلْ فكّرتم في هذه النقطة؟

مُنْذُ قليل في الآية 48 توسعنا في معنى كلمة "ضلّ" رَاجِعْهُ.

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ{53})
{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا}، سيجعل سبحانه عندهم صورة محدّدة للأمور المميزة المنسوبة له، الأمور المميزة التي تؤكّد بأنه تعالى الإله الأحد المنعم المسيطر على كلّ شيء، سنريهم إياها، {فِي الْآفَاقِ}، في آخر حدود النواحي التي ينظرون إليها، في آخر حدود نظرهم، في الجبال والسهول والشمس والقمر والنجوم والمجرات... في الحيوانات والنباتات وَأَلْوَانِهَا وأشكالها...

وسنريهم الآيات، {فِي أَنْفُسِهِمْ}، في كيانهم وحياتهم ووعيهم وفكرهم... في خلقتهم وأحاسيسهم... في ولادتهم وخصائص جسدهم... {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ}، حتى يظهر لهم بشكل واضح، {أَنَّهُ الْحَقُّ}، والكلام هنا عن التصديق بأن الله تعالى هو الإله الأحد الخالق المنعم...

يعني سيرون آياته تعالى في أقرب شيء، في أنفسهم، وفي أبعد شيء، في الْآفَاقِ، وطبعا هذا يشمل فيما بين أنفسهم وَالْآفَاقِ من آيات.

{أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ}، بالمسؤول عنك من مستوى إلهي، {أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}؟ مِنْ ناحية سنجعلهم يحتكّون بالأمور التي تدل على الله تعالى وصفاته كيفما داروا والتفتوا حولهم، وحتى لو فقط فكّروا في كيانهم الذاتي، فَسَيَرَوْنَ آياته تعالى، وهذا أكثر من كاف لهم ليؤمنوا، وهكذا يكون سبحانه أَلْزَمَهُمُ الحجّة، حِينَ أمرهم بتوحيده وطاعته وتوعّدهم بالعذاب على الكفر به، فَهَا الآيات في كل شيء تدل عليه تعالى، ويكفي أنه تعالى شهيد على كلّ شيء، يَعْلَمُ ويرى ويسمع بما يحصل معهم أمام آياته، لِذَا لَا يمكنهم في يوم القيامة الِاعْتِرَاضُ والقول بأنهم لم يروا آيات تقنعهم بتوحيده تعالى والإيمان به وبصفاته، ولا يمكنهم القول بأن الآيات ناقصة أو ضعيفة، ولا يمكنهم القول بأنها لم تكن كافية لإقناعهم... لأنه تعالى على كلّ شيء شهيد، يَعْلَمُ سبحانه أن الآيات واضحة وكافية، بل أكثر من كافية، ويعلم سبحانه أنهم حين رأوها تَبَيَّنَ لهم أنها آيات، ولكنهم أصرّوا على الإعراض عنها وجحدها واللغو فيها...

(أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاء رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ{54})
{أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ}، والمرية هي عموم أي كلام تافه فارغ لا عقلاني ولا منطقي ولا يستند لدليل أو مشاهدة حسيّة... رَغْمَ قوّة الآيات التي تدل على حتميّة لقائهم مع المسؤول عنهم من مستوى إلهي، فَهُمْ يقولون كلاما فارغا تافها يعبّرون به عن كفرهم بلقائه تعالى.

هُمْ أمام كلام صادر عن الإله خالقهم رازقهم المنعم عليهم... ويخبرهم بأنهم ملاقوه ليتحاسبوا على الأمور السيئة التي يَفْعَلُونَهَا، ويريهم سبحانه أدلة ملموسة على ذلك من خلقهم وخلق النباتات... فَيُعْرِضُونَ عن ذلك ويقولون كلاما فارغا تافها رافضين الإيمان بلقائه تعالى.

{أَلَا إِنَّهُ}، يُخْبِرُكُمْ سبحانه بشيء أكيد أنه، {بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ}، لَا يخرج أي شيء عن سيطرته ولا عن علمه سبحانه، وَلَا يوجد أي شيء مهما كان صغيرا أو كبيرا خارج حدود سيطرته تعالى وعلمه. هُمُ الآن يشعرون ببعدهم عن سيطرته تعالى، فَيَأْخُذُونَ راحتهم بالإعراض عن آياته واللغو فيها والمماراة، وهم يرون أنفسهم بَعِيدِينَ عن عقاب الآخرة... وهذا غير صحيح، لَا هنا في الدنيا هم خارج ملكه تعالى، ولا في الآخرة هم خارج ملكه تعالى، بل هو سبحانه وتعالى، {بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ}.

سورة الشورى (42) ص 483
كانت قديما تسمى سورة {حم عسق}.

كلّها عن الولاية، عمّن اتخذ وليا غيره تعالى، مع عرض لأبرز نماذج مما نحن فيه فعلا من الولاية له تعالى من التبعية لقراراته تعالى الإجبارية علينا في إحيائنا وخلق بيئتنا والدنيا... وفي الرزق... وفيما قرّره لنا في آخرتنا من حساب وجزاء... وفي فقداننا السيطرة على نماذج من مجريات حياتنا وَعَارِضَةً نموذج كمية الرزق ونموذج حركة السفن بالرياح التي لا سيطرة لنا عليها... وأمور أخرى... لنرى أنه لا معنى من الخروج عن ولايته تعالى في توحيد الألوهية والدين له سبحانه، منتقلة خلال كلامها إِلَى المعنى العملي لولايته تعالى بالتطبيق لتشريعه سبحانه النازل قديما وفي هذا القرآن...

تراها تربط بين ما كسبناه من أعمالنا وبين ما ينتج عنه هنا في الدنيا، وما سينتج عنه في الآخرة.

فيما قبل آخرها رَبَطَتْ ولايته تعالى بتصرفات المؤمنين مع المعادين لهم...

نصل إلى آخرها مع نموذج ولايته العملية علينا في مسألة خلافتنا له تعالى على الأرض... لتدخل من هناك إلى الوحي الإلهي النازل بهذا الكلام ليكون هاديا للناس...

نلاحظ فيها تكرار الابتداء باسم الجلالة "اللَّهِ" كذا... في أواسط الآيات، ونلاحظ إهمالها لأحرف العطف في العديد من جملها.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(حم{1})
(عسق{2})
هذه آيات نتهجّاها مقطّعة هكذا: حا ميم. عين سين قاف.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوَّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوِّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

(كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{3})
{كَذَلِكَ}، بمثل الأحرف التي سبق ذكرها {حم عسق} {يُوحِي إِلَيْكَ}، يصل إلى فكرك ووعيك معلومات بلا صوت ولا كلام مسموع عن طريق الأذن بل مباشرة إلى وعيك، وبعد قليل سنتوسّع في معنى كلمة وحي.

كذلك يوحي، {إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ}، من الرسل كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، ومضمون الوحي هو:

{اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز له سبحانه، {الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... {الْحَكِيمُ}، وكلمة حكمة ومشتقاتها تشير لعموم ضبط الشيء على المطلوب: على الصوابية على الحقّ... وعلى نفس المعنى الأساسي نقول: أحكم الوثاق، حكم بالعدل، حكومة على الناس... وتفسير الحكمة بالأهداف والغايات السامية هو من تبعات تطبيق صوابية الحقّ، ووصفه تعالى بالحكيم يشير لصوابية نظرته في الأمور وأن قراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب، وقراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول إنَّ أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، لأنه لا يفعل لغاية له سبحانه.

عبر تاريخ الناس، ولامتداد من آلاف السنين من قبلك، نزل الوحي الإلهي على بعض الرجال ليكونوا رسلاً للناس، وكان صاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى هو الموحي لهم، وأوحى تعالى لهم لا لأنه يحتاج ليوحي لهم، ولا لأنه يحتاج لهم، أو لأنه يحتاج ليفعلوا شيئاً له، ولا يحتاج أن تؤمن به الناس فلن يستفيد من أي شيء {عَزِيزٌ}، وأصلاً سبحانه وتعالى لا يحتاج لأي شيء، ولا ينقصه شيء، ولا يتأثر بأي شيء... وستفهم هذا المعنى أكثر عندما تسمع بعض الناس يتحدّثون عن حاجته تعالى للرسل ليوصلوا رسالته، ونجد في أدبيات أهل الكتاب، تمرّد ودلع بعض الرسل عليه تعالى! على أساس حاجته سبحانه لهم بينما هم يعارضون ويناقشون... بعض الأوامر الإلهية! وتجد في أدبيات المشركين به تعالى والعلمانيين المحللين بذكائهم الخارق لنفسية الإله، تسمع عن احتياج الإله إلى من يعبده وإلا فلن يكون إلهاً وسيفقد أهميته... وهذا كلّه تنفيه عنه تعالى صفة العزيز.

النقطة الثانية أنه تعالى حكيم، فلم يوح عن عبث أو تسلية، مثلما تتصل بصديقك عبثاً فقط لتمضية الوقت معه على الهاتف، ولم ينزّل معلومات لا قيمة لها، كرواية للتسلية أو كلام للترفيه أو كلام لغو... بل هو الله حكيم وما أوحاه عن حكمة والمحتوى حكيم، وهذا القرآن نموذج عن ذلك.

كلمة وحي نقولها لعموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خيراً أم شرّاً، وبناء عليه كل أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وحياً لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وترى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}، وحتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...}.

ينطبق فعل الوحي على أي كائن كان "إنساناً، حيواناً، ملكاً أو جنّاً" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم.

طرق فعل الوحي وأنواعه متعددة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا} لأنه كان صائماً عن الكلام إجبارياً، راجع تفسير الآية... ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}، وما ورد في الآية 193 و 194 من سورة الشعراء {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ}. أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ...}، وهي حالة الوحي العامة للأنبياء والرسل كما هو مشهور في تراثنا الديني.

هناك وحي عبر إصداره تعالى صوتاً في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، مضافاً لها الآية 13 من سورة طه {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}، فكلامه تعالى معه(ع) وحيٌ لأن الكلام ليس صادراً مباشرة منه تعالى فهذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، ويصير وصف الحالة أن كلامي يصلك وحياً.

هناك وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} ففي النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

الوحي يصدق على وحي الخير والشر، فالشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا...} ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... فالوسوسة في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيراً أو شرّاً فهو وحي.

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ{4})
{لَهُ}، منسوب لله تعالى، {مَا فِي السَّمَاوَاتِ} "السبع" {وَمَا فِي الْأَرْضِ}، وهذا التعبير القرآني يرادف: له كل شيء. فلا يوجد في عالم المخلوقات إلا السماوات السبع بما فيها وبما يقابلها من أرض وصولاً إلى الأرض التي نحن عليها، وهذا كل شيء في الدنيا، وكلها له تعالى.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائماً أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...} وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا

يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراضٍ.

عادةً نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير مستبدلين تعبير السماوات والأرض بالدنيا، فنقول: خلق سبحانه الدنيا. أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيراً صحيحاً دقيقاً بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم {فَلِلَّهِ الْآَخِرَةُ وَالْأُولَى}. وسبحانه دقيق في تعابيره ويحدّثنا بدقّة عمّا يعلمه، وكلامه تعالى عن السماوات والأرض هو كلام عن علم بما أمامه سبحانه، وسبحانه دائماً يتكلم بشفافية عمّا يراه فقط، أمّا الكلام عن كلّ ما في الدنيا، هو كلام عمومي ويشمل "نظرياً" ما هو خارج العلم، ولذلك لم يستعمله تعالى، بينما نرى استعماله في كلام عموم البشر لأننا نتساهل ونتراخى في التعبير.

بناءً عليه بكل شفافية يتحدّث سبحانه معنا ويخبرنا أنه هو من جانب وحده الإله، والبقية غيره هم السماوات والأرض بما فيهن من كائنات وظواهر، ولا شيء آخر، ولم يلمس سبحانه أي أثر لأي شيء آخر، فهناك إله واحد والبقية كلّهم هو تعالى خلقهم، وهذا خبر منه تعالى لنا من نظرته العالية، وبشفافية يخبرنا أنه تعالى لم يلمس ولا أي نوع من الأثر لكائن إلا نفسه وما ضمن السماوات والأرض من مخلوقات التي هو تعالى صمّمها وخلقها كلّها، ولا يزال لوحده يتابع شؤونها، ولم يلمس ولا أي أثر لغيره في سلطته تعالى على العرش...

{وَهُوَ الْعَلِيُّ}، الأعلى من كلّ شيء، فكل بقية الكائنات تحته تعالى بالمواصفات والقدرات.

{الْعَظِيمُ}، بمقارنته تعالى مع مخلوقاته نفهم أن كل صفة "حسنة: له الأسماء الحسنى" موجودة في مخلوقاته فلديه سبحانه صفة أعظم منها، فهم يرون وهو تعالى يرى بشكل أعظم، هم يسمعون وسبحانه يسمع بشكل أعظم... ولديه صفات لا نفهمها ولا نعلمها...

هكذا سبحانه يتبع له كل شيء فيملكه ويسيطر عليه ويدير شؤونه... وهو أعلى وأعظم من كلّ شيء، وهذا هو الذي أوحى به إليك وإلى الذين من قبلك بحسب سياق الآيات السابقة.

هناك صفات له تعالى لا معنى لها إن لم يوجد مخلوقات، حيث لا معنى للقول عنه تعالى "رازق" إذا لم يكن هناك مخلوق يحصل على الرزق، وهكذا العديد من الصفات الأخرى "الشافي الغافر المحيط..." ولكن هناك صفات لا علاقة لها بالكائنات بتاتاً، فهو تعالى حي قيوم، وهاتان الصفتان تنطبقان عليه تعالى حتى لو لم يكن هناك أحد غيره، وحتى لو كان لوحده. وهناك صفات موجودة فيه تعالى ولكن لا معنى عملياً لها إذا لم توجد كائنات، مثل السميع البصير، فهو تعالى متّصف بهاتين الصفتين ولكن إذا لم يوجد أحد غيره تعالى ليبصره ويسمعه تعالى، فلا معنى عملياً لوصفه تعالى بهاتين الصفتين. هنا صفتا العلي العظيم لا معنى عملياً لهما إذا لم يكن هناك مخلوق ووصفناه تعالى بأعلى وأعظم من المخلوق.

بهذا الكلام البسيط اختصرت لك كلاماً طويلاً شائكاً تجده في الكتب عن فلسفة وفذلكة تصنيف أسمائه وصفاته تعالى، بين أسماء وصفات ذاتية وأسماء أفعال...

لكن ننتبه على صفاته تعالى التي تفوق قدرتنا على تصوّرها وفهمها، حيث هناك الصفات التي لدينا، فنحن نسمع ونرى... ونقارنها بصفاته تعالى طبعاً مع الفارق، هنا ننتبه دائماً لصفات لديه تعالى نجهلها ولا يمكننا أصلاً تصوّرها ولا تخيّلها ولا فهمها حتى لو جرى شرحها لنا... لأن طبيعة تكوينه تعالى مختلفة بشكل هائل جداً جداً عن مخلوقاته.

ننتبه دائماً أيضاً لصفاته تعالى التي نظنّ أننا نفهمها ولكننا لا نفهمها على حقيقتها، بل بالتقريب نفهمها، فأنا أرى ما أمامي بعيني، والله تعالى يرى ولكن ليس بالعينين، فيرى بشكل أعلى وأعظم وصفاً للرؤية مما أنا أرى، وأنا أعلم أنه تعالى يرى ما في السماوات كلها في كل نقطة منها، فأعلم بذلك ولكن هل أفهمه؟ وهل أستوعبه؟ لا، لا أنا ولا الرسل(ع) ولا الملائكة(ع) ولا أي مخلوق يمكنه أن يستوعب ويفهم حقيقة صفاته تعالى لأنها أعلى وأعظم من أي فكرة أو علم أو تصوّر من قدرة أي مخلوق على تصوّرها.

بمناسبة الكلام عن صفاته تعالى نكمل الكلام من الآية السابقة مع الآية هنا ليصير لدينا: أوحى العزيز الحكيم المنسوب له كل شيء العلي العظيم. وبناء على فهمنا لصفاته تعالى نقول: عزيز هي صفة ذاتية له تعالى يتّصف بها حتى لو لم يوجد مخلوقات، لأنها تعبّر عن ذاته تعالى، وهي من أعمق أساسيات الصفات الذاتية الإلهية، مثل الحيّ القيّوم، والصفة الثانية حكيم تعبّر أيضاً عن صفة ذاتية له تعالى حتى لو لم يوجد مخلوقات، ولكن لا بد من وجود مخلوقات لترجمتها عملياً، فتصفه تعالى هكذا لوحده بأنه إن فعل أو قال فهو حكيم، ولكن عملياً هو وصف لقوله وفعله، وجملة النسبة "له كل شيء"، عملياً هي وصف تبعية المخلوقات له، ومالكيته وسيطرته وإدارته سبحانه لكل شيء، وهذه الصفات حتماً لا معنى لها لولا صيرانها فعلياً وتحقّقها، فيكون هناك شيء مخلوق وتنسبه له تعالى وتصفه بالخالق، وننتقل لصفتي العلي العظيم كمقارنة صريحة بينه تعالى وبين مخلوقاته فهما صفتان يصير لهما معنى عمليّ حين يصير هناك مخلوقات.

إذن نحن أمام: صفة العزيز الذاتية، وصفة الحكيم المرتبطة بالفعل والقول، وصفة الفعل والقول تترجم عملياً بنسبة كل المخلوقات من كائنات وظواهر له تعالى "له ما في..."، وأخيراً صفتا المقارنة بينه تعالى وبين مخلوقاته فهو أعلى وأعظم منهم.

هكذا نقف أمام هذه الصفات المتنوعة لينتبه الجميع لصفات الذي يتكلّم معنا عبر هذا القرآن.

(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{5})

{تَكَادُ السَّمَاوَاتُ}، أي على شعرة، حيث بقي للسماوات القليل حتى، {يَتَفَطَّرْنَ}، ليصير فيهن شقوق ويخرج شيء ما منها، حيث لا تعد السماوات متماسكة طباقاً بل يتشققن، {مِن فَوْقِهِنَّ}، لأن كل سماء فوقها سماء، والسماء الأخيرة هي السماء العالية التي نفترض أن فيها الملائكة(ع) العالية، فهذه السماء هي الأقرب لبداية نزول الوحي الإلهي لأن الكتاب الإلهي موجود هناك وعبر الملائكة الناقلة له من هناك، ومن عظمة وعلوّه سبحانه حين يحصل نزول للوحي تكاد السماوات تنهار وتتداخل ولا تعد كل واحدة منها متماسكة كطبقة عن الأخرى، وتحتها سماء تكاد أيضاً تتفطّر من عظمة الله تعالى... وهكذا وصولاً إلى آخر سماء، فكل سماء من فوقها تكاد تتفطّر لأن السماء التي فوقها تكاد تتفطّر.

{وَالْمَلَائِكَةُ}، الكائنات الموصوفة بأنها تملك شيئاً مميزاً، وهذا صار اسماً لنوع من الكائنات التي تملك قدرات عالية ومؤمنة وأمينة ومطيعة له تعالى... {يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ}، بسبب معرفتهم بعلوّ وعظمة المسؤول عنهم من مستوى إلهي يسبّحون بحمده فينزّهونه عن الصفات الناقصة والتي لا تليق به والتي تنافي وصفه بالحمد، لأن كل ما يصدر عنه تعالى يكون محموداً جيّداً، وأي صفة تخطر في البال أو تسمعها من غيرك ومعناها أنه تعالى يقوم بعمل غير حميد فهم يسبحونه أي ينزّهونه عنها، فيقولون أو يشعرون أو يتصرفون على أنها غير موجودة فيه تعالى، لأنهم يعلمون يقيناً أنه إله تامّ الصفات الفائقة وله الأسماء الحسنى فقط. وعملياً يكون ذكرهم لأسمائه الحسنى "وهّاب سميع عليم حكيم..." لوصفه تعالى بها فهو تسبيح له تعالى عن الأسماء غير الحسنى، عن الجهل والعبث والظلم...

{وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ}، تطلب الملائكة(ع) منه تعالى التجاوز عن سيئات الناس الذين على الأرض. طبعاً يفترض بك القرآن وبناء على هضمك لمفاهيمه أنهم يطلبون منه تعالى مسامحة المؤمنين "من الدرجة المنخفضة" عن ذنوبهم كما ورد في الآية 7 من سورة غافر {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ}، ولا يطلبون غفران ذنوب الكفّار وسترى ذلك من تكملة الكلام باستعمال صفة الرحيم كصفة إلهية خاصة للعناية فقط بالمؤمنين.

طبعاً تفهم من الآية تخصيصنا نحن البشر من الكلام عن أرضنا، لأن القرآن نزل على هذه الأرض، مع أن كلام الآية لا يتنافى مع عمومية استغفار الملائكة(ع) لكائنات على أرض أخرى في سمائنا أو في سماء أخرى، ولكن لم تشر له الآية صراحةً.

{أَلَا إِنَّ اللَّهَ}، يخبركم سبحانه بشيء أكيد أنه، {هُوَ الْغَفُورُ}، فصحيح ما تقوم به الملائكة(ع) باستغفارهم لمن في الأرض لأن الله تعالى يغفر بكثرة، يتجاوز بكثرة عن سيئاتنا وليس صلباً جافاً يأخذ موقفاً ثابتاً ممن عصاه، فمن استغفر

فسبحانه يغفر له، و{الرَّحِيمُ}، فلديه عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، ولذلك يغفر لهم، فالمغفرة ليست لكل الناس بل للمؤمنين فقط، والشفاعة ومضاعفة الحسنات... أيضاً للمؤمنين فقط.

من عموم القرآن نفهم أنه تعالى رحمان لكل مخلوقاته ومن ضمنهم عموم الناس، حيث خلقهم وأعطاهم الحياة والفكر والأحاسيس والرزق والهداية... وتبقى رحمته تعالى هذه منتشرة على الجميع إلى أن يقرّر الناس الخروج منها، وعندها يصير سبحانه موصوفاً برحمة خاصة للمؤمنين فقط، لينير قلوبهم ويغفر لهم ويكفّر عنهم سيّئاتهم... وهذه أمور لا تحصل إلا مع المؤمنين فقط، ولذلك ترى القرآن استعمل صفة الرحيم هنا ليشير للعناية الإلهية "الخاصّة" بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، وعلى رأسها مغفرة ذنوبهم.

بالنسبة لكلمة ملائكة فهي مؤنّث لفظي، مثل كلمة شمس، فأنت لا تقول: هذا شمس. بل تقول: هذه شمس. علماً أن الشمس مجرد نجم لا معنى للقول عنه أنه ذكر أو أنثى، ولكن لفظ اسمه باللغة العربية يعطي معنى الأنوثة، فقط لفظ الاسم، ولا يعبّر فعلاً عن أي حقيقة "ذكورية أو أنثوية" ولذلك نسمّي هذا النوع من الأسماء بأنه تأنيث لفظي أو تأنيث مجازي وليس تأنيثاً حقيقياً، مثل كلمة شجرة وردة ملعقة مدفأة رجال... والتأنيث الحقيقي هو ما عبّر عن حالة أنثوية، كامرأة ولبوة وهرّة...

لمزيد من التوسّع حول كلمة ملائكة كوصف صار اسماً، راجع دراسة الآية 77 من سورة الزخرف {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ...}.

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَولِيَاء اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ{6})
{وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ}، الناس الذين تركوا الاعتقاد والعمل على أساس تبعيّتهم لله تعالى ووالوا غيره فاعتبروا أنفسهم تابعين لغيره سبحانه، {اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ}، لا يتركهم مهملين، ومن تكملة الجملة ترى أنها وصف اهتمامه تعالى باتخاذهم وليّاً غيره، وعمليّاً سيحاسبهم على ذلك.

كلمة {حَفِيظٌ} لها تطبيق واسع لعموم العناية والاهتمام والصون، وبحسب سياق الكلام تفهم ما تقصد الاهتمام به فلا تحصرها بمعنى العناية بمنفعة ومصلحة، فهنا هي على معنى العناية بتسجيل ما يفعلونه من موالاتهم لغيره تعالى حتى يحاسبهم ويجازيهم بالعقاب على ذلك.

{وَمَا أَنتَ}، ولست أيها الرسول محمّد(ع)، {عَلَيْهِم}، على الذين والوا غيره تعالى، {بِوَكِيلٍ}، فلست معتمداً لتسيير أمورهم كما يجب، فلم نوكل إليك هدايتهم حتى تصير وكيلاً عليهم كمسؤول تتحاسب إن لم يؤمنوا، فلست مسؤولاً عن أعمالهم ولا عن إيمانهم، فلا يتصوّروك ولا تتصوّر نفسك مثل مدير معمل إنتاج للسيارات، حيث هذا مسؤول عن إنتاج عدد محدّد من السيّارات كل يوم، وعن نوعيتها وجودتها... ومسؤول عن نشاط العمّال، ويمكنك محاسبته إن لم يعمل العمّال بفعالية... أمّا أنت أيها الرسول، فهناك أناس لم يوالوه تعالى ووالوا غيره وأنت لست مسؤولاً عنهم ولن نحاسبك على أعمالهم.

نفهمها بشكل أسهل إذا نظرنا من نظرة من والى غيره تعالى ويقول إنَّ الرسول فاشل لأنه لم يستطع إقناعه بالإيمان، ولرأينا أنهم ينظرون للرسول كأي شخص يحاول تأسيس حزب وجماهير له... وفشل في ضمّهم إلى جماعته... أو أنه فعلاً رسول إلهي وسيتحاسب على فشله في مهمّته لأنهم لم يؤمنوا... أو... على أساس أن من مهمّته ومطلوب منه وسيتحاسب... إن لم يؤمنوا، لا، لست عليهم بوكيل ولا حفيظ كما ورد كمثال في الآية 107 من سورة الأنعام {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ۗ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ}.

سترى تمحور السورة حول الولاية لله تعالى والولاية لغيره، ضع في ذهنك دائماً أن الولاية هي عامة التبعية في أي شأن كان، وفي حالتها التامّة هي علاقة بين طرفين، أحدهما توجّه نحو الآخر معتبراً له مرجعاً في أي شيء من أموره، والطرف الآخر اعتبره موالياً له، سواء على الخير أو الشر، في كل شيء أو في شيء واحد أو أشياء.

القرآن في كلّ سوره يخبرنا أنك بمجرد سماعك كلام أي شخص كان، وسرت عليه، واليتَه، حتى لو بكلمة واحدة في حياتك "شيطانية أو إيمانية" عندها تسجّل عليك أنك واليته وهو وليّ لك في تلك النقطة، وهنا السورة تعبّر عن حصر

الولاية لله تعالى باتباع الوحي الإلهي النازل على رسوله محمّد(ع)، ولم تتحدّث عن ولاية الرسول ولا ولاية المؤمنين لأنها الدرجة الثانية "المتدرجة" من ولايته تعالى، وهنا السورة تتحدّث بالخصوص عن أساس الولاية الصحيحة لتصحيح عقيدة من يوالي غيره تعالى كإله.

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ{7})

{وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ}، مثلما ألقينا إلى فكر ووعي الرسل السابقين معلومات عن صفات الإله سبحانه والتحذير من ولاية غيره، ولمزيد من التوسّع حول كلمة وحي راجع دراسة الآية الثالثة من هذه السورة، كذلك أوحينا إليك، {قُرْآنًا}، معلومات يمكن قراءتها، {عَرَبِيًّا}، باللغة "باللسان" العربية، {لِّتُنذِرَ}، لتنقل الخبر عن خطر قادم حتماً لمن توافرت فيه شروط حصوله، {أُمَّ الْقُرَىٰ}، والقرية مكان مجتمع من الناس للعيش فيه، والكلام هنا عن مكان "أمّ" أي رئيسي، ومعلوم أن الكلام عن مكّة التي بدأ فيها النبي محمّد(ع) بنقل كلامه تعالى للناس، والتي كانت قرية كبيرة أساسية في ذلك الزمان، ويأتي إليها الناس من مختلف القرى للحجّ والتجارة... {وَمَنْ حَوْلَهَا}، من القرى الأخرى القريبة من مكّة المنتشرة في الاتجاهات المختلفة، {وَتُنذِرَ}، وتخبر "الناس في أمّ القرى ومن حولها" عن خطر قادم حتمي عليهم "بسبب كفرهم"، {يَوْمَ الْجَمْعِ}، في الزمن الذي يتم جمع الناس فيه، وسياق الكلام عن زمن عودة الناس إلى الحياة مرّة ثانية "في الآخرة" حيث فيه خطر محاسبتهم وعقابهم، {لَا رَيْبَ فِيهِ}، سيحصل يوم الجمع حتماً ولا يوجد أدنى احتمال في أنه لن يحصل.

الخبر عن يوم الجمع يصدر من الإله ذي الصفات التي وردت في أوّل السورة والتي تعكس قدراته الفائقة، الذي قرّر حصول يوم الجمع، وانتهى الموضوع وحتماً سيحصل. مثلما تسمع كلاماً من إنسان جدّي لا يمزح ولا يتهاون ولا يتساهل ولديه القدرة والعزم على فعل ما يقوله، ولا يخطر ببالك للمحة أنه لا يفعل ما يقوله. طبعاً هذا التصور لواحد من الناس، والآن تصوّر كلام الإله عن شيء قرّر فعله، فلا ريب فيه، ولا أدنى إحساس عن أنه لن يحصل، بل حتماً سيحصل.

{فَرِيقٌ}، قسم من الناس يفترق مختلفاً عن الآخرين في شيء، {فِي الْجَنَّةِ}، في المكان الموصوف بروعة ما فيه من حدائق وبساتين والبهجة والسعادة... {وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ}، والسعير هو عموم تأجيج الشيء ليصل إلى أقصى الهيجان، ونوصّف الحيوان بأنه مسعور، ونوصّف النار بذلك من شدة حرارتها وطول ألسنة اللهب ولصوتها القوي. الصورة هنا عن تفريق الناس في نهاية يوم الجمع لفريقين، واحد يدخل الجنّة والآخر إلى النار.

نتذكّر دائماً أن اللغة العربية مثلها مثل بقية اللغات، فيها ميزات وفيها نواقص، وليست متفوقّة على غيرها من اللغات، وأصلاً لا وجود للغة متفوقة أو مميزة على الأخريات، وسبب اختيارها لنزول القرآن بها لأن الرسول محمّد(ع) يتكلّم بها، بالعربي، وفيما بعد نزول القرآن تميّزت اللغة العربية لأن الإله سبحانه استعملها بقدرات إلهية لصياغة هذا القرآن، وصار الكلام الإلهي مرجعاً لغوياً للغة العربية ويمكن اعتماده كمرجع لغوي للمقارنة مع بقية اللغات، مثلما قوّم سبحانه للعرب دقّة استعمال لغتهم، باستعمال الكلمة المناسبة في المكان المناسب، فيمكن لبقية اللغات المقارنة بين كلماتها المرادفة للكلمات العربية والاستفادة من دقّة استعمال القرآن لها.

هذا الكلام نقوله انطلاقاً من دراستنا هذه، لأنها شدّدت على استخراج المعنى الدقيق للكلمات، ونجحت في العديد منها، وكانت وسطية النجاح في بعضها الآخر، ولم توفّق في كلمات عديدة، وإن شاء الله تعالى تكون دراستنا هذه بذرة لمن يستفيد منها ليطوّرها، بشرط الدقّة والتحقيق، لأننا كثيراً ما نقرأ ونسمع عن تحقيقات في معاني كلمات القرآن وللأسف أكثرها سطحي طفولي وغير رصين علمياً! والأكثر بلا تحقيق دقيق ولم يقارنوا بين المعنى الذي اقترحوه وبين كل استعمالات القرآن لتلك الكلمة! ومن كان من هؤلاء يرجو الله تعالى واليوم الآخر، فأجره على الله تعالى، ونشكره على جهده حتى لو لم يكن صحيحاً فعلى الأقل ألهمنا وساعدنا للتقدّم. وهذه الدراسة هنا ليست النهائية للقرآن، وإن شاء الله تعالى تكون ملهمة لكم حتى تدرسوه بشكل أفضل وأدق، لأنها عصارة أهمّ ما سبقها من تفسيرات ودراسات ومقالات... طبعاً هذا رأيي الشخصي لمجهودي، وإلا لما حاولت نشر دراستي هذه لو لم أقتنع بأنها تقدّم شيئاً جديداً مفيداً.

بديهي أن القرآن العربي النازل على الرسول العربي "المكّي" سيكون أول توجّهه بالإنذار لعرب مكّة ولمن يحتك بهم بشكل عادي من جيرانهم وزوّارهم والحجّاج من العرب... هذا طبيعي وعادي لأن الرسول عربي، وأمّا أصل الرسالة وأصل نزول الوحي، فهو لكلّ الناس بدون استثناء كما ورد بشكل متكرر في القرآن بتعابير مختلفة، للعالمين، للناس، للناس كافة... افهمها كنموذج عملي مثل الآية 214 من سورة الشعراء التي أمرته (ع) أن ينذر عشيرته الأقربين {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}، لأنك بالبداهة تعلم أنه (ع) ليس رسولاً خاصّاً ببني هاشم، ولكنهم أقرب الناس له، ومن البديهي أن يتوجّه إليهم بالإنذار قبل وأكثر من غيرهم، وبعدها يكون من الطبيعي التوجّه بالإنذار لبقية أهل قريته "مكّة"، وبعدها للقرى المجاورة.

كلمة "أم" وصف لأساس لمرجع الشيء حيث يتبع له معنويّاً أو ماديّاً، كاتباع ونسبة ولد الحيوان لأمه فهو معنوي ومادي معاً، وكاتباع ونسبة قرى صغيرة لقرية كبيرة أو لبلد ما إداريّاً، لتكون أماً معنوية اعتبارية لهم، وكنسبة الإنسان للأمية على النسبة للحالة التي وُلد فيها، فحينها لم يكن يعلم شيئاً، لم يعلم الكتابة والقراءة، لذلك نصفه بالأمي، وهذا الوصف بالأمية ليس حصراً للقراءة والكتابة بل يشمل الأمية بالطب أو الزراعة... فأنا شخصيّاً أمي في لعبة الكركيت وهندسة الطيران...

هنا الكلام عن وصف مكة بأم القرى من البديهي أنه لا يقصد أنها أساسية ومرجعية لكل القرى على الأرض، لأن الكثير من الناس من البلدان البعيدة لم يسمعوا بها أصلاً، ولكن تقصد الإشارة إلى ما سيتوسّع فيما بعد، وأنت من عموم كلام القرآن تعلم أن الرسول محمّد(ع) للعالمين، للناس أجمعين... من زمانه إلى نهاية الدنيا، أمّا في بداية تلقيه للوحي فحتى هو (ع) ذات نفسه لم يكن يعلم بذلك، ومن أمثال هذا الوحي الوارد في الآية هنا، علم(ع) وعلم الآخرون أنه(ع) ليس رسولاً لأهل مكة فقط...

هكذا يكون وصف مكّة بأم القرى يشير لأهميتها لمحيطها الضيّق من القرى، لأنها بالنسبة لهم أم لأنهم تابعون لها في أمور معيشتهم...

لمزيد من التوسّع حول نزول القرآن بالعربية وما يقولونه عن أهمية اللغة العربية، راجع ما ذكرناه تحت الآية الثالثة من سورة فصلت السابقة، وما ورد في دراسة الآية 97 من سورة مريم.

(وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ {8})
{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ}، هناك خيارات عديدة أمامه سبحانه ويمكن أن يختار منها ما يريد، {وَلَوْ شَاءَ}، {لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً}، فهما فريقان: فريق في الجنّة وفريق في السعير، ولو شاء تعالى لجعلهم أمة واحدة كجماعة لها امتداد تاريخي متوافقة على دين واحد، لجعلهم سبحانه كلّهم مؤمنين غصباً عنهم على امتداد تاريخ حياة البشرية، لسحب منهم حريّة الإرادة والاختيار مانعاً لهم عن فعل السوء، ولجعلهم كالآلات المبرمجة التي تصلّي وتصوم ولا تفعل السيئات... ولكنه تعالى لم يشء ذلك.

{وَلَكِن} "سبحانه شاء أن" {يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ}، اختار تعالى ضمّ المؤمنين إلى عنايته الخاصّة، {وَالظَّالِمُونَ}، والذين لم يكونوا منصفين ولا عادلين، فلم يكن معهم حق حين والوا غيره تعالى، فهؤلاء لن يدخلهم سبحانه في رحمته، {مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ}، لن يجدوا من يعتبرهم تابعين له، فلن يجدوا من يتولّى العناية والرعاية بهم، والكلام هنا عن الآخرة وعمليّاً لن يجدوا هناك من يرحمهم، {وَلَا نَصِيرٍ}، ولن يجدوا من يحقّق لهم ما يريدون، فهم يريدون الخلاص من السعير ولن يجدوا من ينصرهم ليحقّق لهم الخلاص من العذاب...

القرار الإلهي لنا أن نبقى أحراراً في مشيئتنا "في اختياراتنا"، ولن يجبرنا سبحانه على طاعته غصباً عنّا "ولا على معصيته غصباً عنّا" مع العلم أنه تعالى قادر على ذلك، ولكنه لم يقرّر ذلك، بل قرّر خلق نظام للعقاب والثواب مبني على حرية الإرادة والاختيار التي منحها لنا.

من ناحية ثانية لم يشء تعالى أن يضربنا على يدنا كلّما فعلنا سوءاً، وكلما تركنا خيراً، لأن هذا أيضاً لا يتماشى مع حريّة المشيئة والاختيار، صحيح أن المؤمنين سيفرحون حتماً بمرافقة ملاك يساعدهم على ترك السوء وفعل الصالح، "ويحصل شيء من هذا النوع مع المؤمنين كما نفهم من القرآن"، أمّا من لا يريد أن يؤمن، سيصرخ وينتفض ويقول:

اتركوني ولا تنبّهوني كلّما هممت بسوء، لأني أريد أن أفعله... وهذا الكلام نسمعه من الذين تنبّههم أنت عند ارتكابهم للسوء، فيقولون لك: دعك من مواعظك وأرحنا من نصائحك، لأننا لا نفعل أي سوء، فهذا يستحقّ الغيبة وذاك يستحقّ أن نسلبه ماله... إذن، ينبّهنا القرآن دائماً للقرار الإلهي بحقّنا، فسبحانه قادر على جعلنا مؤمنين غصباً عنّا، ولكن شاء تعالى أن يتركنا مع حرية الإرادة، والذي اختار ولايته تعالى والتي هي عملياً الإيمان بالحقّ وفعل الصالحات، هذا سيكون له الرحمة الإلهية من مغفرة وثواب وجنّة، ومن والى غيره تعالى، فهذا ظالم، ليس معه حقّ بذلك، وهو أخرج نفسه من تحت مظلّة الرحمة الإلهية، وفي الآخرة سيتعذّب في جهنّم ولن يجد من يرحمه أو ينصره.

(أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي المَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {9})
{أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ} تعالى {أَوْلِيَاءَ}! كما نقول: ذهبتم من دوني. وتقصد أنهم تركوك وذهبوا مع غيرك. هل هؤلاء الناس تركوا ولايته تعالى ولم يعتبروا أنفسهم تابعين له تعالى! حتى لو في شيء واحد والوا غيره تعالى بشكل متعارض مع دينه تعالى، فما معنى هذا! {فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز هو وحده الولي الحقيقي من المستوى الإلهي، فما معنى موالاة غيره!؟ وما الفائدة من ولاية غيره! وهو وحده تسمع كلامه وتنفّذه وفي المقابل تحصل على اعتباره لك موالياً له، فيشملك برحمته، وأمّا غيره فلا يملك القدرات الإلهية، فلماذا تواليه!

هو الله، {يُحْيِي الْمَوْتَىٰ}، هل يوجد شيء تتصوّره أكبر من إحياء الميّت؟ أساس منح الحياة للكائنات صادر منه تعالى، والذي ستواليه غيره تعالى صار حيّاً لأنه تعالى منحه الحياة، فما معنى الموالاة بمستوى إلهي لأحد الأحياء وهو حصل على الحياة منه تعالى؟ وهذا المعنى بناء على ما نفهمه من عموم القرآن بوصفه للحالة السابقة على الحياة عموماً بالموت، لأننا قبل أن يخلق سبحانه السماوات والأرض لم نَكُ شيئاً ويصفنا القرآن في هذه الحالة بأنّنا كنّا أمواتاً كما تقرأ في الآية 28 من سورة البقرة {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، والآية هنا عمومية بكلامها وهي أيضاً تشير لما نعلمه من إعادتنا إلى الحياة في الآخرة، فما معنى موالاة غيره تعالى من مستوى إلهي بينما سبحانه المانح للحياة أساساً في الدنيا ومرّة ثانية في الآخرة؟

تذكّر دائماً أن المشركين عبدوا آلهة لها كيان حقيقي، حيث عبدوا الكواكب والملائكة والجن والبشر... وعبدوا كائنات وهمية من خيالهم ولا كيان لها كإله الحرب وإله الرعد وإله البحر... ومن معرفتك بذلك تفهم سؤال الآية هنا عن معنى موالاتهم لغيره تعالى من مستوى إلهي، لأن سبحانه طبيعته مختلفة عن مخلوقاته، لأنه كان حيّاً قبل كل شيء، وأعطى الحياة لكل ما هو حيّ، أمّا الكائنات التي والوها صارت حيّة لأنه تعالى أحياها، فكيف يتركون ولايته تعالى المُحْيِي ليوالوا مخلوقاته؟ وإن كانوا يوالون آلهة وهمية لا كيان لها، عندها لا داعي للكلام عن معنى موالاتهم لآلهة من الخيال، وبالنسبة لهم حيث يعتقدون بأن لها كياناً، فالموالاة تكون لمن كوّنها وجعلها حيّة، وهو الله تعالى محيي كل شيء حيّ.

نرجع للآية، {وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، فلديه سبحانه القدرة على فعل أي شيء يريده بأي شيء، وأمّا غيره فليس لديهم القدرة الذاتية على فعل ما يريدون، ويمكنه تعالى منع أي مخلوق عن فعل أي شيء، ولا يمكن لأي مخلوق منعه تعالى عن فعل ما يريد، وكنموذج عن القدرة الفائقة لفعل ما يريده سبحانه هو منح الحياة للآخرين من الصفر، فهل لموالاة غير الله تعالى أي معنى!

أمّا بالنسبة لخلق النبي عيسى(ع) من الطين طيوراً، مما يعني أنه (ع) أحيا الطيور، فراجع دراستنا للآية 49 من سورة آل عمران، أو الآية 110 من سورة المائدة، وبالمختصر فهذا خلق "تركيب وتأليف" من المستوى الثاني، مستعملاً (ع) قدرات ممنوحة من الإله سبحانه، ومستعملاً مواداً لها خصائص جعلها فيها الإله سبحانه... ونحن حالياً يمكننا أن نخلق من المواد حياة تقريباً مثله (ع) عبر زرعنا للجينات في بويضات حاضنة... وهذا يمكن تسميته بالخلق من المستوى الثالث. طبعاً هذه التصنيفات لمستويات الخلق افتراضية منّي لتقريب الصورة، علماً أنها مستوحاة من مفاهيم القرآن.

الآية هنا صادمة تجعلك تقف مُطوَّلاً أمامها لتفكّر في تصميم وخلق الحياة، وفي الكثير من السور أسهبنا مُطوَّلاً بالكلام عن معرفتنا بآلية نشأة كوننا وصولاً إلى نشأة الحياة، عبر فرضيات ونظريات الانفجار الأعظم... وصولاً إلى النشوء والارتقاء... وبيّنا أنها معرفة "افتراضية" بقدر ما نفهم لآلية خلقه تعالى لكوننا وللحياة، وليست سبباً للكفر به تعالى.

نبّهنا أيضاً للسذاجة الطفولية السائدة عند غالبية المتدينين بهذا الدين الإلهي، لأنهم بشكل أو بآخر هم بغالبيتهم لديهم أساس فكري ونفسي بدائي بنسبة حصول الأشياء لقدرة خارقة "إلهية" تفعل الأمور بلا أي سبب، ففي عمق تفكيرهم هكذا فجأةً تصير الأمور من لا شيء وبلا أي سبب سوى أمره تعالى لها أن تحصل، متخطّيةً أي آليات لحصولها... يقول تعالى للشيء: كن حيّاً. فيصير كائناً حيّاً. وهذا ما عرضوه "المتدينون" على الآخرين كتفسير لكلامه تعالى، مما أنتج عذراً لكفر العديدين بدينه تعالى عند تعرّفهم على آليات نشأة الكون والحياة متسلسلة بآليات مترابطة... وهم "الكافرون" لم يلمسوا في مراحلها أي تدخّل للقدرة الإلهية الخارقة التي يؤمن بها المتدينون، وبالتالي أعلنوا كفرهم "أو شكّهم الكبير" بإله مصمّم خالق.

يعني كلام الآية هنا عن أنه تعالى هو المحيي، هو المانح للحياة لكل الكائنات، وهذا الكلام ليس لاغياً لآليات ومراحل جرت حتى وصلت إلى تشكّل الكائنات الحية، بل يختصر كل المراحل لينسب له تعالى تسبيب تكوين كائنات حيّةٍ كنتاج لما صمّمه تعالى وخلقه...

ضع في بالك دائماً أن قدراته سبحانه فائقة بالنسبة للقدرات التي تتمتّع بها كل الكائنات، وخارقة بالنسبة لمعرفتنا، حيث نحن نشعل النار بمئة طريقة، بالقدح بالشرارة بالاحتكاك بالأشعّة... وسبحانه يشعل النار بمليون طريقة تتخطّى قدرتنا على فهم آلية حصولها، وهي طرق "خارقة" بالنسبة لضعف معرفتنا بكيفية إشعالها... وخذ مثلاً جهلنا قديماً بموجات الميكرويف، والانشطار الإشعاعي... وعليه يمكنك افتراض طرق أخرى يعلمها تعالى وقادر على فعلها لإشعال النار بطرق لن نفهمها الآن ولا فيما بعد بسبب الفرق الهائل بين علمه وقدراته سبحانه وبين علمنا وقدراتنا.

في القرآن، في الفهم الدقيق والبسيط الظاهر لكلامه تعالى، لا يوجد كلام عن فعله للأشياء بلا أسباب وآليات، وأصلاً لا معنى لذلك، ويمكننا بالتفكير والملاحظة والافتراض والتجربة... التعرّف على الكثير من "آليات" طرق فعله تعالى للأشياء، وستبقى معرفتنا سطحية ولن تلمس عمق فهم طرق عمله سبحانه بسبب الفرق الهائل جداً بين قدرتنا المعرفية وبين قدرته العلمية عزّ وجلّ، وما تفترضه حصل فجأة بلا سبب إنما ناتج من ضعف قدراتك على فهم كيفية فعله تعالى له.

بعبارة أصرح وأبسط، إنَّ فهمنا لجملة قوله تعالى للشيء: {كُن فَيَكُونُ} على معنى فورية حصول الأشياء، وبدون آليات وأسباب مترابطة، هو لبّ الخطأ الذي أدّى لإيمان طفولي ساذج، المشابه لاختراع المشركين لإله للمطر والبحر والزرع... في مقابل المدّعين للعلم الذين يواجهون المتدينين بنظريات تفسّر نشأة كوننا بدون أي تدخّل لقوّة خارقة، مما يعني أنه لا يوجد إله.

القرآن ومن قبله التوراة هو كلامه تعالى، ونبّهنا ولم ننتبه، وفهمّنا ولم نفهم، وشرح لنا وتجاهلنا، حيث أخبرنا عن مراحل لنشأة السماوات والأرض في ستة أيام، وخلالها انفصلت السماوات وتشكّلت الأرض وتوافر فيها القوت... وأخبرنا عن مراحل نشأة البشر من سلالة من طين... وأخبرنا صراحة عن السفن أنه تعالى جعلها لنا، وعمّا نزرعه أنه هو تعالى أنبته، وعن المطر أنه تعالى أنزله وأن الرياح تحمله وتنقله... وللأسف وبكل طفولية بدائية ظننا أن الإيمان العالي هو الاعتقاد بقدرة إلهية فائقة من النوع الخارق المتخطي لكل أنواع آليات فعل الأشياء! ولم نفهم صراحةً كلامه تعالى عمّا نزرعه أنه هو تعالى أنبته لأنه تعالى خلقنا مع خاصية توصّلنا للزراعة في بيئة مهيّئة لذلك... وفهمنا كلامه تعالى كالسحر بالمعنى الخرافي لكلمة سحر والعصا السحرية والخاتم السحري... ككتابة خربشة أحرف على ورقة بطلاسم لا يفهمها حتى من كتبها على أساس أنها سيكون لها تأثير فينا وفي الأشياء لتغيّرها! وهكذا فهمنا قوله تعالى {كُن فَيَكُونُ}. بينما كلامه هذا تعالى يشير لحتمية حصول الأشياء، وليس لفورية حصولها، وهذا ليس تفسيراً مخترعاً منّي بل كلّ القرآن مبني على هذا المفهوم، من خلقتنا ومرورنا بالامتحان... وموتنا، وإعادة إحيائنا... وهذا كلّه قال عنه تعالى كن. وكان حتماً.

القرآن بعدة طرق عرض علينا آياته تعالى من خلق كائنات وظواهر، عارضاً لها من نشأتها من لا شيء، من التصميم من الصفر وصولاً إلى دنيا بسبع سماوات، ولفت انتباهنا لها لننظر إلى نتيجة تصميمه تعالى لها ولنتعرّف عليه تعالى من خلالها.

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ{10})
{وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ}، أي شيء لا تتفقون عليه وتصيرون مختلفين حوله، {فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ}، فمن والاه تعالى واعتبر نفسه تابعاً له سبحانه، ومن اختلف مع المؤمنين ووالى غيره تعالى، فالحكم فيهم إليه سبحانه، ولن يترك سبحانه هذا الاختلاف بلا حكم منه أو من دون أن يصدر منه تعالى قول في الخلاف، بدون أن يقول تعالى: أنت مصيب ولك أجر وذاك ضالّ وله عقاب.

{ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي}، صاحب الاسم المحدّد المميّز الله هو المسؤول عني من مستوى إلهي، حيث أنا أؤمن بإله وبالتحديد اسمه الله وهذه صفاته وأفعاله، وهو أوحى للرسل وأنزل الكتب التي فيها الإنذار لمن والى غيره، وفيها تعريف بصفاته تعالى وجميل ما سيفعله بمن والاه وحده...

{عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ}، اعتمدت واعتقدت أنه يتابع شؤوني ويرعاني ويسيّر الأمور على ما هو أحسن لي "إيمانياً"، {وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}، وأترك كل ما عداه تعالى وأرجع إليه فقط، ولا أسمع كلام غيره بل أترك كل كلام غير كلام الله تعالى وأرجع فقط إلى كلامه تعالى.

لاحظ الآية تخبرنا بأهمية مسألة الموالاة له تعالى وأنها مشكلة حصرية بين العبد وربّه، وهكذا ترى الآية ردّاً على الذين يقولون: ما أهمية موالاتي لأي إله اخترعه الناس؟ ما الضرر وأين المشكلة؟ الجواب أنه لا مشكلة بينك وبين المؤمنين طالما لم تقم بأعمال عدائية ضدهم بسبب تدينهم، ولكن الإله يخبرك بأنك ستواجه مشكلة معه.

هذا الكلام مبدأ قرآني يخالفه الناس، لأن القرآن كلّه يجعل مشكلة الكفر أو الشرك أو الإلحاد أو... يجعلها محصورة بين العبيد وبين الله تعالى، ولا علاقة للمؤمنين بها، ولن تجد في القرآن وظيفة للمؤمنين لجعل الآخرين مؤمنين، بل عليهم فقط وفقط التبليغ.

(فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ{11})
الذي أنيب إليه هو:

{فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، هو الذي جعل لهما كياناً ومن قبل لم يكونا، ومن قبل لم تكونا موجودتين وأوجدهما تعالى، ونتذكّر دائماً أن التعبير القرآني "سماوات وأرض" مرادف لقولنا: كلّ شيء. لأن كل ما في الدنيا محصور فيهما ولا شيء آخر غير ذلك، ولم يستعمل القرآن تعبيراً بخلق الدنيا ولا تعبيراً بأنه سبحانه خالق لكل ما في الدنيا... لأنه ليس تعبيراً دقيقاً... وراجع ما قلناه منذ قليل في الآية 4 من التعبير بالسماوات والأرض.

سبحانه فاطر السماوات والأرض بما فيهما، وبالتالي من جهة هناك سبحانه وتعالى، ومن جهة ثانية هناك المفطورات التي فطرها تعالى، ولا يوجد أي شيء آخر، فلا إله آخر، ولا كائن إلا مفطور إلا منه تعالى، ولا كائن موجود بالصدفة أو لم يفطره سبحانه... ونتذكّر أن هذا النوع من التعبير القرآني المتكرر هو كلام منه تعالى معنا بشفافية، حيث يخبرنا أنه لا يوجد أمامه تعالى إلا نفسه وما فطره، ولا يلمس سبحانه أي أثر لغير ذلك، وبالتالي هناك إله واحد والبقية كلّهم مخلوقاته، عندها يأتي السؤال عن معنى موالاة غيره من مستوى إلهي، أو اعتبار غيره تعالى إلهاً؟

{جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا}، وصار لنا زوج منّا، وصار منّا أنثى وذكر، ونحن الناس بنظره تعالى مخلوقات ككتلة واحدة، وفي مرحلة ما من خلق الإنسان من سلالة من طين، صار هناك انقسام في الخلقة، وصار هناك ذكر وأنثى، والذي جعل هذا يحصل هو الله تعالى بتصميمه لنا وتخطيطه وسيطرته وتدبيره، وراجع الآية 72 من سورة النحل {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً...}، والآية 21 من سورة الروم {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً...}، فهذا بصراحة يشير إلى جعله تعالى من أنفسنا ذكراً وأنثى.

انتشر في التراث الديني أقوال لا تستند إلى وحي إلهي، حيث قالوا إنَّ حوّاء هي أوّل أنثى بشرية وقالوا إنَّه تعالى خلقها من ضلع آدم(ع) أو مما بقي من طينته... وهذا الكلام لا نجده بهذه الصراحة في القرآن، بل دائماً نجد "لا" تحديد للشخص ولا للكائن الذي من بعده صار هناك أنثى أو صار منه ذكر، أو صار منه ذكر وأنثى، ونجد عمومية التعبير

بالنفس الواحدة التي صار منها زوجها، فلا تجد تعبيراً عن شيء تشكّل من آدم(ع)... ولا ندري تلك النفس "التي صار منها زوج" في أي حالة كانت، وما هي مرحلتها؟ وما شكلها وما تكوينها قبل حصول زوج منها؟ لا ندري، وأقرب الاحتمالات بالنسبة لمعطياتي الحالية أنه ربما الكلام عن حالة خنثوية لحيوان، وبعدها صار منه ذكر وأنثى... ولكن على أي حال، كلام الآية يلفت الانتباه لحالة الذكورة والأنوثة التي نعيشها الآن، وتردّك الآية إلى ما قبل ذلك، وما بين تكوّننا من طين ووصولنا إلى حالة الذكورة والأنوثة لنفس نوع الحيوان، هناك مرحلة ما قبل الانقسام لذكر وأنثى، وهذا ما يلفت القرآن انتباهك له ولم يدخل في التفاصيل ليخبرك عن حالة الحيوان قبل أن يتوالد منه ذكر وأنثى، فلا تحصر الصورة في ذهنك عن إنسان خنثى، وبالنسبة للمعطيات البيولوجية الحالية نفترض أنها حالة قبل الإنسانية.

أيضاً نجد في القرآن أن آدم(ع) أول بشري تأهّل ليتكلّف، ونجد في القرآن كلاماً للملائكة(ع) عن وجود بشر يفسدون في الأرض قبل خلق آدم(ع)، مما يشير لوجود بشر قبل آدم(ع) كما تقرأ في الآية 30 من سورة البقرة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...}، مما يعني أن آدم(ع) متوالد هو وزوجته من بشر سابقين... وراجع الآيات 7، 8، 9 من سورة السجدة، حيث ستجدها تفصّل في مراحل خلقنا، وضمناً تفصّل خلقة آدم(ع) كنتاج لما صمّمه تعالى حتى يصير هناك بشر على الأرض... وأقرب كلام منطقي لعقولنا لفهم هذا الكلام القرآني هو نظرية النشوء والارتقاء، المعروفة بتطوّر الأنواع، ويمكننا بسهولة الدمج بين أساسيات تلك النظرية وبين أقوال القرآن، ونحن ليس لدينا يقين بصحّة تفاصيل نظرية التطوّر هذه... والذين سبقونا من أهل الكتاب اعتمدوا على معطياتهم ولم يجدوا تفسيراً لكلام الوحي الإلهي إلا خلق آدم(ع) مباشرة من طين، وخلق حوّاء من ضلعه، هذا كان أقصى ما كانت عقولهم تستوعبه وتراه منطقياً بناء على معلوماتهم العلمية وتحليلاتهم التي كانت في حينها تبدو منطقية بدمجها مع معلوماتهم الدينية، ونحن بدورنا نرى سهولة تطبيق كلامه تعالى على نظرية النشوء والارتقاء وعليه نفهم جملتنا هذه أنه في مرحلة ما كان الكائن مثل حالة زهر الشجر الذاتي التلقيح، وبعدها حصل انفصال وصار من نفس الفصيلة نوعان، واحد ذكر والآخر أنثى.

طبعاً لا نقصد تأكيد ولا نفي أي فرضية أو نظرية علمية، لأنه بالأساس لم يكن من المفروض أن أفسّر القرآن بناء على نظريات، وكان من المفروض الاكتفاء بشرح الكلمات، ولكن الغالبية الساحقة ممن سبقنا من أهل الكتاب ومن المسلمين فسّروا كلامه تعالى بناء على علومهم "معطيات عصرهم"، وبناء على ما استوعبوه واستنسبوه، ولذلك وصلنا منهم ثقافة علمية "دينية" غير صحيحة، مما اضطرني للفت انتباهك إلى الفرق بين كلامه تعالى وكلامهم، وأن كلامهم ليس من أصل ديني صريح مبني على صراحة كلامه تعالى بل كلامهم مجرد تحليل "وتخمين"، وأن كلامي عن الآيات القرآنية التي تتحدّث عن نشأة الحياة أنها تتماشى مع نظرية النشوء، أيضاً ليس دينياً، بل تحليل وتخمين... ومن الخطأ تفسير كلام القرآن على النظريات العلمية التي نعلم يقيناً أنها مجرد نظريات سيتبدّل رأينا فيها وستتغيّر في المستقبل، ومن ناحية ثانية تقصّد سبحانه في قرآنه الابتعاد عن أي معلومة لا يفهمها الإنسان العادي متوسّط الثقافة من بعد دراستها.

الآن لنطل الكلام لنثبّت أساسيات دينية قرآنية تجعلنا نفهم عموم الأمور العلمية وغيرها من النظرة الدينية، لأنَّ القرآن كتاب هداية لم يذكر آليات حدوث الأمور، واكتفى فقط بالإشارة إلى الأشياء والظواهر لتذكيرنا ولفت انتباهنا وتقويم فكرنا ونفسيتنا... أنه تعالى خلقها فطرها أنشأها... وأقصى ما ذكره القرآن كان عن مراحل حصول الأمور بدون الدخول في تفاصيل تقنيات وآليات حدوثها، مثلاً: ريح سحاب ومطر. ولم يدخل في اختلاف حرارة الهواء وكثافته... ولا في تقارب بخار المياه إلى طبقة هوائية مساوية لها في الكثافة... ولا تثاقل البخار بالغبار وفرق الشحنة بين سحابتين... وهذه آليات تقنيات حدوث الأشياء، ولا مرّة ذكرها القرآن ولا في أي موضوع، ومثلها خلقنا من سلالة من طين وجعل نسلنا من ماء مهين وصيران النطفة علقة... وهذه مراحل وليست آليات حدوث الأشياء، ومثلها خروج النبات من الأرض ليصير لها ثمر ثم تصير حطاماً، ولا كلام عن امتصاص الخلايا للمياه والمغذيات وانقسامها بشكل أكبر لجهة الحرارة والضوء وبالتالي نموّها صعوداً...

مضافاً لذلك كلامه عن الليل والنهار وجريان الشمس والقمر... وكما ترى كلّه كلام بسيط واضح يفهمه أي إنسان عادي...

من الخطأ البحث في كلامه القرآني سبحانه عن أسرار علمية كاكتشافات علمية، ومن الخطأ البحث فيه عن آليات وتقنيات حدوث الأشياء، ومن الخطأ البحث فيه عن كيفية حدوث الحياة وفقدانها، وبالأخص من الخطأ البحث فيه عن كيفية إعادتها، وتفاسيرهم لآيات القرآن لاستخراج آلية إرجاعنا إلى الحياة عبر ما قالوه عن إرجاع الروح أو النفس إلى جسد... وتلبيس كلامهم بقداسة كلامه تعالى هو خطأ كبير، وستجد في دراستنا هذه كلاماً مفصّلاً عن ذلك في الآية 42 من سورة الزمر {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى...}، وسترى الخطأ في تلبيس أفكارنا وما نفهمه لتفسير كلامه تعالى بشكل يجعل كلامنا هو دينه تعالى، ولا مانع من طرحها كافتراضات ونظريات، ولا مانع من عرض تقاربها مع كلامه تعالى، إنما الخطأ عرضها كتفسير وحيد لكلامه تعالى لتصير مساوية دينياً لكلامه تعالى.

أضيف لك فاتحاً عليك باباً لا أدري كيف ستستقبله، حتى الرسول الأكرم محمّد(ع)، كان لديه طريقة في التعاطي مع بعض الأمور تتماشى مع الموروث الثقافي العربي والديني لأهل زمانه، هذا بغض النظر عن الروايات الكثيرة جداً الكاذبة المنسوبة له (ع)، والتي فيها ما يخالف صريح القرآن أو يخالف ما ستفهمه من القرآن من بعد مقارنة ودراسة، وبغض النظر عن تلك الروايات التي حتماً لم يقلها (ع)، تجد ثقافة عامّة كطريقة بالتعبير عن أمور يعتبرونها عادية، والرسول(ع) تماشى معها، كقولهم عن الميّت إنَّ روحه زهقت، وفي كلامه (ع) شيء من هذا القبيل، بينما لا تجد شبهاً لا من قريب ولا من بعيد لمثل هذه التعابير في القرآن.

هذا كلام القرآن عن آدم(ع) ونشأة الحياة، والنفس التي خلق تعالى منها زوجها، ولن تجد في القرآن كلاماً يشير إلى خلق زوجة آدم(ع) من آدم(ع).

المشكلة في هذا الباب أن تعظيمنا للرسول محمّد(ع) تضخّم مع مرور الزمن ليصير مغالياً بالمبالغة، ولم نعد نرى الروايات العديدة التي ترينا شخصيته الحقيقية(ع) كرجل عادي مثله مثل بقية البشر، ولم نعد حتى نرى القيمة الحقيقية له كرجل مؤمن من الدرجة العالية، وأنه لهذا السبب، ولهذا السبب فقط اختاره تعالى لينزل عليه الوحي، فأردناه أبلغ العرب وأشجع العرب وعالِماً بكل فنون العلوم... معتقدين أننا بذلك نفعل خيراً، بينما بابتعادنا عن الواقعية أقحمنا أنفسنا في متاهات سبّبت تولّد ثقافة دينية مقدسة ممنوع مخالفتها.

واحد من أهمّ الأدلة على إلهية مصدر هذا القرآن، أن الرسول محمّداً(ع) الناقل له، ليس بليغاً بالقدر الذي تجده في مستوى كلامه تعالى، ومن أهم الأدلة على إلهية مصدر القرآن أن كلامه مختلف عن الكلام المنتشر كثقافة بين الناس وبين المنتمين لدينه تعالى في عصر النبي محمّد(ع)، ومنه كلامهم عن خروج الروح من جسد الميّت، ومنه كلامهم عن خلقة حوّاء زوجة آدم (ع) من ضلعه أو مما بقي من الطين... ومنه تشريعياً اعتباره (ع) زيداً كولد له، حتى جاء القرآن مانعاً من ذلك...

نرجع للآية، {وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا}، من الحيوانات الموصوفة بأنها نعمة لنا لأننا نأكلها ونشرب لبنها ونستعمل أجزاء جسدها... جعل سبحانه منها، أزواجاً، وهناك ذكر وأنثى أيضاً في الحيوانات المحلّلة الأكل، وطبعاً في بقية الحيوانات يوجد ذكر وأنثى ولكن الآية تلفت انتباهنا بشكل بسيط للحيوانات التي نحتك معها في أساسيات حياتنا وتعيش في بيئتنا ونرى بسهولة ومن دون تخّصص في دراستها أن الدجاجة والغنمة والبقرة... إناث، والديك والتيس والعجل... ذكور، وهم أيضاً مثلنا من أنفسهم جعل تعالى منهم زوجاً، وربما من جدّ مشترك سابقاً بيننا وبينهم وربما من جدّ مختلف... وربما من طريقة لم تخطر على بالنا الآن...

هنا ألفت انتباهك للتراث الثقافي الديني الذي نظنّه من الدين الإلهي، وما قيل عن خلقتنا من تمثال من طين ونفخ الروح فيه ليصير فوراً من لحم ودم، وماذا عن بقية الحيوانات، ومن أين أتت وكيف تشكّلت؟ وماذا عن النبات وهو أيضاً حياة؟ وهكذا ترى أن كلام القرآن عن نفخ الروح في الطين لم يكن كلاماً عن آلية الخلقة بل عن مرحلة من الخلقة، وللتوسّع راجع الآية 72 من سورة ص {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}، وأضف إلى ذلك ما تقرأه في الآية 37 من سورة الكهف {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا}، مثلما لا تفهم الفورية من التعبير بالتسوية في آية سورة الكهف، افهم نفس المعنى من توصيف التسوية لآدم(ع).

{يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ}، يجعلكم ذراري من حالة الذكورة والأنوثة، ويصير منكم أفرادٌ، وتتوالدون وتتوالد الأنعام من حالة الزوجية، ويؤيّد هذا المعنى بقية ما ورد في القرآن من استعمال كلمة ذرأ، وبخاصة ما ورد في الآية 79 من سورة المؤمنون {وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}. وهذا الذي ترونه عادياً من كونكم أنتم والأنعام ذكوراً وإناثاً مختلفين وتتزاوجون وينتج عنكم ذرية، هل حصل ذلك من دون ولي يلي هذه الخلقة؟ وحدث من دون مسؤول تتبع له هذه الخلقة بالتصميم والتنفيذ بهذا الشكل؟

{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، ليس لله تعالى مشابه أو مساوٍ له في أي شيء كان، والصفات والقدرات الفائقة له تعالى لا يوجد لها أي شبه بتاتاً، ومعلوم أن الكلام يشير أيضاً إلى اختلاف طبيعته تعالى عن كل بقية مخلوقاته. وما معنى ولايتكم لغيره سبحانه! وهو وحده لا مثل له والبقية كلّهم متشابهون في كونهم مخلوقات، وما فيهم من صفات فهي من تصميمه وخلقه تعالى لهم.

هذه الجملة {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، هي أساس عقائدي قرآني نرجع إليها لنفي أي تشبيه له تعالى بأي شيء من مخلوقاته سبحانه وتعالى، لا يد له تعالى من أصابع، ولا وجه بجبهة وجبين وعينين... ولا رجل ولا قدم... ولا شكل... وليس مركباً من أي مادة أو طاقة... الفرق هائل جداً جداً بينه تعالى وبين كلّ مخلوقاته، ويمكنك مراجعة أي آية ورد فيها اسم عضو بشري منسوب له تعالى لترى أنها لا تشير لعضو بل لتسمية مبنية على الوصفية، فاليد للقدرة على الفعل، والوجه لما تتوجّه به...

أيضاً طبيعته تعالى مختلفة، وما هو دارج في أدبياتنا عن وصفه تعالى بالنور، وخلط ذلك مع وصفنا للملائكة(ع) أنها مخلوقات من نور، أدّى بشكل ما إلى تكوين فكرة ضبابية عن تقارب خلقة الملائكة العالية من طبيعته تعالى... بينما لم يرد وصف مادة الملائكة(ع) في القرآن بتاتاً، ووصفه تعالى لنفسه في القرآن بالنور لم يكن يشير إلى طبيعة تكوينه عزّ وجلّ بل يشير إلى وصف حالة تعامله سبحانه مع مخلوقاته، وراجع في ذلك ما ورد في الآية 35 من سورة النور {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ...}، وما ورد في الآية 4 من سورة القدر {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ}.

{وَهُوَ السَّمِيعُ}، الذي يسمع كلّ شيء مهما كان وأينما كان، {الْبَصِيرُ}، يدرك "بمستوى إلهي" ويعي معنى صورة ما يحصل أينما كان ومهما كان، فيرى ويعي كلّ شيء، وحتى لا يخطر ببالكم أنه الخالق الفاطر... ولكن يغيب عنه بعض ما يجري مع مخلوقاته، هنا يخبرنا بصفاته الفائقة، أنه يسمع ويبصر كلّ شيء أينما كان، وعملياً هذا يعني متابعته ومراقبته تعالى لكل شيء.

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{12})
له الولاية الحقيقية سبحانه لأنه:

{لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، الحكم وزمام الأمور والسيطرة له تعالى على كل ما هو موجود، وبتعبير مبسّط جدًّا سبحانه تقلّد "تسلّم، تحكّم" بكل ما له علاقة في كل السماوات والأرض "من بعد ما فطرها"، وكلّه من حكم وسيطرة وإدارة... له تعالى.

{يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ}، هناك خيارات عديدة أمامه تعالى بموضوع حصول مخلوقاته على ما يسدّ حاجاتهم ورغباتهم، من أكل وشرب وما يتعلّق بهما وببقية حاجاتنا، ومن دون أن يفرض عليه تعالى أي أحد يقرّر بسط مدّ رزق هذا وذاك... فيجعله غنيًّا أو ثريًّا... {وَيَقْدِرُ}، ويعطي بقدر بكمية محدودة، فيرزق بكمية قليلة من يشاء من الناس. فما معنى تركّكم لموالاته سبحانه وموالاة غيره! وعلى ماذا ستحصلون من موالاة غيره؟

{إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، يعلم كلّ شيء، عن علم يبسط سبحانه الرزق ويقدر وليس كما نفعل نحن بدون دراسة وتخطيط، لا يترك سبحانه الأمور تجري من دون تدخلّه... كما نقول لشخص يوزّع مساعدات على الناس: هل "تعلم" ماذا تفعل؟ ونقصد: هل توزّع عن دراسة وعن علم بحاجاتهم ومصالحهم؟ ربما تعطي من ستخرب حياته ليصير متكبّرًا مسرفًا إن صار غنيًّا... هنا الآية تخبر الجميع أن بسط وقدر الرزق بيده تعالى وعن علم يحصل هذا البسط والقدر.

ضع في بالك أننا سنجد في الآية 27 من هذه السورة شرحًا لواحد من أسباب بسط وقدر الرزق على الناس.

نلاحظ في عموم التفاسير والقواميس القديمة بحثهم عن أصل بعض الكلمات العربية، فقالوا في بعض الكتب إنّ كلمة "مقاليد" أصلها فارسي من كلمة كليد التي معناها: المفتاح. وهذه بساطة طفولية في البحث عن أصل الكلمات، ولمجرّد الشبه بين الكلمتين جعلوا الأصل فارسيًّا! وهذا كلام لا أساس علميَّ له، مثله مثل الغالبية الساحقة من كلامهم عن أصل بعض الكلمات التي استعملها القرآن.

لسنا ننفي أبدًا أن اللغات تستعير من بعضها الكلمات، بل كل اللغات تستعير، واللغة العربية بالتأكيد استعارت من لغات أخرى، وباستعمال العرب لتلك الكلمات بصيغة تناسب طريقة العرب باللفظ والكلام، تصير الكلمة عربية من أصل أعجمي "أجنبي". لكن مجرّد الشبه بين لفظ الكلمتين لا يعني أبدًا أن الأصل غير عربي! والأنكى من ذلك أن المعنى مختلف! المقاليد من قلادة والفعل تقلّد، تَلَبَّسَ بشيء ما فصار معه، لبست القلادة أو لبست الحكم، تقلّدت القلادة أو تقلّدت الحكم، أو صارت مقاليد الحكم بيده... هكذا نستعملها كعرب، ولم أفهم لماذا الإله عزّ وجلّ إن كان يريد التحدّث عن المفاتيح ليقول "أن له مفاتيح السماوات والأرض" سيترك كلمة عربية ويستعمل كلمة فارسية! ألم يسألوا أنفسهم هذا! أم هم معجبون بهذه اللفتات والنكات التي تدل على سعة علمهم!

على أي حال القدماء معذورون بشكل ما، لأن هذا ما كان عليه مستوى علم الألسنية وأصل اللغات في زمانهم... أمّا الذين لا زالوا إلى الآن يستعيدون ما في تلك الكتب وينشرونه ويروّجون له على أساس أنه كلام من مصادر موثوقة، فهؤلاء لا عذر لهم بعد أن صار لدينا تخصصات وبحوث علمية تاريخية رصينة عن أصل الكلمات، ولو راجعت هذه الدراسات لوجدت أكثر ما في قواميسنا وكتب التفاسير عن أصل بعض كلمات القرآن ليس صحيحًا.

الأغرب من ذلك كلّه وجود نوع من التوافق لدى المفسرين على إمكانية استعمال القرآن لكلمات أجنبية لم يسبق أن نقلها العرب! وكأنهم يقبلون أن يستعمل القرآن ولأوّل مرّة كلمة من أصل أجنبي فيعرّبها ليجعلها بلفظ عربي ويستعملها! وتجد بذورًا لهذا الكلام في بعض المرويات المنسوبة للجيل الأول من المسلمين الذين جهلوا معاني بعض الكلمات ولم يعلنوا عن جهلهم بها، فقالوا إنّها قبطية أو نبطية أو حبشية أو فارسية أو رومية... وأكتفي بهذا المقدار لتضعه في بالك، ولتراجع في دراستنا هذه أي كلمة ادّعوا أنها أجنبية، لترى أنها كلمات عربية استعملها العرب قبل القرآن.

هذا من جانب، ومن جانب آخر وبناء على ما رموه في كتبهم تساهلًا أو استهتارًا من كلمات قرآنية لا أصل عربيَّ لها قبل القرآن، بعد ذلك جاء المعلّقون على القرآن ليثبتوا كذبه حين يقول عن نفسه بأنه عربي كما في الآية الثانية من سورة يوسف {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، وهكذا وبفضل ما استظرف بعض علماء المسلمين من كلمات قرآنية ليجعلوها من الفارسية أو الرومية أو الحبشية أو النبطية أو السريانية... صار لدى الكافرين بالقرآن دليلٌ من كتب المسلمين على كذب القرآن. أنت تعلم الآن أن تلك الكلمات عربية، ولكن على أي حال، لا واحد ذكر لنا أن القرآن استعمل تلك الكلمات بغير معناها، ولنسلّم جدلًا أنها ليست عربية، ولكن استعمالها بمعناها كان متماشيًا متوافقًا مع المعنى المقصود من الجملة، فلنتماشَ مع قولهم، ولنسأل: إن لم يكن هذا الكتاب من مصدر إلهي، فما معنى تأليفه باستخدام كلمات من مختلف اللغات وبمعناها الصحيح؟ هذا يعني أن محمّد بن عبد الله معجزة في اللغات، لأنكم تقولون إنه هو من ألّف هذا القرآن ووقع في خطأ القول عنه إنّه عربي بينما استعمل فيه كلمات أجنبية من عدة لغات وبشكل دقيق وصحيح! وكما ترى فهذا مستوى تفاهتهم التي لا يكترثون بها.

لمزيد من التوسّع حول هذا الموضوع راجع دراستنا للآية 21 من سورة الإنسان {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ...}، والآية 47 من سورة الصافات {لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ}، والآية 3 من سورة الزخرف {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}.

(شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ{13})

{شَرَعَ لَكُمْ}، وضع لكم "أيها المخاطبون بهذا القرآن" بشكل معلن ما تلتزمون به، ما تسيرون عليه كلّكم من حلال وحرام وواجب... من الدين، مما تدينون به لربّكم سبحانه، فهو إلهكم وخالقكم وتبعات ذلك أن تطيعوا أوامره، فمن

التبعات التي عليكم كونكم عبيده سبحانه أن تطيعوه فيما أعلنه سبحانه لكم مما وصلكم منه ما هو حلال، حرام، واجب، وحكمة... {مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا}، صدرت منه تعالى أوامر لنبيّه نوح (ع) بفعل أمور وترك أمور... وصار واجبًا عليه(ع) الالتزام بها، وهذه الأمور هي الشريعة، وما في هذا القرآن من تشريعات فجزء منه كان هو نفسه سابقًا شرّعه تعالى لرسوله نوح(ع).

{وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ}، ومضافًا لما وصل من شرع للرسول نوح(ع) هناك شرع أوصلناه مباشرة إلى فكرك ووعيك أيها الرسول محمّد(ع)، ومعلوم أن الكلام عن هذا القرآن.

{وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى}، أول شريعة على ما يبدو من عموم القرآن هي الشريعة التي نزلت على الرسول نوح(ع)، والشرائع التي نزلت من بعده (ع) وكما يبدو من القرآن نزلت فقط على الأنبياء: إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وآخر شريعة نزلت على النبي محمّد(ع)، والقرآن ميّز هؤلاء الأنبياء الرسل الخمسة بتمييزهم في الآية السابعة من سورة الأحزاب من بين كل بقية الأنبياء بأنه تعالى أخذ منهم ميثاقًا غليظًا مختلفًا عن ميثاقه تعالى مع بقية الأنبياء {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}، وذكر القرآن مرارًا بطرق مختلفة أنهم (ع) هم فقط نزلت عليهم شرائع.

الآية هنا تقول بأنه سبحانه شرع من الدين لنا نحن كآخر أمّة، فشرّع لنا مما نزل على هؤلاء الأربعة السابقين وبالذي أوحاه تعالى إلى الرسول محمّد(ع)، وتعلم من القرآن بوجود تشريعات أساسية لم تختلف بين كل التشريعات الإلهية التي نزلت سابقًا، وعنوانها الأساسي الصلاح في العبادات والمعاملات، وعناوينها الصلاة والزكاة وبرّ الوالدين وحرمة الزنا والسرقة والكذب والغيبة... فهذه كانت في الشرائع القديمة وبقيت شرعة لنا، وهناك تشريعات ألغيت كحرمة شحوم الأنعام وحرمة العمل يوم السبت... وهناك تشريعات جديدة نزلت على الرسول محمّد(ع) كحرمة البيع في وقت صلاة الجمعة، وتحديد شهر رمضان للصوم...

لا تبحث عن تشريعات كثيرة مختلفة لأنها غير موجودة، بل هناك القليل النادر من التشريعات الحديثة، ورغم ندرتها استعملت الآية هنا تعبيرًا دقيقًا لتخبرك عن فرق "ولو قليل جدًّا" بين التشريعات القديمة والحالية، والآية أصلًا لم تقصد الإشارة للفرق بين التشريعات بل قصدت إخبارنا عن الامتداد التاريخي لوصاياه التشريعية سبحانه لنا كدين لنا عبر هؤلاء الرسل الخمسة الموزعين على التاريخ.

{أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ}، هذا التشريع الذي نزل وهو دين لكم وليس للعرض عليكم فقط، لأنه لم ينزل لتقرؤوه وتنسوه، بل لتقيموه لتفعّلوه ولا تعطّلوه، {وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}، ولا تصيروا فرقًا فتنقسموا لأديان ولمذاهب ولطوائف، بل كونوا كلّكم على الدين الإلهي بحسب ما يقوله لكم آخر رسول إلهي، فهذا هو الأمر الإلهي لكم، وهذا التفسير العملي لولايتكم له تعالى باتباعكم لدينه المحدّد لكم وبوجوب اتباعنا نحن كلّنا الآن لما أوحي إلى الرسول محمّد(ع).

{كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ}، الذين جعلوا له تعالى شركاء في الألوهية والوهم، كبر عليهم دعوتك لهم، إشهارك إعلانك لهم باتباع شريعة هذا الدين، فرأوا أنفسهم أكبر من اتباع دينه تعالى ذي الامتداد التاريخي السحيق لآلاف من السنين من تاريخ البشرية، وما اخترعوه يرونه أفضل وأنسب!

{اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ}، يختار ويضمّ إليه، {مَنْ يَشَاءُ}، من بين الخيارات العديدة من الناس أمامه تعالى، اختار سبحانه ضمّ المؤمنين واعتبارهم تابعين له، ويعتني بهم بشكل خاص، {وَيَهْدِي إِلَيْهِ}، يضع سبحانه على الأشياء الصحيحة التي توصل إلى رضاه، {مَنْ يُنِيبُ}، من يترك كل شيء ويرجع في أموره إلى الله تعالى، فهذا سيهديه تعالى فيدلّه على الطريق الصحيح، عبر الشرع الذي ينزله على رسله.

لا زلنا في الحديث عن ولايته تعالى، ونقف هنا مع الآية أمام اتباع الشرع الإلهي كتفسير عملي للولاية لله تعالى، فمن والاه تعالى سيتبع شرعه، ومن لم يواله كبر عليه اتباع الشرع الإلهي، وأي تصرّف يقوم به على نيّة مخالفة شرعه تعالى فهو عمليًّا مشرك، سواء اتّبع شرع أناس اعتبرهم آلهة أو اتبع الشيطان أو اتّبع شريعة أناس يعتبرهم علماء مثقّفين، أو اتّبع شريعة نفسه وهواه... عمليًّا كلّ هذا شرك، وجعل نفسه مواليًا لغيره تعالى.

ننتبه، ولا نمرّ على الأمر الإلهي بإقامة الدين وترك التفرّق فيه مرور الكرام وكأن الموضوع لا يعنينا، بل نحن الآن في صلب الموضوع، حيث تفرّقنا عن دينه تعالى وصار لنا دين اليهودية ودين المسيحية ودين الإسلام... وتفرّقنا عن ديننا وصرنا مذاهب وطوائف، وكما هي حال الذين سبقونا، كلّ مذهب وطائفة حسمت أمرها بأنها على حق ويجب على البقيّة ترك مذهبها! وهذا رأس الشيطان، وبدل أن نتخلّى كلّنا عن مذهبنا ونعلن أننا فقط وفقط على دين الإسلام، والبقية مسلمون ولكن لهم آراء مختلفة، ونمنع أنفسنا ونمنع الناس عن اتخاذ أسماء خاصّة بها تميّزها عن بقيّة المسلمين، ونتوقّف عن التفرقة ونتوقف عن وضع حدود مع الآخرين... بدل كل هذا ترانا نصرّ على التشاحن والفرقة والبغضاء... والأنكى من ذلك، أننا نفعل هذا تحت اسم الدين وواجبنا أمامه تعالى للدفاع عن مذهب الحقّ وعن الدين الحقّ لأن الآخرين حرّفوه! علمًا أنّه تعالى منعنا من التشاحن والبغضاء والتفرقة! ومنعنا من التعصّب والتحازب الديني...

الأنكى من ذلك أن كل جماعة تدّعي أنّها على حقّ في العقيدة والتشريع وعلى البقية اتباعها! ولن تجد جماعة من تلك الجماعات يجتمع أفرادها على رأي واحد في عموم الشريعة والعقيدة! وداخل كل جماعة تشريعات مختلفة! تجدها هي نفسها التشريعات التي تذكرها الجماعات الأخرى! ومن النادر أن تجد جماعة تنفرد بشيء لم تقله الجماعات الأخرى! ورغم هذا الاتفاق غير المعلن على الاختلاف فيما بين كل جماعة على التشريع، إلا أنهم يرفضون القبول بما تقوله الجماعات الأخرى! ويصرّون أنّ مذهبهم الحقّ!

بقي شيء، قبل النبي نوح(ع) ألم يكن هناك شريعة؟ ونحن نعلم أنّ أوّل من تأهّل من البشرية ليتكلّف بدينه تعالى كان آدم(ع)، وبينه وبين النبي نوح(ع) مئات أو آلاف من السنين، فهل مرّت تلك الفترة بلا شريعة؟ بالتحليل أول ما يخطر بالبال هو واقع الحال، لأنه من المشهور في تاريخ ثقافتنا الدينية نزول الوحي الإلهي على العديد من الأشخاص بين آدم(ع) ونوح(ع)، وعبرهم كان يصل دينه تعالى للناس، ولكن واقع حال تكتّل ذرية آدم(ع) "أول من تكلّف" وصولًا إلى صيرورتهم مجتمعًا أو مجتمعات، وهي الفترة التي استغرقت حتى صار من أولاد وأولاد... آدم(ع) عدد كبير متجاورين في السكن، بعد هذا الواقع نتجت تعقيدات عن العلاقات البشرية المستجدة من نمو العدد وتعاملاتهم، وهذه المستجدات من تبادل وتجارة... وسلوكيات وأخلاقيات وأدبيات... وحلّ خلافات ونزاعات... من بعدها صار لنزول شريعة إلهية معنًى تطبيقيٌّ يفهمه الناس، ليكون كلامه تعالى مقوّمًا لما جعله فينا من قابلية تمييز الخير من الشرّ والفساد من الصلاح... وهكذا نفترض وجود حالتين، حالة تأهّل أول بشري للتكلّف بدينه تعالى، وحالة احتياج أول مجتمع للتكلّف بشريعة تنظّم شؤونه...

كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، وهي ليست اصطلاحًا مخصّصًا كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، لأنها عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئًا ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني فأنا مدين له، لأن خلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعًا بسبب سعة تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... وكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة هناك ندان بأعمالنا، فما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هو التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. هنا في الدنيا أيضًا يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسبًا بحكمته قد يديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

{وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ{14}}

{وَمَا تَفَرَّقُوا}، وما صار الناس فِرَقاً كل فرقة لِوَحْدِها، أدياناً: يهوداً، مسيحيين، مندائيين، أيزيديين... ومذاهب: كاثوليك، وأرثوذكس، وشرقيين، وغربيين... ومشركين: عُبّاد أصنام، عُبّاد أشخاص... وعلمانيين و... {إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ}، فكل منهم قصد بفعله الاختلاف عن الآخرين. بعبارة أخرى: تفرّقهم عن الدين الإلهي عمل قصدوه رغم مجيء العلم إليهم، رغم مجيء تشريع إلهي هم بَغَوا وتفرّقوا، فلم يتركهم تعالى جهلة لا يعلمون ما هي أوامره ونواهيه كما أخبرنا في الآية السابقة، حيث مدة بعد مدة جاء وحي لرسول بتشريع... ولكنهم أصرّوا على الانقسام فِرَقاً!

{وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى}، قال المسؤول عنك من مستوى إلهي كلمة وهي أنه تعالى لن ينهي حياة البشرية ويعاقب الناس فوراً على تفرّقهم عن دينه بل سيتركهم {إِلَى أَجَلٍ} إلى موعد زمني لنهاية تركهم بلا حساب، {مُّسَمًّى}، محدَّد معلوم تاريخه عند الله تعالى وحينها سيحاسبهم، وذلك في يوم القيامة وما بعده، ولولا ذلك، {لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ}، لحصل فوراً ما يجب أن يحصل بينهم، لكان سبحانه أصدر قضاءه بحكمه بين الفرق المختلفة فوراً حين تفرّقهم.

بعبارة أخرى، سبحانه سيترك البشرية تكمل الحياة الدنيا حتى النهاية مهما فعلوا، فإذا كفروا به تعالى أو أشركوا وتفرّقوا عن دينه... لن ينهي سبحانه الحياة الدنيا قبل وقتها ليحاسبهم ويجازيهم، بل سيترك الدنيا تستمر إلى حين الوقت المعلوم له تعالى لانتهائها لتأتي الآخرة، وهذه هي الكلمة التي قالها سبحانه ولن يغيّرها.

{وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ}، انتقل إليهم الكتاب الإلهي وصار لهم، {مِن بَعْدِهِمْ}، من بعد الأجيال الأولى التي نزلت عليهم الكتب، أناس ورثوا شريعة الرسولين نوح (ع) وإبراهيم (ع)، وأناس ورثوا شريعة الرسول موسى (ع) التوراة، وأناس ورثوا الإنجيل شريعة الرسول عيسى (ع)، فهم {لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ}، مبدئيا ومن تفكير سطحي يرفضون الكتاب الذي ورثوه، {مُرِيبٍ}، حيث لديهم ردَّة فكر أولية رافضة لصحّة تلك الكتب.

ضع في بالك أن جملة "شك مريب" تشير لسماعك عن شيء ما، وأول ما يخطر ببالك عنه بتكذيبه هو الريبة، لأنَّهُ ردَّة الفكر الأولية، أي الإحساس بكذب الشيء، وبعدها التفكير فيه للحظتين وأكثر من دون التعمّق أو الاستناد لشيء، والنتيجة هي حالة الشكّ بما سمعته، سواء تَشُكُّ بصدقه أو تَشُكُّ بكذبه، والشك المريب هو تكذيب ما سمعته لمجرد سماعه ومبدئياً فكرياً ترفضه. كحالة سماعك لجملة: صديقك فلان سرق. ومن معرفتك به، أوّل ما سيخطر ببالك تكذيب الخبر، ووصف هذه الحالة أنك مرتاب بصحة الخبر، وبعد إعادة ما سمعته في فكرك مرة ثانية، وصف حالتك أنك تشكُّ بصحة الخبر. طالما لم تدرس الموضوع ولم تستند إلى أدلة تؤكّد كذب أو صدق الخبر فأنت في حالة شكّ مريب، أنت في حالة ردَّة الفكر الأولية والثانية قبل أي دراسة أو استناد لحقائق.

بعبارة أبسط، من دون دراسة عقلانية لتلك الكتب الإلهية هم يعيشون حالة الشعور بأن تلك الكتب ليست إلهية.

هنا السورة تخاطب كلّ الناس، وتنبّههم على وجوب ولايته تعالى لوحده فقط، وبعد كلامها مع عموم الناس وخصوصاً المشركين، عرّجت لتنبيه من ورث كتاباً من الكتب الإلهية، لأن بعضهم لا يوالونه تعالى بالرغم من وجود كتاب إلهي معهم وصاروا منسوبين للكتاب الإلهي كوارثين له، والسبب أنهم فقط منتمون بالاسم لكتاب إلهي ولديهم شك مريب به وليسوا مؤمنين حقاً به.

سبحانه يعرض الأمور بشفافية وبصراحة ووضوح، وهذا شيء لا ننتبه له عادة، حيث لا ترى القرآن يحابي أي أحد على حساب الحقّ، بل يتحدّث عن المشركين الفعليين والعمليين، وفي نفس الوقت يتحدّث عن أهل الكتاب المؤمنين الحقيقيين وعن أهل الكتاب الذين ورثوا الكتاب ولم يؤمنوا به، وصاروا موالين لغيره تعالى مثلهم مثل المشركين.

لا يهمّه تعالى إن قال حقيقة مشاعرهم وأفكارهم تجاه الكتاب الذي ورثوه، لأننا في حياتنا العادية نعتبرها تبخيساً وتنقيصاً بجماعتنا، أمّا سبحانه فيعرض الأمور بحقيقتها، حتى لو كان تقريعاً أو ذمّاً بمنتسبين لدينه، فالذين ورثوا الكتاب الإلهي بعضهم يشكّون بريبة فيه.

انتبه جيداً، قبل نزول القرآن لم يكن المسلمون ورثوا الكتاب، وبعدها صاروا يوصفون بأنهم ورثوه، ويمكنك أن ترى من نفسك ومن حولك ورثة القرآن وهم عامّة المسلمين من حولك، وعندها ستنتبه بأنهم شبه التمام مع ورثة التوراة والإنجيل، ومنهم من آمن به، ومنهم من تلاعب بمعانيه، ومنهم من هجره، ومنهم من اعتبره للبركة فقط، ومنهم من نبذه، ومنهم من أعلن مخالفته كله أو بعضه، ومنهم من أنكره كله أو بعضه... وغالبيتهم يقولون عن أنفسهم: مسلمون. هنا الآية تتحدّث عن أهل الكتاب الذين سبقونا أنهم ورثوا كتابهم ولم يتبعوه بالتمام لأنهم في {شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ}، كتنبيه لنا حتى لا نكون مثلهم، وللأسف لم ينفع التنبيه.

انتبه أيضاً وأيضاً، أن السورة ليست مخصّصة لأهل الكتاب وما وقع من تحريف في كتبهم وفي الدين الإلهي... لأنَّ هذه أمور تناولتها بالتفصيل سورة البقرة وآل عمران وغيرها من السور العديدة، ولكن السورة هنا عرّجت على أهل الكتاب في هذه الآية لتخبرنا عمّن لم يواله تعالى من كل أنواع الناس، سواء المشرك علناً أو المنتسب بالاسم لكتاب إلهي ولديه شك مريب به.

هكذا تفهم جملة "شك مريب" لديهم بالكتاب الإلهي الذي ورثوه، ولو أنهم لم يحرفوه ولو درسوه بدلاً من الاعتماد على الريبة والشك، لَوَجدوهُ حقّاً وصلاحاً، ولكنهم لا يريدون الحق والصلاح ولذلك يبقون على الشك المريب بدون دراسة.

لا يغب عن بالك أنه تعالى في العديد من السور أقحم كلاماً عن أهل الكتاب بينما كانت السور توجّه كلامها للمشركين، والسبب وجود حالة عند أهل الكتاب مشابهة لحالة المشركين، ولم يخفها أو يسترها تعالى، بل ذكرها ولم يُحابِ المنتسبين بالاسم لدينه سبحانه...

(فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ{15})
{فَلِذَلِكَ}، للّذي شرّعه لكم تعالى، {فَادْعُ}، أعلن وأشهر للناس، قل لهم أن يتبّعوا ما يوحى إليك، {وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ}، كن موصوفاً بأنك على الأحسن فلا تنحرف أنت أيها الرسول محمّد (ع) عن الأوامر التي تلقيتها، بل كن عليها بشكل مستقيم ونفّذها بالتمام، {وَلَا تَتَّبِعْ}، ولا تكن على، {أَهْوَاءَهُمْ}، ما يرغبونه وما يحبونه من دون الرجوع إلى أوامره تعالى، لأنَّ الناس يمشون على هواهم السَّيِّئ في حلالهم وحرامهم وعقائدهم... فلا تكن على خطاهم بل استقم على الأوامر الإلهية.

لاحظ القرآن يخاطب الرسول محمّد (ع) بنفس اللهجة التي يخاطب بها كلّ الناس، ويعتبره مميَّزاً فقط حين يكون مميَّزاً، مثلما مدحه لأخلاقه العالية {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} في الآية الرابعة من سورة القلم، ولكن حين يكون الكلام عن طاعة الله تعالى ترى الكلام الإلهي معه (ع) بأوامر صارمة جدّاً، حتى نفهم جميعاً أنه لا يوجد أحد مستثنًى من هذه الأوامر الإلهية أو مستثنًى من العقاب على مخالفتها، والمتميّز متميّز بالطاعة والإيمان فقط، وحتى لو كان محمّد (ع) حاملاً للرسالة، فهذا لا يعطيه أي خصوصية تميّزه عنّا فيما يتعلّق بتطبيق أوامره تعالى، لأنه ليس مثل الملك وحاشية الملك والمقربين منه الذين يصيرون فوق القانون.

{وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ}، وأعلن أيها الرسول لمن حولك من الناس أنك معتقد بصحّة الكتاب الذي أنزله تعالى عليك وعلى من سبقك من الرسل.

الكتاب "القرآن" نزل عليه (ع) ولكنه (ع) مثله مثلنا مأمور بالإيمان بالكتاب، وإذا فكّرنا بأن الكتاب ينزل عليه (ع) ومن المفروض أن يؤمن به، فلماذا تقول الآية شيئاً هو تحصيل حاصل؟ إذا قلنا هذا فنحن لم نفهم ما كرّره القرآن مراراً، لأن نزول الوحي على شخص ما، لن يسبّب له الإيمان، وفرضاً لو نزل الوحي على كافر لا يريد أن يؤمن، فلن يتغيّر أي شيء بالنسبة للكافر، وسيرفض ما يصله إلى فكره ووعيه ولن يؤمن به، لأنه لا يتماشى مع فكره ونفسيته، وسيبحث عن طريقة لإيقاف وصول الوحي إلى وعيه... ونفس الشيء نزول الوحي عليّ وعليك الذي لن يزيد من إيماننا بدينه تعالى، بل سنبقى كما نحن على حالتنا من بعدما قرأنا الوحي عن الورق أو سمعناه بآذاننا.

من المبادئ الأساسية التي يطرحها القرآن هي حالتنا الأساسية نحن، الفكرية والنفسية والسلوكية... وتماشيها مع دينه تعالى أو تعارضها معه، وإذا سمعنا كلامه تعالى وبأي وسيلة كانت، فأساس ما نحن عليه سيحسم مبدئيّاً موضوع إيماننا

أو رفضنا للذي وصلنا، وفرضاً لو بأي طريقة وصل كلامه تعالى إلى أبي جهل، وهو شخصية تاريخية عاصرت النبي محمّد (ع) واشتهر بكفره وعناده وحربه للدين الإلهي وللرسول (ع) وللمؤمنين، فلو سمع أبو جهل في وعيه مباشرة كلامه تعالى، ونزل عليه الوحي، فهل كان سيؤمن؟ لا، بل كان سيجنّ جنونه مما يسمعه ولا يطيقه ويكرهه، ويحاول بأي طريقة ممكنة إيقاف تلقيه للوحي...

لنلتفتْ إلى أنفسنا وأنت تعلم أن الغيبة سوء وحرام عليه عقاب، والكذب مثلها، والمبالغة في الكلام مثلها، والمذهبية والفرقة مثلها... هذه المعلومات في فكرك ووعيك، تماماً مثل وصولها إليك عبر الوحي، ولكن، هل وجودها في وعيك وفكرك يجعلك معتقداً ملتزماً بها؟ لا، بل قرارك أنت باتباعها والتماشي معها يجعلك مؤمناً بها، ونفس الشيء بالنسبة للنبي محمّد (ع)، لأنَّ نزول الكتاب عليه لن يجعله مؤمناً، بل تماشي فكره ونفسيته مع ما يصله، وقراره باتّباع ما يصل إلى فكره ووعيه من معلومات وتطبيقه لها، هما ما يجعلانه مؤمناً بالكتاب.

من المفيد هنا إضافة ما درسناه في الآية الثانية من سورة البقرة {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} حول أساس فكر ونفسية كل واحد منّا، وبناءً عليه موقفه من الحقّ والباطل، من الهدى والضلال، فيكون هذا الكتاب هادياً له إن تماشى مع قلبه السليم، أو كافراً به لأنه لا يتماشى مع قلبه المطبوع بالعمى...

نرجع للآية، {وَقُلْ} أيها الرسول (ع): {أُمِرْتُ}، حيث وصلني أنا الرسول محمّد (ع) أمر منه تعالى، {لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ}، حيث إنَّ لديكم أفكار وسلوكيات متفرّقة متخالفة، ووظيفتي أن لا أنحاز لأحد منكم أو لأهوائي، وأن لا أتركوكم منحرفين عن الخط الإلهي، بل أقيم العدل بينكم، وأقول لهذا أنت ظالم باعتقادك، وأقول لذاك أنت ظالم بتصرّفاته... وأعرض عليكم العقيدة والسلوك الصحيح.

من هذا الكلام يمكنك رؤية ما كررناه مراراً عن أنه تعالى لا يعرض علينا في قرآنه ديناً غريباً عجيباً، بل بكل وضوح وصراحة يعرض علينا أن نكون مؤمنين بالحقّ، بالمعلومات الصحيحة عنه تعالى وعن أفعاله وقراراته، وأن نكون صالحين، وها رسوله تعالى مأمور بالعدل، وتصرفه العملي سيكون دليلاً على أنه رسول إلهي يريد الإصلاح والصلاح لنا، فما معنى الكفر به ومعارضته إلا الرغبة في الفرقة والبغي من بعدما صار لدينا مصدر "إلهي" يحدّد لنا الحقّ من الباطل؟

{اللَّهُ رَبُّنَا}، كمؤمنين فصاحب الاسم المميّز المحدّد "الله" هو المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {وَرَبُّكُمْ}، وهو نفسه المسؤول عنكم من مستوى إلهي، فهناك ربّ من مستوى إلهي واحد أحد ولا ربّ غيره، أعجبكم أم لم يعجبكم، اقتنعتم أم لم تقتنعوا فهذه الحقيقة لن تتغيّر، ومما سبق ومن تكملة الآية نفهم أن الربّ الواحد للكل يعني: سنتحاسب كلّنا عند نفس الربّ الذي أرسل رسله بكتبه للجميع، وهو ليس ربّاً للمسلمين فقط، وليس للعرب، وليس لليهود ولا للنصارى... وليس لكم ربّ خاص بكم... لا، بل الربّ واحد للكل، والحساب عنده للكلّ.

سنفهمها بشكل أسهل إذا فكّرنا في مشرك يقول: هذا الذي يقول إنَّه رسول من الله ويحمل شريعة ودعوة لأتباعه... فلا علاقة لي به، لأن ربّي غير ربّه، وربّه سيحاسب أتباعه وربي سيحاسبني... وهذه العقيدة عادية عند المشركين الذين لا مشكلة عندهم مع الأقوام الآخرين الذين لديهم آلهة مختلفة عن آلهتهم، على أساس أنه لكل قوم آلهة خاصة بهم...

ترى بشكل محوَّر ومخفيّ نفس العقلية عند الذين يسمّون أنفسهم بالعلمانيين أو الملحدين "الذين باصطلاحنا الحالي هم يكفرون بكل الأديان"، الذين بشكل أو بآخر يتعاملون مع الإيمان والحساب في الآخرة كالمثل "غير الصحيح" الذي يقولونه عن حيوان النعامة الذي يضع رأسه في حفرة، على أساس أنَّه إن لم يَرَ العدو فالعدو لن يراه، علماً أنَّ هذه المعلومة عن النعامة غير صحيحة ولكنها مثل، حيث تفهم شيئاً لا عقلانيّاً من طيّات كلام العلمانيين، حين يقولون أنَّك أنت كمتدين ستموت وتتحاسب في الآخرة لأنك مؤمن بها، بينما هم سيموتون وتنتهي قصّتهم وربّك لن يحاسبهم لأنهم ليسوا تابعين له، وإن كان هناك آخرة، فرضاً، فلديهم العديد من التبريرات الجاهزة كأعذار لكفرهم... والتي ذكرها لهم القرآن من الآن ليخبرهم أنها لن تنفعهم...

{لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ}، ليست أعمالنا نحن المؤمنين المستقيمين على دينه تعالى متساوية مع أعمالكم، بل مختلفة، كما نقول لمن اختلفنا معه في العمل على زراعة الشتول: اعمل على طريقتك وأنا سأعمل على طريقتي. لأنَّ غير

المؤمنين يقولون: ما الفرق بيننا وبينكم؟ وما الذي سيجعلنا متميّزين إن آمنّا؟ وهل تختلفون عنّا بالصلاة والصوم... وما قيمة هذه الأعمال؟ ستفهم هذا الكلام إن تلبّست بعقلية غير المؤمن، الذي لا يرى فرقاً مهمّاً بينك وبينه، بل يراك بسيطاً متخلّفاً بسبب تضييقك على نفسك بالحلال والحرام والواجب... بينما هو مرتاح ويفعل ما يهواه... تأتي الآية هنا لتخبره بوجود فرق لصالح المؤمنين المتمسكين بعملهم وغير المستعدين لتبديل أعمالهم التي يرون لها قيمة عالية، وتخبره أن الأعمال المختلفة لها نتيجة مختلفة، فمن آمن وعمل صالحاً فعمله له وهو يستفيد منه، ومن أشرك وأفسد فعمله عليه عقاب وهو لوحده سيتحاسب ويتجازى عليه.

{لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ}، فالحجة هي ما تستعمله كبرهان لتثبت صحّة شيء ما، والفرق بين إيماننا وإيمانكم وأعمالنا وأعمالكم واضح، ولا يوجد أي شيء كبرهان على تساوي إيماننا وعملنا معكم، فلا يوجد معكم ومعنا حجّة متعارضة، وحججكم عن المشابهة بيننا وبينكم، كوننا متديّنين بدين وأنتم بدين آخر أو أنتم بلا دين، وأنَّ كِلَينا متشابهان... فهذه حجّة غير مقبولة ويبقى الفرق بيننا كما هو، لأننا مؤمنون بمعلومات صحيحة ونفعل الصالح من الأعمال ونترك السوء... ولنا ثواب حسن، وأنتم لم تؤمنوا وفعلتم السيئات ولكم عقاب.

{اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {يَجْمَعُ بَيْنَنَا}، فالآن تخالفوننا وتعارضوننا ولا تفعلون مثلنا، ولكن سيأتي زمان يجمعنا تعالى فيه، وذلك في الآخرة، وهناك تعلمون الفرق بين إيماننا وعملنا وكفركم وعملكم. سواء آمنتم به تعالى إلهاً أحداً أم لم تؤمنوا، فهناك شيء محسوم سيحصل، حيث بعد موتنا سيجمع تعالى بيننا كلّنا من جديد.

ضع في بالك أيضاً أن المشركين عموماً كانوا متساهلين في العقائد، فإن سمعوا بقوم مشركين يعتقدون أن آلهتهم تعيد إحياءهم لمحاسبتهم، أو تنقلهم إلى عالم الأرواح... كانوا لا يناقشونهم ليثبتوا أن عقيدتهم غير صحيحة، بل بكل بساطة يعتبرون هذه العقيدة صحيحة ولكنها لا تنطبق عليهم لأنهم لا يعبدون تلك الآلهة، وما سيحصل مع المؤمنين بتلك الآلهة فسيحصل معهم لوحدهم ولن يحصل مع بقية الناس، لهذا تأتي آيتنا هنا وأمثالها لتخبرهم أن قرار الله تعالى سارٍ وسيجري على من آمن أو كفر به تعالى، لأن الكلّ سيجمعهم سبحانه ليحاسبهم.

نفس الكلام مع العلمانيين والملحدين، حيث كفركم بالآخرة لن يغيّر أي شيء، لأن ربنا هو ربكم، وسيجمع الجميع بدون استثناء في الآخرة، وسيجمع حتى الذين لم يؤمنوا به سبحانه ولا بالآخرة.

{وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}، آخر ما تصل إليه الأمور وخاتمتها، إلى الله تعالى، فما يجري هنا في الدنيا له نهاية، وما حصل لن يموت بموتنا وينتهي، لا، بل كلّ الأمور مصيرها وخاتمتها إليه تعالى، فالوقوف بين يديه تعالى لمحاسبتنا حتمي وسيحصل.

أي فكرة في بالكم عن الاستخفاف بأهمية ما أقوله عن الإيمان بالكتاب والعمل به، هي متحطّمة أمام حتمية الرجوع إلى الله تعالى لمحاسبتنا ومجازاتنا.

(وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ{16})
{وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ}، حيث يقولون كلاماً ليبرهنوا على بطلان توحيده تعالى وفساد اتباع دينه، {مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ}، من بعدما كانت ردّة فعل المؤمنين الطاعة لدعوة الرسول (ع) إلى دينه تعالى، فهؤلاء المحاججون، {حُجَّتُهُمْ}، كلامهم عن البراهين، {دَاحِضَةٌ}، زلقة غير ثابتة فهي مردودة مغلوبة، مثلما نقول بالعامية: براهينهم فراطة وفالصو، {عِندَ رَبِّهِمْ}، عند المسؤول عنهم من مستوى إلهي.

هنا في الدنيا يحاججون ليبرهنوا أن الدعوة لدينه تعالى عبر ما يقوله الرسول محمّد (ع) وقرآنه ليسا صحيحين، وفي نفس الوقت الذي لم يؤمنوا فيه هناك غيرهم ممن استجاب لدعوته تعالى وآمن، وهؤلاء كان من الواضح لهم صحّة دينه تعالى وبناءً عليه آمنوا، والنتيجة أن الذي لم يؤمن، لا عذر له فحجّته داحضة عنده تعالى.

في الآخرة عندما يقفون بين يدي ربهم سبحانه، ماذا سيفعلون؟ هل سيعرضون حججهم وبراهينهم ليقنعوه تعالى بأن دينه لم يكن صحيحاً؟ أم هل سيقولون له تعالى إنَّ الدعوة لدينه كان فيها عيب ولم تكن واضحة ولم تكن مقنعة وكان لدينا حجج على فساد دينك؟ هنا الآية تنبّههم أنَّ الدعوة لدينه تعالى واضحة ومقنعة وأي حجّة يخترعونها لا قيمة لها

لأنه يوجد أناس استجابوا للدعوة وآمنوا، إذن هي واضحة ومقنعة بدليل إيمان البعض بها، وبراهينكم وحججكم عن فساد الدعوة، أو أنها ليست واضحة، أو لم يتم طرحها عليكم بشكل صحيح... فهي حجج مدحوضة زلقة لا تثبت ولا تبرهن أي شيء، ولا قيمة لها، وبالتالي تستحقون عقابه الشديد سبحانه.

{وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ}، ولهم السوء منه تعالى بسبب رفضه وكرهه لما فعلوه، {وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ}، ولهم ضرر لا يمكن تحمّله ولا الاعتياد عليه.

نلاحظ القرآن كرّر هذا المفهوم في سوره المختلفة، ونفهم أنه سبحانه عرض علينا الدين بشكل واضح "بيّن"، ومقنع "لا ريب فيه"، ويوم القيامة لا يمكن لأي شخص أن يقول: كان دينه تعالى مشوّشاً عليّ ولم أفهمه بشكل صحيح لأنه غير واضح وغير مقنع، فلا يحق لكم أن تحاسبوني على كفري به لأن الخطأ لم يكن خطئي... لا، هذا لن يحصل، لأن كلامه غير صحيح، فما معنى إيمان أناس غيرك؟ وكيف رأوا دينه تعالى واضحاً ومقنعاً وأنت لم تره واضحاً مقنعاً؟ وهذا ما تقوله الآية هنا. من ناحية ثانية، هل سيقف بين يديه تعالى في الآخرة ليقنع الإله بأن دينه لم يكن واضحاً ولا صحيحاً؟ وهذا ما يمكن أن تشتقّه من الآية وستراه في الآية التالية.

لا تَنْسَ أنَّ كلّ القرآن بغالبية سوره وآياته، هو آيات، هو أمور مميزة كدلائل وعلامات على دينه تعالى، وعندما تقرأها وهي تلفت انتباهك لخلقتك وللظواهر من حولك كالليل والنهار والنبات... فهي آيات، وفي حياتك وبدون القرآن فإن نفسك وما حولك هم آيات تدل على الإله سبحانه، فلا تَنْسَ أن القرآن لم يعتمد فقط على احتجاجه بإيمان بعض الناس على صحّة الدين، ولم يقل: طالما آمن بعض الناس، فالدين كان واضحاً ومعروضاً بشكل صحيح. لا، لم يعتمد على هذه النقطة بالأساس، بل عرض كل أنواع الآيات التي تدل على صحّة الإيمان بالتوحيد... وصلاح التشريع، وفي الكتب التي نزلت على الأنبياء، وفي نفسك، وفيما حولك، وفي حياتك، وفي كلام الأنبياء والرسل، وفي كلام المؤمنين... وبعد ذلك يخبرنا تعالى بأنه لا حجة لمن رفض تلبية الدعوة الإلهية الواضحة والتي عليها دلائل كثيرة متنوّعة وأكثر من كافية... وها غيره لبّاها وآمن، فأي عذر له حتى لم يؤمن؟

(اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ{17})
عندما يحاججون الرسول محمّداً (ع) ولا يؤمنون بالكتاب النازل عليه، ويعارضون محتوى القرآن، فهم عمليّاً ماذا يفعلون؟

{اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز جلّ جلاله، {الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ}، فهذا الكتاب لم ينزله ليتسلّى سبحانه، وليس فيه كلام باطل أو كذب، ولم ينزل حتى لا نتبعه ككتاب لا قيمة له أمام ما نقوله نحن، أو للبركة والوضع على الرفّ... بل نزل من عنده جلّ جلاله بالحقّ بالصواب، {وَالْمِيزَانَ}، محتواه مضبوط، ليس فيه زيادة ولا نقصان، ولا ميل فيه عمّا هو مضبوط صحيح، مثلما تقول إنَّك وزنت قفص الليمون فهو موزون، وزنه معروف بدون زيادة أو نقصان. ومثلما نقول: زان الأمور بعقله... وكذلك القرآن زانه تعالى بالميزان الإلهي قبل أن ينزل، فكلّ ما فيه دقيق، بلا زيادة ولا نقصان، بلا ميلان عمّا هو مطلوب من صواب وصلاح.

عمليّاً هم يحاججون كلام الله تعالى؟ وهو كلام نزل بالحق والميزان، فمن يحاججون؟ وماذا يحاججون؟ وماذا يرفضون؟

{وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ}، يوم القيامة من الموت هو أوّل يوم من أيّام الآخرة بالنسبة لنا، وأوّل ساعة فيه هي ساعة قيامنا من الموت، وبعدها أيام فيها حشرنا وفرزنا ومحاسبتنا... وآخر ساعة في آخر يوم عندما يدخل آخر واحد إلى الجنّة أو النار. غالباً يشير القرآن بكلمة "الساعة" لزمن قيامنا من الموت لأنها التي يرفض المشركون الإيمان بها، والرسول (ع) يقول للناس بأنَّ الساعة آتية لمحاسبتنا على أعمالنا، وهم يرونها بعيدة ولن تحصل، ولكن الله تعالى يقول بأنها حتماً ستحصل، وبالنسبة لك أيها الرسول (ع) فما الذي يمنعك من افتراض وتوقّع حصولها في وقت قريب، ومن الممكن أن تتوقّعها وتفترض أن تحصل في وقت قريب فما يدريك أنها بعيدة؟ ويمكنك التحدّث بمعلومات عن أمور عشتها واحتككت بها، "تدري بها" أمّا إذا لم تعشها ولم تحتك بها "لم تَدْرِ بها" فكيف تتحدّث عنها بشكل حاسم وتستبعدها؟ لأنَّ الساعة لعلها ستحصل في وقت قريب؟

تنفيذ التهديد للكافرين بدينه تعالى سيكون في الآخرة، {وَمَا يُدْرِيكَ} وبالتالي ما يدريهم، {لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ}! لأنَّ الحساب والمجازاة على محاججتهم الباطلة يكون قريباً.

نتذكّر دائماً أن القرآن أخبرنا عن الساعة أنها ليست بعيدة، لأنَّ كل شخص يموت، ثمَّ يفتح عينيه للمرة الثانية، سيجد نفسه في يوم القيامة، ولن يشعر بمرور الزمن أثناء موته، مثل النائم الذي لا يشعر بمرور الوقت، فحتى لو فقد وعيه لمليارات السنين، لن يشعر بمرورها، حيث إنَّ الساعة بالنسبة لنا هي: إغماض أعيننا هنا، وفتحها مرّة ثانية هناك.

على كلّ حال، كتم القرآن على موعد تغيّر السماوات والأرض، وكتم على موعد خلقهنّ من جديد، وكتم على موعد يوم قيامتنا من الموت، وذلك لعدّة أسباب، منها أننا لا قدرة لنا على فهم الزمن حين تتبدّل السماوات، وحين ترجع كما كانت، وفي الحالة التي لا يكون فيها شيء إلا الله تعالى... فمن المستحيل علينا وحتى على الملائكة العالية (ع) أن نقيس الزمن من الآن إلى تلك المرحلة، حيث لا ليل ولا نهار لنقيس عليه الزمن "لا نقطة مرجعية للحركة"، ونصل إلى مرحلة لا يكون للزمن معنى فيها، حين يتبدّل كلّ شيء... وكما ترى فهناك استحالة لمعرفة زمنها بالنسبة لقدراتنا.

من ناحية ثانية، لا معنى لمرور الزمن على فاقد الوعي، ومن القرآن تعلم أنه سيأتي زمن صعق من في السماوات والأرض إلا ما شاء الله تعالى كما ورد في الآية 68 من سورة الزمر "{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}"، ونفترض أن بعض الملائكة العالية (ع) ستبقى حيّة، أو على الأقل الملاك النافخ في الصور سيبقى حيّاً، وحتى هذه الملائكة العالية (ع) لا تعرف بالضبط زمن يوم القيامة، لأنها لا قدرة لها لمجاراة علمه تعالى بذلك، فحتى لو كانت المعلومات متاحة لهم ويرون أموراً من مستوى عالٍ، تبقى قدراتهم أقل بكثير مما هو مطلوب لمعرفة زمن قيامنا من الموت بدقّة، وراجع في ذلك دراسة الآية 15 من سورة طه "{إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا}...".

على كلّ حال، ما الفائدة من معرفة تاريخ الساعة؟ فإن كنت مؤمناً عليك استغلال حياتك قبل موتك لأن موتك بداية قيامتك، وإن كنت غير مؤمن فهل ستؤمن إن علمت بوقتها؟ أم سيكون التاريخ بعيداً عن زمنك وتتهم الرسول (ع) بالتهديد بشيء بعيد لن تراه يحصل؟ وسترى كلاماً حول هذه النقاط في الآية التالية:

(يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ{18})

{يَسْتَعْجِلُ بِهَا}، بالساعة، يريدها أن تحصل أبكر من وقتها المحدّد له، {الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا}! لأنهم لا يعتقدون بالوقوف بين يديه تعالى ولا بحسابه ولا بناره... فهؤلاء يقولون: لتحصل الآن. مع العلم أنهم الوحيدون المتضررون من حصولها.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا}، الذين اعتقدوا بساعة سنقوم فيها من الموت لمحاسبتنا ومجازاتنا، {مُشْفِقُونَ مِنْهَا}، يستشعرون ويعايشون بفكرهم وأحاسيسهم صعوبة حالة الوقوف للحساب والعقاب في تلك الساعة، {وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ}، أن ساعة قيامنا من الموت ومحاسبتنا بعدها هي حقّ صواب وليست كلاماً باطلاً لأنها حتما ستحصل، ومن ناحية ثانية يعلمون أنها المعنى من خلقه تعالى لنا فلولاها لكان باطلاً خلقنا بحرية الإرادة والاختيار من دون حساب كما تفهم من عموم كلام القرآن ومنه ما ورد في الآية 191 من سورة آل عمران {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}، وعلى نفس المقصد ما ورد في الآية 27 من سورة ص {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}.

المؤمنون ينتظرونها ولكن لا يستعجلونها لأنهم يستشعرون حالة الخوف من الحساب والعقاب، لأنهم لم يضمنوا الجنّة لأنفسهم بل يطمعون بها. الآية ترينا الفرق الكبير بين من يستعجل بالساعة لأنه غير مهتم بهذا الكلام لأنه لم يؤمن بها ولم يتحضّر لها، وبين من آمن بها ويعلم بضرورة الاستعداد لها ويخاف من تقصيره في الاستعداد.

نتذكّر من آيات عدة في القرآن وصفها للمؤمنين الآن مشفقين من الآخرة، كما ورد هنا وفي الآية 49 من سورة الأنبياء {الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ}، ولكن في الآخرة هم سعداء. ووصفت غير المؤمنين بها بأنهم الآن مرتاحون ولا يشعرون بضرورة الارتباط بتحضيرات لعالم الآخرة، ولكنهم في الآخرة سيكونون مشفقين مما

يرونه من عذاب قادم عليهم من النار التي تقترب منهم، كما ورد في الآية 49 من سورة الكهف {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ...} حيث يعايشون فكريّاً ونفسيّاً حالة الضرر التي ستصيبهم مما هو مسجل في كتاب أعمالهم، وسترى ذلك هنا في السورة بعد قليل في الآية 22.

{أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ}، والمرية وصف لعموم الكلام الفارغ التافه، من الخلاف على أمر تافه، أو الجدال بشكل تافه مع الذي يرمي الكلام بدون دراسة ولا يفهم بالعقل والمنطق، أو لا يقبل الحق والمنطق فيتكلم فيه معارضاً بدلاً من القبول به. لأن ساعة قيامنا من الموت هي حقّ وحتما ستحصل، وعليها أدلة من مختلف الأنواع... ومن لا يؤمن بها إنما يماري، فهو يقول كلاماً تافهاً معارضاً به لحقيقة ناصعة، وهؤلاء، {لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ}، هم أبعد ما يكون عن الصواب.

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، لأنها لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شرّاً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك البندقية التي ترمي لمسافات بعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضَلَّ عنك صيدها. واستعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، فلم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، ولذلك لن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى (ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} رداً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ العَزِيزُ{19})
{اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ}، ليس قاسياً لئيماً خشناً مع الذين المفروض منهم طاعته، ولمزيد من التوسع حول كلمة عبد راجع دراسة الآية 25 من هذه السورة، {يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ}، حيث أمامه تعالى خيارات عديدة ويقرّر سبحانه من سيحصل على الأشياء التي يسدّ بها حاجاته ورغباته، ولا يفرض ذلك عليه تعالى أي أحد، وها تخبرنا الآية أنه بلطفه يرزق من يشاء، وهذا ليس عن فرض واجب عليه تعالى.

تذكّر الآيات العديدة التي شرحت لنا كيفية اختياره تعالى لتوزيع الرزق على عباده... حيث المؤمنون يعتني تعالى بهم حتى لا يضعف إيمانهم فإن لم يناسبهم الغنى أفقرهم... والكافرون والفاسقون والمنافقون يتركهم تعالى بلا عناية، ويكون المجال أمامهم مفتوحاً لجمع الثروة بكل الطرق ولا يهتم سبحانه بهم إن زاد ابتعادهم عن الإيمان والصلاح... وبعض الكافرين يقدر عليهم سبحانه حتى لا يطغوا... وبعضهم يرزقه تعالى حتى يبتلي به الآخرين... وبعضهم يمدّهم تعالى في طغيانهم...

{وَهُوَ الْقَوِيُّ}، ويمكنه سبحانه فعل أي شيء بتلك القوة، فليس ضعيفاً عاجزاً عن رزق من يشاء أن يرزقهم، {وَهُوَ}، {الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... وهنا الكلام عن فرضه تعالى لما شاءه في الرزق علينا.

نلتفت لربط صفة اللطيف بالرزق، وستجد في الآية 27 من هذه السورة أهمّ سبب مانع من بسطه تعالى الرزق لكلّ الناس، وهو حماية الناس من البغي.

هنا الآية مدخل للآية التالية عن السيطرة الإلهية على الرزق مطلقاً، سواء في الدنيا أم الآخرة، حيث تفهمنا أنه تعالى يسيطر على زيادة حرث الآخرة والدنيا... وبالعودة لمحور السورة فهذه كلها نماذج عن معنى ولايته تعالى وأن ولاية غيره لا معنى لها، فلنكمل:

(مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ{20})
بناءً على ما سبق من تحديد الشريعة التي يجب الالتزام بها من كتبه تعالى، وأن المخالفة عليها عقاب:

{مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ}، الحرث هو تهيئة الشيء للإنتاج، فمن كان يعمل هنا كتهيئة للإنتاج في الحياة الآخرة، فيعمل حسنة هنا لينال ثوابها في الآخرة، {نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ}، فسيحصل على إنتاج زائد، وهذا ما تجده في عموم القرآن عن مضاعفة الثواب كما ورد في الآية 40 من سورة النساء {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}.

{وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا}، فيعمل للإنتاج فقط هنا في الدنيا فيريد المال والأملاك... {نُؤْتِهِ مِنْهَا}، فسيحصل على نتاج هنا في الدنيا، ولكن ليس جميع من حرث للدنيا سيحصل على الغنى والثروة، لأن بعض الناس أصلاً حرثوا للدنيا بما يكفيهم ولا رغبة لهم بالزيادة، وآخرون رغبوا بالثروة وحرثوا لها... ولكن لا يحصل جميع هؤلاء على الثراء، بل عبّرت الآية بأنه تعالى يؤتيه منها بشكل عام، بقدر "قليلاً" أو ببسط "كثيراً".

{وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ}، وهذا الذي لم يرد حرث الآخرة ولم يحرث لها، وحرث للدنيا سواء بشكل كبير أو أقل من عادي، فليس له في الحياة التي ستأتي في الآخر من بعد انتهاء الحياة الأولى، ليس له من نصيب فلا حصّة مقسومة له، فلا ثواب له مما حدّده تعالى كأجر على الإيمان والعمل الصالح.

إذن، اللطيف الرازق أتاح لنا الحصول على الرزق المهمّ جداً في الآخرة، ولكن علينا العمل للحصول عليه، وسنناله إن عملنا له "فآمنّا بالحق وعملنا الصالحات"، ومن لم يعمل للحصول على رزق الآخرة، فلا رزق له هناك.

لا تَنْسَ أننا أمام حالة الذين تُعْرَضُ عليهم معلومات صحيحة عن توحيده تعالى... ويرفضون الإيمان بها، وتُعْرَضُ عليهم فعل الصالحات وترك السوء، وهذا هو حصراً ما يشرّعه تعالى، ويرفضونه، فنحن أمام حالة من تقول له: آمن بالحقّ واعمل صالحاً ولك أجرٌ عظيمٌ في الآخرة منه تعالى. فيقول: لا أريد أن أؤمن ولا أريد أجراً في الآخرة فَلْتَبْقَ جنّة الآخرة لكم أيها المؤمنون... وهذا لماذا سيعطيه تعالى أجراً في الآخرة؟ وعلى أي أساس سيجعله في الجنّة؟

تلاحظ دقّة تعابير الآية بالحرث، الذي هو تهيئة شيء للإنتاج، فإن لم تحرث الأرض لن تحصل على نتاج زراعي مهمّ لك منها، ونفس الشيء بالنسبة للثواب الحسن في الآخرة الذي هو نتاج ما حرثه المؤمنون هنا، ومن لم يحرث هنا للآخرة، فلن يجد أي شيء هناك.

يعني هي ليست مسألة اعتبارية، بل حقيقية بنتائج ملموسة تماماً مثل الذي يحصل معنا هنا حيث لا تتوقّع نتاجاً من دون حرث، فهل إذا وقفت أمام أرض لم تحرثها، وتمنيت لو أنها أنتجت مثل أرض جارك الذي حرثها، فهل سيتغيّر شيء؟

كثيراً ما نسمع الناس يتحدثون في موضوع العدل الإلهي، ويفترضون من بعض آيات من القرآن، أنه تعالى يعطي ثواباً على أي عمل خير، ولأي كان، حتى لو كان فاعل الخير كافراً، وهذا غير صحيح، وآيتنا هذه واحدة من عشرات تثبت ذلك.

من عموم مفاهيم القرآن نرى أن الكافر والملحد والمشرك والمنافق والفاسق، لا أجر لهم على أي عمل حتى لو فرضاً نووه قربة له تعالى، لأن أعمالهم الحسنة تحبط فتفقد قيمتها، وحتى لو الملحد في لحظة ما هبّ الإيمان في قلبه وفعل خيراً قربة له تعالى، وبعدها عاد لكفره، فلا أجر له في الآخرة على ما فعله، وخذ مثلاً عن ذلك ما ورد في الآية 137 من سورة النساء {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا}، فهؤلاء حين آمنوا فعلوا صالحاً ما، وكما ترى فلا أجر لهم عليه لأنهم عادوا وكفروا، لأن الكفر محبط للأعمال الحسنة فيجعلها فاقدة للقيمة كما تقرأ في العديد من الآيات ومنها الآية 17 من سورة التوبة {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ} فهؤلاء يعمرون مساجد الله سبحانه ورغم ذلك لن ينالوا عليه أجراً بسبب كفرهم...

سأختصر لك أساسيات مفاهيم القرآن حول هذا الموضوع، فسبحانه حدّد شيئاً سيعطيه لمن آمن وعمل صالحاً، وهذا معنى الأجر، وليس مفروضاً عليه تعالى إعطاء الأجر، وهذا معنى "من فضله" فمن فضله تعالى حدّد للمؤمنين أجراً في الآخرة، والآيات التي قد توحي لك بأنه تعالى سيعطي أجراً على العمل الحسن بغضّ النظر عن إيمان فاعله، فراجع دراستنا هذه لتجد أن تفسير الآيات بهذا المعنى غير صحيح، وبناءً عليه، فلا أجر إلا للمؤمنين العاملين للصالحات.

نعم، تختلط علينا الأمور وتتشابه في تحديد المؤمنين من الملل الأخرى، فلنقل إنَّ راهبة نصرانية نذرت نفسها لعمل الخير في سبيله تعالى... فهي في كلام القرآن من أهل الكتاب، ولكن لديها مشكلة الاعتقاد بألوهية النبي عيسى (ع)، فهذا شرك، وهنا نحتار نحن في تقييم أجرها أو حبطه "صيرانه بلا قيمة"، مدفوعين بالمشاعر الإنسانية لتفرّغها لعمل الخير، أمّا من ناحيته تعالى ففي الآيات 171 وما بعدها من سورة النساء {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ...} نجد ملاطفة إلهية لها لتنتهي عن شركها، مع تأكيد على العقاب إن لم تَنْتَهِ.

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{ 21})

من الآية 13 إلى هنا يتواصل الكلام عن الشرع الإلهي كتطبيقٍ عمليّ للالتزام بولايته تعالى.

{أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ}، الذين لم يوحّدوه تعالى حتماً لديهم شرع، لديهم شيء معلن بينهم يلتزمون به، فلديهم ممنوع "حرام" ومسموح "حلال" وواجب... لأن القتل والسرقة والدفاع عن الوطن وغيرها من عناوين القوانين... متعارف بينهم العقاب عليها ووجوب بعضها و... فهي دين لهم، هي تبعات لكونهم واعين بحرية إرادة واختيار ويتعاملون مع بعضهم... وتبعات كونهم مؤمنين بعقيدة ما "حتى لو كانت علمانية"... وتبعات كونهم مخلوقات اجتماعية بحاجة لتنظيم معاملاتها مع بعض... هَل هم شرّعوا ذلك أم لديهم آلهة شرّعتها؟ وسبحانه يقول عن آلهتهم إنّها شريكة لهم، حيث بينهم وبينها علاقة شراكة عبد وإله، وليست شريكة له سبحانه لأنه الإله الأحد، هَل آلهتهم شرعوا لهم من الدين {مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ}؟ بأمورٍ معلنةٍ للتقيّد بها ولم يسمح بها صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز الله؟

أنتم على شرع، بعضه مخالف "لأنه سيّء" أو موافق "لأنه صالح" لشرعه تعالى، مَن شرّعه لكم؟ وهل يستند إلى إلهكم الذي خلقكم؟ أم أنتم اخترعتموه؟ وهذه كتب إلهكم "التوراة والقرآن" وشرعكم ليس معتمداً على الصلاح الذي في كتبه تعالى، وهل آلهتكم التي اخترعتموها شرّعت لكم ما تخالفون به شرعه تعالى؟

نحن أمام شرع منه تعالى، وشرعٍ آخرَ، مِن أين مصدر الشرع الآخر؟ نحن أمام شرع من الإله الخالق العظيم العزيز الحكيم العليم... وشرعكم، هَل شرعكم يعتمد على مصدر من مستوى إلهي؟ وإن لم يكن كذلك فما معنى ترككم لشرع الإله سبحانه؟!

كما ترى، يشير الكلام ضمنياً إلى أن شرعهم من صنعهم هم، وهم بشر، ولو أسندوا شرعهم لآلهتهم ليعتمدوه في مقابل شرعة الإله الله سبحانه، لكانت الفكرة أن شرعهم إلهي أيضاً، ويكون فيه قوّة الاستناد على مصدر إلهي، بينما معلوم أن شرعهم من صنعهم، وهكذا تصير المقابلة بين تشريع من الإله وتشريع من البشر، والفرق الهائل واضح بسهولة بينهما من ناحية مستوى علم وحكمة من يشرّع.

طبعاً ضع في بالك الفرق بين تشريعه تعالى في قرآنه وبين تشريعات المنتمين لدينه تعالى، لأن الكلام هنا عن تشريعه تعالى، وأمّا المنتمون لدينه تعالى فدخلت أمراضهم القلبية على فهمهم لكلامه تعالى حتى صار النصّ القرآني الصريح مؤوَّلاً أو منسوخاً أو متجاهَلاً عنه... ليتوافق مع أهوائهم السيئة وأبرزها وأوضحها مثالاً ما ورد في الآية 8 من سورة الممتحنة {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، وسياق كلامها كان عن الكفّار والمشركين {أَنْ تَبَرُّوهُمْ}... إن كانوا مسالمين حتى لو لم يسلموا، بينما في فتاوى العديدين معاداةٌ وكره وبغض بل وتحليل لدم المسلمين لبعضهم البعض!

{وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ}، ومن عموم القرآن نفهم أنّها الكلمة الإلهية الفاصلة بين شيئين، الفاصلة بين احتمال حصول العقاب النهائي الآن أو تأجيله للآخرة، وتعلم من عموم القرآن أنه تعالى سيترك حساب الناس النهائي للآخرة ولن يوقف الحياة الدنيا قبل أوانها ليحاسب الناس بشكل نهائي. ولولا هذه الكلمة، {لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ}، لصدر منه تعالى بشكل نهائي ما يريده أن يحصل بهم، فصدرت أحكامه تعالى الآن بحقّهم ورماهم في النار.

{وَإِنَّ الظَّالِمِينَ}، وإن الَّذِينَ لم يكونوا منصفين ولا محقّين حين تركوا شرعه تعالى، فلم يكن معهم حق حين تركوا شرعه تعالى، {لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، سيصيبهم ضرر لا يمكن تحمّله ولا الاعتياد عليه، وهذا القضاء بتعذيبهم بهذا الشكل هم يستحقّونه الآن ولكن سبقت كلمة ربّك سبحانه ولذلك سيترك الحساب للآخرة.

نرجع للسؤال: على أي أساس تتركون شرعه تعالى؟ هَل أنتم يحقّ لكم التشريع وإلزام أنفسكم والآخرين به ليكون ديناً لكم، ولا يحق لمن خلقكم إلهكم العزيز الحكيم العليم... أن يضع لكم تشريعاً ليكون ديناً لكم! أم آلهتكم أنزلت لكم تشريعاً؟ طبعاً لا، لأن آلهتهم ليست آلهة حقيقية، ولم يأت منها رسول ولا كتاب... وهذا معلوم للجميع.

لاحظ، الآية هنا لم تتطرّق للفساد الذي في تشريعهم، واعتبرته متضمَّناً في الكلام، بل كل القرآن اعتبر أن أي شرع غير شرعه تعالى، سيتضمّن فساداً، واعتبر أن الكفر به تعالى ورفض "موالاته" سببه الأساسي رفض اتباع الصلاح الذي في شريعته سبحانه، وسترى في الآية التالية إشارةً لذلك عند كلامها عن الذين عملوا الصالحات.

(تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ {22})
هناك حيث العذاب الأليم في الآخرة:

{تَرَى الظَّالِمِينَ}، يصير عندك صورة محدّدة للذين لم يكن معهم حقّ بترك شرعه سبحانه، تراهم، {مُشْفِقِينَ}، تراهم يتلبّسون شعور حصول الخطر عليهم، {مِمَّا كَسَبُوا}، من الذي حصلوا عليه مما نتج من أعمالهم، {وَهُوَ}، الخطر الذي هم مشفقون منه، {وَاقِعٌ بِهِمْ}، فسيحصل معهم فعلاً ما يتوقّعون حصوله، ولن يبقى إشفاقاً كتوقّع وتلبّس تصوّري لحصول الخطر، بل سيتحقّق فعلاً.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا}، والذين هم في حالة اعتقاد بهذا الدين الإلهي، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، وقاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، لأنه خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، فعملياً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادة نفسّر {عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إنّهم صلّوا وصاموا... وهذا عملياً صحيح، ولكن بالأصل فالكلام أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموماً وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائماً أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به.

هذا الكلام له عمق، حيث لا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلاً سيّء" فسيكون في الحقيقة اختراعاً من البشر ألصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمراً إلهياً.

هؤلاء، {فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ}، والجنة هي المكان الموصوف بروعة ما فيه من بساتين وحدائق ومباهج، وفي الآخرة يوجد جنّات عديدة، وكلّها توصف بأنها روضات "روضة" لأنها مكان الترويح عن النفس والاستراحة، كالبستان والحديقة وأماكن التسلية واللعب... وورد في القرآن كلمة الروض مرتين هنا في الآية "روضات"، و"روضة" وفي الآية 15 من سورة الروم {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ}. ودرج في الأحاديث استعمال كلمة "رياض الجنّة" بكثرة وعلى ما يبدو من كلام العرب فإن للكلمة تصريفين "ريض" والجمع منها جمع تكسير "رياض"، وتصريف "روض" ومنه جمع المؤنث السالم "روضات".

{لَهُم}، للمؤمنين، {مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ} سبحانه، فهناك خيارات عديدة أمامهم والمسؤول عنهم من مستوى إلهي سيحققها لهم.

{ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}، هم دخلوا الجنّة بفضله سبحانه وليس لهم عليه سبحانه حق في إدخالهم الجنّة، ولا فرضاً واجباً عليه تعالى إدخالهم الجنّة، بل هو تعالى قرّر ذلك كعمل حسن منه تعالى لنا، حيث في الأساس حين خلقنا تعالى،

ليس لنا حقّ عليه تعالى بأن ندخل الجنّة، بل هو تعالى بفضله ومن دون حقّ لنا عليه قرّر إدخال المؤمنين إلى الجنّة، وهذا فضل كبير، طبعاً كبير لأنها جنّة رائعة خالدة.

ننتبه جيداً حين يخبرنا القرآن دائماً أن الجنّة رائعة وفوق تصورنا، ولا ملل فيها، والتفاصيل التي وردت في القرآن هي مجرد نماذج حتى نتمكن من تصوّر الجنّة، أمّا الحقيقة فهي أعظم من ذلك بكثير، وكعلامة على ذلك ما تقوله الآية هنا أن المؤمنين لهم ما يشاؤون فيها، فما يتصوّره البعض عن سهولة الحصول على الأشياء في الجنّة أنه سيسبّب الملل والضجر واختفاء الإثارة والتشويق... فهذا هراء وناتج عن قلّة تدبّر للقرآن الذي وصف الأشياء في الجنّة بأنها أكثر من الرائعة، وأن أهل الجنة لن يفكّروا ولو للحظّة ولو للمحة بتفضيل حياة أخرى أو مكانٍ آخرَ، كما ورد في الآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}، ومن جهة ثانية عرض القرآن دائماً التجدّد لما في الجنّة من مباهج، كما ورد في الآية 35 من سورة ق {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}، ومن جهة ثالثة أخبرنا بخلاّقية وابتكار الناس هناك لأمور مفرحة، يطلبونها "يصمّمونها..." ويحصلون عليها كما ورد في الآية 57 من سورة يس {لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ}.

نتذكّر دائماً أن الإيمان وحده لا يكفي، والعمل الصالح وحده لا يكفي، بل كلاهما معاً ضروريان لدخول الجنّة.

(ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ {23})
{ذَٰلِكَ}، الروض وما يشاؤون فيه، {الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ}، فعبر هذا القرآن أوصل تعالى الخبر السارّ المفرح للذين مفروض منهم طاعته، {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، عباده الذين أعلنوا اعتقادهم بالحقّ وقاموا بالأعمال الجيدة الحسنة.

تذكّر أن كلمة عبد تشير لمن مفروض عليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك. وأن كلمة عباد هي جمع الجمع، حيث عبيد هو الجمع والعباد جمع الجمع، وليس صحيحاً ما يتداوله البعض عن تخصيص القرآن كلمة عباد للمؤمنين، وتقرأ ذلك صراحةً في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}. ولمزيد من التوسع حول كلمة عبد راجع دراسة الآية 25 من هذه السورة.

{قُل}، أيها النبي(ع) عبر هذا القرآن للناس: {لَّا أَسْأَلُكُمْ}، لا أعبر لكم عن إرادتي للحصول، {عَلَيْهِ}، على تبليغي للرسالة الإلهية لكم، {أَجْراً}، لا أريد أن تعطوني أجري، أشياء محدّدة أستحقّها منكم على عملي بتوصيل البشرى والشرع الإلهي لكم، فلا أطلب مالاً أو ملكاً أو بيوتاً أو أراضيَ... ولو طلبت ذلك منكم لكان معكم حقّ في أن تشكّوا بي كرسول إلهي، ولكان معكم حقّ باتهامي أن ديني ليس إلهياً وأني لدي مصالح شخصية...

{لَّا أَسْأَلُكُمْ}، {إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ}، أن تكونوا ودودين مع أقربائي، فعلى خاطرهم وبما يريحهم ويسعدهم تعاملوهم، فتعاملوهم بلطف وعناية، وهذا ما أسألكم.

نلتفت لأمره تعالى لرسوله(ع) أن يسأل الناس الذين وصلتهم البشرى عبره (ع)، فيسألهم المودّة لأقربائه، وأن لا يسأل أجراً، بل بأمر إلهي يسألهم المودّة بأقربائه، مثلما نقول: لا تعطني المال واعطني حبّك. يعني ليس أجره(ع) المودّة في القربى بل لم يسألهم أجراً وسألهم بدلاً منه المودّة في القربى وبأمر إلهي.

نتذكّر من التاريخ أن النبي محمّداً(ع) من بني هاشم من قبيلة قريش التي تضمّ عدة عائلات، والأكثرية الغالبة من أهل مكّة كانوا من قريش، ويذكر التاريخ أن أقرباء النبي(ع) من بني هاشم ورغم بقاء أكثريتهم على شركهم في بداية الدعوة، إلا أنهم لم ينبذوا النبي(ع) ولم يعادوه بل بقوا على مودّتهم له، إلا عمّه أبا لهب الذي نزلت فيه سورة تتوعدّه بالنار، ونتذكّر العديد من الحوادث التاريخية التي تدخّل فيها أقارب النبي(ع) لحمايته، ومنها حين عرضوا على أبي طالب زعيم بني هاشم أن يسلّمهم ابن أخيه النبي محمّداً(ع)... ورفض... عندها هدّدوه بالمقاطعة لكل عائلة بني هاشم بسبب حمايتهم للنبي(ع)، وفعلاً حصل ذلك وأخرجوا المؤمنين الضعفاء من بيوتهم من مكّة، وذهب المؤمنون إلى منطقة تابعة لمكّة تسمّى: شعب أبي طالب، وكما يبدو فهي قطعة أرض ملكيتها لعمّ النبي أبي طالب، ولحق بهم

النبي(ع) وبعض المؤمنين من العوائل القوية تضامناً مع المؤمنين الضعفاء الذين ليس لهم عوائل تحميهم والموضوعين تحت الإقامة الجبرية في ذلك الشعب، حيث قاطعتهم قريش وحلفاؤها ومنعوا بقية الناس من التعامل مع المؤمنين وإيصال الطعام لهم لمدّة تقارب السنتين... وطوال مدّة بقاء النبي محمّد(ع) في مكّة حاولت قريش بكلّ جهدها انتزاع النبي محمّد(ع) من حماية أقربائه حتى يقتلوه ولكنهم لم ينجحوا... وكما ترى أظهر أقرباء النبي(ع) ودّاً له وحماية وتضامناً معه.

موقف عمّه العبّاس الذي خاطب وفد المدينة حين تعاهدوا مع النبي (ع) على حمايته ونصرته... على أساس أن يهاجر النبي (ع) إلى مدينتهم، فخطاب العبّاس معهم مشهور بحثّهم على الالتزام بعهدهم بحماية النبي(ع) وفي حينها كان العباس كافراً!

أيضاً من أشهر محطات التاريخ إعلان حمزة عمّ النبي (ع) لإيمانه في أشد لحظات ضعف المؤمنين في مكّة... وكان لذلك دفع معنوي كبير... وحتى فيما بعد الهجرة ذكر لنا التاريخ التزاماً وتضحيات غير عادية من أقربائه (ع) أشهرها مساهمات الشابّ ابن عمّه علي بن أبي طالب، وعمّه جعفر، وابن عمّته الزبير... واستشهاد العمّين جعفر والحمزة.

سبحانه في قرآنه يأمر المؤمنين أن يعتبروا بعضهم البعض إخوة، كما ورد في الآية 10 من سورة الحجرات {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}، فإن خطر في بالك أن السورة تأمر المؤمنين بمودّة المؤمنين فقط من أقرباء النبي(ع) فهذا لا معنى له، وبخاصة لما نعلمه مما فعلوه في سبيل دينه تعالى حين كانوا كفّاراً، بل تأمر بمودّة أقربائه عموماً لأنهم وقفوا بجانب النبي(ع) وحموه.

وبضمّ ما نجده في الآيات 7 و 8 و 9 من سورة الممتحنة عن سماحه تعالى للمؤمنين بمودّة الكافرين الذين لم يعادوا المؤمنين {عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (7) لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)}، وبتذكّرنا من التاريخ أن الغالبية الساحقة من أقرباء النبي(ع) كانوا في حين نزول هذه السورة من الكفّار، نعلم أن المودّة التي أظهرها أقرباء النبي محمّد(ع) له جعلتهم يستحقّون الأمر الإلهي للمؤمنين بأن يودّوهم "إلا أبا لهب"، رغم كونهم بغالبيتهم في حينها كانوا كفّاراً.

هكذا ترى أنه تعالى هنا في الدنيا يحفظ حتى للكفّار عملهم الحسن مع رسوله(ع)، وكان لهذا أثر بإسلام غالبيتهم الساحقة ودفاعهم المستميت فيما بعد عن دينه تعالى، فمن علمه سبحانه بما سيحصل أمر بمودة القربى. وهذه اللطافة الإلهية مع الكفّار حتى يلينوا ويسلموا تجد لها مصاديق أخرى وليست خاصة لأقرباء النبي(ع)، فتجد لطافة إلهية غير عادية مع أسرى مقاتلين من الكفّار بعد معركة بدر، وتقرأ ذلك في الآية 70 من سورة الأنفال {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.

على مرّ التاريخ الإسلامي من بدايته، تعرّض أقرباء النبي(ع) للقتل والحبس والتهجير... من الذين استلموا السلطة لأنهم اعتبروا أقارب النبي(ع) منافسين لهم على السلطة... وأقارب النبي (ع) عموماً عبر التاريخ كعائلة كانوا من أكثر المسلمين إحياء لدينه تعالى، لأنهم أكملوا الحفاظ على لبّ دينه تعالى ونشره بين الناس...

نعد للبشرى للمؤمنين: {وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً}، من كان له حصّة من عمل وصفه حسن جيّد، {نَّزِدْ لَهُ فِيهَا}، يجعل سبحانه زيادة في حسنته، فيزيد سبحانه عليها، ونعلم من آيات عديدة في القرآن أن الحسنة تتم مضاعفتها، وأصلاً الثواب على الحسنة عظيم جداً وبعد زيادتها تصير أعظم.

يعني هو تحفيز إلهي مع البشرى بالجنّة أن الحسنات ستتمّ مضاعفتها ليكون ما يحصلون عليه في الجنّة أعظم... ومن عموم مفاهيم القرآن تعلم أن الصدقة بتفاحة ثوابها ليس تفاحة مثلها أو عشر تفاحات أو صندوق تفّاح، ومن البديهي أنه قصور وحدائق... وبهذا المثال ترى أن أساس الثواب ضخم على الحسنة، ومن بعد ذلك تأتي الزيادة بنوعية أعلى وكمية أكبر...

{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ}، يتجاوز بكثرة عن السيئات، لأنه سبحانه ليس لئيماً قاسياً صلباً على موقف واحد لا يغفر، بل مهما فعلنا من سيئات فسيغفرها سبحانه إن استغفرنا.

و{شَكُورٌ}، يشكر سبحانه لعباده ما فعلوه من أعمال جيدة، حيث يعبّر لهم سبحانه عن تقييمه لأعمالهم أنها كانت جيدة. قارنها مع شعورنا المريح عندما يمدح الآخرون عملاً حسناً قمنا به، فيقولون: أحسنت... والآن ننتبه أن الإله بجلاله سيقول للمؤمن: أحسنت. ودائماً ركّز القرآن على إظهار القيمة العالية التي يعطيها سبحانه وتعالى للمؤمن، واستعمل كلمة "كريم" مراراً في الكلام عن المؤمن وعن أجره للدلالة على القيمة العالية للمؤمن وللقيمة العالية لنوعية أجره، ولم يستعمل كلمة كريم للكثرة بالعطاء بل للقيمة "كرامة".

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ{24})

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ}، ألّف القرآن وألصق ما ألّفه بالله تعالى، كذباً، فسبحانه أصلاً لم يقله، خذ مثلاً قولي عنك أنّك قلت "لي" عن اكتشافك لدواء ما. فإن لم تكن قلت "لي" ذلك، فأنا أفتري عليك، وإن كنت لم تكتشف الدواء، فأنا أفتري عليك كاذباً، فأنا ألصق بك "أفتري" شيئاً غير صحيح "كاذباً". ولو كنت اكتشفت الدواء فعلاً فعندها أكون فقط مفترياً عليك لأنك لم تقل ذلك لي، ويكون افترائي غير كاذب عند مقارنته مع الواقع.

هنا هم يقولون إنّ محمّداً(ع) يفتري الكذب، ويقصدون أنّ ما في القرآن من أقوال لم يقلها سبحانه فهي منسوبة له "مفتراة عليه" تعالى كذباً.

يقولون عن كلام النبي محمّد(ع) عن ولايته وشرعه تعالى، وعن الآخرة وثوابها وعقابها... كلام افتراء كاذب، فلأنه لم يقله تعالى لمحمّد(ع) بل أصلاً لم يقله تعالى لأي أحد.

{فَإِن يَشَإِ اللَّهُ}، فمن بين الخيارات العديدة المتاحة أمامه تعالى يمكنه أن، {يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ}، بأن يجعل شيئاً على نهاية أساس فكرك ونفسيتك، كالسدادة، مانعاً دخول الإيمان على فكرك ونفسيتك بسبب الختم على المدخل، بسبب وجود شيء يسدّ المدخل، وهذا سيحصل لك لو كان صحيحاً افتراؤك الكذب على الله تعالى، فالختم على القلب على أساس الفكر والنفسية هو ما يفعله تعالى مع الذين يكذبون عليه، كي يرفض قلبهم قبول الإيمان، وبالتالي سيكون مصيرهم الخلود في جهنّم.

بعبارة أخرى، هل كلام هذا القرآن كلام مختوم على قلبه؟ هل هو كلام مفترٍ كذّاب على الله تعالى؟ وسنتوسع بعد قليل في هذه النقطة.

{وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ}، ويمسح الكلام غير الصحيح الفاسد، و{يُحِقُّ}، الله تعالى، {الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ}، ويجعل سبحانه الصواب الصالح متحققاً واقعاً ملموساً، عبر رسله وكتبه ووحيه... فحسم سبحانه موضوع توصيل دينه الحقّ للناس، وأرسل لكم محمّداً(ع) بكلام يدلّ على الحقّ بطرق متعددة ومختلفة، فهناك قرار إلهي حتمي أن يقوم شخص منكم بنقل كلام الحقّ للآخرين، وهذا ما يقوم به محمّد(ع)، وعلى هذا الأساس انظروا إلى كلامه ولا تقولوا عنه افتراء، بل أنتم تفترون بوصف كلامه تعالى بالكذب.

كلام الباطل منتشر بين الناس، وها جاء كلام الحق ومحا الباطل، خذ مثلاً في مسألة الإيمان بالإله، حيث الباطل كان منتشراً بعبادة آلهة متعددة، وجاء الحق، فجاء الكلام الحق بالآيات والبراهين والحجج عن توحيده تعالى، فمحا الكلام الباطل. وهذا لا يعني انمحاء إيمان الناس بالباطل، لا، بل هو تعبير آخر عن انتصار الحق وغلبة الرسل ونصره تعالى للحق وزهوق الباطل... هذا لا يعني أن كل الناس آمنت بالحق، بل يعني أن الحقّ ظاهر واضح مبين... وما يوصف بالباطل صار واضحاً كونه باطلاً فاسداً عاطلاً كاذباً...

{إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}، فما يدور في صدور الناس، وتفاعلهم مع الأمور التي يتعرضون لها، قبولهم لها أو رفضهم لها أو كرههم لها، أو معرفتهم بصدقها وإيمانهم بها، أو معرفتهم بصدقها وإصرارهم على إنكارها... فكلّه يعلمه سبحانه.

كما ترى، سياق الكلام مع الذين قالوا عن الرسول(ع) إنّ كلامه افتراءٌ كاذبٌ عليه تعالى وليس صحيحاً منقولاً عنه سبحانه، فسبحانه يعلم ما في صدورهم، فيعلم أنهم رأوه حقّاً ولكنهم قرّروا رفضه، وأسهل طريق لذلك هو اتّهام ناقل الكلام الإلهي بالافتراء الكاذب.

بالنسبة لكلمة "صدر، صدور" فإن لم يكن القصد بها لأعضاء الجسد للقفص الصدري وما تحته من أعضاء... فاستعملها القرآن كما يستعملها الناطقون باللغة العربية وكما هي مستعملة في العديد من اللغات الأخرى، حيث نشير بالصدر للتفاعل الداخلي للإنسان مع ما يراه ويسمعه ويشعر به مما يتعرّض له... لأننا نحن عندما نتعرّض لمختلف الظروف، نشعر بالانقباض أو الانشراح... في صدرنا، ولذلك استعملنا كلمة صدر لتوصيف حالة تفاعلنا مع الأمور، وحتى لو لم تشعر بأي شيء في قفصك الصدري، من انقباض أو صعوبة في التنفّس أو راحة... فمجرد تفاعلك مع ما تعرّضت له، نجد مختلف اللغات البشرية تعبّر عن هذا التفاعل بأن شيئاً حصل في صدرك، وحتى السرّ الذي تخفيه عن الآخرين تعبّر عنه مختلف اللغات بأنه في صدرك، وكلّنا نعلم أن السرّ ليس في القفص الصدري، فليس تحته في الرئة أو القلب أو المريء... بل هو تعبير يشير لحالة تفاعلنا مع ما ندركه سواء بقي مخفياً أو ظهر له أثر حسّي في منطقة الصدر أو على تعابيرنا وحركاتنا.

ننتبه جيداً، حيث كلّ القرآن يؤكّد بأن الحقّ من المستوى الإلهي ثابت وليس نسبياً، مثلاً: هذه المرّة أنا معي حقّ وأنت أخطأت، والمرّة الثانية أنت معك حق وأنا أخطأت... أمّا كلامه تعالى فدائماً حق، والقرآن رغم استعماله الكثير لكلمة حق، لم يقل ولا مرّة إنّ الله تعالى "معه" حقّ، بل هو الحقّ، كلامه الحقّ، يحقّ الحقّ...

هنا في الآية وأشباهها من الآيات تراها تعتمد على هذا الكلام، فما يقوله محمّد(ع) حقّ، لأنه ينقل الكلام الإلهي، وهذا شيء لا يقبل ولا بأي شكل توصيفه بالباطل، وعندما يقولون بأن محمّداً(ع) يفتري الكذب على الله تعالى، فعلى أي أساس يصفون كلام محمّد(ع) بالافتراء؟ وما هو الافتراء الذي قاله محمّد(ع)؟ وهل كذّب حين قال إنّ الإله واحد أحد؟ أم هل كذب حين قال إنّ الولاية من المستوى الإلهي هي لله تعالى فقط؟ وهل كذب حينما قال إنّ الله تعالى يرسل الرسل من البشر ليوصلوا رسالته للناس؟ وهل كذّب حين نقل لنا شرحه تعالى عن عقلانية توحيده وبما نفهمه بسهولة بما فينا من فكر وملاحظة... وهل كذب بضرورة الالتزام بشرعه الصالح سبحانه وإلا سننال عقاباً في الآخرة... أم هل العقيدة والشريعة والسلوك المعروض علينا كدين في قرآنه تعالى فيه فساد؟ فأين الكذب والافتراء؟!

فرضاً كان محمّد(ع) يكذب عليه تعالى، عندها قلبه سينختم مثل قلوب كل الكذّابين على الله تعالى، وحينها سيكون واضحاً الكذب في كلام محمّد(ع) مثلما الكذب واضح في كلام المشركين، فأين الكلام الكذب في كلام محمّد(ع)؟ ولا يوجد كذب في كلامه لأنه تعالى يمحو الباطل ويحقّ الحق، فلا يترك الباطل منتشراً بين الناس بل يعرض سبحانه الحقّ بشكل واضح، وطريقته تعالى في نشر الحقّ هي إرسال رسول مع كتاب.

هناك العديد من الآيات القرآنية التي تقول بأن الباطل زهوقٌ، زائلٌ، لا يغلب... وأن الحقّ منتشر، متحقّق، يغلب دائماً... فكيف نفهم ذلك مع رؤيتنا ومعرفتنا بغلبة الباطل وانتشاره بين الناس في أغلب تاريخ البشرية؟ وفسّروا ذلك بأن الحق في النهاية دائماً يغلب، وحتى لو رأيت الكفّار أو المشركين أو المنافقين أو الفاسقين... رأيتهم حاكمين فارضين لشريعتهم وفسادهم على الناس، ففي النهاية سينتصر الحق. هذا ما قاله الكثيرون في التفاسير واعتبروه تفسيراً لكلامه تعالى عن غلبة الحق.

لكن لو تأمّلنا فيما يقوله القرآن لوجدناه لا يقصد ما يقولونه، بل يشير القرآن لشيء آخر، فهو يشير لكلمة باطل وفي مقابلها كلمة حقّ يظهر منها بطلان "الباطل"، ويشير لعقيدة باطلة مقابلها إيمان بالحقّ يبيّن بطلان "الباطل"... ويؤكّد القرآن بأن أكثر الناس سيتّبعون الشيطان، وأكثر الأمم كافرة أو مشركة أو منافقة أو فاسقة، وأكثر الناس سيدخلون النار... وخذ عن ذلك مثال ما ورد في الآية 103 من سورة يوسف {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}، وأمام هذه التأكيدات القرآنية لا نفهم أن الحقّ سيغلب بالطريقة التي يقولون عنها، كدولة بحكومة سلطة من المؤمنين مع قوّة عسكرية... بل نفهم أن الحقّ لم يترك كلاماً أو عقيدة أو تصرفاً باطلاً إلّا ونبّه على بطلانه، فمن أراد الحقّ سيجده واضحاً، وسيجد الحقّ منتصراً على الباطل مبيّناً فساده وزيفه وخطأه... وهذا ما يقصده القرآن حين نفهم منه بأن الحق منتصر، وإذا مرّت فترات انتصار للباطل فحتماً سيأتي الحقّ ويبيّن بطلانه.

بعبارة أبسط: لا يطرح الباطل كلاماً أو إشكالات على الحقّ إلا ويوجد توضيح وردّ من الحقّ على الباطل يبيّن بطلانه. أمّا الغلبة العسكرية للحقّ على الباطل وحكم المؤمنين ودولة الأنبياء... فـهذه حالات قليلة في التاريخ، وأيضاً هي مدعومة منه تعالى لتنتصر "نصراً إلهياً" بشرط: وجود مؤمنين حقيقيين، وهناك حدّ أدنى لعددهم... وينتصرون بدعم إلهي كما في حالة بدر، أو يكون مؤمناً واحداً يحمل رسالة الإله سبحانه فينال دعماً للحفاظ على حياته حتى ينشر الرسالة تماماً، كما في حالة الرسول إبراهيم(ع) وموسى(ع) ومحمّد(ع).

لنقل إنّ كل أهل الأرض مشركون به تعالى، فما قيمة عملهم؟ هل يصير الشرك له قيمة؟ هل يصير هو الحقّ الصحيح الصواب؟ هل يصير شركاؤهم آلهة حقيقيين؟ لا، لن يتغيّر الحقّ، وسيبقى الله تعالى الإله الأحد، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية تعال لنرى أدلّة المشركين على صحّة عقيدتهم، ولنرى إن كانت صحيحة ليكون للناس عذر باتباعها؟ أم هي باطلة فاسدة وقد بيّن بطلانها وفسادها الأنبياء والرسل كتقويم للمعلومات التي فسدت بقلوبنا الفاسدة... وهذا هو الحق الغالب المنتصر الذي يتحدّث عنه القرآن من أوله لآخره، فـهو مفصّل، بيّن، نور، منتصر، يصدع، فرقان... والباطل فساد ظلام داحض مغلوب... وهذا لن يتغيّر مهما حصل.

(وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ{25})
{وَهُوَ}، الله تعالى الغفور الشكور...

{الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ}، الذين مفروض منهم طاعته يتوب سبحانه عنهم إن تابوا، إن فتحوا صفحة جديدة متغيّرين عن السوء، وأنسب تفسير لكلمة توبة ومشتقاتها باستعمال القرآن أنها تعطي معنى عموم فتح صفحة جديدة، ومن تبعات ذلك عموم الإقلاع عمّا سبق، فـهم يفتحون صفحة جديدة مقلعين عن السيئات العقائدية والعملية، وسبحانه يفتح لهم صفحة جديدة "مقلعاً" فلا يحاسبهم على السيئات التي مضت.

{وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ}، ويمرّ سبحانه عليها ولا يتوقّف أو يجمد عندها، بل يسامح ولا يطالب بالسيّئات، طبعاً يفعل سبحانه ذلك فقط مع المؤمنين الذين تابوا واستغفروا وطلبوا العفو، وأمّا غيرهم فلا عفو عن سيئاتهم.

{وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}، ويعلم بسيئاتكم ويعلم بتوبتكم فـأنتم تحت المراقبة، لأنه سبحانه ليس مثلما يتصوّره بعض الناس ساكناً في جبل عال أو في السماء العالية ولا يدري بما يجري مع مخلوقاته.

هنا لم تتوسّع الآية في موضوع مراقبته تعالى لنا واكتفت باختصار أنه تعالى يعلم ما نفعل، لأن بعض الناس يخطر ببالهم أنهم إذا هم نسوا ما فعلوه من سيئات فسبحانه أيضاً ينسى ولن يستحضر أموراً حصلت في الماضي ليحاسبنا عليها، لا، بل سبحانه يعلم بكل شيء، ورغم ذلك سبحانه يغفر ويتوب ويعفو حتى عمّا نحن نسيناه، إن آمنّا وعملنا صالحاً.

كما ترى هنا في الآية والتي تليها تتركان الباب مفتوحاً للجميع للتصليح، لنفهم أنه سبحانه دائماً بابه مفتوح للتائبين، وفي آخر الآية التالية توعّد بعقاب شديد لمن لم يتب...

كلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فـهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، وكأن كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، لأن كلتيهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، فـهي جمع الجمع، وأثناء الكلام بدقّة قد تكون الإشارة لمجموعة "عبيد" بينهم شيء خاص مشترك، فتقول الآيات: عبيد. ووردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وقد تكون لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وقد تكون لمجموعات العبيد "جمع الجمع" المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، فـهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخرون جاءهم رسول،

وعبيد آخرون... فجمع الجمع "عباد"، هكذا ترى أن كلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جداً عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً}.

(وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ{26})
{وَيَسْتَجِيبُ}، ويهتمّ ويردّ على الدعوة الإلهية إلى التوبة والعفو، وقبلها الدعوة للتوحيد وولايته تعالى، {الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بدينه تعالى، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، وباشروا بالأعمال التي يرونها حسنة جيدةً، وعملياً تركوا ما يحرّمه تعالى ونفّذوا ما أوجبه تعالى، ومنذ قليل في الآية 22 توسعنا في دراسة تعبير "عملوا الصالحات".

هؤلاء يكون ردّهم على الدعوة إلى دينه تعالى بشكل إيجابي فيتماشون معها، {وَيَزِيدُهُم} تعالى {مِّن فَضْلِهِ}، فعلى إيمانهم وعملهم الصالح واستجابتهم لدينه تعالى تُسجَّل حسنات، وسبحانه من فضله يعطيهم أجراً، ومن فضله أيضاً يزيد من حسناتهم فيجعلها أكثر. هم ليس لهم عليه تعالى فرض واجب بالأجر أصلاً، ومضافاً له ليس لهم فرض واجب عليه تعالى ليزيد لهم حسناتهم، بل تفضّلاً منه تعالى يزيدها لهم.

سيأتي في الآية 38 من هذه السورة تكرار الكلام من زاوية أخرى عن استجابة المؤمنين لربّهم سبحانه، وهنا تريك الفقرة أنه تعالى أرسل رسله وهناك من وصفهم بالكذب افتراءً وهناك من صدّقهم، وسبحانه يعرض علينا قبوله التوبة منّا ويستجيب لهذا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وبعد قليل سنتوسع في معنى استجابة هؤلاء لما يدعوهم إليه تعالى.

{وَالْكَافِرُونَ}، والمنكرون لدينه تعالى ولتوحيده وولايته وشرعه... الذين لا يستجيبون لدعوة ربّهم سبحانه لهذا الدين، {لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ}، لهم ضرر لا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه.

هناك عدّة نقاط في الآية مرّ الكلام عنها في السورة، ونعيده بشكل مختصر، فالإيمان والعمل الصالح معاً ينفعان، والواحدة منهما لوحدها لا تنفع، والثواب على الحسنة الواحدة بالأصل ضخم جداً، وستتم مضاعفته، حيث بالأصل أجر الحسنة قصورٌ ومباهج... وستتم مضاعفة هذه الضخامة. والكفر "إنكار الدين الإلهي" يسبب دمار "حبط" أي شيء "حسن" فعله منكرو الدين الإلهي الحقّ، فلن ينالوا المغفرة ولا الشكر على الأعمال الحسنة ولا التوبة ولا العفو ولا الز الزيادة على الأعمال الحسنة، لأن أعمالهم الحسنة كالسراب ولا قيمة لها مع إنكارهم للدين الإلهي.

القرآن استعمل كلمة "حبط" عادةً بربطه للعمل الحسن مع الإيمان، كالذين آمنوا وعملوا صالحاً ثم كفروا، هؤلاء تحبط أعمالهم الحسنة التي قاموا بها سابقاً فتفقد قيمتها، والكفّار عموماً فأعمالهم الحسنة أصلاً حابطة، حيث لا قيمة للعمل الحسن مع الكفر.

نلاحظ دائماً القرآن يخاطب الذين آمنوا وعملوا الصالحات كأنهم هم كذلك قبل وصول القرآن لهم! فيقول هنا في الآية: إنّ المؤمنين العاملين للصالحات قد استجابوا للدعوة إلى توحيده تعالى وطاعته! فما الذي استجابوا له إن كان وصفهم أصلاً أنهم مؤمنون عاملون للصالحات؟

تكرّر هذا الكلام بتعابير عديدة مختلفة في القرآن، ومنه ما تجده في الآية الثانية من سورة البقرة {ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ}. وللوهلة الأولى وبناءً على مخزوننا الثقافي نفهم أنهم لم يكونوا مؤمنين، وجاءهم القرآن، فصاروا مؤمنين. هذا عادة ما نفكّر به، أمّا القرآن فلا يقول هذا، لأنه تعالى يرى الناس: بصيراً وأعمى. والبصير يريد الحقّ ويبحث عنه وحين يسمعه يتّبعه. وهو يرى ويسمع وله لبّ وقلب وعقل... هذه صفته قبل أن يصله الكلام الإلهي، وبنظره تعالى فهذا مؤمن عامل للصالحات طالما هو بهذه العقلية والنفسية السليمة حيث لم يخترع إلهاً ولم يعمل فساداً، لأنه مؤمن يبحث عن الطريق والقرآن يهديه للطريق، وهذا يستجيب لدعوة الله تعالى للولاية والشرع... لأنها أصلاً متماشية مع سلامة فكره ونفسيّته.

من ناحية ثانية فالقرآن لن يغيّر وصف الأعمى ليصير بصيراً، ولن يجعل الأصمّ يسمع، ولن يجعل المدموغ المختوم المطبوع قلبه بالكفر يؤمن، لأنه هو قرّر أن يكفر، وهذا لن يتغيّر، ولن يكون القرآن هدى له، ولن يستجيب لدعوة الله تعالى.

هكذا نفهم كيف يستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات، لأنهم هم بالأساس كذلك، ولو بمقدار نقطة بيضاء في قلبهم، فهذه النقطة البصيرة السامعة تدفعهم للاستجابة للدعوة الإلهية.

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ {27})
{وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ}، لو جعل تعالى مع الذين مفروض منهم طاعته سبحانه، لو جعل معهم ما يسدّون به حاجاتهم ورغباتهم مبسوطاً ممدوداً وفيراً، {لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ}، لكانت أعمالهم يقصدون منها شيئاً ما في الأرض، وكلمة "{بَغْي}" نستعملها لعموم أي فعل مباشر لقصد شيء ما "أبغي شراء منزل"، ونراه بوضوح في العديد من استعمالات القرآن ومنها ما ورد في الآية 164 من سورة الأنعام {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ...}، وهنا سياق الكلام عن مخالفتهم لأوامره تعالى، فلو كانت أوضاعهم المالية مرتاحة لفعلوا السيئات وتركوا الصالحات، {وَلَكِنْ يُنَزِّلُ} الله تعالى {بِقَدَرٍ}، بكميات محدّدة، قليلة، {مَا يَشَاءُ}، حيث هناك خيارات عديدة أمامه تعالى ويختار سبحانه منها ما يراه مناسباً، فيبسط لهذا ويقدر لذاك، حتى لا يبغوا.

{إِنَّهُ بِعِبَادِهِ}، بالذين مفروض منهم طاعته، {خَبِيرٌ}، فما سيحصل معهم إذا انبسط الرزق، أو إذا كان بقدر عليهم، هو ليس احتمالاتٍ بالنسبة له تعالى، لأنه سبحانه يعلم مسبقاً ماذا ستكون النتيجة. وبالنسبة لكلمة "{عِبَاد}" راجع دراسة الآية ما قبل السابقة.

{إِنَّهُ}، {بَصِيرٌ}، يدرك "بمستوى إلهي"، يعي معنى صورة ما يحصل، فيرى سبحانه الأمور ويعي ما يجري، وليس مثل الكاميرا التي تسجّل الصوت والصورة ولا تعي ما يجري. إنَّ التغيّر في مقدار الرزق سيتبعه تغيّر في حياتنا، وسبحانه يرى ذلك ويعي ما يجري.

الكلام السابق في الفقرة كان عمّن استجاب فآمن وعمل صالحاً وعمّن كفر، وأكثر ما يعلق في ذهن الناس أن المؤمن "المتديّن" يجب أن ينال عناية إلهية مالية وصحيّة متميّزة عن غير المتديّن، وإذا كانت حالة المتديّن سيّئة فهذا دليل على أن التديّن مفعوله سيئ، وأنَّ تديّنه غير صحيح لأنه غير نافع... ورأينا فيما سبق من السورة أن حرث الآخرة مضمون لمن حرث لها، ونتيجته روضات الجنات الخالدة، وحرث الدنيا زائل، ومن عمل لها فقط فلن يجد حرثاً له في الآخرة.

هنا في الآية نرى قاعدة إلهية عامة للجميع، والبداية مع الكلمات الواردة في الجملة، لأننا عبيده تعالى، أي مفروض منّا طاعته، سواء بسط علينا الرزق أم لم يبسطه، وهذا المفهوم مرتبط بصفاته تعالى، حيث صمّمنا برحمته وحكمته وعلمه... بحيث إذا صلحت أعمالنا بشكل عام مع إيماننا عندها سننال عناية إلهية مما صمّمه تعالى برحمته والذي سيكون نتيجته بسط الرزق بقدر مقبول لجميع أفراد المجتمع، ومضافاً له سننال أيضاً عناية زائدة بتدخلٍ إلهيٍّ لمنع الكوارث الطبيعية وتأمين ظروف بيئية أفضل... هذا بقدر درجة إيمان المجتمع وعمله الصالح، وهذا ما تقرأه في الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

كما ترى من مفاهيم القرآن ومن تاريخ البشرية، إنَّ من نتائج تصميمه تعالى لنا ولبيئتنا، صلاحَ أعمالنا كمجتمع سينتج عنه صلاح في حياتنا الاقتصادية، سواءٌ أكنا مؤمنين به تعالى أم لا، وتدخّله تعالى لإبعاد الكوارث وتهيئة بيئة مناسبة أو تدخله بالعكس يكون مرتبطاً بدرجة إيمان الناس أو كفرهم.

سبحانه صمّم بيئتنا وصمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" بحيث يتوازن فيها توزيع الثروات، ليكون في غالبية المجتمع ذوو حد أدنى ومتوسطي الحال، وأغنياء أقل، وأثرياء كقلة قليلة، وهذا نتاج قراره تعالى بتصميمنا وتصميم بيئتنا من الأساس، وهو يتضمّن أن لا ينبسط الرزق لدرجة الثراء للجميع.

نرجع لكلام الآية عن بغي العبيد إن بسط تعالى لهم الرزق، حيث إنَّ البغي كلمة عامة لأي فعل مباشر لقصد، كما نقول سائلين: ما تبغي؟ ونقصد معرفة ماذا تريد من فعلك... وتطبيقاتها تشمل قصد الخير أو الشرّ، وكمثال عن بغي الخير {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا...} كما ورد في الآية 164 من سورة الأنعام.

هنا الآية تشير للبغي السيئ، وتشير لحالة تدخله سبحانه لتغيير مجرى الظروف لتجعل هذا أو ذاك مبسوطاً له الرزق، وتشير لأساس تصميمه تعالى لنا ولبيئتنا والتي سينتج عنها فقر وغنى وثراء... وعلى كلا الحالتين لو صمّمنا وصمّم بيئتنا سبحانه بحيث ينبسط الرزق للجميع، أو تدخّل لبسط الرزق للجميع، عندها الغالبية ستبغي بالرزق المبسوط لفعل السوء، وهذا معلوم أصلاً من حالة أن الغالبية ومهما حرصت فلن يؤمنوا كما تقرأ في الآية 103 من سورة يوسف {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}، ومعلوم من التاريخ وكمثال عن ذلك حالة ثمود الواردة في الآية 74 من سورة الأعراف {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}، وحالة مدين الواردة في الآية 84 من سورة هود {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ}.

إلى هنا صرنا نميّز بين ما يعتقد به الناس وبين الواقعية القرآنية، حتى إنَّ المنتمين لدينه تعالى لديهم أفكار وتصورات غير واقعية، ولا تجدها صريحة في القرآن، بل بعمقها مخالفة للقرآن، وخذ مثلاً عن ذلك أحلامهم بالثروة لأنهم قرؤوا دعاءً طويلاً عريضاً متوقعين نزول الثروات عليهم من كل جانب، وكأن هذا شيء يحصل عادة!

تظنُّ أننا نتكلم عن اشتقاقات من الآية وليس دراسة مباشرة لها، لأننا بغالبيتنا لدينا أسئلة تتعلّق بالرزق الذي نريده مبسوطاً لنا، وهذا أساساً هو نفسه السبب الذي لأجله ذكر تعالى لنا هذه الآية، لأننا نحن كمنتمين لدينه تعالى، والآخرون، لدينا نفس الأسئلة.

اكتفت الآية بالجواب بعبارة بسيطة سهلة معلومة للجميع، هذا إن لم ننكر الواقع، حيث الغالبية الساحقة سيبغون السوء إن انبسط لهم الرزق، من فخر وتكبّر وزهو... وصرف المال على السوء من الأفعال... ولا تقل إنك أنت استثناءٌ عن هذه الحالة العامة، حيث إنك قد تكون كذلك فعلاً، ولكن كن واقعياً وانظر للمبسوط لهم الرزق ماذا يفعلون من إسراف وتبذير في بيوتهم الفخمة وحفلاتهم ورحلاتهم... وجيرانهم يعانون من أقساط مدارس أولادهم أو لا يقدرون على شراء دواء...

حتى نفهم كلامه تعالى، علينا التعاطي معه بواقعيته كما هو من دون إقحام تخيّلاتنا فيه، لأن غالب كلام القرآن عن بسط الرزق وقدره، كان ناظراً لإيمان وسلوك المجتمعات، وهذا هو ما سيحدّد مستواهم الاقتصادي، ومما ذكرناه سابقاً صرت تعلم بالتفاصيل المتعلقة بذلك، حيث إنَّ مجتمعاً كافراً ولكن سلوكه الاقتصادي عادل ولو نسبياً، فإنَّ من تصميمه تعالى لنا ولبيئتنا سينتج عن هكذا مجتمع بسطٌ بالرزق بمقدار مقبول لغالبية أفراد المجتمع...

أمّا الحالة الفردية لمؤمن يريد رزقاً مبسوطاً، ففي الأساس هو فرد يرتبط بمجتمعه، وسلوك مجتمعه سيحدّد له إطاراً يساعده أو يمنعه من الغنى والثراء، حيث في دولة ظالمة فاسدة... سيصير فقيراً... وفي دولة عادلة صالحة سيكون بالحد الأدنى من العيش الكريم أو متوسط الحال، مع قابلية صيرانه غنياً أو ثرياً، وهذا بغض النظر عن إيمان أو كفر مجتمعه، وهكذا صمّمنا وخلقنا سبحانه.

بالنسبة لتدخله تعالى لجعل المؤمن غنياً أو ثرياً مهما كانت ظروف مجتمعه، فهذه حالة استثنائية لأنها حالة تدخل إلهي استثنائي له، لأنه سبحانه وكما أخبرنا، يتدخّل لصالح المؤمن وبحسب درجة إيمانه وبما يناسب صلاح إيمانه لتكون آخرته صالحة.

من هنا جاء كلام الآية في سياق هذه الفقرة ليعيد الأمور إلى نصابها الواقعي، حيث إنَّ الغنى والثراء ليس معياراً لصحّة الإيمان بدين ما، لأنك قد تكون مؤمناً بدين الحقّ وفقيراً، وقد تكون كافراً وثرياً، وسورة الفجر تخصّصت بهذا الموضوع وعرضته صريحاً في الآية 15 وما بعدها {فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ}.

من مراجعة سورة الفجر وجعل مفاهيمها أساساً، نفهم الآية هنا بشكل أوسع، لولا بغي الناس لجعلهم تعالى كلّهم مبسوطاً لهم الرزق، والناس لن يبغوا إلا إذا كانوا مؤمنين عاملين للصالحات، ومعلوم أن هذه حالة نادرة جداً.

(وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ{28})
عطفاً على الآية السابقة التي أخبرتنا أن الرازق ببسط أو بقدر هو الله تعالى، ترون نموذجاً عن ذلك في:

{وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ}، المطر عندما ينزل يغيث الناس وينجدهم من وضع حرج عندما يكونون بحاجة ماسة للمياه للشرب ولري المزروعات وسقاية الماشية... {مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا}، من بعد ما فقدوا الأمل نهائياً من تساقط المطر بسبب طول الانتظار، وهنا تضرب الآية مثالاً متطرفاً حرجاً عن حالة توقّف فيها نزول الماء على بقعة ما من الأرض، وشعر الناس بالضيق، فسبحانه هو الذي ينزل الماء الذي يغيثهم ليخلصهم من وضعهم الصعب من العطش والجفاف.

سبحانه صمّم وخلق بيئتنا بحيث يحدث فيها نزول الماء الذي يحتاجه البشر الذين صمّمهم وخلقهم سبحانه يحتاجون للماء، لأنَّ البيئة مصمّمة لتؤمن الماء للبشر، ويحدث أحياناً أن يتدخّل سبحانه لسبب أو لآخر ليمنع سقوط المطر أو ينزله بكثرة... وهنا كلام الآية ناظرٌ للحالتين، لحالة تصميمه وخلقه تعالى لبيئتنا بحيث ينزل الماء دورياً من بعد اجتماع الظروف المناسبة لنزوله، ولحالة تدخله تعالى من خارج الظروف الطبيعية ليغيّرها لينزل الماء.

{وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ}، ويوزّع سبحانه عنايته على الناس لما فيه مصلحتهم، حيث على مساحة نزول الماء كغيث للناس تنتشر عنايته تعالى بهم.

{وَهُوَ الْوَلِيُّ}، لأنكم تابعون له وهو تعالى متابع لشؤونكم، وهنا الكلام عن الغوث بالمطر نموذج عن ولايته تعالى الذي يتولّى إغاثة عبيده، {وَهُوَ الْحَمِيدُ}، وكل ما يصدر عنه تعالى يوصف بأنه محمود جيّد، ونزول الماء مثال على ذلك.

لاحظ أن هذا التحكّم الإلهي بنزول الماء هو وجه من وجوه تحكّمه تعالى بالرزق، ونقصد بالتحكّم عموم التحكّم، من أصل ما نتج عمّا صمّمه وخلقه تعالى، لأنه سبحانه صمّم وخلق بيئتنا جاعلاً آلياتٍ وأسباباً لنزول الماء، وأحياناً نادرة بسبب تدخّله تعالى مغيّراً الظروف ينزل الماء.

من ناحيتنا نرى تشكّل الغيم والضغط الجوي وفرق الحرارة في الرياح... أنها أسباب نزول الماء هنا وهناك، مما يشير لوجود ميكانيكية كآلية لنزول الماء، وبعد دراستها تصير هي الأسباب التي نعرفها لنزول الماء، ولأوّل وهلة لا يبدو لنا التدخّل الإلهي فيها لأنها آلية تحدث لوحدها... وهذا التفكير ينطلق من عقلية إنكار العمل الإلهي إذا عرفت سبب حدوث نزول المطر، بينما بمعرفتك لآلية حدوثه تتعرّف على الآلية التي صممها تعالى لنزول الماء.

قديماً كان الناس جهلة لا يعرفون آليات حدوث ما يجري حولهم، وكل ما لا يعلمون كيفية حصوله يقولون إنَّ الإله فعله، وهكذا اخترع الناس إلهاً للمطر وآخر للعواصف وآخر للزراعة... والمؤمنون الموحدون بغالبيتهم ومن نفس العقلية التي تجعل الإله فاعلاً لما نجهل أسباب حدوثه، وحّدوُه تعالى كإله فاعل لكل شيء، وهذا التفكّر هو ما جعله تعالى فينا لنتعرف عليه سبحانه.

حالياً يمكننا التنبؤ بموعد نزول الماء قبل أيام، ومعرفة جنس الجنين أوّل ما يتشكّل في داخل رحم أمّه، ونعرف لون عينيه وبشرته والعديد من أمراضه الوراثية... ونعرف سبب الليل والنهار ويمكننا معرفة متى سيحصل الكسوف والخسوف إلى آلاف السنين... ولكن ننتبه، لأن القرآن أشار لأمور كانت لا تعرف الناس أسباب حصولها ونسبها لله تعالى، وأمور تعرف الناس أسبابها ونسبها لله تعالى أيضاً، حيث قال عمّا يزرعونه بأيديهم إنَّه تعالى هو زرعه وأنبته وأخرج ثمره... راجع كمثال الآية 63 من سورة الواقعة وما بعدها {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ، أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}، وقال سبحانه عمّا اخترعه الناس إنَّه تعالى هو سخّره لهم، حيث إنَّ الناس يعرفون أنهم هم اخترعوا السفن وروّضوا الخيول... ولكنه تعالى في قرآنه يقول بأنه هو فعل هذا، وراجع كمثال الفقرة الأولى من سورة النحل، والآية 32 من سورة إبراهيم {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ}.

من نظرة الإله سبحانه وتعالى فهو الذي صمّم وخطّط ونفّذ كل شيء في السماوات والأرض، وترى غالبية الناس "بدرجة ما" مؤمنة بهذا لأن الآيات أكثر من كافية للدلالة على ذلك، ولديهم شعور داخلي عميق بذلك، هذا رغم كفرهم وشركهم الذي بغالبيته جحود ومماراة، ورغم إنكارهم لحكمته ورحمته تعالى أحياناً "كما في حالة أمراض الأطفال..."،

ورغم اعتراضهم على ما يجري معهم إن لم يكن لصالحهم... ولكن الذي خلق كلّ شيء لا بدّ وأنه يسيطر على ما يجري، ويبقى السؤال: نحن لا نرى سيطرته تعالى بعدما نكتشف الأسباب وآليات حدوث الأمور؟ لنقل مفترضين أن الله تعالى غير موجود، المطر سينزل طالما تشكّلت الغيوم واجتمعت الأسباب التي تسبّب نزول الماء. هذا غير صحيح من أصله، فلو كان الله تعالى غير موجود عندها كل شيء سيزول "وأصلاً لن يكون موجوداً"، أنت والغيوم والماء... ستزولون وهذا معلوم من بعد التفكّر في خلق السماوات والأرض وعليه خبر تأكيدي منه تعالى في الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ...}، ولولا تصميمه تعالى لبيئتنا بحيث ينزل فيها مطر، لما نزل الماء، وما تراه أنت من اجتماع لأسباب نزول الماء فهو التخطيط الإلهي، وهو الآلية التي صمّمها وخلقها تعالى لنزول الماء.

هل تتوقّع أن يأمر الله تعالى ملائكته(ع) بفتح حنفيات "صنبورة" المياه في السماء وينزل الماء وأنت لا ترى إلا المطر نازلاً ولا تدري كيف ولماذا ومن أين ينزل حتى تقتنع بأن الله تعالى ينزل الماء!

لنضرب مثالاً للتقريب، ولنفترض أنك أنت تريد خلق كائنات في بيئة، فستنعكس صفاتك وقدراتك على ما صمّمت وخلقت، لأنه كلما كانت صفاتك وقدراتك أعلى، كلما كثرت التفاصيل والدقّة في تصميمك للبيئة التي ستجعل فيها مخلوقاتك، ولنقل إنك خلقت سمكاً في حوض ماء، وجعلت السمك قابلاً للنمو والتكاثر، ويجوع... الآن نسأل: هل سترش له الطعام بيدك أم ستجعل بيئته ينتج عنها الطعام؟ وإذا جعلت البيئة ينتج منها الطعام ألن تكون أنت الذي خلقت الطعام وأنتجته؟ ألست الرازق؟ فأنت صمّمت خصائص المياه والتراب وصمّمت ما سينتج عنه الضوء والحرارة... وصمّمت العلاقة بين هذه الأمور لينتج عنها الطعام، فمن رزق المخلوقات؟ وهل معرفتهم بآلية إنتاج البيئة للطعام ستنفي أنك أنت صمّمته وخلقته!

السؤال الأهم: هل من المعقول منك إن كانت قدراتك وصفاتك عالية جداً، أن تخلق الطعام فوراً بلا مقدمات وبلا آليات لإنتاجه وترشّه بيدك لمخلوقاتك؟! أم وبسبب قدراتك الفائقة ستصمّم بيئة ينتج عنها الطعام لمخلوقات قرّرت لها المرور في امتحان يتضمّن كيف وبأي أسلوب سيحصلون على الطعام، حيث جعلت فيهم حرية الإرادة والاختيار، مراقباً لهم باختيارهم للعمل الصالح سيحصلون عليه أم بالفساد والطغيان... وكيف سينفقونه... لتحاسبهم على ما فعلوه.

هل من المعقول أن تنفي مخلوقاتك صفاتك وقدراتك وتنكر أنك المسبّب لطعامهم لأنهم لم يروك ترشّ الطعام لهم؟ ولنفترض لو كانوا يرون الطعام فجأةً على سطح الماء وبلا سبب فهل سيؤمنون بك؟ أم سيقولون إنهم فجأةً ومن دون سبب ولا آليات سابقة هم أيضاً خرجوا إلى الحياة؟ ولا يوجد خالق...

كما ترى، سبحانه صمّمنا وخلقنا في بيئة تحدث فيها الظواهر التي ينتج عنها الطعام والشراب، وفهمنا لآليات إنتاج الطعام والشراب في بيئتنا لا يلغي وجوده تعالى، بل بالعكس سيدلّك على عظيم قدراته وصفاته التي نتج عنها تفاصيل هائلة في نظام متناسق متجانس يعمل بدقة حيث كلّ شيء يترابط مع بعضه بلا تعارض ولا خلل...

بقيت نقطة، بتحليلات بعض الناس يرون الرزق والمطر غير مقسوم بطريقة دينية صحيحة، وهم يفترضون أن الرزق والمطر يجب أن ينزل فقط على المسلمين، فلماذا نرى بلاد المسلمين فيها فقر وجفاف! حسناً، غالبية الذين لا يصلّون ولا يصومون ولا يزكّون... هم يقولون هذا الكلام الاعتراضي على الدين وعلى الإله عزّ وجلّ، ويظنّون أن الهوية الإسلامية كافية حتى يصيروا مميزين عن بقية الشعوب، وهذه نفس عقلية: شعب الله المختار، عند اليهود. فمهما فعل فهو مسلم وله امتيازات على غيره. وهذا غير صحيح، لأن النفاق والفسق هما مع الكفر والشرك في نفس الخانة، ولا امتيازات إلا للمؤمن العامل للصالحات، ومصلحة "آخرة" المؤمنين هي الدرجة الأولى عنده تعالى، والمؤمن يهمّه حرث الآخرة ويعلم أن ما يحصل معه هنا في الدنيا من مشاكل إنما هو البلاء الذي يسبّبه له غير المؤمنين، والمؤمن الحقيقي يحمد الله ويتوكّل عليه وكلّ رجائه للآخرة، وهو يفهم معنى حكمة بسط وتقدير الرزق، ويربط كل ما يحصل معه بما ستقوله الآية بعد التالية عن حصول المصائب معنا بسبب أفعالنا، سواء على الصعيد الشخصي أو على صعيد المجتمع.

تذكّر دائماً من عدّة آيات ومفاهيم قرآنية أننا لو آمنا والتزمنا واستغفرنا لنزلت علينا بركات من السماء، ولعشنا في حياة هانئة سعيدة بين بعضنا وفي بيئتنا، وتقرأ ذلك في الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا

عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، حيث لا كارثة إلّا من ذنب ما، منك أو من غيرك، وسترى ذلك في الآية التي بعد التالية. ولن يفهم هذا الدين الإلهي بهذه الطريقة شخص يتوقف عن السيئات لخمس دقائق فقط، وخلالها يدّعي أنه تقي، ويطلب أن تتحقّق أدعيته وأمانيه، ويعترض عليه تعالى بسبب وضعه المالي والاجتماعي... لأنه مسلم ويجب أن يتدخّل سبحانه لتحقيق طلباته!

هكذا ترى أن كوننا منتمين بالاسم لدينه تعالى، لن يؤمن لنا دعماً إلهياً لنعيش في بحبوحة ورغد، بل الإيمان والعمل الصالح لوحدهما يؤمنان قسماً كبيراً من السعادة في الدنيا للجميع، ومضافاً لما سينتج من سعادة لنا في مجتمعاتنا عن حسن تصرفاتنا، سننال دعماً إلهياً بفتح بركات لا نقدر على فتحها لوحدنا.

أمّا ومجتمعاتنا فاسدة لأقصى الحدود، وحكّامنا من أفسد الحكّام، فما نفع إسلامنا؟ بل أصلاً ما معنى إسلامنا ونحن فاسدون؟ الآخرون من غير دين الإسلام الذين يعيشون في بحبوحة وهناء وأمن... فهؤلاء وحتى لو لم يكونوا مؤمنين بدينه تعالى، ولكنهم يعملون جزءاً من الصالحات التي تكفل لهم حياة أمنية واقتصادية سعيدة، هم على الأقل لم ينصّبوا عليهم حكّاماً فاسدين يسرقون موارد الدولة وليسوا جديرين بإدارتها...

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ {29})
{وَمِنْ آيَاتِهِ}، ومن الأمور المميّزة المنسوبة له تعالى، {خَلْقُ}، تركيب وتأليف، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وهذا التعبير يشير لـكلِّ المكان الذي تتواجدُ فيهِ المخلوقات، حَيْثُ ركَّبَ وألَّف سبحانه كلَّ شيء.

هذا النوع من التعبير القرآني يتضمّن السؤال التالي: أنتم وما حولكم وكل شيء في السماوات والأرض، من الواضح جِدّاً لكم أنكم مركّبون مُؤَلَّفُونَ من المواد، فمن خلقكم وَمَنْ ركّبكم وألّفكم؟ وأنت صرت تعلم من كثرة ما تكرّر في دراستنا هذه الكلام عن معرفتنا بآليات نشأة كوننا ونشأة الحياة أَنَّهُ ليس اسْتِبْعَاداً لوجود الإله، بل هو تَعَرُّفٌ على آلية خلقه تعالى للمخلوقات والظواهر، لأن معرفتنا للمراحل والترابطات المتسلسلة التي أدّت إلى تشكّل الكون ونشوء الحياة، من علاقات فيزيائية وكيميائية وبيولوجية... إنما هِيَ تَعَرُّفٌ على آلية خلقه تعالى لها، وعديدة هي الآيات القرآنية التي سألتنا مباشرة عن المصمّم والمخطّط والخالق للسماوات والأرض، لأنه تعالى خلقنا مع القدرة على ملاحظة ذلك، وَلِلسُّؤَالِ عنه لنتعرّف عليه سبحانه من أفعاله، وإلا فكيف سنتعرّف عليه لنتّخذه وَلِيّاً؟

{وَمِنْ آيَاتِهِ}، {وَمَا بَثَّ فِيهِمَا}، ما نشره تعالى في النواحي المختلفة من السماوات والأرض، {مِنْ دَابَّةٍ}، من مخلوقات تدبّ وَتَتَحَرَّكُ على الأرض وفي السماوات، {وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ}، على جمع الدواب المبثوثة، ونعلم من عموم القرآن أن المقصود هو جمعهم في الآخرة بعد أن يموتوا، {إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ}، فلديه تعالى الخيار أن يجمعهم من موتهم أو يتركهم وَلَيْسَ مَجْبُوراً سبحانه على أي خيار، وإذا شاء أن يجمعهم من بعد موتهم ومن أماكنهم المختلفة فَهُوَ سبحانه يقدر على ذلك، ونعلم من العديد من آيات القرآن تأكيده تعالى أنه قضى وَقَرَّرَ وشاء أن يجمعهم في يوم سيقومون فيه من الموت في الآخرة.

نلاحظ أَنَّ القرآن عبّر عنّا نحن البشر وعن الحيوانات كلّها وعن الحشرات والطيور بأنها: دواب. ولم نلاحظ في القرآن أَبَداً إطلاق كلمة دابة لا على الملائكة(ع) ولا على الجنّ، مما يوحي بشدّة من تعبير {بَثَّ فِيهِمَا} لوجود دوابّ طينية في السماوات على شاكلة الدواب "الحيوانات الطينية" التي على كوكب الأرض، ونفهم هذا مع التذكّر أن كلمة سماء لا معنى لها لوصف شيء ما إن لم يكن يقابلها أرض، حَيْثُ إِنَّ أَرْضَنَا أرض لسمائنا وسطح القمر أرض لسمائنا أَيْضاً وسطح الشمس وسطح كوكب الْمُشْتَرِي... أراض، وهكذا لبقية السماوات أرض أو أراض تناسب نوعيتها وتركيبها لنوعية سمائها، وتقرأ ذلك صَرِيحاً في الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...}، فَالْكَلَامُ ليس عن سَبْعَةِ كَوَاكِبَ أرض لكل سماء، بل عن عموم أي أرض أو أراض تحت كل سماء.

من عموم القرآن وبالخصوص من الآية 38 من سورة الأنعام "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ"، ومن الآية 5 من سورة التكوير "وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ"، نعلم أن كلّ الحيوانات بكلّ أنواعها سيتم حشرها في الآخرة، هكذا يمكننا من الآية هنا استنتاج وجود دواب في بقاع السماوات، ولا ندري عنها من القرآن سوى أنها دابة، قَدْ تَكُونُ حشرات أو أكبر أو عاقلة... لا ندري.

الدابة وصف لكل ما فيه حياة ويدبّ، وَيَتَحَرَّكُ مُغَيِّراً مكانه على أرض، وهذا بالأساس يشمل كل الكائنات الحية من عائلة الحيوان من الحشرات والزواحف وذوات الأرجل والطيور والأسماك، وندر استعمالها في كلامنا لتشمل الحشرات والأسماك، عِلْماً أَنَّ القرآن استعملها للحشرات كما في حالة الحشرة "السوسة أو غيرها" التي أكلت العصا التي كان يتّكئ عليها النبي سليمان(ع) كما ورد في الآية 14 من سورة سبأ "فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ..."، واستعملها شَامِلاً بها الزواحف كما في الآية 45 من سورة النور "وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ..."، واستعملها بمعناها الأعم لتشمل كائنات حية من غير عالمنا كما في الآية 29 من سورة الشورى هنا {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ}.

(وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ{30})
في هذه الدنيا التي خلقها تعالى وأنتم فيها مخاطبون بهذا القرآن...:

{وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ}، وأي شيء يصيبكم، أي شيء يحدث معكم سواء على المستوى الشخصي أو كمجتمع، وسياق الكلام هنا عن مصيبة بحصول شيء سَيِّئ، {فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ}، فبالذي حصلتم عليه مما نتج من أعمال أيديكم، حَيْثُ إِنَّكُمْ قُمْتُمْ بعمل سَيِّئ بأيديكم بأنفسكم بما تفعلون به الأمور، ونتج منه شيء حَصَلْتُمْ عَلَيْهِ، إِنَّ الْمُصِيبَةَ السَّيِّئَةَ التي أصابتكم هي ناتجة عن أفعالكم.

تعلم من القرآن أن المصائب السيئة أسبابها متنوّعة، إِذْ إِنَّ بَعْضَهَا من تدخّل إلهي مباشر وصريح كحالة الأقوام التي ذكرها القرآن بنزول عذاب إلهي عليهم بتدخل إلهي مباشر كحالة قَوْمِ النبي لوط(ع) وعاد وثمود... بسبب تركهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وارتكاب سيئة من العيار الثقيل مع توافق جماعي عليها... وهذه أقصى درجة تدخل إلهي ويليها درجات أخف من تدخله تعالى لِتَسْبِيبِهِ مَصَائِبَ...

هناك مصائب ناتجة من التصميم والخلقة لنا ولبيئتنا حتى تكون دار امتحان، وهي الكوارث الطبيعية بآلياتها الطبيعية التي صمّمها تعالى... قَدْ يَتَدَخَّلُ سبحانه لمنع حدوثها أو التخفيف من ضررها أو يتركها تحدث وذلك مرتبط بما يراه تعالى مُنَاسِباً بحكمته، وَسَتَقْرَأُ عن ذلك بعد قليل.

من ناحية ثانية لدينا المصائب التي نحن بِأَيْدِينَا نُسَبِّبُهَا كالحروب والمجاعات... التي تحدث من ملوك وأمراء وحكّام ومتسلطين ونافذين ورؤساء فاسدين مجرمين... هذا على مستوى المجتمعات، وعلى المستوى الفردي إِنَّ مُصِيبَةَ الفقر الشخصي والمتاعب والمشاكل مع الناس... تحصل من الكسل والفشل... ومن اعتداء الآخرين عليك وَاعْتِدَائِكَ عليهم... ومصيبة الحوادث الفردية من حوادث السيارات والأمراض والعاهات للأجنّة وللكبار... سببها الإهمال وتسمّم الجسد والتلوّث...

قرأت للعديد من الباحثين عن أسباب أمراض الأطفال، والولادات المشوّهة، إِذْ يَعْتَقِدُ غَالِبِيَّتُهُمْ أن سلسلة الجينات مصمّمة ليحدث فيها طفرات تطور نحو الأحسن، وليس نحو الْأَسْوَإِ، وهذا واضح من الاختلافات البسيطة في بنية البشر الْمُتَكَيِّفِينَ مع البيئة التي هم فيها من حرارة مرتفعة أو منخفضة أو غنية أو فقيرة ببعض أنواع المغذيات من بروتينات وفيتامينات... وواضح من غياب أمراض عن بيئات وانتشارها في بيئات أخرى بسبب اختلاف العادات والنظام الغذائي.

على أي حال، إِنَّ النَّتِيجَةَ التي نحن فيها من موت للأطفال من الأمراض والولادات المشوهّة، شيء مؤلم، ويدفعنا للتفكير في ذنب هؤلاء حتى تعرّضوا للعذاب ثم فقدوا حياتهم. لا ذنب لهم، ولكنه نتيجة التصميم الذي نحن فيه لدنيا البلاء، مثله مثل السوء الذي يتعرّض له الأطفال من البالغين ضَرْباً أَوْ قَتْلاً، أو قَتْلاً وَبَيْعاً لأعضاء جسدهم كقطع غيار.

هل يتحمّل الله تعالى سوء موت الأطفال المقتولين في الحروب؟ أم يتحمّل سوء المقتولين من الكوارث؟ أو من الأمراض؟

لاحظ أن حالة الإجرام البشري التي ينتج عنها موت أطفال وعذاب لهم، حيث الكثير من الناس يحمّلونه تعالى المسؤولية، ويسألون لماذا يسمح بحدوث ذلك ولا يتدخّل بدلاً من الوقوف مُتَفَرِّجاً على المآسي؟ هؤلاء يدّعون طيبة القلب وَالْإِحْسَاسَ المرهف، ولكنهم تعاموا عن واجباتهم هم بمنع هكذا حوادث، حَيْثُ إِنَّنَا البشرَ تحت التكليف وفي حالة الامتحان ليرى تعالى ماذا نفعل، وسيحاسبنا على أفعالنا، وليس دورنا التنظير له تعالى ولفت انتباهه لما يجب أن يفعل هو.

من هذا المثال ترى أن الحزن على ما يحدث للأطفال من آلام، هو نتيجة خلقنا في دنيا البلاء، ولا فرق بين حدوث ذلك لهم بأيدي المجرمين أو من الكوارث، أو من الأمراض.

نعم، كلنا نحبّ الجنّة ونريدها الآن، إِذْ إِنَّهُ فِي الْجَنَّةِ لا سوء ولا من أي نوع، أمّا الدنيا فهذه حالها، شئت أم أبيت، وهذا كان قراره تعالى حين صمّمها كبيئة بلاء.

يستحضرني هنا ما حصل مع النبي محمّد(ع)، حيث مات له ثلاثة أولاد صغار كما يقولون في كتب التاريخ، وبكى (ع) عليهم، بل وَيَقُولُونَ إِنَّهُ (ع) تعرّض للشماتة من الكافرين الذين سخروا منه كرجل يدّعي تواصل الإله معه، لِمَاذَا لَمْ يُعَامِلْهُ الإله بعناية خاصة لِيُنْجِيَ أولاده من الموت المبكر! ولماذا لم يستجب دُعَاءَهُ حين طلب شفاءهم؟

هذا النوع من الأسئلة لم يرد على خاطر النبي محمّد(ع)، بل أكمل وظيفته كرسول، وهو (ع) يعلم بأن هذه الوظيفة ليس لها امتيازات تجعله هو شَخْصِيّاً أو أحبته منيعين من الأمراض والألم والموت، واعتبر (ع) المسألة من مجريات الحياة الطبيعية، وهذا شيء من الصعب علينا فهمه بسبب ما تربينا عليه من تراكمات الثقافة الدينية المبنية على الطلب منه تعالى تحقيق أمانينا وأحلامنا عبر الصلاة والدعاء والنذور...

نفهم من عموم كلام القرآن وخصوص ما ورد في الآية 66 من سورة المائدة "وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ"، والآية 96 من سورة الأعراف "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"، أَنَّهُ تعالى يتدخّل ليغيّر أي شيء يصبّ في مصلحة مجتمع مؤمن صالح.

أَيْضاً من الآية 41 من سورة الروم "ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِ النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ"، نفهم أن كل سوء يحصل معنا فهو من أيدينا، ويمكن أخذ كلام الآية على العمومية ليشمل كل شيء حتى مرض الأطفال، أو على خصوصية ما نفعله عن قصد وبإرادتنا، ولكن دمج الآيات يعطيك نتيجة واضحة: المجتمع الصالح يسخّر طاقاته للصلاح، النظافة الشخصية والعامة، العناية بأنفسنا وببعضنا، حسن التغذية... استعمال مبيدات حَشَرَاتٍ لا تسبب السرطان وتشوّه الأجنّة... وهكذا من الجوانب التي تجعل الحياة رغيدة بسبب صلاح أهل المجتمعات، وما لا يقدرون عليه فَسُبْحَانَهُ وبوعد صريح منه يتدخل لمنع حدوثه، ونفهم أنه حتى أَمْرَاضَ أطفالٍ سيتدخل سبحانه "بطريقة ما" لمنعه.

نرجع للآية، {وَيَعْفُو}، ويمرّ سبحانه ولا يتوقّف، {عَنْ كَثِيرٍ}، مما كسبت أيدينا، ولو توقّف سبحانه على كلّ شيء نفعله ليحاسبنا عليه بدقة، على كلّ صغيرة وكبيرة، لكانت المصائب مُسْتَمِرَّةً على الجميع.

(وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ {31})
{وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ}، حالتكم ليست حالة من يجعل الإله سبحانه عاجزاً عن معاقبتكم على أعمالكم السيئة بإنزال المصائب عليكم، كما تقول: أَعْجَزَنِي، وتقصد أن شخصاً ما جعلك عاجزاً عن شيء ستفعله. هنا الآية تقول للناس بأنهم لا يمكنهم إعجازه تعالى عن فعل ما يريده بهم، حيث هنا على الأرض وكمثال، ترى الزلازل والبراكين والأعاصير والجفاف... تحدث ولا يمكننا ردّها أو إيقافها إن كانت قوية، فأي شعور بالعظمة وبالقدرة وبالقوّة... عند الناس إنما هو شعور خادع لأنهم بأبسط نظرة إلى أنفسهم وما حولهم تراهم محكومين بأمور تحصل معهم ولا يحبّونها ولا قدرة لهم على منعها، تريد الآية لفت انتباههم إلى ما هم فيه الآن ليقيسوا عليه قوله تعالى عمّا سيفعله بهم في الآخرة إن كفروا، حتى لا تغرّهم بعض القدرات ليعتقدوا أنه تعالى عاجز عنهم في الدنيا، وبالتالي الكلام عمّا سيفعله تعالى بهم في الآخرة لا يخيفهم لأنهم أقوياء، لا.

{وَمَا لَكُمْ}، وليس لكم أيها الناس، {مِنْ دُونِ اللَّهِ}، كما نقول: ذهبتم من دوني، ونقصد أنكم ذهبتم مع غيري وتركتموني. {مِنْ وَلِيٍّ}، لا يوجد مَنْ يلي أموركم، مَنْ تكونوا تابعين له من مستوى إلهي ليعتني بكم، فإذا تركتم ولايته تعالى وواليتم غيره أو ظننتم أنكم أولياء لأنفسكم... إنما في الحقيقة ليس لكم ولي غيره تعالى من مستوى إلهي، وأي شيء من المستوى الإلهي فهو منحصر به تعالى ولا يمكن لأي أحد أن يفعل أي شيء، بحيث إذا أصابكم تعالى بنعمة فلا يمكن لأحد ردّها، وإذا أصابكم سبحانه بنقمة فلا يمكن لأحد ردّها.

ولا لكم من دون الله من {نَصِيرٍ}، ليحقّق لكم ما تريدونه، فإذا أراد تعالى حصول ضرر لكم فلن تجدوا مَنْ يحقّق لكم منع حصول الضرر لكم، وإذا أردتم تحقيق السعادة لأنفسكم فلا أحد غيره تعالى يمكنه تحقيقها لكم.

ضع في بالك دائماً أن النصر وصف لحالة عموم تحقيق الغاية على الآخر، فهي تحقيق ما تريده ولا يريده الآخر لك، وهي ليست حصرية لحالة الحرب والقتال بالأسلحة بل عمومية الانطباق، وبهذه العمومية استعملها القرآن كثيراً لوصف حالة الذين لا يجدون مَنْ ينصرهم في الآخرة، وهناك لا توجد حرب قتالية لمواجهته تعالى، بل يوجد فرض إرادة، والكافرون يحتاجون لكائن من مستوى إلهي لينصرهم، ليحقّق لهم ما لا يريده تعالى الذي سيعذبهم.

(وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ{32})
{وَمِنْ آيَاتِهِ}، من الأمور المميّزة المنسوبة له تعالى، كعلامات ودلائل على وحدانية الإله وصفاته وقدراته الفائقة ووجوب ولايته، {الْجَوَارِ}، الأشياء التي تجري، التي تنتقل بالتحرّك المتتابع، {فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ}، في المياه الكثيرة كأنها رايات تتمايل، والكلام هنا عن السفن الشراعية التي تتمايل أثناء سيرها في البحر وتتمايل معها أشرعتها، حين نزول هذا الكلام كانت السفن تعتمد على الأشرعة التي تعترض الهواء لتندفع السفينة وتجري، ووَصْفُها كالأعلام يشير لأشرعتها وتمايل السفينة.

نحن لم نكتشف عوم الأشياء على الماء وصناعة السفن على أساس أنها لم تكن بحسبان الله تعالى، وبتعبير بسيط نتساهل فيه كثيراً، نحن لم نخترعها وهي لم تخطر على باله سبحانه، لا، لأنه صمّمنا تعالى وصمّم بيئتنا بشكل سينتج عنه حتماً صناعتنا للسفن، جاعلاً فينا الفكر والملاحظة والخيال... الذي نتج عنه تقليدنا لعوم الأشياء على الماء وصناعة السفن، فمن الأساس كان تخطيطه تعالى لنا يتضمّن وصولنا إلى اكتشافنا لكيفية صناعة السفن.

ضع في بالك دائماً أن القرآن عموماً يذكر نماذج، والكلام هنا عن السفن الشراعية ليس حصرياً عنها، بل هي نموذج، حيث صناعتنا لأي شيء يكون منسوباً له تعالى لأنه هو تعالى صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا لنصل إلى الاكتشافات، وصناعة العربات والسيارات والقطارات والطائرات... وعموم وسائل النقل اختار القرآن منها نموذج السفن ليلفت انتباهنا لتصميمه تعالى لنا ولبيئتنا بشكل يجعلنا مكتشفين لركوب الخيل وصنع العربة واستبدال الحصان بمحرّك...

تصوّرها كحالة تصميمك أنت لكائنات وبيئة، وقرّرت القدرات التي ستكون في مخلوقاتك من بصر وسمع وفكر وخيال... وقرّرت ما سيتوافر لهم في بيئتهم من مواد وخصائص لها ومن ظواهر طبيعية، فيمكن أن تخمّن ما سينتج عن مخلوقاتك من أفعال وابتكارات لأنك أنت وضعت فيهم القدرات... ومن هذا التبسيط نفهم أنه تعالى بعلمه وقدراته الفائقة هو لا يخمّن ولا يحتمل، بل يعلم بدقة بما ستفعله مخلوقاته، وحين اخترعنا السفن وبعدها السيارات والطائرات... كان سبحانه من قبل يعلم بذلك وبدقة وبالتفاصيل، مثلما يعلم بكل ما سنفعله في حياتنا بدقة وبالتفاصيل.

(إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ{33})
{إِنْ يَشَأْ}، لديه تعالى الخيار أن تمشي السفن بالريح، بالهواء الجاري بقوة، أو {يُسْكِنِ الرِّيحَ}، لا يتحرّك الهواء، {فَيَظْلَلْنَ}، تبقى الجواري، ما يجري من السفن، {رَوَاكِدَ}، لا تتحرك، {عَلَى ظَهْرِهِ}، على ظهر البحر.

كنموذج عن سيطرته تعالى علينا وعلى بيئتنا: صناعة الفلك الشراعية وجريانها بالريح. لأنه سبحانه صمّمنا وصمّم بيئتنا بشكل سينتج عنه حتماً تصنيعنا للفلك من السفن الكبيرة إلى المراكب الصغيرة، ونحن نقف عاجزين أمام تحرّك الريح، وننتظره ليهبّ حتى تمشي السفن الشراعية.

{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ}، الذي لفتنا انتباهكم له عن السفن وجريانها بالريح، {لَآيَاتٍ}، هي أمور مميّزة كعلامات ودلائل، {لِكُلِّ صَبَّارٍ}، لمن يصبر كثيراً، ولا تفلت أعصابه ورزانته، ويحافظ على تصرفه بشكل واع ومدروس في مختلف الأزمات وأمام الرغبات السيئة، ولكل {شَكُورٍ}، كثير الشكر فيعبّر كثيراً عن حصول شيء جيّد معه.

ربط القرآن عدة مرات بين الصبر والشكر من جهة وبين الإيمان من جهة أخرى، لأن من يريد الآن تحقيق ما يريده ويرغبه ولا يصبر، وليس لديه بعد نظر للحصول على ثواب الآخرة، فهذا لديه قرار عميق بالكفر به تعالى الذي يأمره بالصبر لأن الدنيا ليست جنّة الآخرة، حيث هناك في الآخرة رغباته أوامر أمّا في الدنيا فهي دار امتحان، وما معنى الامتحان إذا كانت رغباتنا أوامر! والذي لا صبر له لن يشكره تعالى لأنه بهذا الشكر سيعترف به تعالى وبدينه وسيكون مضطراً للصبر وهذا ما لا يريده.

إذاً نحن أمام نفسية أساسية للمؤمن، حيث شخصيته هكذا، صبور شكور، وإن لم يكن كذلك فلن يكون مؤمناً حقيقياً ولن يرى ما حوله آيات ربانية، أو سيراها بغشاوة، أو لن يراها آيات أبداً إن كان شديد الكفر.

من هذا تشير الآية إلى ظروف لا ريح فيها لتجري السفن، كنموذج عن أي حالة تصيبنا ولا تناسبنا، فهل نصبر؟ وهل يكون صبرنا مبنياً على الإيمان بأن ما يحصل معنا هو ابتلاء، أم نعترض، أم نكفر ولا نؤمن به تعالى مسيطراً ابتلانا... أم نشكره تعالى حين تجري السفن، أم ننساه وننسى فضله ولا نشكره على النعمة...

بقي شيء، فهل نموذج السفن الشراعية الذي ذكرته الآيات هنا والتي تنتظر الريح المناسبة لتجري السفن بأمرنا، هو النموذج الوحيد الذي كان يعكس ضعفنا؟ لا، لأن الطائرات ومهما حسّنا تصميمها، لن تصمد أمام عاصفة، والسفن من القياس الضخم وذات المحرّك النووي كحاملات الطائرات، تتجنّب العواصف البحرية القوية وإلا تحطّمت بجرفها نحو الصخور، والسيارات والقطارات ضعيفة أمام العوامل الجوية... ودائماً ومهما فعلنا سنبقى ضعفاء أمام عوامل طبيعية ضخمة تفوق قدرتنا على تخطّيها.

سنتحدث في الآية التالية عن شيء له علاقة باختيار القرآن نموذج السفن الشراعية من آياته تعالى.

(أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ{34})
{أَوْ يُوبِقْهُنَّ}، أو إن يشأ سبحانه يجعل الرياح موبقة لتصير فيها ولكن لا ينتج عنها خير، كالذي نقول عنه: دخل الموبقات. ونقصد أنه صار فيما لا خير فيه، وتكون الريح قوية كاسرة للسفن بعاصفة هوجاء، أو تركد الرياح ولا تتحرّك، أو تتحرك باتجاه غير مناسب للوجهة التي يقصدونها بالسفينة... {بِمَا كَسَبُوا}، بسبب الذي حصل عليه الناس مما نتج مما عملوه، فبسبب أعمالهم السيئة يجعل تعالى الريح موبقة لا خير فيها لهم... {وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ}، ويمرّ سبحانه عن كثير من الأعمال السيّئة التي تقترفها الناس ولا يعاملهم على أساسها، ولولا ذلك لكانت المصائب متلاحقة والأمور متعثرة باستمرار...

تلاحظ من كلامه القرآني سبحانه نظرته للمصائب الدنيوية أنها مرتبطة بما نفعله نحن، فإذا كسبنا السيئات من أعمالنا السيئة، سنُحْرَم من الرحمة الإلهية، وكلّ ما سيحصل معنا سيكون نقمة لا خير فيه لآخرتنا، وهناك بعض أنواع السيئات التي نرتكبها في الدنيا وتسبّب حصول عذاب دنيوي لنا من تدخّل إلهي مباشر إن كان غالبية المجتمع فاسداً لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ويفعل سيئة من العيار الثقيل... وهناك ذنوب كثيرة تفعلها الناس ولكنه تعالى يعفو عنها ولا يتوقّف عندها ولا تسبّب للناس عذاباً دنيوياً من تدخّل إلهي.

إذاً، هناك نعمة إلهية تدل على الخالق العظيم، وكنموذج منها السفن وتحريكها بالرياح حيث نستفيد منها بالسفر ونقل البضائع... وهذه النعمة ليست تحت سيطرتنا، فإن شاء تعالى يمكنه توقيف الرياح ولن تتحرّك السفن الشراعية، ويمكنه تعالى جعل الرياح موبقة، وتهبّ ولكن لا خير فيها لأنها تكسّر السفن، أو تهب بالاتجاه المعاكس لسير السفينة...
وسيكون السبب هو ما كسبه الناس من بعض أعمالهم السيّئة من العيار الثقيل، ولو حاسبنا سبحانه على كلّ سيّئة فعلناها لكانت حالتنا في تعاسة دائمة ولكنه تعالى يعفو عن الكثير من سيّئاتنا، ولا يتوقّف عندها ليعاملنا على أساسها، وإلا لتدهورت حياتنا وصارت دائماً غير محمولة.

بقي شيء، حيث من المعلوم لك توزّع حياة النبي محمّد(ع) بين مدينة مكّة إلى قرابة سن الخمسين من عمره الشريف، وبعدها قرابة اثنتي عشرة سنة في مدينة يثرب، وكلا المدينتين بعيدتان نسبياً عن البحر، وأهلهما بغالبيتهم الساحقة لا يتعاطون السفر في البحر، بل المروي عنهم كرههم للسفر في البحر "خوفاً من الغرق"، ورغم ذلك ترى العديد من الأمثلة القرآنية عن فضله تعالى علينا كبشر بمنحنا ما أهلّنا لصناعة السفن، حيث في ذلك الحين تعتبر السفن من أهم الاختراعات البشرية كإنجاز من تراكم الخبرات لاستخدام خصائص الطفو على الماء وقوّة الريح.

في عصرنا لا تزال السفن معتمدة لأنها من أرخص وسائل نقل البضائع، وأمّا انتقال الأشخاص فصار يعتمد أكثر على السيارات والقطارات والطائرات لأنها أسرع.

أقول لك هذا لتنتبه أن اختياره تعالى للكلام عن السفن هو اختيار لنموذج بارز عن اختراع بشري مهمّ جداً في حين نزول هذا القرآن، وجرى اختياره والتركيز عليه بغض النظر عن نفور المحيط الذي حول النبي محمّد(ع) منه، سواء أكانت السفن مما يتعاطون معه في حياتهم أم لم تكن، وسواء يحبون البحر أم يخافون منه، وسواء كانت حياتهم الاقتصادية مرتبطة به عبر نقل بضائعهم وانتقالهم بالسفن أم لم تكن، وفي حينها لم تكن... فكل ذلك لم يعره القرآن أي أهمية وركّز على السفن كوسيلة مهمة جداً، وكإنجاز بشري باستخدام بيئتهم لإنجاز شيء جديد.

لو نزل القرآن في عصرنا لتحدث أيضاً عن السيارات والقطارات والطائرات، لذا في فقرتنا القرآنية هذه وفي غيرها من الكلام عن السفن، عليك باعتبارها كلاماً عن نموذج، وعمّمه ليشمل بقية ما اخترعناه عبر التاريخ لتسهيل حياتنا.

(وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ{35})
{وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا}، الذين يصلهم شيء مميّز من أفعاله تعالى كالسفن وجريانها... يردّون بكلام لإقناع الآخرين بأنها ليست آيات، {مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ}، أي حيصة وأي حركة، لن تنفعهم أمام ما يحصل معهم.

عندها تسألهم: من أوبق الرياح؟ هل أنتم مسيطرون على مجريات حياتكم ولا قدرة إلهية فوق قدرتكم؟ وهل تؤمنون بقدرة الرياح وعجزكم عن فعل أي شيء؟ وهي مجرّد رياح لا قرار لها ولا إرادة، فهل قهرتكم الظروف المناخية وليس هناك إرادة إلهية وراءها؟ هل تحصل هكذا لوحدها من دون مسيطر عليها؟

سيجادلون محاولين إقناعك بأن المصيبة حصلت بأسبابها الطبيعية، وأنهم لم يلحظوا تدخّلاً إلهياً لا في المصيبة الحسنة ولا السيئة.

علماً أن التفكير بالنظام البيئي يريك بوضوح أنه نتاج تصميمه وخلقته تعالى، كآية دالّة عليه سبحانه الذي تقصّد جعلنا ضعفاء أمام الحوادث الطبيعية حتى نراه إلهاً قوياً قديراً مسيطراً...

جملة "ما لهم من محيص" مقصود منها أنه لو قرّر كل البشرية بجهودهم للتخلّص من المصائب لما قدروا، {مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ}، لا يوجد أي حركة تنفعهم للتخلّص من المصائب من العيار الثقيل إلا بتدخل إلهي.

(فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{36})
{فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ}، أي شيء تحصلون عليه، من رزق وسفن ومال وبيوت... {فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، فهي أشياء تنتفعون بها وتستفيدون منها هنا في الدنيا، {وَمَا عِنْدَ اللَّهِ}، والكلام عمّا في الحياة الآخرة، {خَيْرٌ}، موصوف بأنه حسن جيّد، وهذا يتقاطع مع معنى الأفضلية من متاع الدنيا، {وَأَبْقَى}، لا يفنى ولا يزول، {لِلَّذِينَ آمَنُوا}، للذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين الحقّ، {وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}، ويعتمدون على المسؤول عنهم من مستوى إلهي أنه يسيّر الأمور كما يجب لما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة، فهنا تسير أمورهم لما فيه مصلحتهم الإيمانية وفي الآخرة يغفر سبحانه لهم ويثيبهم ويدخلهم الجنّة...

ننتبه دائماً، أن الإيمان وحده لا يكفي لدخول الجنّة، ومن الآيات التالية سترى تكملة الإيمان بعمل الصالحات.

إذاً، تريدنا الآيات أن نتعلّق بما في الآخرة، وتريدنا أن نفهم أن ما في الدنيا زائل ولا يدوم وأصلاً في أحسن الظروف من الأمن والراحة والصحّة والرزق والمال... فهو متاع، ولم يصف القرآن ما في الجنّة أبداً بأنه متاع، لأن الفرق كبير

بين ما في الجنّة وما في الدنيا، حيث هنا الطعام لسدّ حاجة الجوع وإلا سنموت، وإذا تلذذت به فستتوقّف عن الأكل عندما تشعر بالتخمة، وتتضرّر من كثرة الأكل، وتعاني من مشاكل صحية من السمنة والسكريات والدهنيات وتصلّب الشرايين... وهنا أيضاً تعتني بصحّتك ولا تضمن بقاءها... وتعتني بالمال والأملاك وأمنك وسلامتك... أمّا في الآخرة فلا يوجد شيء من هذا كلّه، لأن الأكل فقط للذة الطعام ولا ضرر منه، والجسد في مواصفات الخلود من الصحّة الدائمة والحيوية والنشاط والشباب... وما حولك لا يفنى ولا يخرب ولن تخرج منه ولا لأي سبب... وكلّ هذا للذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكّلون.

بالنسبة لكلمة "خير" في استعمال القرآن فكثيراً ما نستنسب تفسيرها على معنى "أفضل"، وأحيانا يصدق هذا المعنى بالتبعية من فحوى الكلام، ولكن بعض الاستعمالات القرآنية لنفس الصياغة تريك أنه لم يقصد بكلمة خير أن تكون رديفاً لكلمة أفضل، وكمثال واضح عن ذلك ما ورد في الآية 16 من سورة العنكبوت "وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ"، فمرادفتها بأفضل في أمثال هذه الآية سيعطيك معانيَ غير دقيقة بل وغير مقبولة إلا إذا حملت معنى الأفضل على عموم المقابلة بين الأسوأ والأحسن، ولكن هذا ليس معناها بل هذا معنى كلمة خير، وكلمة "أفضل" في أشعار العرب قبل الإسلام محصورة بين الحسن والأحسن، فلو قلت إنّ الإيمان أفضل لكم فهذا يعني أن الكفر حسن والإيمان أحسن، لا، بل الإيمان خير لكم مما يعني ضمناً أن الكفر سوء لكم.

لم يستعمل القرآن كلمة أفضل بتاتاً، واستعمل التعبير بالخير وهو أوسع بالمعنى، لأنه يقابل الشرّ كما في الآية 11 من سورة النور "إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ..."، واستعملها بمعنى ما يقابل الحسن والآخر أحسن "خير" وليس شراً، كما ورد في الآية 271 من سورة البقرة "إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ..."، فإبداء الصدقة ليس سوءاً وإنما إخفاؤها أحسن، وهنا يمكن استعمال كلمة أفضل.

يعني لا ترادف "خير" بـ "أفضل"، لأنهما في بعض سياق الكلام يتقاطعان تطبيقياً حيث يكون ما تقارن بينهما كلاهما جيّدين، وعندها يصدق قول خير أو أفضل، ولكن حين يكون الكلام عمومياً يشمل أمرين كلاهما جيدان ويشمل أيضاً أمرين أحدهما جيد والآخر سيّئ، ويشمل الوصف مطلقاً بمقارنة الحسن مع مطلق الوصف بالحسن، فحتى لو لم يكن هناك طرف آخر للمقارنة والمقارنة مع مطلق الوصف، كوصفه تعالى بخير الرازقين وخير الحاكمين... فهو تعالى بالمقارنة مع وصف الحسن مطلقاً كرازق وحاكم فهو خير من توصّف بذلك، فكلمة أفضل ليست وصفاً صحيحاً لهذه الحالات وكلمة خير صحيحة.

(وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ{37})
الجنة لمن آمن وتوكّل على ربّه سبحانه و:

{وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ}، يبتعدون ولا يقربون، {كَبَائِرَ الْإِثْمِ}، والإثم هو العمل الذي تقوم به وأنت تعلم أنه سيّئ، وهناك نسبة متفاوتة في نوع وشدة السوء، وذكر القرآن من كبائر الإثم الخمر والميسر كما في الآية 219 من سورة البقرة "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ..."، وذكر القرآن ما توعّد عليه بالخلود في النار كقتل النفس التي حرّم الله تعالى والزنا كما في الآية 68 و 69 من سورة الفرقان "... وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا"، والربا كما في الآية 275 من سورة البقرة "الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا...فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"، وغيرها كالفرار من الزحف... فهذه من كبائر الإثم.

{وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ} يبتعدون لا يقربون، {الْفَوَاحِشَ}، وهي العمل الجنسي السيّئ كالزنا والشذوذ...

{وَإِذَا مَا غَضِبُوا}، إذا صاروا في حالة الاعتراض والرفض الشديد لفعل ما مع ردّة فعل سيّئة على الفاعل، {هُمْ يَغْفِرُونَ}، يتجاوزون ولا يتصرفّون على أساس الغضب بل يتخطّون ما سبّب غضبهم ولا يقفون عنده.

الآية تتحدّث بعملانية، ومثلها الآية 32 من سورة النجم "الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ..."، والآية 31 من سورة النساء "إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا"، لأننا كلّنا حتماً سنرتكب السيئات، ولو بالخطأ، وإذا لم يغفر سبحانه لنا فلن ينجو أحد من العقاب.

السيئات بالقياس إلى بعضها، منها صغير وآخر كبير، حيث صفعة بالكفّ على الخدّ لمن لا يستحقها، أذيّةٌ، وعليها عقاب، ولكنها تبقى أصغر من قتل نفس بريئة، ونظرة حرام أصغر من الزنا...

كثيراً ما تجد في الكتب كلاماً طويلاً جداً ومملاً أحياناً عن الكبائر والصغائر، والبعض من الكتّاب يريدونك أن لا تستهتر بالصغائر من الذنوب، فيكبّرونها، وبشكل ما هم معهم حقّ، ولكنهم لأجل ذلك يشطح معهم الكلام ونصير لا نميّز بين كبائر وصغائر الذنوب، ويضيع الموضوع في التصنيفات... علماً أن الموضوع كما طرحه القرآن واضح وسهل، فذو القلب السليم "بأساس فكر ونفسية سليمة" لن يفكّر بفعل السيئة معتمداً على الاستغفار منها فيما بعد، لأنه بالأساس يكره السيئات من شدة ما يراها قبيحة، أمّا نحن متوسّطو الإيمان ترانا نستهتر معتمدين على مغفرته تعالى للصغائر، وللكبائر، أو نعتمد على الشفاعة، أو نبرّر للسوء... فهذا مستوانا الإيماني النابع من نوعية سلامة قلبنا، وهذا إيمان على الحافّة، وفرص النجاة من النار لهذه الحالة قد تصل إلى أقل مما هو مطلوب، فنسقط فيها، وما عرضه علينا القرآن من تخويف من النار يقابله تحفيز وتشجيع على دخول جنّة خالدة، بالإيمان والعمل الصالح للحصول على الدرجات العالية... وهذا الكلام المبني على مختصر مفاهيم القرآن الذي هو أكثر من كافٍ لي ولك، ونهاية الأمر فشأنك وما تختار، والأثر لما نختاره مصير نهائي خالد إمّا في الجنّة وإمّا في النار...

واقع الحال العملاني أن بعض السيئات عيارها أثقل من الأخريات، حيث الشرك والزنا وأكل مال الأيتام وقتل النفس البريئة والزنا والهروب من القتال... أمور مدمّرة لكل الحسنات التي فعلناها فتحبط فاقدة قيمتها ويكون العقاب خلوداً في النار، والاعتداء على الآخرين بالكلام أو الضرب... ليس قليل الأهمية، ولكنه بالقياس إلى القتل فهو صغير، وقول القرآن "ضمناً" عن وصف بعض السيئات بالصغيرة "اللمم"، هل هو تشجيع لنا على الاستهتار بها؟ لا، بل هناك عقاب حتى على الصغائر، ولكن الواقع العملي أن تلك الصغائر هي المساحة التي تتحرّك ضمنها الشفاعة وتكفير الذنوب والعفو والمغفرة... في الآخرة.

هل هذا الكلام سيسبّب جرأتنا أو استهتارنا بما صنفناه كصغائر؟ نعم، لأننا من مستوى إيماني ضعيف، وهذا مستوانا ولم ينسَنا سبحانه من كلامه لأننا نحن الأكثرية من المؤمنين، ونحن ضعاف الإيمان نسقط هنا وهناك مئة مرّة في اليوم... فهل نقطع الأمل من رحمته تعالى؟ لا، ولأجل ذلك دائماً أمرنا تعالى بالاستغفار والعمل على فعل الخيرات التي تمحو السيئات... ليتحسّن مستوانا الإيماني، وفي النهاية فواقع الحال درجات في الجنّة، أقلّها لأمثالنا من ضعاف الإيمان، هذا إن انتهت حياتنا محاولين الالتزام بدينه تعالى ومبتعدين عن الكبائر، وإلا، فمصيرنا النار.

من المفيد هنا الانتباه لطريقة تفسيرنا لكلامه تعالى، حيث عادةً وغالباً سترى الكلام عن موضوع الإثم، فيه خلط للكلمات بطريقة غير دقيقة، حين يستعملون كلمة حرام بدل السيئة، والذنب والخطأ... بدل الإثم. وأحيانا يكون كلامهم صحيحاً ولكنه من خارج سياق الكلام القرآني، وأحيانا يكون كلامهم مشوّهاً للمفاهيم القرآنية، والسبب أنهم غالباً لم يلتزموا بدقة معاني الكلمات.

الإثم وصف لمن عليه تبعات ارتكاب عمل ما وهو يعلم بأن هذا العمل سيّئ ومتوقّع منه تركه.

الحرام عامّةً الممنوع باتاً جزماً عمّا متاح لك أو لك حصّة فيه، ويتدرج من شدّة المنع إلى الشدّة مع العقاب عليه.

الذنب عمل موصوف بأنه مخالفة للأوامر.

هذه المعاني مستخرجة من سياق استعمال القرآن لها واستئناساً بما في القواميس واستعمال العرب قديماً.

بناءً عليه سترى عمقاً في معنى الاستغفار والتوبة، فما معناهما إن لم تر ما فعلته سيّئاً لتستغفر أو تتوب منه؟ وإن بقيت تراه حسناً مع قناعتك بأنه تعالى يعاقب عليه، فهذه مشكلة تتعلّق بمدى سلامة قلبنا، وهي نفسها المشكلة التي تتعلّق بفهمنا لمعنى الإيمان بدينه تعالى ومعنى العمل الصالح.

سبحانه خلقنا بقابلية تمييز الخير من الشرّ، وعلى أساسها يحاسبنا ويجازينا، وافتراضاً خسر أحد منّا هذه القدرة من الخلقة، عندها على أي أساس سيتحاسب ويتجازى؟ كما ترى فهذا مختلف عن فقدان قدرة التمييز بعدما نحن شوّهنا سلامة قلبنا بإصرارنا على فعل ما نراه سيّئاً، لأنه بعد ذلك ينطبع قلبنا وبشكل ما نفقد قدرة التمييز بين الصالح والفاسد والخير والشرّ، وهذا ليس عذراً لنا كفاقدين لأهلية التكليف حتى لا يظلمنا تعالى بتعذيبنا، لا، بل الذين في هذه الحالة سينالون أعلى درجات العقاب.

بناءً عليه، لا يوجد حالة يقول فيها أحد ما يوم القيامة: لم أر هذا سيّئاً ولذلك فعلته ولا يحقّ لكم محاسبتي. وهذا القرآن مشحون بالآيات الصريحة التي تريك أنه لا تبرير ولا عذر ولا حجّة... مقبولة لأي فاعل لأي سوء مهما كان نوعه.

لا تخلط بين حكمه تعالى هناك وبين اختلافنا نحن هنا، على أساس أن كل واحد منّا مقتنع بحسن تديّنه بالرغم من اختلافه مع الآخرين، ومُتّهِماً الآخرين بأنهم على ضلال، وهم يتهمونه بالضلال أيضاً، وأنت ذات نفسك في مسألة ما لا تعلم الخير من الشرّ فيها...

دعك من هذا وارجع للأساس وليبقى نصب عينيك، لأننا أصلاً مزروع فينا كلّنا قابلية سليمة لتمييز الخير من الشرّ، ويلفت سبحانه انتباهنا لهذا في العديد من الآيات ومنها الآية الثالثة من سورة الإنسان "إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا"، ونحن بدأنا بتخريب وضوح الرؤية بسبب قراراتنا ومواقفنا وأفعالنا... السيئة، حتى تشوّهت فينا الحكمة، ووصلنا إلى حيث كل واحد منّا مقتنع بأنه على حقّ وأن الآخرين على ضلال، ووصلنا إلى حيث في مسألة ما لم نعد نعلم الخير من الشرّ فيها.

هل نحن معذورون ولن يعذّبنا سبحانه؟ لا، هذا ليس عذراً، بل هذا هو معنى كلام القرآن واصفاً لهذه الحالات بمرض القلب والصمم والعمى... وصولاً إلى حالة الشبه مع الأنعام "البهائم" بل أضلّ من البهائم، فهل هؤلاء معذورون؟ لا، ولا نحن المدّعون للإيمان معذورون، وهذه حالة الذين سبقونا من أهل الكتاب وذمّهم القرآن لاختلافاتهم عن كلامه تعالى، وتوعدهم القرآن بالعذاب، وللأسف لم نفهم تلك الآيات إلا كإهانات لليهود وللمسيحيين، بدلاً من فهمها كتحذير عمومي كي لا نقع فيها، فوقعنا فيها وصار بإمكانك تفسير تلك الإهانات لمن سبقنا من أهل الكتاب علينا.

الحلّ قرآنياً وبحسب معاني كلماته بالعربية بدلاً من الاصطلاحات التي اخترعوها، هو بالاستغفار والتوبة، وأوّل خطوة هي الاعتراف بسوء ما تعلم سوءه، وتستغفر منه بلسانك وأنت عالم بسوئه ولكنك متعلّق به ولا تقدر على تركه، فأنت استغفرت بلسانك ولكنك لم تتب، ولكنك بمجرد اعترافك بسوء ما تفعله على الأقل وضعت رجلك على مسار فيه أمل.

سأقول لك شيئاً لم يقله القرآن ولكنه مقبول قرآنياً، فلا تنظر لمجموع أفعالك السيئة كلّها متمنياً التخلّص منها كلّها دفعة واحدة، لأن هذا يحتاج إلى صدمة قد لا تتوفّر لك، فابدأ بأتفه وأسهل ما يمكنك التوقّف عنه من سوء، وبعد ترسّخ هذا القرار، سترى أنك بدأت ترى أموراً أخرى سيئة لم تكن تراها سيئة من قبل، لأن قلبك "أساس فكرك ونفسيتك" بدأ بالتعافي...

الآيات التي ذكرتها لك منذ قليل والواردة في سور مختلفة عن موضوعنا هذا، سترى فيها واقعية كلامه تعالى معنا عالماً بأن غالبيتنا بقلوب مريضة، وأبرزها الآية 31 من سورة النساء "إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا"، هذه الآية لا تشجعنا على التساهل والتهاون والاستهتار بالصغائر، واجتناب الكبائر فقط، بل هي عاكسة لواقع حال غالبيتنا، ومشجعة لنا على تجنّب الكبائر ليكون أول همّنا الابتعاد عنها، أو التخلّص منها، وإلا فالنهاية حتمية خلوداً في النار، وهذه أكبر المصائب.

(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ{38})

{وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ}، الذين دعاهم المسؤول عنهم من مستوى إلهي لتوحيده وولايته وطاعة رسوله وكتابه... استجابوا وكانت ردّة فعلهم تحقيق ما أمرهم به تعالى، {وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ}، وفعّلوا ولم يعطّلوا التوجّه والإقبال لربهم سبحانه، والصلاة مصطلح ديني يشير للحركات والكلمات التي تعبّر عن إيماننا وشكرنا وحمدنا... وتقرّبنا منه تعالى، والتي نسميها بالصلوات الخمس الواجبة.

{وَأَمْرُهُمْ}، الأمور والأشياء التي يريدونها أن تحصل وأن يقوموا بها، {شُورَىٰ بَيْنَهُمْ}، يتشاورون فيها حيث لا يفرضون آراءهم على بعضهم البعض بل يتحاورون ليختاروا أفضل رأي يقدمه بقية المؤمنين.

نتذكّر من التاريخ كما نقله ابن إسحاق، أنّه قبل واقعة بدر، عسكر النبي محمّد(ع) بالمسلمين، جاءه أحد المسلمين وهو الحباب بن المنذر وسأله إن كان المكوث هنا وانتظار جنود المشركين هو أمر من الله تعالى أم هو "الرأي والحرب والمكيدة " تكتيك عسكري؟ أجابه النبي(ع) لا، ليس أمراً من السماء معسكرنا هنا، عندها اقترح الحبّاب تغيير المكان إلى مكان أفضل من الناحية العسكرية... قال الرسول(ع): أشرت بالرأي. كما ترى أنَّ فِعْلَ أشرت من الشورى، والنبي(ع) يأخذ بالمشورة، وهكذا يأمرنا تعالى أن نتشاور لنصل إلى أفضل رأي.

{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ}، مِنَ الذي صار معهم ليسدّوا به حاجاتهم ورغباتهم، من الطعام والمال... {يُنفِقُونَ}، يصرفونه، ومن البديهي أن الكلام عن إعطائه للمحتاجين وليس عن إنفاقه على أنفسهم.

لاحظ اختيار الآية لأمور شخصية خاصّة بكل واحد منّا، كالصلاة التي لا يبدو لها علاقة مباشرة بالآخرين، واختارت أمره تعالى لنا بالشورى، وهي من أبرز نماذج اختيار أفضل القرارات في الحكومة بما يمسّ عموم شؤون الناس.

النبي محمد (ع) أجرى الشورى في عامّة أموره كما وصلنا من تاريخه، وبعض الأحيان كان (ع) يوسّع الاستشارات، وأحيانا يستشير فقط من يثق بهم في الموضوع المحدّد... وأحيانا يرجع عن قراره إذا جاءه رأي صائب، وكمثال عن ذلك ما يروونه في الكتب عن رجلين طلبا من النبي (ع) منحهما أرضا قالا إنّها لا تصلح لأي شيء... منحها (ع) لهما، وسمع بذلك الصحابي عمر وهو يعلم أن تلك الأرض يستخرج منها الناس ملحا للطعام، أرجعهما إلى النبي (ع) وشرح له الوضع، عندها تراجع (ع) عن قراره... ومثلها حفر الخندق حول المدينة بمشورة من الصحابي سلمان الفارسي لمنع تقدم جيش الكفار في معركة الخندق... ومثلها العديد من الحوادث...

أنت تعلم مدى أهمية الشورى في النظم السياسية والتنفيذية الحكومية، نزولا إلى شؤونٍ على نطاق صغيرٍ كقراراتنا العائلية في بيوتنا، وتعلم من التاريخ الفرق الهائل في حياة الناس بين الأنظمة المتمحورة حول شخص أو بضعة أشخاص أو حزب... وبين الأنظمة التي تعتمد الشورى المفتوحة التي توصل الرجل المناسب إلى المنصب المناسب...

للأسف، اختفت شورى الرسول(ع) من بعد الخليفة الرابع، ومن قبلها كان المسجد مجلس شورى عامّاً لكل المسلمين، ولا يمنعون أي واحد منهم من الإدلاء برأيه إذا كانت المسألة عامّة، ولم يكن عند الرسول مستشارون محدّدون لكل أنواع الأمور... حيث في مختلف الأمور كان يعرضها علنا ويرى الردود ممن لهم علاقة بالموضوع، وبعدها يحسم رأيه اعتماداً على آرائهم... إلى أن صارت "الخلافة" الإسلامية ملكية ديكتاتورية محصورة بشخص حوله مستشارون هو يحدّد المستشارين ولا يسمع إلا لرأيهم... وصارت طبقية مانعة من مشاركة عموم الناس فيما سيصير حكومة عليهم من قرارات الدولة...

يكفي هذا المقدار من الكلام عن الشورى، عَلِمْنَا أن نواتها أمرٌ إلهي مادح للذين ينظمون أمورهم على أساسها، تاركاً سبحانه المساحة لنا بما يناسبنا لتحديد آليات عملها المناسبة لأوضاعنا وثقافاتنا...

لا توجد نظرية قرآنية سياسية تحدّد آليات نظم الحكومة، سواء أكان ملكيّاً أو رئاسيّاً بلا انتهاء لمدة الرئاسة أو برلمانيّاً أو انتخاب الشعب مباشرة للرئيس أو... لأن الأساس القرآني هو تسيير أمور الناس بالصلاح، بغض النظر عن أي نظام يحقّق ذلك.

ثانياً، لأن ظروف المجتمعات تختلف، هناك مجتمعات واعية بالمجمل وبإمكان نسبة كبيرة من أفرادها تحديد خيرها من شرّها... هذه المجتمعات تتحمّل نظاماً "ديموقراطياً" ينتخب فيه الشعب مسؤوليه... وهناك مجتمعات غالبية أفرادها فاقدةٌ لأهلية فهم القرارات على مستوى الدولة بل حتى على مستوى بلدة صغيرة، وهذه المجتمعات يكون تطبيق نظام اختيارها للمسؤولين بنظام ديموقراطيّ، برلمانيّ، مجلس شعب، مجلس أعيان... لن يكون إلّا نسخة محدّثة من الإقطاعية السياسية العمياء التي تنتخب الأكثر دعاية، أو الأقوى نفوذاً...

في وجود شخص فيه أهلية الرئاسة من حسن الرأي وحسن الإدارة، لا مانع دينيٌّ من نظام رئاسي طويل أو قصير الأمد، وفي غيابه أو في توافر مرشحين آخرين، أيضاً لا مانع من تداول السلطة بعد مدّة قصيرة أو طويلة، والآية هنا

"مادحة" للشورى، على أنها من أنسب نظم الحكم عموماً، وأمّا اختيار الآلية التطبيقية لاعتمادها، فمتروكة كمرونة وهامش لنا لنحدّد الأنسب بحسب اختلاف الأزمنة والأمكنة...

مشكلة البحث في هكذا مواضيع أن بعضنا مصرٌّ على كون القرآن حاوياً لكل ما نريده وبالتفصيل، ورافضاً لرؤية المرونة والهامش الذي تركه تعالى لنا عن قصد بما يناسب مختلف ظروفنا المتغيرة، وبدل عرض الباحث المسلم نفسه كطارح لنظم حكومية يراها مناسبة، تراه يطرح كلامه على أنّه نظرية إسلامية قرآنية أو من السنّة النبوية، وهكذا يصير كلامه دينيّاً في مقابل كلام الآخرين، عِلماً أنه حاول تقييد نفسه بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وللصحابة... في مسألة تركها تعالى أصلاً مرنةً مع هامش لنتحرّك بما يناسب مختلف الظروف.

هي نفس التفاصيل التي يريدونها وبقوّة أن تكون موجودة في القرآن، ويخترعون لآياته معانيَ تؤيد ما يريدونه، كآياتنا هنا بمدحها للشورى، فهي نفسها التي عنون لها تعالى بالعناوين العامة وترك التفاصيل كهامش مرونة لنا، وترانا نصرّ على تقييد أنفسنا بينما سبحانه لم يقيّدنا إلا بالعناوين الرئيسيّة التي لا يختلف فيها اثنان لوضوح صلاح ما يأمر به تعالى، لأن الأساس في كل الموضوع هو تسيير أمور الناس بالصلاح بغض النظر عن الأساليب المتعددة الممكنة والمناسبة للوصول إلى الصلاح.

لنكن كمسلمين صريحين مع أنفسنا، فما معنى إصرارنا على معرفتنا بكل شيء لأننا لدينا القرآن كمصدر إلهي؟ نكذب على أنفسنا ونرفض قبول ما يقوله الآخرون مما هو حقّ أو مقبول، ولم نكن نعرفه، ونقولبه من جديد بطريقة سخيفة مقحمين فيه آيات وأحاديث حتى يصير إسلاميّاً! بينما هم تعرّفوا على شيء جيّد لم نكن نعرفه ولم نسمع به من قبل ولم يذكره القرآن صراحة ولا تلميحاً ولا حتى خطر على بال الرسول(ع) والصحابة! فأين المشكلة في ذلك؟

لماذا لا نقبل من الآخرين اقتراح نظام الحكم الأنسب لجماعة ما، طالما النظام مبنيٌّ على القاعدة القرآنية بصلاح إدارة شؤون الناس، ونقبل من الآخرين تفوقهم علينا بالطب والهندسة...!

المشكلة أننا بانتسابنا للقرآن كمجموعة تميّزت عن الآخرين بدين، نرى أنفسنا مميزين، مميزين بدين الحقّ، مميزين بأفضل رسول... مميزين بدخول الجنّة لوحدنا... مميزين بلغتنا وبقرآننا وبقديسينا... وبالتالي يصير كل ما لدينا من عقائد وتشريعات وتراث، مميّزاً وأفضلَ مما لدى الآخرين، ونرفض الاعتراف للآخرين بأنهم أفضل منّا في شيء ما، وإذا اضطررنا لاستعماله نحوّره ليصير إسلاميّاً، بل نجعله إسلاميّاً من الأساس والآخرون سرقوه!

لم نفهم قرآنه سبحانه الذي ركّز على الأساسيات تاركاً التفاصيل كهامش مرونة لنا، كرّرت لك جملة "هامش مرونة" حتى أنّي أنا ذات نفسي مللت من تكرارها، ولكن ولو لبضع دقائق كررتها وكررتها حتى ترسخ عندك، فاعلم أنها ستكون نقلة نوعية في فهمنا للهداية المعروضة علينا في كلامه تعالى.

ليس عيباً علينا كمسلمين التعلّم من الآخرين سياسيّاً واقتصاديّاً وقانونيّاً... فهو مثله مثل التعلّم من الآخرين الطبّ والهندسة والكيمياء والصيدلة... وللأسف فحتى هذه البديهة تجد من يرفضها مصرّاً على وجود وصفات طبيّةٍ في القرآن لكل أنواع الأمراض! ويدّعي أن كل قواعد الفيزياء مذكورة في القرآن!

ليس عيباً التعلّم من الآخرين فقه القانون والتشريعات، مع الالتزام بالأساسيات القليلة جدّاً التي ذكرها تعالى من فساد وصلاح، أساساً سبحانه خاطب في قرآنه كل الناس لتقويم ما اشتبه علينا معرفته من خير وشرّ بسبب فساد قلوبنا، ومن يظنّ أن قلوب المسلمين أحسن حالاً بكثير من الآخرين، فهو واهم، والدليل واضح وضوح الشمس في اختلاف فقهاء المسلمين بين بعضهم، وصولاً إلى هذيان بعضهم في الفقه والسياسة متمتّعاً بهالة قداسة عالم الدين ودعاية أتباعٍ له أغبياءَ مثله أو مريضين قلبيّاً بنفس أمراضه الشريرة والإجرامية... وواضح وضوح الشمس في الفرق بين حكوماتنا الفاسدة المستهترة بأرواح وأموال وأوقات وصحّة وأمن... مواطنيها، ومستهترة بخيرات بلادها... وبين دول ليست إسلامية ولا دينية، ولكنها تحضّرت حتى صار المسؤول الحكومي من أعلى الهرم إلى أسفله، مجرّدَ موظّف بمنصب رئيس ووزير ونائب... يقوم بمهامه على أكمل وجه وإلا لاختاروا غيره.

هناك مشكلة مرتبطة بالكلام عن الشورى ونظم الحكم الإسلاميّة، على ما يبدو أنَّ غالبية المسلمين مصرّون على أن الحكومة على الناس تصير بتعيين إلهي للحاكم أو الملك أو الرئيس لإدارة الشؤون العامة للناس "خليفة الرسول"،

ومنهم الداعون للإمامة ومنهم الناسبون للحكام صفاتٍ ترتبط به تعالى كالحاكم بأمر الله وظل الله على الأرض، والغالبية عموماً يبنون أفكارهم على عنوان: خليفة الرسول محمّد(ع). وكأن وظيفة الرسول ووصفه بالنبوة تتضمّن أنه حاكم مدير للشؤون العامة للناس! فيصير الخليفة أو الإمام أو الحاكم معتمداً في شرعية منصبه على خلافته للرسول الإلهي الذي كان حاكماً!

هذه ترّهاتٌ ألصقوا لها تفاسير مزاجيّةً لبعض آيات القرآن لتبرير أفكارهم المسبقة التي أسقطوها على القرآن.

مختصر القول الواضح من القرآن والتاريخ، أنَّ النبي والرسول وظيفتهما بالدرجة الأولى توصيل كلامه تعالى للناس، وهم كأشخاص مؤمنين تكليفهم مساوٍ لبقية المؤمنين في محاولة تطبيق شرعه تعالى، وتكليفهم التصدّي والمساعدة في الشؤون العامة للحكومة إذا كانت هناك حاجةٌ لذلك.

أمّا حالة الرسول محمّد(ع) في حكومته على مجتمع المسلمين في زمنه، فإنّما هي تجربة خاضها (ع) "بنجاح منقطع النظير" بسبب فراغ الحكومة وغياب أي شكل رسمي لها، مع الحاجة لمركزية قرار في وجه ظروف في غاية الصعوبة من محيط معادٍ محارب... فدفعه (ع) لتولّيها تمحور العديدين حوله مستأنسين برجل فيه صفات أهلّته ليجعله تعالى نبيّاً رسولاً.

حكومة النبي محمّد(ع) ليست بتعيين إلهيّ له كحاكم، بل بتوجّه الظروف نحو قاعدة مؤمنة أذعنت بتصدّيه (ع) للحكومة لتطبيق كلامه تعالى، وذلك بسبب غياب أي بديل آخر لإدارة الشؤون العامة للمسلمين.

شؤون الدولة لها مفردات كثيرة وتحتاج لخبرات وطاقات بشريّةٍ لإدارتها ولاختيار النظم الأنسب، وما فعله الرسول(ع) بشؤون الحكومة، ناتج عمّا رآه الأنسب والقابل للتطبيق، وحتى لو كان لديه (ع) أفكار عن حكومة أنسب لزمنه عبر تعيين وزراء وانتخاب نوّابٍ وفصل السلطة القضائية عن التنفيذية والتشريعية... فكل هذا الكلام في الهواء لأن عقلية الناس في حينها لن تتقبّل ذلك.

أدار الرسول(ع) الأمور بطريقة رائعة حتى استطاع بناء نواة دولة في محيط عدائي وبعيد كل البعد عن أجواء الحكومة، وكل ذلك فعله (ع) ضمن الخطوط المسموح بها إلهيّاً، حيث لم يعتدِ، ولم يأمر بقتل بريء، واستمال الوجهاء المعارضين للصلاح بدلاً من تصفيتهم "المؤلفة قلوبهم"، لا للحفاظ على ملكه، بل لدفع شرّهم عن الناس.

الكلام يطول في العناوين والتفاصيل، ومختصره أن الرسول محمّد(ع) كان شخصيّةً فريدة بين الرسل، وبين القادة عبر التاريخ، وتجربته في الحكم واضحة النجاح لأنها بنت نواة دولة من الصفر في أصعب الظروف، والاستفادة منها لا تكون عبر إعادة تمثيلها، فلتلك الحكومة زمانها وعقلية أهلها وتحدياتها الخاصة، ولبقية المجتمعات عبر التاريخ خصائصها التي تحتاج لنظام حكومة يناسبها، بشرط المشورة، لأنه لا يوجد بشري عليم بكل الشؤون التي تمس حياة الناس، حيث هناك الشؤون العسكرية والأمنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والقضائية و... وتحتاج للمشورة من متخصصين أو أصحاب رأي ينقدح ويكون الأصلح.

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ{39})

{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ}، بَغَى عليهم أحد ما، قام أحد ما بعمل مباشر يقصدهم به، وسياق الكلام عن تعدي أحدهم عليهم بسوء ما، {هُمْ يَنْتَصِرُونَ}، هم يعملون على تحقيق ما يريدونه فلا يخنعون تحت الباغي بل يردّون بغيه بما يناسب، بالكلام المضاد لتصويبه أو بتنحيته عن السلطة والتشريع... أو بالحرب العسكرية أو الاقتصادية... فهم لا يبغون ولكن إذا حصل عليهم بغي فهم لا يعيشون معه بل يضادونه حتى الانتصار عليه.

البغي عامّ وليس حصريّاً للاعتداء الجسدي، أو بالقتال، فهناك بغي تسلّم السلطة قهراً وغصباً، وهناك بغي بتشريعات ظالمة... والمؤمنون الحقيقيون يرفضون كل أنواع البغي، ولا يسكتون عنه، بل ينتصرون، ويعملون على تحقيق ما يريدونه من حقّ.

ألفت انتباهك لما يقوله البعض عن تصنيفهم للأديان أنّها محصورة بالعلاقة بين العبد وربّه سبحانه، فهذا جانب من دينه تعالى، ولكن لا معنى للدين الإلهي إن لم يكن منظّماً "بالعناوين" لعموم شؤون حياتنا الاجتماعية والسياسية

والاقتصادية، حيث يتحدّث البعض عن أديان مسالمة، ويصف دين الإسلام بأنّه يدعو للعنف... حتى صار الكثير من المؤمنين يعيشون عقدة الدفاع عن الإسلام ليروّجوا أنّه دين محبّة... فما هي الأمور العنيفة التي يأمر بها الإسلام ونستحي منها؟ وهل قتال الأعداء المقاتلين معيب؟ أم معاقبة الظالمين والمفسدين معيب؟...

إن الخلط بين الممارسات الإجرامية لبعض المسلمين وبين الدين الإلهي "القرآني" لدمجهما مع بعض ليصير تشريع وسلوك البعض الإجرامي عنواناً للدين الإسلامي، فهذا ليس مبرّراً لأحد حتى يهجم على دينه تعالى "الإسلامي" الواضح أمام الجميع من هذا القرآن أنّه يأمر بالعدل والإحسان... وقتال الأعداء بشروط مذكورة في القرآن بوضوح.

الذين يروّجون أنَّ المسيحية أو اليهودية دين التسامح فاصلين بذلك بين الدين المسيحي واليهودي وبين الإجرام الذي يرتكبه المسيحيون واليهود، وفي نفس الوقت يدمجون جرائم المسلمين مع دين الإسلام "دينه تعالى"، وهم يعلمون ماذا يفعلون، وهم يعلمون أنّهم يتعامون عن قصد عن الجرائم التي ارتكبها منتمون لأديانهم وباسم تديّنهم... ولا يزالون... فهؤلاء لهم حساب عسير عنده تعالى، لأن هذا دين إلهي وليس للمسلمين، وتشويهه تشويه لدينه تعالى، والمسلمون المشوّهون لدينه تعالى وفي نفس الوقت يدّعون تطبيقهم لدينه، فهؤلاء منافقون وفاسقون أقرب للكفر منهم للإيمان ولهم حساب عسير.

(وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ{40})

{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}، من قام بعمل سيّء معك أو مع مجتمعك فلا يحقّ لك الردّ عليه بعمل سيّء أكبر وأكثر مما فعله معك، بل يحق لك الردّ بالمثل بالتمام بدون زيادة، {فَمَنْ عَفَا}، مَنْ مرّ عن السيئة ولم يتوقّف عندها ليطالب بحقّه، {وَأَصْلَحَ}، وقام بإصلاح ما بينه وبين الباغي المسيء، على معنى مفهوم الآية 34 من سورة فصلت {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}، فلم يقابل السيّئة بالسيئة ولم يُعَادِ من أساء له بل أصلح ما بينه وبين المسيء من نفور أو كره أو عداء... {فَأَجْرُهُ}، مَا سيحصل عليه من عفوه وإصلاحه، {عَلَى اللَّهِ}، فهو سبحانه يخبرنا بأنّه حدّد ما يستحقّه العافون المصلحون، وتعلم أن الأجر الإلهي من مستوى إلهي، من مغفرة وثواب، ليطمع فيه المؤمن.

للأسف، أدبيات المنتمين لدينه تعالى على المستوى النظري متماشية مع كلامه تعالى بالعفو والتسامح والمحبة... ولكن خلال التطبيق نحن أبعد ما يكون عن العفو عن الآخرين، حيث نراكم الأضغان والكره ولا ننسى سوء ما فعلوه حتى لو تغيّر سلوكهم... بل وننصح بعضنا في هكذا مواقف أن لا نسامح ولا نتغاضى وأن نردّ السوء بأكبر منه، فمن شتمك فاضربه! ومن ضربك فاقتله! ومن حاول قتلك أو قتل عزيزاً عليك فعذّبه قبل قتله! وكما ترى فهذه مخالفة لكلامه تعالى الذي يجيز لنا على الأكثر بالردّ على سيئة بمثلها لا بأكبر أو أكثر منها، ويحفزّنا على العفو والإصلاح، ويعدنا بالأجر عليه منه تعالى.

من عموم مفاهيم القرآن ترى أن فكرنا ونفسيتنا هما اللّذان سَنُحَاسَبُ عليهما في الآخرة وهما حاكمان على أعمالنا، فما معنى مغفرته تعالى وشفاعته لك؟ هل هو إلا أنك فاعل لسوء ولكن فكرك ونفسيتك فيهما ما يساعد على نيلك للعفو؟ هل أنت لئيم صلب عنيد... مصرٌّ بفكرك ونفسيتك أنك لست مسيئاً، وستنال المغفرة؟ لا، ومن هنا من الدنيا تذهب للآخرة بقلب "بأساس وفكر ونفسية" سليم أو فيه سلامة بدرجة مقبولة حتى تنال العفو، ولا معنى لصيران فكرك ونفسيتك في الآخرة سليمين، فهناك فقط الحساب على ما كنت عليه في الدنيا، لأنه في الآخرة سيؤمن الكافر ويوحدّه تعالى يقيناً، هَلْ سينجّيه إيمانه هذا؟ لا، ونفس الشيء إذا لم تصل إلى الآخرة بقلب سليم أو فيه سلامة مقبولة، فلن يعفو سبحانه عنك.

من هنا تعفو وتصفح، وإلا ستصل إلى الآخرة حاقداً كارهاً مبغضاً... للآخرين الذين أساؤوا إليك، وأنت لديك مجموعة من الناس تكرهك وتبغضك لأنك كنت أسأت لهم، وسيطالبونك في الآخرة بحقّهم، وأنت ستطلب منهم العفو! وإن لم يَعْفُ الناس عنك فستتعذّب...

إن وصلت إلى الآخرة وكنت عفوت عن الناس في الدنيا، عندها سبحانه سيعفو عنك كما تقرأ في الآية 22 من سورة النور {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}، وسيشفع سبحانه لك جاعلاً الآخرين يعفون عمّا فعلته لهم من سوء.

أمّا إن وصلت إلى الآخرة ولم تَعْفُ عن الآخرين، فبأي عين ستطلب من الآخرين العفو عنك؟ وبأي عين ستطلب منه تعالى العفو عنك؟

هذا كلّه ضمناً مشمول بالآيتين 88 و 89 من سورة الشعراء {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}.

تلاحظ أنَّ الآية السابقة تحدّثت عن البغي والانتصار عليه، مما يعني أن الباغي قاصد لعموم فرض أي سوء عليك من حربك أو لأذيتك ماليّاً أو نفسيّاً أو... ولن يتوقّف عن ذلك حتى انتصار بغيه، وهنا الكلام عن الذي بغى بالإساءة إليك أو إلى مجتمعك، وكانت إساءته من النوع الذي يمكنك العفو عنه وإصلاح الفساد، فهي مثلاً من نوع تكالب الناس على الدنيا بأمور يمكنك التغاضي عنها، فلا تردّ على بغيه بإساءة أكبر، وَاعْفُ عنه وأصلح بعملك ولا تكن مثله ترتكب السوء، وعلى كلّ حال فهو ظالم، وإنّه تعالى لا يحبّ الظالمين، فتقييمه سبحانه سلبي سيّء للذين ليسوا عادلين ولا منصفين، فلا تكن أنت ظالماً.

كثيراً ما نقع في هذا الخطأ، وننسى بأنّنا منتمون لدينه تعالى، ويأخذنا العنفوان والغضب، حتى لا يبقى فرق بين وصف تصرفاتنا وبين وصف تصرفات الذي آذانا، فأولئك ظالمون، وإن أخذت حقّك بالعدل وبالضبط أو عفوت، فهذا فرق بينك وبينهم، أمّا أن تظلمهم كما ظلموك، فما الفرق بينك وبينهم؟ وما معنى إيمانك وانتسابك لدينه تعالى؟

بهذا التفسير البسيط ترى فرقاً بين ما قيل في بعض الكتب من تعامل صلب مع الآيات، ليجعلها بلا مرونة، وكأن حالات تعارض مصالح المؤمنين مع الآخرين دائماً حدّيّةٌ وحربيّةٌ قتاليّةٌ، لا، فالخلافات الناشئة من بغي الآخرين لها مستويات مختلفة، وبعضها يجب ردّه بالانتصار بالعمل على تغيير الواقع، وبعضه يتحمّل العفو عنه.

كمثال عن بغي من غير المسموح السكوت عنه بل يجب الانتصار عليه، هو حكومة الفاسقين والمنافقين لمجتمع مؤمن، فممنوع موالاتهم ويجب تنحيتهم... وكمثال عمّا يمكن العفو عنه، هو عموم أي خلاف أثره محصور جدّاً، كخلاف على موقف سيارة والخلافات العائلية... وهكذا وصولاً إلى حالة سوء من العيار الثقيل ولكن أثرها محصور بين أفراد كالعفو عن قاتل يطلب العفو كما ورد في الآية 178 من سورة البقرة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، إلى هذا المستوى يصل أمره تعالى لنا بالعفو حتى عمّن قتل عزيزاً علينا وطلب منّا العفو.

(وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ{41})
{وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ}، من طالب بحقّه من الذي أساء له، أخذ حقّه ممن لم يكن محقّاً منصفاً معه، {فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ}، لا مسلك لك عليهم لتمنعهم، فلا يسمح لك تعالى بالوقوف في وجهه لتمنعه من أخذ حقّه، أو أن تلومه أو تعاتبه... ويأمرك سبحانه أن لا تعتبره مسيئاً ولا بأي شكل.

العفو والإصلاح أفضل إن كان هناك مجال لذلك، ولكن أخذ الحقّ حقٌّ أعطاه الله تعالى للمظلوم، فلا تعارضه أو تقف في طريقه لتمنعه من ذلك ولتفرض عليه العفو عمّن ظلمه.

في نظرة الله تعالى يبقى العمل السيّء توصيفه سيّئاً، فمن بدأ بالعمل السيّء فهذا واضح أنه سيّء، ومن ردّ عليه بعمل سيّء فإن النظرة الإلهية للعمل السيّء لا تتغيّر، تقييم العمل السيّء لا يتغيّر، ولكنه تعالى سمح بالردّ على الظلم والبغي. هذه قاعدة إلهية عامة، فالسيئة سيئة ولا يتغير وصفها، حتى لو عن غير قصد قام الرسول بعمل كانت نتيجته سيّئة، وحتى لو كان يقصد الخير ولكن بالخطأ حصل سوء، فالتصنيف الإلهي للسوء لا يتغير، لأن الخير والشرّ معيارهما ثابت ويتأسسان من صفاته تعالى ذي الأسماء الحسنى وخالق كل شيء...

أخبرنا سبحانه مراراً بقراره بالعفو وغفران السوء من المؤمنين إذا كان غير مقصود، ويغفره تعالى إن استغفروا منه، وهنا الآيات تخبرنا أن من يطالب بحقّه ويضرب الذي ضربه، أو يقلع عين الذي قلع عينه... فهذا العمل يبقى تصنيفه "سيّئاً" ولكنه تعالى سمح له به مبرّراً ذلك بأخذ حقّه، وينبهنا بأنه ولا بأي طريقة يحقّ لنا الوقوف في طريق من قرّر

أخذ حقّه، أمّا إن كان العفو فيه مصلحة عامّة وله مجال للتطبيق، فنحن مأمورون بإصلاح ذات البين، فنحاول إرضاء صاحب الحقّ، ولكن إن رفض، فلا يحقّ لنا حتى لومه أو معاتبته...

(إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ{42})
{إِنَّمَا السَّبِيلُ}، لكم مسلك فقط، فهناك سماح منه تعالى للوقوف بوجه أو الاعتراض، {عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ}، مَنْ لم يعامل الناس بالحق والإنصاف فهذا أعطانا سبحانه عليه سبيلاً، سامحاً سبحانه لنا بالتعامل معه لردّ ظلمه ومنعه من الظلم ومعاقبته.

{وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ}، ولكم سبيل على الذين يقومون بأعمال يقصدون منها السوء وليسوا منصفين ولا محقّين، وهنا الصورة أشمل وأكبر عن عمل عدواني حربي عسكري اقتصادي أمني صحي... على جماعة من الناس، مَنْ قام بعمل عدواني ضدّ الذين بغوا عليه، فهذا معه حق ولا سبيل عليه، فلا يحقّ لنا الوقوف بوجهه أو منعه أو عرقلته أو لومه لأنه سبحانه جعل له سبيلاً ليفعل ذلك، ومفهوم عموم القرآن يشير لوجوب قيامنا ضد الحاكم الظالم، فهو من مصاديق البغاة في الأرض بغير حق...

{أُولَٰئِكَ}، الظالمون الباغون بغير حقّ، {لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، لهم ضرر لا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه.

لاحظ كيف أبقت الآية تصنيف ووصف العمل السيّء بأنه بغيُ سوءٍ، سواء أكان بحقّ أم بغير حقّ، فهناك بغي بغير حقّ، وهناك بغي بالحقّ، وهي الحالة التي تردّ فيها على بغي المعتدي.

هذا الاستمرار لتوصيف الأمور السيئة بأنها تبقى موصوفة بالسوء مهما اختلفت الظروف، هو مبدأ إلهي منتشر في كل كلامه تعالى، وتراه جليّاً في الآية 11 من سورة الرعد {... وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ}، فحتى عقاب الكافرين، العذاب الذي يستحقونه بسبب كفرهم، هو عمل سيّء، ولا يتنافى ذلك مع وصفه تعالى بالحميد، لأن عقاب الظالمين عمل حميد، عمل حقّ جيّد. نفس النظرة للمؤمن الذي اضطر لأذية من اعتدى عليه، فهذا عمل سيّء، ولكنه مسموح به ولا عقاب عليه لأنه تعالى سمح بذلك وتبريره أخذ الحقّ... وهو تقليد لتطبيقه تعالى للعدل حين يعذّب المجرمين.

(وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ{43})
{وَلَمَن صَبَرَ}، مَنْ بقي يتصرّف عن وعي ودراسة ولم تفلت أعصابه فتصرّف بعقلانية، {وَغَفَرَ}، وسامح من أساء إليه، {إِنَّ ذَٰلِكَ}، الصبر والغفران، {لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}، يوصف بأنه أمر في غاية الشدّة في قرار نهائي، وليس الصبر والمغفرة ضعفاً أو وهناً أو قلّة قيمة، بل هما من الأمور الشديدة الصعوبة التي يحبّنا تعالى أن نفعلها.

عادة نرى الجبان والضعيف يسكت ولا يردّ على من ظلمه وبغى عليه، وربما لو استطاع الرد لردّ، وهنا الآية تريدنا أن نرمي هذا المفهوم، ونستبدله بمفهوم: أنت قوي ولديك قوة وقادر على الردّ، ولكن الصبر والغفران هما العزم الحقيقي وليس القوّة على الردّ. أنت تثبت بأنك أقوى إن لم تردّ، ويكون لديك قوّة ممدوحة.

الآيات عرضت ناحيتين، ناحية وقوعك تحت البغي ممن لن يتوقّف حتى يستحكم بك ويستمر بالبغي، فهذا يجب أن تنتصر عليه، وتعرض الآيات حالة استطاعتك إيقاف الضرر ممن ظلمك، وتوقّف، وليس لديه نيّةٌ لتكرار الظلم، أو ظلمك ولكن بشكل يمكنك تحمّله... هنا تأمرك الآيات بالصبر والعفو والغفران، وتعدك بأجر من الله تعالى، وإن قرّرت أن تأخذ حقّك فيمكنك ذلك ولا يحقّ لبقية الناس أن يقفوا في طريقك ما لم تتعدّ حدودك في الردّ، وكان ردّك فقط بقدر ما بغوا عليك.

بقي شيء تعرضه الآية هنا عن العزم، لأن الدارج في الأدبيات التي يتساهل فيها الناس وصف الوقاحة بالجرأة، ووصف الاعتداء على الآخرين بالشجاعة، ووصف الساكت عن الشتيمة والإهانة والساكت عمّن اعتدى عليه ضرباً... بأنه جبان. هذه أدبيات حيوانات الغابة وليست أدبيات منتمين لدينه تعالى، فالذي لا يوقّر ويتهجّم على الآخرين بالألفاظ النابية والشتم وسلب حقوقهم واتهامهم بالباطل... هذا وقح لئيم خبيث وليس شجاعاً. المفتعل لعراك أو الداخل فيه تعدّياً على أبرياء أو أصحاب حقّ، هذا معتدٍ ظالم شرير فاسد... وليس شجاعاً.

الآية هنا ترينا مدحاً إلهيّاً بوصف العزم، فهو وصف لمن صبر وغفر وعفا عمّا يمكن تمريره لأن أثره محدود.

(وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ{44})
{وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ}، من لا يضعه تعالى على الطريق الصحيح، {فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ}، فلن يجد من يعتبره تابعاً له، والكلام هنا عن التابعية من مستوى إلهي، فلن يجد من يلي أمره ليكون متابعاً مسؤولاً عنه، {مِّن بَعْدِهِ} "سبحانه"، فهدايته سبحانه لنا هي استجابتنا لدعوته لنا لدينه، والضلال هو أي شيء آخر.

{وَتَرَى الظَّالِمِينَ}، ويصير عندك صورة محدّدة للذين لم يكونوا منصفين ولا محقّين حين تركوا ولايته تعالى، فلم يكن معهم حقّ بتركها، تراهم، {لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ}، عندما صار عندهم صورة محدّدة عن الضرر لهم، ومعلوم أن الكلام عن يوم القيامة وما بعده، {يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ}؟ هل توجد طريقة لتردونا فيها إلى حياة نعيش فيها الامتحان مثل التي كنّا فيها في الحياة الدنيا؟ طبعاً هم يطلبون فرصة ثانية على أساس أن يرجعوا إلى دار الامتحان ويغيّروا سلوكهم ولا يكونوا ظالمين، ولكن هذا لن يحصل، ومن الآية هنا ومن الآية 47 الآتية نعلم أن هذا الكلام بلاغ للجميع، فلا مردّ من الآخرة إلى حيث كانوا في دار امتحان، فلا تفكّروا بالموضوع.

فهمنا من الآيات السابقة أنه تعالى ولي المؤمنين، فيكون وليّهم حين ينتصرون على البغي، ووليهم إذا ما صبروا وَعَفَوْا وغفروا لمن أساء لهم "إذا كان للعفو إمكانية"... والنقطة المفصلية أنه تعالى ولي المؤمنين حين يسيئون لمن أساء لهم، وحين يبغون بالحق، وحين ينتصرون على البغي، فلا يعتبرهم سبحانه ارتكبوا بغياً أو سيّئة. أمّا من لم يستجب لدعوته تعالى فسيقوم بأعمال سيّئة وسيعتدي وسيبغي، والنقطة المفصلية أنه حتى حين يردّ على سيئة بمثلها، وحين يبغي على من بغا عليه، فهو أيضاً سيتحاسب على ارتكاب السيّئة، وحين يغفر ويسامح من أساء له فلن يحصل على الأجر، لأن أعماله حابطة فاقدة لقيمتها.

تذكّر دائماً أن السيئة ستبقى سيئة، فالقتل سيئة سواء قتلت بريئاً أو قتلت القاتل لنفس بريئة، أو ضربت ظلماً بريئاً أو ضربت من ضرب المظلوم البريء... ولكنه سبحانه رخّص فقط للمؤمنين بأخذ حقّهم من الآخرين، وسيغفر سبحانه لهم هذه السيئة، بشرط أن يردّوا السيئة بمثلها بدون زيادة.

تركيز السورة على الولاية له تعالى، ومن أثرها العملي مغفرة سيئة المؤمن حين يردّ على من أساء له وبغى عليه، ويحصل على الأجر إذا عَفَا وغفر لمن أساء له "إذا كان العفو ممكناً"، أمّا من لم يواله تعالى فسيتحاسب على كلّ الأحوال ولن ينال الأجر مهما فعل.

نتذكّر أنه من المستحيل أن يوجد شخص يريد أن يؤمن ولكن الله تعالى يقرر إضلاله، مستحيل، وبما أن هذا واضح جدّاً، فالآية تقول أن من يضله ربنا سبحانه ويصير على الباطل والسوء، فهذا الشخص لن يهتدي أبداً، وهذا الشخص بقرار منه لم يكن يرغب أبداً في أن يكون مؤمناً، ولذلك يتركه سبحانه يضل ويتيه في الطرقات. وهذا المعنى يسري على كل سياق الآيات التي ذكرت إضلاله تعالى للناس.

عادة أذكر لك "وسأذكر لك" بقية ما يرتبط بهذا المفهوم، ولكن سياق بعض الآيات قد لا يقصده أو يقصد واحدة منها فانتبه لذلك، لأنه سبحانه يرى نفسه قادراً على إجبار أي بشري على الإيمان وبطرق عديدة، مثلاً يتلاعب بعقله ليجعله كالآلة المؤمنة، أو يعذّبه هنا في الدنيا أشد العذاب حتى يستقيم... ولكن سبحانه لن يفعل هذا بل سيترك الإنسان حرّاً في اختياره، هكذا يرى نفسه تعالى أنه هو أضلّه لأنه قادر على إجباره على الاهتداء ولم يجبره، هذا من ناحية.

من ناحية ثانية سبحانه المانح لنا لحرية الإرادة، صمّمنا بقدرة على اختيار الضلال أو الهدى، ومثلما ينسب سبحانه لنفسه نزول الماء وخروج الزرع لأنه هو صمّم وخلق البيئة التي قصد سبحانه منها نتيجة نزول الماء وخروج الزرع، ومعلوم أن نزول الماء وبروز النبات لها آليات وشروط معلومة، ورغم ذلك ينسبه تعالى لنفسه أنه هو فعله، وبنفس النظرة ينسب لنفسه تعالى إضلالنا بسبب ما جعله من قدرة فينا على اختيار الضلال بقرار منّا.

من ناحية أخرى طريقُ الهدى واحد لا ثاني له وهو الطريق الإلهي، ومن تركه لن يهتدي أبداً، وعمليّاً مَنْ لم يكن مؤمناً، هذا مهما فعل سيكون على ضلال، فإن أساء إلى الأبرياء فهو في ضلال وسيتحاسب، وإن ردّ إساءة من أساء له

فهو في ضلال وسيتحاسب، وإن غفر لمن أساء له وهو لا يزال على الضلال فلن ينال أجراً... لن يغيّر سبحانه "دين الناس" حتى يتماشى مع أفعال الذين لا يوالونه سبحانه، وافتراضاً لو أقرّ تعالى صحّة ما يفعله الموالون لغيره، وافتراضا لو فعلوا ما فعلوه عن طيبة قلب منهم، أو عن تجاهلهم أو استسهالهم واستخفافهم... بالأمور، اعتبر سبحانه موالاتهم لغيره عملاً عادياً بل واعتبره إيمانيّاً صحيحاً... لو افترضنا ذلك، عندها يكون الجميع على الهدى وسبحانه موافق على أعمالهم... ولكن لا، بل هناك قرار إلهي واضح بأن الهدى محصور فقط وفقط في الحقّ وهو نفسه كلامه سبحانه، ولن يهدي تعالى الذين يخالفون كلامه، ولن يعتبر سبحانه أعمالهم الضالة هدىً، وعلى هذا المعنى العديد من الآيات ومنها الآية 18 من سورة السجدة {أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ}.

(وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ{45})

{وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا}، تنقل لنا الآيات مشهد الظالمين وهم واقفون في يوم القيامة وقبل دخولهم إلى النار حيث يصير عندك صورة محدّدة لهم أثناء عرضهم على النار أثناء محاسبتهم في الْآخِرَةِ بعد بعثهم من الموت، عبر إظهارهم أمام النار كحدث له أهمية كبيرة، وبتقريبهم لناحيتها بحسب ما نفهم من عموم القرآن وَخُصُوصًا من الآية 46 من سورة غافر {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا}، {تَرَاهُمْ}، {خَاشِعِينَ}، يَشْعُرُونَ بالضعف وفقدان القدرة بشكل عام، {مِنَ الذُّلِّ}، من انقيادهم لأوامر غيرهم غَصْبًا عنهم، حيث تعرضهم الملائكة(ع) على النار غَصْبًا عنهم ولا قدرة لهم على الْمُمَانَعَةِ ولا الهرب، {يَنْظُرُونَ}، يوجهون اهتمامهم العام، {مِنْ طَرْفٍ}، مِمَّا بين الجفنين، {خَفِيٍّ}، بشكل مستور غير واضح، يُحَاوِلُونَ رؤية النار ولكن بشكل غير مباشر وذلك خوفا من منظرها المرعب... فهم يريدون النظر إليها لمعرفة ما هو شكل المكان الذي سيذهبون إليه بعد انتهاء الحساب، وفي نفس الوقت يتحاشون النظر مباشرة إِلَيْهَا بسبب رعبهم منه.

أفكارهم ونفسيتهم الدافعة لهذه النظرة الخفيّة للنار يمكنك القول عنها أنها خليط من مختلف الأفكار والمشاعر، فهم يخترعون أملا خادعا بأنهم سينجون منها إذا لم يروها بشكل مباشر، أو يريدون نفي أي علاقة لهم بها بالتمتّع عن النظر إليها بشكل مباشر، أو من شدّة الخوف منها يحاولون تجاهل وُجُودِهَا، أو...

تذكّر أن "الطَّرْفَ" بسكون الراء كلمة مستعملة لتدل على النظر من بين الجفنين "طَرْفَيْن: سكون على الراء"، وهي اشتقاق "غير صرفي" من الطَّرَفِ بالفتحة على الراء، الذي يعني: الناحية من الشيء. كِلَاهُمَا لَهُ نفس المعنى تقريبا ولكن مع حركة السكون على الراء تصير كلمة طرف في استعمال العرب مخصّصة أكثر للعين.

{وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا}، قال الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بدينه تعالى: {إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ}، في {يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، فإن كان وصف الخسارة بكل معناها يصدق على شيء ما كفقدان لشيء له أهمية كبيرة، حيث فقدان النفس لقيمتها هو أكبر خسارة، مقابل من خسر ماله أو بيته أو شركته... فمن صارت نفسه مهانة بلا قيمة عنده تعالى فهذه أكبر خسارة، وهي خسارة رحمته تعالى ومغفرته وثوابه ونهايتها الدخول إلى النار.

الْخَاسِرُونَ هم الذين خسروا، {أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، فِي زمن القيام من الموت خسروا الأشخاص المنتسبين لهم، كأمّهم وأبيهم وأولادهم وأعمامهم وأخوالهم... وَالْمُؤْمِنُ لا يخسر أهله لأنه يشفع لأهله المؤمنين أو هم يشفعون له إن كان إيمانه ضعيفا، أمّا الكافر فمن البديهي أنه في الآخرة لا يشفع لأهله، وتركيز الكلام معه الآن كخبر له تنقله الآية عمّا سيحصل في الآخرة، وأهله إن كانوا مؤمنين أَيْضًا لن يشفعوا له.

{أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ}، بالتأكيد إنَّ الذين لم يكونوا منصفين ولا محقّين حين لم يؤمنوا، هم بالتأكيد، {فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ}، في ضرر لا يغادرهم ولا ينصرف عنهم، فهم خالدون فيه.

(وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاء يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ{46})

{وَمَا كَانَ لَهُمْ}، للظالمين، {مِنْ أَوْلِيَاءَ}، من يَعْتَبِرُونَهُمْ تابعين لهم، {يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، وَالْمُؤْمِنُونَ الموالون له تعالى سيلي سبحانه أمورهم، فهم تابعون له تعالى وهو سبحانه يعاملهم على أساس أنهم تابعون له، أمّا الظالمون الذين يتعرضون للعذاب في الآخرة ويريدون الخلاص منه، فلن يجدوا من يعتبرهم تابعين له ليحقّق لهم الخلاص من العذاب.

{وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ}، يَتْرُكُ سبحانه الشخص على الضلال الذي اختاره بإرادته ولا يجبره سبحانه غَصْبًا عنه على الاهتداء، مع قدرته تعالى على إجباره غَصْبًا عنه على الاهتداء عبر التلاعب ببرمجة أفكاره مَثَلًا، ولهذا يعتبر سبحانه أنه أضلّه لأنه خلقه بحرية إرادة واختيار، وتركه يضلّ كما اختار... {فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ}، لَا يوجد لديه أي مسلك للانتصار من العذاب الإلهي، وَلَنْ ينجو ولا بأي طريقة من العذاب.

أخبرنا سبحانه مِرَارًا وَتَكْرَارًا بأن كل عمل نقوم به ومخالف لأوامره، فهو ضلال ونهايته العذاب، وأخبرنا سبحانه صراحة أن كلامه فقط هو الهدى، وبعض الناس من عندهم يخترعون أنه تعالى لا يعتبر أعمالهم المخالفة للحقّ ضَلَالًا! ويقولون إِنَّهُ تعالى سيجازيهم بالحسنى حتى لو لم يلتزموا بدينه، وَالْهُدَى الإلهي في نظرهم مَطَّاطٌ وليس دَقِيقًا، وبذلك يكون المؤمن الملتزم بدينه تعالى على الهدى وهم أَيْضًا على الهدى، تَأْتِي الآيات الكثيرة لتخبرهم أن الهدى معياره ثابت، ومحصور بالحق والصلاح، وهو نفسه ما يقوله تعالى ويأمرنا به، ومن لم يكن على كلامه تعالى فسبحانه لن يهديه، ولن يوسّع سبحانه الهدى ليشمل ما يفعلونه، لا، {وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ} تعالى {فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}، مَنْ لم يكن على كلامه تعالى، لن يجد من يوصله إلى الغاية الصحيحة.

هنا الكلام عن نتيجة الهدى والضلال، عن وصول الشخص إلى الجنّة، وَعَمَلِيًّا الضَّالُّ ما له من سبيل للوصول إلى الجنّة والنجاة من النار لأنه تعالى أضلّه، وَلَمْ يعتبره من مواليه ليهتم به...

تذكّر دَائِمًا أن محور السورة حول ولايته تعالى لتفهم كثرة تكرارها لكلمة ولاية بمشتقاتها المختلفة وبتعابير مختلفة، لأن السورة تريك الجوانب المختلفة المتعلقة بولايته تعالى وبتركها.

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ {47})
{اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ}، حيث دعاكم المسؤول عنكم من مستوى إلهي لولايته وحده من المستوى الإلهي فلتكن ردّة فعلكم الالتزام بها، {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ}، يَوْمُ القيامة قادم حَتْمًا وحين يأتي لا يمكن لأي أحد ردّه ليمنع حصوله لأنه تعالى أمر به، فمن لم يستجب هنا للدعوة ليواليه تعالى، فحين يأتي يوم القيامة لن يكون لديه فرصة ثانية للاستجابة للدعوة الإلهية. الكلام هنا على معنى ما ورد في الآية 158 من سورة الأنعام {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ}.

{مَا لَكُمْ}، ليس لكم، {مِنْ مَلْجَأٍ}، مكان أو شخص تلجؤون لتحتموا به، {يَوْمَئِذٍ}، في يوم القيامة وما بعده.

{وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ}، وليس لكم أحد ينكر مُعْتَرِضًا لما يحصل معكم، فيقول إِنَّ ما يحصل معكم منكر لا يعرف حصوله مع الذين في حالتكم، بل بالعكس لَنْ ينكر ما تتعرضون له لأنكم تستحقونه.

تذكّر أننا في هذه السورة ومن مجمل القرآن فهمنا أن العمل المنكر الذي عَمَلِيًّا هو ما ينكره العقلاء لأنهم يرونه غير مناسب، ومبني على المعنى العام للمنكر من مقابلته مع المعرفة حيث يعطي معنى حصول صورة أو مفهوم لا يتطابق مع ما لديه، فلو رأيت تَعْذِيبًا في الآخرة لمؤمن عامل للصالحات فستنكره، لأنك لن تقبله بناء على المفاهيم التي عندك، بينما لو رأيت مُجْرِمًا يتعذّب، فلن تنكر ذلك لأنه يستحقه، لأن تعذيبه يتماشى مع ما تعرفه من ضرورة معاقبة المجرم.

هذا المفهوم القرآني منتشر بعبارات مختلفة في العديد من السور، حيث لا أحد من المجرمين في الآخرة سيقول: هذا العذاب ظالم، أو شديد زيادة عن اللزوم... وَأَيْضًا لا أحد من الآخرين سينكر عذابه، بل سيرى أن العذاب الشديد هو على قدر ما يستحقونه بالضبط.

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ {48})
{فَإِنْ أَعْرَضُوا}، فإن لم يهتمّوا بما تقوله عن الدعوة الإلهية لموالاته تعالى فقط ولم يهتمّوا بالإنذار، {فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا}، لَمْ نوكلك بأن تكون رَاعِيًا صَائِنًا لهم، والكلام هنا عن حفظهم من الضلال، فأنت لست مَسْؤُولًا عن ضلالهم فلن نحاسبك كما لو أنك مدير لمصنع ومسؤول عن الإنتاج وَالْعُمَّالِ، لا، {إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ}، فَقَطْ مطلوب منك تبليغ الرسالة الإلهية، تَنْقُلُ لهم ما يصلك وَحْيًا منه تعالى من أوله لآخره.

{وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً}، شَعَرَ وتلمّس الغالب الأعمّ من الناس عنايته تعالى لما فيه مصلحتهم، {فَرِحَ بِهَا}، صار عند الإنسان شعور إيجابي بالراحة والرضا عمّا حصل معه، {وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ}، وإن حدث مع الغالب الأعمّ من الناس شيء سيّء كمرض أو حادث أو خسارة... {بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ}، بسبب الذي فعلوه بأنفسهم وبإرادتهم لأنفسهم، كما نقول قدّمت لي الطعام، فهم قدّموا الأعمال السيئة لأنفسهم وأخّروا الأعمال الحسنة فلم يقوموا بها، وقبل حصول السوء معهم وبسبب إهمالهم أو إهمال غيرهم أو استهتارهم أو استهتار غيرهم أو بغيهم أو بغي غيرهم عليهم... حدث شيء سيّء، {فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ}، وَصَفَ حالة الغالب الأعمّ من الناس بسبب طبيعة خلقتهم أنهم ناكرون لرحمته تعالى، وناسون لفضله تعالى ويركّزون على السيّء الذي حصل معهم ويلومونه تعالى عليه!

من تركيز السورة على الولاية الإلهية، وسياق الكلام عن الكفر "كفور"، نفهم أن الآية هنا تريد أن تريك كيف هم يتعاملون مع المواضيع، لَدَيْهِمْ أفق ضَيِّقٌ ولا يرون لأبعد من أنفهم، ولذلك هم معرضون عن إنذارك لهم، حيث يعلنون كفرهم بالله تعالى إذا ما أصابهم السوء واضعين كل اللوم عليه تعالى، بينما السوء يحصل بما تقدّمه أيديهم هم!
وبالعكس حيث أي خير يحدث معهم فهو منه تعالى.

بعبارة أخرى: هناك دعوة موجّهة لهم عبر الرسول(ع) ليوالوه تعالى، وحين تحصل معهم رحمة لا يرونه تعالى إِلَهًا رحمهم، وحين تحصل سيّئة فهم لا يريدون ولاية إله يترك السيئة تحصل معهم! أو يسببها لهم! عِلْمًا أن السيئة قدّموها هم بما كسبوا لأنفسهم من أفعالهم أو من أفعال آخرين فعلوا السوء، ولم يسببها تعالى لهم، وهي من كفرهم حدثت، ومن كفر غيرهم حدثت، ومن إهمالهم حدثت ومن إهمال غيرهم حَدَثَتْ... وهم في تلك الحالة يكفرون به تعالى بدل الصبر والتوكّل المعتمد على الإيمان، فلو كانوا مؤمنين صالحين لن يسببوا لأنفسهم ضَرَرًا، وفوق ذلك سيتدخّل سبحانه ليبعد عنهم الكوارث، ولمزيد من التوسّع راجع في ذلك دراسة الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

نتذكّر أنه سبحانه حميد، لا يفعل أي شيء غير محمود غير جيّد، بل ما يصيبنا من سوء فنحن سببه، لأننا نحن كمجموعة من البشر نسبّب لأنفسنا ولغيرنا السوء بأفعالنا السيئة مع بعضنا، ونسبّب لأنفسنا السوء منه تعالى بكفرنا وفعلنا للسيئات.

(لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ {49})
{لِلَّهِ}، منسوب لِصَاحِبِ هذا الاسم المحدّد المميّز، {مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وهذا التعبير القرآني يشير إلى كل شيء، فمنسوب له تعالى ملك كلّ شيء، {يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ}، فهناك خيارات عديدة أمامه تعالى ويختار منها فَيَخْلُقُ وَيُرَكِّبُ وَيُؤَلِّفُ ما يقرره سبحانه.

هذه هي الولاية الإلهية بعمقها العميق، بالأصل كل شيء منسوب ملكه لخالقه، فأنتم من هذا العمق تابعون إلهيا لله تعالى حصرا، حيث يَمْلِكُكُمْ وأنتم له، وبناء عليه وكما ترى فما معنى ولايتنا لغيره تعالى!

{يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا}، فأمامه تعالى خيارات ليعطي بدون مقابل لشخص ما لِيَصِيرَ لديه بنات، {وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ}، ويصير لدى شخص ما صبيان من دون أن يأخذ تعالى منهم أي مقابل.

ننتبه لهذه الهبة التي نحصل عليها من نوع مخلوق "يصير لنا"، وَهَبَنِي تعالى مالا وبيتا وسيّارة... ولكن حين يهبني من يملك كلّ شيء ويملكني أنا، يهبني مخلوقا أنثى أو ذكرا، بدون أن أعطيه أي مقابل، وَخَلَقَ سبحانه كائنات لا تلد ولا تتكاثر، كالملائكة(ع)، وخلق كائنات حيّة ينتج عنها كائنات حيّة بالتوالد، كالجنّ والبشر وبقية الحيوانات، وخلق تعالى

كائنات تتكاثر بالانقسام كالخلية والبكتيريا، وخلق كائنات تتزايد في الحجم بالتراكم وتنقسم كالمعادن والجبال والكواكب... هنا تشير الآية لمشيئته تعالى بحصولنا نحن البشر على مولود مخلوق منّا من نوع الأنثى أو من نوع الذكر، وهذه هبة عظيمة.

هناك مجتمعات تفضل الحصول على أولاد ذكور، "وأخرى تفضّل الحصول على إناث"، وَنَبَّهَ القرآن عدة مرات من هذه العقلية وذمّها وسخر منها، وأخبرنا عن وجوب التخلّص من هذه الأفكار المتخلّفة، وهنا الآية تتحدّث عن الهبة الإلهية بمنحنا الأولاد، ومالك كلّ شيء، لأنه الخالق لكل شيء، صَمَّمَنَا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" لننجب أولادا من نوعي الذكر والأنثى، وهذه ولاية علينا كمخلوقات مملوكة له تعالى من المستوى الإلهي، لأنه تعالى خلقنا ويملكنا ويتحكّم بنا، وهو يهبنا الإناث والذكور، فما معنى ولاية غيره سبحانه واعتبار غيره إلها أو من مستوى الإله؟! وما معنى أن لا نسمع ولا نطيع كلام هذا المولى؟! وما معنى أن لا نستجيب لدعوته تعالى لاتباع دينه الحقّ؟!

(أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ {50})
{أَوْ يُزَوِّجُهُمْ}، أو يجعل ما يهبنا من نوعين، {ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا}، يَحْصُلُ الزوجان على بنات وصبيان.

{وَيَجْعَلُ} سبحانه {مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا}، وهناك أناس يستحيل أن ينتج منهم أولاد.

{إِنَّهُ عَلِيمٌ}، لديه علم تام شامل بكل شيء، يَعْلَمُ من سيحصل على بنت ومن سيحصل على صبي ومن سيحصل على بنت وصبي، ومن سيكون عقيما لا يحصل على أولاد، لأن هذه الأمور لا تحصل بالصدفة، أو عشوائيا لوحدها بل عن علم مسبق منه تعالى.

إِنَّهُ {قَدِيرٌ}، يقدر سبحانه أن يوزّع هباته إناثا وذكرانا أو عقما ولا أحد يمكنه منعه تعالى.

تذكّر دائما أن السورة تتحدّث عن ولايته تعالى، مِنْ ناحية تعرض علينا الاستجابة لولايته سبحانه عبر الالتزام بشريعته... ومن ناحية ثانية ترينا السورة أننا واقعون فعلا تحت ولايته تعالى علينا، لأنه صمّمنا وخطّط لخلقتنا وما سيجري معنا، وخلقنا وخلق البيئة التي نحن فيها ولم يترك أي شيء للصدف، وهنا ترى بوضوح أننا في حالتنا العادية واقعون تحت سيطرته تعالى في مسألة الحصول على الأولاد، لأن أصل حصولنا على أولاد، أصل تكاثرنا، كان من تكوينه تعالى لنا، وأصل وجود زوجين منّا، أنثى وذكر، أَيْضًا من تكوينه تعالى لنا.

لاحظ أننا دائما نحتار بين رؤيتنا للأمور تجري بشكل عادي، والتي نعلم سبب حدوثها، مثل تحكّمنا الآن بالتلقيح، وتحكّمنا باختيار جنس الجنين عبر الفحوصات... وربما في المستقبل سنتحكّم بإنتاج الحيوان المنوي ذكرا أو أنثى كما نريد... ومن ناحية ثانية نرى القرآن يقول عن كلّ شيء أنه تحت التحكّم الإلهي، وباختلاف مواضيع السور نجد نظرة من زاوية مختلفة للموضوع، حيث نجد آيات تلفت انتباهنا للعمق وللأساس، لأن أساس أساس خلقنا من الصفر نحن والبيئة التي حولنا "السماوات والأرض" كان من قرار وتصميم وتخطيط إلهي، وَحَصَلَ ذلك على مراحل، ومن بداية تلك المراحل صار بإمكاننا رؤية الأمور مترابطة، ونرى الواحدة تنتج عنها الأخرى، ومن هنا وكلما تطورت علومنا صرنا نرى أن الانتقال من مرحلة لأخرى أثناء خلقنا هي مراحل مترابطة وتحدث بعد بعضها بالتدرج، وحاليا نعتقد أن الغاز الكوني تكاثف، ونتج عنه المواد، وصار لها خاصية الانجذاب والتنافر، وَتَشَكَّلَتْ كُتَلٌ من مختلف الأنواع، وصارت نجوما وكواكب، شموسا أو غازات أو صلبة أو جليدية... وتشكّلت الأرض حيث اجتمعت الظروف المناسبة لتشكّل المياه عليها... وحصلت ارتباطات وانقسامات كيميائية... نتج عنها تركيبات جديدة من المواد... نحتمل أنه نتج عنها تجهيز البيئة للجيل القادم من أوائل سلسلات الترابط الكيميائي "بوليمر"، ثم رنا ثم... ونتج عنه تغيّر الغلاف الجوي للأرض من انبعاثات الغازات عن البكتيريا... مما نتج عنه تغيّر في تخليق الكائنات المجهرية من تفاعلات بيولوجية... وصولا إلى وجودنا نحن على الأرض.

طبعا لا تزال الكثير من المعلومات تنقصنا لتكملة الترابط بين المراحل، وحتما معلوماتنا ستتغيّر عبر الزمن وتتغيّر معها فرضياتنا عن نشأة الكون والحياة فيه، ولكن بالمجمل وبشكل عام، لا نرى أثناء حديثنا "علميا" عن المراحل والعلاقات بينها أي دخل للإله سبحانه، وهنا يحصل التشويش، يُرِيدُكَ القرآن أن تفهم أن التصميم والتخطيط للوصول إلى مراحل مترابطة وبعدها النتيجة التي أنت فيها، كانت من الأساس مشيئة إلهية، تصميم وتخطيط إلهي يجعل الأمور

تسير بالضبط كما خطّط لها لتصل إلى نهايتها بالضبط، وهذا معنى كلامه تعالى في العديد من الآيات ومنها الآية 38 من سورة ق {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} حيث خلق سبحانه السماوات والأرض في ستة أيام، ست مراحل، وما تراه من نتائج، من شمس وقمر ونجوم، من ليل ونهار، نبات وحيوان... ذكر وأنثى... هو نتاج تصميمه تعالى لكل شيء.

نحن نصنع الآلة خطوة بخطوة وقطعة قطعة، ولو كنّا أعلم وأقدر لبرمجنا آلة تعمل لوحدها وتكمل صنع نفسها وصنع ما نريد... وهذا بشكل ما، نرى أنه يشبه ما فعله تعالى، فبسبب علمه وقدرته من المستوى الفائق، جعل السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن، يمشي على تصميمه تعالى، وينتقل من مرحلة لأخرى.

يركّز القرآن على أنه لن ينتقل أي شيء من مرحلة لأخرى لوحده بقدرته الذاتية، وأساسا لن يفعل أي مخلوق أي شيء بقدرته الذاتية، ولو افترضنا أنه فرّغ سبحانه وجوده من حولي، وأخرجني عن سيطرته وملكه، نفترض حدث هذا، عندها سأزول فورا من الوجود ويؤكّد هذا ما نقرأه في الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ...} ، ولنفترض لو سهى عنّي الإله للمحة، نسيني للمحة، أيضا سأزول فورا وأنمحي وَلَا يَعُودُ لي كيان، لأنه ليس لي "ولا لأي مخلوق" القدرة على الحفاظ على وجودي وكياني بقدرتي الذاتية، فأنا مخلوق، أنا مركّب مؤلّف من المواد، والمواد ليس لها قدرة ذاتية، وهي لم تخلق نفسها، بل مخلوقة، وبقاؤها يعتمد على الله تعالى، مثل الفكرة التي في رأسك، فإن سهيت عنها، تختفي، ومثل تمثال الثلج، إن تعرّض للسخونة يذوب، وهكذا تتعرّف على الصفات الفائقة لله عزّ وجلّ، وَتَتَعَرَّفُ على قدراته التي لا نتحمّل تصوّرها، وعلى سيطرته وعلمه بكل نقطة في السماوات والأرض، دَائِمًا دَائِمًا، وإلا لزالت مختفية وانمحت.

أطلت عليك حتى نرى المستوى الذي تتحدّث عنه الآيات من وهبه سبحانه الإناث والذكور لمن يشاء، لأننا نرى أنفسنا محكومين بما يحصل معنا، ونرى تصميما تسير عليه الأمور، ونرى تفاصيل دقيقة وعميقة ينتج عنها ما نحن فيه، وأحيلك لتراجع ما ذكرناه في هذه السورة تحت الآية 28.

أمّا بالنسبة لتطوّر قدرتنا نحن على التحكّم أكثر بالأمور، كقدرتنا على تحديد جنس الجنين الذي نريد، ولون عينيه... فهذا ليس تدخّلا منّا بأمور من مستوى إلهي، بل تطوّر منّا على استعمال القدرات المتاحة لنا منه تعالى، وما نفعله يبقى ضمن مخلوقات تلعب بمخلوقات، ولن يصل إلى مستوى الفعل الإلهي العميق، حتى لو تلاعبنا بالجينات لتغيير صفات أو إدخال صفات جديدة، وحتى لو ركّبنا الجينات من الصفر... فهذا ضمن مخلوقات تلعب بمخلوقات "بالمواد" وليس خلقا من مستوى إلهي، فهو مثل صنع السفن والطائرات، ومثل زراعتنا للنبات، ومثل خلق النبي عيسى(ع) للطيور من الطين.

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ{51})

{وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً}، لم يحصل ولن يحصل أن يوصل تعالى معلومات لأي واحد من البشر، كائناً من كان، رسولاً أو نبياً أو عبداً صالحاً... إلا وحياً، حيث يوصل سبحانه المعلومات للإنسان بلا كلام مسموع بالأذن، ولا يكون الكلام صادراً عنه تعالى مباشرة، بل عبر واسطة.

{أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ}، من خلف شيء بينه تعالى وبين البشري، يكلّمه سبحانه من وراء شيء، كما في حالة النبي موسى(ع) حيث كانت الشجرة التي تَصْدُرُ منها النار هي الحجاب الذي استخدمه تعالى ليكلّم النبي(ع)، وسيأتيك توسّع في الكلام عن ذلك بعد قليل.

{أَوْ يُرْسِلَ} تعالى {رَسُولاً}، كما نعلم من القرآن أنه سبحانه يرسل الملائكة(ع)، {فَيُوحِيَ} الملاك الرسول إلى البشري "رسول، نبي..."، {بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ}، سبحانه لديه خيارات عديدة ليختار منها ما سيقوله للبشري، ويختار سبحانه ما يشاء منها وما يراه مناسباً بحكمته ومن علمه الواسع، ويُحَمِّلُ هذه المعلومات لملاك ما، وهذا الملاك يقوم بإيصال الكلام بإذن الله تعالى، أي بسماح منه تعالى فلا يقوم الملاك بهذه المهمّة من رأسه، ولا يختار الكلمات، ولا التوقيت، ولا أي شيء، وكما نفهم من القرآن فإن الملائكة(ع) يحصل بينهم وبينه تعالى كلام من وراء حجاب، ولا يقومون بنقله للرسول أو النبي أو لأي أحد من البشر، إلا بإذنه تعالى.

لاحظ أن الحالة الأساسية لوصول كلام إلهي إلى أحد من البشر تتم عبر واحدة من الطرق التالية: وحي إلهي مباشر إلى الشخص وهو إيصال المعلومات منه تعالى مباشرة إلى وعي وفكر الشخص، أو من وراء حجاب يحصل الكلام كما في حالة النبي موسى(ع) وسماعه الكلام عبر الشجرة، أو عبر ملاك ينقل المعلومات منه تعالى يوحيها الملاك للشخص موصلاً المعلومات مباشرة إلى فكر ووعي الشخص، أو يتمثّل الملاك على شكل بشري وينقل المعلومات من فمه إلى أذن الشخص، وهذا ما نقرأه في القرآن عن كلام الملائكة(ع) المتمثلة على شكل بشر مع السيدة مريم(ع) ومع النبي إبراهيم(ع) وزوجته، ومع النبي لوط(ع) وأهل قريته.

{إِنَّهُ عَلِيٌّ}، أعلى من كلّ شيء، لأن هناك فرقاً هائلاً بينه تعالى وبين البشر ولا توجد إمكانية ليتواصلوا معه مباشرة، لأنه إله أحد لا شبيه له وليس كمثله شيء ولم يكن له كفواً أحد... وصفاته عالية فائقة جداً جداً ولا توجد لدى البشر قدرة على تحمّل التواصل المباشر معه تعالى.

{حَكِيمٌ}، ما يصل منه تعالى إلى مخلوقاته، من حكمته تعالى يختار ما سيوصله، وكلمة حكمة ومشتقاتها تشير لعموم ضبط الشيء على المطلوب: على الصوابية، على الحقّ... وعلى نفس المعنى الأساسي نقول: أحكم الوثاق، حكم بالعدل، حكومة على الناس... وتفسير الحكمة بالأهداف والغايات السامية هو من تبعات تطبيق صوابية الحقّ، ووصفه تعالى بالحكيم يشير لصوابية نظرته في الأمور، وأن قراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب بل قراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول بأن أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فلا يفعل لغاية له سبحانه، ولذلك لن تجد سبباً له تعالى أو هدفاً من خلق الدنيا وخلقنا، بل تجد الحكمة والرحمة...

الوحي هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خيراً أم شرّاً، وبناء عليه تصير كل أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته وحياً لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وترى ذلك في الآية هنا 51 من سورة الشورى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}، وحتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ}...

ينطبق فعل الوحي على أي كائن كان "إنساناً، حيواناً، ملكاً، أو جنّاً" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم.

طرق فعل الوحي وأنواعه متعددة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً}. ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً}، وما ورد في الآيتين 193 و 194 من سورة الشعراء: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ}. أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ}...، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل كما هو مشهور في تراثنا الديني. ووحي عبر إصداره تعالى صوتاً في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص: {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، مضافاً لها الآية 13 من سورة طه: {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}، فكلامه تعالى معه(ع) وحي لأن الكلام ليس صادراً مباشرة منه تعالى لأن هذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، ليصير وصف الحالة أن كلامي يصلك وحياً.

هناك وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ}، ففي النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

الوحي يصدق على وحي الخير والشر، حيث الشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً}... ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... فالوسوسة في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيراً أو شرّاً فهو وحي.

ننتبه لما نجده في بعض كتب المسلمين عن رؤية الناس له تعالى في يوم القيامة أو في الجنّة، وهو كلام نابع عن سذاجة في التفكير وفي فهم آيات القرآن، وللأسف نجد بعض الروايات التي تتحدّث بصراحة عن رؤيتنا له تعالى في يوم القيامة وفي الجنّة، بل وهنا على الأرض أيضاً، وهي روايات كاذبة ألّفها الكذابون وهم على سيرة الكاذبين من اليهود الذين ألّفوا رواية مصارعته تعالى مع النبي يعقوب(ع)! ونزوله تعالى إلى الأرض وانتقاله بين الناس على حمار! بينما تجد في صريح القرآن أنه حتى الملائكة العالية لا يمكنهم التواصل معه تعالى مباشرة لأنه مستحيل بسبب الفرق الهائل جداً جداً بين طبيعته تعالى وبين طبيعة كل المخلوقات.

للأسف أيضاً هناك نوع آخر من السذاجة والطفولية الناتجة عن التساهل في التعابير والأفكار والترف الفكري والهذيان وصولاً إلى الاعتقاد بأنه تعالى نور، وبعضهم يقصدون به وصفاً لحقيقة طبيعته تعالى كنور يمكننا رؤيته بالعين أو بالقلب كما يقولون، ونتج عن أقوالهم هذه تعابير يقولون أنهم وحدهم يفهمون معناها لأنهم على درجة عالية من الإيمان، والآخرون لن يفهموها مهما حاولوا، وهم مُصِرُّون على نوع من التواصل المباشر أو شبه المباشر له تعالى عبر رؤية نوره... وكلامهم هذا لا مستند قرآني له إلا ما ظنّوه بتوهمهم كمعنى لبعض الآيات، وما توهموه من حالات هذيان تصيبهم من كثرة ما أقنعوا أنفسهم بإمكانية حصوله...

إذن، وصول الكلام الإلهي للبشر لا يتم إلا عبر واحدة من ثلاث: وحياً، أو من وراء حجاب، أو عبر رسول "ملاك"، وبناء عليه:

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{52})
{وَكَذَلِكَ}، مثل الذي قلناه في الآية السابقة عن استحالة تواصل البشري مباشرة معه تعالى، {أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ}، أوصلنا معلومات إلى فكرك ووعيك بدون كلام مسموع عبر الأذن، {رُوحاً}، شيئاً يوصف بأنه صافٍ خالٍ من أي إضافات، وهو وصف للملاك جبريل(ع) كما نفهم من الآية 193 من سورة الشعراء {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ}، والآية 97 من سورة البقرة {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ...}، حيث نزل الملاك جبريل(ع) الموصوف بأنه روح لأنه كائن خالٍ من الإضافات ونقل كلامه تعالى وحياً إليك، {مِنْ أَمْرِنَا}، من الشؤون، من الأمور الإلهية، من الأمور التي يريد سبحانه أن يوصلها لك، فلا ينزل عليك الروح من أمر "الروح" هو شخصياً، أو من أمر غيره تعالى، لا، بل فقط ينزل بأمر منه تعالى، ويوحي لك فقط ما يريده الإله تعالى.

{مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ}، قبل نزول الروح عليك ووحيه لك لم يكن لديك أي علم حقيقي بالكتاب، لأنك لم تحتك به ولم تتصل به، وتعلم من عموم القرآن عن وجود كتاب رئيسي أساسي في السماء العالية وفيه كلّ شيء عن الدنيا والآخرة، وتقرأ ذلك في الآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والقرآن كان كمعلومات في ذلك الكتاب الرئيسي، وأمر تعالى الملاك جبريل "الروح"(ع) بحمل معلومات محدّدة من الكتاب الرئيسي وإيحائها للرسول محمّد(ع)، وللتوسع في معنى كلمة وحي راجع دراسة الآية السابقة، وقبل هذا الإيحاء، لم يكن الرسول محمّد(ع) يدري أي شيء عن الكتاب، وربما كان لديه بعض المعلومات عن شيء ديني... ولكن هناك فرق بين علمك بالشيء عن سماعٍ به، وعلمك بالشيء عن احتكاك به، والدراية هي علمك بالشيء الناتج عن الاحتكاك به والتعامل معه، ولمزيد من التوسّع حول الدراية راجع الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة كبداية سورة القارعة {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ}.

{وَلَا الْإِيمَانُ}، والكلام عن الإيمان، عن ترسيخ المعلومة، عن الاعتقاد بالحقّ، ما كنت تدري ما هي المعلومات عنه تعالى "الصحيحة" وعن أفعاله وعن قراراته.

من المعلوم أن النبي محمّد(ع) مثله مثل بقية الأنبياء ذو قلب سليم، حيث كان موحّداً لا يؤمن بالآلهة التي اخترعها الناس، ولم يَرْضَ بالظلم والشرائع الفاسدة... وهذا علم، وأمّا الدراية فهي الاحتكاك المباشر بالشيء، حيث إنَّ وصول معلومات منه تعالى مؤكدة للمعلومات التي توصّل إليها(ع) بقلبه السليم، هو الدراية، هو الاحتكاك والتماس المباشر مع الإيمان الحقّ.

بعبارة أخرى، المعلومات عنه تعالى أنه واحد أحد وأن صفاته كذا وكذا، وأنه قرّر كذا وكذا... المعلومات الحقّ عن هذه الأمور كان شيء منها معلوماً لمحمّد(ع) قبل أن يصير نبياً، ولكن التواصل معه تعالى عبر الوحي، وبالتالي وصول هذه المعلومات للنبي محمّد(ع)، جعله يدري بها، لأنه احتك مع مصدر هذه المعلومات.

{وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً}، حيث جعل سبحانه الوحي يضيء ويكشف الطريق الصحيح، {نَهْدِي بِهِ}، بما أوحى سبحانه إلى النبي محمّد(ع)، فيضع سبحانه على الأشياء الصحيحة بهذا الوحي، {مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا}، للتعامل مع الذين مفروض منهم الطاعة لديه تعالى خيارات عديدة للتعامل معهم، وقرّر سبحانه "شاء" وأخبرنا أنه سيهدي من يُرِدْ منهم الاهتداء، فمن لديه قلب وفكر وعقل وبصر وسمع... سيهديه تعالى، وأمّا الأعمى الأصمّ المختوم على قلبه وفكره... الكاذب الكافر... فهذا لن يهديه تعالى، لا عبر هذا الكتاب سيهديه، ولا سيجبره تعالى على الاهتداء بطريقة أخرى.

{وَإِنَّكَ}، أيها الرسول(ع)، {لَتَهْدِي}، تضع الآخرين على الأشياء الصحيحة التي توصل لغاية صحيحة، {إِلَى صِرَاطٍ}، إلى طريق أساسي، {مُسْتَقِيمٍ}، يوصف بأنه على الأحسن حيث لا انحراف ولا اعوجاج فيه.

عطفاً على بداية السورة التي لفتت انتباهنا لكلامها الصادر عن وحي إلهي، ومحتواه التنبيه على وجوب ولايته تعالى وحده من المستوى الإلهي... وعن العقاب لمن والى غيره تعالى... جاءت خاتمة السورة لتلفت انتباهنا من جديد إلى أنّ ما يقوله الرسول محمّد(ع) لنا عبر هذا القرآن، إنما هو نقل حرفي منه تعالى لنا، وهذا الوحي بهذه المعلومات يصله(ع) عبر الملاك الروح(ع)، والذي بدوره ينقل للرسول(ع) حرفياً ما أمره الله تعالى به، والنبي محمّد(ع) لم يكن يدري ما الكتاب وما الإيمان، ونحن نتعلّم منه(ع) ما تعلّمه هو من الوحي الإلهي، ولسنا نتعلّم منه مما يعلمه هو شخصياً قبل درايته بالكتاب والإيمان.

الطريق الوحيد الصحيح للاهتداء للحقّ محصور فيما يقوله الرسول محمّد(ع) نقلاً عن الوحي، وهو(ع) لم يكن يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فالمعلومات التي كانت عنده شخصياً قبل نزول الوحي ليست هي المعلومات التي نتعلمها منه، بل نتعلم منه ما دراه من بعد نزول الوحي عليه، وقام بنقلهما بالتمام والكمال للناس، ولا علاقة له(ع) ولا بأي شكل بما ينقله لنا إلّا كونه ناقلاً له، ولا علاقة له بمحتواه... والله تعالى يقول دائماً: يوجد طريق واحد فقط مستقيم، طريق واحد فقط للهداية للحقّ، وهو المشي على ما يقوله الرسول محمّد(ع) المستند على ما يوحيه تعالى له، وهو نفسه ما أوحاه تعالى لرسله من قبل، كما قرأنا في افتتاحية السورة، وأي طريق آخر مهما كان فهو ضلال.

بالنسبة لكلمة "روح"، هي في اللغة للشيء الأساسي الخالي من الإضافات، الجوهر، "الإسانس". ودرج أن يقول العرب قديماً وحديثاً عمّا ينتج من عملية تقطير السوائل: روح العنب، روح الزهر، روح النعناع... ويعنون الشيء الصافي من العنب، من الزهر، من النعناع... ومنه وصف بعض المشروبات بأنها مشروبات روحية على أساس أنها نتجت من التقطير الذي يصفّيها من الشوائب. وبناء عليه فالروح التي نفخها تعالى في آدم(ع) والروح الذي نزل بالوحي وروح العنب... تشترك بوصف الخلو من الإضافات ولكنهم ليسوا من نفس النوع.

مِن المشهور في ثقافتنا الدينية وجود ملائكة آخرين بمرتبة الملاك جبريل(ع) ومنهم الملاك ميكال(ع) الذي ذكره القرآن في الآية 98 من سورة البقرة، وكلام القرآن لم يقل بحصر الوصف بالروح للملاك جبريل(ع)، فربما الملاك ميكال(ع) أيضاً يوصف بالروح.

(صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأمُورُ {53}
الصراط المستقيم الذي يهدينا به النبي محمّد(ع) عبر ما وصله من وحي إلهي هو {صِرَاطِ اللَّهِ}، الطريق الأساسي المنسوب لصاحب الاسم المحدّد المميّز الله عزّ وجلّ، {الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، وهذا التعبير القرآني يشير إلى كل شيء، فكلّهم له تعالى، ومنسوب تصميمهم وملكهم وإدارة شؤونهم... له تعالى.

{أَلَا إِلَى اللَّهِ}، حصراً إلى صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" فقط وفقط، {تَصِيرُ الْأُمُورُ}، وهو نفس المعنى الوارد بتعبير آخر في الآية 42 من سورة النور {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}، فصيران الأشياء، آخر ما تصل إليه الأشياء فإليه تعالى، حيث بيده تعالى القرار بما سيحصل فيها، لأنها له تعالى ويمكنه أن يفعل بها ما يشاء، وكل ما يحصل معها فبقرار منه تعالى، لأن الله هو الولي الأحد.

سورة الزخرف (43) ص 489
تتمحور حول أنه تعالى لا يترك المسرفين بلا ذكر. على معنى أنهم غارقون في الكفر مبتعدون جداً عن دينه تعالى ولا يبدو أي نفع من تذكيرهم، ورغم ذلك فلن يتركهم سبحانه بل سيذكّرهم به وبدينه.

تناولت موضوع الشرك وبالتركيز على قول بعضهم عن اتخاذه تعالى ولداً، ومن هنا ركّزت على من يعتقد أنه صار بين شركه والدين الإلهي رابط، فهو يؤمن بالإله ولكن مع بعض التعديلات، فتحدّثت عمّن عبد الملائكة، وهاجمتهم السورة مع الذين عبدوا النبي عيسى(ع).

نلاحظ تسميتها الله تعالى بالرحمن على طولها من أولها لآخرها إلا ما نقلته من كلام النبي عيسى(ع).

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(حم{1})
هذه حروف نتهجّاها مقطّعة هكذا: حا ميم.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوَّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوِّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف

مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

(وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ{2})
تأكيد من نوع القسم {بِالْكِتَابِ الْمُبِينِ}، بما مواضيعه تامّة وهو واضح. وتكملة الجملة في الآية التالية "جواب القسم": أنه سبحانه جعل الكتاب {قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}. حيث هناك كتاب رئيسي أساسي فيه كلّ شيء، وحيث فيه ما جرى وما سيجري مع المخلوقات في الدنيا والآخرة... "وبشكل ما" فيه معلومات عقائدية وتشريعية... وهو كتاب ليس من ورق ولا مثل القرص الصلب ولا مثل الذاكرة الحاسوبية... ولا نعرف عن كيانه أي شيء لأنه في عالم آخر، في سماء الملائكة(ع) العالية... وقسم من ذلك الكتاب الكبير تحوّل للغة العربية، وبدأ ينزل وحياً على النبي محمّد(ع)، وصار اسمه: القرآن. يعني صار مقروءاً. وتصف الآية الكتاب الأساسي بأنه {مُبِينٍ}، الواضح الذي ليس فيه معلومات غير صحيحة أو مشوشة أو ناقصة، والقرآن مبين لأنه جزء من كتاب مبين.

لنتوسّع قليلاً في وصف الكتاب الرئيسي والقرآن الذي منه بالمبين، هل هذا يعني أن القرآن واضح ويمكن فهمه بسهولة لأي واحد يقرؤه؟ نعم ولا، لأنَّ المجنون والطفل والبسطاء... لن يفهموا غالبية كلامه، ما رأيك بكتاب إلهي مبسّط لدرجة أن يكون مبيناً واضحاً يفهمه الأطفال؟ يَطْرَحُ مواضيعَ يفهمها الأطفال تاركاً الأمور التي تحتاج لوعي وخبرات عالية في الحياة... وهكذا ترى بسهولة أن وصف القرآن بالمبين لا يعني تركه لمواضيع كبيرة تحتاج لخبرات عقائدية واجتماعية وسياسية واقتصادية وتشريعية... وكما ترى بسهولة حيث إنَّ الطفل لن يفهم هذا النوع من المواضيع، وهناك العديد من الرجال والنساء الذين لا يفهمون بالكثير من تلك المواضيع، هل يتركها القرآن حتى يكون مبيناً بالكامل لكل من يستطيع القراءة أو السمع؟ لا، لأنَّ وصفه بالمبين لا يشير إلى سهولة فهمه للجميع في كل ما يطرحه.

تجد أكثرية سور القرآن يمكن للكثيرين فهمها ببساطة لاستخراج أساسيات العقيدة والتشريع، كالتوحيد والعمل الصالح والصلاة... وما يبدو معقداً فهمه من آيات على البعض، فهي عشرات قليلة من آلاف الآيات التي يمكن لأي إنسان متوسّط الثقافة أن يفهمها من القراءة العادية مع مراجعة بعض معاني الكلمات، أو مع قليل من الدراسة والتمعّن فيها.

إذن، الأكثرية الغالبة من القرآن هي سور وآيات من السهل فهمها من قراءة عادية للعاديين ولمتوسطي الثقافة وما فوق، والباقي القليل يحتاج لتمعّن حتى من الدارسين، والقليل القليل جداً يحتاج لدراسة معمّقة لفهمه بسبب تشعّب ارتباطات الموضوع المطروح... وهناك أسباب لذلك منها الحاجة للخبرة في الموضوع الذي تتحدّث عنه الآيات، ومضافاً له الحاجة لسلامة القلب، كلما صَفَا القلب كلما صار فهم ما يقوله تعالى أسهل.

صرّح القرآن كثيراً أنه كتاب هداية للمؤمنين، للمتقين، لذوي الألباب... وبالتالي لن يكون واضحاً ما فيه للذين قلوبهم مختومة مدموغة بالكفر وعليها حجاب... لأنَّ هؤلاء سيرونه مبهماً لأنه يتعارض مع فكرهم ونفسيتهم المريضة أو الرافضة أصلاً لكلام الحقّ... وما بين ذوي القلوب السليمة وذوي القلوب المدموغة بالكفر، هناك تدرجات، وبحسب تلك التدرجات يفهمون كلامه تعالى ويؤمنون ببعضه ويكفرون ببعض...

فهم المؤمنين المتقين العاملين للصالحات... للقرآن سيكون بمستوى تقاهم وإيمانهم، وأمّا الذي من داخله لديه ميل أو رغبة لسيئة ما لا يكرهها... حتى لو لم يفعلها، فَسَيَسْتَصْعِبُ فهم الآية التي تنهى عنها... أو لها علاقة ما بها.

من البديهي أن المؤمنين ليسوا كلّهم من ذوي الخبرات في الأمور المختلفة من عقائدية وسياسية واجتماعية وقضائية... وبالتالي سيكون من الصعب عليهم كلّهم فهم كل أنواع المواضيع التي يطرحها القرآن، ليس لأنها مبهمة أو غير واضحة أو مشوشة... بل لأنهم لا يفهمون في الموضوع الذي تتحدّث عنه الآيات... وغيرها العديد من الأسباب التي تجعل هذا المؤمن يفهم في هذا الموضوع أكثر مما يفهمه المؤمن الآخر...

مفتاح رؤية عمق كلام القرآن أن تقرأه لتتعلّم منه، ودائماً نقع في مشكلة فهم كلامه لأننا نقرؤه بخلفية معلوماتنا التي على أساسها نفسّر القرآن، وهكذا لن يكون القرآن مبيناً، لأننا لم نفهمه بل أسقطنا معلوماتنا عليه ليصير كلامه متماشياً مع ما نريده نحن...

نعيد صياغة هذا المعنى بطريقة أخرى، تفسير القرآن بناء على معطياتنا الثقافية عموماً وبناءً على معلوماتنا العلمية التخصصية، هو مصيبة المصائب، حيث بهذه الطريقة يكون لدينا معطيات عن الطب والفيزياء والفلك والتشريعات والاقتصاد... وعن معتقدات مذاهبنا... كقناعات عندنا، ونسقطها على القرآن، وما يقولونه عن تطوّر العلوم الذي يؤدّي إلى فهم أعمق للقرآن، هو مبني على إسقاطهم لمعلوماتهم على القرآن بدلاً من التعلّم منه بالاعتماد على ظاهر المعاني البسيطة للكلمات والعبارات، وهكذا صار لديهم تفسير علمي للقرآن، وصار في القرآن نظريات فلكية وفيزيائية واجتماعية...

أكبر مصيبة منتشرة في تفسير القرآن هي القناعة المتوافق عليها عموماً بين المسلمين، عن تحمّل الكلام الإلهي لأكثر من تفسير، ولأكثر من وجه مختلف عن الآخر، وعن وجود بطون عديدة لمعانٍ مختلفة لآياته...

ينتج عن ذلك وعن أسباب عديدة أخرى ما تجده منتشراً في مختلف كتب التفاسير، التي تعرض عشرات الآراء لتفسير آية واحدة! حيث إننا فعلاً جعلنا القرآن مبهماً بما رسّخناه من ثقافة دينية في تفسيرنا له بوجوه مختلفة ومتخالفة، وفي نفس الوقت مع الاعتقاد بأنها كلّها أو غالبيتها تفاسير صحيحة! وصارت دراستنا هذه التي تفسّر كلامه تعالى بالصريح

الظاهر المفهوم من الكلام "المبين"، ونتج عنها معنى واحدٌ صريحٌ لكلامه تعالى، صارت دراستنا هذه شذوذاً مخالفاً للثقافة المنتشرة بين عموم المسلمين!

(إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{3})
{إِنَّا جَعَلْنَاهُ}، حيث جعل سبحانه الكتاب المبين، {قُرْآناً}، شيئاً يمكن قراءته، {عَرَبِيّاً}، باللغة العربية، {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، حيث إنَّ من المفروض ومن المتوقّع أن تستوعبوا وتفهموا المعلومات بعد أن صارت بلغة من لغات البشر.

طبعاً لا تقصد الآية أنه تمّ تحويل كلّ الكتاب الرئيسي لقرآن، بل تشير للقسم الذي تحوّل منه وصار بإمكاننا قراءته، ومن بعدها من المتوقّع منّا أن نستوعبه ونفهمه فنؤمن به لأنه الحقّ والصلاح، إذ هو كلام الإله سبحانه.

تلاحظ أن القليل من الناس عقلوا القرآن، والأسباب لذلك شرحها القرآن مراراً، مَنْ عَمِيَ قلبه وبصره وسمعه بسبب اتباعه للشهوات والنزوات السيئة، فهذا وأمثاله لن يعقلوا القرآن.

ليس نزول الكتاب باللغة العربية بشكل خاص سبباً لتعقل القرآن، إنما النزول بلغة من لغات البشر، وصيرانه مقروءاً لهم، وهو سبب افتراض تعقّل الناس له بغض النظر عن لغتهم، إذ بإمكانهم تعلّم اللغة العربية أو ترجمته أو نقله بالمعنى من الآخرين... ولا ميزة للغة العربية على باقي اللغات إلّا لأنه سبحانه استعملها لتنزيل كتاب على الناس، وبعد نزول القرآن تميّزت اللغة العربية باستعماله سبحانه لها بقدراته الفائقة ونتج عن ذلك تقويم بدقة من مستوى إلهي للغة من لغات البشر.

بنزول القرآن بلغة من لغات البشر صار يمكن لبقية الناس تعلّم اللغة العربية لقراءة القرآن، أو ترجمته إلى لغتهم، أو سماع معانيه ممن قرأه... وهكذا مَنْ كان يريد الإيمان بالحقّ وعمل الصالحات فمتاح له أن يعقل القرآن.

اللغة العربية ليست مميزة كلغة عن بقية اللغات لا في غزارة كلماتها ومعانيها وتراكيبها... لأنَّ كل بقية اللغات لديها طريقتها في التعبير عن أي معنى، ولكل لغة خاصية سهولة التعبير عن معنى ما وصعوبته بلغة أخرى، وغالبية عوام الناس ومثقفيهم من بقية اللغات يدّعون أن لغتهم متفوقة على كل بقية اللغات! والدراسات اللغوية تشير لتميّز بعض اللغات عن الأخريات بغزارة المفردات، واللغة العربية ليست من المميزة، وبعض اللغات سهلة التعلّم أكثر من غيرها، والعربية ليست منها، وبعض اللغات النطق بأحرفها ممكن لأكثرية الناس، والعربية ليست منها... وهذا المقدار من تميّز بقية اللغات بأمور تفتقدها اللغة العربية يكفيك لتنتبه إلى مستوى كلامك علمياً حين تدّعي أن اللغة العربية متفوقة، وبخاصة إذا تذكّرت كتب الأنبياء السابقين والتي كانت بلغات أخرى والتي لا أعلم على أي أساس سنجعل لغتها بلا قيمة! ومضافاً لذلك، ما بالك بلغة تكلّم بها سبحانه، أليس من الأجدر جعلها هي المتفوقة؟ إذ سبحانه لم يتكلم مع نبيّه موسى(ع) بالعربية!

بمراجعة الدراسات اللغوية العالمية سترى أنه ليس واقعياً مسألة تفوّق لغة ما في كل شيء، وأنها كذبةٌ منتشرة بين كل أهل لغة بين بعضهم، حيث إنَّ العرب ينشرونها بين بعضهم، والعبريون كذلك، والصينيون والألمان والإنجليز... إذ كلهم يقولون بأنَّ لغتهم الأجمل والأحسن والأفضل والأقوى بالتعبير... وكل الكلام في هذا الموضوع تفاهة...

لا ننسى دائماً ما نبّه عليه القرآن عن سبب نزوله باللغة العربية، لأنَّ الرسول الذي يحمل المواصفات المناسبة لحمل الرسالة الإلهية "محمّد(ع)" كان عربياً، ومن البديهي نزول الكتاب على الرسول باللغة التي يعرفها هذا الرسول، وذكر ذلك القرآن عدة مرات بصراحة وبالإشارة، وكمثال عن ذلك الآية 97 من سورة مريم: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً}، والآية 58 من سورة الدخان: {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}، وهذه تنبيهات لمن يقول: محمّد عربي، وكتابه بالعربي، وأنا ياباني ولا أفهم العربية، فلا علاقة لي به وبكتابه. لا، إنَّ الكتاب بالعربي فقط لأن الرسول عربي، فلو كان الرسول ألمانياً لنزل الكتاب الإلهي بالألمانية، مثلما نزلت كتب وصحف على الكثير من الأنبياء والرسل بلغتهم وكانت موجّهة منه سبحانه لكلّ الناس.

ننتبه دائماً لسخافة ما قيل عن وجود كلمات أجنبية عن العربية في القرآن مما يمنعنا من القول عنه بأنه عربي، حيث برأيهم يجب أن نقول: القرآن عربي وفيه كلمات أجنبية. وقال بعض المتذاكين إنَّ الآية هنا كاذبة حين تقول بأنه نزل

بالعربي. وهذه ترّهات وسخافات تصدر عن بلهاء، حيث في الدرس الأول من علم الألسنية واللغات ستفهم أنه لا توجد لغة من لغات الأرض "وهي قرابة الستة آلاف بين لغة ولهجة" إلا واشتركت مع لغة أخرى في كلماتها وقواعدها وتركيب جملها، لماذا يريدون من اللغة العربية أن تنفرد عن بقية اللغات وتصير عربية خاماً مئة بالمئة! وماذا يعني هذا؟ هل جاءت اللغة العربية من الحائط؟ أو هل فتحوا علبة ووجدوا فيها اللغة العربية كاملة بكلماتها وتراكيب جملها وقواعدها؟ لأنَّ الفاكهة والخضروات التي لا تنبت في أرض العرب، ولم يروها، ولم يذوقوها، ولم يعرفوها، وبعد ذلك تعرّفوا عليها ومعها اسمها الأعجمي "الأجنبي"، ونطقوا الاسم بما يناسب أحرف اللغة العربية ولكنتهم ولهجتهم، هل هذا طبيعي أم يجب أن يكون لها اسم عربي؟ هل هذا ما يقوله أولئك المتذاكون على القرآن العربي الممنوع عليه استعمال كلمة من لغة أخرى وإلا لم يعد عربياً!

إن كان السندس والاستبرق والديباج اختراعاً غير عربي لنوع من القماش "كما يقولون"، وتعرّف عليه العرب، فهل يجب عليهم أن ينظروا في العلبة التي منها خرجت اللغة العربية ليبحثوا عن الكلمة العربية لهذه الأشياء! وإن كان الزنجبيل نباتاً غير معروف عند العرب ورأوه في بلد آخر، فهل يبحثون عن اسمه في العلبة التي فيها اللغة العربية مع صور للنباتات! أم مثلهم مثل غيرهم من أهل اللغات سيجعلون الكلمة الأجنبية متوافقة مع طريقة نطقهم للكلمات ويحوّرون لفظها وتصير كلمة عربية من أصل فارسي أو هندي أو حبشي أو سرياني... أخبروني ماذا سيفعل العرب لتبقى لغتهم أصيلة؟

ما هذه السخافات التي وصلت بكم لحد البياخة والتفاهة والسفاهة؟! ونبّهكم سبحانه مراراً عن أي تعليق سخيف على كتابه "القرآن" فهو تعليق على كتاب الإله عزّ وجلّ، والحساب عسير جداً على ذلك.

أنتم تريدون أن تبيّنوا أن الإسلام دين غير صحيح بدليل أن كتابه فيه كلمات أجنبية عن اللغة العربية، فهو كاذب حين يقول عن نفسه بأنه عربي. وغطس معكم "عن جهل" العديد من المسلمين الذين تبجّحوا بمعرفتهم للغات أخرى وأخذوا ينبشون في قبور اللغات عن أصل الكلمات العربية، وشطحوا عن علم وعن جهل، عن خبث وعن حسن نيّة، عن غباء وعن قصد... وكانت النتيجة: أغلب كلمات القرآن من أصل غير عربي! وبالتالي القرآن يكذب في آيتنا هنا حين يقول عن نفسه بأنه عربي، وبالتالي هو ليس كتاباً إلهياً لأنه كتاب فيه كذب.

هؤلاء يستحقون الشتيمة كردّ فعل على غبائهم وخبثهم وسوء نيّتهم، لأنهم الأنعام والبهائم، هم عُمْيُ القلوب والأبصار، دلّونا على لغة على وجه الأرض وليس فيها كلمات من لغات أخرى، على مقاييسكم صارت كلّ اللغات من أصل سرياني! وصارت كلّ الكتب سريانية! حيث إنَّ الإسبانية والأوردية والفارسية الحالية التي فيها الكثير من الكلمات العربية، صارت كلّها سريانية لأنَّ فيها ما جعل كلّ الكلمات العربية سريانية!

أو على الأقل: لا يحق لأي لغة أن تقول: هذا كتاب إنجليزي. لأن في اللغة الإنجليزية بعض الكلمات من أصل سرياني أو آرامي! وهكذا صار لا يحق للإله عزّ وجلّ أن يقول عن القرآن أنه عربي لأن فيه كلمات من أصل فارسي وحبشي ورومي وسرياني... بل لا يحقّ للعرب أن يقولوا إنهم عرب، لأنَّ في لغتهم كلمات أجنبية كثيرة كما يقول هؤلاء المتذاكون! هل هناك تفاهة وسفاهة أكثر من هذا!

الأنكى من ذلك كلّه أنهم أقرّوا بصحة معنى الكلمة التي استعملها القرآن والتي قالوا إنها أجنبية لا يعرفها العرب، إذ موقعها في سياق الجملة صحيح. يعني، محمّد بن عبد الله خبير غير عادي بست أو سبع أو أكثر من اللغات، لدرجة تأليفه لكتاب فيه الكثير من الكلمات من لغات أخرى ولم يعرف العرب تلك الكلمات! واستعملها "محمّد" بالمعنى الصحيح!

الأسخف من ذلك، لماذا سيستعمل "محمّد" كلمة غير عربية عند تأليفه للقرآن "كما يقولون" مع وجود كلمة عربية لنفس المعنى؟ والأكثر سخافة من ذلك كلّه أن الذين تذاكوا في هذه التعليقات على القرآن لم يتحفونا ويخبرونا عن الكلمة العربية التي تعطي نفس المعنى للكلمة التي قالوا إنها أجنبية! مما يعني بوضوح أن العرب ليس لديهم كلمة أخرى غير التي استعملها القرآن، كمثال على ذلك الزنجبيل والاستبرق والديباج... وكما ترى، إنَّ المعلّقين على القرآن يعلمون ذلك، ولكن عمى قلوبهم وإصرارهم على محاربة كلامه تعالى دفعهم إلى بثّ سمومهم لعلّ وعسى يقع في شباكهم بعض ضعاف المسلمين ليشككوا في دينهم، وهؤلاء من الصادّين عن سبيله تعالى ولهم عذاب مقيم.

بالنسبة للكلمات القرآنية التي تظنّ أنها ليست عربية راجعها في دراستنا هذه لترى ما قصّتها، وكمثال عنها راجع دراسة الآية 21 من سورة الإنسان: {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ...}، والآية 47 من سورة الصافات: {لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ}.

(وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ{4})
{وَإِنَّهُ}، القرآن العربي، {فِي أُمِّ الْكِتَابِ}، هناك كتاب رئيسي أساسي مرجعي يوصف بأنه أمّ بأنه مرجعي أساسي، وهذا القرآن منه، {لَدَيْنَا}، لديه تعالى، فتقييمه تعالى للقرآن أنه، {لَعَلِيٌّ}، فقيمة محتواه عالية، {حَكِيمٌ}، فهو حقّ صواب وليس عبثياً أو كاذباً.

إذن، هذا القرآن العربي نزل من كتاب رئيسي إلهي، وبالنظر إلى الكتاب الإلهي الأم بالنسبة للقرآن، فسبحانه يصف هذا القرآن بأنه عليّ حكيم لأنه من الكتاب الرئيسي العلي الحكيم، وعندما تقرأونه أو تسمعونه فانتبهوا لقيمته وحكمته وتعاملوا معه على هذا الأساس، فلا تخالفوه.

(أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ{5})
{أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ}، عكس نضرب عليكم، فهل لا نقيم عليكم، هل ننحّي عنكم، {الذِّكْرَ}، الشيء الذي تستحضرونه في فكركم وعملكم، {صَفْحاً}، لصفحة أخرى، فنتنحّى عنكم لجهة أخرى فنترككم بلا الذكر، {أَنْ}، بسبب، {كُنْتُمْ قَوْماً}، أناساً لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الأمور وموصوفين بأن تفاعلكم معها، {مُسْرِفِينَ}، مبالغين فتتصرفون بشكل يتجاوز الحدّ المقبول؟ حيث ترى السورة تتحدّث مع أناس لم يؤمنوا بتوحيده تعالى فأشركوا، وهذا إسراف منهم، فحدودهم والمسموح لهم هو الالتزام بتوحيده تعالى، والشرك به تعالى هو إسراف فهو مبالغة في التصرّف فوق ما هو مسموح.

بعبارة أخرى: هل بسبب إسرافكم عبر شرككم به تعالى، سيقوم سبحانه بالإضراب عنكم صفحاً فلا يهتم بكم ولا يوصل لكم ذكراً من عنده ليجعلكم تستحضرون دينه وبالخصوص توحيده سبحانه، وكأن ما يذكّركم بتوحيده سبحانه لم يعد له قيمة بسبب إسرافكم؟

تفهمها بسهولة بمقارنتها مع شخص يفعل شيئاً سيئاً وتعتقد أن الكلام معه لن ينفع، وأنت لم تجرّب الكلام معه من قبل، فهل تتركه "تضرب عنه صفحاً" فلا تنبّهه؟ واستعمال الآية للتعبير بالإضراب صفحاً يشير إلى ما سبق وفعله تعالى من إنزاله للذكر سابقاً على الأقوام السابقة، فهل سيتوقّف سبحانه عن إنزال الذكر، فيضرب صفحاً عنكم، فهل يتوقّف عندكم عن إنزال الذكر، لأنكم مسرفون؟ لا، بل سينزله تعالى حتى لو لم تؤمنوا به أيها المشركون حتى لا يكون لكم عليه حجّة سبحانه بأنه ترككم ولم ينذركم، ولأنَّ هناك من سيؤمن به.

بما أنَّ صيغة السؤال موجّهة لمن أسرف، على أساس أنه يقول: ما معنى هذا الكتاب "القرآن" الذي يخاطبني وأنا أصلاً لن أؤمن به؟! فتأتي الآية هنا وبقية السورة لتجيبه: هذا الكتاب ليبيّن لك الهداية ولينذرك، فإن لم تؤمن به فذنبك على جنبك.

بقي شيء نضعه في بالنا، فهنا تقول السورة أنها ستتحدّث مع وعن المسرفين لأنه تعالى لن يتركهم بلا ذكر منه، ولذلك أنزل هذا القرآن، حيث سترى تركيزها على طرحها لكلامهم الذي قالوه ليبرّروا كفرهم بدينه تعالى، فهذا هو الإسراف الذي لن يسبّب إيقاف نزول الذكر عليهم، أقول لك هذا حتى لا تحصر التطبيق العملي لكلمة إسراف بما يتعلّق بإنفاق المال، فكلمة إسراف عامّة الإنطباق على أي عنوان نبالغ فيه فوق حده المقبول بشكل زائد عن الحاجة، تفريطاً أو إهمالاً أو إنفاقاً... وينطبق حتى على الحلال، فالإسراف بالمال هو صرفه على ما زاد عن الحاجة كما في الآية 31 من سورة الأعراف {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}، وفي الغرائز عند استعمالها بإفراط بسوء كما ورد في الآية 81 من سورة الأعراف {إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ}، وفي الطلب بدم المقتول بقتل غير القاتل كما في الآية 33 من سورة الإسراء {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً}، وفي

صرف العمر لهدف غير الآخرة كما في الآية 53 من سورة الزمر {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ...}، وفي القول الباطل فهو تجاوز عن الحد المعقول والانتقال للكذب كما في الآية 28 من سورة غافر {... وَإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ}.

ننتبه دائماً إلى أنَّ الكلام مع مشركي أهل مكّة والعرب الذين نزل بينهم وفي زمنهم هذا القرآن، فهو لم يقصدهم لوحدهم بكلامه، بل تحدّث عنهم ومعهم ليكونوا نموذجاً لكل المشركين الآخرين في زمانهم وعبر التاريخ، حيث تقصّد القرآن اختيار بعض العقائد والتشريعات المنحرفة الفاسدة لأهل مكّة لتكون نموذجاً يمكننا أن نقارن معه أي عقيدة أو شريعة منحرفة فاسدة لأي مشركين آخرين عبر التاريخ، ففي هذا القرآن ردّ على أساس كلّ أنواع الشرك التي يعتقد بها أي أناس عبر التاريخ، وذلك عبر الكلام مع النماذج التي عاصرت نزول القرآن، أو بكلامه العمومي بدون الإشارة لأي قوم.

(وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ{6})
{وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ}، فكم من شخص وصله منه تعالى النبأ، الخبر غير المنتشر علمه بين الناس، لينقله فيكون رسولاً له تعالى، {فِي الْأَوَّلِينَ}؟ في الناس الذين كانوا أولاً، حيث إنَّ حالة الإسراف التي أنتم فيها أيها النموذج أهل مكّة وعموم مشركي العرب في وقت نزول هذا الذكر، فهي ليست الأولى في تاريخ البشرية، فالناس الذين كانوا أولاً وقبلكم كانوا مثلكم مسرفين، فإسرافهم لم يمنعه تعالى من إرسال أنبياء ليوصلوا لهم الذكر الإلهي، لأنَّ بحكمته تعالى يرى ضرورة تنزيل ذكر من عنده ويكون فيه ما يهدي الناس، وحتى لو كان يعلم سبحانه أنهم لن يهتدوا، فلن يضرب عنهم صفحاً حتى لو لم يكونوا سيهتدون.

لاحظ السورة بدأت بالذكر، حيث بدأت بقول أمور تجعل من يسمعها يستحضر في فكره المعلومات عنه تعالى وعن أفعاله وقراراته، وبكلامها مع وعن المسرفين، بدأت بتذكيرهم بمن سبقهم ممن كان مثلهم وتلفت انتباههم لنهاية أمثالهم.

(وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون{7})
{وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ}، فأي شخص أتى للأولين ونقل لهم النبأ، نقل لهم منه تعالى الخبر غير المنتشر علمه بينهم، {إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، فيتعاملون معه من خلفية الاستهانة والاستخفاف فلا يعتبرون له قيمة ويستهينون به. حيث إنَّ الذين نزل في زمنهم هذا القرآن كفروا بالشخص الذي يصله النبأ منه تعالى، وهذا شيء عادي قام به المسرفون على مرّ التاريخ حيث استهزؤوا بالأنبياء.

لنفهمها كما نفهم نحن هكذا أمور، فلو أنت أرسلت مندوباً عنك، واستهزأ به الناس، فستقول إنه كان من الأفضل لو لم أرسله ويتعرض للإهانة وبالتالي فأنا سأشعر بأن قيمتي انخفضت... ولو أرسلت مندوباً آخر... أو من قبل أرسلت مندوبين عنك وسخروا منهم؟ فستسأل نفسك: ما معنى إرسالي للمندوبين طالما سيهزؤون بهم؟

هذا تقييمنا نحن للأمور، وأمّا معه سبحانه وتعالى فالموضوع مختلف، حيث حكم على عباده بالحساب والمجازاة في الآخرة، ومن الضروري إخبارهم بذلك، وحتى لو كانوا سيكفرون بهذا الخبر، فسبحانه لن يضرب عنهم صفحاً.

ومن ناحية ثانية سبحانه قيمته لا تتحدّد بعدد المؤمنين به، ولا تتأثر من استهزاء الناس بدينه وبرسله...

(فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشاً وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ{8})
{فَأَهْلَكْنَا}، فاستنفدنا فأمتنا، {أَشَدَّ مِنْهُمْ}، أقوى من القوم الذين نزل عليهم هذا الذكر، {بَطْشاً}، تعاملاً بعنف مع الأمور، حيث كان قبلهم أقوام قوّتهم العسكرية التي يتعاملون بها بعنف، كانت أقوى من قوّة أهل مكّة الذين يخاطبهم القرآن كنموذج عن بقيّة الكفّار، {وَمَضَى}، فصار من الماضي، {مَثَلُ}، تشبيه، {الْأَوَّلِينَ}، الذين كانوا أولاً قبلكم، حيث كانوا أشد منكم قوّة ورغم ذلك لم يستمرّوا فهم صاروا مثلاً تشبيهياً مضى، فذهبوا ونتحدّث عنهم الآن وهم ليسوا موجودين، فسبحانه أهلكهم فلم تقف شدّة بطشهم في طريق إهلاكه تعالى لهم.

بعبارة أخرى فانتبهوا إن كنتم ترون أنفسكم أقوياء لدرجة البطش، فقبلكم مرّ في التاريخ أناس أشدّ بطشاً منكم، وها ترون أنهم صاروا من الماضي وصاروا مضرب مثل، فاعتماداً على أي قوّة تستهزئون بكلامه تعالى!

وكما ترى فالاستهزاء برسله تعالى والناتج عن شعور المستهزئين بالقوّة، فهو أول إسراف تبدأ به السورة كلامها، لتبدأ بعرض نهاية المستهزئ وتدخل من بعدها بالكلام على ما استهزأ به...

وترى في كلام بعض الناس العاديين أموراً تقصدها الآية، فتسمع من يقول عن هذا القرآن أنه من زمن الجمل والحصان والسيف والقنديل والخيمة... ونحن في زمن الطائرات والقنابل النووية والهواتف المحمولة... فهذه قوتنا الضخمة الشديدة مالياً وعسكرياً وعلمياً... لا تتناسب مع دين قديم منذ زمن التبارز بالشعر والعنتريات بالسيف.

هؤلاء يستهزئون بكتابه تعالى وبرسله على أنهم للبسطاء والساذجين، وكان لهم منفعة كإصلاح اجتماعي للمجتمعات البدائية القديمة... أمّا عصرنا فمختلف ولا يمكننا التماشي مع دين عمره أكثر من ألف سنة.

هو هذا الكلام نفسه الذي تتحدث عنه الفقرة هنا ولكن بتعابير مختلفة، فنموذج كفّار مكّة كان يعتبر نفسه متطوراً جداً عن زمن السابقين، وهذا القرآن بالنسبة لهم، فهو إحياء لدين قديم عفا عنه الزمن ولم يعد مناسباً لأهل مكّة المتطورين المتحضرين.

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ{9})
ما الذي عرضه الرسل عليهم حتى استهزأوا بهم؟

{وَلَئِن سَأَلْتَهُم}، إذا عبّرت للذين لا يوحّدونه تعالى عن إرادتك للحصول على جواب منهم:

{مَّنْ خَلَقَ}، من ركّب وألّف، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}؟ وهذا التعبير القرآني بالسماوات والأرض يشير إلى كلّ شيء. السماوات سبع كما تعلم من القرآن وكل سماء يقابلها أرض مناسبة للمادة التي تتكون منها السماء كما تقرأ في الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...}، حيث إن كوكب الأرض أرض لسمائنا وسطح القمر أيضا أرض لسمائنا وهكذا فأي جهة تحت هي أرض للفضاء الذي فوقها.

من الواضح أن كل شيء نعرفه فهو مخلوق أي مركّب مؤلّف من مواد، فمن ركّبه وألّفه؟ والسؤال عمّن خلق السماوات والأرض فيه لفت انتباه لحدود كل دنيا المخلوقات، حيث إن كل ما في الدنيا محصور بهذه السماوات، وكلها وكل شيء فيها، فمَن خلقه؟

{لَيَقُولُنَّ}، لسوف يقولون: {خَلَقَهُنَّ}، ركّبهن وألّفهن، {الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... لأنه فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت أمر غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... والخالق لكل شيء حتما لديه قدرات فائقة تفرض ما يريده، وكانت النتيجة هذه الدنيا على حالتها التي نراها.

{الْعَلِيمُ}، حيث من الواضح أن علمه فائق حيث نتج عنه سماوات وأرض هائلة الضخامة وبتفاصيل هائلة ومترابطة ومتناسقة، وقارنها مع هندسة رائعة لآلة كطائرة أو سيّارة أو بيت... لأنها تعكس العلم العالي لمن صمّمها وصنعها، وكذلك السماوات والأرض انعكاس لعلمه الفائق سبحانه، وانعكاس لعزّته حيث حصل بالضبط ما قرّره تعالى، لأن السماوات والأرض مخلوقة بالضبط كما أراد سبحانه.

من خلق الله تعالى؟

السؤال المتكرّر في القرآن عمّن خلق السماوات والأرض، لا يتضمّنه تعالى، فلا يمكنك السؤال عمّن خلقه تعالى لأنه سبحانه وكما أخبرنا عن نفسه فهو ليس مخلوقا، وبالتركيز على معنى الكلمات سنفهم أن المخلوق هو المركّب من شيء، مهما كان نوع المواد، من طين "كربون هيدروجين كالسيوم..." كالحيوانات والإنسان، أو من نار كالجنّ، وللآن ليس لدينا معلومات عن تفاصيل مادّة النار تلك، أو مخلوق من نور كما يعبّر عامة الموحدين عن المادة المخلوقة منها الملائكة(ع)، أو من...

أمّا سبحانه وتعالى فليس مخلوقا يعني ليس مركّبا ولا مؤلّفا من أي مادة مهما كان نوعها، ولا من نور، حيث إن تعبيرات القرآن الواصفة له تعالى بالنور لم تقصد مادة "فوتونات أو غيره"، كما ورد في الآية 35 من سورة النور {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...} بل وكما هو واضح من سياق الآيات قصدت كشف الظلام، مثلما يوصف القرآن بالنور في الآية الثامنة من سورة التغابن {فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا...}، ووصفه تعالى بالنور {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} على معنى كشفه تعالى للظلام "اللاشيء" بخلقه للكائنات والظواهر... وبالتالي هو سبحانه أصلا غير مخلوق.

السؤال عنه تعالى من أين أتى وكيف صار ومن خلقه... أسئلة لا معنى لها بالنسبة له سبحانه، لأنها أسئلة عن مخلوق، عن كائن تركّب وتألّف، عن كائن له بداية زمن صار فيها موجودا، وسبحانه مختلف تماما عنّا، ليس كمثله شيء كما وصف نفسه في الآية 11 من سورة الشورى {...لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ...}، ليس مركّبا ولا مؤلّفا، وبالتالي ليس مخلوقا.

كما ترى من معاني الكلمات القرآنية التي قالها سبحانه عن نفسه، التي تأخذك إلى جواب واحد عمّن خلق السماوات والأرض، وتأخذك إلى كائن صمّمها وأنشأها، والأجوبة الأخرى لن تكون صحيحة، ولذلك أجاب القرآن مرارا عن السؤال بأن الجواب الصحيح الوحيد عن الخالق لكل شيء هو الله تعالى كما تقرأ في العديد من الآيات ومنها الآية 25 من سورة لقمان {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ...}.

القائل بخلق الطبيعة لنفسها ولنا، على أساس أن ترابطها وتفاعلها سبّب خلق كوننا، يأتيه السؤال عمّن خلق الطبيعة لأنها مركّبة، ومن الذي صمّمها ليكون بين موادّها ترابط وتفاعل؟

الذي قال بأن الصدفة خلقتنا، فكيف بالصدفة سيصير هناك مادّة أو طاقة أولية ليتألّف منها الكون؟ وكيف بالصدفة كان للمادة خصائص؟ وكيف وصلت الأمور إلى خروج الحياة بدون تصميم سابق؟ ومن أين أتت بداية بذرة الكون...

الذي قال بأن الكون متجدّد من بذرة طاقة، تنفجر متوسعة لتشكّل الكون ثم تنكمش من جديد، ثم تنفجر ثم... نسأله عمّن خلق هذه البذرة ومن أين أتت؟ هؤلاء يقولون إنّ نفس الجواب عن الله تعالى بأنه لا بداية له، ينطبق على تلك البذرة، وعندما نسألهم من أين أتت، يقولون: من أين أتى الله؟ وكلامهم صحيح ولكن الفرق أن الله تعالى كائن ليس كمثله شيء، وطبيعة تكوينه مختلفة حتى عن هذه البذرة المفترضة، ونحن "علميا" لسنا متأكدين من صحّة هذه النظرية، ولكن على فرض صحّتها، فتلك البذرة تنطبق عليها صفة المخلوقة، حتى لو افترضت أنها بذرة طاقة، أو من طبيعة نجهلها.

أضف إلى ذلك ما لفت سبحانه انتباهنا له مرارا وتكراراً لنتيجة خلقه لما في الدنيا من تشكّل سماوات وحياة حيوانية ونباتية وما يتعلّق بها من تبعات علاقات أكل وشرب وموت... لأن الكلام عن حدوث ذلك من كثرة التكرار من مليارات المحاولات، مستحيل من دون تصميم أساسي متضمّن داخل البذرة.

أضف إليه ما وصلنا منه تعالى عبر آلاف متواصلة من السنين، عبر وحيه للبعض منّا بكلام وكتب فيها من الحكمة ما يدلّنا على مصدرها الإلهي...

نحن نؤمن بالإله وأنه ليس مخلوقا، وطبيعته مختلفة عن طبيعتنا، وصمّم وخلق الكون، بينما أنتم تقولون إنّ هناك بذرة طاقة غير معلوم مصدرها، ولا كيف تشكّلت، وانفجرت، وعشوائيا تشكّل منها هذا الكون، وعشوائيا وبالصدفة وكثرة التكرار تشكّلت الحياة... هل هذا الكلام كلام عقلاء!

في هذه الحالة يبقى السؤال القرآني مطروحا: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} كما ورد في الآية 35 من سورة الطور. فهل أنت أيها الإنسان خلقت نفسك، أم هكذا من لا شيء انخلقت؟ وهذه البذرة "المخلوقة" خلقت نفسها أم من لا شيء انخلقت؟

كثيرا ما ركّز القرآن على ترابط الكائن الحي مع بيئته حيث يتغذّى منها وينمو ويتكاثر فيها... وينام ليلا وينشط نهارا... ويراقب دوران الشمس وأطوار القمر ليتعرّف على الزمن... والجواب البديهي الوحيد: هناك من صمّمها وخلقها.

ما هو مزروع فينا من السؤال عن الخالق، "عن العلّة، عن السبب، عن المحرك الأول"، له معنى في كل شيء، ولا معنى له فقط وفقط في حالة واحدة، حين نسأل عمّن خلق الله عزّ وجلّ، فلا معنى لهذا السؤال، لأن الله ليس مخلوقا،

ليس مركّبا ولا مؤلّفا كما تعلم، لأنه خلقنا فركّبنا وألّفنا، وصار من تبعات ذلك خالق ومخلوق، فاعل ومفعول، علّة ومعلول، مسبّب وسبب...

من تبعات الوعي والفكر الذي جعله تعالى فينا، ومما نتعامل معه بحواسنا من الأمور التي نراها مترابطة، تكوّن لدينا فكر مبني على السؤال عن السبب، عن العلّة، حيث لا شيء يحدث بلا سبب، أو بلا فاعل.

لا شيء يحدث بقوّة سحرية بالمعنى الخرافي لحدوث الأشياء فجأة بلا سبب، وهكذا نسير باتجاه إجباري لنسأل عمّن خلقنا وخلق ما في الدنيا، وعلى هذا الأساس سيحاسبنا تعالى إن رفضنا الإيمان به وتوحيده وإطاعته عبر فعل الصالحات، وهذا ما يسمّيه القرآن بالجحود واصفا الكافرين والمشركين المعاندين لما هو واضح أمامهم... من الأساس صمّم سبحانه السماوات والأرض لننشأ فيها ولنصل فيها إلى مرحلة السؤال عنه بالسؤال عمّن خلقنا، لنتعرّف عليه سبحانه.

كما ترى، صار الكلام عن الأسباب التي تجعلنا نحن البشر نؤمن بالإله، بحثاً عن الدوافع، وهذا بحث آخر تجده ضمن عناوين دراستنا هذه، ومختصره الدافع الفكري عمّن خلقنا، ودافع الحاجة لقوّة قاهرة لتغير الظروف السيئة نحو الأحسن، وغيرها من الدوافع...

السؤال عمّن خلقه تعالى، لا معنى له، وما تقرؤه من أدلّة فلسفية عن ذلك، فهي أبحاث فكرية جميلة، ولديهم برهان الدور والتسلسل، المبني على فكرة السؤال عن الفاعل، وبعدها السؤال عن فاعل الفاعل، وبعده عن فاعل الفاعل، وهكذا نستمرّ بالسؤال عمّن خلقني، ومن خلق الذي خلقني، ومن خلقه... ولا نتوقّف ويصير السؤال بلا معنى لأننا لن نصل إلى جواب نهائي، أو سندور في حلقة لنرجع إلى الأول، حيث إله خلقني، وإله آخر خلق الإله الأول، وإله ثانٍ خلق الإله الآخر... ثم نرجع لنقول إنّ الإله الأول خلق الإله الرابع، والإله الرابع هو خالق الإله الأول.

هذه البراهين الفكرية وغيرها لم يطرحها القرآن، واكتفى بالتنبيه على الفرق بين تكويننا و"طبيعة" الإله، لأننا مركّبون مخلوقون والإله ليس كمثله شيء، ويعبّر الفلاسفة عن هذه الحالة للإله بوصفه سبحانه بالبساطة، ويقصدون نفي التركيب عنه تعالى، وبالتالي لا معنى للسؤال عمّن خلقه سبحانه لأنه ليس مخلوقا.

لمزيد من التفاصيل من زوايا أخرى حول طبيعته تعالى، راجع دراسة سورة التوحيد.

لننظر الآن للفرق والشبه بين طرح الملحدين "الجاحدين للإله" وبين طرح المؤمنين، حيث يقول بعضهم إننا البشر توارثنا فكرة الإيمان بالإله وتناقلناها من جيل لآخر، وأدخلناها في ثقافتنا وحياتنا اليومية، ولولا ذلك لما كنّا مؤمنين بالإله، وجزئيا معهم حقّ في ذلك، لأن الكثير من المؤمنين بالإله لديهم عقائد موروثة عنه ولم يشغلوا بالهم في التفكير بها، مثلما توارث الكثير من الناس الاعتقاد بأنّ الإله شكله كرجل من البشر يعيش فوق الغيوم ولديه قصر وخدم وزوجات...

بعض المؤمنين بالإله يقولون بأنه تزوج من امرأة من البشر وأنجب ولدا، وهو متّحد مع ذلك الولد البشري الإلهي... وتوارث بعض الناس هذه العقيدة على العمى لتصير مرسّخة كحقيقة.

هذه الأمثلة وغيرها العديد من الأمثلة التي يتوافق فيها القرآن مع الملحدين بإنكارهم لهكذا نوع من الاعتقاد بالإله، لأن القرآن حارب هكذا عقائد، ولا تنسَ الوصف المزاجي للإله في بعض الديانات والمذاهب... ولكن المعلومات التي قدّمها القرآن عنه تعالى ليست من هذا النوع من الإيمان الساذج الموروث، بل هو وصف الإله لنفسه، الحكيم الخبير العليم العزيز الذي ليس كمثله شيء...

أمّا تعليق البعض على الوصف الإجرامي للإله القرآني الذي يعاقب بشدة الخلود في النار على أمور تافهة، وبالتالي يصير الإله اختراعا بشريا من عقلية إجرامية جاعلة صفات الإله إجرامية وانتقامية، فليترك الضبابية وليراجع دراستنا هذه ليرى معنى الآيات التي تعد بالعذاب الشديد وأنها موجّهة للذي يؤذي الناس بشدّة ويفسد حياتهم، وأنّ الكفر والشرك "والإلحاد" هم العناوين التي يستعملها البعض لتبرير رفضهم الالتزام بعمل الصالحات التي يأمر بها تعالى...

الملحد بالإله الذي يعرضه عليه الناس، لأنه يرى إلها مزاجيا مجرما، أو بشريا مضخّما بقدرات خارقة، أو الإله الذي أعجبته بشرية فتزوجها وأنجب منها ولدا... هذا الملحد معه حقّ ليكفر بهكذا إله، ويدعمه القرآن بذلك.

التفسير للقرآن "وللكتب الإلهية السابقة" والذي يجعل الإله مجرما مزاجيا، إسقاط للفكر الإجرامي المزاجي للمفسّر للقرآن على القرآن، أو للمحرّف والمفسر للتوراة والإنجيل.

هكذا ترى تقاطعا قرآنيا مع الملحدين بالصفات التي اخترعها الناس للإله.

ننتقل الآن إلى التشابه بين بداية ما في الدنيا من بذرة طاقة انفجرت ليتشكّل منها كل شيء، وهذا بحسب ما يؤمن به الملحدون حاليا في عصرنا، وبين بداية ما في الدنيا من تصميم وخلق الإله لها.

الفهم الساذج الطفولي من المفسرين للكلام الإلهي، عرض علينا أنّه تعالى يخلق الأشياء فورا بقوله لها: كوني، فتصير فورا. وعرض علينا أنّه تعالى خلق ما في الدنيا في ستة أيام من أيام الأسبوع... راجع دراستنا هذه لأي آية تظن فيها القرآن يقول بمثل هذا الكلام لترى أنّه تعالى خلقنا على مراحل عبّر عنها بالأيام...

يعني هناك بشكل كبير تقاطع قرآني مع الملحدين في مسألة بداية الكون من شيء أساسي، وبعده تطوّر ليصير مجرات من ضمنها كوكب الأرض الذي عليه البشر.

ننتقل الآن إلى الشبه بين وصف بداية الكون من بذرة لا نعلم مصدرها، وبين وصف الإله الخالق للكون وأيضا لا نعلم مصدره. كما ترى نحن أمام طرحين، واحد يتضمّن الاعتقاد بكائن عاقل "لا بداية له ولا نهاية" صمّم وخلق، وبين نفي العقلانية والاعتقاد ببذرة طاقة "لا بداية لها ولا نهاية" ولهذه البذرة خاصية التمدد والانكماش لمليارات من السنين، ولها خاصية تعدّد احتمالات ما ينتج عنها من تركيبات، وما نعيشه الآن هو مرحلة نتج عنها هذا الكون وهذا الكوكب الذي عليه البشر.

عليك بحصر مسألة البحث عن الإيمان بالإله بخصوص عمّن خلق ما في الدنيا، وفصلها عن الاعتراض على الأمور السيئة التي تراها لا تتماشى مع وجود إله تعتقد أنّه يجب ألا يرضى عنها، ويجب أن لا يتضمنّها تصميمه، وعادة يبدأ الملحدون من اعتراضهم على المآسي التي يتعرّض لها البشر، من أمراض مؤلمة للأطفال للحروب لفقدان الأحبة بموتهم... وأنّه لو كان هناك إله لما قبل بهكذا حالة نتعرّض فيها لهكذا ظروف، وبالتالي لا يوجد إله "عاقل" خلق ما في الدنيا، لأن العقلانية مفقودة من هكذا نتائج سيئة...

معهم حقّ، والقرآن يوافقهم على ذلك، ولكن القرآن يرينا دائما أنّ النتائج السيئة في الدنيا ومهما بدت عظيمة، فهي لا شيء لأنها مؤقتة وزائلة، وأنّها تحصل بسبب فعل الناس للسوء، وأنّه تعالى لم يتدخّل لأن الناس لا يستحقون تدخله تعالى، وراجع في ذلك دراسة الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

أضف إليها صريح الآية 41 من سورة الروم {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} والآية 30 من سورة الشورى {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}.

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ{10})
يكمل سبحانه الكلام عمّا فعله ويدلنا عليه، وذلك من بعد الجواب الافتراضي عن لسان المشركين عنه تعالى كونه الخالق لكل شيء العزيز العليم، فهذا هو الجواب الصحيح والوحيد، وهو:

{الَّذِي جَعَلَ}، صيّر، {لَكُمُ الْأَرْضَ}، التي تعيشون عليها، {مَهْدًا}، أرضية مهيئة لتمشوا وتقفوا وتجلسوا وتناموا... عليها، حيث لم تكن كلها وعرة، ولم تكن كلها رخوة أو مائية، ولم تكن غازية ... بل لها سطح صالح لعيشنا نحن البشر عليها بالزراعة والتنقل برا وبحرا... {وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا}، في الأرض، {سُبُلًا}، مسالك، طرقات متنوعة وعديدة، إذ لم يكن سطح الأرض على نمط واحد من التضاريس المتكرّرة، مما يُمكّننا التعرّف على المسالك وإلى أين توصلنا بسبب اختلاف تضاريسها وأحجامها وألوانها... {لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}، حيث من المتوقّع منكم ومن المفروض أن تصيروا على

المسالك الصحيحة التي توصلكم إلى حيث تريدون الذهاب، لأن التضاريس تساعدكم على تمييز نهاية المسارات التي توصلكم للمكان الذي تريدون الذهاب إليه.

استعمل القرآن كلمة الهداية بمعناها العام الذي يتخصّص بحسب كل مورد، حيث إنّ القرآن كتاب هداية، ولكنه لا يهدينا لمعرفة الأدوية وعلم الفلك، بل للعقيدة والشريعة الصحيحة، وتمهيد بقع من الأرض وجعل السبل فيها يهدينا أثناء تنقلنا فيها لنصل إلى حيث نقصد الوصول، مثل قول القرآن عن النجوم أنها علامات لنهتدي بها كما تقرأ في الآية 16 من سورة النحل {وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}، حيث إنّ هناك المقصود هو معرفة الاتجاهات، وهنا المقصود معرفة الطرقات.

فكّر فيها عندما تراقب الحشرات والحيوانات "الكبيرة" التي تأوي لبيوتها، كيف تعرف طريق بيتها؟ من الرائحة من الحقل المغناطيسي من أشعة الشمس من حفظها لخريطة المكان... ونفس النظرة من الإله سبحانه لنا، حيث إننا بفضل ما زودنا به تعالى من فكر وانتباه لاختلاف الأشكال والألوان والتضاريس... نعرف كيف نسلك الطريق المناسب لنصل إلى حيث نقصد.

سترى تفصيلا أكثر عن ذلك فيما سيأتي من كلام.

(وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ{11})

{وَالَّذِي نَزَّلَ} لكم {مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ}، إذ إنّ الماء لم ينزل لوحده بهذا الشكل الذي ترونه، ولا ينزل من الفراغ أو من لا شيء، بل بقدر أي بمقدار من كمية وزمان ومكان... محسوب قدّره الإله سبحانه، لأن نفس ظاهرة نزول الماء عليكم بمقادير مختلفة، تدلّ على إله خطّط وصمّم ونفّذ هذه الظاهرة.

{فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا}، فجعلنا بسبب الماء انتشارا لنباتات مختلفة ظهرت بسبب تساقط الماء على بلدة على بقعة على الأرض معروفة الحدود، وكانت قبل تساقط المطر ميتة لا حياة فيها، وهذا شيء نعرفه كلّنا، فتصير حياة نباتية في المكان الذي ينزل الماء فيه، وهذه هي الطريقة التي اختارها الإله سبحانه لخروج الحياة على الأرض عبر نزول ماء المطر.

{كَذَلِكَ}، بهذا الذي قلناه عن نزول الماء وخروج الحياة، بنفس الطريقة، {تُخْرَجُونَ}، يتم إخراجكم، حيث هكذا خرجنا إلى الحياة أوّل مرّة وهكذا سنخرج مرّة ثانية في الآخرة من بعد موتنا في الدنيا.

لفت الانتباه بالأساس هو لظاهرة ظهور الحياة النباتية على بقعة أرض بعد نزول الماء، حيث إنّ الكلام عن ماء وتراب ولا يوجد أي شيء آخر، ومنهما يصير النبات، ونحن البشر من تراب وماء، ومثلما لم يكن هناك شيء وخرج النبات من ماء وتراب، فكذلك نحن خرجنا منهما إلى هذه الحياة وسنخرج منهما في الآخرة.

عادة أهل المدن لا يفهمون هذا النوع من الكلام عن نزول الماء وأهميته وما يفعله في البيئة، لأن مصادر تأمين مياه الشرب عادة متوافرة في الأنابيب والقناني وعبوات المياه... ولكن سينتبهون أكثر لقيمة الماء حين يفقدونها... والبعض يفهم بطفولية من آيتنا هذه أنها تتحدّث عن أرض صحراوية نزل عليها الماء لمرة واحدة فخرجت النباتات، علما أن هذا فعلا ما يحدث أحيانا ولكن يستغرق بضعة أيام لتخرج بعض النباتات التي يكفيها مقدار قليل من رطوبة الأرض لتنمو...

والمزارع يفهم الآية بشكل أوضح، لأنه لا يزرع في الصحراء، بل في مناطق معتادة على نزول الماء، وفي حال تأخّر نزول الماء عن مواعيده، فالجفاف يحصل سريعا لمزروعاته، ومثل المزارع يفهم آيتنا مربو المواشي التي تحتاج للماء للشرب ولنبات لتأكله... وهذه آيتنا هنا له مبينة لأنه يحتك مع مضمونها فيعلم معنى البلدة الميتة ومعنى إحياءَها بماء المطر.

وعلى أي حال كلام الآية يشير للماء والتراب أنهما المكونان الوحيدان على الأرض، ومنهما خرج النبات، ومنهما خرج البشر، وهذا شيء مفهوم بالبساطة من مجرد الالتفات للنبات ولأنفسنا كمخلوقات مركبة من الطين، ومن الذي خلقنا من طين؟ وقبل ذلك ومن خلق الطين وخصائصه والبيئة المناسبة لخروج حياة نباتية وحيوانية من الطين؟

بقي شيء، حيث إنّ القرآن لم يدخل في آليات وتقنيات حصول الأشياء، واكتفى بالإشارة لما نراه من ظواهر وكائنات الناتجة عن أفعاله تعالى، وذكر لنا بعضا من مراحل حصولها ولم يدخل في آليات حصولها، وخذ مثلا الكلام عن الريح فسحاب فمطر فنبات. ولن تجد تفاصيل عن كيفية حدوثها، ولا كلام عن فرق حرارة الهواء وبالتالي الفرق في كثافته، وتبخّر الماء وبالتالي ارتفاعه إلى مستوى مساو له في الكثافة... وبالتالي تشكّل السحاب وبعدها اختلاف تعادل الشحنات الكهربائية والحرارية والكثافة... أو تكاثف المياه على غبار الهواء... وبالتالي نزوله مطرا بسبب جذب الأرض له...

ونفس الشيء بالنسبة لخلق البشر حيث اكتفى القرآن بالقول إننا سلالة من طين، وكلام الآية هنا بسيط جدا وواضح، إذ لا يوجد في هذه البيئة الأرضية إلا الطين، وبديهي أنّ النبات مخلوق منها، ونحن أيضا مخلوقون مثلها من طين.

الكثير من الناس يحتاجون لوقفة تأمّل في هذه المعلومة البسيطة جدا، لأنهم يرون أنفسهم من لحم وعظم ودم ودماغ وأعصاب... وبسذاجة لا ينتبهون أنها من طين، من ماء وكربون وكالسيوم وحديد...

إذاً فإنّ آليات حدوث الأشياء لم يذكرها القرآن لأنه كتاب هداية يكتفي بلفت انتباهنا لما نفهمه ببساطة مما نراه ونعايشه، وجعل سبحانه فينا الفكر والخيال وحبّ الاستكشاف لنتعرّف على كيفية حدوث الأشياء، ونبدأ بالتخيّل وبعده الافتراضات، تليها النظريات، وصولا إلى القوانين... بعدها فرضيات جديدة ونظريات جديدة أعمق وقوانين أشمل... بعدها إعادة صياغة لكل ما سبق بالتعمّق في أصل الأسباب...

ولو تخصّصت يا عزيزي ويا عزيزتي في أي فرع من العلوم، لعلمت كم نحن بسطاء وأطفال وبعيدون جدا عن عمق الأمور الذي وكما يبدو هو أعمق بكثير مما نعرفه... وما تسمعه من كلام من البعض عن تقدمنا العلمي فهو صحيح ورائع، ولكن ما لم نكتشفه بعد فهو أعمق بكثير مما لدينا، لأن التبجّح والتعالي بعلومنا على أساس أننا وصلنا أو لسنا بعيدين عن فهم أساس حصول كلّ الأشياء، هو وهم تكرّر حصوله مع البشرية من أوّل ما صار لها فكر وتجارب... كيف سيقنع من كان منذ آلاف السنين قبلنا على زمن النبي نوح(ع) أن علومهم بسيطة جدا وسطحية أقل من ابتدائية؟ ومن سيقنع أهل مكّة النموذج الذي خاطبه القرآن كثيرا أنهم شبه متخلفين علميا بالنسبة لنا؟ ومن سيقنعنا نحن الآن أننا سنكون لمن سيأتي بعد ألف عام بسيطين جدا وطفوليين في علومنا؟

أطلت عليك لتضع في بالك دائما أنّ القرآن حثّنا على الالتفات لما خلقه تعالى من كائنات وظواهر لنفكّر فيها ونحلّلها ونجري الاختبارات ونضع الفرضيات والنظريات... ولم يحصرنا القرآن بكلام "علمي" ولا بأي شكل، إذ لا فرضيات علمية في القرآن ولا نظريات ولا قوانين، بل فيه فقط وفقط لفت انتباه لأمور نفهمها بالبساطة ولا مجال للنقاش فيها.

لن تجد في القرآن كلاما عن آلية تشكّل المطر، ولا كلاماً عن آليات خروج النبات... وانتبه جيدا هنا، ولن تجد في القرآن كلاما عن آلية خروجنا نحن إلى الحياة أوّل مرّة ولا ثاني مرّة بعد موتنا، إذ إنّ كل ما ستجده يتمحور حول المعلومة البديهية البسيطة جدا: بيئتنا طينية، ونحن مخلوقون منها.

مشابهة الآية هنا لخروجنا أحياء مثل خروج النبات بعد نزول الماء، هو لفت انتباه لخلقه تعالى للحياة النباتية التي في أساس معنى الحياة لا تختلف عنّا، وهو لفت انتباهنا لخروجها بشكل متكرر وبالتحديد لخروجها من الأرض الميتة، لأنها مخلوقة، ونحن مثلها مخلوقون، وسياق الكلام القرآني للفت انتباهنا للذي خلقنا لنتعرف عليه... أمّا آلية حدوث ذلك فليس أمرا دينيا، وجوابه ليس في القرآن.

وهناك أمور درج بين الناس حصرها بأنها من تخصّص الدين، وهذا الخطأ الفظيع كان قديما ولا زال منتشرا، إذ لا يوجد شيء اسمه تخصّص ديني، لأن العقيدة الدينية ليست اختصاصا يفهمه بعض الناس والآخرون لا يفهمونه، فما معنى كلامه تعالى مع كلّ الناس ليؤمنوا من قراءتهم للقرآن؟ وها دراستنا تريك وجها آخر لما اصطلحنا عليه بتسمية العقيدة، حيث إنّ القرآن بعيد عمّا تراكم لدينا من ثقافة كلامية وفلسفية وعرفانية، لأنه عرض علينا المعلومات معتمدا على ما هو ممنوح لنا كلنا من قدرة على معرفة الحقّ من الباطل الكاذب، حيث لم يعرض علينا عقيدة لنؤمن بها، بل لفت انتباهنا لما نحن من المفروض أننا نعلمه ونراه لنتعرّف عليه تعالى، وقوّم لنا فكرنا عبر لفت انتباهنا لآياته الدالة عليه سبحانه لأننا وبسبب تشويهنا لفكرنا ونفسيتنا لم نعد نراها آيات...

والشريعة الدينية ما هي إلا الأمر بما هو صالح والانتهاء عمّا هو فاسد، وهي ليست اختصاصا لا يفهمه إلا المتدينون، حيث إنّ دارسي المحاماة "مبدئيا من الناحية العلمية" لا ينقصهم شيء لاستنباط الأحكام القانونية من القرآن الذي أساسا اختصر الأساسيات القليلة تاركا لنا مجالا واسعا كهامش مرونة لنتحرّك فيه بما يناسب مختلف الأزمنة والمجتمعات....

ونشأة الإنسان وعموم الحياة، ونشأة الكون... ليست اختصاصا دينيا لتبحث عن آلية حدوثه في الكتب الدينية، لأن هذا خطأ فظيع شنيع مدمّر للدين وللفكر والإيمان...

خروجنا إلى الحياة بديهي وواضح أنه من طين، حيث إننا مخلوقون ومن هذا نتعرّف على خالقنا، وعودتنا إلى الحياة بعد الممات هو خبر منه تعالى وعليه العديد من الأدلة التي ذكرها القرآن، ومعرفة آلية حدوث خروجنا إلى الحياة أول مرة في الدنيا أو ثاني مرة في الآخرة، لا يكون بالبحث عنه في الكتب الدينية، ولا أقول بأننا سنكتشف آلية حدوثه، لا أدري، ولا أقول بأننا لن نخمّن كيفية حدوثه، أيضا لا أدري، ولكن لا يوجد شيء اسمه البحث عن آليات حدوث الأشياء في الكتب الدينية، لأن كلامه تعالى يلفت انتباهنا لأنفسنا وما حولنا، ويخبرنا استفزازا عمّا لم نلمسه بشكل مباشر ولا تطاله حواسّنا، كالكلام عن بقية السماوات والجنّ والملائكة(ع)... ويخبرنا استفزازا عن النادر من الأمور التي ستحصل في مستقبل البشرية كالنفوذ من أقطار السماوات وصولا إلى السماء التي يتعرّض فيها الجنّ للشهب، ويخبرنا عن الآخرة... ولا مانع دينياً وإلهياً من البحث في كل تلك الأمور، وحتما البحث يبدأ بفرضيات، وحتما ستكون طفولية ابتدائية وفيها الكثير من الأخطاء... وحتما ستتطوّر فيما بعد... وحتما ستبقى بعيدة كلّ البعد عن وصولنا إلى فهم كيفية فعله المباشر تعالى للأشياء، إذ سبحانه لا يستعمل آلة حاسبة وقواعد رياضيات...

أذكّرك أنّ كلام الآية هنا عن خروجنا هو عمومي شامل لخروجنا أول مرة هنا في الدنيا، وشامل لخروجنا ثاني مرة في الآخرة، وللأسف في آيات مشابهة لآياتنا هذه حصرتها أثناء دراستي لها في مسألة خروجنا في الآخرة فقط. وللأسف لن أستطيع تصحيح ذلك لأني لم يعد لدي الهمّة لأراجع هذه الدراسة، حيث راجعتها إلى الآن خمس مرات على مدى سنين طويلة...

ولمزيد من التوسّع حول الأدلة العديدة التي عرضها تعالى لنا لتأكيد عودتنا إلى الحياة في الآخرة، بالإضافة لإخبارنا عنها مع لفت الانتباه لمن خلقنا أول مرة وأنه بسهولة يمكنه خلقنا مرة ثانية... وتأكيدات على صدق وعده حيث لن يغيّر تعالى قراره... هناك أدلة ملموسة على ذلك ترى قسما منها في فقرة من سورة البقرة تبدأ من الآية 258، وتراه في حادثة أصحاب الكهف في الآية 21 من سورة الكهف {وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا...}، وتراه في إحياء النبي عيسى (ع) للموتى... وتراه في العديد من الآيات التي لفتت انتباهنا للحياة النباتية المنتشرة من حولنا والتي تحصل من سقوط المطر، حيث لا فرق في أساس معنى الحياة بيننا وبين النبات، والاختلاف في نوعيتها فقط... وكمثال عن ذلك الآية 11 من سورة ق {رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ}.

ولمزيد من التوسّع حول خلقتنا أول وثاني مرة فراجع ما قلناه مطولا في دراسة الآية 51 من سورة يس {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ}.

(وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ{12})
{وَالَّذِي خَلَقَ}، ركّب وألّف، {الْأَزْوَاجَ}، الأصناف المتنوعة، {كُلَّهَا}، من حيوان ونبات. كما تلفت السورة انتباهنا للتنوع في مملكة النبات والحيوان، حيث لو شاء تعالى لخلق نوعا واحدا من النبات، أو نوعا واحدا من الحيوانات، ولكنه تعالى جعلها أزواجا أي أصنافا كثيرة لنلتفت لوجود قدرة عظيمة صمّمت وخطّطت وخلقت...

{وَجَعَلَ}، وصيّر سبحانه، {لَكُم}، {مِّنَ الْفُلْكِ}، من الأشياء التي تعوم على الماء من العوامة والقارب والفلوكة والسفينة... وجعل لكم من، {الْأَنْعَامِ}، من الحيوانات الموصوفة بأنها نعمة لكم بسبب استفادتكم منها، {مَا تَرْكَبُونَ}، ما يحملكم وينقلكم، إذ إنّ الفلك أو الحيوان الأليف الذي يمشي بكم ينقلونكم بدل أن تتعبوا بالانتقال لمسافات طويلة.

نلاحظ دائما تأكيد القرآن على علمه تعالى مسبقا بقدرتنا على اختراع السفن وتطويعنا الحيوانات للركوب عليها، بل يؤكّد على نعمته علينا حيث جعل سبحانه فينا بذرة تخيلية وفكرية والقدرة الجسدية للوصول إلى اختراع السفن وترويض الحيوانات، لأن السيارات والقطارات والطائرات وما سيأتي في المستقبل هي نماذج جديدة عن النعمة الإلهية

علينا بجعلنا مكتشفين لتسخير ما حولنا لفائدتنا وراحتنا، ومستفيدين مما علمه تعالى سلفا مما سينتج عن القدرات التي منحها لنا في هكذا بيئة.

تصوّر نفسك مسؤولا عن خلق كائنات وبيئة لها، وتذكّر قدراتك وقدرات غيرك لو أنّ أشخاصاً آخرين أيضا هم مسؤولون عن خلق كائنات وبيئة، وانتبه لما سيفوتك من تنوّع وتفاصيل، وانتبه لما فات على غيرك، وانتبه لتخطيطك وتصميمك وتنفيذك وترابط الكائنات والبيئة، واستمرارها، ونهايتها... والهدف منها... حيث إنّ تصميمك لبناء بيت أو لقصر تسكنه سيستهلك منك وقتا وجهدا... وفي النهاية سترى أخطاء لا تحصى في أصل التصميم والتنفيذ، وهو مجرد مكان لتسكنه، فكيف ترى البيئة التي حولنا بتنوّعها وتفاصيلها؟ من أرض مهد، وسبل، ومن أزواج شتى، من نزول الماء، وخروج الحياة في الأرض الميتة؟ فكيف ترى نفسك وكيانك؟ وتميّزك عن بقية الحيوانات بالابتكار؟

لاحظ أن ما ستخلقه سيكون تقليدا أو تطويرا لما فيك وحولك، لأن هذه المساحة الفكرية والتخيّلية الصغيرة التي فينا لا يمكن مقارنتها مع الإله سبحانه الذي من لا شيء صمّم وخلق كلّ شيء في السماوات والأرض، وهذا هو معنى البدع.

لفت القرآن انتباهنا دائما لخيار موجود لم يعتمده الإله تعالى معنا، وهو خيار خلقنا بشكل بسيط في بيئة بسيطة، ونبّهنا لاعتماده تعالى على خلقنا وخلق بيئتنا بتفاصيل كثيرة، حيث إنّ تعاملنا مع بيئتنا أيضا فيه تفاصيل كثيرة هائلة من الدقيقة للضخمة، وذلك حتى تكون دليلا سهلا جدا لنتعرّف منها على الإله الخالق العظيم.

نعيد ونتصوّر لو أنك أنت تخلق كائنات في بيئة، فإنّ مدى صفاتك وقدراتك سيحدّد ما يمكن أن ينتج عنك من تفاصيل، وكلما علت صفاتك وقدراتك، تعقّدت وزادت تفاصيل الكائنات وترابطها مع البيئة التي صمّمتها وخلقتها، حيث بدل أن تحضّر بنفسك الطعام للكائنات التي خلقتها لـتتغذّى لتنمو وتتكاثر، ستجعل بيئتها ينتج منها الغذاء المناسب للمخلوقات، من نبات ولحم ولبن... وإذا علت قدراتك وصفاتك أكثر، ستجعل في الكائنات قدرات وصفات أكثر تجعلهم يستخدمون ما حولهم لما فيه راحتهم...

كما ترى سبحانه كرّر لنا كثيرا كلامه عن نموذج نزول الماء وخروج ثمار النبات وأكلنا للحوم الحيوانات... وهي أمور لا علاقة لنا بها نهائيا، حيث من الواضح فيها تصميمه تعالى لنا ولبيئتنا بشكل ينتج عنها ما يناسبنا لنستهلكه شربا وغذاء... ونفس الشيء ذكر لنا نموذج السفن وركوب الخيل، لأن هذه لم تحدث بالصدفة، ولم نكتشفها نحن وهي لم تخطر على "باله" عزّ وجلّ، بل من الأصل صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا سبحانه ووَضَعَ فينا ما يوصلنا إلى صناعة السفن وركوب الخيل والسيارات والطائرات... لأنه صمّمنا وخلقنا وهو تعالى يعلم ما يمكننا اكتشافه، وما سنكتشفه ومتى... بل قصد تعالى من خلقتنا بهذا الشكل أن نتعرّف بسهولة عليه كإله مصمّم خالق، وهذا ما تشير إليه الآيات بكلامها عن الظواهر والأمور الأخرى التي فينا ومن حولنا.

للأسف يبرز متذاكون ليحوّروا نفس النقطة التي صمّمها تعالى لنتعرّف عليه، ليجعلوها منطلقا للكفر به! حيث يقولون إنّ البشر "اخترعوا" الإله لأن تفكيرهم البسيط من ملاحظة ما حولهم دفعهم لاختراع إله، بينما هي أمور حصلت بآليات مترابطة من أوّل نشأة الكون، من بداية انبثاق الطاقة لتصير مادّة بخصائص ستصير في النهاية كواكبَ حيّة بعلاقات كيميائية تصير بيولوجية لتنشأ الحياة...

هذا نفسه الكلام القرآني معنا، وهو نفسه ما قاله الإله سبحانه كدافع مزروع في تصميمنا وخلقتنا حتى نتعرّف عليه تعالى، وهو نفسه طرحه القرآن وطرحته كتبه تعالى قديما منذ آلاف السنين، للفت انتباهنا إلى معنى وجودنا وسببه. كحالتك أنت مصمّم وخالق لأسماك في حوض ماء، فهل بيدك سترشّ لها الطعام على سطح الماء، أم ستجعل البيئة ينتج عنها الطعام؟ وهل ستكفر بك الكائنات كخالق رازق لأنها تحصل على طعامها من بيئتها ولم تجده على سطح الماء بدون سبب معلوم؟ أم ستؤمن بك إن فجأة انبثق الطعام من الفراغ أمامها مطهيا ساخنا جاهزا للاستهلاك ومع ملعقة وشوكة!

ها هو القرآن أمامك مشحون بكلامه تعالى عن الظواهر الدافعة للسؤال عمّن صمّمها وخلقها، ولم ينتهج القرآن نهج الإيمان المبني على الجهل بما لا نعلم سبب حصوله، بل بالعكس حثّنا وحفّزنا على التفكير في الأمور السهلة البسيطة الدالة عليه تعالى من ليل ونهار ونبات... واستفزّنا بطرح معلومات عمّا لم تطاله حواسّنا بعد، عن الجنّ وطبقات السماء

والملائكة(ع)... وعن إعادة خلقنا... لنبحث فيه ونحاول اكتشاف آليات حصوله... ولنتفكّر كما ورد صراحة في الآية 3 من سورة الرعد {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} وغيرها الكثير من الآيات.

بالنسبة للذين يكفرون به تعالى لأنهم يظنّون أنهم يعلمون كيف انخلق كوننا، فأولا هم يكفرون بدين المنتمين لدينه تعالى، لأن هؤلاء فسّروا كلامه تعالى كخالق لنا ولبيئتنا وكوننا بلا آليات ولا مراحل، بينما كلامه تعالى يشير لمراحل وآليات سبّبت ما نسميه بالكون.

ثانيا وبالتالي إنّ تعرّفنا على آلية نشأة كوننا وصولا إلى صيرورة حياة بشرية على الأرض، هو محاولة منّا للتعرّف على آليات فعله تعالى للأشياء.

السؤال البديهي بعد ذلك، هل فعلا هناك من يؤمن بأنه لا يوجد إله صمّم وخلق، وأن الطبيعة أو الصدفة أو ... هي المسؤولة عن خلق ما نراه؟ لأن هذه التفاصيل الهائلة التي نتج عنها حياة، ألا يوجد من صمّمها وخلقها؟

(لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ{13})

خلق تعالى الفلك والأنعام الصالحة لركوبكم عليها:

{لِتَسْتَوُوا}، لتصيروا في حالة التمام المناسب لكم، على ظهورها، والكلام عن ركوبنا على ظهر الفلك والأنعام واستخدامها للتنقّل ونقل الأغراض.

{ثُمَّ تَذْكُرُوا}، بَعْدَ ركوبكم عليها تَسْتَحْضِرُونَ في فكركم، {نِعْمَةَ رَبِّكُمْ}، الشيء الذي يوصف بأنه نعمة فهو جَيِّدٌ حصلتم عليه من المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ}، حين تصيرون متمكنين من حالة الركوب على ظهر الفلك أو الحيوان، {وَتَقُولُوا}، يُعَلِّمُنَا سبحانه ويلفت انتباهنا لنقول:

{سُبْحَانَ}، مُنَزَّهٌ عن صفات النقص والعيب والصفات السيئة، فكل صفاته حسنة، {الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا}، حَيْثُ استفدنا من الفلك والأنعام ونحن لم نقدّم أي شيء في مقابل استخدامها، فلم نخلق الحيوان، ولم نضع فيه إمكانية حملنا، ولم نضع فيه قابلية الترويض... ولم نخلق الخشب والمعدن... ولا علاقة لنا بخاصية طفو الأشياء على الماء... وأصلا لا علاقة لنا بكوننا نحن مُسَيْطِرِينَ على الحيوان ولا بكون خاصية الابتكار مَوْجُودَةً فينا بينما البقرة محرومة من هذه الخاصيّة... فلولا كونه "سُبُّوحاً" مُنَزَّهاً عن الصفات الناقصة والمعيبة والسيّئة، لما وصلنا إلى ما نحن فيه لنستفيد من ركوبنا على الفلك والأنعام.

{وَمَا كُنَّا لَهُ}، للذي استوينا على ظهره، {مُقْرِنِينَ}، مقيدين ورابطين له بلجام أو غيره. يعني هو حيوان يمكن جعله أليفا، ويمكن ربطه بالحبل للسيطرة عليه ليمشي مثلما نأمره، بينما فرق حجم الجسد والقوة بيننا وبينه لا يسمح لنا نحن بجعله مقرنا "مربوطا" لنسيطر عليه.

(وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ{14})

{وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا}، إلى المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {لَمُنقَلِبُونَ}، وسننقلب من هذا المقلب من هذه الحالة التي نحن فيها في الدنيا من السيطرة وتسخير ما حولنا، إلى المقلب الآخر في الآخرة، لأنّ هذه البيئة وكياننا والسيطرة والتسخير... ليست دائما لنا، وسنموت، ولن نختفي، بل سننقلب إلى ربّنا سبحانه، طبعا هذا قول مبنيٌّ على التفكّر بأن الإله لم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلا كما تقرأ في الآية 191 من سورة آل عمران {... وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}، وهي النتيجة التي توصّل إليها إبراهيم (ع) من دون أي تعلّم من أي أحد وقبل أن يصله أي وحي إلهي كما تقرأ في الآية 81 من سورة الشعراء {وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ}.

بقي شيء، واستناداً إلى حديث منسوب للنبي (ع) درج بين بعض الناس أن يقولوا ما ذكرته الآيات هنا: {سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ... لَمُنقَلِبُونَ} عند ركوبهم للسيارة أو الطائرة، وهذا شيء ممتاز، ولكن الخطر كل الخطر من اعتقادنا بالكلام السحري بالمعنى الخرافي، وكأن هذه الجملة أو غيرها ستمنع حصول عطل في السيارة، لأنه مستحيل أن لا تحدث أعطال في الآليات، وأصلا هي ليست مصمّمة حتى تدوم للأبد، وأصلا لو حاولنا تصميم آلة لا تخرب ربما نصل من التجربة وكثرة التكرار إلى صنع ما سيستمر بالعمل بكفاءة لسنين طويلة جدا، ومن الناحية النظرية هذا ممكن ولكن عمليا نصطدم بالكثير من المعوقات، وبعضهم يعتقد بقوله لجملتنا هذه أو غيرها أنها ستمنع حصول الحوادث، وهذا مستحيل، لأنّ الحوادث ستحصل، وما بيدنا إلا الحيطة والحذر وأن لا نكون مستهترين لا نحن ولا الآخرون ولا من صنع الآلة وهندس وعبّد الطرقات... وأقصى ما نفهمه من أثر للدعاء من مفاهيم القرآن، أنه تعالى فعلا يتدخّل ولكن بما يراه سبحانه مناسبا، لا بما نراه نحن مناسبا، لذا نتوكّل عليه تعالى وسيتدخل بحكمته التي ربما نفهمها أو لا نفهمها... وأصلا الأمور تصير بما يعلمه تعالى، وأصلا أجرى سبحانه الأمور بما يراه مناسبا، وعلى هذا المعنى جاء كلام الآية 22 من سورة الحديد {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}.

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ{15})

من بعدما عَلِمْتَ جوابهم إنْ سَأَلْتَهُمْ من خلق السماوات والأرض، فسيقولون بأنه العزيز العليم، فأي جواب آخر سيكون تفاهة، وذلك بناءً على ما ذكرته الآيات السابقة من وضوح تصميمه وخلقه تعالى لكل ما في السماوات والأرض، وحصرت الفقرة السابقة كلامها عن نماذج بسيطة نلمسها من حولنا عَمَّا فعله سبحانه... ورغم ذلك أسرفوا وقالوا:

{وَجَعَلُوا}، وصيّروا، {لَهُ} تعالى، {مِنْ عِبَادِهِ}، من الذين مفروض منهم طاعته، {جُزْءًا}، فقالوا عن عبد ما أنَّهُ جزء، قسم، قطعة... من الإله سبحانه وتعالى!

تذكّر الشفافية في كلامه تعالى معنا عندما قال أنَّهُ لا يرى ولا يلمس أي أثر إلا لنفسه وللسماوات والأرض وما فيهما وأنَّهُ هو سبحانه صمّمهم وخلقهم ويتابع شؤونهم، فمن ناحيته تعالى لم يلمس ولا أثر إلا لنفسه وللمخلوقات التي هو خلقها، ولم يلمس أي أثر لغيره يتدخّل في مخلوقاته... ونحن من ناحيتنا لا نلمس أي أثر إلا لأفعاله هو سبحانه، وراجع في ذلك دراسة الآية 18 من سورة يونس {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، والآية 33 من سورة الرعد {... وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ...}.

بناءً عليه فأي كائن لديه وعي ويمكنه فعل شيء ما عن إرادة واختيار، فهو عبد لخالقه، وكلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

العبد كوصف لكل المخلوقات، حيث مفروض منهم طاعة خالقهم، فكيف يكون هذا وصفه كمخلوق وعبد وفي نفس الوقت يكون جزءاً منه سبحانه؟! وهل يمكن أن يكون لله تعالى أجزاء؟!

{إِنَّ الْإِنسَانَ}، إن الغالب الأعم من الناس بحسب طبيعتهم كبشر يوصفون بأنهم، {لَكَفُورٌ}، لناكرون لتوحيده تعالى، {مُّبِينٌ}، بشكل واضح صريح.

ضع في بالك دائماً أنَّ القرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموما ذكراً وأنثى، وأنهم يتناسلون... أو متعلقٍ بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

تشير الآية لنوع من الشرك الذي معناه أنَّ الإله الذي اخترعوه هو جزء من الله تعالى، وهكذا يبقى الإله واحداً أحداً، فالجزء الذي منه ليس شيئاً آخر... وهذه فكرة فلسفية يقولها من يحاول تبرير عقيدته الشركية منطقياً وعقلياً، وعادة لا تسمع هذا النوع من الكلام من عوام المشركين بل تسمعه من المثقفين المتعلمين وأصحاب الكتب، لأن عقلهم وفكرهم يدفعهم للاعتقاد بإله عظيم، ولكنهم يشركون به تعالى بسبب دافع ما، حيث بعضهم متعلقون بهوس تعظيم شخصية دينية

ما "إنساناً أو جنياً أو ملاكاً..."، كشخص يعتبرونه لهم وخاصاً بهم، ومدفوعون إلى تعظيمه بسبب هذه العصبية، وهذه للأسف حالة بعض المسيحيين المؤلهين للنبي عيسى(ع)، والكلام هنا في الآية عمومي ولا يقصدهم هم بالخصوص.
وهذه النوعية من الناس وهم في نفس الوقت يرون ممّا حولهم وجود إله واحد فقط، فالعبد الذي رفعوه لمستوى الألوهية ظهر في تاريخ محدّد معلوم، وبما أنه لا يوجد ولا أي طريقة لتبرير ظهور إله جديد، فلا يستطيعون أن يقولوا أنَّ الإله الجديد انبثق من لا شيء، ولا يستطيعون أن يقولوا أنَّ الإله القديم خلق إلهاً صغيراً، فالمخلوق مخلوق ولا يصير إلهاً ولا بأي شكل.

نعم يمكن أن يكون للمخلوق قدرات عالية جداً، ولكنه لن يكون إلهاً لأنه مخلوق وأشار القرآن لذلك مراراً بكلامه عن الملائكة(ع).

هكذا قالوا الكثير من الكلام الذي أوصلهم لحلّ واحد: هناك إله جزء من الإله الأساسي، حيث حلّ به الإله الأساسي، فهو جزء من الإله الأساسي وتلبّس بشكل ملاك أو إنسان أو جنّ... وهذا هو تخريجهم الفلسفي لشركهم، وهو مردود بمجرّد الالتفات لإلههم المخلوق الذي يوصف دائماً بأنَّهُ عبد، حيث له كيان منفرد وبالتالي له وعي منفرد، وبالتالي هو مفروض منه طاعة إلهه، وإن لم يكن له كيان منفرد، أو وعي منفرد، أو فكر أو إرادة... منفردة، أصلاً كيف يكون هناك اثنان؟ فكيف يكون جزءاً من الإله بمواصفات إلهية وعبداً في نفس الوقت؟! عبدٌ إلهٌ! وهذا ما تشير له الآية هنا، فبأي منطق يصير عبد ما، فكيف يصير مخلوق ما، جزءاً من الإله! وهذا إنكار صريح لوحدانيته تعالى الظاهرة الواضحة.

(أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ{16})
{أَمِ اتَّخَذَ}، فهل حدّد سبحانه، {مِمَّا يَخْلُقُ}، من الكائنات التي ركّبها وألّفها، {بَنَاتٍ}، {وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ}! فالاصطفاء هو اختيار شيء من بين أشياء بسبب تميّز ما اخترته، فتكون اصطفيته.

الذين يقولون بأنَّهُ تعالى لديه بنات وهنّ آلهة، ومن المشهور أنَّ بعض المشركين يقصدون الملائكة(ع) بأنهم بنات له تعالى، ولكن كلام الآية عمومي لكل من جعل له تعالى بنات سواء من الملائكة أو من كائنات غيرهم أو من خياله اخترع بناتٍ له تعالى.

هل اتخذ تعالى البنات وجعلهم آلهة ولم يتخّذ الصبيان آلهة، وأنتم اختار لكم أن يكون لديكم صبيان؟!

سترى من الآية التالية أنَّ هذه النوعية من المشركين عادة لا يحبّون أن يكون لديهم بنات ويحبّون الصبيان، فإن كانوا يعتبرون الصبيان صفوة وأفضل من البنات، فبأي منطق جعلوا لله تعالى البنات ولم يجعلوا له صبياناً!

كما ترى، اختارت السورة نموذجاً بارزاً عن سخافة الاعتقادات المشركة به تعالى، والبداية مع فكرة تقسيمه تعالى لأجزاء، بالانقسام أو الحلول... هذه تفاهة فكرية، وتنتقل السورة إلى الذين جعلوا له تعالى أولاداً، واختارت منهم الذين جعلوا كل أولاده تعالى من البنات، وبعضهم قالوا عن الملائكة أَنَّهُمْ بناته تعالى كما سيأتي في كلام الآية 19 من هذه السورة، وبعضهم اخترع من خياله كائنات لا وجود لها وقال أنَّها بنات له تعالى، وستكمل الآية التالية مع هذا النموذج السخيف من الشرك، وبذلك نرى عموم سخافة الشرك به تعالى، سواء من جعل له تعالى ولداً ذكراً أو بنتاً.

نلاحظ صياغة الكلمات لوحدها تردّ على سخافة الشرك به تعالى، وهي حالة مشابهة للذي نقول له: هل تسمع ما تقوله؟ فلو راجع ما يقوله وانتبه لمعناه، لما احتاج للآخرين حتى يدلّوه على الخطأ فيما يقوله. هذا شيء منتشر بكثرة في القرآن ومنه الآية 78 من سورة يس {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا -وَنَسِيَ خَلْقَهُ- قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ}، هذا الذي يسأل عن الذي سيحيي العظام ألم يسمع نفسه ماذا يقول؟ هو حيّ، وسيموت، فقبل أن يسأل عن الذي سيحييه مرة ثانية ألم يسأل نفسه عن الذي أحياه أول مرّة! لأن السؤال عن الإحياء مرة ثانية وكأنه سؤال عن إحياء من الصفر لشيء لم يكن حيّاً من قبل! من لا شيء أحياه تعالى أول مرّة، فأين المشكلة بإحيائه مرة ثانية!

نرجع للآية هنا، حيث يستحيل أن يلد سبحانه، وكل الكائنات غيره هي مخلوقات هو تعالى خلقها، ويصيرون عبيده، ولا معنى لأن يكون واحدٌ منهم جزءاً منه سبحانه كما قرأنا في الآية السابقة، فبقي فلسفة الشرك به تعالى على معنى

"اتخاذه" سبحانه من "مخلوقاته" ولداً، ليعتبر واحداً أو مجموعة منهم كأولاد له سبحانه. هم مخلوقات ولكنه تعالى يعتبرهم كأولاد له، وللأسف فمن المنتمين لدينه تعالى لدينا بعض المسيحيين الذين قالوا عن النبي عيسى(ع) أنَّهُ تعالى اتخذه ولداً. حتى تريك السورة سخافة هذا الاعتقاد اختارت المشركين الذين قالوا أنَّهُ تعالى خلق إناثاً واتّخذهم كبنات له. وهكذا يصير لتلك البنات مقام ألوهية، أو ربوبية من مستوى إلهي، أو ربوبية من مستوى فوق مستوى البشرية أو... وهكذا يعبدونه تعالى ويعبدون بناته.

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ{17})
{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم}، فحملوا له الخبر "الجيّد"، {بِمَا}، بالذي، {ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا}، ضرب فأقام ونسب، للرحمان للموصوف بالعناية بمخلوقاته، حيث نسب له تعالى البنات، وإذا أخبروا هذا المشرك بولادة بنت له مثل البنت التي قال أنَّهَا بنت لله تعالى، عندها، {ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا}، فكان وجهه عادياً ولكن بعد ولادة بنته تحوّل وبقي وجهه ممتقعاً غامق اللون من شدّة انزعاجه، {وَهُوَ كَظِيمٌ}، فشعوره بالانزعاج محبوس في داخله ولا يذهب عنه حتى لو بكى أو صرخ أو كسّر ما حوله.

إذاً في الأساس، فإن ولادة البنت بشارة لأبيها، ولكن هذا المشرك المعتوه لا يحبّ البنات، فيغضب بعنف من ولادة بنت له! وفي نفس الوقت الذي يعتبر فيه الصبيان صفوة على البنات، جعل لله تعالى بنات! فكيف ذلك! فلو كان الصبيان أفضل كما يقول فلماذا سيتّخذ سبحانه البنات ولم يتّخذ تعالى لنفسه صبياناً!

نتذكّر دائماً من القرآن أنَّهُ تعالى اصطفى السيدة مريم(ع) كما اصطفى الأنبياء، وطهّرها واصطفاها على نساء العالمين كما تقرأ في الآية 42 من سورة آل عمران {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ}، وتفضّل على نبيّه ورسوله وحبيبه محمّد(ع) ببنت وحيدة بقيت حيّة ومات أولاده الذكور وهم صغار السنّ، ولم يميّز سبحانه الذكر عن الأنثى إلا بالتقوى كما ورد كمثال في الآية 124 من سورة النساء {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا}، فأصلاً عنده تعالى لا يوجد فرق في القيمة بين ذكر وأنثى، بل يوجد فروقات في الخلقة من القوة العضلية للرجل وحبل النساء... يتبعها فروقات في التكاليف الإلهية، فقط لا غير.

لاحظ العقلية الذكورية في مسألة نسبتهم له تعالى البنات، وهي عقلية خطيرة ترى آثارها حتى في العلماء المنتمين لدينه تعالى، فبغالبيتهم لم يروا أنَّهُ تعالى في قرآنه عرض الشؤون التي تتعلّق بالحقوق التشريعية للإناث منطلقاً مما للإناث حتى يضمن لهن حقوقهن، وكمثال عن ذلك الآية الأولى من سورة المجادلة {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ...}، ومثله الكلام في الآية 11 من سورة النساء {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ...} فالكلام عن حصص الإناث من المواريث للحفاظ على حقوقهن... وهذا ليس مورد بحثنا هنا ولكن الكلام جرّ الكلام.

الآيات هنا اختارت نموذج المشرك الذي لا يحب أن يكون له بنات، ومعلوم أنَّ المشركين ليسوا كلّهم بهذه العقلية، وبالتحليل فهذا المشرك يحبّ أن يكون لدى الآخرين بنات، فهو يريد الزواج وتزويج أولاده... ومن هذه العقلية نسب له تعالى البنات كشيء ترفي خيالي يشعره هو بالسعادة لو كان لديه مجموعة من الإناث حوله وتابعون له... وفي نفس الوقت لا يريدهن بناتٍ له، فحوّر ما تخيّله بشكل يناسب هوسه ونسب له تعالى البنات...

أيضاً للأسف ترى آثار هذه الأفكار الهوسية في أدبيات بعض المنتمين لدينه تعالى، حيث رسموا ونحتوا ما يعبّر عن الملائكة (ع) كإناث عاريات أو شبه عاريات!

(أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ{18})
{أَوَمَن يُنَشَّأُ}، هل من ينشأ فيتربّى وينمو، {فِي الْحِلْيَةِ}، في الأشياء التي تجعله أحلى من الزينة، وهذه عادة تربية الإناث بحسب طبيعة خلقتهنّ، {وَهُوَ فِي الْخِصَامِ}، في الخلاف الذي لا يتّفق فيه مع الطرف الآخر ويكون بينه وبين

الطرف الآخر نفور أو كره أو عداوة، {غَيْرُ مُبِينٍ}، حيث يغلب عليه الانفعال والعاطفة فلا يساعده كلامه على التغلّب على الآخر بقوة وصلابة، وليس مُبِيناً أو واضحا ليثبت للآخرين أن الحقّ معه.

هذا الوصف هنا ينطبق على الإناث بحسب طبيعة الخلقة، وهو من كلامه تعالى، ليعرض لنا مدى سخافة وتفاهة عقلية المشركين. الذين يعتبرون البنات أقل قيمة، ويفضلون لأنفسهم الذكور لأنهم أقدر على المخاصمة والإبانة بقوة، كيف يستقيم في عقولهم أن ينسبوا له تعالى ما يكرهونه لأنفسهم، وما يعتقدون أنه الطرف الأضعف في المواجهات!

إضافة لذلك، زعموا أن الملائكة (ع) هم بنات الله، وهنا يظهر تناقضهم الثاني، حيث أطلقوا أحكاما بشرية محضة على الملائكة. معلوم أن الملائكة كائنات في غاية القوة والبأس، ولا يناسبهم أصلا هذا الوصف الأنثوي بالضعف في الخصام، بينما المشركون أسقطوا صفة الضعف هذه على ملائكة أقوياء، واختاروا له تعالى أولادا ضعافا في الخصام بحسب زعمهم. هل يعقل أن ينسبوا للملائكة الأقوياء صفة الضعف والميل للحلية، ثم ينسبوا هذا المزيج المشوه من الأفكار إلى الخالق جل وعلا!

بعبارة أخرى، تبيّن الآية التناقض الصارخ في تفكيرهم، فهم من جهة يحتقرون من ينشأ في الحلية ولا يقوى على الخصام، ويرون الذكور أفضل منهم، ومن جهة أخرى يجعلون هذا المخلوق الضعيف جزءا من الإله وولدا له! هذا إنكار صريح لوحدانيته تعالى، واستهزاء بعقولهم هم قبل أي شيء آخر.

(وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ{19})
الآية 16 السابقة كانت عُمُومِيَّةً لكل من قال عن أي كائن حقيقي أو وهمي أنهم بنات له تعالى، وهنا ستتكلم الآية عن المشركين الذين:

{وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ}، قَالُوا عن الكائنات الموصوفة بأنها تملك شيئا، والمشهور المعلوم من القرآن أنهم كائنات تملك قدرات عالية ومخلصة مطيعة له تعالى، واشتقاقا مما تملكه من صفات عالية التصق بهم تسمية "ملك، ملائكة"، {الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ}، الذين مَفْرُوضٌ منهم طاعة الذي يعتني بهم، جَعَلَهُمُ المشركون، {إِنَاثًا}، فتيات بنات نساء...

{أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ}؟ هَلْ كانوا حاضرين موجودين حين ركّبهم وألّفهم سبحانه فرأوا أنه جرى خلق "تركيب" الملائكة (ع) بصفات أنثوية؟ وَهَلْ هم يستندون بِقَوْلِهِمْ عن أنوثة الملائكة على شيء قوي لهذه الدرجة، لدرجة أنهم حضروا أثناء خلقهم؟

{سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ}، فهم يقولون إِنَّ الملائكة(ع) إناث، وهذه شهادة منهم، شهادة كاذبة، وسنكتبها، {وَيُسْأَلُونَ}، فيتعرضون في يوم القيامة لمن يعبّر لهم عن إرادته للحصول على جواب عن أقوالهم، حَيْثُ سَوْفَ يسألهم تعالى عنها في يوم القيامة، فبأي حق وعلى أي أساس يقولون إِنَّ الملائكة(ع) إناث!؟

ننتبه، حَيْثُ فِي العديد من اللغات يوجد استنساب لأهل اللغة لتذكير وتأنيث الكلمات، فَفِي العربية نقول: هذه الشمس. هذه الرجال... فنستذوق اللفظ مؤنّثا. ونقول: هذا القمر. فنستذوق لفظ الكلمة كونه مناسبا ليكون مذكرا. وهذا تأنيث وتذكير لفظي وليس حقيقيا، فلا الشمس أنثى ولا الرجال أنثى... ولا القمر ذَكَرٌ. وكلمة ملائكة نفس الشيء، فهي كلمة مؤنّثة لفظيا، ولا نقول إِنَّ الملائكة ليسوا ذكورا ولا إناثا، لا، فأصلا لا معنى للذكورة والأنوثة بالنسبة للملائكة(ع) فهم نوع واحد، ولا يتزاوجون.

كما تلاحظ فَإِنَّ الآية وصّفت الملائكة بأنهم عباد لِلرَّحْمَنِ، وهذه الجملة تعني أنهم مخلوقاته وهم عبيده وَمَفْرُوضٌ منهم طاعته، وبناء عليه فما معنى قول من قال إِنَّهُمْ بناته تعالى معتبرا لهم مقاما أُلُوهِيًّا أو ربوبيا من مستوى إلهي؟ وهنا تنتقل الآية للإضاءة على سخافة كلام المشركين، أَصْلًا مِنْ أين علموا وكيف علموا أن الملائكة بنات؟ بغض النظر عن قول بعض المشركين عن اتخاذه تعالى الملائكة كبنات له، لِنَنْسَ ذلك للحظة وَنَسْأَلْ: كيف ومن أين علمتم أنهم إناث؟ حين تسأل الآية هنا إن كانوا شهدوا خلق الملائكة ورأوا أنهم بنات، فهي لا تقصد بالخصوص سؤالهم إن كانوا واقفين يرون خلق الملائكة في لحظة خلقها، بل تقصد أن كلامهم اليقيني عن أنوثة الملائكة يستدعي أن يكونوا كلهم أو أحدهم هناك حين وقع حدث خلق الملائكة.

تفهمها بالبساطة مثل قول أحد ما عن أخيك أن معه جائزة نوبل للكيمياء، فتقول له: لا كلامك غير صحيح. فيعود ويؤكّد صحّة كلامه نافيا كلامك... وَآخِرُ شيء تسأله عنه: هل كنت حاضرا شاهدا في حفل توزيع الجوائز ورأيت أخي ينال واحدة ولهذا السبب أنت متيقّن من كلامك وبالتالي أَنَا معلوماتي غير صحيحة؟

هنا الكلام نفس الشيء، فما معنى تأكدكم من كون الملائكة إِنَاثًا؟ هَلْ أنتم واثقون من ذلك مستندين على كونكم كنتم حاضرين حين خلقهم سبحانه؟ في هذه الحالة سيكون معكم حقّ وأي أحد يجادلكم فهو يماري، لِأَنَّكُمْ تتكلمون عن شيء شهدتموه، فهل هذه هي حالتكم؟

لاحظ شيئا مهما، حَيْثُ إِنَّ الآية هنا فصلت بين من قال إِنَّهُ تعالى اتخذ بَنَاتٍ آلهة وأربابا، والذي قال ذلك فهو مشرك ومعلوم أن له على شركه عَذَابًا أَلِيمًا... وهو يكذب عليه تعالى، سبحانه لم يتخذ ولدا، وله على كذبه ذلك عذاب أليم أيضا... وهنا تكملة الكلام عن الادعاء أن الملائكة إناث، وهذه المسألة لوحدها وبدون الادعاء أنهم أولاد له تعالى أو آلهة أو أرباب... سيسألهم سبحانه عنها.

يبدو واضحا لي فصل الآية هنا للمسألة وَحْدَهَا، فهي على علاقة بما سبق من كلام، ولكنها مسألة منفردة أيضا، حَيْثُ زوّدنا سُبْحَانَهُ بالعقل، فما معنى تعطيله؟ وما معنى رمي الكلام الفارغ في أي موضوع كان؟ وَمِنْ عمومية مفاهيم القرآن عن الحقّ والباطل والخير والشرّ، والصلاح والفساد، نفهم أن أي قول كاذب هو سوء، وأي قول غير مدروس أو غير مستند على شيء يدعمه، مع طرحه بأنه صحيح، فهو سوء، وهناك حساب على كل سوء نفعله مهما كان حجمه أو نوعه.

إذا كان بعض الكلام سوءه مَحْصُورًا في أمور تافهة، فبعض الكلام سوءه أكبر من ذلك، لَوْ كانت العقلانية منتشرة بين المشركين، وبدأت بالكلام معهم من الصفر وسألتهم كيف علموا أن الملائكة إِنَاثٌ بغض النظر عن اعتقادهم أَنَّهُمْ بنات له تعالى، لَوْ في هذه المسألة الصغيرة التافهة، انتبهوا وتراجعوا، لما أكملوا داعمين لفكرة أنهم بنات له تعالى... وهكذا ترى أن مسألة صغيرة تافهة يصير لها أثر كبير إذا بنوا عليها كلاما آخر...

(وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ{20})
كَنُمُوذَجٍ آخر عن إسرافهم، قالوا: {لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ}، هناك خيارات عديدة أمام الذي يعتني بنا ليمنعنا من التصرّف كعبيد للملائكة(ع) أو لغيرهم إن لم تكن عبادتنا لهم صحيحة، أو إذا لم يكن رَاضِيًا عن عبادتنا لهم.

بعبارة ثانية إِنَّ الرَّحْمَنَ يرانا نعتبر الملائكة(ع) أو غيرهم آلهة، ونتصرّف على أننا عبيد لهم، وَنَتَصَرَّفُ على أساس أَنَّنَا مَفْرُوضٌ منّا طاعتهم، فَلَوْ لم تكن عبادتنا لهم صحيحة أو لم يكن سبحانه مُوَافِقًا على عبادتنا لهم لما كان تركنا نعبدهم، ولمنعنا بأي طريقة مناسبة.

{مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ}، كيف علموا بما شاءه تعالى؟ وأنه تعالى شاء لهم بعبادتها؟ وكيف علموا أنه تعالى لو شاء منعهم عن ذلك لمنعهم بالقوّة أو بأي طريقة أخرى يجبرهم فيها على ترك عبادة الملائكة أو الأصنام أو الكواكب... والآية التالية ستسأل إن وصلهم كتاب منه تعالى وفيه خبر منه سبحانه عن صحّة عبادة الملائكة(ع) أو غيرها، لأن وصول كتاب منه تعالى هو الحالة الوحيدة الممكنة في حالتهم ليعلموا أنه تعالى يسمح بعبادة غيره، عَلَى أي علم ومهما كان نوعه علموا أنه تعالى يرضى بذلك؟ هَلْ قال لهم تعالى ذلك وَحْيًا لهم؟ أو قالته لهم الملائكة نَقْلًا عنه تعالى؟ أو قالته لهم آلهتهم... أو لديهم تواصل ما بطريقة ما مع علمه وما يريده تعالى، أو ...

{إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ}، هَذَا تَخْرِيصٌ وَهُوَ كَلَامٌ عن تخمين واحتمال فارغ وليس مَبْنِيًّا على علم، حَيْثُ لَا اتِّصَالَ لهم به تعالى ولا اطلاع لهم على علمه تعالى ولا بأي طريقة أخرى ممكنة ليعلموا بقراره تعالى أنه شاء لهم عبادة أحد من مخلوقاته، ومن ناحية ثانية مِنْ أَيْن علموا أنه تعالى بالقوة وبإجبارهم سيمنعهم عن عبادة الملائكة وغيرها لو كانت عبادتها غير صحيحة؟

تُلَاحِظُ صياغته تعالى لكلام المشركين بحيث يجعله نُمُوذَجًا جامعا لكل ما يخطر ببالهم، إِنَّ الْآيَةَ هُنَا لا تنقل لنا كلام جماعة من الناس قالوا مع بعض أو متفرقين: {لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا}... بل تجمع عموم أفكارهم وتصيغها بعبارة،

وَتَضَمَّنَتِ الصياغة المعنى التالي: إِنَّ اللَّهَ رَحْمَنٌ، ولو كانت عبادتنا للملائكة أو لغيرهم سُوءًا وعليها عقاب، فَالرَّحْمَنُ لن يتركنا نتعرّض للعقاب، لِأَنَّهُ رَحْمَنٌ، وطالما نحن نعبد الملائكة وغيرها هَذَا يَعْنِي أنه تعالى يرضى بذلك. وَيَأْتِي السُّؤَالُ: صحيح أنه تعالى رَحْمَنٌ ولكن أنتم على ماذا استندتم بأنه تعالى شاء لكم عبادة غيره وَهَلْ لديكم علم بذلك؟ وَبِأَيِّ طريقة ممكنة للعلم صار لديكم علم أنه تعالى شاء لكم عبادة غيره؟

يُمْكِنُكَ أن تضرب أمثلة لا حصر لها، كَأَنْ أَقْتُلَكَ وأقول إِنَّهُ تعالى لو شاء لما تركني أقتلك. وكما ترى إِنَّ هَذَا النَّوْعَ من الكلام نسميه سفسطة وتسميه الآية تَخْرِيصًا، ولهذه العقلية الفاسدة بذور خطيرة ترى أثرها فينا عموما، حيث نرمي على مشيئته تعالى أُمُورًا تلغي واقع حال مشيئتنا نحن وكأننا بلا إرادة وبلا تمييز للخير من الشرّ. ونفس العقلية الفاسدة خلف السؤال عن حالة قتل الأطفال في الحروب وَنَسْأَلُ كيف سمح تعالى بذلك؟ ونقصد بذلك لومه تعالى على سوء ما حصل لأنه تركه يحصل ونحن نلغي بذلك المسؤولية عن الفاعل المجرم، ونلغي المسؤولية عن أنفسنا أننا لَمْ نَفْعَلْ ما يمنع حدوث ذلك...

بقي شيء، إِنَّ مُخْتَلِفَ تصريفات كلمة "شاء" في القرآن، هِيَ لُغَوِيًّا تعني: فعل أو نوى شَيْئًا لنفسه أو لغيره من خيارات عديدة غير متساوية، وكان يمكن اتخاذ قرارات أخرى غير الذي استقر عليه الرأي، أو هناك شيء يجري ولا يزال احتمال حصول شيء آخر وارد، حَيْثُ تَحْتَمِلُ دخول "لو" شاء. وبهذا المعنى يمكنك فهم كل الآيات التي وردت فيها كلمة من تصريفات "شاء يشاء تشاؤون..." بكل بساطة وبدون تعقيدات، إِنَّ الْمُشْكِلَةَ التي أدّت لاختراع الناس أَبْحَاثًا عن المشيئة الإلهية أنهم تركوا المعنى البسيط للكلمة وخلطوا بين وصف حالة تطبيقاتها كفعل، وَصَارُوا يفسرونها على معنى الرضا أو الإذن أو السماح أو الرفض أو الكره أو ... بينما أصل المعنى عن فعل أو نيّة لاختيار شيء من بين خيارات.

(أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ{21})
{أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ}، هَلْ أعطاهم سبحانه كَلَامًا عن موضوع تامّ من قبل هذا القرآن، والسؤال عن مستندهم حين عبدوا الملائكة(ع) وغيرها هَلْ وصلهم مستند إلهي كَكَلَامٍ عن الموضوع بشكل تام وفيه أنه تعالى اتّخذ من الملائكة أو غيرهم(ع) بنات له، وسمح سبحانه بعبادة الملائكة(ع) أو غيرهم؟ أو مكتوب فيه أنه تعالى لو لم يرض بعبادتهم للملائكة (ع) أو غيرهم لكان منعهم عن ذلك بطريقة أو بأخرى، {فَهُمْ بِهِ}، بالكتاب، {مُسْتَمْسِكُونَ}، يمسكونه بقوّة ولا يتخلّون عمّا فيه، ولذلك يبررون أنه تعالى راض عن عبادتهم للملائكة أو عبادة غيرهم.

أَيُّ شَيْءٍ نقوله عنه تعالى فَلَا يمكننا تخمينه من رأينا، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ لدينا علم به، والآية السابقة سألت عن عموم أي طريقة ومهما كان نوعها والتي اعتمدوا عليها للعلم بما شاءه تعالى، وهنا الآية أكملت الكلام بناء على واقع الحال أن الطريقة الوحيدة المعروفة لوصول علم إلهي لهم هِيَ عَبْرُ كتاب منه تعالى، وهذا القرآن كتاب منه سبحانه ويقول وبصراحة إِنَّهُ تعالى ليس له ولد، لا بنت ولا صبي ولا غيره، وسبحانه لا يرضى عن عبادة غيره كائنا من كان، هَلْ وصلهم كتاب منه تعالى قبل هذا القرآن وفيه أَنَّهُ سبحانه يرضى عن عبادة غيره؟ أو فيه أَنَّهُ تعالى إن لم يكن رَاضِيًا عن شيء فسيتدخّل هنا في الدنيا وبالقوة ليغيّر ما لا يرضى عنه؟... لا، إِنَّ كُلَّ الْكُتُبِ التي وصلتنا منه تعالى وآخرها هذا القرآن تَقُولُ إِنَّنَا في دار الفتنة والبلاء، ومتروكون لما نختاره نحن سواء أكان تعالى رَاضِيًا عنه أو غير رَاضٍ، وبحسب اختياراتنا سيكون حسابنا في الآخرة... وفي كتبه تعالى منع عن الشرك به بكل أنواع الشرك، وهذه طريقته تعالى في إعلانه عن معارضته لعبادة الملائكة أو غيرهم.

(بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ{22})
{بَلْ قَالُوا}، لَا عِلْمَ لَهُمْ مباشر أو غير مباشر منه تعالى بأنه يسمح بعبادة الملائكة أو عبادة غيرهم، وليس لديهم كتاب منه تعالى يخبرهم عن رضاه بعبادتهم للملائكة أو غيرهم:

{إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا}، أجدادنا، {عَلَى أُمَّةٍ}، على رأي مشترك بينهم ولهم امتداد تاريخي فيه، إِنَّ آبَاءَنَا عَبْرَ تَارِيخِهِمْ عبدوا غيره تعالى، {وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ}، ونحن على ما بقي من دينهم وثقافتهم وسلوكهم... {مُهْتَدُونَ}، نمشي على الأشياء الصحيحة التي كانوا عليها والتي توصلنا لغاية صحيحة إلى الحقّ.

لَكِنَّ نفس الكلام الذي قالته الآيات سابقا لكم، كَيْفَ يُجِيبُ عنه آباؤكم لو سألناهم عن دليلهم على عبادة غيره تعالى؟ هَلْ لديهم علم منه تعالى أو وصلهم كتاب منه تعالى يسمح بعبادة الملائكة(ع) أو غيرهم؟ مَا الَّذِي استند عليه آباؤكم في عبادة غيره تعالى، أو بقولهم عن الملائكة أو عن كائنات أخرى "حقيقية أو وهمية" أنها بنات له عزّ وجلّ؟ مَا دَلِيلُهُمْ؟ وَمَا حُجَّتُهُمْ؟ لا شيء، وها أنتم ترمون أفعالكم عليهم فقط لإسكات من يتحدّث معكم مُسْتَنِدًا على كتاب إلهي وهو هذا القرآن.

سَتَجِدُ في بقية السورة بقصصها عن الأنبياء(ع) كَلَامًا يردّ على قولهم أَنَّهُمْ وجوا آباءهم على هذا دين، هَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ، والكلام هنا مع النموذج أهل مكّة المعروف جدّهم النبي إسماعيل(ع) ابن الشخصية المشهورة جدا النبي إبراهيم(ع)... هَؤُلَاءِ هُمْ آبَاؤُهُمْ، ومشهورون بالتوحيد، بل مشهورون بكونهم أَسَاسًا تَارِيخِيًّا نَاشِرًا لدين التوحيد بين الناس.

(وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ{23}) {وَكَذَلِكَ}، بهذا التحجّج بآثار شرك الآباء، {مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ}، أيها الرسول محمّد(ع)، {فِي قَرْيَةٍ}، في مجتمع من الناس، {مِنْ نَذِيرٍ}، من شخص ينذرهم وَيُخْبِرُهُمْ عن خطر حتمي على الشرك وهو العقاب في جهنّم، {إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا}، قال الذين يشعرون بالامتلاء والاكتفاء وَصَارُوا يتصرفون بلا مبالاة وكأن ما يقوله الرسول هو شيء غير ضروري، قالوا:

{إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ}، أَجْدَادُنَا كان دينهم مثل ديننا الحالي، عُبَّادُ مَلَائِكَةٍ(ع) أو على عبادة الأصنام، أو على عبادة الكواكب... ولهم امتداد تاريخي على هذه العبادة تَرَكُوهَا لنا، ونحن على ما تركوه مقتدون نَعْتَبِرُهُ قدوة وَيُعْجِبُنَا ما فعلوا وَنُقَلِّدُهُمْ ونفعل مثلهم، وَلَا يُمْكِنُ أن نبدّل ما ورثناه عنهم لأن قيمته عالية عندنا.

هو نفس الكلام الذي يقوله المشركون الذين في عصرك أيها الرسول محمّد(ع)، وَمَا تَسْمَعُهُ منهم سَمِعَهُ الرسل من قبلك من أقوامهم، إِنَّ هَذِهِ الْحُجَّةَ الواهية يتمسّك بها أي شخص لم يتمكّن من الدفاع عن عقيدته بالدليل.

كَلِمَةُ قرية تعني المجتمع من الناس، كَبِيرًا كَانَ أَوْ صَغِيرًا، لَا عَلَاقَةَ لَهُ بمصطلحنا اليوم عن "مدينة وقرية" حيث نقصد بالقرية: بيوت قليلة وعدد سكان قليل. هَذَا اصْطِلَاحٌ جديد، وليس المعنى اللغوي العربي الأصلي لكلمة قرية.

نَتَذَكَّرُ أيضا من القرآن أَنَّ الترف ليس حَصْرًا على الأغنياء، إِنَّ الْغَنِيَّ مُتْرَفٌ بماله وأملاكه ودينه... والفقير مترف بوقته بعقيدته بشهوته... وأيضا يكون مُتْرَفًا بالقليل الذي يملكه من المال، إِنَّ أَيَّ إِنْسَانٍ قام بشيء زائد عن حاجته أو عن حدّه العقلاني أو غير ضروري مُنْطَلِقًا من الاكتفاء والاستغناء، فهو مترف، وهنا الترف بالشرك بعبادة الملائكة (ع) والشرك بعبادة الأصنام والكواكب والأرواح... إِنَّهُمْ مُسْتَهْتِرُونَ بقضية أساسية من هذا المستوى لأنهم لا يشعرون بأي خطر منها، كمن يتعامل مع الترف الفكري بالبحث في أُمُورٍ لا تطبيق لها ولا تأثير على الواقع، ولا يهمّهم الإنذار من خطورة ما سينتج عليهم من شركهم.

سَتَرَى فيما سيأتي من قصص الأنبياء ما يشير لهذا الترف عند كلام السورة عن فرعون كأبرز نموذج للترف عبر تاريخ البشرية.

هُنَا حديث الآيات عن الشرك بعبادة الملائكة(ع) وغيرهم بَيَّنَتْ بطلانه، وضربت مَثَلًا عن المشركين السابقين بشكل عام، سواء عبدوا الملائكة(ع) أو الجنّ أو الأشخاص أو الأصنام... إِذْ لَيْسَ مُهِمًّا ماذا عبدوا، المهم أنهم إذا واجهتهم بالعقل والمنطق والحجج والأدلة ولم يستطيعوا الرَّدَّ، فعندها يغلقون الكلام بأنهم مقتدون على آثار آبائهم المحترمين الموقرين ولن يتغيّروا عن دينهم، فمن أنت حتى تغيّر دين آبائهم!

ضع في بالك دائما الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى مَعَانِيَ قرآنية رائعة، وَتَصَوَّرْ شَخْصًا أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، هُنَا تحذّره من سلوك الطريق السيّء، إِذْ هو حاليا ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية "وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا

تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ..."، والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران "لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ...".

أمّا إذا سلك طريق الخطر، فَتُنْذِرُهُ، لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. إنَّ الْإِنْذَارَ تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حَتْمًا ما يضرّه، تُنْذِرُ الكافر حيث هو في حالة ستسبّب له العقاب حَتْمًا، وَرَدَ هذا كثيرا في القرآن. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يتلبّس بما سيسبّب له الضرر، تُحَذِّرُ المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

وهذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، إذْ يَقُومُ المؤمن بِعَمَلٍ وَاحِدٍ مخالف لدينه تعالى، تُنْذِرُهُ من العقاب الحتمي عليه كحالة المسيحيين المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف "وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا"، وعموم المؤمنين المشمولين بالتهديد من فكرة فعل السيئات على أساس أن يحمل أحد ما السيئات عنهم "وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ"، والمشمولين بالتهديد إن لم يتغيّروا نحو الأحسن موعودون بالمغفرة كما ورد في الآية "إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ"، ونفس المفهوم في الآية 45 من سورة النازعات "إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا".

(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ{24})
{قَالَ}، عموم أي رسول أرسله تعالى لينذر أي قرية كانت:

{أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ}؟ حتى لو جئتكم بأشياءَ صحيحة توصل لغاية صحيحة أصحَّ من طريق أجدادكم فهل ستبقون على آثارهم ولن تتبعوا هداي؟

{قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ}، نحن بما تقول أنك تنقله منه تعالى، {كَافِرُونَ}، منكرون، ولن نعتقد به طالما يخالف عقيدة أجدادنا، ولن نقبله حتى لو جئتنا بمليون دليل على صحّته ومليون دليل على فساد ديننا، ولن نتغيّر.

تلخّص الآيات ما ورد في بداية السورة من كلام إلهي يردّ فيه على المشركين "المسرفين"، حيث بيّن تعالى لهم بكل وضوح أن الشرك غير صحيح، ونقل الرسل هذا الكلام لأقوامهم، وتبيّن أنه أهدى من آثار أجداد المشركين، ورغم ذلك موقف المشركين واحد وهو الإسراف: نحن لم ولن نؤمن لكم مهما قلتم، ومهما برهنتم ومهما هدّدتم بعقاب إلهي...

ما معنى عقيدتهم التي لا تهتم بالحقّ والباطل؟ وما معنى بقائهم على الشرك بعدما تبيّن لهم فساده؟ أهكذا يكون الدين؟ حتى لو برهنت أن دينهم خطأ فهم لن يغيّروه! وهكذا ترى معنى كلمة الإسراف والترف في الدين.

تذكّر أن محور السورة حول إسرافهم العقائدي والسلوكي وأنه تعالى لن يتركهم بلا ذكر بالرغم من سوء حالتهم الفكرية والتشريعية والسلوكية.

(فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ{25})
{فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ}، إذ أخطؤوا، وبيّت سبحانه لهم نيّة الضرر بها وعاقبهم بسبب ما فعلوه. {فَانظُرْ}، بعد الانتقام وجّه اهتمامك العام، {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ}، كيف كان ما عقب، وما أتى بعد، وكيف هي نهاية، {الْمُكَذِّبِينَ}، الذين لم يصدّقوا بدينه تعالى، ولم يصدّقوا بتوحيده ولا بإنذاره، ولم يصدّقوا رسله ولا كتبه.

وتعلم من القرآن عن العديد من الأقوام التي انتقم منها سبحانه، كقوم النبي نوح(ع) وعاد وثمود ومدين وقوم فرعون وأصحاب الرسّ وقوم تبّع... دمّرهم وأماتهم سبحانه هنا في الدنيا قبل الآخرة.

إذا، هذه نهاية الكفر بدينه تعالى، فإن ترككم سبحانه هنا في الدنيا بلا عقاب فهذا لا يعني أنه تعالى راض عن دينكم، وقد سبق في التاريخ نماذج عديدة مشهورة أصابها الدمار لأنها كفرت بالحق وفعلت السوء، وهذا دليل تاريخي ملموس أنه تعالى لا يرضى لعباده الكفر.

وسبحانه لا يحتاج حتى لهذا الانتقام ممن كفر، فلن يصيبه تعالى الاضطراب ولا القلق إذا لم ينتقم، لأن الانتقام بالنسبة لنا نحن البشر يرتبط بالمشاعر، نحن نرتجف ونضطرب ونتضايق إن لم ننتقم، ولكن بالنسبة لله تعالى فالانتقام هو أخذ الحقّ منهم، إذ كفروا به تعالى، وأهانوا مكانته، واستهتروا وسخّفوا كلامه... ومحاسبتهم على هذه الأمور بالتعذيب هو انتقام منهم لقلّة أدبهم على المقام الإلهي، حيث نفس الكلمات التي نستعملها نحن والمرتبطة بالمشاعر، كالحبّ والغضب والانتقام... تنطبق عليه تعالى ولكن كطريقة في التصرّف، كترجمة عملية، وليس مثلما تنطبق علينا نحن بالانفعال والمشاعر، والأحاسيس بالصدر والجسد، والتعابير بالوجه وبالبكاء أو السرور أو الضحك... نحن يرتبط الحبّ والغضب والانتقام فينا بالمشاعر، ولكن تعالى فقط بشكل عملي يوصف بالحبّ فيعتني، ويوصف بالانتقام فيأخذ حقّه الإلهي من المشركين، ويوصف بالغضب فيعذّب...

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ{26})
{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ}، وإبراهيم (ع) شخصية تاريخية مشهورة جداً، والنموذج الذي تتحدّث عنه ومعه هذه السورة هم أهل مكّة، وغالبيتهم من أحفاد النبي إبراهيم(ع) من ولده النبي إسماعيل(ع)، فتعرض لنا السورة أهم جانب من تاريخه (ع) لنرى أنه لم يكن مشركاً، فكيف يقول أهل مكّة أن دينهم هو دين آبائهم على أساس أن كلّ أجدادهم كانوا مشركين بينما جدّهم الأوّل قد هاجر إلى منطقتهم مفارقاً قومه المشركين الذين حاولوا قتله لأنه يوحّده تعالى!

قال إبراهيم (ع) لأبيه وللناس الذين ينتمي (ع) لجمعتهم فكانوا يعيشون معه في نفس الزمان والمكان ومتفاعلين مع الدين بعقيدة الشرك:

{إِنَّنِي بَرَاء}، لا ارتباط لي ولا علاقة، {مِّمَّا تَعْبُدُونَ}، من الأشياء التي تتصرفون على أنكم مفروض منكم طاعتها كآلهة، فتصلّون وتنذرون وتتقربون ....لها، فأنا لا علاقة لي بعبادتها.

نلاحظ دائماً في القرآن أثناء حديثه عن النبي إبراهيم(ع) من بداية معارضته لقومه حتى رميهم له (ع) في النار، أنه كان شخصاً وحّده تعالى انطلاقاً من سلامة قلبه، بتعبيرنا الدارج: على الفطرة، فلا تجد في القرآن تصريحاً عن نزول وحي عليه (ع) يعلّمه التوحيد، ولا كلام عن نزول كتاب عليه (ع)، ولا كلام عن تعلّمه (ع) الدين الصحيح من نبي قبله، أو من مؤمن موحّد... وتجد فقط فتى اسمه إبراهيم يعارض قومه المشركين إلى أن رموه في النار.

ولفهم هذه الفكرة المهمّة جداً علينا رمي ما في أذهاننا من تصورات غير صحيحة عن حياة الأنبياء، فنحن نتصوّرهم يرون الملائكة(ع) دائماً أو غالباً، ونتصوّر الملائكة (ع) ترافقهم في كل لحظة وتتحدّث معهم، ونتصوّر الوحي الإلهي لا ينقطع عنهم، ونتصوّر أن كل صغيرة وكبيرة في حياتهم ينزل فيها وحي، ونتصوّرهم يشعرون بامتلاكهم لإمكانات وقدرات عالية، فيمكنهم طي الأرض أي الانتقال من مكان لآخر بسرعة عالية، ويمكنهم الاطلاع على الغيب ساعة يشاؤون، ويعلمون ماذا سيجري معهم، ويمكنهم التحكّم بالبيئة والأشياء من حولهم "ما يسمّيه البعض بالولاية التكوينية"... كلّ هذه التصورات عن كلّ الأنبياء تمنعنا من فهم ما يقوله القرآن عنهم(ع)، فهنا السورة وغيرها تريدنا أن نرى نموذجاً عن شخص عادي مثله مثلنا، وهو لم يستطع الاقتناع أو التماشي أو بلع عبادة الأصنام والكواكب والملائكة (ع) والجنّ...

والأهمّ من ذلك كلّه فهو (ع) لم يقلّد أباه ولا مجتمعه، ولم يستسخف نفسه ويخترع معهم آلهة ويتصرف على أنه عبد لتلك الآلهة، فهو (ع) شخص بحث عن منشأ وسبب عبادة أي شيء غير الإله الحقيقي، فوجدها تنبع من تقليد الأجداد، الذين اخترعوا الآلهة من أوهامهم وخيالاتهم وبدون مستند، وتنبع من أوهام وتخريفات قومه، فرفض التماشي معهم، بل وحارب انحرافهم، وكلّ هذا صدر من إبراهيم من دون نزول وحي إلهي عليه، ففي كل القرآن لا نجد ما يصرّح بتواصله تعالى معه(ع) إلا الآية 75 في سورة الأنعام "وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ"، التي لا يجب تفسيرها بنزول وحي عليه (ع)، بل تشبيهها بالكثير من آيات القرآن التي تتحدّث معنا نحن، مثلما ورد في الآية 53 من سورة فصلت "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ..."، وغيرها الكثير من الآيات التي تلفت انتباهنا لأنفسنا وللبيئة من حولنا بأنها آيات تدل على وحدانية الإله سبحانه، فمن دون نزول وحي علينا فهي آيات منتشرة حولنا.

والآية 18 من سورة العنكبوت "وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ" التي نفسرها كما نفسر الآية 45 من سورة القصص "وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ"، فقد وصفت الشاب موسى(ع) بالرسول علماً أنه في حينها لم يكن قد توظّف رسمياً بالرسالة، ولكنه كان فعلياً يعمل كناقل لكلامه تعالى لأهل مدين، ولذلك وصفه تعالى بالرسول.

إذاً، تطرح السورة وعموم القرآن "إبراهيم" كنموذج بارز عن شخص ولد في مجتمع مشرك ليس فيه موحّد واحد، وترينا كيف يكون العقل السليم من تخريفات الأجداد واختراعهم لآلهة، فهو شخص رفض اتباع ملّة قومه وآبائهم لأنه بفكره رأى فساد دينهم... وفي نفس الوقت تشير لإبراهيم الجدّ لأهل مكّة، فأي مشرك يتحجّج بقومه المشركين، بأجداده المشركين، بأبيه المشرك، فهذا "إبراهيم" مثلك مثله، رفض أن يكون مقلّداً للأغبياء، وهو إبراهيم جدّكم يا غالبية أهل مكّة...

وهناك خلاف في الروايات والتفاسير حول هذا الشخص الذي يناديه النبي ابراهيم(ع) في القرآن: أبي، فبعضهم قالوا: هو أبوه الحقيقي "والده الذي أولده"، وآخرون قالوا: لم يكن والده بل عمّه، وقد رباه منذ طفولته، وقد اعتاد النبي إبراهيم(ع) أن يسميه أبي.

وقد ورد في التوراة أن اسم والد النبي ابراهيم(ع): تارخ، بينما الشخص الذي يتحدث عنه القرآن اسمه: آزر، وقد ورد ذلك في الآية 74 من سورة الأنعام "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ..."، فيمكن الاستنتاج أن الذي ربّاه اسمه آزر، ووالده تارخ، وهذا على ذمّة من كتب التوراة...

ولا تنسى أن العرب ينادون العم بكلمة: أبي، والقرآن استعمل نفس التعبير وكمثال على ذلك حين تحدّث أولاد النبي يعقوب(ع) عن آباء أبيهم وذكروا من ضمنهم عمّه النبي إسماعيل(ع) كما ورد في الآية 133 من سورة البقرة "أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...".

على كل حال فالآية 41 من سورة ابراهيم(ع) نقلت عن النبي إبراهيم(ع) دعاءه بالاستغفار لوالديه "وليس لأبويه" حين كان شيخاً كبيراً "رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ"، ونعلم أن النبي إبراهيم(ع) قد استغفر فعلاً لأبيه "آزر"، وكان النبي إبراهيم(ع) حينها "شاباً"، ولكن بعدما تبيّن للشابّ إبراهيم(ع) أن آزر عدو لله تعالى فقد تبرّأ منه كما تقرأ في الآية 114 من سورة التوبة "وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ..."، إذاً كما هو واضح، فلدينا استغفار حين كان (ع) شاباً "لأبيه" لآزر، وبعدها تبرّأ منه، ولدينا استغفار "لوالديه" وقد كان كبيراً في السنّ، مما يعني أنه (ع) حين صار شيخاً كان يستغفر لوالديه اللذين "ولداه"، فآزر لم يكن "والده" بل عمّه أو أحد أقاربه أو شخص تولّى العناية به وتربيته... ولذلك كان يناديه أبي.

(إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ{27})
{إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي}، فلم أكن شيئاً وصيّرني، فلم يكن لي كيان وكوّنني، فهذا أعبده لأنه فعلاً يملكني وأنا عبده، {فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ}، فسيضعني على الشيء الصحيح الذي يوصلني للغاية الصحيحة، فطريقكم ضلال من تخريفات وأوهام، وخالقي الحقيقي حتماً سيدّلني على الطريق الصحيح.

هذا الكلام مبني على ما نعرفه نحن من أنفسنا، ففينا الفكر والملاحظة والاستنتاج والاعتقاد بصحة بعض الأمور وإنكار البعض الآخر منها... ومن هذا توصلنا للهداية، للتعرّف على الحق والصلاح، وهذا ما جعله تعالى فينا لنهتدي، وهكذا يكون تعالى هو الذي هدانا عبر ما جعله فينا من قابلية للاهتداء مع تيسيره عبر نشره للآيات في الآفاق وأنفسنا كما هو واضح ومعلوم وذكرته الآية 53 من سورة فصلت "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ".

(وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{28})

{وَجَعَلَهَا}، الله تعالى، {كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ}، وهي الكلمة التي قالها النبي إبراهيم(ع) عن البراءة من الشرك وعبادة الفاطر وأنه تعالى يهدي... كلمة التوحيد هذه جعلها تعالى مستمرة في عقب النبي إبراهيم(ع) فيما سيعقب فسيأتي بعد النبي إبراهيم(ع)، وكما تعلم فقد جعل تعالى هذه الكلمات تنتقل من نبي لآخر من أولاد وأحفاد وأولاد أحفاد... النبي إبراهيم(ع)، {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، فمن المفروض ومن المتوقع ممن لم يردّد هذه الكلمة، ممن لم يعبد الذي فطره، أن يسمعها من عقب النبي إبراهيم(ع)، من أولاده الأنبياء والمؤمنين، فيرجع عن شركه إلى كلمة التوحيد.

نرجع للفقرة السابقة من السورة، فمن أين يقول المشركون أنه تعالى راض عن شركهم؟ ها تذكّرهم السورة بنموذج عن شخص اتبع فطرته ووصل إلى التوحيد مخالفاً دين أبيه وقومه، فالشرك اختراع وفساد عقلي ونفسي وتوهّم وخرافات... والتوحيد فطرة طبيعية سليمة، وها الكلمة الباقية عن التوحيد لم تنقطع، واستمرت من نموذج كالنبي إبراهيم(ع) إلى نماذج طاهرة من أولاده وذريته، وكلّهم حذّروا الناس من الشرك، فأي أمّة يقلّدها المشركون؟ فهم يقلّدون أمّة الجهلة الأغبياء المخرّفين المخترعين للآلهة من أوهامهم؟!

تذكّر دائماً أن غالبية أهل مكّة هم من أحفاد النبي اسماعيل(ع) ابن النبي إبراهيم(ع)، والآخرون من العرب من قبائل عاشرت أجدادها النبي إسماعيل(ع) وعاشرت الأنبياء والأتقياء والصالحين من أولاد النبي إبراهيم(ع)، وكانوا من الموحّدين حتى دخل الشرك فيما بعد رويداً رويداً إلى مكّة، فكيف يقولون أنهم يتبعون أجدادهم وهم يقصدون أن عبادة الشرك هي الامتداد التاريخي العميق لأمّتهم ولم يمرّ في أمتهم توحيد، بينما جدّهم إبراهيم(ع) هو من أشهر الشخصيات الموحّدة عبر التاريخ!

(بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى جَاءهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ{29})
{بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ}، ترك سبحانه "النموذج" أهل مكّة الذين من عقب النبي إبراهيم(ع) الضالين عن التوحيد، تركهم تعالى يتمتعون ويستفيدون بالمتاع الذي في الدنيا من طعام وشراب ومال وأراضٍ... ومتّع سبحانه، {آبَاءَهُمْ}، أجدادهم المشركين، {حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ}، كانوا على باطلهم يتمتعون بمتاع الدنيا حتى جاءهم الحق الذي يبيّن أنهم على الباطل، وجاءهم {رَسُولٌ مُّبِينٌ}، جاءهم الرسول محمّد(ع) ناقلا لهم ما هو واضح ومفهوم، عن بطلان عقيدتهم الشركية والإنذار من العقاب عليها.

كلمة مبين تقصد الوضوح في الدلالة على توحيده تعالى وعلى شرائعه الصالحة، وليست تقصد أن قراءة هذا القرآن ستكون كلها سهلة على أي إنسان، بسبب المواضيع المتنوعة والضروري ذكرها في كتابه تعالى لهدايتنا، بعض تلك المواضيع لا يتعاطى معها كل الناس في حياتهم اليومية، ولذلك يحتاجون لتأملها أو التمعّن فيها وصولاً إلى الحاجة لدراستها...

بشكل أو بآخر لن تقبل أنت بالاعتقاد بكتاب ما أنه إلهي عندما تكون قراءته سهلة لدرجة الركاكة عبر استعمال جمل شعبية عامية، وبالعكس لا معنى لإيمانك به لو كانت غالبية كلماته مبهمة من النوع الصعب جداً، فما معنى الإيمان بشيء لم تفهمه! ولهذا جاء كلامه تعالى دقيقاً من الناحية اللغوية، وبالسهولة الممكنة التي تتحمّلها اللغة العربية، فكانت النتيجة أن أساسيات المعلومات واضحة جداً وسهلة الفهم، كتوحيده تعالى والتعرف على صفاته الحسنى، وجعل القاعدة الأساسية لتشريعاتنا أن تكون صالحة...

(وَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ{30})
{وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ}، عندما عُرض عليهم كلام التوحيد وبطلان عقيدة الشرك، {قَالُوا هَذَا سِحْرٌ}، هذا شيء يخدعنا ويتلاعب بعقولنا لنتوّهم أنه حقّ بينما هو باطل، فأنت ترى الساحر وتعلم أنه في الحقيقة لم يجعل الحمامة تختفي تحت القبّعة، فهو لا يملك هذه القدرة، وتعلم يقيناً أنه خدعك بطريقة ما، فاختفاء الحمامة سحر وليس حقيقة، فهو خداع لعقلك ولنظرك وليس واقعاً حقيقياً، وهؤلاء المشركون يقولون عن الكلام الحقّ المنطقي العقلاني أنه كقدرة المحامين الحاذقين على التلاعب بالكلام فيجعلون المجرم يبدو بريئاً، كقدرة الساحر على إيهامنا بأن ما يفعله حقيقي... عقيدتهم حق ولكن الرسول جعلها تبدو باطلة، وكلامه الباطل جعله التنميق يبدو حقاً، ولن يخدعنا بكلامه، {وَإِنَّا بِهِ}، بما يقوله الرسول، {كَافِرُونَ}، منكرون له لأنه سحر ليخدعنا ولن ننسحر ولن ننخدع به.

كما ترى لم يجدوا ردّاً على الحقّ، ولا دفاعاً عن باطلهم إلّا أن يقولوا عن الحقّ أنه سحر كلامي يخدعهم به الرسل!

ضع في بالك دائماً أن السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شيئاً غير حقيقي أنه حقيقي. فالساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد بأنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع أنها لم تختف، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر والذي تراه صريحاً في الآية 66 من سورة طه "قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى". وما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، فهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية أنها سحر، فهذا كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

ننتبه لتكرار القرآن عدة مرّات الاتهام له وللرسل بالسحر، وهذا الاتهام بكلمة سحر لم يعد دارجاً كثيراً في عصرنا من الكافرين بالدين الإلهي، ولكن تسمع المرادف لها والذي يعطي نفس المعنى، فيقولون إن الدين للبسطاء، وهذا معناه أن البسطاء ينخدعون بالكلام الديني الخرافي ليروه حقيقة، ولغوياً هذا هو معنى كلمة سحر.

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ{31})
ننتقل لإسراف آخر، {وَقَالُوا}، قال المشركون: {لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ}، هذا الشيء الذي يمكن قراءته ويقول الرسول إنه نزل عليه وحياً من الإله ليبيّن لنا العقيدة الصحيحة، لو لم ينزل على محمّد الفقير العادي الذي ليس لديه منصب اجتماعي أو مالي... ونزل، {عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}، فمكّة والطائف قريتان أساسيتان في المنطقة التي فيها النبي محمّد(ع)، وهناك رجال عظماء وجهاء رؤساء قبائل وعشائر، أغنياء... في القريتين، فلماذا سينزل الوحي المقروء على محمّد الفقير الذي لا منصب له؟ بدلاً من ذلك لكان من الأفضل أن ينزل على رجل له تأثير في المجتمع، ولا مشكلة عندنا أن يكون المرشّح لذلك من قريتنا أو من قرية أخرى ذات شأن...

لعدة أسباب يفترضون وجوب نزول الرسالة الإلهية على رجل مهمّ غني أو ذي نفوذ وسلطة، فالرجل العظيم لديه أناس يتبعونه مهما قال، فسيؤمنون به وبرسالته حتماً، وثانياً كلمته مسموعة عند "العظماء" مثله، فيحترمون كلامه ويؤمنون به مثلما يحترمون كلامه في الأمور الكبيرة التي تهمّ القرية، وثالثاً حمل الرسالة الإلهية شرف كبير لا يحصل عليه رجل عادي، بل الرجال العظماء يقومون بالأعمال العظيمة، وستردّ الآيات التالية على جوانب عديدة من كلامهم والبداية مع:

(أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ{32})
{أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ}؟ عناية المسؤول عنك من مستوى إلهي هل هم مسؤولون عن تقسيمها وتوزيعها على الناس؟ فالرجال العظماء من القريتين بمالهم وثروتهم هل بقدرتهم الذاتية صاروا عظماء وتحتهم أناس يطيعونهم؟ أم هم كذلك من رحمته تعالى بنا بما أتاحه لنا من قدرات وموارد على الأرض؟

{نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، فأعطينا هذا مما يعيش به أكثر من ذاك، فصار هذا ثرياً وذاك غنيّاً والآخر فقيراً، {وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ}، فصار الناس فوق بعضهم معنوياً، فهذا أعلى من ذاك في السلطة، فهناك رئيس ومرؤوس، وزعيم وأتباع... {لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً}، "بالضمّة على السين" فيصير البعض مسخّرين للآخرين، وأوّل ما يخطر ببالنا الذين يعملون لدى الآخرين بلا مقابل كالعبيد أو مقابل الطعام فقط... ولكن الوصف بالسخرة أعمّ ويشمل الأتباع المسخرين لعموم أوامر رئيسهم فينفذونها بدون أجرٍ، كتنفيذ أفراد العشيرة لأوامر رئيس العشيرة...

{وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}، فالثراء هنا في الدنيا، وارتفاع الدرجة بالرئاسة والزعامة في الدنيا، الناتج عنه تسخير الآخرين... وما يجمعه الناس من مال وأملاك وعمّال وأتباع ووجاهة وزعامة... كل ذلك ليس أفضل من عنايته تعالى بأحد من خلقه، وهنا الكلام عمومي عن أي رحمة إلهية وبالخصوص عن رحمته تعالى بعبده محمّد(ع) عندما جعله نبياً رسولاً، وستذكر السورة فيما سيأتي ما في الآخرة من ثواب كتطبيق عملي لرحمته تعالى بأحد ما في مقابل متاع الدنيا.

إذاً، هؤلاء العظماء بنظركم هم مجرد أشخاص تحت السيطرة الإلهية، وبحكمته تعالى صمّم وخلق بحيث يصير في المجتمعات البشرية درجات بين الناس، ولا تعني ارتفاع درجة شخص ما في امتلاك المتاع في الدنيا أي شيء، فما يرونه من عظمة لبعض الأشخاص ما هو إلا نتيجة لقراره تعالى حين صمّمنا وخلقنا بحيث يكون الناس مختلفين في معايشهم، فالغنى والوجاهة بين الناس... لا ترفع من قيمة الشخص عنده تعالى، وجمع المال والأملاك والعمّال والخدم... ليس أفضل من الحصول على الرحمة الإلهية، فمحمّد(ع) بالتحديد حصل على الرحمة الإلهية، فنال الهداية ونزول القرآن عليه، وهي خير مما يجمعون، فهذه عظمة حقيقية.

تصوّرها بالتقريب كحالة كائنات مبرمجة في لعبة، بحيث ستكون نتيجة برمجتك لها أن بعضهم سيجمع أملاكاً وأموالاً أكثر من الآخرين، فهل هذا يعطيهم قيمة بالنسبة لك؟ أم منحهم مساحة من حرية الإرادة، واختيار بعضهم للإيمان بالحق وعمل الصالحات سيعطيهم قيمة عندك؟

من هذه النظرة التقريبية نفهم معنى كلامه تعالى في الآية هنا عن السلطة والثراء وتسخير الآخرين ليكونوا أتباعاً مطيعين... فهذا ليس معياراً للقيمة عنده تعالى، علماً أنه عندنا نحن البشر هو معيار للقيمة، فترانا نبجّل ونحترم ونطيع أشخاصاً لمجرد أنهم أثرياء، علماً أن آخرين من الفقراء أو الذين أوضاعهم المالية متوسطة، هم أجدر بالاحترام والتقدير من ناحية أخلاقهم وفهمهم وعلمهم.

بالنسبة لرسم كلمة "رحمت"، ستجد في القرآن بالرسم العثماني كلمة "امرأة" و"قرة" بالتاء الطويلة الممدودة "ت"، كما رسموا في الآية 11 من سورة التحريم "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ..."، وكما رسموا في الآية 9 من سورة القصص "وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ"، وستجد قرة بالتاء القصيرة في آيات أخرى كما رسموا في الآية 17 من سورة السجدة "فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"، لأن من كتب سورة السجدة حين اعتمدوا نسخة واحدة من القرآن كتبها على اللفظ الموصول، ومن كتب نفس الكلمة "قرّة" في سورة الفرقان والسجدة كتبها على القاعدة بالتاء القصيرة "ة" "المربوطة"، ونفس الشيء مع كلمة شجرة التي رسموها مراراً بالتاء القصيرة ومرة واحدة بالتاء الطويلة في الآية 43 من سورة الدخان "إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ"، ونفس الشيء مع كلمة رحمة حيث رسموها في بعض السور بالتاء الطويلة وفي أخريات بالتاء القصيرة. ومثلهم كلمة معصية الواردة في الآية 8 و 9 من سورة المجادلة "... وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ...".

بحسب قواعد الرسم "الحالية" من المفروض أن ترسم هذه الكلمات بالتاء القصيرة التي تلفظ "ه" إذا وقفت على الكلمة وسكتت ولم تلفظ الكلمة التي بعدها، وتلفظ "ت" عندما توصل لفظ الكلمة بالتي بعدها.

الرسم بالتاء الطويلة لهذه الكلمات لا يغيّر أي شيء من لفظ الكلمة، إلا إذا توقّفت عليها معتمداً على اتباع القراءة بالتاء الطويلة كما هو مرسوم، وهذا ما لن يحدث مع من يجيد اللغة العربية لأنه يعلم أن اللفظ هنا بالهاء عند الوقف على هذه الكلمات، على أي حال معلوم أن القرآن توارثه المسلمون لفظاً وحفظاً عن ظهر قلب، من فم للسان، وهذه الكلمة وصلتنا ملفوظة ونحن نعلم أن الذي كتبها استنسب كتابتها على لفظ وصلها بما بعدها فلا تأثير لرسمها بالتاء الطويلة، فهو على معاييرنا "ومعايير زمانهم" خطأ إملائي لم يسبّب تحريفاً لفظياً، ونبرّر لمن كتبها طويلة أنه رسمها على مقاييس الرسم بحسب اللفظ محاولاً جعل الرسم مساعداً على اللفظ الصحيح، وهذه أصلاً هي القاعدة لرسم الكلمات حتى يستطيع من يراها التلفظ بالكلمة مثلما يلفظها الناس... وهذه القاعدة كانت معتمدة حين كتب الجيل الأول من المسلمين القرآن، حتى أنهم رسموا كلمات مع أحرف علّة زائدة ليعرف القارئ الكلمة التي يقصدونها ويميّزها عن كلمة شبيهة لها بالرسم... فرسمهم مقبول وله تبريره بل مستحسن حيث الوقف ممنوع أو غير متوقّع.

تتذكّر أنه في حينها لم يكن اختصاص رسم الكلمات على القواعد دارجاً، وأصلاً لم يكن دارجاً التخصّص في علم اللغة، فالقواعد في حينها كانت شبه استذواقية مع بعض الاتفاقات على رسم الكلمات ومع هامش واسع لفنّ رسم الكلمة... فما رسمه الجيل الأول من المسلمين لكلمات القرآن، هو إنجاز جبّار حاولوا فيه تقريب الرسم إلى اللفظ بأفضل ما يمكنهم، ولا يزال من حين نزول القرآن إلى عصرنا تعلّم القرآن معتمداً من السماع مع الاستعانة بالمتابعة عن كتابة.

ما يقولونه عن تبريرات ومعان لرسم التاء طويلة في بعض الكلمات، هي تبريرات واهية ومعان واهمة، فلا هي قابلة للتطبيق على بقية الكلمات التي لها نفس الحالة، ولا معلوم من العرب قصدهم أي شيء من الكتابة بشكل يجعلك ترى معنىً خاصاً من رسم الكلمات، فرضاً لو لم ينكتب القرآن على الورق وبقينا نتوارثه باللفظ، ولم نر تاء طويلة بدل القصيرة، فعندها ما معنى فذلكتهم لرسمها!

(وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ{33})
{وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً}، كمجموعة واحدة لها امتداد تاريخي على رأي واحد، وتكملة الكلام تشير إلى كونهم أمّة تتعلّق بالدنيا بشكل سيّء وتترك الآخرة، لولا ذلك، {لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ}، لمن ينكر وحدانية الموصوف بالعناية بمخلوقاته، لجعلنا، {لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ}، من المعدن المعروف بأنه لا يصدأ ولونه رمادي ناصع بعد صقله... ولجعلنا لهم، {مَعَارِجَ}، أشياء يستعملونها للعروج للصعود، بتعبيرنا الحالي: درج أو سلالم. {عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ}، على المعارج يصيرون ظاهرين مُعْتَلِينَ على البيوت وأعلى مما حولهم، هناك بيوت عادية على الأرض، وهناك بيوت ضخمة من عدة طوابق ولها شرفات وأسطح متعدّدة، وللشرفات والأسطح يستعملون المعارج "الدرج أو السلالم" للوصول إليها ليصيروا أعلى مما حولهم.

لو قرّر تعالى جعل المؤمنين هنا في الدنيا فقراء معدومين بالكاد يحصلون على طعامهم، وترك لهم كلّ التنعيم والسعادة والهناء للآخرة الخالدة، ولو جعل سبحانه الكفّار منعّمين أغنياء هنا في الدنيا، لكان الناس بغالبيتهم تحوّلوا "كلّهم باستثناء النماذج الراقية الذين صاروا أنبياء وصالحين" لتحوّلوا إلى الكفر بسبب ما يرونه من حصول الكافر على الغنى الفاحش.

إذًا الثراء هنا في الدنيا ليس دليلاً على أي شيء حتى تعتبروه مهمّاً لينزل القرآن على رجل ثري، وأنتم تعلمون أنه ليس كلّ الكفّار بدينه تعالى أغنياء أو أثرياء، وهناك الكثير من الفقراء بينهم، حين أتاكم محمّد(ع) "العادي" بدينه تعالى غناكم وثراؤكم وبالتالي عظمتكم بمالكم ونفوذكم ليس دليلاً على أنكم أفضل منه(ع)، ولا دليلاً على كون دينكم أمّن لكم الغنى، هناك الكثير من الكفّار مثلكم وهم فقراء وبقوا فقراء ولم يؤمنوا بدينه تعالى. لو شاء سبحانه لجعل هنا في الدنيا كل من يكفر بدينه ثرياً جداً، وهذا لن يغيّر من كون دينه تعالى الصحيح ودينكم خطأ، ولا مشكلة عنده تعالى في جعل من يكفر فوراً ثرياً، هذا لا يعني أنه على حقّ ولا يعني أن له كرامة... ولكنه تعالى لم يفعل ذلك لأن هذا سيسبّب انجرافاً عامّاً للناس نحو الكفر بسبب تحليلهم غير الصحيح لما يرونه.

تَصوَّرْ مجتمعاً كلّه كافر وكلّه ثري، وكما تعلم هذا هنا في الدنيا لا قيمة له أمام فقدانهم لجنّة الآخرة وأمام تعذيبهم خالدين في النار، وتصوّر أنه كلما قرّر واحد منهم توحيده تعالى صار فقيراً فوراً، وكما تعلم بالمقارنة مع حياة قصيرة جداً جداً هنا في الدنيا في الفقر مع إيمان يوصل إلى جنّة رائعة خالدة، ترى أنه لا مشكلة في العيش في الفقر. هذا ما تقوله الآية من منظوره تعالى للأمور، فلو شاء سبحانه لجعل كل من يكفر ثرياً، وهذا لن يعني أبداً بتاتاً أن له قيمة وأنه عظيم.

اقتراحهم عليه تعالى أن ينزّل القرآن على رجل عظيم بسبب ثرائه، هذا لا يعني أي شيء بالنسبة له تعالى.

(وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِؤُونَ{34})
ولجعلنا، {لِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا}، من ضخامتها وكبرها يكون لبيوتهم أبواب عديدة، مثل القصور التي لها عدّة مداخل، ولجعلنا لهم، {سُرُرًا}، أسرّة، سرير، {عَلَيْهَا}، على الأسرّة، {يَتَّكِئُونَ}، يلقون ثقلهم على جنبهم، وهذا مشهد عن أحوال الأغنياء الذين لا يجلسون على الكراسي بل يتمددون على الفرش الطرية ويستلقون على جنبهم.

السرير نوع من الأثاث المرتفع ولو قليلاً عن الأرض بلوح أو قوائم وعليه فراش يسع للاستلقاء عليه، سواء بقيت صاحياً أو نائماً، السرير ليس مخصصاً فقط للنوم عليه بمعنى فقدان الوعي، بل لعموم الاستلقاء سواء نمت ففقدت وعيك أو استلقيت عليه.

باب البيت هو الممر للوصول إلى شيء، فباب البيت هو ممر الدخول وليس ما نسدّ به الفتحة، هذه التسمية لباب الخشب والحديد... درجت فيما بعد، كما يبدو من أشعار العرب قبل الإسلام ما نسدّ به الفتحة اسمه رتاج.

في فترة نزول القرآن لم يكن دارجاً في مكة والمدينة ولا عند عموم العرب، إغلاق مداخل بيوتهم بلوح خشبي أو عصيان خشبية... كانوا يضعون قماشاً أو جلد حيوان أو لا شيء على مدخل البيت، وكانوا يعتمدون أحيانا بناء البيوت بممر ملتوٍ بين المدخل الأساسي والغرف الداخلية لحمايتها من إمكانية رؤية ما فيها من المدخل... وترى من أثر ذلك إلى الآن أننا نقول "باب" لفتحة الدخول إلى البيت أو الغرفة "أو الخيمة"، ونفس الكلمة نقولها للوح الخشب أو الحديد... الذي نسدّ به المدخل، وهناك كلمة عربية مستعملة في أشعار العرب قبل الإسلام يبدو أنها تشير لما نسدّ به الباب وهي كلمة: رتاج.

بتذكّر كلمة نافذة يسهّل علينا فهم كلمة باب، النافذة هي عموم الفتحة وليس ما يسدّ الفتحة، وبالأصل النافذة ماديّاً عموم الممر الصغير كمعبر أو إطلالة... ومعنويّاً عموم الوسيلة للاطلاع أو التواصل مع شيء... والباب ماديّاً هو عموم الممر الواسع للوصول إلى الشيء، ومعنويّاً هو الوسيلة للوصول لشيء. على كلّ حال سريعاً درج بين الناس وضع "رتاج" لبيوتهم قبيل وفاة النبي(ع) بقليل بحسب ما يبدو من التاريخ.

وترى في القواميس فقداناً للدقة للتفرقة بين كلمة باب ورتاج ومغلاق، وكما يبدو واضحاً استسهل الناس التوسعة في استعمال كلمة باب "ونافذة..." التي هي أصلاً واسعة التطبيقات لمعناها فاستعملوها لتشمل عموم الممر وما يسدّ الممر، فألغوا كلمة رتاج ومغلاق من الاستعمال.

وستجد في الأشعار قبل الإسلام وفي بعض ما وردنا من كلام عن الجيل الأول من المسلمين أن بعضهم استعمل كلمة رتاج ليشير إلى ما نسدّ به الباب. وصرت تعلم أن كلمة رتاج لم تكن دارجة بكثرة بين الناس لأنهم لم يكونوا يسدّون أبواب بيوتهم به، وكانوا يرونه في القصور والبيوت الكبيرة، ولهذا ظنّ بعضهم أن الرتاج اسم للباب "المغلاق" الكبير فقط، أو للباب "المغلاق" الصغير في الباب الكبير الذي يرونه على مداخل القلاع والحصون، وهذا ما ذكره بعضهم في القواميس.

(وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ{35})
ولجعلنا لكل الناس الكفّار، {وَزُخْرُفًا}، نقوشاً وقطعاً للزينة، وسياق الكلام عن تزيين خشب وحيطان وأسقف بيوتهم... {وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا}، هو فقط وفقط، {مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، أشياء يستفيدون منها في الدنيا التي نحن فيها الآن، {وَالْآخِرَةُ}، التي ستأتي في الآخر بعد انتهاء الدنيا والقيامة من الموت، {عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}، عند المسؤول عنك من مستوى إلهي فالآخرة للذين يتجنّبون، وسياق الكلام عمومي لتجنّبهم الكفر بالحقّ وتجنّب فعل السوء وعمليّاً هو نفسه تجنّب غضبه وعقابه سبحانه، فيوّحدونه ويطيعونه ويفعلون الصالحات... وسترى فيما سيأتي في السورة ماذا يوجد في الآخرة للمتقين.

نتذكّر دائماً أن القرآن لم يصف أبداً ما في الآخرة بأنه متاع، ووصف أقصى ما يمكن الحصول عليه في الدنيا بأنه مجرّد متاع، كأشياء تستفيد منها، فتستفيد من الطعام لسدّ جوعك، ومن الشراب لسدّ عطشك، ومن اللباس لردّ الشمس أو لردّ البرد... فمهما شعرت بالسعادة هنا في الدنيا فأنت في حالة متاع بها، في حالة استفادة منها وإلا ستموت من الجوع، وإذا أكثرت من الطعام فجسدك سيتوقّف عن الاستمتاع بالطعام وسيصيبك الملل والألم... وستموت من التخمة والسمنة والدهنيات والسكريات... أمّا في الآخرة في الجنّة، فكل ما فيها فقط وفقط للسعادة والتلذّذ بدون أي أضرار أو ملل ولذلك لا يوصف بأنه متاع.

إلى هنا انتهت الفقرة من عرض سبب كون الناس درجات من الفقر إلى الغنى إلى الثراء، فلو عاش كل الناس الكافرين في الترف لكانوا كلّهم أمّة واحدة على التعلّق بمتاع الحياة الدنيا، ولن يؤمن منهم أحد، ولكنه تعالى جعلنا متفاوتين،

بعضنا فقير وبعضنا غني والآخر ثري، وحتى الثري يحتاج لمتوسّط الحال والفقير ليخدموه ويداووه ويطعموه... هذه العظمة الدنيوية التي نالها البعض من الناس، هي لا تدل على أي شيء له قيمة حقيقية، الرجل الذي يراه المشركون عظيماً ولم يكن حائزاً على الرحمة الإلهية، فعظمته هواء لا قيمة لها.

(وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ{36})
{وَمَن يَعْشُ}، والذي يصيبه العشى فيفقد الوضوح في الرؤية، والأعشى وصف لمن يستصعب الرؤية عند العشي عند أول المساء، فالذي الرؤية عنده غير واضحة كالأعشى، {عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ}، فعند سماعه لما يجعله يستحضر الذي يعتني بمخلوقاته عندها يصير عنده غباش ولا يرى بوضوح، {نُقَيِّضْ لَهُ}، نتيح له، {شَيْطَانًا}، كائناً يوصف بأنه يعمل السوء لنفسه وللآخرين، والكلام عن الذي يعمل على إضلال الآخرين عن دينه تعالى، {فَهُوَ}، فالشيطان، {لَهُ}، للأعشى عن الذكر الإلهي، {قَرِينٌ}، مرافق ملاصق.

إذًا، هذا هو لبّ مشكلة المشركين، عرض عليهم النبي محمّد(ع) ذكر الرحمان، ولكنهم لم يروه بوضوح، لم يروا أنه هدى، ولم يروا فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة... لأنهم لا يريدونه ويريدون البقاء على ضلالهم بشركهم بالله تعالى ومتعلقون بمتاع الدنيا السيّء... وهذه النوعية من الناس تصير هدفاً للشيطان الذي يرافقهم بشكل دائم ويوسوس في عقولهم، إلى أن يتحكّم بهم كليّاً، وبعدها لا يؤمنون بالحقّ مهما سمعوا من كلام واضح صحيح حقّ عقلاني منطقي... سواء أكان كتاباً إلهيّاً أو رسولاً أو لفت انتباههم لآية من تصميمه وخلقه تعالى... لا فائدة لأن التحكّم فيهم صار للشيطان القرين الذي لا يفارقهم.

ننتبه ولا نفهم من الآية هنا أنه تعالى يستقصد إضلال هذه الناس عبر تسليط الشيطان عليهم بينما كان هناك احتمال أن يهتدوا، لا، الشخص الذي قرّر أن لا يهتدي، بقراره هذا سيتبع وسوسة الشيطان الذي لن يفارقه سيكون له قريناً، صارا معاً على خطّ واحد.

نتذكّر دائماً أن كلمة شيطان هي صفة للكائن الذي يقوم بأعمال الضلال "أعمال السوء" لنفسه أو لإضلال الآخرين، وقد يكون من الجنّ أو من الإنس، ومن سياق الآيات نعلم إن كان المقصود بالشيطان "الجنّي" إبليس شخصيّاً أو أمثاله من الجنّ أو الناس الذين يضللون الآخرين، وهنا من تكملة الآيات نعلم أن كلمة الشيطان هنا يشير إلى عموم أي جنّي أو إنسي عمل على إضلال الآخرين.

(وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ{37})
{وَإِنَّهُمْ}، الذين بصفة الشيطان، {لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ}،الإنسان الذي يريد المشي على الطريق الإلهي، يعترض الشياطين مشيه عليه، وهنا الكلام عن الوسوسة الشيطانية التي تغري وتزيّن سبيل الباطل ليترك الإنسان سبيله تعالى.

{وَيَحْسَبُونَ}، يخطر في بال المصدودين عن السبيل ومن دون أي دراسة أو تفكير أو مصدر موثوق... هكذا فقط يحسبون، {أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ}، أنهم على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة! هذا ما يحسبونه أمّا في الحقيقة فإن الشيطان يقودهم في طريق الضلال.

هذا الشعور الخادع تراه منتشراً بين غير المؤمنين، الذين بطريقة أو بأخرى يوهمون أنفسهم بأنهم، على كفرهم بدينه تعالى ومخالفةِ شريعته، أنهم أفضل حالاً من الالتزام بها، حيث يقارنون بين تحليلهم للمسكرات والمخدرات والزنا... وشطارةِ خداع الناس وقانونِ الدولة لتجميع المال بطرق ملتوية... وصولاً إلى المجرمين الذين لا يرون أنفسهم ملزمين بأي شريعة تقيّدهم... ويقارنون بين هذه الحالة وبين الالتزام بحلال وحرام يقيّد حريتهم، فيرون أننا ضالّون وهم مهتدون لما فيه سعادتهم! وهم يحسبون ذلك، فلو فكّروا بعقلانية لوجدوا أن العقيدة والشريعة الإلهية مُنَظِّمَةٌ لحياتنا بما يضمن سعادة الجميع في الدنيا والآخرة...

(حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ{38})

{حَتَّى إِذَا جَاءَنَا}، هذه حالة المصدود عن السبيل والذي كان يحسب أنه مهتد، حتى جاء ليقف بين يديه تعالى ليحاسبه في الآخرة، قال:

{يَا لَيْتَ}، أرغب بشيء فاتني ومن المستبعد حصوله الآن، {يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ}، أيها القرين الشيطان، {بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ}، بقدر بُعد المسافة بين شروق الشمس في فصل من فصول السنة وبين شروقها بعيدا في جهة أخرى في فصل آخر من السنة، يا ليتك بعيدٌ عني بهذه المسافة ولم تكن قريبا منّي، {فَبِئْسَ}، يا لسوء، {الْقَرِينُ}، المرافق، ما أسوأك من مرافق رافقني.

إذا راقبت شروق الشمس عبر السنة، ووقفت في مقابل شروقها، ستجدها تنتقل رويدا رويدا يوما بعد يوم من جهة الشمال "أو اليمين بحسب الفصل الذي بدأت فيه بالمراقبة"، إلى جهة اليمين، ثم من جديد تبدأ بالانتقال يوميا رويدا رويدا من جهة اليمين إلى جهة الشمال، بنظرك سترى ما بين الشروق من أقصى الشمال وبين الشروق من أقصى اليمين، وسترى مسافة بالكيلومترات بين المشرقين، وبتعبيرنا الحالي يقول المشرك: يا ليت بيني وبينك كيلومترات أيها الشيطان. وقالوا إنّ المقصود بالمشرقين: المشرق والمغرب. ولكن استعمال القرآن كان صريحا لهذه الكلمة في مقابل المغربين كما تقرأ في الآية 17 من سورة الرحمن {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ}، فما قلناه هو الأنسب.

على أي حال عادةُ كلام القرآن عن نماذج، هناك أناس أصلا لا علم لهم ببعد المشرقين، أو ليس حاضرا في ذهنهم بعد المشرقين ليستعملوه للتمثيل عن بعد المسافة، لأن الآية لا تقول بأن كل من كان له قرين سيمثّل في الآخرة بكلام عن بعد المشرقين، بل هو نموذج عن أي تعبير آخر يشير لتمنّي بعد المسافة عن قرين السوء، يا ليت بيني وبينك بعد قارات، بعد بلدان، كيلومترات...

إذن، الآية ما قبل السابقة أخبرتنا عن قرين المشرك، وهو الآن في الدنيا لا يراه إن كان من الجنّ، ولا يؤمن به، وأصلا لا يهمّه الموضوع، أو هو الشيطان صديقه أو خليله أو رفيقه من الناس... وتخبره الآية هنا عمّا سيقوله في الآخرة حين يرى ما أوصله إليه اتّباعه لقرينه الشيطان.

بقي شيء يمكن استخراجه بسهولة من العديد من الآيات التي تحدّثت عن تغرير الشياطين بنا وتزيينها الدنيا لنا... حتى نحبّ الدنيا وبالتالي سنحبّ من يحبّبها لنا، هنا في الدنيا لا مشكلة لدى الكفّار مع الشياطين، لأن فكرهم ونفسيتهم وهواهم... متماشٍ مع الأفكار الشيطانية... وهم مسرورون باقترانهم مع الشيطان، ولذلك نقلتنا الآيات إلى الآخرة، حيث هناك سيبدو أنّ من أحبوه هنا كان بئس القرين، لأنه ساهم في تسبيب العذاب الأليم لهم، وهناك سيتمنون لو أنه في آخر الدنيا بعيدٌ عنهم.

(وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ{39})
{وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ}، في هذا الزمن الذي تصيرون فيه أمامه تعالى ليحاسبكم لن تستفيدوا من هذا الكلام عن تمنّي بعد الشيطان عنكم في يوم القيامة، {إِذ ظَّلَمْتُمْ}، إذ لم تكونوا منصفين ولا محقّين حين أشركتم واتبعتم وسوسة الشيطان، {أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ}، المشرك سيتعذّب على شركه، والشيطان سيتعذّب على وسوسته للناس، لا المشرك بريء والحقّ على الشيطان الذي وسوس له، ولا الشيطان بريء والحقّ على من سمع للوسوسة، بل كلاهما ظالمان.

إبليس وبقية الشياطين من الجنّ مثلنا مثلهم، عُرضت عليهم الهداية ورفضوها، وهُدّدوا بالعذاب فلم يهتمّوا، تماما مثلما نحن الآن وصلتنا الهداية والإنذار عبر هذا القرآن، وبعضنا آمن والآخر كفر.

(أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{40})
{أَفَأَنتَ}، هل أنت أيها الرسول محمّد(ع)، {تُسْمِعُ الصُّمَّ}؟ هل بإمكانك التحكّم بالذي لا يسمع لتجعله يسمع؟ {أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ}، تضع على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة من لا يرى الأشياء من حوله؟ هل بإمكانك جعله يتعرّف على ما حوله من أشياء كأنه يراها؟

نتذكّر دائما من القرآن أن المقصود بصفتي الصمم والعمى للكفّار، هو عمى وصمم القلب، عمى وصمم أساس الفكر والنفسية، ولا تقصد الآية أن الرسول محمّد(ع) لا يمكنه إصلاح أعضاء "أدوات" السمع عند الأصمّ الأطرش، لا، بل

تقصد أن من يسمع كلام الهدى والحقّ، تتحرّك طبلات أذنه، ويصل الصوت إلى دماغه، ولكنه قرّر أن يعتبر نفسه لم يسمع، صار مثل الأصم تماما، تتكلّم معه ولكن كلامك لا يدخل إلى استيعابه ويتصرّف كأنه لم يسمعك، فما معنى سماعه للكلام إن كان لا يفهم ولا يستوعب الكلام الحقّ؟ وكذلك من يرى الحقّ بعينيه وبفكره، ويتصرّف كأنه لم يره! فما معنى رؤيته إن لم يكن يرى الحقّ حقًّا؟

{وَ}، أفأنت تهدي، {مَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}؟ من كان بشكل واضح على الطريق الخطأ، ويعلم ذلك ولا يريد أن يهتدي هل لديك القدرة على جعله مهتديا بالإقناع أو بالقوّة؟

الجواب معلوم، سبحانه وتعالى يمكنه إجبارهم على الاهتداء بالقوّة أو بالحيلة أو بأي طريقة أخرى، ولكنه سبحانه قرّر تركنا بحرية الإرادة حتى نختار نحن الطريق الذي سنمشي عليه، ونحن نتحمّل عواقب الطريق الذي اخترناه... ومن عموم القرآن وبشكل متكرّر نعلم أنه تعالى لن يغيّر قراره بتركنا أحرارا، ولن يعطي أي إنسان القدرة على التلاعب بالقوّة بعقول الآخرين ليؤمنوا.

إذن يوجد أناس لديهم قرار نهائي برفض الحقّ المتمثّل بدينه تعالى، فماذا يمكنك أيها الرسول(ع) أن تفعل معهم؟ وها ربّهم إلههم سبحانه أوصل إليهم كلامه وآياته... وأنذرهم مما سيحصل معهم في الآخرة، ولم يؤمنوا!

أنت وأنا إن كان معنا حقّ في مسألة ما، وحاولنا إقناع الآخرين بها، ورأينا منهم صلابة وعنادا وإصرارا على رفض الحقّ الواضح جدا جدا، فإننا نملّ، وإن تكرّر معنا ذلك، نيأس، أما الرسول محمّد(ع) وبحسب ما يبدو من القرآن فإنه لم ييأس، وترى مدى معاناته حين تتذكّر أنه (ع) كان يحاول إقناعهم بترك عبادة الحجارة والتماثيل، وهكذا نفهم كلامه تعالى مع رسوله(ع) أن المطلوب منه فقط وفقط الإنذار والتبشير.

هل هذه العقلية بالعناد صمما وعمى حصرية لموضوع الشرك به تعالى؟ لا، بل هي مرض منتشر فينا في بقية كل المسائل، وإن لم ترها في نفسك في المسائل التي تركب رأسك فيها ولسبب أو لآخر ترفض التماشي مع من يقول لك الحقّ والصواب، حتى في مسائل تعتبرها تافهة وصغيرة، فاعلم أن أثر ذلك سيظهر حتما في مسألة ما كبيرة.

المشهور قولهم: الاعتراف بالحقّ فضيلة. هذا بغض النظر عن قبولك للحقّ عمليا، مثله مثل الاعتراف بتوصيف الشيء أنه سيّء، حتى لو ارتكبته مع اعترافك بسوئه، فأنت أحسن حالا ممن غيّر التوصيف ليحاول إقناعك بأنه لا يفعل السوء، في حالتك يكون للاستغفار معنى، وإلا فما معنى الاستغفار من عمل لم تعترف بسوئه؟!

وهكذا ترى أن عموم كلام القرآن عن العمى والصمم وطبع القلب ورينه... في حالته الأقصى والأخطر في مسألة توحيده تعالى واتباع دينه في الأساسيات... هو نفسه الأساس السيّء بتدرجات منخفضة في مسائل أخرى.

خذ مثلا حالة المذهبية والطائفية بين المسلمين، واسترجع الآيات القرآنية العديدة التي تنهى عن ذلك، وللأسف غالبيتنا نصل إلى نتيجة أن كل الآخرين مخطئون وأنت وجماعتك معكم حقّ، وأن الآخرين يجب أن يتركوا مذاهبهم وطوائفهم ليصيروا مثلك.

إن لم تستطع رؤية نفسك وبقية المتمذهبين أنكم مصابون بالعمى والصمم أمام كلامه الصريح الواضح سبحانه والناهي عن التفرقة، فاعلم أن تفسيراتك لكلامه تعالى المماثل لكلام آيتنا هنا عن العمى والصمم، ستجعلك موصوفا بما ورد في الآية 37 السابقة لتكون من الذين يحسبون أنهم مهتدون.

(فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ{41})
{فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ}، إذا ذهبنا بك أيها الرسول محمّد وأخذناك من بينهم، ولم نتركك بينهم حيث أمرناك بمغادرتهم أو توفيناك، {فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ}، سوف نأخذ حقّنا منهم بناء على نيّة إلحاق الضرر بهم بسبب ما فعلوه، ويعاقبهم سبحانه بعذاب هنا في الدنيا.

لينتبهوا أنه بسبب وجود الرسول(ع) بينهم سبحانه لم يعذّبهم الآن وفورا رغم استحقاقهم للعذاب، وأيضا لا ارتباط بين وجوده (ع) بينهم "الرؤية العذاب كما سيأتي في الآية التالية" وبين القرار الإلهي لنزول العذاب، حتى لو مات النبي محمّد(ع) أو هاجر... قد يحصل العذاب لهم هنا في الدنيا لأنه ليس مرتبطا بوجوده (ع) حيا، وهذا المعنى تكرر ثلاث

مرات في القرآن مع عبارة "نتوفيّنك" في الآية 46 من سورة يونس {وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ}، والآية 40 من سورة الرعد {وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ}، والآية 77 من سورة غافر {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ}.

صحيح أن وجود النبي(ع) بينهم هو واحد من أسباب إلغاء نزول العذاب عليهم وهو فيهم، وهذا ما نفهمه من عموم القرآن عن أحد أسباب إلغاء نزول العذاب على أهل مكّة، و من القرآن نعلم أن ثاني سبب لإلغاء نزول العذاب عليهم هو وجود من يستغفر بينهم، هناك مؤمنون مستضعفون بينهم لم يتمكنوا من إظهار إيمانهم ولم يتمكّنوا من الهجرة، راجع في ذلك دراسة الآية 33 من سورة الأنفال {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}. وثالث سبب هو وجود من سيسلم بينهم في المستقبل وهذا معلوم من التاريخ من إسلام عموم أهل مكة... ورابعها أنه سيخرج من ذرية الكفّار مؤمنون، وخامسها أن نفس الرسول محمّد(ع) التزم بالأمر الإلهي له بالصبر ولم يطلب نزول العذاب على قومه كما تقرأ في الآية 48 من سورة القلم {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ}.

ولكن الآية هنا تركّز على فكّ ارتباط نزول العذاب عليهم بشرط بقاء النبي محمّد(ع) حيا ليرى نزول العذاب عليهم هنا في الدنيا.

بعبارة أخرى، من كان الرسول في عهده ولا يريد أن يؤمن ويظن أن تهديدات الرسول بنزول العذاب ستنتهي بذهاب الرسول(ع) بالموت أو الهجرة... فلينتبه لأنه لا علاقة بين وجود الرسول(ع) ليشاهد نزول العذاب وبين نزول الأمر الإلهي بنزول العذاب، حتى لو لم يكن الرسول(ع) موجودا فالعذاب قد ينزل عليهم هنا في الدنيا.

(أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ{42})
{أَوْ نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ}، ونجعل عندك صورة محدّدة لما قلناه لهم أنه سيحصل معهم، تراهم يتعذّبون بنماذج صغيرة من العذاب الدنيوي، حيث ترى تعذيبهم بالمرض أو بالجفاف أو عموم الخوف من شيء أو الخسارة في الحرب... {فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ}، لأنه سبحانه يقدر على فعل أي شيء يريده بهم ولا يقدرون على منعه سبحانه.

لا يفكّروا أنه تعالى راضٍ عنهم ولا مشكلة عنده بشركهم، ولا يفكّروا أنه سبحانه لا يتدخّل هنا في الدنيا قبل الآخرة ويعاقب المشركين، ولا يفكّروا أن العذاب الإلهي مرتبط بتواجد الرسول حيا ليشاهد ما يحدث، ليضعوا في بالهم أن احتمال حصول العذاب هنا في الدنيا وارد، بشكل كبير عنيف أو صغير طفيف، بوجود الرسول(ع) أو بعد وفاته.

(فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{43})
{فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ}، تمسّك بقوّة أيها الرسول محمّد(ع) بما أنزلناه على وعيك وفكرك، من عقيدة وتشريع، {إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}، أنت على طريق أساسي يوصف بأنه الأحسن فلا انحراف فيه.

لِنَنْتَبِهَ جيّدا، لأن الآية تقول: لا تهتمّ أيها الرسول محمّد(ع) لما تسمعه وتراه من تصرفات من المشركين، لأن الذي يصلك منه تعالى هو الصحيح، ولن نفهم هذا المعنى كما يريدنا القرآن أن نفهمه إذا بقيت أفكارنا غير الصحيحة عن الوحي والأنبياء تدور في رأسنا، كَرَّرَ القرآن لنا عدّة مرات أن الوحي لو نزل على كافر فلن يجعله مؤمنا، لو نزل على أبي جهل وأبي لهب... لَجُنَّ جنونهما مما يسمعانه في وعييهما... لأنه لا يتماشى مع فكرهما ونفسيتهما، وسيبحثان عن حل ليتوقّف سماعهما للكلام الإلهي في وعييهما... ومحمّد(ع) لو لم يكن طاهرا صافي القلب، سليم الفكر والنفسية، فلن يؤمن بما ينزل عليه، وكرّر القرآن كثيرا أن الأصل هو الشخص، قبل نزول الوحي يكون الشخص لديه استعداد ليؤمن، بل يكون مؤمنا أصلا، وبتعبيرنا الدارج يكون على فطرته بدرجات متفاوتة من أعلى الطهارة إلى أقل الإيمان، وينزل الوحي عليه ليدلّه على الصراط المستقيم، مما يتماشى كلام الوحي مع فكره ونفسيته، لا أكثر ولا أقل.

هنا لِنَفْهَمَ الآية بالضبط كما هي، لِنَفْهَمَ الأمر "المحمّد" بالتمسّك بالوحي، ولا نخلط بين كونه (ع) شخصا عاديا مثلنا مثله ولكنه أطهر منّا بفكره ونفسيته، وبين نزول الوحي عليه، حيث نحن نبدأ بفهمنا وتصوّرنا له من الآخر، نبدأ من تميّزه

بأنه رسول نبي ينزل عليه الوحي... ومدعوم من الإله سبحانه ومسدّد ومعصوم وحبيبه تعالى... وننسى صفاته الشخصية التي أصلا جعلته مميّزا، ولهذا لا نفهم معنى الأمر الإلهي له (ع) بالتمسّك بما يصله.

الوحي هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خيرا أم شرّا، وبناء عليه كل أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وحيا لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وترى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}، وحتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ}...

يَنْطَبِقُ فعل الوحي على أي كائن كان "إنساناً، حيواناً، مَلَكاً أو جنّاً" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم.

طُرُقُ فعل الوحي وأنواعه متعددة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}. ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}، وما ورد في الآية 193 و 194 من سورة الشعراء {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ}. أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ}...، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل كما هو مشهور في تراثنا الديني. ووحي عبر إصداره تعالى صوتا في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، مضافا لها الآية 13 من سورة طه {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}، لأن كلامه تعالى معه(ع) وحي لأن الكلام ليس صادرا مباشرة منه تعالى حيث هذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، لِيَصِيرَ وصف الحالة أن كلامي يصلك وحيا.

هناك وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} حيث في النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

الوحي يصدق على وحي الخير والشر، لأن الشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}... ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... والوسوسة في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيرا أو شرا هو وحي.

(وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ{44})
{وَإِنَّهُ}، وإن الوحي، {لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ}، الوحي "عن المعلومات الحقّ والتي نسميها بالعقيدة، وعن التشريع والسلوكيات" وهو شيء لتستحضره أنت في فكرك ونفسيتك ويستحضره الناس الذين تنتمي لِجَمَاعَتِهِمُ المتفاعلة مع حالة الدين، {وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ}، سَيُعَبِّرُ لكم سبحانه عن إرادته للحصول على جواب عمّا كنتم عليه من الذكر، فهل آمنتم به؟ وهل التزمتم به...

هناك آخرة فيها قيام من الموت لنتحاسب وَنَتَجَازَى على ما قمنا به في الدنيا، وهناك سيسألنا سبحانه عن الذكر الذي نزل منه، حيث وصلنا واضحا، فهل تفاعلنا معه واستحضرناه فعلا في فكرنا وقولنا وعملنا... فهل عمليا التزمنا بما سمعناه من الوحي؟

إذن، لم ينزل الوحي ويصلنا كتسلية أو عبثا أو بدون هدف، بل هناك سؤال عنه في الآخرة إنْ كنّا التزمنا به، وَنَنْتَبِهُ لهذا المعنى عندما نسمع اللامبالاة من بعض الناس، حيث لا يعتبرون الذكر مهمّا ولا يهتمّون به، وكأنه نزل على الرسول محمّد(ع) بلا هدف، ويمكنهم أن يؤمنوا به أو أن لا يؤمنوا به ولن يتضرّروا! لا، بل سوف يسألكم سبحانه عن الذكر، وتتحاسبون عليه.

عادة لا ننتبه إلى أَنَّ مخزوننا الثقافي الديني مبني من أمثال هذه الآيات، فتطويل تفسيرها يبدو بلا معنى لأنك كمسلم مؤمن أصلاً بأنه تعالى سيسألنا في الآخرة عمّا فعلناه في الدنيا... وبسهولة تفهم الآية هنا، ولكن هناك من لم يؤمن بهذا، حيث هناك كفّار أصلا بهذا القرآن، وهناك من يقول بأنه مؤمن بهذا القرآن ولكنه ليس مؤمنا بالكامل بكل ما يقوله القرآن، وهكذا آيتنا هنا السهلة البسيطة تصير معقدّة ولها معان عميقة.

خذ مثلا ما هو دارج بين الناس عن "الشطارة، الفلهوية، قد حالوا، محنّك..." وَهُمْ مسلمون، ويعلمون أنه تعالى لا يرضى إلا بالحقّ، ولكنهم لديهم دين مختلف! إذا حصلت من الآخرين على أكثر مما تستحقّ، فأنت شاطر حاذق ماهر حربوق... حتى لو عبر التجارة أو العمل بالأجرة... أخذت من الآخرين ما لا يحقّ لك!

نفس الشيء فيما سبق وقالته السورة عن فقدانه (ع) للقدرة على هداية الأعمى والأصمّ الذي لم يَهْتَدِ بما يقوله القرآن، فهذا كلامه تعالى، وهناك مسلمون لديهم كلام آخر! حيث يكذبون ليهدوا الآخرين! ويؤلّفون الروايات عن النبي(ع) ليهدوا الآخرين! ويفسّرون القرآن بالكذب بادّعاء أمور علمية في القرآن عن الليزر وسرعة الضوء ونسبية الزمن و... الاكتشافات العلمية الطبية والفيزيائية... في القرآن! وَيَخْتَرِعُونَ إعجازا عدديا لكلمات وأحرف القرآن وهم يعلمون أنهم يكذبون، إلا اللهم النادر جدا جدا من بعض الذين فعلا احترموا إيمانهم ولم يكذبوا...

نفس الشيء عن الكثير من كلامه تعالى عن الوحدة بين المؤمنين، وتفسير عموم كل جماعة من المسلمين لتلك الآيات بأن الآخرين يجب أن يتركوا مذاهبهم ليلتحقوا بهم حتى يصيروا مؤمنين!

كما ترى، فآيتنا هنا بكلامها عن توجيه السؤال لنا في الآخرة عن مدى التزامنا بكلامه تعالى، أعمق بكثير من المرور عليها وكأننا طبّقناها ولا داعي للكلام فيها، لأنَّ الرسول (ع) بذات نفسه إن فعل شيئا مخالفا لكلامه تعالى فسيتعرّض للسؤال...

(وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ{45})
الآية 20 التي وردت سابقا نقلت عن المشركين قولهم أنّه تعالى لو كان معترضا على عبادتهم للملائكة(ع) أو غيرهم لكان تدخّل بطريقة أو بأخرى لمنعهم عن ذلك، وبما أن واقع الحال أنهم يعبدون الملائكة وغيرها، ففي رأيهم أنّه تعالى راضٍ عن ذلك... وردّت عليهم السورة فيما سبق من مختلف الزوايا، وهنا بشكل واسع تسأل السورة الرسول(ع):

{وَاسْأَلْ}، عَبِّرْ عن إرادتك للحصول على جواب عن، {مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ}، {مِن رُّسُلِنَا} كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى... عليهم السلام اسأل:

{أَجَعَلْنَا}، هل صيّر سبحانه، {مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ}؟ كما نقول: ذهبتم من دوني. ونقصد: ذهبتم مع غيري. هل جعل الذي يعتني بالمخلوقات، هل جعل آلهة يتصرّف الناس على أساس أنهم عبيد لها ويتركون التصرف كعبيد للرحمن؟ هل سمح سبحانه لهم باعتبار غيره مَفْرُوضاً منهم طاعته من مستوى إلهي؟

هذا لم يحصل، لأن الرسل السابقين كلّهم نقلوا للناس أنه تعالى أمرهم بتوحيده، وما تقوله أنت لهم أيها الرسول محمّد(ع) عن التوحيد فله امتداد تاريخي لآلاف من السنين ولست أوّل من قاله، ولم يترك الإله سبحانه الناس على شركهم من دون تنبيههم على فساده والعقاب عليه.

نلاحظ الآية استعملت التعبير الواسع "جعل"، لم يجعل سبحانه لا بالحقيقة ولا بالاعتبار آلهة غيره للناس، لا ولا بأي طريقة هناك آلهة غيره سبحانه، لم يلد، ولم ينقسم، ولم يجعل جزءا منه إلها، ولم يحلّ في كائن... هذا من جهة، ومن جهة ثانية لم "يجعل" ولم يحدّد كائنا أو كائنات ويقول تعالى للناس: أنا "أعتبرهم" آلهة رغم أنهم ليسوا آلهة، وأسمح لكم بعبادتهم علما أنهم مخلوقات. لا هذا ولا ذاك ولا غيره حصل، فقط وفقط وصلنا منه تعالى أَمْرٌ وَاحِدٌ صَرِيحٌ عبر رسله عبر التاريخ: الله سبحانه لم يسمح للناس بعبادة غيره لأنه الإله الواحد الأحد.

نجد في الكتب الكثير من الكلام حول هذه الآية، لأنَّ الكثيرين فهموا منها أن الرسول محمّد(ع) وجّه فعلا سؤالا مباشرا من فمه إلى أذن الرسل السابقين(ع)، وتجد في مختلف الكتب افتراضات مختلفة عن مكان اللقاء وزمنه... وبعضهم

يقولون إنّه حصل في حادثة الإسراء والمعراج... وراجع في دراستنا هذه الآيات التي تعرفها عن الإسراء والمعراج لترى بعدها عن كثير مما هو متعارف عليه بين الناس...

في الكتب فسّروا هذه الآية على معنى حصول اللقاء والتواجه بين الرسول محمد(ع) وبقية الرسل والسؤال فعلا! وكما ترى، لو انتبهوا لعلموا أن تفسيرهم غير عقلاني، لأن السؤال سيكون: هل أرسلكم تعالى لتقولوا للناس أن يعبدوا غيره؟ أين العقلانية في هذا السؤال المنافي لبديهيات القلب السليم! لأن الآية تتحدث عن شيء بديهي تعلمه من تاريخ الرسل السابقين الذين لم يقولوا للناس أن يعبدوا إلا الله تعالى.

لِنَقُلْ إنَّكَ الآن تخاطب عدوا وتقول له: اسأل بدرا واسأل خبيرا... لأن تلك الحوادث مشهورة بانتصار المسلمين فيها، هل سيرجع في التاريخ ليسأل بدرا وخبيرا! وهنا الآية تقول نفس الشيء، لأنه من المشهور جدا أن الرسل السابقين نقلوا عنه تعالى منعه الناس عن عبادة غيره سبحانه وتعالى، {فَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ}... ليس معناها أن تواجههم وتسألهم، بل المعنى أنه من شدّة شهرة هذه النقطة التفت إليها.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ{46})
تنتقل بنا السورة إلى نموذجين في أولهما رسول داعٍ إلى التوحيد وفي مقابله فرعون المدّعي للألوهية، والمثال الثاني عن رسول دعا إلى التوحيد ولكن الناس قالوا عن الرسول إِنَّهُ إله! وفي النموذجين ترى أنه تعالى لم يتغاض عن الشرك به، وأنه يتدخّل بما يراه مناسبا...

لَقَدْ أرسلنا موسى بآياتنا، بالأمور المميزة المنسوبة له تعالى وهي دلائل على صحّة دينه تعالى من توحيد وآخرة... إلى فرعون، وهو لقب لأعلى سلطة في مصر في حينها، مثل لقب الملك عند العرب والقيصر عِنْدَ الروم وكسرى عند الفرس... وإلى، ملئه، إلى جماعة فرعون الوجهاء وأصحاب السلطة كالأمراء والوزراء والمستشارين... فقال، النبي موسى(ع):

إني رسول ربّ العالمين، أنقل لكم كلاما من المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس.

من هنا تبدأ السورة بعرض نموذج بارز عن رسول حمل رسالة التوحيد مدعومة بآيات لمشركين مسرفين من أبرز النماذج في الإسراف، ولم يضرب تعالى عنهم الذكر صفحا، بل وحصلت معهم آيات غير عادية... فَلْنَرَ ماذا حصل:

(فَلَمَّا جَاءهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ{47})
{فَلَمَّا}، عندما، {جَاءَهُم}، الرسول موسى(ع)، {بِآيَاتِنَا} بالأمور المميّزة المنسوبة له تعالى، وهي تحويل العصا لحيّة واليد لبياض... {إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ}، يعبّرون بالصوت وحركات الوجه والجسد كانعكاس لمشاعر إيجابية وكردّ فعل على ما سمعوه أو رأوه وسبّب لهم نوعا من المفاجأة لغرابته، وهنا الوصف بضحكهم كتعبير منهم على اعتبار الآيات تَهْرِيجاً ولا تدل على صدقه(ع) كرسول إلهي!

بالتحليل لهذه الحادثة ترى أنه تعالى تقصّد جعل فرعون وَمَلَأَهُ نموذجا عبر التاريخ بالآيات العديدة والمتنوعة التي جاءتهم، لترى منها أن الذي قرّر الكفر لَنْ يؤمن مهما جاءته من آيات ومهما كان نوعها، سواء الآية التي يراها ولا تمسّه كرؤيته لتحول العصا لحية، أو الآية التي تمسّه كانتشار الضفادع والقمل وتحول الماء لدم...

(وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{48})
{وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ}، أيُّ صورة محدّدة تصير عندهم لشيء مميّز يعرضه تعالى عليهم، {إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا}، أكبر من التي تشاركها في كونها آية، حيث على يد النبي موسى(ع) توالت الأمور المميزة التي تدل على مستواها الإلهي وكلّ واحدة كانت أكبر من التي سبقتها، والبداية كانت مع تحويل عصا من الخشب لحيّة، الحيوان الزاحف حيا من لحم وَدَمٍ، وتحويل يد النبي موسى(ع) التي من لحم ودم إلى بياض شديد، كقطعة الرخام الأبيض الناصع، وبعدها عبر إرسال بعض الحشرات والضفادع بكثرة على فرعون وملئه وقومه، وتحويل الماء لِدَمٍ والجفاف والقحط...

{وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ}، أَصَابَهُمْ بالضرر ولم يتركهم سبحانه، {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، كَانَ من المفروض والمتوقّع منهم أن يرجعوا لربّهم سبحانه فيوحّدوه ويطيعوه بدلا من الشرك... لأنه الربّ الإله الحقيقي بدليل سيطرته على كل ما حولهم...

(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ{49})
{وَقَالُوا}، فرعون وملؤه:

{يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ}، يا أيها الذي تقوم بالخدع لتجعلنا نراها حقيقة، {ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ}، قُلْتَ إِنَّ ما يجري معنا هي آيات من المسؤول عنك من مستوى إلهي لنهتدي، وهي تؤذينا، وبحسب ما تقول وبحسب ما نرى عَهِدَ عندك حيث وضع عندك شيئا مع الْتِزَامٍ، فيحصل ما يحصل ولديك إمكانية الطلب من ربّك إنهاء ما يحصل، فأشهر وأعلن لربك أن ينهي ما نحن فيه من الأذى، {إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ}، فإذا انتهى الضرر سوف نتبعك لنصير على دينك.

عِنْدَمَا تحوّل الماء لدم طلبوا من النبي موسى(ع) أن يرجع الماء لصفائه، وعندما هجمت الضفادع وملأت كل مدينتهم طلبوا أن تذهب... والآية هنا تعرض علينا جملة غريبة علينا إن لم نفهم قصدهم، فهم مصرّون عَلَى أَنَّ ما يحصل معهم هو سحر، هو خدعة تجعلهم يتخيّلون ما يرونه وفي الحقيقة لَا شيء يحصل، فيؤمنون أن الماء لم يتحوّل لِدَمٍ ولكنهم واقعون تحت تأثير السحر الذي يجعلهم يتخيّلون الماء دما، ويطلبون من الساحر أن يعلن لربّه عن رغبته في إبطال السحر لشدّة ما هم متضايقون منه، وأنهم سَيَكُونُونَ على دينه إن أبطل السحر.

بعبارة أبسط، هُمْ لم يؤمنوا بأن إله موسى(ع) قادر على التحكّم بهم وبالطبيعة، بل إله موسى (ع) يتلاعب بالطبيعة لتبدو متغيّرة، حيث لا يرون أمورا حقيقية تحصل بل واقعون تحت تأثير خدعة سحرية من القياس الكبير، سحر من قياس إلهي، وهكذا تفهم مستوى عنادهم بالكفر حتى بما لمسوه وأضرّهم ولا يزالون يعتبرونه سحرا.

بِالنِّسْبَةِ لكلمة سحر تَوَسَّعْنَا في دراستها في الآية 30 من هذه السورة فراجعها.

بقي شيء، هُنَاكَ من يقول بأن هذا القرآن فيه أمور لا تدخل في عقل العاقل، وسنأخذ مثلا عن بقاء النبي يونس (ع) حيا لأيام في بطن الحوت، لِأَنَّهُ مستحيل، فنسألهم: كيف ستكون الآية التي تريكم تدخّل قدرة فائقة كدليل على أن الإله فعلها؟ إِنْ كانت تدخل في الرأس، ألن تكون سهلة ويمكننا نحن فعل مثلها؟ وعندها لن تكون آية كشيء مميّز يدلّ على تدخّله تعالى...

في الآية هنا ترى عقلية مشابهة، مَا يحدث مع فرعون وقومه من تحوّل الماء لدم وغيرها من انتشار كميات هائلة من الضفادع... يَفُوقُ قدرتهم على تغييره، ويشعرون بالضرر منه، ورغم ذلك لم يؤمنوا أنه من أفعاله تعالى! ويصرّون عَلَى أَنَّهُ نوع من السحر، كخدعة من القياس الكبير! وهكذا ترى أنه لا يوجد ولا أي طريقة لإقناع من قرّر الكفر، لا بالكلام العقلاني، ولا بالوحي مباشرة في وعيه، ولا بآية خارقة... وهذا ما يريدك القرآن أن تلتفت له، لتزداد هدى، ولتبليغ الآخرين أنهم لا عذر لهم أمامه تعالى في الآخرة، لِأَنَّ كل وسائل وطرق الهداية الممكنة اسْتَعْمَلَهَا تعالى معكم، ولم تؤمنوا.

وهكذا ترى أنه لا معنى لتكرار آياته تعالى في عصرنا الآن، هَا أَنْتَ تسمع بما حصل في عهد النبي موسى(ع)، وهي أمور عظيمة جدا، وترى أن من قرّر الكفر، وفي أي عصر أو زمان كان، لَنْ يؤمن ولن تغيّره أي آية، لِأَنَّ المشكلة فكرية ونفسية عنده ولن تنحلّ بآية، إِمَّا سينكرها وإما سيكذّبها أو سيقول بأنه مسحور...

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ{50})
{فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ}، عِنْدَمَا أزاح سبحانه عنهم الضرر، {إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ}، مَا قالوه سابقا من التزام وكان له قوّة ليلتزموا به، إِذَا بهم يعتبرونه بلا قوّة، وَيَفْرُطُ ولا يعد متماسكا ما أعلنوه من التزامهم بالإيمان بدينه تعالى إن ذهب عنهم السوء، فَيَرْجِعُونَ كما كانوا كافرين بدين النبي موسى(ع).

ضع في بالك دائما أن هذه الحوادث بين النبي موسى(ع) وفرعون وقومه اسْتَغْرَقَتْ سنينا طويلة، فلا تتصوّرها حصلت في مدّة قليلة أو يوما بعد يوم جاءت آية وذهبت، وفي اليوم التالي حصلت الأخرى وذهبت... لا، جَرَتْ هذه الأحداث في سنين عديدة كما يبدو واضحا من القرآن وَمَشْهُوراً في التراث التاريخي لأهل الكتاب.

الآن لِنَدْمُجَ ما ذكرته السورة سابقا مع فرعون وملئه، حَيْثُ هُمْ مشهورون جدا في التاريخ بأنهم مسرفون في شركهم وفي شريعتهم وفي طغيانهم... بشكل غير عادي، ورغم ذلك لم يجعلهم تعالى يمرّون في التاريخ من دون تذكيرهم بدينه سبحانه، ورغم الآيات ورغم تنوّعها وضخامتها لَمْ تنفع مع هؤلاء الناس ليؤمنوا، ورغم علمه سبحانه بأنهم لن يؤمنوا لَمْ يتركهم بلا ذكر، ولم يعذّبهم فورا، وأمهلهم سبحانه سنينا طويلة مع آيات عديدة... والكلام في السورة كان مع وعن أهل مكّة النموذج المصغّر من المسرفين بالنسبة لنموذج فرعون وقومه، وكلام السورة موجّه لجميع من كان مسرفا في أمور الإيمان والتشريع والسلوكيات، وفي أي عصر أو مكان، لِيَضَعَ الآن نفسه تخيليا مكان فرعون وملئه أو مكان أهل مكّة، ولن يتغيّر أي شيء عليه، إمَّا سيؤمن لأن فكره ونفسيته تتماشى مع الحق والصلاح المتمثّل عمليا بدينه تعالى، أو سيكفر حتى لو كل الآيات التي تخطر بباله حصلت أمامه.

(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ{51})
{وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ}، قَالَ كلاما موجها للناس الذين ينتمي لِجَمَاعَتِهِمْ:

{يَا قَوْمِ}، أيها الناس الذين أنتمي لِجَمَاعَتِهِمْ والمتفاعلين مع الدين، {أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ}؟ ألست أنا أملكها وَهِيَ لي وتحت أمري وتصرّفي؟

{وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي}، في حدائقي وبساتيني وحقولي وبلدي، كُلُّهَا تحت أمري وتصرفي، {أَفَلَا تُبْصِرُونَ}؟ مِنْ بعد ما قلته لكم، ألا يحصل عندكم وعي وفهم للصورة التي أنا عليها؟ كما نقول بالعامية: ما شايفين ملكي وعظمتي هَلْ تحتاجون لدليل عليها؟

مَنْ هذا الربّ الذي يتكلّم عنه موسى؟ إن كنت أنا أملك كل هذه العظمة وأسيطر على كلّ شيء من حولي بشكل تام ولا ينقصني شيء، مَا معنى ربوبية ربّ موسى؟ عَلَى ماذا هو ربّ؟ وما قيمة رسوله بالنسبة لقيمتي؟

(أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ{52})
{أَمْ أَنَا خَيْرٌ}، هل أنا موصوف بأني أحسن حالاً، {مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ}، الذي بلا قيمة وبلا شأن، {وَلَا يَكَادُ يُبِينُ}، على شعرة لا يتبين لنا كلامه لأننا لا نفهم عليه ما يقول؟ أقواله عن كونه رسولاً من ربّ العالمين وعن التوحيد وعن فساد ديننا... غريبة جداً جداً، ولا أجدها منطقية ولا عقلانية وهي كلام بلا معنى وغير مفهوم لأني لا أرى ربّاً فوقي لأني الملك المالك المسيطر، وموسى مجرّد شخص عادي لا قيمة له أمامي.

نتذكّر من الآية 31 من هذه السورة ما قاله المشركون للنبي محمّد(ع) عندما افترضوا وجوب نزول القرآن {عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ}، حيث إنّ كلامهم يشبه كلام فرعون، بل كلام فرعون فيه زيادة، من هو موسى حتى يكون رسولاً للربّ وأنا أعظم منه؟ أصلاً أنا لا أرى ربّه مسيطراً بل يبدو واضحاً أنني أنا المسيطر.

إن كان مشركو مكّة النموذج الذي يطرحه لنا القرآن، يعتبرون أنفسهم عظماء، فليقارنوا عظماءهم بفرعون الأعظم منهم بكثير، ولينظروا ما حلّ بفرعون.

(فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ{53})
{فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ}، رمى أحدهم وصار على موسى، {أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ}، شيء يتسوّر به من معدن الذهب، كالأطواق حول الرقبة والسلاسل وأساور اليد... فإن كان فعلاً رسولاً من ربّ فليعطه ربّه الذهب، وهو المعدن الذي لا يصدأ وكمياته قليلة على الأرض، ومرغوب لصُنْعِ الحلي... وله قيمة عالية عند الناس، وموسى فقير ونحن نملك الكثير من الذهب، ما معنى اختياره رسولاً من دون أي امتيازات من ربّه! الذي يتواصل معه الإله يمكنه بسهولة الحصول على الذهب، ولسنا نرى مع موسى حتى إسوارة!

{أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ}، لتقترن به ولترافقه الكائنات التي تملك قدرات عالية، فإن لم يكن غنياً بالذهب فليكن له سلطة قوية بجنود أو مرافقين من الدرجة العالية ويحققون له ما يريده طالما هو مرسل من الإله.

بالتحليل لكلامهم تفهم أنه ملخّص عن احتمالين، طالما موسى يتواصل مع الإله وبالتالي من المفروض أن يظهر ذلك بأن يملك موسى الذهب ليكون له سلطة مالية يفعل بها ما يريده، كالمليارديرِ الذي يأمر الآخرين فيطيعونه... أو ليكن لموسى سلطة بأعوان أقوياء "ملائكة" يحققون له ما يريده مثلما عند الملك أو الرئيس جنود... وهذه عقلية مشابهة جداً لخرافة جنّي الفانوس السحري، وهي عقلية حتى نحن المؤمنين نقع في فخّها أحيانا، ونفترض بأننا أكرم عليه تعالى من الآخرين لأننا مؤمنون، وبالتالي من المفروض أن ينعم علينا بالثروة... ونفترض أننا بدعائنا له تعالى يجب أن تتحقّق طلباتنا وكأننا نتعامل مع جنّي الفانوس السحري الخرافي... وهكذا لا تستغرب ما قاله فرعون لأنه ليس بعيداً كثيراً عن عقلياتنا ونفسياتنا نحن ضعاف الإيمان.

نتذكّر دائماً أن النبي يوسف(ع) سبق وعاش في مصر، ونشر رسالته، والناس بشكل عام لديهم معرفة بدينه ويعرفون أن الملائكة(ع) كائنات قوية جداً، والأرجح أن المصريين القدماء نَحَلُوا الدين الإلهي وشوّهوه واستبدلوا الملائكة(ع) التي تقوم بقبض الأرواح وتنفيذ أوامره تعالى... بآلهة "ملائكية" أعطوها أسماء من خيالهم!

على أي حال، مما هو عالق في ذهني قرآنياً أن آيتنا هنا هي تاريخياً أول آية تنقل ذكراً بشرياً لكلمة ملائكة، حيث قبل فرعون لم ينقل القرآن كلمة ملاك عن لسان أي بشري، حتى عن لسان الأنبياء، إلا اللهم ما ورد عن لسان النسوة اللاتي قطّعن أيديهن إن كان كلامهن يقصد الملائكة(ع) ولم يقصد العمومية لأي كائن مختلف عن البشر، وورد ذلك في الآية 31 من سورة يوسف {مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ} هذا بحسب ذاكرتي، فهل لهذا مدلول ما؟

بالنسبة لكلمة إسوارة قال الراغب الأصفهاني في كتاب المفردات إنّ كلمة "إسوارة، سوار" معرّبة من الأصل الفارسي "دستواره"، ومن بعده "بحسب اطلاعي" كتب التفاسير نقلت جملته هذه ونشرتها. حالياً لدينا معايير لإرجاع الكلمات لأول شعب وضعها حتى ننسب تلك الكلمة لهم، من تلك المعايير أن نجد مستنداً تاريخياً وفيه الكلمة مستعملة عند شعب ما قبل الآخرين، أو تكون التسمية لشيء ما هم اخترعوه قبل الآخرين، أو نجد اشتقاقات من تلك الكلمة مستعملة بمعانٍ قريبة... لو وجدنا مستنداً باللغة الفارسية، يذكر كلمة "دستواره" وهذا المستند أقدم من أي مستند عربي، لاحتملنا أن يكون أصل الكلمة فارسياً وتعرّف عليها العرب من الفرس، ولو وجدنا في الآثار أن العرب لم يعرفوا الإسوارة في تاريخهم، واخترعها الفرس قبلهم، لاحتملنا أن العرب تعرّفوا على الإسوارة وعلى الكلمة الخاصّة بها من الفرس، وأن العرب أعادوا صياغة الكلمة بما يناسب تلفظهم للكلمات لتصير "إسوارة" بدلاً من "دستوارة"... لكن الراغب وغيره من اللغويين القدماء كانت معاييرهم رخوة أكثر من المقبول، معيارهم هو تشابه لفظ الكلمة العربية مع الفارسية، فيحكمون أنّ أصل الكلمة فارسي! والعجيب أنهم لم يحكموا أنّ أصل الكلمة عربي! ما هذا المعيار! اخترت هذه الكلمة بالتحديد لأبين لك أنّ أكثر ما قالوه عن أصل الكلمات العربية الواردة في القرآن أنها أجنبية هو مجرد تخرّصات بلا دليل، وهنا كمثال الأساور من أقدم ما اخترعه الإنسان، وهي منتشرة في آثار كل الحضارات القديمة، وتشابه اللفظ بين اللغتين لنفس الشيء، يشير "ولا يحتّم" إلى أصل واحد للكلمة، فلماذا لا يكون عربياً؟ أو آرامياً أو سريانياً أو... ولماذا لا تكون كلمة "إسوارة، سوار..." عربية ولدينا كلمة "أسير" التي تحتمل الاشتقاق بسبب "تكبيل" يدي الأسير!

لا أريد البرهنة لك أنّ أصل كلمة إسوارة عربي، لكن ألفت انتباهك إلى أكثر ما قالوه في التفاسير والقواميس عن أصل بعض الكلمات العربية الواردة في القرآن أنّه كان تخميناً، وبلا دليل، ونتج عنه كلام غير صحيح لتفسير معاني بعض الكلمات... وللأسف إنّ من يعيد دراسة ما قالوه مُتَّهَمٌ في علمه! لأنّ الناس يقدسون القديم، وكأن القديم لم يكن جديداً حين قالوه!

لمزيدٍ من التوسّع حول هذا الموضوع راجع دراستنا للآية 21 من سورة الإنسان {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ...}، والآية 47 من سورة الصافات {لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ}، والآية 3 من هذه السورة {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}.

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ{54})

{فَاسْتَخَفَّ}، بكلامه عن المقارنة بين عظمته وبساطة النبي موسى(ع) استخفّ الناس الذين ينتمي لجمعتهم، فبكلامه غير العقلاني عاملهم على أساس أنّ عقولهم خفيفة بلا قيمة ووزن، {فَأَطَاعُوهُ}! فالتزموا بكلام فرعون ولم يتبعوا النبي موسى(ع)! {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا}، أناساً لهم كيان الجماعة، {فَاسِقِينَ}، مخالفين للشيء العلني الواضح أنّه حقّ، فالعقلانية مدعومة بالآيات تشير بوضوح لفساد كلام فرعون، ومن ناحية أخرى عادة نفهمها من استعمال كلمة فِسْقٍ أنّهم وصلهم كلامه تعالى واضحاً علنياً وهم خالفوه، علماً أنّ معنى كلمة فِسْقٍ أشمل من ذلك، فهو عموم الخروج عن أي شيء علني واضح، ويشمل بذلك حتى الخروج عن العقلانية.

نتذكّر أنّ السورة دخلت على موضوع فرعون من جوانب عدّة آخرها اعتراض نموذج كفّار مكّة على محمّدٍ الفقير العادي الذي لا يستحقّ بنظرهم أن يكون رسول الإله، واقتراحهم عليه تعالى أن ينزّل قرآنه على رجل عظيم... فترى هنا النقل من كلام فرعون الأعظم من مشركي مكّة، وترى سخافة عظمة الملك والسيطرة التي لا معنى لها أمام ما يطرحه الرسول عليهم.

أين المنطق في كلام فرعون؟ ما الفرق بينه كمالك لبلد وبيني كمالك لبيتي؟ فقط هو يملك أكثر منّي، وله سلطة وسيطرة على أناس أكثر منّي، هل هذا يعني أي شيء؟ لنفترض أنّ واحداً منّا جلس على جبل من ذهب، فماذا سيتغيّر في الكون؟ لا شيء، فهو مجرّد شخص مرّ في التاريخ وكان غنياً جداً، والإيمان بكلامه ما هو إلا خفّة عقل وتفاهة في مقابل ما يعرضه النبي موسى(ع)، عن توحيد الإله سبحانه وعن العقاب في الآخرة على الشرك والسوء، وما ظهر من دلائل بقوله وآياته فهذه أمور لها قيمة حقيقية، لنتابع:

(فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ{55})
{فَلَمَّا آسَفُونَا}، عندما صارت النظرة لحالتهم حالة الأسف، وصارت نظرته تعالى لهم أنّهم تركوا الشيء الجيد واتبعوا الشيء السيّء مع علمهم بسوئه، {انتَقَمْنَا مِنْهُمْ}، فأخطؤوا وبيّت سبحانه لهم نيّة الضرر بهم فعاقبهم بسبب ما فعلوه، فأخذ حقّه الإلهي منهم لأنهم أشركوا وكفروا بالآيات وبالرسول، {فَأَغْرَقْنَاهُمْ}، جعلناهم يموتون بسبب طمر الماء لهم وانقطاع الهواء عنهم، {أَجْمَعِينَ}، فكلّ ملأ فرعون الذين لحقوا ببني إسرائيل ماتوا، وذلك حين لحقوا بالنبي موسى(ع) وببني إسرائيل ليقتلوهم فأطبق البحر على فرعون وجنوده ومعهم الملأ من قومه، وماتوا غرقاً.

(فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ{56})
{فَجَعَلْنَاهُمْ}، بغرقهم، {سَلَفاً}، شيئاً سلف فحصل مسبقاً في الماضي، فعظمتهم وملكهم وقوّتهم صارت كما نقول بالعامية: سؤالف، ونقصد شيئاً قديماً سلف، ونشير بذلك للحكايات القديمة. فما قيمة ما افتخروا به؟ راح معهم غرقاً كبرياؤهم وغناهم وقوّتهم فصاروا مجرّد أحاديث، {وَمَثَلاً لِّلْآخِرِينَ}، فصاروا شيئاً نشبّه به للآخرين عن نهاية المشركين المنكرين للآيات، وها ضربهم تعالى لنا مثلاً في قرآنه.

نرجع لموضوع السورة، ما عظمتكم أيها النموذج يا مشركي مكّة أمام فرعون وملئه؟ وهل سمعتم كيف كانت نهايته؟

التاريخ الديني المستمر من جيل متدين لآخر، حفظ حادثة غرق فرعون، وأمّا تاريخ الفراعنة فطمسها، وعلم بها بضعة أجيال من المصريين بعد فرعون، ولكن مع مرور الزمن انطمست إذ لا مصلحة لهم بذكرها، فأصلاً حين حصلت الآيات أمام الأقدمين أنكروها، فكيف بالكافرين اللاحقين من المصريين وغيرهم الذين سمعوا بها، فهم لن يصدقوها... وسيخترعون نسخة مختلفة لها حتى لا تبقى آية وتصير كأي كارثة طبيعية... وها عاد القرآن لإحياء قصّتهم لتكون مثالاً لغيرهم من المشركين.

التلاعب بالتاريخ مرض بشري منتشر منذ القدم، ومشهور تلاعب الملوك والحكّام بالتاريخ ليكتبوه من نظرتهم للأمور، وبالكذب لتمجيد أنفسهم... وللأسف فالمنتمون لدينه تعالى عموماً لم يسلموا من هذا المرض، فها التوراة مشحونة بالكذب، وتراث المسيحيين عن صلب النبي عيسى(ع) أكبر كذبة، وتراث المسلمين بالروايات الفاسدة يضاهي وليس أقل مما فعله أهل الكتاب من قبل.

ضع في بالك أنّ الآثار التي تركتها الشعوب عن التاريخ فهي ليست أدلة دامغة، بل تعطيك فكرة، وتدعم فرضية... وهناك أمثلة كثيرة مشهورة ومعلومة عن كذب التاريخ الذي نحتته وسجّلته الحضارات، فإن لم تجد في الآثار الفرعونية

أي أثر للنبي موسى(ع) ولا لبني إسرائيل، ولا لحادثة الغرق، ولا للنبي يوسف(ع)... فهذا شيء عادي، فالكاتبون للتاريخ كانوا تابعين للسلطة الحاكمة، وماذا ستكتب السلطة الحاكمة عن موضوع كهذا؟ هل وجدت في التاريخ أنّ الناس يعترفون بالهزيمة حتى تتوقّع أن تجد في آثار الفراعنة شيئاً عن فضيحة إهلاكه تعالى لواحد من الفراعنة مع جنوده على يد رجل "موسى" أو من ربّ رجل يدين بدين مخالف لدينهم؟

بالنسبة لما نجده في التوراة عن فرعون فهو مشوّش، فالكاهن عزرا الذي أعاد كتابة التوراة حفظ الكثير من تفاصيل قصّة النبي موسى(ع) وفرعون، ولكن ربما غابت عنه الدقّة أو خانته الذاكرة، والواضح أنّه أكمل النواقص من علومه الشخصية، وذكر ما أعجبه مما تذكّره... فحدّد الفرعون مما يعرفه هو شخصياً عن تاريخ الفراعنة، فقال إنّه رعمسيس... وليس هذا مورد بحثنا ولكن ذكرناه للتنبيه، ويمكنك مراجعة أي آية ورد فيها اسم هامان لتقرأ شيئاً حققناه عن تحديد الفرعون المعاصر للنبي موسى(ع)، وراجع مثلاً دراسة الآية 6 من سورة القصص.

(وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ{57})
{وَلَمَّا}، وعندما، {ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً}، عندما أقيمت قصّة النبي عيسى(ع) فذكرتها أيها النبي محمّد(ع) لقومك كتشبيه للآيات الإلهية كونه ولد بلا أبّ، وكونه رسولاً يدعو إلى التوحيد... وهذا هو التمثيل به(ع) مثلما ضربت السورة هنا النبيين إبراهيم وموسى عليهما السلام مثلاً.

{إِذَا قَوْمُكَ}، إذا بالناس "المتفاعلة مع مسألة الدين" الذين تنتمي لجمعتهم أيها الرسول محمّد(ع)، {مِنْهُ}، من النبي عيسى(ع)، {يَصِدُّونَ} "كسرة على حرف الصاد" فيصدر عنهم حركات من سبب الحديث عن النبي عيسى(ع) وهي حركات غوغائية كالتصفيق وتحريك اليدين كمن يرقص... كتعبير عن الاستهجان الاستهزائي الرافض، ووردت نفس الكلمة {يَصِدُّونَ} بتصريف آخر في الآية 35 من سورة الأنفال {وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً...}.

نتذكّر ما مرّ من كلام عن إسراف المشركين في سورتنا هنا، عن الذين أشركوا به تعالى وجعلوا له بناتٍ، والمشركون يعلمون أنّ العديد من النصارى يقولون عن الرسول عيسى(ع) بأنّه ولد له تعالى، وهذا القرآن يقول عن النصارى أنّهم من أهل الكتاب أي من التابعين لدينه تعالى، فكيف ينهى تعالى المشركين في هذا القرآن عن نسبة الأولاد له سبحانه بينما يوجد أناس منتسبون لدينه تعالى ويقولون بأنّه تعالى لديه ولد؟ وهكذا صار المشركون يحاججون الرسول محمّد(ع) بكون الرسول عيسى(ع) منسوباً كولد للإله، وبالتالي فلا يحقّ له (ع) نهيهم عن نسبة الأولاد له تعالى... وتصف الآية المشركين بمشهد تصويري لحالتهم الاستهجانية والاستهزائية الاستعراضية بكونهم {يَصِدُّونَ} "كسرة على حرف الصاد" أي يقومون بحركات غوغائية تعبّر عن إفحامهم للرسول محمّد(ع)، فحين يتحدّث عن الرسل ويضرب لهم النبي عيسى(ع) كمثل عن رسله تعالى... فالمشركون يقومون بحركات غوغائية لأن عيسى(ع) الرسول منسوبٌ كولد للإله سبحانه، فكيف تقول عن ربّك إنّه ليس لديه بنات ولا شركاء في الألوهية؟!

هنا ننتبه جيداً، فأيّ اختراع في الدين، فسيكون له أثر بامتداد تاريخي، فالذين قالوا عن الرسول عيسى(ع) بأنّه ولد لله عزّ وجلّ سيتحاسبون على شركهم، وسيتحاسبون على المفعول المنتشر لشركهم بين الناس، فها المشركون يعلّقون على الدين الإلهي بعبادة النبي عيسى(ع)، ويتّخذونها حجّة لهم لصحّة عبادتهم للملائكة (ع) والأرواح والجنّ...

ننتبه دائماً أنّه تعالى يتحدّث معنا بشفافية وبصراحة، فيذكر لنا عيباً ارتكبه بعض المنتسبين لدينه تعالى، مشابهاً لما يفعله المشركون، ويهاجم سبحانه الاثنين معاً، فلا يغطّي سبحانه أي عمل سيّء، ولا يستحي بأي شيء، وهكذا تنتبه للعديد من السُّوَرِ التي قفزت من الكلام مع المشركين لتوجيه الكلام إلى أهل الكتاب عموماً أو لبني إسرائيل خصوصاً أو للنصارى خصوصاً، فكانت تشير لشبه بين سيّء يفعله المشركون وفعله البعض من أهل الكتاب الإلهي... وآيتنا هنا مثال واضح عن ذلك...

نلاحظ القرآن يشدّد على تحديد "عيسى" بأنّه ابن السيدة مريم(ع)، والسبب أنّه في تاريخ اليهود "والنصارى" مرّ عدّة أشخاص باسم عيسى "ومشتقات هذا الاسم: عيسو، يسوع، يشوع..." وادّعوا أنّهم المسيح المنتظر، ولذلك ميّز القرآن النبي عيسى المسيح الحقيقي(ع) عن المزيّفين بنسبته لأمّه السيدة مريم(ع).

(وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ{58})
وقالوا، مشركو مكّة: {أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ}؟ ما الذي يميّز عيسى حتى يكون ولداً له تعالى ويمنعنا من جعل الملائكة(ع) أو غيرها بناتٍ له تعالى؟! بماذا هو موصوف بأنّه أحسن من الكائنات التي نعتقد أنّها بصفات وقدرات عالية عن صفاتنا وقدراتنا؟! هذه العبارة على معنى: أنتم بالسمنة ونحن بالزيت، أنتم يحقّ لكم أن تقولوا عن واحد من البشر أنّه ولد له تعالى ونحن لماذا لا يحقّ لنا أن نقول ذلك عن الملائكة(ع) وهي كائنات بقدرات عالية فوق قدرات البشر؟ وأنتم تقولون إنّكم موحدّون وفي نفس الوقت تقولون عن ولدٍ له تعالى من البشر، ونحن لا يحقّ لنا قول ذلك عن كائنات من غير البشر؟!

نتذكّر دائماً أنّ المشركين يقولون بتعدّد الآلهة، ولا ينفون آلهة غيرهم، وليس لديهم مشكلة أن يكون لكل قوم آلهة خاصّة بهم، ولا مشكلة لديهم أن يكون الرسول عيسى(ع) إلهاً للمسيحيين، ومن هذه العقلية يسألون عن النبي عيسى(ع) وعن آلهتهم على اعتبار أنّهم هم يعبدون آلهة، وقوم آخرون يعبدون النبي عيسى(ع)، مثلما للرومان آلهة غير آلهة اليونان وغير آلهة أهل مكة وغير آلهة أهل اليمن وثقيف وربيعة... وكلّهم بنظر المشركين آلهة لها قيمة إلهية، ولكن كل جماعة منهم يعبدون فقط آلهتهم الخاصّة بهم ويعطونها قيمة أعلى من آلهة الآخرين. من هذا المنطلق نفهم قولهم هنا، لأنّ آلهتهم هي تراثهم الخاص بهم، هل عبادة المسيحيين المنتمين لدينكم عيسى "البشري"، أفضل من عبادة آلهتهم "الملائكة"؟ المسيحيون الذين تقول عنهم يا محمّد إنّهم على دينك هل يحقّ لهم أن يعتقدوا بولدٍ له تعالى ونحن لا يحق لنا الاعتقاد بالملائكة(ع) أنّهنّ بنات له تعالى؟

{مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا}، إذ لم يقيموا المثل عن النبي عيسى(ع) إلا على أساس محاولة إقناعك بصحّة كلامهم، وليس للبحث عن الحقيقة. هم ثابتون على موقفهم ولا يريدون التغيّر، ولا يعنيهم أي دليل تقوله لهم عن فساد عقيدتهم وعن فساد الاعتقاد بأي ولدٍ له تعالى من أي نوع كان، بل سيبحثون عن أي كلام يردّون به عليك.

{بَلْ هُمْ قَوْمٌ}، أناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع مسألة التوحيد، {خَصِمُونَ}، كثيرو المخاصمة، يعتبرون ما بينك وبينهم خصام كخلاف يسبب النفور أو الكره أو العداوة، لا يهمّ إن كان معك حقّ، ولأنّهم خصماؤك سيخالفونك على كلّ حال مع نفورهم منك، بحجّة الرسول عيسى(ع) ومن عبده أو بأي حجّة أخرى.

نلتفت جيداً لما تقوله الآية، الذي يريد الحقّ سيبحث عن الدليل العقلاني، وها أثبتت السورة هنا وعموم القرآن أنّه لا إله إلا الله سبحانه وتعالى، ما معنى تحجّج المشركين بمن عبد النبي عيسى(ع)! هم ضالّون ومن عبد النبي عيسى(ع) ضالّ أيضاً، ولا علاقة للدين الإلهي ولا للنبي محمّد(ع) بعبادة النبي عيسى(ع)، أصلاً القرآن حارب هذه العقيدة وأثبت بطلانها... وأصلاً لم يدعهم النبي محمّد(ع) لعبادة النبي عيسى(ع) ما معنى كلام المشركين غير الجدل العقيم والخصام؟

(إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ{59})
{إِنْ هُوَ}، فقط النبي عيسى(ع)، {إِلَّا عَبْدٌ}، هو موصوف بأنّه مفروض منه الطاعة، كلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة وهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

{أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ}، أعطاه سبحانه من نعمته من الأشياء الجيدة، فكان لديه (ع) قدرات غير عادية كخلق الطير من الطين وإحياء الموتى وإبراء المرضى... {وَجَعَلْنَاهُ} (ع) {مَثَلًا}، من الأمثال، ككائن للتمثيل للتشبيه مثل الأمثال التي قدّمناها سابقاً، {لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ}، وأنت تعلم أنّه تعالى جعله بهذه القدرات ليؤمن به بنو إسرائيل كرسول إلهي.

لشدّة قساوة قلوب غالبية بني إسرائيل التي سبّبت كفرهم بالأنبياء، جاءهم النبي عيسى(ع) بولادته من دون أبٍ ومنذ ولادته (ع) بكلامه في المهد وأثناء حياته... بأمور غير عادية تثبت أنّه رسول إلهي، فكان المقصود بتميّزه بالقدرات أن يكون مثلاً لهم عن القدرة الإلهية لدعم رسله، كتشبيهٍ لهم ليفهموا أنّه (ع) رسول، مثل الأمثال التي جاءتهم من قبل ليؤمنوا حينما أغرق سبحانه فرعون وحين رفع تعالى فوقهم الطور...

هذا هو الأصل في سبب تميّزه(ع) ولكن سارت الأمور بشكل منحرف، وعبده الناس وهو في الحقيقة عبد... ماذا سيتغيّر من حقيقة أنّه لا إله إلا الله تعالى إذا انحرف أناسٌ منتمون بالاسم لدينه تعالى وجعلوا له تعالى ولداً إلهاً؟

ما معنى ضرب المشركين للنبي عيسى(ع) كمثل للنبي محمّد(ع) عن صحّة شركهم واختراعهم للآلهة؟ لو أقرّ القرآن أو النبي محمّد(ع) بكون النبي عيسى(ع) إلهاً، لكان لكلامهم وجهة نظر بشكل ما، لكنّهم اخترعوا آلهة، ومن عبد النبي عيسى(ع) فإنّه ارتكب نفس السوء، ما معنى كلامهم وأين الحجّة في كلامهم؟

(وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ{60})
{وَلَوْ نَشَاءُ}، أمامه تعالى الخيارات العديدة ولو قرّر، {لَجَعَلْنَا}، صيّرنا، {مِنكُم}، أيها الناس، {مَّلَائِكَةً}، كائنات توصف بأنّها تملك شيئاً ما، فتملك قدرات عالية، {فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ} يأتون خلف بعضهم، مَلَاكٌ خلفه مَلَاكٌ.

الصورة التي في ذهنكم عن الملائكة(ع) أنّها مختلفة عنكم وأفضل من البشر، واعتبارها بنات له تعالى وبالتالي اعتبارها آلهة، واعتقادكم أنّه إيمان عقلاني ومنطقي أكثر من اعتبار واحدٍ من البشر ولداً له تعالى، فإنّ هذه الصورة لا تغيّر من واقع كونكم أنتم والملائكة(ع) مخلوقاتٍ وعبيداً له تعالى، لو شاء سبحانه لجعل منكم ملائكة، وَمَنَحَ البعض منكم القدرات التي تتمتّع بها الملائكة، وعندها ماذا سيتغيّر لتصيروا أولاداً له تعالى أو آلهة؟!

تذكّر أنّه تعالى يمكنه أن يجعل الملاك على شكل بشر، لو شاء تعالى لجعل رسوله للناس ملاكاً على شكل رجل، وورد ذلك في الآية 9 من سورة الأنعام {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ}، نحن بحالتنا التي نحن فيها الآن لا يمكننا رؤية الملائكة(ع) إلا إذا تمثّلت على شكل بشر، ولو جعل تعالى منّا نحن ملائكة، وصرت أنت تملك قدرات وصفات عالية، ماذا سيتغيّر؟ لماذا ستصير ولداً له تعالى؟ كيف وبأي معنى ستصير إلهاً وأنت لا زلت مخلوقاً؟!

الأفضلية التي يقولها المشركون عن الملائكة على البشر، لا تبرّر اعتبار الملائكة آلهة ولا بناتٍ له تعالى، نفس الذي يمنعك من عبادة واحد من البشر لأنك تعلم أنّه مثلك، وتعلم أنّك لست إلهاً ولا ولداً له تعالى، وبالتالي البشري الآخر ليس إلهاً ولا ولداً له تعالى، نفس الشيء عن الملائكة(ع)، لو صرت أنت ملاكاً ما الذي سيتغيّر حتى تعتبر نفسك إلهاً أو ولداً له تعالى؟ لأنّك مجرد عبدٍ من لحم ودمٍ، ولو تغيّرت صفاتك وقدراتك فستبقى مخلوقاً عبداً له تعالى، ولن تصير إلهاً ولا ولداً له تعالى، حتى لو صرت ملاكاً.

بقي شيء تراه في طيّات الكلام، إنّ القدرات غير العادية التي تمتّع بها النبي عيسى(ع)، كانت دافعاً وغطاءً لذوي القلوب الفاسدة لإحياء دين الشرك بقالب جديد منضوٍ تحت دينه تعالى، ومضافاً للعصبية المغالية بالشخصيات التابعة لجماعتهم والرافضة لجعلها مساوية لشخصيات يحترمها الآخرون... وهذه عقلية الحزبية والمذهبية والطوائفية... التي أنذرنا منها سبحانه مراراً وتكراراً... من هذه الأسباب وغيرها جعلوا النبي عيسى (ع) ولداً له تعالى، متفوّقاً بهذه الصفة عن كل الشخصيات الدينية الأخرى ليكون دين عابديه أقوى وأعلى بشخصياته الدينية على كل الذين سبقوهم من التابعين لدينه تعالى! مهما علوت وغاليت بتقديس شخصياتك الدينية فهم سيبقون تحت الألوهية، وإلى هناك، إلى الألوهية رفع بعض المسيحيين النبي عيسى(ع) وبذلك اكتسحوا كل قديسي الآخرين من المنتمين لدينه تعالى!

ومع أنّ السورة تركيزها على المشركين، في نفس الوقت فيها ردّ على من ألّه النبي عيسى(ع) مبيّناً له أنّ امتلاكه (ع) لقدرات عالية لا يعني أي شيء، حيث إنّ الملائكة قدراتها أعلى من قدرات النبي عيسى(ع) ولكنهم ليسوا آلهة ولا أولاداً له تعالى، وبما أنّ الكلّ مخلوقون فكلّهم عبيده تعالى، على أي أساس صار النبي عيسى(ع) ولداً وإلهاً ولا تصير الملائكة أولاداً له تعالى وآلهة! وهكذا يظهر تعارض كل هذه الأنواع من الشرك مع حقيقة أنّه تعالى لوحده من جهة الإله والبقية كلّهم عبيد له سبحانه.

للأسف عقلية المبالغة بتقديس الشخصيات الدينية بحيث يصير لكل جماعة قدّيسون أعلى بالقيمة من قدّيسي الجماعة الأخرى، عقلية السوء هذه لم نسلم منها، ورفع بعضنا قدّيسيه ليصيروا أفضل من الأنبياء، ورفع بعضهم قديساته لتصير أعلى من السيدة الوحيدة التي ذكرها القرآن بالاسم وبصراحة ووضوح أنّه تعالى اصطفاها وطهّرها على نساء العالمين كما ورد في الآية 42 من سورة آل عمران {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ}.

(وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{61})

{وَإِنَّهُ}، حالة رؤيتكم للملائكة(ع) لتروا أنّها مخلوقة مثلكم وليست آلهة، هذه ستحدث ولكن ليس هنا، وعندما يسألونك أيها الرسول محمّد(ع) متى سيحدث ذلك ليقتنعوا أنّ الملائكة مخلوقات، ليكن جوابك:

{لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ}، حتى تعلموا متى ترون الملائكة(ع) كما هي من دون أن تتمثّل على شكل بشر، أنتم تسألون عن علم الساعة، والقرآن غالباً يشير بالساعة لأول ساعة من يوم قيامنا من الموت، أوّل يوم من أيام الآخرة بالنسبة لنا هو قيامتنا من الموت، وأوّل ساعة فيه هي ساعة قيامنا من الموت، وبعدها أيّام حشرنا ومحاسبتنا... ومن القرآن نعلم أنّنا عند أوّل ساعة من الآخرة سنرى الملائكة (ع) كما هي على حقيقتها، وسيعلم الذين عبدوها أنّها مخلوقات مثلنا عبيدٌ له تعالى ولا معنى لألوهيتها، وكمثال عن ذلك الآية 22 من سورة الفرقان {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا}.

{فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا}، أيها الناس لا تجادلوا بكلام فارغ في شيء صحّته واضحة، لأنّ الساعة حتماً قادمة وحينها سترون الملائكة(ع)، وسبق الكلام عن حسابكم في الآخرة بعذاب شديد على مخالفتكم لدينه تعالى، {وَاتَّبِعُونِ}، كونوا على ما أنا عليه، وقولوا مثلي واسلكوا سلوكي، قولوا إنّه تعالى الإله الأحد، {هَذَا صِرَاطٌ}، هذا طريق أساسي، {مُّسْتَقِيمٌ}، يوصف بأنّه على الأحسن فلا انحراف فيه.

(وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ{62})
{وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ}، الكائن الذي يقوم بأعمال السوء ويعمل على إضلالكم لا تجعلوه يسيطر عليكم ويمنعكم من الإيمان، {إِنَّهُ}، الشيطان، {لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}، بشكل واضح هو لا يريد لكم الخير ولا بأي شكل، بل يريد أذيتكم وتعاستكم.

ننتبه لهذا المفهوم القرآني عن الشيطان، حيث يريدنا القرآن أن نفهم أنه عدو، مبغض لنا، يكره سعادتنا، يعمل على ضررنا، يفرح بضلالنا... لا يحبّنا، ولن يقوم بأي عمل لمصلحتنا... أي شيء مخالف للأوامر الإلهية فهو وسوسة منه، وإن ظهر من ذاك العمل سعادة لنا، من غنى، أو زيادة في الأملاك، سلطة، تنفيس شهوة... فحتما حتما فيه ضررنا، لم ولن يكون في مخالفة أوامره تعالى إلّا الضرر لأنه تعالى لا ينهى إلا عن السوء، ولم ولن يوسوس لنا الشيطان إلا بالسوء الذي يضرّنا.

الشعور الحقيقي بعداوة الشيطان لن يتحقّق إلا إذا كان لدينا قرار عميق بالتقوى، لأن أي حبّ أو رغبة أو ميل لأي سوء، سيجعلنا نميل لحبّ وسوسة الشيطان وألا نعتبره عدوا، بل سيكون صديقا محببا لأنه يوسوس لنا بما نحبّ! وبعدها سيكون الشيطان حبيبي وعزيزي، وبعدها أتبع كلّ ما يوسوسه لي، حتى الأشياء التي لم يخطر ببالي أني سأفعلها، وكنت أراها مقرفة وضيعة منحطّة... سأفعلها، وعندها يسيطر الشيطان عليّ ويقودني كما يشاء، أنا بإرادتي أسلّمه نفسي، وكما سلّمته نفسي بالتدرج من اتباع وسوسته واحدة بعد الأخرى حتى انغمست وصرت منقادا له بالكامل، يُمكنني بالعكس الخروج من سيطرته بترك السيئات واحدة بعد الأخرى... وبعدها سأستعيد سلامة قلبي وأعود لأرى الأمور السيئة سيئة، بدلا من رؤيتها مزيّنةً جميلةً.

نرجع للسورة، حيث هنا الكلام عن الأسباب التي دفعت بالبعض للشرك به تعالى، خذوا علما أنها وسوسات ممّن لا يريد لكم الخير، وخذوا علما أنه عدو خفي لكم وعمله الدؤوب إضلالكم.

كلمة شيطان وصف لحالة كائن ما، سواء أكان من الجنّ أو الإنس، ومن سياق الكلام ترى إن كانت الآية تقصد إبليس شخصيا، أو تقصد عموم أي شيطان، كالآية هنا التي تقصد إبليس وبقية شياطين الجن ومعهم شياطين الإنس الذين يشجعون الآخرين على السوء.

(وَلَمَّا جَاء عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ{63})
{وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ}، عندما أتاهم ومعه الأمور الواضحة الصحّة والتي تدل على التوحيد وعلى كونه رسولا منه تعالى، {قَالَ}، للناس:

{قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ}، بما يجعلكم ترون الصوابية في الأمور، لم آتكم بالعبث والأمور السيّئة، وهنا تريدنا الآية المقارنة بين ما قيل عنه(ع) أنه وَلَدٌ له عزّ وجلّ، وبين ما قاله هو(ع)، حيث لم يقل للناس إلّا الأمور الحكيمة، الحقّ الصائبة، وعلى رأسها توحيد الإله سبحانه، كما لم يقل (ع) أنه وَلَدٌ له تعالى، فهذا ليس قولا حكيما.

{وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ}، حيث بعد طول المدّة بينكم وبين النبي موسى(ع) صرتم مذاهب وطوائف، وكل جماعة منكم لها بعض العقائد والتشريعات المختلفة عن الآخرين، وها جئت لأوضّح لكم نقاط الاختلاف هذه حتى أحلّها لكم وتعلموا الصحيح منها.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ}، تجنّبوا غضبه وعقابه عبر اتباع الصحّ الذي بيّنته لكم، {وَأَطِيعُونِ}، كونوا على ما أنا عليه، واسمعوا ونفّذوا ما أقوله لكم.

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ{64})
{إِنَّ اللَّهَ}، إن صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ}، هو المسؤول عني وعنكم من مستوى إلهي، {فَاعْبُدُوهُ}، تصرّفوا على أساس أنكم مفروض عليكم طاعته، فهو خلقكم ويملككم وأنتم مفروض عليكم طاعته فتصرّفوا على هذا الأساس.

{هَذَا}، التوحيد، {صِرَاطٌ}، طريق أساسي، {مُسْتَقِيمٌ}، يوصف بأنه على الأحسن فلا انحراف فيه، وأي شيء غير ذلك فهو انحراف وضلال.

ننتبه جيّدا، لأن هذه أول مرّة تذكر فيها السورة اسم الله تعالى، حيث ذكرته سابقا بصفة الرحمن، فالإشارة قويّة هنا لتحديد اسم الربّ الإله بالتحديد بالاسم الخاص به "الله"، وهذا التحديد بهذا الاسم منقول عن لسان النبي عيسى(ع) الذي قالوا عنه بأنه إله وَوَلَدٌ له تعالى، بينما الحقيقة الواضحة أنه (ع) لم يقل عن نفسه إنه وَلَدٌ له تعالى ولم يقل إنه إله، ولا قال إنه ربع إله أو بنفحة إلهية أو تمثّل أو تجسّد فيه الإله... بل بكل وضوح قال عن "الله" عزّ وجلّ إنه الإله الأحد.

وهكذا تحسم السورة الانحراف عند الذين أشركوا به تعالى بجعلهم النبي عيسى(ع) وَلَداً إلها، لتريك أنه رسول مثل من سبقه من الرسل، ناقلا لنفس الكلام الذي ينقله رسله تعالى، وبالتحديد سيرى المشركون العابدون للملائكة(ع) أن هذا الكلام الإلهي تصريح صريح منه تعالى نقلا عن لسان العبد الذي قيل إنه إله.

بقي شيء تشعر به من الآية هنا، حيث إن المشركين بشكل ما هم بعيدون عن الشبه بدينه تعالى، ولكن إذا دخلت الملائكة على أدبيات كلامهم وثقافتهم ودينهم، فبشكل ما صار بينهم وبين دينه تعالى وجه تقاطع بشيء ما، فيصير فحوى كلامهم ما يلي: نحن يا محمّد نعبد الملائكة التي تقول أنت عنها إنها بقدرات عالية، فديننا صار متداخلا مع دينك... ونفس العقلية المنحرفة بالعكس أقحمت الشرك بدينه تعالى، حيث إن الذين ألّهوا النبي عيسى(ع) اعتبروا أنفسهم أصلب إيمانا من الآخرين! برأيهم أنهم تبيّنت لهم حقيقة لم يرها الآخرون! ويمكنهم إخراج الآخرين من الانتماء لدينه تعالى لأن الآخرين إيمانهم ناقص، ولا يمكن للآخرين إخراج المؤلّهين للنبي عيسى(ع)! لأنهم مؤمنون بكل شيء، ومضافا له هم مؤمنون بشيء زائد لا يؤمن به الآخرون وهو قولهم بألوهية النبي عيسى(ع)، لذا تأتي آيتنا هنا ناقلة عن لسان الذي عبدوه لتبيّن لهم خطأهم.

عملياً، ما معنى هذا الكلام؟ بمراجعة الإناجيل الأربعة المنتشرة حاليا بين الناس، لن تجد ولا قولاً منسوباً للنبي عيسى(ع) يأمر فيه الناس بعبادته هو! ولا بعبادة أمّه! ولا بعبادة الروح القدس! وستجد أن عقيدة الشرك بدأت في رسائل بولس الملحقة بالإنجيل...

ستجد في الأناجيل الأربعة في بعض نسخها قوله (ع) عن نفسه إنه ابن له تعالى، وفي نفس تلك الأناجيل تجد أقوالا له (ع) عن كل الناس إنهم أبناؤه تعالى. وفي ترجمات أخرى ستجد استبدال كلمة "أبي" بكلمة "سيدي"...

كلمة ربّ تقال لعامة من لديه مسؤولية عناية بالآخرين، وربّ البيت كوصف للأب، وربّة المنزل كوصف للأم، وربّ العمل... على مستوى كل واحد ومسؤولياته يكون الوصف، وبالنسبة له تعالى فهو ربّ من مستوى إلهي، أمّا كلمة "إله" فلا تتحمّل التدرّج في معناها، لأن الموصوف بها فقط الله تعالى.

(فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ{65})
{فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ}، صاروا جماعات لكل جماعة منهم عنوان يجمعهم لوحدهم ويفرّقهم عن الآخرين، واختلفوا بين بعضهم فيما يقولونه عن النبي عيسى(ع)، واختلفوا أحزابا عمّا قاله النبي عيسى(ع).

تشرح الآيات كيف وصلت الأمور إلى قول بعض المسيحيين عن النبي عيسى(ع) إنه وَلَدٌ له تعالى وإله، وهو(ع) لم يقل ذلك، بل كان ملتزما بالأوامر الإلهية والتوحيد وهذا ما نشره بين الناس، وبعضهم اعتبروه بمكانة عالية عنده تعالى من بين الرسل ولم يعتبروه إلها ولا ابناً، وبعضهم اعتبره ابناً بالجعل والاعتبار ولم يعتبروه إلها... لذا لا حجّة للمشركين العابدين للملائكة (ع) بضربهم المثل عن النبي عيسى(ع) ليحاججوا النبي محمّد(ع)، لأن المسيحيين بين بعضهم اختلاف مما يشير بالعموم لكونه(ع) لم يدعهم لعبادته.

{فَوَيْلٌ}، يا للحدث العظيم، {لِلَّذِينَ ظَلَمُوا}، للذين لم يكن معهم حقّ ولم يكونوا منصفين ولا عادلين، وهنا بالتحديد لم يكن معهم حق حين تركوا كلام الرسول عيسى(ع) عن التوحيد، فويل لهم، {مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ}، وهو زمن يوم القيامة من الموت وما بعده فهو يوم الحساب والعقاب النهائي، والألم فيه لا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه.

إذًا لا يوجد تبرير لا للمشركين الذين عبدوا الملائكة(ع) أو غيرها، ولا تبرير للذين عبدوا النبي عيسى(ع)، لأن كليهما مثل بعض بنفس الكفّة، وكلاهما لهما عذاب أليم.

(هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ{66})
الذين اختلفوا مع "وفي" الرسول عيسى(ع) ولم يتبعوه، متى سيتبعون ما قاله الرسول عيسى(ع)؟ ومتى كلّ المشركين سيتبعون ما قاله الرسل؟ وماذا ينتظرون ليوحّدوه تعالى؟

{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ}، والسؤال عن الساعة التي سيقومون فيها من الموت لمحاسبتهم، فهي أوّل ساعة بالنسبة لنا في الآخرة، {أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً}، فجأة من دون أن يتوقّعوها، {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}، فهي ستأتي وهم لا يرون قدومها لأنهم لا يؤمنون بها وستحصل بينما هم لم يتوقّعوها؟ وحينها ما سيفعلون؟

لو كانوا يؤمنون بها حقّا لما أشركوا به تعالى، والكلام يشمل المسيحيين الذين ألّهوا النبي عيسى(ع)، فهؤلاء مثلهم مثل المسلمين الذين لا يؤمنون بكل ما ورد في هذا القرآن ولا يطبقونه، مع أنهم يقولون بأنهم يؤمنون بالآخرة بدرجة ما، ولو آمن المؤلِّهون للنبي عيسى(ع) بالساعة حقّا، لما تجرؤوا على الشرك به تعالى.

تتذكّر أننا عموما "إلا المقتولين في سبيله تعالى" سنفقد وعينا هنا حين نموت، ولن نشعر بمرور الزمن، وسنستعيد وعينا ونفتح أعيننا مرّة ثانية لنجد أنفسنا في الآخرة، وستكون بالنسبة لنا بغتة كمفاجأة لم نتوقّعها بسبب سرعة حصولها لأننا كنّا فاقدين لوعينا، ولن نشعر بمرور الزمن أثناء موتنا ولو مرّت مليارات السنين. والمؤمنون من الدرجة العالية كانوا يتوقّعون الآخرة فلن يتفاجؤوا بها، ورغم فقدانهم لوعيهم وفقدانهم للشعور بقدوم الآخرة، فهي لن تكون مفاجأة لهم. أمّا المشركون فهم لم يؤمنوا بالآخرة، وماتوا ففقدوا وعيهم، واستعادوه ليجدوا أنفسهم في الآخرة وهم لم يشعروا ولا بأي شكل بقدومها.

أطلت عليك ليرسخ هذا المفهوم القرآني في بالك، فهو منتشر في السور، ورغم ذلك يشيع في أدبياتنا وثقافتنا الدينية أن الكافرين يتعذّبون بعد الموت فيما يسمونه بالعالم البرزخي هنا في الدنيا، وهذا لم يرد في القرآن، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تظنّ أنها تشير لعذاب في البرزخ للكافرين لترى أن تفسيرها المتماشي مع سياقها وعموم مفاهيم القرآن لا يتماشى مع ما يقولونه، وها آيتنا هنا من أوضح الأدلة على ذلك.

نعم ذكر القرآن صراحة عن جنّة بعد الموت هنا في الدنيا قبل الآخرة فقط وفقط للمقتولين في سبيله تعالى، كما ورد في الآية 169 من سورة آل عمران "{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}"، ولا يمكننا من القرآن نفي ولا تأكيد انتقال الرسل والأنبياء إلى تلك الجنّة المؤقتة، لأنه صراحة لم يرد عن ذلك لا نفي ولا تأكيد قرآني، ولكن ورد بشكل عام طمأنة الملائكة للمؤمنين المقبول إيمانهم في أول لحظة من استعادتهم لوعيهم في الآخرة، حيث تستقبلهم الملائكة بالكلام الطيب لتهدئة بالهم، كما ورد كمثال في الآية 103 من سورة الأنبياء "{لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ

الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ}" وكما ورد في الآية 30 من سورة فصلت "{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ}"، مما يشير إلى عموم فقدان الجميع لوعيهم بعد موتهم من دون مرور كل المؤمنين بجنّة مؤقتة هنا في الدنيا.

كما ترى فهذا تحليل يمكن إدخال أو إخراج بعض التفاصيل منه، ويمكن أن تفترض هول منظر يوم القيامة المذهل حتى للمؤمنين الذين كانوا في الجنّة المؤقتة، وتفترض أنهم أيضا سيتفاجؤون... ويمكنك افتراض استثناءهم من صعقة الموت في النفخة الأولى التي تحدّثت عنها الآية 68 من سورة الزمر "{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}"، وربما هم من الذين شاء تعالى بقاءهم أحياء... ويمكن أن تفترض... ولكن يبقى لدينا أساس من الصعب جدا من القرآن مخالفته، فالكافرون والمشركون والمنافقون والفاسقون بكل أنواعهم، تحدّث القرآن صراحة عن فقدانهم لوعيهم هنا بالموت، واستعادته مرّة ثانية في الآخرة، بدون ولا أي إشارة لمرورهم بعالم البرزخ ليتعذّبوا فيه قبل الآخرة.

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ{67})
{الْأَخِلَّاءُ}، الذين كان بينهم خلّة، فهذا خليل لذاك، والخلّة محبة مع إرادة التواصل على انفراد على نحو الاكتفاء به ومعه، وهو أكثر من صديق محبوب، {يَوْمَئِذٍ}، في يوم القيامة من الموت وما بعده، {بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}، حيث تنقلب المحبّة والاحترام لعداوة وكره، {إِلَّا الْمُتَّقِينَ}، إلا الذين كانوا يتجنبون، والكلام عن الذين تجنّبوا الكفر بالحق وتجنّبوا السيئات وهو نفسه تجنّب غضب وعقاب ربّهم سبحانه، فهؤلاء يبقون أخلّاء، ويحبون بعضهم البعض في يوم القيامة.

إذًا هل ينتظرون حتى يأتي اليوم الصعب الذي فيه يتبرّأ حتى الأخلّاء من الناس من بعضهم؟ وهناك سيؤمنون بأنه تعالى واحد أحد؟ فمن سيعينهم حينها بينما أحبّ الناس لبعضهم البعض من المشركين سيكونون أعداء؟!

لاحظ تعبير الآية بتخلّي الأخلاء عن بعض، فالمعارف من السهل أن يتخلّوا عن بعضهم البعض في المصائب، والأصدقاء يفعلون ذلك أيضا، والأقارب أيضا، أمّا الأخلاء فهؤلاء من المفروض أن يكونوا مخلصين لبعضهم حتى في أصعب الظروف.

(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ{68})
{يَا عِبَادِ}، يا أيها الذين مفروض عليهم الطاعة، وسياق الكلام عن المتقين الذين فعلا أطاعوه تعالى، {لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ}، في هذا الزمن من ساعة قيامكم من الموت ومروركم بأيام الحساب لن تخافوا ولن تشعروا بأي خطر أو أذية لا يمكن تجنّبها، ولن تشعروا بأنكم ستتعرضون لأي مكروه، فأنتم في الأمان، {وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ}، لن تشعروا بأي شكل من الأشكال ولا لأي سبب من الأسباب أنكم في حالة تضايقكم، بل العكس تماما، ولن تتمنّوا وضعا غير الذي أنتم فيه.

كما تعلم من آيات أخرى، إن المتقين في يوم القيامة ومن أول لحظة يفتحون فيها أعينهم ستبشّرهم الملائكة (ع) بالسعادة، وستخدمهم، ويجلسون في أماكن مريحة، ويشربون ويأكلون ويضحكون... بانتظار انتهاء أيام الحساب ودخولهم إلى الجنّة، وراجع الآية 50 من سورة الأعراف كمثال {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ}.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، حيث كأن كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، لأن كلتيهما بنفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، وهي جمع الجمع، وأثناء الكلام بدقّة تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، فتقول الآيات: عبيد. وردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وتكون لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وتكون لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ

رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، حيث تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخرون جاءهم رسول، وعبيد آخرون... لذا جمع الجمع "عباد"، وعليه كلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جدا عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

(الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ{69})
{الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا}، أعلنوا اعتقادهم بالأمور المميزة المنسوبة له تعالى، والتي تدل على وحدانية الإله ووجوب طاعته... {وَكَانُوا مُسْلِمِينَ}، كانوا منقادين مطيعين لأوامره تعالى، والتعبير بمسلمين مرادف عمليا لتعبير عملوا الصالحات.

بالنسبة لكلمة آمن لم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإسلام أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها "مؤمنون..." في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، حيث إن "آمن" على أصل معناها اللغوي، و"اعتقد" على معناها الاصطلاحي الدارج، كلتاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ{70})
{ادْخُلُوا الْجَنَّةَ}، كونوا في المكان الموصوف بروعة ما فيه من حدائق وبساتين ومباهج... {أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ}، وأقرانكم أشباهكم الذين من صنفكم من المتقين، {تُحْبَرُونَ}، تتم معاملتكم باحترام ووقار وإجلال بناء على اعتبار قيمة عالية لكم. ومن عموم القرآن ومن الآية التالية ترى نموذجا عن المعاملة الملوكية لأهل الجنّة.

الحبر جمعها أحبار وهي صفة عربية لعالم الدين عند اليهود، واليهود لا يصفون عالم الدين عندهم بلغتهم العبرية بالحبر بل يقولون: رباي. ويبدو أن هذا التصريف لهذه الكلمة من الربّاني. وصفة "رباي" كانت مستعملة عند الأجيال الأولى من المسيحيين لوصف علماء الدين عندهم تقليدا بذلك لليهود... والحبر في العربية تعني: من تعتبره وتعامله على ما تعطيه من قيمة عالية، كوصف عبد الله بن عباس بالحبر. وكلمة "تحبرون" الواردة هنا هي اشتقاق من كلمة حبر.

كلمة زوج تقال لعموم أي شيء مادي أو معنوي بخاصية الاقتران بشيء أو الانتماء لصنف أو نوع، حيث هم أو هما أو هو مقترن مع آخر بالشبه أو بالنوع أو بالتلازم مع بعض... فهو زوج. وتقال للأنثى البشرية كزوجة بخاصية الاقتران بالذكر، كالاستعمال في الآية 39 من سورة القيامة {فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى} فليس القصد أنهما متزوجان من بعض بعقد نكاح، بل القصد أنهما من نفس النوع وبينهما تشابه وإمكانية اقتران... ومثله ما ورد في الآية 21 من سورة الروم {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا...}.

نقول زوج للنبات بخاصية تشاركهم لوحدهم في شيء ما والاختلاف عن الأزواج الأخرى في الشكل أو الثمر كما ورد في الآية 53 من سورة طه {... وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى}، وللإنسان بخاصية الانتماء لجماعة والاختلاف عن الآخرين في المال أو السلطة كما ورد في الآية 88 من سورة الحجر {لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ...} فالكلام ليس عن زوجات الكفّار بل عن أصناف من الكفّار.

تشير لعموم التنوّع في نفس الصنف كاختلاف أصناف التفّاح، وتشير للاختلاف بين الأنواع كاختلاف التفّاح عن الموز، وحتى إنها مستعملة في التشابه في شيء والاختلاف في شيء آخر معنويا كما ورد في الآية 57 و 58 من سورة ص حيث وصفت أصناف العذاب بالأزواج {هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ، وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ}، ومعنويا في الآية 7 من سورة الواقعة {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً}، فجماعة مؤمنين من الدرجة العالية وأخرى للمؤمنين من الدرجة الأقل وأخرى لبقية عموم من سيدخل النار.

هنا في الآية تشير لصنف المتقين، حيث هم أزواج وهم متشابهون في وصفهم بالتقوى ومختلفون في درجتها.

(يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{71})
{يُطَافُ} "بالضمة على الياء لأنه فعل مبني للمجهول" {عَلَيْهِمْ}، حيث يجول أحد ما على أهل الجنّة، {بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ}، بأوانٍ أكبر من الصحن العادي ولها وجه شبه منبسط، وهي التي نضع عليها كميات كبيرة من الطعام أو الفاكهة أو نضع عليها الفناجين والأكواب... نسمّيها حاليا "صينية"، وتلك الأواني من معدن الذهب المرغوب جدا لأنه لا يصدأ ولونه المصقول نراه جميلا، ونفترض أنها صوانٍ منقوشة ومزخرفة... ويطاف عليهم بـ {أَكْوَابٍ}، مفردها كوب وبالعامية "كبّاية" ويكون فيها سائل للشرب، {وَفِيهَا}، في الجنّة، {مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ}، ما ترغب فيه النفس بحواسها سواء للشمّ أو اللمس... وفيها ما {تَلَذُّ الْأَعْيُنُ}، حيث إن العين تلتذّ من النظر إلى ما في الجنّة بسبب روعة الجمال، فاشتهاء شيء ما يكون قبل رؤيته وأثناء رؤيته، لذا تعبير الآية عن الاشتهاء قبل الرؤية، وعند الرؤية تلذّ الأعين من جميل ما تراه.

الكلام عن خدم يقدمون الطعام والشراب لهم، وتفهم ذلك من الآية 17 من سورة الواقعة {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ}.

{وَأَنْتُمْ}، أيها المتقون، {فِيهَا}، في الجنة، {خَالِدُونَ}، لا تموتون ولا تفنون ولا تخرجون منها ولا لأي سبب... ولا هي ستخرب.

نلتفت لشعور أهل الجنّة بالخلود فيما هم فيه، وهو بحدّ ذاته شعور أرادنا القرآن الالتفات له، فلا خوف من الموت، ولا من المرض، ولا من الضرر الجسدي... ولا من أي أذية نفسية... والمعاملة ملوكية... ولا خوف من خراب الجنّة ولا من الخروج منها... ولا خوف من فقدان الروعة التي هم فيها...

بالنسبة للملل فلا مجال له، ورد صراحة ضمانة إلهية بذلك في العديد من الآيات منها ما ورد في الآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}.

(وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{72})
{وَتِلْكَ الْجَنَّةُ}، المكان الرائع الذي تخلدون فيه، {الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا}، انتقلت ملكيتها لكم بدون استرداد، {بِمَا}، بسبب ما، {كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، ومن الواضح أنها الأعمال الصالحة بالالتزام بدينه تعالى فهي سبّبت حصولهم على جنّة الخلد.

تذكّر أن توريث الجنّة للمؤمنين ورد عدة مرات في القرآن، وكلمة إرث تشير لصيرورة ملكية بلا استرداد من المالك السابق، وهذا نُوصَف به حين نرث من ميّت، فتنتقل الملكية منه إلينا ولن يستردّها الميّت منا. ولكن الميراث ليس محصورا بانتقال الملكية من ميّت.

استعمل القرآن كلمات دقيقة لوصف حالة الكفّار الخالدين في جهنّم بأنهم في مثوى، في مكان لا يملكونه، مثل من مثواه السجن والضيف والغريب في بلد... راجع كمثال الآية 23 من سورة يوسف {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ...}، كما درج في أدبيات المسلمين استعمال جملة: مثواه الجنّة. وهي غير دقيقة وغير صحيحة لغويا، لأن من في الجنّة يملك وليس ضيفا أو سجينا... ولذلك عبّر القرآن عن توريث الجنّة للمؤمنين، وهو تمليكها لهم منه تعالى بلا استرداد. ولكن بسبب ظنّنا أن التوريث لا يكون إلا من ميّت، ذهب المفسرون إلى معان أخرى للآيات... وبهذا المعنى للتوريث ترى أن الكثير من كلامهم المطوّل في التفاسير عن فذلكة وراثة المؤمنين للجنّة هو كلام لا معنى له ولا داعي له.

(لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ{73})
{لَكُمْ}، أيها المتقون، {فِيهَا}، في الجنة، {فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ}، والفاكهة هي الطعام الذي تتناوله بقصد التحلية والتلذّذ بطعمه، ولا تأكله عن جوع لتشبع منه، ركّز القرآن كثيرا على هذا المعنى، فلن يشعر أهل الجنّة بألم الجوع، بل يأكلون فقط مدفوعين برغبة الالتذاذ بالطعم، والفاكهة كثيرة من حيث عددها ونوعها، وأشار القرآن لتجدّد الأنواع مدة

بعد مدّة، وأشار للاستذواق الشخصي بتبديل خصائص عموم ما في الجنّة بحسب ما يستذوقه المؤمن، خذ مثلا ما ورد في الآية 35 من سورة ق {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}.

(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ{74})
الآن ننتقل إلى الآخرين غير المتقين:

{إِنَّ الْمُجْرِمِينَ}، إن الذين ارتكبوا أعمالا يستحقون العقاب عليها، وسياق السورة عن المسرفين المترفين المشركين وضمنهم كنموذج القائلون إن الملائكة (ع) بنات له تعالى وأنهم آلهة... وهم، {فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ}، في الضرر الذي يحصل من المكان الموصوف بسوء ما فيه، حيث فيه النار المتأجّجة، {خَالِدُونَ}، لا يموتون ولا يفنون ولا يخرجون منها، وهي لا تخف ولا تنطفئ... وهم يشعرون بأنه لا يوجد أمل بالخروج من هذا العذاب.

(لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ{75})
{لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ}، لا يحصل فتور، ولا يخفّ شدّة تعذيبهم بجهنّم، {وَهُمْ فِيهِ}، في العذاب الذي لا يخفّ، {مُبْلِسُونَ}، لا خلاص لهم من الحالة السيّئة التي هم فيها.

(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ{76})
{وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ}، لم نكن غير عادلين ولا منصفين ولا محقّين حين عذّبناهم بهذه الشدّة وبشكل خالد، {وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ}، لأنهم لم يكونوا منصفين ولا محقّين حين أجرموا، ولم يكن معهم حقّ حين أشركوا رافضين الإيمان رغم الآيات والبراهين... وهم سبّبوا لأنفسهم هذا العذاب والخلود فيه.

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ{77})
{وَنَادَوْا}، والنداء هو عموم إصدار صوت ضعيف أو قوي يتم التوجّه به إلى سامع محدّد. ومن مشتقاته: يريد المنادي من السامع الالتفات للكلام أو يعلن المنادي للسامع أنه متوجّه إليه حصرا بكلامه. وتوجّه الذين في النار بالكلام وقالوا:

{يَا مَالِكُ}، يا من تملك شيئا ما، يا أيها الملاك الخازن للنار، يا من تملك الأمر بتعذيبنا، طبعا بتوظيف منه تعالى. ومن المشهور في ثقافتنا الدينية أن "مالك" اسم للملاك المسؤول عن النار ولكن هذا لا يبدو صحيحا. {لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ}، ليصدر من المسؤول عنك من مستوى إلهي أمر سيتنفّذ حتما، وهنا يقصدون أن يصدر منه تعالى أمرٌ ينهي بالتمام حياتهم، لننتهِ ولنمت ولنفقد الوعي ولنختفِ... إذ لا توجد طريقة أخرى لنهاية هذا العذاب إلا بالقضاء علينا، يعني قل لربّك أن يقضي علينا.

{قَالَ} المالك:

{إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ}، باقون في هذا المكان، لا حلّ لمشكلتكم ولن تموتوا ولن تخرجوا من هذا المكان الذي سيستمر في تعذيبكم.

تذكّر موضوع السورة عن المسرفين وأنه تعالى لن يتركهم بلا ذكر لإنذارهم... وتطرّقت بالتركيز على المشركين العابدين للملائكة (ع) والقائلين بأنهم بناته تعالى، وهنا بشكل ملفت نقلت السورة كلامهم مع مَلَك مسؤول عن النار، حيث صاروا يرون الملائكة(ع)، إذ يرون ملاكا مسؤولاً عن النار، ويرون أن المَلَك ليس إلهاً، وفوق ذلك كلّه، واحد من الملائكة مسؤول عن تعذيبهم!

معلوم من القرآن أن الملائكة (ع) تتولّى تعذيب أهل النار كما تقرأ في الآية 31 من سورة المدثر {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً...}.

وصفية كلمة ملك ملاك "بحث لغوي"

بقي شيء، في دراستنا هذه رأينا معنىً عاماً لكلمات عموم اللغات أنها غالبا وصفية، ورأينا ذلك في معنى اليد والوجه... حين وصف بها تعالى نفسه، وفهمنا أنها ليست مخصّصة كأسماء لأعضاء الجسم بل تشترك أعضاء الجسم بالوصفية بها مع أي حالة وصفية أخرى... وكلمة ملاك وجمعها ملائكة تبدو مشتقة من: مَلَك. كمالك لشيء مادي أو

معنوي، من مال أو صفة أو قدرة... وترى هذا في الآية 31 من سورة هود {وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ...}، وفي الآية 22 من سورة الفجر {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}، ومن كلام القرآن عن الملائكة(ع) نفهم أنها كائنات تملك صفات وقدرات مميزة، ويبدو أن اسمها وصفي اشتقاقي من "امتلاكها" لصفات وقدرات مميزة، وانتقل الوصف إلى الاسمية، كالقدح وقدّاحة، اشتعال وشعلة ومشعل... ومن أمثال هذه الكلمات بسهولة ترى انتقال الوصف إلى الاسمية، وبعض الكلمات ليست سهلة كهذه، كلعق ملعقة، شاك شوكة، جنّة جنّي... وأخريات بسبب البعد عن أوائل الاستعمال وانتقال الكلمات من حالها القديم لفظا واشتقاقا واستعمالا... صار من شبه المستحيل فهمنا لاشتقاق الأسماء من الوصفية، ويخطر ببالي كلمة كرسي كمثال، فهي بالأصل مثل قعد ومقعد، إذ إنها كرس "تلبّد" كراريس كرسي، إلى أن صارت الكرسي "اسم شيء" ولم يعد الفعل مستعملا...

على أي حال، هنا من المحتمل بقوّة أن "مالك" وصف لكائن يملك شيئا ما، وهي اسمه الوصفي، وبناء عليه فهي عامّة الانطباق على بقية الملائكة على أساس تعميم الأوصاف الاسمية لأن المسؤول عن جهنّم يتشارك مع آخرين من نوعه في الأوصاف، وهذا الكلام لا يمنع أبدا أن تكون كلمة مالك اسما لكائن محدّد من الملائكة، مثلما جبريل اسم لكائن محدد من الملائكة.

قارنها مع من اسمه جعفر "النهر الصغير" ومولود في صحراء قاحلة، والآخر ضرغام مولود في بلد ليس فيه أسود، لا هذا له علاقة بالنهر الصغير والآخر قد يكون جبانا، إذ إن أسماء الأعلام كان الناس قديما يحرصون على إطلاقها لمناسبة ما، وتجد ذلك في دراسة لغوية لكلمات القرآن من تسمية النبي موسى(ع) "وصف له علاقة بالمياه"، وتسمية النبي إسحاق(ع) "وصف له علاقة بالضحك"، وتسمية النبي يعقوب(ع) "لوصف تعاقبه كولد الولد من بعد أبيه"... وتجد في التراث اليهودي كلاما كثيرا عن اشتقاق أسماء الملائكة من الأوصاف.

لماذا أطلت عليك بهذا الكلام؟ لأن دراستنا هذه اعتمدت على هذا المفهوم لمعاني الكلمات، وسحبتها من الجمود على التسمية الفارغة من المضمون والمعنى إلى الاشتقاق من الوصفية لتصير عمومية، مثلاً إذا أطلقت نفس الوصف عليه تعالى وعلينا، كاليد والوجه... على الوصفية من أساس معنى الكلمة نطلقها مجردة عن الخصائص الإنسانية التي فيها، ولا تبقى كلمات مخصّصة للأعضاء، وتصير "اليد" وصفاً لما نفعل به الأشياء "قدرته ووسائل فعله تعالى"، والوجه لما نتوجّه به نحو الأشياء "رحمته أو عنايته أو غضبه تعالى".

ملخص الكلام أن الكائنات التي ذكرها القرآن وأنها مطيعة له تعالى وقدراتها عالية... وسمّاها بالملائكة يبدو أن أصل التسمية اشتقاقي ممن يملك شيئا ما، كلهم مَلَك وملاك وهم ملائكة، على معنى امتلاكهم لشيء، ومعلوم امتلاكهم لصفات الطاعة له تعالى ولقدرات عالية، وبناء عليه ليس مرجحا هنا أن يكون كلام أهل النار قاصدا لتسمية المسؤول عن النار بمالك، كما درج في بعض أدبياتنا أن خازن الجنة اسمه رضوان، وهذا شيء لم يذكره القرآن، ودرج أن خازن النار اسمه مالك، وربما يكون ذلك صحيحا ولكنه ليس أكيدا وآيتنا هنا ليست دليلا واضحا عليه.

(لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ{78})
تكمل الآية بجواب منه تعالى عبر ملاك النار(ع):

{لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ}، بالصواب بما هو صحيح، من التوحيد ووجوب الطاعة للإله الحقيقي... وهنا بالتحديد الكلام مع من جعل الملائكة (ع) بنات له تعالى وعبدها، حيث جاءه الكلام الصحيح عن بطلان هذه العقيدة عبر الملائكة (ع) الذين نقلوا كلامه تعالى للأنبياء، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ}، أيها الناس، {لِلْحَقِّ كَارِهُونَ}، لا تحبّون ما هو صحيح ولا تريدونه وتبتعدون عنه.

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ{79})
بعد نقل صورة عمّا سيحدث مع المشركين في جهنّم وتأنيبهم على ترك الحقّ، هنا في الدنيا وهم أمام الحقّ:

{أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا}، هل اتخذوا قرارا حاسما بفعل شيء ما، {فَإِنَّا مُبْرِمُونَ}، اتخذنا قرارا حاسما بفعل شيء ما.

القرار الإلهي المبرم المتّخذ للتنفيذ معلوم، وهو رمي المشركين في جهنّم خالدين، ما القرار الذي اتخذه المشركون أمام هذه المسألة؟ وهل أبرموا أمرَ بقائهم على شركهم؟

(أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ{80})
{أَمْ يَحْسَبُونَ}، هل يخطر في بالهم من دون دراسة ولا تدقيق، {أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ}، ألا يصلنا ما يقوله الواحد منهم لنفسه، أم يحسبون أَنَّا لا نسمع، {نَجْوَاهُمْ}، حديثهم الخاص بينهم، لأن النجوى حديث خاص بين شخصين وأكثر يتحدثون مع بعض براحة وصراحة ويخبرون بعضهم البعض أسرارهم وما في بالهم.

{بَلَى}، نفي لجملة أنه تعالى لا يسمع... بالتأكيد يسمع تعالى سرّهم ونجواهم، {وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}، من عموم القرآن نعلم أنه تعالى يوظّف الملائكة(ع)، وهنا الكلام عن توظيفها بكتابة كل ما نفعله ونقوله، ومن سياق الكلام حتى ما يدور في رأسنا من أفكار "أسرار ونوايا" تكتبها الملائكة(ع).

إذًا القرار الإلهي حاليا قيد التنفيذ، من مراقبتنا إلى محاسبتنا إلى تعذيبنا، فما هو قرار المشركين؟

لاحظ الآية هنا تشابه الفقرة السابقة من حيث إشارتها للملائكة (ع) وعملها مع المشركين، حيث هناك ملاك مسؤول عن تعذيبهم، وهنا ملائكة(ع) تكتب أعمالهم، وهكذا يلتفت من عبد الملائكة أنه اخترع شيئا فاسدا لن يفيده بشيء، بل سيسبّب له الضرر بمراقبة وتسجيل وتعذيب من الملائكة التي عبدها.

(قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ{81})
{قُلْ} أيها الرسول محمّد(ع) عبر هذا القرآن لكل الناس، وبالخصوص لمن يقول إن له تعالى ولداً:

{إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ}، إن كان للذي يعتني بمخلوقاته، {وَلَدٌ}، بنت أو صبي، {فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}، أنا عبد مفروض عليَّ طاعته تعالى، وبناء عليه سأكون أوّل من يعلن إيمانه بولد له تعالى ولن أتأخر عن ذلك. يعني ليس لدي مشكلة شخصية مع هذه المسألة، فأنا أنكر آلهتكم وأنكر أنها أولاد له تعالى لأنها فعلا ليست كذلك، ولو كان فرضا له تعالى ولد، فلا مشكلة عندي بالإيمان بذلك.

تنقل الآية لنا فكر ونفسية النبي محمّد(ع) الرسول الإلهي، بأن ما يقوله عن التوحيد هو انعكاس للحقيقة الواقعية حيث لا إله إلا الله تعالى، ولكن فرضا لو كان له تعالى ولد، فلماذا سينكره الرسول محمّد(ع) ولماذا لن يؤمن به؟

بعبارة أوسع، هنا الآية كما كلّ القرآن كما كلّ الكلام الإلهي، حقّ مبين بشفافية وبلا مواربة ولا تحريف، حيث إن الله سبحانه وتعالى بعظمته يقول لنا في العديد من الآيات إنه لا يوجد إله غيره في السماوات والأرض، في مساحة اطّلاعه هو شخصيا عزّ وجلّ، وفي مساحة علمه وتعاطيه مع كل الموجودات، سبحانه لا يرى أحدا فوقه، ولا يرى أحدا آخر بمواصفات إلهية، ولم يلحظ ولا أثراً لأحد غيره، إلا هو ذات نفسه وفقط المخلوقات التي هو سبحانه خلقها، ومن هذه الصراحة يخبرنا أنه لا إله إلا هو سبحانه وتعالى، وراجع في ذلك دراسة الآية 18 من سورة يونس {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}، فهل من المعقول أنكم أنتم البشر تعلمون بوجود آلهة غيره تعالى، بينما الله سبحانه لا يعلم بذلك!

هنا يقول سبحانه لرسوله(ع) أن يكون صريحا شفّافا أيضا، فهو مجرّد رسول ناقل لما يصله من الإله سبحانه، ولا علاقة له بأي شيء، فإن كان للإله عزّ وجلّ ولد، وفعلاً لديه بنت أو صبي، أو أي نوع من الأولاد... فنكران الولد لن يغيّر أي شيء في الحقيقة، قل أيها الرسول محمّد(ع) للناس وبكل صراحة إنه لو كان للإله ولد، سواء تولّد منه أو اتّخذه فاعتبره تعالى ولدا... فأنت عبد مطيع لله تعالى، وأنت أوّل واحد سيتصرّف على هذا الأساس وسيعلن للناس عن ذلك إيمانه بذلك الولد "الإلهي".

كما ترى تركت الآية التفاصيل المتضمّنة لهذا الافتراض لأنها صارت واضحة، فالرسول سيعلن عن ولد له تعالى لو فرضا كان هذا صحيحا، فلو كان له تعالى ولد فلماذا الرسول محمّد(ع) سينكر ذلك أو يخفيه أو يعترض عليه؟

تذكّر أن الحديث مع أناس مؤمنين بأولاد للإله عزّ وجلّ، وحتى لا يفهموا أن معارضة محمّد(ع) لعقيدتهم تنبع من مشكلة شخصية عند محمّد(ع) مع تعدّد الآلهة، أو عنده (ع) مشكلة مع عقيدة وجود أولاد للإله... فتأمره الآية بصراحة أن يقول: لو كان هناك ولد للإله فأنا سأعترف به. فلماذا سيخفيه تعالى عنكم؟ ولماذا سيمنعكم من عبادته إن كان الولد إلها؟ ولماذا أنا سأعارض ذلك أو أخفيه؟

يعني بعد كل الأدلّة والبراهين عن انتفاء أولاد له تعالى ولا بأي شكل، تنتقل السورة للرسول، لتؤكّد بأن العقيدة التي ينقلها لنا الرسول ليست على مزاجه ومن خاطره وعلى ما يحبّ ويستذوق... فأنا محمد ما هي مشكلتي الشخصية معكم أيها المشركون، أو مع ولد الإله عزّ وجلّ "لو كان له تعالى ولد" حتى تعتقدوا أني أنا بذاتي وعلى مزاجي أرفضه وأعارض عبادتكم له؟ فلو كان صحيحا لما كانت عندي مشكلة حتى في إعلاني لعبوديتي لإله حقيقي إن كان الولد إلها، بل سأسبقكم لعبادته.

أطلت وكرّرت الكلام حتى يكون التفسير واضحا بالمقارنة مع التفاسير الأخرى المختلفة التي ذكروها في كتب التفاسير.

(سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ{82})
{سُبْحَانَ}، تنزّه عن الصفات المعيبة والناقصة، {رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، المسؤول من مستوى إلهي عن كل شيء، لأن كل شيء محصور ضمن السماوات السبع التي تقابل كل منها أرض بما يناسبها، فكوكب الأرض وسطح القمر وسطح الشمس وعطارد... أرض بالنسبة لسمائنا ولبقية السماوات أرض أو أراض مناسبة لطبيعة سمائها كما تفهم من الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...}.

التعبير عنه تعالى بأنه ربّ السماوات والأرض يشير إلى نظرته تعالى إلى مسؤوليته من مستوى إلهي عن كل شيء بدون أي استثناء، فهناك السماوات والأرض من جهة وهناك الذات الإلهية من جهة أخرى ولا شيء آخر، فيخبرنا سبحانه وبكل شفافية أنه لا يوجد ولا أي شيء آخر، لأن الدنيا محصورة بالسماوات والأرض، صمّمها وخلقها كلّها سبحانه، فهو ربّها.

{سُبْحَانَ}، {رَبِّ الْعَرْشِ}، المسؤول من مستوى إلهي عن مركزية إدارة كلّ السماوات والأرض، عن إدارة كل ما في الدنيا، سبحانه، {عَمَّا}، عن الذي، {يَصِفُونَ}، حين يصفونه تعالى بأنه لديه ولد، أو ينجب، أو يتجزأ، أو يحلّ، أو يتمثّل في كائن... فهو منزّه عن كل هذه الأوصاف.

نتذكّر أن العرش ككلمة تشير لعموم ما كان فوق ويقابله فرش، وبالنسبة لنا فهو تعبير وصفي لكرسي مع منصة وتحيط بها الزخرفة ويجلس عليها الملك أو الحاكم، وبما أنه سبحانه في كل مكان، سواء في عالمنا الطيني أو في عالم الملائكة أو في العوالم التي لا نعرفها، إذًا عرشه في كل مكان، بالأحرى عرشه تعالى منتشر على كلّ نقطة في الدنيا، فالعرش بالنسبة له تعالى هو وصف حالة وليس اسما لمكان. فيصير معنى جملة ربّ العرش، أن إدارته المركزية لكل شيء منتشرة ومتواجدة في كل نقطة من السماوات والأرض.

إذًا على مستوى المسؤولية عن الدنيا وعلى مستوى مركزية إدارة الدنيا، سبحانه لا يرى أحدا غيره، ولم يلمس أثرا لغيره، ويخبرنا بأن صفاته الفائقة لا تتماشى أصلا مع تواجد إله غيره، فهو منزّه عن ذلك، وكتقريب تبسيطي لنفهم الفكرة، فإن كان سبحانه بوجوده وسلطته في كل السماوات والأرض، وكيانه تعالى هكذا، طبيعته هكذا، فأين سيكون الإله الآخر؟ وأين سيكون الولد الإلهي؟ فلا معنى لوصف أحد غيره تعالى بالألوهية ولا بالربوبية من مستوى إلهي، فحصرا هناك الإله بصفاته الفائقة والذي ليس كمثله شيء... وهنا المخلوقات التي خلقها تعالى والمحصورة ضمن السماوات والأرض.

من ناحية ثانية هل أنتم ستعلمون بوجود الولد له وهو لن يعلم بذلك!

أكرر لك ما ذكرناه مراراً في هذه الدراسة عن تسبيحه تعالى عن الصفات الناقصة والمعيبة، التي لا يمكن أن تنطبق عليه تعالى، والتي لو كان فعلا يوصف بها سبحانه، فعندها لما كان إلها، ولفقد الصفات الكاملة التي تجعله إلها، ولما

كان كائنا بصفات وقدرات فائقة أعلى وأكبر وأعظم من كل ما عداه، فطبيعته سبحانه ليست مركّبة ولا مؤلّفة من أي شيء، وبتعبير الفلاسفة والعرفاء، سبحانه بسيط لا جزء له، طبعا هذه التعابير تشبيهية تقريبية، والتعبير القرآني المرادف الأدق أنه تعالى نور فيكشف الأشياء ليصير لها كيان، لطيف واسع محيط.. وقدراتنا الفكرية محدودة جدا جدا، فهناك صفات وقدرات لديه تعالى ولا يمكننا فهمها كما هي إلا بالتقريب والتشبيه، فنعتمد على ما يصلنا منه تعالى عندما يخبرنا سبحانه عن نفسه، حيث أخبرنا سبحانه عن استحالة أن يكون له ولد، ولا بأي طريقة.

هذا شيء هو تعالى يخبرنا به، وهو عزّ وجلّ بالتأكيد أعلم بنفسه منّا نحن، فأين قدراتي الفكرية العلمية من قدراته تعالى حتى أعلم شيئا عنه تعالى وهو لا يعلمه! قارن نفسك بفكرك وخيالك وما نتج عنك مع بكتيريا، مع نملة، مع ذبابة... وستنتبه أن الفرق بينك وبينها هائل، واعلم أن الفرق بينه تعالى وبيننا أكبر بكثير بكثير جدا جدا من الفرق فكريا وعلميا بيني وبين نملة.

هو عزّ وجلّ يقول وبصراحة: لا يمكن ويستحيل أن يكون لي ولد منّي، وهذا لم يحصل ويستحيل أن يحصل بحسب ما أعلمه عن نفسي، وفرضا لو حصل وصار لي ولد، فأنا لن أكون إلها، فسأكون مخلوقا، وأنا لا أرى ولا ألمس أي أثر إلا لنفسي وللكائنات التي خلقتها أنا... وها أخبرتكم من آلاف السنين وعبر الأنبياء، أني لم أتّخذ ولم أحدّد ولم أعيّن اعتباريا أو معنويا أو... ولدا من مخلوقاتي، فهذا لا معنى له بالنسبة لي، وقد اعتبرت البعض منهم مميزين جدا، بسبب إخلاصهم لي، ولكن لا معنى لاعتبار واحد منهم ولدا لي، ولم أفعل ذلك لأنه تصرّف عبثي غير حكيم، فكلكم مخلوقات مثل بعض ولا معنى لاعتبار أي أحد منكم ولدا لي.

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ{83})
{فَذَرْهُمْ}، اتركهم ولا تهتمّ بهم وهم، {يَخُوضُوا}، يدخلون في شيء للمشاركة، ويتحدثون في معارضة دينه تعالى، {وَيَلْعَبُوا}، ويعتبرون الكلام عن الدين للتسلية وتمضية الوقت، فاتركهم على هذه الحال، {حَتَّىٰ يُلَاقُوا}، حتى يتلاقوا مع، ويواجهوا، {يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ}، حيث قال تعالى إنَّه سيأتي زمن ليتحاسبوا فيه وهو آتٍ حتما وسيحصل.

هم تحت المراقبة، وتعقيبا على ما ورد في الآية 79 السابقة، فماذا أبرموا أمام ما أبرمه تعالى؟ فاتركهم على إصرارهم على شركهم، واعتبارهم الموضوع تافهاً وللتسلية وتضييع الوقت... فهناك نهاية لهذا الموضوع وسيتحاسبون على خوضهم ولعبهم وشركهم، وعندها ماذا سيفعلون؟

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ{84})
{وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ}، في عموم ما علا فهو وحده الكائن بالصفات والقدرات الفائقة فوق الجميع، بسيطرته التامَّة على السماء، على عموم ما علا من سماوات سبع.

وهو الذي {وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ}، في عموم ما تحت السماء أيضا فهو وحده الكائن بالصفات والقدرات الفائقة فوق الجميع والمسيطر على كل شيء، على عموم ما كان تحت السماوات السبع.

الصورة التي في بال بعض الناس عن كون الإله في السماء ومنفصلاً عن الأرض وتاركاً لها، أو عن وجود آلهة غيره تعالى في السماء... أو في الأرض يوجد آلهة غيره... أو أنه تعالى ترك شؤون الأرض لآلهة غيره... فكلّه كلام فارغ، فهو نفسه إله واحد للجميع، وأحد لا إله غيره.

التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا من فضاء أو غيره ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، وبالنسبة لنا نحن الذين نعيش على الأرض، فكل ما فوقنا هو سماء، وهناك سبع سماوات فوقنا وكلّها سماء بالنسبة لنا. وتتذكّر دائما أنَّه لا يصحّ أن تقول سماءً لجهة إلا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، فعموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في الآية 12 من سورة الطلاق، {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...}، فالكلام عن سبع أرضين مقابل سبع سماوات ليس القصد منه وجود كوكب أو كواكب تحت كل سماء، بل إشارةٌ لعموم جهة فوقٍ التي هي طبقات سبع ويقابلها عموم ما تحت كل طبقة فهو أرض، فكوكب الأرض وسطح الشمس وسطح القمر... أرض بالنسبة لسمائنا، ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراضٍ.

يصير تعبير الآية على معنى: هو تعالى إله في عموم ما كان فوق وموصوف بأنَّه سماء، وهو تعالى إله في عموم ما كان تحت وموصوف بأنَّه أرض، وبناء عليه فلا إله غيره سبحانه في كلّ السماوات والأرض.

{وَهُوَ الْحَكِيمُ}، يرى الصوابية في الأمور ولا يعبث، وعمليا لا يتصرّف عن عبث أو تسلية، فتركه تعالى للأرض وتعيينه لمخلوقات لتكون آلهة عليها هو عبث، وتعيينه آلهة لشؤون السماء أيضا عبث، فلا صفة الإله تنطبق على غيره سبحانه، ولا تحصل الألوهية بالتعيين، وليست منصبا يمكن الحصول عليه، فهذا عبث لا يفعله الإله الحقيقي.

{وَهُوَ}، {الْعَلِيمُ}، يعلم كلّ شيء، وهنا يُقْصَدُ علمه تعالى بأنَّه لا إله غيره، لا معه ولا فوقه ولا تحته ولا على جنبه... لا في الأرض ولا في السماء، لا بالتعيين ولا بالحلول ولا... فسبحانه يشاء ويفعل ويقول عن علم لا عن جهل.

ضع في بالك دائما أن الناس عموما يتراخون في استعمال الكلمات، والقرآن لا يتراخى مثلهم في معانيها، فحدّد القرآن معنىً دقيقاً للكلمات بما يتناسب ويتماشى مع استعمال العرب للغتهم، وبالنسبة لكلمة إله، فبالدقّة القرآنية تعني: كائنٌ ذو صفات وقدرات فائقة فوق صفات وقدرات المخلوقات. ولو تماشى القرآن مع التراخي في استعمال العرب لهذه الكلمة "وغيرها"، لصار كلامه جدليا بلا أساس، لأن معاني الكلمات تصير مزاجية الانطباق على ما أريده وأقصده أنا، وما تريده وتقصده أنت، وبناء عليه أمطّ كلمة إله وأجعلها تناسبني وأصف بها نفسي مثلما فعل فرعون كما ورد في الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي...}، وهو مثل كلام عامّة الناس الذين لا يتكلّمون بدقّة، فلا يستعملون كلمات دقيقة، وتحتاج لفهم قصدهم حتى تُقَوِّمَ كلماتهم، بدل أن تفهم قصدهم من كلماتهم...

ستسمع مشركا يقول عن حجر إنَّه إله، ومشركا آخر يقول عن إنسان ما إنَّه إله، وآخر من وهمه وخياله يخترع كائنا وينعته بالألوهية، وآخر سيقول إنَّ الجنّ آلهة، وغيره سيقول عن الملائكة (ع) آلهة... فهذا النوع من التراخي والتساهل في استعمال الكلمات هل يمكنك تفسيره؟ وهل يمكن أن تشرح كيف يصير الحجر إلها؟!

هذا الكلام من صلب مقاصد القرآن، فالذين قالوا عن الحجر إله، فهم عرب، من قدماء العرب، من أقحاح العرب، ومن فصحاء العرب... فهل هذا يعني أنهم استعملوا الكلمة بشكل صحيح؟ لا، فهم قصدوا بها كائنا قدراته عالية تفوق قدراتهم هم، ولكنهم تراخوا بها حتى صارت تنطبق على تمثال من خشب! فهم ليسوا آلهة ليعلموا فعلا ما معنى كلمة إله كتطبيق فعلي حقيقي، ولم يكرّروا كلاما قاله إله حقيقي لهم، ولم يستعملوا عقولهم بشكل سليم حتى يستخرجوا صفات الإله من أفعاله كما فعل النموذج الأبرز إبراهيم (ع) وبقية أصحاب القلوب السليمة، وبذلك تفهم كلامه تعالى عبر هذا القرآن أنَّه كلام إله حقيقي يخبرنا عن نفسه، ويخبرنا أنَّه الوحيد الموصوف فعلا بهذه الكلمة بشكل حقيقي، لأنَّه وحده صفاته وقدراته فائقة فوق الجميع والبقية كلّهم مخلوقات له، وبعض المخلوقات كالملائكة والنبي عيسى(ع)... فقد منحهم تعالى قدرات أعلى من الآخرين، ولكنهم بذلك لا يصيرون آلهة ولا أولادا له عزّ وجلّ.

(وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ{85})
{وَتَبَارَكَ}، فكلّه خير، {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}، فكل المخلوقات محصورة بين السماوات السبع والأرض التي تقابل كلّ سماء وصولا إلى آخر سماء نزولا إلى كوننا، وبالتالي وصولا إلى أرضنا، وما بينهما من فضاء وكائنات وظواهر... فملكهم منسوب له سبحانه، وهذا التعبير يرادف قولنا: يملك كلّ شيء.

بالنسبة لموضوع السورة الذي ركّز على الذين أسرفوا بشركهم، فسبحانه كلّه خير وأفعاله خير، حيث خلق كل شيء كما هو عليه الآن، وبالتالي من فحوى الكلام نفهم أننا يجب أن نخلص ونكون ممنونين شاكرين لمن خلقنا وخلق كل شيء بهذا الشكل الرائع. هذا من جهة، ومن جهة ثانية أعمق وأهمّ، ولا أعرف كيف أعبّر عنها بكلام كتابي، فسأعبر عنها بكلام عامّي: نحن محظوظون بإله بهذه الصفات والقدرات، فلو لم يكن موصوفا بأنَّه {تَبَارَكَ}، لكان عبثيا، لئيما، مزاجيا... ولكنَّه عزّ وجلّ {تَبَارَكَ}، فكلّه خير، وكما ترى فالفرق هائل بين حقيقة الإيمان به عزّ وجلّ وبين الإيمان بآلهة أخرى ألوهيتها وهمية اخترعها الناس، فمن من تلك الآلهة {تَبَارَكَ}؟ لا أحد، بل سبحانه يبارك مخلوقاته إن أحسنوا التصرف.

{وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ}، سياق كلام السورة السابق، وغالب القرآن يشير عادة بالساعة، بالوقت القليل من وقت طويل "من يوم"، يشير لساعة من يوم فيه ساعات، وهي عادة: ساعة قيامنا من الموت في أوّل يوم بالنسبة لنا من أيام الآخرة،

فهو تعالى يعلم متى ستحصل، {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، عندما تنتهي حياتكم هنا فلن تختفوا، ولن تنمحوا، ولن تذهبوا إلى إله غيره أو إلى عالم ليس تحت سيطرته سبحانه... بل إليه تعالى يتم إرجاعكم، طبعا ليحاسبكم، وفي حينها:

(وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ{86})

{وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ}، كما نقول: ذهبتم من دوني. ونقصد أنهم ذهبوا مع غيري. فالذين تركوا الإشهار والإعلان له تعالى لوحده كإله، وأعلنوا عن غيره تعالى آلهة، فهؤلاء لا يملكون الشفاعة، والشفاعة هي عموم استخدام القيمة المعنوية أو السلطوية لتغيير الظروف نحو الأحسن، وتطبيقيا في حالة سياق الكلام هنا فهي نفي أي قيمة معنوية أو سلطوية لآلهتهم لتستخدمها في الآخرة لتتوسّط لمن عبدها لتنجيه من العقاب، فلا أحد من الذين يدعونهم أنهم آلهة يملك حتى أن يشفع للمشركين عنده تعالى عندما يحاسبهم ويجازيهم.

لو راجعت الآيات القرآنية العديدة التي ذكرت الشفاعة، لرأيت بوضوح اعتبار الشفاعة أقل شيء يمكن أن تتمتع به آلهة المشركين لتنفع الذي عبدها، فلا قيمة معنوية ولا سلطوية لها لتنفع الذي عبدها فارضة قيمتها عليه تعالى لتنجيه من العقاب، فحتى هذا المستوى من القيمة مفقود.

{إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ}، إلا من يقول الصواب الصحيح، فهذا يملك الشفاعة، فالحقّ أن الإله واحد أحد، ومن شهد بذلك فكان مؤمنا بذلك فهذا له قيمة معنوية عنده تعالى، {وَهُمْ يَعْلَمُونَ}، يعلمون أنَّه تعالى الإله الواحد الأحد، ويعلمون أنَّه لا يقبل بالشرك به وفي الآخرة لن يغفره...

العبارة تريد الإشارة للنبي عيسى(ع) أو أي ملاك أو مؤمن عبده الناس واعتبروه إلها، فهؤلاء لم يعلنوا أنفسهم آلهة ولا يقبلون بهكذا إعلان، فهم {يَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}، فيقولون ما يؤمنون به ويعلمونه من توحيده تعالى، وهم لهم قيمة معنوية عنده تعالى فهم يشفعون، ومعلوم لك أنهم لن يشفعوا للمشرك.

بعبارة أخرى بعض الناس عبدوا آلهة وهمية من خيالهم، كإله الرعد وإلهة الحبّ... فهذه في الآخرة لن تشفع لهم عنده تعالى لأنها أصلا وهمية، وبعضهم عبدوا كائنات لا قيمة لها عنده تعالى، كالذي عبد الأجداد الكافرين وكالذين عبدوا فرعون أو غيره من المجرمين الظالمين، فهؤلاء في الآخرة هم لا قيمة لهم أصلا، فبديهي أنه لا معنى للاعتقاد بإمكانية شفاعتهم عنده تعالى لمن عبدهم.

بقي الذين عبدهم بعض الناس وكانوا رافضين لذلك وهم يشهدون بالحق عن علم أنَّه تعالى الإله الواحد الأحد، وكنماذج عنهم الملائكة(ع) والنبي عيسى(ع)، وهؤلاء لهم قيمة عنده تعالى، فهم فعلا يشفعون، فيستخدمون قيمتهم المعنوية عنده تعالى حتى يعفو سبحانه عن المؤمنين من الدرجة المنخفضة... ولكن معلوم لك أنهم لن يشفعوا لمن اعتبرهم آلهة.

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ{87})

{وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ}، إذا عبّرت أيها النبي محمّد(ع) لهم عن إرادتك للحصول على جواب من عابدي الملائكة(ع): {مَنْ خَلَقَهُمْ}؟ من ركّبهم وألّفهم؟

{لَيَقُولُنَّ اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز هو الذي خلق فركّب وألّف الناس من المواد.

{فَأَنَّىٰ}، كيف ولأي سبب وبأي طريقة، {يُؤْفَكُونَ}، ينقلبون فيسلكون الطريق المعاكس! فيعبدون غيره تعالى ويعتبرونهم آلهة!

تذكّر دائما أنَّ السورة هنا تتحدّث مع وعن من يعترف بالله تعالى ربا إلها، ولكنهم عبدوا غيره سبحانه، وبالخصوص وجّهت كلامها لمن عبد الملائكة (ع) ولمن قالوا إنَّهم بنات له تعالى، وعرّجت على من عبد النبي عيسى(ع)، وهذان النموذجان من المشركين بشكل أو بآخر يعتبرون أنفسهم تابعين لدين الله تعالى... فهنا في ختام السورة تسألهم: من خلقكم أيها الناس، الملائكة(ع) أم الله تعالى؟ والجواب معلوم، فلا دليل لديهم على خلق الملائكة (ع) لهم، لا عقلي ولا نقلي، ولا يوجد آيات تدل على ذلك... وبعد كلّ ما ذكرته السورة وعموم القرآن عن إثبات الملك كلّه لله تعالى لأنَّه

الخالق لكل شيء، فمن البديهي أن الخالق هو الله تعالى، فإن كان هو الخالق فما معنى عبادتكم لغيره؟ فالعبادة تكون لمن خلقكم، فلماذا تعبدون من لم يخلقكم؟!

بقي شيء، فأي جواب آخر عمّن خلقهم، غيره تعالى، فهو كذب، واعتبرت السورة ما ورد فيها كافيا لنفهم ذلك، فربما يخطر ببالك أن جماعة ما قد يقولون إنَّ ملاكا ما خلقهم، أو الطبيعة، أو بالصدفة، أو من تكرار الحوادث الكونية، أو من الخصائص الفيزيائية للطاقة التي صارت مادّة كوننا، وبعدها نشأت خصائص كيميائية، بعدها خصائص بيولوجية... فهذا كلّه كلام فارغ أو كلام عن محاولة تعرّفنا على آلية خلقه تعالى لكوننا، وفيما ذكرته السورة عن الإشارة لآياته تعالى من خلق المساحة من سماوات وأرض وخلق الكائنات والظواهر التي فيها، يدل بوضوح على تصميم وتخطيط وخلق تابع لربّ واحد أحد...

أمّا تعرّفنا على آليات خلقه تعالى لما في الدنيا، عبر ملاحظتنا وافتراضنا لترابط الأمور انطلاقا من بذرة تشكّل منها ما في الدنيا، فهذا تعرّف على الآلية التي خلق بها تعالى ما في الدنيا، وليس إلغاءً له تعالى كخالق لها.

الذين نسميهم بالملحدين أو العلمانيين ونقصد بهم الكافرين بأي إله مهما كان، عادةً ضمّن القرآن كلامه معهم أثناء كلامه مع المشركين، ودلالة الآيات التي في خلق السماوات والأرض، وتحليل المعطيات منها لإثبات توحيده تعالى، هي نفسها متضمنة إثبات وجوده تعالى، وتعالى سبحانه عن طرح مسألة إثبات وجوده بشكل مباشر، والسبب نفهمه من فحوى كلامه سبحانه معتبرا أن ما جعله فينا من فكر وملاحظةٍ فهو أكثر من كافٍ للتعرّف عليه مما فعله سبحانه، ومعتبرا إنكاره مجرد عناد... وبالرغم من ذلك العديد من الآيات التي خاطبت المشركين مناسبةٌ للكلام مع الذين نسميهم بالملحدين، وسورة الرعد والجاثية والواقعة من أنسب السور لمخاطبة الملحدين...

(وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاء قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ{88})
{وَقِيلِهِ}، قال أحدهم، والكلام عمومي لأي زمان، وكنموذج سياق الكلام ومناسبته عن ناقل هذا القرآن للناس، وهو النبي محمّد(ع) فقال ردّا "افتراضيا" على الآية السابقة لتحديد سبب إفكهم:

{يَا رَبِّ}، أيها المسؤول عني من مستوى إلهي، {إِنَّ هَٰؤُلَاءِ}، المسرفين بشركهم ومنهم العابدون للملائكة(ع) ولبعض الناس، {قَوْمٌ}، أناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة، وهنا الإشارة لنموذج عن عبدة الملائكة الذين كانوا ضمن أهل مكّة، فهؤلاء، {لَا يُؤْمِنُونَ}، مهما قلت لهم لا يعلنون اعتقادهم بالتوحيد! فإفكهم عن الحقيقة سببه أنهم لا يريدون أن يؤمنوا ولا يوجد أي سبب آخر.

سألت الآية السابقة بتعجّب عن إفكهم، والمشركون لن يجيبوا عن ذلك، فأجابت الآية هنا افتراضيا عمّا سيقوله الذي سأل السؤال: إنَّ هؤلاء الناس لا يؤمنون مهما قلت لهم، لأنَّهم لا يريدون أن يؤمنوا.

الآية السابقة والحالية والتالية فيها تعبير يتماشى مع افتتاحية السورة عندما بدأت كلامها عن الاضراب صفحا بالذكر عن المسرفين، فمن المعلوم أنَّ بعض الناس لن يؤمنوا ولا بأي شكل، فمن شدّة إسرافهم لن يؤمنوا، وهذا لن يجعله تعالى يضرب عنهم صفحا فلا يوصل لهم كلامه عبر رسله، بل بالعكس، فهؤلاء قوم لا يؤمنون ولكنَّه تعالى سيعاملهم مثلما عامل غيرهم ممن سبقهم، فسيوصل لهم الذكر.

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ{89}
{فَاصْفَحْ عَنْهُمْ}، أيها القائل إنَّهم لن يؤمنوا قم بتغيير توجّهك عنهم، {وَقُلْ سَلَامٌ}، أعلن لهم أنَّه لن يصدر منك إلا الخير لهم، هم يخوضون ويلعبون وارمِ عليهم التحية معلنا أنك لست مثلهم أنت لا يصدر منك ما يصدر منهم من سوء، غادرهم حين يخوضون ويلعبون، ورد هذا التعبير عدة مرات في القرآن عن رمي التحية والانطلاق بعيدا عن العنيدين الذين قرّروا أَلَّا يؤمنوا مهما قلت وبرهنت لهم، مثلما يحصل معك حين تسمع شخصا يجادل بالباطل ويلغو بالكلام ولا يقبل بكلام الحقّ... تقدّم له التحية وتنصرف، كتعبير عن إنكارك لأقواله وسلوكه وأنك لن تنزل لمستواه المستهتر بكلام الإله عزّ وجلّ، فالانصراف أفضل. ورد نفس المعنى في الآية 47 من سورة مريم {قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا}، والآية 63 من سورة الفرقان {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ

الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا}، والآية 55 من سورة القصص {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ}...

{فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}، ماذا سيعلمون؟ من الواضح أنهم سيعلمون نتيجة إفكهم وإسرافهم بالشرك، وهو العقاب الخالد في جهنّم.

بقي شيء، في آيات مثل آيتنا هنا ستجد في بعض التفاسير كلاما عن نسخها، على أساس أنَّه في القرآن آيات متعارضة مع بعضها، وبناء عليه هناك آيات لاغية لآيات، ويصطلحون على ذلك بكلمة نسخ، راجع الآية 106 من سورة البقرة لمزيد من التوسع حول ما يسمونه بالنسخ {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

أمّا هنا فنشاهد القائلين بنسخ أمثال آيتنا هنا، محتارين بينها وبين الآيات التي تأمر بقتال الكافرين، حيث هناك تعارض بين قتالهم وبين السلام عليهم والإعراض والصفح عنهم.

هذا النوع من الفهم للقرآن له أسباب عديدة، ونتج عنه أمور شائكة لن ندخل في تفاصيلها، اخترت لك هذا النموذج عن قولهم بالنسخ لأنَّه الأكثر انتشارا في كلامهم، والنتيجة لكلامهم أن قتال الكافرين واجب دائما وفي أي حال طالما يستطيع المسلمون ذلك حتى يعلن الكافرون إسلامهم، وإن لم يستطيعوا قتالهم فدم ومال وعرض الكافرين مباح عندما تسنح أي فرصة لذلك. ولهذا تصير عندهم آيتنا هنا وأمثالها منسوخة، أي ملغية.

الآن ننتبه جيدا، هذا كلام قرآني صريح بأمر إلهي بالتعامل السلمي المحترم مع الكافرين، وهذا إلغاء له من المفسرين باعتباره منسوخا بالآيات التي تأمر بقتال الكافرين أينما كانوا...

للأسف، عموماً كمسلمين بنينا ثقافة دينية كعقلية ونفسية وعادات مبنية على تشريعات من هذا النوع، وهكذا صار دينه تعالى معروضا على الآخرين بما يخالف صريح نصّ كلامه القرآني سبحانه، والآخرون أصلا يبحثون عن الحجج حتى يكفروا بقرآنه تعالى، وها نحن نقدّمها لهم على طبق من ذهب، هم ليسوا بحاجة لتفسير القرآن على هواهم حتى يثبتوا أنَّه ليس من مصدر إلهي، وحتى يشوّهوا صورته كدين إجرامي، نحن قمنا بذلك قبلهم...

هنا لن أطيل عليك وسأحيلك إلى سورة الممتحنة وبالخصوص إلى دراسة الآية 8 منها {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، الأساس في الأمر الإلهي لنا كمنتمين لدينه أن نعامل كل الناس مهما كان دينهم وعقيدتهم... بالعقلانية والاحترام، هم مخالفون لنا إيمانيا وتشريعيا وسلوكيا، ولا يحق لنا إجبارهم على الإيمان بديننا ولا على اتباع شريعتنا، المعيار بيننا وبينهم هو الحقّ والباطل، أيُّ خلاف بيننا وبينهم على مستوى المعاملات، في البيع والشراء والمقاضاة... ليست مرجعيته ما نقوله نحن بل ما يقوله تعالى، وما يقوله تعالى ليس صلبا جافا بلا تبرير لإقناع الآخرين بأنَّه حقّ...

كلّ الآيات القرآنية التي أمرت بقتال الكافرين، كلّها جاءت معها تبريراتها، هم قاتلوا المؤمنين وهجّروهم واعتدوا عليهم... وبناء على عموم مفاهيم القرآن ومنه الآية 194 من سورة البقرة {... فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ...}.

هكذا نفهم أن أمره تعالى لرسوله بالإعراض والصفح وقول السلام للكافرين، هو الحالة الأصلية الأساسية لتعاملنا معهم، إلى أن هم يعتدوا علينا.

سورة الدخان (44) ص 496

تتحدّث عن ومع الشاكين بالآخرة وتصفهم باللاعبين في الدنيا لأنهم لا يحسبون حسابا للآخرة التي تحتاج لاهتمامهم للنجاة من العقاب وذلك عبر الإيمان بالحق وفعل الصالحات... ارتقب حين يأتي العقاب لهم والنعيم للمؤمنين.

دخلت السورة على نموذج أطغى الطغاة فرعون، وكيف كانت نهايته كواحد من أبرز الأدلة الملموسة هنا على تعذيبه تعالى للكافرين في الآخرة، وعرّجت على كونه تعالى لا يلعب، خلقته لنا لم تكن عن عبث أو للتسلية، ومن بعدها دخلت على العقاب والثواب بذكر أمور من الواضح جدا أنها عقاب وثواب لمن له جسد، ليس كحالة النائم ولا روحاني ولا نفساني فقط كما يقولون... بل هناك جسد لنا في الآخرة، يتنعّم أو يتعذّب، واختتمت السورة كلامها مثلما افتتحت بارتقاب قدوم الآخرة...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(حم{1})
هذه حروف نتهجّاها مقطّعة هكذا: حا ميم.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوَّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

(وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ{2})
تأكيد من نوع القسم بالكتاب المبين، بِأَنَّ مواضيعه تامّة وهو واضح. وتكملة الجملة "الجواب عن القسم" في الآية التالية: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ}...

هناك كتاب رئيسي أساسي فيه كلّ شيء كما تقرأ في الآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، ففيه ما جرى وما سيجري مع المخلوقات في الدنيا والآخرة... "وبشكل ما" فيه معلومات عقائدية وتشريعية... وهو كتاب ليس من ورق ولا مثل القرص الصلب ولا مثل الذاكرة الحاسوبية... ولا نعرف عن كيانه أي شيء لأنه من عالم آخر، من عالم الملائكة(ع) العالية... وقسم من ذلك الكتاب الكبير تحوّل لكتاب أصغر، وبدأ ينزل وحيا على النبي محمّد(ع)، وصار اسمه القرآن. يعني صار مقروءا. تَصِفُ الآية الكتاب الأساسي بأنه مبين، لأنه هو واضح ليس فيه معلومات غير صحيحة أو مشوشة أو ناقصة، ووصفه بالمبين يكون لمن لديه قدرة الاطلاع عليه والتعامل معه، ونحن نتعرّف عليه مما تحوّل منه وصار قرآنا، وَالْقُرْآنُ مبين لأنه جزء من كتاب مبين.

لنتوسّع قليلا في الوصف بالمبين للكتاب الرئيسي وللقرآن الذي منه، هل هذا يعني أن القرآن واضح ويمكن فهمه بسهولة لأي واحد يَقْرَأُهُ؟ نعم ولا، حيث المجنون والطفل والبسطاء... لن يفهموا غالبية كلامه، وما رأيك بكتاب إلهي مبسّط لدرجة أن يكون مبينا واضحا يفهمه الأطفال؟ يطرح مواضيع يفهمها الأطفال تاركا الأمور التي تحتاج لوعي وخبرات عالية في الحياة... هكذا ترى بسهولة أن وصف القرآن بالمبين لا يعني تركه لمواضيع كبيرة تحتاج لخبرات عقائدية واجتماعية وسياسية واقتصادية وتشريعية... وكما ترى بسهولة أَنَّ الطفل لن يفهم هذا النوع من المواضيع، وهناك العديد من الرجال والنساء الذين لا يفهمون بالكثير من تلك المواضيع، هَلْ يتركها القرآن حتى يكون مبينا بالكامل لكل من يستطيع القراءة أو السمع؟ لا، وَصْفُهُ بالمبين لا يشير إلى سهولة فهمه للجميع في كل ما يطرحه.

تَجِدُ أكثرية سور القرآن يمكن للكثيرين فهمها بسطحية لاستخراج أساسيات العقيدة والتشريع، كالتوحيد والعمل الصالح والصلاة... وما يبدو معقدا فهمه من آيات على البعض، هِيَ عشرات قليلة من آلاف الآيات التي يمكن لأي إنسان متوسّط الثقافة أن يفهمها من القراءة العادية أو مع قليل من الدراسة والتمعّن فيها.

إذاً الأكثرية الغالبة من القرآن هي سور وآيات من السهل فهمها من قراءة عادية للعاديين ولمتوسطي الثقافة وما فوق، والباقي القليل يحتاج لتمعّن حتى من الدارسين، والقليل القليل جدا يحتاج لدراسة معمّقة لفهمه بسبب تشعّب ارتباطات الموضوع المطروح... وهناك أسباب لذلك منها الحاجة للخبرة في الموضوع الذي تتحدّث عنه الآيات، ومضافا له الحاجة لسلامة القلب، فكلما صَفَا القلب صار فهم ما يقوله تعالى أسهل.

صَرَّحَ القرآن كثيرا أَنَّهُ كتاب هداية للمؤمنين، للمتقين، لذوي الألباب... وبالتالي لَنْ يكون واضحا ما فيه للذين قلوبهم مختومة مدموغة بالكفر وعليها حجاب... هَؤُلَاءِ سيرونه مبهما لأنه يتعارض مع فكرهم ونفسيتهم المريضة أو الرافضة أصلا لكلام الحقّ...

فَهْمُ المؤمنين المتقين العاملين للصالحات... للقرآن، سَيَكُونُ بمستوى تقاهم وإيمانهم، الَّذِي من داخله لديه ميل أو رغبة لسيئة ما ويحبّها... حتى لو لم يفعلها، سَيَسْتَصْعِبُ فهم الآية التي تنهى عنها...

مِنَ البديهي أن المؤمنين ليسوا كلّهم من ذوي الخبرات في الأمور المختلفة من عقائدية وسياسية واجتماعية وقضائية... وبالتالي سيكون من الصعب عليهم كلّهم فهم كل أنواع الْمَوَاضِيعِ التي يطرحها القرآن، ليس لأنها مبهمة أو غير واضحة أو مشوشة... بل لأنهم لا يفهمون في الموضوع الذي تتحدّث عنه الآيات... إِلَى جَانِبِ العديد من الأسباب التي تجعل هذا المؤمن يفهم في هذا الموضوع أكثر مما يفهمه المؤمن الآخر...

مِفْتَاحُ رؤية عمق كلام القرآن أن تقرأه لتتعلّم منه، ودائما نقع في مشكلة فهم كلامه لأننا نَقْرَأُهُ بخلفية معلوماتنا التي على أساسها نفسّر القرآن، وهكذا لن يكون القرآن مبينا، لأننا لم نفهمه بل أسقطنا معلوماتنا عليه ليصير كلامه متماشيا مع ما نريده نحن...

نُعِيدُ صياغة هذا المعنى بطريقة أخرى، تَفْسِيرُ القرآن بناء على معطياتنا الثقافية عموما والعلمية التخصصية، هُوَ مصيبة المصائب، بِهَذِهِ الطريقة يكون لدينا معطيات عن الطب والفيزياء والفلك والتشريعات والاقتصاد... كقناعات عندنا، ونسقطها على القرآن، مَا يقولونه عن تطوّر العلوم الذي يؤدّي إلى فهم أعمق للقرآن، هُوَ مبني على إسقاطهم لمعلوماتهم على القرآن بدلا من التعلّم منه بالاعتماد على ظاهر المعاني البسيطة للكلمات والعبارات، وهكذا صار لديهم تفسير علمي للقرآن، وصار في القرآن نظريات فلكية وفيزيائية واجتماعية...

أَكْبَرُ مصيبة منتشرة في تفسير القرآن هي القناعة المتوافق عليها عموما بين المسلمين، بِتَحَمُّلِ الكلام الإلهي لأكثر من تفسير، ولأكثر من وجه وعن وجود بطون عديدة لمعاني آياته...

يَنْتُجُ عن ذلك وعن أسباب عديدة أخرى ما تجده منتشرا في مختلف كتب التفاسير، التي تعرض عشرات الآراء لتفسير آية واحدة! نَحْنُ فعلا جعلنا القرآن مبهما بما رسّخناه من ثقافة دينية في تفسيرنا له بوجوه مختلفة ومتخالفة، وفي نفس الوقت مع الاعتقاد بأنها كلّها أو غالبيتها تفاسير صحيحة! وصارت دراستنا هذه التي تفسّر كلامه تعالى بالصريح الظاهر المفهوم من الكلام "المبين"، وَنَتَجَ عنها مَعْنَىً وَاحِدٌ صَرِيحٌ لكلامه تعالى، صارت دراستنا هذه شُذُوذاً مخالفا للثقافة المنتشرة بين عموم المسلمين!

{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ{3}}
{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ}، أنزل سبحانه كتاب القرآن من الكتاب الرئيسي، فلم ينزل كلّ الكتاب الرئيسي بل قسم منه نزل، {فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ}، في فترة العتمة من يوم ما، وكان وقتا يوصف بالخير حَيْثُ تخصّص بنزول القرآن فيها.

{إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ}، وهذا خبر عنه تعالى أنه أنزل الكتاب لأنه لا يترك من كان فاسدا من دون إنذار، وَأَوْصَلَ سبحانه للناس الخبر عن شيء سيّء قادم حتما لمن توافرت فيه شروط حصوله، وهو خطر العقاب في نار الآخرة على فعل السوء وهو نفسه مخالفة أوامره تعالى.

الْإِنْذَارُ واحد من أسباب نزول القرآن وَهُوَ أيضا بشير ورحمة وهدى كما سيأتي في بقية كلام السورة.

هناك كلام في الكتب عن نزول القرآن كلّه كما نعرفه الآن دفعة واحدة في ليلة القدر، وَقَالُوا إِنَّهُ نزل كلّه في ليلة القدر من الكتاب الأساسي إلى سماء ما، واستقر هناك وبعدها صار ينزل على دفعات متفرقة على قرابة العشرين سنة، وبرّروا وعلّلوا للمشكلات التي تتعلّق بهذا الكلام حين ارتبط القرآن بحوادث حصلت في تواريخ محدّدة وَبَرَزَتْ مشكلة نزول قرآن يتحدّث عنها قبل أن تحصل... وصار عندهم بحوث للفرق بين الإنزال والتنزيل... وكلام كثير حول هذا الموضوع... ولكن لو عرضت هذه الأقوال على القرآن، والتزمت بمعاني الكلمات، لوجدت أن كلّ هذا الكلام لا مستند قرآني له، وإنما هي تحليلات لا داعي لها، بِكُلِّ بساطة يقول القرآن: أوّل ما بدأ تحويل بعض المعلومات التي في الكتاب الإلهي الرئيسي لقرآن "الشيء يمكن قراءته" ونزل على الرسول محمّد(ع)، ذَٰلِكَ كان في ليلة القدر كما ورد في الآية الأولى من سورة القدر {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}، وهي ليلة من ليالي شهر رمضان كما نفهم من الآية 185 من سورة البقرة {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ...}، وبعد ذلك توالى تحويل أقسام من الكتاب الرئيسي لقرآن على امتداد حياة النبي محمّد(ع). نقطة انتهى.

ننتبه أيضا، مِنَ القرآن علمنا أن القرآن بدأ ينزل في ليلة القدر وهي واحدة من ليالي شهر رمضان، واستمر بعدها ينزل بشكل متفرّق لقرابة العشرين سنة، ولكن في الروايات نجد دمجا بين ما يسمّونه بالبعثة وهي أول أمر إلهي نزل على النبي محمّد(ع) ليكون رسولا للناس، وَيَخْلِطُونَهُ مع أوّل نزول القرآن، وَيَقُولُونَ إِنَّ البعثة "أول وحي عبر الملاك جبريل(ع) للنبي محمّد(ع)" حصل في رجب، ويقولون "على اختلاف بينهم" إِنَّ سورة اقْرَأْ أو المزّمل أو المدّثر..." هي أوّل سورة نزلت في ذلك اليوم "في رجب"... وفي روايات أخرى فضل كبير لليلة النصف من شهر شعبان من المغفرة للمستغفرين... وبالتالي خلط في الروايات بين ليلة نزول القرآن وليلة القدر وليلة البعثة مع ليلة النصف من شعبان! وكما تلاحظ فالقرآن صريح بأن أوّل نزوله كان في ليلة من ليالي شهر رمضان كما ورد في الآية 185 من سورة البقرة {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ...} ولتلك الليلة وصف بأنها ليلة القدر، كما ورد في الآية الأولى من سورة القدر، وفيما بعد صار الوصف بالقدر اسْمَاً لتلك الليلة.

ضع في بالك أن تلك الروايات عن أول ما نزل من القرآن وعن البعثة وعمّا جرى مع النبي محمّد(ع) في الغار... وذهابه إلى نوفل... كلّه كلام غير موثوق ومن روايات آحاد ضعاف مشوّشة متضاربة متخالفة... وبعض من رواها، أو لقّقوا له الرواية، لم ينقلها عمّن كان في الحدث، بل رواها بلسانه كأنه كان في حينها معايشا للحدث! وهم لم يكونوا هناك! كالسيدة عائشة وَأَبِي هريرة.

بِالنِّسْبَةِ لما تجده في بعض الكتب عن الفرق بين كلمتي نزل وتنزيل، فكلاهما وصف لعموم الانتقال من علو "ماديا أو معنويا" إلى مكان منخفض ماديا أو معنويا. فمعنويا نقول: نزلت رتبته العسكرية. وكلا الكلمتين "نزل وتنزيل" تتحملان معنى النزول دفعة واحدة أو على دفعات، ويتحدّد ذلك مما تتكلّم عنه، وتتحملان النظر للفاعل وَحْدَهُ، أو للمفعول وَحْدَهُ، أو للحالة. فلا فرق بالمعنى بين الأصل "نزل" وبين الاشتقاق "تنزّل تنزيل نزول..."، خصوصا فيما يقولونه عن الفرق بينهما في نزول القرآن دفعة واحدة أو بالتدريج على دفعات.

مَا تجده هنا وهناك في ثقافتنا عن نزول القرآن كلّه من السماء السابعة إِلَى السماء الرابعة... ومن الرابعة جرى تنزيل القرآن "ونزل" على دفعات على الرسول(ص)، بِهَذَا التفصيل "وأشباهه" يقصدون تفسير كلمتي نزل وتنزيل بتوصيف مختلف للفعل، وهذا تفصيل لا ضرورة له وأصلا لا دليل قرآني عليه، ويمكن فهم نزول القرآن تدريجيا على دفعات

وفهم نزوله كلّه كوجهين لعملة واحدة، فبعضه نزل "تنزّل" في ليلة القدر، ثم نزل "تنزّل" بعضه في زمن بعدها... وبالنظر للقرآن كلّه جَرَى تنزيله "نزوله" على دفعات استمرت لقرابة العشرين سنة حتى وفاة الرسول(ص).

يَبْدُو أن الفهم الضبابي لكلمة "قرآن وكتاب" دفع بالكثيرين للبحث عن فرق بين التنزيل والإنزال بالمعاني التي ذكروها، حيث فهموا أن كلمة قرآن تشير لكل ما بين الدفتين، لكل القرآن من أوله لِآخِرِهِ، وفهموا كلمة كتاب كذلك أنها تشير لكل القرآن من أوّله لآخره، وبناء عليه أرادوا تبرير الآيات التي تذكر نزول "كتاب القرآن" على أساس أنها تشير لنزول كتاب القرآن كلّه من أوّله لآخره دفعة واحدة، ومن المعلوم أنه كلّه لم يكن نازلا على الرسول(ص) حين جاءت الآيات التي تقول إِنَّ القرآن نزل...

بِنَاءً على فهمهم هذا، بدأت تبزغ الآراء المختلفة لتبرير الموضوع، فقال بعضهم إِنَّهُ كلّه من أوّل مرّة نزل على الرسول(ع)... وبعدها عاد ونزل عليه (ع) على دفعات. وآخرون قالوا: لم ينزل أولا كلّه على الرسول(ع) وإنما نزل كلّه من السماء السابعة إلى الرابعة، ومن هناك صار ينزل على دفعات على الرسول(ع)... وغيرها من التبريرات التي لا داعي لها، فالآية الواحدة قرآن، والسورة قرآن، وَالسُّورَتَانِ قرآن... كَلِمَةُ قرآن وصف إمكانية قراءتنا لما نزل منه تعالى، أَيُّ تعبير يشير لنزول أو تنزيل "القرآن" لَا يعني أكثر من نزول شيء يمكن قراءته، فلا داعي لنفهم أن التعبير يشير إلى نزول كلّ القرآن.

كَلِمَةُ كتاب تشير لعموم أي موضوع تامّ، فالسورة الواحدة كتاب، والفقرة أو الآية الواحدة من السورة إن كانت تامّة الموضوع فهي كتاب، وكلّ القرآن كتاب، وهكذا عِنْدَمَا تجد آية تتحدّث عن نزول القرآن أو نزول الكتاب فهي ليست بالضرورة تشير إلى نزوله كلّه، فلو نزلت آية فهي قرآن، ولو نزلت آية موضوعها تامّ فهي نزول لكتاب...

(فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ{4})
{فِيهَا}، في تلك الليلة المباركة، {يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}، فهناك أساس حكيم، هناك الصوابية في الأمور، فلا عبث ولا فساد فيه ولا لهو ولا تسلية... ومنه تَتَفَرَّقُ أمور أيضا حكيمة في تلك الليلة.

ولا نزال ضمن الكلام عن نزول القرآن الذي حصل في تلك الليلة، وَهُوَ كقرآن كشيء مقروء، تحويل إلى اللغة العربية لأمور مختارة من الكتاب الرئيسي، وهي الأمور الحكيمة التي فُرِقَتْ فصارت لوحدها، فصارت مواضيع حكيمة متفرقة، صارت سُوَراً وفقرات تتناول أمورا متفرقة حكيمة.

دَرَجَ بين عموم المسلمين الاعتقاد بليلة من ليالي شهر رمضان من كل سنة "ليلة القدر"، أَنَّهُ يتحدّد فيها ما سيحصل مع الناس في مستقبلهم لمدة سنة، من وفاة ورزق وزواج وحجّ ونجاح... وبعدها في ليلة القدر التالية يتحدّد ما سيحصل للسنة التالية وهكذا... وهذا شيء توحي به الآية هنا "بشكل خفيف" ولكن ليس بشكل صريح، لِأَنَّهَا تحتاج لدعم بآية أخرى من القرآن، ولو بحثت فلن تجد ذلك الدعم، سوى أَنَّهُ يوجد ليلة اسمها ليلة القدر {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا مِنْ كُلِّ أَمْرٍ}... كما ورد في سورة القدر، وبالجمع بين الآيات هنا وآيات سورة القدر نجد أن الأمور التي حصلت حينها في تلك الليلة بالذات، هي نزول أقسام مختارة من الكتاب الإلهي الرئيسي لتصير قرآنا، وبكل سهولة يصير الأمر الحكيم، ومن كلّ أمر، شَيْئاً يتعلّق بأمور القرآن، ولا يبدو منه أي علاقة بما يسمّونه بِأَقْدَارِنَا ويقصدون بذلك ما سيجري معنا من حوادث في حياتنا، وهذا واضح من تكملة كلام السورة في الآيتين التاليتين.

نعم لدينا كمّ هائل من الروايات المتضاربة حول مواصفات هذه الليلة وما يجري فيها، وحول تحديدها في أي يوم وفي أي شهر... أمّا من القرآن فيبدو أَنَّهَا ليلة مرّت ولم تتكرّر، ولم يتكرّر ما حصل فيها، حَيْثُ كانت ليلة بداية نزول القرآن، وهذا الحدث له أهمية بالغة جدا جدا مما جعل تلك الليلة مميزة، فقط لا غير.

وهذا الموضوع نموذج عمّا يعلق في أذهاننا من موروث ونحكم به على فهم القرآن، فالأساس هو عرض كلّ شيء على القرآن، فإن وافقه أخذنا به، وإن عارضه رميناه، ولكن مهما حاولنا وبدون أن نشعر فإننا نفعل العكس! تَكْرَارُ الموروثات الشائعة بين الناس والتي تربينا عليها، صارت أرسخ في ذهننا وأقوى مما نقرؤه في القرآن، فما بالك بمجمل القرآن الصريح في العديد من الآيات التي تنهانا عن التفرّق والتمذهب والتشاحن والبغضاء... ولكن موروث المذهبية أقوى في ذهننا من صريح القرآن، لِذَا نُفَسِّرُ القرآن بما يؤكّد صحّة مذهبنا لتعميق الفرقة عن الآخرين! وليلة

القدر من الروايات والثقافة الدينية الموروثة، حيث ترسّخ فينا أَنَّهَا ليلة تحقيق الأماني والأحلام والطلبات المستجابة... والموروث بسبب كثرة تكراره صار أقوى في أذهاننا من صريح القرآن، ولا يزال البعض مُصِرِّينَ على بداية نزول القرآن فيما يسمّونه بيوم البعثة في رجب!

(أَمْراً مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ{5})
{أَنْزَلْنَاهُ}، {أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا}، شيئا أراد سبحانه قوله وفعله، {إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ}، خبر عن أَنَّهُ تعالى لا يترك الناس بدون شخص ينقل كلامه تعالى لهم، ومن الآية التالية نعلم تكملة المعنى:

(رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ{6})
{مُرْسِلِينَ}، {رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ}، عناية للناس لما فيه مصلحتهم من المسؤول عنك من مستوى إلهي.

إرْسَالُهُ تعالى لك أيها الرسول محمّد(ع) شيء حتمي لِأَنَّهُ تعالى رَحْمَنٌ وربّ، مما يستدعي أن يعتني ويتصرّف بمسؤولية من مستوى إلهي، وبالتالي سيرسل للناس من يهديهم للطريق الصحيح.

{إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ}، يَسْمَعُ كلّ شيء، وهنا الإشارة لسماعه تعالى القرآن الذي تَنْزِلُ به الملائكة(ع) على النبي محمّد(ع)، وسماعه تعالى لما يقوله الرسول محمّد(ع) للناس، وَيُرَاقِبُ سبحانه كلّ شيء.

{إِنَّهُ هُوَ}، {الْعَلِيمُ}، يَعْلَمُ كلّ شيء، وهنا الإشارة لنزول الكتاب من عليم، وإشارة لعلمه تعالى بما ينزل من الكتاب عبر الملائكة(ع) على النبي(ع)، ولعلمه تعالى بما سيحصل بعد نزول الكتاب.

كَلِمَةُ ربّ تقال لعامة من لديه مسؤولية عناية بالآخرين، فربّ البيت كوصف للأب، وربّة المنزل كوصف للأم، وربّ العمل... فعلى مستوى كل واحد ومسؤلياته يكون الوصف، وبالنسبة له تعالى فهو ربّ من مستوى إلهي، أمّا كلمة "إله" فلا تتحمّل التدرّج في معناها، إِذِ الموصوف بها فقط الله تعالى.

إلى هنا فهمنا أَنَّهُ تعالى يتصرّف بهذه الطريقة: أرسل سبحانه لنا رسولا لينقل لنا كلامه سبحانه. وسترى خلال السورة أن موضوع إعادتنا إلى الحياة بعد الموت، يمكننا استنتاجه من الآيات "من أفعاله سبحانه" في السماوات والأرض بحسب مستوى سلامة قلبنا، وهذا ما انبنى عليه ما ورد في الآية 191 من سورة آل عمران {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}، وهذا ما توصّل إليه النموذج الراقي إبراهيم(ع) بدون وحي كما ورد في الآية 81 من سورة الشعراء {وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ}. وأيضا تعرّفنا على إعادتنا إلى الحياة في الآخرة مما قاله تعالى لنا عبر ما وصلنا من رسله، ويجب أن نؤمن بحصوله، بدليل أَنَّهُ تعالى لا يلعب، فخلق السماوات والأرض وخلقنا فيها ككائنات تتمتع بحرية الإرادة والاختيار بين الخير والشرّ، فسيكون لعبا إن لم يكن هناك غاية من ذلك... والحساب في الآخرة عليه دليل ملموس هنا في الدنيا من النماذج التي تدخّل فيها تعالى هنا في الدنيا بإنزال العذاب على أقوام كفروا...

(رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ{7})
الآية هنا والتي تليها لَفْتٌ لانتباهنا عن الربّ من مستوى إلهي، عن الإله ذِي القدرة على الإحياء والإماتة، فما سيرد في هذه السورة من أقوال فهي صادرة عن صاحب هذه الصفات والقدرات الفائقة، وَلْنُتَابِعْ:

... {رَبِّكَ}... {رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}، المسؤول من مستوى إلهي عن كل شيء، فالسماوات السبع والأرض التي تقابل كلّ سماء هي حدود كل دنيا المخلوقات، وهو سبحانه ربّها وربّ ما بينهما من فضاء وكائنات وظواهر، {إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ}، إن كان لديكم اعتقاد بشيء مطابق للحقّ والواقع فستعتقدون به تعالى ربّا لكل شيء، لِأَنَّ هذه حقيقة صحيحة.

ننتبه لشيء هنا، إِذِ الْيَقِينُ هو العلم بشكل قطعي أكيد حتمي بشيء صحيح، وكونه تعالى ربّا لكلّ شيء، هَذِهِ معلومة من النوع الأكيد الصحيح الحتمي المطابق للواقع، فإن كان لدينا علم من مستوى اليقين، كعلمي بنفسي أني موجود، وعلمي

بكياني، وبما حولي... وعلمي بأي شيء مطابق للواقع... فكذلك العلم به تعالى ربّا لكل شيء هُوَ من هذا النوع، من النوع اليقيني، وتريدك الآية أن تصنفها مع معلوماتك اليقينية.

بعبارة أخرى، إنْ كانت لديكم معلومة يقينية من النوع المطابق للواقع، فمعلومة أَنَّهُ سبحانه ربّ السماوات والأرض هي من هذا النوع من المعلومات اليقينية.

أمّا من لم يحصل لديه يقين بهذه المعلومة فهي بالنسبة له مجرد كلام، كخبر لم يصدّقه، أو يشكّ بصدقه... لِذَا لن يعتقد به تعالى ربّا، وهذا واقع في مشكلة لِأَنَّهُ سينال العقاب الشديد على إنكاره لما هو صحيح حقيقي، وستتحدّث عنه السورة فيما سيأتي.

الْيَقِينُ هو تطابق اعتقادك مع الحقيقة، من تعاملك مع الشيء مباشرة أو من خبر ممن تثق به... فإن لم يطابق الواقع فهو لا يوصف باليقين حتى لو وصفت أنت نفسك باليقين من شدة تأكدك منه.

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ{8})
{رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، {لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، لا يوصف غيره بوصف الألوهية الحقيقي، وحده الكائن ذو الصفات والقدرات الفائقة الأعلى والأعظم والأكبر... فوق الجميع مع الفارق الهائل جدا جدا بينه تعالى وبين مخلوقاته. تذكّر دائما أننا كبشر جعل سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرّف عليه سبحانه من ملاحظة أفعاله وعند الخوف ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء... فوضعنا كلمة نصف بها الكائن ذا الصفات والقدرات العالية جدا عن قدراتنا، وهي كلمة {إِلَه} كوصف لِذِي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلّق به عند الوقوع في الورطات...

في الحقيقة، الكائن الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة هو الله سبحانه، وتساهل الناس في استعمال كلمة {إِلَه} لتنطبق على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، حيث يطلقونها على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أن فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}...

القرآن يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهي، ويقوّم اللغة ككلّ، ويقوّم دقة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة {إِلَه}، يخبرنا أنها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرّج في استعمالها.

المشركون الناطقون باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... استعملوا كلمة {إِلَه} بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

قارنها مع كلمة {رَبّ}، أنا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... هذه كلمة تتحمّل التدرّج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهي، فهي لا تتحمّل التدرّج، وهي حصرا له تعالى ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهي.

كلمة {إِلَه} في حقيقة معناها لا تتحمّل التدرج لِيُوصَفَ بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، حين يخبرك أنه خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، وسبحانه وظّف الملائكة(ع) التي خلقها لتنفيذ بعض أوامره... وهكذا ترى بوضوح أنه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، فماذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدّد له والمميّز {الله} جلّ جلاله فعل كل شيء، فما معنى ألوهية غيره! وهذا ملخّص مبسّط للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

ألفت انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، حيث حصروا استعمال كلمة {إِلَه} للإله الكبير، واستعملوا للآخرين وصف {الرَّبّ}، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربّة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون: {إِلَه} المطر و{إِلَه} الحرب... وعلى كل حال، القرآن رفض توصيف غيره تعالى بالألوهية والربوبية من مستوى إلهي، لأن المشركين يعتقدون بوجود كائن {رَبّ} مسيطر على

المطر من مستوى إلهي وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم أنه توصيف لألوهية أربابهم.

من ناحية ثانية، لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، حيث يصير الهوى {إِلَهًا} كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}... وهي لا تشير لاعتقاد الشخص بأن هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لدين فيه ما يهواه، وعمليا هو يعبد هواه.

بالنسبة لأصل كلمة {الله}، هناك كلام كثير حولها، ويبدو من تتبّع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حاليا بالسامية... أن الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة {إلَه}، ومنها جرى اشتقاق اسم العلم {الله}، وهذا الاسم لم يكن متداولا في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط، وللآخرين نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، وكلمة {إلَه} واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات ما يسمّى بأصل اللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة {الله} من وصف الإله ومتى، فهل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قديما عبر الوحي، فالأرجح عندي "استذواقا" أنه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك "استذواقا" لأن المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين بلا مستند صريح لتأكيد كلام ما، تصير بطبيعتها استذواقية لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا ذات نفسي في سياق كلام آخر قد أستذوق أنه تعالى هو سمّى نفسه، لذلك ليس من المعقول ولا من المقبول منك أن تطلب حسما من الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دليلا حاسما، ولا من المقبول من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنه الصحّ إلا اللهم إن قدّم دليلا دامغا، وهذا لا يبدو ممكنا في مسألتنا هذه.

نرجع للآية، {يُحْيِي}، يعطي الحياة للكائنات، يجعل من المواد "مهما كان نوع المواد سواء طينية أو نارية..." يجعل كائنا يفعل وينفعل ويتفاعل، و{يُمِيتُ}، يسحب الحياة من الكائنات، فلا تعود تفعل ولا تنفعل ولا تتفاعل، وهاتان القدرتان على رأس قدرات الإله من ناحيتنا نحن المخلوقات، فمن يعطينا الحياة ويأخذها منّا، فهو مسيطر علينا بأهم شيء، وهذه صفة خاصّة جدا لا يتّصف بها إلا الإله عزّ وجلّ.

الكلام دائما عنه تعالى من مستواه الإلهي، من الصفر {يُحْيِي}، من تصميمه تعالى ومن المواد التي صمّمها وخلقها تعالى، وبقدرته الذاتية وبدون الاستعانة بأي أحد في أي شيء... {يُحْيِي}، وإن حصل وقام أحد ما من المخلوقات بإحياء كائن ما، فهذا الإحياء بعيد جدا جدا في مستواه عن إحيائه تعالى للكائنات، لأن النبي عيسى (ع) أحيا الموتى ولكن بإذنه تعالى لأنه (ع) لا يملك القدرة الذاتية على إحياء الموتى، وهو أصلا (ع) لم يصمّم الحياة ونوعها وكيفية سريانها واستمرارها في المواد... ولم يخلق المواد ولا خصائصها... كما ترى فإن الفرق هائل بين وصفه تعالى بالمحيي وبين وصف المخلوقات بأنها تحيي.

ولو أطلت عليك، فاختراع الحياة من أصله شيء بديع، شيء إلهي، لأن معنى الحياة من فعل وتفاعل وانفعال، بأبسط أشكالها من النمو والتكاثر... إلى المعقّد منها بالفكر والخيال... واختراع كيفية بقاء الحياة واستمرارها... بدعة إلهية.

المحيي المميت، {رَبُّكُمْ}، المسؤول عنكم من مستوى إلهي، وبالتالي أنتم تابعون له وتحت مسؤوليته ويتصرّف فيكم بما يراه مناسبا حين يحييكم ويميتكم. أنا ربّ بيتي، سيّده المسؤول عنه، وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... وسبحانه ربّ الكائنات فهو سيّدها المسؤول عنها من مستوى إلهي، {وَرَبُّ آبَائِكُمُ}، أهليكم وأجدادكم، {الْأَوَّلِينَ}، الذين كانوا أولا قبلكم.

لاحظ أنك كمسلم موحّد لا تلتفت عادة لمعنى هذا النوع من الآيات، أمّا المشرك فينتبه، أو فلينتبه، لأنه اخترع آلهة أو أربابا، أو ورث عن آبائه آلهة أو أربابا، ولكن، ما عمق تلك الآلهة في التاريخ؟ هل من البداية هي نفسها الآلهة والأرباب؟ وبأدنى التفاتة ينتبه المشرك أن آلهته وآلهة أجداده لم تكن معبودة من قبل، إذن هي اختراع وهمي من خيالاتهم.

بقي شيء، لا مانع من قيامنا بأي شيء إلا ما صرّح عنه تعالى في قرآنه أنه ممنوع، أو مشتق من كلامه تعالى بشكل مؤكّد أنه ممنوع، أمّا كل ما عدا ذلك مما نقدر عليه، فمباح والضابطة فيه هي الصلاح والخير، والتفكّر في خلقه تعالى

للسماوات والأرض بخصائصها وكائناتها وظواهرها، حفّزنا وحثّنا وحمسّنا تعالى عليه في العديد من صريح آياته ومنها ما ورد في الآية 191 من سورة آل عمران {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ}، وبناء عليه التعرّف على آليات فعله تعالى للأشياء، ومحاولة تقليدها، أو الابتكار... كلّه مسموح في كل المجالات إلا ما حرّمه تعالى لأنه سيّء، وهكذا البحث عن آليات نشأة الحياة، ومحاولة منح أو خلق الحياة، أو محاولة إعادة الحياة للأموات... أمور رائعة لو تمكّنا من فعلها، حيث مكّن سبحانه نبيّه عيسى(ع) من فعل ذلك.

هكذا ترى أن بعض ما ورثناه من عقائد وثقافة مخالف لكلامه تعالى، سبحانه استفزّنا بكلامه عن سماوات وأرضين لنستكشفها، وكائنات لا نراها مخلوقة قبلنا من نار، وهي الجنّ، وكائنات بقدرات عالية وهي الملائكة(ع)، وكلام عن نقل عرش من سبأ إلى أرض كنعان بسرعة رمشة عين كما ورد في الآية 40 من سورة النمل، وكلام إنسان مع النمل والطير كما ورد في الآية 19 من سورة النمل... وكلام عن سبق الجنّ لنا بالنفوذ في السماوات وأننا سنفعل ذلك أيضا كما ورد في الآيتين 33 و 35 من سورة الرحمن... وغيرها العديد من المحفّزات الرائعة لو تمكّنا من فعلها بطريقة ما...

سبحانه صمّم الحياة والموت بقدراته الفائقة حيث خلق المواد المناسبة لهذه الظاهرة، ونحن باستعمال قدراتنا الممنوحة منه تعالى وباستخدام هذه المواد، يمكننا خلق كائنات، وأصلا أجسادنا تقوم بذلك بالتلقيح، وحديثا زرعنا الحيمن في البويضة في أنابيب، ولدينا القدرة على زرع الجينات في حواضن مناسبة لإنتاج حياة، وفي المستقبل قد نتمكّن من هندسة جينات من الصفر من المواد الأولية لنخلق حيوانا بالصفات التي نريدها... وسيكون هذا شيئا رائعا، ولن يهتزّ إيماننا أبدا بتاتا ولا بأي شكل، بل سيزداد، لأن من سيكفر لأنه تمكّن من خلق الحياة من الصفر، نسي من بدع تصميم الحياة من الصفر، ونسي من صمّم وخلق المواد بالصفات المناسبة لنشأة الحياة، ونسي من صمّمه وخلقه بفكر وخيال مكّنه من استخدامها... ونحن سنزداد إيمانا لأنه تعالى منذ آلاف السنين استفزّنا بمنحه بعض عباده القدرة على الخلق بل وبعضهم تمكّن من إعادة الحياة للأموات كما فعل النبي عيسى(ع) كما ورد في الآية 110 من سورة المائدة {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي}.

هذا كلامه تعالى في قرآنه، هذا دينه، وغير ذلك أمور أقحمها الناس في دينه تعالى حتى صرنا نعتقد أنها دينه سبحانه، لا، ومجال البحث في كل الشؤون مفتوح للجميع للمشاركة فيه، في كلامه تعالى الأجوبة عن الأمور التي تتعلّق بالهداية فقط وفقط، وأما آليات حدوث الأشياء، من نشأة الدنيا والحياة... فليست أمورا دينية ومن الخطأ البحث عنها في الكتب الدينية...

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ{9})

بل هم في شك، فبالاستناد لعلم غير متأكدين منه يرفضون الإيمان بالرب الإله الأحد المحيي المميت المنزل للقرآن، يلعبون، يتسلّون ويعتبرون الإيمان شيئاً غير جدّي وكلاماً للتسلية لتمضية الوقت حيث يمكن التعامل معه بالشك بدون التفكير فيه، ويعتبرون الإنذار من العذاب غير مهمّ...

ننتبه جيداً، وصفهم هنا بأنهم يلعبون هو توصيف لتصرفاتهم في حياتهم وشؤونهم أمام الإيمان، بالنسبة لهم الحصول على المال والجاه والسلطة والأملاك... هو المهمّ، والإيمان بهذا الدين الإلهي شيء غير مهمّ، لذلك يصفهم تعالى هنا بأن كل ما يفعلونه هو لعب، فهو مجرد تمضية للوقت بأمور غير جديّة، لأن الأهم هو الإيمان والعمل الصالح، ونتيجته الجنّة والكفر نتيجته العذاب... وفيما سيأتي من كلام ستفهم لماذا وصفهم تعالى هنا بأنهم يلعبون، خلال السورة سيعتبر سبحانه كلامهم عن تركه لنا بدون حساب أنه لعب، ويرفض سبحانه توصيفهم له بشكل غير مباشر بأنه يلعب وأنه بلا جديّة أنه لا حكمة من خلقنا... وسترى ذلك في حينه خلال السورة.

تذكّر دائماً أن العرب قديماً استعملوا كلمة شك ويقصدون منها ما أنكرته أو اعتقدت به ولكن من دون الاستناد لأي علم، وبهذا المعنى حدّد وصوّب القرآن استعمال كلمة "شكّ"، وهكذا ترى مجالاً حركيا لهذه الكلمة، ويتحدّد بدقّة من سياق الجملة، الريب هو أوّل وهلة تصيبك من سماع الشيء، فتنكره أو تصدّق به لمجرد سماعك له وبدون أي تفكير، فهو ردّة الفعل الأولية... والشكّ هو اختيارك للتصديق أو الإنكار مع إعلانك أنك لم تستند لدراسة أو تفكير، والظن هو

تصديقك أو إنكارك لشيء وأنت مستند إلى معلومات أو تفكير به، طبعاً هذا وصف لك بغضّ النظر عن صحّة ما استندت إليه وعن صحّة النتيجة التي وصلت إليها، واليقين هو تطابق اعتقادك مع الحقيقة، من تعاملك مع الشيء مباشرة أو من خبر ممن تثق به... أطلت عليك حتى تنتبه للفرق بين ما اصطلحوا عليه في كتب المنطق عن هذه الكلمات وبين معناها اللغوي الذي استعمله القرآن.

(فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ{10})
هم يلعبون ولكن الإله سبحانه لا يلعب بل لديه تخطيط يسير عليه كلّ شيء: {فَارْتَقِبْ}، لا تغفل عن شيء مهم سيحصل أيها الرسول وأيها المؤمن، {يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ}، ما هو فوق سيكون بحالة غازية، كثيفة أو رقيقة ولكنها مرئية، لها لون... كما نقول: أتيت بطعام الغداء. ونقول أتيت بلباس النوم. هنا الكلام عن السماء في يوم القيامة أنها ستأتي بحالة دخان يبدو للناظر بشكل واضح.

من الآية التالية سترى بوضوح أن الدخان الذي تتكلّم عنه الآية هو دخان عذاب يغطّي السماء في الآخرة فوق أصحاب النار، وهناك إشارات قرآنية عديدة عن ذلك وكمثال ما ورد في الآية 40 من سورة عبس {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ}.

لم أجد في كلمات العرب القديمة أي مساوٍ لكلمة "غاز" التي نستعملها الآن لوصف حالة المادة "غير السائلة أو الصلبة أو المائعة "الجيلاتينية""، ويبدو أنهم استعملوا كلمة دخان لوصف ما يرونه من غازات لها لون، وبالأخص ما يرونه من انبعاثات الاحتراق، والغازات الشفافة غير المرئية "قديماً" لم يعرفوها ولم يحددوا لها كلمة، كغاز الكربون، والهواء الذي نتنفسّه... وعلى التوازي استعملوا كلمة بخار للانبعاثات الشفافة، وحتى فيما بعد تطوّر العلوم عند العرب، بقيت كلمة بخار مستعملة كمرادف لما نقوله نحن الآن "غاز"، وبقي استعمال كلمة دخان محصوراً بالغازات التي لها لون، حتى أنهم يقولون عن رائحة نفس الفم: بخار الفم. أمّا حالياً فالغاز هي كلمة من أصل يوناني "كما يقولون" وهي وصف يشمل البخار والدخان وكل ما ليس مائعاً أو سائلاً أو صلباً، سواء أكان له لون أو شفّافاً، وعلى هذا يكون الاستعمال القرآني لكلمة دخان يشابه كلمة غاز ولكن لخصوص ما كان له لون.

(يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ{11})
الدخان، {يَغْشَى النَّاسَ}، يحيط وينتشر على الناس بشكل جزئي أو كلّي، ويقابله الانجلاء، وهذا الغشو بالدخان هو، {عَذَابٌ أَلِيمٌ}، ضرر لا يمكنهم تحمّله أو الاعتياد عليه. كما ترى الآيات هنا تتحدّث عن أوّل أحداث يوم القيامة بعد قيامنا من الموت وفرزنا إلى جهتين، حيث يوجد أناس سوف تأتي لهم السماء بدخان يخنقهم ويعيق رؤيتهم ويلطخ وجههم وبدنهم بالسخام...

(رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ{12})
يقول هؤلاء الناس: {رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ}، أزح الضرر عنّا حتى تظهر الراحة علينا، {إِنَّا مُؤْمِنُونَ}، نحن نعلن لك بأننا نعتقد بك وبدينك. سبب تعذيبنا أننا لم نؤمن، وها نعلن لك يا ربّ بأننا آمنّا فارفع عنّا هذا العذاب.

(أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ{13})
{أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى}؟ كيف وبأي طريقة سيستحضرون الإيمان في فكرهم ولسانهم وسلوكهم؟ {وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ}، هم في الدنيا أتاهم من ينقل كلامه تعالى عن الإيمان بشكل واضح، ويقول كلاماً واضحا عن العذاب في الآخرة لمن لم يؤمن... وها قد حان وقت الحساب والعذاب فكيف وبأي طريقة سيكشف سبحانه عنهم العذاب؟! الآن في وقت الحساب يقولون أنهم يذكرون ربّهم سبحانه وحين كانوا في الدنيا لم يذكروه؟! ما نفع الذكرى في وقت الحساب؟!

بناء على المفاهيم القرآنية في هذا الكلام عمق، مثل حالة المجرم الذي يعلم بالسوء وأن عليه عقاباً، ورغم ذلك قام به وفعله، وحين تحاسبه عليه يقول لك أنه الآن آمن فأعلن اعتقاده بأن ما فعله كان سيّئاً، لا، من الأوّل كنت تعلم بأنه سيّء ورغم ذلك قمت به وفعلته، ولم يتغيّر الآن أي شيء، وقد حان وقت الحساب، ولا معنى لإعلانك الإيمان والتوبة الآن، ولو سامحناك فما معنى منحك القدرات التي تجعلك تميّز الخير من الشرّ؟ هل كنّا نلعب حين بعثنا لكم الرسل والكتب

التي تنذركم من حساب الآخرة؟ وما معنى التغاضي عن السوء الذي فعلته وأنت تعلم أنه سيّء؟ لقد حصل ضرر منك لنفسك وللآخرين، هل وبكل بساطة ننسى ذلك؟

خذ علماً من الآن أنك ستتحاسب ولن ينفعك في الآخرة أن تعلن إيمانك.

(ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ{14})
{ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ}، حين جاءهم الرسول لم يؤمنوا بل توجّهوا باتجاه آخر، ولم يتّبعوا الذكر الإلهي، {وَقَالُوا}، عن الرسول: {مُعَلَّمٌ}، تعلّم هذا الكلام عن الإله والآخرة... من أحد ما، فهو ليس رسولاً من الربّ ولا ينقل هذا الكلام من الربّ، وهو، {مَجْنُونٌ}، في عقله وتفكيره خلل، فيقول كلاماً هستيريا لا يدخل في الرأس.

الرسل قالوا للناس عن القيام من الموت، وعن الحساب والعقاب والخلود في النار لمن لا يؤمن بالحقّ ولا يلتزم بالصالحات... والناس الذين لم يؤمنوا اعتبروا هذا الكلام منقولاً عن تراث ما، عن شخص ما، وليس منقولاً عن الإله سبحانه، ونقلت لنا الآية 103 من سورة النحل نموذجاً عن قولهم فيما قالوه عن الرسول(ع) أنه يتعلّم هذا الكلام من شخص أعجمي {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ}، لم يعطوا لكلامه (ع) أي قيمة، واعتبروه كلام مجانين، ما هذا التخريف عن رجعة الأموات إلى الحياة، وفوقها محاسبتهم ومعاقبتهم!

ولكن في يوم القيامة من الموت حيث أتت السماء بدخان مبين يغشاهم، أعلنوا إيمانهم، وتراجعوا عن أقوالهم بأن الرسول معلّم مجنون.

نتذكّر أن بداية هذه الفقرة قالت للرسول أن يرتقب، سيكون معهم حاضراً في يوم القيامة حين يأتي العذاب والحساب، وهذه الآيات تخبر الرسول وتخبر كل الناس، بأن الذي يلعب ولا يأخذ موضوع الآخرة بجدية وهو شاك بيوم القيامة فمصيره العذاب حتماً.

بقي شيء، الاتهام بأن الرسول يتعلّم هذا الكلام من أحد ما، يقصدون به أن هذا الكلام غريب عليهم ودخيل على مجتمعهم، مثلما يحدث في عصرنا عندما يقرأ أحدهم كتاباً من تأليف أجنبي وفيه أفكار غير متداولة في مجتمعه... والاتهام بالجنون ليس مقصوداً منه اتهامه (ع) أنه مجنون بالكامل، بل مثلما نسمع كلاماً من شخص عاقل، وكلامه في موضوع ما، لا يبدو عقلانياً ولا منطقياً، فنقول أنه مجنون، ونقصد أن كلامه في هذا الموضوع كلام مجنون.

معلوم أن كلا الاتهامين ظلم، وأنهم يقولونه هكذا فقط لتسكير الموضوع، فرضاً فرضاً تعلّم الرسول من أحد ما هذا الكلام، وكان الكلام عقلانياً منطقياً حقّاً صواباً، فأين المشكلة فيه؟ فليردّوا عليه بالحجة ويثبتوا بطلانه... ولكنهم لم يستطيعوا ذلك فأكملوا الاتهام قائلين عن الرسول بأنه مجنون لأنه يقول كلاماً غير كلامهم...

(إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ{15})
{إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا}، سيرفع سبحانه الضرر عنهم لمدة قليلة، {إِنَّكُمْ عَائِدُونَ}، ما كنتم فيه من عذاب لم تخلصوا منه وسيعود، لأن كشف العذاب لمدة قليلة لا يعني أنكم نجوتم منه بل سيتكرر مرّة ثانية.

من الآية التالية سترى أن الكلام عن أيام الحساب قبل دخولهم النار.

من عموم القرآن نعلم أنه يوجد أيامٌ في الآخرة، بدايتها مع ساعة قيامنا من الموت في يوم القيامة من الموت، ويليها أيّام تتضمّن فرزنا لمجموعات، ومحاسبتنا، وعرضنا على الأشهاد... وسيتخلّل ذلك أوقات ينكشف فيها العذاب عن هؤلاء الناس حتى يتمكنوا من سماع ورؤية الأشهاد والحساب... كما ستفهم من فحوى الآية التالية.

نتذكّر دائماً أن من يدخل النار فلن يمر عليه ولا لحظة بدون عذاب أليم، ولكن هنا الكلام عن يوم القيامة، حيث فيه فترة أو فترات يتوقّف فيها التعذيب حتى يسمعوا ويروا محاسبتهم على أعمالهم، وبعدها:

(يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ{16})

{يَوْمَ}، في الزمن الذي، {نَبْطِشُ}، نتعامل بعنف، {الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى}، أقصى درجات التعامل بعنف، ينتهي يوم القيامة وأيّام الحساب وتصل الأمور إلى آخر يوم، وهو يوم "زمن" دخولهم إلى النار، وهناك سيتم التعامل معهم بتطبيق العقاب الذي يستحقّونه، وسيكون عنيفاً شديداً لا يخفّ أبداً.

{إِنَّا مُنْتَقِمُونَ}، بناءً على نية سابقة لإلحاق الضرر بهم بسبب ما فعلوه، سيأخذ سبحانه حقّه منهم كعبيد كان واجباً عليهم توحيده وطاعته سبحانه وسيعاقبهم على ذلك، والانتقام الإلهي سيكون على مقياس قدرته تعالى على الانتقام منهم بحسب درجة سوئهم، وهو عذاب لا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه.

حسناً، هذا ما سيحصل مع منكري البعث بعد رجوعهم من الموت، والآن ستنتقل السورة لنموذج سابق في التاريخ عن رسول ومعاندين له، وبعدها في الآية 34 سترجع للحديث مع منكري الحياة والحساب بعد الموت.

قبل ذلك نتذكّر دائماً أنه تعالى يفعل، ولكن لا ينفعل، وصفه تعالى بالانتقام أو الغضب أو الحبّ... هو استعمال لكلمات من لغتنا التي وضعنا كلماتها مما نتعامل معه نحن بحواسنا، وسبحانه ليس كمثله شيء، لذلك من المستحيل أن نتعامل معه مباشرة بسبب الفرق الهائل بين طبيعة تكوينه عزّ وجلّ وبين طبيعة تكويننا.

كلمات لغتنا عند انطباقها علينا "كبشر" تتضمّن تأثّرنا وانفعالنا... أمّا بالنسبة له تعالى فهي تنطبق عليه مع تجريدها من خصائصها الإنسانية، أنا وجهي يمتقع احمراراً من الغضب، وتفلت أعصابي من الغضب... أمّا سبحانه فغضبه هو وصف تعامله مع الأمور بأنه لن يمررها أو يسكت عنها. وانتقامي أنا يتضمّن أني سأنفجر إن لم أشف غليلي... أمّا سبحانه فانتقامه هو وصف تبييت نية الضرر كعقاب على حقّ له تعالى علينا ولم نلتزم به. وحبّه تعالى للمؤمنين هو وصف تعامله معهم بما يسعدهم، وكرهه سبحانه للكافرين هو وصف تعامله تعالى معهم بما يتعسهم. وهكذا بقية صفاته تعالى نفهمها بما يناسب أنه تعالى ليس كمثله شيء، وأنه يفعل ولكن لا ينفعل.

(وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ{17})
تبدأ السورة بعرض نموذج عن قوم جاءهم رسول ولم يؤمنوا فعذّبهم تعالى هنا في الدنيا كنموذج ودليل تاريخي ملموس على تعذيبه تعالى للكافرين في الآخرة، والتركيز فيها على شعور فرعون وقومه بالانفصال والاستقلال عن الإله سبحانه لأنهم ملكوا القوة والرفاهية وظنوا أنها دائمة لهم من هنا إلى عالم الآخرة كما نعلم من آثار الفراعنة:

{وَلَقَدْ فَتَنَّا}، عرّضنا لشيء لنرى كيف سيتغيرون، {قَبْلَهُمْ}، قبل قوم النبي محمّد(ع)، {قَوْمَ فِرْعَوْنَ}، الناس الذين كان فرعون ينتمي لجمعتهم، وفرعون لقب لصاحب أعلى سلطة في بعض فترات مصر القديمة، كما يقول العرب ملك، والفرس كسرى والروم قيصر. ودائماً يشير القرآن للفرعون الذي عاصر النبي موسى(ع) حيث إنه وقومه تعرّضوا للفتنة للامتحان، حيث حصلوا على القوة والثراء، وكيفية تصرّفهم مع هذه النعمة هو الفتنة، {وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ}، أتى إليهم من ينقل لهم كلامه تعالى وله كرامة له قيمة وشأن عالٍ، الرسول موسى(ع) كان كريماً ولم يكن مبتذلاً أو سفيهاً أو من الفاسدين... كما نقول بتعابيرنا حيث أرسل تعالى لهم رجلاً محترماً.

(أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ{18})
قال لهم الرسول موسى(ع)، {أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ}، كما نقول" أدّى الأمانة. أي سلّمها لصاحبها، هناك شيء لي منكم وهم بنو إسرائيل العابدون لله تعالى، أدّوهم لي واتركوهم لي وادفعوهم لي لأرحل بهم من مصر، {إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ}، لا أخون فيما أنقله لكم من الله تعالى، وأنقل بأمانة أمره تعالى لكم بأن تتركوا بني إسرائيل ليرحلوا معي.

نفس المعنى ورد في الآية 105 من سورة الأعراف {حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}.

نلاحظ أن القرآن نقل لنا أمره تعالى لنبيه موسى(ع) أن يعرض الإيمان على فرعون ويعرض آية تحوّل العصا لحية... فإن آمنوا أو لم يؤمنوا فهناك شيء آخر وهو ترك بني إسرائيل ليخرجوا من مصر، ومن استعمال القرآن للمصدر "أدو" ومشتقاته ست مرات بمعنى: وجود شيء عندك ليس ملكاً لك وعندما تعطيه لصاحبه فهذا: أداء. ومن هذا نفهم

هنا أن الجملة تقصد: يا فرعون لديك أناس تحت حكمك "بنو إسرائيل" وهم عباد لله تعالى، ويقول لك سبحانه أن تؤدّيهم لي، ليخرجوا معي من مصر.

(وَأَنْ لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ{19})
{وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ}، لا تروا أنفسكم أعلى من اتباع أوامره تعالى، وكونوا يا فرعون وقومه تحت أمره تعالى، واتركوا بني إسرائيل يخرجوا معي تنفيذا لأمره تعالى، {إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ}، معي سلطان ومعي شيء قوي، {مُبِينٍ} بشكل واضح يثبت لكم أني رسول وأنكم يجب أن تكونوا تحت أمر ربّكم سبحانه لتتركوا بني إسرائيل يرحلون من مصر.

نعلم من عموم القرآن أن الرسول موسى(ع) عرض عليهم في البداية آية تحوّل العصا لحية حقيقية، وعرض تحويل يده إلى بياض شديد، وبعدها توالت آيات أخرى كانت من نوع التعذيب لفرعون وقومه كالضفادع والقمّل والدمّ... حتى يتركوا بني إسرائيل يرحلون...

لاحظ وانتبه أن نفس الحادثة مذكورة بعبارات أخرى في سور أخرى، وسبب ذلك تركيز كل سورة على جانب ما من نفس القصة، في سورة طه ترى طرحاً لمسألتين، الأولى تذكير فرعون بربّه حتى يتوقف عن طغيانه كما تقرأ في الآية 44 {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى}، والثانية أن يطلق سراح بني إسرائيل مثلما تقرأ في الآيات هنا وفي الآية 47 من سورة طه {فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى}.

يعني لم يكن سبحانه مهتماً بتعذيب فرعون وقومه هنا في الدنيا سواء آمنوا أم لم يؤمنوا، وكان الاهتمام بإقناعه سلمياً بترك بني إسرائيل يغادرون مصر لأنهم كانوا فيها ممنوعين من تطبيق إيمانهم به تعالى، وبعدها أصاب تعالى فرعون وقومه بأضرار القمل والدم... حتى يتركوا بني إسرائيل يرحلون... وهي نفسها الآيات كانت أكثر من كافية لهم ليؤمنوا، وهكذا ترى ناحيتين لنفس الحادثة، الأولى عرض الإيمان على فرعون وقومه، وسواء آمن فرعون وقومه أم لم يؤمنوا فالنقطة الثانية هي ترك بني إسرائيل يرحلون، ومن هذا ترى للآيات ناحيتين، ناحية أنها آيات ليؤمن فرعون وقومه، وناحية أنها ورقة ضغط عليهم ليتركوا بني إسرائيل. وهذا ما تراه في الآيات هنا وخصوصاً من الآية 21 بعد التالية.

(وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ{20})
{وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ}، التجأت للحماية إلى المسؤول عنّي وعنكم من مستوى إلهي، {أَنْ تَرْجُمُونِ}، أن تقتلوني رجماً بالحجارة، على ما يبدو هدّدوه بالقتل ومن التهديدات تهديدهم له (ع) بالرمي بالحجارة، وها يتعوّذ (ع) بالله تعالى من قتلهم له بهذه الطريقة الفظيعة. وهو (ع) ملتجئ معتمد على أقوى قوّة في الدنيا، لأن التهديد بالقتل لن يتنفّذ إلا إذا سمح تعالى بذلك، ولن يسمح بذلك، ولن تتخلّصوا منّي بقتلي وستسير الأمور حتى تضطروا لترك بني إسرائيل.

تذكّر دائماً أن مجريات الأحداث بين النبي موسى(ع) وفرعون طالت لسنين عديدة، وهنا تنقل لنا الآيات جوانب من حوادث جرت أثناء تلك السنين، حيث في خلالها تعرّض النبي موسى(ع) للتهديد بالقتل رجماً...

(وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ{21})
{وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي}، ولم تعلنوا اعتقادكم بما أقول، {فَاعْتَزِلُونِ}، كونوا أنتم في جهة وأنا في جهة، لا أتدخّل بكم ولا تتدخّلوا بي، واتركوا بني إسرائيل يرحلون معي وابقوا على كفركم ولا شأن لي بذلك.

من عموم القرآن تعلم أنه(ع) عرض على فرعون وقومه أن يؤمنوا، وعرض عليهم أن يتركوه يذهب ببني إسرائيل من مصر، ويعتزل فرعون وقومه ويتركهم وشأنهم، "ويتركوه وشأنه"، ويكون حسابهم على الله تعالى.

يعني لن يبقى الرسول موسى(ع) مع فرعون وقومه ليؤمنوا، فقط عرض عليهم دينه تعالى ونقل لهم أمره تعالى بترك بني إسرائيل، فإن لم يؤمنوا فلا مشكلة للنبي موسى(ع) معهم، لأن مشكلته معهم محصورة بتركهم لبني إسرائيل يغادرون مصر، وهذا ما تقصده الآية بنقلها عنه(ع) قوله: {فَاعْتَزِلُونِ}.

(فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ{22})
دعا ربّه، وأشهر وأعلن الرسول موسى(ع) للمسؤول عنه من مستوى إلهي، أن هؤلاء قومٌ، أناسٌ لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الدين، مجرمون، مرتكبون للأعمال التي يستحقون العقاب عليها.

نلاحظ الآيات هنا تختصر سنينَ طويلة بين الرسول موسى(ع) وبين فرعون وقومه، ولم تفصّل عن آيات العصا والقحط والضفادع... ولا عن حياة الرسول موسى(ع) ولا عمّا جرى بينه وبين فرعون... وركّزت كما ترى على رسول يوصل البلاغ الإلهي إلى قوم يرفضون الإيمان، ويرفضون الاستجابة لطلب واحد وهو ترك بني إسرائيل يخرجون من مصر، وبعد طول سنين وكلّ الآيات، توجّه النبي موسى(ع) نحوه تعالى بهذا الدعاء، بهذا الإعلان: هم مجرمون، هم قاموا بأعمال يستحقون عليها العقاب، يعني عاقبهم يا إلهي.

بقي شيء تلاحظه من القرآن، فالنبي إبراهيم(ع) ورغم محاولة إحراق قومه له، لم ينقل القرآن عنه دعاءً عليهم لتعذيبهم في الدنيا، ولم يتعذّبوا في زمنه... ونقل القرآن دعاءً بالتعذيب الدنيوي قاله الرسل الذين تعذّبت أقوامهم، وترى القرآن يحثّ النبي محمّد(ع) على الصبر مبتعدا عن الدعاء على قومه بالهلاك كما تفهم من الآية 48 من سورة القلم {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ}، لأنه تعالى كان يعلم أن الكفّار في عصر النبي محمّد(ع) سيسلمون فيما بعد... وفي محاورة النبي إبراهيم(ع) مع الملائكة(ع) الموظفين لتعذيب قوم النبي لوط(ع)... ترى من مجمل هذه المعلومات أنه تعالى يربط بين قراره بتعذيب قوم ما مع دعاء رسولهم عليهم بالهلاك، ولم يرد في القرآن هلاك قوم إلا وورد موافقة أو دعاء رسولهم عليهم بالهلاك.

هذه هي الوقائع، وبعد ذلك يأتي التحليل، ومختلف الكتب مشحونة بالتحليلات، والمختصر المفيد من مفاهيم القرآن أنه تعالى يعطي قيمة معنوية لرسوله، وبعلمه للغيب سبحانه سلفاً لديه قرار بتعذيب قوم ما هنا في الدنيا لأنهم وصلوا إلى مرحلة تمام شروط حصول العذاب الدنيوي عليهم، وهي انتشار فعل سوء من العيار الثقيل بينهم، ويترك سبحانه مجريات الأمور تسير إلى حيث ييأس الرسل، وفي الوقت المناسب يؤكّد سبحانه للرسل صحّة يأسهم من إيمان قومهم لأنه تعالى يعلم أنهم لن يؤمنوا، ولن يكون من ذريّتهم مؤمنٌ... عندها وبدون أي تحليلات، تصل الأمور عند الرسول إلى مرحلة المشاركة في عقاب قومه عبر الدعاء عليهم بالهلاك.

(فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ{23})
بعد الدعاء جاء الجواب: {فَأَسْرِ}، قم بحركة انتقال، اذهب، {بِعِبَادِي}، بالذين مفروضٌ منهم طاعتي، ومن عموم القرآن نعلم أن المقصود هم بنو إسرائيل، واخرج بهم من مصر، {لَيْلًا}، في فترة العتمة من اليوم، {إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ}، لأنَّ فرعون سوف يلحق بكم بجنوده.

قال العديدون في كتب التفاسير والقواميس إنَّ الفعل "سرى" يشير حصراً للحركة ليلاً، ولكن هذا لا يبدو من استعمال العرب لكلمة سريان، ولا يبدو من استعمال القرآن لهذه الكلمة ومشتقاتها، ومنه ما ورد في الآية 24 من سورة مريم {... تَحْتَكِ سَرِيًّا}، بل ومن الآية هنا ومن الآية الأولى من سورة الإسراء {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا...}، باستعمال "سرى" مع قيد الليل فيهما يبدو أنها ليست كلمة مخصّصة للانتقال ليلاً. ويبدو أنها تختلف عن بقية الكلمات الواصفة للانتقال "مشى، انتقل، ركض..." بأنها أقرب منهم لمعنى التسلسل والحركة بخفّة بدون جلبة، كحالة وصف سريان الماء.

(وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ{24})
من عموم القرآن نعلم أن بني إسرائيل وصلوا للبحر ولحق بهم فرعون، فانفلق البحر ومرّ بنو إسرائيل...

{وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا}، ليكن تركك للبحر بعد السير فيه، {رَهْوًا}، حيث سيكون البحر ساكناً مطمئناً، مفتوحاً بممرات كمعابر آمنة، {إِنَّهُمْ جُندٌ}، إنهم أشخاص ملتزمون بتنفيذ الأوامر، {مُّغْرَقُونَ}، حيث إنَّ فرعون وجنوده الذين لحقوا بكم سوف يغترّون برهو البحر ويدخلون فيه، ويموتون بغمر الماء لهم.

لاحظ قفز الآيات عن تفاصيل كثيرة ذُكرتْ بعضها سورة الشعراء حيث لحق بهم فرعون... {وَتَرَاءَى الْجَمْعَانِ}... {وَاضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ}... {فَانفَلَقَ} لممرات... ووصفت الملخص للأحداث هنا من الأمر بالمغادرة ليلا إلى النتيجة حيث غرق فرعون وجنوده.

يعني لا تجمد على النص القرآنيّ حين يفترض بك معرفة مسبقة لشيء ما، فهنا من البديهي الواضح أن الآيات لا تقول لنا إنَّه تعالى أخبر نبيه موسى(ع) بما سيحدث، بل تنقل لنا أمره تعالى لنبيه بالمغادرة ليلا، وبعدها كاد أن يدركهم فرعون، ففتح تعالى ممرات في البحر وأخبر نبيّه أن فرعون وجنوده سيغرقون...

(كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{25})
فرعون وجنوده، كم تركوا من {جَنَّاتٍ}، من أماكن موصوفة بروعة ما فيها من بساتين وحدائق... {وَعُيُونٍ}، فتحات في الأرض يخرج منها الماء، وهذا التعبير يشير إلى توافر الماء في أرض مناسبة للزراعة، فهي مكان مرغوب للعيش فيه، وتركوه ولحقوا ببني إسرائيل ليقتلوهم!

تريدك الآيات الانتباه للنفسية الإجرامية عند هذا النموذج من البشر، لأنهم مرتاحون في ديارهم في بحبوحة ورغد، ولن يتغيّر حالهم للأسوأ بمغادرة بني إسرائيل من مصر، ورغم ذلك، لحقوا بهم ليقتلوهم ويسترجعوهم!

(وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ{26})
كم تركوا من، {زُرُوعٍ}، حقول وبساتين زراعية، وكم تركوا من، {مَقَامٍ}، أماكن إقامة مساكن وبيوت حيث يعيشون، {كَرِيمٍ}، له قيمة وشأن، بيوت مرتّبة ومريحة.

لاحظ ما قلناه مرارا في دراستنا هذه عن الاستعمال الدارج لكلمة قيمة، قيمتي، وأن العرب والقرآن لم يستعملوها بصراحة بالمعنى عن المكانة العالية، وتلاحظ بالعكس أن كلمة كريم التي استعملها العرب والقرآن لتدل على المكانة العالية "قيمة عالية" درج استعمالها فيما بعد بين الناس بمعنى العطاء بكثرة وبنوعية جيدة! وهنا ترى الكلمتين وترى كم هما بعيدتان بصراحة عن المعنى الدارج، فانتبه لذلك.

(وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ{27})
كم تركوا من، {نَعْمَةٍ}، "فتحة على النون" من أشياء توصف بأنها جيّدة وبما أن كل ما لدينا منه تعالى، فيصح وصف ما لدى فرعون وقومه بأنه نعمة متاحة منه تعالى، ولكن لا يريد القرآن توصيفها بأنها نِعْمَة "بالكسرة على النون" كشيء منه تعالى لهم ككرامة لهم، ولذلك وصفها بـ {نَعْمَةٍ} بفتحة على النون، فهي مجرد أشياء توصف بأنها نعمة بغض النظر عمّن يملكها، فهي للرفاهية وسعادة الحياة، {كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ}، من الفكاهة أي في حالة راحة وفرح وسرور وغير مضطرين للتعامل مع الأمور بجدية، فلا يوجد هموم مالية أو اجتماعية أو زراعية أو أمنية... للتعامل معها.

نلاحظ من القرآن أن النعمة الإلهية "الممنوحة" لأحد ما هي غير النعمة الإلهية "المتاحة" لأحد ما للحصول عليها، حيث تجد في القرآن إنعامه تعالى على أناس يستحقون النعمة لأنهم مؤمنون... ولا تجد أنه تعالى أنعم على غير المؤمنين، وتجد في القرآن أنَّ نِعَمَهُ تعالى متاحة لجميع أصناف الناس ويحصل عليها حتى الكفّار، ولكن لا يريد القرآن توصيف ما يحصل عليه الكفّار بأنه نعمة منه تعالى، لأنَّ كل ما يحصل عليه الكافرون سيسبب لهم مزيدا من الحساب والعقاب، وهكذا لن يكون نعمة حقيقية لهم، فاكتفى بوصفه {نَعْمَةٍ} "بالفتحة على النون" في كل مرة وصف بها الحال الجيدة المتاحة منه تعالى للجميع ويحصل عليها الكافرون.

هذا ما كانوا فيه، وتركوه ولحقوا الرسول موسى(ع) وقومه ليقتلوهم! رغم رؤيتهم لآيات عظيمة جدا! وهكذا تريك الآيات بياسة رأسهم، إذ لم تذكر الآيات القرآنية أي شيء عن أي قرار إلهي بتعذيب فرعون وقومه في الدنيا، فقط أراهم سبحانه الآيات وجعلهم يشعرون ويلمسون قدرته تعالى وسيطرته ليتركوا بني إسرائيل يخرجون من مصر، فلو تركوا بني إسرائيل يرحلون عن مصر لبقوا في نعيمهم، ولكنهم لم يبلعوا خروج بني إسرائيل واعتبروه كتحدّ لهم، ولم

يقبلوا بالأمر الإلهي وتحدّوه تعالى وأرادوا منع تنفيذ أوامره سبحانه، لذلك تركوا النعيم وحياة الرفاهية ومشوا إلى موتهم بأرجلهم!

(كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ{28})
{كَذَلِكَ}، بالذي ذكرته الآيات عن تركهم لحياة الرفاهية وغرقهم، {وَأَوْرَثْنَاهَا}، فما كان لفرعون وقومه الذين غرقوا من جنّات... ورثه أحد آخر، وانتقلت ملكية تلك الديار وبدون استرداد لـ {قَوْمًا آخَرِينَ}، أناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة، والورثة هم من سكان مصر الذين لم يشاركوا في هجوم فرعون على بني إسرائيل، وكما يبدو فمنهم تشكّلت حكومة جديدة. على كلّ حال الآية تشير إلى ما حقّقه فرعون وجنوده من رفاهية لن يفقدوها لولا يباسة رؤوسهم بإصرارهم على اللحاق ببني إسرائيل... فغرقوا وانتقلت تلك الرفاهية لغيرهم.

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ{29})
{فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ}، حيث لم تعبّر السماء عن حزنها الشديد تأثرا على فرعون وقومه، والأرض أيضا لم تبك عليهم، {وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ}، لأنَّه أغرقهم سبحانه ولم يحصلوا على فترة إنظار، إذ أوصلوا الأمور إلى حالة لا تسمح بتركهم، في السابق تعذّبوا بالدم والضفادع والقحط... وكلّه كان إنظارا، كانت أمورا تعطيهم مهلة، ولكن حين خرجوا خلف بني إسرائيل، لم يعد يتحمّل الوضع تركهم أحياء لأنهم وكما ترى من فحوى الآيات أرادوا قتل بني إسرائيل، لذلك قتلهم تعالى غرقا.

نلاحظ هنا أنه تعالى أشار إلى السماء والأرض ككائنين، كانا فوق وتحت فرعون وقومه، ولهم معرفة بهم، ولم يتأثرا بغرقهم، والبكاء عادة يتبعه تساقط الدموع ولكنه ليس وصفا لتساقط الدموع بل وصف لردة فعل على مصاب عزيز، وفي العديد من الآيات رأينا القرآن يعبّر عن السماء والأرض والجبال... بأنها كائنات لها وعي، ويتعامل معها الإله سبحانه، ويستعمل تعابير مثل، قال تعالى لها... وقالت له... كما ورد في الآية 11 من سورة فصلت {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}، نحن لا قدرة لنا للتواصل معها، إذ إنها من ناحيتنا جماد، أمّا الإله سبحانه فيخبرنا أنه يتواصل معها، وهنا يخبرنا تعالى أنهما لم يبكيا على فرعون وقومه وهذا تعبير عن قلّة قيمة فرعون وجنوده، وتعبير عن استجابة السماء والأرض للمشاركة في إغراق فرعون وجنوده بكل ممنونية.

ما قيل في كتب التفاسير عن التعبير التخيلي في الآية لبكاء السماء والأرض فهو مبني على إنكار وجود وعي لتلك الكائنات، وحتى من يعتقد بوعي لتلك الكائنات أنكر هنا بكاءهم، واعتبره مجازا... ويبدو أنهم ألصقوا حالة نزول الدمع بالبكاء، حيث لم يعد أمامهم مجال لتفسير بكاء السماء والأرض بتساقط الدموع، لأنَّ المطر ليس دموعا من السماء بل ظاهرة تنتج عن تكاثف البخار، والأرض لا يوجد لها ظاهرة مشابهة لتساقط الدموع. أمّا بالالتصاق بما يقوله القرآن عن وجود وعي بشكل ما لكل الكائنات مهما كان تكوينها، فنفهم منه أن البكاء هنا هو حالة تعبير عن حزن شديد لمصاب شخص عزيز، وهذا التعبير لن يصدر عن السماء ولا عن الأرض على غرق فرعون وجنوده المجرمين.

أكرر لك، أنَّ كل الكائنات لها وعي وسبحانه يتعامل معها، أمّا بالنسبة لنا فهي جمادات لا وعي لها، اختصّ سبحانه عبده النبي داوود(ع) بشيء خاص يمكّنه بطريقة ما من فهم تسبيح الجبال كما ورد في الآية العاشرة من سورة سبأ {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ}.

ننتبه للغرابة من وصف العديدين من المسلمين للقرآن بأنه يستعمل عبارات تخيلية غير حقيقية! والأشد غرابة صدور هذا الكلام من مفسرين محترمين! ولكن بما أن الأكثرية الساحقة صنّفت فنون اللغة العربية في علم البلاغة بالمجاز والاستعارة والكناية... وسمحوا لأنفسهم بتوصيف العديد من التعابير القرآنية بالمجازية، فلن يرفضوا وصف الآية هنا وأمثالها بالتخيّلية! وقال بعضهم هو تعبير عمّن سكن السماء والأرض، لأنَّ من فيهما من ملائكة وكائنات... لم يبك... علما أن الحزن لدرجة البكاء عند الإنسان يتبعه نزول الدمع، فكيف يكون الحزن عند الملائكة(ع)؟ فكيف تبكي؟ وكيف تضحك؟ إذ لا دموع لها ولا فم! إذن البكاء هو تعبير عن الحزن بدرجة عالية وعند الإنسان يتبعه نزول الدمع، وعند غير الإنسان، كالملاك والجنّ والسماء والأرض...يكون البكاء بما يناسبهم، مثلما السجود بالنسبة لنا هو فعل تعبيري

عن فائق الاحترام وصولا إلى الخضوع عبر تقريب أو ملامسة الوجه بالأرض، أمّا بالنسبة للملائكة(ع) ذات الطبيعة المختلفة فغير معلوم لنا كيف تسجد.

بالملخّص، نحن ليس لدينا حاليا القدرة على التعامل مع كل الكائنات، حيث إنَّ الأرض والسماء والجبال... بالنسبة لنا جمادات، أمّا سبحانه فيتعامل معها بطريقة تناسب وعيها، ووصف التعامل معها بكلمات من لغتنا فهو وصف حقيقي ولكن بما يناسب تكوين تلك الكائنات، إذ إنَّ الملائكة (ع) سجدت لآدم(ع) ليس بوضع جبينها على الأرض، بل هو وصف لتعبير قاموا به ويعبّر عن أقصى احترامهم وخضوعهم، ولن نفهم الآن كيف عبّروا لأننا لا يمكننا رؤيتهم على حقيقتهم ولا تصوّرهم، وكذلك الكلام هنا عن بكاء السماء والأرض، فهو تعبير عن حزنهما بما يناسب تكوينهما ووعيهما، ونحن لا قدرة لنا على فهمه.

يبدو أن السورة ذكرته لتريك أنه لا قيمة لفرعون وجنوده حتى عند الأرض التي كانوا عليها والسماء التي كانوا تحتها.

(وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ{30})
{وَلَقَدْ نَجَّيْنَا}، خلّصنا من الخطر قبل وقوعه، بني إسرائيل، وهم أحفاد النبي يعقوب(ع) الذي كان له اسمان "يعقوب وإسرائيل"، خلّصهم سبحانه، {مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ}، من الضرر المسبّب للشعور بالإهانة، إذ كانوا محتقرين بلا قيمة كمواطنين من الدرجة المنخفضة عند فرعون، يذبح أبناءهم وبعضهم يعملون له بالسخرة ويقيّد حريتهم ودينهم...

(مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ{31})
نجيّناهم، {مِن فِرْعَوْنَ}، {إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا}، يرى نفسه أعلى من أي شيء، أعلى وفوق كلّ الناس، أعلى من الأوامر الإلهية، وأعلى من الرسول الإلهي وكان، {مِّنَ الْمُسْرِفِينَ}، من المبالغين في استعمال سلطتهم وقوتهم ومالهم وشهواتهم...

(وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ{32})
{وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ}، حيث من بين كل الناس على الأرض حدّد سبحانه بني إسرائيل ليكونوا تحت عنايته بشكل مميز، اخترناهم، {عَلَى عِلْمٍ}، إذ لديه تعالى علم بشيء أو بأشياء وعلى أساسها اختارهم سبحانه للعناية بهم، {عَلَى الْعَالَمِينَ}، على كل الناس.

هناك سبب حتى اختار سبحانه بني إسرائيل من بين كل الناس ليعتني بهم ويخرجهم من حكم فرعون الظالم، إذ توجد أقوام أخرى في التاريخ كانوا يعيشون ظروف استعباد، ولكنه تعالى لم يعتنِ بهم مثلما فعل مع بني إسرائيل، وتخبرنا الآية أن هذا التعامل الخاص لم يكن عشوائياً ولا عبثياً بل كان اختياراً عن علم، لأنَّ هناك شيء يعلمه تعالى عنهم وسبّب لهم العناية الخاصة بهم.

من عموم القرآن ومن فحواه نفهم أنه تعالى يهتم بالمؤمنين، ويعطي عناية "بشكل ما" حتى للكفّار الذين سيولد منهم مؤمنون، وكما تعلم خرج من بني إسرائيل عدد كبير من الأنبياء والرسل والمؤمنين والصالحين، بشكل يفوق قديماً بقية الأمم، وهذا ما نتوقّعه ونفهمه كسبب لاختيارهم والعناية الخاصّة بهم.

ننتبه، لأنَّ هذا الكلام توصيف لاختيارهم في حينها، وهو ليس توصيفاً عاماً يشمل جميع بني إسرائيل وفي جميع الأزمنة، لا، إذ كانوا "شعب الله المختار" في حينها فقط، وتعلم من القرآن أنهم أهينوا ومسخوا ولعنوا... عندما خالفوا أوامره تعالى، وراجع في ذلك الآية 65 من سورة البقرة {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}، والآية 60 من سورة المائدة {... وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ...}، في فترة من تاريخهم "وعلى علم بخروج مؤمنين منهم" جرى اختياره تعالى لهم للعناية بهم، لذلك أيُّ تبجّح للإسرائيليين بكونهم "شعب الله المختار" فهو من الذكرى ومن الأطلال، كشيء مضى من التاريخ، وبعده التحويل لقردة واللعن لأنهم كفروا وفسقوا ونافقوا، حيث إنَّ خيرَ أمّة أخرجت للناس هم عموم المنتمين لدينه تعالى عبر التاريخ وبالخصوص الأمّة التي استمرّت بإيمانها بهذا القرآن كما ورد في الآية 110 من سورة آل عمران {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}، وطالما هذه أوصاف

المسلمين فهم خير أمّة مستمرة وأفضل من بقية أهل الكتاب كما هو واضح وصريح من الآية، وإذا توقّف المسلمون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سيكونون مثلهم مثل بقية الأمم.

(وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاء مُّبِينٌ{33})
{وَآتَيْنَاهُم}، وصل منه تعالى لبني إسرائيل، {مِّنَ الْآيَاتِ}، من الأمور المميّزة، {مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ}، حيث مرّ عليهم الكثير من الآيات في تاريخهم والتي كانت "امتحاناً" لهم فكان فيها احتمال أن تغيّرهم.

بنو إسرائيل مثلهم مثل أي قوم، والآية السابقة وهذه الآية تخبراننا أنَّه اختارهم تعالى ولكن هم أيضاً مرّوا في فترات انحطاط إيماني وأتتهم الآيات، ووقعوا في بلاء واضح، حيث تعرّضوا لما قد يغيّرهم نحو الأسوأ أو الأحسن، ونجح فيه البعض منهم وسقط آخرون.

حتى لا نفهم أنه تعالى اعتنى بهم بحيث أخرجهم عن القاعدة العامّة التي يتعامل بها سبحانه مع كل الناس، تأتي آيتنا هنا لتقول إنهم تعرّضوا لامتحانات يثبت فيها المؤمن الحقيقي ويظهر الفاسق والمنافق والكافر على حقيقته. وكمثال عن ذلك ابتلاؤهم بالصيد يوم السبت كما في الآية 163 من سورة الأعراف {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}، حيث ابتلاهم سبحانه بالأسماك الكبيرة التي تأتي إلى أماكن صيدهم في اليوم المأمورين فيه بالعطلة عن العمل...

(إِنَّ هَؤُلَاء لَيَقُولُونَ{34})
بعد الذي ذكره تعالى عمّا فعله بفرعون وقومه، وهي حادثة مشهورة جداً، ويظهر منها بكل وضوح أنه تعالى يعاقب من كفر برسله هنا في الدنيا كنموذج ودليل تاريخي مشهور ملموس على صحّة كلامه تعالى عن عقاب الكافرين في الآخرة: {إِنَّ هَؤُلَاء}، الذين في عهد نزول القرآن كنموذج، {لَيَقُولُونَ}:

(إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ{35})
{إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى}، فنحن نفقد حياتنا مرّة واحدة، أوّل مرّة بعد هذه الحياة نموت وينتهي كلّ شيء، {وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ}، ولن يتم نشرنا ولن نتوزّع من بعد موتنا لنعود معروضين بجسدنا، سنبقى حيث متنا ولن يكون لنا كيان من جديد، ولن نرجع إلى الحياة بجسد.

كما ترى من هنا دخلت السورة على سبب تصرفهم على هواهم لأنهم لا يعتقدون أنهم سيتحاسبون ويُجازَوْن، وبالتالي يؤمنون بأننا نحيا هذه الحياة الدنيا وبعد موتنا ينتهي كل شيء، ولن نعود إلى الحياة، وبالتالي لا حساب، وبالتالي يمكنهم فعل ما يريدونه في حياتهم الدنيا... لذلك تأتي الآيات هنا لتلفت انتباههم إلى أنَّ هذا الكلام لا يتماشى مع الحكمة...

(فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{36})
لو كان هناك رجوع للحياة مرّة ثانية "لنتحاسب ونُجازى": {فَأْتُوا بِآبَائِنَا}، أحضروا آباءنا وأجدادنا إلى الحياة، {إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، بأنه يوجد رجوع من الموت.

لاحظ الآية نقلت كلامهم كما هو في مقابل الكلام الإلهي الذي يقول إننا سنرجع كلنا بعد الموت إلى الحياة في أول ساعة من أول يوم من الآخرة بالنسبة لنا، حيث يريدون دليلاً ملموساً الآن، ويريدون أن يرجع أجدادهم إلى الحياة الآن ليروهم، وعندها سيتأكدون من إمكانية رجوع الأموات إلى الحياة.

سترى الجواب عن هذا الكلام بعد الآية التالية، ولكن قبل ذلك، أليس رجعتنا إلى الحياة لمحاسبتنا ومجازاتنا؟ فما معنى إرجاع آبائهم إلى الحياة؟ هل لمحاسبتهم هنا؟ لا، هم يقصدون أنهم يريدون دليلاً على رجوع الأموات، وإذا أتاهم الدليل سيقولون: هذا سحر. مثلما قيل للرسل من قبل عندما جاؤوا بالآيات. أو سيقولون: حسناً لقد رجعوا إلى هنا ولكننا لن نؤمن بأننا سنرجع لنتحاسب في عالم الآخرة. وهذا هو لبّ مشكلتهم ولذلك سترى الجواب بعد الآية التالية يتحدّث عن الحقّ ومقابله اللعب...

قبل أن نكمل فإن أردت دليلاً ملموساً عن قدرته تعالى على إرجاعنا إلى الحياة، ففي الآيات 258 إلى 260 من سورة البقرة مع ما تكرّر في القرآن عن إحياء النبي عيسى(ع) للأموات كما ورد في الآية 49 من سورة آل عمران، في هذه الآيات نماذج وأمثلة مختلفة فراجعها.

(أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ{37})
{أَهُمْ}، هل هؤلاء القائلون فليرجع آباؤنا إلى الحياة، هل هم، {خَيْرٌ}، هل هم موصوفون بأن حالتهم جيدة، {أَمْ قَوْمُ}، أم الناس الذين كان من جماعتهم، {تُبَّعٍ}؟ وهذا لقب لأعلى حاكم في فترة من تاريخ اليمن، مثل لقب فرعون لحاكم مصر وكسرى لملك الفرس... واحدٌ من ملوك اليمن كان قومه كافرين بالآخرة، ومنكرين للبعث من الموت، {وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}، من أمثال قوم مدين وثمود وعاد... كانوا مثلهم منكرين للحياة بعد الموت، {أَهْلَكْنَاهُمْ}، استنفدنا حياتهم، أمتناهم، والكلام هنا يدل على إماتتهم بتدخّل إلهي عبر كارثة أصابتهم بسبب إنكارهم للآخرة وبالتالي فعلهم للسوء من العيار الثقيل، {إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ}، ارتكبوا أعمالاً يستحقون عليها العقاب.

الذين في زمنك أيها الرسول الناقل لهذا القرآن، وينكرون الحياة بعد الموت، فهم ليسوا أفضل من الذين أهلكناهم من قبلهم لأنهم أنكروا البعث وارتكبوا الجرائم، واحتمال إهلاكه سبحانه لقومك أيها الرسول(ع) وارد أيضا لأنه تعالى لا يميّزهم عن المجرمين السابقين، وهذا تهديد للكفّار الذين في عهد النبي محمّد(ع) بالتعذيب الدنيوي، ولكنه لم يحصل كما تعلم، وشرح القرآن أسباب ذلك، حيث تحوّل قسم كبير من الكفار إلى الإسلام، وولد لهم فيما بعد أولاد مؤمنون...

ننتبه جيدا، هلاك أقوام مختلفين في الزمن والموقع عبر التاريخ المعروف لنا، من زمن النبي نوح(ع) مرورا بعاد وثمود... وقوم النبي لوط(ع) وقوم فرعون... ومعلوم أيضا أنهم لم يكونوا مؤمنين، ومعلوم أنهم كانوا يرتكبون جرما ما بشكل جماعي، غِشّاً أو تَجَبُّراً أو شُذُوذاً... ومعلوم أن كارثة ما أصابتهم وحدهم ولم تصب القرى التي حولهم... فما معنى ذلك؟ معناه أنه تعالى حاسبهم فعذّبهم هنا قبل الآخرة، ليجعلهم سبحانه نموذجا لمن يأتي بعدهم من الناس ليروا أنه فعلا يوجد تدخّل إلهي لمعاقبة من يخالف أوامره سبحانه، وليكون لهم دليلاً ملموساً على صحّة كلامه تعالى عن الآخرة والحساب فيها، وراجع كمثال الآية 26 من سورة النازعات {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى} وكانت تشير لهلاك فرعون...

أمّا بالنسبة لقوم تبّع فنجد في الروايات كلاماً مختلطاً مشوّشاً يظهر عليه التأليف من الخيال وخطرات البال، أحيانا من القائل أو من الراوي، ولا نجد في القرآن إلا الإشارة بالاسم فقط لأناس منسوبين لحاكم يمني، وهذا يكفي، ومن المعلوم تاريخيا بين الناس وجود سلسلة ملوك يمنيين حملوا لقب "تبّع" وكان لهم حضارة وعمارة وحملات عسكرية...
والإشارة هنا في الآية إلى انقطاع هذه السلسلة "التبّعيّة"، وفي حين نزول هذه الآيات كانت سلسلة الحكام التبّعيين انتهت، وهذا ما تشير له الآية، وتخبرنا بأن إجرامهم كان سبب إهلاكهم، ولم تفصّل في كيفية حصول الهلاك ولا زمنه ولا نوع إجرامهم، وهذا غير مهمّ ويمكنك أن تستنبط بكل سهولة أنهم كانوا من نوع قوم فرعون ومشركي مكّة وقوم عاد وثمود... لأنهم كانوا منكرين للدين الإلهي وللحساب في الآخرة، وأهمّ شيء أن جرائمهم أين ستذهب؟ أهكذا الذي خلقهم سيتركهم ليموتوا بلا حساب؟ وهذا يكفيك لتتعرّف على قوم تبّع ولا تحتاج لأن تعرف أكثر منه.

ركّز القرآن على بعض الأقوام وكرّر قصصهم في سوره، وكان الأكثر تكراراً الفرعون المعاصر للنبي موسى(ع)، يليه ثمود وعاد وقوم النبي لوط(ع) ومدين، وهذه نماذج بارزة جدا من عدّة نواحٍ ولذلك اختارها تعالى ليذكرها في القرآن وترك ذكر غيرها مع الإشارة إلى حصول تعذيب لأقوام آخرين غير الذين ذكرهم القرآن، لأن النماذج التي ذكرها القرآن جمعت كلّ ما يريده تعالى أن نلتفت إليه، حيث كان فيها تنوع الجرم وتنوّع مجريات الأحداث مع الرسول... وتنوّع العذاب... ولم يعد هناك من داع لسرد قصص أخرى، لأن القرآن ليس كتاب تاريخ حتى يذكر كل ما حصل في تاريخ البشرية، فإن كنت تسأل عن أقوام آخرين غير الذين ذكر القرآن قصصهم، وغير مشهورين، فهناك قوم تبّع... والقوم الذين من بعد النبي نوح(ع)... وعموم أي قوم أتاهم رسول وكفروا به كما جاء في الآية 112 و 113 من سورة النحل {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (113)} وبالخصوص ننتبه للتعبير الذي ورد في الآية 9 من سورة إبراهيم {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ

وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ...}، والتي بصراحة تشير للعديد من الأقوام التي لا يعلم بها إلا الله تعالى لأنها خرجت من التاريخ بلا أثر فاندثر تاريخها.

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ{38})
الآن يأتي الجواب الصريح عن طلبهم إرجاع الآباء إن كان الرسول صادقاً، وضمناً هو الجواب الذي تمحور كلام السورة حوله:

{وَمَا خَلَقْنَا}، لم نركّب ونؤلّف، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وهذه حدود كل ما هو في دنيا المخلوقات، {وَمَا بَيْنَهُمَا}، ولم يخلق تعالى ما بين السماوات السبع من فضاء وكائنات وظواهر، {لَاعِبِينَ}، لم نفعل هذا الخلق لكل ما في الدنيا لِنَلْعَبَ لِنَتَسَلَّى كعمل لا جديّة منه ولا غاية ولتمضية الوقت فقط...

إذن لو كان فعلاً كلامكم صحيحاً، ولن يرجع البشر للحياة بعد الموت، فأصلاً ما الحكمة من خلقتكم؟ أم خلقكم سبحانه مع قدرة تمييز الخير من الشرّ وبحرية إرادة ليلعب؟ وسيترك المجرمين بلا عقاب؟ والمؤمنين بلا ثواب؟

حين تسألون عن دليل لإرجاعكم إلى الحياة لتتحاسبوا فاسألوا أنفسكم أولاً: لماذا خلق سبحانه هذه السماوات والأرض وفيها كائنات تميّز بين الخير والشرّ ولديها حرية إرادة لتختار ما تفعل منهما؟ وهل خلقنا فيها لنتصرّف على هوانا ولا يحاسبنا ولا يجازينا على ما فعلناه؟ فهل كان تعالى يلعب حين خلقنا مثلما نحن نمضي الوقت في لعبة نلعبها ولا فائدة منها إلا التسلية؟

كما ترى فجملة قصيرة جداً تحوي الكثير من الإجابات، فالحكيم لن يخلق ما في دنيا المخلوقات ويجعل فيها كائنات واعية مع إرادة حرّة وعلاقات مؤثرة بين الكائنات على بعضهم البعض... من دون حكمة، ويبدو واضحاً أنه تعالى كانت حكمته من خلقنا أن نمر في امتحان الدنيا لنتحاسب ونتجازى في الآخرة على ما اخترناه في حياتنا...

(مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ{39})
{مَا خَلَقْنَاهُمَا}، لم نركّب ونؤلّف السماوات والأرض، {إِلَّا بِالْحَقِّ}، فقط بالصواب وليس بالباطل وعن عبث أو للّعب، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}، أكثر الناس يعتقدون بأنه تعالى خلقنا وتركنا فنحيا ونفعل ما نريد ونموت ولن يحاسبنا، وهذا من وجهة نظر الإله سبحانه وتعالى ومن وجهة نظر العاقلين العالمين ذوي الألباب... يسمّى: لعباً.

نفس المعنى تراه منتشراً في عموم سور القرآن بعبارات مختلفة، ربما أهمّها ما نقله القرآن عن لسان المؤمنين المتفكّرين في الآية 191 من سورة آل عمران {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}، فهم بالتفكّر فيما خلقه تعالى توصّلوا لنتيجة أن هذا الخلق ليس باطلاً بل حقّاً، فليس لعباً ولا لهواً بل عن حكمة، وبالتالي فهناك حساب ومجازاة لنا...

ضع في بالك أن سوراً أخرى استعملت التعبير بوصف خلق السماوات والأرض بالحقّ، وكان سياق كلامها يشير إلى شيء مختلف عن سياق الآيات هنا، حيث كانت في بعضها تشير إلى من قد يعترض ويقول: لو كان لي الخيار لرفضت أن يخلقني تعالى لأمرّ في امتحان بعده عذاب الخلد في جهنّم إن لم أنجح... ويأتي الجواب على نفس صياغة الجملة هنا، أن خلقك كان بالحقّ، كان بالصواب، وكان تصرّفاً حكيماً منه تعالى، واعتراضك غير صحيح، لأن حياتك القصيرة جداً فرصة سهلة لك لتتحمّل فيها الامتحانات التي تتماشى مع القلب السليم لتصل إلى جنّة رائعة خالدة.

ذكرت لك هذا المعنى لأن آيتنا هنا التي جاءت جواباً لسؤال طرحه المشركون، لم تشر لهذا المعنى بصراحة ولكنها أيضاً تتضمّنه، فالكلام هنا عن أنه تعالى بالحق خلقها ولم يكن يلعب.

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ{40})
{إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ}، إن زمن إبعادٍ بين شيئين مخلوطين، ليصير واضحاً الفرق بين شيئين، ومن عموم القرآن نعلم أنه الفصل بين الحقّ والباطل، إبعاد الحقّ الذي مزجوه بالباطل وصار مبهماً مجملاً لهم، وبالتالي فصل المجرمين عن

المؤمنين، يوم إظهار "حقيقة" عودتكم إلى الحياة ومحاسبتكم بشكل واضح وفصلها عن "إنكاركم" وشكوكم، وفصل المؤمنين عن غيرهم، {مِيقَاتُهُمْ}، وهذا الزمن للفصل هو موعد زمني محدّد لهم، {أَجْمَعِينَ}، كلّهم بلا استثناء.

وهذا هو الحقّ وعكسه اللعب، فترك المجرمين بلا عقاب هو لعب، ومحاسبتهم حقّ.

بالنسبة لكلمة ميقات فهي مشتقّة من الوقت الذي يشير لعموم أي نقطة من الزمن، وميقات تشير لخصوص نقطة محدّدة منه، وهنا من سياق الكلام تعلم أن التحديد ليوم القيامة، فهي الميقات، وهي الوقت الذي سيتم فيه جمعهم وسيكون يوم الفصل بين الحقّ والباطل.

(يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ{41})
يوم جمعهم في الآخرة هو، {يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئاً}، أي ولي، أي كائن كنت تواليه وكنت تابعاً له، وتسمع كلامه وتنفّذه ولو لمرة واحدة في موضوع واحد... ففي ذلك الزمن لن يغني عنك ولن يجعلك مستغنياً مكتفياً، لأنك تتحاسب في يوم الفصل، ولن يستطيع أحد أن يجعلك بالغنى عن محاسبتك، وأنت تحتاج للخلاص من الحساب ومن العقاب، وتحتاج لمن يكفيك من هذه الأمور لتنجو، وتحتاج لما يغنيك عن هذه الأمور، لنقل: أحد ما دافع عنك وبرّأك وحماك من العقاب وأدخلك الجنّة، فهذا أغناك عن الحساب والعقاب، كان وليّك وكنت تابعاً له فتدخّل... لا، ففي ذلك الزمن لن يكون للمجرمين ولي يغنيهم.

{وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ}، لن ينصرهم أحد، ولن يجدوا من يحقّق لهم ما يريدون، فهم يريدون النجاة من العقاب ولن يجدوا من غيره تعالى وليّاً قادراً على تحقيق ذلك لهم.

تعبير "لا يغني عنهم"، مثلما نقول: معي الكثير من الطعام، وأنا جائع، فأنا غني، فما أحتاجه معي. ولننقل أني لا طعام معي، وأنا جائع، فأنا بحاجة لما يغنيني ليؤمّن لي الطعام، وبحاجة للمال لشراء الطعام، فبالمال أصير غنياً إذا توافر الطعام لشرائه... وبعبارة أدق، أنا أجوع، فأنا أحتاج لما يغنيني حتى لا أجوع، فإمّا أن يكون معي الطعام أو المال لأشتري به الطعام. واستعمال كلمة غنى ومشتقاتها ليس محصوراً بالمال والطعام والأملاك، فأنا بالغنى عن كلامك، وأنت بالغنى عن صحبتي...

المجرمون في الآخرة سيتعرضون للتعذيب، وهم بحاجة لما يغنيهم عن التعذيب حتى يتخلصوا منه، ولن يجدوا وليّاً ليغنيهم، فمن آمن وقام هنا في الدنيا بأعمال حسنة فهي ستغنيه عن العذاب، فالله تعالى وليّه وهذا ما ستقوله الآية التالية، أما الآخرون فلن يجدوا من يغنيهم عن العذاب.

(إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ{42})
{إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ}، فهناك أناس نالوا العناية الإلهية، ومن عموم القرآن تعلم أنهم المؤمنون فقط، فهم فقط سينالون معاملة بالرحمة الإلهية، لأنهم كانوا موالين له تعالى وللمؤمنين الآخرين، فهؤلاء تغنيهم ولايتهم هذه عن العذاب.

{إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... فالآخرون لا عزّة لهم لأنهم أذلّة تحت عزّته تعالى ولذلك لا تنفع ولايتهم ولا يمكن لأي أحد معارضة ما يريده تعالى.

وهو {الرَّحِيمُ}، لديه تعالى عناية خاصة للمؤمنين لما فيه مصلحتهم، ولذلك تنفعهم ولايتهم له تعالى فيغنيهم عن العقاب... ونرى في القرآن تأكيداً على حرمان الكفّار والمشركين والفاسقين والمنافقين في يوم القيامة من أي نوع من الرحمة، وينتج عن ذلك حبط أعمالهم، فلا قيمة لأي عمل حسن قاموا به، وبالتالي فلا تتضاعف أعمالهم الحسنة لأنها أصلاً لا قيمة لها، ويتم حرمانهم من نيل الشفاعة، فهنا في الدنيا يعامل تعالى كل مخلوقاته بالرحمة العامة، ويعبّر عنها القرآن بالرحمن، وهنا في الدنيا وفي الآخرة فللمؤمنين معاملة خاصة يعبّر عنها القرآن بالرحيم، فينتج عنها حصرية المغفرة والشفاعة ومضاعفة الحسنات... فقط وفقط للمؤمنين، لأن الآخرين هم بإرادتهم خرجوا من تحت مظلة الرحمة الإلهية.

(إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ{43})
بعد الرجوع إلى الحياة في يوم القيامة نأتي لنماذج عن البطشة الكبرى بالكفار والمشركين بعد رميهم في النار:

إن شجرة الزقوم، وهي التي تؤكل بالزقم بالبلع من دون مضغ، ليس لأنها طرية ولا لأنها شهية بل لأنها مقرفة جداً جداً، ومن شدّة شعور أهل النار بالجوع يأكلون منها وهي مقرفة جداً، فيزقمون منها، وهذه حالة غالبية الطيور في الأكل حيث تزقم، إذ لا تمضغ الطعام، وسترى تكملة التوصيف في الآية التالية.

ننتبه ونتذكّر دائماً أنه لا يوجد في النار نبات، لا أخضر ولا يابس، فهذه "الزقوم" أي التي يأكلون منها زقماً، شكلها شجرة، هيكلها كشجرة، ومن مختلف القرآن ومن تكملة الآيات هنا ستلاحظ أنها ليست نباتية، وللأسف تجد روايات تصفها وتصف غيرها من مأكولات النار بأنها نباتٌ مشابهٌ لنباتٍ هنا على الأرض له أشواك وطعمه مرٌّ... ولا تجد في القرآن أي توافق مع هذه الروايات التي حاولت تقريب الصورة بنماذج، ولكن وكما ترى من القرآن سيتمنّى أهل النار لو يحصلون على النباتات المرّة الموجودة هنا، وستكون كالفاكهة اللذيذة بالنسبة لما هو موجود في جهنّم.

بقي شيء، في نسخ القرآن المرسومة بما يسمّى بالرسم العثماني، وهو عموم النسخ المطبوعة التي بين أيدينا، كتبوا فيها كلمة شجرة بالتاء الطويلة "شجرت"، وحالياً نعتبر هذا الرسم خطأً إملائياً، وأنت تعلم أنه حين نزول القرآن لم يكن عند الناس قواعد إملاء مبنية على قواعد صرفيةٍ ونحوية بالشكل الذي ظهر سريعاً بعد سنوات قليلة من نزول القرآن، فلا يحق لنا محاسبة الجيل الأول الذي كتب "رسم كلمات" القرآن على القواعد التي ظهرت فيما بعد، وعلينا الاعتراف بالمجهود الجبّار الذي بذلوه لكتابة القرآن بطريقة تسهّل لفظه بطريقة صحيحة لمن لم يسمعه من قبل.

كما ترى هنا وفي غيرها من الكلمات التي يختلف رسمها عن القواعد الإملائية المتعارف عليها حالياً، ترى أن اللفظ لم يتغيّر، فالقرآن نزل ملفوظاً وليس مكتوباً حتى نقول بأنه تحرّف، وبتأمّل بسيط في فروقات رسم الكلمات بالطريقة القديمة والطريقة الحديثة ترى أن الأوائل كتبوها بما وجدوه مناسباً للفظها بطريقة صحيحة، وترى بوضوح أن نفس كلمة شجرة كتبوها في آيات أخرى بالتاء القصيرة "المربوطة"، التي نلفظها "هاء" عندما لا نكمل الكلام الذي بعدها، ونلفظها "تاء" عند إكمالنا للكلام بعدها، وهكذا ترى أن من كتب الكلمة هنا رسمها على لفظها متّصلة بالكلام الذي بعدها.

أطلت عليك لترى بعض العمق في الأبحاث اللغوية حتى لا تسقط في ترهات سخيفة يقولونها هنا وهناك عن تحريف القرآن، وهكذا صرت تعلم عن القليل من أسباب كتابة "رسم" الكلمات القرآنية في المصاحف القديمة بشكل مخالف لقواعدنا الحالية، وأضف إلى ذلك أن القواعد الحالية لم تثبت بعد، ومن قبل لم تكن ثابتة، وفي كتب عمرها أقل من خمسمئة عام ترى كلمة "هذا، هاذا..." وترى الاختلافات الكثيرة لكتابة الهمزة المتوسطة "بين أحرف الكلمة" والهمزة المتطرفة "في آخر الكلمة" وغيرها من الأمور... وإلى الآن لا تزال ترى أناساً يختصرون الواو أو لا يختصرونها من كلمة، رؤوس رؤس، فؤوس فؤس... وفي دراستنا هذه اعتمدنا رسم الكلمات على القواعد الأكثر انتشاراً حالياً، وهي القواعد التي يتم تدريسها في غالبية المدارس.

على أي حال تذكّر دائماً أن القرآن نزل مقروءاً، والجيل الأول من المسلمين حاولوا رسمه "كتابته" بما وجدوه الأقرب للتعرّف على اللفظ، فما تسميه الآن خطأً إملائياً ربما حتى في عصرهم كان خطأً وربما لا، وربما تعمّدوا الكتابة هكذا مخالفين حتى قواعد الكتابة في زمنهم لأنهم يريدون الرسم كمساعد أكثر على اللفظ، وربما سهواً...

معلوم أن المسلمين الأوائل لم يستندوا على الكتابة لتعلّم القرآن، بل اعتمدوا على سماعه من جيل لآخر، ووقع أيضاً للبعض اشتباه من تفلّت الذاكرة لبعض الكلمات، ولكن الجمهور العام كانت قراءته سليمة، إلى أن وصلت الأمور إلى عناد البعض بصحة كلمتهم التي من الواضح جداً أنهم شذّوا بها عن البقية... والأنكى من ذلك الجيل الذي بدأ يتجرّأ على ما وصله من قراءة الجمهور العام، وطرح رأيه في القراءة معتقداً أنه يصوّب لغوياً أو يصوّب المعنى.

الملخص المفيد أن ما يسمّونه بقراءة حفص عن عاصم في مقابل قراءات الآخرين، تسميةٌ غير دقيقة، لأنه من الواضح جداً جداً أن حفصاً لم يكن له قراءة خاصة به، بل هو ممثل لقراءة جمهور المسلمين، فقراءته هي قراءة الذاكرة

الجماعية للمسلمين التي التزمت بما سمعته ممن قبلهم كما هو، وهي القراءة التي انطبعت عليها الغالبية الساحقة من القرّاء منذ القدم وإلى الآن.

(طَعَامُ الْأَثِيمِ{44})
تلك الشجرة هي، {طَعَامُ الْأَثِيمِ}، هي أكل له طعم "من الواضح أنه طعم مقرف مؤلم..." للأثيم للشخص الذي ارتكب السوء وهو يعلم بأنه يفعل شيئاً يعاقب عليه تعالى. فالإثم هو وصف للعمل السيّء الذي تعلم بأنه سيّء وعليه عقاب، فترتكبه عن قصد وعن معرفة بسوئه، والأثيم هو الموصوف بارتكاب الإثم.

(كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ{45})
طعام، مأكول شجرة الزقوم الذي له طعم "مقرف"، {كَالْمُهْلِ}، مثل السائل الثخين الذي يتموّج من شدة الحرارة، {يَغْلِي}، يفور ويهتاج من شدّة الحرارة، {فِي الْبُطُونِ}، يأكلونه ويشعرون بالحرارة الشديدة لدرجة الغليان في بطنهم.

(كَغَلْيِ الْحَمِيمِ{46})
غليان الطعام، {كَغَلْيِ الْحَمِيمِ}، مثل فوران المعادن الصلبة الذائبة أو السوائل الشديدة الحرارة، وهنا في الدنيا نعرف حمم البراكين وحمم الزيت المغلي... فتشبّه الآيات حرارة الطعام بحرارة المعادن الصلبة أو السائلة الشديدة الحرارة.

سؤال: إن كان الطعام يذيب فمهم وبطنهم، ويسبّب الألم، فلماذا يأكلونه؟ تركتك الآية تستنتج ذلك بنفسك، فمن شدّة شعورهم بالجوع لا يمكنهم مقاومة بلع أيِّ شيءٍ لإسكات جوعهم، ويجرّبون ابتلاع ما يمكنهم من أشجار جهنّم، وهنا يصف القرآن تلك الأشجار بأنها زقّوم وما يطلع منها حار جداً، فيأكلونه ويشعرون بالغليان في بطونهم. وترى معنىً قريباً في الآية 7 من سورة الغاشية {لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ}.

(خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ{47})
{خُذُوهُ}، وعادة نفترض أن أوامره تعالى تنفذها الملائكة وتعلم ذلك من عموم القرآن وخصوصاً من الآية 31 من سورة المدثر {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً...}، ووصفهم القرآن بالزبانية في الآية 18 من سورة العلق {سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ}، فهذا الذي أكل من الزقوم {خُذُوهُ} أيها الملائكة الموكّلة بتعذيب أهل النار، {فَاعْتِلُوهُ}، فامسكوه بعنف من السلاسل من قدميه ويديه وجرّوه، {إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ}، فالجحيم هو المكان الموصوف بشدّة سوء ما فيه ففيه النار المتأجّجة فارموه فيها لتغطّيه كلّها فيصير فيها سواءً، كما تملأ الكوب بالماء على السواء، لحد الحافّة، فاعتلوه ليصير بالتمام في النار المتأجّجة.

ونحن عادة نعبر عن هذه الحالة فنقول: رموه في منتصفها. ولا نقصد أنه على القياس بالسنتي والمتر من كل الجهات في منتصف جهنّم، بل كما تقصد الآية هنا أنه بالتمام فيها فيناله حريقها بالتمام.

تريدك الآيات أن ترى فظاعة العذاب من الطعام للبطن إلى خارج الجسد.

(ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ{48})
{ثُمَّ}، بعد إحاطة النار المتأجحة به، {صُبُّوا}، أيها الملائكة، {فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ}، من معادن أو سوائل شديدة الحرارة.

فهو في عذاب الأكل من الزقوم وفي عذاب الجحيم حيث تحيط به النار وفوق ذلك تنصبّ عليه الحمم.

في بعض الكتب كلام عن تفسير هذه الآيات وأشباهها بأنها تشبيهية على معنى أنها ليست مادية، فالبعض من مفكري المسلمين وصل لنتيجة أن العذاب النفسي الروحي أشدّ من العذاب الجسدي، وبالتالي قالوا إن العذاب في الآخرة يشبه حالة النائم الذي يرى كابوساً، وهم يقصدون أن هذا الألم سيكون أشدّ من ألم يصيب الجسد... وقالوا إن الجنّة أيضاً لا جسد فيها للمؤمنين، فبحسب قولهم فإن السعادة الروحية أعظم بكثير من سعادة الجسد... وذهبوا إلى أبعد من ذلك حيث

قالوا إن كلام القرآن عن طعام أهل الجنّة وشهوات الجسد... فهو مجرد ترغيب لذوي العقول الضعيفة، فهؤلاء لن يفهموا أن السعادة الروحية أعلى بكثير من السعادة الجسدية، ولذلك ذكر لهم القرآن ما يفهمونه مع أنه لن يحصل!

هذه الأقوال اضطرتهم لتفسير كلام القرآن بالتأويل على غير ما يظهر منه مما يفهمه القارئ غير المشحون بأفكارهم...

يا عزيزي ويا عزيزتي، إن لم يكن هذا هو الشطح والترف الفكري الخيالي، وإن لم يكن تفسيراً بالرأي فماذا يكون؟ فها نحن أمام كلام الإله سبحانه وتعالى، والذي أصرّ أن يكون كلامه سبحانه واضحاً صريحاً شفافاً... في كل المواضيع ومع الجميع، وكما ترى من الآيات هنا توصيفاً لجسد وبطن وأكل ولمس وشعور وحريق... فلماذا ذهبوا إلى مخالفة صريح كلامه سبحانه؟ إلهنا خالقنا يقول إن العذاب جسدي ونفسي وبأقصى الدرجات، فلماذا نفسّر كلامه تعالى بالعذاب الروحي بلا جسد؟ في النهاية هم لا ينكرون شدّة الألم بل يؤكدونه ويصرّون على أن الجسد لن يعطي هذه النتيجة وبرأيهم فالروح فقط يمكنها أن توصل أهل النار إلى أقصى العذاب...

الأساس في خطورة كلامهم هو شعورهم بالوصول إلى ما لم يصل إليه الآخرون الأقل منهم إيماناً وعقلاً! شعورهم بالعلو ودونية المؤمنين الآخرين! وإصرارهم على وجود أسرار يعرفونها هم ولا يعرفها الآخرون! فهم مجموعة قليلة تدربت على استعمال اصطلاحات اخترعوها فيما بينهم، وهؤلاء يظنون أنهم الأعلم من غيرهم بدينه تعالى!

لتكن الآيات هنا دليلك على الفرق الهائل بين الخزعبلات التوهمية والعقلانية، بين الإيمان الصحيح السليم بكلامه تعالى الصريح الواضح وبين جماعات تدّعي أنها الأعلى إيماناً بينما هي الأشدّ ابتعاداً عن الالتزام بصريح ما يقوله سبحانه عبر تفسيرها لكلامه تعالى بغير ما يظهر منها، على أساس أن للقرآن بطون معانٍ أدركوها وغابت عن البقية الذين لن يفهموها! فصار القرآن كتاب هداية حقيقياً لهم وحدهم، ونحن البقية بسطاء يضحك علينا سبحانه فلا يقول لنا الحقيقة لأننا لن نفهم الكلام الحقيقي عن العذاب أو السعادة الروحية!

(ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ{49})
{ذُقْ}، تحسّس بالألم من الاحتراق، {إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ}، أنت المنفي عنك الذِّلَّةُ، أنت الذي لا تخضع لأحد ولا يتحكّم بك أحدٌ وتفعل ما تريد... وأنت، {الْكَرِيمُ}، أنت ذو كرامة ذو قيمة وشأن عالٍ.

كما ترى هم يسخرون منه بالعكس، وبدل أن يقولوا له يا ضعيف يا ذليل يا مهان... يقولون له يا عزيز يا كريم... للسخرية والتعذيب النفسي بالإضافة للتعذيب الجسدي.

لنتذكّر كيف وصل هذا الذي يهينونه أثناء تعذيبه إلى هنا، كان يُتَهَدَّدُ في الدنيا بالعذاب في الآخرة، وينكره، ويقول إنَّهُ لن يحصل، حيث ارتكب الجرائم الفكرية باعتقاده بأمور فاسدة، بعقيدة من الخرافات والأوهام، بالشرك والكفر... وشريعة من الأهواء والمشتهيات الفاسدة، بتحليل ما حرّمه تعالى وبتحريم ما حلّل تعالى... وكان يرى نفسه عزيزاً كريماً وليس بحاجة لهذا الدين، بل هذا الدين للبلهاء الضعفاء الأراذل... ومات في الدنيا وعاد في يوم القيامة ووصل إلى الحساب، وبعدها إلى العقاب، وهناك يسخرون منه بتذكيره بنفسيته المستكبرة المستعلية عن الإيمان بكلامه تعالى والتي أوصلته إلى هذا العذاب المهين.

بالنسبة لمحور كلام السورة، فإن كان بعض الناس يخترعون أفكاراً ينكرون بها سبب خلقتنا، حيث يقولون إنَّ الإله خلقنا وتركنا على هوانا بلا آخرة وحساب... أو يقولون إنَّهُ لا إله خلقنا وإنما هي حياتنا الدنيا نعيش فيها ونموت وينتهي الموضوع... فليأخذوا علماً بأمثال الآيات هنا أنَّ ما سيحصل لهم من عذاب في الآخرة لن يتغيّر إذا ضحكوا على أنفسهم بأفكارهم النيّرة هذه، وها مصيرهم الحتمي معروض عليهم وبكل وضوح وصراحة...

(إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ{50})
إن هذا، الذي ترونه وتذوقونه من الألم والإهانة والسخرية، هو، ما كنتم به تمترون، والمرية هي النقاش بشيء واضح الصحّة، الكلام الفاضي الفارغ معارضاً لحقيقة واضحة، فالعذاب لأمثال أولئك الناس حتمي، وانتشر الخبر عنه في الكتب الإلهية وعلى لسان الأنبياء والرسل على امتداد تاريخ البشرية، وتدعَّم هذا الكلام بالآيات الكثيرة... ورغم كلّ هذا

فهم جادلوا وناقشوا، حسناً، تحت نزول الحمم على رؤوسهم تقول لهم الملائكة(ع): هذا الذي كنتم تناقشون وتجادلون وتخوضون منكرين حصوله، فها أنتم فيه وتحته وفي بطنكم.

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ{51})
{إِنَّ الْمُتَّقِينَ}، إن الذين يتجنبون ويتحاشون، وهنا سياق الكلام عن تجنّب السوء إيماناً وعملاً وهو نفسه تجنّب غضب وعقاب ربّهم سبحانه، فيلتزمون بدينه سبحانه، {فِي مَقَامٍ}، في مكان إقامة، في مكان للبقاء فيه حيث يعيشون، {أَمِينٍ}، لا خطر فيه ولا خوف من أي شيء سيّء يحصل.

في مقابل الخطر والعذاب والخوف والإهانة في جهنّم، يقيم المتقون في مكان يستبعدون فيه حصول أي نوع من الخطر والسوء من كلّ النواحي وهذا خبر عن راحتهم النفسية هناك.

(فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{52})
{فِي جَنَّاتٍ}، في أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين وأماكن للبهجة... {وَعُيُونٍ}، وهي عموم الفتحات وهنا الكلام عن فتحات في الأرض ينبع منها الماء. ومن مختلف آيات القرآن نعلم أن تلك العيون ينبع منها الماء ومختلف أنواع المشروبات اللذيذة كما تقرأ في الآية 15 من سورة محمد "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى...".

طبعاً لا تبالغ بالتصوّر ويذهب فكرك أنها مستنقعات، لا، فهناك عيون وأنهار... وهناك حدائق وهناك بساتين ومروج...

(يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ{53})
المتقون، {يَلْبَسُونَ}، يضعون على جسدهم، {مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ}، وهذان وصفان للثياب فالاستبرق وصف للقماش الذي يبرق أو عليه قطع صغيرة تعكس الضوء، والسندس وصف لنقاوة لون القماش.

لم أجد مصدراً يثبت كون السندس والاستبرق نوعين من الحرير رقيقٍ أو غليظٍ كما يقولون في الكتب، سوى ما ادّعوه بلا إثبات على افتراض منهم أن أنعم الثياب تكون من الحرير ولباس أهل الجنّة من الحرير كما ورد في الآية 23 من سورة الحج. وردت في أشعار العرب قبل الإسلام كلمة "سندس" كوصف لنقاوة لون الجلد أو القماش "الأسود"، ولم أجد فيما لدي من مصادر استعمالهم "قبل الإسلام" لكلمة الاستبرق "كاسم" مما يشير إلى اشتقاق القرآن لها من البرق، وحالياً نقول قماش برّاق، كوصف لانعكاس الضوء عليه، ويبدو أنه المقصود من كلمة استبرق، وذكر ما يؤيد قولي أبو حيّان والزبيدي.

المتقون، {مُّتَقَابِلِينَ}، قبالة بعضهم البعض، وهذا تعبير عن جلسات الأنس والتسلية والزيارات والحفلات... التي تحصل بين مجموعات المؤمنين في الجنّة حيث يستلقون متواجهين يتحدثون ويتمازحون ويأكلون ويشربون... راجع كمثال ما ورد بعد الآية 44 من سورة الصافات المشابه للآيات هنا "عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ".

(كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ{54})
{كَذَلِكَ}، بالذي ذكرته الآيات السابقة عن الجنّات واللباس والتقابل...

{وَزَوَّجْنَاهُم}، جعل سبحانه المتقين يقترنون فجمعهم، {بِحُورٍ}، وهذا وصف للون الجلد النقي، وهم، {عِينٍ}، بأتم مواصفات جمال العيون، وكمثال عنه أن تكون أعينهم واسعة نقية البياض حول البؤبؤ...

لاحظ إسقاطات من خلفيات بعض المفسرين لكلامه تعالى بحسب ما يرونه هم من جمال، فكلمة عين ليس معناها العين الواسعة، ولكن بعضهم في باله أن هذا هو الجمال في العين ففسّره به.

عادة من جملة "حور عين" يذهب فكرنا إلى زوجات للذكور المتقين، ولكن من آيتنا هنا ومن عموم القرآن ترى بسهولة أن التقيّات لهن ما يسعدهن أيضاً، فالكلام عمومي للذكور والإناث، ولم يدخل القرآن في التفاصيل، ويمكنك بسهولة الالتفات إلى التقيات اللاتي متن عزباوات، أو اللواتي أزواجهن ليسوا من أهل الجنّة... فهؤلاء تتوقع بسهولة أن لهن

حور عين ذكور، أمّا الاحتمالات التي ينزعج منها الرجال إن كان لزوجاتهم حور عين ذكور في الجنّة، مثلما للرجال حور عين من الإناث، فهذا الانزعاج لا معنى له، فعلى كلّ حال ومهما كان الحال هناك، فلدينا ضمانة إلهية بأن المؤمنين في الجنّة لن ينزعجوا ولا بأي شكل من أي شيء، وبالتالي فلا داعي لأي افتراضات مسببة للإزعاج تحصل هناك.

بقي شيء مهمّ أشرنا إليه في دراستنا مراراً، فهناك بعض التعليقات على القرآن من الجاحدين الممارين الكافرين... يصوّرون القرآن ككتاب جنسي، ككتاب مشحون بالإيحاءات الجنسية الإباحية، وهم يعلمون علم اليقين أن القرآن مؤلف من أكثر من ستة آلاف آية وقرابة العشر آيات فقط فيها إيحاء صريح مع تصريح لائق بوجود متعة جنسية جسدية في الجنّة، واعتبرها سبحانه كافية لترغيب وتبشير المؤمنين بما في الجنّة من سعادة، وكانت النتيجة وقوع البعض في الإفراط بالمبالغة في تصوير القرآن ككتاب جنسي رخيص للتعييب على دينه تعالى... ووقوع الآخرين في التفريط بتفسيرهم لعموم الآيات التي تتحدّث عن متعة جسدية في الجنّة من طعام وشراب وحور... بأنها تعابير تمثيلية لمتعة روحية بلا جسد!

(يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ{55})
{يَدْعُونَ فِيهَا}، يشهرون ويعلنون، ومن تكملة الكلام تعلم أنهم يقولون لخدمهم أن يحضروا لهم، {بِكُلِّ فَاكِهَةٍ}، بأي نوع من طعام يشتهون أكله بسبب طعمه اللذيذ، والفاكهة وصف للطعام الذي تأكله للتلذذ بطعمه وليس للجوع، فيقول المتقي في الجنان اسم الفاكهة فيحضرونها له، وأشار القرآن عدة مرات للتنوع الهائل هناك للأطعمة.

دعاؤهم فيها بالفاكهة، {آمِنِينَ}، فيعيشون حالة الشعور باستبعاد أي خطر أو ضرر أو سوء، فلا الفاكهة تنتهي، ولا الخدم مشغولون بشيء آخر، ولا الخدم يعصون أوامرهم... فيطلبون الفاكهة مع كل الأمان والاطمئنان والشعور بأن طلباتهم حتماً ستتنفّذ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فحالة الفكاهة العمومية، حالة التعامل بلا جديّة مع الأمور، حالة الانشراح والسعادة، تكتمل مع الشعور باستبعاد أي نوع من الضرر والأذى، وهذا ما تقصده الآية هنا.

(لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ{56})
{لَا يَذُوقُونَ فِيهَا}، لا يشعرون ولا يحسّون في الجنّة، {الْمَوْتَ}، فقدان الحياة، {إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى}، فأول موتة ماتوها في الدنيا فهي الموتة الوحيدة التي مرّت ولن يمرّ غيرها، ومن بعد ذلك الخلود في الحياة.

{وَوَقَاهُمْ}، وجنَّبهم وجعلهم سبحانه يتحاشون فحماهم من، {عَذَابَ الْجَحِيمِ}، من الضرر من المكان الموصوف بشدّة سوء ما فيه، ففيه الحريق والتعذيب بشدة، وسنكمل مع الآية التالية عن سبب هذا الكلام حتى لا يخطر ببالك أنهم متقون وحصلوا على الجنّة بجدارتهم فما معنى وقايتهم من جهنّم... سترى ذلك بعد قليل.

نلتفت دائماً إلى شعور أهل الجنّة بالخلود في الجنّة الرائعة، فهذا لوحده عامل نفسي مريح أشار له القرآن مراراً وبتعابير متنوّعة، فهنا في الدنيا تشعر بالخطر من التعرّض للحوادث لأنك تعلم أن جسدك لن يتحمّل الضربات القويّة... أمّا هناك في الجنّة فستشعر بجسدك الشابّ القوي والنشيط والذي لن يتضرّر من أي حادث كان ولا من أي سبب...

من دراسة أشعار العرب قديماً قبل الإسلام وجدت فرقاً بسيطاً بين كلمتي جحيم وجهنّم، فجهنّم باستعمال القرآن هي اسم مكان مشتق من الوصف بجهنم الذي يعني بأن كل ما فيه سيّء، فهو وصف للأنواع المختلفة مما يسبب العذاب مما في المكان، ففيه النار وفيه الضرب وفيه طعام كريه ورائحة كريهة... وتفهم ذلك من فحوى الآية 49 من سورة غافر "وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ...". وفي بيتين قبل الإسلام وجدت إشارة بكلمة جحيم لضخامة النار، ويناسبها ذلك في القرآن كما ورد في الآية 97 من سورة الصافات "قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ"، فالجحيم وصف الضخامة في السوء.

(فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{57})

ما هم فيه في الجنّة، وقبل ذلك وقايتهم من جهنّم: {فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ}، شيء تفضّل به عليهم المسؤول عنك من مستوى إلهي، شيء قدّمه لهم سبحانه وهو غير واجب عليه تعالى، {ذَٰلِكَ}، والحالة التي هم فيها، {هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}، هو الحصول على شيء له قيمة عالية جداً جداً من بعد التزامهم بدينه تعالى.

ننتبه دائماً للفرق بين المنّة والفضل، لأنَّ الفضل لا يستوجب منك شكر من تفضّل عليك، وهو وصف بأنه أعطاك وليس واجباً عليه أن يعطيك، وأنت من عندك تشكره أو لا تشكره، أمّا المنّة فهي ما تحصل عليه مع شعورك بوجوب الشكر وردّ الجميل والاعتراف بجميل ما حصلت عليه، ولذلك لا تجد في القرآن أي تعبير عمّا يحصل عليه أهل الجنّة أنه يتوجّب عليهم الشكر أو فعل أي شيء آخر، ولا يعبَّر عنه بالمنّة والإحسان وأشباهها بل يعبَّر عنه بالأجر وبالفضل وبالرحمة، أمّا ما نقله القرآن عن شكر أهل الجنّة وحمدهم له تعالى على فضله فهو من طيب خاطرهم كردّ فعل عفوي على الحياة الرائعة التي يعيشونها.

معلوم لديك أنه تعالى من "فضله" حدّد ما يستحقه المؤمنون العاملون للصالحات "كأجر"، حيث نحن بيننا دفع الأجر واجب لمن عمل لنا شيئاً، ومعلوم أننا لا يمكننا ولا بأي شكل فعل أي منفعة له تعالى، ولذلك فالأجر منه تعالى للمؤمنين بالجنّة يكون من فضله.

(فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ{58})
{فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ}، جعله تعالى ميسَّراً سهلاً لا صعوبة في قراءته، {بِلِسَانِكَ}، بما تتكلّم به أيها الرسول محمّد(ع)، حيث أنت بلسانك تتكلّم العربية، وجعلنا القرآن بالعربية، {لَعَلَّهُمْ}، من المفروض ومن المتوقّع منهم أن، {يَتَذَكَّرُونَ}، يستحضروا المعلومات عن دينه تعالى والميسَّرة قراءتها، ويستحضروها في فكرهم وقولهم وعملهم.

مثل العديد من سور القرآن فإن سورتنا هنا عادت لتلتف على أولها، وغالبنا الأعمّ لا قدرة له على الانتباه لهذا اللف بعد كل هذه المدّة من القراءة، وبالخصوص عندما يكون غالب مضمون سور القرآن "كسورتنا هنا" في داخلها التفافات داخلية أيضاً، أو إشارات مرجعية من سورة لسورة أخرى... هذا كلّه يشير لكون القرآن كتاباً لتتم دراسته، لا لقراءة السورة منه مرة واحدة، وهذا وجه من اختلاف القرآن عن تأليفات البشر، والأسباب لهذا أمام البساطة في الأسلوب الإنشائي وهو ليس لأجل التعقيد، بل للدقة البالغة في ترتيب ما تريدك السورة أن تفهمه، حيث افتتحت السورة كلامها بأن ما ستقرؤه فيها مصدره كذا ونزل في ليلة مباركة... وها هو نص الكلام... وبعد الانتهاء تذكير بسبب نزول هذا الكلام.

نزول الكلام الإلهي باللغة العربية ليس لأي شيء مميز في اللغة العربية عن بقية اللغات، إذ هناك كتب إلهية سابقة نزلت بلغات أخرى، وهناك اللغة التي تكلّم بها سبحانه وتعالى مع رسوله موسى(ع)، وتلك اللغات أيضاً لم تكن لغة مميَّزة بأي شيء عن الأخريات، وسبب النزول بالعربية لأنها لسان الرسول محمّد(ع) وهي اللغة التي يعرفها ويتكلّم بها هو ومن حوله، وكان من المتوقّع منهم ومن المفروض أن يفهموه، وبالتالي أن يستحضروا في فكرهم وعملهم ما في الكلام الذي ينقله لهم عنه تعالى، ليؤمنوا به لأنه كلام من مستوى إلهي.

أمّا بالنسبة للآخرين من اللغات الأخرى، فهذا القرآن موجّه لهم أيضاً عبر ترجمته للغتهم أو تعلّمهم للغة القرآن أو عبر نقل محتواه ومفاهيمه في شروحات ومحاضرات ومحاورات... ونزوله بالعربي لا يعني أنه للعرب، ولا هو دين عربي، ولا الذي أنزله إله للعرب فقط...

(فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ{59})
{فَارْتَقِبْ}، وجِّه اهتمامك ولا تغفل عن شيء مهمّ، وهو ما ذكرته السورة من بدايتها، ارتقب يوم تأتي السماء بدخان... كما ورد في الآية 10، مروراً بالحساب، والعقاب، والثواب... {إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ}، هم أيضاً ورغم كفرهم بالآخرة، واقع حالهم أنه وصلهم خبر عنها فكفروا بها ولم يصدّقوا حصولها، وسيبقون في حالة انتظار إلى أن تحصل... قارنها مع من تقول لهم: سأصير رجل أعمال وتجارة. وهو لا يصدّقك، وتقول له: ارتقب وسترى. فيقول: حسن سأرتقب. وواقع حاله انتظار ما سيحدث معك، سواء صدّق كلامك وتوقّع حصوله أو لم يصدّقه.

سورة الجاثية (45) ص 499
السورة متوجّهة بالكلام إلى عموم منكري الآيات الإلهية والآخرة، من كافرين أو منتمين بالاسم لدينه تعالى، وهي نادرة من بين السور حيث لم تعرّج على الشرك به تعالى وكان تركيزها على أساس الإيمان به تعالى، ويمكن أن تراها تشير إلى الذين نسمّيهم في عصرنا بالملحدين. ونقصد المنكرين لأي دين إلهي من أصله، وبالتالي هم منكرون لعموم الآيات الدالة عليه تعالى كمصمّم خالق فائق القدرات وذي صفات حسنى، فهم لا يؤمنون ولا بأي إله.

مثلما سورتنا هذه مناسبة للملحدين كذلك سورتا الرعد والواقعة.

الملفت فيها أنها لا تحتاج لأي خلفية ثقافية دينية لفهمها، وما فيها كافٍ لملحد أن يفهمه، إذ ليس فيها أي كلام عن تفاصيل الشريعة، ولا أي كلام عن الأقوام السابقة، ولا عن الشيطان... ولا عن الملائكة(ع)... ولا عن حدث جرى في عهد الرسول محمّد(ع)...

عرضت السورة الآيات من حولنا والتي نحتك بها، لتكون دليلاً على وجود مصمّم خطّط وخلق لهذه الدنيا بحدودها "السماوات والأرض" وبكائناتها وظواهرها، وبالتالي لتكون دليلاً على صدق الخبر منه تعالى عن الآخرة.

أكدت السورة أن الخبر عن حصول الآخرة لا يمكننا اختباره مباشرة لنتأكّد من صدقه الآن ولا بأي شكل، لأنه خبر عن المستقبل، وتأكيد صحّته محصور بالإيمان أولاً بالآيات الدالة على القدرات الفائقة لخالق ما في هذه الدنيا، وهو الذي وصلنا منه خبر عن خلقه للآخرة، ويساعد على ذلك ما نراه من سيطرته تعالى على الحياة والموت هنا وبالتالي لا استحالة من عودتنا إلى الحياة مرة ثانية.

علينا أن نميّز بين الدليل التاريخي الملموس لعذابه تعالى الذي أصاب بعض الأقوام كنموذج عن تعذيبه تعالى للكافرين في الآخرة، وهذا دليل، وبين الدليل الملموس على قدرته تعالى على إعادة إحيائنا حيث لدينا حالات عديدة شارك فيها البشر بإحياء أموات كما فعل النبيان عيسى(ع) كما في الآية 110 من سورة المائدة "... وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي..." وإبراهيم(ع) كما في الآية 260 من سورة البقرة "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"، وحالات تدخّل إلهي عبر إحياء الذي مرّ على قرية وهي خاوية... كما ورد في الآية 259 من سورة البقرة، ولدينا منحه تعالى للحياة هنا للحيوانات والنباتات عبر آليات نشأة الحياة على الأرض... أمّا حصول الآخرة فموضوع مختلف، لأنها ستحصل بعد انتهاء الدنيا ولا مجال للمسها أو اختبارها مباشرة الآن، ولهذا تأتي الأدلة المباشرة على حصولها فكرية عبر الآيات الفكرية والملموسة من نماذج إحياء الموتى هنا في الدنيا... والتي تقصّد منها سبحانه أن تكون أكثر من كافية لتصديق حصول الآخرة...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(حم{1})
هذه حروف نتهجّاها مقطّعة هكذا: حا ميم.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوَّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوِّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها

أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

(تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ{2})
هذان الحرفان {حَا مِيم} هما: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ}، الكتاب الإلهي تحوّل قسم منه إلى اللغة العربية، والحرفان "حاء وميم" هما نموذجان من أحرف اللغة العربية التي نزل بها الكتاب، من فوق لتحت، من العالي معنويا، من صاحب الاسم المحدّد المميّز {اللَّهِ} جلّ جلاله، {الْعَزِيزِ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابله صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره...

{الْحَكِيمِ}، الذي يرى الصوابية في الأمور، الذي لا يعبث ولا يلعب فقراراته وأفعاله كلها متقنة ولا يوجد فيها عيب وهي حقّ.

نلاحظ عادة القرآن بذكر صفاته تعالى لتعريفنا به سبحانه، وفي نفس الوقت لتنبيهنا، كعملية تنزيل هذا الكتاب، فوصفه تعالى بالعزيز يشير إلى أقوى قوّة وسيطرة وفرض إرادة... في الدنيا، والذي بهذه الصفة يمكنه فعل ما يشاء ولا أحد يمكنه الاعتراض لمنع ما شاءه تعالى... ففرضا فرضا قرّر سبحانه العبث، فلأنه العزيز فسيحصل ما يريده حتما، ومن جهة ثانية والصفة الثانية "الحكيم" تخبرنا أنه تعالى دائما يتصرف بصوابية، وكنموذج عن ذلك اختار بحكمته محتوى ما سينزل من الكتاب الرئيسي على الرسول محمّد(ع)، وأصلا بحكمته قرّر تعالى نزول الكتاب على الرسول محمّد(ع)، فالحكمة من خلق الناس وهدايتهم عبر تعريفهم بإلههم الحقيقي وتعريفهم بمصيرهم... استدعت نزول الكتاب، وهكذا ترى عمقا، وتنتبه أنك في هذا القرآن تقرأ كلام صاحب هذه الصفات.

بالنسبة لما تجده في بعض الكتب عن الفرق بين كلمتي نزل وتنزيل، فكلاهما وصف لعموم الانتقال من علو "ماديا أو معنويا" إلى مكان منخفض ماديا أو معنويا. حيث معنويا نقول: نزلت رتبته العسكرية. وكلا الكلمتين "نزل وتنزيل" تتحملان معنى النزول دفعة واحدة أو على دفعات، ويتحدّد ذلك مما تتكلّم عنه، وتتحملان النظر للفاعل لوحده، أو للمفعول لوحده، أو للحالة. فلا فرق بالمعنى بين الأصل "نزل" وبين الاشتقاق "تنزّل تنزيل نزول..."، خصوصا فيما يقولونه عن الفرق بينهما في نزول القرآن دفعة واحدة أو بالتدريج على دفعات.

ما تجده هنا وهناك في ثقافتنا عن نزول القرآن كلّه من السماء السابعة إلى السماء الرابعة... ومن الرابعة جرى تنزيل القرآن "فنزل" على دفعات على الرسول(ص)، وبهذا التفصيل "وأشباهه" يقصدون تفسير كلمتي نزل وتنزيل بتوصيف مختلف للفعل، وهذا تفصيل لا ضرورة له وأصلا لا دليل قرآنيٌّ عليه، ويمكن فهم نزول القرآن تدريجيا على دفعات وفهم نزوله كلّه كوجهين لعملة واحدة، حيث بعضه نزل "تنزّل" في ليلة القدر، ثم نزل "تنزّل" بعضه في زمن بعدها... وبالنظر للقرآن كلّه جرى تنزيله "نزوله" على دفعات استمرت لقرابة العشرين سنة حتى وفاة الرسول(ص).

يبدو أن الفهم الضبابي لكلمة "قرآن وكتاب" دفع بالكثيرين للبحث عن فرق بين التنزيل والإنزال بالمعاني التي ذكروها، حيث فهموا أن كلمة قرآن تشير لكل ما بين الدفتين، لكل القرآن من أوله لآخره، وفهموا كلمة كتاب كذلك أنها

تشير لكل القرآن من أوّله لآخره، وبناء عليه أرادوا تبرير الآيات التي تذكر نزول "كتاب القرآن" على أساس أنها تشير لنزول كتاب القرآن كلّه من أوّله لآخره دفعة واحدة، ومن المعلوم أنه كلّه لم يكن نازلا على الرسول(ص) حين جاءت الآيات التي تقول إنَّ القرآن نزل...

بناءً على فهمهم هذا، بدأت تبزغ الآراء المختلفة لتبرير الموضوع، حيث قال بعضهم إنَّهُ كلّه من أوّل مرّة نزل على الرسول(ع)... وبعدها عاد ونزل عليه (ع) على دفعات. وآخرون قالوا: لم ينزل أولا كلّه على الرسول(ع) وإنما نزل كلّه من السماء السابعة إلى الرابعة، ومن هناك صار ينزل على دفعات على الرسول(ع)... وغيرها من التبريرات التي لا داعي لها، فالآية الواحدة قرآن، والسورة قرآن، والسورتان قرآن... لأنَّ كلمة قرآن وصفٌ لإمكانية قراءتنا لما نزل منه تعالى، فأي تعبير يشير لنزول أو تنزيل "القرآن" فهو لا يعني أكثر من نزول شيء يمكن قراءته، فلا داعي لنفهم أنَّ التعبير يشير إلى نزول كلّ القرآن.

كلمة كتاب تشير لعموم أي موضوع تامّ، إذ إنَّ السورة الواحدة كتاب، والفقرة أو الآية الواحدة من السورة إن كانت تامّة الموضوع فهي كتاب، وكلّ القرآن كتاب، وهكذا وعندما تجد آية تتحدّث عن نزول القرآن أو نزول الكتاب فهي ليست بالضرورة تشير إلى نزوله كلّه، فلو نزلت آية فهي قرآن، ولو نزلت آية موضوعها تامّ فهي نزول لكتاب...

(إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ{3})
بعد المقدمة عن مصدر ما ستقوله هذه السورة "من كتاب أنزله العزيز الحكيم واسمه الله تعالى"، ندخل في الموضوع:

{إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، في هذه الطبقات السبع لهذا التقسيم لحدود دنيا المخلوقات بهذا الشكل، {لَآيَاتٍ}، أمور مميزة، كعلامات ودلائل، {لِّلْمُؤْمِنِينَ}، للذين أعلنوا أنهم معتقدون ملتزمون بالدين الإلهي.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائماً أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ..." وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراضٍ "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراضٍ.

نحن عامة الناس لحد الآن، لم نتعاطَ "بالرؤية" إلا مع السماء التي نراها بالتلسكوبات البصرية والراديوية والمسح الإشعاعي... من مجرات وسديمات غازية... والقرآن أخبرنا أننا في المستقبل سنتعاطى مع السماوات الأخرى كما ورد في الآية 33 من سورة الرحمن "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ"، بل وسنتعرّض لما تعرّض له الجنّ من شهب إذا حاولنا الاقتراب من سماء الملائكة(ع) كما في الآية 35 من نفس السورة "يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ"، ونحن الآن لا نفهم من ذلك إلا معنى الكلمات لأننا لم نصر في تلك الحالة بعد... وليس لدينا معلومات الآن عن أي سماء من السماوات السبع التي ممنوع تخطّيها على الجنّ ولن نتخطّاها نحن، فربما هي الثالثة أو الرابعة أو...

تكرّر الكلام في دراستنا هذه حول سبق الإيمان للآيات أم سبق الآيات للإيمان، وبشكل أوضح هل القرآن يسبّب الإيمان لشخص كان كافراً، أم هو الشخص أصلاً كان مؤمناً ونزل عليه القرآن ليهديه؟ فآيتنا هنا والكثير من الآيات تشير إلى من كان مؤمناً وآمن بالقرآن، وكان مؤمناً وهداه القرآن. وتفهمها بسهولة حين تلتفت إلى وصف القرآن للكفّار بأنهم موتى عمي صمّ وقلوبهم غلف ولا يعقلون... لأنهم كانوا هكذا قبل نزول القرآن وسيبقون هكذا بعد نزوله، إذ كانوا كافرين وسيبقون كافرين، وبالعكس هناك الأحياء أولوا الأبصار أولوا الألباب... وهؤلاء وقبل نزول القرآن هم هكذا فلم يخترعوا آلهة خيالية، ورأوا الآيات في أنفسهم ومن حولهم فدلّتهم عليه تعالى... وهم بقلوب سليمة صادقون مع أنفسهم

عقلانيون "بدرجات من أقصاها كحالة الأنبياء مروراً بالصالحين وصولاً إلى المؤمنين العاديين"، ويأتيهم كلامه تعالى فيؤمنون به ومن قبل كانوا مؤمنين على الفطرة "كما نقول".

حالة الناس قبل وصول كلامه تعالى إليهم تحدّد إن كانوا سيتماشون مع كلامه تعالى لأن قلوبهم سليمة، أو سيرفضونه لأن قلوبهم غلف ومطبوعة على إنكار الحقّ... ولمزيد من التوسع حول هذه النقطة راجع دراسة الآية الثانية من سورة البقرة "ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ".

ننتبه أيضاً لما نسمعه ونقرؤه حول نفي أو إثبات وجود الإله عزّ وجلّ، حيث إنَّ الغالبية من الطرفين المؤمن والكافر، لم ينتبهوا لمسألة تصوّر الدنيا فارغة من أي شيء، ولنقل إننا طلبنا منهم أن يصمّموها ويخططوا لها، ويخلقوها، في حالة فقدان نموذج أمامهم ليقلّدوه، فماذا سيخلقون؟ وهنا تشير الآية لهذه النقطة، إذ إنَّ تصميم السماوات والأرض بهذا الشكل الذي تراه، هو آية، هو دليل على قدرة فائقة صمّمته بهذا الشكل، وجعلته يصير موجوداً بهذا الشكل.

أشار القرآن إلى بعض نقاط في مراحل تشكّل دنيا المخلوقات، من دخان، والرتق والفتق... والدحو للأرض... وهي إشارات لمراحل تشكّل ما في الدنيا واكتمال المخطط ليصل إلى التصميم النهائي، ولكن أكبر تركيز قرآني لم يكن على كيفية خلقها، أي لم يكن على آلية خلقها، بل على المراحل والنهاية، وعلى وجودها كاملة أمامك، فيلفت انتباهك إلى خلق ما في الدنيا ووصولها إلى ما هي عليه الآن.

بعبارة أبسط، لنقل إنني أحدّثك عن مشروعي وتصاميمي ومخططاتي لمصنع سيارات... ولكن الإنتاج لم يحصل، أو حصل الإنتاج ولكنه سيّء لا يحمل مواصفات جيّدة، فكل كلامي لا قيمة له... من هنا تفهم أنَّ القرآن يحدّثك وأنت وما حولك هما المنتج الناجح، لأنَّ هذا المنتج كما تراه هو نتيجة تصميم وعمل لخالق عظيم القدرة، فهي السماوات والأرض كمنتج يدلان على خالق عظيم.

بقيت نقطة، وبتعمّقنا بالعقلانية أكثر وأكثر في تعاطينا مع الأمور بالطريقة التي نسمّيها بالمنهج العلمي، وبالتزامنا بالمعنى الظاهر الصريح من القرآن بدون خلفيات المعطيات التي عندنا لتحكم على فهمنا له، فسنفهم القرآن أكثر، إذ إننا نصمّم الآلات، وكلما كانت الآلة تقوم بالإنتاج لوحدها من دون عمّال، كانت أنجح، وبعقلانية ترى أنه تعالى بقدرته العالية، ومن أوليات بسيطة جعل دنيا المخلوقات تتكون على مراحل متتالية، وكل مرحلة هي تكملة آلية للمرحلة التي سبقتها، وأشار القرآن لهذه المراحل عبر تكراره لنا أن السماوات والأرض خلقها تعالى في ستة أيام، فأنا بقدراتي البسيطة أصمّم الآلات لتصنع سيارة، ولكن بقدراته الفائقة سبحانه وتعالى يصمّم بذرة "أو بذرات" لتُصنَع السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما من كائنات وظواهر.

بناءً عليه لا تتوقّع أن تجد شيئاً في خلق السماوات والأرض بدون سبب ولا آلية مرتبطة بشيء ما، إذ إنَّ ما نفترضه عن خلق كوننا بآليات من بذرة طاقة صارت جسيمات لها خصائص فيزيائية وترابطات كيميائية وبعدها بيولوجية... فنشأت الحياة على الأرض... فهذا تَعَرُّفٌ على آلية "طريقة" خلقه تعالى لما في الدنيا، وهذا باب مفتوح للبحث فيه، ومن الخطأ البحث عن هذه الأجوبة في الكتب الدينية أو القرآن، ومعرفتنا بتلك الآليات والمراحل لا تلغيه تعالى، بل بالعكس تعرّفك على آلية فعله تعالى للأشياء، وهذا شيء كرّره القرآن بذكر مراحل خلق السماوات والأرض، وراجع في ذلك دراسة الآية 9 من سورة فصلت وما بعدها، وكرّر القرآن الكلام مراراً عن خلقنا من طين كمادة أولية فيها قابلية إنشاء الحياة... وراجع في ذلك كمثال ما ورد في الآية 7 وما بعدها من سورة السجدة.

(وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ{4})

تكملة كلام الآية السابقة في خلق السماوات والأرض... {وَفِي خَلْقِكُمْ}، في تركيبكم وتأليفكم أنتم كبشر، {وَمَا يَبُثُّ}، ما ينشر ويوزّع، {مِنْ دَابَّةٍ}، والدابة وصف لكل ما فيه حياة ويدبّ فيتحرك مغيّراً مكانه على أرضٍ، وهذا بالأساس يشمل كل الكائنات الحية من عائلة الحيوان من الحشرات والزواحف وذوات الأرجل والطيور والأسماك، ونَدَرَ استعمالها في كلامنا لتشمل الحشرات والأسماك، علماً أنّ القرآن استعملها للحشرات كما في حالة الحشرة "السوسة أو غيرها" التي أكلت العصا التي كان يتّكئ عليها النبي سليمان(ع) كما ورد في الآية 14 من سورة سبأ "فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ..."، واستعملها شاملاً بها الزواحف كما في الآية 45 من سورة النور

"وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ..."، واستعملها بمعناها الأعم لتشمل كائناتٍ حيةً من غير عالمنا كما في الآية 29 من سورة الشورى "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ".

الدواب هم، {آيَاتٌ}، أمور مميزة، {لِّقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع بعضٍ ومع الدواب، {يُوقِنُونَ}، لديهم اعتقاد صحيح مطابق للحقّ، وهم لا يؤمنون بالخرافات والأوهام والكذب بل بشيء مطابق للواقع، والكلام هنا عن التعرّف عليه تعالى بقدراته الفائقة وصفاته الحسنى المنعكسة فيما خلقه، فهذه حقيقيةٌ واقعيةٌ.

من الناس من يرى الحقّ ويستقبله ولا يرفضه، لأن فِكْرَهُ ونفسيته تتماشى مع الحقّ... فهذا من الموقنين، من المعتقدين بشيء مطابق للواقع وحقيقي. وهناك من يرى الحقّ ويرفضه ولا يؤمن بصحته لأن الإيمان بمداليله لا يتماشى مع فكره ونفسيته، وهذا من الأفّاكين المجادلين الجاحدين الممارين...

كما ترى أنّ الآيات تشير "للمنتج، لما نتج، لما هو موجود الآن"، فأنت نفسك والدواب من حولك، كنتاجٍ لعملية الخلق، آيةٌ لمن لديه يقين بشيء حقيقي، وهو التعرّف عليه تعالى.

تذكّر دائماً النظرة الإلهية لما قبل خلقه تعالى للسماوات والأرض، لأنها نظرة للفراغ، وبعده تصميمٌ وخلقٌ، وضع نفسك دائماً في موضع من يريد أن يخلق السماوات والأرض، وانتبه للتفاصيل الهائلة التي فيها لوصول تصميمك للشكل الذي تراه الآن، وهكذا تفهم غالبية آيات القرآن من النظرة الإلهية لفراغ خلقنا سبحانه فيه، وما تراه دليلٌ على خلقه تعالى لنا، وبالتالي فهو دليلٌ على إمكانية إعادة خلقه تعالى لنا، وهذا ما سترى تركيز السورة عليه.

(وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ{5})

{وَ}، {فِي}، {اخْتِلَافِ}، تعاقب حلول، {اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}، فتذهب فترة العتمة من اليوم ويخلفها، حيث يأتي خلفها فترة الضوء من اليوم، وهكذا بتكرار... {وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ}، وفي الأشياء التي صارت متاحة لنا لنسدّ بها حاجاتنا ورغباتنا، ومن تكملة الجملة ترى أن الكلام عن رزق المطر الذي نحتاجه نحن والأنعام للشرب ولنمو النبات الذي نأكله نحن والأنعام، وبعدها نأكل نحن الأنعام... {فَأَحْيَا بِهِ}، بالرزق "بالمطر"، {الْأَرْضَ}، حين تكون أرض ما بلا نبات فيها فهي ميتة لا حياة فيها، وحين ينزل عليها المطر تحيا، فتخرج النباتات التي نأكلها، وهكذا يكون ما ينزل من السماء من مطر هو رزق لأنه للشرب وهو أيضاً رزق بما سينتج عنه من ري للنباتات التي سنأكلها...

{وَ}، {فِي}، {تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ}، توزيعها تحويلها على وجه الأرض من مكان لآخر، وبحركتها تحرّك الغيوم والسفن وتغيّر المناخ...

ما سبق ذكره، {آيَاتٌ}، أمور مميزة، أمور كعلامات ودلائل على إله صمّم وخلق ويتابع إدارة شؤون ما خلقه، فتتكرّر الأمور وتستمر... {لِّقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع هذه الظواهر، {يَعْقِلُونَ}، لديهم عقل يعمل بشكل سليم ليستوعبوا ويفهموا ما يرونه ويتعاملون معه ويعيشون فيه.

كما ترى أنك الآن تعلم أن دوران الأرض حول نفسها يسبب الليل والنهار، وتعلم أن المطر ينزل بسبب تكاثف بخار الماء... والنبات يظهر بعد احتكاك البذور والأغصان بالرطوبة... وحركة الرياح ناتجة عن فرق الحرارة والضغط بين طبقات الهواء... ولكنها ظواهر ظهرت كنتيجة مقصودة من أساس تصميمه تعالى للسماوات والأرض، ودائماً تذكّر لو تصوّرت نفسك كمصمّم وخالق للسماوات والأرض، والتفت لما هو موجود الآن بعقلك الصغير الذي بالكاد يمكنه إحصاء بعض التفاصيل من تريليونات التفاصيل المنتشرة في السماوات والأرض، عندها ستدرك معنى القدرة الفائقة لخالقك وخالق ما حولك من كائنات وظواهر كونية.

انتبه يا عزيزي ولا تدفعه تعالى إلى حيث لا تعلم السبب، فإن لم تكن تعلم كيف تنمو النبتة وتنتج وردة حمراء رائعة اللون والرائحة، وقلت سبحان الله، ثم تعلّمت أن الخلايا النباتية فيها جينات تتحكّم بكيفية امتصاص خلية هذه النبتة لمواد محددة من التربة والماء، وتتحكّم بنمو الخلايا لتجعل عملية النمو تسير كالآلة التي تعمل وتنتج ما هو متوقّع منها

وسيصير لديك وردة حمراء، ولكونك متديناً وتؤمن بالله تعالى، وتدفعه تعالى إلى الخلف، وتقول سبحان من صمّم الجينات، ثم تكتشف أن الجينات بوليمر يتركّب بشكل إجباري عند وجود العناصر المناسبة في البيئة المناسبة، وتدفعه تعالى إلى الخلف وتقول: سبحان من خلق المواد بهذه الخاصية... لا، من الأول للآخر سبحان الله، فسواء علمت كل آليات حدوث الأشياء أو علمت بعضها أم لم تعلمها، فسبحانه صمّم السماوات والأرض بحيث تسير الأمور بأسباب وآليات أوصلت الدنيا إلى ما هي عليه الآن، ولا تزال مستمرة على ما صمّمه تعالى، وهنا السورة تركّز على النهاية "النتيجة الحالية"، على الوردة التامة التي تراها وتشمّها وتمتص النحلة رحيقها... ولا تركّز على طريقة التصنيع، وأصلاً القرآن لم يذكر آليات تصنيعه وخلقه تعالى للأشياء.

دعك الآن من التعرّف على آلية التصنيع وكيفية عمل الكون، فالبحث عن الآليات ممتع ولكن هذا ليس موضوع القرآن، وانظر للنتائج، من ليل ونهار ومطر يصير رزقاً ورياحاً منصرفة هنا وهناك... وانظر لنفسك ككائنٍ واعٍ مفكّر له كيان وحواس... وانظر للدواب من حولك وتنوّعها وتنوّع أشكالها وقدراتها وحواسها ونمط عيشها... فانظر لها كنتيجة حصلت وها تراها. ألا تدل على خالق عظيم؟ إن لم تدلك على ذلك، فأنت أصلاً مضروب في عقلك حتى لو كنت تحمل عشرات شهادات الدكتوراه والبروفسير. ولترى معنى قولي هذا المنقول عن كلام القرآن، قديماً وحديثاً ترى أناساً مدّعين للعلم والفهم ولهم مراكز علمية وسلطوية... وهم يتعاملون مع الأمور بغباء أو سذاجة، فالعناوين التي يحملونها من أوصاف بالعلماء والرؤساء... والشهادات التي نالوها... لا تعني أي شيء إن لم يكونوا عقلانيين باقتناعهم بما هو حقّ وتكذيبهم لما هو باطل.

بناءً عليه آياته تعالى في خلق السماوات والأرض، هي أدلة أكثر من كافية للدلالة عليه سبحانه، ومن يرفضها فهو منكر لحقيقة واضحة.

بقي شيء نلتفت له من عامّة القرآن، هنا الآية وغيرها العديد من آيات القرآن، مثلما تشير لتصميمه تعالى وخلقه لهذه الظواهر، في نفس الوقت، هي ظواهر من نوع المتغيرات، مرّةً ليل ومرّةً نهار، مرة مطر ومرة صحو، مرة موت للأرض ومرة حياة، مرّةً ريح ومرة سكون، فنلاحظ أن القرآن يريدنا أن نلتفت للتغيّر، حيث إنّ السورة هنا تشير لهذه الآيات وتقول عن منكرها أنه ينكر إعادتنا إلى الحياة في الآخرة، فيما سيأتي من كلام ستلاحظ أنها آيات تحمل معنى التغيّر، ونحن يجري علينا هذا التغيّر، الآن نحن أحياء، وبعدها أموات، وبعدها أحياء وحساب وجزاء.

لو كنّا وكانت الدنيا من حولنا من النوع الساكن بلا تغيّرات، فلنقل: دنيانا غرفة فيها لعب بلاستيكية بأشكال مختلفة، وحيطانها مرسوم عليها، وفي وسطها لمبة... والألعاب لديها وعي ولكنها جامدة مثلها مثل بقية البلاستيكيات والرسوم في الغرفة، فلا ليل ولا نهار ولا نزول للمطر ولا ريح ولا خروج للنبات... الآن تصوّر نفسك من بلاستيك وجامد في أرضك في تلك الغرفة، ولا شيء يحصل معك ولا من حولك، وبعدها قارنها مع الواقع، الآن سترى وتفهم ما تقوله الآية عن دنيا المتغيرات وستفهم الخبر من الذي خلقها عن تغيّر سيأتي في المستقبل، وهو الخبر عن إعادتنا إلى الحياة بعد الموت لمحاسبتنا.

أيضاً هذا النوع من التعابير القرآنية الذي نقرؤه هنا في الآية عن المتغيرات، أيضاً يشير إلى استمرار متابعة ربّ العرش لها لتحصل، فهي لن تستمر إن تركها سبحانه، وهذا ما تقوله الآية 41 من سورة فاطر "إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ..."، ولم تدخل السورة في هذا التفصيل واكتفت بالإشارة الواضحة إليه، واستعملت تعبير "واختلاف، وما أنزل، وتصريف" لأنّ هذه تعابير تشير لتكرار حصول الظواهر وتتضمّن الإشارة إلى متابعته تعالى لها، حيث إنّ الآية ترسّخ في ذهنك أنه تعالى لم يخلقنا ويتركنا، بل لا يزال سبحانه متابعاً لما يحصل، فهو رب السماوات والأرض، واستوى على العرش...

(تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ{6})
{تِلْكَ}، الكلام السابق عن لفت انتباهنا للسماوات والأرض وأنفسنا والدواب والليل... هي، {آيَاتُ اللَّهِ}، أمور مميزة منسوبة لصاحب الاسم المحدّد المميّز الله عزّ وجلّ، فقد صمّمها وخلقها سبحانه بهذا الشكل لتدلنا عليه بسهولة كإله عظيم القدرة، {نَتْلُوهَا}، نقرأ تلك الآيات عليك عن مصدر، مثلما أقرأ عليك من كتاب، فوصف هذا الحدث هو تلاوة،

وسبحانه يرى الكائنات والظواهر ويعدّدها لنا، فيصير الوصف لهذا الحدث: تلاوة إلهية للآيات علينا، يتلوها تعالى، {بِالْحَقِّ}، بالصواب وليس بالباطل، ليست وهماً ولا كذباً ولا مبالغة... لأنّ الآيات أنت وما هو أمامك وخلفك وفوقك... فيلفت سبحانه انتباهك لها.

{فَبِأَيِّ حَدِيثٍ}، بأي كلام يقوله كائن لكائن آخر عن أحداث عن أمور حصلت، {بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ}؟ ها هي مقدّمة السورة تتحدّث معنا عن الله تعالى وما فعله من أمور مميزة "آياته"، فإن لم يعلنوا اعتقادهم بهذا الحديث، فبأي حديث آخر سيعلنون تصديقهم له واعتقادهم به؟ بحديث إنكار الألوهية؟ بحديث أن الطبيعة خلقتنا؟ بحديث أننا مخلوقون بالصدفة؟ بحديث أن التكرار الهائل للأحداث وتفاعل الأشياء أوجدنا وأوجد ما حولنا وأوصلنا لما نحن فيه؟ بحديث أننا هكذا من لا شيء صرنا وصار الكون؟ بحديث أن بذرة طاقة فيها خصائص سينتج عنها الكون ولا يوجد إله صمّم وخلق؟ بحديث من يقول أن موضوع الدين لا يهمّه ولا يريد أن يفكّر فيه؟... فهل بهذا يؤمنون فيعلنون اعتقادهم؟

انتبه والتفت أن الإله الخالق بذات نفسه يتحدّث معنا، فيقول خلقت: كذا وكذا وما ترونه هو نتاج تصميم وتخطيطي... ألا تؤمنون بهذا؟ فبماذا تؤمنون إذن؟ أليس من الواضح فيكم ومن حولكم ما ألفت انتباهكم له؟

هكذا ترى أنه تعالى تقصّد الإكثار فيما خلقه من التفاصيل العاكسة لقدراته العظيمة حتى نتعرّف عليه ونؤمن به بسهولة.

(وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ{7})
{وَيْلٌ}، مصيبة عظيمة، {لِّكُلِّ أَفَّاكٍ}، لكل من قال الحقيقة بالمقلوب، فالصحيح الواضح هو خلقه تعالى لكل شيء كما أراد وصمّم، وعكس هذا الكلام هو إفك هو قلب للحقيقة، فويل لكل أفّاك، {أَثِيمٍ}، يرتكب السوء عن علم، فيعلم أنها آيات ولكنه عن قصد وعن علم ينكر بأنه تعالى مصمّم وخالق.

ننتبه للوقحين الذين يقرؤون هذا الكلام ويردّون عليه، فيقولون: لا، نحن لا نراها آيات، واتهامنا بقلب الحقيقة وتحريف الكلام رغم معرفتنا أنها آيات... فهو كلام غير صحيح، فلنتابع لنرى ماذا تقول له السورة:

(يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ{8})
الويل لكل أفّاك أثيم:

{يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ}، يسمع الأمور المميزة المنسوبة لله تعالى والتي تدل عليه سبحانه كإله بقدرات فائقة صمّم وخلق، فيسمع الآيات استنادا لما فيه وحوله من كائنات وظواهر... {ثُمَّ يُصِرُّ}، فبعدها يقرّر أن يبقى على موقفه، {مُسْتَكْبِراً}، فيرى نفسه أكبر من أن يغيّر أقواله ويؤمن! {كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا}! كأنه لم يسمع الأمور الإلهية المميزة؟! فلم يعتبر لها قيمة ولم يهتم بها ولم تثر اهتمامه...!

{فَبَشِّرْهُ}، لأنه يتوقّع خبراً ساراً عن شيء يهمّه، فانقل له خبراً صادماً، {بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}، بضرر لا يمكنه تحمّله ولا الاعتياد عليه.

فهل هذا ما يريده كنتيجة لإفكه وإثمه وإصراره واستكباره؟! فلينتظره.

وهذا خبر عمّا سيحصل، سواء آمن به أو لم يؤمن به، فلن يتغيّر أي شيء، فطالما بقي مصراً مستكبراً فالتعذيب الأليم سيحصل له حتماً، أعجبه أم لم يعجبه، وكفره بالعذاب لن يلغي عنه العذاب، فهو شيء حتما سيحصل فبشّره به.

نلاحظ أن كلمة "بشرى" هي سماعك لخبر جيد عن شيء يهمّك، كشيء حصل ولم تعلم به وتريد معرفة خبره أو سيحصل وتريد معرفة خبره، فأثناء انتظار الخبر تستبشر فتريد أن يكون موافقاً لما تحبّ، وعندما نستعملها لخبر سيئ نقصد بالتبشير الصدمة بخبر معاكس عمّا نرغب به.

(وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ{9})

{وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً}، فصار لديه علم عن شيء مميز منسوب له تعالى، فالتفت إلى آية الليل والنهار، أو المطر، أو النبات... {اتَّخَذَهَا هُزُواً}، فتعامل معها من خلفية الاستخفاف والهوان فاعتبرها بلا قيمة واستهان بها، فعلم أنها رائعة التصميم والتناسب... ولكنه لم يتعامل بجديّة مع دلالتها على خالقها العظيم، فاعتبرها تحصيل حاصل أو بالصدفة أو هكذا مجرد أحداث غير مهمّة... وقال بأن لها سببا لوجودها وتكوينها وتصميمها بهذا الشكل ولا أعرفه بالضبط ولكنها لا تدل على إله خالق. فالكلام عن اعتبارها آيات إلهية بالنسبة له، فهو كلام بلا قيمة.

انتبه، فهو لم يعتبر الليل والنهار والمطر... أموراً لا قيمة لها، بل استهزأ بدلالتها عليه تعالى كأعمال مميزة صمّمها وخلقها تعالى، فهذا ما استهزأ به واعتبره كلاماً بلا قيمة.

{أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}، لهم ضرر يسبّب لهم الشعور بأنهم بلا قيمة، بالإهانة بالاحتقار، كمقابل لاستهزائهم بآياته تعالى فسينالون عذاباً يتضمّن الإهانات بالكلام وبطريقة التعذيب.

(مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ{10})

{مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ}، مثل الذي وراءه عدو سيهجم عليه وهو غافل مستهتر عن عدوّه ويعيش حياته العادية ولا يستعدّ لما سيحصل، أو مثل المسرف المبذّر للمال الذي تقول له: من وراء تبذيرك ستصير فقيراً وعندها ماذا ستفعل؟ وهنا جهنم هي المكان الموصوف بسوء ما فيه، {مِن وَرَائِهِمْ}، فهي الآتية من بعد حالة كفرهم، {وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئاً}، فما كسبوه هو ما حصلوا عليه من أمور نتجت من أعمالهم التي فعلوها في الدنيا، ومهما كان نوعها، من ثروة أو اختراعات أو سلطة... وحتى لو كان خيراً وإحساناً مع ملايين البشر، طالما لم يؤمنوا به تعالى فلن يغني عنهم ما حصلوا عليه في الدنيا من عذاب جهنّم، حيث سيريدون الاستغناء عن جهنّم، وما كسبوه لن يحقّق لهم ذلك، والسبب واضح، لأنهم قرّروا الكفر وهذا نتيجته العذاب، وفرضاً لو كان لهم أعمال حسنة فلماذا سيعطيهم تعالى حسنات إن كانوا لم يفعلوها بنيّة الإيمان به تعالى وبنيّة الطاعة له وبنية الحصول على الثواب منه تعالى! فليأخذوا حسناتهم ممن نووها له، فإن نووها للإنسانية فليأخذوا ثوابهم من الإنسانية...

تذكّر ما يقوله القرآن عن حبط الأعمال، عن الهباء المنثور... فلا قيمة لأعمالهم الصالحة من مساعدة لأيتام أو دواء شفى الملايين... لأنهم لم يقوموا بها وفي حساباتهم الأجر منه تعالى عليها، فلماذا سيعطيهم تعالى الأجر عليها!

بالنسبة لكلمة "الغنى" أصلها من معنى الاستغناء، وهو عموم انتفاء عموم الحاجة لعموم أي سبب، إمّا لأنك لا تحتاج أصلاً للشيء، وهذه حالته سبحانه. أو لديك ما تحتاجه، فأنت غني بالطعام ولديك مخزون منه. أو تملك ما يمكّنك من الحصول على ما تحتاج، ولديك المال الذي تشتري به الطعام. ولكن إن كان معك المال وكنت في الصحراء، ولم تجد ما تحتاجه لتشتريه فبقيت جائعاً عطشاناً... فالمال لم يغنك، وهنا الكلام نفس الشيء، حيث معهم شيء، ففي الدنيا كان معهم الثروة والسلطة والاختراعات... وهذا من الواضح أنه لا يغني عن العذاب، وقد يكون معهم أعمال حسنة ولكنها لن تغنيهم من العذاب لأن ما معهم لا قيمة له بدون إيمان.

استعمال كلمة "الاستغناء" ليس محصوراً بالمال والأملاك، فأنت بالغنى عن صداقتي، وأنا بالغنى عن مرافقتك...

فلا ما كسبوه سيغنيهم، {وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ}، حيث اعتبروا غيره تعالى ولياً لهم، كتابعين لهم يسمعون كلامهم ويطيعونهم، سواء اعتبروا من والوه إلهاً، أو اعتبروه شخصاً مرموقاً فهيماً يستحق الولاية، فلن يغني عنهم من جهنّم، مثلما نقول: معي مال كثير يغنيني عن العمل، فلست بحاجة للعمل ولن أعمل. وهنا أي ولي غيره تعالى لن يغنيهم عن جهنّم، لأنهم سيدخلون إليها حتماً، وبالعكس من والاه تعالى فلديه ما ينفعه.

{وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}، ولهم ضرر ضخم هائل شديد جداً لن يكون عادياً.

(هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مَّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ{11})

{هَذَا}، الكلام عن لفت الانتباه للآيات، {هُدًى}، لأن فيه الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة المرغوبة، وهو الإيمان بالإله الخالق العظيم وهذا الإيمان بالحقّ يوصل لمرضاته تعالى والجنّة، {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ}، حيث

أنكروا الأمور المميزة المنسوبة للمسؤول عنهم من مستوى إلهي، ولم يعتقدوا أنها مميزة تدل عليه تعالى، {لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ}، لهم ضرر من شيء لا خير فيه أبداً، {أَلِيمٌ}، لا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه.

تعقيباً على كل ما سبق من السورة، ضع في بالك أنه تعالى لا يعرض علينا عقيدة لنؤمن بها بالمعنى المتعارف عليه بين الناس المختلفين بالعقائد، فتعرض عقيدتك عليهم، ويعرضون عقيدتهم عليك... بل يعرض علينا سبحانه الإيمان بصحة المعلومات التي يمكننا رؤية الحقّ فيها، ونفهمها بشكل أبسط من نفس النظرة لما نسميه بالتشريعات، فسبحانه لا يعرض علينا تشريعاً كشيء نازل من السماء وتلتزم به على عماه، بل يلفت انتباهنا للخير والشرّ والفساد والصلاح، ويأمرنا بفعل الخير وينهانا عن فعل الشرّ... لأنّ كل كلام القرآن التشريعي جاء مع تبريراته التي تريك الفساد فيما نهى تعالى عنه، وتريك الخير فيما أمر به تعالى.

الكلام عن الإيمان نفس الشيء، لا يطرح القرآن عقيدة لتؤمن بها على عماها، أو تتغاضى عن بعض ما لم تقتنع به، وها ما سبق من كلام وصولاً إلى هنا، هو نموذج عن عموم كلام القرآن عن معلومات حقيقية عليها أدلة، لأنّ تكذيبها هو مخالفة للعقلانية، والمطروح هو الكلام عن الإيمان بمن خلقنا، وعن محاسبته ومجازاته لنا على الكفر به وعلى فعل السيئات...

(اللَّهُ الَّذِي سخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{12})
{اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المميّز المحدّد له هو، {الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ}، والسخرة وصف من يعمل ما يريده أو يحتاجه الآخر، فهي مقابل من يقوم بما يريده لنفسه بنفسه. وأوّل ما يخطر ببالنا الذين يعملون لدى الآخرين بلا مقابل كالعبيد أو مقابل الطعام فقط... ولكن الوصف بالسخرة أعمّ ويشمل الأتباع المسخرين لعموم أوامر رئيسهم فينفذونها بدون أجرٍ... ويشمل الظواهر الطبيعية التي نستفيد منها فهي مسخرة لنا.

من دون أن تقدموا أي شيء للبحر، لتجمعات المياه الضخمة، البحر يقدّم شيئاً لكم، {لِتَجْرِيَ}، لتنتقل بالتحرّك المتتابع، لتسير، {الْفُلْكُ فِيهِ}، أنواع العوامات من سفينة ومركب وفلوكة... فتجري في البحر، {بِأَمْرِهِ}، فهو تعالى أراد لهذا الأمر أن يحصل، وأنتم لم تفعلوا أي شيء بخصوص طفو الأشياء وجريانها على الماء، فسبحانه جعل هذا الأمر يحصل.

{وَلِتَبْتَغُوا}، لتقصدوا باستعمال الفلك، {مِن فَضْلِهِ}، من الأشياء التي منحها سبحانه لكم بدون أي مقابل منكم ومن دون أن تكون واجبة عليه تعالى، فجريان الفلك ليحملكم ويحمل أغراضكم من بلد إلى بلد، وباستعمال الفلك تحصلون على السمك بعيداً عن الشاطئ... والحصول على كل هذا هو فضل من ربّكم سبحانه تبتغونه من جريان الفلك على الماء.

{وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، ومن المتوقّع ومن المفروض أن تعلنوا وتعبّروا له تعالى عن جميل ما حصلتم عليه.

عموم القرآن يركّز على نقطة مهمّة: نحن لم نكتشف عوم وجريان الأشياء على الماء ولم نصنع الفلك على أساس أنه تعالى لم يحسب لهذا حساباً، وبتعبير متساهل فيه فنحن لم نكتشف شيئاً لم يخطر على باله تعالى. بل من الأساس صمّمنا سبحانه "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" ووضع فينا الفكر والخيال... وصمّم البيئة التي نحن فيها... وهو سبحانه يعلم أننا في وقت ما سنصل إلى صنع الفلك لتجري على الماء.

تحدّث القرآن عن نموذج آخر، عن ترويض حيوانات قادرة على حملنا وحمل أغراضنا "جمال بغال حمير أحصنة..." كما تقرأ في الآية 79 من سورة غافر "اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ"، وفي هذه الآية ترى أن أكلنا من لحمها أيضاً ليس اختراعاً واكتشافاً منّا لشيء لم يكن بحسبانه تعالى... وتحدّث القرآن عن استخدامنا الحيوانات للصيد كما تقرأ في الآية 4 من سورة المائدة "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ..."، وأشار لنموذج أسهل من ذلك بكثير، كاستخدامنا للنهار للحركة والنشاط والليل للنوم والسبات، فهذه حالة نعتبرها طبيعيةً عاديةً، ولكن تعاملنا مع الضوء والعتمة هو في الحقيقة تسخير لنا لهاتين الظاهرتين، وهذه وغيرها نماذج عن كل شيء، فالسيارات والطائرات والقطارات والطاقة النووية والشمسية والتفاعلات الكيميائية... كلها تسخير منه تعالى لنا، ومدّة بعد مدّة نتعرّف على شيء جديد يمكننا استخدامه...

بعبارة أخرى، لننظر لتزويده تعالى لنا بالفكر والملاحظة والخيال... وبرغبات وحاجات... في بيئة صمّم تعالى خصائصها، وهذا الخليط يجعلنا محفّزين للابتكار... فبعلمه الفائق سبحانه يعلم ما سينتج عنّا من صنع للفلك والسيارات والطائرات... وضرب لنا في قرآنه نموذجاً عن صنعنا للفلك العائمة في بحر لا علاقة لنا بتصميم تكوينه وخصائصه، وقبل ذلك لا علاقة لنا بتصميمنا نحن وخصائصنا المؤهلّة لنا للاكتشاف والابتكار. وهي نفسها هذه النقطة التي يركّز عليها القرآن كآية كشيء من المفروض أن يدلّنا على من صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا، وترى أناساً يتبجّحون بالقدرات الإنسانية الخلّاقة المسيطرة على الطبيعة، فتجدهم متعالين عن الإيمان بالإله لأنهم اكتشفوا كيف تعمل الطبيعة! واكتشفوا كيفية تسخيرها! بينما ترى القرآن مشحوناً بالكلام الذي يلفت انتباهنا لفضله تعالى علينا بتسخير الطبيعة لنا، وهذا ما تركّز عليه سورتنا هذه.

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ{13})

اللَّهُ تعالى، سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وهذا تعبير يشابه قولنا: كل شيء في الدنيا مسخّر لنا. مُتَاحٌ لنا لاستخدامه ونحن لم نخلقه ولم نصمّمه... ولا نقدّم أي شيء له... وها نحن في مرحلة اكتشاف ما هو مسخّر لنا على الأرض، من فلك "سفن" وطيران وتفاعلات كيميائية وفيزيائية... ويبدو جَلِيّاً أننا ذاهبون إلى مرحلة تسخير ما في السماوات ويؤكّد ذلك ما ورد في الآية 33 و 35 من سورة الرَّحْمَنِ {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ... يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ}.

{سَخَّرَ لَكُمْ... جَمِيعاً مِنْهُ}، فَكُلُّهُ منه تعالى وليس من الطبيعة وَحْدَهَا ولا بالصدفة ولا من اكتشافكم شَيْئاً لم يكن بحسبانه تعالى.

إن في ذلك التسخير لما في السماوات والأرض، {لَآيَاتٍ}، أُموراً مُمَيَّزَةً كعلامات ودلائل على وجود إله عظيم أتاح لنا التعامل مع ما في هذه الدنيا وَسَخَّرَهَا لنا، {لِقَوْمٍ}، لِأُنَاسٍ لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع هذه الأمور، {يَتَفَكَّرُونَ}، يُفَكِّرُونَ فَيُحَرِّكُونَ التحليل والاستنتاج ليصلوا إلى التعرّف على إله عظيم صمّمنا وصمّم ما حولنا وخلقه ليكون مُسَخَّراً لنا.

نلاحظ وضوح القرآن حول تسخير كلّ شيء لنا نحن الْبَشَرَ، ولكن هل هذا يعني تسخيرها لنا وَحْدَنَا؟ لا، لِأَنَّ كُلَّهَا مُسَخَّرَةٌ لنا، ولغيرنا أيضا، حَيْثُ هناك الجنّ، وربما هناك حياة عاقلة على كواكب أخرى في سمائنا أو في سماوات أخرى غير البشر والجنّ... وَكُلُّ السماوات والأرض مسخّرة لنا ولغيرنا.

ننتبه، فَفَهْمُنَا للقرآن وللروايات بأن خراب ما في الدنيا قريب وبعده يوم القيامة، مَنَعَنَا من فهم العديد من آيات القرآن، حَيْثُ إِنَّ عَامَّةَ المتدينين يعتقدون أنه لن يطول عمر الدنيا وستخرب بعد سنوات قليلة، أو مئة أو مئات، أو ألف على الأكثر... وهو كلام يتوافق "ظَاهِراً" بالفهم الساذج مع بعض آيات القرآن، ولكنه يتعارض بشدّة مع بعض ظاهر صريح آيات أخرى، وَلْنَنْظُرْ للآية 33 من سورة الرَّحْمَنِ {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}، وَمِنَ القرآن نعلم أن الجنّ سَبَقُونَا لِاخْتِرَاقِ السماوات ويتعرضون للشهب عند اقترابهم من سماء الملائكة العالية كما تقرأ في الآية 9 من سورة الجنّ {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً}، وَأَتَى دورنا للنفاذ من قطر الأرض بعد قرابة الْأَلْفِ وَأَرْبَعِمِئَةِ سنة من نزول هذه الآية، وسيأتي زمان ننفذ فيه من أقطار السماوات لنتعرّض للشهب عند اقترابنا من سماء الملائكة العالية كما تقرأ بوضوح في الآية 35 من سورة الرَّحْمَنِ {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ}... وأدبيات الأجيال السابقة من المسلمين كانت تتحدّث بصراحة عن الدنيا أنها لن تستمر لأكثر من ألف سنة "على أبعد تقدير"!

أَمَّا الآيات التي تشير "ظَاهِراً من الفهم الساذج" لاقتراب أجل الدنيا، فلو قسناه إلى عمرها الممتد إلى مليارات من السنين، فبضعة ملايين قادمة تعتبر مدّة قصيرة وقريبة لنهاية عمرها، طَبْعاً لا علم لي ولا لأي مخلوق بمدّة عمر الدنيا، ولكن يبدو أن نهايتها ليست قريبة بالشكل الذي يفترضه غالبية المتدينين، وَبِخَاصَّةٍ إذا نظرنا للخبر القرآني عن نفوذنا في أقطار السماوات وتعرضنا للشهب من الملائكة... وعن إفساد بني إسرائيل الذي ورد الكلام عنه في سورة الإسراء، فراجعها لترى أنه خبر عن أمور لم تحدث بعد... وعلى أي حال، فافتراض بقاء الحياة البشرية لملايين السنين على

الأرض هنا أو على كوكب آخر... فهو لا يتعارض مع أي شيء من ظاهر كلام القرآن، فراجع في دراستنا هذه أي آية تفترض أنها تشير لغير ذلك لترى معناها الدقيق.

(قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ{14})
{قُلْ} أيها الرسول(ع) عبر هذا القرآن، {لِلَّذِينَ آمَنُوا}، للذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين، {يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ}، لِيَتَجَاوَزُوا عن المعتقدات و"بعض" الأعمال السيئة التي قام بها الذين لا يحبّون ولا يتوقعون ولا يرجّون حصول الأيام المنسوبة له تعالى، وهي أيام الآخرة حيث قيامهم من الموت ومحاسبتهم والدخول للنار... لِأَنَّهُمْ لا يؤمنون بحصول أيام الله تعالى ولا يرغبون أصلا بحصولها، ومن هذه العقيدة والشعور لم يلتزموا بدينه تعالى لأنهم لم يعتقدوا بحساب على ما يفعلونه، فتجاوز عن أَقْوَالِهِمْ "وبعض أعمالهم" السيئة، وهذا المعنى ورد في عدّة سور بصيغ مختلفة منها: قالوا سلاما، قل سلام، فأعرض عنهم...

لَا علاقة لك بمحاسبتهم على إيمانهم، وسياق الكلام هنا يشمل أعمالهم السيئة التي لا تؤثّر عليك لِذَا لا علاقة لك بها، وأمّا الأعمال السيئة التي تؤثر عليك كتعدّيهم عليك بسبب دينك... فالحديث عنها في مكان آخر.

أمّا بالنسبة لحسابهم على إيمانهم "وأعمالهم السيئة" فهناك حتما أيام لله تعالى، {لِيَجْزِيَ قَوْماً}، ليعطي سبحانه بالمقابل للناس الذين لهم كيان الجماعة، {بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، بالذي كانوا يحصلون عليه مما ينتج عن أعمالهم، حَيْثُ حصلوا من كفرهم واستهزائهم بالآيات على السيئات، وسيعطيهم سبحانه المقابل على ما حصلوا عليه، طبعا المجازاة ستكون بالعذاب في جهنّم.

ننتبه ولا نجمد بتحجّر أمام آيتنا هنا لنشتقّ منها وجوب غفراننا نحن الأعمال السيئة للكافرين، لِأَنَّ الكلام هنا ليس عن قتلهم أو اعتدائهم أو سلبهم... للمؤمنين، حَيْثُ هناك أوامر إلهية صريحة منتشرة في القرآن بوجوب الردّ عليهم... أمّا هنا فالكلام معهم في موضوع إنكارهم للآيات الدالة عليه تعالى وبالتالي إنكارهم لدينه تعالى وللآخرة، فحسابهم على هذا ليس عليك...

ولمزيد من التوسّع حول كيفية تعامل المؤمنين مع الكافرين راجع الآية 8 من سورة الممتحنة {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ{15})
القاعدة العامّة الأساسية لمجازاته تعالى لنا في الآخرة:

{مَنْ عَمِلَ صَالِحاً}، بَاشَرَ بالتصرفات الموصوفة بأنها صالحة حسنة جيدة، وهو قيامه بما يراه قلبه السليم صالحا، وهذا يتماشى مع أوامره تعالى الذي لا يأمر إلا بما هو صالح، وَزَوَّدَنَا تعالى بالقدرة على تمييز الخير من الشرّ، وَعَمَلِيّاً هو تركه لما حرّمه تعالى وفعله لما أوجبه تعالى.

عَادَةً نفسّر "عملوا الصالحات" على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إِنَّهُمْ صلّوا وصاموا... وهذا عمليا صحيح، ولكن بالأصل اَلْكَلَامُ أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون التي يرونها هم صالحة جيدة.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموما وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، حَتَّى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائما أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فَيُؤْمِنُونَ به.

هذا الكلام له عمق، حَيْثُ لَا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعا ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. وَهَذَا يعني إمّا أنه في قلبك خَلَلٌ مَنَعَكَ من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّا لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلا سيّء" سَيَكُونُ في الحقيقة اخْتِرَاعاً من البشر لصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمرا إلهيا.

{فَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ}، فهو سينتفع من الأعمال الصالحة حَيْثُ سبحانه وعده على ذلك بجنّة خالدة، وسبحانه لا يستفيد من عملنا الصالح بأي شيء ولن يتضرّر سبحانه من عملنا السيّء.

{وَمَنْ أَسَاءَ}، قَامَ بالأعمال السيئة الرديئة العاطلة الفاسدة... وَفَعَلَ ما يعلم أنه سيّء، أو من شدة سواد قلبه صار يرى السيّء حسنا وَفَعَلَ ما يراه أصحاب القلوب السليمة سيئا، ويراه تعالى سيئا، لِأَنَّهُ سبحانه لا يأمرنا بالأمور السيّئة، وجعل سبحانه فينا قلوبا ترى الأمور السيئة وهكذا عمليا تتماشى رؤيتنا للأمور السيئة مع ما نهانا عنه سبحانه، وَنَهَانَا تعالى عن الكفر بالآيات وبرسله وما وصلنا من أخبار منه سبحانه وعن بعض الأفعال السيئة... فمن فعلها، {فَعَلَيْهَا}، عَلَى نفسه يقع السوء، فهو سيكون موصوفا بالسوء، وعمليا سيتحاسب هو نفسه عليها وينال العقاب.

{ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}، يَتِمُّ إرجاعكم إلى المسؤول عنكم من مستوى إلهي، طبعا في يوم القيامة من الموت نرجع إلى الحياة ليحاسبنا سبحانه وننال الجزاء على الصالح والسيّء الذي عملناه.

بناء عليه اغْفِرْ للذين لا يرجون أيامه تعالى أيها المؤمن كما قالت الآية السابقة، لِأَنَّ حسابهم ليس عليك، ولن يضرّوك إن كفروا... وها نخبرك أن تهتمّ بالقيام بالعمل الصالح، لِأَنَّهَا لك وستثاب عليها أنت، ونخبرك عمّن ارتكب السيئات، ونخبره هو أن السيّئات عليه، حَيْثُ إِنَّ كفرهم وَاسْتِهْزَاءَهُمْ بالآيات هو عمل سيّء سيتحاسبون عليه، فاهتموا أيها المؤمنون بأنفسكم.

نلاحظ استعمال القرآن لتعابير العمل الصالح لنفس العامل، والعمل السيّء "على" العامل، لِأَنَّ هذه طريقة التعبير باللغة العربية على الشيء الجيد الذي تحصل عليه، لنفسك لتكون موصوفا به، وعمليا لتنعم أنت به... والسيّء عليك، لِأَنَّكَ أنت تصير موصوفا بالسوء، وعمليا عَلَيْكَ تقع تبعاته، وَعَلَيْكَ وزره...

كما ترى أَنَّ جُمْلَةً قصيرة كآياتنا هذه تحمل مَعَانِيَ كثيرة، أهمّها أننا نحن نرى وصف العمل، حَيْثُ يمكننا أن نحدّد ما هو سيّء وما هو صالح، بشرط أن يكون قلبنا سليما، ويأتينا كلامه تعالى لِنَتَمَاشَى معه ونلتزم به لأننا نراه صالحا، ونفهم منه بالتفصيل بقية الأمور الصالحة التي عجزنا عن تحليلها ورؤية عمقها لأن قلوبنا ليست بالصفاء الكافي لرؤية صَلَاحِهَا أو سُوءِهَا، كالإجازة بقتل القاتل مع أن العفو أحبّ إليه تعالى... ومنها أنه تعالى رحيم، لِأَنَّ العقاب على السيّئة التي ارتكبناها ونحن نعلم بأنها سيّئة، أمّا إذا لسبب ما لم يعلم المؤمن أنها سيئة، أو بالخطأ ارتكبها... فسبحانه يغفر له.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ{16})

{وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}، أعطينا لذرية النبي يعقوب(ع) الذي له اسْمَانِ "يعقوب وإسرائيل"، {الْكِتَابَ}، ومن المشهور من القرآن أنه كتاب التوراة، وآتاهم تعالى، {وَالْحُكْمَ}، حَيْثُ كَانَ فيهم أناس حكماء، يَرَوْنَ الأمور بطريقة صحيحة ويتعاطون معها بطريقة صحيحة ويرشدون الآخرين، وآتاهم تعالى، {وَالنُّبُوَّةَ}، حَيْثُ كَانَ منهم أشخاص يصلهم النبأ منه تعالى، وَيَصِلُهُمُ الخبر غير المنتشر معرفته بين الناس.

{وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ}، وَصَارَ معهم منه تعالى ما يسدّون به حاجاتهم ورغباتهم، الأشياء التي يأكلونها ويعيشون منها... وهي موصوفة بأنها طيبات محبّبة مرغوبة، وَلَمْ يضطرّوا لأكل الطعام المكروه غير المحبوب، ذِي الرائحة أو الطعم الكريه أو المقرف... كالحشرات والقوارض والحيوانات التي يَجِدُونَهَا ميتة "الجيفة"... {وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}، حَيْثُ هُنَاكَ أناس غيرهم لم يحصلوا على هذه الأمور الجيدة التي منحها تعالى لهم من دون أن تكون واجبة عليه سبحانه.

بعد انتهاء السورة من مسألة الإيمان بالآيات الإلهية، عرّجت على أول مجتمع معروف مشهور في التاريخ أنه متدين بدينه تعالى، حَيْثُ قَبْلَ بني إسرائيل جاء رسل وأنبياء ونزلت كتب، ولكن كما يبدو من القرآن ومن التراث الثقافي الديني، يبدو أنه لم يتشكّل "مجتمع" متدين قبل بني إسرائيل، ولذلك في عامة القرآن نجدهم مضرب مثل لحالة المجتمع المنتمي بالاسم لدينه تعالى، وعادة يشير إليهم القرآن كنموذج جيّد أو سَيِّئٍ ويقيس عليه المجتمعات الأخرى.

سترى أن الفقرة هنا جاءت لتبيّن سبب إِرْسَالِ الرسول محمّد(ع) بالرغم من وجود تراث لدينه تعالى مع بني إسرائيل ويمكن لبقية الناس الاطلاع عليه، وَالسَّبَبُ أنهم اختلفوا في دينه تعالى وَلَمْ يعد صافيا، وصار التشوّه فيه كبيرا وغير

مقبول، وهذا ما ستراه من الآية التالية، وبعد آيتين سترى تعريج السورة على دمج الظالمين من بني إِسْرَائِيلَ مع المنكرين للآيات والآخرة من حيث إِنَّ كِلَيْهِمَا عمليا منكران لهذا الدين الإلهي، لِأَنَّ كِلَيْهِمَا لو آمنوا بالآيات والآخرة لاتّبعوا هذا القرآن، وقبل ذلك ترى من الآية هنا العناية الإلهية المشهورة جدا والخاصة ببني إسرائيل على العالمين، والتي لم تنفع معهم ليؤمنوا كلّهم! وَرَغْمَ فضله سبحانه المميّز جدا عليهم عن الآخرين، انْحَرَفَ منهم الكثيرون ولم يؤمنوا بالآيات ولا بالآخرة، وبالنظر لكلام السورة مع منكري آياته تعالى وآخرته ترى مقارنتهم مع بعض بني إسرائيل حيث تشير هنا إلى نفس العقلية والنفسية مع اختلاف تسمية المجموعتين، فَوَاحِدَةٌ علنا كافرة بالرغم من تمتّعها بفضله العام سبحانه بما سخّره للبشر... والأخرى قسم منها يدّعي الانتماء لدينه تعالى مع أنهم كافرون بالآيات والآخرة، والنتيجة لِكِلَيْهِمَا: العذاب.

ما تقرؤه هنا في الآية عن فضائله تعالى مع بني إسرائيل يأخذك إلى نموذج من الناس لم ينفعهم فضله المميّز سبحانه عليهم ليؤمنوا، فمن كان مشابها لهم في العقلية فلن يؤمن مهما تفضّل عليه سبحانه، وَأَسَاساً تفضّل علينا سبحانه كلّنا بخلقنا في بيئة مسخّرة لنا كما قالت السورة منذ قليل، والكثيرون من البشر لم يؤمنوا، وبنو إسرائيل مضافا لما تفضّل به تعالى على العالمين فَضَّلَهُمْ على العالمين بأمور اختصّهم بها ككتاب التوراة... ورغم ذلك فَإِنَّ الكثيرين منهم لم يؤمنوا.

أطلت عليك ليبقى هذا في بالك حين تقرأ القرآن وتظن بأي سورة أنها قفزت للكلام عن بني إسرائيل، وكأن الكلام عنهم لا ارتباط له بموضوع السورة وسياق الكلام، لا، لِأَنَّ دائما قصد القرآن من الانتقال إلى بني إسرائيل أو النصارى أو عموم أهل الكتاب، أو الأقوام التي نزل عليها العذاب... قصد ربطا بين حالتهم وبين موضوع السورة وسياق كلامها، وَتَقَدَّمَتْ دراستنا هذه بشكل ملحوظ عن بقية التفاسير بالإضاءة على ربط فقرات السورة الواحدة حول موضوع أساسي واحد، ولا أدّعي النجاح في كل ما قلته، لِأَنَّ هَذَا ما بَدَا لي وبذلت فيه ما أنا عليه من قدرات تحليلية، وإن شاء الله تعالى تكون بذرة صالحة لك لتحسينها وتصحيح ما فيها من أخطاء...

لاحظ التفرقة بين الكتاب والحكم، وهذا متكرر في القرآن كقوله تعالى في الآية الثانية من سورة الجمعة {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}. كَلِمَةُ حكمة ومشتقاتها تشير لعموم ضبط الشيء على المطلوب: على الصوابية على الحقّ... وعلى نفس المعنى الأساسي نقول: أحكم الوثاق، حكم بالعدل، حكومة على الناس... وحين ذكرها القرآن مضافة للكتاب الإلهي فهي وصف التطبيقات للكتاب، يَرَوْنَ الصوابية في الأمور، وَالْكِتَابُ حكيم بالنسبة للمعلومات التي فيه، وهذه صفة له وَحْدَهُ، وتعلّم الحكمة هو تعلّم رؤية الصوابية في الأمور. ونفهمها بشكل سهل عند المنازعات، حَيْثُ إِنَّ القاضي من المفروض به أن يكون حكيما، أن يرى الصوابية في الأمور، لِيُطَبِّقَ كلام الكتاب الإلهي على الحالة التي أمامه، وهذا نموذج عن تعلّم الحكمة بشكل مضاف لتعلّم الكتاب الإلهي.

(وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمْ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ{17})
{وَآتَيْنَاهُمْ}، حَيْثُ أَعْطَى سبحانه لبني إسرائيل، {بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ}، وَالْأُمُورُ التي يريدون معرفتها آتَيْنَاهُمْ بها بيّنة واضحة، {فَمَا اخْتَلَفُوا}، لَمْ يتّفقوا حول تلك الأمور الواضحة، {إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ}، فَالْبَغْيُ هو عامة أي فعل مباشر لقصد، كما في قول إِخْوَةِ النبي يوسف في الآية 65 من سورة يوسف {وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا...}، ومن السياق يتحدّد نوع القصد من العمل، وبهذا المعنى يَصِيرُ قَرِيباً من سعى، حَيْثُ إِنَّ بَنِي إسرائيل طلبوا التفرقة، لِأَنَّهُمْ لم يختلفوا على أمور لا يعرفون ما يقوله تعالى فيها، فلو كان الوضع كذلك لكانوا معذورين بآرائهم المختلفة عن بعضها، ولكن كان دينه تعالى واضحا حيث جاءهم العلم منه تعالى عبر كتبه وأنبيائه، وأمّا سبب اختلافهم فهو بغيهم، لِأَنَّهُ فعل مباشر منهم يقصدون منه شيئا ما، وهنا الكلام عن قصدهم الاختلاف، عن رغبتهم هم في الاختلاف، حَيْثُ إِنَّ كُلَّ مجموعة أرادت التميّز عن الآخرين، كمذاهب وأحزاب...

لاحظ حالتنا نحن المسلمين اليوم، ماذا ترى؟ هَلْ نحن متفقون؟ وهل خلافنا سببه إبهام ديننا؟ لا، بل سببه البغي بيننا، حَيْثُ إِنَّ كُلَّ فرد منّا تمذهب أو انتمى لجماعة، من السابقين والحاليين "واللاحقين"، وَرَفَضَ الأمور الواضحة وَحَوَّرَهَا

على مزاجه، حَيْثُ رَفَضَ ظاهر ما يقوله القرآن لأنه لم يعجبه وَحَوَّرَهُ ليطابق ما يراه هو مناسبا، ورفض سماع أقوال الآخرين من المسلمين التي هي أصحّ من قوله، ورفض قبول ما يقوله الآخرون لأنهم "آخرون" وليسوا من جماعته... كل هذا هو بغي سبقنا إليه بنو إسرائيل وتفرّقوا لمذاهب وطوائف وأحزاب وجماعات. وهنا الكلام بالطريق أشار لهذا ولكنه أساسا يشير إلى وصول العلم الإلهي إليهم ورفضهم له رغم فضائله تعالى عليهم ورغم ما آتاهم تعالى من كتاب وحكمة وأنبياء... لِذَا كان من المفروض منهم التمسك بدين الذي أنعم عليهم بفضله وزوّدهم بالعلم النافع لهم.

{إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ}، حَيْثُ إِنَّ المطلوب حسم الخلاف بينهم حتى يظهر الحقّ، والمسؤول عنك من مستوى إلهي ينهي الخلاف وَيُصْدِرُ حكمه بين المتخالفين، {يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، في زمن القيام من الموت، {فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}، لِأَنَّهُمْ اختلفوا وصاروا فرقا، وسيصدر حكمه تعالى عليهم ليجازي من التزم بأوامره بالثواب الحسن، ويجازي من بغى وخالف بالعقاب.

(ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ{18})
{ثُمَّ جَعَلْنَاكَ}، أيها الرسول محمّد(ع)، {عَلَى شَرِيعَةٍ}، أَعْلَنَّا لك ما يجب أن تسلكه، أعلنّا لك ما يجب أن تلتزم وتتقيّد به، {مِنَ الْأَمْرِ}، من الأمور التي تحتكّ بها في حياتك، من عقيدة ومن سلوكيات متنوعة تحت عناوين الحلال والحرام والواجب والمباح والمستحب. {فَاتَّبِعْهَا}، كُنْ عليها، وَنَفِّذْ ما قلناه لك، {وَلَا تَتَّبِعْ}، ولا تكن على، {أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}، لِأَنَّ من لديه علم حقيقي بوجود حساب وعقاب على مخالفة الشريعة الإلهية، فهذا لن يتبع أَهْوَاءَهُ وَلَنْ يلحق ما يحبّه ويشتهيه حتى لو كان يراه سيّئا ومخالفا لأوامره تعالى، أمّا بنو إسرائيل فَاخْتَلَفُوا بغيا بينهم واتبعوا أهواءهم السيئة فلا تتبعهم.

هنا وكما تلاحظ، بَعْدَ انتهاء السورة من لفت الانتباه للإيمان بالآيات الإلهية، دَخَلَتْ على أمر موجّه للرسول محمّد(ع)، وَالتَّالِي فَالْأَمْرُ موجّه لنا بترك شريعة بني إسرائيل التي صارت منحرفة عن الشريعة الإلهية الأصيلة، وتأمرنا باتباع ما ينزل على الرسول محمّد(ع)، مِنْ ناحية نفهم أن الشريعة النازلة على الرسول محمّد(ع) ليست جديدة، بل امتداد للشريعة القديمة، ولكن بسبب التحريف بالقديمة نزلت الشريعة مرّة ثانية "مع تخفيفات وتعديلات غير جوهرية تتناسب مع تغير الظروف..."، وهكذا نفهم أن الإيمان وَحْدَهُ لا يكفي، حَيْثُ إِنَّ بَنِي إسرائيل عموما معلنون للإيمان، ولكن غالبيتهم في العمق لم يؤمنوا بالآيات التي تدفعهم للالتزام الحرفي بدينه تعالى، وَانْحَرَفُوا عن دينه تعالى، لِذَا لَا بد من الالتزام بالشريعة حتى يكتمل الإيمان.

يُمْكِنُكَ رؤية توجيه كلام السورة مع وعن بني إسرائيل من بعد كلامها مع الكافرين، أنها تنبهك من الفرق بين دينه تعالى الأساسي، وبين ما اخترعه الناس ونسبوه له تعالى، تَصَوَّرْ كافرا يقول للرسول محمّد(ع)، حَسَناً، أنت تدعونا لدين له عمق بآلاف من السنين السابقة، وهناك كتاب قديم لدينك أيضا، فإذا كنت على نفس الدين فلماذا الكتاب الجديد؟ أو يقولون: المنتمون لدينك من السابقين الذين نزل عليهم كتاب نراهم مختلفين فيما بينهم، فما هذا الدين الذي تدعونا إليه والمنتمون له مختلفون؟

هكذا ترى الجواب عن ذلك في هذه الفقرة بكلامها عن حالة بني إسرائيل أنهم وصلهم دينه تعالى واضحا ولكنهم بغيا بينهم انحرفوا عنه.

نَفْسَ المشكلة نواجهها نحن المسلمون حين نَدْعُو الآخرين للانضمام لدينه تعالى، سَيَقُولُونَ لنا: اتفقوا أولا أنتم فيما بينكم وبعدها وجّهوا للآخرين دعوة للانضمام لدينكم، فلا تقل لي أَنَّكَ أنت وجماعتك على حقّ وبقية المسلمين ضالون، وَإِنْ لم يكفهم دينك ليهتدوا ولم تستطع أن تهديهم مع أنكم على نفس الدين، فكيف ولماذا سأهتدي أنا لدينك؟

هَذِهِ هي نفس المشكلة التي تطرحها السورة هنا بكلامها عن بني إسرائيل المنتمين بالاسم لدينه تعالى وهم مختلفون بل ومتناحرون فيما بينهم... وهكذا لم يعودوا نموذجا صالحا للمنتمين لدينه تعالى، ولذلك جاء التقويم لدينه تعالى عبر هذا القرآن.

(إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيئاً وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ{19})

{إِنَّهُمْ}، إنَّ الذين اتبعوا أهواءهم وتركوا الشريعة البيّنة، {لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً}، لِأَنَّهُ سبحانه سيحاسب ويعذّب الذين تركوا شريعته، وإن تركت شريعته تعالى واتبعت ما شرّعه هؤلاء فسيطالك الحساب والعذاب ولن يغنوا عنك من حسابه تعالى لك.

قارنها مع فاسق يقول لمؤمن: اترك الصلاة والصوم وأنا أتبرع بحمل سيئاتك. وَهَذَا كلام فارغ لن يغنيك من العقاب، وهنا نفس الشيء، رُبَّمَا يخطر ببال أحد ما أن يتبع شريعة طائفة ما من بني إسرائيل على أساس أنها دينه تعالى، وبذلك لن يناله العذاب الإلهي، لا، لِأَنَّ شريعتهم بالمعنى الأهم لكلمة شريعة والشامل لما يؤمنون به مع التشريعات والسلوكيات فِيهَا اختلاف عن أصل شريعته تعالى، لأنهم تلاعبوا بها وحرّفوها... لِذَا فَاتِّبَاعُهَا غير مقبول بعد معرفتنا عبر هذا القرآن بأصل شريعته تعالى.

لاحظ وانتبه، فمن يمشي خلف مذهبه أو جماعته وهو يشعر بالأمان من حسابه تعالى، فهو مُخْطِئٌ، لِأَنَّ الأمان فقط وفقط باتباع الشريعة الإلهية الصحيحة، وبما أن علماء المذهب الواحد من المسلمين مختلفون على الشريعة، فَأَيُّ أمان في اتباعهم؟! أقول لك هذا حتى تفكّر مرتين في المذهبية والطائفية والعصبية التي أعمتنا عن العمل على أفضل ما يتوصّل إليه أي مسلم، وصرنا متحجرّين لجماعة نعتبرها تخصّنا وندافع عن كل ما تقوله بشراسة...

{وَإِنَّ الظَّالِمِينَ}، إن الذين لم يكونوا منصفين ولا عادلين وَلَمْ يكونوا محقّين بترك شرعه تعالى، هَؤُلَاءِ، {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}، بعضهم تابعون لبعض، لَا يخدعك منظرهم كجماعة كبيرة لتظنّ أنهم ربما معهم حقّ، لا، لِأَنَّ الظالمين يشكّلون جماعة كبيرة وَهُمْ كلّهم ظالمون وكلّهم موالون لبعضهم البعض، وَهُمْ تابعون لبعضهم البعض في الاختلاف بدون حقّ عن دينه تعالى.

{وَاللَّهُ}، وصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ}، فَالَّذِينَ يتجنبون السوء، وعمليا يتجنبون غضبه وعقابه سبحانه عبر الالتزام بشريعته تعالى فهم يَعْتَبِرُونَ أنفسهم مُوَالِينَ له تعالى، تَابِعِينَ له تعالى، وسبحانه يعتبر نفسه وليّهم، وَيَعْتَبِرُهُمْ تابعين له.

وعمليا سبحانه سوف يهتم بالتابعين له، وَيَهْدِيهِمْ وينصرهم ويغفر لهم ويضاعف ثوابهم...

(هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ{20})
{هَذَا}، القول عن التمسك بشرعه تعالى وضمنا الإيمان بالآيات والآخرة والذي نتيجته الثواب الإلهي الحسن... هو: {بَصَائِرُ لِلنَّاسِ}، أمور تتيح للناس أن يفقهوا الصورة، وَتُتِيحُ لوعيهم إدراك التفكير والسلوك الصحيح، وَتَعْرِضُ عليهم ما يجعلهم يرون الحقيقة.

وهذا، {وَهُدًى}، حَيْثُ في هذا الكلام يجد الناس الأمور الصحيحة التي توصلهم للغاية الصحيحة المرغوبة.

وهذا، {وَرَحْمَةٌ}، عناية منه تعالى لمصلحة الناس، لأننا باتباعها نحصل على الثواب وننجو من العقاب، {لِقَوْمٍ}، لأناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة، سواء القوم الذي نزل في عهدهم القرآن، أو القوم الذين سمعوه فيما بعد... وصولا إلينا ولمن بعدنا من الأقوام، {يُوقِنُونَ}، لديهم اعتقاد صحيح مطابق للحقّ، لِأَنَّ المعلومات التي طرحتها السورة يقينية، هِيَ نقل لوقائع وحقائق صحيحة من الآيات ودلالتها على الخالق العظيم، والتشريع السليم الموصل لمرضاته تعالى، والخبر عن الآخرة... هذه المعلومات التي يجب أن نكون من مستوى اليقين بها، لا الشك، ولا الريب، لا الجحود بها، لأنها معلومات حقيقية مطابقة للواقع.

هُنَاكَ أناس في حياتنا العادية تنقل لهم الحقائق عن أمور حياتية، وَتُنَبِّهُهُمْ من الخير والشرّ الواضحين ولا يوقنون بِهَا! خذ مثلا تربية الأولاد، حَيْثُ تُخْبِرُهُمْ أن الطفل في أي عمر كان يَجِبُ التعامل معه بصدق واحترام دائما، ويجب الابتعاد عن فرض ما تريده عليه من دون شرح الأسباب... وأن لا تعطي الطفل كل ما يطلبه لأنه سيفقد أهمية ما يحصل عليه... بَلْ لِتُعْطِهِ مقابل حسن سلوكه واجتهاده في دروسه... وَهَذِهِ أمثلة عن معلومات يقينية مطابقة للحقيقة، ورغم ذلك تراها ليست يقينية عند الكثيرين!

نَفْسُ الشيء موقفنا من كلامه تعالى، حَيْثُ إِنَّ هُنَاكَ أُناساً عادتهم اليقين إن عرضت عليهم اليقينيات، فهؤلاء سيوقنون بكلامه تعالى، وهناك أناس لا يوقنون إلا بما يوافق هواهم وعشوائيتهم واستهتارهم... فهؤلاء لن يوقنوا بكلامه تعالى أَنَّهُ بَصِيرَةٌ وهدى ورحمة، ولن يتّبعوه.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ{21})

{أَمْ حَسِبَ}، هَلْ خطر في بالهم ومن دون بحث وتفكير، {الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ}، الذين قاموا بجوارحهم بأعضاء جسدهم بأيديهم وأرجلهم وأعينهم... بأفعال سيئة عاطلة، حَيْثُ لم يلتزموا بشرعه تعالى وَخَالَفُوهُ، هَلْ حسبوا، {أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا}، مثلهم مثل الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، وقاموا بالأعمال الموصوفة بأنها صالحة جيدة وعمليا التزموا بشرعه تعالى، {سَوَاءً}، أَيْ نفس الشيء، {مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ}؟ هَلْ حياة المؤمن العامل للصالحات وموته نفس الشيء مثل حياة وممات من قام بالسيئات بلا فرق؟ ذَاكَ عاش ومات وهذا عاش ومات ولا يعتبر سبحانه أي فرق بينهما؟ ولا نتيجة لهما من سلوكهما؟

{سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}، لِأَنَّ ما هو مفروض منهم رؤيته بصوابية للفرق بين الحالتين يَكُونُ سَيِّئاً حين يحسبون أنه لا فرق بينهما، طَالَمَا هناك فرق إيماني وسلوكي بينهما، فَكَيْفَ يَكُونَانِ متشابهين في نظره تعالى؟ مَا هذا الحكم؟ إِذْ هُوَ مثل الحكم بالسوية على الظالم والمظلوم، القاتل والمقتول، السارق والمسروق... أنهما لا فرق بينهما، هَلْ هذه هي الصوابية؟ وَهَلْ هذا شيء عقلاني منطقي حكيم...!

كما ترى من هنا أَنَّ الكلام صار عموميا موجّها لكل الناس، من كافرين لا ينتمون لدين إلهي، وكافرين ينتمون بالاسم لدينه تعالى، وهم الظالمون من بني إسرائيل وأمثالهم من الآخرين المنتمين بالاسم لدينه تعالى.

هُنَاكَ أناس يقولون: لا فرق بين المؤمن وغيره، كِلَاهُمَا يَمُرَّانِ في هذه الحياة، والاختلاف أن هذا يتصرّف بطريقة مختلفة عن الآخر فقط، وَكِلَاهُمَا سَيَمُوتَانِ، وينتهي الموضوع. على أساس أنه لا حياة بعد الموت، وعلى أساس أنه لا يوجد إله يراقب، أو على أساس انتفاء أهمية أي سلوك تسلكه في حياتك حتى لو كان هناك إله فلن يتغيّر أي شيء، سَتَقْضِي حياتك وفي النهاية تموت وتنتهي قصّتك على كل حال ومهما كان نوع إيمانك وسلوكك.

لا، هناك فرق كبير واضح، مَا معنى تمتعنا بقدرة على تمييز الخير من الشرّ وتمتعنا بحرية الإرادة والاختيار بين الحقّ والباطل، وأن لا نتحاسب ولا نتجازى على ما اخترناه وَفَعَلْنَاهُ؟ وَعَمَلِيّاً كَيْفَ يصلنا شرع منه تعالى ولا يكون على الالتزام به حساب؟ وما معنى تساوي من ضبط فكره ونفسيته وعمله ليكون على الحق والصلاح مع الذي تفلّت من ذلك ليفعل ما يهواه من سوء؟ مَا معنى هذا الكلام؟ هَلِ الإله عزّ وجلّ كان يتسلّى حين خلقنا لنحيا بفكر وإرادة وشهوات ورغبات... ونموت ولا يحصل أي شيء بعدها؟ وَهَلْ كان يتسلّى سبحانه حين أرسل الرسل والكتب بأوامره ونواهيه ولن يحاسبنا؟ لا، هذا كلام عن عابث لاه وليس عن إله حكيم، فلنتابع:

(وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ{22})

{وَخَلَقَ}، رَكَّبَ وألّف، {اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وهذه الحدود لكل ما هو مخلوق، وهذا التعبير يُرَادِفُ قولنا: خلق تعالى كلّ شيء. {بِالْحَقِّ}، بالصواب وليس بالباطل والعبث واللعب، لِأَنَّهُ عن حكمة خَلَقَهَا سبحانه، مِنْ ناحية لم يكن تعالى يلعب فلم يخلقنا ويزوّدنا بالفكر وحرية الاختيار مع شهوات ورغبات وغرائز... بدون أن يحاسبنا ويجازينا على ما نفعل بها، ومن ناحية ثانية لَا يمكن أَنْ نعترض على خلقنا لأن خلقنا شيء جيّد بالأساس... وهذا موضوع آخر تناولته سور أخرى.

لِنَقُلْ إِنَّ كلامهم عن المساواة بين حياة وممات المؤمن وغير المؤمن صحيح، يَأْتِي السؤال: لِمَاذَا خلقنا الإله سبحانه بقدرة على تمييز الخير من الشرّ مع حرية الإرادة لنفعل ما نريد منهما؟ هَلْ لنعيش ونموت وتنتهي القصّة؟ لا، هذا ليس حَقّاً ليس صوابا بل بَاطِلٌ والحق أنه تعالى خلقنا:

{وَلِتُجْزَى}، سَوْفَ تحصل بالمقابل، {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}، كُلُّ واحد وَكُلُّ شخص سيتم مجازاته لِيَحْصُلَ بالمقابل على ما حصل عليه مما نتج من أعماله، حَيْثُ مَنْ كسب "من حصل على ما نتج من أعماله" على حسنات، فسوف يتجازى بها "سوف ينال المقابل عليها" بالجنّة، ومن كسب وَحَصَلَ على ما نتج من أعماله من سيئات فسوف ينال المقابل عليها بالعقاب بالنار، {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}، بالحق والإنصاف سيجزيهم سبحانه، وَلَنْ يجور تعالى على المسيئين ليزيد من سيئاتهم ولن يجور سبحانه على المؤمنين ليهمل حسناتهم.

إذاً هذا ما فعله سبحانه: خلقكم، وبيّن لكم الآيات والشريعة، وهداكم، فمن أطاع سيثاب بالجنّة، ومن خالف سيثاب بالنار، أعجبكم هذا الكلام أم لم يعجبكم، فهذا ما سيحصل حتما معكم، وسواء اعترضتم أم وافقتم، أو اخترعتم أفكارا من هواكم تقول إنَّ المؤمن والكافر مثل بعضهم، أو اعترضتم على خلقه تعالى لكم وأنكم لو كان لكم الاختيار لفضّلتم أَلَّا تخرجوا إلى الحياة... فكل هذا وأمثاله كلام فارغ لن يغيّر من حقيقة كون خلقه تعالى لنا عملا حقّا حسنا صائبا صحيحا، ومجازاته تعالى لنا أيضا عملا حقّا حسنا صحيحا صائبا...

نلاحظ في دعاء مشهور منسوب للإمام علي يقول فيه: ... وبالقضية التي حتمتها وحكمتها، وغلبت من عليه أجريتها... وهي ترجمة لما تقوله آيات القرآن عن وقوعنا تحت الحكم الإلهي بانقضاء حياتنا هنا والحساب في الآخرة بحيث لا يمكننا تغيير هذا المصير، وأن الحساب سيحصل وأفكارنا عنه إن اختلفت عمّا يقوله تعالى فلن تغيّر من الواقع أي شيء.

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ{23})

حَسَناً، ما هي نوعية الإنسان الذي يحسب أن المؤمن وغير المؤمن مثل بعض بلا فرق؟ لِنَرَى:

{أَفَرَأَيْتَ}، نَسْأَلُكَ أيها النبي(ع) وأيها المؤمن تعقيبا على ما سبق من كلام، لَوْ حصلت عندك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: لو شفت، هل التفتّ إلى، {مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}، حَيْثُ كَانَ ما يشتهيه ويحبّه ويرغب به هو إلهه الذي يطيعه، وَيَفْعَلُ ما يهواه وَمَا يحبّه ولا يهمّه إن كان سيئا، ولا يهمّه إن كان مؤذيا لنفسه أو لغيره... {وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ}، حَيْثُ وَصَلَهُ منه تعالى العلم بالدين الإلهي ولكنه تصرّف كأنه لا يعلمه، أو أعلن أنه لم يقتنع به، فهو لم يضلّ عن جهل، وَلَمْ يضلّ لأنه لا يميّز بين السيّء والصالح، ولم يضلّ لأن الدين الإلهي غير واضح، بل وصله "العلم" وهو أصرّ على الضلال، {وَخَتَمَ} "سبحانه" {عَلَى سَمْعِهِ}، وَجَعَلَ تعالى شيئا على نهاية قدرته على إِدْرَاكِ الأصوات التي تهديه للإيمان، حَيْثُ يَسْمَعُ العلم الإلهي وتتحرك طبلات أذنه ولكن الختم "السدادة" على مدخل إدراك الأصوات يمنعه من إِدْرَاكِ معاني كلمات الدين الإلهي، فلا يؤمن بها وكأنه لم يسمعها أو كأنه سمع ضجيجا لا قيمة له.

وختم سبحانه، {وَقَلْبِهِ}، وَجَعَلَ تعالى على نهاية أساس فكره ونفسيته شيئا يمنع دخول مفاهيم الدين الإلهي إليها، وَصَارَ فكره ونفسيته رَافِضَيْنِ للكلام الحقّ، {وَجَعَلَ} تعالى {عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً}، شَيْئاً يحيط وينتشر جزئيا أو كليا بقدرته على وعي وفهم صورة الأمور على حقيقتها فلا يدرك معناها الإيماني، حَيْثُ إِنَّ الحقيقة أمامه ولكن لا يعي صورتها مثل الكاميرا التي لا تعي ما تراه، فهو يرى الحقيقة ولكن لا يعيها.

أفرأيت، إِنْ حصلت عندك صورة محدّدة لأحد ما بهذه المواصفات نسألك: {فَمَنْ يَهْدِيهِ}، مَنْ يضعه على الشيء الصحيح الذي يوصله للغاية الصحيحة، {مِنْ بَعْدِ اللَّهِ}؟ حَيْثُ مَنْ صار بهذه الحالة من الإغلاق على وعيه وإدراكه للحقيقة من كل الجهات كَيْفَ سيهتدي إذا لم يتدخّل الله تعالى بنفسه لهدايته؟ وبعد قليل سنرى كيف يُمْكِنُ أن يهديه تعالى بالقوة.

{أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}؟ لماذا لا تستحضرون الكلام الإلهي في بالكم وسلوككم؟ وبالتالي ألم تفهموا أنه لا خلاص لهذه النوعية من الناس وأنهم لن يؤمنوا لهذه الأسباب التي ذَكَرْنَاهَا، وسيرفضون الكلام الإلهي ولن يهتدوا أبدا.

اَلْآيَةُ تخبرنا عن هذه النوعية من الناس، وفي نفس الوقت تنبّهنا أَلَّا نكون مثلهم، فلا نجعل هوانا السيّء إلهنا، ولا نترك ما نعلمه ونتصرّف كالجهّال، وإلا سيكون مصيرنا الختم على السمع والقلب والغشاوة على البصر.

مَنْ يحسب أن المؤمن وغير المؤمن مثل بعض، فهو لديه إله، ولكن إلهه هواه! إلهه ما تأمره به غرائزه وشهواته السيئة، وَهَذَا سيدخل كلام الحقّ عبر سمعه ولكنه سيعتبره هراء، ولن يخرق قلبه بل يكرهه ويرفضه، ولن يصل لبصيرته لأنه أصلا ينفر منه فلا يراه حقيقيا صحيحا، فكيف سيرى الفرق بين الآخر المؤمن الصالح وبين نفسه العابدة للهوى السيّء؟ هو في الحقيقة سيعتبر المؤمن مخبولا مجنونا "أهبل أجدب" بسيطا... لأنه قيّد نفسه بالإيمان والعمل الصالح وحرم نفسه من الملذات... فخذ علما بذلك أيها النبي وأيها المؤمن لتعلم حالة الطرف الآخر حين تُعْرَضُ عليه الآيات، وبذلك تعلم سبب كفره بها.

تتذكّر دائما أن الذي يريد أن يؤمن فلن يجبره تعالى على الكفر، بل سيهديه وينير قلبه وبصيرته... وبالعكس اَلَّذِي يريد أن يكفر فلن يجبره تعالى على الإيمان، بل صمّمنا سبحانه بحيث إن تركنا سلامة القلب واتّبعنا الهوى، فإنّ سمعنا وبصرنا يُخْتَمَانِ ولا يتخطاهما الحقّ فلا يصل إلى قناعتنا، وقلبنا "فكرنا ونفسيتنا" يُخْتَمُ ولا يقبل الحقّ. وهكذا ينسب سبحانه لنفسه ختم البصر والسمع والقلوب لأنه هو تعالى صمّمنا هكذا، وبقرار منّا نحن نفعّل الختم، وَبِإِرَادَتِنَا نتبع هوانا السيّء.

أمّا عن جواب السؤال عمّن يهدي عابد الهوى من بعده تعالى، فسبحانه يسألنا حتى نقف عند الوقائع ولا نتخطاها لنتخيّل، لِأَنَّ الواقع هو هذه الحالة لعابدي الهوى، فهم عمي صمّ مختوم على قلبهم، فهل من أمل بتغييرهم عبر الكلام معهم؟ لا، وهذا ما كرّره القرآن مِرَاراً بعبارات مختلفة، منها ما ورد في الآية 22 من سورة الغاشية {لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ}، وما ورد في الآية 107 من سورة الأنعام {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ}، وغيرها العديد من الآيات. إِذاً بقي أن يتدخّل خالقهم بقدراته الفائقة حتى يهديهم إمّا بالقوة بالألم والضرب كلما خالفوا أوامره سبحانه، وإمّا بالتلاعب بعقولهم ليصيروا كالروبوتات... وإمّا... وكما ترى فهذه الأمور وغيرها لن يفعلها سبحانه ليهديهم، ولم يعط سبحانه لأحد من مخلوقاته القدرة على إجبار الآخرين على الهداية من قلوبهم، وهكذا نفهم معنى السؤال عمّن سيهدي عابد الهوى إن أضلّه تعالى.

(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ{24})
{وَقَالُوا}، الأفاكون المجترحون للسيئات المتّبعون للهوى قالوا: {مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا}، حَيْثُ إِنَّ التي نحن فيها الآن لا حياة بعدها، {نَمُوتُ وَنَحْيَا}، جيل بعد جيل، شخص بعد شخص، مَاتَ الذي كان قبلنا وانتهى، وها نحن أحياء، وسننتهي فنموت، ويأتي أحياء آخرون، {وَمَا يُهْلِكُنَا}، وَمَا يَسْتَنْفِذُ حياتنا، يميتنا وينهينا، {إِلَّا الدَّهْرُ}، إِلَّا زمن مطلق بلا بداية ولا نهاية، حَيْثُ إِنَّ مرور الزمن علينا فقط يتحكّم بنا، فنحن لنا عمر، وبمرور الزمن إمّا نمرض ونموت، أو نموت بحادث أو بالقتل، أو نهرم وينهار جسدنا فنموت... مرور الزمن هو الذي ينهي حياتنا، وعلى أي حال لَا شيء سيحصل معنا بعد الموت.

{وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ}، حَيْثُ لَيْسَ لديهم علم حقيقي بصحّة تحكّم الدهر بهم فقط، فكيف امتدّ علمهم بامتداد الدهر؟ وَمَا أدراهم أنه لا حياة بعد الموت في ما سيأتي من دهر؟ فكيف يعرفون المستقبل؟ وهذا الكلام مشابه لما ورد في الآية 66 من سورة النمل {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ}.

{إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}، يَسْتَنِدُونَ إلى معلومات غير صحيحة ويخرجون بنتيجة غير صحيحة، وهكذا ينكرون يوم القيامة من الموت.

ننتبه جيّدا، الآية لا تخاطب الذين يقولون بالتناسخ، على أساس أنهم يقولون: نموت ثم نحيا بالتناسخ. لا، لِأَنَّ هذه العقيدة باطلة وغير صحيحة ولكن الآية هنا لا تتحدّث عنها، بدليل ما ستراه من الآية التالية، لِأَنَّ الكلام هنا عن كفرهم برجوع نفس الشخص بوعيه وفكره وذكرياته إلى الحياة، وسترى ذلك في الآية التالية.

نضع في بالنا دائما أن الظن هو الاستناد لعلم والخروج بنتيجة، فإن كان الاستناد لعلم صحيح، فالنتيجة صحيحة مثلما نظنّ نحن أَنَّنَا سنلاقي ربّنا سبحانه كما ورد التوصيف لهذه الحالة في الآية 46 من سورة البقرة {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، وإن كان الاستناد لعلم غير صحيح فالنتيجة غير صحيحة مثل ظنّ هَؤُلَاءِ الناس هنا في الآية بقولهم إِنَّهُ لن يحصل يوم للقيام من الموت، فهم يعتمدون على أشياء غير صحيحة، فأي كلام يقولونه ويبدو

كدليل فهو فاقد للقيمة لأنهم لا قدرة لهم على رؤية المستقبل فكيف يقولون عن شيء أنه لن يحدث في المستقبل؟ وقبل ذلك كُلُّ أدلتهم وحججهم باطلة وَرَدَّ عليها القرآن، ومن كلامهم أن عودة الحياة للميت مستحيلة، وهذا كلام فارغ لِأَنَّنَا كنّا لا شيء وخلقنا سبحانه، فما المانع من خلقنا مرّة ثانية؟ وتقرأ ذلك في الآية 78 من سورة يس {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ}، وأكتفي بهذا المثال حَيْثُ إِنَّ مختلف سور القرآن تناولت جوانب متنوعة عن هذا الموضوع.

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{25})
{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ}، حَيْثُ عن مستند جرت قراءة الأمور المميزة المنسوبة له تعالى بشكل واضح، ومن تكملة الآية ترى أنها الآيات التي تدل على صدق كلامه تعالى عن الآخرة، فعندها، {مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ}، لَمْ يكن كلامهم الذي يريدون أن يبرهنوا فيه على تكذيب الحياة بعد الموت، {إِلَّا أَنْ قَالُوا}:

{ائْتُوا}، أحضروا، {بِآبَائِنَا}، بأهلنا وأجدادنا الذين ماتوا، {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، بأننا فعلا سنرجع إلى الحياة بعد الموت.

أَمَامَ كل الآيات التي تبيّن وجود خالق عظيم بيّن لنا مما نراه ونتعامل معه من حولنا أنه سبحانه صمّم وخطّط ونفّذ ويوجد حكمة من هذا الخلق لنا بقدرة تمييز الخير من الشرّ وبحرية إرادة... وأمام نموذج إحياء الأرض بعد موتها كدليل ملموس على قدرته تعالى على إحيائنا... ورغم إخباره تعالى لنا أنه بحكمته خلقنا لا عن عبث ولا عن تسلية بل ليعيد خلقنا مرّة ثانية ليجازينا... وَأَمَامَ كل هذه الآيات الواضحة تجد المنكرين للبعث يقولون: أيها الرسول "وأيها المؤمن" الذي تحدّثنا عن البعث، نَحْنُ نريد رؤية أجدادنا الآن أحياء حتى نصدّق بأننا سنرجع إلى الحياة. وَلَيْسَ لديهم ردّ على الآيات إلا هذه الجملة التي يتحججون بها، وهي حجّة واهية باطلة ومجرد ذريعة حتى لا يؤمنوا، مَا معنى طلبهم رجوع آبائهم إلى الدنيا ليروا أنه تعالى قادر على إحياء الأموات؟ وفي الآية التالية لفت انتباههم إلى الحياة التي هم فِيهَا الآن، فمن أحياهم هنا الآن؟

تلاحظ السورة هنا لم تأت بنماذج من التاريخ عن آيات حدثت مع الأنبياء، حَيْثُ إِنَّ بعضهم قام فعلا بإحياء الأموات كالنبي عيسى(ع) كما ورد في الآية 49 من سورة آل عمران، وأصحاب الكهف جعلهم تعالى مثلا تاريخيا عن إعادته تعالى لإحياء الأموات كما ورد في الآية 21 من سورة الكهف {وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا...}، والذي مرّ على قرية وهي {خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا...} فأماته تعالى ثم أحياه كما ورد في الآية 259 من سورة البقرة، والذين خرجوا من ديارهم {حَذَرَ الْمَوْتِ...} ثم أحياهم سبحانه... كما ورد في الآية 243 من سورة البقرة، وغيرها وغيرها... وَيَبْدُو واضحا أن السورة قصدت أن لا تحيلنا إلى أي شيء مما يمكن اعتباره كتاريخ ديني من ثقافة المنتمين لدينه تعالى، حَيْثُ توجّه كلامها مع الذين لا خلفية دينية لهم ولا علم لهم بالتاريخ الديني، أو أنهم لا يؤمنون به ولا يعتبرونه حجّة... وكلامها السابق عن اختلاف بني إسرائيل بغيا... لِأَنَّهُ كلام عن شيء مشهور معروف جدا بين عموم الناس ولا يحتاج لثقافة دينية لمعرفته، ولم تستخدمه السورة كدليل بل أرادت دمج بعض بني إسرائيل مع منكري الآيات الإلهية لأن فيهم نفس الفكر والنفسية...

وهكذا اكتفت السورة هنا بعرض الآيات التي فينا ومن حولنا والدالة على عظيم قدرته تعالى، وبالتالي الدالة على قدرته تعالى على إعادة الحياة للأموات، وَرَكَّزَتْ بشكل واضح على إخبارنا بقراره تعالى عن إعادتنا إلى الحياة لمجازاتنا، وإليك الجواب عن طلبهم:

(قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكَثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ{26})
{قُلِ}، لهم أيها الرسول عبر هذا القرآن ردّا على طلبهم لإحياء آبائهم ليؤمنوا بيوم القيامة: {اللَّهُ يُحْيِيكُمْ}، يعطيكم الحياة فيجعلكم تفعلون وتنفعلون وتتفاعلون، وهذا نعرفه من حالتنا الآن، لِأَنَّنَا الآن أحياء، {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ}، يَأْخُذُ سبحانه منكم الحياة، {ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، كلّكم من أول حيّ فيكم إلى آخِرِ واحد منكم، إلى زمن القيام من الموت، {لَا رَيْبَ فِيهِ}، حَيْثُ لَا يوجد فيه حتى أقل درجة من الإحساس بأنه لن يحصل، {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}، لِأَنَّ هَذَا الخبر لا يعتبرونه معلومة حقيقية.

مَا معنى طلبكم لإحياء آبائكم كدليل على قدرته تعالى وأنتم الآن في حالة الحياة وهي من فعله تعالى؟ وتموتون ولا قدرة لكم على منع ذلك، مما يشير بوضوح إلى قدرة مسيطرة عليكم حكمتكم بقرارها بمروركم بحالتي الحياة والموت، وهو سبحانه الذي أنتم أحياء بسببه، يخبركم أنه سيعيد إحياءكم كلّكم، فلا تشغلوا بالكم بآبائكم لأن الجميع سيرجع إلى الحياة في يوم القيامة.

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَومَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ{27})
{وَلِلَّهِ}، ولصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، لِأَنَّ هَذِهِ هي حدود كل دنيا المخلوقات، وكلّها ملكها منسوب له تعالى، وَيَحِقُّ له ويمكنه تعالى أن يفعل بهم وفيهم ما يشاء وما يريد، ومن الواضح جدا قدرته على فعل ما يشاءه فيهم، فإذا أراد أن يميت من في السماوات والأرض فيمكنه تعالى ذلك ويحقّ له ذلك، وإذا أراد إعادة خلقهم فيمكنه تعالى ذلك ويحقّ له ذلك، مَنْ يملك هذه الضخامة الهائلة من المساحة والمخلوقات ألا يمكنه إعادتنا إلى الحياة؟

ولا تَنْسَ دائما الضخامة الهائلة للسماوات، خَلَقَهَا تعالى بهذه الضخامة والتقانة والتفاصيل الهائلة حتى ننتبه لعظمته، مَا تعرفه الآن من مجرات بالتريليونات وكل واحدة منها فيها نجوم بالتريليونات، وهذه فقط في سمائنا نحن وفوقها ست سماوات أخرى لكل سماء منها أرض تناسب تكوين سمائها، وأنت تعلم أن كوكبنا أرض وسطح القمر أيضا أرض لسمائنا وسطح الشمس أرض... وهكذا فلبقية السماوات ما يناسبها من أرض كما تقرأ في الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...}. على كل حال قَصَدَ سبحانه من هذه الضخامة أن تكون دليلا سهلا لنرى عظيم قدرته ولنؤمن بسهولة بقدرته تعالى على إعادة إحيائنا، ونؤمن بسهولة بالوعود التي يقولها تعالى عن عذاب خالد عظيم وجنّة رائعة خالدة...

{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ}، وفي الزمن الذي تتفعّل وَتَحْصُلُ فيه الساعة، حَيْثُ إِنَّ أَوَّلَ يوم من الآخرة بالنسبة لنا هو يوم القيامة من الموت، وأوّل ساعة بالنسبة لنا من ذلك اليوم، هي ساعة قيامنا من الموت، وما سيحدث في هذه الساعة هو ما ينكره الكافرون بالآخرة، ولذلك غالبا يشير القرآن بكلامه إلى هذه الساعة الأولى من يوم القيامة، وهي الآن غير مفعّلة، لِأَنَّهَا ساعة هامدة لم تحصل بعد، وَعِنْدَمَا تقوم الساعة تَحْصُلُ وَنَقُومُ من الموت، {يَوْمَئِذٍ}، في ذلك الزمن، {يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ}، يفقد شيئا له أهمية، الذين أبطلوا معنى الآيات الدالة على قدرته تعالى وبالتالي أبطلوا حقيقة تفعيل الساعة، كما نقول: أبطل مفعول الجرثومة بالدواء. هُنَا الكلام عن الآيات الإلهية الدالة على قدراته تعالى على إحيائنا، وهم أبطلوا هذه الدلالة، وَصَارَتِ الآيات بلا مفعول ولا تدل على صدق كلامه تعالى عن الآخرة.

طبعا سيخسرون لأنهم لم يحسبوا للآخرة حسابا، حَيْثُ لَمْ يؤمنوا ولم يتركوا السيئات، وَسَيَفْقِدُونَ رحمته ومغفرته وثوابه تعالى وسيتحاسبون ويتعذّبون.

(وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{28})
{وَتَرَى}، وتصير عندك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: وحتشوف. {كُلَّ أُمَّةٍ}، كل جماعة من الناس لها عقلية وهوى مشترك ولها امتداد تاريخي، كأمة إنكار الآيات، أمّة الشرك، أمّة إنكار الشريعة الإلهية، أمّة إنكار الآخرة... سترى في يوم القيامة من الموت كل مجموعة من الناس وَحْدَهَا بشكل منفصل عن الآخرين، {جَاثِيَةً}، باركين على ركبهم، مستندين على "صابونة" مفصل الفخذ والساق على الأرض، والحديث هنا عن أمم الكفر وهم مهانون محقّرون خائفون مرعوبون... لا يقفون منتصبين باحترام بل على الأرض على ركبهم، أمّا أمة الإيمان فهم في احترام كامل وسعادة يأكلون ويشربون... أثناء الحساب في الآخرة كما تفهم من الآية 50 من سورة الأعراف {وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ}.

{كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا}، من تلك الأمم، يَصِلُهَا إشهار إعلان لتواجه كِتَاباً مُسَجَّلًا فيه ما عملوه بشكل مشترك، لِأُمَّةِ عبدة الأصنام كتاب تُسَجَّلُ فِيهِ أعمالهم المشتركة حول عبادتهم للأصنام، وهنا في موضوع السورة اَلْأُمَّةُ التي أنكرت الآيات وأنكرت البعث، وهم مجموعة الناس الممتدة عبر التاريخ والذين اشتركوا في هذه العقيدة، لَهُمْ كتاب مسجّل فيه كلّ إنكارهم للآيات والبعث.

{الْيَوْمَ}، في هذا الزمن من بعد قيامكم من الموت، {تُجْزَوْنَ}، يُعْطِيكُمْ سبحانه المقابل على، {مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، مَا صدر ونتج منكم في الدنيا ستحصلون عليه، وهو مسجّل في كتاب أعمالكم.

(هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{29})
{هَذَا كِتَابُنَا}، المعروض أمامكم والمسجّل فيه كل ما فعلتم، {يَنطِقُ عَلَيْكُم}، يقول عنكم ما فعلتموه في حياتكم، {بِالْحَقِّ}، بالصواب وليس بالباطل، وينطق بلا زيادة ولا نقصان ولا مبالغة ولا تحريف...

{إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، لديه تعالى نسخة "مع أحاسيسكم وما كان يدور في صدوركم" عن أعمالكم، لأنَّ هذا الكتاب يعرض نسخة طبق الأصل عمّا فعلتموه.

من عموم القرآن لدينا معلومات عن هذا الكتاب الذي سجّل فيه سبحانه الأعمال التي قمنا بها في الدنيا، ولكن معلومتنا عنه تبقى معلومات تقريبية لأن كل شيء سيتغيّر هناك في الآخرة، ونحاول الآن تصوّر ذلك الكتاب كأنه يعرض علينا إعادة تمثيل للمشاهد عن حياتنا، مثلما نشاهد التلفاز "تلفزيون"، ولكن من مفاهيم القرآن نعلم أنه أعمق من ذلك، حيث إنّه كتاب يعرض ما كنّا نفكّر ونشعر به حين قمنا بالعمل... وذاك زمان تشهد فيه جلودنا وأعضاء جسدنا علينا...

آمنوا أم لم يؤمنوا، ها يخبركم سبحانه بما سيحصل، وسيرونه يحصل معهم وسيراه المؤمنون.

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ{30})
{فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين الإلهي، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، وقاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، حيث خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، وعمليا هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى. توسعنا قليلا في الآية 15 من هذه السورة عن عمل الصالحات.

الذين بصفتي الإيمان بالحقّ والعمل الصالح معا، {فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ}، يجعلهم الْمَسْؤُولُ عنهم من مستوى إلهي في عنايته لما فيه مصلحتهم، ونعلم من القرآن أن الترجمة العملية للرحمة ستكون بالمغفرة وتكفير السيئات ومضاعفة الحسنات وحصول ضعاف الإيمان على الشفاعة... وهذه أمور يُحْرَمُ منها كل بقية الناس غير المؤمنين لأنهم هم بإرادتهم بالكفر وفعل السيئات خرجوا من تحت مظلة الرحمة الإلهية.

{ذَلِكَ}، الدخول في الرحمة الإلهية، {هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ}، هو بشكل واضح الحصول على شيء له قيمة عالية جدا، لأنّ رضاه تعالى يعني دخولهم إلى جنّة رائعة خالدة.

نلاحظ دائما أنّ القرآن يقرن بين الإيمان والعمل الصالح مع بعضهما، والنتيجة للاثنين معا دخول الجنة، فلا الإيمان بدون عمل صالح ينفع، ولا العمل الصالح من دون إيمان ينفع، بل فقط كلاهما معا ينفعان.

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ{31})
{وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا}، أمّا الذين أعلنوا إنكارهم لهذا الدين، "يقول لهم تعالى في يوم القيامة"، {أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ}؟ الأمور المميزة المنسوبة له تعالى ألم تسمعوها ممن يقرؤها عليكم مستنداً إلى كلامي وإلى ما فيكم وحولكم من خلقتكم وتصميمكم؟ {فَاسْتَكْبَرْتُمْ}، حيث رأيتم أنفسكم أكبر من أن تؤمنوا بها، {وَكُنتُمْ قَوْماً}، أناساً لكم كيان الجماعة المتفاعلة مع تلك الآيات، {مُّجْرِمِينَ}، تقومون بأعمال تستحقون عليها العقاب.

كما ترى، فجملة وصفهم بـ"{كَانُوا مُجْرِمِينَ}" تشير لعموم أي جريمة، لأي عمل يستحقون عليه العقاب، من إنكار الآيات، إلى عموم فعل أي سوء، حيث إنّ القرآن ربط دائماً بين فعل شخص ما للسوء وإنكاره للآخرة، فلو آمن بالآخرة لآمن بالحساب على الأعمال التي سيقوم بها، وعندها سيرتدع ولا يَقُومُ بالسوء، ولكنه إن كفر بالآخرة فليس لديه شيء يخاف منه لارتكاب السوء.

(وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ{32})

{وَإِذَا قِيلَ}، قال لكم الرسول أو عبر هذا القرآن أو من شخص مؤمن، قِيل لكم: {إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ}، ما قاله تعالى أنه سيفعله لأنه تعالى صادق وسيحصل حتماً ما قاله عن محاسبتكم في الآخرة، {وَالسَّاعَةُ}، التي وعدكم بها، وهي ساعة قيامكم من الموت في يوم القيامة، {لَا رَيْبَ فِيهَا}، لا وجود حتى لأي إحساس بأنها لن تحصل، لأنّ مَن قرّر حصولها هو الإله القدير، حتماً ستحصل.

{قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ}، نحن نسمع معلومات عن ساعة قيامنا من الموت ولكننا لم نرها ولم نعش فيها، ما هذا الزمن الذي سنقوم فيه من الموت! {إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً}، ليس لدينا علم حتمي أكيد بل نستند إلى ما تقولونه لنا وما تعرضونه علينا، ولا نعتقد بصحّة ما تقولونه، لأنّ الظنّ بحصول الآخرة استناداً إلى ما تقولونه لا يبدو صحيحاً لنا، {وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}، إذ ليس لدينا اعتقاد بمطابقة الكلام عن الساعة للحقّ والواقع، وليس لدينا اعتقاد أكيد بأنها ستحصل حتماً. بناءً عليه نحن لسنا مستعدّين لتغيير عقيدتنا وشريعتنا وسلوكنا الذي تقولون إنه يتضمّن أموراً عليها عقاب إلهي في الآخرة، لن نغيّرها لمجرد أنكم أخبرتمونا عن آخرة نتحاسب فيها، لو كنّا متيقنين منها لغيّرنا عقيدتنا وسلوكنا، ولو كنا نستند إلى شيء يدلّنا على حصولها لغيّرنا عقيدتنا وسلوكنا، ولكن الظنّ الذي حصل عندنا من كلامكم عنها ليس قوياً ولا مستنداً إلى علم صحيح، ولذلك لن نؤمن بها.

"الظَّنُّ" هو اعتقادك بشيء ما مستنداً إلى شيء ما، فإن كان ما تستند عليه صحيحاً كان ظنّك صحيحاً، وهذه حالة المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم سبحانه كما ورد في الآية 46 من سورة البقرة {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، حيث إنّهم مستندون في ظنّهم على آياته وكلامه تعالى. وإن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران {وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ}، استناداً للحالة الحرجة التي كانوا فيها ظنّوا أنه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء. وبين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند عليها ولكنه ليس مقتنعاً بها، لا تزال الأمور عنده مرجّحة لاحتمالات أخرى، هذا ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}، إذ يريدون أن يلمسوا مباشرة حصول ساعة قيامهم من الموت حتى يعتقدوا بها ولا يكفيهم الاستناد إلى معلومات تدلّ عليها، ويريدون اليقين بها عياناً حتى يؤمنوا. وهذه الحالة قريبة جداً من الاصطلاح "في علم المنطق" والدارج لمعنى كلمة ظنّ على معنى وجود عدة احتمالات. وها صرت تعلم المعنى اللغوي الأساسي لكَلِمَةِ "ظنّ" فانتبه للفرق بينه وبين المعنى الاصطلاحي حتى لا تفسّر القرآن على أساس المعنى الاصطلاحي.

الرَّيْبُ هو الوهلة الأولى من سماعك لشيء ما، إذ هو أول انطباع عندك ومن دون أي تفكير بالموضوع، مثلما تلتفت لتراني بعينيك أمامك، بمجرد ما وقع نظرك علي صار لا ريب عندك أني أمامك، بدون أي تفكير بالموضوع وللوهلة الأولى صار لديك قناعة بأني أمامك. وبالعكس، أقول لك شيئاً وللوهلة الأولى وبناءً على فكرك ونفسيتك ترفضه بدون التفكير به، مثل قول أحدهم لك إنّ الحجر التمثال إلهه شفاه من المرض...

سنعيد العبارات بطريقة أخرى حتى ترسخ معاني الكلمات في ذهنك لتستفيد منها حين تمرّ معك في آيات أخرى، هنا يقول تعالى عن ساعة قيامنا من الموت أنها لا ريب فيها، لمجرد سماعك كلاماً تأكّدت أنه صادر منه تعالى، وبناءً على الآيات التي فيك ومن حولك الدالّة لك على عظيم قدرته تعالى، بلا ريب ستؤمن بالساعة، بدون أي تفكير ستؤمن بالساعة.

في يوم القيامة يذكّر سبحانه الذين كفروا بها، أنهم في الدنيا عندما كانوا يصلهم خبر عن الآخرة، كانوا يقولون إنهم لا يدرون ما الساعة، أيُّ شيءٍ لم تلمسه لم تعشه لم تحتك به... أنت لديك معلومات عنه ولكنك لا تدري به، وكلامهم صحيح، حيث إنّه سبحانه خاطب رسوله(ع) بهذا الشكل في العديد من الآيات التي تتكلّم عن شيء لم يلمسه ولم يحتك به الرسول(ع)، كنموذج {وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ} كما في الآية 17 من سورة الانفطار.

كانوا يقولون إنّ الأدلة على الآخرة معلومات، وفرضاً كانت المعلومات قويّة، تدلّ وتبرهن على الآخرة، والاستناد إليها هو الظنّ، وكلامهم صحيح، حيث إنّه سبحانه وصف إيماننا نحن بالآخرة بأنه ظنّ، لأنّ هذه الكلمة معناها:

الاعتقاد بشيء ما نتيجة الاستناد على معلومات. كما ورد في الآية 249 من سورة البقرة {قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ}.

الظنّ هو حالة غالبية ما نؤمن به دينياً أو علمياً... وكمثال، مـا تسمعه من نشرات الأخبار على التلفزيون أنت لم تلمسه ولم تحتك به ولم تكن حين حصل... ولا تعلم إن كان ما يعرضونه من مشاهد مصوّرة هو فعلاً للخبر الذي يقولونه... يـصير عندك ظنّ يستند إلى ما تسمعه وتراه.

أمّا اليقين فهو المعلومات التي عندك ومطابقة للواقع والحقيقة، نـحن الآن في الدنيا، وهذه معلومة مطابقة للواقع لذا هي يقينية، والآية هنا توجّه كلامها للطالبين بحصول يقين لديهم بالآخرة حتى يؤمنوا بها، ولا سبيل لحصول ذلك إلّا حين يَصِيرُونَ في الآخرة، فكيف سيؤمّن سبحانه لهم اليقين بها هنا من رؤيتهم لها؟ حيث إنّ الآخرة ستحصل بعد انتهاء الدنيا، بعد تبدّلها، ولا مجال أبداً بتاتاً لاحتكاكنا الآن بالآخرة ولا بأي شكل، وسيكون عندنا يقين بها برؤيتها ولمسها حين نصير فيها، وبهذه الدقّة باستعمال الكلمات عبرت العديد من الآيات عن ذلك، منها ما ورد في الآية 99 من سورة الحجر {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}، وما ورد في سورة التكاثر مكرراً {ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}.

بـهذا التطويل وتكرار الكلام أحاول ترسيخ ما انْبَنَتْ عليه دراستي هذه للقرآن، بـالبحث عن المعاني الدقيقة للكلمات ترى وضوحاً وبساطةً وعمقاً رائعاً لكلامه تعالى، وهنا كمثال ترى أنه لا معنى لطلبهم اليقين بالآخرة، إذ يطلبون لمسها ورؤيتها، أمام آياته الواضحة سبحانه يقولون كلام سفسطة، كلام هراء، كلام مخبولين... واعتمدوا عليه كحجّة لكفرهم بآياته تعالى! على أساس أنهم أذكياء فطناءُ ولا يؤمنون إلا بما هو يقيني، وكأن آياته تعالى الواضحة فيهم ومن حولهم ليست يقينية وليست دالّة على قدراته تعالى وعلى صدق كلامه ووعوده!

تـرى بوضوح مفهوماً قرآنياً عميقاً منتشراً في مختلف السور، حيث إنّ هؤلاء الكفّار مستكبرون مستعلون على كلامه تعالى وعلى آياته، وليسوا مستعدّين لتغيير فكرهم وسلوكهم إلا إذا حصل عندهم يقين بالآخرة، لذا تأتي أمثال آيتنا هذه لتخبرهم أنهم حين يَصِيرُونَ في الآخِرة سيتم تَذْكِيرُهُمْ بما قالوه هنا عن كفرهم بها، وسيرون هناك إن كان ما قالوه هنا سينفعهم...

بقي شيء، مـن بعض الروايات تراكمت في ذهننا معطياتٌ تشوّش فهمنا لكلامه تعالى، إذ إنّ بعض الروايات بصراحة تراها تتحدّث عن نار الآخرة وجنّتها أنها الآن موجودة، وروايات أخرى تعتمد على هذا المفهوم وكلامها يتضمن أن الآخرة الآن موجودة، وكأنها عالم آخر غير عالم الدنيا وهو موجود الآن مثله مثل عالم الجنّ وعالم الملائكة...

التعابير عن ذلك منتشرة في أدبيات عوام المنتمين لدينه تعالى، يـقولون لمن مات إنه انتقل للآخرة، على أساس أنه الآن وأثناء هذا الزمن الذي نحن فيه، صـار الميّت في الآخرة... وحتى إنّ الأدبيات الشعبية تفيد بأن الآخرة في السماء، إذ إنّ الجنّة في السماء الآن...

هذه الأدبيات الشعبية لها جذور في بعض الروايات التي تتحدّث عن رؤية النبي محمّد(ع) للجنّة والنار حين عرج إلى السماء... أكتفي بهذا المقدار لترى فرقاً هائلاً بين دقّة كلامه تعالى وبين بعض الروايات التي أشبعت أفكارنا بمعطيات غير صحيحة، علماً بأنه في مقابلها روايات كثيرة متماشية مع مفاهيم القرآن، ولكن التساهل والاستخفاف والسذاجة والطفولية... تجعل الروايات المعارضة لصريح القرآن مقدسة ولا يمكننا رميها! وكأننا بذلك نهين الرسول المنسوبة له، بينما هي كذب وتلفيق له (ع)...

(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون{33})
{وَبَدَا لَهُمْ}، وظهر لهم، {سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا}، فصارت ظاهرة واضحة أمامهم أعمالهم السيئة فهناك كتاب ينطق بها عليهم... {وَحَاقَ بِهِم}، فالتفّ وأحاط بهم، {مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، ومن سياق السورة نعلم أنهم تعاملوا مع الكلام عن عذاب الآخرة من خلفية الاستهانة والاستخفاف فلم يعتبروا له أي قيمة واستخفّوا به، وفي يوم القيامة سيحيط بهم هذا العذاب الذي اسْتَهْزَأُوا به، لأنه صار نَاراً وَدُخَاناً وَضَرْباً وَإِهَانَةً وَاحْتِقَاراً... يلازمهم ولا ينفكّ عنهم ويحيط بهم من كلّ الجوانب.

لـن يبقى لهم أي ممر لدخول الرحمة الإلهية عليهم، فمن كلّ الجهات تحيط بهم السيئات، فلا مغفرة ولا شفاعة ولا قيمة لأي عمل حسن قاموا به...

(وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ{34})
هـم في هذه الحالة، {وَقِيلَ}، لهم:

{الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ}، فلا نضعكم في اهتمامنا، {كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا}، مثلما كنتم تعلمون بأنكم ستلاقون هذا اليوم ولكنكم لم تستعدّوا له ونسيتموه عن قصد. مثلما تضع شَيْئاً يتلف تحت المطر، يصدأ أو يتبلّل... وأنت لم تَسْهُ عنه، فلم يغب عن بالك، بل أنت تركته هناك إِهْمَالاً، فنسيته عن قصد، فحذفته من اهتمامك، وهكذا فلن يهتمّ تعالى بهم وهم يتعذّبون، فسينساهم في العذاب ولن يراجع "ملفاتهم" ليخفّف عنهم أو ينجيهم، فلن يعيد سبحانه النظر إليهم برحمته، بالضبط مثلما هم علموا بهذا اللقاء ولكنهم نسوه فلم يهتمّوا به وتركوه.

{وَمَأْوَاكُمُ}، المكان الذي تأوون إليه، الذي تذهبون إليه لتبقوا فيه هو، {النَّارُ}، {وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ}، فلن تجدوا أَحَداً ينصركم فيحقق لكم ما تريدونه فيساعدكم للخروج من النار.

لـا أحد سيشفع لهم بل الجميع سَيَتَبَرَّؤُونَ منهم، ولا يوجد قوّة يمكنها أن تفرض عليه تعالى أن لا يعذّبهم.

ننتبه جَيِّداً، فللنسيان تدرجات، تبدأ من اختفاء المعلومة تَمَاماً من ذاكرتك، وُصُولاً إلى بقائها في ذاكرتك مع خروجها من اهتمامك وتركيزك بسبب انشغالك بشيء آخر أو بسبب تنزيلك لمستوى أهميتها، أو النسيان عن قصد. ووصفه تعالى بالنسيان، فالمقصود منه إخراجهم من رحمته تعالى، وهو نسيانهم عن قصد من قاموس الرحمة والعناية والرأفة... فسبحانه لا تختفي المعلومات من عنده ولا بأي شكل، ولا ينشغل بشيء يسبّب له ترك الاهتمام بأشياء أخرى... وَقَصدت الآية من تعبيرها بنسيانه تعالى للكافرين وهم يتعذّبون، قصدت توصيل تعبير قَاسٍ جِدّاً جِدّاً لنا عبر التأكيد على انقطاع اهتمامه تعالى بهم عن قصد، فهو نسيان عن قصد، وليس مَحْواً لهم من علمه تعالى، بل مَحْواً لهم من رحمته تعالى، وليس لانشغاله تعالى بأمور أخرى بل لتقصدّه تعالى نسيانهم ليبقوا في العذاب مهانين بلا أي أمل لهم بالنجاة منها.

(ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ{35})
{ذَلِكُم}، البقاء في النار ونسيانكم في العذاب كمعاملة تعبّر عن الاستهانة بكم، {بِأَنَّكُمُ}، بسبب أنكم، {اتَّخَذْتُمْ}، جعلتم من، {آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً}، فتعاملتم معها من خلفية الاستهانة والاستخفاف فاعتبرتم الأمور المميزة المنسوبة له تعالى والتي تدل على قدرته تعالى وصدق كلامه وبالتالي تدل على حتمية وقوع يوم القيامة، فتعاملتم معها واعتبرتموها بلا قيمة فاستهنتم بها، فأنتم هناك في الآخرة سَتَكُونُونَ بلا قيمة أَيْضاً.

{وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}، فما هو متاح لكم هنا في هذه الحياة من ملذات وإشباع للرغبات... جعلكم تنخدعون بما يبدو أنه جيّد فطمعتم به، فتعلّقتم بإشباع رغباتكم السيئة، حتى لو كنتم تعلمون أنها سيّئة لكم وللآخرين، وحتى لو علمتم أنه تعالى يحرّمها، فانخدعتم بها وكأنه ستفوتكم السعادة إن لم تفعلوها...

تذكّر أنه تعالى لم يحرّم علينا إلا الخبائث والفواحش... وحلّل سبحانه لنا كلّ الطيبات، ولكن هؤلاء غرّهم الخبيث والفاحش والفاسد... فرأوا فيه سعادتهم ولم يتحمّلوا تركه، ففعلوه.

{فَالْيَوْمَ}، في هذا الزمن الذي قمتم فيه من الموت وحاسبناكم على أعمالكم ونسيناكم في النار، فاليوم {لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا}، يبقون في النار بلا نهاية، {وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}، لـا أحد يحترمهم أو يحبّهم ليسألهم عمّا فعلوه حتى يقولوا بأنهم نادمون ويعتذرون عمّا فعلوه فيساعدهم، فمن فعل شَيْئاً سَيِّئاً وكان عَزِيزاً عليك ولا تريده أن ينال العقاب، فهذا تعاتبه: لماذا فعلت هذا؟... فيردّ عليك: أعتذر، سامحني... فتسامحه. وهذا هو العتاب، وهذا شيء يحصل مع ضعاف المؤمنين الذين خلطوا عَمَلاً صَالِحاً مع عمل سيّء، فيعاتبهم تعالى وتعاتبهم الملائكة(ع) ويعاتبهم الأنبياء والرسل والصالحون... فيقولون لهم: ألم تكونوا مؤمنين تعلمون بأن هذا سيّء فلماذا فعلتموه... فيعتذرون... ويحصلون على الشفاعة. أمّا غير المؤمنين، فلا أحد يعاتبهم، ولا أحد يسأل عنهم، ولا أحد يبالي بعذابهم.

(فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ{36})
{فَلِلَّهِ الْحَمْدُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز "الله" فأي عمل يقوم به تعالى فهو محمود جيّد، وَكَان الحديث في بداية السورة وخلالها عن تصميمه وخلقه تعالى لنا، فهذا عمل حميد لا يعترض عليه من له عقل سليم، وبعدها وصلنا في الفقرة السابقة إلى تعذيب شديد خالد لمنكري الآيات والبعث، تأتي الآية هنا لتقول بأن كل ما يفعله تعالى فهو محمود، فحتى تعذيب هؤلاء فهو عمل محمود جيّد، لأنهم مجرمون مرتكبون للسيئات مستهزئون بكلام الإله عزّ وجلّ، فمسامحتهم ليست عَمَلاً مَحْمُوداً، وتعذيبهم بالقوة والشدّة المناسبة هُوَ العمل الصحيح، وهذا ما سيقوم به سبحانه.

{رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ}، المسؤول من مستوى إلهي عن كل ما علا وعن كل ما تحته في الحدود التي تتواجد فيها المخلوقات، فلم يترك سبحانه الربوبية لأحد غيره لا في السماوات ولا في الأرض، فهو وحده تعالى من الأساس المسؤول عنها من مستوى إلهي ولا يزال.

{رَبِّ الْعَالَمِينَ}، المسؤول من مستوى إلهي عن كلّ الناس.

تتذكّر أني أنا ربّ أسرتي، وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... فعلى مقياسنا نحن مسؤولون عن الأسرة والبيت والعمّال... وهو سبحانه بمستواه الإلهي ربّ لكل الدنيا وما فِيهَا، فقراراته هِيَ التي تمشي فيها، ولا ربّ لكل الناس من أولهم لآخرهم من مستوى إلهي غيره تعالى، وبالتالي فمسؤولية حسابهم وعقابهم بيده وبيده فقط سبحانه.

يمكن أن تفترض سُؤَالاً نفهم منه آيتنا، فتقول: ما دخله تعالى معي حتى يحاسبني ويعذّبني إن أسأت؟ وما علاقته بي حتى يحكم عليّ ويحاسبني على تصرفاتي...؟ من أمثال هذه الأسئلة نفهم أنه تعالى ربّ كلّ شيء، وربّ كل الناس، وبناءً على هذه الربوبية قَرّر محاسبتنا ومجازاتنا، ويمكنك الاعتراض والرفض والكفر... ولكن هذا لن يغيّر أي شيء، فأنت عبد وهو عزّ وجلّ ربّك، وكلامه سيمشي عليك غَصْباً عنك، وهنا في الدنيا غَصْباً عنك تمشي على قراراته إذْ منحك القدرة هنا على اختيار الإيمان أو الكفر، فأنت مجبور على اختيار طريق منهما، وفي الآخرة غَصْباً عنك ستتحمّل نتيجة ما اخترته في الدنيا.

(وَلَهُ الْكِبْرِيَاء فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{37})
في الختام تريدنا السورة أن نفهم هذه الصفات الثلاث "كبرياء عزّة حكمة" كتطبيق لكل ما ورد فيها:

{وَلَهُ} تعالى {الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، فكلّ ما في الدنيا فهو تعالى أكبر منه والبقية صغار، فالإنسان يشعر بالكبرياء على الناس لأنه يملك شَيْئاً لا يملكونه، فهم معهم مال ولكنه معه مال أكثر منهم، أو هو معه شهادات عالية، أو وظيفته مهمّة... فيرى نفسه أكبر منهم وهم صغار، وسبحانه له الكبرياء في كل الحدود التي تتواجد فيها المخلوقات، فأي صفة فيه تعالى هي أكبر من كل صفات الْآخَرِينَ، فهو الأقوى والأقدر والأغنى...

يعني تريدنا الآية هنا أن نرى عدة أمور، فعلى من تكبّر المنكرون للآيات الإلهية؟ على شريعة من تكبّروا؟ على أوامر من تكبّروا؟ على تهديد من تكبّروا؟ على وعد من تكبّروا؟... لقد تكبّروا على من له الكبرياء الحقيقي على كل شيء، فكل الدنيا وما فيها صغار أمامه تعالى، فمصيبة المتكبرين عظيمة.

ومن ناحية ثانية، لِمن خضع المؤمن العامل للصالحات؟ بمن آمن؟ ومن أطاع؟... لأكبر كائن بالقدرات والصفات في الدنيا خضع وأسلم وأطاع.

{وَهُوَ الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... فكل ما تحمله كلمة عزيز من معنى فسبحانه موصوف بها بالتمام والبقية كلّهم أذلّاء له تعالى. وبمقابلة هذه الصفة مع الذين كفروا فهم كفروا بالعزيز، بأقوى قدرة وسلطة في الدنيا، وبمن آمن وتعلّق المؤمنون مُتَّخِذِيهِ وَلِيّاً؟ بالعزيز، بأقوى قدرة وسلطة في الدنيا.

{الْحَكِيمُ}، الذي يرى الصوابية في الأمور، فلا يعبث ولا يلعب فقراراته وأفعاله كلها متقنة ولا يوجد فيها عيب وهي حقّ.

كلمة حكمة ومشتقاتها تشير لعموم ضبط الشيء على المطلوب: على الصوابية على الحقّ... وعلى نفس المعنى الأساسي نقول: أحكم الوثاق، حكم بالعدل، حكومة على الناس... وتفسير الحكمة بالأهداف والغايات السامية فهو من تبعات تطبيق صوابية الحقّ، ووصفه تعالى بالحكيم يشير لصوابية نظرته في الأمور وأن قراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب فقراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول بأن أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فلا يفعل لغاية له سبحانه.

رَغم الكبرياء والعزّة فسبحانه حكيم، قارنها مع ملك أو رئيس بكبرياء وعزّة لدرجة أنه لا يرى نفسه مُضْطَرّاً ليفكر مرتين أو يحسب حِسَاباً لأي شيء حين يصدّر أوامره، فهذا لا يجد نفسه مُضْطَرّاً للتصرف بحكمة لأنه لن يتعرض لأي تهديد مهما فعل لأنه متسلّط ولديه زبانية وأتباع... أمّا أنا فمضطر للتصرّف بحكمة في بعض الأمور وإلا فالعواقب وخيمة... وهكذا ترى معنى وصفه تعالى بالحكيم من بعد الوصف بالعزيز، فرغم القدرة والسلطة الفائقة فسبحانه يتصرف بحكمة.

لذي هذه الصفات الثلاث نفتخر بأنه إلهنا ربّنا، ونفتخر بأننا عبيده، ونثق بكلامه، وننتظر وعوده، ونطمع بتظليله لنا برحمته، ونؤمن بقدرته على خلقنا من جديد وعلى تخليدنا في جنّة رائعة...

سورة الأحقاف (46) ص 502

إعراض من أشرك عن الإنذار الإلهي المبني على قرار العزيز الحكيم حين خلق الدنيا ليكون من بعدها آخرة وحساب وجزاء، بعدها ردّ على أساسيات إشكالات المشركين على دين التوحيد، بعدها تدخل السورة على أصغر دائرة في حياتنا في بيتنا مع أبوينا، لتقارن بين المؤمن ومصيره والكافر ومصيره، وبعدها تدخل على نموذج مجتمع الأحقاف الكافر المعرض ومصيره، وبعدها تدخل على نموذج مؤمنين من الجنّ، كمقارنة بين البشر المعرضين مع كائنات من غير البشر.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(حم{1})

هذه حروف نتهجّاها مقطّعة هكذا: حا ميم.

الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ

فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوِّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ{2})
سبق أن وردت نفس هذه الآية في سورة الجاثية في الآية الثانية.

هذان الحرفان {حَا مِيم} هما: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ}، حيث إن الكتاب الإلهي تحوّل قسم منه إلى اللغة العربية، والحرفان {حَاء} و{مِيم} هما نموذجان من أحرف اللغة العربية التي نزل بها الكتاب، من فوق إلى تحت، من العالي معنويا، من صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" جلّ جلاله، {الْعَزِيزِ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره...

{الْحَكِيمِ}، الذي يرى الصوابية في الأمور، الذي لا يعبث ولا يلعب فقراراته وأفعاله كلها متقنة ولا يوجد فيها عيب وهي حقّ.

نلاحظ عادة القرآن بذكر صفاته تعالى لتعريفنا به سبحانه، وفي نفس الوقت لتنبيهنا، كعملية تنزيل هذا الكتاب، فوصفه تعالى بالعزيز يشير إلى أقوى قوّة وسيطرة وفرض إرادة... في الدنيا، والذي بهذه الصفة يمكنه فعل ما يشاء ولا أحد يمكنه الاعتراض لمنع ما شاءه تعالى... فرضا قرّر سبحانه العبث، لأنه العزيز سيحصل ما يريده حتما، ومن جهة ثانية فإن الصفة الثانية "الحكيم" تخبرنا أنه تعالى دائما يتصرف بصوابية، وكنموذج على ذلك اختار بحكمته محتوى ما سينزل من الكتاب الرئيسي على الرسول محمّد(ع)، وأصلا بحكمته قرّر تعالى نزول الكتاب على الرسول محمّد(ع)، لأن الحكمة من خلق الناس وهدايتهم عبر تعريفهم بإلههم الحقيقي وتعريفهم بمصيرهم... استدعت نزول الكتاب، وهكذا ترى عمقا، وتنتبه أنك في هذا القرآن تقرأ كلام صاحب هذه الصفات.

بالنسبة لما تجده في بعض الكتب عن الفرق بين كلمتي نزل وتنزيل، فكلاهما وصف لعموم الانتقال من علو "ماديا أو معنويا" إلى مكان منخفض ماديا أو معنويا. حيث معنويا نقول: نزلت رتبته العسكرية. وكلا الكلمتين "نزل وتنزيل" تتحملان معنى النزول دفعة واحدة أو على دفعات، ويتحدّد ذلك مما تتكلّم عنه، وتتحملان النظر للفاعل وحده، أو للمفعول وحده، أو للحالة. لذا لا فرق بالمعنى بين الأصل "نزل" وبين الاشتقاق "تنزّل تنزيل نزول..."، خصوصا فيما يقولونه عن الفرق بينهما في نزول القرآن دفعة واحدة أو بالتدريج على دفعات.

ما تجده هنا وهناك في ثقافتنا عن نزول القرآن كلّه من السماء السابعة إلى السماء الرابعة... ومن الرابعة جرى تنزيل القرآن "ونزل" على دفعات على الرسول(ص)، وبهذا التفصيل "وأشباهه" يقصدون تفسير كلمتي نزل وتنزيل بتوصيف مختلف للفعل، وهذا تفصيل لا ضرورة له وأصلا لا دليل قرآنياً عليه، ويمكن فهم نزول القرآن تدريجيا على دفعات وفهم نزوله كلّه كوجهين لعملة واحدة، حيث إن بعضه نزل "تنزّل" في ليلة القدر، ثم نزل "تنزّل" بعضه في زمن بعدها... وبالنظر للقرآن كلّه جرى تنزيله "نزوله" على دفعات استمرت لقرابة العشرين سنة حتى وفاة الرسول(ص).

يبدو أن الفهم الضبابي لكلمة "قرآن وكتاب" دفع بالكثيرين للبحث عن فرق بين التنزيل والإنزال بالمعاني التي ذكروها، حيث فهموا أن كلمة قرآن تشير لكل ما بين الدفتين، لكل القرآن من أوله لآخره، وفهموا كلمة كتاب كذلك أنها تشير لكل القرآن من أوّله لآخره، وبناءً عليه أرادوا تبرير الآيات التي تذكر نزول "كتاب القرآن" على أساس أنها تشير لنزول كتاب القرآن كلّه من أوّله لآخره دفعة واحدة، ومن المعلوم أنه كلّه لم يكن نازلا على الرسول(ص) حين جاءت الآيات التي تقول إن القرآن نزل...

بناءً على فهمهم هذا، بدأت تبزغ الآراء المختلفة لتبرير الموضوع، حيث قال بعضهم إنه كلّه من أوّل مرّة نزل على الرسول(ع)... وبعدها عاد ونزل عليه (ع) على دفعات. وآخرون قالوا: لم ينزل أولا كلّه على الرسول(ع) وإنما نزل

كلّه من السماء السابعة إلى الرابعة، ومن هناك صار ينزل على دفعات على الرسول(ع)... وغيرها من التبريرات التي لا داعي لها، فالآية الواحدة قرآن، والسورة قرآن، والسورتان قرآن... لأن كلمة قرآن وصف لإمكانية قراءتنا لما نزل منه تعالى، وأي تعبير يشير لنزول أو تنزيل "القرآن" فهو لا يعني أكثر من نزول شيء يمكن قراءته، لذا لا داعي لنفهم أن التعبير يشير إلى نزول كلّ القرآن.

كلمة كتاب تشير لعموم أي موضوع تامّ، حيث إن السورة الواحدة كتاب، والفقرة أو الآية الواحدة من السورة إن كانت تامّة الموضوع فهي كتاب، وكلّ القرآن كتاب، وهكذا عندما تجد آية تتحدّث عن نزول القرآن أو نزول الكتاب فهي ليست بالضرورة تشير إلى نزوله كلّه، لو نزلت آية فهي قرآن، ولو نزلت آية موضوعها تامّ فهي نزول لكتاب...

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ{3})
{مَا خَلَقْنَا}، لم نركّب ونؤلّف، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا}، وهذه هي حدود كل دنيا المخلوقات وما فيها من سماوات سبع تقابل كل منها أرض تناسبها، وما بينهما من فضاء وظواهر وكائنات... حيث إن كلمة سماء تشير لعموم ما علا ويقابلها أرض وهي عموم ما كان تحت، وكلمة أرض ليست حصرية لكوكب الأرض، بل تشير لعموم ما يقابله سماء، حتى لو لم تكن ترابية صخرية مائية، وحتى لو كانت كواكب منتشرة، وحتى لو كانت من غير مادة عالمنا... للملائكة العالية سماء خاصّة بها ولها أرض تناسب نوعية تلك السماء، وكوكب الأرض أرض بالنسبة لسمائنا وسطح القمر وسطح الشمس... أرض أيضا بالنسبة لسمائنا، وهذا واضح من الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...}.

لم يخلق سبحانه السماوات والأرض بما فيها، {إِلَّا بِالْحَقِّ}، بالصواب وليس بالباطل، خلق كائنات تميّز بين الخير والشرّ، ولديها حرية إرادة واختيار، ما معنى خلقها؟ وقبل ذلك هل تعطيله سبحانه لقدراته الفائقة على خلق السماوات والأرض حقّ؟ هل ترك خلقها عمل صائب؟ وسترى السورة تتحدّث مع الذي لا يؤمن بحياة آخرة وحساب وهو مشرك به تعالى، وعلى هذا الكلام ما معنى خلقه تعالى لنا وللسماوات والأرض؟ يجيب القرآن: خلقكم سبحانه حتى تمرّ حياتكم في الدنيا، وبعدها تموتون، ويعيد خلقكم ليحاسبكم، وهذا حقّ، وهذا عمل صائب، وأمّا خلقكم وترككم لتموتوا وتفنوا بلا حساب وبلا مجازاة فهو عمل باطل.

من ناحية ثانية مَن يعترض ويقول إنه لم يعجبه أن يخلقه تعالى، وكثيرا ما نسمع الناس يقولون إنه فرضا إذا كان كلام القرآن عن الآخرة صحيحا، لو سألهم تعالى رأيهم لرفضوا أن يخلقهم ليمرّوا في امتحان... هذا كلام غير عقلاني كيف سيسألهم تعالى عن رأيهم قبل أن يخلقهم! لأن خلقه تعالى لنا كما نحن الآن هو عمل موصوف بأنه حقّ، صواب صحيح، إذ هو منح للحياة لنا، لذا ما معنى الاعتراض على ذلك؟

سترى في سورتنا هذه بعضا من الكلام عن سهولة الإيمان والالتزام بدينه تعالى، في مقابل الوعد الإلهي بجنّة رائعة خالدة لمن آمن لمدة قصيرة هي فترة "الامتحان" الفتنة والبلاء في الدنيا.

نرجع للآية، لم نخلقهم إلا ولهم، {أَجَلٍ}، زمن انتهاء الشيء، {مُسَمًّى}، أي أنه معلوم محدّد، لهم وقت لينتهوا فيه ولن يبقوا كما هم الآن. لن تستمر هذه الدنيا كما هي إلى الأبد، لها نهاية، ومن بقية السورة ومن عموم القرآن تعلم أن ما بعد النهاية يوجد تشكّل جديد لسماوات جديدة وأرض جديدة كما تقرأ في الآية 104 من سورة الأنبياء {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}، ونعود إلى الحياة للحساب...

حاليا وبما لدينا من معلومات عن كوننا، لدينا مؤشرات تدلّ على زمن سيتغيّر فيه شكل وتركيب الكون، شمسنا لها عمر ومن بعده ستخمد... وستنهار مجموعة الكواكب التابعة لها... ومجرتنا ستتصادم مع مجرة المرأة المسلسلة " أندروميدا"... وغيرها العديد من المؤشرات، بسهولة نفهم آيتنا هنا بإشارتها لأجل محدّد لكوننا، ولبقية السماوات.

إذن، هناك نهاية لهذه الدنيا، هل سألتم أنفسكم عن معنى بدايتها ونهايتها؟ وها يقول لكم الذي خلقها إنها ستتبدّل ويأتي عالم الآخرة...

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا خلقه تعالى للسماوات والأرض بالحقّ وبأجل مسمّى، هم، {عَمَّا أُنْذِرُوا}، عن الخبر عن شيء سيّء قادم حتما بسبب توافر شروط حصوله فيهم، وهو محاسبتهم ومجازاتهم في جهنّم بسبب كفرهم وإجرامهم، هم، {مُعْرِضُونَ}، لا يهتمون! لا يضيّعون وقتهم في التفكير فيه! ولا يهمّهم الإيمان بهذا الإنذار ليؤمنوا ويعملوا الصالحات.

(قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{4})
{قُلْ}، أيها الرسول(ع) وأيها المؤمن عبر هذا القرآن:

{أَرَأَيْتُمْ}، أسألكم حين يصير عندكم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: شفتوا، التفتوا إلى، {مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، ما تشهرون وتعلنون لهم فتتوجّهون نحوهم بالكلام على أساس أنهم آلهة وتتركون الله تعالى، كما نقول: ذهبتم من دوني. وتقصد أنهم ذهبوا مع غيرك وتركوك، فهم تركوا الدعاء لله تعالى فتركوا إعلان وإشهار توحيده ودعوا غيره، فأشهروا وأعلنوا عن الأصنام أو الكواكب أو الأرواح أو... أنها آلهة وأرباب من مستوى إلهي.

قل، {أَرُونِي}، اجعلوا عندي صورة محدّدة، "كما نقول بالعامية: خليني شوف". {مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ}؟ فآلهتكم ماذا ركّبت وألّفت من الأرض التي تعيشون عليها؟ فهل خلقوا ترابها، صخرها، ماءها، بحرها، نباتها، حيواناتها... ظواهرها من ليل ونهار... ماذا خلقوا حتى أشهرتم وأعلنتم أنهم آلهة؟

بالنسبة لكلمة "دعاء" ومشتقاتها، ففي عموم استعمال العرب الكلمة يائية وواوية "دعوت ودعيت" مثل "طغوت وطغيت". أمّا في القرآن استعملها فقط بالواو من الأصل الصرفي "دعو"، ووردت مرتين بالياء في الآية 12 من سورة غافر {إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ}، وفي الآية 53 من سورة الأحزاب {وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا}، فهذا ممّا جرى به لسان العرب في حالة تصريف الفعل بصيغة المبني للمجهول، وأيضاً فيما جرى عليه لسان العرب بالياء ما ورد مرتين في الآية 4 و 37 من سورة الأحزاب {أَدْعِيَاءَكُمْ}، {أَدْعِيَاءَهُمْ}، فهذا التصريف لا يعني أننا أمام كلمتين واحدة بالواو والأخرى بالياء، وبالتالي لا يعني أننا أمام معنيين لكلمتين. ويمكن حمل التصريفين "بالواو أو بالياء" على معنى عموم الإشهار والإعلان بكل أنواعه، كالإعلان والإشهار لعبادة كذا، أو للحضور إلى مكان ما، أو لفعل شيء ما... ومن ضمنه الإعلان والإشهار لطلب تحقيق شيء كالوارد نادراً في القرآن ومنه ما في الآية 38 من سورة آل عمران {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ}.

ضع في بالك دائماً أن أكثر الجمل القرآنية المشابهة لآيتنا هذه لم تقصد بشكل خاص أنهم يدعون على معنى يطلبون أشياء وأموراً من آلهتهم، بل قصدت العمومية، فقصدت أنهم يعلنون ويشهرون عن غيره تعالى أنهم آلهة، ولن يجدوا ردّاً من تلك الآلهة على هذا الإعلان، وهذا عمليّاً يتضمّن التوجّه بالدعاء لتلك الآلهة أن ترزقه أو تشفيه... وقارن هذا الكلام مع دعاء نتوجّه به نحوه تعالى لإعلان توحيده أو إعلان مدحه بحمده... فهذا دعاء لا يحتوي أي طلب، فهو مجرد إعلان منك أن الله تعالى إلهك وصفاته كذا وكذا... وتمدحه تعالى... وتذكر فضائله عليك لتشكره... فضع هذا في بالك دائماً لأن أكثر استعمال القرآن لكلمة دعاء قصد ذلك ولم يقصد الدعاء على معنى طلب الأمور والأشياء.

نرجع للآية، {أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ}؟ أو هل آلهتكم شاركته تعالى في تصميم أو خلق السماوات أو إدارتها؟

طبعاً كما ترى فالجواب متضمّن في السؤال، فطالما الذين يدعونهم كآلهة وأرباب لم يخلقوا أي شيء، فعلى أي أساس يعتبرونهم آلهة! وعلى أي أساس سيكون لهم منصب الآلهة والربوبية في إدارة المخلوقات؟

{ائْتُونِي}، تعالوا إليّ، {بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا}، فهذا الكتاب "القرآن" هو من إله يقول بأنه الخالق للسماوات والأرض وما بينهما، وأنه وحده يدير شؤونهم، فهل آلهتكم قالت عبر كتاب ما أنها صمّمت أو خلقت أو أدارت أي شيء في الدنيا؟ فهل لديكم كتاب نزل منهم قبل هذا القرآن وفيه يقولون بأنهم خلقوا شيئاً ما؟ وبالتالي يكون كتابكم الأصل ويكون هذا القرآن تقليداً لكتابكم.

هذا الكلام يأخذك إلى ما يكرّره القرآن دائماً وستراه من الآية 9 وما بعدها في هذه السورة، حيث ترى الامتداد التاريخي لدينه تعالى لآلاف من السنين، وسترى الانقطاع التاريخي لآلهة بقية الأديان، لأنها من اختراع جماعات من البشر، إذ إن هذا الدين بدايته من بداية استعداد البشر لتحمّل التكليف، من زمن آدم(ع) وهو أول من تأهل من البشر لتحمّل التكاليف الإلهية، وبقية الأديان اخترعتها جماعات وانقرضت دياناتهم بانقراض تلك الجماعات أو بتغيّرهم إلى دين آخر... وهذا القرآن امتداد لكتب وصحف نزلت سابقاً منه تعالى، أمّا الذين يدعون من دونه فهل نزل منهم ولو كتاب واحد؟ لا، وهذا شيء مشهور معلوم في تاريخ البشرية، حتى أن العلمانيين الذين لا يؤمنون بأي دين، ستجد في كتبهم التاريخية تسميتهم لليهودية والمسيحية والإسلام بأنها دين واحد، ويسمّونهم بدين التوحيد، أو الدين الإبراهيمي نسبة للنبي إبراهيم(ع) الذي بيننا وبينه آلاف من السنين، بينما بقية الديانات عمرها أقل من ذلك بكثير... إذ كلّها ديانات اخترعوا فيها آلهة من خيالهم، ولتلك الآلهة أسماء مختلفة وصفات مختلفة ووظائف مختلفة... وشرائع مختلفة... ويبدو واضحاً دينه تعالى متميّزاً بأصل وأساس واحد على امتداد آلاف من السنين.

أو ائتوني بأي، {أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ}، فأي علم تستأثرون به فتعلمونه أنتم لأنه جاء إليكم لوحدكم ولا يعلم الآخرون به، حيث إن لديكم علم بشيء غاب عن الآخرين ولحدّ الآن لم تظهروه للآخرين، فاستأثرتم به لأنفسكم، فهاتوه لنقتنع معكم. بما أن المعلومات المنتشرة بين الناس عن آلهتكم ليس فيها دليل حقيقي، فإن كان لديكم شيء تؤثرونه فتختصون به أنفسكم لتخفوه ولم تقولوه للآخرين، فقولوه لنا لنعلم به أيضاً ونحسم الموضوع، {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، إن كانت فعلاً آلهتكم آلهة حقيقية؟

كما ترى فسبحانه دائماً يتكلّم معنا بشفافية، فبعلمه الفائق بكل نقطة في السماوات والأرض لم ير سبحانه أثراً لإله غيره ولا بأي شكل، فهل من المعقول أن إنساناً خلقه الله تعالى، ثم هذا الإنسان سيعلم بشيء لا يعلم به تعالى! وهل يمكن أن يكون عند إنسان ما علم يؤثره، فيخفيه محتفظاً به لنفسه ولا يعلم به تعالى!

كما ترى فهذا نوعاً ما معنى آخر من نظرة أخرى لنفس المفهوم الوارد في الآية 33 من سورة الرعد {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ}، فهل من المعقول أنكم أنتم تعلمون بشيء ولا يعلمه تعالى؟ أي تعلمون بوجود آلهة غيره وهو سبحانه لا يعلم بها؟

ننتبه دائماً أن نفيه تعالى لوجود آلهة غيره لا يعني دائماً أنها ليست موجودة، فمن عبد الحجر فالحجر موجود، ومن عبد الشمس فالشمس موجودة، ومن عبد ملاكاً فالملاك موجود... ولكن النفي لألوهيتها، فعندما نقول في دراستنا أنها آلهة وهمية، فهذا لا يعني أنها غير موجودة أساساً، إذ ربما تكون خيالية كإله الرعد وإله المطر وإله الحرب... وربما تكون أشياء موجودة ولها كيان كتمثال أو إنسان أو ملاك... ولكن ألوهيتها وهمية لأنها ليست آلهة، وهذا ما يقصده القرآن هنا وفي كل السور.

نلاحظ مشكلة ذهاب فكرنا عادة للأصنام أنها المقصودة بالآلهة التي عبدوها، والسبب هو معرفتنا باشتهار وانتشار عبادة الأصنام عند العرب حين نزول القرآن، وهذه المشكلة لازمت عامّة المفسرين خلال دراستهم لهذه السورة "ولعامّة القرآن". فضع في بالك وتذكّر دائماً أن القرآن توجّه بخطابات متعددة لأناس متعددين، فمرّة توجّه لعموم من أشرك، وأخرى توجّه لخاصة من عبد الأصنام، وفي غيرها توجّه لمن عبد الأشخاص والأنبياء... فكل سورة وبحسب موضوعها تتوجّه لنوع أو نوعين أو لعامة المشركين، ولكن ليس كل كلمة عن مشرك في القرآن تقصد كلّ أنواع الشرك، لا، إذ كلهم جعلوا معه تعالى آلهة، ولكنهم مختلفون حيث إن بعضهم عبد كائنات واعية فعبدوا ملاكاً أو إنساناً... وآخرون عبدوا كائنات نصنّفها بغير الواعية كالكواكب والنار... وآخرون عبدوا الأصنام، وآخرون عبدوا آلهة لا كيان لها كآلهة الحرب والخمرة والجمال... وهنا سترى السورة تتحدّث عن ومع من يعبد شيئاً له وعي، كملائكة أو جنّ أو أشخاص من البشر...

بقي شيء، فإله أو ربّ اخترعه جماعة ما، وآخرون اخترعوا إلهاً باسم آخر وقصّة أخرى، ولنقل إنهم اخترعوا إلهاً للمطر، فهل ظاهرة المطر تحصل على كل الأرض أم على البقعة التي اخترع فيها الناس إلهاً للمطر؟ وهكذا ترى معنى لفت القرآن انتباهنا للآيات الإلهية كونها عامّة منتشرة في السماوات والأرض، فمن الواضح أن نفس الإله خلق

كل البشر، ونفس الإله خلق كلّ الأرض، وخلق كل الظواهر... فما معنى تعدّد الآلهة طالما كل شيء يبدو متناسباً متناسقاً ويدل على تصميم وتخطيط وإدارة مركزية واحدة؟

ما معنى اختراع آلهة لم تتواصل مع الناس ولا بأي شكل؟ فكيف علموا بها وبأنواعها وبأسمائها وصفاتها التي تختلف عن بعضها...؟ بينما الله سبحانه منذ آلاف السنين يتواصل مع الناس وينزّل الكتب ويبعث الرسل...

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ{5})
{وَمَنْ أَضَلُّ}، من أكثر ابتعاداً عمّا يوصله إلى الغاية الصحيحة، ومن الأكثر ابتعاداً عن الحقّ، {مِمَّنْ}، من الذي، {يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ}، يتركه تعالى ويشهر ويعلن لغيره أنهم آلهة ولا يجد منهم ردّاً على دعائه، {إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، حيث من حين ما دعاهم إلى حين يموت وبعدها حين يقوم من الموت لن يحصل على إجابة من الذين أشهر وأعلن أنهم آلهة.

ضع في بالك دائماً أن أكثر الجمل القرآنية المشابهة لآيتنا هذه لم تقصد بشكل خاص أنهم يدعون على معنى يطلبون أشياء وأموراً من آلهتهم، بل قصدت العمومية، حيث قصدت أنهم يعلنون عن غيره تعالى أنهم آلهة، ولن يجدوا ردّاً من تلك الآلهة على هذا الإعلان، وهذا أساس ما تقوله الجملة وعمليّاً يتضمّن التوجّه بالدعاء لتلك الآلهة أن ترزقه أو تشفيه... قارن هذا الكلام مع دعاء نتوجّه به نحوه تعالى لمدحه للتقرّب منه فقط، إذ إن هذا دعاء لا يحتوي أي طلب، فهو مجرد إعلان منك أن الله تعالى إلهك وصفاته كذا وكذا... وتمدحه تعالى... وتذكر فضائله عليك لتشكره... لذا ضع هذا في بالك دائماً لأن أكثر استعمال القرآن لكلمة دعاء قصد ذلك ولم يقصد الدعاء على معنى طلب الأمور والأشياء.

الاستجابة لهذا الدعاء له تعالى، الاستجابة للإعلان والإشهار أن الله إله... هي عموم حصول أي ردّة فعل، إذا فقط سمعه تعالى استجاب، وإذا حسب لك حسنات استجاب... وإذا كنت تطلب شيئاً وحقّقه استجاب... وسنكمل مع الآية وبعد ذلك سترى التفاصيل الكثيرة التي تتضمّنها الآية...

{وَهُمْ}، الآلهة التي اخترعوها ويدعون لها، {عَنْ دُعَائِهِمْ}، عن إشهار وإعلان من اعتبرهم آلهة، {غَافِلُونَ}، لم ينتبهوا حين حصل الدعاء لهم، حيث حصل الدعاء ولم يعلموا بحصوله.

إن كانت آلهتهم من الجنّ أو الملائكة(ع) أو أشخاصٍ من الناس، فليس لدى هؤلاء القدرة على سماع أدعية الناس في كلّ الأوقات، إذ على أقصى تقدير يوافق "يصادف" أن يسمع ملاك ما دعاء شخص ما، ولكن الملائكة(ع) ليس لديها القدرة على سماع كل ما تقوله كل الكائنات، لذا هم غافلون عنه...

أمّا لو كانت آلهتهم من الحجر أو الخشب أو المعدن كأصنام وتماثيل، فهذه من الواضح جدّاً أنها لا تعي الدعاء لها، ولا داعي للحديث عن غفلتها، والآية هنا لا تشير لها بالكلام، بل تشير لمن اعتبروه آلهة ولديه أصلاً القدرة "المحدودة" على السمع.

الكلام هنا تخطّى الغباوة بعبادة حجر، وغباوة الآلهة الخيالية من الأوهام، ولم يتوجّه الكلام لهم مباشرة، وانتقل إلى من عبد شيئاً نحن نرى له كياناً واعياً، وسألتهم الآية السابقة عن سبب عبادتهم والدعاء لهم إن كانوا لم يخلقوا أي شيء... وهم أصلاً مخلوقات محدودة القدرات جدّاً ولا يمكنها أن تنتبه لدعاء من دعاها لأنه تعالى وحده السميع البصير العليم الخبير... من مستوى إلهي.

وهكذا ترى السعة في معنى استجابة الدعاء، فهي ليست حصرية لطلب يتم تحقيقه، بل لعموم أي تفاعل كردّ فعل على تعاملك مع أي شيء، حيث تلكز الحصان ويستجيب بزيادة السرعة، وتزيد من البنزين للسيارة وتستجيب بزيادة سرعتها... وتعلن له تعالى أنه إلهك، يستجيب بسماعه لكلامك. والمشركون يعلنون لمخلوقات أنهم آلهة، وأصلاً لن تسمعهم تلك المخلوقات لأنها إمّا ميتة فاقدة للوعي أو قدرتها على السمع محدودة لا تسمع إلا من جاورها وكان في مجال سمعها، أو... إذ فقط وحده تعالى لطيف واسع محيط ووسع كرسيه السماوات والأرض، وعنده مفاتح الغيب... ويعلم ما في البرّ والبحر...

(وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ{6})
{وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ}، حيث تمّ جمعهم مع بعض بقرار منه تعالى سواء قبلوا أو رفضوا، وهذا سيحصل في يوم القيامة، حينها، {كَانُوا}، أموات البشر والملائكة والجنّ... {لَهُمْ}، للذين اعتبروهم آلهة، {أَعْدَاءً}، لا يحبّون الخير لهم بل العكس يحبون الشرّ لهم، فإذا كانت آلهتهم كائناتٍ لها وعي، ولنقل إنهم عبدوا أجدادهم الأموات أو عبدوا أصناماً تمثّل أجدادهم أو تمثّل الملائكة(ع) أو الجنّ... ففي يوم الحشر سيكونون لهم أعداءً لا يحبّونهم ولا يريدون لهم الخير.

وإن كانت آلهتهم أصناماً أو كواكبَ... فلا نجد في القرآن تصريحاً بأن هذه الأشياء ستحصل على قدرة النطق، ولكن جرت عادة المفسرين على تشبيه نطق الأصنام بنطق الجلود وأعضاء الجسد التي صرّح القرآن بحصولها، ولا داعي لذلك، إذ هنا السورة لم توجّه كلامها حصراً لعابدي الأصنام، بل لعامة المشركين، ومن عبد حجراً فسخافته واضحة أصلاً لأن الحجر لا يطرد الذباب عن نفسه! راجع الآية 73 من سورة الحج كمثال {وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ}.

{وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ}، وكلمة "عبد" ومشتقاتها تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيّتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك. إن تلك الكائنات التي قالوا عنها إنها آلهة مفروض طاعتها ستكفر بعبادة الذي عبدها وستنكر أنها مفروض طاعتها من مستوى إلهي، حيث نحن كمخلوقات مفروض منّا طاعة إلهنا، وهذا هو معنى كلمة عبادة للإله، والله تعالى هو الخالق المالك لكل شيء، فهو إلهنا، وكلنا عبيده أي مفروض منّا طاعته، ومن تصرّف على أساس أنه عبد لغيره تعالى، ففي يوم القيامة لن يتجرّأ أي أحد منهم على ادّعاء الألوهية حتى لو كان هنا في الدنيا ادّعاها، فهناك سيتبرّأ ممن عبده... ومن لم يدّع الألوهية هنا في الدنيا فهناك في الآخرة أيضاً لن يتجرّأ ويدّعيها، وسيتبرّأ ممن عبده...

عادة ينصرف ذهننا من كلمة عبادة إلى مقابلتها مع المملوك، وكما عرفت فإن هذا ليس المعنى المباشر للكلمة، وعادة ترانا نفسّرها بالأفعال التي نصطلح عليها بعنوان العبادة، كالصلاة والصيام والزكاة... وكلام التسبيح والمديح...
والنذور وطلب ما نحتاجه... وتجد في أدبياتنا توسعة لمفهوم العبادة الذي تكوّن في ثقافتنا ليشمل عموم أي عمل يرضى عنه تعالى، كبرّ الوالدين... وقتال الأعداء... بينما المعنى الأساسي هو الطاعة، المفروض منه الطاعة، وبذلك عملياً تشمل فعل عموم ما يرضى عنه تعالى وترك ما لا يرضى عنه تعالى.

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ{7})
{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا}، حيث يسمعون بالأمور المميزة المنسوبة له تعالى يقولها لهم أحد ما عن مصدر إلهي، {بَيِّنَاتٍ}، من الواضح دلالتها على توحيده تعالى وعلى البعث من الموت... {قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا الآيات قالوا، {لِلْحَقِّ}، للصواب الصحيح، {لَمَّا جَاءَهُمْ}، عندما صار عندهم، قالوا: {هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}، هذا خداع واضح يصوّر لنا الكذب حقيقة ولن ننخدع به.

بعبارة أخرى، السحر هو جعلك ترى الوهم حقيقة، حيث إن الساحر يجعلك تعتقد أن الحمامة اختفت في القبّعة، وأنت تعلم أنها لم تختف حقّاً، وتعلم أن هذا الذي تراه ويبدو حقيقة إنما هو خدعة، وهذا هو المعنى العقلاني لكلمة سحر كما استعملها العرب والقرآن، وما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتُمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه يتحقّق ما يريد، فإن هذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها.

هنا تقول الآية إنه تعالى يرى الآيات التي نشرها من حولنا، وهي واضحة بدلالتها على وحدانيته كإله، وأنه قادر وصادق بوعده وسيقيمنا من الموت ليحاسبنا، وعندما ينظر تعالى للآيات ويعدّدها لنا عبر رسوله وبالتحديد عبر هذا القرآن، وهي بيّنة فتدل بوضوح على الوحدانية والبعث، هؤلاء يقولون: هذا الكلام مقنع جدّاً وعقلاني ومنطقي... أو يقولون إن هذا الكلام لا يمكننا الردّ عليه، ولكنه خدعة، سحر، والحقيقة أنه يوجد آلهة عديدة ولا يوجد قيامة من الموت، وهذه الآيات تخدعنا بشكل واضح، وتجعلنا نتوهم أنها صحيحة، لذا هي سحر، ولكننا لن ننخدع بها ولن نؤمن بها.

ننتبه إلى أن القرآن كرّر عدة مرّات هذا القول عن لسان هذه النوعية من الناس "سحر مبين"، وهذه الجملة لم تعد دارجة كثيراً في عصرنا من الكافرين بالدين الإلهي، ولكن تسمع المرادف لها والذي يعطي نفس المعنى، فيقولون إن الدين للبسطاء، وهذا معناه أن البسطاء ينخدعون بالكلام الديني الخرافي ليروه حقيقة، ولغويّاً هذا هو معنى كلمة سحر.

حسن، هذا ما يقوله الكافرون، فهل نحن المتدينون نمارس السحر حين نتلو الآيات؟ نعم، إذ إن ما تجده في بعض الكتب وما تسمعه على بعض القنوات من دعاة الإسلام، لا يختلف عن كلام أهل العقائد الكافرة أو المنحرفة، حيث تسمع الدعاة يعرضون الكذب بالإعجاز العلمي والطبّي والليزر والثقوب السوداء... التي تكلّم عنها القرآن! وتسمع الكذب عن أسرار الحلال والحرام التي لم تظهر إلا بعد تقدّم العلم ليبين أن السجود على الأرض يسحب منك الطاقة السلبية ويجعل الدم يتحرّك ليصل إلى المخيخ... وعن الجرثومة التي في لحم الخنزير والتي لا تموت بالتجميد ولا بالطهي... وعن وعن... وهو كلام فارغ وهراء ما أنزل الله به من سلطان.

هذا الجانب المنحرف من ديننا الذي يخترعه الناس هو المساوي للسحر الذي يمارسه أهل العقائد الأخرى، ومثله في الكذب والانحراف والسحر الكلام المذهبي بين المسلمين، الذي فعلاً يوقع الأغبياء تحت تأثيره حتى يفعلوا السيئات بالفرقة بين المسلمين وصولاً إلى قتلهم المسلم الآخر!

أمّا القرآن وبدون التلاعب به، فهو الحقّ، وليس بسحر لأنه لا يخدعنا بل يقدّم الواقع والحقيقة، وعلينا عرضه على أنفسنا وعلى الناس كما هو، والأمور غير العادية التي ذكرها القرآن كفلق البحر للنبي موسى (ع)، ولبث النبي يونس (ع) في بطن الحوت وغيرها... فهي أمور حقيقية حصلت بتدخّل إلهي لتكون آيات، ونؤمن بها لأن القرآن بمحتواه العقائدي والتشريعي يدلّنا بوضوح أن مصدره إلهي... وأمّا خزعبلات الإعجاز العلمي والعددي... وأشباهها، وخزعبلات الروايات الكاذبة، وخزعبلات الطائفية والمذهبية والعصبية... فهي سحر "خداع" لا علاقة للقرآن بها.

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ{8})

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ}، يقولون إنّ محمّداً ألّف هذا القرآن ونسبه لله تعالى، تفتري عليّ يعني أنك تنقل عني كلاماً لم أقله لك، أو تقول إنّي فعلت شيئاً وأنت لا علم لك إن كنت فعلته. والفرية الكاذبة أن تنسب لي شيئاً أنا أصلاً لم أقله أو لم أفعله.

قل لهم: {إِنِ افْتَرَيْتُهُ}، إن كنت ألّفته من عندي ونسبته لله تعالى، {فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}، إذ هناك عذاب أكيد لمن افترى على الله تعالى وأنتم لن تنفعوني بأي شيء. يعني: إن كان الافتراء على واحد من الناس له تبعات سيئة، ولنقل إنّي نسبت كلاماً لأبي جهل، وأبو جهل لم يقل ذاك الكلام، فسأكون في موقف صعب أمام أبي جهل وأمام الناس، وأنا عندي علم أكيد بأن الافتراء على الله تعالى عليه حساب عسير جدّاً جدّاً، كيف سأفعلها وأفتري على الله تعالى وأنتم بماذا ستنفعوني إن عذّبني تعالى؟ بعبارة أخرى: كيف أقوم بهذا العمل وأنا أعلم خطورته؟ فإن كنت سأكسب اتّباعكم لي بالافتراء على الله تعالى بماذا ستنفعوني عندما يعذّبني؟! فأنا أصلاً لا أتجرّأ على القيام بالافتراء.

إن كنتم تظنون أنّي أعرض عليكم ديناً وأنسبه لله تعالى حتى أصير مميّزاً وزعيماً... فهل سأفعل ذلك متجاهلاً ما أعلمه من عقاب إلهي شديد لمن افترى عليه سبحانه؟ إذ إنّ النفع لي من ذلك هنا في الدنيا هو لا شيء أمام العقاب عليه في الآخرة، بماذا ستنفعوني في الآخرة حين يجازيني بالعقاب على ما افتريته؟

ننتبه لهذا الكلام جيّداً، حيث إنّ بعض الناس لا يرون أي مشكلة في الافتراء عليه تعالى حتى يقنعوا الآخرين بدينهم، حتى نحن المنتمين لدينه تعالى ترى بعضنا مقتنعاً بأن جعل الآخرين مؤمنين هو هدف تنهار أمامه بعض القيم، لذا لا مشكلة عندنا باستعمال طرق ملتوية لإقناعهم بدينه تعالى، وهذا هو الافتراء بعينه، حيث إنّ شيئاً لم يقله تعالى، نكذب ونقوله حتى يقتنع الآخرون بدينه تعالى! والسؤال الذي تطرحه الآية: إن آمنوا بماذا سينفعونك في الآخرة حين يجازيك تعالى بالعقاب على الفرية عليه بشيء لم يقله؟

{هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ}، كما نقول: فاض الإبريق بالماء، حيث إنّ حدودكم أن تسمعوا الكلام الصحيح وتقتنعوا به لأنه صحيح، وهذا ما أنقله لكم، ولكنكم خرجتم عن حدود الاقتناع بما هو صحيح واتهمتموني بالافتراء، وسبحانه يعلم

بما تقولونه من فائض الكلام، من كلام زائد عن الحقّ، وأمّا كلامي فهو ليس إفاضة بل على التمام وأنقله لكم كما يصلني بالتمام.

{كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ}، بالله تعالى، لأنكم تقولون بأنّي أفتري عليه تعالى وأقول إنّه سبحانه أنزل عليّ هذا القرآن، وأنا أقول بأنّي أصلاً لا أتجرّأ على الافتراء عليه تعالى، وهو تعالى الشاهد الذي يرى ويسمع ما أقوله وتقولونه وأنا أكتفي به تعالى كشاهد على صدقي وكذبكم، وبالتالي أضمن أنّه تعالى لن يظلمني وسيحاسبكم على اتهامي.

{وَهُوَ الْغَفُورُ}، يغفر بكثرة فيتجاوز عن السيئات ويلغي العقاب عليها، لأنّ سبحانه ليس لئيماً جافّاً صلباً جامداً على موقف واحد، لا بل غفور. و{الرَّحِيمُ}، إذ لديه عناية خاصّة بالمؤمنين لا ينالها الآخرون، وعمليّاً يهديهم وينير قلبهم... فيغفر سبحانه لهم ولا يغفر للكفّار، ويشفع لهم ويضاعف حسناتهم... وهذا معناه أن تتوقّفوا عن اتهامي بالافتراء وتستفيدوا من صفته تعالى الغفور الرحيم فتؤمنوا ليغفر لكم ويشملكم برحمته.

لو كررت الكلام سنفهم الآية بسهولة إذا قارنتها مع الذي تنهار عندهم القيم فيستعملون أي وسيلة تجعل الآخرين يؤمنون بدينهم أو بمذهبهم، وخذ مثلاً دعاية الإيمان بصلب المسيح، إذا فقط آمنت بذلك، فأنت مغفورة ذنوبك لأن المسيح سيحملها عنك وقد تعذّب لأجلك حيث ضربوه وصلبوه وقتلوه حتى تنغفر ذنوب المؤمنين به. وخذ مثلاً دعاية الولاية للإمام علي والتي لوحدها تضمن لك دخول الجنّة، وخذ مثلاً دعاية صلاة الجمعة جماعة لمرة واحدة على الأقل كل أربعين يوماً إذ إنّها تعويض لك عن كل التقصير في الصلاة اليومية...

كلّ هذه الدعاية تنطرح لاستجلاب الناس إلى الدين والمذهب، وهنا الآية تتحدّث عن هذه النوعية من الحالات،

حيث تقول إنّ محمّداً أصلاً يخاف من الافتراء على الله تعالى، وهذا شيء يشير إلى اختلاف نوعيته (ع) عن نوعية المشركين الذين يفترون بسهولة على بعضهم وعليه تعالى، لأنّه (ع) ليس من هذه النوعية... أين منفعة محمّد(ع) من الافتراء عليه تعالى حتى يؤمنوا؟ لأنّ الافتراء عليه تعالى عليه عقاب، فهل سيغْنونه عن العقاب؟

تلفت الآية انتباهنا للطريقة التي سيصل بها كلامه تعالى للناس، حيث إنّ سبحانه سيتواصل مع من تأهّل منهم بالمواصفات اللائقة ليكون رسوله تعالى، فيكون صادقاً أميناً سليم القلب ولم يخترع إلهاً من هواه ولم يعبد هواه... إن اتهمتم شخصاً بهذه الصفات بأنّه يفتري عليه تعالى، فبكلام من ستؤمنون؟

وهكذا من بعد كفرهم بالبيّنات المنقولة لهم عبر رسول صادق أمين... لا يبقى للرسول إلا شهادته تعالى لتؤكّد أنّه ينقل هذا القرآن منه تعالى، وسترى من بقية الكلام الردّ والتأكيد الإلهي على صدق رسوله...

(قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ{9})
{قُلْ}، أيها الرسول(ع) للناس عبر هذا القرآن:

{مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ}، إذ هناك رسل كثيرون قبلي، وأنا أيضاً رسول، ولست منفرداً عنهم بأي شيء أقوله، لأن أقوالي ليست بدعةً إذ إنّها ليست أشياء جديدة أخترعها ولم يقلها من سبقني من الرسل، لو فرضاً كنت أوّل إنسان يقول إنّ وحياً إلهيّاً يصله لينقله للناس، لكان اتهامكم لي بالافتراء عليه تعالى فيه وجهة نظر، ولكنّي فعلاً رسول سبقني الكثير من الرسل وستجدونني مثلي مثلهم وأنقل تماماً ما نقلوه.

{وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ}، حيث إنّ كلامي عن الآخرة والحساب ليس من عندي، وأنا أصلاً لا أكذب، إن قلت لكم شيئاً ما سأعتمد على ما لمسته وعاينته وعشته... وأدري به، لأكون صادقاً فيما أقوله، أمّا كلامي عن الآخرة والحساب والجزاء فهي معلومات وصلتني وأنقلها لكم وأنا مثلكم أسمعها ولست أنقلها لكم من معاينتي لها أو من مشاركتي في اتخاذ قرار حصولها... وبمراجعة التاريخ سترون أنّي لم أبتدع هذا الكلام حيث إنّ من سبقني من الرسل نقل عنه تعالى نفس الكلام.

بعبارة أخرى حين نقلت لكم أنّه سبحانه سيقيمنا من الموت ليحاسبنا ويجازينا، أنا أصلاً لم أكن أعرف هذا، ولم أختبره بنفسي، "لا أدري به"، ولست كاذباً حتى أخترعه، والرسل السابقون مثلي أيضاً لم يخترعوه من تقديراتهم أو خيالهم بل

تعلّموه من الوحي، وأنا مثلهم، وهكذا تنتبهون أنّي لم أبتدع هذا الكلام لأن الكثيرين قالوه قبلي، وكلنا لم نره ولم نعشه. إذ إنّ الدراية هي علم ما تراه وتعيشه وتلمسه وتختبره فعلاً.

لا تنسَ أنّ هذه النقطة "القيام من الموت والحساب والجزاء" هي من أساسيات موضوع هذه السورة.

{إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا}، أي فقط أكون على، {مَا يُوحَى إِلَيَّ}، على ما يصلني من معلومات على وعيي مباشرةً، حيث إنّها تصلني وأنا أتبعها وأنقلها لكم، مثلما كان يحصل مع الرسل من قبلي حين اتبعوا الوحي ونقلوه للناس، وها أنا أنقل لكم نفس الكلام.

{وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ}، حيث أحمل لكم خبراً واضحاً عن شيء سيّئ قادم حتماً لمن توافرت شروط حصوله فيه، وهو الحساب والعقاب الحتمي الأكيد لمن خالف كلامه تعالى.

نتذكّر الآية السابقة، لأنّ هذا الذي تسمّونه افتراءً له امتداد تاريخي من الرسل الذين نقلوه للناس بالضبط كما أنقله لكم، لذا من الواضح أنّه امتداد وليس افتراءً عليه تعالى، ونتذكّر الآيات السابقة، إذ إنّ دينكم أيها المشركون ليس له امتداد تاريخي، وأمّا ديني فخلفه سلسلة من الرسل والكتب تمتدّ لآلاف من السنين كلّهم فيهم نفس العقيدة التي أنقلها لكم عبر هذا القرآن.

الوحي هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرةً من القائل، سواء أكان خيراً أم شرّاً، وبناء عليه كلّ أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وحياً لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وترى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}، وحتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ}.

ينطبق فعل الوحي على أي كائن كان "إنساناً أو حيواناً أو مَلكاً أو جنّاً" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم.

طرق فعل الوحي أنواعه متعدّدة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}. ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرةً كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}، وما ورد في الآية 193 و 194 من سورة الشعراء {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ}. أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ}، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل كما هو مشهور في تراثنا الديني. ووحي عبر إصداره تعالى صوتاً في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، مضافاً لها الآية 13 من سورة طه {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}، فكلامه تعالى معه(ع) وحي لأن الكلام ليس صادراً مباشرةً منه تعالى فهذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، فيصير وصف الحالة أن كلامي يصلك وحياً.

هناك وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} إذ في النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

الوحي يصدق على وحي الخير والشرّ، إذ إنّ الشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... لأنّ الوسوسة في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيراً أو شرّاً فهو وحي.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{10})

{قُلْ}، لهؤلاء الناس المشركين عبر هذا القرآن:

{أَرَأَيْتُمْ}، أسألكم حين يصير عندكم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: شفتوا، التفتوا، {إِنْ كَانَ}، ما أقوله لكم من قرآن بكلامه عن الآخرة، {مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}، وليس من عندي، {وَكَفَرْتُمْ بِهِ}، فأنكرتموه ولم تؤمنوا بصحّته، {وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ}، حيث إن أي شخص من بني إسرائيل "من المتدينين أو العالمين بدينهم" سيشهد على شبه التمام لكلام هذا القرآن عن الإيمان به تعالى وعن الآخرة أنه هو نفسه المذكور في التوراة، وهو نفسه الذي قاله الرسل السابقون قبلي، بمراجعة أي شخص من بني إسرائيل ستجدون أن الكلام القرآني عنه تعالى وعن الآخرة له امتداد تاريخي إذ هو مذكور في كتاب عمره عشرات مئات السنين وهو التوراة، وما في القرآن من أساسيات للدين الإلهي فهي مذكورة من قبل في التوراة، {فَآمَنَ}، أعلن الشاهد بأن هذا القرآن مشابه تماماً لتاريخ طويل من الرسل ومن الكتب التي نقلها أشخاص يقولون إنهم رسل من الله تعالى، {وَاسْتَكْبَرْتُمْ}، فرأيتم أنفسكم أكبر من أن تؤمنوا بهذا القرآن رغم وجود دليل واضح على امتداده التاريخي.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي}، لا يضع "غصباً عنهم" على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {الْقَوْمَ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع كلامه تعالى "كفرا"، {الظَّالِمِينَ}، الذين لم يكونوا منصفين ولا عادلين، إذ لم يكن معهم حقّ حين كفروا، فبطريقتكم هذه لن تصلوا إلى الهداية الإلهية ولن تصلوا إلى نتيجة يرغبها العقلاء، لأن نهايتكم إلى العذاب.

بعبارة أخرى بنو إسرائيل جماعة لها امتداد تاريخي معلوم، وأي واحد منهم سيشهد على كلامي بأنه مطابق لكلام الرسل الذين سبقوني، وهكذا تتأكدون أني لا أفتري عليه تعالى ولا أبتدع الكلام عن الآخرة والجزاء.

وكفركم سيكون استكباراً على الحقّ، وظلماً ستكفرون بما هو حق، وبهذه النفسية والعقلية لن تهتدوا إلى الطريق الإلهي، ومن منظور آخر، الهداية منحصرة بما أقوله ورفضكم له سيعني أنه تعالى لن يهديكم بطريقة أخرى، لا بإجباركم، ولا بكتاب آخر ولا برسول غيري... ولا بإمضائه تعالى وقبوله لدينكم...

ننتبه جيداً، جملة: شهد... فآمن، لا تعني أنه يوجد شخص إسرائيلي ترك اليهودية وأعلن إيمانه بالقرآن والتزم بالإسلام، لا، إذ إن سياق الكلام هنا عن إعلان من أي إسرائيلي لديه علم بدينه تعالى ليؤكّد بأن الكلام القرآني العقائدي عن التوحيد والآخرة متوافق مع كتب وكلام رسل سبقوه من آلاف السنين، حتى لو لم يؤمن الشاهد الإسرائيلي بمحمّد (ع) كرسول ورفض الإيمان بهذا القرآن، فهذا غير مهم، لأن المطلوب منه رأيه بالمقارنة بين ما يقوله القرآن وبين كتب ورسل عمرها آلاف السنين ومنسوبة لله تعالى، إذ إن فقط شهادته بتطابق ما يقوله القرآن مع كتاب التوراة هي المطلوب منه ليكون شاهداً وحجّةً على المشركين تثبت أن هذا القرآن ليس بدعة ولا ديناً جديداً ولا من اختراع محمّد(ع)... لأن كلام القرآن له مستند لكتاب قديم جداً.

بناءً عليه لا تبحث في الروايات والتاريخ عن شخص من بني إسرائيل قصدته الآية، فهي لم تشر لشخص محدّد، ولم تشر لشخص آمن بالإسلام، إذ إذا التفتّ إلى بداية السورة حين طالبت المشركين أن يأتوا بكتاب من آلهتهم، أو بأي شيء منها، أو بدليل على الامتداد التاريخي لدينهم، والتفتّ للآيات السابقة حين بدأت السورة تتحدّث عن هذا القرآن وعن هذا الرسول بأنه ليس بدعة، ووصل الكلام إلى هنا للإشارة إلى توافر الدليل الملموس على أن كلام القرآن ليس بدعة. تلفت الآية انتباههم إلى سهولة العثور على أي شاهد من بني إسرائيل ليشهد بأن محتوى عقيدة هذا القرآن "توحيد وبعث..." لها امتداد تاريخي، وهو كواحد من بني إسرائيل المشهورين بالامتداد التاريخي لكتابهم الذي عمره آلاف السنين، في مقابل كل هذا لن يجد المشركون شخصاً واحداً يشهد بامتداد تاريخي لآلهتهم، ولن يجدوا امتداداً تاريخياً لتواصل آلهتهم مع الناس، حتى لو كذب وألّف أحد ما كتاباً وقال إن آلهته أوحت به، فلن تجد له أي اتصال بالماضي، فهو البدعة الواضحة، وهو الافتراء...

إذن، تقول لهم الآية أن يسألوا أي شخص موثوق لديهم من بني إسرائيل، ويقولوا له إن محمّداً يدّعي أنه رسول منه تعالى، ومعه كتاب فيه كذا وكذا... فسيخبركم الإسرائيلي أن من تسألون عنه ليس أوّل شخص بهذه الصفات، حيث قبله من آلاف السنين جاء أشخاص مثله وبنفس الكلام.

ورد في الآية 43 من سورة الرعد نفس المعنى عن إحالة المشركين إلى أي واحد من أهل الكتاب ليشهد بأن كلام القرآن له مستند تاريخي سابق {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ}، وهناك تحدّثنا قليلاً عن الروايات التي قيلت كتفسير... إذا أحببت فراجعها هناك فهو نفس الكلام عن الروايات التي قالوها لآيتنا هذه. والملخّص أنهم ركّزوا في تفاسيرهم بالبحث عن شخص من بني إسرائيل محدّد معاصر للنبي محمّد(ع) ليفسّروا الآية أنها تقصده، وهذا غير صحيح، فهي تشير لعموم أي إسرائيلي يعرف دينه وصادق في قوله، وسيشهد بأن كلام القرآن عن التوحيد والآخرة أنه هو نفسه المذكور في كتاب التوراة وهو نفسه ما قاله الرسل عبر التاريخ، وهذا لا يعني أن الإسرائيلي سيؤمن بهذا القرآن ولا بالرسول محمد(ع)، فهذا موضوع آخر، بل المطلوب شهادته فقط.

ستجد في الكتب ترشيحهم لعبد الله بن سلام الإسرائيلي الذي أسلم، فيقولون إن الآية تقصده، ولكن من المشهور أن هذه السورة نزلت في مكّة في بداية الدعوة قبل الهجرة، وعبد الله أسلم بعد هجرة النبي(ع) إلى يثرب "المدينة"... ولكنهم بسهولة يقولون إن الآية مدنية "نزلت في يثرب" وبقية السورة مكيّة، وهذا شيء منتشر في كلامهم عن الكثير الكثير من الآيات التي سلخوها من سياقها لتناسب رواية أو تفسيراً يجبرهم على سلخ الآية من سياقها، ولن أطيل عليك بذلك، ها هي دراستنا أمامك وسترى أن السورة القرآنية لها محور واحد تدور حوله، وأن آياتها مترابطة ونزلت بالتتابع.

دعماً لهذا التفسير للآية ما تراه الآن في عموم الدراسات عن الأديان، أنهم جمعوا الدين اليهودي والمسيحي والإسلامي، تحت عنوان واحد يسمّونه بدين التوحيد أو الدين الإبراهيمي نسبة للنبي إبراهيم(ع)، إذ من الواضح جداً وبسهولة حتى للعلمانيين والملحدين ولليهود وللمسيحيين أن العقيدة الأساسية لهذه الأديان واحدة. ومن نفس العقلية نفهم آيتنا هذه حيث إن أي شخص موثوق بمعلوماته سيشهد بأن هذا القرآن ليس بدعة بل امتداد لدينه تعالى الممتد لآلاف من السنين بكتب ورسل.

بقي شيء، عموماً أشار القرآن بوصف اليهود لكل من آمن بالتوراة، حتى لو لم يكن من بني إسرائيل، واستعمل توصيف بني إسرائيل مراراً للإشارة إلى المهتمّين بدينه تعالى لأن تاريخ اليهود عموماً حصر تعلّم الدين والتخصّص به لبني إسرائيل، وهنا لم تقل الآية أن يسألوا أي يهودي، وقالت أن يسألوا أي إسرائيلي "صادق" على أساس أن بني إسرائيل عادة يدرسون التوراة، وأن العلماء بالدين عادة منهم.

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ{11})
ننتقل لكلام فارغ آخر يقوله المشركون:

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا هذا الرسول وهذا الكتاب والرسل والكتب من قبله... قالوا، {لِلَّذِينَ آمَنُوا}، كلاماً يصفون فيه الذين أعلنوا اعتقادهم بهذا الكتاب:

{لَوْ كَانَ}، هذا الإيمان بهذا الدين القرآني، {خَيْرًا}، شيئاً فيه خير وجيّد، {مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ}، فنحن سنسارع لأي شيء جيد وسنسبقهم للإيمان به، والذين آمنوا ليسوا أفهم منّا ولا أدرى منّا بالمصلحة، ولكنهم بسطاء ينخدعون بأي شيء. لذا أي كلام عن أشخاص آمنوا بهذا الدين ليكون حجّة علينا أن هذا الدين كان حقّاً وواضحاً ولذلك آمن هؤلاء الناس، فهو كلام فارغ، لأننا نحن لو رأينا فيه خيراً لسبقناهم للإيمان به.

لاحظ أنك تسأل: ماذا تقول للبيت بالفرنسية؟ وليس السؤال عن شيء ستقوله للبيت، بل التعبير سؤال عن معنى كلمة بيت بالفرنسية، وهنا السؤال: ماذا يقول الذين كفروا عن الذين آمنوا؟ وردت نفس الصيغة في الآية 51 من سورة النساء {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا} فراجع دراستها لترى التماثل في استعمال هذه الصيغة من الكلام.

{وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ}، فإذا لم يصر الكفّار على الشيء الصحيح "وهو ما يقوله هذا القرآن" والذي يوصلهم للغاية الصحيحة، فهذا القرآن فيه الخير فعلاً فلماذا لم يؤمنوا؟ {فَسَيَقُولُونَ}:

{هَذَا إِفْكٌ}، إذ هذا تغيير للحقيقة لتصير بالمقلوب، {قَدِيمٌ}، حيث تقدم وحصل من قبل نفس هذا الكلام الكاذب، فما يؤمن به بنو إسرائيل منذ آلاف السنين إنما هو إفك، فالحقيقة ديننا وأي كلام آخر فهو معاكس للحقيقة، لذا لا خير في هذا القرآن.

كما ترى، هم يردّون على نقطتين، حيث إن إيمان بعض الناس بهذا القرآن لا يعني أن هذا القرآن حقّ ومصدره إلهي، وإيمان هؤلاء ليس حجّة عليهم، لأن الذين آمنوا ليسوا أفهم منهم... ومن ناحية ثانية ردّ على لفت انتباههم للامتداد التاريخي للعقيدة التي يطرحها القرآن، فيقولون إن القرآن إفك وأي كلام مثل كلامه فهو إفك، حتى لو كان كلاماً قيل من آلاف السنين.

(وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَاناً عَرَبِيّاً لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ{12})
هم قالوا عن القرآن أنه إفك قديم لأنه مشابه للتوراة، والتوراة أيضاً يعتبرونها إفكاً، وهنا الجواب عن كلامهم:

{وَمِن قَبْلِهِ}، من قبل هذا القرآن، {كِتَابُ مُوسَى}، وهو التوراة، {إِمَامًا}، مرجعاً أساسياً وقدوة تتبعها الناس، {وَرَحْمَةً}، كتطبيق عملي للعناية الإلهية لمن يريد أن يؤمن، وليس إفكاً قديماً كما يقولون.

{وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ}، مؤيّدٌ ومؤكّدٌ لصحة كتاب الرسول موسى(ع)، من حيث توافقهما بعقيدة التوحيد والقيام من الموت والحساب والجزاء... فالقرآن أيضاً كتاب يجب اعتباره إماماً ورحمة وليس إفكاً، وهو القرآن، {لِسَانًا عَرَبِيًّا}، يتم لفظ كلماته باللغة العربية، والفرق فقط بين الكتابين أنهما بلغتين مختلفتين، حيث كان ذاك الكتاب التوراة بلغة أخرى، عبريةٍ أو بشكل أدق: كنعانيةٍ بلهجة جديدة صار اسمها فيما بعد عبريةً، وهذا عربي. ورغم الفرق اللغوي والتاريخي بينهما كلاهما كتابان منه تعالى، فلا فرق بين أساس عقيدة محتوى الكتابين إلا باللغة.

القرآن "ومن قبله التوراة"، {لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا}، الذين لم يكن معهم حقّ في عقيدتهم التي اخترعوها وفي شريعتهم التي من هواهم، فهذا القرآن يحمل لهم الخبر عن شيء سيّءٍ قادم حتماً لهم وهو العذاب في الآخرة، بسبب توافر شروط حصول العذاب فيهم لأنهم ظلماً مخالفون لدينه تعالى، وهذا الكتاب، {بُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ}، الذين قاموا بما يرونه حسناً جيداً وتركوا السوء، وبما أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو حَسَنٌ فعملياً هم آمنوا بدينه تعالى والتزموا به، وهم يتوقعون شيئاً حسناً من ذلك، فهذا القرآن ينقل لهم الخبر المفرح، وكما تعلم فهو خبر دخولهم جنّة الآخرة.

هل هذا الإنذار للظالمين والتبشير للمحسنين إفكٌ! وما هي الحقيقة إذاً؟ وإن لم يكن تأكيد صحّة هذا القرآن بكتاب قبله بمئات السنين وبنفس المحتوى، إن لم يكن هذا كافياً لهم ليهتدوا فبماذا سيؤمنون؟

ننتبه دائماً أنه لا يوجد أي ميزة للغة العربية على بقية اللغات، وها ترى أن التوراة كتاب إلهي محترمٌ، إماماً ورحمة، ولم يكن بالعربية، وكل ما في الأمر أن الشخص الذي حمل المواصفات المناسبة ليكون رسولاً للإله سبحانه كان من الناطقين باللغة العربية، ولهذا السبب فقط لا غير، نزل القرآن بالعربي.

كما ترى، ففي الآية إشارة واضحة لفرق اللغة بين الكتابين، ومن هذا تنبري أسئلة عديدة موجّهة للكافرين، في حين نزول هذا القرآن وكما يبدو من التاريخ، التوراة لم تكن معرّبة، حيث لم يترجمها أحد إلى العربية، فكيف سيقوم محمّد(ع) العربي الأمّي بإعادة صياغة ما فيها إلى العربية وبدقّة؟ ومن ناحية ثانية أديان الشرك محليّة الصنع، إذ لكل قوم آلهتهم الخاصّة، فآلهة مكّة مختلفة عن آلهة جيرانها في الطائف ويثرب وهوازن... ولكل قوم شريعة خاصة بهم... أمّا هذا الدين الإلهي فلا حدود له، وهو نفسه قديماً وحديثاً، فهل هكذا يكون الإفك! ومن ناحية ثالثة هذا الكتاب بلغتهم العربية وفهمه ميسّرٌ لهم، مثلما نحن بالعامية نقول لشخص أغلق فكره: عم إحكي معك عربي. اتهامهم للقرآن بأنه ليس خيراً ربما يكون له تبرير لو لم يفهموه لأنه بلغة أجنبية، ولكنه بالعربية!

ضع في بالك دائماً أن التعابير القرآنية المتنوّعة عن تصديق القرآن للتوراة، لا تعني بأن التوراة لم يحصل فيها تحريف، إنما يصدّق ويؤكد القرآن بأنه والتوراة من نفس المصدر، فلا يكذّب التوراة ويقول عنها بأنها ليست من عنده تعالى بل يصدقها ككتاب إلهي، ولا ينافيها بطرح دين جديد بل هو امتداد يتماشى مع أساس ما فيها...

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ{13})
هذا القرآن بشرى للمحسنين، وهم:

{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي هو صاحب الاسم المحدّد المميّز الله جلّ جلاله، {ثُمَّ اسْتَقَامُوا}، كانوا يوصفون بأنهم على الأحسن فلم ينحرفوا في سلوكهم وبقوا على الصراط الإلهي ومشوا على كلامه تعالى. وهذا تعبير قرآني مرادف لتعبير: آمنوا وعملوا الصالحات. {فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ}، لن يصيبهم أي خطر أو ضرر، فهم في الأمان، لأن جهنّم خطر لا يمكن تجنّبه كعقاب للعاصين، ولكن هؤلاء تشملهم الرحمة الإلهية بالمغفرة وزيادة الحسنات والشفاعة... فبالنسبة لهم لا يوجد خوف ولا يوجد خطر لا يمكنهم تجنّبه.

{وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}، في الآخرة لن يشعروا بأي نوع من المضايقة لأنهم محترمون مكرّمون يتنعمّون... ولن يندموا على شيء ما فاتهم في الدنيا...

(أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{14})
{أُولَئِكَ}، المؤمنون العاملون للصالحات هم، {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ}، الذين مع بعض في المكان الموصوف بروعة ما فيه من حدائق وبساتين وأشياء للسعادة والفرح... {خَالِدِينَ فِيهَا}، فلا يموتون ولا يخرجون منها، {جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، فهذا هو المقابل لإيمانهم به تعالى ولاستقامتهم.

نلاحظ بعض الناس يفترضون حصول الملل من الخلود في الجنّة، لأنهم سيكونون خالدين فيها والأمور ستصير روتينية وتتكرّر، وبسبب سهولة الحصول على ما يريدون سيغيب الحافز... وهم يقيسون على ما يشعرون به هنا في الدنيا، فنحن نحبّ الغابات والحقول أو البحر... ولكن حين نذهب إليها بعد مدّة نشعر بالملل، وبشكل عام نحن نشعر بالملل من بعد حصولنا على ما نريد مهما كانت رغبتنا فيه قوية قبل الحصول عليه، ولكن القرآن أخبرنا أن أهل الجنّة ومن أوّل لحظة من دخولهم إليها وإلى بقية الزمن القادم، هم في حالة سرور دائم ولا يفكّرون ولو للحظة بأي شيء آخر غير الجنّة، وورد ذلك صراحة في الآية 108 من سورة الكهف: {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}، وأخبرنا تعالى أن الجنّة في حالة تجدّد دائم، وكمثال على ذلك ما ورد في الآية 35 من سورة قاف: {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}.

نحن هنا في الدنيا محدودون بعقولنا الصغيرة وحواسنا وشهواتنا وجسدنا... ولكن في الآخرة الوضع مختلف، الجسد في حالة نشاط دائم وشعور بالراحة، والفكر مرتاح في حالة انشراح، وما في الجنّة يتجدّد باستمرار، والقرآن دائما يعبّر عن شعور أهل الجنّة بالسعادة والابتهاج، فلو قلنا أنهم قبل أن يشعروا بالملل فوراً يحصل التغيّر وتأتي الأشياء الجديدة في الجنّة، حتى هذه الجملة غير صحيحة، إذ يؤكّد القرآن أن هذه الحالة أصلا لن تحصل لأن أهل الجنّة لا تخفّ ولا تفتر سعادتهم ولو للحظة، وتذكّر دائما أن كل ما تقرأونه في القرآن عن الجنّة أنه تقريبي، فهي في الحقيقة أروع بكثير، والقرآن نفسه يقول ذلك حين قال في الآية 17 من سورة السجدة: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، فلا الآن ولا هناك نعلم ما المخفي وما سيأتي من روائع...

(وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ{15})
يقول الكفّار "في الآية 11 السابقة" أنه لو كان في هذا القرآن خيرٌ لاتّبعوه وسبقوا الآخرين للإيمان به، لِنَرَ نموذجاً عمّا يقوله القرآن لنرى إن كان كلامه خيراً:

{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ}، صدرت منه تعالى أوامر للغالب الأعمّ من الناس لينفّذوها، {بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا}، الإحسان بالوالدين أمر إلهي لكل الناس ولكن بعضهم يفقد والديه وهو صغير، وبعضهم لديه ظروف أخرى... ولذلك استعملت الآية تعبيراً يشير للحالة الغالبة، فصار على من له والدان مسؤولية تنفيذ ما أمر به تعالى، فوصيناه بوالديه اللذين أنجباه، {إِحْسَانًا}، ليقوم بالأعمال الحسنة معهما.

تذكّر دائما أن كلمة إحسان "ومحسنين"، عامةٌ لوصف أي عمل حسن في مقابل أي عمل سيّء، ووردت منذ قليل في الآية 12، وليست كلمة إحسان "محسن" مخصصة للتفضّل على الآخرين أو التنازل عن حقّ لهم... فهذا عمل حسن وهو من اشتقاقات تطبيقات كلمة إحسان.

حين تضع في بالك الآيات القرآنية العديدة التي قرنت توحيده تعالى مع برّ الوالدين، سترى هنا في الآيات نموذجين عن الالتزام بالتوحيد والبرّ والعمل الصالح كأساس عن الخير الذي تعامى عنه ولم يره الكافرون في القرآن ليؤمنوا به، بل وكما في الآية 11 السابقة قالوا أنهم لو وجدوا في القرآن خيراً لاتبعوه، وفي المقابل هناك شركهم والذي ينتج عنه عبثية عقائدهم وتشريعاتهم التي يتحمّل دينهم أن تكون على مزاجهم، وينتج عنها عقوق الوالدين والعمل الطالح...

هذا نموذج سهل وواضح عن طرح السور القرآنية لموضوع أساسي تعالجه السورة، وله ارتباطات بمواضيع ونقاط أخرى، الفقرة هنا ليست قفزة من موضوع لآخر، بل استمرار لأساس موضوع السورة على أساس ارتباط برّ الوالدين كسلوك "خير"، مع التوحيد كإيمان فكري ونفسي، هذا نموذج عن دينه تعالى، فهل هو خير؟ لنتابع سبب أمره تعالى للإنسان الإحسان بوالديه:

{حَمَلَتْهُ أُمُّهُ}، حملت الأم "الإنسان" في بطنها، {كُرْهًا}، الحمل له مضاعفات على جسدها ويسبّب لها التعب وصعوبة الحركة... وخلقها تعالى كأنثى تحمل الجنين ولم يكن لها أي اختيار لترفض أنوثتها، فلنفرض أن الخيار لها وللزوج واختار الزوج أن يحمل الطفل، ولكن هذا الخيار غير وارد بحسب أساس تصميم خلقة الحيوان، لأن أنثى الحيوان هي التي تحمل الجنين، وهذا معنى توصيفها أنها مكرهة على الحمل، كُرْهًا حملت لأنها الأنثى.

{وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا}، فهي أيضا لم تختر أن لا تنجب بالنظر لما في الإنجاب من خطورة وآلام ومشقّة، فكلمة "كره" تعني المعاكس للطواعية والاختيار، فكونها أنثى فيها صفات قابلية الحمل والوضع ولم يكن لديها خيار أن تكون ذكراً، فهي مكرهة على الحمل المعلوم ما يفعله بجسدها ويؤثّر على نمط حياتها، وهي مكرهة على الوضع المعلوم شدّة آلامه وخطورته على حياتها.

{وَحَمْلُهُ}، في بطنها، {وَفِصَالُهُ}، فصله إبعاده عن الرضاعة من أمّه، {ثَلَاثُونَ شَهْرًا}، وهنا الكلام ليس عن تشريع مدّة الرضاعة التي تعلمها من الآية 233 من سورة البقرة: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ...}، فتمام الرضاعة حولان كاملان من بعد الولادة أي ما يساوي 24 شهراً، وهذا حكم يجب الالتزام به وفصل الولد عن الرضاعة بعد الأربع وعشرين شهراً بغض النظر عن مدة حمله سواء أكانت لستة أشهر أو سبعة أو ثمانية أو تسعة أو حتى عشرة.

لدينا ثلاث آيات فيها كلام عن مدّة الرضاعة، الآية 233 من سورة البقرة: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ...}، وكلمة حولين تشير للأربع وعشرين شهراً تبدأ من يوم ولادة الطفل، وهناك قصدت الآية بالدقة بالحولين أن الأم لو توقفت عن إرضاع الطفل لمدة شهر قبل مرور الأربع وعشرين شهراً، ثم استأنفت الرضاعة، فلا يحق لها الاستمرار بإرضاع الطفل تعويضا عن الشهر الذي توقّفت فيه عن الإرضاع لما بعد انتهاء الأربع وعشرين شهراً، فمثلا لا يحق لها أن ترضعه في الشهر الخامس والعشرين بدلا عن الشهر الذي توقّفت فيه عن إرضاعه.

ولدينا الآية 14 من سورة لقمان: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ..}، والتي كانت تشير للمدة التي خلالها ترضع الأم طفلها، فبعضهن يُرْضِعْنَهُ ليوم أو أسبوع أو شهر أو سنة... فالكلام في الآية عن فضل الأمهات على أولادهن أنهن من جسدهن يطعمن أولادهن، ويحصل ذلك في عامين، في مدة أقصاها أربع

وعشرون شهراً، ويمكن أن يحصل توقّف عن الرضاعة قبل ذلك، فيصير الوصف الدقيق بالعامين كعنوان للمدة التي يمكن التوقف فيها عن إرضاع الطفل ولا يحق للأم تخطيها.

ولدينا الآية هنا التي لا تشير لأمر تشريعي، بل من سياق الكلام يبدو أنها مجرد خبر عن اكتمال نمو الإنسان، فسواء كان الحمل لستة أشهر أو سبعة أو ثمانية أو تسعة أو حتى عشرة، فاكتمال نمو الطفل "كطفل" يحصل من أوّل الحمل فالولادة ثم إلى ثلاثين شهراً، وسترى ذلك بشكل واضح من تكملة الجملة بكلامها عن بلوغ الأشد، وخاصة إذا استحضرت في بالك كلام الآية عن "الإنسان" عن الغالب الأعم من البشر، وبناء عليه لو كان الحمل لستة أشهر فالأربع وعشرون شهراً لإكمال الثلاثين شهراً هي تمام مدة نموه كطفل، ولو كان الحمل تسعة أشهر فالواحد والعشرون شهراً إكمال الثلاثين شهراً هي تمام مدّة نمو الطفل معتمدا على المغذيات من الرضاعة، ويكون ما بعدها زائداً عن حاجته، وتشريعياً يتم إيقاف الرضاعة بعد الأربع وعشرين شهراً من بعد الولادة.

بقولنا في هذا التحليل لكلامه تعالى "تمام مدة نمو الطفل"، نشير لمرحلة من نمو الإنسان وليس لكل حالة نهاية نمو الإنسان، فمثلا لدينا حالة قدرة الطفل على هضم الطعام للاستغناء عن الحليب "المحلوب، اللبن"، فهذه مرحلة تحدث في أول ستة أشهر تقريبا، ولدينا مرحلة بداية ظهور الأسنان... فهذه بعض مراحل نمو الطفل الذي يبقى غير بالغ جنسيا إلا لبعد سنين من ذلك... وكما ترى فهناك تفاصيل كثيرة في نمو الإنسان، والآية أشارت لمرحلة مرور الثلاثين شهراً والتي تبدو الأهم بين مراحل الطفولة.

ننتبه جيدا، إلى هنا ترى تبريرا لوصيته تعالى للإنسان بوالديه عارضة ما قدمته الأم للولد، وبالتالي فهو يستحق منها الإحسان، وتركت ما يقدمه الأب من تكاليف الحياة المعيشية والأمنية والرعاية... لأن ما قدمته الأم من جسدها أعلى في القيمة بكثير مما يقدمه الأب. وليكن هذا التبرير نموذجا لك عن كل شيء ذكره القرآن كأمر إلهي لنا، كله ورد مع تبريراته مباشرة، كحالة تحريم الخمر والقمار الوارد في الآية 219 من سورة البقرة: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا...}، فبصراحة وشفافية يخبرنا سبحانه عن منفعة فيهما ولكن يبرر سبحانه لتحريمهما بأن الإثم منهما أكبر، راجع دراسة الآية لمزيد من التوسّع. وبعض الأحكام وردت مع الاعتماد على شيء تعتبره الآية افتراضياً بديهياً، كحالة تحريم أكل لحم الخنزير المشهور بأكله لأي شيء قابل للبلع حتى اللحوم والعظام والجيفة وفضلات الإنسان... والمشهور برائحته الكريهة المنفرة...

{حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ}، وصل الإنسان إلى حالة الشدّة بالقوّة العقلية والفكرية، {وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً}، ولا تزال الآية تتحدّث عن الغالب الأعمّ من الناس وبشكل عام حين يصلون إلى عمر الأربعين يتوازن عقلهم وتستقر نفسيتهم أكثر، عندها {قَالَ}:

{رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {أَوْزِعْنِي}، افسح وأتح لي المجال، ووفّقني ويسّر لي، {أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ}، أن أعلن عن اعترافي لك بأني حصلت منك على أمور هي نعمة فهي جيدة، فلا تعرّضني لأمور أنسى بسببها شكرك أو يتراجع إيماني فأترك شكرك... {الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ}، نحن فعلياً حصلنا على النعمة منك، خلقتنا ووهبتنا الحياة والفكر والحواس... ورزقتنا وهديتنا... وهذا كلّه يستوجب أن نشكرك عليه، فوفّقني حتى أشكرك ولا أنسى أو أنكر نعمتك على كلّ شيء، لأن نعمتك عليّ وصلتني بسبب نعمتك على والديّ فمنهما جئت إلى الحياة.

وأوزعني، افسح وأتح لي المجال ووفّقني، {وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ}، عملاً موصوفاً بأنه صالح جيّد حسن تقبله وتوافق عليه سبحانك بمحبّة، وعملياً الأعمال الصالحة هي الالتزام بأوامره تعالى لأنه سبحانه لا يأمرنا إلا بما هو صالح.

{وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي}، الذين انفصلوا عني "بالولادة أو غيرها" منّي، فمن ألدهم ويلدهم أولادي وأولادهم... فأصلحهم ليكونوا صالحين مستقيمين، وعملياً أن يكونوا ملتزمين بدينك.

{إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ}، أعلنت إني فتحت صفحة جديدة وسأترك السيئات ولن أرجع إليها، {وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}، من المنقادين لأوامرك.

هذا ما طرحه القرآن، فماذا يقول الرافضون للإيمان به ككتاب هداية من الإله سبحانه؟ ولماذا يرفضون الإيمان به! وما هو السيّء الذي يطرحه هذا القرآن حتى يكفروا به ولا يلتزموا به؟

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ{16})

{أُولَئِكَ} الموحّدون البارّون بوالديهم... {الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا}، كما نقول: ما أحسن عملك. ولا نقصد أنه لديك عمل حَسَنٌ وهذا أحسن، بل نقيسه على مطلق العمل فهو حسن مقابل السيّء. لذا يَقْبَلُ سبحانه أحسن أعمالهم التي صدرت "عنهم" فيعتبر لها قيمة، في مقابل المشركين الذين لا يعتبر سبحانه لأعمالهم الحسنة أي قيمة فَهِيَ هباء.

{وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ}، يَمُرُّ سبحانه عن أعمالهم السيّئة ولا يتوقّف عندها، وَيَغْفِرُهَا لهم.

{فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ}، سَيَكُونُونَ مع بعض مع الذين سيدخلون إلى الجنة، إلى المكان الموصوف بروعة ما فيه من حدائق وبساتين ومباهج.

بَدَأَتِ الآية من حيث سبّب لهم أن يكونوا من أصحاب الجنة "من قبوله تعالى لعملهم الحسن والتجاوز عن سيئاتهم"، وذكرت بعدها تصنيفهم كأصحاب الجنّة.

نَحْنُ نعلم من أنفسنا بأننا نقوم بأعمال كثيرة، وبالنظر لأعمال المؤمنين، الْأَحْسَنُ سيتم قبوله، والسيّء سيتم التجاوز عنه عندما يحاسبهم ربّهم سبحانه، لَا تقصد الآية أن العمل الحسن غير مقبول وفقط الأحسن مقبول، لا، بل بالمقارنة بين جميع أعمالنا من سيئة وحسنة، تَنْقَسِمُ لقسمين فقط: أحسن ما عملنا، وَأَسْوَأُ ما عملنا. وهذا المعنى منتشر في عموم القرآن ولا تشير الآية إِلَى ما يقوله البعض في الكتب عن أعمال أحسن من أخرى بحيث يرفع سبحانه المنخفضة لترتفع قيمتها، فهذا من باب مضاعفة ثواب الأعمال الحسنة ولا يصلح تفسيرا لِآيَتِنَا هنا.

{وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ}، كَوْنُهُمْ في أصحاب الجنّة هو تحقيق للكلام الصادق الذي قال تعالى عنه والذي كانوا سَمِعُوهُ في الدنيا.

انْتَبِهْ، هُنَاكَ العديد من سور القرآن التي تشابه آياتنا هنا، حَيْثُ تتحدّث عن النار والجنّة كأنهما الآن موجودتان، وَهَذِهِ الآيات تنقل لك المشهد من الآخرة، مثل آيتنا هنا حيث "حصل" قبول الأعمال الحسنة و"حصل" التجاوز عن الأعمال السيّئة و"حصل" كونهم من أصحاب الجنّة، فهذا وعد الصدق الذي كانوا في الدنيا يوعدون به، وَالْمَشْهَدُ من الآخرة ويتم نقله إلينا هنا الآن.

أقول لك هذا لأن الكثير من أدبيات كلامنا الديني والعديد من التفاسير والروايات تتضمّن أن الآخرة موجودة الآن، وأن الجنّة والنار اللتين في الآخرة موجودتان الآن، وهذا غير صحيح، نَحْنُ الآن في الدنيا، وحين تتبدّل الدنيا تأتي الآخرة وفيها تتشكّل الجنّة والنار.

(وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ{17})

ننتقل لمشرك لم يؤمن بهذا الدين الإلهي لنرى معاملته السيئة لوالديه كنموذج لا تقصد منه الآية تعميمه على كل من كفر، ولكن تريك الآية أنه لو آمن بهذا القرآن لانتبه من سوء معاملة والديه اللذين لهما فضل كبير عليه، ولخاف من مخالفة وصيّته تعالى بوالديه...

{وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا}، يَصْدُرُ منه صوت عبر نفخ الهواء من فمه، وهو صوت يعبّر عن انزعاجه وشعوره بالضجر منهما، {أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ}، هل تقولان أني بعدما أموت سأخرج من التراب، سَأَعُودُ إلى الحياة بعد الموت لأتحاسب، {وَقَدْ خَلَتِ}، كَانَتْ موجودة ومرّت، {الْقُرُونُ}، العديد من مجموعات الناس التي كانت مقترنة مع بعض وَعَاشُوا في زمن مشترك وماتوا، {مِن قَبْلِي}، مَاتَتْ مجموعات كبيرة جدا من الناس عبر الزمن، فمن سيرجع بكلّ هؤلاء الَّذِينَ اندثرت أجسادهم واختلطت بالتراب، وَتَقُولُونَ أن كل هؤلاء سيرجعون؟

كما ترى، التَّأَفُّفُ هو أقل أنواع الأذية، وبالرغم من ذلك الْقُرْآنُ يعتبرها جريمة إن قالها الولد لوالديه، وكما ترى نَحْنُ أمام نموذج شخص لم تردعه أخلاقه وقيمه من أذية والديه، فهو لا يؤمن بالآخرة وبالتالي لا يؤمن بدينه تعالى، وبالتالي سُلُوكُهُ غير مبني على تعاليمه تعالى، ولهذا لا يجد مشكلة في التأفّف من والديه، بينما المؤمن الحقيقي لا يفعل السوء أصلا، وَصَرَّحَ تعالى بأن أذية الوالدين ولو بأقل أذية، وهي التأفّف، عَلَيْهَا عقاب كما ورد في الآية 23 من سورة الإسراء: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا}.

{وَهُمَا}، الوالدان، {يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ}، يَطْلُبَانِ منه تعالى العون لينجي ولدهم من مصيبة إنكاره للآخرة. ويقولان لولدهما: {وَيْلَكَ}، انتبه من مصيبة عظيمة، {آمِنْ}، أَعْلِنِ اعتقادك بالبعث من الموت، {إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ}، فإذا قال تعالى أنه سيفعل شيئا ما لنا، فحتما سيحصل فهو كلام حقّ وليس باطلا كاذبا.

{فَيَقُولُ}، الولد: {مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}، هو فقط كلام قديم سطّره وَكَتَبَهُ سطرا بعد سطر الناس الذين كانوا أولا قبلنا، فهو فقط قصص خرافية وهمية اخترعها الناس قديما، وليس لهذا الكلام أي ارتباط بمصدر إلهي، وَقَدِيمًا قيل هذا الكلام ولم يحصل شيء...

لاحظ عناية الوالدين بولدهما وخوفهما عليه حتى من بعدما صار كبيرا في السنّ، لِأَنَّهُمَا يخافان على آخرته.

لَاحِظْ أن هذا القرآن وبطرق عديدة أَثْبَتَ أنه من مصدر إلهي، عبر أمية محمّد(ع) وجهله بالتاريخ والتشريع والعقيدة وبالتالي لَا مجال أبدا بتاتا أن يكون هذا القرآن من تأليفه... وبالدقّة التي يطرحها القرآن بكلام مكرّر في سور مختلفة عن نفس المواضيع فلو كان من عند غيره تعالى لوجدوا فيه الكثير من الاختلافات... وعبر تنبؤه بأحداث ستحصل كغلبة الروم... وعبر دقة كلماته وعباراته في استعمال اللغة العربية بشكل يفوق قدرة المخلوقات... وعبر ما يطرحه من عقيدة وشريعة حكيمة... وهنا في السورة رأينا ربط ما يطرحه القرآن بكتب سابقة عمرها مئات السنين، فما يقولون عنه "أساطير الأولين" هو نفسه الدليل على الامتداد التاريخي لهذا الدين الإلهي، وهذا يثبت أن نفس الإله سبحانه وعبر القرون أَنْزَلَ للناس نفس الكلام، أمّا الديانات والعقائد الأخرى فأين امتدادها التاريخي؟ وأين تكرار عقيدتها عبر التاريخ؟ أَلَا يدل هذا على اختراع الناس لها في مقابل دين واحد مستمر من آلاف السنين مما يدل على إلهية مصدره...

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ{18})
رَدًّا على قول من يقول بأن الكثيرين لم يؤمنوا بالبعث وماتوا، وعددهم كبير، فمن سيرجعهم من الموت ليحاسبهم؟ وقديما قيل هذا الكلام عن البعث ولم يحصل إلى الآن أي شيء؟

{أُولَئِكَ}، تلك النوعية من الناس المنكرة للبعث من الموت هم، {الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ}، تحقّق وَانْطَبَقَ عليهم القول الإلهي: {إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ}، {فِي أُمَمٍ}، في مجموعات من الناس كان بينها رأي مشترك وهو إنكارهم للبعث، وكان لهم امتداد زمني في الشرك بأديان وهمية مختلفة، {قَدْ خَلَتْ}، مَرَّتْ تلك الأمم المشركة، {مِن قَبْلِهِم}، من قبل هذه الأمم الجديدة، {مِّنَ الْجِنِّ}، وهم مخلوقات من نار، {وَالْإِنسِ}، وهم نحن المخلوقات من طين "المادة التي في كوننا"، فتلك الأمم التي مرّت والجديدة من الجنّ والإنس الذين على الشرك وإنكار البعث تَحَقَّقَ وانطبق عليهم قوله تعالى:

{إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ}، فَقَدُوا أشياء لها قيمة ولم يحصلوا عليها، وَفَقَدُوا المغفرة والثواب والجنّة.

إن كان لديك أيها الكافر معلومات عن القرون من الناس، وتستغرب أن الوعد بالبعث لم يحصل رغم مرور آلاف السنين عليه... فها نخبرك عن أمم من الجنّ والإنس خلت من قبل وأيضا كانوا كافرين، حَيْثُ إِنَّ الْعَدَدَ أضخم مما تَتَصَوَّرُ فهو يشمل كائنات الجنّ التي لم ترها، والعدد الكبير وطول مدّة موتهم لا يعني أي شيء بالنسبة له تعالى، لِذَا سَيَأْتِي الوعد بالآخرة وكلّ الذين لم يؤمنوا ويعملوا الصالحات خاسرون.

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ{19})

{وَلِكُلٍّ}، لكل واحدة من أمم الجنّ والإنس المشركين، {دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا}، هُمْ مشتركون في الشرك، ولكن مختلفون في الإجرام، بَعْضُهُمْ قتلوا الأبرياء وآخرون استعبدوا الناس وآخرون غشّاشون... لِذَا تَعْذِيبُهُمْ ليس بنفس الدرجة ولكل أمّة منهم درجة تعذيب أعلى أو أقل من الأمّة الأخرى بحسب عملهم.

نتذكّر دائما أن نفس المعيار يجري على الأمم المؤمنة والأمم غير المؤمنة، كِلَاهُمَا سيوفّيان أعمالهم، ولكن سياق الآيات هنا يتكلّم عن القسم غير المؤمن من الأمم، ويتكلم عن الذنب الجماعي، حَيْثُ إِنَّ الْحِسَابَ الفردي لكل واحد شيء، والحساب الجماعي يكون على عمل كان له أثر على الآخرين، كدعم زعيم أو رئيس ظالم حتى فرض ظلمه على الآخرين... وَالْجَمَاعَةُ الداعمة للظالم تتحاسب على كل الأثر السيّء الناتج عن جَمَاعَتِهِمْ... ونفس الشيء للجماعة المؤمنة التي دعمت انتشار الحقّ...

{وَلِيُوَفِّيَهُمْ}، سَوْفَ يعطيهم سبحانه بالتمام، {أَعْمَالَهُمْ}، التي قاموا بها، وَبِحَسَبِ نوعية العمل السيّء الذي قاموا به سيحصلون على ما يناسبه بالضبط من عقاب، {وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}، بِالْحَقِّ والإنصاف سينالون العقاب بلا زيادة ولا نقصان.

يَخْطُرُ بالبال أنهم ارتكبوا الجرائم في مدّة حياتهم القصيرة، فهل يستحقون عذابا دائما خالدا؟ للوهلة الأولى سنرى أن العذاب مبالغ فيه، وأنه ظلم، ولكن عموم مفاهيم القرآن تشرح لنا أن عذابهم بالحقّ وبالتمام، لِأَنَّهُمْ لو طال عمرهم في الدنيا فلن يتغيّروا، فقلوبهم مطبوعة، ولو أعادهم تعالى من حالة الحساب في الآخرة إلى حالة التكليف من جديد كما نحن الآن في الدنيا، لعادوا لما نهوا عنه، كما ورد في الآية 28 من سورة الأنعام: {بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}، وَغَيْرُهَا الكثير من الأسباب التي ذكرتها مختلف السور.

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ{20})
{وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ}، وهنا المشهد في يوم القيامة وما بعده وقبل انتهاء الحساب، ففي الزمن الذي يتم فيه وضع المشركين في مقابل النار، كحدث مهمّ قبل انتهاء محاسبتهم، يَكُونُ الوصف لحالتهم:

{أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا}، كَانَتِ الطيبات متاحة لكم، فالأشياء الجيدة التي ينتج عنها أشياء محبّبة صالحة كانت متاحة لكم ولكنكم أذهبتموها فلم تبق معكم إلى الآن، كَانَ مُتَاحاً لكم أن توحّدوه سبحانه وتبرّوا والديكم وتلتزموا بشريعته... وكل هذه الأمور ينتج عنها طيّبات ولكنكم جعلتموها تذهب ولم ترافقكم إلى يومكم هذا، {وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا}، انْتَفَعْتُمْ بما في الدنيا مما حصلتم عليه من المال والطعام والمساكن والزينة والرغبات والشهوات... وهذه أمور تمتّعتم بها فاستفدتم منها عن طريق السوء، وهو الطريق المخالف لأوامره تعالى، لا عن طريق طيّب وهو طريق الالتزام بكلامه تعالى.

تذكّر دائما أن القرآن وصف ما في الدنيا بأنه متاع ولم يصف بتاتا ما في الآخرة بأنه متاع، فما نستفيد منه في الدنيا لسدّ حاجاتنا ورغباتنا هُوَ متاع وَاسْتِفَادَةٌ، فنأكل لسدّ جوعنا، ونفعل كذا لسدّ حاجة ما... أمّا في الجنّة فأهلها فقط وفقط يأكلون ويشربون ويفعلون ما يفعلونه للسعادة للتلذّذ به، فلا استفادة لهم منه كمتاع، بل كفاكهة كلذّة خالصة مسبّبة للسعادة بدون أي منفعة لحاجة تشعر بالمضايقة إن لم تلبّها وتشبعها.

{فَالْيَوْمَ}، في هذا الزمن الذي قمتم فيه من الموت ونحاسبكم فيه، {تُجْزَوْنَ}، تحصلون على مقابل ما فعلتم وهو، {عَذَابَ الْهُونِ}، سَيُصِيبُكُمْ ألم مع شعوركم بالمهانة "بالهوان بكم عنده تعالى" بقلّة القيمة والاحتقار، {بِمَا}، بسبب ما، {كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ}، حِينَ كنتم في الأرض في حياتكم الدنيا كنتم ترون أنفسكم أكبر من الآخرين، {بِغَيْرِ الْحَقِّ}، لو كنتم مؤمنين ملتزمين بدينه تعالى لَكَانَ هناك ظروف مسموح لكم فيها بأن تروا أنفسكم أكبر من الآخرين الكافرين المحاربين للمؤمنين، وَلَوِ استكبرتم وأنتم في هذه الحالة لكان معكم حقّ، ولكنكم كنتم أنتم الكافرون المشركون التاركون لدينه تعالى المفسدون... فلم يكن معكم حق بالتكبّر في الأرض على الآخرين.

وعذاب الهون، {بِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ}، كُنْتُمْ ترون الدين الإلهي بشكل واضح أنه حقّ ولكن فسقتم عنه فتركتموه منفصلين عنه فخرجتم منه، وبالتالي كانت أفكاركم وسلوككم مخالفة للدين الإلهي ولذلك استحقيتم عذابا يسبّب لكم الإهانة.

يَوْمُ القيامة من الموت يليه أيام من الحساب... وفي مختلف سور القرآن تعلم أنه سيمرّ أيّام يتم فيها عرض أهل النار على النار أثناء محاسبتهم، فيشعرون بحرارتها ويسمعون صوتها المرعب... وحين انتهاء الحساب يتم رميهم في النار بشكل نهائي، وهنا المشهد في الآية عن واحدة من تلك المرّات التي يتم عرضهم فيها على النار.

(وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ{21})
ننتقل الآن لنموذج تاريخي ملموس عن تعذيبه تعالى في الدنيا للمخالفين لدينه كدليل تاريخي ملموس على وجود حساب في الآخرة:

{وَاذْكُرْ}، اسْتَحْضِرْ أيها النبي محمّد(ع) عبر هذا القرآن في فكرك وقولك للناس، {أَخَا عَادٍ}، وَعَادٌ قبيلة عربية قديمة جدا، وكبيرة جدا وكان لها انتشار في مختلف مناطق الجزيرة العربية بحسب ما يقولونه في كتب التاريخ، وقد تحدّث القرآن عن إحدى مجتمعات تلك القبيلة، وذكر أن رسولهم كان اسمه هود(ع)، وأخا عاد تقصد النبي هود(ع) من حيث كان مشاركا لقومه بالنسب أو بالإنسانية أو لأنه معهم في نفس الزمان والمكان، فالأخوّة هي عامّة المشاكلة "مشابهة في شيء ما"، فمعلوم من التاريخ أن النبي لوط(ع) لم يكن هناك نسب بينه وبين قومه الذين نزل عليهم العذاب، ووصفته الآية 161 من سورة الشعراء: {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ}، وأيضا على المعنى العام لكلمة أخ وصفت الآية 10 من سورة الحجرات المؤمنين: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ...}.

{إِذْ أَنذَرَ}، قَامَ النبي هود(ع) بنقل الخبر عن شيء سيّء قادم حتما قد توافرت شروط حصوله فيهم، أنذر {قَوْمَهُ}، الناس الذين كان ينتمي لِجَمَاعَتِهِمْ، {بِالْأَحْقَافِ}، وهو وصف لمكان حيث تلال رمال الصحراء متموجّة، ويقولون أن منطقتهم الآن تقع في اليمن لجهة الحدود مع عمان، فتلك الْبُقْعَةُ إلى الآن مشهورة بتموجات رمال صحاريها، ومن الآية 7 من سورة الفجر نعلم ان اسمها إرم: {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ}.

{وَقَدْ خَلَتِ}، كانت موجودة وذهبت تاركة مكانها ليحلّ شيء جديد، خلت {النُّذُرُ}، الإنذارات، {مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ}، قَبْلَ النبي هود(ع) جاءتهم إنذارات، ومن بين يديه فِي أثناء تواجده(ع) كان ينذرهم، وفي هذا الكلام إشارة إلى الامتداد التاريخي لدينه تعالى من عصرنا إلى آلاف السنين لقوم عاد الذين كانوا قبل النبي إبراهيم(ع)، وهم أيضا من خلفهم خلت النذر، فقبل رسولهم مرّ على تاريخ منطقتهم رسل منه تعالى.

{أَلَّا تَعْبُدُوا}، أن لا تتصرفوا أنكم عبيد، فليس مفروض منكم طاعة، {إِلَّا اللَّهَ}، لَهُ تعالى لوحده تصرّفوا على أساس أنكم مفروض منكم طاعته من مستوى إلهي.

{إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ}، هُنَاكَ خطر قادم لا يمكنكم تجنّبه إن بقيتم تعبدون غيره تعالى وهو، {عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}، ويبدو من الفقرة هنا أن هذا الانذار لم يكن عن خصوص يوم القيامة بل عن عموم أي زمن يحصل فيه عذاب لهم، سواء هنا في الدنيا قبل الآخرة، أو عن العذاب الحتمي في الآخرة، وَكَثِيراً ما دمج القرآن بين العذابين ولم يفرّق بينهما بالتهديد، فكلاهما عذاب، واحد في الدنيا محتمل حصوله إذا اكتملت شروط حصوله، والآخر في الآخرة وهو حتمي وسيحصل لمن كفر.

كما تلاحظ، الْأَحْقَافُ مدينة في الجزيرة العربية، وقد اختارتها السورة لتكون نموذجا يعرفه أهل مكّة من التاريخ والآثار، فتكون لهم دليلا ملموسا على إهلاكه تعالى لقوم بسبب كفرهم.

(قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ{22})
قوم عاد، {قَالُوا أَجِئْتَنَا}، هل حضرت إلينا، {لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا}؟! لتجعلنا ننقلب عمّن نعتبرهم كائنات بصفات وقدرات فائقة فنتركها ونسير بالاتجاه المعاكس؟! فنحن نؤمن بها أنها آلهتنا فبأي منطق سنترك عبادة الآلهة التي تخصّنا وهي لنا، نَنْكَفِئُ عنها فنسير بالاتجاه المعاكس! فنتركها ونعبد إلهك لوحده!

لاحظ القرآن ينقل لنا عن لسان المشركين تعبيرهم بـ "آلهتنا"، لأن عامّة المشركين يعتقدون بوجود آلهة خاصّة بهم، ولغيرهم من الأقوام آلهة مختلفة خاصّة بهم، مثل عقلية مشجعي كرة القدم، فلكل قوم فريق خاص بهم يشجعونه، فكيف

سيتركون فريقهم الخاص بهم ويشجّعون فريقا آخر! ولست أعيب تشجيع فرق كرة القدم ولكن ألفت انتباهك لعقلية ونفسية تشجيع فريقك المفضّل حتى لو كان الفريق الآخر أفضل منه، والعصبية المذهبية البغيضة المنتشرة بين المسلمين وبين المسيحيين وبين اليهود... نابعة من نفس هذه العقلية المريضة، والمشركون عموما من هذه النفسية والعقلية، فهم عاكفون على آلهتهم لأنها تخصّهم وهي لهم ويشعرون بالانتماء إليها ولن يتخلّوا عنها حتى لو قدّمت لهم مليون دليل على فساد وبطلان عبادتها، مثلما ترى فريقك الرياضي فاشل ولم يحقّق البطولات ورغم ذلك تبقى وفيا له وتشجعه.

{فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا}، أَحْضِرْ إلينا ما تقوله عن العذاب، فلن نترك آلهتنا، {إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}، إن كان كلامك عن العذاب الذي سيأتينا صحيحا، فلا تفهم من كلامنا أننا نصدقكِ حين تقول بأن عذابا سيأتينا، ولكن نحن لن نغيّر ديننا وكفاك تهديدا وليحصل العذاب الذي تهددنا به.

تلاحظ سورا أخرى من القرآن تحدّثت بالتفصيل عن عقيدة وسلوكيات قوم عاد، أمّا هنا فالتركيز فقط وفقط على نقاط محدّدة تناسب موضوع السورة، فهم مشركون كافرون بالبعث، أتاهم رسول أنذرهم، ولم يؤمنوا. وهكذا يكون مصيرهم نموذجا عمّا يصيب أمثالهم من الكفّار.

(قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ{23})
قال، أخو عاد:

{إِنَّمَا الْعِلْمُ}، بتوقيت نزول العذاب، {عِندَ اللَّهِ}، وليس عندي فأنا لا أعلم متى سيحصل، فلا أعلم إن كان سيحصل لكم هنا في الدنيا قبل الآخرة وأيضا لا أعلم توقيت حصول الآخرة، {وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ}، أَنَا مجرّد ناقل للرسالة التي تنذركم من العذاب، {وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ}، حَصَلَتْ عندي صورة محدّدة لكم، كما نقول بالعامية: بشوفكم. {قَوْمًا}، أناسا لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع كلامي، {تَجْهَلُونَ}، تتصرفون بلا تفكير عن جهل عن طيش لا عن علم وفهم.

الآلهة من اختراعكم، وعبادتكم لها لا معنى له، وجئتكم بكلام حقّ ورفضتموه... فكل هذا يدل على أنكم تتصرفون عن جهل، فأنتم جهلة، تتصرفون عن طيش.

(فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ{24})
{فَلَمَّا رَأَوْهُ}، عندما صار عندهم صورةٌ محدَّدةٌ، "شافوا" العذاب العظيم، {عَارِضًا}، شيئاً صار معروضاً، ولم يكن وظهر، {مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ}، فإذا أكمل مسيره سيقابل الأماكن المنخفضة بين مرتفعاتٍ والتي يسكنون فيها، لأنهم رأوا غَيماً كَثيفاً قَادماً باتجاههم، والغيم عادة شيءٌ مهمٌّ لأنه يحمل المطر، وهذا المشهد للغيم الذي يتحرّك باتجاه ما هو عاديٌّ حيث عادة يراه الناس قبل هطول المطر، وقوم عاد الذين في الأحقاف رأوا غَيماً كَثيفاً قَادماً باتجاه منطقتهم، {قَالُوا هَذَا عَارِضٌ}، هذا شيءٌ ظهر وله أهمية، {مُمْطِرُنَا}، سينزل بالماء علينا، يعني استبشروا منه خيراً بالمطر...

{بَلْ} ليس عارضاً ممطركم بالخير، {بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ}، وهو ما طلبتم حصوله قبل وقته، حيث عادة يترك سبحانه العقاب للمشركين إلى الآخرة، وأنتم طلبتم رؤية العذاب الآن، واكتملت فيكم شروط حصول العذاب الدنيوي، فعجّل سبحانه لكم به، فهذا العارض ليس ممطركم بالماء بل هو {رِيحٌ}، هواءٌ قويٌّ، {فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ}، فيه ضررٌ لكم لا يمكنكم تحمّله. وتعلم من الآية 7 من سورة الحاقّة {سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}، أن الريح ضربتهم لأيامٍ وأماتتهم كلّهم إلا المؤمنين الذين غادروا قبل وقوع الكارثة...

(تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ{25})
تلك الريح، {تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ}، تغيّر هيئة وشكل كل ما أمامها، وتحطّم وتخرّب كلّ شيء يقع في طريقها، {بِأَمْرِ رَبِّهَا}، لأنها ريحٌ تشكّلت بأمر المسؤول عنها من مستوى إلهي لتضرب منطقةً محدَّدةً لتدمِّرَ كلّ شيء فيها. في الحالات

العادية بالظروف الطبيعية تحصل ريحٌ مدمرة، ويتدخل سبحانه لمنع استمرارها أو يتركها... أمّا هنا فالكلام عن ريح بدأت بأمر إلهي، طبعاً عبر الآليات والمراحل المناسبة لتنفيذ ما أمر به تعالى...

{فَأَصْبَحُوا}، أول ما صاروا من بعد مرور الريح، {لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ}، حيث لا تحصل صورةٌ محدَّدةٌ عند أي شخص ينظر إلى المكان إلّا للمساكن، ولا يرى الناس ولا مزارعَ ولا حياة... ويرى فقط بيوتاً مدمَّرةً لا حياة فيها.

{كَذَٰلِكَ}، بهذا النموذج عن التعذيب، {نَجْزِي}، نعطي مقابل ما عمله، {الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة بارتكابهم الأعمال التي يستحقون العقاب عليها.

نتذكّر من العديد من السور التي فهمنا منها أنه لا يوجد شيء يحصل في الدنيا بالمعنى السحري الخرافي، قوله تعالى للشيء {كُنْ فَيَكُونُ}، والمقصود منه حصول الشيء حتماً، وليس فوراً وبدون آليات لحصوله. والشيء الواحد يمكن فعله بآليات مختلفة، حيث أنتقل مشياً على القدمين، أو على الدراجة وأصل بسرعة، أو بالطائرة وأصل بوقت أقصر إلى حيث أريد... وهذه آلياتٌ مختلفةٌ لحدوث نفس الشيء وهو انتقالي من مكان لآخر.

ما نعرفه الآن من أسباب لحصول الريح القوي البارد "أو الساخن جداً" الذي ضرب عاداً، هو معرفتنا نحن بآلية حصولها بسبب ترابط الظروف، ويمكننا توقّع حصولها، وتوقّع مسارها، وتوقّع درجة حرارتها وشدّتها... لأننا نراكم ما نعرفه من معلومات عن الظروف المناخية... هذا من ناحيتنا، أمّا من ناحيته تعالى بقدراته الفائقة، فيتحكّم بكل شيء في الدنيا ليسير على أمره عزّ وجلّ، وحتى الريح العادية التي تحصل يومياً إنما تحصل بأمره سبحانه عبر آليات مرتبطة بالبيئة التي يجري فيها الحدث.

الآن ننتقل إلى التحليل، وسنفترض آليات لحصول الريح المدمّرة في الوقت الذي رآه تعالى مناسباً لتدمير عادٍ، هل من علمه الفائق سبحانه بالغيب بما سيحصل، صمّم ما في الدنيا بحيث يتناسب اكتمال شروط حصول العقاب على عادٍ مع اكتمال شروط حصول ريح مدمّرة على مساكنهم؟ وهكذا يكون ارتباط أفعالنا بالكارثة بأمر إلهي وليس بعلاقة مباشرة... أم هل صمّم سبحانه ما في الدنيا بحيث نكون نحن بأفعالنا جزءاً من أسباب التغيرات المناخية، فتكون أفعالنا السيئة من ضمن الآليات الطبيعية المسبّبة للكارثة؟ أم... وكما ترى فالاحتمالات عديدة لأنه سبحانه لا تعجزه الوسائل وهو على كل شيء قدير. ولكن حادثة انفلاق البحر في زمن النبي موسى(ع) والتي لا يمكننا تفسيرها بالآليات "الطبيعية" المعروفة عندنا، تدفعنا إلى ربط حصولها بقرار إلهي يتخطّى الآليات التي نعرفها، وطبعاً هناك آليات لحصول انشقاق البحر، ولكنها فوق مستوى قدرتنا على فهمها "حالياً"، وهكذا نرى أننا لسنا مجبرين على افتراض آلية واحدة لحصول مختلف أفعاله تعالى، لأنّه سبحانه على ما يشاء قدير.

الخلاصة أن كل ما سبق كان كلاماً عن كارثة طبيعية تبدو بلا ارتباط بما نفعله نحن، كريح أو طوفان أو زلزال... وهذا النوع من الكوارث يحدث في الطبيعة لوحده، ويتدخل سبحانه لمنعه إن كان المجتمع الذي سيتضرّر منه مؤمناً، ويتركه تعالى يحصل إن كان المجتمع لا يستحقّ الرحمة الإلهية... وعندما تحدث كارثة بأمر إلهي كعذاب لقوم ما على إجرامهم، فهذه تحدث في زمن محدّد وعلى بقعة محدّدة بآليات "بأسباب" تتخطّى ما نعرفه من الآليات لحدوث كوارث طبيعية، وحالة فلق البحر الذي صار فيه عدة ممرات بين جبال الماء... وأطبقت على فرعون وجنوده، لا نعرف ولا أي آلية طبيعية لحدوثه، وحالياً نؤمن بأن أسباب حدوثه تتخطّى معرفتنا بالقوانين الطبيعية.

نضيف شيئاً مهماً، تعذيب بعض الأقوام عقاباً لهم على ما فعلوه، من ضمن القصد منه أن يكون دليلاً تاريخياً ملموساً على عقابه تعالى للكافرين المجرمين، وبالتالي للتمييز بين حدوث كارثة بآليات طبيعية وبين حدوث كارثة بسبب أمر إلهي كعقاب، نفترض بالتحليل أن الكارثة يجب أن تحدث بشكل يظهر منها أنها من تدخّل إلهي مباشر حتى نفهم أنها حصلت من تدخّل إلهي وليست كارثة طبيعية حدثت من ظروف طبيعية.

بالتالي بقية الحوادث كالطوفان على قوم النبي نوح(ع) والزلزال على قومي النبيين شعيب(ع) وصالح(ع)... لم تكن كوارث من مجريات طبيعية بل بأمر إلهي وبآليات قد نعرفها أو نشبّهها بآليات نعرفها.

طبعاً هذا شيء مختلف عن الكوارث غير الطبيعية التي تحدث بسبب الكفر والإجرام والذي تنتج عنه كوارث من صنع البشر، كالحروب والفساد الاقتصادي والفلتان الأمني... وهي أيضاً عقاب إلهي يحصل بأيدي الناس...

بالنسبة للتعبير بأصبح فالكلمة في أصل اللغة مجعولة لتوصيف الصيرورة لأول حالة بعد حدث، مشابهة بذلك الإصباح لأول ما يستقبلك من النهار من بعد الليل. فهي أوّل حالة من بعد حالة سابقة، وخذ مثلاً حالة أم النبي موسى(ع) التي أصبح فؤادها فارغاً كما ورد في الآية 10 من سورة القصص {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا}، والذهول بتوقّف وجمود فكرها ومشاعرها هو أول حالة أصابتها بعد إلقائه (ع) في النهر. وترى هذا المعنى بوضوح في الآية 103 من سورة آل عمران {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا}. وكلمة أصبح ليست مخصّصة لزمن أول طلوع الشمس بل لعامّة أول حالة من بعد حدث ما، فهي ليست مقابل أمسى على معنى ربطها دائماً في أي جملة بزمن أوّل النهار، وهي أيضاً ليست مرادفة لكلمة صار.

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون{26})

{وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ}، جعلناهم متمكنين ولديهم سيطرة وثبات، {فِيمَا}، في قدرات اقتصادية واجتماعية وعسكرية... {إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ}... وتكملة الجملة مقطوعة لم تذكرها الآية بشكل صريح لأنك تعرفها لوحدك من تكملة الآية، فقوم عاد حصلوا على إمكانيات اقتصادية وعسكرية... عالية، وأشركوا ولم يهتمّوا بالإنذار، {فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ}... لم ينفعهم ذلك من عذابه تعالى، وأنتم أيها النموذج أهل مكّة والعرب المشركون لم تحصلوا على تلك القدرات، {إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيمَا مَكَّنَّاهُمْ}، لو منح تعالى تلك القدرات لكم، وتكملة الجملة: لفعلتم مثلما فعلوا ولنزل عليكم عذاب مشابه لعذابهم "وما أغنى عنكم من عذابنا". أيها النموذج كفّار مكّة أنتم الآن مشركون رغم أن قدراتكم ضعيفة جداً بالمقارنة مع قدرات قوم عاد، وحتى لو حصلتم على قدرات أعلى فلن تغني عنكم من عذابه تعالى...

{وَجَعَلْنَا لَهُمْ}، لعاد، {سَمْعًا}، آلية توصل الكلام المفهوم لفكرهم، {وَأَبْصَارًا}، آلية توصل الصورة مع فهمها لفكرهم، قارن العين مع الكاميرا، فكلاهما ينقل الصور، ولكن الكاميرا لا تفهم ما تراه، والعين توصل الصور للفكر فيفهم ما يراه وهذا هو الإبصار، {وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَفْئِدَةً}، جعل تعالى لهم وعياً إدراكياً لأنفسهم ولما يصلهم من الحواس، فلا فائدة من استقبال الأصوات والصور إن لم يعوها ليفهموها ويتفاعلوا معها، {فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مِّن شَيْءٍ}، لم يكن ما معهم كافياً لهم لينجيهم من العذاب، لا سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم، فالعذاب نزل ولا شيء منه ذهب أو تخفّف لأنهم صمّوا وعموا. تصوّر الحالة المعاكسة، هناك عذاب قادم، ويغنيهم عنه لو استعملوا ما لديهم من إمكانيات في طاعته تعالى بدلا من شركهم، ويغنيهم عن العذاب لو استعملوا سمعهم وبصرهم وفؤادهم بشكل صحيح فآمنوا، ولكن هذا لم يحصل، فنزل العذاب.

{إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ}، ينكرون الأمور المنسوبة له تعالى رغم وضوحها لهم أنها صحيحة، ولهم سمع وبصر وفؤاد، وبواسطتهم رأوا الآيات الإلهية الدالّة على توحيده تعالى وعلى البعث من الموت... ورأوها صحيحة ولكنهم جحدوا بها وأنكروها رغم إدراكهم لصحّتها.

{وَحَاقَ بِهِم}، التفّ وأحاط بهم، {مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، تعاملوا مع الكلام عن الآخرة وعقابها من خلفية استخفاف واستهانة به، واعتبروه كلاماً بلا قيمة، وهو نفسه العذاب الذي استهزأوا به وسيحيط ويلفّ عليهم وليس لهم مهرب منه.

كلمة فؤاد بحسب استعمال العرب لها، ومن تقويم دقة الاستعمال القرآني لها، تشير لما تعيه مما تدركه، وهي الفكر الواعي لما يصلك، وبتعابيرنا الحالية هو الوعي الإدراكي الناشئ عن الوعي للذات، وهو قابلية وعي النفس ووعي ما يصلك. وعادة تصلك المعلومات عبر الحواس، عبر عينك، جلدك، أنفك، أذنك، لسانك... ولديك قابلية وصول المعلومات مباشرة إلى فكرك بدون وسيلة الحواس، كالوحي مباشرة في الوعي، وحيث تصل تلك المعلومات إلى وعيك الإدراكي لها فهذه حالة الفؤاد.

خذ مثلاً عندما تتعرّض لشيء قوي جداً كخوفٍ شديدٍ أو فقد حبيب... يطيش فكرك، فلا تعد تسمع ولا ترى ما حولك رغم عمل عينيك وأذنيك بشكل طبيعي، وحصل هذا مع أم النبي موسى (ع) حين ألقته (ع) في اليمّ كما ورد في الآية 10 من سورة القصص {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا}، أو عند تعرّضك لسؤال في موقف حرج، أو كما يحصل مع بعض الطلّاب عند تعرّضهم للامتحانات... تطير المعلومات من رأسك في تلك اللحظات... والحالة التي تصيبك من تلك

المواقف ونسميها "فراغاً ذهنياً" هي حالة فراغ الفؤاد بالتعبير العربي الذي تقوّم معناه بدقّة الاستعمال القرآني له، وعند استعادتك للانتباه لما تلتقطه حواسك، عاد فؤادك للعمل.

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ{27})
{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا}، استنفدنا، أمتنا، {مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَى}، من جهات مختلفة كان هناك مجمّعات سكنية للناس أهلكها تعالى، وها أنتم ترون العديد من القرى المهجورة، وتسمعون بقصص خرابها من الناس، وبعضها سمعتم أخباره من الكتب الإلهية ومن تراث المتدينين، وها نحن نخبركم عن البعض منها عبر وحي إلهي كنموذج عمّن أهلكه تعالى بسبب شركه، ومن المفروض بكم ألا تقولوا إنها حوادث عادية ولن تصيبكم.

على ما يبدو فإن النموذج أهل مكّة كانوا يعلمون من كلام الناس عن الكارثة غير العادية التي وقعت على عاد، أو من آثار مدينة "إرم" المبنية في الأحقاف، وربما كانت لا تزال مرئية إلى حين نزول هذا القرآن، أو من كلام الناس المجاورين لقرى عاد سمع أهل مكّة عن آثار لمدينة إرم التي كانت غير عادية في ضخامة وتقانة بنائها... وهكذا نحن أمام نموذج تاريخي ملموس عن معاقبته تعالى للكافرين هنا في الدنيا كدليل على معاقبته لهم في الآخرة.

{وَصَرَّفْنَا}، حوّلنا ووزعنا، {الْآيَاتِ}، الأمور المميّزة، التي تدل على الدين الإلهي وعلى العقاب الدنيوي لمن يشرك، عبر الرسل وعبر الكتب وعبر الآثار والأخبار... {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، من المفروض ومن المتوقّع من تلك القرى أن ترجع إلى ربّها سبحانه ويتركوا الشرك من بعد رؤيتهم للآيات الإلهية، ولكن هذا لم يحصل فأهلكهم سبحانه.

هذه الآية على معنى ما ورد في الآية 59 من سورة القصص {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ}، وما ورد في العديدِ من الآياتِ غيرِها عن أسبقية عرض الآيات الإلهية ولفت انتباه الكافرين لها لعلهم يرجعون، وبعدها يأتي الهلاك إن توافرت كل شروط حصوله، ومن ضمنها توافق أكثرية قوم ما على سوء من العيار الثقيل... ومنها أنه لن يولد منهم ولا مؤمن مهما طال الزمن كما هي حالة قوم النبي نوح(ع) كما ورد في قوله تعالى في الآية 27 من سورة نوح {إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا}، وغيرها من الشروط التي نجدها في مختلف السور...

(فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَاناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ{28})
{فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ}، لو حقّق لأهل تلك القرى التي تدمّرت النجاة من العقاب الإلهي بدل حصول العذاب، {الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا}، حيث إنهم تقرّبوا إلى غير الله تعالى، {آلِهَةً}، واعتبروهم كائنات بصفات وقدرات فائقة، فلماذا لم ينصروهم ويمنعوا عنهم العذاب الإلهي لو كانوا فعلا آلهة حقيقية!

بعبارة أبسط هم اعتبروا غيره تعالى آلهة وتقرّبوا منها، ولو نصرتهم تلك الآلهة لنجّتهم من عذابه تعالى للمشركين.

ضع في بالك أن الآيات لا تزال تتحدّث عن تعذيبه تعالى للمشركين في الدنيا كدليل تاريخي ملموس واضح عن تنفيذه تعالى للتهديد وكنموذج عن عقاب الآخرة الأشد والأبقى.

{بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ}، فقدوهم وهم بحاجة لهم، لأنهم ليسوا آلهة حقيقية حتى يفعلوا أي شيء لمن عبدهم، وحين وقعوا في ورطة لم تعلم آلهتهم المزعومة بما يجري أو فرضاً فرضاً لو علمت بما يجري فلا قدرة لها على فعل أي شيء أمام قراره تعالى.

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، وهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شراً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضلّ عنك صيدها. واستعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، ولم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، ولن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون وهو ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

نرجع للآية، {وَذَلِكَ}، اتخاذهم آلهة غيره تعالى قربانا هو، {إِفْكُهُمْ}، هو تغييرهم للحقيقة لتصير بالمقلوب، والحقيقة أن الإله واحد أحد وهم جعلوا معه آلهة مزيّفة، {وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}، كانوا يقولون عنه تعالى إنّ له شركاء في الألوهية وهذا غير صحيح، واخترعوا آلهة وهم يعلمون أنهم اخترعوها وأنها ليست آلهة، ويدّعون أنها تنصرهم... وها تبيّن افْتِراؤهُم حين أهلكهم تعالى ولم تفعل آلهتهم أي شيء.

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ{29})
وصلنا إلى رابع نموذج تعرضه السورة، وهو نموذج يشير إلى التكليف الإلهي لنوع من الكائنات اسمه الجنّ، والنقطة في هذه الفقرة يبدو أنها للتأكيد على امتداد لآلاف من السنين للكتب الإلهية، ووجود تكليف إلهي على نوع آخر مختلف عنّا من الكائنات الواعية... مما يشير إلى تعميم التكليف الإلهي لكلّ الكائنات التي خلقها تعالى والقادرة على تحمّل التكليف بسبب منحها قدرة تمييز الخير من الشرّ ومنحها حرية الإرادة والاختيار، وهذا يعطيك صورة أكبر تتخطّى حصر دينه تعالى بك وبزمانك ومكانك أو بالبشرية... فلنتابع:

{وَإِذْ صَرَفْنَا}، حوّلنا ووزعنا، {إِلَيْكَ}، أيها الرسول محمّد(ع)، {نَفَرًا}، وصف لعدد من الأشخاص في حالة "نفر" ومنه النفور وهو عامّة ترك ما كنت فيه قاصدا لوجهة ما بسبب شيء فيها، {نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ}، ونعلم من القرآن أنهم كائنات مخلوقة من نار، تتوالد وتموت، وواعية مثلنا وعليها تكليف مثلنا... فحوّل سبحانه بعضا منهم، تاركين لمكانهم قاصدين حتى، {يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ}، حتى يصل إلى سمعهم هذا الذي تقرأه، فلم يحصل ذلك بالصدفة، بل من تدبير إلهي.

تعلم من سورة الجنّ وبالخصوص من الآية 13 منها، أن خبرا انتشر بين الجنّ عن شيء مميّز غير عادي يحصل من السماء العالية إلى الأرض، ولم يعلموا أنه وحي نازل على الرسول محمّد(ع)... ويبدو أن البعض منهم راقبوا ما يحدث فعلموا أنه تواصل من السماء العالية الممنوع عليهم دخولها بسبب حمايتها بالشهب... مع شخص من البشر، وبعد انتشار الخبر تابع البعض منهم هذا الشخص "محمد(ع)" الذي حصل معه التواصل من تلك السماء، وفي مرّة من المرات سمعوا منه (ع) قرآنا عجبا... وحصل ذلك من جعله تعالى الأمور تجري حتى ينتقل كلامه تعالى من الرسول محمّد(ع) إلى من سمعه من الجنّ وبدورهم لينقلوه إلى قومهم.

كما ترى بسهولة ترى تدبيره تعالى لهذا الحدث عبر استفزاز الفضول عند الجنّ، حيث يرون سماء الملائكة العالية، وغير قادرين على الاقتراب منها بسبب رجم الملائكة(ع) لمن يقترب منها، واستفزّهم رؤية موكب من الملائكة(ع) يفتح قناة من تلك السماء المحروسة بالشهب إلى الأرض... أقول لك هذا ليكون نموذجا يسهّل لنا فهم ما نتذكّره من قصّة النبي يوسف(ع) التي نستصعب رؤية التدبير الإلهي للأمور التي حقّقت أمره تعالى بانتقال النبي يوسف(ع) من أرض كنعان إلى مصر، وعند قراءتك للقصة سترى ترابطاً طبيعياً للأمور وتستصعب رؤية تدخّله تعالى فيها، علماً أنه تعالى صرّح أن ما جرى كان بتدبير منه تعالى كما تقرأ صريحا في الآية 21 من يوسف {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ}، حتى يكون النبي يوسف(ع) رسولا للمصريين الذين يحتاجون لرسول حتى يؤمنوا ولم يتأهّل ولا واحد منهم ليكون مناسبا لوظيفة الرسول الإلهي. ومثلها ما تقرأه في الآية 40 من سورة طه {إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى}، وبتقدير إلهي جرت الأمور إلى أن وصلت إلى حيث صار موسى(ع) في سيناء وهناك كلّمه تعالى ووظّفه رسولا...

نرجع للآية، {فَلَمَّا حَضَرُوهُ}، عندما تواجد الجنّ أثناء تلاوتك للقرآن، {قَالُوا}، لبعضهم البعض: {أَنصِتُوا}، فتوجّهوا بتركيز سمعكم نحو التلاوة. {فَلَمَّا قُضِيَ}، عندما انتهى القرآن الذي تتلوه، {وَلَّوْا}، تركوا المكان وذهبوا، {إِلَى قَوْمِهِمْ}، إلى الجن الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة معهم، {مُنْذِرِينَ}، حاملين الخبر عن شيءٍ سيئٍ قادم حتما لمن توافرت شروط حصوله فيهم، وهو العذاب الأليم في الآخرة كما سنرى من الآية بعد التالية.

إذاً صبّوا اهتمامهم لسماع القرآن وحين انقضى وانتهى، صار همّهم نقل ما سمعوه لقومهم فولّوا إليهم.

السورة هنا وعموم القرآن لم يذكرا الكثير عن تفاصيل سماع الجنّ للقرآن من الرسول محمّد(ع)، فلا ندري متى حصلت هذه الحوادث من تاريخ حياة الرسول(ع) ولا أين، ولا ندري ماذا كان (ع) يتلو... وبسبب شهرة نزول هذه السورة في مكّة قبل هجرة الرسول(ع) منها، فيبدو أن الحادثة وقعت قبل الهجرة.

أمّا ما تجده في الروايات فهو خليط غريب عجيب من معلومات متداخلة غير متوافقة، بل وتلاحظ فيها الكذب والافتراء والاختراع على الرسول(ع) بشكل واضح... وعلى كلّ حال فلا فائدة من كل تلك التفاصيل التي رووها، لأن مغزى السورة نحصل عليه مما ذكرته الآيات ولا نحتاج لأي زيادة للمعلومات من خارج السورة، فلا تريدك الآية أن تفهم أكثر من كون الجنّ مكلّفين مثلنا، وأنهم وصلهم الكتاب الإلهي القديم "التوراة" قبل القرآن كما ستقرأ في الآية التالية، هذا فقط لا غير.

ضع في بالك أن النبي محمد(ع) لم ير الجنّ الذين سمعوه يتلو القرآن، ولم يعلم أنهم يستمعون إليه، بل بعدما سمعوه نزل وحي يخبر النبي (ع) بما حدث.

(قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ{30})
{قَالُوا يَا قَوْمَنَا}، يا أيها الجنّ الذين ننتمي لجمعتهم، {إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى}، فأنتم تعلمون بنزول التوراة على الرسول موسى(ع)، وسمعنا كتاباً آخر نزل بعده، {مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ}، فالقرآن يؤيّد ويؤكّد ما حكته التوراة من إيمان وشريعة... وحساب في الآخرة، فهو ليس ديناً جديداً بل امتداد للتوراة، {يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ}، فما سمعناه هو كلام صحيح يوصلنا للغاية الصحيحة، و{يَهْدِي}، {إِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ}، إلى طريق رئيسي أساسي يوصف بأنه على الأحسن فلا انحراف ولا اعوجاج فيه.

تعلم مما سبق ومما سيأتي من السورة أن الهداية للحقّ والطريق الصحيح هي التوحيد وطاعته تعالى والعمل الصالح للآخرة... ولكن تذكّر دائماً الفرق بين تفسيرنا للكلام من خلفية ثقافتنا الدينية وبين معناه الأساسي، فعامة كلام القرآن وأساسه هو عرض معلومات صحيحة عنه تعالى، وعليها أدلة، فلا يعرض علينا "عقيدة" كشيء لنؤمن به على عماه، والقرآن عرض علينا العناوين الرئيسية للعمل الصالح كتقويم للقابلية التي فينا لتمييز الخير من الشرّ من بعدما شوّهناها بارتكابنا لما نعلم بسوئه... ومن هذه الخلفية تفهم كلام الجنّ مع قومهم أنها دعوة لهم ليؤمنوا بما هو صحيح وأن يمشوا على صراط الخير، وهذا القرآن يعرض عليهم ذلك.

إذن هذا القرآن وقبله كتاب من مئات السنين وهو التوراة، فكلاهما امتداد لنفس الدين، ومن ناحية ثانية لسنا وحدنا المكلّفين بالطاعة لإلهنا، وها هي مخلوقات الجنّ مكلّفة مثلنا، ووصلهم الكتابان اللذان وصلانا، وهم مكلّفون بما في الكتابين من عقيدة وسلوكيات، طبعاً تشريعاتهم التطبيقية ربما تكون مختلفة عنّا بحسب ما يناسب طبيعة تكوينهم فهم من نار ولهم عالمهم الخاص بهم... وكمثال عن خصوصياتهم حرمة أكل لحم الخنزير علينا، فهذا حيوان طيني من عالمنا وأصلاً لا نعلم إن كان عالمهم يتضمن كائنات من نار غيرهم...

نرجع لمحور كلام السورة فقارن كلام الجنّ هنا مع سؤال السورة للمشركين عن كتاب من آلهتهم أو أثارة من العلم أو عن الامتداد التاريخي لدينهم كما ورد في الآية الرابعة في بداية هذه السورة، أو عن أثر لفعل من أفعالها... حيث تخبرهم السورة بأن الامتداد لدينه تعالى يتخطى البشر وصولاً إلى عالم آخر مختلف وهم الجنّ.

تلاحظ أن القرآن يحكي مع وعن الكافرين، حيث يحكي معهم ليلفت انتباههم ويريهم الآيات، ويعلم سبحانه أن الكثيرين منهم لن يؤمنوا، وأي كافر سيقرأ هذا الكلام عن الجنّ، فسيضيفه إلى خرافات الدين القرآني، أمّا المؤمنون بالآيات وبكلامه تعالى الذي يتماشى مع فكرهم ونفسيتهم السليمة، فهذا الخبر عن الجنّ يضيفونه إلى صدق كل الأخبار التي يجدونها في القرآن لأنهم متأكدون أنه كلامه سبحانه وتعالى، ويضيفونه إلى تصديقهم بالآخرة وبما سيجري فيها.

تذكّر دائماً أنه تعالى تقصّد خلقنا في بيئة استفزازية لفضولنا وحبّ المعرفة، حيث خلق كوناً واسعاً بشكل هائل يفوق قدرتنا على تصوّره، وخلق تفاصيل وتفاصيل تفوق قدرتنا على إحصائها والتعرّف عليها... كما يستفزّنا القرآن بكلامه عن مخلوقات واعية مدركة مفكّرة... ومكلّفة مثلنا، وهم مخلوقون من نار بينما نحن مخلوقون من طين، ولن نستطيع ضبط فضولنا عن محاولة اكتشاف هذه المخلوقات وفيزياء عالمها...

للأسف تعامل الكثير من المتدينين مع هذا الموضوع بسذاجة طفولية بعيدة عن الرصانة العقلية والعلمية، وهم معذورون بشكل ما لأن علومهم وأفكارهم كانت عموماً بدائية، أمّا الآن، فمن المعيب التعاطي مع موضوع الجنّ وعالمهم بما في الكتب القديمة من تلاوة عزائم وبخّور... حيث إنّ لدينا مفتاحاً يعطي بصيصاً من الأمل للتعرّف على الجنّ بمقابلة توصيفه تعالى لخلقتنا من طين، من المواد المعروفة باسم الجدول الدوري للعناصر من كربون وكالسيوم وماء... بينما الجنّ من نار، فهل هذا تعبير عن تركيبة عالية الحرارة بالنسبة لنا، أو تعبير عن عناصر مشتقة من النار كفوتونات أو عنصر آخر طاقته أو اهتزازه عالٍ جداً، أو... لا أعلم، وهذا الباب لم ينجح بعد أي أحد على فتحه على المستوى العلمي التجريبي، ولكن حتماً وحسماً فإن طريق البخور والعزائم والطلاسم... ليس طريقاً موصلاً لأي نتيجة، وكل ما تسمعه من الناس فهو تخريفات وأوهام، ولو صدقوا لما بقيت قصصهم في الغموض والأسرار منذ مئات أو آلاف السنين... ولكانوا قادرين على إثبات ما يقولونه أمام أيٍ كان...

بتحليلي متوقعاً المستقبل، إن استطعنا بشكل أو بآخر التواصل مع الجنّ، فهل سيؤمن الناس بهذا القرآن لأنه تحدّث عن الجنّ وعن إيمان بعضهم بالقرآن والتوراة؟ لا، لن يتغيّر أي شيء، حيث إن بعضهم الآن يسخر من كلام القرآن عن الجنّ على أساس أنها خرافات، ولكن حين نتواصل معهم سيقولون إن الجنّ من قبل كلام القرآن عنهم كانوا يتواصلون مع الناس، أو سيجد مصدراً آثارياً يُنسب له أسبقية اكتشاف الجنّ قبل القرآن والتوراة.

الآن يُتَّهَمُ القرآن بالخرافات، وفي المستقبل سيتهم القرآن بسرقة هذه المعلومات من آخرين، ومعلوم لك أن المشكلة مع هذه النوعية من الناس باقية على أي حال حتى يروا العذاب الأليم.

(يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ{31})
{يَا قَوْمَنَا}، يا أيها الجنّ الذين ننتمي لجمعتهم، {أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ}، فردّوا على من يقرأ هذا القرآن والذي يعلن ويشهر لكم بكلام منقول عن صاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى، وعملياً أعلنوا اعتقادكم به تعالى أنه إلهكم الأحد، {يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ}، فلديكم أعمال كثيرة مخالفة لكلامه تعالى "وعلى رأسها الشرك، وإنكار الرسل، ومن فحوى السورة نفهم أن بعضهم أيضاً منكرون للبعث من الموت والحساب..."، فهذه الذنوب التي هي من ذنوبكم العديدة سيتم التجاوز عنها لو آمنتم. {وَيُجِرْكُمْ}، يؤمّن لكم الحماية، {مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}، من ضرر لا يمكنكم تحمّله ولا الاعتياد عليه.

نتذكّر دائماً من القرآن أن من آمن فكلّ ذنوبه السابقة يتم غفرانها، ومن لحظتها وفيما يلي من حياته فإن ارتكب سيئة فهو يحتاج للاستغفار منها من جديد، فطالما هو حيّ، لا يقول القرآن عنه بأنه مغفورة كل ذنوبه وسيدخل الجنّة حتماً، ربما يترك الشرك ويؤمن، ويغفر له تعالى ذنوبه السابقة... ولكن فيما بعد قد يرتكب جريمة قتل لنفس بريئة عن قصد، فهذا من أهل النار حتماً، ولذلك نقلت الآية هنا التعبير بدقّة، {يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ}، وهي إشارة لمغفرة ما سبق من ذنوب قد توقّفوا عنها بعدما آمنوا، وأمّا المعاصي التي استمرّوا عليها فهي لن تغتفر، لأن القرآن لا يعطي غفراناً سلفاً عن ذنوب آتية، ولم ترد الآية هنا أن تعطينا معنى مغفرة كل الذنوب حتى الآتية.

(وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{32})
{وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ}، من لا يردّ أو يتفاعل بشكل إيجابي مع ما أشهره وأعلنه له تعالى عبر الرسول الناقل لهذا القرآن، {فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ}، لنقل إنّي أريد ضرب شخص ما ولكني أعجز عن ضربه لأنه أقوى مني، وهنا الذي لم يؤمن لن يكون خارجاً عن سلطته تعالى عليه، بل سيبقى تحت السيطرة الإلهية، ولن يعجز ولن يكون سبحانه ضعيفاً لا يقدر على فعل أي شيء لمن لم يؤمن.

و{لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ}، كما تقول: ذهبتم من دوني. يعني تركتموني وذهبتم مع غيري، من ترك ولايته تعالى ولم يعتبر نفسه تابعاً له تعالى، لن يجد غيره سبحانه ليكون ولياً حقيقياً له من مستوى إلهي، ولن يجد من يعتبره تابعاً له ليساعده في الآخرة ليغفر له ويرحمه وينجيه من العذاب...

من عموم القرآن نفهم أن الولاية هي: من تتبعه، وتسمع كلمته وتنفّذها فهو وليّك وأنت واليته، وأنت تابع له وتعتبره سيّدك المسؤول عنك حتى لو كانت كلمة واحدة أطعته بها، فهو وليّك من دون الله تعالى إن كان ما أطعته به مخالفاً لكلامه تعالى.

{أُولَئِكَ}، الذين لا يستجيبون لداعي الله تعالى هم، {فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}، بشكل واضح هم ليسوا على الطريق الصحيح، لأن طريقهم سيوصلهم إلى نتيجة العذاب في جهنّم.

انتهينا من فقرة قصيرة جداً تبيّن فيها أننا لسنا لوحدنا مكلّفين باتباع الرسل وكتبهم، ولسنا وحدنا سنتحاسب ونتجازى على أعمالنا، وبذلك يتوسّع أفقنا لنرى أننا من ضمن مخطّط إلهي ضخم ونحن جزء منه.

بقي أن نتحدّث عن شيء ذكروه في كتب التفاسير، حيث قال البعض إنّ الجنّ لا يدخلون الجنّة ولكنهم سيتعذّبون إن كفروا... على أساس أن القرآن لم يذكر لهم الثواب وذكر لهم العقاب فقط. ولكن هذا مخالف للعديد من آيات القرآن التي تخاطبنا نحن كمكلّفين، وإلا سيكون خلق السماوات والأرض وخلقنا نحن، لعباً ولهواً ولن يكون حقاً إن لم يجزنا تعالى على أفعالنا، والجزاء يكون على الناحيتين: جزاء حسنٍ وجزاء عقابٍ. فكيف يعتبر القرآن هذا الكلام منطقياً لنا لنؤمن بالآخرة والحساب فيها والجزاء، ولا ينطبق نفس الكلام على الجنّ؟! كان يحق للمفسرين أن يقولوا: نحن لا ندري كيف يكون ثواب الجنّ لأنهم مختلفون عنّا، ولكن بأي دليل أو منطق يقول بعضهم بأنه لا يوجد ثواب حسن للجنّ؟!

يبدو أن المشكلة في فهمنا العمومي لما ورد عن الجنّ في القرآن، حيث اعتبرناه موجّهاً لنا ولهم بالكامل، وكأنهم مكلّفون بكامل تشريعاته أيضاً، وبأدنى التفاتة للخصوصيات البشرية الواردة في التشريعات القرآنية تعلم أنها غير مناسبة للجنّ، ما معنى الماء بالنسبة لهم للوضوء والغسل منه؟ والأنعام والنبات للأكل منه؟ وما معنى الكلام عن أوّل بشري تكلّف بدينه تعالى "آدم" وإغفال أول جنّي تكلّف؟ وما معنى لفت انتباهنا لخلقتنا من سلالة من طين ونطفة ومضغة... ولفت انتباهنا للأرض وما عليها... ولا نجد مثل هذه التفاصيل عن الجنّ؟ وهكذا يبدو لك واضحاً أن الكلام القرآني في شقّه العقائدي وأساس السلوكيات الحسنة فقط مشترك بيننا وبين الجنّ، إذ كلانا ممنوحان قدرة تمييز الحقّ من الباطل، وتطبيقات ذلك فكرياً من الإيمان بالمعلومات الحقّة، كالإيمان بتوحيده تعالى... وهو مشترك بيننا، وأمّا ما نسميه بالتشريعات من معاملات بيننا فلا علم لنا بما ينطبق منها على عالم الجنّ، هل لديهم مال؟ وعقارات؟ وهل للفقر معنى عندهم؟...

لم ننتبه أن القرآن حين تحدّث عنهم لم يتطرّق لأكثر من لفت انتباهنا لوجودهم ككائنات مكلّفة وستتحاسب مثلنا، وأنهم لديهم القدرة على الوسوسة في عقولنا... ولم يعرض القرآن أي تفاصيل عن بيئتهم وخصائصهم المميزة عنّا إلّا أنهم من نار ولديهم قدرة على الوسوسة لنا وعلى اختراق السماوات.

نضيف على ذلك ما يبدو من الآية 130 من سورة الأنعام التي تشير لوجود رسل من الجنّ للجنّ {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ}... في الجانب العقائدي والسلوكي على الطريق المستقيم، سيجدون في هذا القرآن كل ما يحتاجونه، أمّا بالنسبة لبقية التفاصيل التي تحدّث بها عنّا ومعنا القرآن وكانت مخصّصة للبشر، فمن الواضح أن رسلاً منهم تولّوا التفاصيل المتعلّقة بما يخّص الجنّ.

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {33})

{أَوَلَمْ يَرَوْا}، المشركون المنكرون للبعث ألم تحصل لديهم صورة محدّدة كما نقول بالعامية: ما شافوا، ما التفتوا. {أَنَّ اللَّهَ}، أن صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، هو، {الَّذِي خَلَقَ}، ركّب وألّف، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وهذه هي حدود دنيا المخلوقات، سبحانه خلق كلّ شيء، {وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ}، لم يمرّ تعالى بحالة إعياء، بحالة طرأت تمنعه من إكمال خلقهن أو إدارتهن من عجز أو تعب أو كلل أو ملل أو نقص في القدرات... أولم يروا أنه تعالى، {بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى}؟ من خلق كل شيء وبهذه الضخامة ولم يحصل معه أي شيء يعجزه عن إكمال خلقها واستمرار إدارتها، خلقهم سبحانه وكأنه لم يفعل أي شيء، ولم يتأثّر نهائيا، فكيف تقولون إنه لا يمكنه أن يعيد إحياء الناس الأموات!

{بَلَى}، نفي لصيغة السؤال عن قدرته تعالى على إحياء الموتى، بالتأكيد هو سبحانه قادر حتما على إعادة الحياة للموتى.

{إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، يمكنه فعل أي شيء يريده بأي شيء.

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ{34})
{وَيَوْمَ}، في الزمن الذي، {يُعْرَضُ}، يتم إظهارهم على شيء له أهمية، يتم عرض، {الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا الدين الإلهي، {عَلَى النَّارِ}، هناك زمن له بداية محدّدة ونهاية محدّدة، فهو يوم "زمن" بعثنا ومحاسبتنا، ومؤلّف من أيام أولها يوم قيامتنا من الموت، مرورا بأيام محاسبتنا وآخر يوم بانتهاء محاسبتنا ينتهي في ساعة دخول الناس إلى الجنّة والنار، وأثناء محاسبتنا يتم عرض الكفّار على النار، وسحبهم لمحاسبتهم ومن ثمّ عرضهم على النار... إلى حين انتهاء الحساب ورميهم نهائيا في النار.

يوم عرضهم على النار يسألونهم: {أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ}؟ هل هذا الاحتراق بالنار بشكل مؤلم يحصل فعلا؟ هل هو حقيقة أو هو كذب لن يحصل؟

{قَالُوا بَلَى}، نفي لكون هذا ليس بالحق، بالتأكيد هو حقّ لأنه يحصل معهم. تذكّر أن السورة تتحدّث مع وعن الذي الآن في الدنيا ينكر الحياة بعد الموت وينكر الحساب والعقاب، هناك في الآخرة حين يأتون به إلى النار ليرى أين سيذهب، ويذهبون به لمحاسبته، ثم يردّونه بقرب النار ليرى أين سيذهب... وهذا ما كان ينكره ولا يصدّق به، فهل لا زلت تنكره؟ يقولون: لا، لا أنكره، ولم يكن الكلام عنه كاذبا، ها يحصل معنا الحساب والتعذيب...

{قَالَ فَذُوقُوا}، اشعروا وتحسّسوا، {الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ}، بسبب إنكاركم للدين الإلهي، الذي يتضمّن إنكاركم لتوحيده تعالى، وإنكاركم لرسله وكتبه وبعثه وحسابه وعقابه...

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ{35})
{فَاصْبِرْ}، لا تتصرف بشكل غير مناسب أو سيّء بسبب تكذيبهم لك وكفرهم بك كرسول إلهي، حافظ على أعصابك وعقلانيتك لأنّ هذا الوضع المزعج سيزول، {كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ}، الذين توظّفوا لنقل كلامنا للناس وكانوا منسوبين لصفة الشدّة الشديدة في متابعة ما قرّروا فعله صبروا فاصبر مثلهم.

بعبارة أخرى: ليكن صبرك مشابهاً لنوعية أناس يتحمّلون الأمور الشديدة ولا يتراجعون عن قراراتهم وما هو مطلوب منهم، مثل من سبقك من بعض الرسل الذين كانوا موصوفين بتمام ما تعنيه كلمة عزم، تعرضوا للشدائد وتحملوها.

ننتبه، هل كل الرسل هم أولو عزم؟ يبدو من القرآن أن الرسل مختلفون في العزم ليسوا كلّهم موصوفين بتمام العزم، ونفى القرآن صفة العزم عن آدم(ع) كما ورد في الآية 115 من سورة طه {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا}، ولكن لم يقل عنه أنه رسول بل لم يقل عنه أنه نبي أصلا، ولدينا قصّة ترك النبي يونس(ع) لقومه مغاضبا، {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ}... كما في الآية 47 من سورة القلم، مما يشير بأنه (ع) لم يكن صابرا على قومه وبالتالي نفترض أنه ليس من أولي العزم من الرسل... ولدينا الآية 7 من سورة الأحزاب {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}، والآية 13 من سورة الشورى {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ}...، حيث ميّزتا خمسة رسل عن غيرهم: محمّد، نوح، إبراهيم، موسى وعيسى عليهم صلوات الله تعالى. مما دفع بالعديدين لاعتبار توصيف أولي العزم لهؤلاء الخمسة فقط، لتكون الآية هنا إشارة لأربعة رسل ليكون الرسول محمّد(ع) مثلهم وخامسهم، ولذلك اشتهر بين المسلمين أن هؤلاء الخمسة هم فقط أولو العزم، ولكن لا نجد ربطا مباشرا بين تلك الآيتين "في الشورى والأحزاب" وبين الصبر كأولي العزم من الرسل هنا في السورة، من المفروض أن آيتنا هنا تشير بأولي العزم إلى عموم الرسل لا إلى الأربعة أصحاب الشرائع فقط، هذا بالرغم من تمييز القرآن لهم عن غيرهم بشكل واضح، فهم حتما على رأس أولي العزم من الرسل.

نرجع للآية، {وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ}، وبدا لك مما مرّ من السورة أن الكفّار استعجلوا نزول العذاب عليهم قبل وقته المحدّد، تأمر الآية هنا الرسول محمّد(ع) أن يصبر ولا يطلب حصول العذاب لهم هنا في الدنيا قبل وقته المحدّد في الآخرة.

{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ}، حين يأتي الزمن الذي يصير عندهم صورة محدّدة لما قال سبحانه أنه سيفعله، وحين يرون ما سيحصل معهم من تعذيب، {كَأَنَّهُمْ}، {لَمْ يَلْبَثُوا}، لم يمرّ عليهم زمن وهم أحياء في الدنيا، {إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ}، النهار هو فترة الضوء من يومنا العادي الذي يمر علينا الآن ونكون عادة فيه في حالة نشاط واختلاط مع الآخرين، حين يأتي العذاب الذي يستعجلون به والذي يرونه بعيدا ولن يحصل، سيشعرون بأن كلّ حياتهم في الدنيا لم تكن سوى ساعة واحدة، طبعا ليست ساعة من ستين دقيقة، هذا لم يكن دارجا عند العرب في وقت نزول هذا القرآن، بل الساعة فترة لحدث فرعي من يوم، والكلام هنا عن زمن من النهار، كساعة الصباح، ساعة الظهر، ساعة العصر... سيشعرون بأن البعث أتى سريعا، وتوصف تلك الساعة بأنها: {بَلَاغٌ}، وصلهم فيها شيء بالتمام، وصلهم بالتمام الكلام عن هذه الآخرة، كل ما سيعلق بذهنهم أنهم لا يتذكّرون من كل حياتهم إلا وصول البلاغ لهم عن الآخرة التي هم فيها الآن.

قارنها مع من تقول له عن خطر سيحصل معه إن لم يغيّر طريقه... ولا يردّ عليك... ويقع في الخطر... عندها في تلك الحالة لن يذكر إلا إنذارك له، كلماتك ستدور في رأسه، وسينسى كل بقية تفاصيل حياته... وهؤلاء الكفّار سيحصل معهم نفس الشيء في يوم القيامة، يرون العذاب، وينسون كلّ ما مرّ معهم في الدنيا، وستدور فقط الكلمات التي سمعوها عن هذا العذاب في رأسهم.

{فَهَلْ يُهْلَكُ}، هل يتم استنفاذ إنهاء حياة، إماتة، {إِلَّا الْقَوْمُ}، إلا الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع آياته تعالى وكلامه، {الْفَاسِقُونَ}، الذين لم يلتزموا بالأمور التي أعلن عنها الدين الإلهي صراحة. مثلما يقول شخص قوي جدا لشخص ضعيف جدا: إذا ضربتك طحنتك. الإله سبحانه يخبر رسوله(ع) ويخبرنا، أن الهلاك لا ينزل إلا على مجموعة الناس الفاسقة "الخارجة" عن الدين المطروح بشكل واضح عليهم، وإن كانوا لا يهتمّون ويستعجلون بالعذاب، فأنت أيها الرسول(ع) لا تكن مثلهم، لأننا إن ضربناهم بالعذاب فلن يشعروا أن حياتهم كانت طويلة.

تذكّر دائما الفرق بين مصطلحاتنا وبين المعاني الأصلية للكلمات، الفسق في استعمال القرآن استنادا للمعنى اللغوي عند وصف حالة إنسان مع الدين، هو الخروج عن شيء علني قاله الدين، ويوصف به المشرك والكافر المخالف بكفره لما أعلنه الدين، ويوصف به أهل الكتاب لمخالفتهم ما أعلنه تعالى في كتبهم، ولمخالفتهم لما أعلنه تعالى في القرآن، ونوصف به نحن لمخالفتنا لأمور صريحة وواضحة يقولها الدين. اصطلح بعضهم على كلمة فسق وفاسق لتشير للمسلم الذي علنا يخالف الدين الإلهي، وذلك في مقابل المنافق الذي بالسرّ يخالف الدين، وهذه المعاني تقبل اشتقاقها كتطبيقات من الأساس اللغوي للكلمات ولكن ما ذكرته لك هو المعنى الذي استعمله القرآن، هناك شيء نعلم أن الدين قاله، وخالفناه، بالسرّ أو بالعلن، فهذا فسق ديني. والنفاق هو عموم إخفاء الكفر كاملا أو ببعض الأمور، لم يؤمن ولكن يمثّل أمام الآخرين أنه مؤمن.

سورة محمد (47) ص 507
كانت قديما تسمّى سورة القتال.

تتمحور السورة حول انحيازه تعالى وتبنّيه لعنوان القتال الذي يخوضه المؤمنون ضد المعادين لهم، حيث وصفتهم السورة بكلمة تختصر معاداتهم للمؤمنين بوصفهم بالصادّين عن سبيله تعالى، على اعتبار أن المؤمنين يؤمنون بالحقّ وعاملون للصالحات...

وتقسم السورة الناس إلى الضالّة أعمالهم من جهة وإلى المؤيّدين منه تعالى، وتفصّل في أنواع الضالين.

فيها تأكيد إلهي على وجوب قتال الأعداء مع ترغيب المؤمنين بالجنة... كانحياز إلهي إلى جانب المؤمنين في الدنيا والآخرة ضد الكافرين، وفيها تهديد شديد لمن أعلنوا أنهم مؤمنون ولكن تخاذلوا عن القتال والإنفاق عليه.

اختصرت السورة أسباب أمره تعالى للمؤمنين بالقتال بأن الآخرين قرّروا العداوة وقتال المؤمنين فهم يصدّون عن سبيله تعالى، والسورة هنا مخصّصة للتحفيز على الالتزام بأمره تعالى بالقتال وما يتبعه من ثواب على أساس أنه تعالى يغطّي الأعمال الحربية والعسكرية التي يقوم بها المؤمنون ضد أعدائهم، وعلى أساس أن التخاذل عن القتال سيكون له آثار سلبية على المؤمنين...

السورة ليست محصورة بمن عاش في زمن النبي محمد(ع)، في بدايتها حدّدت بأن المؤمن الحقيقي هو الذي يؤمن بما نزل على النبي(ع) وهو القرآن، بذلك تنطبق على كل زمان ومكان فيه كفّار معادون مقاتلون فيجب محاربتهم لأنهم يصدّون الناس عمّا يمثله المؤمنون من الإيمان به تعالى وعن تطبيق شريعته الصالحة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ{1})
{الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا الدين الإلهي، {وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، حيث من يُرِدْ من الناس المشي على المسلك الإلهي فإنهم يمنعونه من سلوكه، ويمنعونه أن يكون مُوَحِّداً له تعالى مُوَالِياً للمؤمنين مُطَبِّقاً لشريعته تعالى... هؤلاء، {أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ}، فلم يجعلها سبحانه تصل إلى نتيجة صحيحة، وبمقابلتها مع الآية التالية بما سيفعله تعالى مع المؤمنين {كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ} نفهم أنه تعالى لن يغفر للكافرين الصادين عن سبيله، وسينالون عذابا في الآخرة. وتصوّرها مثل حالة بنّاء يعمل ملتزما بالتصميم والإرشادات، وبنّاء آخر يعمل على هواه، فهذا لن تصل أعماله إلى نتيجة يرغبها العقلاء، لأن أعماله ضالة لن توصله لهدف مَرْجُوٍّ، ولن ينتج عن عمله بناء سليم. وهنا وفي عموم القرآن ووصف تضليله تعالى للكافرين، هو وصف لأعمال الكافرين الضالّة التي سيبقيها تعالى كما هي ولن يغيّر أي شيء ليجعلها نافعة توصل لنتيجة صحيحة.

الصدّ هو عموم اعتراض شيء لمنعه من الاستمرار في تقدمه أو في هجومه... والصدّ عن سبيل الله تعالى هو عنوان عام نترجمه عادة بمنع الآخرين من الإيمان به تعالى ومنع تطبيق شريعته، ولكن بالرجوع إلى مفاهيم القرآن الذي لم يطرح علينا شيئا جديدا كدين بعقيدة وشريعة نلتزم بها على العمى، ترى أن الإيمان بهذا الدين هو الإيمان بالمعلومات الحقّ الصحيحة، والالتزام بهذا الدين هو القيام بالأعمال الصالحة وترك الأعمال الفاسدة، ويسمّي القرآن ذلك بسبيله تعالى، على أساس أن هذا هو الطريق المنسوب له سبحانه والذي يرضى للناس سلوكه.

كعادة القرآن بشفافيته، ترى الآية هنا تطرح أمرا إلهيا مع تبريره، فهي التبرير للأمر الإلهي للمؤمنين بقتال الآخرين لأنهم صَادُّونَ عن سبيله تعالى، فهم في حالة عملية يقومون بأنشطة معادية للسبيل الإلهي، وترى تفسير ذلك صريحا بعد آية عند وصفهم باتباع الباطل.

درج في أدبياتنا فصل مصالح المؤمنين عن قتالهم للمعادين لهم من الكافرين، واستبداله بعنوان القتال في سبيله تعالى، وتطوّر هذا المفهوم الذي نظنّه مثاليا حتى صار يعني أننا نقاتل لا لمصلحة لنا بالقتال بل لمصلحة الدين ودفاعا عن دينه تعالى.

بعبارة مباشرة وصريحة درج في الأدبيات أنه من العيب القتال لأجل الأرض والمال والعرض والسلطة والمصالح... فاستبدلناه بعنوان القتال في سبيل الله الرنّان لَاغِينَ بذلك أي علاقة لنا بالموضوع! وهذا غير سليم ولا صحيح كتفسير لعنوان "سبيل الله".

من نتائج هذا التحوير لعنوان القتال في سبيله تعالى، إلغاء وحذف مصالحنا من أدبيات الكلام عن أسباب قتال الأعداء، وتحويل الهدف لمرضاته تعالى ولنصرة دينه... حتى إننا صرنا نعتبر أن إخلاص نية القربى لله تعالى في قتال الأعداء شرط لدخول الجنّة، فلو قاتلت لأنهم احتلوا أرضك التي تريد استرجاعها فأنت مشكوك في إيمانك وفي شرعية قتالك والجنّة ليست لك... لأن قتالك ليس في سبيله تعالى...

هذه أدبيات ومفاهيم بعيدة كل البعد عن القرآن، وأسبابها عديدة، ومنها اعتقاد الكثير من علماء المسلمين بوجوب قتال الكافرين المسالمين الذين لم يعتدوا عليك، وهم بعيدون عنك ولا تأثير لهم عليك... فهؤلاء تقاتلهم حتى يسلموا أو يدفعوا

الجزية... ومن كلامهم هذا يكون لدينا نموذج عن قتال في سبيله تعالى ولا مصلحة شخصية للمؤمنين به سوى فرض دينه تعالى على الآخرين...

كما ترى من هذه النظرة وغيرها من الخلفيات صار للقتال في سبيله تعالى تفسيرات غير التي صرّح بها القرآن، فيه لا تجد أمراً ولا سماحاً إلهيا بقتال الآخرين المسالمين مهما كان دينهم، بل تجد العكس، حيث تجد أمرا إلهيا ببرّهم كما تقرأ صراحة في الآية 8 من سورة الممتحنة {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

في القرآن لا تجد أمرا أو سماحا بقتال الآخرين إلا إذا كانوا يقومون بأنشطة معادية، كقتلهم للمؤمنين، وتهجيرهم، ومنعهم من ممارسة تديّنهم بالقوّة... وكمثال عن ذلك الآية 191 من سورة البقرة {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ}، وعادة يقطع الناس هذه الآية لأجزاء حتى توافق هواهم، مما يَصِيرُ لديهم أَمْرٌ إلهي بقتل الآخرين أينما كانوا وفي أي زمان {وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ}، متجاهلين ربطها بما قبلها وبعدها حيث كان الكلام عن أناس قاتلوا المؤمنين وأخرجوهم من ديارهم...

إن الابتعاد عن الطرح القرآني الأساسي من بعدما صارت آياته مستهلكة ذائبة في أدبيات وثقافة تراكمت عبر السنين، أَوْصَلَ الأمور إلى تماشينا مع طروحات الآخرين في تبريراتهم لحروبهم باصطناع عناوين رنّانة... وصولا إلى عنوان يسلخنا عن القضية لتصير قضية منسوبة لله تعالى، نحن كمؤمنين لا دخل لنا بالقتال ولا نقاتل لأن الآخرين اعتدوا علينا بل نقاتل في سبيل الله، ومن المعيب أن نذكر أي تبرير لقتال الآخرين وله علاقة بمصالحنا، مما صَارَ من المعيب القول إنهم احتلوا أرضنا، وقتلونا، وهجّرونا... واعتدوا على مصالحنا الاقتصادية... بل نقول إنهم منعونا من الصلاة والصوم وتطبيق شريعته تعالى...

هذا ليس كلاما مستندا على قرآنه تعالى، وهذا مبني على اعتبار الدين الإلهي كشيء غريب جديد لا علاقة لنا به، كطرح عقائدي ينتج عنه تشريعات، ولسبب أو لآخر ننتمي له، لاغين بذلك أساس وأصل الكلام القرآني عن الحق والباطل والخير والشرّ... ونجعلها مطّاطة قابلة للتكيّف مع ما نهواه وكأنها ليست عناوين ثابتة...

ما هو الإيمان الذي يدعونا القرآن له؟ وما هي الشريعة والسلوكيات التي يدعونا للالتزام بها؟ فكّر بذلك وسترى كم صرنا بعيدين عن أساس الطرح القرآني، حيث صرنا ننظر للدين الإلهي كعقيدة ككتلة لشيء ما، بدلا من النظر إليه كمعلومات نؤمن بها لأنها صحيحة ومطابقة للواقع. وصرنا ننظر للشريعة من الآخر كقوانين إجرائية تطبيقية متناسين الأساس الذي انبنت عليه، إذ إنه سبحانه شمل دائما الشريعة والسلوكيات بعنوان مختصر واحد وهو التقوى، وبعبارة أخرى وصفهما بالعمل الصالح، ووصف الفاعلين بالمحسنين...

الآن لِنَعُدْ إلى عنوان القتال في سبيله تعالى، وانظر للحالات التي تحصل فيها حروب، ولن تجد قتالا بدون مصلحة شخصية للمشاركين فيه... وحتى في حالة قتال المسلمين للآخرين المسالمين البعيدين عنّا والذين لا تعارض بين مصالحنا ومصالحهم... ستجد تطبيقا وهميا لعنوان القتال في سبيله تعالى من دون أي مصلحة لنا، بينما حتى هذه الحالة ما هي إلا توسّع في النفوذ والسلطة للمسلمين...

هناك مشكلة في فهم ما وصلنا من تاريخ الرسول محمّد(ع)، حيث إننا نعتبر ما فعله (ع) تطبيقا لدينه تعالى وبالتالي علينا أن نفعل مثله، ولكن تاريخه (ع) وصلنا عبر ناقلين له مما فهموه، وفيه أن الرسول(ع) هاجم الكفّار الذين لم يهاجموه ولم يقاتلوه وفرض عليهم الإسلام بالقوة، وهذا غير صحيح ولا دقيق.

في خلال قرابة العشر سنين وهي آخر فَتْرَةٍ في حياة الرسول(ع) من بعدما هاجر من مكّة إلى مدينة يثرب، والتي صار فيها للرسول(ع) نشاط قتالي، حيث من بداية الهجرة أرسل (ع) رسائل للحكّام الذين يعرفهم الناس في البلدان الأخرى، ويدعوهم (ع) فيها إلى دينه تعالى... ونصوص هذه الرسائل مشهورة فراجعها واجعلها نموذجا عمّا تجده في طيات ما نقلوه عن تاريخه (ع) في تواصله مع رؤساء قبائل العرب، حيث عرض عليهم الإسلام أو السلام، وفي البداية القلة القليلة جدا أسلمت، وآخرون أعلنوا السلم، وآخرون أعلنوا العداء للمسلمين.

الآن من هذا الواقع حلّل ما فعله الرسول(ع) وما قاله القرآن له عن التعامل مع هذه الحالات من بعدما صار للمسلمين قوّة قتالية مخيفة، إذ ليست القاعدة قتال الآخرين حتى يسلموا، بل هذه حالة الذين عُرِضَ عليهم الإسلام أو السلام ورفضوا كلا الاقتراحين.

تواصل (ع) مع كل من تمكّن من التواصل معه عبر الرسائل والوفود والسفراء... عارضا الإسلام أو السلام، حيث إن واقع الحال في زمنه (ع) أن الكثيرين من محيطه ردّوا عليه بالعداوة، والقليل منهم بمعاهدة سلام لها زمن محدّد، وهذه عمليا هي حرب مؤجلة... فضع هذه العناوين في بالك عند دراسة ما فعله الرسول(ع) من عرضه فيما بعد على هؤلاء الإسلام أو القتل لأنهم سابقا رفضوا السلام، أو قبلوا به مشروطا بزمن يَكُونُونَ من بعده أَحْرَاراً في تجديد المعاهدة أو إعلان الحرب...

أطلت عليك الكلام حتى تتكوّن لديك صورة شاملة تمكّنك من فهم الآيات القرآنية التي فسّروها على قاعدة وجوب أو جواز قتال الآخرين كلّهم حتى المسالمين منهم إلى أن يدفعوا الجزية إن كانوا من أهل الكتاب، أو يسلموا إن كانوا من غير أهل الكتاب.

الكلام عن القتال في سبيله تعالى يصير له تفسير مختلف إن لم نفهم بالضبط ما فعله الرسول(ع)، وَاعْتَقَدْنَا بوجوب قتال الآخرين حتى يسلموا حتى لو كانوا مسالمين، وكأنه عمل لا مصلحة لنا فيه، والمصلحة فقط وفقط لدينه تعالى بإجبار الآخرين عَلَى الانْضِمَامِ إلى ديننا بالقوّة! ولمزيد من التفاصيل راجع دراسة سورة براءة وسورة الممتحنة.

أخيرا نَنْتَبِهُ جيدا من دفع الآخرين لنا في سياق ليس قرآنيا، فهم ليسوا قرآنيين، أمّا أنت فماذا؟ فإن استعملوا الدعاية الكاذبة لتبرير أفعالهم العدوانية، فهل تتبعهم لتصير كاذبا؟ وإن استعملوا اسمه تعالى في أدبياتهم ليغطّوا إجرامهم باسمه تعالى، فهل تلغي أنت الإعلان عن الدفاع عن حقوقك وتحمل شعارا تنسب فيه القتال لأجله تعالى! ولأجل دينه! وحتى يقتلوك وتدخل إلى الجنّة!

إن عنوان في سبيله تعالى هو نفسه عنوان العمل الصالح، والقتال في سبيله تعالى هو نفسه القتال كعمل صالح، وها هو القرآن أمامك بصريح عباراته المانعة من الاعتداء، والآمرة فقط وفقط بقتال من اعتدى عليك بحيث لا يمكنك رد اعتدائه إلا بالقتال.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ{2}) {وَالَّذِينَ آمَنُوا}، أَعْلَنُوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، حَيْثُ قاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، لِأَنَّهُ خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، إذْ عمليا هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عَادَةً نفسّر "عملوا الصالحات" على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إِنَّهُمْ صلّوا وصاموا... وهذا عمليا صحيح، ولكن بالأصل الْكَلَامُ أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

بِشَكْلٍ أو بآخر يشيع بين الناس عموما وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائما أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فَيُؤْمِنُونَ به.

هَذَا الكلام له عمق، إذْ لا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعا ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّا لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلا سيّء" فسيكون في الحقيقة اخْتِرَاعاً من البشر لصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمرا إلهيا.

{وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ}، اعْتَقَدُوا أَنَّ هذا القرآن نازل من الله تعالى على عبده محمّد(ع)، {وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ}، حَيْثُ إِنَّ هذا القرآن الذي نزل عليه (ع) هو الصواب الصحيح من المسؤول عنهم من مستوى إلهي، مِمَّا يعني أَنَّ إيمانهم به صحيح لأنه إيمان بما هو حق بشهادة إلهية.

تتذكّر العديد من السُّوَرِ التي بيّنت بالأدلة أن هذا القرآن من مصدر إلهي، وهنا اختصرت السورة كل ذلك لتخبرك بتأكيد ذاتي من القرآن نفسه بخبر منه أنه منه تعالى فعلا.

{كَفَّرَ}، ستر وغطّى، {عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ}، الأعمال السيئة التي قاموا بها قبل أن يؤمنوا بهذا القرآن حَيْثُ سترها تعالى وَأَلْغَاهَا من أصلها وكأنها لم تحصل وَلَنْ يحاسبهم تعالى عليها ولن يذكرها لهم أصلا، كَمَا لَنْ يسألهم عنها في الآخرة ولن يجدوها مكتوبة في كتاب أعمالهم، {وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ}، حَيْثُ إِنَّ ما يحضر ليدور في خاطرهم من أفكار ومشاعر، كان مشوشا وَلَمْ يكونوا مرتاحين، وبسبب عرض هذا القرآن للحقّ وتقويم الإيمان صار بالهم مرتاحا، لِأَنَّ الشعور بالضياع وَبِالْفَرَاغِ وَبِالِاضْطِرَابِ والتشويش... عن الإيمان الصحيح، وَعَنِ الشريعة الصالحة، وما سيحصل معي بعد مماتي؟ وهل أنا على الطريق الصحيح أم نهايتي ستكون سيّئة... كل هذا يذهب بعد الإيمان بهذا القرآن.

بقي شيء نستوحيه من أجواء السورة، حَيْثُ إِنَّ آيتنا هنا تأخذك إلى عمق آخر، إِذْ إِنَّ بعض الناس يعترضون إن تضمّن أي دين أوامر بالقتال، على أساس أن الأديان يجب أن تكون "مسامحة مسالمة"، وأمام هذا الترويج ترى العديد من المسلمين محرجين من الآيات القرآنية التي تأمر بقتل الكفّار، يُبَرِّرُونَ لها بتبريرات تخرجها عن معناها، حتى إِنَّ بعضهم قال عنها إِنَّهَا أوامر منه تعالى نزلت بالخصوص على النبي محمّد(ع) فقط وفقط ليطبقها هو (ع)، ومن بعده (ع) لا يحق للمسلمين القيام بأي عمل حربي... ومن جهة أخرى لدينا الْمُجْرِمُونَ الْمُعْلِنُونَ انْتِمَاءَهُمْ لدينه تعالى، وهؤلاء لديهم تفسير إجرامي لكلامه تعالى، حتى إِنَّهُمْ يفتون بقتل المسلمين الآخرين من غير مذهبهم وحتى الأطفال والنساء!

هَا هِيَ دراستنا أمامك لتراجع فيها الآيات، وسترى أنه تعالى لم يأمر بقتال إلا من أعلن العداء للمؤمنين وبدأ بأعمال عدائية، وأمر سبحانه بالاستعداد دوما لأي حرب حتى لا يفكّر الآخرون بمهاجمة المؤمنين، وأمر بالعمل على كسر شوكة الكافرين غير المسالمين حتى لا يكون لديهم الْقُدْرَةُ على أذية المؤمنين عبر فرض الجزية وتقييد قدرتهم الحربية... ومنع سبحانه الاعتداء على المسالمين نهائيا بتاتا ومهما كان دينهم وحتى لو كانوا كافرين مشركين عابدين للأصنام...

بِنَاءً عليه، فأين الحرج في هذا؟! إِنَّ الساذج البسيط الجبان الذي لا يفهم معنى ضرورة العمل على تأمين بيئة صالحة، ومعه المنافق والفاسق الْمُعْتَرِضُونَ أصلا على الكثير من الشريعة الإلهية ويكرهون تطبيقها لأنهم محبّون للفساد، ومعهم الجاهل المدّعي الفهم بالأمور العامة بينما هو لا يرى أبعد من أنفه، وَهُوَ جَبَانٌ يُعَارِضُ النشاطات العسكرية للمؤمنين، وفوقهم الخونة الْمُرَوِّجُونَ لثقافة الخنوع عبر الهجوم على الدين الإلهي من بعد تصويره كدين دموي... وَالْأَسْوَأُ منهم كلّهم المجرمون بلباس ديني إسلامي، المبيحون لدم كل الآخرين حتى لو كانوا مسالمين، وحتى لو كانوا مسلمين من غير مذهبهم وحزبهم؟! فكل هؤلاء وغيرهم يشاركون في تحريف القرآن عن معناه، وهم بلاء مستمر دائما ومرافق للبشرية من أوّل تاريخها.

(ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ{3})
{ذَلِكَ}، الذي ذكرته الآيتان السابقتان من إضلال أعمال الكافرين وتكفير سيئات المؤمنين وإصلاح بالهم، إِذْ إِنَّ هذا الدعم الإلهي المنحاز لفئة دون الأخرى، {بِأَنَّ}، بسبب أن، {الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أعلنوا إنكارهم لهذا الدين، {اتَّبَعُوا}، كانوا على مسار، {الْبَاطِلَ}، على عقيدة وسلوك غير سليم فلا يمكنه تأمين سير أمور حياتنا الدنيا والآخرة كما يجب.

{وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا}، أَعْلَنُوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين، {اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ}، كانوا على الصواب الصحيح الذي وصلهم من المسؤول عنهم من مستوى إلهي، مِمَّا يُؤَمِّنُ سير أمور حياتنا الدنيا والآخرة كما يجب.

{كَذَلِكَ}، بهذا الذي قالته الآيات عن الفرق بين المؤمنين والكفّار كسبب لانحيازه تعالى للمؤمنين، وفعل المؤمنين للصالحات الَّذِي هو الْحَقُّ، مما يعني فعل الآخرين للسيئات والذي سينتج عنه الباطل، بِهَذَا الكلام {يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ}، إِذْ إِنَّ ضَرْبَ المثل هو كلام تشبيهي يمكن فهمه بسهولة تَقُولُهُ فَيَنْتَبِهُ من يسمعك للشبه بين المثل وبين ما تريد قوله، وهنا ضرب الله تعالى للناس مثلين، مَثَلاً عَاطِلاً عن الكفّار وضلالهم، فهل من المعقول أن يقف تعالى إلى جانبهم! وَمَثَلاً جَيِّداً عن المؤمنين المتّبعين للحقّ الذي جاء منه تعالى، فمن البديهي أن ينحاز سبحانه لهم.

كَمَا ترى، فَإِنَّهُ سبحانه يبرّر لانحيازه لفئة المؤمنين به، لأنه فعلا إلههم الأحد الذي يجب أن يعبدوه، وهم عاملون للصالحات، وفي الجهة الثانية هناك الكافرون الصَّادُّونَ عن سبيله تعالى، حَيْثُ إِنَّ الْكَافِرِينَ سلوكهم سيّء فاسد باطل لن يؤمّن لهم ولا للآخرين حياة دنيوية وأخروية سعيدة، وهم يمنعون الآخرين عن اتباع دينه تعالى الآمر بالصلاح والخير والذي يؤمّن للجميع حياة سعيدة في الدنيا والآخرة.

أطلت عليك حَيْثُ عَادَةً تتداخل الأفكار بشكل ضبابي فَنَفْصِلُ دينه تعالى عن العقلانية وصلاح أمور حياتنا، وكأنها أوامر نازلة من السماء وغير قابلة للانطباق على الأرض، إِذْ إِنَّ بعض الناس يتعاملون معها على أساس المثاليات غير القابلة للتطبيق ومكانها في الكتب فقط، وآخرون حصروا دينه تعالى في المسجد فقط... بينما وبكلمتين ذكرتهما الآيات السابقة ترى مقارنة بين الإيمان الصحيح وعمل الصالحات وبين الكفر والعمل العاطل الباطل، حَيْثُ إِنَّ الكلام عن الفكر الذي سينتج عنه سلوك فردي "وجماعي" له أثر على الجماعة، فإمّا أن ينتشر فعل ما نراه صالحا، وعمليا هو الالتزام بكلامه تعالى، فنعيش حياة سعيدة في الدنيا والآخرة، وإمّا أن ينتشر ما نهواه حتى لو كان لاعقلانيا وباطلا، فَنَتْعَسُ في الدنيا والآخرة.

(فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ{4})
بِنَاءً على قرار منه تعالى بالانحياز لفئة من الناس بسبب أنهم من المؤمنين بدين الحقّ وَعَامِلُونَ للصالحات:

{فَإِذَا لَقِيتُمُ}، تلاقيتم وَتَوَاجَهْتُمْ في حرب أو معركة... مع، {الَّذِينَ كَفَرُوا}، مع الذين أنكروا هذا الدين الإلهي، {فَضَرْبَ الرِّقَابِ}، تَقَصَّدُوا أن تكون ضرباتكم قاتلة، إِذْ إِنَّ الضربة على الرقبة بالسيف من أشد احتمالات حصول القتل، وبعبارة أخرى فَلَا تنزلوا إلى المعركة بحسابات غير الشدّة والبأس ضد الأعداء، وَلَا تنسوا أنها معركة قتال يريدون فيها إنهاء حياتكم أو استسلامكم، وليست استعراضا عسكريا ولا رحلة صيد وليست مشكلة من أناس قلبهم طيّب ولن يؤذوكم... لِذَا لَا تستحرموا قتلهم أو ترأفوا بهم... فلو كانوا يستحقون الرأفة والعطف لما قاتلتموهم من الأساس...

اِبْقَوْا على حالة قصد قتلهم، {حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ}، حتى إذا صار يوجد منهم الكثير من القتلى والجرحى، حَيْثُ لَمْ يَعُدْ لديهم قدرة على قتالكم، عندها، {فَشُدُّوا الْوَثَاقَ}، قُومُوا بربطهم بالحبال بشدة محكمة، وَتَوَقَّفُوا عن قتلهم لأنهم استسلموا ليصيروا أسرى.

يعني هو قتال لِذَا تَعَامَلُوا معه بجدية القتال لِأَنَّهُ ليس لعبة ولا مسرحية، فإن تراخيتم في الجدية بقتل الأعداء فسيقتلون منكم... ولا تأخذوا أسرى أثناء سير المعركة، وَلَا تضعوا في بالكم أن تبدؤوا المعركة بحيث تأخذوا أسرى، بل ادخلوا المعركة بعنف، وَلَا تأخذوا أسرى حتى تنتهي القدرة القتالية للأعداء وتسيطروا تماما على الوضع، ومن تبعات هذا الأمر أن لا ترتبكوا بالأسير وربطه وإبعاده عن السلاح ومراقبته... وحتى لا يتجرّأ الْآخَرُونَ عليكم بقتالكم وهم يجربون حظّهم معكم مُطْمَئِنِّينَ أنهم إن شعروا بالخطر ورموا سلاحهم فأنتم لن تقتلوهم حتى لو كانت المعركة في بدايتها...

إِنَّ الآية هنا تريد تحفيز المؤمنين على الشدّة والعزم والحزم، حَيْثُ لَا تهاون ولا تساهل إلى أن يتوقّف العدو نهائيا عن القتال فعندها يمكنكم أخذ الأسرى، وَوَرَدَ نفس الكلام في الآية 67 من سورة الأنفال {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ...} وهناك كان النظر لنفس موضوع "أخذ الأسرى" ولكن من زاوية أخرى، من زاوية حسابات أخذ الفدية عن الأسرى وحسابات العلاقات مع الكفّار... حَيْثُ كان الكلام عمّن يأخذونهم أسرى ليفادوهم، لِأَنَّ هَؤُلَاءِ من جديد سيحملون السلاح وَيُقَاتِلُونَ المؤمنين في معركة أخرى لأن الحرب لم تنته...

بَعْدَ أن صار لديكم أسرى، {فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ}، إِمَّا أَنْ تطلقوا سراحهم منّا "بعد الأسر"، بمنيّة وليس بمقابل مالي يدفعونه هم أو يدفعه من يهمّه أمرهم، بل تتركوهم ولكم عليهم حقّ شكركم على تركهم أحياء وأحرارا، {وَإِمَّا فِدَاءً}، حَيْثُ تُطْلِقُونَ سراحهم بفداء أي بمقابل مالي يدفعه أحدهم للمسلمين ليحرّر الأسير الكافر المقاتل، أو بفداء تبادل أسرى، حَيْثُ يَكُونُ للمسلمين أسرى بيد الكافرين وَيُبَادِلُونَهُمْ مع من أسروه من الكفّار.

يعني تركت الآية هامش مرونة للتعامل مع الأسرى بما نراه مناسبا لحالة كل واحد منهم، إِذْ رُبَّمَا كان أحدهم مستضعفا مهددا بالقتل حتى يشارك ضد المسلمين، وفعليا لم يكن له أثر لأنه لم يطلق النار أو اختبأ...

إِذَنْ ضَرْبُ الرقاب حين التلاقي مع الكفّار وكسر قوّتهم وبعدها أخذ الأسرى... {حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا}، إلى أن ينتهي ما ينتج عن الحرب من أوزار، من أمور ثقيلة كالقتل والضرب والغارات... لِتَبْقَى حالة ضربكم للرقاب وأخذ الأسرى... إلى انتهاء كافّة الأعمال الحربية بينكم وبين العدو، ومن بعد ذلك تَتَوَقَّفُونَ عن الأنشطة القتالية والأسر.

انتبه جيّدا، إِذْ هُنَاكَ تفاصيل كثيرة لم تدخل الآية فيها واكتفت بالعناوين الرئيسية، ومن عموم مفاهيم القرآن نفهم أنه بعد انتهاء الحرب لا يجوز قتل الأسرى إلا الذين ثبت الحكم عليهم بقتل المسلمين أو كان عليهم حكم بالقتل لسبب ما قبل الحرب. وأثناء الحرب إن استسلم بعض أفراد العدو وكانت الظروف مناسبة ولا تسبّب عرقلة لتقدّم المسلمين، فلا يجوز قتلهم إلا من ثبت عليه حكم القتل سابقا أو ثبت عليه قتل المسلمين أثناء المعركة...

نلاحظ أن القرآن لم يقل ولا مرّة أي شيء عن استعباد أَوْ استرقاق العدو أو أهل العدو، ولم يرد فيه أصلا أي كلام عن الأسباب المجيزة لاستعباد أي إنسان، عِلْماً أَنَّنَا نجد في تراث المسلمين أن الاسترقاق حَصَلَ فعلا للعدو الكافر ولأهله الكفّار، وحتما إِنَّ الرسول(ع) تصرّف بهذا الشكل استنادا للقرآن.

هُنَا بِالنِّسْبَةِ للأسرى لَا يَبْدُو واضحا على ماذا استندوا قرآنيا في استعبادهم أحيانا، وبالتحليل نرى أنهم استندوا إلى معاملة العدو بالمثل، لِأَنَّ الْأَعْدَاءَ لو انتصروا لاستعبدوا المسلمين، وبالتحليل نعلم أَنَّهُ أمام القائد حَلَّانِ، إمّا ترك الأسرى بفداء أو منّ إذا وضعت الحرب أوزارها حَيْثُ لَمْ يعد هناك خطر من تشكيل الأعداء قوّة عسكرية جديدة تتضمّن الذين كانوا أسرى، وإما قتل الأسرى، وكما ترى لَا كَلَامَ في القرآن عن قتل الأسرى إلا إذا كان سبب القتل عنوان آخر كما ذكرنا منذ قليل، حَيْثُ كَانَ الأسير من قبل المعركة أو أثناءها قد قتل مسلما... فماذا عن الأسرى الآخرين الذين لا جرم لهم سوى المشاركة في القوة القتالية للأعداء ولم يقتلوا مسلما، وإن جرى إطلاق سراحهم فلا يزال هناك احتمال أن يشكّلوا أو ينضمّوا لقوة قتالية ضد المؤمنين من جديد؟ لِذَا هَؤُلَاءِ يبقى حلّ واحد معهم وهو تقييد حريتهم بالحبس بالزجّ في السجن أو بالعبودية بتفريق قوّتهم كجماعة وبقائهم تحت نظر المسلمين...

على أي حال عَلَيْكَ بالتفريق بين الصورة البشعة للعبيد والتي تراها في الأفلام، وتسمع بها من ممارسات العديد من المسلمين عبر التاريخ، وبين معاملة العبيد كما أمر تعالى في قرآنه، إِذْ إِنَّ الفرق هائل حتى بين القرآن وبين كتب الفتوى التي لم تعتمد على كلام القرآن واعتمدت على روايات لم تتم دراستها بدراية...

نرجع للآية، {وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ}، إِذْ أَمَامَهُ تعالى خيارات عديدة لتحقيق ما يريده من الكفّار، حَيْثُ يُمْكِنُهُ تعالى إماتتهم فورا، أو أن يمرضهم، أو يتلاعب بعقولهم... يعني هو تعالى حين أمر المؤمنين بقتالهم لم يكن عاجزا عن التعامل بنفسه مع الكفّار الصادّين عن دينه، {وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ}، أَيْ لِتَتَعَرَّضُوا لتصرفات بعضكم البعض ويرى سبحانه تغيّركم من ذلك، كامتحان لكم، ليرى المؤمنين الحقيقيين منكم ويرى الكافرين في أقصى درجات الصدّ عن سبيله تعالى بقتل المؤمنين...

{وَالَّذِينَ قُتِلُوا}، والمؤمنون الذين أنهى الكفّار حياتهم في القتال، وموتهم كان، {فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، في مسلك يرضاه تعالى، وليس لمصالح دنيوية سيئة، حَيْثُ قَاتَلُوا ولم يكونوا معتدين ولم يعتدوا... {فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ}، حَيْثُ لَنْ يجعلها سبحانه في الفراغ هكذا من دون نتيجة جيدة لهم بل:

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ{5})
وبما أنهم ماتوا وهم على خطّه تعالى وَلَمْ يفعلوا السوء فَـ:

{سَيَهْدِيهِمْ}، سيضعهم سبحانه على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، حَيْثُ سَيَجْعَلُ سبحانه موتهم في سبيله سببا في وصولهم لرضاه تعالى بِدُخُولِهِمْ إلى الجنّة.

لاحظ أننا من الآية هنا سنفهم بسهولة أول آية من السورة حين تحدّثت عن إضلال أعمال الكفّار، إِذْ إِنَّ أعمالهم لا توصل لنتيجة جيّدة بل توصل إلى النار.

{وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ}، حَيْثُ إِنَّ مَا يحضر ليدور في خاطرهم من أفكار ومشاعر فلن يكون مزعجا مضايقا لهم، إِذْ إِنَّنَا في حالتنا العادية لدينا العديد من المعلومات والمشاعر، ولكنها لا تحضر كلّها على بالنا في نفس اللحظة، حَيْثُ الْآنَ يحضرني مَوْضُوعٌ أَوْ مَوْضُوعَانِ ويترافق معهم المشاعر المتعلقة بتلك المواضيع، وهذا هو البال، والمقتولون في سبيل الله تعالى لن يخطر في بالهم أية أفكار أو مشاعر مزعجة، وَلَنْ يحملوا همّ محاسبتهم، بل سَيَكُونُونَ مرتاحي البال، وَيَشْعُرُونَ بالراحة، وبتعبيرنا الحالي: نفسيتهم مرتاحة.

وتعلم من الآيتين 154 من سورة البقرة {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ}، والآية 169 من سورة آل عمران {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}، أن المقتول في سبيله تعالى فورا ينتقل إلى جنّة هنا في الدنيا، ودرج في أدبياتنا بِتَسْمِيَتِهَا بالجنّة البرزخية اعتمادا على استعمال القرآن لكلمة برزخ في الآية 100 من سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ {لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}، حَيْثُ انْتَقَلَ من بيننا ولا يزال في الدنيا ولكنه بانتظار الآخرة وسيقضي حياته في جنّة خاصّة بالمقتولين في سبيله تعالى. وهناك في تلك الآيات كلام عن أول انطباق لكلامه تعالى عن إصلاح بالهم من حين موتهم مرورا بيوم القيامة وصولا إلى الجنّة.

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ{6})
{وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ}، يجعل تعالى المقتولين في سبيله في مكان موصوف بروعة ما فيه من أشجار وحدائق وأنهار وغيرها من وسائل السعادة، {عَرَّفَهَا لَهُمْ}، حيث سابقا عبر هذا القرآن تعرّفوا على ما فيها، لأنهم أصلا أطاعوه تعالى وهم يعرفون أن مصيرهم إلى الجنّة.

لاحظ الفرق بين العلم والمعرفة، وانتبه إلى أنه تعالى ولا مرّة وصف نفسه بالمعرفة ولا بأي شكل، فهذه الكلمة تشير لجهل سابق بما صار معلوما عندك، أو لنقص سابق في المعلومات وبعده تعرّفت، وهذه حالات لا تجري عليه سبحانه. وترى الفرق بسهولة بين الكلمتين حين تحدّثني عن شخص لم أره، فأنت تعرّفني عليه، وكلامك عنه ليس بديلا كافيا يغنيني عن رؤيته والتعامل معه، فحين أراه وتشير إليه سأعلمه. وفي أدبيات كلامنا ندر استعمالنا لكلمة "سأعلمه" لوصف هذه الحالة، عادةً نستعمل مشتقات من كلمة "عرف"، ولكن كلمة "العلم" وردت في القرآن مرارا لوصف هذه الحالة، ومنها ما ورد في الآية 101 من سورة التوبة "{وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ...}"، وفي كلامنا الدارج وأدبياتنا سنقول: لا تعرفهم نحن نعرفهم.

جملة {عَرَّفَهَا لَهُمْ}، تشير لغياب هذه المعرفة عن فكرهم وحواسهم، ومن القرآن تعرّفوا عليها، وحين يَدْخُلُونَهَا سَيَعْلَمُونَ بها، وقبل دخولهم للجنة عرّفها تعالى لهم عبر كلامه في هذا القرآن.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ{7})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، أيها الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين، {إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ}، فتعملوا على تحقيق ما يأمر به تعالى، وسياق الكلام هنا عن القيام بالأعمال الصالحة ومنها قتال الأعداء الذين يقاتلونكم، {يَنْصُرْكُمْ}، يحقّق لكم سبحانه ما تريدونه، فتغلبون أعداءكم الكفّار، {وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}، فأينما تضعوا أقدامكم وأينما تتواجدوا فستكونون الثابتين والعدو هو المنهزم المتقهقر.

ننتبه، إنَّ نصرته تعالى تعني أن يكون في قلوب المؤمنين نية نصرة الله تعالى فقط، وعادةً نستعمل تعابير أخرى كنصرة دين الله، ولا مشكلة بالتعابير وإنما المشكلة في المفهوم، حيث إنَّ نصرة الله تعالى هي الكون على الحقّ وتطبيق الحقّ، فهذا ما يريده تعالى منّا، وكما ترى إنَّ الدفاع عن الأرض والموارد والنفس والمال... من المعتدين، هو عمل يعتبره تعالى نصرة له، لأنه تطبيق للحقّ ومنع للفساد والشرّ.

وإن لم يكن المقاتلون مخلصين في نصرتهم لله تعالى، فهم معتدون على الآخرين أو خليط بين ما لهم من حقّ مع اعتداء، فقد ينتصرون ولكن نصرهم لن يكون نصرا لله تعالى، ولن ينالوا أجرا عليه بل سيتحاسبون عليه.

من محاسبته تعالى ومجازاته للكافرين المقاتلين للمؤمنين لأنهم على الباطل، ومن تحديده لنصرة من ينصره مختصراً أنهم على الحقّ، ومما سبق وسيأتي من كلام، تكتمل لدينا صورة عن معنى كلامه تعالى معنا بأمره لنا بقتال الأعداء، حيث سمح تعالى لنا بذلك ولا ينفي ذلك بقاء صفة العمل السيّء على القتل، وهذا مفهوم قرآني أساسي وعليه ينبني كل الإيمان.

تصنيف الأعمال بين سيّئ شرير فاسد باطل... وبين جيد خيّر صالح... يبقى كما هو بلا تغيّر مهما كانت الأحوال، وهذا مبدأ قرآني ثابت، ومن بعد ذلك تأتي مختلف الظروف التي يسمح ويأذن ويأمر فيها تعالى بفعل عمل بالأصل هو سيّئ ولكن اختلاف الظروف سبّب السماح للمؤمنين بفعله. وهكذا تُفهم مختلف تعابير القرآن في موضوع قتال الأعداء من الإذن كما ورد في الآية 39 من سورة الحج "{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا...}" إلى الأمر بالقتال كما ورد في الآية 191 من سورة البقرة "{وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ...}".

من هذا المبدأ فهمنا أمره تعالى لنبيّه محمّد(ع) بالاستغفار، إذ ليس معلوما لنا من القرآن ولا من التاريخ ولا نتوقّع من شخص نبّأه تعالى أو وظّفه رسولا أن يقوم بسيئة ما عن قصد، ولكن بالخطأ من دون قصد يقع السوء، حتى من الرسول كما تفهم من الآية 43 من سورة التوبة "{عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ}"، حيث ضمن سبحانه لنا إيصال الرسول لكلامه تعالى كما هو، فلا عن قصد أو غير قصد سيتلو علينا الرسول كلامه تعالى وفيه خطأٌ، فهذا مستحيل وعليه ضمانة إلهية كما نفهم من عدة آيات منها الآية 6 من سورة الأعلى "{سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى}"، وأمّا بقية الشؤون فقد يحصل فيها الخطأ وسوء التقدير... حتى لو بالخطأ قام المؤمن بسوء، فعليه الاستغفار منه، إذ لا يتغيّر وصف العمل السيّء إن قمنا به عن غير قصد.

من المفيد في أجواء سورتنا هنا الكلام عن توصيف القتل بالسوء، حيث إنَّ حالة الحيرة على مستوى التنظير بين الدين الإلهي الذي يجب أن يكون مسالما مختلفا عن السلوكيات الإجرامية للبشر، ومختلفا عن الأديان الإجرامية التي اخترعها الناس والناسبين إياها لله تعالى وباسمه تعالى يرتكبون الإجرام... وحالة الحيرة بين الرغبة في حياة وادعة مسالمة وبين أمر ديني بالقتال... ومضافاً لذلك مختلف حالات الناس بين محبّ للسلم وديع... وجبان... وبين عنيف ميّال للسوء... وشجاع... فالخليط من هذه الأمور ينتج عنه تشويش الرؤية.

الأمر سهل في قرآنه تعالى، فلا سماح ولا إذن بقتل أي نفس، إلا التي قتلت نفسا بريئة عن قصد. وفي الحالة الجماعية للقتال، فلا سماح ولا إذن بالاعتداء على الآخرين ولا بأي شكل، إلا الذين هم يقومون بأعمال عدائية فيكون الردّ عليهم بالمثل بلا اعتداء زائد كما تقرأ في الآية 190 من سورة البقرة "{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}"، ومن مفهوم الآية 194 أيضا من سورة البقرة "{... فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}"، فإن تضمّنت أعمالهم العدائية قتل الأبرياء عندها يأمر سبحانه المؤمنين بقتل المعتدين.

عادة لا تعترف عامّة الناس بحالة الجبن والخوف مما يعميها عن رؤية الحقّ الواضح، إذ إنَّ كلامه تعالى ليس عن الاعتداء على الآخرين بل عن الدفاع عن النفس والمال... بقتال المعتدين، ومن الداخل تسمع أصواتا باسم الدين الإلهي داعية للسلم مثبطة لعزيمة القتال... متعاميةً عن عدو لن يرحمهم، وسيحكمهم بالظلم سالبا خيراتهم وقاتلا للأبرياء منهم... أو مهجّراً لهم من أرضهم... وهؤلاء سيأتيك الكلام عنهم في بقية السورة. وفي مقابلهم تسمع مجرمين يفتون بقتل الأبرياء!

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ{8})
{وَالَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا هذا الدين الإلهي، {فَتَعْسًا لَّهُمْ}، فهم في حالة التعاسة في حالة مزرية سيئة، فلن ينالوا النصر الإلهي في الدنيا وَسَيَنَالُونَ العقاب في الآخرة، {وَأَضَلَّ} الله {أَعْمَالَهُمْ}، ما يباشرونه ويقومون به فلن يجعله تعالى يوصلهم لغاية صحيحة، فهنا في الدنيا لن يوافق تعالى على ما يقومون به فَعَمَلُهُمْ فاسد وسيبقى فاسداً، وفي الآخرة لن توصلهم أعمالهم لشيء جيد لأنها ستوصلهم إلى النار، والسبب سيأتي في الآية التالية.

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شراً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فَضَلَّ عنك صيدها. وَاسْتَعْمَلَ القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، فلم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء. وَاسْتَعْمَلَهَا القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضَالٌّ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} رَدّاً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

ألفت انتباهك إلى استعمال القرآن كلمة "تعس" مرة واحدة هنا فقط في كل القرآن.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ{9})
{ذَلِكَ} التعس وضلال أَعْمَالِهِمْ، {بِأَنَّهُمْ}، بسبب أنهم، {كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ}، ما في هذا القرآن من حقّ وخير وصلاح فهو لا يتماشى مع ما يريدونه ويرغبون به من سوء، حيث أَنْزَلَ تعالى عليهم الإيمان بالتوحيد والشريعة الحقّة والسلوك الصالح... وهم كارهون لهذه الأمور فيعارضونها ويرفضون تطبيقها.

{فَأَحْبَطَ} الله {أَعْمَالَهُمْ}، جعلها بلا قيمة، فأي عمل حسن قام به الكفّار فلن يكون له أي قيمة.

لماذا سيكون لعملهم الحسن قيمة عنده تعالى؟ لأنهم لم يفعلوه قُرْبَةً لله تعالى، ولا بِنِيَّةِ إطاعة أوامره لأنهم كفّار به وبشريعته، بل وكارهون لها! حتى لو كانوا قاموا بعمل حسن، كبناء المستشفيات والمدارس ومساعدة الناس... فالكافر فعلها للإنسانية، أو فعلها بدافع ضميره، أو شَفَقَةً أو ليصير مشهوراً... فليأخذ أجره من الإنسانية والضمير والشفقة والشهرة... ولذلك نجد القرآن يبقي على صفة الحسن للعمل الحسن حتى لو قام به الكافر المجرم، ولكنَّهُ يقول عن هذا العمل الحسن أنه سيفقد قيمته "حابط" فلن ينتج عنه أجر إلهي لمن فعله.

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا{10})
{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ}، ألم يقطعوا المسافات في مسارات في مسالك الأرض، {فَيَنظُرُوا}، مِنْ بعد السير فيها يُوَجِّهُوا اهتمامهم العام، {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ}، كيف كان ما عَقِبَ، ما جاء بعد كنتيجة من حياة وأعمال، {الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}، من الكفّار الذين كانوا يعيشون على الأرض؟ فهل كان منها فائدة؟ وهل أمّنت لهم حياة سعيدة؟

{دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}، دمّر مدنهم، كفرعون وثمود وعاد وغيرهم... فأصابها ما غيّرها من الانتفاع بها إلى الخراب.

{وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا}، وللمنكرين لدينه تعالى أمثال "شبه" تلك العاقبة والنتيجة من الدمار، أي سيحصل لهم الدمار مثلما حصل للسابقين من الكفّار.

هل يريدون دليلاً ملموساً على تعاسة الكفّار؟ فلينظروا إلى التاريخ والآثار ليروا أن أقواماً عديدة كافرة دمّرها سبحانه.

ننتبه، هناك من يخطر بباله المقارنة بين بعض الدول الغنية غير الإسلامية، مع بعض الدول الإسلامية، ويستغرب: لماذا تلك البلاد في بحبوحة ورغد وأمان، والمسلمون في الفقر والحروب...؟ والقرآن يقول بأن المجتمعات الكافرة ستتدمّر؟! حسن، أولا نحن مسلمون بالهوية وبالعنوان، وأمّا بالتطبيق فنحن مذاهب وطوائف متناحرة تكفّر بعضها بعضاً، وينتشر فيها علماء السوء المُحَرِّضُونَ على الاختلاف والقتل والتناحر... بين المسلمين. ثانيا: وضعنا علينا فاسدين نصّابين متسلّطين مجرمين... كرؤساء وحاكمين... ثالثاً: نحن كأشخاص ندر فينا الإسلام الحقيقي، إذ إنَّ الغيبة والكذب والغشّ... والخمر والمخدرات والزنا... منتشرة في مجتمعاتنا... وغيرها العديد من التفاصيل والنقاط المتعلقة بنا والتي تنفي عنّا صفة المجتمع المسلم المؤمن الذي يستحقّ العناية الإلهية.

الآن أخبرني، هل نحن كبلدان "إسلامية" نتميّز كثيراً عن سلوكيات الكفّار؟ نعم لأنَّ الكثيرين من الآخرين سلوكياتهم أفضل بكثير من الكثير من سلوكياتنا! مع العلم أن أساس عقيدتهم فاسدٌ ولكن الالتزام بالقانون حتى لو كان فاسداً فهو أفضل من حالة إهمال مجتمعاتنا لأي قانون.

مِنْ ناحية تلك الدول التي يسمّونها كافرة: في القرآن لا نجد هلاكاً دنيوياً لقوم لمجرّد أنهم كفروا، بل دائما كان كفرهم مرتبطاً بفساد في الأرض، كالغش واستعباد الآخرين والتسلّط عليهم، والفاحشة المنتشرة التي لا يعترض عليها أحد...
وخذ مثلاً قوم النبي إبراهيم(ع) الذين حاولوا إحراقه، نَجَّاهُ تعالى ولم يعاقب قومه رغم أنهم عبدة أصنام وكواكب!
ويبدو واضحاً أنهم لم يكن لهم سلوك إفساد في الأرض من العيار الثقيل سوى شركهم هم، وكما ترى فإنَّ تقييمي أنا الشخصي وتقييمك الشخصي أنت لتلك المجتمعات حين اعترضنا على هناء العيش الذي هم فيه، فتقييمنا لم يكن نابعاً من التقييم الإلهي، إذ في جوانب كثيرة تجد المجتمعات المسمّاة بالغربية أفضل منّا، وأقرب منّا لما يأمر به تعالى من حقّ وصلاح.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُم{11})
{ذَلِكَ}، النصر والهداية للمؤمنين وإدخالهم إلى الجنة وهزيمة الكفّار وتدميرهم، {بِأَنَّ}، بسبب أن، {اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بدينه تعالى سيعتبرهم سبحانه تابعين له.

{وَأَنَّ الْكَافِرِينَ}، المنكرين للدين الإلهي، {لَا مَوْلَى لَهُمْ}، فهم ليسوا تابعين لأحد من مستوى إلهي، إذ أعلن سبحانه صراحةً معاداته لهم وانحيازه للمؤمنين به فقط.

لاحظ وانتبه، إذ إنَّ حياة الناس مليئة بأحداث عدائية عسكرية وحربية... وهم يرون أنه من الضروري جداً البحث عن عنوان "لمّاع رنّان" يبرّر لهم أعمالهم العدائية، وخذ مثلاً مشهوراً عن إعلان حملة نابليون، الحرية المساواة والعدالة، وفي عصرنا الحديث عنوان نشر الديموقراطية، وغيرها من العناوين العنصرية كعنوان حرب هتلر بتفوّق عرق قومه... وهذه نماذج بعضها صريح في عنوانه صادق في إعلانه كهتلر، وبعضها مزيّف يخفي خلفه مآرب أخرى... وننتقل من ذلك إلى العناوين الدينية المعلنة كالحملات الإسلامية والحملات الصليبية... والعداء الديني غير المعلن كحملات الدول الغربية على المسلمين...

هنا السورة من أهمّ ما تركّز عليه هو إعطاء المؤمنين تبريراً إلهياً لحربهم ضدّ الآخرين الصادّين عن سبيله تعالى، والذي فهمنا منه قيام الآخرين بأعمالٍ عدائية مانعين من تطبيق الخير والصلاح المتمثّل بدينه سبحانه، وهذا التبرير الإلهي كغطاء إلهي للأعمال العسكرية والحربية للمؤمنين، لأنه تعالى مولى المؤمنين فَيَعْتَبِرُهُمْ تابعين له، والكافرون لا مولى لهم، إذ ليسوا تابعين لأحد كُفْءٍ معادل لولي المؤمنين، لِذَا لَا مولى لهم من مستوى إلهي.

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ{12})
{إِنَّ اللَّهَ}، إن صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز "الله" جلّ جلاله، {يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين وقاموا بالأعمال الصالحة سَيَجْعَلُهُمْ سبحانه في، {جَنَّاتٍ}، في أماكن موصوفة بروعة ما فيها من الحدائق والبساتين وما يسبّب لهم البهجة... {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، من تحت تلك البساتين من هنا وهناك أنهار جارية، والصورة أوسع عن تلك الأنهار في الآية 15 من هذه السورة. طبعاً من السخافة تصور المكان كمستنقعات، إذ إنَّ روعة منظر الأنهار والجداول والشلالات معروفة، والآيات القرآنية تقصد الإشارة لروعة الخضرة والمياه الجارية.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا}، والذين أنكروا الدين الإلهي فلم يؤمنوا ولم يعملوا الصالحات بناء على الإيمان، {يَتَمَتَّعُونَ}، يستفيدون بما يسبّب لهم المتعة من متاع الدنيا، من لباس وطعام ومسكن وزينة... وشهوات ورغبات... {وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ}، يستهلكون الأكل مثل الحيوانات الأليفة التي من حولكم، كالبقرة والحصان وغيرها، فهم اهتمامهم من هذه الحياة أن تشبع بطونهم ولا يفكرون بما بعد هذه الحياة، فلا الكفّار ولا الأنعام يفكرون بالآخرة، {وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ}، فهم سيبقون في النار ولكنها لن تكون ملكاً لهم، مثل الذي ترميه في السجن حتى يموت، فمثواه السجن، وفي المقابل نجد تعابيرَ قرآنية مختلفة عن أهل الجنة، فالجنّة لهم، ورثوها، أعطاها تعالى لهم... ومن الأخطاء الشائعة بيننا قولنا لمن مات: الجنّة مثواه. فهذا التعبير لم يستعمله القرآن وهو عربياً غير صحيح لأن جنّة الآخرة ليست مثوىً، فليست مكاناً لا يملكه الذين فيه، فهم ليسوا ضيوفاً فيها وليسوا مؤقتاً فيها... بل هي لهم. وَاسْتَعْمَلَ القرآن التعبير بالمثوى لأهل النار

ولغيرهم عندما وصّف حالة النبي يوسف(ع) في قصر العزيز كما تقرأ في الآية 21 من سورة يوسف "{وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ...}"، وعندما وصّف النبي موسى(ع) في مدين كما في الآية 45 من سورة القصص "{... وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا...}"، فكلاهما لم يكونا يملكان المكان.

إذاً ما تراه كشبه بين المؤمنين والآخرين في العمق هناك فرق جوهري، إذ كلاهما يأكل ويتمتّع بما في الدنيا، ولكن المؤمن لديه بعد نظر يصل إلى الآخرة وعلى أساسه فهو مؤمن ملتزم بدينه تعالى، والآخرون مثل الحيوانات التي لا تفكّر بما هو أبعد من التمتّع بالأكل والشهوة...

تَتَذَكَّرُ عموم القرآن الذي يربط دائماً بين الإيمان والعمل الصالح مع بعض، والنتيجة للاثنين معاً هي دخول الجنة، فلا الإيمان بدون عمل صالح ينفع، ولا العمل الصالح من دون إيمان ينفع، بل كلاهما معاً ينفعان، وسترى فيما سيأتي من السورة كلاماً عن بعض الذين أعلنوا الإيمان ولكنهم لم يلتزموا بعمل الصالحات.

(وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ{13})
{وَكَأَيِّنْ}، مثل أي، {مِنْ قَرْيَةٍ}، من مجموعة من الناس مجتمعة في مكان سكني سواء أكان عددهم قَلِيلاً أو كَثِيراً وفي الخيام أو بُيُوتٍ... {هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ}، من حيث القوة العسكرية والقتالية أقوى من قريتك، {الَّتِي أَخْرَجَتْكَ}، أيها النبي محمّد(ع)، {أَهْلَكْنَاهُمْ}، استنفدنا حياتهم، وَأَمَتْنَاهُمْ بطريقة أو بأخرى، {فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ}، وَلَا أحد حقّق لهم ما يريدون وَوَقَعَ عليهم الموت ولم يردّه عنهم أحد.

الكَلَامُ عن نَمُوذَجِ أهل مكّة الذين أخرجوا النبي (ع) من قريتهم من مكّة، وَهُنَاكَ العديد من القرى التي كانت أقوى منهم ودمّرها سبحانه بسبب كفرهم، وَفِيمَا سبق من كلام مرّ معنا وَلَكِنَّهُ تعالى تركهم ليبلي المؤمنين بهم ويبليهم بالمؤمنين، ومرّ معنا أنه تعالى وليّ المؤمنين، ومرّ معنا أنه تعالى أهلك العديد من القرى، وَتَأْتِي آيتنا هذه لتلفت انتباهنا وانتباه أهل مكّة الذين أخرجوا النبي (ع) من قريتهم، حَتَّى لَا يظنّوا أن الرسول (ع) انهزم أو أنه تعالى لم يستطع نصر رسوله(ع)، لا، إِذْ هُنَاكَ قرى أشد منهم دمّرها سبحانه، وَلَكِنَّهُ تعالى لم يدمّر كفّار مكّة لأسباب تَعْلَمُهَا من عموم القرآن ومن التاريخ، حَيْثُ إِنَّ كَثِيرِينَ من أهل مكّة أسلموا فيما بعد، وَخَرَجَ من ذريتهم مُؤْمِنُونَ...

(أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ{14})
{أَفَمَنْ كَانَ}، من الناس، {عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ}، على وضوح، من ربّه، من المسؤول عنه من مستوى إلهي، وَوَصَلَهُ عبر هذا القرآن منه تعالى أن آمن واعمل الصالحات وسوف أكون وليّك في الدنيا والآخرة، {كَمَنْ}، فهل هو مثل الذي، {زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ}، فجرى تحسين وتجميل، سوء عمله، فلديه أعمال حسنة ولديه أعمال سيّئة، وعمله السيّء العاطل الباطل الرديء لِسَبَبٍ أو لآخر تزيّن له ليبدو جَمِيلاً، {وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}، وَكَانُوا على مسار ما يهوونه ويرغبونه وما يحبّون فعله حتى لو كان سَيِّئاً، فهل هذا مثل من كان على بيّنة من ربّه سبحانه؟!

كما ترى فَالْفَرْقُ وَاضِحٌ بينهما، فَوَاحِدٌ مُلْتَزِمٌ بالأعمال الصالحة والآخر على هواه، وَلْنُكْمِلْ:

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ{15})
على ماذا يحصل من كان على بيّنة ومن كان على هواه؟ وَمَا الفرق بين نهايتهما؟ ستعرض لك الآية هنا مَشْهَداً من الآخرة يعبّر عن انحيازه تعالى التامّ للمؤمنين...

{مَثَلُ}، شبه، "تقريب صورة"، {الْجَنَّةِ}، المكان الموصوف بروعة ما فيه، {الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ}، التي قال تعالى إِنَّهُ سيعطيها للذين يتحاشون ويتجنبون، والكلام عمومي لتجنّبهم فعل السوء وهو نفسه تجنّبهم لغضبه وعقابه سبحانه، تلك الجنة، {فِيهَا أَنْهَارٌ}، فيها مياه تتحرك في مَجَارٍ في الأرض، {مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ}، لا يفسد حَيْثُ لَا تتغير نكهته ولا يتغير لونه أو رائحته.

وفي جنة المتقين، {وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ}، وهو المحلوب من الحيوانات وحالياً انتشر بين الناس أن نقول له حليب، وتختلف تسميته بين العرب إذْ بعضهم يقول لبن للمحلوب بعد إضافة بكتيريا تسبّب له التخمر والتخثر فَيَصِيرُ بين الجامد والمائع، ومن المعروف أن اللبن "المحلوب الحليب" يفسد في الحرارة المعتدلة بعد يوم أو يومين، ولكن أنهار اللبن في الجنة، {لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ} "مذاقه" حَيْثُ يَبْقَى دَائِماً طعمه مَرْغُوباً.

يَخْطُرُ ببالك أن الماء واللبن ليسا شَيْئَيْنِ مُغْرِيَيْنِ حتى نتشجع لنكون من المتقين لنحصل عليهما في الجنّة! ولكن وَلَكِنْ لِنَتَذَكَّرْ قول الآية: مثل. إذْ إِنَّ هَذَا التوصيف للجنّة للتشبيه التقريبي، أما في الحقيقة فَطَعْمُ الماء واللبن في الجنة مُغْرٍ حَقّاً، لِأَنَّ الَّذِي قُدُرَاتُهُ فَائِقَةٌ هو بنفسه يرغّبنا ويشجعنا، لِذَا بِالتَّأْكِيدِ سيكون الطعم بنكهة ألذّ مما هي هنا بشكل كبير.

وفي الجنة، {وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ}، وهو هنا عصير الفاكهة المختمرة بسبب تحوّل مادة السكر... وهذا الخمر هو، {لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ}، لَهُ طعم لذيذ مرغوب لمن يشربه.

بالتحليل نَقُولُ إِنَّ الماء واللبن لم تقل الآية أَنَّهُمَا لَذَّةٌ، لأن المؤمن شَرِبَ منهما في الدنيا ويعرف بأنهما لذة، أما الخمر فَمِنَ المفروض أن المؤمن لا يعرف طعمه في الدنيا، وَلِذَلِكَ تخبره الآية عن الخمر الذي في الجنة أَنَّهُ لَذِيذٌ. ومن المعلوم أن الخمر يُسَبِّبُ ضياع العقل، وينتج عنه حالات مختلفة من النشوة والسرور... ونسيان الهموم... على كل حال وَمِنْ عُمُومِ مفاهيم القرآن عن السعادة في الجنّة نتوقّع أن خمرها لا يسبب ضياع العقل فَلَا هموم هناك لنرغب بضياع عقلنا لننساها، لِذَا نَتَوَقَّعُ أَنْ يُسَبِّبَ خمر الآخرة النشوة والسرور فقط، وهذا كلّه تحليل مبني على ما نحتمله من حالات نعرفها الآن في الدنيا، ولكن سبحانه بعظيم قدراته يمكنه جعلنا بحالات سعادة لا يمكن أن تخطر على بالنا الآن، ولا يمكننا أن نفهمها الآن.

وفي جنة المتقين، {وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى}، وهو رحيق الزهر والورد الذي تحوّله النحلة إلى سائل شديد الحلاوة، وَعَادَةً يَقُومُ النَّحْلُ بِصُنْعِ خلايا وتجاويف من الشمع ويضع فيها العسل، والعسل المصفى هو الذي يبقى بعد تحمية خلايا الشمع قَلِيلاً، ثم توضع تحتها مصفاة يعلق فيها الشمع وينزل من المصفاة العسل المصفى، وَدَرَجَ أن نقول عنه: عسل بلا شهد.

{وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ}، وللمتقين في الجنة، من كل الثمرات، حَيْثُ إِنَّ كُلَّ الثمر الذي يمكن أن ينتج في تلك الجنة يُمْكِنُهُمْ أن يأكلوه، والثمر هو نتاج النبات ويشمل: الفاكهة والخضار والبقول وَغَيْرِهَا، وهنا على الأرض يوجد مئات من أنواع الثمار، ووصفها القرآن بأنها لا شيء أمام كمية ونوعية وطعم ثمار الجنّة.

{وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ}، ولهم فيها، مغفرة من ربّهم، إِذْ إِنَّ المَسْؤُولَ عنهم من مستوى إلهي سيتجاوز عمّا يفعلونه هناك، حَيْثُ لَا حساب ولا عقاب ولا ممنوع ولا واجب... خذ مثلا هنا في الدنيا، فإن لم تشكره تعالى فهذا عمل سيّء، أمّا في الجنّة فحتى شكرهم له تعالى على الخلود في الروعة فهو غير واجب عليهم، مغفور لهم، حَيْثُ يَتَجَاوَزُ عنه تعالى ولا يحاسبهم ولا يُعَاقِبُهُمْ عليه. وما نقله القرآن من حمدهم له تعالى كما ورد في الآية 74 من سورة الزمر "وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ"، هُوَ من خاطرهم وَتَصَرُّفٌ عَفْوِيٌّ من شدّة ما هم سعداء في الجنّة مما يحصلون عليه منه تعالى.

حسن، هذه هي الجنة التي وعد الله سبحانه بها المتقين، وَهَلْ مَنْ يدخلها، {كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ}، مثل الذي لا يخرج ولا يموت، المؤبّد، في النار؟ {وَسُقُوا}، حَيْثُ حِينَ يعطشون يجدون للشرب، {مَاءً حَمِيمًا}، سائلا ساخنا يغلي لأقصى درجة، {فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ}، مصارينهم، مجاري الأكل في بطنهم تقطّعت من شدة حرارة الماء. وفي آيات أخرى من القرآن الكريم قرأنا أَنَّ هَذَا المَاءَ وَفَوْقَ حَرَارَتِهِ الشَّدِيدَةِ هُوَ من صديد ونتانة ومقرف، كما ورد في الآية 16 من سورة ابراهيم "مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ".

بقي شيء، إِذْ قَرَأْتُ لِأَحَدِهِمْ مُعَلِّقاً على آيتنا هذه بأنه لا يحبّ اللبن بل يشعر بالقرف منه هو وكثير من الناس، وأن اللبن والماء كانا حلم الذين كانوا في عصر النبي محمّد(ع)، ولذلك ألّف محمّد هذا القرآن ووعدهم في الجنّة بأنهار من ماء ولبن.

ثم أكمل كلامه مُعَلِّقاً على أنهار الخمر بِأَنَّ الخمرة متاحة الآن ولكن أتباع محمّد يحرمون أنفسهم منها هنا، ولذلك يعدهم بها في الآخرة.

بالنسبة للعسل كَادَ يصيبني بالشلل من ذكائه الخارق، حيث قال إِنَّ العسل حلو والأكل منه بكثرة يسبّب الغثيان...

لَمْ أَفْهَمْ ماذا يقترح كمشروب حتى يكذب محمد على اتباعه ويعدهم به؟ حَيْثُ عَلَّقَ على كل شيء جَاعِلاً لَهُ سَخِيفاً أَوْ مُقْرِفاً! وَلَا الماء العذب أعجبه ولا اللبن ولا الخمر ولا العسل!

حسن، لقد ذكر له تعالى شَرَاباً يليق به، مَاءً حَمِيماً يقطّع أَمْعَاءَهُ، نعم يا إلهي فَهُوَ يستحقّ ذلك وعن جدارة.

(وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ{16})

تحدّثت السورة إِلَى الآن عن المؤمنين الحقيقيين، والكفّار، كتصنيف حادّ بين ضدّين، بين أقصى الإيمان ومقابله أقصى الكفر، والآن تنتقل السورة للحديث عن المحسوبين على المؤمنين، وتتحدّث عن موقفهم من القتال في سبيله تعالى، لِنَبْدَأْ:

{وَمِنْهُمْ}، مِنْ تكملة الجملة سترى أن الكلام عن أناس من المسلمين المتظاهرين بالإيمان {مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ}، يُظْهِرُونَ لك أيها النبي(ع) بأنهم مؤمنون ومهتمون بما تقول، {حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ}، صاروا بعيدين عنك، {قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}، إِذِ الْتَقَوْا بأناس مؤمنين آتاهم سبحانه شيئا يوصف فعلا بأنه العلم، كشيء فعلا له قيمة المعلومة، وهو الفهم للإيمان ووجوب إطاعة النبي(ع)، يَقُولُونَ لهم: {مَاذَا قَالَ آنِفًا}؟ ماذا قال النبي (ع) منذ قليل؟ وَهُمْ بحسب سياق السورة سمعوا من الرسول(ع) أمرا بقتال الكفّار، ولم يعترضوا أمامه، وحين خرجوا من عنده واختلطوا بمجتمع المؤمنين الذين يتداولون في كيفية تنفيذ أمر الرسول(ع) ويتجهزون للخروج والقتال... هَؤُلَاءِ يتظاهرون بأنهم نسوا ما قاله الرسول(ع) أو أنهم لم ينتبهوا، مَاذَا قَالَ منذ قليل! كتعبير عن تقليل قيمة كلامه (ع) وأنه ليس من اهتماماتهم الأساسية... وَهُمْ أكملوا حياتهم العادية ولم يتجهّزوا للقتال... حَيْثُ يَعِيشُونَ بين المؤمنين، وشكلهم مُؤْمِنُونَ، ويجلسون مع النبي (ع)... ولكن في الحقيقة إِنَّ تصنيفهم الحقيقي أنهم ليسوا مؤمنين حقيقيين بل إمّا مُنَافِقُونَ أَوْ فَاسِقُونَ.

لاحظ كثرة كلام القرآن بتسمية الملأ من الكافرين، حَيْثُ إِنَّ هَؤُلَاءِ وجهاء وأغنياء... وهم مستفيدون من العقائد والتشريعات السيئة التي تؤمّن لهم النفوذ والسلطة والمال والسيطرة... كَمَا أَنَّ هَؤُلَاءِ يتمتعون بالحياة، وأمّا فقراء الكافرين فما السبب العقلاني بكفرهم بدين يؤمّن لهم ظُرُوفاً حَيَاتِيَّةً أفضل؟ إِذْ لَا معنى للكلام عنهم لتنبيههم من التعلّق بمتاع الدنيا ونسيان الآخرة وهم أصلا بالكاد يحصلون على متاع الدنيا، ولذلك قفزت عنهم العديد من السور ووجّهت كلامها للكفّار الذين يتنعمون بمتاع الدنيا لتنذرهم من زواله ومواجهتهم لعذاب خالد في الآخرة...

هُنَا ترى كلام المنافقين مع الذين أتوا العلم، حَيْثُ يَتَحَدَّثُونَ بنفس الكلام مع آخرين مثلهم، أو مع بسطاء، أو مع مستهترين أو... ولكن لا معنى لنقل كلام المُنَافِقِينَ مع هؤلاء، وللكلام عنهم معنى حين يتحدثون مع الذين أوتوا العلم، لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الأشخاص المهتمين بكلام النبي(ع)، ويسألونهم عَمَّا قال الرسول(ع) حتى يكون كالتبرير بالنسبة لهم أمام أشخاص مهمّين من الصحابة...

{أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ}، بَعْدَ قرارهم الداخلي بأن لا يطيعوا النبي(ع) صار على قلوبهم، على أساس تفكيرهم ونفسيتهم، صار عليه طبع، صار على طبيعة ما، على شيء مترسّخ فيه، وكما ترى إِنَّهَا طبيعة رفض الكلام الحقّ، وهو نفسه رفض كلام الرسول(ع)، {وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}، حَيْثُ سَارُوا على ما يحبون ويشتهون حتى لو كان سَيِّئاً فَاسِداً بَاطِلاً.

من المشتقات الدارجة لمعنى الطبع أن تطبع يدك على الطين، أو تطبع على الشمع الذائب، ولكن أصل المعنى هو الطبيعة، هو ما يصير عليه الشيء مُتَرَسِّخاً كصفة لا تنفصل عنه.

قَلْبُنَا يكون سَلِيماً، ويتغيّر بقرار منّا بسبب تعلّقنا بالغريزة والشهوة والغضب والعصبية... وَبَدَلَ أن نتعامل مع الأمور بقلب سليم، يتحوّر قلبنا، وَيَنْطَبِعُ بشكل غير سليم... إلى أن يصير يتعامل مع كل الأمور انْطِلَاقاً من الطبعة "الطبيعة"

التي صار عليها قلبنا، فَتَصِيرُ عادتنا التعامل مع الأمور بعصبية أو بغضب أو رفض ترك سوء ما... ونصير نتصرّف بما يمليه علينا الهوى ولا نسأل عن الخير والشر والصلاح والفساد...

مَا يقوله القرآن عن طبعه تعالى على قلوبهم هُوَ خلقه تعالى لنا بهذا الشكل، فَكُلَّمَا كررنا التصرفات السيئة، صِرْنَا نرفض التصرف بطريقة سليمة، هَكَذَا خلقنا تعالى، إِذْ نَحْنُ لا دخل لنا بهذه الخاصية الإنسانية التي جعلها سبحانه فينا، ولذلك يَنْسِبُهَا سبحانه لنفسه لأنه هو تعالى خلقنا بهذا الشكل وبهذه الخاصيّة.

الْآيَةُ هنا تتحدث بشكل عام، عن كل الْأُمُورِ الدينية التي سَمِعَتْهَا هذه النوعية من الناس من الرسول(ع) ولم تعجبهم، ويقولون بأنهم لم يتذكّروا أو لم ينتبهوا لِمَا قاله النبي(ع) لهم، حَيْثُ إِنَّ الآية هنا عمومية ولكن موضوع وتركيز السورة على القتال كما مرّ معنا وسيمرّ لَاحِقاً، وَخُصُوصُ تعليقهم على إنكارهم تذكّرهم وانتباههم لما سمعوه من الرسول (ع) عن القتال وأسبابه والأجر عليه...

بقي شيء، إِذْ لَا معنى للبحث التاريخي عن أسماء هؤلاء الذين قالوا: ماذا قال آنِفاً... لأن الكلام القرآني يطرح نماذج ليتعلّم منها الجميع على مرّ العصور، وَأَيُّ قائد مؤمن فيه الصفات الحقيقية للإيمان، ويقود أي مجتمع مؤمن، طَالَمَا قيادته مبنية على أوامره تعالى فعلى الجميع واجب طاعته في أمور دينهم ودنياهم، وإلا فلا معنى لكل الدين الإلهي إن كان القرآن يأمرنا حَصْراً بطاعة الرسول محمّد(ع) لا غير، كَمَا أَنَّ تفسير الآيات على ما جرى في عهد الرسول(ع) وحصرها بذلك الزمن، هو تعطيل لدينه تعالى، وبذلك يصير القرآن كتاب تأريخ لأحداث جرت في زمن قديم ولا علاقة لنا بها، فهل هذا دين؟! وللأسف إِنَّ غَالِبِيَّةَ كتب التفاسير الغارقة في البحوث التاريخية تجعلنا نتعامل مع القرآن على أنه كتاب تاريخ بَدَلاً من تطبيقه على حياتنا، ولحسن الحظّ تجد بُحُوثاً هنا وهناك ترى التعميم لكلامه تعالى من نموذج الرسول(ع) إلى أي قائد أو زعيم أو رئيس...

ولو أطلت عليك، إِنَّ التحجّر على عقلية ما، أدّى إلى فتاوى بعيدة كل البعد عن العقلانية التي كل أسسها واضحة في القرآن، وَآيَتُنَا هنا وما سيليها من كلام عن الرسول(ع)، ما هو (ع) إلا نموذج عن قائد، وليست حصرية للرسول(ع)، وَأَطَلْنَا الكلام في دراستنا هذه مِرَاراً في الآيات التي أمرتنا بولاية المؤمنين، حَيْثُ إِنَّ تلك الآيات عَلَناً وبصراحة تخطّت حصر دينه تعالى بشخص الرسول(ع) كقائد، ونقلتنا إلى ولاية المؤمنين المتولّين للشأن العام، بشرط أن يكونوا من المؤمنين فِعْلاً لا بالاسم فقط.

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ{17})

ومقابل الذين جرى الطبع على قلوبهم هناك، {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا}، صَارُوا على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، {زَادَهُمْ}، الله تعالى، {هُدًى}، أَضَافَ تعالى لما هم عليه المزيد من الصيران على الأشياء الصحيحة التي توصلهم للغاية الصحيحة، وَسَاعَدَهُمْ سبحانه أكثر حتى يكونوا على الطريق الصحيح، وَلْنَتَصَوَّرْ طريق الهدى وَاسِعاً، رُبَّمَا يمشي أحدهم على طرفه، فَيَكْرَهُ بعض المحرمات ولا يفعلها، ولكنه لا يزال يفعل أشياء سيّئة، لِذَا فَزِيَادَةُ الهدى تكون بمساعدته للمشي في وسط الطريق، وهكذا نفهم معنى: {وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}، أَعْطَاهُمْ تعالى تجنّب مخالفة أَوَامِرِهِ، وَأَنَارَ قلبهم وَجَعَلَهُمْ يرون السوء والصلاح في الأمور، فَيَنْفِرُونَ من السوء وَيُحِبُّونَ الصلاح.

لاحظ في الآية السابقة وفي عموم القرآن جرى توصيف نوعية من الناس بأن قلبها انطبع على معصية الله تعالى، وهنا عبّرت الآية عن الحالة المضادة بأنه تعالى يزيد المهتدين هُدًى، حَالَمَا تعلن لنفسك أنك لا تريد معصيته تعالى، وتكون صَادِقاً بذلك فَتَتْرُكُ الهوى السيّء، وتلتزم بالواجبات وتترك المحرمات، يَزِيدُ هُدَاكَ تَدْرِيجِيّاً، فَتَبْتَعِدُ أكثر فأكثر عن الهوى السيّء.

وهناك عمق لم يتطرّق له القرآن كلما تحدّث عن تدخّله تعالى ليزيد المؤمنين هُدًى، إِذْ لَوْ استطرد القرآن لذكر كل المفاهيم في كل سورة، كما حاولنا فعل ذلك في دراستنا هذه، عندها لصار القرآن مجلدات ومجلدات من الكتب، ولذلك تقصد تعالى تقسيم السورة لمحاور مختلفة، ويمكنك استحضار ما حصل مع النبي يوسف(ع) في بالك لترى أنه تعالى وبطرق لا يمكن أن نفهمها يتدخّل في مجريات الأحداث... ونفس الشيء ينطبق على زيادة هداه تعالى للمؤمنين، فَفِي

جانب منه تدخّل منه تعالى في مجريات أحداث حياتهم حتى يحافظوا على لِيَاقَتِهِمُ الإيمانية، حَيْثُ يَجْعَلُهُمْ سبحانه فقراء ليبعدهم عن الزهو والفخر والبطر...

(فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ{18})

{فَهَلْ يَنظُرُونَ}، هَلْ ينتظرون وَبَعْدَ مرور زمن يتوقعون حَدَثاً، {إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً}، عموم القرآن يشير غَالِباً بالساعة إلى زمن قيامنا من الموت في أول يوم من الآخرة، فبداية الآخرة بالنسبة لنا تبدأ من يوم قيامتنا من الموت، وأوّل ساعة بالنسبة لنا من ذلك اليوم هي ساعة قيامنا من الموت، ويلي ذلك أيام حشرنا ومحاسبتنا... والنهاية في ساعة من آخر يوم حيث يدخل الكفّار إلى النار والمؤمنون إلى الجنّة وهي التي ذكرتها الآية 46 من سورة غافر "{النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}"، فلا يوم القيامة من أربع وعشرين ساعة، ولا الساعة من ستين دقيقة، بل هما وصفان للزمن بما يَتَضَمَّنَانِهِ من أحداث، فاليوم زمن لحدث أساسي وبانتهائه ينتهي اليوم، وخلال اليوم تمر أحداث أخرى فرعية لها بداية ونهاية وهي الساعات.

إذاً لماذا لم يؤمنوا؟ هَلْ ينتظرون {إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً}، القرآن لم يستعمل كلمة "فجأة"، والبغتة وصف للمفاجأة بما لم تتوقع حصوله أَصْلاً أو لم تتوقع زمانه أو مكانه أو كيفيته... سَاعَةُ قيامنا من الموت ستكون كالمفاجأة لنا، لأننا سنموت، ونفقد وعينا، ولا نشعر بمرور الزمن أثناء موتنا، حتى لو مرّت مليارات السنين، وبعدها نستعيد وعينا لنجد أنفسنا في يوم القيامة ونشعر بأن الزمن الذي مرّ علينا ونحن أموات كأنه يوم أو بعض يوم.

السؤال هنا للكفّار: ألن يقنعهم حتى يؤمنوا إلا ساعة قيامهم من الموت أن تأتيهم فجأة ومن دون سابق إنذار، وعندها سَيُؤْمِنُونَ! {فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا}، إِذِ الظروف اللازمة والمناسبة لحصولها اجتمعت، تَبَدَّلَتِ الدنيا وصارت الآخرة وصاروا فيها، فهل عندها يؤمنون؟

ننتبه، إِنَّ أشراط الساعة، وهي الشروط اللازمة لحصولها نشرها القرآن في مختلف السور، ومختصر كل ذلك هو تبدّل السماوات والأرض وَتَجَهُّزُ البيئة لإعادتنا إلى الحياة، وهنا أشارت الآية إلى ذلك بما يجب أن يحدث حتى تقوم ساعة بعثنا من الموت، وحينها:

{فَأَنَّىٰ لَهُمْ}، كيف يمكن لهم، بأي طريقة بأي وسيلة، {إِذَا جَاءَتْهُمْ}، الساعة، {ذِكْرَاهُمْ}! الذِّكْرَى التي هي استحضار ساعة قيامنا من الموت في فكرنا وعملنا حتى نكون أَتْقِيَاءَ الآن، وهذا الإيمان الآن سينفعنا في الآخرة، ولكن ما نفع الذكرى للساعة حين نصير في الساعة؟! فهل ينفعهم الإيمان عندما يرون الساعة؟ لا، لا ينفع حينها لأنه وقت الحساب، فماذا ينتظرون إذاً؟!

ننتبه جَيِّداً، بَعْضُ الناس يفهمون هذه الآية وأمثالها بضبابية كما يلي: الناس الذين هم على قيد الحياة، ويعيشون حياتهم العادية في الدنيا، فجأة سوف تأتيهم الساعة، فتتدمر الدنيا وهم يشاهدون دمارها، فَيَمُوتُونَ وَيَتَحَاسَبُونَ، أو يَبْقَوْنَ أحياء وَيَتَحَاسَبُونَ! وَأَضِفْ إِلَى ذَلِكَ أن غالبية المؤمنين يظنون أن حياة البشرية صارت على نهايتها، وبقي لها بِضْعُ سنوات، أو عشرات السنوات، أو مئات من السنوات، ولكن ليس بالآلاف، وبعدها تنتهي. ولكن كل هذا الكلام غير صحيح، فبالنسبة للقرآن لا نجد تَصْرِيحاً بهذا الكلام، ويمكنك مراجعة الآيات التي توحي بهذه المعاني في دراستنا هذه لترى أنها لم تقل هذه المعاني، والتهديد بيوم القيامة كان من أيام النبي نوح(ع) وبعده صالح وهود وموسى... وعيسى عليهم صلوات الله تعالى، وبيننا وبين هَؤُلَاءِ الأنبياء آلاف من السنين، فمن القرآن نفهم أن موت كلّ واحد منّا سيتبعه استعادة الوعي وفتح الأعين في ساعة قيامنا من الموت، ولن يشعر بمرور الزمن، وعلى الأكثر سيخمّن أن بضعة أيام مرّت عليه وهو ميّت، فتأتيه الساعة بغتة فجأة، وهكذا ترى أن يوم القيامة ليس بَعِيداً عن أي واحد منّا.

من ناحية ثانية، القرآن عبّر عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام، في سِتِّ فترات زمنية، وإن كانت دنيانا نحن نقدّر عمرها بمليارات السنين، فكم عمر سماوات الجنّ والملائكة(ع)؟ وبالتالي سترى أن ملايين السنين هي فترة قصيرة جِدّاً، فلو استمرت حياة البشرية على الأرض لملايين من السنين، فهذا لا يتنافى أَبَداً مع اقتراب يوم القيامة، إِذِ الدينار وَالدِّينَارَانِ أمام ألف دينار، هم قليل، هم لا شيء، والملايين أمام المليارات هي لا شيء، ومن عموم القرآن نفهم أنه أمام البشرية آلاف من السنين وربما الملايين من السنين قبل أن ينتهوا، فلا يزال أمامنا النفوذ في أقطار السماوات

والوصول إلى حافة سماء الملائكة(ع) مثلما الجنّ اخترقوها كما ورد في الآية 33 و 35 من سورة الرحمن "{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ... يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ}"، ولدينا في بداية سورة الإسراء كلام عن إفساد بني إسرائيل في الأرض مرتين، وبعدها إن عادوا للإفساد فسيعود تعالى ليهزمهم على أيدي المُؤْمِنِينَ، وهزيمتهم أوّل مرّة لم تحصل بعد، ولا ندري إن كانت خلال آلاف من السنين ستحصل الهزيمة الأولى والثانية... ولا ندري بعدها كم سيطول عمر البشرية...

إذاً كَلَامُ الآية هنا عن مجيء أشراط الساعة لا يدلّ على حدث محدّد من الأحداث التي تجري معنا، بل هو عموم اكتمال شروط محاسبته تعالى لنا وعموم سير الدنيا باتجاه الآخرة إلى أن نصير فيها، فهو سير الأمور من خلقنا وتكليفنا وَإِرْسَالِ الرسل والكتب... والابتلاء... وتبدّل الدنيا... فهذه شروط حصول ساعة لقيامنا من الموت لمحاسبتنا.

الْآيَةُ هنا على معنى: ما معنى كفركم السابق بالساعة وبالتالي ترككم لذكره تعالى، وكفركم بدينه، والآن بعد أن تكاملت شروط حصول الساعة وصرتم فيها تعلنون إيمانكم!

كمثال عمّا هو منتشر في تراثنا الثقافي الديني والمخالف للقرآن، خذ مَثَلاً ما قالوه عن خروج الدجّال أنه من أشراط الساعة، هَا هُوَ بين الآية وبين زمننا أكثر من ألف وأربعمئة سنة، والدجّال الذي يتحدّثون عنه لم يظهر بعد! حتى على أقوالهم عن أشراط الساعة بالأمور التي قالوها، ترى ضبابية فكرية عندهم بين قصر المدّة لحصول الساعة والواقع الذي امتد لأكثر من ألف سنة! ولن أطيل عليك أكثر من ذلك وأحيلك إلى عقلانيتك في دراسة ما يقولونه عن أشراط الساعة بِسُهُولَةٍ سترى أن أغلبها تلفيقات... لا أساس قرآني لها.

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ{19})
بعد الحديث عن الساعة وأن الذكرى لا تنفع بعد حصولها، تتحدّث السورة بشكل مختصر عن طريقة النجاة من العذاب:

{فَاعْلَمْ}، أيها النبي(ع) وأيها المؤمن وأيها القارئ للقرآن: {أَنَّهُ لَا إِلَهَ}، إِذْ لا يوجد كائن بالصفات والقدرات الفائقة، {إِلَّا اللَّهُ}، إلا صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز. وهذه هي أساس الذكرى التي تؤمن بها الآن وتنفعك عند الساعة.

من عموم مفاهيم القرآن نفهم من جملة "{لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ}"، أنه لا يوجد نصف إله ولا ربع إله ولا حلول للإله في كائن ما، ولا يوجد كائن بنفحة إلهية... إِذِ النفي عامّ لكل أشكال الألوهية لغيره تعالى.

من نظرته تعالى لنفسه وللسماوات والأرض، يحدّثنا بصراحة وشفافية أنه تعالى لا يلمس أي أثر لأي شيء يمكن أن يدل على وجود كائن لديه صفات وقدرات فائقة غيره سبحانه وتعالى، حيث يرى نفسه من جهة وكل ما عداه فهو تعالى خلقهم، وبالتالي يخبرنا سبحانه أنه وحده الموصوف بالألوهية.

أصلاً الألوهية لا معنى لها إن كان هناك كائن آخر لديه صفات وقدرات مثله أو أقل منه أو أعلى منه عزّ وجلّ، وأبسط ما يمكن أن نفهمه عن ذلك أن صفات الإله تستوجب أن يكون واسعاً لطيفاً بكل صفاته، وهذه الحالة لا يمكن أن تتحمّل وجود إلهين، إِذِ الإله الأول هنا فأين الآخر؟ ومن ناحيتنا نحن لا نرى أثراً إلا لربّ عرش واحد يدير الدنيا لوحده، ولا أثر لإله آخر ولا بأي شكل... ولا يمكننا نحن المخلوقات أن نعلم بوجود إله آخر غيره تعالى وهو تعالى لا يعلم به، إذ هذا مستحيل لأننا مخلوقات محدودة بينما هو تعالى العليم البصير السميع... بكل ما تحمله هذه الكلمات من معنى، وعلى هذا المعنى جاءت بصراحة ووضوح الآيتان 18 من سورة يونس "{وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ}"، والآية 33 من سورة الرعد "{... وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ۚ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ...}".

{وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ}، اطلب منه تعالى أن يتجاوز عن سيئاتك، واطلب المغفرة، {وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}، أيضاً كشكل من التضامن والتراحم والتعاون الإيماني بينكم، حيث يستجيب تعالى لك طلبك ويصير استغفارك لهم كنوع من الشفاعة لهم.

بدلاً من استصغار الآخرين واحتقارهم أو استغابتهم لأنهم فعلوا السيئات، يأمرنا تعالى بتشبيههم بأنفسنا إذ نحن أيضاً نرتكب السيئات ونطلب أن يغفرها تعالى لنا، وكذلك نطلب المغفرة للآخرين أيضاً. وهذا الكلام يأخذنا إلى عمق آخر،

فكما أعتقد بأن ذنوبي يمكن أن يغفرها سبحانه، كذلك حين أرى ذنوب الآخرين يجب أن أعتقد أنه تعالى أيضاً يغفرها، وهكذا لا أرى نفسي مميزاً عن الآخرين وأني أعلى منهم إيمانياً...

لاحظ أن هذه الجملة نوع من الترجمة العملية لنفهم كيف يزداد الذين اهتدوا هدىً وآتاهم تقواهم، إذ إنَّ الاستغفار من ناحية هو أن نطلب من الإله سبحانه أن لا يحاسبنا على سيئاتنا، ومن ناحية ثانية هو تطهير للنفس عبر الاعتراف بالسوء، مما يدفعنا لترك تكراره، فَنَزْدَادُ هدىً، وننال التقوى.

{وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ}، يعلم أين تتقلبون في الأرض، أين تأتون وأين تذهبون وأين تسكنون... {وَمَثْوَاكُمْ}، يعلم تعالى أين تقيمون بشكل مؤقّت. أنتم تحت المراقبة أينما ذهبتم وكيفما كانت حالة مكوثكم، حيث يعلم تعالى إن كنتم باقين على ذكراه سبحانه وتحضّرون أنفسكم لساعة قيامكم من الموت عبر مراقبته لكم في كلّ الأماكن التي تكونون فيها، سواء التي استقريتم فيها أو لم تستقروا فيها، وسواء بإرادتكم كنتم فيها أو مضطرين للبقاء فيها...

قارنها مع شخص تراقبه، ولكن غاب عنك، ولم تعد تدري أين أراضيه، في أي بلد، أم هل هو لا يزال يتنقّل، هنا الآية تشير لعلمه تعالى بنا في أي بقعة نحن، إذ يخطر ببال أحد ما أنه إذا ابتعد عن النبي(ع) أو ابتعد عن المؤمنين، أو ابتعد عن الناس الذين يعرفونه، يظن أن التكليف والحساب سيبتعد عنه أيضاً، ولن يعد ملزماً بهذا الدين، فتقول له الآية: لا، فأنت تحت المراقبة أينما كنت.

ننتبه، نحن نؤمن بأن النبي(ع) لا يرتكب الذنوب ولا يفعل السوء، فكيف تقول له الآية أن يطلب المغفرة عن ذنوبه؟ تكرّر هذا الأمر للنبي (ع) بالاستغفار في مختلف سور القرآن، لذا ضَعْ في بالك أن القرآن لا يغيّر وصف أي عمل، فإن كان حسناً فهو توصيفه حسن على كلّ حال حتى لو كان الفاعل له كافراً، وإن كان سيّئاً فهو سيّء على كل حال حتى لو كان الفاعل له مؤمناً، فإن لم يقصد النبي(ع)، وصدر منه شيء سيّء، حتى لو لم يكن يقصده، وحتى لو كان يقصد الخير ولكن وقع الشرّ، فبحسب القرآن: لقد وقع السيّء وللنبي(ع) علاقة به، لذا يجب أن يستغفر.

مثلاً عندما اعتبر النبي(ع) أن معركة بدر انتهت وأنه يحق له أن يبقي الكفّار الذين أسرهم على قيد الحياة، جاء اللوم بأن المعركة انتهت ولكن الحرب لم تنته وما زال الكفّار أقوياء في مكة والطائف وغيرها من المدن، والأسرى الذين تريد مفاداتهم سيلتحقون من جديد بجيوش الكفّار ليقاتلوك... لذا كان يجب أن لا تأخذ أسرى منهم، وفي حينها أمر تعالى نبيّه(ع) بالاستغفار عن ذلك، راجع الآيات 67 و68 و69 من سورة الأنفال "{فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}".

مثال آخر في سورة التحريم عندما تعرض النبي(ع) للمضايقة من زوجتين له عندما علمتا بأنه ينوي أن يتزوج... ونتيجةً لمضايقتهما قرّر (ع) أن لا يتزوّج، واعتبر سبحانه نبيّه(ع) يحرّم على نفسه شيئاً حلالاً له، وأنه لا يحقّ له ذلك، وأمره تعالى بالاستغفار كما ترى من الآية الأولى من سورة التحريم "{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}".

مثال آخر ورد في الآية 43 من سورة التوبة "{عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ}" إذ أعطى(ع) الإذن بالتخلّف عن الجهاد لأشخاص كاذبين أعذارهم ليست صحيحة، ولكنه (ع) لم يكن يعلم أنهم يكذبون...

مثال آخر عن الجرائم التي ارتكبها بعض الذين أمّرهم النبي (ع) على جنود مسلمين فقتلوا مسلمين آخرين أبرياء... كما فعل خالد بن الوليد وبعدها قال النبي(ع) إنه يتبرّأ مما فعله خالد... ورغم أنه (ع) لم يقصد السوء فهو يتحمّل مسؤولية عن ذلك لأنه هو عيّن خالداً كقائد للمجموعة... وغيرها من الأمثلة التي لم يقصد بها النبي(ع) القيام بمخالفة أوامره تعالى، ولكنها حصلت وكان له (ع) علاقة بها ويجب عليه (ع) الاستغفار منها.

الكلام يجرّ الكلام، إذ ما يقولونه عن العصمة بتعاريفهم المختلفة والمتخالفة والتي يقصدون منها تحديد حالة النبي(ع) من فعل السيئات، كلامهم بغالبيته لم يكن واقعياً، فأنا من نفسي أعلم كرهي لسوء ما، وأعلم رغبتي بسوء ما، وهذا على قياس سلامة قلبي، ومنه أعلم أن الذين قلوبهم أسلم ينفرون أكثر مني من السوء، وهكذا وصولاً إلى مستوى الأنبياء الذين يكرهون كل ما يرونه سيّئاً.

الآن نفهم أنهم لن يرتكبوا السوء لأنهم يكرهونه، ولأنهم من الأشدّ إيماناً به تعالى، فرِضَاهُ حاضر دائماً في بالهم، ولنضف إلى ذلك إيمانهم بالآخرة والخوف من سوء الحساب. وهكذا ترى أن هذه النوعية من الناس لن يفعلوا السوء أصلاً لكرههم له من جهة، ولرغبتهم برضاه تعالى من جهة، ومن علمهم بالعقاب الشديد على السوء.

ينال هؤلاء من العناية الإلهية المعروضة أمامنا جميعاً حتى نزداد هدىً وتتنوّر قلوبنا وتشتدّ بصيرتنا وتزداد حكمتنا... وكما ترى أنا شخصياً وبحسب قرارة نفسي سأنال من العناية الإلهية ما يناسب درجة إيماني الضعيف، فأنا مثلاً لن أتحمّس لعمل خير في مقابل وقت نومي، ولا حتى قيلولتي، ولا حتى في مقابل مشاهدة مباراة كرة قدم.. إذ إنَّ عنايته تعالى بي لأزداد هدىً لا تزال في مرحلة مساعدتي لأداء الصلاة الواجبة في أوقاتها... بينما المؤمنون من الدرجة العالية تخطّوا هذه المرحلة وينالون عناية زيادة الهدى من مستويات مرتفعة أنا أصلاً لا رغبة لي بها ولن أفعلها...

من ناحية ثانية لا معنى لعصمته تعالى للأنبياء على معنى إجبارهم على ترك السوء وفعل الصالحات "غصباً عنهم"، فلماذا لا يعصمني أنا؟ هَا هُوَ القرآن أمامك ولن ترى فيه إلا قرارنا نحن أنت وأنا وهو والنبي... وبعدها العناية الإلهية بنا بحسب المستوى الإيماني الذي وصل إليه كل واحد منا باختياراته...

نعم، لدينا تدخّل إلهي مباشر ضروري لوصول كلامه تعالى إلينا بالحرف كما هو، ففي هذه الحالة ضمن لنا سبحانه أن الرسول سيوصل كلامه تعالى إلينا كاملاً وبالتمام، ويتدخّل سبحانه لضمان حصول ذلك، ووصول القرآن سليماً إلينا مثال عن ذلك كما ترى صريحاً في الآية 6 من سورة الأعلى "{سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ}"، والآيتين 16 و 17 من سورة القيامة "{لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}"، وتفهمه من عمومية الآية 9 من سورة الحجر "{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}".

لدينا حالة تدخله تعالى في أمور لا تتحمّل الخطأ من شخص يمثّله تعالى كخليفة له، وكمثال عن ذلك الحادثة التي ذكرتها الآيات قبل الآية 26 من سورة ص "{يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ...}".

هكذا نصل إلى ما قد يحدث من سوء بالخطأ، ويكون للنبي علاقة ما به، ولا يكون للسوء علاقة بتوصيل كلامه تعالى ولا بتطبيق دينه، فلنقل إنه خطأ باختيار شخص غير مناسب لوظيفة ما، فخان، أو أفسد... فمن أمثال هذه الأمور يأمر تعالى نبيّه بالاستغفار.

(وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ{20})
نرجع للذين خرجوا من عند الرسول(ع) وقالوا: ماذا قال آنفا... وتناسوا وتجاهلوا كلامه (ع) عن قتال الكفّار.

يقول {الَّذِينَ آمَنُوا}، يقول الذين أعلنوا عن أنفسهم أنهم معتقدون ملتزمون بهذا الدين: {لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ}، بدل أن يحدّثنا الرسول(ع) عن "قتال الأعداء" فلتنزل عليه "سورة" مجموعة جمل تتحدّث عن هذا الموضوع، عندها نفهم بأنها أمر إلهي.

كما ترى هؤلاء أناس أعلنوا إيمانهم ولكنهم لا يريدون القتال، ويريدون أن يجدوا عذرا "شرعيا" لذلك! يطلبون سورة تنزل منه سبحانه تأمرهم بالتحديد بأن يقاتلوا هذه الجماعة وتلك الجماعة، سورة لقتال هذه الجماعة من قريش، وسورة لقتال تلك الجماعة من العرب، وسورة لقتال جماعة أخرى... ويتعامون عن الأمر الإلهي العمومي بقتال مختلف الكفّار المعادين في مختلف الظروف والأزمنة... ويتحجّجون بأنهم مؤمنون حقيقيون ولكن يريدون أمرا إلهيا محدّدا واضحا فيه تحديد للقوم الذين يجب قتالهم، وكأنهم بذلك يظهرون للآخرين أن سلوكياتهم في الحياة مضبوطة على الأوامر الإلهية الصريحة، فهم من الملتزمين من الدرجة العالية...

ننتبه جيدا ونضع دائما في بالنا ما تراه هنا صريحا بشكل لا تجده في سور أخرى، وصف هؤلاء الناس بـ: {الَّذِينَ آمَنُوا}، لا يعني لا هنا ولا في عموم كلام القرآن أنه وصف إلهي لدرجة إيمانية عالية عند بعض الناس، وإذا وضعت هذا المعنى في بالك غفرت لي تكراري لتفسير هذه الجملة كلما وردت: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا أنهم

معتقدون وملتزمون بهذا الدين. طالما لم يكن سياق كلام القرآن يشير إلى مؤمنين من الدرجة العالية، فالوصف بالمؤمنين لا يشير إلا لمن أعلن أنه مؤمن وملتزم، ولا يؤكّد القرآن إلا ما أعلنه الشخص حتى يثبت العكس، وهنا في الآية الخطاب مع {الَّذِينَ آمَنُوا}، مع الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، وفي نفس الوقت لديهم مشكلة التزام بأمر القتال.

{فَإِذَا أُنْزِلَتْ}، فعلا نزل منه تعالى، {سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ}، مجموعة جمل محددة الموضوع وواضحة، {وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ}، تحدّثت السورة عن أمر واضح بالقتال العمومي لكلّ الكفّار المعادين... {رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}، صار عندك صورة محدّدة للذين أساس تفكيرهم ونفسيتهم ليس سليما، يوجد فيه مرض وفيه علّة من خلل ما، ولديهم سلفا مجموعة من الأفكار والمشاعر غير السليمة تدفعهم لرفض الاستجابة لأمره تعالى بالقتال، رأيتهم، {يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ}، يوجهون اهتمامهم العام إلى ناحيتك، {نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ}، مثل نظرة من يأتيه شيء من الموت ليحيط به وينتشر عليه، فورا تتلبسهم حالة صيرانهم في القتال وإصابتهم وتعرّضهم للموت، وأول صورة تنطبع في فكرهم ونفسيتهم أنهم سيموتون بسبب هذا الأمر، وينظرون إليك وكأنهم فعلا شاركوا وأصيبوا بالجراح ويوشكون على الموت.

تكرّر توصيف بعض الناس في القرآن بأن {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}، ضع في بالك أن هذا المرض من مستويات مختلفة، ويبدأ من الكفر كمرض من العيار الثقيل، إلى مرض الفسق والنفاق، وصولا إلى أمراض صغيرة تصيب المؤمنين العاديين فيسقطون في بعض الأمور ولا يلتزمون بها، كلّهم مرضى بالقلب، ولديهم مرض في أساس فكرهم ونفسيتهم، وبحسب سياق السورة تعرف عن أي مستوى من المرض تتحدّث الآيات، هنا المرض يتعلّق بطاعة الرسول(ع) بالقتال، ربما هم يصلّون ويصومون ويزكّون... وربما يتظاهرون بالإسلام فقط بالمظهر ولا يصلّون ولا يصومون... على كل حال السورة لم تتطرّق إلا لمرض ترك القتال في سبيله تعالى.

{فَأَوْلَى لَهُمْ}، بدلا من الرفض، هم كمؤمنين أحق بما ستقوله الآية التالية. وقبل أن نكمل في الآية التالية سندرس شيئا عن مسألة رفضهم طاعة الرسول(ع) وطلبهم لكلام منه تعالى...

(طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ{21})
بدل أن تحصل معهم حالة الخوف والرعب من القتال كان من الأولى، من الأفضل لهم أن يعلنوا:

{طَاعَةٌ}، التزاما وتنفيذا لأمره تعالى ورسوله(ع)، {وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ}، يقولون كلاما متعارفا عليه أنه جيد وحسن، كلاما يجب أن يصدر من عقلانيين ومؤمنين حقيقيين، مثلا يقولون للنبي(ع): حاضر، نحن سنتبعك معك حقّ بوجوب قتال هذه الجماعة الأعداء.

{فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ}، أمر، موضوع القتال إذا صار جديّا، وصدر قرار جدّي حاسم بالقتال، عندها، {فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ}، فعلوا ما قالوا إنهم سيفعلونه ولم يكذبوا بإيمانهم وتجهّزوا للقتال، وكانوا فعلا موصوفين بأنهم من {الَّذِينَ آمَنُوا}، {لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ}، الالتزام بكلامه تعالى أفضل لهم من المخالفة، سبحانه لن يأمرهم بما فيه شرّ لهم، وسترى توسعا عن ذلك في الآية التالية.

بقي شيء، الآية هنا عمومية لأنها توصّف القول بالمعروف، قد يكون لديهم رأي مخالف لرأي الرسول(ع) بقتال هذه الجماعة أو تلك، ولديهم رأي في التوقيت أو المكان... وقد يكون لديهم وجهة نظر عقلانية، هذا هو الوصف للمعروف عند العقلاء المؤمنين.

الآية السابقة والآية هنا تشيران لرفضهم اتباع قول الرسول(ع) بتحديده من سيقاتل ومتى وأين، على أساس أنه رأي شخصي من الرسول(ع) قد لا يكون صائبا، وبدلا من ذلك {لَوْلَا نُزِّلَتْ} عليه سورة من الذي أرسله ليخبرنا بوجوب قتال هذه الجماعة وتلك الجماعة من الناس.

الآيتان لا تعطيان الرسول(ع) نوعا من الحكومة الديكتاتورية كما ترى، ولا تقولان لنا إنّ رأي الرسول(ع) في هذه المسائل مساو لكلامه تعالى ويجب علينا تنفيذه بلا نقاش، إن كان لدينا {قَوْلٌ مَعْرُوفٌ} كرأي عقلاني نابع عن إيمان، فلنقله للرسول(ع) ربما لدينا معطيات عن الجماعة الكافرة التي ينوي (ع) قتالها ولم يعرفها الرسول(ع)، ربما قوّتهم

شديدة والتعاهد معهم أفضل من قتالهم الآن، الرسول(ع) تعاهد بالسلم مع كفّار معادين كما تعلم من التاريخ ومما نقلته سورة براءة في أولها، وهذا التعاهد مع هذه الجماعة أو تلك لم يكن بأمر إلهي محدّد لتلك الحالات، بل بناء على معطيات عند الرسول(ع)

ربما التوقيت غير مناسب، وربما المكان غير مناسب... وربما يمكن استمالة زعمائهم والتفاوض معهم... وربما...

بغض النظر عن مرض قلوب البعض من المعاصرين للرسول(ع) المحيطين به، ترى كلام الآيتين عموميا يردّ على تصرفاتهم، ولكن في نفس الوقت يعطيك الصورة العمومية للتعامل مع الرسول(ع) ولا يجعله ديكتاتورا وكلامه غير قابل للنقاش، ومن ناحية ثانية لا يجعل كلامه (ع) بلا قيمة وقابلا للاستهتار والاستخفاف به، إن لم يكن لديكم رأي صائب وعقلاني مبني على الإيمان، فعليكم بالطاعة وبالقول المعروف الذي يقوله عقلاء المؤمنين، إما تبدون رأيا مخالفا لرأي الرسول(ع) بناء على معطيات تعرفونها أو خبرة أو... ومعلوم أن الرسول(ع) يأخذ بالمشورة ويسمع الآراء ويفكّر فيها... وإما أن تطيعوا ما يقوله الرسول(ع) لأنه يبدو الأنسب بالنسبة للمعطيات.

سحب القيمة المعنوية القيادية من الرسول(ع) حين يأخذ قرارا بالحرب مع جماعة ما، هذا غير مقبول لا مع الرسول محمّد(ع) ولا مع أي قائد مؤمن آخر غيره، وبعض الناس في زمنه (ع) سحبوا منه هذه القيمة المعنوية ويعتبرون أنفسهم كمؤمنين من الدرجة العالية لأنهم لا يقاتلون إلا بأمر إلهي مباشر وصريح ومحدد فيه الجماعة والمكان والزمان!

حين نتذكّر أن عموم كلام القرآن عن نماذج، نرى أن الرسول محمّد(ع) مجرد نموذج عن أي قائد مؤمن، ومن الفقرة هنا نتعلم كيفية التعامل مع القائد المؤمن، لا نعطيه صلاحية من مستوى ديكتاتوري، ولا نستهتر بكلامه، بل إمّا نبدي رأيا عقلانيا مبنيا على إيمان، أو نلتزم بما يقوله.

الكلام يجرّ الكلام، بعض مرضى القلوب على مرّ العصور من بعد الرسول محمّد(ع) وفي زمنه وقبله، يقولون إنهم لن يشاركوا في أي قتال لأي عدو، وحجّتهم أنهم يخافون الله تعالى ولن يقاتلوا إلا إذا أمرهم تعالى بذلك، ويتحججون بأن الرسول(ع) كان يصله أمر إلهي بالقتال، أو أن الرسول(ع) لن يأمر إلا بقتال يرضى عنه تعالى. هؤلاء لم يفهموا القرآن ولا يريدون فهمه، وهؤلاء حتى لو كانوا في زمن الرسول(ع) وقال لهم الرسول شخصيا أن يقاتلوا، ونزلت سورة منه تعالى أن يقاتلوا فهم كما وصفت الآية السابقة، سينظرون إلى الرسول {نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ}...

هؤلاء يرفضون اتباع القائد المؤمن بحجّة أن الطاعة فقط للرسول(ع)، ضاربين بذلك بعرض الحائط كل قرآنه تعالى الآمر بولاية عموم عقلاء المؤمنين، والآمر بقتال الأعداء... هؤلاء حتى لو كانوا في زمن الرسول محمد(ع) لسحبوا منه القيمة القيادية المعنوية ورفضوا طاعته طالبين سورة من الله تعالى تأمر بالقتال.

بالنسبة لواقع الحال للفرق الهائل بين الرسول الإلهي كشخصية إيمانية تراعي بالدقّة كلامه تعالى، وبين كل بقية المؤمنين الذين لن تكون قراراتهم بالدقة التي عليها قرارات الرسول من ناحية الوعي والفهم العميق لكلامه تعالى، ومن ناحية علو سلامة القلب، ومن ناحية الحكمة... هذا معلوم له تعالى ورغم ذلك أمرنا بولاية أفضل عقلاء المؤمنين المؤهلين للقيادة، وخذ مثالا عموميا عن ذلك في قوله تعالى في الآية 144 من سورة النساء {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا}، والآية 55 من سورة المائدة {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ}، والآية 56 من سورة المائدة {وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}، والآية 71 من سورة التوبة {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} وغيرها العديد من الآيات... ومعها العديد من الآيات الناهية عن ولاية الكافرين...

إن لم يكن بيننا رسول إلهي فهل هذا عذر لنا لنكون بلا قائد؟! أو ننتخب قائدا ولكن لا نطيعه لأننا لن نطيع إلا قائدا يكون رسولا أو نبيا أو وصيا أو إماما أو من الصحابة أو...

هذا ليس دينه تعالى، بل هذا ليس إلا كلام بلهاء.

(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ{22})
{فَهَلْ عَسَيْتُمْ}، هل من المحتمل والمرجّح غير الأكيد، {إِنْ تَوَلَّيْتُمْ}، إذا توجهتم باتجاه آخر، وذهبتم وتركتم الاشتراك في الحرب، {أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ}، وتخربوا حياتكم وحياة الناس، لأن الكفّار إن انتصروا فسيفرضون دينهم وشريعتهم الفاسدة على الناس، انتصروا وأفسدوا لأنكم لم تشاركوا في قتالهم وبالتالي فأنتم مشاركون فيما سينتج عن انتصارهم، هم مفسدون في الأرض وأنتم صرتم شركاء لهم في ذلك، {وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}، لا تعد لكم صلة حتى بأقاربكم، أنتم تركتم قتال الأعداء حتى انتصروا وتسلّطوا على أرحامكم الواقعين تحت الاحتلال... نفهمها بالمقارنة مع صلة الأرحام التي تعني عمليا العناية بهم وبما يحتاجونه، تركهم ليقعوا هم وديارهم تحت سيطرة العدو هو من تطبيقات قطيعة الرحم.

ننتبه، الفساد في الأرض ليس فقط دمار ممتلكات الناس وقتلهم أو جعلهم مواطنين من الدرجة الثانية أو استعبادهم، هذه من عناوين الفساد، ولكن من القرآن نفهم أن الأحكام والشرائع الظالمة هي أيضا فساد، والتسلّط على ممتلكات ومقدّرات وموارد الآخرين... فساد، أي شيء سيّء وضد مصلحة عامّة الناس هو فساد، والبداية مع فساد العقيدة والشريعة التي ينتج عنها في الدنيا الظلم للضعفاء من الناس، وفي الآخرة الدخول إلى النار.

الآية هنا تريهم الحالة التي تحدث من بعد تخاذلهم، فسرناها بالإبقاء على وصف الإيمان للمتخاذلين، وقلنا إنّ العدو انتصر وحصل فساد، علما أن المعنى أوسع من ذلك ويصل حتى إلى مشاركتهم للعدو في الإفساد وقطيعة الرحم... يصيرون عملاء له ويعملون لصالحه... ولكن الآية هنا لم ترد إخراجهم من صفة الإيمان لتتهمهم بأنهم سيخونون ويتعاملون مع العدو...

تلاحظ الآية أخذت الأمور إلى مصلحتهم هم، بغض النظر عن أي كلام ديني وأي فذلكة للقتال وأي نقاش حول شرعيته... وإن كانت نزلت سورة... هم لديهم عدو يريد قتالهم، وليس الكلام عن عدو هم اخترعوه بمعاداته والاعتداء عليه أو بالتجهّز للاعتداء عليه... لا، صرت تعلم أنه تعالى لا يسمح إلا بقتال المعادين الذين فعلا يشكّلون خطرا على المؤمنين، وبالتالي فإن تخاذلوا وتخاذل آخرون... وكل واحد رماها على الآخر وقعد في بيته أو هرب... ماذا سيحصل؟ سيسيطر العدو، وهل هذا شيء جيّد ولا مشكلة فيه؟ هل نسيتم معنى العداوة وسبب الخلاف؟ ولا مشكلة عندكم في الوقوع تحت حكم عدوّكم؟ أم تعتبرونه سيفسد في الأرض إن انتصر ولذلك من الأساس اعتبرتموه عدوا؟ هل تناسبكم قوانينه أم ترونها فاسدة؟ وهل تخافون على حقوقكم وعلى العدالة الاجتماعية والاقتصادية... إن حكمكم أم أن عدوّكم سيحكم بالعدل والحقّ؟

هذه الأسئلة التي تبدو بديهية هي ما تشير له الآية ضمنا، فإن لم يكن عدوّكم سيفسد في الأرض فعلى ماذا عداوتكم معه؟ هل هو أعدل وأصلح منكم؟

إن لم تسأل عن نفسك، فهل نسيت أهلك وإخوتك وأولادهم وأقاربك وأولادهم... هؤلاء ما مصيرهم إن انتصر العدو؟ وهل فعلا تحتاج لسورة تنزل منه تعالى وتأمرك بالتحديد بمقاتلة هذا العدو أو ذاك؟

على الورقة والقلم التنظير سهل، والكثيرون سيوافقون "نظريا" على ما تقوله الآية، ولكن عند التطبيق هناك مجتمعات أبيدت وبلاد اختفت وبلاد وقعت تحت الاحتلال... والسبب هو التخاذل مع أطنان من الأعذار لتبريره، بالرغم من أن النتيجة التي تعرضها الآية هنا كانت معلومة سلفا!

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ{23})
{أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ}، الذين لا يشاركون في القتال طردهم سبحانه من رحمته، وبسبب هذا الطرد، {فَأَصَمَّهُمْ}، جعلهم سبحانه لا يسمعون، فمهما تكلّمت معهم وشرحت لهم عن صلاح دنياهم وآخرتهم بقتال الأعداء فلن يدخل كلامك إلى فكرهم، {وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ}، صاروا فاقدين للقدرة على فهم ووعي الصور، لا يرون الأمور بشكل صحيح، ما الفرق بين الأعمى الذي لا يرى الهاوية أمامه وهو يسير باتجاهها، وبين من لديه عينان يرى بهما ويسير باتجاه الهاوية! النتيجة التي ذكرتها الآية السابقة هي حتمية إن لم يتوافر عدد كاف من المقاتلين لردّ العدو، حتمية، ولكنهم صمّوا وعموا عنها...

النبي(ع) يقول لهم نقلا عن هذا القرآن: إن لم تقاتلوا الكفّار المعادين فهم لن يتوقّفوا عن قتالكم وأذيتكم، وسيستغلّون أي فرصة ضعف في المسلمين ليقتلوهم أو يؤذوهم... وسيعملون على ترككم لدينكم والرجوع إلى الكفر... وأنتم تعلمون أنهم مفسدون بعقيدتهم وشريعتهم... ولكن المتخاذلين عن القتال يتصرفون كأنهم لم يسمعوا الكلام ولم يروا الحقيقة الواضحة أمامهم كنتيجة لتخاذلهم عن القتال...

هو سبحانه خلقنا بطريقة تجعلنا كالصمّ والعمي إن قرّرنا ذلك، وهذا شيء ليس مخصّصا للأمور الدينية، في شؤون حياتنا العادية يحصل معنا نفس الشيء، تقول لأحدهم: اللعب بالبورصة قمار، وسيّء على الاقتصاد وعليك شخصيا لأنهم عصابة مجرمي اقتصاد... وهو حرام... وعلى كلّ حال فإن ربحت مبلغا صغيرا منها، فالذي صمّم البورصة صمّمها لأخذ مالك، سيأتي يوم وتفقد فيه كلّ مالك... وهذه الحالة قديمة جدا وتتكرّر ويخسر عامّة الناس أموالهم... ولا تجد من الناس العاديين ولا واحد صار غنيا من البورصة... بينما يزداد فقط ثراء مدراء البورصة وبقية عصابتهم... ورغم ذلك لا يسمعون ولا يرون ويلعبون بالبورصة! ونفس الشيء في مختلف شؤون حياتنا عندما يدخل الناس في أمور معلومة نتيجتها السيئة ولا يسمعون ولا يرون، هذا يغرق بالديون وكان من الأفضل له القناعة بما لديه... وتلك تطلب الطلاق لأن زوجها ليس على قياس فارس أحلامها... وذاك لا يتعامل مع أولاده إلّا بالعنف في المدّة القصيرة جدا التي يراهم فيها خلال اليوم... وغيرها من أمثلة الصمم والعمى المنتشرة... والتي لا تختلف في أساس مشكلتها عن الصمم والعمى في مسألة قتال الأعداء، وفيما تسمّيه بالأمور الدينية، علما أن كل أمور حياتنا لها عنوان الخير أو الشرّ، وهو نفسه ما يسمّيه تعالى دينا.

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا{24})

أولئك الذين يدّعون بأنهم مؤمنون، ويقولون مرة لم نفهم، ومرة لم نسمع، ومرة لو نزلت سورة... وها أمامهم كلام قرآني صريح عن النتيجة الواضحة لتخاذلهم التي ستسبب انتصار الكفّار...

{أَفَلَا}، لماذا لا، {يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ}؟! هذا القرآن فيه أمور عن إدارة شؤون حياتهم بالنظر إلى ما سيحصل معهم في الدنيا والآخرة ولماذا لا يقضون وقتا لفحص وتأمّل ما ورد فيه؟

القرآن كلام إلهي، وواضح ويتحدث مع الجميع، من زمن النبي(ع) حتى زماننا وما بعده، ويعد بالجنّة كل من يؤمن، ويعد بالنار كل من يكفر أو لا يطيع، ويشرح لنا عن سبب أمره تعالى لنا بقتال الكفّار... وبالتفصيل يخبرنا ماذا سيحدث إن لم نقاتلهم... لماذا لا يفكّرون بما يقوله القرآن؟

{أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}؟ سبب تركهم لتدبّر القرآن راجع إلى قفل إلى شيء يغلق ويسدّ أساس فكرهم ونفسيتهم.

هذا لا يفهم لأن حبّ الدنيا أقفل على قلبه، وذاك لا يفهم لأن الخوف من الموت أقفل على قلبه، وآخر لا يفهم بأن الأعداء الكفّار لن يتوقّفوا عن التفكير والعمل على قتله وأذيته حتى لو كان هو مسالما...

نتذكّر دائما أن كلمة قرآن تعني الشيء القابل للقراءة، في الكتاب الرئيسي الذي نزل منه القرآن لم تكن المعلومات قابلة لأن نقرأها نحن البشر، وجرى تحويل قسم منه للغة العربية وصار قابلا للقراءة وصار قرآنا. ولذلك نتذكّر بأن الآية الواحدة قرآن، والسورة قرآن، لا يذهب فكرنا لكون كل الكتاب الذي بين أيدينا فقط اسمه قرآن.

بقي شيء، من القرآن ومما نلاحظه من أنفسنا نعلم بأنه تعالى منحنا كلّنا قابلية تمييز الخير من الشرّ والصلاح من الفساد... ولكن وبسبب اختيارنا لفعل السوء، فمرة بعد مرّة يفسد "يمرض" قلبنا، ويصير خلل في أساس فكرنا ونفسيتنا، ولذلك نفقد قدرة تمييز الصالح من الفاسد في بعض الأمور... وهذه هي حالتنا المنتشرة حتى أننا على مستوى التنظير صرنا نختلف في وصف الأمور بالسوء أو الحسن... وهكذا يأتي كلامه تعالى عبر قرآنه هذا كمقوّم ومصوّب لفكرنا ونفسيتنا، وهذا هو معنى الآيات الواصفة للقرآن بأنه هدى ويزيد هدى... وأنه فرقان وحكمة...

نعم، نفس مشكلة مرض القلب تلاحقنا حتى عندما نقرأ القرآن، ونفسّره انطلاقا من بصرنا المريض الذي يرفض رؤية الحقّ...

(إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ{25})
{إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ}، إنّ الذين تراجعوا باتجاه الخلف، {مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ}، من بعدما صار واضحا لهم، {الْهُدَى}، الأشياء الصحيحة التي توصلهم للغاية الصحيحة، هم كانوا أعلنوا إيمانهم وصار الدين واضحا لهم أنه حقّ، وعندما صدر الأمر بالقتال ارتدوا وتراجعوا عن إيمانهم حتى من بعدما بيّن لهم سبحانه سبب أمره لهم بالقتال، والذي رأيت فيه مصلحتهم هم ومن يعنيهم أمرهم كما مرّ معك في الآية 22، قسم منهم ادّعى أنه لم يسمع وقسم ادّعى أنه لم يفهم وقسم يطالب بسورة فيها أمر صريح... هؤلاء تبيّن وتوضّح لهم الهدى، الطريق الصحيح ولكنهم ارتدوا وتراجعوا عنه والسبب:

{الشَّيْطَانُ}، صفة للكائن الذي يقوم بأعمال الضلال "أعمال السوء" لنفسه أو لإضلال الآخرين، يكون من الجنّ أو من الإنس، ومن سياق الآيات نعلم إن كان المقصود بالشيطان "الجنّي إبليس" شخصيا أو معه عموم الآخرين من الجنّ أو الناس، وهنا من تكملة الجملة بالمفرد يبدو أنها تشير لإبليس، ولكن على الوصفية تشير للنوع وتصير عمومية مثلما نفهم كلمة إنسان للواحد وللنوع، وتصير كلمة شيطان تشير للواحد الشيطان سواء إبليس أو غيره، وتشير للنوع لكل شيطان، {سَوَّلَ لَهُمْ}، هم يرون الارتداد عن القتال شيئا سيّئا ولكن الشيطان وسوس لهم ليتعاموا عن سوء ما يقومون به، وزيّن لهم مخالفة الحقّ.

{الشَّيْطَانُ}، {وَأَمْلَى لَهُمْ}، جعلهم لا يهتمون بالوقت القليل المتاح لهم ليؤمنوا، لو علق في ذهنهم أنهم سيموتون ويتحاسبون، الوقت المتاح لهم في الدنيا قليل وليس ممدودا، ولو انتبهوا لذلك لما ارتدوا عن القتال بل لآمنوا، ولكن الشيطان صوّر لهم الموت بأنه بعيد، وبذلك لم يعودوا يخافون من الحساب.

سؤال، هل كل ضلال يحصل معنا يكون من وسوسة إبليس؟ لا، نحن من دونه لدينا قابلية الانحراف والاستقامة، لدينا الانجراف وراء الشهوة والغريزة والغضب والحبّ... وتلاحظ القرآن ينبهنا من الشياطين بشكل عام، وعلى رأسهم إبليس، ويليه التنبيه من أنفسنا التي ألهمها تعالى فجورها وتقواها... وأمّا إبليس فبالقدرة التي لديه للوسوسة في عقولنا، يقوم فقط بتحفيز الأفكار الشيطانية في عقولنا، ولا يمكنه إجبارنا على الشيطنة، أمّا إذا تمرّسنا على فعل السوء الذي نراه سوءا وترك الصلاح، فسنصير نحن شياطين لأنفسنا ولغيرنا.

من عموم مفاهيم القرآن ترى انطباق وصف الشيطان على إبليس والخبثاء من الجنّ والإنس، وليس في بالي أي وصف قرآني صريح عن وصف نفسي شيطانا لنفسي، أكون أنا أوسوس لنفسي وأكون شيطانا لنفسي، علما أن العديد من الآيات وصفت "نفسي" بأنها تسوّل لي وتأمرني بالسوء... ولكن لم تصفها بالشيطنة بالرغم من صحّة اتصافي بالشيطنة لنفسي "من ناحية المبدأ" عندما أفعل السوء لوحدي من دون أي وسوسة أو دافع من أي أحد غيري، وحتى من دون إبليس. ولكن يبدو أن معنى كلمة شيطان لغويا وتطبيقيا لا يتحمّل ولا يشمل وصف وسوستي لنفسي أني شيطان نفسي، مثلما لا تجد في القرآن تعابير عن هداية نفسي لنفسي.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ{26})
{ذَلِكَ}، الارتداد للذين لم يريدوا قتال الكفّار، {بِأَنَّهُمْ}، سببه أنهم، {قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ}، سبق وقالت الآية 9 من هذه السورة إنّ الكفّار كارهون لعموم ما نزّله تعالى على رسوله(ع)، المرتدون عن القتال من المؤمنين قالوا للكافرين المعادين: {سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ}، هناك بعض الأمور التي سنطيعكم فيها وبعض الأمور سنبقى فيها على الإسلام، سنطيعكم بالسلام، وسنطيعكم بأن لا نتدخّل بالقتال، وسنطيعكم بأن لا نقطع علاقتنا بكم...

لكن هل هذا يحصل من دون معرفة الله تعالى، كلا، {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ} "بالكسرة على الألف"، يعلم سبحانه ما قالوه بالسرّ خفية عن الآخرين.

هذه المجموعة من الناس عقليتها أنها بين بين، هي ليست كافرة علنا، وليست ملتزمة تماما بالدين الإلهي، لا تفعل كل ما يأمر به تعالى، لهم رأيهم الخاص في بعض الأمور، وهذا الرأي يتوافق أحيانا مع رأي الكفّار.

ترى نماذج كثيرة من هؤلاء في كلّ العصور، تراهم حكّاما ووزراء ونوّابا ورؤساء أحزاب وصحافيين وإعلاميين ومثقفين وممن لديهم مراكز للدراسات والمساعدات والخدمات الاجتماعية... موالين لأعداء الدين والمسلمين وفي نفس

الوقت يكون لباسهم دينيا واسمهم دينيا وانتماؤهم دينيا ومنصبهم دينيا... ويتبجحون بأنهم هم الدين والإيمان والآخرون ضالون... بينما ارتباطاتهم وتمويلهم والمحافظة على مناصبهم مستمدّة من أعداء المؤمنين.

هؤلاء يضحكون على أنفسهم على أساس أن علاقتهم بالله تعالى لا تزال جيدة رغم هذه المخالفات ولكن:

(فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ{27})
{فَكَيْفَ}، ماذا يعني وماذا سيفعلون، {إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ}، أخذت حياتهم بالتمام من الدنيا، وتبدلت السماوات والأرض وانتقلوا للآخرة حينها، {يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ}، تضرب الملائكة(ع) واجهة جسدهم من وجههم وصدرهم... {وَأَدْبَارَهُمْ}، وتضرب ظهرهم، تضربهم على كلّ جسدهم وكيفما تحرّكوا يأتيهم الضرب، هل نفعهم تركهم لكلامه تعالى وطاعتهم للكارهين لما أنزله تعالى؟ وهل هم فعلا لا يزالون من الموالين له تعالى المحترمين عنده؟...

في بعض الأدبيات يذكرون آيتنا هنا على أساس أنها تتحدّث عن تعذيب الكفّار والمنافقين والفاسقين فورا بعد وفاتهم وهنا في الدنيا، وبالتالي هم يذكرونها ليثبتوا وجود عذاب فيما يسمّونه بالبرزخ، بينما الآيات قبل الآية 28 وبعد الآية 32 من سورة النحل تشيران بوضوح للآخرة، {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}... {فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ}... {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}.

إذا كنت مصرا على فهم الفورية من الحدث "وفاة وضرب" فتذكّر البغتة بقدوم الساعة، وتذكّر أنهم سيشعرون كأنهم لم يلبثوا في الموت إلا ساعة أو يوما أو بضعة أيام...

علما أن كلمة "وفاة" ومشتقاتها، أعم من تخصيصها بالموت كما فسرناه، لو رجعت إلى أصل معناها "أخذ الشيء بالتمام"، لفهمت آيتنا هنا بشكل آخر غير أخذ الملائكة(ع) لهم من الحياة، وتفهمها أنها توفتهم من بعد الحياة، مثلما تستوفي مالك منّي فتصير أموالك معك، عادوا إلى الحياة في الآخرة وتوفّتهم الملائكة وأخذتهم بالتمام لتستحكم بهم ضربا وتأنيبا وتعذيبا... وعلى كلا المعنيين النتيجة واحدة، سواء توفتهم هنا في الدنيا وضربتهم هناك في الآخرة، أو توفتهم "أخذتهم" هناك في الآخرة من قبورهم، وضربتهم هناك في الآخرة، النتيجة نفسها.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ{28})
{ذَلِكَ}، المذكور سابقا من الضرب على جسدهم، {بِأَنَّهُمْ}، بسبب أنهم، {اتَّبَعُوا}، كانوا على، {مَا أَسْخَطَ اللَّهَ}، على ما لا يقبله تعالى ويكرهه، وهو طاعتهم للنفس الأمّارة بالسوء وللشيطان وللكافرين الكارهين لدينه تعالى، وذلك بأنهم، {كَرِهُوا رِضْوَانَهُ}، ما يوافق عليه تعالى بمحبّة هم لم يحبّوه ونفروا منه.

{فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}، أفقدها قيمتها، هم ربما صلّوا وربما صاموا وتصدقوا وحجّوا و... كل ذلك سيفقد قيمته، لا يوجد عند الله تعالى بين بين، إمّا أن يكونوا مؤمنين فينالوا الأجر والاحترام في يوم القيامة، أو يكونوا من غير المؤمنين فتفقد أعمالهم الحسنة قيمتها ويتعرضون للضرب والإهانة.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ{29})
{أَمْ حَسِبَ}، هل خطر في بالهم ومن دون تفكير، {الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}، الذين أساس تفكيرهم ونفسيتهم فيه خلل أفسده، وعمليا هنا في السورة مرض قلبهم هو تفكيرهم غير السليم عن القتال وشعورهم بكره الأوامر الإلهية، هل خطر في بالهم، {أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ}؟ ما هو مخفي من أفكار ونفسيات سيئة فيهم هل ستبقى مخفية ولن يجعلها تعالى تظهر لينفضحوا على حقيقتهم؟

الآية هنا مع الآية بعد التالية {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ...} على معنى الآية 2 وما بعدها من سورة العنكبوت {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}.

هم ادّعوا بأنهم مؤمنون، ولكن من داخلهم هم ليسوا مختلفين عن الكافرين، هل الانتماء بالاسم لدينه تعالى كاف حتى يتميّزوا عن الآخرين بمعاملة إلهية خاصة؟ وهذا الكلام له عمق تراه في الذين يدّعون أن الانتماء للإسلام كاف لدخول الجنّة أو مانع من الخلود في النار، ومثلهم من يدّعي بأن اليهودي أو المسيحي أو البوذي أو السيخي... وحده المميّز... يأتي السؤال البديهي: لأي سبب وما معنى كوني محظوظا بولادتي في بيئة مسلمة وحملت هوية الإسلام وصار لي معاملة إلهية خاصة؟ ماذا لو أنا ذات نفسي ولدت في بيئة أخرى؟ وماذا عن الآخرين الذين لم يكن حظّهم طيّبا مثلي؟

آيتنا هنا ومعها العديد من الآيات الأخرى التي لا تميّز المنتمي لدينه تعالى بالاسم عن الآخرين، المسألة ليست الانتماء لمجرد الانتماء بل المسألة هي الحقّ والباطل والخير والشرّ... وسبحانه يعتبر المحقّين الصالحين منتمين له، ويميّزهم بغض النظر عن تسميتهم.

بهذا العمق وبالنظرة الواقعية والتي هي نفسها التي يعرضها القرآن في السورة هنا وفي كل كلامه، ترى أن المنتمين بالاسم لدينه تعالى هم ليسوا مميزين عن الآخرين إن لم يكونوا مؤمنين عاملين للصالحات، وبالتالي هذه الأعداد الكبيرة من المسلمين والتي تتضمّن كافرين وفاسقين ومنافقين ومؤمنين من الدرجات المتفاوتة، المميّز منهم عنده تعالى هو المؤمن العامل للصالحات بدرجة مقبولة ويكون تاركا للكبائر أو تائبا منها...

هكذا صرت ترى قرآنيا أن التميّز ليس بالانتماء بالاسم لدينه تعالى، ولا الاكتفاء بقول "لا إله إلا الله"، كم من مجرم قالها؟ ولا بموالاة الإمام علي ولا بحبّ الصحابة... كم من مجرم في هؤلاء؟

السيئات التي توعّد تعالى عليها بالنار في قرآنه، لم تميّز بين مسلم وغيره، وإذا كنت ترى الآخرين كلّهم كمجموعة واحدة فاسدة فكريا وتشريعيا، ولم تر الفساد فينا وبناء عليه حكمت للمسلمين بدخول الجنّة وأنهم لا يخلدون في النار مهما فعلوا، فأنت تخترع دينا جديدا، ها هو القرآن أمامك مشحون بالتهديد بالخلود في النار لبني إسرائيل وعموم أهل الكتاب ولمسلمين معاصرين للنبي محمّد(ع)، كلّهم مهدّدون بالنار بل بالخلود فيها إن لم يؤمنوا ويعملوا الصالحات.

الخلاصة أن الآخرين مثلنا حالنا مثل حالهم، من البوذي والسيخي والمسيحي واليهودي... فيهم المؤمن الموحّد العامل للصالحات وفيهم الكافر والمنافق والفاسق، وما تراه برأيك من فرق هائل بيننا وبينهم فهو على المستوى النظري الذي نظنّ أنفسنا فيه مختلفين عنهم، ما نطرحه نحن من فروقات بيننا وبين الآخرين، موجّهين نظرنا باتجاه المثالية التي في الكتب الواصفة للإيمان العالي... ومتجاهلين للواقع الذي لا نرى فيه شخصا واحدا مثاليا في زماننا، خذ علما أنهم هم أيضا وبالنظرة المثالية للملتزم بدينهم سيعرضون عليك ما يماثل نظرتك.

هذه ليست دعوة مفتوحة للانتماء لأي دين كان، المعيار عنده تعالى معروض في هذا القرآن، هي نظرة عامّة موسعة لكل من فكره وسلوكياته متماشية مع ما يقوله هذا الكتاب الإلهي، ومهما كان الاسم لدينه، فلا يهمّ طالما اتبع سلامة قلبه بالتوحيد والعمل الصالح، ودائما انظر من النظرة القرآنية للواقع، كم من مسلمين فاسدين لا يزكّون ولا يصومون ولا يصلّون... ويزنون ويسرقون وغشّاشين... ومجرمين... فإن كنت ترى كل الآخرين بهذه الصفات فلا تنسَ جماعتك حين تحكم على الآخرين كلّهم بالنار، ولا تنسَ أن الاسم لدينهم غير مهم، فيهم موحّدون عاملون للصالحات مبتعدون عن الكبائر، وعدد هؤلاء قليل جدا مثلما هو قليل جدا بيننا...

(وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ{30})
{وَلَوْ نَشَاءُ}، هناك خيارات عديدة أمامه تعالى ولو قرّر سبحانه أيها النبي(ع)، {لَأَرَيْنَاكَهُمْ}، لجعلنا عندك صورة محدّدة لهم، {فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ}، لا قدرة لديك على العلم بما في قلوبهم ولو شاء تعالى لجعلك من العلامات في ملامحهم تعرف ما في قلوبهم من نفاق وفسق.

{وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ}، سوف تعرف أن قلوبهم مريضة، {فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}، من طريقتهم في الكلام، سيتكلّمون بطريقة تبيّن تململهم واعتراضهم وكرههم... لكلامك.

تستطيعون أن تقولوا ما تشاؤون وتضحكوا على الناس فيظنّوا بأنكم مؤمنون، ولكن، {وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ}، أنتم تحت المراقبة الإلهية في كل ما يصدر عنكم.

ننتبه جيدا، هناك كلام منتشر بين عموم الناس عن أشخاص لديهم القدرة على معرفة باطن الشخص بمجرّد النظر إليه، ويسمّونهم بالعارفين والمتصوفين والواصلين... بمجرّد رؤيتهم لشخص ما يعرفون إن كان مؤمنا أو فاسقا أو منافقا أو تاركا للصلاة أو... وهذا الكلام هو مجرد نسخة دينية متطورة من الفراسة والقيافة والكهانة... التي كانت منتشرة بين الناس قبل الإسلام كأوصاف لأشخاص يملكون قدرات غير عادية "خارقة" في معرفة باطن الناس ومن هم وما هو مستقبلهم... ذمّ النبي(ع) المعتقدين بقدرة خارقة من هذا النوع مميزا لها عن الفراسة وعن الحصافة وعن التحليل والاستنتاج... ولكن وللأسف حوّر الناس ذلك حتى صار الوصول إلى تلك القدرة الخرافية من علامات الإيمان العالي! ها نحن أمام آية صريحة تنفي عن رسول الله محمد(ع) هذه القدرة! ومن تاريخه صلوات الله تعالى عليه نعلم أنه تعامل مع كلّ الناس على ظاهرهم، إلا حينما كان من الوحي يعلم (ع) بنفاق وكفر هذا وذاك... وهي معلومات لا قيمة لها عمليا لأن الرسول(ع) ممنوع عليه التعامل مع الناس إلا بظاهر ما يعلنونه، والتاريخ مشحون بأخبار أناس كانوا كفّارا وأعلنوا إسلامهم بالظاهر وفقط للنجاة بأرواحهم من القتل، ولا نجد حدثا واحدا في تاريخه(ع) يثبت أنه تعامل مع الناس على أساس أنه يعرف درجة إيمانهم من سيماهم، إن، إن وجدنا رواية ما عن ذلك، فمصير الرواية إلى الضرب بالحائط أمام ما يصرّح به القرآن هنا وبوضوح.

الكلام الذي نجده منتشرا بين عامّة المسلمين عن هذه القدرات هو مدعاة للضحك، تجد السنّي لديه القدرة على رؤية باطن الشيعي المغالي، وتجد الشيعي القادر على رؤية السنّي المحبّ للعجل! وتجد السنّي المتصوّف والعارف والكامل... الذي رأى الخليفة الأول والثاني في الجنّة... وتجد الشيعي العارف الواصل... الذي رآهما في الدرك الأسفل من النار! كلاهما مصرّان على صحّة وصولهما للمقام الإيماني العالي حيث "وبحسب تعابيرهم" انكشفوا عن حجب المادّة وصاروا يرون الآخرة! ويتواصلون مع عالم الأنوار والمثال والحقيقة والملائكة والأرواح...!

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ{31})
{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ}، لسوف نصيبكم أيها الناس بما يحتمل أن يغيّركم، بأمور تكون امتحانا لكم، {حَتَّى نَعْلَمَ}، بعد نهاية الامتحان، {الْمُجَاهِدِينَ}، الذين بذلوا جهدا، والكلام عن عموم أي بلوى مهما كان نوعها ونحتاج لجهد لتخطيها بنجاح من دون فعل السوء، وهنا الكلام بالخصوص عن الجهاد في القتال في سبيل الله تعالى حتى تحقيق النصر، ولنبلوكم نمتحنكم حتى نعلم، {الصَّابِرِينَ}، حتى يظهر من منكم لا يفقد عقلانيته وأعصابه ويبقى على طاعته تعالى في مختلف الظروف الصعبة. قد يجاهد المؤمن ويذهب لمعركة ما، ولكنه قد لا يصبر حتى انتهاء الحرب، فيكون عنده مشكلة بالصبر، يملّ ويتململ... ويهمل واجباته... أو يتخاذل ويجبن حين يبدأ القتال ولا يصبر...

{وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}، يمتحنكم سبحانه في الأخبار التي صدرت عنكم، كنتم تخبرون بأنكم مؤمنون وملتزمون بالدين، وسيختبركم سبحانه فيما كنتم "تخبرونه" وتقولونه للآخرين عن أنفسكم.

نلاحظ من عموم القرآن البلاء للناس ليظهر المؤمن الحقيقي من المزيّف، الذين يقولون بأنهم مسلمون، ويتبعون هذا الدين، يخاطبهم القرآن غالبا بوصفهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، {الْمُؤْمِنُونَ}، {آمَنْتُمْ}... وهذا التوصيف لا يعني أبدا أنهم مؤمنون حقيقيون أو مؤمنون من الدرجة العالية، ويعني فقط: يا أيها الذين "أعلنوا" اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين وأعلنوا انتماءهم له. فإن تصرّفوا علنا بشكل مخالف لصريح الدين الإلهي، يصير وصفهم: فاسقين. وهذا نراه من حولنا كثيرا عندما تقول لشخص ما: الأخذ بالثأر من البريء سوء ويعاقب عليه سبحانه، ومثلها العصبية القبلية والعشائرية والعائلية... ودم المسلم وعرضه وماله على المسلم حرام، والغشّ حرام والنظر بشهوة حرام... والصوم والزكاة واجب عليك... يقول: هذا الكلام لست مقتنعا به. هنا صار توصيفه القرآني: فاسق من الذين آمنوا. وأمّا من يبدو لك مؤمنا ولكن في باطنه يعلم بكلامه تعالى ويخالفه بالمخفي، فهذا توصيفه: منافق من الذين آمنوا. حتى لو كان عالم دين أو وجيه أو زعيم... فهو مثل الذين يبرّرون للعلاقة مع الكارهين لما أنزله تعالى والمروجين لثقافة التفلت الأخلاقي... ومثل الذين يدعون المسلمين لقتل بعضهم البعض على خلفية مذهبية وطائفية... أو على خلاف سياسي أو خلاف على المصالح... والذين لا يطبقون الأحكام الشرعية... وخلال ذلك هم: ملتحون وبعضهم على جبينهم دمغة السجود... ومنهم أئمة مساجد وعلماء دين...

بسبب هؤلاء يتعرّض المجتمع الإسلامي للابتلاءات، حتى يُمَيِّزَ الخبيث من الطيّب، أجهزة المخابرات والدبلوماسية من مختلف الدول بلاء... والطائفية والمذهبية بلاء، والمال والشهرة بلاء... والاعتماد على الأعداء لتبقى حاكما بلاء... والأمر بقتال الأعداء بلاء، والتخاذل ومدّ الجسور مع الأعداء ضد المسلمين بلاء، وهذا ما تحدّثت عنه هذه الفقرة من السورة.

الآن ننتبه، سبحانه وتعالى لم يقل أبدا في القرآن بأن المؤمنين الحقيقيين يتعرضون للبلاء، بل قال العكس، لو كان المجتمع من المؤمنين المستغفرين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، لفتح تعالى عليهم بركات من السماء كما تقرأ صريحا في الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، ولكن المجتمع الخليط من مؤمنين حقيقيين وفاسقين ومنافقين، فهذا المجتمع سيتعرّض للبلاء، وبالدقة نقول: هو هذا المجتمع أصلا في حالة بلاء، وتجري الأمور فيه لوحدها "بحسب التصميم الإلهي" ويصير البلاء واقعا متحققا، بمجرد أن يتصرّف أو يفعل أو يقول المنافق والفاسق أي شيء، حصل البلاء.

أطلت عليك ولكن نستفيد مما وصلنا إليه هنا لنعمّمه على عامّة الأفعال الإلهية، سبحانه صمّمنا "التعبير القرآني:سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وصمّم بيئتنا كحلقات مترابطة إذا فعلنا شيئا ما، فسينتج عنه شيء ما، ومن ناحيتنا نرى أن ما نتج سببه تصرفنا نحن، ومن ناحيته تعالى يرى أن ما نتج منّا سببه تصميمه هو تعالى لنا بهذا الشكل، طبع القلوب ومرضها والضلال... هو نتيجة مباشرة لأعمالنا نحن، ولكنه أيضا نتيجة مباشرة لتصميمه هو تعالى لنا بهذا الشكل، ولذلك ينسب تعالى لنفسه أنه هو ابتلانا، هو أضلّنا، هو طبع على قلوبنا... هو خلقنا... هو رزقنا وأحيانا وأماتنا، وهدانا وأضلنا... علما أن خلقتنا حصلت من سلسلة مترابطة من الأحداث الفيزيائية والكيميائية البيولوجية، ولكنه تعالى هو صمّم كوننا ليسير ويعمل بشكل مترابط ولينتقل من مرحلة لأخرى وصولا إلى خروجنا إلى الحياة نحن ومن حولنا من كائنات حيّة كالنبات وبقية الحيوانات...

البلوى التي تخبرنا الآيات عنها أنها منه تعالى، هي ناتجة من تصميمه تعالى لنا ولبيئتنا، مع تدخّله تعالى في مجريات الأمور بطريقة قد نفهم البعض منها وقد لا نفهم بعضها الآخر، وهذا موضوع طويل ستجده متفرقا في دراساتنا هذه تحت الآيات التي تحدّثت عن تدخله تعالى لنصرة المؤمنين وخذلان الكافرين وبلوى المؤمنين... وأحيلك إلى دراسة سورة يوسف لترى كيف تدخّل سبحانه بطريقة لا نراها في مجريات الأحداث حتى يصل النبي يوسف(ع) إلى مصر، ومضافا له جريان أحداث حياة النبي موسى(ع) من إلقائه في النهر وتربية فرعون له... ليهاجر إلى مدين وبعدها يأتي إلى سيناء كما في الآية 40 من سورة طه {إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى}.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ} (32)

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا هذا الدين ولم يؤمنوا به، {وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، وسبيله تعالى هو الخير والصلاح، من يُرِد المشي على الطريق الإلهي منعوه من المشي عليه، {وَشَاقُّوا الرَّسُولَ}، كانوا في شقّ آخر عنه (ع)، كانوا معادين له، {مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ}، من بعدما صار واضحا لهم، {الْهُدَى}، الشيء الصحيح الذي يوصلهم لغاية صحيحة، الإيمان به تعالى واضح بالآيات، وسبيله واضح بالخير والصلاح، والرسول (ع) يطرح عليهم الأمور الصحيحة الحقّة الخيّرة العقلانية... والتي في نفس الوقت توصلهم لرضاه تعالى والجنّة وقد كان ذلك واضحا لهم، أولئك، {لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا}، لن يصيبه تعالى أي ضرر أو أي شيء سيّء بسببهم، وحتى لو كفرت كلّ المخلوقات، سبحانه ليس بحاجة لعبادتنا ولا لطاعتنا ولا لاعترافنا به كإله...

{وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ}، سيجعلها تعالى تفقد قيمتها، الأعمال الحسنة التي قاموا بها من صلاة وزكاة... ومساعدة الناس "وبناء المستشفيات والمدارس..." يبقى وصفها بأنها أعمال حسنة حتى لو قام بها الكفّار ولكن لا ثواب حسناً عليها عنده تعالى، تفقد قيمتها لأنهم لم يقوموا بها طلبا للثواب منه تعالى، لماذا سيعطيهم سبحانه عليها ثوابا وهم كافرون به وبرسله وبكلامه؟!

لاحظ الآية هنا يمكن تطبيقها على الكفّار الأصليين، ويمكن تطبيقها على من أعلن أنه مؤمن ولكن تخاذل عن القتال في سبيله تعالى، وكفر بطاعة الرسول(ع)، كلا النوعين تبيّن لهما الهدى، الآية تتحدّث عن عامّة من يحمل هذه الصفات، سواء أكان كافرا علنيا لم يؤمن أصلا بالدين الإلهي، أو كان أعلن إيمانه ولكن كفر ببعض ما جاء به القرآن، وتوصيف "المنافقين والفاسقين" بالكفر تكرّر كثيرا في القرآن، لأن كفرا واحدا بأمر إلهي، هو كفر.

طبعا هذا لا يعني تطبيق كل أحكام الكفر على المنافقين والفاسقين، هؤلاء لهم أحكام خاصة بهم فيما نافقوا وفسقوا به، تناولت أحكام التعامل معهم سور عديدة من القرآن، وكمثال مشابه لما تتحدّث عنه الآيات هنا راجع الآيات التي وردت قبل وبعد الآية 84 من سورة التوبة {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ}.

بقي شيء عن كلام القرآن عن الرسول وطاعته سنتوسع فيه قليلا في الآية التالية.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ{33})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون ملتزمون بهذا الدين الإلهي:

{أَطِيعُوا اللَّهَ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}، نفّذوا كل ما يأمر به تعالى ويأمر به رسوله(ع)، وتكرار أمر الطاعة بدلا من "{أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ}" كما ورد في الآية 32 من سورة آل عمران {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ} لزيادة التأكيد على وجوب طاعة الرسول، لأن الكلام هنا عن شيء عنوانه العام من كلامه تعالى ولكن تحديد تطبيقه حدث من الرسول(ع)، يقول أحد ما: أنا آمنت بهذا الدين وأطيع الله تعالى فقط، إن أمرني بقتال هؤلاء الناس قاتلت، والرسول شخص عادي يفعل ما يراه مناسبا وأنا لست ملزما بطاعته حتى أبقى منتميا لدينه تعالى. لا، لأنه بهذا الشكل سيبقى الكثير من كلامه تعالى نظريا بلا تطبيق، ما معنى الإيمان بدينه تعالى بدون تطبيق؟ وهل تتوقّع منه تعالى أن يذكر لك العناوين أم التفاصيل التي تذكر كيفية التعامل مع الناس من حولك وفي زمنك؟

هذا التعطيل لدينه تعالى تراه جليا في قولهم: ما لنا وللسلاطين. فما معنى الأمر الإلهي بولاية المؤمنين؟ وما معنى العقاب للمفسدين الوارد في الآية 33 من سورة المائدة {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}، فتطبيق هذا الكلام واجب على من؟ ونفس الكلام عن الآيات الآمرة بقتال الأعداء فتطبيقها واجب على من؟

{وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ}، قمتم بأعمال صالحة ووحّدتم الله تعالى وصلّيتم وزكّيتم وتصدّقتم... وهذه أعمال عليها ثواب، فلا تبطلوها فلا تجعلوها باطلة لا يحصل منها ما هو مفروض منها، فتصير عاطلة لا ينتج عنها حسنات فتحبط لتصير فاقدة لقيمتها.

مخالفة أمر إلهي واحد ستؤدّي إلى جعل كل أعمالكم السابقة بلا قيمة، حابطة، مثل من رفض القتال في سبيله تعالى، فبقية أعماله الحسنة أبطلها ففقدت قيمتها الحسنة، فلا تفعلوا هذا بأنفسكم.

ألفت انتباهك لنموذج رمي المحصنات الذي ورد في الآية 23 من سورة النور {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}، حيث لعنهم تعالى وتوعّدهم بعذاب عظيم، وهذا يعني خلودهم في جهنّم، وكان الكلام فيها عن منتمين للمؤمنين يرمون المحصنات بالتهمة... وألفت انتباهك إلى الآيتين 15 و 16 من سورة الأنفال التي توعدّت بجهنم للهاربين من القتال {وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}، وغيرها من النماذج التي ترينا حبط الأعمال الحسنة للمؤمنين إن قاموا بمخالفة لدينه تعالى من العيار الثقيل.

بقي شيء عن كلام القرآن عن الرسول محمّد(ع)، الآيات التي ذكرته (ع) في سياق كونه قائدا أو رئيسا... جعلت منه (ع) نموذجا لأي قائد أو رئيس فيه الصفات الإيمانية اللائقة، هنا في السورة الكلام عن أناس سمعوا في قرآنه تعالى أمرا بقتال الأعداء، وسمعوا تبريره تعالى لهذا الإذن بالقتل... وهذا شيء معلوم أنه من كلامه تعالى في قرآنه الذي

يعلنون بأنهم مؤمنون به، ولكن المشكلة عندهم أنهم ولسبب أو لآخر لا يريدون القتال، ومن ضمن أعذارهم أنهم ليسوا موافقين على قرار الرسول(ع) بقتال هذه الجماعة أو تلك، أو ليسوا موافقين على التوقيت، أو يريدون حلا سلميا حتى لو كان على حساب تنازلهم عن حقوقهم ودينهم...

كما ترى، مشكلة هؤلاء "المؤمنين" مع شخص الرسول محمّد(ع) كقائد، كرئيس يأخذ القرارات، ولذلك جاءت الآية هنا بتكرار أمر الطاعة لله تعالى وطاعة الرسول كنموذج عن أي قائد أو رئيس لائق إيمانيا اتخذ قرارا مَبْنِيّاً على كلامه تعالى.

هل يخطر ببالك أنك لو كنت في زمانهم لما تردّدت في طاعة الرسول محمّد(ع)؟ للأسف يا عزيزي هذا غير صحيح، لو كنت في زمان فيه كل الأنبياء مجموعون مع بعض، فأنت كما أنت الآن ستكون، الآن أنت لديك قدرة على انتخاب مختار محلّة، فمن انتخبت؟ وعلى أي معيار؟ ولديك القدرة على انتخاب أعضاء ورئيس بلدية فمن انتخبت وعلى أي معيار؟ وتنتخب النواب... وتدعم زعيماً، وتصفّق لرئيس... فعلى أي معيار؟

قتال الأعداء فيه احتمال الموت، ومعارضة الفاسدين في مجتمعك أيضاً فيه احتمال الموت، والسكوت عن الفاسدين مثله مثل الفرار من الزحف.

للأسف الشديد ترى التفاسير القرآنية عموماً تقتصر على تفسير كلامه تعالى ناظرين للروايات الناقلة لتاريخ الرسول محمّد(ع)، وغاضين النظر عن تطبيقه على عصورهم، وبذلك يصير التفسير بحثاً تاريخياً... وللأسف تراكمت لدينا ثقافة دينية مشوّهة تجعل دينه تعالى محصوراً في الدراسات التاريخية والفتاوى التشريعية على المستوى النظري بلا تطبيق، وصار المسمّون بعلماء الدين يطالبون بآية قرآنية أو رواية مسندة تثبت لهم وجوب تولّي مؤمن لائق لرئاسة المسلمين! غاضين النظر ومتعامين عن كون كلام القرآن عن الرسول محمّد(ع) مجرد نموذج عن أي قائد أو رئيس، ومتعامين عن الآيات العديدة التي تأمر بولاية المؤمنين... وساكتين عن الحكّام الظالمين بل تابعين لهم ومشرعين لفسادهم... بل ولا مشكلة عندهم في انتخاب من يحكمهم من السياسيين!

جنح آخرون بشكل إيجابي ولكن مبالغ فيه ليفرضوا شرط الفقاهة في الرئيس، وهو شرط عقلاني من اللياقة بالرئاسة ولكن يكفي لياقة العقل والإيمان، فالفقاهة صفة مقدور عليها نوعاً ما ولكن "حُسْنَ" التدبير والإدارة على مستوى دولة أو أمّة هي الصفة المطلوبة.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ{34})
{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، أيْ إن الذين أنكروا هذا الدين، وسياق الكلام عمومي عن الذين أنكروه كلّه أو بعضه، {وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، والعناوين التي يعتبرها تعالى سبيله وهي عناوين الحقّ والخير والصلاح... عَمِلُوا على منع تطبيقها... {ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ}، حيث فَقَدُوا حياتهم وهم منكرون للدين الإلهي كلّه أو لأمور أساسية فيه... ولم يتوبوا ولم يتراجعوا بل بقوا كفارا حتى آخر لحظة، {فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}، لَنْ يَتَجَاوَزَ سبحانه عن سيّئاتهم أبدا ولا بأي شكل، وحَتْماً سيحاسبهم.

تَذَكَّرْ ما قرأناه في الآية ما قبل السابقة التي شملت بوصف الكفر حتى من كفر ولو بأمر واحد من الدين، أيّ فكرة تخطر على بال الكفّار بكل الدين، أو الكفّار ببعض ما يقوله الدين، أيّ فكرة بأنه يوجد حلّ لهم في يوم القيامة، فَلْيَأْخُذُوا عِلْماً من الآن: إذا متّم على هذه الحالة فلا يوجد أي حل ولا بأي طريقة لمغفرة ذنب كفركم، سَتُحَاسَبُونَ عليه وعلى بقية ذنوبكم ولن يكون لكم حسنات، حتى لو كنتم من المصلين الصائمين المزكّين... لأنّ كُلَّ ذلك سيحبط.

طبعاً عليك أن ترمي من فكرك مخزون ثقافتك عن معنى كلمة كفر وعن فتاوى التعامل مع الكفّار... ولنلتزم بتوصيف القرآن وأحكامه، لأنّ فِقْدَانَ الدقة في التوصيف والتطبيق لحالة الكفر، والمنتشرة في الكثير من كتب الفقه وفي أدبيات الكلام الديني، ستجعلنا نتوه بين أحكام إجرامية بإباحة دم ومال وعرض كل من انطبق عليه عنوان الكفر، ويتوسّع عندهم ذلك ليشمل المسلم التارك للصلاة أو الكاره لأحد من الصحابة أو الذي لم يُوَالِ واحداً مُحَدَّداً من الصحابة...! وهو بالأصل متوسّع عندهم ليشمل كل ما عدا المسلم حتى لو كان مُسَالِماً.

ها هو القرآن أمامك بصريح أحكامه، حيث لا إباحة لحرمة دم إلا للقاتل العمد لنفس بريئة، وللمقاتل للمسلمين. وصفة الكفر ليست سبباً لقتل أي إنسان وليست سبباً لإباحة ماله أو عرضه.

(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ{35})
{فَلَا تَهِنُوا}، لا تتصرفوا وكأن قدرتكم تكاد تكون معدومة، وسياق الكلام عن قتال الأعداء لذا لا تَتَصَرَّفُوا على أساس أنكم لا قدرة لكم نهائيا على قتال الأعداء، {وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ}، "فتحة على السين"، وبَدَلَ أن تعلنوا وتشهروا إعلانكم القتال لعدوّكم، تُعْلِنُونَ وتُشْهِرُونَ لتكونوا منقادين تابعين له حتى يترككم بحالكم ولا يقاتلكم، {وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ}، حيث إنكم أعلى من الكفّار وهم تحتكم أقل منكم بالقدرات الحربية، لو كانُوا هم فعلاً أعلى منكم عسكرياً فلن يأمركم سبحانه بقتالهم، وعندها تعاهدوهم على السلم...

{وَاللَّهُ مَعَكُمْ}، ينصركم ويؤيدكم... {وَلَنْ يَتِرَكُمْ} "فتحة على الياء وكسرة على التاء من الوتر بالكسر على الواو" أعمالكم، سُبْحَانَهُ لن يجعل ما تقومون به مَوْتُوراً، وِتْراً فَرْداً بلا دعم، ولَنْ يَتْرُكَ سبحانه أعمالكم منفردة لوحدها بل سيقرنها بأشياء من عنده تعالى، أيّ عَمَلٍ حربي تقومون به لَنْ يَكُونَ وَحِيداً بَلْ سَيَدْعَمُهُ تعالى.

نَتَذَكَّرُ الآية 61 من سورة الأنفال {وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا}... التي أمرت الرسول(ع) بقبول السلم من الكفّار المتوجّهين لعرض السلم على المؤمنين، تلك الآية كانت تتحدّث عن كفّار ليس لديهم نيّة لقتال أو مضايقة أو معارضة للمسلمين، حيث إنّهم ليسُوا معادين، وأمّا هنا فالكلام عن كفّار صدّوا عن سبيل الله تعالى، لأنّهم يَقُومُونَ بأعمال قتالية ضد المؤمنين لذا يَجِبُ محاربتهم إن كان باستطاعة المسلمين ذلك.

وكما ترى فإنّ الآية تبرير وسحب العذر من الذين يرفضون طاعة الرسول(ع) بقتال الأعداء، إنْ كُنْتُمْ لا قدرة لكم على القتال ولا أمل لكم بالنصر فأنتم معذورون، ولكن طالما لديكم القوة الكافية فلا عذر لكم بالاستسلام والقبول بما يفرضه عليكم عدوّكم، وأنتم مدعومون منه تعالى الذي لن يترككم بل سَيَنْصُرُكُمْ...

(إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ{36})
{إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا}، التي تعيشونها الآن هي فقط، {لَعِبٌ}، مجرد تمضية للوقت في أمور غير أساسية بقصد التسلية، وهي فقط، {وَلَهْوٌ}، تمضية الوقت في شيء وهناك شيء أهم لتقوموا به، {وَإِنْ تُؤْمِنُوا}، تُعْلِنُوا اعتقادكم والتزامكم بهذا الدين، {وَتَتَّقُوا}، تَتَحَاشَوْا وتَتَجَنَّبُوا، والكلام عمومي لتجنبكم أي سوء يسبب غضبه تعالى، {يُؤْتِكُمْ}، يصير معكم منه تعالى، يُعْطِيكُمْ، {أُجُورَكُمْ}، البدل الذي حدّد تعالى أنكم تستحقونه عن إيمانكم وأعمالكم الحسنة، {وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ}، لا يُعَبِّرُ سبحانه لكم عن إرادته للحصول على أموالكم مقابل ذلك الأجر، إذْ أَنَّكُمْ لا تشترون منه تعالى الأجر بدفع المال له تعالى.

ما تَرَوْنَهُ هنا في الدنيا من سعادة تريدونها وتتعلقون بها فهي موصوفة بأنها لعب ولهو أمام السعادة الحقيقية التي في الآخرة، وللحصول على ما في الآخرة عليكم بالإيمان والعمل الصالح، وليس مَطْلُوباً منكم تجميع المال لتدفعوه للحصول على ما في الآخرة.

لأوّل وهلة تَبْدُو لك غريبة فكرة شراء حصّة لك في الجنة، هذا لأنك مشحون بثقافة دينية علّمتك أن الإيمان والعمل الصالح أجرهما الجنّة، لا تَنْسَ أنك تعلّمت هذا من القرآن وهَا أَنْتَ ترى آيتنا التي علّمتك ذلك بشكل صريح، وقَدِيماً في بعض ديانات المشركين الذين كانوا يعتقدون بنوع ما من الحياة بعد الموت... كانوا يضعون مع الميّت الأموال ليشتري بها ما يحتاجه في الحياة من بعد الموت... ونسمع من هنا وهناك في التاريخ وفي عصرنا عن بعض المسلمين والمسيحيين الذين يضحك عليهم أحد ما ليبيعهم قطعة أرض في الجنّة! يَأْخُذُ منهم المال ويعطيهم ورقة مَكْتُوباً عليها أن لهم حصّة في جنّة الآخرة... ومضافاً لذلك حياتنا العادية اعتدنا فيها الحصول على ما نريده بالمال... تأتي الآية هنا وبصراحة واضحة لتخبرنا أننا لا يمكن ولا بأي شكل أن نشتري بالمال ما في جنّة الآخرة، وفرضاً لو عرضها تعالى للبيع...:

(إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ{37})
{إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا}، إذا فَرْضاً عبّر لكم سبحانه عن إرادته للحصول على مالكم مقابل الجنّة في الآخرة، {فَيُحْفِكُمْ}، على معنى أحفى الشارب أي استقصاه، يَأْخُذُ منكم الكثير من الأموال مقابل الجنّة، عندها، {تَبْخَلُوا}، تُفَضِّلُوا وتختاروا الاحتفاظ بالمال، {وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ}، يَجْعَلُ سبحانه عامة المشاعر السيئة الكامنة في داخلكم تظهر للعلن.

لو فَرْضاً جعل تعالى الجنّة مقابل دفع المال، فَسَيَكُونُ المبلغ كَبِيراً جِدّاً، وهذه النوعية من الناس ليسوا مستعدين لدفع مبالغ طائلة لدخول الجنّة، وستخرج كل المشاعر السيئة من داخلهم إن كانت الجنّة لنشتريها بالأموال الطائلة، سَيَعْتَرِضُونَ ويكفرون ويعلنون كرههم لهذا الدين...

ضع في بالك أن الآية تفترض أنه لو كان للجنة ثمن فَسَيَكُونُ غَالِياً جِدّاً، والمؤمن بها سيدفع كل ما يملك ليشتريها، أمّا هؤلاء فسوف يبخلون، وفوقهُ سَيَظْهَرُ كرههم لدفع المال لشراء الجنّة، وسترى تكملة الكلام عنهم في الآية التالية:

(هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ{38}
{هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ}، كما نقول بالمفرد للمخاطب: ها أنت نفسك، ها أنت ذا فعلت كذا... ها أنتم أنفسكم مثالٌ على ما قيل في الآية السابقة عمّن يبخل... {تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا}، يُشْهِرُ ويُعْلِنُ لكم سبحانه أن تصرفوا وتقدّموا، أموالكم {فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، فيما يرضاه تعالى في مسلك على أوامره تعالى، وهذا العنوان عامّ ويشمل الزكاة والصدقات على الفقراء أو لشراء السلاح والمؤنة لقتال العدو وغيره، {فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ}، بَعْضُكُمْ يحب الاحتفاظ بماله ولا ينفق مِنْهُ، مع العلم أنه يمكنه الإنفاق ولن يصير فقيرا إذا أنفق من ماله فيما يأمره به تعالى، فلو كان ماله قليلا بالكاد يكفيه ولم ينفق فهذا ليس بخيلا، لِأَنَّ الأمر بالإنفاق موجه لمن لديه مال زائد عن حاجته... {وَمَنْ يَبْخَلْ}، مَنْ يقرّر الاحتفاظ بماله حبّا به بدل إنفاقه في سبيل الله تعالى فِي الحقيقة، {فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ}، فَقَطْ على أمور هو يحتاجها بخل عليها ولم يصرف ماله ليحصل عليها، لِأَنَّ هُنَاكَ أجراً عظيماً في الآخرة لمن أنفق هنا في سبيله تعالى، وحين بخل عن الإنفاق في سبيله تعالى فقد بخل عن الحصول على أجر له في الآخرة، ومن ناحية ثانية عَمَلِيّاً وبسبب بخله عن دعم الحرب... فسينتصر الأعداء، وسيضطر لاتباع دينهم الفاسد، ولن يرحموه قتلا أو تعذيبا أو مذلة... لا هو ولا أرحامه، وسيتسلطون على أموالهم وعلى مقدرات وخيرات بلدهم...

بالنسبة للتعبير ببخلهم عن الإنفاق في سبيله تعالى، هُنَاكَ عمق تشير له بعض الآيات، إِذْ إِنَّ الأوصاف الإنسانية تفقد معناها إن لم يعد الموصوف بها إنسانا بكل ما للكلمة من معنى، كما ورد في الآية 171 من سورة البقرة {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}، الْكَلَامُ عن أناس لهم فم ولسان وعيون وعقل، وهي أدوات تريك الحقّ بشكل واضح، فما معنى الاتّصاف بها إن كنت ترفض استعمالها كما صمّمها تعالى وقَرَّرْتَ التعامي عن الحقّ الذي تراه، وقرّرت النطق بالسوء الذي تعلم سوءه؟ وَوَصَفَ تعالى هذه النوعية من الناس بالأنعام في الآية 44 من سورة الفرقان {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا}، حَيْثُ سَحَبَ تعالى عنهم وصفهم بالإنسانية.

ونفس الشيء عن الاتِّصَافِ بالحياة، يَفْقِدُ معناه الحقيقي إن لم تكن الحياة بمعناها الحقيقي الذي له قيمة محترمة، كالذين ورد وصفهم في الآية 122 من سورة الأنعام {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا}، حَيْثُ رَبَطَتِ الآية وصف الحياة بالنور، وبالتالي سحبت الوصف بالحياة عمّن في الظلمات، ونفس المعنى ورد في الآية 70 من سورة يس {لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ}، لِأَنَّ مَنْ لم ينفع معه الإنذار فهو لا يحمل صفة الحياة بما لها من معنى حقيقي تفاعلي مع الحقّ والخير والصلاح، ومن ناحية ثانية مَا ورد في الآية 74 من سورة طه {إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى}، وما ورد في الآية 64 من سورة العنكبوت يريك أن معنى الاتِّصَافِ الحقيقي بالحياة هو التمتّع بها لمن كان لديه رغبات وشهوات {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}، إِذْ إِنَّ مَا نحن موصوفون به من حياة هنا في الدنيا لا يسمّى حياة بكل ما للكلمة من معنى للتمتّع بالشهوات والرغبات بالمقارنة مع الحياة في الجنّة، حَيْثُ لَا خوف من الموت ولا مرض ولا إصابات جسدية ولا ألم...

وعلى هذا النَّسْجِ نفهم ما ورد في الآية 179 من سورة البقرة {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، وما ورد في الآية 24 من سورة الأنفال {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}... إِذْ فِي هذه الآيات كلام عن الحياة الدنيا التي ستفقد معناها إن لم تكن آمنة وسعيدة، وإن لم تكن في طريق الحق، ولم يحصل منها كسب لثواب نافع في الآخرة.

من هذا العمق ترى الكلام هنا عن البخيل أَنَّهُ يبخل عن نفسه، فِي الظاهر يرى إنفاقه للمال على أمور لن يستعملها هو ولن يأكلها... فلا يرى أنه يبخل على نفسه لِأَنَّ لديه ما يحتاجه لحياته الدنيا مما اشتراه بماله، ولكن ولأنه لم ينفق على الفقراء، فهذا سيؤدي إلى فلتان أمني وسيصير سَلْبٌ ونهب وخوف وقتل... في المجتمع، ولن يكون البخيل بالأمان وسَيَطَالُهُ ذلك، وإن لم ينفق على قتال الأعداء، فسينهزم قومه ويصير تحت الاحتلال وسيسرق المحتلون أمواله وخيرات بلاده... وسيجبرونه على ترك تطبيق دينه، وسيخسر الآخرة...

أَيْضاً أكون غنيا وأنفق في سبيله تعالى ضامنا لنفسي ولأولادي أننا إن صرنا فقراء فالآخرون سينفقون على حاجاتنا... إِذْ إِنَّهُ نوع من التكافل الاجتماعي...

مِنْ ناحية ثانية الْبَخِيلُ متاح له كسب الحسنات من الإنفاق، وسيحرم نفسه منها إن لم ينفق، فهو يبخل على نفسه بحرمانها من الثواب كما يبخل على نفسه فلا يصرف أمواله فيما ترغبه به نفسه ويَحْتَاجُهُ، وتقرأ هذا المعنى صريحا في الآية 180 من سورة آل عمران {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}.

نرجع للآية، {وَاللَّهُ الْغَنِيُّ}، مُسْتَغْنٍ لَا يحتاج لأي شيء بتاتا، ولَا يحتاج لأموالكم ولا لأي شيء منكم ولا من غيركم، {وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ}، إِذْ تنقصكم الأشياء وتحتاجونها، وأَنْتُمْ بحاجة لما يقدّمه تعالى لكم، وأَنْتُمْ بحاجة لما تقدّموه لأنفسكم في الآخرة عبر الْإِنْفَاقِ في سبيله تعالى، وأنتم بحاجة للإنفاق العسكري حتى تحموا أنفسكم، وأنتم بحاجة للتكافل المالي حتى تعيشوا بكرامة...

{وَإِنْ تَتَوَلَّوْا}، إِذَا توجّهتم باتجاه آخر ولَمْ تطيعوه تعالى في عموم ما يأمر به، وهنا الكلام بالخصوص عن قتال الأعداء وعن الإنفاق في سبيله تعالى على مسألة القتال... {يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ}، يَأْتِي سبحانه بأناس لهم كيان الجماعة غيركم، {لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}، لَا يشبهونكم في التصرف والعقلية، وَيَكُونُونَ مؤمنين حقيقيين.

بعبارة أخرى، إِذَا خطر ببال أحد منكم أن أوامره تعالى مستحيلة على التنفيذ وصعبة، فهذا غير صحيح، وإن خطر ببالكم أنه تعالى يحتاج لأموالكم فهذا غير صحيح... وإن خطر ببالكم أنكم أنتم شيء مهمّ بالنسبة له تعالى فإن لم تطيعوا أوامره فسيخسركم ويفقد المؤمنين به... فهذا أيضا غير صحيح، إِذْ إِنَّ الحياة ستستمر، وسيأتي قوم مؤمنون حقا، ولا يَكُونُونَ أمثالكم شبيهين بكم، فَيَكُونُ إيمانهم حَقِيقِيّاً وَيَكُونُونَ مستعدين لتنفيذ كافّة الأوامر الإلهية بكل أنواعها.

إذاً انحيازه تعالى للمؤمنين ضدّ الكافرين مشروط بكامل الإيمان والعمل الصالح، لِأَنَّ تَرْكَ الأمر الإلهي بقتال الكافرين الصادين عن سبيله تعالى، وترك الإنفاق على هذا القتال، هو كفر بشيء أساسي يجعل المنتمين بالاسم لهذا الدين يخرجون من تمييزه تعالى لهم، وسبحانه غني عن كل مخلوقاته ومن كل النواحي، فَرْضاً لو مرّت مليارات السنين على حياة البشرية من أولهم لآخرهم ولم يؤمن ولا واحد منهم به تعالى، فهذا لا يعني أي شيء له تعالى، إِذْ كُلُّهُمْ سيتحاسبون ويتجازون فِي الآخرة وسيرميهم سبحانه في النار... وإن مرّ واحد مؤمن فبحسب درجة إيمانه سينال العناية الإلهية المميزة، وَالَّذِينَ يعطون لأنفسهم أهمية على أساس أنهم ينفعونه تعالى ويهمّه أمرهم لأنهم أعلنوا الانضمام لدينه، فهذا كلام فارغ لأنه تعالى يعطي القيمة للمؤمن بالحقّ العامل للصالحات، لِأَنَّ هَذَا فِعْلاً له قيمة.

بِالنِّسْبَةِ لوصفه تعالى بالغني لَيْسَ تَفْسِيرُهُ أنه تعالى يملك كل شيء وبالتالي يصير المعنى أنه سبحانه يملك ما يحتاجه، فهذا غير صحيح، لِأَنَّ كَلِمَةَ "غني" تفيد معنى الاستغناء، وهو عموم انتفاء عموم الحاجة لعموم أي سبب، إمّا لأنك لا تحتاج أصلا للشيء، وهذه حالته تعالى "الغني" بالنسبة لكل شيء، وحالة الملائكة بالنسبة لطعامنا... أو غني لأن لَدَيْكَ ما تحتاجه وهذه حالتنا حين نملك الطعام والشراب... أو غني لِأَنَّكَ تملك ما يمكّنك من الحصول على ما تحتاج، وهذه حالتنا حين نملك المال لنشتري به ما نحتاجه. وترى هذا المعنى للاستغناء بشكل مباشر وواضح لأصل معنى كلمة

"غني" في تعبير {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} كما ورد في الآية 97 من سورة آل عمران، بِوُضُوحٍ يشير الوصف بالغني للاستغناء، لَا حاجة له تعالى بهم ولا بإيمانهم ولا يتضرّر منهم مهما فعلوا.

سورة الفتح (48) ص 511
من مضمونها يبدو أنها نزلت مباشرة بعد صلح الحديبية وقبل فتح خيبر.

تمحورت السورة حول انحيازه تعالى لرسوله (ع) وللمؤمنين، واتّخذت من حادثة صلح الحديبية وما سيليه من فتح خيبر نموذجاً عن تأييده تعالى للمؤمنين كولي وناصر لهم بأفضل ما يناسبهم.

رَكَّزَتِ السورة على سبب انحيازه تعالى للمؤمنين ضد الكفّار، ووجهت كلاماً للمتخاذلين عن القتال من المنتمين للمؤمنين... وعرّجت على الوعد الإلهي في الآخرة بالجنّة للمؤمنين والعذاب للكافرين والمنافقين.

تجد فيها أن الأمور ليست متروكة للصدف بل تحصل بتوجيه وتقدير إلهي بناء على كونه تعالى ولياً وناصراً للمؤمنين، وما يبدو أنه مجريات أحداث عادية أدّت إلى توقيع الصلح المهمّ جداً مع قريش إنما هو بتقدير منه تعالى للأمور لتصل إلى هنا...

في السورة خبران غيبيان حصلا من بعد نزول السورة، وهما فتح خيبر وفتح مكّة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً{1}}
{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ}، كان هناك شيء مغلق موصد أمامك فتحه تعالى لك وصِرْتَ فيه وصار متاحًا لك، {فَتْحًا مُبِينًا}، بكل ما تعنيه كلمة فتح من معنى بشكل واضح لا غبار عليه، وكلمة الفتح عندما تستعمل في النشاط الحربي معناها حرفيًا يدل على فتح مدينة الأعداء ودخولها منتصرًا عليهم، وانتشار النفوذ على مناطقهم، وسترى من بقية السورة أن الفتح هنا هو المكاسب التي حصل عليها المسلمون من صلح الحديبية حيث انفتحت أمامهم كل المناطق غير المتحالفة مع مكّة لتصير متاحة لهم لبسط نفوذهم عليها.

قبل الدخول في السورة لنراجع بعض المعلومات التاريخية المتعلقة بالأحداث التي ستشير إليها السورة، مِمَّا هو مشهور في التاريخ، أن أوائل المسلمين كانوا في حالة ضعف شديد وبالكاد يقدرون على الدفاع عن أنفسهم بالكلام بسبب صلافة وجلافة وبذاءة... الكفّار، وذلك حين كان النبي محمّد(ع) لا يزال في مكّة، وبعدما هاجر النبي(ع) إلى يثرب "المدينة"، صَادَرَتْ قريش أملاك المسلمين في مكّة وحرّضت جميع العرب على مقاطعة المسلمين والاعتداء عليهم بكل الطرق... حَصَلَتْ مناوشات مع عموم الكفّار على طريقة حرب العصابات، بعدها اعترض المسلمون قوافل قريش التجارية... وَوَقَعَتْ معارك حقيقية "بدر وأحد..."، ولكن لم يحصل حسم فعلي حقيقي للمسلمين ضد الأعداء، وَبَقِيَ انتشار نفوذ المسلمين ضيّقًا جدًا محصورًا بمدينة يثرب وما جاورها لجهة البحر الأحمر، وأي مسلم خَطَا خارج مدينة يثرب صار هدفًا لكل من يصادفه من الكفّار، ولا يمكنه التجارة ولا رعي ماشيته خارج حدود يثرب... وكل ذلك لأن قريشًا وحلفاءها داعمون لكل مُعَادٍ للمسلمين... ثم حصل الهجوم الفاشل لقريش وحلفائها على مدينة يثرب التي حصّنها المسلمون بخندق من الجهة المفتوحة... وسميت تلك الحادثة بمعركة الأحزاب أو معركة الخندق، وتلك الهجمة حصلت بتحريض من قبيلة بني النضير اليهودية التي جرى طردها من مدينة يثرب بعد معركة أحد، وقد حاولت قبيلة بني قريظة اغتيال النبي(ع) أثناء معركة الخندق... وبعدما انتهت معركة الخندق بانسحاب الكفّار عن المدينة... قاتل (ع) بني قريظة وأنهى وجودهم في مدينة يثرب...

بعدها بسنة، أخذ الرسول(ع) قراره بالتوجّه إلى مكّة بشكل سلمي لأداء العمرة أو الحجّ هو والمسلمون، بَعْضُهُمْ يقصد الحجّ وبعضهم يقصد العمرة، والعمرة طقوس تتضمّن الإحرام والطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة، ولا تتضمّن بقية مناسك الحج من الوقوف بجبل عرفات والرجم في منى وتقديم الهدي... وكان هذا القرار بالحج على أساس

أن قريشًا لم يسبق لها من قبل أن منعت حاجًّا "قاصدًا لمكّة" من الدخول إلى مكّة، حيث كانت حياتهم الاقتصادية تعتمد على شراء الحجّاج للبضائع من سوق تجّار مكّة، وفي الباطن كان انطلاق النبي(ع) هذا يهدف لإيجاد حلّ مع أكبر مشكلة للمسلمين، لأنَّ كل من عاداهم اعتمد على دعم قريش وحلفائها، وهؤلاء فشلوا في معركة الأحزاب من تحقيق الانتصار على المسلمين... لِذَا لا بد من إيجاد حلّ مع قريش التي تتضرّر أيضًا من العداء مع المسلمين الذين يشكلون خطرًا على قوافلها التجارية... أصدر الرسول(ع) أمره لكافة المسلمين بالانضمام إليه بسلاحهم العادي من سيوف وخناجر بدون دروع وتروس وخوذ ونبال... وبجهاز للحج "القصد مكّة"، وبهذا الشكل بالسلاح العادي هي خطوة تبدو انتحارية، لأنه من المحسوم أن قريشًا لن تسمح للمسلمين بدخول مكّة وستبيدهم لأنهم ليسوا مسلّحين بشكل مناسب لمعركة... وَتَعَذَّرَ الكثير من المسلمين بمشاغلهم حتى لا يلتحقوا بقافلة يبدو أنها ذاهبة إلى الانتحار... وتحدّثت السورة هنا عن هؤلاء المتخاذلين...

بِحَسَبِ ما هو مشهور انطلق المسلمون في شهر ذي القعدة "وهو من الأشهر التي يجوز فيها الحجّ بالإضافة إلى شوال وذي الحجّة"، ووصلوا إلى حدود مكّة إلى منطقة تسمّى الحديبية، وَاعْتَرَضَتهُمُ الكفّار بشكل عدائي، والتزم المسلمون بأوامر الرسول(ع) بأن لا يردّوا على أي استفزاز، وأعلنوا لكفّار مكّة أنهم حجيج فقط لا غير، ولم يَرْضَ كفّار مكّة بذلك... والأجواء صارت حرجة ويكاد الاستفزاز يتحوّل إلى قتال... وَأَمَرَ الرسول(ع) المسلمين بمبايعته على الثبات معه مهما حصل، فإن أمرهم بالقتال قاتلوا وإن أمرهم بتحمّل ما سيفعله الكفّار صبروا... وتحدّثت السورة هنا عن تلك البيعة "بيعة الشجرة أو بيعة الرضوان"...

في المقابل حصلت بلبلة في مكّة، لِأَنَّ قتل الحجّاج سيكون سابقة لم تحصل من قبل، وسيفقد أهل مكّة زبائنهم الحجّاج من بقية العرب إذا انتشر خبر قتلهم للحجيج المسالمين... وبين أهل مكّة مؤمنون مستضعفون يخفون إيمانهم... وبينهم كفّار لهم أقارب من المسلمين ولا يريدون الحرب معهم وقتلهم... وَدَعَمَ هؤلاء معارضة القتال والبحث عن حلّ سلمي... وبعد أخذ وردّ بين وفود المفاوضات من المسلمين المصرّين على أداء الحجّ أو العمرة، وبين قريش الرافضة والطالبة لهم بالتراجع أو القتال... استقرّت الأمور على عقد صلح وقّعه المسلمون وكفّار قريش في منطقة الحديبية، وَاشْتَهَرَ ذلك الصلح باسم: صلح الحديبية.

أهمّ نقطة في ذلك الصلح كانت الهدنة لمدة عشر سنين بين قريش وحلفائها والمسلمين وحلفائهم، عندها أمن المسلمون من أي هجوم لقوة كبيرة على مدينتهم، وانفتح الطريق أمامهم للتوجّه لقتال اليهود الذين خانوا عهودهم مع الرسول(ع)... وصار بإمكانهم التفرّغ لنشر الدعوة على بقية العرب الذين صاروا مضطرين "وبحسب ما نصّ عليه صلح الحديبية" إمّا للانضمام لقريش أو للرسول(ع)، وَفَضَّلَ عديدون الانضمام للرسول(ع) سلميًا... وبالنسبة لأداء الحجّ أو العمرة اتفقوا على السماح للمسلمين في السنة التالية بأداء مناسكهم مع خلو مكّة خلال مدة المناسك "يومين أو ثلاثة..."، خلوها من أي مقاتل قرشي تحاشيًا لأي عناصر غير منضبطة قد تسبب قتالًا... وهكذا لم تنكسر شوكة قريش وَلَمْ يدخل المسلمون مكّة في الوقت الذي هم حدّدوه، ولم تنكسر هيبة المسلمين حَيْثُ فرضوا على القرشيين "الأعداء اللدودين" السماح لهم بدخول مكة...

من بعد صلح الحديبية الضامن للأمن من أي هجوم من قريش، صار الهجوم على اليهود الخائنين للعهد سهلًا على المسلمين، وَبَشَّرَهُمْ تعالى بفتح خيبر والحصول على غنائمها كثواب لمن التزم ببيعة الشجرة "التي صار اسمها بيعة الرضوان بعد نزول هذه السورة"... وتحدّثت السورة هنا عن ذلك ببعض التفاصيل من وجهة نظره تعالى للأمور.

بعد قرابة الشهر أو الشهرين من توقيع صلح الحديبية بدأت معارك خيبر وانتهت بعد أشهر قليلة بانتصار ساحق للمسلمين بانتشار سلطتهم على مساحة كبيرة من الأراضي الزراعية والماشية والأموال والأسلحة... وبعدها بسنة ونصف تقريبًا خان حلفاء قريش صلح الحديبية، وَانْطَلَقَ المسلمون وفتحوا مكّة، واستسلمت بعدها هوازن وثقيف... وهما قبيلتان رئيسيتان في المنطقة المجاورة لمكّة... وَتَوَسَّعَتْ رقعة نفوذ المسلمين بشكل كبير جدًا في وقت قصير جدًا...

على هذا الأساس، تكون افتتاحية السورة هنا {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا} تشير إلى أهم حدث في تاريخه (ع) وهو صلح الحديبية الذي وبتقدير الكثيرين كان ثاني أهم مفصل تاريخي إسلامي من بعد معركة بدر، حيث انفتح أمام المسلمين كلّ شيء وصولًا فيما بعد إلى فتح مكّة...

كما ترى صغت لك الأحداث بتسلسل حصولها التاريخي، أمّا السورة فتصيغها من نظرته تعالى على أساس أنها حصلت بتقديره تعالى بسبب انحيازه للمؤمنين الموالين له وبالتالي فهو تعالى وليّهم وناصرهم وَجَرَى ما جرى على هذا الأساس... ومرارًا لفتنا الانتباه لقصّة النبي يوسف(ع) كأبرز نموذج عن تدخّله تعالى بمجريات الأحداث بشكل لا نراه حتى وصل النبي يوسف(ع) إلى مصر ليكون رسولًا إلهيًا فيها كما تقرأ في الآية 21 من سورة يوسف {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}، والآية 56 أيضًا من سورة يوسف {وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}، وهنا سترى أنه تعالى هو تدخّل في مجريات الأحداث حتى تصل الأمور إلى الفتح المبين، وبعض تدخّلاته سبحانه واضحة، كأمره تعالى لرسوله(ع) بمنع المتخاذلين عن الحديبية من الذهاب معه إلى خيبر... وبعض تدخلاته الأخرى سبحانه لا نفهمها ولكن نرى نتيجتها...

(لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{2})
{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ}... {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ}، حتى يتجاوز سبحانه ولا يحاسبك على {مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ}، ما قمت به سَابِقًا من أمور مخالفة لأوامره تعالى، قبل الفتح، {وَمَا تَأَخَّرَ}، وفيما سيأتي بعد الفتح سيتجاوز سبحانه عنه فلن يحاسبك على المخالفات التي ستقوم بها.

{وَيُتِمَّ}، يكمل سبحانه بلا انقطاع، {نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ}، وستستمر الأشياء التي توصف بأنها نعمة جيدة التي تحصل عليها منه تعالى، ومن القرآن تعلم أنها المغفرة ويليها زيادة الهدى والتسديد الإلهي والعون وقبول الأعمال الحسنة ومضاعفة الأجر عليها...

{وَيَهْدِيَكَ}، ويضعك سبحانه على الشيء الصحيح الذي يوصلك للغاية الصحيحة، {صِرَاطًا}، طريقًا أساسيًا، {مُّسْتَقِيمًا}، يوصف بأنه على الأحسن فلا انحراف فيه ولا اعوجاج فيه، وهو يوصلك بالتمام إلى الهدف الصحيح، وفيه رضاه تعالى عليك، ونهايتك تكون إلى الجنّة.

نتذكّر من القرآن أن العمل السيئ يبقى توصيفه سيئًا حتى لو حصل من دون قصد، فلو عن غير قصد آذيت أحدًا ما، وقع فعل سيئ، يغفره تعالى لك إن كنت مؤمنًا لأنك لم تقصده، وراجع في ذلك الآية 286 من سورة البقرة حيث يعلّمنا سبحانه أن نطلب منه أن لا يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا... وتجد في القرآن عدّة آيات تتحدّث عن استغفار الرسول محمّد(ع)، وبحسب ما وصف القرآن شخصية النبي محمّد(ع) "وبقية الأنبياء" من المحسوم أنهم كلهم لا يقومون بعمل سيّء عن قصد وعن معرفة بأنه سيّء، ولكن قد يقومون به بدون انتباه أو من مخادعة الناس أو بالخطأ... خذ مثلاً ما اشتهر في التاريخ من فعلة خالد بن الوليد بقتله لأناس مسلمين "والتي حصلت بعد نزول هذه السورة"... والتي تبرّأ الرسول(ع) منها، وهو(ع) المسؤول عن هذه السيئة لأنه (ع) هو من أمّر خالدًا وأرسله، صحيح أنه (ع) لم يقصد أي سوء، ولم يكن يعلم بما سيحصل، ولكنه مسؤول عن هذا السوء... وغيرها القليل من الأحداث السيئة التي وقعت، وراجع سورة التحريم كمثال عن ذلك، وأيضًا راجع الآية 43 من سورة براءة {عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ} وهما نموذجان واضحان عمّا قلناه، وهنا الآية تخبرنا أن هذه الذنوب غفرها تعالى لرسوله(ع) كنموذج لشخص على الأكيد لن يرتكب السوء عن قصد فيما بعد أيضًا.

نلاحظ أن القرآن لم يقل عن أحد من الناس أن ذنوبه التي سيرتكبها في المستقبل مغفورة، لأن هذا نشعر منه أنه سيعطيه رخصة لفعل ما يشاء طالما المغفرة مضمونة، وماذا لو ارتكب المؤمن ذنبًا ولم يتب منه؟ وماذا لو ارتكب كبيرة فقتل نفسًا بريئة؟... وهكذا نفهم أن كلام الآية عن مغفرته تعالى للذنوب التي مضت أنه مفعول رجعي ناتج عن النجاح الذي تحقّق على أيدي المسلمين "بالفتح"، والمغفرة للذنوب التي ستأتي هو استمرار لمفعول نجاحهم، وليس

رخصة لهم لفعل الذنوب، في النهاية فإن ذنوب المؤمن التي تاب منها أو فعلها نسيانًا أو جهلًا أو عن غير قصد... سيغفرها سبحانه...

بقي شيء تراه بوضوح، سبحانه منّ على المسلمين بالفتح الناتج عن صلح الحديبية ولكن الآية هنا تريدك أن ترى تقييمه العالي وتقديره سبحانه للجهود التي بذلها الرسول محمّد(ع)، ومغفرة الذنوب وإتمام النعمة والهداية تعرضهم الآية كجائزة له (ع) على إنجازاته.

بعد قليل في الآية الخامسة سترى تقديره تعالى لما فعله بقية المؤمنين، لذا نفهم أن فصلهم عن الرسول(ع) المقصود منه الدقّة، لأن الرسول(ع) هو الأرقى إيمانيًا بينهم، ومن علمه تعالى بالغيب أن رسوله(ع) لن يقوم بالسوء عن قصد، وبتعبير نتساهل به نقول إنه تعالى "بكل ثقة" يقول لرسوله في الآية هنا أن ما سيأتي من ذنوب يفعلها(ع) ستكون مغفورة لأنها بالتأكيد لن تكون عن قصد، أمّا المؤمنون الآخرون فلن يتحدّث سبحانه معهم بهذه الطريقة، وفي الآخرة يعدهم بتكفير سيئاتهم هناك إن استمرّوا على الإيمان والعمل الصالح...

(وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً{3})
{وَيَنصُرَكَ اللَّهُ}، يجعلك تحقّق ما تريده، وتغلب أعداءك، {نَصْرًا عَزِيزًا}، بكل ما تحمله كلمة نصر من معنى ومن بعده سيكون الآخرون ذليلين لك وأنت ستكون العزيز، وستنتفي عنك عموم الذلّة بأي شكل كان، وستفرض إرادتك على الآخرين... وتنتصر وتبقى قويًا مسيطرًا ومهددًا لأعدائك الآخرين...

(هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً{4})
{هُوَ} الله، {الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ}، الهدوء والخلو من أية أفكار أو مشاعر غير مريحة، {فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ}، في أساس تفكيرهم ونفسيتهم، ولم تخطر ببالهم أية أفكار أو أحاسيس غير مريحة، {لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ}، حيث إنهم أصلًا معتقدون بدينه تعالى ولكن عند المرور في ظروف صعبة تبدأ الأفكار والأحاسيس السيئة تتحرّك، كالخوف من الموت أو الجرح أو الهزيمة أو الوقوع في الأسر... ولكن بمساعدة إلهية لهم سكنوا وازداد إيمانهم لأنهم لا يهمّهم ما سيحصل ويهمّهم فقط رضاه تعالى.

قارنها مع ما سيأتي في السورة من كلام عن المتخلّفين عن الذهاب مع الرسول(ع) إلى الحج... الظانين بالله تعالى ظنّ السوء.

مما سيأتي في السورة الكلام عن خصوص السكينة التي نزلت أثناء المواقف الصعبة التي تعرّض لها المسلمون من استفزازات كفّار قريش لهم في الحديبية... ولا مصلحة حينها للمسلمين بالحرب على كفّار مكّة "بحسب ما سيأتي في السورة" لأن في مكّة مؤمنين مستضعفين لا يستطيعون الهجرة... ولن يميّزهم المسلمون عن الكفّار وسيقتلونهم إن نشبت المعارك...

{وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، هناك مخلوقات ملتزمة بتنفيذ أوامره تعالى، وتنفذ كل ما يطلبه سبحانه منها، ونسبهم تعالى لنفسه أنهم جند له كمدح لهم، وهنا تقصد المؤمنين المعاصرين للنبي محمّد(ع) كنموذج عن جنوده تعالى في الأرض، لأنهم حقّقوا فتحًا إلهيًا، وهنا الآية أيضًا خبر عن وجود جنود له تعالى من مختلف أنواع المخلوقات، وأول ما يخطر ببالنا الملائكة(ع) كجنود لله تعالى في السماوات والأرض، ويمكنك أن تضيف لهم جنود الجنّ المؤمنين هذا إن كانت تركيبة عالمهم وتعقيدات حياتهم تتضمّن حدوث معارك بين الجنّ المؤمنين والآخرين.

{وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا}، يعلم كل شيء، وهنا عن علم أنزل سبحانه سكينته، وعن علم لم يأمركم بالقتال وعن علم أجرى توقيع الصلح... {حَكِيمًا}، بالصوابية دائمًا يتعامل مع الأمور، لأن الفتح والمغفرة والسكينة... وعموم جريان الأمور لوصولها إلى الصلح... كلها قرارات إلهية نبعت عن حكمته تعالى، عن رؤية الصوابية في الأمور.

لاحظ وانتبه جيدًا، سبحانه وتعالى شؤونه الذاتية إلهية المستوى، وشؤونه مع الملائكة وهي كائنات بقدرات عالية وصفات كريمة، ستكون شؤونه تعالى مع الملائكة بمستوى شؤون الملائكة وتعقيدات حياتها بما يناسب قدراتها وتكوينها، حيث وظّفهم سبحانه لأعمال تخص مخلوقاته...

أمّا شؤونه تعالى معنا نحن البشر فهي بمستوى شؤوننا، وفي بعض كلامه تعالى معنا في قرآنه ترى شؤونًا من مستوى منخفض، ككلامه تعالى معنا عن سوء الغيبة، ومن ناحية قد تسأل: هل الإله بعظمته يهتم بكلامي بالغيبة الصغيرة عن شخص أكرهه وسيعاقبني عليها؟ وتَرَكَ كل شيء من الأمور المهمّة وسيركّز عليّ فيما أقوله من كلام تافه؟

نعم الموضوع تافه لأننا نحن تافهون، لو كان مستوانا أعلى لكان حديثه تعالى معنا لا يتضمّن أمثال هذه المواضيع التافهة. ونفس النظرة عن تعامله تعالى مع الناس عبر التاريخ بالآيات التي جرت على أيدي الأنبياء، وبما فعله تعالى من عذاب ببعض الأقوام... لأن مستوانا المنخفض نحن يستوجب التعامل معنا بمستوانا.

تسع آيات لفرعون وقومه ومن مختلف الأنواع، فقط ليتركوا بني إسرائيل يغادرون مصر بسلام، حيث تقصّد منها تعالى أن نرى المستوى المنخفض للمصرّين على التكبّر والكفر بأوضح الواضحات...

هنا الكلام عن مستوانا نحن، لأن الفتح بصلح الحديبية هو على مستوانا نحن البشر حدث مهم، ولذلك أعطاه تعالى أهمية، ونفس الكلام عن تسبيحه تعالى لنفسه بإسرائه بعبده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما تقرأ في الآية الأولى من سورة الإسراء {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، سبحانه خالق السماوات والأرض وهو على كل شيء قدير، ولكن ذلك الإسراء هو بالنسبة لنا شيء غير عادي، ولذلك صاغ تعالى الحدث ليؤكد لنا أنه حدث غير عادي، ومثله وصف تحوّل العصا لحية كما ورد في الآية 23 من سورة طه {لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى} وتحويل الخشبة فورًا إلى حيوان هو بالنسبة لنا آية كبرى.

هكذا نفهم أنه تعالى تعامل مع الشؤون البشرية تاركًا لها على قيمتها البشرية، حيث تسمع بعضهم يفترض سيناريوهات مختلفة يراها أنسب مما فعله تعالى، متناسيًا متجاهلًا مستوانا نحن ومفترضًا مستوىً عاليًا لسنا موصوفين به، ويقترح ما يجعل الأمور تخرج عن طبيعتها البشرية، مثلاً يقترح لو أنه تعالى نقل بني إسرائيل من مصر فجأة وبسرعة بدلًا من المحاولات الطفولية الساذجة بإقناع فرعون عبر آيات الحية والقمل والضفادع... واستعملت عباراتهم لأريك أن الموصوف بالطفولية والسذاجة هم فرعون وقومه وسبحانه تعامل معهم من مستواهم المنخفض هم ليريك مستواهم هم.

وإلا لو تعامل تعالى معنا بمستوى مختلف، لما بقي شؤون إنسانية في حياتنا، فبنو إسرائيل من المفروض أن يتعرّضوا لبلاء فرعون لأنهم مع الآخرين تركوا الأمور تجري بحيث تحكّم بهم طاغية... وبعدها يتبيّن لك المستوى المنخفض للعديدين من بني إسرائيل بعبادتهم للعجل في رحلة الذهاب إلى أرض بعيدة عن حكم المصريين...

أطلت لك الكلام هنا لترى أن ما سيأتي في سورتنا هذه من تقييم إلهي عالٍ لأفعال المؤمنين والتزامهم، وتقييم منخفض لآخرين... هو تعامل معنا بمستوانا البشري، بما له من قيمة عندنا من أفعالنا سوءًا أو خيرًا.

(لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً{5})

{لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ}، يَجْعَلُ سبحانه الذين أعلنوا أنهم معتقدون ملتزمون بهذا الدين وشاركوا بالفتح ونالوا المغفرة، يدخلهم إلى جنات إلى أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين ومباهج، {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، وتعلم من القرآن أنها أنهار للشرب من مختلف أنواع السوائل وبألوان ونكهات مختلفة كما ورد في الآية 15 من سورة محمّد {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى...}، وهي أيضًا للمنظر الجميل لسواقي المياه وغيرها من بقية السوائل الملونة، لا تبالغ في الصورة لتظن أنها وصف لمستنقعات، لا، بل على معيار جمال المنظر الطبيعي تجري الأنهار هنا وهناك... {خَالِدِينَ فِيهَا}، لا يموتون ولا يخرجون منها لأن أجسادهم تغيّرت وصارت لا تمرض ولا تهرم ولا تتأذّى ولا تنكسر ولا تتألم... ولأن الجنّة أورثها تعالى لهم فصارت ملكهم، وتكوين الجنّة لا يتعرّض للخراب فهي أيضًا دائمة.

{وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ}، يُغَطِّي تعالى ويستر أعمالهم السيئة التي قاموا بها، ولا تظهر في كتاب أعمالهم ولا أحد يعرف بها إلا هو تعالى وهم إن تذكّروها، وبالتحليل نقول إن كان نوع السيئة فيه حقّ على المؤمن لأحد من الناس، فيحلّ سبحانه الموضوع بطريقة لا تضايق المؤمن بحيث لا يبدو مذنبًا أو ذليلًا...

{وَكَانَ ذَٰلِكَ}، الدخول للجنات الخالدة وتكفير السيئات، {عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا}، فهم سيحصلون على شيء له قيمة عالية جدًا جدًا، حين تصف أنت شيئًا ما بأنه رائع وضخم وعظيم... على مقياس ما تراه من حولك وما تتخيّله بعقلك، تصوّر أن الإله بقدراته الفائقة، خالق السماوات والأرض، يصف الدخول إلى الجنّات بأنه حصول على شيء عظيم بقيمته، فهل يمكنك تصوّر روعة الجنات؟

ضع هذا الفوز العظيم في بالك لأن السورة ستتحدّث عن الذين لم يؤمنوا به وتخلّفوا عن الرسول(ع) فهذا ما سيخسرونه...

ننتبه جيدًا لأن الفوز لكل من شارك بالفتح وكان مؤمنًا حقيقيًا، وما في بالنا عن القيمة العالية للمقتول في سبيله تعالى هو صحيح، ولكن السورة هنا تركيزها على القيمة العالية لمن شارك بإنجاز ما وبقي حيًا، وهذه نقطة في غاية الأهمية لأنها غير متداولة في ثقافتنا الدينية، عادة نعطي قيمة عالية فقط للمقتول في سبيله تعالى وننسى من شارك في القتال وانتصر، وهذا قيمته عالية جدًا أيضًا عنده تعالى.

نلاحظ انتقال السورة من النموذج محمّد(ع) حيث حسمت غفران ذنوبه الماضية والآتية لكونه نموذجًا إيمانيًا كاملًا مضمونًا بقاؤه على الإيمان العالي حتى يموت، ومن علمه تعالى بالغيب يتعامل، يخبرنا أن رسوله(ع) سيموت على إيمانه العالي... ثم عرّجت على من ينالون هذه المغفرة "المؤمنين والمؤمنات" ولكن من دون تأكيد صريح "وخاصة" لما سيأتي من ذنوبهم، إلا إذا استمروا وبقوا على صفة الإيمان الصحيح، ينالون مغفرة على ما تقدّم، بسبب مجهودهم على الفتح... وعلى ما تأخّر بشرط بقائهم على الإيمان إلى أن يفارقوا الحياة.

(وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيراً{6})
في مقابل الفاتحين الفائزين هناك الخاسرون:

{وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ}، وهم الذين يظهرون الإيمان ولكن داخلهم بعكس ذلك، ومما سبق من السورة ومما سيأتي لاحقًا تعلم أن المنافقين بشكل عام سيصيبهم ضرر في الدنيا والآخرة، والسورة تركّز على المنافقين التاركين لطاعة الرسول(ع) بالتخلف عن أوامره، وخصوصًا المتخلفين عن الذهاب إلى حيث جرى صلح الحديبية... كنموذج.

ويصيب تعالى بالضرر، {وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ}، وهم الذين لم يؤمنوا بأنه لا إله إلا الله تعالى فجعلوا له تعالى شركاء في الألوهية.

المنافقين والمشركين، {الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ}، فهم وبالاستناد لعلم "غير صحيح" لديهم أفكارٌ سيئةٌ عنه تعالى، حيث المشركون جعلوا له تعالى شركاء في الألوهية ونسبوا له تعالى صفات سيئة وظنوا أنه تعالى لن ينصر المؤمنين... والمنافقون ظنوا أنه تعالى لا يراهم أو نسيهم أو أنه تعالى مستهتر وليس حكيمًا حين أمرهم بالقتال، وأنه تعالى لن ينصرهم إذا قاتلوا...

{عَلَيْهِمْ}، على المنافقين والمشركين، {دَائِرَةُ السَّوْءِ} "بالفتحة مع الشدّة على السين" لأن كلامهم وأفكارهم السيئة ستدور سيئتها وترجع عليهم، ليس في أفعاله تعالى ولا في صفاته أي شيء سيئ، وظنّهم السيئ به تعالى لن يغيّر أي شيء به تعالى، ولن يصير سبحانه سيئًا، بل السوء سيرجع على من قاله عبر دعمه تعالى للمؤمنين ضدّ المنافقين والمشركين وعبر تعذيبهم في الآخرة، {وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}، يَرْفُضُ سبحانه بشدة ما فعلوه وقالوه والمتوقّع لهم منه تعالى العقاب، {وَلَعَنَهُمْ}، طَرَدَهُمْ سبحانه من رحمته ولن يحصلوا على أي نوع من العناية الإلهية، وكلّ ما يحصل معهم في الدنيا سيكون لتعذيبهم بشكل أشد في الآخرة، {وَأَعَدَّ لَهُمْ}، جَهَّزَ سبحانه لهم، {جَهَنَّمَ}، المكان الموصوف بسوء ما فيه من النار المتأججة والعذاب... {وَسَاءَتْ مَصِيرًا}، آخر ما تصل إليه أمورهم، ومصيرهم ونهايتهم

وخاتمتهم إلى جهنّم، وهي ليست مصيرًا جيدًا، حيث كان بإمكانهم اختيار مصير أفضل من جهنّم ولكنهم اختاروا مصيرًا سيئًا بنفاقهم وشركهم وظنّهم السيئ به تعالى.

نتذكّر دائمًا أنه تعالى يفعل، ولكن لا ينفعل، ووصفه تعالى بالانتقام أو الغضب أو الحبّ... هو استعمال لكلمات من لغتنا التي وضعنا كلماتها مما نتعامل معه نحن بحواسنا، وسبحانه ليس كمثله شيء، ومستحيل أن نتعامل معه مباشرة بسبب الفرق الهائل بين طبيعة تكوينه عزّ وجلّ وبين طبيعة تكويننا.

كلمات لغتنا عند انطباقها علينا تتضمّن تأثّرنا وانفعالنا... أمّا بالنسبة له تعالى فهي تنطبق عليه مع تجريدها من خصائصها الإنسانية، أنا وجهي يمتقع احمرارًا من الغضب، وتفلت أعصابي من الغضب... أمّا سبحانه فغضبه هو وصف تعامله مع الأمور بأنه غير راضٍ عنها ولن يمرّرها أو يسكت عنها. وانتقامي أنا يتضمّن أني سأنفجر إن لم أشف غليلي... أمّا سبحانه فانتقامه هو وصف تبييت نية الضرر كعقاب على حقّ له تعالى علينا ولم نلتزم به. وحبّه تعالى للمؤمنين هو وصف تعامله معهم بما يسعدهم، وكرهه تعالى للكافرين هو وصف تعامله تعالى معهم بما يتعسهم. وهكذا بقية صفاته سبحانه نفهمها بما يناسب أنه سبحانه ليس كمثله شيء، وليس مثل البشر حين تنطبق هذه الأوصاف عليه سبحانه.

(وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً{7})
هنا الكلام عام وموجّه بشكل خاص للمنافقين والمشركين:

{وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، هناك مخلوقات ملتزمة بتنفيذ أوامره تعالى، تنفّذ كل ما يأمرها تعالى به، نسبها سبحانه لنفسه أنهم جند له كمدح لهم، وكخبر عن وجود جنود له تعالى من مختلف أنواع المخلوقات، كما ترى هنا جنوده تعالى من البشر المؤمنين ينتصرون على المنافقين والكفّار، وهناك الملائكة(ع) التي تقوم بتعذيب الكفّار في الآخرة وهم هنا في الدنيا أيضًا في السماوات والأرض جنود له تعالى.

في مقابل المنافقين والمشركين هناك كائنات من الملائكة (ع) "والجنّ" والناس، وهم ملتزمون بتنفيذ أوامره تعالى، وهم جنود له تعالى.

{وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا}، ليس ذليلًا لأحد في أي شيء ولا ذليلًا لحاجة ما مهما كان نوعها، بل بالعكس هو تعالى موصوف بكل ما تحمله كلمة عزيز من معنى ووحده تعالى يفرض ما يريده ولا ينفرض عليه أي شيء، وكل البقية أذلّاء تحت سلطته ومحتاجون له سبحانه، ولا يحتاج للجنود المؤمنين لينتصروا على المشركين، ولا يحتاج لجنود السماوات والأرض، وبسهولة يمكنه تعذيب المنافقين والمشركين، وبسهولة يجعل المؤمنين في الجنّات، وما يريده تعالى سيتحقّق حتمًا.

{حَكِيمًا}، يَرَى الصوابية في الأمور، حين قرّر تعالى الانحياز للمؤمنين في الدنيا والآخرة وما نتج عن ذلك من نصر لهم وفوز بالجنة وتعذيب الآخرين... فهذا القرار لم يكن عن عبث أو تسلية... بل هذا قرار اتخذه تعالى انطلاقًا من حكمته، بناءً على رؤية الصوابية والحقّ في الأمور.

أيضًا نرى من جمع القرآن مرارًا لصفتي العزيز والحكيم، أنهما تلفتان الانتباه للذي يمكنه فرض ما يريده ولن يتأثر ولن يتضرّر مهما فعل حتى لو ظلم أو عبث... لأنه العزيز، ورغم ذلك هو حكيم ولا يتصرف إلا بصوابية.

كلمة حكمة ومشتقاتها تشير لعموم ضبط الشيء على المطلوب: على الصوابية على الحقّ... وعلى نفس المعنى الأساسي نقول: أحكم الوثاق، حكم بالعدل، حكومة على الناس... وتفسير الحكمة بالأهداف والغايات السامية هو من تبعات تطبيق صوابية الحقّ، ووصفه تعالى بالحكيم يشير لصوابية نظرته في الأمور وأن قراراته وأفعاله كلها على الصوابية، لا يعبث ولا يلعب لأن قراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول بأن أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، ولا يفعل لغاية له سبحانه.

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً{8})
{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ}، جعلناك ناقلا لكلامنا أيها النبي محمّد(ع)، {شَاهِداً}، ترى وتسمع ما يفعلونه من بعد نقلك لكلامنا لهم، لتشهد عليهم في يوم القيامة إذا آمنوا أو كفروا، وأرسلناك، {مُبَشِّراً}، تحمل الخبر السارّ لمن آمن فهو سيدخل إلى الجنّة، وأرسلناك، {نَذِيراً}، تنقل الخبر عن شيء سيّء قادم حتما لمن لم يؤمن، وهو خطر الحساب والعقاب في الآخرة.

لنتابع مع الآية التالية لنرى معنى الآيتين حيث تشيران إلى أنه تعالى لم يرد من إرسال الرسول القتال والانحياز للمؤمنين "للمنتمين لدينه" بل هداية الناس...:

(لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً{9})
أرسله تعالى... {لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ}، تعلنوا اعتقادكم بصاحب هذا الاسم المحدّد المميز له تعالى كإله لكم، {وَرَسُولِهِ}، تعلنوا اعتقادكم بأن محمّدا(ع) ناقل لكلامه تعالى لكم، {وَتُعَزِّرُوهُ}، تؤيّدوا كلامه تعالى ولا تعارضوه، {وَتُوَقِّرُوهُ}، تتصرفوا معه "بثقل معنوي" باحترام شديد وليس باستخفاف، {وَتُسَبِّحُوهُ}، تنزّهوه عن الصفات الناقصة والمعيبة التي لا تليق به تعالى، {بُكْرَةً}، في أول الوقت وهو عادة باكورة الشمس في أول اليوم، عند الصباح "الباكر"، وسبّحوه، {وَأَصِيلاً}، في آخر الوقت وهو عند وصول الشمس إلى آخر رحلتها قبيل غروب قرصها. يعني سبّحوه تعالى من أوّل النهار إلى آخره، مثلما نقول: من الصبح للمسا. ونقصد أن شيئا ما يتكرر ويحصل باستمرار، وهذا النوع من التعبير القرآني المتكرر بصيغ مختلفة، لا يشير إلى حصرية التسبيح في فترة الصباح، والانقطاع بعدها عن التسبيح حتى فترة الأصيل، بل يشير إلى دوام الاستمرار على تسبيحه تعالى في فترة نشاطنا.

نلاحظ بداية السورة بكلامها عن الفتح وآخرة المؤمنين والمنافقين والمشركين، ولكن هذه أحداث نتجت عن خلافات بين الناس، وكان الموقف الإلهي مؤيّدا للرسول (ع) وللمؤمنين... تأتي هنا الآية والتي سبقتها لتنبّهنا إلى أن الإله سبحانه لم يبعث الرسول(ع) أساسا للفتح وما شابه من أعمال عسكرية، بل لدعوة الناس إلى العقيدة الحقّ والسلوك المستقيم، وبسبب التزام البعض بكلامه تعالى ورفض آخرين للالتزام بكلامه تعالى، نتج عن ذلك صراع عسكري بينهما، وتحدّثت السورة عمّا نتج من صراع صار جزءا من حياة الناس. وفي الآية الرابعة من هذه السورة تحدثنا عن الشؤون البشرية وأنه تعالى يتعامل معها كما هي بمستواها...

لا تفهم الكلام الإلهي عن الحرب على أنه غاية وأنه شيء يريده تعالى أن يحصل، لا، بل هو نتيجة أفعال الناس، وهو نتيجة معارضتهم للدين الإلهي وللرسول وللمؤمنين عبر القيام بأعمال عدائية ضدّهم... ليس إرسال الرسول هو سبب الحرب بل معاندة الناس ومعاداتهم للرسول الإلهي وللمؤمنين هي التي سبّبت الحرب، ولذلك صار هناك انحياز ودعم إلهي عسكري للمؤمنين وصار هناك فتح مدعوم إلهيا... هذه الأمور لم تكن "هدفا" إلهيا من الأساس، لأن الإله سبحانه أرسل محمدا(ع) ليهدي الناس، وهم حاربوه، فحاربهم (ع).

ضع في بالك ما ورد في العديد من السور الأخرى عن قيمة ما يعرضه الرسول(ع) من عقيدة حقّة وشريعة صالحة، في مقابل العقائد والشرائع الأخرى الفاسدة، فلو آمن كل الناس فلن يكون هناك حروب بينهم على خلفية الكفر والإيمان، ولو آمنوا بحقّ لما كان بينهم خلافات أصلا، ونفور الأكثرية من الإيمان هو سبب النزاعات، ودعوتهم إلى الإيمان هي دعوة لعقيدة صحيحة لأنها معلومات صحيحة، ودعوة لشريعة صالحة ليست على مقياس الهوى والشهوة والرغبة السيئة... بل خليط بين العقلانية والمصالح الدنيوية والأخروية، مع تحليل عموم الأمور الطيبة...

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً{10})
{إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ}، الذين يقدّمون لك أيها الرسول(ع) دعمهم وطاعتهم، ويعلنون لك أنهم تابعون داعمون ومطيعون لك، {إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ}، هم في الحقيقة يقدمون طاعتهم لله تعالى لأنهم بايعوك لأنك رسوله، {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ}، عادة المبايعة تتم بالمصافحة بالأيدي، حيث يمدّون يدهم للشخص ليبايعوه، وهنا مدّ المؤمنون أيديهم لمصافحة الرسول(ع) كإعلان صريح بمبايعتهم له كإعلان منهم عن تقديمهم لدعمهم له(ع)، ويد الله تعالى فوق أيديهم يعني صارت مبايعتهم

لله تعالى مباشرة، {فَمَن نَّكَثَ}، لم تبق بيعته محكمة مترابطة قوية، وتراخى ولم يعد قويا التزامه ببيعته بطاعة الرسول(ع)، {فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ}، باعتبارهم البيعة ضعيفة لا تستحق الالتزام بها سيرتد أثرها عليهم بعقاب إلهي شديد، لا سبحانه سيتضرر ولا رسوله(ع).

{وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ} "ضمّه على الهاء" {اللَّهَ}، من قام بإتمام ما أعلنه من طاعة لله تعالى، وحين بايع أعلن أنه يتعهّد بالتزامه بطاعة رسول الله تعالى، ومن أتمّ هذا الالتزام مع الله تعالى، {فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً}، سيصير معه شيء حدّده تعالى كاستحقاق على الوفاء بالبيعة لرسوله(ع)، وسيكون مقابلا عظيما ضخما هائلا في روعته، وتعلم من عموم القرآن أنه الخلود في جنّة رائعة.

إذاً، عامّة المبايعة للرسول(ع) هي بهذه الشروط والمواصفات، والآيات هنا تتحدث بشكل عام عن أي مبايعة في أي وقت كان، وسترى في الآية 18 من هذه السورة أن هناك بيعة محدّدة "بيعة الشجرة" اختارها القرآن للتعليق عليها هنا في هذه السورة، لأن ما جرى قبلها وما سيجري بعدها هو ما اعتمدت عليه السورة كحدث نموذج للتعليقات والتنبيهات الإلهية التي يريدنا سبحانه أن نرى نظرته لها لنتعلّم ونقوّم نظرتنا وتعاملنا مع الأمور، ونرى الانحياز الإلهي للمؤمنين الحقيقيين ونصرهم والأجر في الآخرة... وعن المشركين ونفسية المنافقين والمتخلفين عن طاعة الرسول(ع) وعقابهم وكيفية التعامل معهم...

لو كان القرآن كتاب تاريخ بحت، لربما لما جاز لنا اشتقاق التطبيقات منه، ولكنه كتاب إلهي لهداية كل الناس في كل الأزمنة من بعده، لذلك نشتق منه أن من بايع قائدا مؤمنا على طاعة الله تعالى وتنفيذ أوامره تعالى، فهو إنما يبايع الله تعالى، وله من الأجر ما حصل عليه المبايعون للرسول(ع).

أقول لك هذا لترى الفرق بين من تميّز بفرصة معاصرته لرسول(ع) إلهي، وبيننا، لا يوجد شيء يميّزه عنّا غير معاصرته لرسول، ودائماً في كلّ زمان هناك فرص متاحة للجميع للوصول إلى أعلى درجات الإيمان التطبيقي، من الجهاد بأشكاله المتنوّعة، للإنفاق في سبيله تعالى، لدعم وتثبيت أشخاص مؤمنين كقادة لمجتمعاتنا وبلداننا، وأنت تعلم أن أكبر مصائبنا فساد حكّامنا دينيا، بل وحتى لو تجاوزنا مسألة التزامهم بدينه تعالى فهم إنسانيا ساقطون، فهمنا أنهم بلا دين ولكنهم أيضا بلا ناموس ولا أخلاق ولا رحمة... ونحن نتحمّل مسؤولية وصولهم وبقائهم في السلطة، لذا علينا واجب تأييد ودعم المؤمنين الصالحين ليستلموا السلطة، وإن تبيّن أنهم منافقون فاسقون فعلينا واجب إزاحتهم وتعيين آخرين... وهذا هو تطبيقنا العملي لكلام القرآن عن بيعة الرسول، فهو (ع) مجرد نموذج تاريخي راقٍ، وربما بل حتما بيننا أشخاص متميّزون إيمانيا أكثر من بعض الذين عاصروا الرسول، لأن الرسول وبضمانة إلهية لن يميل عن الحقّ إن استلم السلطة، بينما نحن مبتلون بمنافقين وفاسقين، ومبتلون بمؤمنين يسقطون أمام السلطة والمال فينحرفون باستخدام السلطة لتثبيت استمرار حكمهم...

يعني حين تقوم بواجبك بتأييد الصالحين ومعارضة الفاسدين، فأنت في حالة البيعة التي تتحدّث عنها السورة هنا.

ننتبه دائما إلى أنه تعالى ليس كمثله شيء، لا ولا بأي شكل يشبهه تعالى أي شيء، وطبيعته تعالى مختلفة جدا جدا جدا عن تكوين الملائكة والجنّ والبشر... سبحانه ليس لديه يد بخمس أصابع أو أكثر أو أقل من خمسة، لا، كلمة يد هي "اسم" لعضو من جسم الحيوان، وهي لغويا ليست مخصوصة لذلك بل هي في الاستعمال "وصف" لما تفعل به شيئا ما، وهكذا يمكنك إطلاقها على يد الآلة "الماكينة"، وعلى يده تعالى، لأنها وصف حقيقي للأدوات والوسائل التي استعملها تعالى ليفعل شيئا ما، ليخلقنا، ليقبل مبايعة رسوله(ع)، ليقبل الصدقة التي تسقط في يده تعالى، ليرمي الكفّار في النار... ولاحظنا في دراستنا هذه أن القرآن يستعمل الكلمات على وصفيتها، وخذ مثالا بسيطا، القدح هو وصف لتطاير الشرر، والاسم منه قداحة، وهو في نفس الوقت وصف للشيء، فإذا أشرت لك إلى الكرسي، وقلت لك إنه قدّاحة، فتعترض لأن الكرسي للجلوس عليه ولا يقدح، واعتراضك مبني على انتفاء انطباق وصف القدح على الكرسي، وبالعكس لو أشرت للقداحة وقلت لك إنها كرسي لاعترضت لأنها لا يمكن الجلوس عليها. ونستعمل كلمة كرسي كوصف: الكرسي الملكي، كرسي الرئاسة، الكرسي الرسولي، كرسي العرش الإلهي... بهذه الجمل لا نشير للشيء الذي اسمه كرسي بل لوصف حالة الكون على الحكم، حالة السيطرة والإدارة والتبعية... وهنا اليد أيضا ليست إشارة لعضو "اليد" بل لوصف حالة قبوله تعالى المبايعة لرسوله(ع).

(سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً{11})
{سَيَقُولُ لَكَ}، أيها الرسول(ع)، {الْمُخَلَّفُونَ}، الذين بقوا في الخلف ولم يذهبوا معك، وهنا الكلام عن تخلّفهم عن الذهاب معك إلى مكّة للحجّ والذي حصل بعده صلح الحديبية، {مِنَ الْأَعْرَابِ}، من سكان البوادي "المشتتين والمتنقلين الذين لا يسكنون في قرى ثابتة"، وأعراب مفردها أعرابي، وعرب مفردها عربي.

وصل لسكّان البوادي خبر عن استعداد الرسول (ع) للانطلاق... ولم يذهبوا معه(ع)، وحين يعود (ع) ويسألهم... سيقولون:

{شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا}، أمضينا الوقت بالاهتمام بأموالنا العينية كالمواشي والزرع... والنقدية كالتجارة... {وَأَهْلُونَا}، المنتمون لنا، أولادنا، آباؤنا، زوجاتنا، أقاربنا... لأنهم بحاجة لاهتمامنا بهم... وهم يبرّرون لتخلّفهم عن الخروج معه(ع) بانشغالهم بأمور مهمّة، {فَاسْتَغْفِرْ لَنَا}، اطلب أيها الرسول(ع) منه تعالى أن يتجاوز عن تخلّفنا عنك فلا يحاسبنا عليه.

{يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ}، لأنهم في داخلهم في أساس فكرهم ونفسيتهم لم يكن يوجد لديهم أصلا نيّة ليذهبوا معك، حيث في داخلهم لا يهمّهم إن استغفرت لهم أم لم تستغفر، وفقط يقولون لك بلسانهم أن تستغفر لهم ليبدو وكأنهم مؤمنون مهتمين بالآخرة...

تلاحظ تركيز السورة على المخلّفين من الأعراب وإغفالها للمخلفين من أهل المدينة، ونحتمل بالاعتماد على التاريخ أن المخلفين من أهل المدينة كانوا قلائل، وأنهم قدّموا أعذارا مباشرة للرسول(ع)... أمّا الأعراب وبحكم كونهم بعيدين عن الاحتكاك اليومي بالرسول(ع)، وبحكم توصيفهم بالأعراب فهم ليسوا من سكّان المدينة، حيث بقوا في أماكنهم وعذرهم جاهز ليقولوه للرسول(ع)... هذا إن رجع حيا من مكّة...

{قُلْ} لهم أيها الرسول(ع)، أجبهم حين يبررون لك: {فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً}؟ فإذا تعلّقت إرادته تعالى بحصول شيء يضركم وضدّ مصلحتكم، أو ينفعكم ففيه مصلحتكم، فمن يملك قدرة أو قوّة أو إرادة قاهرة فوق قدرته تعالى ليمنع حصول الضرر أو النفع بأموالكم وأهليكم؟ وحين تطلبون مني أن أستغفر لكم فماذا تتوقعون أن يحدث؟ وهل أنا سأغير قراره تعالى وأنتم تعلمون أنكم خالفتم أوامره؟ وإن كانت أعذاركم للتخلّف عن الخروج معي صحيحة، وأنا لم أقتنع بها وغضبت عليكم، فهل أنا سأغير قراره تعالى ليرضى عنكم؟

{بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً}، حيث لديه تعالى أخبار بالتفاصيل لكل ما تعملونه، فإن تخلّفتم من دون عذر، أو كان فعلا لديكم عذر، فمسألتكم ليست معي لأستغفر لكم بل مع الذي لديه علم تفصيلي بكل شيء عنكم.

مرّ في تاريخه (ع) حوادث عدة تخلّف فيها بعض الناس عن القتال، وأشهرها المتخلفون عن معركة أحد، حيث نقل القرآن مطولا تعليقاتهم على هزيمة المسلمين، وتجد القصّة كاملة من الآية 121 من سورة آل عمران وما بعدها...
ويليها في الشهرة تخلّف الكثيرين عن الذهاب مع الرسول (ع) إلى مكّة للعمرة أو الحجّ، وهي الحادثة التي تتناولها الفقرة هنا، وكان القصد من هذه الرحلة إيجاد حلّ للعداوة مع كفّار مكّة عبر عرض قوّة مسلمة عسكرية كبيرة مرافقة للرسول(ع)، وعبر التصرّف سلميا بقصد الحج وليس للقتال... مما من المفروض أن تجعل موقفه (ع) قويا ليفرض هدنة أو صلحا على كفّار مكّة... وهذا ما حصل وسمي بصلح الحديبية، ومرّ الحديث عنه مطولا في دراسة أول آية من هذه السورة.

(بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْماً بُوراً{12})
...السبب الحقيقي لتخلّفكم ليس انشغالكم بما هو مهم جدا:

{بَلْ ظَنَنتُمْ}، استناداً لعلم غير صحيح اعتقدتم، {أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ}، لأنهم حين ذهبوا انقلبوا من المدينة إلى منقلب آخر، إلى مكّة، وأنتم اعتقدتم أنهم لن ينقلبوا من جديد ولن يرجعوا من مكّة إلى يثرب "المدينة"، {إِلَى

أَهْلِيهِمْ}، إلى المنتمين لهم "أولادهم، زوجاتهم، آبائهم..." {أَبَداً}، مهما مرّ من زمن ولن يرجعوا، يعني ظننتم أنهم سيقتلهم الأعداء أو يسجنوهم أو يستعبدوهم... ولن يرجعوا أبدا، ولهذا السبب تخلّفتم ولم تذهبوا معهم.

{وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ}، حيث في أساس فكركم ونفسيتكم رأيتم التخلّف عنهم جيدا وفي مصلحتكم، لأنهم سيقتلهم الكفّار وأنتم ستبقون أحياء، {وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ}، وصار لديكم اعتقاد مبني على شيء غير صحيح بأمور سيّئة، أولها أنكم اعتقدتم أنه تعالى لن ينصر رسوله (ع) والمؤمنين، ولم تعتقدوا بثوابه العظيم سبحانه لمن أطاع الرسول(ع)... {وَكُنتُمْ قَوْماً}، كنتم أناسا لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع موضوع الخروج مع الرسول(ع)، {بُوراً}، لا ينتج عنكم شيء فيه خير، لأن الخير في الإيمان وطاعة الله تعالى ورسوله(ع)، وهم لم يؤمنوا ولم يطيعوا.

من التاريخ تعلم أن الرسول(ع) حفّز الناس على الانطلاق للحجّ "معتمرا" إلى مكّة، وكان المسلمون لا يزالون ضعفاء أمام قوّة كفّار مكّة، فظنّ المتخاذلون من المسلمين أن هذه الرحلة إلى مكّة "روحة بلا رجعة" لأن كفّار قريش سيفتكون بالمسلمين، فمن يذهب مع الرسول(ع) إلى مكّة لن ينقلب "ولن يرجع" إلى المدينة لأنه سيموت حتما هناك.

نلاحظ فيما كتبوه في الكتب عن هذه الرحلة التي صار اسمها فيما بعد "صلح الحديبية"، يقولون إنّ النبي(ع) توجّه نحو مكّة للعمرة ويقولون مرّة أخرى إنه توجّه للحجّ، ولننتبه جيدا، حيث إنّ كلمة "حجّ" معناها في استعمال الناس أعمّ من الحجّ الطقس الديني المعروف بمناسكه، لأن الحجّ هو قصدك لأي مكان كان، وفي سياق الحديث تعلم إن كان القصد هو التوجّه إلى مكّة لأداء الطقوس الدينية لما نسميه بالحجّ، فيصير المعنى "حجّا دينيا"، وبهذا سيشمل العمرة كنسك فيه أعمال أقل من الحجّ الكامل، حيث إنّ الحجّ الواجب يتألّف من عمرة وحجّ بالاصطلاح الفقهي التشريعي لكلمة حجّ... وباختصار العمرة تتضمّن الإحرام من مسافة بعيدة قبل الوصول إلى مكة، وطواف وركعتين وسعي وتقصير. ويمكن أداء هذه الأعمال لوحدها ويكون اسمها فقط عمرة، والقرآن عبّر عنها بالعمرة ولم يعبّر عنها بالحجّ مثلما كانت تعبّر الناس قديما، حيث فصلها القرآن عن الحجّ. وإذا أضفت لهذه الأعمال إحراما جديدا من مكّة، ووقوفاً بعرفات والمزدلفة ومبيتاً في منى ورجماً ونحراً "هدي" وتقصيراً، فهذا يصير بالمصطلح الفقهي القرآني "حجّ"، والعمرة يمكن أداؤها في أي شهر من السنة، أمّا الأشهر التي يمكنك أداء الحجّ فيها فهي ثلاثة: شوال، ذو القعدة وذو الحجّة. ومن المشهور في التاريخ أن النبي(ع) وصل إلى منطقة الحديبية بالقرب من مكّة في شهر ذي القعدة، الذي يمكن تأدية العمرة أو الحجّ فيه. وبناء عليه وعلى ما سيرد في الآية 25 من منع كفّار مكّة للمؤمنين من تقديم الهدي في منى، نفهم أن بعض المسلمين ناوون للعمرة التي لا يجب فيها الهدي، وآخرون ناوون للحجّ... ولا أهمية أصلا لتحديد إن كانوا كلّهم ناوين للحجّ أو للعمرة، لأن واقع حالة أكثر من ألف مسلم أن يكونوا خليطا بين معتمر وحاجّ.

نتذكّر أن الحج "متضمنا عمرة واحدة" هو واجب على المسلم مرّة واحدة في حياته، وراجع في ذلك الآية 97 من سورة آل عمران "{... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً...}".

(وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً{13})
{وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}، الذي لم يعلن اعتقاده به تعالى إلها... ولم يعتقد بمحمّد(ع) رسولا، {فَإِنَّا أَعْتَدْنَا}، جهّزنا وحضّرنا، {لِلْكَافِرِينَ}، للمنكرين لله تعالى ورسوله(ع)، {سَعِيراً}، نارا مستعرة تتأجّج وتصدر عنها ألسنة لهب وأصوات.

نلاحظ الآية تصدق على عامة من كفر ومصيره إلى السعير، ولكن هنا من سياق الآيات ترى أنها تشير للكفر المؤدّي إلى نكث البيعة والتخلف عن الرسول(ع) والتحجّج بالأموال والأهل والظنّ بخسارة المؤمنين في الحرب رغم الوعد الإلهي لهم بالنصر... لا تنسَ أن سياق الآيات كان عن أناس أظهروا الإيمان، حيث صلّوا وصاموا... وكما ترى وصفتهم الآية هنا بالكفر.

يعني ما معنى التخلّف عن الرسول(ع)؟ هل هو نابع من كفر به تعالى وبرسوله(ع)؟ ليعلم هؤلاء أنه إذا كان تخلّفهم في عمقه كفر كإنكار لشيء ديني أساسي فمصيرهم السعير.

في الكتب كلام كثير حول الأعمال التي تجعل المسلم يخرج عن صفته كمسلم مؤمن ويصير كافرا، حيث في العديد من آيات القرآن الصريحة، قرأنا عن الوصف بالكفر لمسلمين قاموا ببعض الأعمال المخالفة لدينه تعالى، وهنا كما ترى في

الآيات وصفت بالكفر أشخاصا مسلمين لأنهم تخلّفوا عن الانطلاق مع الرسول(ع). ونجد هنا في السورة وفي عموم القرآن كيفية التعامل مع هذه النوعية من المسلمين "الكفّار"، والمشكلة ليست هنا، المشكلة فيما فعله البعض من تعميم التعامل مع كل كفر ليصير كلّ الكفر نوعا واحدا في أحكام التعامل معه! حيث إنّ كلمة كفر في اللغة تعني الإنكار لشيء ما، وهكذا استعملها القرآن، مرّة يكون الإنكار لكل الدين الإلهي بعقيدته وشريعته من أصله، ومرّة يكون الإنكار للشريعة فقط مع الإيمان بالعقيدة، مثلما نراه من مسلمين لا يصلّون ولا يصومون ولا يحجّون... ولكنهم يوحدونه تعالى ويؤمنون بمجمل صحّة قرآنه... ومرّة يكون الإنكار لخاصة طاعة الرسول(ع)، لأنهم مؤمنون ملتزمون ولكن لم يطيعوا الرسول(ع) في كلّ شيء، وهذا ما تحدّثت عنه الآيات السابقة.

المشكلة أن الكثيرين من المسلمين وعلمائهم أجروا كل أحكام التعامل مع الكفّار المعادين التي ذكرها القرآن على كل كافر! حيث أفتوا بإهدار دم ومال وعرض أي شخص انطبق عليه وصف الكفر! وصار المسلم التارك للصلاة كافرا يجب قتله! والتارك لصلاة الجمعة يجب قتله! والمتخلّف عن قتال الأعداء يجب قتله! لماذا؟ لأن القرآن وصفه بالكافر، والكافر لا حرمة له ولا لماله ولا لعرضه بحسب رأيهم، علما أنّ القرآن استعمل كلمة كفر كوصف دقيق يعبّر عن شخص ينكر شيئا ما، ولم يستعملها ككلمة تعبّر عمّن يجب قتله وإهدار ماله وعرضه، لا، كما ترى هنا في السورة وفي غيرها من السور، من تخلّف عن الرسول(ع) فعقابه في الآخرة هو السعير، أمّا في الدنيا فكان حكمهم منعهم من المشاركة في حروب مضمونة النصر، ويجب عليهم الخروج للمشاركة في حروب صعبة حتى يثبتوا أنهم تابوا... وهذا ما ستقوله السورة هنا فيما سيأتي.

هذه النوعية من "الكفّار" لا تجد في كلّ القرآن شيئا عن إهدار دمهم أو مالهم أو عرضهم، وبمراجعة الآيات حول الآية 84 وحول الآية 118 من سورة التوبة، تجد كلاما عن ظروف مماثلة للذين تتحدّث عنهم السورة من المتخلفين وترى تماشيا بين الكلام هناك والكلام هنا، لأن لهم حرمتهم كمسلمين ولكن مع بعض العقوبات.

المشكلة في الجلدة الواحدة بعد المئة، حيث أمرنا تعالى بجلد الزاني المحصن مئة جلدة، فقط مئة، ولو جلدناه واحدة بعد المئة، فكل علماء المسلمين يفتون بوجوب جلد الجلاد بعدد الجلدات بعد المئة، ولو أراد تعالى جلد الزاني أكثر من مئة لكان أمرنا بذلك، بأي حق نجلده بأكثر مما أمرنا تعالى؟ الآن نسأل لماذا لم يقرؤوا أحكام القرآن عن الكفّار من نوع المسلمين؟! حيث أخبرنا تعالى كيف نتعامل معهم ونميّزهم عن المشركين والكفّار علنا بكل العقيدة والشريعة، لماذا تخطّوا المئة جلدة هنا؟!

أول وأهم مشكلة أنهم لم يروا كلام القرآن كما هو، حيث إنه سبحانه لم يسمح إلا بقتل الكافر المعادي الذي يقوم بأعمال قتالية، وأمّا إن كان مسالما فمهما كان دينه فله حرمة تامة كحرمة المسلم، وراجع في ذلك كمثال دراسة الآية 8 من سورة الممتحنة "{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}".

الطامّة الكبرى في الاشتقاقات التي نجدها في بعض كتبهم، حيث عمّموا الكفر ليشمل كل من يخالف مذهبهم وطائفتهم! وصار قتل المسلم المخالف لمذهبهم حلالاً! واستباحوا عرضه وماله! وصار من يسبّ الصحابة كافرا ودمه وماله وعرضه مباحٌ! وبعضهم يقول عمّن لا يوالي أهل البيت إنه كافر وتجري عليه أحكام الكفّار المشركين! بل يبيحون الافتراء عليهم بأمور لم يفعلوها! أي دين هذا إن كان القرآن يحرّم الغيبة بل يحرّم التنابز بالألقاب!

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً{14})
القرار بدخول الكافرين سعيرا، على ماذا يستند؟

{وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وهذا التعبير القرآني يشابه قولنا: له ملك كل شيء. وهنّ سبع سماوات ولكل سماء أرض تناسبها كما ورد في الآية 12 من سورة الطلاق "{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...}" مثلما نحن سماءنا لها أراض تناسبها، فكوكبنا أرض وسطح القمر أرض وسطح المشتري والمريخ والشمس... أرض بالنسبة لسمائنا، وكذا بقية السماوات لها ما يناسبها من أرض... فالسماوات والأرض هي حدود دنيا المخلوقات، وكلّها منسوب ملكها لصاحب الاسم المحدّد المميّز الله جلّ جلاله، فهي له بالملكية والسلطة والقرار فيها... وعلى هذا الأساس، {يَغْفِرُ

لِمَن يَشَاءُ}، فلديه تعالى الخيار أن يتجاوز عن سيئات من يريد، لأن السيئة حدثت من مملوك له تعالى ويعيش في ملكه تعالى فليس مجبرا سبحانه على معاقبته، وأخبرنا سبحانه مرارا وتكرارا أنه شاء مغفرة ذنوب المؤمنين العاملين للصالحات فقط، {وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ}، وأمامه تعالى الخيار ليصيب بالضرر من يريد، وأخبرنا تعالى مرارا وتكرارا أنه سيعذّب من أشرك به وفعل السيئات.

إذاً، نحن البشر من ضمن ما في السماوات والأرض، ونحن له تعالى، وقرّر سبحانه أن يغفر للبعض وأن يعذّب البعض الآخر، فهل من أحد يمكنه تغيير هذا القرار أو إيقاف تنفيذه؟ فهل طلبكم من الرسول(ع) الاستغفار لكم له معنى إن كنتم مشمولين بمن قرّر تعالى تعذيبهم؟ لأن كلامه تعالى صريح بوجوب طاعة رسوله وإلا فالعقاب الشديد، فما معنى طلبكم من الرسول الاستغفار لكم ليبدو للآخرين وكأنكم من المؤمنين...؟

{وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً}، فيتجاوز ويسامح بكثرة عن السيئات بالشروط التي ذكرها تعالى لنا، ولا يأخذ سبحانه موقفا صلبا جافّا لا يتراجع عنه، بل يغفر لمن تاب وآمن وعمل صالحا حتى لو كان من قبل من أكبر المشركين... وكان، {رَّحِيماً}، حيث لديه عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، لأن القرآن استعمل صفة الرحمان له تعالى كوصف لعنايته تعالى بكل مخلوقاته، واستعمل صفة الرحيم للعناية فقط بالمؤمنين، وعمليا فالهدى وإنارة القلب... والمغفرة وزيادة الحسنات... فقط وفقط للمؤمنين ولا يحصل عليها الآخرون الذين بإرادتهم قرّروا الخروج من تحت مظلّة الرحمة الإلهية.

إذاً، بناء على ملكه وحرية تصرّفه وسلطته... تعالى على كل شيء، لي ولك ولكل الناس ولكل ما في السماوات والأرض، قرّر تعالى المغفرة للمؤمنين والعذاب للمشركين والعاصين، وهو قادر على ذلك، وله الحقّ بذلك، لأن له ملك السماوات والأرض، وباب التوبة مفتوح لكم لتتوبوا بدلا من المسرحية السخيفة بطلبكم من الرسول الاستغفار لكم مع بقائكم على ما أنتم عليه من سوء.

(سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً{15})
تنتقل السورة إلى ما بعد نموذج حادثة رجوع النبي(ع) والمؤمنين من صلح الحديبيّة لتوجّه كلامها لعموم المتخلفين عبر التاريخ بهذا النموذج:

{سَيَقُولُ} لك {الْمُخَلَّفُونَ}، الذين بقوا في الخلف "من الأعراب ومن أهل المدينة" الذين لم يذهبوا معك إلى مكّة حيث وقع صلح الحديبية، وتذكرهم الآية كنموذج لتريك أنهم ليسوا مشغولين وإنما لديهم ظنون سوء ونوع من الكفر... سيقولون لك، {إِذَا انطَلَقْتُمْ}، إذا تحرّكت أنت والمؤمنون معك من حيث هم "من يثرب"، {إِلَى مَغَانِمَ}، إلى أموال وأملاك تغنموها فتحصلون عليها من الأعداء بعد هزيمتهم في الحرب، {لِتَأْخُذُوهَا}، يقولون: {ذَرُونَا}، اتركونا ولا تقفوا في طريقنا، {نَتَّبِعْكُمْ}، نريد أن لا تعارضوا انطلاقنا معكم إلى الحرب.

كما ترى فهؤلاء حين يحتملون النصر والحصول على الغنائم فهم غير مشغولين بأموالهم وأهليهم! بل ويقولون: لا تقفوا في طريقنا "{ذَرُونَا}" فنحن نريد المشاركة في القتال!

ومن التاريخ نعلم أنه بعد صلح الحديبية الذي ينص على توقّف كامل النشاط العسكري بين المسلمين وقريش وحلفائها، صار المسلمون في أمان "عال نسبيا" من شر قوّة قريش وحلفائها، لأن بينهم معاهدة سلم... وأعلن الرسول(ع) للمسلمين أنه متوجّه إلى حصون اليهود الذين فيما سبق خانوا العهود مع النبي(ع) ودعموا الكفّار ضدّه... وتبدو هذه المهمّة سهلة وفيها غنائم، ولذلك سيطلب المخلّفون المشاركة فيها...

{يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ}، حيث كلامه تعالى هو التقيّد بأمر الرسول(ع) في مختلف الظروف، وهم يريدون تبديله ليكون على مزاجهم، فيرغبون بالمشاركة في معركة سهلة ويتوقعون منها الحصول على غنائم... أمّا إن كانت معركة صعبة أو ليس فيها غنائم فهم لديهم أشغال مهمّة لا يمكنهم تركها!

{قُل} أيها الرسول(ع) لهؤلاء: {لَّن تَتَّبِعُونَا}، لن نسمح لكم أن تكون على طريقنا لتلتحقوا بنا إلى الحرب.

{كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ}، هناك أمر إلهي سبق ووصل إلى الرسول (ع) يأمره فيه بأن لا يدعهم يرافقونه إلى معركة خيبر السهلة "نسبيا"...

{فَسَيَقُولُونَ}، ردا على منعهم من الخروج في هذا النشاط العسكري الذي يبدو الفوز فيه واضحا مع غنائم: {بَلْ تَحْسُدُونَنَا}. لأن الحسد هو كرهك لحصول شخص ما على شيء جيّد، فإن حصل عليه فأنت تحسده لأنك كاره لما حصل، وهذا حسد أثره نفسي، وإن عمليا وقفت في طريقه حتى لا يحصل عليه فأنت أيضا تحسده لأنك كاره لحصوله عليه وعمليا منعت ذلك، وهنا يتهمون الرسول(ع) والمؤمنين بأنهم يمنعونهم من الذهاب معهم إلى حرب مضمونة الربح وفيها غنائم، لأن الرسول(ع) والمؤمنين يحسدونهم، ولا يحبّون لهم الخير ولا يريدون لهم الحصول على حصة من خيرات الغنائم.

ننتبه جيدا لمعنى الجملة، يعني تريدوننا أن نذهب معكم للقتال فقط حين يوجد احتمال أن نموت، وحين يوجد احتمال أن نحصل على الغنائم فأنتم لا تأخذوننا معكم لأنكم تحسدوننا فلا تحبّون لنا الخير!

هذا الاتهام للرسول(ع) وللمؤمنين غير صحيح، {بَلْ كَانُوا} "المتخلفون" {لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلاً}، لأن لديهم القليل من الاستيعاب للأمور، وكما ترى فهم يفقهون بمصلحتهم من نظرتهم الضيّقة، كما نقول: لا يرون لأبعد من أنفهم. أمّا المصالح العامّة للمسلمين والدخول في مخاطر كبيرة لها تأثير عميق على مستقبلهم... فهو لا يعنيهم ولا يفكرون فيه أصلا.

بعبارة أخرى، صار المتخلفون هم المظلومون! والبقية لا يريدون لهم الخير لأنهم منعوهم من المشاركة في حرب مضمونة الربح والغنائم! فيتحدثّون بكل جرأة ووقاحة! وكأنهم ليسوا ظالمين بتخلّفهم عن الرحلة إلى مكّة والتي كانت محفوفة بالمخاطر تاركين الآخرين يخوضونها! فما زالوا يكذبون على أنفسهم أنهم كانوا حينها مشغولين والآن يستطيعون الخروج. وقد توسّعت بالكلام عنهم لترى ما تريدك السورة أن تراه، لأن الأعذار التي تمسّكوا بها من قبل كتبرير للذي منعهم من الخروج إلى مكّة، قد اختفت الآن! لأنهم يرون غنائم من الخروج الحالي!

(قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً{16})

{قُلْ}، أيها الرسول(ع) عبر هذا القرآن، {لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ}، للذين من سكّان البوادي وقد تخلّفوا ولم يخرجوا معك للقتال، فقل لهم ردّا على كلامهم:

{سَتُدْعَوْنَ}، ستتم دعوتكم، سيصلكم إشهار إعلان، {إِلَى قَوْمٍ}، إلى أناس لهم كيان الجماعة، والمقصود جماعة متفاعلة كفرا مع الدين الإلهي، {أُوْلِي بَأْسٍ}، موصوفون بقيامهم بأفعال قوية غير حميدة للآخرين، {شَدِيدٍ}، من الأشد بأسا، موصوفون بالقوة العسكرية الشديدة جدا. ستتم دعوتكم لقتال أناس أشدّاء في القتال والأذية، {تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ}، تقاتلوهم بلا توقّف حتى يسلموا فيصيروا منقادين لكم، بعبارة أصرح ستشاركون حين يكون بحسابتكم يوجد احتمال الموت أو الخسارة بسبب قوّة العدو، ولن تتراجعوا حتى يتحقّق النصر أو استسلام العدو، وحينها إذا التحقتم بالرسول(ع) في هكذا قتال، فأنتم تثبتون وتبرهنون على طاعتكم لله تعالى ولرسوله(ع) وتثبتون أنكم لم تشاركوا فقط في القتال المضمون النصر طمعا بالغنائم.

{فَإِن تُطِيعُوا}، فإذا نفّذتم هذا الأمر بالخروج ضد هذه النوعية من الناس، {يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً}، فسيصير معكم منه تعالى شيء حدّده تعالى سلفا لكم كمقابل على طاعتكم، {حَسَناً}، جيّدا فتنالون المغفرة والرحمة...

{وَإِن تَتَوَلَّوْا}، فإذا ذهبتم بالاتجاه الآخر المخالف لهذا الأمر الإلهي، {كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ}، مثلما خالفتم الأمر بالخروج إلى مكّة "حين حصل صلح الحديبية"، عندها، {يُعَذِّبْكُمْ} تعالى {عَذَاباً أَلِيماً}، يصيبكم بضرر لا يمكنكم تحمّله ولا الاعتياد عليه، وكما تعلم فهو عذاب في نار جهنّم.

كما ترى، لم تحدّد الآية من هم القوم أولي البأس الذين ستتم الدعوة لقتالهم، لأن القرآن لم يردنا أن نفهم أنه يتحدّث عن تاريخ الرسول(ع) ككتاب تاريخ، بل الغرض من تناول الأحداث والإشارة إليها هو التعليقات الإلهية عليها، وأن تكون

نماذج لنا لنفهم ونقوّم فكرنا ونفسيتنا وتصرفاتنا، حيث في أي زمن تخلّف فيه المسلمون عن قتال الأعداء، فهذا حكمهم: منع المتخلفين من الخروج إلى قتال مرجّح الفوز بسهولة نسبية وفيه غنائم، وانتظار قتال صعب ليشاركوا فيه كإثبات لصدق إيمانهم.

ويمكن فهم الجملة هنا على أنها خبر من علمه تعالى بما سيحصل، فتصير على معنى: هناك معركة محددة قادمة صعبة عليكم يعلم بها تعالى، وسيتم دعوتكم للمشاركة فيها لتبرهنوا أنكم مؤمنون حقيقيون ولستم مزاجيين للمشاركة بما ترونه سهلا وفيه غنائم. وهكذا ستحاول البحث في كتب التاريخ لتحدّد المعركة المقصودة بالكلام... ويمكن فهم الجملة على العمومية لأي معركة تأتي وفيها مواصفات الصعوبة، فتصير الجملة على معنى: إن سارت الأحداث وحصل قرار بمعركة مع قوم أشداء... وشاركتم فحينها تثبتون أنكم مؤمنون حقيقيون. وبهذا الفهم يتوسّع الأفق ليكون كلاما عامّا، ففي ظروف مختلفة عن ظروف الرسول(ع) قد لا تحدث معركة أخرى...

ومن التاريخ نعلم أنه بعد فتح خيبر جرت دعوة المسلمين لأربع غزوات من العيار الثقيل: مكّة "قريش وحلفائها"، حنين "هوازان وأحلافها"، والطائف "ثقيف وأحلافها"، وتبوك "الرومان"، فكلها مرشّحة لتكون المقصودة، ويبقى الاحتمال الأقوى أنه عمليا جرت الأحداث ليكون فتح مكّة أولا من بعد حادثة خيبر، وهكذا فعمليا يكون فتح مكّة هو المصداق التطبيقي لما يقوله تعالى هنا، وما قد يبدو من بعض كتب التاريخ أن فتح مكّة كان سهلا، فهذا غير صحيح، فأهل مكّة بطّاشون ولديهم حلفاء... وكان متوقعا منهم القتال وبشراسة... ولكنهم خافوا وفضّلوا الاستسلام...

(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً{17})
{لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَى}، ليس على فاقد القدرة على الرؤية، {حَرَجٌ}، والكلام هنا عن أنه ليس قريبا جدا من الحالة القصوى لمخالفة الأوامر الإلهية، حيث إنّ الآية ستعدّد الذين ليسوا في حالة الحرج أصلا، لأنّ تخلّفهم عن الخروج لا يضعهم في حالة حرجة أمامه تعالى وأمام رسوله(ع) وأمام المؤمنين بسبب مخالفة أمره تعالى بترك الخروج للقتال، وهم الذين عذرهم مقبول، {وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ}، وهو الذي لا يتمكّن من المشي بشكل طبيعي، لذا لا يمكنه الركض بسرعة كافية للنشاط الحربي، {وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ}، وهو الذي حالته الصحيّة تمنعه من التحرّك بالشكل المطلوب للنشاط العسكري.

الأعمى والأعرج والمريض مسموح لهم التخلّف عن القتال ولا حرج عليهم، وهذا الكلام موجّه للذين تعذّروا بأشغالهم المهمّة وبأموالهم وأهليهم، حيث تخبرنا الآية أن العذر البدني المانع من القيام بالنشاط العسكري هو العذر الوحيد الصريح الذي يقبله تعالى للتخلّف عن أمر الرسول(ع) بقتال الأعداء.

لاحظ وانتبه أن المقطوعة يداه بديهي أنه معذور من المشاركة في القتال، وهكذا تنتبه لعموم كلام القرآن أنه عن نماذج، حيث لم يذكر المقطوعة رجله أو يده أو الأصمّ... واكتفى بذكر نماذج عن أعطال بدنية مانعة من فعالية القتال.

{وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، لم يكن أعمى أو أعرجا أو مريضا... واستجاب للأمر الإلهي وانطلق للقتال، {يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ}، يجعله سبحانه في أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين و... {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، {وَمَن يَتَوَلَّ}، يدير ظهره للأوامر الإلهية ولأوامر الرسول(ع)، {يُعَذِّبْهُ} تعالى {عَذَاباً أَلِيماً}، يصيبه سبحانه بضرر لا يمكنه تحمّله ولا الاعتياد عليه.

لا تبحثوا عن أعذار لتتخلّفوا عن أوامره تعالى وأوامر رسوله(ع)، لأنّ هناك نهاية أكيدة لكل تصرّف، واحدة إلى الجنّة والأخرى إلى النار، فلا تضحكوا على أنفسكم بالأعذار التي لن تغير النتيجة النهائية.

نلاحظ أنها من المرات القليلة التي يستعمل القرآن فيها كلمة الأعمى بمعنى العجز عن الرؤية بالعين أي الكفيف، حيث استعملها بهذا المعنى ثلاث مرات فقط "بحسب ما تبين معي"، إذ إنّ الآية 61 من سورة النور أعطت الأعمى الرخصة بالأكل من بيوت... وهنا في سورة الفتح أعطته رخصة التخلّف عن القتال، وفي سورة عبس تحدّثت عن عبد الله ابن مكتوم كشخص فاقد للقدرة على الرؤية بالعينين... أمّا كل ما تبقى من كلمات العمى ومشتقاتها التي وردت في القرآن "قرابة الثلاثين مرة" فهي تقصد العمى عن رؤية الحقّ ونور الإيمان.

نتذكّر دائما أن السورة لم تتحدّث عمّن يموت في الحرب بأنه هو فقط سيدخل الجنّات، بل كل من شارك حتى لو بقي حيا على إيمانه فهو موعود بالجنّات، وركّزنا على هذه النقطة عدة مرات في دراستنا للسورة هنا بسبب انتشار فكرة الخاصية للمقتول في سبيل الله تعالى في ثقافتنا الدينية، وإهمال أهمية من شارك ولم يقتله الأعداء أثناء الحرب. وهنا ترى العبارة صريحة بالوعد الإلهي بدخول الجنّة لمن شارك في القتال سواء مات أو لم يمت.

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً{18})
{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ}، قبل بموافقة ومحبّة، {عَنِ الْمُؤْمِنِينَ}، الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين، {إِذْ يُبَايِعُونَكَ}، حين أعلنوا تقديم الطاعة لك، {تَحْتَ الشَّجَرَةِ}، وهذه الحادثة مشهورة في التاريخ حيث حصلت حين خرج النبي محمّد(ع) من المدينة إلى مكّة مع المؤمنين لأداء العمرة أو الحجّ، وذلك بالرغم من العداوة العسكرية بينه(ع) وبين أهل مكّة التي سيقصدها لأداء المناسك، وكان القصد من هذه الرحلة إيجاد حلّ مع كفّار مكة المستمرين بأذية المؤمنين بمختلف الطرق... حيث تخلّف بعض الناس عن الخروج معه(ع)، على أساس أن أهل مكّة وحلفاءهم من الكفّار حتما سيقتلون الرسول(ع) ومن معه... والآيات السابقة تحدّثت مع وعن من تخلّف ومن التحق بهذا الخروج...

وهكذا صار المسلمون بالقرب من مكّة، واستعدّ كفّار مكّة للقضاء عليهم، وبدؤوا باستفزاز المسلمين حتى يحصل نشاط قتالي من المسلمين، ولو حتى حادثة تعارك بالأيدي أو حتى رمي بالحجارة... ليأخذها الكفّار عذرا ليهجموا عليهم ويقتلوهم، لأنّ المشركين في مكّة يريدون عذرا يبررون به لبقية العرب قتلهم لمعتمرين مسالمين... لذا طلب الرسول(ع) ممن معه أن يبايعوه على الثبات معه على أمره (ع) مهما حصل، وأن لا يردّوا على الاستفزازات... وجلس تحت شجرة، ومرّ عليه المسلمون واحدا بعد الآخر يضعون يدهم تحت يده (ع)، وهذه الحركة تعني أنهم يبايعونه، أي يقدّمون له طاعتهم بأنهم لن يخالفوا أوامره ولن يتركوه مهما حصل. وفيما بعد نزول هذه السورة صار لهذه البيعة اسمان: بيعة الشجرة، وبيعة الرضوان كاشتقاق من "رضي" الله تعالى عن المؤمنين إذ يبايعونك...

{فَعَلِمَ} تعالى {مَا فِي قُلُوبِهِمْ}، في أساس فكرهم ونفسيتهم كانوا فعلا صادقين ببيعتهم ولم تكن تمثيلية بل كانت لديهم نيّة حقيقية بالطاعة والثبات، {فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ}، طار الخوف والقلق مما سيحدث ضدّهم من كفّار مكة وحلفائهم وشعروا بالهدوء، وصار لديهم مقاومة ضد الاستفزازات ولم يردّوا عليها... {وَأَثَابَهُمْ}، أرجع سبحانه عليهم بسبب مبايعتهم لك بصدق، {فَتْحاً قَرِيباً}، ما هو مغلق عليهم الآن سيكون عمّا قريب مفتوحا أمامهم، والتعبير بالفتح في الحالة العسكرية يعني أنهم سيفرضون وينشرون سيطرتهم بشكل تام على مدن وقرى ومنطقة ما، ولكن من سياق السورة ومن أوّلها تعلم أن الفتح هو الصلح الذي سمي بصلح الحديبية، وهذا لا يلغي عمومية انطباق الفتح على كل ما سيأتي من انتصارات سببها هذه البيعة التي أوصلت الأمور لعقد الصلح المؤقت...

ننتبه جيدا، رضاه تعالى عن المؤمنين المبايعين، حين بايعوا، حيث قبل سبحانه بمحبة هذا العمل بالتحديد، وهذا لا يعني أبدا عصمة المبايعين حينها أو بعدها أو قبلها، ونتذكّر ما ورد سابقا عن غفران ما تقدّم وما تأخّر بالتأكيد لذنوب الرسول محمّد(ع)، وغفران ما "تقدّم" من ذنوب المؤمنين معه، ولكن غفران ما تقدّم من ذنوبهم متعلّق ببقائهم مؤمنين مخلصين، وتميّزهم عن غيرهم من خلق الله تعالى ليس بأكثر من هذه الحادثة التي لا تعطيهم صفة القداسة والطهارة والصدق والفهم والفقه... لذا أي مؤمن بايع نبيا ما فهو مندرج تحت ما تذكره السورة من الصفات، وأي مؤمن بايع قائدا مؤمنا في ظروف مشابهة فهو أيضاً مندرج تحت ما تقوله السورة.

يعني، هؤلاء الناس تحمّلوا شدّة عظيمة، وبايعوا في ظروف شديدة الصعوبة، ولهم منّا الاحترام الشديد بناء على مدحه تعالى لهم بالعموم، ولكن كما لا يحقّ لنا تقديس كل ما فعلوه وقالوه كأنهم معصومون، وبالتالي نتلقّف رواياتهم وتصرفاتهم على أنها مقدسة وبقيمة أفعال الرسول(ع) تشريعيا... فهذا غير صحيح، كذلك لا يحق لنا سبّ أحد منهم حتى لو صدر منه ما يعيب إيمانه، هل ديننا دين سباب وشتائم؟ وهل نحن مكلّفون بالبحث في التاريخ لتحديد المؤمن من المنافق؟ أم مكلفون بما يمكننا التأثير فيه في عصرنا ومكاننا؟ فليشتغل كل واحد منّا بإصلاح ما يصدر منه لأنّ هذا ما سيتحاسب عليه على الصعيد الفردي الشخصي، وليشتغل الجميع بموالاة الأصلح فيما يمكنهم المشاركة فيه، من انتخابات مخترة أو بلدية أو نيابة أو رئاسة... أو دعم لزعيم أو رئيس... لأنّ هذه هي الولاية التي سنتحاسب عليها في الآخرة، ولن نقف في الآخرة ليحاسبونا على شيء من التاريخ، ما معنى الاهتمام الشديد بشيء لن تتحاسب عليه؟ وماذا

لو كنت مؤمنا عاملا للصالحات ولديك جهل تام بالتاريخ الإسلامي، هل ستسقط في امتحان التاريخ في الآخرة لأنك لا تعرف أنّ فلاناً مؤمنٌ لتحبّه وفلاناً فاسقٌ لتبغضه! وستدخل النار لأجل ذلك! وهذا كلام مبني على القرآن، ومن لم يعجبه ذلك فليعلم أنه يخالف صريح العديد من آيات القرآن التي تمنع وتتوعّد بالعذاب من يعمل على الفرقة والانشقاق بين المسلمين.

ولو أطلت عليك، فمن صفات القائد الناجح أنه لا ينشغل بالتعليقات الناقدة لمن حوله، بل ينشغل باستعمال قدرات من حوله لتوجيهها نحو الأهداف... والأحزاب الناجحة أيضا لا ينشغل محازبوها بالتعليق على تصرفات بعضهم، بل التحميس والتحفيز والدفع نحو التحسين... وهذا ما يجعل القائد وجماعته تنجح... ونفس الشيء بين الزوج وزوجته، حيث إنّ كثرة التعليقات على بعضهم البعض لن تؤدّي إلى تحسين العلاقة، بل بالعكس ستؤدّي إلى خرابها والنفور والكره... وتجد هنا في السورة اختيارها الكلام عمّن خرج عن الجماعة وتخلّف، وغضّها الطرف عن تفاصيل تصرفات المبايعين تحت الشجرة، لأنهم ليسوا أنبياء، ولا معصومين، ولا كلّهم أتقياء... حتى إنّ البعض منهم شارك فيما بعد بأمور سيّئة جدا، فراجع كمثال ما ورد في الآية 23 من سورة النور "{إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}"، ولكن هنا السورة تركيزها على انحيازه تعالى للمؤمنين، ومن بايع تحت الشجرة فهو انطلق أصلاً وفي باله احتمال كبير بحصول قتال مع كفّار مكّة، لذا مدحته السورة على ذلك بغض النظر عن تصرفاته الأخرى.

بقي شيء، إنّ الأجيال الأولى من المسلمين لم يميّزوا في كلامهم بين نزول آية ما لحدث تاريخي وبين نزولها في حين حصول الحدث، لذا قالوا في الحالتين عن آية ما إنّها نزلت في كذا. وظاهر كلامهم على بساطته يعني أن وقت نزول الآية كان بعد حصول الحادثة فورا، وهذا بالغالب الأعم غير صحيح، حيث إنّ أكثر سور القرآن نزلت بعد وقت طويل من حصول الحوادث التاريخية المذكورة فيها، وأوضح مثال عن ذلك الآية 40 من سورة التوبة التي نزلت في أواخر حياة الرسول(ع) وتذكّرنا بحدث حصل من سنين طويلة قبل هجرة الرسول(ع) إلى المدينة، "{إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ...}"، ولكن في الروايات تجد كلاما تفهم منه أن الآية نزلت في حادثة الغار أي بعدها مباشرة؟!

وهنا سورتنا يبدو بشكل واضح أنها نزلت بعد توقيع صلح الحديبية وقبل فتح خيبر، لذا آيتنا هذه لم تنزل بعدما بايع المسلمون تحت الشجرة مباشرة، بل نزلت السورة فيما بعد متناولة إعادة صياغة أحداث الفتح "توقيع الصلح" من نظرته تعالى للأمور، ولنكن واضحين أكثر، آيتنا هذه لم تنزل أولاً وبعدها نزلت الآية ما قبل السابقة التي تتحدّث عن المتخلّفين، وهذا النوع من الكلام عن التقديم والتأخير في نزول آيات نفس السورة هو منتشر في عموم كتب التفاسير، وهو غير صحيح، حيث يقولون مثلاً عن الآية الخامسة إنّها نزلت قبل الآية الأولى وبعد ذلك نزلت الآية العاشرة من نفس السورة، وهذا كلام غير صحيح أبداً بتاتاً ولا في أي سورة، وسبب كلامهم أنهم لم يفهموا سياق السورة ولا طريقة عرضه تعالى للأحداث من نظرة تحليلها لنا، واعتمدوا على روايات وتفاسير قديمة لم تلحظ موضوع السورة وعلق في ذهن قائليها أنّ الآية التي تتحدّث عن شيء له ارتباط بالتاريخ إنّها نزلت فيه، أو بعده مباشرة، وهذا غالباً غير صحيح.

(وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً{19})
وأثابهم سبحانه بعد الفتح القريب، مغانم كثيرة يأخذونها، أموالاً وأملاكاً... يحصلون عليها من العدو بعد الانتصار عليه، ومن المشهور جدا في التاريخ أننا نعلم أن المسلمين بعد توقيع معاهدة صلح الحديبية التي ستتحدّث عنها الآية التالية بصراحة، تأمّن ظهرهم من كفّار مكّة وحلفائها، فانطلقوا باتجاه اليهود الذين في السابق خانوا العهود ولم يقبلوا توقيع معاهدة سلام... ففتح المسلمون حصونهم... ومن استسلم من اليهود دفع الجزية... ومن قاتل غنم المسلمون أمواله وأرضه وماشيته...

نلتفت لآيات متفرقة من القرآن شرحت سبب حرب المسلمين مع يهود الجزيرة العربية، حيث رفضوا الإيمان بالرسول(ع) رغم أنه امتداد لدينهم، ورفضوا "بالعموم" توقيع صلح أو عهد سلم معه(ع)، ويهود مدينة يثرب وحدهم وقّعوا معاهدة محايدة مع المسلمين قبل معركة الخندق، ولكنهم أخلفوا بها أثناء المعركة وحرّضوا ودعموا الكفّار ضد المسلمين... فأعلن النبي(ع) الحرب عليهم...

{وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً}، منفيا عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... وحين قرّر أن تأخذوا مغانم فإرادته سبحانه ستُفرض وحتما سيحصل ما قاله تعالى وستنتصرون.

{وَكَانَ اللَّهُ}، {حَكِيماً}، رغم عزّته بفعله وفرض ما يشاء سبحانه إلا أنه حكيمٌ لأنه بالصوابية يفعل ويفرض ما يريد، وسياق الكلام هنا عن نصرته تعالى للمؤمنين وأخذهم الغنائم من عدوّهم، حيث شاء سبحانه ذلك لأنه قرار حكيم، صائب وحقّ.

(وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً{20})
{وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا}، سبحانه يخبركم أنكم لن تحصلوا مرّة واحدة فقط على الغنائم بل سيكون هناك غيرها الكثير، {فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ}، من بين الأشياء الكثيرة التي ستحصلون عليها قدّم سبحانه لكم حصولكم على الغنائم من خيبر، ولا تحصر كلام الآية على التاريخ القريب لزمن معاصر للرسول محمّد(ع)، لأنّ لدينا روايات منسوبة له (ع) تتحدّث عن غنائم من بلدان تابعة لقوى عظمى، كالفرس والروم... حصل عليها المسلمون فيما بعد.

ننتبه هنا، القوة القتالية للمسلمين الذين كانوا في صلح الحديبية تقارب الألف وثلاثمئة مقاتل وليس أكثر من ألف وخمسمئة، كما قيل في مختلف الكتب، وهم فقط مسموح لهم التوجّه إلى منطقة خيبر وما يتبع لها، وقوّة اليهود هناك كما قيل في مختلف الكتب تقارب العشرة آلاف مقاتل، موزعة على قرابة ثمانية حصون، وهو رقم يبدو مبالغاً فيه بالنظر لصغر الآثار الباقية من تلك الحصون، والأرجح أن أعداد مقاتليهم في كل حصن من تلك الحصون المتباعدة عن بعضها كانت أقل بكثير من عدد مقاتلي المسلمين. وبالتالي الانتصار عليهم سهل نسبيا إن لم يتجمّعوا مع بعض في مكان واحد... وبالتالي الحصول على الغنائم أكيد، ولهذا ترى الآية هنا تتحدث عن الغنائم باسم الإشارة للقريب "هذه" لأنها أوّل ما سيغنمه المسلمون من بعد صلح الحديبية.

إذاً، عجّل تعالى لكم هذه الغنائم من خيبر، {وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ}، لم تعد أيدي كفّار قريش وحلفائها تصل إليكم بعد أن وقّعتم معهم الصلح.

{وَلِتَكُونَ}، هذه الأحداث من فتح وغنم وكفّ، {آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ}، أموراً مميزةً كعلامة ودليل للدعم الإلهي للذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين وبأنه تعالى مولاهم المنحاز لهم ويؤيّدهم وينصرهم.

ما سيحصل من نصر في خيبر سيكون بتدخّل إلهي، والآية خبر عن شيء لم يحصل بعد وتتحدّث عنه وكأنه حصل، لأنه حتما سيحصل، وحصوله سيكون آية وسيكون شيئا مميّزا يراه المؤمنون كتدخّل إلهي لمصلحتهم وناتج عن توقيع صلح الحديبية الذي في البداية لم يفهموا أهميته...

{وَيَهْدِيَكُمْ}، يضعكم سبحانه على الشيء الصحيح الذي يوصلكم للغاية الصحيحة، {صِرَاطاً}، طريقا أساسيا، {مُّسْتَقِيماً}، يوصف بأنه على الأحسن فلا انحراف ولا اعوجاج فيه، ويوصلكم إلى مرضاته تعالى والجنّة وهذا أهم من الغنائم والأمان في الدنيا.

(وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً{21})
{وَأُخْرَى}، ووعدكم تعالى غنائم غيرها، {لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا}، في السابق لم يكن لديكم القدرة العسكرية والنفوذية للحصول عليها وستحصلون عليها فيما بعد لأنه تعالى وعدكم بها، {قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا}، وهي ليست في مكان خارج سيطرته تعالى بل تحت قدرته، {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً}، لديه القدرة على فعل أي شيء يريده بأي شيء، وأراد لكم أن تحصلوا على تلك الغنائم وستحصلون عليها.

عجّل تعالى لكم هذه الغنائم في خيبر، وهناك غنائم غيرها لم يكن يخطر ببالكم أبدا أنكم ستصلون يوما ما للقدرة التي تخوّلكم الحصول عليها، ومن التاريخ تعلم أنه في زمن قصير جدا جدا استطاع المسلمون من بعد وفاة الرسول(ع)، تكملة الامتداد ببسط سيطرتهم على كامل الجزيرة العربية، وانتشروا خارجها...

(وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً{22})
{وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ}، لذهبوا وتركوكم وهم يعطونكم ظهورهم، لهربوا، {ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً}، لا يجدون من يعتبرهم تابعين له ليتطلّع إلى ما يحتاجونه، {وَلَا نَصِيراً}، لن يجدوا من يحقق لهم ما يريدون وهو الفوز عليكم.

أنتم سمعتم كلامه تعالى وأطعتموه، وهكذا يكون سبحانه وليّكم وأنتم تابعون له، وبناء عليه سيحقّق سبحانه لكم ما تريدون "سينصركم" وستغلبون عدوّكم، وهذا تكرار لمحورية السورة حول انحيازه تعالى لكم، أمّا أعداؤكم حين يقاتلونكم فهم لن يجدوا من مستوى إلهي من يعتبرهم تابعين له لينصرهم عليكم وسيهربون منكم، لأن الإله واحد أحد وقرّر الانحياز للمؤمنين.

والآية هنا كلامها عن عموم أي مواجهة بين المؤمنين والكفّار، حيث سيهربون من أمام المؤمنين، بشروط ذكرها القرآن عموما في مختلف السور، منها الإيمان الحقيقي للمقاتلين، الاستعداد للقتال... وقتالهم في سبيل الله تعالى، والثبات... وطاعة القائد... أمّا إذا كانت بعض هذه الصفات في العدو أعلى مما هي عند المؤمنين، فهم ليسوا مؤمنين حقيقيين، وهم سيهربون من العدو ولا يستحقون النصر الإلهي.

(سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً{23})
هذا النصر الإلهي للمؤمنين هو، {سُنَّةَ اللَّهِ}، طريقته تعالى في التصرّف، {الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ}، هذه الطريقة الإلهية بالتصرف هي نفسها في حوادث حصلت من قبل، {وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً}، هذه العادة لن تتبدّل لأنه تعالى يتصرّف هكذا دائما، ولن توجد أي قدرة تجعله تعالى يغيّر قراره عن الانحياز للمؤمنين ونصرهم.

(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً{24})
{وَهُوَ} تعالى {الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ}، لم يدع أيدي الكفّار تصل إليكم أيها المؤمنون، ولم يقاتلوكم، وهو تعالى كفّ أيديكم عنهم، لم يترك يدكم تصل إليهم لتقتلوهم، {بِبَطْنِ مَكَّةَ}، في مكان تابع لمكّة من بطون منحدراتها حصل هذا الكفّ لأيديهم وأيديكم، لأن الطرقات تكون عادة في البطون فيما بين التلال والجبال، وبمنطقة تابعة لمكّة "الحديبية" حصل هذا الكفّ الذي تذكره السورة كنموذج... {مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ}، من النظرة العادية لكم ولهم وهم يحومون حولكم، نحن سنصف الكفّار أنهم ظفروا بالمؤمنين، وصار المؤمنون بمتناول يدهم ليقتلوهم، لأن المؤمنين ليس معهم دروع ولا رماح ولا نبال... والكفّار بالقرب من مدينتهم ومعهم كامل أسلحتهم... أمّا وكما ترى هنا تعبير الآية من النظرة الإلهية، سبحانه يرى المؤمنين قد ظفروا بالكفّار وصار الكفّار في متناول أيدي المؤمنين لقتلهم، وحصل الكفّ الإلهي لأيدي الطرفين، وسيتأكّد لك هذا المعنى من الآية التالية التي تريك أنه تعالى لم يرد حصول قتال ونصر المؤمنين لأنه في مكّة وبين الكفّار يوجد مؤمنون يخفون إيمانهم، ولا يريد سبحانه أن يتأذى أي واحد منهم ولو بالخطأ.

وترى استعمال العرب لكلمة "ظفر" على الوصفية، الظفر الذي في إصبع اليد نستعمله لغرسه في جلد الذي نريد التقاطه بقوّة، وعلى الوصفية نسمّي ما في الإصبع بالظفر لأننا نظفر به، وعلى الوصفية كل التقاط بقوة وتحكّم لأي شيء، هو الظفر به، وإذا أحاطت مجموعة بشخص ولم يعد بإمكانه الفرار، ظفروا به حتى لو لم يلمسوه.

تذكّر الآية ما قبل السابقة، هنا تلاقت فئتان قرب مكّة وهما بكامل الشروط للتعارك، والنصر الإلهي حتمي للمؤمنين والهرب حتمي للكفّار، ولذلك تعبّر الآية هنا عن ظفر المؤمنين بالكفّار، حيث صار الكفّار بمتناول يدهم لينتصروا عليهم لو حصلت المواجهة.

تتذكّر ما قلناه سابقا نقلا عمّا هو مشهور في التاريخ وتذكر السورة هنا أهم النقاط منه، حيث قرّر المسلمون الانطلاق إلى مكّة للعمرة أو الحجّ... وصلوا إلى منطقة الحديبية القريبة من مكّة، واستنفر كفّار مكّة وأحاطوا بهم وبدؤوا باستفزاز المسلمين حتى ينسحبوا أو يدخلوا معهم في قتال... وكفّ سبحانه يد الفريقين عن بعض، ومنع سبحانه حصول قتال...

{وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً}، يدرك "بمستوى إلهي" ويعي معنى صورة ما يحصل، وليس تعالى مثل الكاميرا التي تسجّل الأحداث ولا تعيها، لا، سبحانه يرى كل شيء عن دراية فهو بصير ولديه رؤية ووعي للأمور بتفاصيلها، وهنا عن بصيرة كفّ تعالى أيديهم عن بعض، وسترى في الآية التالية أنه سبحانه لم يرد القتل لكفّار مكّة لأن فيهم مؤمنين مغلوب على أمرهم ولن يتميّزوا إذا وقعت الحرب، وربما يقتلهم المؤمنون بالخطأ... وكما تعلم من التاريخ هناك أيضا أشخاص من كفّار مكّة أسلموا فيما بعد وحسن إسلامهم، وخرجت أجيال من المؤمنين من ذراري كفّار مكّة... ولهذا كفّ تعالى أيدي الطرفين عن القتال.

أمّا آلية فعله تعالى للكفّ، فبالتحليل المستند على ما أخبرنا تعالى أنه فعله في حوادث أخرى كما في معركة بدر، نفهم أنه سبحانه ربط قلوب المؤمنين ليصبروا، وخوّف الكافرين، وتقرأ شيئا مثل هذا في الآية 12 من سورة الأنفال "{إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}"، وسيأتيك كلام في الآية بعد التالية عن ذلك.

(هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً{25})
لماذا ستحصلون أنتم أيها المؤمنون على الدعم الإلهي وهم لن يجدوا ولياً ولا نصيراً:

{هُمُ}، كفّار مكّة، {الَّذِينَ كَفَرُوا}، أنكروا هذا الدين الإلهي، {وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، منعوكم من الدخول إلى "المسجد" إلى مكان السجود، "الحرام" الذي يحرم فيه القيام ببعض الأمور، وهو الباحة الكبيرة التي فيها الكعبة وزمزم والصفا والمروة... كلّها مكان مخصص للعبادة والطقوس الدينية، فهي مسجد، وبما أنها معنوياً بيت له تعالى فلهذا البيت حرمة خاصة لذا يحرم فيها الجدال والنقاش بالإضافة لما يحرم في بقية المساجد، وحاليا علق في ذهننا أن المسجد هو بناء له سقف وقبّة ومئذنة ومحراب... ولكن هذا شيء جديد، لأنّ كلمة مسجد تنطبق على أي مكان مخصّص لأداء الشعائر الدينية، حتى لو كان بقعة أرض ترابية مكشوفة بلا حيطان ولا أي سور ولا أي بنيان.

هم منعوكم من الوصول إلى مكان ليس لهم، لأنه مكان عام للعبادة حدّده تعالى، {وَالْهَدْيَ}، وهو ما تُقدِّمونه كهديّةٍ كشيء تقصدون منه التقرّب منه تعالى بدون أن تطلبوا أي مقابل، وهو عمل من مناسك الحج، حيث إنّ الهديّة هي تقديم الأضاحي من الماشية لإطعام الفقراء والمساكين... {مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ}، محلّ مكان تقديم الهدي "الأضاحي" في منطقة تسمّى "منى" وهي داخل مكّة، وهم منعوكم من تأدية المناسك وجعلوكم تُقدِّمون الأضاحي في مكان آخر، انعكف والتوى مكان تقديمكم للأضحية من منى إلى الحديبية حيث صدوكم وأوقفوكم عن المسير إلى مكّة. "الهدي في العمرة مستحب، وفي العمرة التي للحجّ يكون الهدي واجباً، وتأدية الهدي تكون في مكّة".

كفرهم وصدّهم عن سبيله تعالى سبب لسماحه تعالى لكم بقتالهم، ولكنه سبحانه كفّ أيديكم وأيديهم عن حصول قتال لأنه يوجد مؤمنون في مكّة مغلوب على أمرهم ولم يتمكّنوا من مغادرتها، لنتابع:

{وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ}، "موجودون مع الكفّار في مكّة"، {لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ}، كما نقول: شديد الوطأة. أي حصل منه فعل شديد على شيء ما، يحصل منكم تماسّ وفعل قتالي شديد سيصيب أولئك المؤمنين وأنتم لا تُميّزونهم عن الكفّار إذا وقع القتال بينكم وبين كفّار مكّة، {فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم}، من وطئكم للمؤمنين غير المعروفين، {مَّعَرَّةٌ}، وهو العار، الوصف السيّء لارتكاب شيء معيب، لأنّ قتل المؤمن للمؤمن عار، فهي صفة سيئة ملازمة معيبة لا تنفك عمّن فعلها، {بِغَيْرِ عِلْمٍ}، لأن المؤمنين من أهل مكّة المقيمين فيها مخلوطون مع كفّار مكّة ولم يعلنوا إيمانهم لأحد، فهم مجهولون لكم ولهم، وإذا وقع القتال فلن تعلموهم، ولن تميّزوهم، فهم مجبورون على حمل السلاح وإلا لعلم الكفّار أنهم مؤمنون... لذا قد تقتلونهم وأنتم لا تعلمون أنهم فعلاً مؤمنون فيصيبكم العار نتيجة قتلكم للمؤمنين.

نتذكّر كلام العديد من السور عن التصاق وصف السوء بعمل السوء مهما كانت الظروف ولن يتغيّر التوصيف، حتى لو عن غير قصد ارتكبت عملاً سيئاً فلن يتغيّر توصيف العمل، سيبقى وصفك أنك ارتكبت عملاً سيّئاً، وهنا كما ترى، سبحانه لا يريد للمؤمنين أن يرتكبوا عملاً سيئاً بقتلهم لمؤمن عن طريق الخطأ لأنه مختلط مع الكفّار ولا يمكن تمييزه.

يمكنك فهم هذا بسهولة عندما تفكّر في وجود العدو في قرية فيها مؤمنون، فهل يجوز قصف تلك القرية مع وجود احتمال قتل أو أذية مؤمن أو شخص بريء موجود بينهم؟ لا، لا يجوز.

يمكنك أن تفكّر فيها في وجود خطر على موت الملايين ويمكن تلافيه بقتل بريء واحد، فهل يجوز قتله؟ لا، لا يجوز. لنفترض أن مليون مجرم يستحقون القتل بل ويجب قتلهم لأنهم يعملون على قتل الأبرياء، ولنفترض أنهم اجتمعوا وأخذوا معهم أسيراً واحداً مؤمناً جعلوه في وسطهم، وأنت قادر على قصفهم بقنبلة تميتهم كلّهم، فهل يجوز قصفهم وقتل المؤمن الواحد الذي بينهم؟ لا، لا، لا.

يمكنك ملاحظة قيمة ما قالته الآية وما قلناه عندما تعلم من رواة التاريخ أن المؤمنين الموجودين بين كفّار مكّة والذين تتحدّث عنهم الآيات هنا، هم أقل من عشرة أشخاص بين عشرات آلاف من الكفّار، وكانوا فعلاً مستضعفين ولسبب أو لآخر كانوا فعلاً غير قادرين على مغادرة مكّة، ولأجل هذا العدد الضئيل جدا جدا، كفّ سبحانه أيدي المؤمنين من الدخول في قتال.

هذا القرار الإلهي بأن لا يحصل قتال بينكم وبين الكفّار لأجل المؤمنين المختلطين بينهم، {لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ}، أمامه تعالى خيارات عديدة وها هو يخبرنا أنه تعالى قرّر جعل مؤمني مكّة القلائل جدا وغير القادرين على الهجرة، قرّر جعلهم مشمولين بعنايته الخاصّة بالمؤمنين، فمنع سبحانه القتال لأجل سلامتهم.

{لَوْ تَزَيَّلُوا}، لو انزالوا، لو تمت إزالة وتنحية وفصل الكفّار عن المؤمنين الذين في مكّة، {لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ}، لتحدّد الكفّار ولأصابهم تعالى بضرر لوحدهم، {عَذَاباً أَلِيماً}، ضرراً لا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه، ولو صار الكفّار لوحدهم معزولين عن المؤمنين لأنزل سبحانه عليهم عذاباً جماعياً يبيدهم، أو لسمح للمؤمنين بقتلهم.

من قصص القرآن نعلم أنه تعالى أمر النبي صالحا وهودا وشعيبا عليهم السلام بالخروج هم والمؤمنون من بين الكفّار حتى ينزل العذاب... ولكن في حالة مكّة كان هذا مستحيلاً، حيث وضع الكفّار أقاربهم المؤمنين في السجون وفي القيود وفي الإقامة الجبرية وتحت المراقبة... وبعضهم الآخر كان يخفي إيمانه.

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيما{26})
ما هي الظروف التي كانت سائدة في تلك الحادثة، وما الذي كان سيسبّب القتال بين المسلمين وبين كفّار قريش؟ وكيف منع تعالى حصول صدام كان سيذهب فيه أبرياء من المؤمنين المقيمين غصباً عنهم في مكّة؟

{إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ}، في أساس فكرهم ونفسيتهم، {الْحَمِيَّةَ}، الفكر والنفسية بوجوب التصرف على أساس الانتماء، باتخاذ موقف وتصرّف مساند لمن تنتمي له، {حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ}، بغض النظر عن كون الذي تنتمي له معه حقّ أو هو على الباطل، حيث جعلوا فكرهم ونفسيتهم داعمة للكفّار المنتمين لهم عن جهل، عن تصرّف لا يعرف العقلانية، فدعموا بعضهم البعض على الباطل، مثلما لو رأيت أخاك في عراك مع شخص لا تعرفه، وبدأت بضرب ذاك الشخص من دون أن تعرف إن كان أخوك قد تعدّى على الآخر، فهذه حميّة جاهلية. وهنا دعم الكفّار بعضهم في قرار منع الرسول(ع) والمؤمنين من أداء الحج أو العمرة، ودعموا بعضهم في استفزاز المؤمنين للقتال عبر التحرّش بهم وسبّهم... رغم علمهم بأن المؤمنين لا يريدون قتالهم... وأن المؤمنين متوجهون إلى المسجد الحرام لأداء مناسك عبادية... وأصلاً لو كان عند الكفّار وعي وتفكير سليم لكانوا آمنوا! ولكنهم جهلة طائشون.

{فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ}، سحب سبحانه منهم الاضطراب وجعلهم هادئين لا يتجاوبون مع الاستفزازات، لأنه لو ردّوا عليها بأقل ردّ لكان كفّار مكة اعتبروها عملاً عدائياً يبرّر لهم الهجوم على المسلمين...
{وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى}، حيث إنّ الكلمة الإلهية بالابتعاد عن الدخول في قتال سيذهب فيه أبرياء مؤمنون هي كلمة التقوى، هي كلمة تجنّب السوء بقتل المؤمنين الأبرياء المجبورين على الإقامة في مكّة، وسبحانه ألزم المؤمنين بها فلم يتخطوها ولم يخالفوها ولم يردّوا على الاستفزازات، {وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا}، لأنّ المؤمنين بصفتهم كمعتقدين بدينه تعالى عندهم الأحقية والأفضلية للالتزام بكلمة التقوى الإلهية، حيث سمع كفّار قريش تلك الكلمة من المؤمنين وعلموا أنهم لا يريدون الدخول في قتال ولكن صفتهم ككفّار لا تؤهلهم للالتزام بتلك الكلمة لأنهم يتصرفون عن حمية جاهلية، أمّا

المؤمنون بوصفهم ملتزمين متدينين فهم أحق بهذا التصرف العقلاني الراقي، {وَأَهْلَهَا}، وكانوا منتمين منسوبين لكلمة التقوى، لأنه لولا كونهم من أهل التقوى لما كانوا أصلاً متصفين بالإيمان.

{وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً}، يعلم سبحانه الأساس الذي يدفع الكفّار لصدّكم وهو حميتهم الجاهلية، ويعلم الأساس الذي يدفع المؤمنين للصبر والسكينة وهو التزامهم بكلمة التقوى، وقبل ذلك عن علم بمصلحة المؤمنين عموما قرّر تعالى كفّ الفريقين عن القتال.

(لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً{27})

بعد الخبر السابق في السورة عمّا سيحصل في المستقبل من غنائم خيبر، نأتي لخبر آخر عمّا سيحصل في المستقبل، وكلا الخبرين من أجواء حادثة توقيع صلح الحديبية:

{لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ}، هناك رؤية وهناك صورة محدّدة لشيء، وتلك الصورة حصلت عند النبي محمّد(ع) أثناء نومه "فهذا المشهور من استعمال كلمة رؤية لوحدها حيث تشير لما يراه النائم"، وسبحانه صدّقه وأيّد مضمون ما رآه (ع)، ولن يكذّب سبحانه مضمون الرؤيا وسيجعلها حقيقة وستحصل، {بِالْحَقِّ}، بالصواب ولم يجعل تعالى الرؤيا تتحقّق هكذا عبثا لأنه مجرد منام وأراد تعالى تحقيقه، لا، بل مضمون المنام يستحقّ نيل التأييد الإلهي، وسترى توسعة لمعنى كلمة "بالحق" في الآية التالية.

{لَتَدْخُلُنَّ}، لسوف تدخلون أيها المؤمنون إلى، {الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ}، إلى الباحة الكبيرة التي في مكّة والتي فيها الكعبة وهي مسجد لأنها كلّها مكان مخصّص للعبادة، وهي توصف بأنها حرام لأنّ هناك أموراً ممنوعة فيها كالجدال والنقاش بالإضافة لما يحرم القيام به في عموم المساجد، {إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ}، هناك خيارات عديدة أمامه تعالى بالنسبة لهذا الموضوع وإن بقيت الأمور كما هي الآن من إيمانكم والتزامكم... فسوف يختار سبحانه أن تدخلوا المسجد آمنين بدون أي خطر عليكم من الأعداء، {مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ}، تحلقون تقصون شعر رأسكم بالكامل، {وَمُقَصِّرِينَ}، تقصون بعض الشعر من رأسكم، والحلق والتقصير عملان يقوم بهما من بدأ بطقوس العمرة أو الحجّ ومرّ في حالة تسمّى بالإحرام حيث كان في أثنائها ممتنعا عن الصيد والاغتسال والطيب "العطور" ومقاربة النساء... وفي مرحلة من تلك الطقوس يقوم المعتمر أو الحاج بحلق أو بقص شعره لينهي حالة الإحرام، ومن المشهور من مجمل كلام الروايات أن "الذكر" الحاجّ لأول مرة من الأفضل أن يقصّ شعره بالكامل، أمّا المعتمر لأول مرة أو ثاني مرّة... أو الحاجّ للمرة الثانية، هؤلاء يقصّرون من شعرهم أو يحلقونه كلّه إن رغبوا... والنساء على كل الحالات يقصرن من شعرهن.

إذاً سوف تدخلون إلى مكّة وتؤدّون طقوسكم الدينية من عمرة أو حجّ بأمان، {لَا تَخَافُونَ}، لا تشعرون بأي خطر لا يمكنكم تجنّبه.

كما ترى من الآية، رأى النبي محمّد(ع) أثناء نومه أنه والمسلمون دخلوا مكّة وأدّوا مناسكهم وحلقوا وقصّروا، ويبدو أنه (ع) أخبر المسلمين بالرؤيا قبل الانطلاق لمكّة أو أثناء المسير، فاستبشروا خيرا بدخولهم إلى مكّة، ولكن هذا لم يحدث! حيث منعهم المشركون، ومن غير العادي أن لا تتحقّق منامات الرسول(ع) كما هو مشهور في التراث الديني، ونعلم أن أحد بنود صلح الحديبية ينص على السماح للمسلمين بأداء طقوسهم الدينية ابتداء من العام المقبل من بعد توقيع الصلح، وهنا الآية تقول بأن رؤيا الرسول(ع) ستتحقّق حتما، ولكن في العام المقبل.

{فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا}، بعلمه الواسع سبحانه علم أن الرسول(ع) والمؤمنين ستتهيّأ لهم الظروف المناسبة لدخول مكّة بينما كنتم ترونه مستحيلا أو صعبا جدا.

لو وضعت نفسك في تلك الظروف وعشتها، لن يخطر ببالك أن دخول مكّة لأداء فريضة الحج او العمرة له طريق سلمي، وإذا خطر ذلك ببالك على نحو الاحتمال الضعيف، كحصول حرج شديد لكفّار مكّة أمام عموم العرب إذا منعوا حجيجا عن بيته تعالى، فلن يخطر ببالك أبدا أنه سيتم توقيع معاهدة صلح لعشر سنين معهم، ويسمحون لك بموجبها أن تؤدّي طقوسك الدينية بأمان، وأمّا حصول فتح سلمي لمكّة، واستسلام أهلها بالكامل، ففي حينها الكلام عنه سيكون ضربا من الخيال.

هذه المعلومات التي لا تخطر بالبال علمها تعالى ولم يعلمها المسلمون حينها، فعليك الانتباه جيدا لمغزى الروايات التي نقلوها عن صلح الحديبية وما جرى قبله وبعده، وتنتبه لتعليقات القرآن عليه، أول ما انطلق المسلمون من مدينة يثرب باتجاه مكّة للعمرة أو الحجّ، كانت الفكرة أن هذه الرحلة انتحار، وأقصى ما خطر ببالهم كان أملا بإحراج كفّار مكّة الذين لا يحقّ لهم منع أو أذية حاجّ أو معتمر، ولم يسبق لهم أن فعلوا ذلك خوفا من نفور الناس عن الحجّ والتسوّق من بضائع مكّة... وأخبر الرسول(ع) المؤمنين برؤياه، فازداد الأمل، ووصلوا إلى مشارف مكّة، وظهرت البلبلة في صفوف قريش غير المعتادة على الحروب عليها في عقر دارها ضدّ جماعة المسلمين الذين صارت الحروب جزءا من حياتهم، وصاروا خبراء بالحرب، وحصلت بعض المناوشات الطائشة من شباب كفّار قريش الذين أخذتهم الحمية فأسرهم المسلمون ثم أطلقوا سراهم، "كما يقولون في الكتب".

هنا ننتبه جيدا للروايات، تغيّرت نفسية المسلمين ونسوا حالتهم الأولى حين انطلقوا! وانتقلوا إلى الحالة التي هم فيها "الآن" من الشعور بالقوّة المؤهّلة لهم لاقتحام مكّة عسكريا أمام البلبلة في الرأي والضعف الشديد الذي ظهر من كفّار قريش، وخاصة بعد البيعة تحت الشجرة التي أعطت المسلمين شعورا بتلاحمهم بشدّة، وبعدما صارت تأتي وفود المفاوضات من كفّار قريش، بدا واضحا أن قريش أنفسهم صاروا يريدون حلا سلميا... هنا حصل الانقلاب التام لنفسية المسلمين وصاروا راغبين باقتحام مكّة، حيث شعروا فعلا بأنهم ظفروا بأهل مكّة كما وصفت الآيات منذ قليل... ووقّع الرسول(ع) صلح الحديبية الذي يتضمّن رجوع المسلمين بدون الدخول إلى مكّة، مع السماح لهم بدخول مكّة في الأعوام العشرة التالية وهي مدّة الصلح، وآيتنا هنا تتحدّث عن هذه النقاط، ما رآه الرسول(ع) في منامه صدّقه تعالى فسيجعله يتحقّق، وكان يبدو شبه مستحيل في البداية، وأمّا استسلام أهل مكّة فيما بعد "فتح مكّة" فقد كان مستحيلا، هذا ما علمه تعالى ولم يعلمه المسلمون، وتحقّق استسلام مكّة بعد قرابة السنتين من توقيع صلح الحديبية.

{فَجَعَلَ} سبحانه {مِن دُونِ ذَلِكَ}، كما نقول: ذهبتم من دوني. ونقصد أنكم ذهبتم مع غيري. سوف تدخلون إلى مكّة لأداء الطقوس الدينية، ولكن من دون ذلك، غير ذلك، قبل ذلك هناك، {فَتْحاً قَرِيباً}، وهو توقيع الصلح الذي بدأت السورة كلامها به، ومن بعده ستأتي الفتوحات "كفتح خيبر" كجائزة لكم على بيعتكم والتزامكم وكتعويض عن منعكم من تأدية المناسك في مكّة، إلى فتح مكّة الذي حصل بعد سنتين وبعده فتح هوازان...

بقي شيء، يبدو أنه تعالى جعل رسوله يرى مناما وفيه أنه(ع) مع المسلمين سيدخلون مكّة ليؤدّوا مناسك دينية، وهذا القدر يكفي لنفهم الآيات هنا، والتي جاءت تأكيدا منه تعالى لتحقّق ما رآه الرسول ولكن ليس هذا العام كما توقّع الرسول(ع) والمؤمنون.

بالتحليل نسأل: لماذا أراه تعالى هذا المنام؟ ولماذا لم يخبره أنه سيتحقّق في العام المقبل وليس في هذه الرحلة؟ ولماذا هذا الأسلوب غير المباشر مثل الوحي بكلام صريح منه تعالى عمّا سيحدث؟... وغيرها من الأسئلة التي تفتح مجال التحليل.

ما أفهمه منها أن خبر هذه الرؤية هو دعم نفسي للمؤمنين ليظنّوا أن مسيرهم الحالي سيحقّق نتائج جيدة... وفعلا كانت النتائج أكثر من جيدة، وستتحقّق الرؤية، قبل الانطلاق كانت تبدو هذه المسيرة انتحارية، وبعد خبر الرؤية ارتفعت معنويات المسلمين، وبعد صبرهم وانفلات أعصاب كفّار قريش وتخالفهم بين بعضهم وإرسالهم الوفود للتفاوض... صارت معنويات المسلمين في حدّها الأقصى من الثقة بالانتصار على قريش الآن وبكل سهولة...

راجع ما ذكرناه في الآية الرابعة عن تعامله تعالى معنا بمستوانا البشري، ومن ذلك التحليل سترى أن الرؤية هي تعامله تعالى معنا بما يتماشى مع مستوانا كبشر، لأنّ منام الرسول رؤيا تعبّر عن شيء حقيقي له قيمة، لأن الرسول رآها، ونفهمها كوعد إلهي بالانتصار، ولو عبر الوحي أو في الرؤيا تحدّد موعد دخول مكّة للسنة التالية، فالتأثير النفسي سيكون أخف بكثير والمعنويات لن تكون مرتفعة...

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً{28})

{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ}، محمّد(ع)، {بِالْهُدَى}، بالأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة، أرسله تعالى بما يوصلنا إلى مرضاته سبحانه وإلى الجنّة، {وَدِينِ الْحَقِّ}، وأرسله تعالى بالأمور التي تدين بها الناس لربّها لخالقها،

بالتبعات التي للإله على مخلوقاته، وهو دين الحقّ الصواب فلا فساد فيه، {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}، حتى يصير الدين الحقّ، فيصير ما علينا من تبعات كوننا عبيدا له تعالى، ما يجب أن نؤمن به ونلتزم به والذي نقله الرسول(ع)، ليصير ظاهرا غالبا على كلّ بقية الأديان غير الصحيحة التي تدين بها الناس.

{وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً}، فلا حاجة لأحد آخر يشهد بأن ما يحمله الرسول(ع) هو هدى ودين حقّ، فسبحانه ليس بحاجة لكم أو لغيركم لتشهدوا بأن ما يحمله الرسول(ع) هو الهدى والدين الحقّ.

ما حصل من أعمال عدائية بين المسلمين والكفّار، لم يكن سببا مقصودا منه تعالى عندما أرسل رسوله للناس، لأنه أرسله تعالى بالهدى ودين الحقّ، فأين السوء في ذلك حتى يقوم الآخرون بأعمال عدائية ضد رسوله تعالى وضدّ المؤمنين به! وبدل أن يؤمنوا صدّوا وحاربوا! وسبحانه كان يعلم بأن هذا سيحصل، لذا تخبرنا الآية هنا أنه كان هناك قرار إلهي سابق بالنصر لهذا الرسول(ع)، وهناك قرار إلهي سابق بجعل هذا الدين منتصرا.

هناك العديد من الآيات التي أشارت لمعنى: انتصار هذا الدين، ظهوره، إحقاقه... وهذا لا يعني أن بقية الأديان ستختفي، لا، لأن هناك العديد من الآيات التي تحدّثت عن استمرار الصراع بين المؤمنين وغيرهم على مدى التاريخ، إذاً تعتبر الآيات وجود بقعة جغرافية فيها مؤمنون ممارسون للدين الإلهي بكل حرية، هو انتصار، وهو فعليا أقل انتصارا من تحوّل كل الناس إلى هذا الدين على كلّ الأرض، ولكن وجود هذا النموذج ولو بشكل مصغّر هو انتصار كافٍ يجعل هذا الدين معروفا لكل الناس، ومن بعدها يتحمّلون مسؤولية كفرهم بما رأوه أو سمعوا به، وأخبرنا القرآن مرارا وتكرارا بأن أكثر الناس لن يؤمنوا، مما يجعلنا نفهم أن التعبير بظهور الدين، لا يعني التزام كلّ الناس به، ولكنه أيضا يعني أنه لو كان هناك مؤمنون حقيقيون سيكونون ظاهرين على الآخرين.

أما من الناحية الثانية فظهور الحقّ هو وضوحه معروضا متاحا للجميع، ونفهمها بشكل أسهل لو تصوّرنا أن البشرية متروكة بلا رسول إلهي ناقل لكلامه سبحانه، وخرج من البشرية أشخاص قلوبهم "أساس فكرهم ونفسيتهم" سليمة نقيّة، وهؤلاء من الآيات المنتشرة فيما خلقه تعالى توصّلوا إلى المعلومات الحقيقية التي يجب أن نؤمن بها، وتوصّلوا إلى شريعة وسلوكيات صالحة، وهؤلاء وأبرزهم النموذج إبراهيم (ع) الذي تمتّع بهذه الصفات قبل أن يصله وحي إلهي، وبدأ بنشر نتائج سلامة قلبه على قومه... وهكذا بوجود نموذج من هذا النوع يكون الدين الإلهي ظاهرا، منتصرا واضحا...

أما في حالة فقدان شخص نموذج، أو تواجده ولكن رفض الناس له، يبقى حلّ تحديد واحد منهم لائقٍ كرسول إلهي، وبالتالي ليس من المقبول من العبيد رفض كلام إلههم، وكلامه تعالى المنقول عبر رسوله سيكون آيات إضافية مع الآيات الظاهرة فيما خلقه تعالى، حيث إنّ المجموع يشير باتجاه الدين الحقّ، وهكذا عبر كلام الرسول نقلا عنه تعالى وعبر كتاب إلهي، يكون الدين الحقّ ظاهرا، غالبا للباطل الذي صار واضحا بطلانه وفساده. وإلى هذا المعنى تشير الآيات القرآنية عادة عندما تتكلّم عن انتصار الحق والدين والرسول... وزهوق الباطل، لأنّ الكلام ليس دائما عن بسط السلطة وفرض الإرادة والغلبة العسكرية... بل الأساس هو وضوح وانتشار كلمة الحقّ لتغلب الباطل بوضوح أمام الجميع.

كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، لأنها ليست اصطلاحا مخصّصا كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، حيث إنها عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئا ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني فأنا مدين له، لأنّ خلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعا بسبب وساعة تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، حيث إنّ هذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... وكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة، هناك ندان بأعمالنا، لأنّ ما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هو التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضا يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسبا بحكمته يُديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً{29})

{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ}، وهذا خبر قد لا يعني لك أي شيء الآن لأنك أصلا مسلم تؤمن بأنه (ع) رسول ناقل لكلامه تعالى إلينا، ولكن هذا الخبر القرآني وأمثاله هو ما جعلك تؤمن بأنه (ع) رسول، وهذا خبر للآخرين الذين لحدّ الآن لا يؤمنون به (ع) كرسول، وهو هنا خبر عن سبب الدعم الإلهي له(ع) بالأمور التي ذكرتها السورة من فتح وغنائم وتحقيق رؤيا... فهو(ع) لم يقم بهذه الأمور لأنه ملك أو زعيم يريد بسط نفوذه على الناس ومناطقهم، لا، فهو (ع) قام بما قام به ونال الدعم الإلهي لأنه رسول الله تعالى بشيرا ونذيرا كما مرّ معك في السورة منذ قليل.

{وَالَّذِينَ مَعَهُ}، والذين مع الرسول من المؤمنين، {أَشِدَّاءُ}، ليسوا رخوين أو ضعاف، {عَلَى الْكُفَّارِ}، على الذين أنكروا هذا الدين الإلهي، {رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}، فيعتنون ببعضهم البعض لما فيه مصلحتهم.

عليك بالتوقّف مليا أمام هذه النقطة، وتقارن بين حال المسلمين اليوم وبين الوصف الإلهي لأولئك الأتباع من الجيل الأوّل من المسلمين، فيا لها من رحمة بيننا، ويا لشدتنا على الكفّار! بل العكس، فنحن أشداء بيننا بنشر البغضاء والفرقة وتكفير بعضنا البعض والقتل... وتعاوننا مع الكفّار ضد بعضنا... يا لروعة إيماننا ومطابقته للمواصفات القرآنية! والأنكى من ذلك أن كل مذهب من مذاهبنا يدّعي أنه الحقّ وأن الآخرين يجب أن ينضمّوا إليه، فهو على صواب والآخرون على الباطل ولذلك تحصل الخلافات!

{تَرَاهُمْ رُكَّعاً}، فيصير عندك صورة محدّدة للمؤمنين وهم يعبّرون عن خضوعهم له تعالى عبر حنيهم لظهورهم، وتراهم، {سُجَّداً}، فيخفضون رؤوسهم لتقترب أو تلامس الأرض وهو أيضا تعبير حركي عن خضوعهم له تعالى بشكل أعلى تعبيرا من الركوع، في هاتين الحالتين التعبيريتين عن التقرّب منه تعالى، {يَبْتَغُونَ}، يقصدون بركوعهم وسجودهم، {فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ}، أمورا يحصلون عليها منه تعالى من دون أن يكون واجبا عليه تعالى منحها لهم، وعمليا فهم يطلبون المغفرة والعناية والتوفيق والثواب والجنّة... ويبتغون، {وَرِضْوَاناً}، فيقبل سبحانه تفكيرهم وسلوكهم بمحبّة ويعطيهم ثوابا عليه.

{سِيمَاهُمْ}، ملامحهم علاماتهم الخاصة، {فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ}، فحركة الخضوع القصوى وهي السجود المصحوبة بالشعور القوي بالخضوع له تعالى فستترك أثرا في وجوههم، فتعابير وجوههم تخبرك أنهم من الخاضعين بشدّة له تعالى.

ننتبه جيدا، فقد فهم البعض من هذه الجملة أن كثرة وضع الجبهة "لمدة طويلة" على الأرض سيسبّب دمغة بنية اللون على جلد الجبهة، وهذا صحيح، ولكنها ليست السمة التي تقصدها الآية، فهي لم تتحدث عن علامة بل عن سمة في الوجه، وهي تعابير التواضع في الوجه، وتعابير السماحة... تعابير قبول الحقّ عندما يسمعه المؤمن، وتعابير الغضب عند سماعه للباطل وعند رؤيته للمنكر... هذه هي السمة التي تنتج عن السجود الحقيقي له تعالى.

حتى أن الكثيرين من الساجدين طويلا، فبالكاد يظهر أثر على جلدة جبهتهم! وممّا نراه من نفاق من حولنا من الكثيرين من أصحاب الدمغات على الجبهة، الذين يفركون جبهتهم بالأرض حتى تحصل الدمغة، أو يضعون جبهتم على شيء ساخن حتى تحصل الدمغة، تعلم أن هذه الدمغة يجب أن لا تكون هدفا لك، فالعديد من المؤمنين الصالحين أصابتهم

عقدة نفسية لأنهم يسجدون طويلا ولا تظهر الدمغة على جباههم! فيظنون أنهم أقل إيمانا من أصحاب الدمغات! وهذا غير صحيح بل غالبا العكس هو الصحيح...

{ذَلِكَ}، الذي ذكرته الآية من صفات الشدة والرحمة والركوع والسجود والسيماء، {مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ}، فهناك تشبيهات مثل هذه التشبيهات للمؤمنين قد وردت في التوراة وهي الكتاب الذي نزل على النبي موسى(ع)، ووردت في الإنجيل وهو الكتاب الذي نزل على النبي عيسى(ع)، ونفس تلك التشبيهات يذكرها القرآن، وهو الكتاب الإلهي الأخير النازل على محمّد(ع). فالوصف للمؤمنين هنا بهذا الشكل من المديح، فمن قبل أيضا وصف سبحانه في كتبه السابقة وبنفس الأوصاف هذه النوعية من الناس التي كانت موجودة سابقا.

لاحظ المناسبات العديدة التي يستغلّها القرآن ليشير بها إلى المؤمنين على مرّ التاريخ ككتلة واحدة بلا فرق بينها، وهذا الاهتمام الإلهي بالمؤمنين الذين مرّوا عبر التاريخ يكاد يختفي من أدبياتنا، فتركيزنا على صحابة الرسول محمّد(ع) وعلى من أتى بعدهم، وكأن زمن وتأريخ الدين الإلهي يبدأ منهم وينتهي فيهم! والكثير من الخلافات بين المسلمين ناتجة عن تعاملهم مع دينه تعالى من الجمود على زمن الرسول محمّد(ع) وما بعده بقليل! ويمكنك الآن أن توسّع نظرك لترى وتحاكم نفسك إن كنت تنظر كما ينظر تعالى أو تنظر بضيق العصبية والمذهبية...

وننتبه جيّدا لما لدينا من تصانيف أخرى للإيمان غير التي ذكرها القرآن، فهناك أمور يدرج بين الناس أنها من علامات الإيمان! كتطويل اللحية وتقصير الثوب للرجال وحمل السبحة ولبس خواتم الفضّة... هناك أمور مذهبية كإحياء مناسبات خاصة بكل مذهب ولا يحييها الآخرون... وهناك أمور اشتقها الناس من الدين الإلهي وألصقوها بمناسباتهم وأعيادهم، وهناك أمور جعلوها علامات للدرجات العالية من الإيمان! فصار تاركها ليس مؤمنا، أو مؤمنا من الدرجة المنخفضة! كالتراويح وتكرار بعض الأدعية والأذكار، وزيارات بعض الأضرحة والقيام بأعمال خاصّة كقراءة العزاء...

وهناك ما هو أسوأ من ذلك بكثير، فهناك ازدراء وتكفير لمن لا يقوم ببعض تلك الأعمال! وهناك اعتبار إيمان الناس سطحي لأنهم لا يفهمون كلام المتصوّفين والعرفاء! وهناك الجلسات الخاصة لأهل الذكر، ولأهل الفلسفة الراقية، ولأهل العرفان... على أساس أن إيمانهم كامل وبقية الناس رعاع!

كل هذا وغيره من أخطر أنواع الاختراعات البدعية في الدين الإلهي، وهي بداية الفرقة بين المسلمين ودمار تديّن الناس بالدين الإلهي، وهي ما نحن عليه الآن، فلنلتزم بما يقوله القرآن، وبما يوافق عليه القرآن، ولنترك كل ما عدا ذلك جانبا، أو على الأقل لا نعطه أهمية دينية أساسية حتى لا يصير تاركه خارج تصنيف الإيمان.

مثل التشبيه للمؤمنين الحقيقيين في الإنجيل "لأن الجملة انقطعت عن السابقة بتكرار كلمة "مثلهم" فصار ما سيلي مخصوصا بما ورد في الإنجيل، ففي التوراة يوجد مثل تشبيهي لهم ولكن ما ورد في الإنجيل كتشبيه لهم كان ما يلي: {كَزَرْعٍ}، كنبات تمّت زراعته، {أَخْرَجَ شَطْأَهُ}، فخرجت منه أطرافه، فنبزت رؤوس الأوراق منه، {فَآزَرَهُ}، فدعمه ساعده الزرع، فخرج خلف الورق سيقان، {فَاسْتَغْلَظَ}، فأول ما ينبت يكون طريا وبعد ذلك يغلظ فيصير أشدّ، {فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ}، فصار بالتمام نبتة متناسبة المواصفات واقفة معتمدة على ساقها. وكما ترى فهنا السورة تحدّثت عن مؤمنين كانت نواتهم الرسول(ع) وصاروا ينمون، وكانوا طريين في بدايتهم بعددهم القليل... وفيما بعد صاروا أشداء...

هذا الاشتداد للزرع، {يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ}، فأي مزارع وصل زرعه لهذه المرحلة الممتازة فسيكون تقييمه له أنه حسن موافق للتوقعات التي يحبّها، {لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ}، فيظهر عليهم الغضب بالانزعاج الشديد من استواء واستغلاظ المؤمنين، فالمثل التشبيهي كان للمؤمنين بالزرع ذي المواصفات الممتازة، والمنكرين للدين الإلهي سيغتاظون فسينزعجون بشدة من المؤمنين الذين بهذه المواصفات الناتجة عن انحيازه تعالى للمؤمنين.

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا}، فقال تعالى أنه سيفعل شيئا للذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، فقاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، فقد خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها

موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، فعمليا هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

فعادة نفسّر "عملوا الصالحات" على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول أنهم صلّوا وصاموا... وهذا عمليا صحيح، ولكن بالأصل فالكلام أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

وبشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموما وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائما أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنوا به.

وهذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعا ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّا لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلا سيّء" فسيكون في الحقيقة اختراع من البشر لصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمرا إلهيا.

وعد تعالى المؤمنين العاملين للصالحات، {مِنْهُم}، من الذين مع الرسول محمّد(ع)، وعدهم تعالى، {مَّغْفِرَةً}، تجاوزا عن سيئاتهم، {وَأَجْراً}، شيئا حدّده تعالى كاستحقاق لهم مقابل إيمانهم وعملهم الصالح، {عَظِيماً}، ضخما هائلا بمواصفاته وروعته.

نلتفت للإله العظيم بقدراته العالية عندما يصف ما سيعطيه للمؤمنين بأنه أجر عظيم، فسيكون هائلا في الروعة بالنظر لما يمكنه الإله عظيم القدرة أن يفعله.

سورة الحجرات (49) ص 515

محور السورة عن مجموعة إرشادات سلوكية اجتماعية للمؤمنين حول كيفية تعاملهم مع الرسول(ع) "القائد" وكيفية تعاملهم فيما بينهم كمجتمع، وهي تخاطب أناسا يعتبرون أنفسهم تخطّوا المرحلة الأولى وصاروا في مرحلة الإيمان التامّ، فهي تخاطب مجتمعا مسلما مثل مجتمعاتنا اليوم بالتمام، حيث نعتبر أنفسنا متميزين بالإسلام والإيمان عن الآخرين رغم الشوائب التي أشارت إليها السورة والموجودة فينا، فهي لم تتحدّث عن الصوم والصلاة والزكاة وبرّ الوالدين... وأصلا اعتبرت التوحيد والإيمان بالرسول والقرآن والمعاد... أمورا يعلمها ويُعلن التزامه واعتقاده بها السامع لهذه السورة، وبدأت معه من حيث هو يعتقد نفسه وصل، من حيث صار مسلما مؤمنا تخطّى الأساسيات المطلوبة للإسلام والإيمان، وتنبّهه لبعض السلوكيات حتى لا يفوته الالتزام بها وهي من أساسيات الدين الإلهي.

في نهايتها عرّجت على المدّعين للإيمان وهم لم يدخل الإيمان فعلا في قلوبهم، وحين خاطبت السورة "والقرآن" الذين آمنوا، فهو توصيف على أساس أنهم هم أعلنوا إيمانهم، لأنّ بعض الناس من المسلمين أصلا لم يصلوا إلى مستوى الإيمان المقبول.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{1})

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها "المجتمع أو الأشخاص" الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين، ركّز جيدا على هذا المعنى للذين آمنوا، لأنّ كل السورة تتحدّث مع الذي وصفه الإيمان، وكلّ القرآن استعمل عبارة "الذين آمنوا" وأشباهها ليشير لهذا المعنى، إذ إنّه مجرد توصيف لمن أعلن اعتقاده والتزامه بهذا الدين، وعلى أساس ما أعلنه صار بإمكاننا توجيه الكلام له بتنبيهه لما يأمر به الدين حتى يصحّح سلوكه.

وإن أطلت عليك، لكنّ هذا المعنى مهم جدا لفهم كل القرآن، تخيّل أنك تتحدّث مع مسيحي أو يهودي وتطلب منه الالتزام بأوامر دين الإسلام، مع بقائه على دينه، وكما ترى بكل وضوح، فلا معنى لهذا الكلام لأنه أصلا لم يعلن اعتقاده والتزامه بهذا الدين فكيف تطلب منه الالتزام به؟ الآن تصور حصول خلاف بين شخصين من المسلمين، وحكمت

بينهما بما يقوله الإسلام، فمن المفروض أن يطيعا الحكم لأنهما مسلمان، لأنهما أعلنا تبعيتهما لهذا الدين، وكما ترى من حولك "وربما ترى من نفسك" رفضا لحكم ديني لم يعجبك، لذلك يخاطبك القرآن ويصفك بأنك مؤمن وينبّهك لما يجب أن تفعله بناء على إعلانك أنت لاعتقادك بهذا الدين، وبناء عليه، إعلانك أنت للالتزام بما يقوله هذا الدين.

سأطيل عليك بعد، لأنك لن تتعامل مع شخص يعلن لك أن دينه يسمح بخيانة الأمانة والكذب والنصب والسرقة والزنا والقتل... لذلك لن تتاجر معه، ولن تزوّجه ابنتك... وحين تتعامل مع مسلم، ستفترض أنه ملتزم بالأمانة والصدق واحترام مالك وعرضك... وستفترض أنه يقبل بحكم الله تعالى إن اختلفت معه، لذا تفترض أنّ حَقَّكَ الذي فرضه تعالى لك فهو مضمون بضمانة إسلام الذي تتعامل معه، وهذا ما يقصده القرآن حين يخاطب "الذين آمنوا"، إذ إنّهم من المفروض التزامهم بالأوامر الإلهية.

إن لم تكن ستلتزم بما ستقوله السورة هنا، فأنت لست من الذين آمنوا وعليك بالرجوع إلى الخلف لتبدأ من السور التي نزلت من قبل وتتحدّث عن أساسيات الدين التوحيدي بذي الأسماء الحسنى... حتى يدخل الإيمان إلى قلبك... وهذا ما ستشير له نهاية هذه السورة.

يا أيها الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين، {لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}، كما لو قَدَّمْتُ لك الطعام ثم شخص آخر قدّم الطعام، لأنّ الله تعالى ورسوله (ع) قَدَّمَا لنا كلاما، فلا تقدّموا كلاما آخر على كلامه تعالى وكلام رسوله(ع)، ولا تجعلوا كلامكم في المقدمة على كلامه تعالى وعلى كلام رسوله(ع).

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}، تجنّبوا غضبه وعقابه وذلك عبر إطاعة كلامه، {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ}، يسمع كل ما تقولونه، سواء قلتم: رضينا وسننفّذ ما يقوله تعالى وما يقوله الرسول(ع)، أو قلتم: نعترض ولدينا رأي آخر أو لا يعجبنا.

وَاللَّهُ {عَلِيمٌ}، يعلم كلّ شيء، ومن ناحيتين ينطبق وصفه تعالى بالعلم، أنتم تحت المراقبة لأنه عليم، ومن ناحية ثانية أمام علمه الواسع جدا جدا فهل لديكم كلام تقدموه على كلامه تعالى أو على كلام رسوله(ع) الذي يتلقّى الوحي منه تعالى؟ فهل أنتم أعلم منه سبحانه لتقولوا كلاما حقّا صوابا أحسن من الذي يقوله سبحانه؟

هذا التنبيه الأول الذي على أساسه تندرج بقية توجيهات السورة، لأنّ ما سيرد فيها قاله تعالى لنا عبر رسوله(ع)، وبشكل عام لا تجعلوا كلامكم مقدما على كلامه تعالى، وبشكل خاص لا تقدّموا كلامكم على الكلام الذي ستقوله هذه السورة يا أيها الذين آمنوا.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ{2})

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين الإلهي، {لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ}(ع)، فهذا الشخص الذي يصله نبأ، حيث يصله خبر منه تعالى غير منتشر علمه بينكم، فلا ترفعوا صوتكم فوق صوته، فإذا كان يتحدّث معكم في أي شيء، وأردتم أن تتحدثوا أثناء وجوده، فلا ترفعوا نبرة صوتكم أمامه، ويمكنك تصوّر هذا إن كنت غَضْبَانَ من شيء ما، ومنفعلاً أو محتداً... أو تريد إثبات صحّة وجهة نظرك... وتتحدّث بصوت عالٍ، فلا تفعل ذلك أمام النبي(ع).

طبعاً رفع الصوت علامة على تأكيد ما تريد قوله في مقابل ما يقوله الآخرون، على أساس أنك تريد أن يتنفّذ ما تقوله، رافضاً معترضاً على ما تسمعه... فالانفعال برفع الصوت يشير إلى كونك لست تحت الذي أمامك، لأنك لم تعتبر لكلامه قيمة عالية فوق كلامك، كحالة الولد الذي لا يرفع صوته أمام أبيه لأنه سيمشي على ما يقوله أبوه، أمّا لو رفع صوته فهذا يعني أنه لن يمشي على كلام أبيه... مضافاً إلى ما سبق، فإنّ رفع الصوت مخالف لآداب احترام الذين في المجلس حتى لو كنت لم تعارضهم...

النبي محمد(ع) مات، فهل مات هذا التوجيه معه؟ لا، فلا يحق لنا رفع صوتنا أمام المؤمن الذي يتولّى ويدير الشؤون العامة للناس، فهنا الآية لعامّة من يتحدّث في مجلس فيه النبي(ع)، زوجته، أقاربه، أحفاده، أصحابه... ولكنها لخصوص الناس الذين يحضرون مجلسه لأنه نبي، لأن النبأ (الخبر) منه تعالى يصله وهو (ع) ينقله لنا، فهم عنده بما

يمثّل من اتصال به تعالى عبر تنبيئه بالوحي، وليسوا عنده لأنهم رفاقه وأصحابه، ولذلك نشتق من هذا الكلام بكل سهولة أن من يحضر المؤمنون مجلسه كونه يمثّل جهة قيادة أو قضاء... ديني إيماني، فيجب التزام الأدب في مجلسه وخفض الصوت.

{وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ}، لا تعلنوا للنبي(ع) بشكل واضح ومباشر، {بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ}، مَا تقولونه جهراً، علناً، بشكل مباشر لبعضكم البعض فلا تقولوه للنبي(ع)، لذلك لا تعتبروه صاحبكم الذي تمازحونه وتتسلون معه، أو ترفعوا الكلفة بينكم فتتلفظوا أمامه بكلام غير لائق...

كونه (ع) نبياً فهو مجبور لتخصيص بعضاً من وقته لاستقبال المؤمنين، ولكن الجلوس معهم لا يجعله رفيقاً وصاحباً وخليلاً وصديقاً ونديماً... لكل واحد منكم، حتى تمازحوه أو ترفعوا الكلفة بينكم، أو تضيّعوا وقته بأحاديث تافهة أو وضيعة... ويمكنك تصوّر ذلك مع عالم دين يستقبل كل المؤمنين في بيته، حيث تزوره حتى لو لم تكن بينكما معرفة، وتقصده لتتعلّم أو للمشورة أو لتقديم نصيحة... فلو كانت زيارتك الأولى له، أو تكررت زياراتك له، فهذا لا يجب أن يغيّر من طبيعة العلاقة بينكم، لأنه شخص عمله استقبال الناس لإدارة شؤونهم ومصالحهم الدينية وإرشادهم ولذلك بابه مفتوح، ولكنه ليس صديقك ونديمك وصاحبك ورفيقك... حتى تتحدّث معه كما تتحدّث مع أصدقائك والذين تتسلّى معهم.

{أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ}، الأعمال الحسنة التي تقومون بها تحبط، وتفقد قيمتها ولا يَحْسِبُ عليها سبحانه حسنات إن رفعتم صوتكم فوق صوت النبي(ع)، أو جهرتم له بما تجهرون به لبعضكم مع رفع الكلفة واللياقة... وحين يأتي يوم القيامة وترون أعمالكم التي تعتبرونها حسنة، وترونها فاقدة للقيمة فلا تحصلون على أي ثواب منها، {وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ}، حيث تطير حسناتكم وأنتم لا تدرون أنها تطير، نحن نعلم من عموم القرآن أن الكفر والشرك سببان رئيسيان لحبط الأعمال، ولكن هؤلاء مؤمنون يحضرون مجلس النبي(ع)، ويعلمون أنّ رفع الصوت في مجلسه قلّة أدب، ويعلمون أن الجهر له بالقول الرديء أيضاً قلّة أدب، ولكن لم يخطر ببالهم أن ذلك سيسبّب حبط أعمالهم.

تلاحظ في دراستنا هذه أننا أشرنا مراراً للدين الإلهي بالعقيدة والشريعة والسلوكيات، وما تقرأه هنا في السورة نموذج عن السلوكيات.

قد تجد حبط الأعمال بسبب رفع الصوت والجهر... مبالغاً فيه، فربّ شخص محبّ للرسول(ع) قام بهذه الأمور وهو لا يقصد تقليل قيمة الرسول(ع)، فلنقل أنه فعلاً صديق مقرّب للرسول(ع)، ولكن لو قام هذا الصديق بهذه التصرفات أمام عموم الناس وانتشرت هذه السلوكيات مع الرسول(ع) بينهم، فلن يعد للرسول(ع) قيمة مميزة قيادية، وسيستهين به الناس، وبالتالي سيستهينون بآرائه، ويمازحونه... وبهذا الشكل يفقد القائد معنوية القيادة... ويبرز بينهم شخص أو أشخاص شخصيتهم قوية، وجديون دائماً... أو يهابهم الناس بسبب لسانهم السليط أو خوفاً من فظاظتهم... فيتصدر هؤلاء قيادة الكلام وإصدار الأوامر بدلاً من القائد المؤمن الليّن المحترم! ومن هذه النتيجة السيئة جداً استحقّت هذه الأفعال نتيجة بهذه القساوة.

يمكنك ربط ما تقوله الآية هنا مع ما ورد في الآية 61 من سورة التوبة {وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ...} لتتكوّن عندك صورة عمّا يمكن أن تصل إليه الأمور من سوء بسبب طيبة قلب النبي(ع) التي يترجمها البعض إلى الجرأة عليه والاستخفاف به...

(إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ{3})

{إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ}، أي لا يرفعونها ويتكلمون بهدوء، {عِندَ رَسُولِ اللَّهِ}، {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى}، حيث أساس تفكيرهم ونفسيتهم امتحنه تعالى وسياق الكلام واضح أنهم اجتازوا امتحان تجنّب غضبه وعقابه تعالى، {لَهُم مَّغْفِرَةٌ}، حيث يتجاوز سبحانه عن سيئاتهم فلا يحاسبهم عليها، و{أَجْرٌ عَظِيمٌ}، وسينالون ما حدّده تعالى لهم كاستحقاق على نجاحهم في الامتحان، فسيحصلون في مقابل أعمالهم الحسنة على الخلود في جنّات خالدة.

بعكس حبط الأعمال لمن رفع صوته عند النبي(ع) وجهر له بالقول السيّء، فهناك مغفرة وأجر لمن احترم مجلس الرسول(ع).

ضع في بالك دائماً أن تعابير القرآن لا تشير إلى فرض واجب عليه تعالى بإدخال المؤمنين إلى الجنّة، وبالتعبير الدقيق قرّر تعالى إدخال المؤمنين العاملين للصالحات إلى الجنّة، وبتعبير متساهل فيه ودارج ولكنه غير دقيق، أوجب سبحانه ذلك على نفسه. إنّ كلمة "أجار وأجر وأجرة..." بالنسبة لاستعمالنا نحن لها فيما بيننا، فهي تتضمّن أنك تعمل لي ويجب عليّ دفع الأجار لك، أمّا بالنسبة له تعالى فمن فضله حدّد أجراً لمن آمن وعمل الصالحات، وحدّد ما سينالونه على ذلك، وبعد هذا القرار الإلهي يصير وصف الحالة أنهم سينالون ما يستحقونه مما حدّده تعالى، فلهم أجار، أجر... فليس واجباً عليه تعالى ولا بأي شكل مجازاتهم بالجنّة ولا بأي شيء آخر، ولهذا المعنى جاء التعبير "بغير حساب" في عدة آيات حتى لا نفهم أن لهم حسابا فرضاً واجباً عليه تعالى، كما في الآية {لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}، وترى هذا المعنى بوضوح في وصف دخولهم الجنة من فضله تعالى كما في الآية 35 من سورة فاطر {الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ...}.

عادةً نفسّر كلمتي بلاء وفتنة بالامتحان، ولكن هذا غير دقيق، فالامتحان هو أن تطلب أو تتوقع مني فعل شيء ما، وترى إن فعلته كما هو مطلوب. وهذا ينطبق على العامل الذي تختبره لترى إن كان لائقاً بالوظيفة، وتمتحنه عبر توكيله ببعض الأعمال لترى إن كان سينجزها كما هو مطلوب، ونفس المعنى لامتحان الطلاب لترى إن كانوا درسوا. وهذان المثالان لا يناسبهما استعمال كلمة فتنة أو بلاء، ويناسبهما كلمة امتحان، وسياق الكلام هنا لا يناسبه الفتنة والبلاء، بل امتحن تعالى قلوبهم للتقوى واجتازوا الامتحان بنجاح، فهم من الأساس أتقياء، وحين كانوا يجالسون النبي(ع) وتصير الأجواء مهيئة لهم لرفع صوتهم... فهم لم يرفعوه في وجه النبي(ع)، ففعلوا ما هو متوقّع من التقي، فما مرّوا به كان امتحاناً، وهم فعلوا ما هو متوقّع منهم، يعني اجتازوا الامتحان بنجاح.

(إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ{4})
{إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ}، يَصْدُر منهم كلام موجّه لك أيها الرسول(ع)، {مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ}، من خارج المكان الذي يحجرهم عنك، فأنت في البيت محجور عنهم بحيطان البيت، والحيطان موانع لهم من الدخول عليك أو رؤيتك، فهؤلاء {أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}، لأنهم لو كان عقلهم يعمل، لما نادوك بصوت عالٍ من خارج بيتك.

أساساً هذا التصرف مع النبي (ع) أو غيره هو قلّة أدب، فما معنى الصراخ: يا فلان يا فلان يا فلان... ما معنى الطرق على الباب بقوة وبشكل متكرّر... فالطرق على الباب مرّة واحدة أو مرّتين كافٍ ليعلم أهل البيت أن أحداً ما قصدهم...

بعضهم لا يعقلون، فهل أهل البيت يكونوا واقفين على باب بيتهم منتظرين ليفتحوا الباب عند أوّل طرقة له! ألا يحتاج أهل البيت لوقت حتى يأتوا إلى الباب لفتحه! ألا يكون الناس في بيوتهم مستلقين أو بثياب مريحة غير لائقة لاستقبال الضيوف أو يقضون حاجة لهم... فهم بحاجة لوقت حتى يفتحوا الباب! هو نفسه الذي ينادي بصوت عالٍ ولا يتوقّف عن النداء، فهو نفسه أليس لديه بيت ويعلم أنه يحتاج لوقت حتى يفتح الباب للآتين إليه؟ فأين عقله حين ينطلق بالصراخ ولا يسكت عند أبواب الناس؟!

وكما تلاحظ، فالآيات تشير ضمناً إلى احتمالات مختلفة، ففرضاً هم آتون إلى بيته(ع) لأمر مهمّ، وفرضاً يتصرفون بهذا الشكل على أساس العلاقة العميقة بينهم وبين الرسول(ع) وأنهم هكذا يتعاملون مع أصدقائهم، فرضاً هم أصلاً مستهترون بهذه الأدبيات مع الجميع، وفرضاً هم يعتبرون الوضع خطيراً ويحتاج للصراخ للتعبير عن خطورة الوضع... كل هذه الاحتمالات وغيرها تشملها الآية لتخبرنا أنه لا يوجد ولا أي عذر مقبول لقلّة الأدب هذه، فالرسول(ع) لم يسبق له أن لم يستجب لمن طرق بابه... فلنكمل:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{5})
{وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ}، لو تصرّفوا بشكل مناسب ولم يفلتوا بالصراخ وانتظروا حتى تفتح بابك وتخرج إليهم، {لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ}، لأنّ هذا التصرّف حسن وأفضل من تكرارهم لمناداتك حتى تخرج.

كما ترى، الحادثة التي استعملتها السورة كنموذج، لم يكن فيها المنادي للرسول(ع) صابراً، بل كان ينادي وينادي وينادي...

{وَاللَّهُ غَفُورٌ}، يتجاوز عن السيئات فيسامح عن الذنوب، وهنا فمن نادى الرسول(ع) من وراء الحجرات بهذا الشكل المتكرّر... قد ارتكب سيئة والله تعالى يسامحه عليها، إذا توقّف عنها ولم يكررها، والله {رَّحِيمٌ}، لديه عناية خاصّة بالمؤمنين، فهو رحمان بكل المخلوقات ولكن لديه رحمة خاصّة بالمؤمنين فيهديهم ويغفر لهم ويضاعف لهم الحسنات... ويصف تعالى نفسه بأنه رحيم عندما يتحدّث عن معاملته للمؤمنين.

الرسول(ع) ليس معتكفاً في بيته أو منقطعاً عن الناس، بل هو (ع) يومياً بينهم يصلّي فيهم صباحاً وظهراً ومساءً، ويجالسهم أثناء النهار، فما معنى اللحاق به إلى بيته لمناداته! ومع ذلك فإن كان (ع) قادراً على الخروج لملاقاتكم فسيخرج إليكم، فماذا لو كان نائماً؟ ماذا لو كان مريضاً أو تعباً... لذا فنداؤه مرة أو مرتين كاف لتتأكّد أنه سمعك، فما معنى تكرار وتكرار وتكرار... النداء!

ننتبه جيدا ولا نفهم من الكلام أنه (ع) مجبور على تلبية نداء من ناداه في أي وقت كان، فهو (ع) مثله مثل أي شخص آخر لديه مشاغل خاصّة وسيمرّ عليه وقت للراحة ولمشاغله الخاصّة، فالكلام هنا عن صبرهم حتى يخرج (ع) إليهم، لا يعني فورية خروجه (ع) إليهم، بل إن كانوا لسبب أو لآخر مضطرين للكلام معه (ع) فليصبروا أمام بيته أو في المسجد حتى يخرج (ع) إليهم بعد دقائق أو بعد ساعة أو حتى في اليوم التالي...

كما ترى، الآية السابقة مع آيتنا هذه توحيان بأن قلّة الأدب هذه كانت تتكرّر من عدّة أشخاص، وكأنها صارت عادة عندهم ليفلتوا بالصراخ كلما قصدوا بيته (ع)، وفرضاً أنها حصلت لمرة واحدة، فإن مرّت بدون تنبيه، فهي كافية حتى تصير عادة عند الذين لا يعقلون.

انتبه للعديد من السلوكيات السيئة التي ارتكبها الناس مع الرسول(ع) وقد سكت (ع) عنها، وجاء قرآن منه تعالى لتصحيح الوضع، مثلما ورد في الآية 53 من سورة الأحزاب عن بعض "المستهضمين وهم ثقال الدمّ" الذين يعتبرون بيت الرسول(ع) مشاعا لهم ليدخلوا إليه ساعة ما يشاؤون ويبقون فيه كما يريدون {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَق}...

إلى هنا انتهت السورة من التنبيهات الإلهية حول كيفية التعامل مع الشخصية القيادية أو الدينية، والآيات لم تنبّه المؤمنين من الوقاحة مع الشخصية القيادية أو الدينية، فهذا أمر مفروغ منه معلوم حرمته، إنما نبّهتهم من عموم السلوكيات غير المؤدّبة وغير اللائقة، والتي يعتبرها بعض الناس عادية، على أساس أنهم جريئون أو شخصيتهم قوية أو بينهم وبين الرسول(ع) معرفة أو هم في حياتهم العادية يتصرفون مع عموم الناس بهذا الشكل... أو هم مهمّون وبسببهم سيصير للرسول (ع) أهمية إن قصدوه ونادوه... فيتصرفون على راحتهم هم مع الرسول(ع) القائد، وبذلك سيفقد الرسول(ع) "القائد" هيبته ومكانته واحترامه بين الناس فيعاملوه بهذه الطريقة غير اللائقة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ{6})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ}، أي شخص خارج علناً عن شيء، والكلام هنا عمّن لديه تصرفات مخالفة لما هو معلوم أنه من دينه تعالى، وحمل إليكم خبراً ما غير منتشر علمه بينكم، {فَتَبَيَّنُوا}، أي فليكن هذا الخبر واضح الصحّة لكم قبل أن تتصرّفوا على أساسه، فتأكدّوا من صحّة ما قاله الفاسق، فهو يقوم علناً بمخالفة الدين وأنتم تعلمون ذلك، وليس مثلكم يخاف حسابه وعقابه تعالى، فلا يوجد ضمانة أنه لن يكذب ولن يخون ولن يحتال... لذلك يجب التحقّق والتأكّد مما يقوله قبل أن تتصرفوا على أساس كلامه.

لاحظ وانتبه، لم تقل الآية "اهملوا كلام الفاسق" بل قالت {فَتَبَيَّنُوا}، فربما يكون الخبر خطيراً ومهمّاً وصحيحاً.

{فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ}، لأنه بسبب ما قاله لكم الفاسق قد تتصرفون بشكل عدائي مع "قوم" مع أناس ما لهم كيان الجماعة، بجهالة بتصرف لا عن معلومات مؤكّدة صحيحة، فيصيب تصرفّكم الجاهل "الطائش" شخصاً أو أشخاصاً أبرياء بسبب ما نقله لكم الفاسق، {فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ}، أي أول ما تصيروا من بعد إصابة الأبرياء بجهلكم، {نَادِمِينَ}، تشعرون بالمضايقة من فعلكم الطائش الذي سبّب الأذية لأبرياء.

هنا الكلام عمومي من أصغر نبأ إلى أكبره، من اتهام بشيء تافه إلى الاتهام بشيء خطير، فيجب التبيّن منه قبل التصرّف على أساسه.

عملياً، نحن نضع ثقتنا بشخص أو بأشخاص هم أهل للثقة، فنصدّقهم لأننا نعلم أنهم لا يكذبون ولا يخونون ويخافونه تعالى... وكما ترى فالآية تفترض هذه الصفات بمن أعلن أنه مؤمن، ولذلك قفزت عنه ونبّهتنا من الفاسق، فإذا كان شخص ما يقول عن نفسه أنه مؤمن ولكنك تعلم أنه يؤلّف الأخبار الكاذبة، فهذه علامة على فسقه وهو ليس مؤمناً.

ونشتق من هذه الآية تطبيقاً لها في حياتنا العادية حين نسمع الكثير من الناس الذين ينشرون الإشاعات الكاذبة، ويكذبون ويقولون لك: قال فلان عنك كذا وكذا... أو يتلاعبون بحديثي وينقلوه بشكل سيّء لك، مثلاً: المجنون يعمل تحت الثلج وفي البرد القارص. فيقولون لك أني قلت عنك أنك مجنون! فتهاجمني وتشتمني... أو ما هو دارج في الصراعات السياسية من التراشق بالاتهامات على الشبهة وبدون دليل... والكثير الكثير من أمثال هذه الأمور المنتشرة في مجتمعاتنا، والتي افترض القرآن أن الذين آمنوا لا يفعلونها وقفز عنّا ونبّهنا من الفاسق، فلننتبه أن كل من كذّب أو حوّر أو قطع الكلام أو نقله بشكل مشوّه... هو فاسق.

ننتبه للاصطلاح الدارج في ثقافتنا الدينية عن معنى النفاق والفسق، فقالوا أن الفسق هو الخروج عن شيء ديني علناً أمام الآخرين، والنفاق خروج بالسرّ عن الدين، وهذا كلام غير دقيق، فالنفاق هو عموم إظهار الإيمان مع كفر من الداخل، سواء فعل بالسرّ حراماً أو لم يفعل، والفسق هو عموم مخالفة ما صرّح به الدين، فهناك شيء معلوم أن الدين يحرمّه، وهو يفعله عالماً بسوئه، فهو فاسق، وسواء فعله بالسرّ أو بالعلن فهو فاسق لأنه وصله بصراحة ما قاله الدين ولكنه فسق فخرج عنه. وللفسق درجات من مخالفة كل الأساسيات "فيكون كافراً" أو بعضها "فيكون مسلماً فاسقاً"، وللفسق أيضاً درجات من المخالفة بالكبائر أو بالصغائر من الذنوب.

(وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ{7})
بناءً على اعتماد كثير من الناس على الشائعات التي يسمعونها من فاسق، والذين مهما حاولت توعيتهم من الشائعات تراهم ينجرفون معها...

{وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ}، لديكم شخص يصله ما يريد سبحانه توصيله للناس، وبالتالي هذا الشخص لن يتصرّف إلا بما يرى لله تعالى فيه رضاً، وسياق الكلام من الآية السابقة "كنموذج" عن أنكم فيكم قائدٌ واعٍ مؤمنٌ لن يتصرّف على أساس نبأ من فاسق من دون أن يتبيّن منه، {لَوْ يُطِيعُكُمْ} "الرسول(ع)" {فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ}، حيث هناك أمور كثيرة نقلها فاسقون إلى مؤمنين والمؤمنون نقلوها للمؤمنين الآخرين... وكان رأيكم أن يتصرّف الرسول(ع) على أساسها، وهناك أمور أخرى تقولونها وهي ليست نابعة من أساس إيماني، بل نابعة عن هوى وغرائز وطيش وجهل... من دون مقابلتها مع دينه تعالى لتروا إن كانت تتماشى معه... أيضاً عرضتموها على الرسول (ع) ليتصرّف على أساسها، فلو أطاعكم (ع)، {لَعَنِتُّمْ}، أي لوقعتم في حالة من الصعب التعامل معها، وصرتم في مشكلة من الصعب حلّها.

{وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ}، لأنّ الاعتقاد بهذا الدين وبهذا الرسول(ع) حبّبه تعالى لكم، ولهذا صرتم تقتنعون بسهولة بالأوامر الإلهية وأوامر الرسول(ع)، {وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ}، حيث جعل الإيمان يبدو جميلاً حسناً في أساس فكركم ونفسيتكم، ومن المحبة وتزيّن الإيمان صرتم ترون الأوامر الإلهية جميلة.

هذا بشكل عام وأمّا بشكل خاص، فالاندفاع وراء الأنباء، والتأثر بالأخبار، والتفاعل مع إشاعات التهديدات... التي يبثّها الفاسقون، فسيكون من الصعب تحكّم المؤمنين بتصرفاتهم أمامها، وهنا يأتي حبّ الإيمان ليوقف المؤمنين عن أي تصرّف أرعن طائش.

تلاحظ أنه في نفس الوقت الذي نرى فيه مدحاً للمؤمنين نرى أيضاً وصفاً لبعضهم الآخر بالفسق، فهو مجتمع خليط منهم.

{وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ}، حيث جعلكم سبحانه لا تحبّون وتنفرون من، {الْكُفْرَ}، أي من إنكار الدين أو إنكار بعض تعليماته، كما نقول: أحبّ الناس "إليّ" محمّد(ع) وأكرههم "إليّ" أبو لهب، فهنا استعملت الآية تعبير: كرّه "إليكم" الكفر...

{وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ} {الْفُسُوقَ}، حيث جعلكم سبحانه لا تحبّون وتنفرون من الخروج عن الأمور الواضحة التي قال عنها الدين الإلهي، فما تعلمونه حراماً لا تقومون به... وأيضاً كرّه إليكم، {الْعِصْيَانَ}، لذا تنفرون ولا تحبّون رفض تنفيذ أوامره تعالى وأوامر رسوله(ع).

{أُولَئِكَ}، الموصوفون بهذه الصفات، المحبون للإيمان الذين يرونه جميلاً ويكرهون الكفر والفسوق والعصيان، {هُمُ الرَّاشِدُونَ}، حيث إنّ فكرهم وعملهم صحيحٌ سليمٌ على تمام العقل.

الرسول محمّد(ع) شخصية مميزة جداً، وتفهم من القرآن أنه من بين كل المخلوقات تميّز هو ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله تعالى عليهم، فلا يقاس بإيمان هؤلاء أي أحد من المخلوقات، وأمر تعالى ملائكته(ع) بالسجود لآدم(ع) لأن هذه النماذج ستولد من ذريته... ولكن هنا السورة لا تنقل لنا تنبيهات متعلقة فقط بوجود رسول بيننا، بل يجب أن نشتق منها تنبيهات تستمر مع الزمن، ففي أي زمان كان فيه شخص أو أشخاص يقومون بالمهام التي كان الرسول محمّد(ع) يقوم بها، ولديهم صفات الإيمان، يجب أن نعاملهم بحسب التوجيهات والتنبيهات التي وردت للمعاصرين للرسول(ع)، وأيّ خبر يصلنا وله علاقة بعامّة المسلمين، فلا يجب أن نتصرف على أساس ذلك الخبر من تلقاء أنفسنا، بل نوصله للقائد ونتصرّف بحسب توجيهاته، وأي رؤية نراها لأمر ما، فعلينا مراجعة القائد لنرى رأيه...

هذا لا يعني أبداً أن القائد أو الرئيس أو الزعيم أو العالم... أفهم منّا ومؤمن أكثر منّا، فقط الرسول محمّد(ع) نضمن تصرّفه بدقة كما أمره تعالى ولن يقصد مخالفة أوامره تعالى، وأمّا غيره فهم معرّضون للخطأ، ولكن من يتولّى منصب رئاسة أو زعامة أو قيادة الناس، عادة يكون لديه أو يصير لديه رؤية أوسع وأشمل للأمور لأنه يتعامل معها بشكل يومي، وتصله مختلف المعلومات التي يحلّلها ويرى منها ما لا نراه بسبب النقص في معلوماتنا، وطاعته واجبة فيما هو واضح ومدروس أنه على الأوامر الإلهية...

غالباً ما نقع في مشاكل من النوع الذي تطرحه الآية، ولا نهتم ولا نلتفت لخطورته، لأن وسائل التواصل الاجتماعي المنتشرة في عصرنا عبر الهواتف والحواسيب، ومحطات التلفزة والراديو، وجلساتنا وسهراتنا... كلّها تعجّ بكلام الفاسقين الذين لا يخافونه تعالى، وينشرون الكلام الكذب، والكلام المشوّه... نسمعه ونهضمه وننشره للآخرين من دون التحقّق من صحّته ومن مصدره! ربما مصدره فاسق وربما مصدره العدو الكاره للمسلمين ودينهم ويريد تدميرهم وتخريب تدينهم وحياتهم! فرحمة الله على أيام الكذّابين واضعي ومخترعي الأحاديث عن النبي(ع) الذين كان ضررهم "العظيم" صغيراً في مقابل ضرر الكذابين الآن، الذين وبلمسة واحدة على شاشة الهاتف المحمول يستطيعون نشر كذبتهم لآلاف بل ولملايين الناس... ومن يسمع لهم ولا يتحقّق مما يقولونه ويعمل على أساسه أو ينشره، فليتجهّز للحساب العسير، لأنهم فاسقون كذّابون وهو مشارك معهم فهو مثلهم.

دائماً نُبْتَلَى بالسخفاء والتافهين ضعاف العقول والإيمان، الذين يجعلون المستوى الفكري الثقافي والنفسي الجماعي للمسلمين سخيفاً، وسأضرب لك مثالاً عملياً عن شيء يبدو سخيفاً ولكنه في غاية الخطورة لأنه يؤسّس لمجتمع تافه فكرياً ونفسياً وإيمانياً، فهناك من ينشر نصائح طبية بين الحين والآخر، وهي نصائح ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، لتصير البندورة شافية من جميع الأمراض!... وهناك بين الحين والآخر من ينشر إعجازاً علمياً دينياً قرآنياً... وهو إمّا يعلم بكذبه، أو يرى السخافة ويتعامى عنها، أو هو سخيف... ويجد من يتلقّف كلامه وينشره للآخرين... لتعمّ السخافة بين المسلمين... وبعدها نصير مجتمعاً قابلاً لبلع أي سخافة... وبعدها ننسى الله تعالى ورسوله(ع) وندخل في جميع أنواع المتاهات... ونصير لعبة في أيدي المخابرات التي تعمل جاهدة على تسخيفنا لتسوقنا كما تريد ونحن لا نشعر بذلك...

ما سبق كان عن الكلام الكذب ومن السهل الانتباه له، فماذا لو كان الكلام الذي ينشرونه صحيحاً؟ دائماً ستجد كلاماً صحيحاً عن سلبيات في الأشخاص ذوي المناصب... فهل نشرها بين الناس عمل صائب؟ أم العمل واتّخاذ القرارات على أساسها من دون الرجوع إلى القائد عمل صائب؟

بين الكذب والصحيح ينتشر بين جماعات الناس هوىً جماعيٌّ ليس فيه بعد نظر للمصالح العامّة للمسلمين، وغيرها من العناوين والتفاصيل الكثيرة التي يفهمها المتعاطون بالشأن العام.

مختصر الكلام، على القائد "الرئيس الزعيم الفقيه..." أن يبيّن لأتباعه تبريرات قراراته حتى يروا أنها نابعة من دينه تعالى ومتماشية معه، فالطاعة العمياء غير مقبولة في دينه تعالى، وها ترى إله العزّة بجلالة قدره يبرّر للعقيدة والشريعة والسلوكيات في قرآنه، فيرينا على ما استند سبحانه في كلامه لنفهمه بالعقلانية التي منحها تعالى لنا... فلا يوجد في دينه تعالى شيء اسمه: نفّذ ثم اعترض. ولا يوجد شيء اسمه: نفّذ ولا تعترض. بل يوجد: افهم والتزم بما انعزم عليه الأمر. ويمكن اشتقاق ما قلناه بسهولة من الآية 159 من سورة آل عمران {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}، ومن الآية 47 من سورة غافر التي ترينا أن الطاعة العمياء ليست تبريرا مقبولاً عنده تعالى {وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ}، وغيرها العديد من الآيات...

(فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{8})
هذا الحبّ للإيمان ورؤيته زَيْناً وكره الكفر والفسق والعصيان، هذه الأمور: {فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ}، هي أمور تقدمة منه تعالى لكم ولم يطلب له منكم شيئاً مقابلها، ولا يجب عليه تعالى أصلاً أن يقدمها لكم، فبمجرد إعلانكم اعتقادكم بهذا الدين وعزمكم على إطاعة أوامره تعالى حصلتم على هذا الفضل.

{وَنِعْمَةً}، أي شيء يوصف بأنه جيّدٌ حَسَنٌ، {وَاللَّهُ عَلِيمٌ}، يعلم كلّ شيء وبناء على علمه الواسع أمركم بالتأكد من صحّة الأنباء الواردة من مصدر مشكوك بصدقه، وقبل أن تتصرفوا على أساسه من دون الرجوع إلى كتابه وسنّة نبيّه(ع)... {حَكِيمٌ}، لأنّ الاعتماد على كلامه تعالى اعتماد على كلام من يرى الصوابية في الأمور.

بالنسبة لنا كمسلمين صارت الصفات الإلهية التي تذكرها الآيات مستهلكة لأننا أصلاً نؤمن بها، فلا ننتبه لمعناها الذي يقصده سياق الكلام، وهنا افترض أن أحدهم قال: صحيح أن الخبر جاء من فاسق ولكنه عن خطر قادم ومن العقلانية التصرف على أساس إمكانية حدوث خطر... أو قال: إنه فاسق ولكن في هذه صادق ولا غاية سيئة له... وهكذا نفهم وصفه تعالى لنا نفسه بأنه عليم، فعن علم من مستوى إلهي جاء الأمر الإلهي بضرورة التبيّن من صحة الخبر الوارد من مصدر غير موثوق، وعن حكمة جاء هذا الأمر الإلهي.

(وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ{9})
{وَإِن طَائِفَتَانِ}، إذا مجموعتان منفصلتان عن جماعة أكبر تنتميان لأساس واحد، {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، ينتميان للذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {اقْتَتَلُوا}، دار بين أفراد الطائفتين قتال فصاروا ينهون حياة بعضهم البعض، {فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا}، فهناك شيء فاسد بينهما سبّب الاقتتال فقوموا بالتدخّل لحلّ المشكلة التي بينهما.

{فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى}، بعد أن تدخلتم وبيّنتم حقّ كل واحدة من الطائفتين، قامت طائفة بالبغي، حيث قَامَت بفعل مباشر تقصد منه شيئاً ما، وهنا الكلام عن قتلها الطائفة الأخرى بدون حقّ مما جعلها تستأنف قتالها، {فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي}، قُومُوا بالتدخل والوقوف مع الطائفة التي قبلت بالإصلاح ضد الطائفة التي لم تقبل بالإصلاح وأصرّت على البغي، حيث أصرت على فعل تقصد منه الاعتداء على الطائفة الأخرى، {حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ}، حتى ترجع الطائفة الباغية إلى "حالة" تحت ما يأمر به تعالى، قاتلوها حتى تقبل بالإصلاح. كما نقول: تَفَيَّأْتَ. وتقصد أنك تحت شيء ما، تحت السقف، تحت الشجرة... وهنا الفيء هو الكون تحت أمره تعالى.

هذا التوصيف بالفيء يشير إلى حالة تَبْدُو لكم فيها الفئة الباغية معترضة على حكم الإصلاح المبني على كلامه تعالى، ويشمل أنها فاءت وقبلت بالحكم، ويشمل أنها تعرض حكماً آخر أيضاً مَبْنِيّاً على كلامه تعالى، وهكذا يكون توصيف "تفيء إلى أمر الله" يشير إلى حالة قبولها أو عرضها لحلّ أو لصلح مُنْضَوٍ تحت كلامه تعالى.

{فَإِن فَاءَتْ}، إذا الطائفة الباغية التي قاتلتموها أعلنت أنها "في حالة" تحت أمره تعالى، {فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ}، بشكل مُتَسَاوٍ، لِتَأْخُذَ كل طائفة حقّها بالتمام ولا تميلوا لطائفة ضدّ الأخرى، لأنّ بغي طائفة من المؤمنين على طائفة أخرى من المؤمنين لا يجيز لكم أن تحكموا على الباغية بحكم غير عادل لتدفع ثمن بغيها، بل أعيدوا دراسة كل الخلاف من أصله إلى حين توقّف القتال، واحكموا بدون ميلكم مع الطائفة المسالمة ضد الطائفة الباغية، {وَأَقْسِطُوا}، اعملوا على أن تأخذ كل طائفة ما لها بالضبط، {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، لَدَيْهِ تعالى تقييم إيجابي لمن اعتمد الحقّ وأعطى للآخرين ما لهم بالضبط.

ننتبه جيداً، فَمِنْ سورتنا هنا "ومن عموم القرآن" ترى بوضوح أن كلمة مؤمن، مؤمنون، والذين آمنوا... ليست على المعنى الدارج بيننا، فنحن نقول عن شخص ما أنه مؤمن ونقصد أنه تَمَامُ التَّمَامِ من ناحية الالتزام، حيث يقوم بكل الواجبات ويترك كل المحرمات، وأما في استعمال القرآن فهي وصف لمن "أعلن" أنه معتقد وملتزم بهذا الدين، وعلى المعنى الدارج بين الناس لن نفهم كيف يقتتل المؤمنون طالما أَنَّ كِلَيْهِمَا مَوْصُوفَانِ بترك كل المحرمات وفعل كلّ الواجبات! أمّا في استعمال القرآن لكلمة "مؤمنين وآمنوا..." سنفهم أنهما مجموعتان محسوبتان على الذين "أعلنوا" أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين الإلهي، وقامتا معاً أو قامت إحداهما بالبغي على الأخرى، فلنقل إنهما اختلفا على تقسيم المياه، أو على تقسيم النفط، أو على تقسيم مناصب الدولة... أو بينهما مشاحنات عشائرية أو قبلية أو عصبية أو حزبية... ولم يصلا إلى حل لأن كِلَيْهِمَا يُرِيدَانِ أكثر مما يحقّ لهما، أو واحدة منهما تريد أكثر مما يحقّ لها... فهذا التصرف الباغي لا يخرجهما عن وصفهما بأنهما: من المؤمنين، من الذين "أعلنوا" اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين. حتى لو لم يقبلا بالحكم العادل، وحتى لو أصرّا على البغي، وحتى لو اقتتلا... لأنّ عِنْدَهُ تعالى حساب لهم ولكن من ناحيتنا فنحن مأمورون بإبقاء صفة الذين آمنوا عليهم.

هكذا صار واضحاً لديك أن وصفهما بما أعلناه من اعتقاد والتزام، لا يعني أبداً أنهما على التمام وبمواصفات الإيمان التام، فالباغي والقاتل للبريء والرافض لحكم الله تعالى... فحتى لو كان موصوفاً بأنه من الذين آمنوا فهذا لا يعني أكثر من وصفه بما أعلنه من اعتقاده والتزامه بالدين الإلهي، وبالتالي مِنَ المفروض أن تتعامل معه على أساس إيمانه ليكون تحت شرعه تعالى... وسيحاسبه تعالى بدقة على السيئات التي ارتكبها، فإن قتل نفساً بريئة فعقابه الخلود في جهنّم، وإن أكل مال اليتيم فسيأكل النار في الآخرة... وهكذا مثله مثل أي إنسان قام بالسيئات...

الآن نأتي إلى الطامّة الكبرى، إلى ما نقرؤه في القرآن بشكل صريح عن الأمر الإلهي بكيفية التعامل مع عامّة المؤمنين، بالإصلاح بينهم، وقتال الباغية، والحكم بالقسط، ونأتي إلى التطبيق، حيث نفى المسلمون صفة الإيمان عن الطوائف المختلفة عنهم! فلا السني يعتبر الشيعي مؤمناً، ولا الشيعي يعتبر السني مؤمناً! وكذلك الأباضي والفاطمي والزيدي والاسماعيلي والصوفي... فغالب علماء وأفراد هذه الطوائف تعتبر نفسها أنها هي وحدها المؤمنة، فإذا حصل خلاف فيما بين طائفتهم اعتبروا الآية هنا تتحدّث معهم لوحدهم، وأمّا إن حصل الخلاف بين طائفتين أخريين، فليذبّحوا بعضهم! وإن حصلت مشكلة بين جماعة تابعة لطائفتهم ضد جماعة من طائفة أخرى، فطائفتهم دائما على حقّ ويجب دعمها!

هذه ليست المشكلة الأكبر، فالويل الويل لعلماء الدين الذين فسّروا القرآن بهذا الشكل، وهذه هي المصيبة التي ما بعدها مصيبة، والويل الويل لهم من أبحاثهم حول تحديد المؤمن بطائفتهم ونفي صفة المؤمن عن بقية طوائف المسلمين.

الويل لهم من تقديس روايات استندوا عليها لتبرير تعصّبهم ونفي صفة الإيمان عن الآخرين، وهي روايات مخالفة لصريح القرآن كلامه سبحانه وتعالى.

لنقل إنّ عامة الناس بالكاد تعلم الحلال والحرام والواجب، وبالكاد يلتزمون به، وسينتج عن ذلك بغيهم على بعضهم، ولكن العديد من علماء الدين الذين يبثّون الفرقة بين المسلمين، ويحرّضون على المذهبية والكراهية والقتل... هؤلاء علماء أي دين هم؟ هم ليسوا علماء دين هذا القرآن، بل هم علماء دين إبليس.

ننتبه أيضاً، لأنّ هذه من المرات القليلة التي استعمل فيها القرآن كلمة توحي بانفصال المسلمين، حيث وصفهم بالطائفة، وهناك مجموعة كبيرة، مجموعة المؤمنين بدينه تعالى، وتحتوي على مجموعات، لِتَصِيرَ المجموعات المنفردة طوائف. وكلمة طائفة لا تعني أبداً ما هو دارج بيننا الآن، لأنها لا تعني وصفاً قرآنياً لمجموعات لها عقائد مختلفة أو

تشريع مختلف، لا أبداً، إنما تعني فقط وفقط أنهم مجموعات منفصلة جغرافياً أو بالنسب أو بالعادات... عن مجموعة أخرى من المسلمين، حيث عاداتهم مختلفة ومصالحهم مختلفة... وهي لا تشير أبداً بتاتاً لما نحن عليه الآن من المذهبية بالاختلاف العقائدي والتشريعي... وسنتوسّع قليلاً في هذا الكلام في الآية التالية.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ{10})
{إِنَّمَا}، فقط وحصراً، {الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}، حيث إنّ المعلنين أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين هم إخوة وبينهم مشاركة، وهنا الكلام عن الأخوة هو المشاركة في الإيمان، وعلى هذا الأساس، {فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ}، إن حصل خلاف بين المؤمنين قُومُوا بواجبكم لإصلاح الخلاف الذي بينهما.

قد يبدو لك الكلام هنا تكراراً لما في الآية السابقة، ولكنه تفصيل وإشارة لشيء أعمق، لأنّ في الآية هنا تركيز على الأخوة بين المؤمنين، حيث بينهم مشاركة وانتساب لشيء مشترك أساسي وهو الإيمان: إعلان انتمائهم لهذا الدين. لذا لا تنحازوا لطائفة ضدّ طائفة، لأنّ كلكّم إخوة.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}، تجنّبوا غضبه وعقابه إذا انحزتم بغير حق مع طائفة ضد أخرى، أو اعتبرتم طائفة كأخ لكم والأخرى كعدوّة لكم، {لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}، إذا اعتبرتم بعضكم إخوةً لبعض، وقمتم بواجب الإصلاح، واتقيتموه تعالى وأطعتم هذه الأوامر وغيرها، مِنَ المفروض ومن المتوقّع أن تنالوا العناية الإلهية الخاصّة بالمؤمنين، وأمّا إن لم تلتزموا بذلك فلن تنالوا الرحمة الخاصّة بالمؤمنين وربما سيحلّ عليكم الغضب التام.

كما ترى، القرآن يتعامل بواقعية مع الأمور، حيث سيصير الناس حتمًا طوائف، لأن الانفصال الجغرافي بين المجتمعات، أو انعزال بعضها عن الأخريات... يولّد ثقافات وعادات مختلفة بين مجتمع وآخر، مثل الاختلاف في الأزياء، أو الاختلاف في اللغة أو اللهجات، والاختلاف في عادات الزواج وتأبين الميّت... تَرَكَ القرآن مساحات في التشريع حتى تتماشى مع مختلف الثقافات والعادات، مثل الزواج في عمر مبكر، وهو غير واجب، ومتروك تقدير السنّ المناسب للزواج لكل مجتمع بحسب عاداته وثقافته... ومثله تحديد نسبة الزكاة التي فتحها القرآن لكل ما ينطبق عليه أنه عفو، مما لا يؤثّر على من أنفقه، لو مرّ مجتمع ما ببحبوحة غير عادية، وصار مع أناسه فجأة أموالٌ تزيد كثيراً عن حاجتهم، فيمكن للحاكم أن يزيد من نسبة الزكاة، وبالعكس فإن ضاقت الأحوال فيمكن أن ينقص من نسبة الزكاة... ونفس الشيء عمّا تجب فيه الزكاة فقد حددها القرآن من الخير، حيث إنّ بلداناً تعتمد على الذرة كوجبة رئيسية وأخرى على الأرز وأخريات على القمح... ونفس الشيء عن قيمة ديّة المقتول، تختلف بين مجتمع وآخر تبعاً للظروف الاقتصادية لكل مجتمع...

إذن، لا نفهم من كلام القرآن عن الطوائف أنه يشير إلى ما نحن عليه من التناحر العقائدي والفقهي والتاريخي والسياسي... لا، لأنّ كُلَّنا إخوة، وإنما يشير بالطوائف إلى واقع حال اختلاف الناس في العادات والثقافات ومستوى المعيشة... وإلى انفصال مصالحهم عن بعضها حيث لكل جماعة منهم كيان لإدارة شؤونهم وحاجاتهم.

بناءً عليه، لِنَقُلْ إنَّ بئر نفط في منطقة حدودية مشتركة بين طائفتين من المسلمين، أو نهر ماء يمرّ من بلد إلى آخر، أو أراضٍ حدودية خصبة، أو أراض فيها معادن... وغيرها الكثير من العناوين على مقياس الدول، ومثلها الكثير من العناوين على مقاييس أصغر... وصولاً إلى الطوائف داخل المدينة الواحدة، حيث يحصل خلاف بين العائلات الكبيرة على رئاسة البلدية أو التمثيل النيابي أو الوزاري أو وظائف الدولة... أو منافع الأشغال العامّة... هكذا ترى أن واقع الحال وجود طوائف، لأنها مجموعات صار لها مصالح تتداخل وتؤثّر على مصالح الآخرين، ولكن ليس مقبولاً حلّ الخلافات بينهم بالقوّة...

قبل ذلك، ليس مقبولاً تقسيم الناس لبعضها البعض بتسمية الطوائف بناء على اختلاف عقائدي أو تشريعي بينهم، لأنّ هذا يأخذنا إلى الكلام القرآني الإلهي مع وعن بني إسرائيل، الذي لم يذكرهم لنا القرآن ليذمهم للتسلية بهم، بل لننتبه مما فعلوه ولا نفعله، لأنهم ما اختلفوا إلا بغياً بينهم من بعدما جاءهم العلم الإلهي الواضح كما تقرأ في العديد من الآيات ومنها الآية 19 من سورة آل عمران {إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ

الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}، أليس واقع حالنا أننا مثلهم؟ وهكذا كُلُّ مذمّة قرآنية لهم موجّهة لنا...

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{11})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ}، لا يقوم أناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع بعضها بالتعامل والكلام مع أناس آخرين بانتقادهم بازدراء ودونية بسبب عائلتهم أو بلدهم أو شكلهم أو تصرفاتهم أو كلامهم أو نوعية عملهم... مثلما هو دارج بالسخرية من الحمصي المنسوب لبلدة حمص أو الطفيلي المنسوب لعشيرة الطفيلي... {عَسَىٰ}، من المحتمل المرجّح غير الأكيد، {أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ}، لأنّ الذين تسخرون منهم، من المرجّح غير الأكيد أنهم أفضل منكم، والآية تتعامل مع الأمور بواقعية، فقد يكون فعلاً هؤلاء فيهم شيء قابل للسخرية عليهم، ولكن أنتم أليس فيكم شيء قابل للسخرية عليكم؟ عسى هؤلاء الذين تسخرون منهم لديهم شيء واحد فقط سيئ، وربما أنتم لديكم أشياء كثيرة سيئة، أو ربما لديكم سوء عياره ثقيل وهم السوء فيهم عياره أقل... هل تقبلون أن تكونوا موضع سخرية الآخرين؟

حرمة السخرية من قوم تتضمّن حرمة السخرية من شخص ما من القوم، ولكن وكما تراه منتشراً في عصرنا، فإنّ الناس "حتى المتدينين" يستسهلون السخرية باستعمال العنوان بدل التحديد بشخص، فلا يعتبرونها إهانة إذا سخرت وقلت: في واحد حمصي فعل كذا... ويعتبرونها حراماً إذا سخرت وقلت: سمير ابن قحطان فعل كذا... لأنك حدّدت، حيث تنظر الآية هنا لهذا الاستسهال للسخرية الجماعية وتمنعه من أصله، وضمنياً تمنع السخرية من شخص محدّد.

{وَلَا نِسَاءٌ} "إناث بنت صبية امرأة..." {مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ}، كما تلاحظ فإنّ كلمة قوم السابقة تتضمّن الرجال والنساء، الفتيان والفتيات، الصبيان والصبيات... ولكن أرادت الآية تنبيه النساء بشكل منفرد خاص، ونستوحي من ذلك انتشار هذه الفعلة السيئة بين النساء أكثر من الرجال، وفي مجتمعاتنا عندما يسمع الناس رجلاً يسخر من رجل آخر تراهم يقولون عنه إنه يتحدّث مثل النساء، على أساس أنها "في الغالب" عادة نسائية سيئة "طبعا ليس كل النساء".

{وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ}، لا تقوموا بفعل اللمز، وهو فعل الشدّ بقوة على شيء، وهنا المقصود عموم أي حركة شدّ بأعضاء الجسد لتشير إلى شخص بقربك ليلتفت إلى شخص آخر، فتشدّه بثيابه أو بيده... لينتبه لشيء ما، فهي حركة لمز "شدّ" أقوم بها لأشير لك حتى تنظر إلى شخص آخر على أساس أننا نضحك على لبسه أو شكله أو ما نعرفه عنه... حتى حركة الإشارة ليلتفت الآخرون ويسخروا من شخص ما، حتى هذه عليها عقاب، لأنّ السخرية بالكلام الصريح مثل: انظر إلى لباسه المضحك... انظر إلى شكله المضحك... حرامٌ وعليها عقاب، والإشارة التي نقصد بها لفت انتباه الآخرين ليسخروا من شخص ما، مجرّد الإشارة بلا كلام هي أيضاً حرامٌ وعليها عقاب.

تلاحظ الآية هنا وغيرها من الآيات التي تعبّر عن نظرته تعالى لنا كلّنا بلا فرق ويريدنا تعالى أن ننظر نحن لبعضنا البعض من هذه النظرة، حيث قالت الآية: {وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ}. فأنت لن تسخر من نفسك أمام الناس وتجعل نفسك مسخرة "مضحكة"، ربما تفعل ذلك مع أصدقائك وأحبائك لتفرحهم، ولكن لا تقبل أن يسخر منك عموم الناس، ولن تجعل نفسك مسخرة للآخرين، لذلك سَاوِ الآخرين مع نفسك ولا تسخر منهم.

{وَلَا تَنَابَزُوا}، لا تتراموا على بعضكم، {بِالْأَلْقَابِ}، بأسماء وصفات غير أسمائكم وصفاتكم، فلا تَرْمِ على الآخرين ولا الآخرون يرمون عليك أسماء وصفات سيئة، مثل: يا قزم يا مسخ يا حمار يا أبو ريحة... طبعاً الأسماء والألقاب الجميلة التي يحبّها الآخرون إذا أطلقتها عليهم فأنت تكسب الحسنات.

{بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ}، أنتم وصفكم مؤمنون معتقدون ملتزمون بهذا الدين، والسخرية واللمز والتنابز ستغير اسمكم من مؤمنين إلى فاسقين، إلى خارجين عن أوامر إلهية علنية معلومة، وإذا انتفى عنكم اسم الإيمان وتلبستم باسم الفسوق فالفسوق بئس الاسم، لأنّ الفسوق اسم غير جيد بتاتاً كبدل لاسم الإيمان.

حين تنبز أحداً ما بلقب سيئ، تَصِيرُ أنت نفسك مسمّىً بالفسق، لأنه تعالى علناً وصراحة وبوضوح ينهاك عن ذلك، وأنت تفعله، فأنت فاسق، واسم الفسق سيئ لك.

{وَمَن لَّمْ يَتُبْ}، من لم يفتح صفحة جديدة تاركاً السخرية من الآخرين ولمزهم ونبزهم بالألقاب السيئة، {فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، حيث إنّ هذه التصرفات لا يحقّ لنا القيام بها ونكون ظالمين إذا قمنا بها.

كما ترى، لم تتوعّد الآية بالنار ولا بالخلود في النار على هكذا نوع من السيئات، لأنّه سبحانه لا يبالغ بكلامه، صحيح أنها سلوكيات سيئة فهي حرام وعليها عقاب، ولكن بالمقارنة مع قتل نفس بريئة، فهي أقل ضرراً، وقد تصير أكثر ضرراً إذا تسببت بعقدة نفسية للذي سخرنا منه فصار مجرماً، فكل ما يفعله من إجرام وأذية للآخرين متأثراً بسخريتنا منه، فنحن سنتحاسب على ما فعله هو من سيئات لأنها نتجت عن شيء نحن فعلناه له...

بقي شيء، درج بيننا الكلام عن الأخلاق التي يأمرنا بها تعالى، وبشكل نفصلها عن التشريع، فنقول إنّ القرآن فيه العقيدة والشريعة والأخلاق، بينما اعتمدت في هذه الدراسة على تسميتها بالسلوكيات بدلاً من الأخلاق، لأن كلمة سلوكيات كما هو دارج معناها أعمّ من كلمة أخلاقيات، ومريحة في الاستعمال أكثر لوصف عموم أي تصرّف، وخذ مثلاً ما نسميه باللياقة، فإنّ التثاؤب والتجشؤ و... في مجلس عام أمام الآخرين، هو سلوك سيئ، ومن الصعب وصفه بالأخلاق السيئة إلا إذا كنت تستعمل الكلام العامي الذي نتساهل فيه، ولكن فيما يسمّى بعلم الأخلاق للكلمة تعريف حتى تحدّد المواضيع التي تبحث فيها تحت عنوان الأخلاق، وتراهم يسمّون بعض الأمور بالآداب وبعضها باللياقات وبعضها بالبروتوكولات... وأساسيات مختلف هذه العناوين تحدّث عنها القرآن وشملتها في هذه الدراسة بكلمة: سلوكيات.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ{12})

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {اجْتَنِبُوا}، ابتعدوا فلا تقربوا، {كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ}، لأنّ هناك معلومات أو أَمَارَاتٍ أو تفسيرات لتصرفات الآخرين تجعلكم تعتقدون أنهم سيِّئُونَ، لذا ارموا تلك الظنون السيِّئَةَ غير المبنية على شيء يقيني أكيد، {إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ}، حيث إنّ هناك بعض الأفكار التي تدور في بالكم عن الناس وهي إثم، فهي ذنب تقومون بارتكابه وأنتم تعلمون أنه سيِّئٌ، لأنه حكم منكم على الآخرين بالسوء وهو غير مبني على شيء أكيد.

نُلاحِظُ في عموم القرآن اعتماده على سياق الكلام حتى يُحْصَرَ المعنى الذي تشير إليه الكلمات، فالآية السابقة منعتنا من التنابز بالألقاب، وبكل سهولة تعلم قصدها المنع عن الألقاب السيئة المعيبة، أمّا الألقاب التي يحبّها الناس طبعاً غير ممنوعة بل بالعكس محبوبة وعليها أجر، هنا نفس الشيء، فالظنّ هنا هو الظنّ السيِّئُ بالآخرين، أمّا الظنّ الحسن طبعاً محبوب وعليه أجر.

"الظنّ" هو اعتقادك بشيء ما مُسْتَنِداً إلى شيء ما، فإن كان ما تستند عليه صحيحاً كان ظنّك صحيحاً، وهذه حالة المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم سبحانه كما ورد في الآية 46 من سورة البقرة {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، لأنهم مستندون في ظنّهم على آياته وكلامه تعالى. وإن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران {... وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ...}، استناداً للحالة الحرجة التي كانوا فيها ظنّوا أنه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء. وبين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند عليها ولكنه ليس مقتنعاً بها، فلا تزال الأمور عنده مُرَجِّحَةً لاحتمالات أخرى، فهذا ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}، لأنهم يريدون أن يلمسوا مباشرة حصول ساعة قيامهم من الموت حتى يعتقدوا بها ولا يكفيهم الاستناد إلى معلومات تدلّ عليها، فيريدون اليقين بها عِيَاناً حتى يؤمنوا. وهذه الحالة قريبة جداً من الاصطلاح "في علم المنطق" والدارج لمعنى كلمة ظنّ على معنى وجود عدة احتمالات. وها صرت تعلم المعنى اللغوي الأساسي لكلمة "ظنّ" فانتبه للفرق بينه وبين المعنى الاصطلاحي حتى لا تفسّر القرآن على أساس المعنى الاصطلاحي.

في عموم كتب التفاسير ستجد كلاماً آخر عن الظنّ، ولا ينطبق معناه على كلّ آيات القرآن، إذ تجدهم لا يثبتون على معنى واحد للظنّ، حيث مرة يرادفونه باليقين، ومرّة بالشك، ومرة بالحسبان... وهي معانٍ غالباً ستجدها صحيحة لأن الآيات واضحة وتدل على المعنى الذي ذكروه بالشكل العمومي الذي يتحمله الاشتقاق والتدرّج من أصل معنى كلمة ظنّ، ولكنها ليست المعنى الدقيق لكلمة ظنّ، بل كلامهم توصيف لحالة العلم الذي استند إليه الظنّ، وها صرت تعلم معنى الكلمة العام، وأن القرآن دائما يوضّح لك نوع العلم الذي يستند الظنّ له إن كان صحيحاً أو فاسداً، فلن تضيع في معرفة الظنّ الصحيح من الظنّ الخطأ.

نرجع للآية، فهي لا تريدك كمؤمن أن تكون بسيطاً تتغابى عمّا حولك، لا، بل تنبهك من الظنون السيئة بالآخرين والتي لا تستند إلى دليل، لأنك مضطر للتعامل مع الناس، ومضطر لتعلم الصادقين والأمناء والصالحين... منهم، حيث إنّ هذا سيعطيك وَعْداً... وذاك ستؤمنّه... والآخر ستزوجّه ابنتك... فإن كانت لديك معلومات سيئة عنهم ومبنية على حقائق ووقائع تعتقد بصدقها مع أنك لم ترهم يكذبون ويخونون... فظنّك السيِّئُ بهم ليس إثماً.

لِنَقُلْ إنّ أحداً ما لا أعرفه جاء وطلب مالاً أو بضاعة... بالدين، فهل ظنّي به أنه سيخون إثم؟ بعبارة أبسط فهل اعتقادي بأنه حتماً سيخون إثم؟ نعم إثم، لأنني لا أعرفه فلا دليل عندي على سوئه. ولكن هذا لا يعني أن أعطيه ما طلب، لا، حيث شرّع تعالى لنا الرهن وكتابة الديون مع شهود عليها... وهذا لا يعني أننا نظنّ ببعضنا سوءاً بل يعني الاحتياط وحفظ الحقوق... لأنه التعامل بواقعية مع الأمور، وأمرنا تعالى أن يكون الشهود عُدُولاً... وكيف سنحدّد الشهود العدول إن لم يكن لدينا ظنّ حسن بهم وفي مقابلهم أناس لدينا ظنّ سيِّئٌ بهم؟ هكذا ترى الآية هنا لا تحصرك بين ظنّ السوء الحرام أو التعامل مع الأمور بالبساطة والسذاجة، لا، لأنّ هذا ممنوع أيضاً، بل تحصرك بالابتعاد عن ظن السوء بلا دليل، وتحصرك بين الفطنة من جهة أخرى، لأنّ المؤمن كَيِّسٌ يَدْرُسُ الأمور "مقابلها الحماقة"، فَطِنٌ يَفْهَمُ الأمور "مقابلها الغباوة والسذاجة".

تَجِدُ في بعض الكتب كلاماً عن خروج سيطرتنا على ظنوننا، حيث يقفز الظن السيِّئُ في بالنا غصباً عنّا، ولذلك قالوا إنّ الآية تشير إلى ما تفعله بعد ظنّك السيِّئ، فإن لم تفعل أي شيء فالآية لا تتحدّث معك وظنّك ليس إثماً! وهذا معاكس لما تقوله الآية، فالظن السيِّئُ بلا دليل إثم حتى لو لم تتصرّف على أساسه، ومن لم يمرّن نفسه على حسن الظن بالناس والانتباه لوسوسة النفس الأمارة بالسوء ولوسوسة الشيطان، فهذا ستقفز الظنون السيّئة على باله، وهي إثم، وليست كياسة ولا فطنة، لذلك يجب أن تكون حَذِراً وتحتاط على كلّ الحالات، وأن تحسب كل الاحتمالات، ولكن لا تعتقد بالسوء بالآخرين بلا دليل، لذلك التزم أنت بمعاملة الناس بطيبة قلب وبالمعروف والإحسان... مع الحذر والاحتياط العادي، لأنّ النهي في الآية عن ظنّ السوء، هو كلام عن تربية النفسية السيئة.

{وَلَا تَجَسَّسُوا}، لا تحصلوا على معلومات عن المؤمنين عبر مراقبتهم وهم لا يعلمون أنكم تُرَاقِبُونَهُمْ، أو تُرَاقِبُونَهُمْ لتروا ما يفعلونه بالسرّ، مثل الذين يراقبون جيرانهم للتسلية بجمع معلومات خاصة عنهم، أو يلاحق شخصاً ما ليرى إن كان سيذهب إلى أماكن سيئة...

ننتبه جيداً، لأنّ التجسّس على الذين ظاهرهم الإيمان حرام إلا لسبب وجيه جداً جداً، بينما يجب التجسّس على العدو وعلى عملائه وعلى من تظن أنه يتعامل مع العدو، وأمّا التجسّس الحرام فهو التجسّس على الناس في أمورهم الخاصة بهم للحشرية والفضول والتعرّف على عيوب الناس، حتى لو كانوا يشربون الخمر أو يتعاطون المخدرات، وحتى لو كانوا يزنون... فلا يحقّ لك أبداً بتاتاً التجسّس عليهم في أماكنهم الخاصة بهم أو ملاحقتهم.

{وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا}، لا تتكلموا عن شخص غائب ليس معكم حيث إنه لا يسمعكم، والمقصود هنا الكلام السيِّئُ الذي لا يرضى الغائب أن تقوله عنه في غيابه، فإن كان ما تقوله عنه قام به فعلاً، فهذه غيبة وعليها عقاب، وإن كان لم يقم بما تقوله عنه فهذا بهتان والعقاب عليه مضاعف كما هو مشهور.

{أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ}! تصوّر لو أنّ الشخص الذي تغتابه مات، فأنت بالطبع تكره أكل لحمه، وحين يكون غائباً عنك وتقوم بالحديث عنه بالسوء فهو مثلما لو كان ميتاً أمامك فاقداً للوعي ولن يشعر إذا أكلت لحم جسده، فهل تأكل لحمه إن كان لا يشعر؟ بالطبع لا، وكذلك الغيبة فإن كان غائباً لا يشعر بحديثك عنه بشكل سيِّئٍ لأنه ليس حاضراً أمامك، فكيف تجيز لنفسك استغلال فرصة غيابه عن سماعك لتعيب عليه وتذكر سيئاته!

فِعْلُ الغيبة حرام على القائل وعلى السامع معاً، لذا لا تقل إنك لم تفتح فمك وهو اغتابه أمامك، لأنك شريك في الإثم، ويجب عليك نهي المرتكب للغيبة كما نهتك الآية أنت، لذلك عليك نقل هذا النهي للآخرين، وإلا فما معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}، تَجَنَّبُوا غضبه وعقابه الذي ستواجهونه إن ظننتم ظنّ السوء بلا دليل أو تجسّستم أو اغتبتم.

{إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ}، يَقْبَلُ توبة عباده، عندما يَتَوَقَّفُونَ عن هذه الأعمال السيئة وَيَفْتَحُونَ صفحة جديدة فسبحانه يفتح لهم صفحة جديدة. وعَمَلِيّاً يسامحهم سبحانه على ما سبق من أعمال سيِّئَةٍ، والله {رَّحِيمٌ}، لَدَيْهِ عناية خاصّة بالمؤمنين، وقبول التوبة هو نموذج عن عنايته تعالى الخاصّة بالمؤمنين، لأنّ غير المؤمنين حتى لو تابوا من عمل سيِّئٍ ما، فلن ينالوا المغفرة على ما قاموا به في السابق.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ {13})

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ}، لأنّ التنبيهات الإلهية التي وردت من قبل في هذه السورة كانت تتوجّه للمؤمنين على اعتبار أنهم من المفروض التزامهم بما يقوله هذا القرآن، أمّا غير المؤمنين فسيقولون: هذه التنبيهات لا تعنيني لأني لست مؤمناً بهذا القرآن، والآن نجد السورة توجّهت لكل الناس، مؤمنٍ وكافرٍ ومشركٍ وفاسقٍ ومنافقٍ وملحدٍ...:

{إِنَّا خَلَقْنَاكُم}، ركّبناكم وألّفناكم، {مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ}، بشكلٍ عام خرجتم إلى الحياة من علاقة بين ذكر وأنثى وبعدها ولادة، لذا لم ينزل أحد منكم من السماء أو يخرج من الحائط أو يتميّز في خلقه "تركيبه" عن الآخرين، لأنّ كلّكم مثل بعض.

{وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا}، حيث تشعبتم متفرقين عن بعض، باللغة أو بلون الجلد أو بالسمات... أفريقيّ، آسيويّ، أوروبيّ، قوقازيّ، عربيّ... تشعبتم بالعادات والثقافات... {وَقَبَائِلَ}، مجموعات من الناس بينها قرابة نسب، كمجموعة كبيرة تحتها عوائل، كالإسماعيليين "قبيلة الإسماعيليين" لأنّ جدّهم النبي إسماعيل(ع)، مع العلم أن جدّهم أيضاً النبي إبراهيم (ع) ولكن انتسبوا للنبي إسماعيل(ع) وانتسب آخرون لأولاد آخرين للنبي إبراهيم(ع) وهم اليعقوبيون... ونقول قرشيّون للذين جدّهم قريش وقبله جدّهم النبي إسماعيل(ع)... وهناك استعمالات أخرى لترتيب هذه الكلمات وغيرها: شعب، عمارة، بطن، فخذ، فصيلة، عائلة، بيت... ولكنها ليست تفاصيل من أساس معاني كلمات اللغة بل اصطلاحات وضعوها ولا يلتزم بها عادة الناطقون باللغة العربية، حيث في بعض تصانيفهم تصير قريش عمارة، ولكن لا تجد هذا التوصيف مستعملاً في عموم كلمات العرب، وتجد بدلاً منه: قريش قبيلة.

جعلكم سبحانه شعوبا وقبائل، {لِتَعَارَفُوا}، لتتعارفوا ويصير بينكم تعارف، يعني كلّكم ناس ولا تتميزون عن بعضكم البعض، والاختلاف بالنسب "بالعائلة" الذي نتج عن تشعّبكم وما في شعوبكم من قبائل، كان مقصوداً من الإله سبحانه لما سينتج من غياب للمعلومات الشخصية عن بعضكم البعض، فأنا أعرف أقاربي وجيراني وأهل قريتي... وأتعرّف على أهل القرى والبلدان الأخرى.

اختلافكم بالعرق والسمات والجغرافيا والثقافة... ليس حتى تتفاخروا على بعضكم البعض بالنسب والعائلة والقبيلة والعشيرة... والثقافة والعادات... أو تسخروا من بعض أو تتنابزوا بالألقاب أو تغتابوا بعضكم أو تظنّوا ظنّ السوء...

التعارف هو مجرد الاحتكاك بالآخرين لمعرفتهم، تَصَوَّرْ أنك ولدت وعشت حتى كبرت لوحدك في غابة، فإنّ أول لقاء لك مع بشري آخر والاحتكاك معه بالتعامل، بالتحية، بالكلام، بضيافته، بمعرفة اسمه، وكنيته وعمله... هو كلّه من أنواع التعارف.

{إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ}، لأنّ الذي له شأن وقيمة عنده تعالى أعلى من قيمة الآخرين، {أَتْقَاكُمْ}، الأشدّ تجنباً، والمقصود الأشد تجنباً للسوء وهذا هو نفسه تجنّب معصيته ومخالفة أوامره تعالى، وبالتالي هو نفسه تجنّب غضبه وعقابه سبحانه. لِذَا لَا قيمة لتميّزكم عن بعض بأي شيء آخر، لا بالعرق ولا بالعائلة ولا باللون ولا اللغة ولا اللكنة ولا الشكل ولا العلم

ولا المهنة... ولا معنى لسخريتكم من بعضكم البعض، ولا معنى للتنابز بالألقاب السيئة ولا للغيبة ولا لظن السوء ولا للتجسّس...

لم يصمّم سبحانه ما في الدنيا حتى ينتج عنها نُسَخٌ متطابقة من البشر، بل تقصّد سبحانه حصول الاختلافات لنتعارف، لأننا لو كنّا متشابهين بالشكل والطول واللون... والثقافة والعادات... لفقدنا معنى التعرّف على بعضنا البعض. فَكِّرْ فيها مثل خاصية انجذابنا لجمال الأشكال، ولتنوّع مذاق الطعام، وعموم الرغبات... لأنّ التعرّف على الآخرين مثل تلك، وهي مما يعطي لحياتنا معنىً إضافياً.

{إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ}، حيث عن علم جعلكم شعوباً وقبائل لتتعارفوا، ولم ينتج اختلافكم بالصدفة أو لم يقصده تعالى أو نتائجه لم تكن محسوبة صوابيتها... لذلك أي تعامل سيِّئٍ مع هذه الخاصيّة الممنوحة لنا عبر السخرية من قوم جعلهم تعالى مختلفين عنّا لنتعرّف عليهم، وقمنا بالسخرية من الاختلاف الذي نراه فيهم عنّا، من اختلاف السمات أو لون البشرة أو اللغة أو اللهجة أو العادات أو اللباس... فهذه سخرية ممن جعلنا مختلفين عن بعض، وهي سخرية من علمه تعالى الذي به صمّمنا مختلفين.

{خَبِيرٌ}، لَدَيْهِ أخبار كلّ الحوادث ولا يجهل ما يحدث، وعلى هذا الأساس خلقكم بهذا الشكل المناسب لما يريده لأنه خبير بما سيحصل بعدها من اختلاف بينكم، وتعارف...

هكذا ننتهي من قسم التنبيهات السلوكية الإلهية للمجتمع المؤمن باختتام الكلام عن تنبيه عامّة الناس من المؤمنين وغيرهم لشمولهم بهذه التنبيهات أيضاً.

كما ترى، بكلمات قليلة اختصرت الآيات سبب أمره تعالى بهذه السلوكيات، لِذَا لَا ترى في القرآن كلاماً جافّاً صلباً كفرمانات يجب تنفيذها حتى لو لم تفهم تعليلها وسبب الأمر بها، لا، إذ دائماً هناك شرح إلهي لأسباب أوامره لنا، وها ترى أنه تعالى كان بإمكانه خلقنا كلنا كنسخة واحدة متطابقة بالشكل واللون والطول... واللغة واللهجة والتصرفات والعادات... ولكن صمّم تعالى خلقنا لنكون أقواماً مختلفين عن بعض لنتعارف وليس لنسخر من بعضنا البعض.

من المفيد جداً تذكّر الآية الأولى من سورة النساء التي ورد فيها تعليل لكل ما سيرد فيها من كلام عن تقواه تعالى في الناس، لأننا كلنا من نفس واحدة... {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}.

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{14})
فيما سبق توجّهت السورة بتنبيهاتها للذين آمنوا، حيث بعضهم يذهبون إلى المسجد ويشاركون في أعمال الخير ويتعلّمون القرآن والدين... والآن تدخل السورة على الذين لم يصلوا في سلوكياتهم إلى درجة توصيفهم أنهم من الذين آمنوا.

{قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا}، العربي من العرب وهم كل الناطقين باللغة العربية، وهذا الوصف يختلف عن الأعرابيّ من الأعراب لأنهم المشتتون والمتنقلّون الذين لا يسكنون في قرى ثابتة، وهم سكان البادية والبراري. الأعراب قالوا: آمنّا أي أعلنّا اعتقادنا والتزامنا بهذا الدين، بعبارة أخرى: نعلن أن المعلومات الدينية ترسّخت في قلوبنا.

{قُل}، لهم أيها الرسول محمّد(ع) عبر هذا القرآن: {لَّمْ تُؤْمِنُوا}، لا تعلنوا عن أنفسكم من المعتقدين الملتزمين بدينه تعالى، {وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا}، قولوا أعلنّا انقيادنا له تعالى، {وَلَمَّا}، أي من التاريخ الماضي ولحدّ الآن لم، {يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}، لأنّ الاعتقاد الحقيقي لم يدخل إلى أساس تفكيركم ونفسيتكم، ولأنّ ترسيخ المعلومات الدينية لم يَصِرْ في أساس فكركم ونفسيتكم.

قارنها مع حالة الذين ينتسبون للأحزاب، حيث يكفيهم تسجيل أسمائهم في لوائح الحزب ليصيروا منه ويحصلوا على بطاقة انتساب، وبعض الأحزاب تجري دورات ثقافية لأفرادها حتى يترقّوا في المناصب... وهذه أيضاً حالة عموم الأديان التي تكتفي بالانتساب لها بالاسم والشكل، فيقول عن نفسه مسيحي وهو لا يعلم من هذا الدين إلا ما يدّعونه من

تبرّع المسيح بالصلب حتى يغفر سبحانه خطايا المؤمنين به! لِذَا فالكلام هنا يريك أنه تعالى لا يقبل بهذا النوع من الانتساب لدينه، فتقول: أسلمت. على معنى انضمامك للذين أعلنوا انقيادهم له تعالى، وبعدها تفهم العقيدة والشريعة والسلوكيات التي أمر بها تعالى، وتعلن التزامك بها، وعندها يصير تصنيفك من الذين آمنوا. لأنّ الانتساب لهذا "الحزب" الإلهي ليس شكلياً بل فيه عمق يصل إلى دخول الإيمان إلى القلب، إلى أساس الفكر والنفسية.

كما ترى، هم تصوّروا أن نطقهم بشهادة "لا إله إلا الله محمد رسول الله" سَيَجْعَلُهُمْ من المؤمنين، من الكاملين انتساباً لهذا الدين، من المعتقدين والملتزمين بهذا الدين، لا، لأنكم بنطق الشهادة وبعض الالتزامات البسيطة... صرتم مسلمين أي معلنين لانقيادكم لهذا الدين، وأمّا أن تعلنوا عن أنفسكم أنكم من المؤمنين فَسَنَرَى من الآية التالية التطبيق العقائدي والعملي للحصول على صفة الإيمان.

يبدو من الكلام أنهم مثل الكثير ممن حولنا من الناس الذين يصلّون أحياناً أو لا يصلّون... وحين يواجهون أموراً فيها حكم إلهي تشريعي "لإعطاء الآخرين حقوقهم" يرفضون تطبيقه، سواء في سلوكياتهم مع أهلهم أو مجتمعهم...

لاحظ من استعمال القرآن لكلمة "الأعراب" أنها لا تشير إلى عائلة أو قبيلة محددة، بل تشير إلى من يأتي مدّة بعد مدّة من البادية والبراري إلى المدينة فيقضي أعماله ويعود فوراً إلى حيث كان، لذا تطوّر المعلومات عنده عن الدين سيكون قليلاً جداً، وحتى التزامه البسيط في حياته العادية اليومية كالصلاة والصوم والزكاة والحلال والحرام... سيكون بسيطاً ومليئاً بالأخطاء، وأمّا الأمور الكبيرة المهمّة جداً، فَتَحْتَاجُ حتماً لتتابع في معاشرة المتدينين القريبين من مصدر خبير بالتشريع حتى يتعلّم منهم، وهذا يحصل بدوام الاحتكاك بهم في المدينة، وسترى من الآية التالية تفصيلاً أكثر عن الموضوع.

{وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، تلتزموا بتنفيذ ما يصلكم منه تعالى ومن رسوله(ع)، {لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا}، لا يظلمكم بنقص من أعمالكم الحسنة أي شيء، وسوف تبقى على قيمتها كما هي، لأنّ أعمالكم الحسنة تحافظ على قيمتها بشرط بقائكم على طاعته تعالى وطاعة رسوله(ع)، فإن لم تطيعوه تعالى أو لم تطيعوا رسوله(ع) فإنّ أعمالكم ستنقص ولن تحافظ على قيمتها، ويمكنكم البقاء أعراباً مؤمنين ولا داعي لترك حياة البادية والبراري للعيش في المدينة... ولكن بشرط طاعته تعالى وطاعة رسوله(ع).

ضع في بالك أن المؤمنين يمرّ عليهم ظروف مختلفة، مَرَّةً هم في سلم ومرة في حرب ومرة في ضيقة اقتصادية... لأنّ الذين في المدينة هم جزء من هذه الأحداث، وأمّا الذي يقول بأنه من المؤمنين ولكنه ليس جزءاً من هذه الأحداث بسبب انعزاله عنهم لأنه أعرابيٌّ في معيشته ومسكنه، ويأتي إليهم للزيارة، فهذا ما كان القرآن يقصده بكلمة أعرابيّ، ومن تبعات هذه الحالة أنه لن يكون مُطَّلِعاً على أوامره تعالى وأوامر رسوله(ع) بشكل متتابع، لِذَا تُنَبِّهُهُ الآية من اختراع عقيدة وشريعة على مزاجه وتأمره بالبحث عن أوامره تعالى وأوامر رسوله(ع) في الأمور التي تجري معه... وتنبهه أن وضعه كَأَعْرَابِيٍّ بعيد من المدينة ليس عُذْراً له ليسقط عنه ما يجب على عموم المسلمين في الأمور العامّة للمسلمين كالمشاركة في القتال ومقاطعة أعداء المسلمين...

{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ}، يتجاوز عن السيئات ويسامح عن الذنوب، وهنا الحديث للأعرابيّ الذي كان من قبل أعلن إسلامه ولكنه فعلياً وعملياً لم يطع الله تعالى ولا رسوله(ع) حيث أعلن أنه مسلم ولم يتعلم إلا القليل من تعاليم الدين، وعاد إلى البادية، ومن هذه الحالة تتحدّث معه الآية، أيها الأعرابي إن أطعت الله تعالى ورسوله(ع) فستنال أجرك بالكامل وستنال المغفرة على ما سبق من ذنوبك.

{رَّحِيمٌ}، لَدَيْهِ عناية خاصة للمؤمنين، منها المغفرة لذنوبهم ومضاعفة الثواب... وهذه أمور لا ينالها الآخرون.

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ{ (15)

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ}، المعتقدون الملتزمون حقاً بهذا الدين هم فقط، {الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا}، حيث لم يحصل عندهم أقل درجة إحساس بإنكاره تعالى أو إنكار كلامه، أو إنكار رسوله(ع)، فحتى للمحة لم يخطر ببالهم أي شك لأي فكرة معارضة لصدق كلامه تعالى ولصدق الرسول محمّد(ع).

{وَجَاهَدُوا}، لأنهم قاموا بعمل غير سهل بل بعمل فيه جهد ومشقة وتعب، {بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ}، بالمال بالصدقة منه على الفقراء والمحتاجين... والنفقة على أمور المسلمين كالمدارس والمستشفيات والأدوية... وإجارات الشرطة والجنود... والعتاد العسكري والمؤنة للجيش... وبأنفسهم جاهدوا فشاركوا هم في الأعمال الجهادية، ومن ضمنها مشاركتهم بالأعمال العسكرية، حيث إنّ الأعمال الإدارية والخدماتية... أيضاً جهاد، {فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، في مسلك يوصل إليه تعالى، فيما يرضيه تعالى، لذا لم يقدموا مالهم أو أنفسهم ليحصلوا على مكاسب شخصية سيئة في الدنيا بقصد الوجاهة أو الشهرة أو المنصب أو... بل جاهدوا فقط فيما يرضيه تعالى.

عنوان في سبيله تعالى يتقاطع مع كل ما هو حسن وصالح وحقّ، إذ إنّ نفي المصالح الشخصية عن عنوان سبيله تعالى هو خطأ شائع، وكأن سبيله تعالى محصور في أعمال لا نفع لنا منها لا في الدنيا ولا في الآخرة، أو ننتفع منها في الآخرة بالحسنات، أو كأنها أعمال يستفيد منها تعالى، كما تسمع عن نصرة دينه تعالى وكأنه ليس ديننا نحن...

هذا المفهوم غير الصحيح منتشر بكثرة في أدبياتنا، بينما أساس وأصل الدين الإلهي هو الحقّ والصلاح، وهذه عناوين لِنُوصَفَ بها نحن، فأي عمل سوء أو فساد أو باطل أو كذب... فهذا لا يرضى عنه تعالى وبالتالي منفي عنها صفة سبيله سبحانه، وأي عمل حقّ وصالح وحسن... فهو تحت عنوان سبيله تعالى، وهكذا يصير الدفاع عن النفس ضد المعتدي والدفاع عن الأرض والعرض والمال... كله تحت عنوان سبيله تعالى.

{أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}، فهم لم يكذبوا حين أعلنوا أنهم مؤمنون، وأما الأعرابيّ الذي أعلن أنه مؤمن، وهو مرتاب بالدين ولا يعجبه شيء ما في شرعه أو عقيدته، ولم يجاهد بأمواله ولا بنفسه، فهو كاذب حين قال عن نفسه أنه مؤمن.

عليك أن تتصوّر المشاهد هنا كأسوأ صورة عن أشخاص لا علاقة لهم بالتدين والإيمان ويأتون للمدينة للتجارة أو للحصول على منافع من الرسول(ع) ومن الغنائم... وحين يقوم المسلمون بعمل ما يخصّ الإسلام ككل، فهم لا يشاركون فيه لا بمالهم ولا بأنفسهم... ورغم ذلك هم يمشون ويعيشون بين المسلمين على أساس أنهم منهم، بل يقولون بأنهم من المؤمنين! فتنبههم الآيات هنا من هذه التمثيلية الإيمانية التي لن تجعلهم مؤمنين حقيقيين، وتدلهم الآية على الطريق الصحيح ليكونوا مؤمنين حقيقيين.

بالنسبة لكلمة آمن لم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإسلام أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها "مؤمنون..." في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، فآمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، فكلاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{16})
{قُلْ}، أيها الرسول(ع) "وأيها المؤمن"، قل لهذه النوعية من الناس عبر هذا القرآن: {أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ}؟! فهل تتصورون أنه تعالى لا يعلم بمستوى تدينكم، فلا يعلم بمستوى التزامكم بالتبعات التي عليكم كونكم عبيدا له تعالى، ولا يعلم بمستوى التزامكم بكلامه، وتظنون أنه عبر تصريحاتكم عن إيمانكم صار تعالى يعلم بمستوى تدينكم؟!

انتبه لما تقصده الآية، لأنّ كلامهم عن وصف أنفسهم بالإيمان كمستوى عال من التدين، ماذا يعني؟ فهل كلامهم يغيّر أي شيء من الحقيقة؟ فهل فعلاً سيكونون من المؤمنين لمجرد أنهم وصفوا أنفسهم بالمؤمنين؟! وهل كان سبحانه وتعالى ينتظر كلامهم وبناء عليه صنّفهم سبحانه كمؤمنين؟! وليس بناء على عقيدتهم وتصرفاتهم!

{وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، بتعبير مشابه: يعلم كلّ شيء لأن كل الموجودات منحصرة في السماوات والأرض ولا يوجد شيء خارجها وكلّها يعلم بها سبحانه بسرّها وعلنها. {وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، حيث لا شيء يغيب عنه مهما كان وأينما كان.

كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، فهي ليست اصطلاحاً مخصّصاً كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، فهي عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئاً ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني فأنا مدين له، فخلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعاً بسبب وساعة تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... لذلك كلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة فهناك ندان بأعمالنا، فما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هو التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضاً يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسباً بحكمته فقد يديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{17})
{يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا}، بما أنهم أعلنوا إسلامهم وانقيادهم لما تقوله فهم يطلبون منك شيئاً في المقابل لأنهم قدّموا لك شيئاً مهمّاً جداً، فصاروا من أتباعك ومن المؤمنين بدينك، فصاروا جماهيرا لك... فلهم عليك حقّ الشكر والاعتراف بالجميل وتقدير إسلامهم...

{قُل}، أيها الرسول(ع) وأيها المؤمن لهذه النوعية من الناس، قل لهم: {لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم}. فأنا لم يصلني أي شيء شخصي من إسلامكم، فلا منفعة شخصية لي، فأنا لست رئيس حزب سياسي، ولا زعيم سياسي حتى أشكركم على الانضمام لي...

{بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ}، حيث صيّركم على الشيء الصحيح الذي يوصلكم لغاية صحيحة وهو الإيمان أي الاعتقاد بالحقّ وإعلان الالتزام به... وهذه منّةٌ فصار يجب عليكم أنتم أن تشكروه تعالى على هذه النعمة لأنكم ماذا ستكونون لولاها؟ ستكونون مؤمنين بالباطل والكذب من اختراع آلهة وصفات وهمية لها... وستكونون معلنين تفلتكم من الحقّ والصلاح... ولولاها كنتم ستتعذبون في جهنّم على سوء عقيدتكم وأعمالكم، فالمنّ له تعالى عليكم لأنه هداكم، {إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، أي إن كنتم فعلاً وحقاً مؤمنين ولا تكذبون في ذلك، فإن كنتم فعلاً تريدون الحقّ والصلاح فيجب عليكم شكره تعالى إذ هداكم.

في نفس النقطة التي تمنّون بها على الرسول(ع) إسلامكم، هي نفسها النقطة التي يمنّ الله تعالى بها، فيجب أنتم أن تشعروا بالمنّة الإلهية عليكم إن كنتم فعلاً مؤمنين، فيجب أن تشكروه تعالى على ذلك.

لاحظ تعامل الناس مع هكذا مواضيع من نظرة الانتماء للجماعة، فأنا أسلمت فأنا دعمت هذه الجماعة بصوتي أو بمالي أو بحضوري أو بقوّتي... وصار لي عليهم منّة، وهذا صحيح عندما تتعامل مع البشر وليس مع دينه تعالى، فأنت أسلمت يعني أنك طالب للحقّ والصلاح وانتميت للجماعة التي تؤمّن لك ذلك، فعلى ماذا ستمنّن هذه الجماعة؟ وهل ستمنّنه تعالى على انتمائك لدينه؟ وهل ستمنن البشرية وكل الدنيا لأنك صرت راغباً بالحقّ والصلاح؟

(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ{18})
{إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، ما غاب عن المخلوقات في كل الحدود التي فيها المخلوقات في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وهو سبحانه يعلمه، {وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}، حيث إنّ صورة أعمالهم يدركها تعالى ويعي معناها، لأنه سبحانه ليس مثل الكاميرا التي تسجّل الصوت والصورة ولكنها لا تفهم أي شيء مما تراه.

تَذَكَّرْ دَائِماً أن التعبير القرآني بـ "السماوات والأرض" يعني كلّ شيء، لأنه سبحانه لم يخلق إلّا السماوات والأرض بحسب ما نقرأ في قرآنه، ولا يوجد شيء غيره تعالى وغير السماوات والأرض، لأنّ هذا كل ما هو موجود، الله تعالى، والسماوات والأرض. كوننا الهائل نحن هو مجرد سماء من سبع سماوات كلها تحت سيطرته ومراقبته التامة سبحانه وتعالى، حيث إنّه سبحانه يعلم بكل شيء جرى ويجري وسيجري فيه، والكلام مع الذي قال عن نفسه إنه آمن، فها السلوكيات التي يأمر بها سبحانه واضحة في هذه السورة كنموذج فليلتزم بها، فإن كان إيمانه صحيحاً فسبحانه يعلمه، وإن كان كذباً غائباً كذبه عن الآخرين فسبحانه يعلمه.

بِتَذَكُّرِ مجمل ما ورد في السورة من تنبيهات سلوكية لنا، ترى بوضوح أن آخر جملة تشير لكوننا تحت مراقبة الذي لا يخفى عليه ولا أي شيء.

سورة ق (50) ص 518
تتحدث السورة عن الذين لا يؤمنون بإمكانية رجوعنا إلى الحياة مرة ثانية "بجسد"، ثم تعطينا الأدلة على رجوعنا إلى الحياة مشيرة إلى نماذج مما حولنا والدالة على عظيم قدرة من خلقنا... ثم تحدثنا عما بعد رجوع الكفار إلى الحياة وكيف تجري محاسبتهم وكيف هي نهايتهم، ثم تحدثنا عن ثواب المؤمنين بالآخرة.

الكفر بالآخرة لن يغيّر مما سيحصل في الآخرة...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ{1})
هذا حرفٌ نتهجّاه هكذا: قاف..
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوَّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوِّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف

آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

نرجع للآية، {وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ}، تأكيداً بالشيء الذي يمكنكم قراءته والذي فيه أعلى الصفات الحسنة، لأنّ المجد هو النهاية وأحسن وأكمل ما تتوقّعه من صفات حسنة في كتاب هداية والقرآن موصوف بها.

تعلم أن كلمة قرآن تعني: الشيء الذي يمكن قراءته. والإشارة هنا بكلمة قرآن هي إلى الوحي الذي نزل على الرسول محمد(ع) والذي نزل من كتاب إلهي أساسي، وتحوّل إلى اللغة العربية، وصار بإمكاننا قراءته، لذا فالآية الواحدة قرآن والسورة قرآن وكل ما نزل هو قرآن.

من افتتاحية السورة وبقيتها ستنتبه أنّ الرسول محمّد(ع) هو مجرّد ناقل للقرآن، للكلام الإلهي الذي يمكننا قراءته، {وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ}، إذ يُوصَفُ محتوى هذا الكلام بأنه النهاية في الحسن فهو حسن بشكل عظيم، لذا ما ورد وسيرد في القرآن لن يكون كذبا ولا مبالغة... بل صحيح أكيد وسليم وخال من الشوائب والسوء.

بالنسبة للموضوع الذي تمحورت حوله السورة، فإنّ الرسول منذر للناس عبر هذا "القرآن المجيد" عن رجوعهم إلى الحياة بعد الموت لمحاسبتهم.

تذكّر أن القسم نوع من التأكيد، وهنا الواو قبل كلمة قرآن هي واو التأكيد، والذي ستذكره السورة فيما سيلي مؤكّد صحّته لأن القرآن مجيد.

(بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ{2})
في مقابل قرآن مجيد فيه معلومات منه سبحانه فبدل أن يؤمن كلّ الناس به: {بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ}، كان تقييمهم أنه شيء غير متوقّع أن يأتيهم إنسان منهم ينقل لهم خبراً عن خطر أكيد سيصيبهم بسبب توافر شروط حصوله فيهم، حيث بسبب كفرهم سينالون العقاب.

{فَقَالَ الْكَافِرُونَ}، المنكرون لهذا الدين الإلهي: {هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ}، هذا شيء مخالف للتوقعات وما هو مفروض، فهذا شيء غير عادي. فلنتابع ونرى من بقية الآيات مما تَعَجَّبُوا، ولكن قبل ذلك تذكّر أن السورة أكّدت على شيء ما حين قالت {وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ}، وهنا كما ترى عرضت الآية ما يؤكده القرآن وهم ينفونه، حيث لم تذكر السورة ما تريد تأكيده بصراحة، وذكرت ما نفوه هم، لأنّ الذي نفوه ولم يتوقّعوه: رسول منهم، منذر من حياة بعد الموت وحساب وعقاب على السوء. وبالعكس فيؤكّد القرآن المجيد أن هذه الأمور ستحصل.

(أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ{3})
تقييمنا للكلام التالي أنه "عجيب" مخالف لتوقعاتنا وغير عادي: {أَإِذَا مِتْنَا}، إذا فارقنا الحياة، {وَكُنَّا تُرَابًا}، تحلّل لحمنا وعظمنا وصار ترابا، {ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}، من بعد تحلّلنا لتراب يكون رجوعنا إلى الحياة بعد الموت بعيد فلن يحصل، فاحتمال حصوله بعيد جدا جدا.

كما تعلم فإنّ الكفّار بهذا الدين هم أنواع مختلفة، حيث البعض منهم يؤمن بالتناسخ حيث يقولون أن من يموت تتلبّس روحه في كائن آخر في إنسان أو حيوان... وآخرون يؤمنون بخلود الأرواح في عالم خاصّ بها... وغيرهم يؤمن بالفناء التام بعد الموت... هنا السورة تتحدّث مع منكري إعادة الحياة لنا بجسد، ومنكري محاسبتنا ومجازاتنا بعد إعادة الحياة لنا، وهذا هو موضوع السورة الأساسي، وعموم القرآن لم يتطرّق لتفاصيل العقائد غير الصحيحة حول الموت، بل شملها كلّها بعناوين عامّة تجمعها، فهنا تتحدّث السورة مع من يؤمن بالروح والنفس والجوهر والهيولى... ومع من لا يؤمن بهم، لأنّ التركيز هنا على الذي ينكر عودتنا إلى الحياة بـ "جسد مادي" مع الحساب والجزاء على السوء، وضمنياً تردّ السورة على شريحة واسعة من مختلف العقائد غير الصحيحة سواء أكان مشركاً، أو ملحداً يؤمن بالصدفة أو الطبيعة أنها خلقتنا... أو عابد أصنام أو عابد كواكب، أو علمانياً من الذين يؤمنون بالإله ولكن لا يؤمنون بالآخرة...، حيث تردّ عليهم فقط بخصوص موضوع الحياة بجسد مرّة ثانية بعد الموت.

ننتبه ونضع في بالنا دائماً أن القرآن يقول أنك أنت "أنت" سترجع إلى الحياة، لا نسخة عنك ولا شبيه لك، فأنت نفسك سترجع، وبجسد جديد تكوينه مختلف عن الجسد الحالي، لأنه سيكون خالداً لا يفنى، والأحاسيس فيه مضاعفة جدا عمّا نحن عليه الآن، حيث إنّ الشعور بالألم يكون شديداً "فظيعاً" جداً من أقل لمسة، والشعور بالسعادة والراحة رائع جدا من أقل شربة ماء أو لمسة... وهذا ما نفهمه من عموم القرآن، فضعه في بالك حينما تقرأ ما يقولونه من أبحاث فلسفية وكلامية وصوفية وعرفانية... فغالبيته كلام باصطلاحات خاصة بهم وفارغة لا تشير لمعاني صحيحة دقيقة متماشية

مع القرآن عندما ينفون اللذة والألم الجسدي ويستبدلونه باللذة أو الألم الروحي على أساس أنه لا أجساد ملموسة لنا في الآخرة، حيث صرّح بعضهم أن تعابير القرآن عن جسد نرجع فيه إلى الحياة هي تعابير تقريبية ليفهمها الساذجون والبسطاء، وأمّا الكاملون في الإيمان فيعلمون أنه لا جسد لنا في الآخرة! وسنعيش هناك بروحنا، فلا نار تحرق الجلد... ولا طعام يبلعه ويلتذ به أهل الجنّة... بل يسعد المؤمنون بالنظر إلى جماله سبحانه وتعالى!

أطلت عليك لأن كلامهم تغريري يجلب إليهم المحبين للتميّز عن الآخرين بكونهم أعلى إيمانا وأكمل من الآخرين، وكما ترى فهم الأقل إيمانا لأنهم يخالفون القرآن الذي صرّح مرارا وتكرارا أنه مبين، وظاهر كلامه يؤكّد أننا سنرجع بجسد إلى الآخرة، وهم يؤكّدون أن ظاهر كلام القرآن يشير فعلاً لهذا المعنى، ولكنهم يخترعون باطناً لكلامه على أساس أنه سرّ وفهمه خاص بهم، وبذلك يكون عندهم للقرآن وجهين، وجهه الظاهر البسيط الذي نفهمه من الكلام العادي وهو للساذجين البسطاء وهو غير صحيح، ووجه باطني معانيه مختلفة عن الظاهر وهو للكاملين إيمانا وهو الصحيح، فما رأيك بهذه الترهات؟

مجمل كلام سورتنا هذه "مع وعن" المنكرين للبعث الجسماني، وما ورد فيها ككلام مباشر "مع" المؤمنين قليل، وفي تفاسيرهم الباطنية يصير لكلام السورة من أوّله لآخره معان لا يفهم حقيقة معناها غير المؤمنين من درجتهم العالية "كما يدّعون"، فكيف تتوجّه السورة بكلامها "مع" الكافرين وهم لن يفهموا حقيقة ما تقصده! وكيف سيهديهم تعالى بكلام ظاهره غير صحيح! لأنّ الكلام عن الحياة والموت والجسد والمطر... كلّه وبحسب المدّعين للكمال إيمانا كلّه تعابير مجازية واستعارة وكناية... لمعاني أخرى لا تظهر لعامّة الناس! فما معنى هذا! فإن لم يكن هذا هو التفسير بالرأي، وإن لم يكن هذا تضييعاً للكتاب الإلهي، وإن لم يكن هذا تحريف الكلام عن موضعه... فماذا هو؟

بقي شيء نطرحه كعذر لبعض ما قاله المتصوّفون، فعلى ما يبدو تأسّس كلامهم على شيء له معنى، ومن بعدها انجرف إلى حيث لا معنى له، حيث إنّ اليد كعضو مادي من لحم وعظم ودم لا تشعر بالألم، فلو قطعتها عن الجسد لن يبقى أي معنى لإحراقها لتتألّم، ففقط إن كانت موصولة ببقية جسدنا يصير للألم معنى، وهكذا نفهم أن كل بقية جسدنا لا معنى للألم له لولا اتصاله بشيء ما، وهكذا وصل الفلاسفة من مختلف الملل قديما قبل الإسلام بكثير، إلى افتراض نفس أو روح أو جوهر أو هيولى أو... وقالوا أنها ليست من المادة، وهي ذاتنا التي تشعر بالألم.

لا نعارض ولا نوافق هذه الافتراضات، فهذه الأبواب البحثية مفتوحة على مصراعيها لأي كان سيتخصص ويبحث فيها ويختبرها ويفترض... مثلها مثل البحث عن آلية موتنا وعودتنا إلى الحياة، وقبلها فهي مثل البحث عن آلية نشأة الحياة على الأرض...

حديثا لدينا افتراضات أقوى من تلك الافتراضات، فلدينا تفسيرات بيولوجية من أساس بيوكيميائي وبيوفيزيائي لتفسير انتقال الشعور من الأعضاء عبر الأعصاب إلى الدماغ "الواعي"...

على أي حال، لا يحق لأي أحد طرح نظرية وإلصاقها بالدين الإلهي والقرآن رافضاً لأي فرضية أخرى، لأنّ هذا الكتاب الإلهي أشار لأمور يفهمها أي إنسان عادي متوسّط الثقافة العامّة، ولم يدخل في تفاصيل معقدّة للكلام عن آليات حدوث الأمور والأشياء، فلم يطرح قوانينا فيزيائية أو كيميائية أو بيولوجية أو فلكية... بل أشار للظواهر التي يفهمها أي إنسان عادي، وأشار لبعض مراحل نشأة الدنيا، ولبعض مراحل نشأة الحياة... وكل ذلك للفت الانتباه لنماذج من أفعاله تعالى التي منها نتعرّف عليه سبحانه، وانتبه جيدا: لم يذكر القرآن آليات حدوث الأشياء.

نحن نبحث عن كيفية حدوثها لنتعرّف على طريقة فعله تعالى للأشياء، وبالقليل جدا الممنوح لنا من قدرات، نتعرّف على روائع ترابط الأمور حتى جرت متسلسلة وصولا إلى الحال التي نحن عليها، فلدينا فرضيات عن نشأة الكون من بذرة... صارت أوليات المادة... صارت مركّبات... فصارت كواكب ونجوم ومجرات... فصارت الأرض وصار عليها حياة...

أطلت عليك حتى تفهم أن هجومنا على ما قاله الفلاسفة والعرفاء والمتصوّفون... لم يكن هجوماً مانعاً لهم من البحث عن شؤون الدنيا وظواهرها وكائناتها... بل كان هجوماً مانعاً لهم من إلصاق ما قالوه بالدين الإلهي، فهذا هو الخطأ، فليكن ما قالوه بذرة نتقدّم من بعدها إلى مزيد من البحث والتعمّق، وحتى لو وصلنا إلى نتيجة مخالفة لما قالوه، فكلامهم

ليس مقدساً، ولا كلامي مقدس، ولا أي كلام مقدّس إلا كلامه تعالى، وها دراستنا أمامك لترى أن الآيات التي استشهد بها الفلاسفة المسلمون والعرفاء والمتصوّفون، لا تدل حصرا على ما قالوه بل غالبا تجد تعارضا قرآنيا مع أقوالهم، ومن ذلك صريح كلام القرآن عن جسد لنا في الآخرة، وإنكار بعضهم لذلك وتأويله بغير ظاهر معناه ليتلاءم مع النتيجة التي افترضوها...

(قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ{4})
لماذا تتعجبون من قدرة الإله على إرجاعكم إلى الحياة!

{قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ}، فهم يعيشون على هذه الأرض، وعندما يموتون يَنْقُصُ عدد الأحياء، ويتحولون لتراب فتأخذهم الأرض، فهي التي أخذت ما نقص منهم لأنهم تحوّلوا لتراب، فسبحانه يعلمه، لأنهم لا يتحولون إلى تراب وبعدها يجهل سبحانه ما جرى معهم، لا.

{وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ}، حيث يتم تسجيل وتخزين كافة المعلومات بحيث لا تضيع ولا يصيبها الخراب، لأنّ اندماجكم بعد موتكم بالأرض لا يعني غيابكم عنه تعالى واختفاءكم، إذ لديه تعالى كتاب مسجّل فيه كلّ شيء ولا يغيب عنه أي شيء، لأنّ طبيعة هذا الكتاب أنه حفيظ ويحفظ المعلومات ويرعاها ويعتني بها فلا تخرب ولا يحصل فيها أي خطأ في التسجيل ولا يصيبها التلف فيما بعد.

بعبارة ثانية، حتى لو تحولنا إلى تراب، وتناثر تراب رفاتنا وتوزّع على وجه الأرض... وامتصّه النبات وفكّكته البكتيريا وانسحق بالضغط والحرارة... فأنتم ترون أنكم بهذه الطريقة اختفيتم ومن المستحيل إعادتكم، ولكن الله سبحانه يعلم بالتفصيل الدقيق أين تذهب كل ذرة من جسمنا حين نموت، وهذا مسجل في كتاب بطريقة لا يصيبها الخراب.

ننتبه، نَفْتَرِضُ أنه سبحانه سيستعمل حبة أو حبات خاصّة من رفات الأموات ليعيد كل شخص إلى الحياة مرة ثانية، على أساس استخراج "الدنا: DNA " من رماد الميت أو شعره أو أسنانه... أو من حبّة تراب، وهذه الفكرة تجعلك تفهم بالتقريب ما تقوله الآية هنا ولكنه ليس صريحاً منها، فلنقل إنّ حبّة تراب واحدة من رماد الجسد المتحلّل ستكون كافية لإعادة صاحبها الأصلي إلى الحياة، فلنقل للتقريب إنّ هذه الحبة فيها الدنا، ولكن انتبه، لأنّ هذا كلام للتقريب فقط، نحن لا ندري بالتفصيل "آلية" رجوعنا إلى الحياة من التراب، وسترى من بقية الآيات تشبيها لهذه العودة كرجوع النبات إلى الحياة، ونحن نعلم أن النباتات ترجع من بذرة أو فَسْخَةٍ من بدنها... إذا لامست رطوبة الماء... مما يشير إلى وجود إمكانية إعادتنا نحن من بذرة في تراب رفاتنا "دنا"، ويشير أيضاً للعمومية لخروج النبات من الطين وخروجنا نحن من الطين.

الكلام عن الدنا والبذرة نفهمه بناءً على معلوماتنا الحالية من البيولوجيا، ولكن في عمق تكويننا إنّ جسدنا مجرد ماء وبعض المعادن، وإذا أعاد تعالى تركيب بذرة كلّ واحد منّا ونمت تلك البذرة فسنرجع إلى الحياة، وبدون البذرة إذا أعاد تعالى نفس ترتيب مكونات "ذرات" كلّ واحد منّا من المواد، أيضاً سنرجع إلى الحياة، وهذا ما يخطر ببالنا الآن استناداً لمعلوماتنا، ولكنها افتراضات لا أكثر ولا أقل، لأن الأرض والسماوات الآن هي غير الأرض والسماوات في الآخرة، لأنّ البيئة مختلفة هناك، ولأن معلوماتنا البيولوجية الآن ستكون مضحكة لمن سيأتي بعد ألف سنة، لذا لا يحقّ لنا تفسير القرآن بناء على معلومات نعلم أنها مؤقتة وستتغيّر، ويحق لنا تفسير القرآن فقط وفقط بحسب المعنى الدقيق للكلمات، وكما ترى، فإنّ الآيات لا تتحدّث عن تفاصيل إعادة الخلق، ولم تتحدّث عن آلية وكيفية إعادة الخلق، بل عن عموميات خلقنا من طين وإعادة خلقنا من مواد... ولو ذكرت السورة التفاصيل فربما لن نفهم أي شيء، لا الآن ونحن في قمّة تطوّر العلوم، ولا في المستقبل حين ستتطوّر علومنا بشكل هائل عمّا هي عليه الآن، ولا فيما بعد المستقبل حين تتطّور العلوم عمّا سبقها أيضاً بشكل هائل... لأننا مهما تطوّرت علومنا فسنبقى بعقلنا الصغير محدودين جداً جداً أمام علم وقدرة الإله سبحانه وتعالى، وإذا حصلت لدينا مقاربة لآلية ما لإعادة الخلق، فهناك وكما يبدو آليات متعددة متنوعة لفعل ذلك، وسيبقى مستوانا محدوداً لفهم كيفية فعله تعالى للأشياء.

ننتبه ونضع في بالنا دائماً أنّ القرآن وفي كلّ المواضيع التي تناولها لم يذكر "آليات" حدوث الأشياء، واكتفى بذكر المراحل، وخذ مثلاً خلقتنا من تراب من سلالة من طين، من نطفة فعلقة... وخذ مثلاً الريح والسحاب ونزول الماء

وخروج النبات... وخذ مثلاً ركوب السفن والأنعام... وخلق السماوات والأرض في ستة أيام وتقدير الأقوات في أربعة أيام كما ذكرت الآية 10 من سورة فصلت {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ...}، لأنّ كلّ الكلام عن مراحل وليس عن آليات حدوث.

قديماً كانت الثقافة الدينية المنتشرة أنّ كل شيء ستجد جوابه عند الدين، ولا يزال الكثيرون يقولون إنّ القرآن فيه الجواب عن كلّ شيء، عن الفلك والطب والفيزياء... لذا انتبه وضع في بالك أنّ الدين فيه ما يتعلق بالدين فقط، بالعقيدة والشريعة والسلوكيات والآيات الدالة عليه تعالى وعلى توحيده وعلى قدراته وصفاته الحسنى... لأنّ الجواب عن آلية نشأة الحياة البشرية ليس من اختصاص القرآن، والجواب عن آلية عودتنا إلى الحياة أيضاً ليس من اختصاص القرآن، لذا يمكنك البحث عن الأجوبة في المختبرات والأبحاث، ولن يكون هناك أي تعارض بين ما يمكن أن تصل إليه وبين القرآن الذي لم يطرح إلا الأمور التي تفهمها وتراها ببساطة ولن تناقش في صحّتها.

آيتنا هنا خبر ممن خلق كل شيء بضخامة وتفاصيل هائلة، لذا بسهولة ستؤمن أنّه تعالى يعلم كلّ شيء، وبسهولة تؤمن أنه صادق في كلامه المستند على صفات وقدرات فائقة ترى أثرها فيما خلقه تعالى، بسهولة بسهولة... إن كان القلب سليماً، إن كان الفكر والنفسية سليمةً.

بعد هذا المطوّل، لا مانع دينيٌّ ولا قرآنيٌّ من البحث عن آلية كيفية رجوعنا إلى الحياة، ولا مانع من محاولة إعادة حيوان إلى الحياة، ولو نجحنا في ذلك فسيكون شيئاً رائعاً وتأكيداً إضافياً على صحّة كلامه تعالى أنه سيعيدنا إلى الحياة، حيث حصل ذلك فعلاً على أيدي البشر كما ورد في الآية 73 من سورة البقرة {فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، وحصل على يدي النبي عيسى(ع) كما ورد في الآية 49 من سورة آل عمران {... وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ...}، وغيرها من النماذج كرجوع الحياة إلى الطيور من نداء النبي إبراهيم(ع) كما ورد في الآية 260 من سورة البقرة {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}، وغيرها...

بقي شيء، حيث إنّ هناك كلاماً منتشراً في القرآن عن كتاب "سماوي" فيه كلّ شيء، ووصفته الآية هنا بأنه حفيظ، لذا لا تفلت منه المعلومات ولا تنقص ولا تتشوّه، ووصفته سور أخرى بأنه مبين واضح لا التباس ولا خلط في معلوماته، وغالب السور أشارت إليه كمصدر نزل منه هذا القرآن، ونشتقّ من ذلك أنّ بقية الكتب الإلهية نزلت منه أيضاً... وفي سور عديدة نجد الإشارة إليه ككتاب فيه ما سيحدث بالتفصيل الدقيق من الدنيا إلى الآخرة، إذ إنّ كل نَفَسٍ نأخذه من الهواء مسجّل فيه، وكلّ ذرة مسجلة فيه كما تفهم من الآية 59 من سورة الأنعام {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}، لذا لا تحاول تصوّره ككتاب ضخم، ولا مثل حاسوب "كمبيوتر" أو كذاكرة رقمية... ولا تحاول تصوّره أصلاً، لأنه لا إمكانية لدينا لنتصوره الآن، وفي الآخرة سنرى كيف سيكون لأن أعمالنا مسجّلة فيه وسنراها نحن بأنفسنا.

إلى هنا قالت الآيات بأننا سنرجع إلى الحياة، وهذا كلام حقٌّ وصدقٌ ولكن:

(بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ{5})
{بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ}، أيِ الصواب الصحيح قالوا إنّه كذب ليس بصحيح، {لَمَّا جَاءَهُمْ}، عندما نقل الرسول إليهم قرآناً صادقاً منه تعالى ينذرهم من رجعة إلى الحياة فيها حساب وعقاب، وهذا حقٌّ صوابٌ صحيحٌ، فقالوا إنّه كذب.

{فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ}، فهذه الأمور حول الرسول والقرآن والبعث... تفكيرهم مختلط وغير صافٍ فيها، فهم ضائعون فكرياً في هذا الأمر.

القرآن يطرح علينا التصميم والتخطيط الإلهي لهذه الخليقة، لأنه خلقها ليبتليها وسيميتها ثم يحييها ويجازيها، وهم ماذا عندهم؟ لأنهم ليسوا ثابتين على رأي، فأفكارهم مشوّشة وليس فيها جواب واحد صريح صحيح عن سبب وجودنا وعن مصيرنا.

تذكّر افتتاحية السورة عن تأكيدها بالقرآن عن أشياء نفاها هؤلاء، وهنا الآية تكملة ما يؤكده القرآن وما ينفونه وهو البعث، لأنّ آيتنا هذه بتصنيف قواعد الإعراب هي "جواب التأكيد".

سترشدنا الآيات التالية إلى الجواب عن تعجبهم بطريقتين، أولا: ستلفت نظرنا إلى قدرته العظيمة سبحانه، مما يعنى أنه إذا قال بأننا سنعود إلى الحياة، فهو تعالى يستطيع فعل ذلك. وثانيا: ستلفت نظرنا إلى سهولة خلقه سبحانه للكائنات، حيث إنّ الدنيا التي خلقها ونحن فيها ونراها أمامنا، والنبات والحيوان وغيره... خلقهم يحصل كل يوم، وبالتالي كيف يكون صعباً عليه سبحانه خلقنا مرة ثانية؟ وثالثا ستلفت انتباهنا لخلق النبات وخروجه من الأرض، لأننا سنخرج مثله بشكل مشابه... فلنتابع:

(أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ{6})
تبدأ الآيات بلفت نظرنا إلى هذا الكون الهائل المساحة الذي يدل على القدرة العظيمة لخالقه، وبالتالي فإنّ صاحب هذه القدرة العظيمة يمكنه إعادة خلقنا مرّة ثانية: {أَفَلَمْ يَنظُرُوا}، ألم يحصل معهم أن وجّهوا اهتمامهم العام من قبل، كما نقول بالعامية: ما شافوا، ما التفتوا. {إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ}، التي يرونها في الليل مليئة بالنجوم، لأنّ كلمة سماء نقولها لعموم ما علا معنوياً أو من فضاء وغيره ويقابلها أرض لعموم ما هو تحت فضاء، لأنّ كوكب الأرض أرض وسطح القمر أيضاً أرض لسمائنا... "ما شافوا" {كَيْفَ بَنَيْنَاهَا}، أي بأي قدرة جمّع راكم المواد "عناصر وطاقة وظواهر..." حتى تشكّلت النجوم وكان بينها مسافات، وما التفتوا، {وَزَيَّنَّاهَا}، أي بأي قدرة جعلها تعالى حسنة وجميلة وبديعة المنظر بالكواكب والنجوم... {وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ}، إذ بالرغم من كبرها وضخامتها فليس لها من فروج فلا يوجد "فرج" فتحة أو فتحات ينبثق منها شيء آخر، لأنها كلّها نوع واحد ولا يوجد فيها مساحة يخرج منها شيء آخر.

لست بحاجة لتلسكوبات ومعلومات عن علم الفلك حتى تفهم هذه الآية، لأنّ أي شخص عادي ينظر إلى السماء سيراها كلّها مليئة بالنجوم، ومن الآية 9 من سورة المرسلات {وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ} علمنا أنه حين تتبدّل السماوات والأرض قبل يوم القيامة فالسماء ستنفرج، وهي سبع سماوات، وتتبدّل وصولاً إلى حالة سماء واحدة. لذا تفهم من فحوى الكلام أن السماء التي فوقنا حاليا ليس لها فروج تظهر منها السماء التي فوقها، ولكن لها أقطار فيمكن تخطي سماءنا للانتقال للسماء التي تليها كما ورد في الآية 33 من سورة الرحمن {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا...}.

ننتبه جيداً، لأنّ ما اعتدنا عليه من حولنا لا يقلّل من قيمته، حيث إننا ولدنا والسماء فوقنا مليئة بالنجوم، والقرآن يسألني عن هذه الضخامة الهائلة والوساعة التي لا يستوعبها نظري، فمن سبّبها حتى صارت؟ فمن خلقها هكذا؟ ولماذا جعلها ضخمة هكذا؟

الجواب: الله تعالى خلقها وجعلها ضخمة لتنتبه بسهولة إلى عظمة قدرته، لأنه كان بإمكانه تعالى أن يخلقنا ويخلق البيئة التي حولنا بطريقة أخرى، فيضعنا مثلاً في مرطبان صغير بحجم المجموعة الشمسية ولا حاجة لبقية الدنيا الواسعة، ولكن هذا الكون الذي نراه كبيراً هائلاً هو مجرد نقطة بالنسبة له تعالى، ومن بعده يوجد ست سماوات أضخم وأعظم بكثير من هذا الكون كما هو مشهور، وكل هذه الضخامة "وكما نفهم من القرآن" وهذه النقاط البيضاء فيها التي تجعلها تبدو جميلة، موجودةٌ حتى ننتبه لعظيم قدرة الإله الخالق.

كل ما يقولونه عن الصدفة وقوانين الطبيعة الخلّاقة وحتمية وجودنا بسبب طبيعة الطاقة... هو كلام فارغ، لأنّه سبحانه قد ربط الأمور ببعضها حتى صرنا نرى تشكّل هذا الكون حتمياً بسبب مواصفات المادة والطاقة "بحسب تعبيراتنا العلمية الحالية"، هذا من جانب، ومن جانب آخر فما معنى الصدفة؟! فما معنى أن كلّ شيء حصل لوحده بلا إله خالق؟! إذ هناك أساس لتركّب كلّ شيء، ولو نقطة، ولو بذرة طاقة، ونحن الآن لا يوجد لدينا معطيات حول مصدر هذه البذرة التي نفترض تشكّل الكون منها، ولو صار لدينا معطيات حول نشأتها فهذا لا يعني أي شيء، فهي بذرة موجودة، فكيف وُجِدَت؟ ومن صمّمها؟

ها نحن نعلم من كتاب الإله أنه هو سبحانه قد صمّم هذا الكون ليكون متراتباً متسلسلاً في ظهوره على ست مراحل كما تقرأ في الآية 54 من سورة الأعراف {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ...}، سواء بدأ من بذرة

خلقها تعالى من لا شيء أو انبثقت من شيء أو انخلق كوننا من شيء آخر... حيث سبحانه أخبرنا أن السماوات والأرض مترابطة في تسلسل نشأتها حتى وصلت لما هي عليه الآن، والأهمّ من ذلك، أنه تعالى يخبرنا عبر هذا القرآن المجيد أن سلسلة الأحداث لم تتوقف، لأنّ هناك نشأة أخرى لكل السماوات والأرض وهي متّصلة مترابطة مع هذه النشأة التي نحن فيها الآن، فهناك نشأة الحياة الآخرة...

(وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ{7})
... {أَفَلَمْ يَنظُرُوا} "ما شافوا ما التفتوا إلى"، {وَالْأَرْضَ}، التي يعيشون عليها، {مَدَدْنَاهَا}، مدَّ سبحانه سطحها فجعل لها سطحاً ممتداً، كما تقول مثلاً: الحاكم المغولي هولاكو بسط سيطرته على امتداد الأرض. وهذا لا يعني ولا بأي شكل أن الأرض مسطّحة، بل يعني أنه سيطر على الأرض، فتعبير مدّ الأرض هنا لا يعني أنها ممتدة مسطّحة، وبعد قليل سنتكلم عن كروية الأرض.

{وَأَلْقَيْنَا فِيهَا}، أي فعل سبحانه شيئاً وصار في الأرض، {رَوَاسِيَ}، أشياء مستقرة ولكنها غير مُثَبَّتَةٍ، فهي واقفة في مكانها ولكنها ليست مثبتة لأنها قابلة للحركة، فهي مثل السفينة على الماء، لأنّ السفينة راسية، فهي واقفة في الماء ولكنها غير مُثَبَّتَةٍ ويمكنها التحرك، ووجه الأرض والجبال كذلك واقفة ولكن يمكنها التحرّك، وهذا المعنى الدقيق لكلمة "رسو" الذي تكرر وجاء وصفا صريحاً للجبال في الآية 32 من سورة النازعات {وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا}.

وصف وجه الأرض والجبال بالراسيات معلوم عند الناس بناء على ما يرونه من أثر للزلازل من تحريك لسطح الأرض ولجبالها... ولا حاجة للتعمّق في الحركة التكتونية لصفائح الأرض لشرح الآية، لأنها لم تقصد هذا العمق واكتفت بما يختبره الناس من آثار الزلازل التي تحرّك وجه الأرض وتغيّر معالمها، بل وأحيانا تنقل الجبال من مكانها وتصنع الوديان...

بالنسبة للتعبير بالإلقاء، فنفهمه على أساس أن كل ما يحصل فبأمر منه تعالى، فإخراج الأشياء لتصير، يحصل بأمر منه تعالى، كحالة إخراجها من خزائن، وهذا ما نستفيده من عموم استعمال القرآن لتنزيل أو جعل أو خلق أو فطر أو بناء... الأشياء والظواهر، وتراه في مختلف التعابير القرآنية وكمثال عنها ما ورد في الآية 21 من سورة الحجر {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ}، لأنّ الإلقاء تعبير عن عموم ترك الممسوك ليصير عند من يستقبله، وهكذا نفهم هنا أن الكلام عن أساس قراره تعالى بتكوّن الأرض، فبغض النظر عن طول المدّة التي تشكّلت فيها السماوات وكوننا والأرض، فهو إلقاء منه تعالى للجبال على الأرض. ولدينا تعابير مشابهة سأذكرها لك حتى لا يعلق ذهننا على تصوّر كتلة صخرية رماها تعالى على سطح الأرض، لأنّ هذا تصوّر غير صحيح، فخذ مثلاً قولنا: ألقى الصباح بنوره علينا. أو تعبير: ألقى العشب الأخضر جمالاً على المشهد... ألقى خطاباً على الناس... وهكذا ترى أن الإلقاء أشمل من رمي كتلة أو حجرة...

{وَأَنبَتْنَا فِيهَا}، نمّا وكبّر تعالى في الأرض، {مِن كُلِّ زَوْجٍ}، من كل أنواع وأصناف، وهنا المقصود أنواع النبات، {بَهِيجٍ}، قد وصل لأقصى درجة نموه، فكبر وصار أخضرَ وعليه زهر وثمر...

الآية لا تتحدث مع علماء الجيولوجيا والأحياء، بل تتحدث معنا كلنا وتنبهنا للأرض التي نقف ونمشي عليها، ونزرعها ونبني البيوت عليها... فتلفت انتباهنا لما نلمسه ونعيش فيه، فهل من المعقول أنه هكذا وبدون تصميم صار؟! وبتعابير من عصرنا: من دون هندسة صار هكذا؟! فصارت الأرض والجبال وأصناف الحيوانات والنباتات الرائعة الألوان والمنظر والصوت والشكل... من دون أحد صمّمها وخلقها!

كلمة زوج نقولها لعموم أي شيء مادي أو معنوي له خاصية الاقتران بشيء أو الانتماء لصنف أو نوع، فهم أو هما أو هو مقترن مع آخر بالشبه أو بالنوع أو بالتلازم مع بعض... فهو زوج. وتقال للأنثى البشرية كزوجة بخاصية الاقتران بالذكر، كالاستعمال في الآية 39 من سورة القيامة {فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى} فليس القصد أنهما متزوجان من بعض بعقد نكاح، بل القصد أنهما من نفس النوع وبينهما تشابه وإمكانية اقتران... ومثله ما ورد في الآية 21 من سورة الروم {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا...}.

نقول زوج للنبات بخاصية تشاركهم لوحدهم في شيء ما والاختلاف عن الأزواج الأخرى في الشكل أو الثمر كما ورد في الآية 53 من سورة طه {... وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى}، وللإنسان بخاصية الانتماء لجماعة والاختلاف عن الآخرين في المال أو السلطة كما ورد في الآية 88 من سورة الحجر {لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ...} فالكلام ليس عن زوجات الكفّار بل عن أصناف من الكفّار.

تشير لعموم التنوّع في نفس الصنف كاختلاف أصناف التفّاح، وتشير للاختلاف بين الأنواع كاختلاف التفّاح عن الموز، وحتى أنها مستعملة في التشابه في شيء والاختلاف في شيء آخر معنوياً كما ورد في الآية 57 و 58 من سورة ص من حيث وصفت أصناف العذاب بالأزواج {هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ}، ومعنوياً في الآية 7 من سورة الواقعة {وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً}، فجماعة مؤمنين من الدرجة العالية وأخرى للمؤمنين من الدرجة الأقل وأخرى لبقية عموم من سيدخل النار.

تذكّر دائماً أن القرآن الكريم يخاطب شخصاً يعيش على الأرض، وعندما يصف له الأرض، فلا بد أن يصفها له كما يراها الواقف على الأرض، فهي ممدودة أمامه، فلا معنى لوصفها له من الفضاء ليقول القرآن بأنها كروية، فهذا ليس لفت انتباه للواقف على الأرض بل للواقف في السماء ينظر إلى الأرض، والقرآن وجّه كلامه للواقف على الأرض، فهل سيقول له: والأرض كَوَّرْنَاهَا، جعلناها كروية... ونحن الواقفون عليها لا نراها كذلك؟ فلو كان بإمكان الناس مشاهدة كروية الأرض حين نزول القرآن لكان سبحانه لفت انتباهنا لكرويتها، ولكن الناس يشاهدون مدّ الأرض، فلفت تعالى انتباههم لما يروه أنه من تصميمه وخلقه سبحانه.

تتذكّر من دراستنا هذه أن القرآن لا يطرح نظريات علمية، ولا دروسا علمية، بل يوجّه كلاماً عادياً لشخص عادي سيفهمه من الالتفات لما حوله وقد مرّ معنا في الآيات السابقة كلام مفصّل عن هذا الموضوع، وترى نفس المفهوم من أمثال الآية 38 من سورة يس {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}، فنحن الواقفون على الأرض نرى الشمس تجري من الشرق إلى الغرب بغض النظر عن دوران كوكبنا حول نفسه، فهذه الحركة آية إلهية أيضاً ولكنها تحتاج لدراسة حتى تلاحظها... بينما الواقف على الأرض يلاحظ جريان الشمس...

(تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ{8})
هذا العمل البديع الرائع، وهذه المشاهد التي يراها كل الناس:

{تَبْصِرَةً}، شيء يتيح لنا فهم ووعي الصورة الفكرية بشكل صحيح، لأنّ البصيرة هي رؤية الأمور وفهمها، والأمور التي ذكرتها الآيات السابقة ينتج عنها صورة فكرية وهي دليل يجعلنا نرى بوضوح أنه سبحانه بقدرته العظيمة صمّم وخلق هذا الكون، وسياق الكلام عن قدرته تعالى على صنعه مرة ثانية.

وهذه الأمور والمناظر، {وَذِكْرَىٰ}، فهي أمور نستحضرها فتجعلنا نستحضره تعالى في فكرنا كخالق عظيم، وبالخصوص أنه قادر على إحيائنا مرة ثانية، {لِكُلِّ عَبْدٍ}، لكل من مفروض منه الطاعة، والكلام عن المفروض منهم طاعة إلههم خالقهم، {مُّنِيبٍ}، فليس لديه أفكار وقرارات شاذة عن الحقّ والصواب، حيث حين يراه تعالى من خلال تصميمه وخلقه لدنيانا فهو يتماشى مع ذلك ويرجع إليه تعالى فيؤمن به ويوحده ويؤمن بقدراته الفائقة... فلا يعارض ما يراه.

إذن كلّنا عبيد له تعالى، وهذه المشاهد والأمور متاحة لنا كلّنا وأمامنا، ولكن المنيب تكون له هذه الأمور تبصرة وذكرى، وغير المنيب فلن يرى من خلالها إلهاً عظيم القدرة، فالمنيب من الإنابة وهي عامّة رجوع أي شيء لشيء آخر وترك ما كنت فيه، وهنا كما ترى وفي عموم القرآن استعملها كوصف لمن يضعه تعالى أول شيء في فكره حالما يرى أو يفكّر في أي شيء، لذلك ينيب فيرجع له تعالى في كلّ شيء، ولا يرجع لغرائزه وشهواته السيئة وخيالاته...

بعبارة أخرى، أنا عبد، أي أنا مفروض منّي طاعة إلهي، ومن المفروض أن أكون راجعاً في كل أموري له تعالى، وسبحانه تقصّد تصميم وخلق سماوات هائلة في الضخامة والتفاصيل حتى أراه سبحانه بسهولة، لذا من المفروض أن أنيب إليه تعالى ويكون ما في نفسي وحولي تبصرة تريني صفاته وقدراته الفائقة سبحانه، وذكرى لأستحضره تعالى في فكري بالحقّ وقولي وعملي بالصلاح.

(وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ{9})
{وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}، من فوقكم جعل سبحانه الماء ينزل وهو المطر، {مُّبَارَكًا}، فيه البركة، فيه الخير والنفع.

{فَأَنبَتْنَا بِهِ}، حيث جعلنا بماء السماء ينبت ينمو ويكبر، {جَنَّاتٍ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها، وهذا وصف يشمل الحقول والحدائق والبساتين، ونحن نقول بالعامية: جنينة، للحديقة الصغيرة كتصغير لكلمة جنّة. وأيضاً أنبت تعالى من ماء السماء، {وَحَبَّ الْحَصِيدِ}، لأنّ النبات الذي تحصده فتأخذه بأعداد كبيرة وله حبّ كحبة القمح وحبّة العدس والحمص والفول... نبت من المياه الحلوة التي نزلت مطراً.

ننتبه جيداً، لأنّ ساكني المدن البعيدين عن المناطق الزراعية لا يلتفتون عادة لأهمية المطر والزرع، فالخضروات في المحلات، ومياه الشرب من الحنفية "الصنبورة" أو في القناني... وهكذا لا ننتبه لأهمية كلام القرآن عن نزول الماء إلا حين يحصل جفاف...

نلاحظ أن كلمة "حبّة" نستعملها الآن تقريباً كمرادف لكلمة "واحدة"، فنقول "بتساهل": ناوليني حبتين من ذاك. ونشير بها للسجّاد أو الغسّالات... كبضاعة. ولكن معناها الأساسي ليس واسعاً لهذه الدرجة فهي لخصوص ما كان صغيراً منفرداً، كحبّة لؤلؤ وحبّة رمان... ومن سياق الكلام يتخصّص معناها إذا كانت تشير لحبوب النبات، وبالخصوص للكيان النباتي شبه الكروي الذي يتم أكله كما هو بلا غلاف عليه، كالقمح والشعير والفول... في مقابل البقوليات كالخسّ والبقدونس، ومقابل الخضراوات كالبندورة والخيار...

السورة في الآيات التالية ستلفت انتباهك للعديد من الأمور ومنها التنوّع في الحياة النباتية المتعلّقة بهطول الماء.

بقي شيء، لنفهم كلام الآية بسهولة، تصور نفسك أنت تقوم بتصميم مخلوقات وبيئة يعيشون فيها، وتصور لو أنك لم تر نماذج عن مخلوقات وبيئة من قبل... وفكّر في كمية التعقيد الذي تريده لتصميمك بكثرة التفاصيل وترابط كل شيء وتناسبه مع بعض ليعمل من تدخّل مباشر منك... وبوضع نفسك في هذا الموقف ستلاحظ كمية التفاصيل الهائلة التي من حولك، والقدرة الهائلة المطلوبة لتنفيذه، وعندها سترى نزول الماء حدثاً مبهراً رائعاً، فهي مياه حلوة تنزل من السماء لتروي المخلوقات على الأرض...

لو قرّرت خلق كائنات في بيئة، فكلّما علت صفاتك وقدراتك سينعكس ذلك على ما ستصمّمه وتخلقه، فستجعل الكائنات حيّة واعية مفكّرة... تأكل لتلتذّ بالطعم فتنمو وتتوالد... فهل ستنزل عليهم وجبات طعام جاهزة ليأكلوها أم ستجعل بيئتهم ينتج عنها الطعام؟ وهل من المعقول أن يكفروا بك لأنهم لم يروك شخصياً تنزل عليهم ماء الشرب والطعام ووجوده في بيئتهم؟ ما تقوله الآية هنا وعموم كلام القرآن عن المطر والرزق عموماً، يشير إلى هذا المعنى، فكل هذه التفاصيل الهائلة المترابطة المتوافقة... من حياتي بتنفسي... بشربي وأكلي ونموّي والتوالد... ونزول الماء الصالح لشربي له، وخروج النبات الصالح لأكلي له... وتغذّي جسدي منه... فهل كل هذا من دون تصميم مقصود!؟ لوحده! بالصدفة! من الطبيعة! من قوانين الفيزياء لوحدها بدون مصمّم لخصائص المادة والطاقة...! من لا شيء! أو من الاستخفاف والتجاهل بلا يهمّني الموضوع ولا أريد التفكير فيه ولا يعنيني فلا أريد الوصول إلى نتيجة وجود إله، وعندها أكون مجبوراً على التقيّد بأوامره! لذلك أتعامى وأتغابى وأرفض ما هو واضح حتى أبقى على هواي السيّئ! وسترى أن السورة تركّز بشدّة على المتعامي المتغابي، فقراره هذا لن يغيّر من حقيقة وجود آخرة وعقاب له على كفره.

بقي شيء، بسبب تفسير كلامه تعالى بناءً على المعطيات، نتجت ثقافة وفهم للأمور بشكل غير صحيح ومنسوبة لدينه تعالى، ومنها خلط كل ما علا معنوياً ومكانياً بكلمة سماء التي تشير لما هو فوقنا من قبّة النجوم، ولأختصر الكلام عليك ألفت انتباهك لأدبيات الكلام عن جنّة الآخرة أنها في السماء، ويقصدون أنها في السماء التي فوقنا والتي فيها النجوم! وأنت تعلم أن جنّة الآخرة تتشكل في الآخرة من بعدما تتبدل السماوات والأرض الحالية...

مثله في خطأ تفسير كلامه تعالى بناءً على معطيات كلامهم عن آدم(ع) كأول بشري، وكلامهم عن خلق زوجته... ومثله الكلام عن يوم القيامة موصولاً بحياتنا الدنيا، فيقولون بأن البشر يكونون أحياء ويشاهدون نهاية العالم وتبدّل السماوات والأرض... وقيامة الموتى... وأنت تعلم أنه حين تبدأ السماوات والأرض بالتبدّل فقد يكون في بدايتها بشر لا

يزالون أحياء، وفرضاً ذلك فهم سيموتون أثناء تبدل السماوات والأرض ويعودون إلى الحياة ليشاهدوا بعضاً من التغيرات التي ما زالت تحصل...

لِتَكُنْ هذه نماذج عن خطأ تفسير كلامه تعالى بناءً على المعطيات، حتى لا نفعله نحن بناءً على معطياتنا التي نعتقد أنها أكثر تطوراً وتقدماً من الأقدمين، فسيأتي بعدنا تطوّر علمي يجعل علومنا تبدو طفولية وساذجة...

آيتنا هنا ورد مثلها في كلامه تعالى قديماً مع الناس، حيث ورد لفت انتباههم لنزول الماء كآية من فعله تعالى، ولم يكونوا يعلمون بآليات نزوله، وبحسب معطياتهم فسّروا نزوله بما يتماشى مع ما يظنونه، وأقحموا الملائكة في سبب نزوله، وكل شيء صار مرتّباً مضبوطاً بحسب رأيهم، فالملائكة في السماء، والماء ينزل من السماء بلا سبب معلوم، وأسهل تفسير لذلك أن تكون الملائكة هي التي تنزل الماء... علماً أن هذه السذاجة الطفولية أيضاً لا تفسّر فعلاً سبب نزول الماء، فمن أين تأتي الملائكة بالماء؟ فهل تخلقه وترشّه...؟

أنت بكل سهولة إذا التزمت بالمعاني الظاهرة البسيطة من كلامه تعالى، ستفهم آيتنا هنا وأمثالها بأنها توصيف للمشهد أمامك، فقط لا غير، فهي لم تشر لآليات المطر، وأنت تراه ينزل من السماء، فمن صمّم وخلق البيئة حتى حدث نزول الماء؟ سبحانه صمّم البيئة بهذا الشكل وبهذه النتائج "ظاهرة المطر" حتى تتعرّف عليه سبحانه كمصمّم قدّر وخلق... نقطة انتهى. وما بعد ذلك من البحث عن آليات المطر، فهو متروك للبحث فيه لمحاولة التعرّف على آليات فعله تعالى للأشياء، ومن الخطأ اعتباره مسألة دينية، ومن الخطأ البحث عن جوابه في الكتب الدينية وفي كلامه تعالى، ومثله في الخطأ بقية المسائل الأخرى التي اعتبرها المنتمون لدينه تعالى من المسائل الدينية، كمسألة آلية نشأة الكون ونشأة الحياة... وآلية إعادة إحياء الموتى...

(وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ{10})

{وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ}، شجرة النخيل "شجرة البلح والتمر والرطب..." أيضا نمت من هطول المطر من السماء، وهي {بَاسِقَاتٍ} لها امتداد طولي عمودي، وهي طويلة باتجاه الأعلى، وكلمة {بَاسِقَاتٍ} لم ترد إلا مرّة واحدة هنا في القرآن، {لَّهَا طَلْعٌ}، يطلع منها، ثمرها الذي لم يكن ظاهرا وبرز من الغلاف، {نَّضِيدٌ}، قريب متلاصق مع بعضه.

شجر البلح يطلع من رأسه حبوب البلح مُنَضَّدٌ مُتَرَاصٌّ، والكلام إشارة إلى شكل مميّز من الإنتاج، لدينا حبّات التفّاح، وعناقيد العنب، والبلح {نَّضِيدٌ}...

من قبل قرأنا عن {حَبَّ الْحَصِيدِ} والذي لا يرتفع نباته كثيرا عن الأرض، وانتقلت السورة إلى نبات باسق طويل، فما معنى هذا التنوّع النباتي والذي نأكل ثمره ونتغذّى به؟ وربما ترى معنى الكلام أوضح من ناحية التغذية إذا تذكّرت ما ورد في الآية 66 من سورة النحل عن شربنا للبن الأنعام من بين فرث ودمٍ {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ}، فما هي علاقتي بالمحلوب الذي يتكوّن من بين طعام مهضوم ودم ينقل المغذيات التي في الطعام إلى الضرع ليكون صالحا لي لشربه ومغذيا؟ فما معنى حصول ذلك من دون تصميم الحيوان والمحلوب الناتج وتصميمي لشربه؟ وكما ترى نفس الكلام عن {الطَّلْعِ النَّضِيدِ} كثمر مختلف شكله عن بقية الثمار وله طعم أرغبه ويغذّيني ولا علاقة لي بتصميمه وخلقه، فمن صمّمه وخلقه؟

بقي شيء، ما ذكره القرآن من حيوانات ونباتات اختاره مما هو منتشر ومعلوم في البيئة والزمن الذي نزل فيه القرآن، مع بعض الأشياء الخارجة عن المألوف، ومن البديهي تركيزه أكثر على ما يعرفه الناس الذين نزل القرآن في مكانهم وزمانهم، وتكون تلك الأشياء مجرد نماذج بلا أي خاصية مميزة عن نباتات المناطق الأخرى من الأرض، حيث إنّ البلح بيئته حارّة، ولم تعرفه بقاع الأرض الباردة، وذكره القرآن كنموذج تعرفه الناس والنخيل ليس أفضل من النباتات التي لا تنبت في الجزيرة العربية، وليس أفضل من المانجو والكيوي والموز والأفوكادو... وليس فيها خصائص متفوقة عن بقية نباتات الأرض... وهذه مشكلة نابعة من تقديس ما نتميّز به عن الآخرين، وصارت فاكهة منطقتنا العربية التي ذكرها القرآن مميزة، ولغتنا العربية التي نزل بها القرآن مميزة، ومياه زمزم مميزة وجبل عرفة مميزٌ... بينما لا شيء منها مميزٌ ولا مقدسٌ.

نرجع للسورة، شجر الفاكهة والحبوب وثمار النخل كلّ ذلك هو:

(رِزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ{11})
{رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ}، نحن كلنا مفروض علينا طاعته تعالى لأنه إلهنا خالقنا... وأخرج تعالى لنا النبات وصار معنا لنسدّ به حاجتنا للطعام، فهو سبحانه أيضا رازقنا.

{وَأَحْيَيْنَا بِهِ}، بالماء النازل من السماء نتج ما فيه حياة، {بَلْدَةً مَّيْتًا}، مكانا كبقعة محددة من الأرض لم يكن فيها حياة، فأحياها تعالى وصار فيها حياة نباتية بسبب نزول الماء عليها.

{كَذَلِكَ الْخُرُوجُ}، مثلما نزل الماء على الأرض، وخرج النبات، فكذلك سوف يخرجنا تعالى من بعد موتنا.

وكما كانت البلدة من دون نبات وأشجار، وبعد تساقط المطر عليها صار فيها حياة نباتية، وهذا يحصل كل يوم في أماكن مختلفة من الأرض، فكذلك يعيدنا تعالى إلى الحياة. هناك مكونان لا ثالث لهما، ماءٌ وتراب، وبتعابيرنا الحالية والكلام عن العناصر المعروفة من حديد ونحاس وكربون وهيدروجين... ومن هذه تكوّن النبات، ومن هذه تكوّنا نحن البشر.

بعض بقاع الأرض مطرها موسمي وبعضها مطرها متوزّع على الأشهر وبعضها مطرها نادر... وعلى كل الحالات خروج النبات يختلف من بقعة لأخرى بحسب طبيعة النبات التي تختلف عن بعضها في حاجتها للماء... وأقرب صورة لسرعة حصول إحياء للأرض من هطول مطر، هو ما يحصل في الصحاري حيث من هطول واحد يحصل خروج سريع بعد أيّام لبعض أنواع النبات، ولكن هذا ليس المعنى التطبيقي الحصري للآية، والكلام عن عموم إحياء الأرض بالماء في مقابل الجفاف والقحط لمدة طويلة... والنتيجة أنه من الماء والتراب فقط، خرجت كائنات حيّة وهي النبات، وكذلك من الطين خرجنا نحن إلى الحياة.

ننتبه جيدا، في العديد من الآيات التي تشبه هذه الآية، تؤكد لنا أن إحياءنا ورجوعنا إلى الحياة هو بنفس طريقة إخراج النبات من الأرض. أمّا كيفية آلية حدوث ذلك فلم يذكرها القرآن، واكتفى بالإشارة لِشَبَهٍ يمكننا فهمه بسهولة، وهو ما نراه من خروج النبات من الطين في بقعة لم يكن فيها حياة.

نحن البشر لم نكن، وصرنا، وهذا الكلام بغض النظر عن المراحل والآليات التي أدّت إلى صيرورتنا، والتركيز على المسألة السهلة البسيطة أن البيئة التي تكوّنا فيها هي من ماء وتراب، ومن هذه خلقنا تعالى.

عندما نموت، فإننا نتحلل ونصير ترابا، ونرجع إلى المكونات الأساسية لجسدنا، وكذلك النبات عندما يموت فإنه يتحلّل ويصير ترابا، وبعد نزول الماء يعيش النبات من جديد، وكذلك نحن سنخرج من التراب، وعندما يموت الجميع، وتتغير السماوات والأرض، ويحصل النفخ في الصور فإننا سنعود إلى الحياة، وبشكل يشبه كثيرا طريقة عودة النبات إلى الحياة، ولكن بالآلية المناسبة لتشكّل لحمٍ وعظمٍ...

عندنا الآية 17 من سورة نوح الصريحة بقولها بأنه تعالى أنبتنا من الأرض نباتا، أي أخرجنا تعالى إلى الحياة من الأرض فنمَوْنا وكبرنا. ننتبه ألا يذهب فكرنا بكلمة {أَنبَتَكُم} أنها تشير لجذور وورق، وعلينا استعمال كلمة الإنبات بمعناها الأساسي، وهو النمو والكبر، أنبتنا تعالى من الأرض أي جعلنا ننمو ونكبر من المواد التي في الأرض، مكوناتنا من طين، من ماء وتراب، وهو ما نسميه حاليا بعناصر الجدول الدوري للمواد من كالسيوم وكربون وهيدروجين... وهذه المواد مشتركة بيننا وبين النبات، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 37 من سورة آل عمران عن السيدة مريم(ع) {وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا}.

على كل حال، سواءٌ فهمنا بالضبط كيف خرجنا في البداية وكيف سنخرج من الأرض أحياء مرة ثانية، أم لم نفهم، فعلى الأقل نحن نرى كيف تكون الأرض جرداء بلا نبات، أي ميتة، وعندما ينزل الماء، بكل سهولة يصير فيها حياة، وشجرة ضخمة كالنخلة تخرج وتنمو وتكبر...وهذا يتكرر دائما! إذن، وكما يقول سبحانه الذي يخلق النبات في كل لحظة من أرض ميتة، فإن بدايتنا وعودتنا إلى الحياة هي سهلة عليه سبحانه أيضا، وبنظره سبحانه، فإن الحياة النباتية والحياة الإنسانية هي نفسها، هي حياة طينية، والآية 44 {يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ} التي سترد هنا في السورة، توضّح الترابط في الشبه العميق بيننا وبين النبات، لأنَّ كِلَيْنَا من طين.

إلى هنا تكون الإجابة اكتملت عن تعجب الناس الذين لم يؤمنوا بإمكانية رجوعنا إلى الحياة مرة ثانية وهو الكلام الذي ورد في أول السورة، وتمت الإجابة عنه بشكل قوي جدا، بداية من ربط ما حولنا بمن صمّم وخلق بضخامة وتفاصيل هائلة تدل على صفاته وقدراته الفائقة، فهو بالتأكيد قادر على إعادة خلقنا مرة ثانية.

الجواب الثاني، أننا في كل لحظة نشاهد ونلمس تشكل الحياة من الأرض الميتة، وبسبب بسيط وهو نزول نقاط من الماء، والذي في كل لحظة يخلق الحياة من التراب والماء، وحالة التراب هي حالتنا عندما نموت، وهي شبه التمام لحالة النبات الميّت، فهو تعالى بكل تأكيد قادر على إعادتنا نحن إلى الحياة مرة ثانية.

أعيد وأكرر لك، لن تجد في القرآن كلاما عن آلية أي شيء فعله تعالى، وستجد كلاما عن مراحل حصوله، وتلميحات وإشارات مساعدة بشكل مبدئي على كيفية حصول الأشياء. والباب مفتوح أمامك للبحث عن آليات حدوث كلّ الأشياء والظواهر بدون أي استثناء، ولكن لا تقم بتفسير القرآن على أساس معطياتك من النظريات العلمية، وانتبه أكثر ألا تستخرج من القرآن نظريات علمية، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لتقابلها مع ما تجده من تفسيراتهم العلمية للقرآن لتجد أنهم يقولون ما لا يعلمون...

من بعد إجابة السورة عن التعجب الذي ورد في أوّلها، يأتي الإنذار لهؤلاء المتعجبين:

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ{12})
المشترك بين من سيأتي ذكرهم ومن تخاطبهم الآية هو حصرا وفقط: تكذيب رسله تعالى حين أنذروهم بالرجوع إلى الحياة بجسد للمحاسبة والعقاب والثواب على مخالفة دينه تعالى.

{كَذَّبَتْ}، فلم تصدّق ولم تؤمن بعودتنا إلى الحياة، {قَبْلَهُمْ قَوْمُ}، جماعات عديدة قبل نموذج كفّار مكّة، ومنهم: قوم النبي نوح(ع)، {وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ}.

نموذج كفار مكّة الذين لا يؤمنون بالحياة الآخرة ليسوا شيئا جديدا، حيث كان يوجد أناس قبلهم يفكّرون مثلهم، ومن المعروف أنَّ العذاب هنا في الدنيا نزل على تلك الأقوام بسبب تكذيبهم بالآخرة، مما يشير إلى حقيقة كلامه تعالى عن العقاب لمن خالف كلامه، حيث إنَّ قوم النبي نوح(ع) جرت إبادتهم هنا في الدنيا وغرقوا بالطوفان.

أصحاب الرس وهم أناس كافرون وقصتهم غير مشهورة، ولا نعرف الآن الكثير عنهم، ولكننا نعرف أن الرسّ معناها بئر الماء بصفات معيّنة، وفي القواميس أن الرسّ وصف لحافة البئر... وهناك الكثير من الأماكن التي كان العرب القدماء يسمونها الرسّ، ولكن يوجد مدينة مشهورة تقع الآن في السعودية اسمها الرسّ ولها تاريخ قديم جدا، والظاهر أنها هي التي تتحدث عنها الآية، لأن أهل مكة الذين كانوا في عهد النبي محمد(ع) وحيث نزلت هذه السورة بينهم كانوا يعرفون مدينة الرسّ تلك، وهي غير بعيدة عن مكّة كثيرا، أمّا من هو رسولهم؟ وماذا كان جرمهم؟ فلا معلومات لدينا سوى ما يبدو من سياق الآيات هنا أنهم لم يؤمنوا برجوعنا إلى الحياة مرة ثانية.

لدينا روايات تروي أشياء مختلفة متضاربة غير متوافقة عنهم، ولا يمكن الخروج من تلك الروايات بقصة كاملة إلا بحذف أشياء وضم أشياء وإضافة أشياء، فمن الأفضل الاكتفاء بما ذكره القرآن الذي تقصّد ذكر أناس مشهورين وآخرين غير مشهورين ليريك أن النماذج عديدة، ولتنتبه إلى أن كثرة تكرار القرآن لذكر المشهور منها لا يعني حصر وقوع عقابه تعالى في الدنيا فقط على هؤلاء المشهورين.

ثمود اسم لقبيلة عربية كبيرة، كانت منتشرة في عدة أماكن في شبه الجزيرة العربية، ولها عدة مدن، والنبي صالح(ع) أرسله سبحانه إلى واحدة من مدن قبيلة ثمود واسمها: مدينة الحجر. وتعلم ذلك من الآية 80 من سورة الحجر {وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ}، ويوجد إلى الآن آثار لبيوت منحوتة في الصخر في مدينة الحجر، وتسمى أيضا مدائن صالح(ع)، وهي تقع فيما يسمّى الآن بالمملكة السعودية، لجهة الشمال الغربي من المدينة المنورة. والقوم من ثمود الذين جاءهم النبي صالح(ع) كذبوه فأمات سبحانه أكثرهم بزلزال...

(وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ{13})

كذّبت بالبعث من قبلهم: قوم {وَعَادٌ}، الذين كان النبي هود(ع) يدعوهم للإيمان فكفروا وأصابهم العذاب، حيث حدّد القرآن المدينة التي حصل فيها العذاب بأنَّ اسمها إرم وهي بالأحقاف أي منطقة ذات تلال رملية، كما تفهم من الآية 7 من سورة الفجر {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ} والآية 21 من سورة الأحقاف {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ}... ويقال أنهم كانوا يعيشون فيما يسمى الآن سلطنة عمان لجهة اليمن.

{وَفِرْعَوْنُ}، وهو لقب للشخص الذي كان حاكما لمصر في بعض فترات تاريخها، ومن عموم القرآن نعلم أنه يقصد بلقب فرعون شخصا محددا وهو الفرعون الذي لحق بالنبي موسى(ع) وببني إسرائيل فأغرقه تعالى في الماء هو والجيش الذي معه.

{وَإِخْوَانُ}، وهم الناس الذين كان يتشارك معهم "في المكان الذي يعيش فيه" النبي {لُوطٍ}(ع)، فهو ليس من أقارب المدينة التي تدمّرت ولكنه أخوهم بالسكن والمعيشة في نفس القرية، والتعبير بالأخوة لعامّة المشاركة في شيء ومنه الآية 10 من سورة الحجرات {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}... وهم متشاركون في الدين، وقوم النبي لوط(ع) هم الذين نزلت عليهم حجارة من سجيل أبادتهم كلّهم.

حاليا في البلد الذي يسمى الأردن، يوجد منطقة تسمّى غور الأردن، وهي منطقة كانت مسكونة منذ القدم، ويقع فيها البحر الميت، وهو البحر الصغير المشهور بارتفاع نسبة الملح في مائه لقرابة الثلاثين من المئة، ومن المشهور بين المسلمين أنه في زمن النبي لوط(ع) كان في منطقة غور الأردن أربعة تجمعات سكنية، لكل واحدة منها اسم، وهي مذكورة في التوراة ولم يذكرها القرآن وهي: سادوم، عامورة، أدومة، صبييم. وهذه التجمعات هي القرية التي كان فيها النبي لوط(ع). والمشهور في عموم ثقافة المتدينين أن البحر الميت لم يكن موجودا في عصر النبي لوط(ع) بل كان مكانه واحدة من التجمعات السكنية، "وهذا غير صحيح، حيث إنَّ البحوث الحالية تثبت أنَّ البحر الميّت عمره بعشرات آلاف السنين"، ويقولون إنَّه عندما نزل العذاب على تلك المنطقة حصل زلزال وفوران للحمم من الأرض، وانخسفت قطعة من الأرض وصارت فيما بعد بحيرة كبيرة هي الآن البحر الميت.

كما تلاحظ استعملتُ كلمة "المشهور ويقولون" بسبب وجود الكثير من الاختلافات بين كتب التاريخ حول مكان وأسماء وتواريخ وماذا حصل في تلك المنطقة، ولا يتماشى ما قالوه عن ولادة البحر الميّت من تلك الحادثة مع العمر الذي يقدّره علماء الجيولوجيا له، وربما حصل خسف فعلا وتوسّع البحر الميّت ليغطي تلك القرى... وربما لا... على كل حال وحتى عهد نزول القرآن يبدو أنه كان هناك آثار ما لتلك القرى وكان مشهورا بين الناس حصول دمار هناك لقوم سوء كانوا يعتدون جنسيا على الغرباء... حيث أشار القرآن لمعرفة المسافرين من أهل مكّة لمكان قوم النبي لوط(ع) ولقصّتهم، ومعرفتهم تلك لم تكن مستندة لمصدر ديني بل مستندة لما يعرفه الناس عن تاريخ المنطقة، وهذا ما يبدو من الآية 137 من سورة الصافات {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ}، ومضافاً لذلك تسمية فعل الشذوذ بـ "الوطي" يريك أن قصّتهم أيضا كانت مشهورة لمدة طويلة جدا سببت اختصار النسبة من "قوم النبي لوط" إلى "الوطي" للأسف.

(وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ{14})
كذّب بعودتنا إلى الحياة أيضًا من قبل نموذج كفّار مكّة:

{وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ}، الذين كانوا مع الشجرة الموصوفة أو المسمّاة بالأيكة، والأرجح أنها نوع خاص من الشجر الكبير ذي الأغصان الملتفة على بعضها، ونعرف من سورة الشعراء ابتداء من الآية 176 {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ} وما بعدها أن أصحاب الأيكة هم قوم النبي شعيب(ع) والمدينة اسمها مدين، وكان لهم سوق يغشّون فيه الناس بالميزان والكيل، فنزل عليهم العذاب هنا في الدنيا ومات الكثير منهم بزلزال. ويقولون في الروايات إنهم كانوا يعبدون تلك الشجرة، ولا داعي لهذا الاحتمال غير المذكور في القرآن ولا مستند تاريخي له، وبما أن قصّتهم تتمحور حول غشّهم بالكيل والميزان... مما يشير إلى وجود سوق لهم، فيمكن ربط الشجرة الكبيرة المترامية الأغصان مع السوق ليكون السوق تحتها وبجوارها، وهذه عادة تشكّل أسواق القرى قديما.

{وَقَوْمُ تُبَّعٍ}، والناس الذين لهم كيان الجماعة وينتمي "تبّع" لجماعتهم أيضا كذبوا الرسل ولم يؤمنوا بالآخرة. وتبّع هو لقب الشخص الحاكم في منطقة اليمن في بعض فترات تاريخها، كما يقولون فرعون لحاكم مصر القديمة، وملك لحاكم

بريطانيا القديمة، وكسرى لحاكم فارس القديمة، كذلك كانوا يقولون تبّع لحاكم اليمن وهو ليس اسما ولا لقبا لشخص محدّد بل لقب يتشارك فيه حكّام اليمن قديما. وليس لدينا مصادر موثوقة تفصيلية تحدثنا عن تاريخهم، ويكفينا أنهم في تعداد الأقوام المنكرة للبعث، وما ورد في الروايات عنهم قليل وغير موثوق ومتضارب.

تتذكّر الآية ما قبل السابقة التي ذكرت أصحاب الرسّ، فيصيرون مع قوم تبّع كنموذج عن أقوام ليسوا مشهورين بين الناس ونزل عليهم العذاب، وبذلك نفهم أن القرآن لم يقتصر على تكرار التاريخ المعلوم بين الناس، ونفس الشيء بذكره للنبي إلياس وذي الكفل... وهما نماذج عن أنبياء غير مشهورين...

تقول الآيات: كل واحد من هذه الأقوام الثمانية {كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ} بالبعث من الموت، وأيضا كذَّبوا الرسل التي أرسلها تعالى إليهم، ولذلك، {فَحَقَّ}، استحق وانطبق عليهم، {وَعِيدِ}، وقوع الوعيد، حصول ما قاله تعالى عن تعذيب المكذّبين للرسل.

بعبارة أخرى أنذرهم الرسل: إذا لم تحسبوا حسابا لرجوعكم بالجسد إلى الحياة مرّة ثانية حيث ستقفون بين يديه تعالى لتتحاسبوا وتُجَازَوْا، فسوف ينزل عليكم العذاب في الآخرة حتما، وهنا في الدنيا إن قرّر تعالى نزول العذاب فسينزل. وقرّره تعالى بالنسبة لتلك الأقوام وأخبرهم رسلهم به... فلم يقتنعوا، فحقّ عليهم وعيده تعالى، وحصل ما قال إنَّه تعالى سيفعله، فنزل عليهم العذاب هنا في الدنيا قبل الآخرة، بسبب اكتمال شروط حصول العذاب فيهم.

وهذا تهديد لقوم النبي محمد(ع) ولكل من يصله القرآن، فسبحانه قد ينزل عليهم عذابا هنا في الدنيا إذا لم يؤمنوا.

إذن، هذه الأقوام الثمانية بينهم اشتراك الكفر بإحيائنا بجسد لمحاسبتنا، وكلهم نزل عليهم العذاب هنا في الدنيا كدليل تاريخي ملموس عن عقابه تعالى للكافرين في الآخرة.

بقي شيء، لماذا سيذكر القرآن أقواما لا نعرفها ليخبرنا عنها كنماذج من الذين نزل عليهم العذاب هنا في الدنيا؟ وبالتدقيق سترى أن هذا السؤال ليس بهذه الحديّة، أنت تفترض أنك تعلم بخبر قوم النبي نوح(ع) وقوم النبي لوط(ع) وعاد وثمود ومدين، ولكنك تجهل خبر أصحاب الرسّ وقوم تبّع، وتسأل عن سبب ذكرهم؟ وتفترض أن كفّار مكّة الذين هم النموذج الذي وجّه القرآن كلامه إليهم، وتفترض أنهم مثلك يعرفون ما تعرفه ويجهلون ما تجهله، أو أنهم يعلمون ما لا تعلمه... وما تجده في الروايات عن قوم النبي نوح(ع) وقوم النبي لوط وفرعون وعاد وثمود ومدين، جعلك تعتقد أنهم مشهورون جدا حتى لأهل مكّة ولعموم العرب، وهذا بالتدقيق غير دقيق، حيث إنَّ بعض هذا هو تراث تاريخي ديني معلوم لأهل الكتاب، وما يعرفه كفّار العرب عنهم قليل، وبهذه النظرة سترى الآيات التي أشارت إلى "مساكن الذين ظلموا" أن السؤال فيها كان عن مصير أهلها، وكلّ كلام القرآن عن الأقوام التي نزل عليها العذاب في الدنيا، كلّه بالنسبة لكفّار مكّة نبأ، كخبر جديد، وهم بشكل ما سمعوا عن تلك الأقوام وهي ليست مجهولة لهم تماما، وسمعوا عن سوء ما فعلته تلك الأقوام... ولكن حين سُردت قصصهم عليهم كآيات للإيمان به تعالى، عندها قالوا إنَّها أساطير...

وما ذكره القرآن من بعض التفاصيل عن بعض الأقوام، هو الأساس الذي انبنت عليه الروايات "الإسلامية"، ومن بعد ذلك جاءت روايات الهرج والمرج التي شوّهت ما ذكره القرآن، حيث إنك تقرأها على أساس أنَّها مصدر إضافي لما ورد في القرآن، علما أنها فقط وفقط مصدر للتشويه لأنها لا تستند إلى شيء موثوق، وهي من استذواقات الناس لتأليف القصص... وهكذا ترى أن خبر الطوفان في عهد النبي نوح(ع) بالنسبة لكفّار مكّة هو تقريبا مثل الخبر عن قوم تبّع وأصحاب الرس، إذ ليس لديهم الكثير من التفاصيل عنه، وجاءتهم التفاصيل من القرآن، والكلام الإضافي على ما ذكره القرآن والموجود في كلام الناس مصدره التراث الثقافي لأهل الكتاب الذي نقله عنهم المسلمون من دون التدقيق فيه، بل وأضافوا وحذفوا بحسب ما استذوقوه! وتعاملوا مع الأحداث التاريخية باستخفاف وكأنهم مؤلفو رواية يحق لهم إكمال نواقص القصص من خيالهم... لتصير "سيناريو" كاملاً!

وبضم كل ما سبق لكون القرآن ليس كتاب تأريخ بل كتاب هداية يذكر فقط وفقط ما له علاقة بالهداية، فلا تنظر إليه وأنت تتوقّع أن تجد معلومات تأريخية، لتتعرّف منها على التاريخ القديم، لا، وعلى كلّ حال أنت تحتاج لمصادر لتعرف التاريخ القديم ولا يمكنك بمجهودك الفكري الوصول إلى أي شيء تاريخي، لأنك بحاجة لخبر ولأثر، والقرآن يخبرك بما يراه مناسبا من التاريخ وله علاقة بالهداية، ويشير لك أحيانا إلى الأثر، وعلى الأقل يشير إلى القرى الخربة

المنتشرة هنا وهناك، وإن لم يكن الأثر متوافرا فيسألك عن عموم من سبقك من أقوام اندثرت، أين هم؟ وماذا حصل معهم حتى اختفوا من التاريخ؟...

أصحاب الرسّ أهل قرية بقي منها الاسم والخراب كأثر عن قرية كانت وتدمرت، ولم يجد القرآن سببا مفيدا "للهدى" حتى يذكر لنا شيئا عن تاريخهم، فأغفلهم وذكر الاسم فقط كنموذج عن أقوام نزل عليها عذاب دنيوي، وعليه يبدو أن قوم تبّع هم آخر النماذج من حيث الخبر والأثر، حيث إنَّ أهل الرسّ لهم أثر قرية معلومة قريبة من مكّة، ولكن لا خبر عن تفاصيل ما جرى معهم، أمّا قوم تبّع فلا خبر ولا أثر محدّد، ولم أجد أثرا "إسلاميا" موثوقا معلوما لقوم تبّع الذين تقصدهم الآية.

إذن نحن أمام قصص مشهورة جدا، وأخرى أقل شهرة، وأخرى معدومة الشهرة، وصولا إلى اسم لقوم تبّع الذين لا نعرف عنهم الخبر ولا الأثر، ولدينا لفت انتباه لأقوام من كل النماذج. وبمقارنة ما ورد في القرآن حين نزوله وبين ما تعرفه الناس، نحن بالعموم أمام قصص قرآنية فيها تفاصيل لم يعرفها كل الناس، وقصص يعرف الناس عنها القليل، وقصص يختلف فيها ما في القرآن عمّا يعرفه الناس، وقصص يعرفها الناس ولم يذكرها القرآن لأنها غير مهمّة أو لأنه اكتفى بما ذكره للناس واعتبره كافيا للهداية، ولدينا ذكر لاسم قومين كلاهما مجهولا القصّة "الرسّ وتبّع"، وأحدهما معروف أثره "الرسّ" والآخر مجهول الأثر "تبّع".

الآن، ماذا لو ذكر القرآن فقط ما تعرفه الناس وله أثر؟ فلو حصل ذلك بسهولة سيتم اتهام النبي محمّد(ع) بأن القرآن من تأليفه لأنه نقل التراث الثقافي التأريخي المنتشر بين قومه. أمَّا بالطريقة التي ذكرها القرآن عن تلك الحوادث، فمن المستحيل اتهام النبي محمّد(ع) بتأليف القرآن. حتى إنَّ قومه اتهموه (ع) وبدون دليل وبدون إثبات وهكذا كرها بالدين وقالوا إنَّه (ع) لديه مصدر لقرآنه... وقد ردّ القرآن على اتهاماتهم بالتفصيل، إذ إنَّ اتهاماتهم الخيالية السخيفة له (ع) مثل اتهامي لك بأنك سرقت تفاح بستاني الذي على كوكب الزهرة. وانتشار الرقعة الجغرافية والتاريخية للقصص التي ذكرها القرآن، يظهر منها بوضوح أنَّ مصدرها ليس بشرياً، حيث لدينا أخبار عن آدم(ع) وتكليفه... ولديه... ومن آلاف السنين عن بناء السفينة والطوفان... وابن النبي نوح(ع)... وقصص الأنبياء إبراهيم ويوسف وموسى وزكريا وعيسى... عليهم السلام... وقصة مدين وثمود وعاد... وخلال ذلك عرّج القرآن على أنبياء "اليسع وذي الكفل..."، وأقوامٍ لم يذكر تفاصيل عنهم "تبع والرسّ" مكتفيا بالإشارة لترى أنه يوجد العديد من النماذج للكلام وأنها ليست محصورة بما هو مذكور وبما يعرفه الناس...

(أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ{15})
{أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ}؟ هل أصابه تعالى الإعياء "بالعامية قريبة من معنى: كعيت كعّاني، حيّرني..."، فهل تعرّض سبحانه لأي مانع من أي نوع كان من تعب أو ملل أو كلل أو ضعف... ولم يعرف ماذا يفعل حين أراد تركيب وتأليف السماوات والأرض أوّل مرّة؟ من الواضح أن الخلق الأول تمّ بنجاح، وها نحن فيه، ومن الواضح أنه تعالى لم يصبه الإعياء.

{بَلْ هُمْ}، المنكرون للبعث الجسماني، {فِي لَبْسٍ}، في حالة اشتباه وتشويش بسبب اختلاط الأمور، {مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ}، هم يشتبهون بحصول تركيب وتأليف جسد البشر مرّة ثانية، فلا يرونه ممكنا، على الرغم من أن الخلق أول مرة أمامكم واضح، وليس عليه لبس، ليس ممتزجا مختلطا بأي شيء يمكنه جعلكم تشكّون في حصوله، لأنك أنت ذات نفسك مخلوق وكل ما تراه حولك لا يمكن أن يشتبه عليك حتى تقول بأن الخلق أوّل مرّة غير واضح أمامي، وهكذا تسأل الآية باستغراب: هل هم في لبس من خلق جديد؟ خلقهم أول مرة واضح فكيف يكون خلقهم مرّة ثانية عليه لبس؟ ما الذي يمكن أن يشتبه عليهم في هذه الحقيقة الواضحة جدا حتى يكفروا بالخلق الجديد؟ وها من الواضح أن الذي خلقهم أول مرة لم يُعْيِهِ خلقهم...

يوجد أشخاص ينكرون إمكانية إعادته سبحانه لخلقنا مرة ثانية، وهذه المسألة تتضمّن نقطتين، الأولى أنهم قد يكونون أصلا من منكري وجود إله، هؤلاء ردّت عليهم الآيات السابقة بلفت انتباههم لسماء النجوم الضخمة وإنزال المطر وخروج النبات المتنوّع... ووجود رسل منه تعالى وكتب إلهية... وهذه أدلّة على وجود خالق عظيم القدرة... والنقطة

الثانية أن بعضهم يكون من المؤمنين بوجود إله خلقنا أول مرة. وبعد هاتين النقطتين تسألهم الآية هنا: طالما صار واضحا وجود إله خالق خلقك أول مرة، فلماذا لا تعتقد أنه يستطيع إعادة فعل ذلك؟ وطالما لم يكن لديه تعالى أي مشكلة في خلق ما في الدنيا أول مرّة، ولم يصبه الإعياء بخلقها، إذن لماذا تفترض وجود مشكلة في إعادة خلقه تعالى لها مرّة ثانية؟ وما الذي يمكنه تغطية هذه الحقيقة الواضحة، فكيف يمكن أن تكونوا في لبس من خلقكم من جديد!

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ{16})
{وَلَقَدْ خَلَقْنَا} ركّبنا وألّفنا من المواد، نوع الكائن المسمّى، {الْإِنسَانَ}، والقرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموما ذكرا وأنثى، وأنهم يتناسلون... أو متعلق بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

{وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ}، نعلم ما تحدّثه به نفسه من أفكار سيئة تدفعه للقيام بأمور سيّئة. وكلمة الوسوسة تستعمل لوصف حالة دخول الأفكار السيئة على الفكر والبال، وفي استعمالنا لها تشمل وصول المعلومات من أي مصدر كان يدلّك على فعل الشيء ولا يجبرك عليه بالقوة، سواء وصلت الفكرة بالكلام من الفم للأذن، من إنسان لآخر، أو وصلت مباشرة إلى الوعي، من شيطان جنّي لإنسان، أو تكوّنت في الوعي، كما توسوس لنا أنفسنا. وكما تعلم فإن القليل جدا من الناس لا توسوس لهم أنفسهم بأفكار شريرة سيئة، وهم أولو العزم وبقية الرسل والأنبياء والصالحين من الدرجة العالية، ولذلك استعملت الآية تعبير "الإنسان" الذي يشير للغالب الأعمّ من الناس بحسب طبيعة انتسابهم لهذا النوع من المخلوقات، فنوع هذه الكائنات فيه قابلية الوسوسة لنفسه بالسوء.

{وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ}، وسبحانه أقرب إلى الإنسان الذي توسوس له نفسه، {مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}، من الحبل الذي يرد منه الدم إلى القلب، بتعبيرنا الحالي الوريد هو الأنبوب الذي يجري فيه الدم من جسم الإنسان إلى القلب، والأنبوب الآخر الذي يضخّ الدم هو الشريان.

إذا كان أحد ما يستغرب علمه تعالى بما يدور في فكره وخاطره، فليعلم أنه كما أن حياتنا متعلقة بحبل الوريد الذي إذا انقطع أو انسدّ متنا، فسبحانه أقرب إلينا من هذا الحبل. بعبارة أخرى، حياتك التي يتعلّق بها وعيك وفكرك وأحاسيسك ومشاعرك... متعلّقة باستمرار ضخّ الدمّ بحبل الوريد، وإذا انقطع أو انسدّ ستموت، وفي العمق، إن حياتك متعلقة به تعالى أكثر من تعلّقها بذاك الحبل، لأنه تعالى في كل لحظة يحافظ على كيانك ليبقى، لو تركك سبحانه للحظة، فورا ستزول وينهار كيانك، وتجد هذا المعنى ضمنا في الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ...}.

لاحظ انتهاء السورة من ذكر الأدلة اللافتة إلى قدرته تعالى على إحيائنا مرة ثانية، وبدأت السورة بتهديد من لا يؤمن بذلك، حيث سبحانه يعلم أنه لم يؤمن لأن نفسه الشريرة توسوس له ليكفر بالآخرة، وتخبرنا السورة من هنا أننا تحت المراقبة الإلهية اللصيقة بأكثر مما نتخيّل.

إذا خطر ببال أحد ما: هل يعلم سبحانه ما فعله كل الناس في حياتهم حتى يحاسبهم؟ تقول له هذه الآية بأنه سبحانه يعلم أكثر من ذلك، لأنه سبحانه يعلم حتى ما يخطر بالبال، بل أكثر من ذلك، حيث إن تعلّق حياتنا به سبحانه "أقرب إلينا" من الحبل المسؤول عن استمرار ضخّ الدم في جسدنا والذي بسببه نبقى أحياء.

نلاحظ السورة لم تذكر إبليس ولا باقي الشياطين بشكل صريح بالاسم، وهنا لم تقل إنّ الشياطين توسوس، ولكن فيما سيأتي في السورة من كلام عن "القرين" سترى أنه كان شريكا في إنتاج الأعمال السيئة للمقترن به، والذي لا يؤمن بالبعث الجسماني من المرجّح أيضا أنه لا يؤمن بالتفاصيل الدينية عن الشياطين والملائكة(ع)، لذلك لم تدخل السورة في عدة أمور لا يؤمن بها، واكتفت بالإشارة لها من باب أنها أمور هي هكذا تحصل وستحصل، وقرين السوء موجود سواء آمنت به أم لم تؤمن به، والكائنان اللذان يسجلان أعمالك موجودان معك سواء آمنت بوجودهما أم لم تؤمن... وما تنقله السورة عن مشاهد يوم القيامة أمور ستحصل حتما سواء آمنت بها أم لم تؤمن... وهذا هو المحور الأساسي الثاني للسورة.

بقي شيء، القرآن دائما يخبرنا عن علمه تعالى بكل شيء ولا يغيب عنه أي شيء، وأنه تعالى على كل شيء قدير وفعل كلّ شيء في الدنيا، ويخبرنا أن الملائكة(ع) تقوم بالكثير من الأعمال، وينسب تعالى نفس العمل لنفسه وللملائكة(ع) معا، لأنه تعالى يتوفّى الأنفس كما ورد في الآية 42 من سورة الزمر {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...}، والملائكة(ع) تتوفّى الناس كما ورد في الآية 11 من سورة السجدة {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ...}، وهنا كما سترى ستعرض السورة نفس الشيء، إذ سبحانه يعلم كلّ شيء، ويعلم ما في البال أيضا، وفي الآية التالية سترى ملائكة(ع) مرافقة لكل إنسان تسجّل أعماله، مما يخطر بالبال أسئلة عديدة منها: ما الحاجة للملائكة(ع) طالما أنه تعالى يراقبنا ويعلم كلّ شيء؟ ونفس السؤال عن الموت والوحي... لماذا لا يقوم سبحانه مباشرة بكل تلك الأعمال؟ سيبدو لك الجواب أسهل لو سألت بالعكس: لماذا سيقوم تعالى بنفسه بتلك الأعمال؟ طالما هناك كائنات خلقها تعالى توصف بالملائكية وهي مطيعة بالتمام له تعالى وتقوم بعملها على أتم وجه وبأمانة، لماذا سيباشر تعالى بنفسه كلّ الأعمال؟

هذا من جانب، ومن جانب آخر مهم جدا، نلاحظ القرآن يعرض علينا طريقته تعالى في التعاطي مع الأمور، حيث لم يرد سبحانه أن يكون القاضي والجلاد بشكل منفرد، ويكون المراقب والمحاسب لوحده تعالى، لذلك خلق سبحانه كائنات وهي الملائكة(ع) حيث سنتمكّن من التعامل معها مباشرة في يوم القيامة، وهم سيقومون بعرض ما نتج عن مراقبتهم لنا، وسيقومون بمحاسبتنا، وتعذيب المسيئين... كلّ ذلك أمامه تعالى وبموافقته وإمضائه، ومعه تدخّله تعالى برحمته وشفاعته في حالات التعامل مع الموحدين المؤمنين... لذا لا هنا في الدنيا ولا في الآخرة يمكننا نحن التعامل المباشر معه تعالى...

(إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ{17})
بالإضافة إلى قربه الشديد تعالى منّا مما يعني أننا تحت مراقبته هو بنفسه عزّ وجلّ، وهناك كائنات أخرى موظّفة لمراقبتنا:

{إِذْ يَتَلَقَّى}، يلتقط ويستلم، {الْمُتَلَقِّيَانِ}، ومما سيأتي ستعلم أنه لكل واحد منّا كائنان مرافقان يكتبان ويسجلان الكلام والأفعال والأفكار التي تصدر عنّا، وهذان الكائنان موجودان معنا دائما، {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ}، يوصفان بأنهما قاعدان لا يغادران، حاضران مع كل إنسان دائما.

سبحانه قريب جدا منّا ووظّف تعالى بكل إنسان كائنين ملاصقين له ويلتقطان كل ما يصدر عنه من أفكار وأعمال، وهذا قراره تعالى لنا مذ خلقنا، فنحن تحت المراقبة الإلهية الدائمة، وتحت مراقبة الكائنين اللذين يقومان بتسجيل أعمالنا وأفكارنا.

نلاحظ أيضا أن السورة لم تدخل في تفصيل اسم ونوع الكائنين اللذين يراقبان ويسجلان، فاكتفت بالإشارة لوجودهما، ولم ترد دخول القارئ في تفاصيل الملائكة(ع) والشياطين وأي كائنات أخرى... وذلك حتى يبقى التركيز على بعثنا من موتنا في الآخرة بجسم، وما يتعلّق بهذا البعث بشكل ضيّق جدا. ومن عموم مفاهيم القرآن سنفترض أنهما ملاكان لأننا لا نعرف كائنات أخرى يمكن توصيفها بهذه الوظيفة.

علينا أن ننزع من مخيلتنا صورة شخص صغير له أجنحة وجالس على كتفنا الأيمن، وشخص آخر على الأيسر وبيدهما ورقة وقلم، فهذا تخيُّل غير صحيح لصورة المتلقيين "الملاكين"، ففي الحقيقة هما مخلوقان لا شكل لهما بالنسبة لنا، لأنهما ليسا مخلوقين من نفس نوع المادة التي خُلِقنا نحن منها. فليس المقصود من الآية أن تعطينا وصفا لصورة يمكن رؤيتها أو تخيّلها، بل وصفا لملكين موجودين مع كل شخص منا، وكيفما التفت أو تحرك الإنسان فهما مرافقان له ويتلقيان أي يستلمان أفعاله، ويسجلانها بطريقة خاصة، لأنهما {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ}، لذلك كيفما التفتنا وتوجّهنا فهما مراقبان لما يحصل، لنقل إنك تراقبني من الأمام، ويديّ خلف ظهري أفعل بهما شيئا لا تراه، فهنا الآية اختصرت الجهات بالشمال واليمين كتعبير يدل على المراقبة من كل الجهات.

(مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ{18})

{مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ}، أي صوت يلفظه الإنسان فيخرجه من فمه، وما يصدر منه من كلمة أو حتى حرف، {إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ}، هناك من يراقبه ولا يغفل عنه، وهو أحد الملاكين المرافقين له، وكيفما التفت وأينما كان، سيكون أحد الملاكين جاهزا لتسجيل السيئات والحسنات، وهذا الرقيب لا يُقَصِّر في عمله بل {عَتِيدٌ}، متهيئ سلفا، لأنه دائما مستعد وجاهز للتسجيل.

كما ترى، الآيات الثلاث الماضية أخبرتنا أننا تحت مراقبته المباشرة سبحانه وتحت مراقبة مرافقين دائمين مع كل واحد منّا، وهذا يختصر ما ركّزت عليه سور أخرى وتركت السورة هنا التفصيل فيه، لأنه سبحانه خلقن مع قدرة تمييز الخير من الشرّ كما تشير له الآية 8 من سورة الشمس {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}، ومع حرية الإرادة لاختيار ما نشاءه منهما، ونحن في دار ابتلاء حيث يراقبنا سبحانه كيف سنتصرّف، ولذلك جعل سبحانه لنا آخرة نعود فيها إلى الحياة ليحاسبنا ويجازينا... ومعنى مراقبته تعالى لنا ومراقبة الملكين لكل واحد منّا، يشير ضمنا إلى أمور يجب أن نلتزم بها وأن أفعالنا يتم تسجيلها لمحاسبتنا ومجازاتنا عليها.

(وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ{19})
فهمنا من السورة أنه يتم تسجيل كل أفكارنا وأعمالنا التي تصدر عنّا هنا في الدنيا، وتنتقل السورة الآن إلى مسألة الانتقال من الحياة إلى الموت، وبعد انتهاء الدنيا والوصول إلى الآخرة.

{وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ}، فالسكرة هي عندما تخفّ سيطرة الإنسان على جسده وعقله، وسكرة الموت هي حالة الاحتضار التي تصيب بعض الناس عندما يحين وقت موتهم، وقد تستمر السكرة لوقت طويل، وقد تكون للحظة، فيشعر الإنسان بأن أجله اقترب وأن اللحظة التالية هي الموت.

نلتفت أن الآية تصوّر لك مشهد إنسان يعلم أنه خلال لحظات أو دقائق... سيموت، وهناك حالات يموت فيها الإنسان فجأة وفورا ولا يشعر بسكرة الموت، ولم تلتفت لها السورة لأن تركيزها على نموذج الذي بقي واعيا ويدرك أنه بعد لحظات سيموت، وتركّز عليه كنموذج، حيث في هذه الحالة لديه وقت ليراجع ما فعله في حياته من سيئات... وتكذيبه بالحياة الآخرة وهو لم يستعدّ لها...

وماذا حملت معها وبماذا جاءت سكرة الموت؟ {بِالْحَقِّ}، فحقا ستقع وصدقا ستحصل، وهو الموت، وعبارة: الموت حقّ. معناها أن حالة توقفنا عن الفعل والانفعال والتفاعل لا مفرّ منها وستتحقّق حتما معي ومعك ومعه... {ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ}، لأن الموت في نهاية خط تسير عليه ولم تكن تريده أن يكون وجهتك ومصيرك، فتتجنبه عمليا بالمحافظة على حياتك وتتغذّى وتتفادى الأخطار المميتة... ولكنه مصير حتمي. ولو قالت الآية: عنه تحيد. لكان المعنى أنك على الموت وتحيد عنه وهذا غير صحيح، والتعبير بـ {مِنْهُ} يعني أنه سابقا كان الموت أمامك ولست عليه، {مِنْهُ تَحِيدُ} ولا تريد أن تصير فيه.

لاحظ السورة توجّه من الآن كلامها بشكل مباشر لمنكر البعث الجسماني، حيث هنا تقول له: {ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ}... وبعد قليل ستقول له: {فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ}... فرأيت الموت وما بعده...

بقي شيء تنتبه له دائما، لأن الكلام العقلاني يفترض أن يكون سامعه عقلانيا، ويتخطّى أمورا من المفروض علمك البديهي بها، حيث هنا الكلام عن نموذج موت إنسان يعلم أنه سيموت لأنه يعاني من الأعطال الجسدية كإصابة بليغة أو عطل مميت في الأعضاء... ولديه وقت للتفكير فيما مضى من حياته. إن خطر ببالك أن بعض الناس ينتحرون وينهون حياتهم بأيديهم، فهذه المعلومة ليست سرا لا يعلمه أحد واكتشفته أنت، حيث هناك أيضا من يموت بحادث أو بالقتل أو بانفجار... ويفقد حياته فورا في أقل من ثانية، حيث لا يحصل معه سكرة موت، وهذا لا يعارض ما تقوله الآية لأنها اختارت نموذجا وحدّثتنا عنه ولم تقصد التفصيل في كل حالات احتمالات طرق نهاية حياتنا.

الكلام القرآني عن بعثنا من القبور هو أيضا مجرد نموذج، لأنه معلوم بالبداهة أن بعض الناس ماتوا غرقا، وآخرون أكلتهم الحيوانات... وهكذا ترى أن الكثير من كلام القرآن يفترض معرفتك بالبديهيات ويحدّثك عن نماذج، حيث في آية الوضوء وفي بقية القرآن لن تجد كلاما عن الماء المباح، والشروط التي ذكروها في كتب الفقه عن بطلان الوضوء بالماء المسروق أو المغصوب أو الوسخ... اعتبرها القرآن أمورا بديهية فلم يذكرها.

ضع في بالك دائما أن عامّة علماء المسلمين القدماء لم يحسنوا وضع تصانيف زمنية للجمل العربية، حيث هنا من الواضح أن الآية تتحدّث مع القارئ الآن وهو حيّ، وبعدها سيموت، وعبّرت الآية عن مجيء سكرة الموت بصيغة الماضي، "{وَجَاءَتْ...}" ويقول البعض أنه كان من "المفروض" أن تعبّر عنه بصيغة المستقبل، "وستجيء..."، لذا تراهم يبررون لاستخدام الآية للفعل الماضي بطريقة غير متقنة، علما أننا كلّنا كناطقين باللغة العربية نستعمل تصاريف صيغ الزمن للأفعال بنفس الطريقة التي استعملها القرآن، "طبعا القرآن يستعملها بدقّة"، وبأقل التفات للغات أخرى "فرنسية ألمانية إنكليزية فارسية..." ترى توسّع علماؤها في تصانيف زمن الجمل، وستجد أنها تصانيف تنطبق على اللغة العربية بالتمام، مع الفارق الوحيد أن اللغة العربية ليس فيها "بشكل عام" تصاريف اشتقاقية من الفعل للدلالة الخاصة على أزمنة متداخلة أو مستمرّة، بل تركيب الجملة أو تركيب جمل الفقرة يدل على تداخل الأزمنة.

هنا في الآية وفي الكثير الكثير من آيات القرآن، عبّرت عن حدث حصل في المستقبل بصيغة الماضي لأنها نقلتك من الآن إلى المستقبل فصرت فيه، وهناك كنت تحيد من الموت ولكنه "جاء"، وكما ترى أنه في هذه الحالة لن تقول "يجيء الموت" بل "{جَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ}" لأنك كنت تحيد ولكنه جاء.

تحليل هذه الجملة بناء على القواعد التي استخرجها علماء لغات أخرى للغاتهم، فكلمة "جاءت" يصير تصنيفها: ماض بسيط. خالٍ من الإشارة الفعلية للزمن، لأنها فعل يوصّف حدثا بدون الارتباط بزمن. وهذه الدلالة ليست حكرا على لغة دون أخرى، حيث إن كل الناس من مختلف اللغات يستعملون هذه الدلالة، ولكن بعض اللغات "كالإنجليزية والفارسية والفرنسية..." حيث في تراكيبها دلالة صريحة محدّدة متكررة، وبعض اللغات "كالعربية" ليس لديها تراكيب ثابتة لذلك، ويبدو "بدون تدقيق منّي" أن اللغة التي تعتمد على الأفعال المساعدة "كان وملك" يصير لها دلالات محدّدة للزمن بشكل أوضح من اللغات التي لا تعتمد على الأفعال المساعدة.

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ{20})
مات الإنسان وفقد الإحساس والوعي... وانتهت الدنيا وتبدّلت السماوات والأرض... وصارت الآخرة:

من الآية 68 من سورة الزمر {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ}، علمنا أن حادثة النفخ في الصور ستحصل مرتين، وأول نفخة ستسبّب موت كلّ المخلوقات في الدنيا "إلا من شاء تعالى"، وثاني نفخة ستحصل بعدما تتبدّل الدنيا وتأتي الآخرة، وهذه النفخة ستسبّب عودتنا إلى الحياة، ويسميها القرآن بالساعة لأنها بالنسبة لنا هي أول ساعة من يوم قيامنا من الموت. والمشهور بين المسلمين أن ملاكاً اسمه إسرافيل(ع) يقوم بالنفخ في الصور، وتذكّر دائما أن القرآن لم يذكر اسم النافخ ولم يقل أصلا إنه ملاك ولكن اشتقاقاً من عموم ما نفهمه من القرآن عن توظيفه تعالى للملائكة للقيام بهكذا أعمال، ومما هو مشهور في عموم ثقافة المنتمين لهذا الدين الإلهي من اليهود والمسيحيين، لذا سنقول إنّ ملاكاً اسمه إسرافيل هو النافخ في الصور.

الصور في اللغة هو الشيء الذي نستعمله لنصدر صوتاً قوياً، فيسمعه عدد كبير من الناس، كالبوق قديماً، وكمكبر الصوت حالياً. طبعاً الصور الذي تتحدّث عنه الآية هنا ليس بوقاً مصنوعاً من خشب أو من معدن، وليس مكبراً للصوت، ولكنه "على الوصفية" شيء يستعمله "الملاك إسرافيل(ع)" فينفخ فيه، فيجعل في داخله "شيئاً لا نعرفه"، مثلما نجعل نحن الهواء داخل البوق "أو البالون"، فيصدر من الصور "شيء" يسبّب قيام كل الناس من موتهم، دفعة واحدة.

وصف النفخ في الصور مثل الوصف بالصيحة الوارد في العديد من الآيات ومنها الآية 53 من سورة يس {إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ}، حيث أمام عدد هائل من المخلوقات الميتة، يصدر أمر إلهي بإعادة هذا العدد الهائل إلى الحياة بنفخ "الملاك" في شيء ينشر الأمر الإلهي على عدد كبير، ونفس الحدث يوصف بالصيحة كتعبير عن أمر إلهي سينتشر على عدد كبير، فهي ليست صرخة "علماً أن كلمة صرخة أصلاً غير مناسبة لوصف الحالة"، ولا الصيحة مسموعة بالصوت، بل التعبير بالنفخ في الصور وبالصيحة هو وصف لانتشار الأمر الإلهي على عدد كبير ليتنفّذ.

النفخ في الصور ليس كما ننفخ نحن البالون بالهواء، حيث إن كلمة "نفخ" استعملها القرآن مراراً لتوصيف حالة سريان الحياة في المادة الجامدة مثل التراب، فالآيتان 29 من سورة الحجر و72 من سورة ص تنسبان النفخ له سبحانه في آدم(ع) فصار حياً، والملائكة(ع) نفخت في بطن السيدة مريم(ع) فصارت حبلى، وراجع في ذلك الآية 19 من سورة مريم {قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} مع الآية 12 من سورة التحريم {وَمَرْيَمَ ... فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا...}، والنبي عيسى(ع) كان ينفخ في الطين فيصير طيراً، كما ورد في الآية 110 من سورة المائدة {... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي...}، وهنا ينفخ الملاك في الصور فنتشكل نحن من التراب ونعود إلى الحياة.

صرت تعلم أن استعمال هذه الكلمات "نفخ وصور وصيحة..." على معناها الوصفي الحقيقي وليست تعابير مجازية، ولكن تصوّرها في ذهننا غير ممكن لنا حالياً لأنها توصّف شيئاً من عالم آخر، من عالم الملائكة التي لا يمكننا رؤيتها الآن، حيث في عالمها صور "بوق" يناسب تكوينه تكوين الملائكة، والنفخ فيه فعل يناسب تكوين الملائكة، فنحن لدينا رئتان ننفخ منهما، والملائكة تكوينها مختلف، ولكن لديها فعل توصف فيه بأنها تنفخ. ونفس الشيء الكلام عن الشهب التي ترجم بها الملائكة لتبعد الشياطين عن السماء العالية، فالشهب توصيف لشيء يناسب تكوين تلك السماء، فليست شهباً من المادة التي يتشكّل منها كوننا "سماؤنا"... ونفس الشيء وصف سجود الملائكة بتعبير يناسب تكوينها...

نرجع للآية، ذلك يوم الوعيد، زمن النفخ في الصور لتقوموا من الموت هو الزمن الذي وعدكم به تعالى، فهو ما قال تعالى إنه سيحصل، وعادة يسميه القرآن يوم "القيامة" من الموت، وهو اليوم الذي تتمحور حوله السورة لتنبّه من ينكر حصوله.

(وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ{21})
جرى النفخ في الصور وقمنا من الموت:

{وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ}، فحضر كل شخص كل إنسان سواء أكان مؤمناً أم كافراً، فكل نفس إنسانية تأتي ومعها اثنان:
{سَائِقٌ}، يسوقها فيمشي بها إلى حيث يريد، فيأخذها إلى هنا وإلى هناك في يوم القيامة، وسيمشي معها أيضاً،
{شَهِيدٌ}، وسترى أن الآيات ستصف الشهيد بالقرين بعد قليل، مما يشير لكونه كان شاهداً عليه في الدنيا يرى ويسمع ويسجّل ما يفعله الإنسان، وفي الآخرة سيرافقه ليشهد عليه بما فعله...

(لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ{22})
{لَقَدْ كُنتَ}، أيها الإنسان الناكر للبعث الجسماني والحساب، {فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا}، فلم تنتبه له فلا تدري به، حيث حين كنت في الدنيا ظننت بأنه لن يحصل فاشتغلت بشيء آخر، ولم تحسب له حساباً ولم تتوقّعه، ومتّ ففقدت وعيك، والآن بعد أن صرت في الآخرة وتحقّق البعث، {فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ}، فالغطاء الساتر الحاجز الذي كان بينك وبين ما تراه الآن في عالم الآخرة رفعناه، فقد عدت إلى الحياة وصرت قادراً على رؤية الآخرة، ففي حياتك في الدنيا كنت لا تطال العلم اليقيني بالغيب كمن يراه عياناً، فكانت قدرتك المحدودة مضافاً لها إهمالك لمسألة الآخرة ومضافاً لها البعد الزمني، كانت أغطية مانعة لك من رؤية الآخرة، وحين متّ فقدت وعيك وصار موتك أيضاً كغطاء مانع لك من رؤية الآخرة، حيث أعاد تعالى لك الحياة مع القدرة على الإبصار، {فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}، ففي هذا الزمن صارت قدرتك على فهم ووعي صورة الآخرة حادّة شديدة جداً، فصرت تراها بشكل قوي جداً، حيث أنت في حالة البعث الجسماني. مثلما نقول: السيف حادّ، نظره حادّ، لسانه حادّ، المعدن حادّ... فكلمة حاد تعني القوي الشديد بصفة ما، بصفة الرؤية، بصفة القطع أو الكلام أو الصلابة...

في يوم القيامة لا أحد يشكّ أنه فيها، فلا أحد هناك سيخطر بباله أنه يرى مناماً مزعجاً، ولا أحد هناك سيفكّر أنه واقع تحت تأثير السحر، أو أنه يتخايل... لا، بل كلّنا سنتلبّس بقوّة حالة وجودنا الحقيقي في عالم ما بعد الموت، وهنا التعبير بكشف الغطاء وحديّة البصر فهو إشارة لهذا المعنى، فلن يفكّر بأنه زاغ بصره وأنه يتخايل ما يراه حوله هناك... لا، بل سيكون لدينا يقين قوي بوعي كامل أننا في الآخرة، وهذا المعنى ورد في القرآن بصيغ متعددة ربما أصرحها التعبير الوارد في الآية 7 من سورة التكاثر {ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}.

(وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ{23})
{وَقَالَ قَرِينُهُ}، قال الذي كان مرافقاً لمدة طويلة للكافر الذي تجري محاسبته، ومن الواضح أنه الشهيد على أعماله الذي كان يتنقّل معه في الآخرة أثناء محاسبته، ومن الواضح أنه الذي كان "قريناً" مرافقاً له في الدنيا حيث قام بتسجيل أعماله... وقال القرين: {هَذَا مَا لَدَيَّ}، ما معي من أعمال لمن كنت قريناً له، {عَتِيدٌ}، مهيأ جاهز سلفاً، وستلاحظ فيما سيأتي من كلام أن القرين يشير إلى سيئات قرينه أنها كما هي بالضبط بلا زيادة ولا نقصان، ومن معرفتنا بمحور حديث السورة نعلم أن ذلك الإنسان كان منكراً للبعث الجسماني وبالتالي قام بالسيئات مخالفاً أوامره تعالى، وهذا الذي يقدّمه القرين فهو مجموع الأعمال السيئة للإنسان وعلى رأسها إنكار الآخرة.

إذن، السائق ساق الإنسان إلى حيث تتم محاسبته، والشهيد ينقل ما فعله الإنسان ليُحاسَب عليها...

(أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ{24})
نأتي إلى الجزاء:

يأمر سبحانه السائق والشهيد: {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ}، أتركاه ليصير في المكان الموصوف بسوء ما فيه، الذي تتأجّج فيه النيران، ارميا، {كُلَّ كَفَّارٍ}، كل من كان موصوفاً بتمام الكفر وبكامل ما تعنيه كلمة كفر، فأنكر أموراً من الواضح أنها صحيحة، فلم يوحّده تعالى، ولم يلتزم بالصالحات التي يأمر بها تعالى، ولم يؤمن بيوم القيامة ولا بالحساب... {عَنِيدٍ}، لا يقتنع بأي شيء، فكان مصرّاً على كفره ولا يؤمن رغم كل الأدلة. وفي بداية هذه السورة قرأنا بعضاً من الأدلة التي من المفروض أن يقتنع بها الإنسان "العادي" ولكن هناك "العنيدون" الذين لا يقتنعون إلا بما يقولونه هم!

الحكم الصادر هو رميه في النار، والسبب لأنه كان كفّاراً أي كثير الكفر، كثير الإنكار للحقائق الواضحة، وأكثر من ذلك فهو عنيد فلا يقتنع إلا بما يريده هو، ولا يغيّر رأيه حتى لو عرضت عليه مليون دليل...

بقي شيء، حيث إن العنادية مرض منتشر بين الناس في الكثير من أمورهم، وترى بذوره فينا منذ الطفولة، فيعاندك الطفل "وأنت تعانده"، ويعاندك الفتى بتصرفاته الطائشة "وأنت تعانده"، ويعاندك زميلك وصديقك وجارك... وأنت تعانده، ويعاندك المختلف معك في السياسة والدين وشؤون الحياة... وأنت تعانده... وغالباً ما نرى أنفسنا على حقّ والآخرين على الباطل، ونظنّ أن عنادنا صحيح لأن الآخرين يجب أن يتماشوا معنا...

هذه المشكلة هي نفسها يعاني منها الكافر، وأساسها متجذّر في قلبنا، في فكرنا ونفسيتنا، وكلما سلم قلبنا، رأينا الحقّ أوضح، والرؤية لوحدها غير كافية، فيجب انضمام التماشي مع الحقّ باتّباعه والسلوك على خطاه حتى نصل إلى سلامة قلب حقيقية.

أقول لك هذا، لأن الكثير من كلام القرآن يدور حول هذا المحور ليرينا سبب كفر الناس، فكلّنا لدينا قابلية رؤية الحقّ، وتمييز الخير من الشرّ، ولكن مع العنادية ولو لمرّة واحدة ضد الحقّ، ولو في موضوع تافه، فهذه العنادية ستسبّب خللاً في القلب، مرضاً فيه، ومع التمرّس من تكرار معارضة الحقّ الذي نراه بوضوح، يصير قلبنا مريضاً أكثر فأكثر إلى أن يعمى عن رؤية الحقّ، فيصير على قلبنا غلاف ويصير مطبوعاً بمعارضة الحقّ، وهذا هو العناد الذي تشير له الآية كإصرار على مخالفة كلامه تعالى.

العنادية توصيف له نفس نتيجة توصيف السور الأخرى للكافر بأن قلبه مطبوع وغلف... وأعمى وأصمّ...

(مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ{25})
تكملة الأسباب التي لأجلها سيرمونه في النار:

{مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ}، كان كثير المنع للأمور الجيدة الحسنة، فلم يقتصر على حرمان نفسه من الإيمان بل تمادى بالسوء وأشاعه بين الناس وشجّع عليه... وبشكل مباشر أو غير مباشر منع الآخرين من سلوك طريق الهدى، حيث إنّ كلمة

خير عامّة الانطباق على كل ما هو في مقابل شرّ، فالإيمان بالحقّ خير والكفر بالحقّ شرّ، والعمل الصالح خير، والعمل السيّء شرّ.

{مُعْتَدٍ}، لا يلتزم مجاله وحدوده، وهذا الوصف عام، فهو يميّز بفكره ونفسيته الحدود التي يجب الوقوف عندها وألا يتخطاها، حدوده ألا يفعل عموم السوء الفاسد، لا يقتل البريء ولا يزني ولا يعتدي على الآخرين بالضرب أو بالسرقة أو بالغشّ أو... وحدوده أن يؤمن بما هو حقّ، يؤمن بتوحيده تعالى وبكلامه... ولكنه اعتدى وتخطاها وكفر بالحق وفعل السوء.

وهو أيضاً، {مُّرِيبٍ}، المرتاب، الموصوف بالريبة، لأنه مريب كحامل لصفة الريبة. والريبة هي الإحساس الأوّلي بتكذيب أو تصديق شيء ما بمجرد سماعه، حيث هذا الشخص عُرض عليه الإيمان مع الأدلة ولكنه وللوهلة الأولى وفوراً ومباشرة رفضه بدون أن يفكّر فيه، والسبب معلوم، لأن لديه قراراً عميقاً بالكفر ولن يفكّر مرتين بأي حقّ وصلاح يُعرض عليه لأنه لا يريده.

نتذكّر من عموم القرآن أن هذه النوعية من الناس جادلت وناقشت في الآيات الإلهية، ولكن وفي نفس الوقت نجد تأكيداً قرآنياً أنهم على الريب رفضوا الإيمان، يعني هناك كلام عن تفكيرهم بالآيات ورفضها على هذا الأساس، وهناك كلام عن رفضهم لها بلا أي تفكير بها، والجامع لهاتين الحالتين اللتين تبدوان متعارضتين، أنهم استيقنتها أنفسهم وجحدوا بها كالحالة التي تصفها الآية 14 من سورة النمل {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا...}، فحين يبدو أنهم فكّروا ودرسوا الآيات ويسألون ويطرحون الإشكالات، إنما هم في الحقيقة ومن أساس داخلهم رافضون للإيمان مهما كان نوع الأدلة، أول حالة لهم هي الإنكار استناداً للريب، لأنه إنكار مبدئي ثابت لكل ما هو حقّ وصلاح ومتعارض مع ما يرغبونه ويهوونه، وبعدها تصدر عنهم الإشكالات والتعليقات التي بيّن القرآن بطلانها، بل وأصرّ القرآن على إظهار سخافة كلامهم حين ردّ عليهم كحالة الآية 78 من سورة يس {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ}.

الريب هو أوّل وهلة تصيبك من سماع الشيء، حيث تنكره أو تصدّق به لمجرد سماعك له وبدون أي تفكير. والشكّ هو اختيارك للتصديق أو الإنكار مع إعلانك أنك لم تستند لدراسة أو تفكير. والظن هو تصديقك أو إنكارك لشيء وأنت مستند إلى معلومات أو تفكير به، طبعاً هذا وصف لك بغضّ النظر عن صحّة ما استندت إليه وبغضّ النظر عن صحّة أو فساد النتيجة التي وصلت إليها، إذ قد تكون غير مطابقة للواقع. واليقين هو تطابق اعتقادك مع الحقيقة، من تعاملك مع الشيء مباشرة أو من خبر ممن تثق به... فإن لم يطابق الواقع فهو لا يوصف باليقين حتى لو وصفت أنت نفسك باليقين من شدة تأكدك منه. وهكذا صرت تعلم الفرق بين ما اصطلحوا عليه في كتب المنطق عن هذه الكلمات وبين معناها اللغوي الأساسي الأصلي الذي استعمله القرآن بدقة مع تقويمها عبر تحديد استعمال دقيق لها.

(الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ{26})
هذا الشخص وبناءً على كلّ ما سبق من مواصفات، صدر عليه الجزاء بالإلقاء في جهنّم لأنه:

{الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ}، فصاحب الاسم المحدّد المميّز الله سبحانه هو الكائن الوحيد بالصفات والقدرات الفائقة والبقية الله تعالى خلقهم، ولكن الإنسان النموذج الذي اختارته السورة كأسوأ ما يمكن لإنسان أن يفعله، فمن أوهامه وبلا دليل قال إنه يوجد كائن أو كائنات أخرى تشاركه تعالى في الألوهية.

ننتبه جيداً، حيث كما عبّر القرآن عن بعض الناس أنهم موالون للكفّار والشيطان، حتى ولو لمرة واحدة تركوا كلامه تعالى سمّاهم القرآن أنهم تركوا ولايته تعالى ووالوا غيره، حيث والوا من سمعوا كلمته "من دونه تعالى"، وهنا يمكنك أن تبدأ بتعداد الإله الآخر معه تعالى الذي جعلوه له من الهوى السيّء، فإن اتبع الإنسان هواه فإلهه هواه كما صرّح القرآن في الآية 43 من سورة الفرقان {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا}، وهناك عبدة الطاغوت كما ورد في الآية 60 من سورة المائدة {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ...}، وهناك من عبد الشيطان بشكل مباشر أو غير مباشر لأنه أطاعه كما ورد في الآية 44 من سورة مريم {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ...}، وإن آمن بالطبيعة أو بالصدفة أو بالدهر أو... بأنها خلقته فهذه

هي آلهته، حتى لو لم يصفها بأنها آلهته، عملياً هي آلهته مثل حالة عابد الهوى، ومثل حالة الناكر أن الله تعالى رزقه وآمن بقواه وشطارته وحنكته.

{فَأَلْقِيَاهُ}، ارمياه أيها السائق والشهيد، {فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ}، في الضرر الذي لا يمكنه تحمّله ولا الاعتياد عليه.

تذكّر دائماً أننا كبشر حيث جعل سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرّف عليه سبحانه من ملاحظة أفعاله "آياته في خلقه" ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء... وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق بالقوّة الإلهية الفائقة عند الوقوع في الشدائد... لذلك وضعنا كلمة نصف بها الكائن ذا الصفات والقدرات العالية جداً عن قدراتنا، وهي كلمة "إله" كوصف لذي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلّق به عند الوقوع في الورطات...

وفي الحقيقة إنّ الكائن الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة، والذي ليس مخلوقاً هو الله سبحانه، حيث تساهل الناس في استعمال كلمة إله لتنطبق على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، حيث يطلقونها على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أن فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي...}.

والقرآن يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهي، ويقوّم اللغة ككلّ، ويقوّم دقة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة "إله"، حيث يخبرنا أنها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرّج في استعمالها.

وانتبه جيداً، إنّ المشركين الناطقين باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... وغيرهم من أهل اللغات الأخرى استعملوا كلمة إله "بالعربية أو بما يرادفها من اللغات الأخرى" بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

وقارنها مع كلمة "ربّ"، حيث أنا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... لأن هذه كلمة تتحمّل التدرّج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهي، فهي لا تتحمّل التدرّج، لأنها حصراً له تعالى ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهي.

كلمة إله في حقيقة معناها لا تتحمّل التدرج لينوصف بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، حيث حين يخبرك أنه خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، وسبحانه وظّف الملائكة(ع) التي خلقها لتنفيذ بعض أوامره... وهكذا ترى بوضوح أنه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، لذا ماذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدّد له والمميّز "الله" جلّ جلاله فعل كل شيء، إذن ما معنى ألوهية غيره! وهذا ملخّص مبسّط للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

وألفت انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، حيث حصروا استعمال كلمة إله للإله الكبير، واستعملوا للآخرين وصف الربّ، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربّة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون: إله المطر وإله الحرب... وعلى كل حال إنّ القرآن رفض توصيف غيره تعالى بالألوهية والربوبية من مستوى إلهي، لأنّ المشركين يعتقدون بوجود كائن "ربّ" مسيطر على المطر من مستوى إلهي وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم أنه توصيف لألوهية أربابهم.

ومن ناحية ثانية لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، حيث يصير الهوى إلهاً كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ...}، لأنها لا تشير لاعتقاد الشخص بأن هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لدين فيه ما يهواه، عملياً هو يعبد هواه.

وبالنسبة لأصل كلمة "الله" فهناك كلام كثير حولها، ويبدو من تتبّع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حالياً بالسامية... أن الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة "إله" ومنها جرى اشتقاق اسم العلم

"الله"، وهذا الاسم لم يكن متداولاً في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط حيث للآخرين نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، لأن كلمة إله واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات ما يسمّى بأصل اللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة الله من وصف الإله ومتى، فهل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قديماً عبر الوحي، فالأرجح عندي "استذواقاً" أنه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك "استذواقاً" لأن المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين بلا مستند صريح لتأكيد كلام ما، لأنه بطبيعته يصير استذواقياً لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا ذات نفسي في سياق كلام آخر أستذوق أنه تعالى هو سمّى نفسه، لذا ليس من المعقول ولا من المقبول منك أن تطلب حسماً من الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دليلاً حاسماً، ولا مقبول من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنه الصحّ إلا اللهم إن قدّم دليلاً دامغاً، وهذا لا يبدو ممكناً في مسألتنا هذه.

(قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ{27})
قال قرينه، قال الذي كان في الدنيا مقترناً، مرافقاً لمدة طويلة لهذا الإنسان الذي تتم محاسبته: {رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {مَا أَطْغَيْتُهُ}، لم أخرج عن الحدود فيما شهدت به على هذا الإنسان، فلم أزد على أعماله السيئة أي شيء، فهذه الأعمال السيئة هو قام بها كما شهدت بها عليه بالضبط، وضخامة سوئها ليست مني ولا علاقة لي بها، {وَلَكِن}، هذا الإنسان، {كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ}، فكان مبتعداً بشكل كبير عن الطريق الصحيح وماشياً على الطريق الخطأ وبانحراف كبير عن طريق الهدى.

نعلم من آيات متفرقة في القرآن أن الإنسان الذي يعلم أنه سيدخل إلى جهنم، يطلب منه سبحانه فرصة ثانية... ويقول بأنه مستعد لفعل أي شيء يطلبونه منه مهما كان، المهم ألّا يرموه في جهنم... وأيضا يناقش الإنسان ويقول إنّ الزعيم أو رفيقه أو زوجته أو أباه أو ... هم المسؤولون عن ضلاله وهو بريء... أو يستحقّ الرحمة والشفاعة... والكثير من أنواع النقاشات التي ستحصل يوم القيامة، وهنا الآية نقلت لنا فقط ما قاله القرين عن نموذج إنسان سيّء جداً.

نفهم من كلام الآية هنا أن الإنسان الذي صدر القرار برميه في جهنّم تجادل مع قرينه، فكل كبيرة وصغيرة أحصاها له وشهد بها عليه بناء على ما تسجّل، وورد هذا المعنى في الآية 49 من سورة الكهف {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}، مضافاً لما قالته الآية 111 من سورة النحل {يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}، فمن هذه الآيات تفهم أن الذي تذكره الآية هنا كنموذج فهو برّر واعتذر... وهوّن ما فعله، واعترض على تجميع الكبيرة والصغيرة... فقال القرين لربنا سبحانه إنه لم يُطْغِهِ على هذا الإنسان فلم يزد له في سيئاته بل هي ضخمة بسبب ضلاله الضخم.

كثيرا ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيرا أم شرا، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فقد ضلّ عنك صيدها. واستعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، فلم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} رداً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ{28})
{قَالَ}، الله سبحانه وتعالى موجّها الخطاب: للقرين الشهيد وللإنسان الذي تجري محاسبته، وهو الذي يخاصم ويناقش محاولا النجاة من النار، فقال لهم ربنا سبحانه:

{لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ}، والخصام هو عموم أي خلاف يسبّب حالة نفسية بين شخصين من النفور والكره وصولا إلى العداوة، فلا تتخالفوا أمامي مع كرهكم لبعضكم البعض، {وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم}، فسبق مني في الحياة الدنيا، حيث قبل خصومتكم الان تقدّم إخباري لكم، {بِالْوَعِيدِ}، بشيء سأقوم به وسأفعله حتما، فقد أنذرتكم من قبل هذا اليوم أني سأعاقب المخالفين لأوامري.

لا معنى لهذه الخصومة بين الإنسان وقرينه الشهيد، فطالما تطابقت أعمال الإنسان في الدنيا مع محاسبته هنا، فقد تحقّق وعدي له بمعاقبته، فلا داعي للخصومة مع القرين وهي لن تغيّر أي شيء.

لاحظ السورة هنا ترينا أن الكفر الآن بالآخرة لن يغيّر أي شيء مما سيحصل، وها هي تخبر الكافر بها بما سيحصل معه ولم يتجهّز له... وهذا الوعد إلهي حتمي.

توجيه الكلام الإلهي للإنسان وللقرين بأن لا يختصما لأنه تعالى قد قدّم لهما بالوعيد، واستعمال صيغة الجمع "تختصموا وقدّمت إليكم" يعطي معنى تكرّر هذه الحالة مع كل قرين وإنسان سيّء... فالوعيد بالعقاب ليس للقرين فهو مجرد شاهد، فهذا الكلام يأتي من بعد انتهاء تثبيت أفعال الإنسان وانتهاء محاسبته وصدور الحكم الإلهي، مما يعني للإنسان السيّء أنه لن ينتفع من المخاصمة مع القرين من بعدما ثبتت عليه أفعاله السيئة وصدر الحكم، فقد وعده تعالى بالعقاب وسيحصل، وتعني للقرين أنه لا داعي ليردّ على الإنسان السيّء، فلا داعي للتخاصم معه حول إنكاره أو تبريره أو تسخيفه... للسيئات التي فعلها فمن بعدما ثبتت عليه، فالوعد الإلهي بمعاقبة المسيء لن يغيّره مخاصمة الإنسان لقرينه...

نلاحظ القرآن يعرض علينا طريقته تعالى في التعاطي مع الأمور، فلم يرد سبحانه أن يكون المراقب والمحاسب أو القاضي والجلاد بشكل منفرد لوحده تعالى، ولذلك وظّف سبحانه كائنات وهي الملائكة(ع) حيث سنتمكّن من التعامل معها مباشرة في يوم القيامة، وهم سيقومون بعرض ما نتج عن مراقبتهم لنا، وسيقومون بمحاسبتنا، وتعذيب الكفرة... كلّ ذلك أمامه تعالى وبموافقته وإمضائه... وهذه السنّة الإلهية بالتعاطي مع الأمور بحلم وشفافية... تراها واضحة في كلامه تعالى مع إبليس حين سأله عن سبب رفضه السجود لآدم(ع)، فسبحانه يعلم ما في نفس إبليس، بل ويعلم مسبقا من حين ما شاء خلق السماوات والأرض بأن إبليس لن يسجد، ويعلم بما سيقوله إبليس... ورغم ذلك سأله سبحانه ليعطيه المجال ليسمع تبريره...

على نفس هذا المعنى تلاحظ العديد من الآيات تتضمّن سؤالا منه تعالى للمشركين أن يأتوا بسلطان، بأدلة تثبت صحّة شركهم... وبنفس الشفافية الاستغراب من المشركين أنهم كيف علموا بوجود آلهة غيره تعالى، وهو سبحانه لا يعلم بها! وتقرأ ذلك في الآية 18 من سورة يونس {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

ضع هذه الشفافية الإلهية دائما في بالك وسترى قرآنا مختلفا عمّا هو شائع في غالبية التفاسير والأدبيات، فسبحانه حتى تشريعات الحلال والحرام برّرها لنا في قرآنه...

(مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ{29})
{مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ}، فما قلته لا يتبدل لا يتغير بشيء آخر، فقد قدّمت إليكم بالوعيد ولن أتراجع عمّا وعدتكم به، فأنا أرسلت لكم الأنبياء والكتب، وأخبرتكم أنه يوجد عقاب شديد جدا للذين يشركون ويفعلون السيئات، ولن أبدّل قولي فلن أغيّر قراري فلن أعفو عنكم ولن أخفّف عنكم العذاب.

{وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ}، فالذين مفروض منهم طاعتي لن أعاملهم إلا بالحقّ، فمن قبل في الدنيا والآن في الآخرة لم ولن أظلمهم، فصفة الظلم، فصفة معاملتهم بغير عدل ولا إنصاف فهي منفيّة عني تماما. فهذا الذي جرى معك أيها الإنسان من حساب والعقاب عليه بالرمي في جهنّم العذاب الشديد، فهو ما تستحقه بالتمام وليس فيه أي نوع من الظلم.

قال بعضهم: ظلام صيغة مبالغة فتنفى كثرة الظلم، ولكن لا تنفي قلّة الظلم. مثلا أقول: ما أنا بمزّاح. أي لست كثير المزاح، ولكن يمكن أن أكون قليل المزاح. ويقصدون بأنه سبحانه لا يظلم كثيرا ولكن قد يظلم قليلا! لقد كان الأجدر

بالقائلين لهذا الكلام الانتباه للكثير من الآيات التي تنفي كل أنواع وأشكال ودرجات الظلم، وخذ مثلا ما ورد في الآية 49 من سورة الكهف {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}. وما ورد في الآية 25 من سورة آل عمران {فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}، وخذ التعبير الواضح الصريح من الآية 40 من سورة النساء {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...}.

فهنا المبالغة لنفي ظلم الله تعالى للمرميين في جهنّم فالمقصود به أنه: لشدة العذاب الذي يحل بهم، يخطر ببالنا بأنهم صحيح يستحقون العذاب ولكن ليس بهذه الشدة، ولذلك يخبرنا تعالى بأن العذاب شديد، ليس لأنه تعالى ظلام بل لأنهم يستحقون هذه الشدة في العذاب.

وكلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، فكأن كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، فكلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، فهي جمع الجمع، فأثناء الكلام بدقّة تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، فتقول الآيات: عبيد. ووردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وتكون لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وتكون لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، فهي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخرون جاءهم رسول، وعبيد آخرون... فجمع الجمع "عباد"، فكلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جدا عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

(يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ{30})
{يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ}، في الزمن الذي نقول فيه للمكان الموصوف بسوء ما فيه، حيث فيه النار المتأججة والضرب والإهانات، والمشهد هنا من بعد انتهاء الحساب والشروع بإلقاء الكافرين في جهنّم:

{هَلِ امْتَلَأْتِ}؟ هل بعد رمي الكثير من المذنبين صرت معبّئة بالكامل ولم يعد هناك مكان لرمي مذنب آخر؟

{وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ}، فهل يوجد بعد مذنبون تريدون رميهم فيّ، حيث لا يزال عندي وساعة لوضع المزيد من المذنبين.

نلاحظ في القرآن سخريته من الكافرين أحياناً، وذلك رداً على سخريتهم من كلامه تعالى، ونلاحظ كثيراً في القرآن أيضاً معاملتهم بسخرية واستهزاء وقلّة قيمة في الآخرة، لأنهم هنا في الدنيا سخروا من الدين الإلهي ومن كلامه تعالى ومن رسله ومن المؤمنين، فهنا مثلاً بعضهم يقول: إن كان يوجد آخرة وحساب كما تقولون، فأين سيضع ربّكم هذه المليارات من الناس ليعذّبها! فهنا الآية تصوّر لنا مشهد إنسان كان يقول هذا الكلام، وانتهى حسابه واستلمه خزنة جهنّم ليرموه في النار، وللسخرية منه كما كان يسخر من قبل، يأتي هذا السؤال لجهنّم أمامه، ويأتي الجواب الساخر ليرعبه...

نلاحظ أيضاً أن جهنّم كمكان، بنيت على قياس سيئات من سيدخلها من الناس، فهي مبنية من سيئاتهم، لذا امتلاؤها للنصف ممكن ولكن وكما ترى لا معنى لهذه الجملة، لأن كل شخص سيدخل إلى جهنّم، سيدخل إلى الحيّز الذي بناه بسيئاته، لأن جهنّم ستمتلئ للآخر حتماً، والآية هنا والآية 13 من سورة السجدة {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}، وغيرها من الآيات لا تشير لتعبئتها بالكامل كتكديس للناس فوق بعضهم البعض، لأن ربما هذا ما تتخيّل حصوله من التعبير بملء جهنّم منهم، ولكن لا معنى لهذا التخيّل لأنه غير متطابق مع الواقع، إذ لكل شخص منهم حيّز في جهنّم بناه بسيئاته، وعلى كلّ حال السؤال والجواب الذي نقلته الآية هنا هو للسخرية من الذين سخروا من العقاب وجهنّم، وسيرمونه في الحيّز الخاص به...

ننتبه، هنا وبصراحة ووضوح تحدّثنا الآية عن نوع من الوعي لجهنّم، فهي تسمع كلامه تعالى وتجيب عليه، وقرأنا في القرآن أمثال هذا عن السماوات والأرض، والجبال والطير والنمل والهدهد... حيث ذكر لنا القرآن أن لهم وعياً ما، وخذ كمثال ما ورد في الآية 18 من سورة الحجّ {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ...}، وفهمنا من عموم القرآن أن تصنيفنا نحن للكائنات "حيوان ونبات وشيء، عاقلة جامدة، مفكّر وبهيم وجامد، حيّ وبلا حياة..."، هذه التصانيف صحيحة ونابعة من قدرتنا نحن على التعامل مع ما حولنا، أمّا الإله سبحانه فقادر على التعامل مع ما نسمّيه نحن بالجماد.

أمامنا نماذج قرآنية عن منحه تعالى بعض الناس قدرة التعامل مع كائنات لا تندرج في تصنيفنا نحن لها على أنها واعية "مفكّرة" بالمستوى الإنساني، كتعامل النبيين داوود وسليمان عليهما السلام مع الطير، كما ورد في الآية 16 من سورة النمل {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ...}، وتعامل النبي داوود(ع) مع الجبال حيث كانت تأوّب معه، كما ورد في الآية 10 من سورة سبأ {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ}، وتعامل النبي سليمان(ع) مع النمل كما ورد في الآية 18 من سورة النمل {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ...}.

إذن، جهنّم لها وعي ما، ولا نفهمه الآن مثلما لا نفهم نوع وعي كوكب الأرض والجبال... ويبدو أننا هناك بطريقة ما سنسمع جهنّم ونفهمها لأن مقصود الآية هو أن تردّ جهنّم بالجواب الساخر لمنكر العقاب والبعث الجسماني حين كان يقول بأنه لا يوجد مكان يسع كل الناس لتعذيبهم... حيث هناك سيسمع جواب جهنّم، وقبلها سيسمع جلده ينطق ويشهد عليه كما ورد في الآية 21 من سورة فصلت {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ...}.

لمزيد من التفاصيل حول ذلك راجع دراسة الآية 44 من سورة الإسراء {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...}.

بقي شيء، قديماً تصوّر الكافرون أن جمع كل البشرية من أوّلها لآخرها ببعثها لمحاسبتها ومجازاتها، سيحتاج لمكان ضخم غير متوافر، لأن الأرض حجمها صغير لتكون النار عليها والجنّة عليها أيضاً، وكلام الآية هنا يردّ ضمناً على ذلك، ورغم كلام القرآن عن ضخامة وساعة جنّة الآخرة بعرض السماوات والأرض كما تقرأ في الآية 133 من سورة آل عمران {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}، أصر بعض المؤمنين على المعطيات التي معهم عن الأرض التي نحن عليها كمكان وحيد، واستصعب بعضهم تصوّر أرض ضخمة أو نار ضخمة، وأنت تعلم أن امتداد النظر في الفضاء نهاراً لترى النسور عالية، وترى الشمس بعيدة جداً عنها... وليلاً بقبّة النجوم والقمر البعيد... كافيان لك لتدرك أن الوساعة التي على سطح الأرض هي لا شيء كمسافة ومساحة أمام وساعة الفضاء، لذا على الأقل يمكنك تصوّر تكبير الأرض بحجم الوساعة التي تطالها عيناك من وساعة الفضاء، وبهذا التصوّر البسيط تحصل على صورة أرض ضخمة جداً جداً.

على أي حال، وبتطوير تصوراتنا بناءً على معطياتنا الحالية، إنّ كوننا سماء من سبع سماوات ولوحده فيه تريليونات المجرات، والمجرة تحوي تريليونات الكواكب، وكوكب واحد من كواكب أي مجرة أكثر من كاف لحشر تريليونات البشر عليه لتعذيبهم... وبقية الكواكب جنّات... لذا مع معطياتنا العلمية الجديدة عن وساعة كوننا أو بدونها وبالاعتماد على النظر في الفضاء الفسيح الواضح مدى ضخامته، تخصيص مكان ليكون جهنّم لتعذيب تريليونات من البشر، مسألة سهلة جداً.

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ{31})
ننتقل الآن لنهاية الذي آمن بالبعث واستعدّ له:

{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ}، درجة درجة جرى تقريب المكان الموصوف بروعة ما فيه، {لِلْمُتَّقِينَ}، للمتجنبين المتحاشين لشيء ما، والكلام عن المتجنبين الكفر بالحقّ ومتجنبين فعل السوء وهو نفسه تجنّب غضبه وعقابه سبحانه، {غَيْرَ بَعِيدٍ}، فهي أصلاً غير بعيدة كثيراً عنهم، حيث كانوا يرونها بوضوح أثناء الحساب، ويتم تقريبها منهم شيئاً فشيئاً كلما مرّت أيّام الحساب من بعد يوم القيامة.

تتذكّر أن أوّل يوم بالنسبة لنا من أيّام الآخرة هو يوم قيامتنا من الموت، ويليه أيام حشرنا وفرزنا ومحاسبتنا الفردية والجماعية ووقوف الأشهاد... وصولاً إلى آخر يوم قبل دخول المؤمنين إلى الجنّة والآخرين إلى النار، ويعبّر القرآن عادةً عن هذه الأيام بالجملة بتعبير يوم، أو بتعبير يوم القيامة، أو بتعبير يوم الحساب... حيث إنّ كلمة يوم مرنة وتشير لعموم أي زمن سيقع فيه حدث أساسي، وتنطبق حتى على أيام وقع في كل واحد منها حدث أساسي، ومجموع الأيام له عنوان واحد لحدث أساسي، لذا كل الأيام يصير وصفها أيضاً يوم... وهذا هو الاستعمال العربي لكلمة يوم، وهكذا استعملها القرآن.

الآية هنا تصور لنا يوم "زمن" الحساب الذي لم ينته بعد، وهو مؤلّف من أيام الحساب الفردي والجماعي... والمؤمنون مجموعون في مكان واحد بانتظار انتهاء زمن الحساب، وأثناء ذلك يقرّب سبحانه الجنّة منهم، فيتسلّون ويفرحون بالنظر إلى الجنة التي سيدخلونها.

(هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ{32})
{هَذَا}، في إشارة إلى الجنّة التي أزلفت، {مَا تُوعَدُونَ}، ما قال تعالى إنه سيفعله، {لِكُلِّ أَوَّابٍ}، لكل من كان في حياته العادية يذهب في أمور متعدّدة "وهذه حالة الذهاب" ولكن في النهاية فإن إيابه رجوعه إلى المظلّة الإلهية "وهذه حالة الإياب" فلا يثبت على خطئه ولا على رأيه... حيث إنّ موقفه وإيمانه ودينه و... كلّه تحت مظلّته تعالى، ولا يرجع ولا ينتسب ولا يؤمن... بأي شيء آخر.

هذا الوعد لكل {حَفِيظٍ}، لمن كان يرعى ويعتني، والكلام عن الذي حافظ على سلامة قلبه، فآمن بالحقّ وعمل الصالحات، وعملياً هو لم يضيّع أوامره سبحانه، فإذا كان العمل أو القول أو المال... سيئاً، تركه، وإن كان صالحاً فعله.

(مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ{33})
{مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ}، حيث كان لديه شعور بوجوب العمل على تجنّب خطر عقابِ الذي يعتني بالمخلوقات لما فيه مصلحتهم، {بِالْغَيْبِ}، فهو لم يَرَ الآخرة ولا النار ولا الجنّة... فهم غائبون عنه، ورغم ذلك فعل ما يجنّبه خطر عقاب الرحمن.

تلاحظ الآية استعملت صفة الرحمن له تعالى، وهي تعني العناية، فلولا رحمته تعالى لما تمكنّا من تجنّب خطر عقابه سبحانه، لأن من رحمته غفر وكفّر عن الذنوب وضاعف الحسنات... وبذلك نجونا من العقاب.

{وَجَاءَ} "في يوم القيامة" {بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ}، حيث إن أساس فكره ونفسيته كان مُنِيباً ولم يكن فيه أفكار وقرارات منفصلةً مختلفةً عن كلامه تعالى، بل جاء بأساس فكري ونفسي كان يرجع في كل أموره له تعالى فقط.

بعض المتذاكين في عصرنا قالوا إن القلب عضلة في الصدر ليس لها عمل سوى ضخّ الدم، وإن الدماغ هو الذي يأخذ القرارات، والآية تقول إن القلب منيب، لأن القدماء من العرب واليونان وغيرهم كانوا يعتقدون بأن القلب هو المسؤول عن اتخاذ القرارات وعن المشاعر... هنا ننتبه جيداً، في اللغة العربية وفي غيرها من اللغات، كلمة قلب نقصد بها أساس الشيء وما هو مركزي فيه. معنوياً تشير لأساس الفكر والنفسية فينا، ولأساس ما يجعل الشيء يعمل... ومادياً تشير لعضو أو لجهاز... مركزي في الشيء، كالعضو مضخة الدم، وكقلب المحرّك...

الآية هنا لا تتحدث عن علم تشريح الإنسان، بل تستعمل الكلمة التي يستعملها كل البشر عندما يقصدون الحديث عن القلب واللب والجوهر والأساس... الذي يتحكم بتصرفات الإنسان، حيث نقول لشخص إن قلبه طيب، ونقصد أنه يتصرف بطيبة وحنان، ولسنا نقصد أبداً أن قلبه النابض بالدم طعمه طيب، ولا نقصد أن طيبته نابعة من عضلة قلبه... وهناك جملة شائعة في كل اللغات تقريباً: افتح لي قلبك. وكلنا نفهمها بأن المقصود منها أن تجعلني أدخل إلى أساس فكرك ونفسيتك "مشاعرك". والقرآن استعمل كلمة قلب عندما أراد الإشارة للأفكار والنفسية الأساسية في داخلنا، حيث يشير بها لقناعاتنا الفكرية والنفسية الأساسية.

بقي شيء آخر، حيث إن الخشية ليست مرادفة للخوف، لأن الخوف هو شعور سببه تصوّر التلبّس بحصول الضرر المعنوي أو المادي من شيء تشعر بفقدان إمكانية تجنب ضرره، والحلّ باقتحامه لتحمّل نتائجه أو الفرار منه إن

استطعت. أمّا الخشية فشعور سببه تصوّر التلبّس بحصول الضرر المعنوي أو المادي، ولكن مع الشعور بضرورة تجنّب الشيء غير المرغوب والذي تتوقّع حصوله، حيث تشعر بإمكانية تجنبّه، ولا تريد اقتحامه. كمثال، المؤمن يخاف من عقابه تعالى إن عصاه لأنه يعلم أن العقاب لا يمكن تجنّبه، والمؤمن يخشاه تعالى لذا لا يرتكب الذنب لأنه يتوقّع العقاب. في حالة الخوف تصير المواجهة مع الخطر حتمية، أمّا في حالة إمكانية تجنّب الخطر فهي الخشية. ضع هذا المعنى في بالك وسترى روعة في الدقّة القرآنية عند استعمال هذه التعابير، ولتكن لك نموذجاً عن الدقة الإلهية باستعمال لغة بشرية، وتقويم استعمالها، لأن الكلام عن النبي محمّد(ع) بالمبالغة التي لا معنى لها ولا ضرورة ولن ترفع من قيمة النبي بقولهم عنه (ع) أفصح العرب، والكلام عن بلاغة الإمام علي فيما جمعوه من كلامه في كتاب نهج البلاغة، والكلام عن بلاغة أصحاب المعلقات الشعرية والمخضرمين من شعراء وخطباء العرب... والذي ضمناً يعني استعمال هؤلاء للكلمات العربية بدقة، لذا لا هؤلاء ولا أي مخضرمين من أي لغة أخرى من البشر سيتخطون القدرات البشرية ليصير استعمالهم للغة البشرية بالدقّة التي استعملها بها الإله سبحانه وتعالى.

لاحظ الفرق الهائل بين كلام القرآن من جهة وبين كلام النبي(ع) والإمام علي وبقية الصحابة ومعهم المخضرمين من بلغاء العرب، ولا أقصد بالفرق حصر النظر إلى ما يسمّونه بالبلاغة، بل أشير بالخصوص إلى الفصاحة باستعمال الكلمات بدقّة، لأنك دائماً في كلامهم تجد استعارات وكنايات ومجازاً... باستبدال الكلمة المطلوبة بكلمة أخرى، وهذا ما لا تجده في القرآن، وراجع دراستنا هذه لترى أي كلمة قرآنية قالوا إنها ليست دقيقة وإن قواعد البلاغة برّرت استعمالها، وسترى أن هذا هو مستواهم هم للتعامل مع اللغة وليس مستواه عزّ وجلّ.

بعبارة أصرح، لا مشكلة بيننا نحن البشر باستبدال كلمة دقيقة للمعنى المطلوب بكلمة أخرى، بل ونتفنّن في ذلك ونسمّيه بالبلاغة، ولكن أحياناً كثيرة نفتقد للدقّة بالتعبير، لذا تخوننا العبارة لأننا بشر ولا واحد منّا يستطيع إحصاء كلمات لغته لتكون كلّها في باله عندما يتكلّم... ونتساهل ونتراخى مستعملين أقرب كلمة للمعنى المقصود... هاتان الحالتان لا تجريان على الإله سبحانه وتعالى، حيث لا سبحانه اعتمد فنّ البلاغة بالقواعد المزاجية الاستنسابية الاستذواقية التي تجعل نفس الكلمة والجملة بتبريرات بلاغية مختلفة فيما بين علماء البلاغة... ولا خيانة العبارة يمكن أن تصيبه تعالى.

للأسف لم ينتبه أكثر علماء المسلمين لذلك، وللأسف نزّلوا مستوى كلامه تعالى إلى مستواهم البشري بدلاً من الاستفادة من حالة استعمال الإله سبحانه للغة من لغات البشر والذي سينتج عنه حتماً استعمال دقيق وتقويم للّغة المستعملة.

(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ{34})
{ادْخُلُوهَا}، أيها الموصوفون بالتقى والأوب... كونوا في الجنّة، {بِسَلَامٍ}، حيث تشعرون بأنكم خالون من أي خطر أو إزعاج، براحة وسعادة من دون أي إزعاج أو خوف أو أي شيء يسبب الحزن أو أي نوع من المشاكل، حيث لا منازعة ولا مخاصمة ولا تعب ولا حلال ولا حرام ولا واجب ولا مراقبة ولا عقاب... بعد الآن. بل فقط أمور مفرحة توجد في الجنة.

{ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ}، فهو زمن دخولكم إلى الجنّة ولا نهاية له، لذا لن تموتوا بعد الآن ولن تخرب الجنّة ولن تنهار ولن يحصل معكم أي شيء يسبّب خروجكم من الجنّة أبداً بتاتاً.

ننتبه دائماً، حيث في العديد من الإشارات القرآنية نرى لفت انتباهنا لما في الدنيا من ضخامة هائلة وروعة في التفاصيل كنموذج لقدرته تعالى الفائقة عمّا يقدر على فعله سبحانه حين يعدنا بجنّة رائعة خالدة. مرّ معنا هنا في مقدمة السورة "وسيرد بعد قليل" حديث عن السماوات والأرض وبعض عناوين تفاصيل ما حولنا، لننتبه أن كائناً بمواصفات إله حقيقي وراءها، ولنفهم عظيم قدرته، وبالتالي لنفهم أنه سيحقّق وعده بإعادتنا إلى الحياة... وصولاً إلى قدرته تعالى على العقاب وعلى الثواب بالشكل الذي تعرضه الآيات من شدّة العذاب وروعة الثواب.

(لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ{35})
{لَهُم}، للمؤمنين في الجنة، {مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا}، حيث هناك خيارات عديدة أمامهم وهم يحصلون على ما يريدون وما يشتهون من أي نوع من الملذات، أو أي فكرة تخطر على بالهم أو أي شيء يحبونه سيتحقق لهم، وليس هذا فقط بل

يقول الله سبحانه: {وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}، إذ عنده سبحانه أشياء كثيرة لم تخطر على بالهم، ونرى ذلك واضحاً في الآية 17 من سورة السجدة {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

الحياة الخالدة في الجنّة لن تكون مملة أو روتينية متكررة... وهذا ما تفهمه من فحوى الآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}، حيث سيؤمِّن سبحانه للمؤمنين وسائل سعادة وفرح وتسلية بما يفوق مخيلة الإنسان المحدودة أمام ما يقدر سبحانه على تقديمه للمؤمنين، لأن المزيد عمّا يشاؤون سيكون بالنوع والعدد والتجدّد.

نلاحظ انتشار الاعتقاد بين عوام المسلمين أن هذه الجملة من القرآن: فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وهذه الجملة حديث منسوب للعديد من الشخصيات الإسلامية، وهي ليست من آيات القرآن مع العلم أنها صحيحة ومشتقّة من القرآن من آيات مثل آيتنا هنا.

في بعض الكتب فسّروا "المزيد" هنا بأنه النظر إلى وجهه تعالى بناءً على حديث منسوب للرسول(ع)، وبغض النظر عن صحة نسبة الحديث له (ع)، حيث إنّ احتمال أن يكون (ع) لم يقله وارد، واحتمال أن يكون المقصود شيئاً وما نقلوه شيءٌ آخر... وارد، ولكن بغضّ النظر عن ذلك، كيف يجسّمونه تعالى ويجعلون له وجهاً من عينين وفم وأنف؟! لأن هذا الفهم دارج في ثقافة بعض عوام المسلمين ومعهم بعض المرتدين للزي الديني لعلماء الدين! وبعض العلماء المرموقين الذين يعتمدون هذا الحديث كتفسير للآية، لديهم تخريجات له حتى لا يتعارض مع ما يقوله القرآن بأنه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، وحتى يصير معنى الحديث كمعنى الآيات التي ذكرت له تعالى وجهاً على معنى الوجهة "التوجّه" لا على معنى شيء فيه عينان وفم وأنف...

على كلّ حال، لو قرأت الآية لوحدها لن تفهم منها ما يقولونه عن تفسيرها بالنظر إلى وجهه تعالى، لأن هذا أصلاً ليس تفسيراً لكلماتها، والكثير من كتب التفاسير مشحونة بما تظنّه تفسيراً للآية بينما هو في الحقيقة تطبيقات خمّنها واستنسبها المفسّرون، وأنت لست ملزماً بتطبيقاتهم "ولا بتطبيقاتي" ولا بتخميناتنا، بل أنت ملزم فقط بما يقوله القرآن وما تفهمه منه.

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ{36})
{وَكَمْ أَهْلَكْنَا}، كم استنفدنا حياة كم أمتنا، {قَبْلَهُم}، قبل المنكرين للتوحيد وللبعث الجسماني الذين نزل في زمنهم هذا القرآن، {مِّن قَرْنٍ}، من أناس كانوا مقرونين مع بعض، فكانوا مع بعض لمدّة طويلة، {هُمْ}، القرون، {أَشَدُّ مِنْهُم}، من هؤلاء النموذج من الكافرين المعاصرين لنزول القرآن، {بَطْشًا}، عنفاً في تحقيق ما يريدون، فقد كانوا أقوى عسكرياً واقتصادياً... {فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ}، فدخلوا إلى بلد ومنه إلى بلد آخر وهكذا... مثلما تزيل الأشياء واحدة بعد الأخرى لتنتقل منها إلى الأخرى، كنقب الجبل بإزالة حجر للوصول إلى الحجر الذي بعده لتزيله وتصل إلى الذي بعده... والمقصود أنهم دخلوا العديد من البلاد واحدة بعد الأخرى اختراقاً بقوة عسكرية.

الفرق واضح بين قوّة تلك القرون وقوة النموذج كفّار مكّة الذين تتحدثّ معهم وعنهم السورة، فهم لم يكن لديهم القوّة العسكرية والاقتصادية لاحتلال البلاد المجاورة لهم.

{هَلْ مِن مَّحِيصٍ}؟ فهل يوجد حيصة، نشاط أو حركة أو قوّة... لها نتيجة؟ والمقصود هنا بالسؤال: كل تلك القوّة وفرضها على الآخرين بطشاً هل نفعتهم من القرار الإلهي بموتهم؟ والكلام هنا ليس عن عموم من هلك بل عن خصوص الذين أهلكهم تعالى بقرار منه سبحانه لأنهم كفروا، فهل استطاعوا منع ذلك؟

نتذكّر دائماً وننتبه أننا الآن نقول عن الناس السابقين إنهم لم يكونوا بمستوانا الفكري والعسكري والاقتصادي... ومن سبقنا كان يقول نفس الشيء عمّن سبقه، ومن سبقه كذلك قال عمّن سبقه... حتى إن ما بيننا وبين النبي نوح(ع) يتجاوز آلاف السنين، وقومه كانوا يقولون عمّن سبقهم إنهم كانوا بسطاء... فإذا استثنينا قوم يأجوج ومأجوج والقوم البسطاء عند مشرق الشمس الذين ورد الكلام عن بساطتهم في سورة الكهف من الآية 90 وما بعدها، فالقرآن أشار لتساوي الناس عموماً من حيث قابليات القدرات الفكرية، وميّز بين الأقوام بالقدرات العسكرية والاقتصادية، وحتى تاريخ نزول هذا القرآن على النبي محمّد(ع) اعتبر القرآن قوم عاد وثمود وفرعون من أقوى نماذج الأمم الكافرة التي مرّت على تاريخ الأرض، فقد كانت قوّتهم العسكرية والاقتصادية ساحقة لكل من كان في زمانهم، وكانت ساحقة للآخرين ولم

يتركوا بلاداً تطالها أيديهم إلا وأخضعوها لسلطتهم، ولقد مرّ آخرون على الأرض بقوّة وقدرات عظيمة، ولكن القرآن دائماً يشير لثمود وعاد وفرعون بأنهم كانوا بقوة ساحقة لا تقاوم، وإذا قارنتها مع القوى العظمى اليوم، فتذكّر إخفاقات تلك القوى أمام من عارضهم في حروب صغيرة أو كبيرة، وتذكّر أن القليل من حروبهم كانت سريعة وساحقة، أمّا عاد وثمود وفرعون، وبحسب ما وصفهم القرآن، فقد كانوا بقوى ساحقة لمن عاصرهم ولم يقدر أحد من جيرانهم على الوقوف بوجههم.

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ{37})
{إِنَّ فِي ذَٰلِكَ}، الذي قلناه في الآية السابقة حول انتفاء وجود محيص للهرب من الهلاك الإلهي لمن كفر، ومهما بلغت قوّة الكافرين، {لَذِكْرَىٰ}، لهو شيء يستحضره في فكره وعمله، {لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ}، لمن كان فعلاً له مركز تفكير ونفسية فلم يكن كالبهيمة لا يفهم الكلام أو يتبع شهواته وغرائزه ولا يستوعب الكلام المنطقي الموزون، {أَوْ} لمن {أَلْقَى السَّمْعَ}، فوجّه اهتمامه بسمعه لاستقبال المعلومات عن انتفاء المحيص للهرب من سلطته تعالى لمن كفر، كما نقول: ألقى نظرة على الأوضاع... فهنا الكلام عن إلقاء سمعه على ما يقوله تعالى عن الأقوام التي كانت بطّاشة وأهلكها تعالى بسبب كفرها، {وَهُوَ شَهِيدٌ}، يشهد أن ما سمعه صحيح، فهذا معلوم واضح لأننا لا نرى استمراراً لتلك القرون بل نرى قروناً جديدة.

فلنشبّهها بحالة سماعي لنصائح من حكيم محترم، وهذا الحكيم ينصحني ألا أتزوّج من فتاة أحببتها لأنها ذات سمعة سيئة وتقول بأنها تابت... وينصحني ألا أشارك بمالي مع الذين يعطون أرباحاً عالية بنسبة ثابتة شهرياً... فحتى لو كانت أقواله يرفض عقلي المصادقة عليها، فأنا أحب الفتاة، وأريد مالاً كثيراً سهلاً... فسماعي للنصائح قد يكون كافياً لألتزم بها بناءً على شهادتي للواقع أن فتاة السوء احتمال عودتها لسيرتها مرتفع، والذين يشغّلون أموال الناس بأرباح عالية عادة يفلسون شركاتهم وينهبون مال الناس.

هنا في الآية وفي الآية 10 من سورة الملك التي نجد فيها نفس المضمون نقلاً عن لسان الكافرين في الآخرة {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}، نحن أمام حالتين: إمّا أن نستحضر هذه المعلومات في فكرنا ونفسيتنا فتصير قناعة أساسية لنا، أو حين نسمعها لا ننكرها ونمشي عليها بناءً على ما نحن نشهد به من صحّتها، فها هي القرون من قبلنا آثارها وأخبار دمارها معلومة.

نلاحظ القرآن في العديد من الآيات يشير لدرجات متعددة من الإيمان، فلدينا الإيمان من درجة عالية حيث الرسل والأنبياء والصالحون من الدرجة العالية، وهؤلاء موقنون بكل العقيدة الإلهية، ولدينا من هم أقل منهم وهم الذين اعتبروا العقيدة الإلهية منطقية عقلانية إنسانية، فمشوا على أساسها رغم أنهم لم تتلبّس كل أفكارهم ونفسيتهم بها، مثلنا نحن عامّة المنتمين لدينه تعالى. فالصالحون من الدرجة العالية دائماً يشعرون بوجوده تعالى كمراقب لهم، ودائماً يحسبون حساباً لرضاه وغضبه سبحانه، ولعقابه وثوابه، فهؤلاء لهم قلب "نفسية وفكر" مندمج مع الإيمان، أمّا نحن، فنشهد على صحّة العقيدة الإلهية ولكننا لسنا مندمجين بالتمام معها كلّها، فنتهاون في بعض الواجبات، ونقتحم بعض الشبهات، ونتراخى فيما نشكّ فيه أنه حرام فنفعله... بل وتغلبنا شهوتنا وغريزتنا ونفعل بعض السيئات... فنحن قلوبنا فيها شيء من العقيدة ولكنها غير مندمجة متماشية معها بالتمام، فيكون وصفنا أننا ألقينا السمع للكلام الإلهي، فرأيناه منطقياً عقلانياً إنسانياً... حقّاً سليماً صالحاً... ونشهد بفكرنا على صحّته... فآمنّا ونحاول تمرين فكرنا ونفسيتنا وسلوكنا ليتماشى مع الأوامر الإلهية التي تأمر فقط بالحقّ والصلاح، وبالنسبة للسورة وما تقوله الآية هنا، هناك من آمن بكامل قلبه بالبعث الجسماني والعقاب والثواب، وهناك "من ألقى السمع"، فاعتبره عقلانياً منطقياً وتصرّف على أساسه.

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ{38})
{وَلَقَدْ خَلَقْنَا}، فركّب وألّف سبحانه، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وهذه حدود كلّ دنيا المخلوقات، فهذا كلّ شيء.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائماً أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة

ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...} وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراض.

عادة نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير فنستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، فنقول: خلق سبحانه الدنيا. أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيراً صحيحاً دقيقاً بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ}. فسبحانه دقيق في تعابيره ويحدّثنا بدقّة عمّا يعلمه، وكلامه تعالى عن السماوات والأرض هو كلام عن علم بما أمامه سبحانه، فسبحانه دائماً يتكلم بشفافية عمّا أمامه فقط، أمّا الكلام عن كلّ ما في الدنيا، فهو كلام عمومي ويشمل "نظرياً" ما هو خارج العلم، ولذلك لم يستعمله تعالى، بينما ترى استعماله في كلام عموم البشر لأننا نتساهل ونتراخى في التعبير.

سبحانه دائماً يخبرنا أن كل دنيا المخلوقات منحصرة في السماوات والأرض ولا يوجد مخلوقات غيرها ولا في خارجها، وخلق سبحانه {وَمَا بَيْنَهُمَا}، من كائنات وظواهر... {فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}، في ست فترات زمنية، كل يوم، كل فترة زمنية لحدث أساسي وينتهي اليوم بنهاية ذلك الحدث، وخلال ذلك اليوم يوجد ساعات وهي فترات زمنية تحصل فيها أحداث فرعية ضمن الحدث الكبير، فلنقل مثلاً أنه قد بدأ "يوم" تشكّل الأرض، فبدأت الغازات والغبار والصخور... بالتجمّع حول بعضها "هذا بحسب معطياتنا العلمية الحالية"، وهكذا عبر زمن طويل تشكّل كوكب الأرض، وهذا يوم بدايته من بداية تشكّل الأرض ونهايته بانتهاء تشكّلها، ولنقل بدأ "يوم" تشكّل البيئة على الأرض، فلنقل أنه صار لدينا بكتيريا من مختلف الأنواع، وبدأت بالتكاثر وتشكيل أبواغ ثم طحالب ثم نبات... وخلال ذلك تغير الغاز في الغلاف الجوي... "وأيضاً هذا الكلام بحسب معطياتنا العلمية الحالية"، وانتهى اليوم باكتمال البيئة الحيوية على الأرض... وهكذا بالنسبة لبقية الأيام السابقة واللاحقة من تشكّل الدنيا حتى ظهر الإنسان على الأرض...

وإذا هضمت طريقتي في هذه الدراسة فستنتبه لانتفاء الحاجة لمعطيات علمية أكاديمية لفهم كلامه تعالى، فالإنسان العادي إذا فكّر بخلق السماوات والأرض، فبكل سهولة سيلتفت لمراحل لحدوثها، ولن يخمّن أنها فجأة صارت كما هي الآن، فعلى الأقل هو يرى تضاريس الأرض تحفرها الأنهار والأمطار وتغيّر وجهها الزلازل والعواصف... فيأتي الخبر الإلهي عن ست مراحل زمنية لتشكّل السماوات والأرض وصولاً إلى حالتها الآن، فالجديد في هذا الخبر هو فقط كونها ست مراحل، وبعد ذلك فاكتشاف آليات ترابط المراحل فهو متروك لنا لنهضم معلوماته بحسب تطوّر علومنا...

ضع في بالك دائماً أن اليوم هو فترة زمنية غير محدّدة بالطول زمنياً بأربع وعشرين ساعة، وكل ساعة من ستين دقيقة وكل دقيقة من ستين ثانية، والثانية تعادل زمن تفكك ذرة محدّدة من المواد... فهذا اصطلاح علمي لليوم وليس المعنى اللغوي الأصلي للكلمة كما تعارف عليها الناس قديماً، فاليوم هو بداية وانتهاء الحدث، كاكتمال دورة الأرض حول نفسها، واكتمال دورة الشمس حول نفسها، واكتمال تشكّل السماوات، واكتمال تشكل الأرض، واكتمال قيام الناس من الموت في الآخرة... فكلّها أحداث أساسية لها بداية ونهاية وغير مرتبطة بطول أو قصر الزمن، فاليوم مرتبط ببداية ونهاية حدث أساسي خلال زمن يتخلّله أحداث ثانوية تقع ضمن ساعات، قد تكون الواحدة منها أطول زمنياً من الأخرى.

وترى هذا المعنى لكلمة يوم بسهولة بالنظر لكلمة ساعة، فمعلوم بالبداهة أن التوقيت بستين دقيقة جديد، وقديماً وحالياً فكلمة الساعة تقال للصباح من الشروق إلى الظهر، أو من الظهر للعصر... بغض النظر عن طول الزمن طالما أن الحدث الفرعي لا يزال ممتداً فالساعة تمتد معه.

إذاً، في ستة أيام خلق تعالى كلّ شيء، {وَمَا مَسَّنَا}، ولم يلامسنا فلم يحصل معنا ولو بشكل طفيف، {مِن لُّغُوبٍ}، ولا أي نوع من فتور الهمّة، عادة طول المدّة والروتين يسبب للبشر الملل والإرهاق النفسي والفكري... وسبحانه أثناء

وبعد خلق السماوات والأرض لم يصبه أي لغوب أي فتور للهمّة، لا من ملل أو كلل أو إرهاق... ولو على قدر شعرة، وبعبارة أبسط فقد بقي سبحانه كما هو ولم يتأثّر ولا بأي شيء.

لا زال الكلام مع منكري البعث الجسماني، فإن كان الإله سبحانه وتعالى لم يصبه لغوب حين خلق كل هذه الضخامة الهائلة المرعبة بوساعتها وتفاصيلها على امتداد السماوات، عندها ما معنى كفركم بكلامه تعالى حين يقول بأنه سيعيد خلقكم بعد موتكم؟ هل تشكّون في قدرته على هذا؟ وهل تشكّون في قدرته على محاسبة مليارات الناس؟ وفي محاسبتهم بدقة وتعذيبهم بشدّة؟ أو في إثابتهم بشكل حسن خالد رائع يفوق تصورنا؟ وبماذا لا يؤمنون وعلى أي أساس طالما لم يتأثّر سبحانه حين خلق السماوات والأرض، وها يخبركم عن نفسه بذلك، وها ترون أن الدنيا لا تزال تعمل ومستمرة ولا يظهر فيها أي خلل يدل على لغوبه تعالى حين خلقها، فكل الأمور فيها تجري على تمام التمام.

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ{39})
{فَاصْبِرْ}، أيها الرسول محمّد(ع) وأيها المؤمن، {عَلَى مَا يَقُولُونَ}، فلا تتصرّف بشكل لا عقلاني وغير مناسب بسبب ما يقولونه من تكذيب لكلامه تعالى وتكذيبهم لك كرسول ناقل لكلامه تعالى عن البعث والحساب والجزاء، لذا لا تعبّر بأي طريقة انفعالية، لأن هناك نهاية لهذا الأمر المزعج.

{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}، قل كلمات تنزّه بها المسؤول عنك من مستوى إلهي، نَزِّهْهُ عن الصفات السيئة والناقصة والمعيبة التي تعارض وصفه تعالى بالحمد، لأن كل أفعاله سبحانه حميدة جيّدة لذلك لا تقل عنه تعالى أوصافاً تتعارض مع ذلك.

هنا الكلام عن الكفر بالبعث الجسماني وما يليه من جزاء، لأن قراره تعالى بخلقنا وإعادتنا إلى الحياة لنتجازى هو عمل حميد، عمل جيّد، والكفر بذلك على أساس صعوبة أو استحالة فعله تعالى لها فهو تقليل من قدرته تعالى، والكفر بذلك على أساس أنه تعالى خلقنا ولن يحاسبنا ويجازينا فهو نفي للحكمة عنه تعالى لذا نَزِّهْهُ عن ذلك.

تتذكّر أن الشكر هو تعبيرك له تعالى عن اعتقادك بمسؤوليته عن حصول أمور جيدة معك منه سبحانه، والحمد هو اعتقادك "وتعبيرك" بأن كل أعماله تعالى حقّ وجيّدة، حتى لو كانت لا تتماشى مع مصالحك. وإعادته تعالى لنا إلى الحياة هو عمل حميد، حقّ وجيّد، حيث إن هذا تقييم العقلاء له، ولكنه مصيبة على الكافرين، لأنهم بكفرهم جعلوا هذه النعمة نقمة سيّئة.

كتوزيع المال بكثرة على عموم الناس، فهذا عمل حميد، ولكن بعضهم سيستخدمه في أمور سيئة، ويبقى توزيع المال عليهم موصوفاً بأنه حميد. ونفس الشيء مع خلقه تعالى أوّل مرّة وإعادة خلقه تعالى لنا مرّة ثانية، فهو عمل حميد، ولكن سوء تصرّفنا نحن يجعله سيّئاً علينا لأننا سنتجازى بالعقاب على سوء ما فعلناه...

لِيَكُنْ تسبيحك له تعالى بالحمد، {قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ}، قبل ظهور قرص الشمس من وراء الأفق، وهذا وقت الفجر عند بزوغ الضوء إلى ما قبل شروق الشمس، وسبّح بحمده تعالى، {وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}، قبل ذهاب قرص الشمس واختفائه تحت الأفق.

من هذه الآية والتي تليها يذهب فكرنا إلى أنهما تحددان مواقيت الصلاة، وسنتحدّث عن ذلك في الآية التالية:

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ{40})
{وَمِنَ اللَّيْلِ}، أيضاً في فترة العتمة من اليوم سَبِّحْ بحمد ربك، ويبدو معنى كلمة الليل هنا قصدها لما بعد غروب الشمس استكمالاً للآية السابقة، وسبّحه، {وَأَدْبَارَ السُّجُودِ}، في دبر أي بعد وخلف السجود، حيث بعد التعبير بالحركات عن الخضوع له تعالى عَبْرَ تقريب الوجه من الأرض أيضاً سبّحه تعالى، وسترى أنه رغم عمومية هذا التعبير "أدبار السجود" ليشمل الأمر بالتسبيح لما بعد كل الصلوات، إلا أنه يعتمد على شيء معلوم ليخصّصه، إذ معلوم في أدبيات دينه تعالى الكلام عن صلاة نافلة تقام بعد صلاة العشائين، فيكون التعبير بالتسبيح في أدبار السجود قاصداً إقامة نافلة صلاة الليل.

الآيتان 78 و79 من سورة الإسراء {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا}، مشابهتان للآيتين هنا، وخُصِّصَتْ فترات ثلاث للصلاة الواجبة، وذكرت بطريقة مختلفة الصلاة المستحبة بعد الفرائض "صلاة الليل". لذا نفهم بأن الأمر بالتسبيح بحمد الله سبحانه يكون عبر إقامة الصلاة: قبل طلوع الشمس وهو وقت صلاة الفجر، وقبل الغروب وهو وقت صلاة الظهرين وتَعَارَفْنَا على تسميتهما بصلاتي الظهر والعصر، ومن الليل وهو وقت صلاة العشائين وتَعَارَفْنَا على تسميتهما بصلاتي المغرب والعشاء، وأدبار السجود تعبير يقابل {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً...} فيكون لصلاة الليل.

السجود هو وصف للتعبير عن أقصى درجات الخضوع والاحترام، وبالنسبة لنا كبشر فهو تقريب أو وضع الجبهة على الأرض، ولأنه من أقصى التعابير الحركية عن الخضوع استعمل القرآن كلمة سجود في العديد من الآيات كبديل عن كلمة صلاة حتى تفهم منه معنى الصلاة كحركات وكلمات للتعبير عن أقصى الخضوع والاحترام له تعالى.

نلاحظ الآيتين هنا تحدثتا عن مواقيت الصلاة بثلاثة مواقيت، ونلاحظ القرآن دائماً يذكر ثلاثة مواقيت للصلاة الواجبة، وهنا في الآيات صلاة الصبح تنتهي عند طلوع قرص الشمس من خلف الأفق، وصلاة الظهرين "الظهر والعصر" ينتهي وقتهما عند الغروب أي عند غياب قرص الشمس تحت الأفق، وصَلَاتَا العشائين "المغرب والعشاء" وقتهما "من الليل، إلى غسق الليل" وليس كلّ الليل، وبما أنه ليس لدينا محطّة زمنية مشهورة بين بداية الليل إلى منتصف الليل، نفترض أن وقت الصلاتين ينتهي في منتصف الليل، حيث فيما بعد المنتصف يحين وقت "نافلة" صلاة الليل.

بالنظر لموضوع السورة نرى أن الصلاة طقس عبادي يعبّر عن تسبيحنا له تعالى بحمده، وهذا التسبيح بالحمد من السلوكيات العديدة المرتبطة بالإيمان بالبعث والحساب والجزاء، لِنَقُلْ إنّي أقنعت شخصاً ما بالبعث والحساب والجنّة والنار، وقال لي: حسناً آمنت. فهل ينتهي الموضوع هنا؟ لا، لأن التطبيق لهذا الإيمان يكون بتخصيص أوقات من اليوم للتسبيح بحمده تعالى بالصلوات الخمس التي أمرنا بها تعالى مراراً وتكراراً في القرآن والتي وصلتنا كيفيتها بالحركات والكلام من الرسول(ع) بلا خلاف في أساسياتها بين عموم المسلمين، حيث إن هذه الصلوات تميّز المؤمن بالآخرة عن غيره.

نلاحظ في مختلف سور القرآن نظرات متفرقة عن الصلاة، فهي نظرات من زوايا مختلفة لهذا العمل العبادي، حيث مرةً يعتبرها القرآن حسنة تُذهب السيئات بسببها كما ورد في الآية 114 من سورة هود {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ...}، ومرة يعتبرها تعبيراً عن شكره تعالى، ومرة طقساً لتوحيده وذكره كما ورد في الآية 14 من سورة طه {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}، ومرات عديدة يعتبرها موعداً للتكلّم معه تعالى بلا وسيط لطلب المغفرة... وهنا اعتبرتها السورة فرصة للتسبيح بحمده تعالى للتعبير عن إيماننا به تعالى كإله بقدرة وبصفات فائقة حسنة.

أيضاً هناك بعد عال للصلاة تجده في عموم وصفها بالذكر، لأن الإله بجلالة وعظمة قدره، أخبرنا بتقديره لقيامنا بالتوجّه نحوه بالذكر والحركات، وتفهم من طيّات كلام القرآن أن الصلاة تجعلك تشعر بقيمة عالية لأنك تتوجّه بها فتتكلّم مع الإله سبحانه وتعالى، وهذا تدمجه مع الكلام القرآني الكثير عن حكمته وصفاته الحسنى وقدراته الفائقة سبحانه، فتكون الصلاة وقوفك بين يدي إلهك العظيم. وبتصوير أسهل نحن نشعر بارتفاع قيمتنا إن كنّا نتعاطى مع حاكمين ونافذين وذوي سلطة ومكانة علمية أو اجتماعية... وإذا حضرنا مجالسهم واجتماعاتهم وشعرنا بأنهم يعطوننا قيمة وأهمية، فستكون سعادتنا لا توصف، وهكذا يشعر المؤمنون من الدرجة العالية أثناء وقوفهم بين يديه تعالى، فيشعرون بالفخر والعزّة لأن إلههم العظيم يسمعهم ويهتم بتوجههم نحوه.

(وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ{41})
اصبر على ما يقولون لأنه في النهاية: {وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ}، حيث هناك من سيصدر منه صوت موجّه لك وللآخرين، {مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ}، من مكان ليس بعيداً عنك.

من الآية التالية ومن عموم القرآن نعلم أن النداء هو الصيحة والنفخ في الصور حتى نقوم من الموت، وعبّرت الآية هنا ومختلف آيات القرآن عن هذه الحادثة بأننا سنكون أمواتاً ويصلنا أمر يعيدنا إلى الحياة، وهنا الآية تقول للنبي محمّد(ع)

وللمؤمن أن يصبروا على ما يقوله المنكرون للقيام من الموت، وهذا الصبر ترى نتيجته حين يسمعون نداء القيام من الموت، فهو حصول ما كفروا به.

النداء هو عموم إصدار صوت ضعيف أو قوي نتوجّه به إلى سامع محدّد. ومن مشتقاته: يريد المنادي من السامع الالتفات للكلام، أو يعلن المنادي للسامع أنه متوجّه إليه حصراً بكلامه.

(يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ{42})
حين تسمع المنادي هو: {يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ}، في الزمن الذي يسمع فيه المنكرون للحياة بعد الموت الصيحة، الصوت الذي ينتشر على كثيرين، وهذا تعبير عن انتشار أمر عودتنا كلّنا إلى الحياة، وسوف يسمعون الصيحة بالحقّ بالصواب وليس بالباطل، لأن الصيحة حقّ أي صحيحة وستحصل وليست كلاماً كذباً أو عبثياً لن يحصل، حيث إنهم هنا في الدنيا كانوا ينكرونها ولكن هناك حقاً سيسمعونها وهي حقيقية.

{ذَلِكَ}، الزمن الذي يسمعون فيه الصيحة هو، {يَوْمُ الْخُرُوجِ}، هو الزمن الذي تخرج فيه الناس، ومن سياق الآيات ومحور السورة نفهم أنه زمن خروجهم في الآخرة إلى الحياة مرة ثانية.

لمزيد من التوسع حول التعبير بالصيحة راجع ما ذكرناه في الآية 20 من هذه السورة.

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ{43})
{إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي}، نعطي الحياة فنجعل الكائنات تفعل وتنفعل وتتفاعل، {وَنُمِيتُ}، فنأخذ الحياة لتصير الكائنات لا تفعل ولا تنفعل ولا تتفاعل، {وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ}، فآخر ما تصلون إليه أنتم وغيركم فإليه تعالى، ففي النهاية مصيرنا ونهايتنا إلى الله تعالى، وذلك عندما نرجع إلى الحياة مرة ثانية ليحاسبنا سبحانه.

بناءً على قدرته تعالى على الإحياء والإماتة، والتي نراها من حولنا، هو نفسه تعالى يخبرنا أنه سيأتي زمن يعيدنا فيه إلى الحياة وسنصير إليه تعالى فلن نذهب إلى مكان لا يملكه تعالى، ولن يعيدنا سبحانه إلى الحياة ويتركنا بدون لقاء معه...

ننتبه جيداً، حيث إن حصولنا على الحياة في بطون أمهاتنا، حدث غير عادي، وانتشار الحياة من حولنا في النبات والحيوانات ليس أمراً عادياً بسيطاً، فكيف صار للمواد خصائص تعطينا الحياة؟ ولماذا نفقدها؟ من الواضح وجود قدرة فائقة مانحة للحياة وآخذة لها.

نلاحظ أن تعريف كلمة الحياة معقّد جداً، والسبب أننا نريد تضمين موجودات وإخراج أخرى من التعريف، وكمؤمنين، نريد إدخال الإله سبحانه في التعريف، وعندها لا يمكننا تعريف الحياة بما يتضمّن النمو والتكاثر "بيولوجي"... ونريد إدخال النبات وعندها لا يمكن أن ندخل الروح في تعريف معنى كلمة حياة لأن النبات لا روح فيه كما يقولون في ثقافتنا الدينية... ونفس الشيء إذا حدّدنا الحيّ بما له وعي وإدراك ذاتي فستخرج النباتات... ونريد إخراج الآلات فتدخل الكائنات البيولوجية في التعريف ويخرج الإله تعالى من التعريف لأنه ليس بيولوجياً... وهكذا كلما أدخلنا شيئاً خرج شيء آخر فيه صفات الفعل أو الانفعال أو التفاعل... ولن أطيل عليك بالتفاصيل وألفت انتباهك للخلايا التي يتألّف منها جسدنا، وللأعضاء... وللبكتيريا والجراثيم... ولكوكب الأرض... على أي مقياس ستصف هذه الأشياء بالحياة؟

هذا كلّه من ناحية قدرتنا نحن على التعامل مع الأشياء لنضع لها تصنيفاً، فلا مشكلة في اختلافي عنك في تصنيف أستنسبه أنا ولا تستنسبه أنت على معاييرك المختلفة، فهذا واقع حال تعرّفنا وتطوّر علومنا... ولا مشكلة طبعاً في تصنيفه تعالى للأشياء من ناحية قدرته تعالى على التعامل معها، فنحن نربط الحياة بالوعي وإدراك الذات، وبالفعل والتفاعل والانفعال، ونعلم أن أنواع الحياة ليست محصورة بما نعرفه، فخيالنا وتصوّرنا يسمحان لنا بافتراض مستوى مختلف من الحياة أو الوعي ولا يمكننا التعامل معه...

باختصار، يمكننا تعريف الحياة على مستويات متدرّجة من الفعل والانفعال والتفاعل. ويمكن إدخال أنواع تحت كل عنوان، فيمكن تقسيم الكائنات لفاعلة مع مشيئة أو بدونها، واختيار انفعالها وتفاعلها... ويمكن إدخال الوعي وإدراك

النفس... والروح... تحت هذه العناوين. وكأمثلة عن ذلك، سبحانه فقط يفعل ما يشاؤه ولا ينفعل بل يتفاعل بما يناسب وصفه تعالى بالتفاعل عبر تعامله المختلف مع الأمور المختلفة من حبّ وغضب... ونحن البشر نفعل ما نشاؤه وننفعل ونتفاعل، والنبات لا يفعل ما يشاؤه ولكنه ينفعل ويتفاعل.

هكذا ترى أن الآلات "الذكاء الاصطناعي"، كلما اقتربت من محاكاة صفات الإنسان، علت في تدرجات اتصافها بالحياة.

خلال البحث تنتبه أن هذا تصنيف نتلاعب بتعريفه نحن بحسب ما نراه مناسباً، ولكن لا يحقّ لنا أن نصنّف له تعالى الحياة والوعي للكائنات، فبحسب ما يراه هو سبحانه يصنّفها، فأنا لا أتعامل مع الجبل وكوكب الأرض ككائنات واعية، ولكنه تعالى يخبرني أنه "بشكل ما" يتعامل مع "وعي ما" لهذه الكائنات، وبناءً عليه فمن ناحيتي لن أصنّف الجبل ككائن له وعي، فهو بالنسبة لي جماد كشيء لا حياة فيه ولا وعي له، ولكن لا يحق لي أن أرفض حقيقة تعامله تعالى مع وعي من نوع ما لها، فقد ورد هذا صراحة في العديد من الآيات ومنها ما ورد في الآية 72 من سورة الأحزاب {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ...}.

لِنَقُلْ إننا برمجنا ذكاءً اصطناعياً بإرادة حرّة، أو طوّرنا وعي وذكاء الحيوانات لتصير مماثلة لنا، أو طوّرنا انفعال النبات ليكون فعلاً اختيارياً... أو فرضاً وجدنا كائنات من هذه على كواكب أخرى أو في سماء أخرى... فهل سنجمد على تصنيفنا لها بناءً على تعريفنا لكلمة حياة، لنقول إنّ تلك الكائنات ليست حيّة؟

(يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ{44})
...ذلك يوم الخروج... {يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا}، في ذاك الزمن تتفارق بعض أجزاء الأرض عن بعضها، فيصير فيها شقوق ويظهر الناس من تلك الشقوق وبسرعة، {ذَلِكَ}، الخروج للناس أحياء من شقوق الأرض، {حَشْرٌ}، تجميع للناس بقرار منه تعالى سواء قبلوا أو رفضوا، {عَلَيْنَا يَسِيرٌ}، يحصل وتمشي أموره بسهولة، فرغم كُبر الأرض والبعد الذي بين البلدان، ورغم كثرة عدد الناس وتحلل أجسادهم في التراب واختلاطها... فإعادتهم يسيرة على الله تعالى فتحصل بدون أي صعوبات نهائيا.

قرأنا في العديد من الآيات القرآنية وفي السورة هنا أيضاً، قرأنا عن رجوعنا إلى الحياة بطريقة مشابهة لإخراج النبات من الأرض. فعندما نموت نتحلل ونصير تراباً، وكذلك النبات عندما يموت يتحلل ويصير تراباً، ولكن بعد نزول الماء، فإنه يعيش من جديد، وبطريقة مشابهة كذلك نحن من بعد النفخ في الصور سنعود إلى الحياة من الأرض، من مواد الأرض من تراب وماء، وبتعابيرنا الحالية لجسدنا الحالي فنحن نتكوّن من كربون وكالسيوم وحديد وهيدروجين... أمّا آلية حدوث الحياة أول مرة وثاني مرة، فالباب مفتوح للفرضيات والبحث ولم يلزمك القرآن بأي شيء.

على أي حال، هذا الكلام القرآني إشارة وتلميح يمكن الاستفادة منه عند البحث عن آلية عودتنا إلى الحياة، وربما نصل في علومنا إلى القدرة على إحياء الموتى، وسيكون ذلك شيئاً رائعاً، "فقد فعلها النبي عيسى(ع) من قبل..."، وهذا لا يعني أننا صرنا بقدرات إلهية، ومثله لو توصلنا إلى تركيب الذرات لتشكّل كائناً حياً، وهذا أيضاً لا يعني أننا صرنا بقدرات إلهية، ولا يعني أنه لا يوجد إله لأننا تمكنّا من خلق حياة وإعادة خلقها، فقوله تعالى عن نفسه أنه يحيي ويميت يكون من منظوره تعالى الذي صمّم وخلق، ومن قدراته وصفاته الفائقة التي أبدعت ما في الدنيا من لا شيء، أمّا خلقنا نحن للحياة، يكون من استخدام المواد التي خلقها تعالى، ومن استخدام الخصائص التي جعلها تعالى في المواد والبيئة، وباستخدام الفكر الذي منحه تعالى لنا... وهذه حالة النبي عيسى (ع) حين خلق من الطين طيراً...

كما ترى كلام القرآن يبقى هو نفسه متوجهاً لنا لنؤمن بمن منح الحياة وقادر على أخذها وقادر على إعادتها، فحتى لو نحن خلقنا كائناً حياً وحتى لو أعدنا الحياة لكائن ميّت، فهذا لن يكون دليلاً على أنه تعالى غير موجود، بل لو حصل ذلك فسيكون دليلاً على فساد كلام المنكرين للبعث من الموت، فإن كنّا نحن قادرين على ذلك، فبالأحرى أن يكون خالقنا أوّل مرّة سبحانه قادراً على ذلك.

نلاحظ من عموم كلام القرآن أن عودتنا مرة ثانية إلى الحياة لن تكون في مدة طويلة، بل بسرعة، فهنا الآية عبّرت بالخروج سراعاً ومثله عبّرت الآية 43 من سورة المعارج {يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ

يُوفِضُونَ}، وآيات عديدة استعملت تعبير "فإذا" لتشير إلى سرعة الحشر، منها الآية 19 من سورة الصافات {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ}، ومنها الآية 68 من سورة الزمر {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ}، وأي فرضية عن طريقة خروجنا إلى الحياة هنا في الدنيا من تطورنا... وخروجنا بالتوالد... لن تكون هي ذاتها التي ستحصل في الآخرة، تماماً مثل أي فرضية لأول خروج للنبات هنا في الحياة الذي لا يشبه خروجها الآن إلى الحياة بعد مطر الماء على التراب.

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ{45})
{نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ}، الذي يقولونه لك عن إنكارهم للحياة بعد الموت، سبحانه يعلمه، وكملخّص عن كل ما ورد في السورة، لست لوحدك تسمع قولهم بل سبحانه يسمعهم، فهم تحت المراقبة الإلهية المباشرة، وسوف يحاسبهم ويجازيهم سبحانه بناء على ذلك.

{وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ}، ليس لديك القدرة التي "تجبرهم" على الإيمان بالبعث الجسماني والحساب، فلا تستطيع فرض الإيمان بالحياة في الآخرة عليهم.

{فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ}، بهذا الذي يمكن قراءته "والنازل عليك من عنده تعالى بمعلومات حول البعث وما يليه..." اجعلهم يستحضرون في فكرهم ونفسيتهم وقولهم وسلوكهم، الآخرة والحساب، {مَن يَخَافُ وَعِيدِ}، هناك وعد إلهي، هناك شيء قال تعالى أنه سيفعله "وهو إعادتنا إلى الحياة ومحاسبتنا"، ومن يخاف من ذلك فهو يشعر بخطر لا يمكن تجنّبه إذا لم يؤمن، وهذا سيحصل لديه ذكر من القرآن، وسيستحضر ما يقوله القرآن في فكره وسلوكه حتى يتجنّب الخطر الأكيد من العقاب.

تلاحظ سوراً عديدة من القرآن تناولت موضوع انتفاء مسؤولية النبي محمّد(ع) عن إيمان وكفر الناس، حيث لا علاقة له ولا مسؤولية عليه حتى لو لم يؤمن ولا واحد، وهو(ع) مسؤول فقط عن تبليغ القرآن، فجملة "ذكّر بالقرآن" تشير للوظيفة المطلوبة من الرسول، وجملة "ما أنت عليهم بجبّار" تشير إلى رفع المسؤولية عن الرسول إن لم يؤمنوا.

إذن، هناك من يخاف إذا سمع تهديداً منه تعالى، لأنه بالأساس لديه قلب سليم، وهو من ذوي الألباب ومن الذين يعقلون من الذين يسمعون ويبصرون... وعندما يسمع تهديده تعالى سيتماشى مع هذه المعلومة ويتفاعل معها... وبعكسه الذي قلبه كالحجر، ولا عقل له وغير موصوف بحقيقة السمع والبصر لأنه لا يستعملهما فعلاً كما يجب... فهذا لن يخاف وعيده تعالى حين يسمعه من القرآن لأنه لا يتماشى مع فكره ونفسيته، لأن هواه السيّء غالب على عقله... وقد عرضت عليه السورة كلاماً فيه الأدلة العديدة على تحقّق وعده تعالى ببعثنا، وهو يرفض الإيمان!

سورة الذاريات (51) ص 520
يدور كلامها حول صدق وعده تعالى بإدانته لنا على أفعالنا خيراً أو شراً، وتُرينا أنّه في الدنيا حصلت إدانة بإهلاك أقوامٍ كافرةٍ ليكونوا نموذجاً لنا وتأكيداً على حصول الإدانة في الآخرة، وتَلْفِتُ انتباهنا لبعض ما حولنا من الدنيا مما يَدُلُّ على سيطرته وتدخّله تعالى وجريان الأمور بحسب ما قرّره هو سبحانه، وبالتالي نرى قدرته الفائقة سبحانه على تنفيذ وعده بالآخرة، وخلال ذلك تشير للفرق بين نوعين من السلوكيات بين الناس، حيث هناك الخرّاصون ومقابلهم المتقون وإدانة كل واحدٍ من النوعين مختلفة عن الأخرى...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً{1})
{وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً}، تأكيدٌ بشيءٍ يُوصَفُ بأنّه يَذْرُو يفصل شيئاً عن شيءٍ ليصير مستقلاً مشتتاً عنه، وكما سترى، فالوصف هنا للرياح التي تَذْرُو مياه الغيم حين يتساقط.

صحيح أنّ القرآن استعمل تعبير ذَرْوِ الريح للتراب والغبار والهشيم... ولكن كلمة ذَرٍّ هي لعامَّةِ فصل شيءٍ ليصير لوحده، فالذَّرَّةُ لغةً هي أقل كائنٍ منفصل لوحده، سواء أكان نملةً أو حبة غبار... والذُّرِّيَّةُ هي عامَّةُ مَن انفصل وصار

كائناً مستقلاً لوحده، وجرى استعمالها بخصوص الأولاد الذين ننجبهم ويصيرون كائناً منفصلاً عنّا، وتعبير {ذَرْنِي}، {ذَرْهُمْ}... يشير للكون منفصلاً ككائنٍ لا اتصال جسديٌ حسّيٌ لك بالآخرين، وتعبير {تَذْرُوهُ}... افْصِلْهُ ليصير كائناً مستقلاً عنك... وكل هذه المعاني هي الأساسيةُ للكلمة، وينتج عنها تفاصيل متعلّقةٌ بخصوص المفعول به والفاعل وسياق الحديث، {فَذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً}، كما ورد في سورة المدثر الآية 11، فهو الانفصال عن موضوع ما سيفعله تعالى بالكفار. ومثله في المعنى {فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ} الذي ورد مرتين في الآية 73 من سورة الأعراف والآية 64 من سورة هود، وكلا الجملتين تفيدان الترك والانفصال...

هنا، {فَالذَّارِيَاتِ} هي الرياح "الفاعلة" التي تُذْرِي المياه كما سترى من الآيات التالية.

ضع في بالك دائماً أنّه تعالى عندما يستعمل صيغة التوكيد بأنواعها المختلفة من القسم إلى مجرّد التوكيد، فإنّه تعالى يؤكِّدُ فقط ولا يريد أن يثبت لنا صدقه، بل تأكيد حتمية أو صحّة ما قاله، حيث الخبر بالصيغة العادية منه تعالى صحيح، وتأتي صيغ التوكيد لزيادة توكيد الخبر.

هنا في السورة يلفت سبحانه انتباهنا لتأكيد كلامه عن حصول يوم الدين عبر لفت انتباهنا لظاهرة الرياح والغيوم ونزول الماء، حيث هذه الظاهرة الضخمة المعقّدة المترابطة مع باقي الظواهر الطبيعية والظروف البيئية، مَن جعلها تحدث هو حتماً إله بصفات وقدرات فائقةٍ، وتبعات ذلك علينا، ما ندين به لمن فعلها، أن نطيعه، ومن البديهي أن يحاسبنا سبحانه إن لم نطعه... وها أخبرنا عبر رسله على امتداد التاريخ أنّه تعالى سيعيد إحياءنا لِيَدِينَنا "ليطالبنا ويحاسبنا" على ما فعلناه في حياتنا، ولن يغيّر قراره سبحانه، ولا توجد قوّةٌ يمكنها أن تفرض عليه عزّ وجل أن يغيّر قراره، أو قوّةٌ تمنعه عزّ وجلّ من تنفيذ وعده، وها هو نموذجٌ أمامك عن عظيم قدرته عبر ظاهرة نزول الماء...

بقي شيء، فمِنْ تراث ثقافتنا الدينية نفترض أنّ الملائكة تقوم بتنزيل المطر وتحريك الرياح وتدوير الأرض حول نفسها... ونظنّ أن هذا مدعوم قرآنياً بناءً على ما نقرؤه من أعمال قال القرآن إنّ الملائكة تفعلها، ولكن ننتبه جيداً، إذ ليس لدينا تصريح قرآنيٌّ واضحٌ وشاملٌ لكل ما يقولونه، حيث بعض الأمور القليلة جداً ذكرها القرآن، منها وفاتنا حين موتنا، وتنزيل الوحي، وتعذيب قوم النبي لوط(ع)... وهذه أمور قامت وتقوم بها الملائكة(ع)، وأمّا بقية ما هو متداول بين الناس فلا تصريح قرآنيَّ له، حيث يقولون إنّ ملاكاً موكَّلٌ بالرزق، وآخر بالمطر، وغيره بحساب القبر، وملائكة تجرّ الشمس لتدور حول الأرض... وتشرّبت هذه الثقافة فينا لدرجة تفسيرنا للجاذبية بين الكواكب بأنّها أثر مما تفعله الملائكة التي تحرّك الكواكب كما أمرها تعالى، ولأننا لا نرى الملائكة، نفسّر هذه الميكانيكية بأنها الجاذبية...

هذه الثقافة تنعكس على فهمنا وتفسيرنا للقرآن، ومن دون أن ننتبه نلغي آليات ترابط الفعل والانفعال في الأشياء، ونبتعد أكثر فأكثر عن فهم حقيقة خلقه تعالى للكون وللحياة، وبضمّ ثقافة {كُنْ فَيَكُونُ} كقول يصدر منه تعالى لتصير الأشياء "فوراً" وبدون آليات، وبضمّ هذا إلى ثقافة قيام الملائكة بالأعمال التي نسمّيها بظواهر الطبيعة، بهذا نرجع إلى سذاجة وطفولية الإيمان، بحيث لن ترى فرقاً بين من اخترع إلهاً للمطر وإلهاً آخر للرزق وغيره للبحر... وبين إيماننا به تعالى، لأنّ أولئك لم يروا قدرة فائقةً صمّمت ما في الدنيا بحيث ينتج عنها ظاهرة المطر، ورأوا أنفسهم عاجزين عن تفسيرها ومعرفة آليات حصولها، ورأوا فقدانهم للسيطرة عليها... فاخترعوا لها إلهاً.

هذا ليس إيماناً صحيحاً بالإله، لأنّه إيمان بقوّة خارقةٍ تفعل ما نجهل سببه، وإن علمت آليات حصوله، ستكفر بالإله الذي قالوا إنّه فعلها!

القرآن وقبله كتب من آلاف السنين، ورسل من بداية تأهّل البشرية للتكليف بدينه تعالى، كلّهم يدعونك للإيمان بإله فائق القدرات والصفات صمّم وخلق ما في الدنيا كلّها من الصفر لينتج عنها ما تراه من بيئة وظواهر وكائنات، وحصل ذلك عبر آليات مترابطةٍ متسلسلةٍ نتج عنها كوننا بما فيه من حياة... وكلّما تعرّفت على آليات نشأة كوننا والحياة، تعمّق إيمانك بالعظيم الذي صمّم ما في هذه الدنيا... فهذا هو الطريق الصحيح للإيمان به تعالى.

لا تفهم أنّي أحاول فرض تفسير وإلغاء التفاسير الأخرى عن حصول الأمور، فأنا لا أبرهن لك أنّه تعالى بناءً على قوانين الفيزياء خلق ما في الدنيا، بل خلقها تعالى وخلقنا فيها مع القدرة على انتباهنا لآليات حصولها بما جعله تعالى فينا من فكرٍ وخيالٍ وحواسَّ وقدرةٍ على الملاحظة، نحن "حالياً" نفسّر ما نراه بنمذجته بقواعد الرياضيات، وفيما بعد

ستتطوّر علومنا وربما ستتطوّر لنمذجته بأسلوب مختلفٍ... أمّا سبحانه فبقدراته الفائقة لديه أسلوبه الإلهي للتعامل مع الأمور بطريقة من المستحيل أن نفهمها كما "يفهمها" يعلمها هو عزّ وجلّ، وكما يبدو من علومنا الحالية، هناك عمق سحيق تحت المستوى الذرّي، وهذا العمق يأخذنا إلى افتراض وجود موادَّ وطاقة نرى أثرها ولا نستطيع "حالياً" التعامل معها مباشرةً...

هكذا ترى أنّ الإيمان به تعالى بسذاجة وطفولية والذي منه جرى تفسير كلامه سبحانه، والذي منه دفع المنتمون لدينه تعالى الإله سبحانه إلى ما يجهلون سببه، والذي منه جعلوا للملائكة وظائف كبديل عن سنن الطبيعة وقوانينها... يختلف عن الفهم الصريح لكلام القرآن الذي حثّك على التفكّر فيما خلقه تعالى، واستفزّك لتكتشف آليات حصولها بالقدرات المتاحة لك...

(فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً{2})
{فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً}، يبدو من استعمال القرآن والعرب أنَّ الوَقْرَ "فتحة على الواو وسكون على القاف" هو الثقل في الأذن، وبالكسرة على الواو وسكون على القاف، فهو لعامة أي ثقل كان، فأي شيء ثقيل هو وقر "بالكسرة على الواو". وهنا تكمل السورة مع وصف الرياح الحاملة للغيوم التي هي أثقالٌ من المياه.

بِنَظْرَةٍ سطحية للغيوم ستعلم أنّها بخار الماء، وينزل منها الكثير من المطر، ولكن بنظرة أعمق قليلاً ستنتبه أنّ كميات الماء التي تنزل من الغيوم، كميات ضخمة جداً، صحيح أنّ بخار الماء يكون خفيفاً بالنسبة للهواء، ولكن كميات المياه الضخمة التي في الغيوم، والتي لا تقل عن مئات آلاف أو ملايين الليترات، فلها ثقل هائل، وتحملها الرياح، وهكذا ترى أنّ الهواء يحمل أطناناً من المياه! فما هذا التصميم الرائع الذي نتج عنه حمل الرياح لأطنانٍ من المياه؟!

لا تحتاج لتخصّص في العلوم حتى تفهم الآية، فبمجرد لفت الانتباه لكمية المياه التي تنزل مطراً، ستنتبه أنّ الرياح كانت تحمل وِقْراً...

(فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً{3})
{فَالْجَارِيَاتِ}، المنتقلات تحرّكاً بالتتابع، {يُسْراً}، بسهولة بلا أي صعوبة، والكلام السابق عن الغيوم الضخمة التي ورغم ضخامتها ووقر "ثقل" الماء الضخم الذي تحويه فهي تنتقل في الجوّ بيسر.

نجد في بعض كتب التفاسير قولهم أنّ الجاريات هنا هي السفن، وصحيح أنّ السفن جارياتٌ على الماء بفعل دفع الريح لأشرعتها، ولكن هذه الآيات الثلاث يصير لها معنىً واحدٌ متناسقٌ إذا فهمنا قصدها للريح التي تجري بالغيوم.

ضع في بالك لو أنّك أنت قمت بتصميم بيئة وكائنات، ولم تر من قبل أي نموذج، فكيف ستصمّمها؟ وكم هي التفاصيل الهائلة لخلقتك وللبيئة التي من حولك؟ وكم هي معقّدةٌ؟ والبداية مع أبسط الأمور، من الألوان، فَلَوْنٌ واحدٌ متدرجٌ يكفي لكائناتك وبيئتها، وصولاً إلى كثرة التفاصيل والحجم الهائل لما في دنيا المخلوقات... مروراً بماء الشرب للحيوان والنبات، فتصميم هذه الطريقة التي تراها الآن من تصاعد البخار وتكاثفه وجريانه وتساقطه كمياهٍ حلوةٍ... وبكل تفاصيلها وارتباطاتها ببقية الظواهر والأشياء التي تحصل فيها هذه الظاهرة، من اختلاف كثافات الغازات لخاصية الماء بتحوّله إلى غاز بحراراتٍ منخفضةٍ، لحركة الرياح بسبب فرق الحرارة والضغط... فهل هذا حصل بالصدفة ولوحده؟! ألا يوجد إله بقدرات هائلة صمّم ونفّذ؟!

(فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً{4})
{فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً}، الأمرُ، موضوعُ تقسيم نزول هذه المياه على سطح الأرض، هو راجع لحركة الرياح الحاملة للغيوم التي تجري لتمطر في بُقَعٍ مختلفة على الأرض وبأوقات مختلفة.

أيضاً نجد في كتب التفاسير قولهم أنّ المقسمات هنّ الملائكة(ع)، وهذا يستند إلى تراث ثقافي ديني وليس إلى صريح القرآن. وكما ترى فمن الأسهل والأوضح للفهم من الآيات الثلاث السابقة مع آيتنا هنا أن تكون واصفة للريح، فستجد أنّها أسلس على الفهم وبسيطة المعنى ومترابطة.

على امتداد الزمن القصير بالأيام أو بالأشهر أو الأطول منه بالسنين أو بالقرون، المطرُ يتقسّم على مختلف الأرض ولا ينزل على مكان واحد، وبنظرة تاريخية كبيرة سترى أنّ هذا النظام لحمل الغيوم بالريح، قسّم نزول المياه على مختلف بقاع الأرض على مرّ التاريخ، ولم ينحصر نزوله في بقعة أو بقاع محدّدة، فما تراه الآن صحارٍ، في غابر الزمان كان غاباتٍ بسبب نزول الماء عليه قديماً...

الآن، نلتفت لهذا التصميم الذي يعمل على حمل الريح للماء وتقسيم نزول الماء على مختلف بقاع الأرض، فهل حصل لوحده؟! أم نحن لنا علاقة به؟! حيث يمكننا نثر غبار بعض المواد في الغيوم لنجعلها تتكاثف وتنزل، ويمكننا رفع درجة حرارة المياه لتتبخّر... ولكن لو تركنا هذه التدخلات البسيطة، ونظرنا للظاهرة الكبيرة لوحدها، والتي حياتنا وحياة من حولنا من نبات وحيوان متعلقة بها، فسترى أنّها مصمّمة بشكل رائع يناسبنا، ومتناسب مع بقية ظواهر الطبيعة.

على ما يبدو من معطيات علومنا الحالية، الأرضُ أوّل ما تشكّلت لم يكن عليها ماء، بل كان الماء ضمن موادّها، ومن تكرار التبخّر والتساقط... انفصلت كميات هائلة من تكتلات الماء عن بقية مواد الأرض، "مضافاً لها ما ينزل من شهب السماء"، وصار هناك تجمعاتٌ مائية على سطح الأرض وفي باطنها. وعلى ما يبدو من علومنا حالياً، ظاهرةُ حركة الرياح الحاملة للغيم ونزول الماء منها أو تصادم الغيم بأجسام حرارتها مختلفة وتسبيب رطوبة للأجسام "كما يحصل على قمم الجبال التي تمتص الماء امتصاصاً من الغيوم"، على ما يبدو أنّها الطريقة الوحيدة المسببة لوجود كميّات متجمّعة من المياه الحلوة على الأرض، وإن لم تكن الوحيدة، فهي ظاهرة ضخمة هائلة رائعة.

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ{5})
{إِنَّمَا}، حصراً وفقط إنّ الذي، {تُوعَدُونَ}، فقال سبحانه لكم عنه أنّه سيفعله، {لَصَادِقٌ}، ليس بكاذب فحتماً سيحصل، ومن الآية التالية ستعلم أنّ يوم الدين هو الوعد الصادق الذي سيحصل.

مقدمةُ السورة بأربع آيات تأكيدية كان الهدف منها لفت الانتباه لصدق وعده تعالى بحصول يوم الدين، حيث ظاهرةُ الرياح بخصائصها وما تفعله من حمل للوقر والمطر... تدل على إله عظيم بصفات وقدرات فائقة في التصميم والتنفيذ، وبالتالي صاحبُ هذه القدرات ستكون وعوده صادقة وحتماً ستحصل.

بعبارةٍ لغوية، آيتنا هنا والتالية هما جواب التأكيد "جواب القسم".

(وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ{6})
{وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ}، فمطالبته تعالى بالتبعات التي له سبحانه علينا ستحصل حتماً، ومن عموم القرآن تعلم أنّه في الآخرة سنقوم من الموت ليديننا سبحانه...

كلمةُ دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، فهي ليست اصطلاحاً مخصّصاً كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الاسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، فهي عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأنّي أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأنّي فعلت لك شيئاً ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني فأنا مدين له، فخلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعاً بسبب وساعة تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنّه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنىً عميقٌ لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... فكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة فهناك ندان بأعمالنا، فما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هو التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضاً يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسباً بحكمته فيديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(وَالسَّمَاء ذَاتِ الْحُبُكِ{7})
ترجع السورة لنمط التأكيد، {وَالسَّمَاءِ}، تأكيداً بما فوقكم من فضاء، {ذَاتِ الْحُبُكِ}، الموصوفة بأن لها حُبُكاً فهي مرصوفة بالنجوم ومجموعات النجوم، فهي ليست محبوكة بل ذات حبك أي لها وصف الحبك بسبب تراصّ وكثرة نقاط النجوم الظاهرة لمن ينظر إليها. وكلمة حبك محبوك حبكة... نقولها للخيوط التي نحبكها فنجعلها مترابطة بتداخلها مع بعضها لتصير قماشاً أو شبّاكاً أو سجّاداً... وفي نفس الوقت، مِنْ تبعات الوصف بالحبك الإشارة لتجمعات الخيوط الملونة أو النافرة... التي تجعل في القماش أنماطاً من الأشكال.

دائماً علينا قراءة القرآن من نظرة الواقف على سطح الأرض وينظر من حوله، حيث في الليالي الصافية نرى السماء مليئة بالنقاط البيضاء المتفرقة والمتراصة، مثلما نصف الخيطان بأنّها محبوكة بسبب تراصّها لتشكيل القماش، علماً أنّ تلك النقاط متباعدة جداً عن بعضها فكلامُ الآية "والقرآن عموماً" عن المنظر الذي يراه الواقف على الأرض.

فما معنى منظر السماء المليئة بالنجوم ومجموعات النجوم؟ ومن صمّمها ومَن سبّبها؟ ولماذا؟ ألا تدل على صفات وقدرات فائقة لمن خلقها؟ وهل من المعقول أنّه لا حكمة من خلقة شيء هائل الضخامة؟! وتعقيباً على تأكيد صدق كلامه تعالى عن إدانتنا في الآخرة، ألا تدلّ سماءٌ ذاتُ حبك على قدرته تعالى على إعادة خلقنا؟

بقي شيء، حيث أتحفنا سخيف بمعلومات طفولية يكذّب فيها الآية فيقول بأن النجوم متباعدة وليست حُبُكاً. فليكن هذا الكلام نموذجاً لك عن المتذاكين الكافرين بكلامه تعالى، فهم مثلي ومثلك واقفون على الأرض ويرون السماء ذات حبك، فنجومها متراصة بلا فراغات "عندما تكون السماء صافية وبعيدة عن أضواء المدن"، ورغم ذلك يكذّبون ما تراه أعينهم، مدّعين الفطنة... وعلى أي حال، فهل قطعة القماش حُبُكٌ؟ فلنضعها تحت المجهر وسنرى المسافات البعيدة بين خيطانها، أو فلننظر للذرات، فهي حُبُكٌ، والآن لننظر بعمق إلى مركّبات الذرة، بالنسبة لحجم النواة والإلكترونات فسنرى مسافات هائلة جداً جداً بينها، ولم تعد حُبُكاً! وكم تمنيّت لو التقيت بأمثال هذا المتذاكي ليخبرنا ماذا سنفعل بكلمة حبك التي وبحسب ذكائه الخارق لا نجد ما تنطبق عليه؟ بحسب فطنته فمن المفروض حذفها من لغتنا.

(إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ{8})
تأكيد بالسماء ذات الحبك: {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ}، لستم متفقين على قول واحد، تماماً مثل سهولة رؤيتكم للسماء ذات الحبك ووضوح دلالتها على الصفات والقدرات الفائقة لمن صمّمها وخلقها وأنّه من غير المعقول أن يخلق شيئاً ضخماً بلا حكمة، وبسهولة ترى أنّه قادر على تنفيذ وعوده... فأنتم أيها الناس في قول مختلف حول يوم الدين، فالوعد به صادق وهو واقع، ولكن منكم من يقول أنّه يؤمن به يقيناً، وآخرون منكم يختلفون فيظنّون، وآخرون يشكّون... وهناك المنكرون له.

(يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ{9})
{يُؤْفَكُ}، يكون مقلوباً، عنه، عن القول بحصول يوم الدين، من {أُفِكَ}، من انقلب واختار الحقيقة المقلوبة، فاختار إنكار أمرٍ حتماً سيحصل، فقرّر الكفر بيوم الدين.

فهناك قول واحد صحيح، وأقوال عديدة غير صحيحة، و{يُؤْفَكُ} عن القول الصحيح مَن أُفِكَ، فينقلب عن القول الصحيح مَن اختار أن يُكذِّبَهُ رغم وضوح صدقه تعالى، فيقول إن يوم الدين لن يحصل.

(قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ{10})
{قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ}، فالتخريصُ هو الكلام عن حدس، عن تخمين واحتمال، لا عن علم قطعيٍّ، وهؤلاء يستحقون القتل، حيث يستحقون إنهاء حياتهم بقرار آني فوري لإنهاء تخريصهم ومعاقبتهم عليه، فبلا دليل ينكرون حصول يوم الدين، وبالرغم من كلّ الأدلة التي تشير بعكس ما كفروا به.

وسترى في منتصف السورة أنّه تعالى قد نفّذ حكم القتل في بعض الأقوام الخرّاصة.

والجواب عن تركه تعالى لبعض الخرّاصين رغم استحقاقهم للقتل، فقد تفرّق سببه في سور مختلفة، فبعضه مذكور بشكل مباشر وبعضه تستخرجه من الكلام، كما في حالة كفّار مكّة الذين لم يقتلهم تعالى بكارثة لأنه سيخرج منهم ذرية صالحة مؤمنة والبعض الآخر منهم سيؤمن فيما بعد... حيث توجد معايير يمكن استخراجها من القرآن عن سبب إهلاكه تعالى لبعض الأقوام وتركه لآخرين، وهذا ليس محور كلام سورتنا هذه.

ضع في بالك الآيات هنا حين تتكلّم السورة على نماذج "قوم النبي لوط(ع) وفرعون..." من كفّار كانت فيهم هذه الصفات، وقرر تعالى قتلهم...

(الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ{11})
{الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ}، {فِي غَمْرَةٍ}، يغمرهم فيغطّيهم ويلفّهم شيء ما من كل الجوانب، {سَاهُونَ}، فهناك شيء لم يلتفتوا له أصلاً، وهنا الكلام عن انغمارهم بالشهوات والملذات السيئة حتى سهوا عن يوم الدين.

وكما نقول: غمرت البطاطا بالزيت، وغمرني بلطفه... فهؤلاء التفّ عليهم حبّ الدنيا حتى أنساهم الآخرة.

(يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ{12})
{يَسْأَلُونَ}، يعبّرون عن إرادتهم للحصول على جواب: {أَيَّانَ}، متى، يوم، زمن، الدين، المطالبة بما علينا من تبعات؟ فما تقولونه عن يوم سيأتي علينا ويطالبنا تعالى بالتبعات التي علينا، فمتى سيأتي؟ وهذا السؤال لم ينبع عن دراسة قبل طرحه، بل عن تخريص وغمرة في السهو، مثل الذي يسألك عن الوضع الاقتصادي أو السياسي أو الأمني... أو يسألك عن شيء ديني، وحين تبدأ بالجواب تراه غير مهتمّ وأذنه وفكره في مكان آخر! فهو سألك هكذا لمجرد السؤال، لأنّه مغمور بمتابعة الحديث الذي يجري بقربه عن مشكلة بين شخصين أو بمتابعة مسلسل تلفزيوني... فهو أصلاً لم يسألك لاهتمامه بجوابك، وهنا نفس الشيء، فهم لا يسألون عن يوم الدين للاستعداد له، بل لتأكيد إنكارهم له.

وهذا السؤال هو محور السورة، لأنّها توجّه كلامها مع هذه النوعية من الناس، وتركّز على الدين، على الحكمة من خلقه تعالى لنا ليديننا ثواباً أو عقاباً.

وننتبه جيداً ولا نخلط بين الأوصاف المختلفة ليوم القيامة من الموت ونعتبرها مترادفة، أو نعتبرها أسماء متعدّدة ليوم واحد، لا، فهي ليست أسماء بل أوصاف، وهي متشابهة بشكل ما ولكنها مختلفة المعنى، فيوم القيامة هو زمن قيامنا من الموت، ومن القرآن نعلم أنّه يليه أيّام حساب وبعده ثواب أو عقاب... والواقعة وصف لشيء سيحدث سيتحقّق، وقد استعمل القرآن هذا التوصيف لزمن وقوع قيامنا من الموت ومحاسبتنا... ويوم الدين وهو محور سورتنا هنا، فهو الزمن الذي يطالبنا فيه الإله سبحانه بالتبعات التي علينا كونه تعالى خلقنا، يطالبنا تعالى بحقّه علينا كعبيد له، فنحن ندين له بتوحيده فلا نخترع آلهة من أوهامنا، وندين له بالطاعة، وندين له بتصديق ما ينقله لنا رسله من إنذار حول معاقبة من يخالف كلامه تعالى... وندين له وندين له... فهناك يوم تتم مطالبتنا فيه بالحقوق الإلهية علينا، وهو نفسه يوم القيامة، الموصوف في القرآن بالواقعة والطامة والصيحة... وسورتنا هنا تنظر لذاك اليوم من زاوية محاسبته تعالى لنا بحقوقه المتعدّدة علينا، بالتبعات، بالدين.

ونتذكّر دائماً أنّ كلمة يوم هي فترة زمنية "طويلة أو قصيرة" بين حدثين أساسيين ويتخللها أحداث أخرى ثانوية تسمّى ساعات "ليس بالضرورة أن تكون الساعات متساوية زمنياً"، فيوم القيامة هو زمن قيامنا من الموت، وأوّل ساعة فيه بالنسبة لنا هي ساعة استعادتنا لوعينا، وبعد ذلك أيّام من أنواع الحساب المختلفة "فردي، جماعي، وقوف أمام الأشهاد..." وأخير آخر ساعة من آخر يوم حين دخول أخر شخص إلى الجنّة أو النار. ويوم الدين هو الزمن الذي تبدأ فيه مطالبتنا بما فعلناه في الدنيا، ويبدأ من لحظة قيامنا من الموت، مرورا بأيّام محاسبتنا... وينتهي بانتهاء محاسبتنا ونيل كل واحد منّا ما يستحق من بعد محاكمته.

(يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ{13})

الجواب عن سؤال {أَيَّانَ} يوم الدين: {يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ}، في الزمن الذي يكونون فيه، على النار يفتنون، فهذه النوعية من الناس الناكرة ليوم الدين والتي تسأل عنه، يجيبهم تعالى عنه بأنّه هو نفس اليوم الذي ستتم فتنتكم فيه بالنار، فالفتنة عموم التغيّر مادياً أو معنوياً بسبب شيء، وتتدرج من أعجبه فتعلق به وتغيّر بسببه، إلى أجبروه عليه فتماشى معه فتغيّر بسببه أو رفضه. وهنا الكلام عن مشهد من الآخرة حين تتم محاسبتهم فقبل رميهم بالنار سيتم عرضهم عليها، وسينتج عن ذلك تغيّرهم من كفرهم بها إلى اليقين بها.

وبالنسبة لعرضهم على النار أثناء محاسبتهم فهذا المشهد قد ورد صراحة في العديد من الآيات ومنها الآية 46 من سورة غافر {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً} والآية 45 من سورة الشورى {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ}.

فلم يجبهم القرآن بتحديد زمن يوم الدين، وفي آيات أخرى نرى إجابات موسّعة عن هذه النقطة، فلو لم يكونوا من الساهين في غمرة... لفهموا أنّ القرآن شرح لهم الجواب، ولكنهم خرّاصون ساهون لا يهتمون بأي كلام منطقي عقلاني، ولذلك أجابتهم الآية هنا بهذا الشكل: فتصوّر لو أنّي ضعيف جسدياً وحصل تحدّ بيني وبينك وأنت أقوى منّي بكثير، وسألتك: متى يوم التحدّي؟ فتجيبني: يوم أغلبك وأطحنك. فتسخر من سؤالي السخيف ولا تعطيني تحديداً زمنياً، ففي أي زمان سيحصل فيه التحدّي فالنتيجة واحدة محسومة، فما معنى السؤال عنه! فكان الأجدر بي أن أجد حلا معك، أو أن أهرب منك... بدلا من سؤالي لك عن يوم التحدّي.

(ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ{14})
{ذُوقُوا}، تحسّسوا واشعروا، {فِتْنَتَكُمْ}، الشيء الذي تتعرضون له ويؤثّر بكم، فهنا في الدنيا تسمعون به، ولكن هناك ستعيشونه فستكونوا في العذاب والألم بسبب كفركم بدينه تعالى. {هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ}، فقد أنكرتم يوم الدين، وكنتم تريدونه أن يحصل قبل وقته لتروه وتؤمنوا به، فهناك حين تصيرون فيه سترون شدة سوء ما كنتم تستعجلون حصوله.

وهذا الكلام يتضمّن أنّهم حين يرونه يتمنون لو أنّه بعيد كما ورد في الآية 30 من سورة آل عمران {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً}.

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{15})
كنّا مع نموذج متطرّف لأقصى الكفر بيوم الدين والسهو عنه والتخريص... فهؤلاء مصيرهم حتماً إلى النار، والآن تنقلنا السورة للطرف المعاكس: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ}، إن الذين يتجنبون ويتحاشون، وهنا الكلام عن المتجنّبين للسوء فهم مؤمنون بالحقّ وفاعلون للصالحات وهو نفسه تقواه تعالى بتجنّب غضبه وعقابه سبحانه، في {جَنَّاتٍ}، هم في أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين وما يسبّب السعادة... {وَعُيُونٍ}، فتحات، ونعلم من القرآن أنّ الكلام هنا عن فتحات في الأرض والصخور تنبع بالماء والأنواع المختلفة من العصائر والسوائل اللذيذة الطعم والمختلفة الألوان كما ورد في الآية 15 من سورة محمّد {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى}.

وبالنسبة لتعبير القرآن مرّة بالجنّة عن المكان الرائع للمتقين في الآخرة، ومرّة بالجنّات، فهي جنّة فيها جنّات، فوساعة ذلك المكان كعرض السماء والأرض كما ورد في الآية 133 من سورة آل عمران {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}، فهل هو كوكب كبير بهذا الحجم بالنسبة لنا، أو هو مجرات عليها كواكب مثل كوننا أو هو بيئة أخرى لن تخطر على بالنا الآن... وعلى أي حال فقد صار سهلاً علينا تصوّر كل المكان كجنّة وفيها جنّات.

(آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ{16})
{آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ}، فالمسؤول عنهم من مستوى إلهي آتاهم فصيّر لهم تلك الجنات والعيون وهم سيأخذونها، وهذا التعبير يشير لرضاهم ولإعجابهم بها وأنهم لا يخطر ببالهم أفضل منها، وتعلم من عموم القرآن أنها رائعة وفوق قدرتنا

على التصور الآن، ومتجدّدةً دائماً، والذي فيها لا يشعر بنقص أي شيء، ولا يملّ منها، بل يكون دائماً في حالة بهجة وسعادةٍ مطلقةٍ، وكمثال على ذلك ما ورد في الآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}.

{إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ}، المتّقون قبل أخذهم للجنات والعيون كانوا، {مُحْسِنِينَ}، فكانت أعمالهم موصوفة بأنها حسنةً ولذلك استحقوا الحصول على الجنّات.

لم يحصلوا عليها لأنه تعالى من مزاج عبثي منحها لأناس مجرمين أو يُعْجِبُونَهُ أو لهم خاصية... لا، بل حصلوا عليها لأن سلوكهم في الدنيا كان يوصف بأنه حَسَنٌ.

عَامَّةُ القرآن استعمل وصف المحسنين وكان يقصد أن عملهم حَسَنٌ، ولم يقصد عمل الخير الذي لا تَطْلُبُ عليه مُقَابِلاً، والذي درج أن نقول عنه: إحسان. فهو عمل حَسَنٌ ولذلك اسمه إحسان، فالتوحيد والصلاة والصوم وبرّ الوالدين... هذه أعمال حسنة ومن قام بها فهو محسن، والجمع محسنون، لأنه حَسُنَ عمله وكان جَيّداً.

لا تقصد الآية هنا أنهم كانوا محسنين يعفون عن الناس ويتنازلون عن حقّهم أو يتصدّقون على الفقراء... فهذا ما يخطر ببالنا نحن من كلمة محسن بسبب ضيق استعمالنا لها حَصْراً بمعنى التسامح عن حقوقنا، ولكن وكما قلنا لائحة الإحسان "العمل الحسن وبالتالي فهم محسنون"، هي لائحة تضمّ كل عمل حَسَنٍ، من التسامح والعفو والصدقة... وصولاً للتوحيد وبرّ الوالدين والصلاة...

هناك شيء آخر نضعه دائماً في بالنا بسبب الأهميّة التي ركّز عليها القرآن مِرَاراً، فهذا دين إلهي فيه عقيدة وتشريع وسلوكيات، هل فيه أمور سَيِّئَةٌ؟ وهل يأمر سبحانه بشيء سَيِّئٍ؟ من البديهي أن تقول لا لأنك مسلم مدافع عن دينك، ولكن سبحانه وتعالى تعامل مع هذا الموضوع بشفافية، حيث أمرنا سبحانه بالمقارنة بين ما في قرآنه وبين ما يقوله الناس، لنرى الفرق الهائل بين العقيدة الصحيحة والشريعة والسلوكيات الحسنة التي يطرحها سبحانه علينا لنؤمن ونلتزم بها، وبالعكس ترى في هذا القرآن تركيزاً كبيراً على عرض ما اخترعه الناس من عقيدة وتشريع وسلوكيات سيّئةٍ فاسدةٍ، وذلك حتى ترى سوءها وتنفر منها.

الآن ترى بوضوح أننا نحن بما فينا من قدرات صرنا مخيّرين بين طريقين، ونحن نرى حسن وسوء الطريقين، وَوَصَفَتْ الآية 8 من سورة الشمس هذه الحالة {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}، فلولا قدرتنا على تمييز الخير من الشرّ، وحرية الإرادة للاختيار بينهما، لما كان لطرحه تعالى علينا دينه أي معنى، فإذا كنت أنا بلا قدرة على تمييز خير الصدقة على محتاج من شرّ البخل على من يكاد يموت جُوعاً، فما معنى تكليفي بدين يأمرني بالصدقة؟ وبالعكس، ما معنى الدين الذي يأمرني بالبخل على المحتاجين لأنفق أموالي على ملذاتي إِسْرَافاً؟

القاعدة الأساسية التي يتعامل بها معنا خالقنا سبحانه، أنه جعل فينا القدرة على تمييز الخير من الشر، الحسن من السيّء، وبناء عليه طرح علينا الإيمان والالتزام بكلامه، لأنه هو عزّ وجلّ حكيم سَلَامٌ رَحْمَنٌ... لذلك لا يأمر إلا بالخير، ومن المفروض أن نرى الخير ونسير عليه.

هكذا نفهم من وصف المحسنين ووصف {عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} ووصف الصالحين والأخيار... أنه كلام عن الذين لديهم قرار بفعل ما يرونه حَسَناً، وهذا في واقع الحال يتماشى مع دينه تعالى، لأنه سبحانه لا يأمر إلا بما هو حَسَنٌ.

فَرْضاً وصلك كلام عن شيء من دينه تعالى وتراه سَيِّئاً، فأنت أمام احتمالين يتفرّع عنهما احتمالات، فإمّا قلبك فيه مرض جعلك ترى الحسن سَيِّئاً، ويتفرّع عن هذا العديد من الحالات التي توصلك لهذه النتيجة، حيث ربما أساس الخلل تقديسك أو اعتيادك على ثقافة وعادات مجتمعك، أو تعلّقك الشديد بشهوة أو غريزة سيئة ما... والاحتمال الثاني أن ما وصلك ليس أَمْراً منه تعالى بل شيء ألصقه الناس بدينه تعالى، وأسباب ذلك كثيرة منها التفسير الخطأ لكلامه تعالى ولكلام رسوله، أو المعلومات ناقصة أو مشوّهة عن دينه تعالى، أو فَاسِدُونَ أو في قلبهم خلل من كفر أو فسق أو نفاق هم الذين يقدّمون لك دينه تعالى... لذلك راجع هذه النقاط كلما عُرِضَ عليك شيء ديني، ومع التمرّس على اتباع سلامة القلب بالأمور الصغيرة السهلة عليك، كترك الغيبة والمبالغة واستصغار الضعفاء والتكبّر والزهو والإسراف والتبذير... فستنفتح الآفاق أمامك لترى حسن أو سوء الأمور الكبيرة والصغيرة...

(كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ{17})
نكمل مع مواصفات الذين هم بالتأكيد من أهل الجنّة، لأنهم من الأرقى في السلوك الإيماني:

{كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ}، فالهجع كما يبدو من أشعار العرب قبل الإسلام هو عامّة الهدوء والسكون لمتحرّك، حيث النار تهجع تحت الرماد، والمستسلم هجع لمن استسلم له... وهذه الكلمة وردت مرّة واحدة هنا في القرآن. وهنا الهجع وصف لحالتهم في الليل حيث كانوا قَلِيلاً ما يتوقّفون عن الحركة بالنوم، وتلاحظ في عموم القرآن تَحْفِيزاً على القيام بالليل لقراءة القرآن والصلاة والدعاء والاستغفار والتسبيح والتحميد... لذا بكل سهولة تفهم أنهم كانوا ينامون قِسْماً قَلِيلاً من الليل والباقي كانوا يقضونه بالعبادة بأشكالها المتنوّعة، وهذا فعل حَسَنٌ من المصاديق العملية لوصفهم في الآية السابقة بالمحسنين.

كما ترى السورة لم تتحدّث عن عموم المؤمنين الذين من ضمنهم الخَالِطُونَ لعمل سَيِّئٍ بعمل صالح، ومنهم من قصّر في الواجبات، وارتكب صغائر الذنوب... فهؤلاء بالرحمة الإلهية من مغفرة ومضاعفة الحسنات والشفاعة... يدخلون إلى الجنّة، حيث اقتصرت السورة في حديثها عن المؤمنين من الدرجة الإيمانية العالية الذين حتما سيدخلون الجنّة، إذ ليس موضوعها عن المغفرة والشفاعة لمن آمن وكان لديه تقصير... بل موضوعها مقارنة من أنكر يوم الدين فمصيره حتما إلى النار، بالمقارنة مع من اتقى وأحسن وقام الليل... فهذا حتما مصيره إلى الجنّة، على أساس أننا كلّنا لدينا القابلية لنكون مُتَّقِينَ مُحْسِنِينَ قَائِمِينَ بالليل... ولا يوجد ما يمنعنا إلا تعلقنا بالشهوة والغريزة والهوى السَّيِّئِ...

أقول لك هذا حتى لا تعتقد أن من يقوم الليل بالعبادة فقط سيدخل الجنّة، لا، بل هذا مضمون له الجنّة في أرفع درجاتها، وهو تحفيز إلهي لنا لنكون من أعلى الصالحين لنضمن لأنفسنا دخول الجنّة، ولكن السور التي محور كلامها يقارن بين من حَتْماً سيدخل النار بسبب كفره بشيء أساسي، فسيكون في مقابله الكلام عمّن حَتْماً سيدخل الجنّة.

في دراسة الآية التالية سنتحدّث عن مدة القيام للعبادة لَيْلاً.

(وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ{18})
وكانوا، {بِالْأَسْحَارِ}، في فترة ما بعد منتصف الليل، {هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}، يطلبون منه تعالى التجاوز عن سيئاتهم فيسامحهم على ذنوبهم.

نتذكّر دَائِمَاً أنّ القرآن اعتبر العمل السَّيِّئَ سَيِّئَاً مهما كانت الظروف، فالقتل عمل سَيِّئٌ حتى لو كان رسول إلهي قتل كَافِراً هجم عليه، ولكنه تعالى عَفَا عن الأعمال السيئة في مثل هذه الحالة، وفي نفس الوقت يبقى توصيف القتل بأنه عمل سَيِّئٌ، وهنا وكما ترى المتقون المحسنون... هم الطبقة العالية الراقية من المؤمنين من طبقة الرسل والأنبياء والصالحين، وهؤلاء ربما قاموا بأعمال تصنّف بالسوء، حتى لو سَهْواً أو نِسْيَاناً أو من تقدير غير صحيح للأمور حصل السوء، مثلما قرأنا تعقيبا في الآية 26 من سورة ص عن حكم النبي داوود(ع) بين الشريكين {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} وعن الجسد الذي ألقي على كرسي النبي سليمان(ع) كما ورد في الآية 34 من سورة ص {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ}، وعن الأمر الإلهي لاستغفار النبي محمّد(ع) لذنبه كما ورد في الآية 55 من سورة غافر {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ}، لذلك هذه الطبقة الراقية من المؤمنين لا يقومون بعمل سَيِّئٍ عن قصد، بل يكرهون السوء ولا يطيقونه، وحتى أنا وأنت نكره سُوءاً ما، حيث نكره قلّة الأدب والكذب، أو نكره الشذوذ والزنا مع المحصنات... وهكذا نفهم أنه يوجد أشخاص يكرهون كلّ السوء والشرور، وبالتالي يكرهون كل ما حرّمه ومنعه تعالى الذي لا يأمر إلا بما هو حَسَنٌ ولا ينهى إلا عن السوء... وبالرغم من ذلك سَهْواً أو غَفْلَةً أو عن غير قصد قد يقوم المؤمنون من الدرجة العالية بعمل سَيِّئٍ أو يقومون بعمل نتيجته سيئة، وهم حتى من هذا العمل غير المقصود يستغفرون.

نحن أمام آية تتحدّث عن أناس ينامون مدة قليلة من الليل، وبعد منتصف الليل يستغفرون، وهذا لا يعني أنهم ينامون أقل من حاجتهم للنوم والتي يتراوح معدّلها عَادَةً بين 6 و9 ساعات، وهل يعني ذلك أنهم كل ليلة يفعلون ذلك؟ نحن عامّة المتدينين نستصعب ونستثقل ذلك، وأغلبنا لا يصلّي صلاة الليل، وبعضنا يُحْيِي ليالي القدر في شهر رمضان بالدعاء

والصلاة، ونعتبرها فُرْصَةً سَنَوِيَّةً لقضاء الليل في العبادة، لذا نتحمّس لها... ومنها يمكن أن نعلم ما يفعله المؤمنون من الدرجة العالية، الذين لديهم الحماسة اليومية لإحياء الليل بالصلاة والدعاء.

هل من تتحدّث عنهم الآية حالة نادرة؟ نعم حيث تتحدّث عن أرقى النماذج الإيمانية في مقابل أسوأ نماذج الكفر. وهل هذا يعني أن لا نحاول أنا وأنت تطبيق الآية؟ لا، ولكن ننتبه أن سلوك تلك النوعية من الناس طبيعي وليس اصْطِنَاعِيّاً، إذ يتماشى فكرهم ونفسيتهم مع قيام الليل بالدعاء والصلاة وقراءة القرآن، حيث براحة وسلاسة يقومون بذلك وليس غَصْباً عنهم، مثلما نحن نقضي بكل سرور الليل بالتسامر ومشاهدة التلفاز والتسلية... لأنّ التمرّس على فكر ونفسية إيمانية سيوصل إلى حالة السرور بإحياء الليل بالعبادة.

لا تَكْتَفِ بما أقوله لك وابحث عمّن تثق بدينه لتتعلّم منه معنى قيام الليل، لأنني لست أَهْلاً لهكذا أحاديث، وكلامي عنها سيكون نَظَرِيّاً، وهذا شيء خطير لأني سأكون كَاذِباً وَحَتْماً سأنصحك بما يضرّك.

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ{19})

{وَفِي أَمْوَالِهِمْ}، النقدية والعينية، من نقود ورقية أو ذهب أو طعام أو لباس... التي يملكونها يوجد، {حَقٌّ}، شيء واجب عليهم كحصّة محدّدة لغيرهم، {لِّلسَّائِلِ}، لمن يعبّر لهم عن إرادته للحصول على المساعدة، لمن يسألهم أن يعطوه من مالهم.

وفي أموالهم حق لل، {الْمَحْرُومِ}، لمن لسبب أو لآخر حُرِمَ فلم يتمكن من تحصيل ما يحتاجه، بسبب إعاقة منعته عن العمل أو الظروف القاهرة... فهذا له شيء من مالك.

المحتاج إذا سألهم أعطوه، وإذا علموا بوجود محتاج "محروم" فحتى لو لم يسألهم أعطوه. والسورة تشير بوضوح لإثبات ملكية المتقين لأموالهم التي تعبوا في تحصيلها، ولإثبات حَقٍّ فيها للمحتاجين، وهذا يأخذك إلى عمق في معنى مساعدة الآخرين من مالك، فهم لهم حَقٌّ في مالك، وأنت لو كنت مُحْتَاجاً فلك حَقٌّ في مال الميسورين، فمن يأخذ المساعدة من الآخرين عليه أن يخجل من نفسه إن كان مُهْمِلاً كَسُولاً... وأمّا إن كانت ظروف قاهرة أوصلته للحاجة، فليعلم أن ما يأخذه من الميسورين "أو من بيت المال..." فهو حقّ إلهي له وليس منّة من الخلق، وإن كان هو الميسور فليعلم أن المحتاجين لهم حَقٌّ في ماله وواجب عليه مساعدة من طلب المساعدة، ويجب عليه مساعدة المحتاج الذي لسبب أو لآخر لم يطلب المساعدة وهو الذي سمّته الآية بالمحروم.

هذا المعنى عن حقّ المحتاجين في أموال الميسورين ورد بِاسْتِعْمَالِ كلمة "حق" في الآية 141 من سورة الأنعام {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ... كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ}، والآية 26 من سورة الإسراء {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ}، ونفس التعبير تَقْرِيباً في الآية 38 من سورة الروم، والآية هنا ومثلها بنفس التعبير تَقْرِيباً في الآيتين 24 و 25 من سورة المعارج.

القرآن خصّص الزكاة كحقوق يجب دفعها بنسبة محددة من أموالك وأملاكك "سنويا أو كلما صارت زائدة كَثِيراً عن الحاجة"، ولكن عموم القرآن لم يهتمّ بهذه الضريبة فقط، بل صبّ اهتمامه على محتاج للمساعدة وأنت معك ما تساعده به، فيجب عليك مساعدته، حتى لو دفعت زكاتك، وحتى لو تصدّقت عليه من قبل، أو تصدّقت على غيره... فطالما أنت قادر على مساعدته ولن تتضرّر من مساعدته فيجب عليك مساعدة المحتاج، وهذا واضح جِدّاً من التعابير القرآنية الْمُتَنَوِّعَةِ عن الإنفاق والإيتاء المنتشرة في غالبية السور، ونبّهنا القرآن أن لا نتصدّق حتى نصير نحن فقراء بحاجة للصدقة، فهذا ممنوع علينا، وراجع في ذلك الآية 29 من سورة الإسراء {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا}، ضع هذا في بالك لأن آيتنا هنا لا تتحدّث حَصْراً عن حقّ للمحتاجين محصور بالزكاة، لا، إِذْ دَائِماً الصدقة واجبة على المحتاج وله حقّ في مالك إن كنت مَيْسُوراً.

كلمة سأل معناها الأساسي: عامّة التعبير لآخر عن إِرَادَةِ شيء ما منه. وبهذا المعنى هي مرادفة تَقْرِيباً لكلمة "طلب" كما نستعملها، ومن سياق الكلام يتحدّد المطلوب: جَوَاباً أو غَرَضاً أو فِعْلاً أو اسْتِعْلَاماً أو اسْتِفْهَاماً أو تَعَجُّباً... هنا في الآية ترى بوضوح أن ما هو دارج لمعنى كلمة "طلب" ينطبق هنا على ما تقوله الآية، فالسائل هو الطالب.

تلاحظ كَثِيراً في القرآن ربطه الإيمان بدينه تعالى مع الصدقة أو الإنفاق أو الزكاة... وأنت تعلم أهمية التكافل الاجتماعي المالي بمساعدة بعضنا البعض، لِذَا اكتفى القرآن بالكلام عن الزكاة والصدقة وافترض معرفتك بأهميّة ذلك، وأراك نَمُوذَجاً بَارِزاً عن أوامر هذا الدين الإلهي وهو نموذج يمسّ حياتك في الصميم، بل ويريك أنه أمر إلهي مشدّد عليه، وعليه عقاب شديد لمن خالفه... والبداية مع إنسان بحاجة ليأكل أو يموت، فقد تمرّ أنت أو ولدك أو عزيز عليك بهذه الظروف، مُرُوراً بتعاسة الحاجة وصعوبة تأمين الرزق وما يتبعه من ضغوطات نفسية... وُصُولاً للكثير من آفَاتِ المجتمع الْمُنَغِّصَةِ لحياتنا والمرتبطة بهذا الأمر الإلهي، فالحاجة من أبرز الدوافع للسرقة والنصب والاحتيال... وما يتبعها من رعب السلب والاعتداء والقتل... وما يتبعها من سلوكيات سيئة يفعلها المحتاجون لسدّ حاجاتهم ورغباتهم... وخلال الكلام عمّا سبق يقفز إلى الذهن الثراء الفاحش بالمليارات لبعض الناس، الذين لا يعتقدون بأن للفقراء حَقّاً في أموالهم، والدراسات الإحصائية في عصرنا تشير إلى تغيّر حال أهل الأرض كلّهم لو تبرع الأثرياء بجزء صغير من ثرواتهم كما يأمر سبحانه... وقبل ذلك، فَأُولَئِكَ أكثرهم مجرمون جمعوا أموالهم من تقصّد حرمان الآخرين بنهب ثروات وخيرات مختلف ما طالته أيديهم بالسلطة والاحتيال والقوّة... وهكذا ترى دينه تعالى يُعْرَضُ عليك ليؤمّن لك حياة سعيدة في الدنيا والآخرة...

بشكل أو بآخر ستشعر برابط بين أوصاف المتقين التي وردت هنا مع النماذج التي ستذكرها السورة عن أقوام أهلكهم سبحانه، هم بعكس المتقين لا يفعلون الصالحات.

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ{20})
{وَفِي الْأَرْضِ}، التي تعيشون عليها، {آيَاتٌ}، أمور مميزة، أمور لها دلالة وعلامة، {لِّلْمُوقِنِينَ}، للذين لديهم اعتقاد صحيح مطابق للحق والواقع.

ضع في بالك أن اليقين هو مطابقة اعتقادك للواقع والحق، فحتى لو كنت مُتَأَكِّداً من شيء ما، ولم يكن حَقّاً مُطَابِقاً للواقع فهذا ليس يَقِيناً بالمعنى الحقيقي للكلمة، وهذا من تقويم القرآن لاستعمال كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهي، وترى ذلك وَاضِحاً في الآية 157 من سورة النساء {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ... وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا}، فما رأوه بأعينهم جعلهم يصفون أنفسهم بأنهم "متيقنون" متأكدون جِدّاً بأن المسيح(ع) صُلِبَ، ولكنه في الحقيقة لم يُصْلَبْ، فاعتقادهم ليس مُطَابِقاً للواقع، وبالتالي فَإِنَّ حالتهم لا توصف باليقين. وهي مثل حالة المصاب بعمى الألوان فهو يرى الأخضر أَحْمَرَ، وَهُوَ مُتَيَقِّنٌ مما يراه، ولكن في الحقيقة هُوَ ليس في حالة اليقين.

أقول لك هذا لتفصل بين الواقع الحقيقي وبين ما تعتقد به حتى لو شعرت بأن اعتقادك يقيني، ولديهم في الفلسفة اصطلاحات تعبّر عن ذلك فيقولون "واقع الأمر، حقيقة الأمر..."، حيث تجد من يقول لك بأنه مُتَيَقِّنٌ بأن الكون والحياة بالصدفة صَارَا، ومتيقن آخر بأن قِدّيساً دعاه فحقّق له ما يريد... وفي مقابلهم لديك مُتَيَقِّنٌ بأن إِلَهاً وَاحِداً أَحَداً صمّم وخلق السماوات والأرض وَيَرْعَاهُمَا... وَمُتَيَقِّنٌ بأن القدّيس مات وفقد وعيه وَأَصْلاً لا يسمع أولئك الذين يدعونه... فكل أولئك يقولون بأنهم متيّقنون، ولكن من المستحيل أن يكون يقينهم كلّهم صَحِيحاً لِأَنَّهُمْ متخالفون.

انتبه لهذه النقطة جَيِّداً، فالقرآن لم يعرض عليك الإيمان بدون أدلة يذعن لها عقلك، فحين يبيّن لك أن يقين الآخرين المخالفين لدينه تعالى هو وهم، ففي نفس الوقت يبرهن لك أن يقينك صحيح، وليس فقط عبر تأكيده تعالى بالكلام لما تعتقد به، بل عبر الأدلة، وهذا ما يَحْمِلُهُ معنى كلمة "آيات" فهي أمور مُمَيَّزَةٌ، أمور تجعل فكرنا يعتقد بإله عظيم الصفات والقدرات.

الآن صرنا نفهم كلمات آيتنا هكذا: هناك أمور مميزة "آيات" بتصميم وخلقة الكائنات والظواهر التي على الأرض، والتميّز الذي فيها يدلّ على شيء، والتفكّر فيها أوصل الذين قلوبهم سليمة من الناس إلى الاعتقاد بإله واحد أحد فائق القدرات صمّم وخلق السماوات والأرض ويتابع شؤونها، وكان لديهم يقين بذلك، وها عبر هذا القرآن يأتيك خبر مع الأدلة من الإله أن يقينك صحيح مطابق للواقع، فالإله واحد وكلامه حقّ...

(وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ{21})

{وَفِي أَنْفُسِكُمْ}، في ذاتكم أنتم آيات تدل على إله صمّمكم وخلقكم، {أَفَلَا تُبْصِرُونَ}! مِنْ بَعْدِ لفت انتباهكم لهذا ألا يحصل عندكم فهم ووعي للصورة الصحيحة؟

أَجَابَتِ السورة في بداياتها عن سبب عمى البعض عمّا يدل على الإله العظيم، لأنهم {خَرَّاصُونَ} {فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ}.

بِالنِّسْبَةِ للآيات التي في نفسي، فأصل تصميم خروجي إلى الحياة، وجسدي وقدراتي... وكياني وأعضاء جسدي والحواس والمشاعر والفكر... واستقبالي لما يلتقطه جسدي وَصَيْرُورَتِهِ أَفْكَاراً وَمَشَاعِرَ... واختلافي عن بقية الحيوانات وعن النباتات... وتناسبي مع البيئة التي حولي... وتريليونات التفاصيل من مكونات خلايا جسدي إلى أعضائي ووظائفها، لكياني كإنسان، لتميزي بالفكر... أهكذا بدون إله عظيم صرت مَوْجُوداً بهذا الشكل! هَلْ فِعْلاً يمكن أن تبلع ما يقوله البعض عن وجودي هكذا بسبب التكرار والصدفة وبسبب خصائص المادة والطاقة! الرُّؤْيَةُ والسمع والنطق والنمو والولادة والفكر والمشاعر والجلد والأنف... والرغبات والغرائز والاستذواق... والشعور بجمال الأشياء... وَحْدَهَا حَصَلَتْ وبالصدفة أو بالتكرار والنجاح...

نَتَذَكَّرُ دَائِماً أَنَّ هناك خطّ إيماني مبني على العلم الرباني، وهناك خط إيماني مبني على السذاجة والطفولية وُصُولاً إلى السخافات، وهناك خط الكفر بدينه تعالى. وخط الكفر يقول أَنَّ كلّ ما نراه له تفسير علمي، حَيْثُ هناك آليات مترابطة لحصول الأشياء، من نشأة الكون وُصُولاً إلى نشأة الحياة على الأرض، وبناء عليه لِذَا لا يوجد أثر لفعل صادر من الإله... وخطّ الإيمان الساذج الطفولي يقول بأن كل ما نجهل سببه فالله تعالى هو سَبَّبَهُ، حَيْثُ قَبْلَ معرفتنا بسبب نزول الماء من تكاثف البخار بأسباب عديدة، كان هؤلاء المؤمنون يقولون: المطر بالماء بأمر من الله تعالى ينزل. يعني، هكذا وبدون أي سبب، يأمر تعالى الغيوم فينزل منها المطر... وكانوا يقولون: فَجْأَةً انبثقت الأرض والشمس والنجوم وآدم(ع) والنباتات والحيوانات، على أساس أنه لم يكن يوجد أي شيء وفجأة صاروا موجودين... بعد ذلك بزمن تطورت العلوم، ودفع أولئك المؤمنون الله تعالى إلى ما وراء ما علموا سببه، حَيْثُ الْمَطَرُ صار ينزل بسبب تكاثف البخار ولكن الله تعالى هو سبّب هذه الخصائص في البخار والهواء... والأرض تشكّلت من تجمعات الغبار والصخور الكونية ولكن الله تعالى جعل خاصية الجاذبية في المادة... ومثلها مثل معرفة الجنين إن كان ذَكَراً أو أُنْثَى، إِذْ مُنْذُ عهد قريب جدا كانوا يقولون أنه تعالى وحده يسيطر على إِنْجَابِ الأُنْثَى أو الذَّكَرِ، ونحن لا قدرة لنا على اختيار المولود، حتى إِنَّهُمْ كانوا يظنون أن من يجري صورة صوتية لبطن الحامل لمعرفة جنس الجنين أنه كفر وتدخّل بالشؤون الإلهية! الآن لم تعد هذه الأفكار الإيمانية دارجة، لِذَا صِرْنَا نعلم أن قلوية البيئة في الرحم هي من الأسباب الرئيسية للتأثير على تحديد نوع الجنين مع غيرها العديد من الأسباب...

انْتَهَيْنَا من الكفر ومن الإيمان الساذج، وننتقل إلى الإيمان المستند على العلم الرباني "القرآني" الذي يخبرنا أن كل شيء، وحتى ما نفعله نحن بأيدينا، وحتى ما نعلم سببه وجذره وأساسه، فهو من فعله تعالى، فَمَا تزرعه بيدك هو تعالى زرعه، كما ورد في الآية 63 و 64 من سورة الواقعة {أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}، والسفينة التي بنيتها فهو تعالى بناها، وترى ذلك في الآية 12 من سورة الزخرف {وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ}، والليل والنهار من دوران الأرض حول نفسها، هو تعالى جعله يحدث... لِذَا يريدك القرآن أن تفهم أن ما تعلم سببه وما لا تعلم سببه فإن مسبّبه هو الله تعالى الذي أخبرك أنه خالق كلّ شيء، والبداية مع تركيب وتأليف السماوات والأرض في ستة أيام، تتضمّن أَيَّاماً لتشكيلها وَأَيَّاماً لتقدير الرزق فيها، وُصُولاً إلى خروجنا نحن عليها... كما تقرأ في الآية 9 وما بعدها من سورة فصلت {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ}...، في بيئة نندمج معها مستخدمين القدرات التي منحها تعالى لنا لينتج عن ذلك اختراعات واكتشافات أَصْلاً زرع سبحانه بذرتها فينا، وَأَصْلاً خلقنا تعالى في بيئة تتيح لنا تنفيذ ما هو مزروع فينا...

مَعْرِفَتُنَا بآليات نشأة الكون هي تعرّف على آليات فعله تعالى للأشياء، وها كلامه تعالى في قرآنه يخبرك عن مراحل خلق السماوات والأرض ومراحل خلق الإنسان ومراحل تبدّل الانتقال من الدنيا لتتشكّل الآخرة... أَمَّا عَقْلِيَّةُ قوله تعالى للشيء {كُنْ فَيَكُونُ} على معنى فورية حدوث الأشياء فَوْراً وبلا أي سبب، فهي الدمار الفكري الذي انبنى عليه قَدِيماً وَحَدِيثاً تفسير كلامه تعالى، مِمَّا جَعَلَ دينه تعالى مَعْرُوضاً على الناس كدين معارض للنظريات العلمية لأن غالبية المؤمنين كانوا يقولون أَنَّهُ تعالى خلق الكون فجأة وبكلمة منه ولا يوجد آليات مترابطة مُتَسَلْسِلَةٌ لنشأة الكون. ولكن كلامهم هذا مخالف بصراحة لكلامه تعالى عن خلق ما في الدنيا في ستّة أيام تشير لمراحل...

قَوْلُهُمْ عن خلقة آدم(ع) كأوّل إنسان وَفَوْراً من تمثال من الطين، وتبريراتهم التي لا تدخل في العقل عن خلقة زوجة آدم وعن خلقة النباتات والحيوانات... بينما تجد القرآن يتحدّث عن بشر قبل آدم(ع) كما ورد في الآية 30 من سورة البقرة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...}، وتراه يتحدث عن بدء خلق الإنسان من طين كما ورد في الآية 7 من سورة السجدة {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} فراجع دراسة هذه الآية لمزيد من التوسّع...

هَكَذَا ترى أن القرآن تحدّث عن مراحل مرّت بها دنيا المخلوقات لتتشكّل وُصُولاً إلى تشكّل كوكب الأرض ونشأة الحياة عليه... ولم يتحدّث عن آليات حصول ذلك، وتعرّفنا على آليات نشأة الكون عبر طرح فرضيات ونظريات، فهو شيء رائع نتعرّف منه على ما يمكننا فهمه من آليات فعله تعالى للأشياء.

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ{22})
{وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ}، حَالِيّاً ما يصير معكم لتسدّوا به عموم حاجاتكم ورغباتكم فإنما حَصَلْتُمْ عليه لأن الإله الذي في السماء "معنويا" لأنه فوقكم، فهو صمّم وخلق بيئتكم بحيث يصير مُتَاحاً فيها الرزق لكم، لِذَا مِنْ قرار إلهي بخلقكم بهذا الشكل والقدرات... في هذه البيئة، وبتقسيم منه تعالى بتوزيع الرزق عليكم، صار معكم رزق.

لَاحِظْ أن الرزق أساسي لنا، وكما يجب أن ألتفت لتصميم جسدي وأنتبه لمصمّمه وخالقه، فالرزق الذي يبقيني حَيّاً أَيْضاً منه تعالى.

{وَفِي السَّمَاءِ}، {وَمَا تُوعَدُونَ}، ما قال تعالى أنه سيفعله بنا فهو أَيْضاً في السماء، فوقكم، عنده تعالى، إِذْ إِنَّ عالمكم هذا ليس مَتْرُوكاً ليعمل لوحده، إِذْ لَا قدرة له على البقاء بدون عناية إلهية، وَأَيْضاً الوعود التي وصلتكم عن جنة ونار في الآخرة، ستحصل بقرار من السماء من فوقكم ولن تكونوا متروكين لتموتوا وتختفوا.

بِعِبَارَةٍ أبسط، رِزْقُكُمْ الآن في الدنيا حَيْثُ أَنْتُمْ لستم سببه، بل من فوقكم من السماء، منه تعالى الأعلى منكم مَعْنَوِيّاً لأنه إلهكم، وَمِنْ هناك أتى القرار بحصولكم عليه هنا في الدنيا، وهو نفسه رازقكم هنا وعدكم برزق في الآخرة، وَبِقَرَارٍ من فوقكم مَعْنَوِيّاً من السماء، ستحصلون في الآخرة على الرزق.

تَفْهَمُ استعمال كلمة "سماء" هنا على عدّة أوجه كلّها تعطي نفس المعنى، إِذْ فِي السماء كتاب إلهي محدّد ومذكور فيه كل شيء سيحصل في الدنيا والآخرة، وَكُلُّ ما يجري وسيجري من أحداث فهي تطبيقات لما هو مذكور في ذلك الكتاب، وتقرأ ذلك في عدة آيات منها الآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، لِذَا رِزْقُنَا حَالِيّاً والرزق الموعودون به في الآخرة، في السماء، مسجّل في ذلك الكتاب.

نَفْسُ المعنى بتعبير آخر عن خزائنه تعالى أنها في السماء والأرض، كما تقرأ في الآية السابعة من سورة المنافقين {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ}، ويشير لها القرآن مَعْنَوِيّاً بأنها تنزل من عنده تعالى كما تقرأ في الآية 21 من سورة الحجر {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ}، حَيْثُ الرِّزْقُ هنا في الدنيا ينزل من خزائنه تعالى، وما نوعد به في الآخرة أَيْضاً من خزائنه تعالى. ولمزيد من التوسّع حول معنى الخزائن ونزول الرزق منها راجع دراسة الآية 21 من سورة الحجر.

نَفْسُ المعنى أنه تعالى مَعْنَوِيّاً فوقنا، فَالْقَرَارَاتُ التي تتحكّم بنا تأتي من فوقنا، من السماء مَعْنَوِيّاً، لِذَا الْقَرَارُ بحصولنا على الرزق يأتي من السماء، من فوقنا مَعْنَوِيّاً، من الإله سبحانه.

لُبُّ السورة عن يوم الدين في الآخرة، وبنظرة جافة للدنيا لن ترى الآخرة إذا لم تفهم أنه الآن يوجد إله مسيطر على كلّ شيء ولديه مخطّط لما بعد حياتنا، وَمِنَ الرزق الذي معنا الآن ننتبه أننا نحصل عليه لأنه تعالى أتاحه لنا، وَوَعَدَنَا تعالى برزق في الآخرة عبر رسله وكتبه.

نَنْتَبِهُ جَيِّداً، حَيْثُ بَيْنَ الكلام القرآني الصريح وبين بعض ما هو منتشر في الثقافات الدينية "عند المسلمين وعموم أهل الكتاب" نجد فَرْقاً، إِذْ بَعْضُهُمْ يظن وبدون مستند قرآني، أن الجنّة والنار مَوْجُودَتَانِ الآن، في السماء، وعليه يفهم من

آيتنا هنا أنها تشير إلى الجنّة في السماء الحالية، وأن ما وعد تعالى به المتقين موجود الآن في السماء، وهذا غير صحيح، لِأَنَّ الآيَةَ تتحدّث عن شيئين، عن رزق حالي في الدنيا وعن شيء وُعِدْنَا به في الآخرة، وكلاهما في السماء، ومثلما نفهم أن رزقنا الحالي في السماء القرار بإتاحته لنا وحصولنا عليه، فكذلك رزق الآخرة في السماء قراره والحصول عليه.

نَحْنُ الآن في الدنيا، وكل السماوات حَالِيّاً هي في الدنيا، وسيأتي زمن تتبدّل فيه السماوات والأرض، وعندها نصير في الآخرة، وهناك تتشكّل الجنّة والنار، وهكذا ترى أن الإشارة في الآية هنا نحو السماء، هي إشارة نحو المعنى الأساسي من دون إضافات لكلمة سماء، إِذْ إِنَّهَا تشير لعموم ما كان فوق مَعْنَوِيّاً أو مَادِيّاً، حَيْثُ نَحْنُ البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أَيْضاً على قبّة النجوم التي نراها لَيْلاً ونطلقه أَيْضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه مَعْنَوِيّاً على الجنّة... فضع في بالك دَائِماً أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنويا" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، لِذَا لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض.
وتعبير الآية هنا {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} هو إشارة لصدور القرارات الإلهية من جهة الفوقية مَعْنَوِيّاً بالنسبة لنا، وَمُضَافاً له مَادِيّاً ومن النوع المناسب لكلمة مادة حين نطلقها على السماء العالية التي فيها الملائكة والكتاب الرئيسي الذي فيه كل شيء عن الدنيا والآخرة، فإن لم تحبّذ معنوية الاشارة إلى السماء فواقع الحال أنه في السماء العالية كِتَابٌ مُسَجَّلٌ فيه كل شيء عن الدنيا والآخرة، وبالتالي مسجّل فيه ما سيرزقنا سبحانه وما وعدنا به في الآخرة...

(فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ{23})
{فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}، تأكيداً بالمسؤول من مستوى إلهي عن عموم ما هو فوق ويقابله عموم ما هو تحت، {إِنَّهُ}، إن ما توعدون بحصوله وهو يوم الدين، {لَحَقٌّ}، لصواب صحيح حقيقي وليس كلاما فارغا أو كذبا أو جزافا... {مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ}، فكما لا تشكّون للحظة بأن الأصوات تخرج منكم، حيث عندما تنطق يخرج منك الصوت بحركة وتحكّم لا تنتبه لتفاصيله، ولكنك تشعر بقوّة بأنك أنت الناطق بشكل يميزك عن بقية الناس وبقية الكائنات، ولا تلتفت لانسياب الفكر وتحوّله إلى نُطْقٍ عبر ضغط الهواء من الرئتين في القصبة عبر الحنجرة إلى فضاء الفم واللسان فالشفاه، وهذه العملية تجعل بينك وبين الحجر والصخرة فرقاً هائلا... فكما تشعر بالتصاقك بعملية النطق المميزة ولا تشكّ في تميّزها ولا في حصولها منك، فكذلك الوعد الإلهي بيوم الدين لا شكّ في حصوله.

قديماً حلّل المفكرون حالة الإنسان الفاقد لأي شعور بالبيئة حوله، فهو لا يرى ولا يسمع ولا يلمس... ويسميه البعض بحالة الإنسان الطائر في الفراغ، فتبقى لديه حالةُ وعيِ ذاته، وهو شعوره بوجوده من وعيه فقط، وهكذا ننتبه أن أقل فعل منّا هو منسوب لنا، والآية هنا اختارت النطق، وبدون أي تعمّق فكري فيما قالته الآية نفهم أن النطق فعل يصدر منّا، فهل تشكّ في حقيقته؟ في حدوثه؟ وكذلك حصول الآخرة فهو لا شكّ في أنه حقّ.

لدينا في كلامنا العادي شيء مماثل لما قالته الآية، حيث أقول لك عن شيء سيحدث في المستقبل، وأؤكّد لك حدوثه مثلما تراني وأراك، "متل ما شايفني وشايفك"، والآية هنا استعملت نفس هذا المفهوم واستبدلته بالنطق، فهذا كلام إلهي عن الآخرة وهو كلام صحيح مثلما أنتم تشعرون حين تنطقون بالكلام بأنكم متأكدون من صدور الكلام عنكم، فسبحانه متأكد من حصول الآخرة.

بالتحليل بالعمق لكلام الآية ضع في بالك الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}، وأنت من ضمن من سيزول لولا إمساكه تعالى لك، وأنت تنطق بالكلام، وستنطق بالكلام، والذي يحافظ على كيانك وحياتك وبيئتك... لتبقى، ولِتنطقَ فيما بعد ساعة أو ثانية، فهو نفسه يرى سير الأمور باتجاه حدوث الآخرة، ولا فرق عنده بين الثانية وبين مليارات السنين، ومثلما أنت تنطق ومتأكد من فعلك للنطق، علماً أنه تعالى جعلك تنطق الآن وستنطق بعد ثانية... فكذلك جعل تعالى الأمور تسير باتجاه الآخرة التي ستحصل بعد سنين...

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ{24})

تبدأ السورة من هنا بلفت انتباهنا لأمور عديدة: أولها أنه تعالى يدين هنا في الدنيا قبل الآخرة، حيث يدين خيراً أو شراً، والكلام عن ذلك نموذج يشير إلى صدق كلامه تعالى عن إدانتنا في الآخرة. ثانيها أن ملائكته(ع) سبحانه يوظّفها بأعمال لها أثر على الطبيعة. وبناءً على النقطتين السابقتين ثالثها أننا تحت سيطرته تعالى في كلّ الأحوال ومهما اشتدت قوتنا فقراره تعالى سيمشي علينا. رابعها أن إنكار يوم الدين لن يغيّر أي شيء، حيث نرى هنا في الدنيا نماذج ملموسة عن إدانته تعالى للأقوام التي أنكرت إدانته تعالى لها في الآخرة. خامسها أن الإنذار من الإدانة مع حصول الإدانة، فهو حالة لها امتداد تاريخي طويل يثبت صحّتها. وغيرها من الأمور الأخرى، ولنبدأ:

{هَلْ أَتَاكَ}، هل وصل إليك، {حَدِيثُ}، كلام عن حدث حصل ونقل خبره الناس لبعضهم البعض عن، {ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ}؟ إذ إنّ هناك مجموعة من الأشخاص جاؤوا إلى النبي إبراهيم(ع) واستقبلهم ليضيفهم، ليطعمهم ويسقيهم ويناموا عنده... من دون مقابل، وهم موصوفون بأنهم مكرمون إذ لهم شأنٌ ومكانة عالية.

من المشهور بين عامة أهل الكتاب والمسلمين أن بضعة ملائكة تمثّلوا على شكل بشر وقصدوا بيت النبي إبراهيم(ع)، ولم يذكر القرآن صراحة أنهم ملائكة، واستضافهم (ع) لأنهم غرباء ولم يعلم بأنهم "ملائكة"... ولا فائدة من معرفة عددهم "وقالوا إنهم بين ثلاثة واثني عشر" أو معرفة أسمائهم "وذكروا منهم جبريل وميكال وإِسْرَافِيلَ عليهم السلام في أغلب الروايات"، وليكن تركيزك على التدخّل الإلهي بناحيتي النفع والضرّ للناس عبر إرسال تلك "الملائكة(ع)"، فهذا هو لبّ الحدث.

تذكّر دائماً أننا استنتجنا أنهم ملائكة من أفعالهم ومن كونهم رسله تعالى، حيث لم يصرّح القرآن بأنهم ملائكة ولكن بما أنّ عموم القرآن يحدّد أن الرسل الإلهية لعموم الناس يكونون من الملائكة، وبما أن سياق الكلام في بعض السور ذكر الحادثة قاصداً أنهم ملائكة لم يعرفهم حتى الأنبياء حين تمثّلوا على شكل بشر... فبناءً عليه تماشينا مع المشهور في الثقافة الدينية معتبرين أن الضيوف ملائكة على أساس أن القرآن افترض فينا معرفة ذلك من دون ذكر وصفهم.

(إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ{25})
{إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ}، صاروا في دار النبي إبراهيم (ع)، {فَقَالُوا سَلَامًا}، إعلان بأننا لن يصدر منّا أي شرّ أو سوء لكم.

{قَالَ}، النبي إبراهيم(ع): {سَلَامٌ}، من ناحيتي أيضاً أعلن أني لا أنوي لكم الشرّ أو السوء، {قَوْمٌ}، حيث أنتم أناس لهم كيان الجماعة، {مُّنكَرُونَ}، غير معروفين، لم أركم من قبل ولا تشبهون أي أناس أعرفهم أو سمعت عنهم.

كما يبدو بوضوح لم يحقّق معهم النبي(ع) ليعرف من هم ومن أين أتوا وإلى أين ذاهبون... ولأنه لم يرهم من قبل ولم ير تلك الهيئة من قبل فـافترض أنهم مسافرون من مسافة بعيدة، والآن يحتاجون للطعام، وبعدها سيتحدّث معهم ليتعرّف عليهم...

نلاحظ هروب جلّ المفسرين من نسبة مقولة: قوم منكرون، للنبي إبراهيم(ع) أمام ضيوفه، فظاهر الآية أنه(ع) قالها أمامهم، ولكن اعتبرها المفسرون غير لائقة، حيث قال الكثيرون إنها وصف لهم ولم يقله النبي(ع) أو قاله بينه وبين نفسه ولم يسمعوه. لكن لا معنى لكلامهم لو التفتَّ أنّ كلمة "نكر أنكر منكر..." وباقي المشتقات، معناها المعاكس للمعروف، وليس فيها أي تعبير معيب، ولا تنسَ أن هذا الكلام عرّبه القرآن، إذ إنّ النبي إبراهيم(ع) لم يكن يتكلّم العربية، وباللغة العربية فهذه الجملة لا تعني أكثر من: لا أعرفكم ولا أعرف من أي قوم أنتم. أو: أنتم غرباء عني وعن المنطقة وعن الأقوام التي أعرفها... ولا يوجد أي عيب في هذه الجمل.

في القرآن نجد قصصاً رويت هي نفسها بطرق مختلفة في عدّة سور، مثل قصّتنا هنا التي وردت في سورة هود، وترى أيضاً ذلك جلياً في قصص النبي موسى(ع) وبعض بقية الأنبياء، وهناك أسباب عديدة لنقل نفس القصّة بطرق مختلفة في السور، إذ إنّ القرآن ينقل من الحادثة ما يناسب محور السورة التي تنقلها، حيث مرة يهتم بتفصيل ما، ومرة يتركه ويركّز على غيره... وسبحانه لم يعتمد على النقل الحرفي للحوارات بل على نقل المعنى من الحوار، حيث نقل ما يريد المتحاورون قوله من فكرهم وقصدهم الحقيقي، ولم ينقل لنا جملة وقائلها يقصد شيئاً آخر، وإذا فعل فإن القرآن يشرح لنا نفسية القائل ليبين لنا مقصده الحقيقي من القول.

معلوم لك أن غالبية الأحداث التي نقلها القرآن لم تجر باللغة العربية، فكان من الطبيعي نقل القرآن لما قالوه بالمعنى، وإذا كان الناقل هو الإله سبحانه وتعالى الذي يعلم السرّ والعلن، فلن يعرّب سبحانه الكلمات، بل سينقل ما كان يقصده القائل في نفسه. وهنا جملة: قوم منكرون، مثال عن نقل ما كان يقصده النبي إبراهيم(ع) عن أنه لا معرفة له بهم، بل حتى أنه لم يستطع التخمين من أي بلد هم... مثلما نقول نحن لهم: لا يبدو عليكم أنكم من منطقتنا ولا من منطقة أعرفها... وهذا المعنى لا يعني أبداً الإهانة لهم لا بلغته (ع) ولا باللغة العربية.

(فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ{26})
{فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ}، أي قام بالخفاء عن الضيوف، إلى أهله أي إلى الذين ينتمون له وينتمي لهم، تاركاً ضيوفه ومن دون أن يشعروا بما يريد فعله وتوجّه نحو زوجته وخدمه، حيث قام وترك الضيوف ولم يقل لهم إنه سيحضّر لهم الطعام، {فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ}، بولد البقرة قبل أن يكبر في السنّ ويصير ثوراً، ووصفه بالسمين يعني تعلّفه بشكل جيّد حتى صار مكتنزاً باللحم والدهن.

من دون إخبارهم بأنه سيقوم بتحضير الطعام، تركهم ليرتاحوا ولم يجعلهم يشعرون بأنه ذاهب لتحضير الطعام، حتى لا يستحوا منه أو يشعروا بأنهم أزعجوه وسببوا له الانشغال بهم... وتعاون مع أهله على تحضير عجل مشوي على النار، وهذا شيء نفهمه من الآية 69 من سورة هود التي وصفت العجل بالحنيذ أي الذي يقطر منه الدهن {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ}.

تستنبط أنّ الملائكة(ع) عددهم غير قليل أو كانوا ضخام الجثّة ويمكنهم أكل كمية كبيرة من الطعام حتى ذبح لهم عجلاً، وعلّق المفسرون على كمية اللحم الكبيرة للعجل بأنه من كرم ضيافة الأنبياء... ولكن لا ندري إن كانوا كُثُراً واحتمل (ع) أنهم بإمكانهم أكله، ولا ندري إن كان مضطراً لذبح عجل لأنه لا يملك معزاً أو غنماً، ولا ندري إن كان أصلاً صادف أنه (ع) وقبل مجيء الضيوف كان غداؤه (ع) مع أهله عجلاً مشوياً، حيث لم يقم بذبحه وشويه حين أتوا بل كان جاهزاً وقدّمه لهم... وعلى كل حال في الآيات إشارة لاهتمامه بأقصى ما يمكن بضيوفه لدرجة تقديم عجل مشوي لهم، وعلى كل حال فإن كانت الكمية كبيرة فلن يقوم النبي إبراهيم(ع) برمي بقية الطعام بل سيوزّعه على من حوله.

سيكون سهلاً عليك تصوّر الأحداث وتحليل سبب إكرامه (ع) لهم، فيبدو واضحاً أن هيئتهم تدلّ على النضارة والنظافة والراحة... وفي ذاك الزمان قلّة قليلة جداً من البشر مرتاحون في معيشتهم وبعيدون عن المشقّة والتعب... فاستنتج النبي(ع) أنهم سيكونون معتادين على الرفاهية في الطعام، فأكرمهم بشوي عجل...

هناك شيء طريف في تراث المتدينين اليهود، فمن أراد منهم الحصول على أولاد فإنه يحسن استضافة ضيوفه تأسياً بما حصل مع النبي إبراهيم(ع) في هذه الحادثة التي من بعدها جاءت البشارة بالولد...

(فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ{27})
{فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ}، جعل العجل المشوي قريباً منهم.

قال النبي إبراهيم(ع) لهم: {أَلَا تَأْكُلُونَ}؟!

يبدو من تعابير السورة هنا وفي غيرها من السور أنه(ع) افترض هجومهم على اللحم لأنهم مسافرون جياع والطعام شهيٌّ، ولكنهم بقوا جامدين كما هم ولم يهتمّوا بتاتاً بالأكل ولم يَعْنِ لهم أي شيء! ولم يمدّوا أيديهم ولا أعينهم إلى الطعام! ولذلك سألهم(ع): {أَلَا تَأْكُلُونَ}؟! لا يوجد أي سبب أعرفه يمنعكم من الأكل، ولماذا لا تأكلون؟!

ضع في بالك أن الملائكة(ع) ليست مخلوقة من نفس المادة التي نحن منها، فهم ليسوا من طين، ليسوا من الكربون والكالسيوم والماء... وتمثّلوا بشكل بشر ولم يتحوّلوا لبشر، وهم لا يزالون كما هم، ولكن لديهم القدرة على تحويل شكلهم فقط إلى شكل البشر كما نفهم من الآية 17 من سورة مريم {فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا}، فلن يجوعوا ولن يشعروا بطعم الأكل حتى لو قاموا بعملية المضغ والبلع، لأنهم لا يزالون كما هم ملائكة ولم يتحوّلوا لبشر، وكررت لك هذا الكلام لأن العديد من المسلمين وغالبية أهل الكتاب يعتقدون أن الملائكة

تتحوّل لبشر وتصير مثلهم بالتمام تأكل وتشرب وتتزوّج... وهذا غير صحيح أبداً، فلا البشري يمكن أن يصير ملاكاً ولا الملاك يمكن أن يصير بشرياً.

نعم، يمكن للملاك أن "يتمثّل" بشكل بشري وهذا ما حصل، ونفترض أنه يجمع المادة التي في عالمنا لتصير جسداً وثياباً، ويتحكّم بها وكأنه فيها، فنحن بالنسبة للملائكة مجرد طين "المواد الطبيعية المعروفة في الجدول الدوري للعناصر" وتشكيل شكل من الطين ليصير إنساناً يبدو أمراً ممكناً بالنسبة لقدرات الملائكة العالية.

تذكّر هذا وأضفه إلى الكلام القرآني عن خلق آدم(ع) من طين، وعن وصف الملائكة (ع) وإبليس لنا بأننا من طين، فكلمة طين هي التعبير القرآني للمادة التي نعرفها، وعندما تموت يتحلّل جسدك ويصير تراباً، وبينما أنت حيٌّ، في الحقيقة لا زلت كومة من تراب وماء "طين"، وهكذا يراك الإله سبحانه، وهكذا تراك الملائكة(ع) والجن، وفي المقابل لا تتصوّر الجنّ كألسنة من لهب النار على أساس أنهم من نار، بل مادة تكوينهم الأساسي من نار، ولكن أجسادهم متحولة لشيء آخر مثل تحول الطين لدم ولحم وعظم.

تذكّر دائماً ما ستقوله الآيات هنا عن الملائكة(ع) بأنها لا تأكل، وأصلاً لا تحتاج للأكل، وهي نموذج عن كائن مختلف بتكوينه عنّا، وسترى بعد قليل في السورة أن الإله سبحانه لا يريد منّا رزقاً، فإن كانت الملائكة (ع) لا تحتاج للرزق وبينها وبينه تعالى فرقٌ شاسعٌ هائلٌ في طبيعة التكوين، فمن البديهي أنه تعالى لا يأكل ولا يشرب ولا يحتاج لأي شيء أصلاً، وأصلاً ليس دقيقاً الكلام عنه تعالى باستعمال كلمة طبيعته أو تكوينه.

(فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ{28})
{فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ}، تحدث النبي إبراهيم(ع) في نفسه من الضيوف، {خِيفَةً}، شعوراً بأنهم سيصدر منهم خطر لا يمكنه (ع) تجنّبه، لأنهم رفضوا الأكل فاعتبرها (ع) علامة على العداوة.

{قَالُوا لَا تَخَفْ}، لا تشعر بأي خطر منّا، لأننا لن نؤذيك... وكما ترى عرّفوه بأنفسهم أنهم رسل منه تعالى "ملائكة(ع)"، ولم يفعلوا ذلك من قبل لأنه هو (ع) أول ما التقاهم أجلسهم ولم يتحدّث معهم وذهب وحضّر الطعام... ولم يسألهم من هم وإن كانوا جياعاً... ووصلت الأمور إلى أنهم لم يمدّوا أيديهم ليأكلوا من الطعام... وشعوره (ع) بالخطر منهم، عندها أخبروه بأنهم رسل منه تعالى...

{وَبَشَّرُوهُ}، قالوا له خبراً ساراً، {بِغُلَامٍ عَلِيمٍ}، سيكون له (ع) ولد وسيعيش ليراه صار غلاماً، وكلمة غلام وصف للذكر من سنّ التمييز إلى البلوغ، وسيكون عليماً ومعلوماته ستكون مطابقة للواقع والحقيقة ولن تكون تخيلية أو شكيّة أو عن ريب أو عن هوى...

فهمنا من العديد من كلمات القرآن المشابهة لكلمة "يوقنون" التي مرّت معنا هنا في السورة، أن العلم الحقيقي هو المطابق للواقع تماماً، وأي كلام آخر حتى لو كنت متأكداً منه لن يكون علماً حقيقياً، وعلى أحسن الأحوال سنقول إنه نظرية أو افتراض، وغير ذلك سنقول إنه خيال وتوهّم، أو تخريص وكلام فارغ... ونحن نعلم أن الغلام سيكون النبي إسحاق(ع)، وورد ذلك في الآية 71 من سورة هود {وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ}، {عَلِيمٍ} تعني أن لديه معلومات صحيحة حقيقية مطابقة للواقع، والكلام ليس عن عموم المعلومات، لأنه بشري بقدرات محدودة ولا قدرة لديه على جمع كل معلومات الدنيا، إذن المعلومات الأهم التي سيملكها وستكون صحيحة هي عقيدته وشريعته وسلوكياته، وباقي معلوماته في حياته العادية عن الزراعة والطب والفلك... ستكون عادية مرتبطة بالخبرات والمعلومات التي يحصل عليها من الناس أو يكتشفها بنفسه...

نتذكّر من التاريخ أن النبي إبراهيم(ع) تزوج من "سارة" ولم تنجب له أولاداً، ويقولون إن "سارة" وهبته جاريتها "هاجر" فتزوجها النبي(ع) وأنجب منها النبي إسماعيل(ع)، وبعدها جاء الأمر الإلهي بنقل هاجر وولدها إلى مكّة... وهنا البشارة بعد تلك الحادثة، بشّروه بولد من سارة، وسيكون عليماً.

ضع في بالك ما هو مشهور جداً في التاريخ أن سارة آمنت وهاجرت معه (ع) مع النبي لوط(ع) لوحدهما من المدينة التي حاولت إحراق النبي إبراهيم(ع)، وهكذا سترى هنا أنه تعالى يدين عباده بالثواب والعقاب هنا في الدنيا، فوهب لنبيّه(ع) ولزوجته المؤمنة ولداً...

(فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ{29})
{فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ}، بالكسرة على الصاد أو ضمها: البقجة، الشيء المجموع مع بعض في قماش... وهنا {صَرَّةٍ} بفتح الصاد، وهي الصوت والضجة والصخب، مثل وصف الريح بأنها صرصر أي لها صوت وضجّة، سارة كانت تسمع كلامهم ولم تكن جالسة معهم وكانت واقفة على جنب، وحين سمعت بالبشارة جاءت وهي تحدّث ضجّة بصوتها... ونقل القرآن بعضاً من ذلك أيضاً في الآية 72 من سورة هود {قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ}، لأنها لم تأت بهدوء بل تعجّبت و...

{فَصَكَّتْ وَجْهَهَا}، ضربت وجهها بأطراف أصابعها، وهي حركة يقوم بها بعض الناس عند استغرابهم، وبعضهم يضرب فمه بأصابعه، وآخرون يمسكون فمهم بأصابعهم... {وَقَالَتْ عَجُوزٌ}، امرأة صارت عاجزة وفقدت قواها لأنها كبيرة في السن، {عَقِيمٌ}، لست صالحة أصلاً لإنجاب الأولاد، ومن قبل حين كنت شابة لم أنجب وكنت عقيمة وفوق ذلك الآن أنا عجوز.

(قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ{30})
{قَالُوا}، الملائكة(ع): {كَذَلِكِ}، الذي سمعتِهِ عن البشارة بولد، {قَالَ رَبُّكِ}، ليس القول منّا نحن بل من المسؤول عنك من مستوى إلهي، {إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ}، الذي قراراته وأفعاله عن صوابية، ولا يعبث أو يلهو، وعن حكمة جعل خصائص جسدك تتغيّر وتحبلين، {الْعَلِيمُ}، لديه علم تفصيلي بكل ما هو حقيقي واقعي، وعلى هذا الأساس لديه تعالى علم بحصول أمور حكيمة من مجيء هذا الولد ولذلك سيجعلك تحبلين.

وكما تعلم أنّ عدداً كبيراً جداً من الأنبياء والرسل جاؤوا من نسل النبي إسحاق(ع)، ومنهم النبي يعقوب(ع) يليه النبي يوسف(ع)... بعده النبيان موسى(ع) وهارون(ع)... مروراً بغيرهم ووصولاً للنبي عيسى عليهم صلوات الله تعالى، وهذا التفسير العملي التطبيقي لوصفه تعالى بالحكيم العليم في موضوع وهبه تعالى ولداً لنبيّه إبراهيم(ع) من سارة.

إلى هنا انتهت المقدمة التي فهمنا منها تدخّله تعالى ليدين عبدين صالحين "إبراهيم وسارة" بالثواب هنا في الدنيا، ونفهم منه أن تدخّله تعالى ليس محصوراً في الإدانة هنا في الدنيا بالعقاب فقط... وفهمنا امتداد هذا الدين الإلهي إلى آلاف سبقت من السنين، وما يعرضه الرسول محمد(ع) عبر هذا القرآن ليس جديداً... وفهمنا أن الملائكة(ع) لا تأكل، وعليه سيأتيك في السورة أن خالق الملائكة(ع) من البديهي أنه لا يأكل... وسترى فيما سيأتي من السورة تمحور آياتها حول هذه النقاط بالإضافة لنقطة تدخّله تعالى ليعذّب المجرمين، ولنتابع:

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ{31})
قال النبي إبراهيم(ع):

{فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ}؟ أرسلكم تعالى لخطب، لشيء مهمّ لأسمعه أهمّ من بشارتي بولد، فما هو؟

(قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ{32})
{قَالُوا}، ردّ الملائكة(ع): {إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ}، إلى أناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة بقيامهم بأعمال يستحقون عليها العقاب.

ومن الآية 74 من سورة هود {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ}، وفي غيرها من السور نعلم أنهم مرسلون لتعذيب قوم النبي لوط(ع)، والسورة هنا يبدو واضحاً اعتمادها على مصدر آخر للمعلومات عن الأقوام الذين ستذكرهم، وحين تقرأ عنهم ستسأل نفسك عمّا فعلوه حتى أدانهم سبحانه بعذاب أهلكهم هنا في الدنيا

قبل الآخرة، وسترى كما في العديد من السور، أنه تعالى اختارهم كنماذج لن يناقش العاقل في سوء ما فعلوه، والبداية مع قوم انتشر فيهم الشذوذ الذكوري، وفوقه الاعتداء جنسياً على الغرباء، فهل ستجد عاقلاً يناقش في استحقاقهم للإدانة؟ وهكذا يريك سبحانه أنك أنت ستطلب منه تعالى إدانتهم بسبب شدة سوء ما فعلوه.

(لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ{33})
مرسلون منه تعالى، {لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ}، على القوم المجرمين، {حِجَارَةً مِنْ طِينٍ}، كتل من المادة التي في دنياكم، والتي كانت رطبة "طين" وصارت جافة "حجارة"، كما نقول بيت من طين، ونقصد أن كتله كانت رطبة "تراب وماء" وجمدت وبني بها البيت.

ونعلم من مختلف آيات القرآن أن حجارة صلبة حامية نزلت على قوم النبي لوط(ع)، كما ورد في الآية 74 من سورة الحجر {فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ}.

(مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ{34})
تلك الحجارة، {مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ}، فيها تمام مواصفات الفتك بهم، ومرسلة لهم من المسؤول عنك من مستوى إلهي، {لِلْمُسْرِفِينَ}، للذين تصرفوا بما يزيد عن حاجتهم، وكما تعلم أنّ الشهوة "الجنسية" لها حدّ مسموح به ويكفينا لنشبع رغبتنا، ولكنهم أسرفوا بالشهوة بشكل يزيد عن حاجتهم فشذّوا جنسياً.

والمسوّمة كما يبدو من كلام العرب وصفٌ يقال لكل ما هو على المواصفات التامة للفتك، فالخيل والسفن والسلاح... مسوّمة، يعني هي مناسبة تماماً للقيام بعمل الفتك، فالخيل بصحّة جيدة وسريعة، والسفن قوية ومجهزّة بالسلاح، والسلاح فعّال وليس ضعيفاً أو خَرِباً... لذلك تلك الحجارة لن تكون مجرد حجارة تنزل عليهم، بل ستكون فتّاكة تقتلهم.

(فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{35})
ننتقل لتكملة الكلام من الإله تعالى:

{فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، في تلك القرى التي حكم عليها تعالى بنزول العذاب كان يوجد أناس أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بالدين الإلهي، وكما تعلم من عموم القرآن أن النبي لوط(ع) وأهله إلا امرأته، لم يشاركوا ولم يوافقوا بل اعترضوا على الإسراف "الجنسي" لقومهم، فأمرهم تعالى بالخروج من القرية في السحر "آخر الليل"، ونزل العذاب على القوم في الصباح كما نعلم من الآية 81 من سورة هود {فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ}.

(فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ{36})
{فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا}، في تلك القرى، {غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}، بيت واحد فقط فيه أناس منقادون مطيعون، طبعاً المقصود أنهم مسلمون لله تعالى، ولذلك أخرجهم سبحانه من القرية قبل نزول العذاب.

كما ترى لم يُدِنْ تعالى ذلك البيت وأدان الآخرين هنا في الدنيا قبل الآخرة.

(وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ{37})
{وَتَرَكْنَا فِيهَا}، في تلك القرى، {آيَةً}، شيئاً مميّزاً، كعلامة ودليل على نزول عذاب إلهي عليهم، {لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}، لأنَّ من سيرى ما حلّ بقوم النبي لوط(ع) سيشعر بخطر العذاب الذي لا يمكن تجنّبه إذا أسرف بالشهوة، وهو عذاب لا يمكن تحمّل ألمه.

ليس بالضرورة أن تكون آثار تلك القرى باقية إلى الآن، لأنها آية لمن كان في عصرهم ولمن شاهد بقايا آثارها إلى أن اندرست تلك الآثار... مثل الكلام عن سفينة النبي نوح(ع) التي تركها تعالى آية لمن رآها...

نتذكّر محور السورة عن منكري يوم الدين، ونربطها بالمجرمين المسرفين، لأنهم لو آمنوا بيوم الدين لما أجرموا وما أسرفوا، والفقرة هنا تنبّهنا لعذاب دنيوي نزل على منكري يوم الدين، وهي حادثة عمرها آلاف السنين لنفهم أن هذا الدين بإنذاراته ليس جديداً بل ممتدٌّ لآلاف السنين، وكما ترى الفوائد عديدة من تلك الحادثة، وآخرها أن قرى قوم النبي لوط(ع) المدمّرة بالحجارة بقيت آثارها ليراها عموم الناس لمدة طويلة جداً من الزمن، وتلك القرى كانت مشهورة جداً جداً في شذوذها الجنسي، وباعتدائهم "جنسيا" على الناس الغرباء المارّين في منطقتهم، لذلك دمارهم وموت كل أهلها سيعلق في ذهن الناس الذين ارتاحوا من شرّهم، ولمزيد من التوسّع راجع الآية 29 من سورة العنكبوت {أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ}...

(وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ{38})
تعود السورة إلى نمط الابتداء بحرف الجر وبعدها تبدأ الآيات بحرف العطف "فـ..."، وتصير الآيات هنا بكلامها المختصر جداً عن النبي موسى (ع)، تصير مقطعاً كاملَ الدلالة على الآيات الدالة على إدانته تعالى لنا في الآخرة.

{وَفِي مُوسَى} "الحديث عن" النبي موسى(ع)، {إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ}، وفرعون لقب لأعلى حاكم في بعض فترات من تاريخ مصر القديمة، مثل لقب كسرى عند الفرس، وقيصر عند الرومان، ولقب ملك عند العرب ولقب تبّع في اليمن... وأرسل سبحانه نبيه موسى(ع) إلى أعلى حاكم في مصر في زمنه، {بِسُلْطَانٍ}، بشيء قوي جداً يغلب ويقهر أي شيء آخر، {مُبِينٍ}، بشكل واضح.

كما ترى تركيز السورة فقط وفقط على ذكر قوم أنكروا يوم الدين ونالوا العذاب هنا في الدنيا، ولم تدخل في تفاصيل ما جرى لهم، وتعلم من عموم القرآن أنّ النبي موسى(ع) جاء بتسع آيات "الحيّة واليد والقمّل والضفادع..." وكلّها كانت واضحة القوة "سلطان مبين"، لأنها لا يمكن صدورها إلا عن الإله سبحانه.

(فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ{39})
{فَتَوَلَّى}، ذهب فرعون باتجاه آخر عن الآيات ولم يؤمن بها، {بِرُكْنِهِ}، بأساس قوته، واستناداً على سلطته على القوة البشرية والمادية التي تحت أمره لم يكترث بالآيات الإلهية القوية الواضحة الصحّة.

{وَقَالَ}، فرعون عن النبي موسى(ع): {سَاحِرٌ}، يقوم بخداعنا، {أَوْ مَجْنُونٌ}، فقد عقله ويقول كلامَ تخريف.

ضع في بالك دائماً أن السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شيئاً غير حقيقي أنه حقيقي. الساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد بأنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع أنها لم تختف، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر والذي تراه صريحاً في الآية 66 من سورة طه {قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}. وما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، هذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية أنها سحر، كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

تلاحظ الترديد بين وصفي الساحر أو المجنون للرسول موسى(ع) لا على أساس أي دراسة أو حجّة أو دليل، بل هكذا مجرّد توصيف سيّء، لأن فرعون لم يتمكن من فعل أي شيء يبين أن آيات النبي موسى(ع) خدعة أو يبين أن كلامه(ع) غير سليم أو غير منطقي... واستعمل عبارات غوغائية للتشويش على النبي موسى(ع).

تلاحظ أنه لولا وجود ركن لدى فرعون، لولا تلك القوّة المالية والعسكرية العظيمة، ربما لكان الوضع مختلفاً، ولكنه كان يشعر بجنون العظمة مما يملكه من قوة، لدرجة إعلان نفسه إلهاً! كما ورد في الآية 29 من سورة الشعراء {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}.

(فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ{40})
{فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ}، لم نتركه بل تعاملنا معه ومع الملتزمين بتنفيذ أوامره، {فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ}، أبعدناهم عن البرّ إلى البحر، {وَهُوَ مُلِيمٌ}، وهو واقع عليه اللوم، لأنه عندما رأى الآيات السابقة من تحول العصا لحيّة و... والآن حين رأى البحر مفلوقاً كان من المفروض أن لا يدخل في البحر ولكنه فعلها ودخل.

تعلم من عموم القرآن أن النبي موسى(ع) خرج ببني إسرائيل من مصر ولحق بهم فرعون وشقّ سبحانه لبني إسرائيل البحر وعبروا فيه، ودخل فرعون وجنوده خلفهم وأطبق البحر على فرعون وجنوده.

لاحظ من عموم القرآن أنه تعالى لم يقرّر عذاباً دنيوياً مبيداً لفرعون وجنوده وقومه، وأمهلهم سبحانه سنينَ طويلة حتى يتركوا بني إسرائيل يغادرون مصر، وحصلت لفرعون وقومه بعض الأضرار من القمّل والضفادع والدمّ... ولكن لم يصبهم عذاب إبادة أو قتل جماعي، وفي الأخير لو مرّ بنو إسرائيل إلى الجهة الثانية من البحر ولم يلحق بهم فرعون وجنوده، لم يكن سيصيب فرعون وجنوده أي شيء وسيرجعون إلى مدنهم بخير، ولكن إصرارهم على اللحاق ببني إسرائيل ودخولهم في الممرات التي في البحر خلف بني إسرائيل، في مشهد من الخيال في عظمة قدرته تعالى على فلق البحر ممرات... أوصل الأمور إلى حد وجوب قتلهم قبل وصولهم لقتل بني إسرائيل، لأنهم أصروا على إصداره تعالى أمراً بقتلهم... لترى فيهم نموذجاً واضحاً عن المصرّين على الكفر بالرغم من شدة وضوح حقيقة قدرة إله موسى(ع)... وتصل نفسياً وفكرياً إلى حالة طلب تدخّله تعالى لإدانة هذا النوع من الإجرام...

هنا في الآية ترى أنه تعالى حتى آخر لحظة معهم يقول بأنهم ملامون على دخولهم في البحر، وكان من المفروض منهم أن يقفوا ولا يدخلوا في ممرات مائية عالية غير عادية...

ما قلناه لا يعني أنه تعالى لم يكن يعلم أن فرعون لن يؤمن، وأنه سيركب رأسه ويدخل في طرقات البحر المفلوق... بل نقصد أنه تعالى أمهله طويلاً، ولم يكن هناك قرار إلهي بإهلاكهم إن تركوا بني إسرائيل بحالهم... وذكر القرآن مراراً كلامه عن غرق فرعون وجنوده ليريك نموذجاً واضحاً عن الذين يكفرون بدينه تعالى رغم وضوح الأدلة الإلهية لهم... ورغم إمهالهم فترة طويلة ورغم تنوّع الآيات... حتى ترى يباسة رؤوس من قرّر الكفر...

(وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ{41})
{وَفِي} "الحديث عن"، {عَادٍ}، وهي قبيلة كبيرة كانت منتشرة في عدة قرى في الجزيرة العربية، وتعلم تفاصيل القصة من عموم القرآن حيث جاء النبي هود(ع) كمنذر لإحدى تجمعات قبيلة عاد في مدينة إرم كما يبدو من الآية 7 من سورة الفجر {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ}، ويقولون إنها كانت موجودة بين ما يسمّى الآن بعمان واليمن... ولم يؤمنوا، {إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ}، على عاد، {الرِّيحَ الْعَقِيمَ}، الهواء القوي الذي لا يصلح لأي شيء جيّد، لأنه ريح لا خير فيه.

(مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ{42})
{مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ}، لا تترك أي شيء كانت أصابته ومن بعده تصيب شيئاً آخر، {إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ}، مثل الذي صار بالياً من مرور الزمن عليه، فيصير منهاراً مهترئاً، فأي شيء مرّت عليه تلك الريح تجعله خرباً وكأن عمره عشرات أو مئات من السنين.

تلاحظ دائماً القرآن يذكر فرعون وعاد كنموذجين عن كفّار في غاية القوّة العسكرية والمالية، ولم يصمدا أمام قراره تعالى بإهلاكهم بإدانتهم هنا في الدنيا قبل الآخرة... وحين تسأل عن سبب إهلاك عاد سترى من مختلف سور القرآن أنهم قوم طغاة فرضوا حكمهم الجائر على الذين طالتهم قوّتهم العسكرية، وبذخوا في المال والقدرات العماليّة التي سلبوها من المحكومين لهم... وهكذا تتذكّر صفات المتقين وصفات عاد، وأسهل ما ستتذكّره أن المتقين محسنون وفي أموالهم حقّ للسائل والمحروم، بينما عاد وفرعون سلبوا الآخرين أموالهم، وسخّروا جهود الآخرين في أعمال لا نفع للبشرية منها، ففرعون بنى القصور والأهرامات والمسلات، وعاد بَنَوْا إرم التي لم يخلق مثلها في البلاد...

(وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ{43})

{وَفِي}، الحديث عن، {ثَمُودَ}، وهو اسم لقبيلة عربية كبيرة، كانت منتشرة في عدة أماكن في شبه الجزيرة العربية، والنبي صالح(ع) أرسله سبحانه على ما يبدو من الآية 80 من سورة الحجر إلى مدينة الحجر {وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ}، ويوجد إلى الآن آثار لبيوت منحوتة في الصخر في مدينة الحجر، وتسمى أيضاً مدائن صالح، وهي تقع في ما يسمّى الآن بالمملكة السعودية، لجهة الشمال الغربي من المدينة المنورة.

{إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا}، استفيدوا مما حولكم من متاع أساسي كالطعام والشراب... أو ثانوي كاللباس الفاخر والبيوت المزخرفة... {حَتَّى حِينٍ}، فهناك وقت لانتهاء تمتعكم.

تعلم من عموم القرآن أنهم عقروا الناقة فقتلوها فقال لهم النبي صالح(ع) إنّ معهم مهلة ثلاثة أيام وبعدها سينزل العذاب، وورد ذلك صراحةً في الآية 65 من سورة هود {فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ}، فتكون الإشارة في تمتّعهم حتى حين تقصد الأيام الثلاثة التي بعدها العذاب.

كما ترى أيضاً تحدّث القرآن مراراً عن ثمود ليريك نموذجاً عن قوم هم طلبوا آية، فأخرج تعالى لهم ناقة من صخرة كما هو مشهور في التراث الديني، ورغم ذلك كفروا... لترى بسهولة أن أي كلام كتبرير لكفر من كفر هو كلام فارغ.

من ناحية ثانية ترى نموذجاً مشابهاً جداً لنموذج فرعون وعاد من حيث البذخ والإسراف بدلاً من أن يكون في أموالهم حقّ للسائل والمحروم.

هذا الكلام يأخذنا إلى عمق لم يدخله الكثيرون، فما معنى بذخ وترف البلدان التي تتمتّع بخيرات في مقابل بلدان تفتقر لأساسيات مقومات الحياة؟ ألن يمرّ زمن تتبدّل فيه الأحوال لتصير البلاد الغنية فقيرة والفقيرة غنية؟ أم البلاد الغنية تتبع خطّة تدمير النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية... للبلدان الفقيرة حتى تمتصّ خيراتها على المدى الطويل كضمانة لبقاء رفاهية البلدان الغنيّة...؟ هذا كان حال فرعون وعاد... فهم يمكرون ويمكر الله تعالى، والله خير الماكرين.

(فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ{44})

{فَعَتَوْا}، بلغوا أقصى المخالفة، {عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ}، فما وصلهم من الأمور التي يأمر بها المسؤول عنهم من مستوى إلهي خالفوها لأقصى درجة، وهناك الكثير من أفعال العتو، من كفرهم وطغيانهم وإسرافهم بنحت البيوت في الجبال... وأخيراً حين أمرهم تعالى بترك الناقة تأكل وتشرب... قتلوها...

{فَأَخَذَتْهُمُ}، لم تتركهم في عتوهم، {الصَّاعِقَةُ}، الشيء المفاجئ السريع وغير المتوقّع، وبعد حين أي بعد ثلاثة أيام ضربهم الزلزال الصاعق أي القوي المفاجئ، {وَهُمْ يَنْظُرُونَ}، وهم في حالة توجيه لاهتمامهم العام، كما تقول لشخص إنك قادم من أمامه لتضربه، فستضربه مباشرة وتهاجمه من أمامه، فهم يرون الزلزال يفتك بهم ولا يمكنهم فعل أي شيء للنجاة منه لأنه صعقهم وأتاهم بشكل مفاجئ.

نعلم من عموم القرآن أن زلزالاً مدمراً قضى على أكثرية أهل تلك القرية، فجاءهم الزلزال المدمّر فجأة وبدون سابق إنذار، وهكذا يصير توصيفه بأنه صاعقة، فكل ما هو مفاجئ وسريع لم تتوقعه فهو صاعقة، وهذا الوصف يصدق على الكثير من الحالات فنقول: جاء الموت كالصاعقة، صاعقة الموت، صاعقة البرق، صعقته الكهرباء، صعقني بكلامه... وهنا صعقهم الزلزال، يعني جاءهم سريعاً وبقوّة.

(فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ{45})

{فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ}، ما أخذهم سيطر عليهم وأجبرهم وفرض عليهم قوّته فلم يتمكنوا من القيام بأي شيء للنجاة من الزلزال، وعجزوا عن أي فعل ضدّ الزلزال، {وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ}، حتى لو حاولوا القيام بفعل أي شيء ليحققوا النجاة من الزلزال فلن يستطيعوا.

هكذا ترى أننا أمام نموذج عن إدانته تعالى لكافرين هنا في الدنيا ولم يستطيعوا فعل أي شيء لردّه عنهم، وهو دليل تاريخي ملموس عن تنفيذه تعالى لوعده بإدانتنا في الآخرة.

(وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ{46})
{وَقَوْمَ} النَّبي نوح، والناس الذين كان (ع) ينتمي لجماعتهم، {مِنْ قَبْلُ}، قوم النبي لوط(ع) وفرعون وثمود وعاد، أيضاً قوم النبي نوح(ع) لم يستطيعوا القيام بأي شيء للانتصار على العذاب الذي أصابهم، {إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا}، أناساً لهم كيان الجماعة، {فَاسِقِينَ}، خارجين عن الأوامر الإلهية الواضحة.

من المشهور جداً أنه حصل طوفان أباد الناس في زمن النبي نوح(ع) وتناول القرآن هذه الحادثة بتفاصيلها في سور مختلفة، وهنا مختصر الكلام عن الإشارة لهم كدليل قديم جداً عن إدانته تعالى للناس هنا في الدنيا.

ننتبه للاصطلاح الدارج في ثقافتنا الدينية عن معنى النفاق والفسق، فقالوا إنّ الفسق هو الخروج عن شيء ديني علناً أمام الآخرين، والنفاق خروج بالسرّ عن الدين، وهذا كلام غير دقيق، فالنفاق هو عموم إظهار الإيمان مع كفر من الداخل، سواء فعل بالسرّ حراماً أو لم يفعل، والفسق هو عموم مخالفة ما صرّح به الدين، فهناك شيء معلوم أن الدين يحرّمه، وهو يفعله عالماً بسوئه، فهو فاسق، وسواء فعله بالسرّ أو بالعلن فهو فاسق لأنه وصله بصراحة ما قاله الدين ولكنه فسق فخرج عنه. وللفسق درجات من مخالفة كل الأساسيات "فيكون كافراً" أو بعضها "فيكون مسلماً فاسقاً"، وللفسق أيضاً درجات من المخالفة بالكبائر أو بالصغائر من الذنوب.

(وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ{47})
{وَالسَّمَاءَ}، عموم ما فوقكم، {بَنَيْنَاهَا}، فجعلناها من مراكمة المواد التي تتألّف منها "عناصر طاقة وظواهر..."، {بِأَيْدٍ}، بوسائط، بواسطة أدوات، {وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}، فجعلناها واسعة فسيحة حين بنيناها.

ما تراه بعينك وبالتلسكوبات البصرية والراديوية... ويذهلك سِعَتُهُ، ما هو إلا سماء واحدة من سبع سماوات.

بقي شيء، فهنا وهناك في مختلف السور تجد آيات يقول عنها البعض إنها إعجاز علمي، ويقولون عن آيتنا هذه إنها تشير لتوسّع سمائنا، وهذا يوافق نظرية "هابل" عن توسّع الكون، وكعادتهم يضخّمون الأمور ليبدو أي اكتشاف علمي بشري سخيفاً أمام القرآن العظيم الذي سبقه وأخبرنا عن ذلك... نعم هو القرآن عظيم ولكن ليس بهذه السخافات، لأنه دائماً وجّه تعالى كلامه لشخص عادي واقف على الأرض ليلفت انتباهه لما يراه ويعرفه، مَنْ منّا كان يعلم أن الكون يتمدّد؟ وكيف سيلاحظ ذلك إنسان عادي واقف على الأرض؟

نفس المشكلة تراها بوضوح في كلام هؤلاء عن الليل والنهار كيف نراهما من الفضاء يتعاقبان على وجه الأرض التي تدور حول نفسها، لأنَّ كلام القرآن كلّه موجّه لكل الناس الواقفين على الأرض ويرون تعاقب واختلاف الليل والنهار، ونفس المشكلة في تبريرهم لظاهر ما يقوله القرآن عن سيران الشمس، حيث إنَّ كلام القرآن عن مشهد سيرانها من فوقك، ولم يقصد سبحانه إلّا وصف المشهد للواقف على الأرض وليس للواقف في الفضاء البعيد حتى يتمكن من رؤية دوران الأرض حول الشمس منتظراً لأسابيع حتى يلاحظ ذلك! لذلك لم يقصد القرآن تعليمنا ميكانيك كواكب المجموعة الشمسية.

تذكّر دائماً القاعدة الأساسية التي انبنت عليها هذه الدراسة، أيُّ تفسير للقرآن بناءً على معطيات "علمية أكاديمية" جديدة لم تكن معلومة من قبل، وبسببها حصل فهم جديد للقرآن، فهو تفسير غير صحيح، لأنّ التدقيق بمعاني الكلمات والجمل لوضوح معنى العبارة بكلامنا العادي الدارج، هو فقط التفسير الصحيح، وأي تفسير لم يكن ممكناً فهمه من ظاهر الكلام العربي حين نزل هذا القرآن، ويحتاج لمعطيات علمية لم تكن معروفة حينها، فهو تفسير غير صحيح.

يا عزيزي ويا عزيزتي، القرآن كلام الإله عزّ وجلّ، وما فيه من لفت انتباهنا لأنفسنا وما حولنا، تقصّد الإله أن يكون قابلاً لفهم الناس العاديين، لأنه أصلاً خلق سبحانه السماوات والأرض وضمّنها تفاصيل هائلة أكثر من كافية لنرى منها قدرته وصفاته سبحانه. ولا حاجة لهذه الخزعبلات عن الإعجاز العلمي في القرآن، ومن المعيب تسخيف الاكتشافات الرائعة للعلماء، ومن المعيب أكثر منه أننا نضحك على أنفسنا بهذا الكلام لنغطّي تخلّفنا العلمي حالياً، وليس فقط تخلّفنا العلمي، بل الديني والسياسي والاقتصادي والأخلاقي... وعلى الورق نربح الحروب الوهمية ضدّ الآخرين بينما هم على أرض الواقع مسيطرون ويتسلّون بنا...

آيتنا هنا تشير لما فعله تعالى بيديه من سِعَةٍ هائلة تراها بوضوح حين تنظر للسماء المليئة بالنجوم، ولا تشير لتوسّع الكون الذي لن تراه إلا بالحسابات لأطياف الأشعّة تحت الحمراء الصادرة عن المجرات... والأنكى من ذلك أن النظرية فيها جوانب مقبولة وفيها جوانب مجهولة، لأنها تفترض أن كل كوننا يتوسّع، وليس فقط المسافات بين المجرات، بل هي نفس المجرات مع المسافات تتوسّع، وبنفس النسبة كل شيء ضمنهم يتوسّع، والكوكب يتوسّع ونحن نتوسّع... وكما ترى لا مجال لملاحظة ذلك ولا بأي طريقة إلا عبر الحسابات وملاحظة المجرات البعيدة جداً، ولا أعتقد أن الكثيرين يفهمون فعلاً نظرية "هابل" فكيف سيفهمونها من الآية!

سأطيل عليك لأخبرك عن مشكلة في نظرية توسّع الزمان والمكان والمادة والطاقة... لأنَّ أدوات القياس أيضاً واقعة تحت نفس التأثير، ومَا كان متراً البارحة صار اليوم أطول بقليل تماشياً مع تمدّد الكون "بحسب نظرية هابل"، ولكنه سيبقى وحدة قياس ثابتة، لأن كل الكون تمدّد بنفس النسبة... ومن هنا يدخل كلام كثير كتعليقات مضادة لنظرية "هابل"، وحين يأتي من يصحّح هذا الخلل، سيبرز النافخون في أبواق الإعجاز العلمي في القرآن، ليمسخوا آية ما عن معناها، ويطرحوها كسابقة من ألف وخمسمئة سنة للاكتشاف العلمي الجديد، الذي يصير سخيفاً أمام عظمة القرآن. بالله عليكم، أتحفونا ولو لمرة واحدة باكتشاف من القرآن لشيء لم يقله الناس بعد؟

نعم، يوجد في القرآن تحفيزات لنا لنكتشف، منها كلامه عن مخلوقات من نار، وعن سماوات، وعن أقطار سماوات وإمكانية اختراقها، بل وخبر عن اختراقنا لها في المستقبل وتعرّضنا لشهب مانعة من اختراق سماء الملائكة كما تقرأ في الآية 35 من سورة الرحمن {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ}، وفي القرآن خبر عن نقل عرش من سبأ إلى أرض كنعان بلمحة...

يوجد في القرآن كلام عن مراحل لتكوّن السماوات والأرض ونشأة الحياة... ويوجد كلام هداية وتشريعات رائعة ضامنة لسعادة البشرية في الدنيا والآخرة...

لا داعي لنفخ المنفوخ أصلاً، لأنَّ القرآن كلام الإله، الإله بذات نفسه ألّفه، ولا حاجة لنفخكم لكلامه ليصير عظيماً تتباهون به متفاخرين بمسرحيات هزلية على الآخرين، والقرآن أصلاً عظيم كريم مجيد... لأقصى الحدود والمشكلة فيكم أنتم إن لم تروه عظيماً كما هو.

بالنسبة للتعبير ببناء السماء {بِأَيْدٍ}، كلمة يد نستعملها معه تعالى على الوصفية وليس على الاسمية، حيث إنّ الوجه هو ما يتوجّه به تعالى علينا بالرحمة والمغفرة... واليد هي ما يفعل بها تعالى... وعلى الاسمية للعضو تصير اليد والوجه... أسماء أعضاء، وسبحانه ليس كمثله شيء فلا أعضاء له، ويستعمل سبحانه هذه الكلمات على الوصفية ساحباً منها خصائصها البشرية حتى تنطبق عليه سبحانه، وهذا يشمل كل كلمات لغتنا باستعمالها في حقّه تعالى، وهو بصير سميع عليم حيّ... يكره يغضب يحبّ وينتقم... على الوصف الخالي من الخصائص البشرية من الانفعال، لأنه تعالى يفعل ولا ينفعل، ويتفاعل مع الحوادث بمعنى موقفه منها، فيغضب على الكافر بمعنى أنه تعالى لن يمرّر الكفر بدون عقاب، ولكنه تعالى لن تفلت أعصابه ولن يحمرّ وجهه... لأنّ هذه نتائج الخصائص البشرية للغضب.

بالنسبة لبناء السماء، عادةً نحن يخطر ببالنا الطين، وهي المواد التي يتألّف منها جسدنا وأرضنا، من كربون وحديد وألومنيوم... وحالياً لدينا إضافة على ذلك ونسميها بالطاقة، ولدينا إضافة جديدة لم تثبت بعد، وهي الطاقة المظلمة والمادة المعتمة... وفي هذه الدراسة استعملت كلمة "مادة" ولم أحصرها بالطين، لأنَّ الجنّ مادة خلقهم النار، والملائكة مادة خلقهم شيء آخر غير الطين والنار... وغير معلوم لنا نوع المواد المخلوقة منها بقية السماوات وما فيها، بل يبدو أنه ليس معلوماً لنا كل المواد المخلوق منها عالمنا.

(وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ{48})

{وَالْأَرْضَ} التي تعيشون عليها، {فَرَشْنَاهَا}، مثلما تفرش سجّادةً أو فرشة نوم.. لتفرشها لتبسطها لتمدّها تحتك، لذلك الآية تعبّر عن تصميم الأرض من البداية لتكون فراشاً، لتكون شيئاً ممدوداً تحت الكائنات. ويقابلها بالمعنى كلمة عرش لعموم ما هو فوق.

{فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ}، سبحانه يوصف بأنه أحسن من مهّد من حضّر وهيّأ أرضية لتمشوا وتقفوا وتجلسوا وتناموا... عليها، لأنها لم تكن كلها وعرة، ولم تكن كلها رخوة مائية، ولم تكن غازية... بل لها سطح صالح للعيش والزراعة والتنقل براً وبحراً...

ننتبه، القرآن دائماً يصف الأشياء للواقف على الأرض، ولم يصف الأرض لمن ينظر إليها من الفضاء حتى يقول بأنها كروية، بل وصفها لمن يقف عليها، لأنها مفروشة له ممهدة.

(وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ{49})
على الأرض التي فرشها ومهّدها تعالى:

{وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ}، سبحانه قادر على خلق "كل شيء" من كائنات متنوعة مختلفة بشكل لا متناهي بسبب قدراته الفائقة، وهناك زمرة مخلوقات "مركبات مؤلفات" تتحمّل الزوجية تتحمّل أن تكون نوعين: الذكر والأنثى. لذلك لم تقل الآية إنّ "كل شيء" خلقه تعالى زوجين، بل يكفيكم أن تروا نماذج من العديد من الزوجين في ما حولكم.

بعبارة أخرى، شاء تعالى لبعض الكائنات في بيئتنا أن يحصل فيها التكاثر من الزوجية، من ذكر وأنثى، منفصلين أو متحدين في الأزهار والورود والحيوانات والحشرات... وأنت تعلم أن الكلام عمومي فلا يعطيك درساً في علم الحياة، لأنّه معلوم للجميع أن بعض النباتات تعيش من "الفسل" من زراعة عيدانها... وأخرى من فسخ جذورها...

{لَعَلَّكُمْ}، من المفروض ومن المتوقّع أن، {تَذَكَّرُونَ}، تتذكرون فتستحضرون ما ترونه من زوجية في فكركم، فتؤمنوا بأنه يوجد إله صمّم وخلق ما ترونه.

تذكّر دائماً ما قلناه كثيراً في دراستنا عن تصور نفسك أنت تخلق كائنات وبيئة من الصفر، من لا شيء وبدون الاعتماد على أي نموذج رأيته سابقاً، فلنقل إنك تصمّم بيئة حتى لو لم تكن قادراً على خلقها، الآن، ما معنى وجود ذكر وأنثى فيما حولك من الحيوانات والنباتات؟ والعديد منها زوجين منفردين يحملان جزأين مختلفين للتلقيح وللتكاثر، هل حصل هذا بالصدفة؟! لوحده؟! بسبب قوانين الطبيعة التي صارت قوانين متناسبة لوحدها؟! ولماذا ليست الكائنات من حولك مركبات بسيطة؟! ولماذا وكيف يوجد فيها هذه التفاصيل الهائلة؟! ولماذا فيها زوجين؟! الجواب الأبسط والأسهل والأوضح والمنطقي والعقلاني: يوجد إله بقدرات فائقة صمّمها وخلقها، وجعل السماوات والأرض تتكوّن في ستّة أيام "على مراحل" وصلت خلالها إلى حالة نشأة الحياة على الأرض وصيران زوجين من بعض الأحياء. وأي جواب آخر عليه الكثير من الإشكالات وفيه الكثير من الثغرات، ولا تَنْسَ أن الإله الخالق هو نفسه قد جعل فينا بذرة فكرية ترشدنا إليه من خلال النظر في أنفسنا وما حولنا، وفوقها أرسل تعالى لنا رسلاً وكتباً منذ آلاف السنين تخبرنا عنه سبحانه لتؤكد ما توصلنا إليه بفكرنا، وأخبرنا تعالى أنه نوّع وفصّل ووسّع السماوات وأكثر من تفاصيل الكائنات والظواهر على الأرض حتى ندرك بسهولة أن إلها فائق القدارت صمّمها وخلقها ويرعاها.

ننتبه جيداً فقد فسر بعضهم الزوجين هنا لعموم ما هو متضاد ومتغاير كالليل والنهار، والضوء والظلمة، والجوهر والعرض، والبسيط والمادي... ولكن عموم استعمال القرآن لهذه الكلمة وعموم استعمال العرب لها، لا يسمح بهذه التوسعة في معناها لتشمل كل متضادين أو متنافرين أو متغايرين...

كلمة زوج نقولها لعموم أي شيء مادي أو معنوي له خاصية الاقتران بشيء أو الانتماء لصنف أو نوع، لأنهم أو هما أو هو مقترن مع آخر بالشبه أو بالنوع أو بالتلازم مع بعض... فهو زوج. وتقال للأنثى البشرية كزوجة بخاصية الاقتران بالذكر، كالاستعمال في الآية 39 من سورة القيامة {فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى} لأنّ القصد ليس أنهما متزوجان من بعض بعقد نكاح، بل القصد أنهما من نفس النوع وبينهما تشابه وامكانية اقتران... ومثله ما ورد في الآية 21 من سورة الروم {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا}...

ونقول زوج للنبات بخاصية تشاركهم لوحدهم في شيء ما والاختلاف عن الأزواج الأخرى في الشكل أو الثمر كما ورد في الآية 53 من سورة طه {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى}، وللإنسان بخاصية الانتماء

لجماعة والاختلاف عن الآخرين في المال أو السلطة كما ورد في الآية 88 من سورة الحجر {لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ}... لأنّ الكلام ليس عن زوجات الكفّار بل عن أصناف من الكفّار.

وتشير لعموم التنوّع في نفس الصنف كاختلاف أصناف التفّاح، وتشير للاختلاف بين الأنواع كاختلاف التفّاح عن الموز، وحتى أنها مستعملة في التشابه في شيء والاختلاف في شيء آخر معنوياً كما ورد في الآية57 و 58 من سورة ص حيث وصفت أصناف العذاب بالأزواج {هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ، وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ}، ومعنوياً في الآية 7 من سورة الواقعة {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً}، لأنّ هناك جماعة مؤمنين من الدرجة العالية وأخرى للمؤمنين من الدرجة الأقل وأخرى لبقية عموم من سيدخل النار.

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ{50})
{فَفِرُّوا}، ابتعدوا عن الأمور الأخرى، {إِلَى اللَّهِ}، وبدل أن تفرّوا منه تعالى فتفكّروا بالابتعاد عن دينه فافعلوا العكس وابتعدوا عن الأمور الأخرى، ابتعدوا عن السيئات وبذلك تقتربوا منه تعالى، واتركوا كل الكلام والأفكار الكاذبة التي تنفي وجود إله أو تنفي وحدانيته أو تجعل غيره شريكاً في الألوهية، ولا تجعلوا ظاهرة طبيعية بقوانينها الفيزيائية أو الصدفة أو التكرار والخطأ... إلهاً، لا، بل إلى الإله المحدّد بالاسم "الله" فرّوا واتركوا كل شيء غيره، مرّ معنا أنّ من لم يلتزم بتوحيده وطاعته تعالى فقد يناله عذاب دنيوي كالأقوام التي ذكرتها السورة، وعلى الأكيد سيناله عذاب في الآخرة في جهنّم.

{إِنِّي}، أنا الرسول الناقل لهذا القرآن، {لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ}، أنقل لكم منه تعالى الخبر الواضح عن شيء سيّء قادم حتماً لكم بسبب توافر شروط حصوله فيكم، ولأنكم إن لم تفرّوا إليه تعالى، سيقع خطر العقاب في الدنيا وفي جهنّم الآخرة لمن لم يترك كلّ شيء باطل وسيّء ويتّجه فقط إليه تعالى بالإيمان بالحقّ وعمل الصالحات.

ضع في بالك دائماً الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى معانيَ قرآنيةً رائعةً، تصور شخصاً أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، في هذه الحالة تحذّره من سلوك الطريق السيّء، لأنه حالياً ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ}... والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}...

أمّا إذا سلك طريق الخطر، فتنذره، لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. لأنّ الإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتماً ما يضرّه، فتنذر الكافر حيث هو في حالة ستسبّب له العقاب حتماً، وورد هذا كثيراً في القرآن. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يتلبّس بما سيسبّب له الضرر، فتحذّر المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

وهذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، فقد يقوم المؤمن بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، فتنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة المسيحيين المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}.

(وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ{51})
بعد لفت الانتباه للسماء والأرض:

ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر، فالإله هو وصف محدّد للكائن الذي لديه القدرات والصفات الفائقة، منها أن يخلق وأن لا يكون هو نفسه مخلوقاً، ومنها أن لا يسيطر عليه أي شيء... فالإله الحقيقي بهذه الصفات هو واحد أحد وله اسم محدّد مميّز: الله. فلا تجعلوا الصدفة إلهاً، ولا الهوى ولا الدهر ولا الأصنام ولا الطبيعة ولا التكرار والتجربة، ولا قوانين الفيزياء...

إني، أنا الرسول الناقل لهذا القرآن، لكم منه نذير مبين، أنقل لكم منه تعالى الخبر الواضح عن شيء سيءٍ قادم حتماً لكم بسبب توافر شروط حصوله فيكم، لأنَّ هناك خطر العقاب في جهنّم لمن يجعل معه تعالى إلهاً آخر.

كما ترى من بين كل التفاصيل عن دينه تعالى من العقيدة والشريعة والسلوكيات اختارت السورة توحيده سبحانه، لأنه الأساس الذي يتفرّع منه الإيمان بكل ما يصلنا منه تعالى، ويتفرّع منه وجوب طاعته سبحانه بفعل الصالحات وترك السيئات.

(كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ{52})
{كَذَلِكَ}، بمثل الذي ذكرته الآيتان السابقتان عن الإنذار لمنكري ألوهيته تعالى وتوحيده لمن يسمع هذا القرآن الذي وصلنا عبر الرسول محمّد(ع)، {مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، لم يصر عند الناس الذين كانوا قبل نموذج الذين نزل عليهم هذا القرآن، {مِنْ رَسُولٍ}، من شخص ناقل لكلامه تعالى يحمل لهم الإنذار، {إِلَّا قَالُوا}: {سَاحِرٌ}، يقوم بخداعنا فنتوهّم أن الكذب الذي يقوله حقيقة، {أَوْ مَجْنُونٌ}، فقد عقله ويقول كلام تخريف.

تلاحظ الترديد بين وصفي الساحر أو المجنون للرسل لا على أساس أي دراسة أو حجّة أو دليل، بل هكذا مجرّد توصيف سيءٍ لهم كحجّة وهمية للكفر بالرسل.

ضع في بالك دائماً أن السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شيئاً غير حقيقي أنه حقيقي. فالساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكدٌ بأنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع أنها لم تختف، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر والذي تراه صريحاً في الآية 66 من سورة طه {قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}. وما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، هذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية أنها سحر، كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

ننتبه لتكرار القرآن عدة مراتٍ الاتهام له وللرسل بالسحر، حيث يكون الاتهام بالسحر لآيات الرسل كتحوّل العصا لحيّة، ومرة يكون الاتهام لكلام الرسل أنه سحر، وهذا الاتهام للكلام بالسحر لم يعد دارجاً كثيراً في عصرنا من الكافرين بالدين الإلهي، ولكن تسمع المرادف لها والذي يعطي نفس المعنى، فيقولون إنّ الدين للبسطاء، وهذا معناه أن البسطاء ينخدعون بالكلام الديني الخرافي ليروه حقيقة، ولغوياً هذا هو معنى كلمة سحر.

(أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ{53})
{أَتَوَاصَوْا بِهِ}؟! هل ترك الكافرون السابقون لمن بعدهم هذا القول عن الرسل بأنهم سحرة ومجانين وطلبوا منهم تكراره؟!

عموم القرآن يلفت انتباهنا للمدى التاريخي العميق الممتد لآلاف السنين لخطي الدين الإلهي والكفر، ولكن الدين الإلهي خطٌّ واحد، يستند على الحقّ والصلاح الثابتين وهو نفسه ما يقوله الإله الخالق العظيم، لأنَّ الرسول بعد الرسول بعد الرسول... كلهم يتلقون الوحي منه تعالى، ويقولون نفس الكلام منذ آلاف السنين، وفي المقابل كلام الكفار منذ آلاف السنين مختلف عن بعضه في العقيدة والتشريع والسلوكيات وليس لأي واحد منها امتداد تاريخي، ومنذ القدم عبدوا الأصنام، ولكن أسماء الأصنام وصفاتها وقدراتها... مختلفة من قوم لآخرين... ما معنى استمرار الكفر بين الناس منذ آلاف السنين؟! وكأن الكافرين السابقين أوصوا لمن بعدهم من الناس الذين لن يؤمنوا أن يكرروا هذا الكلام عن اتهام الرسل بالسحر والجنون؟! علماً أنه لا تواصل تاريخي بينهم وليس لديهم رسل ولا كتب ولا علماء دين... مشتركون ليتوارثوا منهم الكفر!

{بَلْ}، لا لم يتواصوا به والسبب لتكرار الكلام من الكفّار القدماء ومن بعدهم أنهم، {هُمْ قَوْمٌ}، هم أناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الدين، والكلام هنا مع قوم وقوم وقوم... لكل منهم كيان خاص بهم، {طَاغُونَ}، متعدون لحدودهم ويتصرفون بأكثر مما هو مسموح لهم.

ليس بين الكفّار وصايا من السابقين للاحقين ليقولوا نفس الكلام، لأنهم أقوام منفردة متباعدة عن بعضها والشيء المشترك بينهم لم ينتقل بالوصية من سابق للاحق، وليس انتقالاً لتراثهم الديني عبر كتاب، ولا عبر أشخاص كعلماء دين... بل المشترك بينهم أنهم كلهم متعدّون لحدودهم، بأي حق ينكرون إلههم! وبأي حق يجعلون له شركاء! وبأي حق يرفضون طاعة رسوله!... وحدودهم أنهم عبيد مخلوقون من طين بأي حقّ يتعدون حدودهم ليخترعوا ديانة من عقيدة وشريعة وسلوكيات باطلة وتخالف ما يقوله إلههم! وبسبب طغيانهم هذا دائماً يتّهمون الرسل الإلهية بأنهم سحرة ومجانين.

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ{54})
طالما هم يقولون عنك ساحر أو مجنون:

{فَتَوَلَّ عَنْهُمْ}، اترك الذين كفروا واذهب باتجاه آخر، {فَمَا}، لست، {أَنْتَ بِمَلُومٍ}، ليس عليك أي لوم من كفرهم وطغيانهم، وإن توليت عنهم لا تشعر بأنك فعلت شيئاً ليس من المفروض بك فعله، لا، لن يلومك سبحانه وأنت لا تلم نفسك لأنك توليت عنهم، لأنك لا تتحمّل أي مسؤولية عن كفرهم، ولست ملزماً بهم لتستمر محاولاً معهم حتى يؤمنوا.

تكرر هذا المعنى بعبارات متنوّعة مراراً في القرآن، ومنه الآية 48 من سورة الشورى {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ}... والآية 41 من سورة الزمر {إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ}... وتفهمها لو نظرت للرسول كمدير لعمّال ومسؤولٍ عن سلوكهم وإنتاجيتهم، ستلومه إن تكاسلوا أو كان الإنتاج بطيئاً أو بمستوى رديءٍ... الرسول حامل لرسالة الإله سبحانه للناس، ومهمّته هدايتهم وإنذارهم، وإن لم يهتدوا يتحمّل هو نتيجة الفشل، لا، مهمته فقط وفقط نقل الكلام الإلهي كما هو للناس، ولا علاقة له بعد ذلك بأي شيء يحصل، سواءٌ آمنوا أم كفروا لن يتحاسب الرسول ولن يلومه تعالى، لأنه ليس عليهم بوكيل ولا جبّار ولا مسيطر ولا حفيظ...

دائماً يكرّر القرآن هذه النقطة لأن الكفّار يمكنهم القول: لو كان هذا الرجل رسول الإله لكان أقنعنا بدينه، ولكنه فاشل ولم يتمكّن من إقناعنا بالدين، فهو إمّا أنه ليس رسولاً حقيقياً أو هو رسول فاشل وعلى كلا الحالتين نحن لا لوم علينا واللوم عليه. لا، ما أنت أيها الرسول محمّد(ع) بملوم ولا بأي شكل طالما أنك توصل كلام الإله سبحانه للناس بأمانة، أنذرهم واعرض عليهم الحقّ ومن بعد ذلك اتركهم وشأنهم.

في سور أخرى ذكرت نفس المعنى الوارد هنا، ترى المفسرين بغالبيتهم يحتارون بين أمره تعالى لرسوله بالإعراض والتولّي وذرهم... عن الكافرين من بعد إنذارهم، وأن يقول لهم: سلام. وينصرف. وبين الأمر بقتالهم، على أساس التعارض بين الأمرين، أمر تركهم وقول سلام، وأمر قتالهم. وقال بعضهم إنّ آيات الإعراض عن الكافرين منسوخة بما يسمّونه بآيات السيف... أي ملغية ويجب قتل الكافرين...

أولاً لم يستعمل القرآن كلمة سيف أو خنجر أو رمح أو نبل... وهذا له مداليل عديدة، منها أنه بالرغم من كلام القرآن عن حالات قتالية وحربية ولكنه تعمّد اجتناب هذه الكلمات الدارجة بين الناس والتي يستعملونها في هكذا مواضيع، وذلك حتى ترى الفرق بسهولة بين كلام الإله سبحانه وبين كلام البشر، ومنها انتباهك أن كلام الإله في قرآنه عن مسائل القتال سببه أفعال الناس القتالية، ولولا ذلك لن يأمر تعالى بقتال ولن يتحدّث عن القتال، وستفهم ذلك بعد قليل.

سأختصر لك المشكلة بأن هؤلاء المفسرين لم يتكوّن لديهم صورة شاملة لما يأمر به سبحانه، لا نسخ في القرآن بالمعنى الذي اصطلحوا عليه من إلغاء لأوامر إلهية قديمة واستبدالها بأخرى... مسألة التعامل مع الكافرين بكل أنواعهم وأصنافهم واضحة من الآية 8 من سورة الممتحنة {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، فالكافر العابد للحجر أو أي كافر غيره ومهما كان نوعه... طالما هو مسالم فله ولماله ولعرضه حرمة المسلم بالتمام والكمال.

والأمر الإلهي بقتال الكافرين حين ذكره في القرآن دائماً ذكر تبريره معه، والآية 9 من سورة الممتحنة نموذج عن ذلك {إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، ومثله في المعنى التبرير الوارد في الآية 25 من سورة الفتح {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ}... والأصرح منه على حالتي السلم والقتال ما ورد في الآية 90 من سورة النساء {إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا}.

الإعراض والتولّي... عن الكافرين من بعد تبليغهم الإنذار الإلهي، هذا لا علاقة له بمسألة الكافرين المعادين المقاتلين للمؤمنين، فهؤلاء تنذرهم وتقاتلهم، أمّا الآخرين المسالمين فتنذرهم وإن شعرت برغبة منهم للإيمان تكمل معهم حديثك، وإن شعرت أنهم يمارون ويلعبون... فَتَوَلَّ عنهم.

(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ{55})
{وَذَكِّرْ}، قل أيها الرسول أموراً ليستحضرها الناس في فكرهم وسلوكهم، وبالتحديد انقل للناس كلامنا عبر هذا القرآن، {فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}، لأنَّ تذكيرك سيستفيد منه الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون، طبعاً بالدين الإلهي.

هناك إفادة من تذكيرك بكلامه تعالى، فإن لم يستفد منه الكفّار فالمؤمنون سيستفيدون، حتى لو كانوا شخصاً واحداً، وحتى لو في زمان آخر...

نتذكّر دائماً أن القرآن يعتبر الناس في الأصل وقبل نزول القرآن وقبل سماعهم لكلام الوحي من نبي، وقبل سماعهم لأي شيء منه تعالى، يعتبرهم مؤمنين وكافرين ومشركين... أعمى القلب والفكر والبصيرة والأصمّ والأبكم... والذي لا يعقل ولا يفكّر ولا يَذَّكَّر... فهو بالأصل هكذا، وهذه هي طبيعته التي انجبل عليها بسبب تعلّقه بالشهوة والغريزة السيئة وحبّ الرئاسة وحبّ الشهرة وعموم حبّ الدنيا بشكل سيئ... وهذا من الصعب بل من المستحيل أن يؤمن به تعالى إلهاً أحداً بسبب ما ينقله له الرسل والأنبياء، أو إن بشكل ما آمن به تعالى أو أذعن للمعلومات الحق... فهو لن يعلن إيمانه ولن يؤمن بوجوب اتباع الرسول وترك ما يهواه من سوء... وسيبقى هكذا طالما لم يقرّر التغيُّر، ومن الصعب تغيُّره لأن ما يطرحه دينه تعالى لا يتماشى مع هواه وفكره السيئ.

في المقابل هناك ذو البصيرة والسمع، ذو اللبّ والعقل والفكر... هو هكذا في الأصل لأنه لم يجعل شهواته وغرائزه وأهواءه تتحكّم به، وهذا هو الذي يعتبره القرآن مؤمناً لأنه حتماً وبالتأكيد سيرى ما حوله آيات تدل على الإله العظيم، وحتماً وبالتأكيد لن يخترع آلهة من أوهامه وخيالاته ويعبدها، وبالتأكيد سيكون محقاً عادلاً منصفاً لا يعتدي على نفسه ولا على الآخرين... وهذا هو إيمانه وتقاه وعمله الصالح قبل أن يتعرّف على دينه تعالى، ومن بعد تعرّفه على كلامه تعالى سيتماشى بشكل طبيعي معه... لذلك هؤلاء ذكّرهم لأنهم هم المنتفعون من الذكرى.

بتكرار مختصر بعبارات أخرى، هناك أشخاص سيتماشون مع ما تقوله أيها الرسول(ع) ولن ينفروا منه ولن يروه غريباً لأنهم أصلاً فيهم صفات العقل واللبّ والسمع... لأنهم من قبل هذا القرآن كانت قلوبهم فيها سلامة بدرجة مقبولة... وكانوا بشكل ما مؤمنين بالأمور العقلانية وشريعتهم وسلوكهم محكوم بما يرونه صالحاً... ويقابلهم الذين فيهم قساوة القلب وعمى البصيرة عن رؤية الحقّ، العنيدون المتعلّقون بشهوات الدنيا الذين لا يعطون الآخرين حقوقهم ويعتدون عليهم... وهؤلاء لن يتماشى فكرهم وسلوكهم مع ما تنقله لهم من قرآن، ولن يكون القرآن لهم ذكرى...

على نفس المعنى جاءت العديد من الآيات ومنها الآية الثانية من سورة البقرة {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ} فراجع دراستها.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ{56})
{وَمَا خَلَقْتُ}، لم يركّب ويؤلّف سبحانه، {الْجِنَّ}، وهم مخلوقات من نار، {وَالْإِنْسَ}، وهم نحن المخلوقون من طين، {إِلَّا}، فقط، {لِيَعْبُدُونِ}، ليتصرفوا على أساس أنهم عبيد له تعالى، ويتصرفوا على أساس أنهم مفروض منهم طاعته سبحانه. وكلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة وهي مقابل الحرّ.

هنا يصير من الواضح معنى الدين ويوم الدين الذي تمحورت حوله السورة، لأنَّ العبد للإله يجب عليه التزام حدوده، ويجب أن يطيع وهذا ما يدين به العبد لربّه: التصرّف كعبد مطيع. بهذا المعنى للكلمات ترى أن ما قيل عن آيتنا هنا في بعض الأدبيات، عن أنها الشارحة للهدف من خلقتنا: لعبادته تعالى، ليس من معناها الصريح، وسيأتيك الكلام عنه بعد قليل، وسأختصر لك معنى الآية هنا بسؤال: هل خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الخير من الشرّ وبحرية الإرادة، وتركنا على هوانا لنفعل ما نشاء حتى لو كان سيئاً، ولن يحاسبنا ولن يجازينا؟ لا، بل مفروض منّا التصرّف على أساس كوننا عبيده تعالى، لذلك مفروض منّا طاعته، وهذا هو بالتحديد وبالضبط ما تقصده الآية هنا.

نعلم من عموم القرآن وجود جنسين من المخلوقات مكلّفين بشكل تام، وسيحاسبهما تعالى على أفعالهما المخالفة أو الموافقة للحق والصلاح، وهو نفسه المخالفة أو الموافقة مع كلامه تعالى. المكلفان هما نحن الإنس والجنّ كما نفهم من القرآن، حيث لم يخلقنا تعالى لنسرح على هوانا ونفعل ما نريد وكما نشاء بلا حسيب ولا رقيب، لأننا عبيد، وعلينا التصرّف كعبيد له تعالى، وندين لخالقنا بالطاعة "وربط العبودية بما ندين به له تعالى هو من محاور كلام هذه السورة".

أيضاً من المعاني الدارجة في بعض الأدبيات عن آيتنا هنا أنها آمرة لنا بترك كلّ شيء والتفرّغ لما يسمّى بالعبادة عبر الصلاة والدعاء والصوم... لا، دع من بالك ما تجده في الكتب من اشتقاقات من هذه الآية وأمثالها، والتزم بمعاني الكلمات، حيث عبد عبيد عباد يعبدون... تعني: هم مفروض منهم وعليهم الطاعة. لا أكثر ولا أقل، وليس في اشتقاقات هذه الكلمة أي دلالة على اختلاف مقصدها، ولا كلمة "عباد" وردت في القرآن حصراً لمدح العبيد المؤمنين، ولا كلمة "عبيد" وردت لذمّ غير المؤمنين، ولا أي شيء مما تراه منتشراً بين الناس حول هذه المعاني صحيح، لأنَّ عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد وهي جمع الجمع.

ولا كلمة عبد واعبدوني... مقصود منها القيام بطقوس أو نسك أو شعائر أو... لأنَّ الكثير من التفاسير ترادف العبادة بالقيام بالواجبات الدينية التي صرنا نسميها بالعبادات "مقابل المعاملات" حتى نسينا المعنى الأساسي لكلمة عبد ومشتقاتها، والصلاة عبادة لأنها تنفيذ لما أمرنا به تعالى، ولكن البيع والإجارة... بالصلاح في "المعاملة" مع الآخرين أيضاً عبادة، لأنها أيضاً تنفيذ لما أمرنا به تعالى.

نرجع للآية، سبحانه لم يخلق الجنّ والإنس تاركاً لهم حرية طاعته أو مخالفة أوامره بدون عواقب، بل منحهم حرية الإرادة وسيحاسبهم ويجازيهم إن لم يعبدوه، "إن لم يطيعوه". لذلك لا تفهم الآية بضبابية لمعنى كلمة يعبدون، بل التزم بالمعنى الأساسي للكلمة، وسترى أن الكثير من الكلام في الكتب عن الآية هنا لا علاقة له بما تقوله.

الآية هنا والآية 118 و 119 من سورة هود {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}، لا آيتنا هنا ولا هذه الآيات من سورة هود ولا غيرها من الآيات يشيرون إلى السبب أو الهدف أو الغاية الإلهية من خلق الإنس والجن، إنما الآيات تشير فقط وفقط لوجوب تصرف الجنّ والإنس على أساس أنهم عبيد له تعالى. ولا يحق لهم التصرف هنا في الدنيا كأنهم أحرار بلا رقيب ولا حسيب ولا مجازاة، وليس مسموحاً لهم اختراع دين من هواهم... ولا يحقّ لهم التصرّف كعبيد لغيره تعالى... ونفس هذا المعنى ورد صريحاً بعبارة أخرى في الآية 5 من سورة البينة {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}.

أمّا بالنسبة للهدف والسبب والغاية والغرض... من خلق كلّ شيء، فهو سؤال من ناحيتنا نحن وليس وصفاً صحيحاً لقراراته وأفعاله تعالى، لأنه سبحانه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له، ولن تزيد قدرته ولن ينقص ملكه ولن يتأثر ولا بأي شكل من أي شيء ممكن أن يحدث، وهكذا ترى أنه لا معنى لوصف ما يفعله تعالى بالهدف الإلهي، ولذلك لن تجد ولا آية قرآنية تريك الهدف الإلهي من خلق البشر، وإذا خطر ببالك آية ما قصدها غاية وهدف إلهي لخلق البشر أو أي شيء في الدنيا، راجع دراستنا هذه وسترى أن ذلك غير صحيح.

ربما تلاحظ المعاناة في التعابير لمحاولة شرحنا لأفعاله تعالى بلا هدف أو سبب، لأننا معتادون كبشر على تبرير الغايات والأسباب، ودائماً لدينا غايات وأسباب بشرية ولأجلها فعلنا شيئاً ما، حتى لو كان فعلنا عبثياً للتسلية، فهو سبب. أما بالنسبة له تعالى فمن كلامه في القرآن يمكن اختصار وصف أفعاله تعالى: الحقّ. وتقرأ ذلك في العديد من الآيات

منها الآية من سورة الدخان {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}، والقرآن يقصد بذلك نفي العبثية واللهو، ويشير للحكمة من هذا الفعل، ولكنه لا يشير للسبب والغاية والهدف، لأنه لا معنى للسبب والغاية والهدف بالنسبة له تعالى.

بالتحليل نقول بأنه تعالى قدراته فائقة، ويمكنه أن يخلق، ومن الطبيعي أن يخلق... ولهذه الفكرة تسميات "الفيض، الحبّ، الإشراق..." في كتب الفلسفة والعرفان، لأنهم يعلمون أنه تعالى لا معنى عنده للغاية والهدف والسبب، ولذلك يبحثون عن تسمية لتبرير سبب خلقه تعالى للدنيا التي لم تكن وصارت، ما هو السبب حتى صارت، يعني ما هو سبب اتخاذ قرار صيرانها؟ لذلك اخترعوا مصطلحات تحافظ على نفي الهدف عنه تعالى ولكن تبرّر حدوث الفعل منه تعالى، وقالوا إنّه تعالى يحبّ أن يخلق، وقالوا إنّ النتاج الطبيعي للقدرات الإلهية الفائقة هو الفيض بخلق المخلوقات... وكما ترى هو كلام تحليلي لا يستند بشكل صريح على القرآن الذي اقتصر على وصف قراراته وأفعاله تعالى بالـ: حقّ.

نختصر السؤال عن سبب خلق الدنيا لنسأل عن سبب خلقنا نحن، لماذا خلقني الله سبحانه؟

كما ترى، أي كلام تجده في الكتب كجواب، إنما في الحقيقة هو جواب من ناحيتنا نحن، لأننا يمكن تحديد أهداف وأسباب لوجودنا، وأي جواب من ناحيته تعالى غير ما ورد صريحاً في القرآن: بالحق. هو جواب لا أعتقد أنه صحيح، حتى الفيض والإشراق والرحمة والحب... كأسباب إلهية حتى خلق سبحانه الدنيا، هي مجرد تخمينات تحليلية.

من ناحيتنا نحن ترى أجوبة قرآنية عن سبب خلقنا كما تقرأ في الآية السابعة من سورة هود {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}... وتقرأ نفس المعنى بعبارة أخرى في سورة الملك {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}.

إذن، نحن انخلقنا حتى نمر في امتحان، وبعده حساب، وبعده جزاء، وهذا هو سبب خلقنا.

في المستقبل سيصير للذكاء الصناعي تصرفات ومواقف لا يمكن تمييزها عن الإنسان بوعيه ومشاعره، وبعضهم سيؤمن ويصلي... أقول لك هذا كمثال عن أي شيء سابق مرّ في تاريخ البشرية وكان الناس ينكرونه ويرفضونه ويعارضونه، ضع هذا في بالك وستفهم ما يقوله البعض عن إنكار السبب من خلقتنا وإنكار وجود إله، لأنَّ بعض هؤلاء يقول إنه لو كان هناك إله لما صمّم بشراً يلدون أطفالاً ومعهم أمراض مؤلمة لا شفاء منها كبعض أنواع السرطان.

هذا الواقع المرّ مثله مثل إنكار جهنّم الآخرة، لأنك إن أنكرتها لن يتغيّر أي شيء، وستبقى مصيراً للمجرمين، وكذلك وجود المآسي في حياة البشر والتي هي نوع من البلاء، لأنَّ رفض الإيمان بالله لأنه لو كان موجوداً لما سمح بحدوث المآسي، هو نفسه سبب خلقنا كبشر بحرية إرادة واختيار لنمرّ في المآسي كامتحان.

سأختصر لك مسألة تدخّل الإله لمنع المآسي، بحسب ما نفهمه من القرآن أنه سبحانه لا ينصب أفخاخاً للناس لتسقط في الامتحان، بل هي الحياة بمجرياتها الطبيعية تجعلنا نمرّ في ابتلاءات متنوّعة، حيث بعضنا يموت له طفل، وآخر يموت له شاب، وآخر يفقر، وغيره يتسلّط عليه ظالم...

مجموع تصرفات الناس هي السبب الرئيسي لكثير من المآسي كالحروب والدمار، وفقدان الأمن... والكثير من الأمراض الناتجة عن الاستهتار بالنظافة في مصانع الطعام، ومن صنع الأوعية غير الصحية، ومن المخلفات الكيميائية المرمية في الأنهار والبحار، ومن الإشعاعات النووية...

هذه البلاءات من صنع الإنسان، وترى الكثيرين يعترضون على الإله طالبين منه التدخل لدفع البلاء، أو سيهددون بالكفر به إن لم يستجب؟

لن يتدخّل سبحانه لمنع الكوارث التي من صنع البشر أو من صنع الطبيعة إلا إذا كان الناس صالحين، وإلا فسبحانه سيترك الأمور لمجرياتها الطبيعية مهما كانت النتائج، سواءٌ سرطانات للأطفال أو مجاعة أو تسلّط ديكتاتور يحكم الناس بالظلم.

إن كان الناس صالحين بغالبيتهم، عندها غالبية البلاءات والنوائب السيئة تختفي، لأنهم هم لن يسببوها بأفعالهم، وسبحانه لن يغيّر أحوالهم للأسوأ ليمتحنهم، لا، بل سيتدخل ضدّ الكوارث الطبيعية، ولمزيد من التوسّع حول هذه المسألة راجع دراسة الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

(مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ{57})
الجنّ والإنس عبيده تعالى، ويجب عليهم التصرّف على هذا الأساس:

{مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ}، فسبحانه "خالقهم" لم يخلقهم حتى يحصل منهم على ما يسدّ به حاجة له سبحانه مهما كان نوعها، سواء بالطعام كمواد أولية أو جاهزاً مَطْهِيّاً... أو بالمال الذي نشتري به الطعام... {وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ}، فلا أريد منهم تأمين الأكل الذي له طعم لي.

بالنسبة لمحور كلام السورة ترى أنه لا مشكلة له تعالى مع الناس حين يدينهم بأنهم لم يقدّموا له تعالى شيئاً يحتاجه منهم، فهذا شيء أصلاً خارج الموضوع، حيث بكل وضوح وصراحة نحن نُدَانُ بما هو حقّ علينا لإلهنا، لأننا عبيد له، فالمفروض منّا طاعته ويجب علينا التصرّف على هذا الأساس، ولا توجد أي مشكلة شخصية له تعالى معنا، فلم نحرمه من شيء يحتاجه منّا إذا كفرنا أو فعلنا السيئات، وليس بسبب إلحاقنا الضرر به سبحانه من كفرنا وفعلنا للسيئات سيديننا بالعقاب، لا.

بالنسبة لعموم الكلام عن الأفكار الرائجة بين الكثير من المشركين "والكفّار عموماً كفكرة لديهم عن إله المؤمنين"، فالرزق هو عموم ما له ارتباط بسدّ حاجات ورغبات الإنسان، وأهمّها وأوّلها ما يحافظ به على حياته، وهو الأكل، ويليه المال لشراء الطعام، وكذلك المطر فهو رزق لأنه ينتج عنه الطعام... وإلهنا سبحانه لا يحتاج منّا إلى أي شيء من عموم الرزق مهما كان نوعه، وقياساً على حاجتنا الملحّة لنا نحن للطعام الذي نموت إن فقدناه، فسبحانه لا يريد منّا طعاماً، وأصلاً سبحانه لا يأكل ولا يمكن أن يأكل ولكن الإشارة إلى عموم نفي أي حاجة له منّا، وخصوصاً نفي حاجته لما نحن نحتاجه بشدّة لنحافظ على حياتنا. أيضاً تشير الآية ضمناً إلى سخافة بعض الناس الذين يفكّرون أن الإله يستفيد من البخور الذي يقدمونه له ويحتاج للأكل ذي الطعم الطيّب الذي يقدمونه له! أو يفرح بالبخّور والطعام ليسدّ به حاجة في نفسه! فيبقى الطعام كما هو أمامهم ويقولون إنّ إلههم روحياً تناول منه!

سنفهم الآية بسهولة عندما نتذكّر الطقوس العبادية التي يقوم بها بعض المشركين من تقديم الأضاحي من الحيوانات وطاسات الدمّ والبخور والفاكهة والطعام... والزهور والحليّ... لآلهتهم، على أساس أن آلهتهم تحتاجها وستفرح بهذه التقديمات، وتأكلها أو تشمّها روحياً! بل حتى إنّ بعض المحللين لنفسية الإله يقولون إنّ الإله يشعر بالسعادة والابتهاج وتزداد قوّته حين يقوم الناس بعبادته، ويشعر بالانقباض والضيق وتضعف قوّته حين يتجاهله الناس! وهذه سخافات وخرافات من أوهامهم.

اسمح لي بتكرار هذا المعنى المنتشر بكثرة في القرآن، فالآن نحن موجودون في بيئة ضخمة متنوعة وفيها الكثير من التفاصيل... وهذا يدل على وجود إله واحد مصمّم وخالق ومتابع لها، وننتقل الآن لنرى مواصفات هذا الإله، ويمكننا اشتقاق الكثير من صفاته تعالى بملاحظة أنفسنا وما حولنا، فهو حتما حيّ وإلّا فكيف سيمنح الحياة للآخرين؟ وهو قيوم، وإلا لكان فوقه إله آخر خلقه ويعينه ليبقى حيّاً... وهو الخالق والرازق...

الآن ننتقل للتحليل الذي يقوم به عامّة الناس، فالمؤمن الحقيقي يصل لتحاليل صحيحة عن صفاته تعالى، لأن قلبه "أساس نفسيته وفكره" سليم من الأوهام والكذب والتخريف... وعرض القرآن نماذج عن هذه النوعية من الناس وهم الذين صاروا أنبياء ورُسُلاً، وأضاف عليهم مريم ابنة عمران(ع) ولقمان(ع)... أما بقية الناس فمتدرجون من أقل من هؤلاء إيمانياً وصولاً إلى الحضيض وهو الشرك به سبحانه.

القرآن يخبرنا عن الإله الحقيقي كيف تكون مواصفاته، مؤكّداً بذلك ما يمكننا الوصول إليه بقلبنا السليم، ومقوّماً ما وصلنا إليه مُشَوَّهاً بسبب فساد قلبنا. ويؤكّد لنا أن الصفات الناقصة التي قالوها عن الإله سبحانه، فلو كانت تلك الصفات السيئة صحيحة للإله، لما كان يوجد إله أصلاً، وبالتالي لما كانوا هم موجودين، فهناك مواصفات عالية جدّاً، وإما أن

تكون كلّها في الإله أو لن يكون هناك إلهٌ، فالإله الذي يأكل النذورات، ولو روحياً، ويشتمّ البخور، ولو روحياً، ويبتهج بترانيم العبادة ويبتئس إذا لم يعبدوه... فهذا الكلام لو كان صحيحاً عنه، فهو ليس إلهاً، ولن يكون هناك إله، ولن يكون أي شيء موجوداً أصلاً، فلا تتصوّر أن إلهاً بمواصفات ناقصة يمكنه أن يكون حيّاً قيّوماً لا شيء قبله، فالقرآن "كلام من إله حقيقي" يخبرنا أن هذا مستحيل.

بعبارة مباشرة: لو احتاج الإله لشيء من مخلوقاته فهو ليس إلهاً، وليس بصفات وقدرات فائقة، فالحاجة لشيء تقدّمه له مخلوقاته تعني أنه ضعيف ناقص القدرات والصفات، ولن يكون قيّوماً، فكيف سيكون موجوداً إن لم يكن قيّوماً؟ والله سبحانه يخبرنا عن نفسه أنه فائق الصفات والقدرات، الحي القيوم الغني العزيز... ويخبرنا سبحانه أيضاً أنه لو لم يكن كذلك لما استطاع خلق السماوات والأرض، وقبل ذلك لما كان هو نفسه موجوداً كإله، ولكان فوقه إله حقيقي كامل الصفات...

لو كرّرت لك العبارات فلنضع دائماً في بالنا المفهوم القرآني المهمّ جدّاً، حيث هناك إله واحد أحد، وبالتالي لا أحد يعلم بحقيقة مواصفات الألوهية غيره تعالى، وهو الإله يخبرك أن أي نقص في مواصفات الألوهية كان سيمنع وجود الإله من أصله، فهي كلمة إله كما يعلمها صاحبها الموصوف بها، لا تتحمّل أي نقص أو عيب، ولو كان له ولد أو شريك أو كان الإله يتمثّل بشكل بشر... أو يأكل الطعام أو يشمّ البخور... أو كان ظالماً لئيماً... أو كان عابثاً لاهياً... فلن يكون إلهاً. الكرسي الذي لا قاعدة له ترفعه عن الأرض ليس كرسيّاً، والبناء المسدود من كل الجوانب وليس فيه مدخل ولا نوافذ، ليس بيتاً... والصخرة الصلبة والبيت المنحوت في صخرة صلبة، الفرق بينهما فقط هو النحت والحفر، والصخرة الصلبة ليست بيتاً... كما ترى من هذه الأمثلة التقريبية التشبيهية، حيث سبحانه يخبرنا بطريقة أخرى عن نفسه أنه لو كان فيه صفات غير التي قالها لنا عن نفسه عبر هذا القرآن، فلن يكون إلهاً. وانتبه أيضاً، لوجود نصف كرسي، ونصف بيت، ولكن صفة الألوهية لا تتحمّل نصف أو ربع إله أو أحد بنفحة إلهية، وأخبرنا تعالى عن ذلك مراراً وتكراراً وبالأدلة والشروحات...

نتذكّر ما ورد في السورة هنا عند امتناع الضيوف من مدّ أيديهم إلى الطعام الذي قدّمه لهم النبي إبراهيم(ع)، والذي ركّز القرآن على وصفه على أنه لذيذ مرغوب لنا {عِجْلٍ حَنِيذٍ}... لأن أولئك الضيوف أصلاً لا يأكلون ولا يشعرون بأي رغبة في الأكل ولا يحتاجونه ولن يستلذّوا به ولا يعني لهم أي شيء... وإن كانت الملائكة(ع) بهذه الصفة، فكيف يستسخف الناس أنفسهم ويظنون أن الإله سبحانه وتعالى بحاجة للرزق!

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ{58})
{إِنَّ اللَّهَ}، إن صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {هُوَ الرَّزَّاقُ}، هو الذي يعطي بكثرة للآخرين ما يسدّون به حاجاتهم، فهو سبحانه المصدر الوحيد لرزق الآخرين فكيف سيحتاج منهم لِما هو تعالى أعطاه لهم!

هو، {ذُو الْقُوَّةِ}، الموصوف بأنه لديه القدرة العالية الهائلة الفائقة على فعل الأشياء، فالضعيف هو العاجز عن فعل شيء ما، والقوي هو القادر على فعل ذلك الشيء، {الْمَتِينُ}، حيث لا خلل ولا بأي شكل في قدراته الفائقة سبحانه.

عبارة {ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} هي في مقابل الضعيف الذي يملك قوّة ما ولكن فيها خلل، والذي يحتاج لغيره ليرزقه ليسدّ حاجاته، ليس صاحب قوّة متينة، لأنَّ حاجته للرزق من الآخرين تعبّر عن ضعف.

وهكذا ترى السورة تصوّب مشكلة إدانته تعالى لنا حتى لا يفكّر أحد ما بطريقة ملتوية أنَّ مشكلة إلهنا معه شخصية، على أساس أنه لم يؤمّن للإله ما يحتاجه، وغضب عليه الإله وقرّر تعذيبه، لا، لأنه سبحانه لا يحتاج لأي شيء منّا والمشكلة التي يقع فيها المدانون بالعقاب إنما هي مشكلة تصرّفهم بطريقة لا تتماشى مع كونهم عبيداً له تعالى، وبالتالي كفرهم بالحقّ وطغيانهم وفسادهم وإسرافهم...

بقي شيء من خارج الآيات ولكن له علاقة ما بعموم مفاهيم القرآن، حيث إنَّ كاتب الإلياذة، وهي كتاب قصصي جمع فيه الكاتب الشخصيات التي يقدّسها بعض الناس في عصره، وجمع ما يرويه الناس عنهم مؤلِّفاً قصصاً شيّقة... ومن الواضح جدّاً جدّاً "بالنسبة لي" أنَّ الكاتب لم يقصد إعلان إيمانه بما يقصّه علينا، بل صوّر لنا أفكار واعتقادات عامّة

الناس في عصره، وهكذا ترى أرباباً تغضب من الذين لم يعبدوها لأنها فقدت الجماهير، وترى أرباباً تغار من أرباب أخرى... حيث تماشى الكاتب في قصصه مع التراث الديني الشعبي. عِلماً أنَّ عصره كان مشحونا بعلماء مرموقين من الطراز الأوّل بالنسبة لعصورهم في مختلف العلوم، وكتبهم تعكس إيماناً بعيداً كل البعد عن الأرباب زوس وأبولو وهاديس... وعن بطولات هرقل و"آخيل" وبارس وهيكتور... إلّا كمضرب مثل بهذه الأبطال الخرافية، كالسؤال الفيزيائي الرياضي عن المعادلات اللامحدودة، حيث يضربون المثل عن "أخيل" بـأنه لن يسبق السلحفاة. وعلماء عصر الإلياذة "والأوديسّة" كانوا بغالبيتهم الساحقة من الموحدين المستسخفين لعبادة أرباب غير الإله الأحد. وعلى أي حال، فإنَّ الآيات هنا فيها ردود على العقليات السخيفة التي تنتشر بين المشركين، ومنها كنموذج ما نقله كاتب الإلياذة عن حاجات ورغبات الأرباب...

(فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ{59})
{فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا}، الذين لم يكن معهم حق ولم يكونوا منصفين ولا عادلين حين لم يتصرفوا على أساس أنهم عبيد له تعالى، لأنَّ توحيده تعالى والإيمان بدينه وتنفيذه والإيمان بيوم الدين... هو حقٌّ وعدلٌ وإنصافٌ لأنه صحيح وحقيقي وعليه آيات لها سلطان مبين... والكفر بهذه الأمور هو الظلم وليس معهم حقّ بمخالفتها، وهؤلاء لهم، {ذَنُوباً} "فتحة على الذال" أي لهم شيء فيه حصّة كبيرة، وهي حصّة كبيرة من العقاب نتجت عن ظلمهم، {مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ}، أي لهم حصّة كبيرة شبه التمام بحصّة الذين معهم في الكفر، ومَن سبقهم ومن سيأتي بعدهم من كفّار كلّهم لهم حصّة كبيرة من العذاب، {فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ}، أي لا يطلبون حصول شيء قبل وقته، وهنا الكلام عن طلبهم حصولهم على حصّتهم قبل وقتها الذي حدّده تعالى، وربما يكون وقتها هنا في الدنيا قبل الآخرة، ولكن حتما تنتظرهم حصّتهم من العذاب في الآخرة.

بقي شيء غريب نسمعه من بعض الناس، مَن كان في عصر نزول هذا القرآن ينسى أنَّ دينه تعالى ممتد قبله لآلاف السنين، ويرى دينه تعالى كشيء جديد معروض عليه هو فقط، لو مات قبل نزول القرآن لكان بعيداً عن الإنذار الإلهي... والذين في عصرنا عندما تعرض عليهم دينه تعالى يشعرون نفس الشيء! وتسمع من أقوام بعيدة عن منطقة الشرق الأوسط كلاماً يشير إلى دينه تعالى كدين خاص بالمنطقة التي انطلق منها، وأنَّهم لا دخل لهم به...

آيتنا هنا وأمثالها واضحة العمومية لكل من كفر في أي زمان أو مكان، ومعايير محاسبته تعالى للناس أوسع من ضيق الأفق الذي يتخيّلونه، لأنَّ آياته تعالى ليست محصورة في الشرق الأوسط حيث تكتّلت رسله تعالى عبر التاريخ، وخلق السماوات والأرض وما فيهن من كائنات وظواهر متاحٌ للجميع كدلالة عليه تعالى... وسلامة القلب منحة إلهية لكل الناس أينما كانوا، وعلى سلامة قلوبهم سيتحاسبون إن ظلموا وعَمُوا وصمّوا.

وهكذا نرى عمق الكثير من السور القرآنية التي لم تذكر تفاصيل الشريعة الإلهية، وهذا ليس لأن الشريعة ليست مهمّة بل لأن كلامه تعالى استعاض عن تفاصيل الشريعة بالتركيز على أساسيات أساسيات ما يمكن لأي إنسان الوصول إليه بقلب سليم ليترك الاعتقادات والأعمال السيئة التي يرفضها قلبه السليم، ويفعل الصالحات التي يدفعه لها قلبه السليم، وهذا هو دينه تعالى، وتصير بقية التفاصيل ثانوية، كحالة النبي محمّد(ع) شخصيّاً كمؤمن من الدرجة العالية جدّاً حيث مرّ عليه زمن لم يكن يعرف فيه تشريعه تعالى في التبنّي والظهار والميراث... حتى جاءه وحي إلهي عن ذلك.

(فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ{60}
{فَوَيْلٌ}، أي حدثٌ عظيمٌ سيواجهونه، وهو بالتحديد مصيبة كبيرة، {لِّلَّذِينَ كَفَرُوا}، للذين أنكروا، وهنا المقصود وبحسب ما تناولته السورة، إنكارهم للتوحيد بأي شكل، وإنكارهم أنَّهم عبيد، وإنكارهم للدين وليوم الدين، فيا للمصيبة الكبيرة لهؤلاء، {مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ}، حيث قال تعالى إنَّه سيكون هناك يوم للدين، أي سيكون هناك زمان يدانون به ويتحاسبون ويُجَازَوْنَ فيه، والمصيبة الكبيرة لهم من ذلك الزمن حين يأتي.

سورة الطور (52) ص 523

تتمحور حول وصف المكذبين للدين الإلهي بأنهم يخوضون ويلعبون بالكلام عن الدين، وتردّ على أساسيات ما قالوه كأسباب منعتهم من التصديق بالدين الإلهي، لتريك أنهم لاعبون وليسوا جِدِّيِّينَ. ومرّت سريعاً على نهايتهم بالعذاب كتخويف... وتحدّثت مُطَوَّلاً على نهاية المؤمنين في جنّة الآخرة كترغيب.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(وَالطُّورِ {1})

تأكيد بما هو ضخم، فكلمة طور هي لعموم ما هو بحجم ضخم من التراب والصخر، الجبل، وهنا مِن سياق السورة ومن عموم القرآن لاستعمال كلمة طور نفهم أنها إشارة لخصوص جبل سيناء الذي حَصَلَتْ فيه حادثة مشهورة جدّاً، وهي كلام ربنا سبحانه وتعالى مع رسوله موسى(ع) ونزول التوراة هناك، وهذا شيء مشهور جدّاً ولذلك اكتفى القرآن بالتلميح له مُسْتَغْنِياً عن التصريح بذكر الحادثة.

نتذكّر أنه تعالى لا يستعمل التوكيد ليثبت لنا صدقه، فليس مثلما نحن نقسم ونحلف عندما نكون في حالة ضعف وليس لدينا دليل إلّا أن نحلف أو نقسم على صدق كلامنا، لا، بل افهمها كما لو كنت تسمع مَلِكاً قَوِيّاً مُسَيْطِراً ويمكنه فعل ما يشاء وهو يقول: والله لأقتلنك. فأنت لا تشكّ في صدقه بتاتاً، ولكن كلامه مجرد تأكيد لعزمه على هذا الفعل وعلى قدرته على فعله وأنَّه لن يستطيع أحد ردعه أو جعله يغيّر رأيه. وهكذا استعمل سبحانه تعابير التوكيد "والقسم" في قرآنه، فقط لتأكيد قراره على ما يقول بأنه سيفعله، أو للفت الانتباه لشيء يؤكّد لنا ما يقوله تعالى. وبعد انتهاء الفقرة الأولى من التوكيدات هنا سترى أنه تعالى لن يغيّر قراره، ولن يمنعه أحد من تعذيب المكذبين لهذا الدين والمجازاة بالحسنى للمؤمنين، وكما ترى فالكلام مع اللاعبين بالكلام عن الدين الذي أنزله تعالى قديماً على عبده موسى(ع) في طور... فهو لفت انتباه لهذا الدين أن مصدره منه تعالى، فبماذا تلعبون؟!

بداية التوكيدات مع لفت الانتباه لجبل حصلت عليه حادثة مشهورة ومميزة جدّاً منذ آلاف السنين، مِمَّا يشير لقدم تواصل الإله سبحانه مع عبيده وتعيين رُسُلٍ منهم، وقدم هذا الدين، وقدم الإنذار بالتعذيب... وسترى أن كلّ ما تؤكّد به السورة في مقدمتها له علاقة بالأسئلة التي ستوجهها السورة للمكذبين بهذا الدين، فلنتابع:

(وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ {2})

تأكيد بـ {كِتَابٍ} أي بما له موضوع محدّد، {مَسْطُورٍ} حيث جرت كتابته سطراً بعد سطر، فكلمة كتاب تشمل كل كلام محدّد المتن والموضوع، سواء تحدّد بكتابته فنشير للأوراق ونقول: هذا كتاب الجاحظ... أو تحدّد بنقشه أو بحفظه في الذاكرة الرقمية أو في عقلي أو... ومسطور هو تحديد الأجزاء التي يتألف منها الكتاب، فمجموع الأسطر هو كتاب، وكما الكتاب مثبت المتن ويكون معروفاً لأنه محدّد فكذلك الأسطر التي تألّف منها تكون معروفة محدّدة.

بما أنَّ السورة هنا كلامه تعالى، فهنا التأكيد بكتاب إلهي نزل في الطور، والمشهور جدّاً أنها التوراة التي نزلت على الرسول موسى(ع) في جبل من منطقة سيناء الواقعة شمالي مصر لجهة فلسطين، وتسطّرت التوراة على ألواح "من الحجارة" كما ورد ثلاث مرات في سورة الأعراف في الآيات 145 و 150 و 154، {وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ} من سورة الأعراف الآية 154.

هذه الإشارة بالتوكيد هنا بشيء إلهي مشهور جدّاً وعمره آلاف السنين، فنحن نؤكّد للآخرين بما له قيمة عندنا، بالله تعالى بأبي بحياتي بأولادي... والتوكيدات القرآنية أيضاً تشير لأمور لها قيمة عالية جدّاً، وأنت تعلم كم هي القيمة العالية لكتاب من الإله عزّ وجلّ.

سترى معنى التوكيد بالكتاب الإلهي فيما سيأتي من الأسئلة التي ستطرحها السورة على المكذبين بهذا الدين.

(فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ {3})

الكتاب المسطور: {فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ}، والرقّ هو عموم ما كان رقيقاً فسماكته قليلة، وهنا المقصود التوراة المنقوشة على ألواح لأنَّها {مَنْشُورٍ} حيث انتشرت وتوزّعت وصارت معروضة متوافرة بين الناس عبر كتابتها على ما يمكنهم

حمله ونقله بسهولة، على رقّ على أشياء رقيقة، فكتبوها على جلود الحيوانات أو على أوراق البردي أو ورق القصب، أو...

فالكتاب الإلهي ليس سِرّاً مَحْصُوراً بين أشخاص محدّدين، بل وصل محتواه إلى عامّة الناس، وانتشر عبر الرقاق، وعموم الناس سمعت به وأتيح لها الاطلاع على ما فيه.

قارنها مع ديانات لديها كتب مقدّسة تمنع عامّة الناس من الاطّلاع عليها، ويعتبرونها أسراراً خاصّة برجال دينهم وبأتباعهم! وهكذا نفهم كلامه تعالى في قرآنه عن كتبه أنها منشورة وموجّهة لكل الناس بدون أي استثناء.

هذا الكلام يأخذنا إلى اختراعات بعض المنتمين لدينه تعالى، فدائماً تجد جماعات تريد التميّز بالأسرار التي لا يعرفها غيرهم، فلديهم كتب دينية لا يفهمها إلا هم، ولديهم كتب يخفونها عن الناس... ومن نظرة سريعة للتاريخ ترى أن الكثير من جماعات بني إسرائيل أرادوا جعل دينه تعالى خاصّاً ببني إسرائيل! وبقية الناس إن آمنوا فلن يصل مستواهم إلى مستوى مؤمن من بني إسرائيل! وبهذه النظرة ازْدَرُوا المؤمنين من أبناء النبي إسماعيل(ع)، وازْدَرُوا المؤمنين بالنبي عيسى(ع)، وازْدَرُوا المسلمين المؤمنين بهذا القرآن...

بما أدخلوه على التوراة من تحريفات، وبما أضافوه إليها من أسفار من تأليفات علمائهم، حاولوا مسخ دينه تعالى ليكون لهم ولهم فقط، وبقيّة الناس ليس مهمّاً إن آمنوا.

هذا النوع من السلوكيات يتعارض مع كلامه تعالى الذي دائماً كان خطابه عبر رسله للعالمين، للناس كافّة، وهنا الكلام عن رقّ منشور يشير إلى انتشار كتابه تعالى بين الناس مكتوباً منذ آلاف السنين، ولذلك الكتاب امتداد تاريخي عبر هذا القرآن، وبالعكس فلهذا القرآن ككتاب إلهي، امتداد تاريخي إلى الكتاب النازل على الطور.

(وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ{4})
تأكيد بالبيت المعمور، فهناك بيت ليس فارغاً بل معموراً ففيه نشاط، وبيوتنا نحن البشر تكون معمورة إذا سكنّاها، وإن كانت فارغة ولكنها صالحة للسكن فنصفها بالعمارة بحسب توقعنا لعمارتنا بها لاستخدامها.

لا نجد في القرآن إشارة لبيت بقيمة عالية جدّاً إلا الكعبة التي في مكّة، والتأكيد القرآني على ذلك ورد مراراً ومنه الآية 96 من سورة آل عمران {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ}، فهنا التوكيد بالكعبة التي عمارتها بنسبتها للإله سبحانه وتعالى، حيث قال عنها تعالى إنّها بيت له، طبعاً لا يسكن تعالى فيه، بل هي رمز ملموس للناس حدّده تعالى لهم ليقصدوه كتعبير عن علاقتهم بربّهم سبحانه، فكانت الكعبة أول بيت في تاريخ البشرية محدّد كمكان لذكره والتقرّب منه تعالى، وعادة نستعمل جمل "بيت لعبادته تعالى"، ولكنها لغويّاً ليست صحيحة ولم يستعملها القرآن، وأمّا بما اصطلح الناس على كلمة عبادة كمرادف لذكره تعالى بالكلام والحركات والأفعال، كالصلاة والصوم والتسبيح.. فالمعنى صحيح، فالبيت وضعه تعالى للناس حتى يعبدوه بمعنى إعلانهم لطاعته عبر الصلاة والتسبيح والصوم...

مِن بعد لفت الانتباه للطور والكتاب الإلهي الذي نزل فيه، نرى السورة تشير لشيء قديم جدّاً لما قبل نزول الكتاب على الطور، لبيت عمره آلاف من السنين ومشهور جدّاً بين عموم الناس أنه بيت منسوب للإله تعالى، وبالتالي ترى عُمقاً تاريخيّاً سحيقاً ملموساً لدينه تعالى ببيت مشهور جدّاً، وبكتاب مشهور جدّاً...

أشهر حوادث جرت مع ذلك البيت كانت حين أعاد بناءه النبيان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وذلك منذ آلاف السنين كما تقرأ في الآية 127 من سورة البقرة {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}، وقبل تجديدهما لبنائه كان البيت موجوداً معروفاً ولكن ليس لدينا مستندات تاريخية لأحداث جرت حوله إلا إعادة بنائه وما جرى مع السيدة هاجر وابنها إسماعيل(ع)...

فيما سيأتي سترى معنى التوكيد بالكعبة من الأسئلة التي ستطرحها السورة على المكذبين بهذا الدين.

(وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ{5})

تأكيد بـ {السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ}، فالسقف هو عموم ما كان فوقك ويحجب عنك شيئاً ما، ومن عموم تعابير القرآن نفهم أن السقف هنا إشارة للسماء التي هي سقف مرفوع فوقنا، وكما ترى فالإشارة إلى شيء نراه جميعاً ونرى عظمته، ونعلم أنه موجود منذ القدم، وإلى هنا تكون السورة أشارت لجبل، نزل عليه كتاب، وبيت، والسماء التي فوقنا. وسترى معنى هذا التوكيد بالسقف المرفوع مِمَّا سيأتي من الأسئلة التي ستطرحها السورة على المكذبين بهذا الدين.

(وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ {6})
تأكيد بـ {الْبَحْرِ}، تأكيد بمكان فيه سائل أو مائع بكمية كبيرة، {الْمَسْجُورِ}، الذي يتحرّك في مكانه بقوّة شديدة، وقد ورد نفس الوصف في الآية 6 من سورة التكوير {وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ} وفسّرنا الكلام هناك عن بحار الماء على وجه الأرض أنها ستصير مضطربة بشدة هائلة أثناء تبدل السماوات والأرض، وما ورد في الآية 72 من سورة غافر {فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ}، فهو يشترك مع الآية هنا ومع الآية 6 من سورة التكوير باستعمال كلمة تسجير، وهذا لا يعني بالضرورة أن المكان واحد، بل كما يبدو فالوصف واحد بالاضطراب الشديد لبحار المياه ولاضطراب المرميين في جهنّم.

الكلام هنا عن نموذج مميز من الظواهر الحالية للبحر في حالة الاضطراب الشديد، فأي بحر تصيبه هذه الحالة فهو البحر المسجور، فأل التعريف هنا ليست عَهْدِيَّة.

وإلى هنا انتهت التوكيدات المتنوعة من جبل نزل عليه كتاب وبيت وسماء وبحر مضطرب مخيف كشبه وكنموذج عن المشاهد المخيفة في الآخرة وما بعدها، ولننتقل بعد ذلك لجواب التوكيد:

(إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ {7})
{إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ}، إن الضرر من المسؤول عنك من مستوى إلهي، {لَوَاقِعٌ}، أي سيقع وسيحصل ولن يبقى كلاماً بلا تحقيق وتنفيذ.

بعد كلّ التأكيدات السابقة وصلنا لشيء تريد السورة تأكيد حصوله حَتْماً وهو تعذيب المكذبين لهذا الدين.

ومنذ قليل لفتت السورة انتباهنا لجبل نزل فيه كتاب مسطور في رقّ منشور، ففي التوراة خبر مماثل لخبرنا هنا عن حتمية وقوع العذاب، ولفتت انتباهنا لبيت له تعالى فما معنى تحديده كرمز معنوي "ديني" له تعالى إن لم يكن هناك حساب وجزاء على الإيمان به تعالى وطاعته؟ ولفتت انتباهنا لسماء ضخمة رائعة التصميم مِمَّا يشير ضمناً إلى خلق السماوات والأرض، فما معنى خلقها وخلقنا فيها وخلق بحار على الأرض تمرّ عليها فترات تكون مسجورة، فإن لم يكن هناك حكمة من ذلك فما معنى هذا الخلق؟

طبعاً هذا تحليل توسّعنا به لكلمات قليلة قالتها السورة، فهو من التأمّل الذي قصدت السورة دفعنا إليه مستعملة كلمات بحاجة للتوقّف للتفكير في دلالتها، وها أمامك معاني الكلمات، وها تحليلي التأملي لها، وهذا على قدر ما أنا عليه من سلامة قلب، فالتفسير هو تحويل الكلمات والجمل لصيغة أبسط مع الحفاظ على المعنى الأصلي، وأمّا غير ذلك فهو تحليل وتوسّع في المعنى، وأنت من بعد الالتزام بالمعنى الظاهر لكلامه تعالى، فلست ملزماً بأي تحليل إن خطر على قلبك تحليل تراه أفضل من المعروض عليك، وهذا طبعاً من بعد دراسة لبقية كلامه تعالى لتقوّم عليه ما خطر ببالك حتى لا يكون تحليلك مخالفاً لكلامه تعالى في سور أخرى...

(مَا لَهُ مِن دَافِعٍ {8})
ليس للعذاب من يدفعه، فلا أحد يمكنه إبعاده بالقوّة، ولا بأي شكل يمكن ردّ أو صدّ أو الحماية من العذاب لمن أراد سبحانه تعذيبهم.

(يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاء مَوْراً {9})
"العذاب الواقع الذي ليس له من دافع" {يَوْمَ}، في الزمن الذي، {تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً}، بكل ما تحمله كلمة مور من معنى فعموم ما هو فوق سيتحرّك بتموّج.

وكما تعلم من عموم القرآن أنَّ هذا الزمن لمور السماء هو بعد النفخة الأولى في الصور حيث تموت كلّ الخلائق إلا ما شاء الله تعالى، وتبدأ السماوات والأرض بالتبدّل لتنتهي الدنيا... وفي النهاية نصير في الآخرة، وتحصل النفخة الثانية في الصور وتقوم المخلوقات من الموت... كما ورد ضمناً في الآية 68 من سورة الزمر {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}.

ومنذ قليل أشارت السورة للسقف المرفوع، وهو السماء التي نراها الآن في الدنيا، فهي لن تبقى هكذا وسوف تتبدّل، ورغم حجمها الهائل جدّاً والدالة عليه تعالى كآية على عظيم قدراته... فإن الإله سبحانه وبكل سهولة صمّمها لتتبدّل لتتجهّز ليوم القيامة بحيث تتحرك وتتموّج أثناء تبدّلها.

(وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً{10})

ويوم، {تَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً}، فبكل ما تحمله كلمة سير من معنى فالكتل الكبيرة للصخر والتراب سوف تتحرّك من مكانها.

وفي العديد من الآيات نقرأ تعابير مشابهة عن تحرّك الجبال من مكانها وانهيارها أثناء تبدّل السماوات والأرض، فالجبال منتشرة على الأرض، ونحن نعتبرها شيئاً ضخماً، فيخبرنا القرآن أنها ستسير من مكانها وستنهار.

وفي الآية 16 من سورة الملك نقرأ هناك عن مور الأرض أيضاً، {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ}، وفي غيرها من السور العديدة نقرأ عن تزلزل الأرض وتصدّعها... وكلّها تعابير متشابهة من ناحية تعبيرها عن حوادث ستصيب الأرض وتجعلها تتبدّل بتحرّك وجهها.

نلاحظ في القرآن لفت انتباهنا مراراً لقدراته الفائقة سبحانه وسهولة فعله لأي شيء يريده، وعندما يخبرنا تعالى عن سيران الجبال لا يعرض علينا قدراته العالية بشكل مباشر، فتحريك الجبال بالنسبة له تعالى شيء بسيط جدّاً مثل بساطة خلقه تعالى لكل السماوات والأرض، ولكن من نظرنا نحن فالجبال ضخمة وصلبة ولها هيبة الارتفاع... وبالنسبة لنا فتحريكها يتطلّب قدرة جبّارة، طاقة هائلة، وكما تناول القرآن عظمة قدرته تعالى من أصغر ما حولنا من ذرة ونملة وبعوضة... مروراً بالسحاب والمطر والأرض... وصولاً إلى السماوات والجنّ والملائكة(ع)... بلا فرق بالنسبة له تعالى، وكانت تنبيهات موجهة لنا من وجهة نظرنا نحن لنلتفت لقدرته العظيمة سبحانه، فكذلك الحديث عن سيران الجبال فهو شيء ضخم بالنسبة لنا وليس له تعالى، فنرى منه قدرته الفائقة سبحانه بالنسبة لنا.

ضع هذا في بالك حتى تنتبه دائماً أن أي شيء من حولك تعرفه أو سمعت عنه، أي شيء كان، يحتاج لإله ليخلقه، فالبعوضة تعبّر عن عظمة الإله بنفس القوة التي تعبّر فيها المجرات الضخمة، ونقل النبي محمّد(ع) من مكّة إلى القدس لا يختلف في أساسه عن تحريك الجبال أو مور السماء أو قيام الناس من الموت.

بعبارة أصرح فالقرآن لا يتباهى بعرض القدرات الإلهية علينا، سواء أكانت صغيرة أو كبيرة في نظرك، فكلّ الأفعال الإلهية كبيرة، فخلق حبة الرمل هو عمل إلهي ضخم ويحتاج لقدرة إلهية لفعله، وخلق سماء مليئة بالمجرات أيضاً عمل إلهي ضخم.

اليوم يمكننا نحن نسف الجبال عبر تفجيرها، ويمكننا حفرها وقرضها حتى نسويها بالأرض، وفي المستقبل ربما نتمكّن من جعلها تنهار أو تتحرك، ولكن هذا لا يعني أي شيء، فقد نبهنا القرآن مراراً عن الجنّ الذين يمكنهم الوصول للسماء العالية فهم يملكون قدرات هائلة بالنسبة لنا، ونبّهنا القرآن مراراً عن الملائكة(ع) الأقوى من الجنّ بكثير، فعندهم قدرات تفوق تصوّرنا... وهكذا تفهم أن أي كلام عن قدرته تعالى وعن أفعاله، من الصغيرة إلى الكبيرة، طالما اعتمدت على ألوهيته تعالى بوجودها واستمرار... فهي شيء ضخم نابع عن قدرات إلهية هائلة، وحتى قدرات الملائكة العالية لا شيء بتاتاً أمامها.

نلتفت الآن للطور الذي أقسمت به السورة في بدايتها، فطور "جبل" سيناء من أشهر الجبال "دينيّاً"، فبعد أن أيقظت السورة في ذهنك صورة الطور الذي نزلت عليه التوراة، عادت هنا لتخبرك أنه سيسير هو والجبال الأخرى من مكانه ولن يبقى جبلاً.

(فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ{11})
{فَوَيْلٌ}، فحدث عظيم فمصيبة كبيرة، {يَوْمَئِذٍ}، في زمن حصول مور السماء وسيران الجبال، فويل، {لِلْمُكَذِّبِينَ}، للذين كذبوا ولم يصدّقوا.

وكما ترى فأنت تفهم بسهولة أنَّ هناك مصيبة كبيرة في الآخرة بعدما تتبدّل الدنيا ويأتي يوم القيامة من الموت، فالمصيبة كبيرة لمن كذّب بهذا الدين فلم يصدّقه، وبالتالي لم يؤمن بالحق ولم يلتزم بالصالحات.

(الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ{12})
المكذبون: الذين هم في خوض، يدخلون بالحديث عن الدين، يلعبون، لمجرد تمضية الوقت للتسلية، وهم يسمعون حديثاً عن دينه تعالى ولا يبقون مراقبين كمتعلمين أو ليفكروا فيه... بل يدخلون فيه ويخوضون "وكأنه يهمّهم"، ولكنهم في الحقيقة لا يهمّهم الحقّ ولا الباطل، ويتحدثون في مواضيع جدية وخطيرة "لعباً" للتسلية وتمضية الوقت! وكأنه لا عواقب خطيرة من ذلك، وكأن التهديد ليس حقيقياً وليس موجها لهم ولن يصيبهم. ومحور كلام السورة عن هؤلاء وعن الضدّ لهم من المهتمّين بدينه تعالى.

(يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً{13})
{يَوْمَ}، في الزمن الذي، {يُدَعُّونَ} "بالشدة على العين" حيث يتم دفعهم بقوّة، {إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ}، إلى نار المكان الموصوف بسوء ما فيه، {دَعّاً}، بكل ما تحمله كلمة دعّ من معنى، بالدفع بقوّة وغصباً عنهم، ويبدو من عموم القرآن أن المشهد هنا بعد انتهاء الحساب وأخذهم لرميهم في جهنّم، وتجد هذا المعنى في عدة آيات منها الآية 24 من سورة ق {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ}.

(هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ{14})
ها أنتم يتم دفعكم إلى المكان الذي كنتم تقولون إنه لن يوجد، فهل كان تكذيبكم له حقيقياً أم الذي أنتم فيه الآن هو الحقيقة؟

(أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ{15})
{أَفَسِحْرٌ هَذَا}؟ هل هذه النار خدعة تتوهمونها وليست حقيقية؟ حين كنتم تسمعون الكلام عن الآخرة تقولون إنه سحر، وأنه ليس حقيقة بل كلام خادع، فهل هذه النار التي ترونها وتشعرون بلهبها سحر "خدعة" وليست حقيقة؟ {أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ}، فهل أنتم فاقدون للقدرة على وعي وفهم الصور؟ فهل صورة النار التي أمامكم هي خيال؟

لاحظ أن السحر شيء غريب تعلم أنه خدعة، وأضافت الآية سؤالاً آخر، فهناك حالات نرى فيها أشياء وهمية وليست ناتجة عن السحر، كالعطشان في الصحراء الذي يتخيّل الماء أمامه، وكالخائف من عتمة الليل الذي يتخيّل الجنّ والأشباح، والخائف من الغابة الذي يتخيّل الحيوانات المؤذية والمفترسة... فهل أنتم واقعون تحت تأثير السحر فترون النار أمامكم وهي ليست حقيقية، أم بصركم واقع تحت تأثير شيء ما حتى تخيّلتم النار أمامكم؟

طبعاً هي حقيقية ولكن يتم تذكيرهم بما كانوا يقولونه عنها في الدنيا لأنهم كذّبوا بها.

وكما ترى فالإله سبحانه يقول عن عذاب في الآخرة للمسيئين، وهؤلاء يكذّبون هذا الخبر، وهذا الخبر يبدو حقيقياً ولكنهم يقولون إنه سحر، فهل انتبهت لما تريد السورة طرحه؟ فهم يكذبون ما يقوله إلههم سبحانه ويتهمون كلام رسله بالسحر.

والسحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شيئاً غير حقيقي أنه حقيقي. فالساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد بأنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع أنها لم تختف، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر والذي تراه صريحاً في الآية 66 من سورة طه {قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}. وما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، فهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية أنها سحر، فهذا كان على أساس

العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

(اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{16})
{اصْلَوْهَا}، أقبلوا وتوجّهوا إلى النار، وتعرضوا لها وقفوا أمام نارها، {فَاصْبِرُوا}، أي حافظوا على هدوئكم، {أَوْ لَا تَصْبِرُوا}، أي تصرّفوا بشكل غير مدروس كردّ فعل على ما يزعجكم من النار، {سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ}، أي مثل بعضها، فلا فرق إن صبرتم أو لم تصبروا، فسواء حافظتم على هدوء أعصابكم أم صرختم، {إِنَّمَا}، فقط، {تُجْزَوْنَ}، تحصلون على مقابل، {مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، لأنكم كذّبتم بكلامه تعالى وخالفتم أوامره فكذّبتم بالحق وفعلتم السيئات وها أنتم حصلتم على النار، فلا شفقة عليكم ولا إعادة نظر بوضعكم، ولا مراعاة لحالتكم، فسواء صبرتم أم لم تصبروا فالأمر سيّان.

طبعاً تعلم من عموم القرآن أنهم لن يصبروا، وسيصرخون ويولولون ويقومون بحركات هستيرية لأن الألم شديد جدّاً، ولكن تريدك الآية أن تفهم أنهم حتى لو حاولوا أن يصبروا ويتحمّلوا فلا فرق، لأنَّ شدّة شعورهم بالعذاب ستبقى هي ذاتها.

قارنها مع من يستخفّ بعذابه تعالى ويقول: سأصبر عليه، فمهما كان شديداً سأتحمّله. فتأتي آياتنا هذه مع عشرات الآيات التي تكرّر الكلام عن العذاب الأليم الشديد العظيم... حيث لا يمكن تحمّله.

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ{17})
من عادة القرآن عرض مصير الجهتين المتعاكستين، جهة المكذبين وجهة المصدقين: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ}، إن الذين يتجنبون ويتحاشون، وهنا الكلام عن تجنّب الكفر بالحق وتجنّب فعل السوء وهو نفسه تجنّب غضب وعقاب ربّهم سبحانه، وعمليّاً لم يعصوه تعالى، {فِي جَنَّاتٍ}، في أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين ووسائل السعادة، {وَنَعِيمٍ}، في نِعْمَ الحالة، في حالة من السعادة والرفاهية وتوافر كل ما يسعدهم.

وبالنسبة لتعبير القرآن مرّة بالجنّة عن المكان الرائع للمتقين في الآخرة، ومرّة بالجنّات، فهي جنّة فيها جنّات، لأنَّ وساعة ذلك المكان "الجنّة" كعرض السماء والأرض كما ورد في الآية 21 من سورة الحديد، فهل هو كوكب كبير بهذا الحجم بالنسبة لنا، أو هو مجرات عليها كواكب مثل كوننا وكل كوكب جنّة... أو هو بيئة أخرى لن تخطر على بالنا الآن... وعلى أي حال صار سهلاً علينا تصوّر كل المكان كجنّة وفيه جنّات.

(فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ{18})
{فَاكِهِينَ}، يعيشون حالة الفكاهة، مرتاحين لدرجة الفرح والسرور، حيث لا يوجد هموم أو مشاكل أو أي أمور تستدعي التعامل معها بجديّة، {بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ}، بالذي أعطاهم المسؤول عنهم من مستوى إلهي، {وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ}، أي جنّبهم، {عَذَابَ الْجَحِيمِ}، أي أبعدهم عن ضرر المكان الموصوف بشدة سوء ما فيه، فهو مكان تتأجّج فيه النيران...

ضع في بالك الآية 286 من سورة البقرة حيث يعلّمنا سبحانه الطلب منه أن لا يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}، وأضف إليه استغفار الأنبياء مما نسوه أو أخطؤوا به ولم يقصدوا ارتكاب السيئة، كما ورد في الآية 82 من سورة الشعراء {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} نقلاً عن النبي إبراهيم(ع)... مضافاً لذلك تكرار القرآن لتوصيف ما يحصل عليه المؤمنون في الجنّة بأنه من فضله تعالى فهو ليس فرضاً واجباً عليه سبحانه، فالأجر الذي يحصلون عليه هناك حدّده تعالى لهم وجعله استحقاقاً لهم على إيمانهم وعملهم الصالح، فهو بالأصل فضل وليس حقّاً كفرضٍ واجب لهم عليه تعالى، وترى ذلك في العديد من الآيات منها الآية 35 من سورة فاطر {الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ}، وهكذا ترى أنه تعالى لو حاسبنا بدقة بدون مضاعفة الحسنات ولا مغفرة للسيئات لما نجا منّا أحد، وهكذا نفهم أنه حتى المتقين من الدرجة العالية يقيهم سبحانه العذاب، وبرحمته وفضله يدخلهم إلى الجنّة.

عبر دراسة أشعار العرب قديماً قبل الإسلام وجدت فرقاً بسيطاً بين كلمتي جحيم وجهنّم، فجهنّم باستعمال القرآن هي اسم مكان مشتق من الوصف بجهنم الذي يشير لسوء الحالة أو المكان، واستعمال هذا الوصف لمكان تعذيب في الآخرة، هو وصف للأنواع المختلفة المسببة للعذاب مما في المكان، ففيه النار المحرقة وفيه الضرب وفيه طعام كريه ورائحة كريهة... وتفهم ذلك من فحوى الآية 49 من سورة غافر {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ...}. وفي بيتين من الشعر قبل الاسلام وجدت إشارة بكلمة جحيم لضخامة النار، ويناسبها ذلك في القرآن كما ورد في الآية 97 من سورة الصافات {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ}، فالجحيم وصف الضخامة في السوء.

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{19})
{كُلُوا وَاشْرَبُوا}، {هَنِيئاً}، بمسرّة ومن دون أي نوع من الأذى، ولن يحصل أي شيء سيئ من الأكل والشرب، فلا غصّة ولا تخمة ولا أمراض الدهنيات والسكري... ولا ألم أسنان... {بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، لأنكم عملتم الصالحات وبسببها نلتم الطعام والشراب الهنيء.

هنا في الدنيا قد يعجبنا طعام أو شراب، ولكن نشرب أو نأكل منه بكمية قليلة لأن الإكثار منه سيسبب لنا الضرر حتماً، أمّا في جنة الآخرة فلن يحصل أي ضرر من أي نوعية أو كمية يأكلونها أو يشربونها، فلا ألم ولا مرض ولا تخمة...

(مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ{20})
{مُتَّكِئِينَ}، يلقون بثقل جنبهم اليمين أو الشمال، {عَلَىٰ سُرُرٍ}، على نوع من الأثاث مخصَّصٍ للاستلقاء عليه للراحة أو النوم، وعادةً يكون مرتفعا ولو قليلا عن الأرض، {مَّصْفُوفَةٍ}، غير مبعثرة، والكلام وصف لمكان يلتقي فيه المتقون، وفيه أسرّة قريبة من بعضها ومصفوفة بشكل دائري أو بيضاوي أو مربّع... يعني بشكل هندسي جميل.

{وَزَوَّجْنَاهُم}، جعلنا لهم قرناء مجموعين معهم، {بِحُورٍ}، وهي صفة للنساء وللرجال الذين ألوان جلدهم نقية، {عِينٍ}، بأتم مواصفات جمال العيون، وعيونهم واسعة أو مشطوبة أو مائلة... نقية اللون... ولاحظ إسقاطات من خلفيات بعض المفسرين لكلامه تعالى بحسب ما يرونه هم من جمال، وكلمة عين ليس معناها العين الواسعة، ولكن بعضهم في باله أن هذا هو الجمال في العين ففسّره به.

تجد في الآية 22 و 23 من سورة الواقعة تفصيلا عن حَوَرِ جسدهم أي عن نقاوة بشرتهم كأمثال اللؤلؤ المكنون {وَحُورٌ عِينٌ، كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ}.

لكل واحد من المتّقين حور مقرونون معه، يصيرون له زوجا، وليس المقصود أنهم يصير بينهم عقد زواج، لا، بل زوجات وأزواج على المعنى الأساسي لكلمة زوج، فزوج الحمام ليس بينهما عقد زواج، وزوج من الحلق أو الأساور... فهما مقترنان معا، وهكذا الحور العين مع أهل الجنّة، ولكل واحد منهم مجموعة من الحور مقترنين به، فهم له...

هناك أفكار خاصة لدى الناس عن الجنّة، ويتساءلون عن المتعة الجنسية للنساء في الجنّة، وتلاحظ سلفا أنّ لديهم قناعاتهم ويفرضونها على القرآن! والقرآن عموما لم يفصّل، ولكن أشار بوضوح للرضا التام لكل أهل الجنة، فالإناث التقيات سيحصلن على ما يرضيهن ويسعدهن، وترى ذلك سهلا عندما تسأل عن اللاتي مُتْنَ عَزْبَاوَاتٍ... ويبقى السؤال عن المتزوجات فهل يحصلن في الجنّة على أزواج آخرين غير الذي كان زوجها في الدنيا؟ والمطلقات والأرامل... فمع من يقترنّ هناك؟ مع الزوج الأول أو الثاني؟ وماذا لو كانت هنا في الدنيا لم تحبّ زوجها ولا تريده في الآخرة...

هناك الكثير من التفاصيل التي تسمعها وتسمع أجوبة عليها لا تستند لأي شيء قرآني، حيث اختصر القرآن كل شيء بكلمات قليلة تشرح كلّ شيء، وهناك في الجنّة كل أهلها يحبّون بعضهم ولا يوجد بينهم أي مشاعر سيئة، فمن كان بينك وبينه مشاكل هنا في الدنيا، وبعدها صرت أنت وهو إلى الجنة، فهناك ستكونون من أعزّ الأحباب، كما ورد في الآية 47 من سورة الأحزاب {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ}. هذا أولا، وثانيا يضمن لنا تعالى عبر قرآنه السعادة والسرور بلا أي شعور بالانزعاج لكل سكان الجنة.

لا أريد أن "أتفلسف" من عندي لأصور لك حلولا سعيدة للإناث في الجنّة، فطالما السعادة مضمونة إلهيا للجميع فلماذا نفترض وجود شيء مزعج في الجنّة! فإن كنت تغار على زوجتك وتزعجك فكرة حصولها على أزواج آخرين في الجنّة... فلماذا تفترض حصول ما سيزعجك؟ أكرّر لك لذلك لا أريد أن "أتفلسف" وأقول عمّا لا أعلم، وأفترض ما لم يصرّح به القرآن، ولكن ضع في بالك أنها الجنّة، والسعادة لجميع من فيها بلا ولا أي لحظة من الانزعاج، وهذا شيء يضمنه لك الإله بعظمته...

بقي شيء، حيث نقلوا قديما عن عموم الكفّار في أوائل دعوة النبي محمّد(ع) وما بعد ذلك، ونقلوا عن آحاد أشخاص عاشروا الجيل الأول من المسلمين بعد انتشار الإسلام، وعن بضعة أشخاص من العهدين الأموي والعباسي، نقلوا في الكتب تعليقات أبداها أولئك الأشخاص على القرآن، وكانت تعليقات ساخرة من وعود القرآن بالجنّة للمؤمنين، وتسخر مما ذكره القرآن عن الإناث اللواتي يحظى بها المؤمنون في الجنّة، على أساس أن القرآن تخطّى وكسر حدود الخجل والحشمة المفترضة بالكتاب الإلهي ليصير كتابا فيه إيحاءاتٌ وتعابيرُ جنسية.

استمرّت هذه النوعية من الناس بالظهور، واستفحل في عصرنا انتشار مقولاتهم على الإنترنت عن هذا الموضوع المعيّب على القرآن، وهي صفحات لها تمويل مخابراتي بشكل واضح، فلها تكاليف لن يتحمّلها شخص عادي ليفرّغ وقته وماله لها... وبعض تلك الصفحات يبدو وراءها فريق عمل غير قليل العدد، ومتفرغون بكامل وقتهم لمتابعة الأحداث ونشر المقالات التي بشكل مباشر تشكّك في الإسلام، وتلك الصفحات تعمل في نفس الوقت بشكل مباشر وغير مباشر على الفرقة بين المسلمين، وهناك صفحات مدعومة من جهات دينية "مسيحية ويهودية وغيرها" مناهضة للإسلام...

على تلك الصفحات إحياء لكلام قديم من التعليقات على هذا الدين الإلهي القرآني، وإعادة صياغة وتنميق لذلك الكلام والإضافة عليه... وللوهلة الأولى قد تصدّقهم وتشعر بالخلل في القرآن والدين الإلهي، ولكن بأدنى جهد تفكير سترى أنهم كاذبون، وكلامهم مغرض وليس منطقيا ولا عقلانيا...

في تلك الأكاذيب ستجد تجميعا لبضع آيات قرآنية تحدّثت عن المتعة الجنسية في الجنّة، ويبالغون في الكلام عن تلك الآيات ليجعلوا القرآن يبدو ككتاب إباحي جنسي، ويسخرون مما يعرضه القرآن على أساس أنه كلام معيب وتحفيز جنسي وإغراء ووعد بالجنس حتى يرغب الناس في الدخول إلى الإسلام... كدعاية جنسية للانضمام للدين.

أولا، القرآن يزيد عن ستة آلاف آية، والآيات التي أشارت لإناث الجنّة بشكل مباشر أو غير مباشر وهي قرابة ستَّ عشرةَ آية، والصفات التي ذكرها القرآن لتلك الإناث: {حُورٌ عِينٌ}، {عُرُبًا أَتْرَابًا}، {كَوَاعِبَ أَتْرَابًا}، {كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ}، {بَيْضٌ مَّكْنُونٌ}، {أَبْكَارًا}، {كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ}، {أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ}، والطمث. فهذه هي الكلمات التي بالكاد تزيد عن سطر واحد وهي كلّ الإيحاءات الجنسية الفظيعة التي حوّلت القرآن لكتاب جنسي إباحي كما يقولون!

ننتقل للداخل، فهناك مسلمون أصرّوا على مخالفة ظاهر القرآن حين ادّعوا أن الجنّة "روحانية" ليس فيها مادة ولا ملمس حسّي، وفسروا الآيات التي وصفت ما في الجنّة على أنها لذّة روحية وليست حيوانية "فالمتعة الجنسية حيوانية دونية المستوى بحسب تعبيرهم"، وبرّروا لما يظهر من القرآن أنها لذّة حيوانية "بحسب تعبيرهم" وأن غالبية الناس لن تفهم ولن تقتنع باللذّة الروحانية، ولذلك عبّر القرآن عن اللذات الروحانية بتعابير ماديّة، مما يعني أنهم هم وحدهم تلك المجموعة فهموا القرآن على حقيقته، وأنّ القرآن غشّ بقية الناس حين وعدهم بمتاع جسدي جنسي!؟

ما هذه الترهات؟! نعم هناك انشراح وراحة نفسية غير عادية لأهل الجنّة وعبّر عنها القرآن مرارا، وتلك المشاعر الداخلية هي بحدّ ذاتها سعادة رائعة، "وهم يستبدلون كلمة نفسية بالمعنى الدارج حاليا بكلمة روحية"، ولكن ما معنى تأويلهم لصريح ما يقوله القرآن بغير معناه الصريح؟ فالأكل والشرب والإناث والأبكار والطمث... إذ ذكرهم القرآن صراحة وفصّل في بعض مواصفاتهم!

أنتم أيتها المجموعة الغارقة في حبّ التميّز عن الآخرين، أنتم الذين تدّعون أنكم من أقرب الناس إلى الله تعالى وأكثرهم معرفة به سبحانه وبكلامه، وقعتم في الفخر والزهو والتكبّر من حيث لا تشعرون، فتطرّف من أنكر وسخر من ملذات

الجنّة، وأنتم غاليتم بها وجعلتم فهمها حكرا عليكم حتى أفقدتموها معناها! فلا التعابير القليلة المؤدبة عن الملذات الجنسية التي ذكرها القرآن أقنعتكم، ولا أقنعت من رفض الدين الإلهي، فكلاكما في نفس المشكلة.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ{ 21})

{وَالَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين، {وَاتَّبَعَتْهُمْ}، كانت على خطّهم، {ذُرِّيَّتُهُم}، من انفصل عنهم بالولادة أو بغيرها، من أولادهم وأولاد أولادهم... {بِإِيمَانٍ}، وكانوا على خط أهلهم الإيماني، {أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ}، حيث من يدخل إلى الجنّة "عادة" يرغب في أولاده وأولادهم أن يكونوا معه، وسيلحقون به على شرط أن يكونوا أصلا على الخط الإيماني، {وَمَا أَلَتْنَاهُم}، وما أنقصناهم ظلما، {مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ}، حيث هناك شخص أعماله تضعه في درجة عالية في الجنة، وأولاده وأحفاده أعمالهم وضعتهم في درجة منخفضة في الجنّة، فهل سيكونون مفصولين عن بعض؟ أم هل تتنزل درجته ليكون مع أحبائه؟ لأنك إذا افترضت صعود من تحت لفوق بسبب وجود واحد من أقربائه فوق، فربما لن يبقى أحد تحت! ويصير الجميع في درجة واحدة في أعلى درجة مع من اجتهد في الإيمان والتُّقى... لا، بل سيلتحق الأولاد بأهلهم في الجنّة من دون أن ينزل الأهل ومن دون حسم شيء من حسنات الأهل لإعطائها للأولاد حتى ترتفع درجتهم، بل هو إلحاق، فيكون الأولاد مع أهلهم، وسترى من تكملة الكلام أن كل واحد منهم سيشعر بالسعادة على قدر درجته في الجنّة مع أن الجميع مجتمعون في مكان واحد، هذا طبعا إذا أرادوا الاجتماع، فالقرآن ينقل لنا مشاهد عن حفلات للمؤمنين ومشاهد عن أماكن خاصة ينعزل فيها المؤمن منفردا لوحده إذا أراد...

{كُلُّ امْرِئٍ}، كل امرأة أو مرء، كل شخص، {بِمَا كَسَبَ}، بما حصل عليه مما نتج من أعماله، {رَهِينٌ}، مرهون به فهو مرتبط بنتيجة عمله، وما حصل عليه من حسنات فهي ملازمة له، وحتى لو ألحقه تعالى مع أبيه أو جدّه في الجنّة، فلن ترتفع درجته بل سيبقى يسعد ويفرح بالمقدار الذي أوصلته إليه حسناته، ولن يشعر بأن الآخرين أسعد منه حتى لو كانوا من الدرجة الأعلى.

نلاحظ من عموم القرآن أن الطعام والشراب والمناظر الطبيعية والرفاهية واللباس الفاخر والزينة واللقاءات... هي أمور عامة في الجنّة لكل المؤمنين بكل درجاتهم، وهناك أمور خاصة لكل درجة، وهي نفسها المتاحة للجميع ولكن بمواصفات أعلى، وهنا ننتبه جيدا، حيث في الجنة أماكن خاصّة جدا لكل شخص، وهي أماكن له لوحده ليكون فيها حرّ التصرف ويدعو إليها من يشاء، وهناك أماكن عامّة، أو حفلات يقيمها المؤمنون مع بعض... فلا تتصور الجنّة درجات معزولة لكل أناس طبقة منعزلة عن الآخرين، لا، وهذا ما تريد الآية هنا قوله، حيث أنا آكل من الطعام اللذيذ وأنت تأكل منه هو نفسه، وأنا أتمتّع بحاسة ذوق تناسب درجة إيماني، وأنت تتمتّع بحاسة ذوق للطعام بما يناسب درجة إيمانك، وكلانا سيشعر بالطعم الرائع لأقصى درجة، ولن تستطيع التمييز أني ألتذّ أقل منك ولن أصدّق بأنك تلتذّ أكثر منّي، لأني أشعر بالسعادة القصوى... وهذا نموذج عن اجتماع بين سكان أهل الجنة من درجات مختلفة، ويكونون مستلقين على الأسرة وبجانبهم الحور ويطوف عليهم الخدم... وكلّ واحد منهم يشعر أنه يعيش السعادة القصوى ولكنهم في الحقيقة يشعرون بها بشكل متفاوت.

نلتفت لما ورد في سورة غافر الآية 8 {رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} فهذا دعاء حملة العرش ومن حوله لإلحاق أهل المؤمن به في الجنّة، وهناك فهمنا أن الأكثر إيمانا في العائلة يكون القطب، ويلحق به أهله.

نلاحظ في الآيات أنها تشير لأب مؤمن "أو لأمّ مؤمنة" من الدرجة العالية، وله أولاد وأولاد أولاد في الجنّة من درجة منخفضة، وتلاحظ فيما سيأتي أن هذا الأب أو هذه الأم، سبّبا حصول جو إشفاقٍ من العذاب في الآخرة، يعني كان مؤثرا على إيمان عائلته هنا في الدنيا، لذلك ألحقهم تعالى به في الجنة، وهنا ربما تسأل عن أبويه ولماذا لم تذكرهم الآية؟ فلماذا لم تقل شيئا عن إلحاق والدي المؤمن معه في درجته؟ يبدو بوضوح أن كلام الآية مجرد نموذج عملي عن إلحاق الأولاد بأهلهم، ونفس الشيء ينطبق على شخص كان عزيزا جدا على قلبك في الدنيا، ودرجته أقل من درجتك، وسيتم إلحاقه بك حتى لو لم يكن من أقاربك، وكل واحد منكم تبقى سعادته مرهونة بما كسب فلن ترتفع درجته بسبب الإلحاق، لأنّ الكلام عن سعادة اللقاء والتواصل...

(وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ{22})
{وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ}، أَمَدَّنَا لهم استمرار حصولهم على شيء يأكلونه بقصد التلذّذ بطعمه وليس بسبب الجوع، {وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ}، لحم من الطعم الذي يرغبون في الحصول عليه.

نتذكّر دائما أن جوع أهل الجنّة هو جوع رغبة بالأكل بدون أي انزعاج من حالة الجوع. وتتذكّر دائما أن كلام القرآن عن نماذج تعرفها من الدنيا، فليس الطعام هناك محصوراً بين نتاج النباتات من الفاكهة ولا بلحم الحيوانات، بل هذه فقط نماذج تعرفها من الدنيا ليسهل عليك تصوّر روعة ما في الجنّة.

(يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ{23})
{يَتَنَازَعُونَ فِيهَا}، يتناوبون في الجنّة على أخذ، {كَأْسًا}، كوبا لا عروة له "بلا حلقة على جانبه" وله قاعدة ومناسبا لحمله بالأصابع من خصره، والوصف هنا لجماعة من المؤمنين مجتمعين مع بعض وهناك مشروب يرغبونه، وتصوّر لك الآية حركية المشهد والأجواء أنها ليست روتينية مملّة، فهذا يريد المزيد وذاك يريد أن يسبقه لتعبئة كأسه... {لَّا لَغْوٌ فِيهَا}، وكلمة لغو يناسبها في استعمال القرآن بتعبيرنا الحالي: الكلام الفاضي، كلام بلا طعمة، كلام كيف ما كان، شربحة وحكي فاضي. ويتدرج من الأسوأ وهو الكذب وتكذيب الحق، مرورا بالتعليقات والانتقادات غير المحقّة والمعيبة على الدين الإلهي أو على الناس، وصولا إلى المبالغة بالكلام والمزاح الثقيل... فهذا التنازع على الشرب بينهم لن ينتج عنه لغو في الجنة التي أصلا لن يحدث فيها لغو، فلن يقولوا لبعضهم كلاما باطلا سيئاً كالشتم والسباب والإهانة... {وَلَا تَأْثِيمٌ}، وليس في الجنّة أي عمل تعلم أنه سيئ، فتعبير الآية لم يرد حصر نفي اللغو والتأثيم عمّا بعد تنازعهم على شرب الكؤوس، بل نفاه عن كل الجنّة ومن ضمنها حتى حالة تنازعهم على كأس ما، ومناسبة سياق الكلام أنهم لن يفقدوا فكرهم الواعي ليقوموا بأعمال سيئة لأنفسهم وللآخرين من بعد الشرب من كأس...

من الآية 15 من سورة محمد ترى نماذج عن مشروبات الجنّة {مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى} فمن ضمنها الخمر، وفي الآية هنا نفترض الخمر كسائل في الكأس الذي يتنازعونه، لأنّ أنواع المشروبات الأخرى ليس متوقعا تسبيبها للغو أو تأثيم، أمّا الخمر فيسبب فقداناً جزئياً للفكر الواعي مما يسبب القيام بتصرفات هوجاء، ومعلوم في الدنيا ما يحصل مع المخمورين من تصرفات سيئة... أمّا في الجنّة فالأثر الناتج عن الخمر وأشباهه فهو محصور بما يسبب النشوة والسعادة... فلا لغو ولا تأثيم في كل الجنّة.

الآية تصوّر لك حفلة في الجنّة، وتنقل لك صورة عن رغبة قوية في شرب ما في الكأس وأنه يسبّب الفرح العارم، ولن ينتج عراك أو خلاف أو تشنّج أو أي شيء مزعج عن الشراب المسبّب للسعادة والنشوة، فهم في حالة المرح المستمر والسعادة...

(وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ{24})
{وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ}، يذهب ويأتي ويدور حولهم، {غِلْمَانٌ لَّهُمْ}، أشخاص تابعون لهم "للخدمة" وهيئتهم بأعمار من فوق سن التمييز إلى قرابة البلوغ، فهم بهيئة من له عمر قبل الرابعة عشرة، {كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ}، واللؤلؤ هنا في الدنيا يتم استخراجه من صدفة حيوان يعيش في الماء، وهو كروي الشكل وصغير ولونه أبيض أو عاجي أو... وسطحه يعطي لمعات مزيج من الألوان، وتلك الحبّة تكون مكنونة بداخل صدفة، فالكنّ هو وصف حالة استقرار الشيء فيما يعيق أو يمنع وصول ما في الخارج إليه، والتشبيه هنا لمظهر الغلمان بتلك اللمعات الملونة النظيفة الجميلة للؤلؤ كأنه الآن خرج من الصدفة ولم يبهت بعد، فهي إشارة لشدة نقاوة جلدهم ونضارته.

بقي شيء، من هم أولئك الحور والغلمان ومن أين أتوا؟ حيث سيخلقهم سبحانه في الآخرة ليكونوا في الجنّة لإسعاد المؤمنين، ولكن السؤال: إنهم مخلوقات فتحت عينيها على الحياة لتجد نفسها في الجنّة، وبدون المرور في بلاء الدنيا، وسيخلدون في الجنّة في خدمة المؤمنين، فلماذا لست أنا أو أنت منهم؟

بالتحليل "تحليلي أنا الذي قد لا يكون صائبا" لكلام القرآن عن الكائنات التي تتمتّع بحرية الإرادة والاختيار، وتتعرّض للبلاء في الدنيا، وبعده الحساب والمجازاة في الآخرة، هم الجنّ والإنس، نفترض أن الحور والخدم ليسوا من الكائنات ذات حرية الإرادة والاختيار بين الخير والشرّ، وبالتالي لا معنى لمحاسبتهم. وبالتحليل لهذه الحالة نفترض أنهم يفتقدون ما نشعر به نحن البشر والجنّ مما له علاقة بحرية الإرادة والاختيار، وهذا ما يسبّب لنا السعادة، وهو الاختيار والإرادة لما تشتهيه وترغبه. وبعد ذلك يأخذنا الكلام التحليلي إلى افتراضات بعيدة عن أي معطيات قرآنية، لذلك سأتوقّف هنا بانتظار تحليل أفضل، أو نختصر كل ذلك بقولنا: والله أعلم، لربما هناك حالة لا نفهمها الآن عن تلك الكائنات وعن تبرير تواجدها في الجنّة بلا امتحان، وهو الأرجح.

(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ{25})
{وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ}، وصار الواحد منهم يتوجّه ويوجّه كلامه للآخرين، {يَتَسَاءَلُونَ}، يطرحون الأسئلة على بعضهم البعض، ويعبّرون عن إرادتهم للحصول على جواب من بعضهم البعض:

بالنسبة لتصريف "تساءل يتساءلون" الدارج بيننا أنه تصريف مستعمل للاستفهام والاستغراب، حيث لدينا "سؤال" ولدينا "تساؤل"، أمّا المعنى الأساسي لأي تصريف من مشتقات كلمة "سأل"، فسياق الكلام يحدّد إن كانت الجملة للاستفهام أو الاعتراض أو إرادة الجواب... والمعنى الأساسي لها هو المرادف تقريبا لمعنى كلمة "طلب" حاليا، ولم يستعمل القرآن كلمة "طلب" بالمعنى الدارج حاليا واستعمل بدلا منها كلمة "سأل" لعامّة إرادة شيء ما من أحد ما، سواء أراد جوابا "بكل أنواعه ومن ضمنه الاستفهام" أو أراد غرضا أو مساعدة... وكلمة يتساءلون تشير لحالة توجيه سؤال من أكثر من شخص إلى عدة أشخاص.

من تكملة الكلام سترى أن أسئلتهم تعبّر عن مدى سعادتهم مما هم فيه في الجنّة، ويقارنون بين روعة ما هم فيه وبين القليل البسيط الذي فعلوه في الدنيا وسبّب لهم هذه السعادة، ويسألون بالاستفهام التعجّبي عمّا هم فيه وهل فعلا القليل الذي قدّموه نتج عنه هذه الروعة؟!

(قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ{26})
{قَالُوا}، عبر تساؤلهم: {إِنَّا كُنَّا قَبْلُ}، قبل دخولنا إلى الجنة حين كنّا في الدنيا، {فِي أَهْلِنَا}، في المنتمين لنا، في أفراد عائلتنا في بيتنا أو فيما هو أوسع من ذلك... {مُشْفِقِينَ}، كنّا نشعر بمعايشة حالة سيئة ستحصل في الآخرة، طبعا إن لم نطعه تعالى، وورد هذا المعنى مرارا في القرآن باستعمال الوصف بالخشية والخوف، ومن الوصف بالإشفاق ما ورد في الآية 18 من سورة الشورى {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ}...

نلاحظ في القرآن ذكره لإشفاق المؤمنين من النار وهم في الدنيا، وإعراض الآخرين عن ذلك، وبالعكس في الآخرة أثناء الحساب لن يهتمّ المؤمنون بالنار لأنهم ناجون منها، وسيشفق منها البقية لأنهم يرونها وَيَتَلَبَّسُونَ ويعيشون حالة الشعور بالدخول إليها والتعذّب فيها سلفا قبل دخولها، وترى ذلك في الآية 22 من سورة الشورى {تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ}...

بقي شيء، حيث من الواضح أن تعبيرهم "في أهلنا" يشير إلى نفسيتهم "الإشفاقية" هنا في الدنيا، وأمّا في الآخرة حين الحساب، فكل واحد مع الزمرة التي صنّفوه منها... وهذا التعبير بـ {كُنَّا فِي أَهْلِنَا} يشير إلى الحبّ والمودّة للأهل، وهنا في الدنيا تسمع عن النار في الآخرة، وتستهتر، ولكن ستزعجك الفكرة إن تصوّرت عزيزا على قلبك سيدخل النار، وتتلبّس تصوّر تعذيبه وتعذيبك فيها، وهذه هي حالة الإشفاق، وهي تصوّر الوقوع في الخطر لك ولأهلك، وهكذا تتأثّر وتغيّر سلوكك لتقترب من التُّقَى أكثر فأكثر...

(فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ{27})
{فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا}، حصلنا منه تعالى على منّة، على شيء يتوجّب علينا شكره عليه سبحانه، {وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ}، وهذه المنّة منه أنه تعالى جنّبنا من التعرض لعذاب الهواء الساخن جدا المؤلم للجلد ومن الصعب تنفّسه.

هنا المنّة منه تعالى عليهم لأنه لم يحاسبهم على كلّ السيئات التي فعلوها، وغفر لهم، وكفّر عنهم وستر عليهم، وضاعف حسناتهم حتى فاقت سيئاتهم، وشفع لهم... وكل هذا منّة منه تعالى، وهي أمور قدّمها تعالى لهم ويستحق أن يشكروه عليها.

ما ورد قبل قليل في الآية 21 عن إلحاق ذريّة المؤمن به في الجنّة، وما ورد في الآية السابقة {فِي أَهْلِنَا} نضمّه مع آيتنا هنا بكلامها بالجمع في {وَوَقَانَا}، لنصير أمام نموذج محفّز حتى يتضامن الأهل على الإيمان ودخول الجنّة معا، وأعيد وأكرّر لك أن الكثير من كلام القرآن عن نماذج، وهكذا يمكن فهم الآيات هنا تتكلّم عمّا يحصل عادة بين الأهل المؤمنين من سؤالهم لبعضهم البعض: هل صلّيت، هل صمت، هل زكّيت... ولنصلِّ قبل الغداء... وبقية أنواع التضامن على فعل الصالحات من الصدقة والصدق والعفو... وهو نوع من التضامن على الالتزام بالدين الإلهي...

لم يصف القرآن أبدا ما سيحصل عليه المؤمنون في الجنّة أنه منّة، لأنّ المنّة ما تحصل عليه "ويجب" عليك شكر من أعطاك، وفي الجنة "لا يجب" عليك أي شيء، حتى الشكر له تعالى غير واجب، ولذلك وصفه القرآن بأنه فضل، وهو تقدمة منه تعالى لك من دون أن يكون فرضا واجبا عليه تقديمه لك. وما يقوله أهل الجنة عن الحمد والشكر له تعالى، نابع من شعورهم بالسعادة وليس واجبا عليهم قوله، والكلام هنا عن المنّة هو توصيف أهل الجنّة للحالة التي مرّوا بها أثناء الحساب حيث منّ تعالى عليهم بالمغفرة ومضاعفة الحسنات...

(إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ{28})
{إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ}، في الدنيا كنّا، {نَدْعُوهُ}، نشهر ونعلن له تعالى، والكلام عمومي حيث هم أشهروا وأعلنوا أنه سبحانه إلههم الواحد الأحد وأنهم تابعون لدينه تعالى، وذلك يتضمن إشهارهم وإعلانهم طلب المغفرة وأن ينجيهم سبحانه من النار، {إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ}، هو الذي يصل من تواصل معه، ولا يقطع من تواصل معه، {الرَّحِيمُ}، الذي لديه عناية خاصة بالمؤمنين.

لاحظ سهولة فهم الآية على المعنى الأساسي لكلمة {نَدْعُوهُ}، والتي تفيد عموم الإشهار والإعلان، لأنك لو حصرتها بما تعارفنا عليه من الدعاء كدعاء الصباح ودعاء كميل وأدعية الصحيفة السجادية... سيكون هذا الحصر خطأً، ولن يكون مناسبا جدا لتكملة الجملة بوصف البرّ، لأنّ البرّ هو عامّة الحفاظ على الاتصال، وهم دعوه سبحانه، وأشهروا وأعلنوا أنه إلههم وأنهم منتسبون لدينه... وبسبب دعائهم هذا اعتبرهم سبحانه متواصلين معه، وبَرَّهُمْ وعاملهم على أساس أنهم من التابعين له ولم يقطع التواصل معهم والذي ترجمته العملية العناية بهم، لأنه رحيم والمؤمنون فقط يحصلون على هذه العناية الإلهية الخاصّة، وهو سبحانه رحمان لجميع خلقه، إلى أن يقرّروا هم الخروج من تحت مظلّة الرحمة الإلهية حين يعصونه تعالى، وهكذا يبقى المؤمنون متواصلين معه تعالى ويبرّونه تعالى ويبرّهم سبحانه، ويحافظون على العلاقة معه سبحانه وبالمقابل يعاملهم سبحانه بالرحمة الخاصة بهذه النوعية من المخلوقات ويغفر لهم ويضاعف لهم حسناتهم...

(فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ{29})
{فَذَكِّرْ}، اجعل الناس يستحضرون في فكرهم وسلوكهم، واقرأ عليهم هذا القرآن حتى يستحضروا دينه تعالى، {فَمَا أَنتَ}، لست أيها الرسول محمّد(ع)، {بِنِعْمَةِ رَبِّكَ}، بشيء جيّد حصلت عليه من المسؤول عنك من مستوى إلهي، {بِكَاهِنٍ}، لست شخصا يوصف بأوصاف الكهنة وهم الذين يتكهنون ويقولون كلاما عن الماضي والحاضر والمستقبل تكهنا، أي بناء على توقعاتهم عبر ادعائهم لرؤيتهم للأحداث بقدراتهم الخارقة "الوهمية" في منامهم أو يقظتهم، أو ادعائهم أن الجنّ أو الملائكة (ع) أو الأرواح... يجعلونهم يرون الأحداث... وأنت بكلامك عن الآخرة لست تتكهّن.

{وَلَا مَجْنُونٍ}، وما أنت بنعمة ربك بمجنون، وعقلك سليم وليس فيه خلل.

يعني كما نقول: بنعمة الله تعالى لست مريضا. الحمد لله أني عاقل... وأنت بنعمة منه تعالى لست كاهنا ولا مجنونا، لأنك لو كنت كاهنا لكنت مكروها منه تعالى ولن توصف أنك بنعمة، ولو كنت مجنونا لكنت فاقدا للعقل، فاقدا لشيء له قيمة ويملكه الآخرون وستكون فاقدا لتلك النعمة.

وهنا الكلام ردّ على من قال عن الرسول محمّد(ع) إنّه كاهن أو مجنون حين قال لهم كلاما عن الآخرة وعقابها... وقالوا إنّه مثل الكهنة يتصوّر نفسه يرى أحداثا عن عالم ما بعد الموت ولا نراها نحن، ويقول إنّه يوجد جنّة ونار... أو مثل المجانين حيث عقله المضروب يصوّر له رؤية أحداث عن الآخرة وهي ناتجة عن خلل في عقله.

إذن هو خبر لنا منه تعالى عمّا يقوله الرسول محمّد(ع) عبر نقله لهذا القرآن الذي يخبرنا عن الآخرة، وهذا ليس كلامه (ع)، ولم يتكهّن به، بل هو خبر منه تعالى من الغيب المستقبلي، وليس (ع) مجنونا يتوهم بل عاقلاً ينقل كلامه تعالى...

من الواضح جدا الفرق بين شخصية الرسول محمّد(ع) وبين المجانين، وها هو التاريخ يبيّن لك أن عقله تمام التمام بسبب الإنجازات التاريخية العظيمة التي حقّقها، حيث كوّن (ع) نواة دولة في مجتمع لو راجعت تاريخه لقطعت الأمل من أي وحدة بين قبائله... و(ع) لم يخترع أي شيء من عنده وكل ما قاله للناس كان من القرآن، والقرآن فيه العديد من الأدلة التي تثبت أنه وحي منه تعالى، فأين الكهانة وخرافاتها مما قاله القرآن والرسول محمّد(ع)؟

وهكذا نبدأ في هذه الفقرة من السورة بالتركيز على معنى ما ورد من وصف في أولها للمكذبين، بأنهم خائضون يلعبون، وتبدأ السورة من هنا بطرح ما قالوه لترى أنهم فعلا خاضوا "ودخلوا في الكلام الديني" ولكن لم يكونوا جدّيين في كلامهم عن دينه تعالى، والبداية مع تعليقاتهم على الناقل للرسالة، حيث من المعلوم بينهم أنه(ع) لم يسبق له أن تكهّن، وكلامه عن الآخرة إنما هو نقل لكلامه تعالى، وهو كلام سبق وجاء منه تعالى للناس منذ آلاف السنين... والتوضيح الذي جاء في كلام القرآن عن قراره تعالى بخلقنا بالصفات التي فينا لنمرّ من البلاء والفتنة هنا في الدنيا ونتحاسب في الآخرة... وهذه ليست كهانة بل خبر ممن خلقنا... ومعلوم بينهم أنه (ع) رجل عاقل، وقولهم عنه إنّه مجنون لا يقصدون به أنّه في حياته العادية تصرفاته مجنونة، بل حصرا يقصدون أن كلامه عن الدين كلام مجانين، فهل هذا ردّ حقيقي على ما يقوله(ع)؟ فأين الجنون في كلامه المنقول عنه تعالى؟

(أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ{30})
{أَمْ يَقُولُونَ}، عن الرسول محمّد(ع) أنه، {شَاعِرٌ}، أنه شخص ماهر بصياغة المشاعر إلى كلام منمّق متناسق، {نَّتَرَبَّصُ بِهِ}، ننتظر شيئا نتوقّع حصوله معه وهو، {رَيْبَ الْمَنُونِ}، فالمنون هو المنيّة، هو آخر ما يصل إليه الإنسان في حياته، وهي الموت، وبما أنهم لا يعلمون متى سيموت يستعملون عبارة ريب المنون، والريب هو أقل درجات توقّع حصول شيء ما، فربما يموت الآن، وربما غدا وربما بعد سنة أو أكثر... وهم لا يعلمون متى سيموت ولذلك يصفون توقّع موته بالريب، بشيء لا يعلمون أبدا متى حدوثه.

ورد في القرآن نفس المعنى بعبارات أخرى منها ما ورد في الآية 105 من سورة الأنعام {وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ...}.

إذن ننتقل للسؤال الثاني من القرآن للمكذبين والذي يدل على خوضهم في الدين لعباً للتسلية بلا جدّية، فهل الرسول محمّد(ع) شاعر يؤلّف القصائد والكلام المنمّق... وإذا مات ماتت دعوته معه وبقي كلامه كذكرى من التاريخ مثل كلام بقية الشعراء الذي صار مجرد كلام منمّق موزون جميل لا يعني لك أكثر من ذلك، مثلما نقرأ الآن أشعار عنترة والمهلهل...

من الواضح أن محمّداً(ع) ليس شاعراً، فالفرق واضح بين القرآن الذي فيه العقيدة الحقّة والشريعة والسلوكيات الصالحة والأدلة على مصدره الإلهي... وبين الشعر الذي يستند على مخيلة الشاعر، وواقعية القرآن واضح الفرق بينها وبين خيالية الشعر.

كما ترى فإنّ كلمة شاعر وصف عمومي ليس مختصاً في ناظم القصائد المقفّاة الموزونة، إذ من المعلوم الواضح أن القرآن لا يشبه الشعر، وهم لا يقصدون باتهامه بشاعر على أنه ناظم للقصائد بل يتهمونه (ع) بتنميق المشاعر بالكلام، حيث إنّ ترغيبهم بالجنّة وتخويفهم بالنار ليؤمنوا بدينه يُعَدّ برأيهم تلاعب بالمشاعر عبر الكلام.

بعبارة أخرى هم لا يقولون عن القرآن أنه شعر القصائد والقافية، إذ من الواضح جداً أن القرآن ليس كذلك، بل يقصدون أن الشعر في أصله وأساسه ليس خبراً حقيقياً ينقل الواقع، بل كلاماً تصويرياً يحفّز ويثير الأذن بموسيقاه ويثير الصور

التي يفعّلها في ذهن المستمع، ولا يعبّر عن واقع حقيقي، حتى لو نقل لنا الشاعر في قصيدته قصّة معركة جرت، فلن ينقلها مثل نشرة الأخبار، بل سينمقّها ويزوّقها فيبالغ في تصوير مجريات الأحداث... وحتى لو سمعنا شعراً بين شاعرين يتبارزان في الكلام، فكلاهما يقنعك أنّ معه حقاً لشدّة حدّة لسانه على الشاعر الآخر... هذا ما يقصدونه بقولهم إنّ القرآن شعر، وهو بنظرهم صفصفةُ كلام خيالي موسيقي بليغ لا يعبّر عن أي حقيقة، وكلامه عن الآخرة والتخويف من العقاب والترغيب بالجنّة برأيهم هو مجرد كلام يثير المشاعر والصور التخيلية ولا يعكس الواقع.

(قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ{31})
{قُلْ}، أيها الرسول محمّد(ع) للقائلين إنّك شاعر يتربصون موتك:

{تَرَبَّصُوا}، انتظروا حصول موتي الذي تتوقّعونه، {فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ}، فأنا أيضاً أنتظر حصول موتكم، وكما ترى عرضت السورة فيما سبق من كلامها ما سيتعرّضون له بعد موتهم من عقاب في الآخرة، وما سيحصل مع الرسول(ع) من ثواب بعد موته في الآخرة.

التربّص هو انتظار حدث متوقَّعٍ حصوله حتماً في الظروف العادية، وسواء كنّا نعلم زمن حدوثه أو لا نعلمه بالتحديد. والكلام هنا عن انتظار حدوث ما يقوله الرسول(ع) لهم عن الآخرة.

كما يقول الناس عن دفن النعامة رأسها في الحفرة إذا هاجمها حيوان مفترس، على أساس أنها إذا لم تعد تراه فهو أيضاً لن يراها، علماً أنّ النعامة تضع رأسها في حفرة في الأرض ولكن ليس لهذا السبب، ولكن على كلّ حال المثل يُضْرَبُ ولا يقاس عليه، وهؤلاء إن انتظروا موت الرسول(ع) على أساس انتهاء ما يقوله (ع) بموته، فموته (ع) لن يغيّر أي شيء، لأنّ كلامه عن الحساب في الآخرة لا علاقة له بموته، إذ إنّ الخبر عن الآخرة جاء من الإله سبحانه، فهل هذا ردّ عقلاني منطقي منكم على ما ينذركم من قرار إلهي؟ ومن الواضح أنكم تلعبون ولا تأخذون الأمور بجديّة.

تصوّرها مثل حالة مؤمن يحاول هداية أحد ما، وذاك الآخر غير راغب بتغيير عقيدته وسلوكه، وصار يملّ من كلام المؤمن، ويريد التخلّص منه ليرتاح من سماع مواعظه... فإذا ابتعدا عن بعضهما أو مات المؤمن ولم يعد يحصل بينهما كلام ديني، فما الذي سيتغيّر؟ فقط سيرتاح من المواعظ ولكن هل لن تأتي الآخرة ولن يتحاسب؟

هنا تعرض الآيات نفس الفكرة، لو مات الرسول لترتاحوا من مواعظه فما الذي سيتغيّر؟ فهل ستُلغَى الآخرة؟

(أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ{32})
{أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا}، إذ إنهم يقولون عن الرسول(ع) إنه شاعر أو كاهن أو مجنون وليس لديهم أي دليل على هذا الوصف، أو ينتظرون موته ليرتاحوا من مواعظه، فهل هذا الكلام الذي لا يستند لعقل ولا لفكر ولا لدليل، وهو مجرد شيء يحلمون به، وهو شيء يرغبون به فيتخيّلون صورته، وكأنهم إذا حلموا بأن كلام الرسول لا قيمة له فعلاً سيصير بلا قيمة! والحلم هو عموم ما تراه في اليقظة أو النوم مما تتصوّره مما نبع من رغباتك فتتمنّاه أو نبع من هواجسك ومخاوفك. فهل أنتم دائما في هذه الحالة وتقولون كلاماً لا دليل عليه وغير عقلاني! وتحلمون أن كلامه (ع) غير صحيح، وأنه (ع) إن مات سينتهي موضوع الآخرة ولن تتحاسبوا، وعلى أساس أحلامكم تتصرفون في حياتكم!

{أَمْ هُمْ قَوْمٌ}، أناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع كلامه (ع) "تخريصاً"، {طَاغُونَ}، متعدّون لحدودهم، إذ أمامهم رسول إلهي ينقل لهم الكلام الإلهي، وحدودهم هو الالتزام بما يقوله الرسول، ولكنهم طغوا فخرجوا عمّا هو مسموح لهم واتهموا الرسول محمّداً(ع) بأنه كاهن أو مجنون أو شاعر...

الجواب واضح، إنهم حالمون وطاغون.

لاحظ وانتبه جيداً، حيث قليلة هي آيات القرآن التي توجّهت لمن نسميه في عصرنا "بالملحد" ونقصد به الذي لا يؤمن بأي إله، ولكن هناك آيات ضمناً يمكن توجيهها نحو الملحد، ومنها الآيات من هنا إلى الآية 36، وهي مثل كل القرآن ابتنت على علمه تعالى بكذب من يقول بأنه لا يعتقد بالإله، ووجّهت كلامها للمنكر أو المتعامي عن الإله الخالق.

بعبارة أصرح، نحن نريد آيات قرآنية صريحة بكلامها مع الذي ينكر وجود أي إله، بينما القرآن لم يوجّه له كلاماً صريحاً، واعتبره كاذباً، وضمّن الكلام معه بكلامه مع المشركين، إذ هو وهم يشتركون في إنكار خلقه تعالى لكل شيء كإله واحد أحد، وهم يؤمنون بآلهة متعددة، وبعض نفس الكلام معهم لبيان فساد عقيدتهم هو نفسه بالأساس مناسب لمن ادّعى أنه لا يؤمن بأي إله، وسُوَرُ الرعد والجاثية والواقعة مناسبةٌ لتوجيه كلامها للملحد.

والآية هنا والآيات التالية موجّهةٌ بالأساس إلى من يؤمن بالإله، وضمناً يصحّ اعتبارها موجّهةً للملحد المنكر لأي إله، وأكرر لك، إنّ الملحد اعتبره القرآن كاذباً لأن الإله الخالق أدرى بعباده الذين خلقهم زارعاً فيهم معرفته... وتتشوّه هذه المعرفة كلما فعلنا السيئات ولكنها لا تختفي...

(أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ{33})
{أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ}، قال القرآن من رأسه هكذا لوحده، ولا ينزل عليه الوحي الإلهي، وليس كاهناً ولا مجنوناً ولا شاعراً بل هو عاقل يخترع الكلام عن وعي ودراسة.

{بَل لَّا يُؤْمِنُونَ}، إذ إنّ الكلام الذي يقوله الرسول(ع) فعلاً عقلاني مدروس ومن المفروض الاعتقاد به بسبب قيمته العالية، ولكنهم أمام هذا الكلام العالي القيمة يقفون ويعلنون أنهم لن يعلنوا اعتقادهم والتزامهم به.

لاحظ عبارة {بَل لَّا يُؤْمِنُونَ} تختصر معانيَ كبيرة، إذ من يسمع القرآن يجب أن يؤمن، لأن القرآن كلام حق، عقلاني وفيه أدلّة... لذلك ليست المشكلة الأساسية في القرآن، بل فيهم هم لأنهم هم اتخذوا سَلَفاً قراراً بالكفر وخوضهم في الدين فقط للّعب.

ومن قال عن القرآن إنه من تأليف النبي(ع) لأنه شخص عاقل ذكي "بعكس توصيفه بالكاهن والمجنون والشاعر..."، فهذا الشخص يعلم ومتأكد أنّ قيمة الكلام القرآني عالية جداً وتصدر عن مستوى عالٍ من الحكمة والعلم... ولكنه يرفض الاعتراف بأنه ليس من تأليف النبي(ع) لأن ما فيه يفوق قدرات محمّد(ع)، لأنه لا يريد أن يؤمن، ويخترع الحجج مهما كان نوعها، حتى قال إنّ القرآن كتاب فكري عالي المستوى، ولتنظيم حياة الناس ألّف محمّد القرآن بانياً شريعة وسلوكيات مستندة على عقيدة فيها ترغيب وتخويف... وستردّ عليه الآية التالية.

انتبه جيداً لما قالته الآيات السابقة، ولو كررته لك فانتبه، حيث إنهم يرمون الكلام كيفما كان ضد الرسول(ع) والقرآن، فما دليلهم على كونه (ع) كاهناً؟ لا دليل. وهل هو مجنون؟ أو شاعر؟ أو تَقَوَّلَ "اخترع من رأسه" القرآن؟ لا يوجد دليل إذ إنهم يرمون الكلام هكذا ضدّه (ع)، وهذه الاتهامات المتعددة لا تتماشى مع بعضها لأنها إن ثبتت منها تهمة واحدة ستتعارض بشكل ما مع التهمة الأخرى، وهكذا ترى أنهم هكذا فقط يرمون الاتهامات على قاعدة "كذّب وكذّب وكذّب... وفي النهاية ستجد من يقتنع بواحدة من تلك الأكاذيب، وحتى هو نفسه الكذّاب سيصدّق الكذبة. وتلحق السورة كلامهم واحداً بعد واحد لتريك أنهم يخوضون في الكلام الديني لاعبين.

(فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ{34})
إن تمكّن محمّد(ع) من تقوّل القرآن، فاستطاع أن يقول هذا القرآن من عنده وينسبه لله تعالى:

{فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ}، ليقولوا كلاما مثل كلام القرآن ولينقلوه للآخرين، لأنه إن كان بإمكان محمّد(ع) اختراعه فهم أيضا يمكنهم اختراعه لأن محمّدا(ع) بشرٌ مثلهم وقدراته بشرية، ليؤلّفوا ولْنَرَ ماذا ألّفوا، {إِن كَانُوا صَادِقِينَ}، بأن القرآن يمكن لمحمّد(ع) البشري تأليفه.

ليقلّدوا القرآن في طريقته ومواضيعه وليؤلفوا أخباراً عن الخلق والتشريع والآخرة... والقصص الهادفة... لأنّ المحورية في القرآن لا يمكن تقليدها لأنها تتناول أخباراً عن أحداثٍ من بداية نشأة ما في الدنيا وأثنائها وبعد انتهائها وعن الآخرة، وتتناول معلومات حقيقية سليمة صافية "نسميها بالعقيدة" لأن الإله سبحانه هو بنفسه يخبرنا عن نفسه وصفاته وما فعله وسيفعله... وهذا الكلام يتماشى مع الآيات الدالة عليه سبحانه مما نراه فيما خلقه تعالى... وهذا يختلف جذريا عن سخافة عبادتهم للحجارة والخشب المنحوت على شكل تماثيل وأصنام... ويتناول القرآن تشريعات مترابطة متناسقة وصالحة، وتخالف تشريعاتهم التي تبدو بوضوح أنها غير مدروسة ولا عقلانية وسيئة... كتحريم السائبة

والوصيلة والحامّ... وتحريم الزوجة على زوجها مدى الحياة ومنعها من الزواج من غيره إذا ظاهرها زوجها، وكتسلّطهم على الأيتام والضعفاء وأكل الميراث... وتبريرهم الطغيان على الآخرين الضعفاء...

التحدّي هو بإتيانهم بكلام يماثل القرآن في الحكمة والفصل والهداية والحقّ وليس بالهزل... وكونه فرقانا ونورا وهدى ويهدي للتي هي أقوم... ومن ناحية ثانية فإن دقّة ومتانة تعابير القرآن تفوق قدرات البشر على تقليده، حيث ترى من العديد من الدراسات وبالخصوص من دراستنا هذه، فإن استعمالَ القرآن للمعنى الدقيق للكلمات وتراكيب الجمل، يفوق قدرة كل البشر على تأليف شيء مشابه للقرآن، لأنه تألّف بقدرات إلهية لا تخونها العبارة ولا الذاكرة...

حاول العديدون تقليد القرآن، وألّفوا سوراً مشابهة في "نغمتها لحنها" لبعض سور القرآن، والبعض منها كلماتها جميلة التناسق، وقريبة جدا بل مشابهة لموسيقى القرآن ومعانيه، ولكن هل تلك السور تدل على شيء ما؟ لا، إذ إنّ معانيها إمّا مأخوذة من القرآن ومطابقة لما يقوله القرآن أو مخالفة له، وما يقوله القرآن عن العقيدة والشريعة بيّنه وأعطى الأدلة على صحّته وعلى فساد الآراء المخالفة، والذي ألّفوه وكان مشتقا من القرآن ما معناه؟!

ظنّوا أنهم استطاعوا تقليد القرآن عبر تقليد طريقته في الكلام، ولكن ليطرحوا أموراً لم يطرحها القرآن أو تعارض ما يطرحه القرآن وليأتوا بأدلتها أنها حقّ وصحيحة، أليست مشكلتهم فيما يطرحه القرآن من عقيدة وتشريع وسلوكيات؟ أم مشكلتهم مع تنسيق كلماته ليكون لها موسيقى خاصّة بها؟

ليصفوا الإله عزّ وجل كما وصفه القرآن، وليتحدّثوا عن بداية الخليقة وعن الشيطان والدنيا ووساوس النفس والآخرة... وليحلّلوا نفسية الكفر والفسق والنفاق وأسبابه كما فعل القرآن، وليجيبوا على أسئلة أهل الديانات الأخرى وليثبتوا فساد عقائدهم وتشريعاتهم كما فعل القرآن، وليتنبّؤوا بحدث سيحصل كما غلبت الروم وفتحت خيبر وفتحت مكّة وانتشر الإسلام... وليأتوا بتفاصيل عن حياة الأنبياء السابقين...

ليأتوا بقرآن متجانس متوافق في معلوماته على مدى ثلاثٍ وعشرين سنة يتلونه على الناس وهم لا يجيدون القراءة والكتابة لمراجعة ما قالوه سابقاً، حيث هذه حالة النبي محمّد(ع) الذي يتهمونه بتقوّل القرآن، لأنه أمّي لا يجيد القراءة ولا الكتابة... ولْيَطرحوا شريعة عادلة تعطي الناس حقوقهم بالكامل...

وبعد ذلك، إنهم نجحوا في تقليد صوري للقرآن بتقليد موسيقى جمله وقافيته، ولكن هل استطاعوا حقاً استعمال الكلمات بمعناها الدقيق بالمستوى الفائق الذي نجده في القرآن؟ وبعد ذلك فهل مماثلة القرآن تعني الاشتقاق منه بالتمام وتكرار كلامه؟ لنفترض جدلاً أنهم ملكوا القدرة اللغوية الفائقة لاستعمال الكلمات وتركيب الجمل، فإذا ركّبوا سورة تطرح فكرة قرآنية وأتوا بدليل عليها، هل أتوا بدليل مقنع أو كيفما كان؟ وإن كان دليلهم مقنعاً مثل دليل القرآن، أليس من المفروض أن يتّبعوا ما هو مقنع؟! من توحيد وطاعة للإله سبحانه وللرسول(ع)! وإن لم يكن دليلهم مقنعاً فهل فعلاً قاموا بتأليف ما يماثل القرآن؟!

ربما تتهيّب من محاولة تأليف سورة لترى إن كنت تستطيع تقليد القرآن، وأقول لك ألّا تتهيّب، حاول، واطرح ديناً مخالفاً للقرآن، وأْتِ بالأدلة التي تثبت فساد ما يقوله القرآن، وحافظ على ما تقوله في نفس السورة وفي بقية السور التي تألّفها... ولن تستطيع... وإذا رأيت نفسك تقلّد أنغام موسيقى كلمات القرآن وتستعمل كلماته وعباراته ومعانيه، فما قيمة ما فعلت؟ وماذا طرحت؟ وهل فعلاً لم ترتكب أي خطأ معنوي أو لغوي؟

نعم، وصلت السخافة ببني البشر حتى عبدوا الحجر والخشب والنار و...! ولا تزال تجد سخفاء يؤمنون بكتبٍ سخيفة تطرح ديناً من تأليف البشر، ولا تزال تجد من يؤمن بأن الإله حلّ في تمثال! في إنسان، في حيوان! عزّ وجلّ. ولا تزال تجد من ينسب له تعالى ولداً! وستجد حمقى يقرؤون كتباً ركيكة تقلّد القرآن ويؤمنون بها! حيث إنّ البهائية لديهم كتب ركيكة لغوياً بشكل غير معقول، حتى أنها أسوأ بكثير من الركاكة التي تقصّدتها في هذه الدراسة لتكون سهلة لأكبر شريحة ممكنة...

ما في تلك الكتب البهائية من عقائد وتشريعات هي أمور مشابهة لما طرحه القرآن مع خلطها بما ورد عن الرسول(ع) مضافاً إليها آراء اجتهادية من الكاتب، ومطروحة بشكل ركيك لغوياً وبالمعنى من مستوى صبياني، وما خالفوا القرآن به حين دخلوا في تفاصيل وأمور لم يطرحها القرآن، ترى بوضوح الركاكة والسخافة... ورغم ذلك، جمهور السخفاء

من النسخة المحدّثة من عبّاد الحجر أعلنوا إيمانهم بتلك السخافات! فإن كنت من ذاك المستوى من السخافة فلا حلّ معك لتؤمن بشيء راقٍ من مستوى إلهي مما يطرحه القرآن، ونفر من القرآن الكثيرون لا لعطل في القرآن، بل لكرههم لما يقوله، وإصرارهم على هواهم وغرائزهم السيئة...

نعم، هذه هي مشكلتهم المسببة لكفرهم بإلهية مصدر القرآن، وهي رفضهم للحقّ ورفضهم للتشريعات الصالحة، ما الذي يأمر به القرآن ولا ترونه صالحاً، وما الذي ينهى عنه ولا ترونه فاسداً حتى كفرتم به؟

لمزيدٍ من التوسّع حول هذا الموضوع راجع دراسة الآية 23 من سورة البقرة {وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}.

(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ{35})
سؤال آخر للمكذبين بهذا الدين:

{أَمْ خُلِقُوا}، حيث تمّ تركيبهم وتأليفهم، {مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ}، فهم يرون أنفسهم مركّبين من المادة، فكيف تركّبت هذه المادة حتى صارت كيانهم؟ فهل من لا شيء صاروا مركّبين؟ بلا خالق وبلا من ركّبهم وألّفهم؟ فهكذا من لا شيء صاروا فجأة مركبين من المواد؟

{أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ}، فهل هم كل واحد منهم ركّب نفسه أو ركّب الآخرين حتى صار لهم كيان؟

أنت تعلم بوضوح تام أن جسدك مركّب مؤلّف من المواد التي على الأرض، من ماء وكربون وكالسيوم وحديد.... وهو نفسه التعبير القرآني: من طين. فهل هكذا صرت فجأة مركّباً لوحدك ومن دون أي شيء، أم ركّبت أنت نفسك وصنعت جسدك؟

الجواب معلوم بالبداهة، فأنت مخلوق وهناك من خلقك، حيث إنّ كلمة خلق ومشتقاتها تعني الشيء الذي تركّب من شيء أو من أشياء وصار له كيان خاص، فطالما أنت نفسك ترى نفسك مركّباً "مخلوقاً" من المادة، فكيف تركّبت؟ فهل من غير خالق تركّبت! فلم يركّبك أحد وهكذا صار لك كيان من دون خالق؟ أم ركّبت "خلقت" نفسك؟ من الواضح أنك لم تركّب نفسك، ومن المستحيل أن تتركّب هكذا بدون أي شيء ليركّبك؟ فمن خلقك؟

هل سيقول أحد ما إنّه من أمّه وأبيه صار موجوداً ومن دون التعمّق في كيفية تركّبه وأن أبويه أصلا لا يعلمان بعملية وآلية تركّبه؟ فهما قاما بالتلقيح ولا علاقة لهما قبل ذلك بخاصية التلقيح الممنوحة لهما ولا علاقة لهما بعد ما سيحصل من التلقيح...

هل بالصدفة صرت موجوداً! بسبب قوانين الطبيعة صرت موجوداً! بسبب الكمّ الهائل من احتمالات النجاح الناتج عن الكمّ المهول من التكرار للعلاقات بين المواد على مليارات السنين صرت مخلوقاً! ولك جسد وحواس وفكر وخيال ومشاعر! فهكذا من دون خالق صمّم وخلق صرت موجوداً؟

من الواضح من ناحيتنا كتفسير للآلية التي في النهاية أدّت لوجودنا، أنّ هناك مساراً إجبارياً للسماوات والأرض منذ نشأتها كان يسير باتجاه واحد حتى خرجنا نحن وصرنا، فنحن نرى الأمور من الآخر من بعدما سارت إلى أن وصلت لما نحن عليه الآن، فمن ناحيتنا لن نرى ولن نفهم مما في الدنيا إلا المسار الذي سارت عليه الأمور وصولاً إلى خروجنا إلى الحياة، وأيّ احتمالات نفترضها لمسارات أخرى، فلا معنى لها لأنها لم تحصل... وطبيعة فكرنا ترينا أن هذا المسار الإجباري حدّده أحد ما لديه قدرات هائلة للتصميم والتخطيط والتحكّم بما سيحصل، لذلك حتماً هو الإله سبحانه وتعالى ولا يوجد أي جواب آخر.

يبدو واضحاً من كلامه تعالى في قرآنه تقصده جريان الأمور بحيث نصير نحن البشر بفكر يعرّفنا على خالقنا مما فعله، لنسأل عمّن خلقنا لنتعرّف على إلهنا، فهذا ما صمّمه تعالى لنتعرّف عليه بسهولة.

الآن أطلت عليك لِنُكمل، أنا مخلوق، وخلقني الإله، فمن خلق الإله؟ فهل خلق نفسه أو انخلق من لا شيء؟ ونفس السؤال الذي طرحته الآية من كلام الإله علينا، سنطرحه على الإله، ولاحظ أن الجواب موجود في السؤال، لأنّ الخلق هو

تأليف وتركيب شيء أو أشياء لتصير كياناً، والأشياء التي لها كيان مركّب من شيء أو أشياء "فهي مخلوقة" وهي التي تحتاج لمن يركّبها "يخلقها"، أمّا الله سبحانه وتعالى فليس مركّباً وليس مؤلّفاً من أي شيء، ولا يشبهه أي شيء، لا من قريب ولا من بعيد، وحتى الملائكة(ع) العالية جداً لا تتحمّل بل لا يمكنها التعامل معه تعالى بشكل مباشر بسبب الفرق الهائل جداً جداً بينه تعالى وبينها، وحتى الملائكة(ع) يوحي لها تعالى فيتكلّم معها عبر واسطة وليس مباشرة بسبب الفرق الهائل في التكوين بينه تعالى وبينها، وهذا نراه واضحاً من الآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...}.

إذن، السؤال عنه تعالى: من خلقه؟ أصلاً غير صحيح لأنه تعالى غير مخلوق غير مركّب وليس من أي مادة أو طاقة أو... فهو تعالى مختلف كلياً عن كلّ بقية الكائنات، فالمخلوق يمكنك السؤال عمّن خلقه، فالمركّب يمكنك السؤال عمّن ركّبه، أمّا الذي لا تركيب له وفيه، وليس له ولا بأي شكل تركيب أساسي أو ثانوي، ولا ملحقات، ولا وصلات، ولا إضافات ولا أجزاء... فكيف ستسأل عمّن ركّبه؟ لذلك قاعدة: لكل سبب مسبّب، لكل علّة معلول، لكل مخلوق خالق... لا تجري عليه تعالى لأنه لا تركيب له ولا بأي شكل، فلا يوصف بأنه مخلوق.

نعم، عندما نخترع نحن جملة من فكرنا ونعتبرها صحيحة، سنقع في مشكلة مخالفة الحقيقة والواقع، حيث إنّ جملة: لكل موجود يوجد من أوجده. غير صحيحة ولم يقلها الإله سبحانه، وأصلاً لم يستعمل القرآن هكذا تعابير فلم يستعمل كلمة "موجود"... من منظوره تعالى قال في القرآن ما معناه: كل شيء غير الله تعالى فقد خلقه هو تعالى، وهو الله تعالى لم يخلقه أحد، لأنه أصلاً لا تركيب له وطبيعته واحدة لا شبيه لها... ومختصر كل هذه المعاني في الآية 11 من سورة الشورى {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.

أيضاً أطلت عليك لِتُكمل، هناك من لا ينتبه أنّ سؤالنا: كيف صار الله تعالى موجوداً؟ يتضمّن حصره تعالى في الزمن، حيث نريد أن نعلم متى بدأ وجوده وكيف بدأ ومن جعله يبدأ، هذا في العمق هو معنى السؤال عنه سبب وجوده تعالى وعن مصدر وجوده وعمّن أوجده وعمّا أوجده... ولكن من قال إنّه تعالى يجري عليه الزمن؟ فهل هو سبحانه قال ذلك؟ أو هل أنت تعرفه أكثر مما هو يعرف نفسه؟ حيث أخبرك في قرآنه أن أهل الجنّة يخلدون فيها للأبد، وتستصعب هذه الفكرة خوفاً من الملل في الجنّة في حين أنه تعالى أخبرك أيضاً أنك ولا للمحة ستشعر بالملل أو السأم في خلودك، وهذا ليس موضوعنا، وموضوعنا حول سهولة جعله تعالى الخلود للمخلوقات حتى يصير الزمن بالنسبة لهم بلا نهاية، وحول صعوبة تصوّرك أنت لذلك الخلود.

إن كان تعالى يمكنه جعل المخلوقات لا تنحصر بانتهاء للزمن، فمن البديهي أن الإله سبحانه أصلاً خارج الحدود الزمنية، فلا بداية له ولا نهاية، وأصلاً لا معنى لهذا التوصيف له تعالى إلا إذا قستها أنت المخلوق في زمن له بداية ونهاية فتقول: كان الله تعالى موجوداً قبلي، وبقي بعدي.

الآن لننتقل لأهل الجنّة، فسيقولون: كان الله تعالى موجوداً قبلي، ومن حين أعطاني الخلود لا يصحّ أن أستعمل تعبيراً يفيد أنه تعالى سيبقى بعدي.

الآن لِنَقُلْ إنّ كائناً ما لديه طبيعة خارج الزمن وحدوده، فسيقول: لم يكن الله تعالى بعدي ولا قبلي، وها أنا وهو معاً، وسنبقى كذلك. طبعاً فقط الله سبحانه هكذا، ولكن حتى تفهم أن الزمن هو سبب سؤالك عن بداية وجوده تعالى، وسبحانه بدون مقارنته مع المخلوقات أصلاً لا يجري عليه الزمن، فالسؤال أيضاً عن زمنه تعالى غير صحيح ولا ينطبق عليه تعالى.

نفس الكلام عن المكان، فسبحانه طبيعته مختلفة تماماً عن طبيعة كلّ المخلوقات فلا يمكن ولا بأي شكل وصفه بالتحيّز أو التواجد في مكان ما، ونحن نتساهل بعبارة: الله تعالى موجود في كلّ مكان. فهذا وصف له سبحانه من نظرتنا نحن.

الآن ننتقل لمن يقول بأننا نحن اخترعنا فكرة وجود إله بهذه الصفات، وصار لدينا جمل "من نتاج ديننا نحن" وهذه الجمل معانيها خاصّة بنا، وهي مغلقة تماماً بسبب تمرّسنا الطويل في الديانة حتى اخترعنا جملاً متقنة وتعاريف للكلمات والمصطلحات، وصار من الصعب الردّ على أقوالنا لأنها تراث فكري بشري جبّار لآلاف من البشر عبر

السنين، فاخترعنا إلهاً فيه صفات بأنه غير مركّب من أي شيء، فصار خارج حدود الزمان والمكان ولم يعد بإمكانك أن تسأل من أين أتى الإله، فأغلقت على الآخرين أي تعليق منطقي بسبب التمرّس عبر السنين على اختراع أفكار "دينية" مقنعة.

نعم، الدين الذي نطرحه نحن من فهمنا لكلامه تعالى، فيه ما يتّهموننا به، ففي كتبنا كلام جدلي استذواقي عن أمور ننسبها له تعالى في أمور العقيدة والشريعة والسلوكيات، وهذا واضح جداً من الاختلافات بيننا نحن المسلمين في أمّهات أو تفاصيل في العقيدة والشريعة، ومن اختلافنا مع الآخرين من أهل الكتاب ومن اختلافهم بين بعضهم.

لكن القرآن كلامه تعالى، وليس كلام المتدينين، وأنت تعرف تاريخ وظروف تأليف القرآن، فلا ولا بأي شكل يمكن القول عنه بأنه كتاب من مجهود بشري لتراكم خبرات دينية لسنين طويلة تكاتفت فيها جهود العديد من المفكّرين، فهو كتاب قاله رجل عادي أمّي كان فقيراً راعياً للماشية في شبابه... ومن الواضح جداً جداً أنه من تأليف الإله عزّ وجلّ...

ها أنت وما حولك من بيئة، فلا تهرب وتتعذّر من السؤال: فهل انخلقت من غير شيء أم خلقت نفسك؟ هناك حتماً من خلقك، فلا "تتفلسف"، فأنت لن تقبل أن تجادلك نملة لأن فكرها لا يساوي فكرك العظيم، وانتبه أنك أصغر من نملة بالنسبة للإله ذي القدرات الفائقة، فالزم حجمك واعرف قدرك أمام الذي خلقك، ويمكنك الاستمرار في كلامك الفارغ ورمي الكلام الفارغ عن الرسول والقرآن، وعن الإله سبحانه، ويمكنك الخوض واللّعب، كما نجد في كتب القوميين والبعثيين والمتحررين والوجوديين والعلمانيين والشيوعيين والمثقفين والمفكرين والملحدين... فكلهم خاضوا في الدين لعباً، ولكن ماذا ستفعل في النهاية حين تفتح عينيك وترى الآخرة والعقاب للمكذبين؟ فهناك سيعيدون لك كلامك الذي "تفلسفت" به، وسيسخرون منك، ولن يرحموك بتاتاً أبداً...

بهذا الكلام أقصد بالضبط من قصده القرآن من تخويفك، ومن أن خوضك لعباً لن يغيّر من مستقبلك في الآخرة التي ستحصل حتماً، وقبل ذلك وكما تكلّم معنا سبحانه، فالعقاب ليس على رفضك الانضمام لجماعة، بل سيكون على الكفر بالحقّ وفعل السيئات.

بالرغم أن السؤال هنا محصور فيما يمكن أن نراه موجّهاً لمن ينكر وجود الإله الخالق "الملحد بتعبيرنا الدارج"، أو هو لفت انتباه حتى لمن يؤمن بالإله الخالق ولكنه منكر لقرآنه ودينه تعالى... فالتوقّف هنا في هذه النقطة بالسؤال عمّن خلقنا، وإكمال البحث فيه شيء، وسبب إنكار بعض البشر للإله الواحد الخالق شيء آخر له تفرعيات ذكرها القرآن مراراً ومن زوايا متنوعة متعددة لترى الخلفيات الفكرية والنفسية السيئة الدافعة ببعض الناس للكفر به تعالى.

سبحانه فصل أحياناً ودمج أحياناً أخرى بين إنكاره من الأساس وبين إنكار توحيده لافتاً انتباهنا للأدلة على المعلومات الصحيحة التي يقبلها العقل السليم، وعلى رأسها آياته في خلق السماوات والأرض... وبين أسباب إنكاره تعالى من حبّ الدنيا وتزيّنها بسوئها عند الرافضين إعلان الإيمان حتى لا ينتهوا عن السوء الذي لا يرغبون بتركه.

(أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ{36})
{أَمْ خَلَقُوا}، هل هم ركّبوا وألّفوا، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}؟ وتعبير السماوات والأرض القرآني يشابه قولنا: كل شيء "طبعا ما عداه تعالى"، حيث من نظرته تعالى لدنيا المخلوقات فهي محصورة في السماوات والأرض، فهل هم ركّبوها من المادة، من الطاقة، من ...؟ أم انخلقت فتركّبت لوحدها؟

{بَل لَّا يُوقِنُونَ}، إذ ليس لديهم اعتقاد صحيح مطابق للحقّ والواقع.

نتذكّر من القرآن أنه تعالى يصف الأمور من وجهة نظره هو تعالى لأنه الأعلم، حيث إنّ الحقيقة والعلم الأكيد، واليقين، أنه هو تعالى خلق السماوات والأرض، وهذا ما يطابق الواقع، وأي قول آخر غير هذا فهو غير صحيح، ونتذكّر أنه تعالى يصف بعض الناس بأنهم لا يعقلون، لا يبصرون، لا يسمعون، لا يفقهون... كالأنعام... وربما يكونون من حملة شهادات الدكتوراه ومن المكتشفين ومن المخترعين ومن المبدعين في مجالات العلوم... ولكن طالما يوجد أمامهم حقيقة واضحة جدا، وهم ينكرونها ويرفضون الإيمان بهذا الدين بعقيدته الحقّة وشريعته وسلوكياته الصالحة، فما يوقنون به من علوم واختراعات وأبحاث... فلا قيمة له أمام إنكارهم لحقيقة واضحة جدا وهي: هذه السماوات الهائلة، وهذه

الأرض بتفاصيلها وتنوّع ظواهرها بشكل هائل، هل هم خلقوها؟ لأنهم عندما يرون بيتا أو سيارة أو هاتفا أو نقشا على حجر... يقولون فورا: آثار إنسان. صنعها إنسان. وليس لديهم أي احتمال ولو واحد من تريليون أن يكون ما يرونه تَرَكَّبَ لوحده أو بالصدفة أو... فهل هذه السماوات الهائلة الضخامة والتفاصيل، وهذه الأرض بتركيبتها من رملها وترابها وحجرها وغازها... تضاريسها، ألوانها... نباتها، حيوانها... ليلها، نهارها... هكذا لوحدها تركّبت أم هم ركّبوها؟

لاحظ الآية توجّه الكلام لشخص يرى نفسه المفكّر، المخترع، المكتشف، المركّب، العاقل الأكبر... بين بقية الكائنات من حوله، فإن لم يكن هو من خلق السماوات والأرض فمن خلقها؟ حتماً يوجد خالق لها، ومما نراه نعرف العديد من صفات الخالق، حيث منح الحياة فهو حتماً حيٌّ، وحتماً قيّومٌ، وحتماً قويٌّ عليمٌ حكيمٌ... وعرّفنا باسمه وبقية صفاته التي يمكننا فهمها... وعرّفنا مخططه لنا عبر رسله، وما معنى سخافة رفض الإيمان به وتكذيب رسله! وما معنى رفض الشريعة والسلوكيات الصالحة التي يأمرنا بالالتزام بها؟

كما ترى فإنّ الآية سؤال للمكذبين وهم لن يجدوا له جواباً آخرَ غير اعترافهم به تعالى وبرسله وبدينه، ولكنهم يخوضون ليلعبوا لذلك لا يهمّهم السؤال ولا الجواب عنه!

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائماً أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}... وهي إشارة إلى وجود سبع أَرَضِينَ مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أَرَاضٍ "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أَرَاضٍ.

عادةً نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير ونستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، ونقول: خلق سبحانه الدنيا. أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيراً صحيحاً دقيقاً بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ}. إذ سبحانه دقيق في تعابيره ويحدّثنا بدقّة عمّا يعلمه، وكلامه تعالى عن السماوات والأرض هو كلام عن علم بما أمامه سبحانه، وهو سبحانه دائماً يتكلم بشفافية عمّا أمامه فقط، أمّا الكلام عن كلّ ما في الدنيا، فهو كلام عمومي ويشمل "نظرياً" ما هو خارج العلم، ولذلك لم يستعمله تعالى، بينما ترى استعماله في كلام عموم البشر لأننا نتساهل ونتراخى في التعبير.

(أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ{37})
{أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ}؟ في لغة الناس نَصِفُ الأشياء أنها تخرج من خزانة، كانت في "مكان أو حالة أو... " ونخرجها منه، فهل ما ترونه من حولكم خرج من خزائنكم أم خرج من خزائن المسؤول عنكم من مستوى إلهي؟ فحتما أنتم وما حولكم خرجتم من شيء ما، فإن لم يكن من خزائنكم، وكان من خزائن ربنا سبحانه، فهل أنتم تصدرون القرار بخروج كل شيء من تلك الخزائن؟ فأنتم بشر معلومة قدراتكم ومعلومة خزائنكم، ومن البديهي أنكم مع بقية المخلوقات والبيئة والظواهر من مطر وريح... لم تخرجوا من خزائنكم، فليست من تصميمكم ولا من فطركم أو بدعكم لها، وطالما أنتم رافضون للإيمان بربكم كخالق لكم، عندها يبقى احتمال واحد، وهو أنّ لكم سيطرة ما على الخزائن التي صارت منها الأشياء، ومنها خلقتم أنفسكم والآخرين، والواقع أنها خزائنه تعالى، يحوّل سبحانه السؤال عن خزائنه، لأنّها منها خرجت الأشياء، فهل عندكم ملككم وتحت سيطرتكم خزائنه تعالى وأخرجتم منها أنفسكم وبقية ما في السماوات والأرض؟

{أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ}، هل هم يقرّرون وينفّذون ما يريدون؟ والسماء زرقاء، والغيوم تمطر، والنبات يبذر، والحيوان يلد ويبيض... وهم وجدوا كلّ شيء حولهم هكذا بهذا الشكل، فهل لهم أي دخل به؟ وهل لهم أي سيطرة على إيجادها بهذا الشكل والأثر؟ لا، بل لا سيطرة لهم على الإطلاق فيما وجدوه من حولهم، وهم وبما أتاحه تعالى لهم تمكّنوا من القيام ببعض التغييرات الطفيفة على أنفسهم وعلى البيئة من حولهم.

حتى لو تمكنّا نحن البشر من إجراء تغييرات على مستوى المجرات، وحصدنا طاقاتها وموادّها أو دمرناها... لكننا نحن سنبقى نحن كمركبات لها أوصاف لا تتبدّل، ويمكن أن تتحسّن، ويمكن أن تسوء، ويمكن أن نلغي إحداها، ونقلع عيوننا ونستعمل الاستشعار المباشر عبر الآلات من الدماغ... ويمكن ويمكن، ولكن ليس لنا أي سيطرة من مستوى إلهي على أنفسنا وعلى البيئة من حولنا، فلن نتمكّن من تغيير طبيعتنا لنصير من نار مثل الجنّ، أو من الطاقة بلا مادّة صلبة، أو خالدين لا نموت، لأننا بمجرد طحن جسدنا سينتهي كياننا، ولو فرضنا أننا نقلنا فكرنا وذاكرتنا إلى كومبيوتر، فتدمير جهاز الكومبيوتر سيدمرنا، بل قطع الكهرباء عنه سينهينا... فنحن نسيطر على بعض الأمور، ولكنها سيطرة تافهة مثل سيطرة نملة على حفر الرمل وشقّها لحبّة القمح حتى لا تنمو في قريتها... وهل تقاس سيطرتنا بسيطرته تعالى علينا وعلى كلّ ما حولنا؟ لا.

بالنسبة لتعبير "خزائن الله تعالى" فهي الأشياء التي يمكن خلقها ولم يخلقها بعد ربنا سبحانه، أو الموجودة ولكنها بحاجة لأمر إلهي لتصير معنا، ويعبّر عنها القرآن بأنّها في الخزائن. فالله سبحانه ليس عنده خزائن من حديد أو غرف أو مستودعات، بل قدرته سبحانه على فعل أي شيء يريده هي الخزائن بالنسبة له تعالى، فأنا أسحب الماء من خزان المياه، وأسحب الطعام من خزانة الطعام، وأسحب المال من الخزنة الحديدية... أما ربنا سبحانه يأمر فتسير آليات التنفيذ ليحصل ما أمر به تعالى، وفي الحالات العادية صمّم سبحانه السماوات والأرض لتصل إلى حيث ستنشأ الأرض ويصير عليها ظاهرة المطر، وهكذا تفهم الحالة العادية لأمره تعالى بنزول المطر حيث تجري آليات ذلك من تبخّر وريح وفرق حرارة وضغط... فتمطر بالماء... وأمر تعالى أن تخرج المخلوقات إلى الحياة فمشى تصميمه سبحانه للسماوات والأرض عبر مراحل وآليات وصولا إلى نشأة الحياة على الأرض... ويأمر سبحانه الملائكة(ع) بمحو سيئاتي فتمحوها...

عادةً نربط خزائنه سبحانه برحمته، فمن رحمته حصلنا على أشياء من خزائنه، ومن رحمته خلقنا ومن رحمته أمطرت ومن رحمته غفر لنا... فعمليا خزائنه هي أوامره سبحانه وتعالى.

بعبارة أخرى سبحانه وتعالى يأمر فتحصل الأشياء، ولا يوجد علب أو صناديق أو غرف تخرج منها الأشياء، فخزائنه عمليا هي أوامره سبحانه وتعالى، وبما أنها جاهزة لتصير بعد صدور الأمر الإلهي، مثلما الأشياء في الخزائن جاهزة لإخراجها، لذلك وصّف تعالى ما يمكن خلقه وإتاحته بأنه في الخزائن.

بقي شيء، في المصاحف المرسومة بما يسمّى بالرسم العثماني، كتبوا كلمة "مصيطرون" بالصاد، هنا وفي الآية 22 من سورة الغاشية {لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ}، ولم ترد هذه الكلمة في القرآن إلا في هاتين الآيتين، علما أن علماء اللغة العربية فيما بعد جعلوها بالسين "مسيطرون"، وواضح لك سبب كتابة الجيل الأول من المسلمين لهذه الكلمة بالصاد حين دوّنوا القرآن، فهم كتبوها بحسب ما يلفظونها، والقليل منّا يلفظ حرف السين بشكل واضح في هذه الكلمة، ومثلها لفظ الغالبية لكلمة مسطور في الآية الثانية من هذه السورة {وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ} وفي غيرها من الكلمات... حيث الغالبية الساحقة تلفظها صاد، وكذلك كان حال النبي(ع) ومن حوله بلفظهم لهذه الكلمة، فكتبوها بالصاد مثلما يلفظونها، وهذا الأمر لا يختلف عن لفظنا لكلمة "اصطدم" التي نلفظها عادة "اصطضم"، وهذه حالة عادية لدمج وتغيير التلفّظ بالأحرف المتقاربة في مخارجها من الفم... ومن حيث المبدأ هذا لا يختلف عن إدغام الكلمات، فيختفي آخر حرف من الكلمة لأنه مدمج في أول حرف من الكلمة التي بعده، وكمثال عن ذلك الآية 158 من سورة النساء {بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ...} فنقرأها "برّفعه..." فهكذا نحن نتكلّم.

إذا أحببت تسمية رسم الصاد بدلا من السين في كلمة مسيطرون بأنه خطأ إملائي في كتابة القرآن، فليس هناك أي مشكلة، لأنه خطأ بالنسبة للقواعد اللغوية للكتابة "الرسم الكلمات" التي أنت الآن استنسبتها وتوافقت عليها مع الآخرين، وقبلك بقليل كان هناك قواعد رسم أخرى، وقبلهم قواعد أخرى... وبعدك ستأتي قواعد أخرى، فقديما كتبوا اسم الإشارة

مع الألف "هاذا"، ولا نزال إلى الآن نختلف في رسم الكلمات "رؤس، رؤوس..." ولكننا كلنا نلفظها بشكل صحيح. وهكذا النصّ القرآني، فكتابته هي مجرد رسم لكلماته لنعرف كيف نقرؤها، ولا يهمّ كيفية رسمها بأي حرف وبأي طريقة طالما نتمكّن من لفظها بشكل صحيح لنحصل على معناها، وأصلا لم ينزل القرآن مكتوبا بل ملفوظا، وتوارثه الناس ملفوظا، واستعانوا برسم كلماته حتى يتذكّروا جمله...

لا تنسَ أن كتّاب هذه الكلمة هم عرب، واستنسبوا كتابتها هكذا، فالحالة مثلما لو سمعتهم يقولونها بلفظها بالصاد، فهل ستقول بأنهم حرّفوا القرآن بلفظها بالصاد؟ لا، لأنهم عرب وهم هكذا يلفظون الكلمة، والرسول(ع) لفظها هكذا. والشيء نفسه لمسألة رسمها بالصاد، فهم عرب، وهكذا استنسبوا رسمها بما وجدوه كأقرب طريقة للفظها، وبما هو متاح لهم من أدوات علمية رسموها.

بالنسبة للفرق بين رسمنا "كتابتنا" نحن الآن للكلمات "الإملاء"، وبين كتابة القرآن المنتشر بين الناس وهو مكتوب على الرسم المنسوب للمصاحف التي عمّمها الخليفة عثمان بن عفان لينسخ عنه الناس، مع أن تلك الرسمات تبدّلت قليلا عبر التاريخ، فتلك الكتابة مجرد رسم للكلمات بحسب ما وجدوه مناسبا في حينها بحسب معلوماتهم اللغوية القليلة في الكتابة، وبحسب ما استنسبوه كأقرب رسم مساعد على اللفظ، ولم يكن هناك أي مشكلة لأن المسلمين توارثوا القرآن لفظا من فم لأذن واستعانوا بالمكتوب لتذكّر الكلمات، وبقي الحال هكذا "مع بعض الشواذ النادرة جدا جدا" حتى استهتر بعض الناس وقرأوا القرآن بشكل يخالف قراءة جمهور المسلمين على أساس أنهم أعلم من بقية الناس الجهلة! وعلى أساس أنّ قراءتهم أصحّ! وأنّها تناسب المعنى! ولغوياً أنسب! وقام الناس بتدوين تلك القراءات الشاذّة والترويج لها عبر تبريرها لغويا ونسبتها للرسول(ع)! وأضافوا لتلك القراءات ما قرأه بعضهم من الأجيال الأولى من المسلمين سهوا أو نسيانا أو بالخطأ غلطا... حتى علق في الذهن أن تلك القراءات صحيحة وصادرة عن الرسول(ع)! ولا مشكلة بالتلاوة بها! علما أنه كلام فارغ غير صحيح بتاتا، والصحيح أن جمهور المسلمين كان يتوارث قراءة واحدة عن الرسول(ع) وأخطأ القليلون جدا في نقلها وبقيت الغالبية على الصواب، وقصد البعض عن عمد القراءة على مزاجهم بحسب ما يرونه أصحّ لغويا أو بما يناسب ما فهموه من معنى... وهؤلاء حسابهم عند ربّهم سبحانه، وحساب من برّر لهم ونقل قراءتهم وأثبتها في الكتب وأجاز القراءة بها، فأيضا حسابهم على ربّهم سبحانه فهو أعلم بنواياهم.

أمّا جمهور المسلمين من عهد الرسول(ع) فكان على القراءة توارثا منه (ع)، وبعدما صار هناك متخصصون في تعليم الآخرين تفسير وقراءة القرآن، بدأ التهاون والاستهتار والمآرب الأخرى السيئة... تظهر، فبدأ هذا بقراءة على مزاجه وذاك على ما يراه مناسبا للمعنى، والآخر على ما يراه مناسبا للقواعد اللغوية، وغيره لم يكن قادرا على مجاراة لهجة قريش فقرأ بلهجته... وهكذا بدأ الهرج إلى أن تنطّح المثقفون لتثبيت تلك القراءات وإعطائها صفة الشرعية!

الخلاصة، مع تقدّم الزمن صار هناك قراءات شواذ يقابلها قراءة الجمهور الغالب الأعم للمسلمين من القادرين على تقليد لهجة قريش بنطق الكلمات، والملتزمين بما وصلهم ممن سبقهم من الرسول (ع)، وللأسف صنّفوا كتبا عن القراءات جاعلين قراءة حفص عن عاصم كواحدة من القراءات المماثلة في القيمة للقراءات الأخرى، علما أن قراءة حفص تمثّل قراءة جمهور المسلمين "القادرين على تقليد لهجة قريش والملتزمين بما وصلهم بالحرف عن الرسول (ع)"، وقراءات الآخرين شواذ غير مقبولة ولا قيمة لها، ويجب التعامل معها على هذا الأساس.

(أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ{38})
{أَمْ لَهُمْ}، هل للمكذبين بهذا الدين، {سُلَّمٌ}، شيء يستعملونه للصعود، {يَسْتَمِعُونَ فِيهِ}، وتقصد الآية التحدّث عن وجود "مكان، سماء، عالم... " أعلى من عالم الناس، وفي ذلك العالم يوجد معلومات يتم تداولها، ونفهم من عموم القرآن أنها السماء التي فيها الملائكة العالية(ع) حيث تصدر لتلك الملائكة(ع) أولى الأوامر الإلهية، وهم يقومون بتنفيذها أو نقلها لملائكة(ع) أقل منهم في القدرات، ونتذكّر ما نقله القرآن لنا عن الجنّ أنهم كانوا في فترة ما يستطيعون الاقتراب من سماء الملائكة العالية، وكانوا يختلسون السمع مما يجري هناك عن أمور ستقوم بها الملائكة(ع)... كما نقرأ في الآية التاسعة من سورة الجنّ {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا}.

تبيّن من الآيات السابقة حتمية وجود إله خالق مدبّر لشؤون السماوات والأرض، وهنا تسأل الآية: هل لهؤلاء المكذبين طريقة للصعود إلى السماء التي تصدر فيها القرارات الإلهية ليعلموا ماذا يحدث هناك؟

إن كان لديهم وسيلة للحصول على المعلومات من هناك، {فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم}، الشخص الذي استطاع الوصول إلى تلك السماء وسماع ما يجري فيها، ليأتِ، {بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ}، بكلام قاهر قوي في صحتّه بشكل مبين بشكل واضح أنّ صحّته قوية جدا.

يعني، هذا الرسول محمّد(ع) الناقل لهذا القرآن، ينقله لكم عبر وصول معلومات إليه من السماء العالية، ينقله لكم من مصدر القرار في السماوات والأرض، فهل لديكم طريقة للوصول إلى تلك المنطقة للإتيان بمعلومات تثبت عن نفسها أنها صحيحة؟

ننتبه جيدا، حيث يعتبر القرآن أن الكلام المنقول من تلك السماء سيكون صحيحا حتما، وسيكون الكلام صحيحا بشكل واضح "بيّن" لدرجة أنه لا يمكن القول عنه بأنه غير صحيح، مثلما أنظر أنا وأنت إلى السماء، وتقول لي: السماء زرقاء. ولن نتجادل حول هذا الكلام، وكذلك الكلام الآتي من تلك السماء، فهذا هو واقع الحال الذي منه جاء كلام الآيات السابقة أيضا، وواقع الحال أننا مخلوقون، وواقع الحال أننا لم نخلق السماوات والأرض، وواقع الحال أن الأمور تخرج من خزائنه تعالى، وواقع الحال أنه في سماء عالية معلومات عن الدنيا والآخرة.

هنا الآية تقول لهم: لو أتيتم بكلام من تلك السماء فسيكون قوي الصحّة ويدل على أنه من هناك، فهل أتيتم بكلام من هناك يخالف أو يعارض أو لا يتوافق مع الكلام الذي ينقله لكم الرسول محمّد(ع) عبر هذا القرآن؟ لو أتيتم بكلام من هناك مخالف للقرآن لكان معكم حقّ بالكفر بما يقوله الرسول(ع) على أساس أنه صار لديكم اتصال بمصدر الأوامر الإلهية وعلمتم أنها متعارضة مع ما يقوله (ع).

يمكن رؤية ما تطرحه الآية هنا والتي سبقتها السائلة عن الخزائن، أنه كلام من نظرة لواقع الحال، فالمخلوقات من خزائن ربّها، والمعلومات الصحيحة عن كل شيء لها مصدر من السماء العالية حيث الكتاب الرئيسي والملائكة التي تنفّذ ما فيه... والحال هكذا، ومنه جاءت هذه الأسئلة.

لو كان محمّد(ع) مؤلّفاً لهذا القرآن، فهل عبقريته فائقة لهذه الدرجة بحيث دائما يردّ على الآخرين من منظور إلهي للأمور؟ ضع هذا في بالك وسترى أنك أنت في الكثير من الأحيان سيخطر ببالك ردّ مختلف عمّا ردّ به القرآن على الكافرين به، حيث إنّك سترد من وجهة نظرك، بينما القرآن يردّ من وجهة نظر الإله سبحانه، وخذ مثالا عن ذلك الآية 101 من سورة النحل {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} وراجع دراستها.

نرجع للآية هنا، والجواب واضح: لا هم لديهم سلم، ولا أتوا بكلام من هناك.

بالنظر لعموم مفاهيم القرآن المشابهة للآيات هنا وما ورد في الآية 37 من سورة القلم {أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ}، وغيرها في العديد من الآيات، تجد سؤالا عن برهان وأدلّة لكفر من كفر بهذا القرآن، فنحن أمام كتاب يقول عن نفسه إنّه من تأليف الإله سبحانه، وبعد الأدلّة التي تبرهن أن إلهاً صمّم وخلق السماوات والأرض، تأتي الأسئلة للكفّار عن الإله الذي ظلّ ساكتا ولم ينزل من عنده كتاب ولم يأت من عنده رسول، في مقابل الإله الذي نزّل هذا القرآن، فإن لم يكن بين أيديكم كتاب من مصدر إلهي متعارض مع ما يقوله هذا القرآن، على أي أساس تقولون إنه ليس إلهيا!؟

طبعاً هذا السؤال القرآني يأتي عادة بعد لفت انتباهنا للآيات الدالة عليه تعالى، ومنها الحجج الفكرية من ملاحظة الخلق والتي وردت منذ قليل بسؤالهم عمّن خلقهم... وبعد البراهين الدالة على أن هذا القرآن ليس من تأليف محمّد(ع) ولا غيره من المخلوقات...

(أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ{39})
أم له تعالى البنات، الإناث، ولكم، أنتم أيها المكذبون بالدين، البنون، الذكور؟

هذه الجملة تبيّن مدى سخافة هذه النوعية من الناس، وأنهم يخوضون في الدين لعباً، حيث إنّ بعض المكذبين لهذا الدين قالوا إنّ الإله عزّ وجلّ عنده بنات أرباب "آلهة" وآخرون قالوا بناته تعالى ملائكة أو جنّ أو أرواح... وكما ترى وبكل سهولة أنها سخافة ما بعدها سخافة، فمن بين من قال هذه الأقوال يوجد أناس يحبّون أن يكون لديهم أولاد ذكور ويكرهون أن يكون لهم بنات، فهل معهم حقّ بكره البنات؟ فإن كان معهم حقّ لأن البنات يستحققن الكره وليس لهنّ قيمة "وهذا غير صحيح" فلماذا قالوا عنه تعالى أن عنده بنات؟ فلماذا لم يخلق لنفسه أولاداً من الصبيان؟ وكما ترى هم سخفاء لدرجة واضحة جدا.

قبل تعليقاتهم على الدين المنقول لهم عبر الرسول محمّد (ع)، فليراجعوا ما يقوله البعض منهم عن بنات له تعالى ليروا سخافتهم.

تذكّر دائماً أنّ بعض آيات القرآن موجّهة لأشخاص محدّدين من المشركين، وبعضها موجّه لعموم المشركين، وهنا وكما تعلم فإن بعض المكذبين لهذا الدين القرآني قالوا إنّه تعالى لديه بنات، والآية تتحدث معهم وتلفت انتباههم لسخافتهم، وأيضاً تتحدّث مع بقية المكذبين لهذا الدين لتريهم بكل وضوح سخافة المكذبين الآخرين حتى ينتبهوا هم لسخافاتهم التي لا تقل عن سخافة الناسبين له تعالى البنات.

(أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ{40})
أم تسألهم أجراً، هل تعبّر لهم أيها النبي (ع) عن إرادتك للحصول على أجر، على شيء محدّد تستحقّه منهم لأنك تقوم بوظيفة الرسول الإلهي، هل طلبت منهم أجراً مالياً كبدل لتبليغك كلامه تعالى؟ وهم من مغرم، من هذا المطلوب منهم ولا يمكنهم التخلّص منه، من هذا المفروض عليهم دفعه لك، مثقلون، يصيرون تحت ثقل تحت عبء خسارة مالية كبيرة لدفع أجرك.

بعبارة أبسط، هل رفضوا الإسلام بدينك لأنك طلبت منهم أجراً كبيراً كبدل أتعابك عن تبليغهم الرسالة الإلهية؟

الجواب: لم يسألهم النبي محمّد(ع) أن يعطوه أي مبلغ مالي خاص له، لا قليل ولا كثير، والجميع يعلم ذلك، والآية تسخر منهم سائلة إن طلب منهم محمّد(ع) مبلغاً ضخماً له كأجر ولأجل ذلك لم يؤمنوا به.

بالنسبة لعموم الصدقة وخصوص الزكاة التي فرضها الدين فهي أولاً ليست للنبي محمّد(ع) ومعلوم مصرفها من العديد من الآيات ومنها الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}، فالنبي(ع) لا يحق له قبول الصدقات لنفسه، وما يأخذه النبي(ع) كمعاش شهري من بيت المال كان مساوٍ لما يأخذه بقية المسلمين المتفرغين للأعمال العامّة، وما كان (ع) يأخذه من أجر شهري من بيت المال كان بالكاد يكفيه لمصاريف حياته، وترى ذلك جلياً في حادثة الخليفة أبي بكر الذي بعد وفاة الرسول(ع) تفرّغ لإدارة شؤون المسلمين وتقاضى نفس الراتب الذي كان يتقاضاه الرسول(ع) ولم يكن كافياً له، ومن المعلوم أن خلافته قاربت السنتين من بعد وفاة الرسول(ع) فلم تكن مدّة طويلة لنفترض حصول تضخّم مالي خلالها... وأشار عمر بن الخطاب على أبي بكر أن يزيدها قليلاً، وفي البداية رفض، ولكن وبعد إصرار الصحابة وافق وزادها قليلاً...

إذن لو فرضنا أنّ من ينقل لكم الكلام الإلهي طلب منكم مبالغ مالية ضخمة لتدفعوها له، لكنّا قلنا إنّه نفّركم من الدين وكرّهكم به لأنه ضايقكم أو أفلسكم وفرض عليكم أجراً مالياً لا طاقة لكم به، ولكن هذا لم يحصل، وبالتالي لا يمكنكم اتّهام محمّد بأنه اخترع الدين ليستفيد منه شخصياً، فما معنى شكوكم أو كفركم بمحمّد كرسول إلهي؟!

تتذكّر أنّ كلمة سأل معناها الأساسي: التعبير لآخر عن إرادتك للحصول على شيء ما، معلومة، جواب، مساعدة مال... وكما ترى فهي تقريباً ترادف استعمالنا الحالي لكلمة "طلب"، وهنا ترى كلمة "تسألهم" ترادف تماماً "تطلب منهم" لأن المعنى هو التعبير عن إرادته(ع) للحصول على أجر. وتتذكّر أنّ القرآن لم يستعمل كلمة طلب.

(أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ{41})

{أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ}، هل المكذّبون لهذا الدين لديهم علم بما غاب عنهم في الماضي والحاضر والمستقبل، {فَهُمْ يَكْتُبُونَ}، يثبتون تلك المعلومات برسمها على الورق أو الجلود أو نقشها على الحجر...؟ وهذا السؤال ينطلق من تشبيه الحالة التي تحصل فعلا، فسبحانه يعلم الغيب، وسجّل بعضه في كتاب، وبأمر وتحديد منه تعالى تطّلع الملائكة (ع) على الكتاب لتنفيذ ما فيه، ومن ذلك الكتاب نزل القرآن ومن قبله التوراة... فهل لديكم قدرة الاطلاع على الغيب شخصيا أو من مصدر يعلم الغيب وتقومون بكتابة تلك المعلومات ليتناقلها الناس؟ وتلك المعلومات الغيبية تتعارض أو تنفي ما يقوله القرآن؟

الغيب هو كلّ ما غاب عنك ولم تشهده ولم تعرف به، سواء أكان شيئا حصل في الماضي وكنت غائبا عنه، أو يحصل في الحاضر ولكنك لا تشهده ولا تطاله حواسّك، أو سيحصل في المستقبل، وهذا القرآن يخبرك عن إله واحد صمّمنا "التعبير القرآني: سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا، وبعد الموت سيبعثنا ويحاسبنا ويجازينا، وهذا هو لبّ ما يكذّبون به، وهذا من الغيب، فهل لديهم اطّلاع على ما غاب في الماضي ليخبرونا كيف خُلِقوا ومن خلقهم ولماذا... وهل لديهم اطلاع على المستقبل ليخبرونا أنه لا يوجد آخرة وحساب...؟

الجواب واضح، لأنهم لا يعلمون إلا ما يرونه أمامهم أو يخبرهم به غيرهم، وليس لديهم القدرة على معرفة الغيب، فلنفترض أنهم علموا بالمستقبل ورأوا أن ما يقوله القرآن عن الآخرة لن يحدث، عندها لفهمنا معنى كفرهم بالقرآن استنادا لمعرفتهم بالغيب... ولكن طالما لا علم لهم بالغيب فعلى أي أساس ينكرون ما يقوله القرآن عن الإله سبحانه وعن الآخرة والعقاب والثواب؟

هذا المعنى تكرّر في القرآن بعبارات مختلفة منها ما ورد في الآية 66 من سورة النمل {بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ}... حيث كانت الآية تتحدّث مع المنكرين للبعث وتسخر منهم وتسألهم إن كان علمهم يصل مداه إلى الآخرة حتى أنكروا حصولها، لأنهم لا يعلمون ماذا سيحدث غدا فكيف ينكرون ما سيحدث في الآخرة؟!

(أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ{42})
{أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا}، هل رغبتهم ومقصدهم أن تكون أعمالهم وأقوالهم فقط مضادة للضرر بالدين الإلهي ولا هدف آخر لديهم من ذلك؟ وهذا هو معنى كلمةِ كيدٍ، لأنهم لا يقصدون الانتفاع من معارضة دينه تعالى، وكما ترى، أساسا وفي الحقيقة، هم لن يستفيدوا ولا بأي شكل من معارضة دينه تعالى، بل هم فقط يريدون الضرر بدينه تعالى، بالعاميّة نقول: فقط جكارة. فيكفرون ويخوضون لعبا قاصدين الضرر في شيء فيه مصلحة لهم لو آمنوا به، ولا منفعة لهم من الكفر به؟

{فَالَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا هذا الدين، {هُمُ الْمَكِيدُونَ}، هم الواقعون في الضرر الذي قصدوه بدينه تعالى.

بعبارة أبسط، إيمانهم بدينه تعالى سيسبّب لهم السعادة في الدنيا والآخرة، ولكنهم كفروا وقصدوا الضرر بدينه تعالى، ولا منفعة لهم من ذلك، وهذا معنى كلمة كيد، فبدل أن يصيب الضرر دينه تعالى، سيقع كيدهم عليهم، حيث سيتضررون من كفرهم هنا في الدنيا بحياة تعيسة على الناس بسبب الظلم والفساد والحروب... وفي الآخرة بالنار.

(أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ{43})
{أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ}؟ بعدما تبين من الأسئلة السابقة حتمية وجود إله مصمّم مخطّط خالق متابع... وجاء رسول منه تعالى يؤكّد لنا أن الإله اسمه "الله" بالتحديد بهذا الاسم، فهل للمكذبين بهذا الدين إله غير صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز "الله" عزّ وجلّ؟ فمن هو؟

{سُبْحَانَ اللَّهِ}، تنزّه صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {عَمَّا}، عن الذي، {يُشْرِكُونَ}، قالوا بأنه يوجد له تعالى شركاء في الألوهية، وهو تعالى منزّه عن وجود شركاء له.

خذ مثلا ملكا فارضاً سلطته على كلّ الأرض، فإن قلت إنّه يوجد معه ملك آخر، فأنت تقلل من قيمته، وتقلّل من انتشار سلطته، وتقلّل من نفوذه، وتقلّل من قوّته... حيث تقول إنّه يوجد أمور لا علاقة للملك بها، وأمرها ليس بيده فهي تابعة للملك الآخر، ربما لأن قوة سيطرته ضعيفة، وربما لأن قدراته أقل من اللازم لإدارة الأرض...

الله سبحانه وتعالى حين يقولون إنّه ليس إلههم، أو يوجد غيره آلهة، فهذا تنقيص وقلّة قيمة له تعالى، وهو منزّه عن وجود شركاء له في الألوهية، لأنّ صفة الألوهية أصلا لا تتحمّل وجود إلهين، وبالتساهل في العبارات نقول: لو أي نقطة في الوجود كانت تابعة وتحت سيطرة غير الله تعالى فهذا يعني أن ملك الله تعالى ناقص وغير واسع ولا محيط ولا منتشر... وربما شخص ما لا يعتبر تلك النقطة الواحدة في الدنيا التابعة لغيره تعالى، ولا يعتبرها عيبا أو نقصا في صفاته تعالى، ولكنها تعني أن الله تعالى عاجز عن فرض سيطرته على تلك النقطة لأنها تابعة لإله آخر، وهذا غير صحيح، ولم يحصل، ولن يحصل، فلو حصل فهذا يعني أن الله تعالى ليس إلها فائق الصفات والقدرات، إذ في تلك النقطة عجز عن السيطرة عليها... وهكذا يريدك القرآن أن تفهم أن الله تعالى هو الإله الحقيقي الأحد، وصفة الإله لا تنطبق إلا على الله تعالى، ولا تتحمّل تلك الصفة أي نقص فيها، والقول بوجود آلهة أخرى أو نصف آلهة أو ربع آلهة، أو القول بأن أحدا ما من المخلوقات بنفحة إلهية... فهو كلام فارغ من أوهام المكذبين.

نتذكّر دائما أن الله تعالى الإله يعلم بصفاته أكثر منّا، وعبر القرآن قال تعالى لنا كلاما كثيرا عن تلاعب الناس بمعنى كلمة إله حتى خرجت عن معناها الحقيقي. وبشكل أبسط، أنت إنسان، وتعلم الكثير عن صفاتك الإنسانية من شكل جسدك ومواصفاته وفكرك... وقدراتك... فإذا سمعت كائنا آخر يتحدّث عن صفاتك الإنسانية، فستدرك فورا إن أصاب أو أخطأ في وصفك. الله سبحانه وتعالى إله، ويعلم أن صفة الإله لا تنطبق إلّا عليه وحده، ويعلم أن صفة الإله بحقيقة معناها لا تتحمّل أن يكون هناك إلهان أو أكثر، ومنحنا سبحانه القدرة الفكرية لملاحظة وحدانيته، إلى أن تتشوّه سلامة أساس فكرنا ونفسيتنا "قلوبنا" وذلك من حبّ السيئات والرغبة فيها، ومنه استسخافنا لأنفسنا بالكذب والخداع والأوهام... وعندها نبدأ بفقدان وضوح البصيرة...

تذكّر دائما أننا كبشر جعل سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرّف عليه سبحانه من ملاحظة أفعاله "آياته في خلقه" ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء... وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق بالقوّة الإلهية الفائقة عند الوقوع في الشدائد... لذلك وضعنا كلمة نصف بها الكائن ذا الصفات والقدرات العالية جدا عن قدراتنا، وهي كلمة "إله" كوصف لذي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلّق به عند الوقوع في الورطات...

في الحقيقة، الكائن الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة، والذي ليس مخلوقا، هو الله سبحانه، وتساهل الناس في استعمال كلمة إله لتنطبق على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، حيث يطلقونها على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أن فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}...

القرآن يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهي، ويقوّم اللغة ككلّ، ويقوّم دقة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة "إله"، فإنه يخبرنا أنها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرّج في استعمالها.

انتبه جيدا، فالمشركون الناطقون باللغة العربية، وهم من أقحاحها وفصحائها وبلغائها... وغيرهم من أهل اللغات الأخرى، استعملوا كلمة إله "بالعربية أو بما يرادفها من اللغات الأخرى" بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

قارنها مع كلمة "ربّ"، إذ أنا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... حيث إنّ هذه الكلمة تتحمّل التدرّج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهي، فهي لا تتحمّل التدرّج، لأنها حصرا له تعالى، ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهي.

كلمة إله في حقيقة معناها لا تتحمّل التدرج ليُوصَفَ بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، حين يخبرك أنه خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، وسبحانه وظّف الملائكة (ع) التي خلقها لتنفيذ بعض أوامره... وهكذا ترى بوضوح أنه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، فماذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها

بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدّد له والمميّز "الله" جلّ جلاله فعل كل شيء، وما معنى ألوهية غيره! وهذا ملخّص مبسّط للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

ألفت انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، حيث حصروا استعمال كلمة إله للإله الكبير، واستعملوا للآخرين وصف الربّ، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربّة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون: إله المطر وإله الحرب... وعلى كل حال، القرآن رفض توصيف غيره تعالى بالألوهية والربوبية من مستوى إلهي، لأنّ المشركين يعتقدون بوجود كائن "ربّ" مسيطر على المطر من مستوى إلهي وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم أنه توصيف لألوهية أربابهم.

من ناحية ثانية لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، حيث يصير الهوى إلها كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}... وهي لا تشير لاعتقاد الشخص بأن هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لدين فيه ما يهواه، إذن عمليا هو يعبد هواه.

بالنسبة لأصل كلمة "الله" هناك كلام كثير حولها، ويبدو من تتبّع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حاليا بالسامية... أن الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة "إله" ومنها جرى اشتقاق اسم العلم "الله"، وهذا الاسم لم يكن متداولا في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط إذ للآخرين نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، حيث إنّ كلمة إله واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات ما يسمّى بأصل اللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة الله من وصف الإله ومتى، هل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قديما عبر الوحي، فالأرجح عندي "استذواقا" أنه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك "استذواقا" لأن المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين بلا مستند صريح لتأكيد كلام ما، تصير بطبيعتها استذواقيةً لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا ذات نفسي في سياق كلام آخر أستذوق أنه تعالى هو سمّى نفسه، لذلك ليس من المعقول ولا من المقبول منك أن تطلب حسما من الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دليلا حاسما، ولا يُقبَلُ من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنه الصحّ إلا اللهم إن قدّم دليلا دامغا، وهذا لا يبدو ممكنا في مسألتنا هذه.

(وَإِن يَرَوْا كِسْفاً مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ{44})
{وَإِن يَرَوْا}، وإذا صارت عندهم صورة محدّدة لـ {كِسْفًا}، والكسف في استعمال العرب قبل الإسلام يشير لعموم ما يحجب شيئا خلفه، مثلما نصف حالة كسوف الشمس، فهي محجوبة عن الرؤية بسبب مانع بيننا وبينها، وهكذا تصدق على أي شيء كبير يسقط من الفضاء ويحجب ما خلفه من السماء. وفي القواميس ستجدهم فسّروها بما يحجب ونقلوا عن بعض مفسري القرآن معنى القطعة من الشيء، وهكذا يبدو لك أن المفسرين خمّنوا المعنى التطبيقي ولم يقصدوا المعنى اللغوي الذي لم يخطر على بالهم مناسبته للكلام القرآني...

{وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ}، شيء يحجب السماء وسيكون حجمه كبيرا، {سَاقِطًا}، يقع عليهم من فوق من جهة السماء، {يَقُولُوا}، يقول المكذبون للرسل: {سَحَابٌ}، غيوم كثيفة، {مَّرْكُومٌ}، متراكمة فوق بعضها البعض، لأنّ السماء انحجبت عنّا فانكسفت بسبب الغيوم الكثيفة.

هؤلاء المكذبون لهذا الدين، حتى لو رأوا قطعا ضخمة لدرجة أنها تغطي مساحة كبيرة فوقهم، وتكسف السماء، ويرونها تسقط عليهم، فسيقولون عنها إنها مجرد غيمة كبيرة وليست عذابا نازلا من السماء بسبب كفرهم.

عليك أن تفهم الآية مثلما تحذّر شابا طائشا من قيادة السيارة بسرعة عالية، ولن يردّ عليك مهما حذّرته، ويقول إنه مسيطر على الوضع ولن يحدث أي شيء، وسيسرع، ويصيب سيارته حادث ويقتل أحدا ما أو يقتل نفسه. وبشكل أدق بالنسبة لتعبير الآية وتفهمها من استهتار شخص من كلب برّي يتقرّب من الكلب ليلاعبه، تقول: من استهتاره أنه لو رأى أسدا لقال إنه لن يؤذيه... وعلى نفس المعنى تقريبا كلام قوم النبي هود(ع) الوارد في الآية 24 من سورة الأحقاف {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

الآية هنا تضخّم الحدث لتريك استهتارهم من تهديده تعالى لهم، وحتى لو قرّر سبحانه تعذيبهم بشيء ضخم جدا، كنيزك يسقط عليهم من السماء، فهم لشدّة تكذيبهم للدين الإلهي وللتهديد سيقولون عن النيزك الضخم "الحاجب للسماء" النازل ليقضي عليهم إنه مجرد غيمة ضخمة ولن يحصل أي شيء.

ضع في بالك أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنويا" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، لذلك لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض. الفضاء فوقنا هو سماء، ويتضمن طبقات الهواء، وطبقات الغازات، واللون الأزرق في النهار لطبقة الغازات، والنجوم والمجرات والفضاء بينها... كل ما هو فوقنا اسمه على الوصفية: سماء. أقول لك هذا لأن نموذجا جديدا سخيفا من المكذبين للدين الإلهي وللقرآن فسّر آيتنا هذه بأن معناها: قطعا من زرقة السماء تسقط... أو قطعا من القبة النجمية تسقط. حيث أرادوا أن يبينوا لنا أن النبي محمّد(ع) ألّف القرآن، ولجهل "محمّد" بحقيقة طبيعة السماء، تصوّرها كقبّة "زجاجية" فوقنا، كشاشة تلفزيون، وألّف هذه الآية على تصوره بأن القبة "الزجاجية الزرقاء" ستتكسّر وتسقط علينا كقطع...

هذا الغبي وأمثاله من المكذبين، هم نموذج واضح جدا عما قاله القرآن عن نوعية الأنعام التي لا تعقل، لأنهم نموذج عن نوعية القلوب والعقول التي كالحجارة، وأمام نصّ إلهي واضح صريح، تلاعبوا بمعناه حتى ينزل مستوى النصّ ويصير من تأليف "محمّد"، والآية كما ترى، تشير بكلمة سماء وهي لعموم ما هو فوق عموم أي أرض، وإذا شاهد الكفّار شيئا منها يسقط عليهم، ويكسفها ويحجبها، فلن يؤمنوا بأنها عذاب إلهي وسيقولون إنها مجرد غيمة، ورغم الفارق الكبير بين منظر الغيمة ومنظر كسف تسقط، إلّا أنهم مصرّون على أنها ليست عذابا إلهيا بسبب كفرهم بل حدث عادي ومجرد غيمة.

هو هذا النموذج الغبي من المكذبين، حين فسّر الآية بطريقة تجعلها تبدو من تأليف "محمّد" فعل نفس الشيء الذي تقول عنه الآية، لو رأى الكسف ساقطة سينكرها ويقول: غيمة.

هم رأوا الآية الإلهية وأنكروها وحوّروها وتلاعبوا بكلماتها ومعانيها، حتى جعلوها تعني: تتكسّر السماء الزرقاء وستسقط القطع الزرقاء على الأرض، أو تتكسّر القبة الزجاجية التي نراها في الليل والتي عليها نقاط بيضاء وتسقط على الأرض. هذا ما قالوه هل هذا ما قالته الآية؟! وكما ترى هذا هو المستوى الأعلى للتكذيب بآياته تعالى، مهما كانت الآيات واضحة، فسيأتي من يقول عن كسف السماء الساقطة عليه كعذاب إلهي: لا، ليست من تدخّل إلهي بل هي غيوم كثيفة فوق بعضها.

بقي شيء، هؤلاء المكذبون بالدين المنتقدون لآيتنا هذه ولعموم القرآن، للأسف وجدوا بذورا لتعليقاتهم في التفاسير والروايات، في القواميس اللغوية تجد معنى "كسف" أنه حجب وما شابهه من معانٍ، أمّا في تفاسير القرآن ففسّروها على معنى قطعة من شيء. وهذه المشكلة ليست محصورة بكلمتنا هذه، إذ إنّ العديد من كلمات القرآن تعرّضت لتشويه المفسرين وذكروا لها معان لا تتوافق مع معناها اللغوي الأساسي الصريح، وكمثال على ذلك خلطهم للمفهوم بالمصداق في كلمة "إثم" الواردة في الآية 33 من سورة الأعراف {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ}... حيث فسرها بعضهم بالخمر، وفسّروا اللغو في الآية 3 من سورة المؤمنين بالغناء {وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ}، وغيرها الكثير من الكلمات التي تجدها بشكل واضح في كتاب "تاج العروس" حيث يذكر لك ما توصّل إليه من معناها اللغوي من استعمال العرب، ويقابلها معنى مختلف من كتب التفاسير، حتى صار المزاج الثقافي العامّ المنتشر بيننا أن كتب التفاسير أصدق من كتب اللغة! وكأن كاتبي التفاسير وصلوا للمعاني من مصدر موثوق، وكأن كلامهم مقدّس! وكلام اللغويين تتوقّف قيمته عندما يتعارض مع كلام المفسرين! والأنكى من ذلك أن العديد من اللغويين تماشوا في الكثير من الكلمات مع ثقافة تقديس كلام المفسرين، ونقلوا من المفسّرين معاني الكلمات لتصير من ضمن معاني الكلمة التي يتحدثون عنها! تاركين كلام العارفين بالمعنى الدقيق للمعنى من أهل اختصاص الصنعة والمهنة! لأنّ الفلّاح أخبر منهم بمعاني الكلمات التي تتعلّق بمهنته، ومثله النجّار والحدّاد والخيّاط... ولكن تقديس الروايات والكتب القديمة وتقديس الأشخاص... أدّى إلى تقديس كلامهم واعتباره أساسا، وبالتالي إهمال كلام الآخرين...

أخيرا، هذا لا يعني أبدا أن ما ورد في دراستنا هذه من معان للكلمات هو دقيق وصحيح مئة بالمئة، لا، بل هي محاولة بناء "قومسة" من الصفر بدون أي خلفيات ثقافية حاكمة ومن دون تقديس للتراث مهما كان نوعه... وذلك للوصول إلى

أفضل معنى ممكن لكلمات القرآن، بالاعتماد أولا على استعمال القرآن لها والاستئناس بأشعار العرب قبل الإسلام، طبعا مع قراءة أمّهات القواميس للنظر إلى ما توصّلوا إليه، وأخيرا النظر بما قاله المفسرون. طبعا راجعت كل ما قيل في كل هذه المصادر "الأساسية من أمهات الكتب والكثير من المتفرقات" عن كل كلمة، ولكن في النهاية الميزان كان أولا موافقة المعنى لكل استعمالات القرآن لها، وثانيا تماشيها مع أشعار العرب قبل الإسلام.

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ{45})
{فَذَرْهُمْ}، فانفصل عنهم، طبعا من بعدما تنذرهم لأنهم سيكذبوك ولن يتغيّروا، فاتركهم، {حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ}، فهناك زمن سيحصل فيه "صعق لهم" حيث سيصيبهم شيء مفاجئ وسريع، وهناك لن يقولوا إنه غير صحيح لأنهم سيلاقوه فسيواجهوه.

من عموم القرآن نفهم أن ملاقاتهم للصاعقة التي تقصدها الآية هنا هي مفاجأة قيامهم من الموت في الآخرة، فهم هنا سيموتون، ويغلقون أعينهم، ويفقدون وعيهم، وتمرّ السنين وهم لا يشعرون بأي شيء، وفجأة، سيفتحون أعينهم ليجدوا أنفسهم أحياء من جديد، وسيتفاجؤون بذلك.

تتذكّر أن الصاعقة وصف لعموم أي شيء قوي حصل بسرعة مفاجئة، فنقول: صعقته الكهرباء، صعقني بكلامه، خبر صاعق... وعلى نفس المعنى نوصّف البرق والرعد بالصاعقة لأنهما سريعان مفاجئان وقويان.

(يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ{46})
{يَوْمَ} يصعقون...هو، {يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا}، فالضرر الذي قصدوه للدين الإلهي لن يجعلهم بالغنى عن العذاب في الآخرة، فهم هناك بحاجة للتخلّص من العذاب، وكيدهم لن يغنيهم عنه حتى لو قليلا. {وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ}، فلا أحد سيحقّق لهم ما يريدونه، فهم يريدون الخلاص من العذاب ولن يجدوا من يخلّصهم منه.

بالنسبة للغنى فأصلها من معنى الاستغناء، وهو عموم انتفاء عموم الحاجة لعموم أي سبب، إمّا لأنك لا تحتاج أصلا للشيء، وهذه حالته تعالى، أو لديك ما تحتاجه، أو تملك ما يمكّنك من الحصول على ما تحتاج، فتملك المال لشراء ما تحتاجه. وترى هذا المعنى بشكل مباشر وواضح لأصل معنى كلمة "غني" في تعبير {وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} كما ورد في الآية 97 من سورة آل عمران، فبوضوح يشير الوصف بالغني فقط لنفي الحاجة.

تعبير "لا يغني عنهم"، مثلما نقول: معي الكثير من المال، وأنا جائع، فأنا غني لأني بالمال أشتري الطعام. ولنقل أني لا طعام معي ولكن معي مال، وأنا جائع ولكني في الصحراء حيث لا يمكنني شراء الطعام، فالمال لم يغنني.

هنا الكافرون الكائدون لدينه تعالى سيتعرضون للتعذيب في الآخرة، وهم بحاجة لما يغنيهم عن التعذيب حتى يتخلصوا منه، فمن قام هنا في الدنيا بأعمال حسنة فهي ستغنيه عن العذاب، أما الكائدون لدينه تعالى فلديهم كيدهم، وهذا لن يغنيهم عن العذاب.

(وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ{47})
{وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا}، للذين لم يكن معهم حق فلم يكونوا منصفين ولا عادلين حين كفروا بهذا الدين، لأنه دين حقّ وصواب وصحيح ومن الظلم وليس من العدل والإنصاف الكفر به، لهم، {عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ}، فقبل العذاب الذي في الآخرة فلهم عذاب مسبق هنا في الدنيا، {وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}، فهناك قرار إلهي بحصول عذاب دنيوي لهم إذا توافرت شروط حصوله فيهم، كحالة الأقوام التي ذكرها القرآن كنماذج مثل قوم فرعون وعاد وثمود... ولكن أكثرهم لا يعلمون أنه تعالى فعلا يعذّب هنا في الدنيا قبل الآخرة.

يعني هناك عذاب حتمي لهم في الآخرة، ويمكن أن يصيبهم عذاب هنا في الدنيا قبل الآخرة، فهناك عذاب دون عذاب الآخرة، فقبل الآخرة أيضا يحصل عذاب.

الكلام هنا ليس عن حتمية العذاب في الدنيا لكل شخص ظلم ولا للأقوام الظالمين، فمعلوم أنه عند اجتماع ظروف خاصة ينزل سبحانه العذاب في الدنيا على بعض الظالمين، فالآية هنا تخبرهم أن العذاب حتمي في الآخرة ولكن لا يرتاحوا على وضعهم، ففي الدنيا أيضا العذاب جاهز ليحصل معهم، طبعا إذا توافرت فيهم شروط حصول عذاب في الدنيا، فهي تقريبا على معنى الآية 46 من سورة يونس التي طرحت المسألة من هنا للآخرة {وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ}، فقد يحصل معهم عذاب في الدنيا ولكن حتما هناك عذاب في الآخرة، أما آيتنا هنا فقد طرحته من الآخرة للدنيا، فحتما سيتعذّبون في الآخرة وقد يحصل لهم عذاب في الدنيا.

ما قيل عن تفسير آيتنا هذه بأنها تشير لعذاب الكافرين فيما اصطلحوا عليه بالبرزخ كعالم بعد الموت في الدنيا وقبل الآخرة، لا يمكن ولا بأي شكل استخراجه من الآية ولا من بقية القرآن الذي لم يصرّح بعذاب بعد الموت وقبل الآخرة، وصرّح فقط بجنّة في الدنيا للمقتولين في سبيله تعالى، ويمكنك مراجعة الآيات التي قيل إنها تشير لعذاب الكافرين فيما يسمونه بعالم البرزخ لترى أنها ليست صريحة بذلك، وأن تفسيرا بسيطا لها التزاما بمعاني كلماتها فسيغنيك عن تفسير غير ظاهر من كلماتها.

أنت تعلم أن الروايات هي مصدر الكلام عن عذاب البرزخ، وأخبرك أنني لست مغرما بمخالفة الروايات، ولا يهمني الموضوع، فأنا ملتزم في دراستي هذه للقرآن بما ورد في القرآن مستأنسا بالروايات، فربما يكون هناك توجيه لتلك الروايات لتوافق القرآن، وربما الروايات صار عليها إضافات ونقل مشوّه ولبّها لم يكن مخالفا للقرآن، بالإضافة لاحتمال كون الروايات كاذبة من أصلها ولم يقلها النبي(ع) ولا من نعتقد بقداستهم... وإذا لم يعجبك ما نتج عن دراستي فأنا لا أدّعي كمال المعرفة، ولكن أدّعي التزامي بما ورد في القرآن بحسب قدراتي، فردّ على قولي بدراسة لا تنطلق من مخزون موروثك، وصحّح قولي ببحث ترمي فيه كل ما ورثته وتعلمه، وتنطلق فيه من القرآن لوحده كأنك لم تسمع بأي رواية ولم تتعلّم أي شيء عن هذا الدين، وبعدها أرني نتيجتك إن استطعت فعلا أن تكون منصفا عادلا منطلقا مما قاله القرآن.

أقول لك هذا علما أنه أيضا لدينا روايات متماشية متوافقة مع ظاهر القرآن "وما أقوله في دراستها"، ومؤكدة للمفاجأة للظالمين باستعادة حياتهم في الآخرة من دون أي مرور بعذاب فيما يسمّى بالبرزخ...

وإن دار في ذهنك الآن أن القرآن لا يحوي كلّ شيء عن ديننا، وأننا نحتاج للروايات، فهذه ورطة أخرى وقعت فيها، لأنّ القرآن يحوي كلّ أساسيات الدين، والتفاصيل قد ورثها عامّة المسلمين عن الرسول(ع) كتطبيقات فيها مساحة وهامش للمرونة، وكما ترى فإنّ الكثير من اختلافات المسلمين حول العديد من المسائل قد نتج عن خوض البعض فيما لا يعلمون بدل أن يقولوا: لا نعلم. وتبعهم بعد ذلك أجيال على العصبية المذهبية وتقديس كل ما عليه غبار وتراث ومتعلّق بالأجداد... ولولا ذلك لكان كل ما وصلنا من روايات مطابقا للقرآن.

الكثير من اختلافات المسلمين هو في مسائل تركها تعالى كهامش مرونة لنتحرّك فيه بما يناسب زماننا ومكاننا، فأغلقنا على أنفسنا مقيدين أنفسنا بما تحرك فيه الرسول(ع) بالهامش الذي أتاحه تعالى لنا جميعا...

إذا حاسبتني على رفض فكرة ما، وتلك الفكرة ناتجة عن الروايات، عندها أسألك عن موضوع واحد، عن أي موضوع كان، فابحث فيه استنادا للروايات، وأخبرني عن تعارضها، حتى في قضية العذاب في البرزخ سترى الروايات متضاربة متناقضة وهشّة والكثير منها سخيف فيه كلام فارغ لا يدخل في العقل، طبعا إذا حكّمت عقلك ولم تعبد الروايات ومن رواها...

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ{48})
{وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ}، فأنت تتعرّض للتكذيب والإهانة بسبب نقلك لكلام المسؤول عنك من مستوى إلهي، فاصبر فلا تفلت أعصابك وتتصرّف بشكل غير مناسب ولا عقلاني مع الخائضين لعبا في الدين الإلهي، لأنّ ما أنت فيه من الانزعاج لن يدوم، حيث إنّ كلمة صبر تتضمّن معنى أن ما لا ترغبه فهو لن يدوم ولذلك تصبر عليه.

{فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا}، لأنه سبحانه يراك ولست غائبا عنه، فلا تشعر بأنك مهمل متروك لتعاني من تكذيبهم لك، لا، لأنك تحت مراقبته وعنايته سبحانه، وهذه الآية في معناها تشابه الآية 3 من سورة الضحى {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}.

{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}، فقم بتنزيه المسؤول عنك من مستوى إلهي عن الصفات التي تتنافى مع إيمانك بأن صفات وأعمال ربّك حميدة جيّدة، لأنّه سبحانه كل أعماله حميدة جيّدة ولا توصف بأنها عاطلة أو سيئة أو باطلة أو غير صحيحة... فسبّحه فنزّهه تعالى عن أي صفة تتعارض مع وصفه بأنه حميد.

البداية مع حمده بصفة أنه إله أحد لا إله غيره وواحد للجميع، وحكيم عالم خبير... لأنّ كل الصفات الحسنى له تعالى، لأنه حميد من كل النواحي، وهذا بعكس ما يقوله عنه المكذبون بالدين من أنه سبحانه خلقنا وتركنا ولن يحاسبنا ولن يجازينا، ومزاجي وعبثي وضعيف، ونفسيته مهزوزة، ولئيم... هذا كلام قرأناه في أقوالهم في عصرنا ولم يذكره القرآن عن لسان السابقين لأنه قلّة أدب ليس محبّذا ذكرُه في الكتاب الإلهي، وذكرتُه لك حتى لا تتفاجأ به إذا سمعتَه أو قرأتَه، وحتى يكون لديك علم بأنه مما يجب أن تصبر لحكم ربّك عليه.

فسبّح بحمده، {حِينَ تَقُومُ}، حين تتفعّل، حين تنتصب، حين تتجهّز لفعل شيء ما.

لولا التعبير في الآية التالية بإدبار النجوم الذي يشير للفجر، لفهمنا هنا أن القيام المقصود يبدأ من الفجر، على معنى حين تقوم من النوم، ولكن الآية هنا تقصد القيام في النهار في وقت صلاة الظهرين، إذ إنّ الآية تعبّر عن عموم وجوب التسبيح بحمده وعن خصوص الأوقات التي ألزمنا فيها تعالى بالقيام بالتسبيح بحمده، وأنت تعلم أن الصلاة المفروضة علينا في أوقات ثلاثة كرّرها القرآن بتعابير مختلفة، وهنا تعبّر الآية عن صلاة الظهرين بـ {حِينَ تَقُومُ}، حين تكون مفعّلا، لأنّ الكلام عن وقت الصلاة أثناء قيامك بالنهار.

انتبه جيدا فلا تعامل الآية هنا والتالية على أنها آيات تشريع تقصد تحديد مواقيت الصلاة، لا، لأنها تشير لتسبيحك له تعالى بالحمد كتطبيق عملي لإيمانك بدينه تعالى ولتكون نهايتك الجنّة، وليكن التسبيح موزّعا على طول اليوم، وهناك مواقيت للصلاة حيث أشارت لها الآيتان ضمنا كمواقيت متعارف عليها للتسبيح بحمده تعالى وذلك في مقابل المكذبين الكافرين بدينه تعالى الذين لن يسبحوه بالحمد...

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ{49})
{وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ}، ففي فترة العتمة من اليوم بعد مغيب الشمس قم بتنزيهه بنفي الصفات التي تتعارض مع حمده تعالى، ومن المعلوم أن هذا الوقت يتضمن صلاتي العشائين.

{وَإِدْبَارَ النُّجُومِ}، فحين تذهب النجوم، وحين تبدأ النقاط البيضاء التي في السماء بالذهاب، وهذا يحصل عند بداية الفجر حيث يبدأ الضوء بالانتشار وتبدأ النجوم بالاختفاء، لذلك قم بالتسبيح بحمده تعالى أيضا في هذا الوقت.

كلمة "نجم، نجوم" بحسب استعمال القرآن واستعمال العرب لها في أشعارهم قبل الإسلام، هي لأي جرم "شيء" له مكان في السماء، سواء أكان منيرا بذاته مشتعلا كشمس أو غازياً ساخناً، أو كان صلبا يعكس ضوء غيره كالأرض والمشتري... والكوكب وصف لعموم أي شيء مضيء في السماء، ويشمل ما نسميه في عصرنا بالنجوم ويشمل الكواكب السيارة لأنها على كل حال نقاط بيضاء.

بالنسبة لمواقيت الصلاة، ضع في بالك دائما أن القرآن لم يذكر ولا مرّة خمسة أوقات للصلاة، ودائما ذكر ثلاثة أوقات، ومن سنّة النبي (ع) نعلم أنها خمس صلوات موزعة على ثلاثة أوقات من اليوم، ومن السنة نعلم أيضا أن فصلها عن بعضها أفضل، وأمّا بالنسبة للتسمية بالظهر والعصر والمغرب، فالتسميات تشير لأوقات، ولكنها تسميات لم يذكرها القرآن الذي سمّى صلاتي الفجر والعشاء كما ورد في الآية 58 من سورة النور(مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ)، وأساس التشريع لفجر وظهرين وعشائين، ومن ممارسات الرسول (ع) والناس للصلاة صارت التسميات للصلوات بأوقات متفرقة، حيث صار لدينا تسمية الظهر والعصر، علما أنهما الظهران، وصار لدينا صلاتا المغرب والعشاء علما أنهما العشاءان، وأعود لأكرر لك أنه من سنّة النبي (ع) نعلم بوضوح أن الجمع بين الظهرين وبين العشائين صحيح وأن الفصل بين الظهرين لظهر وعصر، وبين العشائين لمغرب وعشاء، أفضل وأثوب بحسب سنّة النبي (ع).

سورة النجم (53) ص 526

تتمحور السورة حول اتهام الكافرين للرسول(ع) بأنه ضالّ {غَوَى} و{يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى}، فتبين كيفية نزول الوحي وتواصله(ع) مع السماء العالية... وتبيّن أن من في السماء العالية من كائنات مميزة حيث تتواصل معه(ع) بأمر منه تعالى... وهكذا صار النبي محمّد(ع) شاهدا بشخصه على التوحيد وبالتالي شاهدا على كذب اختراعات المشركين عن آلهتهم وعن بنات له تعالى التي لا أثر لها في السماوات...

بعدها تنتقل السورة إلى بعض من أبرز نماذج أقوال الضلال والغوى والهوى للكافرين... وتبين أن الكفر بالحقّ والإيمان بالحقّ لهما عواقب في الآخرة، بعدها تعرّج على الامتداد التاريخي لما ينقله لهم النبي محمّد(ع) فهو شبه التمام بما في صحف النبيين إبراهيم(ع) وموسى(ع)، وخلال ذلك تعرض آياته تعالى وعقابه للغاوين الممارين...

تردد في السورة بشكل ملفت كلمة {رَأَى} ومشتقاتها.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى{1})

تبدأ السورة بالتأكيد بـ{النَّجْمِ}، وبحسب استعمال القرآن واستعمال العرب لكلمة {نَجْمٍ} في أشعارهم قبل الإسلام، فهي أي جِرْمٍ "شيء" له مكان في السماء، إذا {هَوَى}، وكان معلّقا أو ثابتا ثم سقط، ولا تعني أَنَّهُ ترك مكانه حين سقط، حيث إنَّ الحائط والشخص... يهوي ويبقى مكانه.

سوف ترى من بقية السورة من الآية السادسة وما يليها أنَّ {النَّجْمَ} هو ملاك له موقع في السماء العالية، و{هَوَى} تعني أنه نزل وبقي حيث كان وحيث وصل، مثلما الشخص يهوي، وسترى أنَّ الذي {هَوَى} "الملاك" كان حاملا للمعلومات من الإله سبحانه إلى الرسول محمّد(ع)، فَاتِحاً قناة اتصال بين السماء العالية وبين الرسول محمّد(ع)...

في مقابل دين المنكرين لهذا الدين القرآني، وبالخصوص الذين يؤمنون بقوّة إلهية في الكواكب والأصنام والتماثيل التي تمثّل "بزعمهم" قوة إلهية ملائكية... في مقابل هذه الأقوال الخرافية الوهمية تعرض السورة رؤية حقيقية لما في السماء العالية من قوى، وما يمثّلون، لأنهم ملائكة(ع) وليسوا آلهة، وهم مطيعون له تعالى، والبعض منهم يقوم بتنزيل الوحي على الرسول محمّد(ع) بأمر من الإله سبحانه.

هكذا نفهم النظرة التي تعرضها السورة من منظور إلهي، حيث يرى سبحانه الناس يقولون أمورا غير صحيحة عمّا في السماء من آلهة "عموم السماء"، وعن الرسول(ع)... ويرى سبحانه ما يحصل في الحقيقة من نزول الملائكة(ع) بأمر منه تعالى على الرسول(ع)، ويخبرنا عن ذلك في هذه السورة لنرى إلهية مصدر هذا القرآن...

قال البعض إنّ السورة السابقة كان في آخر آياتها: {وَإِدْبَارَ النُّجُومِ}، وهنا السورة بدأت بكلمة {النَّجْمِ}، مما يشير إلى تناسب السورة السابقة مع هذه السورة، وقالوا أشباه هذا الكلام لبقية سور القرآن، ولكن، وللأسف الشديد هذه أقوال حدسية لا تعبّر عن أي شيء حقيقي، حيث إنَّ من المعلوم المشهور جدا بين عموم المسلمين أنَّ القرآن بترتيبه من سورة البقرة وآل عمران والنساء... لا يعني أنَّ السور نزلت على النبي محمّد(ع) بهذا الترتيب، إذ إنَّ ترتيب نزولها مختلف عن ترتيبها في القرآن المنتشر بين أيدينا، والسبب أنَّ المسلمين الأوائل حين جمعوا القرآن اعتمدوا أولا على ترتيبه من السور الطويلة إلى القصيرة، وحصلت بعض الاستثناءات حين وصلوا لسورة تقارب في حجمها سورة أخرى ولكنهم وبحسب علمهم أنَّ الأقصر نزلت قبل الأطول فقلبوا ترتيب السورتين، ومثله جعلهم للحواميم "السور التي تبدأ بـ{حم}" وراء بعض رغم قصر بعضها عن السور التالية... ومن المشهور أنَّ المعوذتين وضعتا في آخر القرآن علما بأنهما أطول مما سَبَقَهُمَا من السور القصار لأنَّ الصحابي "ابن مسعود" أصرّ على أنهما ليستا من القرآن وخالف بقوله هذا كلّ الصحابة! وبما أَنَّهُ كان شخصية لها وزنها في المجتمع آنذاك، وكان نشطا بين الناس ومعترضا على قرآنية المعوذتين... فَرَاضَوْهُ ليسكت ويكفّ عن الاعتراض ووضعوا المعوذتين في آخر القرآن، وتجد في التاريخ من قال عن ابن مسعود أنه في آخر زمانه خَرِفَ وصدرت عنه روايات غير دقيقة وغير صحيحة لأحداث تاريخية عايشها أو نقلها الآخرون له... لذا، فإنَّ رفضه لقرآنية المعوذتين يبدو من حالة عقلية غير سليمة بسبب تقدّم العمر...

تلاحظ حاليا أنَّ بعض السور القصيرة سبقت سورا طويلة في ترتيبها في القرآن، لأنهم قديما اعتمدوا على خط يدهم بالرسم الذي سمي لاحقا بالرسم الكوفي، وفي عصرنا دراساتٌ تشير لتسمية أخرى للخط بالحجازي، على أي حال، حاليا الطباعة على الآلات الكاتبة أو الكومبيوتر جعلت كل الأحرف منضبطة الحجم "تقريبا"، ولم يعد لاختلاف رسم الخطاطين أي أثر على طول الكلمات، وظهر اختلاف في ترتيب طول السور المكتوبة بالآلات عن تلك المكتوبة بخط اليد، وهناك أمور أخرى في هذا الشأن لا حاجة لنا بالتطويل بها...

على كل حال، ترتيب السور الحالي في المصاحف ليس بوحي إلهي، ولا بأمر من الرسول(ع) بل بما استنسبه الصحابة معتمدين أساسا على الأطول فالأقصر، وعليه لا قيمة لما يقولونه من تناسب آخر السورة بأول ما يليها من السورة التالية بحسب هذا الترتيب الذي بين أيدينا، وعلى أي حال، كثير مما قالوه عن ربط السورة السابقة باللاحقة تبدو فيه الهشاشة والركاكة.

بقي شيء، هناك سِتُّ سماوات غير سمائنا، وتكوينها مختلف عن كوننا الذي نراه بأعيننا وبالتلسكوبات البصرية والراديوية... وتحدث في تلك السماوات ظواهر وحوادث، وليس لدينا كلمات "بشرية" مخصّصة لوصف الأحداث التي تجري في تلك السماوات، فاستعمل القرآن كلماتنا البشرية على أصل معناها لتوصيف ما يجري هناك، وترى هذا جليا واضحا في توصيف القرآن رجم الملائكة للشياطين بـ{الشُّهُبِ}، حيث إن كلمة {شُهُبٍ} بشرية توصّف نارا أو ضوءا يمتدّ من أي شيء، ومنه الآية السابعة من سورة النمل {إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ}، ومنه ما يحدث في سمائنا نحن من اختراق كتل من السماء للغلاف الجوّي للأرض حيث يمتدّ من تلك المتساقطات ذيل، فاستعمل القرآن كلمة {شُهُبٍ} لتوصيف مقذوفات ترميها الملائكة على الشياطين وأثناء طيرانها يصير لها ذيل، إذ لا الملائكة مخلوقة من المادّة التي انخلقنا منها نحن "طين"، ولا الجنّ، ولا تلك المقذوفات من المواد التي نعرفها، وإنما فقط وصفها بـ{الشُّهُبِ} مطابق لوصف الشهب التي تحصل في سمائنا.

استعمال كلمة {نَجْمٍ} هنا نفس الشيء، فهو توصيف لملاك في سماء عالية، مثل توصيفنا لكوكب أو شمس في سمائنا، حيث إنَّهُ كائن له موقع في السماء، والكلمة المناسبة لوصف هذه الحالة من لغتنا هي كلمة {نَجْمٍ}، وإلا فعلى المعنى الحصري لكلمة {نَجْمٍ} لكوكب أو شمس فلا إمكانية لتفسير آيتنا هذه بأي معنى مقبول، لأن الكلام عن {نَجْمٍ هَوَى}... وما ذكرته لك عن تفسير {النَّجْمِ} كتوصيف لملاك ورد في بعض الروايات، وهو متوافق مع بقية كلام السورة بقصدها ملاكا له موقع في السماء.

أخيرا، ضع في بالك أنَّ القرآن أخبرنا عن سبع سماوات كما ورد في بِضْعِ آيات منها الآية 12 من سورة فصلت {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا...}، ودرج في أدبياتنا الدينية بعض التقسيمات لهذه السماوات وأنَّ السماء السابعة هي سماء الملائكة حاملة العرش والتي فيها الكتاب الرئيسي... وبناء عليه جرى في أدبياتنا القول بأنَّ الوحي ينزل من السماء السابعة... وهذا شيء لن تجده في القرآن، إذ اكتفى بالإشارة للسماء العالية ولم يحدّد أي وحدة منها للملائكة العالية، وخذ مثالا عن ذلك حادثة السجود لآدم(ع) حيث أبى إبليس وكان حينها بين الملائكة... فلا في هذه الحادثة ولا في غيرها معلوم لنا في أي سماء حصلت، ومثله محاولة الجنّ لاستراق السمع من سماء الملائكة، حيث من غير المعلوم قرآنيا إن كانت السابعة أو السادسة أو... ولذلك تراني في هذه الدراسة أشير شارحا لسماء الملائكة أو لما يرتبط بشؤونهم بقولي عنها: السماء العالية. إذ من غير المعلوم إن كانت الثالثة أو الرابعة أو... السابعة.

(مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى{2})
جواب التأكيد بـ{النَّجْمِ إِذَا هَوَى}، ما تريد السورة تأكيده من لفت انتباهنا للنجم هو: {مَا ضَلَّ}، لم يكن على شيء غير صحيح، {صَاحِبُكُمْ} "محمّد(ع)" الذي معكم في مكان تواجدكم، {وَمَا غَوَى}، ولم يكن يعتقد بأشياء فاسدة ويظنها صحيحة، بل كان راشدا وعقله رَاجِحاً ويعتقد بأمور صحيحة.

كما تلاحظ وستلاحظ السورة تقابل بين ما يقوله ويعتقد به النبي محمّد(ع) وبين ما يقوله المشركون ويعتقدون به، فالرسول محمّد(ع) على الهدى وراشد يعتقد بأمور صحيحة، وهو شاهد عيان على صحة توحيد الإله لأنه رأى

"بفؤاده" مركزية القرارات للإله الواحد الأحد ولم يَرَ أي أثر لآلهة أخرى... ورأى الملاك الناقل للوحي... وهذا بعكس المشركين الذين اخترعوا آلهة وآخرون جعلوا له تعالى البنات... وهم لم يلمسوا ولا أثراً كدليل على أقوالهم...

(وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى{3})

{وَمَا يَنطِقُ}، فالنبي محمّد(ع) لا يصدر منه أي صوت تفهمونه ككلام، {عَنِ الْهَوَى}، عمّا يهواه عمّا يرغبه وتشتهيه نفسه بسوء، فلا يقول لكم أشياء يحبّ قولها ولديه رغبة في قولها حتى لو لم تكن صحيحة.

نلاحظ كلاما قيل حول هذه الآية، إذ إنَّ بعضهم عمّمها لتشمل كلّ ما ينطق به النبي محمّد(ع) دائما في أي شيء فلن يكون عن الهوى، إذ برأيهم هو (ع) متّصل دائما بالوحي، حتى في أمور حياته العادية... وقال بعضهم إنّ النبي(ع) لا يجتهد من عنده فكل ما ينطق به يكون وَحْياً حتى في المساحة التشريعية التي ترك فيها تعالى لنا هَامِشاً... وهذا الكلام وأشباهه سببه قطع الآيات من سورتها والنظر إليها لوحدها بغض النظر عن سياقها، إذ من المعلوم البديهي أنه (ع) كان "ينطق" مع عامّة الناس في عموم شؤون حياته الخاصة به كإنسان متزوّج ويهتمّ بشؤون حياته العائلية والمعيشية وكقائد... وكرسول ينقل الوحي الإلهي، فكيف وبأي منطق يمكن تعميم الآية ليصير كل ما يقوله (ع) لزوجته أو لبائع الطحين وَحْياً! وضخّمت لك الصورة لأنهم هم عمّموا كلامهم بأنه (ع) لا ينطق بتاتا نهائيا إلا عن وحي.

نعم هو (ع) كشخص مدحه القرآن لأخلاقه العالية ورجاحة فكره، لذا لن يقول كلاما غير مدروس وموزون، إذ هو(ع) من أبعد ما يكون عن الهوى السيّء، وهو بعيد عن قول شيء فاسد يحبّ قوله حتى لو كان مخالفا للصواب، وهذه حالة يتصف بها العقلاء العاديون من الناس فكيف به وهو (ع) أعقل العقلاء، ورغم ذلك، نقل لنا التاريخ عنه (ع) أنه اتخذ قرارات راجعه فيها أصحابه وسألوه إن كان قراره بوحي من السماء حتى ينفّذوه بلا مناقشة أو هو رأيه (ع) الشخصي، وأجابهم بأنه رأيه الشخصي، وَأَشَارُوا عليه بآراء أخرى... وترى ذلك جليا في حادثة بدر حيث غيّر الرسول مواقع قتال المسلمين بناء على رأي من أحد أصحابه، وإليك الحادثة منقولة عن كتاب ابن إسحاق، قبل واقعة بدر عسكر النبي محمّد(ع) بالمسلمين، وَجَاءَهُ أحد المسلمين وهو الحباب بن المنذر وسأله إن كان المكوث هنا وانتظار جنود المشركين هو أَمْراً من الله تعالى أم هو "الرأي والحرب والمكيدة" تكتيك عسكري؟ وَأَجَابَهُ النبي(ع) لا ليس أَمْراً من السماء معسكرنا هنا، وَاقْتَرَحَ الحبّاب تغيير المكان إلى مكان أفضل من الناحية العسكرية... وَقَالَ الرسول(ع): أشرت بالرأي.

من عموم تاريخه (ع) ترى حصرا فيما يخصّ نقل الكلام الإلهي أنه سيكون بالتمام كما وصله(ع) من الوحي، وفي عموم كلامه (ع) في مختلف شؤونه لا ينطق عن الهوى السيّء، ولكن الآيات هنا تتحدّث عن خصوص المعلومات التي ينقلها (ع) للناس على أساس أنها من الإله سبحانه وتعالى، وبالخصوص كلام هذا القرآن، فهي ليست من هواه(ع).

لَوْ أطلت عليك، فإنّ ما وصلنا عنه (ع) كنصائح طبية أو زراعية... ما هي إلا رأيه الشخصي (ع) في الأمور بناء على معطيات زمانه(ع)، وليست من تعليمه تعالى له، إذ حصرا في أمور عرض الدين الإلهي على الناس يتدخّل سبحانه ليصوّب رسوله إن احتاج الأمر للتصويب. ولن ترتفع قيمة الرسول(ع) إن كان عالما باللغات والطبّ والفلك والزراعة... لأنّ هذه الأمور ليست فضلا بل فضلة أمام العمل الصالح والإيمان، إذ فقط هاتان الصفتان ترفعان قيمة الإنسان إلى أعلى المراتب عنده تعالى.

كَمِثَالٍ عن النطق بالهوى، لنقل إنّ شخصا يحبّ التميّز عن بقية الناس بعلمه أو بفهمه أو بمعرفته لأمور يجهلها غيره... فيبدأ باختراع كلام لا يطابق الواقع وغير صحيح حتى ينبهر الناس به، فيصير محترما عندهم، أو من أسيادهم، أو رئيسا عليهم... هنا تخبرنا الآية عن النبي محمّد(ع) حين قال إنّ وحيا من الإله سبحانه ينزل عليه، وهذا شيء كبير جدا جدا، ويقول(ع) للناس إنّ الإله سبحانه قال كذا وكذا... فالنبي محمّد(ع) لا يقول هذا الكلام من هواه أو من مشتهيات خياله ليلفت انتباههم له ويصير مهمّا، لا:

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى{4})

{إِنْ هُوَ}، أي فقط ما يقوله النبي محمّد(ع) لكم، وهو هذا القرآن، {إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى}، فهي معلومات تصل إلى فكره بلا كلام مباشر.

الوحي هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خيرا أم شرّا، وبناء عليه فإنّ كل أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وحيا لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وترى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}، وحتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...}.

ينطبق فعل الوحي على أي كائن كان "إنساناً أو حيواناً أو مَلَكاً أو جنّاً" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم.

طرق فعل الوحي وأنواعه متعددة، منها الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}. ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا}، وما ورد في الآيتين 193 و 194 من سورة الشعراء {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ}. أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ...}، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل كما هو مشهور في تراثنا الديني. ووحي عبر إصداره تعالى صوتا في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، مضافا لها الآية 13 من سورة طه {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}، فكلامه تعالى معه(ع) وحي لأن الكلام ليس صادرا مباشرة منه تعالى إذ هذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، فيصير وصف الحالة أن كلامي يصلك وحيا.

هناك وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} ففي النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

الوحي يصدق على وحي الخير والشر، فالشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا...} ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... وَالْوَسْوَسَةُ في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيرا أو شرا فهو وحي.

نرجع للآية، ما يقوله الرسول محمّد(ع) لكم نقلا عن الإله سبحانه، ليس من عنده وليس من هواه بل هو وحي تلقّاه(ع)، وستكمل الآية لتصوّر لك كيف حصل ذلك.

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى{5})
{عَلَّمَهُ}، تعلّم النبي محمّد(ع) من، {شَدِيدُ الْقُوَى}، من كائن قوي جِدّاً جِداً، وكما تعلم وكما سترى من بقية السورة فَإِنَّ الكلام عن الملاك الذي نقل الوحي الإلهي إلى وعي النبي محمّد(ع)، وهو الملاك "جبرائيل" جبريل(ع)، كما تفهم من الآية 97 من سورة البقرة {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ...}، ومن وصف الآية 20 من سورة التكوير {ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} نعلم أنه كائن ذو قدرات هائلة تمكنه أن يهوي من السماء العالية فَاتِحاً قناة اتصال مع الرسول محمّد(ع)، وبذلك ينقل الرسالة بأمانة من السماء العالية إلى النبي(ع) مباشرة، ولا يستطيع أحد أن يقف في طريقه ليمنعه من تبليغ الرسالة بأمانة، فلا يستطيع أي أحد من الجنّ أو الإنس التدخّل للتلاعب بمحتوى ما ينقله الملاك للرسول...

إلى هنا فهمنا من السورة من أين مصدر المعلومات التي تصل النبي محمّد(ع) "منه تعالى"، وكيف تصل "وَحْياً"، والذي يوصلها {شَدِيدُ الْقُوَى}، فلنكمل:

(ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى{6})
نكمل مع مواصفات الملاك جبريل(ع) الذي علّم القرآن للنبي(ع) ولم تذكر الآيات اسمه لأنه معلوم ومشهور جِدّاً وترى اسمه(ع) جَلِيّاً في الآية 97 من سورة البقرة {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}، فمن الواضح أنها تقصد تنزيله (ع) للقرآن. ومن هنا بدأت الآيات تصوّر لنا كيف يُوصِل الملاك جبرائيل(ع) الوحي من الله تعالى إلى النبي(ع)، وَذَكَرَتْ لنا الصفة التي تتيح لجبريل(ع) فتح قناة للتواصل بين الله سبحانه وبين نبيه(ع)، فَالملاكُ جبريل(ع):

{ذُو مِرَّةٍ}، بالكسرة على الميم، فهو صاحب قدرة على المرور، ومن الواضح أنها تقصد مروره(ع) من السماء العالية "ربما السابعة وربما السادسة..." بين السماوات وُصُولاً إلى أرضنا ليوصل الوحي الإلهي للرسول(ع)، وَهُوَ لديه القدرة على تمرير الرسالة من الله تعالى للنبي(ع) مباشرة، وكيف يحصل ذلك؟:

{فَاسْتَوَى}، أَيْ صار بالتمام في حالة التناسب، وَالملاكُ جبريل(ع) وهو لا يزال في سماء الملائكة العالية اتّخذ وضعية يسيطر فيها على الأمور.

استواء جبريل(ع) ليس جُلُوساً ولا وُقُوفاً في مكان مُحَدَّدٍ، بل هو وضعية لا يمكننا تصورها، لأننا أَصْلاً الآن لا يمكننا رؤية الملائكة كما هي على طبيعتها ولا يمكننا تصوّرها لأن طبيعة تكويننا لا تسمح لنا بذلك... وهذا الاستواء للملاك يسمح له (ع) بالتواصل "غير المباشر" مع الله سبحانه من جهة ومع وعي الرسول محمّد(ع) من جهة أخرى.

(وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى{7})
{وَهُوَ}، الملاك جبريل(ع)، {بِالْأُفُقِ}، بأبعد حدّ، {الْأَعْلَى}، الذي فوق كلّ شيء آخر، فهو في آخر أفق حيث لا أفق بعده.

حين يكون جبريل(ع) بالأفق الأعلى، في آخر السماء، في التي ليس بعدها شيء، في آخر وأبعد ما يمكن الوصول إليه، وكما ترى فَإِنَّ القرآن لم يذكر أنها السماء السابعة ولكننا نحن نخمّن ذلك بالتحليل، عِلْماً أَنَّ كلمة الأفق تشير لعموم ما هو أبعد شيء عنّا، مثلما تنظر إلى البحر، فيكون الأفق حيث نرى السماء تلامس الْبَحْرَ، وهنا في الآية فَإِنَّ الأفق هو أفق السماء التي فيها استوى الملاك(ع)، وليس مَعْلُوماً إن كانت السماء السابعة.

ولا يذهب بالنا لتصور مكان لتلك السماء، فهي لا تشبه أي صورة تَخْطُرُ ببالنا، ولا يخطر ببالنا بأنها بعيدة بترليونات الكيلومترات، وأنه يوجد مسافة طيران بيننا وبينها، لا، فهي في عالم آخر بيننا وبينه نوع من الحواجز، وَعَرْشُ الله سبحانه هو كل السماوات بما فيه عالمنا "كوننا"، وبالتالي حَمَلَةُ العرش ليسوا مفصولين عن عالمنا، وكيف يكونون مفصولين عن عالمنا وهم يحملونه! وَوَصْفُ حملهم له هو حالتهم كموظفين بأعمال تتعلّق بإدارة السماوات والأرض، ولمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 17 من سورة الحاقة {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، وكما أن الله نفسه تعالى اسمه ليس مَفْصُولاً وَبَعِيداً عنا، فسبحانه "في" كل السماوات... وأنت تعلم أن هذا الوصف تبسيط نتساهل فيه كثيراً لأنه تعالى ليس كمثله شيء ولم يصف نفسه أنه في كل مكان بل وصف نفسه بتعابير دقيقة، بالواسع المحيط اللطيف...

وبالنسبة لهذا الاتصال بين السماوات فنحن بشكل عام من جهتنا لا نشعر بالتواصل مع تلك العوالم بسبب وجود الحواجز بيننا، وسيأتي زمن ننفذ فيه من أقطار السماوات كما يفعل الجنّ الآن، وسنتعرّف على تلك السماوات، وهذا ما تقوله الآية 33 من سورة الرَّحْمَنِ {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا...} بل سنتعرض أَيْضاً للشهب إن حاولنا الاقتراب من سماء الملائكة كما تقرأ في الآية 35 من سورة الرَّحْمَنِ {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ}.

ما تصوّره الآيات عن السماوات التي تبدو منفصلة ومتصلة في نفس الوقت "طِبَاقاً" كما تصف الآية 15 من سورة نوح {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}، وتبدو بعيدة وقريبة في نفس الوقت، فهو يشبه ما نقوله في الفيزياء عن تعدّد الأبعاد، فقط يشبهه ولكن ليس مثله، لأننا نعرف "كوننا" عالمنا "تَقْرِيباً" ولكننا لا نعرف تلك العوالم ولا مما هي مؤلفة ولا نعرف طبيعتها وما القوانين الطبيعية التي فيها... وَلَا نعرف الجنّ ولا الملائكة(ع) ولا طبيعة عالمهم، وربما في المستقبل سنتعرّف على عالم الجنّ أو عالم الملائكة بطريقة ما... وحتى ذلك الحين فأي تصوّر نفترضه لكيفية بقاء الملاك جبريل(ع) في الأفق الأعلى ومروره بالسماوات وُصُولاً إلى الأرض، هُوَ مجرد تصوّر تخميني تخيّلي لأننا لم نره، وتصوّره الآيات هنا بأقرب ما يمكننا فهمه باستعمالها لكلمات اللغة العربية البشرية على الوصفية المجردة للكلمات من أي خصائص بشرية أو لمادة كوننا.

(ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى{8})
{ثُمَّ دَنَا}، ثم اقترب الملاك جبريل(ع)، {فَتَدَلَّى}، فتمدَّد نُزُولاً، وَصَارَ "مُمْتَدّاً" بين الأفق الأعلى وحيث تدلّى، مثلما نصف عنقود العنب بأنه تدلّى حيث يبقى مُتَعَلّقاً بالعريشة ولكنه يتدلى وَيَمْتَدُّ نُزُولاً، وسترى من بقية الآيات أن الملاك جبريل(ع) بقي في الأفق الأعلى ولكنه في نفس الوقت دنا وَاقْتَرَبَ وَاصِلاً إلى وعي النبي محمد(ع).

من كلام العرب قَدِيماً لاستعمال كلمة {دَنَا} ومشتقاتها تبدو لمن كان أَصْلاً بينهما مسافة قريبة، وَلَا نقول دنا لمن كان بَعِيداً جِدّاً، فهذا نقول له اقترب، ومثلها كلمة "ابتعد" التي للمسافات الطويلة، وكلمة "نأى" للمسافات القريبة.

(فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى{9})
{فَكَانَ}، الملاك جبريل(ع) وهو في استوائه حيث دنا فتدلّى قَرِيباً من النبي محمد(ع)، {قَابَ قَوْسَيْنِ}، والقاب هو طرف قوس النشاب "النبلة"، الذي يتم استعماله لرمي السهام "النبال"، وَقَدِيماً استعمل العرب كلمة "قاب" للإشارة إلى طرفي قوس النشّاب كوحدة قياس للطول، مثل الذراع والقامة والرمح والميل... وَحَالِياً نستعمل المتر والياردة... وأمّا {قَوْسَيْنِ} فيقصدون بها القوس الأول، القسم الأول من قوس النشاب من المقبض حتى الطرف الذي فيه الوتر، والقوس الثاني من نفس المقبض حتى الطرف الثاني، وعندما تسحب الوتر "الحبل" لترمي السهم، عِنْدَهَا يقترب طرفا القوس من بعضهما، وَلَدَيْنَا قوسان كقسمين منحنيين، من المقبض إلى القاب "إلى طرف القوس" ومن المقبض إلى القاب الثاني، وعند شدّ الوتر يقتربان من بعضهما. وفي الكتب آراء أخرى لشرح هذا التعبير ولم أستحسنها، وعلى كل حال فهذا التعبير {قَابَ قَوْسَيْنِ} كان مَشْهُوراً عند الناطقين باللغة العربية، ويقصدون به قرب المسافة جِدّاً بين شيئين.

{أَوْ أَدْنَى}، أو كان الملاك(ع) أشد اقْتِرَاباً من النبي محمّد(ع) من المسافة التي بين قاب القوسين. يعني لم يحصل تداخل بين تكوين الملاك(ع) وتكوين النبي(ع)، ولم يحصل تماس، بل صار الملاك(ع) قَرِيباً جِدّاً منه (ع) بشكل يلائم وصل فؤاد "وعي" النبي(ع) بالأفق الأعلى.

بهذه الطريقة تمّ فتح قناة اتصال، وَصَارَ الملاك جبريل(ع) "النجم إذا هوى" مُتَّصِلاً بالأفق الأعلى وَدَانِياً لدرجة اتصاله بوعي النبي محمد(ع)، وقرب المسافة كقرب قاب قوسين من بعضهما، وَلَمْ يغادر الملاك جبريل(ع) الأفق الأعلى وفي نفس الوقت وصل لوعي النبي محمّد(ع).

والنبي محمد(ع) أَيْضاً بقي في مكانه على الأرض ولم يتغير تكوينه الجسدي، والملاك جبريل(ع) أَمَّنَ التواصل بين الأفق الأعلى وبينه(ع)، لِأَنَّ تَكْوِينَ الملاك جبريل(ع) يسمح له بالاتصال بالعالمين، عالم النبي(ع) من جهة، والأفق الأعلى من جهة أخرى.

نَنْتَبِهُ جَيِّداً، فَإِنَّ كُلَّ الصور التي تخطر ببالنا عن هذا الاتصال لن تكون صحيحة، لأن الحادثة ليست قابلة للتصور في عقولنا كمشهد فيه كائنات، وحتى بعض الأنبياء(ع) وربما الملائكة ذات القدرات القليلة لا يمكنهم تصور هذه الحادثة، لأنها حادثة خاصة، لشخص خاص وهو النبي محمد(ع) الذي يملك مواصفات إيمانية تؤهله لهذا النوع الفريد من التواصل، وفي الحادثة الملاك جبريل(ع) الذي يملك هذه القدرة التي قد لا تملكها بقية الملائكة(ع)، وهذا ما نعرفه من

الآية الأولى من سورة فاطر {الْحَمْدُ لِلَّهِ... جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ...} فمن الواضح أن الكلام عن فرق القدرات بين الملائكة(ع)، فربما البعض من الملائكة قادرون على فعل الدنو والتدلّي... وربما فقط الملاك جبريل(ع) قادر على ذلك، عِلْماً أَنَّهُ من المشهور في تراثنا الديني وجود ملائكة بقدرات عالية مماثلة لقدرات الملاك جبريل(ع) وَذَكَرَ منهم القرآن بالاسم فقط الملاك ميكال(ع)، ويحوم الشك حول تسمية ملاك النار "مالك" فراجع دراسة الآية 77 من سورة الزخرف التي ورد فيها ذلك، فهنا لا مجال للتطويل في هذا الكلام {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ}.

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى{10})
{فَأَوْحَى}، أَوْصَلَ سبحانه معلومات بلا كلام مسموع، ولمزيد من الدراسة حول كلمة وحي راجع ما ورد في دراسة الآية الرابعة من هذه السورة، {فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ}، إلى محمّد(ع) المفروض منه الطاعة، إِذْ إِنَّ كلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة وَهِيَ مقابل الحرّ، وَالمِلْكِيَّةُ من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

{مَا أَوْحَى}، وهذا التعبير بإبهام محتوى الوحي لا يشير إلى حصول وحي سرّي لم نعلم به، بل يعني أن الوحي بهذه الطريقة تكرّر مِرَاراً، حيث أوحى تعالى لرسوله محمّد(ع) كَثِيراً من المرات بهذه الطريقة عبر الملاك جبريل(ع)، وَالْوَصْفُ هنا لمشهد من تلك المرات حيث أوحى سبحانه فيها ما أوحى، لأن الكلام هنا ليس مهتما بتحديد ما أوحى به تعالى بل بوصف مشهد حصول اتصاله تعالى بعبده ليوحي له، وَمِنْ بقية كلام السورة سترى مقارنة بين هذا الاتصال الحقيقي، وبين كلام المشركين عن آلهتهم من خيالهم من دون أي اتصال فعلي حقيقي بينهم وبينها، فَيَكُونَ كلام النبي محمّد(ع) عن تواصل الإله سبحانه معه عبر الملائكة، كَلَاماً عَاكِساً لأحداث حقيقية رآها وشعر بها، وهذا شيء يفتقده المشركون لأن كلامهم عن معتقداتهم ليس مَلْمُوساً لأي واحد منهم...

كما تعلم، نزل القرآن على دفعات خلال ما يقارب عِشْرِينَ سنة من حياة النبي محمّد(ع)، وفي كلّ مرّة ينزل فيها شيء من القرآن كان الملاك جبريل(ع) يدنو فيتدلّى... ويوحي سبحانه لعبده ما يوحي...

(مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى{11})
إنَّ الصورة المحدّدة التي صارت عند الرسول محمّد (ع) في فؤاده لم تكن كاذبة من الوهم أو الخيال بسبب تأثيرات على وعيه، بل هي صور حَقِيقِيَّةٌ مطابقة للواقع.

بعبارة أبسط: رأى الفؤاد شَيْئاً وَرَآهُ فِعْلاً وَلَمْ تكن رُؤْيَةً كاذبة.

كلمة فؤاد بحسب استعمال العرب لها، ومن تقويم دقة الاستعمال القرآني لها، تشير لما تعيه مما تدركه، وَهِيَ الفكر الواعي لما يصلك، وبتعابيرنا الحالية وَهُوَ الوعي الإدراكي النَّاشِئُ عن الوعي للذات، وَهُوَ قابلية وعي النفس ووعي ما يصلك. وعادة تصلك المعلومات عبر الحواس، عبر عينك، وَجِلْدِكَ، وَأَنْفِكَ، وَأُذُنِكَ، وَلِسَانِكَ... ولديك قابلية وصول المعلومات مباشرة إلى فكرك بدون وسيلة الحواس، كالوحي مباشرة في الوعي، وحيث تصل تلك المعلومات إلى وعيك الإدراكي لها فَهَذِهِ حالة الفؤاد.

خذ مَثَلاً عندما تتعرّض لشيء قوي جِدّاً كخوف شديد أو فقد حبيب... يطيش فكرك، وَلَا تَعُدْ تسمع ولا ترى ما حولك رغم عمل عينيك وأذنيك بشكل طبيعي، وَحَصَلَ هذا مع أم النبي موسى (ع) حين ألقته (ع) في اليمّ كما ورد في الآية 10 من سورة القصص {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا...}، أو عند تعرّضك لسؤال في موقف حرج، أو كما يحصل مع بعض الطلّاب عند تعرّضهم للامتحانات... حيث تطير المعلومات من رأسك في تلك اللحظات... وَالْحَالَةُ التي تصيبك من تلك المواقف ونسميها "فراغ ذهني" هي حالة فراغ الفؤاد بالتعبير العربي الذي تقوّم معناه بدقّة الاستعمال القرآني له، وعند استعادتك للانتباه لما تلتقطه حواسك، فَفُؤَادُكَ عاد للعمل.

هنا الآية تؤكّد أن ما التقطه الوعي الإدراكي "الفؤاد" للرسول محمّد(ع) من الله تعالى عبر الملاك جبريل(ع)، لم يكن رؤية كاذبة بل حَقِيقَةً، حيث فِعْلاً حصل اتصال عبر الوحي من الإله سبحانه وتعالى لعبده محمّد(ع)، ولم يتخيّل

محمّد(ع) هذا الاتصال، ولم يخترعه من أوهامه، ولم يكن أَثَراً وَهْمِيّاً فعلته به الشياطين، ولم ينتج عن خلل في فؤاده... لا، فَفِعْلاً الحادثة صادقة وحقيقية، وسترى معنى هذا الكلام من تكملة السورة بكلامه عن المشركين الذين لم يحصل لأي واحد منهم تواصل ولا بأي شكل مع الذين يعبدونهم من كواكب وملائكة وآلهة اخترعوها...

بقي شيء، نحن لم نتعرّض لهذا النوع من الوحي، وَلَا قدرة لنا على الكلام عنه إلا بالمعلومات التي تصلنا ممن يعلم ماذا يحصل في مثل هذا النوع من التواصل، وَالْآيَةُ هنا تريدنا أن نفهم، أننا كما نَتَأَكَّدُ من شيء ما، لأننا رأيناه بأعيننا ورأينا له أَثَراً مَلْمُوساً مُؤَكَّداً... فَكَذَلِكَ وحيه تعالى لنبيه(ع) بهذه الطريقة يؤمّن يَقِيناً للرسول(ع) بأنه في حالة تواصل "غير مباشر" من الإله سبحانه.

لَوْ أطلت عليك، فَإِنَّ الشياطين تُوَسْوِسُ وتوحي، وَوَرَدَ هذا في الآية 121 من سورة الأنعام {...وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ...} فَهَلْ من الممكن أن تقوم الشياطين بتقليد الوحي الإلهي لأظنّ أنا أن وَحْياً إِلَهِيّاً يصلني بينما الشياطين توحي به؟ بالنسبة لي نعم، لِأَنَّنِي لست بقلب سليم تَمَاماً لأميّز بين الشرّ والباطل والكذب وبين الخير والصلاح والحقّ، حيث إِنَّنِي مُحِبٌّ لسوء ما وراغب به... وكاره لخير ما ونافر منه... وَلَكِنَّ شَخْصاً كمحمّد بْنِ عبد الله (ع) بقلبه السليم، بأساس فكر ونفسية سليمة لتمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ بدقة، سيميّز بين الوحي الإلهي وبين وحي الشياطين. هذا من ناحية المستقبل مباشرة للوحي، ونفس الشيء إيمانك بكلام تسمعه من الذي يدّعي تواصله عبر الوحي معه تعالى، وَبِحَسَبِ درجة سلامة قلبك ستؤمن بما ينقله لك أو تكفر به...

هذا بالإضافة إلى اختلاف درجة ونوعية الوحي الإلهي للأنبياء عن درجة ونوعية الوحي الذي تقدر عليه الشياطين، ولتقريب الفكرة أنا أرى أَمْراً ما أمامي يسير باتّجاه إجباري، كتزويج فتاة جميلة جِدّاً جِدّاً بعجوز قبيح وفقير، وَالنَّتِيجَةُ محسومة: زواج فاشل نهايته الطلاق... ولسبب أو لآخر لم يَرَ الآخرون ما أراه، وحصل الزواج... وَهُنَا الكلام في الآية عمّا رآه (ع) بفؤاده وَمُتَأَكِّدٌ بأنه وحي إلهي، وَهِيَ حالة أتصوّرها بخيالي، ولكني أعلم بالتحليل الفكري أنه (ع) تأكّد فِعْلاً من هذا الاتصال بالمقارنة بين ما يمكن أن أعلمه أنا ولا يعلمه الآخرون لأنهم لم يروه، والكلام هنا عن الإيمان بما حصل مع الرسول(ع) بسبب كلام الحقّ والصلاح الذي أسمعه من الرسول(ع).

ما تجده هنا وهناك في القرآن عن مقارنة محتوى الوحي الذي ينقله لنا الرسول(ع) مع ما يمكن أن توحي به الشياطين، سترى فيه الفرق هَائِلاً، حيث إِنَّ الشياطين لن تأمرنا بتوحيده تعالى وبرّ الوالدين والصدقة... بل ستأمرنا باختراع آلهة وعبادة حجر وعقوق الوالدين والبخل... وَمِنْ ناحيتنا نحن بالمقارنة يمكننا التأكّد من نوعية كلام محمّد(ع) إذا كان من مصدر إلهي، أَمَّا هُنَا فَالْكَلَامُ ليس عن تأكّده (ع) من اتصال إلهي به (ع) من محتوى المعلومات، بل من حالة يرى فيها (ع) بوعيه الإدراكي أُمُوراً تؤكّد له أن الإله عزّ وجلّ يتواصل معه... وسترى مما سيأتي من كلام عن سدرة المنتهى أن الآيات هنا تقصد هذا النوع من التأكّد.

(أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى{12})
{أَفَتُمَارُونَهُ}، هَلْ تقولون كَلَاماً تَافِهاً لتكذيبه (ع) عن شيء حقيقي صحيح صارت عنده (ع) صورة محدّدة له؟!

فِعْلاً وبالحقيقة حصل اتصال عبر الوحي مع الرسول محمّد(ع)، فَهَلْ تقولون له: لم ينزل عليك الوحي، ولم يحصل اتصال بينك وبين الإله تعالى... وهو حصل فِعْلاً؟! وَالْمُمَارَاةُ هي الكلام التافه المضاد لحقيقة راسخة، حيث انطبع اللقاء في فؤاده(ع) فَكَيْفَ تنكرون حصوله وأنتم لا قدرة لكم على الدخول إلى فؤاد الرسول(ع) لتروا إن كان حصل الوحي أم لا؟ وهو يخبركم عن شيء حصل معه فِعْلاً فَكَيْفَ تكذّبونه وعلى أي أساس؟

مثلما ترى شَيْئاً بعينيك وأنت بكامل وعيك، وَتُخْبِرَنِي أن عُصْفُوراً غطّ أمامك وشرب من ماء البركة، واقترب العصفور منك وأطعمته فتات الخبز... فَأَقُولُ لك: لا هذا لم يحصل. وأنت تعلم أنه حصل فِعْلاً! وهذا مثال عن المماراة. وهنا الآية تسأل الذي لم يؤمن بأن النبي محمّدا(ع) أُوحِيَ له: كيف تنكر شَيْئاً هو محمّد(ع) رآه في فؤاده؟ فَهَلْ تقبل أنت منّي إنكاري لرؤيتك لي بعينك؟ وأنك لمستني بيدك وتسمع صوتي بأذنك... فَأَقُولُ لك بأني لست هنا! لِأَنَّ هَذِهِ المعلومات تنتقل من حواسّك إلى فؤادك، وأنت متأكّد منها، فَكَيْفَ أماريك فيها؟!

ننتبه جَيِّداً، لو كان محمّد بن عبد الله قبل ادعائه بنزول الوحي عليه، مَعْرُوفاً عنه في حياته العادية الكذب أو المبالغة أو التخريف... لكان معهم حقّ باتهامه بالكذب، ونحن أَيْضاً يحق لنا اتهامه (ع) باختلاق قصّة نزول الوحي عليه لو وجدنا في هذا القرآن أشياء كاذبة، أو وجدنا تشريعات غير متناغمة مع بعضها، أو فاسدة وسيئة... أو وجدنا سورة في القرآن عن أو باسم زوجته خديجة أو باسم عمّه الذي كفله أبو طالب، أو باسم جدّه الذي كفله وهو صغير عبد المطلب، أو باسم صهره الذي يحبّه علي، أو ابنته الغالية فاطمة أو زوجته عائشة أو ماريا... ولكن لا نجد هذا في القرآن، بل نجد كَلَاماً عن السيدة مريم وابنها وعن امرأة عمران وعن زوجة فرعون... ويوسف وموسى ويونس... عليهم السلام، ونجد في القرآن تَهْدِيداً بأشدّ العقاب لمحمّد إن انحرف! ونجد أَمْراً لمحمّد بالاستغفار! وَطَبْعاً نجد أُمُوراً كَثِيرَةً تؤكّد أن القرآن وحي منه تعالى ولكن أحببت لفت انتباهك لأمور شخصية لا بدّ وأن يظهر أثرها حَتْماً لو كان محمّد هو نفسه أَلَّفَ القرآن.

(وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى{13})
في نزول آخر للملاك(ع) على الرسول محمّد(ع) حَصَلَتْ عند الرسول(ع) صورة محدّدة للملاك(ع) "في فُؤَادِهِ" مرّة ثانية.

من الآيات السابقة فهمنا كيف يحصل الاتصال بين العبد محمّد(ع) وربّه سبحانه عبر الملاك جبريل(ع) حين نزول الوحي بالقرآن "وأمور أخرى"، وهنا ننتقل لرؤية في فؤاد الرسول محمّد(ع) للملاك جبريل(ع) بشكل مميّز عن الحالات التي تحصل فيها الرؤية حين نزول الوحي:

{وَلَقَدْ رَآهُ}، رَأَى النبي محمّد(ع) الملاك جبريل(ع)، {نَزْلَةً أُخْرَى}، فالنزلة بالنسبة لنا هي حطّ الرحال من بعد انتقال، وَحَصَلَ النزول عدّة مرّات، فالملاك جبريل(ع) عادة يكون في سماء الملائكة العالية، وحين يتّصل بالنبي محمّد(ع) فَإِنَّ الملاك(ع) لا يغادر مكانه، بل يدنو متدلّيا من الرسول(ع)، وفي مرّة من المرات حصل هَذَا الشيء بطريقة مميزة.

لَكِنْ قبل أَنْ نتابع عن ذلك نضع في بالنا دائما أَنَّ السورة تريدنا أَنْ نميّز الفرق بين الاختراعات التي يقولها الناس عمّا في السماء من "آلهة" أرباب أو أرواح... وهي من اختراعات أوهامهم، وبين ما يقوله النبي محمّد(ع) الذي رأى فِعْلاً ما هو موجود هناك بحسب قدرة البشر على الرؤية.

نُلَاحِظُ الآيات لم تتحدث عن رؤية النبي محمد(ع) للملاك(ع) على حقيقته كما هو، لأننا نجد من آيات أخرى من القرآن أَنَّهُ لا قدرة لنا كبشر على رؤية الملائكة "كما هي" هنا في الدنيا، أمّا في الآخرة فسنراهم لأن تكويننا سيتغير هناك، وراجع في ذلك دراسة الآية 22 من سورة الفرقان {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا}، أما هنا فيجب أن يتمثّل الملاك بجسد طيني حتى نراه كما حصل في تمثّل الملائكة للسيدة مريم(ع) الذي ورد في الآية 17 من سورة مريم {فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا}، وعلى كل حال فالرؤية التي تقصدها الآيات هنا لم تحصل بالعينين بل بالفؤاد، في مركز الوعي الإدراكي.

(عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى{14})
رأى النبي محمّد(ع) الملاك جبريل(ع)، {عِندَ سِدْرَةِ}، وهذا اسم لنوع من الشجر يحمل فاكهة تشبه حب الزيتون الكبير تسمى النبق "العنّاب والسدر كلاهما من عائلة النبق" ولها طعم حلو ورائحة طيبة، {الْمُنْتَهَى}، فالسدرة موصوفة بأنها في النقطة النهائية التي ما بعدها نقطة، فهي في آخر وأعلى موضع. بعبارة أخرى كَانَ اللقاء الثاني عند شجرة السدر التي في آخر وأعلى موقع.

شَجَرَةُ السدر هنا في الدنيا تكون دائمة الِاخْضِرَارِ صَيْفاً وَشِتَاءً، وكثيرة الورق ولها رائحة طيبة، وبما أن الشجرة التي تتحدّث عنها الآية موجودة في جَنَّةٍ في السماء العالية "كما ستقول الآية التالية" فهذه الشجرة ليست مثل الشجر الخشبي الذي نعرفه على الأرض، فهي لها فروع وتشعبات مثل الأغصان، ولذلك يسميها القرآن شجرة "تسمية على الوصفية". مثل توصيف القرآن لشجرة الزقوم في جهنّم كما ورد في الآية 52 من سورة الواقعة {لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ}، فهي حتما ليست شجرة نباتية من خشب، بل لكونها لها أغصان وفروع وَصَفَهَا القرآن بأنها شجرة، ومثلها وصف

الكلمة الطيبة بالشجرة نظرا لكونها أَصْلاً يتفرّع منها خير كما ورد في الآية 24 من سورة ابراهيم {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ}، وعلى الوصفية نقول عن سلسلة النسب: شجرة عائلة.

ضع في بالك هذا الكلام عن استعمال الكلمات على الوصفية كأساس لاستعماله تعالى اللغة العربية في قرآنه، وسيهون عليك فهم العديد من الكلمات التي حولها لغط كنسبة اليد والوجه له عزّ وجلّ، فالنسبة ليست نسبة تسمية عضو، بل على الوصفية بما تحمله كلمة وجه من التوجّه وكلمة يد من قدرة أو وسيلة لفعل الأشياء، ومثلها كلمة ملاك على الوصفية لكائنات تملك شَيْئاً ما...

(عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى{15})
{عِندَهَا}، عند الموضع الذي توجد فيه سدرة المنتهى توجد: {جَنَّةُ الْمَأْوَى}، والجنة هي عموم أي مكان موصوف بروعة ما فيه، وبالنسبة لنا نحن البشر فهو المكان الذي فيه بساتين وحدائق من شجر وزرع وأنهار وعموم ما يسعدنا، ويدرج في بعض الدول العربية استعمال تصغير جنّة بكلمة "جنينة". وهذه الجنة هنا في الآية ليست للبشر، ففيها الملائكة المميزة جدا كما يبدو من سياق الكلام، وبما أنه في تلك السماء يوجد "شجرة" والمكان رائع مسالم... فصار توصيفه بأنه جنّة. وهي جنّة المأوى، فهي مكان محدّد للبقاء فيه، فتأوي شَيْئاً ما أو يأوي إليها شَيْءٌ ما، وكما يبدو وَاضِحاً من الآيات فتلك الجنّة تأوي نَوْعاً مُمَيِّزاً من الملائكة(ع).

في تلك الجنّة شجرة، واسمها شجرة السدرة على الوصفية لأن لها "بشكل ما" نفس الأوصاف التي نطلقها نحن البشر على شجرة السدر التي نعرفها هنا في الدنيا، من فروع وأغصان وثمار مُتَعَلِّقَةٍ بالأغصان... وهناك ملائكة تأوي إليها "بالتشبيه التخيّلي كما تأوي العصافير للأشجار"، طَبْعاً هي ليست على شكل شجرة يمكن أن تراها بالعين، ولكن وصفها يطابق وصف الشجرة.

هَذَا مثل وصف الشهب لما ترميه الملائكة(ع) على الشياطين، فكلمة شهب واصفة لما له نار أو ضوء يمتد منه، وفي استعمالنا تنطبق على المنجنيق المشتعل، وعلى المشعل في اليد، وعلى الأجسام التي تحترق في الغلاف الجوّي للأرض بسبب سرعة احتكاكها بِالْأُوكْسِجِينِ... وتنطبق على ما ترميه الملائكة على الشياطين في سماء غير سمائنا ومن مواد من غير مواد الطين التي في سمائنا، فرمي الشهب يحدث في سماء غير سمائنا ولسنا نراه...

فهذه الجنّة ليست الجنّة التي يدخلها المؤمنون في الآخرة، بل على الوصفية هي جنّة هنا في الدنيا بما يناسب الملائكة.

دَرَجَ في ثقافات أهل الكتاب عُمُوماً تسمية السماوات بالجنان "Heaven" بِالْإِنْجِلِيزِيَّةِ، فيسمّون السماوات التي فيها الملائكة: جنّة. حَتَّى إِنَّ هذه الكلمة صارت في العديد من اللغات كتعبير عمّا بعد سمائنا، وحتى الفَلَكِيِّينَ العلمانيين الناطقين باللغة الانجليزية والفرنسية... يقولون عن الفضاء الخارجي: جنّة "Heaven". وَسَبَّبَ هذا الخلط في استعمال الكلمات مشكلة في فهم النصوص الدينية، وحتى نحن الْمُسْلِمِينَ صار لدينا خلل في فهم القرآن بسبب استعمالنا غير الصحيح لهذه الكلمة.

مِنَ الْمُنْتَشِرِ بين عموم أهل الكتاب والمسلمين، أَنَّهُ يوجد مكان رائع يدخل إليه المؤمنون بعد موتهم، واسمه جنّة، وهذا معلوم من كتبه ورسله سبحانه. وَأَلْصَقُوا "بضبابية" كلمة جنّة فقط وفقط بذلك المكان، وَأَيُّ نصّ ديني فيه كلمة جنّة صَارَ عند العموم يشير لتلك الجنّة الخالدة! وهذا غلط منتشر بين عموم الناس، فالجنّة كلمة لوصف أي مكان رائع، وبالنسبة للبشر فهو أي مكان فيه حدائق وبساتين وأجواء مسالمة. ولم نعد نستعمل كَثِيراً كلمة جنّة بهذا المعنى لوصف الحدائق والبساتين التي نراها هنا في الدنيا لأننا اخترعنا تُرَاثاً لتلك الكلمة يحصرها بجنّة المؤمنين في الآخرة، ولا يزال الكثيرون يستعملون كلمة "جنينة" للحديقة الصغيرة خلف المنزل، وهي تصغير لكلمة جنّة، وَإِذَا وصفنا مَكَاناً في الدنيا بكلمة جنّة يَذْهَبُ فكرنا بأننا نستعير الوصف من جنّة الآخرة! عِلْماً أَنَّ التوصيف ليس مُسْتَعَاراً بل حَقِيقِيّاً، وَاسْتَعْمَلَهُ القرآن مِرَاراً لوصف بقع على أرضنا، وخذ مَثَلاً ما ورد في الآية 39 من سورة الكهف {وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا}.

من هذه الأمور وغيرها، تطوّر فهم غير صحيح عن جنّة الآخرة، وَانْتَشَرَ الاعتقاد بأنها موجودة الآن! وفيها أموات المؤمنين يتنعمون فيها الآن! وهذا غير صحيح بَتَاتاً، فجنّة الآخرة ستتكّون عند انتهاء الدنيا بتبدّل السماوات والأرض، وعندها ستتشكّل الجنّة في الآخرة، وهناك أماكن أخرى الآن اسمها جنّة ولا علاقة لها بتلك الجنّة الخالدة، فلدي جنينة خلف منزلي، وهناك جنّات منتشرة على الأرض من بساتين وحدائق، وهناك جنّة المقتولين في سبيل الله تعالى هنا في الدنيا والتي لا ندري أي شيء عن طبيعتها... وسيأتي عليها زمان تتبدّل فيه مع تبدّل السماوات والأرض حَيْثُ تنتهي الدنيا وتتشكّل الآخرة... وهنا كما ترى من الآيات ففي الدنيا والآن هناك جنّة في أفق سماء للملائكة(ع)، ولا علاقة لها بالجنّة التي يدخلها المؤمنون في الآخرة.

(إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى{16})
ما زلنا مع وصف السماء التي رأى فِيهَا النبي محمّد(ع) الملاك جبريل(ع)، وهناك في ذلك المكان تُوجَدُ شَجَرَةٌ ومشاهد وأحداث لن نفهمها، لذلك قال الله تعالى بطريقة التلميح:

{إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى}، كما نقول: غشينا فلان، ونقصد أنه أتى إلينا، وَالْوَصْفُ هنا لما يصيب الشجرة من أُوِيِّ الملائكة إليها، فهو شيء يحصل على الشجرة وتجهله أنت أيها السامع لهذا الكلام.

فلم يقل لنا سبحانه ماذا يقترب من السدرة وما الذي يحيط بها أو يحطّ عليها أو ينتشر عليها، وماذا يَجْرِي سَاعَتَئِذٍ، لأن أي توصيف لتلك الحالة لن تسعفه كلمات اللغة البشرية لتوصيفه.

ويمكننا أَنْ نقول إِنَّ الملائكة(ع) تغشى السدرة فتأتي إليها أو تحطّ عليها، وهذا المعنى توحي به كلمة مأوى التي وردت سَابِقاً، ولكن الآية هنا يبدو منها الإغفال لتفصيل ما يحدث عن قصد "ما يغشى"، فيبدو أنه ليس فقط اقتراب الملائكة(ع) من الشجرة، بل الإشارة لما يحصل من الاقتراب... فنحن لدينا كلمات توصّف ما حولنا، وأي شيء جديد سَنَنْحِتُ له "سنلوي صَرْفِيّاً كلمة من لغتنا لتناسبه في المعنى"، أو نخترع له كلمة جديدة، ولكن لو كان في عالم الملائكة(ع) شيء لا نعرفه ولم نسمع به ولا يمكننا التعامل معه أَصْلاً لأنه مناسب فقط لتكوين الملائكة(ع)، فكيف سيصفه القرآن لنا إن كانت كلمات لغتنا تفتقر لأي معنى قريب أو تشبيهي لذاك الشيء؟ ويبدو أنه لهذا السبب اكتفت الآية هنا بالإشارة لحدوث غشيان شيء للشجرة من دون أي تفاصيل أخرى، فَابْحَثْ عنه إن وجدت في القرآن ما يشرحه، أمّا أنا فلم أجد سوى بالتحليل لكلام السورة هنا أنه مشهد يؤكد أنه لا إله إلا الله سبحانه حيث مشهد الملائكة والشجرة "التي رآها النبي محمّد(ع) بفؤاده" يؤكد حصرية ارتباط السماوات والأرض به تعالى، وأنه لا أثر لآلهة أخرى، وَبِالْخُصُوصِ لا أثر لآلهة المشركين...

(مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى{17})
{مَا زَاغَ الْبَصَرُ}، فالقدرة على فهم ووعي الصور حالتها سليمة ولم يصبها زيغان تشويش، وَمَا دخل وعي النبي(ع) فهو مطابق للواقع، حَيْثُ رَأَى النبي(ع) بفؤاده الملاك جبريل(ع) عند شجرة السدر التي في جنّة المنتهى.

وسياق الكلام هنا عن قدرة على البصر بغير العينين، فالكلام عن رؤية بالفؤاد، عن بصر بفؤاد النبي(ع) للشجرة وما يغشاها...

{وَمَا طَغَى}، فلم يَطْغَ بصر النبي(ع) وَلَمْ يَتَعَدَّ حدوده التي يعمل بها بشكل طبيعي، فلم يتخيل، ولم يصب عقله بشيء يجعله يتخيل الأشياء وهي غير موجودة أَصْلاً، يعني بالتأكيد رأى النبي محمد(ع) الملاك جبريل(ع) هناك، ورأى الشجرة والجنّة التي فيها الشجرة، ورأى غشيان شيء ما للشجرة.

(لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى{18})
{لَقَدْ رَأَى}، صَارَتْ عند النبي محمد(ع) صورة محدّدة، {مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى}، من الأمور المميزة المنسوبة للمسؤول عنه من مستوى إلهي. بعبارة أخرى رَأَى (ع) بفؤاده بَعْضاً من أكبر العلامات والدلائل الإلهية، ومن سياق الكلام ترى أنها أمور تدل على عظمته سبحانه.

يُمْكِنُ أَنْ نقول إنَّ خلق النملة بما فيها من أعضاء وتصرفات هُوَ آية أكبر من خلق حبة التراب المؤلفة من مجموعة ذرات، فتكون آية خلق النملة كبيرة بالنسبة لآية خلق حبة التراب. وهنا عندما تقول الآية "آية كبرى" فالمقصود أن ما رآه (ع) هناك بالمقارنة مع أي شيء آخر فهو أكبر.

سنفهم بسهولة ما تقصده الآيات هنا عندما نلتفت لما سيأتي من الآية التالية وما بعدها، فآلهة المشركين هي تخريفات ليس عليها أي دليل، ولم نر منها أي شيء مميّز ولا أي علامة... وفي المقابل رَأَى محمّد بْنُ عبد الله (ع) الملائكة العالية (ع) وسماءهم، فينقل (ع) لنا ما رآه بفؤاده في مقابل ضلال الكافرين وتخريفاتهم وغواهم وهواهم، وهم لم يلمسوا أي أثر من آلهتهم، ولم يلمسوا أي أثر من خارج سمائهم.

ننتبه جَيّداً، فمن ضمن ما أرادتنا الآيات فهمه، أن ما رآه النبي محمّد(ع) هو آخر ما يمكن رؤيته، وأن الملاك جبريل(ع) فتح له(ع) قناة رؤية فُؤَادِيَّةً يصل مداها إلى الأفق الأعلى، حيث لا أفق بعده بالنسبة للبشر، ومرّة من المرّات فتح الملاك(ع) للنبي(ع) رؤية فُؤَادِيَّةً تصل إلى آخر نقطة في ذلك الأفق إلى سدرة المنتهى، وهكذا صار محمّد(ع) وبحدود حواسّه وقدراته البشرية، صار (ع) شَاهِداً بنفسه أنه لا أثر في السماوات العالية لأي شيء مما يقوله المشركون عن آلهتهم... فبفؤاده "بإدراكه الواعي" اطّلع محمّد بْنُ عبد الله(ع) على السماء العالية، ولا يوجد فيها إلا ما أخبرنا القرآن عنه، حيث رأى (ع) الملاك جبريل(ع) وشجرة يغشاها شيء ما... وهكذا نفهم الآيات السابقة كتوصيف مشهد لشيء مركزي يشير لارتباط السماوات والأرض بملائكته سبحانه... ولا أثر لخزعبلات المشركين عن آلهتهم اللات وَالْعُزَّى ولا أي تخريف آخر.

وتذكّر دَائِماً أننا من القرآن نعلم بوجود سبع سماوات، ولكن لا نعلم أي منها هي الحدود الممنوع على الجنّ تخطّيها، والتي يستحيل على البشر تخطّيها عندما سينفذون في أقطار السماوات في المستقبل كما تقرأ في الآية 35 من سورة الرَّحْمَنِ {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ}، وكما ترى فهنا في الآيات وبقية القرآن لم أجد ما يشير إلى تحديد السماء التي فيها شجرة سدر المنتهى، ولربما هي السابعة وربما السادسة...

(أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى{19})

انتهت السورة من الحديث عمّا يراه الرسول محمّد(ع) في السماء العالية وكيف يصله الوحي، وأنه واقع حقيقي يحصل فِعْلاً، فلا هو ضالّ وما غوى ولا ينطق عن الهوى، والآن تنتقل بنا السورة إلى أبرز تخريفات قالها الناس، ومن الواضح ضلالتها وأنها من غوى وهوى الذي قالها، من تخريفاتهم وأوهامهم، وَتَعْقِيباً على ما مرّ سَابِقاً، فسبحانه جعل من محمّد بْنِ عبد الله شَاهِداً على خلو السماء العالية من أي أثر للآلهة التي اخترعها المشركون، فليس هناك إلا ملائكة عالية مطيعة له تعالى...

{أَفَرَأَيْتُمُ}، كما نقول بالعامية: هل شفتوا؟ {اللَّاتَ وَالْعُزَّى}، وهما اسمان لصنمين كان المشركون يعبدونهما، وكانوا يقولون بأن المنحوتات من خشب أو حجر والتي ترمز للّات والعزّى هما رمز لتمثيل مَلَاكَيْنِ أُنْثَوِيَّيْنِ، وَخَلَقَهُمَا الله تعالى وأوكل إِلَيْهِمَا رزق العباد والحماية في الحروب والشفاء من الأمراض... ولذلك كانوا يعبدونها وينحتون أَشْكَالاً لها في الصخر أو الخشب أو من المعدن.

وفي الآية التالية سنتوسّع قَلِيلاً بالكلام عن تخريفات الآلهة التي اخترعها الناس.

(وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى{20})

وعلى سبيل الاستهزاء، وكما نقول باللغة الدارجة بعد أن يفعل أحدهم شَيْئاً قَبِيحاً، ثم يفعل نفس الشيء شخص آخر فنقول له: وأنت الثاني، أنت والآخر. وإذا فعل نفس الشيء شخص ثالث فنقول له: وأنت الثالث، أو: وأنت الآخر. ونقصد بذلك الاستهزاء، يعني: مثلك مثل الأول.

فبعدما ذكرت الآية السابقة الربّين الإلهين الوهميين اللات والعزّى، ذكرت الصنم الثالث واسمه "مناة" بشكل استهزائي، لأنه لا أثر لهم ولا تأثير، فهم مجرد أصنام جامدة منحوتة من الصخر أو من الخشب، وأسماؤها مجرد أسماء وهمية لأشياء لا كيان حقيقي وَاعٍ لها.

نلاحظ في الكتب خَلْطاً وَلَغَطاً في المعلومات عن تلك الآلهة المزعومة "اللات والعزى ومناة"، وعمّن عبدها وأين كانت أصنامها... على كلّ حال، حتى الذين عبدوا تلك الأصنام كان لديهم آراء متشابكة متفاوتة حول مواصفاتها، فكل المسألة تخريف بتخريف وقابلة للتعديل بحسب ما يهوونه... ولكن كلّ المشركين كانوا يعترفون بآلهة الأقوام الآخرين على أنها آلهة حتى لو لَمْ يعتبروها آلهة لهم، وَلَفَتَ القرآن انتباهنا كَثِيراً لهذه النقطة عبر المقارنة بين الله رب العالمين وبين تلك الأفكار الخرافية التخريفية عن آلهة خاصّة لكل قوم، وهنا السورة ذكرت لنا ثَلَاثَةَ نَمَاذِجَ مشهورة من آلهة بالعشرات عبدها المشركون، ولا يهمّ معرفة أي تفاصيل عنها سوى ما أشارت له الآية التالية حول اعتقاد المشركين أنها "اللات وعزى ومناة" بنات له تعالى.

(أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى{21})
{أَلَكُمُ}، أنتم أيها الكفار، {الذَّكَرُ}، الولد الصبي، {وَلَهُ}، لله تعالى، {الْأُنثَى}، البنت؟! أنتم عابدون لتلك الأسماء التي تقولون إنها آلهة، وهي أسماء أنثوية "لات عزّى مناة"، وتقولون إنهن بنات لله عزّ وجلّ، ومن ناحية ثانية فأنتم تعتقدون أن الذكر له قيمة أعلى من الأنثى، فلا تحبّون أن يكون لكم أولاد بنات وتحبّون أن يكون أولادكم ذُكُوراً، وعندما جعلتم لله تعالى أولادا، جَعَلْتُمُوهُمْ إِنَاثاً!

بعبارة ثانية، هم كانوا يقولون إنَّ اللات والعزى ومناة هنَّ ملائكة وهنَّ إناث، ومن المعلوم أن الكفّار "النموذج الذي تتحدّث معه وعنه الآية" كانوا بغالبيتهم يفضّلون الحصول على الأولاد الذكور، هنا يَسْتَهْزِئُ تعالى بهم ويسألهم: طالما أنتم تفضّلون الذكور وتعتقدون أن الابن الذكر أفضل من البنت الأنثى، فلماذا اخترتم أن تكون الملائكة بنات لله تعالى؟ طَبْعاً هذا على سبيل الاستهزاء لترى أنهم هم الضالون الغاوون وليس الرسول(ع).

(تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى{22})
بما أنكم جعلتم القسمة بهذا الشكل: الإناث لله تعالى، والذكور لكم. لماذا تَخْتَرِعُونَ له تعالى أولادا ذُكُوراً، تلك إذا قسمة ضيزى، تقسيم غير عادل لأنكم احتفظتم لأنفسكم بما تعتقدون أنه أفضل! أنتم بغالبيتكم تعتقدون أن يكون لكم أولاد ذكور أفضل من البنات، وعندما قسّمتم أَخَذْتُمْ حِصَّتَكُمْ مما تعتقدون أنه أفضل وهو الذكور، وعندما أعطيتم حصّة لله تعالى أعطيتموه من القسم غير المفضّل عندكم! فأعطيتموه البنات! مثلما لو أعطيتك حصّتك من القمح على الوزن بالتمام، ولكني اخترت لك القمح القديم وأخذت حصتي من القمح الجديد، فالقسمة على الوزن عادلة، فهم لديهم أولاد وجعلوا تعالى له أَوْلَاداً، ولكن هذه القسمة ستكون ضيزى، فقد اختاروا له تعالى ما لا يحبّونه هم لأنفسهم.

تذكّر الفقرة السابقة التي حدّثتنا عن رؤية النبي محمّد(ع) بِفُؤَادِهِ لملاك الوحي(ع) ولعالم الملائكة العالية (ع)، حيث رَآهُمْ (ع)، فصار ما يقوله لنا (ع) عبر هذا القرآن عن الملائكة(ع)، يعبّر عن حقيقة هو (ع) رآها، وهكذا نفهم لماذا لم يكتف سبحانه بالإيحاء للنبي محمّد(ع) في وعيه، بل جعله يرى بفؤاده عالم الملائكة(ع) حتى يكون شَاهِداً ينقل ما رآه بفؤاده للناس، وفي المقابل لدينا أسماء قالوا أنها آلهة، وأنها بنات له تعالى، وهم لم يروها! ولم يحصل أَصْلاً بينهم وبينها أي تواصل! وفوق ذلك كلّه قالوا إنها بنات له عزّ وجلّ! وهذه سخافة وتفاهة ما بعدها تفاهة.

الملائكة(ع) كما تعلم من عموم القرآن، هم مخلوقات لا يمكن رؤيتهم بأعيننا الحالية، إلا إذا تمثّلوا بكيان من مادة عالمنا، كما حصل حين تمثّل الملاك جبريل(ع) للسيدة مريم(ع) كما ورد في الآية 17 من سورة مريم {فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا}، أو كما تمثّلوا عندما استضافهم النبي لوط(ع) كما ورد في الآية {فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ}، هم ليس لهم جسد مثل جسدنا، بل لهم كيان من عالم آخر، وليسوا إناثا ولا ذكورا، وَأَصْلاً لا يتزوجون ولا يلدون، وَأَصْلاً ليس لديهم حواس مثل حواسنا ولا لديهم الرغبات الناتجة عن تكوين جسدنا الطيني، لا يجوعون ولا يعطشون ولا يرغبون في الأكل والشرب ولا يستلذون به ولا يعني لهم أي شيء، ولا المعاشرة الجنسية تعني لهم أي شيء... هكذا تعلم سخافة ما قالوه عن أنوثة الملائكة(ع) أنه مجرّد كلام فارغ اخترعوه من أوهامهم.

كما تعلم، كلمة "ملائكة" هي مؤنّث لفظي، مثل كلمة شمس، فأنت لا تقول: هذا شمس، بل تقول: هذه شمس. عِلْماً أَنَّ الشمس مجرد نجم لا معنى للقول عنه أنه ذكر أو أنثى، ولكن لفظ الكلمة باللغة العربية يعطي معنى الأنوثة، فقط لفظ

الاسم، ولا يعبّر فِعْلاً عن أي حقيقة ولذلك نسمّي هذا النوع من الأسماء بأنه تأنيث لفظي أو مجازي وليس تَأْنِيثاً حَقِيقِيّاً، مثل كلمة هذه: شجرة وردة ملعقة مدفأة رجال... والتأنيث الحقيقي هو ما عبّر عن حالة أنثوية، كامرأة ولبوة وهرّة...

بالنسبة للملائكة، لا نقول أنهم ليسوا ذكورا ولا إناثا، لا، بل هم مخلوقات أَصْلاً لا معنى للذكورة والأنوثة بالنسبة لطبيعة تكوينهم.

ننتبه دَائِماً أَنَّهُ تعالى سخر من الذين يفضّلون الذكر على الأنثى، ولا فرق بين الذكر والأنثى عنده تعالى إلا بالتقوى، وترى ذلك في العديد من الآيات منها ما ورد في الآية 195 من سورة آل عمران {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ...}.

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم)
{إِنْ هِيَ}، أي اللات والعزّى ومناة، {إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا}، فهي مجرد كلمات باللغة العربية تعبّر عن أسماء سميتموها، {أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم}، مثلما يخترع الناس شخصيات وهمية كأسماء أبطال القصص والأساطير... ففي الحقيقة يوجد إله واحد أحد فقط، واسمه الله عزّ وجلّ، واختراعهم لأسماء آلهة لن يعني أي شيء، فلن يصير لها وجود حقيقي إذا اخترعوا لها أسماء وصفات وادّعوا بأن لها كِيَاناً إِلَهِيّاً.

ننتبه جَيِّداً، فهذه الأسماء جزء من حياتهم، حيث فتحوا أعينهم على الحياة وسمعوها منذ صغرهم، فبدل اتّباعهم لسلامة قلبهم ورفض الخرافات مثلما رفض النموذج إبراهيم(ع) ومحمّد(ع) الخرافات، تماشوا معها بهواهم السيّء، وترسّخت عندهم، وصارت تعبّر عن حقيقة ملتصقة في فكرهم ونفسيتهم، عبر الدعاء لها والنذور لها والحلفان بها... واقامة المناسبات والاحتفالات باسمها عبر ما توهموه أنها حققته لهم فرزقتهم وربّحت تجارتهم وشفتهم من الأمراض... ولم يسألوا أنفسهم من أين جاءت هذه الأسماء وإن كانت فِعْلاً تعبّر عن شيء حقيقي واقعي! بينما الرسول محمّد(ع) لديه علم حقيقي، فقد نزل فِعْلاً عليه الوحي من الإله الله سبحانه وتعالى، وقد جعله تعالى يرى بفؤاده السماء العالية والملاك العالي جبريل(ع)... فتريدك السورة أن ترى الفرق بين كلام محمّد (ع) المستند إلى معاينة وإلى مشاهدة، ورغم ذلك اتهامهم له (ع) بالضلال والغوى والنطق عن الهوى، وبين ما اخترعوه هم من آلهة من خيالهم، فهل هناك أوضح من سخافة من عبادة الحجر على أنه يمثّل الإله؟ أو سخافة اختراع بنات آلهة له تعالى؟

(مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى{23})
{مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ}، لم يأت منه تعالى أي شيء يثبت أن هذه الأسماء هي لكائنات بنات له تعالى، فلو نزل من عنده تعالى تأكيد بذلك لكان سُلْطَاناً، لكان شَيْئاً قَوِيّاً يمكن الاستناد عليه، فكما نقول بأن صاحب الحقّ سلطان، ونقصد أنه يستند لشيء قوي جِدّاً لأن الحقّ معه، فهنا هذه الأسماء لم ينزل من عنده تعالى شيء يؤيد صحّتها.

بعبارة أخرى، الإله سبحانه يعلم نفسه ويرى كلّ شيء، وهو الذي خلق كل شيء، ولا يرى سبحانه من حوله أي إله غيره، ويقول لنا بأن الملائكة(ع) ليسوا آلهة وليسوا بناته، "وليسوا إناثا من أصله". وليس عنده تعالى ملاك له اسم "لات، عزى، مناة". فكل كلام الكفّار هو تخريف واختراع لا أصل له.

{إِن يَتَّبِعُونَ}، هم على، {إِلَّا الظَّنَّ}، على اعتقاد لا يستند إلى علم صحيح، لأن أقوالهم عن آلهتهم ومعتقداتهم بها بناءً على ما سمِعوه وتعلّموه من آبائهم، وهذا ليس بِعِلْمٍ يَقِينِيٍّ بل مجرد ظنّ، فآباؤهم الذين أخبروهم بذلك ليسوا مرسلين منه تعالى، ولم يستندوا لأي شيء صحيح، بل اخترعوها من خيالهم.

"الظنّ" هو اعتقادك بشيء ما مستندا إلى شيء ما، فإن كان ما تستند عليه صحيحا كان ظنّك صحيحا، وهذه حالة المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم سبحانه كما ورد في الآية 46 من سورة البقرة {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، فهم مستندون في ظنّهم على آياته وكلامه تعالى. وإن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران {...وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ...}، فاستنادا للحالة الحرجة التي كانوا فيها ظنّوا أنه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء. وبين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند عليها ولكنه ليس مقتنعا بها، فلا تزال الأمور عنده مرجّحة لاحتمالات أخرى، فهذا

ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}، فهم يريدون أن يلمسوا مباشرة حصول ساعة قيامهم من الموت حتى يعتقدوا بها ولا يكفيهم الاستناد إلى معلومات تدلّ عليها، فيريدون اليقين بها عيانا حتى يؤمنوا. وهذه الحالة قريبة جِدّاً من الاصطلاح "في علم المنطق" والدارج لمعنى كلمة ظنّ على معنى وجود عدة احتمالات. وها قد صرت تعلم المعنى اللغوي الأساسي لكمة "ظنّ" فانتبه للفرق بينه وبين المعنى الاصطلاحي حتى لا تفسّر القرآن على أساس المعنى الاصطلاحي.

ستجد في عموم كتب التفاسير كَلَاماً آخر عن الظنّ، ولا ينطبق معناه على كلّ آيات القرآن، فستجدهم لا يثبتون على معنى واحد للظنّ، حيث مرة يرادفونه باليقين، ومرّة بالشك، ومرة بالحسبان... وهي معاني غَالِباً ستجدها صحيحة لأن الآيات واضحة وتدل على المعنى الذي ذكروه بالشكل العمومي الذي يتحمله الاشتقاق والتدرّج من أصل معنى كلمة ظنّ، ولكنها ليست المعنى الدقيق لكلمة ظنّ، بل كلامهم توصيف لحالة العلم الذي استند إليه الظنّ، وها قد صرت تعلم معنى الكلمة العام، وأن القرآن دَائِماً يوضّح لك نوع العلم الذي يستند الظنّ له إن كان صحيحا أو فاسدا، فلن تضيع في معرفة الظنّ الصحيح من الظنّ الخطأ.

هنا في الآية هم يستندون لما سمعوه من الناس وما رأوه من منحوتات وعلى أساسه يقولون إنَّ مناة واللات والعزّى بنات له عزّ وجلّ، فهذا ظنّ يستند لعلم غير صحيح.

يتّبعون الظن، ويتّبعون، {وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ}، ما ترغب به وتشتهيه أنفسهم حتى لو لم يكن صحيحا وسليما. فهم لسبب أو لآخر، لديهم هوى فلديهم رغبة في أن تكون آلهتهم من الإناث، فاكتفت الآية بالتعبير عن هواهم الذي جعلهم يقبلون فكرة وجود إناث بنات له تعالى، وتركت لك ما هو واضح جِدّاً لتفهمه لوحدك، فهم لا يحبون أن يكون لديهم أولاد إناث، لأنهن ضعيفات ولا يمكن الاعتماد عليهن كقوّة قتالية في المجتمع الذي يحصل فيه شجار وقتال وغارات وحروب... وإذا تزوجت البنت تحكّم بها الزوج وصار أبوها واخوتها في موقف ضعيف أمامه... وهذه الأفكار كما ترى مبنية على مجتمع أفراده فاسدون منحطّون أَخْلَاقِيّاً وَاجْتِمَاعِيّاً، والقيمة فيه للقوي، ولكن من جانب آخر فهم يحبون الإناث للنظر إليهنّ ولمعاشرتهن... ولذلك عبّرت الآية عن عموم "هواهم" الذي دفعهم لقبول فكرة كون البنات له تعالى ولهم الصبيان.

لا وجود لبنات له تعالى، وَأَصْلاً لا وجود لملائكة بنات! ولا وجود للأسماء التي اخترعوها! وهذا الاختراع الوهمي لبنات للإله عزّ وجلّ قد وافق هواهم فقبلوا به!

{وَلَقَدْ جَاءهُم}، لهؤلاء الذين اخترعوا آلهة من الأوهام، أتاهم، {مِّن رَّبِّهِمُ}، من المسؤول عنهم من مستوى إلهي، {الْهُدَى}، الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، وصلتهم العقيدة "والشريعة" الصحيحة عن توحيده تعالى والتي توصل لرضاه تعالى وجنّته، ورغم ذلك رفضوها وأصرّوا على ضلالهم!

(أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى{24})
{أَمْ لِلْإِنسَانِ}، للكائن البشري الذي فيه طبيعة منتشرة في غالبية أفراده، {مَا تَمَنَّى}؟! وَإِذَا أحبّ ورغب في حصول شيء كان مُسْتَبْعَداً حصوله، فهل مجرّد رغبته به تجعله يحصل عليه؟!

ضع في بالك دَائِماً أَنَّ القرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عُمُوماً ذَكَراً وَأُنْثَى، وأنهم يتناسلون... أو مُتَعَلِّقٍ بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

هُمُ المشركون بسبب اتّباعهم لهواهم تمنوا فأحبوا ورغبوا أن يَكُونَ له تعالى بنات، واخترعوها وَأَعْطَوْهَا أسماء وعبدوها ونحتوا لها الأصنام... على أساس أَنَّهُمْ صاروا تابعين لها وهي ستعتني بهم أينما كانوا وفي كل الظروف... فهل هذا سيغيّر أي شيء؟! فهل فِعْلاً سيصير لتلك الأسماء وجود حقيقي؟! وهل فِعْلاً سيصير له تعالى بنات وآلهة؟!

بالطبع لا، لن يتغيّر أي شيء. وبعبارة أبسط: هل إذا تمنيت شَيْئاً ما فَإِنَّ مُجَرَّدَ تمنّيه سيجعله حقيقة؟ لا، فالأماني لا تغيّر الواقع.

من هنا لِنَدْخُلَ على شيء تعلمناه من مفهوم كلام سورتنا هذه، حَيْثُ تُلَاحِظُ تركيز السورة على ما هو حقيقي وما هو وهمي، وتلفت انتباهنا لمن تعلّق بالوهميات، وتشرّبت مع حياته، وصارت من المسلمات البديهيات التي لا يناقش ولو لمحة في صحّتها، وهي في أساسها أمور وهمية نبعت من الهوى والأماني، فإن كان وَاضِحاً جِدّاً لك سخافة وتفاهة هذه الطريقة بالتفكير، فانتبه إن كنت وَاقِعاً بها في دينك! حَتَّى لو كنت مُسْلِماً فهذا لا يعني أنك خَالٍ من تلك التفاهات، وليس في القرآن ولا فيما قاله فِعْلاً الرسول محمّد(ع) تفاهات، بل توجد التفاهات فيما اخترعه الناس في العقيدة والشريعة والسلوكيات، ففي المذاهب والطوائف الْإِسْلَامِيَّةِ التي يختلفون بها عن بعضهم فِيهِمْ تفاهات وسخافات، طَبْعاً سيقوم ما ترسّخ في ذهنك من تفاهات بتحويل الكلام إلى المخالفين لك، فستقول: نعم هناك تفاهات وتخريفات في المذاهب الْإِسْلَامِيَّةِ ولكن مذهبي هو السليم والآخرون مذهبهم فيه اتباع لِلْهَوَى والأماني...

يا عزيزتي ويا عزيزي إِنَّ مصيبة المصائب هي تحويل الكلام وتوجيهه نحو الآخرين، فقف ولو لمرة واحدة وفكّر فيما أَنْتَ عليه ويخالفه الآخرون، فربما كان معهم حقّ، وربما هم فِعْلاً مخطئون في شيء ما ولكن أنت بالتأكيد أَيْضاً مُخْطِئٌ في شيء ما، وأول الأخطاء هو اعتبارك نفسك على مذهب أو على مدرسة... فلا يوجد في القرآن إِلّا الْإِسْلَامُ له تعالى من آدم(ع) إلى يوم الدين، وممنوع علينا التمذهب والتفرّق، ولن أطيل عليك، وأرجوك أن تدع الهالة القدسية لما أنت عليه ولمن سبقك عليه... وأن تفكّر فيما أنت عليه إن كان من الهوى والأماني أم من القرآن الوحي النازل من الإله عزّ وجلّ على محمد بْنِ عبد الله(ع)، وإلا فنهايتك المحاسبة مع من اتخذ إلهه هواه وكان دينه أمانيه والهوى.

(فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى{25})

{فَلِلَّهِ} تعالى، لِصَاحِبِ هذا الاسم المحدّد المميّز "الله"، {الْآخِرَةُ}، التي ستأتي بعد انتهاء هذه الدنيا، فهي منسوبة له تعالى في ملكه وتحت سيطرته وله حرية التصرّف بها، وله تعالى، {وَالْأُولَى}، التي نحن فيها الآن، الدنيا.

فالهوى والأماني لا يغيران أي شيء، فحتى لو كل البشر من أولهم لآخرهم حدّدوا إِلَهاً غير الله تعالى وأعطوه اسْماً وقالوا إِنَّهُ الإله المالك المسيطر... فهذا سيكون عن هواهم وأمانيهم ولن يغيّر في الحقيقة أي شيء، وسيبقى كلّ شيء كما هو، فَقَطِ الإله الذي اسمه الله عزّ وجلّ هو المالك المسيطر الحقيقي من مستوى إلهي لكل ما هو الآن "الأولى الدنيا" ولكل ما هو بعدها "الآخرة" التي ستأتي بعد تبدّل الدنيا.

(وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى{26})

{وَكَم مِّن مَّلَكٍ}، كَمْ من كائن يوصف بأنه يملك شَيْئاً ما يختص به، والكلام عن الملائكة العالية التي تملك قدرات هائلة لا تملكها بقية المخلوقات، وتلك الملائكة التي محلّها، {فِي السَّمَاوَاتِ}، فيما علا أرضنا والتي عددها سبع سماوات كما نعلم من الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ...}، فهي مليئة بالملائكة(ع) وبعض الملائكة(ع) قدراتها هائلة "كجبريل وميكال وملك الموت والملك النافخ في الصور..."، وبعضها قدراته أقل بكثير كالملائكة المساعدة لملاك الموت في توفّي الأنفس... والملائكة المرافقة لنا لتسجيل الحسنات والسيئات... وترى اختلاف قدرات الملائكة في الآية الأولى من سورة فاطر {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ}، وترى ملائكة ذات وظائف عادية كما في الآية 32 من سورة النحل {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ...}، وفي الآية 17 من سورة ق {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ}.

فالآية هنا تشير للملائكة الذين خلقهم سبحانه بقدرات عالية جِدّاً جِدّاً، ورغم قيمتهم العالية وامتلاكهم لتلك القدرات، {لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً}، فإذا قرّر تعالى أن يعذّب أَحَداً ما، فتلك الملائكة أَصْلاً لا يمكنها منع حصول التعذيب ولن تنفع شفاعتها، وساطتها باستخدام القيمة المعنوية، فحتى لو طلبوا منه تعالى ألّا ينفّذ العذاب فطلبهم سيبقى مجرد طلب مستواه شفاعة، فلا يمكنهم ولا بأي شكل أن يفرضوا عليه تعالى توقيف العذاب عن شخص ما، {إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ}، فإذا سمح تعالى بحصول الشفاعة فسيكون لها أثر، {لِمَن يَشَاءُ}، فمن بين الناس الكثيرين الذين تشفع لهم

الملائكة(ع) فأمامه تعالى خيارات ليسمح بجريان الشفاعة في هذا أو منعها عن ذاك. وأنت تعلم أن مشيئته تعالى ليست عبثية أو مزاجية، أَخْبَرَنَا سبحانه عبر قرآنه مِرَاراً وَتَكْرَاراً أنه تعالى قرّر قبول الشفاعة في المؤمنين الذين لم يرتكبوا الجرائم الكبيرة، {وَيَرْضَى}، والشفاعة لمن يقبل سبحانه مع الموافقة على حصول هذا وذاك من الناس على الشفاعة.

إذاً تُرِيدُنَا السورة أن نفهم أن المشركين حين اخترعوا "آلهة وَأَرْبَاباً" بنات له تعالى، وجعلوا لها قرارات وسلطة مستقلة عنه تعالى، وتقرّبوا منها بالنذور والعبادة والاحترام والتقديس... واعتبروا أنه صار بينهم وبين بناته عزّ وجلّ علاقة مميزة، وستتدخّل تلك البنات لمساعدتهم في أمورهم... وَتَمَاشِياً مع التراث الديني الإلهي جَعَلُوا الملائكة بنات له تعالى... هُنَا السورة انتهت من الردّ والتنبيه على هذه الاختراعات الوهمية وانتقلت لما هو حقيقي وعرضته بشكله الصحيح، وأكّدت أنه يوجد مخلوقات مميزة جِدّاً بقيمة عالية وبقدرات عالية، وَصَنَّفَهَا بعض الناس أَنَّ صفاتها إلهية، عِلْماً أَنَّ تلك القدرات هي لا شيء بَتَاتاً أمام قدرات الله عزّ وجلّ، فحتى لو قست قوتك أنت على قوة بعوضة، وقلت إِنَّهُ فرق شاسع، فالفرق أوسع وهائل جِدّاً جِدّاً بين قدراته تعالى وبين قدرات كل بقية المخلوقات مجموعين مع بعض ومعهم الملائكة العالية.

وتلك الكائنات "الملائكة" فِعْلاً لديها أعمال تقوم بها في عالمنا، ولكن ليس لها أي سلطة إلهية ولا أي سلطة فوق سلطته تعالى، ولا يمكنها فرض قيمتها المعنوية عليه تعالى... وأبرز مثال على ذلك الشفاعة، وهي عموم استخدام القيمة المعنوية أو السلطوية لتغيير الظروف نحو الأحسن، أَصْلاً وبالأساس سبحانه يقرّر مصيرنا والملائكة لا علاقة لها بذلك، وإن تدخّلت فلها الشفاعة، أَقْصَى ما هو متاح لها لتفعله أن تتوسّط لإنسان ما ليغفر له تعالى، وحتى هذه الوساطة "الشفاعة" ليست مثل حقّ النقض "الفيتو"، لَا يمكن للملائكة فرض ما تريده عليه تعالى بَلْ يمكنها فقط الطلب منه تعالى، وسبحانه يأذن لها أو لا يأذن، ولن تجري شفاعتهم إلا على من رَضِيَ تعالى عن إجراء الشفاعة عليه، وأنت تعلم أنه تعالى رَضِيَ بإجراء الشفاعة على ضعفاء الإيمان الذين لم يرتكبوا الجرائم الكبيرة...

تذكّر دَائِماً أَنَّ آيات القرآن التي تحدّثت عن الشفاعة تَنَاوَلَتْهَا من عدّة جوانب أهمّها نفي الشفاعة لأي مخلوق كحقّ مفروض ملزم "مرغم" للإله سبحانه وتعالى، كحقّ النقض "الفيتو"، وتقرأ ذلك في الآية 255 من سورة البقرة {...مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ...}، فلا تتصوّر أن مَلَاكاً أَوْ شَخْصاً من خيرة المؤمنين يملك حقّ الشفاعة وسيفرض تنفيذها على مجرم لينقذه من العذاب، فيضرب رجله بالأرض "يحتجّ معترضاً" ويقول: معي حقّ الشفاعة وأريد أن يدخل فرعون إلى الجنّة. هذا شيء لا يمكن أن يحصل لأنه لا أحد يمكنه فرض أي شيء من أي نوع عليه تعالى.

وهناك آيات أخرى أكّدت على وجود شفاعة من الملائكة (ع) والمؤمنين من الدرجة العالية للمؤمنين من الدرجة المنخفضة، وكمثال عن ذلك الآية 28 من سورة الأنبياء {...وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ}، فالشفاعة تتنفّذ بعدما يسمح الإله سبحانه بها، فضمن القرار الإلهي الأساسي يوجد أشخاص على ميزان العدل المستقيم يجب أن يتعذّبوا حَتْماً، ولكن القرار الإلهي فيه رحمة، فمن ابتعد عن الشرك والكبائر كقتل الأبرياء والزنا... قَرَّرَ له تعالى أن يكون له مخرج من العذاب، فسمح بالشفاعة له، أمّا المشركون والمرتكبون للكبائر من السيئات فلا تنفعهم الشفاعة كما ورد في الآية {وَاتَّقُوا يَوْماً لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ...}، فنفي الشفاعة هنا يقصد فعلنا لما نريد واعتمادنا على الشفاعة.

والجانب الثالث من الشفاعة الذي تجده في بعض الآيات هو نفيها عن الآلهة التي اخترعها المشركون، فآلهتهم الوهمية التخيلية أو التي لها كيان كملاك أو إنسان أو جِنِّيٍّ، لَا قدرة لهم حتى على الوساطة عنده تعالى للعفو عَمَّنْ عبدهم، وعادة سياق كلام هذا النوع من الآيات ليريك أنه تعالى وحده الإله وَأَنَّ الآخرين ليس لهم سلطة من مستوى إلهي بل حتى ليس لديهم القدرة على فرض قيمتهم المعنوية عليه تعالى، وكمثال عن ذلك الآية 51 من سورة الأنعام {وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}، فسبحانه وحده بسلطته يشفع ويسمح بالشفاعة. والآية 13 من سورة الروم {وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ}، حيث كان الكلام عن الذين أشركوهم معه تعالى في الألوهية، وسبحانه لا شريك له، فهم بينهم وبين آلهتهم شراكة وهمية بين عبد وإله، وفي الآخرة آلِهَتُهُمْ شريكتهم في مسألة عبد وإله لَا قدرة لها لتشفع لهم... والآية 43 من سورة الزمر {أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ}، وهذه شاملة لكل أنواع الآلهة التي اخترعوا ألوهيتها، فحتى

لو كان لها فِعْلاً كيان ولم تكن وهمية كإله الخمرة وإلهة الحبّ، فكانت مَلَاكاً أَوْ إِنْسَاناً أَوْ جِنِّيّاً، فهؤلاء لا يملكون شَيْئاً من مستوى إلهي، وهناك آلهة وهمية أَصْلاً لا تعقل، كالأصنام والآلهة الخيالية.

إذاً، عِبَادَةُ الملائكة "الكائنات ذات القدرات العالية والمقرّبة منه تعالى"، الذين يمكنهم أن يشفعوا بسبب مكانتهم العالية عنده تعالى، فَإِنَّهُمْ لا تنفع شفاعتهم من دون إذنه تعالى، فهم ليس لديهم استقلالية وفرض قرار عليه تعالى، ومن عبدهم ليحصل على شفاعتهم أَصْلاً هُمْ يخجلون مما يقوله عنهم، ويخافون عقابه تعالى إن كان لهم مساهمة ولو بمقدار شعرة في عبادة الكافرين لهم... ولو فرضنا أنهم شفعوا لكافر، وهذا الافتراض لن يحصل، فلن يأذن تعالى بتلك الشفاعة ولن يكون لها أي أثر.

المشركون عُمُوماً لا يؤمنون بوجود آخرة وحساب، ويؤمنون أَنَّ آلهتهم تشفع لهم هنا في الدنيا ليحصلوا على الصحّة والقوّة والمال... وهم يقولون: إذاً، إذا صدق محمّد وكان فِعْلاً يوجد آخرة، فآخرتنا مضمونة لأن الذين عبدناهم سيشفعون لنا. وهذا شيء قرأناه في العديد من آيات القرآن، وقرأنا الردّ عليه مُفَصَّلاً، ومنه كمثال ما ورد في الآية 36 من سورة الكهف {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقَلَباً}، وهنا الآية تؤكّد الردّ على هذا الكلام الفارغ.

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى{27})

{إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}، إن الذين لا يعلنون اعتقادهم، {بِالْآخِرَةِ}، بالحياة التي ستأتي في الآخر بعد هذه الحياة التي نحن فيها الآن، هؤلاء بسبب كفرهم بحياة أخرى وحساب وجزاء لَدَيْهِمُ الجرأة، {لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى}، حَيْثُ إِنَّهُ في اعتقادهم لا تُوجَدُ آخرة يخافون منها، وَلِذَلِكَ كان لديهم الجرأة على اختراع أسماء أنثوية للملائكة كاللات ومناة وَالْعُزَّى... ولو حسبوا حِسَاباً للجزاء في الآخرة على أعمالهم لما تجرّؤوا على اختراع أسماء أنثوية للملائكة(ع).

كما ترى، إِنَّ تسمية الملائكة بأسماء أنثوية خطأ لأنهم ليسوا إِنَاثاً، وَهَلْ هذا شيء يستحقّ العقاب حتى تقول الآية هنا بأنهم لو كانوا يؤمنون بِالْآخِرَةِ لما أطلقوا عليهم أسماء أنثوية؟ نعم يستحقّ العقاب، إِذْ إِنَّ المسألة ليست مسألة تأنيث ما ليس مؤنثا، بل الكذب وتكذيب ما يقوله تعالى عبر رسله وكتبه بأنهم ليسوا بنات له تعالى وليسوا آلهة وليسوا إِنَاثاً أَصْلاً، وَالْمُشْكِلَةُ فيما ينتج عن هذا الكذب من عقلية مستهترة بالحقائق وُصُولاً إلى نسبة الملائكة كبنات له عزّ وجلّ، وُصُولاً إلى اعتبارهم آلهة وَأَرْبَاباً وعبادتهم...

اَلْمَوْضُوعُ ليس مثل اختلافي معك على عصفور نراه وأنت تقول بأنه ذكر وأنا أقول بأنها أنثى، بل على كائنات لا قدرة لنا على التواصل معها لمعرفة جنسها، والسبيل الوحيد لذلك هو عبر كلامه تعالى، وَحِينَ قالوا بأن الملائكة إناث فَكَذَّبُوهُ تعالى حيث يقول بأنهم كائنات مختلفة عن الحيوانات الطينية وليسوا ذُكُوراً ولا إِنَاثاً ولا يتزاوجون... وهذا التكذيب نتج عنه نسج عقيدة دينية بنسبتهم كبنات له تعالى وكآلهة وَأَرْبَابٍ...

بَعْضُ المنتمين لدينه تعالى تَنْتَشِرُ بينهم تماثيل وصور دينية للملائكة على شكل رجل أو ولد أو أنثى لهم أجنحة، على أساس أنها تعابير رمزية للملائكة... وهذه الأشياء نابعة من مخيلة الناس ولا علاقة لها بالواقع، وحتى لو قالوا بأنها رمزية ولا يقصدون بها تصوير الواقع، ففعلهم هذا فيه مشكلة لأن الصور ترسّخت في عقول الناس، وصرنا بحاجة لتقويم الصورة الحقيقية، إِذْ إِنَّ الملائكة ليس لها أجنحة من الريش كالطيور، وَأَصْلاً ليس لها أجنحة للطيران، وَأَسَاساً ليس لها جسد طيني! وتعبير الجناح الذي ورد في القرآن "وعلى ما يبدو في الكتب الإلهية السابقة" كَانَ يشير للقوة والقدرات، مثل الجناح العسكري للدولة، حيث نقصد قوّتها القتالية، وراجع في ذلك دراسة الآية الأولى من سورة فاطر {...جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ...}، ومن جانب آخر إِنَّ تصوير الملائكة(ع) على شكل إناث يَنْبَعُ من هوى الراسم والنحّات... وحتى تصوير الملائكة على شكل رجل فيه مشكلة لأن الملائكة لا جنس لها.

هناك شيء من المفيد الكلام عنه هنا، حَيْثُ في كتب يقولون إِنَّهَا بحثية عن تاريخ الأديان، تجدهم يقارنون بين دينه تعالى وبين الأديان التي اخترعها المشركون، وهذه المقارنة ظالمة لأنهم لا يفصلون بين كلامه تعالى، وبين كلام المنتمين لدينه، وَمَا فعله بعضهم من قولهم عن النبي عيسى(ع) أنه ولد له تعالى، لَمْ يفصله أولئك الباحثون عن دينه

الأصلي سبحانه، وَشَبَّهُوا هذه النسبة للولد له تعالى بعقيدة نسبة البنات والصبيان له تعالى، كأبولو وفينس والعزّى ومناة...

تَرَاهُمْ في أبحاثهم يجعلون أصل الأديان من اختراع بشري ساذج وطفولي للآلهة، ونابع من جهلهم لأسباب المطر والبرق والرعد... وَصَارَ لدى الناس إِلَهٌ للمطر وآخر للرعد والبرق... وقالوا إنَّ التقليد التطوّري لهذه العقيدة هو اختراع إله واحد وإلغاء بقية الآلهة... وَالْقُرْآنُ دخل إلى هذه المواضيع وتحدّث عنها، مُنَبِّهاً للفرق الهائل بينه تعالى كإله أرسل الرسل وأنزل الكتب، وتدخّل بشكل واضح لإهلاك أقوام كافرة ولنجاة المؤمنين... وهذه حوادث ممتدة لآلاف من السنين وعلى نفس المنوال بلا أي تغيير في العقيدة وأساسيات الشريعة، وما نبذ من شواذ في عقائد وتشريعات بعض المنتمين لدينه تعالى فَأَشَارَ لهم القرآن صَرَاحَةً وَنَبَّهَ لفسادهم...

سَأَخْتَصِرُ لك الكلام لأنتقل إلى ما يهمّنا في سورتنا هذه، والتي ترى منها بوضوح الفرق بين الحقيقة والخيال، حَيْثُ في الحقيقة يوجد كائنات تملك قدرات عالية "الملائكة"، وتكوينها مختلف عن تكويننا، ولها مكانة عالية عنده تعالى، وَهِيَ تشفع... وما اخترعه الناس من مسخ لصفات وأسماء ونوعية تلك الكائنات، فهو الدخيل، حَيْثُ مسخوا وحرّفوا هذه المعلومات التي وصلتهم منه تعالى، واخترعوا منها نسخة خاصّة بهم من هواهم، وَصَارَتِ الملائكة إِنَاثاً بَنَاتِ آلِهَةٍ.

يُصِرُّ أولئك الباحثون على العكس! وَيَقُولُونَ إِنَّ المنتمين لدين التوحيد استنسخوا فكرة الآلهة، وحوّروها لتصير ملائكة ككائنات ليست أَرْبَاباً ولا آلهة...

المشكلة التي وقع فيها أولئك الباحثون ذَكَرَهَا القرآن من زوايا مختلفة، حَيْثُ إِنَّ الآثار الباقية المنتشرة بين الناس هِيَ بِغَالِبِيَّتِهَا للمشركين، من معابد وتماثيل منتشرة في مختلف البلدان وعلى مرّ الأزمان، وآثار المنتمين لدينه تعالى قليلة جدا، حَيْثُ لَدَيْنَا الكعبة وبيت المقدس وجبل الطور وغار حراء... وهكذا اعتقد الباحثون أَنَّ الأكثر انْتِشَاراً هو الأصل، وَالْأَقَلَّ أَثَراً هو التقليد، وَتَعَامَوْا عن قصد عمّا يعلمونه من امتداد لآلاف من السنين لهذا الدين الإلهي... وَأَخْبَرَنَا القرآن مِرَاراً وَتَكْرَاراً بِأَنَّ أكثر الناس كافرون بدينه تعالى، وَنَتَجَ عن ذلك انحصار الدين الإلهي بنوادر من الآثار التي لن يضيء عليها الآخرون المعادون لدينه تعالى، وَلَنْ يذكروها في آثارهم وكتبهم، بل سيعملون على طمسها وَمَحْوِهَا... وهذا ما حصل، وَبَقِيَ دينه تعالى مُعَرَّضاً للطمس، ويمشي في تاريخ البشرية عبر أنبياء ورسل وصالحين قلائل، وأتباعهم قلائل.

خُذْ مَثَلاً عن ذلك فقدان أثر تاريخي لغرق فرعون وجنوده في البحر، وَهَلْ تتوقّع من الحكّام الذين أتوا بعده أن يعترفوا بآية فلق البحر وَإِطْبَاقِهِ على فرعون أراد قتل مخالفين لدينهم؟ وأن ينحتوا أَثَراً تَارِيخِيّاً عن ذلك؟ أو أن يكتبوه؟

حقيقة إخفاء أكثر الناس لأثر دينه تعالى لَمْ يَسْتَحِ بها سبحانه ولم يخفها، بل أضاء عليها وأبرزها عَلَناً وَصَرَاحَةً في قرآنه، معلنا أنه تعالى لن يترك الناس بدون إظهار الحقّ لهم رغم إرادة الأكثرية منهم على إطفاء نوره تعالى، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 8 و 9 من سورة الصفّ {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}، إِذْ إِنَّ هذه الآيات والعديد غيرها تَحْوِي ضِمْناً محاولتهم طمس معالم دين التوحيد.

فِي تصوّر عامّ شامل من مفاهيم القرآن التاريخية، نرى أن امتداد دينه تعالى على خطّ عقائدي واحد من أوّل ما تأهّل أوّل بشري لتحمّل التكاليف الإلهية، من آدم(ع)، وبعده استمرّت هذه العقيدة عبر أنبياء معهم صحف وكتب، ولم ينقطع ذلك وُصُولاً إلى القرآن، والعقائد الأخرى التي عليها الناس، هِيَ فِعْلاً من اختراعهم، وأي تشابه بين ما فيها وبين دينه تعالى، فهو إمّا نابع مما خلقه تعالى فينا من قابليات حتى نتعرّف عليه سبحانه من آياته بتصميمه وخلقه لما في الدنيا، وإمّا نابع من تشويههم لمعلومات أخذوها من دينه تعالى.

سُبْحَانَهُ خلق البشر مع قابلية التعرّف عليه عبر التفكّر في آيات خلقه، ومن كان قلبه سَلِيماً كإبراهيم(ع) الذي اعتمده القرآن كنموذج عن أرقى ما يمكن أن نصل إليه من معرفة بسبب سلامة القلب، فهذا سيرى الآيات دالة على إله واحد أحد حي قيوم قدير رَحْمَنٍ... وسينتج عنده قناعة فكرية تتحوّل لمشاعر الحبّ والتعلّق بالإله عند الشدائد... وهذا هو ما يمكن أن تسميه بالإيمان الابتدائي وهو نفسه إيمان الإنسان البدائي القديم... وبعد هذا النموذج تأتي نماذج المريضة

قلوبهم بدرجات مختلفة، وَبَدَلَ الالتزام بالدلالة الصريحة لآياته تعالى على توحيده، يخترعون إِلَهاً للمطر وآخر للرعد وآخر للبركان والنار و... وللأسف إنَّ مرض القلب ليس حِكْراً على المشركين، حَتَّى إنَّ الْمُؤْمِنِينَ بالتوحيد كان بينهم الكثير من الذين لم تسعفهم درجة قلوبهم للتعرّف عليه تعالى بصفاء، وَجَعَلُوهُ تعالى إِلَهاً فَاعِلاً لكل ما يجهلون سببه فقط، وأما ما يعملون سببه فيقولون إِنَّهُ حصل بآليات خلقها تعالى، ودليلهم عليه سبحانه هو الأمور التي لا يبدو منها لهم سَبَبٌ لحدوثها... وَهُوَ ربّ المطر وربّ الرياح... لأنه هو يأمر وَتَصِيرُ الرياح وينزل الماء وتحصل الزلازل...

هذا الدين من اختراع الناس المنتمين لدينه تعالى والذين لم يفهموا آياته وفسروا كلامه بِنَاءً على معطياتهم... وهكذا ترى أن التعليقات على الدين الإلهي من الملحدين والعلمانيين هِيَ تعليقات على الدين الذي اخترعه الناس، وأمّا كلامه تعالى فخذ عنه نَمُوذَجاً هذا القرآن بكلامه الصريح عن آليات لفعله تعالى للأشياء، وأنه سبحانه فاعل لما نعلم سببه ولما لا نعلم سَبَبَهُ، ولمزيد من التطويل راجع دراسة الآية 64 من سورة الواقعة {أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}.

هُنَا سورتنا تشير للمعلومات الأصلية الصحيحة عن الملائكة، وتريك أن الآخرين من المشركين "أو الْمُنْتَمِينَ لدينه تعالى" بِطَرِيقَةٍ أو بأخرى مسخوا هذه المعلومات لتصير الملائكة بَنَاتٍ له تعالى، وأنهم آلهة وَأَرْبَابٌ...

(وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً{28})
{وَمَا لَهُم}، ليس لهم، {بِهِ}، بهذا الكلام، {مِنْ عِلْمٍ}، حَيْثُ إِنَّ هذه التسمية الأنثوية للملائكة(ع) كانت هكذا من الهوى والأوهام والتخيلات، فهم لم يروها ولم يتواصلوا معها ولم يصلهم خبر صحيح بِأَنَّهُمْ إناث، {إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ}، فاعتقادهم بأنثوية الملائكة مستند لعلم غير صحيح ولا أكيد، {وَإِنَّ الظَّنَّ}، المستند لعلم غير صحيح، ولمزيد من التوسّع عن كلمة ظنّ راجع ما قلناه من قبل في الآية 23 من هذه السورة، وهنا الكلام عن ظنّ يستند إلى الهوى والخيال وهذا، {لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا}، فلن يغير واقع كون الملائكة(ع) لا ذَكَراً ولا أُنْثَى.

نتذكّر دَائِماً أَنَّ كلمة ظنّ تعني: اعْتِقَاداً مُسْتَنِداً لعلم، صَحِيحاً أو غير صحيح. وهنا هم ورثوا هذه التسميات الأنثوية للملائكة(ع) من آبائهم الذين اتبعوا الهوى واخترعوا أسماء أُنْثَوِيَّةً بغير علم بحقيقة الملائكة(ع)، فصار لديهم اعتقاد مستند لظنّ مبني على معلومات ورثوها من آبائهم، معلومات عن هوى ووهم، وهذا لن يغيّر أي شيء في الحقيقة، وَلَنْ ولم تَصِرِ الملائكة إِنَاثاً بسبب تسميتهم لها بأسماء أنثوية، عزّى لات مناة...

نتذكّر أَيْضاً أَنَّهُ صار لدينا شاهد رأى بفؤاده الملائكة(ع)، وهو الرسول محمّد(ع) وَلَمْ تعد المعلومات في القرآن عن الكائنات التي في السماء مجرّد خبر، بل لدينا شاهد عليها منّا نحن البشر، أمّا المشركون فأين شاهدهم؟ من أين مصدر كلامهم؟ وَأَصْلاً لم تتواصل معهم الملائكة بشكل مباشر هنا في الدنيا...

(فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{29})
{فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى}، فلا تهتم عن الذي ذهب باتجاه آخر فابتعد وأدار ظهره، {عَن ذِكْرِنَا}، عن استحضاره تعالى في فكره وعمله مما تقوله له، واستبدله بذكر ما اخترعه آبَاؤُهُ وَهَوَاهُ، وأعرض عمّن، {وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}، حَيْثُ تعلق هؤلاء الناس بالدنيا ولا يريدون غيرها، وليس في ضمائرهم أي إيمان بوجود آخرة، فاتركهم ولا تهتم بهم لأنهم لن يقتنعوا.

في عموم القرآن يتكرر نفس الأمر الإلهي لرسوله (ع) بالإعراض عن هذه النوعية من الناس، وليس المقصود تركهم بدون إِنْذَارٍ، لا، فبعد إنذارهم، إن لم يؤمنوا، فأعرض عنهم فلا تجعلهم محطّ اهتمامك، لِأَنَّكَ قمت بواجبك وانتهى الموضوع، وصار ذنبهم على جنبهم كما نقول في أمثالنا الشعبية.

لا تَنْسَ أَنَّ ما تجده في عموم التفاسير عن لغط حول أمثال آيتنا هنا الآمرة بالإعراض عن الكافرين، والتي وجدوها بظنّهم متعارضة مع الآيات التي تأمر بقتالهم، فهم لم يميّزوا بين من يسمح تعالى بقتاله وبين مَنْ لم يسمح بقتاله حتى لو كان كَافِراً، فالمأذون به فقط وفقط هو قتال المعادي المقاتل، وأمّا غير ذلك فحتى لو كان كَافِراً مُشْرِكاً... ولكنه مسالم، فله حرمة المسلم، وراجع في ذلك الآية 8 من سورة الممتحنة {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ

يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، فهذا تنذره وإن لم يؤمن تعرض عنه فلا تجادل معه في الأمور الدينية إن صارت فقط للجدل لأنك تعلم أنه لا يريد التماشي مع الحقّ.

بقي شيء نركّز عليه، حَيْثُ مرّ معنا في الآية قبل السابقة وفي آيتنا هنا، أَنَّ أهمّ سبب للراحة التي أطلقت العنان للكفّار ليخترعوا آلهة على هواهم من خيالهم، أنهم هنا في الدنيا لا يشعرون بتهديد حقيقي بتعذيبهم إن اخترعوا دينا على مزاجهم، ولا يؤمنون من بعد موتهم بحياة في الآخرة سيتحاسبون ويتجازون فيها على ما فعلوه في الدنيا، وبناء عليه لا يجدون أنفسهم مضطرين للعقلانية، ولا للإيمان بالحقّ الذي لا يتماشى مع مزاجهم "هواهم السيّء"، لِأَنَّ الإيمان به تعالى وبرسوله سيعني التزامهم بدينه تعالى الذي يأمر بالاعتقاد بالحقّ وفعل الصالحات، وهذا ما لا يريدونه.

خذ مَثَلاً تشريع المخدرات، فكل العقلاء يقرّون بضررها غير العادي على الجسد والنفسية والمجتمع، ورغم ذلك يشرّعونها لأنهم هم أنفسهم يهوون تعاطيها، ويرون من حولهم مُجْتَمَعاً يهوى تعاطيها ويتعاطاها بالرغم من منع الدولة لذلك، ورغم العقوبات على تصنيعها وبيعها ونقلها وحيازتها... ومن كثرة الطلب على المخدرات نتج سوق قوي فرض نفسه على الدولة، ونتج عنه عصابات أقوى من الدولة... فأمام هذه الضغوطات الفردية والجماعية... تشرّعت المخدرات بإشراف الدولة في عدة بلدان... وما يعرضه القرآن عن حبّ الدنيا ونسيان الآخرة لمن عبد الحجر، لَا يختلف في جوهره عن مثال المخدرات، إِذْ إِنَّ المتعة الدنيوية للمخدرات التي عواقبها على الفرد والمجتمع مدمّرة، ورغم ذلك يتبعون هواهم فيتعاطونها، بل ويشرعونها! فهي تنطلق من أساس انتفاء خوفهم من عقابه تعالى على الأعمال السيئة...

(ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى{30})
{ذَلِكَ}، الذي ذكرته السورة من سخافاتهم واختراعاتهم المستندة على الوهم والهوى، {مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ}، هو أقصى ما يمكن أن يبلغوه من المعلومات، وبالتالي لن يتعلّموا منك، {إِنَّ رَبَّكَ}، إن المسؤول عنك من مستوى إلهي، {هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ}، ولم يكن على المسلك الإلهي، ولم يكن على ما يرضى عنه تعالى، {وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى}، وسبحانه أعلم بالذي كان على الأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة.

أنت أيها الرسول الناقل لهذا القرآن المستند على الوحي وعلى ما شاهدته وتشاهده بفؤادك كلما نزل الوحي، من جهة، وهم المستندون للوهم والخرافات والهوى والظنّ المستند لتخريفات آبائهم من جهة ثانية، وهذا مبلغهم من العلم فهو أقصى ما سيكونون عليه، وسيرفضون الحقائق التي تطرحها، والله العليم بالحقّ بسبب قدراته الفائقة وحكمته، يخبرك أنك على الهدى وأنهم على ضلال.

كما ترى، الكلام عن الهدى والضلال، عن الذي على الحقّ والذي على الباطل، وضمناً صار معلوماً أنه تعالى يعرض المعلومات الحقيقية الصحيحة عن نفسه كإله، ويعرض مجازاته لنا في الآخرة ثواباً حسناً على الإيمان بالمعلومات الحقّ وعقاباً شديداً على الكفر بالحقّ، ومضافاً له ما ينتج عن هكذا إيمان من القيام بأعمال صالحة بناء على الإيمان بالحقّ، أو القيام بأعمال فاسدة سيئة بناء على الضلال.

أقول لك هذا حتى تميّز طريقته تعالى في الكلام معنا عبر قرآنه مما صار متوارثاً متعارفاً عليه بين الناس عن الدين، لأن الدين في نظرهم "شيء" تنتسب له، بينما سبحانه يعرض المعلومات الصحيحة والتي عليها براهين من آيات خلقه للسماوات والأرض وما قاله رسله وكتبه وتدخلاته تعالى في بعض الحوادث، فلا يعرض عليك عقيدة ويعتبرها الهدى، لا، بل يعرض فعلاً ما هو حقّ وصحيح.

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة {ضَلَّ} كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شراً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فقد ضلّ عنك صيدها. واستعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة {ضَلَّتْ عَنْهُ}، ولم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضالٌّ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية

20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} رداً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

الهداية هي عموم ما يوصلك إلى ما أردته من خير أو شرّ، أو كان نتيجة سيئة أو حسنة لعملك سواء أردته أم لم ترده ولكنك أوصلت نفسك له، وترى المعنى العمومي في الآية 10 من سورة البلد {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} حيث فيك قابلية تمييز الخير من الشرّ، ويمكنك فعل ما تريده منهما، وترى المعنى كنتيجة للفعل في الآية 23 من سورة الصافات {فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ}.

(وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى{31})

{وَلِلَّهِ}، ولصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، وهذا كلّ ما في دنيا المخلوقات وكلّه منسوب له تعالى أنه مصمّمها وخالقها ومالكها ومسيطر عليها، وبناء عليه، {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا}، فالذين قاموا بأعمال سيئة سينالون المقابل على ذلك من الذي منسوب له كلّ شيء، {بِمَا عَمِلُوا}، بالذي فعلوه هم أنفسهم بالضبط بلا زيادة.

وهذا التعبير {بِمَا عَمِلُوا} متضمّن لما قاله القرآن أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وسيرد ذلك في السورة هنا في الآية 38، ومتضمّن لجملة "كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ" التي وردت في الآية 38 من سورة المدّثر، ومضافاً لهما ما ورد في الآية 49 من سورة الكهف عن أنه تعالى لا يظلم أحداً {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}.

ويتضمّن مجازاتهم بما نتج عن أعمالهم حين شجّعوا أو أجبروا غيرهم على فعل السوء كما تقرأ في الآية 25 من سورة النحل {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ}.

{وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا}، فيعطي المقابل للذين قاموا بالأعمال الحسنة، {بِالْحُسْنَى}، بأمور توصف أنها حسنة، وهي المغفرة والعفو والصفح والتكفير، وزيادة الثواب، والنتيجة لذلك حصولهم على الجنّة الخالدة.

لا الملائكة(ع) ولا الأصنام ولا التماثيل ولا أحد له أي شيء من مستوى إلهي إلا الله تعالى، فكل ما في السماوات والأرض من كائنات وظواهر، ومن ضمنها نحن، فكلّنا منسوبون له تعالى، وبسبب هذه التبعية المطلقة التي لا سلطة فوقها، قرّر تعالى مجازاة المسيئين بما عملوا بلا أي زيادة فلهم عقاب على مقدار أعمالهم، ويجازي المحسنين بالحسنى، وهذا الوصف شامل لأي مجازاة حسنة فتتضمّن زيادة الأجر ومضاعفته، فهذا شيء حسن كمكافآت إلهية لهؤلاء الناس.

بقي شيء، فتعابير كثيرة في القرآن اكتفت بذكر قراره تعالى بتعذيب الذي عمل السيئات، فنفهمها ببساطة أن مخالفة أوامره تعالى هي السيئات، فمن فعل ما حرّمه تعالى أو ترك ما أوجبه تعالى فهذا ارتكب سيّئة، وهذا صحيح، لأنه تعالى لا يحرّم إلا ما هو سيّء ولا يأمرنا إلا بما هو خير. ولكن من عموم مفاهيم القرآن نجد كلاماً قبل هذا، فنجد أنه تعالى جعل فينا القدرة على التمييز بين الأعمال الحسنة والسيئة، بين الخير والشرّ، وعلى هذا الأساس فعندما يصلنا دينه تعالى سنرى أنه حسن، فنتماشى معه، وهذا تفسير صريح وواضح للعديد من الآيات على معنى: ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، كما ورد في الآية 2 من سورة البقرة، فهم بالأساس متقون للسيئات، وجاءهم كتاب يتماشى مع ذلك، فكان هدى لهم. وهذا نموذج من عشرات النماذج القرآنية التي تؤكّد أن الناس من الأساس يميّزون بين الحسن والسوء، ولديهم قرار باتباع هذا الحسن وترك ذاك السيّء، وبعدها فإمّا أن يتماشى سلوكهم مع القرآن وما يقوله الرسول(ع) وإمّا أن يتعارض معه. فالذين أحسنوا، فقاموا بما يعتقدون أنه حسن، ومن البديهي أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو حسن، وعليه فهم التزموا بما وصلهم منه تعالى.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة، لذلك ضع في بالك دائماً أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب، لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من

فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...} وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراض.

عادة نحن في كلامنا نتساهل بالتعبيرمنستبدلين تعبير السماوات والأرض بالدنيا، فنقول: خلق سبحانه الدنيا، أو له ملك الدنيا، ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيراً صحيحاً دقيقاً بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة، في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى}. فسبحانه دقيق في تعابيره ويحدّثنا بدقّة عمّا يعلمه، وكلامه تعالى عن السماوات والأرض هو كلام عن علم بما أمامه سبحانه، فسبحانه دائماً يتكلم بشفافية عمّا أمامه فقط، أمّا الكلام عن كلّ ما في الدنيا، فهو كلام عمومي ويشمل "نظرياً" ما هو خارج العلم، ولذلك لم يستعمله تعالى، بينما ترى استعماله في كلام عموم البشر لأننا نتساهل ونتراخى في التعبير.

(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى{32}
من هم {الَّذِينَ أَحْسَنُوا} ولهم {الْحُسْنَى}؟:

{الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ}، الذين يبتعدون ولا يقربون، {كَبَائِرَ الْإِثْمِ}، والإثم هو العمل الذي تعلم أنه سيّء وعليه عقاب وتفعله، وكبائر الإثم هي الأعمال السيئة الكبيرة جداً والتي تعلم أنها حرام حين قمت بها، وتعلم أن العقاب عليها شديد أو الخلود في جهنّم، كقتل شخص بريء كما ورد في الآية 93 من سورة النساء {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا...}، وشهادة الزور الباطلة في موضوع مهم جداً، والهروب من قتال الأعداء...

ويجتنبون كبائر {الْفَوَاحِشَ}، وبالخصوص من الآثام فهم يتجنبون الفاحشة وهي الأعمال السيئة التي لها علاقة بالأمور الجنسية والغرائزية كالشذوذ الذي يُعلم من عذاب قوم النبي لوط(ع) أنه من الكبائر، والزنا كما ورد في الآيتين 68 و 69 من سورة الفرقان {...وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا}، وغيرها من المحرمات الجنسية...

{إِلَّا اللَّمَمَ}، إلا الأشياء القليلة كالفتات من الخبز أمام ربطة خبز، فنقول: كومة حطب، ولمم حطب. وهي التي نصطلح عليها حالياً أنها "الذنوب الصغيرة" التي يقوم بها الإنسان عن قصد، ولكنها بالقياس لأمور أخرى ليست خطيرة جداً.

نفوا في بعض الكتب وجود شيء اسمه ذنب صغير، فكل الذنوب معصية له تعالى، ومعصيته تعالى دائماً هي عمل كبير حتى لو كانت في أمور تافهة، ولكن كما تعرض الآية هنا، فقياس قتل النفس البريئة إلى مزحة ثقيلة فهمها الآخرون إهانة... نراها صغيرة، فالعقاب عليها ليس الخلود في النار، ويسميها القرآن لمماً، ولم يسمّها صغيرة، ولكن كما ترى في الآية هنا بتعبيرها {كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ} وفي الآية 31 من سورة النساء {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا}، فالقرآن فعلاً صنّف بعض السيئات بأنها كبيرة وفي مقابلها حتماً يكون تصنيف بقية السيئات أنها صغيرة، مع العلم أن القرآن استعمل تعبير لمم ولم يصفها بالصغيرة.

نلاحظ هنا الحديث عن طبقة من المؤمنين، هي أقل من الأنبياء والمرسلين وخالص المؤمنين، يذكرها سبحانه لنا حتى لا نظن بأن الإيمان صعب، وبما أنه تعالى سيحاسبنا على كل الذي فعلناه فنظن أنه لا أمل لنا بدخول الجنة، فهذه الآية توضح لنا بأنه تعالى يحاسبنا على الذي نفعله من ذنوب كبيرة وعن سابق تصور وتصميم وعلم بفظاعتها، فإن لم نفعلها فسيسامحنا ويغفر لنا الذنوب الصغيرة...

{إِنَّ رَبَّكَ}، إن المسؤول عنك من مستوى إلهي أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، {وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ}، كثيراً ما يتجاوز عن السيئات، فمسامحته للذنوب شاملة عامّة، وليست محصورة بنوع أو أنواع محدّدة من الذنوب بل تشملها كلّها، طبعاً لمن استغفر وتاب منها.

ننتبه جيداً ولا ننسى أن أوّل الآية كان عمّن اجتنب الكبائر، فإن لم ير ما فعله سيئة فلا مغفرة له، فسبحانه واسع المغفرة لمن استغفره، وسبحانه لا يجمد على موقف صلب قاسٍ مع من أذنب، وسبحانه مغفرته واسعة وتشمل حتى الذنوب الكبيرة إن تاب واستغفر منها الذي فعلها.

{هُوَ}، ربّك سبحانه، {أَعْلَمُ بِكُمْ}، فأنا أظن أني أعرف نفسي جيداً ولكن هذا غير صحيح فهو تعالى يعلم بنفسي أكثر منّي، فإن هو تعالى زكّاني فسأكون فعلاً مؤمناً صالحاً، وأمّا إن زكّيت نفسي فهذا لا يعني أي شيء، فلن أصير زاكياً... "وسنشرح معنى زكاة النفس بعد قليل"، وهذا الكلام ينطبق على كلّ من أدّعى أنه مؤمن على الهدى، سواء أكان مسلماً أو مشركاً يدّعي أن دينه صحيح.

{إِذْ أَنْشَأَكُمْ}، فهو تعالى كوّنكم من شيء سابق، فمن ماء وتراب "من مواد الجدول الدوري للعناصر من كربون وهيدروجين وأكسجين وكالسيوم..." صار لكم جسد وعقل وحواس... {وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ}، لا زلتم في مرحلة التكوين "جنين" ولم تولدوا بعد، {فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ}، وهي حامل بكم فيراكم تعالى ويتابعكم حتى وأنتم في بطن أمهاتكم، ومن تابعك من الأول وفي كلّ حالاتك من مستوى إلهي فهو أعلم بك من نفسك، فها مثالان عن مرحلتين من حياتك لا تعرفهما أنت، فلم تكن أصلاً واعياً مدركاً فيهما، فيمكنك مراقبة نشأة غيرك أمّا نشأتك أنت فلم تكن واعياً حينها، كما نقول عن شخص أننا نعرفه جيداً لأننا نعرفه منذ صغره.

{فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ}، فلا تقولوا عن أنفسكم أنكم لائقون، خالون من الخبث والفساد، وأنكم مؤمنون حقيقيون... {هُوَ}، ربّك سبحانه، {أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}، فيعلم سبحانه جيداً وبشكل دقيق جداً من تجنّب وتحاشى، والكلام عن عموم تجنّب السيئات، وهو نفسه تجنّب غضبه وعقابه سبحانه.

فهمنا أنه تعالى يغفر للمؤمنين الأتقياء، فلا نزكّي أنفسنا فلا أصنّف نفسي مع المؤمنين الحاصلين حتماً على المغفرة، لا، فالله تعالى وحده فقط يُزكّي، فهو تعالى أعلم بنا من أنفسنا.

حسناً، كيف لا أعلم أنّي تقيّ مؤمن صالح؟ لأني لا أضمن نفسي في الظروف المختلفة، فلا أدري ماذا سأفعل لو كنت مكان النبي يوسف(ع) حيث خلت به امرأة العزيز الجميلة داخل غرفة مغلقة وهذه الغرفة داخل غرفة أخرى مغلقة وداخل غرفة أخرى... فمن المستحيل أن يعلم أي مخلوق بما يجري وخاصّة أن النبي يوسف(ع) عبد لها ومن عادتها استدعاؤه، ويبدو من سورة يوسف أن فحش الثريات مع عبيدهن كان دارجاً شبه متعارف عليه في ذلك المجتمع وغير منكر! ولأني لا أعلم ما كنت سأفعل لو كنت مكان النبي محمّد(ع) رجلاً فقيراً عادياً يتعرّض للإهانة في بداية دعوته للناس في مكّة وحوله بضعة رجال أغلبهم من المستضعفين... وعرض عليّ أهل مكّة أن أكون ملكاً عليهم ويعطوني المال والسلطة مقابل ترك مهاجمة دينهم وآلهتهم... ولا أعلم إن كنت سأقبل منصب زعيم على قومي نصّبني عليهم فرعون وفتح لي المجال لأفعل ما أريد وأصير قارون الفاحش الثراء...

نحن من حولنا نرى كيف يسقط المسلمون إلى الحضيض عندما يصيرون في مواقع السلطة، فيسرقون المال العام، ويغشّون، ويختلسون، ويوظّفون أقاربهم، ويطلقون أيدي أقاربهم وأصدقائهم على تلزيمات الدولة... حتى الموظف المسلم الصغير في وظيفة عادية، يستغلّ منصبه التافه وتتوقّف معاملتك عنده ليجبرك على دفع رشوة زيّنها لنفسه بوصف غير معيب فسمّاها: إكرامية!

الطامّة الكبرى في مدّعي التدين والتقى، الملتحين أو السابلين أعينهم وأصحاب الدمغات على الجبهة ولابسي زي يرجع في تصميمه إلى ما قبل ألف وأربعمئة سنة كدلالة على اقتدائهم بالرسول محمّد(ع)، وهم لم يقتدوا به إلا في لباسه ولحيته فقط لا غير، أمّا أحوالهم وحياتهم وتصرفاتهم، فنهب للمال باسم الدين، فهم "رجال الدين"، وزينوا لأنفسهم السرقة والرشوة واستغلال المناصب... بطرق متنوّعة، أهمّها أنهم على درجة فائقة من الحنكة والذكاء ولو خصّصوا وقتهم للتجارة والأعمال لحصّلوا الثروات، ولكنهم فضّلوا خدمة الإسلام وقدّموا وقتهم له، ولذلك فما يأخذونه من الزكاة والخمس والتبرعات والهدايا... ليشتروا به العقارات والأثاث الفخم والمصاريف الشخصية المفتوحة وبذخ زوجاتهم وأولادهم... كلّه حقّ لهم، بل أقل من حقّهم! فبرأيهم أن ما يقدمونه للناس والدين يستحق أكثر مما لديهم! وباسم الدين يفعلون هذا! وهم يزكّون أنفسهم! بل يحاضرون في الشريعة الإسلامية! بل يحاضرون في الأخلاق!

طبعاً لن ننسى العلماء الربانيين ولكنهم للأسف قلّة نادرة.

المذهبية ومرض تزكية النفس.

ترانا كأفراد لدينا حس التميّز عن الآخرين، سواء المتدينين أم غيرهم، فنضخّم ما نظن أننا بارعون به ليصير تميّزاً لنا على الآخرين، وهذا هو عكس التواضع، وترانا نصغّر ما يجيده الآخرون حتى لا يكونوا متميزين علينا، وهذا هو التكبّر أو ابن عمّه، وهذا مبني على دراسات إحصائية بعلم النفس.

هذا هو العنوان الكبير لنفس مرض "تزكية النفس" الذي تتحدّث عنه الآية {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ} من زاوية دينية، فهذا العنوان يشمل عملياً تزكية النفس بالفهم في الاقتصاد والسياسة والقضاء وتربية الأولاد... على أساس أني أبرع من الآخرين في هذه المجالات...

عقلية "الإحساس بالتميّز" تنتقل من الأفراد ليشمل أثرها المجموعات، فيجتمع بضعة أفراد مع بعض، معتقدين بتميّزهم عن الآخرين بشيء ما، ويصير لدينا: مجموعة مريضة بتزكية نفسها، مثل جماعات المثقفين، وجماعات البيض، وجماعات أوروبية، وجماعات المليارديرات المتكبرين على جماعات المليونيرات...

حين يكون اجتماعهم هذا له عنوان ديني، كالجماعات الذين يعتقدون أنهم المؤمنون بالحقّ لوحدهم والآخرون على الباطل... فنصير أمام فرقة دينية، وبعدها تتطوّر الأمور ليصيروا طائفة متميزة عن الآخرين، وبعدها يصير لهم مذهب له أتباع في مختلف بقع الجغرافيا. وأستعمل في هذه الجملة كلمة طائفة ومذهب بالمعنى اللغوي.

لننظر لهذا الموضوع من نظرة القرآن له، ونبدأ بتركه سبحانه في قرآنه عن قصد الدخول في تفاصيل حياتية كثيرة والتي تجدها في المرويات وكتب الفقه والأخلاقيات... حيث لم يدخل في الكثير منها واكتفى بالعناوين الرئيسية، وهذا ما هو إلا للمرونة الواقعية حتى تستنسب المجتمعات المنفصلة عن بعضها بالجغرافيا، والتي تطوّر لديها بشكل منفصل عن الآخرين ثقافة حياة مختلفة، حتى تستنسب التفاصيل التي تتماشى مع ثقافتها ووضعها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي... وكمثال على ذلك ترك القرآن تحديد قيمة دية المقتول، ففي مجتمع غني سيكون للمقتول قيمة إنتاجية أعلى لو بقي حياً، وسيكون لعائلته تكاليف حياتية أعلى، ولذلك من المناسب أن تكون ديّته أعلى بكثير من ديّة مقتول في مجتمع فقير... وترك القرآن تحديد قيمة الزكاة لتتحدّد بحسب الوضع المالي لكل شخص، ولكل المجتمع... وترك القرآن تحديد نظام الحكومة مكتفياً بعنوان الشورى وصفات أهلية الحاكم "مؤمن عامل للصالحات"... وترك تحديد النظام الاقتصادي مكتفياً بعناوين منها تحريم الربا ومنع تداول المال فقط بين الأغنياء...

هذا والعديد من الأمثلة التي تركها القرآن لعلمه تعالى بالفروق التي ستنتج بين المجتمعات.

هل هذه الفروقات بين المجتمعات تبرّر انقسامهم فرقاً دينية؟ أو مذهبياً أو طائفياً؟ لا.

تعال نجمع كلامه تعالى {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ} مع هامش المرونة المتروك في التشريعات، فمجتمعك استنسب من التفاصيل التشريعية ما يتماشى مع ثقافته ووضعه الاقتصادي والاجتماعي والسياسي... ومجتمعي استنسب منها ما يتماشى مع خصائصه، وكلانا نتحرك ضمن هامش المرونة المقبول لأنه تعالى عن قصد تركه حتى لا يضيّق علينا بما لا يتماشى مع ثقافتنا التي حتماً ستتطوّر بشكل مختلف عند المنفصلين جغرافياً عن بعض.

فلا أنت مميّز عنّي بتبنّيك لنظام انتخاب الرئيس عبر البرلمانيين، ولا أنا مميّز عنك بنظام انتخاب الرئيس مباشرة من الشعب... ولا أنت على باطل بنظري بتأميم المنشآت الحيوية "لتكون ملكاً للدولة"، ولا أنا على باطل بنظرك بترك المنشآت الحيوية للشركات الخاصة... وأنت وأنا لسنا ملزمين بالبقاء على الأنظمة التي ظنّنا مناسبتها لنا، فيمكننا تغييرها لتجربة أنظمة أخرى طالما لا تتعارض مع العناوين القرآنية الأساسية.

ننتقل الآن لما يسمّى بثقافة العادات والتقاليد من مناسبات اجتماعية، كأعياد ووفيات وزواج، ولباس خاص للمناسبات، ونوع الطعام وتوزيعه مجاناً في المناسبات، والموسيقى المناسبة للمناسبات... فهذه وأمثالها لا علاقة لها بالدين الإلهي إلا حين يعطيها الفرد أو المجتمع صبغة دينية، وعندها يصير فعلاً للدين الإلهي علاقة لأنه يمنع إلصاق هكذا أمور به.

هل لاحظت، فهي ليست دينية، ولم يقوننها سبحانه بتشريع من عنده في قرآنه، ولا يسمح سبحانه بإلصاق أي عرف أو عادة أو تقليد... به وبدينه.

وترى هذا جلياً في القرآن وكمثال عليه في تبرير مناسك الحج لليهود وللنصارى ولكل من يعترض عليها، تراه حول الآية 125 من سورة البقرة {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى...}، كان الكلام القرآني عن أن هذه المناسك ليست عادات عربية أدخلها "محمّد" في دينه الجديد، بل سبحانه جعلها مناسك منذ القدم، منذ عهد النبي إبراهيم(ع)، وحافظ عليها العرب، وها عبر النبي محمّد(ع) يعيد سبحانه تكرار شرعيتها.

وترى العكس جلياً في مناسبات عديدة ومنها ما ورد في الآية 103 من سورة المائدة {مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}. فالناس أحرار في الامتناع عن أكل لحم دابة ما، بل أحرار في الامتناع عن أكل اللحم عموماً ليصيروا نباتيين، ولكن المشكلة حين يلصقون أفعالهم به تعالى كتشريع.

مجتمعي له عادات وتقاليد مختلفة عن مجتمعك، وكلا عاداتنا وتقاليدنا ليسا دينيين، بل سنن لمجتمعاتنا، ولا تشير أبداً إلى أي تميّز ديني بيني وبينك، فكلانا ممنوع علينا إلصاق هذه الأمور بدينه تعالى.

وللأسف لم نفهم هذا بالرغم من وضوحه قرآنياً، وصرنا نبحث في الروايات لنجد فيها ما نضيّق به على أنفسنا مما يسمّى بالسنن الواردة عن الرسول محمّد(ع)، حتى نعيد إحياء ثقافة عادات وتقاليد مجتمع عصر الرسول محمد(ع)، مصرّين على أنه شيء من دينه تعالى!

بل إن لم نجد مصدراً موثوقاً للرواية، عندها قبلنا بأي رواية أخرى طالما هي الوحيدة التي تذكر لنا سنّة نبوية في فعل ما، متعامين بذلك عن الكذب المنتشر كالنار في الهشيم في عموم روايات المسلمين، ومتعامين عن أنها سنن خاصة بمجتمع من عصر الرسول(ع)، حيث "وكمثال واضح بسيط" لم يكن دارجاً استعمال الملاعق للأكل في زمن الرسول(ع)، وحين درجت منتشرة فيما بعد، قام عابدو التراث ومقاومو الحداثة، بتذكّر أكل الرسول للطعام بيده، وحاولوا فرضه على المسلمين كسنّة نبوية يجب الاقتداء بها... ولأني لا أقدّس الروايات يخطر ببالي سؤال عن صحّة تناول الرسول(ع) لكل أنواع الطعام بيديه من دون ملعقة، وهو المشهور عنه عنايته بالنظافة والرائحة الجميلة...

هذا المثال البسيط، هو نفسه بسخافة كل بقية العادات والتقاليد التي نعلن بأنها شعائر دينية وسنّة، فأنتم أحرار في هكذا أمور، وهي ليست دينية، وممنوع إعطاؤها صبغة دينية وعلى ذلك عقاب شديد كرّره القرآن لكل من يخترع تشريعاً وينسبه له تعالى.

كما ترى لم أدخل في تسمية العادات والتقاليد، لأن الغالبية يعتبرونها دينية أساسية، أو يعطونها قيمة أساسية، فتركت المجال للعقلاء حتى يفكروا هم في تصنيف عادات وتقاليد مجتمعهم ليروا إن كانت دينية، أو حتى أساسية ذات أهمية...

ولو أعطيتك أمثلة، لاستنفرت الطوائف والمذاهب عليّ، وكلّ منهم سيدافع عن مذهبه، ولذلك سأعطيك مثالاً بسيطاً من العديد من الأمثلة التي وقع فيها جميع المسلمين بدون استثناء "بحسب علمي"، وهو الأذان للصلاة، فلا واحد منهم يؤذّن كما كان الأذان على عهد رسول الله محمّد(ع)، وليسوا مستعدين أبداً بتاتاً لتغيير أذانهم الذي يعلن عن مذهبهم وطائفتهم!

بربّك أخبرني ما هذا وما معناه غير التأكيد على التميّز عن الآخرين، والتأكيد على الفرقة والتمذهب وتناحر المسلمين، فلنتخيل رسول الله(ع) قام من قبره وسمع الأذانين، فماذا سيقول؟ بعد ذلك لا تتخيل وانتبه أنه تعالى يسمع الأذانين، فهل يقبل؟

الآن ننتقل لما يسمّى بالعقائد، وخصوصاً التعبير المقيت "المذهب الحقّ"، فهذا هو مرض تزكية النفس بعينه، وهي الراية التي يحملها كل المتخالفين المتنافرين، وكلّ واحد منهم يدّعي أنه هو وحده على حقّ والبقية على الباطل.

كلّكم على الباطل، كلّكم أحييتم مرض "الأنا" بحبّ التميّز والعلو استكباراً على الآخرين بكونكم لوحدكم على الحقّ، فكلّكم تزكّون أنفسكم، وهذا ممنوع، بل أسوأ منه فأنتم تسفّلون الآخر!

كلّكم تشرّبتم خصائص مذاهبكم حتى عميتم عن صريح قرآنه تعالى، وأسقطتم مذاهبكم على قرآنه وفسرتموه بها، وصرتم في قعر الفشل دينياً، ومزّقتم الأمّة، وتناحرتم وتقاتلتم، حتى صرتم مسخرة بين الأمم.

كلّكم بدون أي استثناء، معكم بعض الحقّ، وهو ما وافق صريح قرآنه تعالى قبلما تشوّهوه برواياتكم وتأويلاتكم وآراء القديسين من علمائكم... وعليكم الحقّ في كل ما لم يقله صريح القرآن، ومهما كان ما تعتقدون بأهميته كجوهر للدين، وضرورة، ومخالفته خروج عن الدين، وكان ما تعتقدونه مصنّفاً مذهبياً، وأنه المذهب الحقّ، فأنتم بذلك تخطيتم مرحلة تزكيتكم لأنفسكم، وانتقلتم إلى الحالة القصوى من السوء، إلى حالة إبليس، وها قوله تعالى في الآية 75 من سورة ص {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ}، فأنتم مستكبرون عالون على كلامه تعالى بإقحام عفنكم المذهبي كتفسير لكلامه تعالى.

مثلما برّر إبليس تكبّره الذي لا تبرير له، وفعل ذلك متحدياً له تعالى وطالباً إمهاله مدة ليغوي بها البشر ليثبت أنه سبحانه أخطأ بتفضيل آدم وذريته، فأنتم بتمسككم بمذاهبكم تفعلون نفس الشيء حين تؤولون كلامه تعالى ليتماشى مع تكبركم، فضمناً تعتبرون كلامه الصريح سبحانه حول منع الفرقة ومنع الاختراع في دينه، تعتبرونه غير مقبول وغير صحيح، بل مذاهبكم الصحيحة وهي ما يجب أن يقوله تعالى، وإن لم يقله صراحة فأنتم تصححون له تعالى بتأويل كلامه ليصير ناطقاً بمذاهبكم.

يكفي هذا المقدار بالكلام عن المذهبية والطائفية البغيضة من زاوية مرض تزكيتنا لأنفسنا، وهناك زوايا أخرى ستراها منتشرة في دراستنا هذه.

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى{33})
{أَفَرَأَيْتَ}، نسألك أيها النبي(ع) وأيها المؤمن تعقيباً على شيء سبق، لو حصلت عندك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: لو شفت. التفت إلى:

{الَّذِي تَوَلَّى}، الذي ذهب باتجاه آخر فلم يؤمن ولم يلتزم بما تقوله له عن الدين الإلهي.

(وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى{34})
{وَأَعْطَى قَلِيلًا}، وافقك على القليل مما تقول، بينما كنت تحاول هدايته، ولكنه لن يقبل معك بأكثر من ذلك لأنه:
{أَكْدَى}، وصلتَ معه إلى آخر ما يمكنه أن يوافق عليه.

يقال أكدى، عندما تحفر بالأدوات البدائية "بالرفش والمعول" في الأرض لتستخرج المياه، وفي أثناء الحفر تصل إلى أرض صلبة فتتوقف عن الحفر بسبب صلابة الأرض، هنا يقال: أَكْدَتِ الأرض، أي كانت تبدو طرية في البداية وبعدها تصل إلى طبقة صلبة فلن تستطيع إكمال الحفر.

الآيات التالية تضعنا في صورة الكلام الذي كان يدور بين النبي(ع) والكفّار، فالقليل الذي أعطوه كان قبولهم المبدئي بالكلام عن الدين، ويظهر من ذلك أمل بإيمانهم، فتأتي آيتنا هذه لتقول للنبي(ع) إنه لا أمل في تقدُّم إيمان هؤلاء، حيث وصلت معهم لأقصى حد، فهم لا يملكون القاعدة الأساسية للإيمان، والآيات التالية تشرح أكثر:

(أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى{35})
هذا الذي أكدى فوصلت معه إلى حيث لن يقبل منك أي شيء بعد الآن، {أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ}، فهل هو مُطّلع على ما لا يراه أمامه؟ فهل يعلم بما جرى في الماضي أو في الحاضر في أماكن لا يتواجد فيها أو يعلم بالمستقبل؟ وبالتحديد وبحسب سياق موضوع السورة: هل هو مطّلع على ما في السماء العالية، {فَهُوَ يَرَى}؟ فيصير عنده صورة محدّدة؟ ورأى في السماء العالية شيئاً آخر غير الذي تقوله له؟

نتذكّر ما ورد في بداية السورة عن رؤية النبي محمّد(ع) بفؤاده لما في السماء العالية وللملاك جبريل(ع)... وهنا تسأل الآية الذين لا يصدقون ما يقوله النبي محمّد(ع) نقلاً عنه تعالى: حسناً، أنتم في المقابل قلتم عن الملائكة إنهم إناث،

وأعطيتموهم أسماء أنثوية "لات عزى مناة..." وجعلتم لها صفات... فهل رأيتموها؟ لا. فهل عندكم علم بالغيب بطريقة أو بأخرى لتعلموا ما في السماء؟ الجواب أيضاً: لا. وكلامهم فارغ وهراء وتخريفات.

ننتبه لشيء مهمّ جداً، ففي المسألة التي تمحورت حولها السورة، حول كون النبي محمّد(ع) على الهدى وليس غاوياً ولا ينطق عن الهوى، بل مستند لما يصله وحياً عبر ملاك... فبإمكانه تعالى الاكتفاء بتكذيب ما يقوله المشركون عن الملائكة عبر إخبار الرسول محمّد(ع) عن حقيقية صفات الملائكة ومكانتهم ككائنات مطيعة دائماً له تعالى، وأنهم ليسوا آلهة، وليسوا بنات له تعالى ولا إناثاً... ولكنه سبحانه وتعالى جعل الناقل لهذه المعلومات يراها بفؤاده، فلا إمكانية لرؤيتها بالعين التي في رأسنا الآن، ولكن مركز وعينا واستقبالنا للمعلومات يمكنه "بشكل ما ولحدّ ما" التقاط رؤية للملائكة وللسماء العالية، وهكذا صار الرسول محمّد(ع) الناقل للمعلومات عن تلك السماء، صار ناقلاً لما رآه ولم يعد مجرّد ناقل لخبر عن شيء لم يره، وعندما يجادله (ع) مشرك ما، فالفرق واضح بين الناقل لهذا القرآن الذي رأى ما يمكن رؤيته في السماء العالية، وبين الكاذب الذي اخترع أسماء أنثوية وهمية للملائكة رجماً بالغيب، لأنه لم يرها ولم يصله خبر منها ولم تتواصل معه... ولم يؤكّد تعالى كلامه عن أنثوية وربوبية الملائكة.

(أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ{36})
{أَمْ}، أن هذا المشرك، {لَمْ يُنَبَّأْ}، لم يصله خبر غير منتشر علمه بين الناس، {بِمَا فِي}، بالذي في، {صُحُفِ مُوسَى}، فهناك صحف وهي مجموعة من أشياء مكتوب على صفحتها كلام منسوب للنبي موسى(ع)، ومعلوم أنه كلام نازل عليه (ع) منه تعالى.

كما تعلم، أي مثقّف عادي لا بدّ وأنه سمع عن كتاب منسوب لشخص اسمه موسى، وهي وثائق عمرها آلاف من السنين، فتشير الآية هنا إلى أنباء ستقرؤها بعد الآية التالية، وهي أمور مكتوبة في تلك الصحف القديمة، فإن سابقاً لم يخبر الكفّار أحد ما بمحتواها، فستنبئه سورتنا هذه به.

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى{37})
{وَ}، أم لم ينبّأ بما في صحف، {إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}؟! الذي أتمّ شيئاً، وسياق الكلام عن إتمامه (ع) لتبليغ كلام ربّه سبحانه. فالنبي موسى(ع) جاء من بعد النبي إبراهيم(ع) لا لأنه كان هناك نقص في توصيل كلامه تعالى إلى الناس من النبي إبراهيم(ع) فقد وفّى، ومن بعده جاء النبي موسى (ع) بنفس المعلومات منه تعالى.

النبي إبراهيم(ع) شخصية مشهورة جداً بين الناس، وخصوصاً في الجزيرة العربية، وبالأخص بين نموذج الكفّار الذين وجّه لهم القرآن كلامه، وهم الذين كانت بينهم بداية نزول القرآن، وهم أهل مكّة الذين يرجع نسب الكثيرين منهم للنبي إسماعيل(ع) ابن النبي إبراهيم(ع)، وهم يعلمون ذلك بل يفتخرون به. وأيضاً هناك صحف منسوبة للنبي إبراهيم(ع) وفيها معلومات ستبدأ الآية التالية بذكرها، فإن لم يسمع بها الكافر فستنبئه السورة به...

كما ترى فالسورة ترجع بنا إلى آلاف السنين لترينا الامتداد التاريخي لدينه تعالى، وفي مقابل ذلك دين الكفّار المخترع والذي ليس له امتداد تاريخي.

(أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى{38})
ماذا في تلك الصحف:

{أَلَّا تَزِرُ}، أن لا تحمل حملاً مزعجاً لأنه ثقيل، {وَازِرَةٌ}، نفس وازرة، نفس حاملة لأشياء ثقيلة مزعجة، والكلام عن حملها لأعمالها التي فعلتها في الدنيا، فلا تحمل، {وِزْرَ}، حملاً ثقيلاً لنفس، {أُخْرَى}، فلا أحد في يوم القيامة سيحمل أعمالاً لغيره، فالقرار الإلهي أن كلّ واحد سيحمل أعماله ولن يأخذ من سيئات غيره.

نحن في يوم القيامة سنحمل أعباء الأعمال التي قمنا بها في الدنيا، والقرار الإلهي أن كلّ نفس ستحمل فقط أوزارها الخاصة بها لأنه تعالى لن يظلمك بتحميلك ذنوب غيرك. ومعلوم أنه أصلاً لن يتبرع أحد ليحمل عنك، ولا أنت ستتبرع بحمل ذنوب عن غيرك، وهذا واضح من عدة آيات منها الآية 11 من سورة المعارج {يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي

مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ}، ولكن تركيز الآية هنا على القرار الإلهي بإلزام كل واحد منّا بأعماله وهذا ما قالته تلك الصحف ويوافق بالتمام ما يقوله هذا القرآن.

نلاحظ القرآن سمّى ما يحمله الناس في يوم القيامة من ذنوب أنها "وزر" فهي ثقيلة على من يحملها، فيشعر بالتعب منها، وأمّا الحسنات فلم يعبّر عنها القرآن بالوزر أبداً، ولم يعبّر عنها حتى بالحمل، وعلى كل حال فلا تتصوّر أكياساً فيها السيئات "الثقيلة المتعبة" يحملها الناس، ولا أكياس حسنات خفيفة، لا، فهنا في الدنيا نضع الأحمال في مستوعبات، ولدينا أيضاً أوزارٌ معنوية نعيش تحت ضغطها كالعيش تحت وزر الدين، وزر الاتهام، وزر الإهانة... أمّا الأعمال والنيّات والأقوال في الآخرة فهي البيئة التي تبني جسدك وتبني محيطك من أول ما تفتح عينيك من الموت في الآخرة، وكما عبّرت الآيات عن الإيمان والعمل الصالح أنه ثواب، حسنات، فرح، عطاء إلهي... فهذا لا يصحّ وصفه بالوزر ولا بالحمل، أمّا السيئات، فيعيش من قام بها تحت وطأتها، تحت وزرها، تحت أثر عذابها وآلامها، فهي وزر كحمل ثقيل يلازمه ويعذّبه ولا يفارقه.

الوزر يشمل كل ما قمنا به وكل ما نتج عن أعمالنا، فإن شجّعت أحداً ما على ارتكاب السيئة، وارتكبها، فأنا سأحمل وزر تشجيعي له، مع أنه هو من ارتكب السيئة، ولكن لي وزراً منها، وكلما كرّرها كلما زاد وزري، وإذا شجّع الآخرين عليها، وارتكبوها، فسيزداد وزري، وكما ترى فأنا لا أحمل وزره، بل أحمل وزر ما تسبّبت أنا به حتى لو قام به غيري، فهو سيتحاسب على سيئاته وأنا سأتحاسب معه أيضاً على سيئاته التي لي علاقة بها ففعلها بسببي، وتجد هذا المعنى صريحاً في الآية 25 من سورة النحل {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ}.

(وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى{39})
وفي تلك الصحف: أن {لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى}، ما قام به من فعل عن قصد، الذي قام بحركة أو قول... فهو له وله فقط، إذا سعى في عمل السيئات، فهي له، وإن سعى في الخير فهو له لوحده.

نتذكّر دائماً أن كلمة إنسان استعملها القرآن للإشارة إلى نوعنا بما يوصف به ويميّزه عن بقية المخلوقات، وهكذا ستشير إلى الكائن البشري بما فيه من طبيعة منتشرة في غالبية أفراده بسبب الخلقة أو بسبب اختيار الغالبية لنفس الشيء... وهكذا نفسّرها بأنها تشير للغالب الأعم منّا، وهنا كما ترى فالجنين والطفل والمجنون... إنسان، ولكنهم إذا ماتوا لا يتحاسبون. هذا بالإضافة إلى كلمة "سعى" فالجنين والطفل لا نسمّي عملهم سعياً لأن أعمالهم ليست عن وعي كامل وعن قصد كامل، فهم فاقدون لأهلية التكليف الكاملة، بالإضافة إلى البداهة بتوجيه الكلام القرآني إلى المكلّفين، إلى الواعين المدركين لأفعالهم، فالمجنون إنسان ولكن أعماله لا توصف بأنها سعي لأنه غير مدرك بشكل كامل للمقاصد، فليس لديه وعي كافٍ بنتائج أعماله.

إذاً لن يحمل أحد عن أحد ذنوبه، ولكل واحد منّا ما سعى له، فأعمالي التي أقصد منها الخير، فهي لي، وسأنال عليها الثواب، وأعمالي التي قصدت بها السوء فهي لي وسأنال أنا عليها العقاب، فالآية هنا تعطينا أساس الحكم الإلهي علينا، ومنها تعلّمنا ما صار بديهياً في ثقافتنا، حتى صار تفسير الآية لك كأنه توضيح للواضحات، فترى أنها ليست بحاجة لتفسير، مع العلم أنها خبر منه تعالى، وفيما بعد ترسّخ هذا الخبر وصار من ثقافتك، وصرت تفهمه، وترى أنه واضح.

من العديد من الآيات فهمنا أن الرحمة الإلهية عامّة للجميع إلى أن يقرّروا هم الخروج من تحتها بمخالفة ما يرضاه تعالى ويأمر به من خير وصلاح، وفهمنا أن السوء والشرّ يبقى تصنيفه كما هو حتى لو بالخطأ أو سهواً حصل، وبناء عليه فهمنا معنى استغفار الأنبياء، فهم لن يقصدوا فعل السوء ولكن بالخطأ قد يحصل، ويغفره تعالى للمؤمنين، أمّا غير المؤمنين فلا مغفرة لهم ولا على أي شيء، حتى الذي حصل بالخطأ فهم سيتحاسبون عليه.

هنا تعبير الآية بحصرية الحساب والجزاء على السعي، على ما قصدت فعله، فهو متضمن للحساب حتى على ما حصل بالخطأ، فهناك سعي فهناك عمل مقصود، وبالخطأ حصل منه سوء، أمّا إن حصل سوء من دون سعي، فلنقل أن النائم تحرك مسبباً تماس كهرباء فسبب ناراً قتلت نائمين... فهذا ليس سعياً، وليس بالخطأ.

بقي شيء، فهناك ضعفاء الإيمان الذين خلطوا عملاً صالحاً بآخر سيئاً، فهؤلاء أعمالهم لا تخوّلهم النجاة من النار، ونفهم من القرآن أنهم بشفاعة من المؤمنين من الدرجة العالية أو من الملائكة أو منه تعالى يدخلون الجنّة. فهؤلاء سعيهم لم يك كافياً لهم لدخول الجنّة، ولكنه كان كافياً لينالوا الشفاعة ويدخلوا الجنّة.

ننتقل إلى الذي مات ولم يك سعيه كافياً له لينال الشفاعة، وله أقارب مؤمنون دعوا له وصاموا عنه وصلّوا عنه وتصدّقوا عنه وبنوا المساجد عنه... فهل ترتفع حسناته لينال الشفاعة؟ أليس هذا ظلماً للذي بنفس حالته ولم يحظ بمن يهديه الحسنات من بعد موته؟ فأين العدل إن لم يكونا متساويين في فرصة النجاة من النار؟

لا، فلكل إنسان ما سعى، فالنفع من الدعاء والاستغفار للميّت وإهدائه ثواب الأعمال الصالحة، يبقى محصوراً بسقف الشفاعة المتاحة له من المؤمنين من جهة، ومن الملائكة ومنه تعالى من جهة أخرى إن لم يك له محبّين أو أقارب ليشفعوا له.

لن يدخل أحد ما للجنّة بالحظ لأن له ولداً مؤمناً، وشخص آخر بنفس حالته الإيمانية سيدخل النار لأنه ليس له ولد مؤمن، لا لن يحصل هذا، فإمّا أن تكون أعماله كافية لينال الشفاعة من ولده المؤمن، والآخر أعماله كافية لينال الشفاعة من الملائكة أو منه تعالى، أو فهما لن ينالا الشفاعة.

ولنأخذ مثالاً متطرفاً عن شخص مات ولم يصلّ ولم يصم ولم يزكّ ولم يتصدّق... ولكنه ترك مالاً كثيراً وأنفقه الورثة على استئجار من صلّى وصام وحجّ عنه، وتصدّقوا بالميراث على الفقراء، فهل سينال الميّت أجراً؟

لا، فالأجر بالصدقة للورثة، ولا قيمة للصلاة والصيام والحج بالإيجار، فليس للإنسان إلا ما سعى.

(وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى{40})
وفي تلك الصحف: أن {سَعْيَهُ}، ما قصد الإنسان القيام به، {سَوْفَ يُرَى}، ستتم رؤيته، فسيصير عند الآخرين صورة محددة لسعيه، فسيراه تعالى ويجازيه عليه.

سعينا في الدنيا، بالخير أو الشر، لن يختفي من بعد موتنا، بل سنعود إلى الحياة وسيكون ما سعيناه في الدنيا مرئياً في الآخرة، فسيراه الله تعالى، وعلى أساسه:

(ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى{41})
{ثُمَّ}، بعد أن يرى سبحانه أعماله، {يُجْزَاهُ}، يجازيه تعالى، فيعطيه المقابل على ما سعى، {الْجَزَاءَ الْأَوْفَى}، المقابل بالتمام الكامل لما سعى له.

كل عمل أو قول قمنا به ونحن نقصده ولم يكن بالخطأ أو السهو... فهو سعي، وإن كان السعي مخالفاً أو موافقاً لكلامه تعالى فعلى كلا الحالتين عليه جزاء، فله مقابل نحصل عليه، كما هنا نجازي العامل النشيط بالمال أكثر من العامل الكسول، وكما نجازي المجرم بالعقاب... فلكل سعي جزاء، وسوف نحصل على الجزاء في يوم القيامة بالتمام بلا أي نقصان.

القاعدة الأساسية هي حصولك على ما فعلت بالتمام، وهذا هو التوفية، فالمذنب لا ينال عقاباً يزيد عن سيئاته، والمحسن لا ينال ثواباً ينقص عن حسناته، بل يوفّيه تعالى حسناته بالتمام، ولكن يعطيه تعالى زيادة عليها كما نفهم من عموم القرآن، وهذه تعني أنه حصل أولاً على الجزاء الأوفى، وبعده حصل على الزيادة، طبعاً هي زيادة لن يعترض عليها لأنها زيادة الثواب.

(وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى{42})
وفي تلك الصحف: {وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ}، إلى المسؤول عنك من مستوى إلهي، {الْمُنْتَهَى}، فنهاية كل شيء، فآخر كل شيء الذي لا آخر بعده، فكل الكائنات ترجع له تعالى ولا ترجع لغيره، فلا تنتهي بالموت، ولا تذهب إلى إله غيره تعالى ولا إلى أي عالم ليس تابعاً له تعالى... فنهايتنا حتماً إلى الوقوف بين يديه تعالى ولا نهاية غيرها.

(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى{43})
وفي تلك الصحف أنه، ربك سبحانه، {هُوَ أَضْحَكَ}، والكلام عمومي عن الأشياء التي تحدث معنا وتسبّب لنا السرور لدرجة ظهور علامات ذلك علينا بالابتسام العريض أو إصدار الصوت... فقد حدثت منه سبحانه، وسياق الكلام القرآني ليس عن عموم مشاعر وردود الفعل بالضحك، بل بالخصوص عمّا يتعلّق بالإيمان وعمل الصالحات، فالمؤمن العامل للصالحات هو الضاحك في الآخرة.

وأن ربك هو، {أَبْكَى}، فالأمور التي تحدث وتسبب الحزن لدرجة نزول الدمع من العين فقد حدثت منه تعالى. والكلام عمومي عن الحوادث التي نتضايق منها لدرجة نزول الدمع، وبالخصوص لما له علاقة بالإيمان، فالكلام عن الذي أصابه الضرر منه تعالى في الآخرة، فبكى من الألم بسبب كفره وسوء عمله.

صحيح أن الآية عمومية وصادقة التطبيق على كل حالات الضحك والبكاء التي تصيبنا، فهو سبحانه صمّمنا وخلقنا بهاتين الخاصيتين، والحوادث التي تفعّلهما تحصل لأنه تعالى سمح بحصولها... فهما مثل حالة نزول الماء وحركة الرياح وخروج النبات وجريان الفلك... ولكن هنا سياق الكلام السابق عمّا نتج من أعمالنا، عن الوزر والسعي والجزاء... وهو تعالى في الآخرة أضحك الساعي بالخير وأبكى الساعي بالشرّ، وفي هذا دلالة على نسبة كل شيء في الآخرة والأولى له تعالى فقط.

(وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا{44})
وفي تلك الصحف أنه، ربّك سبحانه، {هُوَ أَمَاتَ}، هو أخذ الحياة، ليتوقّف الكائن عن الفعل والانفعال والتفاعل.

وأنه سبحانه {هُوَ أَحْيَا}، أعطى الحياة، فالفعل والانفعال والتفاعل بمستوياته المتفاوتة التي أعلاها حياته سبحانه وتعالى الذي يفعل ولا ينفعل، إلى أقلّها من التفاعلات الكيميائية والفيزيائية، وبينهما حياة النبات الذي ينفعل ويتفاعل وحياة الحيوان الذي يفعل وينفعل ويتفاعل، فهو الله الحي بقدراته الفائقة منح الحياة للآخرين، وبالخصوص فهنا الحديث عن الإنسان، فهو تعالى منحه الحياة ويأخذها منه ويعيدها له.

إذن، سبحانه قرّر أن نموت إذا تعرّضت أعضاء جسدنا للضرر، فإذا قتل أحد ما نفسه، فهذا لا يعني أبداً أنه يملك السيطرة على إماتة نفسه، لا، فهو لا يزال تحت سيطرته تعالى، فلو أراد سبحانه لخلقنا بكيفية لا نموت فيها مهما حاولنا ومهما تعرّضنا لأي ظرف، وهي حالة أهل جنّة الآخرة، فهم ومهما حصل معهم، لا يموتون، ولا يهرمون ولا يمرضون، ولا تتأثّر أجسامهم بأي عامل رضّ أو كسر أو طحن أو سحق... بل ولا يشعرون بالألم مهما حصل معهم، وهكذا كما ترى، فإنّنا بتكويننا الذي نحن عليه، واقعون تحت تصميمه تعالى لنا بهذا الشكل الذي نموت فيه إن تعرّض جسدنا للضرر، سواء تعرض جسدنا لضرر الشيخوخة أو المرض أو القتل أو حتى لو نحن سبّبنا الضرر لجسدنا، لا فرق.

الكلام في الآية هنا عن إماتته تعالى لنا هنا في الدنيا وعن إحيائه لنا في الآخرة، فموتنا هنا مقدّر لنا بسبب تصميمه تعالى لنا بحيث تنتهي حياتنا لسبب أو لآخر، ومقدّر لنا أن يعيد تعالى إحياءنا في الآخرة.

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى{45})
وفي تلك الصحف أنه، ربّك سبحانه، خلق، ركّب وألّف من المواد "المناسبة"، الزوجين: الذكر "صبي، فتى، رجل..." والأنثى "بنت، فتاة، امرأة...". فما نعرفه من اختلاف في الخلق وهو التركيب المختلف لجسد الذكر عن جسد الأنثى، فسبحانه هو الذي صمّمه وصنعه.

كما ترى فيما سبق وفيما سيأتي من كلام السورة، تراه يشير إلى أمور لا تفسير لها إلّا أن إلهاً فائق القدرات والصفات فعلها، وتفسيرك لحدوثها بالأسباب الطبيعية "آليات" فهذا لا يعني أكثر من تعمّقك في معرفة آلية كيفية تصميمه وخلقه تعالى لنا، وخذ مثلاً عن بيت بناه مهندس، فلن تجد عاقلاً يقول عن البيت إنه هكذا لوحده تكوّن، بل هناك من صمّم وهناك من بنى... وماذا لو اخترع المهندس حبّات تراب وصمّمها بحيث تتراكم مع بعضها لوحدها لتشكّل بيتاً؟ والآن

نسأل ماذا لو كان كل تراب الأرض فيه هذه الخاصية ونرى البيوت منتشرة هنا وهناك؟ ماذا تغيّر حتى تقول عن البيت الأول إن مهندساً صمّمه وبناه وعن البيوت الأخرى إنها لوحدها صارت؟ بالصدفة، أو من تكرار الحوادث الكثيرة نجح البعض منها ليشكّل بيتاً... كما ترى، نحن وما حولنا قد خلقه تعالى على مراحل بآليات من تراتبية تسلسل أحداث وخواص في المادة التي في بيئتنا، فهو تعالى جعل هذه الخصائص في بيئتنا، فهل كنت تتوقّع منه تعالى أن يشمّر عن يديه ويعجننا كتماثيل من طين لنصير بشراً؟ فهل تريد أن تراه تعالى يفعل ذلك حتى تؤمن به؟

للأسف، غالبية المنتمين لدينه تعالى كان إيمانهم ساذجاً وطفولياً وأسقطوا معطياتهم على كلامه تعالى ففسروه به، فألغوا آليات حدوث الأشياء، ونسبوا ما يحدث له تعالى على معنى فورية حدوث الأمور بشكل عجائبي أو ألغوا آليات وأسباب حدوث الأمور وأنها تحصل لأنه تعالى قال لها كوني فكانت فوراً... بينما القرآن مشحون بذكر مراحل لخلق السماوات والأرض، ومراحل تبدلها لتصير الآخرة، ومراحل خلق الإنسان من طين...

لقد كرّرت لك في هذه الدراسة أن تتصوّر نفسك أنت قررت خلق كائنات في بيئة، وعندها سترى تفاصلا بالمليارات وتعقيدات هائلة تفوق قدرتك على تحمل تذكرها كلّها وحسابها ليستقرّ ما ستخلقه، وسترى أن مستوى قدراتك وصفاتك ستنعكس على مخلوقاتك وبيئتها، فكلما علت قدراتك كلما زادت التفاصيل في مخلوقاتك... ولنقل أنك خلقت أسماكاً في حوض ماء، فهل ستخلقها تنمو وتتكاثر؟ وتجوع فتأكل فتنمو وتتكاثر؟ ومن أين ستحصل على الطعام؟ فهل سترشّه بيدك لها على سطح الماء أم ستجعل بيئتها ينتج عنها الطعام؟ الآن فاسأل نفسك: هل ستؤمن الأسماك بي كخالق ورازق لها عبر ما صمّمته وخلقته من بيئة ينتج عنها الطعام أم سيكفرون بي ويريدون رؤية مباشرة لفعلي وأنا أرشّ لهم الطعام؟

أذكر لك هذا المثال لترى أننا كلما فهمنا أكثر عن قوى الطبيعة وتعمّقنا في خصائص المادة والطاقة، فهذا لا يعني أنه لا يوجد إله صمّم وخلق، بل بالعكس فهذا يدلنا أكثر فأكثر على القدرات والصفات الفائقة له تعالى حيث خلقنا من تصميم عميق يجري بآليات مترابطة أوصلت الأمور إلى ما هي عليه الآن من حال الدنيا، وذاهبة باتجاه تبدّل الدنيا لننتقل إلى الآخرة...

التفكير الساذج للكثير من المؤمنين في فهم النصوص التي وصلتنا منه تعالى قد أورثنا ثقافة ساذجة طفولية بسيطة، ولا نلومهم على ذلك، فهم لم يخطر ببالهم ولا بأي شكل أن ما يقولونه خطأ، فعلومهم كان مستواها لا يسمح لهم بأكثر مما قالوه، والخطأ الذي نلومهم ونلوم أنفسنا عليه هو تفسير الكلام الإلهي بحسب علومنا "معطياتنا" بدلا من الالتزام بالمعنى الظاهر من كلامه تعالى، وخذ مثلاً الآية 71 و72 من سورة ص {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}، فهذا النص ورد بكلمات وصيغ مختلفة في القرآن، وورد مثله في الكتب التي نزلت سابقاً منه تعالى، وأوائل المؤمنين تصوّروها على أساس أنه تعالى عجن بيديه تمثالا من الطين ونفخ فيه فتكوّن أوّل إنسان وصار آدم(ع)... ولن تجد في القرآن أي كلام عن خلق زوجته حواء، فاستنسب المؤمنون أنها مخلوقة مما بقي من طينة آدم(ع) أو انخلقت من ضلع من أضلاع صدر آدم(ع)! وورثنا عنهم أن أضلاع القفص الصدري للرجل ناقصة ضلعاً عن أضلاع صدر المرأة! وكان هذا تفسيرهم لقوله تعالى في الآية 189 من سورة الأعراف: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا...}، علماً أن الآية أيضاً تحمل معنى جعل الذكر من الأنثى، وهو منطقي أكثر إذا كان الكائن السابق هو الحامل للمواليد... وكما يبدو لك من عموم هذا النوع من التعابير القرآنية فالكلام عن أصل سابق وبعده صار منه ذكر وأنثى...

هذا الكلام وأشباهه من تفسيرات المؤمنين للنصوص الدينية والذي صار هو الدين ومخالفته كفر، علماً أنه كلامهم هم وليس كلامه تعالى، فكلامهم سبّب خلافاً بين الدين والعلم، وكما ترى فالخلاف ليس بين دينه تعالى والعلم، بل بين دين المؤمنين مفسري كلامه تعالى والعلم.

فلنرجع للآيتين من سورة ص، ولنفسرهما كما هما بالكلام العربي الفصيح، فالطين هو الماء والتراب، وهما المادة التي في بيئتنا، وهذا التعبير مرادف حالياً للمواد التي نعرفها باسم عناصر الجدول الدوري، من كالسيوم وهيدروجين وحديد... والتسوية هي جعل الشيء متناسباً على التمام، ونفخ الروح هي جعل شيء صاف فيه، شيء يبدو أنه يجعله مختلفاً وليس مجرد كومة من الطين. مضافاً لهذه التفسيرات الآية 30 من سورة البقرة والتي بوضوح تشير لرؤية

الملائكة(ع) بشرا يفسدون ويسفكون الدماء فتستغرب الملائكة أنه تعالى سيجعل منهم خليفة... فمن ذلك ترى أن آدم(ع) متوالد من بشر قبله وأنه أوّل من تأهّل من البشر ليتكلّف بالمسموح والممنوع، ونفس التعبير بالتسوية ورد في الآية 17 من سورة مريم {فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا} ولم نفهم منه تسوية تمثال من طين ونفخ الروح فيه، وورد في الآية 37 من سورة الكهف {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا} ولم نفهم منه تسويته بدون أبوين.

والأوضح من ذلك ما ورد في سورة السجدة {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (9)}.

هذا لا يعني أني من مؤيدي نظرية النشوء والارتقاء المشهورة باسم نظرية التطور، ولا يعني أني من المعارضين لها، فأنا لا يحقّ لي إبداء رأي علمي فيها لأني لست متخصصا في البيولوجيا، ولا يحقّ لي تفسير النص القرآني على أساسها حتى لو فرضا كنت مقتنعا بصحتها إجمالا، ولكن يبدو واضحا من الكلام الإلهي وجود مراحل بدأت من الطين وتسلست الأحداث إلى أن نتج عنها خروج البشر إلى الحياة.

الآن نرجع إلى ما تقوله الآيات هنا عن الضحك والبكاء والحياة والموت والذكر والأنثى، وهي نماذج للفت انتباهنا لأمور تقصّد سبحانه صنعها كتفاصيل هائلة العدد والتنوّع والتقانة... لتكون دليلا واضحا سهلا جدا عليه لنراه عزّ وجلّ كمصمّم خطّط ونفّذ فخلق ما في الدنيا. وما يقوله العلمانيون المنكرون للإله سبحانه، إنما هو ردّ على ما ورثناه من ثقافة المتدينين وليس ردا على كلامه تعالى، فما قاله تعالى عن خلق الإنسان ليس أكثر من كلام عادي لما تراه وتعرفه من حولك من دون الحاجة للتخصّص في العلوم، ويمكنك مراجعة تفسير الآيات الأولى من سورة السجدة في دراستنا هذه لترى تفاصيل أكثر عن معناها، ولترى أنها لا تطرح نظرية علمية، ولا تخبرك بشيء غريب عجيب عن خلق الإنسان، بل هي خبر عادي جدا مفهوم بسهولة عن خلقنا عبر مراحل...

بقي شيء، فجملة آيتنا هنا عن كوننا ذكرا وأنثى، تشير لعموم غالب خلقتنا، فهناك خنثى وهو الجامع للذكورة والأنوثة في جسد واحد، ومن وجهين لا يتنافى هذا مع آيتنا، فسبحانه لم يقل أنه خلقنا كلنا ذكرا وأنثى، بل الكلام عمومي: فخلق سبحانه ذكرا وأنثى. والوجه الثاني أن عامّة كلام القرآن عن نماذج عمومية، على الطريقة التي عادة نحن نتكلم بها عن الأمور، حيث نتغاضى عن الشواذ النادر ونركّز على الأساسي والغالبية، فليس لدينا تشريعات ميراث للخنثى كحالة ثالثة غير الذكر والأنثى، فبطريقة أو بأخرى نحسم الموضوع لاختيار جنس محدّد للخنثى...

وأخيرا، فجملتنا هذه عن خلقه تعالى للذكر والأنثى تختصر الكثير الكثير من المعاني العميقة التي لا يمكن تفسيرها ولا بأي شكل إلّا أن خالقا فائق القدرات والصفات صمّمها وخلقها، فما ينتج عن الزوجين من تزواج لإنجاب الأولاد، فهو وجه واحد من أمور أخرى تعرفها لوحدك بالبداهة، فما معنى ميول الجنسين لبعضهما؟ وما معنى انجذابهما لبعضهما؟ وما معنى الرغبة؟ وما معنى الشهوة؟ وما معنى تمييز الجمال والحسن؟ وما معنى وما معنى... آلاف التفاصيل الناتجة عن الذكورة والأنوثة فينا؟

نعم لها تفسيرات كيميائية وفيزيائية... لحصولها، فهذه آليات حصولها، وإذا علمناها فهل هذا يعني أن البيت لوحده انبنى لأني لم أر المهندس والبنّاء بعيني؟ فسبحانه أخبرنا عن خلق دنيا المخلوقات في ستة أيام حصل فيها تشكل الأرض وأقوات المخلوقات... وأخبرنا عن خلقنا من طين... فهذه مراحل، ومن البديهي أن لها آليات لحصولها، فتعرّفنا على آليات حدوثها هو تعرّف على الآليات التي صمّمها تعالى وليس نفيا له تعالى.

(مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى{46})
... خلق سبحانه الذكر والأنثى... {مِنْ نُطْفَةٍ}، من شيء صغير الحجم، {إِذَا تُمْنَى}، إذا أسال شيء ما النطفة من مخرجها. المني وصف من نوع توصيف الترشيح أو النزف أو النزّ لسائل، والكلام هنا عمّا يسبّب نزول مادة التلقيح من الرجل.

لاحظ أن عامّة الناس حالياً تعارفوا على تسمية النطفة بالحيوان المنوي، والمختصون بالطبّ يسمّونه حييمن، واستعمل القرآن الوصف: {نُطْفَةٍ}. للإشارة إلى الحجم الصغير جداً جداً لما سيصير إنساناً، فهذا ما تريد الآية لفت الانتباه له.

نلاحظ غالبية المفسرين تجنّبوا تفسير كلمة {تُمْنَى} بأنها وصف لسيلان النطفة من الرجل، ويبدو أنهم استقبحوا أن يستعمل القرآن هذا التوصيف ورأوا من الأنسب تفسيرها بالمنية "أمنية" على معنى تقدير الأشياء، على معنى تطوّر النطفة لتصير إنساناً، ولكن لا دليل لغوياً على هذا المعنى، بل لا يتوافق مع تعبير القرآن {مَنِيٍّ يُمْنَى} الذي ورد في الآية 37 من سورة القيامة، فهو أنسب لسيلان السائل من الرجل.

تلاحظ القرآن ذكر النطفة من الرجل كثيراً، وأشار لحمل المرأة لتلك النطفة، ونحن الآن نعلم أن النطفة تستقر في البويضة، ولكننا في حياتنا العادية لا نرى البويضة ولكن نرى النطفة ولذلك ذكر القرآن ما نراه وأشار للبويضة التي لا نراها عندما أشار لحمل الأنثى...

على كلّ حال، الآية تلفت انتباهنا للعملية المعقدة والمتقنة التي تنتج إنساناً، من نطفة، من شيء بحجم نقطة صغيرة تنمو فتصير إنساناً. وهذه آية من آياته تعالى الدافعة لنا للتفكّر فيها للتعرّف عليه سبحانه...

بالنسبة لكلمة {نُطْفَةٍ} فهي وصف لعموم أي شيء صغير الحجم جداً، ونستعمل هذه الكلمة "عادة" لوصف مكونات المني، وحالياً بالعاميّة نستعملها اسماً للحيوانات المنوية، علماً أنها في أساس معناها ليست مخصصة لذلك، فيمكنك القول عن أي كمية صغيرة جداً من الماء العادي أو البهار أو الملح أو...: نطفة.

(وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى{47})
في تلك الصحف ورد أيضاً: أن {عَلَيْهِ}، على ربّك سبحانه، {النَّشْأَةَ الْأُخْرَى}، والحديث هنا مع الإنسان، فالنشأة الأولى للإنسان من بنائه وتنميته، حيث كان في الأولى في أول مرّة هنا في الدنيا من نطفة... كما ورد في الآية السابقة، والذي أنشأه أوّل مرّة بالصفات التي فيه حالياً فسينشئه مرة أخرى، وهذا سيحصل في يوم القيامة من الموت.

كما ترى في سور أخرى تفاصيل أكثر عن هذا الموضوع، حيث تشير تلك السور إلى وضوح فائق قدرات الذي خلق ما في هذه الدنيا، وبناء عليه من الواضح وبكل سهولة أنه قادر على خلقها مرّة ثانية، راجع كمثال ما ورد في الآية 99 من سورة الإسراء {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ...} وتكرّر في الآية 81 من سورة يس {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ}. وغيرها العديد من الآيات، وسورتنا هنا اكتفت بالإشارة لتريك أنهم هم يقولون كلام ضلال وغوى وعن هوى بعبادتهم للأصنام والملائكة... وليس الرسول(ع) ضالاً بكلامه عن الإله الواحد الأحد الخالق لكل شيء...

(وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى{48})
في تلك الصحف: {وَأَنَّهُ} ربّك سبحانه، {هُوَ أَغْنَى}، والحديث هنا مع الإنسان فسبحانه جعلهم أغنياء، يستغنون بأشياء عن أخرى، فيملكون أشياء تجعلهم لا يحتاجون بعدها لأشياء أخرى، وكمثال لديهم طعام يغنيهم من الجوع، ولديهم مال لشراء الطعام الذي يغنيهم من الجوع...

والله سبحانه، {وَأَقْنَى}، فجعل الناس تستطيع الاقتناء فتستطيع جمع القنية: فيصير لديهم ما يفيض عن حاجتهم ويدّخرونها.

هنا عندنا نوعان: الغني وما عنده كافٍ له، ولدينا الذي أقنى، اقتنى فجمع واحتفظ بأشياء زيادة عن حاجته، فكان لديه أموال وأملاك أكثر ممّا يحتاج.

في مقابل الاعتقاد بآلهة غيره تعالى تسبّب الغنى العادي والثراء، وهو اعتقاد غير صحيح، تخبرنا الآية هنا أنه تعالى وحده المسؤول عن صيران بعضنا غنياً وبعضنا الآخر مقتنياً "كانزاً جامعاً للكنز"، مما أتاحه تعالى لنا في بيئتنا وفينا من قدرات على الغنى والاقتناء.

سيخطر ببالك أننا نحن نعمل ونجتهد، بالحلال أو بالحرام، ونصير أغنياء وأثرياء، فكيف تقول الآية إنه تعالى أغنانا؟ ويمكنك النظر لهذا الموضوع ببساطة من رؤية واسعة لنا، فتتصوّر أنك أنت خلقت الكرة الأرضية وهي بالنسبة لك مجرد كرة صغيرة بحجم يدك، وخلقت فيها كائنات زوّدتها بقدرة الحركة والفكر، وصمّمتها لتعيش حياة اجتماعية مبنية

على التعامل بالتبادل بالأشياء أو بالمال أو الذهب والفضّة... وصار بعضهم أغنياء وأثرياء، كما ترى، فهم بالنسبة لك مجرّد بيادق "ألعاب" تحركّت كما رسمت لها، وصار بعضهم أغنياء مما أتحته لهم... فبهذه النظرة البسيطة ترى أنك أنت أغنيت وأقنيت، فلولاك ولولا خلقك لهم بقدرات على جمع ما أتحته لهم في بيئتهم... لما صار أحد منهم غنياً أو ثرياً... وهكذا تفهم النظرة الإلهية لنا من ناحيته تعالى.

من نظرة أعمق، الإله سبحانه عندما قرّر أن يخلق هذه الأعداد الهائلة من الناس، فهو سبحانه وتعالى يعلم مصير كلّ واحد منها قبل أن يتكوّن، فيعلم متى سيولد، وماذا سيفعل، وكيف ستكون حاله... فإن كنت أنت لديك لائحة المعلومات هذه بيدك قبل ظهور الناس إلى الوجود على الأرض، وفيها أن الإنسان الذي سيولد من هذا الأب وهذه الأم في اللحظة الفلانية، ستسير حياته على الشكل التالي ويصير غنياً... ولديك أنت القدرة على خلقه، وخلقته ليسير على ما في يدك من معلومات مستقبلية عنه، ففعلياً ومن ناحيتك فأنت الذي أغنيته، ومن ناحيته فهو خطّط وعمل حتى صار غنياً.

(وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى{49})
في تلك الصحف: {وَأَنَّهُ هُوَ} ربّك سبحانه، {رَبُّ}، المسؤول من مستوى إلهي، عن، {الشِّعْرَى}، وهذا اسم لنجمين في السماء موجودين في المجموعة التي يسمِّيها الفلكيون بمجموعة الكلب الأكبر وفيه الشعرى اليمانية، ومجموعة الكلب الأصغر وفيه الشعرى الشامية. وهما نجمان لهما ضوء قويٌّ في الليل ومرئيان من الناحية الشمالية للكرة الأرضية.

من التاريخ نعلم أن قدماء المصريين اعتمدوا على مراقبة نجم الشعرى اليمانية، حيث لاحظوا أنه عندما تظهر هذه النجمة "الشعرى اليمانية" قبل شروق الشمس وتكون النجمة على نفس جهة الشروق فهذا يعني بداية فصل الخريف، وأنَّ نهر النيل سيفيض وبذلك يستعدون للزراعة. واعتمد العرب على تغيُّر موقع نجمة الشعرى اليمانية لمعرفة بداية فصل الشتاء فيذهبون في رحلتهم التجارية باتجاه "اليمن"، حيث على ما يبدو أنه فصل مناسب لهم للسفر باتجاه الجنوب، ولذلك سمّوه بالشعرى اليمانية نسبة لبلد "اليمن" الذي سيذهبون إليه للتجارة، ويعتمدون على تغير موقع الشعرى الشامية لمعرفة بداية فصل الصيف فتتحرك قوافل التجارة باتجاه الشام، ولسبب أو لآخر كان الأنسب لهم السفر صيفاً باتجاه الشام. وكما تلاحظ سمّى العرب النجمين باسمين متعلقين باليمن والشام، أمّا الآية هنا فأبقت على اسم النجمين الأصلي "الشعرى".

من تاريخ المشركين العرب نعلم أنهم اعتبروا نجمي الشعرى إلهين، وربطوا ظهور كل واحد منهما بتغيّر المناخ على أساس أن الذي سبب دخولهم في فصل الصيف هو نجم الشعرى الشامية! ونجم الشعرى اليمانية سبّب تغيّر المناخ ليأتي الشتاء!

اللات وعزّى ومناة الذين ذكرتهم السورة في البداية، كانوا مجرّد أسماء ولا وجود حقيقياً لكائنات تحمل تلك الأسماء، فهي ليست أسماء نجوم... أمّا هنا فلدينا اسمان "شعرى يمانية وشعرى شامية" يطلقان على شيئين لهما كيان، وهما نجمان مرئيان في السماء، ولكنهما مجرد نجمين مثل بقية النجوم! ومن الواضح جداً تحرّك كلّ فلك كل النجوم مع بعض بالنسبة لنا، ومن الواضح أن ظهور تلك النجوم بالنسبة لنا في أيام متداورة على مدار السنة، فهم محكومون بتصميم، فكيف تكون آلهة! وكيف تكون مسؤولة عن حصول الصيف والشتاء! فأي سخافة هذه! وورد في صحف النبيين إبراهيم(ع) وموسى(ع) أن الإله واحد أحد وأن النجوم مجرّد أجرام مخلوقة في السماء، وتتذكّر قصّة النبي إبراهيم(ع) مع قومه الذين عبدوا النجوم والأصنام... ورموه في النار لأنه بيّن سخافة عبادتهم لها، وراجع في ذلك الآية 76 وما بعدها من سورة الأنعام {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}.

إذاً هو ربك سبحانه جعل الشعرى وجعل غيرها من النجوم تشير لمواقيت واتجاهات محدّدة، ولم يكن اكتشافنا لارتباط ظهور تلك النجوم بتوقيت تغيّر المناخ وليد صدفة أو لم يقصده تعالى، لا، سبحانه لم يترك أيّ تفصيل للصدفة، وصمّمنا "التعبير القرآني: سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وصمّم النجوم لتكون دليلاً لنا على الاتجاهات والمناخ، وترى ذلك واضحاً في الآية 16 من سورة النحل {وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}، مثل تصميمه تعالى لنا بحيث نلاحظ طفو الأشياء على

الماء فاخترعنا السفن، سبحانه لم يتفاجأ بذلك، بل من الأساس صمّمنا حتى نصل إلى ذلك، ولا زال أمامنا الكثير من الاكتشافات المتاحة لنا بحسب الإمكانات التي أتاحها سبحانه لنا.

(وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى{50})
في تلك الصحف: {أَنَّهُ} ربّك سبحانه، {أَهْلَكَ}، استنفد حياة، أمات، {عَادًا الْأُولَى}، وعاد هو اسم لقبيلة تضم مجموعة كبيرة من الناس كانت منتشرة كمجموعات في مختلف مناطق الجزيرة العربية.

القرآن عادة يذكر عاداً، وآيتنا هنا قالت "عاد الأولى". لذلك استنتج بعض المفسرين أن هذه القبيلة أنزل الله تعالى عليها العذاب مرتين، مرة على عاد الأولى ومرة على عاد الثانية التي كان فيها النبي هود (ع)، واستعانوا على هذا التفسير بما فسروا به الآيات بحيث يظهر منها اختلاف نوع العذاب الذي نزل على عاد... وهذا غير صحيح، راجع دراستنا هذه لترى أن معاني كلمات الآيات عن عذاب عاد، لا تشير لنوعين مختلفين من العذاب نزلا عليها، وتسمية عاد بالأولى هنا مشابهة لكلام القرآن عن فرعون مع العلم بمرور العديد من الفراعنة في التاريخ، ولكن القرآن دائماً أشار إلى الفرعون الذي كان على عهد النبي موسى(ع) واكتفى بذكر لقبه لوحده من دون أي تفاصيل اعتماداً على حصر الكلام القرآني عنه... وكذلك الأمر بالنسبة لعاد، لدينا في القرآن قصّة واحدة عنهم، مع اختلاف تناول تلك القصّة من عدّة زوايا مختلفة بحسب ما تريده السورة من القصّة بما يناسب موضوع السورة الناقلة للقصّة... التعبير بعاد الأولى مع ما نعلمه من التاريخ من انتشار لقبيلة عاد على مختلف بقاع الجزيرة العربية، وأنّ النبي هود(ع) جاء لواحدة من تلك التجمعات، وهي مدينة إرم التي أشارت إليها الآية 7 من سورة الفجر {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ}، فنفهم أن العذاب الإلهي لم ينزل على كل قبيلة عاد بكل أماكنها، بل على عاد الأولى في مدينة إرم.

بالتحليل، الوصف بالأولى لعاد التي نزل عليها العذاب، يشير لنشوء عاد ثانية من الذين كانوا منتشرين في أماكن بعيدة عن نزول العذاب، فربما أنشأوا مدينة أخرى غير إرم وكانت مهمّة وكبيرة مثلها.

المشهور في الكتب أن النبي هود(ع) والنبي صالح(ع) كانا قبل النبيين موسى(ع) وإبراهيم(ع).

في تلك الصحف أيضاً خبر عن عذاب إلهي في الدنيا لمن اخترع آلهة وشريعة من هواه، وهذه الأخبار نشرها تعالى بين الناس عبر أنبيائه، وتوارث الناس أخبار حدوثها... وهي نماذج دنيوية ملموسة عن عقابه تعالى لمن خالف دينه، ونماذج عن عقاب الآخرة الذي وعد به تعالى الكافرين.

(وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى{51})
وربّك سبحانه أهلك، {وَثَمُودَ}، وهو اسم لقبيلة عربية كبيرة، كانت منتشرة في عدة أماكن في شبه الجزيرة العربية، والنبي صالح(ع) أرسله سبحانه إلى مدينة الحجر، ويوجد إلى الآن آثار لبيوت منحوتة في الصخر في مدينة الحجر، وتسمى أيضاً مدائن صالح(ع)، وهي تقع فيما يسمّى الآن بالمملكة السعودية، لجهة الشمال الغربي من المدينة المنورة.

{فَمَا أَبْقَى}، حيث تدمرت المدينة بالكامل ولم تبق على حالها.

من القرآن نعلم أن زلزالاً أصاب ثمود ودمّر مدينتهم المسمّاة بالحجر، وبقي منهم أحياء، وأيضاً وبحسب القرآن فقبيلة النبي شعيب(ع) أصابها زلزال ولم يموتوا كلّهم، وراجع في ذلك ما ورد في سورة الأعراف الآية 79 {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}، بحسب القرآن لم تكن الإبادة شاملة إلا لقوم النبي لوط(ع) وقوم النبي نوح(ع) وقوم النبي هود(ع)، والتعبير هنا {فَمَا أَبْقَى} يشير لذهاب مدينة الحجر ولم تبق قائمة كمدينة، ولا يشير لهلاك كل أفراد قبيلة ثمود بالتمام، ومثله في التعبير ما ورد في الآية 14 من سورة الشمس {فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا}، والكلام عن تسوية المدينة بتدميرها، فسوّاها مدمّرة.

(وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى{52})
في تلك الصحف: {وَقَوْمَ نُوحٍ}، والناس الذين كان ينتمي لجماعتهم النبي نوح (ع)، {مِنْ قَبْلُ}، قبل ثمود وعاد أيضاً أهلكهم تعالى، {إِنَّهُمْ}، إن قوم النبي نوح(ع)، {كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ}، من عاد وثمود، أشد ظُلماً، أشد تركاً للعدل

والإنصاف، وكانوا، {وَأَطْغَى}، من عاد وثمود، فيتعدّون الحدود الإيمانية والأخلاقية والإنسانية بشكل أكبر مما فعلته قبيلتا عاد وثمود.

هذا التوصيف من نوادر توصيفات القرآن لقوم النبي نوح(ع) عن شيء سيّء غير كفرهم وشركهم، فيدلّك على فساد حكومتهم وتشريعهم في مجتمعهم وفيما طالته يدهم... وأقول لك هذا لأنه يبدو عن عموم كلام القرآن أن الكفر به تعالى ليس لوحده سبباً لنزول العذاب في الدنيا على قوم ما، بل دائماً هناك سوء من العيار الثقيل منتشر بينهم، وهو سبب نزول العذاب حتى لو لم يكونوا مشركين، كحالة الذين اعتدوا في السبت حيث كانوا من بني إسرائيل، فجعلهم تعالى قردة... وندر في القرآن الكلام عن سوء فعله قوم النبي نوح(ع) وغَالباً كان الكلام عن كفرهم وشركهم، ومن الآية هنا تفهم أنهم كانوا طغاة ظالمين مثل عاد وثمود، وهذا يعني أن عدة أنواع من السوء من العيار الثقيل كانت منتشرة بينهم...

نضع في بالنا دائماً أن كلمة ظلم ومشتقاتها في القرآن وردت بمعناها الدقيق: لم يكن معه حقّ لأنه لم يكن منصفاً ولا عادلاً. فظلمتك معناها أني لم أكن محقاً ولا منصفاً ولا عادلاً فيما فعلته معك، وربما تكون نتيجة ظلمي فيها أذية معنوية أو مادية لك، وربما لم تتأثر، فليس هناك علاقة إلزامية بين الأذية والظلم، وقولنا: ظلمت نفسي، معناه أني فعلت شيئاً لم يكن منصفاً ولا عادلاً مع نفسي. وغالباً أشار القرآن بالظلم لمن عُرض عليه الإيمان بشكل واضح، ومن الإنصاف الإيمان بالشيء الذي يبدو لي صحيحاً، ومن الظلم الكفر به.

رغم أن هذا النوع من الظلم يستتبع عذاباً "لنفسي" في الآخرة إن لم أتب، ولكن كلمة ظلم ليست مرتبطة حتماً بعذاب "النفسي" بل بعض الأحيان يكون للظلم تبعات من نوع العذاب الجسدي أو النفسي وبعض الأحيان لا يكون له هذه التبعات، كما في حالة الذي سأل أخاه كفالة نعجته في قصّة ذكرتها الآية 24 من سورة ص وكان النبي داوود(ع) حكماً فيها {قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ...}، فمن هذه الآية تفهم بوضوح المعنى الأساسي لكلمة ظلم، حيث إنه ظلم أخاه بسؤاله تعني أنه لم يكن منصفاً عادلاً مع أخيه، وعلى هذا المعنى احمل كل كلمة ظلم وردت في القرآن.

(وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى{53})
{وَالْمُؤْتَفِكَةَ}، المقلوبة، {أَهْوَى}، اتّبعت هواها أكثر من الأقوام الثلاثة السابقة "ثمود عاد وقوم النبي نوح(ع)"، ففعل سكانها ما يحبّون ويشتهون بغضّ النظر عن أي ضابط إنساني أخلاقي، والكلام عن اتّباعهم لهواهم في الشذوذ الجنسي والاعتداء جنسياً على الغرباء.

في القرآن نجد توصيفاً لعذاب قوم النبي لوط(ع) بجعل عالي القرية سافلها كما ورد في الآية 74 من سورة الحجر {فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ}، وهذا تعبير آخر عن إفكها، عن جعلها مقلوبة، ومعلوم أنهم فعلوا الفاحشة متبعين هواهم بشكل أعنف من غيرهم من الأقوام التي عذّبها تعالى.

حالياً في البلد الذي يسمى الأردن، يوجد منطقة تسمّى غور الأردن، وهي منطقة كانت مسكونة منذ القدم، ويقع فيها البحر الميت، وهو البحر الصغير المشهور بارتفاع نسبة الملح في مائه لقرابة الثلاثين من المئة، ومن المشهور بين المسلمين أنه في زمن النبي لوط(ع) كان في منطقة غور الأردن أربعة تجمعات سكنية، لكل واحدة منها اسم، وهي مذكورة في التوراة ولم يذكرها القرآن وهي: سادوم، عامورة، أدومة، صبييم. وهذه التجمعات هي القرية التي كان فيها النبي لوط(ع). والمشهور في عموم ثقافة المتدينين أن البحر الميت لم يكن موجوداً في عصر النبي لوط(ع) بل كان مكانه واحدة من التجمعات السكنية، "وهذا غير صحيح فالبحوث الحالية تثبت بأن البحر الميّت عمره بعشرات آلاف السنين"، ويقولون إنه عندما نزل العذاب على تلك المنطقة حصل زلزال وفوران للحمم من الأرض، وانخسفت قطعة من الأرض وصارت فيما بعد بحيرة كبيرة هي الآن البحر الميت.

كما تلاحظ استعملت كلمة "المشهور ويقولون" بسبب وجود الكثير من الاختلافات بين كتب التاريخ حول مكان وأسماء وتواريخ وماذا حصل في تلك المنطقة، ولا يتماشى ما قالوه عن ولادة البحر الميّت من تلك الحادثة مع العمر الذي يقدّره علماء الجيولوجيا له، فربما حصل خسف فعلاً وتوسّع البحر الميّت ليغطي تلك القرى... وربما لا... على كل حال حتى عهد نزول القرآن يبدو أنه كان هناك آثار ما لتلك القرى وكان مشهوراً بين الناس حصول دمار هناك لقوم سوء

كانوا يعتدون جنسياً على الغرباء... فالقرآن أشار لمعرفة المسافرين من أهل مكّة لمكان قوم النبي لوط(ع) ولقصّتهم، ومعرفتهم تلك لم تكن مستندة لمصدر ديني بل مستندة لما يعرفه الناس عن تاريخ المنطقة، وهذا ما يبدو من الآية 137 من سورة الصافات {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ}، ومضافاً لذلك تسمية فعل الشذوذ بـ "اللوطي" يريك أن قصّتهم أيضاً كانت مشهورة لمدة طويلة جداً سببت اختصار النسبة من "قوم النبي لوط" إلى "اللوطي" للأسف.

(فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى{54})
{فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى}، فأحاط وانتشر جزئياً أو كلياً شيء ما على تلك القرية، فأصابها شيء ما.

من آيات أخرى نعلم أنه سبحانه أمطر على أهل قرية النبي لوط (ع) حجارة من سجيل وبعد ذلك انقلعت القرية كلها من الأرض وانقلبت، وراجع في ذلك الآية 82 من سورة هود {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ}، وبسبب هول ما جرى عليهم، فالآية هنا تصفه بالمجمل بالعموم: أصابهم ما أصابهم، أصابهم ما يستحقون أن يصيبهم، ضربهم ما ضربهم...

إلى هنا ينتهي ما تنقله السورة مما ورد في صحف النبيين إبراهيم وموسى عليهما السلام، وكما تعلم عاصر النبي إبراهيم(ع) حادثة المؤتفكة وقبل حصولها مرّت الملائكة(ع) عليه(ع) وأخبرته بنزول العذاب عليهم... وراجع في ذلك الآية 31 وما بعدها من سورة الذاريات.

(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى{55})
بأي عمل مميّز قام به المسؤول عنك من مستوى إلهي، يماريك المشركون؟! المماراة هي عموم الكلام التافه أمام حقيقة ناصعة، وهنا هي الجدل معك أيها النبي محمّد(ع) وأنت متأكّد من صحّة ما تقوله وهم يقولون كلاماً من الأوهام والتخريفات ليكذبوك ويناقشوك في كلامك الصحيح، فقيمة كلامهم التفاهة أمام كلامك، بأي واحدة من الآلاء الإلهية يمارونك؟! هل يمارونك بعمله العظيم سبحانه بتعذيب قوم عاد أو ثمود أو قوم النبي نوح(ع) أو المؤتفكات... كلّها حوادث مشهورة بين الناس، وكان لها آثار... بأي واحدة من هذه الأعمال الإلهية العظيمة يمارونك؟! من خلق السماوات والأرض وخلقكم وأنه تعالى أضحك وأبكى وخلق الزوجين...

نتذكر بداية السورة واتهامهم له (ع) بأنه ضال وغوي وينطق عن الهوى، علماً أنه (ع) رأى سدرة المنتهى وتواصل مع الملاك جبريل(ع) ورآه بفؤاده... بينما هم أنكروا توحيده تعالى وجعلوا له سبحانه بنات! وهذه مماراة، هذا جدال بكلام تافه مضاد لشيء حقيقي، فهم لم يروا أي شيء عن آلهتهم، بينما الرسول الناقل لهذا القرآن رأى بفؤاده الملاك الناقل للوحي...

نتذكّر دائماً أن كلمة آلاء تعني: العمل المميّز العظيم بأثره على الآخرين، ويُمكن أن يكون حسناً كثواب عظيم، أو سيئاً كعقاب عظيم، فأي عمل متميّز بعظمة حسنه أو سوئه فهو آلاء، فالشخص المتميّز بكرمه وعطائه نصف فعله بالآلاء، وسبحانه وصف في القرآن كلّ أفعاله من خلق كائنات أو ظواهر أو هبات أو ثواب أو عقاب شديد... بالآلاء، وترى ذلك منتشراً في سورة الرحمن.

(هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَى{56})
{هَذَا}، ما أخبرت به الآيات السابقة من عذاب نزل بقوم عاد وثمود وقوم نوح(ع) وقوم لوط(ع)، {نَذِيرٌ}، خبر لكم عن شيء سيّء قادم حتماً إذا توافرت شروط حصوله، {مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى}، في الأول في زمن تلك الأقوام حصل لهم الإنذار من العقاب الدنيوي والأخروي الحتمي عند توافر شروط حصوله، وها ينذركم سبحانه بمثل ما أنذرهم لتتوقّفوا عن كفركم المبني على تخريفاتكم وأوهامكم.

ضع في بالك دائماً الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى معاني قرآنية رائعة، تصور شخصاً أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أياً منهما بعد، فهنا تحذّره من سلوك الطريق السيّء، فهو حالياً ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية

{وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ...}، والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ...}.

أمّا إذا سلك طريق الخطر، فتنذره، لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. فالإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتماً ما يضرّه، فتنذر الكافر حيث هو في حالة ستسبّب له العقاب حتماً، وورد هذا كثيراً في القرآن. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يتلبّس بما سيسبّب له الضرر، فتحذّر المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

هذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، فقد يقوم المؤمن بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، فتنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة المسيحيين المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}، وعموم المؤمنين المشمولين بالتهديد من فكرة فعل السيئات على أساس أن يحمل أحد ما السيئات عنهم {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}، والمشمولين بالتهديد إن لم يتغيّروا نحو الأحسن موعودون بالمغفرة كما ورد في الآية {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}، ونفس المفهوم في الآية 45 من سورة النازعات {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا}.

(أَزِفَتْ الْآزِفَةُ{57})
{أَزِفَتِ}، اقتربت من بعدما كانت بعيدة قليلاً، {الْآزِفَةُ}، التي كانت بعيدة قليلاً وتقترب. ومن استعمال هذا التعبير في الآية 18 من سورة غافر {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ...} ومن سياق الكلام نعلم أنها يوم القيامة من الموت والحساب بعده، وتصفه الآية من حيث كان بعيداً، وبعد موت كلّ الناس، وحين تبدّلت السماوات والأرض، اقتربت أكثر التي كانت قريبة.

نفهمها بشكل أبسط عندما نهدّد بالحرب ونقول: اقتربت اقتربت. أو نهدّد بقدوم فصل شتاء مثلج ونقول: اقترب اقترب. فهنا الآية على معنى الآيات العديدة التي نبّهتنا دائماً من قرب يوم القيامة، وهي لم تقصد قربه بالسنين، وقصدت أننا بعد حياتنا القصيرة نموت، ونفقد الوعي، ونفتح أعيننا لنرى أنفسنا فجأةً في الآخرة.

(لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ{58})
{لَيْسَ لَهَا}، لا يوجد للآزفة، {مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ}، يوم القيامة والحساب والعقاب سيحِلّ حتماً ولا يمكن لأي أحد إلّا الله تعالى أن يكشفها فيرفعها مانعاً حدوثها، فحين نصير فيها، نوصف بأنها تغطينا لأنها ضمنها، ولا كاشف لها عنّا فلن تنزاح عنّا، لأنه تعالى قرّر حصولها، فلا آلهتهم الوهمية ولا أي مخلوق ولا أي ظروف... ستمنع حصولها، وأخبرنا سبحانه في قرآنه أنه تعالى لن يغيّر قراره، ولن يؤثّر به أي شيء، فحتماً الآزفة آزفة.

بالنسبة للتعبير كشف الآزفة فهو مثل تعبير الآية 135 من سورة الأعراف {فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ} أي رفعناه وأوقفنا حدوث "استمراره" وكانوا متلبسين به وتحت وطأته، وهنا في الآية نفي لأي قدرة لأي أحد غيره تعالى على كشف الآزفة، حيث قرّر تعالى حصول الآخرة ولن يقدر إلا هو سبحانه فقط على منع حدوثها.

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ{59})
{أَفَمِنْ}، هل من، {هَذَا الْحَدِيثِ}، هذا الكلام الذي يحدّثكم به فينقله لكم الرسول(ع) عبر هذا القرآن وأنتم تسمعونه، {تَعْجَبُونَ}؟ فتقييمكم له أنه غير عادي وغريب، وتعلم أنهم منكرون للآخرة وبناء على ذلك فتقييمهم للكلام عنها أنه كلام غير عادي وغير صحيح.

أنتم تفترضون أنكم تموتون وتفنون فتنتهون ولا يبقى لكم أي أثر ولن ترجعوا إلى الحياة، وبعضكم يؤمن بأن الأرواح لها عالم خاص بها مثل عالم المنامات، وآخرون يؤمنون بأمور أخرى، ولكنكم لا تؤمنون ولا تتوقّعون أبداً أن ترجعوا إلى الحياة بجسد لتتحاسبوا وتُجَازَوْا بالحقّ على ما فعلتموه من صلاح أو فساد، فالحديث عن الآزفة يسبّب لكم التعجّب، فأنتم أمام شيء تفترضون أنه لن يحصل ومن الغرابة أن يحصل.

(وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ{60})
{وَتَضْحَكُونَ}، ومن هذا الحديث عن الآزفة، تضحكون، فتظهر عليكم مختلف تعابير الفرح، بالابتسام أو إصدار صوت الفرح تعبيراً عن سروركم، {وَلَا تَبْكُونَ}، فلا تعبّرون بالحزن لدرجة نزول دموعكم؟! حيث قال لكم ربكم سبحانه على لسان نبيه(ع) وبكل صراحة أن مصيركم أيها الكفار إلى النار، فكان يجب أن تبكوا لأن العذاب الذي ستلاقونه يوم القيامة وما بعده صعب جداً جداً... ولكنكم بالعكس تضحكون من هذا الكلام!

(وَأَنتُمْ سَامِدُونَ{61})
{وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ}، في مختلف التفاسير والمعاجم تجد معاني مختلفة لهذه الكلمة التي لم ترد إلا هنا في القرآن، ولم أجدها في أشعار العرب قبل الإسلام فيما لدي من مصادر، ومن أقرب المعاني مما ذكروه لسياق الكلام أنهم واقفون رافعون رؤوسهم متعجبون من هذا الكلام الإلهي عن الآخرة والجزاء.

(فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا{62})
بدل تعاملكم مع هذا الخبر بالتسلية المسببة للضحك:

{فَاسْجُدُوا لِلَّهِ}، عبّروا بالحركات عن أقصى خضوعكم واحترامكم لصاحب الاسم المحدّد المميّز الله الإله الأحد الذي ينذركم، والسجود بالنسبة لنا كأقصى تعبير عن الخضوع هو تقريب الوجه من الأرض أو ملامسة الأرض بالوجه.

{وَاعْبُدُوا}، أنتم مفروض منكم طاعته سبحانه فتصرّفوا على هذا الأساس، فكلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك. وما تعارفنا عليه بتسمية العبادة من صلاة ومناجاة... فهي من تطبيقات العبادة وليست حصرية فيها لأنها شاملة لكل ما تطيعه به تعالى.

تلاحظ أنها جملة ختامية لسورة كانت تركّز حديثها مع الضال الغاوي المتّبع لهواه، فتأمره بترك كل ذلك والخضوع بأقصى أشكال تعابير الخضوع لأنه عبد، لأنه مفروض منه طاعة إلهه، فهذا قدره ومكانته فليتصرّف على هذا الأساس.

بقي شيء، بعضهم يقولون بوجوب السجود بوضع الجبهة على الأرض عند تلاوة هذه الآية، وآخرون يقولون باستحباب السجود فهو ليس واجباً، وسورتنا هذه هي واحدة من أربع سور درجت تسميتهم بالـ "عزائم"، وهي: سورة العلق، سورة النجم، تنزيل السجدة وتسمى الآن السجدة، وحم السجدة وتسمى الآن فصلت. وهذه السور فيها آيات تستوجب السجود عند قراءتها كما هو مشهور بين عموم المسلمين، وفي كل المصاحف المطبوعة حالياً تجد علامات قرب هذه الآيات تقول: سجدة. وستجد كلمة سجدة واجبة، أو كلمة سجدة فقط أمام آيات أخرى من سور عديدة، والسور الأربع المشهورة باسم سور العزائم حكم الغالبية من علماء المسلمين بأنه لا يجوز قراءتها في الصلاة، فإن صدق استنادهم في فتواهم إلى كلام صحيح عن الرسول(ع) فبها ونعمت، وإلا فلا شيء في القرآن يشير إلى فتواهم، ولا إلى وجوب السجود عند قراءة هذه الآيات، وبمراجعة ما وردنا من تراث الجيل الأول من المسلمين لا تلحظ حوادث سجودهم وجوباً عند تلاوتهم لآية ما.

سورة القمر (54) ص 528
محور السورة حول مجيء آيات لمنكري ساعة قيامنا من الموت في الآخرة، وجاءتهم أنباء عن أقوام عُذِّبَتْ بعذاب دنيوي بسبب إنكارهم للساعة، ولم يزدجروا، وهم ليس لهم براءة من العذابين الدنيوي والأخروي.

تكرّر فيها بشكل مُلْفِتٍ تيسير القرآن للذكر في إشارة لسهولة فهم ما وقع من عذاب مع الكافرين السابقين... وبما أن تفاصيل قصص الأقوام التي أهلكها تعالى ليست مذكورة بالتفصيل في سورتنا هذه، نفهم أن تيسير الذكر يشير إلى انتشار قصص أولئك الأقوام في هذا القرآن، ففي سور أخرى تجد قصصهم بالتفصيل المناسب.

تشابه القرآن مع الأشعار والأمثال

قبل البداية بدراسة السورة نشير إلى ما تشدّق به بعضهم بالتعليق على القرآن بأنه منحول من شعر فطاحل العرب قبل الإسلام، وذكروا قصيدة منسوبة لامرئ القيس تشابه في كلماتها ما ورد في أوّل السورة هنا "دنت الساعة وانشقّ القمر..."، وذكروا بضعة أشعار أخرى لغيره وتشابهت مع بعض آيات القرآن... وقالوا إنّ النبي محمّد(ع) اقتبسها من تلك الأشعار حين ألّف القرآن... على أساس أن أولئك الشعراء قالوها قبل هذا القرآن.

مجموع ما جمعه هؤلاء الناقدون للقرآن لا يتجاوز الخمسَ عَشْرَةَ آية، وأنت تعلم أن القرآن قرابة الستة آلاف آية! فصارت الستة آلاف منحولة من شعر العرب بسبب تشابه خمسَ عَشْرَةَ منها مع أشعارهم! هذا لو سلّمنا أن هذه الأشعار ليست موضوعة من بعد الإسلام ومنسوبة لشعراء قبل الإسلام.

اشتهر في عالم الشعر الراوية حماد بن سابور "حماد الوضّاع"، وتلميذه خلف الأحمر، بأنهما كانا يلفّقان الشعر ويؤلّفانه ويأخذانه من شاعر مغمور وينسبانه لشاعر مشهور، ويبدو الفرق واضحاً بين الأشعار المتداولة لامرئ القيس "الْمَلِكُ الضِلّيلُ" وبين القصيدة التي نسبوها له "دنت الساعة..."، ويبدو واضحاً أنها مؤلّفة من بعد نزول القرآن ومنسوبة لامرئ القيس على يد ناحلي الشعر كأمثال حمّاد وخلف، أو أنّها نَحَلَها من القرآن شاعر بعد الإسلام واسمه امرؤ القيس "وهذا الشخص موجود ومعروف أنه عاصر النبي(ع)...".

لا تَنْسَ ما تبين فيما بعد بشكل واضح فاضح عن وضع سيبويه "اللغوي المشهور" للشعر، ليدعم ما استنسبه من قواعد للنحو، فاختراع الشعر ونسبته لفطاحل الشعراء كان دارجاً منتشراً حتى بين بعض كبار علماء اللغة العربية.

أقول لك هذا واضعاً في بالك حالة تأثر المسلمين بالقرآن، فمن بعد نزوله دخل من تعابيره على كلامهم الشيء الكثير...

تلاحظ أن الشعراء الفطاحل والكتّاب المرموقين يتجنّبون تكرار عبارات قالها غيرهم، ورغم ذلك يكرّرون بعض العبارات سهواً أو لجهلهم بأن آخرين سبقوهم لقولها، أمّا في القرآن فيكاد يكون مفقوداً تماماً ورود تشابه بين عباراته وبين عبارات شعرية أو نثرية سبقت نزوله، فهناك القليل من آياته "قرابة الثلاثين آية" جرى "تشبيهها" ببعض الأمثال العربية من حيث المعنى، ولو راجعتها بالتدقيق لما وجدت تقارباً حقيقياً بين المعاني التي أشار إليها القرآن وبين تلك الأمثال، فضلاً عن البعد الكبير بينهما في العبارات وتركيب الجمل.

هكذا ترى تقصّد الإله سبحانه الابتعاد عن أقوال مشهورة بين الناس حتى لا يظنّن أحد بأن عبده محمّداً (ع) ألّف القرآن.

على أيّ حال، لو سلّمنا جدلاً بصحة كل ما قاله المعلّقون على القرآن القائلون بأنه من تأليف النبي محمّد(ع)، وخدعوك بطريقة أو بأخرى لتشويش ذهنك عن تشابه بضع آيات مع بعض الأشعار والأمثال، فإني تتبعتها وتبيّنت زيف كلامهم كما ذكرت لك في مقدمة هذه الفقرة، فقرابة الخمسَ عَشْرَةَ آية التي قالوا إنّ شعراء قبل الاسلام قالوها، والأمثال التي ادّعوا أن قرابة الثلاثين آية من القرآن مأخوذة من تلك الأمثال، فكلّه كلام فاسد إذا دقّقت فيه، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية قالوا إنّها مشابهة لمثل شعبي أو حكمة قالها الناس قبل نزول القرآن، وسترى أن الآيات لا من قريب ولا من بعيد تشبه معاني تلك الأمثال والحكم.

لو فرضنا جدلاً صحّة ما قالوه "وهو غير صحيح بتاتاً"، فنسبة التشابه تكون قرابة الستين من قرابة الستة آلاف آية، دوّرها وأَلْغِ صفراً من كلا الرقمين تصير ستّة من ستمئة، وصار لكل مئة واحد، فالنسبة واحد من مئة "1%"! واحد بالمئة تشابه! وهذا مع قبولنا بصحة كل ما ذكروه من تشابه عملوا عليه لسنين طوال ولم يجدوا غيره! فما هذا التشابه الفظيع الهائل بين القرآن والشعر والأمثال، والذي جعلكم تشككون بإلهية مصدر القرآن؟! وتقولون إنّ محمّداً(ع) اعتمد على أشعار العرب وأمثالهم وألّف القرآن! ورغم أنه في الأصل لا يوجد تشابه بتاتاً، وكلّ كلامهم مزيّف منمّق مزيّن ليبدو صحيحاً، بل ومن جرأتهم عليه تعالى تراهم يقولون إنّ هذه بعض الأشعار التي تشابهت مع القرآن وهناك الكثير

غيرها، بينما هم ولسنين طويلة عملوا على محاولة إطفاء نوره تعالى بالكذب وتجميع ما استطاعوا جمعه ولم يقدروا على أكثر من خمسَ عَشْرَةَ آية!

فهل تريدون إضلال الناس بالكذب وتكفرون وأنتم تعلمون!؟ أنتم حقاً مجرمون بالكذب، أنتم حقاً أنعام، وقلوبكم أقسى من الحجارة، وتستحقون العقاب الأليم الشديد الذي ذكره القرآن.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ {1})
{اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ}، والساعة كلمة تعبّر عن فترة زمنية يحصل فيها حدث فرعي، ويليها ساعة أخرى وحدث آخر حتى انتهاء اليوم الجامع لتلك الساعات، ويتميّز اليوم بحدث أساسي يتكون من مجموع أحداث ساعاته. من تعابير القرآن نفهم أنه يوجد يوم وأول ساعة فيه هي حدث عودتنا إلى الحياة، ويليه أيّام حشرنا، ثم أيّام محاسبتنا كجماعات، ثم أيام وقوف الأشهاد... وأيام للحساب الفردي... حتى آخر يوم وآخر ساعة من ذلك اليوم الذي ينتهي بحدث دخول آخر شخص إلى النار وإلى الجنّة.

القرآن غالباً استعمل التعبير بالساعة ليشير لساعة قيامنا من الموت، وهي الساعة التي ينكرها الكثير من الناس، هنا السورة تبدأ بالإشارة لاقتراب ساعة قيامنا من الموت وقبل ذلك، {وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}، صار نصفين أو ثلاثة أو تفتّت لأجزاء، فالانشقاق تعبير عن انقسام شيء وابتعاد أجزائه لنصفين كحدّ أقلّ، أو انشقاقه لأجزاء عديدة.

تعلم من عموم تعابير القرآن أن تغيّراً سيحصل في السماوات والأرض، فستتبدّل، وترى ذلك صريحاً في الآية 48 من سورة إبراهيم {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}. وأثناء التبدّل يحصل للنجوم والشمس والقمر والأرض تبدّلاتٌ وصفتها مختلف سور القرآن بتعابير متنوعة كانت تشير للأحوال المختلفة في مراحل مختلفة من تبدّل ما في الدنيا. هنا تفرّدت سورتنا بتعبيرها عن حصول انشقاق للقمر قبل ساعة قيامنا من الموت.

ننتبه جيّداً، فأهل الكتاب والمسلمون اشتقوا من كتبهم الإلهية سيناريوهات لأحداث دمار ما في الدنيا وأحداث يوم القيامة، والكثير من أقوالهم تخمينية غير متوافقة مع ما ورد في القرآن، فالغالب الأعم منهم يعتقد أن الناس سيشهدون ذلك الدمار والتغيّر، حتى إنّ بعض تعابيرهم توحي بأنه سيكون هناك أناس واعون حين يتبدّل ما في الدنيا فيشاهدون خرابها ويشاهدون حصول يوم القيامة... وهذا غير صحيح، فالكل يموت، وتتبدّل الدنيا لنصير في الآخرة، ويعود الكلّ إلى الحياة، وحينها نشاهد بعضاً من استكمال تبدّلات الدنيا...

أضف إلى ذلك عموم اعتقادهم بأن الدنيا لن تستمر لأكثر من ألف أو ألفي سنة أو لبضع سنين... وكما ترى، فإن هذا توقيت صريح ليوم القيامة، وهذه مخالفة صريحة وواضحة لما يقوله القرآن عن جهل كل المخلوقات لتوقيتها، وهذا ما تجده في الآية 15 من سورة طه {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى}، فاقترابها لا يعني قربها بمعيارنا نحن الذين نعيش ما دون المئة سنة، بل بالمعيار الإلهي للحياة الدنيا، قطعت الدنيا زمناً طويلاً وما بقي لها أقل بكثير مما مضى، وربما يكون بالألف أو الآلاف أو الملايين من السنين، فعمر الكون بالمليارات، وإذا كان الباقي من عمرها بالملايين فهو بالنسبة للمليارات التي مرّت يكون قريباً، وننتبه لما ورد في الآية 6 و 7 من سورة المعارج {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا}، فسبحانه يرى يوم القيامة قريباً بالنظر للزمن الطويل الذي مرّ على وجود الدنيا، وبالنظر لانتفاء جريان الزمن عليه سبحانه...

على كلّ حال، الآية هنا تعبّر عن حصول انشقاق للقمر متزامناً مع اقتراب الساعة، ولا تقول إنّ الساعة الآن اقتربت منّا وانشقاق القمر حصل ومرّ، لا.

جاء في بعض الروايات غير المتوافقة في سردها، أنه في أوائل دعوة النبي محمد (ع) في مكة، طلب منه الكفّار أن يطلب من الله تعالى قسم القمر لقطعتين، فإذا رأوه قسمين فسيؤمنون بنبوته ويصدقونه، فطلب النبي محمد(ع) منه تعالى أن يقسم القمر، فانقسم فلقتين... ويقولون إنّ هذه السورة نزلت لتؤرخ لهذه الحادثة، ولتقول بأن الساعة صارت قريبة، وألفت انتباهك لرواية "بهذا المعنى" تفرّد في تفاصيلها عبد الله بن عباس الذي لم يكن بلغ الحلم حين توفي النبي(ع)،

وعليه فحين حصول هذه الحادثة المزعومة من انفلاق القمر بناء على طلب كفّار مكّة، فحين حصولها وعلى الأرجح أن ابن عباس لم يكن مولوداً بعد، ولم أجد رواية أخرى توافق ما نقلوه عن عبد الله بن عباس من تفاصيل!

هناك من يؤمن بتلك الروايات لأن الآية هنا استعملت الفعل الماضي "انشقّ"، متناسياً أو جاهلاً بأن صيغ استعمال الأفعال باللغة العربية لتوصيف حدث في المستقبل بجملة ما، فهو لا يمنع استعمال صيغ تصريف الفعل الماضي من الأفعال، مثلاً كلامك مع من لا مؤنة طعام عنده: إذا "أتى" القحط و "جعت" فماذا تأكل؟... وكما ترى استعملنا فعلين بصيغة الماضي عن شيء نتوقع حصوله في المستقبل، وهذا عادي جداً في كلام عموم اللغات البشرية.

للمؤمنين بتلك الروايات نسألهم عن مدى الاقتراب للساعة من انشقاق القمر الذي يقولون إنه حصل قبل ألف وأربعمئة سنة؟ وعلى كل حال لدينا روايات أخرى تقول بأن الانشقاق مع علامات الساعة في آخر الدنيا حين يبدأ تبدّلها... ولم يحصل بعد...

عموماً الشك في صحة الروايات التاريخية بشكل عام، يدفعنا للتفكير ألف مرّة قبل تصديق واحدة منها تتعارض مع روايات أخرى تتحدّث عن نفس الحادثة، ومعاني كلمات الآية وسياق السورة يجعلنا نتمسك بظاهر القرآن، أي بالفهم للجملة من دون الرجوع لمصدر آخر، وهنا من السهل جداً دمج مشهد انشقاق القمر مع مشاهد أخرى تحدّث عنها القرآن حين تتبدّل السماوات والأرض فتندثر النجوم وتجتمع... ويجتمع الشمس والقمر... وتتزلزل الأرض... وتصير جبالها كالمهل والسماء كأنها وردة كالدهان... ونضيف المشهد الذي عرضته الآية هنا عن انشقاق القمر في مرحلة ما من تبدّل الدنيا، وسترى من الآية التالية افتراضها أن أولئك الناس المعرضين عن آياته تعالى لو رأوا انشقاق القمر الذي فعلاً سيحصل ومن بعده ستأتي ساعة قيامنا من الموت، فهل كانوا سيؤمنون؟ فلْنَرَ:

(وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ {2})
{وَإِنْ يَرَوْا آيَةً}، وإذا صار عندهم صورة محدّدة لشيء مميز بدلالته، {يُعْرِضُوا}، فلا يهتمُّوا، ويقولوا عن الآية: {سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ}، فيقولوا إنّ الآية ليست دليلاً على صدق النبي(ع) بل سحر، فيحاول التأثير على عقولنا ليجعلنا نصدق بشيء غير صحيح، مثلما يفعل الساحر الذي نعلم أنه لم يجعل الحمامة تختفي ولكنه فقط خدعنا، ويقولون: وكما كان هذا السحر معروفاً في السابق فهو لايزال مستمراً فلم ينقطع، وهو ينتقل من جيل إلى جيل من السحرة.

هم يتهمون النبي محمد(ع) بأنه ساحر مثله مثل السحرة الذين رأوهم أو سمعوا بهم من قبل، فلم يأت بأي جديد فالسحر معروف منذ القدم وما يفعله "محمّد(ع)" سحر على نسق من سبقه من السحرة.

كما ترى، حصول انشقاق القمر آية ستحصل ولن نكون أحياء حينها، وبعدها تقع الساعة... وتقول السورة إنّه لو رأى المنكرون للساعة انشقاق القمر، وهو آية، عندها لأعرضوا وقالوا: سحر مستمر. فما وصلهم من دينه تعالى لم يستطيعوا الردّ عليه، لأنه حقيقة واضحة، فقالوا إنّه سحر يخدعهم ليجعلهم يتوهمون... والبعض من الجيل الأول من المسلمين والذي تلاهم، لم يعوا أن الآية تفترض رؤيتهم لحصول الانشقاق وأن موقف الكافرين لن يتغيّر لو حصل، فاخترع أحدهم بذرة لحادثة انشقاق القمر في عهد الرسول محمّد (ع)، تلاه من بهّرها وملّحها... حتى صار لدينا رواية كاملة بالأسماء عن حادثة لم تحصل.

ترى هذا جلياً منتشراً بكثرةٍ في أحاديثهم عن أسباب نزول الآيات، حيث نفس الشخص يردنا عنه قوله عن نزول آية ما في فلان من الناس، ثم هو نفس الشخص يردنا عنه قول بنزول الآية في شخص آخر وفي قصّة أخرى وفي زمن آخر!

ضع في بالك دائماً أن السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شيئاً غير حقيقي أنه حقيقي. فالساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد بأنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع أنها لم تختف، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر والذي تراه صريحاً في الآية 66 من سورة طه {قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}. وما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، فهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية إنها سحر، فهذا كان

على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

ننتبه لتكرار القرآن عدة مرّات الاتهام له وللرسل بالسحر، وهذا الاتهام بكلمة سحر لم يعد دارجاً كثيراً في عصرنا من الكافرين بالدين الإلهي، ولكن تسمع المرادف لها والذي يعطي نفس المعنى، فيقولون إنّ الدين للبسطاء، وهذا معناه أن البسطاء ينخدعون بالكلام الديني الخرافي ليروه حقيقة، ولغوياً هذا هو معنى كلمة سحر.

حسناً، هذا ما يقوله الكافرون، فهل نحن المتدينون نمارس السحر حين نتلو الآيات؟ نعم، فما تسمعه الآن على القنوات من دعاة الإسلام، في أغلبيتهم الساحقة لا يختلف كلامهم عن كلام أهل العقائد الكافرة أو المنحرفة، فتسمع الدعاة يعرضون الكذب بالإعجاز العلمي والطبّي والليزر والثقوب السوداء... التي تكلّم عنها القرآن! وتسمع الكذب عن أسرار الحلال والحرام التي لم تظهر إلا بعد تقدّم العلم ليتبين أن السجود على الأرض يسحب منك الطاقة السلبية ويجعل الدم يتحرّك ليصل إلى المخيخ... وعن الجرثومة التي في لحم الخنزير والتي لا تموت بالتجميد ولا بالطهي... وعن وعن... وهو كلام فارغ وهراء ما أنزل الله به من سلطان. فهذا الجانب المنحرف من ديننا الذي يخترعه الناس هو المساوي للسحر الذي يمارسه أهل العقائد الأخرى.

ومثله في الكذب والانحراف والسحر: الكلام المذهبي بين المسلمين، الذي فعلاً يوقع الأغبياء تحت تأثيره حتى يرتكبوا السوء بالفرقة بين المسلمين وصولاً إلى قتل المسلم الآخر!

أمّا القرآن، بدون التلاعب به، فهو الحقّ، وليس بسحر لأنه لا يخدعنا بل يقدّم الواقع والحقيقة، وعلينا عرضه على أنفسنا وعلى الناس كما هو، والأمور غير العادية التي ذكرها القرآن كفلق البحر للنبي موسى (ع)، ولبث النبي يونس (ع) في بطن الحوت وغيرها... فهي أمور حقيقية حصلت بتدخّل إلهي لتكون آيات، ولتكون نموذجاً عن تدخله تعالى فيما يطلبه الناس من تدخّل إلهي مباشر... ونؤمن بها لأن القرآن بمحتواه العقائدي الحقّ والتشريعي الصالح يدلّنا بوضوح أن مصدره إلهي... وأمّا خزعبلات الإعجاز العلمي والعددي... وأشباهها، وخزعبلات الروايات الكاذبة، وخزعبلات الطائفية والمذهبية والعصبية... فهي سحر خادع لا علاقة للقرآن بها.

إنذار وتبشير الرسول للناس بكلام عقلاني وعليه أدلة تبيّن فساد كلام الكافرين وصحّة كلام الرسول المنقول عنه تعالى، فحين لم يجد الكافرون أي ردّ يدافعون به عن عقيدتهم، قالوا عن كلام الرسول إنّه سحر، على أساس أن الرسول بكلامه قد تلاعب بعقولهم فجعلهم يرون دينهم الصحيح فاسداً، وجعلهم يرون دينه الفاسد صحيحاً.

(وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ {3})
{وَكَذَّبُوا}، فلم يصدّقوا ما يقوله النبي محمد(ع)، {وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}، فكانوا على آرائهم المبنية على هواهم على ما يحبون ويشتهون حتى لو كان سيئاً.

ولكن هل اتباعهم لأهوائهم سيغيّر أي شيء؟ فهم يستطيعون الآن اختيار الكفر ومخالفة كلامه تعالى واتباع أهواءهم السيئة، ولكن هل هذا يعني أيضاً أن الأمور الأخرى التي قال عنها سبحانه فهي قابلة للتغيير بحسب أهوائهم؟ لا، بل يقول سبحانه مباشرة: {وَكُلُّ أَمْرٍ}، وكل شيء، {مُسْتَقِرٌّ}، مثبّت. فأي أمر إلهي فأي شيء من قول أو فعل إلهي فهو مثبّت مسّجل، وتعلم من عموم القرآن أنه تعالى يعلم به ولن ينساه ولن يغيّر قراره ولن يتمكن أحد من تغيير ما قرّره تعالى.

وبما أن السورة ستكرّر استعمال تعبير "كذّبوا، كذّبت" على نفس الطريقة التي استعملها القرآن عموماً حين وصف الكفّار والفاسقين والمنافقين، فهي على طريقة: أنذرته فقلت له أن ينتبه من انزلاق الطرقات فكذّبني فلم يصدّق ما قلت له، فاعتبر كلامي كذباً غير صحيح، كذّب بإنذاري له، كذّب بنذري... وهذه هي الصيغ التي سترد في السورة حين تستعمل تعبير تكذيبهم للرسل.

صحيح أن الكفّار يكذبون أحياناً حين يتحدّثون بأمور في حياتهم العادية، وقد يكونون صادقين فيها دائماً، ولكن الآيات هنا تشير لتكذيبهم لما وصلهم منه تعالى عبر رسله وكتبه.

(وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ {4})
{وَلَقَدْ جَاءَهُمْ}، للمكذبين، {مِنَ الْأَنْبَاءِ}، من الأخبار غير المنتشر علمها بينهم، {مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ}، ما فيه زاجر، ففيه شيء رادع وله قوّة تأثير يكفيهم حتى يؤمنوا بالله تعالى وأنبيائه والآخرة...

بعبارة أخرى فإخبارهم بما جرى مع الأقوام التي نزل عليها عذاب دنيوي والذين ستشير لهم السورة كقوم النبي نوح(ع) والنبي هود(ع)... وما وصلهم من توصيف ليوم القيامة، والعذاب في النار، فهذا يجب أن يكون زاجراً، فيكفيهم ويكون رادعاً لهم عن كفرهم حتى يؤمنوا بالله تعالى ويخافوا عقابه. وهذا على معنى الازدجار خوفاً، وأمّا على المعنى العام للازدجار كرادع له قوّة، فكلامه تعالى حقّ وصلاح ففيه الحكمة الزاجرة لذوي العقول عن الكفر وعن السوء.

ضع في بالك أن النبأ هو الخبر غير المنتشر علمه، كالنبأ على التلفاز، فحيث حصل الحدث كان هناك أناس شاهدوه، وهناك أناس سمعوا منهم ما حدث... فهذا خبر لم يصل إليك بعد، وحين يصلك فهو نبأ، فهو خبر لم يكن منتشراً ووصلك، ضع هذا المعنى في بالك لتفهم كلمة "نبي" فهي لتوصيف شخص يصله النبأ، فيصله خبر منه تعالى، وكما ترى فالخبر وصل لشخص واحد ولم ينتشر، وحين يصل إليك من النبي ولم تكن تعرفه فهو أنبأك.

هنا تتحدّث السورة عن أنباء أقوام أصابهم عذاب إلهي في الدنيا، فهذه أخبار، وعند البعض منتشر علمها بينهم وعند آخرين فهي نبأ الآن يسمعونه عن شيء يجهلونه تماماً، وبعضهم الآخر يعلم القليل جداً عنه، مثلما تسمع عن قمّة اقتصادية أو حرب... ولم تصلك بعد تفاصيل ما جرى، فما يصلك هو نبأ.

والأنباء التي جاءتهم توصف بأنها:

(حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ {5})
تلك الأنباء والأخبار ليست من تأليف أحد، وليست خرافة بل: {حِكْمَةٌ}، كلام فيه الصوابية، وليس كذباً أو عبثياً أو للتسلية، {بَالِغَةٌ}، واصلة إلى أشدّ ما تكون الحكمة، فهي حكمة واصلة إلى نهاية ما تصل إليه الصوابية، فهي كافية ووافية حتى يؤمن الإنسان بالله تعالى ولكن، {فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ}، بما تنفع الإنذارات، الأخبار عن شيء سيّء قادم حتماً اذا توافرت شروط حصوله، بما تفيدهم الأخبار عن العقاب الأكيد في الآخرة إن كانوا قرّروا ألا يؤمنوا؟

الذي قرَّر ألا يؤمن لن ينفع أي شيء لإقناعه، سواء حصلت آية غير عادية "معجزة" أمامه، أو سمع كلام حق وصلاح، أو وصله خبر تعذيب كفّار سابقين.

بعلمه الفائق يعلم سبحانه أن بعض الناس لن ينفعهم الإنذار، لن يؤمنوا ولا بأي شكل ولكن كما ورد في الآية 165 من سورة النساء {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ...}، حتى لا يقولوا بأننا لو أنذرنا سبحانه لآمنّا.

كلمة حكمة ومشتقاتها تشير لعموم ضبط الشيء على المطلوب: على الصوابية على الحقّ... وعلى نفس المعنى الأساسي نقول: أحكم الوثاق، حكم بالعدل، حكومة على الناس... وتفسير الحكمة بالأهداف والغايات السامية من تبعات تطبيق صوابية الحقّ، ولا يصح وليس دقيقاً وصف حكمته تعالى بأنها أفعال لها أهداف وغايات سامية، لأنه لا معنى للأهداف له تعالى.

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ {6})
{فَتَوَلَّ عَنْهُمْ}، اتركهم واذهب باتجاه آخر، اهتم بأمور أخرى، اتركهم "طبعاً من بعدما تنذرهم" ولا تشغل بالك بهم حتى يأتي، {يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ}، في الزمن الذي يعلن المعلن، {إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ}، شيء مُنْكر، شيء منفور منه غير مرغوب الاحتكاك به، في مقابل المعروف وسياق الكلام عن الذي يعرفه فيقبله العقلاء ويرغبونه بدخول الجنّة، هناك المنكر المرفوض عند العقلاء كنتيجة وبالتالي لا يفعلون ما يوصلهم إليها.

من عموم القرآن تتذكّر أنه سيتمّ النفخ في الصور كدعوة ليعود الناس إلى الحياة، ومن كفر هنا فهناك لن يرغب ولن يحبّ ما سيفعلونه به هناك من معاملة سيئة وتعذيب، سيحصل معه شيء نكر، شيء ليس مرغوباً به، ليس مرغوباً معرفته.

هذا الاستعمال لكلمة "نكر، منكر..." مقابل المعروف، لم يعد دارجاً بهذه الصياغة من الكلام، تراه في قولنا: إعمل معروفاً ساعدني. وفي قولنا: نستنكر هذه الجريمة البشعة. هي فعل منكر، والذي لم يعد دارجاً قولنا: العقاب القاسي للمجرم نكر. سيخطر على بالنا أنه فعل ننكره على معنى نرفضه، وهذا ليس المعنى الدقيق القديم لهذا الاستعمال لكلمة "نكر".

(خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ {7})
يوم يدعو الداعي فيعود "كل الناس" إلى الحياة في الآخرة، هنا الكلام بالخصوص موجّه لمنكري الساعة: {خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ}، قدرتهم على وعي وفهم صورة يوم القيامة تعبّر عن ضعفهم وفقدانهم للقدرة على فعل أي شيء هناك للخلاص من العذاب، وعبّر القرآن عن تعابير خشوع مختلفة في يوم القيامة من خشوع البصر والصوت والجوارح... كلّها تعبّر عن موقفهم الضعيف هناك حيث لا قدرة لهم على فعل أي شيء للخلاص من العقاب، وفي المقابل نجد في القرآن كلاماً عن المؤمنين الذين تتلقاهم الملائكة بالبشرى، كما ورد في الآية 103 من سورة الأنبياء {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ}، وكما ورد في الآية 30 من سورة فصلت {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ}.

ستلاحظ الآيات هنا تتحدّث عن عموم الناس مؤمنهم وكافرهم، الجوانب التي تنقل خوفاً وحزناً مخصّصة للكافرين. {يَخْرُجُونَ}، يخرج الناس في ساعة قيامهم من الموت، {مِنَ الْأَجْدَاثِ}، من حيث ارتمت جثثهم حين ماتوا، {كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ}، والجراد هو جمع جرادة، وهي الحشرة التي تقفز بساقيها ولها أجنحة "قبّوط نطّاط..." كلّها كلمات وصفية لنفس الحيوان، واستعملت الآية هنا وصف الجراد لحالة قيام الناس من الموت، مع وصف المنتشر للتعبير عن نقاط وبقع مختلفة لقيامهم من الموت بأعداد كبيرة، كالتعبير الوارد في الآية الرابعة من سورة القارعة {يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ}، كلها تعابير تشير للأعداد الضخمة التي تقوم من الموت مع بعض من بقع مختلفة من الأرض.

بقي شيء، بعض الآيات تحدّثت عن عودتنا إلى الحياة في الآخرة من التراب من الأرض، وبعضها من القبور، وهنا من الأجداث، كما ترى تعابير متشابهة وكلها تشير إلى رجوعنا من التراب، أحياناً يستعمل القرآن وصف المكان الذي انوضع فيه الإنسان الميّت، كقبر، لحد، مرقد... نماذج عن الأماكن التي عادة ندفن فيها موتانا، وأحياناً يشير للتراب على أساس أن الجميع سيتحلل ويصير تراباً، وأحياناً يشير للأرض، وهناك الآيات التي عمّمت كلامها عن عموم العودة إلى الحياة من أينما كنا فأبقت الموضوع عمومياً أكثر، هذا ما تفهمه من الآية 148 من سورة البقرة {...أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا}، هذا يشير إلى ما يعرفه كل الناس، هناك من يموت في البحر والنهر وتغرق جثّته، وقد يموت أحد ما في الفضاء... كما ترى الكلام عن عودتنا إلى الحياة لم يقصد منه القرآن تحديد مكان لعودتنا منه، هنا كلمة أجداث تشمل من مات ودفنوه في قبر أو مات وبقي بلا دفن، وبسبب تعوّدنا على دفن الموتى مباشرة نقول: الأجداث، القبور. أو بسبب تعوّدنا على الموت على اليابسة سنقول: الأجداث، التراب. كما ترى كلمة أجداث أعمّ من ذلك وتشير لأي بقعة ارتمى فيه الجسد ميتاً.

على أي حال هذا النوع من الكلام المقصود منه تفعيل صورة ميّت مرمي على الأرض وصار تراباً، وليس المقصود منه ضرورة بقاء تراب الميّت في مكان واحد حتى يعيده تعالى إلى الحياة، عموم كلام القرآن عن تشبيه عودتنا إلى الحياة من التراب والماء كما يخرج النبات، يعني من المواد سنرجع ولا حاجة لبقاء تراب من جسدنا القديم لنرجع.

(مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ {8})
{مُهْطِعِينَ}، موجّهين رؤوسهم، {إِلَى الدَّاعِ}، الذي دعاهم فأشهر لهم وأعلن لهم للقيام من الموت، ومن عموم ثقافتنا الدينية نفترض أنهم متوجّهون نحو الملاك "إسرافيل(ع)" الذي دعاهم للقيام من الموت، في تراثنا الديني من المشهور أنه الملاك النافخ في البوق، علماً أن القرآن لم يذكر اسمه... {يَقُولُ الْكَافِرُونَ}، يقول المنكرون لتلك الساعة: {هَذَا يَوْمٌ

عَسِرٌ}، عسير صعب لن تسير فيه أمورهم براحة، لأنهم كانوا في الدنيا كافرين ولم يلتزموا بما أمرهم به سبحانه ويعلمون أنهم سيتحاسبون وينالون العقاب على سيئاتهم.

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ {9})
من هنا تبدأ السورة بعرض أنباء فيها مزدجر: {كَذَّبَتْ}، لم تصدّق، {قَبْلَهُمْ}، قبل نموذج كفّار مكّة الذين خاطبهم القرآن وهم لم يؤمنوا بالساعة، كذّبت قبلهم، {قَوْمُ نُوحٍ}، الناس الذين كان النبي نوح (ع) ينتمي لجماعتهم، مشركو مكّة ليسوا أول ناس "ولا آخر ناس" لا يصدّقون بالساعة، الإنذار الإلهي عمره آلاف من السنين ويرجع لعهد النبي نوح(ع) وقبله ولكن يذكر القرآن قومه(ع) لأنهم وعلى ما يبدو أوّل قوم أصابهم عذاب منه تعالى هنا في الدنيا على كفرهم وسوئهم، إنكار الساعة أيضاً ممتد تاريخياً بامتداد الناس الذين مهما رأوا من آية سيقولون: سحر مستمر.

{فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا}، لم يصدّقوا ما يقوله النبي نوح(ع) الذي مفروض منه الطاعة لإلهه، {وَقَالُوا}، عنه(ع) إنه: {مَجْنُونٌ}، مضروب في عقله، عقله غير سليم، {وَازْدُجِرَ}، جرى زجره، إشارة لهيجان المجنون وردّة فعله الهستيرية بعد زجره بالصراخ عليه والكلام العنيف ليتوقّف عن حركاته وكلامه المخالف لما اعتدنا عليه.

هذا التعبير بالمجنون الذي ازدجر، قاسٍ جداً، أنا وأنت لا نتحمّل مرور أحد ما بقربنا ولا يرمي علينا السلام، ونعتبرها إهانة... أمّا ما تنقله الآية عن قولهم للرسول النبي الطاهر نوح(ع) إنه مجنون وعقله غير سليم، وفوقها ازدجر فهو فاقد لعقله على الآخر بسبب تعنيفهم له بالكلام وتكذيبهم له، مثلما نفقد أعصابنا إذا أهاننا الناس وشتمونا وعنّفونا بالكلام وسخروا منّا...

كما تعلم من القرآن وكما هو مشهور بين عموم الناس من أهل الكتاب، النبي نوح(ع) بقي بين قومه ينذرهم قرابة ألف سنة، هو بنفسه كان آية إلهية حيّة تعيش مع الناس، ولم يصدّقوه! تقرأ ذلك في الآية 14 من سورة العنكبوت {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}.

لاحظ أن القوم يكذبون أحياناً في حياتهم العادية حين يتحدّثون عن شيء ما، الكلام هنا عن {فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا} فلم يصدّقوا ما قاله (ع) ووصفوا ما قاله النبي(ع) بأنه كذب.

السورة من هنا بدأت بعرض نبذة عن قصص أقوام اشتركوا في إنكارهم للساعة وتعرضّوا لأنواع مختلفة من العقاب، البداية بالغرق بالماء لقوم النبي نوح(ع) ويليها ريح صرصر لعاد، وبعدها زلزال لثمود، وبعدها بركان وخسف لقوم النبي لوط(ع)، والختام مثل البداية بالغرق بالماء لفرعون وجنوده، ترتيبهم الزمني أيضاً متوافق مع ترتيب قصصهم.

(فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ {10})
{فَدَعَا رَبَّهُ} سبحانه، أشهر وأعلن النبي نوح(ع) للمسؤول عنه من مستوى إلهي وقال: {أَنِّي مَغْلُوبٌ}، الغلبة للكفّار عدداً وقوّةً، حيث ليس لدي القدرة على ردّ الكافرين عن كفرهم لأنهم كُثُر وأقوى منّي، {فَانْتَصِرْ}، تدخّل يا ربي وحقّق لي الغلبة عليهم، لأنهم الآن غالبون ودينهم دين الكفر منتشر فانصرني عليهم.

في عموم القرآن تجد أن سيئة قوم النبي نوح(ع) هي الشرك به تعالى عابدين لآلهة أخرى كما ترى من الآية 23 من سورة نوح {وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا}، وفي آية نادرة تشير إلى أنهم كانوا طاغين فاسدين أكثر من عاد وثمود، حيث كانت حكومتهم ظالمة فاسدة كما تقرأ في الآية 52 من سورة النجم {وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى}. أقول لك هذا لأن بقية الأقوام التي طالها عذاب إلهي ذكر لهم القرآن سيئة من العيار الثقيل كانت منتشرة بينهم بالإضافة للشرك وتكذيب الرسل، وحتى إنّ العذاب الإلهي نزل هنا في الدنيا على يهود موحدين منتمين لدينه تعالى ولكنهم انتشر بينهم سوء من العيار الثقيل وهو استهتارهم بشرعه تعالى
وكنموذج عنه عملهم يوم السبت كما ورد في الآية 65 من سورة البقرة {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ}.

(فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ {11})

استجاب سبحانه لدعاء نبيه(ع).

الباب في اللغة هو الوسيلة الممر للوصول إلى شيء، باب البيت هو ممر الدخول وليس ما نسدّ به الفتحة، هذه التسمية لباب الخشب والحديد... درجت فيما بعد، كما يبدو من أشعار العرب قبل الإسلام ما نسدّ به الفتحة اسمه رتاج.

{أَبْوَابَ السَّمَاءِ} هنا هي الممرات التي يسقط منها المطر وفتحها سبحانه في وقت عذاب قوم النبي نوح(ع) بكل الوسائل التي تساعد على هطول المطر، {بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ}، بغزارة شديدة.

بعبارة أبسط، جمع سبحانه فوقهم السحاب أكواماً أكواماً، ودفعة واحدة فتح سبحانه المطر على الأرض، وفي الآية التالية سنتوسّع بالكلام عن هذه الكارثة.

(وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ {12})
{وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ}، أخرجنا بقوّة من الأرض، {عُيُونًا}، فتحات فيها، هنا الكلام عن فتحات في الأرض تخرج منها المياه، أخرج سبحانه الماء من الأرض وصارت بِرَكاً... وارتفع مستوى المياه وصارت البرك تتوسع، {فَالْتَقَى الْمَاءُ}، اتصلت بقع الماء ببعضها، غمرت بقعة الأرض التي وقع فيها الطوفان ولم يبق فيها مكان جاف.

التقاء الماء كان، {عَلَى أَمْرٍ}، على شيء، {قَدْ قُدِرَ}، تحدّد سلفاً، سبحانه قدّر وقرَّر محدداً سلفاً الوقت والمدة وكمية المياه التي ستغمر الأرض والمكان الذي سيحصل فيه الطوفان والسبب الذي من أجله حصل الطوفان.

عن تقدير وتخطيط إلهي حصل الطوفان، ولم يكن صدفة أو من عوامل الطبيعة لوحدها من دون قرار إلهي.

هذا الكلام يأخذنا إلى علمه بالغيب سبحانه وكيفية حصول ما يعلم سبحانه أنه سيحصل، وكلامنا عن هذا الموضوع تحليلي يستند على مفاهيم القرآن، هل سبحانه "في لحظة ما" قرّر حصول الطوفان استجابت الأرض والسماء، وبدأت بالعمل آليات هطول المطر وخروج الماء من الأرض... أم بعلمه بالغيب سبحانه حين صمّم دنيا المخلوقات وقّت وحدّد حصول الطوفان في تلك البقعة، سارت الأمور... حتى جاء الزمن المناسب وكانت الظروف متجهّزة لحصول طوفان، وحصل؟ أم خليط بين هذا وذاك؟

علومنا الحالية ترينا الظروف المناسبة كآليات سينتج عنها الطوفان، ويمكننا توقّع حصوله... وهذا لا يعني إلغاء وجود آليات أخرى تفوق قدرتنا على فهمها وهي المعتمدة إلهياً في حادثة الطوفان وغيرها من شقّ البحر للنبي موسى(ع) وبقية الحوادث التي أهلكت الكافرين... وهكذا ينفتح الأفق لتحليل آليات حصول تلك الحوادث.

أقول لك هذا لأن المنتشر في ثقافة المؤمنين بدينه تعالى منذ القدم، فيه شيء غير سليم، بشكل ما هم يؤمنون بقدرة خارقة عجيبة تفعل الأمور بلا سبب وبلا آليات، وهذا تفسيرهم لقوله تعالى للشيء {كُنْ فَيَكُونُ}، فوراً يكون بلا أي آليات لحصوله، علماً أن الجملة تشير لحتمية حصول ما أمر به تعالى، يحصل فوراً أو يحصل بعد حين، ولكنه سيحصل حتماً في التوقيت الذي حدّده تعالى.

الخلاصة أنّ هناك آليات لحدوث الأمور، كل الأمور حتى التي يفعلها تعالى، ولكن الآليات ليست محصورة بما يمكننا فهمه، الشؤون الإلهية تتخطّى بكثير ما يمكننا فهمه، والحوادث التي لا يبدو لنا آليات لحدوثها كالطوفان في ظروف لا يبدو منها لنا بوادر حدوث طوفان، وانفلاق البحر لممرات والذي لحد الآن لا نستطيع تخمين آلية لحدوثه إلا تخيّلياً بدون القدرة على تقليدها... حصلت بأمر منه تعالى الذي يفعل ما يريد.

انتبه جيداً، تسمية ترابط الأمور بآليات، هو بحسب ما نفهمه نحن، وأمّا سبحانه بقدراته الفائقة الأمور مختلفة من نظرته تعالى لها، تحدّث القرآن عن مراحل مترابطة نفسّرها نحن بالآليات، كخلق السماوات والأرض في ستة أيام، وخلقنا من سلالة من طين... لا تحصر كلامك عن أفعاله تعالى بكلمات ناتجة عن قدراتنا نحن، بل ننتبه أنها القدرة التي جعلها تعالى فينا لنتعرّف عليه سبحانه من أفعاله.

(وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ {13})

{وَحَمَلْنَاهُ}، صار النبي نوح(ع)، {عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ}، على شيء له ألواح "من الخشب" المجموعة على بعضها، {وَدُسُرٍ}، مرتبطة الألواح بالدسر وهو وصف للروابط الخشبية أو المعدنية "أو البلاستيكية" التي يتم دفعها في ثقوب لتجمع بين الألواح لتثبتها، وهي أسافين من أنابيب صغيرة أو مسامير "خشبية أو معدنية" تدخل في ثقوب لتمسك الألواح ببعضها.

نعلم من آيات أخرى بأنه تعالى أمر النبي نوح(ع) ببناء سفينة ضخمة، واستغرق بناؤها وقتا طويلا، وكان قومه يمرون بقربه أثناء عمله في بنائها، يسألونه عما يفعل؟ ويقول لهم إن الله تعالى أمره ببنائها، لأن طوفاناً سيحدث، ويسخرون منه، وهذا ما ورد في الآية 38 من سورة هود {وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ} وعندما بدأ المطر الغزير وتفجرت الينابيع، لم يصدقوا بأنه الطوفان، ولم يركبوا مع النبي نوح(ع) في الفلك، بل ظنوا أنه مطر غزير وسينتهي الأمر.

ننتبه جيّدا، فبداية السورة أشارت لحصول انشقاق القمر قبل ساعة قيامنا من الموت، وفرضا رأوه المنكرون للساعة فلن يؤمنوا وسيقولون: سحر مستمر... هنا وكما ترى بقي النبي نوح(ع) يبني السفينة لسنين طويلة، وأخبر الناس أن الطوفان قادم، وحصل الطوفان... ورأوه، وقبله رأوا كم عاش النبي نوح(ع) لمئات السنين، لأنه بطول حياته كان آية... ولم يؤمنوا ولم يفكّروا حتى بركوب السفينة! فانشقاق القمر بعده الساعة، فلو رآه المنكرون للساعة فهو نفس الشيء مثل من رأى الطوفان، فلن يؤمنوا وسيقولون سحر مستمر...

هنا سؤال: هل يطرح القرآن في سوره أمورا بحاجة للتدقيق حتى نفهمها؟ ربما تقول إن ما ورد في دراستنا من ربط لآيات السورة الواحدة بعضها ببعض، هو استنساب لم يقصده القرآن لأنك لم تَرَ الربط بقراءتك العادية للسورة، وهنا مثلا ستقرأ القصّة المختصرة عن الطوفان وتفهمها وتكمل بقية ما حصل من معرفتك بما ورد في سور أخرى... ولكن ربط رؤية الآية "السفينة وعمر النبي نوح(ع) والطوفان" بما ذكرته السورة في بدايتها، لم تلتفت له، فلم تَرَ الربط أثناء القراءة، وما بدا لك واضحا من قراءتها أن مشركي مكّة مثل مشركي قوم النبي نوح(ع)، إذ كلاهما كذّبا، أمّا ربط أول الآيات مع القصّة من زوايا أخرى فربما لم يَبْدُ لك.

لنتذكّر أن القرآن هو قال عن نفسه أنه كتاب للدراسة، وللتعقّل والتدبّر فيه، فقراءته بدون توقّف بهدف الوصول لآخر السورة ليتسجّل لك ثواب قراءتها، هذا ليس تدبرا ولا دراسة، وهذا لا يعني أبدا أنك لن تنال ثواب القراءة، لا، ولكنك لن تنال ثواب الاستفادة من دراسة وتدبّر إن مررت على الآيات من دون فهمها، وفاتتك مقاصد الكلام الإلهي، ولم تترسّخَ لديك كقاعدة لإيمانك، وأنت ترى أناسا من حولك يطرحون أمورا دينية فصّلها القرآن وأجاب عنها ووضّحها... ولكنهم يتحدّثون عن تلك الأمور بما يرونه مناسبا ويطرحون آراءهم ولا يشعرون بأي خلل في كلامهم! أليس من الواجب عليهم أن يتعلّموا من كلام الإله سبحانه وتعالى؟! فلو لم تكن تلك المواضيع مطروحة في القرآن لقلنا إنهم معذورون، ولكن ما معنى خوضهم في مواضيع طرحها القرآن وهم لم يبحثوا عن أجوبتها فيه!

ثانيا: لِنَرَ ماذا فهمت من القراءة العادية للآيات ونحلّله، حيث إن بعض قوم النبي محمّد(ع) تشابهوا في إنكار الساعة مع قوم النبي نوح(ع)، وقوم النبي محمّد(ع) لم يؤمنوا بهذا القرآن وهو آية عظيمة جدا، وقوم النبي نوح(ع) اعتبروا طول عمر النبي نوح ظاهرة فريدة ولكنها لا تدلّ على أي شيء، وهذه النقطة لم تشر لها السورة هنا وتطرقت لها سور أخرى. وقوم النبي نوح(ع) رأوه يبني السفينة لسنين عديدة استعدادا للطوفان، وحصل الطوفان، ولم يؤمنوا، وحتى ابن النبي نوح(ع) استسخف فكرة ركوب السفينة حتى لا يصير أضحوكة بين الناس بعد انتهاء العاصفة، وصعد إلى الجبل! الآن نتذكّر كيف عرضت السورة في أول كلمة لها أن الساعة اقتربت وانشقّ القمر، وإن يروا آية يعرضوا، حتى لو رأوا آية انشقاق القمر التي ستحصل وبعدها الساعة، فلن يؤمنوا.

الآن هل ترى الشبه واضحا بين هذا وبين من رأى المطر والينابيع، وارتفاع الماء بشكل سريع وغمره لوجه الأرض... وهو يعلم منذ سنين أن النبي نوح(ع) يبني سفينة استعدادا لهذا اليوم، هل آمنوا؟ لا، بل مشوا بصعوبة تحت المطر وعلى الماء الذي صار بارتفاع الشبر والشبرين والثلاثة... وسبح من تأخّر بالوصول إلى المرتفعات والجبال... ولا واحد منهم فكّر بالاتجاه نحو السفينة! لأن موقفه الديني الفكري والاجتماعي من المجنون الذي قضى السنين في بناء السفينة، لا يسمح له بالتنازل! إذ إن هذه مجرّد كارثة طبيعية غير عادية وستنقضي.

حتى لو انشقّ القمر أمام أعين الناس، ووصلهم خبر أن الساعة بعده، فلن يتغيّر أي شيء، فلن يؤمنوا وسيقولون: سحر مستمر.

(تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ {14})
{تَجْرِي}، تنتقل بالتحرّك المتتابع، وتسير تلك التي ذات ألواح ودسر "السفينة"، {بِأَعْيُنِنَا}، تحت مراقبته وعنايته تعالى، فالأجواء عاصفة بأمطار غزيرة ورياح شديدة، مع احتمال تكسّر تلك السفينة، ولكنها تحت العناية والمراقبة الإلهية فلن تتضرر، أمّا ما عداها فستغمره المياه، {جَزَاءً}، المقابل، {لِّمَن كَانَ كُفِرَ}، والفعل {كُفِرَ} بالضم على أوّله على صيغة المبني للمجهول، كما نقول: ضُرِبَ. بالضمّة على الضاد والكسرة على الراء، والفتحة على الباء. ونقصد أن شخصا تعرّض للضرب من شخص أو أشخاص آخرين، وضربوه. هنا النبي نوح(ع) كفروا به وكذّبوه ولم يصدقوا أنه رسول ولم يصدّقوا كلامه عن الساعة ولا عن الطوفان، وكُفِرَ به، ولذلك جازيناه أعطيناه بالمقابل السفينة التي بأعينه تعالى، والطوفان لمن كفر بالنبي نوح(ع).

كلمة {جَزَاءً} تستعمل لعموم مقابلة عمل ما بالحسن أو بالسيّء، وكثيرا ما تحدّث القرآن عن مجازاة الكفّار بالنار ومجازاة المؤمنين بالجنّة، وكمثال عنه كلام الآية 160 من سورة الأنعام {مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}.

(وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ {15})
{وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً}، ترك سبحانه تلك السفينة ذات الألواح والدسر موجودة كآية كشيء مميّز، كعلامة وشاهد ودليل على تعذيبه تعالى للكافرين هنا في الدنيا، فهي نموذج تاريخي ملموس عن عذاب الآخرة، {فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}؟ هل من شخص متذكر؟ هل من أحد يتذكّر فيستحضر الطوفان الذي أمات هؤلاء الناس في فكره وقوله وعمله؟ حتى لا يكون مثلهم وينتبه حتى لا يكون مصيره مثل مصيرهم؟

الأجيال التي أتت بعد الطوفان شاهدت ذات الألواح والدسر "الفلك، السفينة"، ويعلمون أنه تعالى أفنى الذين من قبلهم لأنهم كفروا بالساعة والرسول... ولكن بعضهم أيضا كفروا ولم يؤمنوا فكانوا مصداقا مشابها لما قالته أول السورة عن الذين إن يروا آية {يَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ}. والطوفان والسفينة وغرق الناس آثارٌ واضحة معلومة ورغم ذلك الكثيرون لم يؤمنوا!

إذا تساءلت: أين تركها الله تعالى حتى تكون آية لي ولك؟ فما بين أيدينا من مصادر من مختلف الجهات والثقافات لم يوصلنا إلى إيجاد أثرٍ باقٍ للسفينة إلى الآن، ولا ندري إن كانت باقية حتى عصرنا هذا، أو سيكتشفها فيما بعد أحد في المستقبل، على كل حال كانت آية لمن رآها بعد النبي نوح(ع) مباشرة، ومن الواضح أنها ليست آية لكل الناس على مدى العصور.

كل المعلومات المنتشرة حول اكتشاف سفينة النبي نوح(ع) على جبل أرارات في تركيا، أو على سلسلة تلك الجبال التي تمتد من إيران وروسيا وأرمينيا وتركيا، ومن ضمنها جبال أرارات، وكل الآثار التي قالوا إنها من خشب السفينة أو وجودها في السفينة... حتى تاريخ كتابة هذه الدراسة تتبعتها لمصادرها الأساسية ووجدتها ادعاءات لا دليل على صحّتها، فلا يوجد حاليا ولا نسرة خشب بين أيدي الناس من تلك السفينة.

بالنسبة للمؤمن، لا يهم إن تمّ اكتشاف السفينة أم لا، لأن الخبر القرآني يكفينا بأن الحادثة وقعت، وأما من يشعر بتعلقه بإيجاد السفينة، فلينتبه أَلَّا يكون مثل الذين يريدون دليلا ليقتنعوا بحادثة الطوفان، ولا معنى للشغف بإيجاد السفينة لإقناع الآخرين بحصول الطوفان، هل سيؤمنون؟ لا، لأن الآيات في خلقتنا وخلق السماوات والأرض وفي الرسل والكتب الإلهية، فإن لم تجعلهم يؤمنون إذن لن يؤمنوا ولا بأي طريقة أخرى مهما كانت، لأن الذين كانوا معاصرين للسفينة وماتوا بالطوفان لم يؤمنوا! والكافرون حتى لو رأوا القمر مُنْشَقّاً فلن يؤمنوا...

نعم الفضول يدفعنا للعثور على السفينة، ولكن على أساس أَلَّا يقدّم ولا يؤخّر في إيماننا بالقصّة، لأن القرآن مشحون بالأدلة على إلهية مصدره وبالتالي كل كلامه حتما صحيح.

كما تعلم اعتمد الباحثون عن السفينة على النص التوراتي "للنسخة المسمّاة بالسبعينية"، التي تشير إلى وجود السفينة على جبل اسمه "أرارات"، وهي سلسلة جبال معروفة ممتدة بين "تركيا، إيران، روسيا وأرمينيا"، وأمّا في النسخ الأخرى للتوراة فتقول بأن الجبل كان في منطقة كردستان العراق... وأما من مصادرنا الإسلامية فليس لدينا إلا اسم الجبل {الْجُودِيِّ} الوارد في الآية هنا، وكل ما ستجده في كتب المسلمين فهو تخمينات شخصية منهم بلا أي مصدر إلهي، وبدون مشاهدات حيّة، ويقولون فيها معلومات مخلوطة بين معلومات نقلوها من التوراة ومن التراث الديني لأهل الكتاب وبين تخمينات شخصية، ويقولون إن الجبل كان من جبال أرارات، وفي قول آخر لهم إنه في كردستان وفي روايات أخريات إنه في موصل العراق أو همدان إيران... وستجد في عصرنا الكثير من الصور المزيفة عن السفينة وعن خشبها ومحتوياتها.

من الواضح من مختلف التراث الثقافي لأهل الأرض وجود قصّة عن حصول طوفان فيما مضى أباد قوما ما ونجا بعضهم في سفينة... مما يشير إلى استمرار انتقال هذا الحدث من جيل لآخر، مع تشوّهه وتغييره من ثقافة لأخرى...

على أي حال، السفينة خبرها آية، ورؤيتها آية لمن رآها من الناس وأخبر الآخرين عنها، حيث بقيت السفينة لمدة طويلة قبل تهدّم بدنها بفعل العوامل البيئية، أو ربما قبل احتراقها بحادثة، أو ربما قبل استعمال الناس لخشبها...

ورد ذكر لطوفان في وثائق سومرية قديمة ويقدّرون عمر بعضها بين 1500 و 2000 قبل الميلاد، وعلى ذمّة المراجعين لها والناشرين لترجمتها فهي تحكي قصّة طوفان فيه الكثير من التشابه مع رواية القرآن، ومن المرجّح أن بقاء السفينة لمدة طويلة كان السبب لمحافظة الناس على قصّة الطوفان، ومضافاً إليه اهتمام المؤمنين بها لنقل القصّة للأجيال التالية... فلا تحدّد تاريخ الطوفان بتاريخ الوثائق، فالوثائق تتحدّث عن شيء أقدم منها.

من جانب آخر هناك أدلة جيولوجية على حدوث طوفان هائل للبحر الأسود بين فترة 7000 و5000 سنة قبل الميلاد، وأدلة على حدوث طوفانات غمرت الكثير من وجه الأرض ترجع لما قبل ذلك...

من المعلوم حدوث طوفانات متعددة على بقع مختلفة على الأرض، ولكن تثبيت حصول أي واحد منها عبر الآثار لا يعني أنه هو الطوفان الذي جرى على عهد النبي نوح(ع)، خاصة مع مشكلة اعتماد غالبية الباحثين في هذا الموضوع على التواريخ المذكورة أو المستوحاة من التوراة التي أقحم فيها علماء اليهود كلامهم مع كلامه تعالى، قاصدين جعل التوراة كتابا جامعا للتاريخ بناء على المعلومات المتداولة بينهم، ويظهر لك فساد العديد من معلوماتهم بأقل تأمل ومقارنة بمعلوماتنا الحالية عن أعمار وأطوال أجساد من سبقنا من البشر، وبمقارنة بعض ما ورد في التوراة مع ما ورد في القرآن عن بعض تفاصيل قصص بعض الأنبياء، كتصويرهم لحالة اليأس للنبي أيوب(ع)... وبمقارنة الأحداث التاريخية التي ذكروها في التوراة عن معاركهم مع الفلسطينيين والعموريين والموآبيين... مع الآثار التي وجدها الناس، فستجد اختلافات كثيرة وتعارضاً... لأنهم كتبوا التاريخ على هواهم متجاهلين الحقائق...

فإن لم نجد آثاراً مرتبطة بخشب سفينة النبي نوح(ع)، أو أثراً آخر مباشراً لحادثة الطوفان ومؤكداً... أو لم نجد عِلْماً أَثَرِيّاً له ارتباط بتعلّم الناس صنع السفن من بعدما صنع النبي نوح(ع) سفينة... أو نجد أثراً للآلهة التي عبدوها "{سُوَاعاً، يَغُوثَ، يَعُوقَ، وَنَسْراً}" كما ورد في الآية 23 من سورة نوح، فلن يكون لدينا دليل حاسم على زمن تاريخ حدوث الطوفان، وسندور في حلقة التقديرات والتخمينات والافتراضات.

الكلام له ارتباطات أخرى، منها إن كان الطوفان عامّاً لكل وجه الأرض أو لخصوص منطقة منها، أو أنه حصل في زمن كانت كل البشرية محصورة في بقعة واحدة، أو الكلام عن بقعة كانت فيها ذرية آدم(ع) والبشر الآخرون في المناطق البعيدة لم يتأهّلوا للتكليف بالدين الإلهي ولم يطالهم الطوفان... أو طالهم الطوفان جزئياً... أو...

بما لدينا حالياً من معطيات جيولوجية، من المستبعد شمول الطوفان لكل وجه الكرة الأرضية، إلا إذا كان تاريخ حادثة النبي نوح(ع) يرجع لأكثر بكثير من خمسين ألف سنة، لأن المعلومات التي لدينا عن الحيوانات والبشر في مختلف القارات، تشير لنشاطات مستمرة للحيوانات والبشر في مختلف البقع وترجع لتاريخ ما قبل انفصال "برّ، يابسة" القارات عن بعضها، قبل العصور الجليدية"، حيث القارات تتصل مع بعضها شتاءً بالجليد... وبحسب الدراسات الحالية لا يمكن تفسير نجاة الحيوانات في السفينة وانتشارها من جديد على وجه كل الأرض إلا إذا حصل الطوفان قبل أكثر

من خمسين ألف سنة على الأقل حين اتصلت كل القارات بالجليد... وأكرر لك أن هذا تحليل يستند على معطياتنا العلمية حالياً، وأنا شخصياً لا أستبعد ولا أستقرب هذا التاريخ ولا أي تاريخ آخر قبله أو بعده، فليس لدينا لحدّ الآن شيء تاريخي موثوق نستند عليه لتحديد تاريخ النبي نوح(ع)، إلا اللهم إن كانت دراسة آثار القبور المنسوبة لشخصيات تاريخية دينية، كالقبور المنسوبة لآدم(ع) وأولاده، ولنوح(ع) وأولاده "إذا وجدنا فيها شيء لندرسه"... ستهدينا لتصويب التواريخ، هذا إن كانت تلك القبور فعلاً لمن هي على اسمهم ولم تكن من تخريفات أهل القرى... أو من افتراضات المتبجحين "كذباً" على الآخرين بمعرفتهم التاريخية، وهم كثر عبر التاريخ...

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ {16})
{فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي}، كيف ترون الضرر الذي يصيب به تعالى الكافرين؟ هل هو عادي ويمكن تحمّله؟ {وَنُذُرِ}، وكيف كان نذري إنذاري لهم، إخباري لهم عن شيء سيّء قادم حتما إن توافرت شروطه، وتوافرت شروطه في قوم النبي نوح(ع) وحصل العذاب لهم؟ عندما أخبرتهم أن خطرا قادمٌ إن لم يؤمنوا، هل رأوا "ورأيتم" أني فعلا أنفّذ تهديداتي أم هي مجرّد كلام؟

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ {17})
{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ}، المعلومات التي نزلت وحيا منه تعالى نزلت بلغة من لغات البشر فصار بيسر "بسهولة" يمكنكم قراءتها "قرآنا" لتفهموها، وهي على معنى ما ورد في الآية 58 من سورة الدخان {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}، حيث الوصف بالتيسير ناظر لتنزيله تعالى كلامه بلغة من لغات البشر فصار ميسّرا لهم فهم كلامه تعالى، وناظر ضمنا لطريقة صياغة الكلام الإلهي بلغة من لغات البشر بطريقة ميسرة للفهم، وهذا لا يعني سهولة كل كلامه تعالى لدرجة فهمه كله من دون دراسة، لأن طبيعة بعض المواضيع أعقد فكريا من الأخريات وتستدعي دراسة لفهمها، وخذ مثلا المسائل المتعلقة بالأدلة الفكرية على توحيده تعالى، ومثلها بعض التشريعات... ولكن على كل حال فكلامه تعالى ميسّر لفهمه، فغالبيته لا يحتاج لدراسة ويكفي القراءة المتأنية لفهمه، وبعضه يحتاج لدراسة.

{فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}؟ هل من متذكّر؟ هل يوجد بينكم من يستحضر في فكره هذا القرآن الميسّر للفهم؟

هذه النبذة من قصّة عذاب قوم النبي نوح(ع) التي صار بإمكانكم الاطلاع عليها "بيسر، بسهولة" من هذا القرآن، فهل أحد منكم يريد أن يستحضرها في فكره حتى لا يكون مصيره مثل مصيرهم؟ وحتى يعلم أن كلامه تعالى عن الساعة حقيقي بدليل تدخّله تعالى لإبادة قوم النبي نوح(ع) المنكرين لها.

نتذكّر دائما أن كلمة قرآن تعني الشيء القابل للقراءة، فهناك كتاب رئيسي في السماء العالية، والمعلومات التي فيه غير قابلة لأن نقرأها نحن البشر، وقسم منها جرى تحويله للغة العربية وصار قابلا للقراءة، فصار قرآنا. ولذلك ننتبه ولا يذهب فكرنا بأن كلّ الكتاب الذي بين أيدينا اسمه قرآن فقط، لا، فالآية الواحدة اسمها قرآن، والسورة اسمها قرآن أيضا.

لمزيدٍ من التوسّع حول معنى تيسير القرآن راجعْ دراسة الآية 97 من سورة مريم {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا}.

(كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ {18})
{كَذَّبَتْ عَادٌ}، وهذا اسم لقبيلة كانت منتشرة على مختلف مناطق الجزيرة العربية، وبحسب الآية 7 من سورة الفجر {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ}، فلقرية منها "إرم" جاء النبي هود(ع) وأنذرها وكذّبوه ولم يصدّقوا ما يقوله، {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي}، الضرر الذي أصابهم منه تعالى هل كان عاديا وتحمّلوه؟ وكيف كان، {نُذُرِ}، إنذاري لهم، إخباري لهم عن شيء سيّء قادم حتما بسبب توافر شروط حصوله فيهم؟ عندما أخبرهم تعالى عبر رسوله أن خطرا قادمٌ إن لم يؤمنوا، هل رأوا "ورأيتم" أنه سبحانه فعلا ينفّذ تهديداته أم هي مجرّد كلام؟

تلاحظ السورة قبل الابتداء بالحديث عن عذاب عاد سألتك كقارئ للقرآن عن عذابهم لأنك تعلمه وسمعت به من الناس أو ستسمع به من القرآن، وفي ختام هذه الفقرة عن عاد ستعيد عليك نفس السؤال.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ {19})
{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ}، على قوم عاد في مدينة إرم، {رِيحًا}، الهواء القوي، {صَرْصَرًا}، لها صرير، فلها صوت قوي من شدّتها، وحصل ذلك، {فِي يَوْمِ نَحْسٍ}، في زمن تتعثّر فيه أمورهم رغم محاولاتهم لتقويمها، وتتوقّع أنهم حاولوا اتقاء ضرر الريح عبر الاختباء في البيوت وعبر دعم الأبواب والنوافذ... وحاولوا ربط أجسادهم بأشياء ثقيلة أو بالشجر... وحاولوا الابتعاد عن الريح... وكلّه لم ينفع أمام الريح العاتية... وكان يوم نحس، {مُّسْتَمِرٍّ}، فلم ينقطع النحس عنهم من بعد مضي ذلك اليوم واستمر من بعده سبعة أيام أُخَر، فأول يوم نحس استمر لثاني يوم نحس ولثالث... حتى الثامن وانتهى النحس بموتهم كلّهم، ويؤيد هذا المعنى ما ورد في الآية 16 من سورة فصلت {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ...} وأن عذابهم كانت مدته ما ورد في الآية 7 من سورة الحاقة {سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا...}.

الشائع بين الناس أن بداية تعذيب عاد كانت في يوم الأربعاء، وبعض الناس يستنتجون أنه تعالى قال عن هذا اليوم إنه نحس، فيعتبرون كل يوم أربعاء من كلّ أسبوع أنه نحس! ولكن هذا غير صحيح، ولا يوجد وقت نحس، بل ذلك اليوم الذي وقع فيه العذاب على قوم عاد بالذات هو نحس على الذين وقع عليهم العذاب. وكما ترى فإن الآية 16 من سورة فصلت وصفت كل تلك الأيام الثمانية بأنها نحسات! فهل هذا يعني أن كل أيام الأسبوع وعلى مرّ الزمن هي نحسات!

سنتحدّث عن معنى كلمة نحس بعدما نتحدّث مطوّلا عن معنى كلمة يوم، لاحظ شيئا مهما، هنا الآية بضمّها مع الآية 7 من سورة الحاقة ترى فيها استعمال كلمة يوم على معناها العمومي لحدث أساسي، فهو يوم "كفترة زمنية وقع فيها حدث أساسي" من ثمانية أيام "من ثماني فترات زمنية وواحدة منها مؤلفة من نهار فقط، وخلال سبع ليال وثمانية نهارات حدث العذاب، فضع هذا المعنى في بالك وعمّمه على استعمال القرآن لكلمة يوم عندما لم يكن يشير لفترة من ليل ونهار، بل لحدث أساسي، كيوم القيامة، وخلق السماوات والأرض في ستة أيام، وراجع في ذلك دراسة الآية 9 وما بعدها من سورة فصلت {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ}... والآية 34 من سورة عبس {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ}، والآية 5 من سورة المائدة {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ ۖ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ...}، والآية 141 من سورة الأنعام {كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا...}، والآية 16 من سورة الأنفال {وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ...}، والآية 3 من سورة التوبة {وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ...}، والآية 35 من سورة التوبة {يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ}، والآية 36 من سورة التوبة {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...}، والآية 54 من سورة يوسف {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ}، والآية 48 من سورة إبراهيم {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}، والآية 47 من سورة الحج {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ}، والآية 5 من سورة السجدة {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ}، والآية 66 من سورة الأحزاب {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا}، والآية 55 من سورة يس {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ}، والآية 29 من سورة غافر {يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ...} والآية 35 من سورة الجاثية {ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}، والآية 34 من سورة ق {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ}، والآية هنا {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ}، والآية 48 من السورة هنا {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ}، والآيتان 8 و 10 من سورة الغاشية {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ... فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ}...

من الواضح جدا أن يوم هذه الأحداث الذي تذكره الآيات ليس مرتبطا بتحديد زمنه بليل ونهار، بل مرتبط بحدث أساسي قد يطول لمليارات السنين كما في حالة خلق السماوات والأرض، وقد يمتد للأبد كما في حالة التعذيب بالنار والتنعيم بالجنة.

في بعض هذه الآيات قد تجادل في مدلولها أنها تقصد يوما من ليل ونهار، فأرجو منك مراجعة سياقها قبل الحكم بذلك، وربما تقول عن كلمة يوم في البعض منها إنها اسم جنس مفرد، أو أي تصنيف آخر، وهذا لن يغيّر مما نريد تأكيده من الاستعمال العربي لهذه الكلمة بما هو أبعد من مجموع ليل واحد ونهار واحد، وهذا ليس استعمالا قرآنيا غريبا على الناطقين باللغة العربية، بل استعمال قرآني للغة العربية كما استعملها العرب، وها أنت بنفسك لا تستغرب هذه الجمل وتراها عادية وصحيحة...

نتذكّر دائما أن يومنا نحن اتفقنا عليه أن يكون أربعاً وعشرين ساعة وكل ساعة من ستين دقيقة... وقبلها كان بعض الناس متفقين أن اليوم يبدأ من غياب الشمس إلى حين غيابها في اليوم التالي... والسنة هي إمّا فترة دوران الأرض دورة كاملة حول الشمس وهذه هي السنة الشمسية، وإمّا أن تكون دورة القمر حول الأرض اثنتي عشرة مرة، وهذه هي السنة القمرية.

لكن هذا التعريف لليوم وللسنة ليس له معنى إذا لم تكن هناك شمس وأرض وقمر! ولم يكن ولا واحد منها في بداية الخلق حتى يتم الاحتساب على أساسها، وإن خطر ببالك أنه يمكن أن نقيس الزمن بدونهما فهذا صحيح في كوننا، فقياس الزمن دائما يحتاج لمرجع لتقيسه عليه، وانتقالنا لأي مكان سرعته أعلى أو أبطأ من مكاننا، أو كثافة جاذبيته أعلى أو أخف من جاذبيتنا، أو... سوف يغير سرعة الزمن بالمقارنة مع الأماكن الأخرى، كما هو متعارف عليه الآن في الفيزياء، وله براهين واضحة.

على كلّ حال، إن عموم اللغات والعربية منها، استعملوا كلمة يوم للدلالة على زمن لحدث أساسي مميّز وينتهي اليوم بانتهاء الحدث أو بحصول حدث مميّز آخر... ويتخلّل اليوم ساعات تجري فيها أحداث فرعية لأمور مرتبطة بكل اليوم، فيوم القيامة الطويل جدا يبدأ من ساعة قيامنا من الموت... وبعده أيام حشرنا وفرزنا زمرا ومحاسبتنا الفردية والجماعية وعرض الأشهاد... وصولا إلى آخر ساعة من آخر يوم حيث ينتهي الحساب ويدخل المتحاسبون إلى الجنّة أو النار، وترى هذا الاستعمال لكلمة يوم وساعة الذي لا يتحدّد بعدد الدقائق والثواني، تراه منتشرا في عموم اللغات، وكلام القرآن عن ستة أيام لخلق السماوات والأرض نفهم منه أن خلقهم مرّ عليه ست فترات زمنية، كل فترة تبدأ بحدث أساسي رئيسي وتنتهي بحصوله والانتهاء منه وابتداء مرحلة تالية، وترى ذلك واضحا في الآيتين 9 و 10 من سورة فصلت {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ...، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ}.

يبدو من تراث أهل الكتاب أن كلامه تعالى عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام وصلهم، وبطفولية فهموا أنها أيام الأسبوع، فقالوا إنه تعالى بدأ خلق ما في الدنيا من اليوم الواحد "الأحد"، وانتهى يوم الجمعة واستراح يوم السبت... وصار هذا الكلام جزءا من الدين، وانتقل منهم بطريقة أو بأخرى إلينا ليدخل في ثقافتنا الدينية، وهو كلام تحليلي لكلامه تعالى بناء على فهم ساذج... وهذا لا يعني أنه لن يتكرّر معنا نحن الوقوع في تفاسير ساذجة طفولية لكلامه تعالى، والمشكلة ليست هنا، بل المشكلة في إعطاء كلامنا قداسة كلامه تعالى، فيصير كلامنا هو الدين، لذا لِيَبْقَ كلامه تعالى بيّنا واضحا مفصولا عن تفسيراتنا له، ولا نفرض تفسيرنا له على الآخرين عبر توارثه وانتشاره ليصير هو فقط التفسير المقبول وأي شيء غيره مرفوض، فهذه هي الكارثة.

النحس والطيرة والتشاؤم: بالنسبة لما يقوله الناس عن النحس، تجد في مختلف البلاد تحديدا لأزمنة مختلفة من الأسبوع أو الشهر ويقولون إن الأمور تتعثّر فيها، فالأربعاء مثلا في بلد ما يقولون إنه نحس، وفي بلد آخر يقولون إنه جيّد والثلاثاء نحس، وبعضهم إن وافق يوم الجمعة الثالث عشر من الشهر فهو عندهم يوم نحس... وبعضهم يقول عن رؤية طائر البوم إنه نحس وآخرون يتفاءلون من رؤيته... ونفس الشيء عن الغراب والغنم والماعز...

هذه سخافات من المعيب إقحام الدين الإلهي فيها، حيث تجد في بعض كتبنا الإسلامية كلاما مؤكّدا لبعض هذه الأمور!

بالنظر لمعاني الكلمات بغض النظر عن الثقافات، الطيرة في اللغة هي ربط حصول شيء سيّء بشيء أصلا لا علاقة مباشرة بينهما، فهذا هو معنى الكلمة بغض النظر عن قناعتك بها، وعندما قال الكافرون إنهم يتطيرون من إنذار المؤمنين لهم، كما ورد في الآية 18 من سورة يس {قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ}، فقد قصدوا أنه أصلا لن يحصل عقاب إلهي لمن كفر فكلام المؤمنين عن الإنذار غير حقيقي، ولكن مجرد كلام

المؤمنين عن شيء سيّء قادم، فهذا الكلام سيسبّب حصول شيء سيّء، مثلما أتوقّع أن تقع أنت عن الدراجة، وأكرر قولي هذا... وعندما تقع تقول إنك وقعت بسبب قولي لك أنك ستقع، علما أنه لا ربط حقيقي مباشر بين كلامي ووقوعك، اللهم إلا إذا سببت لك الارتباك، فانتبه للفرق بين معنى الكلمة الأساسي، وبين ما تعتقده أنت مستعملا كلمة طيرة على أنها فعلا حقيقية، فهي مثل استعمالك لكلمة عنقاء مشيرا بها إلى تنين يطير وينفخ النار، فوجود كلمة لكائن بهذه الصفات لن يجعله حقيقيا.

أمّا النحس فهو عموم تعثّر الأمور بالرغم من محاولة إنجاحها، فلا يوجد شخص منحوس ولا يوم منحوس... ولكن يوجد يوم حصل فيه تعثّر للأمور فذلك اليوم كان نحسا وانتهى، فهي صفة لما حصل في ذلك اليوم بالتحديد، وليست صفة ملازمة له كلما تكرّر اليوم، ويوجد شخص كثيرا ما تتعثّر أموره، ففي حالة تعثّر أموره هو منحوس، فهي صفة لما جرى معه وليست صفة ملازمة له دائما.

كما ترى العاقل يبحث عن سبب لتفسير تعثّر الأمور، فحتما هناك سبب، والبسيط يستسهل استعمال تعابير ضبابية مهملا التعمّق في التفكير ليرمي ما حصل على الحظ والنصيب والنحس والتشاؤم... فيصير لهذه الكلمات عنده معان لها دلالات حقيقية على تفسيراته هو، فيصير النحس شيئا من الأشياء الحقيقية التي لها أثر وكأنه كائن أو ظاهرة... بينما في الحقيقة هو مجرد وصف لحالة تعثّر الأمور وليس سببا لها.

خذ مثلا من هذه الأجواء عن العلاقات الزوجية المتوترة والتي بدلا من البحث عن عمق أسبابها لإيجاد حلول لها، ترى البسطاء ينسبونها للجنّ والتابعة والقرين والكتبة والحسد... وبذلك يبرؤون أنفسهم من سوء أخلاقهم وسوء تصرفاتهم ونواياهم!

الكلام يجر الكلام، والتفاؤل استبشار للخير من بوادر عادة مسببة لحصوله، وهذا هو المعنى العقلاني للكلمة، وأمّا البسطاء فبدون أي رابط معلوم بين الأمور، لديهم لائحة طويلة من الأمور التي يستبشرون منها خيرا، كرؤيتهم للغنم أو لفراشة بيضاء... ومثلها لائحة طويلة مما يتشاءمون منه كرؤيتهم للماعز والبوم والغراب...

كما ترى مما سبق، حتى لو كان في اللغة كلمة لها معنى محدّد متعارف عليه بين الناس، فهذا لا يعني أن معناها حقيقي واقعي، وحين قلت لك عن المعنى العقلاني للكلمات، لم أقصد منع الآخرين من المعنى غير العقلاني وكأنه ممنوع لغويا أن يكون لكلمة ما معنى عقلاني ومعنى آخر عبثي، لا، فهذه أصلا حالة كل الناس من مختلف اللغات عند استعمالهم للكلمات، يستعملونها بعقلانية أو بجهالة، مثلما يعتقد البعض بالقوة السحرية، على أساس تعريفه غير العقلاني لكلمة سحر عن قوة خارقة يفعل بها الساحر ما يريد...

هنا ننتبه جيدا لحالة استعمال الإله سبحانه للغة من لغات البشر، وضمناً وحتما سيحصل تقويم لمعاني الكلمات لتكون "عقلانية"، ككلمة سحر التي بعقلانية تشير فقط للخدعة وليس لقوة خارقة عجائبية لفعل الأمور بمجرد التلفظ بكلمات غريبة... وككلمة إله التي لا تنطبق فعلا إلا على الله سبحانه بينما الناطقون باللغة العربية تساهلوا في حقيقة معناها وأطلقوها على حجر منحوت!...

للتبسيط كمثال من أجواء الآية هنا لِنَقُلْ إن كلمة شؤم في استعمال الناس كلّهم تشير إلى ربط حصول شيء سيّء من الاستصباح بالماعز، فهذا لا يعني أي شيء حقيقي، فلن يحصل شيء سيّء حتما من بعد رؤية الماعز صباحا وإلا لما عاش معّاز! ومع أنه صار للناس كلمة في لغتهم لها معنى محدّد، فهذا لا يعني بتاتا أبدا أن المعنى حقيقي، ومثله في السخافة إيمان الكثيرين بما يسمونه بالقرين الذي يأتي في المنام "على شكل طفل أو امرأة أو كلب..." ليرعب الناس وخصوصا الحوامل حتى يسقطن جنينهن... فإيمان الكثيرين بذلك لن يجعل القرين المزعوم كائنا حقيقيا، ولا يعني أي شيء سوى أنهم بسطاء، ولو دققوا لعلموا أنها هواجس نفسية "واعية أو غير واعية" نابعة من مخاوف من أمور حياتية لا قدرة لهم على التعامل معها بشكل مباشر للتخلّص منها، أو أنها ناتجة عن خلل في تكيفات الجسد مع الطعام أو البيئة، فارتفاع حرارة الجسد الداخلية أو من الغرفة الحارّة... والتواء الرقبة أثناء النوم... هي من المسببات القوية لرؤية الكوابيس، أو أنها ناتجة عن خلل ما في الجسد نفسه، في الدماغ أو الغدد التي تفرز الهرمونات... ومثلهم في السخافة المؤمنون بالأبراج وقراءة الفنجان والكفّ...

خذ مثلا كلمات المشعوذين، الذين تجد لديهم طلاسم وأحراز وأسماء فنيّة خاصّة بالأمور التي يتعاطون بها... وهذه كلّها كلمات لها معان مفهومة عندهم وعند من يتعلّم مصطلحاتهم، ولكن هذا لا يعني أنها صارت حقيقية، فطلسم كتابة أحرف أو رسومات مبهمة في أشكال هندسية على ورقة جلد غزال بحبر من ماء الزعفران... لا يعني أي شيء، ولن يصير لتلك الورقة مفعول سحري عجائبي، ولن تجلب الخير ولن تسبّب الشرّ، ولن تنفع ولن تضرّ...

(تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ{20})
تلك الريح الصرصر، تنزع الناس، تقتلع الناس من الأرض، لا يتمكنون من الوقوف أو التمسّك بشيء ما أو الاحتماء تحت شيء ما... {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ}، شبههم كعجز ككعب كآخر، {نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ}، فشجرة البلح حين تقعرها وتنزعها وتقلعها من الأرض، لا تجد لها جذورا مثل بقية الأشجار، كأنها مجرّد عمود من خشب، وحين أصابت الريح الصرصر قوم عاد تلاعبت بهم الريح كأنهم أعمدة من خشب، كعجز النخلة المقلوعة، فالنخلة لها رأس ولها عجز وبينهما بدنها، وعجز النخلة عادة يكون كعمود ثخين من الخشب عليه أشكال كالحبال الملصقة عليه وبعد ذلك نكمل مع بدن النخلة الذي عليه أثر السعفة التي يبست وسقطت، مثل حراشف "برش" السمك.

نلاحظ أن لعمود النخلة وزناً ثقيلاً، صحيح أن الريح كانت قوية جدا، ولكن القرآن شبّههم في آيات أخرى بجذوع النخل اليابس الفارغ من داخله، فوصف القرآن حالتهم بالضبط بعمود نخل خفيف تحمله الرياح وتتلاعب به، علما أن الرياح القوية كالأعاصير، يمكنها اقتلاع سيارة عن الأرض والتلاعب بها ورميها بعيدا...

كما ترى، الآية تريك كم هم ضعفاء أمام العقاب الإلهي، فالريح تلاعبت بهم وكسّرت عظامهم، وبناء عليه ألم يكن من الأفضل لهم لو اتعظوا مما حدث مع قوم النبي نوح(ع)؟ ألم يكن من الأفضل لهم أن يأخذوا التهديد الإلهي على محمل الجدّ؟

ضع في بالك أن القرآن أخبرنا عن عاد التي نزل عليها هذا العذاب في مدينة إرم، حيث ماتوا كلّهم ولم يبق منهم أحدٌ حيٌّ، إلا المؤمنين الذين غادروا القرية مع النبي هود (ع) قبل حصول الكارثة، وكذلك قوم النبي نوح(ع) وقوم النبي لوط(ع) ماتوا كلّهم، أمّا قوم النبيين صالح(ع) وشعيب(ع) فبقي منهم أحياء بعد الزلزلة، وراجع في ذلك دراسة الآية 79 من سورة الأعراف {فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}.

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ{21})
بعد كل قصة قصيرة ومختصرة يأتي التذكير بالتهديد، لأن المقصود من سرد قصص هؤلاء الناس هو التهديد حتى ننتبه ولا يكون مصيرنا مثل مصيرهم، وليس التسلية في استذكار ومراجعة التاريخ القديم.

{فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي}، هل الضرر الذي يصيب به تعالى هو عادي ويمكن تحمّله؟ وكيف كان، {نُذُرِ}، إنذاري لهم، فعندما أخبرتهم أنّ خطراً قادمٌ حتما إن لم يؤمنوا، فهل رأوا "ورأيتم" أني فعلا أنفّذ تهديداتي أم هي مجرّد كلام؟

بقي شيء، نجد الآية 24 من سورة الأحقاف {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ}، ذكرت رؤيتهم من بعيد في السماء لتجمعات السحاب، وقالوا عنه إنّه مجرد شيء سينزل عليهم بالمطر، {عَارِضٌ مُمْطِرُنَا}، ونفس الشيء حصل مع قوم النبي يونس(ع) كما ورد في الآية 97 و 98 من سورة يونس {وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}، {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}، فقوم النبي يونس(ع) هم الاستثناء الوحيد الذي نعرفه من القرآن عن تراجع قوم ما عن كفرهم عندما رأوا العذاب قادماً، وآمنوا قبل وقوعه، وبناءً على ما ورد في بداية السورة مع هذه المعلومات نستنتج أن قوم عاد نموذج عمّن رأى آية ولم يؤمن، حيث أخبرهم نبيّهم (ع) أن العذاب قادم بعد أيام، وغادرهم هو والمؤمنون معه، فكان من المفروض بعاد حين رأوا السحاب غير العادي أن يحتملوا كونه العذاب...

ذكرنا هذا لأن سور القرآن عادة تذكر في بدايتها ما ستتمحور حوله السورة، وسورتنا هذه تتمحور حول من رأى آية ضخمة واضحة ولم يؤمن، ولتطبيق ذلك على عاد اضطررنا لإجراء دراسة "تحليل بسيط" لبقية سور القرآن لنجلب

منها مسألة رؤيتهم للسحاب وإنكارهم لكونه العذاب الموعود... وهذا شيء أغفلته الآيات هنا، فهل اعتمدت السورة على دراستنا للقرآن لفهم ذلك؟ أم لذكر عاد هنا سبب آخر له علاقة بما تتمحور حوله السورة؟ وكما ترى فالسبب الآخر الواضح لنا أنهم نموذج من نماذج الذين تنفّذ فيهم إنذاره تعالى هنا في الدنيا، فكما بقيت السفينة آية، فهم عاد بمساكنهم وجثثهم آية للآخرين الذين عاصروهم، وعلى الأقل هم آية لبقية قبيلة عاد المنتشرين بعيدا عن مكان نزول العذاب، والذين سيكون لديهم اهتمام بمصير أقاربهم أكثر من الآخرين...

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ {22})
{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ}، المعلومات التي نزلت وحياً منه تعالى نزلت بلغة من لغات البشر حيث صار بيسر "بسهولة" يمكنكم قراءتها {قُرْآناً} لتفهموها، فهي على معنى ما ورد في الآية 58 من سورة الدخان {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}، فالوصف بالتيسير ناظر لتنزيله تعالى كلامه بلغة من لغات البشر وصار ميسّراً لهم فهم كلامه تعالى، وناظر ضمنا لطريقة صياغة الكلام الإلهي بلغة من لغات البشر بطريقة ميسرة للفهم، وهذا لا يعني سهولة كل كلامه تعالى لدرجة فهمه كله من دون دراسة، لأنّ طبيعة بعض المواضيع أعقد فكرياً من غيرها وتستدعي دراسة لفهمها، وخذ مثلا المسائل المتعلقة بالأدلة الفكرية على توحيده تعالى، ومثله بعض التشريعات... ولكن على كل حال كلامه تعالى ميسّر لفهمه، فغالبيته لا يحتاج لدراسة ويكفي القراءة المتأنية لفهمه، وبعضه يحتاج لدراسة.

{فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}؟ هل من متذكّر؟ وهل يوجد بينكم من يستحضر في فكره هذا القرآن الميسّر للفهم؟

هذه القصّة عن عذاب عاد والتي صار بإمكانكم الاطلاع عليها بيسر "بسهولة" من هذا القرآن، هل أحد منكم يريد أن يستحضرها في فكره حتى لا يكون مصيره مثل مصيرهم؟ وحتى يعلم أن كلامه تعالى عن الساعة حقيقي بدليل تدخلّه تعالى لإبادة عاد المنكرين لها.

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ {23})
{كَذَّبَتْ}، ولم تصدّق، {ثَمُودُ بِالنُّذُرِ}، ولم يصدّقوا بأنه يوجد شيء سيّءٌ قادمٌ حتماً إن لم يؤمنوا.

ثمود هو اسم لقبيلة عربية كبيرة، كانت منتشرة في عدة أماكن في شبه الجزيرة العربية، والنبي صالح(ع) أرسله سبحانه إلى واحدة من مدن ثمود واسمها الحجر كما ورد في الآية 80 من سورة الحجر {وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ}، ويوجد إلى الآن آثار لبيوت منحوتة في الصخر في مدينة الحجر، وتسمى أيضاً مدائن صالح، وهي تقع فيما يسمّى الآن بالمملكة السعودية، لجهة الشمال الغربي من المدينة المنورة.

(فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ {24})
{فَقَالُوا}، حيث قال قوم ثمود عن النبي صالح(ع) الذي أرسله تعالى لهم، قالوا: {أَبَشَرًا مِّنَّا}؟! فالنبي صالح(ع) ليس من الملائكة(ع)، ولا مُمَيَّزاً عنّا بشيء، بل هو كائن له بشرة كأي واحد منّا، {وَاحِدًا}، ليس معه أحد، إذ ليس معه جيش أو قوة عسكرية أو ملاك أو جنّي.. {نَّتَّبِعُهُ}، نكون على خطّه، فهل نتبع دين هذا الشخص العادي جداً ونترك ديننا!؟

يتساءلون ويسخرون، فهل نتبّع شخصاً بمواصفات صالح! وإذا اتبعناه وهو بهذه المواصفات: {إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ}، فلسنا على الطريق الصحيح، ونكون أيضاً في {سُعُرٍ}، في حالة قصوى من الاهتياج النفسي والجسدي، مثل حالة الدابة المسعورة، مثل الحيوان غير الطبيعي الذي يركض هائجاً ويعضّ أو يرفس فيُقال له مسعور، مثل الإنسان الذي يتعرّض لضغط كبير فيتصرّف باهتياج بالصراخ أو بالحركات السريعة والكلام غير العقلاني... فهل نحن هكذا لنتبعه أم نحن عقلاء؟

يمكنك التوسّع في تحليل كلام ثمود هذا الذي قالته بقية الأقوام لرسلها، فالمشهد لشخص عادي من البشر، يريد تغيير "دين" قومه، ويدّعي أن الإله تواصل معه... فبالنسبة لهم يمكن لأي واحد منهم ادّعاء نفس ما يدّعيه صالح(ع)، وهم وبغض النظر عمّا يقوله (ع) بالأدلة عن فساد دينهم، فهم يركزون على نقطة واحدة: رجل عادي يريد تغيير ديننا كلنا مدعياً أن الإله يتواصل معه...

(أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ {25})
{أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ}، الأمور التي يريدنا ربنا أن نستحضرها في فكرنا وعملنا، من عقيدة وشريعة وسلوكيات، وهل استقبلها صالح، {مِن بَيْنِنَا}، واختار الإله صالحاً لذلك تاركاً كل بقيّتنا؟!

{بَلْ هُوَ}، صالح(ع)، {كَذَّابٌ}، لا يقول الحقيقة، {أَشِرٌ}، يُبالغ في الكذب، حيث يدّعي أن الوحي نزل عليه من الإله سبحانه، وهذه كذبة من العيار الثقيل، فهناك كذّاب يكذب كذبة صغيرة، وهناك كذّاب أشر فيكذب كذبة كبيرة مبالغٌ فيها لدرجة أنك عندما تسمعها فوراً تعلم أنها كذبة.

ستلاحظ أنهم اتهموه (ع) بالكذب عموماً في كلّ ما قاله عن الدين الإلهي، وذلك يتضمّن إنذاره (ع) لهم بنزول عذاب دنيوي عليهم "قبل الآخرة" إن لم يؤمنوا.

إلى هنا تنتبه أنهم بالكلام الحقّ لم يقتنعوا، بل صرّحوا أنهم لن يقتنعوا من كلام رجل عادي، فهل سيقتنعون بآية هم يطلبون حدوثها؟ فلنرَ.

(سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ {26})
سيعلمون غداً، فيما سيأتي من زمن سيعلمون، من الكذّاب الأشر، فهم اتهموه بالكذب من العيار الثقيل في كل ما يتعلّق برسالته، ومن ضمنها إنذاره لهم بالعقاب، وسترى من بقية الآيات أنّه في مدة زمنية قليلة عبّرت عنها الآية بغدٍ، فيما سيأتي من زمن، سترى أن العقاب نزل عليهم، وسيتبين أن النبي صالح(ع) لم يكن كذّاباً، بل هم الكذابون فيما اخترعوه من عقيدة كاذبة وشريعة فاسدة، وهم الكذّابون حين قالوا إنّهم إذا أتاهم دليل غير عادي فسيؤمنون.

(إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ {27})
{إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ}، من المشهور في تراثنا الديني أنهم طلبوا خروج أنثى جمل من صخرة، ولم يذكر القرآن ذلك، واكتفى بالقول عن طلبهم لآية من دون أي تفصيل، وبالتحليل فالظاهر أن القرآن ترك عن قصد الكلام عن طلبهم لناقة تخرج من صخرة حتى نستحضره من التراث الديني، فيكون دليلاً على شهرة الحادثة ووصولها إلينا بالرغم من آلاف السنين بيننا وبينها، وعلى أي حال أرسل سبحانه الناقة، {فِتْنَةً لَّهُمْ}، شيءٌ يتعرّضون له ويحصل بعده تغيّر لهم، فهم طلبوا خروج الناقة من صخرة، وأعلنوا أنهم سيؤمنون إن خرجت، فحين تخرج يكونون تعرّضوا للفتنة، فهل سيؤمنون بهذا الدين أو سيكفرون به؟

فهم اتّهموا النبي صالح(ع) بالكذب لدرجة الأشر، فحين تخرج الناقة كما طلبوا، ولا يؤمنون كما وعدوا، فهم سيكونون من درجة الكذّاب الأشر.

{فَارْتَقِبْهُمْ}، لا تغفل عنهم وتوجّه نحو شيء مهمّ سيحصل، وهنا المقصود الانتباه لما سيفعلونه بعد إرسال الناقة، {وَاصْطَبِرْ}، صبّر نفسك، واضغط على نفسك حتى لا تتصرف بشكل غير مناسب أو سيّئ بسبب تعرّضك لشيء غير مريح أو لا تحبّه أو تكرهه، فبعد خروج الناقة تجهّز لتصبّر نفسك، فهم لن يؤمنوا وسيقتلوها.

(وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ {28})
{وَنَبِّئْهُمْ}، أخبر قومك عن شيء لا يعلمونه، {أَنَّ الْمَاء}، مصدر الماء الذي يستعملونه "البركة أو عين الماء..."، {قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ}، سوف تصير المياه مقسومة بينكم وبين الناقة، {كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ}، أنتم تحضرون وتجيئون إلى الماء للشرب ولاستعماله وتخزينه... والناقة تحضر للشرب في اليوم التالي. يومٌ لها لوحدها لتشرب الماء، ويوم ثانٍ لكم لوحدكم لتشربوا وتستعملوا الماء.

لاحظ أنه تعالى أراد أن تصير الناقة جزءاً يوميّاً من حياتهم، يوميّاً سيتذكرون أنه موعدهم لاستعمال الماء أو موعد الناقة، إذ يعلم سبحانه بأنهم لن يؤمنوا، وسيقللون من قيمة ما حصل، وينسونه... فربطه تعالى بحياتهم اليومية بالماء الذي يحتاجونه يوميّاً حتى تصير الناقة "الآية التي طلبوها" جزءاً من حياتهم غصباً عنهم، فكلّ يوم سيتذكّرون الناقة غصباً عنهم.

(فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ {29})
اختصرت الآيات القصة حيث صار قوم ثمود "الذين لم يؤمنوا" في موقف ضعيف أمام النبي صالح(ع) والذين آمنوا معه، وأرادوا الانتهاء من هذه الناقة التي صارت جزءاً من حياتهم، وتعيش معهم، بل ويتذكرونها كلما أرادوا أن يشربوا أو يستعملوا الماء.

{فَنَادَوْا}، توجّهوا بكلامهم إلى، {صَاحِبَهُمْ}، لشخص معهم، {فَتَعَاطَى}، تعامل ذلك الشخص مع مسألة قتل الناقة بشيء، واستعمل سلاحاً كالسهم أو الرمح، {فَعَقَرَ}، استعمل أداةً لها رأس حيث غرز سهماً أو رمحاً أو سكّيناً في جسد الناقة، وماتت.

صار المعنى واضحاً بعد إكمال الجملة، حيث كان لكفّار ثمود صاحب مناسب لتنفيذ عملية قتل الناقة، لنقل إنّه شخص مشهور بينهم بإجرامه أو بإعلانه سابقاً عن رغبته بقتل الناقة... ووصفه القرآن بأشقى أشقياء ثمود في الآية 12 من سورة الشمس {إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا}، حيث نادوه طالبين أو معلنين له موافقتهم على قتلها، وتعاطى حيث جهّز للناقة ما يناسب قتلها، وعقرها وسبب لها ضرراً في جسدها بالضرب بآلة حادّة، والمقصود أنه قتلها فماتت.

(فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ {30})
بعد قتله للناقة بطلب من كفّار ثمود، {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي}، هل ما أصابهم من ضرر كان عاديّاً ويمكنهم تحمّله؟ وكيف كان، {نُذُرِ}، إنذاري لهم عندما أخبرتهم أنّ شيئاً سيّئاً قادمٌ حتماً إن لم يؤمنوا وإن لم يتركوا الناقة بحالها، فهل رأوا "ورأيتم" أني فعلاً أنفّذ تهديداتي أم هي مجرّد كلام؟ وأنت تعلم أن زلزالاً مدمّراً أصابهم...

تتذكّر بداية السورة عن الذين إن يروا آية يقولوا سحر مستمر، فقوم ثمود خرجت بناءً على طلبهم ناقة من صخرة، وصارت جزءاً من حياتهم لأن الماء مقسوم بينها وبينهم، فهل هذا سحر؟ لا، ولكن رغم الآية الواضحة جدّاً جدّاً لم يؤمنوا.

لنتابع لنرى كيف كان العذاب عمليّاً.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ {31})
{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً}، الكلام الذي ينتشر ليسمعه الكثيرون وصفه صيحة، ويعبّر القرآن عن الأوامر الإلهية التي ينفّذها عدد كبير من الناس بأنها صيحة، مثلما عبّر القرآن عن موت وقيام كلّ الناس من الموت بأنه نفخة في الصور، كما ورد في الآية 68 من سورة الزمر {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ}، وعبّر عن نفس هذا القيام من الموت بأنه صيحة كما ورد في الآية 53 من سورة يس {إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ}، ولدينا تعابير قرآنية متعدّدة بالصيحة لتوصيف عذاب مختلف الأقوام. هنا في الآية صدرت الكلمة الإلهية بموتهم، وثمود كثيرون، وهذه الحالة يناسبها استعمال كلمة صيحة حيث صدر الأمر بموت عدد كبير وماتوا.

{فَكَانُوا كَهَشِيمِ}، كالشيء المهشّم الذي انطحن وتكسّر وصار فتاتاً، كالنبات والعيدان اليابسة، كالقش والتبن، {الْمُحْتَظِرِ}، الذي يجمعه صاحب الحظيرة، الذي لديه حيوانات ويجمع لها النبات كالتبن والقش ويجعلها في الحظيرة في المكان الذي تنام فيه الحيوانات الأليفة وهو محتظر حيث إنّه جامع لما يوضع في الحظيرة.

بعبارة أبسط، صاروا كالهشيم الذي يجمعه صاحب الحظيرة، وصاروا كالقشّ والتبن، ويبدو أن التعبير يشير لتكسيرهم من وقوع بيوتهم عليهم.

ضع في بالك أن قوم النبي صالح(ع) لم يموتوا كلهم، حيث ابتعد عنهم النبي(ع) والمؤمنون بعد قتل الناقة، وأصابهم الزلزال، ورجع النبي(ع) وتحدث مع من بقي حيّاً وقال لهم: {يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}... هكذا ورد في الآية 79 من سورة الأعراف.

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ {32})
{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ}، المعلومات التي نزلت وحياً منه تعالى نزلت بلغة من لغات البشر حيث صار بيسر "بسهولة" يمكنكم قراءتها {قُرْآناً} لتفهموها، وهي على معنى ما ورد في الآية 58 من سورة الدخان {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}، والوصف بالتيسير ناظر لتنزيله تعالى كلامه بلغة من لغات البشر وصار ميسّراً لهم فهم كلامه تعالى، وناظر ضمناً لطريقة صياغة الكلام الإلهي بلغة من لغات البشر بطريقة ميسرة للفهم، وهذا لا يعني سهولة كل كلامه تعالى لدرجة فهمه كله من دون دراسة، لأنّ طبيعة بعض المواضيع أعقد فكرياً من الأخريات وتستدعي دراسة لفهمها، وخذ مثلاً المسائل المتعلقة بالأدلة الفكرية على توحيده تعالى، ومثله بعض التشريعات... ولكن على كل حال كلامه تعالى ميسّر لفهمه، حيث إنّ غالبيته لا يحتاج لدراسة ويكفي القراءة المتأنية لفهمه، وبعضه يحتاج لدراسة.

{فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}؟ هل من متذكّر؟ وهل يوجد بينكم من يستحضر في فكره هذا القرآن الميسّر للفهم؟

هذه النبذة من قصّة عذاب ثمود والتي صار بإمكانكم الاطلاع عليها بيسر "بسهولة" من هذا القرآن، هل أحد منكم يريد أن يستحضرها في فكره حتى لا يكون مصيره مثل مصيرهم؟ وحتى يعلم أن كلامه تعالى عن الساعة حقيقي بدليل تدخّله تعالى هنا في الدنيا لإهلاك بعض المنكرين لها.

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ {33})
{كَذَّبَتْ}، فلم تصدّق، {قَوْمُ لُوطٍ}، الناس الذين كان النبي لوط (ع) ينتمي لجمعتهم فكانوا متفاعلين مع رسول إلهي، {بِالنُّذُرِ}، بالخبر عن شيء سيّئ قادم حتما بسبب توافر شروط حصوله فيهم. قال لهم النبي لوط(ع) إنّ عقاباً إلهيّاً سينزل عليهم إن لم يتوقّفوا عن السوء الفاحش الذي يقومون به، ولكنهم اعتبروا كلامه كذباً غير صحيح، فاعتبروا الإنذار كاذباً.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ {34})
{إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا}، الحصب القطعة من الحجارة، فتساقطت عليهم قطع الحجارة فماتوا كلهم، {إِلَّا آلَ لُوطٍ}، إلّا المرتبطين بالنبي لوط(ع) بالنسب، هو وأولاده فقط، وقيل في بعض الروايات إنّ له (ع) أصهرة خرجوا معه ولا نجد حتى إشارة لذلك من القرآن، بل هذا يتعارض مع توصيف الناجين بأنهم من آله لأن الأصهرة ليسوا من الآل إلّا إن كانوا من الأقارب بالنسب ومعلوم أنه (ع) كان مهاجرا لتلك القرية من القرية التي حاولت إحراق النبي إبراهيم(ع) كما تفهم من 26 من سورة العنكبوت {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي}... فليس له (ع) أقارب في قرية السوء، وقيل إنّه كان لديه بنات فقط وأيضا لا دليل على ذلك من القرآن، حيث ذكر القرآن بناته في الآية 71 من سورة الحجر وهذا ليس دليلا على أنه (ع) لم يكن له أولاد ذكور.

{نَّجَّيْنَاهُم}، خلّصهم سبحانه من العذاب قبل حدوثه، {بِسَحَرٍ}، بعد منتصف الليل.

نعلم من بقية القرآن عن إخباره سبحانه للنبي لوط(ع) أنّ العذاب سينزل على القوم عند الصباح، وأمره تعالى بمغادرة القرية مع أهله، فخرجوا في وقت السحر، وعندما ابتعدوا وطلع الصباح، بدأت الحجارة تتساقط، حيث ورد ذلك في الآية 81 من سورة هود {قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}.

كما تلاحظ في آيات أخرى نجد تعبيراً عن نجاته (ع) مع "أهله" إلا امرأته، فهي من أهله ولكنها لم تكن مؤمنة... هنا تجد التعبير الدقيق بنجاة آله الذي يعبّر عن استثناء زوجته، فالنجاة للمرتبطين معه (ع) بالنسب، مما يحصر النجاة به وبأولاده فقط، إذ إنّ الزوجة من الأهل وليست من الآل إلا إن كانت من أقارب الزوج بالنسب كابنة عمّه، وتلك لم تكن كذلك.

(نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ {35})

{نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ}... {نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا}، فالذي أصاب قوم النبي لوط(ع) نقمة والنجاة منه نعمة، فهو شيء يوصف بأنه جيّدٌ حَسَنٌ، {كَذَلِكَ}، بهذه النعمة التي ذكرتها الآيات عن نجاة النبي لوط(ع) وآله، {نَجْزِي}، نعطي المقابل، {مَن شَكَرَ}، من يعترف بحصوله على أمور جيّدة منه تعالى.

نفهم من الآية أن إشباع الشهوة بالحلال شيء يستوجب منّا إعلان الشكر له تعالى على هذه الرغبة... والنبي (ع) وآله كانوا مقتنعين بذلك، فهم شاكرون له تعالى على ذلك، وأمّا الآخرون الفاعلون للفاحشة والمؤيدون لها، فهم عمليّاً ليسوا شاكرين على الحلال الذي أتاحه تعالى لهم، ولذلك اتجهوا نحو السوء...

(وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ {36})
{وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا}، أخبرهم النبي لوط(ع) عن خطر البطشة الإلهية، من خطر التعامل معهم بعنف شديد بسبب توافر ظروف استحقاقهم لهذا التعامل، {فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ}، أمام هذه الحقيقة الواضحة المحسومة صاروا يقولون كلاماً تافهاً، فالتهديد منه تعالى، حيث نفّذ سبحانه تهديداته سابقاً على نماذج معروفة مثل قوم النبي نوح(ع) وعاد وثمود، وأمام هذه الحقيقة الواضحة قالوا كلاماً تافهاً مكذّباً لها.

(وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ {37})
{وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ}، كان عند النبي لوط(ع) ضيوف، أشخاص انضافوا وانضمّوا إلى بيته، وعادة يتم تأمين الطعام والمنامة بالمجان للضيوف، وتعلم من سور أخرى أنهم ملائكة(ع) تمثّلوا على شكل بشر، واستضافهم النبي(ع) في بيته وهو لا يعلم بأنهم ملائكة، وجاء القوم يريدون إخراجهم من بيت النبي(ع) للاعتداء عليهم جنسيّاً، وتجادلوا مع النبي(ع)، {فَرَاوَدُوهُ}، حاولوا جعله(ع) يسلّمهم الضيوف مع أنه لا يريد، فالنبي(ع) عارضهم ولم يسمح لهم وحاولوا فرض ذلك عليه بالكلام أو بالقوة... وهذه هي المراودة، فأنا أريد شيئاً ما، وأنت تحاول جعلي أفعل شيئاً آخر تريده أنت، ويتدرج ما تفعله من محاولة إقناعي بالكلام وبالحيلة وصولاً إلى القوة، فكله مراودة.

{فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ}، جعلنا أعينهم لا يظهر أثرها، فعيونهم بقيت في وجوههم ولكنها مغطاة بجلدة فيبدو لمن ينظر إليهم أنهم بلا عيون، حيث أغلق تعالى جفن أعينهم ولم يقدروا على فتحها، وهناك أسباب عديدة تسبّب الطمس، منها التعرّض لضوء قوي جدّاً فبعدها لا نتمكّن من فتح الجفن، ومنها شلل العصب، ومنها إلصاق الجفن، ومنها جرثومة تسبّب تورّم الجفون... على أي حال، الذين هجموا على البيت لأخذ الضيوف "الملائكة(ع)" انطمست عيونهم وفقدوا القدرة على الرؤية، ولذلك انسحبوا من بيت النبي لوط(ع) متراجعين عن أخذ الضيوف.

{فَذُوقُوا عَذَابِي}، كنتم تسمعون عن الضرر الذي يفعله تعالى بالكافرين والآن صرتم فيه، وذوقوا، {وَنُذُرِ}، كنتم تسمعون بالخطر المتوافرة شروط حصوله والآن صرتم فيه.

ستلاحظ هنا وفيما سيلي أن السورة استبدلت تعبير: {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ}، بـ: {فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ}.

الآيات اختصرت بعض التفاصيل التي وردت في سور أخرى، لأن النبي لوط(ع) كان يظن أن ضيوفه من البشر، وعندما طمس الملائكة(ع) عيون المهاجمين على البيت، عندها أخبروه أنهم من الملائكة(ع)، وأنهم جاؤوا خصيصاً لإنزال العذاب بقومه، وأخبروه أن يغادر القرية بعد منتصف الليل... تركيز السورة على العقاب الإلهي بعد الإنذار، وبالخصوص تركيزها على آية طمس أعينهم، كآية قبل نزول العقاب عليهم، إذ من المفروض أن يفكّروا فيما جرى ليعلموا أنه تدخّل إلهي كنموذج عن العقاب الذي أنذرهم منه النبي لوط(ع) سابقاً، ليتوبوا... ولكن رغم ذلك لم يتراجعوا عمّا كانوا عليه! وتتذكر بداية السورة أن هذه النوعية من الناس {وَإِن يَرَوْا آيَةً يَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ}. هنا ترى نموذجاً من الناس حصل معهم طمس العيون كآية واضحة ولم يرتدعوا.

(وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ {38})
{وَلَقَدْ صَبَّحَهُم}، أول ما تلقاهم وقبل أي شيء، {بُكْرَةً}، في أول الوقت من النهار، {عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ}، ضرر ثابت لازمهم حتى انتهوا، فلم ينته العذاب ولم يتوقف حتى ماتوا كلهم.

ضع في بالك أن العذاب نزل عليهم عند الصباح من فترة النهار، ولكن كلمة "صبح" ومشتقاتها "أصبح صباح..." هي بالأصل وصف لأول حالة تصيب شيئاً ما. فالصباح للنهار هو أول الضوء، وتعبير الآية 10 من سورة القصص {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا}... يشير لأول حالة لها بعد تركها لولدها فصار قلبها فارغاً، وليس المعنى أنها في الصباح من النهار صار قلبها فارغاً، وهنا في الآية ورغم أن حصول العذاب كان في صباح النهار، إلّا أن المعنى على وصفية الكلمة للحالة، فصبّحهم بكرة تعني حرفيّاً أن أول ما حصل معهم في أول النهار، عذاب مستقر.

(فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ{39})
{فَذُوقُوا عَذَابِي}، كنتم تسمعون بالضرر الذي يُصيب به الكافرين والآن صرتم فيه، وذوقوا، {وَنُذُرِ}، كنتم تسمعون بالخطر الذي يصيب من توافرت شروط حصوله فيهم، والآن صرتم فيه.

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ{40})
{وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ}، المعلومات التي نزلت وحياً منه تعالى نزلت بلغة من لغات البشر حيث صار بيسر "بسهولة" يمكنكم قراءتها {قُرْآناً} لتفهموها، وهي على معنى ما ورد في الآية 58 من سورة الدخان {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}، والوصف بالتيسير ناظر لتنزيله تعالى كلامه بلغة من لغات البشر وصار ميسّراً لهم فهم كلامه تعالى، وناظر ضمناً لطريقة صياغة الكلام الإلهي بلغة من لغات البشر بطريقة ميسرة للفهم، وهذا لا يعني سهولة كل كلامه تعالى لدرجة فهمه كله من دون دراسة، لأنّ طبيعة بعض المواضيع أعقد فكريّاً من الأخريات وتستدعي دراسة لفهمها، وخذ مثلاً المسائل المتعلقة بالأدلة الفكرية على توحيده تعالى، ومثله بعض التشريعات... ولكن على كل حال كلامه تعالى ميسّر لفهمه، حيث إنّ غالبيته لا يحتاج لدراسة ويكفي القراءة المتأنية لفهمه، وبعضه يحتاج لدراسة.

{فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}؟ هل من متذكّر؟ وهل يوجد بينكم من يستحضر في فكره هذا القرآن الميسّر للفهم؟

هذه القصّة عن عذاب قوم النبي لوط(ع) والتي صار بإمكانكم الاطلاع عليها بيسر من هذا القرآن، هل من أحد منكم يريد أن يستحضرها في فكره حتى لا يكون مصيره مثل مصيرهم؟ وحتى يعلم أن كلامه تعالى عن الساعة حقيقي بدليل تدخلّه تعالى هنا في الدنيا لإبادة بعض المنكرين لها.

(وَلَقَدْ جَاء آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ{41})
لقد جاء آل فرعون، للمرتبطين بالنسب مع أعلى حاكم في بعض فترات مصر القديمة، وهناك العديد من الفراعنة مروا في تاريخ مصر ولكن القرآن دائماً يشير إلى الفرعون الذي كان على عهد النبي موسى(ع)، فهو وأقاربه كانوا الطبقة الحاكمة، وأيضاً جاءتهم {النُّذُرُ}، الخبر عن شيء سيّئ قادم حتماً بسبب توافر شروط حصوله فيهم.

كما ترى فالسورة هنا اعتبرت أن القارئ لديه علم أو معرفة ولو سطحية بقصّة غرق فرعون وجنوده لأنها مشهورة بسبب تناقل أهل الكتاب لها في كتبهم وعلى ألسنة الناس، وكما ترى ركّزت السورة على مجيء {النُّذُرِ} والتكذيب بها والعقاب، وأغفلت بقية التفاصيل التي تجدها في مختلف السور.

نتذكّر دائماً أن فرعون هو لقب لأعلى حاكم لمصر في عهد النبي موسى(ع) كلقب الملك عند العرب والإنجليز، ولقب كسرى عند الفرس ولقب قيصر عند الرومان ولقب تبع عند اليمنيين القدماء... ومرّ في بعض فترات الحكم في مصر تغيّرٌ من لقب فرعون لملك، وهذا ما تراه في فترة النبي يوسف(ع) في مصر.

(كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ{42})
آل فرعون، {كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا}، حيث إنّ كل الأمور المميزة المنسوبة له تعالى والتي هي علامات وأدلة على صدق دعوة النبي موسى(ع)، مثل تحول الماء إلى دم والعصا لحيّة... كلّها لم يصدّقوها، {فَأَخَذْنَاهُمْ}، فلم يتركهم تعالى على حالهم بل تعامل معهم، {أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ}، فتعامل معهم سبحانه وهو عزيز يفرض ما يريده على الآخرين والبقية أذلّة أمامه تعالى، مقتدر، لديه القدرة والاستطاعة على فعل أي شيء يريده، فيقدر سبحانه على تنفيذ كل ما يريد.

بعبارة ثانية، الناس المكذّبون للأنبياء كانوا مستهترين بما يقوله الأنبياء عن العقاب، وبالتالي هو استهتار بمدى قدرة الله سبحانه على معاقبتهم وعلى تنفيذ العقاب، وهنا ترى السورة خصّصت آل فرعون بالإشارة إلى صفتيه تعالى "العزيز المقتدر" لأنهم كانوا يرون أنفسهم أعلى سلطة على وجه الأرض ولا أحد فوقهم، وكان فرعون يرى نفسه إلهاً! وحتى القرآن ركّز دائماً عليهم كأبرز نموذج عن القوّة في تاريخ البشر، فهل نفعتهم قوّتهم وتكبّرهم واستعلاؤهم؟ لا، فالله سبحانه عزيز مقتدر.

هنا ننتبه جيّداً، فمن ناحية نعلم من القرآن أنه تعالى إله فائق القدرات والقوّة والسيطرة، خالق للسماوات الهائلة الحجم بما فيها من كائنات... ثم نجد تعابيرَ عن مدى قدرته وقوته سبحانه وتعالى في أمور تبدو صغيرة أمام سيطرته تعالى على الدنيا والآخرة، فمعاقبة فرعون وجنوده، هل تستحق أن يذكر سبحانه صفات القوة التي لديه؟ فهل تقوم أنت بعرض عضلاتك وصفات قوّتك لو قتلت نملة؟ لا، وسبحانه وتعالى لم يعرض علينا صفات القوة للاستعراض، بل لبيان تفاهة اعتقاد فرعون وآله ومن سبقه ولحقه من أقوام استخفّت بقدرته تعالى على معاقبتهم لأنهم يرون أنفسهم أقوياء جدّاً، فلو أنّ النملة استهانت بقوتك وسحقتها فيمكنك أن تردّ على استهانتها بك بالسؤال عمّا حدث لها عندما تعاملت معها بقوّتك، ففي هذه الحالة أنت لا تتباهى بقوّتك بل تذكرها حتى ينتبه الآخرون... وكما ترى فكل الفقرات السابقة كانت تقصد هذا المعنى حين سألت: {فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ}؟ ولكن هنا بالنسبة لفرعون عرضت السورة صفات القوّة له تعالى لأن فرعون شخصيّاً ادّعى الألوهية كما تقرأ في الآية 38 من سورة القصص "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي...".

من ناحية ثانية، من أين سنعلم أنّه تعالى عزيز مقتدر لو لم يخبرنا بذلك؟ ربما سنشتقّ ذلك من القدرات العالية التي نرى آثارها في خلقتنا وخلقة ما حولنا، ولكن القرآن لم يترك لنا أي شيء لنشتقّه من الصفات الإلهية من دون تأكيده حتى لا نضلّ عنها باختراع صفة غير صحيحة له تعالى، فأخبرنا بما يهمّنا وبما يمكننا فهمه من صفاته، وما نفهمه ولو تقريبيّاً.

أطلت عليك لأن البعض كتبوا كلاماً حول ذلك تعليقاً على مختلف الآيات، فضع في بالك أنه تعالى لا يتباهى علينا بصفاته وقدراته وكأنه يسعد بذلك، لا، بل يخبرنا بها للتعرّف عليه سبحانه والانتباه، فالمؤمن يسعد بما يقرؤه عن صفاته تعالى لأنه وليّه، فالمؤمن يعتبر نفسه موالياً "مستنداً وتابعاً" لأقوى قوّة في الدنيا... والكافر سيراها كعرض عضلات عليه لأنه معارض لكلامه تعالى، فيعتبرها كالتحدّي له. وللأسف كثيراً ما نسمع كفراً وسباباً له تعالى من مسلمين وأهل كتاب درج في مجتمعاتهم قلّة الأدب عليه تعالى... ونفس الشيء من الكفّار، فهؤلاء يهددهم تعالى بصفات القهر والقوّة ليرتدعوا... ولا نفع!

كما تلاحظ عطفاً على بداية السورة عن الذين لو رأوا انشقاق القمر أنهم سيقولون {سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ}، ففرعون وقومه من أبرز النماذج عن ذلك، فتسع آيات متنوعة لم تكفهم ليؤمنوا وقالوا عنها سحر، بل صرّحوا بذلك بشكل فجّ كما تقرأ في الآية 49 من سورة الزخرف "وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ".

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ {43})
أيها النموذج كفّار مكّة، ما الذي يعطيكم الأمان من العذاب الإلهي؟ على ماذا تستندون بشعوركم بالأمان من عقابه تعالى مع أنكم كافرون به!

{أَكُفَّارُكُمْ}، هل المنكرون لهذا الدين والذين أنتم منهم الآن، {خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ}؟ أحسن من النماذج التي مرّت سابقاً من الكفّار الذين نالوا عقاباً في الدنيا قبل الآخرة.

الجواب معلوم: لا يوجد ولا وجه أفضلية لكفاركم عن أولئكم الكفّار السابقين، فأنتم مثلهم كفّار وبالتالي لستم بمأمن من العذاب.

إن لم تكونوا "أحسن، أفضل" من الكفّار الذين عذّبهم تعالى فما السبب الآخر الذي يجعلكم لا تتقون العقاب الإلهي؟ {أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ}؟ هل يوجد زبر، كلام مكتوب، وثيقة مكتوبة عن كلام "من الإله سبحانه" مزبور فيها، مكتوب فيها، أنكم {بَرَاءَةٌ} فلا ارتباط لكم ولا علاقة لكم بأي تهديد إلهي، فلديكم براءة في وثيقة مكتوبة من كل الأشياء التي تفعلونها ولا ذنب عليكم ولا عقاب لكم؟

أيضاً الجواب معلوم، فبعض الكافرين قالوا إنّه سبحانه خلقنا وتركنا على راحتنا ولا يتدخّل بنا فيما نفعله، فلا عقاب على أي شيء نفعله مهما كان، فتسألهم الآية: هل لديكم وثيقة منه تعالى فيها هذا الكلام؟ لا.

بالنسبة لكلمة "خير" في استعمال القرآن فكثيراً ما نستنسب تفسيرها على معنى "أفضل"، وأحياناً يصدق هذا المعنى بالتبعية من فحوى الكلام، ولكن بعض الاستعمالات القرآنية لنفس الصياغة تريك أنه لم يقصد بكلمة خير أن تكون رديفاً لكلمة أفضل، وكمثال واضح عن ذلك ما ورد في الآية 16 من سورة العنكبوت "وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ"، فمرادفتها بأفضل في أمثال هذه الآية سيعطيك معانيَ غير دقيقة بل وغير مقبولة إلا إذا حملت معنى الأفضل على عموم المقابلة بين الأسوأ والأحسن، ولكن هذا ليس معناها بل هذا معنى كلمة خير، وكلمة "أفضل" في أشعار العرب قبل الإسلام محصورة بين الحسن والأحسن، فلو قلت إنّ الإيمان أفضل لكم فهذا قد يعني أن الكفر حسن والإيمان أحسن، لا، فالإيمان خير لكم مما يعني ضمناً أن الكفر سوء لكم.

لم يستعمل القرآن كلمة أفضل بتاتاً، واستعمل التعبير بالخير وهو أوسع بالمعنى، فهو يقابل الشرّ كما في الآية 11 من سورة النور "إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ..."، واستعملها بمعنى ما يقابل الحسن فالآخر أحسن وليس شرّاً، كما ورد في الآية 271 من سورة البقرة "إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ..."، فإبداء الصدقة ليس سوءاً وإنما إخفاؤها أحسن، وهنا يمكن استعمال كلمة أفضل.

يعني لا ترادف "خير" بـ "أفضل"، فهما في بعض سياق الكلام يتقاطعان تطبيقيّاً حيث يكون الذي تقارن بينهما كلاهما جيّدان، فعندها يصدق قول خير أو أفضل، ولكن حين يكون الكلام عموميّاً يشمل ما كلاهما جيّدان ويشمل أيضاً ما أحدهما جيد والآخر سيّئ، ويشمل الوصف مطلقاً بمقارنة الحسن مع مطلق الوصف بالحسن، فحتى لو لم يكن هناك طرف آخر للمقارنة والمقارنة مع مطلق الوصف، كوصفه تعالى بخير الرازقين وخير الحاكمين... فهو تعالى بالمقارنة مع وصف الحسن مطلقاً كرازق وحاكم فهو خير موصوف بذلك، فكلمة أفضل ليست وصفاً صحيحاً لهذه الحالات وكلمة خير صحيحة.

(أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ {44})
{أَمْ يَقُولُونَ}، يقول الكفّار: {نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ}، نحن جماعة ونحن عدد كبير منتصر ونحقّق ما نريده، فلا يمكن أن يهزمنا إلهكم أيها المؤمنون، ولذلك لا نخاف من هذا التهديد بنزول العذاب.

(سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ {45})
{سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ}، لن يتحقّق ما يريدونه، حيث إنّ هذه الأعداد الكبيرة سيهزمها تعالى، وسيحقّق هو سبحانه ما يريده عليهم وحتماً سيتعرضون لعقابه تعالى، {وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ}، سيُعطون دبرهم، ولن يقفوا صامدين محاولين المقاومة بل سيهربون.

من الآية التالية التي ستشير لعذاب الآخرة، نفهم أن الكلام هنا عن مواجهتهم لعذاب ينزل عليهم هنا في الدنيا، سيولّون الدبر فلن يستطيعوا مواجهته، ونتذكّر من السورة وصفها للأقوام الذين نزل عليهم العذاب ولم يستطيعوا فعل أي شيء لردّه، فلم ينتصروا وانهزموا، وهكذا تفهم سبب تكرار السورة التذكير بعذابه ونذره تعالى من بعد كل فقرة ذكرت عذاباً نزل على قوم ما.

ننتبه جيّداً، ففي العديد من الآيات التي تحدّثت أو هدّدت بعذاب كفّار مكّة، نلاحظ بعض الروايات وبعض المفسرين الذين فسّروها بتعذيب الكفّار في معركة بدر، حين مات سبعون كافراً، وكما ترى هنا فمن الواضح أن الآية تتحدّث عن تهديد بعقاب دنيوي إلهي مباشر، وليس عن معركة بدر ولا غيرها من الحوادث. وما دفع المفسرين لذلك هنا وفي غيرها من الآيات هو إصرارهم على إيجاد مصداق لتفسير الكلام الإلهي عن حصول عذاب لكفّار مكّة، على أساس أنه تهديد سيحصل، وحصل، علماً أن النادر من الآيات تطرقت لتعذيب كفّار قريش على أيدي المؤمنين، والكثير من الآيات هدّدتهم بعذاب دنيوي، والقليل من الآيات في السور التي نزلت بعد إسلام مكّة بالقوّة، قد ربطت إسلامهم هذا كسبب منع قديماً نزول العذاب الدنيوي عليهم، فسبحانه كان يعلم بأنهم سيسلمون، وأن بينهم مسلمين مستضعفين، وأنه سيكون من أولادهم مسلمون... ولذلك لم يصبهم بعذاب يهلكهم في الدنيا. وغيرها من التفاصيل التي لن أطيل عليك بها،

وأكتفي هنا بلفت انتباهك لما تجده في التفاسير عن مختلف آيات القرآن التي يقولون إنّها تشير لتعذيب الكفّار ببدر أو بالقحط أو... أكثره تفسير غير صحيح للآيات بل تخمين تطبيق التهديد، فالتهديد بالعقاب الإلهي المباشر بكارثة طبيعية لم يحصل لأهل مكّة لأسباب أشرنا لبعضها.

هذا الكلام لا يلغي العذاب الذي يسبّبه الناس لأنفسهم، فهم سيّئون قاتلوا المؤمنين لذلك قتلهم المؤمنون، هم حكومتهم سيّئة ولذلك نتج عنها جوع في مرحلة قحط...

(بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ {46})
إن كانوا هنا في الدنيا لديهم تصوّر ضبابي عن انتصارهم على أي شيء يفعله تعالى بهم، حيث تبيّن من النماذج عن الأقوام التي ضربها تعالى بالعذاب أنهم لم يستطيعوا فعل أي شيء، وعلى كلّ حال هذا العذاب لا شيء أمام عذاب الآخرة...

{بَلِ السَّاعَةُ}، الزمن الذي فيه حدث فرعي مرتبط بأحداث أخرى، هي، {مَوْعِدُهُمْ}، وقت حصول شيء قال تعالى لهم إنّه سيفعله، ومن الواضح أنها ساعة قيامهم من الموت في بداية يوم القيامة الذي قال تعالى لهم عنه إنّه حتماً قادمٌ وفيه تعذيب لهم.

{وَالسَّاعَةُ أَدْهَى}، لو وقع العذاب الدنيوي لكان داهية عليهم، لكان شيئاً محكماً يصيبهم ولا يمكنهم التفلّت منه، كما نقول: دهاني. ونقصد أصابني ولا فكاك لي منه. ساعة قيامهم من الموت أدهى إذ من بعدها عقاب شديد حتماً لا يمكنهم أبداً إيجاد حلّ له، {وَالسَّاعَةُ}، {أَمَرُّ}، هناك شعورهم بالألم أمرّ، حيث إنّه أشد مرارة من عقاب الدنيا لأن جسدهم سيتغير ليصير شعوره بالألم أقوى والألم مستمر لا انقطاع له... وهذه هي تطبيق المرارة التي تشير لشيء جسدي ونفسي سيّئٍ تكره حصوله ولا تستطيع دفعه، وما في الآخرة أشد من عذاب الدنيا.

(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ {47})
{إِنَّ الْمُجْرِمِينَ}، إن المرتكبين للجرائم، إن الفاعلين للأمور التي يستحقون العقاب عليها، وهي الكفر بالحقّ وعموم السيئات، {فِي ضَلَالٍ}، ليسوا على الشيء الصحيح، وهم في، {سُعُرٍ}، في حالة المهتاج لأقصى درجة، وتعلم أنهم كذلك جسدياً من شدة الألم ونفسياً من شدّة الإهانة.

الآية 24 من هذه السورة نقلت عن قوم النبي صالح(ع) أنهم إذا اتبعوه وتركوا دين الكفر والشرك فهم في "ضلال وسعر"، وبما أن قولهم هذا يقوله أغلب الكفَّار، ردَّ سبحانه عليهم بأنهم فعلاً وبسبب إجرامهم، سيعيشون في جهنم، في بيئة هي نتيجة أعمالهم وأقوالهم، ومن شدة العذاب والألم سيصرخون ويركضون ويولولون كالمسعورين، وسيفقدون أي شيء ينفعهم بعكس المؤمنين الذين كانوا على الهدى وفي الآخرة يهديهم تعالى إلى المغفرة ومضاعفة الثواب والدخول إلى الجنّة.

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواءٌ أكان خيراً أم شرّاً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فقد ضلّ عنك صيدها. استعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، فلم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء. استعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضالٌّ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردّاً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ {48})
...في ضلال وسعر... {يَوْمَ}، في الزمن الذي، {يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ}، في الزمن الذي يتم سحبهم وشدّهم وجرّهم على الأرض مكبّلين بالأصفاد ووجوههم ملتصقة بالأرض كنوع من الاحتقار لهم على جرائمهم وكفرهم به

تعالى... {ذُوقُوا}، تحسسوا واشعروا، {مَسَّ}، ملامسة، {سَقَرَ}، وهو وصف لمكان في جهنم يسبب الإحراق عن بعد بسبب حرارته المرتفعة جدّاً، ورد ذكر كلمة "سقر" في القرآن فقط هنا في هذه السورة وفي سورة المدثر من الآية 26 وما بعدها {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ}، وهناك شرحت السورة بالتفصيل صفات الناس الذين يستحقون الدخول إلى سقر.

فقد كنتم تسمعون عن عذاب الآخرة وتكذّبونه، أمّا هناك فلن يعد العذاب خبراً، بل ستذوقونه فتشعرون به وستلمسونه.

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ {49})
{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ}، ركّبناه وألّفناه، {بِقَدَرٍ}، فله مقدار محسوب من كلّ الجهات، فلا أحد يسير خارجه، فكلّ شيء ركّبه وألّفه سبحانه على تصميم وتخطيط ولم يكن أي شيء متروكاً للصدفة أو لتداعي الأحداث، أو من دون أن يعلم تعالى ماذا سيحصل معه وبه... وهذا يشمل كلّ شيء، فكل ما في الدنيا من كائنات وظواهر وعلاقات بينها... مخلوق بقدر.

فكّر فيها لو أنت نتج عنك شيء ما، بناء أو آلة أو مشروع... فلن ينتج عنك شيء له قيمة من دون تصميم وتخطيط، وأنت تقدّر ماذا سيحصل مع ما أنتجته بعد ذلك، فالمبنى سيسكنه الناس، وأنت تعلم أن موادّه تتحمّل مئة سنة من الظروف البيئية، وبعدها سيسقط... أحياناً أنت تقوم بأمور لا تقدّر لها لأنك لا تراها مهمّة جدّاً، أو هي مهمّة ولكنك لم تنتبه، أو قدراتك الضعيفة تمنعك من تقدير ما سيحصل...

الله سبحانه وتعالى، بقدراته الفائقة، خلق كلّ شيء بقدر، فأي تفصيل كبير أو صغير، مهمّ أو غير مهمّ، له قيمة أو عادي... فهو محسوب عنده تعالى، ولن يحصل أي شيء يفاجئه تعالى، ولن يحصل أي شيء لا يعلم سبحانه بحصوله.

هنا هذه الجملة رغم عموميتها لكل ما خلقه تعالى ولكنها تشير بالخصوص إلى مسألة الكفّار "والمؤمنين"، فهي تجيب عن السؤال التالي: لماذا سيعاقبني تعالى إذا كفرت به؟ ولماذا سيعيد إحيائي ويرميني في جهنّم؟ ولماذا لا يتركني أعيش كما أريد وبعد ذلك لِأَمُت وأفنى؟ أو إذا أحياني من جديد لِيُدْخِلْنِي إلى الجنّة حتى لو كنت كافراً فما الفرق بالنسبة له تعالى إذا دخلت إلى الجنّة أو النار؟...

لا، لن يحصل هذا على مزاجي أو مزاجك، فهذا الكلام مشابه لقولك: لماذا لا تعرض الثلاجة مباراة كرة القدم؟ ولماذا شجرة الموز لا تنتج مثلّجاتٍ؟ لقد قدّر صانع الثلاجة أن تثلّج الأشياء لا أن تعمل عمل التلفاز، وهكذا أنت كمخلوق، قدّر الإله سبحانه لك أن تعيش هنا وتمر في الدنيا لتصل إلى الآخرة وتنال جزاءك، ولن يحصل أي شيء آخر، ولن يتغيّر أي شيء إن لم يعجبك ما قدّره تعالى للمخلوقات.

بعبارة أبسط: لن يتغيّر أي شيء إن لم يعجبك المخطّط الإلهي لك، إن لم يعجبك ما قدّره تعالى، وتناولت سور أخرى تفاصيل الإجابة عن كل أنواع التساؤلات، وهنا السورة أشارت لحتمية العقاب الإلهي في الآخرة لمن كفر، واحتمال حصول عقاب جماعي في الدنيا إذا وصل كفر جماعة ما للدرجة القصوى من السوء، وهذا تقديره تعالى لنا ولن يتغير، وهذا خصوص ما تقصده الآية هنا.

بقي شيء، فهل الآية تعني أنني أسير في حياتي غصباً عنّي على القدر الذي رسمه تعالى لي؟ وهذا السؤال ينبع بالخصوص من الأبحاث التي نجدها في الكتب عن القضاء والقدر، فهل أكون مؤمناً لأنه تعالى قدّر لي أن أكون مؤمناً؟ وبالتالي لماذا قدّر لذاك ألا يكون مؤمناً وسيعاقبه؟ هذا الكلام وأشباهه ينبع أساسه من قراءة الكتاب الإلهي لا للتعلّم منه، بل نابع من تلبيس القرآن بقناعات من يقرؤه، هذا أوّلاً، وثانياً صرّح القرآن مراراً وتكراراً أنه تعالى منحنا حريّة الإرادة والفكر والفعل فيما يخص حياتنا في المرحلة التي يمتحننا بها هنا في الدنيا، وبقدراته الفائقة سبحانه وتعالى يعلم مسبقاً ماذا سيحصل معي، وهذا ما كرّره القرآن كثيراً وبشكل واضح، فأنا أقرّر أن أكون مؤمناً لأنه تعالى خلقني مع هذه القدرة، وسبحانه يعلم سلفاً بكل معتقداتي وتصرفاتي...

وأمّا ما يخرج عن إرادتنا ونحن محكومون له، فهو توقيت خروجنا إلى الحياة وأين ومع من... وكيفية موتنا ومتى... وكما ترى فهذه تفاصيل لن تغيّر في مسألة إيماني أو كفري، فلا عذر لمن ولد بين الكفّار إن كفر، فها هي نماذج من

الأشخاص ولدوا في أشدّ بيئات الكفر واتبعوا سلامة قلبهم ووصلوا إلى أرقى المراتب حتى اختارهم تعالى ليكونوا أنبياء ورسلاً... خذ مثلاً الأنبياء إبراهيم(ع) وموسى(ع) ويوسف(ع)...

بعبارة مباشرة لا حظوظ في الإيمان، فالمولود في بيئة مؤمنة والمولود في بيئة كافرة، كلاهما لديهما بالأساس نفس القلب، ويمكنهما اختيار الكفر أو الإيمان. والنظرة الضبابية الشمولية لاعتبار كل المولودين في بيئة "الإيمان" هم "مؤمنون"، أصلاً هذه النظرة منطلقة من إسقاط العصبية لكل واحد منّا على قومه متعامياً عن عيوبهم ليراهم أفضل من الآخرين، بل عيوبهم هي عقيدته وشريعته وسلوكياته التي أصلاً لا يراها عيباً.

عليك بإعادة قراءة كلام القرآن عمّن سبقنا من أهل الكتاب، فسبحانه وبكل شفافية لم يُحابِ المنتمين لدينه ليستر على سيئاتهم، وسبحانه لم يذكرهم لنا لنتسلّى بعيوبهم، بل لترى أن انتماءهم بالاسم لدينه تعالى لم ينفعهم بأي شيء، حيث إنّ الإيمان والعمل الصالح فقط ينفعان.

انتبه جيّداً، فإن ظننت أن كلام القرآن عن عيوبهم بعيد عنك وعن قومك ومذهبك، فأنت لا تختلف عن أهل الكتاب الذين ذكر لهم القرآن عيوبهم ولم يكترثوا، فمن قبل جاءهم أنبياء ذكروا لهم عيوبهم ولم يهتمّوا! وإن لم تفهم أن الكلام عن عيوب أهل الكتاب موجّه لهم ولك أيضاً، فأنت لم تفهم بل لا تريد أن تفهم كلامه تعالى.

أعد قراءة كلام القرآن عن عيوب المنتمين لدينه تعالى، وانظر وأخبرنا عن الفرق بينهم وبين الأقوام التي تعتقد أنها كافرة، فهل ترى فرقاً؟ والآن أعد النظر في مجتمعك، وأخبرني عن الفرق بينه وبين عيوب أهل الكتاب التي ذكرها القرآن، فهل ترى فرقاً؟

نرجع إلى مسألة التقدير، فهناك تدخّل إلهي أعمق في تفاصيل حياتنا، ولها تفاسير مختلفة كلّها متوافقة ولكنها من وجهات نظر مختلفة، حيث خلقنا تعالى وفينا قابليات، فمن قرّر الكفر سينطبع قلبه على الكفر ولن يرى الهدى بل سيكرهه... ومن قرّر الإيمان فدائماً سيفكّر في الحلال والحرام والممنوع والمسموح... وهذا بتعابير القرآن نور إلهي في قلب المؤمن وبصيرة... لأنّ نفس النقطة التي فيها قراري ومشيئتي أنا أن أؤمن، وفيها أنه تعالى خلقني مع هذه القابلية فهذا تدخّل منه تعالى.

أمّا مجريات أحداث الحياة فهل يتدخّل سبحانه فيها؟ نعم، وأحياناً نرى ذلك بوضوح كالكوارث التي ضربت الكافرين، وأحياناً نرى ذلك كخليط بين تدخّله تعالى وبين ما نفعله نحن، كنصر المؤمنين الذي تحقّق لأن المؤمنين استعدّوا ولم يفشلوا... وأحياناً أنت ترى التدخّل الإلهي في شيء ما وأنا لا أراه، أو أنا أراه ولا تراه أنت في أمور من تفاصيل الحياة، فذا كان غنيّاً جبّاراً وافتقر، وبالتحليل تقول إنّه لتجبّره ضربه تعالى... وذاك مؤمن فقير أموره متعثرة، وبالتحليل تقول إنّه تعالى يعلم أنه سيفسد بالزهو والفخار والإسراف إن أغناه ولذلك أفقره...

يمكن من هذه التحليلات رؤية تدخّله تعالى في الكبيرة والصغيرة من حياتنا، ولكنها مسألة إلهية من شؤونه تعالى، وآليات حصولها من الصعب جداً أن نرى فيها التدخّل الإلهي المباشر، فنرى الظروف وتسلسل الأحداث بشكل عادي أوصل الأمور إلى ما هي عليه... وأبرز مثال عن ذلك سورة يوسف التي نقلت قصّة النبي يوسف(ع) التي ترى فيها جريان الأمور بشكل عادي، وترى أنه تعالى من الأساس لديه قرار بوصول يوسف(ع) إلى مصر ليكون رسولاً للمصريين، وتفهم ذلك من عدة آيات منها الآية 21 من سورة يوسف {وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.

ننتبه جيّداً، فمن الخطورة الدخول في هكذا نوع من التحليلات لمجريات أحداث حياة الناس، فنقول إنّ هذا تكبّر فأصابه تعالى بما دمّر تكبّره، وذاك سخر من الناس فأصابه تعالى بما يجعله سخرية... الخطورة تكمن في التسلية بالناس ونسيان أنفسنا، فلكل واحد منّا تاريخ حياة مليئة بالأحداث، فليحلّلها وليكتشف الخلل الإيماني فيها، وما همّه لو كفر كلّ الناس ولم يتّعظوا، فليكن همي الأول إتمام إيماني، فأنا لن أتحاسب عن الآخرين، بل سأتحاسب على غيبتي لهم عبر كلامي عنهم أمام الآخرين لتحليل ما أصابهم وفيه إهانة واستصغار أو احتقار لهم...

(وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ {50})
{وَمَا}، وليس، {أَمْرُنَا}، الأمر الشيء الذي يريده تعالى، {إِلَّا}، فقط، {وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}، كسرعة وعيك لرؤيتك لشيء وقع عليه نظرك، كسرعة اللمحة، ففي حالتك العادية تعي وتفهم الصورة التي تراها أسرع من الوقت الذي يستغرقه عادة تفكيرك بشيء ما، وكذلك صدور الأمر الإلهي بما يريده تعالى أن يحصل، فتقدير الأمور كلّها من الدنيا للآخرة، تشبيهياً تقريبياً يقارب سرعة وصول صورة الشيء إلى بصرك، يعني بأسرع سرعة يمكنك التعامل معها، كسرعة اللمحة.

الوصف عمومي ولكن سياق الكلام هنا عن حصول استعادتنا في الآخرة لوعينا وجسدنا، حيث في أقل من جزء من الثانية يستغرق إصدار الأمر الإلهي متضمّناً التخطيط والتصميم وآلية التنفيذ.

ما يأمر به تعالى يحصل حتماً كما تقرأ في الآية 117 من سورة البقرة {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ}، وهذا لا يعني أنه دائماً يحصل فوراً، بل يحصل حتماً، حيث خلق تعالى السماوات والأرض في ستة أيام، وبعض الأمور تحصل "فوراً" وبعضها يستغرق وقتاً، ولكنه حتماً سيحصل.

في موضوع عودتنا إلى الحياة في الآخرة لم أجد كلاماً صريحاً عن فورية حصوله، ربما فوراً نستعيد وعينا وبعده بفترة نستعيد جسدنا، وربما كلاهما فوراً يعودان، وربما كلاهما يستغرقان وقتاً غير طويل ليعودا، وهذا ما تفهمه من تعبير الآية 44 من سورة ق {يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ}. على أي حال لا تأثير لهذه المعلومة على فهمنا للقرآن.

ننتبه جيّداً، هناك خلط واشتباه منتشر في فهم الآيات التي تشابه آيتنا هنا، حيث خلطوها مع الآيات التي تقول بأنه تعالى يقول للشيء كن فيكون، والبعض فهموا منها إشارتها لسرعة حصول الأمر الذي يريده تعالى، فيُنفَّذُ فوراً، واصطدموا بالواقع الذي حولهم، والواقع متوافق مع عموم ما يقوله القرآن عن زمن يستغرقه حصول الكثير من الأمور، حيث إنّ خلق السماوات والأرض حصل في ستّة أيام، ومسيرة حياة البشرية من الواضح أنها تمشي مع الزمن... وبرّروا لها بمختلف الطرق حتى تبقى أموراً أمر بها تعالى وحصلت بسرعة بالنسبة له تعالى، لأن الزمن لا يعني أي شيء له تعالى، فلا يجري عليه سبحانه، وفي نفس الوقت ومن جهة ثانية استغرقت زمناً لتحصل من جهتنا نحن... وهذا الكلام يتماشى مع عموم مفاهيم القرآن ولكن لا علاقة له بما تقوله الآيات.

من ناحية ثانية، ما يقوله تعالى يكون حتماً، ويحصل حتماً، وليس بالضرورة أن يحصل فوراً، ومن الواضح جدّاً أن الأمور تستغرق وقتاً لتحصل، حيث أراد تعالى لك أن يخلقك وتعيش ويمتحنك وتموت ويعيد إحياءك ويجازيك وتدخل الجنة خالداً فيها... فهل هذا كان بقوله تعالى كن فوراً، وبلمح البصر كنت! كما ترى لا معنى لهذا الكلام، وأصلاً لم يقله القرآن، بل قال عكسه، وأشار القرآن فقط لحصول الأمور الإلهية حتماً، كن فيكون، وبالتأكيد ستحصل إذا أمر تعالى بحصولها، وفي وقتها المناسب وبالوقت الذي يناسبها لتحصل.

بقي شيء، ما قالوه من تفاسير للكلام القرآني عن لمح البصر وكن فيكون، فيها أمور لم يذكرها القرآن، حيث اخترعوا عالماً تصدر فيه الأوامر الإلهية وتتحقّق فوراً، وفي مقابله عالمنا الذي تستغرق فيه الأمور وقتاً لتحصل، وهكذا يصير للكلام القرآني معنى باطني غير مفهوم من ظاهر الكلام، على أساس إصرارهم على تفسير "لمح البصر وكن فيكون" أنها تشير لفورية "حصول" الأوامر الإلهية، وأنت ترى أن تفسيرها بالذي ذكرناه أسهل وأبسط ومناسب ومتماشي مع بقية ما يقوله القرآن، ولا حاجة لاختراع عوالم افتراضية لم يذكرها تعالى، كعالم الأمر وعالم المثال وعالم الملك وعالم المجردات... حيث يتحدّثون عنها وكأننا نتعامل مع أمور نحتك بها ونراها، بينما هي مجرد تخمينات لم يذكرها القرآن.

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ {51})
{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا}، استنفدنا حياة، أمتنا، {أَشْيَاعَكُمْ}، الناس الذين كانوا مشايعين لكم فهم مثلكم على خطّ الكفر، {فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ}، هل من متذكِّر يستحضر هذا الكلام الإلهي في فكره وعمله؟ والكلام هنا عن استحضار ما جرى مع الكفّار السابقين لنتّعظ.

أنتم لستم أفضل ممن سبقكم من الكفار ولا بأي وجه، حيث إنّ اشتراككم معهم في الكفر بهذا الدين يجعلكم مثلهم، وهم أهلكهم تعالى وأنتم واقعون مثلهم تحت خطر عقابه سبحانه، وليس لكم براءة في الزبر... وسبحانه أمر أن يكون مصيركم في النار، وها هو يخبركم أن كلّ شيء خلقه تعالى بقدر ولن يرجع سبحانه في أي قرار اتّخذه، ومن سبقكم من الكفّار من الدرجة العالية بالكفر أهلكهم سبحانه، فهل من أحد منكم سيستحضر هذا الكلام في فكره وعمله؟ ويتوقّف عن الكفر ويؤمن؟

(وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ {52})
{وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ}، الحديث هنا موجّه للكفّار بالخصوص، فكل ما قاموا به، {فِي الزُّبُرِ}، موثّق بالكتابة بالتسجيل، فالأقوال والجمل والأفعال وأي شيء... عندما يصير مكتوباً ومثبتاً يصير اسمه زبراً.

تعلم من عموم القرآن أنه يوجد ملائكة(ع) تقوم بتوثيق أعمالنا كلّها من سيئة وحسنة وتكتبها في كتاب خاص لكل شخص وهذا الكتاب قسم من كتاب أكبر منه يحوي بقية كتب أعمال كلّ البشر، وترى ذلك في الآيتين 17 و 18 من سورة ق {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}، مضموماً إليه الآية 49 من سورة الكهف {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا}...

من ناحية ثانية، بعلمه الفائق سبحانه سجّل كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة كما تقرأ في عدة آيات منها الآية 59 من سورة الأنعام {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}، فعلى الناحيتين كل شيء فعلوه فهو مسجّل سلفاً، ومسجل مرة ثانية عندما يفعلونه.

(وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ {53})
{وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ}، كل فعل قام به أي إنسان سواء كان الفعل صغيراً مثل الابتسام في وجه الناس والسلام عليهم أو الغمز في عيوب الناس... والإسراف ولو بمبلغ مالي صغير... وكلّ كبير مثل الموت في سبيله تعالى والصدقة ممّا تحبّ وقيام الليل... أو قتل نفس بريئة أو الزنا... وغير ذلك فهو:

{مُّسْتَطَرٌ}، مكتوب على سطر أو أسطر، وهو مكتوب لوحده. والمقصود أن لديه سبحانه القدرة على تسجيل كل فعل سواء أكان كبيراً أو صغيراً، وأن يجعل لكل فعل مهما كان صغيراً تسجيلاً خاصّاً وليس اختصاراً.

أنا وأنت نملّ من المراقبة فنهمل الأمور الصغيرة ونركّز على الكبيرة، وليس لدينا القدرة على مراجعة تسجيلات مراقبة لكل ثانية لكلّ شيء، فهذا يستغرق وقتاً وتركيزاً فوق قدرتنا، فنعتمد على الملخصات، أمّا سبحانه فيسجّل كل شيء، صغيراً أو كبيراً، ويجعل لكل عمل سطراً أو أسطرا منفردة.

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ {54})
أخيراً وكما هي العادة في القرآن الكريم، بعد الانتهاء من تأنيب وتهديد الكافرين بالعذاب، يأتي سبحانه على ذِكر المؤمنين:

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ}، إن الذين يتجنبون ويتحاشون، والكلام عن الذين يتجنّبون عموم فعل السوء، وهو نفسه تجنّب غضب وعقاب ربّهم سبحانه، فهؤلاء، {فِي جَنَّاتٍ}، في أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين وما يسبّب لهم السعادة... وفي، {نَهَرٍ}، هناك الأنواع المختلفة من الأنهار التي تجري في تلك الجنات.

كلمة {نَهَرٍ} "بالفتحة على النون والهاء" هي اسم جنس، فنقول: نَهْر والجمع أنهار، وبما أن الآية تريد الحديث بالعموم فكما قالت جنّات ولم تذكر خصائص الجنّات وما فيها، جاءت كلمة {نَهَرٍ} لتعطينا معنى كل الأنهار التي قد تكون من ماء أو من عسل "أو عصير فواكه" أو لبن أو خمر... كما تقرأ في الآية 15 من سورة محمد {مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ

الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى}...

طبعاً ليس لكل الكلمات العربية هذه الميزة، حيث إنّ بعض الكلمات لها جمع من مفردها، وبعضها لها اسم جنس مستعمل...، وبعضها جمعه سالم وآخر تكسير... وكلمة نهر جمعها أنهار، ويناسب من لفظها اشتقاق كلمة نستعملها لتشير لاسم الجنس أي تشير للنوع، فأي نهر مهما كان نوعه فهو ضمن المقصود.

(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ {55})
في مقابل ما يعيشه الكفّار في النار في سقر في ضلال وسعر، فالمتقون:

{فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ}، في مكان قعود في مكان ليبقوا فيه ويوصف بأنه مكان صدق لأنهم صدّقوا الكلام الإلهي، فبالنظر لعموم الناس، هناك المكذبون وهناك المصدّقون بهذا الدين، والمكذبون في سقر، والمصدقون في جنات ونهر، وتوصيف مكانهم الدائم "مقعدهم" بأنه مقعد صدق فهو مكان قعود "استقرار" الصادقين الذين صدّقوا بدينه تعالى.

{عِندَ مَلِيكٍ}، ملك يملك كل شيء، عنده سبحانه الذي يمكنه منحهم أي شيء لأنه تعالى يملك كلّ شيء وهو، {مُّقْتَدِرٍ}، لديه القدرة فلديه الاستطاعة على فعل أي شيء يريده.

فصّل القرآن ما يمكننا فهمه عمّا يحصل عليه المتقون في تلك الجنّات، وذلك بكلامه عن الطعام والشراب والمتعة الجسدية والحفلات... مصوّراً لها بألفاظ يمكننا فهمها من عالمنا الحالي، وأضاف علناً وبصراحة أنّ فيها ما لا يمكننا تصوّره الآن، وأشار للتجدّد لما فيها باستمرار كما تفهم من الآية 35 من سورة ق {لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}... وهنا اختصرت الآية كلّ ذلك بربط ما سيحصل عليه المتقون بملكه الواسع سبحانه وبقدرته الفائقة، فيمكنه تعالى أن يعطيهم ما يشاؤون وما لا يتصوّرون ولا يخطر ببالهم بسبب ملكه العظيم وقدرته الفائقة.

وهذا خبر لنا جميعاً حتى تحفّزنا السورة على التقى، وتحفّز الكافر على ترك الكفر واستبدال سقر بالجنّات.

سورة الرحمن (55) ص 531
بيان لآلاء ربنا سبحانه "في الدنيا والآخرة" ومجابهة تحدّي مع الذي يكذّب بآلاء الإلهية سواء أكان من الجنّ أو الإنس، والبداية مع وصف الرحمن وآخر آية من السورة تصفه تعالى بتبارك وأنه ذو الجلال والإكرام، فما بينها من كلام يكون انعكاساً لهذه الصفات بين الرحمة من جهة وبين تبارك ذي الجلال والإكرام.

افتتاحية السورة بالرحمة التي سببت التعليم لنا حتى صار بإمكاننا فهم آلائه تعالى، بعدها إلى النهاية تعداد متنوّع لآلائه تعالى.

الآلاء هي الأعمال المميزة التي تعبّر عن قدرة أو صفة مميزة لفاعلها، سواء كانت للخير أو للشرّ، فإذا إنسان ما كان لديه أخلاق عالية جدّاً، أو كرم مفرط، أو حسن ضيافة ممتازة... فنشير لتلك الصفات بأنها آلاء "حميدة"، ومن الجهة الثانية إن كان إنسان ما شديد البأس في الحرب، بطّاشاً بالحقّ... نشير أيضاً لتلك الصفات بالآلاء "الحميدة"، ومن الجهة الثالثة إن كان إنسان ما بطّاشاً شريراً أو نصّاباً محترفاً... عادةً نحن لا نشير لتلك الصفات بأنها آلاء إلا للسخرية وقصد قلب الكلام بالعكس.

الله سبحانه وتعالى في السورة هنا ركّز على آلائه من كلّ الأنواع، بالإشارة لما صدر عنه تعالى من مختلف أنواع الآلاء، الأعمال العظيمة، وستلاحظ أن العقاب يوصف في السورة بالآلاء، لأنه تعالى كلّ أعماله حميدة، فمعاقبة المجرم بما يستحقّ هو عمل جيّدٌ.

تلاحظ السورة تكرّر السؤال عن الآلاء، فالمقصود منه لفت انتباهك إلى أن الآلاء الإلهية كثيرة جدّاً، وأن التكذيب ولو لتفصيل واحد منها فهو مشكلة تكذيب للإله سبحانه، فالهدف من تركيز السورة على آلائه تعالى، لتشير لوجوده الحتمي كإله وراءها، وكإله بصفاته العظيمة الفائقة، ومن ذلك تنطلق لبعض المفردات التي يكذّب بها جماعات من الإنس

والجنّ، وترى ذلك صريحاً واضحاً في نموذج كلام السورة عن سعادة الجنة، فالمكذبون للدين الإلهي يسخرون مما وعد به تعالى المؤمنين في الجنّة، فتأتي سورتنا هنا لتعرضه بفجاجة التصريح، فإن كنتم تكفرون بدينه تعالى وتكذّبون شيئاً وصلكم من كلامه تعالى بالتلميح، فها التصريح... طبعاً ضربت لك الكلام عن سعادة الجنّة كنموذج، وأنت سترى أن كل السورة من أولها لآخرها عرضت نماذج متنوعة، بعضها كإشارات للعقلاء من المكذبين فهؤلاء من المحتمل أن يفكّروا ويؤمنوا، وبعضها تشعر فيه بالتحدّي مع مكذبين ساخرين...

بشكل مميّز ورد في هذه السورة كلمات لم ترد في بقية السور: أنام، نفذ، طمث، شواظ، فخار، أفنان، فانٍ، ثقلان، ياقوت، رفرف، عبقري، جلال، نضخ...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(الرَّحْمَنُ{1})
الرحمن، هذه صفة عموم العناية التي ينتج عنها تأمين ما تحتاجه مخلوقاته سبحانه وتعالى، ونحن نستعمل وصف بعضنا البعض بهذه الكلمة فنقول لشخص آخر: ارحمني. وأقصد أن يكفّ شرّه عنّي، وهذا من اشتقاقات تطبيقات معنى كلمة الرحمة، أو نقصد أن يساعدنا، وهذا المعنى الكامل للرحمة على المقياس الإنساني.

من القرآن نفهم وجود نوعين من الرحمة، الرحمة العامة الشاملة لكل الكائنات حيث عبّر عنها القرآن بكلمة "الرحمن"، والرحمة الخاصة الضيّقة الخاصّة بالمؤمنين حيث عبّر عنها القرآن بكلمة "رحيم"، وهي بالأصل متاحة للجميع ولكن الذي بكفره خرج من تحت مظلّة الرحمة فهو غادر تاركاً الآخرين الباقين تحت رحمته تعالى، فصار للمؤمنين رحمة خاصّة بهم، فيهديهم سبحانه ويبعدهم عن السيئات ويدافع عنهم... ويغفر لهم ويضاعف حسناتهم... فكلّ هذه الأمور وغيرها الكثير يحصل عليها المؤمنون فقط وفقط، وأمّا بقية الناس فلا تحصل عليها، وهذه الأمور هي الترجمة العملية للرحمة الخاصة "الرحيم".

افتتحت السورة كلامها بهذه الصفة له تعالى لأن ما سيرد فيها غالبيته تذكير بآلائه الحميدة تعالى، فمن رحمته تعالى خلقنا وكلّفنا وهدانا... وسيجازينا...

نتذكّر أنه سبحانه وتعالى دائماً رحمنٌ لكل مخلوقاته ومهما حصل ولكن بدرجات متفاوتة، إلّا حين يدخل الإنسان إلى النار، فهناك تتوقّف عنه الرحمة نهائيّاً، وهذا ما نفهمه من القرآن، حتى لو غضب سبحانه هنا في الدنيا على إنسان ما، وطرده من الرحمة فلعنه، طرده من الرحمة الخاصة بالمؤمنين، وأجرى عليه المعاملة الخاصة بالملعونين، فيصير القلب الأسود للإنسان الكافر يرفض قبول أي فكرة بيضاء، ولكن الملعون يبقى حيّاً، ويأكل ويشرب ويلتذّ بحياته... فهذه آخر بقايا الرحمة التي أصرّ هو على الخروج منها... أمّا في الآخرة، وبحسب تعابير القرآن، فلا ولا أي نوع من الرحمة لأهل النار، فهم لا أحياء ولا أموات، وهم في الألم الدائم المستمر في كل لحظة.

إذاً سبحانه رحمنٌ ويعرض علينا البقاء تحت مظلّة رحمته، ومن قرّر الخروج منها والاتجاه نحو غضبه ولعنته تعالى، فهذا قرار من الإنسان بالخروج من رحمته سبحانه، فما يناله من عقاب في الآخرة ليس سببه أنه تعالى لم يرحمه وبالتالي سبحانه ليس رحمناً، لا، بل يبقى سبحانه موصوفاً بالرحمة ولكنها لم تطبّق على الكافر لأنه هو قرّر الخروج منها.

بقي شيء، الأولاد المعاقون وأصحاب العاهات، والأمراض المؤلمة أو المسببة للإعاقة والعاهات، والحوادث المؤلمة أو المسببة للعاهات، هل تتعارض مع رحمته تعالى؟ ونضرب هذا السؤال كمثال عن عموم ما نكره حصوله، والجواب نجده في القرآن حين قال ما معناه: المجتمع المؤمن الذي يستغفر ويعلن النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، لن يمرّ عليه أي نوع من السوء، لا أمراض لا عاهات لا كوارث طبيعية لا فقر لا حرب... ونقرأ هذا في الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، فهذه الرحمة الإلهية متاحة لجميع الناس، فهم بصلاحهم سينتج أمنهم ورخاءهم، ومضافاً لذلك سيتدخّل سبحانه مانعاً ما لا يمكنهم منعه من كوارث، ولسنا نرى من حولنا هذه العناية بشكلها الأقصى لأن المشكلة فينا، فنحن رفضناها، وما يحدث بعد ذلك معنا من سوء، ممّا كسبت أيدينا، فالرحمة ترتفع عنّا بمقدار ما نرتكب كأفراد

وكمجتمعات من سوء، وهكذا ترى العاهات والمآسي والكوارث... لها سبب يتعلّق بنا نحن، فنحن نخرج من رحمته تعالى، فلا تنصّب نفسك مدافعاً عنه تعالى وتبرّر لحصول السوء قائلاً بأن السوء لا يتعارض مع الرحمة الإلهية، لا، فالإله دائماً رحمنٌ، وما يحصل من سوء فهو بسبب قرارنا نحن بالخروج من رحمته لا بسبب أنه تعالى هو قرّر إخراجنا منها بقرار عشوائي أو عبثي.

معلوم لك أن نتائج السوء تكون منّي على نفسي، ومنّي على الآخرين، حيث أفعل سوءاً بالآخرين الصالحين وأنا أقصدهم بالسوء، فأسرقهم أو أقتلهم... أو أسبب الحروب أو أشارك فيها أو أبيع الأسلحة... أو أركّب دواء لسعال بسيط يسبّب تشوّهاً للأجنّة، أو معجوناً لتنظيف الأسنان بمواد كيماوية تسبّب تشوّه الأجنّة... أو لا أقصد الصالحين بالسوء ولكن ستصيبهم النتائج، كالاستهتار بالقيادة مسرعاً مسبّباً الحوادث، أو الاستهتار بالمقاولات والبنية التحتية حتى تصعق الكهرباء أحدهم أو ينزلق في حفرة على الطريق...

فما المطلوب منه تعالى في هكذا حالات؟! طالما نحن بحرية إرادة واختيار، فهذا ما سيحدث إن لم نعمل الصالحات...

أمّا تدخّله تعالى لنشر رحمته علينا، فإمّا بإيماننا وبالعمل الصالح منّا كلّنا كمجتمع، أو يكون التدخّل ضيّقاً ومحصوراً بمؤمن صالح... أو استجابة لدعوة مؤمن صالح، ولكن ليس بحسب ما تراه أنت وتقيّمه، لا، بل بحسب ما يراه تعالى مناسباً، فبعض المؤمنين يكون الفقر خيراً لهم من الغنى، فلو اغتنوا لزهوا وتفاخروا وتكبّروا وأسرفوا وبذّروا... وكانت نهايتهم إلى النار خالدين فيها، وترى ذلك في الآية 27 من سورة الشورى {وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ}، فالفقر لسنين معدودات هنا في الدنيا مقابل خلود في جنّة الآخرة هو حتماً رحمة إلهية لهم.

ما سبق من كلام هو خلاصة توضيح ما قيل عن رحمته تعالى، فضعه في بالك لأنه في عموم الكتب الكثير من الكلام المشوّش عن رحمته تعالى، والملخص الذي تقرؤه هنا فيه الردّ على الكثير من المغالطات.

(عَلَّمَ الْقُرْآنَ{2})
من صفته تعالى الرحمن أنّه علّم القرآن للمكلفين باتّباع ما فيه، وهم الإنس والجنّ. كلمة قرآن تعني عموم أي شيء قابل للقراءة، وصارت فيما بعد اسماً مخصّصاً للوحي الإلهي النازل على النبي محمّد(ع)، ففي الكتاب الرئيسي الذي في السماء العالية لم تكن المعلومات قابلة لأن نقرأها نحن البشر، وقسم منها جرى تحويله للغة العربية فصار قابلاً للقراءة أي صار قرآناً، فلا يذهب فكرنا بأن كل الكتاب الذي بين أيدينا اسمه قرآن فقط، لا، فالآية الواحدة اسمها قرآن، والسورة اسمها قرآن، ومجموع السور أيضاً قرآن. نرى أنه تعالى من رحمته علّم القرآن، وقد وصف القرآن نفسه أنه هدى ورحمة وضياء وذكرى... للمؤمنين، فهو إنذار وبلاغ هنا في الدنيا للجميع للانتباه من العقاب بالنار، وليعملوا للحصول على الثواب بالجنّة، ولكن بسبب انحصار الاستفادة الحقيقية بالمؤمنين الذين اتّبعوا ما فيه، فإنّ الرحمة التي على أساسها نزل القرآن تكون موجّهة للجميع، فرفضها البعض فخرجوا من رحمته تعالى، وقبلها آخرون فكان القرآن لهم رحمة.

(خَلَقَ الْإِنسَانَ{3})
{خَلَقَ الْإِنسَانَ}، ركّب وألّف نوعنا الإنساني، وسترى فيما سيأتي من كلام عمّا تضمّنته خلقة الإنسان، فمن استعمال الآية لكلمة إنسان سيأتي على بالك الصفات الخاصّة بنا من وعي وفكر وخيال وإرادة... وجسد يؤمّن مدخلات حسيّة... وستريك السورة أن خالقك قد صمّمك بهذه الصفات والقدرات لتمرّ في الدنيا ببلاء "بامتحان" وعلى أساس نجاحك أو فشلك فيه سيتقرّر مصيرك في الآخرة.

ضع في بالك دائماً أن القرآن يستعمل كلمة خلق ويقصد بها وجود أساس شيء كمادّة "من أي نوع كانت، من مواد عالمنا أو من مواد عالم الجنّ أو الملائكة(ع)..." وتركّب وتألّف منها كائن، فالملائكة(ع) مخلوقة من شيء ما، تركّب وتألّف ذلك الشيء حتى صار للملائكة(ع) كيان، والجنّ مخلوقون من نار، ونحن من طين، وهو خليط الماء والتراب، وهي المادة المنتشرة على الأرض كالكربون والكالسيوم والحديد والأكسجين...

أيضاً ضع في بالك دائماً أن القرآن يستعمل كلمة إنسان كمفرد يشير للجنس، والجمع ناس، والنسبة إنسي أناس إنس. خذ مثلاً عندما تفقّد النبي سليمان(ع) الطير، فالطير "والطائر" مفرد يشير للجنس، والجمع طيور، فلم يتفقّد النبي سليمان(ع) كلّ الطيور في الدنيا، بل الطيور التي ترافقه عادة. وعندما لا يقصد القرآن كلّ الناس بدون استثناء، وعندما يشير لشيء متعلّق بصفة من متعلقات الإنسانية، من متعلقات الطبع والخلقة الإنسانية... أو عندما يشير لشيء غالب الانتشار فينا، فعندها يستعمل كلمة إنسان، التي بعبارة أبسط تشير للغالب الأعم من الناس وليس كلّهم.

بعض الاستعمالات تفهمها على هذا المعنى بسهولة حين تنسب صفة سيئة للإنسان: كفور عجول يؤوس... فالغالب الأعمّ هكذا وليس الكلّ، فالأنبياء والرسل ليسوا كذلك، وهنا في الآية نستصعب فهم كلمة إنسان على معنى الغالبية، لأننا نعلم أنه تعالى لم يخلق الغالبية بل خلق كل إنسان، وهذا صحيح ولكن تكملة الآيات هو الذي سبّب استعمال كلمة تدلّ على الغالب الأعم، فليس كل إنسان قد تعلّم البيان، بل الغالب الأعم، فهناك أناس قدراتهم العقلية منخفضة، وهناك من خفّض بإرادته قدراته حين استسخف نفسه بالشرك والكفر وفعل السوء...

(عَلَّمَهُ الْبَيَانَ{4})

{عَلَّمَهُ}، علّم الرحمن الإنسان، {الْبَيَانَ}، الشيء الواضح، التعبير عن الشيء الواضح وفهم الشيء الواضح، وبالتحديد هو الكلام الواضح الذي يفهمه العموم، وفهم الكلام الواضح الذي يقوله الآخرون.

لو لم يكن لدى الإنسان القدرة على البيان بكلامه هو أو بكلام الآخرين له، لما كان لديه القدرة على فهم آلائه تعالى التي ستذكرها السورة، ولذلك افتتحت السورة كلامها بالإشارة لنعمة علم البيان للغالب الأعمّ من الناس والتي حصلوا عليها من رحمته تعالى حتى يفهموا قرآنه وآلاءه تعالى، ويرافق ذلك كوننا مكلّفين بطاعته تعالى لأننا نفهم الأوامر، ويتبع ذلك الثواب على طاعته تعالى والعقاب على مخالفة كلامه، فتتحدّث عن آلائه تعالى كالجنّة وما فيها والنار... وهذا مجموع ما تتمحور حوله السورة.

بقي شيء، فقد تذاكى أحدهم معلّقاً على افتتاحية السورة بأن الترتيب خطأ، فكان من الأصح البداية مع الرحمن، خلق الإنسان، علمه البيان، علّم القرآن. وأنا لحد الآن لم أفهم إن كان يؤمن بأن القرآن من تأليفه تعالى أو من تأليف محمّد ابن عبد الله(ع)، وبحسب اطلاعي فهذا الأحمق لم يعلن عن هذا، وفي بعض كلامه يشير إلى تأليف الناس للقرآن من بعد النبي محمّد(ع).

على أي حال، هل تعليقه على ما يسمّى بالبلاغة الإلهية؟ طبعاً لن يقول هذا إن كان مؤمناً بالله تعالى بأسمائه الحسنى، ولست أدري إن كان يؤمن بهذا، فهو ورغم ارتدائه للباس يحاكي لباس النبي محمّد(ع) ومع عمامة سوداء تشير لكونه من نسل النبي(ع)، فأنا لم أفهم ما هو دينه؟!

أم هل تعليقه على محمّد ابن عبد الله حيث ألّف القرآن لوحده أو مع مساعدين أو أناس آخرين عبر التاريخ ألّفوا القرآن؟ فهذا الأحمق لم يخبرنا عن نوع إيمانه حتى نفهم على من يعلّق، وقد اكتفى بالتعليق لمجرد التعليق، وأنت تختار له الإيمان المناسب، وأوّل ما يخطر ببالي أنه هناك أناس يقدّرون الجمال فاخترعوا إلهاً للجمال، وآخرون عاشقون للخمر والحرب فاخترعوا إلهاً للحرب والخمرة... وهذا الأحمق عاشق للحماقة فيناسبه أن يكون مع جماعة عابدي صنم الحماقة.

طالما ورغم حماقته قد فهم ترتيب الجمل، فلو سردها القرآن له كما هو رتّبها، لقال بأن القرآن طفولي لا بلاغة فيه، فهو فاقد لفنّ تقديم وتأخير الجمل، وحين جاء كلام القرآن وعن قصد بطريقة تلفت الانتباه وتفعّل صوراً في الذهن، لم يعجبه ذلك!

هل كلام السورة من تأليف البشر حتى تعلّق على المستوى "البلاغي"، ومن هم؟ هل كانوا عربا أو عجما؟ فإن كانوا عربا فهل تتهمهم في عربيتهم لدرجة استسخاف عربية كلامهم؟

اعذرني من استعمال كلمة أحمق، فأنت لا ذنب لك لتسمع هكذا ألفاظ من المستوى المتدنّي، ولكن هذا أقصى ما استطعت من ضبط نفسي مع أمثال هذا الشيطان، الأحمق.

(الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ{5})
ننتقل للبيئة التي فيها الإنسان، فالشمس التي تعطينا الضوء والدفء وتساهم في حصول فصول السنة، ونستعين بها لمعرفة الاتجاهات وتحديد بداية السنة... والقمر الذي يمثّل "رزنامة" كبيرة يراها كلّ الناس لحساب الأيام والأشهر، ومشارك في المدّ والجزر... والذي يبدو من حساباتنا الحالية أن القمر ضروري جدّاً مثل الشمس لنشأة الحياة واستمرارها على الأرض...

كلاهما، {بِحُسْبَانٍ}، فسبحانه جعلهما هكذا، يمشيان على حساب إلهي، فأنت تراهما وتستفيد منهما بأمور تعرفها وأمور لا تعرفها، ولو فكّرت بإمكانية كونهما بحركة وخصائص عشوائية، بلا حسبان، عندها ستلتفت أن الذي خلقهما قد جعلهما بالحسبان الذي تراه وتتعامل به معهما. فتخيّل لو كنت لا تستطيع توقّع شروق الشمس وغروبها، أو لو كانت الشمس مرّة متأججة ومرة خافتة... ولو كان للقمر دورات غير منتظمة... لما تمكّنت من تحديد "رزنامة" أيام وأشهر وسنة، ولما كان لك ليل ونهار ولا مدّ ولا جزر منتظم، ولا رياح منتظمة...

لاحظ ارتباط ما ستذكره السورة بالإنسان الذي تعلّم البيان، ولذلك صار بإمكانه ملاحظة معنى خلق الشمس والقمر بحسبان.

(وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ{6})
{وَالنَّجْمُ}، وبحسب استعمال القرآن واستعمال العرب لكلمة نجم في أشعارهم قبل الإسلام، فهي أي جرم "شيء" له مكان في السماء، سواء أكان منيراً بذاته مشتعلاً كشمس أو غازياً ساخناً، أو كان صلباً يعكس ضوء غيره كالأرض والمشتري... أو ملاكاً له موقع في السماء... ولكن غالب استعمالها لخصوص النقاط البيضاء التي نراها في السماء في الليل.

{وَالشَّجَرُ} وهي عموم أي شيء يتفرّع منه أشياء، كشجرة العائلة والنسب، ولكن غالب استعمالها للإشارة للنبات الذي له جذع يتفرّع منه أغصان.

كلاهما النجم والشجر، {يَسْجُدَانِ}، يظهران أقصى مظاهر الاحترام والخضوع ويبديان أنهما تحت الطاعة الإلهية، حيث يعبّر سجودهما عن أنهما ينفذان ما أمرهما به ربنا سبحانه، وكما أنّ سجود الملائكة(ع) لا معنى له إذا تصورناه بوضع الملائكة(ع) لجبهتها على الأرض، لأنها لا جبهة لها، كذلك لا معنى لتصورنا لوضع النجم أو الشجر جبينه على الأرض، أو انحنائه، فهذه تعابير عن سجودنا نحن الذين لدينا جبهة وإمكانية وضعها على الأرض، إذن، السجود هو كلمة لوصف تعبير ما عن أقصى درجة من الاحترام والخضوع والطاعة، وتطبيقياً، نحن البشر نقرّب أو نضع جبهتنا على الأرض، والملائكة(ع) تعبّر بطريقة تناسب كيانها، والنجم والشجر يعبّران بطريقة تناسبهما أيضاً، ولا يمكننا تصوّرها، فالآية مجرّد خبر عن خضوعهما له تعالى، ونفهمه من استمرار الشجر بالعمل كما هو متوقّع منه، ومن النجم بتواجده وحركته حيث قدّر تعالى له، وهذا أقصى ما يمكننا الآن فهمه كتطبيق لتعبير السجود للنجم والشجر.

نلاحظ في التفاسير قولهم إنّ النجم هو النبات الذي ليس له ساق وملتصق بالأرض، والشجر هو النبات ذو ساق، ولكن القرآن وكما يظهر لك من هذه الدراسة، لم يستعمل الكلمات بنفس الأحرف والحركات والأصل الصرفي لمعنيين، واعتبار نفس الكلمة القرآنية بمعان متعددة هو شيء شائع منتشر بين عموم المسلمين وتبيّن في دراستنا هذه خطأ ذلك، في كلامهم هم يفعلون ذلك ويتساهلون... ولكن كلامه تعالى دقيق لا يتحمّل ذلك. ولذلك أبقينا كلمة نجم على بقية الاستعمال القرآني لها بالمعنى الذي وجدناه في عموم استعمالات العرب لها قبل الإسلام.

إنْ أطلق أحد ما كلمة نجم على النبات بلا ساق، فهو تشبيه يقال له في علم البيان مجازيٌّ، أو استعارة لالتصاق النجم بالسماء، أو كناية عن تناثر النجم في السماء... ولكن نحن نستعمل اللغة بهذه الطريقة، أمّا القرآن فيعتمد الكلمات الدقيقة للوصف وليس فيه أي شيء مما صنّفوه في علم البيان من استبدال الكلمات بأخرى لجمالية النطق أو المعنى، لأنه سبحانه وتعالى لا تخونه العبارة حتى يترك الكلمة الدقيقة التي تعبّر عن المعنى الدقيق ليستبدلها بكلمة أخرى، لا.

(وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ{7})
{وَالسَّمَاءَ}، عموم ما هو فوق ويقابله أرض، {رَفَعَهَا}، الرَّحْمَنُ جعلها فوق أرض، وكلّ سماء تقابلها أرض أو أراض، ولأنّ لكلّ سماء من السماوات السبع يقابلها عموم أي أرض تحتها مناسبة لها، فكوكب الأرض وسطح القمر وسطح الشمس... أرضٌ بالنسبة لسمائنا وهكذا بقية السماوات لها أرض أو أراض تقابلها، وتفهم ذلك أيضاً من تعبير الآية 12 من سورة الطلاق "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...".

لا تفكّر في السماء أنها كانت موجودة ورفعها تعالى، لا، بل بنية السماء وأساسها كان موجوداً، حيث رفعها تعالى عن شيء وصارت سماء يقابلها أرض.

{وَوَضَعَ الْمِيزَانَ}، فضمن تصميمه تعالى لنا زرع فينا ما سيوصلنا لحتمية اختراع الميزان واستعماله. والميزان هو كل ما يتم وزن وقياس الأمور فيه، ومنه آلة للأوزان بالكيلو والباوند وغيرها، وميزان الأعمال في يوم القيامة هو المقارنة بين الحسنات والسيئات، والمقارنة بين ما تستحقه على الحسنات وما تستحقّه على السيئات... ونفهم {وَضَعَ} الميزان بأنه تعالى عندما خلق البشر جعل فيهم ما يوصل عقولهم لفكرة صنع ميزان حتى يتبادلوا ويشتروا ويبيعوا الخضروات والفواكه والمعادن وغيرها... بشكل منصف عادل، وهذا من آلائه تعالى.

لاحظ أننا من بين كلّ الحيوانات على الأرض، نحن نتبادل الأشياء بكثرة بين بعضنا، ونحن الوحيدون الذين نستعمل وحدات القياس للتبادل، فالرَّحْمَنُ الخالق للإنسان الذي تعلّم البيان، وصل إلى مرحلة تعرّف فيها على الميزان الذي كانت فكرته مغروسة فيه...

لاحظ أيضاً أن السماء صارت سماء برفعها فلا معنى لتسميتها سماء قبل رفعها، وكذلك وضع الميزان، حيث لم يكن موجوداً ووضعه تعالى للناس، وفي البداية وضعه تعالى كجذور بذرة في فكرهم حتى يصلوا إلى مرحلة الحاجة له ويصنعوه، وما نشير إليه هنا سيظهر لك معناه من تكملة الآيات.

بقي شيء، ففي الكلام القرآني عمق لا نراه بعض الأحيان، لو كنت بائعاً يتعامل مع الناس بالميزان، لكان لآياتنا هذه أثر مختلف عليك، لأنك تعلم أن مقداراً قليلاً من الغشّ في الميزان سيراكم لك أرباحاً مضافة لأرباحك من التجارة... والميزان نموذج عن بقية أساليب الغشّ، وبيع البضائع من الماركات المزوّرة غشّ إن لم يعلم الشاري بذلك، وتقليل الباطون في البناء غشّ، وضخّ الماء في اللحم غشّ، ووضع الملح في علف الدابّة لتشرب كمية كبيرة من الماء فيصير وزنها زائداً عند بيعها هو غشّ... والصناعة الرديئة مع تقصّد رداءتها غشّ...

لن أطيل عليك لترى كم ذلك مدمّر لحياتنا، حيث تفقد الثقة بالطبيب، لأنك تعلم أن بعضهم يصف أدوية محددة لأنه يتقاضى نسبة من شركتها، وعليك تكون الفاتورة سعرها أغلى وفعالية الدواء أقل... والبنّاء الذي يغشّك بالكيل وتقانة البناء... وبملابسك التي نسجت من خيطان بالية وحيكت بخيطان رديئة... وبما تشتريه من مأكولات تلاعبوا بتاريخ صلاحيتها أو خزّنوها بما لا يناسبها من حرارة ورطوبة...

إنّ الربح المالي الناتج للبعض من الغشّ دمار لكل المجتمع، وهكذا ترى أن دينه تعالى يربط التزامنا به بما يسعد حياتنا ويرفّهها، بل وترى أنه تعالى حين صمّمنا زوّدنا بما يكفل لنا سعادتنا، فرفع السماء تعبير عن خلق دنيانا، ونشأتنا فيها تحصيل حاصل لأنّ الكلام هنا موجّه لنا، ووضع الميزان تعبير عن تزويدنا بما يضمن لنا رفاهية الحياة، حيث إنّ الميزان من أبرز النماذج لحياة مزدهرة.

(أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ{8})
وضع تعالى الميزان، {أَلَّا تَطْغَوْا}، أن لا تتجاوزوا الحدود، {فِي الْمِيزَانِ}، عندما أشتري منك كيلو لا تغشّني وتُعطِني أقل، وعندما تشتري منّي لا تغشّني وتزن بضاعتي بأقل من وزنها عبر التلاعب بعيارات وأوزان الميزان، فالحدّ هو الالتزام بالمقياس الحقيقي الدقيق والطغيان هو تعدّي الحدّ واعتماد مقياس متلاعب فيه مغشوش.

في بعض الكتب ستجد أنهم اعتبروا "ألّا" مساوية لكلمة "لئلا"، وهذا المعنى لا يتناسب مع سياق الآية السابقة، حيث فهموا أنه تعالى وضع الميزان حتى لا تطغوا فيه، والمفروض أن يكون المعنى أنه تعالى وضع الميزان فلا تطغوا فيه.

لو كان الميزان من اختراعنا نحن ولا علاقة للإله سبحانه به، سيصير الحكم الإلهي بحرمة التلاعب بالميزان دخيلاً متطفلاً على شيء اخترعناه نحن بذكائنا ولم يخطر على "باله" سبحانه، وهذا غير صحيح، لأنه سبحانه وضع الميزان، وصار بين أيدينا بعد أن وصلنا للحاجة له للتبادلات التجارية، وعلى هذا الأساس يأمرنا تعالى أن لا نطغى فيما وضعه لنا ويجب أن نلتزم به.

تذكّر أن السورة لفتت انتباهك لحصولك على البيان وإمكانية تعلّم القرآن، وأخبرتك أنّه تعالى هو وضع الميزان، حيث لم تخترعه أنت بشكل مفاجئ للإله سبحانه وتعالى، لا، بل زرعه تعالى فيك، وها هو يأمرك بالقدرة التي معك على البيان وبتعلّم القرآن أن لا تطغى في الميزان.

بعبارة أخرى، لن يحاسب تعالى القردة لأنها لا تتعامل بالميزان، لأنه لم يمنحها تعالى بياناً من هذا المستوى، وهكذا ترى أنه تعالى يخاطبنا بتكليفنا بما منحنا من قدرات، ويأمرنا بالالتزام بالميزان لأننا نعرف معناه وضرورته.

(وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ{9})
{وَأَقِيمُوا}، لا تبطلوا ولا تعطّلوا بل فعّلوا، {الْوَزْنَ}، قياس الأشياء "في تعاملكم التجاري"، {بِالْقِسْطِ}، بما له بالضبط، بالحصّة والنصيب العادل، {وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ}، لا تجعلوه بالتلاعب بعياراته يفقد من الوزن الصحيح، سواء كنت تشتري من الآخرين وتزن بضاعتهم لا تجعلها تخسر، ولا تجعلها تفقد من وزنها، أو كنت تبيع الآخرين لا تتلاعب بالميزان فيأخذوا أقل مما هو لهم.

(وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ{10})
{وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا}، الرَّحْمَنُ، {لِلْأَنَامِ}، للناس، حين صمّمنا "التعبير القرآني: سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخطّط لنا سبحانه خروجنا إلى الحياة وضع الأرض في ذلك المخطّط لنعيش عليها وتكون بيئتنا في الدنيا، وهذا من آلائه تعالى.

نلاحظ عدداً من المفسرين اختار معنى الجنّ والإنس لكلمة أنام، على أساس أن السورة تخاطبهما معاً، ولكننا لا نجد استعمالاً للعرب لهذه الكلمة بهذا المعنى، واستعملوها فقط للناس، ونتذكّر بداية السورة التي تحدّثت عن خلق الإنسان وتعليمه البيان، وأكملت من هناك إلى هنا بلا ذكر للجنّ، لذا لا داعي لشملهم هنا بوضع الأرض لهم معنا، لأنّ الآية لم تقل ذلك.

(فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ{11})
{فِيهَا}، في الأرض التي وضعها الرَّحْمَنُ، {فَاكِهَةٌ}، وهي التي نأكلها عادة بقصد التحلية وليس بقصد الشبع.

{وَالنَّخْلُ}، وهي شجرة البلح والتمر والرطب... {ذَاتُ الْأَكْمَامِ}، التي لها كمّ، لها وعاء، مثل كمّ القميص الذي تلبسه إذ القماش يغلّف ذراعك وتخرج يدك منه، كذلك للنخيل كمّ من خشب "على شكل الموزة تقريباً" يغلّف ما ستخرج منه الثمار، وعموم النبات يصح وصف خروج ثماره من الأكمام، راجع الآية 47 من سورة فصلت "إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا..."، إذا نظرت لعرق النبتة أو لغصن الشجرة قبل إزهارها وقبل حملها للثمر، ستجده أجرداً لا شيء عليه، وبعد ذلك تخرج الثمرة من بثرة صغيرة على الغصن، كما تخرج اليد من كمّ قميصك.

نتذكّر لبّ السورة عن الآلاء، عن الأعمال الإلهية العظيمة، ولو فكّرت في الفاكهة، فيما تأكله للتحلية والالتذاذ بطعمه لا للشبع، فكيف ستفسّره بدون إله ذي آلاء عظيمة؟ لأنّ الأكل لسدّ الجوع لا يستوجب إحساسك بتذوق طعمه الطيّب، يكفي إحساسنا بالجوع حتى نملأ معدتنا بالتراب والماء اللذين يحتويان على كل العناصر التي يحتاجها جسمنا، ولكن تركيبة جسدنا لا تتماشى مع استهلاك العناصر كما هي، والإله سبحانه وتعالى جعل عن قصد لمسات مميزة فينا وفي بيئتنا حتى نلتفت بكل سهولة إلى صفاته العظيمة، حيث جعل حولنا تركيبات من المواد ولها طعم ورائحة مرغوبة، وهي التي تتماشى مع حاجات جسدنا ليعمل وينمو من استهلاكها... وهكذا بسهولة نلتفت إلى آلائه، إلى أعماله العظيمة النابعة من صفاته العظيمة الفائقة، حيث جعل رغبتنا بالأكل لسدّ الجوع عبر الالتذاذ بما نأكله...

بقي شيء، هناك كلام قاله البعض حول آيتنا هنا وآيات أخرى، مستنتجين أن القرآن لم يعتبر النخل والرمان فاكهة لأنه ذكر الفاكهة وحدها وبعدها ذكر النخل والرمان، وهذا غير صحيح، فكلّ الناس بكل أنواع لغاتهم يذكرون العموم ثم

يختارون شيئاً منه للتركيز عليه، حيث نقول: هل جلبت الأغراض للغداء واللحم؟ لأنّ اللحم من الأغراض ولكنك تركّز عليه وحده لأهميته بالنسبة لك، والآية هنا وأشباهها خصّصت النخل من بين الفاكهة للحديث عنه بسبب تعلّق الذين نزل في عهدهم القرآن به، حيث إنه في ذلك الزمان كانت منتجات النخل من أهمّ المأكولات التي يعتمدونها للتغذية، وكانوا يحتفظون به كمؤنة... إن لم تكن من محبّي البلح والتمر فالقرآن لا يفرض عليك أن تحبّه وتلتذ به، لا، بل خذ البلح كمثال عن الفاكهة التي يرغبها عامّة الناس، ودعك من كلام الناس عن تميّز البلح والتمر والرطب بخصائصه الغذائية والشفائية... كفاكهة إسلامية قرآنية، لأنّ كل فاكهة لها تميّزها، وللشعوب في المناطق الأخرى فاكهة بقيمة منتجات البلح في البيئة التي نزل فيها هذا القرآن، وأكرر لك، إنّ كلام القرآن عن البلح والرمان والعنب والتين... ما هو إلا نماذج ولا خصوصية مميزة لهذه الفواكه على بقية الفواكه في مختلف المناطق على الأرض.

(وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ{12})
{وَ}في الأرض، {الْحَبُّ}، وهو عموم أي شيء صغير منفرد، كحبّة الرمل وحبّة اللؤلؤ وحبة العنب... ومن سياق الكلام يتحدّد تخصيص المقصود من كلمة حبّ، وهنا سبق الكلام عن النخل فتكملة الكلام عن حبّ النبات، وأوّل ما يتبادر إلى الذهن هو حبّ النبات كالقمح والأرز، ولكن المعنى أعم لكلّ أنواع الحبوب، كالفاصوليا والبازلاء والفول... {ذُو الْعَصْفِ}، الذي له ورقة تغطيه كقشرة طرية بلا شوك ولا قساوة، كقشرة الفول والحمّص... {وَ}ذو، {الرَّيْحَانُ}، ذو الرائحة الطيبة، وطبعا الإشارة للرائحة الحلوة التي تصدر من عموم أزهار النبات. والدارج في بعض الدول العربية تسمية نوع محدّد من النبات باسم الريحان، والدارج استعمال كلمة رياحين للروائح الطيبة بدلا من ريحان.

ما معنى الرائحة الزكية للنبات عموما والتي نتمتّع ونسعد بشمّها نحن؟ من صمّمنا وصمّم بيئتنا لنشتمّ الروائح؟ وأصلا لماذا هناك روائح جميلة وروائح كريهة؟ هل من دون إله بصفات وقدرات فائقة ستحصل هذه الظواهر؟

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{13})
بعد كل الإشارات السابقة من خلق الإنسان برحمته تعالى، وتعليمه القرآن والبيان ورفع السماء... {فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بأي أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لا تصدّقان أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

كما سترى من الآيتين التاليتين ومن بقية السورة فهي من هنا توجّه كلامها للجنّ والإنس، هنا تسأل كل الجنّ والإنس عن أي آلاء، عن أي عمل عظيم مما ذكرته السورة في مقدمتها تقولان عنه أنه ليس آلاء، وهو ليس عملا عظيما يدلّ على إله بصفات وقدرات فائقة؟ هل خلقه تعالى للإنسان عادي؟ تعليمه عادي؟ القرآن عادي؟ السماء عادية؟ الميزان الأرض الفاكهة الرائحة... عادي؟ أي واحدة تعتبرونها لا تعبّر عن إله عظيم فعلها؟

ويترتّب على التكذيب بالآلاء عقاب شديد وعلى التصديق ثواب عظيم ستذكرهما السورة...

لاحظ أن الكلام ضمنا هنا مثل عموم كلام القرآن الذي يتخطّى مسألة إنكار وجود إله من أصله، مكتفيا بلفت الانتباه والسؤال عمّن صمّم وخلق ما تراه من تفاصيل ترابطات بين الكائنات والظواهر... وهنا سؤال الآية يأتيك من الآخر، فأنت ترى أعمالا عظيمة، حيث ترى إنسانا يتعلّم وسماء وأرض وطعام... من فعل هذا؟ من صمّمه ومن خلقه؟ لذا تسألك الآية عن أي واحدة من هذه النماذج لا تراه عملا عظيما دالا على عظمته تعالى؟

وسبب السؤال معلوم، لأي سبب تكفر أو تشرك به؟ ولأي سبب تنكر دينه؟ طالما من الواضح آلاؤه فما معنى تجاهل كلامه معك عبر قرآنه؟

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ{14})
الذين تسألهم السورة عن أي آلاء يكذبان هما الإنسان والجنّ، لذا لنتابع: {خَلَقَ}، الرَّحْمَنُ ركّب وألّف، {الْإِنْسَانَ}، وهي كلمة مفردة تشير للجنس، أي خلق النوع الإنساني، {مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ}، وهو ما نراه على بعض البقع على الأرض الترابية التي كان عليها الماء وجفّت، حيث نرى قشرة سميكة متفككّة من صفائح صغيرة من التراب الجاف،

وهذا هو الصلصال، ويقولون أنه تسمية لتلك القطع بحسب وصف صوت صلصلتها حيت تتكسّر من حرارة الشمس أو حين تدوس عليها، وعلى أي حال يعبّر الناس عن نوع من التربة بأنها صلصالية إن كانت قاسية تتفسّخ عندما تجفّ، {كَالْفَخَّارِ}، كصلابة الطين الذي تعرّض لحرارة عالية من الشمس أو النار... حيث إن صلابته كقساوة الفخّار، ولا نزال نجد أباريق للشرب وأواني فخارية يصنعها الناس من الطين ويجففونها في الأفران ويكون لونها عادة من تدرجات اللون الأحمر... وفي بعض المناطق بيضاء... تلك القطع صلبة كصلابة الفخار، ومنها خلق سبحانه وتعالى الإنسان.

ضع في بالك أنه وبحسب معطياتنا الحالية فلا يوجد في بيئتنا إلا العناصر المذكورة في الجدول الدوري، من حديد ونحاس وصوديوم وأوكسيجين... وتعابير القرآن بخلقنا من التراب والماء أو الطين أو الصلصال... تشير للمواد الموجودة في بيئتنا، وهي مرادف لقولنا: المواد التي على الأرض.

وتتذكّر من دراستنا هذه أن القرآن لم يدخل في تفاصيل آليات حدوث الأشياء واكتفى بعرض بسيط لمراحل حدوث الأشياء، حيث عرضها بشكل يفهمه أي إنسان عاقل من دون الحاجة للتخصّص في العلوم الأكاديمية كالبيولوجيا والكيمياء... وهنا كما ترى الجملة بكل بساطة تشير لخلقنا من المواد، وتشير للمرحلة الأولى من خلقنا أنه متكوّن من نوع التراب الصلصالي. وأنت تعلم بوجود تصانيف علمية مختلفة للتراب من ناحية الملمس، وترجع في أصلها إلى نعومة وخشونة الحبّات التي تكوّنه، والصلصال تعبير يشير إلى نوع التراب الناعم جدا والذي يصير طينا طريا بعد خلطه بالماء، وإذا جفّ تقشّر عن سطح الأرض وصار قطعا قطعا، وويصير قاسيا كالفخّار.

قد تركّبنا من الصلصال الذي قساوته إذا تيبّس كالفخار، حيث إن جسمنا مؤلف من ماء وكالسيوم وكربون وحديد... من طين، وهذا معلوم بالبداهة فهذه هي المواد التي في بيئتنا ونحن نتشكّل منها، ألا يدلّ ذلك على آلاء؟ على عمل عظيم؟ على إله بقدرات فائقة للقيام بهذا العمل؟ وأمّا معرفة آلية نشأتنا فهو تعرّف على الآلية التي صمّم بها سبحانه الدنيا حتى تتضمّن مرحلة نشأتنا من التراب والماء، ولمزيد من التفاصيل حول خلقتنا راجع الآية 30 من سورة البقرة.

تصوّر آيتنا هنا بشكل تصويري، ولنقل أنك في بقعة أرض فيها على وجهها قشور من قطع طينية يابسة، وتلك القطع متصلبة كالفخّار، والآن أشير إليها وأقول لك: أنت مخلوق من هذا. هذا ما تريد الآية تصويره.

(وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ {15})
{وَخَلَقَ}، ركّب وألّف {الرَّحْمَنُ}، {الْجَانَّ}، وهي كلمة مفردة تدل على الجنس، والنسبة منه جنّي، خلقهم الرَّحْمَنُ، {مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ}، حيث ذكر القرآن عدة مرات أن الجنّ مادتهم الأساسية التي تركّبوا منها هي النار، وتفهمها بالتقريب اذا قارنت بين تعبير القرآن عن مادتنا الاساسية وهي التراب والماء "أوكسيجين هيدروجين كربون كالسيوم..."، المخلوط ليصير طينا، ثم جفّ فصار صلصالا قاسيا كالفخار، ومنه خلقنا تعالى، كذلك هنا تعبّر الآية عن المادّة الأساسية التي تركّب منها الجنّ أنها النار، وفي حالة من حالات النار تكون مارجا، والمرج كما سترى من استعمال السورة هنا لهذه الكلمة فيما سيأتي في الآية 19 "مرج البحرين" هو المزج والتداخل، وكما أن من حالات الطين أن يصير صلصالا، كذلك من حالات النار أن تصير مارجا، وأي كلام عن تحديد وصف للمارج لن يكون صحيحا لأن الاحتمالات مفتوحة بالنسبة لنا لأننا لم نر الجنّ ولا مرحلة تكوينهم، وللنار التي في عالمنا نحن حالات عديدة من المرج "أحمر مع أصفر، أخضر مع أزرق..."، على أي حال مارج النار حالة من حالات النار مثلما الصلصال حالة من حالات الطين.

بقي شيء، آيتنا هنا بكلامها عن شيء لا نعرفه فهي من الآيات الاستفزازية لفضولنا، وللأسف قديما ذهب هذا المسار باتجاه ساذج، حيث ذهب لأسلوب قراءة العزائم والتمائم وإشعال البخّور والتنويم والنظر في كرة شفّافة... كمحاولات للتواصل مع الجنّ، ومن الواضح جدا أن هذا الأسلوب مجرد خرافات لم توصل إلى نتيجة، وما تسمعه من كلام الناس عن حصول تواصل فهو كذب أو توهّم، إذ لم نلمس لحدّ الآن أي أثر حقيقي من تلك التجارب سوى ما يتناقله الناس عن قصص ساذجة لا عقلانية فيها ولا أسلوب علمي رصين للتحقّق من صحّتها... والناقلون لتلك القصص ساذجون ندر أن تجد فيهم مثقّف تحترم فكره...

ويبدو من القرآن حصول تواصل بين النبي سليمان(ع) والجنّ، ولا ندري إن كان بقية الناس في عصره استطاعوا التواصل معهم أو تمكّنوا من رؤيتهم... حيث إنه ليس لدينا في القرآن أي تصريح عن ذلك، وعلى أي حال، سيكون من الرائع تواصلنا معهم كإشباع لفضولنا، ولكن لا بدّ من التخلّي عن الأساليب القديمة البالية والبحث عن طرق جديدة علمية رصينة لمحاولة التعرّف عليهم، وإن كان ذلك التواصل لم يحصل إلى الآن، من يدري فربما يحصل في المستقبل إذا تطوّرت علومنا أكثر.

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{16})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بأي أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

خلق الإنسان من المادة التي على الأرض أم خلق الجنّ من النار لا تعتبرانه عملاً عظيماً يدل على خالق عظيم القدرات؟

في دراستنا هذه مرّ كلام كثير في سور تخصّصت للفت الانتباه لمن صمّم وخلق وتابع... فلا الصدفة ولا هكذا من لا شيء ولا الطبيعة الأم ولا... خلقونا، لا، لأنّ العاقل بالبداهة يرى أن تصميمنا وخلقنا وما فيه من خصائص هائلة الدقة وكثيرة التفاصيل لا يمكن أن ينتج إلّا عن كائن ذي صفات وقدرات فائقة، ما معنى أن يصير التراب كائناً حيّاً بوعي وفكر وبيان ويستعمل الميزان ويشم الروائح... هكذا من دون خالق سيصير!

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ{17})
{رَبُّ}، المسؤول من مستوى إلهي عن، {الْمَشْرِقَيْنِ}، حيث إن نقطة شروق الشمس تنحاز مع مرور الأيام، مرة إلى أقصى الشمال ومرة إلى أقصى الجنوب، وهكذا يصير لديك نقطتان لشروق الشمس، واحدة إلى الشمال وأخرى من الجنوب.

{وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ}، أيضاً حين تنظر إلى غروب الشمس مع مرور أيام السنة ستلاحظ أن مكان غروبها في الأفق يميل يوماً بعد يوم إلى الشمال ثم بعدها تتوقّف عن الانزياح شمالاً لتنحاز رويداً رويداً يوماً بعد يوم إلى ناحية الجنوب، ثم من جديد تعود لتنحاز إلى ناحية الشمال، وهكذا يصير لديك مغربان، واحدة في جهة الشمال وأخرى في جهة الجنوب.

هاتان الظاهرتان هل حصلتا من دون اعتناء أحد ما بحصولهما؟ أنت ربّ أسرتك، وذلك ربّ العمّال، والآخر ربّ لماشية، والأم ربّة منزل... وكل واحد منهم مسؤول لتسير الأمور بشكل مناسب، وسبحانه وتعالى ربّ عن كل شيء من مستوى إلهي، وكنموذج عن الأمور التي فوق مستوانا، مثل رؤيتنا لحركة الشمس من على سطح الأرض وهي تشرق وتغرب وتتحرّك نقاط شروقها وغروبها... من المسؤول عن هذه الظاهرة؟ الربّ، المسؤول عنها من مستوى إلهي هو الله سبحانه.

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{18})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بأي أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

هل ظاهرة الشروق والغروب وتحرّك نقاطهما في الأفق هي أمور عادية؟ أم أنها عظيمة؟ ومن المسؤول عن حصول تلك الظواهر؟ ألا تصدقان أن هذه الظواهر آلاء ربّ عظيم القدرات؟!

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ{19})
{مَرَجَ}، خلط ومزج، {الْبَحْرَيْنِ}، والبحر كلمة تعبّر عن عموم ما هو مائع سائل بحجم ضخم، حيث إن تجمّع المياه المالحة هو بحر، ومجرى المياه الحلوة بكمية كبيرة هو بحر، {يَلْتَقِيَانِ}، حيث في البقعة المشتركة بين البحرين يحصل التقاء مائهما ببعض.

هذه الآية تصدق على أي تجمّعين كبيرين للماء يلتقيان، بحرين مالحين، محيطين، بحر مالح وبحر "بركة" مياه حلوة، نهر وبحر، نهر ونهر...

(بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ{20})
{بَيْنَهُمَا}، بين البحرين، {بَرْزَخٌ}، والبرزخ هو الوسط الحاجز أو الحالة بين شيئين لا هو هذا ولا هو ذاك. والكلام هنا عن منطقة بين البحرين غير تابعة لهذا البحر أو لذاك البحر، {لَا يَبْغِيَانِ}، لا يتعديان حدودهما، حيث يبقى كل من البحرين كما هو رغم التقائهما، لا هذا يطغى على ذاك، ولا ذاك يطوف بالكامل على الآخر.

ستلاحظ أن نقطة التقاء نهر ببحر ستكون ملفتة لك، خاصة إذا كان النهر صغيراً، حيث لمسافة أمتار قليلة مياه حلوة تجري، وفي مقابلها بعد أمتار قليلة بحر مالح.

ننتبه جيّداً، لا يوجد أي سبب لتفسير الآية هنا حصراً بنقطة محدّدة يحصل فيها التقاء بحر مالح ببحر حلو، أو بحر مالح ببحر آخر مالح، أو بحرين حلوين، أو نهر ببركة... لذا لا تبحث عن مكان محدّد تقصده الآية لأنها عمومية الوصف لأي بحرين يلتقيان أينما كانا.

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{21})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بأي أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

طالما المياه سائلة وتنساب نحو المنطقة الأخفض لماذا لا تتجمّع كل المياه على الأرض في بحر واحد؟ ولماذا لا تفلت المياه لتصير بركة واحدة على سطح الأرض؟ نعلم الآن أن كروية الأرض وجاذبيتها "وعوامل أخرى كالدوران المسبب للعزم المغزلي الداخلي، وخصائص السوائل" هي وراء بقاء تجمعات الماء في بقع مختلفة على وجه الأرض، هل هذه الظاهرة حصلت بلا ربّ صمّمها لتكون هكذا؟ هل لوحدها أو بالصدفة حصلت؟

(يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ{22})
{يَخْرُجُ مِنْهُمَا}، من البحرين، {اللُّؤْلُؤُ}، وهو كرة صغيرة المشهور منها ذو اللون الأبيض ولها تموجات ألوان على سطحها، علماً أنه يوجد عدّة ألوان لها، ويتم استخراجه من صدفة حيوان يعيش في الماء.

{وَالْمَرْجَانُ}، وهو يصنف الآن على أنه نوع من الحيوانات البحرية، ويوجد منه أبيض وأسود وأشهرها تدرجات اللون الأحمر من الزهري حتى القاني، وهو في البحر يشبه النبتة الصغيرة اليابسة بأغصان صغيرة.

كما تعلم إنّ اللؤلؤ والمرجان يعيشان عموماً في المياه المالحة، بتعبيرنا الحالي: البحار والمحيطات. ويعيشان في الأنهار المائلة للملوحة، وقيل عن وجودهما في الأنهار الكبيرة ولكن على أي حال، الآية ما قبل السابقة ليست وصفاً حصرياً لبحر حلو وآخر مالح، حيث تنطبق أيضاً على بحرين مالحين، لتكون الإشارة هنا إلى استخراج اللؤلؤ والمرجان من البحار المالحة، هذا إن لم يكن صدف حيوان اللؤلؤ يعيش في المياه الحلوة.

إذا خطر ببالك أن حمل آية البحرين على بحرين مالحين سيعني أن آيتنا الحالية تشير لبحرين محددين علماً أن عموم البحار المالحة فيها لؤلؤ ومرجان، لتعتبر أن التفسير غير منسجم بتثنية البحرين وتفترض مناسبة الجمع "يخرج من البحار اللؤلؤ والمرجان"، نفس هذا الاعتراض يبقى عليك إن فسّرت البحرين بواحد حلو وآخر مالح، أي البحرين هما؟ أم هما عموم أي نقطة التقاء بين نهر وبحر؟ وكما ترى لو قلت إن الآية تشير لعموم أي التقاء بين نهر حلو وبحر مالح تكون خالفت ما نعرفه من خلو الأنهار الحلوة من اللؤلؤ والمرجان، وبقي لك أن تبحث عن نهر حلو فيه لؤلؤ ومرجان لتطبّق الآية عليه وحده! وهذا شيء لست بحاجة له لأن الآية ما قبل السابقة تشمل في كلامها أي بحرين مالحين أو حلوين أو مالح مع حلو.

لاحظ أنك ستجد في كتب التفاسير والقواميس اللغوية القديمة أن اللؤلؤ هو الدرّ الصغير والمرجان هو الدرّ الكبير، أو المرجان هو صغار اللؤلؤ، أو أقوال أخرى عديدة... والسبب أن الجيل الأول الذي تعاطى تفسير القرآن لم يكن يعرف اللؤلؤ والمرجان، أو رأوهما ولكن لم يعرفوا اسمهما... والجيل الثاني وما بعده من مفسرين وواضعي قواميس لغوية اتّبعوا الجيل الأول في الضياع في تحديد ما تشير له تلك الكلمات، حتى جاء عصر القواميس الأحدث وأبقوا على تقديم شرح الكلمتين بما ورد عن الأجيال الأولى، وبعدها ذكروا المعنى الذي سمعوه من الناس العاديين الذين يعرفون اللؤلؤ والمرجان، ولكن ذكروه في الآخر على أساس أنه معنى مستبعد! أو معنى جديد للكلمتين! وللأسف لم يحتملوا أن الأجيال الأولى جهلت معناهما لأنهم لم يكونوا بحّارة، أو كان بين أيديهم لؤلؤ ومرجان ولكن في بيئتهم اصطلح لهما الناس أسماء وصفية لأنهم يجهلون الاسم الحقيقي، وكثيرا ما حصل هذا معهم، وأضف لما سبق أن اللؤلؤ والمرجان من المواد المستعملة في الحلي الغالي الثمن، وبيئة الجيل الأول من المسلمين المتعاطين بتفسير القرآن من الفقراء أو متوسطي الدخل، لذا لا علم لهم بالكثير من أسماء الأشياء التي يعرفها الأغنياء، حيث ربما لم يروها في حياتهم، وغالبيتهم لم يكن لهم باب خشبي لبيوتهم، وأرضية بيوتهم تراب، لذا لا يعرفون البلاط... وينامون على الأرض ولا يستعملون السرير، ويشربون بالأكواب ولا يستعملون الكؤوس... وهكذا كل ما يتعلّق بأمور لا يعرفونها ستجدهم يخمّنون ولا يقولون أنهم يخمّنون! مع أنها كلمات عربية، وهذا لا يعني أن كل عربي سيعرفها، أنا لبناني ولا أعرف كل الكلمات اللبنانية، حيث إنّ الفلّاحين لديهم أسماء لأدوات الزراعة من غزيلة وعويسة ومزبرة... وفرفور وتركيع وكبرتة... والنجارين لأزاميلهم المتنوّعة أسماء لا أعرفها، وكذا البنّاء والبحّار والنسّاج والحدّاد... ونفس الشيء حالة الجيل الأول من المسلمين الذين تعاطوا تفسير القرآن، هناك كلمات عربية يجهلونها ويعرفها عرب آخرون، ولو سكتوا عمّا لم يعرفوه لكان وصلنا من الآخرين المعنى السليم للدسر واللؤلؤ والمرجان والاستبرق والكأس والقوارير والطلح والرحيق... بدلاً من التحقيق فيها لحذف التخمينات...

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{23})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بأي أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

لماذا يلفت اللؤلؤ والمرجان انتباهنا؟ ولماذا نراها جميلة ونرغب بالتزين بها؟ وكيف حصل هذا؟ هل لوحدها هذه الظاهرة صارت؟ أم هي آلاء، وهل هي عمل عظيم من ورائه إله قدير؟

الحديث عن اللؤلؤ والمرجان موجّه لكلا الجنّ والإنس، ونعلم أن الإنس يتزينون بهما، وأمّا الجنّ فلا نلاحظ لهم أي علاقة بما لدينا من لؤلؤ ومرجان، حيث لا نلاحظ أخذهم لهما من بحارنا ومزارعنا... وإن كان ذلك حصل في عهد النبي سليمان(ع) فهي كانت حالة استثنائية خاصة لعمل الجنّ لديه(ع)، ولا ندري إن كان في عالم الجنّ أنهار وبحار فيها ما يساوي في الوصف اللؤلؤ والمرجان اللذين على الأرض، ولكن على الأرجح أن الآية تقصدنا نحن بما نعرفه من أنفسنا من رغبة في التزيّن باللؤلؤ والمرجان، وتقصد الجنّ بما يعرفونه عنّا، فهم يروننا ويرون حبّنا للتزين بهما، لذا السؤال موجّه لهم أيضاً عن هذه الظاهرة، فهم يرون الإنسان ككائن يستخرج الزينة، هل من دون ربّ عظيم صار هكذا لوحده مخلوقاً يتزيّن؟ أم ربٌّ عظيمٌ جعله هكذا؟

يعني مثلما أنت ترى حيواناً يبني بيتاً بشكل مختلف عن بيوت الحيوانات الأخرى، ومستعملاً موادّ مختلفة عن التي تستعملها الحيوانات الأخرى... ألا تسأل نفسك كيف حصلت هذه الظاهرة؟ وهكذا الكلام في الآية هنا إن لم يكن للجنّ في عالمهم ما يوصف بأنه لؤلؤ ومرجان، فنحن نرى أنفسنا مهتمّين بالزينة بهما، والجنّ يروننا مهتمّين بالزينة بهما، لذا السؤال لنا ولهم عن حالة الاهتمام بالزينة من أشياء نتجت من الطبيعة التي حولنا، من صمّمنا لنهتمّ بها للزينة، ومن صمّمها لتكون ملفتة لنا كزينة؟

(وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ{24})
{وَلَهُ}، للرَّحْمَنِ، {الْجَوَارِ}، التي تنتقل بالتحرّك المتتابع، الماشيات السائرات، {الْمُنْشَآتُ}، التي جرى إنشاؤها، المصنوعات المكونات من شيء سابق، {فِي الْبَحْرِ}، في تجمّع كبير للمياه، {كَالْأَعْلَامِ}، حيث إنّ الكلام عن السفن

التي لها أشرعة كنموذج، والأشرعة قطع كبيرة من القماش الثخين والتي يصطدم بها الهواء فتندفع السفينة، ومنظر تلك السفن "الشراعية" كالأعلام فكأنها علم منصوب، والعلم اسم لقطعة قماش لونها شعار أو مرسوم عليها شعار، كعلم البلد وعلم فريق رياضي، والوصف من كلمة علم "علامة" كشيء خاص بجماعة، إذ إنّ علم البلد لونه أو رسمه شيء خاص لذاك البلد.

كما ترى الآية وصف لسفن شراعية تجري في البحر بفعل دفع الريح لأشرعتها التي يفتحونها فتبدو لك كالعلم، وفي عصرنا لم تعد السفن الشراعية من الحجم الكبير منتشرة، ونجد قوارب وزوارق شراعية متوسطة وصغيرة الحجم، ومن بعيد لا ترى بدن الزورق أو القارب بشكل كامل ولكنك ترى الشراع كأنه علم منصوب في الماء.

لاحظ في بعض كتب التفاسير قولهم: الأعلام هي الجبال العالية. وهذا ناتج أيضاً "مثل حالة تفسيرهم للؤلؤ والمرجان" عن الجيل الأول من مسلمي مكّة والمدينة والكوفة... الذين كانوا بعيدين "نسبياً" عن البحر، لذا استنسب أحدهم معنى الجبل لكلمة علم هنا في الآية، وتبعه البقية بلا دراسة!

هناك العديد من الآيات التي نسبت السفن له تعالى، وفهمنا منها ومن غيرها من الأمور التي نقوم بها نحن "أو الملائكة(ع)" وينسبها تعالى لنفسه، فهمنا منها أننا نحن لم نخترع السفن بشكل فاجأه تعالى ولم يكن يتوقّعه سبحانه، لا، بل كلّ ما نكتشفه نخترعه نبتكره نصنعه ننشئه... هو بسبب الفكر والخيال وحبّ الاكتشاف الذي وضعه تعالى فينا، وهو سبحانه يعلم ماذا سينتج عن هذا الإنسان بهذا الفكر في هذه البيئة، من سفن وسيارات وطائرات... ولذلك ينسبها تعالى لنفسه لأنه هو تعالى جعل بذرتها فينا وجعلنا في البيئة المناسبة لاكتشافها، ويعلم سبحانه سلفاً ماذا سينتج عن مخلوق بهذه القدرات في هذه البيئة.

تصوّرها لو أنك أنت صمّمت كائنات في بيئة، وكان من ضمن تصميمك لها أن تجعل فيها الفكر والقدرات التي تؤهّلها لملاحظة ما حولها لتخترع العربات التي تجرّها الأحصنة للانتقال بها، أو تخترع السفن من ملاحظة طفو الخشب على وجه الماء... مخلوقاتك لم تفاجئك باختراع السفن، بل كنت تتوقّع صنعهم لها، وهكذا تنسب ما صنعوه لنفسك.

هكذا نفهم كلامه تعالى عن نموذج السفن وركوب الخيل كما في الآية 12 من سورة الزخرف "وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ" حين ينسبه تعالى لنفسه، إذ إنّه سلفاً سبحانه ضمّن فينا وفي بيئتنا ما سيؤهّلنا لركوب الأنعام ولصناعة السفن، وليست مفاجأة له تعالى صناعتنا للسفن... ولا صناعتنا للطائرات... ولا حتى تعاطينا الزراعة كما تقرأ في الآية 63 وما بعدها "أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ، أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ"، وغيرها من عموم ما نفعله...

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{25})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بأي أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

شبّهها بآلة صنعتها وتقوم بعملها على أكمل وجه لتنتج قطعة حلوى، أو تنتج رقاقة رقمية للكومبيوتر... أنت تقف والآلة أمامك تعمل وتنتج، حيث إنّ صنعك للآلة عمل رائع، ورؤية الآلة وهي تعمل بكفاءة وجودة تدلّ على صفاتك الإبداعية أنت، وكذلك أنت والآلة التي نتجت عنك، تدلان على صفات إبداعية عالية جداً لربّ صمّمك وخلقك لينتج عنك ذلك.

نتذكّر مما سبق من كلام أننا لا ندري إن كان في عالم الجنّ ما يشابه السفن الشراعية التي في عالمنا، وعلى أي حال الكلام هنا موجّه لنا ولهم على أساس أننا نحن نعيش في حالة رؤية السفن التي صنعناها نحن، وهم أيضاً يرون السفن التي صنعناها نحن، حيث يرون مخلوقاً زوّده تعالى بإمكانيات صناعة السفن، وهذا من المفروض أن يدفعهم للانتباه لآلائه العظيمة سبحانه.

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ{26})
{كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا}، من على الأرض، {فَانٍ}، سيفنى، سينتهي ولن يبقى كما هو، وبالنسبة لنا لن يستمر ولا واحد منّا حيّاً بجسد وفاعلاً ومنفعلاً أو متفاعلاً، والتعبير بالفناء لنا مرادف لموتنا مع تحلّل جسدنا.

كلمة فان وأي من مشتقاتها لم ترد في القرآن إلا هنا.

صحيح أنه سيأتي زمن تموت فيه كل البشرية قبل الآخرة، كما يبدو من الآية 68 من سورة الزمر "وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ"، ولكن آيتنا هنا أعمّ من الإشارة إلى ذلك الزمن، فهي تنطبق على زمن النفخ في الصور أول مرّة، وتنطبق على أيّامنا الحالية التي تموت فيها الكائنات ويولد غيرها، إذ إنّ كل من على الأرض حتماً فان، وهذا ما نراه يومياً ومعلوم من تاريخ البشرية التي لم يصمد فيها ولا كائن حي إلا ومات، والآخرون مثله سيموتون.

(وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ{27})
{وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ}، بالمقارنة بين فناء الأحياء من المخلوقات وبينه تعالى الذي لا يحصل معه أي شيء، ربّك المسؤول عنك من مستوى إلهي، لن يفنى ولن يتغيّر حاله وسيبقى كما هو، {ذُو}، الذي يوصف بـ، {الْجَلَالِ}، لا يوجد فيه صفات لا تناسب الألوهية، يجلّ "فهو أرقى وأعظم وأعلى" عن وصفه بالفناء، و{الْإِكْرَامِ}، له صفات الكرامة، المكانة الرفيعة والمقام العالي.

الحيّ الفاعل يكون معنى حياته أن يتوجّه إلى الآخرين، حيث يتوجّه ليفعل شيئا ما، أو له وجهة يتوجّه الآخرون نحوها ليفعلوا شيئا ما وله علاقة به، ونحن نفنى فلا يَعُدْ لنا وجه، وبعدها لا نفعل ولا ننفعل ولا نتفاعل، أمّا الذي خلقنا فيبقى كما هو ولا يتغيّر، دائما له تعالى وجه، ودائما يتوجّه ليفعل، ويجلّ عن وصفه بالفناء بالموت بالهلاك... ويوصف بصفات الكرامة، أي الصفات التي لها مكانة عالية فقط، فهو الحي الذي لا يموت، والصفات والقدرات التي فيه تبقى كما هي دائما وكلّها حُسْنَى.

بالنسبة لمحور كلام السورة، فما معنى فناء الإنس والجنّ الذي ورد في الآية السابقة؟ فالبشر يموتون وتندثر أجسادهم ترابا، والجنّ نفترض اندثارهم نارا... فمن الواضح جدا ضرورة وجود كائن على الأقل عمره أطول من عمرهم وهو مسؤول عن تتابع حياتهم، وعن ولادة هذا ووفاة ذاك... وها يخبرنا خالقنا أن وجهه باق، وأنه أجلّ من أن يصيبه الفناء الذي يصيب المخلوقات، وأكرم وأرقى وأعلى... الصفات فيه تعالى دائما.

ذكر القرآن أسماء أعضاء له تعالى، كاليد والعين، وهنا عبّرت الآية عن بقاء وجهه تعالى وفناء كل المخلوقات على الأرض، وكما تعلم القاعدة الأساسية هي: ليس كمثل الله تعالى شيء كما ورد في الآية 11 من سورة الشورى {... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ...}. فأي وصف شكلي أو تكويني أو صورة أو تخيّل له تعالى فهو محض وهم وخيال لا يعبّر بتاتا عن أي حقيقة، لأنه تعالى لا يشبه أي شيء لا بالشكل فليس له سبحانه شكل أصلا، ولا بطبيعة التكوين فسبحانه ليس مخلوقا مركّبا، وهو تعالى منفرد في صفاته الذاتية.

مَنْ غلب عليه تمسّكه برأيه الفاسد ليطبقه على ما في القرآن، فهذا سيرفض تمايزه تعالى عن صفات مخلوقاته، رغم صراحة القرآن بنفي وجود أي شبه بينه تعالى وبين مخلوقاته كما ورد في الآية 11 من سورة الشورى {... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ...}، تجد مسلمين يقولون بتجسّده تعالى! وآخرون ينسبون له تعالى أعضاء كأعضاء الإنسان بناءً على ذكر القرآن لها، وآخرون اعتبروا أنفسهم أعلى بالمستوى الفكري من المجسّمين له تعالى فقالوا: يوجد له تعالى يد وعين كعضو ولكن ليست كأعضاء المخلوقات! وسنتمكّن من رؤيتها في يوم القيامة! وكل هذا الكلام وأشباهه نابع من بساطة وسذاجة...

أساس المشكلة سببه تقييمنا لبعض الأسماء على أنها في استعمالنا واستعمال القرآن تشير لمسميات، بينما هي تشير لصفات، بغضّ النظر عن تاريخ بداية نشوء لفظ كلمة ما لتدل على شيء، ورغم أن الأغلبية الساحقة من العلماء يقولون بأن الكثير من أوائل الأسماء كانت وصفية وتقليدا للصوت... وصولا إلى تكوّن كميّة مقبولة من العديد من الكلمات التعبيرية عن المعاني... وبعدها مرحلة متقدمّة ممّا يشبه وضعنا لكلمة "اسم أو وصف" بارتباط ما مع الكلمات الصوتية التي سبق استعمالنا لها، وهذه حالة الكثير من الأفعال التي لا ارتباط واضح لها باسم شيء ما يمكن أن تشير له، كقفز وضرب... فهذه ليست مثل طعام وأطعم، حيث هناك طعام وهناك الفعل المشتق من اسم الشيء أطعم، ولكن القفز وصف لفعل ولا يوجد شيء تشير له باسم قفزة كشيء، لأنه وصف حالة. ولكن في النهاية، استعمال الكلمات صار على

الوصفية، فيدي من خمسة أصابع ومن لحم ودمٍ... ويد الرجل الآلي من معدن وفيها أقل أو أكثر من إصبع، بأقل أو أكثر من ثلاثة مفاصل... ولكنها يدٌ على الوصفية، ورأس الإبرة ورأس البرج ورأسي ورئيس القوم... وهذه على الوصفية متشابهة لأنها أعلى الشيء.

كذلك كان استعمال القرآن للكلمات عموما فيما انتقل "تماما" من الاسم للوصفية عند العرب، أو كان وضعه من الأساس أصلا على الوصفية، فالله سبحانه ويحيا والمسيح... أسماء وصفية من الإله والحياة والمسح، وهذه الأسماء مشتقة بشكل مباشر من صفات، وجبريل وميكال وإسرائيل و... اشتقت من لصق صفة ما بالإله على لفظ "إيل" كما يقولون، ونوح ومحمد وعلي... أسماء لها اشتقاق من النوح "البكاء" والحمد والعلوّ...

اليد والوجه والعين والساق... أسماء أعضاء ولكن في الاستعمال تلك الكلمات تشير لوصف عمل أو حالة أو ما يحدث من تلك الأعضاء، كما تقبّلنا بكل سهولة تسمية فتحة كاميرا التصوير بالعين لأنها ممر للصورة علما أنها من زجاج، كذلك نستعمل كلمة عين لنصف رؤيته تعالى للأشياء، رغم أنه تعالى ليس له أعضاء ولكنه يرى، ومن المستحيل علينا تصوّره تعالى يرى في كل نقطة ومن كل الجهات وبداخل كل الأشياء في كل السماوات والأرض، لأنّ هذا فوق قدرتنا لأننا مخلوقات محدودة بدماغ محدود الحجم والقدرات، والحدث هو الرؤية، ووصف الإله سبحانه حين يرى فكيف ستعبّر عنه بأي كلمة من لغات البشر؟

أنت أصلا بعيد كلّ البعد عن التعامل المباشر مع الإله عزّ وجلّ بسبب الفرق الهائل بين تكوينك الطيني وبينه سبحانه وتعالى، وفي الحقيقة أنت لا تعلم فعلا أي شيء عنه تعالى سوى بالتقريب، وباستعمال كلمات اللغة البشرية الفاقدة للتعابير المختصّة بوصف الإله سبحانه، حيث إنّ أساس كل كلماتنا منشؤها بيئتنا، وبعد ذلك تصوّرنا أمورا وأشياء من خارج بيئتنا ووضعنا لها كلمات لتشير لمفاهيم تصوّرناها، حتى لو صار لها كلمات فهي لن تعبّر عن حقيقة ملموسة بل تعبّر عن مفهوم في الذهن... ولذلك نقوم بوصفه تعالى على التقريب دائما بحسب قدرتنا على الفهم، لتعود الكلمات إلى أصل عام خال من التفاصيل، وعندها نصفه تعالى بها.

القرآن استعمل هذا الأسلوب "إرجاع الكلمات إلى أصل عام" ليس فقط أثناء وصفه تعالى، بل بالعموم في مختلف التعابير، ويتم تقييد المعنى العام لكلمة ما بما يناسب استعمالها في جملة ما، فـ{خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا} من الآية 44 من سورة ص، و{وَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} من الآية 30 من سورة الشورى، و{يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} من الآية 10 من سورة الفتح... ترى في هذه الآيات استعمال كلمة يدٍ "على العمومية الوصفية" وهي لكل ما تفعل به، كوسيلة لتحقيق شيء ما، وخصّصت بالعضو حين كانت إشارتها واضحة لاستعمال الكفّ والأصابع لأخذ قبضة من الحشائش الوارد في الآية 44 من سورة ص، وخصّصت بعموم الجوارح من عين ورجل وفم ويد... حين أشارت لعموم وسائل العمل "الكسب"، وبقيت على عمومها للإشارة إلى الوسيلة لتحقيق ما يريده الإله تعالى، فبيده تعالى يخلق ويسيطر ويميت ويرزق... حيث بقدرات وبوسائل من النوع الإلهي تحصل هذه الأمور، وعلى "صفة" الوسيلة لتحقيق شيء ما استعملت الآية كلمة يدٍ بحقّه تعالى.

هنا في الآية الوجه ليس مجازا، ولا مجازا مرسلا، ولا استعارة ولا كناية عن الوجهة، بل استعمال على الوصفية، وليس على اسم عضو له عزّ وجلّ، بل الاستعمال حقيقي على صفة ما تواجه وتقابل به الأشياء، فمَنْ يفنى لا يَعُدْ له وجه، فلا يقابل الأشياء لأنه انتهى، أنا الآن أرى أمامي، وأقف أمامك، أواجهك، وحين أموت وأتحوّل لتراب سأفقد أي قدرة على مواجهة أي شيء، فلا وجه لي، أمّا الله تعالى، فيبقى وجهه، حيث إنّ الكلّ فنوا وهو تعالى بقي بلا تغيّر.

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{28})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بأيّ أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

من هنا تبدأ السورة بالتهديد لمن يكذّب بالآلاء التي سبق وذكرتها السورة، حيث صارت السورة من هنا تنقل أخباراً هي بنفسها آلاء أو متعلقة بآلاء، ولكنها كلام مباشر مع من كذّب بالآلاء، لأنّ ما سبق كان عن السفن واللؤلؤ والبرزخ

المائي... وهنا الآيات تخبر من يقرأ أنه فانٍ وسيبقى وجه ربّه تعالى، فهل التكذيب بالآلاء عمل حكيم من مخلوق فانٍ وواضح أن خالقه باقٍ لا يفنى؟ وأخبرك بأنه سيعيد إحياءك ليحاسبك ويجازيك؟

يعني لو كان الإله عزّ وجلّ فانياً أيضا، فلا آخرة من بعد الدنيا، وبالتالي لا يوجد مشكلة ستنتج عن تكذيب الآلاء، ولكنك أنت فانٍ والإله باقٍ، فهناك مشكلة بتكذيب الآلاء، لأنّ الباقي سيحاسبك ويجازيك بعد أن يحييك.

(يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ{29})
{يَسْأَلُهُ}، يعبّرون له تعالى عن إرادتهم للحصول على أشياء منه، بالدعاء بالطلب أو بالحالة التي هم فيها... {مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، عموم المخلوقات المنتشرة في الدنيا، حيث كلّهم محتاجون لأشياء منه تعالى، وبقاؤهم موجودين متعلّق به تعالى، وكيانهم وحياتهم وما يعيشون منه... ورغباتهم وطلباتهم... كلّها منه تعالى.

{كُلَّ يَوْمٍ}، كلّ فترة زمنية لحدث أساسي وتنتهي بانتهاء الحدث، {هُوَ} تعالى، {فِي شَأْنٍ}، في أمر ما يخصّه تعالى، حيث يفعل شيئا ما من شؤونه الإلهية وهذه حالته العادية سبحانه وتعالى، وسترى من الآية بعد التالية أن الآية هنا تشير للشؤون الإلهية لعوالم السماوات والأرض التي تقابل كل سماء، وهي متنوّعة وكثيرة...

في العمق، آيتنا هنا متقاطعة مع الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}.

الآية هنا ربما تفهم منها أنه تعالى لديه شؤون متجدّدة استجدّت ولم يكن يعلم بها، ولكن انتبه لأنّ الشؤون الإلهية الأولى المتعلقة بالتخطيط والتصميم وما سينتج عنها هي معلومة له تعالى، مثل من يصمّم آلة حيث يعلم ماذا ستفعل حين ينتهي صنعها وتبدأ بالعمل، هذا من جهة، والتنفيذ من جهة ثانية له شؤون، حيث تزوّد الآلة بالطاقة والمواد الأولية وصيانتها... وكذلك الشؤون الإلهية للسماوات والأرض، حيث خلقنا سبحانه عالما بكل ما سيحصل سلفا، وهو تعالى يدير شؤون السماوات والأرض، وهذا هو معنى التعابير القرآنية عن نسبة العرش له تعالى كما تقرأ بشكل أوسع في الآية 54 من سورة الأعراف {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، لأنّ الكلام في الآية هنا ليس عن شأن جديد على معنى استجداد أمور عليه تعالى، لأنّ هذا أصلا لا معنى له، حيث إنّ التعبير بكل يوم متعلق بالمخلوقات وليس به سبحانه، ولا معنى للزمن بالنسبة له سبحانه بالنظر لطبيعته الإلهية التي تفهمها بالتحليل للكلام القرآني، لأنّ الزمن يمر على المخلوقات وهم الذين كل يوم لهم شؤون يرعاها سبحانه، وترى هذا المعنى في الآية الخامسة من سورة السجدة {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}، ومن فحوى الآية 47 من سورة الحج {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}.

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{30})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بأيّ أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

هو الإله متابع لشؤون خلقه هنا في الدنيا، فإن كنت من المكذبين بأي آل من الآلاء، فأنت تكذّب بآل للإله الذي كلّ يوم هو في شأن، وهناك يوم القيامة من الموت، وهناك سيكون شأنه تعالى محاسبتك على أي آلاء كذّبت بها، وهذا ما ستشير له الآية التالية.

كما ترى، تكذيب آلائه تعالى له عواقب، لأنها أعمال واضحٌ عظمتها، وبما فينا من قدرات رؤية الآلاء من المفروض أن تدفعنا لتصديقها وبالتالي للإيمان بدلالتها على إله عظيم، وبالتالي التصديق بما يقوله سبحانه عن الآخرة ومحاسبتنا فيها، وهكذا نستعدّ للآخرة.

(سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ{31})

{سَنَفْرُغُ لَكُمْ}، سنصبّ شؤوننا لكم، ومعلوم أنه سيكون الاهتمام بمجازاتكم، {أَيُّهَ الثَّقَلَانِ}، والخطاب موجّه للإنس والجنّ كما يبدو من بداية السورة من بعدما أشارت لخلقنا من صلصال وخلق الجنّ من مارج من نار، وبعدها بالمثنى سألت عن التكذيب بالآلاء، وسترى من الآية التالية أن السورة لا تزال تتحدّث معنا ومع الجنّ، وهما يوصفان بأنهما ثقلان، وهذا الوصف يستعمله العرب للإشارة إلى عموم أي شيء أو أشخاص لهم ثقل معنوي، وله وزن معنوي، كما ورد في حديث منسوب للرسول (ع) أنه تارك فينا الثقلين، كتاب الله وعترته أهل بيته... ومعلوم أننا نحن والجنّ لنا وزن معنوي، حيث منحنا تعالى قدرة التمييز بين الخير والشرّ ومنحنا حرية الإرادة والاختيار... وكلّفنا... فصار لنا قيمة معنوية نتحاسب عليها، فصرنا نوصف بأن لنا ثقلا معنويا لنتحاسب عليه.

بعبارة أخرى الآن في الدنيا أنتم متروكون على راحتكم وسبحانه متابع لعامة الشؤون المختلفة لتسيير ما في الدنيا... يحيي ويميت ويرسل الرياح... ويرزق ويقدّر... أمّا في الآخرة فلم يبق بالنسبة لنا منه تعالى إلا محاسبتنا، وهذا هو تفرّغه تعالى لنا لأن الشؤون الإلهية المتعلقة بنا انحصرت بمحاسبتنا ومجازاتنا على أعمالنا.

في الكتب التي نقلت ما يسمّونه بالقراءات المختلفة للقرآن، ستجد لكلمة "سنفرغ" عشر قراءات! من بينها قراءة ما يسمّونه "الجمهور" أي عامّة المسلمين وهي المكتوبة أمامك، والتسع الباقية سببها ضعف الحفظ في ذاكرة من قرأها، أو اعتماده على اللهجة التي اعتاد عليها في حياته، "أو لسبب آخر كحبّ التميّز والظهور..."، أو مصحّحا لما يعتقد أن جمهور المسلمين كلّهم على خطأ! أو مصحّحا للإله عزّ وجلّ! أو... وكان من المفترض منهم اتّباع قراءة الجمهور "عموم المسلمين" ولكن لسبب أو لآخر ممّا يكون له محمل حسن، أو تجرّؤوا أو تساهلوا، وأعلنوا قراءتهم الخاصّة! من الواضح جدا جدا في هذه الكلمة أن هؤلاء وأمثالهم لم يعتمدوا الحفظ نقلا عن رسول الله (ع).

عليك يا عزيزتي ويا عزيزي أن تعمّم بقية القراءات التي نقلوها في الكتب على ما فعلوه بكلمتنا هنا، حيث قرأ الرسول (ع) بلهجة واحدة وبلفظ واحد لكل القرآن، ولدينا روايات عمّن استصعب اللهجة الفصحى "القريبة جدا جدا من قراءة قريش" وأجاز له الرسول (ع) القراءة بلهجته، ولكن هذه الإجازة حصرا وفقط لمن كان لسانه ثقيلا على النطق بلهجة "قريش"، وهذا شيء نراه في عصرنا عند كبار السنّ في نطقهم لكلمات أجنبية جديدة دخلت على عالمهم "بانيو، فيديو، بلاستيك..." ونراه في عموم الأطفال الذين لم يتعلّموا الكلمات الأجنبية، ونراه في أنفسنا عند تقليدنا للهجات عربية لبلدان أخرى، فهي صعبة علينا، وكذلك صعوبة الفصحى على بعض الناس.

من ناحية ثانية، إلى عصر من يسمّونهم بالقرّاء، حيث صار لتعدّد القراءات أساتذة يعلّمون الناس قراءتهم الخاصّة... كان لا يزال القرآن مكتوبا بما تعارفوا على تسميته بالرسم العثماني المعدّل قليلا على قواعد النحو والصرف الحديث، أو غير المعدّل بتاتا، وكانت مصاحفهم منقولة بخط اليد مصحفا عن آخر، وكان فيها العديد من الأخطاء في نقل رسم الكلمات، ورغم اجتهادهم في نقلها طبقا للرسم الأول، ولكن الخطأ البشري كان واضحا، ومضافا لما سبق بدأ عصر تطوّر رسم الكلمات بما هو أقرب للفظها، وبدأ الخلاف في قواعدها وما هو الأنسب... ولهذه الأسباب وغيرها، جَهِد المسلمون على حفظ القرآن وتحفيظه لأولادهم عن ظهر قلب "عن الغائب"، وهؤلاء هم الجمهور، فلم يقرؤوا إلّا عن حفظ، ولم يبدوا رأيهم في القراءة، بخلاف من يسمّونهم بالقرّاء أو يذكرون قراءتهم الشاذّة، كأبيّ بن كعب الذي كان يحبّ التميّز فانفرد بقراءة غيّر فيها الكلمات! ومثله الحسن البصري، وأمثال زيد والنخعي... الذين من الواضح جدا خيانة ذاكرتهم لهم "على المحمل الحسن"، ومن يقرأ على مزاجه اللغوي كالشعبي والكسائي وحمزة وابن عمرو... ومن لم يعتمد الحفظ وخانته الذاكرة ولم يسعفه الرسم الذي أمامه لأنه بلا تشكيل دقيق وعلى الخط المسند أو الكوفي أو الحجازي القديم... أو في النسخة التي معه أخطاء إملائية... فقرأ بما يراه مناسبا! لأنه يصنّف نفسه من العلماء الكبار، فقرأ بما يراه هو مناسبا للمعنى الذي هو رآه صحيحا، ففعلوا ذلك بدلا من السؤال عن القراءة الصحيحة كابن أبي عبلة والكسائي والفرّاء... وهناك من أجاز لنفسه القراءة بلهجته أو بخليط بين لهجته ولهجة قريش، كقراءة ورش الشاذّة لوحدها بشكل متميّز عن الجميع... ونشروا قراءتهم بكل استهتار إن لم نقل وقاحة، والأنكى من ذلك نقلهم لتلك القراءات مبررين لها لغويا ودينيا...

ضع في بالك دائما يا عزيزي ويا عزيزتي أن القراءة التي بين يديك اليوم والمنسوبة لحفص، هي قراءة جمهور المسلمين، وحفص واحد من العديد من القرّاء المحترمين الذين اعتمدوا الحفظ فقط، فنقلوا ممن سبقهم ممن اعتمد الحفظ الدقيق، وهكذا نقلوا للآخرين نقلا عن الرسول (ع) شخصيا وبالحرف، وللأسف نام علماء المسلمين عن ذكر آلاف

القرّاء واكتفوا بحفص كممثّل لتلك الآلاف، وذكروا لنا في مقابلها قراءة شاذّة لشخص واحد، حتى توهّمنا أن قراءة حفص هي قراءة شخص في مقابله شخص آخر قرأ بطريقة مختلفة! وكأنها قراءة مقابل قراءة، بينما حفص ممثّل لقراءة جمهور المسلمين.

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{32})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بأيّ أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

إن كنت كذّبت بواحدة من آلائه تعالى فخذ نبأ أنه سبحانه سيفرغ فقط لمحاسبتك في الآخرة ولن تقوم أنت بأي عمل آخر، فكذّب إن كنت تتحمّل تفرّغه تعالى لك لمجازاتك.

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ{33})
{يَا مَعْشَرَ}، يا جماعة بينها عِشْرَةٌ فبينها معاطاة، {الْجِنِّ وَالْإِنْسِ}، فيا معشر الجنّ ويا معشر الإنس، {إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا}، فإذا قدرتم أن تمرّوا، فالنفوذ هو مرور لشيء صغير من شيء كبير، أو المرور من فتحة صغيرة حتى لو كانت طويلة... {مِنْ أَقْطَارِ}، مِنْ قِطَاعَاتٍ مختلفة فسيحة، كما نقول: القطر العربي. ونقصد مساحة واسعة مترامية الأطراف يسكنها العرب، فإذا استطعتم المرور من، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، ونحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أَيْضًا على قبّة النجوم التي نراها لَيْلًا ونطلقه أَيْضًا على عالم الملائكة(ع) ونطلقه مَعْنَوِيًّا على الْجَنَّةِ... لذلك ضع في بالك دائما أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنويا" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض تُرَابِيَّةٌ، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...} وهي إشارة إِلَى وجود سبع أَرَضِينَ مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أَرَاضٍ "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضا بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أَرَاضٍ.

نَرْجِعُ للآية، فالنفوذ من قطر "كوكب" الأرض إلى الغلاف الخارجي "الجوي" للأرض حَصَلَ، والنفوذ من الغلاف الخارجي إلى قطر آخر إلى قطاع آخر في سمائنا، إلى القمر وكواكب المجموعة الشمسية حَصَلَ أَيْضًا، والنفوذ من هذا القطر إلى أبعد منه، فإذا استطعتم النفوذ من قطر في سماء إلى قطر آخر، أو من سماء إلى سماء أُخْرَى وُصُولًا إلى سماء الملائكة العالية، {فَانْفُذُوا}، تَرَكَ سبحانه لكم المجال مفتوحا للمرور.

{لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}، لا تمرّون إلا بشيء قَوِيٍّ يفرض تحقيق النفوذ، مَنَحَكُمْ تَعَالَى السُّلْطَانَ وَأَتَاحَ لكم القوة التي تحتاجونها للنفوذ.

من الآية بعد التالية سترى أن الخبر هنا عن مستقبل قيامنا نحن مَعْشَرَ الْبَشَرِ بالنفوذ في السماوات، وكلمة معشر هنا تأتي لتشير إلى البعض منّا البعض ممن نعاشرهم وَسَيَنْفُذُونَ وليس الجميع، وَسَبَقَنَا معشر من الجنّ إلى ذلك، كما نفهم من الآية 8 من سورة الجن {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا}، والآية بعد التالية تخبرنا أن أقصى حدود يمكننا نحن والجنّ الوصول إليها ستكون إلى سماء الملائكة العالية(ع)، وهذه من غير المعلوم أي سماء هي من بين السماوات السبع، فربما هي السماء السابعة أو السادسة أو الخامسة...

كَلِمَةُ نفذ أو مشتقاتها لم ترد إلّا هنا في القرآن.

بِالنِّسْبَةِ لسياق كلام السورة فالكلام هنا عن حالة العلبة الكبيرة جِدًّا التي نحن فيها، وهكذا ننتبه لحجمنا ومن نحن، وَأَيُّ تَبَجُّحٍ بالنفوذ في أقطار السماوات فهو لا يعطيك العذر بتكذيب آلائه تعالى بل يريك آلاءه تعالى عليك وعلى الجنّ حيث أتاح سبحانه لنا استكشاف السماوات...

الْكَلَامُ ضِمْنًا يشير لفرضية لو خطر ببال أحد ما محاولة الخروج من ملكه تعالى، وبالتالي الوصول إلى مكان لا يحكمه تعالى للهرب منه سبحانه، فيمكننا النفوذ من أقطار السماوات ولكن إلى أين سنصل؟ وستجيبنا عن ذلك الآية بعد التالية.

بقي شيء، حَيْثُ قَالَ أحدهم أَنَّهُ تُوجَدُ بَوَّابَاتٌ مُحَدَّدَةٌ على الأرض للنفوذ منها إلى السماء، واستعمل بعض الآيات القرآنية ليجعل الموضوع يبدو كمعلومة قرآنية قديمة، وبذلك تظهر القيمة العالية لقرآننا وديننا في مقابل تفاهة وبياخة الصواريخ والأقمار الاصطناعية التي سبقهم القرآن للكلام عنها، فنحن أعظم منهم... وهذا المستوى المتدنّي من التفكير مصيبة، وفوقه مصيبة تفسير القرآن على المزاج، وفوقه مشكلة الذين يتداولون هذا الكلام متفاخرين به، وكأن هذه الزوبعة التي في فنجان ستغيّر من الواقع أَيَّ شَيْءٍ، وَنَصِيرُ متفوقين وعلومنا أرقى! بينما نَحْنُ مُسْتَهْلِكُونَ من الدرجة الثالثة والرابعة للتقانة...

لِلْأَسَفِ، الْمُسْتَوَى المتدنّي يجرّ بعضه، ويجرّنا معه إلى تَحْتُ، وَالْغَرِيبُ من ناقلي أمثال هذه المقالات أنهم لم يسألوا أنفسهم: من القائل؟ فهل هو متخصص محترم علمه؟ أم نتعامى عن كل شيء ونقبل بكل شيء طالما نهايته: قرآننا عظيم. عِلْمًا أَنَّهُ بقليل من المعلومات الفلكية سترى أن كلامه تخريف.

للأسف هذه هي القاعدة، والتي نظنّ أننا نزداد إيمَانًا ونكسب الحسنات بتطبيقها، لا، فقرآننا عظيم ولكن ليس بهذا الشكل السخيف، وَفِي الْآيَةِ هنا والآية بعد التالية فِعْلًا خَبَرٌ مستقبلي عن نفوذنا في الأقطار، فاتقوا الله وتوقّفوا عن الخزعبلات التي ستتحاسبون عليها، فأقل أقل ضرر منها هو تسخيف عقول المسلمين، فهل تراه ضَرَرًا قَلِيلًا؟

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{34})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بِأَيِّ أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لَا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

السُّلْطَانُ الممنوح لكم للنفوذ في أقطار السماوات، وهو "آل" عمل إلهي عظيم، ووجود أقطار للأرض "صعودا" وأقطار للسماوات هو "آل" عمل إلهي عظيم، وأينما ذهبتم ستبقون تحت سلطته تعالى، فبأي آل لا تصدّقون أنه يدل على إله بقدرات فائقة؟

(يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ{35})
ستصلون بعد النفوذ من أقطار السماوات إلى حيث:

{يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ}، يتم إطلاق شظايا كقطع من الحجم الكبير عليكم أيها الجنّ والإنس، {مِنْ نَارٍ}، ويرسل عليكما، {وَنُحَاسٌ}، وهو يرادف في عصرنا البرونز، حَالِيًّا كلمة نحاس نستعملها لخام المعدن، ولكن الكلمة العربية القديمة كانت "صُفْر" وكلمة نحاس كانت لخليط الصُّفْرِ مع المعادن الأخرى وَحَالِيًّا نسمّيه البرونز. اسْتِخْرَاجُ النحاس قديما كان من قطع الكبريت التي في الطبيعة والتي فيها نحاس، فيتم إحراقها ويصدر عنها دخان الكبريت بلا نار ويبقى النحاس. هذا ما استنتجته من مجموع كلام القواميس وبعض المراجع القديمة التي تتعاطى بالمعادن.

{فَلَا تَنْتَصِرَانِ}، لَا تقدران على تحقيق النفوذ في أقطار السماوات، وكما تعلم من الآية 9 من سورة الجنّ {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا}، والآية 10 من الصافات {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}، وغيرها من الآيات، نفهم أنه يوجد إمكانية لاختراق أقطار السماوات والأرض وصولا إلى سماء الملائكة العالية(ع)، وهناك مَنْ يحاول الاختراق سيجد له شهابا رصدا، حَيْثُ سيتم رميه بالشهب.

يعني هناك قطر من الأقطار لا يمكنكم تخطيه ولن تتخطّوه، وهكذا سترون نموذجا عن "آلائه"، عن أعماله العظيمة سبحانه وأنكم باقون تحت سيطرته تعالى دائما وأينما كان.

لاحظ أن المعدن الأصفر سمّوه قديما صُفْرًا "نحاس أو ذهب"، والمعدن الصلب الحادّ سمّوه حديدا، سواء أكان من معدن الحديد أو من خلائط الحديد مع النحاس أو حتى من معادن أخرى غير الحديد..."، ويبدو أن كلمة نحاس في بعض استعمالات العرب تشير للّون الغامق للأصفر المائل للأسود، وبه سمّوا خليط معدن الصُّفْرِ مع المعادن الْأُخْرَى. أقول

لك هذا لتضعه في بالك لترى أنه من أساس تكوّن اللغات كانت الوصفية دارجة لاشتقاق أسماء الأشياء منها، وَمَرَّ معك كلام عن وجهه تعالى على الوصفية في الآية 27 فَرَاجِعْهُ...

بقي شيء آخر، آيَتُنَا هذه استفزازية لفضولنا، حَيْثُ تخبرنا عن إمكانية نفوذنا في أقطار السماوات وصولا إلى سماء لا يمكننا تخطّيها بسبب الشهب، وَتُخْبِرُنَا عن نفوذنا إلى سماوات مختلفة التكوين والبيئة عن سمائنا المشكّلة من مجرات، وَلا تشير إلى وصولنا إلى مجرّات أخرى، لِأَنَّ هذا ممكن، ولكنها وكما ترى تُشِيرُ لأعظم من ذلك، حَيْثُ تشير للانتقال إلى سماء أخرى مختلفة عن الكون الذي نراه بالتلسكوبات... ومتى سيحصل ذلك؟ غير معلوم، وتوقّع متى سيحصل هذا يَتَعَارَضُ مع ما هو شائع في عموم ثقافة المنتمين لدينه تعالى، فهم بغالبيتهم يعتقدون أن الآخرة ليست بعيدة! وأن عمر الدنيا لن يستمر لسنوات أو لمئات منها... وهذا غير صحيح، قَدِيمًا قبل آلاف السنين قيل هذا الكلام ومن دون أي مستند إلهي، ولا يزالون يقولونه ومن دون أي مستند إلهي، هَا هُوَ القرآن أمامك فانظر في دراستنا هذه في أي آية تظن أنها تشير لقرب انتهاء الدنيا، وسترى أن عمر البشرية قد يمتدّ لآلاف أو ملايين السنين... وبعدها سيحصل تبدّل السماوات والأرض لتأتي الآخرة.

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{36})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بِأَيِّ أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لَا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

هَذِهِ الأقطار وقدرتكم على النفوذ فيها، وآخر حدود يمكنكم الوصول إليها في السماوات، والتي سَمَاؤُنَا الهائلة الْوَسَاعَةِ بمجراتها هي واحدة من تلك السماوات، وستصلون إلى حدود لا يمكنكم تخطيّها، أليس هذا آلًا؟ أليس هذا عملا عظيما يدلّ على إله فائق الصفات؟

(فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ{37})
{فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ}، سَتَبْقَى الدنيا إلى أن تنقسم السماء وَتَتَفَارَقَ عن بعضها عموم التي فوقكم، والتي سبق منذ قليل الكلام عن نفوذكم في أقطارها، {فَكَانَتْ وَرْدَةً}، لونها كلون الوردة، وكلمة زهر لعموم ما تفتّح وتقال للنبات والحيوان، والورد في النبات لخصوص ما كان له أوراق ملونة كبيرة نسبيا ولا ينتج عنه ثمر، ويستعمل العرب هذا التعبير بالورد للإشارة للّون الأحمر عادة، ومن المرجّح أن الوصف يشير أيضا للشكل، كتشبيه انشقاق السماوات بأوراق الوردة، {كَالدِّهَانِ}، كأنها مدهونة مطلية.

مجمل تعبير الآية من الانشقاق واللون والشكل يشير للون أحمر متدرج كلون الورد ومبقّع والسماوات تبدو كورق الوردة.

كَتَفْسِيرٍ للوصف بوردة كالدهان تَدَاوَلَ الناس صورا لسدم غازية في الفضاء البعيد لها حجم هائل ولونها أحمر مبقّع، ولكن هذه الصور لا تعكس حقيقة المنظر لأن الألوان غير حقيقية، ونتجت عن برمجة بالكومبيوتر تلاعبت بالصور لتجعل فيها تدرجات للحرارة أو الكثافة، فانتبه جيّدا ولا تنجرّ وراء الكلام الفارغ عن الاكتشافات العلمية للقرآن، لأن القرآن كتاب هداية فيه من العظمة ما يكفيه، ولم يعرض علينا نظريات علمية أبدا، وهنا الآية كما سترى مما يليها تَتَحَدَّثُ عن مشهد للسماء "تتشقّق" قبل يوم القيامة، "تَتَشَقَّقُ" ولم تتحدّث الآية عن بقعة سديمية، بل عن لون كامل منتشر لانشقاقات السماء.

في الآية 8 من سورة المعارج {يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ}، نجد وصفا للسماء كالمهل وهو وَصْفٌ لشكل تموّج السائل السميك من شدة سخونته، كالزيت المغلي، وبجمعها مع آيتنا هنا يبدو أن سبب احمرار السماء حينها سيكون من السخونة العالية، ورغم محاولتنا للتمسك بمعاني الكلمات للوصول إلى تفسير دقيق من دون التأثّر بمخزون معلوماتنا، مَا يتبادر إلى ذهننا وبسبب تشبّعنا بالمعلومات الفلكية الدارجة في عصرنا، يَدْفَعُنَا ومن دون أن نشعر لتفسير كلامه تعالى انطلاقا من مخزوننا الثقافي والصور الفلكية التي في بالنا.

بقي شيء، الْآنَ يمكننا تخيّل انشقاق سمائنا وكونها حمراء، لأننا نعلم أن ما يبدو فراغا بين المجرات وبين نجوم المجرات لَيْسَ فراغا، بل وبحسب معطيات علوم زماننا مَلِيءٌ بمادة نسميها بالمادة المظلمة وَالطَّاقَةِ المعتمة، "وهذا يبدو بشكل أو بآخر إحياء لكلمة الأثير القديمة"، وَيُمْكِنُنَا تصوّر وتخيّل تشقّق شيء من تلك المواد والأشياء عن بعضها، ولكن يبقى مجرد تصوّر لأن هذه السماء هي أول سماء من سبع سماوات مختلفة في تكوينها عن سمائنا، والكلام في القرآن عن عموم تشقّق السماوات وليس سَمَاءَنَا "كوننا" فقط.

عَادَةً يلفت القرآن انتباهنا لأمور سهلة جدا كنماذج من آياته تعالى، ككلامه عن خلقنا من تراب ونزول المطر وَسَيَرَانِ السفن بالريح والليل والنهار... ومن كلام الآية هنا تنتبه أن الحالات النادرة التي لفت القرآن فيها انتباهنا لأمور لم نختبرها، سَنَجِدُ صعوبة في فهمها لأننا لم نرها، وَالْمُعَلِّقُونَ على القرآن حين يذكر الأمور العادية المفهومة بسهولة، ويطلبون كلاما عن أمور لم يختبروها بعد، لتكون دليلا لهم أن القرآن مصدره إلهي، وليس من تأليف بشري ذكر فيه ما يعلمه، هَا هُوَ النفوذ في أقطار السماوات والأرض نموذج عن شيء سنختبره في الدنيا في المستقبل، وَهَا هُوَ الكلام عن انشقاق السماء الذي سيحصل في الآخرة.

سَمِعْتُ وقرأت تعليقات ساخرة من توصيف السماء بالوردة كالدهان، وكما ترى هَؤُلَاءِ لا لفت انتباههم للّيل والنهار وللنبات وللحيوان... يجعلهم يرونها آيات دالة عليه تعالى، ولا الخبر عن شيء مستقبلي يجعلهم يؤمنون! فهم سيكفرون مهما جاءتهم من آية... فمشكلتهم ليست مع وضوح الآيات بل مع الحقّ والصلاح لِأَنَّهُمْ لا يريدونهما.

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{38})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بِأَيِّ أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لَا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

الآية السابقة خبر عن حصول يوم تتشقّق السماء فيه، وهذا عمل إلهي عظيم، والآية التالية تخبرنا أن التشقّق للسماء يتبعه مجازاة الإنس والجانّ، فيا أيها المكذّب ولو بواحدة من آلائه تعالى تجهّز لذلك اليوم.

(فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ{39})
{فَيَوْمَئِذٍ}، فِي الفترة الزمنية التي يحصل فيها تشقّق السماء، وهو يوم تتبدّل السماوات والأرض، ويقوم بعدها الناس والجنّ من الموت، {لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ}، لَا يتم التعبير عن إرادة الحصول على معلومة عن عمل مخالف لأوامره تعالى، {إِنْسٌ}، واحد من الناس، {وَلَا جَانٌّ}، وَلَا واحد من الجنّ، فذنوبهم معلومة مسجلّة، وسيسألهم تعالى عنها حين يحاسبهم، أما الكلام هنا كما سترى من الآية بعد التالية فهو عن مشهد قيامهم من الموت فالمجرمون سَيَكُونُونَ معروفين بسيماهم، ففي الآخرة لا داعي لتسأل عن هذا وذاك إن كان مؤمنا أو مجرما، فشكله وحاله يدلّك على وضعه.

كما سترى من الآية بعد التالية ومن عموم ما تعرفه من القرآن، فالذي ارتكب ذنبا سيتوجّه له سؤال لمحاسبته، ولكنه سؤال حساب وليس سؤال تحقيق، فلن يكون سؤالا لمعرفة إذا ارتكب الذنب أم لا، وهل هو مجرم أم لا، فالمجرمون معروفون بسيماهم كما سترى من بعد الآية التالية، وعليه فالآية هنا تشير إلى علمه تعالى بالمؤمن والمجرم من دون أن يسألهم، ومن أول ما يستعيدون وعيهم في يوم القيامة سيتم التعامل مع المجرم بالضرب والإهانة قبل توجيه أي سؤال له، وبالعكس فسيتم التعامل مع المؤمن باحترام وكرامة وأيضا قبل توجيه أي سؤال له، وهذا ما تقصده الآية هنا.

تصوّر مشهد جماعات الناس قامت من الموت، وَأَحْيَاهَا تعالى ليحاسبها، فهل تحتاج أن تسأل هذا وذاك عن ذنبه لتعلم إن كان مؤمنا أو مجرما ولتفرزهم على هذا الأساس؟ فهناك سيتم رمي المجرمين في النار والمؤمنين في الجنة، وسيقوم الناس من التراب كخليط من مؤمن بجنبه كافر... فهل هم متميّزون معروفون من بعض بدون أن تسألهم؟ فتقول لك الآيات هنا إِنَّهُمْ من سيماهم وبدون توجيه أي سؤال لهم، فمن دون التحقيق معهم، سيتم التعرّف بسهولة على المجرمين.

أَطَلْتُ عليكم الكلام لأن البعض قَطَعَ تسلسل آياتنا هنا وقال إِنَّ القرآن مرة يقول إِنَّنَا في يوم القيامة سَيَسْأَلُونَنَا عن ذنوبنا ومرة يقول لن يَسْأَلُونَنَا! وكما ترى فالكلام هنا عن ظهور حالة كل واحد منّا "مؤمنا أو مجرما" من دون أن يَسْأَلُونَنَا عن أعمالنا لمحاسبتنا، فالمجرم من دون أن تسأله فمن سيماه تعلم أنه مجرم...

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{40})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بِأَيِّ أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لَا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

تجهّزوا أيها المكذبون بالآلاء ليوم لا تسألون فيه عن ذنبكم لأنه مفضوح واضح مكتوب ومنشور ليراه الجميع، وسيماكم تدل على حالتكم... فلنكمل:

(يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ{41})
{يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ}، يَتِمُّ التعرّف على الذين قاموا بأعمال يستحقّون عليها العقاب، {بِسِيمَاهُمْ}، بعلامات ظاهرة، من الشكل الخارجي ومن تشوهّات مناظرهم وسواد وجوههم الكالحة... فمعروف أنهم مجرمون لأنهم من سيئاتهم نتجت مناظرهم الكريهة، {فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي}، يَتِمُّ أخذ المجرمين من النواصي من مقدّم شعر الرأس، {وَالْأَقْدَامِ}، لَا يتم أخذهم باحترام من يدهم ليمشوا إلى الحشر والحساب والنار، بل من شعر رأسهم يتم سحبهم على وجوههم على الأرض كما تعلم من سور أخرى، ويتم سحبهم من أرجلهم ليتجرجر بطنهم ووجههم على الأرض، وهذا تعبير تصويري لما نقوله بالعامية: سحبوه من رأسه ومن رجليه.

وكما ترى فمن أول ما نعود إلى الحياة نرجع وشكلنا يدل على حالتنا التي كنّا عليها في الدنيا من الإيمان أو الكفر، فلن نخرج من التراب كلّنا على هيئة واحدة وبعدها تتغيّر حالتنا، لا، فمن أوّل لحظة يقوم المجرم من موته وهو يشعر بالانزعاج وضيق التنفّس والألم... وشكله كريه...

لاحظ وانتبه أن القرآن لم يستعمل ولا مرّة في حقّه تعالى كلمة "عرف" أو أي من مشتقاتها، فالمعرفة من التعرّف وهي العلم بالاعتماد على الْأَمَارَاتِ بطريقة غير مباشرة، أو العلم حديثا بشيء لم تكن تعلمه، أو العلم بالتلقين من آخرين لشيء لا تعلمه... ولذلك لا يوصف تعالى بالمعرفة ويوصف فقط بالعلم.

بقي شيء، فَكَثِيرًا من الأحيان ترى أن معرفتك بمعاني الكلمات بدقّة تُعْطِيكَ مَعْنًى سهلا وواسعا للآية، فهنا تصف الآية أناسا مجرمين، وهذه الكلمة تشير لقيامهم بأعمال استحقّوا عليها العقاب، فهذا هو معنى كلمة مجرم، وهكذا ترى الآية خبرا كاملا، فهذا مجرم، فهذا شخص ارتكب عملا يستحقّ عليه العقاب، وها هو ينال عقابه. ومثال آخر عن كلامه تعالى عَنِ السماوات والأرض مرارا وتكرارا أَنَّهُ هو تعالى خلقها، فمعنى كلمة خلق هو: تأليف وتركيب. وهكذا لوحدها الكلمات تدلّك على ضرورة وجود من ركّب الأشياء لتصير الدنيا وما فيها، ومن ناحية ثانية فكلمة إله بمعناها الحقيقي يخبرك عنها إله، فهو أدرى بصفاته، ويخبرك أَنَّ طبيعته ليست مركّبة ولا مؤلّفة، وبالتالي فَمَعَانِي الكلمات تُشِيرُ إلى أنه تعالى لا تجري عليه كلمة انخلق، وكان، ومن خلقه، وكيف صار... فهذه كلمات أصلا لا تجري عليه تعالى.

وغيرها العديد من الأمثلة التي تعطيك مَعَانِيَ سَهْلَةً وعميقة لأن الإله بعلمه الواسع استعمل اللغة العربية بدقة وقوّمها لتكون أدق مما يستعمله الناطقون بها، وهكذا فبتعرفنا على المعاني الدقيقة للكلمات سنرى مَعَانِيَ جميلة للقرآن.

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{42})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بِأَيِّ أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لَا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

فتجهّز أيها المكذّب بالآلاء للزمن الذي فيه سيكون شكلك وحالتك تَدُلَّانِ على إجرامك.

(هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ{43})

{هَذِهِ جَهَنَّمُ}، هذا هو المكان الذي يوصف بسوء ما فيه، {الَّتِي يُكَذِّبُ}، لَا يصدّق، {بِهَا الْمُجْرِمُونَ}، الَّذِينَ قاموا بأعمال يستحقّون عليها العقاب، وهنا الإشارة للتكذيب بالآلاء، فهم كانوا لا يصدّقون أن جهنّم موجودة، ولذلك تجرّؤوا على ارتكاب الجرائم، وهناك سيرونها وَسَيَكُونُونَ فيها، وهناك يصدّقون بها ولكن حينها لن ينفعهم التصديق بها.

ومن دراسة أشعار العرب قديما قبل الْإِسْلَامِ وجدت فرقا بسيطا بين كلمتي جحيم وجهنّم، فجهنّم باستعمال القرآن هي اسم مكان مشتق من الوصف بجهنم الذي يشير لسوء الحالة أو المكان، واستعمال هذا الوصف لمكان تعذيب في الآخرة، فهو وصف للأنواع المختلفة المسببة للعذاب مما في المكان، ففيه النار المحرقة وفيه الضرب وفيه طعام كريه ورائحة كريهة... وتفهم ذلك من فحوى الآية 49 من سورة غافر "وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ...". وفي بيتين من الشعر قبل الْإِسْلَامِ وجدت إشارة بكلمة جحيم لضخامة النار، ويناسبها ذلك في القرآن كما ورد في الآية 97 من سورة الصافات "قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ"، فالجحيم وصف الضخامة في السوء.

(يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ{44})
{يَطُوفُونَ}، يذهبون ويأتون، {بَيْنَهَا}، بين جهنّم، {وَبَيْنَ حَمِيمٍ}، ساخن ومغلي، وهو مشابه لسائل من المعدن، كالحمم البركانية، {آنٍ}، وَصَلَ إلى نهاية ما يمكن أن يصل إليه، إلى منتهى الحرارة العالية التي يمكن أن يصل إليها.

في الآية 68 من سورة الصافات "ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ"، نجد كلاما عن أكلهم من الزقوم ثم مرجعهم إلى الجحيم، مما يشير إِلَى انتقالهم من نوع من التعذيب إلى نوع آخر، ثم العودة للنوع الأول من التعذيب وبعده نوع آخر... وهنا الإشارة إِلَى نفس الشيء بين جهنّم بين مكان سيّء من نار مستعرة ومع ضرب وجرجرة... وبين الحمم.

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{45})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بِأَيِّ أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لَا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

فهذا الطوفان بين جهنم والحميم هو مصيركم إن كذّبتم بآلائه تعالى، فخذوا علما به من الآن، وباختياركم صدّقوا فآمنوا، أو كذّبوا فاكفروا وارتكبوا الجرائم فهذا ما سَتُلَاقُونَهُ إن كذّبتم.

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ{46})
{وَلِمَنْ خَافَ}، لمن صار لديه شعور سببه توقّع حصول ضرر وخطر لا يمكن تجنّبه، {مَقَامَ رَبِّهِ}، حالة المسؤول عنه من مستوى إلهي عندما يفعل، وهنا بالتحديد بالنسبة لسياق الكلام، فهو لم يكذّب بالآلاء ورآها أَعْمَالًا تدل على رَبٍّ قدراته وصفاته العظيمة، فهذا الخائف له، {جَنَّتَانِ}، مكانان موصوفان بروعة ما فيهما، فيهما حدائق وبساتين وما يسبّب له السعادة.

مَنْ شعر بخطر لا يمكن تجنّبه وهو العقاب الحتمي إذا لم يوقّر وَيُجِلَّ "يحترم" من قام بِالْأَعْمَالِ الربوبية من مستوى إلهي، فلم يكذّب بما يراه ويسمعه ويدلّ بوضوح على رَبٍّ عَظِيمِ الصفات والقدرات، وَعَمَلِيًّا ومن اشتقاق المعنى فهو خاف من تبعات المسّ بالمكانة الإلهية والاستهانة بها "مقام ربّه"، وبالتالي آمن وأطاع الأوامر الإلهية، فله مكان موصوف بروعة ما فيه من بساتين وحدائق ووسائل سعادة كيفما دار فيه، وَالْخَوْفُ هنا في الدنيا من مقامه تعالى لَهُ نتيجة رائعة في الآخرة، لِجِهَةِ اليمين أو الشمال سيكون في جنّة.

كما ترى فِي مقابل طوفان المجرمين بين جهنّم وحميم، لِلْمُؤْمِنِ جنتان، ومن الآية 32 من سورة الكهف والآية 15 من سورة سبأ نفهم أن التعبير بالجنتين يعني كونهما عن اليمين وعن الشمال، فإذا ذهب إلى جهة اليمين فالجنّة ممتدة، أو ذهب إلى جهة الشمال فَأَيْضًا الجنّة ممتدّة، فلا تفهمها أنهما جنتان كلّ واحدة في مكان بعيد عن الأخرى، وَهَذَا ليس المقصود، بَلْ هُمَا متصلتان يفصلهما نهر أو أنهار أو بيت أو بيوت أساسية في الوسط، وكيفما ذهب إلى اليمين أو الشمال سَيَبْقَى في الجنّة، هذا ما تريدك الآية أن تفهمه في مقابل من في النار الذي خياراته محدودة بين جهنّم وحميم،

وهذا المعنى ستراه بعد قليل حين تقول السورة "ومن دونهما جنتان"، حَيْثُ تَتَمَيَّزُ هذه الجنّة بشيء وتلك تتميّز بأشياء أخرى.

ضع في بالك أن العرب حين نزول القرآن لم يكونوا يستعملون كلمة "مقام مقامي" على معنى مكانتي، قيمتي، مركزي... وَدَرَجَ فيما بعد استعمالها بهذا المعنى، ولم يستعملها القرآن إلا بمعناها كما كان يستعملها العرب: حيث أقوم بعمل ما، وضعي حين أكون مُفَعَّلًا... ما أقوم به من أعمال في مكان ما... وفي آيتنا هنا بالتحديد ستجد بعض المفسرين التزموا بالمعنى الأصلي للكلمة، وَانْتَبِهُوا أَنَّ تفسيرها بمكانته تعالى ليس من أصل معنى الكلمة، وآخرون لم يخطر ببالهم أن معنى المكانة من المقام هو اشتقاق وَلَيْسَ مَعْنًى أَصِيلًا، مع أنه معنى متوافق بالاشتقاق والتطبيق من المعنى الأصلي، ولذلك قلنا هنا إِنَّ اشتقاق معنى المكانة الإلهية من الوصف بالمقام مُنَاسِبٌ تَمَامًا، وَهُوَ هنا من تبعات معنى حالة التفعيل.

السُّورَةُ هنا لم تفصّل في درجات المؤمنين في الجنّة، واكتفت بذكر عموم ما يحصل عليه أهل الجنّة، فأي شخص دخل الجنّة سيحصل على ما ستذكره السورة، ومن يدخل الجنّة حَتْمًا يَكُونُ من الذين كانوا يخافون مقام ربّهم سبحانه، بِغَضِّ النظر عن التفاصيل المذكورة في الكتب والروايات عن مقامات الإيمان من العبادة خَوْفًا من النار، أو العبادة طَمَعًا في الجنّة، أو العبادة حُبًّا له تعالى، وَالْخَوْفُ من المسّ بمقامه تعالى، من فعل أو قول أي شيء يعبّر عن قلّة احترام له تعالى، فهذا الخوف هو شيء مشترك بين كلّ الذين سيدخلون الجنّة.

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{47})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بِأَيِّ أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لَا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

ستحرمان من هذه الجنان إن كذبتما بواحدة من آلائه تعالى، وإن كنتم لا تعتقدون بوجود تلك الجنان فتعتبرون هذا الخبر عنهما كَاذِبًا غير صحيح، فَأَنْتُمْ أَيْضًا من المكذبين بآلائه تعالى.

(ذَوَاتَا أَفْنَانٍ{48})
الجنتان، {ذَوَاتَا}، يوصفان بأن لهما، {أَفْنَانٍ}، تفرعات فلهما أغصان طرية كثيرة الورق.

سَتَرَى من بقية الآيات أن الوصف للجنّتين يشير لكونهما بساتين وحدائق.

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{49})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بِأَيِّ أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لَا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

أَلَا تصدقان الأخبار عن تفاصيل روعة جنّة الآخرة! وتعتبرانها كَلَامًا فَارِغًا وَهْمِيًّا! فستتحاسبون على ذلك.

لاحظ أن تكرار جملة {فَبِأَيِّ آلَاءِ...} يَبْدُو مُبَالَغًا فيه هنا، وَتَظُنُّ أن المعنى هو نفسه لو حذفناها وذكرناها بعد الانتهاء من ذكر صفات الجنتين، ولكن السورة أرادتك أن تلتفت لأي تفصيل عن الجنّة، وَلَمْ ترد شمل كلّ الجنّة بأنها آلَاءٌ وَاحِدَةٌ، بل كلّ تفصيل فيها هو آلاء، وتفهمها بسهولة إذا سمعت أَحَدًا مَا يسخر من أنهار الجنة، وآخر يسخر من الحور العين، وآخر يسخر من الشجر والبساتين... فكل تفصيل هُوَ آلٌ، وأي تكذيب بأي تفصيل فهو تكذيب بِآلٍ، وتسألنا السورة عن الكثير من التفاصيل، فبأي واحد منها تكذبان؟ فأي واحد لا تعتبرانه عَمَلًا يدل على إله عظيم؟ أو لا تعتبرانه وَعْدًا صَادِقًا سيتحقّق من إله عظيم؟ أو تعتبرانه كَلَامًا فَارِغًا لا صحّة له؟ فأي واحد منها؟ حَتَّى "الأغصان" التي في شجر الجنّة تسألنا السورة إن كنّا لا نؤمن بها.

(فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ{50})

{فِيهِمَا}، في الجنتين، {عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ}، فتحتان في الأرض "نبعان" تخرج منهما وَتَسِيلُ منهما السوائل، كالماء أو اللبن أو الخمر...

بعد قليل ستقول السورة أَنَّهُ تُوجَدُ جنتان أخريان وفيهما كذا وكذا، وفيهما عينان... يعني في جنّة الآخرة جنّات فيها الكثير من العيون، وفي كلّ جنّة ممتدة يَمِينًا وَشِمَالًا "وطولا وعرضا" يوجد عينان، وتتميّز بأمور فيها، ويوجد جنّة أخرى أَيْضًا ممتدة يَمِينًا وَشِمَالًا وفيها عينان وتتميّز بأمور أخرى...

لاحظ السورة تلفت انتباهك للتنوّع في جنّة الآخرة، لتنوّع الأماكن، وتنوّع ما في تلك الأماكن، وتميّز تلك الأماكن عن بعضها بأشياء مغايرة لما في الأخرى. ضع هذا في بالك لأن بعض الناس يفكرون بضبابية بجنّة الآخرة ولا يحتفظون في ذاكرتهم بالتفاصيل التي يذكرها القرآن، فيقولون أَنَّهُ سَيَكُونُ مَلَلٌ في الجنّة... فتأتي أمثال آياتنا هذه لتلفت انتباهنا للتنوّع هناك، ولتنوّع الأماكن بمناظرها وبما فيها...

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{51})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بِأَيِّ أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لَا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

أَيْضًا تكمل السورة سؤالها بعد كلّ تفصيل عن أي آل يكذّبون بها.

من كذّب كَذْبَةً عن شيء أو حادثة، وكذّبه الناس، فإنه يتراجع عن كذبته أو عن بعض تفاصيلها، وهنا السورة تعيد ذكر أمور تفصيلية عن الجنّة، فسبحانه وتعالى لا يكذب، وما قاله في القرآن عن الجنّة فهو صحيح بكل تفاصيله، فإن كنتم تكذّبون ولو بواحدة منها فأنتم تنكرون آلًا قال عنه الإله العظيم، فبأي واحدة من آلائه تعالى تكذبان؟ ويسألكم سبحانه حتى عن العيون التي في الجنّة، فهل تكذبان بها وتقولان بأنها غير موجودة؟ لا، فهي موجودة وستتحاسبون على تكذيبكم للكلام الإلهي.

(فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ{52})
{فِيهِمَا}، في الجنتين، {مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ}، من كل شيء للأكل للتحلية "لا للشبع" لأن أهل الجنّة يأكلون فقط للتلذّذ بالطعم، وهذا المعنى منتشر في القرآن وَرَكَّزَ على أكل التفكّه لأهل الجنّة، وهو أكل التلذّذ بالطعم بلا جوع مزعج. فيهما من كل فاكهة، {زَوْجَانِ}، صنفان نوعان أساسيان، فليست كلّ الفاكهة موجودة في تلك الجنة، ففي جنان أُخْرَى يوجد أنواع أُخْرَى من الفاكهة، أمّا هذه الجنّة فالفاكهة التي فيها صنفان صنفان، فلنقل بالتقريب، تفّاح حلو بنكهات متعددة وتفّاح حامض بنكهات متعددة، ليمون حلو وآخر حامض... وفي الجنان الأخرى زوجان آخَرَانِ، نوعان نوعان... آخَرَانِ من الفاكهة، ولنقل أنهما موز بنكهات ومانغو بنكهات...

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{53})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بِأَيِّ أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لَا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

حتى سخرية المكذبين بآلائه تعالى بوجود فاكهة في جنّة الآخرة، يسألهم تعالى عنها، فهي عمل يدل على إله عظيم، وستحصل وستكون موجودة، فهل سخرتم من أقواله تعالى عنها ولم تصدّقوا بها؟

(مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ{54})
الَّذِينَ يَخَافُونَ مَقَامَ رَبِّهِمْ سبحانه، مُتَّكِئِينَ، فيضعون جنبهم اليمين أو الشمال، على فرش، على شيء تحتهم ممدود، كفرشة التخت والسرير، بَطَائِنُهَا، بطائن، بطانة تلك الفرش، حشوتها وما في داخلها، من استبرق، وهو وصف لشيء يبرق فيلمع عاكسا الضوء، فالفرش هو كيس كبير من القماش محشو بالقطن أو الصوف... وتلك الفرش لها وجه شفّاف يظهر من تحته الحشوة وهي تبرق بألون مختلفة.

وَجَنَى، وما يتم قطافه، محصول نتاج ثمار، الجنتين بما فيهما من فاكهة، دَانٍ، قريب ليس بعيدا عن المتكأ على الفراش.

فيمكنه تناول الفاكهة وهو لا يزال متّكئا على الفراش.

ضع في بالك أن الاستبرق وصف للقماش الذي يبرق أو عليه قطع صغيرة تعكس الضوء، ولم أجد مصدرا من كلام العرب "قبل القرآن أو في بداية نزوله" يثبت كون السندس والاستبرق نَوْعَيْنِ من الحرير، رقيق وغليظ، سوى ما ادّعوه في الكتب والقواميس بلا إثبات، وجاراهم في ذلك الناس فاستعملوا هاتين الكلمتين على موروثهم الثقافي الديني من المفسّرين وليس من أصل اللغة.

وَرَدَ في استعمال العرب قديما قبل الاسلام لكلمة "سندس" كوصف لنقاوة لون الجلد أو القماش، وفيما لدي من مصادر فلم يرد قديما استعمالهم لكلمة الاستبرق "كاسم للحرير أو لنوع من القماش أو للثخين أو الرقيق من القماش..."، وبديهي أن أشعارهم قبل الإسلام لم تستعمل كل كلمات اللغة العربية وكل الاشتقاقات من كلّ الكلمات، وهذا قد يشير الى اشتقاق القرآن لكلمة استبرق من البرق، وحاليا نقول قماش برّاق، كوصف لانعكاس الضوء عليه، وقد ذكر السيد الآلوسي الجملة التالية بعد ذكره لاحتمالات وروايات عن معنى الاستبرق أثناء تفسيره لهذه الآية فقال: وفي حديث "لم يذكره ولم يذكر مصدره" من نور يتلألأ، وهو إن صحّ وقف عنده. يعني استظهر السيّد صحّة هذا المعنى للاستبرق واستبعد غيره، فإن صحّ الحديث بتفسير الاستبرق بالنور المتلألأ فتوقّف عنده ولا تطلب تفسيرا آخر. أكملت لك تفسير كلام الآلوسي لتتذكّر أن بساطة العبارة هنا في هذه الدراسة كانت واحدة من أهم الأسباب التي دفعتني لكتابة تفسير للقرآن، فكتبت العبارات ببساطة، مخالفا عموم التفاسير الكبيرة التي تحتاج لتفسير لتفهمها، وثمن تبسطي للعبارات سأدفعه بما سأناله من تعليقات على ركاكة تعابيري، وسيتّخذونها عذرا ليهاجموا هذه الدراسة ويقولوا أنها ضعيفة ركيكة، وبالتالي فكاتبها ضعيف باللغة العربية، وبالتالي فهو أضعف من تفسير القرآن... ناسين أن العدد الأكبر من المسلمين ليسوا من القادرين على مجاراة العبارات الثقيلة المختصرة... وأنا مستعد لدفع ثمن ركاكة العبارات باتّهامي بالضعف، إن كان ذلك سييسّر القرآن للذكر لأكبر شريحة ممكنة من الناس.

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{55})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بِأَيِّ أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لَا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

أيها الجنّ والإنس، هل تكذّبان بما قيل لكما عن تنوّع جنّات الآخرة...؟ وتسخران من هذا القول؟

(فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ{56})
{فِيهِنَّ}، في الجنتين، {قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ}، إناث يقتصر توجيه ما يطرفن به، جفنهن، ومن سياق الكلام تعلم أنهن لا يشتهين غير المؤمن فلا ينظرن إلى غيره، فيقتصر نظرهن إليه فقط، {لَمْ يَطْمِثْهُنَّ}، لم يعاشرهن لم يقاربهن، {إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ}، فهنّ مجموعة مخصّصة لكل واحد في الجنّة لم يقاربهنّ أي أحد قبله، فللإنسان المخلوق من تراب قاصرات طرف من جنس يناسب تكوينه، وهنّ له لوحده لم يلمسهن غيره، وللجني المخلوق من نار قاصرات طرف من جنس يناسب تكوينه...

نلاحظ القرآن عندما نقل مشاهد عن الحساب في يوم القيامة فقد أشار لرؤيتنا للملائكة(ع) والجنّ، وأخبرنا عن حشر الجنّ والإنس "والشياطين" مع بعض، ورمي كلّ الكافرين في جهنّم، ولكن لم يذكر أي شيء عن حشر مؤمني الجنّ والإنس معا، أو دخولهما معا إلى الجنّة، وإن كان يبدو من عموم الآيات عن عموم المؤمنين بدون تحديد إن كانوا من الجنّ أو الإنس أنهما معا سيدخلون إلى الجنّة، وهذا يظهر من آياتنا هنا وما سبقها وما تلاها، وهذا لن يسبّب أي إزعاج لا لنا ولا لهم، فالجنّة عرضها كعرض السماوات والأرض، وسيجري نزع أي غلّ من قلوب سكّانها، ولكل واحد سيكون له جنان خاصّة به لوحده، ويزوره البقية حين يشاء ويزور هو الآخرين حين يشاء...

الكلام الطويل الذي يذكرونه في الكتب، حيث قال بعضهم فيه أن الجنّ فقط يتعذّبون إن كفروا ولا يدخلون الجنّة إن آمنوا لأن القرآن لم يشر لذلك، فهذا رأي غريب، ومتعارض مع آيتنا هنا وما حولها، ولا يتماشى مع عموم مفاهيم القرآن، فما معنى تكليفنا نحن بدينه تعالى إن لم يكن على ذلك ثواب في الآخرة! ونفس السؤال نطرحه عن الجنّ فما

معنى تهديدهم بالعقاب إن كفروا، ولا شيء لهم في الآخرة إن آمنوا! وهذا مفهوم قرآني أساسي شرحه تعالى لنا كقرار نابع من الرحمة والحكمة الإلهية، فكيف ينعرض علينا "كمعلومة" لنقتنع به لنؤمن، وليس معروضا على الجنّ!
وسيأتيك بعد قليل في الآية 60 كلام إلهي عن جزاة الإحسان بالإحسان، وهذه قاعدة عامّة تنطبق علينا وعلى الجنّ.

ملخّص الكلام، فالجنّ مثلنا مكلّفون بدينه تعالى ولهم ثواب حسن أو عذاب بحسب ما اختاروه من إيمان أو كفر.

وفي دراسة الآية التالية سنتحدث عن المتاع الجسدي في الجنّة.

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{57})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بِأَيِّ أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لَا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

نقلوا قديما عن عموم الكفّار في أوئل دعوة النبي محمّد(ع) وما بعد ذلك، ونقلوا عن آحاد أشخاص عاشروا الجيل الأول من المسلمين بعد انتشار الاسلام، وعن بضعة أشخاص من العهدين الأموي والعباسي، نقلوا في الكتب تعليقات أبداها أولئك الأشخاص على القرآن، وكانت تعليقات ساخرة من وعود القرآن بالجنّة للمؤمنين، وتسخر مما ذكره القرآن عن الإناث التي يحظى بها الذكور المؤمنون في الجنّة، على أساس أن القرآن تخطّى وكسر حدود الخجل والحشمة المفترضة بالكتاب الإلهي ليصير كتابا فيه إيحاءات وتعابير جنسية، واستمرّت هذه النوعية من الناس بالظهور واستفحلت في عصرنا انتشار مقولاتهم على الأنترنت عن هذا الموضوع المعيّب على القرآن، وهي صفحات لها تمويل مخابراتي بشكل واضح، فلها تكاليف لن يتحمّلها شخص عادي ليفرّغ وقته وماله لها... وبعض تلك الصفحات يبدو وراءها فريق عمل غير قليل العدد، ومتفرغون بكامل وقتهم لمتابعة الأحداث ونشر المقالات التي بشكل مباشر تشكّك في الاسلام، وتلك الصفحات تعمل بشكل مباشر وغير مباشر على الفرقة بين المسلمين، وهناك صفحات مدعومة من جهات دينية "مسيحية ويهودية وغيرها" مناهضة للإسلام... على تلك الصفحات إحياء لكلام قديم عن تعليقات على الدين، وإعادة صياغة وتنميق ذلك الكلام والاضافة عليه... وللوهلة الأولى قد تصدّقهم وتشعر بالخلل في القرآن والدين، ولكن بأدنى جهد تفكير سترى أنهم كاذبون، وكلامهم مغرض وليس منطقيا ولا عقلانيا...

في تلك الأكاذيب ستجد تجميعا لبضعة آيات قرآنية تحدّثت عن المتعة الجنسية في الجنّة، ويبالغون في الكلام عن تلك الآيات ليجعلوا القرآن يبدو ككتاب إباحي جنسي، ويسخرون مما يعرضه القرآن على أساس أنه كلام معيب وتحفيز جنسي وإغراء ووعد بالجنس حتى يرغب الناس في الدخول إلى الاسلام... كدعاية جنسية للانضمام للدين.

أولا، القرآن يزيد عن ستة آلاف آية، والآيات التي أشارت لإناث الجنّة بشكل مباشر أو غير مباشر هي قرابة الستة عشر آية موزعة على مئة وأربعة عشر سورة، والصفات التي ذكرها القرآن لتلك الإناث: حور عين، عربا أترابا، كواعب أترابا، كأنهن الياقوت والمرجان، بيض مكنون، أبكارا، كأمثال اللؤلؤ المكنون، أزواج مطهّرة، والطمث. فهذه هي الكلمات التي بالكاد تزيد عن سطر واحد والموزعة على مختلف سور القرآن، وهي كلّ الإيحاءات الجنسية الفظيعة التي حوّلت القرآن لكتاب جنسي إباحي كما يقولون!

وتراهم يسخفّون قيمة المتاع الجسدي الذي وعد به القرآن المؤمنين، فيعرضون أنفسهم كمترقّين لا يهمّهم المتاع الجسدي فهو شيء مبتذل وهم أرقى من ذلك! وفي نفس الوقت هم من الكافرين بتشريعات القرآن لأنهم من دعاة الحرية الجنسية بلا روابط فهم مع تحليل الزنا والشذوذ...! فلديهم رغبة بالمتعة الجسدية لدرجة تحليل فعلها بأي طريقة كانت...! ومرة أخرى يسخفّون المتاع الجسدي لأنه برأيهم متعة قصيرة لا تستحق الإيمان لأجلها، وفي المقابل ترى غالبية ثقافتهم الفنيّة، وتعاملاتهم اليومية بالكلام والمزاح، وتسليتهم بالمسلسلات والأفلام... تدور بغالبيتها حول المتعة الجسدية!

هنا السورة اختارت أساسيات نماذج ما في الجنّة من ملذات، وذكرتها، وقطعت بين كل جملة وجملة بآية {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}، فقد سخر كفّار العرب في عهد النبي محمّد(ع) من النار والعذاب فيها ومن الجنّة وما فيها، وجاء بعدهم أشخاص على مذهب الكفر بالآلاء، والذين في عصرنا هم امتداد لذلك الخطّ الشيطاني، ولذلك تعرض السورة هنا نقاطا مختلفة من كلّ شيء كذّب به الإنس والجنّ، فتذكره وتسألهم إن كانوا بهذه النقطة يكذّبون أم بتلك أو بالأخرى أم

بغيرها... ومن أيها تسخرون؟ من الحور العين؟ من الصفات القليلة التي ذكرناها عنهن؟ فإن اعتبرتموها وعدا كاذبا لإغراء الناس بالدخول في الدين فها نحن نكرّرها على مسامعكم وبشكل مباشر، ونسألكم إن كنتم بهذه المسألة تكذّبون، وبتلك، وبالأخرى، ومن أيها تسخرون، ولو من واحدة منها، فكذّبوا بها واسخروا منها، وفي الأخير ستكونوا في جهنّم التي كنتم تكذّبون بها، وسيكون المؤمنون في الجنّة التي سخرتم منها.

والآن ننتقل للداخل، فهناك مسلمون أصرّوا على مخالفة ظاهر القرآن حين ادّعوا أن الجنّة روحانية ليس فيها مادة ولا ملمس حسّي، وفسّروا الآيات التي وصفت ما في الجنّة على أنها لذّة روحية وليست حيوانية "فالمتعة الجنسية حيوانية دونية بحسب تعبيرهم"، وقد برّروا لما يظهر من القرآن أنها لذّة حيوانية "بحسب تعبيرهم" أن غالبية الناس لن تفهم ولن تقتنع باللذّة الروحانية، ولذلك عبّر القرآن عن اللذات الروحانية بتعابير ماديّة. وبناء عليه فهم وحدهم تلك المجموعة فهموا القرآن على حقيقته، وقد غشّ القرآن بقية الناس حين وعدهم بمتاع جسدي جنسي!؟

ما هذه الترهات؟! نعم هناك انشراح وراحة نفسية غير عادية لأهل الجنّة وقد عبّر عنها القرآن مرارا، وتلك المشاعر الداخلية هي بحدّ ذاتها سعادة رائعة، "وهم يستبدلون كلمة نفسية بكلمة روحية"، ولكن ما معنى تأويلهم لصريح ما يقوله القرآن بغير معناه الصريح؟ فالأكل والشرب والإناث والأبكار والطمث... لقد ذكرهم القرآن صراحة وفصّل في بعض مواصفاتهم!

أنتم أيها المجموعة الغارقة في حبّ التميّز عن الآخرين، أنتم الذين تدّعون أنكم من أقرب الناس إلى الله تعالى وأكثرهم معرفة به سبحانه وبكلامه، لقد وقعتم في الفخر والزهو والتكبّر من حيث لا تشعرون، فقد تطرّف من أنكر وسخر من ملذات الجنّة مكذّبا، وأنتم غاليتم بها وجعلتم فهمها حكرا عليكم حتى أفقدتموها معناها! فلا التعابير القليلة المؤدبة عن الملذات الجنسية التي ذكرها القرآن أقنعتكم، ولا أقنعت من رفض الدين، فكلاكما في نفس المشكلة.

(كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ{58})
{كَأَنَّهُنَّ}، تلك الإناث، {الْيَاقُوتُ}، وهو حجر طبيعي يوضع في الخواتم عادة، وهو شفّاف ولونه من تدرجات اللون الأحمر الغامق إلى الفاتح، "تركيبته أكسيد الألومنيوم مع شوائب الكروم...".

{كَأَنَّهُنَّ}، {الْمَرْجَانُ}، وهو يصنف الآن على أنه نوع من الحيوانات البحرية، ويشبه الأغصان اليابسة بلا ورق، وتوجد منه ألوان الأبيض والأسود، وأشهرها تدرجات اللون الأحمر من الزهري حتى القاني.

معلوم أن الياقوت والمرجان المصقولَيْن لونهما رائع، فتلك الإناث أشبه ما يكون توصيفهن بالكلمات العربية وبما يمكننا تصوّره الآن لألوان جسدهن الصافية وفيها شفافية وعمق لتدرجات اللون... هو تشبيههنّ بالياقوت والمرجان، ولا تنسَ أن الكلام هنا عن نموذج وليس عن حصرية تدرجات اللون الأحمر للجلد.

ستجد في بعض الروايات صفات لتلك الإناث غير مبنية على ما ذكره القرآن، وغالبية تلك الصفات مبنية على ما استذوقوه من تصوراتهم عن الجمال، وهذا المقياس نسبي يختلف بين شخص وآخر وبين عصر وآخر، وتلاحظ أن الروايات كانت مباشرة في التوصيف، أمّا القرآن فاستعمل التشبيه {كَأَنَّهُنَّ}... ولم يكن مباشراً بالوصف! والسبب واضح، فذلك العالم مختلف عن عالمنا، وما فيه يفوق قدرتنا على التصوّر، مثلما تصف ما في عصرنا من تقانة وأجهزة لشخص من العصر الحجري من دون أن تجعله يراها ويلمسها ويستعملها، فلن يفهمك إلا على التقريب والتشبيه، وكذلك نحن لن نفهم ما في الجنّة إلّا على التقريب والتشبيه، أمّا في الروايات فتجد فيها الجرأة على التحديد والتوصيف بشكل دقيق على معيار ما كانوا هم يرونه جمالاً.

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{59})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بأي أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

حتى هذا الوصف لإناث الجنّة بنقاوة وجمال لون الياقوت والمرجان، فهل تسخرون منه؟ وهل تنكرون صحّته؟ ها نذكره لكم كما هو صراحة ونسألكم إن كنتم تعتبرونه كذباً، وهو آلٌ، وهو عمل يدل على إله عظيم قادر على فعله، فهل تكذبان به؟

(هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ{60})
{هَلْ جَزَاءُ}، هل مقابل، {الْإِحْسَانِ}، العمل الذي يوصف بأنه حسن فوق العادي، ليس متوسطاً بل يميل إلى ناحية الأفضل، {إِلَّا الْإِحْسَانُ}، إلا أن يكون مقابل العمل الحسن الجيد عمل حسن جيّد؟

فإن كنتم تنكرون ما سبق ذكره عمّا في الجنّة للمؤمنين، وتكذّبونه، فنسألكم: هؤلاء الذين سيدخلون إلى الجنّة قاموا بأعمال توصف بأنها حسنة جيّدة، فهل المقابل على أعمالهم يكون إلا أشياء حسنة جيّدة؟

هذه الجنّة الرائعة يجب أن تتوقّعوها كجزاء يحصل عليه من أحسن في عمله، وهذا طبيعي.

في بعض ثقافتنا الدينية قطع لهذه الآية عن سياقها وتفسيرها كجملة لوحدها منفصلة عمّا سبقها وما تلاها، فصارت على معنى: فعلت معك عملاً حسناً، ومن المفروض أن تعمل معي عملاً حسناً. وهذا المعنى لوحده صحيح، وأحيانا يبنون كلامهم عن الإحسان على المعنى الدارج لكلمة إحسان والتي تُشابِهُ التفضّل على الآخرين، والتنازل عن حقّك... وهذا ليس المعنى الأساسي الحصري للكلمة المشتقة من الحسن والتي تشير لعموم أي عمل موصوف بأنه حسن، كهدية أو تفضّل أو منّة أو صدقة أو صلاة أو صوم أو جهاد... وهكذا ترى أن جملتنا هذه تشير لعموم من قام بعمل حسن مهما كان نوعه، وتسأل إن كان تعالى سيجيب على العمل الحسن بعمل حسن، فما سبق من نماذج روائع الجنّة هو شيء حسن يقدّمه تعالى فقط لمن أحسن، وبتعبير قرآني آخر، هو لمن عمل الصالحات.

سبق وتكلمنا عمّا قاله البعض عن حرمان الجنّ من الجنّة، وها ترى مفهوماً قرآنياً راسخاً عن مجازاته تعالى لعموم من أحسن بالحسن، فلماذا استثنوا الجنّ من هذه القاعدة؟!

هناك عمق قرآني آخر لهذا الكلام أيضاً مبنيٌّ على مفاهيم قرآنية راسخة، فخلقنا سبحانه وفينا قابلية تمييز الحسن من السيّء، الخير من الشرّ... وعلى هذا الأساس يحاسبنا سبحانه، لأنه تعالى لا يأمر إلا بما هو حسن، وهكذا ليس مطلوباً منّا إلا فعل ما نراه حسناً وهذا هو نفسه يتماشى مع كلامه تعالى، طبعاً هذا الكلام مع الذي قلبه سليم أمّا من اتّبع هواه فسيرى السوء حسناً والحسن سيّئاً.

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{61})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بأي أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

هل تكذّبان بما نذكره لكم عن الجنّة؟ فعلى أي أساس تكذّبونه؟ ألا يستحقّ من قام بعمل حسن أن نجازيه بشيء حسن؟ أم تفكرون أن نساويه بكم أيها المجرمون فنرميه في النار؟ أم نتركه يفنى وننسى أمره بعد أن آمن والتزم بالصلاح؟ فبأي منطق وعلى أي شيء تستندون في تكذيب الجنّة ونعيمها للمتقين؟

تتذكّر ما مرّ سابقاً عن معاقبة المجرمين في جهنّم، فهذا ما يستحقونه، وبالعكس فالمؤمنون يستحقّون الجنّة.

(وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ{62})
{وَمِنْ دُونِهِمَا}، يوجد غير الجنتين اللتين تحدّثت عنهما الآيات السابقة، {جَنَّتَانِ}، أخريان.

نتذكّر ما قلناه تحت الآية 48، فمن الآية 32 من سورة الكهف والآية 15 من سورة سبأ نفهم أن التعبير بالجنتين يعني كونهما عن اليمين وعن الشمال، فإذا ذهب إلى جهة اليمين فالجنّة ممتدة، أو ذهب إلى جهة الشمال فأيضاً الجنّة ممتدّة، فلا تفهمها أنهما جنتان وكلّ واحدة في مكان بعيد عن الأخرى، لا فهذا غير ضروري، فهما يمكن أن تكونا متصلتين

يفصلهما نهر أو أنهار أو بيت أو بيوت أساسية في الوسط... فالتعبير يقصد أنه كيفما ذهب فهو سيبقى في الجنّة، وسيجد جنّة فيها غير ما في الجنّات السابقة.

هذا التفصيل في مقابل الذي في النار، فهذا خياراته محدودة بين جهنّم وحميم.

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{63})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بأي أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

هل تكذّبان بالجنّة التي فيها جنّات؟

(مُدْهَامَّتَانِ{64})
الجنّتان، {مُدْهَامَّتَانِ}، يميل لونهما للغامق، وهذا التعبير توصف به الغابة التي تلاقت على العالي أغصانها وأوراقها فحجبت الشمس.

هو وصف مختصر لروعة الجنتين، وأنت تعلم أن الكلام عن نماذج، فهناك مساحات هائلة وهناك تنوّع في طبيعة الأماكن، فبعضها حدائق وبعضها مروج... وبعضها غابات... وبعضها أنهار...

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{65})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بأي أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

هل تكذّبان بهذا الوصف للجنّة؟

(فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ{66})
{فِيهِمَا}، في الجنتين، {عَيْنَانِ}، فتحتان في الأرض، نبعان من الماء أو اللبن أو العصائر أو الخمر... {نَضَّاخَتَانِ}، تنضخ منهما السوائل بكثرة، والنضخ تعبير يعطي معنىً قريباً من الفوران مع خروج كمية كبيرة من السوائل.

كلمة نضخ لم ترد في القرآن إلا هنا.

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{67})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بأي أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

نسألكما أيها الجنّ والإنس حتى عن إخبارنا لكما عن العيون التي في الجنّة إن كنتم تكذّبون بها، وتكذّبون بوصفنا لها؟

(فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ{68})
{فِيهِمَا}، في الجنتين، {فَاكِهَةٌ}، وهي التي نأكلها للتحلية للتلذّذ بالطعم، وليس بسبب الجوع أو بقصد الشبع.

فيهما، {نَخْلٌ}، وهي الأشجار التي ثمارها البلح والرطب، وفيهما، {رُمَّانٌ}، وهي تحمل ثمراً كرويَّ الشكل فيه حبيبات متدرجة بين اللون الأبيض إلى الأحمر الغامق.

سبق وتحدثنا عن بعض الذين قالوا إنَّ الآية هنا دليل على كون النخل والرمان ليسا من الفاكهة، وهذا غير صحيح، فكل الناس بمختلف لغاتهم يعبرون بشيء عامٍ وبعدها يختارون شيئاً خاصاً للتركيز عليه، فنقول: هل جلبت الأغراض للغداء واللحم؟ فلأن اللحم أساسي في حينها ستذكره لوحده للتأكيد على أهميته وهو من الأغراض التي للغداء. مثال آخر من القرآن الآية 98 من سورة البقرة التي ذكرت الملائكة(ع) وذكرت مباشرة جبريل وميكال عليهما السلام اللذين هما من

الملائكة {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ}، فمن كان عدوّاً للملائكة عموماً، أو عدوّاً للملَكَين جبريل وميكال خصوصاً فإن الله تعالى عدوٌّ للكافرين... فالآية هنا لا تضع الفاكهة في جانب وتجعل النخل والرمان خارج الفاكهة بل هما نماذج مشهورة من الفاكهة.

على كلّ حال، هذا النوع السطحي من فهم الآيات نقع فيه لأننا بشر، وهذا الوقوع يكسر رؤوسنا وتكبّرنا ويجعلنا نعرف حجمنا كبشر محدودين أمام كلام الإله عزّ وجلّ.

بقي شيء، ذكرناه هنا وهناك في دراستنا عمّا ذكره القرآن مما في الجنّة، فهنا في الدنيا لا تحبّ طعم البلح، أو الرمّان أو شرب اللبن "الحليب"، فضع في بالك أن القرآن ذكرها كنماذج، وأصلاً ما هناك فهو مختلف طعمه عمّا هنا، وأصلاً فالذي هناك يشعر باللذّة العارمة من أي شيء يأكله هناك، وأنت تعلم أن هذا القرآن للناس جميعاً ولكنه نزل بين العرب، فمن البديهي أن يكون بلغة الرسول الناقل له، فنزل بالعربية، ومن البديهي أن يستعمل كلمات يعرف معناها العرب، وليس من المنطقي أن يذكر لهم فاكهة مجهولة لهم.

لا خاصية مميزة للبلح والرمان على بقية الفاكهة المنتشرة في العالم، فربما هناك فاكهة مغذية أكثر منهما... والقرآن ذكر نماذج وشدّد على تبسيط التعابير بالقدر الذي لا يجعل كلامه ركيكاً حتى يبقى واضحاً لنا أنه كلام إلهي، ولذلك ذكر نماذج معلومة مشهورة، وأشار لأمور تشبيهاً بأمور معلومة، مرّ معك منذ قليل تشبيه قاصرات الطرف باللؤلؤ والمرجان والياقوت...

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{69})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بأي أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

نعم، سخر بعض الناس ممّا في الجنّة وقالوا إنّ البلح والرمّان فاكهة عادية وكان المفروض أن يتمّ وعد الناس بأمور أهمّ حتى يؤمنوا... وكما تلاحظ فهذه النوعية من الناس قرارها الأساسي التكذيب بالآلاء، وبعد ذلك لا يهمهم ما يقولون، فإن قرؤوا عن بعض الإيحاءات الجنسية في الجنّة، سخروا منها أنها ترغيب للمحرومين جنسياً، وللمرضى نفسياً، وإن قرؤوا في القرآن عن فاكهة الجنّة سخروا منها أنها عادية، وقرأت لأحدهم يقول معلّقاً: أنا أصلاً لا أحب البلح. حسناً، صدق عليه ما نقوله بالعامية: حدّك ستين جهنّم. فكذّب بما تراه صغيراً أو كبيراً من الآلاء، فمصيرك إلى العقاب.

نتذكّر دائماً أنّ ما يذكره القرآن عمّا في الجنّة فهو تقريب للصورة، فزيادة قليلة لهرمون الكورتيزون تجعل الكثيرين منّا يشعرون بطعم أطيب فوق الطعم العادي للطعام، فتزيد قوّة حاسّة التذوّق، وحبّة منشطات كافيين وفيتامينات ستجعلنا نشعر بنشاط وانتعاش فوق العادي بجسدنا، وزوال الهموم والمشاكل لوحده يجعلنا نشعر بانشراح للصدر وصفاء للذهن وأحلام جميلة واستيقاظ مع نشاط ولذّة في الحياة... فأمور بسيطة تغيّر متعتنا بالحياة، فكيف سيكون الحال في الآخرة بجسد لا يفنى ولا يشيخ ولا يمرض ولا يُرَضّ ولا ينكسر ولا يتضرّر ولا يتعب... ولا همّ ولا مشاكل... مع وعد إلهي بالحصول على ما نشتهيه وأزيد منه، وتنوّع دائم متجدّد... فهل تكذبان بأي شيء من هذا وتستهينان بقدرات وصفات الإله عزّ وجلّ؟

(فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ{70})
{فِيهِنَّ}، في الجنتين، {خَيْرَاتٌ حِسَانٌ}، كما سترى من الآية بعد التالية فهنّ إناث يوصفن بأنهن خيرات فلا يوجد فيهن ولا صفة سيّئة، {حِسَانٌ} أي حسناوات جميلات فوق العادة.

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{71})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بأي أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعمال العظيمة سبحانه وتعالى؟

(حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ{72})

تلك الحسناوات، {حُورٌ} وهي صفة للنساء وللرجال الذين ألوانهم نقية، شبّهت سورة الواقعة ألوانهن كاللؤلؤ، ومنذ قليل في السورة شبّهتهنّ بالياقوت. وهنا الحديث عن إناث، {مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ}، فالخيمة عموم ما بني من قماش "الصوف أو الوبر..." أو جلد أو ورق النبات وأغصانه... وكان قابلاً للتفكيك بسهولة، فما لم يكن بناء ثابتاً فهو خيمة طالما يمكنك تفكيكه ونقله، وفي الجنتين يوجد خيم هنا وهناك، وفي كل خيمة حورية أو حوريات {مَقْصُورَاتٌ} أي هنّ خصّيصاً لواحد فقط من أهل الجنّة.

الخيام تختلف عن البيوت الثابتة من ناحية الموقع، حيث يمكن نصب الخيمة في مكان صغير منعزل، أو مكان أعجبك فاخترته للإقامة فيه... فالكلام هنا ليس عن حياة البداوة والعيش في الخيام، بل عن رحلة استكشاف ونزهة وترفيه... ونصب خيام في أماكن منعزلة... أو في أماكن ذات إطلالة... ومضافاً لذلك أجواء الرومانسية، تهرّبتُ من قولي هذا مع أن الآية تقصده، ولكني تشجعت بذكر الرومانسية لأن السورة هنا تتحدّى الساخرين من آلائه تعالى، فأي شيء علّق عليه المكذبون، ذكرته السورة هنا بصراحة ووضوح، وسألتهم إن كان هذا ما تكذبون به أو ذاك... فهذا ما يقول سبحانه إنّه فعله أو سيفعله، فكذّبوا به وسترون نتيجة تكذيبكم.

معلوم لك أن الخيام في الجنّة ليست الأماكن الوحيدة المتاحة، فهناك قصور، وبيوت وعرازيل... كما ترى من الآية العاشرة من سورة تبارك {تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا}، ومن الآية 11 من سورة التحريم {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ...}، والآية 20 من سورة الزمر {لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...}، والآية 58 من سورة العنكبوت {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...}.

الأحمق الذي تحدّثنا عنه في بداية دراسة السورة هنا، تشدّق هو وغيره بالسخرية من وعد القرآن له بخيمة في الجنّة، متعامياً متجاهلاً عن كلام القرآن عن مختلف أنواع الأبنية الأخرى التي أشار لها من بيوت وقصور وأبنية... ساخراً من خيمة في الجنّة متصوّراً لها كحالة تعاسة بالسكن تحت قطعة قماش، ومتعامياً عن كل شيء ذكره القرآن من سعادة الرفاهية بالكلام عن الاتكاء والخدم والكؤوس والزرابي... مصوّراً الخيمة في الجنّة كخيمة وسخة رثّة بالية في صحراء قاحلة ليس فيها ماء ولا نبات، متعامياً عن الآيات الواصفة للمناظر الطبيعية الخلابة من أنهار وحدائق وغابات...

أحمق أعمى القلب جاهل مدّعٍ للعلم، شيطان نجس، مريض فكرياً ونفسياً، يرمي سمومه هنا وهناك كفراً بآلائه تعالى وسخرية منها، وهو نفسه بكلامه هذا مسخرة المساخر.

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{73})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بأي أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

هل تكذّبون بالحور التي قال تعالى عنها إنها في الخيام؟

(لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ{74})
{لَمْ يَطْمِثْهُنَّ}، لم يعاشرهن لم يقاربهن، {إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ}، يعني هنّ مجموعة مخصصة لكل واحد في الجنّة، ولم يقاربهنّ أي أحد قبله، فللإنسان المخلوق من طين حور مقصورات في الخيام مما يناسب تكوينه، فهنّ له لوحده ولم يكنّ لغيره ولم يلمسهن غيره، وللجنّي المخلوق من نار قاصرات طرف من جنس يناسب تكوينه...

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{75})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بأي أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

(مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ{76})
وصف المؤمن "المؤمنين" في تلك الخيام مع المقصورات عليه، {مُتَّكِئِينَ}، يستلقون على جنبهم اليمين أو الشمال، {عَلَى رَفْرَفٍ}، وهو الشيء المنتشر كرفرف الطير، كالطير الناشر لجناحيه، ورفرف الشجر وصف لنشره أغصانه، وهنا الاتكاء على شيء رفرف أي منتشر وليس متّكأً صغيراً، فيمكنهم الاتكاء والانحناء على مساحة كبيرة من دون تحريك مساند، والرفرف، {خُضْرٍ}، طري، {وَعَبْقَرِيٍّ}، قيل هو البساط الفاخر، ولكني وجدته في أشعار العرب قبل الإسلام وصف للّون الغامق جداً، كلون مركّز، واستعملوا هذه الكلمة للأحمر القريب من البني، وحالياً نقول له لون كرزي، {حِسَانٍ}، الجيدة للاتكاء والحسنة المنظر.

كما يبدو لك فالمقصود أن الخيمة فيها فرش "على أرضها أو عالية" ولها رفارف للاتكاء وهي طرية وألوانها شديدة التركيز وليست باهتة.

طبعاً الآية تنقل لنا نماذج عن أشياء يعتبرها أهل الجنّة جميلة.

ضع في بالك دائماً، أن القرآن أخبرنا عن نماذج أولية لما في الجنّة، فهي أمور قريبة نسبياً من روائع عالم الدنيا، وبعد ذلك سيحصل في الجنّة تغيرات وتجدّدات تفوق قدرتنا على التصوّر، وأشار لها القرآن بعبارات مختلفة ينبّهنا بها عن روعة الجنّة وأنه من المستحيل أن يمرّ على أهلها ولو لمحة من الملل أو الضجر، فلا تحصر فكرك فيما تقوله الآية هنا على أنه التنسيق "الديكور" الوحيد للجنّة، لا، بل هو "الديكور" الأولي الذي يمكننا تصوّره وفهمه الآن.

(فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ{77})
{فَبِأَيِّ آلَاءِ}، بأي أعمال عظيمة قام بها، {رَبِّكُمَا}، المسؤول عن العناية بكما من مستوى إلهي، {تُكَذِّبَانِ}، لا تصدّقان أيها الجنّ والإنس أنها من أعماله العظيمة سبحانه وتعالى؟

بالخيام بما فيها بفرشها برفرفها... بأيها تسخرون وتكذّبون؟ فنقولها لكم بصراحة كخبر عبر هذا الكتاب، وتكذيبها تكذيب بقدراته تعالى الفائقة التي سيفعل بها ما قرّره من روائع في الجنّة للمؤمنين الذين سيعيشون حياة النعيم والرفاهية.

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ{78}
{تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ}، فالمسؤول عنك من مستوى إلهي، واسمه الله عزّ وجلّ، تبارك اسمه، فهو اسم يعبّر عن صاحبه، اسم مبارك فيعبّر عن الخير والرضا والقيمة العالية الجيّدة لما يصدر عنه تعالى.

{ذِي الْجَلَالِ}، الذي يوصف بالجلال، الجليل، فيوصف بما له قيمة ومكانة عالية واحترام عظيم، وبالعكس منفي عنه الصفات التي لا تناسب القدر العالي، فيجلّ عن وصفه بالضعف أو بالكذب بالمبالغة أو بنكث العهد أو الوعد بالعبثية... فما ذكرته السورة عن آلائه تعالى من الأعمال الإلهية التي تدل على صفاته وقدراته الفائقة، والتي نراها في الدنيا، وبعض الأمور التي أخبرتنا عنها السورة ولم نرها، كالكلام عن سماوات أخرى، وكالكلام عن الأعمال الإلهية التي سنراها في الآخرة، فكلّها أعمال نابعة من إله جلّ عن أي شيء يتعارض مع وصفه بقدرات وصفات فائقة وحسنى.

وربك، {الْإِكْرَامِ}، الموصوف بالمكانة الرفيعة والمقام العالي.

أمّا التكذيب ولو بأي واحدة من آلائه تعالى، فهو إنقاص من وصفه بالجلال والإكرام علماً أنه تعالى حتماً يوصف بهما.

هكذا ترى أن كل ما قاله تعالى عمّا فعله من تصميم وخلق لما في الدنيا، وما قرّره تعالى في الآخرة، فهو متعلّق بوصف اسمه تعالى المتبارك به، وبجلاله وكرامته تعالى.

بقي شيء، فالبركة وصف للرضا عن أي شيء جيّد، فالمكان الذي حصلت فيه أمور جيّدة فهو مكان بركة، وشخص قام بأعمال جيّدة فهو بركة، وشخص حصل على توصيف جيّد لما قام به فهو مبارك، والله سبحانه وتعالى دائماً لا يصدر عنه إلا أمور جيدة فتبارك اسمه، فاسمه بركة.

لبّ السورة عن أمور لا يمكننا التحكّم بها، حيث نتعامل معها أو نراها ولكن لا علاقة لنا بتصميمها ولا بوجودها، فحياتنا وجسدنا وطعامنا وماؤنا والنجوم، وموتنا وحياتنا مرّة ثانية... لا قدرة لنا على التحكّم الكامل بها، فنزرع ونحصد... ونخزّن الماء... ونعتني بجسدنا... ولكن كل ذلك مجرد مجالات لمساحة حرية لا تعبّر عن سيطرتنا الكاملة على ما يجري معنا... مما يشير إلى وقوعنا تحت سيطرة إله صمّمنا وخلقنا وصمّم بيئتنا وخلقها بهذا الشكل حتى نتعرّف عليه سبحانه بسهولة، فهو المسيطر على ما لا نسيطر عليه، وعلى ما نسيطر عليه....

سورتنا هذه موجّهة لجميع أنواع منكري بعثنا في الحياة الآخرة، من مشركين "يؤمنون بآلهة متعدّدة" أو الذين نسمّيهم في عصرنا بالملحدين "لا يؤمنون بأي إله"، ومثلها سورة الجاثية فهي مناسبة أكثر لنوعية الملحدين فكلامها يشير إلى ما جعله تعالى فينا من ملاحظة وفكر يدلّنا عليه سبحانه... ومثلها أيضاً سورة الرعد والرحمن بمناسبتهما لتوجيه الكلام مع الذين نسمّيهم في عصرنا بالملحدين، وسنتوسّع في الكلام عن ذلك مراراً في دراستنا للسورة.

بدأت السورة كلامها عن المرحلة الثانية من حياتنا التي في الآخرة، والتي لا قدرة لنا نهائياً على التحكّم بمجرياتها إلا بما كان متاحاً لنا من مساحة بحرية الإرادة والاختيار بالإيمان هنا والعمل الصالح هنا في الدنيا في المرحلة الأولى من حياتنا، أو بالكفر والعمل السيّء هنا...

مثلما نحن هنا محكومون بما حدّده تعالى لنا، فنحن أيضاً محكومون بالذهاب إلى الآخرة حيث ينقسم الناس لثلاث مجموعات، مجموعتان مؤمنتان، واحدة ذات إيمان عالٍ وأخرى أقل منها، ومجموعة منكرة لعودتنا إلى الحياة مرّة ثانية، وبالتالي فهم ينكرون الثواب والعقاب، وبالتالي لم يؤمنوا بالحق والصلاح فلم يلتزموا بكلامه تعالى، فتبدأ السورة بذكر نتيجة حساب كل مجموعة من المجموعات الثلاث في يوم القيامة، ثم تأتي ببعض الأدلة على العودة إلى الحياة.

بقي شيء، انتشر بين الناس أن المداومة على قراءة هذه السورة تسبّب الغنى "المالي"، واعتمدوا على روايتين عن الصحابي ابن مسعود وروايات أُخَرَ، ولكن الغنى هو حصولك على ما تحتاج، وليس حصولك على أكثر مما تحتاج، وغالب الناس تطلب ما لا تحتاج، ويظنون أنهم بحاجة لهذا الشيء وذاك الشيء ويعتقدون أنه شيء مهم جداً، وحياتهم تعيسة بدونه، وستصير أفضل وأحسن بل أروع معه... فيبحثون عن دعاء أو صلاة أو سورة تساعدهم قراءتها للحصول على المال الوفير، والثراء، لتصير أو ليصير مليونيراً... وهذا ليس من ثقافة القرآن الذي أمرك بالعمل والسعي مع التوكّل على الله تعالى والابتعاد عن السيئات فتصير غنياً ومعك ما تحتاج له لتعيش بكرامة.

أمّا تمنّي الثراء الفاحش والحصول على كلّ أنواع ملذات الحياة والترف والرفاهية... فهذا عادة ما تتمناه الناس وتسمّيه بالغنى بينما هو الغنى لدرجة الثراء، فالغنى هو تملكك لما تحتاجه... أمرك سبحانه بالعمل والجدّ لاكتساب معيشتك، وسمح لك بالتنعّم بملذات الحياة ضمن ما هو خير "الحلال" وتحت الإسراف والتبذير، وأن تكون عينك دائماً على الآخرة ونعيمها، والسورة تعرض عليك التعلّق بجنّة نعيم خالدة، ولا تعرض عليك التعلّق بالدنيا حتى تتمنّى الثراء الفاحش فيها!

هكذا وبوجه ما إن صدق نسبة استحباب قراءتها عن الرسول(ع) لمن يريد الغنى، فقد صرت تعلم الفرق بين الغنى وبين التعلّق بزينة الدنيا بالثراء الفاحش... وفي السورة وجهان لذلك، أولاً أن السلطة بيده تعالى ويفعل ما يشاء، وبناءً على هذا الإيمان تضع نفسك في تصرّفه تعالى وتحت ما اختاره لك، والوجه الثاني المتماشي مع الوجه الأول لأن السورة ترغّبك بالآخرة، وبذلك يصير همّك للدنيا في أدنى مستوياته، فترى نفسك غنياً من القليل الذي معك، وبين هذا وذاك تسعى في الدنيا وعينك وأملك على الآخرة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ{1})
{إِذَا وَقَعَتِ}، هناك شيء سيقع سيحدث سيحصل، {الْوَاقِعَةُ}، التي ستحدث. فيوم القيامة من الموت الذي فيه الحساب وبعده الجزاء بالجنّة أو النار فهو واقعة، فهو شيء سيقع سيحدث.

درج في أدبياتنا ذكر أسماء ليوم قيامتنا من الموت، ويعددون مع يوم القيامة: الواقعة والحاقة والطامة... فبالتراخي هي أسماء، بينما هي صفات لما سيحدث في ذلك اليوم "قيامتنا من الموت..."، أو صفات لحالة اليوم "قارعة..." أو صفات حالة البشر في ذلك اليوم "طامّة..." أو...

قالوا إنّ "الواقعة" من أسمائها، ولغوياً إن درج استعمال كلمة كوصف دائم لشيء، فالوصف يصير اسماً للشيء، فالواقعة هنا وصف، ولكن لم يدرج لا في القرآن ولا بين الناس كثرة استعمال هذه الكلمة ليوم القيامة، فلغوياً لا يصحّ القول عن هذه الكلمة أنها من أسماء يوم القيامة، فهي وصف لها فقط.

(لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ{2})
{إِذَا وَقَعَتِ}، {لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا}، لحصولها، {كَاذِبَةٌ}، فمن يستطيع القول إنها لم تحدث إذا حدثت؟

كما سترى فالآيات ستتحدث عن ومع الكفار الذين ينكرون حصول يوم القيامة، ثم يموتون هنا في الدنيا، ثم يجدون أنفسهم يفتحون أعينهم فجأة في الآخرة، وقد وقع "حصل" يوم القيامة، فهل يستطيعون تكذيب حصوله؟

(خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ{3})
الواقعة: {خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ}، فهي ستجعل الجبال والأبنية... تنخفض وتنهار، وسوف تجعل الوديان ترتفع وبذلك يصير سطح الأرض بدون تعرجات مثل سطح الكواكب التي قشرتها لا تتحرك وليس عندها بيئة تعرية وحتّ... تقريباً كسطح قمر الأرض...

كما تعلم من عموم القرآن فإن السماوات والأرض ستتبدّل قبل يوم القيامة، ومن آثار تبدّلها أن يصير سطح الأرض مستوياً لا عوج فيه، ورد توصيف صريح لذلك في الآية 107 من سورة طه {لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا}...

كيف سيحدث الخفض والرفع:

(إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً{4})
{إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا}، جرى هزّها وتحريكها بقوة وعنف شديدين، تقريباً كما يحدث الآن عند تحرّك صفائح الأرض وحدوث زلازل مدّتها طويلة.

(وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً{5})
{وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا}، تمَّ طحنها وفتّها ولم تعد متماسكة.

كما تعلم من عموم القرآن ومما تقوله الآية 68 من سورة الزمر {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}، فبعد الصيحة الأولى وهو نفسه النفخ في الصور، وموت الكائنات، يبدأ تبدّل السماوات والأرض، فيتم تسيير الجبال ونسفها وجعلها على مستوى الأرض وبعد ذلك يقع النفخ الثاني، ونقوم من الموت ولا تزال الجبال تسير والأرض تتزلزل، كما يبدو من الآية 3 من سورة الزلزلة {وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا}.

نتذكر الآية 105 من سورة طه {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا}، فهي تتحدّث عن الذين لا يؤمنون بالآخرة ويتساءلون عن الجبال، لأنها ضخمة وقوية فاعتقدوا أنها بنيان أزلي دائم ولن تنهار، فهي قوية صامدة وبالتالي في رأيهم لن يحصل دمار للأرض كما يقول القرآن، فيوم القيامة الذي يتحدّث عنه القرآن يسبقه دمار للأرض وتبدّل بنسف للجبال... وبرأيهم هذا لن يقع.

(فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً{6})
{فَكَانَتْ}، الجبال، {هَبَاءً}، كذرات الغبار التي تنتشر مع أقلّ هبوب للريح، {مُنْبَثًّا}، متفرقاً غير متماسك.

ستنهار الجبال وتصير مستوية مع سطح الأرض، بحيث تصير الأرض كلها مستوية لا ارتفاعات ولا انخفاضات فيها. وبالنسبة لمعطياتنا العلمية الحالية نفترض أن الذرات ستفقد تماسكها وبذلك تنهار الجبال...

بعد المقدمة التصويرية لمشهد تبدّل الدنيا والصيرورة إلى الآخرة، ننتقل لحال البشر حينها:

(وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلَاثَةً{7})
{وَكُنْتُمْ}، يومها أيها الناس، {أَزْوَاجًا}، أصنافاً أنواعاً، {ثَلَاثَةً}.

مما سيأتي في الآيات التالية سترى تقسيمها للناس في الآخرة إلى ثلاث مجموعات كبيرة، أزواج "صنف ونوع" من درجة الإيمان العالي لوحدهم، وأزواج "صنف ونوع" أقل منهم إيماناً مجموعين لوحدهم، وأزواج "صنف ونوع" من الناس التي كانت كافرة بيوم القيامة من الموت أيضاً مجموعين لوحدهم.

كلمة زوج نقولها لعموم أي شيء مادي أو معنوي له خاصية الاقتران بشيء أو الانتماء لصنف أو نوع، فهم أو هما أو هو مقترن مع آخر بالشبه أو بالنوع أو بالتلازم مع بعض... فهو زوج. وتقال للأنثى البشرية كزوجة بخاصية الاقتران بالذكر، كالاستعمال في الآية 39 من سورة القيامة {فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى} فليس القصد أنهما متزوجان من بعض بعقد نكاح، بل القصد أنهما من نفس النوع وبينهما تشابه وإمكانية اقتران... ومثله ما ورد في الآية 21 من سورة الروم {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا...}.

نقول زوج للنبات بخاصية تشاركهم لوحدهم في شيء ما والاختلاف عن الأزواج الأخرى في الشكل أو الثمر كما ورد في الآية 53 من سورة طه {... وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى}، وللإنسان بخاصية الانتماء لجماعة والاختلاف عن الآخرين في المال أو السلطة كما ورد في الآية 88 من سورة الحجر {لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ...} فالكلام ليس عن زوجات الكفّار بل عن أصناف من الكفّار.

تشير لعموم التنوّع في نفس الصنف كاختلاف أصناف التفّاح، وتشير للاختلاف بين الأنواع كاختلاف التفّاح عن الموز، وحتى أنها مستعملة في التشابه في شيء والاختلاف في شيء آخر معنوياً كما ورد في الآيتين 57 و 58 من سورة ص حيث وصفت أصناف العذاب بالأزواج {هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ، وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ}، ومعنوياً في الآية 7 من سورة الواقعة {وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً}، فجماعة مؤمنين من الدرجة العالية وأخرى للمؤمنين من الدرجة الأقل وأخرى لبقية عموم من سيدخل النار.

هنا الكلام في الآية عن مجموعة كبيرة من الكفّار بيوم الدين، ونقول عنهم أزواج لأنهم كلّهم متشابهون مقترنون مع بعض في كفرهم بيوم الدين، وكذلك نقول عن المؤمنين أنهم أزواج عندما يتم جمعهم مع بعض لأنهم مشتركون مقترنون بالإيمان، وهنا السورة قسمت المؤمنين لذوي الإيمان العالي كأزواج لوحدهم والأقل منهم أزواج لوحدهم.

(فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ{8})
{فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ}، الذين مع بعض في جهة اليمين، ويقابلها جهة الميسرة، فهم في جهة اليمين، في جهة القادرين على التعامل مع الأمور براحة.

كما ترى فإن التعبير هنا يوحي بجهة اليمين مقابل جهة اليسار، ولكن ضع في بالك دائماً أنه من استعمال القرآن والعرب "وبشكل ما بقية اللغات" لكلمة اليمين، نرى الوصفية في الكلمة فهي ليست اسماً مخصصاً لليد ولا للجهة، بل وصف للاقتدار والراحة على فعل شيء، كوصف للقوّة النابعة عن قدرة وتحكّم، ولأن غالبية الناس تستعمل يداً محدّدةً أكثر من الأخرى، فحملت تلك اليد صفة اليمين اليمنى، استعمل القرآن كلمة يمين كوصف لقوته تعالى واقتداره وبنفس المعنى للملائكة(ع) ولقوة الإنسان... وسترى في الآية التالية مقابلة الميمنة مع المشأمة، وهذا يؤيّد ما قلناه عن وصفية القدرة مع الراحة في مقابل الوصفية للحالة السيئة، ولمزيد من التوسّع حول كلمة يمين راجع دراسة الآية 28 من سورة الصافات {قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ}، فالكلام ليس عن جهة بل عن ناحية دخول الفكر الشيطاني ضارباً اليمين، ضارباً بذرة الإيمان.

تسأل الآية: {مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ}؟ ما شأنهم؟ ما هو حالهم بعد أن وقعت الواقعة؟ فهناك أناس في جهة لوحدهم وموصوفون بالراحة في التعامل مع أمورهم هناك... وبعد قليل سيأتيك الكلام عن كرامتهم وسعادتهم...

(وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ{9})
{وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ}، والذين مع بعض والموصوفون بالشؤم، الموصوفون بالأمور التي من المتوقّع منها الشرّ ولا خير فيها، فهم كفّار فعّالون للسوء ومن المتوقّع لهم العذاب. وهؤلاء أزواج لوحدهم كمجموعة لوحدها في يوم القيامة.

كما ترى، مقابل اليمين شمال، ومقابل الميمنة نقول ميسرة، فاستبدلت الآية التوصيف الذي يعبر عن الجهة "يمين وشمال"، وذكرت القيمة المعنوية لمن هم في جهة مقابلة لأصحاب الميمنة، فوصفتهم بالمشأمة.

تسأل الآية: {مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ}؟ فما هي حالهم بعد أن وقعت الواقعة؟ وسيأتيك الجواب بعد قليل أنهم سيدخلون إلى النار حيث كل ما سيحصل معهم سيكون شراً وسوءاً.

بقي شيء، فمن النادر دخول القرآن في تفاصيل صفات الداخلين إلى مختلف درجات الجنّة والنار، وعادة يتكلّم عن أقصى النموذجين، نموذج الإيمان العالي جداً وفي مقابله نموذج الكافرين من الدرجة العالية، علماً أن الجنّة درجات والنار درجات، ففي الجنة درجة عالية جداً لمؤمنين وأخرى أقل منها لمؤمنين أقل إيماناً وهكذا... وللنار درجات للأشد كفراً وإجراماً ويليهم الأقل منهم كفراً وإجراماً وهكذا... وكلام القرآن عن درجات للجنّة أو دركات للنار لم يشر إلى أماكن مفصولة عن بعضها، فبالنسبة لأهل النار الموضوع غير مهمّ، فوضع مجموعة منهم في مكان منفصل في جهنّم عن الآخرين، لن يقدّم ولن يؤخّر في شعورهم بالعذاب، أمّا أهل الجنّة فلدينا فضول تصوّري عن حالة مؤمن ممنوع عليه دخول مكان ما في الجنّة، لأنه للمؤمنين من درجة أعلى من درجته، فنتصوّر أنها حالة ستسبّب له الانزعاج والشعور بالدونية... وهذا الافتراض يتبخّر بما نعلمه من القرآن عن شعور كل واحد فيها بأنه في قمّة السعادة ولا يتصوّر الآخرين سعداء أكثر منه ولا بأي شكل، وعلى كلّ حال فلكل مؤمن في الجنّة التي وساعتها كعرض السماوات والأرض، لكل واحد منهم مساحات هائلة شاسعة، يستأنس فيها بالحفلات مع المؤمنين الآخرين من مختلف درجات إيمانهم، ويستأنس لوحده إن أراد مع ما في الجنّة من مسرّات... وهكذا لا تجد أي معنى مزعج من وجود درجات في الجنّة، لأن الكل يشعرون بقمّة السعادة.

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ{10})
{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ}، الذين سابقوا سارعوا إلى شيء ما، وسياق الكلام عن المؤمنين فنفهم أنهم كلما سنحت لهم الفرصة لفعل عمل حسن فهم يبادرون لفعله، فلم يتباطؤوا ولم يهملوا أي شيء يرضيه تعالى عنهم.

لا تحصر معنى المسابقة بالمسارعة قبل الآخرين كسباق لمن يصل أولاً إلى الخطّ، فليس في دينه تعالى شيء كهذا، فكلمة سبق عمومية لأي مسارعة حين تسنح الفرصة لعمل ما، ومن تبعات المعنى بعض الأحيان أن يقوموا بالعمل قبل الآخرين، ولكن هذا من التبعات وليس الوصف العامّ للحالة، فخذ مثلاً قيامهم بالصلاة في أوّل وقتها، فهم سابقون، هم مسارعون لإقامتها أوّل ما حان وقتها، ولكن الآخرين أيضاً قاموا إلى الصلاة معهم جماعة وفي نفس الوقت، فكلّهم سابقون، فكلّهم سارعوا إلى اغتنام أول فرصة للصلاة، وكما ترى فلا واحد منهم صلّى قبل الآخرين.

سيأتيك بعد ثلاث آيات أن السابقين عددهم قليل، فهم الأعلى في الرتبة والمكانة من أصحاب اليمين، وسيكونون في يوم القيامة أزواجاً لوحدهم، كصنف ومجموعة لوحدها.

لاحظ الآية فصلت هذه الفئة عن غيرها، فهم أشخاص إذا قستهم مع الآخرين ستجدهم يسابقون فيسارعون إلى العمل الصالح، وهذا الوصف ورد بتعبير آخر في الآية 61 من سورة المؤمنون {أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}. ويمكن لأي واحد منّا أن يكون من السابقين إذا سارع إلى أي عمل فيه مرضاة لله تعالى وترك أي عمل فيه معصية له تعالى.

هذا الوصف "بالسابقين" يأخذك إلى عمق في التعرّف على الإيمان من الدرجة العالية، فسباقهم لفعل العمل الصالح يتضمّن اهتمامهم الشديد به، وأنّه أوّل همّهم، ويبادرون إلى إتاحة الفرص أمامهم لفعله، فمثلاً لفتح مجال التصدّق على

الفقراء يعملون على كسب ما يزيد عن حاجتهم من المال بهدف سدّ حاجات الآخرين أيضاً... وإذا صار وقت الصلاة فوراً بادروا لإقامتها، وإذا سمعوا بمشكلة عامّة أو خاصّة للمسلمين بادروا فوراً للمساعدة في حلّها... هذا ناهيك عن مداومتهم على ذكره تعالى بدلاً من سرح الخيال في زينة الدنيا...

استحضر هنا الآية 32 من سورة فاطر {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}، فبالانتباه لآياتنا هنا لا يعد لديك شكّ أنها تتحدّث عن منتمين لدينه تعالى، وأعلاهم مرتبة هم السابقون.

بقي شيء، فكما لاحظت فسّرنا سبقهم للخيرات وكأنه حصراً لفعل ما تعارفنا عليه كعمل غير عادي وعليه ثواب كالصدقة والصلاة... وهكذا عادة نفسّر عمل الصالحات، بينما عموم مفاهيم القرآن تتحدّث عن كلّ عمل مهما كان نوعه، فمثلما الغشّ عمل سيّء وعليه عقاب، فحين لا تغشّ فهذا عمل حسن صالح وعليه ثواب، وهكذا ترى وساعة في تطبيق ما يحصل عليه المؤمنون من أجر لأعمالهم العادية، والعادية جداً، فمثلما هناك عقاب على استعمال الماء بإسراف فهناك ثواب على استعمال الماء باقتصاد، ومثلما إهمال نظافة الجسد وتأذّيه ونفور الآخرين من رائحته... سوء، فبالعكس تنظيف الجسد عمل حسن عليه ثواب، ومثلما الغيبة عليها عقاب، فالكلام الحسن عن الآخرين عليه ثواب.

(أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ{11})
أولئك، السابقون هم، {الْمُقَرَّبُونَ}، وكما ترى من سياق الكلام فالآية تقصد الذين يوصفون بأنهم قريبون منه تعالى.

القرب ليس معناه أنهم جالسون بقربه عزّ وجلّ، فربنا تعالى اسمه ليس شخصاً جالساً على كرسي كما تعلم، بل معناه أن المقربين هم الذين سينالهم سبحانه بعناية خاصّة أكثر من غيرهم، في مقابل المبعدين الذين سيأتي الكلام عنهم في السورة، فهم البعيدون عنه تعالى، فأبعدهم سبحانه عن رحمته "لعنهم طردهم أخزاهم..." ورماهم في جهنّم.

تفهم بسهولة القرب منه تعالى مثلما تصف شخصاً بأنه من المقربين من الرئيس، فحتى وهو في بيته أو في بلد آخر بعيد عن الرئيس فأنت تصفه بالمقرّب من الرئيس، لأن الكلام عن قرب معنوي، فله مكانة عند الرئيس، وعلى نفس المعنى كلام الآية 42 من سورة الشعراء {قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} فهذا ما وعد فرعون السحرة إن غلبوا النبي موسى(ع)، ومعلوم لك أنه لا يقصد بقربهم سكنهم معه في قصره أو بقرب قصره، بل لهم قيمة وكرامة عنده، وعلى نفس هذا المعنى يكون قرب المؤمنين منه تعالى بالقيمة المعنوية.

في مقابل عموم المؤمنين المقربين منه تعالى فهناك مجموعة أقرب من غيرها، وعملياً فالمقرّبون ينالون رحمة وعناية أكثر من غيرهم، فسيكونون في درجة عالية من الجنّة كما سترى مما سيأتي من كلام.

(فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ{12})
{فِي جَنَّاتِ}، في الأماكن الموصوفة بروعة ما فيها، التي فيها كل ما تحب وتشتهي من بساتين وحدائق وأنهار وقصور وما يسبّب السعادة... وموصوفة بأنها، {النَّعِيمِ}، حيث التنعّم والتلذذ والفرح يكون في أعلى مستوياته.

سيخطر ببالنا أن النعيم اسم لجنّاتٍ مخصّصة للسابقين، مما يعني أن بقية الجنّات لها أسماء أخرى، وهذا غير صحيح، فالكلام هنا يشير إلى تميّز جنّات السابقين، ولكن الوصف بالنعيم لجنّاتهم لا يزال عمومياً ومنطبقاً على كلّ جنان الآخرة، فكلّها توصف بالنعيم، وهذا النوع من التعامل مع القرآن باستخراجات استنسابية منه وفرضها عليه، كما مرّ معك باستخراج تسميات للآخرة من القرآن وفرضها عليه، وبذلك تخرج الكلمات عن معناها الوصفي، ويتراكم لدينا تراث ثقافي، ومع مرور الزمن من البناء عليه، نصل إلى نتائج ما أنزل الله بها من سلطان وتصير من المسلمات من دون أن نشعر...

(ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ{13})

السابقون هم، {ثُلَّةٌ}، جماعة عددها محدّد من الناس {الْأَوَّلِينَ}، من الذين كانوا في الدنيا أولاً قبلنا، وكما تعلم فقبلنا كان يوجد بين الناس الذين سبقونا الكثير من الأنبياء والرسل، ونضيف إليهم الأوصياء والعباد المخلصين، فيصير المؤمنون من الدرجة العالية ثلة أي جماعة عددها محدود بالنسبة لعدد كل الناس السابقين، فبالنظر لكل الناس السابقين لنزول هذا القرآن، فهناك جماعة منهم مؤمنين من الدرجة العالية وعددها غير كبير.

(وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ{14})
السابقون عددهم، {قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ}، وكما ترى فأنت بحاجة لنقطة زمنية لتقول عن قبلها وبعدها، وأوّل ما يخطر بالبال تحديد عصر النبي محمد(ع) ونزول هذا القرآن، فمن سيأتي بعده من الناس فهم الآخرين، فعدد المقربين منه تعالى من الآخرين، أي من الذين أتوا من بعد زمن النبي محمّد(ع)، فهو عدد قليل بالنسبة للعدد الذي من الناس الأولين قبل النبي محمّد(ع).

المؤمنون من الدرجة العالية من الأقدمين هم ثلة، ومن اللاحقين عددهم قليل فهم أقل من الأقدمين.

نفهم تحديد هذه النقطة الزمنية للأولين والآخرين إذا تذكّرنا أنه قبل النبي محمّد(ع) كان يوجد رسل وأنبياء وأوصياء، وكما تعلم فهؤلاء هم المميزون جداً بالإيمان والعمل الصالح، ومن بعده(ع) يوجد مؤمنون من الدرجة العالية ولكن عددهم بالنسبة لعدد الأنبياء والرسل سيكون قليلاً، ولا تنسَ أن الحديث هنا حصراً عن المؤمنين المميزين بدرجة إيمان عالية جداً، وسيأتيك في السورة الحديث عن المؤمنين من الدرجة الثانية، وسترى أنهم ثلّة من الأولين وثلّة من الآخرين، فهم قياسا لكلّ الناس على مرّ الزمن فعددهم قليل، وبالقياس لعدد المؤمنين من الأولين والآخرين فالنسبة متقاربة، وهكذا تفهم هنا أن السابقين من الآخرين، أي من بعد نزول القرآن، فعددهم قليل بالنسبة للمؤمنين الذين كانوا قبلنا، وعددهم أقل من بعد النبي محمّد(ع).

فلنتعرف على جنة النعيم التي سيعيش فيها المقربون:

(عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ{15})
المقربون يجلسون ويتّكئون، {عَلَى سُرُرٍ}، مفردها سرير، والسرير نوع من الأثاث المرتفع ولو قليلاً عن الأرض بلوح أو قوائم وعليه فراش يسع للاستلقاء عليه، سواء بقيت صاحيا أو نائما، فالسرير ليس مخصصا فقط للنوم عليه بمعنى فقدان الوعي، بل لعموم الاستلقاء سواء نمت ففقدت وعيك أو استلقيت عليه.

تلك الأسرّة، {مَوْضُونَةٍ}، وهذه الكلمة في استعمال العرب قديما تشابه ما نقوله حاليا عن الجودة في الترتيب، كدلالة على جودة نسيج فراشها وقماشها وهيكلها...

(مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ{16})
السابقون على تلك الأسرّة، {مُتَّكِئِينَ}، يضعون تحت أبطهم وجنبهم وسادة "تكّاية"، {مُتَقَابِلِينَ}، فوجوههم باتجاه بعضهم البعض. فالآيات هنا تصف لنا حفلا يجتمع فيه السابقون ويتسلّون مع بعضهم، كما تجلس أنت مع أحبائك وجها لوجه وتتحدثون وتتسلّون...

(يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ{17})
{يَطُوفُ}، يذهب ويأتي فيدور، {عَلَيْهِمْ}، على السابقين، {وِلْدَانٌ}، ذكور وإناث بعمر صغير، {مُخَلَّدُونَ}، باقون على شكلهم كما هم، لا يموتون ولا يتقدمون بالعمر، فهم دائما في خدمة السابقين ودائما بنفس الهيئة الجميلة وحداثة السنّ.

لاحظ أن جمع كلمة ولد هي أولاد أو ولدان، وكلمة ولدان درج استعمال العرب قديما لها لخصوص صغار السنّ.

سؤال: دخل البشر المؤمنون الجنّة بإيمانهم وعلمهم الصالح، ولكن الخدم هناك من أين أتوا وماذا فعلوا حتى يدخلوا الجنّة؟ بالتحليل نفهم أن المؤمنين دخلوا الجنّة ليسعدوا فيها بسبب حرية الإرادة والاختيار وتمييزهم بين الخير والشرّ، واختيارهم الخير. وبالتالي فالخدم والحور الذين في الجنّة لم يكونوا مكلفين في الدنيا، ويبدو واضحا مما نعرفه من

القرآن أنهم مخلوقون هناك في الجنّة، وهم كائنات لا تتمتّع بحرية الإرادة والاختيار، ولذلك فلا تكليف عليها، وسعادتهم في الجنّة ليست من مستوى وعي المؤمنين بسعادتهم... وفي الآية 35 سنتحدث بتوسّع عن نشأة الحور في الجنّة ولماذا لم يمرّوا بالبلاء في الدنيا...

(بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ{18})
ورد نفس المعنى في الآية 45 من سورة الصافات {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ}.

يطوف، الولدان الخدم، {بِأَكْوَابٍ}، بالكبايات وهي أواني للشرب ليس لها مسكة لليد، ويطوفون بـ {أَبَارِيقَ}، مفردها إبريق، آنية لها خرطوم "زلّومة" كإبريق الماء والشاي... بفتحتين، واحدة كبيرة لصبّ الماء في الإناء والأخرى لها خرطوم للصبّ منه في الأكواب. وتلك الأباريق فيها أنواع السوائل اللذيذة للشرب كما تتوقّع من سياق الكلام، ويطوف الغلمان أيضاً بـ {كَأْسٍ}، وهي أواني الشرب "مثل الكوب" وليس لها عروة "بلا حلقة على جنبها" ولها قاعدة ثم خصر رفيع ثم تتسع من فوق، ومناسبة لحملها بالأصابع من الخصر، وهذه الكؤوس مملوءة، {مِنْ مَعِينٍ}، وهذا وصف لمشروب يعين فيساعد على شيء ما، وأول ما يخطر ببالنا أنه يعين على القوة والنشاط والسرور.

نلاحظ هنا في الدنيا رغبتنا بشرب مختلف أنواع المشروبات في أواني مختلفة، فنفضّل شرب القهوة في نوع يساعد على الارتشاف، ونفضّل نوعا آخر من الأكواب لشرب الشاي برشفات أكبر من شرب القهوة، والمشروبات المنعشة كعصير الفاكهة نفضل شربه في نوع آخر من الأكواب لرشفة كبيرة من السائل، فيكون للكوب وساعة زائدة من الوسط... ويبدو من القرآن أن مشروبات الجنّة أيضا سيفضّلها المؤمنون في أواني مختلفة الشكل تتناسب مع المشروب، وهكذا نفهم من الآيات حالة الرفاهية لأهل الجنّة.

ستجد في بعض التفاسير قولهم عن المعين بأنه نوع من الخمر، وهذا المعنى استنسبه أحدهم فلحق به البقية، وهذا المعنى لا أساس لغوي له، فكان من المفروض بالمفسرين التنبيه على أنه مصداق من المصاديق، ففي الجنّة أنهار من مختلف أنواع السوائل كما تقرأ صراحة في الآية 15 من سورة محمّد {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى...}، ومن عملهم كمفسرين الانتباه لأمثال الآية 30 من سورة الملك التي وصفت الماء بالمعين على سدّ الحاجات...{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ}، فلا المعين اسم من أسماء الخمر، ولا اسم لنوع منها، ولا هو وصف حصري لها، والآية أشارت به لعموم أي مشروب في الجنّة ويعين على عموم أي شيء يرغبونه، فيعين على الارتواء تلذّذا بالطعم أو على النشاط أو على النشوة...

ولمزيد من توسعة الأفق حول حفلات الجنّة راجع الآية 23 من سورة الطور {يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ}.

(لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ{19})
لا يصدّعون عنها، لا شيء سيبعدهم عن المعين، فلا شيء سيمنعهم عن الشرب منها متى شاؤوا، ولا ينزفون، فلا تنزف فلا تنتهي كؤوسهم من الشراب، فبعدما يشربونها سيملؤها الولدان فوراً.

بعضهم فسّر الكلمتين هنا بالمقارنة مع شرب الخمر هنا في الدنيا الذي يسبّب الدوار وفقدان التركيز والصداع، ولكن استعمال العرب قديما لهاتين الكلمتين يعطي معنى انتفاء إبعاد المشروب عن الشارب، فالصدع بطرد الشارب أو الولدان من تعبئة الأباريق من الأنهار، والنزف انتهاء السائل وفقدانه، ولا هذه ولا تلك ستحصل، ورد في الآية 47 من سورة الصافات {لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ}، فالتعبير بـ "عنها ينزفون" هناك لا يساعد على تفسيرها هنا بالسكر وفقدان التركيز، "فعنها" لا تتحمّل هذا المعنى، وهنا أيضاً "فيصدعون عنها"، لا تتحمّل الصداع منها ولا بأي شكل، "فعنها" لا تتحمّل غير دفعهم عنها. ولمزيد من التوسّع فمن المفيد مراجعة دراسة كلمة "يصدّعون" الواردة في الآية 43 من سورة الروم {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ}.

(وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ{20})
وفي جنات النعيم، {فَاكِهَةٍ}، أشياء للأكل للتفكّه فيأكلونها للتلذّذ بطعمها وليس بدافع الجوع، {مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ}، فأمامهم خيارات عديدة للاختيار منها من مختلف أنواع النكهات.

نلاحظ وصف الطعام في الجنة في القرآن غالباً بالفاكهة، فالفاكهة هي التي نأكلها عادة بقصد التحلية والتلذّذ بالطعم وليس بقصد الشبع، فأهل الجنة يأكلون فقط ليتلذّذوا بالطعم.

(وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ{21})
وفي جنات النعيم، {وَلَحْمِ طَيْرٍ}، لحوم من عموم أنواع الطيور، {مِمَّا}، من الذي، {يَشْتَهُونَ}، فحتى لو كنت هنا في الدنيا نباتياً في غذائك أو لا تحبّ لحم الدجاج أو الحمام أو الحجل... فهناك في الجنة فإن لحم الطيور من النوع الذي تشتهيه فترغب في أكله.

تتذكّر دائماً أن كلام القرآن عن نماذج، واختيارها هنا للحم الطير مجرد نموذج عن طعم اللحوم الشهية، وما يشعر به البعض لسبب أو لآخر من نفور من اللحوم هنا في الدنيا، فهذا شيء مختلف عن حاسة الذوق عند أهل الجنّة ومختلف عن طعم اللحوم هناك.

بعض الأقوام كانت لديهم مشكلة مع طهي الطعام، فيرغبونه ولكن ليس في كل مرّة يجدونه لذيذاً بسبب حالة الحيوان الصحيّة، وبسبب ظروف سلخ الحيوان في أجواء تفسد لحمه، وبسبب استعمال أواني فيها بكتيريا تفسد الطعم، وبسبب استعمال منكهات غير مناسبة تفسد النكهة... والعديد من الأسباب التي أدّت لتطوّر طهي اللحم مع التوابل "البهارات" التي تحسّن من النكهة وتخفي عيوب الطعم... إلى أن أكثر بعض الأقوام من الفلفل حتى طغى واختفى كل طعم كريه... وبعض الناس يأكلون اللحم نيئاً فقط ولا يحبونه مطهياً، وآخرون بالعكس... وبعضهم يحبّونه مشوياً ولا يطيقونه مطهياً... وبالتحليل تبدو المشكلة في طرق التحضير، وفي اختلاف أذواقنا التي تؤدّي إلى طعم كريه جداً عند البعض للّحم مع البندورة والخيار النيء، بينما آخرون يجدونه لذيذاً... وبعض الناس مضافاً لما سبق من مشكلة نكهة اللحم، فهم يتصورون قتل الحيوان الذي يأكلونه.

كل ما سبق وغيره فلا تخلطه مع ما في الجنّة، فحاسة الذوق هناك تعطي طعماً رائعاً دائماً، والمأكولات هناك رائعة دائماً، وأما قتل الحيوان لأكله فلم يَبْدُ لي أي شيء من القرآن كمشكلة لا في الآخرة ولا هنا، فبالتخمين لأولئك الحسّاسين من قتل الحيوانات لأكلها، فإذا بقيت مشاعرهم هذه هي نفسها في الجنّة، فهناك آلاف الحلول لهم، فالله على كل شيء قدير.

(وَحُورٌ عِينٌ{22})
وفي جنات النعيم يوجد، {حُورٌ}، وهي صفة للنساء وللرجال الذين ألوانهم نقية، {عِينٌ}، بأتم مواصفات جمال العيون، فهي واسعة أو مشطوبة أو مائلة... نقية اللون... والآية التالية ستشرح عن حور جسدهن أي عن نقاوة بشرتهن...

لاحظ إسقاطات من خلفيات بعض المفسرين لكلامه تعالى بحسب ما يرونه هم من جمال، فكلمة عين ليس معناها العين الواسعة، ولكن بعضهم في باله أن هذا هو الجمال في العين ففسّره به.

لاحظ أن عموم القرآن تحدّث عن إناث في الجنّة للمؤمنين الذكور، واستعمل عبارة "حور عين" وبعدها أو قبلها صفات تأنيث مما يشير إلى أنوثة الحور، مع العلم أن هذا الوصف ليس حكرا على النساء. وعادة يسأل الناس عمّا للنساء المؤمنات في الجنّة، فهل لهنّ حور عين ذكور أو غيره؟ والجواب أن القرآن اكتفى بالإشارة ولم يصرّح بما لهن، فبطريقة غير مباشرة ألمح أنهن سيسعدن...

السؤال الآخر إن كانت المؤمنة تلتحق حتما بزوجها المؤمن في الجنّة، فربما هنا كانت تكرهه... أيضاً لم يصرّح عن جوابه القرآن لا نفياً ولا إيجاباً، فعموم القرآن يؤكّد أن المؤمنات لهنّ في الجنّة سعادة مطلقة مثلما للرجال سعادة بلا أي ملل أو اعتراض أو نفور... فلتبقى هذه النقطة في ذهن المؤمنة، وكما ورد في الآية 108 من سورة الكهف أن أهل الجنّة لا يفكرون بأي شيء آخر لأنهم سعداء لأقصى درجة {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}، فلا يفكّرون ولو للحظة

ولا يخطر على بالهم شيء أو مكان آخر أفضل مما هم فيه، فهذه ضمانة من القرآن للمؤمنة بأنها ستكون في غاية السعادة هناك، ولم يذكر القرآن أي تفصيل عن بقائها مع زوجها وما شاكل، وما تجده في الروايات فهو تخمينات اعتبروها منطقية، وقد لا تبدو لك منطقية، فقيل إنّ المؤمنة هي تصير حور عين، وقيل إنها أجمل من حور العين، وقيل إنها تلتحق بزوجها، وقيل إنها تصير زوجة للأنبياء إن كانت لم تتزوج في الدنيا أو لم يكن زوجها من أهل الجنّة... وقيل إنها تتحوّل إلى رجل... وكما ترى فهذه تخمينات لما تصوّروه كأقصى سعادة للمرأة، وليست صريحة الاستناد على كلام القرآن.

سأختصر لك القول عمّا قد يزعج بالك كذكر، فزوجتك هنا في الدنيا قد تصير طليقتك وتتزوج غيرك، وقد تصير أرملتك وتتزوج من غيرك، فلا تجعل الدين الإلهي ذكورياً على مزاجك، وتنسب رأيك لدينه تعالى رافضاً فكرة الحور العين للمؤمنات، فماذا عن المؤمنات اللاتي متن عزباوات؟ وماذا عن اللاتي زوجهن ليس من أهل الجنّة؟...

في الآية 35 سنتحدث عن نشأة الحور في الجنّة ولماذا لم يمرّوا بالبلاء في الدنيا...

(كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ{23})
الحور العين، {كَأَمْثَالِ}، شبه، {اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ}، فلم تلمسه الأيدي ولم يتعرض للغبار وقد فتحت الصدفة عنها لأول مرّة، فلونهن بنضارة لؤلؤة فتحت عليها الصدفة في لحظتها.

الكنّ هو وصف حالة استقرار الشيء فيما يعيق أو يمنع وصول ما في الخارج إليه، واللؤلؤ كرة صغيرة المشهور منها ذو اللون الأبيض علماً أنه يوجد منها عدّة ألوان، ولها تموجات ألوان على سطحها، ويتم استخراجه من صدفة حيوان يعيش في الماء.

ولمزيد من الدراسة حول السعادة الجسدية في الجنّة راجع دراسة الآية 57 من سورة الرحمن.

(جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{24})
تلك الجنات هي، {جَزَاءً}، مقابل، من ربنا سبحانه، {بِمَا}، بسبب الذي، {كَانُوا يَعْمَلُونَ}، ما صدر عنهم من أعمال صالحة.

فسبحانه ليس مزاجياً ولا عبثياً، فلديه قرار واحد ثابت وهو مجازاة من أحسن بالجنّة.

(لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً{25})
{لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا}، السابقون لا يسمعون في تلك الجنّات، {لَغْوًا}، الكلام الفاضي، الكلام بلا طعمة، الكلام كيف ما كان، شربحة وحكي فاضي. واللغو يتدرج من الأسوأ وهو الكذب وتكذيب الحقّ، مروراً بالتعليقات والانتقادات غير المحقّة والمعيبة على الدين الإلهي أو على الناس، وصولاً إلى المبالغة بالكلام والمزاح الثقيل...

لا يسمعون فيها، {تَأْثِيمًا}، وهو الكلام السيء الذي يعرف قائله أنه سيّء كالكفر واللعن والسباب وإهانة الآخرين...

لاحظ في الآية 3 من سورة المؤمنون {وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ} أن العديد من المفسرين قالوا إنّ اللغو هو الغناء، وربما قصدوا أن الغناء مصداق عن اللغو الذي لا يتعاطاه المؤمنون، ولكن إن كانوا مصرّين على كون الغناء مصداق عن اللغو في تلك الآية، فعليهم تقييده بالغناء الحرام بكلمات فاحشة أو معيبة أو فيها كفر... وإلا فلا يحقّ لهم تعميم الحرمة على كل أنواع الغناء لأن كلمة اللغو ليست مخصّصة لذلك، وأنت تعلم أن الجنّة مباح فيها كل ما هو متاح، فهل الغناء حرام هناك طالما أهلها لا يسمعون لغوا! لا. بناءً عليه كان من الأجدر بالمفسرين توضيح كلامهم عن تفسيرهم اللغو بالغناء في الآية 3 من سورة المؤمنين، وأن يصرّحوا أنهم يقترحون مصداقاً حتى لا تتعارض كلمة لغو مع بقية استعمال القرآن لها.

هنا تأتيك المصيبة التالية، فغالبية المفسرين متفقين على تعدّد معنى الكلمة الواحدة، بل ويعتبرونه من مميزات اللغة العربية، ومن مميزات استعمال القرآن للغة العربية، وتراهم متفقين أنه حتى في نفس الجملة القرآنية يمكن تحميل الكلمة الواردة فيها عدة معان، وكلّها تكون صحيحة حتى لو لم تكن متوافقة! فيا من تعقل، هل سمعت بأغرب من هذا؟

(إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً{26})
لا يسمعون، {إِلَّا قِيلًا}، إلا ويقال لهم: {سَلَامًا سَلَامًا}، كل كلام أهل الجنة من نوع السلام الذي ليس فيه شيء سيّء، كله من النوع الذي يجعلهم دائما مطمئنين مرتاحين، فلن يسمعوا سبابا ولا شتائما ولا إهانة ولا مزاحا ثقيلا مزعجا... ولا انزعاج ولا عراك هناك... بل كل ما يسمعونه هو سلاما سلاما وهي كلمات المودة واللطف والمحبة والضيافة والبشاشة...

إلى هنا انتهينا من ملخص جنات السابقين وننتقل إلى الجنات الأقل مرتبة:

(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ{27})
الكلام هنا تكملة لآية {كُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً}، فبعد أزواج "نوع وصنف" السابقين ننتقل إلى، أصحاب اليمين، الذين مع بعض في اليمين، وقد مرّ معك في بداية السورة أنه من استعمال العرب والقرآن ترى أن كلمة اليمين وصف للاقتدار براحة على فعل شيء، كوصف للقوّة النابعة عن قدرة وتحكّم، ولأن غالبية الناس تستعمل يداً محدّدةً أكثر من الأخرى، فحملت تلك اليد صفة اليمين "اليمنى"، وهكذا صار لدينا اتجاهان بالنسبة لوجهتنا نحن، فجهة على اليمين وأخرى على الشمال، ومنه تطور الوصف ليصير مشيراً إلى جهة الراحة وجهة التعب...

استعمل القرآن كلمة يمين وصفا لقوته تعالى كما ورد في الآية {... وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ...}، ولقوّة الإنسان كما ورد في الآية 45 من سورة الحاقة {لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ}.

كما تعلم من القرآن فالكلام هنا عن أناس مرتاحين، فيحملون كتب أعمالهم باليمين أي بالسهولة والراحة، وقد ورد ذلك في الآية 71 من سورة الإسراء {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا}، وحسابهم يكون باليمين بيسر وسهولة فهم موصوفون بأنهم أصحاب اليمين... ورغم هذه المعاني لكلمة يمين فهم في الآخرة أيضاً على جهة مختلفة عن الجهة التي فيها الكافرين، فلا ينفي أن يكونوا أيضاً على جهة اليمين بالنسبة لمواجهة شيء ما في الآخرة، وليس لدي إلا احتمالٌ واحدٌ وهو مواجهتهم للجنّة والنار، فبالنسبة لوقوفهم أمام الجنّة يصيرون هم على جهة اليمين وأهل النار على جهة يدهم الشمال.

ما أصحاب اليمين؟ فلنَرَ حالهم بعد أن وقعت الواقعة:

(فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ{28})
السدر هو شجر النبق، فهو من نفس عائلة شجر العنّاب وشكلهما وثمارهما متشابهان، وهو شجر بعض أنواعه دائم الخضرة صيفا وشتاء، وثماره كريات صغيرة لها طعم حلو ورائحة عطرة، وعلى أغصان السدر شوك، أما الذي في الجنّة فهو {مَخْضُودٍ} أي منزوع الشوك فليس على أغصانه أشواك.

السدر نموذج عن أشجار الجنّة، وهي شجرة كانت محبوبة كثيرا عند العرب قديما قبل عصرنا، فزهرها رائحته فوّاحة وثمرها حلو متنوّع الطعم، ولسبب أو لآخر فثمارها حاليا ليست رائجة في أسواقنا، وأكثرنا في المدن لا يعرف طعمها.

(وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ{29})
وأصحاب اليمين في، {طَلْحٍ}، ولم ترد هذه الكلمة في القرآن إلا هنا، وقديما وحديثا يقولون: غبار الطلح. ويقصدون الغبار الذي في رؤوس العيدان الصغيرة التي عليها ما يزهر منه البلح من بعدما ينشقّ الغلاف الخشبي الكبير عنها، {مَنْضُودٍ}، متراكم فوق بعضه، فالطلح هو اسم ما على العيدان الصغيرة التي تحمل البلح، فهو النقطة التي يصير فيها

حبّة بلح، ومنه يخرج غبار الطلح من البلح الذكر، وحين ينعقد الطلح الأنثوي يحمل بلحاً، وإذا كان الحمل جيداً، فيصير الطلح منضوداً، مثلما ترى عناقيد البلح الكبيرة، فحبّات البلح منضودة متراكمة فوق بعضها البعض.

تجدهم في بعض الكتب فسّروا الآية هنا بالموز، لأنه متراكم فوق بعضه البعض، ولم أجد مصدرا موثوقاً يؤكّد معرفة العرب بنبتة الموز حين نزول القرآن.

إن لم تكن من محبّي البلح أو التمر هنا في الدنيا، ففي الجنّة الطعم مختلف وحاسة الذوق عندك مختلفة، وعلى أي حال فكلام الآية هنا عن خيرات ثمار شجر الجنّة وكنموذج عنه كثرة ثمار شجر النخيل، ومعلوم لك أن أنواعا لا نهاية لها من الثمار متوافرة في الجنّة، فالجنّة في تجدّد دائم.

(وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ{30})
وأصحاب اليمين يعيشون في، {ظِلٍّ}، فيقفون أو يمشون أو يستلقون في الظلال، فيما يسترهم عن الشمس أو عن الآخرين، {مَمْدُودٍ}، ممتد، والكلام عن الأشجار الوارفة ذات الأوراق الكثيفة التي تشكّل ظلّاً، وأنها مساحات ضخمة "ممتدّة" من تلك الأشجار.

يوجد مساحات مشمسة ومساحات يخترقها الضوء من بين أوراق الأشجار، ولكن الإشارة للظلّ بسبب الرغبة فيه عادة، فآيتنا هنا من نوادر الآيات التي يمكن أن تفهم منها بعضا من طبيعة طقس الجنّة، فهناك مجال للمشي تحت الشمس، اللطيفة طبعا، وهناك مجال دائم للمشي في الظلال.

على أي حال فلا تنسَ أن وساعة الجنّة بوساعة السماوات والأرض كما تقول الآية 133 من سورة آل عمران {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}، مما يعني أن أحوال الطقس متنوعة، والبيئة متنوعّة.

(وَمَاء مَّسْكُوبٍ{31})
وفي جنتهم، {مَاءٍ مَسْكُوبٍ}، يسيل ويجري بكثرة، والمقصود أنه متوافر دائما وبكثرة سواء من النوافير أو العيون أو الأنهار أو الأباريق...

هنا الآية والتي سبقتها تشير للماء والظلّ، كما نقول بالعامية عن المكان الهنيء: ميّ وفيّ. مياه وفيء.

(وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ{32})
وفي الجنة، {فَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ}، بالأنواع والعدد. والفاكهة هي التي نأكلها للتحلية للتلذّذ بطعمها وليس عن جوع، فعموم تعابير القرآن تشير أن أهل الجنّة يأكلون فقط للتلذّذ بالطعام.

(لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ{33})
والفاكهة، {لَا مَقْطُوعَةٍ}، فلا تنتهي ودائما متوفرة بكل أنواعها في كلّ الأوقات، {وَلَا مَمْنُوعَةٍ}، فيمكنهم التناول من أي فاكهة أرادوا ولن يمنعهم أي أحد ولن يمتنعوا عن أكلها لأي سبب، فلن يروا شجرة أو بستان يملكهم أحد ما وممنوع عليهم الأكل منه، ولن يصيبهم عارض صحّي يمنعهم من أكل أي طعام...

(وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ{34})
وفي تلك الجنات يوجد، {فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ}، والفراش كلمة لعموم ما هو ممدود تحتنا، والكلام هنا عن أثاث للجلوس أو الاستلقاء عليه وهي، {مَرْفُوعَةٍ}، عالية عن الأرض، كسرير أو كنبة عريضة... وهذه صورة عن الرفاهية بالأثاث.

(إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء{35})
على تلك الفرش إناث:

{إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ}، كوّنهن سبحانه من شيء سابق، {إِنْشَاءً}، بكل ما تحمله كلمة إنشاء من معنى، وسياق الكلام عن خلقهن على أتم المواصفات المرغوبة.

الفرق بين التوصيف بالخلق والإنشاء أن الخلق وصف عامة التركيب والتأليف، سواء من الصفر جرى خلق المواد التي تركّب منه الشيء، أو كانت المادة موجودة من قبل، والإنشاء ناظر للمادة، فهو خلق من شيء سابق وليس من الصفر، فهي ناظرة لكون المادة موجودة وجرى خلق شيء منها.

يخطر ببالنا سؤال عن تلك الكائنات التي لا نعرف عنها الكثير سوى شكلها الجميل وأنها متعلقّة بصاحبها وأنها محببة، فنقول: كيف حظيت تلك الكائنات بالجنّة من دون المرور ببلاء الدنيا؟ وهذا السؤال ينطلق من افتراضنا للصفات البشرية في تلك الكائنات، فقد افترضنا فيها صفات تمييز الخير من الشر وحرية الإرادة التي نتمتّع بها نحن والتي هي سبب مرورنا ببلاء الدنيا ومحاسبتنا ومجازاتنا في الآخرة على ما اخترناه. وآيتنا هنا تشير لكونهن مخلوقات لأوّل مرّة هناك في الآخرة وفي الجنّة بالتحديد، فإن لم نفترض فيهن كامل الصفات الإنسانية وخصوصا كامل حرية الإرادة بالشكل الكافي للتكليف، فلن يكون لامتحانهم معنى، وبالتالي فلن يبقى للسؤال عن سبب سعادتهم بالجنّة من دون بلاء الدنيا أي معنى، وأمّا إن تمتّعن بحرية الإرادة الإنسانية الكافية للتكليف والامتحان فالسؤال سيبقى مطروحا، فالمرجّح عندي بالتحليل أنهن مخلوقات لا تتمتع بكامل الصفات الإنسانية المطلوبة للتأهل للتكليف، فلا معنى للسؤال عن سبب إنشائهن في الجنّة بدون المرور في امتحان الدنيا لأن الامتحان لا معنى له بالنسبة لهن.

بمقاربة من نوع آخرى ترى أن هذا السؤال عن سبب خلقهن في الجنّة بدون امتحان، كان خلف بعض ما قالوه في الكتب عن أصل نشأتهن، فقيل أنهن الأعمال الحسنة التي قام بها المؤمن فتجسّدت وصارت كيانات جميلة تابعة للمؤمن في الآخرة، وبشكل ما يبدو لكلامهم دعم قرآني ولكنه ليس صريحا لهذا الحدّ، فهم يقولون بأنه نوع من تجسد الأعمال، والآية 6 من سورة الزلزلة {يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ}، والآية 167 من سورة البقرة {... كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} فيمكن أن تتوسّع في معناهما لتقول بأن الأعمال تتجسّد ونراها، وهكذا يكنّ نتاج عمل وبرأيهم ينتفي السؤال عن وجودهن هناك بلا امتحان، ولكن الآية 8 من سورة فاطر استعملت نفس التعبير ولم تقصد تجسّد الأعمال {أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا...}، فالمفهوم لتجسد الأعمال لطيف "مهضوم" وله تطبيقات تبدو جميلة، ولكنه ليس مفهوما قرآنيا صريحا، وليس مفهوما عامّا، وإن تجسدت الأعمال الحسنة لتصير حورا، فما الذي تغيّر حتى لا نسأل عن سبب تصميمه تعالى لنشأة الحور في الجنّة بدون المرور بالبلاء؟

كلامهم عن تجسيد الأعمال له متفرعات تبدو جيدة ومتماشية مع مفاهيم القرآن، حيث يتعذّب فاعل السيئات بما تجسّد من أعماله، وهكذا ينطبق عليهم ما ذكرته الآية 25 من سورة آل عمران {فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}، ولكن الكسب أعمّ من تجسيد الأعمال، فهو لعموم ما نتج عن الأفعال، فضرب الملائكة لأهل النار هو ما كسبوه لأنفسهم، ومن الصعب تصوير هذه الحالة بأنها تجسيد للأعمال على معنى حصول شيء متجسد ناتج من العمل، كحالة نتاج حور عين من الأعمال الحسنة أو نتاج شجرة من التسبيح، فحتى يصدق تجسد الأعمال على الملائكة الضاربة فستحتاج للي الكلمات والمفاهيم، أو هل ستقول بأن الملائكة الضاربة نشأت من السيئات...

على أي حال، فتجسّد الأعمال كفكرة فيمكن فهمها كصيغة لتحويله تعالى للحسنات إلى جنان فيها ما تشتهي الأنفس، وهكذا يصير لدينا ربط الثواب بأعمالنا كنتاج مباشر، وفي عمقه فهو نفسه ربط سببية وعليّة، لأنه تعالى مسجل عنده كل شيء فمعلوم نتائج كل شيء، ولا عبثية في ذلك، فهو مقارن للعلية في النتيجة، كعلية تداعي المعاني، حيث هناك ناتج دائما من بعد حصول شيء، والربط بينهما غير معلوم آليته ولكن الاقتران معلوم... وبالتعبير الدقيق فهو تطبيق لأحكامه تعالى في مجازاته...

القائلون بتجسد الأعمال يريدون جعل الحساب والجزاء يبدو آليا كتحصيل حاصل لما فعلناه، وهم بالأساس محقون لأن كل تعابير القرآن تستعمل الوصف بالكسب الذي معناه حرفيا: ما نتج عن عمل. ولكنهم مصرّون على ربط العمل بما نتج بوصف العلية والسببية، مثلما هنا نعمل بأيدينا لنبني بيتا وحديقة، فالعمل الحسن عمل ينتج عنه بالعلية قصرا وحديقة في الآخرة وكأننا نبنيه بأيدينا.

في مقابل القائلين بتجسد الأعمال لدينا الفهم العادي لحالة الثواب على أنه تعالى لديه ميزان للأعمال، وبحسب قيمة الأعمال التي فعلها المؤمن سينال جنّة بما فيها، فهذا ما كسبه، فهذا التصوّر في مقابلته مع تصور تجسد الأعمال ترى أنهما ليسا بعيدين كثيرا عن بعض، ولكن فكرة تجسّد الأعمال تحتاج لدليل أقوى لإثبات كونها قرآنية، بينما موازينه تعالى ومجازاته لنا بما كسبنا... صريحة جدا جدا في القرآن ومفهومة بالبساطة.

ومن تبعات الكلام عن تجسد الأعمال، أنك لا تسأل عن سبب الخلود في عذاب شديد لأنه يصير بالعلية، يصير نتاج أعمال الكافر، فهو أصرح بكون العذاب الشديد الخالد على الشرك أو على قتل نفس زكية أو على الزنا أو على الهروب من القتال... أنه نتيجة سببية له، فهو مثل رمي النفط على الخشب وإعطائه شعلة، فالنتيجة حتمية، اشتعال.

علما أن تعابير القرآن بتوصيف الحالة أنها "كسب" فبما كسبوا حصل معهم هذا الخلود في العذاب، وهي تفيد نفس المعنى بالعمق، والمشكلة أن عموم المفسرين لم يصلوا إلى معنى دقيق للكلمات فلم تظهر لهم المفاهيم القرآنية بشكل واضح، فافترضوا بعض المفاهيم، والتي يظهر لك أن المعاني الدقيق للكلمات أصلا يعطيه...

(فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً{36})
الباكورة كلمة تشير للأولية، فنقول لأول ولد لزوجين "ذكر أو أنثى" إنه البكر لهما، ونقول للفتاة التي لم تتزوج من قبل إنها بكر، وعملياً فالتوصيف هنا أنهن لم يعاشرهنّ أحد من قبل.

كما ترى من مختلف آيات القرآن أن تلك الإناث مخلوقة هناك في الجنّة لأوّل مرّة، ولم يكنّ موجودات من قبل، وما تجده في عموم الروايات والتفاسير عن إناث الجنّة وعن مواصفاتهن... فهو ما استنسبه المسلمون فنسبوه إلى الجنّة وما فيها على أساس أنه يجب أن يكون من صفاتها لأنه المرغوب والأفضل في رأيهم، وكمثال على ذلك ما قالوه عن أن أهل الجنّة تكون أشكال جسدهم وتكوينهم كمن هم أعمارهم بين الثلاثين والثلاث والثلاثين سنة، وكما ترى فقد استنسبوا وبشكل بدا لهم منطقياً تماماً أن هذا العمر هو الأفضل، ولم ينتبهوا إلى أنها مسألة نسبية يختلف الرأي فيها من زمن لآخر ومن جيل لآخر بسبب اختلاف المعدّل الوسطي للعمر واختلاف رفاهية الحياة...

لمزيد من التوسّع حول السعادة الجسدية في الجنّة راجع ما ورد في دراسة الآية 57 من سورة الرحمن.

(عُرُباً أَتْرَاباً{37})
{عُرُبًا}، متحببات لأزوجهن من أهل اليمين، بالدلال والغنج والكلام الجميل... وهنّ، {أَتْرَابًا}، متقاربات في الحسن والجمال، بحيث لا يمكن أن تقول عن هذه إنها أجمل من تلك، فكلّهن جميلات.

لاحظ أن العرب استعملوا الكلمة التي تدل على لغتهم ونسبهم "عرب" في مقابل الكلمة التي تدل على من هو من غير لغتهم، ومن غير نسبهم "عجم"، وفي كلامهم صار لكلمة "عرب" معنى القرب والألفة بسبب فهمك لكلامهم العربي ولكونه نسيبك من قريب أو بعيد، في مقابل العجمة النفور وفقدان التوافق وفقدان التفاهم... بسبب أنك لا تفهم كلامه... وقد جاء في كلام العرب قديما استعمال كلمة "عَرُوب، عُرُب" لتدل على ما هو مألوف محبوب، ومنه الاسم الأنثوي "عروبة"، ولذلك كان من المناسب هنا فهم كلمة {عُرُبًا} لوصف الإناث أنهن مألوفات محببات.

(لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ{38})
كل هذا هو، {لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ}، للذين مع بعض في اليمين، وقد مرّ معك منذ قليل في الآية 27 توسّعٌ في معنى كلمة يمين، وباختصار فهو وصف للذين يتعاملون مع الأمور براحة واقتدار.

(ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ{39})
عدد صغير من الأولين من الناس الذين كانوا أولاً وقبلنا.

القياس لعدد المؤمنين بالنسبة لعدد كلّ الناس، فيكون قليلاً، فيكون ثلّة.

(وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ{40})
وأيضاً ثلة عدد صغير من الآخرين، منّا نحن الذين من بعد النبي محمد(ع)، وراجع الآية 14 لمزيد من التفاصيل عن تحديد نقطة مرجعية على أساسها تقول أوّلين وآخرين.

العدد الصغير بالقياس إلى الرقم الكبير جداً لأعداد الناس، فقد يكون المؤمنون بالملايين، ولكن بسبب المليارات الكافرة تصير الملايين ثلّة.

بقي شيء، فبسبب حالة اجترارنا للمعلومات الدينية المتعارف عليها والتي عمرها آلاف من السنين، صار العديد منها خارج التركيز للتفكير فيه، ومنه الكلام عن درجات للمؤمنين في الجنّة بحسب شدّة إيمانهم، بينما لو قارنته مع العقائد الأخرى للناس، فسترى معياراً له قيمة عالية، فمن ناحيتك أنت كشخص يقف أمامك نبي وبقربه مؤمن من متوسّطي الإيمان، فمن ناحية إعلانهما لإيمانهما فكلاهما متشابهان، ولكن من ناحية العمل الصالح فهما مختلفان، لأن العمل سينتج عنه شيء له أثر عليك، فأحدهما حتماً لن يهينك ولن يعتدي عليك ولن يستغبيك... وسيساعدك حتماً إن استطاع... وهذا هو التوصيف الذي ورد في أول السورة بالمسارعين للخيرات.

بالمختصر فالعبارات القرآنية التي تركّز على الإيمان كمعلومات تعتقد بصحتها، فهي ليست لوحدها الضامنة لك لدخول الجنّة، ولا لوحدها تعطيك درجة عالية في الجنّة، بل ومعها العمل الصالح يصيران ضمانة لدخول الجنّة، وكما ترى فما يقوله القرآن عن المنتمين لدينه تعالى أنهم سيدخلون الجنّة، فهو ليس مثل عقلية المحازبة والجماعات والقوميات... فالانتماء بالاسم لدينه تعالى لن يضمن لك لوحده دخول الجنّة، فالعمل الصالح شرط أساسي.

ولترى ما أقصده فعليك الانتباه لنموذج جماعات الناس المدّعين للإيمان من الدرجة العالية لأنهم يؤمنون بشيء من الصعب عليك فهمه، فلديهم مصطلحات عن عالم الشهود والملك والملكوت واللاهوت والناسوت والاتحاد والحلول ووحدة الوجود والولاية التكوينية والعلم الحضوري... فيظنون أن إيمانهم هو الأعلى وأنهم بسبب ذلك مقربون أكثر من غيرهم منه تعالى... وعادة فغالبية الذين صادفتهم من هؤلاء تراهم يحبون التميّز عن الآخرين، وبسهولة يصير لديهم ميل لتكوين جماعة خاصة تتعاطى هذه الأفكار، وبسهولة يصيرون في الزهو والافتخار... والتكبّر.

لن تصير من المقربين إذا أصابك الغرور واستصغار المؤمنين البسطاء، ولن يصير إيمانك أعلى إن تعلّمت مصطلحات المتصوفة والعرفانيين، وإن واظبت على طريقتهم بالدعاء والصلاة والطقوس الغريبة العجيبة... بل بالعمل الصالح تثبت تميّزك إيمانيا، فالنادر من هؤلاء مجاهدون بأموالهم وأنفسهم، والنادر من هؤلاء وقف في وجه سلطان جائر... فيضحكون على أنفسهم بتعويض العمل الصالح بكثرة الصلاة والأذكار والتحدّث بالغيبيات... والاهتمام بالقشريات من طهارة ونجاسة، وعطور قديمة وثياب بألوان وتفاصيل شرعية...

هل من الأفضل تركهم وشأنهم بلا تعليق عليهم؟ لا، لأنهم يدّعون أن هذا هو الإيمان العالي وقد استطاعوا ترويج ذلك بين عموم المسلمين في أدبياتهم، بينما كل قرآنه تعالى مانع من هكذا أدبيات نتيجتها التمذهب والجماعات والطرق... وصولاً إلى اختراع طقوس خاصة بكل جماعة من أذكار وصلوات وهيصات وحركات رقص وقفز ودوران... لم يفعلها نبي ولا عبد صالح عبر آلاف من السنين من دينه تعالى.

(وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ{41})
إذا وقعت الواقعة... وكنتم أزواجا ثلاثة...

{وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ}، والذين مع بعض في حالة العسر والسوء في التعاطي مع الأمور، وقد سبق في أوّل السورة وصفهم بأصحاب المشأمة.

كما تلاحظ فغالبية الناس يستعملون اليد اليمنى، ولذلك فغالبية لغات الناس اعتبرت الكلمة التي تشير لليد اليمين أنها أدق وأفضل وأيسر وأسهل... في مقابل اليد اليسرى التي يستصعبون العمل بها بدقّة، فصارت الكلمات المتعلقة بها تشير للعسر للصعوبة... وهكذا استعملها القرآن بالإضافة لكونها جهة معنوية كما هو دارج في البروتوكولات الرسمية السياسية حيث ذو المنصب الأعلى يكون على يمين المواجهين له والآخرون على اليسار.

بوصف قسم من الناس في الآخرة بأصحاب الشمال، فيمكننا الافتراض أنهم بالإضافة لتعسّر أمورهم فهم بالنسبة لشيء ما فهم في جهة اليسار، ففي مقابل الجنّة والنار هم في جهة الشمال لجهة النار والمؤمنون على جهة اليمين لجهة الجنة.

وما حالة أصحاب الشمال حين تقع الواقعة؟ فلنَرَ:

(فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ{42})
{فِي سَمُومٍ}، وهي الريح الحارة الخانقة، وفي، {حَمِيمٍ}، في مكان فيه الحمم ففيه معادن ذائبة من شدة ارتفاع الحرارة وفيه سوائل تغلي.

قارن ما تسمعه هنا مع ما سبق من جنات النعيم للسابقين وماء مسكوب وفاكهة... لأصحاب اليمين، فستنتبه لأوجه المقابلة بين أوصاف ما فيه المؤمنون وما فيه الكافرون في الآخرة.

(وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ{43})
وأصحاب الشمال في، {ظِلٍّ}، يظلّلهم فيسبب بقعة حاجبة لما فوقهم، ولكنه، {مِنْ يَحْمُومٍ}، من الدخان الأسود المتصاعد من النار ومن دخان الحمم المعدنية الذائبة والسوائل الحامية.

في الجنّة كان وصف المؤمنين في مكان فيه شجر له ظلّ ممدود، أمّا هنا فيوجد لأهل الشمال ظلّ ولكنه من يحموم وهو:

(لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ{44})
الظلّ الذي يقفون فيه، {لَا بَارِدٍ}، فلا يشعرون فيه بانخفاض الحرارة مثلما هو متوقّع من الوقوف تحت الظلّ، {وَلَا كَرِيمٍ}، فمن يقف في ظلّ اليحموم ليس له مكانة وكرامة وقيمة، بل هو مهان محقّر.

فهو مشهد يقارن بين المؤمنين والكرامة لهم بالظلال حيث الرفاهية... وبين الكافرين وكونهم في ظلال ولكنهم يتألّمون ومحقّرون.

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ{45})
سبب تحقيرهم وكونهم بلا كرامة وسبب تعذيبهم:

{إِنَّهُمْ}، إن أصحاب الشمال، {كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ}، قبل كونهم في سموم وحميم... كانوا، {مُتْرَفِينَ}، وبالدقة فالترف هو الحالة من بعد الاكتفاء أو الاستغناء حيث تأتي تصرفات زائدة عن حدّها. والكلام عن الذين لديهم عادة إشباع رغباتهم وشهواتهم الزائدة عن حاجتهم وغير الضرورية وبأمور وأشياء لا يحتاجون لها أو حتى سيئة، فالمترف قد يكون غنياً أو فقيراً، أو رئيساً أو من عامة الناس، فكل من تطرّف في الشهوة والغريزة و... بما هو متاح له من مال وقدرات، وحتى لو كان يملك القليل من المال، أو القليل من القدرات وصرفها في السيئات أو فيما يزيد عن حاجته، فهو مترف. وبهذا المعنى لكلمة ترف ترى أنها لوحدها تعطيك موضوعاً واسعاً، وسنتوسع في الكلام عنه بعد قليل.

فهؤلاء كانوا لا يتقيدون بالصلاح والفساد والخير والشرّ الذي نعبّر عنه عادة بالحلال والحرام، فيفعلون ما يَحْلُو لهم حتى لو كان متطرفاً تبذيراً وإسرافاً، بالمال أو بالشهوة أو بالغريزة... وفرضا لو كانوا يحتاجونه ومضطرين له فعندها لن يكون تصنيفه ترفاً، وكما ترى فالحساب على الترف يتضمّن معنى فعلهم لما ليسوا مضطرين له وهو زائد عن حاجتهم وهو سيّء.

طبعاً الكلام هنا عن أناس داخلين إلى النار فالترف هو من العيار الثقيل في سوئه، في القتل في الزنا في حرمان المحتاجين من المساعدة وفي إنفاق المال على السوء...

الكلام يجرّ الكلام فمصاديق الترف عملياً ليست محصورة بأفعال الأغنياء والأثرياء، فعادة ترى أغلبية الناس يعلّقون على مصاريف الأغنياء والأثرياء، على ثمن ثيابهم، على حفلاتهم، على رحلاتهم... وكأن الترف المالي مشكلة

مخصصة للأثرياء، بينما الترف في الفقراء ربما يكون أعنف بالمعنى من ترف الأغنياء! فالثري إن أسرف ترفاً فلديه مخزون من المال الكافي لتأمين ما يحتاجه، بينما إن أسرف أو أترف متوسط الحال أو الفقير، فمن أين سيعوّض المال لتأمين ما يحتاجه في حياته!

ترى الفقير يذهب لمطعم ما تقليدا للأثرياء، وعلى وجبة واحدة في المطعم يدفع تكاليف تكفيه في بيته مصروف أسبوع، وفي نفس الوقت يعلّق على ترف الأثرياء بذهابهم لتلك المطاعم!

ضربت لك هذا المثال علماً أنه بعيد نوعاً ما عن كلام الآية هنا التي تتحدّث عن عموم أعمال السوء من العيار الثقيل المسبب لدخول النار، ولكن الفقراء ومتوسطي الدخل حين يقرؤون آيتنا هنا فعادة يتصورون الآخرين مترفين ويبدؤون بلومهم متجاهلين ومتعامين أنهم هم أنفسهم أيضاً مترفون.

(وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ{46})
{وَكَانُوا يُصِرُّونَ}، فلا ينتهون ويبقون، {عَلَى الْحِنْثِ}، على مخالفة ما يجب أن يلتزموا به، {الْعَظِيمِ}، ليس من النوع البسيط العادي الذي يمكن التسامح به.

فهم كان يجب عليهم الإيمان بالحقّ وعمل الصالحات، والذي نعبّر عنه بالالتزام بالعقيدة والشريعة، ولكنهم حنثوا فلم يلتزموا بها، وهذا الحنث لم يكن معي ومعك، بل مع الإله سبحانه فهو حنث عظيم، وكانوا مصرّين على الحنث، فلم يتراجعوا ولم يتوبوا ولم يستغفروا منه، فماتوا وهم على هذه الحالة، ولذلك استحقّوا العذاب الأليم.

من عموم القرآن في كلامه عن الميثاق والعهد فهمنا أن كوننا عبيدا له تعالى فهذا يستدعي التزامنا بما وصلنا من كلامه سبحانه، وفهمنا من القرآن أنه تعالى وضع فينا قابلية تمييز الحسن والسوء في الأمور، وبناء عليه فحنثهم ليس بالضرورة ناتجاً عن إعلانهم لالتزامهم بدينه تعالى وحنثهم به، فكونهم عبيداً له تعالى وهم يعلمون ذلك، فهو يستدعي التزامهم بكلامه تعالى، وهكذا تصير المعصية حنثاً، فهم يعلمون بأنها عمل مخالف لما يجب أن يلتزموا به من كلامه تعالى.

(وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ{47})
وكانوا أيضاً هؤلاء الذين يعذّبهم سبحانه في جهنم، كانوا يقولون وهم في الدنيا:

{أَئِذَا مِتْنَا}، فإذا فارق جسدنا الحياة، فلم نعد نفعل ولا ننفعل ولا نتفاعل، {وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا}، فتحلّل لحم جسدنا وصار ترابا وبقيت عظامنا لأنها تأخذ وقتا أطول لتتحلّل، {أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ}؟ فهل ونحن في هذه الحالة سيتم إنهاضنا من همود؟ فسيتم إقامتنا من الموت؟

كما تعلم فجسدنا يتألّف من ماء وكربون وكالسيوم وحديد... وهو نفسه التعبير القرآني بالماء والتراب والطين، وعندما نموت فجسدنا يبدأ بالتحلّل، والماء بالتبخّر، ويبقى بعد ذلك كتلة صغيرة من التراب مع العظام التي تأخذ وقتا أطول لتتفتت وتصير تراباً.

(أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ{48})
{أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ}؟ فأجدادنا وأجداد أجدادنا الذين صارت عظامهم رماداً، فهؤلاء أيضاً مبعوثون إلى الحياة من جديد؟!

فكل الكلام الذي سبق عن أخبار الآخرة، فلا قيمة له عندهم لأنهم غير مقتنعين أصلاً بأننا سنعود إلى الحياة.

(قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ{49})
قل أيها النبي(ع) "وأيها المؤمن" عبر هذا القرآن لهذه النوعية من المستغربين:

{إِنَّ الْأَوَّلِينَ}، الذين كانوا في الأول من البشرية، {وَالْآخِرِينَ}، الذين هم آخر البشرية، يعني كل البشرية من أولهم لآخرهم:

(لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ{50})
كل البشرية من أولها لآخرها، {لَمَجْمُوعُونَ}، سوف يتم جمعهم مع بعض، {إِلَى مِيقَاتِ}، إلى زمن محدد، {يَوْمٍ مَعْلُومٍ}، فترة زمنية معلومة سلفا، وأنت تعلم أن المقصود هو يوم القيامة المعلوم زمنه عند ربنا سبحانه.

الذين ماتوا وصاروا ترابا والذين ماتوا قبلهم واندثروا ولم يعد لهم أثر، وأنتم والذين من بعدكم... قد عشتم في أزمنة وأمكنة متفرقة، وتظنون أنكم بموتكم انتهيتم، ولكن موتكم وتحوّلكم إلى تراب هو آخر نقطة من تفرّقكم، وبعدها سيتم جمع كل البشرية من أولها لآخرها ليكونوا أحياء كلّهم في زمن واحد.

محور السورة بالأساس عن أمور خارجة عن إرادتنا ونحن محكومون بها، فما ذكرته السورة من بدايتها عمّا سيحصل في الآخرة معنا، فهو أخبار عمّا سيحصل حتماً ولا قدرة لنا على تغييره، فلن يدخل الكفّار إلى الجنة ولن يفنى المؤمنون ويندثروا بل سيدخلون إلى الجنّة... وهنا وكما ترى أكملت السورة كلامها مع أصحاب الشمال المنكرين لما سيحصل في الآخرة بناء على تكذيبهم لعودتنا إلى الحياة، فردّت السورة بأول ردّ عليهم بخبر منه تعالى عن جمع الجميع من أولهم لآخرهم في يوم معلوم عنده تعالى، فالأمور ليست متروكة لوقتها، بل سلفا ومن بداية ما خلق تعالى السماوات والأرض في الدنيا فقد حدّد زمن ذلك اليوم الذي سيعود فيه الأموات إلى الحياة.

سيأتيك ردّ آخر في الآية 57 عن سؤالهم عن البعث.

(ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ{51})
{ثُمَّ}، بعد رجوعكم إلى الحياة مرة ثانية، {إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ}، فنشير إليكم أنتم بالتحديد من بين الذين سيرجعون إلى الحياة، أيها الضالون أيها الذين لم يكونوا على الشيء الصحيح، فلم يكونوا يؤمنون بالمعلومات الصحيحة ولم تكن تصرفاتهم حسنة... المكذبون الذين قالوا عن الرجوع إلى الحياة بعد الموت والحساب والجزاء إنه كذب وليس حقيقة ولن يحصل.

(لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ{52})
{لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ}، من أشجار من أشياء لها جذع وفروع، نوعها من صنف، {زَقُّومٍ}، فالأكل الذي يتناولونه من تلك الأشجار يزقمونه زقماً، فبدون طحن بالأسنان ولا استذواق باللسان يبلعونه بلعاً من الفم إلى الحلقوم مباشرة. والزقم وصف لطريقة أكل الطيور فهي لا تمضغ بل تبلع فورا.

سبب زقمه "بلعه بدون مضغ" أنهم جائعون جدا ومجبورون على وضع أي شيء في فمهم لينزل على معدتهم ليسكت جوعهم، وما على تلك الشجرة مقرف جدا ويغلي، فيضطرون لأكله بمحاولة بلعه بسرعة ليسد جوعهم.

ما ذكره القرآن عن شجر في جهنّم فهو فقط من ناحية الصفات الأساسية يسمّى "يوصف" بأنه شجر، فمن حيث الشكل فقط هو شجر، فله جذع وعليه فروع، فشجر جهنّم ليس نباتاً وليس من خشب، ولا يوجد مثله على الأرض هنا، وعليه كتل من الحمم لأنها تغلي في بطن الذي يأكلها، وما يشبه الثمر لتلك الشجر فقد وصفته الآية 65 من سورة الصافات فرؤوسه أي نتاج ثمره مقرف مرعب مقزز كأنه رؤوس الشياطين {طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ}، ورغم ذلك فحالة جوع الكفّار شديدة جدا فيأكلون من أي شيء يمكنهم التقاطه ولكن زقما أي بلعا بلا مضغ، فيحاولون رميها في بطنهم مباشرة ليسكت الجوع محاولين أن لا يتذوّقوا طعمها الكريه جدا جدا، ولكن من دون جدوى فهي وكما تعلم من آيات أخرى في سور أخرى فهي لا تنزل في الحلق بسهولة وتسبب الغصّة كما ورد في الآية 13 من سورة المزمل {وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا}... وينزل من هذه الشجرة غسلين وهو ما يتقاطر منها من كتل حمم والسوائل الحامية، وهو ما يأكلونه كما ورد في الآية 36 من سورة الحاقة، وهي ضريع فلا تسبب النشاط ولا تسبب الشبع كما ورد في الآية 6 من سورة الغاشية {لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ}.

أطلت عليك لأن بعض التفاسير ذكرت مواصفات نباتية خشبية لتلك الشجرة ولما يأكله منها أصحاب النار من أشواك... وهذا غير صحيح كما يبدو من كلام القرآن الذي حصر ما هناك بأنه من الحمم، فبعض الروايات حاولت تطبيق

المشاهد المرعبة على ما تصوّروه من أكل الأشواك والنباتات المرّة المقرفة التي يعرفونها هنا في الدنيا، ولكن حتى هذا التصوّر يبدو رفاهية لو أتيح لأهل النار الأكل منه، فليس لهم هناك إلا الحمم.

(فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ{53})
{فَمَالِئُونَ مِنْهَا}، من زقّوم هذه الشجرة المقرفة تعبّئون، {الْبُطُونَ}، بطونهم ليشبعوا، ولا تَنْسَ أنهم يزقمونه من شدة قرفهم وألمهم منه، ورغم ذلك لا يستطيعون مقاومة الجوع فيتناولون كميات كبيرة لإسكات جوعهم ولكن بلا جدوى.

(فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ{54})
{فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ}، على الزقوم، {مِنَ الْحَمِيمِ}، من السوائل المعدنية التي تغلي، حتى يتخلّصوا من مرارة وقرف طعم الزقوم يحاولون إيجاد سائل يشربونه، ولا يجدون هناك إلا الحميم كسائل، فيشربون منه.

معلوم ما يسبّبه شرب الحميم من حروق وآلام.

(فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ{55})
{فَشَارِبُونَ}، من الحميم، {شُرْبَ الْهِيمِ}، كشرب العطشان بشكل شديد.

نستغربُ كيف يمكنهم الأكل من شيء مقرف حارّ، ثم يشربون بعده من سوائل المعادن الذائبة! فتخبرك الآية أنهم يشربون منه مثلما يشرب الهيم، مثلما يشرب العطشان لأقصى درجة، ولدينا تعبير عن الأكل بنهم ونقصد وصف الآكل بسرعة وبكميات كبيرة، وشرب الهيم هو التعبير عن نفس الحالة مع شرب الماء بسرعة وكميات كبيرة.

إن استغربتم شربهم من الحميم فاعلموا أنهم يشربون منه شرب الهيم من شدة عطشهم، فيحرقهم ويستمرون في محاولة تحمّله.

معلومة نتيجة هذا الأكل والشرب، وستفهمها أكثر حين تتذكّر أن من في جهنّم لا يموت فيها ولا يحيا، فهو في حالة منازعة الموت دائماً، فعلى آخر نفس دائماً، فالجهد الذي يبذله ليأكل ليشرب ليركض... فهو على آخر نفس وبمشقّة وألم وجهد... ودائماً على نفس الحالة.

(هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ{56})
هذا المكان والمأكل والمشرب، بهذا الشعور بالجوع والعطش لدرجة أكلهم من زقوم وشرب الحميم عليه... {هَذَا نُزُلُهُمْ}، هذا مكان حطّ رحلتهم فهذه نزلتهم من بعد رحلتهم في الحياة، {يَوْمَ الدِّينِ}، في الزمن الذي تتم مطالبتهم بما يدينون به، بالتبعات التي عليهم لربّهم سبحانه.

الفقرة كانت تتحدّث مع وعن من استغرب واستنكر ولم يصدّق أننا سنرجع إلى الحياة بعد الموت فكفر وفعل السيئات، وتخبره أنه من بعد انتهاء رحلة الحياة الدنيا سيأتي الزمن الذي يدينه تعالى بما فعله وسينزل في جهنّم.

كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، فهي ليست اصطلاحاً مخصّصاً كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الاسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، فهي عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئاً ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف...

الله تعالى خلقني فأنا مدين له، فخلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعاً بسبب وساعة تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... فكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة فهناك ندان بأعمالنا، فما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة كلامه تعالى هو التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضاً يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسباً بحكمته فقد يديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ{57})
ما سبق من كلام كان ردّاً على سؤالهم الذي ورد في الآية 47 عن البعث من الموت بخبر من عالم الغيب عمّا سيحصل، وهنا ترى ردّاً بأدلة ملموسة:

{نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ}، ركّبناكم وألّفناكم من المواد، {فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ}، فأنتم الآن في حالة خلقة، في حالة تركّب وتألّف من المواد، فمن خلقكم؟ فمن ركّبكم وألّفكم؟ فلو التفتم لهذا الآن لصدّقتم أن الذي خلقكم الآن فهو نفسه يقول بأنه سيخلقكم مرة ثانية ولا داعي للاستغراب أو التكذيب. فلو كنتم تصدّقون أن الإله سبحانه قد خلقكم لما كنتم تتساءلون عن خلقكم مرّة ثانية في الآخرة.

كما ترى فما سبق كان أخباراً عمّا سيحصل معنا في الآخرة شئنا أم أبينا، ومن هنا تبدأ السورة بفقرات تبين ضعفنا وفقداننا للسيطرة هنا في الدنيا وبالتالي ستبين وقوعنا تحت السيطرة الإلهية ومسيرنا على تخطيطه تعالى هنا في الدنيا، وتبدأ بلفت انتباهنا لخلقتنا الحالية، فمن فعلها؟ وبالتالي سنرى أن الذي خلقنا الآن قادر على خلقنا مرة ثانية، فكيف يقولون إنه لا يقدر على خلقنا مرّة ثانية فكيف فعلها في المرّة الأولى!

بشكل ما هي على معنى الآية 78 من سورة يس {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ}.

(أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ{58})
{أَفَرَأَيْتُمْ}، أسألكم تعقيباً على شيء سابق فإذا حصل عندكم صورة محدّدة لـ، كما نقول بالعامية: شفتوا. التفتوا إلى:

{مَا تُمْنُونَ}؟ الذي يسيل منكم، "شفتوا" المني الذي ينزل منكم، والكلام عمّا نسمّيه حالياً بالحيوانات المنوية التي تنزل من الرجل في عملية التكاثر. فالمني وصف من نوع توصيف الترشيح أو النزف أو النزّ لسائل، والكلام هنا عن نزول مادة التلقيح من الرجل.

بالنسبة لكلمة "نطفة" فهي وصف لعموم أي شيء صغير الحجم جداً، ونستعمل هذه الكلمة "عادة" لوصف مكونات المنيالذي يفرزه الرجل، وحالياً بالعاميّة نستعملها اسماً للحيوانات المنوية، علماً أنها في أساس معناها ليست مخصصة لذلك، فيمكنك القول عن أي كمية صغيرة جداً من الماء العادي أو البهار أو الملح أو...: نطفة.

تلاحظ أن القرآن ذكر المني "النطفة" من الرجل مراراً، وأشار لحمل المرأة لتلك النطفة، ونحن الآن نعلم أن النطفة تستقر في البويضة التي تستقر في رحم المرأة، وكلاهما معاً ينتجان إنساناً، ولكننا في حياتنا العادية لا نرى البويضة ولكن نرى ما ينزل من الرجل ونسميه بالنطفة كوصف للكمية القليلة من السائل، ونصفه بالمني لأنه يسيل، ولذلك ذكر القرآن ما نراه وأشار للبويضة الحاضنة التي لا نراها، فمن المعلوم أن الإمناء يتم في الرحم حتى يحصل تلقيح... لذلك الآية تشير إلى العملية التي تنتج إنساناً من سيلان سائل من الرجل... أطلت عليك لأن التراث الثقافي لاستعمال هذه الكلمات "مني ونطفة" جعلها أسماء، بينما هي كانت حين نزول هذا القرآن أوصافاً مع استعمال قليل لها كأسماء، واستعملها القرآن كأوصاف، بينما فيما بعد ندر استعمال العرب لها كأوصاف وصار أكثر استعمالها كأسماء.

(أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ{59})
{أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ}، هل أنتم ركّبتم وألّفتم الإنسان من المني؟ {أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ}؟

أنتم مخلوقون بتصميم يجعل السائل للتلقيح يخرج مَنِيّاً من جسد الرجل عبر غدد البروستات والخصيتين... ويستقر في رحم المرأة، فتتركّب وتتألّف الخلايا "جذعية" فتنقسم... حتى يصير إنساناً، هل أنتم تقومون بتركيب وتأليف المواد ليصير إنساناً أم أن الإله سبحانه فعل ذلك؟

لتفهم الآية لست بحاجة إلى دراسة المعلومات البيولوجية، فهي معلومة بسيطة سهلة الفهم، فمن التلقيح تبدأ عملية خلق الإنسان.

أنتم مخلوقون بهذا الشكل وبهذه الآلية التي تجعل السائل يخرج منكم لتتكاثروا وتتناسلوا، أليس هذا دليلاً كافياً على أنه يوجد رب عظيم خلقكم أوّل مرةٍ؟! فما معنى تكذيبكم لخبر خلقكم مرّةً ثانية؟

ننتبه جيداً، ففي عموم تراثنا الثقافي الديني لدينا خلل في مفهوم فعل الخلق الإلهي، وهذا الخلل مبني على فهم عموم أفعاله تعالى أنّها تحصل فجأة وبدون أسباب، فنعتقد أنه سبحانه يأمر وتحصل الأشياء، ونعتقد أن هذا الفهم نابع من إيمان عميق بقدراته العظيمة سبحانه، حيث يقول للشيء كن فوراً يكون، وهذا غير صحيح، بل غالباً لا معنى له، فسبحانه أخبرنا مراراً وتكراراً عن مراحل لحصول الأمور، فإذا أمر تعالى أن تكون فحتماً ستكون، وليس بالضرورة أن تكون فوراً، وها نحن أمام كلامه تعالى عن خلقه لنا من مني، وفي سور أخرى نقرأ تفاصيل عن مراحل العلقة والمضغة... كما ورد في العديد من الآيات منها الآية 14 من سورة المؤمنون {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}. فنحن بوضوح أمام مراحل لخلقه تعالى لنا.

أقول لك هذا لأن المنتمين لدينه تعالى "يهوداً، ومسيحيين، ومسلمين..." تاريخياً أشاعوا اعتقاداً فسّروا به كلامه تعالى، جاعلين الأمور الإلهية تحصل بلا آليات، وهكذا نبذ وتنطّح الكافرون ليشيروا إلى آليات حصول الأمور، نافين أي تدخّل إلهي لحصولها، لأنها آليات مترابطة ولوحدها عندما تكتمل ستنتج إنساناً، وحتى أننا نحن حالياً نخلق إنساناً من خلية جذعية فنحضنها في أنابيب... وبالتالي فلا إله خلقنا.

هكذا صرنا أمام فريقين، فريق يريد رؤية شيء يحصل من دون أسباب ولا آليات ولا مراحل... حتى يؤمن بالإله، حتى يؤمن أن كائناً غيرَ مرئي وبقدرات فائقة فعله... فالمنتمون لدينه تعالى يقولون إنّ إلههم هو الذي يفعل ما نجهل سببه، وبما أننا صرنا بشكل ما نعلم أسباب حدوث العديد من الأشياء ولدينا فرضيات ونظريات لآليات حدوث كل شيء، بداية من نشأة كوننا وصولاً إلى نشأة الحياة على الأرض، فقد صرنا مطالبين بأن يفعل إلهنا شيئاً ما بدون سبب وفجأة حتى نثبت أن إيماننا به صحيحٌ.

سبحانه حين خلقنا زوّدنا بما يمكننا من التعرّف عليه، فزوّدنا بفكر وبآيات تدلنا عليه وعلى صفاته... وإن كنّا بسلامة قلب، بأساس فكر ونفسية سليمة، فسنتعرف عليه تعالى من آياته كما تعرّف عليه النموذج إبراهيم(ع)، وأي تشويش في سلامة القلب بسبب فعلنا لسوء ما أو رفضنا لمسألة حقّ... فسينتج عنه تشويه في تعرّفنا عليه سبحانه.

هكذا صارت ظاهرة نزول الماء دافعة لنا للتعرّف على الإله الذي سبّب الظاهرة كلّها مع بيئتها، ومن بعد ذلك تأتي سلامة القلب لترجمة ما رأيناه، والنموذج الأسوأ سيخترع إلهاً لكل ظاهرة، فسيشرك به تعالى متعامياً عن وضوح مركزية إدارة ما في الدنيا...

النموذج الأقل سوءاً من الشرك سيقول بأن المطر يحدث لأن الإله الأحد يأمر بحدوثه ولا أسباب لحدوث المطر سوى أمره تعالى للغيوم أن تمطر...

هذه الطفولية الساذجة توسعت لتشمل بقية ما جهلنا سبب حدوثه، فالمنتمون لدينه تعالى دفعوا به سبحانه إلى حيث نجهل كيف حصلت الأمور، وقديماً فسّروا كلامه تعالى بمعطياتهم هذه، بينما صريح كلامه تعالى يخبرنا عن مراحل لحدوث الأمور، فيخبرنا عن خلقه سبحانه لما في الدنيا في ستة أيام، وهي ست مراحل حصلت فيها أمور مترابطة حتى وصلت إلى نشأة الحياة البشرية من طين... وهذا ما تفهمه من مجموع الآيات من الآية 9 وما بعدها من سورة فصلت {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، ومن الآية 7 وما بعدها من سورة السجدة {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}، وبعدها جعل تعالى هذا الكائن يتناسل بالنطفة... إلى أن تأهّل أوّل واحد منهم لتحمّل التكليف بأوامره تعالى "آدم(ع)"، كما تفهم من الآية 30 من سورة البقرة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} فراجع دراستها لمزيد من التوسّع.

تعرّفنا على آليات حصول الأمور ليس لاغياً للإله الذي جعل الأمور تحصل، بل هو تعرّف على آليات فعله تعالى لتلك الأمور، وهذا ليس كلاماً نخترعه الآن، فها كتبه تعالى من آلاف السنين تقول هذا الكلام، ولكن دائماً نقع في نفس المشكلة فلا نتعلّم من كلامه تعالى، وبدلاً من ذلك نقوم بإسقاط معلوماتنا على كلامه تعالى! فنفسّر كلامه سبحانه بناءً على معلوماتنا، والمصيبة الكبرى أن كلامنا يصير هو دينه تعالى، ويحاسب الآخرون دينه تعالى بناءً على ما قلناه نحن.

هنا في الآيات ترى سؤاله تعالى عمّن خلقنا، فمن البديهي الواضح جداً أننا نحن مخلوقون، مركّبون مؤلَّفون، ويبدأ خلقنا من مني في رحم، فمن خلقنا، من ركّبنا وألّفنا من الطين، من المواد؟ ثم تسأل عن مرحلة المني الذي صار إنساناً، فمن صمّمه وخلقه؟ فمن ركّبه من المواد حتى صار إنساناً؟ فهناك مراحل لحصول ذلك أخبرنا القرآن عنها وهي معلومات متوافرة بين الناس، فلم يخبرنا عن مراحل كان الناس يجهلونها، فمن دون تصوير لباطن الحامل علم الناس قديماً بمراحل تكوّننا من الإجهاض "من سقوط الحمل"... وهذه آليات متسلسلة مترابطة وضرورية لحصول الحمل بالطريقة التي صمّمها تعالى فينا.

هذه الآليات التي نسميها بالطبيعية لا تمنع حصول خلق بطرق أخرى غير معتادة، خلق النبي عيسى(ع) مباشرة من الطين طيوراً كما ورد في الآية 110 من سورة المائدة {... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي...}، وربما نتمكّن نحن في المستقبل من فعل ذلك، وحالياً يمكننا خلق إنسان من خلية جذعية... وهذا لا يعني إلغاءه تعالى، بل يعني تعرّفنا على آليات مختلفة للخلق، وتمكّننا من فعلها...

لتسهيل الفكرة أكثر، تصوّر نفسك قرّرت خلق كائنات في بيئة، ولنفترض فيك قدرات عالية، فهل ستخلقها كلّها دفعة واحدة أم ستجعلها تتكاثر فتخرج الكائنات إلى الحياة بالتتابع؟ فلنقل إنّك صمّمت الكائنات بقابلية على التكاثر، وهنا نسأل: من خلق الكائنات؟ فهل أنت خالقها أم ستكفر الكائنات بك لأنها تعرف آليات التكاثر ولم تَرَكَ تخلقها؟ وهكذا نفهم كلامه تعالى هنا. وصرت من هذا الافتراض ترى أموراً أخبرك تعالى عنها، فبقدراته الفائقة سبحانه خلق السماوات والأرض في الدنيا من مادّة أولية نتج عنها سبع سماوات مختلفة التركيب، ونتج عنها الملائكة من مادة نجهلها تماماً "حالياً"، ونتج الجنّ من نار، وهي مادّة مشابهة في بعض المواصفات للنار التي نعرفها، ونتج خلق الإنسان من طين، من كربون وكالسيوم وحديد وماء...

هذا هو الإيمان الذي أرادنا تعالى فهمه من كلامه، ولكننا دائماً نقع في فخّ موروثنا الثقافي ومعلوماتنا وتحليلاتنا... ونفسّر كلامه تعالى على أساسها متعامين عن كلامه الواضح الصريح سبحانه...

لو أطلت عليك فسأضيف أيضاً، فمن الخطأ التفكير في تفسير كلامه تعالى بناءً على معطياتنا على أساس أنها متطورة وستعطينا فهماً أفضل للقرآن من الأقدمين الذين كانت علومهم بسيطة، وأي تحسين أو تشذيب لهذه الفكرة فهو خطأ، لأن الصحيح فقط هو تفسير كلامه تعالى بناءً على المعنى الدقيق للكلمات، وبناءً على الثقافة العامة مع دراسة للمواضيع التي لسنا متخصصين فيها، فقط لا غير، فلا نظريات علمية قرآنية أو إسلامية، ولا نظريات حكومة إسلامية ولا نظم مالية إسلامية... ولا ولا... ففقط يعرض علينا هذا الكتاب الإلهي الهداية بعرض المعلومات الصحيحة عنه تعالى وعن قراراته... حتى نقوّم معلوماتنا، ويعرض علينا أساسيات الخير والشرّ حتى نقوّم رؤيتنا للأمور من خلالها. وبعد ذلك فالهامش الواسع مفتوح لنا لاختيار نظمنا الحاكمة والمالية والاقتصادية والاجتماعية... وأما كلامه عن الآيات في خلقه تعالى للكائنات والظواهر فما هي إلا عرض لما يمكن لأي إنسان متوسط الثقافة أن يفهمه.

(نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ{60})
إذاً نحن خلقناكم ونحن قدّرنا، حسبنا وخطّطنا، بينكم الموت، فجعلنا فقدان الحياة متضمَّناً في خلقتكم، وما نحن بمسبوقين، فما نقرّره نحن هو ما سيحصل ولا يسبقنا أحد ما بفرض وتنفيذ ما يقرره هو، فلنكمل الجملة:

(عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ{61})

وما نحن "الإله" بمسبوقين، {عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ}، فأنتم على مثال الإنسان، فأنتم أمثال لبعض، فأنتم متشابهون على الهيئة والصفات التي تجعلكم بشرا، فيمكنه سبحانه تبديل ما يجعلكم على هيئة الإنسان، {وَنُنْشِئَكُمْ}، فنكوّنكم بالخصائص التي أنتم فيها، {فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}، في تركيب وهيئة لا تعلمون عنها أي شيء.

إذا قرّر سبحانه أنّ يبدّل شكلكم الإنساني الذي أنتم عليه الآن كأمثال "متشابهين به" لبعضكم البعض، فقرّر سبحانه أن يبنيكم في شكل جديد لا تعلمونه، فسبحانه ليس بمسبوق فقراره تعالى لا يسبقه أي قرار، فقراره يسبق كل شيء ويحصل حتماً، فلا أنتم ولا أحد يمكنه تغيير ما سيحصل.

جسدنا في الآخرة سيكون بمواصفات لا نعلمها الآن، وكل ما نعلمه أن أجساد المؤمنين خالدة لا تشعر بالألم وتشعر فقط بالنشاط والسرور، وأجساد الكافرين متجدّدة ولا تشعر إلّا بالألم.

الكلام هنا عن إعادته تعالى لخلقنا في الآخرة بناء على ما نعرفه من خلقته لنا هنا في الدنيا، فالذي نحن عليه الآن من التماثل في تكويننا الجسدي "الإنساني"، فهو تعالى صمّمه وخلقه بهذا الشكل، وقد أشارت الآيات السابقة لذلك عبر كلامه تعالى عن خلقه لنا بالتناسل... ويمكنه إنشاؤنا بهيئة مختلفة ومن مواد مختلفة، فما معنى تكذيب كلامه تعالى عن إعادته لخلقنا بعد أن نصير تراباً؟! بينما هو القادر على خلقنا كيفما يشاء بأي شكل وصفات يريدها؟!

تذكّر محورية السورة حول وقوعنا إجبارياً تحت تخطيطه تعالى لنا، فهنا الآية على هذا المعنى، فالذي خلقنا بما نحن فيه الآن من صفات، فهو يخبرنا أنه سيخلقنا مرة ثانية، ومن الواضح قدرته تعالى على إنشائنا بأي تكوين يقرّره، فنحن الآن أصلاً واقعون تحت تصميم من اختياره تعالى، وبناء عليه فلا يوجد ولا أي سبب لتكذيب كلامه تعالى عن إعادة خلقنا حتى بعد أن نصير تراباً، فالذي خلقنا كما يريد الآن فهو نفسه يخبرنا أنه سيخلقنا كما يريد مرّة ثانية في الآخرة.

بقي شيء، فممن سبقنا من المنتمين لدينه تعالى، ومن الفلاسفة والمفكّرين... ورثنا ثقافة دينية دخلت على فهمنا لكلامه سبحانه، فنقول إنّ الجسد مجرد وعاء، وبتبديله لا يتغيّر فينا أي شيء، لأن الأساس هو روحنا أو نفسنا أو جوهرنا... فانتبه جيداً لأن هذا الموروث ليس صريحاً من كلامه تعالى، بل كلامه تعالى بعيد عن ذلك، فلا تجد في القرآن ولا أي تصريح أو إشارة عن ذلك عند كلامه عن إعادته تعالى لخلقنا في الآخرة.

آيتنا هنا فيها عمق سنطرحه كتحليل مبني على معارفنا التي تطوّرت كثيرا عمّن سبقنا، فهم فسّروا كلامه تعالى بناء على معطياتهم، وها نرد عليهم بناء على معطياتنا، ويبقى كلامه تعالى خارج التفسير بأي معطيات غير الثقافة العامة التي كان يعرفها المثقف العادي قديما في زمن النبي نوح(ع)...

فأي كائن ومهما كان نوعه ومن أي مادّة تألّف، فله تركيب، وهذا بديهي نعلمه من وصف الكائن بأنه مخلوق، وطبعا فكلامنا لا يجري عليه تعالى لأنه ليس مخلوقا، فليس مركّبا ولا مؤلّفا، فطبيعته تعالى مختلفة وبعيدة جدا جدا عن طبيعة المخلوقات... على أي حال، فيمكننا تصوّر احتفاظ الكائن بكل خصائصه حتى لو انخلق من مادّة أخرى غير التي انخلق منها سابقا، فخذ مثلا المادة التي نتألّف منها الآن، فلو قدرنا على نسخ ذرّات جسدك بطابعة ثلاثية الأبعاد تركّب الذرات بشكل مماثل تماماً لتركيب ذرّات جسدك، فسيكون لدينا نسختان منك، وإن اعترضت سائلا عن الروح، فأذكّرك أنني أفترض بناء على كلام القرآن الذي اختصر وجود شيء صاف فينا بكلمة روح، ولم يفصّل في نوعها ولا أثرها، وأنت ترى بيديك أنك تخلق من الذرات كائنا حيا، أو تخلق من خلية جذعية كائنا يصير إنسانا، وسبحانه هكذا خلقنا من تراكب الخلايا... حتى صرنا إنسانا.

لنسهّل الفكرة ولنفترض أن خزّان معلوماتي والترابط الفكري الخاصّ بي للتعامل مع الأمور، قد جرى نسخه بالتمام ووضعه في ذاكرة رقمية، ذاكرة كومبيوتر، فما الفرق بيني وبين هذه الآلة؟ لا شيء، سوى أنني مركّب من مواد على شكل لحم وعظم ودم... والآلة مركّبة من نفس المواد ولكنها صلبة وتتغذّي من بطارية كهربائية...

أذكّرك أني لا أفرض عليك الأفكار لتؤمن بها، ولكني أفتح أمامك الأفق لنفهم كلامه تعالى من خارج صندوق الموروث الثقافي الديني، فآيتنا هنا، بكلماتها السهلة، تشير إلى خلقنا من البداية أو إعادة خلقنا، من مواد مختلفة، أو بهيئة مختلفة، مع الاحتفاظ طبعا بخصائصنا الإنسانية التي تجعلنا مكلّفين بدينه تعالى، وقد ذكرت لك مثال نسخ الإنسان بالذرّات، أو الاكتفاء بنسخ ذاكرته وطريقة ترابط فكره، لترى العمق في كلامه تعالى، فهذا مثال عمّا تشير له الآية هنا.

أعيد وأكرّر لك، كلامهم في التراث الديني والفلسفي عن الروح أو النفس أو الجوهر... أنها الأساس، وأن الجسد مجرد وعاء، فهو اقتراح منهم لتفسير كلامه تعالى، وها القرآن أمامك من أوله لآخره فراجعه في دراستنا هذه لترى أن كلامهم عن الروح بغالبيته الساحقة افتراضات فكرية منهم، ولست أنت ملزما به، ولا ملزما بما افترضته أنا، ولكننا ملزمون بصريح ما نفهمه من القرآن، وكما ترى فالقرآن تكلّم عن الأمور البسيطة العادية التي يفهمها أي إنسان عادي، محتفظا بدقّة التعبير وصحّة ما يعبر عنه، وتاركا مجالا واسعا لنا للبحث في آليات حصول الأمور، فهذا مجال الفضول الدافع لنا للتعرّف عليه تعالى، وعلى آليات فعله للأمور...

(وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ{62})
{وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى}، فتكوّنكم من شيء سابق واضح لكم، فتكوّنكم من مني وبويضة... فجنين... وصولا إلى إنسان كامل، فأنتم تعلمون تركيبتها الآن فهي الحالة الأولى التي أنتم فيها الآن في الدنيا "وسيأتي في الآخرة حالة أخرى"، والمقصود بالنشأة هنا ما ننبني منه ونسمّيه تشريح جسم الإنسان، فمن أول التلقيح إلى الولادة هو نشأة، ومن كيمياء وبيولوجيا جسم الإنسان، بالعظام واللحم وأعضاء وجهاز عصبي... فكله مما نشأنا منه، {فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ}! فلو تستحضرون هذه المعلومات في فكركم بدل إنكاركم للحياة في الآخرة.

إلى هنا انتهت أول فقرة تلفت الانتباه لكون النشأة الثانية "الحياة بعد الموت في يوم القيامة" ستحصل بأمر الذي أنشأنا في الأولى، ففي كلا الحالتين نحن واقعون تحت أمره سبحانه، فلنراجعها بعبارات أبسط:

هناك من يقول: لن يكون لنا بعث من بعد الموت. فتخبره السورة أنك لو صدّقت من الأوّل أن الإله خلقك، فلا يوجد سبب يجعلك لا تصدّق أنه سيخلقك مرّة ثانية، فهل نظرت إلى بداية تكوينك من المني، فهل لك علاقة بهذا التصميم؟ أم أنّك مجرّد كائن يتفاعل ويتصرّف بحسب تكوينه الجسدي كما خلقه الإله تعالى؟ والإله جعلكم تموتون ولا يوجد قدرة ستمنع حصول قراره بإنشائكم مرّة ثانية بهيئة لا تعلمون كيف هي، فطالما علمتم النشأة الأولى بالتركيبة الأولى التي تركّبتم بها، وهي تركيبتكم الآن وأنتم أحياء في الدنيا، فلماذا لا تصدّقون بأن نفس الإله سبحانه سيعيد إنشاءكم بشكل آخر؟ فما سبب إنكاركم لهذا؟ ولماذا لا تصدّقون به؟ ولماذا تعتبرونه مستحيلا؟ فقد خلقكم أول مرة من مني، وسيخلقكم مرّة ثانية من شيء آخر، وبآلية أخرى من التراب أيضا، فلماذا تعتبرونه مستحيلا!

لا تقف عند الأسئلة هنا منه تعالى للإنسان، وكأنه تعالى ينتظر منهم جوابا، لا، ففي آخر الفقرة سترى أنها أسئلة ولكنها لا تنتظر من الإنسان أجوبة، فمعلوم أنهم مكذبون ناكرون لما هو واضح... فالسؤال هنا هو مجرد لفت انتباه وليس انتظارا لجواب من المنكرين لدينه تعالى.

(أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ{63})
الفقرة السابقة بيّنت فقداننا القدرة على التحكّم بالخلق والموت والنشأة الأخرى... وترينا خالقنا وقدرته على بعثنا مرة ثانية إلى الحياة حتى يفرزنا أزواجا ثلاثة... وهنا تبدأ فقرة تبيّن فقداننا للسيطرة على أمور أخرى تبدو بديهية لنا وروتينية عادية، ولكن تحت هذا الظاهر يوجد شيء آخر:

{أَفَرَأَيْتُمْ}، أسألكم تعقيبا على شيء سابق إذا حصل عندكم صورة محدّدة لـ، كما نقول بالعامية: شفتوا. التفتوا إلى:

{مَا تَحْرُثُونَ}؟ فما تعملون عليه وتجهّزونه ليخرج منه إنتاج، وهنا بالتحديد الكلام عن تجهيز الأرض بفلاحتها... وتسميدها... ورشّ البذور أو غرس الشتول... وريّها بالماء...

(أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ{64})
{أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ}؟ النبتة قسم منها تحت الأرض وقسم منها فوق الأرض، وهكذا توصف بأنها مزروعة "ولو كانت كلها تحت الأرض لكانت مدفونة" فهل أنتم من جعل النبتة مزروعة؟ هل أنتم تسبّبون امتداد الجذور لتحت والنمو من الأرض ليصير للنبات ثمر؟ أم نحن الزارعون؟ من الواضح أنه تعالى هو الزارع، فأنا أضع البذرة في الأرض، وأسقيها، ولكن ميكانيكية النمو، آلية النمو، ميتابوليزم تحويل الماء والتراب إلى خلايا نباتية، وبعدها إلى ثمر وحبوب...

فما علاقتي أنا به؟ لا شيء سوى الحراثة، ولا علاقة لي به سوى الحرث أي تهيئة الأجواء للحصول على المنتوجات النباتية.

فكّر فيها لو زرعت مسماراً حديدياً في التراب، وتتوقّع خروج شجرة تحمل المسامير، أو قل إنك بذرت حقل قمح وغيّرت رأيك وتريده أن يثمر بطيخاً... فمثلما كان خروج المني من جسدنا عبر البروستات والخصيتين، بطريقة ميكانيكية آلية، ويتكوّن منه فيما بعد إنسان، فكذلك الزرع الذي ينتج عنه الثمر فنحن لا علاقة لنا بتصميم آلية عمله، فنحن وجدنا الأمور هكذا...

إن كنّا لا علاقة لنا بتكوين الحياة النباتية، فمن هو المسؤول عن إنشاء الحياة النباتية؟ فمن صمّمها؟ ومن يجعلها تعمل؟ أليس الله تعالى.

لاحظ أن من تسألهم السورة هم النموذج القديم الجديد من المنكرين للبعث، ومنهم مشركون منكرون لوحدانيته تعالى، ومنهم منكرون لألوهيته تعالى، فبعضهم أصلاً لا يؤمنون بوجود إله، ولديهم تفسير وأجوبة لما تطرحه السورة، فيقولون: الدهر أوجدنا، يعني هكذا من لا شيء صرنا موجودين. آخرون يقولون: الطبيعة أوجدتنا، فهكذا من هذه البيئة صرنا موجودين. وآخرون يقولون: بالصدفة صرنا موجودين... وكما ترى فالقرآن عموماً اعتبر أنهم يألّهون الدهر والطبيعة والصدفة... فنحن مصمّمون مركبون وحتماً هناك أحد ما مسؤول عن تسبيب ذلك.

الله تعالى من جهة يقول بأنه المصمّم الخالق، والكافرون بذلك يقولون عن أشياء أخرى أنها سبّبت ظهور ما في الدنيا وظهورنا نحن فيها، وكما ترى من الآيات هنا كنموذج عن بعض الأمور التي تلفت السورة انتباهنا لها من خلقتنا من مني والزرع والماء من الغيم والنار من الخشب... فأي سخافة هي إنكار الإله المصمّم الخالق؟

منذ عهد قريب من دراستنا هذه طوّر الكافرون به تعالى كلماتهم واستبدلوا الصدفة والطبيعة التي خلقتنا كما يقولون، فاستبدلوها بقوانين الفيزياء أنها هي سبّبت خلق الكون. وهذا خلط بين التعرّف على آلية حصول الأشياء كما صمّمها سبحانه، وبين الكفر به تعالى على أساس أن الأشياء تحصل بأسباب معلومة من آليات لحدوثها وأنه تعالى لا يبدو له أثر في حدوثها، وهكذا ترى أن تعرّفنا على آليات حدوث الأشياء هو تعرّفنا على آليات فعله تعالى للأشياء وليس إلغاءً له سبحانه، وكلام سورتنا هذه يشير إلى ذلك.

على أي حال فقوانين الفيزياء الحالية لا تفسّر كل شيء، ومدّة بعد مدّة يأتي من يتبجّح بمعرفتنا بقاعدة فيزيائية جديدة على أساس أنها الكمال ولا ينقصها شيء وتفسّر كل شيء... وبالتالي فلا داعي لنقول إنه يوجد إله لأن أسباب نشأة الكون صارت واضحة من ترابط خصائص الطاقة والمادّة التي أدّت إلى نشأة الكون والحياة على الأرض... علماً أنه تعالى أخبرنا مراراً عن مراحل خلقه للسماوات والأرض، وهذا يشير لترابط تلك المراحل بآليات سابقة نتج عنها أمور لاحقة وصولاً إلى نشأة سبع سماوات وحياة على الأرض... وراجع في ذلك كنموذج عن كلامه تعالى ما ورد في الآية 9 وما بعدها من سورة فصلت {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ}.

على أي حال، يأتي بعد ذلك قواعد فيزيائية جديدة تبيّن خطأ أو ضعف القواعد القديمة، ويأتي معها من يتبجّح بها... وهكذا مدّة بعد مدّة تأتي نسخ جديدة من المتبجحين...

من ناحية ثانية فسذاجة تفسير الكلام الإلهي أدى إلى عرض دينه تعالى كدين ساذج للبسطاء، وما تقرؤونه من هجوم على الدين الإلهي من البعض، فهو بالأصل هجوم على المتدينين الساذجين، الذين اعتبروا البحث عن آليات حدوث الأشياء كفراً! فبعضهم حرّم التصوير الصوتي للحامل لمعرفة نوع الجنين، على أساس أنه شرك به تعالى الذي من المفروض عندهم أنه تعالى لوحده يعلم ما في الأرحام! فممنوع أن نؤمن بآلة أو دكتور يعلم ما في الأرحام! وقديماً بعضهم حرّموا تناول الدواء لأنه شرك به تعالى الذي برأيهم وحده الشافي... وحرّموا نقل الدم لمن يحتاج له... وقبلها حرّموا دراسة الفلك والفيزياء والكيمياء... وحرّموا...

القرآن يسأل عمّا نحن فيه، فيسأل عن خلقتنا وتركيبنا وصفاتنا... ويسألنا عمّا حولنا... عن الزرع وأكلنا له... عن الماء وشربنا له... عن تشكّل الجنين وعن خروج الزرع وعن نزول الماء... فهناك آليات لحدوث هذه الأمور، وهذه الأمور تحصل بتكرار يدل على وجود تصميم تسير عليه، ومن ناحيتنا نحن وعلى مقياسنا نحن وبما أتاحه تعالى لنا من فكر

وخيال... نحلّل لنكتشف آليات حدوث الأمور، فنلمس فيها أموراً ثابتة تتكرّر نسميها قوانين علمية، فالمطر أصله من بخار يتصاعد إلى حيث فرق كثافة... وريح... وتشكّل غيوم... وتعرّضها لظروف تجعل البخار يتكاثف... فينزل مطراً. ونفس الشيء بالنسبة لخلقتنا من خريطة جينية في خلية جذعية في بيئة كيميائية... ونفس الشيء بالنسبة لتشكّل الأرض وبيئتها والمجموعة الشمسية وذراع المجرة والمجرة والفضاء الفسيح ومجرّاته... ففهمنا السطحي أو المقبول أو العميق نسبياً لآلية حدوث الأشياء، فهذا لا يعني أن نلغيه تعالى من المعادلة، بل يؤكّد لنا أننا تحت تصميمه تعالى لما في هذه الدنيا بهذه الطريقة.

القرآن يسأل عن الأساس الأوّل ومن الآخر، فيسألنا عن أساس خلق ما في الدنيا إن كان لوحده صار؟ ومن دون تصميم ولا قدرة فائقة أمرت بالتنفيذ؟ وأيضاً من الآخر يسألنا، فما معنى أن تصير حيّا؟ تأكل تشرب وتستهوي الأشكال الجميلة وتشمّ وتشرب لبنا ينتج من بين فرث ودم وترغب بعسل تجمعه حشرة من زهرة... فما علاقتك أنت بكل ذلك؟ لا شيء، فأنت واقع تحت تصميم الذي خلقك، ومعرفتك بآليات حدوث الأشياء لا تعني أكثر من تعرّفك "بشكل سطحي" على الطريقة التي خلقك بها ذو القدرة الفائقة الذي تَقَصَّدَ أن تكون بيئتنا ضخمة وهائلة التفاصيل لتدلّ عليه تعالى بسهولة.

نرجع للسؤال عمّا نزرعه:

(لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ{65})
إذا لم تقتنع، ورأيت نفسك تفلح وتغرس وتبذر وتسقي، وتتلاعب بجينات النبات فتنتج كميات أكبر وبطعم مرغوب... حسناً:

{لَوْ نَشَاءُ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة ولو قرّر، {لَجَعَلْنَاهُ}، لصار زرعكم، {حُطَامًا}، فيخرب قوامه، وهذا شيء يحصل بسبب عوامل عديدة، منها هجوم الحشرات الضارّة أو الفطريات على الزرع، أو العوامل البيئية من حرارة عالية أو باردة أو ريح، أو انقطاع نزول الماء وتوقّف الأنهار وجفاف الآبار... فلو حصل أي عامل محطّم للزرع ومانع من الحصول على الثمر منه، {فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ} "إنّا لمغرمون بل نحن محرومون"، فكنتم من قبل في حالة الشعور بالسيطرة، وعادة نقول لمن يعيش في النعمة إنه فاكه فيها، لأنه ليس مضطرا للتعامل مع الأمور بجدية لأنها محلولة وتسير على ما يرام، وبعد صيرورة الزرع حطاما تسخر منه الآية وتسأله عن حالة الفكاهة التي كان فيها سابقا، فهل هي مستمرة؟ فالكلام هنا يسخر من منكري دينه تعالى الذين لو أصابهم تعالى بحطام زرعهم، فهل ستستمر معهم حالة الفكاهة التي كانت سابقا حين كانوا يشعرون بسيران الأمور على التمام وكأنهم مسيطرون على الوضع، فالسخرية منهم على معنى السخرية من أهل النار في الآية 49 من سورة الدخان {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ}.

كلمة "ظلّ، ظلّتم" تشير إلى كونهم على حال سابق والانتقال منه إلى حال والاستمرار عليه بلا انقطاع، فمن قبل حين زرعتم وتوقعتم الانتاج كنتم في حال التفكّه، في حالة لا مبالاة بسبب الشعور بسيران الأمور على التمام، فإن تحطّم فظلتم فاستمريتم في حالة التفكّه، فلنر الحالة:

(إِنَّا لَمُغْرَمُونَ{66})
{إِنَّا لَمُغْرَمُونَ}، نحن ملزمون بشيء لن يذهب عنّا لوحده، والكلام عن أننا واقعون تحت خسارة مالية وخسارة تعبنا ووقتنا بلا فائدة، وهذه حالة ستلازمنا لأن الزرع تحطّم.

الحديث هنا مع من لم ينتبه أن إلها مسيطرا فوق رأسه، فهل فعلا هو يستطيع السيطرة على ما يفعله؟ وهل يضمن نجاح حرثه حتما؟ لا، بل هناك ظروف متعددة وكثيرة تسبّب حطام الزرع، منها الحشرات والآفات والطقس... وحين يفقد هذا الشخص السيطرة ويتحطّم زرعه، سيرى أن قدرة ما جعلته مغرما، فجعلته يقع تحت شيء ثقيل، والكلام عن وقوعه تحت خسارة ثقيلة، لأن تكاليفه ووقته وجهده قد ذهب بلا نتيجة.

الغرم "مغرم، غرام" هو عموم إلزامك بشيء مادي أو معنوي لتبعات مادية أو معنوية ولن يسقط عنك لوحده، فالمغرم المادي لما عليك من تبعات مادية مالية أو غيره ومؤثرة وأنت ملزم بتأديتها، فغرامة مخالفتك لقانون السير هي الزامك بدفع مال على المخالفة. ومغرم معنوي، فعليك تبعات مشاعرك كحبّك حيث صرت ملزم بالهيام والشوق... ونفهمها

بشكل سهل من كلام الآية 65 من سورة الفرقان {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا}، كان شيء ثقيلا تأديته كمجازاة على السيئات.

(بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ{67})
إن لم يكن هناك من يقصد جعلنا تحت الغرامة:

{بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ}، هناك أحد ما منعنا من الحصول على ثمر ما حرثناه، هناك من حطّم الزرع حتى يحرمنا من ثمره.

عندما تكون أمور زراعتكم "وتجارتكم وأعمالكم" تمشي على ما يرام فأنتم لا تشعرون بالإله الذي جعلها هكذا، ولكن عندما يتحطّم الزرع وتخرج الأمور عن سيطرتكم، عندها فقط تشعرون بوجود قوة أقوى منكم، وتقولون بأن تلك القوة حرمتكم، فبقرار منها خربت مشاريعكم...

هذا كان مثلاً يعرفه كلّ الناس، لأن تحطّم الزرع يحصل دائماً مع الناس، حتى على المقياس الصغير للذي لديه حديقة بعشر شجرات مثمرة يلاحظ اختلاف كمية الثمر التي تحملها الأشجار بين بعضها، ومن سنة لأخرى، وطالما أنت لا تسيطر على الزرع وحصاده، فمن يسيطر عليه؟ ولماذا لا تلتفت للبيئة التي أنت فيها والتي تدلّ على فقدانك للسيطرة عليها، فلو حصلت ريح أو برد أو حرّ... أو حشرة ما، أو طفيلية "بكتيريا" ضربت الزرع... فأين قدرتك على السيطرة؟ ألا ترى أنه يوجد إله يسيطر على كلّ شيء؟

بعبارة أخرى، أنت الكائن الواعي المفكّر الفاعل... وتريد السيطرة على البيئة، ولا ترى إلهاً فوقك خالقاً لك ولما في الدنيا، ومهما فعلت فهناك أمور تفوق قدرتك، فهل انتبهت لوجود من يسيطر فعلاً على كلّ شيء؟ حيث يسيطر عليك، وعلى خلقك، وعلى خلق مخلوق منك، وعلى زرعك، وعلى بيئتك... أنت تزرع بيدك ولكن لا قدرة لك على إنجاح الزرع حتماً، وبالتالي فهذا المسيطر يقول لك إنّه سيبعثك إلى الحياة بعد الموت، فلماذا لا تصدّق هذا الكلام طالما أنت وكل ما حولك من الآن واقع تحت سيطرته؟

بعبارة أخرى، إن كنت لا تؤمن بالإله، وتعلم مما حولك أنك الكائن الوحيد المفكّر الواعي الفاعل... فكانت الأسئلة السابقة في السورة تسألك عن أمور لا علاقة لك بها، عن خلقك أنت من منيٍّ، فمن خلقك؟ وها تسألك السورة عن أمور تفعلها بيدك، فلماذا لست مسيطراً عليها طالما أنت الكائن الواعي المفكّر الفاعل الوحيد ولا يوجد إله فوقك؟

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ{68})
نكمل مع فقدان سيطرتنا على أمور تبدو عادية روتينية ولا ننتبه لأهميتها:

{أَفَرَأَيْتُمُ}، أسألكم تعقيباً على شيء سابق إذا حصل عندكم صورة محدّدة لـ، كما نقول بالعامية: شفتوا. التفتوا إلى، {الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ}؟ فتروون به عطشكم.

(أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ{69})
{أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ}، هل أنتم قمتم بإنزال الماء من السحاب الممطر؟ فهناك غيوم لا تكون كثيفة وعادة لا ينزل منها الماء، أما الغيوم الكثيفة التي ينزل منها الماء فاسمها "وصفها" مُزْن، فهل أنتم جعلتم الماء ينزل من الغيوم التي فيها كمية كبيرة من المطر؟

{أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ}؟ أنتم تشربون هذا الماء وتعتمدون عليه في حياتكم، فهل لكم أي علاقة بنزوله؟

هل لاحظت، مثلما تقوم أنت بالأمور فتعمل وتحرث وتزرع وتشرب... وتعلم أن الأمور لا تحدث لوحدها، وحتى الآلة التي تعمل لوحدها لتنتج ألعاباً بلاستيكية فهناك من صمّمها لتعمل، فهي لم تأتِ من لا شيء وصارت فجأة آلة تعمل... كذلك كل ما حولك، فهناك من خلقه هكذا وجعله يعمل، وجعل الماء الصالح للشرب ينزل من الغيوم عبر عملية

مترابطة مع بقية البيئة من حرارة ورياح وتكاثف... تقوم بتنقية المياه من الجراثيم والشوائب المضرّة بالتبخّر... ونزوله علينا صالحاً للشرب.

(لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ{70})

{لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً}، أمامه تعالى خيارات عديدة ولو قرّر لجعل ماء المطر غير صالح للشرب أو يجعلنا نشعر بالانزعاج عند نزوله في الحلق فلا ينزل بسلاسة، فمن بين الخيارات العديدة اختار سبحانه أن يكون صالحاً للشرب ولكن بقية الخيارات من جعله أُجَاجاً: مالحاً أو حامضاً أو موحلاً... لا تزال متاحة وأحياناً يقرّرها تعالى فتحصل.

{فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ}، بدلاً من إنكار فضله تعالى عليكم بتأمين ما تشربونه فلولا ذلك، بدلاً من ذلك لو تشكرونه فتعلنون له تعالى أنكم حصلتم على نعمة منه.

لكن المنكرين لألوهيته وللآخرة لا يشكرونه! فيشربون الماء الذي هم بحاجة ماسّة له، وهو سلس لذيذ ينعشهم وتعتمد عليه حياتهم... ولا علاقة لهم بنزوله من الغيم، ولا يشكرون الذي أنزله؟! والأنكى من ذلك أنهم إذا تعرّفوا على آلية نزوله أنكروا أن يكون سبحانه أنزله؟ فهل كانوا يتوقعون أنه تعالى لديه خزانات مياه في السماء وبشكل سحري "خرافي" وبدون ارتباط ببيئتنا، سينزل من تلك الخزانات مياهٌ صالحةٌ للشرب؟!

فإن كنتم تنكرون الآخرة التي يخبركم الإله تعالى عنها، فتنكرون شيئاً سيحصل في المستقبل فأنتم قبل ذلك تنكرون شيئاً يحصل الآن! فأنتم لا تشكرونه تعالى على ما تشربونه ومن الواضح أنكم لا علاقة لكم بنزول ماء المطر، ومن الواضح أنه لن ينزل لوحده، فلن تحصل ظاهرة نزول الماء لوحدها بدون إله صمّمها وخلقها ونفّذها... ورغم ذلك لستم تشكرونه فتنكرونه كإله صمّم وخلق ظاهرة نزول الماء؟!

تتذكّر ما كرّرناه في دراستنا هذه عن تصوّرك لنفسك أنت وقرّرت خلق كائنات في بيئة، وسترى الكمّ الهائل من التفاصيل الموجودة في بيئتنا إن أردت تقليدها، وسترى أن قدراتك ستحدّد صفات وقدرات الكائنات والبيئة... فكلما علت قدراتك قدرت على زيادة التفاصيل... ولجعلت الكائنات ينتج عنها كائنات فتتكاثر بالتزاوج...، وأصلاً لخلقت بذرة منها نشأت البيئة ومنها خرجت الكائنات... ولجعلت البيئة ينتج عنها ما ستستهلكه الكائنات لتنمو وتتكاثر... ولجعلتها تجوع لتأكل، وتلتذّ بطعم ما تأكله لترغب فيه... فهل ستفعل هذا أم ستنزل على مخلوقاتك وجبات طعام جاهزة من عندك! وهي لن تؤمن بك إلا إن فجأة وبدون سبب انبثق الطعام مطهياً ساخناً فجأة أمامهم من لا شيء؟

أتركك مع هذا السؤال لتفهم كلامه تعالى هنا عن الزرع والمطر وليكون نموذجاً لك عن بقية كلامه تعالى ولترى معنى الكفر به تعالى من بعد علمنا بكيفية آلية فعله سبحانه للأمور، ولترى معنى الإيمان من بعد التفكّر في تصميمه الرائع سبحانه لآليات حدوث الأمور.

بقي شيء ضعه في بالك دائماً، فسبحانه يكلّمنا عبر قرآنه بشفافية ووضوح، فيخبرنا أنه تعالى صمّم ما في الدنيا بحيث من السهل لنا التعرّف عليه تعالى، وترى آثار ذلك واضحة في تاريخ البشرية قديماً وحديثاً، فالغالبية آمنوا بالإله... ومن وسائل تعرّفنا عليه سبحانه وقوعنا تحت أمور كثيرة لا سيطرة لنا عليها، فنزول الماء وخروج النبات والثمر وخلقتنا بالتكاثر... أحياناً يحصل فيها خلل يلفت انتباهنا للقدرة الإلهية التي تسيطر على هذه الأمور، فنرغب بالتواصل مع تلك القدرة حتى تسير أمورنا على التمام...

هذا الكلام قرآني، والذي تراه هنا في السورة بوضوح، وإذا أضفت عليه كلاماً قرآنياً آخرَ فسترى أن جانب الخوف من أمور مرعبة نفقد القدرة على الخلاص منها، فهو أيضاً من ضمن تصميمه تعالى لما في الدنيا حتى نتعرّف عليه، ولكن السورة هنا لم تتناول جانب الخوف هذا، وركّزت على جانب حاجاتنا.

على أي حال، قديماً وبسذاجة وطفولية، وبسبب جهل الناس لآليات نزول الماء، اخترعوا إلهاً للمطر، وإلهاً آخرَ للرعد وغيره للبرق وآخرَ للحبّ والزرع والخصوبة... أقول "اخترعوا" لأنهم لم يكتفوا بالإشارات الواضحة الدالة على إله واحد لكل ما في الدنيا، فاخترعوا آلهة من أوهامهم بسبب فساد قلوبهم... وعلى نفس العقلية الساذجة والطفولية كان الكثيرون من المنتمين لدينه تعالى يفهمون الآيات الدالّة عليه سبحانه بسذاجة وطفولية.

فكلاهما المشركون والكثير من الموحّدين، واقعون في ظروف يفقدون فيها السيطرة التامّة على الأمور، وكان هذا دافعاً لهم للالتفات للذي يسيطر على الأمور، للإله، والذي قلبه "أساس فكره ونفسيته" سليم، فهذا يتوقّف عند دلالة الآيات التي تشير لإله واحد أحد، والذي قلبه مريض سيخترع إلهاً مناسباً لمزاجه...

نرى هذا الكلام في القرآن بشكل صريح وشفّاف، وأعاد طرحه المحلّلون لاختراع الإنسان "البدائي القديم" للدين والإله على أنهم اكتشفوا المستور، والنتيجة التي وصلوا إليها أن الإله اختراع إنساني نابع مع فقداننا السيطرة على أمور في حياتنا وبيئتنا.

بينما كلامه تعالى عبر القرآن وما سبق من كتب، سمّى ما يدفعنا إلى الالتفات له تعالى، والتعرّف على عظيم قدراته وصفاته، سمّاها: آيات. وبصراحة واضحة أخبرنا سبحانه أنه صمّمنا "التعبير القرآني: سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وصمّم بيئتنا بشكل يجعل تعرّفنا عليه سهلاً جداً، من التفكّر بآياته ومما ينتج عنها من التقدير والحبّ لخالقنا... ومن مشاعر كالخوف مما نفقد السيطرة عليه... ومن شعور مغروس فينا كنتاج عن تركيبتنا وفكرنا، وهذا الشعور يدفعنا نحوه تعالى عند وقوعنا في الشدائد... ورغم ذلك يأتيك المتذاكون ليقولوا عن الطرق المختلفة والسهلة جدا للتعرّف عليه تعالى من آياته المنتشرة فينا وحولنا بالتريليونات... فيقولون إنّ ما يتفعّل فينا لذلك هو شعور وتفكير بدائي ساذج، ومن المفروض التخلّص منه بعدما صرنا نعرف آليات نشأة الكون، وأنه لا داعي لافتراض إله خلقنا وأنزل الماء وأخرج الزرع...

سبق في دراستنا لهذه السورة ولغيرها أن أشرنا للفرق بين الدين من كلامه تعالى، وبين الدين من كلام المنتمين لدينه تعالى، فهؤلاء كلامهم يعبّر عن دينهم هم، وليس عن دينه تعالى، فهؤلاء كان الكثير منهم إيمانه ساذجاً طفولياً، فبذرته صحيحة ونابعة من رؤية آياته تعالى، ولكن تفسيرهم للكثير من الآيات الإلهية كان فيه خلل، فرغم وضوح كلامه تعالى فهم لم يفهموا أنه تعالى خلق السماوات والأرض على مراحل تشير لآليات مرتبطة لخلق ما في الدنيا وصولاً إلى نشأة الحياة بكلّ أشكالها، فهؤلاء فهموا أنه تعالى بقدرة عجائبية سحرية "خرافية" وبكلمة ينطقها فيقول سبحانه للشيء: كن. فيكون بلا أي سبب، مثلما يؤمن الكثير منهم بأن كتابة بضعة كلمات على ورقة وتعليقها على مريض سيشفيه!

نعم هناك آليات لحصول الأشياء ويمكننا التعرّف عليها علمياً ومخبرياً وفكرياً... وكلما تقدّمت وتطوّرت علومنا تعمّقت معرفتنا بآليات وتفاصيل أسباب حصول الأشياء، وهذا يشير إلى مجال واسع جداً لإمكانية حصول الأشياء بآليات وطرق لا يمكن أن تخطر على بالنا، أو لا يمكننا التعرّف عليها لأنها فوق قدرتنا على فهمها، وهذا شيء تكلّمنا عنه من زاوية أخرى في الآية 62 من هذه السورة، وهكذا تفهم أن طرق فعله تعالى للأشياء ليست محصورة بما نراه ونعرفه، فما استطاعت حواسّنا وأدواتنا أن تطاله، فسنتعرّف بطريقة أو بأخرى على آليات عمله، وما لا تطاله وسائلنا، سواء أكان عمقاً دقيقاً أو شيئاً من مادّة مختلفة عن مادّة عالمنا أو... فلا يمكننا إنكاره، فسبحانه لا تعجزه الوسائل، فأمامه تعالى دائماً خيارات عديدة حتى يفعل ما يريد.

(أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ{71})
{أَفَرَأَيْتُمُ}، أسألكم تعقيباً على شيء سابق إذا حصل عندكم صورة محدّدة لـ، كما نقول بالعامية: شفتوا. التفتوا إلى:

{النَّارَ الَّتِي تُورُونَ}، التورية هي عملية القدح، فكما نحن نستعمل القداحة الغازية لنشعل النار، وكان العرب القدماء "في وقت نزول هذا القرآن" يستعملون حجارة من نوع محدّد للحكّ ينتج عنها شرارات، وأيضاً كانوا يستعملون أعواداً من الخشب يحكّونها ببعضها لتنتج شرارات من مسحوق الخشب. وأفضل وأسرع طريقة لذلك استعمال نوعين من الخشب، عود صلب ولوحة من خشب اسفنجي، والعرب كانوا يعتمدون "المرخ" وهو أي خشب إسفنجي، والثاني "العفار" وهو أي خشب صلب، فيحكّانهما ببعض، وتنتج شرارات في مسحوق الخشب الناتج عن الاحتكاك...

وأنت تعلم أن كلام الآية عن نموذج، وليس حصراً في تورية النار من الخشب، فأي طريقة أخرى لإشعال النار فهي ستنتج من الخواص التي صمّمها تعالى في المواد ومن فكرنا الذي صمّمه تعالى بقابلية اكتشافنا إشعال النار من استخدام خواص المواد.

لن أطيل عليك في موضوع أهمية النار في حياتنا، فمن أول ما تعلّمنا استخدامها وتوريتها "إشعالها" ساعة نشاء، تغيّرت حياة البشرية بعدها سريعاً، حتى إنّ الكثير من المحللين التاريخيين يسمّون تلك المرحلة باكتشاف النار،

ويعتبرونها أهم قفزة في حياة البشرية، فما نحن فيه الآن من تقانة الفيزياء فيما غيّرته في حياتنا، وتطوّر العلوم البيولوجية لإطالة حياتنا بالدواء والعمليات الجراحية... فاكتشاف تحكّمنا بإشعال النار كان قبل ذلك قفزة أساسية أوصلتنا إلى ما نحن عليه من تطوّر علمي وتقنيّ.

(أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ{72})
{أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ}، فهل أنتم بنيتم تركيبة، شجرتها؟ فخشب الشجر الذي تستعملونه للتورية "للقدح" فهل أنتم أنشأتموه فجعلتم فيه خاصية الاحتراق من الاحتكاك، وبعدها تحرقون خشب الشجر من النار؟

{أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ}، البانون لتركيبة الشجرة لتصير خشبًا يحترق؟ بالطبع نحن البشر ليس لنا أي علاقة بآلية نشوء الشجرة ولا بالخصائص التي في خشبها، فنحن ربما نغرسها أو نزرع بذرتها، ونسقيها، ونسمّدها، ونقلّمها، ونتلاعب بجيناتها لتنتج ثمارًا أكثر وأكبر... وتقاوم الآفات... لكننا بالأساس لا علاقة لنا بآلية نموّها، فلم نصمّمها ولم ننفّذها لتصير خشبًا بخاصية الاحتراق.

فكّر فيها لو كنت تحتاج لشجرة تنتج هواتف نقالة، فتزرع الهاتف في التراب ويكبر ويصير شجرة تحمل هواتف، ويبدو المثال سخيفًا لك! حسن، فأنت تصنع آلة تقوم بإنتاج الهواتف، إذا فمن صنع البيئة التي تقوم بإنتاج الشجر الذي ينتج عنه ثمر وينتج عنه الخشب الذي يحترق؟ فإن كنت أنت لم تنشئه فمن أنشأه؟! وراجع ما قلناه مطوّلًا في الآية ما قبل السابقة عن آليات خلقه تعالى للأشياء.

ها أنتم تنكرون الحياة في الآخرة على أساس أنها شيء لم تروه، وأنتم لن تصدّقوا بشيء لا ترونه أمامكم؟ حسن، فما بالكم بما هو أمامكم "الخشب والنار" وهو ليس من إنشائكم، وتستعملونه، فمن أنشأه إذا؟!

نفس ما ذكرناه في دراسة الآية 64 عن رؤية الكافر لنفسه كواعٍ ومفكّر وفاعل، ولا يؤمن بالإله، حيث الكافر بيديه يشعل النار، وهي أثر ناتج عن فعله الناتج عن فكر الناتج عن وعيه... ولكن النار ذات نفسها والخشب الذي نتجت منه، والشجرة التي نتج منها الخشب بهذه الخصائص، فمن خلقها؟

(نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ{73})
{نَحْنُ جَعَلْنَاهَا}، جعلنا النار التي تشعلونها في خشب الأشجار {تَذْكِرَةً}، شيء تستحضرونه في فكركم حتى تنتبهوا أن إلهًا قادرًا عظيمًا صمّمها ونفّذها، وجعلنا النار {مَتَاعاً}، شيئًا تنتفعون به وتستفيدون منه {لِّلْمُقْوِينَ}، وأقرب كلمة هي القواء، أي الأماكن التي ليس فيها بشر كالبراري والصحاري... ففي أمثال هذه الأماكن تنتبه أكثر لأهمية النار للتدفئة وإخافة الحيوانات وللطهي... وللاستئناس.

فأنتم تنكرون الإله الواعد لكم بالحياة الآخرة، فماذا عن النار التي بين أيديكم، فهل أنتم صمّمتم حصولها واحتراق الشجر؟ فإن لم يكن لكم علاقة بهذه الظاهرة فمن له علاقة بها؟ فالإلهُ عزّ وجلّ صمّمها "بالإضافة لكل شيء" فكيف تنكرون وجوده وتدخّله وسيطرته عليكم هنا في حياتكم؟ فالنار التي تشعلونها بأيديكم وتتعاملون معها لحاجتها وللتسلية... وأنتم تنكرون الإله الذي أنشأ الشجر الذي يحترق بالنار التي صمّمها هو تعالى، فليس غريبًا عليكم إنكار الخبر الإلهي عن الحياة في الآخرة.

ننتبه للمثل هنا عن اشتعال الخشب، حيث لا فرق بينه وبين اشتعال أي مادة أخرى نستفيد منها في حياتنا، كالغاز والنفط السائل وفرن الكهرباء... لأننا مهما فعلنا من تغييرات وخلطات وتركيبات... لا نزال في بيئة كلّها من تصميمه تعالى وتحت سيطرته، ويجب أن نشكره تعالى على أي نعمة نكون فيها.

ركّز جيدًا على التعبير في الآية عن جعل قدح النار واشتعالها {تَذْكِرَةً}، وانظر في تاريخ البشرية الذين عبدوا النار كإله، أو كرمز للإله، أو تعبير عن قدرة الإله... ما دفعهم لذلك هو خلقه تعالى لنا بحيث يتفاعل فكرنا ومشاعرنا مع النار حين نراها، وسبحانه جعلها تذكرة تدلّ عليه سبحانه، ولكن الانحراف الفكري والنفسي أدّى بالبعض إلى عبادة النار أو الشرك به تعالى بدلاً من اعتبارها آية دالة عليه سبحانه.

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ{74})
{فَسَبِّحْ}، أيها الرسول(ع) "وأيها المؤمن" نزّه، فلا تنسب صفات غير لائقة وتحت المستوى، {بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}، فربّك، المسؤول عنك من مستوى إلهي، عظيم ليس عاديًا في أي شيء بل فائق بالصفات العالية، فسبّح فقم بالتسبيح له، فقم بتنزيهه عن الصفات الناقصة أو السيئة أو المعيبة التي لا تليق به.

ما يقولونه عن استغرابهم من عودتنا إلى الحياة بعدما صار جسدنا ترابًا وعظامًا، هو استنقاص من القدرات الإلهية التي دلائلها متوافرة في خلقتهم وأكلهم وشربهم... فهم أمام أعينهم وبأيديهم يتعاملون مع أشياء من الواضح أنها ليست من صنعهم ولا من إنشائهم، فمن صنعها ومن أنشأها؟ ومن خلقهم ومن أنبت الزرع وأنزل الماء وأشعل النار وأنشأ الخشب... فينكرون كلّ هذه الأمور التي يتعاملون معها! فمن العادي جِدًّا أن يقوموا بإنكار الحياة بعد الموت طالما هم جاحدون لهذه الدرجة، ولكن أنت كمؤمن، نزّه المسؤول عن رعيتك من مستوى إلهي، فنزّهه عن الصفات المعيبة والناقصة لأنه عظيم، وقد أخبرك عن بعثك في الآخرة، فآمن بذلك.

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ{75})
من هنا تبدأ السورة بفقرة تؤكد فيها أن كلام هذا القرآن صحيح وأن مصدره إلهي، وبالتالي فكل ما سبق وذكرته السورة فهو آيات فهو أدلة وبراهين ولفت انتباه... ولكن في نفس الوقت فهو كلام من مصدر موثوق جِدًّا...

{فَلَا أُقْسِمُ}، فلا أؤكد، {بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ}، وهذه الكلمة بحسب استعمال القرآن واستعمال العرب لها في أشعارهم قبل الإسلام، فهي تشير لأي جرم لأي كيان له مكان في السماء، سواء أكان منيرًا بذاته مشتعلًا كالشمس أو كان غازيًا ساخنًا، أو كان صلبًا يعكس ضوء غيره كالأرض والمشتري...

مجرد لفت انتباهكم لمواقع النجوم كافٍ لتتأكّدوا من صحة ما سبق وسيأتي من كلام، ولا داعي للقسم به.

إذا، فهذه النقاط التي في السماء، من مجرة "أندروميدا" وعلى جنبها مجموعة ذات الكرسي "كاثيوبيا" وتلك النجم القطبي في مجموعة الدبّ الأصغر، وتحيط به مجموعة التنين "كراكن" وعلى جنبه مجموعة الدبّ الأكبر، وبقربه مجموعة الأسد... فكلّها نجوم لها مواقع في السماء، فلا حاجة للتأكيد بها على كلامه تعالى لأن كلامه سبحانه صحته بديهية بمجرّد النظر إلى النجوم، فهي لوحدها تشير إلى إله فائق الصفات والقدرات صمّمها وخلقها وجعلها حيث هي. وكما ترى فالسورة قفزت منّا ومن بيئتنا الضيّقة إلى السماء الفسيحة بنجومها الدالة عليه تعالى، وحتى لو كنت لا تعرف أسماء المجموعات النجمية التي تعارف عليها الناس فالآية أصلا لم تقصد الأسماء، بل منظر النجوم لوحده بمواقعها التي تراها كل ليلة، فهو دليل على إله عظيم القدرات صمّم وخلق...

بعبارة أخرى، فأفعاله تعالى بتصميمه وخلقه للسماوات والأرض وما فيهما من كائنات وظواهر، فأفعاله التي تدل عليه وعلى قدراته وعلى صفاته الحسنى... فلوحدها كافية ولا تحتاج حتى يؤكّد سبحانه على صحّة أي شيء مما يقوله عن نفسه وعن قراراته فيما سيفعله بنا، فحتما كلامه سبحانه صحيح، ونحن نتعرّف على أن كلامه تعالى صحيح مما نراه من أفعاله سبحانه، فهي تدل على إله سبّوح، فهو إله لا سيئات ولا عيوب ولا نواقص فيه، فكلامه حتما صحيح.

نتذكّر أن القدماء غير المتدينين بدينه تعالى، كانوا يعتبرون النجوم مسؤولة عن حصول الفصول، والحديث عن مواقع النجوم هنا يشير ضمنًا لما كانوا يؤمنون به من الأنواء، وحتى إلى الآن لا يزال الكثيرون يؤمنون بتأثير النجوم والكواكب على مزاجنا وأنها مسبّبة لأمور أو فيها دلالة على أحداث ستقع كنبوءة عن الغيب... وبنفس أساس عقلية من يؤمن بأن النجوم بقدرتها الذاتية مسببة لنزول الماء وينفون أي علاقة له تعالى بنزول الماء، والمطر شيء أساسي جِدًّا في حياتنا، لمياه الشرب والاستحمام والتنظيف وري المزروعات وشرب الأنعام وتنقية الأجواء من الغبار... فمواقع النجوم التي تتغيّر أماكنها بالنسبة لنا بسبب حركة الأرض حول الشمس، وبسبب حركة النجوم... فقد راقبها الناس وربطوها بتغيّر فصول السنة، والذين في الجهة الشمالية من الأرض اشتهر بينهم اعتماد ثمانية وعشرين نجمًا: السماك الرامح الثريا... فكلما نزل أحد تلك النجوم تحت الأفق لجهة المغرب عند الفجر، وطلع نجم آخر أول الليل من جهة الشرق، اعتبروه نوءًا جديدًا، وبداية لمرحلة مرتبطة بأنواء "بطقس" الأرض... وهذا التقسيم صحيح للفصول ولكن

غير الصحيح هو نسبة تغير الطقس للنجم! فلا يوجد علاقة مباشرة بين موقع النجم والطقس، فلا علاقة سببية للنجم بالطقس، فهل تمزيقي لأوراق الرزنامة يوميًا هو السبب في تغيّر الأيام وحصول الأشهر والفصول؟ فالنجم مؤشّر على مكان الأرض بالنسبة للشمس، واقتراب أحد قطبي الأرض من الشمس بالميلان وابتعاد الآخر، هو السبب المباشر لتغيّر الفصول من شتاء وربيع وصيف وخريف.

وسترى في الآيات التالية أن الناس تكذب وتقول أن المطر وما يستتبعه من الرزق "شرب وري النبات وسقي المواشي..." فهو من النجوم وليس من الله عزّ وجلّ، وهنا قدّمت السورة لفت الانتباه لمواقع النجوم لتعتبره منظرًا ضخمًا من صنعه تعالى، ولتؤكّد بهذا المنظر الضخم صحّة كلام قائل هذا القرآن.

(وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ{76})
{وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ}، التأكيد بمواقع النجوم {لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ}، هو تأكيد ضخم هائل لو تعلمون، فلو كنتم تعلمون معنى هذا التأكيد، وفهمتموه، لعلمتم أنه قسم عظيم وليس شيئًا عاديًا.

أقل ما تعرفه عن النجوم أنها نقاط بيضاء كثيرة جدًّا لها مواقع في السماء، ولا تطالها بيدك، وعينك لا ترى منها إلا نقطة، وهي رائعة، وأنت لا علاقة لك بها، وما نعلمه الآن عن النجوم بأحجامها وأنواعها يجعلنا نندهش، ولكننا لسنا بحاجة لنراها بالتلسكوبات حتى نندهش، فما نراه بأعيننا يكفينا لنرتعب من الضخامة الهائلة للسماء التي فيها نقاط لا نطالها ولا علاقة لنا بتوزّع أماكنها، فمن خلقها وجعلها هناك؟

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ{77})
{إِنَّهُ}، هذا الكلام الذي تقرءونه أو تسمعونه، {لَقُرْآنٌ}، هو شيء يمكن قراءته، وهو، {كَرِيمٌ}، لهذا القرآن مكانة وقيمة عالية.

مَنْ وضع النجوم في مواقعها أنزل "كما ستقرأ بعد ثلاث آيات" هذا القرآن الذي له مكانة وقيمة عالية، وليس كتاباً عادياً أو محتوياته عادية حتى تستخفّوا به.

كما تعلم كلمة قرآن تعني: الشيء القابل للقراءة، في الكتاب الرئيسي الذي في السماء، لم تكن المعلومات قابلة لأن نقرأها نحن البشر، ويمكن للملائكة(ع) العالية أن تقرأها، وبأمر منه تعالى تحوّل قسم من الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية، ونقلته الملائكة(ع) لِتُنَزِّلَهُ على النبي محمد(ع)، وهكذا صار قابلاً للقراءة أي صار قرآناً، تذكّر دائماً أنَّ الآية الواحدة وصفها قرآن، والسورة وصفها قرآن، وكل السور مع بعضها وصفها قرآن.

لاحظ وانتبه جيداً، فما سبق من كلام السورة كان موجهاً لأناس لا يؤمنون بعودتنا إلى الحياة لمحاسبتنا ومجازاتنا، وهذا الإنكار له تفرعات متعلقة به، حيث تحدثت السورة عن لفت الانتباه لما نفقد السيطرة عليه مما له علاقة مباشرة بنا، ولفتت انتباهنا لخلقتنا ولمائنا ولزرعنا وللنار... وكلام آخر...

ماذا لو اقتنعنا بهذا الكلام لأننا ضعفاء فكرياً أمامه؟ ولنشبّه الحالة بحالة المحامي الماهر الذي يتلاعب بالكلام والمشهد ليجعل المجرم يبدو بريئاً، بعكس ذلك تماما ترى أنه سبحانه يتحدث معنا بشفافية في كل المواضيع، حيث نَوَّعَ لنا مواضيع لفت الانتباه... وَنَوَّعَ لنا الزوايا التي يتناولها... وَنَوَّعَ لنا صيغ الكلام وطريقته...

هنا ترى أنه سبحانه تَقَصَّدَ خلق السماء مليئة بالنجوم، وبمجرد نظرنا إليها، وبدون أي كلام، سنرى بسهولة عظمته سبحانه، وتقول الآية هنا أنَّ سهولة رؤية عظمته تعالى من مواقع النجوم هي نفسها سهولة معرفة أن الكلام القرآني حقّ ومن مصدر غير بشري، فهو مصدر إلهي وموثوق.

(فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ{78})
القرآن كما قال هو عن نفسه بأنه جزء من كتاب أكبر منه، فهو من كتاب رئيسي في السماء العالية، ويوصف بـ {الْكِتَابِ الْمُبِينِ}، {إِمَامٍ مُبِينٍ}، {أُمِّ الْكِتَابِ}... والقرآن في {كِتَابٍ مَكْنُونٍ}، وَالْكَنُّ هو وصف حالة استقرار الشيء

فيما يعيق أو يمنع وصول ما في الخارج إليه، كاللؤلؤة {الْمَكْنُونَةِ} في الصدفة، وهنا الكلام عن كتاب ليس مفتوحاً لِيَطَّلِعَ عليه أي أحد، بل المسموح لهم فقط من الملائكة العالية(ع) كجبريل(ع) يمكنهم الاطّلاع عليه.

هذا الكتاب ليس من ورق، وليس مثل ذاكرة الكمبيوتر، وَأَصْلاً ليست طبيعة مادّة تكوينه من المادّة التي نتكوّن منها نحن. من جانب آخر وهذا الكتاب كما يبدو من مفاهيم القرآن حين يخبرنا عن أفعاله تعالى، يبدو متّصلاً بكل السماوات والأرض بطريقة ما، فليس كتاب أسرار خاصاً به تعالى، بل وصف لشيء ثَبَّتَ فيه تعالى مجريات أحداث الدنيا والآخرة، وبالتالي فيه معلومات عن كلّ ما سيحدث في الدنيا والآخرة، وراجع ما ورد عن الكتاب في دراسة الآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

(لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ{79})
{لَا يَمَسُّهُ}، لا يقترب ويتعاطى مع ذلك الكتاب الرئيسي الذي في السماء العالية، فيرى ما فيه، إلّا {الْمُطَهَّرُونَ}، إلا الخالون من أي شِيَةٍ، وليس فيهم أي شيء سَيِّئٍ يشوبهم، الذين لا سوء فيهم، وهم الملائكة العالية(ع)، وهم مطهرون وليس فيهم أي شيء من الصفات والأعمال والنوايا والأقوال... السيئة، بل كل شيء فيهم طاهر على معنى الصافي النقي.

لاحظ أن الملائكة(ع) هي التي تمسّ ذلك الكتاب، وتعلم أنهم من الأصل ليس فيهم خبث، وهنا كلمة {مُطَهَّرُونَ} لا تقصد أنهم كان فيهم شيء معيب وَجَرَتْ تنقيتهم منه، لا، ومن الخلقة هم مطهرون، ومن أصل تكوينهم طاهرون فلا شيء معيب أو سَيِّئٌ فيهم.

تلاحظ أننا نحن المسلمين نمسّ كتاب القرآن بأيدينا، ويمسّه غير المسلمين أيضاً، ونحن احتراماً وتقديساً لمحتواه درج بيننا الوضوء لِلَمْسِ كلماته... أمّا الآية هنا فتتحدّث عن الكتاب الذي في السماء، ومَسُّ الملائكة(ع) للكتاب هو اطلاعهم على المعلومات التي فيه وليس لمسهم له بيدهم وبجلدهم، وذلك الكتاب فيه كلّ شيء سيحصل، ولا قدرة للملائكة(ع) على استيعاب كلّ ما فيه، وَيَمَسُّونَ الكتاب بحسب اختصاصهم وبحسب ما يأمرهم به تعالى، ومن مرّات مسّهم للكتاب هو قيامهم بمهمّة تنزيل قسم منه على النبي محمّد(ع)، وهذا ما تشير له الآية هنا.

أطلت عليك الكلام لأنه في ثقافتنا الدينية تفسير يقطع هذه الآية عن سياقها، على أساس أنَّ هناك أناساً طاهرين وحدهم يمكنهم مسّ هذا القرآن، وبالتالي عملياً هم وحدهم يمكنهم فهمه وتفسيره للآخرين، علماً أنَّ آيتنا هنا لم تقل ذلك.

على أي حال وهذا كلام ضبابي لا نتيجة فعلية منه، ولم نَرَ تفسيراً فيه الرأي الحاسم مبنياً على كلام من يعتبرونهم مقدسين أو طاهرين، بل نرى في الروايات تفاسيرَ مختلفة متخالفة متعارضة متناقضة...

ما الأثر الفعلي من المسّ؟ من الكلام هنا يبدو أنه لنقل معلومات من الكتاب وتنزيلها على الرسول، ومما نعلمه من عموم القرآن عن توظيفه تعالى للملائكة بمختلف المهام، نفترض أيضاً أنهم يطلعون على الكتاب لتنفيذ أوامره تعالى.

(تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{80})
{تَنْزِيلٌ}، من ذلك {الْكِتَابِ الْمَكْنُونِ} الذي {لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ} إلى النبي محمّد(ع) عبر الملاك جبريل(ع) ومساعديه كما نفهم من الآية 4 من سورة القدر {تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ}، من {رَبِّ الْعَالَمِينَ}، من المسؤول عن كل الناس من مستوى إلهي. وَوَرَدَ صراحة ذكر الملاك جبريل(ع) كواسطة لتنزيل هذا القرآن على النبي(ع) في الآية 97 من سورة البقرة {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ...}.

بالعودة لسياق السورة فهذا هو القرآن الذي نسمعه ونقرأه، وبالتالي المعلومات التي فيه عن إعادة إحيائنا من الموت، مصدرها من ربّ العالمين.

بالنسبة لما تجده في بعض الكتب عن الفرق بين كلمتي نزل وتنزيل، كلاهما وصف لعموم الانتقال من علو "مادياً أو معنوياً" إلى مكان منخفض مادياً أو معنوياً. ومعنوياً نقول: نزلت رتبته العسكرية. وكلتا الكلمتين "نزل وتنزيل" تتحملان معنى النزول دفعة واحدة أو على دفعات، ويتحدّد ذلك مما تتكلّم عنه، وتتحملان النظر للفاعل وحده، أو للمفعول وحده، أو للحالة. ولا فرق بالمعنى بين الأصل "نزل" وبين الاشتقاق "تنزّل تنزيل نزول..."، خصوصاً فيما يقولونه عن الفرق بينهما في نزول القرآن دفعة واحدة أو بالتدريج على دفعات.

ما تجده هنا وهناك في ثقافتنا عن نزول القرآن كلّه من السماء السابعة إلى السماء الرابعة... ومن الرابعة جرى تنزيل القرآن "ونزل" على دفعات على الرسول(ص)، وبهذا التفصيل "وأشباهه" يقصدون تفسير كلمتي نزل وتنزيل بتوصيف مختلف للفعل، وهذا تفصيل لا ضرورة له وَأَصْلاً لا دليل قرآني عليه، ويمكن فهم نزول القرآن تدريجياً على دفعات وفهم نزوله كلّه كوجهين لعملة واحدة، وَبَعْضُهُ نزل "تنزّل" في ليلة القدر، ثم نزل "تنزّل" بعضه في زمن بعدها... وبالنظر للقرآن كلّه جَرَى تنزيله "نزوله" على دفعات استمرت لقرابة العشرين سنة حتى وفاة الرسول(ص).

يبدو أن الفهم الضبابي لكلمة "قرآن وكتاب" دفع بالكثيرين للبحث عن فرق بين التنزيل والإنزال بالمعاني التي ذكروها، حيث فهموا أن كلمة قرآن تشير لكل ما بين الدفتين، لكل القرآن من أوله لآخره، وفهموا كلمة كتاب كذلك أنها تشير لكل القرآن من أوّله لآخره، وبناء عليه أرادوا تبرير الآيات التي تذكر نزول "كتاب القرآن" على أساس أنها تشير لنزول كتاب القرآن كلّه من أوّله لآخره دفعة واحدة، ومن المعلوم أنه كلّه لم يكن نازلاً على الرسول(ص) حين جاءت الآيات التي تقول إنَّ القرآن نزل...

بناءً على فهمهم هذا، بدأت تبزغ الآراء المختلفة لتبرير الموضوع، وَقَالَ بعضهم إِنَّهُ كلّه من أوّل مرّة نزل على الرسول(ع)... وبعدها عاد ونزل عليه (ع) على دفعات. وآخرون قالوا: لم ينزل أولاً كلّه على الرسول(ع) وإنما نزل كلّه من السماء السابعة إلى الرابعة، ومن هناك صار ينزل على دفعات على الرسول(ع)... وغيرها من التبريرات التي لا داعي لها، فالآية الواحدة قرآن، والسورة قرآن، وَالسُّورَتَانِ قرآن... وكلمة قرآن وصف إمكانية قراءتنا لما نزل منه تعالى، وَأَيُّ تعبير يشير لنزول أو تنزيل "القرآن" فهو لا يعني أكثر من نزول شيء يمكن قراءته، ولا داعي لنفهم أنَّ التعبير يشير إلى نزول كلّ القرآن.

كلمة كتاب تشير لعموم أي موضوع تامّ، والسورة الواحدة كتاب، والفقرة أو الآية الواحدة من السورة إن كانت تامّة الموضوع فهي كتاب، وكلّ القرآن كتاب، وهكذا وعندما تجد آية تتحدّث عن نزول القرآن أو نزول الكتاب فهي ليست بالضرورة تشير إلى نزوله كلّه، فلو نزلت آية فهي قرآن، ولو نزلت آية موضوعها تامّ فهي نزول لكتاب...

(أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ{81})

{أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ}، هل بهذا الكلام الذي قلناه لكم عبر هذا القرآن النازل من ربّ العالمين، عن تحكّمه تعالى وسيطرته على كلّ شيء، {أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ}؟ تعتبرون فيه إمكانية المسايرة وكأنه شيء يتحمّل الملاينة، "تدوير الزوايا"، وتتلاعبون به ليصير التعامل معه أسهل على مزاجكم وخاطركم.

من تكملة الجملة سترى أنها إشارة لكل ما سبق من لفت انتباههم لتصميمه وخلقته تعالى لهم، ولما يزرعون ويشربون... وللآخرة وهذا القرآن الذي يخبرهم عنها... فهل هذه أمور للمداهنة ولا تتعاملون معها بصرامة وجدّيّة وتظنون أنها يمكن الملاينة فيها... وَتُكْمِلُوا حياتكم بالطريقة التي يقول القرآن عنها أنها ستوصلكم إلى جهنّم، ورغم ذلك تداهنون، وَبِطَرِيقَةٍ أو بأخرى تليّنون هذا التهديد الشديد، ليصير عادياً مقبولاً وكأنه لن يحصل؟

أول كلمة في السورة تحدّثت عن الواقعة، عن شيء سيقع، فما نفع التكذيب بها؟ ما نفع المداهنة على أساس أنها قد لا تحصل، أو لا تكون عنيفة، أو تتغيّر القرارات الإلهية التي نسمعها الآن... وهكذا نفهم الكلام السابق عن قسمه تعالى بمواقع النجوم كمثال عن قدراته الفائقة سبحانه والدالّة على صحّة كلامه في القرآن، فما معنى المداهنة لكلام القرآن عن الآخرة؟

(وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ{82})

{وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ}، وتجعلون الأشياء التي أتاحها تعالى لكم لتسدّوا حاجاتكم بها، لتأكلوها لتشربوها... {أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}؟ وَوَضَعْتُمُ التكذيب بنعمته تعالى بدلاً من شكره تعالى عليها؟ لَفَتَ القرآن بحديثه انتباهكم لخلقتكم وما حولكم من رزق ومتاع، فلم تصدّقوا أنه من الإله تعالى! وبدل أن تؤمنوا به سبحانه وتشكروه على ما رزقكم، بَدَلَ ذلك كذّبتم وقلتم إنَّ أنواء النجوم هي التي تنزل الماء! أو الطبيعة الخلّاقة أو الصدفة خلقت ما في الدنيا أو...

لاحظ أنه هو نفس الكلام في عمقه موجّه لمن قال إنَّ المطر ليس من تصميمه تعالى، بل من الطبيعة، وأساسه من الصدفة التي خلقت الطبيعة بهذا الشكل... وأساسه من قوانين الفيزياء... فكيفما اختلفت تعابير المكذبين فالردّ واحد: بما أتاحه تعالى لكم تكذّبون؟

(فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ{83})
تدهنون بالآخرة، وتكذبون برزقكم!

{فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ}، إلى ما قبل حلقكم بقليل، إلى آخر مجرى الهواء، ومن تكملة الآيات تعلم أنَّ الإشارة لإنسان أمامك وأنت تنظر إليه، فإذا وصل نَفَسُهُ إلى آخر مجرى الهواء، صَارَ الإنسان على آخر نَفَسٍ قبل أن يموت.

ومن تكملة الآيات سترى أنها ستذكر كلمة "لولا" مرتين وَشَيْئاً بعده، وسترى أنها تشير لنهاية تكذيبهم حين يصيرون في حالة الموت التي لا تحكّم لهم بها، فلولا يمكنكم إرجاع الحياة للميّت إن لم تكونوا تحت قدرة إلهية حكمت عليكم بالموت... وحين يموت فماذا يمكنكم أن تفعلوا وَصَارَ في مرحلة انتظار الآخرة حيث ستقع الواقعة...

تذكّر دائماً أنَّ عموم كلام القرآن عن نماذج، وهنا تعرض الآيات نموذجاً لشخص تراه يموت أمامك، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أنه ليس كل إنسان سيمرّ بالحالة التي تَذْكُرُهَا الآيات هنا، بَعْضُهُمْ يموت غرقاً وآخر حرقاً وغيره يموت ولا أحد بقربه... ولكنها اختارت نَمُوذَجَ الذي يموت بين يديك ولا يمكنك فعل أي شيء له...

(وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ{84})
{وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ}، حين وصول آخر نَفَسٍ إلى حلقومه وبعدها سيموت، {تَنْظُرُونَ}، توجّهون اهتمامكم العام، فأمام نظركم ترون إنساناً يموت.

كَمَا تلاحظ الآية لا تقصد أَنَّ كل شخص سيمرّ قبل موته في حالة بلوغ نفسه للحلقوم وهناك حوله أناس ينظرون، بل اختارت الآية هذا النموذج لتسألنا عنه، فهل يمكن للذي وصل آخر نفس إلى حلقومه أن يفعل أي شيء ليبقى حَيّاً؟ أو هل يمكنكم أنتم أن توقفوا موته؟

ضع في بالك دائماً أنَّ القرآن افترض بك العقلانية حين تقرأه، هُنَا يمكنك القول إنَّ بعض الناس نجري لهم عملية إنعاش ويعيشون بعدها لفترة طويلة، ولكن الكلام هنا نموذج ومثال لتفهم منه حالة فقدان من يموت لِأَيِّ قدرة على إنقاذ نفسه، والذين حوله يرونه لا يريد الموت ولا حلّ بيده ولا بيدهم، لِنَقُلْ إِنَّهُمْ أنقذوه أول مرة بالإنعاش، ومرة ثانية بتبديل القلب... لَكِنْ في النهاية نصل إلى حيث لا علاج وللموت الحتمي ونحن ننظر له ينازع الموت.

تذكّر ما سبق وفهمناه من الآية 64 عن زراعتك وفشلها، أَنْتَ وَاعٍ ومُفَكِّرٌ وفَاعِلٌ، زرعت، ولسبب أو لآخر لم تنجح زراعتك، مما يعني أَنَّ البيئة التي أنت فيها لها مصمّم خالق لم يجعل الأمور تمشي كما تريد أنت، وَكُفْرُكَ بالإله معناه إيمانك بنفسك كمفكّرٍ وَاعٍ وفَاعِلٍ تَصْدُرُ عنه أفعال الزراعة وتورية النار... وترفض الإيمان بمن خلقك وخلق بيئتك وتصميمه واضح بجعل سيطرتك محدودة بينما له سيطرة واضحة عليك وعلى بيئتك.

هُنَا نفس الكلام عن نموذج شخص يموت أمامك، ولا يقدر على فعل أي شيء ليردّ الموت عن نفسه، ولا أنت قادر على إبقائه حَيّاً، فلو أنعشته الآن، ففي النهاية مصير كل ذي جسد الفناء، ألا يريك ذلك وَاعِياً حَيّاً فَاعِلاً قرّر حصول ذلك؟

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ{85})
أنتم تنظرون ولكن:

{وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ}، سبحانه أقرب إلى الشخص الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة، {مِنْكُمْ}، أَنْتُمْ بقربه وتنظرون إليه بأعينكم ولكنه سبحانه أقرب منكم، {وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ}، فلا يدرك وعيكم معنى الصورة التي أمامكم، وَقُدْرَتُكُمْ على الرؤية محدودة جداً جداً ولا يمكنكم أن تروا كم هو سبحانه قريب من هذا الذي أمامكم يموت.

كَمَا تعلم سبحانه وتعالى قريب من كلّ مخلوقاته، ولكن الحديث هنا مع أشخاص ينكرون الحياة بعد الموت وينظرون لشخص يموت أمامهم، وَتُخْبِرُهُمُ الآية أَنَّهُمْ لا يبصرون الذي منحه الحياة والآن يتوفّاه.

(فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ{86})
المدين هو الذي يقع تحت تبعات، أَنَا مدين لك بالمال، وَيَجِبُ أن أدفع لك مَالاً هو لك وأنا أخذته منك، أو أنت عملت لدي وتستحقّ الأجرة وَأَنَا مدين لك بدفع أجرتك... وأنا مدين لك بالطاعة لأنك المسؤول عني أو لأنك أبي... ونحن تحت تبعات كوننا عَبِيداً للإله، لِذَلِكَ ندين له تعالى.

في مسألة الموت نحن واقعون تحت تبعات كوننا مخلوقين بحيث نموت، {فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ}، لَوْ كنتم لا تدينون لإله فوقكم وقدرته فوق قدرتكم، فإن لم يكن عليكم تبعات كونكم مخلوقين محكومين، لَكَانَ لكم قدرة مطلقة غير محكومة بقدرة إلهية فوقها.

(تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{87})
لَوْ لم تكونوا تحت قدرة فوقكم لكنتم:

{تَرْجِعُونَهَا}، تلك النفس التي بلغت الحلقوم فتجعلونها ترجع، {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، بأنكم لستم مدينين، بأنه لا يوجد قدرة فوقكم حكمت عليكم بما يحدث معكم حين صمّمتكم وخلقتكم.

أنتم تقولون إنه لا يوجد قدرة إلهية فوقكم، فمن الذي حكم عليكم بالموت؟! ولماذا لا يمكنكم منع حصول الموت؟!

بعبارة أخرى، الذين يرون أنه لا يوجد إله فوقهم، ويكذّبون الكلام عن إرجاع الإله لنا إلى الحياة من الموت، ويقولون إنَّ الكلام عن الجنّة والنار غير صحيح... أنتم الآن في الدنيا في خلقتكم في زرعكم وشربكم وناركم... ألستم تحت قدرة فوق قدرتكم؟! أليس فوقكم قدرة حاكمة عليكم؟

من الواضح جداً جداً أَنَّ موتكم لا يمكنكم تجنّبه، أفلا يدلّ هذا على قدرة فوقكم أخذت قراراً بموتكم؟ إن لم تكونوا تحت من أخذ القرار بموتكم، وأنتم الكائن الوحيد في بيئتكم بوعي وفكر وقدرات، فهل يمكنكم منع حصول الموت لكم أو للآخرين؟ قد تُنْقِذُونَهُ مرّة أو مرتين... ولكن في النهاية عندما يتهالك الجسد فهل يمكنكم منع الموت؟

لاحظ السورة بدأت بذكر أمور أساسية في حياتنا وهي خارجة عن سيطرتنا، طعامنا وشرابنا... وقبلها بدأت بتكويننا من المني وهذا أيضاً خارج عن سيطرتنا... وختمت بانتهاء حياتنا! وهو أمر خارج عن سيطرتنا.

بالنسبة للدواء والعمليات الجراحية واستبدال الأعضاء وزرع الأعضاء والأطراف الصناعية... فهي أعمال وإنجازات رائعة تحسّن الحياة وتمدّ العمر ولكنها في النهاية، لا تمنع حصول الموت.

تكرّر في دراسة هذه السورة الكلام عن الطريقة التي صمّمنا بها تعالى حتى يسهل تعرّفنا عليه، وَتَوَسَّعْنَا في ذلك في دراسة الآية 70 من هذه السورة، وهنا ترى أَنَّ موت إنسان أمامنا وشعورنا بالعجز عَنْ إنقاذه من الموت، هي من الدوافع التي يقول سبحانه وبصراحة أَنَّهُ جعلها فينا لنتعرّف عليه، فما يقولونه عن الإنسان البدائي الخائف من الموت، وأنه بسبب ذلك اخترع إِلَهاً للموت، واخترع عَالَماً لما بعد الموت... هو كلام في جانب منه صحيح، وها يقول القرآن لك الجانب الصحيح منه، فكيف سنتعرّف عليه سبحانه إن لم يكن هناك دوافع للتعرّف؟

دافع الشعور بالعجز عَنِ السيطرة على كثير من الأمور الأساسية في حياتنا، ناتج عن تصميمه تعالى لنا بهذا الشكل حتى نتعرّف على إلهنا، والمشكلة ليست هنا، بل في المشركين الذين تفاعلوا مع ما زرعه تعالى فيهم ليتعرّفوا عليه ولكن بدلاً من ذلك وبفساد قلوبهم اخترعوا آلِهَةً تاركين توحيد الإله الحقيقي الأحد... والمشكلة في الملحدين "المنكرين

لأي إله" الذين لا يختلفون عن الإنسان البدائي في شعورهم بالعجز في كثير من تفاصيل حياتهم، ولكنهم بدلاً من التماشي مع هذه المشاعر الدالّة على إلههم، أنكروها! ورفضوها، ويمرّنون أنفسهم على الكفر بها وتبرير شعورهم بها بالتعرّف على الآليات المؤديّة إلى نشوء هذه المشاعر فينا! على أساس وراثتها بالجينات من أسلافنا الإنسان البدائي...

ما معنى كفرهم بعد التعرّف على الآليات الفيزيولوجية والكيميائية لنشوء المشاعر والأفكار! هذه هي الآلية التي صمّمنا "التعبير القرآني: سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" سبحانه بها لنتعرّف عليه، وها يخبركم تعالى عن ذلك في قرآنه.

نسأل أولئك المتبجّحين بذكائهم وأبحاثهم واكتشافاتهم: هل تتكرّمون علينا وتفترضون إِلَهاً خَالِقاً لنا، وتخبرونا كيف سيصمّمنا لنتعرّف عليه بسهولة؟ ها ترون في صريح كلامه تعالى أَنَّ ما ظننتم أنكم مُكْتَشِفُوهُ كسبب لاختراع الإنسان للإله والدين والحياة بعد الموت... هو نفسه ما يقول عنه إلهكم أَنَّهُ جعله فيكم لتتعرّفوا عليه، فتذاكوا واكفروا وألحدوا... وتبجّحوا بعلومكم واكتشافاتكم وتطوّركم لدرجة زراعة قلب وكلية وكبد وعين... ففي المستقبل قد نتمكّن من إعادة الحياة لميّت، وَفَعَلَهَا النبي عيسى(ع) من قبل بآلية خاصّة قد تكون قابلة لاكتشافها أو الاقتراب منها ومحاكاتها بآلية نقدر على فعلها، فنحيي الموتى الذين ماتوا قبل آلاف من السنين، فهل سيكون هذا شَيْئاً رَائِعاً يجعلنا نؤمن بسهولة بكلامه تعالى عن إعادة خلقنا في الآخرة، أم سيجعلنا نكفر أكثر لأننا اكتشفنا كيف نعيد الأموات ولم يعد موضوع إعادتهم حِكْراً على الإله؟

(فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ{88})
{فَأَمَّا إِنْ كَانَ}، الذي بلغت نفسه الحلقوم ومات، {مِنَ الْمُقَرَّبِينَ}، من ربنا سبحانه، والمقصود أنه كان من المؤمنين من الدرجة العالية، وَعَمَلِيّاً من القائمين بالأعمال الحسنة ومن التاركين للأعمال السيئة، فهذا سيكون أقرب إلى رحمته تعالى وأبعد عن غضبه، وَسَتَكُونُ له قيمة معنوية عالية عنده تعالى.

(فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ{89})
نَتِيجَتُهُ كمقرّب، فله من ربّنا تعالى، {فَرَوْحٌ} "فتحة على الراء" وهي الراحة التامة، الفرج من الهموم والمشاكل، وله، {وَرَيْحَانٌ}، عموم الروائح العطرة المحبوبة، وهنا في الدنيا بِحَسَبِ كلّ منطقة تشتهر عند العرب نبتة باسم الريحان لِأَنَّ رائحة طيّبة تفوح منها، وهنا الآية تقصد أَنَّ له في الآخرة الروائح الطيبة، وقبل ذلك قالت إِنَّ له رَوْحاً فلن يشعر ولا بأي نوع من الهموم، وله أيضاً، {وَجَنَّةُ}، مكان موصوف بروعة ما فيه، فيه حدائق وبساتين وكلّ أسباب السعادة، والجنّة توصف بأنها، {نَعِيمٍ}، فكل ما فيها يوصف بأنه نِعْمَ ما هو، فهو جيد جداً، ورائع.

ولا داعي لتقسيم الآية إلى أمور سينالها في عالم البرزخ وبعدها في جنّة الآخرة، أو تقسيمها لما سيناله من يوم القيامة إلى حين دخوله الجنّة، عَامَّةُ لغات البشر لديها تعابير متشابكة، فنقول: لك منّي غداء مشاوي على الفحم ومكان رائع. وكل هذا في نفس الوقت، فهنا في الآية تقول عن المؤمن إِنَّ له راحة وروائح طيبة ومكان رائع.

(وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ{90})
أَمَّا إن كان، الميّتُ، من أصحاب اليمين، ومن سياق الكلام وافتتاحية السورة تعلم أنها تشير لكونه من المؤمنين من الدرجة الثانية، فهؤلاء مع بعضهم في الآخرة وأمورهم مسهّلة وميسّرة ولكنهم ليسوا من أقرب المقربين منه تعالى.

(فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ{91})
{فَسَلَامٌ لَّكَ}، تعبير عن الخلو من أي شيء سَيِّئٍ لك أيها النبي(ع)، {مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ}. وهم يعتبرون لك قيمة عالية ويهمهم التعبير لك عن ذلك عبر السلام عليك.

(وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ{92})
{وَأَمَّا إِنْ كَانَ}، الميت، {مِنَ الْمُكَذِّبِينَ}، من الذين وصفوا ما يقوله القرآن بأنه كذب فلم يصدّقوا بالآخرة وبالتالي لم يعملوا لها، وكان الميّت من، {الضَّالِّينَ}، من الذين ليسوا على الطريق الصحيح، وَمَمْشَاهُ وسلوكه كان مُخَالِفاً لطريق الهدى.

(فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ{93})
{فَنُزُلٌ}، مَكَانُ حَطِّ رحاله من بعد رحلته، حيث ينزل في الآخرة من بعد قدومه من الدنيا فله مكان يوصف بأنه، {مِنْ حَمِيمٍ}، من أرضية وحيطان مائعة غَالِيَةٍ من شدة الحرارة.

(وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ{94})
{وَتَصْلِيَةُ}، تَوَجُّهٌ إلى، وَوُقُوفٌ أمام، {جَحِيمٍ}، أمام شيء ضخم في سوئه، فِيهِ نار ضخمة متأججة وفيه الضرب والإهانات...

مِنْ دراسة أشعار العرب قديماً قبل الإسلام وجدت فرقاً بسيطاً بين كلمتي جحيم وجهنّم، فَجَهَنَّمُ باستعمال القرآن هي اسم مكان مشتق من الوصف بجهنم الذي يشير لسوء الحالة أو المكان، واستعمال هذا الوصف لمكان تعذيب في الآخرة، هُوَ وصف للأنواع المختلفة المسببة للعذاب مما في المكان، فِيهِ النار المحرقة وفيه الضرب وفيه طعام كريه ورائحة كريهة... وتفهم ذلك من فحوى الآية 49 من سورة غافر {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ...}. وفي بيتين من الشعر قبل الإسلام وجدت إشارة بكلمة جحيم لضخامة النار، ويناسبها ذلك في القرآن كما ورد في الآية 97 من سورة الصافات {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ}، فَالْجَحِيمُ وصف الضخامة في السوء.

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ{95})
إنَّ هذا الذي ذكرته السورة عن جنة النعيم للسابقين، وجنة أصحاب اليمين، وجهنم للكافرين:

{إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ}، وَالْيَقِينُ هو أعلى درجة التأكّد مع مطابقته للواقع، وهذا الذي قالته السورة حَقٌّ صواب سيقع حَتْماً بالتأكيد.

كلمة يقين بحسب استعمال العرب لها وبحسب استعمال القرآن تعني: معلومة مطابقة للواقع. وكمثال: عندي معلومة بأن الخبز في المطبخ. وَوَاقِعاً في الحقيقة كان الخبز هناك، فهذه معلومة يقينية لأنها مطابقة للواقع. أمّا لو كنت لسبب أو لآخر مُتَأَكِّداً بأن الخبز في المطبخ، وعندي براهين على ذلك، وفي الحقيقة والواقع لم يكن الخبز في المطبخ، فحالتي لا توصف باليقين لأنها لم تتطابق مع الواقع، وبهذا المعنى حصرياً استعمل القرآن كلمة يقين، فهي معلومة مطابقة للواقع، وأمّا درجة تأكدي من معلومة ما، فلا يُوصَفُ ذَلِكَ باليقين إلا إذا طَابَقَتِ الواقع.

هناك درجات متفاوتة من اليقين، مثل الفرق بين رؤيتك لصحن طعام عن بعد مترين، وكل الإشارات تدل على أنه صحن طعام وليس قِطَعاً بلاستيكية على شكل طعام، فهذا يقين، ولكن إذا حملت الصحن بيدك ولا زلت ترى أنه صحن طعام، فهذا يقين أكثر، وإذا أكلت من الصحن وتذوّقت الطعام وأحسست به ونزل في معدتك، فهذه أعلى درجة يمكن أن تتيقن بها أنه صحن طعام بعد أن يَسْكُتَ جوعك وتغذّى جسدك، فهذا حقّ اليقين، وَهَذَا علم مطابق تماماً للواقع.

تذكّر أن السورة كانت تخبرنا عن الذين لا يصدّقون بأننا سنرجع إلى الحياة، وكان تركيز كلامها عن فقداننا كُلِّنَا للسيطرة على أنفسنا وخلقتنا وموتنا ورزقنا وزرعنا ومائنا... وَمِنِ افتتاحية السورة وختامها عن مصيرنا في الجنّة والنار، وما بينهما من فقداننا للسيطرة على التحكّم بما نحن فيه من خلقة وبيئة، نَصِلُ إِلَى نهاية الكلام: إن هذا لهو حقّ اليقين، فهذا هو المطابق للواقع، وهذا ما سيحصل حَتْماً بالتأكيد، سواء صدّقتم به أم كذّبتم.

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ{96})
{فَسَبِّحْ}، أيها الرسول(ع) "وأيها المؤمن" نَزِّهْ، فلا تنسب صفات غير لائقة وتحت المستوى، سَبِّحْ، {بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}، فَرَبُّكَ هُوَ المسؤول عنك من مستوى إلهي، عَظِيمٌ ليس عادياً في أي شيء بل فائق بالصفات العالية.

مَا يقوله ربّك سبحانه عن الجنّة والنار، سيحصل حَتْماً وبالتأكيد، فَرَبُّكَ لَيْسَ ضَعِيفاً، ولا عَاجِزاً عن فعل ذلك، ولا يخطر ببالكم أنه سيغيّر قراره، أو سيتمكّن أحد ما من تفشيل مخطّطه سبحانه... وَمِثْلَمَا أنتم مخلوقون في بيئة تحت سيطرته تعالى، فهو سبحانه يخبركم عن بيئة ستنتقلون إليها في الآخرة حَتْماً يَقِيناً.

سورة الحديد (57) ص 537
محور كلام السورة مع الذين آمنوا عن وجوب إنفاقهم في سبيله تعالى على أساس أن الإنفاق من أساسيات الإيمان، ومؤشّر للإيمان الكامل الصحيح وعليه عقاب وثواب.

لم تتحدث السورة عن كيفية الإنفاق وَمِمَّا ذَا، ولا عن تقسيمه حِصَصاً على الفقراء والجهاد والعمران العام وغيره، ولم تتحدّث عن المقدار والكمية المفروض على المسلم دفعها، مما يجعل سورتنا هذه تعالج أساس الأمر بالإنفاق حَصْراً. وبالنسبة للتفاصيل عن الإنفاق رَاجِعِ الأساسيات في الآية 215 والآية 219 من سورة البقرة، والآية 60 من سورة التوبة. وأسمّيها أساسيات لأن عموم كلام القرآن في التشريعات عن الأساسيات تَارِكاً هامش مرونة وَاسِعاً نَتَحَرَّكُ فيه للتطبيقات التي تناسب مختلف الأزمنة والأمكنة، ونستفيد من تطبيقات الرسول(ع) كنموذج ناسب زمانه ومكانه...

تبدأ السورة بمقدمة عن صفاته تعالى التي لها علاقة بأمر الإنفاق، لنفهم أنه تعالى لا حاجة له بأي شيء، وملكيته سبحانه لكل شيء وعلمه بكل شيء... ثم يأمر بالإنفاق، الذي نحتاجه نحن لسعادة ورفاهية مجتمعاتنا وَجَعَلَهُ تعالى جُزْءاً أَسَاسِيّاً من الإيمان، وعليه ثواب وعقاب.

نَزَلَتِ السورة بعد شيء سمّته بالفتح، وأهم فتحين مرّا على تاريخ النبي محمّد (ع) كانا فتح الحديبية الذي ركّزت عليه سورة الفتح، وفتح مكّة، والأرجح أن سورتنا هنا تشير لفتح مكّة الذي من بعده انضم عدد كبير من الناس إلى الإسلام، وحصل نوع من الاستقرار السياسي والأمني في المنطقة المضرية من شبه الجزيرة العربية...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{1})
{سَبَّحَ لِلَّهِ}، قام بتنزيه صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" جلّ جلاله عن الصفات التي دون مستوى الألوهية، كالاحتياج للمساعدة من غيره... أو صفة المزاجية والعبث... أو صفة الظلم وَالْجَوْرِ والكذب... وَاللَّهُ سبوح عن ذلك أي منزّه عن ذلك، وَقَامَ بهذا التنزيه، {مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وهذه هي كلّ دنيا المخلوقات، وهذا التعبير القرآني يرادف التعبير بكل شيء، وَكُلُّ الموجودات سواء كانت في السماوات ولم نرها ولم نعرفها، أو الموجودات التي في الأرض فهي تسبّحه تعالى.

{وَهُوَ الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... وَهُوَ فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره...

{وَهُوَ}، {الْحَكِيمُ}، الذي يرى الصوابية في الأمور ويفعل الحقّ، فلا يعبث ولا يلعب وَقَرَارَاتُهُ وأفعاله كلها متقنة ولا يوجد فيها سوء وهي حقّ.

يَا مَنْ تقرأ القرآن خذ عِلْماً أَنَّ كل بقية الكائنات في كلّ الدنيا تسبّحه تعالى، وإن لم تسبّحه تعالى فأنت شَاذٌّ عن الصواب.

وَرَدَ في عموم القرآن تعابير تفيد بأن كل المخلوقات في كل الدنيا تسبّحه تعالى، كما ورد في الآية 44 من سورة الإسراء {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...}، وطالما الآيات تتوجّه بكلامها مع سامع مكلّف بتنفيذ ما فيها، فهي على معنى: كل الآخرين يسبحون وَبَقِيتَ أنت، فهل ستسبّح؟

والآية هناك في سورة الإسراء قالت بأننا لا نفقه تسبيحهم، {... وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...}، ورغم ذلك ترى الناس يفسّرون معنى تسبيحهم؟! فكيف يفسرونه وهم لا يفقهونه؟! اَلْبَعْضُ يقولون إِنَّ الموجودات تسبّح بوجودها، فَنَفْسُ كونها موجودة ولها كيان فهو تسبيح منها ويدل على تنزيه من خلقها عن الصفات الناقصة، حَسَناً، فَقِهْتَ تسبيحها إذاً؟ فلماذا قالت الآية إِنَّكَ لا تفقه تسبيحها؟

وبعضهم قال إِنَّ سباحة الكواكب هو تسبيحها وزغردة العصافير تسابيح... ووقوف الجبال شامخة تسبيح... وهذا الكلام محض افتراض وغير صحيح، فلا تتعب نفسك في فهم تسبيحهم، لأنك أَصْلاً لن تفهم أن للجبال وللأرض وللقمر

وللسماء... وَعْياً ما، فنحن لا نستطيع التعامل معها بنوعية وعيها لِأَنَّ قُدْرَاتِنَا محدودة، ولكن الإله خالقها يتعامل معها بقدر وعيها، وبطريقة ما وبما يناسب نوعية وعيها تقوم بتسبيحه تعالى.

على أي حال هُنَاكَ بشر لا يسبّحونه تعالى، وهناك شياطين وكفرة الجنّ، وهذا معلوم، فليس كلّ من في السماوات والأرض يسبّحه تعالى، وهذا القرآن وصلنا وفيه تهديد لمن لا يسبّحه تعالى، وَالْآيَةُ هنا تخبرنا أنه يوجد في السماوات والأرض من يسبّحه تعالى، الموصوف بالعزيز الحكيم، فتسبيحهم له صحيح، فكن معهم.

نلاحظ أن التسبيح متضمّن كَامِلاً "تقريبا" في صفتي العزيز الحكيم، أو قُلْ عن هاتين الصفتين أنهما تنفيان عموم أي صفة ناقصة أو معيبة عنه تعالى، فالعزيز من جهة تعني أنه تعالى فوق الجميع والأشياء والحاجات... ويقابلها صفة معيبة ناقصة وهي الذليل الذي تحت غيره أو له أنداد... ويحتاج لغيره وللأشياء... وهذه تعني أنه تعالى لا يوجد معه إِلَهٌ آخر ولا آلهة... ويفعل ما يشاء ولا يفعل ما يشاء غيره... ولا أحد يفرض عليه... ولا يتأثّر بأي شيء... ولو كفرت كلّ مخلوقاته فلن يتغير أي شيء بالنسبة له تعالى لأنه لا يحتاج لتسبيحهم ولا لإيمانهم.... ومن ناحية الحكيم فهو لا يعبث ولا يلهو ولا يظلم ولا يتراجع عن وعوده ولا يغيّر قراراته، ولا يأخذ مَوْقِفاً وَاحِداً نِهَائِيّاً قَاسِياً صُلْباً طالما الطرف الثاني تغيّر، فيغفر سبحانه لمن كفر به إذا استغفر... وهكذا تلاحظ أن أي صفة معيبة أو سلبية لن تتماشى في نفس الوقت مع وصفه تعالى بالعزيز الحكيم.

وبالنسبة لمحور كلام السورة، مِنَ المدى الواسع لتطبيق صفتي العزيز الحكيم، ترى تَطْبِيقاً هنا عن أمره تعالى لنا بالإنفاق، فسبحانه بعزّته لا حاجة له بمالنا، وبحكمته أمرنا بما فيه مصلحة لنا...

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {2})
{لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، هِيَ مَنْسُوبَةٌ بالملكية لصاحب الاسم الله تعالى، وبتعبير مرادف نقول: له تعالى ملك كلّ شيء في الدنيا.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائماً أَنَّ التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...} وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تَقْصِدْ وجود أرض "كوكب" أو أَرَاضٍ "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أَرَاضٍ.

عَادَةً نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير فنستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، فنقول: خلق سبحانه الدنيا. أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيراً صحيحاً دقيقاً بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي توصّف الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم {فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى}. فسبحانه دقيق في تعابيره ويحدّثنا بدقّة عمّا يعلمه، وكلامه تعالى عن السماوات والأرض هو كلام عن علم بما أمامه سبحانه، فسبحانه دائماً يتكلم بشفافية عمّا أمامه فقط، أمّا الكلام عن كلّ ما في الدنيا، فهو كلام عمومي ويشمل "نظرياً" ما هو خارج العلم، ولذلك لم يستعمله تعالى، بينما ترى استعماله في كلام عموم البشر لأننا نتساهل ونتراخى في التعبير.

بالنسبة لمحور كلام السورة عن الإنفاق في سبيله تعالى فِي أوّل آية تدخل منها السورة على محورها، سترى أمره تعالى لنا بالإنفاق مما جعلنا مستخلفين فيه، لَهُ ملك كل شيء وعلى هذا الأساس يأمرنا بالإنفاق مما أتاحه لنا.

ومن تطبيقات "له الملك" فهو تعالى: {يُحْيِي}، فيعطي الحياة فيصير الكائن فَاعِلاً مُنْفَعِلاً وَمُتَفَاعِلاً مع غيره، فيفعل وينفعل ويتأثّر، وسبحانه، {وَيُمِيتُ}، فيأخذ الحياة من الكائن فيتوقّف عن الفعل والانفعال والتفاعل.

مَا تراه من انتشار الحياة في بيئتك وما تراه من الأخذ لها، فهذا فعل يدلّك على من له الملك.

{وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، لَدَيْهِ القدرة على فعل أي شيء يريده بأي شيء، فيمكنه أن يعطي الحياة ويمكنه أن يأخذها ويمكنه أن يعطيها مرّة ثانية.

من أعلى مظاهر تحكّمه تعالى بمخلوقاته هو سيطرته على حياتها وموتها، وَالْقَرَارُ له لأنه يملكهم وهو حرّ التصرّف بهم. وتتذكّر أنه سبّوح، عزيز حكيم، فمنح الحياة وأخذها لن يكون عن عبث...

اَلْحَيَاةُ والموت للمخلوقات من أبرز نماذج ألوهيته وملكه تعالى، فلنتوقّف قَلِيلاً أمام معنى: مانح الحياة، وآخذها. لترى العظمة، ولترى أَنَّ أي كلام تسمعه من الكافرين به تعالى والمنكرين لوجوده والمستبدلين اسمه عزّ وجل بالطبيعة والصدفة وقوانين الفيزياء... لترى سخافتهم أمام تفسير الحياة بمعناها الذي يتضمّن الوعي والفعل والانفعال والتفاعل... الفكر والخيال... المشاعر والعواطف... الانجذاب للجمال والمذاق والأنس...

إنَّ فهمنا العميق "نِسْبِيّاً" ولو بالنظريات لآلية تشكّل الحياة لا يلغي من صمّمها ونفّذها، بل يريك جَانِباً من كيفية فعله تعالى لها، وحتى لو وصلنا إلى مرحلة القدرة على تشكيل الحياة من العناصر من الصفر، وهذا ما حصل "بشكل ما" على يد النبي عيسى(ع) الذي خلق مباشرة من الطين طُيُوراً كما ورد في الآية 49 من سورة آل عمران {...أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ... وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ...}، فهذا لا يعني أي شيء، فلا يعني أننا بقدرات إلهية، ولا يعني إلغاء وجود الإله لأن الحياة يمكن أن تتشكّل من ظروف نحن نصنعها، فهو أَصْلاً سبحانه بدع الدنيا ففطرها من لا شيء، وجعل فيها خصائص ستوصلها إلى إنتاج كائنات حيّة، وهذا ما يخبرنا به سبحانه عندما قال عبر قرآنه أَنَّهُ خلق السماوات والأرض في ستّة أيام وقدّر فيها أقواتها... فهذه مراحل نشأتها، {... وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} كما تقرأ في الآية 7 من سورة السجدة، فهذا الطين كما صمّمه تعالى، ففيه قابلية إنتاج الحياة إن تعرّض للظروف المناسبة، وَقَدْ تعرّض لها لأنه تعالى صمّم السماوات والأرض لتصل إلى تلك المرحلة المناسبة لنشأة الحياة عليها.

مَعْرِفَتِي بأن محرّك السيّارة يحرق النفط وينقل الحركة إلى التروس "فيتاس" ومنه إلى الدواليب... لا يلغي وجود المهندس الذي صمّمها ولا يلغي المصنع الذي صنعها... وَمِنْ عظمته تعالى خلق ما في الدنيا بترابط وتسلسل في أحداثها حتى صارت على ما هي عليه الآن... وستمشي باتجاه مرحلة يحصل فيها تبدّل للسماوات والأرض، فتنتهي الدنيا، وتبدأ الآخرة ويبدأ خروجنا إلى الحياة من جديد... فإنكار ألوهيته تعالى من بعض الْأَكَادِيمِيِّينَ على أساس ما فهمه المؤمنون بِسَذَاجَةٍ من كلامه تعالى على أنه يقول للشيء كن فيكون، فَوْراً، فقال لما في الدنيا كوني فكانت فَوْراً وبدون تسلسل أحداث مترابطة، لاغين ستة أيام تدل على مراحل، أو جاعليها ستة أيام عادية من أيّام الأسبوع! بينما هي مراحل زمنية من الخلق... ويقولون أَنَّهُ تعالى عجن بيديه تِمْثَالاً من الطين ونفخ فيه فصار إِنْسَاناً "آدم(ع)"، لاغين كلامه تعالى عن بداية خلقنا من سلالة من طين. ويقولون بأنه تعالى أخذ من صدر "آدم(ع)" ضِلْعاً "أَعْوَجَ مُلْتَوِياً" صنع منه حواء... متناسين متعامين عن تبرير لوجود بقية الحيوانات... وعلى هذا الفهم الساذج الطفولي للدين الإلهي عليك بتفسير الكثير من كلام المنكرين للألوهية المعلّقين على الدين الإلهي، فهم يعلقون على كلام المنتمين لدينه تعالى، وكما ترى فكلامه تعالى في هذا القرآن صريح ومختلف عن التفسيرات الساذجة التي انطرحت على أنها دينه تعالى.

سأضرب لك مَثَلاً على مقياسنا نحن البشر لترى ماذا سنفعل لو علت قدراتنا، فسنرسل رَجُلاً آلِيّاً إلى كوكب ما، ويكون هذا الآلي قَادِراً على تركيب آليين آخرين من المواد التي على ذاك الكوكب، ويبدؤون بتجهيز بيئة ومنشآت مناسبة لنا نحن البشر، وبعد سنوات نذهب إلى ذاك الكوكب لنجده جَاهِزاً للمعيشة، ففيه الماء والطعام وتسهيلات الحياة الضرورية... وعلى مقياس أصغر "نفترض" جعله تعالى بذرة نشوء ما في الدنيا من شيء فيه ما سينتج عنه السماوات والأرض وُصُولاً إلى تشكّل حياة وبعدها تبدّل للدنيا للانتقال إلى الآخرة.

لاحظ وجه الشبه بين ما نفعله نحن وما يمكن فعله لو علت قدراتنا، فإعداد مصنع بحجم مدينة لإنتاج السيارات سنستغني عنه بطابعة ثلاثية الأبعاد يمكنها طبع مختلف المعادن، وسنستغني عن الطابعة إن استطعنا برمجة خصائص المواد لتتشكّل كسيّارة بأمر برمجي من مستوى ذرّي. وكما ترى فقد صرنا على مستوى تركيبات العناصر الأولية، فلو علت قدراتنا لجعلنا في العناصر خصائص تجعلها تتشكل على المستوى الذري لتنتج سيّارة أو طيارة أو قَارِباً... وهكذا

نُزُولاً في التركيبات الأولية للمادة إلى ما نفترض أنه الطَّاقَةِ، ثمّ إلى ما قبل تلك الطاقة... إلى أن نصل إلى حيث نفترض أننا نحتاج لقدرات فائقة لا يملكها إلا سبحانه وتعالى للتعامل مع المكونات الأساسية التي انخلقت منها الملائكة(ع).

هذا التعمّق في الرجوع إلى جذور الأسباب، لا يعني أنه تعالى هناك ومن هناك يفعل فقط، لا، وألف لا، فمن هناك، من لا شيء، صمّم وخطّط ونفّذ وخلق... سبحانه، ومن بعد ذلك بقي كلّ شيء مُرْتَبِطاً به سبحانه، فَفَرْضاً فَرْضاً لو سَهَا تعالى عن الدنيا للمحة، فكل شيء فَوْراً سيفقد تماسكه، وسينهار وجود كل شيء، وتقرأ ذلك صَرَاحَةً في الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ...}، إلى هذه الدرجة كل السماوات والأرض، كل ما في الدنيا مرتبط به تعالى.

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{3})
هو {الْأَوَّلُ}، لا شيء كان موجوداً قبله تعالى، هو قبل أي شيء، لأن كل الأشياء خلقها هو تعالى ولذلك صارت موجودة. وإذا فكّرت فيها على حجمك وقياس عالمك عندها ستسأل: من أين جاء ومتى جاء الإله؟ ولكن هذا السؤال ينطبق عليك أنت كمخلوق مركّب لك بداية، أمّا الإله جلّ جلاله فلا تنطبق عليه هذه الكلمات، لأنك فيك وفي عالمك تسأل عن سبب وجودك وسبب حصول الحريق وسبب الليل والنهار... ومن كان من الناس قبل الآخرين... أمّا على المستوى الإلهي فهذه الكلمات لا معنى لها، لأن الله تعالى ليس كمثله شيء، ومتفرّد بصفات في طبيعته وهي ليست في غيره، وحتى الملائكة العالية(ع) لا يمكنها فهم طبيعته تعالى... {فَالْأَوَّلُ} هنا تعني أنه تعالى كان وبعده صارت الكائنات حين خلقها فهو الأوّل بالنسبة لها.

وهو، {الْآخِرُ}، ولا شيء بعده، فلن يحصل معه سبحانه شيء لينتهي ليموت ليفنى... ويبقى أحد بعده، هذا إن فرضاً فرضاً حصل معه تعالى شيء ما ففقد حياته، مع أنه مستحيل ولا معنى له أصلاً.

الصفتان معاً "الأول والآخر" مضافاً لهما عموم مفاهيم القرآن فنفهمهما هكذا: الله تعالى خارج محدوديتنا بالزمن، فلا نقول إِنَّهُ صار موجوداً بالأول والبقية أتوا بعده، لا، ولا نقول إِنَّهُ تعالى من زمان قديم جدا جدا هو موجود، لا، فلا بداية لوجوده تعالى لأن طبيعته أصلاً لا يمكن وَصْفُهَا بهذا الكلام، وبالتالي فلا نهاية لوجوده. فهو الأوّل والآخر بالنظر إلى المخلوقات التي خلقها تعالى وصارت موجودة من بعده، ومن قبل أن يخلقها سبحانه لم يكن هناك إلا هو سبحانه وتعالى، وفي هذه المرحلة لا تتصوّر زمناً يمرّ وسبحانه لوحده، فهذا تصوّر لمخلوق وهي ليست حالته تعالى، فلا معنى لمرور الزمن عليه تعالى لتقول إِنَّهُ لوحده في زمن ما وبعد ذلك خلق الكائنات... فهذه تعابير ليست صحيحة.

لَا معنى لوصفه تعالى بالزمن والعمر والوقت، وبشكل عميق ستجد نظريات فلسفية وفيزيائية عن الزمان والمكان ستفهم من خلالها أن الزمان شيء نسبي يمكن أن تختلف قيمته من بيئة لأخرى، وأن الزمن شيء يمتدّ ويقصر ويتوقّف... وفي بعض التصورات لظروف فيزيائية لَا يَعُدُ للزمن أي معنى، فإن لم توجد حركة لشيء "يتحرّك" ويقابلها شيء ثابت، فلا معنى لأي شيء فيزيائي، لا للحركة ولا للزمن ولا للطاقة ولا للحرارة... ومن هذا يسهل علينا فهم أن وجوده تعالى خارج حدود الزمان والمكان، ولكن لا تقحمه تعالى في نظرياتك، فسبحانه خارج قدرتنا على التعامل معه مباشرة أو نظرياً إلا بحدود ما أخبرنا به عن نفسه.

هذا الكلام عن إخراجه تعالى من حدود الزمان والمكان، قَدِيمٌ في فلسفة اليونان وقبل الفيزياء الحديثة التي ثبت فيها نسبية الزمان، وفي القرآن تجد الكلام عنه تعالى بمتعلقات زمنية فيما يكون طرفه الآخر مخلوقاً يجري عليه الزمن...

بِشَكْلٍ بسيط عادي جداً ومن دون تعقيدات فكرية يمكنك أيضاً أن تفهم أنه تعالى لا يتأثّر بأي شيء نهائياً، فلا يكبر بالعمر، ولا تحصل معه الأشياء والحوادث، فلا يعطش ولا ينجرح ولا ينام... والحوادث تحصل أمامه سبحانه ومع غيره، فلا معنى للزمن بالنسبة له تعالى لو نظرت إليه سبحانه لوحده، فَكِّرْ بشيء واحد تصفه به تعالى وله علاقة بالزمن؟ ولن تجد، فكل الأشياء التي لها علاقة بالزمن مرتبطة بغيره وليس به بذاته تعالى، فلنقل: كفروا به تعالى. فهم مرّ عليهم زمن كفروا به، أمّا هو سبحانه فلم يتغيّر فيه أي شيء، لا قبل كفرهم ولا بعد إيمانهم، وَبَقِيَ نفس الشيء.

نرجع للآية، وهو، {الظَّاهِرُ}، لَيْسَ خَافِياً بل بَادِياً ظَاهِراً، ومن عموم القرآن تفهم أن ظهوره تعالى ليس شخصياً أمامنا لنراه بأعيننا أو نلمسه بأيدينا... فهذا مستحيل، ولكنه تعالى ظاهر لأن كلّ شيء آثار لأفعاله تعالى، وَأَيُّ مصنوعة من فعل البشر كسيارة أو بيت أو قطعة ثياب... ستدل على أن إنساناً صنعها، وإذا تميّز إنسان ما بحرفة فستخمّن أن الشخص الفلاني هو من رسم هذه اللوحة، فهذه طريقته في الرسم ومزج الألوان... وكذلك كل الكائنات تدل على خالق خلقها له مواصفات محدّدة، وهي موجودة فيه وحده سبحانه وتعالى، وَمِنَ الواضح جداً مواصفات الذي خلقنا مما نراه في أنفسنا ومن حولنا، فهو تعالى ظاهر فينا وفي كلّ شيء.

وهو، {الْبَاطِنُ}، إنْ خفي شيء ما عنك، فكنت ترى الظاهر وخفي عنك أشياء لا تراها ولا تعرفها أو لا تعرف أسبابها... فالله سبحانه هناك في باطن الأشياء أيضاً.

{وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، طبعاً يعلم كلّ كلّ كلّ شيء، فكل الحوادث وقعت أمامه تعالى، وَقَبْلَهُ لم يكن أصلاً أي شيء موجوداً، ولن يكون أي شيء موجوداً بعده، وفي ظاهر الأشياء هو موجود وفي باطنها موجود، فمن الحتمي الطبيعي أن يعلم سبحانه كلّ شيء.

أكثر من ذلك سبحانه يعلم ما سيحصل أيضاً، وسبحانه لا يخمّن ولا يحتمل، ولا... بل يرى ما سيحصل بوضوح بسبب صفاته وقدراته الفائقة، فحتى ما يبدو لنا كخيار نحن نقرّره وكان يمكننا أن نقرّر غيره، فبالنسبة له تعالى معلوم سلفاً ما سنقرّره...

بقي شيء، هل خلود المؤمنين في الجنّة وخلود الكافرين في النار يعني أنه تعالى ليس الآخر لأنهم باقون معه على امتداد الزمن؟ لا، لأنهم باقون لأنه تعالى يبقيهم، فهم يجري عليهم الزمن خالدين، بينما تعالى لا يجري عليه الزمن فلا يوصف بالخلود. ولم يصف نفسه بذلك ولا بالأزلية ولا بالأبدية "كما هو دارج في أدبياتنا" لأنها صفات متعلقة بالزمن ولا تجري عليه سبحانه. من هذا ترى عمقاً آخر للكلام، فلن يحصل أن يصير هناك إله آخر، وبغض النظر عن المخلوقات، فالإله هو الأول ولا أحد قبله، لا إله قبله، وهذا الكلام بغض النظر عن الزمن الذي رُبَّمَا لا يكون له معنى حتى عند الملائكة(ع)، لا أدري، تخيلياً نفترض إنَّ الإله الذي لا أحد قبله، ولم يخلقه أحد... خلق كائناً أو كائنات لا يجري عليها الزمن، وطالما لا يجري عليهم الزمن، جرّب أن تفهم معنى الأولية بالزمن في هكذا حالة، لن تستطيع، لذلك قلت لك أن الأولية هنا لا تعني الأولية بالزمن.

هكذا ترى معنى الأول والآخر حتى من دون زمن وفقط بالنظر لأسبقية لا زمن فيها، وأنا أعلم أن كلامي هذا مجرد ترف فكري وصفصفة كلام افتراضي، ولكن فقط لتوسيع الأفق لترى أن هذا الترف الفكري يخبرك عن وساعة في نوعية العلوم التي لا تخطر ببالك، بل ولن تخطر ببالك، بل ولن تفهمها حتى لو صاغوها لك بلغتك البشرية، فهي بحاجة لمستوى فكري أعلى مما معنا. لو تواجد إنسان بقدرة مئة دماغ مثل دماغك، لكانت العلوم التي يفهمها ستفوق قدرتك على فهمها حتى لو حاولت تعلّمها فلن تستطيع.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {4})

{هُوَ الَّذِي خَلَقَ}، ركّب وألّف، {السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وهذه هي كلّ دنيا المخلوقات، وهذا التعبير القرآني يرادف قولنا: كل شيء. وكلّ سماء يقابلها أرض مناسبة لها كما نفهم من الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...}، حيث سطح كوكبنا أرض وسطح القمر أرض وسطح الشمس أرض... لسمائنا، ولبقية السماوات أرض أو أراض تناسب طبيعة تلك السماء المختلفة عن سمائنا. وكل هذا خلقه تعالى، {فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}، في ست فترات زمنية، في كل فترة منها حدث أساسي مميز ابتدأ وانتهى، كَانْتِهَاءِ دحو الأرض، وانتهاء خروج النبات...

تذكّر دائماً أنَّ اليوم تعبير عن فترة زمنية ليست محدّدة بالزمن بل بحدث أساسي، ويتخلّله ساعات تقع فيها أحداث فرعية، يومنا على الأرض من المغرب إلى الغروب التالي، أو من الفجر إلى الفجر التالي، وحالياً اصطلح الناس عليه أن يكون من الساعة الثانية عشر ليلاً إلى الثانية عشر في الليلة التالية... واليوم على القمر كدورة كاملة حول نفسه

يستغرق شهراً من أيامنا نحن... ويوم القيامة يبدأ من ساعة قيامنا من الموت وينتهي بحشرنا، وبعده أيّام من الحساب... وهكذا ترى أنَّ قوله تعالى عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام لا يشير إلى أيّام الأسبوع "اثنين ثلاثاء أربعاء..." فهذا شيء ورثناه ممن كتب التوراة مفسِّراً لكلامه تعالى، ولم ينقله بحرفيته كما قاله تعالى ونقله بتصرّف على ما رآه مناسباً...

لِمَزِيدٍ من التوسّع حول كلمة يوم راجع دراسة الآية 19 من سورة القمر {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ}. ولمزيد من التوسّع حول خلق السماوات والأرض على مراحل راجع دراسة الآية 9 وما بعدها من سورة فصلت {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ}.

{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}، بَعْدَ اكتمال الملك "اكتملت مملكة السماوات والأرض" اسْتَوَى سبحانه وَصَارَ الحال بالتمام كما هو مطلوب من السيطرة والملك، {عَلَى الْعَرْشِ} على مركزية إصدار الأوامر والإدارة، وَبَعْدَ اكتمال خلق السماوات كلها والأرض، اكْتَمَلَتْ هذه المملكة، وسبحانه وكما أخبرنا وَاسِعٌ محيط لطيف... وبتعبير بسيط هُوَ في كل مكان، وبالتالي عَرْشُ ربنا أيضاً منتشر في كل السماوات والأرض، في كل مكان.

{يَعْلَمُ مَا يَلِجُ}، ما يدخل محتوياً، {فِي الْأَرْضِ}، كماء المطر والحشرات والحيوانات... ويعلم، {وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا}، من الأرض كالنبات الذي ينمو، وبخار الماء، والحيوانات والحشرات التي تفقس من بيضها فتخرج من تحت الرمل والتراب... وغيره...

ويعلم، {وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ}، من مطر وملائكة(ع) ونيازك وغيرها، ويعلم، {وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا}، ما يصعد في السماء، من ملائكة(ع) وجنّ وبشر وغيره...

{وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ}، فلا يوجد ولا أي مكان تكونون فيه لوحدكم ولا يكون سبحانه معكم.

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}، فصورة أعمالكم يدركها تعالى ويعي معناها، فليس مثل كاميرا المراقبة التي تسجّل الصوت والصورة ولكنها لا تفهم ما يجري.

بالنسبة لكلمة "عرش"، فالعرش الذي نعرفه نحن هو الكرسي الفخم الضخم الموضوع على منصّة ويجلس عليه الملك أو الحاكم، وَأَصْلاً كلمة عرش وصف لعموم ما علا ويقابلها فرش، وعرشه سبحانه تعبير عن الإدارة المركزية من مستوى ربوبي، فهو تعبير عن مركزية السيطرة والقرار لكل ما في الدنيا "والآخرة"، وبما أن سيطرته تعالى ممتدة على كل الدنيا "والآخرة" عَرْشُهُ سبحانه ممتدّ بامتداد الدنيا "والآخرة"، على كل ما في الدنيا والآخرة كما هو واضح من تعبير الآية 255 من سورة البقرة {... وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}.

لَدَيْنَا تراث ديني ثقافي يشير البعض منه إلى وجود شيء محدّد كعرش له سبحانه، كشيء مشابه بشكل ما لمكان تتم فيه إدارة شؤون الدنيا، واستندوا على ذلك قرآنياً بالآية 17 من سورة الحاقة {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، وكلامهم خليط من تصوّرات مختلفة، بعضها سببه استعمال لغتنا لتوصيف أمور لا يمكننا نحن البشر تصوّرها، وبالتالي الكلمات التي نستعملها لذلك تنقل نفس المعنى ولكن لأمور مختلفة، هُنَاكَ ملك صلب لا يهتز وإدارة إلهية مركزية لما في الدنيا، ولكنه سبحانه واسع محيط، وهناك ملائكة بقدرات عالية خلقها سبحانه ووظّفها لإدارة بعض شؤون ما في الدنيا، وأشهرها وضوحاً من القرآن ملك الموت، وهذه موصوفة "بلغتنا" أنها حاملة للعرش، وَالْكَلَامُ القرآني الذي يشير لقوّة الملك ولنواة الحكم والسيطرة فهو لا يشير إلى مكان، ولا إلى شيء، بل إلى حالة، وهذا واضح جدا من تعبير الآية 255 من سورة البقرة بوصفها وساعة الكرسي بوساعة السماوات والأرض.

فمن السذاجة تصوّره تعالى جالساً على كرسي على منصّة وثمانية ملائكة يحملون المنصّة، ضاربين بعرض الحائط كلامه سبحانه عن نفسه بأنه واسع محيط وليس كمثله شيء فلا يمكن لأي مخلوق تصوّره...

فالوصف القرآني لملائكة حافّين حول العرش أو حاملين له فهو وصف حالة وليس وصف مكان.

بعبارة أخرى، كُلُّ السماوات... وهذه الأرض التي نحن عليها، فهي كل ما في دنيا المخلوقات، خَلَقَهَا كلّها ربنا الله سبحانه، ويخبرنا سبحانه أنه هو بنفسه ولوحده رَكَّبَهَا وألّفها في ست فترات زمنية، وبعد اكتمالها، لم يتركها سبحانه

لغيره ليديرها، بل استوى على العرش وَكُلُّ شيء صار بالتمام فانبسطت سلطته عليها كلها، ومن دون تهديد من أحد بالقدرة على التدخل.

فعلى الاسمية لكلمة عرش كاسم لشيء، كُلُّ السماوات والأرض "كرسيه" عرشه تعالى، وعلى الوصفية للملك القوي والسيطرة والإدارة المركزية والتي بلغتنا البشرية نستعمل لها وصف العرش، فسبحانه حالته أن عرش السماوات والأرض منسوب له، ذو العرش، واستوى على العرش، وهناك ملائكة موظفون منه تعالى بتنفيذ مهمات "رئيسية" فيكون وصف حالتهم كحاملين للعرش وحاقّين حول العرش.

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأمُورُ {5})
{لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، والآية الثانية من هذه السورة عبّرت بنفس الشيء، وَمَنْسُوبٌ له سبحانه ملكية كل دنيا المخلوقات، ولكن هنا تريد الآية وبناء على ذلك التركيز على:

{وَإِلَى اللَّهِ}، إلى صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {تُرْجَعُ الْأُمُورُ}، فكل الأمور ترجع إليه تعالى، فالقرارات في الأمور، في الشؤون، في المواضيع، فيما سيحصل... فهو تعالى وحده فقط يقرّره.

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {6})
{يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ}، يجعل سبحانه فترة العتمة من اليوم تدخل محتوية فترة الضوء من اليوم، وحتى لا يخطر ببالنا أن غيره تعالى يجعل النهار يدخل في الليل ذَكَرَهُ لنا أيضاً، {وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ}.

ظَاهِرَتَا الليل والنهار المتكررتان منذ فتحنا أعيننا على الحياة، وصارا روتينا متكرراً لا نلتفت لأهميته ولعظمة تصميمه وروعته، فيجعلنا القرآن بكلامه عنهما نرجع للانتباه لهما، وللانتباه لعظمة من صمّمهما ونفّذهما.

{وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}، ما هو منسوب لصدوركم، ما تتفاعلون معه، فأفكاركم ونفسيتكم الناتجة عن تفاعلكم مع ما يحدث معكم، وموقفكم ورأيكم، وسواء بقي في داخلكم أو قلتموه فسبحانه يعلم به.

هكذا يخبرنا تعالى عن انتشار ملكه وسيطرته على المقاييس الكبيرة جداً لعرشه تعالى للسماوات والأرض، وعلى مقاييس كرتنا الأرضية بجعله لظاهرتي الليل والنهار، وصولاً إلى الخفايا التي في صدرنا.

بالنسبة لكلمة "صدر، صدور"، إن لم يكن القصد بها لأعضاء الجسد للقفص الصدري وما تحته من أعضاء... اسْتَعْمَلَهَا القرآن كما يستعملها الناطقون باللغة العربية وكما هي مستعملة في العديد من اللغات الأخرى، فنشير بالصدر للتفاعل الداخلي للإنسان مع ما يراه ويسمعه ويشعر به مما يتعرّض له... فنحن عندما نتعرّض لمختلف الظروف، نشعر بالانقباض أو الانشراح... في صدرنا، فاستعملنا كلمة صدر لتوصيف حالة تفاعلنا مع الأمور، وحتى لو لم تشعر بأي شيء في قفصك الصدري، من انقباض أو صعوبة في التنفّس أو راحة... فمجرد تفاعلك مع ما تعرّضت له، فإن مختلف اللغات البشرية تعبّر عن هذا التفاعل بأن شيئاً حصل في صدرك، وحتى السرّ الذي تخفيه عن الآخرين تعبّر عنه مختلف اللغات بأنه في صدرك، وكلّنا نعلم أن السرّ ليس في القفص الصدري، فليس تحته في الرئة أو القلب أو المريء... بل هو تعبير يشير لحالة تفاعلنا مع ما ندركه سواء بقي مخفياً أو ظهر له أثر حِسِّيٌّ في منطقة الصدر أو على تعابيرنا وحركاتنا.

بعد هذه المقدّمة التي تتميّز بها سورتنا هنا عن بقية سور القرآن بكلامها عن صفات الإله سبحانه وتعالى، ستبدأ السورة بالدخول في موضوعها عن الإنفاق في سبيل هذا الإله الذي بهذه الصفات، فمن يطع الأمر "بالإنفاق" أَطَاعَ من له هذه الصفات الفائقة، ومن خالف ولم ينفق فهو في مشكلة عويصة لمخالفته أوامر الملك المسيطر على كلّ شيء والقادر على فعل أي شيء...

سَنَفْهَمُ من السورة أن الإنفاق "صرف المال والأملاك" في سبيله تعالى، هو فرصة لنا وباب مفتوح للتقرّب منه تعالى، فرغم الفرق الهائل بيننا وبينه عزّ وجلّ، ورغم صفاته وقدراته الفائقة، ورغم ملكه لكل شيء ورجوع كلّ شيء له سبحانه، فَتَحَ لنا طريقاً لنكون لائقين محترمين عنده، عبر الإنفاق في سبيله...

بعبارة أخرى، كُلُّ بقية الأعمال التي نقوم بها ولها التصنيف الحسن أو السيّء، مثلها مثل مسألة الإنفاق في سبيله تعالى، فمنحني تعالى العينين والمزاج والفم... وبهما رأيت شخصاً ليس على مزاجي واستغبته بكلام معيب، ونفس الشيء أَتَاحَ تعالى لنا الأرزاق، وبعضنا ظروفه صعبة وبعضنا معه ما يزيد عن حاجته، وتصدّق منه أم لم يتصدّق...

هكذا ترى المقدمة هنا تريك المنسوب له ملك كل شيء أمرك بالإنفاق مما أتاحه لك...

(آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ {7})
{آمِنُوا بِاللَّهِ}، أعلنوا اعتقادكم بصاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى بصفاته الْإِلَهِيَّةِ التي سبق وذكرت السورة أساسياتها، وَآمِنُوا، {بِرَسُولِهِ}، أَرْسَلَ سبحانه لكم محمّدا(ع) ينقل لكم كلامه، فأعلنوا اعتقادكم به كرسول إلهي.

ننتبه، لا يوجد كبسة زر نضغطها فنصير مؤمنين، ولم تأمرنا الآية بضغط زِرِّ الإيمان، لا، لأن الصفات التي ذكرتها بداية السورة عنه سبحانه، هي تعريف لنا به تعالى، فتصوّرها مثل تعريفك لي عن شخص تحترمه كَثِيراً، وتذكر لي صفاته الحسنة، وتنتظر منّي أن أحترمه وأحبّه، كذلك مقدمة السورة عرضت لنا معلومات عن صفاته العالية سبحانه وتعالى، وتتوقّع منّا الاعتقاد بتلك المعلومات الواضح أنها صحيحة، وعليها آيات كبراهين من مختلف الأنواع... وتتوقّع منّا أن نحترم ونطيع رسوله.

{وَأَنفِقُوا}، أَعْطُوا من مالكم وأملاككم للآخرين، وبتعبيرنا الدارج اصْرِفُوا، {مِمَّا}، من الذي، {جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ}، كُلُّ شيء منسوب ملكه لله تعالى وَخَلَقَكُمْ وجعلكم في هذه البيئة مالكين للمال والطعام... واستخلفكم فيها لأنه المالك الأصلي الأساسي لها، وَمَنَحَكُمْ ملكيتها أثناء حياتكم في الدنيا، فصرتم خَلِيفَةً له تعالى في ملكيتها.

ما تَمْلِكُونَهُ من مال وبساتين ومخازن وذهب وَأَرَاضٍ وعقارات... كُلُّهُ في الأصل لله تعالى، وَمَرَّ معك مرتين فيما سبق من السورة جُمْلَةُ "له ملك السماوات والأرض"، ولا يزال، وَمَرَّ معك تَعْبِيرَانِ عن ذلك بوصفه تعالى باستوائه على العرش وَإِلَيْهِ ترجع الأمور، وَاسْتَخْلَفَكُمْ فيما يملكه ويسيطر عليه، وبناء عليه صار وَاضِحاً حقّه سبحانه في أمرنا بالإنفاق مما له معنا، أي مما استخلفنا فيه.

من البديهي أن نفهم أمر الإنفاق هنا بأنه ليس إنفاق مالك عليك أنت، على طعامك وَلِبَاسِكَ وعيالك... فهذا مفروغ منه، فالأمر هنا للإنفاق على المحتاجين وعلى ما يحتاجه الناس.

ضع في بالك أن الإله بجلالة قدره يتحدّث معنا بشفافية ويعطينا قيمة التحدّث معنا على أننا مُحْتَرَمُونَ، فيوضّح لنا أن مالنا وأملاكنا بِالْأَسَاسِ هي له تعالى، فحين يأمرنا بالإنفاق فنحن نصرف مما له تعالى وليس لنا بالأصل. وهذا يأخذك إلى العمق القرآني لتبرير ما نسميه بالعقيدة والشريعة والسلوك التي يطرحها علينا سبحانه في قرآنه، فلم يعرض علينا سبحانه الأمور بجفاف الاعتقاد بها على عماها، لا، بل حتى توحيده تعالى يلفت انتباهنا له كمعلومة عَلَيْهَا براهين وأدلة، ويتحدث معنا بشفافية حين يخبرنا عن خلقه للسماوات والأرض، وهذه حدود كلّ دنيا المخلوقات، وبالتالي فهناك الله سبحانه من جهة وهناك ما في الدنيا من مخلوقات، فتنحصر الألوهية به تعالى... وهكذا في بقية مفردات ما نسميه بالعقيدة سَتَجِدُ آية تبرّرها وتبرهنها.

ومن الشريعة خذ مثلا تبرير سماحه تعالى للمؤمنين بقتال الكفّار المعادين، فهؤلاء يصدّون عن دينه تعالى وبالتالي سيعملون لترجعوا كفّارا أو يقتلوكم كما ورد في الآية 25 من سورة الفتح {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ... وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ... لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}، ومن السلوكيات خذ مثلا برّ الوالدين وتبريره في الآية 14 من سورة لقمان {وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}.

وهكذا سترى أن كل ما طرحه تعالى علينا لَهُ آية، وَلَهُ حجّة، وسلطان... وهذا هو العمق من وصف القرآن بأنه مبين، فصل، حكيم، مجيد...

نرجع للآية هنا، {فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا}، ولاحظ أن هذا التعبير يبدو مرادفا لتعابير القرآن الرابطة بين الإيمان والعمل الصالح، وهنا الربط بين الإيمان والإنفاق كنقطة تركّز عليها السورة هنا من بين كلّ الأعمال الصالحة، وهؤلاء، {لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ}، فلهم شيء حدّده تعالى أنهم يستحقونه منه إن آمنوا وأنفقوا، وتعلم أن الأجر هو جنّة خالدة.

ستلاحظ السورة رَكَّزَتْ فقط على الإنفاق، وبشكل عام من دون أي تفاصيل، لا في مقدار الصرف، ولا على من يتم الصرف، ولا متى ولا... فلن تجد أي تفصيل هنا في السورة، فقط تقول لك: آمَنْتَ؟ إذاً أَنْفِقْ في سبيله تعالى.

ولن ترفض أن تنفق إذا آمنت أنك لست المالك الأصلي، فالذي أمرك بالانفاق هو المالك، ويأمرك أن تنفق مما له هو تعالى وأنت مستخلف فيه، فملكك للأشياء غير حقيقي بل استخلاف وَبِشَكْلٍ مَا هو اعتباري لأن الحقيقة ملكه تعالى لكل شيء.

(وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{8})
{وَمَا لَكُمْ}، مَا السبب الوجيه الذي جعلكم، {لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}؟ بَعْدَ أن تعرّفتم على صفات الله تعالى وأنه استخلفكم في الأموال والأملاك التي معكم، وأمركم بالإنفاق منها لأنها له هو تعالى، فكيف ولأي سبب لا تعلنون اعتقادكم به، وَعَمَلِيّاً لا تطيعونه ولا تنفقون، فكيف ذلك؟

{وَالرَّسُولُ}، الذي أرسله تعالى لكم، {يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ}، يُعْلِنُ ويشهر لكم أن تعتقدوا بالمسؤول عنكم من مستوى إلهي، {وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ}، أخذ الشيء المؤكّد بشدة منكم، {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}؟ فهذا الكلام يكون له معنى معكم إن كنتم فِعْلاً تعتقدون بهذا الدين الإلهي.

بعبارة أبسط، هَا قَدِ انتبهت أنه تعالى المالك الأصلي لكلّ شيء، وَاسْتَخْلَفَكَ في ملكه فصار معك مال وأملاك، وأمرك بالإنفاق مِنْهَا في سبيله، فإن كنت فِعْلاً مؤمنا به تعالى، فستنفق، وإن لم تنفق فما معنى هذا التصرّف؟ مَعْنَاهُ أنك لست مؤمنا، وأنك لست على ميثاق الإيمان به تعالى.

والسورة تتوجّه لكم بالكلام لتنفقوا في سبيله تعالى، على أساس إعلانكم عن أنفسكم أنكم أتباع لهذا الرسول(ع) الناقل لكم الْكَلَامَ الإلهي، فمن المفروض أن تنفّذوا ما ينقله لكم الرسول(ع) عنه تعالى وتنفقوا.

إِعْلَانُكُمْ عن اتِّبَاعِكُمْ لهذا الرسول(ع) ودينه مِيثَاقٌ، وَتَأْكِيدٌ شديد منكم أنكم مؤمنون، هذا إن كنتم فِعْلاً مؤمنين ولم تكونوا تمثّلون على أنفسكم وعلى الناس، ولم تكونوا من الذين اتبعوا هذا الرسول(ع) بسبب مصلحة شخصية سيئة...

ضع في بالك دَائِماً أن القرآن يعتبر إعلاني لإيماني بهذا الدين هو ميثاق، فهو شيء شديد لا يمكن التراجع عنه، فليس مثل: عزمتك على فنجان قهوة وغيّرت رَأْيِي. لا، فعليك أن تلتزم بكلّ شيء، وهذا لا يعني أني تحت ضغط الالتزام وغيري مرتاح! لا، وبالتحديد فهذه هي النقطة التي بدأت بها السورة، كُلُّنَا مستخلفون فيما بين أيدينا، تَرَكَنَا تعالى نتملّكه ويصير لنا، وأمرنا كلنا بِالْإِنْفَاقِ منه، فمن التزم وأنفق أَطَاعَ، ومن خالف عَصَى، فمن أطاع وأنفق ليس وَاقِعاً تحت ضغط الالتزام الديني، ومن خالف ولم ينفق ليس مُرْتَاحاً من الضغط، لا، الْجَمِيعُ تحت ميثاق، وَكُلُّنَا سنتحاسب بشدّة على تصرّفنا فيما معنا إن لم ننفق منه في سبيله تعالى.

تذكّر دَائِماً أن أخذ الميثاق منّا له تعالى هُوَ عَرْضُهُ تعالى علينا دينه، فلا تتصوّر دَائِماً حالة الميثاق والعهد كحالة الجلوس على طاولة وتوقيع الاتفاقيات، أو الوقوف أمام أحد ما وإعلان كلام عن ميثاق وعهد، فمعه تعالى ليس هذا ضَرُورِيّاً، فبما فينا من قدرة لتمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، ومن حرية إرادة واختيار، فهذا يلزمنا بترك الباطل والشرّ، ومجرد وصول كلامه تعالى لنا إنْ كفرنا نَحْنُ خارج العهد والميثاق وإلى نهاية حتمية بالعذاب، وإن آمنا صِرْنَا تحت عهد ميثاقي معه تعالى.

هناك حالة مميزة كرّرها القرآن عن رفع جبل فوق بني إسرائيل كعلامة إلهية على إمضاء ميثاق أعلنه بنو إسرائيل حينها بالالتزام بدينه تعالى، وتقرأ ذلك في الآية 154 من سورة النساء {وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ...}، وأمّا بقية حالات الميثاق مع بقية الناس، تَرْجِعُ إلى الأساس، فترجع إلى ما فينا من قدرة على تمييز الخير من الشرّ، وعرضه

تعالى لدينه علينا، وهكذا نصير تحت شيء شديد لا يتحمّل التهاون به، ويصير وصف الحالة مِيثَاقاً لمن تعهد باتباع الحقّ. فأنا وأنت تحت ميثاق معه تعالى، فلدينا تعهد شديد له تعالى بالالتزام بدينه.

كما ترى، هَذَا لا يعني أن من كفر بدينه تعالى فهو لا التزامات عليه لأنه لم يتعهد ولم يواثق، وبالتالي لَا عقاب له، لا، فهذا أَسَاساً حالته سيئة جِدّاً لأنه منكر للحقّ وفاعل للسيئات ورافض للالتزام بكلامه تعالى، وعلى هذا عقاب شديد.

بقي شيء ضعه في بالك دَائِماً، فلم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الْإِسْلَامِ أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب..."، ولم يستعملها القرآن بهذا المعنى، وبمراجعة استعمال كلمة آمن مؤمنون... في القرآن، تجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، فآمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، فكلاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{9})
هو، الله تعالى، {الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ}، على محمّد(ع) المفروضةِ منه الطاعة، {آيَاتٍ}، أشياء مميزة، {بَيِّنَاتٍ}، واضحة، ما تقرأونه هنا في السورة "وفي عموم القرآن" عن عموم الأوامر الإلهية وبالخصوص عن الأمر بالإنفاق الذي هو محور كلام هذه السورة، هو كلام إلهي، وكل الكلام الإلهي تصنيفه أنه آية وهو شيء مميّز جدا، والكلام الإلهي بيّن واضح، يمكن فهمه بعد دراسته، رأيتَ في الآية السابقة كلاما أوصلنا إلى عمق معنى بيان القرآن، حيث رأيتَ أن كلامه تعالى آيات، مميزة كبراهين وتبريرات لكل ما يطرحه سبحانه...

{لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}، من العتمة إلى الانكشاف، من حالة لا ترون فيها وتكونون عُمْيَاناً إلى حالة ترون فيها وتبصرون، وهذا الكلام عن عموم الإيمان به سبحانه، وعن خصوص إطاعة أوامره وبالخصوص عن الإنفاق في سبيله، والبداية مع تثبيت أساس ملكيته تعالى لكل شيء وأننا خلفاء له تعالى فيما نملكه... وبعدها تِبْيَانُهُ تعالى لسبب أمره لنا بالإنفاق، وشرحه لنا عن إيجابيات الإنفاق وسلبياته... هكذا بالعقل والفكر والمنطق الربّاني نخرج من ظلمات الجهل والعبثية والغوغائية واتّباع الهوى السيئ... إلى النور، إلى انكشاف السبيل لنتبع أحسنه.

{وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ}، صاحب هذا الاسم المميّز المحدّد الله تعالى يقدّر حالتكم ويعاملكم على أساسها فلا يركّز على نقاط ضعفكم، ومن هذا الأساس لم يتعامل سبحانه معنا بخشبية، بصلافة، بصلابة، بموقعه العالي كإله يملكنا وأوامره تصدر بلا شرح أسبابها على طريقة: نفّذ ولا تعترض. لا، بالرغم من الفرق الهائل بين تقديرنا نحن لحكمة الأمور وفهمها، وبين علمه الفائق سبحانه، والذي يستدعي أن نطيع أوامره تعالى حتى لو لم نفهم سببها، وهذا هو معنى كلمة عبد، فمن المفروض أن نطيعه سبحانه واثقين بعلمه وحكمته ورحمته... على العمياني، بالرغم من ذلك رأف بنا سبحانه وعاملنا آخذا في عين الاعتبار جانب الضعف الذي فينا، والذي نحن سببه بتسويدنا لقلوبنا... فتساهل سبحانه معنا وبيّن لنا وشرح أسباب أمره لنا بالإنفاق. ومن جانب آخر صَمَّمَ سبحانه دنيانا بحيث نحصل فيها على الأملاك فأتاح لنا فرصة الإنفاق منها لنكسب الحسنات ونمحوَ من سيئاتنا.

الله، {رَّحِيمٌ}، عنده عناية خاصة بالمؤمنين لما فيه مصلحتهم، فكل الناس يرحمها تعالى ويكون موصوفا بالرحمن، ولكن الذي يؤمن يصير تحت صفة الرحيم وهي خاصة بالمؤمنين الذين لوحدهم ينالون المغفرة ونورا يمشون به ومضاعفة الثواب... والآخرون بكفرهم يخرجون من رحمته تعالى فيفقدون ما يناله المؤمنون. وهذا المعنى العمومي للرحمة، وهنا سياق الكلام يشير للنور الإلهي المبين للمؤمنين الذين سيرون من كلامه تعالى عن الإنفاق هداية لهم إلى مرضاته تعالى، وهكذا تكون رحمته تعالى بالأساس عامّة لجميع الناس الذين أتاح لهم الأملاك لينفقوا منها وينالوا الثواب، وكما ترى المؤمنون لوحدهم سيلتزمون بذلك، وهكذا يكون تعالى رحيما بهم، لأن الآخرين هم بسوء أفعالهم أخرجوا أنفسهم من تحت المعاملة المميزة، فخرجوا من تحت الرحمة...

(وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{10})

وما لكم، ما السبب الوجيه، ألّا، أن لا، تنفقوا في سبيل الله؟ أمركم سبحانه أن تصرفوا "من" أموالكم وأملاككم في أمور يرضى عنها، كمساعدة المحتاجين، وتجهيز الجيش للدفاع عن المسلمين، وللمصالح العامّة للمسلمين كشقّ الطرقات وبناء المستشفيات... ما السبب حتى لا تصرفوا من مالكم على ما يرضيه تعالى؟

ولله ميراث السماوات والأرض، كل ما في الدنيا من أملاك، سيفقدها أصحابها وترجع ملكيتها بالكامل له تعالى، لأنها من الأساس هي له تعالى، ولكن حين استخلفنا فيها، صرنا مالكين لها، وفي النهاية سنموت، وكل الكائنات المالكة اعتباريًّا ستفنى، لا يعود أحد منهم مالكًا لأي شيء، وهو الآخر سيبقى سبحانه المالك الأوحد، وبناء عليه، ما لكم، لماذا لا تنفقون من شيء لن يبقى لكم؟ ستموتون وتفقدونه! سيرثه غيركم! وهكذا حتى يرثكم الله تعالى كلّكم، لماذا تحتفظون بأشياء لن تبقى لكم ولا معكم؟

ننتبه، القرآن منع بشدّة الإنفاق مما تحتاج له، من غير المسموح أن تتصدّق على الآخرين وتصير أنت محتاجًا لمن يتصدّق عليك، هذا ممنوع، وتراه جليًّا في الآية 29 من سورة الإسراء "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا"، وهكذا تفهم ما تقوله الآيات هنا باستعمالها لكلمة ميراث، فإن كنت تملك مالًا وأراضيَ وأرزاقًا وماشية وشركات ومخازنَ ومجوهرات... فماذا ستفعل بها؟ أنت يكفيك مصروفك، والزائد عنك بشكل فائض عن حاجتك، ماذا ستفعل به؟ ستموت و"يرثه" غيرك، وغيرهم سيرثهم... وفي الأخير سبحانه سيرث الجميع لأن الجميع سيموتون، ما لكم لا تنفقون منه؟ ما السبب الوجيه؟ لو كان المال ينفعك بعد الموت لفهمنا سببك، ولكنه لا ينفع! لماذا لا تنفق منه؟

إذا خطر ببالك أننا نورّث أولادنا وأقاربنا ما تركناه ليستفيدوا منه، فهذا معلوم، والكلام هنا عن استفادتك أنت الشخصية من مالك وأملاكك بعد موتك، الأمر بالإنفاق يشمل الإنفاق على أولادك وأقاربك، مما يعني أنهم في حياتك يجب عليك العناية بهم، وبعد موتك تترك لهم ما يعينهم، ولك على ذلك أجر... ولكن الكلام عن فائض مالي معك أثناء حياتك، ولم تساعد منه المحتاجين عمومًا، وربما لم تساعد حتى أولادك أو أقاربك، وإذا ساعدتهم، فالكلام عن بقية العناوين في سبيله تعالى والتي تحتاج لمساهمتك فيها...

{لَا يَسْتَوِي}، ليسا بنفس المستوى، {مِنكُمْ}، أيها المسلمون، {مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ}، مرّت مرحلة كان فيها كل شيء مغلقًا على المسلمين، كانت المجتمعات من حولهم تعاديهم وتحاربهم وتضغط عليهم، وبعد جهاد صعب، حصل الفتح، صار كل شيء مفتوحًا أمام المسلمين، وصارت لهم السيطرة على الآخرين، عقائديًّا تشريعيًّا اقتصاديًّا أمنيًّا... صاروا أقوياء، مَن صرف المال في سبيله تعالى، وقاتل، دخل فيما يسبّب إنهاء الآخرين لحياته وحياتهم، حارب ضد أعداء هذا الدين قبل انتشار الإسلام، قبل الفتح، فهذا لا يستوي، لا يمكن وضعه في نفس المستوى مع الذي أنفق من بعد الفتح وقاتل، حيث الظروف تغيّرت وصارت أقل ضغطًا، ومريحة أكثر بالنسبة لمرحلة قبل الفتح.

{أُولَئِكَ}، المنفقون والمقاتلون قبل الفتح، {أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ}، من بعد الفتح، {وَقَاتَلُوا}، من بعد الفتح، أوائل المؤمنين المنفقين المقاتلين رتبتهم أعلى، أكبر عنده تعالى من الذين آمنوا وأنفقوا وقاتلوا من بعد الفتح، لا تَنْسَ أنك تتحدّث مع مجموعات من الناس كانت تعيش في نفس الزمن، مجموعة منهم آمنت وأنفقت وقاتلت، وبقية الناس إمّا كانوا متفرجين أو معادين أو محاربين، وبعد انتشار الإسلام بجهاد أوائل المسلمين، أسلم هؤلاء، من البديهي أن يعتبر سبحانه درجة الأوائل أعظم عنده، أجرهم أعلى لأن الظروف كانت أصعب، والأجر على قدر المشقّة.

{وَكُلًّا}، وكلّ واحد من المؤمنين المنفقين المقاتلين سواء قبل الفتح أو بعده، {وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى}، كلاهما سيحصلان على أشياء حسنة منه تعالى، لا يفهم من أنفق وجاهد من بعد الفتح أن عمله بلا قيمة وتافهٌ، لا، بل فقط لِينتبه أن صعوبة الظروف تسبّب عظمة الأجر.

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}، لديه كل خبر، كل التفاصيل والأخبار يعلمها، لو كان الإسلام معروضًا عليك قبل الفتح ورفضته... ثم بعد الفتح أسلمت، فمن الواضح أنك ستفهم الأجر الأعلى لمن كان مؤمنًا قبل الفتح، والآن وقد آمنت إن كان إيمانك صادقًا وتشعر بالندم على ما فاتك من معاندة أو ترك لهذا الدين، فستحصل على أجرك إن أنفقت وقاتلت، وإن لم يكن هناك إمكانية لديك لتنفق أو لتقاتل قبل الفتح، كنت صغيرًا، أو كنت فقيرًا ضعيفًا... وتطمع في أجر عال لمن أنفق وقاتل قبل الفتح، فسبحانه يعلم بكل شيء، ويعلم ماذا تستحق، وسيعطيك ما تستحقّه.

ننتبه جيّدًا كيف ربطت الآية بين الإنفاق والقتال، لأن بعض الناس ينفقون مالهم ويظنون أن واجب القتال سقط عنهم، أو يقاتلون ويظنون أن الإنفاق سقط عنهم، كلا، هما مرتبطان، وعندما يجب القتال فالقتال لا يسقط عمّن أنفق، وعندما يجب الإنفاق فهو لا يسقط عمّن قاتل.

ستجد في الكتب تحديدًا لتاريخ الفتح الذي لا يستوي من أنفق قبله وقاتل، بالمقارنة مع من أنفق من بعد الفتح وقاتل، يعني هؤلاء في جهة، وكل بقية المسلمين إلى يوم القيامة في جهة، وهذا غير صحيح، في كلّ زمان هناك فتح، هناك مرحلة يكون فيها المسلمون تحت ضغط شديد، ويُحْتَاجُ لإنفاق، ويُحْتَاجُ لقتال، وفي تلك الظروف الصعبة، لا يستوي عند الله تعالى من أنفق من قبل الفتح وقاتل.

من تاريخ حياة الرسول محمّد(ع) نلاحظ أن أهمّ فتحين حصلا هما صلح الحديبية الذي سمّته سورة الفتح بالفتح، وفتح مكّة، وبقية الفتوحات كانت أقل أثرًا، والكلام هنا عن المقابلة بين حالة الشدّة قبل الفتح وحالة الراحة النسبية بعد الفتح، وهذا حصل بعد فتح مكّة، بعدها سقطت الكثير من المناطق وصار للمسلمين بقعة كبيرة واسعة تنتشر فيها سلطتهم... فتح مكّة "كنموذج يخطر ببالنا" ضربته الآية كنموذج تاريخي مرّ على المسلمين من حالة ضعف سابقة، وحالة قوّة لاحقة.

يعني لم يهتم القرآن بتأريخ الفتح ذي الأهمية الشديدة والذي من بعده حصلت راحة للمسلمين، لأن القرآن لا يريد التأريخ لحادثة، بل يطرح نموذجًا عن عموم أي فتح حصل بعده راحة، وبالتالي قد يحصل فتح وبعده راحة، وبعده تعود الشدّة، وبعده فتح بعده راحة... وبعده تعود الشدّة... الكلام ليس عن فتح محدّد له قيمة تاريخية لن تتكرّر، بل عن عموم أي فتح بعده راحة، قبله في أوقات الشدّة يكون للإنفاق والقتال قيمة أعلى أجرًا عنده تعالى.

كلمة "إرث، ميراث..." تشير لصيران ملكية بلا استرداد من المالك السابق، وهذا نصف به حالة إرثنا من ميّت، تنتقل الملكية منه إلينا ولن يستردّها الميّت منا. ولكن الميراث ليس محصورًا بانتقال الملكية من ميّت، هو لعموم انتقال الملكية بلا استرداد من المالك السابق، مثل حالة توريثه تعالى الجنّة للمؤمنين، هو إعلان منه تعالى لتمليكهم الجنّة خالدين ولن يستردّها سبحانه منهم.

(مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ{11})
{مَن ذَا الَّذِي}، من هو الشخص الذي، {يُقْرِضُ اللَّهَ}، يقدّم شيئًا يمكنه تعالى ردّه بسهولة له، {قَرْضًا حَسَنًا}، ما يقدّمه يكن حسنًا جيّدًا، ينفق مما يملكه على المحتاجين وعلى أمور المسلمين قربة له تعالى بلا منّة ولا كبرة ولا فوقية... على الآخرين، وليس من فضلاته ومما استغنى عنه لعطل فيه... {فَيُضَاعِفَهُ لَهُ} تعالى، يَجْعَلُ تعالى القرض مضاعفًا زادت قيمته على الأقل مرّة واحدة.

مضاعفة شيء ما هي زيادة على كميته أو نوعيته أو قيمته على الأقل بمرة واحدة، ضعف التفاحة: تفاحتان. ولكن من عموم القرآن تفهم أنه بمجرد اعتباره تعالى لعمل قمت به أنه صالح عليه ثواب حسن، سيتحوّل ذلك العمل إلى ضعف قيمته على المقياس الإلهي، الصدقة بنية صافية بتفاحة على محتاج، ليس الثواب الإلهي عليها بتفاحتين، أو بصندوق تفّاح، لا، بل على المقياس الإلهي يكون الثواب قصورًا وبساتين... وهذا هو أقل ضعف على عمل صنّفه تعالى أنه حسن عليه ثواب، وتكبر المضاعفة كلما كانت نية القربى له تعالى أصفى...

{وَلَهُ}، ولمن أقرض الله تعالى قرضًا حسنًا، له، {أَجْرٌ كَرِيمٌ}، سينال ما حدّده تعالى كشيء يستحقّه الذي أنفق وسيكون للأجر قيمة عالية.

لاحظ أن فكرك يذهب إلى الكرم بمعنى العطاء بكثرة حين تقرأ تعبير "أجر كريم" وتتصوّر أن الكمية كبيرة والنوعية عالية، وهذا عمليًّا صحيح، ولكن من عموم القرآن تعلم أن كلمة كريم استعملت في معاكس كلمة مهين، والآية هنا ذكرت بأن الكمية التي ينالها المقرض من الله تعالى ستكون مضاعفة، وبعدها تقول بأن الأجر كريم هي إشارة لشعور من سيحصل على الأجر بأنه محترم وله مكانة عالية، لأن الأجر يوصف بأنه كريم، كشيء محترم وله قيمة، بعكس من ترمي له أجره على الأرض، حتى لو كان أكثر مما يستحق، فهذا ليس أجرًا كريمًا. وبهذا المعنى فقط استعمل القرآن

كلمة كريم وتراه بسهولة في الآية 17 من سورة الدخان "وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ" لم تقصد أنه يعطي الآخرين بكثرة، بل قصدت أن له قيمة عالية كشخص مؤمن حكيم صالح...

ضع في بالك أن عبارة القرض الحسن هنا في السورة لا تعبّر عن إقراضك أنت للناس، هنا السورة فقط تتحدّث عن الصدقة وتعتبرها قرضًا لله تعالى سيردّه لك في الآخرة، علمًا أن إقراض "تديين" المؤمنين عمل عليه أجر كبير ولكن السورة لم تتحدّث عنه، وكثيرًا ما درج في أدبياتنا الدينية ذكر آيتنا هذه للإشارة إلى ما تقرضه للناس، يقولون إنّ ما تقرضه للناس يعتبره تعالى قرضًا له، وهذا لم تقصده الآية، بل قصدت تسمية ما تنفقه في سبيله تعالى قرضًا له تعالى سيردّه لك.

من استعمال القرآن والعرب قديمًا لكلمة قرض ودين... تبيّن لي أن القرض نوع من الدين بحيث إنّ من أخذه يكون ميسورًا عليه ردّه فيما بعد، ولم يستعمل القرآن وصف ما نقدّمه في سبيله تعالى أنه دين، بل قرض، وذلك للدقّة بأنه تعالى يردّه بسهولة.

(يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{12})
يتضاعف القرض ويحصلون على الأجر: {يَوْمَ تَرَى}، في الزمن الذي يصير عندك صورة محدّدة لـ، {الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}، الذين هم في حالة اعتقاد والتزام بهذا الدين فالتزموا بأوامره تعالى، والحديث هنا بالخصوص عن التزامهم بالإنفاق في سبيله تعالى فهؤلاء في زمن القيام من الموت وما بعده، ترى، {نُورَهُمْ}، كشف الرؤية أمامهم، {يَسْعَى}، يتحرك عن قصد مع حركتهم، {بَيْنَ أَيْدِيهِمْ}، أمامهم، {وَبِأَيْمَانِهِمْ}، فهم يتحكمون بالنور ويشعرون بأنه من قواهم، فيكشف لهم المساحة التي يقصدون كشفها حتى لو كانت بعيدة.

نَتَذَكَّرُ أن اليوم هو فترة زمنية لحدث أساسي، ويتخلّل اليوم أحداث متفرقة تسمّى ساعات، وهنا الآية تشير ليوم القيامة من الموت وما بعده، فالآخرة بالنسبة لنا تبدأ من ساعة قيامنا من الموت وينتهي اليوم الأوّل بحشرنا وتليه أيام محاسبتنا بِسَاعَاتِهَا... وتنتهي بآخر يوم وآخر ساعة فيه بدخول آخر واحد إلى الجنّة أو إلى النار، وفي ذلك اليوم، في ذلك الزمان كله بأيامه، سيكون للمؤمن نور خاص به، فلا يوجد إضاءة عامّة لكل المكان، وتصوّرها مثل غرفة معتمة وغرفة نورها كاشف ولطيف ليس مُبْهِراً للنظر، الآن تصور الغرفة المضيئة تمشي مع الذي أنفق، فتنير له محيطه، فيوجّه نورها كيفما يشاء، ويمكنك أن تتصوّره يحمل مِصْبَاحاً بيده، ولكن القرآن يصوره والنور معه ويتحرك معه ويستجيب لحركاته.

كما ترى، هنا النور باتّباع أوامره تعالى بالإنفاق، فسينتج عنه نور في الآخرة، وهذا اختصار لعامّة الراحة المحيطة بالمؤمنين في زمن الآخرة.

{بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ}، الخبر السعيد لكم في هذا الزمن عن، {جَنَّاتٌ}، عن أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين وأماكن رائعة وما يسبب السعادة، {تَجْرِي}، تنتقل بالتتابع، {مِن تَحْتِهَا}، من تحت أشجارها، {الْأَنْهَارُ}، سوائل المياه والخمر واللبن والعصائر... فلا تبالغ لتتصور المكان كمستنقعات بل كما تقرأ في الآية 15 من سورة محمد "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى..."، فهي مناظر طبيعية لأنهار من مختلف الألوان وَالطُّعُومِ والنكهات... {خَالِدِينَ فِيهَا}، في تلك الجنّات لا تموتون ولا تفنون ولا تخرجون منها... ولا هي تخرب...

{ذَلِكَ}، الخلود في تلك الجنّات، {هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}، هو الحصول على شيء له قيمة عالية جِدّاً، مِن بعدما مرّوا في الامتحان في الدنيا ونجحوا فيه فآمنوا وعملوا الصالحات "وأنفقوا"، ففي الأخير وصلوا إلى نتيجة الحصول على جنّة الخلد الرائعة. كُلُّ ما تتصوره في الدنيا من فوز، وكل ما تتصوره من سعادة... فكله لا شيء أمام ما يوجد في جنات الآخرة، فأقل درجة من جنات الآخرة هي أعظم روعة من كل ما في الدنيا.

تلاحظ أن الإله بقدراته الفائقة يصف دخولنا إلى الجنّة بأنه فوز عظيم لنا، فما نراه نحن في الدنيا أنه عظيم في جماله في سعادته في بهجته... فيصفه تعالى بأنه لا شيء ولا قيمة له، وما في الآخرة هو الفوز العظيم، فهي على معنى ما

ورد في الآية 64 من سورة العنكبوت "وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ".

(يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ{13})

{يَوْمَ}، في الزمن الذي، في يوم القيامة من الموت وما بعده من أيّام الحساب، {يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ}، يقول الذين كانوا في الظاهر أمام الناس يمثّلون أنهم ملتزمون بهذا الدين أمّا من داخلهم فهم لم يؤمنوا به، ومن تركيز السورة على الإنفاق تعلم أنهم مسلمون لم ينفقوا، فهؤلاء في يوم القيامة يقولون، {لِلَّذِينَ آمَنُوا}:

{انظُرُونَا}، أعطونا زَمَناً كمهلة، {نَقْتَبِسْ}، نأخذ شَيْئاً، {مِن نُّورِكُمْ}، هُمْ يرون النور الذي يسعى مع المؤمنين، ويريدون الاستئناس به ويطلبون من المؤمنين البقاء بقربهم حتى يبقى النور مُنْتَشِراً حيث هم، فكلمة قبس ومنها الاقتباس مستعملة لعموم ما كان مَعْنَوِيّاً أو مَادِيّاً ولا يمكن لمسه، كالنار والنور والفكرة...

تَصَوَّرِ المشهد في عتمة الليل ومن حولك الظلام وترى نُوراً يلاحق شَخْصاً ما كأنه بقعة ضوء، طَبْعاً ستستأنس به، وكل الناس في يوم القيامة وما بعده تستأنس بنور المؤمنين إن تسنّى لهم رؤيته، لَكِنَّ تركيز كلام السورة مع المؤمنين المنفقين بناء على إيمانهم بأن هذا القرآن من الإله سبحانه وينقله لهم رسوله، ولذلك تراها تقابل بين المؤمن الذي أنفق والمنافق، فالمنافق مسلم أعلن اعتقاده والتزامه بهذا الدين ولكنه كان يمثّل، فكان يدّعي ويتظاهر، ولم ينفق.

{قِيلَ}، قال أحد ما للمنافقين:

{ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ}، إلى حيث كنتم فابتعدوا عن المؤمنين إلى الوراء، {فَالْتَمِسُوا نُوراً}، مِن هنا لن تحصلوا على النور ابحثوا عن النور بَعِيداً من هنا أنتم مكانكم من هنا إلى الوراء، طَبْعاً لن يجدوا نُوراً لأن النور مرافق لمن أنفق، وهم منافقون لا يوجد بين مجموعتهم من أنفق في سبيله تعالى، ولن يجدوا نُوراً في مكان حشر المنافقين والمنافقات.

{فَضُرِبَ بَيْنَهُم}، أُقِيمَ بين المؤمنين والمؤمنات وبين المنافقين والمنافقات، {بِسُورٍ}، بما يسوّرهم، بحاجز مرتفع محيط بهم، {لَّهُ بَابٌ}، له مدخل للمرور، {بَاطِنُهُ}، من الداخل خلف الباب، {فِيهِ الرَّحْمَةُ}، المنافق كان يريد التماس نور من المؤمنين، فضرب بينهم سور فيه باب، فصار شيء يحيط بالمنافقين "يسوّرهم" ويمنعهم من المرور لجهة مع المؤمنين، وفيه ممر، طَبْعاً هم ليس مَسْمُوحاً لهم المرور من الباب... {بَاطِنُهُ}، باطن الباب ما هو مبطّن فهو خلف الباب، مَا هو في الداخل مستور عنه خلف الباب، {فِيهِ الرَّحْمَةُ}، فيه العناية الإلهية بالمؤمنين والمؤمنات، {وَظَاهِرُهُ}، ظاهر الباب، مَا يظهر وما هو أمام المنافق والمنافقة، {مِن قِبَلِهِ}، من قبالة الباب من الجهة الثانية المقابلة لظاهر الباب، {الْعَذَابُ}، الضرر، الذين من هذه الجهة يتعذّبون، والذين في تلك الجهة مرحومون.

لماذا يوجد باب في السور؟ مَنْ سيمرّ منه؟ ومن عموم القرآن تعلم أنه ليس كل الناس تُخَلَّدُ في جهنم، فالكافر والمشرك والقاتل وغيرهم من مرتكبي الذنوب الكبيرة جِدّاً هم فقط يخلدون في النار، أمّا الآخرون فبعضهم يبقى في النار للحظة أو لساعات، وغيره يبقى يَوْماً أو أَيَّاماً، وآخر يبقى سَنَةً أو مليارات السنين في العذاب، وبعد ذلك يدخلون إلى جنة... ولكن كلام الآية هنا في مرحلة الحساب وقبل دخول الجنّة.

المنافقون بينهم منافقون من الدرجة الخفيفة، وهؤلاء تجري عليهم الشفاعة، فإن نالوها يمرّون من ذلك الباب إلى حيث الرحمة ليدخلوا الجنّة...

في فترة نزول القرآن لم يكن دَارِجاً في مكة والمدينة ولا عند عموم العرب، إغلاق مداخل بيوتهم بلوح خشبي أو عصيان خشبية... فكانوا يضعون قُمَاشاً أو جلد حيوان أو لا شيء على مدخل البيت، وكانوا يعتمدون أَحْيَاناً بناء البيوت بممر مُلْتَوٍ بين المدخل الأساسي والغرف الداخلية لحمايتها من إمكانية رؤية ما فيها من المدخل... وترى من أثر ذلك إلى الآن أننا نقول "باب" لفتحة الدخول إلى البيت أو الغرفة "أو الخيمة"، ونفس الكلمة نقولها للوح الخشب أو الحديد... الذي نسدّ به المدخل، وهناك كلمة عربية مستعملة في أشعار العرب قبل الإسلام يبدو أنها تشير لما نسدّ به الباب وهي كلمة: رتاج.

بِتَذَكُّرِ كلمة نافذة يسهّل علينا فهم كلمة باب، فالنافذة هي عموم الفتحة وليس ما يسدّ الفتحة، وبالأصل فالنافذة مَادِّيّاً عموم الممر الصغير كمعبر أو إطلالة... وَمَعْنَوِيّاً عموم الوسيلة للاطلاع أو التواصل مع شيء... والباب مَادِّيّاً هو عموم الممر الواسع للوصول إلى الشيء، وَمَعْنَوِيّاً هو الوسيلة للوصول لشيء. على كلّ حال سَرِيعاً درج بين الناس وضع "رتاج" لبيوتهم قبيل وفاة النبي(ع) بقليل بحسب ما يبدو من التاريخ.

ترى في القواميس فِقْدَاناً للدقة للتفرقة بين كلمة باب ورتاج ومغلاق، وكما يبدو وَاضِحاً استسهل الناس التوسعة في استعمال كلمة باب "ونافذة..." التي هي أَصْلاً واسعة التطبيقات لمعناها فاستعملوها لتشمل عموم الممر وما يسدّ الممر، فألغوا كلمة رتاج ومغلاق من الاستعمال.

تجد في الأشعار قبل الإسلام وفي بعض ما وردنا من كلام عن الجيل الأول من المسلمين أن بعضهم استعمل كلمة رتاج ليشير إلى ما نسدّ به الباب. وصرت تعلم أن كلمة رتاج لم تكن دارجة بكثرة بين الناس لأنهم لم يكونوا يَسُدُّونَ أبواب بيوتهم به، وكانوا يرونه في القصور والبيوت الكبيرة، ولهذا ظنّ بعضهم أن الرتاج اسم للباب "المغلاق" الكبير فقط، أو للباب "المغلاق" الصغير في الباب الكبير الذي يرونه على مداخل القلاع والحصون، وهذا ما ذكره بعضهم في القواميس.

لاحظ شَيْئاً مُهِمّاً، الآية هنا من نوادر الآيات التي تريك تَفْصِيلاً في ترتيبات ساحة أحداث الحساب في الآخرة، وهي تفاصيل تراها في سورة الأعراف بكلامها عن رجال على الأعراف... فالمشهد هنا في مرحلة ما من بعد يوم القيامة، وأثناء فرز المؤمنين المنافقين... وفرز المنافقين... يتم وضع حاجز يحصر المنافقين لِوَحْدِهِمْ في جهة التعاسة... والمشهد مشابه لما عرضته الآية 50 من سورة الأعراف "وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ"، فهذه الحادثة ستقع أثناء الحساب وقبل دخولهم للجنة والنار.

(يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ {14})
ينادونهم، يتوجّه المنافقون والمنافقات "من خلف السور" بكلامهم للمؤمنين: ألم نكن معكم؟ كنا محسوبين نحن وأنتم أننا معا مسلمون.

قالوا، فردّ المؤمنون: بلى، نفي لجملة ألم نكن معكم، فبالتأكيد كنتم معنا، ولكنكم فتنتم أنفسكم، فتغيّرت أنفسكم "للأسوأ" بعد تعرّضكم للأوامر الإلهية، وبالتحديد بعد تعرضكم لأمر الإنفاق لم تنجحوا في هذا الاختبار.

وتربصتم، حين سمعتم الأوامر الإلهية لم تبادروا إلى تنفيذها بل تربّصتم وانتظرتم حصول شيء ما تتوقعونه أن يحصل حتى يعفيكم من تنفيذ الأوامر الإلهية، توقّعتم إلغاء الأمر بالإنفاق أو نسيانه، أو أن ينفق الآخرون وتنتفي الحاجة لإنفاقكم أنتم من مالكم، أو...

وارتبتم، أصابكم الريب بهذا الدين، من دون أي دليل ولا برهان ولا أي شيء منطقي عقلاني حصل عندكم إحساس بأن الأوامر الإلهية لم تقنعكم، طبعاً ليس لأن أوامره تعالى فيها مشكلة بل لأنهم لم يحبّوها بسبب سوء في فكرهم ونفسيتهم.

وغرتكم الأماني، فالأمنية هي الرغبة في حصول شيء أصلاً تستبعد حصوله، والكلام هنا عن أمنيتهم بدخول الجنّة وفي نفس الوقت هم لا ينفقون! ومثلما يخطر ببالنا أني عندما يصير معي مئة مليون دينار سأتصدّق وأجعل كل من حولي سعداء، بينما المطلوب منك الإنفاق مما تستطيع الآن وليس انتظار تحقّق أمنياتك! فهي تغرّك فتخدعك بشيء غير صحيح، فما أجمل فكرة حصولي على الملايين والتبرّع ببعض منها... فأمثال هذه الأماني غرّتهم ولم ينفقوا.

حتى جاء أمر الله، خرجتم من الحياة الدنيا ولم تنفذوا أوامره تعالى بسبب الفتنة والتربّص والريبة والأماني... حتى حصل معكم ما يريده تعالى أن يحصل، مُتُّمْ وانتهت الدنيا وانتقلتم للآخرة، وغرّكم بالله تعالى الغرور، فانخدعتم بشيء غير حقيقي، فالحقيقة أن نطيعه تعالى فننال الثواب والرحمة "والنور"، وغير ذلك فهو الغرور، الاغترار، نعصيه

سبحانه ونقول سيسامحنا ولن يحاسبنا لأننا من الموحّدين وأحياناً نصلي ونصوم، وأحياناً لا ننفق على المحتاجين... ولكننا أحسن بكثير من الآخرين الذين أصلاً لا يؤمنون بهذا الدين...

هذا كلام فارغ اغترّوا به ولم ينفعهم كما ترى من المشهد الذي تنقله السورة عن نهايتهم في الآخرة لجهة العذاب.

(فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ {15})
{فَالْيَوْمَ}، في هذا الزمن الذي قمتم فيه من الموت لتتحاسبوا، {لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ}، أيها المنافقون والمنافقات، {فِدْيَةٌ}، الفدية هي عموم أي شيء تقدّمه كبدل يقبله الآخر ويمنع عنك حصول شيء سيئ لك، وهنا المقصود المال الذي تدفعه كفداء تفتدي به من شيء، فلنقل إنّ عليك عقوبة السجن لجرم ما، وعرضت عليهم أن تدفع لهم مبلغاً من المال حتى يلغوا عقوبة السجن، فتكون افتديت بمالك من العقوبة، وفي يوم القيامة لا يمكنك دفع فدية بدلاً من العذاب، أصلاً ليس معك ما تدفعه.

لا يؤخذ فدية من المنافقين، {وَلَا}، يؤخذ فدية، {مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، من الذين أنكروا هذا الدين من أساسه.

لاحظ أن تركيز السورة على الإنفاق في سبيله تعالى، فمن لم ينفق سيتحاسب على ذلك، وما لم ينفقه هنا في الدنيا فلن يستفيد منه ولن ينفعه في يوم الآخرة ليستخدمه كفدية، وتساوي الآية المنافق مع الكافر، فالكفار أصلاً لم يؤمنوا بهذا الدين حتى ينفقوا في سبيله تعالى، والمنافقون في هذه النقطة متساوون مع الكفّار.

{مَأْوَاكُمُ}، لكم مكان محدّد لتكونوا فيه، مسكنكم أيها المنافقون والكافرون، {النَّارُ}، {هِيَ مَوْلَاكُمْ}، أنتم تابعون لها وهي تلي أموركم، فيها إقامتكم وشرابكم وطعامكم، {وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}، النار موصوفة بأنها أسوأ ما تصير إليه الأمور، كأتعس نهاية ونتيجة.

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ{16})
{أَلَمْ يَأْنِ}، ألم يَصِرِ الوقت المناسب، {لِلَّذِينَ آمَنُوا}، للذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ}، يَشْعُرُونَ من داخلهم من مركز فكرهم ومشاعرهم بالضعف وفقدانهم للقدرة، {لِذِكْرِ اللَّهِ}، حين يذكرونه ويستحضرونه تعالى في فكرهم أو قولهم أو عملهم، أو حين يسمعون، {وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ}، من كلام صواب صحيح وهو هذا القرآن، ألم يحن الوقت لتخشع قلوبهم؟

بعبارة أبسط: ألم يحن الوقت ليشعروا بالضعف أمامه تعالى حين يحضر سبحانه في فكرهم، أو حين يسمعون القرآن؟ فحالة الخشوع هي الحالة المفترضة للمؤمنين، وهم من المفروض أنهم آمنوا، فلماذا لحدّ الآن لم تحصل معهم حالة الخشوع؟

{وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ}، الذين أعلنوا انتماءهم لدينه تعالى جاءهم كتاب "وهو القرآن" ومن المفترض أن يخشعوا حين يقرؤونه أو يسمعونه ولا يكونوا كالذين سبقوهم من الناس الذين جاءهم كتاب إلهي كاليهود والنصارى وهم لا يخشعون، {فَطَالَ}، زَادَ وَأَتَى بعده، {عَلَيْهِمُ}، على أهل الكتاب الذين قبلنا، {الْأَمَدُ}، المدّة، مرّ زمن "طويل" على نزول الكتاب الإلهي عليهم، {فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ}، لم تعد قلوبهم تخشع، فقد الكتاب الإلهي هيبته وقيمته عندهم بسبب طول المدّة بينهم وبين زمن نزوله، صار كلامه عن الإنفاق من التراث، من المثاليات التي نقول عنها إنها جيّدة ولكن لا نشعر بضرورة تطبيقنا لها...

{وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ}، من أهل الكتاب، {فَاسِقُونَ}، خارجون عن أمور علنية قالها الدين، فانتبهوا أن تكونوا مثلهم فاسقين.

تَصَوَّرْ نفسك في وقت نزول القرآن أو التوراة والإنجيل، فسيكون له تأثير أكبر عليك من حالتك الآن وقد صار القرآن والتوراة والإنجيل كتباً عادية منتشرة كأنها من تراث تاريخ الحضارة البشرية، بل وبعض الناس يشكّكون في أصل نزولها من عند الإله سبحانه، وبشكل عام حتى التابعون لتلك الكتب فهم لا يشعرون بالخشوع والاحترام والقداسة لتلك الكتب، فلا تكونوا مثلهم أيها المؤمنون بهذا القرآن.

سيأتيك في الآية 26 بعض التفصيل عن الامتداد التاريخي لهذا الدين مروراً بالذين سبقونا من أهل الكتاب...

السورة تركّز حديثها عن الإنفاق في سبيله تعالى وتوجّه كلامها للذين يقولون إنهم آمنوا، وهم من نسمّيهم نحن بالمسلمين، وبعضهم فعلاً ملتزم بأوامره تعالى وخاشع، وقد ذكرت السورة أجره وكرامته، وبعضهم الآخر وصفته السورة بالنفاق وذكرت آخرته السيئة... هنا تعيد الكلام مع جميع من أعلن أنه من الذين آمنوا، وبتعبيرنا الحالي السورة تتحدّث مع عموم المسلمين وتنبّههم من قساوة القلب.

قارن ما تقوله الآية مع المجتمعات المسلمة التي اختفى فيها الالتزام الديني، فلا مصلين ولا صوّامين ولا مزكّين ولا محجبين... فقد قست قلوبهم على الالتزام بالدين، ثم ظهر شخص ملتزم بينهم، ينهى عن الغيبة والغش والفحش والربا و... فهذا يشبه حالة النبي محمّد(ع) بين الكفّار، وتشبه حالته(ع) بين الجيل الأول من المسلمين الذين مضى عليهم سنوات من الالتزام وصار روتينيّاً، طبعاً ليس الكلّ بل من توجّهت إليهم هذه السورة بالكلام، فقد تقول إنّ النبي محمّداً(ع) كان حيّاً بينهم، بل هو بنفسه نقل لهم هذه السورة، فأين طول الأمد؟ فانتبه أن طول الأمد للشخص في حياته، فأنا آمنت والتزمت من سنة، من سنتين، من ثلاث أربع خمس... سنوات، فهذا أمد بالنسبة لي ولك، وقد يقسو قلبنا بعد شهر من إعلاننا الالتزام، وكما ترى فالسورة تتحدّث مع الذين أعلنوا أنهم ملتزمون بهذا الدين ولكنهم لا ينفقون في سبيله تعالى، وهم من الجيل الأول من الذين آمنوا، فلا تتعامل مع التاريخ بجفاف، وتصبغ الجيل الأول من المسلمين كلّه بالقداسة، وتميّزه عن الحالات التي تمرّ فيها مختلف المجتمعات من الرفعة والانحطاط وانتشار الرذيلة والعفاف والتدين والعلمانية... فحتى لو كان الرسول محمّد(ع) بينهم، فكما ترى من السورة هنا ومن غيرها، فهم مثلهم مثل غيرهم من المجتمعات فيهم الصالحون وفيهم الفاسقون والمنافقون.

لاحظْ أن بعض الروايات التفسيرية لهذه الآية قد قطعتها عن السورة فلم تعد مناسبة لمجيء هذه السورة بعد الفتح، فقيل إنّ الآية هنا نازلة في بداية الدعوة أو في بداية الهجرة... وكما ترى فليكن هذا النوع من الروايات محكوماً صحّته بما يقوله القرآن وليس العكس، فبكل وضوح ترى الآيات في السورة هنا تنساق وتنسجم مع بعضها وهي تتناول محوراً واحداً، مما يشير إلى نزولها دفعة واحدة وفي يوم واحد.

بقي شيء، فعادة في أدبياتنا حين نذكر الآيات التي تتحدّث عن كفر وفسق ونفاق الذين سبقونا من أهل الكتاب من يهود ومسيحيين، فنذكرها للتقليل من قيمتهم، بينما ذكرها القرآن لتصويب دينهم، وحتى لا نصير مثلهم، وكما ترى، فلا هم صوّبوا دينهم، ونحن صرنا مثلهم، وبالتالي فكل الكلام القرآني عن سيئات أهل الكتاب، صار مطبّقاً علينا، فحين تذكر آية تريد فيها التقليل من قيمة الآخرين المنتمين لدينه تعالى، فتذكّر أنها صارت تنطبق على جماعتك...

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ{17})
يا أيها الذين آمنوا ولم تخشع قلوبهم: اعلموا أن الله، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، يحيي الأرض بعد موتها، فحين يموت كلّ شيء تَرَى الأرض ولا حياة عليها، لا كائنات تتفاعل وتنفعل فيها لتنمو وتتكاثر، اللهُ تعالى يعطيها الحياة، فإن نسيتم هذا وقست قلوبكم فتذكّروه، لأنكم ستموتون وسيحييكم تعالى ليحاسبكم فاخشعوا...

{قَدْ بَيَّنَّا}، وَضَّحَ تعالى، {لَكُمُ الْآيَاتِ}، الأشياء المميزة بدلالتها، أنتم أمام أعينكم ترون الأرض تكون ولا حياة عليها، وبعدها يصير عليها نبات وحيوان، مِنَ الواضح أن دورة الحياة والموت تحت سيطرة أحد ما، ها يخبركم صاحب الاسم المحدّد "الله" أنه هو المسؤول عن منح الحياة وأخذها، وكمؤمنين تعلمون أن الكلام هنا عن إعادته تعالى لإحيائكم من الأرض في الآخرة، بيّن لكم هذا الشيء بشكل واضح، {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، مِنَ المفروض ومن المتوقّع أن تستوعبوا الكلام لأنه واضح، مِنَ المفروض ومن المتوقّع أن تفهم عقولكم ما يحصل، لا يكون فكركم واعتقادكم وكلامكم كالحمقى، فأنفقوا لأنه أمر إلهي وأنتم سيأتي عليكم زمن يعيد فيه تعالى إحياءكم من الأرض ليحاسبكم.

تذكّر دائماً أن عامّة كلامه تعالى عن نماذج حالات، هناك من يموت في البحر، أو في الفضاء أو يتبخّر... ولكن الغالبية عادة يموتون على الأرض، الكلام هنا عن إعادة إحيائنا من الأرض مجرد نموذج، مثله مثل كلام بعض السور عن إحيائنا من الأجداث أو من القبور... والآية 148 من سورة البقرة عامّة شاملة لكل من مات كيفما وأينما حصل موته "...أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ".

(إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ{18})
{إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ}، شدّة على الصاد والدال، يعني المتصدقين والمتصدقات، الذين يقومون بعمل الصدقة وهو إعطاء المال والطعام والثياب... لمن يحتاجها من دون أي مقابل، {وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً}، اعتبروا إنفاقهم قرضا يعطونه لله تعالى وسيردّه سبحانه لهم بكل سهولة في الآخرة، وكان قرضا حسنا لَمْ يكن فيه منّة أو كبرة أو تعالٍ... على المحتاجين، ولم يكن من فضلات طعامك الذي لم يعجبك... ومن الأغراض الخربة التي سترميها... هؤلاء، {يُضَاعَفُ لَهُمْ}، القرض سوف يردّه تعالى لهم زَادَتْ قيمته مرّة واحدة على الأقل، {وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ}، سيشعرون بالاحترام والمكانة العالية عندما يأخذون ما حدّده تعالى كشيء يستحقونه منه تعالى على إنفاقهم.

مَنْ تصدّق بتفاحة لا يحصل على تفاحتين، أو على عشر تفاحات أو بستان تفاح، لا، بل أَجْرُ الصدقة بتفاحة في سبيله تعالى بنيّة إقراضها له تعالى، فهو على المقاييس الإلهية لردّ القرض، عَلَى الأقل سيكون قصوراً وبساتينَ... وهذا المثال للتقريب فقط لَمْ يَرِدْ في القرآن تفاصيل بهذا الشكل البسيط، ولكن حتى نفهم أنه بمجرد اعتباره تعالى لعمل صالح قمت به أنه حسنة عليها أجر، فسيتضاعف الأجر لأنه سيصير على مقياس إلهي، من تفاحة أَعْطَيْتَهَا لمحتاج بنية صافية للقربى منه تعالى واعتبرتها قرضاً يردّه لك تعالى في الآخرة، تتحوّل تلك الصدقة إلى قصر وحديقة و... طَبْعاً هذا الكلام عن ثواب التفاحة بقصر هو لتقريب الفكرة، والمضاعفة بأكثر من ذلك تحصل كلما صفيت نية القربى له تعالى أكثر، فتصير حدائقَ وقصوراً...

الأجر الكريم مقابل القرض الحسن، تَصَوَّرْ نفسك لا تتعامل مع الفقير، بل تتعامل معه تعالى، تُعْطِيهِ تعالى قرضاً ليردّه لك مضاعفاً، مَاذَا ستعطيه؟ هَلْ تعطيه عزّ وجلّ من فضلات طعامك التي ليس لك نفس لأكلها! أم من الفاكهة العفنة الخربة! أم من ثيابك الممزقة! هَلْ تعطي الله تعالى من هذه الأشياء!؟ وفي المقابل حِينَ يستقبل تعالى قرضك الحسن، ويعطيك أجرك، فستشعر بأنك كريم محترم ولك مكانة عالية، سَيَجْعَلُكَ سبحانه تشعر بأن قيمتك فوق الريح وأنك مهم جِدّاً... طَبْعاً هذه الكرامة لأنك بكرامة تصدّقت وَأَقْرَضْتَهُ تعالى.

تذكّر أن لا تفسّر عبارة القرآن بـ "القرض الحسن" عن إقراضك أنت للناس، هُنَا السورة فقط تتحدّث عن الإنفاق في سبيله تعالى وَتَعْتَبِرُهُ قرضاً لله تعالى وسيردّه سبحانه لك في الآخرة، عِلْماً أن إقراض "تديين" المؤمنين عمل عليه أجر كبير، ولكن السورة لم تتحدّث عنه، دَرَجَ في ثقافتنا تفسير هذه الآية على الإقراض للناس، فانتبه من ذلك.

مِنَ استعمال القرآن والعرب قديماً لكلمة قرض ودين... تبيّن لي أن القرض نوع من الدين بحيثُ إنَّ من أخذه يكون ميسوراً عليه ردّه فيما بعد، ولم يستعمل القرآن وصف ما نقدّمه في سبيله تعالى أنه دين، بل قرض، وذلك للدقّة بأنه تعالى يردّه بسهولة.

ضع في بالك دائماً أن تعابير القرآن لا تشير إلى فرض واجب عليه تعالى بإدخال المؤمنين إلى الجنّة، وبالتعبير الدقيق قَرَّرَ تعالى إدخال المؤمنين العاملين للصالحات إلى الجنّة، وبتعبير متساهل فيه ودارج ولكنه غير دقيق، أَوْجَبَ سبحانه ذلك على نفسه. كَلِمَةُ "أَجْرٍ وأجرة..." بالنسبة لاستعمالنا نحن لها فيما بيننا تتضمّن أنك تعمل لي ويجب عليّ دفع الأجر لك، أمّا بالنسبة له تعالى فمن فضله حدّد أجراً لمن آمن وعمل الصالحات، حَدَّدَ ما سينالونه على ذلك، وبعد هذا القرار الإلهي يصير وصف الحالة أنهم سينالون ما يستحقونه مما حدّده تعالى، لَهُمْ أجرٌ... لَيْسَ واجباً عليه تعالى ولا بأي شكل مجازاتهم بالجنّة ولا بأي شيء آخر، ولهذا المعنى جاء التعبير "بغير حساب" في عدة آيات حتى لا نفهم أن لهم حساباً فرضاً واجباً عليه تعالى، كما في الآية "لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ"، وترى هذا المعنى بوضوح في وصف دخولهم الجنة من فضله تعالى كما في الآية 35 من سورة فاطر "الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ...".

(وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ{19})
{وَالَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا اعتقادهم {بِاللَّهِ} تعالى رباً إلهاً أحداً... {وَرُسُلِهِ}، اعتقدوا بهم كناقلين للكلام الإلهي، {أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ}، في مقابل المكذبين الذين لم يصدّقوا به تعالى وبرسله، {وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ}، الذين يعيدون

الكلام حول ما شاهدوه أمامهم أو ما حدث معهم سيتحدّثون عنه أمام المسؤول عنهم من مستوى إلهي، يَشْهَدُونَ أن الدين كان واضحاً، وأوامره واضحة...

الصديقون والشهداء، {لَهُمْ أَجْرُهُمْ}، هُنَاكَ شيء حدّده تعالى كاستحقاق لهم على إيمانهم وعملهم الصالح وسينالونه، {وَنُورُهُمْ}، الذي مرّ معنا قبل قليل وهو انكشاف المساحات أمامهم في يوم القيامة وما بعده بسبب ملاحقة النور لهم كيفما تحرّكوا، لا يحتاجون لضوء الشمس أو ضوء النار أو أي مصدر للضوء، بل هم يصدر منهم ويصير حولهم نور وهو انكشاف الأشياء أمامهم يَرَوْنَهَا بوضوح.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا}، أَنْكَرُوا الله تعالى ورسله، {وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}، الأشياء المميزة التي عرضها تعالى لهم ليؤمنوا كَذَّبُوهَا وقالوا إنها ليست مميزة ولا تدلّ على الإيمان به تعالى ولا برسله، {أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}، هُمْ مع بعض في المكان الموصوف بشدّة سوء ما فيه، فِيهِ النار والعذاب النفسي والجسدي بشكل عظيم.

تذكّر دائماً أن ما هو دارج بين الناس من تخصيص كلمة شهيد القرآنية للمقتولين في سبيل الله تعالى هُوَ غير صحيح، وترى في الروايات أن هذا المعنى دَرَجَ بين الناس منذ الأيام الأولى للمسلمين وبدراسة التاريخ ترى أن الرسول(ع) نَبَّهَهُمْ ومن حظي بالعلم من الصحابة أيضاً نبّهوا البقية على هذا الخطأ... ولكنها درجت وبقيت دارجة! ويمكنك أن تنظر إليها كنموذج عن تهاون الناس في الأمور الدينية على مزاجهم، ويمكنك أيضاً رؤية سخافة الناس فيما يريدون أن يجعلوه مهماً جداً على مزاجهم، ترى أُنَاساً يعلنون كفرهم بالدين وبالآخرة "شيوعيين علمانيين بعثيين ليبراليين قوميين..." ولكنهم يسمّون قتلاهم في المعارك: شهداء! أمّا ما هو أصل الكلمة وما المقصود منها فلا يهمّ! المهمّ إنها كلمة رنّانة لوصف القتيل! ومهما حاولت فلن تفلح في تصحيح استعمال هذه الكلمة، هِيَ رنّانة وجذّابة أكثر من كلمة "قتيل"، وعامّة الناس لا يهمّها الصحّ والخطأ، الصحيح هو ما يناسب مزاجهم، رَأَيْنَا العديد من حالات الحمق بتسمية لصوص ماتوا أثناء قيامهم بالسرقة شهداء، وَمُتَعَاطِي مخدرات وخمور ماتوا بحوادث سير ووصفوهم بالشهداء، وعصابات أو شبّان من الأسوأ أخلاقياً ومن أسفل درجات الإنسانية ماتوا من عراك بين بعضهم على باطل بباطل من عنتريات وقتال لطواحين الهواء... ولهم صور بطول البنايات مكتوب عليها أنهم شهداء... لا علاج لهذه النوعية الفارغة من الناس المصابين بمرض الكبر والزهو والافتخار على الآخرين حتى بالباطل بادّعاء وصف الشهداء لموتاهم!

سَتَرَى فيما سيأتي كلام عن مزاجية الناس حول موضوع الإنفاق... فلنتابع.

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ{20})

{اعْلَمُوا}، خذوا عِلْماً أيها الناس وبالخصوص يا أيها الذين آمنوا، {أَنَّمَا}، فقط، {الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}، التي أنتم فيها الآن هي، {لَعِبٌ}، تمضية للوقت بأمور غير أساسية بقصد التسلية، {وَلَهْوٌ}، تضييع الوقت والجهد بأمور غير مُهِمَّة مع وجود أمور مُهِمَّة لتقوموا بها.

{وَزِينَةٌ}، فيها ما يجعلكم تبدون أجمل، من ثياب جميلة ومصاغ من المعادن...

{وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ}، تعتبرون ما لديكم من صفات وأشياء أعلى وأفضل من صفات الآخرين وما لديهم.

{وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ}، نسعى ليكون لدينا أموال وأولاد أكثر من الآخرين...

كل هذا الذي تحبونه في الحياة الدنيا وترغبونه من هوايات وتسلية وتمضية للوقت والشعور بالتميز وحب الاقتناء... كل هذه الأمور التي تجعلكم تشعرون بالسعادة والراحة:

{كَمَثَلِ غَيْثٍ}، يشبه حالة حصولكم على النجدة من بعد مأزق أو وضع حرج، وهي كلمة نستعملها غالبا للمطر الذي لولا نزوله لكنا في حالة حرجة وفي مشكلة من العطش وَرَيِّ النبات... ويغيثنا وينجدنا وينقذنا المطر، وهذا الغيث، {أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ}، المنكرون لهذا الدين يعجبهم النبات الذي خرج بسبب نزول الماء، وهو شيء غير عادي راق

لهم، والتعجب هو عموم رؤيتك لشيء أنه غير عادي سواء راق لك أو نفرت منه. والمؤمنون أيضا يعجبهم نبات الغيث ولكن تركيز الكلام هنا مع من أصابه الإعجاب بذلك ونسي الآخرة.

بالنسبة للتعبير بنزول الغيث، فهناك حالات زراعية "قمح، شعير، شجر..." يكفيها نزول كمية كبيرة من المطر لمرة واحدة، وهناك نباتات تحتاج لمرتين أو ثلاث أو أكثر... والخضراوات تثمر وتنتج من المطر من دون رَيٍّ إذا كانت طبيعة التربة والبيئة مناسبة... وعلى كل حال الينابيع والأنهار والبرك تتغذى من الغيث، فنزول الغيث لمرة واحدة أو لمرات هو ما تشير له الآية كمثال عن حالة مُسَبِّبَة لما يعجبنا من نمو للنبات من المطر.

{ثُمَّ يَهِيجُ}، يصل النبات إلى الذروة، ويصل إلى آخر نموه، {فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا}، تعقيبا على الحالة السابقة تصير عندك صورة مُحَدَّدَة له بلون الصفار لأن عمره انتهى، {ثُمَّ يَكُونُ}، النبات، {حُطَامًا}، لا يعود على كيانه، يجف ويتكسر ويصير مجرد خشب وعيدان وقش يابس.

اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثر، هذه العناوين التي تشمل كل ملذات ورغبات الحياة، يشبهها تعالى كمطر نزل ونما منه نبات على التمام، وأعجب المؤمنين ولم يتعلقوا به ولم يعتبروه نهاية السعادة، وأعجب الكفار فتعلقوا به ونسوا الآخرة، ولكن كما أن النبات يصل إلى آخر عمره فيصفر وييبس ولا يعود يعجبنا، فكذلك اللعب واللهو والزينة... سنصل فيه إلى مرحلة المرض والشيخوخة ومشاحنات من حولنا وإزعاجهم... وفي الأخير موتنا وفقدان كل شيء...

{وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ}، لمن أعجبه نبات الغيث ونسي الآخرة، سيصيبه ضرر لا يمكنه تحمله أو الاعتياد عليه.

{وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ}، تجاوزه سبحانه عن السيئات، مسامحة ومسح لذنوب من أعجبه نبات الغيث ولكنه لم ينس الآخرة، وفي الآخرة، {وَرِضْوَانٌ}، إعلان الرضا وإعلان قبوله تعالى لهم ولأعمالهم بمحبة.

إذاً، كل ما بين أيديكم وبأقصى ما يمكن أن يكون من ملذات ولهو وسعادة، فهو مثل النبات، سيهيج ليخضر ويزهر ويثمر... ويصفر ويتحطم، ولن يبقى لكم، وبعد ذلك مصيركم إما إلى عذاب لا يمكن تحمله "بسبب أعمالكم السيئة" أو إلى مسامحة على ذنوبكم وموافقة على أعمالكم الحسنة.

{وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}، التي أنتم فيها الآن وهي الحياة القريبة في مقابل الحياة الآخرة، ليست، {إِلَّا مَتَاعُ}، شيء يتمتع به فيستفيد منه، {الْغُرُورِ}، من يغتر بها تغشه وتجعله يراها أنها كل شيء ومطلق السعادة ونهاية الفرح ولا شيء بعدها... بالعكس تماما، فهي فقط وفقط حجم سعادتها كبير لمن انخدع بها، وفي الآية التالية سترى مرورا سريعا على ما في الآخرة لترى أن متاع الدنيا لا شيء أمامه.

ننتبه دائما أن القرآن لم يصف ما في الآخرة أنه متاع، ودائما يصف ما في الدنيا من مال وأدوات وأملاك وتسلية ومباهج وأشياء نرغبها... أنها متاع، فهي فقط وفقط شيء نستفيد منه، ودائما يصف الآخرة بأنها هي الحيوان، فهي الحياة الحقيقية، وكمثال عن ذلك مثلما ترى ولدا يلعب بغطاء علبة، وأنت تعلم أن سعادته لا شيء أمام ألعاب الكومبيوتر الثلاثية الأبعاد، وأمام تسالي أخرى... وكذلك الإله سبحانه يخبرنا أن ما في الآخرة هو السعادة الحقيقية فعلا، هنا تلتذ بالطعام، ولكن تأكله عن جوع، وتصيبك التخمة، وتتضرر من السكريات والدهون، وتتسوس أسنانك وتنتفخ بطنك... أما في الآخرة فتأكل فقط لتلتذ بالطعام ولا يصيبك إلا سعادة التلذذ بالطعم فقط لا غير، وبقية الشهوات لا يصيبك منها إلا السعادة بلا تعب ولا ألم ولا ضرر ولا مرض...

فلا تغتر بالدنيا وآمن وأنفق لتحصل على المغفرة ورضا الإله سبحانه عنك.

(سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{21})

{سَابِقُوا}، كلما سنحت لكم الفرصة بادروا، {إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ}، المسؤول عنكم من مستوى إلهي يتجاوز عن سيئاتكم فيسامحكم عليها، اغتنموا أي فرصة للحصول على ذلك، وبادروا إليها بأسرع ما يمكنكم. عملياً تكون المسابقة بالمبادرة إلى الإنفاق فوراً على الذي علمت أنه يحتاج للمساعدة، وبالمبادرة إلى الصلاة في أول وقتها، والمبادرة

لأعمال الخير والحسنات في أول فرصة سانحة... حيث إن عليك ذنوباً وأفضل شيء تفعله هو المسابقة في عمل الصالحات، فهي فرصة اغتنمها لِتُغْفَرَ ذنوبك.

وسابقوا إلى {جَنَّةٍ}، مكان موصوف بروعة ما فيه، فيه حدائق وبساتين وما يسبب السعادة، {عَرْضُهَا}، وساعتها وكبر حجمها، {كَعَرْضِ السَّمَاءِ} "آخر سماء" {وَالْأَرْضِ}، {أُعِدَّتْ}، جرى إعدادها وتجهيزها وتحضيرها، {لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ}، للذين أعلنوا اعتقادهم بالله تعالى إلههم الواحد الأحد بصفاته وأسمائه الحسنى... {وَرُسُلِهِ}، آمنوا بأشخاص الرسل الذين نقلوا كلامه تعالى، إذ يقول أحدهم إنه يؤمن بالله ولكن لا يؤمن برسله كلهم، أو أنه يؤمن بهذا الرسول ولا يؤمن بذاك... طبعاً هناك تفاصيل كثيرة لهذا الموضوع، مشكلة المشركين أنهم يؤمنون به تعالى ويشركون به ولا يؤمنون برسله، واليهود مؤمنون وموحدون له تعالى ولكنهم لم يؤمنوا بالرسول عيسى(ع)، ومشكلة اليهود والمسيحيين أنهم لم يؤمنوا بالرسول محمد(ع)...

تعبير الإيمان بالله تعالى ورسله، مضافاً له تعبير الأمر بالمسارعة للمغفرة والجنة، يصير مرادفاً للتعبير القرآني المتكرر: آمنوا وعملوا الصالحات.

{ذَلِكَ}، الذي ذكرناه لكم من المغفرة والجنة، {فَضْلُ اللَّهِ}، ليس فرضاً واجباً عليه تعالى أن يغفر لكم أو يدخلكم الجنة بل من فضله تحصلون على ذلك، {يُؤْتِيهِ}، يحصل على هذا الفضل، {مَنْ يَشَاءُ}، من بين الخيارات العديدة أخبرنا سبحانه أنه شاء، وقرر واختار منح الجنة للمؤمنين العاملين للصالحات، {وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}، صاحب هذا الاسم المُحَدَّد المُمَيَّز منسوب له صفة الفضل، وهي صفة تقديم أشياء جيدة للآخرين من دون أن تكون فرضاً واجباً عليه سبحانه، وتقديماته سبحانه توصف بأنها عظيمة بأنها من أعلى المواصفات، كالمغفرة والجنة التي بعرض السماوات...

ضع في بالك أن كلمة عرض تعبر في جملتنا هنا عن الوساعة فقط، فهي ليست حصراً للاستعمال في مقابل طول، وبالأساس هي على معنى عرض الشيء ليظهر أو أظهر الشيء الذي يُتَوَقَّع أنه محل الاهتمام، كالمعروضات على الواجهة... وفي حياتنا العادية نكتفي بالتعبير عن المساحة الكبيرة بالعريضة، بدون أن نقول طويلة، وهكذا عبر العرب قديماً في كلامهم، وهكذا يعبر القرآن عن ضخامة الجنة. فلا تسأل عن طولها لأنه مُتَضَمَّن في وصف عرضها الذي يشير للضخامة بحجم السماء والأرض.

السماء وصف لعموم ما علا، ومعلوم من القرآن أنهن سبع سماوات، وما ورد في الآية 133 من سورة آل عمران "وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ"، ليس صريحاً بأن الجنة بوساعة السماوات السبع، ولكن إطلاق الكلام بدون تحديد يجعلنا نفهم أنه يقصد أقصى حد، هنا أشار القرآن بكلمة سماء لعموم ما علا وتعتبر كلمة سماء كاسم نوع، وفي الآية من سورة آل عمران أشار لكل السماوات، مثلما لدينا تعابير عن جنة الآخرة بالمفرد، وتعابير عن جنات، فهي جنة وفيها جنات.

ليس معلوماً إن كانت الآخرة مشابهة للدنيا بالمجرات والشموس والكواكب، وليس معلوماً إن كانت بقية السماوات الآن في الدنيا مشابهة لسماء كوننا بمجراته، وبالتالي ليس معلوماً طبيعة جنان الآخرة كحيز مكان، وبمعطيات الأقدمين تصوروا الجنة أرضاً ممتدة ضخمة، أو كوكباً ضخماً جداً، أو أنهم أصلاً كانوا مكتفين بحجم كوكب الأرض الضخم بالنسبة لعدد البشرية حينها...

الآن نحن بمعطياتنا الحالية عن المجرات التي في كوننا نخمن أن جنان الآخرة كواكب منتشرة في مجرات...

هكذا ترى أن شمساً واحدةً هي أكثر من كافية كمكان لجهنم، إذ تسع لتريليونات من الناس... وهي مجرد نقطة صغيرة جداً جداً في كوننا الذي هو سماء واحدة من سبع سماوات.

لاحظ أن المغفرة والجنة يستحقان المسابقة، وعملياً أحد طرق المسابقة هو محور سورتنا هنا وهو المبادرة للإنفاق في سبيله تعالى كلما سنحت الفرصة. وأثناء مسابقتك إلى المغفرة والجنة ستحصل معك حوادث تفرحك وحوادث تجعلك تأسى... لنتابع:

(مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {22})

{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ}، لم يحصل أي حدث "سيء أو جيد"، {فِي الْأَرْضِ}، من مطر خفيف أو طوفان، من ربيع وثمر أو جفاف وقحط، من ثبات في البيئة أو زلازل، من حرب أو أمان... {وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ}، من مرض أو صحة، وغنى أو فقر... {إِلَّا فِي كِتَابٍ}، تلك المصيبة، وما حدث معكم مُسَجَّل في كتاب، {مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا}، من قبل أن نجعلها تصير حاصلة وتحدث.

{إِنَّ ذَلِكَ}، إن الحصول للمصائب المسجلة في الكتاب، {عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}، وتمشي الأمور براحة كما يريد تعالى، بتعبيرنا الدارج تسجيل ما سيحدث مما صممه تعالى من كائنات وبيئة وظواهر، قبل أن يحدث، هو ليس صعباً بل سهل.

نتذكر من مجمل القرآن كلامه عن كتاب "سماوي" فيه كل شيء، فيه ما حصل وما سيحصل في كل الدنيا والآخرة، وترى ذلك في الآية 59 من سورة الأنعام "وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ"، وحتى القرآن موجود في ذلك الكتاب، وردت عبارة "إلا في كتاب" ست مرات في القرآن وكلها أشارت لما تقوله آيتنا هنا.

لنكمل مع ما تريد السورة طرحه في الآية التالية وبعدها نتناول نقاطاً من هذه الآية:

(لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ {23})
{لِكَيْلَا}، حتى لا، {تَأْسَوْا}، تشعروا بالأسى بشعور سَيِّئ، {عَلَى مَا فَاتَكُمْ}، على ما حصل سَابِقاً وكان سَيِّئاً لكم ولم تستطيعوا تعويضه مما تفقدون من شيء أو شخص أو مال أو فرصة... {وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ}، لا تشعروا بأنكم في أحسن أحوالكم بسبب ما حصلتم عليه من أمور جيدة منه تعالى، {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ}، كل من يختال "يعرض" نفسه وما لديه على الآخرين على أساس أنه مُمَيَّز، {فَخُورٍ}، يفتخر بصفاته على الآخرين، فتقييمه تعالى سَيِّئ لكل من يشعر ويتصرف على أساس أن صفاته وما لديه "أعلى وأفضل" من صفات الآخرين وهم أقل منه.

الأساس أن نعتبر كل ما يحصل معنا في الدنيا أنه بلاء "امتحان" لنا، والهدف هو الحصول على المغفرة والجنة، وخلال الابتلاء تَمُرُّ مَآسٍ وأفراح، لا معنى لتلبسك بحالة الأسى والفرح لأن كل ما يحصل معك هو مُسَجَّل في الكتاب الإلهي، بَدَلَ أن تتفاجأ به، تأسى أو تفرح، خُذْ به عِلْماً من الآن أنه مُسَجَّلٌ سَلَفاً حتى تبقى تصرفاتك طبيعية ولا تُضَيِّع الهدف عن الآخرة، لِيَبْقَ هدفك دائما الحصول على المغفرة والجنة هذا ما نفهمه من تهوين الآية لمصائب الدنيا المقابل هو جنة الآخرة.

نلاحظ أن التشديد على "لا" محبته تعالى للمختال الفخور، وليس للفرح السعيد، تُنَبِّهُكَ الآية من وصولك بفرحك إلى درجة لا يحبك فِيهَا تعالى.

هل كتابته تعالى ما سيحدث معك سَلَفاً ستجعلك فَاقِداً للاختيار لأنك ستسير على حسب ما هو مكتوب؟ هل هي قصة ألفها سبحانه ونقوم نحن بتمثيلها كما كَتَبَهَا سبحانه ولا قدرة لنا على قول أو فعل ما نريد؟ لا، نحن لا نشعر بأننا مجبرون على أعمالنا، أنا أختار ماذا سأقول وماذا سأفعل، وهذا شعور أي إنسان سليم العقل، ولكن يمكنني تَوَقُّع لك إصابتك بالإنفلونزا "الرشح" وأنك ستسعل إذا لم تَتَّقِ البرد، وأتوقع أنك ستشتري الطعام، وستشرب، وستجلس وتقوم وتنام... حَتْماً ستحصل معك عامة الأشياء التي تحصل مع عَامَّة البشرية إلى أن نموت، هذه توقعات كثيرة أستطيع أنا أن أكتبها سَلَفاً لما سيحصل معك بالتأكيد...

ننتقل الآن إلى أقرب الناس إليك، هم سيتوقعون أموراً مُتَأَكِّدِينَ أنها ستحصل معك بسبب درايتهم بنفسيتك وعقليتك، وننتقل الآن إلى مجموعة متخصصين بعلم النفس والاجتماع والإدارة والبيولوجيا... وهم يراقبونك، هؤلاء يمكنهم توقع أمورٍ أَصْلاً لن أتوقعها أنا لك، ويتوقعون أن تعجبك فلانة لتتزوج منها لأنهم يعلمون بما تميل إليه من معايير الجمال عندك... ويتوقعون شكل أولادك من دراسة جيناتك... ويتوقعون نجاح أو فشل مشاريعك...

سبحانه وتعالى لا يتوقع، ولا يخمن، ولا يحتمل، بل يعلم بالتفصيل بكل ما سيحدث، والتعبير عن كل ذلك أنه في كتاب يشير إلى ترابط تسلسل الأمور بشكل محسوم معلوم سَلَفاً له تعالى.

قَارِنْهَا مع الفارق الكبير في الدقة مع توقعات الطقس، ومع توقعات أستاذ لتلاميذه في الامتحانات، ومع توقعات المحللين العسكريين أو السياسيين أو الاقتصاديين... قَارِنْ ذلك للتقريب مع تصميمك لآلة صناعية ينتج عنها طباعة رقاقة إلكترونية لهاتف نقال... سَلَفاً تعلم ما سينتج عن الآلة، وتتوقع القطع التي تحتاج للصيانة أكثر من غيرها... طَبْعاً الفرق هائل بين قدراتنا وقدراته تعالى، وبتعبير مُبَسَّطٍ، سبحانه "من لحظة" تصميمه لما في الدنيا وأمره ببدء خلق السماوات والأرض، مِنْ "تلك اللحظة" يعلم ما سيحدث بالتفصيل الدقيق.

هناك مثل أقرب ولكن يَجُرُّنَا إلى حيث الأمور مُعَقَّدَة أكثر، كمثال ألعاب الكومبيوتر التي فيها شخصيات مُبَرْمَجَة على أفعال مُحَدَّدَة، هذا مزارع وذاك راعٍ والآخر محارب... نحن نتوقع سَلَفاً ما ستفعله تلك الشخصيات المبرمجة، ولحد الآن لا زالت قدراتنا على تقليد الذكاء الإنساني محدودة، ورغم ذلك لن تفاجئنا الشخصيات المبرمجة بعمل شيء لم نتوقعه... الآن لو افترضنا أن دماغنا الذي بحجم جمجمتنا، لو كان بحجم برميل، فماذا سينتج عنه؟ ولو كان أسرع وأكبر من غرفة بيت فماذا يمكن أن نفعل؟ من البديهي أنك انتبهت لما أريد قوله، سبحانه وتعالى بصفات وقدرات فائقة فوق قدرتنا على التصور بل حتى فوق الخيال، بل ولا من قريب أَبَداً بَتَاتاً، لا يمكننا فهم طبيعته سبحانه وتعالى، ومما نراه من أفعاله تعالى الدالة على عظيم قدراته وصفاته نؤمن بما يخبرنا به عن نفسه أنه عالم الغيب، وأنه سجل ذلك في كتاب.

مِنَ المفيد هنا ذكر مثل بسيط عن توقعاتنا نحن لحصول الحوادث مع تمتع فاعلها بحرية الإرادة، وترى ذلك بمثال سيارتين مسرعتين ستلتقيان على مفترق طرق وأنت تراهما من سطح بناية، أنت تتوقع حتمية اصطدامهما ببعض، وهذا ليس لاغياً لإرادة السائقين، ونفس الشيء كل ما سيحدث معنا وكل ما سيحدث في الدنيا والآخرة بالنسبة له سبحانه، مَعْلُومٌ سَلَفاً، وهذا ليس لاغياً لحرية إرادتنا، نحن بالمساحة الممنوحة لنا نختار ما نريده في بعض الأمور، وأما تحليلي لعلمه سبحانه بما سأختاره حتى لو كنت أنا ذات نفسي لا أعلم بما سأختاره، أو عشوائياً أغمضت عيني واخترت شيئاً ما... فَتَحْلِيلُ كيف يعلم تعالى سَلَفاً بهكذا أمور عشوائية... فهو مجال مفتوح للتحليل، وبمعطياتنا الحالية عن الرياضيات العشوائية لدينا تحليلات جميلة لمحبي الرياضيات، وبخاصة ما يسمونه بفازي لوجيك... طَبْعاً هذه مقاربة لنا لما يمكننا استخراجه من معطيات عشوائية، وليس مقاربة لعلمه تعالى بالغيب ذاك شيء إلهي من مستوى مختلف تَمَاماً.

فِيمَا سيأتي من كلام سترى ارتباط ما هو مُسَجَّل في ذلك الكتاب مع إيماننا أو كفرنا، خُصُوصاً في مسألة الإنفاق، فإن أنفقت ماذا سيحدث معي؟ هل ستتغير أحوالي وأحتاج للمال وأتمنى لو أني سَابِقاً لم أنفق وادخرت المال؟ سنرى ذلك في الآية التالية، وسنرى أموراً أخرى من متعلقات علمه تعالى بكل ما سيحصل...

ضع في بالك في عموم ما ورد في القرآن أنه تعالى لا يحبه، وَرَدَتْ حيث لا داعي للكلام القاسي، وخذ مَثَلاً كلامك معي حيث تريد تحذيري وتنبيهي تقول: سأكسر عظامك لو فعلت كذا وكذا... هذه نبرة عالية لا مبرر لها لأنك تعلم أني حالياً لست ناوياً لفعل السوء، والجملة الأنسب: لا أحب أن تفعل كذا وكذا... وعلى هذا المفهوم جاءت الآيات التي وجهت كلامها مع المؤمنين مستعملة عبارة مشابهة لعبارة "الله يحب أو لا يحب".

بقي شيء من الفضول، ما يقولونه عن إعجاز تَكَرُّرِ بعض كلمات القرآن بعدد مُلْفِتٍ، كقولهم عن تكرار كلمة ليل 12 مرة وكلمة نهار 12 مرة... تتبعت غالبية الكلمات التي قالوها ووجدت غالبية كلامهم كَذِباً إلا في أقل من عشر كلمات، ومما تحققت وتأكدت منه كلمة شهر بالمفرد "شهر، شهراً" تكررت 12 مرة، وتكررت كلمة شهر بالمثنى "شهرين" مرتين فقط. كلمة "رجل" بالمفرد تكررت 24 مرة، وكلمة "امرأة، امرأت" أيضاً تكررت 24 مرة. كلمة "يأمرون" تكررت 7 مرات، وكلمة "ينهون" أيضاً تكررت 7 مرات. كلمة "الخبيث" بالمفرد تكررت 7 مرات، وكلمة "الطيب" بالمفرد تكررت 7 مرات. وهناك كلمات أخرى فيها الكثير من التراخي والاستنسابية بحيث يلغون كلمة أو كلمات لسبب غير وجيه ويدعون أن الأعداد متساوية كقولهم عن تكرار كلمة ملائكة والشيطان.

الغريب أن الحالة الوحيدة الصادقة بالتمام والوضوح هي ليست منتشرة في مقالاتهم وكتبهم! فِعْلاً تكررت في القرآن جملة "الله يحب" 16 مرة، وجملة "الله لا يحب" 16 مرة.

لكن، هل هذا يعني أي شيء؟ لا، لا يحتاج القرآن لخزعبلات من هذا النوع ليصير له قيمة أو لنؤمن بأنه من مصدر إلهي، فما فيه من حق وصلاح هو قيمته.

(الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ{24})
الآسون على ما فاتهم الفرحون بما آتاهم، المختالون الْفَخُورُونَ:

{الَّذِينَ يَبْخَلُونَ}، يحتفظون بالمال والأرزاق حُبّاً وَتَعَلُّقاً بها ولا ينفقونها، {وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ}، يقولون لغيرهم من الناس أن يتعلقوا بمالهم وما يملكونه ولا ينفقوا منه، هنا وبحسب موضوع السورة تعلم أنهم يبخلون عن الإنفاق في سبيل الله تعالى وليس الكلام عن البخل على أنفسهم وعيالهم.

بَدَلَ أن يستحوا من بخلهم هم يأمرون غيرهم ألا يُنْفِقُوا! {وَمَنْ يَتَوَلَّ}، مَنْ يذهب باتجاه آخر، لا يهتم بالإنفاق في سبيله تعالى، {فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ}، الذي لا يحتاج لأي شيء بَتَاتاً، لا يحتاج لأموالكم ولا لأي شيء منكم ولا من غيركم، الإنفاق في سبيله وليس له، ولا عليه، ولا ينقصه شيء ليحصل عليه منكم، والله، {الْحَمِيدُ}، كل أعماله محمودة تُوصَف بأنها جَيِّدَة، حين أمركم بالإنفاق لم يأمركم بعمل سَيِّئ عليكم أو على الآخرين، وحين أجرى أصل مسألة صَيْرُورَةِ أغنياء وفقراء... وابتلاء بعضنا ببعض بذلك... هو عمل حميد.

إن كان كل شيء سيحصل معنا مَكْتُوباً سَلَفاً، ولا مهرب منه، وسيحصل سيحصل، فلماذا البخل؟ لماذا الاحتفاظ بالمال الفائض عن حاجتنا؟ ولماذا لا ننفق من أراضينا ومن أملاكنا ومن مخازننا ومن مجوهراتنا؟ وهل ستحميك أموالك من المصائب؟ لا لن تحميك لأن ما هو مكتوب سيحصل معك حَتْماً، سواء أنفقت أم بخلت.

نَتَذَكَّرُ دَائِماً أن الإنفاق يكون مما هو زائد عن الحاجة، لا يأمرك سبحانه بالإنفاق مما تحتاجه أنت في معيشتك وتجارتك وعملك... لا، بل يأمرك بالإنفاق مما هو زائد عنك، وإن قال أحد ما: لن أنفق بل سأدخر "أحتفظ" بالمال الزائد يأتي علي يوم تتغير فيه أحوالي وأحتاجه. هذا هو البخل، والذي أمرك بالإنفاق يعلم بكل ما سيحصل معك، فلو كان احتفاظك بالمال الزائد مُفِيداً لك بَدَلاً من إنفاقه في سبيله تعالى، لما كان سبحانه أمرك بالإنفاق منه لأنه حميد، سبحانه لن يأمرك إلا بما فيه خير لك.

بالنسبة لوصفه تعالى بالغني ليس تفسيرها أنه تعالى يملك كل شيء وبالتالي يصير المعنى أنه سبحانه يملك ما يحتاجه، هذا غير صحيح، كلمة "غني" تفيد معنى الاستغناء، وهو عموم انتفاء عموم الحاجة لعموم أي سبب، إِمَّا لأنك لا تحتاج أَصْلاً للشيء، وهذه حالته تعالى "الغني" بالنسبة لكل شيء، وحالة الملائكة بالنسبة لطعامنا... أو غني لأنك لديك ما تحتاجه وهذه حالتنا حين نملك الطعام والشراب... أو غني لأنك تملك ما يُمَكِّنُكَ من الحصول على ما تحتاج، وهذه حالتنا حين نملك المال لنشتري به ما نحتاجه. وترى هذا المعنى للاستغناء بشكل مباشر وواضح لأصل معنى كلمة "غني" في تعبير {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} كما ورد في الآية 97 من سورة آل عمران، بوضوح يشير الوصف بالغني للاستغناء، لا حاجة له تعالى بهم ولا بإيمانهم ولا يتضرر منهم مهما فعلوا.

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ{25})
بما أن السورة تتوجّه بكلامها إلى الذين آمنوا، ستبدأ من هنا بتنبيههم على أخطاء الذين سبقوهم من المؤمنين من الأمم السابقة، وسيبدو لك من الفقرة هنا أن أهل الكتاب تغيَّر سلوكهم الديني مبتعداً عن دينه تعالى، ورغم ذلك لا يزال سبحانه يعتبرهم منتمين لدينه تعالى وأنهم أهل كتاب إلهي، ويبدو واضحاً أن الفقرة هنا تريك الامتداد التاريخي لدينه تعالى، وبالتالي تريك أن الأمر بالإنفاق ليس جديداً، وأن سلوكيات البخل للمنتمين لدينه تعالى ليست مقبولة... وتصل بعد آيتين إلى حالة بعض أهل الكتاب الذين ترهبنوا بشكل متطرّف جداً وهي حالة إنفاق كلّ ما لديك... وستبدأ الفقرة من الإضاءة على أوامر أخرى وصلتنا منه تعالى غير الإنفاق، وكانت من ضمن مخطّطه تعالى كابتلاء لنا:

{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا}، فوصلكم أيها الناس من ينقل كلامه تعالى لكم، {بِالْبَيِّنَاتِ}، بالأمور الواضحة، فنقلوا كلامه الواضح تعالى بشكل واضح لكم، {وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ}، فكلامه تعالى صار كتاباً كوثيقة ثابتة معكم، وها أنتم أمام

مثال عنه عبر ما تقرأه الآن في هذه اللحظة من القرآن، ومن قبله الإنجيل ومن قبله التوراة بالإضافة للعديد من الصحف التي نزلت على العديد من الأنبياء. ولا تنسَ أن محورية السورة كلامها مع المنتمين لدينه تعالى أن ينفقوا، وهكذا ترى الكلام هنا يشير إلى الكلام الإلهي الذي نقله الرسول محمّد(ع) عبر هذا القرآن عن الإنفاق بأنه كلامه تعالى...

وأنزلنا مع الرسل، {الْمِيزَانَ}، وهو عموم ما تزين به، للوزن "الثقل" أو الحجم أو التقييم الصحّي للدواب أو التقييم الإنتاجي لتراب أرض... والميزان ليس فقط اسم آلة كما هو دارج لما نزين به الأثقال. ومن عموم القرآن نفهم تعبير "نزول" الميزان، بأنه تعالى عندما خلق البشر جعل فيهم ما سيوصلهم لفكرة صنع ميزان، {لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}، حتى تكون حياة الناس ونشاطهم وما يقومون به من أعمال وأشغال، حتى تكون فعالية الناس فيما بين بعضهم حين يتبادلون ويشترون ويبيعون الخضروات والفاكهة والمعادن وغيره... {بِالْقِسْطِ} أي بما هو له بالضبط، بالحصة والنصيب العادل الصحيح، فيأخذ كل واحد حصّته بالضبط عبر استعمال الميزان.

بعبارة أخرى عندما أمرنا سبحانه عبر رسله والكتب التي نزلت بأن نكون مهتدين ونتعامل مع بعضنا بالقسط، فقد أنزل الميزان حتى نستعمله، ونوزن ما نريد بيعه ولا نقدّره على التقريب، ولا نغشّ بالثقل أو الحجم أو القيمة...

{وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ}، والحديد توصيف عام للمعدن فيوصف بأنه حادّ، صلب وقوي، وقد صار اسماً للمعدن المعروف بالحديد، علماً أن عموم استعمال العرب للكلمة كان قديماً لعموم ما هو صلب وقوي، كالسيوف البرونزية والفولاذية... ونقول: نظره حادّ. أي قوي جداً. {فِيهِ}، في الحديد، {بَأْسٌ}، قسوة وعنف شديد، وهذا توصيف للمعارك والحروب التي يتم استعمال الأدوات الحادّة فيها، وتسبّب أثراً قوياً على الجسد، من قتل وقطع وجرح... وأيضاً في الحديد، {مَنَافِعُ لِلنَّاسِ}، ومنه يتم صنع الإبرة للخياطة والسكين لتقطيع اللحم والخضراوات، والمحراث... والسيارات والطائرات والجسور وغيره... {وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ}، نصرة وتحقيق ما يريده تعالى وما تريده الرسل تستلزم في بعض الأحيان خوض معارك واستعمال الحديد، وهناك طرفٌ سيستعمل الحديد ضد الدين الإلهي، والحديد متاح لكل الناس، فمن استعمله لنصرة الله تعالى ورسله، فقد يُصَنَّف بأنه مؤمن ناصر للدين الإلهي.

بعبارة أخرى، الحديد فيه بأس، حيث فيه إمكانية استعماله للشدّة للقوّة للأذية، وهو متاح لكل الناس، ويمكنهم استعماله في الشرّ وفي الخير، أنزله تعالى وأتاحه لنا ليعلم من سيستعمله في نصرة الله تعالى ورسله، وبالعكس أيضاً كما هو واضح من الذين استعملوه ضد دين الله وضدّ رسله، ويعلم تعالى من سيكفر ويحارب الدين بالحديد، ولكن بما أن هذا السيّء لا أهمية له، فقد ذكرت السورة الآخر المدافع عن الحق، وهذا سيظهر عندما يستعمل الحديد لنصرته تعالى ونصرة رسله.

ناصرُ اللهِ تعالى ورسلهِ، لماذا يناصرهم؟ لأنه مؤمن بالحقّ ومدافع عن الصلاح، وهذا ما يقوله هذا الدين عن الحساب والعقاب في الآخرة، والآخرة غيب لم يره، وآمن به، وناصر بسببه، فهو ناصر لله تعالى وللرسل بالغيب، بسبب إيمانه بأمور غائبة عنه.

بعبارة ثالثة، أنزل، وقدَّر وخطط سبحانه في بيئتنا التي سنعيش فيها أن يكون فيها معادن حادة، ويكون البشر قادرين على استعمالها لصنع الأسلحة، وهذا التخطيط يشمل "ابتلاء الناس"، فمنهم من يستعمل الحديد للشرّ وسيتحاسب على ذلك، ومنهم من يستعمله للخير وهو يؤمن بالغيب أي بيوم القيامة والحساب، ولذلك حارب الشرّ، وهكذا سوف يعلم سبحانه من ينصره وينصر رسله ويستعمل السلاح للدفاع عن الحقّ.

على كل حال، سواء قام الناس بنصرة الحقّ أم لا، {إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ}، ولديه القدرة على فعل وتنفيذ ما يريده ولا يقدر أحد عليه عزّ وجلّ، فليس بحاجة لقوة البشر لينصروا دينه، واللَّهُ {عَزِيزٌ}، منفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره...

عندما تقول الآيات بأنه سبحانه يريد أن يعلم من هو المؤمن الحقيقي من المؤمن المزيف، فسبحانه يعلم أصلاً من هو المؤمن الحقيقي من المزيّف، والآية تقصد أنه تعالى يريد أن يظهر الشخص على حقيقته بالابتلاء "بالامتحان"، وهو نفسه التفسير لكل الآيات التي تتحدث عن علم الله تعالى بشيء لم يحدث بعد.

لكن هناك معنى أعمق لهذا الكلام، ففي المدرسة لا نحرم التلامذة الكسالى من الامتحان، رغم علمنا من علاماتهم الراسبة خلال السنة الدراسية، ونعلم "بشكل عام" أنهم لن ينجحوا في الامتحان النهائي، ولكن قد نتفاجأ بنجاح أحدهم! لأنه في الأيام الأخيرة بذل جهداً لينجح، ونتفاجأ بتلميذ مجتهد قد رسب! لأنه في آخر أيامه أهمل الدرس... إذاً، فالامتحان ضروري جداً، والابتلاء الإلهي للبشر لا علاقة له بالعلم الإلهي المطلق العام الشامل لكل ما سيحدث، وسبحانه يعلم بدقة كيف ستكون نتيجة الابتلاء، فلو عاملنا سبحانه على أساس علمه المطلق، لما كان للحياة الدنيا أي معنى، لكان خلقنا ورمى من يعلم أنه كافر في جهنم مباشرة، ولأدخل من يعلم بأنه سيؤمن إلى الجنة بمجرد أن يفتح عينيه على الحياة، فهل لهذا الكلام معنى؟ لا، فيحقّ للشخص الذي دخل إلى النار أن يعترض لأنه لم يمرّ فعلياً بالامتحان! فعلى ماذا يتحاسب؟ وعلم الله سبحانه بشيء لم يحصل بعد، هو علم صحيح، ولكن لا معنى له لو كان في الفراغ، فلا معنى له إذا لم نخرج إلى الحياة، ولم نمر بالبلاء. وحتى يصير هذا العلم حقيقياً لأنه مرتبط بنا، فلا بد أن نمر بالبلاء حتى يعلم الله تعالى فعلاً وفي الحقيقة من منّا سيؤمن ومن منّا سيكفر.

لاحظ أن كلمة "أنزلنا" هنا تجعلك تفهم أن وصول أي شيء لنا من الإله سبحانه فهو إنزال، فالكتب وصلتنا وحياً، والميزان وصلنا عبر بذرة فكرة مزروعة فينا، والحديد وصلنا مع تكوين الأرض... وكل ما لدينا فهو منه تعالى بشكل مباشر كنزول الكتب على الرسل، أو عبر وسائط كنقل الرسل للكتب لنا، أو ما نحصل عليه من بيئتنا للرزق والمعيشة... أو النجاح والثروة من ميراث... أو عبر دفعات وتدرجات كالاكتشافات والاختراعات والغنى من كدّ العمل... وكلّه نزول منه تعالى إلينا.

إذاً، هذه نماذج عن أبرز الأمور التي تمسّ حياتكم وهي من صلب دينه تعالى، فالإنفاق في سبيله تعالى لا يختلف في أهميّته عن الميزان وعن الجهاد في سبيله تعالى، فبماذا ينتفع سبحانه من الميزان؟ وبماذا سينتفع من الحديد وبأسه؟ لا شيء، فالناتج عنهم أمور تنتفعون أو تتضررون بها أنتم، فهل تناقشون في ضرورة اعتماد الميزان؟ أو في ضرورة استعمال الحديد للدفاع عن أنفسكم؟ وكذلك فكّروا في الإنفاق ففيه مصلحة لكم.

بقي شيء من خارج التفسير، ففي بعض الفتاوى نجد من يقول بوجوب استعمال معدن الحديد لذبح الحيوانات لتذكيتها، وإذا راجعت تاريخ المؤمنين بدينه تعالى عبر التاريخ، لعلمت أنهم استعملوا المعادن التي بين أيدي الناس، وسكاكينهم لم يصنعوها هم على المعيار الشرعي "الجديد" للحديد لتكون من معدن الحديد الصافي، كما يشترط بعض الفقهاء، وفي تلك الأزمنة كان مستحيلاً عليهم تصفية الحديد كمعدن صافٍ من كلّ الشوائب، وأصلاً تركيبات المعادن الصلبة جداً كانت قديماً تتضمّن خلطات يتم إضافتها للحديد، وهذا فنّ له تاريخ ملفت للنظر لأن السيوف إذا تضرّرت شفرتها "نصلها" فلن تكون فعّالة في القتال... على كلّ حال، فكلمة حديد قديماً لم تكن محصورة في ما كان من معدن الحديد الصافي، وسكاكينهم وسيوفهم كانت خليطاً من الحديد والقليل من النحاس ونشارة الخشب و... في عصرنا درج استعمال ما نسمّيه بالحديد المقوّى "ستانليس ستيل على أنواعه" وقد قال بعضهم إنَّ استعماله غير شرعي لذبح ما سنأكله من الحيوانات، وهذا الكلام لا معنى له كما ترى.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ{26})

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ}، وهما رسولان مشهوران عند الكثير من الناس، فتربط الآية بين هذين الرسولين الكريمين القديمين جداً جداً وبين الرسول محمّد(ع)، وكلّ الرسل هم امتداد لنفس الخط، وبالتالي كل ما قالوه متماثل، وبناء عليه تصرفات بعض المنتمين لدينه تعالى والمخالفة لما يقوله هذا القرآن، فهي لا تعبّر عن دينه تعالى، لأنه قديم وهو نفسه في أساس تعاليمه منذ آلاف السنين.

{وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا}، في الذين انفصلوا عن النبي نوح(ع) والنبي إبراهيم(ع) بالولادة "أو بغيرها"، أي من أولادهما وأولاد أولادهما جعل تعالى، {النُّبُوَّةَ}، فكان النبأ وهو الخبر غير المنتشر بين الناس، كان يصل منه تعالى إلى أفراد من ذريتهما، {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا}، {الْكِتَابَ}، حيث كان الكتاب الإلهي ينزل على بعض أفراد ذريتهما.

حصراً ومن بين كل الناس كانت النبوة فقط وفقط في ذرية النبي نوح(ع) إلى أن خرج النبي إبراهيم(ع) إلى الحياة من ذرية نوح(ع) وصارت النبوة حصراً وفقط في ذرية النبي إبراهيم(ع)، والبداية مع إسماعيل(ع) وإسحاق(ع) ومروراً بيعقوب(ع) ويوسف(ع)... وموسى(ع)... ومن ذرية النبي إسماعيل(ع) وصلت النبوة إلى محمّد(ع).

من المشهور أن النبوة كانت حصراً في ذرية آدم(ع)، ومن ذريته صار أنبياءُ، ومن ذريتهم جاء النبي نوح(ع)، الذي وكما يبدو كان مفصلاً "فاصلاً" بين ما سبق وما سيأتي من أنبياء، وعلى ما يبدو فإنَّ النبي نوح(ع) كان رسولاً مزوَّداً بشريعة كاملة فيها أساسيات أحكامه تعالى لما يتعامل به الناس في عصره (ع)، ومن بعده بزمن طويل جاء نبي آخر وأيضا كان مفصلياً في تاريخ الأنبياء، وهو النبي إبراهيم(ع) الذي أيضا تزوّد بأساسيات الشريعة المناسبة لعصره، وهذا ما نفهمه من الآية 33 من سورة آل عمران {إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}.

السورة هنا تريك الامتداد التاريخي لدينه تعالى حيث المعلومات عنه تعالى وعن قراراته والآخرة... واحدة لم تتغيّر، وهي ما نسميه بالعقيدة، وأساسيات التشريع أعيد توصيلها للناس في فترات جاء فيها رسل معهم كتب... وصولاً إلى الرسول الناقل لهذا الكتاب.

{فَمِنْهُم}، أي من ذرية الرسولين نوح(ع) وإبراهيم(ع) من هو، {مُّهْتَدٍ}، وهو على الشيء الصحيح الذي يوصله للغاية الصحيحة، {وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ}، من تلك الذرية، {فَاسِقُونَ}، حيث هناك أمور أعلن عنها الدين الإلهي بصراحة ووضوح وهم لا يلتزمون بها ويخالفونها.

اتّباع ما ينزل على نبي واتّباع الكتاب الإلهي هما الطريقان للاهتداء، ورغم انحصار النبوة والكتاب في ذرية هذين الرسولين فإنَّ الكثير من ذريتهما كانوا علناً يخالفون الكتاب الإلهي وما يقوله الأنبياء.

ها أنتم الآن صرتم تعلمون أنكم متدينون على خط له امتداد تاريخي من النبي نوح(ع) مروراً بالنبي إبراهيم(ع) ووصولاً إلى النبي محمّد(ع) كرسول ومعه كتاب، وأنتم من حوله، ومن سبقكم من الناس كان وصفهم بأن الكثير منهم فسقوا، فلا تكونوا مثلهم، وهنا السورة "كلامه تعالى" تأمركم بالإنفاق في سبيله تعالى، فلا يكن هذا الأمر سبباً لفسقكم، فتتركوا الإنفاق وتصيروا فاسقين... ومرّت الإشارة في الآية السابقة لترك بعض أهل الكتاب للإنفاق وللميزان وللحديد...

(ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ{27})

{ثُمَّ}، من بعد الرسولين نوح(ع) وإبراهيم(ع)، {قَفَّيْنَا}، جعلنا من بعدهم من خلفهم من يمشي، {عَلَىٰ آثَارِهِم}، على ما بقي من رسالتهم ونبوتهم، على العقيدة والشريعة التي تركوها خلفهم، واقتفاء الأثر هو أن يترك من مشى قبلك علامات وأنت تقتفيها فتمشي على تلك العلامات، وهنا تقول الآية أنَّه لم يتوقف إرسال الرسل، ومن بعد الرسولين نوح(ع) وإبراهيم(ع) بقي أثر تركوه من عقيدة وشريعة وسلوكيات، وعلى ذلك الأثر تابع سبحانه إرسال الرسل للناس. وهو نفس الدين امتداد من الرسولين الأقدمين نوح وإبراهيم إلى آخر رسول، ولأسباب عديدة كان هناك ضرورة لإرسال رسل من بعدهم، أهمّها تحريف الناس لدينه تعالى...

{وَقَفَّيْنَا}، أكمل سبحانه تتابع المشي على نفس الأثر للرسل، {بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} عليهما السلام، وبسبب وجود العديد من الأشخاص الذين ادّعوا عبر التاريخ بأنهم المسيح عيسى، ووجود عدة شخصيات دينية يهودية وأسماؤهم من نفس الاشتقاق: عيسى عيسو يشوع يسوع... لذلك حدّد القرآن النبي عيسى(ع) بذكر اسم أمّه الطاهرة القديسة مريم(ع) حتى يتميّز عن المزيّفين وعن الآخرين، وإكراماً لذكر أمّه الصدّيقة الطاهرة.

{وَآتَيْنَاهُ}، وصل إلى النبي عيسى(ع) منه تعالى، {الْإِنجِيلَ}، وهو اسم وصفي للكتاب، وعلى ما يبدو إلى حدِّ الآن أن كلمة إنجيل مشتقة من كلام يوناني معناه البشارة، الخبر السارّ. وبما أن السورة ليست مخصصة للحديث عن تحريف النصارى للإنجيل فلن نتوسّع هنا في ذلك.

{وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ}، جعل تعالى في مركز نفسية وتفكير الذين مشوا على مسار النبي عيسى(ع)، {رَأْفَةً}، لم يكونوا قساة على الناس، {وَرَحْمَةً}، وكان لديهم عناية بالآخرين، ولم يكن همّهم أنفسهم فقط، بل يسعون في تأمين حوائج الناس ومساعدتهم.

وجعل تعالى في قلوبهم، {رَهْبَانِيَّةً}، وهي بالأساس شعور الرهب كشعور بالعجز أمامه تعالى، وينتج عنها ترك التعلّق بأي شيء من الدنيا والتفرّغ للعبادة، {ابْتَدَعُوهَا}، تلك الرهبنة ابتدعوها وصارت شيئاً مختلفاً عن أساس الرهبنة المقبولة في دينه تعالى، {مَّا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ}، لم يكتب تعالى الرهبنة على أتباع الرسول عيسى(ع)، {إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ}، فقط حتى يرضى تعالى عنهم، حتى يقبل أعمالهم وسلوكهم بمحبّة، {فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا}، لم يقوموا بالاعتناء بالرهبنة كما أمرهم تعالى، واعتزلوا عن الناس وامتنعوا عن الزواج... وهذا لم يكن ما أمرهم تعالى به.

وللتقريب نشبّه الرهبنة بالاعتكاف، فالاعتكاف مدّته بين اليوم والعشرة أيام، يقضيها الإنسان في المسجد للعبادة... أمّا الاستمرار على الاعتكاف واعتزال الناس وترك كل ملذات الحياة وضمنها الزواج... طول العمر على أساس أنه يقرّب أكثر منه تعالى، فهذا ليس صحيحاً بل وممنوعاً كما ترى من الآية هنا بوصفها الرهبنة بدعة.

أساس الرهبنة هو الزهد المبني على التقرّب منه تعالى، بشيء نشبّهه بالاعتكاف، ولكن تغيّر وصار انعزالاً عن الناس وتركاً لشهوات حلّلها الله تعالى، وهذه بدعة لم يأمر بها تعالى ولم يقل بأنها الطريق الصحيح إليه وإلى مرضاته، بل على بساطة الأمر الإلهي الأول بالزهد المبني على الشعور بالرهبة منه تعالى مع نيّة القرب منه تعالى، وبهذا نستطيع الوصول إلى مرضاته سبحانه، ولا نصل إلى مرضاته عبر ترك الملذات دائماً كما فعل بعض النصارى في رهبنتهم.

{فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ}، صار مع الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين من أتباع الرسول عيسى(ع)، آتيناهم، {أَجْرَهُمْ}، شيء حدّده تعالى سلفاً كاستحقاق منه تعالى لمن آمن وعمل صالحاً، {وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}، العدد الأكبر كانوا يخالفون ما يقوله علناً الدين الإلهي، ويخالفونه بالسرّ أو أمام الآخرين وهم يعلمون أنهم يخالفون.

محور هذه السورة عن أمر المؤمنين بالإنفاق في سبيله تعالى، وتخبرهم أن ينتبهوا حتى لا يتشوّه الإنفاق مثلما تشوهت الرهبنة وصارت بدعة لم يأمر بها سبحانه، ومن بين أتباع الرسول عيسى(ع) أشخاص لديهم رأفة ورحمة ورهبنة، وبعض منهم ابتدع في الرهبنة بشكل متطرف، وتخلّى عن كل ملذات الدنيا وتفرّغ للعبادة، وهذا شيء لم يأمر به سبحانه ولا يرضاه، وهذا شيء لم يقله الرسول عيسى(ع) ولا ورد في الكتاب الذي نزل عليه، فيا أيها الذين آمنوا أنفقوا في سبيله تعالى وحافظوا على حياتكم العادية، فلا تنفقوا كل ما تملكونه وتتفرّغوا للعبادة كما فعل البعض من أتباع الرسول عيسى(ع).

لاحظ أن كلمة بدعَ بِدْعَةً تشير لعموم أي شيء من غير أصل. فلا تفهمها أنهم ابتدعوا الرهبانية أي اخترعوها ولم تكن موجودة ولم يكن لها أصل وأساس، لا، بل كتبها تعالى عليهم ولكنهم ابتدعوها وصارت متغيّرة عن الأصل والأساس بشكل جذري كأنها شيء جديد تماماً من غير أصل. وبهذا المعنى تصير الآية أوضح، حتى لا تختلط عليك الأمور بين بدعة الرهبنة بدون أي أساس ديني، وتفهم من الآية أنه تعالى ما كتبها عليهم من الأصل وهم ابتدعوها ليرضوه تعالى، فهذا المعنى غير صحيح، والصحيح أن بدعة الرهبنة حصلت مع وجود أساس ديني لأصل الأمر بالرهبنة، ولكنهم ابتدعوها وتغيَّرت الرهبنة وصارت شيئاً جديداً مختلفاً تماماً عن الأساس الذي كتبه تعالى عليهم.

يمكنك تشبيه الرهبنة بالزهد من ناحية التعامل مع الأملاك والشهوات والمباحات... حيث يأمرنا تعالى بالزهد على أساس أن لا نتعلّق بالدنيا وننسى الآخرة، وأن لا تملكنا الشهوات والرغبات لدرجة ارتكاب السيئات... وفي نفس الوقت يأمرنا بالزواج والزينة وتناول الطعام الطيّب... ويمكنك تشبيه البدعة التي لها أصل بصلاة التراويح، حيث إنَّ الأصل هو الصلاة النافلة المندوبة المستحبة... ولكن البدعة هو صلاتها جماعة، وإضافة حركات تمايل غير معروفة سابقاً أنها من الصلاة أو من حركات العبادة... وأبدع منه أن البعض جعلوها من علامات الإيمان حيث مَن لم يصلّها شكّوا في

إيمانه!... ومثله في البدعة اعتبار من لم يزر قبور الصالحين ناقص الإيمان! ومن لم يحضر بعض المناسبات والتجمعات الدينية كمجالس العزاء لذكرى كربلاء... أنَّه ناقص الإيمان! وأصل الرهبنة موجود ولكن البدع فيها هو ترك الزواج وترك العمل لتحصيل المال... والانعزال عن الناس و...

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{28})

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، سواء كانوا كفَّاراً وأعلنوا إيمانهم، أو كانوا من أهل الكتاب أي من المسيحيين واليهود وأعلنوا التزامهم بهذا الدين، أو من المولودين في بيئة تنتمي لدينه تعالى... يا عموم من أعلن التزامه بهذا الدين الإلهي: {اتَّقُوا اللَّهَ}، تحاشوا وتجنّبوا غضب الله تعالى وعقابه فلا تخالفوا كلامه، {وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ}، اعتقدوا بالرسول محمد(ع) كناقل لكلامه تعالى، وعملياً التزموا بما ينقله (ع) لكم من أوامر إلهية.

يمكنك أن تفهم ما تقوله الآية إذا نظرت للمسلمين من حولك، فإذا سألته عن دينه قال: الإسلام. فهذا الشخص يعتبره القرآن من الذين آمنوا، ويتدرج من الذين أعلنوا انتسابهم لهذا الدين فقط ويلتزمون بالقليل جداً من أوامره، مروراً بالذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين ولكن لم يلتزموا بكل أوامره، وصولاً إلى الذين تأمرنا الآية أن نكون منهم فنتّقي الله تعالى ونتّبع الرسول(ع)، فنلتزم بالكامل.

نتذكّر أن السورة تتمحور حول الإنفاق في سبيله تعالى، وبشكل عام فمن المفروض أن نتّقي ونؤمن بالرسول(ع) ولكن بالخصوص فهنا الحديث عن الإنفاق كنموذج، فمن ترك الإنفاق في سبيله تعالى فهو ليس من المتقين ولا من المؤمنين حقّاً بالرسول(ع)، وهو فقط من الذين آمنوا وهم تحت المستوى المطلوب، فهم في مستوى النفاق والفسق كما مرّ معنا في السورة.

إذا اتقيتم وآمنتم بالرسول:

{يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ}، عنايته سبحانه لكل الناس لما فيه مصلحتهم هو أوّل كفل، أوّل حصة، ولكن لمن اتقى وآمن بالرسول(ع) فهناك كفل ثانٍ، حصة إضافية من الرحمة من العناية، فيكون للمؤمنين حصتان من الرحمة، وتعلم أن الإضافة هي المغفرة ومضاعفة الثواب...

{وَيَجْعَل}، سبحانه، {لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ}، تتحركون ويتحرك النور "الانكشاف" معكم، ودائماً ينير ويكشف طريقكم فترون أين تسيرون فلا تمشون بالطريق الخطأ.

لاحظ السورة سبق وتحدّثت عن نور المؤمنين في يوم القيامة، وهنا تتحدث عن نور هنا في الدنيا يمشون به، كما ورد في الآية 122 من سورة الأنعام {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا}...، فالكلام عن وضوح الحقّ أمامهم ومشيهم على الطريق الصحيح، والذي يمشي في الظلام يتخبّط بالحيطان والحفر، وهذه حالة من لا يمشي على الدين الإلهي، فأحكامه وقراراته وأفكاره... ليست صحيحة، وأمّا المؤمن "الحقيقي" فيرى الأمور بشكل صائب "بحسب درجته في الإيمان".

{وَيَغْفِرْ لَكُمْ}، يتجاوز سبحانه عن سيئاتكم فيسامحكم على الذنوب التي فعلتموها.

{وَاللَّهُ غَفُورٌ}، يغفر ويسامح من طلب منه المغفرة والعفو عن السيئات، فلم يأخذ سبحانه قراراً واحداً بتعذيب من أذنب ولن يتراجع عنه حتى لو تغيّرنا، لا، فمهما فعلنا، وحتى من كفر به تعالى، فباب التوبة مفتوح دائماً وسيغفر له تعالى إن تاب فعلاً وتوقّف عن السيئات.

{رَّحِيمٌ}، لديه عناية خاصة بالمؤمنين، والكفَّار لا يحصلون على النور ولا على المغفرة ولا على تكفير الذنوب ولا على مضاعفة الحسنات... فهذه أمور يحصل عليها فقط وفقط المؤمنون وهذه هي العناية الخاصة لهم منه تعالى، وهي الترجمة العملية لمعنى كلمة رحيم، فعموم المخلوقات تعيش تحت عناية الرحمان الذي يعتني بهم بشكل متساوٍ لأنهم

مخلوقاته، وأما المعاملة الخاصة بالمؤمنين فهي من صفته تعالى الرحيم الخاصّة بالمؤمنين، فالآخرون هم بكفرهم وفسقهم ونفاقهم خرجوا من تحت مظلّة العناية الإلهية مما سبب تميّز عنايته تعالى بالمؤمنين عن الآخرين.

(لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{29})

{لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ}، أهل الكتاب من يهود ومسيحيين... فكل واحد منهم يعتقد أنه لوحده على دينه تعالى ولهم الميزة وحدهم بذلك عن الآخرين، وبناء عليه فالآخرون لن ينالوا من فضله تعالى، فتأتي الوعود لكم "أيها المؤمنون بهذا القرآن وناقله(ع)"، فإن آمنتم ستنالون كفلين من الرحمة ونور ومغفرة، وتأتيكم هذه الوعود بكلام صريح منه تعالى عبر قرآنه، حتى يعلم أهل الكتاب أنهم ليس بقدرتهم ولا بقرارهم ينالون فضله تعالى وعلى مزاجهم رغم فسقهم وكفرهم بالرسول محمّد(ع)، ورغم تركهم الالتزام بما لديهم من أوامر إلهية.

ما يعطيه تعالى لعباده من فضله، من دون أن يكون مجبوراً ولا كمقابل مفروض يستحقونه على شيء فعلوه، فحتى لا يفكّر أهل الكتاب أنهم وحدهم القادرون على الحصول على شيء من فضله تعالى، من مغفرة وحسنات ونور... فخذوا علماً بأن الفضل متاح لكم أيها المسلمون.

{وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ}، ليس هناك مخلوق يتحكّم بتوزيع الأفضال الإلهية، بل هو تعالى مباشرة وبنفسه "شخصياً" يتفضّل على مخلوقاته، {يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ}، أمامه تعالى خيارات عديدة وليس مجبوراً على أي واحد منها، وأخبرنا "في الآية السابقة وفي غيرها" أنه سبحانه شاء التفضّل "في هذا الزمن" على الذين آمنوا واتقوا وآمنوا بالرسول محمّد(ع).

{وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}، وصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز "الله" منسوب له صفة الفضل، وهي صفة تقديم أشياء جيّدة للآخرين من دون أن تكون فرضاً واجباً عليه سبحانه، وتقديماته سبحانه توصف بأنها عظيمة بأنها من أعلى المواصفات.

اليهودي "بشكل عام" حين سمع بالرسول عيسى(ع) لم يستوعب فكرة الانتقال مما هو عليه إلى شيء يعرضه الرسول الجديد، فأول شيء كان الرفض، وبقي على ما هو عليه على أساس أنه منتمٍ لدينه تعالى وبالتالي فهو المميّز عنده تعالى! والرسول عيسى(ع) ومن اتّبعه فلا قيمة لهم أمامه، لأنه الأصلي وهم التقليد...! وهذه الحالة أصابت العدد الأكبر من بني إسرائيل، على أساس أنهم هم على الدين الإلهي، والدين الإلهي لهم، وخاص بهم كذرية بني إسرائيل... ولن يقبلوا بأي كلام يقول عنهم بأنهم منحرفون عن الدين الإلهي... أو أنهم متساوون مع بقية البشر وأن الفرق فقط بالإيمان والعمل الصالح...

بعدها اليهود والمسيحيون رفضوا الإيمان بالرسول محمّد(ع)! على أساس أنهم لن يقبلوا القول عنهم أن دينهم لم يعد مستقيماً... وهنا الآية السابقة توجّهت بالكلام مع كل الناس الذين أعلنوا أنهم آمنوا وأخبرتهم أن الحصول على فضله تعالى مفتوح لكم كلّكم بعكس ما يعتقده أهل الكتاب.

هذا القرآن وهذا الرسول(ع) بالأصل هم امتداد من رسالة نوح(ع) وما تلاه من رسل وكتب، وها هو يخبركم سبحانه أنكم أيها المؤمنون بهذا القرآن لستم خارج دينه تعالى، ولستم على دين جديد، بل جزء من دينه تعالى، وأهل الكتاب هم الفاسقون عن هذا الدين القرآني، ولم يعودوا يستحقون فضله المميّز سبحانه الخاص بالمؤمنين.

بالنسبة لربط هذا الكلام مع محورية السورة عن الإنفاق، فهي تشير لإثبات انتمائنا لدينه تعالى عبر نموذج الالتزام بالإنفاق، وهو أمر إلهي قديم تركه بعض المنتمين لدينه تعالى مثلما تركوا الميزان والجهاد... ووصل الانحراف في بعضهم إلى شكل يبدو دينياً، وأصلاً تركوا العمل لكسب المال وتفرّغوا للعبادة، فهؤلاء صاروا بحاجة لمن ينفق عليهم، وتركهم للتكسّب تفريغ لمعنى إنزاله تعالى للميزان الذي يتضمّن تعاطيهم مع الآخرين... وترهبنوا تاركين الجهاد في سبيله تعالى... وهذه الأمور وغيرها من تبعات الرهبنة المرفوضة في دينه تعالى، والتي صار لها لباس ديني باسم دين الله تعالى! فلا تهتمّوا بما يقولونه ويفعلونه، والتزموا بما نقله لكم الرسول محمّد(ع) عبر هذا القرآن، فهذا هو الدين الإلهي الصحيح.

سورة المجادلة (58) ص 542
تَعْرِضُ أبرز نماذج عن سلوكيات لا أخلاقية مزاجية مستهترة بالدين لأناس "مُحَادِّينَ" يتصلبون على عاداتهم الفظّةِ من دون الرجوع إلى الدين الإلهي لتصحيحها.

الملفت دائماً اهتمام القرآن بالأنثى التي ظلمتها مختلف المجتمعات بتشريعات ذكورية ظالمة، وترى تركيزاً قرآنياً على إبراز حقوقهن كإناث ويتيمات وزوجات ووارثات... وكلام القرآن في سورة التكوير بصياغة مهولة تقشعر منها الأبدان عن أهوال الآخرة يليها السؤال عن المَوْءُودَةِ... وسورتنا هنا من تلك الباقة التي اختارت الإضاءة على نموذج يمسّ حقوق الإناث المظلومات بتشريع الظهار في مجتمعات لا ترحم الضعفاء، وهي مجتمعات "محادّة" صلبة خشبية ومستهترة... لا تحترم إنسانيتها التي أعاد تعالى تقويمها بكلامه القرآني هذا...

ورد كلام عن الظهار في الآية 4 من سورة الأحزاب، وهناك فقط أشارت بأن الزوجة لا تصير أمّاً، وهناك في تلك السورة كان الغرض من الكلام عن الظهار كنموذج عن قولهم بأفواههم لشيء لن يغيِّر الواقع، واستفادت هناك من الظهار لتدخل على التبني... وهنا في السورة تفصيل لحكم الظهار، مما يشير لنزول هذه السورة قبل سورة الأحزاب التي نزلت بعد معركة الخندق.

ورد في السورة كلمة "معصية" مرتين وكتبت بالتاء الطويلة، ورسموها على لفظ وصلها بما بعدها، ولم يستعمل القرآن أي تصريف من كلمة عصى إلّا في هذه السورة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ {1})
{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا}، هناك امرأة متزوجة وتحاول إقناعك أيها الرسول محمد(ع) حول شيء فعله زوجها لتثبت أنها على حقّ، {وَتَشْتَكِي}، الزوجة، {إِلَى اللَّهِ}، تخبره تعالى عن صيرانها في حالة سيّئة جداً مما فعله زوجها، {وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا}، يسمع سبحانه ما يدور بينكما من كلام أيها النبي(ع) وأيَّتُهَا الزوجة، {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ}، يسمع كلّ شيء ولا يغيب عنه أي قول أو كلام أو جدل أو... وإنَّ الله، {بَصِيرٌ}، يدرك "بمستوى إلهي" ويعي معنى صورة ما يحصل، فلديه سبحانه دراية بما يسمع ويرى، وليس مثل كاميرا المراقبة التي تسجّل ما يجري ولكنها لا تفهمه، لا، بل يرى سبحانه كل شيء ويدري ماذا يجري هنا وهناك... فكل الأحداث ببصيرة يراها سبحانه.

سترى من الآية التالية أن الزوجة تعرّضت للظهار من زوجها، فقال لها إنَّها حرام عليه كحرمة أمّه عليه، وكان مُنْتَشِراً بين العرب قبل الإسلام أن من قال تعابيرَ كهذه لزوجته "أنت عليّ كظهر أمي، أنت حرام عليّ كحرمة أمي عليّ..."، فتصير زوجته حراماً عليه، وليست مطلّقةً، فتبقى عنده في بيته ولكن لا يقترب منها كل العمر.

جاءت امرأة مسلمة تشتكي للنبي محمّد(ع) مما تعرضت له من ظهار من زوجها، ولم يكن النبي محمّد(ع) يعلم الحكم الإلهي في تلك المسألة، فجادلته المرأة حول لا منطقية الوضع الذي هي فيه، فهي ليست زوجة، وليست مطلّقةً حتى يتراجع زوجها عن طلاقه، أو لتذهب في سبيلها بعد طلاقها، وفي شريعة الناس ممنوع أن يقربها زوجها... فجادلت النبي(ع) في دين الإسلام إن كان يقبل بهكذا وضع.

كما ترى، في لحظة غضب هذا الزوج "النموذج" على زوجته، قال لها كلاماً يعبّر فيه عن شدّة غضبه عليها، ويريد معاقبتها بأشد عقوبة، ولا يريد أن يطلّقها، فقال لها إنَّها صارت مثل أمّه بعد الآن، فلم تَصِرْ مطلّقةً لتذهب في حال سبيلها، وليست زوجة لأنه وبشريعتهم قبل الإسلام يحرم على زوجها مقاربتها... ضع هذا في بالك لأن بقية السورة سيكون تركيزها على أناس سلوكياتهم همجية فظّة لا منطق ولا عقلانية فيها...

بقي شيء، هذا التعبير "ظهار" هو مجرد تعبير لا قيمة له ولا خصوصية، ولا يعني أكثر من اعتبار الزوج لزوجته حراماً عليه مقاربتها جنسياً مثلما أمّه حرام عليه، والمشهور أنهم كانوا يقولون: أنتِ أَيَّتُهَا الزوجة حرام عليّ كظهر أمي. ويعبّرون عن ذلك بمختلف التعابير، فالحرمة ليست مخصصة لاستعمال كلمة ظهر ومشتقاتها، بل لعموم أي كلام

يعبّر عن هذا المعنى، فلو قال لزوجته: أنت حرام علي كحرمة بطن أمي، كحرمة أمي، كحرمة مقاربة أمي... فكلّه نفس الحالة، وكلّه كان في عقيدتهم يحرّم عليه مقاربة زوجته أبداً.

(الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ {2})
{الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم}، مَن منكم أيها المسلمون يقول لواحدةٍ من نسائه "لزوجته" إنَّها حرام عليه كحرمة ظهر أمّه عليه، {مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ}، لن تصير زوجته أمّه، فأمّه حرام عليه أن يقاربها جنسياً وهذا معلوم، ولكن هل لو قال لزوجته: أنت كأمي. هل تصير فعلاً أمّه؟ لا، {إِنْ}، فقط، {أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ}، مَن ولدتك فخرجت منها فقط وفقط تكون أمّك، وأمّا لو قلت عن زوجتك أنك تعتبرها حراماً كحرمة أمّك عليك، فهذا لن يغيّر أي شيء، ولن تصير زوجتك أمّك.

من شدّة استهتارهم بالإناث واستضعافهن، نشأ عندهم تشريع مؤذٍ جداً للزوجات، حيث يمكن للزوج أن يظاهر زوجته، لتبقى عنده ولا يقاربها، بينما هو يمكنه أن يتزوّج غيرها... ولو تراجع عن ظهاره وقارب زوجته، مجتمعه سيعيبه وكأنه قارب أمّه. بينما في الحقيقة لا علاقة لحرمة أمّه عليه بزوجته، ولن يتغيّر أي شيء إن ظاهر زوجته، فزوجته لن تصير أمّه التي ولدته...

{وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ}، الناس الذين يظاهرون ومقتنعون بالظهار هم يقولون منكراً من القول، وهو قول غير معروف عند العقلاء، فكيف تصير زوجته حراماً مثل أمّه لمجرد أنه قال لها إنَّها حرام عليه مثل حرمة أمه عليه؟ وكيف إن قارب زوجته بعد الظهار يكون كأنه قارب أمّه! هل تعتبرون هذا الكلام معروفاً مقبولاً! ومن الواضح أن هذا شيءٌ منكرٌ، شيء غير معروف غير مقبول في دينه تعالى وعند المؤمنين العقلاء.

ويقولون {زُورًا}، الحقيقة أن أمّه التي ولدته، وأمّا زوجته فلن تصير أمّه، وهذا زور، هذا تزييف للحقيقة.

{وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ}، يمرّ سبحانه ولا يتوقّف على بعض السيئات التي ارتكبها بعض الناس مع العلم أنها سيئات تستوجب العقاب، ومن سياق الكلام يبدو أن البعض ظاهروا زوجاتهم ولكنهم قاربوهن فيما بعد، فارتكبوا خطأين، الأوّل مظاهرة الزوجة فهو عمل سيّء، وثانياً التراجع عن الظهار من دون تحرير رقبة أو... كما سيأتي في الآية التالية، فعفا سبحانه عنهم وعملياً هذا يعني أنهم لن يتحاسبوا على الظهار ولا على الرجوع عنه من دون تحرير رقبة لأنه حصل قبل نزول الحكم الإلهي...

والله {غَفُورٌ}، يتجاوز عن السيئات ويسامح عن الذنوب، قبل نزول هذه السورة لم يكن مرّ على مجتمع المسلمين حالة ظهار ولم يكن المسلمون يعلمون أنه ممنوع، ففعله أحد المسلمين، فظاهر امرأته... وسبحانه لن يجمد على موقف صلب قاسٍ واحد ليعاقب من ظاهر، بل سيغفر له، طبعاً إذا التزم بالحكم الإلهي.

لاحظ الفرق بين الطلاق وبين الظهار، فالطلاق هو فسخ لعقد الزواج، والمطلّقة تصير في حال سبيلها لتتزوّج من غير طليقها من بعد انتهاء العدّة إن شاءت... ولكن الظهار يجعل الزوجة معلّقةً فلا هي زوجة ولا هي مطلّقة، فتشابه إيقاع الطلاق بالكلام لكونه كلاماً، مع كلام الظهار، فهما متشابهان مع أي جملة أخرى ككلام، ولكن الفرق بقيمة الكلام العقلاني، فالطلاق إعلان إنهاء الزواج، بينما الظهار حكم لا عقلاني جائر للزوجة.

(وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ {3})
مرّ معنا صريحاً أن امرأة شكت زوجها الذي ظاهرها... ولم يكن بين المسلمين معرفة بحكم الظهار، وبعضهم اعتبره كلاماً عادياً يمكن أن يقوله الزوج ولا أثرٌ شرعيٌّ له، فيظاهر زوجته ولكنه يعود ويقاربها حين يتراضيان... وبعضهم اعتبره عقاباً لزوجته التي أغضبته كسلطة تهدّد الزوجة لتطيع زوجها... وبعضهم اعتبره نوعاً من الالتزام فيمكن أن يقول لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي لمدة شهر... فلسبب أو لآخر لا يريد أن يقترب منها... وبعضهم في لحظة غضب يظاهر زوجته معتبرا أن زوجته صارت فعلاً كحُرْمَةِ أمّه عليه، وبعد ذلك إن أراد مقاربتها فلا يعرف كيف يتخلّص

مما قاله... فأتت الآيات هنا لتخبرهم أن يتوقّفوا عن استعمال هذه العبارات وأشباهها... وما سبق منهم من ظهار ومن تراجع عنه... معفوٌّ عنه ومغفورٌ.

{وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا}، الذي قال لزوجته إنّها عليه كحرمة أمّه، وبعد ذلك عاد لهذا الكلام، فلم يستمر عليه وعاد ليجد حلاً "شرعياً" لما قاله فهو يريد مقاربة زوجته، {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ}، وهو تعبير وصفي لعموم من يملك أمره الآخرون كالعبيد، فيجب عليه أن يقوم بتحرير عبد أو عبدة من العبودية، {مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا}، قبل أن يلمس زوجته ملامسة زوج لزوجته، فلا يقول: حسناً، سأعتق رقبة فيما بعد. ويقارب زوجته، لا، لا يحق له هذا، فالتحرير أولاً ثم التماس.

إذاً نفهم من السورة أن حالة تلك المرأة كانت الأولى التي حصل فيها شكاية للرسول(ع) عن ظهار، وعفا سبحانه عن الحالات السابقة التي حصلت مع الآخرين، الذين بعضهم تراجع عن كلامه وقارب زوجته... فلم تشتكِ زوجاتهم لأن الموضوع انتهى... واعتبر سبحانه هذه الحادثة بمثابة تبليغ للجميع بالحكم الإلهي، فمن الآن وصاعداً فالظهار حرام، وهذا حكم من ظاهر...

التعبير بتحرير رقبة هو على اعتبار أن العبد رقبته ممسوكة بيد الذي يملكه، فيأمره أن يفعل كذا وكذا وأن يأتي ويذهب... وفي عصرنا لم يعد هناك عبيد بشكل منتشر، فنستغرب وننفر من كون الإسلام يتحدّث عن العبيد، فلا تنسَ أن الاستعباد كان قبل الإسلام وأنه من زمن ليس ببعيد كان العبيد جزءاً من حياة غالبية المجتمعات على الأرض، فلم يخترع الإسلام الاستعباد.

{ذَلِكُمْ}، الأمر بتحرير رقبة قبل أن يتماسّا، {تُوعَظُونَ بِهِ}، يحدّد تعالى لكم ما تفعلون وما لا تفعلون حتى لا تقعوا في المشاكل، فالآية هنا تقرؤونها ويصير لديكم خبر سلفاً عن حكم الظهار بأن تكلفته عالية "تحرير رقبة"، فتتعظون وتفكرون جيداً قبل التلفظ بالظهار لأن تكلفته عالية بإعتاق رقبة.

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}، أخبار أعمالكم كلّها معلومة له تعالى ولا تخفى عليه، فإن ظاهر أحدكم زوجته وتراجع عن ظهاره ولم يعتق رقبة، فالله سبحانه حتماً سيعلم بهذه الحادثة، وسيحاسبه.

ننتبه، فالآيات تتحدّث عن أمور جدّيّة لا عن مزاح بين الزوج وزوجته، وحتى المزاح بينهما حدوده أن لا يقترب من الجدّ ولا يتم استعمال تعابير جدّيّة فيه، فمن كان قراره التصرّف في حياته بطريقة طائشة مهزوزة هزلية بلا مسؤولية... فهذا قراره لنفسه لو كان يعيش وحده، أمّا في التعامل مع الآخرين فقد شدّد الإسلام على الجديّة وتحمّل مسؤولية الكلام، فلربما تقول: رجل وزوجته لوحدهما، وثار غضب الزوج فخرجت منه كلمة الظهار عن غضب، وهدأت أعصابه وتراجع عن كلامه، فلا داعي للكفارة فهي مجرد مشكلة عابرة بين زوج وزوجته. وهذه وجهة نظر تراها الآن لأنك تعيش في مجتمع تخلّى عن هذه العادات، أمّا قديماً فقد كان متشرّباً في أذهان الناس أن للظهار قيمةً فعليةً حقيقية فتحرم الزوجة على زوجها وإن قاربها يعيبون عليه وكأنه قارب أمّه، وتحت هذا الشيوع فهو سيعتبر نفسه كأنه قارب أمّه.

لو أطلت عليك فسألفت انتباهك لما قد تراه أنت شيئاً لا يستحقّ أن يكون بهذه الأهمية ليذكره القرآن، فانتبه أن معارضة القرآن للظهار ولغيرها من العادات هي التي أوصلتك إلى مجتمع تخلّى عن هذه العادات، وإذا كنت لا ترى قيمة لذلك، فانتبه أن السورة تعرض عليك نموذجاً عن عادة تنتشر بين الناس ولا أصلٌ دينيٌّ لها، ولكن يصير لها قيمةٌ عاليةٌ بين الناس وتصير فوق الدين، وقارنها مع تعدّد الزوجات، فترى بعض مجتمعاتنا تعيب على الرجل الذي يتزوج مرة ثانية، وترى مجتمعات مسلمة لا تعيب الزنا ولا تعيب العلاقات غير الشرعية والمصاحبة... ولكنها تعيب الزواج الثاني... وغيرها الكثير من الأمثلة التي في أساسها مما قصدت السورة الإضاءة عليه لمواجهة المحادّين لله تعالى ولرسوله، وهم الرافضون لبعض تشريعاته تعالى والفارضون على الناس تشريعاتهم المنكرة...

بالنسبة للعبودية، فعلى مرّ التاريخ اختلفت نظرة الناس للعبودية، فقد كانت العبودية دارجة قديماً في غالبية الأمم، ومنذ مدّة قليلة في القرن العشرين صار دارجاً النفور من العبودية، فنسي الجميع ما كان دارجاً متعارفاً عليه أنه مقبول لدرجة جعلت المفسرين والفقهاء والمفكرين المسلمين، جعلتهم في عصرنا يشعرون بالحرج من الآيات التي تتحدّث عن

العبيد، وتراهم مباشرةً يغيّرون الموضوع ويشيرون لعدالة الإسلام، ومسحه للعبودية عبر تحرير العبيد وعتقهم ومكاتبتهم، وجعل تحريرهم فداءً كتكفير عن بعض السيئات...

كلامهم صحيح، ولكن الصحيح أيضاً أن العبودية كانت منتشرة، ولها تشريعات في القرآن، ولست بوارد نفي أفضلية كون جميع الناس أحراراً، فإن كان المزاج العام للناس الآن مضاداً للعبودية، فأين المشكلة! ففي حين نزول هذا القرآن وإلى زمن غير بعيد لم يكن هذا المزاج العام، بل كانت العبودية واقعاً منتشراً بين الناس، فإن وقع المسلمون تحت الأسر من أعدائهم فقد كان مصيرهم العبودية، فلم يكن المسلمون وحدهم يستعبدون...

لننظر لأحكام العبيد في القرآن، ولن تجد فيه حكماً أو تشريعاً يأمر باستعباد أحد، وأقصى ما ستجده عن تقييد الحرية فهو عن أسر الأعداء المحاربين فقط، وما فعله الرسول محمّد(ع) من استعباد للأسرى "كما نقلوا في التاريخ" فقد كان حكم الأمر الواقع بسبب اعتماد الطرف الآخر له، وبسبب الخيارات الأخرى الضيقة، فإما قتل أسرى الأعداء أو تركهم أحراراً وفي ذلك خطر إعادة تشكيل قوّة معادية، أو سجنهم ليموتوا في السجن أو سجنهم لمدة طويلة جداً وهذا ليس حلاً عملياً للسجين أو للساجن له، أو استعباد الأسرى.

قونن النبي محمّد(ع) هذا الواقع بناء على مبادئ القرآن، بتحرير أسرى الأعداء من بعد أسرهم إن كانت الأمور تشير لاستبعاد الخطر منهم، أو استعبادهم وتفريقهم إن كان هناك خطر من تجمّعهم من جديد كمعادين مقاتلين.

علماً أننا لا نجد في التاريخ سوى "زعم بعضهم" استعباده(ع) لبعض أعدائه، بينما لا تجد ولا أي أثر في التاريخ بعد ذلك لأولئك الذين قيل عنهم مستعبدين! فلا تجد ولا اسماً واحداً لرجل أو امرأة من الأقوام الذين قيل عنهم إنَّ الرسول(ع) استعبدهم ولا يزالون عبيداً، فيبدو واضحاً أن كلامهم عن استعباد الرسول(ع) لبعض أسرى أعدائه كان في حدّه الأقصى لمدة قصيرة جداً جداً لا تتعدّى الأيام، وبعدها إطلاق سراحهم، ولكن أصحاب العقلية الإجرامية تعاموا عن ذلك مبيحين استعباد الآخرين واغتصاب نساءَهم...

أكرّر لك لتنتبه جيداً، فرغم ما قاله البعض عن استعباد الرسول(ع) لأعدائه، ورغم التعارف على ذلك أنه من المسلمات التاريخية، فبأدنى نظرة عقلانية لكل التاريخ ستجد أن هذا الزعم كاذب، والدليل عليه واضح لأنك لا تجد في الروايات ولا اسماً واحداً لعبد في المدينة من الذين أسرهم الرسول(ع)، ولا تجد ولا اسماً واحداً لأي طفل منهم صار بعد ذلك مسلماً، علماً أن كفّار العرب كلّهم أسلموا بعد مدة قليلة من الزمن، ولا تجد في التاريخ اسماً ولو لابن واحد من أبناء الصحابة ولّدته عبدة مأسورة من الأعداء، نعم تجد في التاريخ زواجاً من مملوكات وتجد أولاداً منهم، وكمثال على ذلك إبراهيم ابن النبي محمد(ع) من ماريا القبطية التي أعتقها(ع) ثم تزوجها...

كل الكلام المنتشر عن حالات استعباد الرسول (ع) لأسرى الأعداء لمدة طويلة، وعن استعباد واغتصاب نساء الأعداء، فهو كذب من أوهام المسلمين المجرمين، ومن أحلامهم بالبقاء على دين الجاهلية...

وهذا ما تراه من تاريخ تطبيق الرسول محمّد(ع) للقرآن، فلم يكن له (ع) عبيد سوى ما قالوه عن زيد بن حارثة الذي اشترته السيدة خديجة ولداً صغيراً ووهبته للرسول الذي ربّاه كولد له وليس كعبد، وبلال بن رباح الذي قالوا عنه في كتب التاريخ إنَّ أبا بكر اشتراه لتحريره من ظلم أمية بن خلف ويقولون إنّه وهبه للرسول(ع)، ومعلوم من التاريخ أنَّ بلالاً لم يعش بين المسلمين كعبد، ولم يعمل عند الرسول(ع) أصلاً لا في بيته للخدمة ولا كعبد في وظيفة ما...

بالنسبة للنساء، فكلهن أعتقهن النبي(ع) وتزوجهن، فلم يقارب ولا واحدة منهن وهي مملوكة يمين "عبدة أو أمة".

بحسب ما نقلوه في كتب التاريخ، فحالات تسريح الرسول محمّد(ع) للأسرى أو فدائهم أكثر بكثير من حالات استعبادهم "التي زعموها ولا تجد لها بعد ذلك أثراً في التاريخ"، وأشهرها طلقاء مكّة من بعد الفتح، وبعدهم تسريح هوازن من بعد معركة حنين، وقبلها فداء أو تسريح حصل لمختلف جماعات يهود المدينة وخيبر... وهكذا ترى أنه تعالى ترك لنا هامشاً واسعاً في القرار المناسب لمختلف الظروف والأزمنة والمجتمعات... لاستعباد الأعداء أو سجنهم أو مفاداتهم أو قتلهم "إن ثبتت عليهم جرائم...".

أكرر لك لتنتبه أشدّ الانتباه مما يقال عن إبادة الرسول(ع) لكل ذكور بعض أعدائه، ولما يقال عن سماحه(ع) لأصحابه باستعباد نساء الأعداء ومعاشرتهن غصباً عنهن... فهذه أكاذيب ألّفها مجرمون مشابهون في إجرامهم لبعض

المعاصرين للرسول(ع)، أولئك بقوا على عقليتهم الإجرامية القديمة بلا ناموس ولا قرآن، واستمرّ الحال هذا من بعد الرسول عملياً وفتوائياً مخالفاً لكلام القرآن الصريح حتى صار من المتعارف عليه والمنتشر فتاوى تبيح اغتصاب العبدات "ملك اليمين"، وقد درج ذلك بين المسلمين! وصار منتشراً في ثقافتنا الحريم والجواري...

التصرفات المشهورة عن الرسول(ع) هي وحدها العاكسة لدينه تعالى، وأمّا تصرفات كل بقية المسلمين وفتاويهم فهي عاكسة لدينهم هم، فهو (ع) لم يكن له عبيد يخدمونه، ولا قارب أنثى "أمة عبدة ملك يمين" قبلما يتزوجها، وما ينقله البعض من أخبار شاذّة عن ذلك، وما قاله البعض كفتوى تجعل اغتصاب المملوكة رغماً عن إرادتها حلالاً، فما هو إلا انعكاس لعقليتهم الذكورية الإجرامية.

ما قاله القرآن يساوي بين الزوجة وملك اليمين من ناحية حليّة المقاربة كما ورد في الآيتين 6 من سورة المؤمنون والآية 30 من سورة المعارج {إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ}، فلمقاربة مملوكتك لا تحتاج لعقد قران عليها ويكفي موافقتها، وإن رفضت وطلبت الزواج من مالكها حتى تسمح له بمقاربتها، أو طلبت الزواج من أي أحد آخر حرّاً كان أم عبداً، فهي وشأنها، وهذا واضح من كل كلام القرآن الذي عليك بإعادة قراءته من دون أفكار "ذكورية إجرامية" مسبقة عن هذا الموضوع، وسترى بوضوح أن للعبدة "الأمة المملوكة" لها حرية اختيار من تقاربه ومن تتزوجه، وهذا واضح وصريح من الآية 25 من سورة النساء {وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ...}.

نعيد فنقول إنّ القرآن لم يذكر من موضوع تشريع تقييد الحرية إلا الأسر للأعداء، فلم يذكر أي شيء عن الكيفية التي تبيح استعباد الآخرين، ومن ناحية ثانية فقد كان الأمر الواقع المنتشر بين الناس استعبادهم للشعوب الضعيفة من أي دين أو عرق كان، فهل تشريعات القرآن التي تضمّنت كلاماً عن العبيد وملك اليمين قصدت واقع الحال هذا، أو قصدت فقط الهامش المسموح التحرّك به في حالة استعباد الأسرى من الأعداء المقاتلين من غير المسلمين؟

من عموم القرآن وبالخصوص من سورة الممتحنة وبالأخص من الآية 8 منها {لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، تجد منعاً قرآنياً بكل أشكاله من التعرّض بالأذى لأي إنسان كان مهما كان عرقه أو دينه إلا إذا كان معادياً محارباً، وأي آية قد يفسّرها أحدهم ويقول بأنها تشرعن استعباد المسالمين من الكفّار أو من أهل الكتاب، فراجع دراستنا هذه لترى معناها، وسترى أن كلامهم غير صحيح. أمّا ما في الروايات عن هذا الموضوع ومخالف لصريح القرآن فمصيره الرمي والإهمال وتكذيب ناقليه عن الرسول(ع)...

ننتقل الآن إلى واقع الحال الذي كان عليه الناس في عصر النبي محمّد(ع)، حيث كانوا يشترون ويبيعون العبيد المسالمين المخطوفين من مختلف الجنسيات ومختلف الأديان، فهل في عهده (ع) تعامل المسلمون بذلك أم انحصرت تعاملاتهم في العبيد من الأعداء؟

طبعاً حين نقول "المسلمون" نقصد المؤمنين الحقيقيين منهم، فقد اشتهر في عهده (ع) بعض المسلمين "المنافقين والفاسقين" الذين يجبرون عبداتهم على الزنا، وقد منعهم النبي(ع) من ذلك بأمر إلهي كما ورد في الآية 33 من سورة النور {... وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً...}، ومن منطوق الآية بكلامها عن الإحصان تفهم أنه حتى مالكها لا يحقّ له مقاربتها إن لم تقبل، وبالتالي فلا يحق له السماح للآخرين بمقاربتها غصباً عنها... ويحقّ لها اختيار زوجها مع موافقة أهلها ومن ضمنهم مالكها...

أكتفي بهذا المقدار الذي فيه الأساسيات القرآنية لترى نظرة قرآنية مختلفة عن العبيد مما هو دارج في مختلف الكتب المسمّاة إسلامية.

ما تجده في القرآن عن العبيد وما تجده في كتب التاريخ من تصرفات المؤمنين الحقيقيين مع العبيد والإماء، كتطبيق عملي للإيمان في التعامل مع الآخرين، ترى فيه فرقاً عمّا تجده في الكثير من كتب الفقه عند كلّ المسلمين، التي بعضها كتبها فقهاء مجرمون، يحلّون استعباد أي إنسان ليس من طائفتهم أو مذهبهم! بل يهدرون دم وعرض الآخرين! حتى

المسلمين المسالمين! وقد اعتمدوا في ذلك على روايات كاذبة رواها مجرمون أمثالهم، واعتمدوا على سيرة مجرمين من المسلمين اتخذوا منهم منارة للدموية، فها القرآن أمامك، وها دراستنا له، فراجع أي آية قالوا إنّها تدعم كلامهم لترى أنهم كاذبون ومجرمون.

بالنسبة لتعبير ملك اليمين، فمعنى كلمة ملك: هو عموم أي شيء يرجع إليك أمره فيتبع لك مع التحكّم به والسيطرة عليه. وكلمة يمين لعموم التعامل مع أي شيء براحة واقتدار وقوة وتحكّم. فيصير تعبير ملك اليمين يعني: السيطرة مع اقتدار. فهو شخص تتصرّف به فتأمره بقوة اقتدارك عليه. وكلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

من هذا المعنى اللغوي الأساسي للكلمات ترى أن استعمال القرآن لها للتعبير عمّا يقصده فهو بعيد كل البعد عن الممارسات السيئة للناس مع المملوكين ملك يمين والمستعبدين، فقارن معنى كلمة "ملك يمين وعبد" مع خادم أو خادمة أو عامل أو عاملة مقابل المبيت والطعام، وسترى أن القرآن يقصد هذا المعنى حصرياً، أمّا ممارسات "المسلمين" ورواياتهم وفتاويهم فهي تمثّلهم هم ولا تمثّل دينه تعالى المطروح في قرآنه.

(فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ{4})
{فَمَن لَّمْ يَجِدْ}، الذي لم يوجد لديه إمكانية عتق رقبة، لأنه لا يملك عبداً ليعتقه، أو لم يتمكّن من شراء عبد وإعتاقه لأن الثمن غالٍ عليه، أو لا يوجد في مجتمعه عبيد... {فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا}، فلا يقول بأنه قرّر التراجع وقرّر الصوم، فيلامس زوجته ملامسة زوجية وفيما بعد يصوم، لا، فقبل التقارب يجب حصول الصوم لمدة شهرين متواصلين بلا انقطاع.

{فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ}، صوم شهرين متتابعين، {فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا}، توزيع ستين وجبة طعام على ستين شخصاً يحتاجون للمساعدة.

{ذَٰلِكَ}، الذي قالته الآيات عن العتق والصوم والإطعام، {لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}، فإن كنتم فعلاً معتقدين بالله تعالى وبرسوله(ع) وملتزمين بما يصلكم منهم فيجب عليكم أولاً أن لا تظاهروا، وإن ظاهرتم فعليكم فعل ما قلناه لكم من عتق أو صوم... وأن لا تعتبروا الظهار حرمةً أبديةً لزوجتكم عليكم.

نتذكّر أن السورة كلّها تتحدّث عن عقلية المزاجية والاستهتار عند بعض الناس، وعن الفظاظة والحدّية على الباطل، وللتمييز بين المؤمن الحقيقي والمزيّف، فالحقيقي يتّعظ فلا يظاهر، والمزيّف لا يتّعظ، ويظاهر، وقد يعتبر كلامه مقدساً ولا تراجع عنه فقد صارت زوجته كأمّه، أو لا يفعل أي شيء مما تقوله الآيات من عتق أو صوم أو إطعام ويقارب زوجته.

{وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ}، فلا تتخطّوها وتوقّفوا حيث قال لكم فلا تتعدّوها، فلا تظاهروا، وإن ظاهرتم فاعتقوا رقبة أو... فإن لم تلتزموا بما يقوله تعالى لكم، {وَلِلْكَافِرِينَ}، للمنكرين للحدود التي رسمها تعالى، {عَذَابٌ أَلِيمٌ}، ضرر مؤلم يسبب الوجع وليس عذاباً كضربة كفّ، لا بل مؤلم فعلاً، وتعلم من عموم القرآن أنه عذاب في جهنّم.

ستجد كلاماً قرآنياً آخرَ عن تشريع سوء مشابه للظهار وهو الإيلاء، وقد ورد حكمه في الآية 226 من سورة البقرة {لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} فراجعها لمزيد من التفاصيل، أمّا هنا فلا تجد شيئا مشابها بل تجد أمراً مباشراً للزوج لإنهاء المسألة بعتق رقبة أو الصيام أو إطعام ستين مسكينا، وإن لم يفعل ذلك عن قصد فما الحكم؟ يقولون في الكتب إنّ حكم الظهار مثل الإيلاء، ولكن لا يظهر ذلك من الآيات هنا، فيبدو أنها حالة كفارة ومعصية بلا أي أثرٍ تشريعيٍّ، فهي مثل أي كلام من زوج غاضب يقول فيه لزوجته بأنه لن يقربها ولن يحبّها... أو من زوجة غاضبة...

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ{5})

{إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، يكونون حدِّيِّينَ صلبين قَاسِينَ، وهنا الكلام عن غير المطيعين ولا المنقادين، والمعارضين لأوامر الله تعالى ولأوامر رسوله(ع)، أولئك، {كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}، لم يبقوا على راحتهم بل جرى كبتهم عبر إيقاف وإضعاف موقفهم، فهم محادُّون معارضون بقسوة، فلم تستمر تلك الصلابة وجرى كبت "إطفاء، دهس..." تلك الحدّة.

{وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ}، أشياء مميزة، {بَيِّنَاتٍ}، واضحات، فهذه الجمل المميزة الواضحة فيها كبت لمن يحادّ الله تعالى ورسوله(ع)، فأنت كمسلم مؤمن ربما لا تنتبه للذين لا يعجبهم التشريع الإلهي، فتجد أناسا يقولون: لا، لقد ظاهر وقد صارت زوجته كأمّه ولا يوجد حلّ إلّا طلاقها، أو ممنوع طلاقها ولتكن عبرة لغيرها من الزوجات حتى يطعن أزواجهن... والكلام عن العتق والصيام والإطعام، كلام فارغ لا يغيّر في حقيقة ما وقع فقد صارت زوجته كأمّه...

كما ترى فالآيات هنا بشكل واضح كبتت هذه الناس عبر بيانها أن الزوجة لن تصير أمّاً ولدت زوجها لمجرد كلام قاله... وعقابا للتهاون بالزوجة وللتهاون بما حلّله الله تعالى فليعتق رقبة أو يصم أو يطعم... وبالعكس أيضاً تجد أناساً يقولون: هو مجرد كلام، فماذا حصل إن قال إنَّه ظاهرها ثم غيّر رأيه؟ فما الداعي لعتق رقبة أو الصوم أو إطعام... إن أراد أن يلمسها؟ وكما ترى فهم هنا في هذه الحالة يريدون أن لا يكون الكلام الجدّي جديا، فلو كان الزوج يمزح مع زوجته لما تدخّل الشرع بينهما، ولكن القرآن يتحدّث عن جدّية، عن رجل التزم بكلامه ولم يعد يقارب زوجته فصارت المرأة لا زوجة ولا مطلّقة، وبعض الناس "المحادّين" بحسب أهوائهم ومزاجهم يفترضون تشريعاتٍ يرونها أفضل مما قاله تعالى ونقله لنا رسوله(ع)!

تتذكّر أنه تعالى في قرآنه لم ينبش مسألة الظهار ليقول لنا حكمها، بل هي المسألة نبذت من زوجة تعرّضت لهذه المسألة، فدافع عنها تعالى وعن جميع الزوجات بحكم قاس على الزوج من بعدما كانت الزوجات تحت رحمة استهتار أزواجهن، فيهددها أنه بكلمة منها تصير لا مطلقة ولا زوجة، فليتجرّأ الآن على فعل ذلك، فقد صار أمام حلّين فإما الكفّارة لإرجاع زوجته أو طلاقها غصباً عنه...

{وَلِلْكَافِرِينَ}، للمنكرين لآيات الله تعالى، {عَذَابٌ مُّهِينٌ}، ضرر يسبّب لهم الشعور بالإهانة والاحتقار وأنهم بلا قيمة، فقد تعاملوا بحديّة مع كلامه تعالى وكلام رسوله(ع) على أساس أنهم يفهمون أكثر منه عزّ وجلّ، وهذه قلّة أدب مع الحضرة الإلهية، وعقابها عذاب يجعلهم يشعرون أنهم مهانون بلا قيمة، فسيسمعون الكلام المهين القاسي والسخرية منهم، وسيكونون في مكان وسخ منتن... والضرب يأتيهم من كلّ جانب...

كما ترى فقد انتقلت السورة من حكم الظهار إلى المعلقين على كلامه تعالى عموما، فالظهار كان بينهم شريعة عارضها تعالى، وهذا لم يعجب البعض منهم، وستكمل السورة من نقطة: عموم ما قاله تعالى ولم يعجبهم.

ننتبه جيدا، ففي الآية هنا وفي التي سبقتها تقرأ في خاتمهما جملة عن الكافرين، ضع هذا في بالك دائماً لأن القرآن استعمل كلمة كفر ومشتقاتها على معناها العمومي لمن أنكر شيئاً ما، فربما أنكر الألوهية من أصله "وهذا درج أن نسمّيه ملحداً"، وربما أنكر التوحيد فهو مشرك، وربما هو موحد مؤمن بالرسل السابقين ولكن أنكر القرآن والرسول محمّد(ع) فهو كافر من أهل الكتاب، وربما أعلن إيمانه بالتوحيد وبالقرآن عموما وبالرسول(ع) ولكنه أنكر واحدا من أوامره تعالى، أو خالف واحدا من أوامر الرسول(ع)، فهذا مسلم "كافر" بهذه النقطة فقط.

ضع هذا في بالك لأن غالبية كتب التفاسير لم تركّز على هذا الشرح، وفي غالبية الثقافة الدينية للكثير من الناس فأيُّ تعبير قرآني عن كفر ما، فهو بالنسبة لهم كفر من عيار واحد، فحكم الكافر عندهم: القتل و... وبعضهم أجراه حتى على المسلمين المخالفين لمذهبه أو للتاركين للصلاة...! وكما ترى فتوصيف الآيات هنا لبعض المسلمين بأنهم كفّار، فهذا لا يعني أبداً بتاتاً أنه يجري عليهم حكم الكفّار المنكرين لألوهيته تعالى أو المشركين به أو المقاتلين، فهذا شيء أصلا لم يفعله الرسول(ع) ولا الأجيال الأولى من عقلاء المسلمين.

أضف إلى ذلك، أن الأحكام التي تجدها في بعض كتب الفتاوى عن الكفّار، فهي أصلاً أحكام إجرامية نابعة من النفسية الإجرامية عند من أفتى بها، فإهدار دم الكافر "الملحد أو المشرك أو من أهل الكتاب..." محصور فقط وفقط للمعادين المحاربين المقاتلين للمسلمين فقط. وأي آية ذكروها ليستخرجوا منها أحكامهم الإجرامية، فيمكنك مراجعة دراستنا هذه

لترى أنهم قطعوها عن سياقها ومحور الكلام ليتناسب تفسيرها مع هواهم الإجرامي، ولمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 8 من سورة الممتحنة {لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}.

(يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ{6})

{يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا}، في الزمن الذي يقيمهم سبحانه فيه من الموت كلّهم بدون استثناء، في يوم القيامة من الموت وما بعده، {فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا}، سجّل لهم سبحانه كل ما عملوه، وعندما يقومون من الموت سيخبرهم بالأعمال التي قاموا بها، هم يعرفونها ولكنهم نسوها أو تجاهلوها أو لم يعتبروها سيئة... سبحانه سيخبرهم بها ليحاسبهم عليها.

{أَحْصَاهُ اللَّهُ}، وما عملوه لا يفلت منه شيء على الله تعالى حيث حصره كلّه، {وَنَسُوهُ}، غاب عن ذاكرتهم وبالهم.

{وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}، يرى ويسمع ويدري بما يجري، خذوا علماً أن محادّتكم له تعالى لن تمرّ في يوم القيامة بلا عقاب.

إذاً، الكلام مع مسلمين وصلهم حكم إلهي ولم يعجبهم فخالفوه، وأبدوا رأيهم به... وهم بعد قليل مستهترون بالموضوع، وبعد يوم أو يومين يذهب من بالهم وذاكرتهم أنهم حادّوه تعالى، ويعيشون حياتهم العادية، تهدّدهم الآية هنا أن هذا التصرف لن يمر بدون عقاب، فإن أنتم نسيتموه أو تناسيتموه أو تتجاهلونَه بعد مدّة، فهناك زمن مخصّص لإنباء وإخبار الناس بكل ما عملوه.

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{7})

{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت. {أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}؟ مِن مجموع الآيات التي عرّفتك على إلهك، ومما وصلك منه تعالى من كلام تعريفي بنفسه، صار لديك تراكم معلومات تؤكد لك أن الله لديه علم تفصيلي بكل السماوات السبع وما يقابلها من أراضٍ وهذه هي حدود كل دنيا المخلوقات، وبالتالي وكما قالت الآية السابقة فهو تعالى يعلم بما عملنا حيث أحصاه وهو شهيد...

{مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ}، لا تكن هناك مناجاة، أيُّ حديث صريح خاص بين أطراف مرتاحين مع بعض بالكلام، يتكلمون مع بعض براحتهم بلا قيود ولا أسرار، كأصدقاء أو جماعة هواهم متوافق مع بعض، {ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ}، {وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ}، {وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ}، أقل من ثلاثة أو أقل من خمسة، حتى لو كانا اثنين أو أربعة يتناجون، {وَلَا أَكْثَرَ}، حتى لو كانوا أكثر من خمسة أشخاص يتناجون، {إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا}، لا يوجد بالنسبة له تعالى أماكن خاصة للمتناجين ولن يعلم بهم سبحانه إن ذهبوا إليه ليكونوا على انفراد، هذا يحصل معي ومعك، ينفرد بعض الناس مع بعض بنجوى وأنا لا علم لي بها حتى بالرغم من اهتمامي بمعرفة ما يقوله هؤلاء الأشخاص... ومهما كان عدد الأشخاص الذين يتناجون، ربما كل اثنين أو ثلاثة في زاوية يتناجون في مكان فيه عشرات يتناجون... هم بالنسبة لبعضهم البعض لا يسمعون الآخرين ولكنه تعالى يسمعهم كلّهم.

{ثُمَّ يُنَبِّئُهُم}، مناجاتهم شيء خاص بينهم لا يعلم به الآخرون، وهم أنفسهم مع مرور الوقت سينسون ما تناجوا به، يخبرهم سبحانه بما لم يعد علمه منتشراً بينهم، {بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ}، في الزمن الذي سيقومون فيه من الموت سيخبرهم تعالى بما كانوا يعملون في حياتهم الدنيا.

{إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، لديه علم تام شامل بكل التفاصيل. وأيضاً هذا تعبير آخر عن: أنتم تحت المراقبة. لِنُكْمِلَ لنرى ما هو فحوى النجوى التي تهتم بها السورة كنموذج، عمَّ وبماذا يتناجون؟:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ{8})

{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت. {إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى}، وصلهم أمر بالتوقف نهائياً عن الاجتماع الانفرادي للتناجي بين بعضهم، ومن تكملة الجملة سترى أنهم جماعة سيئة يتناجون بالسوء وقد نهاهم الرسول محمد(ع) عن ذلك، {ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ}! يجتمعون من جديد، {وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ}، يتحدثون مع بعض براحة وأريحية لأن هواهم متوافق مع بعض، ويتكلمون بما قاموا به من أمور يعلمون أنها سيئة أو يتحدثون بما سيقومون به من الأمور التي يعلمون أنها سيئة، {وَالْعُدْوَانِ}، يتحدثون براحة بين بعضهم عن التعدّي لحدودهم، عن تجاوز حدودهم بالاعتداء على الشريعة الإلهية وعلى الناس، يعارضون تشريعاً إلهياً بتشريع مخالف، ويسلبون الناس حقوقهم... فَهجُومُك على بريء لضربه هو عدوان، وإن كنت عالماً بقيمة سوء فعلتك فأنت آثم، وهكذا كل السيئات وجوه لعملة واحدة يختلف تصنيفها من وجهة نظر ما، فهي ذنب وإثم وجرم وعدوان ومعصية... ولكن تبقى كلها سيئات ولذلك تتداخل في التصنيف من ناحية سوئها، ومن الصعب فصلها عن بعضها، الجرم ما عليه عقاب، والإثم ما معلوم سوؤه، والذنب مخالفة الأوامر، والعدوان تجاوز الحدود...

{وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ}، ومخالفة عموم ما يقوله الرسول(ع) من أمور تخص تنظيم حياة المجتمع المسلم، وكمثال هنا أمره (ع) للمنافقين بالامتناع عن الاجتماع لوحدهم، وأمره (ع) بتقسيم مهام الأعمال العامة من جباية زكاة ورعايتها وتقسيمها... ذلك لا يعجبهم فلا ينفذون الأوامر ويعرقلونها...

{وَإِذَا جَاءُوكَ}، قصدوا أن يكونوا في نفس المكان الذي تتواجد فيه أيها الرسول(ع)، {حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ}، ألقوا عليك تحية مختلفة عن التحية التي قالها الله تعالى عنك، عند التلاقي يتبادر الناس بكلام لطيف بمناداة بعضهم، وهذه هي التحية، وأنت رسول ونبي، وهذه أهم صفات يمكن أن يقولها لك الناس كتحية، وبهذه الصفات حيّاك الله تعالى وتوجّه إليك بالكلام بالعبارات التالية: يا أيها الرسول، يا أيها النبي، السلام عليك... أمّا هؤلاء فيحيونك بأسماء أخرى للتقليل من قيمتك، مثلاً ينادونك يا محمّد... أو يدغمون كلمة السلام ببعضها، "السام عليك" بدلاً من السلام عليكم، أو يرخون حنكهم ويقولون "يا رزول" بدلاً من يا رسول... مثلما نحن نمزح ونقول: سباق الخيل. بدلاً من صباح الخير. ولكن أولئك كانوا يقصدون السخرية من رسول الإله، ويقصدون التقليل من قيمة قائد المجتمع ورئيسه وأبرز شخصية فيه...

{وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ}، بعد أن يَقْصِدُوا التقليل من قيمتك بالتحية السيئة، يقولون: {لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ}. لو كان الله موجوداً، ولو كان يعلم بما ننويه في تحيتنا من معنى مهين لرسوله، ولو كان فعلاً يراقب ويسمع، ولو كان فعلاً سيعذّب المخالفين لأوامره، فمن المفروض أن يعذّبنا "لو" كان "ولو" شيء واحد صحيحاً من هذا الدين.

إذاً نحن أمام جماعة لها رأيها الخاص في الأمور الدينية والاجتماعية و... وليسوا من الذين يدرسون كلامهم ليتكوّن لديهم رأي عن فهم ووعي، لا، بل هم حادّون "يتعاطون بصلابة" مع الأمور التي يطرحها الدين والرسول(ع)، هم معارضون دائماً أو غالباً لما يقوله الرسول والدين، وليسوا من المسلّمين تسليماً، وكما سترى من السورة فهم أناسٌ حتى هم لا يدرون ماذا يرضيهم وماذا يريدون...

{حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ}، المكان الموصوف بسوء ما فيه من نار متأجّجة هو حسبهم وهو كافٍ لهم كعقاب، {يَصْلَوْنَهَا}، يتم توجيههم عليها فيتعرّضون للهيب نارها، {فَبِئْسَ الْمَصِيرُ}، جهنّم موصوفة بأنها أسوأ ما تصير إليه الأمور، وهي أتعس نهاية ونتيجة.

كما ترى الظهار نموذج فاقع بارز من التشريعات السيّئة التي كانت دارجة بين الناس، وأكملت منه السورة كلامها لتشير إلى عموم ما يتحدّث به البعض من تعليقات مخالفة لدينه تعالى، وتبيّن لنا أنهم أصلاً نوعية سيئة من الناس، هناك أناس يتحدّثون عن أمور في دينه تعالى ومخالفة لما هو متعارف بينهم، ولكنهم يحلّلون ويدرسون ليفهموا... هؤلاء ليس لديهم نوايا مخالفة دينه تعالى... وهؤلاء يحترمون الرسول (ع) قولاً وفي نواياهم، بعكس النموذج الذي تشير له الآيات عن أناس أصلاً ليسوا مؤمنين حقيقيين، هم أصلاً لا يشعرون أنهم تحت مراقبته تعالى، وأصلاً لا يحترمون الرسول(ع) ولا يعتبرونه شخصية تستحق التقدير... حين ينفردون مع بعض مواضيعهم هي السوء من إثم وعدوان ومعصية الرسول...

بقي شيء، مِن بعض اختلاف رسم الكلمات في المصحف المرسوم بالطريقة القديمة، مع المصاحف المرسومة كلماتها بالطرق التي أتت بعده، نجد كلمة "معصية" التي كتبوها قديماً بالتاء الطويلة "معصيت"، وهذا شيء نعتبره حالياً أنه

خطأ إملائيٌّ، وحين كتبوه أيضاً لم يكن رسماً قياسياً، ضع في بالك أن الجيل الأول الذي كتب القرآن لم يكن لديه علوم تخصصية باللغة، وأصلاً في عصرهم لم يكن لهذه العلوم أي انتشار أو تدقيق أو تطوير، وبسبب القرآن تطوّرت علوم اللغة العربية سريعاً بسبب اهتمام الناس برسمه على أقرب طريقة للفظه بشكل صحيح، ورسم اللفظ الصحيح شيء تعاني منه كلّ اللغات، لا توجد أي واحدة منها يمكنك التلفّظ بكلماتها من قراءتها كما يتلفظ بها أهل تلك اللغة، ويمكنك مراجعة علم الصوتيات وبخاصة موضوع اللغة المستحدثة "إسبيرنتو" التي اخترعوها لتكون لغة عالمية، وعلى أساس أنه يمكن للجميع التلفّظ بكلماتها بشكل مشابه، واستخدموا علم الفونيتيك لاختيار أصوات الكلمات... ولكن سرعان ما صار لهذه اللغة لهجات مختلفة!

على كل حال حتى قواعد اللغة العربية مثلها مثل بقية اللغات، لم تستقر ولم تثبت ولا تزال في تغيّر، بالخصوص كلامنا عن قواعد رسم الكلمات، لا تتحسّس من خطأ إملائي تجده في المصاحف المرسومة قديماً، الأجيال الأولى اعتمدت على حفظ القرآن عن ظهر قلب ولم يعتمدوا على الكتابة لمعرفة اللفظ الصحيح، بل اعتمدوا الكتابة للمساعدة على تذكّر الكلمة... وفيما بعد تطوّرت العلوم اللغوية وتطوّر معها رسم الكلام، وبقي يتغيّر عبر الزمن ولا يزال... منذ عهد قريب كانوا لا يزالون يكتبون "هذا، هاذا. ذلك، ذالك. امرأة، إمرءة.... وإلى الآن بعضنا يكتب "رؤوس، فؤوس..." وآخرون يكتبون "رؤس، فؤس...".

بالاختصار، الجيل الأول الكاتب لأوائل نسخ القرآن، بذل جهداً جباراً ليكتبه بأقرب طريقة مساعدة على لفظه بشكل صحيح، وفي حينها كانت الأحرف بلا نقط، وبلا حركات... وكلمة "معصية" التي وردت هنا وكتبها من كتب هذه السورة بالتاء الطويلة، كتبها على اللفظ موصولة مع ما بعدها من كلام، ومثلها فعلوا مع كلمة "رحمت الله ورحمت ربّك، وشجرت الزقوم، وامرأت نوح..." يبدو أنهم استتنسبوا في بعضها كتابة التاء طويلة لسبب كان يبدو وجيهاً عندهم كمساعد على اللفظ...

وألفت انتباهك لما تجده هنا وهناك من كلام عن تحريف القرآن، من النسخ القديمة التي نجدها هنا وهناك وفيها أخطاء إملائية ونحوية، مِن النادر جداً أن تجد قرآناً فيه تغيير لكلمة كاملة، حتى أني لم أر ذلك في حدود اطّلاعي، وستجد العديد من أخطاء تصحيفية، بحرف بدلاً من حرف... لأن نسخ القرآن كان يتم باليد وليس بالتصوير أو بالآلات... وبعض الناسخين لم يكونوا أصلاً حافظين عن ظهر غيب لكل القرآن، حتماً سيقعون في الأخطاء... وبعض كتّاب القرآن أجروا قواعد رسم عصرهم على ما نسخوه، وهذه النسخ هي الأكثر بين ما نسميّه بالأخطاء الإملائية والنحوية... استرحنا منذ عهد قريب من ذلك حين اعتمد المسلمون نسخة واحدة وطبعوها بالآلات الطباعية.

استعنتُ في هذه الدراسة بنسخة قرآنية مرسومة بالقواعد الدارجة في عصرنا، وهذا لا يعني أي شيء سوى تسهيل قراءتها لغالبيتنا على ما درسناه في المدارس...

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ{9})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الناس الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين، {إِذَا تَنَاجَيْتُمْ}، اجتمع بعض الأصحاب ليتحدّثوا بين بعضهم على انفراد وبراحة، {فَلَا تَتَنَاجَوْا}، لا تجتمعوا لتتحدّثوا براحة، {بِالْإِثْمِ}، بالأمور التي تعلمون أنها سيئة والدين صرّح بأنها حرام، فلا تتحدّثوا عمّا فعلتموه من سوء، ولا تتحدّثوا عمّا ستفعلونه من سوء، فلا تُشَجِّعُوا بعضكم على السوء... ولا تتناجوا بـ، {وَالْعُدْوَانِ}، بتجاوز حدودكم بالاعتداء على الشريعة الإلهية وعلى الناس، فيعارضون تشريعاً إلهياً بتشريع مخالف، ويسلبون الناس حقوقهم... فهجومك على بريء لضربه هو عدوان، وإن كنت عالماً بقيمة سوء فعلتك فأنت آثم، وهكذا كل السيئات وجوه لعملة واحدة يختلف تصنيفها من وجهة نظر ما، فهي ذنب وإثم وجرم وعدوان ومعصية... ولكن تبقى كلها سيئات ولذلك تتداخل في التصنيف من ناحية سوئها، ومن الصعب فصلها عن بعضها، الجرم ما عليه عقاب، والإثم ما معلوم سوؤه، والذنب مخالفة الأوامر، والعدوان تجاوز الحدود...

ولا تتناجوا بـ، {وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ}(ع)، لا تتناجوا بمخالفة الأمور التي قال عنها الرسول(ع) والتي تخص الشؤون العامّة للمجتمع، من سلم وحرب وصلح وتوظيف وتوزيع للمهام...

{وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ} ، بالصلة، فليكن حديثكم عن الوصلة عن الاتصال أكثر بالإله سبحانه وبالرسول (ع) وبالأمور الصالحة وما ينفع الناس، ولا يكن تناجيكم عن الانقطاع عن الدين وعن مخالفته وأذية الناس... فالبرّ بشكل عام هو ما ذكرته الآية 177 من سورة البقرة من الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وإيتاء المال على حبّه تعالى للقرابة واليتامى... وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة... والوفاء بالعهد والصبر، ومضافاً له البر مع الوالدين... فليكن حديثكم عن القيام بهذه الأمور.

{وَالتَّقْوَىٰ} ، تحدَّثوا عن تجنّب شيء ما، وسياق الكلام عن تجنّب السوء، وهو نفسه تجنّب غضبه وعقابه تعالى بدلاً من الكلام عن القيام بأعمال السوء التي تسبب غضبه وعقابه سبحانه وتعالى.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} ، تجنَّبوا غضبه وعقابه تعالى الذي سيتم حشركم، تجميعكم إليه بقرار منه تعالى سواء قبلتم أم لم تقبلوا، وكما تعلم ففي يوم القيامة من الموت سيتم تجميعنا كلِّنَا بدون استثناء لنقف بين يديه تعالى ليحاسبنا.

نتذكّر دائماً أن القرآن يتحدّث مع المجتمع الذي أعلن أنه مسلم ملتزم بالدين بوصف: الذين آمنوا. ولا تعني لوحدها أبداً أي مدح، فلا تعني أنهم مؤمنون من درجة الصالحين، لا، فبتعبيرنا الدارج حالياً نستعمل كلمة: الذين أسلموا، المسلمون. أمّا القرآن فكان دقيقاً في التوصيف والاستعمال، والذي أعلن أنه مسلم فقد أعلن نطقه بالشهادتين، وهذا لا يمكنك التحدّث معه من الآخر وكأنه أتمّ إسلامه وواجباته الدينية، لا، ولن يردّ عليك أصلاً، فهو مسلم بالهوية فقط وفقط، وأمّا الذي يمكن للقرآن أن يتحدّث معه ويوجّه له الأوامر والتوجيهات والتنبيهات، فهو الذي يعتبر نفسه مُنْتَمِياً لهذا الدين الإلهي، وهذا بالضبط معنى كلمة: يا أيها الذين آمنوا... فمن المفروض بكم أن تفعلوا كذا وأن لا تفعلوا كذا... بما أنكم تعتبرون أنفسكم مُنْتَمِينَ لهذا الدين، ومؤمنين به، فهذه أوامره وتنبيهاته فالتزموا بها.

(إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ{10})

{إِنَّمَا} ، فقط، {النَّجْوَىٰ} ، الحديث الخاص براحة بين جماعة، وهنا الكلام خصوصاً عن النجوى السيئة وهي، {مِنَ الشَّيْطَانِ} ، مِنَ الموصوف بأنه يقوم بأعمال الضلال الخبيثة ومنها إضلال الآخرين، وهنا ينصرف ذهننا لإبليس بأنه هو المقصود بالشيطان، مِن الطبيعي توصيف مناجاة النموذج الذي تتحدّث عنه الفقرة بالإثم والعدوان ومعصية الرسول(ع) بأنها شيطانية، بمباركة شيطانية، بدعم وإدارة شيطانية، بوسوسة شيطانية، فهذه العناوين من أحبّ العناوين لإبليس لإضلالنا، ولكن يبقى التوصيف عمومياً لأي شيطان آخر غير إبليس من الجنّ والإنس، {لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا} ، حتى يشعر الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين بأن حالهم ليس على التمام وليس على ما يرام، مُزْعُوجِينَ، وتفهمها بسهولة عندما تنظر لأي بلدة وتلاحظ المحترمين العقلاء الذين بحالهم ولا يؤذون أحداً... وتلاحظ الأشقياء مفتعلي المشاكل والتعديات والعنتريات... مُهَرِّبِي وموزعي المخدرات والعملات المزورة... اللصوص... المزعجين بأصواتهم العالية وأصوات تلفازهم وسياراتهم ودراجاتهم... المعارضين لأعمال الخير المعرقلين لها... المعترضين على أمور من الواضح أنها صحيحة ولكنهم يقولون بعكسها... فأفعالهم تحزن الذين آمنوا.

{وَلَيْسَ} ، الشيطان، {بِضَارِّهِمْ شَيْئًا} ، فلا يمكنه تغيير حالة الذين آمنوا للأسوأ بقدرته الذاتية، {إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} ، فيترك سبحانه الأمور تحصل رغم قدرته تعالى على إيقافها ومنعها، ولكن بما يراه تعالى مناسباً يأذن للأمور أن تحصل، فالإذن لا علاقة له برضاه تعالى أو موافقته أو اعتراضه على ما يجري، فالإذن هو السماح بجريان الأمور حتى لو لم يكن تعالى راضياً عنها، فلو منع سبحانه حصول كلّ الأشياء التي لا يرضى عنها، لكنّا كلّنا ملائكة بلا شهوة ولا غريزة... أو لكنّا آلات مبرمجة بلا إرادة حرة... فتريدك الآية أن تفهم أن الشيطان لا يقوم بأي شيء بقدرته الذاتية الفائقة لقدرة الله تعالى، بل هو يقوم بالشيطنة وهو تحت سيطرة الله تعالى، فقدرات الشيطان أمامه تعالى أضعف بكثير جداً جداً من قدرات نملة أمام قدراتك أنت، ولكنه سبحانه صمّم هذه الدنيا ليبتلينا فيها، فترك الأمور تجري بحسب اختياراتنا، فأذن سبحانه لنجوى الشيطان أن يكون لها أثر، وإلا فسيتدخّل سبحانه شخصياً أو عبر ملائكته ليمنع حدوث أي أمر سيّء يقوم به الفاسدون حتى لا يحزن المؤمنون الحقيقيون، ولكن هكذا لن يعد للدنيا معنى كدار فتنة وبلاء...

{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}، لِيَعْتَقِدُوا أنه تعالى سيسيّر أمورهم كما يجب على الأحسن، فأمام الشيطان المحفّز على النجوى، وأمام الأثر العملي المزعج المؤذي الذي ينتج عن النجوى، فليعتمد المؤمنون عليه تعالى، فكل ما يحصل معهم سيكون في مصلحتهم، إن اعتمدوا عليه تعالى.

وبشكل ضبابي نسمع تعليقات من بعض الناس على التوكّل عليه تعالى، وهي تعليقات ضبابية لأنها لا تشير بالإصبع لشيء واقعي صحيح، فنسمع اعتراضاً عن وقوعهم في المشاكل، فأين مفعول التوكل عليه تعالى؟ وبداية ضبابية التعليقات مع وصف المؤمن، فبالضبابية كلنا مؤمنون، نصلي ونصوم و... وإذا حصلت معنا المشاكل نعترض ونسأل عن توكّلنا على الله تعالى أين صار وما نتيجته، على أساس أننا توكّلنا عليه تعالى ومن المفروض أن تسير كل أمورنا على تمام التمام...

بالأساس، هل نحن مؤمنون حقّاً؟ لا نستغيب، لا نغشّ، لا نبالغ، لا نكذب، لا نشتهي الحرام... هل انتبهت لهذه الضبابية! فأنا مؤمن في الضباب، ولكن إذا دقّقت فستجد الكذب الحقد الكره البغض الأذية الغيبة... فنحن بهذه الصفات لا نستحق العناية الإلهية بل نستحقّ التأنيب والتعذيب... والأعجب من ذلك عندما تسمع شخصاً قد تحسّن سلوكه منذ خمس دقائق فقط، وبعدها اعتبر نفسه مؤمناً من درجة المرسلين، ويطالبه تعالى بتيسير أموره، ويعترض عليه تعالى حيث لم يعتنِ بمن توكّل عليه! علماً أن الله ولي المتقين ويجعل لهم فرجاً ومخرجاً... وهو تقي "منذ خمس دقائق".

أعتذر من الإطالة هنا، ففي سور أخرى تجد تفصيلاً عن هذه الأمور، ولكن أحببت هنا لفت نظرك إلى ما تقوله السورة عن طرفين وصفتهما بنفس الوصف، فنبّهت الذين آمنوا من النجوى الشيطانية، وتحدّثت عن حزن الذين آمنوا من الآثار العملية للنجوى الشيطانية، وكما تعلم فكلاهما طرفان قد أعلنا بالظاهر أنهم من المنتمين لهذا الدين القرآني، ولكن البعض منهم محترمون عقلاء يحزنون من تعرّضهم لآثار النجوى الشيطانية، والبعض الآخر يقوم بالنجوى الشيطانية، فيحزن الآخرون، ومرّة ثانية تقوم مجموعة أخرى بنجوى شيطانية فتصيب أثرها بقية المؤمنين حتى الذين سبق وتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول(ع)... فهذا الجانب تفهمه من تكرار الآيات لتوصيف الذين آمنوا ليشمل الجميع.

ويمكنك رؤيتها كتطبيق عملي لما يجري في بلداننا الإسلامية، فكلهم أو غالبيتهم مسلمون، ولكنهم جماعات جماعات، وكل جماعة تجري اجتماعاتها الخاصّة، وبماذا يتحدّثون في تلك الاجتماعات؟ بالبرّ والتقوى؟ فلو كانوا كذلك لحكمنا العالم، ولكنهم يتناجون بالإثم والعدوان ضد أبناء بلدهم، وضدّ المسلمين الآخرين في البلدان الأخرى... وهكذا نفهم كلام القرآن عن المتناجين بالإثم والعدوان في عهد الرسول(ع) أنه مجرد نموذج، وللأسف فتطبيقاته مستمرّة، وصار أولئك المتناجون بالإثم والعدوان حاكمين لبلداننا، ومنهم علماء دين...

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ{11})

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين، {إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا}، افسحوا مجالاً لغيركم، {فِي الْمَجَالِسِ}، في الاجتماعات التي تجلسون فيها، فلا تجلس بشكل يأخذ مساحة كبيرة تمنع غيرك من الجلوس، {فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ}، فلا يضيّق عليكم، ومن أوصاف الجنّة نعلم وساعتها ومن أوصاف النار نعلم ضيقها على من فيها، فإذا فسحت مجالاً لغيرك ليجلس في المجالس، في المكان الذي فيه أكثر من مكان للجلوس، في اجتماع لعدد من الناس، فستكسب أجراً يبعدك عن ضيق جهنّم ويجعلك في وساعة الجنّة.

{وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا}، كنتم جالسين مع الجالسين وطلبوا منكم ترك الجلوس لتنصرفوا، وهذا نشاز فهذا تغيّر عما عليه أنتم ومن حولكم، فقد كنتم كلّكم جالسين وطلبوا منكم الانصراف، {فَانشُزُوا}، فلا تبقوا مكانكم جالسين وانصرفوا.

{يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ}، {وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}، المؤمن قيمته يرفعها تعالى، والعالم قيمته يرفعها تعالى، فبعبارة لطيفة يخبرك تعالى أن إيمانك العالي يجعل لك قيمة عالية عنده تعالى حتى لو لم تكن من العلماء، وهناك من هو أعلم منك وبسبب علمه فله قيمة عالية مختلفة عن القيمة العالية للمؤمن، فأنت تحتاج لعلمه، فانشز تاركاً المجال له في المجالس حتى يفيد الآخرين بعلمه.

يعني، الجلوس في الاجتماعات أو المناسبات لا يعطيكم القيمة والمكانة العالية المهمّة عنده تعالى، فدرجة إيمانكم هي التي تعطيكم القيمة عنده سبحانه، وبين المؤمنين هناك علماء، وهؤلاء لهم قيمة مختلفة، فبعض الناس يأخذون مكاناً كبيراً في مجلسهم حتى لا يزيد عدد الجالسين في المجلس، وحتى لا يجلس أحد ما بقربهم... ويحضرون في كل الاجتماعات حتى لو لم يكونوا نافعين فيها... وهذه تصرفات غير سليمة، فهناك اجتماعات ليس لهم عمل فيها، ولا يفهمون في شؤونها... وهناك أمور خاصة لا يجب أن يسمعوها... فإذا قيل لهم اتركوا المجلس وانصرفوا حتى يبقى الآخرون الذين لديهم عمل ما، أو حتى يجلس الذي يفهم بالموضوع... فيجب أن ينشزوا عن المجلس ولا يعتبروها إهانة أو قلّة قيمة لهم، لا، فالدرجة العالية عند الله تعالى بالإيمان وبالعلم مع الإيمان، وليس بالحضور في الاجتماعات التي لا عمل لكم فيها.

بعبارة أخرى، المؤمنُ من الدرجة العالية وفي نفس الوقت عالم ينفع علمه الناس، فهذا يرفع تعالى قيمته لأقصى درجة، وعبارة الآية لم تلغ قيمة المؤمن الذي ليس عالماً، فبعلوِّ إيمانه وعمله الصالح يرفع تعالى قيمته لأقصى درجة أيضاً مثله مثل العالم، ولكن فصلت الآية المؤمن العالم عن الآخرين لأن الكلام عن المجالس التي ينطرح فيها شؤون تحتاج لعلماء يفهمون فيها، فينتبه المؤمنون الآخرون أن قيمتهم الإيمانية لا تزال عالية عنده تعالى، ولكن هذا لا يعني أن يشارك المؤمن في المجالس التي لا علم له في مواضيعها، فلينسحب منها فاسحاً المجال لمن يفهم بشؤونها.

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}، لديه تفاصيل أخبار أعمالكم، فحتى هذه الحركات البسيطة من التفسّح في المجالس لإتاحة المجال للآخرين النافعين أكثر منكم للمشاركة في الاجتماعات التي يتم تداول أمور وشؤون المسلمين فيها... والنشوز من الاجتماعات التي لا عمل لكم فيها ولا تفهمون بالأحاديث التي يتم تداولها أو لا خبرة لكم فيها... فسبحانه لديه أخبار ما تفعلونه، وإن كنتم مؤمنين ومن علماء المؤمنين فهذا لا يخفى عليه تعالى.

لاحظ ما كررناه مراراً في دراستنا هذه عن افتراض القرآن البداهة فيك، فهنا لا داعي ليقول لك إنَّها مجالس لإدارة شؤون المسلمين، فبالبداهة تعلم أنها ليست مجالس تسلية أو أخذ بالخاطر في عزاء، أو حفل عرس...

وبناءً عليه غالبية الناس يعتقد كلّ واحد منهم أنه أفهم من الآخرين، أو أقل بقليل من البعض ولكن على كل حال فلديه وجهة نظر يجب أن يسمعها الآخرون، وكما ترى فالكلام هنا فيه شيء عن عموم أي مجلس يجتمع فيه الناس، حتى لو كان لمناسبة اجتماعية، فنتعلّم منه آداب المجلس... ولكن مما سيأتي ومن فحوى الكلام نفهم أنه إشارة إلى خصوص المجالس المهمّة التي يتم فيها بحث شؤون عامّة، أو قضاء، أو حلّ نزاع بين متخاصمين...

في عهد الرسول(ع) كان النظام مفتوحاً لتدخّل أي كان في عموم الحكومة بكل أنواعها، فالاجتماع في المسجد مفتوح لعموم من حضر، وبيته (ع) مفتوح لعموم من قصده... وعليه فالكلام هنا عن أناس يعتبرون أنفسهم من الضروري تواجدهم في كل المجالس، سواء استدعاهم الرسول(ع) أو لم يستدعهم، سواء أبدى لهم (ع) إعجابه برأيهم في موضوع ما مما يعني الاستفادة من حضورهم، أو حتى لو لم يكونوا مفيدين... فبعضهم كان يرى أن تواجده أساسياً ومهمّاً جداً في أي مجلس للشؤون العامّة أو الخاصّة...

تطبيق كلام الآية على عصرنا حيث غالبية المجتمعات تعمل نظرياً بوصول الحاكمين إلى السلطة بالانتخابات، حيث يصل أوباش ومتملقون وأصحاب نوايا سيئة استغلالية للسلطة ومحبو المناصب... ويغلقون طريق الوصول إلى المجالس الحكومية على المؤهّلين لها، في الدولة وفي البلديات والمجالس العامة والهيئات... والأحزاب والجمعيات... فهؤلاء لا يتفسحون في المجالس حتى مع تأكدهم بوجود من هو أفضل منهم، ولا ينشزون فيبقون في أماكنهم حتى لو رأوا من هو أفضل منهم... بل يصيرون مجانين عظمة فلا يرون غباءهم ولا ما نتج من سوء عن قراراتهم من تخلّف بلدانهم أمنياً واقتصادياً وصحيّاً...

الكلام يجر الكلام، فالخلاف السياسي التاريخي على أحقية الولاية بعد الرسول محمد(ع)، فهو مجرد خلاف لشحن النعرات الطائفية والمذهبية، فما معنى الخلاف على شيء مضى، في مقابل ترك ما نحن فيه الآن في عصرنا؟ فأي الحزبين حالياً يعمل على تولية الأفضل؟ ما شاء الله على حكّامنا ورؤسائنا وحاكمينا وعلمائنا... فهم نموذج مشرّف للولاية أليسوا كذلك؟ وأنت تعلم أنهم بالغالبية الساحقة ناهبون للمال العام، بل ملوك وأمراء باسم الإسلام ملّكوا أنفسهم خيرات البلاد، وما يعطونه للعباد فهو من فضلة خيرهم! وهم فوق القانون بل ما يقولونه هو القانون!... فتركنا كل ذلك

ورجعنا في التاريخ لنتناحر على أحقية الولاية بعد الرسول(ع)! وكأننا لسنا مسؤولين ولن نتحاسب عن الولاية في عصرنا، وكأننا مسؤولون وسيحاسبنا تعالى فقط على الخلاف على الولاية من بعد وفاة الرسول(ع)!

أنا لا أفهم دين هذه الناس، فإن كان الكلام عن شيء ديني، فهل في الآخرة سأتعرّض لامتحان في التاريخ ليسألوني عن شخصيات لم أعاصرها؟ وحتى أعرفها يجب أن أدرس التاريخ وأقارنه... فماذا لو لم أعرفهم؟ فهل أدخل النار؟

لماذا سيكون السؤال عن تاريخ المعاصرين للرسول محمّد(ع) ولن يسألوني عن بقية الرسل ومن أحقّ بالخلافة من بعدهم...

بالمختصر، ها هو القرآن أمامك، وفيه أنك ستتحاسب على زمنك وما أنت فيه، فستتحاسب إن كانت زوجتك أجدر منك بإدارة شؤون العائلة وأنت ركبت رأسك مصرّاً على رأيك، وستتحاسب على الذي مشيت خلفه ومعه ليصير له موقع اجتماعي أو رئاسي، وستتحاسب على مختار المحلة الذي انتخبته إن كان الأصلح، وستتحاسب على النائب الذي انتخبته، وستتحاسب على الزعيم الذي صفّقت له وعلّقت له صورة ودعمته بالكلام أو بالمال...

إنَّ ما يقوله البعض عن دخول النار لمن لا يعتقد بأن الإمام علي هو الأحق بالخلافة، فليعلم أن الله سبحانه لا يجري لنا امتحانات تاريخ في الآخرة، فالإمام علي ومعاصروه هم مجرد نموذج من التاريخ، وفي عصرك أنت أخبرنا عن الذين واليتهم؟ أخبرنا عن موقفك من الذين ترى فيهم أهلية الرئاسة ولم تدعمهم؟ أخبرنا إن لمرة واحدة في حياتك اتخذت قراراً بدعم أو تأييد أو انتخاب... شخص ترى فيه الصلاح ولم تر فيه أي مصلحة شخصية خاصة لك، ومن بعد الانتهاء من هذا وصيرورة أمورنا على التمام، ننتقل للترف فنبحث في التاريخ ونتجادل حوله...

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{12})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ}، حَيْثُ تحدّثتم معه بحديث خاص وبراحة بينكم وبينه بأريحية، والكلام هنا عن الجلوس مع الرسول(ع) لا لأمور عامّة تخص المسلمين ولا لتعلّم الدين بالسؤال عن العقيدة أو الشريعة... بل عن تمضية الوقت لمجرد تمضية الوقت، كالزيارات التي نقوم بها لبعضنا البعض حيث نتكلّم في أمورنا الشخصية وما فعلناه في طفولتنا وشبابنا... وعن الطقس وزراعة ورود الزينة المنزلية... {فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً}، كما نقول قدّم لي الطعام، قَبْلَ أن تقصدوا مناجاة الرسول (ع) في المسجد حين يجلس ليسمع من الناس الأمور التي تتعلّق به كرسول وكقائد، بينما أنتم جالسون للمناجاة... أو تقصدوا الرسول (ع) في بيته فقط لمناجاته كزيارة أو كمكان تقضون فيه وقتكم إن لم يكن لديكم عمل مهم... فقوموا قبل ذلك بدفع، بِتَقْدِيمِ صدقة، شيء من مالكم وما تملكونه على المحتاجين أو على الشؤون العامّة للمسلمين، فهذا ثمن لقيمة وقت الرسول الخاص به، وسيصير لِتَضْيِيعِكُمْ لوقته الخاص مَعْنًى إن تَصَدَّقْتُمْ مقابله.

سَتَرَى من تكملة الكلام أن الآية تنبيه للناس على قيمة وقتهم ووقت الآخرين، وَخُصُوصاً وقت الرسول(ع)، فلا يحقّ لهم استغلال تقديمه (ع) لوقته لِيُتَابِعَ مع الناس وظيفته كرسول وقائد، حتى يُضَيِّعُوهَا هم بالمناجاة "التمضية الوقت" حين يريدون هم.

التَّعْبِيرُ بـ {قَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً} يشير إلى تقديم صدقة خاصة لموضوع النجوى، فلا يقل أحد إِنِّي كَثِيراً ما تصدّقت فيما مضى ويمكنني مناجاة الرسول(ع) دُونَ إنفاق صدقة، أو يقول سأنفق صدقة فيما بعد... لا، بل بين يدي نجواكم قدّموا صدقة، فلا تشير الآية إلى تقديم الصدقة حَصْراً أَمَامَ الرسول(ع)، بل قبل أن تذهبوا للمناجاة قدّموا صدقة، أو قبل أن تبدؤوا بالمناجاة قدّموا الصدقة أمام الرسول(ع) وبعدها ناجوا.

{ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ}، الصَّدَقَةُ قبل أن تناجوا الرسول(ع) هي أفضل لكم من مناجاته بلا صدقة، بِذَلِكَ ستعتبرون لوقته (ع) قيمة، {وَأَطْهَرُ}، هُوَ خُلُوٌّ لكم من الأشياء المكروهة، فيجعلكم أصفى وأنقى وَتَكُونُونَ محبوبين إِيمَانِيّاً، بِتَقْدِيمِ صدقة يتبيّن أنكم تحترمون وقت الرسول(ع) للمناجاة معه، وأن قيمة ذلك في نظركم عالية ومساوية لِصَدَقَةٍ، وأنّكم لا تَعْتَبِرُونَهَا مضيعة وقت كيفما كان، وكأن وقت الرسول(ع) لا قيمة له.

مَرَّةً ثَانِيَةً ننتبه، الْآيَةُ لا توجّه كلامها لمن كان لديه سؤال شرعي أو مشكلة ما وذهب إلى الرسول(ع) ليحدّثه بها أو عنها أو يخبره بشيء مهمّ... لا، الْآيَةُ هنا تتحدّث حَصْراً عن الذين ليس لهم عمل وقصدوا الجلوس مع الرسول(ع) في بيته أو في المسجد... لمناجاته، أي للحديث معه براحة، لتمضية الوقت كما يمضي الأصدقاء أو الأقرباء وقتهم مَعَ بَعْضٍ بكلام عن الطقس وزراعة الورود وألم الأضراس... فِي المسجد بعد الصلاة حين كان يجلس الرسول(ع) بين الناس ليسمع عن أحوالهم واستفساراتهم... بَعْضُ الذين لا عمل لهم كانوا يبقون جالسين، بل ويفتحون مَوَاضِيعَ لتمضية الوقت، بل ويحرجون الرسول(ع) على أساس أنهم جالسون معه وليس من اللائق أن يتركهم (ع) ويذهب...
فَيَحْجِزُونَهُ(ع) حتى لو لم يكن هناك شؤون عامّة تستدعي بقاءه (ع)، ويبدؤون بالمناجاة، فيبدؤون بأحاديث للتسلية وتمضية الوقت عن الانزعاج من الحرارة العالية نَهاراً، والبرد لَيْلاً... وعن أسعار الخضراوات ... والبعض منهم صار مُلَاصِقاً للنبي(ع) "على العمّال والبطّال"، في المسجد أو في بيته... وآخرون يبقون جالسين عند النبي(ع) طالما ليس لديهم شيء آخر يفعلونه...

هَكَذَا، فَهَذَا الأمر بالصدقة يبيّن إِنْ كانوا فِعْلاً يحترمون وقت الرسول(ع) الذي لن يبقى له وقت خاص به بسبب استهلاكهم له، والرسول مستعد لتقديم وقته للمناجاة معهم إذا كان ذلك سببا في تقديمهم صدقة من مالهم للمحتاجين...
ومن ناحية ثانية حتى لا يصير مجلس النبي(ع) مَوْصُوفاً بأنه مجلس العاطلين عن العمل "ومتفضّي الأشغال"، فتقل قيمة مجلس النبي(ع) في أعين الناس...

اِنْتَبِهْ أكثر، قَدْ قرّر سبحانه عن رسوله(ع) أن وقت فراغ رسوله خاص له (ع)، وإذا شغله أحد ما بالنجوى، فليقدّم صدقة يعتبر فيها قيمة للوقت الذي سيأخذه من الرسول(ع)، وسبحانه قرّر عن الرسول(ع) أن يقبل بالمناجاة في مقابل صدقة على المحتاجين من أموال المناجين، وهذا خير للمناجي وأطهر على أساس أنه لم يَأْتِ للمناجاة مع الرسول (ع) باعتبار أن وقت الرسول لا قيمة له...

{فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا}، لَمْ يوجد لديكم ما تتصدقون به، {فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ}، يَغْفِرُ لكم وَيُسَامِحُكُمْ وَيَقْبَلُ أن تجلسوا مع النبي(ع) للنجوى من دون أن تدفعوا صدقة إن كنتم من الفقراء، {رَّحِيمٌ}، لَدَيْهِ عناية خاصة بالمؤمنين، فالمؤمن الذي يريد التشرّف برؤية الرسول(ع) وسماع بَعْضٍ من كلامه(ع) وهو فقير، فهذا لن يحاسبه تعالى إن كان خفيف الظلّ وناجى ولم يستهلك الكثير من وقت فراغ الرسول(ع)... طَبْعاً وَضِمْناً، الْكَلَامُ يشير إلى اللياقة والتهذيب، ولا يعني أن الفقير يمكنه ملاصقة الرسول(ع) لمناجاته ساعة يشاء وللمدّة التي يَشَاؤُهَا... فقد صار واضحا أن الاستثناء ليس لَاغِياً للياقة والأدب باحترام وقت الرسول(ع).

لَاحِظْ وَانْتَبِهْ، آيَتُنَا هذه لوحدها تعطيك معنى وجوب دفع الصدقة قبل مناجاة الرسول(ع)، ولكن لصقها بالآية التالية يعطيها معنى الصدمة، فَتَصَرُّفُ بَعْضِهِمْ كان سَيِّئاً ولم يعوا له إلا بصدمة أمرهم بالصدقة قبل المناجاة ليروا قيمة لوقت الرسول الخاص... وهذا ما لم ينتبه له الكثير من المفسرين الَّذِينَ قطعوا الآيتين عن بعضهما، فقالوا إِنَّ آيتنا هذه نزلت وبعدها بأيّام نزلت الآية التالية لاغية للأمر بالصدقة، ولكن الآية التالية وبأوّل كلمة فيها {أَأَشْفَقْتُمْ} فهي تشير للافتراض، فِعْلِيّاً لم يصدر أمر تشريعي بوجوب الصدقة قبل مناجاته(ع)، ولكن ماذا لو صدر أمر تشريعي بذلك، أأشفقتم منه؟ فلنكمل لنرى الصورة بشكل أوضح:

(أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ{13})
{أَأَشْفَقْتُمْ}، هل شعرتم بمعايشة الضرر، {أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ}؟ بَعْدَ كلام الآية السابقة عن وجوب تقديم صدقة قبل المناجاة تَخَيَّلْتُمْ أنفسكم تتصدقون كلّما ذهبتم لمناجاة الرسول(ع) وَعَايَشْتُمْ حالة الإفلاس من كثرة الصدقات التي يجب أن تدفعوها بسبب كثرة زياراتكم له(ع) لتناجوه؟ مما يعني ضِمْناً أنكم من المستهلكين بكثرة لوقت الرسول(ع)...

كما يبدو، السورة نازلة دفعة واحدة، حيث بمجرد قراءتك للآية السابقة تدرك أن الأمر الإلهي بدفع صدقة عند نجواهم للرسول(ع) هُوَ أمر موجّه لخصوص بعض المزعجين من الناس حتى يحترموا الجلوس والحديث مع الرسول(ع)، وحتى لا يصير مجلس الرسول(ع) للتسلية ولتمضية الوقت وللعاطلين عن العمل... تَأْتِي الآية هنا مباشرة لتقول لهم:

بعد الأمر لكم بالصدقة قبل النجوى، هَلْ تلبّستم بشعور فقدانكم لِكَمِّيَّةٍ من أموالكم لتقديم الصدقة قبل نجواكم للرسول(ع)؟ وَانْتَبَهْتُمْ أن أكثر مناجاتكم له(ع) هي بلا قيمة ومجرد مضيعة لوقت الرسول(ع)، ورأيتم أنها لا تساوي دفع مال للصدقة في مقابلها؟

مَالُكُمْ له قيمة ووقت الرسول(ع) لا قيمة له! وليس له (ع) وقت خاصّ به ليصرفه كيفما يشاء مثلما أنتم لديكم وقت خاص بكم! ومناجاتكم له(ع) أهمّ من أي شيء آخر يفعله(ع)!

أَشْفَقْتُمْ من الصدقة قبل النجوى، لِأَنَّكُمْ كنتم فِعْلاً تتسلون ولم تعتبروا أن ذلك الوقت يستحق أن تدفعوا مقابله مَالاً؟

{فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا}، مِنَ السابق ولحد نزول هذا الكلام لم تقدّموا صدقة، الْأَمْرُ بالصدقة قبل المناجاة الآن صَدَرَ، وقبلها كان البعض منكم لا يحترمون وقت الرسول(ع) ولا يعتبرون له قيمة، أو كانوا يعطون لأنفسهم قيمة إيمانية عالية عن الآخرين لأنهم يقضون وقتهم مع الرسول... {وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ}، فَفَتَحَ لكم صفحة جديدة، وَلَنْ يحاسبكم على اعتباركم لوقت الرسول (ع) أنه بلا قيمة ولا مشكلة في تضييعه بالمناجاة...

بعبارة أخرى، قَبْلَ طرح موضوع الصدقة عليكم كنتم تناجون الرسول(ع) على أي أساس؟ على أساس أن وقته (ع) مباح لكم تضييعه في محادثته بأمور ليس مُضْطَرّاً (ع) لسماعها لأنها ليست متعلّقة بوظيفته كرسول وقائد، إنْ كنتم تعتبرون القيمة لوقته (ع) تحدّدونها أنتم، على أساس أنكم لستم مشغولين وهو (ع) برأيكم ليس لديه شغل أفضل من سماع كلامكم وتمضية الوقت معكم! لا، بَعْدَ الأمر السابق بتقديم الصدقة استفقتم من غفلتكم وَانْتَبَهْتُمْ لخطئكم.

إنْ خطر ببالكم أن مناجاتكم للرسول(ع) لها قيمة كشيء ديني أو سلوك إيماني، مثلما في عصرنا يقع بعض الناس في هذا الفخّ، تَرَاهُمْ متباهين بمرافقتهم لعلماء الدين ومفتخرين بالمداومة على حضور مجالسهم وزيارتهم... وكأنهم بذلك يصيرون أفضل إيمانا من الآخرين... مَاذَا لو كلّنا فعلنا ذلك؟ وماذا لو كل الناس في عهد الرسول(ع) أمضوا أوقات فراغهم معه(ع)؟ هَذَا صَبَاحاً لا عمل له، يَذْهَبُ لمناجاة الرسول(ع)، والآخر ظُهْراً لا عمل له يَذْهَبُ لمناجاة الرسول(ع)، وذاك عَصْراً لا عمل له، وأولئكم بعد المغرب لا عمل لهم...

لا، هذا ليس سُلُوكاً إِيمَانِيّاً مَرْضِيّاً عنه، وليس مَطْلُوباً منكم، فلا تعطوه صبغة دينية، السُّلُوكِيَّاتُ الإيمانية معلومة وهي ما يلي:

{فَأَقِيمُوا}، فَعِّلُوا ولا تعطّلوا أو تهملوا، {الصَّلَاةَ}، التوجّه وَالْإِقْبَالَ، وعموم القرآن استعمل هذه الكلمة كاصطلاح يفيد التوجّه نحوه تعالى بالعبادة المعروفة بالصلوات الخمس اليومية من قيام وقراءة وركوع وسجود... ويسبقها وضوء... هَذِهِ الصلاة مطلوبة منكم وهي سلوك إيماني صحيح.

{وَآتُوا الزَّكَاةَ}، اجْعَلُوهَا عند من يوزّعها بحسب ما يأمر سبحانه أو وزّعوها أنتم بحسب ما يأمر سبحانه، هَذَا سلوك إيماني صحيح.

كَلِمَةُ زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، تُشِيرُ لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكية، مال زَاكٍ، طعام زَاكٍ..."، ومنذ القدم صارت مُصْطَلَحاً دِينِيّاً يشير إلى دفع نسبة محدّدة من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ...}، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، يَدْفَعُ منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة {...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...}، تَكُونُ نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.

{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، الْتَزِمُوا بما يصلكم منه تعالى من أوامر أخرى غير الصلاة والزكاة، والتزموا بما يقوله لكم الرسول(ع) بما يمثّله من منصب ديني وقيادي، وسنتوسّع في الكلام عن طاعة الرسول(ع) بعد قليل.

هَذِهِ هي حالتنا نحن الآن غير القادرين على مناجاة الرسول(ع) ولا ينقص إيماننا ولا يتغيّر علينا أي شيء إذا انشغلنا بالصلاة والزكاة والطاعة، الْآيَةُ تقول: انْشَغِلُوا بما يفيدكم، واقضوا وقت فراغكم كما تحبون ولكن لا تستهلكوا وقت فراغ الآخرين "الرسول(ع) كنموذج" وكأن مناجاته ومرافقته بدون أي سبب وجيه ستجعل لكم قيمة إيمانية.

{وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}، لَدَيْهِ أخبار كل أعمالكم، يُخْبِرُ سبحانه بمن ناجى وهو لا يقصد تقطيع الوقت عبر تضييع وقت الرسول(ع)، ومن لا يساوي وقت الرسول(ع) عنده أي قيمة، ومن يخترع سلوكيات ويصبغها بقيمة إيمانية...

الْآيَاتُ هنا ليست حصرية لشيء حصل ومضى في التاريخ، فِي عصرنا الحالي ترى بين الذين لديهم مناصب في المجتمع وبين الناس حاجزا، فلا يدخل الناس على بيوت أصحاب المناصب ساعة يشاؤون، بل يأخذون مَوَاعِيدَ يتحدّد فيها ما هو الموضوع ومدة استقبالهم... ويعتذرون حتى عن استقبال أَصْدِقَائِهِمْ في أوقات لا تناسبهم، لَدَيْهِمْ مشاغلهم الخاصّة ووقت لراحتهم... والبعض منهم يحدّد يَوْماً مَفْتُوحاً لاستقبال عموم الناس... وهذه السلوكيات يؤكّد عليها القرآن كاحترام لوقت الشخصية التي لها مكانة اجتماعية أو حكومية أو تتعاطى الشؤون العامّة للناس... إنْ لم يكن الوقت الذي ستقضيه مع تلك الشخصية يساوي في نظرك قيمة تستحقّ الصدقة، فأنت لا تعتبر قيمة لوقت تلك الشخصية، ولا لوقتك.

إنِ استبدلت الشخصية البارزة بعالم ديني ترافقه أو تداوم على زيارته والسهر عنده... على أساس أن ذلك يعطيك أفضلية إيمانية عن الآخرين، فخذ عِلْماً أنها بدعة، الصَّلَاةُ والزكاة وطاعته تعالى وطاعة الرسول، هي الدين، وأي إضافات أخرى سلوكية تخترعها فأنت مسؤول عنها...

مِنْ أساسيات الالتزام الديني اختصارا بأبرز نموذجين منه، الصلاة كسلوك شخصي بينك وبين ربّك سبحانه، والزكاة كسلوك له أثر على الآخرين، وشمل كل ما بقي بِطَاعَتِهِ تعالى في بقية الأوامر التي وصلتنا منه، ويبقى السؤال عن طاعة الرسول(ع) في ماذا؟ مَاذَا بقي بعد طاعته تعالى لنطيع الرسول به؟ مِنَ الواضح أنه بَقِيَتْ أمور كثيرة لنطيع الرسول فيها، وهي أمور مشتقة من أوامره تعالى، هِيَ أمور تطبيقية لكلامه تعالى، وأمور ترك فيها سبحانه لنا المساحة والهامش لتطبيقها بحسب ما يناسب زماننا ومكاننا... وكمثال عن ذلك تحديده (ع) لقيمة الزكاة، ولوقت ومكان محاربة العدو...

هَكَذَا ترى أنه لا خاصيّة خاصّة للرسول لنطيعه في أمور جديدة أو مختلفة لم يذكرها تعالى في كتابه، هُوَ قائد ومطبّق عملي لكلامه تعالى، وهكذا تراه يذكره القرآن كنموذج عن أي قائد أو حاكم مؤمن في أي زمان أو مكان.

بقي شيء، هُنَاكَ روايات متداخلة مع الآيات هنا على أساس أنها تفسير لها، ويبدو من بعض تلك الروايات أنها فصلت بين وقت نزول الآيات، معتبرة الآية بوجوب الصدقة قبل المناجاة نزلت أولا، وبعد عدة أيام نزلت الآية التي ألغت وجوب الصدقة، وهذا لا يتماشى مع التفسير الدقيق للآيات، اقْرَأْهَا مرة ثانية بهذا الشكل: هناك من يستهلك وقت الرسول(ع) بوجوده معه لأمور غير ضرورية مانعا له (ع) من استخدام وقته (ع) كما يشاء، ولسبب أو لآخر لم يعتبر لوقت الرسول(ع) أي قيمة... ولسبب أو لآخر اعتبر سلوكه هذا له صبغة إيمانية، وبشكل أو بآخر مُضِيفاً لهذا السلوك على السلوكيات الإيمانية التي في دينه تعالى...

تَأْتِي الآيات هنا صادمة له، تَأْمُرُهُ أن يقدّم صدقة قبل المناجاة، هَلْ سيرى هذا الأمر مزعجا، أو صعبا، أو مدمّرا للصورة الوهمية التي رسمها عن أهمية مناجاته للرسول كسلوك إيماني مطلوب من الجميع وهو متبرّع بالتصدّي له ليبقى حول الرسول دائما جماعة مرافقة له لتعطيه (ع) قيمة...

لِيُقَدِّمْ صدقة قبل مناجاته(ع)، وهكذا سيثبت أنه كان يحترم وقت الرسول(ع) ويراه يستحقّ الصدقة، وإن لم يره قيّما، فهذا سيتلبس بشعور الإشفاق، يَرَى أن الصدقة شيء كثير على الوقت الذي سيمضيه مع الرسول(ع)، وهكذا من المفروض أن يلتفت ويتأدّب، وبتعبيرنا الشعبي: سيحسّ على دمّه.

يُمْكِنُكَ التأكد من معنى كلمة إشفاق من كل بقية استعمال القرآن لها، هِيَ وصف شعور يعبر عن معايشة حالة ضرر "معنوي أو مادي" يشعر به غيرك أو ستقع فيه في المستقبل. وبهذا المعنى يبدو واضحا لك نزول الآيات دفعة واحدة

بلا فاصلة زمنية، تَسْمَعُ الجملة الأولى الآمرة بالصدقة قبل المناجاة، تَشْعُرُ بالإشفاق، وَتُعَايِشُ حالة الضرر الكبير من كثرة الصدقة الواجب عليك تقديمها لأنك من المستهلكين بكثرة لوقت الرسول(ع) بالمناجاة.

لا تَنْسَ أن هذا السلوك الاستهتاري لم يكن عموميا من كل المسلمين، بل بعضهم فعله، وهذا البعض يحتاج لتأديب لتحسين سلوكه، نَزَلَتْ هذه الآيات كدرس تاريخي لجميع المسلمين لتقويم تعاطيهم مع الذين لديهم مسؤوليات عامّة.

لن أطيل عليك بتحليل وتبرير وتلطيف... ما جاء في الروايات من حوادث ربطوها بالآيات، ومع قليل من الحذف واللصق يمكن أن تخرج منها بقصّة "بسيناريو" متوافق مع دراستنا للآيات، علما أَنَّ الروايات لوحدها ليست متوافقة تماما مع بعضها، وتصير مشكلة تخالفها مع بعضها أوسع إذا جمعتها من مختلف كتب المسلمين.

أَمَامَ الروايات أَنْتَ عادة أمام حلول أحلاها مرّ، إمّا أن تستنسب استذواقا شيئا مغلّفا بما يجعله يبدو كدراسة للسند والمتن... وعلى أساسه تختار واحدة منها وترمي الأخريات، وإمّا أن تعتمد رواية واحدة أساسية وتدمج معها ما يمكن دمجه من الأخريات، وإمّا تسحب منها ما يتماشى مع القرآن وتبرّر لما تبقّى منها ولا يتوافق مع القرآن... أو تتعامى عمّا تراه فيها لا عقلانيا من أصله... وتتعامى عن تعارضها... تُقَدِّسُهَا كلها لأنها تتوافق مع هواك المذهبي... أو تحارب لتثبت الرواية وتجعل القرآن يتماشى معها لأن الموضوع مذهبي وطائفي...

لِلْأَسَفِ، مِنَ النادر اهتمام الناس بالروايات التي فِعْلاً تتوافق مع ظاهر القرآن!

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ{14})
تنتقل بنا السورة إلى سلوك آخر غوغائي استهتاري:

{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت، {إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}؟ فهناك قوم، هُنَاكَ أناس لهم كيان الجماعة الْمُتَفَاعِلَةِ بشيء سبّب غضب الله تعالى عليهم، صَدَرَتْ منهم أعمال مخالفة لأوامره تعالى ولا يمكن السكوت عنها وتستحق الردّ عليها بقسوة، وهم المنافقون والفاسقون من المنتمين الجدد لدينه تعالى أو من أهل الكتاب السابقين، وَوَالَاهُمْ بعض الذين آمنوا.

هُنَاكَ أناس من الذين آمنوا تَرَكُوا ولايتك أيها الرسول(ع) فلم يعتبروا أنفسهم تابعين لك ولم يعتبروا كلامك مَسْمُوعاً وللتنفيذ، ووالوا وَاعْتَبَرُوا أنفسهم أتباعا لقوم غضب الله تعالى عليهم وَوَالَوْا المنافقين وأهل الكتاب المعادين للرسول محمّد(ع).

هؤلاء الموالون للقوم المغضوب عليهم، {مَا هُمْ مِنْكُمْ}، لَيْسُوا من جماعة المؤمنين، {وَلَا مِنْهُمْ}، ولا من الجماعة المغضوب عليها، فهم عندما يَكُونُونَ معكم يقولون لكم أنهم موالون لكم، وعندما يَكُونُونَ مع الذين غضب تعالى عليهم أَيْضاً يقولون لهم أنهم موالون لهم. فلا تفهم أنت إن كانوا منكم أو من الآخرين، وَتَحْتَارُ في توصيفهم من المؤمنين أو من المغضوب عليهم، وكما ترى دِينُهُ تعالى لا يتحمّل هذه الحالة، فإمّا أن تكون مؤمنا مواليا للمؤمنين، أو تكون من الآخرين، أمّا بعض الناس فمزاجيون مستهترون غوغائيون، مرّة مع المؤمنين ومرّة مع الآخرين.

ننتبه، سُبْحَانَهُ لا يصفهم أنهم في الوسط، لا من المؤمنين ولا من المغضوب عليهم، لا، بل يصف حالتهم التي تراهم أنت فيها، فأنت تحتار إن كانوا موالين للمؤمنين أو موالين للآخرين، ومن عموم مفاهيم القرآن التي ستؤكّدها الآية التالية تعلم أنه تعالى ليس عنده وسط، أَعَدَّ لهؤلاء عذابا أليما...

{وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}، يَحْلِفُونَ لكم أنهم من المؤمنين مثلكم، وهذا كذب واضح ولكنهم يحلفون عليه وَيَقُولُونَ كلاما للتأكيد وليبرروا أنهم لم يتغيّروا وأنهم لا يزالون منكم، وهم يعلمون بأن حلفانهم على الكذب وليس على شيء صحيح، فهم يعلمون بتفكيرهم وشعورهم أنهم ليسوا صافين معكم ولديهم ميل للآخرين.

هذه الحالة التي تعرضها الآية لها تفريعات مختلفة، تَجِدُ أناسا مرّة معنا ومرّة علينا، وَلَا يتعرّضون لظروف يضطرّون فيها للحلفان لتبرير هذه السلوكيات، فتمضي حياتهم وَيَمُوتُونَ وهم على هذه الحالة، ولكن الآية اختارت أن تعرض عليك نموذجا من هؤلاء الذين في حالة ما من حياتهم صاروا تحت ضغط لتحديد موقفهم بصراحة، فهل أنتم معنا أو مع الآخرين؟ وهذا السؤال موجّه لهم بناء على ما سبق منهم من تذبذب، فيحلفون كذبا أنهم مع المؤمنين...

لا تَنْسَ أن السورة تتحدّث عن أناس ينتسبون للمجتمع المسلم ولكن عندهم سلوكيات لا تتناسب بل تتعارض مع التدين بدينه تعالى، ومرّ عليك في أوّل السورة حالة الظهار، وحالة التناجي بالإثم، وحالة احتكار المجالس، وحالة المناجاة مع الرسول(ع)... ووصلنا هُنَا إلى حالة الولاية لقوم غضب الله تعالى عليهم، فهذا سلوك علني مخالف لأساسيات الدين الإلهي، وسترى من تكملة السورة انتهاءها من إشاراتها وتنبيهاتها إلى الذين آمنوا، وستبدأ من الآية التالية بالتهديد الصريح لمن لم يغيّر سلوكياته ويحلف كذبا على شيء يعلم بأنه كذب.

كَلِمَةُ "حلف" استعملها القرآن لتبرير عمل حصل في الماضي، كصيغة تتضمّن ما له قيمة اعتبارية عند الحالف للتأكيد به على شيء حصل في الماضي نفيا أو إثباتا، كرفع التهمة عن شيء حصل، أو طلب البراءة عن اتهام بشيء مضى، أو تأكيد حصول شيء مضى... وبهذا لا يصح وصف الحلفان بالنكث، بل النكث لليمين والقسم خاصة، والحلفان يصح له وصف الكذب أو الصدق.

يَكُونُ الحلفان بأي شيء له قيمة اعتبارية، كالحلفان به تعالى أو بحياة أحد ما... ويكون الحلفان يمينا على معنى قوّة تأكيده، ويتداخل مع اليمين حين يكون الموضوع يتضمّن شيئا من الماضي والحاضر، كالحلفان أنني مؤمن، كتأكيد على إيمان من الماضي إلى الآن، واليمين أنني مؤمن لتأكيد إيماني الآن.

(أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{15})
{أَعَدَّ}، جهّز وحضّر، {اللَّهُ لَهُمْ}، للموالين للمغضوب عليهم والحالفين الكذب، {عَذَاباً شَدِيداً}، ضررا لا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه، {إِنَّهُمْ سَاءَ}، كان سيئا، {مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، قَرَارُهُ تعالى بتعذيبهم بسبب سوء أعمالهم فهم يستحقونه بعذاب لا يمكنهم تحمّله.

يُمْكِنُهُمُ التغابي أو الاستهتار والاستخفاف بحالة موالاتهم المزاجية مرة للمؤمنين ومرة للمنافقين وللمعادين من أهل الكتاب، ويمكنهم الحلفان كذبا لإقناع الناس، ولكن هذا لن يغيّر من مصيرهم الذي قرّره تعالى لهذه النوعية من الناس.

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ{16})
{اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ}، جَعَلُوا اليمين، وَجَعَلُوا التأكيد التبريري القوي عبر حلفانهم لكم أنهم من المؤمنين، جعلوه، {جُنَّةً} "ضمّة على الجيم"، شَيْئاً يستترون به فيختبؤون خلفه حتى لا يظهر أنهم معادون للدين الإلهي، قَرَأْتَ في الآية قبل السابقة عن ولايتهم للمغضوب عليهم وفي نفس الوقت يستعملون الحلفان اليميني لتأكيد انتمائهم للمؤمنين كستار يغطّي على سلوكياتهم، {فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}، مَنْ يرد المشي على المسلك الإلهي فإنهم يمنعونه من المشي عليه مثلما منعوا أنفسهم، عَوَامُّ وبسطاء الناس بسهولة يفقدون البوصلة ولا يميزون بين الحق والباطل في الأمور المعقدة، وهؤلاء بذهابهم بين المؤمنين والمغضوب عليهم بدون الاستقرار على جهة، سَيُسَبِّبُونَ للناس البسطاء ضياعا... وبعض الناس ستقلّدهم في اتخاذ أيمانهم جنّة "ستار" وستفعل مثلهم فيقسمون اليمين الكاذب.

مَنْ يعترف بأنه يخالف أوامر الدين وسلوكيات المتدينين، فسيظهر للآخرين أنه علنا مخالف للدين الإلهي، فلن يخدعهم، أمّا من لا يعترف ويحلف يمينا أنه ملتزم دينيا، فهذا قد يخدع الآخرين فلا يرون أفعاله مخالفة للدين الإلهي، وهكذا يصدّ وَيَمْنَعُ غيره عن السير في المسلك الذي يوصل فعلا إلى مرضاته تعالى عبر فعل أمور لا يرضى عنها سبحانه وَتَوَافَقَ عليها المتذبذبون والمغضوب عليهم.

{فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}، لَهُمْ ضرر يجعلهم يشعرون بأنهم بلا قيمة، هُنَا في الدنيا نعتبر ضربة الكف إهانة، فِي الآخرة هناك جرجرة الوجه على الأرض، وتسويد الوجوه والروائح الكريهة والشتائم...

نلاحظ العديد من الآيات القرآنية ومنها آيتنا هنا بكلامها عن عذاب مهين، أنهم أهانوا دينه تعالى فاستحقّوا في الآخرة العذاب مع الإهانة، واعتبرت السورة هنا أن حلفانهم ويمينهم هو إهانة وتقليل قيمة للدين الإلهي واستخفاف به، يَسْخَرُونَ من المؤمنين حين يحلفون لهم أنهم منهم! لِهَذَا السبب ستتم إهانتهم أثناء تعذيبهم في الآخرة.

يمكنك تصوّر ما تقوله الآية هنا بالنماذج المنتشرة في عالمنا الإسلامي لعلماء السوء، الْمُتَسَتِّرِينَ بذقونهم ولباسهم قديم الطراز ودمغة بنية اللون بين العينين... وهم يصدّون عن سبيله تعالى ببثّهم للتشريعات والعقائد المنحرفة، وتحريض

المسلمين على بعضهم البعض بالنعرات المذهبية والطائفية... ونفس المنظر للحكّام الذين يدّعون أنهم حماة الدين أو أنهم ليسوا خارجين منه ولكنهم مصحّحون له!... ومثلهم عموم الزعماء ورؤساء الأحزاب...

(لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ{17})
{لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ}، إذا كنت بحاجة لتأكل وتلبس وتصرف... فَبِالْمَالِ تَغْنَى فتحصل على ما تريده من طعام ولباس... أو كنت ستتعرّض لهجوم، فأنت بحاجة للحماية، وَالْحُرَّاسُ يُغْنُونَكَ فتحصل على الحماية، وهؤلاء الذين لديهم سلوكيات مخالفة للدين الإلهي ويحلفون بأنهم متدينون، حَلِفُهُمْ يُغْنِي عنهم مقاطعة المؤمنين لهم هنا في الدنيا، يُصَدِّقُونَهُمْ، أمّا آخرتهم ففي العذاب ولن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله تعالى شيئا، هُنَا في الدنيا تدفع المال وتحصل على ما تريده، حَتَّى الجريمة يمكنك الافلات من عقابها بدفع الفدية أو الرشوة فيغنيك المال عن العقاب، والأولاد هنا في الدنيا يَدْعَمُونَكَ بالمال، أو بمناصبهم ومعارفهم، أو بقدراتهم الجسدية القتالية، يُغْنُونَكَ بالكثير من الأمور، ولكن في الآخرة، فلا منفعة لك منهم إن حكم عليك تعالى بالعذاب، فستتعذّب حتما حتى لو كان هنا معك الكثير من الأموال والأولاد.

تُلَاحِظُ اختيار الآية نموذجي المال والأولاد من بقية الأمور التي عادة تغنينا، أَحْيَاناً منصبنا ووجاهتنا أو ابن عمّنا أو جارنا... يغنينا عن شيء ما في الدنيا، لَمْ يذكر القرآن كل ما يغنينا واكتفى بنموذجين، هَذِهِ هي عادة القرآن بكلامه عن النماذج.

بعبارة أخرى، تَعْبِيرُ "{لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ...}"، مثلما نقول: معي الكثير من الطعام، وأنا جائع، فأنا غني، فما أحتاجه معي. لِنَقُلْ أني لا طعام معي، وأنا جائع، فأنا بحاجة لما يغنيني ليؤمّن لي الطعام، وبحاجة للمال لشراء الطعام. إنْ كان معي المال ولكني في الصحراء حيث لا طعام لأشتريه، فَلَمْ يُغْنِ عنّي مالي. هنا الكلام عن الذي في الآخرة سيتعرضون للتعذيب، وهم بحاجة لما يغنيهم عن التعذيب حتى يتخلصوا منه، مَنْ قام هنا في الدنيا بأعمال حسنة فهي ستغنيه عن العذاب، أما هؤلاء فلديهم السيئات، وكان لديهم الأموال والأولاد والمناصب والوجاهة والمعارف والقوّة البدنية... وهذا لن يغنيهم عن العذاب.

{أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ}، هُمْ مع بعض في النار، {هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، لا يموتون ولا يخرجون منها ولا هي تخرب.

(يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ{18})
{يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً}، في الزمن الذي يقيمهم سبحانه من الموت كلّهم بدون استثناء، {فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ}، يُبَرِّرُونَ أعمالهم السيئة التي قاموا بها في الدنيا عبر محاولة إقناع من يسمعهم بأنهم لم يكونوا يعرفون حقيقة ما جرى، بَدَا لكم أننا تصرّفنا تصرفات لا تتوافق مع الدين الإلهي، ولكن والله ما كنّا نقصد الخروج عن الدين، والله كنا مقتنعين بدينه تعالى ولكن لم نعلم أنه لا يحبّ هذه التصرفات... {وَيَحْسَبُونَ}، يَخْطُرُ ببالهم ومن دون أي دليل أو شيء يستندون عليه، {أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ}، فيحسبون أن من يسمعهم يَحْلِفُونَ سيعتبرهم متدينين، على أساس أن الحلفان سيغطي على ما فعلوه وأن حلفانهم له قيمة.

{أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ}، هَذَا الحلفان لا يمرّ عليه تعالى، سُبْحَانَهُ يعلم بأنهم لا يقولون الحقيقة، وما يقولونه كذبا لن يبرّر أفعالهم.

هنا في الدنيا نصادف أناسا يحلفون كثيرا، حتى يجعلوك تخجل من كثرة ما يحلفون لك، يَحْلِفُ لمدة نصف ساعة متواصلة أن هذه السيارة مواصفاتها رائعة وأنه خسران ببيعتها ولكنه مضطر للمال وإلا فوالله... لَا يبيعها... وأنت تعلم أنه يكذب، ولكن ولشدّة حلفانه بكل ما هو مقدّس وغالي، سيؤثّر عليك وبشكل من الأشكال سيقنعك... الله سبحانه وتعالى لا تمرّ عليه هذه الحركات ولا تؤثّر به، ومن يفكّر أنه في يوم القيامة سيستعمل الحلفان وقسم اليمين وتدبيل العينين ورخية الصوت والاستفقار والتمسكن وإحناء الظهر... لينجو من العذاب، فليأخذ علما من الآن: لا شيء ينفع، إلا الإيمان والعمل الصالح.

(اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ{19})
{اسْتَحْوَذَ}، تحكّم واستولى، {عَلَيْهِمُ}، على هذه النوعية من الناس، {الشَّيْطَانُ}، الذي يوصف بأنه يقوم بأعمال السوء، ومنها الأعمال المضادة للهداية، وعادة تكون الإشارة بوصف الشيطان لإبليس، {فَأَنْسَاهُمْ}، أَذْهَبَ الشيطان عن بالهم، {ذِكْرَ اللَّهِ}، لَمْ يجعلهم يستحضرونه تعالى في بالهم ولا في قولهم ولا في عملهم.

{أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ}، هُمْ جماعة لها عنوان الانتماء لمن يقوم بأعمال السوء، جَمَاعَةٌ تنتمي لهوى وعقلية مشتركة مضادة للهدى.

{أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ}، الْمَجْمُوعُونَ تحت عنوان اتّباع من يدلّهم على السوء فهؤلاء سيفقدون امورا لها أهمية كبيرة، وأنت تعلم أنهم سيفقدون رحمته ومغفرته وثوابه تعالى، ويتعذّبون في النار.

(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ{20})
{إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، يَكُونُونَ صلبين قاسين غير مطيعين ولا منقادين بل معارضين بصلابة لأوامر الله تعالى ولأوامر رسوله(ع)، {أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ}، لَنْ يَكُونُوا على راحتهم ليفعلوا ما يشاؤون، بل سَيَكُونُونَ منقادين لغيرهم ويقضون وقتهم غصبا عنهم تحت ظروف فرضها عليهم غيرهم، أمّا العزيز فهو الذي لا يفرض عليه غيره ما لا يحبّ، وكما ترى فالآية تقصد أنهم في الآخرة سَيَكُونُونَ في حالة وظروف مكروهة مفروضة عليهم ولا يمكنهم تغييرها، سَيَكُونُونَ في جهنّم حيث الإهانات والعذاب.

تذكّر دائما مختلف تعابير القرآن عمّن يحادّه أو يعصيه أو أعرض... عنه تعالى، هَذَا ضِمْنِيّاً يُحَادُّ وَيَعْصِي رسوله، ولكن بسبب المساحة الإلهية المتروكة للرسول لتطبيق أساسيات الدين الإلهي، سَيَنْتُجُ عنها من يقول أَنَّهُ مؤمن بدينه تعالى ولكن لا تعجبه أحكام وقرارات الرسول، وخذ مثلا الأمر الإلهي بالزكاة فقد حدّد سبحانه أساسيتها، وترك تحديد قيمتها وممّاذا ومصرفها... للرسول بحسب الظروف التي قد تتغيّر وعلى أساسها من المفروض تغيير قيمتها وممّاذا ومصرفها... وخذ مثلا آخر شائع في القرآن عن تحديده تعالى لأساسيات تشريعه لقتال الأعداء، وتركه مساحة تحديد من سيقاتلهم المسلمون ومتى وكيف... للرسول الذي قد تتغيّر الظروف التي تجبره على إعادة ترتيب الأولويات، فيرى من المناسب العهد مع هؤلاء وتأجيل القتال مع أولئك، والقتال الآن مع أولاء...

تَذَكَّرْ دائما أنه تعالى في هذا القرآن لم يرد التضييق علينا بأوامر صلبة لا مرونة فيها، عَرَضَ علينا ما جرى من حوادث مع الرسول محمّد(ع) وغيره من الأنبياء، لتكون نماذج تطبيقية لنا، وللأسف ذهب الغالبية من المسلمين في طريق التحجّر على ما يسمّونه بسنّة الرسول(ع)، وفي مقابلهم المستهترون بدينه تعالى العاملون بما يرونه مناسبا حتى لو خالف صريح كلامه تعالى، صِرْنَا بين مدّعين للإيمان متزمّتين وبين مدّعين للإيمان متفلتين من عناوينه الرئيسية.

(كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ{21})
{كَتَبَ اللَّهُ}، أثبت تعالى شيئا يريده أن يحصل، كَتَبَ تعالى في الكتاب الأساسي الذي فيه كلّ شيء سيحصل في الدنيا والآخرة: {لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي}، حتما ستكون الغلبة "الأرجحية" له تعالى وللذين ينقلون كلامه للناس، الْقُوَّةُ وَفَرْضُ الْإِرَادَةِ... في الآخرة قد قررها تعالى لنفسه ولرسله، هُنَا في الدنيا ترك سبحانه المجال للآخرين حتى يكونوا غالبين في بعض المواقف... أمّا في الآخرة فلا، هُنَاكَ سَيَنْتَهِي كل هذا وستكون الغلبة فقط له تعالى ولرسله.

{إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ}، فإذا كتب شيئا ليحصل فلديه سبحانه القوة لتنفيذ ما يحصل، وإذا قرّر أن يغلب فلن يقف شيء في طريقه تعالى.

إن الله، {عَزِيزٌ}، منفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... حَتَّى لو عارضته سبحانه كل الكائنات، فليس لديها القدرة على منع حصول ما قرّره الإله تعالى، بسبب عزّته المطلقة.

لَا يَسْتَخِفَّنَّ أحد ما نفسه ويفكّر أنه بطريقة ما يمكنه مخالفة الأوامر الإلهية والنجاة في الآخرة من النار، لا، هُنَا نقرأ ما قاله الله تعالى في القرآن عن تهديده بالنار لمن خالف أوامره تعالى وأوامر رسوله(ع)، فإذا خالفها أحد ما وفي الآخرة

لم ينل عقابا ففهذا انْتَصَرَ وَغَلَبَ القرار الذي نقرؤه الآن عن العذاب، الْآيَةُ تخبرنا الآن كلّنا أن هذا مستحيل ولن يحصل، بِسَبَبِ قوته وعزّته تعالى فلن توجد ولا أي طريقة تمنع التعذيب عن العاصين، ولن يغيّر تعالى قراره، حَتْماً الغلبة، القهر، فرض الإرادة، حصول ما يريد، حتمي لله تعالى وللرسل.

كما تلاحظ فُسِّرَتِ الغلبة في الآية بما سيحصل في يوم القيامة، سِيَاقُ الكلام هنا في الفقرة يناسبه ذلك، لَيْسَ فيها كلام عن قتال وغلبة هنا في الدنيا حتى نحمل المعنى عن انتصار الرسل عسكريا وانتشار حكمهم على الأرض، هَذَا شيء له ظروفه ولم ينجح كل رسول به... ولا في الفقرة كلام عن الغلبة بظهور الحقّ واضحا حتى نفسر الغلبة بنجاح توضيح الحقّ وبذلك يكون قد انغلب الباطل، هَذَا شيء تراه واضحا فيما تقصده سور أخرى.

(لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{22})
في ختام السورة عرض لصورة معاكسة لمن حادّه تعالى وحادّ رسوله(ع):

{لَا تَجِدُ قَوْماً}، لن تجد أناسا لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الدين الإلهي، {يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}، فهم في حالة الاعتقاد به إلها ربا أحدا... {وَيُؤْمِنُونَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ}، فيعتقدون بوجود زمان يأتي في الآخر بعد الدنيا، وهو يوم القيامة من الموت وبعده الحساب والجزاء، هؤلاء الذين بهذه الصفات لن تجدهم، {يُوَادُّونَ}، يفعلون ما يودّه، على خاطر، {مَنْ حَادَّ}، من كان حادّا صلبا قاسيا معارضا مع، {اللَّهَ وَرَسُولَهُ}.

الْمُؤْمِنُونَ الحقيقيون بالله تعالى وباليوم الآخر لا يشعرون بالودّ للذين يعارضون الله تعالى ورسوله(ع)، فلن تجد مؤمنا يفعل ذلك. وراجع ما قلناه قبل قليل في الآية 20 عن الفرق العملي بين محادّته تعالى وبين محادّة رسوله(ع).

{وَلَوْ كَانُوا}، حتى لو كان من حادّه تعالى وحادّ رسوله(ع)، {آبَاءَهُمْ}، فالمؤمن لن يودّ أباه إن كان أبوه محادّا له تعالى ولرسوله(ع)، ولو كانوا المحادّين، {أَبْنَاءَهُمْ}، أبناء للمؤمنين فلن يوادّوهم، {أَوْ إِخْوَانَهُمْ}، {أَوْ عَشِيرَتَهُمْ}، وهم عموم من تعاشرهم فتقضي وقتك بينهم وعادة هم بقية الأقارب من أعمام وأخوال وأولادهم...

{أُولَئِكَ}، الذين لا يوادّون من حادّه تعالى ورسوله(ع) حتى لو كانوا من أقاربهم، {كَتَبَ} تعالى {فِي قُلُوبِهِمُ}، في أساس فكرهم ونفسيتهم، {الْإِيمَانَ}، الاعتقاد، فلم يكن الإيمان فكرة عابرة لم تستقر، أو سُلُوكاً مُؤَقَّتاً، بل كان مرسّخا فيهم، {وَأَيَّدَهُمْ}، ساندهم وَعَزَّزَهُمْ تعالى، {بِرُوحٍ مِنْهُ}، بشيء موصوف بأنه أساسي صَافٍ منه تعالى، وبناء على الاستعمال القرآني السابق لنفس التوصيف فيترجح أن التأييد هنا بالملائكة من النوع الموصوف بالروح، فهم تكوينهم صَافٍ... وهذا ما تفهمه من الآية 87 من سورة البقرة {... وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ...}، ففي المواقف الصعبة يحصل المؤمنون على تأييد إلهي حيث تقوم الروح "الملائكة (ع)" بدعمهم... ونسبة الروح بأنها منه تعالى لا تُفِيدُ بأنها من طبيعته أو منه كجزء أو أنها شيء إلهي... بل هي مجرد نسبة مثلما نسب تعالى لنفسه أمورا أخرى، كعبدنا كما تقرأ في الآية 23 من سورة البقرة {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا...}، ورزقنا كما تقرأ في الآية 54 من سورة ص {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ}.

كَلِمَةُ "روح" في اللغة هي الشيء الأساسي الخالي من الإضافات، الجوهر، "الإسانس". دَرَجَ أن يقول العرب قديما "وحديثا" عمّا ينتج من عملية تقطير السوائل: روح العنب، روح الزهر، روح النعناع... ويعنون الشيء الصافي من العنب من الزهر من النعناع... ومنه وصف بعض المشروبات بأنها مشروبات روحية على أساس أنها نتجت من التقطير الذي يصفّيها من الشوائب. وبناء عليه فالروح التي نفخها تعالى في آدم(ع) والروح الذي نزل بالوحي وروح العنب... يَشْتَرِكُونَ بوصف الخلو من الإضافات ولكنهم ليسوا من نفس النوع.

أمّا بالنسبة للفرق بين الروح والملائكة الأخرى، فالذي يمكن أن نفهمه من وصف بعض الملائكة بالروح أن تكوينهم أصفى وَأَنْقَى، أَقَلُّ شَوَائِبَ أو بلا شوائب... من الملائكة الأخرى، ونفترض أن ذلك سَيَنْتُجُ عنه قدرات وصفات أعلى.

نرجع للآية، {وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ}، فيجعلهم تعالى في أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين وما يسبّب البهجة والسعادة... {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، وهذا التوصيف يعبّر عن جمالية تداخل الزرع والورد والصخر والارتفاعات

مع جريان المياه وخريرها ولونها... ولا تشطح وتبالغ لتتخيّل أنها مستنقعات، لا، بل هناك كثرة مياه للحدّ الأقصى لجمالية المشاهد... وتلك الأنهار من مختلف أنواع السوائل الجارية بالطعم واللون كما من الآية 15 من سورة محمد {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى...}.

{خَالِدِينَ فِيهَا}، فلا يموتون ولا يفنون ولا يتم إخراجهم من الجنّات وهي لا تخرب...

{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ}، فأعلن قبوله تعالى وموافقته لما عملوه وقالوه، {وَرَضُوا عَنْهُ}، فأعلنوا قبولهم لما فعله تعالى لهم، فهم في الجنّة مهما فعلوا فلن يغضب الله تعالى عنهم، لأن كلّ شيء مباح لهم، وهم راضون عنه تعالى حَصَلُوا على كل ما يعجبهم ويسعدهم ويرغبونه...

{أُولَئِكَ}، النوعية من الذين يتخلّون حتى عن أقاربهم إن كان أقاربهم من المحادّين له تعالى ولرسوله(ع) هم، {حِزْبُ اللَّهِ}، هم المجتمعون تحت عنوان الانتساب لصاحب الاسم المحدّد المميّز الله جلّ جلاله، فتجمعهم طاعته تعالى بتنفيذ أوامره ليرضى عنهم.

{أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، فمن بين الأحزاب العديدة للناس، حَتْماً وفقط المجتمعون تحت اسمه تعالى، هم المفلحون، فهم أجادوا العمل، فهم قاموا بالعمل الصحيح.

يعني كن أيها القارئ للقرآن منهم، فلا تسمع بشرع من شرعه تعالى وتعارضه، ولا تتبع شرعا من دون الرجوع إلى ما يقوله تعالى، كنموذج الظهار... فلا تتهاون ولا تستهتر بما حرّمه وحلّله تعالى، ولا تتحدّث برأيك المضاد لأوامره تعالى كنموذج التناجي بِالْإِثْمِ والعدوان، وحدّد موقفك مع المؤمنين فلا توالي الآخرين لأنه تعالى يراقبك ولن تنفعك التبريرات في الآخرة... وكن من المنتمين لحزبه تعالى ولا تكن من المحادّين وهذا هو العمل الصحيح.

بقي شيء عن كلمة رضا ومشتقاتها، فمعناها في كلام العرب وفي القرآن: وصف شعور كتعبير عن القبول وانتفاء الاعتراض بل بالعكس فهو الموافقة المتدرجة من السرور إلى الحبّ عن فعال أحد ما، والوصف يشمل شعورك على العمل أو على صاحب العمل. فهي ليست وصفا لقبول شيء مكروه، فهذا وصفه الصبر، ففي أدبياتنا نجد كلاما عن الصبر على المكروه، وأن الرضا بالمكروه أعلى من الصبر، هَذَا مَعْنًى لم يستعمله القرآن في كلامه، وَمُخَالِفٌ للمعنى اللغوي لكلمة رضا، ويحمل في طياته معاني أخرى مرفوضة إذا قارنتها مع مفاهيم القرآن، فسبحانه لا يخصّص "من عنده" مكروها لمؤمن حتى يكون إيمانه عاليا بالرضا على المكروه، فأي مكروه غير محبوب يحصل مع المؤمن فهو بسبب ذنب ارتكبه المؤمن أو ذنب ارتكبه غيره، وليس منه تعالى أَبَداً بَتَاتاً وهذا واضح من عموم كلام القرآن ومنه الآية 30 من سورة الشورى {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}.

نعم لا مشكلة بالتهاون في معاني الكلمات في الأدبيات التي بيننا إلا إذا كانت تعبّر عن شيء ديني منسوب له تعالى، فالقرآن دقيق في تعابيره ولا يتهاون أو يتساهل أو يتراخى في معاني الكلمات التي يستعملها، وعندما نتهاون نحن ويصير للكلمات مَعَانٍ نَظُنُّهَا من مفاهيم قرآنية، وعندما تترسخ هذه المعاني المتراخية للكلمات في ذهننا، فعندها سنقع في مشكلة تفسير كلام القرآن على أساس المعنى والمفهوم الذي أَصْلاً تراخينا فيه.

لَدَيْنَا كم هائل من الآيات التي تصف روعة الجنّة وأن من يدخلها سيبقى مذهولا بروعة ما فيها أَبَداً، بلا ملل ولا أي رغبة في شيء آخر، فكل ما يرغب به يجده في الجنّة، بل يجد فيها ما لا يخطر على باله... وكمثال جامع لذلك ما ورد في الآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} فهو راض بها، وراض عنه تعالى، وهذا هو معنى كلمة الرضا لُغَوِيّاً وهكذا استعملها القرآن، وهي لا تتحمّل ولا تتوافق مع ما درج في أدبياتنا عن الرضا على شيء مكروه، والذي سيعني ضِمْناً احتمال حصول شيء مكروه في الجنّة، ورغم ذلك سيرضى عنه المؤمن، لا، فانتبه دَائِماً من ذلك.

سورة الحشر (59) ص 545
نظرا لكلام السورة بالمقارنة مع التاريخ، مَا قيل عن نزولها بعد غزوة بني النضير يبدو صحيحا، والسور كغالب طريقة القرآن لم تعرض أي شيء تَارِيخِيٍّ تفصيلي دقيق حتى لا يكون القرآن كتاب تَارِيخٍ وسرد للأحداث، هُنَاكَ شيء جرى في زمن الرسول محمّد(ع)، وهناك نظرة وتعليق إلهي عليه، حَيْثُ جاءت هذه السورة كتعليق عمومي ليسري الكلام الإلهي على عموم أي حالة مشابهة، لِتَكُونَ الحادثة نموذجا نستفيد منه.

السُّورَةُ تعرض نموذجا عن النظرة الإلهية لحالة حملة عسكرية كان النصر فيها للمؤمنين يبدو مستحيلا، ورغم كل التعقيدات جَرَتِ الأمور بسهولة تفوق تصوّر أي شخص، فَتُرِيدُ السورة من قارئها أن ينظر للأمور كالنصر والفيء وبقية التعقيدات... بنظرة ربانية.

أَخِيراً، تركّز السورة على صفاته تعالى من منطلق تعليقها على الأحداث كونها جرت من تقديره تعالى، لنفهم أنه تحليل وتعليق ممن لم يكن مشاهدا لا يتدخّل فيما حصل بل بالعكس، فَالْأُمُورُ جرت على مقاديره سبحانه ذِي الصفات التي ستذكرها السورة...

قِيلَ إِنَّ غزوة بني النضير حصلت في ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة، بعد خسارة المسلمين في معركة أحد، حيث تجرّأ بنو النضير على إعلان العداوة للمسلمين على أساس أنهم صاروا ضِعَافاً ولا قدرة لهم على مواجهة بني النضير الأقوياء بحلفاء يهود ومن مشركي العرب أعداء المسلمين...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{1})
{سَبَّحَ لِلَّهِ}، قام بتنزيه صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" جلّ جلاله، نَزَّهَهُ عن الصفات السيّئة والتي دون مستوى الْأُلُوهِيَّةِ، كالاحتياج للمساعدة من غيره... أو صفة المزاجية والعبث... أو صفة الظلم والجور والكذب... اللَّهُ سبوح عن ذلك أي منزّه عن ذلك، قَامَ بهذا التنزيه، {مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، وهذه هي حدود كلّ دنيا المخلوقات، وهذا التعبير القرآني يرادف التعبير بكل شيء، كُلُّ الموجودات سواء كانت في السماوات ولم نرها ولم نعرفها، أو الموجودات التي في الأرض فهي تسبّحه تعالى.

كَلِمَةُ سماء نقولها لعموم ما علا ويقابلها أرض، سواء أكانت أَرْضاً واحدة أو أَرَاضِيَ، كَوْكَبُ الأرض أرض لسمائنا وسطح القمر أرض لسمائنا وسطح الشمس أرض... وهكذا لبقية السماوات السبع ما يناسبها من أرض أو أراض كما نفهم من الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...}.

{وَهُوَ الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... هُوَ فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره...

وهو {الْحَكِيمُ}، يَرَى الصوابية في الأمور وقراراته وأفعاله كلها على الصوابية، لَا يعبث ولا يلعب وَقَرَارَاتُهُ وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، بِالتَّسَاهُلِ نقول بأن أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، لَا يفعل لغاية له سبحانه.

يَا من تقرأ القرآن خذ علما أن كل بقية الكائنات في الدنيا تسبّحه تعالى، وإن أنت لم تسبّحه تعالى فأنت شاذّ عن الصواب. وَرَدَ في عموم القرآن تعابير تفيد بأن كل المخلوقات في كل الدنيا تسبّحه تعالى، كما ورد في سورة الْإِسْرَاءِ الآية 44، طَالَمَا الآيات تتوجّه بكلامها مع سامع مكلّف بتنفيذ ما فيها، فهي على معنى: كل الآخرين يسبحون وبقي أنت "أيها الإنسان"، فهل ستسبّح؟

قَالَتْ تلك الآية هناك في سورة الإسراء بأننا لا نفقه تسبيحهم، {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...}، ورغم ذلك ترى الناس يفسّرون معنى تسبيحهم؟! كَيْفَ يفسرونه وهم لا يفقهونه؟! الْبَعْضُ يقولون إِنَّ الموجودات تسبّح بوجودها، نَفْسُ كونها موجودة ولها كيان فهو تسبيح منها يدل على تنزيه من خلقها عن الصفات الناقصة، حسن، فَقِهْتَ تسبيحها إِذَنْ؟ فلماذا قالت الآية إِنَّكَ لا تفقه تسبيحها؟ بعضهم

قال إنَّ سباحة الكواكب هو تسبيحها وزغردة العصافير تسابيح... ووقوف الجبال شامخة تسبيح... هَذَا الكلام محض افتراض وغير صحيح، فلا تتعب نفسك في فهم تسبيحهم، لأنك أصلا لن تفهم أن للجبال وللأرض وللقمر وللسماء... وعيا ما، فنحن لا نستطيع التعامل معها بنوعية وعيها قُدُرَاتُنَا محدودة، فهي جماد بالنسبة لنا، ولكن الإله خالقها يتعامل معها بقدر وعيها، وبطريقة ما تقوم بتسبيحه تعالى.

على أي حال هُنَاكَ بشر لا يسبّحونه تعالى، وهناك شياطين وكفرة الجنّ، هَذَا معلوم، لَيْسَ كلّ من في السماوات والأرض يسبّحه تعالى، هَذَا القرآن وصلنا وفيه تهديد لمن لا يسبّحه تعالى، الْآيَةُ هنا تخبر المكلّفين من الجنّ والإنس أَنَّ كل من يوجد في السماوات والأرض يسبّحه تعالى، الموصوف بالعزيز الحكيم، فتسبيحهم له صحيح، فكونوا معهم بتسبيحه.

نلاحظ أن التسبيح "التنزيه" متضمّن كاملا "تقريبا" في صفتي العزيز الحكيم، أو قُلْ عن هاتين الصفتين أنهما تنفيان عموم أي صفة ناقصة أو معيبة عنه تعالى، الْعَزِيزُ من جهة تعني أنه تعالى فوق الجميع والأشياء والحاجات... ويقابلها صفة معيبة ناقصة وهي الذليل الذي تحت غيره أو له أنداد... ويحتاج لغيره وللأشياء... الْعَزِيزُ ضمنيا تعني أنه تعالى لا يوجد معه إله آخر ولا آلهة... ويفعل ما يشاء ولا يفعل ما يشاء غيره... ولا أحد يفرض عليه... ولا يتأثّر بأي شيء... ولو كفرت كلّ مخلوقاته فلن يتغير أي شيء بالنسبة له لأنه لا يحتاج لتسبيحهم ولا لإيمانهم... مِنْ ناحية الحكيم هُوَ لا يعبث ولا يلهو ولا يظلم ولا يتراجع عن وعوده ولا يغيّر قراراته... ولا يأخذ موقفا واحدا نهائيا صلبا طالما الطرف الثاني تغيّر للأحسن، فيغفر لمن كفر به إن تاب... وهكذا تلاحظ أن أي صفة معيبة أو سلبية لَنْ تتماشى في نفس الوقت مع وصفه تعالى بالعزيز الحكيم.

لَاحِظْ ورود نفس الآية في افتتاحية سورة الصف.

بقي شيء، الْكَثِيرُ من السُّوَرِ لها افتتاحية تعطي معنى: انْتَبِهْ لمصدر الكلام الذي تقرؤه. هُنَا في السورة على معنى: انْتَبِهْ، هَذَا كلام العزيز الحكيم الذي خضعت له كل ما فِي السماوات والأرض، فهل ستخضع أنت؟

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ {2})

{هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} هُوَ اللَّهُ السَّبُّوحُ بِصِفَتَيِ العزيز الحكيم، {الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}، هنا أناس ينتمون لكتاب إلهي، وهنا المقصود بأهل الكتاب المنتمون للتوراة لأن من حصلت معهم الحادثة التي تذكرها الآية كانوا من اليهود بحسب ما هو مشهور في كتب التاريخ، وكفروا وأنكروا رسالة الرسول محمّد(ع)، أخرجهم تعالى، {مِنْ دِيَارِهِمْ}، من المساحات التي كانت تدور فيها نشاطات حياتهم، من بيوتهم ومحلاتهم وبساتينهم... {لِأَوَّلِ الْحَشْرِ}، لأول مرّة يتم جمعهم فيها بقرار خارج عن إرادتهم، وهناك حشر آخر لهم في الآخرة.

مِنَ المشهور في التاريخ أن قِسماً من اليهود كانوا بقرب مدينة يثرب، وكانوا معروفين باسم: بني النضير، عقدوا صُلحاً مع النبي محمّد(ع)، وبعد ذلك خانوا الصلح وتعاونوا مع أعدائه... في زمن ما هجم المسلمون على أولئك اليهود الخائنين للعهد، وحاصروهم، وفي النهاية استسلم اليهود في مدة لم تتجاوز الشهر "أغلب كتب السيرة تقول بين ثلاثة أيام، وآخرون ستة أيام، والقليل منها يزيد المدّة إلى واحد وعشرين يوماً"، حشرهم وجمعهم المسلمون وأخرجوهم من ديارهم، وأرادت الآية أن تشير لجمع آخر مهم جداً سيكون في يوم القيامة، ولذلك عبّرت عن جمعهم هنا في الدنيا في تلك الحادثة بأول الحشر، لأنَّ الحشر الثاني سيكون في الآخرة.

{مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا}، استناداً لمعلوماتكم كان لديكم اعتقاد أن تلك الجماعة لن تخرج أبداً من ديارها، حيث إنَّ فيهم مقاتلون كثر، ولديهم علاقات ممتازة مع العديد من الجماعات اليهودية ومع بعض الكفّار المستعدّين للدفاع عنهم والقتال معهم، ولديهم السلاح والمال، ويمكنهم بالمال شراء المقاتلين "مرتزقة"... بناءً على هذه المعلومات ظننتم أنهم لن يخرجوا من ديارهم إذا هجمتم عليهم.

{وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ}، هذه الجماعة من أهل الكتاب، واستناداً إلى المعلومات التي عندهم، اعتقدوا أن الحصون، الأبنية العالية الصلبة التي تحصّنهم وتمنع الآخرين من الاقتحام عليهم، اعتقدوا أن تلك الحصون ستمنعه تعالى من نصر المؤمنين عليهم، إذا أراد سبحانه إخراجهم من ديارهم فتلك الحصون ستمنعه من إخراجهم! هكذا ظنوا! قيل في كتب التاريخ إنَّه كان لتلك الجماعة أربعة حصون يمكنهم البقاء والاحتماء فيها لمدّة طويلة، حيث إنَّ فيها الماء والطعام والسلاح... ولها دفاعات تصمد أمام الهجمات... فلا يمكن الدخول إليها بحسب ظنّهم.

لاحظْ الآية وبشكل مختصر اعتبرت أن تلك الجماعات من أهل الكتاب عندما كفرت بالرسول محمّد(ع) ورسالته، وحين عارضته ونوت قتاله، فهي تعارض الله تعالى، واعتبر سبحانه أعمالهم موجّهة ضدّه هو سبحانه، واعتبر أن معنى تصرّفهم ضد النبي(ع) والمسلمين موجّه ضده تعالى. وهكذا ترى معنى كلام القرآن المتكرر عن الذين آمنوا بالله وآمنوا برسله، حيث إنَّ أهل الكتاب آمنوا بالله وببعض رسله، وهذا ليس كافياً لأنهم لم يؤمنوا بمحمد(ع) آخر رسول. أنت وأنا لا علم لنا إلا بالرسل الذين ذكرهم القرآن، حتمًا نحن نجهل أسماء وتواريخ حياة بعض الرسل، لذا لا معنى لقولي إنِّي مؤمن بهم لأنني أصلاً لا أعرفهم، وهذه ليست مشكلة، إنَّ القرآن حين وصف الإيمان الكامل بأنه يتضمن الإيمان بالرسل فكلامه كان عمليًّا للإيمان برسول لك علاقة به، مثلاً كرسول ناقل لآخر كتاب إلهي... وتفهمها بالعكس حين رفض اليهود الإيمان بعيسى(ع)، وحين رفض اليهود والمسيحيون الإيمان بمحمد(ع).

{فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا}، من مكان وكيفية لم تخطر على بالهم، مِنْ دون تفكير ودراسة عميقة، وبالاستناد فقط على الحيطان التي حول بيوتهم، اعتمدوا أنَّه لا يمكن لأحد الاقتحام عليهم، ولكن الله سبحانه عندما أعطى الأمر لرسوله(ع) بالهجوم عليهم، فهم أصلاً لم يكن يخطر ببالهم أبداً أنَّ أحداً ما سيتجرّأ ويخاطر بسمعته ويهجم عليهم لأنه سينهزم! حين خانوا معاهدة الصلح مع النبي(ع) لم يحسبوا أي حساب لوجود جرأة للمسلمين للهجوم عليهم، لذا كانوا مطمئني البال من هذه الناحية لأن الحصون مانعة للمسلمين من تحقيق أي انتصار.

فرضاً هجم عليهم المسلمون كان لديهم فكرة ضبابية عن حصونهم وقوّتهم وحلفائهم... ولم يفكّروا بالموضوع بدقّة وجديّة... بلا تخطيط ولا دراسة ولا افتراض لحصول المعركة ولا توقعات عمّا يمكن أن يحدث... وكما ترى فهذا سبب خسارتهم السهلة التي لم يكن يتوقّعها أي أحد.

{وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ}، رمى في أساس أفكارهم ونفسيتهم، الرعب، أقصى درجات الشعور بخطر شديد جداً، حين بدأ هجوم المسلمين عليهم شعروا أنهم لا يمكنهم مواجهة المسلمين.

{يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ}، قاموا بتحطيم ما في داخل البيوت التي خارج الحصون حتى لا يستفيد منها المسلمون، {وَبِأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ}، أيضاً هم سبّبوا خراب بيوتهم، حيث إنَّ المسلمين وصلوا إلى البيوت التي خارج الحصون وخرّبوها حتى يفهم الذين في الحصون أن بقاءهم فيها مختبئين لن ينفع، فرضاً انتهى الحصار وغادر المسلمون، فما نفع الخروج من الحصون إن تدمّرت بيوتهم وبساتينهم؟ وسترى في الآية الخامسة أن المسلمين بدؤوا بقطع الأشجار حتى يفهم المحاصرون أنه لا نفع من الاختباء لأنَّ منطقتهم صارت خراباً وهم مجبرون على تركها والانتقال منها... وهنا تقول الآية إنَّهم لو آمنوا، أو لو صدقوا في معاهدتهم مع الرسول(ع) لما وصلوا إلى مرحلة تخريب بيوتهم بأيديهم وبأيدي المؤمنين.

{فَاعْتَبِرُوا}، لِتَكُنْ هذه الحادثة عبرةً، شيئاً فكريًّا نفسيًّا دينيًّا... تستخرجونه من هذه الحادثة، {يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}، يا أيها المنسوب لهم القدرة على إدراك ووعي الأمور، يا من ترون الأمور والحوادث بوعي وفهم حقيقي صحيح.

إذن هناك جماعة من أهل الكتاب اعتقدت أنها مهما فعلت مع الرسول(ع) وجماعته فلن يصيبهم أي ضرر لأنهم سيحتمون خلف حصونهم ولن يتجرّأ المسلمون على اقتحامهم... ولكن حصل ما لم يخطر ببالهم... هجم عليهم المسلمون، وحاصروهم، ومن لديه بصيرة يمكنه رؤية الأمور بوعي، وسيفهم أن مخالفة أوامره تعالى ومخالفة ومعارضة رسوله(ع)، لن تمرّ وسيكون لها عواقب لا تخطر بباله.

هذه الحادثة جرت وأنت تسمع التعليق الإلهي عليها من نظرته تعالى، حيث إنَّه سبحانه أمر رسوله (ع) بالهجوم عليهم في حين أن المسلمين واليهود كليهما لم يَكُنْ يَخْطُرْ ببالهما أن ينتصر المسلمون، والمفارقة أن المسلمين انتصروا بسهولة غير عادية ومخالفة تماماً للتوقعات، وتنسب الآيات هنا النصر له تعالى الذي قرّر هزيمة الخائنين...

لو أطلت عليك، فهناك شيء دارج في عقلية غالبية المتعاطين بتفسير القرآن قديماً وحديثاً، لسبب أو لآخر يذهبون نحو تفسير الآيات على أساس أنها نزلت أثناء حصول الحادثة التي تتكلّم عنها الآيات، أو نزلت آية بعد الحادثة، ثم جرت أحداث أخرى، ونزلت الآية التالية من نفس السورة لتتحدّث عن الحوادث التي تلت، وكأنها أنباء إخبارية، وهذا غير صحيح، لأنَّ أكثرية السور إن لم تكن كلّها، نزلت كتعليق إلهي على حادثة ما جرت، لتكون نموذجاً لنا نستفيد بالعبرة منه.

هذه الحال التفسيرية السيّئة ليست بسوء عقلية تقطيع نزول السور ليتداخل نزول السور ببعضه، ويقولون إنَّ آيات من هذه السورة نزلت، وبعدها تنزل آيات من تلك السورة، ثم تعود وتنزل آيات من هذه السورة قبل اكتمال نزول تلك السورة... وهذه الحال التفسيرية السيئة ليست بسوء ما يقولونه عن آية من آخر السورة نزلت قبل آية من أوّل نفس السورة! فراجع دراستنا هذه في أي آية يخطر ببالك أن كلامهم عنها صحيح، لترى أن كلامهم التقطيعي للسور والآيات ليس بصحيح.

(وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاء لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ {3})
لولا أن كتب الله عليهم الجلاء، فسبحانه قرّر لهم الانجلاء بترك الديار والبيوت والبساتين... فلم يأمر رسوله (ع) بقتلهم أو استعبادهم، ولولا ذلك لعذّبهم تعالى في الدنيا، بقتلهم، أو استعبادهم.

على كل حال، إنَّ نجاتهم من عذاب الدنيا لا تعني نهاية القصّة معهم على خيانتهم وكفرهم بالرسول(ع): ولهم في الآخرة، التي ستأتي بعد هذه الدنيا، عذاب النار، ضرر سيصيبهم من النار على كفرهم بهذا الدين الإلهي وبالرسول، ومضافاً له خيانتهم للرسول(ع).

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ {4})
{ذَلِكَ}، الحكم عليهم بالجلاء عن ديارهم والعذاب في الآخرة، {بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا}، بسبب أنهم كانوا في شقّ آخر، انشقوا وابتعدوا عن {اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، {وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ}، يعتبر نفسه في شقّ آخر غير دينه تعالى، {فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}، مَن يعتبر نفسه غير مرتبط به تعالى ومفصولاً عنه ولا علاقة له به سبحانه، فهذا العمل سيعقبه شيء شديد يضرّ به، وسبحانه إذا عاقب فلا يكون عقابه عادياً يمكن تحمّله أو الاعتياد عليه، بل سيكون شديداً لا يمكن تحمّله.

(مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ {5})
{مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ}، أي شيء ليّن غير قاسٍ فصلتموه، وهنا المقصود باللينة الشجرة غير اليابسة التي يكون قصّها سهلاً سريعاً، {أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً}، واقفة منتصبة، {عَلَى أُصُولِهَا}، تركتم اللينة "الشجرة الحيّة" على أساسها ولم تقطعوها، {فَبِإِذْنِ اللَّهِ}، بسماح منه تعالى، قطع الأشجار عمل غير جيّد، لأنها تعطي الثمار، وفي حالتكم تلك أذن تعالى لكم بقطع الأشجار المثمرة.

مِنَ التاريخ ومما قالته الآية الثانية عن تخريب أولئك اليهود لبيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، ومما تقوله الآية هنا، يبدو أن المسلمين حين حاصروا بني النضير في حصونهم، جرّبوا التفاوض معهم للوصول إلى حلّ... ويبدو أيضاً أن بني النضير رفضوا أي حل اعتماداً على قدوم النجدة من اليهود الآخرين ومن حلفائهم من مشركي العرب لينقذوهم من المسلمين كما سترى من بقية السورة... ومن الآية هنا ومما ذكروه في كتب التاريخ يبدو أن المسلمين بدؤوا بقطع أشجار بني النضير حتى يفهموا أن صمودهم في حصونهم لن يكون له أي معنى، فإذا انتهى المسلمون من تقطيع كامل الأشجار المثمرة، وتخريب البيوت التي خارج الحصون، وفرضاً انسحب المسلمون وتركوا الحصار، فماذا سيبقى لبني النضير؟ إنَّ الآية الثانية من هذه السورة أخبرتنا أن البيوت خارج الحصن خرّبها اليهود قبل الفرار منها وأكمل عليها

المسلمون بتخريبها تماماً... فحتى لو جاءت النجدة وانهزم المسلمون فما الفائدة من البقاء في قرية بلا أشجار مثمرة ولا بيوت!

في ذلك الزمان كانت أشجار النخيل والعنب شيئاً أساسيًّا في حياتهم، وستستغربه الآن إن علمت أن غذاءهم الأساسي كان من البلح والتمر والرطب، والزبيب "العنب المجفّف"، وتخزين هذه الثمار كان أساس بقائهم على قيد الحياة، كانوا يأكلون ما يخزنونه من تمر وزبيب خلال بقية السنة... ويستغرق نمو شجرة النخل حتى تثمر سنوات وسنوات، مما يعني أن قطع الأشجار في تلك القرية هو انتهاء قيمة القرية للسكن فيها، لذا جاءت هذه الآية هنا لتبرّر منه تعالى ما فعله المسلمون من الابتداء بقطع الأشجار بأمر من النبي(ع).

{فَبِإِذْنِ اللَّهِ}، بسماح منه تعالى حصل الابتداء بقطع الأشجار، إذ كان بإمكانه تعالى أن يأمر المسلمين بالتوقف عن قطع الأشجار، {وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ}، أذن تعالى للمسلمين بقطع الأشجار حتى يشعر الفاسقون بالمهانة بسبب قبيح فسقهم، والفسق وصف لمن خالف صريح ما يقوله تعالى، هم مختبئون خلف حصونهم ويشاهدون أشجارهم يتم قطعها ولا يمكنهم فعل أي شيء، لذا سيشعرون بالخزي والإهانة من ضعفهم أمام مشهد قطع أشجارهم، وهذا حصل بسبب فسقهم، لو كانوا مؤمنين حقيقيين لما تركهم تعالى بدون مساعدة، ولكنهم فاسقون ولذلك أخزاهم سبحانه، وسيضطرون للتفاوض مع المسلمين بعد هذا الخزي، وسيضطرون للجلاء بترك الحصون والقرية والذهاب لمكان بعيد...

ضع في بالك دائماً أن عامّة كلمات الأوصاف التي يستعملها القرآن هي عامّة الانطباق وليست اختصاصية اصطلاحية، هنا كما ترى وصفت الآية هؤلاء الناس من أهل الكتاب بالفسّاق، إنَّ كلمة فسق تعني عامّة الخروج من شيء ما، من أبسط توصيف لخروج حبّة الفستق من قشرتها إلى توصيف خروج شخص من الدين، اعتبر القرآن تلك المجموعة من أهل الكتاب خارجين عن دينه تعالى، خارجين عما قاله الدين بشكل صريح، لأن دينه تعالى ينصّ على اتباع الرسل الذين يرسلها سبحانه، وتلك المجموعة لم تتبّع الرسول محمّد(ع)، إذ فسقوا عن دينه تعالى، ومضافاً إليه أنَّ دينهم يأمرهم باحترام العهود، وهم نكثوا العهد من المسلمين وخانوهم بالتواطؤ مع أعدائهم...

ضع هذا الكلام في بالك لتنتبه للفرق بين ما هو منتشر في بعض ثقافاتنا عن اصطلاح لكلمة فسق ومشتقاتها الذي حصروه بمخالفة الدين علناً أمام الجميع واصطلحوا على النفاق أنه مخالفة للدين بالسر، وللدقة إنَّ الدين صرّح عن تعليماته والفسق "دينياً" هو عموم مخالفة ما صرّح به الدين، سواء حصلت المخالفة بالسرّ أو بالعلن. والنفاق هو عموم إظهار شيء وإبطان شيء آخر، ودينياً هو خصوص إظهار الإيمان وإبطان الكفر، إظهار طاعة الرسول(ع) وإبطان كره طاعته، إظهار التدين بالصلاة... وفي بيته يمرّ وقت الصلاة ولا يصلّي...

بقي شيء، في الكتب ستجد ميل بعضهم لتفسير كلمة لينة من اللون، رغم بعد الاشتقاق لغويًّا وبعد استعمال العرب لهذه الكلمة بهذا المعنى، وقالوا إنَّ اللين وصف للون ثمرة النخيل... وهذا لا يبدو صحيحاً ولا حتى قريباً مما تشير له جملة الآية.

(وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {6})

{وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ}، ما جعله الله تعالى في حالة "فيء" تحت سيطرة أو حرية تصرّف الرسول(ع)، بالتسلّط عليه من أملاك هؤلاء الذين انجلوا عن ديارهم من أهل الكتاب "بنو النضير"، {فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ}، لم تحدثوا حركة اضطراب هنا وهناك على الأرض، {مِنْ خَيْلٍ}، من أحصنة، {وَلَا رِكَابٍ}، ولا وجف شيء تركبونه غير الخيل كالجمال والحمير والبغال، لذا لم تحدث منكم حركة اضطراب ولم تهجموا على العدو ولم تقطعوا مسافة على الخيل أو أي شيء آخر تركبونه "فيوجف ويضطرب ويتحرّك" لتصلوا إلى العدو وتهزموه وتأخذوا ممتلكاته، إذ استسلم العدو ولم تحدث معركة.

قالوا في كتب السيرة إنَّ المسلمين ذهبوا مشياً إلى قرية بني النضير التي تبعد عن مدينة يثرب قرابة الميلين، قرابة أربعة كيلومترات، أي ما يقارب الساعة من المشي العادي.

إنَّ الآية تنبّه المسلمين إلى أنَّهم لم يتكلّفوا بأي مجهود قتالي للحصول على أملاك بني النضير حتى يفكّروا أنَّ لهم حقاً فيها، وما أوجفوا عليها من خيل ولا ركاب... وهذا الفيء لم يكلّفهم حتى السفر ولا الحاجة لركوب الدواب، إذ استغرقتهم ساعة من المشي وهي مسافة تقارب الأربعة كيلومترات بين مدينة يثرب وحصون بني النضير.

أمّا كيف وقعت هذه الأملاك "الأراضي والبساتين والماشية والبيوت..." تحت سيطرة الرسول(ع) بدون قتال من جماعة كان يرى الجميع استحالة التغلّب عليهم، فهذا لم يحصل من إيجاف من نشاط عسكري...

{وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ}، يجعلهم قاهرين يغلبون، أمامه سبحانه خيارات عديدة من نصر رسله في هذه المعركة أو تلك على هذه الجماعة أو تلك، يشاء تعالى تسليط رسله على هذه الجماعة أو تلك أو لا يسلّطهم، فيخسرون في المعركة أو أصلاً يمنعهم من الاشتباك مع الأعداء... عندما يشاء تعالى أن يسلّط رسوله(ع) على جماعة ما فإن ذلك سيحصل حتماً، بطريقة أو بأخرى حتماً سيحصل، وهنا حصل تسلّط الرسول محمّد(ع) على تلك الجماعة "بنو النضير" بلا حرب.

{وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، لديه القدرة على فعل أي شيء يريده بأي شيء، وهنا الكلام كمثال عن تسليط الرسول محمّد(ع) على أملاك العدو بلا جهد عسكري.

تذكَّرْ أنَّ السورة نزلت بعد وقوع الحادثة، وشرحت ما جرى من نظرته تعالى للأمور، ولا تَنْسَ أنَّ الطرفين من اليهود والمسلمين لم يخطر ببالهم أبداً أن تنتهي الحملة بالجلاء بلا قتال، لذا تنبّه السورة المسلمين وتذكّرهم بأنكم لمستم نصره تعالى لرسوله(ع) وأنتم أصلاً لم تحلموا به، والفيء الناتج عن ذلك هو بتصرّف الرسول(ع) لأنَّ هذا كان قراره تعالى.

الآية هنا مقدمة للآية التالية حتى لا يعتبر المشاركون في الحملة العسكرية أنه من حقّهم تقاسم تلك الأملاك، لذا لنكمل مع توزيع الفيء حصصاً:

(مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ{7})
{مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ}، الذي جعله تعالى تحت سيطرة رسوله(ع)، {مِنْ أَهْلِ الْقُرَى}، مما تركه المنتمون لمجتمع من الناس، فهمنا أن الكلام هنا عن حالة الفيء الناتج عن استسلام العدو بلا قتال ولا تكاليف ولا جهد حربي، سواء في حادثة بني النضير كنموذج أو غيرها، {فَلِلَّهِ}، توزيعها حصصا يتم احتساب قسم منها له تعالى في مصاريف خاصّة بدينه تعالى، كبناء المساجد أو إيجار الموظفين في الشؤون الدينية أو تعليم الدين الإلهي... أو الدفاع عن المسلمين... {وَلِلرَّسُولِ}(ع)، على مصاريفه كأي شخص يحتاج لمصروف شخصي معيشي له ولعياله، وكقائد يقصده الناس ليساعدهم... ولشؤون الضيافة والاستضافة لأن بيته (ع) مفتوح لاستقبال من يقصده كرسول وقائد...

{وَلِذِي الْقُرْبَى}، لمن بين الرسول(ع) وبينهم قرابة، اشتهر في التاريخ اعتباره(ع) بني هاشم لوحدهم المقصودين بذوي القربى هنا في الفيء بالخصوص، حيث كان يخصّصهم بحصص من الفيء، ومن التاريخ تعلم أنهم عانوا من الكفّار بسبب قرابتهم للرسول(ع)، فكان - عبر التاريخ - كل حاقد كاره لدينه تعالى يتعرّض بالأذى لقرابة الرسول(ع)... ولذلك جرى إعطاؤهم أولوية تحسين ظروفهم عن الآخرين، وبكلام الآية الآتي عن منع الأغنياء من تداول هذا المال نفهم أن قرابة الرسول (ع) لهم أولوية لتحسين ظروفهم وليس على حساب فقير حالته تعيسة، وليس لدرجة صيرورة ذوي القربى أثرياء معهم ما يزيد عمّا يحتاجونه بكثير.

كما تلاحظ هنا، مِنَ الصعب فهم جملة ذوي القربى على غير قرابة الرسول(ع)، لأنَّ ما بعدها من عناوين لصرف الفيء تتضمّن عموم أفراد المجتمع الاسلامي من ضمنهم من شارك في الحملة العسكرية ممن تنطبق عليه أوصاف المسكين. لا معنى لحملها على قرابة عموم المسلمين، جرّب حملها على قرابة المقاتلين المشاركين في الحملة العسكرية التي أدّت للحصول على الفيء، سترى أنه لا معنى لحرمان المقاتل الغني من الفيء، وإعطاء حصّة لأقاربه الأغنياء الذين لم يشاركوا في الحملة. هكذا نفهم أن الكلام الذي نسمّيه بالحصّة لأقارب الرسول(ع)، إنما هو بالحقيقة العملانية تفضيلهم بتحسين حالهم مقابل تحسين حال المساكين الآخرين. ولمزيد من التفاصيل راجع دراسة الآية 41 من سورة الأنفال.

{وَالْيَتَامَى}، ينصرف الذهن منها إلى الصغار الذين فقدوا أباهم "معيلهم"، مَن فقد أمّه أيضاً هو يتيم ولكن استعمال العرب لهذه الكلمة لوحدها يشير للصغير الذي فقد أباه معيله وحاميه... أمّا من فقد أمّه فيقولون: يتيم الأمّ. في عموم المجتمعات القديمة وبعض المجتمعات الحالية يقوم بعض الناس بالتسلّط على أملاك الأيتام وحقوقهم، واعتبارهم بلا قيمة، وإذا كانوا أطفالاً فقراءَ فقدوا معيلهم فإن غالبية نساء المجتمعات كانت لا تتعاطى الأعمال المنتجة ماليًّا بقدر يكفي لإطعام عدد من الأولاد... وكما ترى في الآية هنا وفي غيرها، خصّص سبحانه حصصا للأيتام حتى يعيشوا بكرامة.

{وَالْمَسَاكِينِ}، لهم حصّة من الفيء وهم الأشخاص المحتاجون للمساعدة، سواء كانوا فقراء بشكل مدقع لا يملكون وجبة طعام واحدة، أو كانت أحوالهم المادية متعثرة ويمرون بظروف اقتصادية صعبة، حتى لو كانوا يملكون البيت الذي يسكنون فيه وحتى لو لديهم متجر أو سيّارة... طالما ظروفهم معسّرة فلهم حصّة.

{وَابْنِ السَّبِيلِ}، هذا وصف للشخص الذي خرج من بلده وعاكسته الظروف وصار غريباً بحاجة للمساعدة حتى يعيش أو يرجع إلى بلده، لذا هذا أيضاً له حصّة من الفيء.

هذا التقسيم للفيء، {كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً}، حتى لا يكون المال والأملاك شيئاً يحصل تداوله، {بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ}، تقسيم الفيء حصصاً يجعل المال والأملاك يتم تداولها بين المسلمين، فلا تنحصر بين الأغنياء من الناس، في العادة يتم تقسيم الغنائم بالحصص الكبيرة على الرؤساء والوجهاء والنافذين ويحصل المقاتلون على الفتات وبقية أفراد المجتمع لا يحصلون على أي شيء، أما في هذا التقسيم فالمحتاجون للمال صار لهم حصّة فلم يبق المال يتداور بالتداول بين الأغنياء.

{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ}، ما جاءكم به من قول وعمل، قال لكم أن يتم توزيع الحصص على فلان وفلان من الناس، فخذوا بقوله وفعله، وافعلوا كما أمركم.

{وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ}، أمركم بتركه نهائياً، {فَانتَهُوا}، اتركوه نهائياً ولا تعودوا له، وهنا الحديث عن أي اعتراض على الرسول(ع) بتقسيم حصص الفيء، حيث إنَّ المقاتلين سيحملون ما يُحْمَلُ من الفيء معهم، ويريدون حصّة منه، ولكن الآية تأمرهم بتقسيم الفيء بالحصص التي ذكرتها، وتأمرهم بالالتزام حرفيًّا بما يقوله الرسول(ع) عن تطبيق مصروف تلك الحصص على فلان وفلان... لِنَقُلْ مثلاً إنَّه يوجد العديد من الأيتام وخصّص الرسول (ع) هذا اليتيم بمال أكثر من الآخرين، فقوموا بتوزيع الحصص تماماً كما أمركم لأنه رسول(ع) ولا يتصرّف عن مزاجه. لِنَقُلْ إنَّ واحدا أو جماعة من المشاركين في الحملة العسكرية كانت لديهم فرصة الحصول على المال من دون دراية أي أحد، فتأمرهم الآية بالالتزام بتقسيم الحصص تماماً كما أمر الرسول(ع)...

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}، تجنّبوا غضبه وعقابه، والتزموا بأوامره تعالى في تقسيم الفيء وطاعة الرسول (ع) في توزيع الحصص، {إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}، مَن قام بعمل سيّء فسيعقب عمله ضرر عليه، ولن يكون عادياً أو يمكن تحمّله بل قاسياً شديداً مؤلماً...

(لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ{8})
الحصة الأخيرة من الفيء، {لِلْفُقَرَاءِ}، الذين يفتقرون لأشياء، ينقصهم المال والأملاك ليعيشوا منها، {الْمُهَاجِرِينَ}، الذين تركوا ديارهم نهائيًّا، {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ}، جرى إخراجهم غصباً عنهم من الأماكن التي كانت تدور فيها شؤون حياتهم، بيوتهم محلّاتهم بساتينهم مزارعهم... وأخرجوا من، {وَأَمْوَالِهِمْ}، مما يملكونه من نقود وأشياء يتعاملون بها بالقيمة المالية، كنتاج الحقول والبساتين وبيوت الإجارة والماشية وبضاعة التجارة... {يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ}، يطلبون ويريدون من هجرتهم شيئاً يحصلون عليه منه تعالى وهو ليس فرضاً واجباً عليه تعالى، هم كانوا متوكلين عليه تعالى بتيسير أمورهم من فضله، ليعوّض لهم ما خسروه بسبب الهجرة، ولكن هذا ليس لهم كفرض واجب عليه تعالى.

{وَرِضْوَانًا}، يبتغون موافقة وقبولاً إلهيًّا بمحبّة لأعمالهم، مَن هاجر بسبب مشاكله الشخصية مع قومه وانضمّ للمسلمين المهاجرين من مكّة أو غيرها إلى مدينة يثرب التي كانت المجتمع المسلم الوحيد في حينها، فهجرته لم تكن عن إخراج

الكافرين له ولم يهاجر بسبب تدينه، فـهذا مسلم ونصيبه من الفيء كنصيب عامة فقراء المسلمين، والآية لم تقصد الحديث عنه وإنما قصدت بيان سبب أولوية تخصيص حصّة من الفيء للمهاجرين الفقراء، في نظرته تعالى لمن أخرجوه من داره فصار مهاجراً، فـهذا له أولوية لينال حصّة من الفيء لأنه بسبب إيمانه تهجّر تاركاً دياره ومصالحه...

أولئك المهاجرون، {وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، يعملون على ما يريده تعالى ورسوله(ع) ويَبْذُلُونَ جهدهم في هذا الاتجاه، كما ترى حتى لا يفكّر المهاجر أنه بهجرته سقطت عنه بقية الواجبات وحصل على الامتيازات، تأتي تكملة الآية لتخبره بأن هجرته وضع مميّز له ولكن لا يزال واجباً عليه نصرته تعالى ونصرة رسوله(ع).

{أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}، يبدو لك واضحاً تكملة الجملة: الذين حملوا هذه الصفات فـهم لا يكذبون في إعلانهم لإيمانهم، هم صادقون في تدينهم والتزامهم، إذ تركوا ديارهم ونصروه تعالى ونصروا الرسول(ع).

من المهمّ جداً الانتباه للتعبير القرآني عن الاعتماد على فضله تعالى، إنَّ بعض الناس يتّخذون قرارات في سبيله تعالى وتكلّفهم تلك القرارات خسارة عملهم أو تجارتهم أو صداقاتهم أو علاقاتهم مع أقاربهم والناس من حولهم... ويرون أنهم صار لهم فرض واجب عليه تعالى أن يعوّضهم عن خسائرهم التي سببتها طاعتهم له تعالى، ويرفض القرآن هذه النظرة بشدّة وينبهنا عليها دائماً، فلا أحد ولا بأي شكل ولا بأي شيء له فرض واجب عليه تعالى، ولا أحد من الكائنات له الحق أن يقف ويقول: لي حقّ على إلهي. أبداً بتاتاً نهائياً هذا غير صحيح ولا بأي وجه، حتى دخولنا إلى الجنّة فليس فرضاً واجباً عليه تعالى جعلنا فيها من بعد قضاء عمرنا في طاعته تعالى، بل هو سبحانه برحمته ومن فضله قرّر إثابتنا بالجنّة، وحتى من دون الثواب بالجنّة فيجب علينا نحن العبيد طاعته تعالى كما أمرنا ولو من دون ثواب.

مَن هاجر بسبب دينه وخسر أملاكه كلّها وصار فقيراً لا يملك ثمن وجبة طعام، فلا يعتقد أنه صار له فرض واجب على الإله سبحانه أن ينزّل له مائدة من السماء، أو سلّة من النقود، أو يجعله تعالى يمسك التراب ويحوّله لذهب، أو يسبب له النجاح في أي معاملة فيها منفعة مالية... لا، ليس فرضاً واجباً عليه تعالى، وأوجب سبحانه على المسلمين مساعدة المهاجرين... وكما ترى في أوّل فرصة تفضّل عليهم سبحانه بحصّة من الفيء.

ضع في بالك دائماً أن القرآن لم يستعمل أبداً كلمة "رضا، رضوان..." بمعنى القبول بأمور سيئة، هذا وصفه الصبر، وأما الرضا فدائما يكون على شيء محبوب مرغوب، وما تجده في أدبياتنا عن الرضا بقضائه تعالى، فذاك شيء بعيد عن المعنى العربي لكلمة رضا التي لا تقبل الانطباق بالرضا على السوء، ومن تبعات كلامهم قرآنياً أن يصير رضا المؤمنين عمّا في الجنّة يتحمّل أن يمرّ معهم سوء ويرضون عنه، بينما استعمال القرآن للتعبير بالرضا كان ليشير إلى وضوح خلو الجنة من أي نوع من السوء.

تلاحظ أن السورة نزلت بعد انتهاء الحصار والحصول على الفيء، ومن الآية هنا والتي تليها يبدو أن السورة نزلت قبل توزيع الفيء، وإذا احتملنا نزولها بعد توزيع الفيء، فعلينا أن نحتمل أن وحياً غير القرآن نزل على الرسول يخبره بكيفية توزيع الفيء، أو أن الرسول وزّع الفيء بما رآه مناسباً وكان متماشياً مع أوامره تعالى، وبعد هذين الاحتمالين جاءت السورة لتؤكّد موافقته تعالى على ما فعله الرسول(ع).

يبدو من الآية هنا أنه (ع) خصّص حصّة كبيرة لفقراء المهاجرين من مكّة، ويقولون في كتب السيرة إنَّه(ع) أعطى حصة لثلاثة أشخاص من فقراء أهل المدينة، لذا يبدو أن وضعهم المادي كان مأساويًّا حتى خصّصهم الرسول(ع) بحصص.

ننتبه جيداً، إنَّ حصر تفسير هذه الآيات بواقعة غزوة بني النضير وبالرسول(ع) وبمن هاجر في زمنه، سوف يقيّد معنى الآيات، وما تراه في التفاسير من بحوث حول كيفية توزيع الفيء وعلى من، إنما هو محاولة استخراج حكم لتطبيق ما تذكره الآيات مع ما ورد من السيرة على أي عصر آخر مروراً بعصرنا الحالي ووصولاً للعصور التالية.

مِنَ البداية علينا التعامل مع الآيات على أساس تطبيقها على عموم أزمنة وأمكنة المجتمعات المسلمة، إن كان هناك مهاجرون ووقعت حادثة الفيء هذه، في عصر الرسول(ع) أو في عصرنا، فلا يتغيّر الكلام، لأنَّ فقراء المهاجرين لهم "أولوية"، وإن كان هناك حالة حرجة لمسلم غير مهاجر فـهو من الأولوية أيضاً، وإن لم يكن بين المسلمين مهاجرون فنرجع في تقسيم الحصص إلى الآية السابقة: لله تعالى وللقائد ولعموم مساكين المسلمين وابن سبيلهم، حتى لو لم يكن

هناك رسول فتطبيق ما يقوله القرآن عن حصّة الرسول يرجع إلى قائد الأمّة بحكم توازي ظروفه كقائد مع ظروف الرسول كقائد.

(وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{9})

{وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ}، قبل المهاجرين من مكّة إلى مدينة يثرب، التي اشتهرت بعد انتشار الاسلام فيها باسم: المدينة. مِنْ قبل المهاجرين هناك من سبقهم قديماً لتصبح المدينة "يثرب" دارهم، فتبوؤوا المدينة قبل المهاجرين من مكّة، لذا صار مكانهم في المدينة وصارت مكاناً لنشاطهم الحياتي، فالكلام عن أهل يثرب الذين كانوا فيها قديماً قبل أن يأتي إليها المهاجرون المسلمون من مكّة، وتبوؤوا الإيمان، لذا صاروا في حالة الاعتقاد بهذا الدين، {يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ}، لديهم شعور حسن تجاه من ترك دياره وجاء ليعيش في مدينتهم، {وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ}، في مركز تفاعلهم مع ما يجري أمامهم ومعهم، {حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا}، المؤمنون من أهل مدينة يثرب "الذين صار لقبهم الأنصار" لم يتفاعلوا بشكل سيّء مع تفضيل توزيع الفيء على فقراء المهاجرين، {وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ}، ما هو جيّد لهم تركوه لغيرهم من المؤمنين، {وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}، حتى لو كان يخصّهم ولهم ما تركوه للآخرين فيحتاجون له، فحتى لو كان فقيراً من الأنصار وحصتّه من الفيء خاصة به لأنه يندرج تحت عنوان مصرفها، آثر فقراء المهاجرين على نفسه ولم يعترض على حرمانه مما هو له.

{وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ}، من حصل له الوقاية والتجنّب والابتعاد عن "شحّ نفسه" أو عن فكرة التقليل مما يعطيه للآخرين، إذْ مَنْ كان محميا مما توسوس به النفس من إعطاء القليل للآخرين، يعطي ولكنه شحيح فقليل ما يعطيه للآخرين بالرغم من قدرته على إعطائهم أكثر، {فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، هم الذين قاموا بعمل فالح، فأجادوا فيما عملوا لأنهم عملوا الصحيح.

تبدو الآية مادحة لأنصار المدينة بشكل خاص، ولكنها تخبرنا عمّا يجب أن يكون عليه المؤمنون الذين يستقبلون مهاجرين مؤمنين في أي زمان ومكان.

تعرض الآية لنا موقفاً رائعاً من مسلمي المدينة "الأنصار" الذين رضوا بتفضيل المهاجرين بالفيء، لذا تمدحهم وترينا أن موقفهم هذا كان نابعاً من مشاعر وأفكار إيمانية عميقة فيهم، تخبرنا بذلك حتى نتعلّم منهم ونفعل مثلهم في المواقف المشابهة حتى نكون من المفلحين.

(وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{10})

{وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ}، هناك سكّان المدينة "يثرب" وهناك المهاجرون من مكّة "وربما آخرون"، ومن بعدهم جاء آخرون من مختلف المناطق ليلتحقوا بالرسول(ع)، لذا تأتي الآية هنا لتتحدّث عنهم حتى لا يشعروا أنهم بلا قيمة، فالعناوين الرئيسية "مهاجرون وأنصار" وهناك مسلمون جدد وليسوا من الأنصار ولا من المهاجرين، لذا هؤلاء يقولون:

{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {اغْفِرْ لَنَا}، تجاوز عن سيئاتنا وسامحنا عن ذنوبنا، {وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ}، هم زمنيًّا أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين الإلهي قبلنا ونحن نعتبرهم إخوانا لنا كمشاركين لنا في الإيمان.

{وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا}، في أساس فكرنا ونفسيتنا، {غِلًّا}، شعوراً كأنَّ القلب مقيّد بشيء ثقيل، {لِّلَّذِينَ آمَنُوا}، هناك مشاعر خفيفة على القلب فينشرح بها، كمشاعر الحبّ والودّ والرأفة... وهناك مشاعر ثقيلة كأن القلب مربوط مشدود عليه بشيء ثقيل كالكره والحقد والغيرة والحسد... وهذه كلّها تطبيقات للغلّ، فلا تجعل يا ربّنا هذا النوع من المشاعر والأفكار في قلوبنا، في أساس أفكارنا ومشاعرنا.

هم كمؤمنين جدد بالتصنيف التاريخي في جهة، والآخرون لهم عنوان مميّز كمهاجرين أو أنصار، يمدح سبحانه المؤمنين الجدد ويعلّمهم أن لا يكون في قلوبهم أي شيء سيّء تجاه من سبقهم بالإيمان...

{رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ}، لست قاسياً بل تراعي وجود نقاط الضعف فينا، وها نحن نخبرك أننا نخاف من الغلّ وهو واحدة من أهم نقاط الضعف فينا فساعدنا، {إِنَّكَ رَحِيمٌ}، لديك عناية خاصة للمؤمنين فاشملنا بتلك العناية، إذْ إنَّ صفة الرحمن هي عنايته تعالى بشكل عام بكل مخلوقاته، والمؤمنون لهم عناية خاصة، حيث لهم المغفرة ونور البصيرة والقلب ومضاعفة الحسنات... إذ يصف تعالى في قرآنه هذه العناية الخاصة بالرحيم.

معلوم أنهم لم يكونوا كلّهم بهذه الصفات الإيمانية العالية، تخبرنا السورة عمّا يجب أن يكونوا عليه، وتعلّمهم كيف يمرّنون نفسيتهم وفكرهم على السلوك الإيماني الصحيح، ليس لهم أولوية في تقسيم الفيء، لأنهم ليسوا من الأنصار الذين تحملوا المهاجرين، وليسوا مهاجرين فاقدين لأملاكهم، وحتى لا يشعروا بمشاعر سيئة تجاه المؤمنين الذين كان لهم الأولوية، تأتي الآية هنا لتعلّمهم كيف يفكرون وكيف يمرّنون شعورهم.

(أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ{11})
{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم يَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت. {إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا}، الذين أظهروا للآخرين غير ما في قلوبهم، حيث أظهروا التدين ولكنهم من الداخل ليسوا مقتنعين به، {يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ}، للمشابهين لهم في النفاق، {الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}، الذين ينتمون لكتاب إلهي ولكنهم أنكروا هذا القرآن والرسول محمّد(ع)، ولو كانوا فعلاً مؤمنين حقيقيين بكتابهم الإلهي لكانوا آمنوا أيضاً بهذا الرسول وقرآنه ولكن حتى إيمانهم بكتابهم ليس حقيقيًّا، وهنا الحديث عن نموذج يهود بني النضير الذين أخرجهم تعالى من ديارهم على أيدي المؤمنين... يقول لهم المنافقون من الذين أعلنوا إسلامهم:

{لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ}، إذا اضطركم المسلمون للخروج من قريتكم فنحن نعلن لكم أننا متضامنون معكم حتى النهاية وسنخرج معكم من بيوتنا... {وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا}، لا الآن ولا في المستقبل سنطيع أي أحد يقول لنا شيئاً يخالف تحالفنا معكم مهما كلّفنا ذلك.

كما يبدو لك، قبل تحرّك المسلمين باتجاه بني النضير أعطى الرسول(ع) بني النضير خيار الخروج سلميًّا من قريتهم ومغادرة المنطقة أو قتالهم، وها أنت تقرأ هنا أن المنافقين من مسلمي المدينة يقولون لبني النضير: نحن حلفاؤكم وبالنسبة للخيار الأول فنحن معكم وحالنا بحالكم، فإذا طردكم المسلمون من دياركم فنحن لن نترككم وسنخرج معكم إن أنتم اخترتم هذا.

{وَإِن قُوتِلْتُمْ}، رفضتم الخروج وقررتم القتال، {لَنَنصُرَنَّكُمْ}، سنعمل على تحقيق ما تريدونه، وسنقاتل معكم جنباً إلى جنب ونقدّم لكم كل الدعم اللازم...

{وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}، المنافقون من المسلمين لا يقولون الحقيقة، لأنهم منافقون حتى مع بني النضير!:

(لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ{12})
{لَئِنْ أُخْرِجُوا}، لو حصل وأخرج المسلمون بني النضير، {لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ}، المنافقون لن يواسوهم ولن يتشاركوا معهم المصير ولن يغادروا ديارهم.

{وَلَئِن قُوتِلُوا}، لو حصل وقاتل المسلمون بني النضير، {لَا يَنصُرُونَهُمْ}، لن يقدّم لهم المنافقون أي دعم ولن يقاتلوا معهم، {وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ}، لو حصل وشارك المنافقون في القتال إلى جانب بني النضير ضد المسلمين، {لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ}، سوف يعطون قفاهم للمعركة، وسيهربون، {ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ}، لا يحصل بنو النضير على النصر من المنافقين.

انتبه ولاحظ أن الحادثة وقعت وخذل المنافقون بني النضير، ولم يقدموا لهم أي دعم، ولم يواسوهم ويخرجوا معهم حين أجلاهم المسلمون، وبعدها نزلت هذه الآيات، فعلينا أن نفهم الآيات هنا بأنها تتحدّث عن عموم تصرفات المنافقين إذا قارنتها مع المؤمنين "الحقيقيين"، فأي جماعة "منافقة" عبر التاريخ تعيش في ديار المسلمين فستتصرّف هكذا، وستتخاذل عن نصرة أعداء المؤمنين، طبعاً إذا كان في قبالتهم مؤمنين حقيقيين، أمّا لو كان الكلّ منافقين، أو القلّة القليلة جداً مؤمنة، والأكثرية منافقة، فالأكثر نفاقاً قد ينقلب على الأقل نفاقاً أو العكس... فانتبه بشكل جيد لأي مجتمع من المسلمين، فقد يحصل تعاضد بين قوم مسلمين مع كفّار أو مشركين أو أهل كتاب... ضد قوم مسلمين آخرين، وكما ترى فالاحتمالات مفتوحة حول حالة فريقي المسلمين: واحدة منافقة وأخرى مؤمنة حقيقية، لذا تصمد المؤمنة وتنتصر وسيتخاذل المنافقون. والاحتمالات الأخرى أنّ كلا الفئتين المسلمتين منافقتان، فكلاهما لن يلتزما حتى الموت مع أي جهة انضمّوا إليها. الصدق العميق الحقيقي والالتزام الوثيق لحدّ الموت، لا يلتزم به إلا مؤمن حقيقي ذكي لدرجة عالية حتى باع نفسه لله تعالى مقابل جنّة الخلد، أو بسيط مغسول الدماغ أقنعوه حتى بقتل الأبرياء...

(لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ{13})
{لَأَنتُمْ}، أيها المسلمون، {أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ}، إنَّ شعور الخوف المصحوب بشعور العجز أمام قدرتكم أقوى في خفايا تفاعل المنافقين مع ما يحدث معهم، {مِّنَ اللَّهِ}، لأنَّ هؤلاء ليس لديهم إيمان حقيقي ومشاعر صادقة تجاهه تعالى، لذا لا يعرفون قدره الإلهي، ولذلك يرهبون منكم أكثر مما يرهبون منه تعالى!

{ذَٰلِكَ}، الشعور بالرهبة منكم أكثر من الرهبة منه تعالى، {بِأَنَّهُمْ}، بسبب أنهم، {قَوْمٌ}، أناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع تلك الحالة، {لَّا يَفْقَهُونَ}، لا يربطون المعلومات بشكل سليم فالنتيجة لن تكون جيدة أو صحيحة.

النفاق هو إظهارهم للدين مع القناعة الداخلية بعكسه، وصلهم الكلام الإلهي ولكنهم لم يفقهوه، ولم يدخل إلى قناعتهم عن حسابه تعالى وعقابه لمن خالف كلامه، ولو فهموا هذا لكانت رهبتهم منه تعالى أشدّ من رهبتهم من أي شيء.

(لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ{14})
{لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا}، المنافقون من المسلمين والمنافقون من أهل الكتاب كلاهما لا يعملان على إنهاء حياتكم أيها المؤمنون، {إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ}، في تجمعات بشرية محفوظة، تعتمد على خنادق وعلى سلاح قوي أو على عدد كبير من المقاتلين... يمنع تقدّمكم عليهم، {أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ}، من خلف الأسوار من خلف حيطان عالية يحتمون خلفها منكم.

هم لديهم خوف من الموت ولن يدخلوا في أي معركة لا يعتمدون فيها على شيء يحميهم من الموت، فإذا لم يجدوه فلن يقاتلوكم.

{بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ}، فإذا تقاتلوا مع بعض سترى أن قتالهم عنيف، لأنهم لا يخافون من بعضهم مثلما يخافون من المؤمنين، فلو قاتلوا المؤمنين فلن تجد لهم بأساً قويًّا.

{تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا}، يخطر في بالك حين تسمع كلامهم عن تضامنهم، وحين تراهم مع بعض، يخطر ببالك أنهم متحدّون ككتلة واحدة ضدّك، {وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ}، أمّا في الحقيقة فمركز تفكيرهم ونفسيتهم متشتت متفرّق وليس متوافقاً ولا مجتمعاً على شيء واحد، هذا يفكّر بما سيحصل عليه من مال أو منصب بعد انتهاء الحرب... وذاك يفكّر بالانقلاب على حلفائه بعد خروجهم ضعفاء من هذه الحرب، وآخر يجهّز نفسه للهرب إذا وقع الآخرون في ورطة... وغيره يترك حلفاءه وليس مستعدًّا ليخاطر ويتدخّل لمساعدتهم... أمّا المؤمنون فبالعكس تماماً، فقلبهم واحد: مرضاته تعالى.

{ذَٰلِكَ}، القتال في وضع محصّن ومن خلف الحيطان وقتالهم الشديد بين بعضهم وتشتّت قلوبهم: {بِأَنَّهُمْ}، بسبب أنهم، {قَوْمٌ}، أناس لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع حالة مواجهتكم قتاليًّا، {لَّا يَعْقِلُونَ}، هناك معلومات تدخل إلى فكرهم عبر سمعهم وبصرهم، وهناك معلومات تريهم أن الإيمان به تعالى هو الصحيح، ولكن هذه المعلومات لا تستقر في عقولهم!

لنتوقّف هنا قليلاً ولنقارن بين أحوال المسلمين اليوم وبين ما تقوله السورة، فالمتعاون مع الأعداء منافق، وهو والأعداء جبناء في مواجهة المؤمنين الحقيقيين، في عصرنا على من تنطبق هذه الحالة؟

أضف إليها البأس الشديد بين المنافقين إذا اقتتلوا، في عصرنا على من تنطبق هذه الحالة؟ مَنِ الداعي لاقتتال المسلمين بين بعضهم والمتعاون مع أعدائهم؟

(كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{15})
{كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}، شبههم كشبه أناس قبلهم منافقين لا يعقلون، {قَرِيبًا}، من مدّة غير بعيدة، {ذَاقُوا}، أحسّوا وشعروا بـ، {وَبَالَ}، ثقل نتيجة، {أَمْرِهِمْ}، الأمر الشيء الذي فعلوه، فعلوا "أمراً" شيئاً مضادًّا للمسلمين وكان له وبال وكان له نتيجة سيئة عليهم، {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، لهم ضرر لا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه، وهذا سيكون في الآخرة.

في كتب التاريخ قالوا إنَّه قبل حادثة بني النضير وقعت حادثة مشابهة جداً مع بني القينقاع، وهم أيضاً يهود خانوا بالنبي(ع)، وأيضاً كانوا مجاورين لمدينة يثرب، وأيضاً تدخّل المنافقون من المسلمين وأوعزوا لبني القينقاع أنهم داعمون لهم... وكانت النتيجة طرد بني القينقاع وخذلان المنافقين لهم.

في كتب السيرة والتاريخ ستجد معلومات متضاربة حول نفس الأحداث التاريخية، وستجد معلومات تعتقد أن من نقلها ينقلها كخبر عن شيء شاهده أو ينقله عمّن شاهده، بينما هي في الواقع تحليلات وتخمينات وإكمال لسيناريو الأحداث كما افترضوه... في حادثة بني النضير وقبلها حادثة بني القينقاع، لا يمكنك الاعتماد على كتب السيرة لمعرفة تفاصيل ما جرى بشكل صحيح وموثوق، وأقصى ما يمكنك الحصول عليه من تلك الكتب هو مجرد تقريب بسيط لأجواء ما حصل، بسبب تعارض ما قالوه مع بعضه ومع أحداث تاريخية أخرى...

انتبه جيداً لكيفية تعامل القرآن مع نقل الأحداث، فلا تجد أي ذكر لبني النضير في كل السورة، ما جرى معهم هو مجرد مثل استخدمته السورة كنموذج، فحلّلته وعلّقت عليه ليكون عبرة لكل المؤمنين عبر التاريخ، تذكّر دائماً أن القرآن لم يردك أن تتعامل معه ككتاب تأريخ، بل أرّخ فقط لأحداث يصبّ الكلام عنها والتعليقات الإلهية عليها في هداية من يريد أن يهتدي، وتناول القرآن فقط الجانب الذي يهمّه من تلك الأحداث، وتغافل عن تفاصيل قد تراها أنت مهمّة وتبحث وتسأل عنها... ولكنها في نظر القرآن ليست مهمّة لأنها لا تصب في هدف هداية الناس.

خذ مثلاً الجدل الذي ستراه حول سبب طرد بني القينقاع، فستجد قصة عن تحرش بعض شبابهم بامرأة مسلمة... وربما تكون هذه الخبرية صحيحة، والجيل الأول الذي شهد الحادثة خجل من ذكر تفاصيل اسم المرأة وحادثة نزع الشباب لثيابها في الشارع حتى لا يقللوا من احترام ومكانة تلك المرأة... ففلتت الحادثة من فم أحدهم فيما بعد بزمن طويل... على كلّ حال، هناك سبب وجيه جداً لطرد النبي(ع) لبني القينقاع "من بعد رجوع المسلمين من معركة بدر" وبعدها بقرابة السنتين جرى طرد بني النضير، ولم يذكر القرآن السبب لانه غير مهمّ "لأهداف القرآن"، واكتفى بالاشارة إلى أن النبي(ع) اتخذ قراراً بطردهم، وافترض القرآن أنك متأكد من وجود سبب وجيه لهذا القرار النبوي، ولم يجد القرآن سبباً لذكره لك، وركّز على أمور أخرى أهم، وبالنسبة لمحور كلام السورة هنا، اختارت لك حادثة إجلاء بني النضير الذين وبكل المقاييس في ذلك الزمان وفي رأي كل الناس، كان من المستحيل أن يتجرّأ المسلمون على مهاجمتهم، لأن الخسارة ستكون أكيدة... ولكن جرى إجلاؤهم بكل سهولة وبدون قتال، وهذا حصل من قبل مع معادين للمسلمين وعدهم المنافقون وخذلوهم. يعني، لماذا لم يتّعظ هؤلاء من معاداة المسلمين ومن وعود المنافقين؟! والجواب في الآية التالية:

(كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ{16})
{كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ}، كشبه الذي يقوم بالأعمال السيئة المضادة للهداية، شبه الذي يوصف بأنه يضلّل الناس عن طريق الحق، وهو إبليس، فتغرير المنافقين من المسلمين ببني النضير، وبالذين من قبلهم، يشبه ما فعله الشيطان.

{إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ}، حيث الموصوف بقيامه بأعمال السوء والضلال قال لعموم أي إنسان: أنكر دينه تعالى، فلا تعتقد به ولا تلتزم به.

{فَلَمَّا كَفَرَ}، عندما سمع الإنسان كلام الشيطان ونفّذه فـأنكر الدين الإلهي. مثلما رفض بنو النضير "والذين من قبلهم" أي حل سلمي مع المسلمين، وبعدها رفضوا الخروج من قراهم اعتماداً على مساندة المنافقين، حيث كان متاحاً لهم الخروج من قراهم مع أملاكهم وماشيتهم بكرامتهم، ولكن حين رفضوا الخروج وقرّروا القتال، وخذلهم المنافقون، عادوا إلى خيار الجلاء، لذا حرمهم الرسول(ع) من أخذ أي ممتلكات معهم.

بعد أن كفر الإنسان منفّذاً ما قاله الشيطان، عندها {قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ}، لا ارتباط ولا علاقة لي بكفرك، {إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ}، لدي شعور بالضرر منه تعالى والذي لا يمكن تجنّبه إن كفرت بـ {رَبَّ الْعَالَمِينَ}، بالمسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس من أولهم لآخرهم، ومن ضمنهم أنت الذي أطعتني وكفرت وكان يجب أن تطيع ربّك سبحانه.

المنافقون غرّروا بني النضير بالبقاء للقتال، ولكنهم خذلوهم ولم يساعدوهم لأنهم يخشون من المسلمين، تماماً مثلما فعل الشيطان بعدما كفر الإنسان، فـخذله ولم يقدّم له أي دعم لأنه يخاف الله تعالى!

القرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموماً ذكراً وأنثى، وأنهم يتناسلون... أو متعلق بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

(فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ{17})
{فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا}، فَكَانَ ما عقب، ما أتى بعد كفر الإنسان ووسوسة الشيطان له، أَنَّهُمَا، الشيطان والإنسان الذي كفر، {فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا}، فكلاهما لن يخرجا منها ولن يموتا ولن يفنيا... وهي لن تفنى ولن تخرب، {وَذَٰلِكَ}، الخلود في النار هو، {جَزَاءُ الظَّالِمِينَ}، هو المقابل الذي يحصل عليه الذين لم يكونوا منصفين ولا محقّين ولا عادلين، الذين لم يكن معهم حقٌّ حين كفروا أو غرّروا الآخرين ليكفروا.

طالما الشيطان يعلم أن الربّ سبحانه يجب طاعته، فهو لم يكن محقّاً منصفاً حين وسوس للإنسان أن يكفر، بل ظلماً بلا حقّ قام بهذه الوسوسة، والإنسان وصلته الآيات الواضحة الدالة على الإيمان، وظُلماً فلم يكن معه حقّ حين استمع لوسوسة الشيطان وكفر، والمقابل على هذا الظلم هو الخلود في النار.

ننتبه جيداً، هنا ترى بوضوح أن القرآن يقول للشيطان أنك ستخلد في النار، فلماذا لا يتوقّف الشيطان عن نشاطه الشيطاني؟ أو لماذا حكم عليه القرآن سلفاً بدخول النار مع العلم أنه لا يزال المجال مفتوحاً أمامه ليتوب؟ وغيرها من الأسئلة التي تفهمها بكل سهولة عندما تعتبر الآية تتحدّث معك أنت، وتخبرك عن حتمية دخولك أنت إلى النار إن كفرت، أو قتلت نفساً بريئة، أو زنيت، أو غششت... وقد لا تهتمّ! إلا إذا افترضت أن الشيطان إيمانه أقوى بناءً على تصوّرك أنه تحدّث معه تعالى، وهذا صحيح ولكنه حصل من وراء حجاب، وليس مباشرة كما قد تتصوّر، وكما نحن نؤمن به تعالى بدرجات مختلفة، فـالشيطان يؤمن به تعالى بدرجة من درجات الإيمان، ولكن ليس بالدرجة الكافية التي تجعله يقتنع بالتوقّف عن الوسوسة الشيطانية، وهي نفس درجة إيمان الإنسان الذي يقرأ القرآن ويرى أوامره تعالى المهدّدة بالخلود في النار من الكفر بدينه تعالى أو من قتل النفس البريئة أو من الهروب من القتال... ورغم ذلك يفعلها! فلا تفترض من عندك أي إيمان كامل للشيطان، وحتى عندما يقول بأنه يخاف الله تعالى، فهذا توصيفه هو لنفسه، وتحليله هو لوضعه الإيماني، مثل المنافق الذي يقول عن نفسه أنه مؤمن، وهو في الحقيقة مجرد منافق لم يدخل الإيمان إلى قلبه، فهو مثل الشيطان، والشيطان مثل المنافق إيمانيًّا.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ{18})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين، {اتَّقُوا اللَّهَ}، تجنّبوا غضبه وعقابه فلا تخالفوا كلامه، {وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ}، فلتوجّه اهتمامها العام كل نفس إلى، {مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ}، الذي قامت به من أعمال ستقابلها في الزمن القادم، كما نقول قدّم لي الطعام، فكل شخص يقوم بعمل ما جيّد أو سيّء فقد قدّم للزمن القادم شيئاً سيئاً أو شيئاً جيّداً، فالغد كلمة تعبّر عن عموم الزمن القادم، ونحن الآن في الدنيا وغداً "في زمن قادم" سنكون في الآخرة نتحاسب، فـليرَ كل واحد منكم ماذا قدّم لذلك الزمان، فما هي الأعمال التي قام بها وستكون أمامه في ذلك الزمان.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}، تجنّبوا غضبه وعقابه، وسبب تكرار الأمر بالتقوى: {إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}، فلديه أخبار كل شيء صدر منكم، فاتقوه لأنكم تحت المراقبة.

فقد تتقي الشرطة والمحكمة والعقاب... هنا في الدنيا، ولكن إن سنحت لك الفرصة لتقوم بجريمة ما بدون أن يعرف بها أحد، فقد تفكّر في فعلها، وهنا تأمرنا الآية بالاتقاء منه تعالى عبر طاعته، لأنه خالقنا إلهنا ربّنا وقد أمرنا بأمور عديدة، ولكن تكرّر الأمر بالتقوى لتنبهنا أننا لا يمكن الإفلات من مراقبته تعالى، لأنه تعالى خبير فلديه خبر بأي عمل نقوم به فلا يمكن الاختباء منه تعالى والقيام بمخالفة كلامه بالسرّ.

وكما ترى فـالكلام موجّه لعموم من أعلن اعتقاده والتزامه بهذا الدين، فهو لعموم مجتمع المسلمين، بما فيهم المنافقين، فظاهرهم إعلانهم التزامهم بهذا الدين، وباطنهم الكفر، فتحذّرهم لأنه تعالى لا يخفى عليه شيء، وهنا بالتحديد فالكلام موجّه لمن قام بمعارضة المسلمين وأبدى تحالفه مع أعدائهم.

وكما فهمنا أن اليوم هو مطلق أي زمن مهما كان طوله أو قصره ولكنه محدّد ببداية حدث أساسي وينتهي بانتهاء الحدث، فكذلك الغد، فهو مطلق أي زمن سيأتي بعد انتهاء أي يوم أو أيّام.

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ{19})
{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ}، فكان في بالهم واهتمامهم وبعدها لم يعودوا يستحضروه تعالى في بالهم واهتمامهم، {فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ}، فجعلهم تعالى لا يستحضرون في بالهم مصلحتهم الحقيقية، إذ أنا أمام معلومة تقول لي: تحضّر للحساب في يوم القيامة من الموت، فاتق الله تعالى وقدّم أعمالاً حسنة تلاقيها في غدك. فمن نسي الله تعالى فسينسى نفسه، فسينسى التحضير لأهم شيء لنفسه، فلن يهتم بالتحضير لنفسه في الآخرة.

فالحالة مثل شخص يقف على حافة حائط مرتفع ويعمل على قطاف ثمار شجرة ما، فينسى أنه واقف على حافة، ويخطو إلى الأمام ويقع... فتقريباً هذا ما تقوله الآية عنهم، فنسيان أنفسنا أننا في دار البلاء سيسبب لنا القيام بخطوات خارج أرضية الدين، وبالتالي السقوط في النار.

{أُولَٰئِكَ}، الناسون لله تعالى، {هُمُ الْفَاسِقُونَ}، هم الخارجون عن صراحة ما يقوله الدين الإلهي.

فهم منافقون وفاسقون في نفس الوقت، يظهر عليهم التدين ولكن من داخلهم لم يقتنعوا بالدين وهذا نفاق، وهناك أمور صريحة يقول عنها الدين وهم يخالفونها، فالحجاب واللحية والسبحة والذهاب الى المسجد واستعمال الكلمات الدينية في المجتمعات... لا يعني أنكم ستبقون موصوفين بأنكم مؤمنون إذا قمتم بعمل مخالف للدين، لا، فـأنتم فاسقون فتعرفون ما يقوله الدين وتخالفونه.

ويمكنك رؤية معنى هذا الكلام عندما تطبّقه على المسلمين الذين يتعاونون مع غير المسلمين ضدّ المسلمين، كالحالة التي ذكرتها السورة عن المنافقين من المسلمين المتعاونين مع منافقين من أهل الكتاب، وباسم الدين وبلباس ديني وشعارات دينية يقومون بمخالفة كلامه تعالى بقتال المسلمين الآخرين! كما رأينا على مرّ العصور بعد وفاة النبي محمّد(ع) ومروراً بعصرنا... ويدّعون أنهم مؤمنون! فهم منافقون يعتمدون على ستر مخالفتهم للدين بكلمات دينية! وهم فاسقون خارجون عن الدين ولا علاقة لهم به.

تلاحظ من هذه الآية أن من ذكر ربّه فسوف يجعله سبحانه دائم الذكر له، فترك سوء تعرفه، سيجعلك ترى السيئات الأخرى كريهة، لأنها تسبب غضبه تعالى، وهكذا تنتقل من كره سوء إلى كره الآخر حتى تصل إلى كره تامّ لكل السيئات، وحبّ تام لكل الصالحات... وبالعكس، فممارسة سوء تعلم بسوئه، فسيجعلك تحبّ هذا السوء أكثر فأكثر وتستصعب تركه، وبعدها ستحبّ السوء الذي بعده، وتتمرّس عليه، وتحبّ الذي بعده... وهكذا حتى تنساه تعالى ولا يعد في حساباتك تجنّب غضبه وعقابه، ولا تستطيع العودة بسبب كثرة التعلق والتمرّس في السيئات.

ننتبه للاصطلاح الدارج في ثقافتنا الدينية عن معنى النفاق والفسق، فقالوا أن الفسق هو الخروج عن شيء ديني علناً أمام الآخرين، والنفاق خروج بالسرّ عن الدين، وهذا كلام غير دقيق، إذِ النفاق هو عموم إظهار الإيمان مع كفر من الداخل، سواء فعل بالسرّ حراماً أو لم يفعل، والفسق هو عموم مخالفة ما صرّح به الدين، فهناك شيء معلوم أن الدين

يحرّمه، وهو يفعله عالماً بسوئه، فهو فاسق، وسواء فعله بالسرّ أو بالعلن فهو فاسق لأنه وصله بصراحة ما قاله الدين ولكنه فسق فخرج عنه. وللفسق درجات من مخالفة كل الأساسيات "فيكون كافراً" أو بعضها "فيكون مسلماً فاسقاً"، وللفسق أيضاً درجات من المخالفة بالكبائر أو بالصغائر من الذنوب.

بناءً عليه، المنافق والكافر يوصف بأنه فاسق أحياناً وذلك إذا فعل علناً شيئاً معلومةً حرمته.

(لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ{20})
{لَا يَسْتَوِي}، ليسوا بنفس القيمة والاعتبار، "لا يتساوى" {أَصْحَابُ النَّارِ}، المتصاحبون، الذين مع بعض في النار، {وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ}، والذين مع بعض في المكان الموصوف بروعة ما فيه من حدائق وبساتين ووسائل السعادة.

{أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ}، هم الحاصلون على شيء له قيمة عالية، فمن اتقى كان من الرفقة التي ستدخل إلى الجنّة، والجنّة هي شيء ممتاز حَصَلَ عليه، ففاز بالجنّة.

الكلام هنا عمّن اتّقاهُ تعالى فصار موصوفا بأنه من أهل الجنّة وفاز بها وفاز بالنجاة من النار، ومن نافق ففسق وصار موصوفا بأنه من أهل النار، وكما ترى فهما ليسا بنفس القيمة والاعتبار.

بعض الناس تغفل عن هذه النقطة، وبكل بساطة يقولون: ما الفرق بين المؤمن وغيره؟ لا شيء مهمٌّ، فهذا يصلّي ويصوم... وذاك الذي لا يصلّي فله أعمال حسنة أيضا، فيساعد الناس ويخترع الأدوية ويعمل في مساعدة المعوّقين... وهذا التبسيط التسخيفي للأمور لن يوصلهم إلى تغيير النتيجة في الآخرة، فالفرق كبير بين من اتقى وبين من نافق، وليس على ذوقكم ومزاجكم تحدّدون من هو الأفضل، فلو دقّقتم، ونظرتم فعلا لسلوك المؤمن الحقيقي، فسترون فرقا هائلا بينه وبين بقية الناس، أمّا إن كنتم تتخذون من الذين حولكم نماذج عن الإيمان، وبينهم منافقون وفاسقون ومؤمنون من الدرجة المنخفضة جدا، فأنتم مخطئون لأن القرآن لم يقل إنّ هؤلاء هم أصحاب الجنّة حتى تقارنوهم مع الآخرين، فالمؤمنون الحقيقيون هم أصحاب الجنة، فخذوا الأنبياء مثلا وقارنوهم بمن تريدون لتروا الفرق الهائل.

(لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ{21})
{لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ}، أنزلنا هذه المعلومات التي يمكن قراءتها "وفهمها" عليكم، وهي معلومات مقروءة تتضمّن تنبيهات واضحة وإنذارات شديدة ورغم ذلك هناك أناس ينافقون! فلو أنزلنا هذا الكلام على جبل، فصار بإمكان الجبل فهم هذا الكلام، {لَرَأَيْتَهُ}، لصار عندك صورة محدّدة له، كما نقول بالعامية: لكنت شفت. هذا الجبل، {خَاشِعاً}، شاعرا بفقدان القدرة على مواجهة التهديدات الإلهية بالعذاب، {مُتَصَدِّعاً}، فيه شقوق تخرج منها الصخور فتسبب له فقدان التماسك، نحن من نتيجة الخشوع نرتعد، وتمثّل الآية المشهد على جبل، من نتيجة الخشوع ارتعد الجبل فتصدّع أي صار فيه تشقّقات تقع منها الصخور، {مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ}، من الشعور بـخطر عقابه تعالى الذي يمكن تجنّبه بالإيمان وفعل الصالحات.

أمّا الناس فـنَزَلَ عليهم القرآن وبعضهم آمن، وبعضهم نافق وآخر فسق فلم يهتزّ ولم يهتمّ بالكلام الإلهي.

{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ}، تلك التشبيهات عن وضوح كلام القرآن، وعن أن مصدره إلهي ويجب أن يسبّب للناس الخشية، وأنه لو نزل على كومة حجارة صلبة صلدة لكانت ارتعدت من التهديدات الإلهية... والمثل عن خذلان إبليس للإنسان، وخذلان المنافقين لبعضهم البعض... {نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ}، يقولها تعالى للناس ليقيسوها على حالهم، {لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}، فمن المفروض ومن المتوقّع أن تجول تلك الأمثال في فكرهم ويستوعبوها، فيؤمنوا ويتقوا.

تذكّر دائما أنّ القرآن صرّح بوجود تواصل "بشكل ما" بينه تعالى وبين جميع الكائنات، فالسماوات والكواكب والنجوم والأرض والجبال والطير... كائنات يتواصل معها الإله سبحانه بطريقة تفوق قدرتنا على التصوّر، فتذكّر أنّ تكوينك من تراب وماء، والحيوانات الأليفة التي تتواصل معها وتفهم عليك بعض الأمور فهي أيضا من التراب والماء، والنبات الذي تسقيه وتغذّيه وتقلّمه... يستجيب لك فينمو ويعطي الورود والثمار... ويتفاعل مع مختلف الظروف من ضوء وعتمة... أيضا من تراب وماء، ويخبرنا القرآن عن عرضه تعالى للأمانة الإلهية على السماوات والأرض والجبال، هم لديهم وعي ما، والإله سبحانه يمكنه التعامل معهم، فمن ناحية التكوين أنت لا تختلف عن الجبل ولا عن الأرض، بل

فيهما عناصر "مواد" أكثر مما فيك، فهنا المثل حقيقي عن افتراض نزول هذه المعلومات على جبل ما، فلا تفهم الآية إنّها تقول: لو نزل هذا القرآن على جبل ولو فهمه الجبل لتصدّع من الخشية. لا، فالجبل كائن له وعي ما، ولو نزلت عليه هذه المعلومات بطريقة مناسبة لوعيه، لَتصدَّعَ فِعْلاً.

نعم الجبل جماد بالنسبة لنا، ككائن لا يفعل ولا يتفاعل بل ينفعل فقط، ولكن من ناحيته تعالى لكل مجموعة من المواد، لكل كتلة من المواد، ومهما كان نوع المواد سواء التي في عالمنا أو في بقية السماوات، الصغيرة منها لها وعي والكبيرة المتألفة من عدة كتل صغيرة أيضا لها وعي، ولا نقصد بالوعي أن يكون مماثلا لوعينا نحن البشر، فلا تحصر كل أنواع الوعي بما يمكنك فهمه والتعامل معه، فأشكال الحياة ليست محصورة بالكربونية ولا بالمائية... فهذه التي نحن نعرفها وهذا لا يعني أنّها كل شيء...

ما نقرأه في الآية 74 من سورة البقرة يعطيك معنى صريحا لوعي ما للحجارة ونحن البشر لا نفهمه، {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ}... أكرّر لك، الحجارة والجبال والأرض والشجر... كلها جمادات بالنسبة لنا، ولكنها بالنسبة للإله سبحانه ليست كذلك، ولديها وعي ما ليتواصل معها الإله، ونحن لا نفهم نوعية وعيها ولا كيفية التواصل معها...

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ{22})
لاحظ أنّ الآيات من هنا ليست منفصلة عن لبّ السورة، بل متصلة بصميمها، فنحن أمام أوامر إلهية لنؤمن بها ونُنفّذها، ونحن أمام من عارضها من منافقي المسلمين ومنافقي أهل الكتاب، ونحن أمام مسلمين عارضوا الأمر الإلهي وأعلنوا دعمهم "الكاذب" لمنافقي أهل الكتاب، ونحن أمام منافقي أهل الكتاب الذين اعتمدوا على دعم منافقي المسلمين لهم... ونحن أمام تشبيه حالتهم مع الذي اعتمد على دعم الشيطان له... وكما ترى فنحن أمام الله تعالى من جهة، وأمام غيره من جهة أخرى، فما هي صفاته تعالى التي تُحفّزنا على الوقوف إلى جهته تعالى؟ فمن هو سبحانه؟

{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز له "الله" هو وحده الإله فلا يوجد أحد غيره بصفات وقدرات فائقة، ولا يشاركه بمواصفات الألوهية أي أحد، ولا بربع مواصفاته الألوهية ولا نصفها ولا حتى بنفحة ولمسة ألوهية، لا، فقط وحده الله هو الإله.

أنا أرى وهو تعالى يرى، وأنا أسمع وأعلم وأفعل... وهو الله تعالى يسمع ويفعل... ولكن أنا أملك مواصفات وقدرات محدودة من مستواي الإنساني، أمّا هو تعالى فصفاته وقدراته إلهية تفوق مواصفاتي وقدراتي بشكل هائل، وتفوق مواصفات وقدرات كلّ المخلوقات، حتى أنّه بسبب الفرق الهائل الشاسع بينه تعالى وبين كلّ مخلوقاته، فتكاد مواصفاتنا وقدراتنا تكون لا شيء أمام صفاته تعالى الذي يرى كل شيء، فيرى ما يحصل وسيحصل في الدنيا والآخرة... فأنا أرى أمامي فقط، وحتى أنني لا أستوعب كل ما أراه أمامي فقدرتي على التركيز محصورة ببقعة صغيرة وعدد قليل جدا من الأشياء، فعيني ترى كلّ الصفحة، ولكنّي لا أستوعبها إلا بعد تمرير عيني وتركيزي على كل كلمة لوحدها في الصفحة، فالفرق هائل بين رؤيتي وبين رؤيته تعالى، فلا يوجد ولا أي صفة يتّصف بها تعالى من مستواه الإلهي ونحن أو أي كائن آخر يتّصف بها بنفس المستوى.

{عَالِمُ الْغَيْبِ}، من صفاته الإلهية الخاصة به أنّه تعالى يعلم كلّ ما غاب عن مخلوقاته، سواء غاب في الماضي، فلم نكن موجودين حين حصوله، أو غاب في الحاضر، فأنا الآن في غرفة ولا أعلم بما يجري الآن في الغرفة المجاورة لي، أو غائب في المستقبل، فلم يحصل بعد. وهو تعالى عالم {الشَّهَادَةِ}، فما يحصل الآن أمام أي كائن حاضر أمام أي حدث، فسبحانه يعلم به أيضا.

{هُوَ الرَّحْمَنُ}، الذي يعتني بعامّة مخلوقاته، {الرَّحِيمُ}، الذي يعتني بشكل خاص بالمؤمنين، فيحصلون على المغفرة وعلى تكفير الذنوب ومضاعفة الحسنات والنصر الإلهي... وهذه أمور لا يحصل عليها إلا المؤمنون لأن الآخرين بإرادتهم كفروا وفسقوا ونافقوا فخرجوا من تحت مظلة الرحمة الإلهية، فعامّة المخلوقات تحت صفته تعالى الرَّحْمَنِ

تحصل على العناية العامة حيث خلقهم تعالى في البيئة المناسبة لهم ويتيح لهم ما يحتاجونه... والذين يعصونه تعالى لن ينالوا العناية الخاصة بالمؤمنين والتي يستعمل لها القرآن وصفه تعالى بالرحيم.

تذكّر دائما أنّنا كبشر جعلَ سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرّف عليه سبحانه من ملاحظة أفعاله "آياته في خلقه" ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء... وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق بالقوّة الإلهية الفائقة عند الوقوع في الشدائد... فوضعنا كلمة نصف بها الكائن ذا الصفات والقدرات العالية جدا عن قدراتنا، وهي كلمة "إله" كوصف لذي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلّق به عند الوقوع في الورطات...

في الحقيقة، الكائن الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة، والذي ليس مخلوقا فهو الله سبحانه، وتساهل الناس في استعمال كلمة إله لتنطبق على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، فيطلقونها على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أنّ فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتَقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}...

القرآن يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهي، فيقوّم اللغة ككلّ، ويُقوِّم دقة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة "إله"، فيخبرنا أنّها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرّج في استعمالها.

انتبه جيدا، فالمشركون الناطقون باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... وغيرهم من أهل اللغات الأخرى استعملوا كلمة إله "بالعربية أو بما يرادفها من اللغات الأخرى" بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

قارنها مع كلمة "ربّ"، فأنا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... فهذه كلمة تتحمّل التدرّج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهي، فهي لا تتحمّل التدرّج، فهي حصرا له تعالى ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهي.

كلمة إله في حقيقة معناها لا تتحمّل التدرج لِيُوصَف بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، فحين يخبرك أنّه خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، وسبحانه وظّف الملائكة(ع) التي خلقها لتنفيذ بعض أوامره... وهكذا ترى بوضوح أنّه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، فماذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدّد له والمميّز "الله" جلّ جلاله فعل كل شيء، فما معنى ألوهية غيره! وهذا ملخّص مبسّط للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

أَلْفِتُ انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، فحصروا استعمال كلمة إله للإله الكبير، واستعملوا للآخرين وصف الربّ، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربّة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون: إله المطر وإله الحرب... وعلى كل حال فالقرآن رفض توصيف غيره تعالى بالألوهية والربوبية من مستوى إلهي، فالمشركون يعتقدون بوجود كائن "ربّ" مسيطر على المطر من مستوى إلهي وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم أنّه توصيف لألوهية أربابهم.

من ناحية ثانية لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، فيصير الهوى إلها كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}... فهي لا تشير لاعتقاد الشخص بأنّ هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لدين فيه ما يهواه، فعمليا هو يعبد هواه.

بالنسبة لأصل كلمة "الله" فهناك كلام كثير حولها، ويبدو من تتبّع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حاليا بالسامية... أنّ الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة "إله" ومنها جرى اشتقاق اسم العلم "الله"، وهذا الاسم لم يكن متداولا في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط فللآخرين نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، فكلمة إله واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات ما يسمّى بأصل اللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة الله من وصف الإله ومتى، وهل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قديما عبر الوحي، فالأرجح عندي "استذواقا" أنّه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك "استذواقا" لأنّ المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين بلا مستند صريح لتأكيد كلام ما، فهو بطبيعته يصير استذواقيا لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا ذات نفسي ففي سياق كلام آخر أستذوق أنّه تعالى هو سمّى نفسه، فليس من المعقول ولا من المقبول منك أن تطلب حسما من الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دليلا حاسما، ولا مقبول من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنّه الصحّ إلا اللهم إن قدّم دليلا دامغا، وهذا لا يبدو ممكنا في مسألتنا هذه.

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ{23})
{هُوَ اللَّهُ}، هو صاحب هذا الاسم المحدّد المميز، {الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، لا يوجد ولا أي كائن غيره موصوف بالألوهية، وحده تعالى يملك الصفات والقدرات الفائقة، {الْمَلِكُ}، الذي فعلا وفي الأساس يملك كلّ شيء، وحده خلق كل شيء، وعليه فهو تعالى يملك كلّ شيء ملكا حقيقيا، يملكني ويملك ما أملكه...

{الْقُدُّوسُ}، الذي له اعتبار ومكانة عالية بسبب الصفات الحسنى والقدرات الفائقة جدا التي يتميّز بها.

{السَّلَامُ}، بتعبير نتساهل فيه: الذي "لا ينوي" السوء أو العدائية أو الأذية لأحد، في الأساس خلقنا وصِرنا في ملكه وهو مكانته عالية جدا بسبب صفاته الفائقة، ولا يوجد لديه صفة تعبّر عن إرادته لفعل أي سوء لمخلوقاته، أو تعبّر عن قصده لأذيتهم، نحن باختيارنا لفعل السيئات نسبب لأنفسنا الضرر ونضع أنفسنا في موقف من يستحقّ العقاب.

{الْمُؤْمِنُ}، لم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإسلام أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها "مؤمنون..." في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، آمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كلاهما يعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

بناء عليه، ما نسميه نحن بالعقيدة هي بالنسبة له تعالى معلومات عنه وعن قراراته وأفعاله التي فعلها في الدنيا وسيفعلها في الآخرة، والإيمان بها بالنسبة لنا يكون على معنى التصديق بكونها صحيحة، والإيمان بها من ناحيته تعالى أنّها معلومات واضحة أمامه، مثلما نحن فينا قابلية تمييز الحقّ من الباطل لنؤمن بالحق أو نكذّب به، فكذلك سبحانه من حيث المبدأ لديه القدرة "مثلنا" على إنكار الحقّ، ولكنّه مؤمن، فقط ما هو واقع وصحيح وحقّ يعلن سبحانه عن صدقه.

هذا الكلام نفهمه بسهولة إذا تذكرنا الشفافية في كلامه تعالى في كل المسائل، في المعلومات عنه تعالى يتحدّث معنا بشفافية ليخبرنا أنّه لم يلمس أي أثر لأي كائن إلا نفسه ومخلوقاته، لا إله إلا هو، وتقرأ ذلك في الآية 18 من سورة يونس {وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}، وكذلك فيما قرّره وفعله تعالى فيما خلقه في الدنيا وصفه بالحقّ وبيّن لنا الحقّ فيه... وكذلك في كل تشريعاته لنا ذكر تبريراتها لنرى الصلاح فيها.

هنا وصف نفسه سبحانه بالمؤمن يريك بشفافية أنّ إلهك ليس متذبذبا في معلوماته أو مترددا أو شكّاكا أو يحتمل أو... بل مؤمن.

{الْمُهَيْمِنُ}، سلطته وسيطرته منتشرة على كلّ شيء، يمكنه تعالى إلغاء ما يريده غيره. فإذا حصل شيء ما مخالف لدينه تعالى فليس لأنهم خرجوا عن هيمنته بل لأنّه تركهم يفعلون ما يشاؤون وسيحاسبهم فيما بعد. وبالعمق، حتى ما فعلوه ومخالف لدينه تعالى فهو أيضا من تطبيقات هيمنته سبحانه، هو الذي منحهم حرية الإرادة وقرّر أن يتمتعوا بها حتى لو قرروا معصيته، هذه حالة هو سبحانه فرضها عليهم من هيمنته.

{الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... هو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره...

{الْجَبَّارُ}، لديه القدرة على إجبار الآخرين على فعل ما يريده سبحانه، وخذ مثلا اعتراضي على خلقه تعالى لي، لا يمكنني أن أفعل أي شيء، أنا واقع تحت صفته الجبار سبحانه، حتى لو قتلت نفسي، فأنا مجبور للعودة إلى الحياة في يوم القيامة، ومجبور على الخلود هناك في الجنّة أو النار. أمّا إذا عارضه تعالى أحد ما وعصاه فليس لأنّه جبار يملك قدرة قاهرة فوق قدرته تعالى، بل لأنّه تعالى تركه، وسيحاسبه عليها فيما بعد.

{الْمُتَكَبِّرُ}، كلّ البقية أصغر منه تعالى، كما يقول عن نفسه بأنّه لا إله إلا هو، فكذلك وصفه تعالى لنفسه بالمتكبر يعني أنّه فعلا الموصوف بالكبر والبقية صغار في كلّ شيء أمامه، في الصفات والقدرات هم صغار.

{سُبْحَانَ اللَّهِ}، هو لا يوصف بصفات ناقصة معيبة، وهو منزّه، {عَمَّا}، عن الذي، {يُشْرِكُونَ}، مَن جعل له تعالى شركاء في الألوهية فقد قلّل من قيمته تعالى، وكما ترى فسبحانه من جهة ومن جهة أخرى بقية الكائنات التي خلقها هو سبحانه، وكلّها مملوكة له ويسيطر عليها ويفعل بها ما يشاء، وحتى عندما يخالف كلامه تعالى كائن ما، فسبحانه الذي سمح له بالمخالفة حتى يحاسبه فيما بعد...

بأيّ شكل من الأشكال إذا قام أحد ما بوصف غيره تعالى بأي صفة ألوهية، فقد أشرك، جعل له تعالى شريكا في الألوهية، وهو تعالى منزّه عن هذا الوصف، لا إله إلا هو.

ضع في بالك أنّ الصفات الإلهية فائقة وسترى أنّها لا تتحمّل مشاركة اتّصاف اثنين بها، وتذكّر أنّ طبيعته تعالى مختلفة عن طبيعة كل أنواع المخلوقات، وبعيدة جدا حتى عن طبيعة الملائكة العالية، لدرجة أنّ الملائكة العالية لا يمكنها التواصل المباشر معه تعالى لأن ذلك مستحيل لا يمكن أن يحصل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين مخلوقاته، وهكذا سترى عمقا في أوصافه سبحانه التي وصف بها نفسه، وفي الآية التالية ستجد بعض الكلام عن الأسماء الإلهية الحسنى المتداولة بين الناس...

(هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{24})
{هُوَ اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد، {الْخَالِقُ}، الذي ركّب وألّف الأشياء، واستعمل القرآن هذه الكلمة لتدل على تركيب أي كائن أوجده تعالى، أو أوجده غيره، فالنبي عيسى(ع) خَلَقَ من الطين طيورا، ولكن أنا أرى وسبحانه وتعالى يرى، أمّا أنا فأرى وأعي بعض ما يقع أمام عيني، أمّا هو تعالى فيرى كلّ شيء "ويعي" كلّ ما يراه، فعلى مستواي الإنساني أرى، وعلى مستواه الإلهي يرى، وكذلك أنا أخلق فأركّب الأشياء على بعضها لتنتج كائنا ما، وهو تعالى يخلق فيركّب الأشياء من مستوى إلهي، فأنا لا علاقة لي بخصائص المواد ولا بأصل خلقها ولا بخلقتي مع فكر وقدرات تمكنني من خلق شيء، فأنا وما خلقت كلانا من خلقه تعالى.

ضع في بالك دائما أنّ كلمة خلق لا تعني أكثر من تركيب شيئين أو أشياء على بعضها، فأنا مركّب من المواد التي في التراب والمخلوطة مع الماء، من كالسيوم وكربون وهيدروجين... والجنّ مركّبون من نار، والملائكة (ع) كل ملاك له كيانه لوحده فهو مركّب من شيء ما... أمّا تعالى فليس مركّبا من أي شيء، وبتعابير الفلاسفة فتكوينه بسيط لا تركيب فيه، وهذا المعنى "القرآني" الجميل استنبطه الفلاسفة عنه تعالى، ولكن يبقى التعبير القرآني الوارد في الآية 11 من سورة الشورى أدق {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، وغالبية العلماء وقعوا في معنى كلمة "خلق" حين توسّعوا في معناها، فمرّة صارت تعني الإبداع، ومرة أخرى تعني الإبداع والإيجاد، ومرّة ثالثة تعني الفطرة... وهي بكل بساطة تعني: تركيب أو تأليف شيء أو شيئين أو أشياء لِتَصيرَ كائنا.

{الْبَارِئُ}، عموم ما حدث فهو تعالى أحدثه، فهو الذي جعل الأشياء تحصل وتحدث لتصير موجودة... فصارت الأشياء متحقّقة ولها كيان من فعله تعالى لها، والأحداث التي تقع فهو تعالى يجعلها تحدث. فصفة الخالق ناظرة إلى تركيب الكائنات من شيء لتصير، أمّا صفة البارئ فغير ناظرة إلى المواد التي تركبّت لتصير كائنات، بل ناظرة إلى المخلوق "والظاهرة" وصيرانه، فلنقل أنّي سيصير عندي ولد، فبرأه تعالى، فجعله يصير. فلنقل أنّ المؤمنين سينتصرون في

بدر، فبرأها تعالى فجعل هذه الحادثة تحصل. ولمزيد من التوسّع راجع دراسة الآية 22 من سورة الحديد {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}.

{الْمُصَوِّرُ}، الذي أعطى الصورة للمخلوقات المبروءة، المركبات ذات الكيان جعل لها صورة ولها هيئة ولها قوام ولها شكل ما، نحن الناس والحيوانات كلّنا مخلوقون مركبون من التراب، ولكن لكل واحد منّا كيان، ولكل واحد منّا صورة وهيئة، فلسنا نسخا متطابقة، لا من حيث الشكل ولا من حيث المضمون، وبقية الحيوانات تختلف عنّا بصورها...
وبعبارة أبسط مِنَ الصورة التي عليها الكائن تعرف أنّه حصان أو إنسان... ومن الصورة تعرف أي إنسان هذا...

{لَهُ}، لله تعالى، {الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}، أحسن الأسماء، ليس له تعالى اسم سيّء يعبّر عن صدور شيء سيّء منه، فليس لئيما، وليس كريها، وليس بخيلا... ففقط وفقط يوصف تعالى بالأسماء الحسنة.

{يُسَبِّحُ لَهُ}، يَقوم بتنزيهه عن الصفات المعيبة والناقصة، ويَصِفونه تعالى فقط بالأسماء الحسنى، {مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، هناك كائنات من كل الأنواع منتشرة في سبع سماوات وعلى الأرض التي تقابل كل سماء، فالملائكة المنتشرة في كل مكان تسبّحه تعالى، والمجرات والكواكب والنجوم والجبال والوديان والنبات والحيوان... كلّها تسبّحه تعالى، ونحن لا نفقه تسبيحها... أمّا الكائنات التي لها حريّة الإرادة والاختيار مع وجود الشهوة والغريزة فيها، مثلنا نحن البشر ومثل الجنّ، فهنا الآية تخبرنا كلانا بأنّنا إن لم نَتَماشَ مع كل ما في السماوات والأرض بتسبيحه تعالى فسنكون شَواذّاً نشازا.

{وَهُوَ الْعَزِيزُ}، سواء سبحتموه تعالى ونسبتم له الأسماء الحسنى أو كفرتم به أو أشركتم أو نسبتم له أسماء غير حسنة، فلن يتأثّر سبحانه لأنّه العزيز، أي المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره...

{الْحَكِيمُ}، وكلمة حكمة ومشتقاتها تشير لعموم ضبط الشيء على المطلوب: على الصوابية على الحقّ... وعلى نفس المعنى الأساسي نقول: أحكم الوثاق، حكم بالعدل، حكومة على الناس... وتفسير الحكمة بالأهداف والغايات السامية هو من تبعات تطبيق صوابية الحقّ، ووصفه تعالى بالحكيم يشير لصوابية نظرته في الأمور وأنّ قراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب فقراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول بأنّ أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنّه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فلا يفعل لغاية له سبحانه.

جَمْع صفتي العزيز والحكيم يعطيك معنى أنّه وبالرغم من عزّته المطلقة والتي لن تتأثر بأي شيء ومهما فعل، رغم ذلك فهو حكيم فلا يعبث. فقارنها مع ملك يهابه الناس، فلا يجد نفسه مضطرّاً للتفكير وسيحكم بالعبثية ولن يخاف... فسبحانه لن يتأثّر بأي شيء ولا بأي شكل، ورغم ذلك فأفعاله كلّها حكيمة.

صار واضحا لنا من هو إلهنا، وهكذا نفهم جانبا من كلام القرآن عنّا حين يعدنا بعذاب شديد بسبب معصية الإله الذي صفاته حسنى وقدراته فائقة، ونفهم الفخر والعزة للمؤمنين المنتمين لإله عزيز حكيم.

لاحظ أنّه سبحانه له اسم علم "على ما يبدو" مشتق من الألوهية وهو "الله"، فيكون الاسم "الله" مشتقّاً من صفة "الألوهية"، وستتساءل عن الفرق بين الاسم والصفة بالنسبة لله تعالى، فإذا انتبهت أنّه تعالى سمح لك بمناداته بصفاته "يا رحمان، يا كريم، يا رازق، يا غافر..." فالمناداة تجعل الصفة اسماً حقيقيا له تعالى، لأنّه فعلا عنده صفة الكرم وأنت تناديه بهذه الصفة فتصير الصفة اسماً حقيقيا له تعالى، فنحن نسمّي شخصا ما: كريم، عادل، سلام... فهذا اسم له فقط، وأمّا إن كان حامل هذا الاسم فعلا كريم عادل سلام... فعندها يكون الاسم صفة له في نفس الوقت، وهكذا بَدا لك واضحا الفرق بين نسبة الاسم والصفة للإله سبحانه وللبشر، فربّك سبحانه لديه كل الصفات الحسنة، وكلها تصير أسماء حقيقية له تعالى عندما تناديه بها، وليس هناك أي صفة سيّئة فيه تعالى حتى يصير له اسم سيّء، بل كل صفاته تعالى من أحسن الصفات وهي نفسها أسماؤه التي من أحسن الأسماء.

يعني في اللغة هناك أسماء مشتقة من صفات، كيعقوب الذي تسمّى بوصف عقبه "سيأتي بعد" إسحاق، وهذا الحال بغض النظر عن أصل وضع الكلمات تاريخيّاً في زمن أول اختراع البشر للغة، وبغض النظر عن صَيْرورة أسماء

الأشياء صفة أوسع لتشمل أشياء أخرى لها نفس الصفة، كاليد، فيدي من لحم وعظم، ويد الرجل الآلي من معدن، ويده تعالى ليست وصفا لعضو بل لما يفعل به تعالى...

أسماؤه تعالى هي أوصاف له، فهي أسماء مشتقة من صفات، وكلامه تعالى بتسمية نفسه ليس مثل تساهلنا نحن في تسمية أولادنا بصفات ليست فيهم، فنسمّي ثريّا ونجمة وآسيا... وعفيفة وطاهرة وساجدة... وكريم وأسد وغضنفر وحسام... فهذه مجرد أسماء ليس بالضرورة اتّصاف الناس بها، أمّا سبحانه فأسماؤه أوصاف حقيقية له.

ما هو منتشر بين الناس عن الأسماء التسعة والتسعين له تعالى بناء على ما نسبوه من كلام للرسول (ع)، فلن نبحث هنا إن كان كلامهم فعلا مستنداً إلى كلام صدر عن الرسول أو لفّقوه للرسول، سواء عن قوله (ع) بما يعطي معنى حصرية الأسماء بتسع وتسعين، "وبعدها الاسم الاعظم فتصير مئة كما يقولون"، أو بما يعطي معنى الكثير من الأسماء الحسنى وتحفيزاً للتفكير بها... فبغضّ النظر عن صحة الأحاديث أو صحة الاستنباط منها، فهم لم يتوافقوا على الأسماء التسعة والتسعين! فستجد في الكتب العديد من الصيغ التي في بعضها ما لا تجده في الأخرى من أسماء.

نسأل إن كان كلام القرآن عن أسماء حسنى له تعالى يشمل اشتقاق أوصاف من أفعال العقاب وموقفه تعالى من الكافرين، فيكون لدينا صفات المعاقب الغضوب الكاره الكائد اللاعن... بالبداهة ستقول بأنّها ليست أسماء حسنى حتى لو كانت أوصافا لأفعاله تعالى كنتيجة للسوء من الآخرين، وهذا بناء على أنّه تعالى الحميد دائما، فعذابه للمجرمين عمل حميد... وهكذا ترى أنّ ما يتحدث عنه القرآن بالأسماء الحسنى له تعالى يقصد الوجه الآخر غير موقفه ومعاملته تعالى مع المجرمين... وهذا واضح مما تقوله الآيات التي ذكرت جملة "الأسماء الحسنى" والتي وردت في الآية 180 من سورة الأعراف {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، وفي الآية 110 من سورة الإسراء {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}... والآية 8 من سورة طه {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}، والآية هنا {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}... فسياق الآيات يشير إلى توجهك نحوه تعالى بذكر أسمائه كإعلان منك عن تعرّفك عليه تعالى بهذه الأسماء الحسنى، أو تعريف منه تعالى لك بأنّ أسماءه سبحانه حسنى.

على أبحاثهم عن الأسماء الحسنى تعليقات عديدة لا نفع في ذكرها لأنّ كل الموضوع في النهاية لا يعدو كونه كلاما ثقافيا تراثيا، ويجب حصره بالعديد من التنبيهات وإلا فالنتائج سيئة، فها قد أحصوا لنا تسعةً وتسعين اسماً لله تعالى، بل وهناك عدة لوائح بذلك، ومنها محصورة بما ذكره القرآن... فلنقل أنّك قرأتها كلّها وحفظتها غيباً فهل هذا ضمان لك لتدخل الجنّة كما ورد في أحاديثهم؟ لا، فالتقاطع بين الحديث والقرآن يشير إلى معرفتك بمعنى تلك الأسماء والإيمان العميق بها، وهذا طريق يوصل إلى الجنّة، وهكذا يمكن حمل الحديث المنسوب للنبي(ع) بدخول الجنّة للذي يحصي 99 اسماً له تعالى على معنى فهم الكثير من أسمائه تعالى سيكون طريقاً يؤدّي إلى الجنّة، هذا إن صدقت نسبة الكلام للرسول.

سورة الممتحنة (60) ص 549
قديماً كان بعضهم يُسَمِّيها سورة المودّة.

موضوعها حول حكم تعامل المؤمنين الحقيقيين مع الكفّار بنوعيهم المعلنين للعداء وغير معلني العداء، توجّه السورة كلامها لمؤمن حقيقي لم ينتبه للحكم الإلهي في التعامل مع الكفّار المعادين، وتبيّن له الفرق بين المعادين وغير المعادين.

ضُرِبَ المثل فيها بالنبي إبراهيم(ع) والذين معه لنتعلّم منهم كيف يكون موقف المؤمنين من الكافرين...

السورة نازلة دفعة واحدة بلا شك، ولم تنزل لحالة مفردة حدثت في تاريخ المسلمين الأوائل، بل هي جارية في كل زمان تتحقق فيه ظروف مشابهة... لا تعني لك هذه السورة شيئا للوهلة الأولى ولكن إذا قارنتها مع ما نراه في عصرنا من تعامل بعض المسلمين مع كفار معادين للمؤمنين، أو تعاونهم مع أهل كتاب معادين ومعتدين فعليا على مسلمين، لفهمت السورة بشكل واضح. طبعا مع الانتباه دائما إلى أنّ السورة توجّه كلامها لمؤمن حقيقي لم يكن يعرف حكمه تعالى في التعامل مع الكفّار المعادين، على أساس أنّه إنْ علم بما يقوله تعالى فسيلتزم به.

يبدو أنّ السورة نازلة في أوائل هجرة الرسول(ع) إلى مدينة يثرب، حيث كانت الأمور لا تزال متشابكة عند بعض من آمن ولم يهاجر من أهل مكة... وترى فيها تركيزا على حالة الهجرة النسوية... كعادة القرآن في الاهتمام بهن لحمايتهن من أي تشريع استضعافي لهنّ...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ{1})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين وبناء عليه، {لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ}، الذي يعمل بشكل مضاد لدينه تعالى ويعمل على ما هو مضاد لمصلحتكم لأنكم مؤمنون، فلا تتخذوهم أولياء، لا تعتبروا أنفسكم تابعين لهم، فلو لمرة واحدة سمعتم كلمة من واحد منهم واقتنعتم بها وهي مخالفة لكلامه تعالى صار ذلك الشخص وليّكم، فصرتم تابعين له، ولو لمرة واحدة فعلتم ذلك، يُصَنِّفك سبحانه أنك واليت غيره.

{تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ}، تعبّرون للأعداء عن رغبتكم بقيامكم بالأمور على خاطرهم وما فيه سعادتهم...

مَن أعلن إيمانه لم يقصد بذلك أن يصير الكفّار أعداءه، بل قصد السير على طريق الهدى وهو نفسه السبيل الإلهي، ومن تبعات إعلانه لإيمانه حصول حالة عداء مع الذين يعادون الهدى والصلاح وبالتالي هم معادون للدين الإلهي، فتنبهه الآية إلى أنّه حتى لو لَمْ يقصد معاداة الآخرين ففعليا هم معادون لدينه وصاروا أعداء له، فلا يتعامى أو يتغابى أو يتهاون أو يتغافل عن هذه الحقيقة ويعبّر عن مودّته للمعادين له ولإيمانه.

{وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ}، أنكروا الشيء الصحيح الذي وصلكم من ربّكم سبحانه، فلو كان إيمانكم بشيء باطل وعادوكم، لكان يجب عليكم أنتم إعادة حساباتكم، ولكن أنتم على الحقّ والهدى والصلاح ولا معنى لترككم لذلك حتى يَوَدُّوكُم، بل هم يجب عليهم ترك الباطل حتى تودّوهم أنتم.

{يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ}، حامل رسالة الحق منه تعالى، ومن مشى معه(ع)، أخرجوهم من ديارهم بالضغط عليهم ليتركوا الإيمان، وتحت التهديد والقتل والأذية والمقاطعة... وهذا الإخراج هو من نتائج عداوتهم لكم، {أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ}، كان الإخراج الناتج عن العداوة بسبب إعلانكم الاعتقاد بصاحب الاسم المحدّد المميّز الله كمسؤول عنكم من مستوى إلهي، وبسبب كفركم بأي إله آخر.

{إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي}، فلا تودّوهم في حالة قمتم بالعمل المجهد الشاقّ في مسلك على أوامره تعالى، وهنا الكلام بالجهاد عن الخروج لقتال الكفّار بناء على معاداتهم للمؤمنين، {وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي}، خرجتم طلبا لموافقته تعالى على أعمالكم، فأنتم لستم معتدين ولا باغين ولا تريدون علوا في الأرض بالفساد... بل تريدون الدفاع عن أنفسكم وهذا ما يرضى عنه تعالى.

ما معنى مودّتكم للكفّار المعادين لكم مع العلم أنّ الأمور وصلت لدرجة حصول قتال بينكم؟

كما سترى من بقية السورة، لا يمنع تعالى المؤمنين من مودّة من كفر إذا لم يعلن العداوة لمن آمن، فهنا كما ترى الآية تنبّه المؤمن أن لا يعلن المودّة أو الموالاة لمن صار بينه وبينهم عداوة وخروج للقتال، وأن لا يمدّ خيوط سريّة أو علنية بينه وبينهم، وحتى لو لم يقصد ترك الإيمان وكان يعمل على حسابات المصالح الدنيوية، كمن يقول للعدو: صحيح أن جماعتي وجماعتكم في حالة حرب ولكني أنا شخصيا ليس عندي شيء ضدّكم وأرغب بالتعامل السلمي معكم... وهذا شيء تراه الآن كمثال عن تعاون بعض المسلمين الذين لم ينووا ترك انتمائهم للإسلام وفي نفس الوقت يقومون بعلاقات تجارية واجتماعية وثقافية مع جماعات معادية علنا للمسلمين!

ننتبه مرّة ثانية ولا نستغرب وجود مودّة وموالاة مع عدو، فالمؤمن لم يقصد العداوة للكفّار حين آمن، بل العداوة كانت نتيجة عداوة الآخرين للمؤمن، آمَنَ وبقي على مودّته وموالاته لمن كان يودّهم ويواليهم، فهم أهله أو أصدقاؤه... ممنوع عليه موالاتهم في أمور الدين والعقيدة والسلوك الديني، طبعا لأن دينهم فيه فساد، أمّا في شؤون الحياة العادية فلا مشكلة في موالاتهم بشرط أن لا يكونوا من المعادين.

...{لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ} ... وقد خرجتم لقتالهم... {تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ}، بالسرّ أو بأي طريقة مخفية توصلون لهم أنكم لا تزالون ترغبون بالتواصل السلمي معهم، {وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ}، ما سترتموه وَلَمْ تظهروه للآخرين من المؤمنين فسبحانه يعلمه، {وَمَا أَعْلَنتُمْ}، يَعْلَمُ تعالى ما قلتموه بالعلن أمام الآخرين عن مودّتكم وموالاتكم للأعداء.

{وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ}، من يفعل المودّة والموالاة للأعداء، سواء بالسرّ أو بالعلن، {فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}، سبيلُه ومسلكُه "عقائده وسلوكه" لم يكن متناسبا "سويا" مع السبيل الإلهي، اتَّبَعَ سبيلا ملتويا.

بقي شيء، دَرَجَ في بعض أدبياتنا شيء ضبابي اسمه القتال في سبيل الله تعالى على أساس أننا نحن لا مصلحة لنا بالقتال والقتال فقط لأجله تعالى، بينما كلام القرآن بالعكس، سمّى تعالى القتال في سبيله لأجل مصالحنا، فنحن لم نؤمن بهذا الدين إلّا لأنه دين حقّ وصلاح، ومفردات هذا الكلام تشريعات وسلوكيات تعطي كل واحد منا حقّه من الآخرين ومن الحكومة... والآخرون الذين لم يؤمنوا لا يريدون تطبيق شرائع وقوانين الحقّ "التي درج تسميتها بالعدالة"، ويفرضون تشريعاتهم الظالمة، ويعتدون... وهذا سبب حصول الخلاف، وإن رفضت التماشي معهم فهم ينتقلون لحالة قتالك لفرض ما يريدونه عليك، أو لمجرد الاعتداء لسلبك حياتك ومالك وأرضك...

في بعض الأدبيات صار معيبا وليس دينيا أن تقول عن قتال الأعداء أنه للدفاع عن أرضك، بل يجب أن تقول في سبيل الله وتدّعي أن الأرض والأموال والأنفس لا تهمّك، وهذا غير صحيح، أسباب حصول القتال هي أنك في جانب الحقّ بطرفيه الإيماني والعمل الصالح، والآخرون لا أهمية لإيمانهم بالنسبة لك فحسابهم على ربّهم سبحانه كما سترى من هذه السورة هنا، ولكن مشكلتك معهم هي عملهم السيّء بالاعتداء عليك وفرضهم ذلك عليك وصولا إلى استعدادهم لقتالك، وسبحانه يضفي صفة الوصف بسبيله على دفاعك عن نفسك ومصالحك.

لن تجد في القرآن كلاما صريح عن أمر المؤمنين بالقتال دفاعا عن مصالحهم إن لم يكن عدوهم يعتدي عليهم بسبب تدينهم، بل كل كلام القرآن عن معادين للمؤمنين ولمصالحهم و... بسبب الإيمان. سبب ذلك أن القرآن كتاب إلهي وتركيزه على الإيمان وما يتعلق به، أمّا الخلافات بين الجماعات على الأرض أو على مواردها أو أي شيء لا علاقة له بالإيمان، فهو خلاف لا يأخذ صبغة دينية، بل يأخذ صبغة الدفاع والمطالبة بالحقوق، التي قد يقبل بتركها المؤمنون لصالح المعتدي مقابل السلم، أو قد يرفضون... وفي هكذا حالة "حالة الخلاف على شيء ليس له علاقة بالإيمان"، لا تنطبق الأحكام التي يتحدث عنها القرآن بالحرف، بل تحتاج لتعديلات لفهم متى يجوز قتال الآخرين...

بعبارة أخرى، الأمر بقتال المعادين للمؤمنين، ليس لجعلهم مؤمنين، وليس لأنهم كافرين، بل لأنهم اعتدوا على المؤمنين.

وسوف يأتيك في بقية السورة كلام عن المنع من التعرض للآخرين بسبب إيمانهم حتى لو كانوا كفارا طالما هم مسالمون.

ترى هنا كلام الآية عن عداوة الآخرين للمؤمنين لدرجة مقاتلتهم ولذلك أذن سبحانه للمؤمنين قتالهم، راجِع كل القرآن وسترى تبريرا لكل تشريع، وفي مسألة القتال سترى دائما ذكر الأسباب التبريرية، فهم قاتلوا المؤمنين وهجّروهم... وسترى مثالا عن ذلك في الآية التالية.

(إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ{2})
سبب الأمر الإلهي بالمنع عن مودة وموالاة الكفّار المعادين للمؤمنين:

{إِن يَثْقَفُوكُمْ}، إذا استطاع الكافرون المعلنون العداوة لكم أن يطالوكم فصرتم في متناول يدهم، {يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً}، لن يتعاملوا معكم بطريقة سلمية، {وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ}، الترجمة العملية لمعاداتهم لكم تكون عبر مدّ يدهم عليكم فيقتلوكم أو يجرحوكم أو يضربوكم... {وَأَلْسِنَتَهُم}، يمدّوا لسانهم عليكم، فيهينوكم ويشتموكم ويسبّوكم... {وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ}، لديهم رغبة أن تفعلوا شَيْئاً على خاطرهم وهو أن تنكروا الدين الإلهي لتصيروا مثلهم فاسدين.

ما معنى مودّتهم وهذه صفتهم من العداوة لكم؟

ضع في بالك دائما أَنَّ القرآن كلام من النظرة الإلهية لنا، فَعِبارةُ {فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} التي كانت أَمْراً منه تعالى لبني إسرائيل حين عبد قسم منهم العجل كما ورد في الآية 54 من سورة البقرة {... ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ...}، كانت تعني أن يقوم المؤمنون بقتل عبدة العجل، وَاستعمل القرآن ما يعبّر عن نظرته تعالى لنا كلّنا كشيء واحد، مثلما تقول عن جماعة تتقاتل: قتلوا بعضهم. وحين تنظر لجماعة تعتبرها كتلة واحدة ستقول بالعامية: قتلوا حالن، يقتلون أنفسهم... وكما سترى من بقية عبارات هذه السورة أَنَّها من نظرة إلهية عمومية لنا كلّنا، فحتى لو كان واحد من المسلمين هو الذي ودّ أو والى الكفّار المعادين، فَيَعْتَبِرُهُ تعالى منّا نحن كلّنا، ويوجّه تعالى خطابه لنا كلّنا، ضع هذا في بالك حين تصل إلى الآيات التي ستتحدّث عن مؤمنات هاجرن وعن زوجات قَرَّرْنَ البقاء كافرات وَآمنَ أزواجهن... فهناك يجب قراءة الكلمات التي بالجمع، مؤمنات، زوجاتكم... من النظرة الإلهية لنا كلنا، فهي تشير للفرد وللجماعة.

(لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {3})

{لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ}، أقرباؤكم "من الولادة لا من المصاهرة" كَالْإِخْوَةِ والأعمام والأخوال... وأبناؤهم، {وَلَا أَوْلَادُكُمْ}، لن ينفعكم الذين توالدوا منكم "خرجوا من جسدكم". هذا الدين الإلهي يأمرك بصلة الأرحام ويجعل عليها حسنات، ولكن هؤلاء كفّار معادون، حتى لو كانوا من أقاربكم بل من أولادكم فما معنى الصلة معهم إن كانوا معادين لكم طالما أنتم مؤمنون؟ ما هي منفعتك كمؤمن بذلك؟ لن تكسب الحسنات من صلة ومودّة كافر معاد.

{يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ}، في زمن القيام من الموت، هنا في الدنيا بينك وبينهم شيء يجمعكم، أنتم مجمولون مع بعض، وهم أقاربك وأولادك... أمّا في الْآخِرَةِ فأنت مفصول عنهم، أنت مؤمن وهم كفّار، وأنت في جهة وهم في جهة أخرى، وهناك لن تهتمّ بهم ولن تنفعهم ولا هم سينفعوك ولن يضرّوك، فمن الآن اعتبر نفسك مَفْصُولاً عنهم ولا منفعة لك في صلتهم.

الآيات هنا لم تفترض أَنَّ المؤمن الذي ودّ الكفّار المعادين هو قاصد للخروج عن الدين الإلهي، بل لا تزال تعتبره مُؤْمِناً ضلّ السبيل، تحذّره وتفهمه ما يجري معه وحوله حتى لا يتعامى أو يتغابى... لا يعتمد على نواياه الطيبة تُجَاهَ الناس، ولينتبه لآخرته، هناك لن تنفعه ولن تنفعهم القرابة بينه وبينهم، ليفعل الآن ما ينفعه في آخرته، لا تزال السورة تعتبره سيقف مع المؤمنين في يوم القيامة، هو ليس مُنَافِقاً ولا فَاسِقاً، ولكنه لم يفهم أَنَّ نيّته هو حين آمن والتي لم تتضمّن العداوة للآخرين، فهذه النية عنده هو فقط، وَأَمَّا الْآخَرُونَ فهناك من عاداه لِأَنَّهُ مؤمن.

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}، صورة أعمالكم يدركها تعالى ويعي معناها، ليس مثل كاميرا المراقبة التي تسجّل الصوت والصورة ولكنها لا تفهم ما يجري، أنتم تحت المراقبة الإلهية.

أكرّر لك لتلاحظ الآيات هنا وما سيليها أَنَّها "لم ولن" تعامل المؤمن الذي ودّ الكفّار المعادين على أساس أَنَّهُ خارج عن الدين الإلهي، السورة تفترض فيه حسن النية وتنبهه لمخاطر ما قام به، وعلى أساس أَنَّهُ سيتوقف عن مودّة الكفّار المعادين بعد علمه بجدية معارضتهم لإيمانه، ضع هذا في بالك دائما أَنَّ من تَتَحَدَّثُ معه سورتنا هذه ليس مُنَافِقاً ولا فَاسِقاً، هناك سور عديدة أخرى تَتَحَدَّثُ بحدّة وبنبرة تهديد مع الذين يودّون ويوالون الكفّار المعادين، ووصفتهم بالنفاق والفسق والكفر، ووعدتهم بعذاب أليم خَالِداً في جهنّم... أمّا سورتنا هنا فمختلفة تماما لأنها تتحدّث مع شخص دخل الإيمان فعلا إلى قلبه، واقتنع به تماما، ولكنه لم يستطع مقاومة شعور المودّة الذي كان عنده لأشخاص كفّار، لأن قلبه الطيّب لم يفهم معنى عداوتهم له وللمسلمين، وسترى بعد قليل أَنَّ السورة لم تمنعه من مودّة كلّ الكفّار بل منعته فقط وفقط من مودّة الكفّار المعلنين العداوة للمؤمنين.

لا يبرّر أحد ما خيانته للمسلمين بِأَنَّهُ مُؤْمِنٌ من أصحاب النوايا الحسنة، لا، بعد تنبيهه على خطئه وبكل صراحة في هذه السورة وفي غيرها، يجب عليه التوقّف عن مودّة وموالاة أعداء المسلمين، وإلا لصار مُنَافِقاً فَاسِقاً، السورة هنا افترضت أَنَّهُ لا يعلم بمخالفة تصرفاته للحقّ، أمّا بعد أن نبّهته وحذّرته، فحسابه عسير إن لم يغير سلوكه.

بقي شيء، الناس طباعهم مختلفة، ولكن تحت عنوان الإيمان الحقيقي بدينه تعالى، من المفروض أن يكون القاسم المشترك بين المؤمنين هو الرحمة، وأن يكونوا مسالمين محبين للخير للآخرين، ومن هذه النظرة عليك أن ترى كلام

السورة هنا، هي لا تتحدث عن أشخاص لا يهمهم الحقّ من الباطل وَقَدْ يَكُونُونَ مجرمين بلا قيود أَخْلَاقِيَّةٍ أو إنسانية... بل تتحدّث عن مؤمن بدينه تعالى، هذا من المفروض أن يكون قَلْبُهُ طَيِّبٌ كما نقول، ومن الطبيعي أَلَّا يشعر بالعداوة للآخرين، ومن الطبيعي أَلَّا يفهم معنى عداوة الآخرين له لأنه يريد لهم الخير... وهذا هو النموذج الذي تتحدث عنه السورة لتعلّمه وتعرّفه لينتبه من طيبة قلبه، وليتعامل بواقعية مع الأمور.

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ {4})
كانت لكم، أيها المؤمنون، أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه، وهم النبي لوط(ع) بحسب ما ورد في الآية 26 من سورة العنكبوت {فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، وزوجة النبي إبراهيم(ع) سارة، بحسب ما هو مشهور في التاريخ، أمّا الكلام عن آخرين غيرهم آمنوا فلا دليل تاريخي ثابت عليه، وهؤلاء النبيان إبراهيم ولوط وسارة عليهم السلام حصل معهم شيء مشابه لما حصل مع المؤمنين الذين نزل القرآن في زمنهم وتتحدّث عنهم السورة كنموذج، حيث لديهم أقرباء من الكفّار المعادين للمؤمنين، وحاولوا حرق النبي إبراهيم(ع)، والنبي إبراهيم(ع) والذين معه تصرّفوا بشكل جيّد مع الحالة التي تشبه حالتكم، وعليكم أن تتأسّوا بهم فتقيسوا ما حصل معهم وما فعلوه، مع حالتكم، فتفعلوا ما فعلوه وهم في ظروف مشابهة لظروفكم.

{إِذْ قَالُوا}، النبي إبراهيم(ع) والذين معه، {لِقَوْمِهِمْ}، للناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الذين آمنوا:

{إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ}، لا علاقة ولا ارتباط لنا بكم، وبُرَآءُ، {مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ}، مثلما نقول: ذهبتم من دوني. وتقصد أنهم ذهبوا مع غيرك، وهؤلاء القوم تركوا توحيد الله تعالى وتصرّفوا على أساس أنهم عبيد ومفروض منهم طاعة غيره تعالى، والنبي إبراهيم(ع) وجماعته يعلنون أنهم لا علاقة ولا ارتباط بينهم وبين تلك الآلهة التي عبدها قومهم.

{كَفَرْنَا بِكُمْ}، أنكرناكم، وأنتم أقاربنا من الرحم أو من المصاهرة أو معارفنا أو جيراننا... وكل ذلك كفرنا به: أنكرناه ولم يعد يعنينا، {وَبَدَا}، ظَهَرَ، {بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ}، ولم نعد نريد التواصل والتعامل معكم بشكل سلمي، وبدا بيننا وبينكم، {وَالْبَغْضَاءُ}، الشعور بِكُرْهِ التعاطي والتعامل معكم، {أَبَدًا}، مهما جاء من زمن، {حَتَّى تُؤْمِنُوا}، حتى تعلنوا اعتقادكم، {بِاللَّهِ} تعالى {وَحْدَهُ}، وتعتقدوا أنه لا إله آخر معه تعالى، وعندها نعكس العداوة بِالْأُلْفَةِ والبغض بالمودة.

كان لكم أسوة بما فعله النبي إبراهيم(ع) وجماعته، {إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ}، سأطلب لك من الله تعالى المسامحة على ذنوبك من شركك به، {وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ}، أنا لا أملك أي نوع من القدرة أو من الحقّ "فيتو" حتى أفرض عليه تعالى أن يغفر لك، ولست أضمن لك أن يغفر لك ولكني سأحاول.

ننتبه جيدا، إذ إن النبي إبراهيم(ع) وعد أباه الكافر بالاستغفار قبل علمه(ع) أنه عدو لله تعالى، ونقل لنا القرآن في الآية 114 من سورة التوبة أنه فيما بعد حين تبيّن للنبي إبراهيم(ع) أن أباه عدو لله تعالى تَبَرَّأَ (ع) منه، وأن الاستغفار كان بسبب وعد سابق من النبي إبراهيم(ع) لأبيه الكافر {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ}، إذن، السورة بشكل واضح تتوجّه بكلامها لمؤمن حقيقي لم يكن يعلم أن المودّة للكفّار المعادين ممنوعة، وإذا سمع بأن النبي إبراهيم (ع) اسْتَغْفَرَ لأبيه، وهذا تصرّف يشير لمودّته (ع) لأبيه الكافر، فلا يقل أنه سيتأسّى بالنبي إبراهيم(ع) ويودّ الكفّار، لا، لأن ذلك الاستغفار حصل عن وعد منه (ع) لأبيه الكافر، وحصل قبل أن يتبيّن أن أباه عدو لله تعالى...

تلك الجماعة، إبراهيم(ع) ولوط(ع) وسارة، كان قولهم: {رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا}، اعتقدنا أنك ستسيّر أمورنا بما هو مناسب، {وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا}، ليس لدينا أفكار ومشاعر خاصة بنا منفصلة عن دينك، وما تقوله أنت يا ربّ هو منهاجنا، ولذلك عادينا أقرباءنا وقومنا.

{وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}، آخر ما تصل إليه أمورنا سيكون إليك، وسنقف يوم القيامة من الموت بين يديك لتحاسبنا، لأننا نعتقد بذلك ولهذا لن نقوم بأي عمل لا ترضى عنه وسنعادي الكفّار. وكما ترى نَبَّهَتْنَا الآية السابقة من الآخرة وحسابها إن

والينا أو وددنا كافرا معاديا، وهنا تعيد السورة التنبيه ولكن هذه المرة عن لسان النموذج إبراهيم(ع) المؤمن بأن المصير إليه تعالى.

عليك بالانتباه من هالة القداسة المنسوجة في بالك عن إبراهيم النبي الرسول، بسبب هذه الهالة ربما لا تستطيع رؤية ما تقصده السورة بوضوح، إذ إن إبراهيم والذين آمنوا معه هم مثلك، أشخاص عاديون تعرّضوا لمواقف صعبة كالتي تَمُرَّ بها أنت، وتذكرهم لك السورة لترى كيف يتصرف المستوى الراقي من الإيمان في هكذا مواقف. إن كان في بالك صورةٌ مضخمةٌ عن إبراهيم أنّه نبي ورسول ومؤيد منه تعالى وينزل عليه الوحي ومعصوم وترافقه الملائكة... فلا معنى لاختيار الآية له لجعله أسوة لك، لو كان صحيحا تصوّرك الضخم عنه لكانت الأمور بالنسبة له أسهل وما معنى ضربه لك كنموذج لتتأسّى به؟

هكذا ترى معنى مختلفا لكل القرآن حين ذكر الأنبياء، إذ إنهم بالأساس مثلك ومثلي تماما ولكنهم تميّزوا باختياراتهم دائما للحقّ وتركهم للباطل... ولذلك ميّزهم سبحانه بالتواصل معهم، والذين من حين ما كانوا صغارا ميّزهم سبحانه كعيسى ويحيى وموسى، فهذا بسبب علمه سبحانه بالغيب بما سيكونون عليه حين يكبرون.

هناك خلاف في الروايات والتفاسير حول هذا الشخص الذي يناديه النبي إبراهيم(ع) في القرآن: أبي. بعضهم قالوا: هو أبوه الحقيقي "والده الذي وَلَدَهُ". وآخرون قالوا: لم يكن والده بل عمّه، وَرَبَّاهُ منذ طفولته، وَاعْتَادَ النبي إبراهيم(ع) أن يسميه أبي.

وَرَدَ في التوراة أن اسم والد النبي إبراهيم(ع): تارخ. بينما الشخص الذي يتحدث عنه القرآن اسمه: آزر. وَرَدَ ذلك في الآية 74 من سورة الأنعام {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ}، ويمكن الاستنتاج أن الذي ربّاه اسمه آزر، ووالده تارخ، وهذا على ذمّة من كتب التوراة...

لا تَنْسَ أن العرب ينادون العم بكلمة: أبي. والقرآن استعمل نفس التعبير كمثال على ذلك حين تحدّث أولاد النبي يعقوب(ع) عن آباء أبيهم وذكروا من ضمنهم عمّه النبي إسماعيل(ع) كما ورد في الآية 133 من سورة البقرة {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ}.

على كل حال، الآية 41 من سورة إبراهيم(ع) نقلت عن النبي إبراهيم(ع) دعاءه بالاستغفار لوالديه "وليس لأبويه" حين كان شيخا كبيرا {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ}، ونعلم أن النبي إبراهيم(ع) اسْتَغْفَرَ فعلا لأبيه "آزر"، وكان النبي إبراهيم(ع) حينها "شابا"، ولكن بعدما تبيّن للشابّ إبراهيم(ع) أن آزر عدو لله تعالى تَبَرَّأَ منه كما تقرأ في الآية 114 من سورة التوبة {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ}، إِذَنْ، كما هو واضح، لدينا استغفار حين كان (ع) شابا "لأبيه" لآزر، وبعدها تبرّأ منه، ولدينا استغفار "لوالديه" وكان كبيرا في السنّ. مما يعني أنه (ع) حين صار شيخا كان يستغفر لوالديه اللذين "ولداه"، إذ إن آزر لم يكن "والده" بل عمّه أو أحد أقاربه أو شخص تولّى العناية به وتربيته... ولذلك كان يناديه أبي.

بقي شيء، قَرَأَ جمهور الْقُرَّاءِ، وليس جمهور المسلمين، قرؤوا كلمة "أسوة" بكسر الهمزة "إسوة" إلا القارئ حفص الناقل عن عاصم الذي على قراءته اعتمد عامّة المسلمين في الطباعة للقرآن بالآلات الحديثة في عصرنا، وانتبه دائما أن قولهم إنَّ بقية القرّاء قرؤوها بالكسرة إلا عاصمًا، لا يعني أبدا أن عاصمًا كان لوحده يقرؤها هكذا، بل هو عاصم والناقلون عنه وأشهرهم حفص، اعْتَمَدَهُ العلماء الذين بحثوا في الْقِرَاءَاتِ كنموذج يمثّل الشريحة الكبيرة من المسلمين الذين يقرؤون مثل عاصم، ولا أقصد بذلك أنهم تعلّموا القراءة من حفص وعاصم، فهو وهم كانوا يقرؤون مثل بعض، وبالعكس، بقية غالبية القراء كانت قراءتهم مجرد قراءة خاصة بأشخاص، ولم تكن دارجة بين المسلمين من قبلهم، إذ إنهم لسبب أو لآخر اخترعوها، ومن بعدهم درجت بعض قِرَاءَاتِهِمْ في بعض المجتمعات التي تعلّموا القراءة منهم وهم لا يعلمون أنها ليست قراءة جمهور المسلمين، وأصلا لا أهمية للموضوع بنظر الجميع حيث تعدّد الْقِرَاءَاتِ صار شيئا عاديا...

ضع في بالك دائما أن رواية قراءة القرآن عن حفص عن عاصم عن... هي نموذج قراءة الشريحة الواسعة جدا من المسلمين الذين قرؤوا عن حفظ بالتمام لما وصلهم ممن قبلهم، وصولا إلى عامّة المسلمين المعاصرين لزمن رسول

الله(ع)، أمّا بقية الْقِرَاءَاتِ، فكانت تصرفات واجتهادات شخصية من علماء لغويين، وأصحاب رأي في معاني الكلمات، وساهين وناسين، وغير قادرين على التمييز بين لهجتهم المحلية ولهجة قريش التي لهج بها الرسول(ع) حين نزل عليه القرآن...

شيء آخر، كلمة {بُرَآءُ} تلفظ "آ" كما تلفظها في كلمة "آخرها"، وبعدها همزة مضمومة.

(رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{5})
نكمل مع كلام النبي إبراهيم(ع) وجماعته المؤمنة:

{رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا}، فهناك خيارات أخرى عديدة لتفتن هؤلاء الذين أنكروا دينك، ليتعرّضوا لشيء وتحاسبهم على ما يفعلونه من بعد ذلك، فلا تجعلنا نحن فتنتهم بسبب مخالفتنا لدينهم والتزامنا بدينك، فلا تمتحنهم بنا، فسيؤذوننا ونتعرّض للمضايقة منهم... وكلّ ذلك سيتسجّل عليهم سيئات، ولكن نحن سنتضايق فافتنهم، عَرِّضْهُمْ لِمَا تمتحنهم به، بأمور أخرى غيرنا، يعني هم يطلبون أن تكون حياتهم أسهل بدون ضرر من الكفّار.

{وَاغْفِرْ لَنَا}، سَامِحْنَا على ذنوبنا، كما تعلم من عموم القرآن أَنَّ بعض أنواع الذنوب تسبّب وقوع المؤمنين فتنة للكافرين، كترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيتركهم تعالى يتسلطون على المؤمنين وَيُؤْذُونَهُمْ، فإذا كان لنا ذنوب ومن ضمنها ذنوب نَسْتَحِقُّ بسببها أن يتسلّط علينا الكفار فاغفرها لنا حتى لا يتسلّطوا علينا.

{إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... ومن هذه العزّة ندعوك أن تجعلنا في عزّك فلا يذلّنا الكفّار.

{الْحَكِيمُ}، وكلمة حكمة ومشتقاتها تشير لعموم ضبط الشيء على المطلوب: على الصوابية على الحقّ... وعلى نفس المعنى الأساسي نقول: أحكم الوثاق، حكم بالعدل، حكومة على الناس... وتفسير الحكمة بالأهداف والغايات السامية هُوَ من تبعات تطبيق صوابية الحقّ، ووصفه تعالى بالحكيم يشير لصوابية نظرته في الأمور وَأَنَّ قراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب فقراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول بأن أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فلا يفعل لغاية له سبحانه.

نَحْنُ حين طلبنا منك سبحانك أن تفتنهم بأمور أخرى لم نكن نقصد أن فتنتك لهم بنا ليست حكيمة، لا، بل بحكمتك أيضا استجب لطلبنا وافتنهم بغيرنا، فنحن نعلم أننا سنكسب الحسنات حين نبقى على إيماننا حين يُضَايِقُونَنَا أو يُؤْذُونَنَا أو يَقْتُلُونَنَا... ولكننا نطلب منك يا ربنا العافية بحكمتك.

حين نطلب منه تعالى شيئا ما فيجب أن ننتبه من قلّة الأدب معه تعالى، بعض الأحيان نريد شيئا ما، وإذا لم يتحقّق نشكّك بعلمه تعالى أو بحكمته أو بمحبّته لنا، أو باهتمامه بنا وسماعه لدعائنا، بل نكفر بمنفعة الدعاء الذي لم تحصل استجابة له! وهذا يتعارض تماما مع الاعتقاد الصحيح بصفاته تعالى، وهنا كما ترى، هُمْ يريدون أن لا يتعرّضوا للأذية من قومهم، فهم ثلاثة أشخاص "أو أكثر" ولا يقدرون على مواجهة بلدة بأكملها، وهم أمام قوم لا يعرفون حرمة ولا قيمة لأي شيء، فقد يفعلون بهم الفظائع... فطلبوا السلامة مع التأكيد على إيمانهم بحكمته تعالى، فَرْضاً كان القرار الإلهي بوقوعهم تحت التعذيب، فهم لا يزالون يعتقدون بحكمته تعالى في وقوعهم تحت التعذيب والقتل، فهناك سبب وجيه لحصول هذا، لَكِنْ بِإِيمَانِهِمْ بحكمته تعالى يطلبون اتخاذ قرار حكيم آخر يتضمّن نجاتهم من الكفّار، سَوَاءٌ حصل ذلك أم لم يحصل، عَلَى كلا الحالتين فسيكون القرار الإلهي حتما حكيما.

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ{6})
{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ}، أيها المؤمنون، {فِيهِمْ}، في النبي إبراهيم(ع) والذين معه، {أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}، فتقيسون ما يحصل معكم مع ما حصل معهم وَتَتَصَرَّفُونَ كما تصرّف النبي إبراهيم(ع) والذين آمنوا معه، فتقليد تصرّفهم حسن جيد، وأمّا تقليد

تصرّف غيرهم فهو مذموم سيّء، فأعلنوا البراءة من الكفّار المعادين، وهذا التقليد للنبي إبراهيم(ع) وجماعته يكون أسوة حسنة، {لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ}، يَتَوَقَّعُ ويرغب بالحصول على رضاه تعالى والحصول على الثواب منه تعالى، ولمن كان يرجو، {وَالْيَوْمَ الْآخِرَ}، الزمن الذي سيأتي في الآخر بعد انتهاء زمن الحياة الدنيا، وهو زمن القيام من الموت وما بعده، فمن كان يتوقّعه ويرجّح حصوله ويرغب بحصوله حتى ينال الأجر، فسيتّخذ من النبي إبراهيم(ع) ومن معه أسوة.

{وَمَنْ يَتَوَلَّ}، مَنْ يتّجه باتجاه آخر عن هذا الكلام فلا يأخذ النبي إبراهيم(ع) وجماعته أسوة ويقوم بالعكس بمودّة الكفّار المعادين، {فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ}، فهو تعالى موصوف بأنه لا حاجة له بشيء، فلا يحتاج لإيمانكم ولا لتنفيذكم لكلامه تعالى، فلن يخسر إذا وددتم الكفّار المعادين ولن يفتقر لطاعتكم له، فهو تعالى بالغنى عنكم وعن طاعتكم له وعن إيمانكم.

وَصْفُهُ تعالى بالغني لَيْسَ تَفْسِيرُهُ أنه تعالى يملك كل شيء وبالتالي يصير المعنى أنه سبحانه يملك ما يحتاجه، فهذا غير صحيح، فكلمة "غني" تفيد معنى الاستغناء، وهو عموم انتفاء عموم الحاجة لعموم أي سبب، إمّا لأنك لا تحتاج أصلا للشيء، وهذه حالته تعالى "الغني" بالنسبة لكل شيء، وحالة الملائكة بالنسبة لطعامنا... أو غني لأنك لديك ما تحتاجه وهذه حالتنا حين نملك الطعام والشراب... أو غني لأنك تملك ما يمكّنك من الحصول على ما تحتاج، وهذه حالتنا حين نملك المال لنشتري به ما نحتاجه. وترى هذا المعنى للاستغناء بشكل مباشر وواضح لأصل معنى كلمة "غني" في تعبير {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} كما ورد في الآية 97 من سورة آل عمران، فبوضوح يشير الوصف بالغني للاستغناء، فلا حاجة له تعالى بهم ولا بإيمانهم ولا يتضرّر منهم مهما فعلوا.

والله هو، {الْحَمِيدُ}، فأي شيء يصدر عنه تعالى فهو يوصف بأنه حميد جيد حسن، فحين أمركم بمعاداة الكفّار المعادين حتى لو كانوا من أقاربكم أو من أولادكم، فلا تفترضوا أنكم أنتم قلبكم طيّب وأنه تعالى قاس! لا، فأي شيء يفعله أو يقوله تعالى مهما كان فهو دائما يوصف بأنه حميد جيّد.

(عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{7})
{عَسَى اللَّهُ}، مِنَ المحتمل المرجّح ولكن غير الأكيد حصوله، {أَنْ يَجْعَلَ} تعالى {بَيْنَكُمْ}، أيها المؤمنون، {وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ}، من الكفّار، {مَوَدَّةً}، فحاليا هناك عداوة من طرفهم لكم، وأنتم من داخلكم تشعرون بالمودّة تِجَاهَهُمْ ولا تريدون معاداتهم، ولكن لا تكونوا بسطاء قليلي العقل والفهم، فحاليا اتخذوهم أعداء مثلما اعتبروكم أعداء، وهناك احتمال أن يؤمنوا أو يتغيّروا عن معاداتهم للمؤمنين، فعندها لا داعي لمعاداتهم ويصير باستطاعتكم مودّتهم.

هنا ترى بوضوح أَنَّ السورة تتكلم مع مؤمنين حقيقيين وتلاطفهم وتقدّر مشاعرهم وصعوبة موقفهم من معاداة أقاربهم وأولادهم... وفي المستقبل قد يؤمن البعض منهم، وقد يموت البعض الآخر ولا يؤمن، وقد يُعْلِنُونَ إسلامهم غصبا عنهم إن صار المسلمون أقوى منهم... فإن كان كافر ما يهمّك أمره، وكافر آخر يهتم بأمره مسلم آخر... فالاحتمالات المستقبلية لهذا الكافر وذاك والآخر... مختلفة، ولذلك تقول الآية لنا {عَسَى} فهناك احتمال مرجّح ولكن غير أكيد أن يتغيّر حال الذي تهتمّون لأمره وترتفع العداوة بينكم وبينه إذا آمن، أو بقي كافرا ولكن صار مسالما للمؤمنين، أو لم يعد لديه القدرة على معاداة المسلمين فالتغت فكرة معاداته لهم...

{وَاللَّهُ قَدِيرٌ}، فلديه القدرة على فعل أي شيء يريده، فأنتم الآن ترون أَنَّهُ من المستحيل أن تتغير حالة العداوة بينكم وبين الكفّار، وتقول الآية أَنَّهُ من المحتمل أن يتغيّر الحال، فهذه الـ "عَسَى" ليست لأنه تعالى لا يقدر على تغيير الحال بينكم وبين الكفّار، فالله تعالى قادر على فعل أي شيء يريده، فيمكنه تعالى تغيير الحال بينكم وبين الكفّار، وكما تعلم فهذا ما حصل فيما بعد حين أسلم العديد من أهل مكّة قبل فتحها، وبعد فتحها أسلم البقية وهذا أمر كان يبدو شبه مستحيل.

ننتبه دائما أَنَّ قدرته تعالى مطلقة، فيمكنه تغيير ما في عقولنا ويجعلنا مؤمنين غصبا عنّا، ولكن هذا الخيار لم يشأه تعالى، بل شاء تركنا أحرارا في اختياراتنا، حتى يثيبنا أو يعاقبنا على ما نختاره، فلو برمج تعالى عقولنا لنكون مؤمنين غصبا عنّا لصرنا مثل الآلات، ولا معنى لمعاقبة آلة قامت بعمل سيّء قد تبرمجت عليه؟ ولا معنى لوضع رجل آلي في

الجنة لأنه قام بأعمال حسنة هو مبرمج ومجبور على القيام بها! ومن هذا التحليل وغيره ترى أنه لن يقوم تعالى بتغيير عقول الناس بالرغم من قدرته تعالى على ذلك.

وهنا الآية لا تشير إلى هذا الكلام لأنه خارج عن الموضوع، بل تشير للظروف التي تتغيّر بقدرته تعالى لتجعل الكفّار يتغيّرون، فَيُؤْمِنُونَ مع مرور الزمن، أو يُعْلِنُونَ إسلامهم حتى لو لم يدخل الإيمان إلى قلوبهم ولكن على الأقل يتراجعون عن عداوة المؤمنين، وبما أن الحالات والاحتمالات عديدة وتناسبها كلمة {عَسَى} فقد نبّهت الآية أَنَّهُ تعالى قدير، وَأَنَّ الاحتمالات لحصول حالات متعددة لا تجري عليه تعالى، فلو قرّر تعالى حصول أي واحدة من الحالات لحصلت حتما، فتريدنا الآية أن نتوقّع تغيّر الحال ولا نغلق هذا الاحتمال من ناحيتنا، أمّا من ناحيته تعالى فلا يوجد احتمالات، فلديه القدرة على فعل ما يريد "ويعلم بالغيب فيعلم ماذا سيحصل".

{وَاللَّهُ غَفُورٌ}، يُسَامِحُ عن الذنوب، فسبحانه ليس لئيما قاسيا صلبا لا يغيّر موقفه ممّن خالف أوامره، بل يغفر ذنوب من آمن به واستغفره، فالمجال مفتوح أمام الكفّار الذين كنتم تَوَدُّونَهُمْ ليغفر الله تعالى لهم، طبعا إن آمنوا.

بعبارة أخرى هُمُ الآن كفّار تتسجّل عليهم الذنوب، ومعادون لله تعالى ولكم، ولكن الله تعالى لا يأخذ منهم موقفا واحدا صلبا قاسيا لا يتراجع عنه، بَعْضُ الناس إذا عادوا شخصا ما أو كرهوه فهم لئام قساة لا يغيّرون معاداتهم حتى لو صار من عادوه بأخلاق وأوصاف الصالحين! أمّا الله تعالى فحتى من كفر به وأشرك به بل وقال كلاما سيئا عنه عزّ وجلّ، وأعلن العداوة بكل أشكالها عليه تعالى، وبعد ذلك آمن، فسيغفر سبحانه ذنوبه.

والله، {رَحِيمٌ}، لَدَيْهِ عناية خاصّة بالمؤمنين، وينتج عنها المغفرة لذنوبهم وتكفير أعمالهم ومضاعفة حسناتهم... وهذه أمور لا ينالها إلا المؤمنون، وبناء عليه فإن هذه الرحمة متاحة للكفّار الذين كنتم تودّونهم إن آمنوا فيصيروا مشمولين برحمته تعالى ويتم غفران ذنوبهم. أمّا من بقي كافرا فلا غفران ولا تكفير لأي ذنب من ذنوبه، بل تحبط أعمالهم الحسنة لتصير بلا قيمة...

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ{8})

{لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ}، لا يأمركم بالتوقف نهائيا، عن "الكفّار" {الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ}، فأنتم أعلنتم أنكم تدينون بهذا الدين الإلهي وهناك كفّار يُقَاتِلُونَكُمْ فيحاولون إنهاء حياتكم لهذا السبب، وهناك كفّار آخرون لم يقاتلوكم لهذا السبب، ولم ينهاكم تعالى عن "الكفّار" {الَّذِينَ}، {لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ}، من الأماكن التي كانت تدور فيها نشاطاتكم الحياتية، كالبيوت والبساتين والمزارع والمحلات... فلم ينهاكم تعالى عن الكفّار الذين لم يقاتلوكم ولم يطردوكم... {أَنْ تَبَرُّوهُمْ}، أن يكون بينكم وبينهم صلة، فبعضهم بالأصل ممن يجب وصلهم كالأبوين والأقارب... فلم ينهاكم وَلَمْ يأمركم تعالى أن تقطعوا التواصل مع كفّار لم يقاتلوكم بسبب الدين ولم يطردوكم من دياركم بسبب الدين.

الْبِرُّ هو الصلة، أي التواصل بأشكاله المختلفة مع من يجب أن تتواصل معه، كأبيك وأمّك وأخيك وأختك... فإن كانوا كفّارا مسالمين فسبحانه لم يأمرك بقطع العلاقة معهم، وَلَمْ يأمرك بترك زيارتهم أو رفض استقبالهم في بيتك أو التوقّف عن مساعدتهم...

ولم ينهاكم تعالى أن، {تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ}، فتعطوهم ما لهم بالضبط بلا نقصان، فمن يجب عليك نفقته ليعيش فأنفق عليه، ومن كان له معك شراكة فَأَعْطِهِ نصيبه بالتمام من الأرباح... إِذْ من حقّ الكافر أن يتاجر معكم ويأخذ أرباحه، ومن حقّه أن يتشارك معكم في التجارة أو الزراعة أو تربية الماشية... فأقسطوا إليه وَأَعْطُوهُ ما له بالتمام.

{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، فمن أعطى الآخرين حقوقهم وحصصهم ونصيبهم... بالتمام بدون نقص، فهذا شخص يحبّه الله تعالى.

لاحظ دقّة تعبير الآية، فلنقل إِنَّ كافرا من أقاربي وليس بيني وبينه أي خلاف، وليس لديه نية قتال المؤمنين، بل لديه نيّة قتال شخص محدّد من المؤمنين بسبب خلاف شخصي وخاص بينهما، فهذا ليس معاديا لعموم المؤمنين بسبب تدينهم، بل معاد فقط لشخص أو أشخاص من المؤمنين بسبب خلاف شخصي بينهما، كخلاف على تجارة أو على بيع أو على

إجارة... فلا يجب عليّ معاداته، فليس كلّ من عادى واحدا من المؤمنين بسبب شيء شخصي بينهما فهو عدو لكل المؤمنين، لا، بل من عَادَى مؤمنا بسبب تدينه فهذا يجب على بقية المؤمنين معاداته.

كَلِمَةُ دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، فهي ليست اصطلاحا مخصّصا كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الْإِسْلَامِ"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، وَهِيَ عَامَّةُ تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئا ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف...

اللَّهُ تعالى خلقني فأنا مدين له، فخلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعا بسبب سَعَةِ تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لَدَيْنَا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... وَكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بِالنِّسْبَةِ للآخرة فهناك ندان بأعمالنا، إِذْ مَا قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة كلامه تعالى هِيَ التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضا يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسبا بحكمته يَدِينُنَا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

ضع في بالك في عموم ما ورد في القرآن أنه تعالى لا يحبّه، وَرَدَتْ حيث لا داعي للكلام القاسي، وخذ مثلا كلامك معي حيث تريد تحذيري وتنبيهي فتقول: سأكسر عظامك لو فعلت كذا وكذا... فهذه نبرة عالية لا مبرر لها لأنك تعلم أني حاليا لست نَاوِياً لفعل السوء، والجملة الأنسب: لا أحب أن تفعل كذا وكذا... وعلى هذا المفهوم جاءت الآيات التي وجّهت كلامها مع المؤمنين مستعملة عبارة مشابهة لعبارة "الله يحب أو لا يحب".

بقي شيء من الفضول، مَا يقولونه عن إعجاز تكرّر بعض كلمات القرآن بعدد مُلْفِتٍ، كقولهم عن تكرار كلمة ليل 12 مرة وكلمة نهار 12 مرة... تَتَبَّعْتُ غالبية الكلمات التي قالوها ووجدت غالبية كلامهم كَذِباً إلا في أقل من عشر كلمات، ومما تحققت وتأكدت منه كلمة شهر بالمفرد "شهر، شهرا" تَكَرَّرَتْ 12 مرة، وتكررت كلمة شهر بالمثنى "شهرين" مرتين فقط. كلمة "رجل" بالمفرد تكررت 24 مرة، وكلمة "امرأة، امرأت" أيضا تكررت 24 مرة. كلمة "يأمرون" تكررت 7 مرات، وكلمة "ينهون" أيضا تكررت 7 مرات. كلمة "الخبيث" بالمفرد تكررت 7 مرات، وكلمة "الطيب" بالمفرد تكررت 7 مرات. وهناك كلمات أخرى فيها الكثير من التراخي والاستنسابية بحيث يلغون كلمة أو كلمات لسبب غير وجيه ويدّعون أن الأعداد متساوية كقولهم عن تكرار كلمة ملائكة والشيطان.

اَلْغَرِيبُ أن الحالة الوحيدة الصادقة بالتمام والوضوح لَيْسَتْ منتشرة في مقالاتهم وكتبهم! فِعْلاً تكررت في القرآن جملة "الله يحب" سِتَّ عَشْرَةَ مَرَّةً، وجملة "الله لا يحب" سِتَّ عَشْرَةَ مَرَّةً.

لكن، هل هذا يعني أي شيء؟ لا، فلا يحتاج القرآن لِخُزَعْبَلَاتٍ من هذا النوع ليصير له قيمة أو لنؤمن بأنه من مصدر إلهي، فما فيه من حقّ وصلاح هو قيمته.

(إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ{9})
{إِنَّمَا}، حصرا وفقط، {يَنْهَاكُمُ اللَّهُ}، يَأْمُرُكُمْ بالتوقّف نهائيا، {عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ}، فبسبب تدينكم قصدوا إنهاء حياتكم، "لا بسبب خلاف شخصي"، وينهاكم تعالى عن الذين، {وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ}، فأجبروكم على ترك الأماكن التي كانت تدور فيها نشاطاتكم الحياتية، من بيوتكم وأماكن عملكم واستراحتكم... وينهاكم تعالى عن الذين، {وَظَاهَرُوا}، أعانوا، {عَلَى إِخْرَاجِكُمْ}، على طردكم من دياركم، فهناك أشخاص جاؤوا ووقفوا أمام المؤمنين وأجبروهم على المغادرة، وهناك أشخاص كفّار كانوا في بيوتهم ولكنهم داعمون لقرار إخراج المؤمنين من ديارهم، فلم

يعترضوا بل أعلنوا وقوفهم إلى جانب الطاردين للمؤمنين، فهؤلاء فقط ينهاكم الله تعالى، {أَنْ تَوَلَّوْهُمْ}، أن تعتبروا أنفسكم تابعين لهم، يَنْهَاكُمْ أن تسمعوا كلامهم وتنفذّوه ولو لمرة واحدة، لأنهم سيأمرونكم بما يخالف دينكم.

نَنْتَبِهُ لمعنى الولاية في القرآن، إذْ يذهب فكرنا إلى انسحاق تام تحت أوامر شخص ما فيكون وصفه وليا، لا، إنَّ القرآن كان صريحا جدا بأن من سمع ولو كلمة واحدة في موضوع عادي من شخص ما ونفّذها، وَالَاهُ، طبعا والاه في هذه المسألة بالتحديد، وهكذا يصدق عليه وصف الموالاة ولو من تلك المرة الواحدة البسيطة.

{وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ}، ومن يعتبر نفسه تابعا للكافرين، فيسمع وينفّذ كلام الكفّار المعادين للمؤمنين، {فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، هم الذين لم يكونوا منصفين ولا عادلين فلم يكن معهم حقّ في عملهم هذا، فنقول: أعطاني حقي. ونقول: ظلمني. ونقول: ظلما ضربه. ونقول ضربه بحقّ. فالصحيح الصواب الحقّ أن لا يوالي المؤمن كافرا معاديا للمؤمنين، ومن الظلم بِدُونِ حقّ ولا منطق وليس عملا صحيحا أن يسمع كلام كافر معاد للمؤمنين، فهذه مفارقة وتعارض تام بين معنى إيمانه وموالاته للمؤمنين مع موالاته لكافر يريد قتل المؤمنين أو قام بطردهم من ديارهم أو أعان على طردهم من ديارهم بسبب تديّنهم أو وافق على ذلك.

نَنْتَبِهُ جيدا للخلط الذي نجده منتشرا في كتب التفاسير وعموم ثقافتنا الدينية، إذْ إنَّ السورة من أوّلها إلى هنا قسمت الكفّار قسمين، قِسْمٌ مُعَادٍ لبعض الناس بسبب إيمانهم بهذا الدين الإلهي، وَقِسْمٌ كَافِرٌ، ومهما كان نوع كفره، وليس معاديا لأي أحد بسبب إيمانه بهذا الدين الإلهي، فهذا لا مشكلة أن تقيم معه علاقات ودّية، بل وإن كان ممن أمرك تعالى بصلته وَكان من أبويك أو أقاربك، فيجب عليك صلته، والمنع من التعامل ومن المودّة هُوَ فقط مع الكافرين المعادين الذين بأيديهم يقومون بالأعمال العدائية، أو كانوا ممن تصدر منه الأوامر، أو كانوا من الموافقين بوضوح على الأعمال العدائية ضد المؤمنين.

أَعَدْتُ عليك ما سبق وقالته الآيات لأن الكثير من الكلام غير الصحيح منتشر في تفاسير القرآن، حَيْثُ إنَّ بعضهم لديه تصوراته عن الموضوع، ويجمد على الآيات فلا يفهم منها من تقصد، فيضطر للقول عن آية ما إنَّهَا منسوخة لأنه رآها تتعارض مع آية أخرى، بينما لا نسخ في القرآن بمعنى إلغاء حكم ما والتراجع عنه، فراجع دراستنا هذه لترى أن الآيات التي قالوا إنَّهَا منسوخة، لَهَا معنى واضح وصريح ومتوافق مع بقية كلام القرآن.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ{10})
من العادي أن يترك الرجل أبويه أو أولاده الكبار وينفصل عنهم أو يهاجر لأسباب شخصية أو مالية أو اجتماعية... والسورة يهمّها السبب الديني من الهجرة، فتنتقل بنا الآن إلى شيء غير عادي، إلى تغيّر العلاقة الزوجية بسبب الدين،

فتنتقل إلى ولاية ومودّة الزوجة لزوجها، ومودّة الزوج لزوجته، إن كانت مؤمنة وزوجها كَافِرٌ مُعَادٍ للمؤمنين أو كان الزوج مؤمنا وزوجته كافرة مُعَادِيَةٌ للمؤمنين:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، كلام موجّه إلى الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين، {إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ}، فغادرن بلدهن السابق بدون نيّة العودة إليه، وهنا المقصود أنهن إناث أَعْلَنَّ اعتقادهن والتزامهن بهذا الدين الإلهي ولهذا السبب هَاجَرْنَ هربا من الكفّار، {فَامْتَحِنُوهُنَّ}، فتأكّدوا أنهن هاجرن بسبب إيمانهن، وَتأكدوا إذا كانت لا تزال كافرة ولكنها ارتكبت جريمة وهربت إليكم متحجّجة أنها آمنت وتريد الانضمام إليكم، أو أنها تكره زوجها أو لديها مشاكل مع أهلها... ولكنها ما تزال كافرة ولم يكن الإيمان سببا لهجرتها... {فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ}، فبعد التحقيق معهن واختبارهن تأكّدتم أنهن هاجرن بسبب إيمانهن، {فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ}، ومن تكملة الكلام سترى أن الآيات تتحدّث بالتحديد عن الْمُتَزَوِّجَةِ كنموذج فالعزباء المهاجرة أيضا ممنوع إرجاعها للكفّار، ولكن الْمُتَزَوِّجَةَ بينها وبين زوجها عقد قران، وهو في أساسه لا يختلف عن أي عقد آخر يجب الالتزام به... فإذا زوجها طالب بردّها إليه، فطالما هو كافر مُعَادٍ فلا تردوّها لتعيش معه مهما كانت الأسباب.

{لَا هُنَّ}، لسن المؤمنات، {حِلٌّ}، حلال، {لَهُمْ}، للكفّار، وهنا الحديث عن حلية العلاقة الزوجية، فالمؤمنة ليست حلالا على الكافر ليقيم معها علاقة زوجية براحته، فلا يحقّ لها البقاء معه، {وَلَا هُمْ}، الكفّار، {يَحِلُّونَ لَهُنَّ}، للمؤمنات، وهكذا يصير الواجب على المؤمنين بمنع زواج الكافر من مؤمنة أو بقائها معه، فهي صارت مكلّفة بالحرمة وممنوع عليها الزواج منه أو البقاء معه.

{وَآتُوهُمْ}، أَعْطُوا "زوجها الكافر"، {مَا أَنْفَقُوا}، إذْ أنفق عليها مهرا لتصير زوجته، وهي آمنت وهاجرت وبالتالي هجرت زوجها، فيحقّ له استرجاع المهر منها، فإن لم تكن تملك المهر فيجب على المسلمين دفع المهر لزوجها.

{وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ}، فلا مشكلة عليكم أيها المؤمنون الذين استقبلتم المؤمنات المهاجرات، {أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ}، تَعْقِدُوا عليهن ما يجيز لكم إقامة علاقة جنسية معهن، تتزوّجوهن، فالزواج منهن ليس عملا معيبا أو بدعة أو حراما، {إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}، طبعا إذا أعطيتم المؤمنة بدلا ماليا لقاء صَيْرُورَتِهَا حلالا لكم، إذا دفعتم لَهُنَّ مهرا، فلا تستغلّوا ظروف هجرتها إلى حيث لا تملك بيتا أو مالا وتضعوها تحت الأمر الواقع: تزوجيني بلا مهر وإلّا ستنامين في الشارع، أو ستعيشين في الفقر. لا، فممنوع استغلال ظروفها ومن يرد أن يتزوجها فيجب أن يدفع لها المهر الذي تستحقّه.

مِنَ النظرة الإلهية لنا كلّنا كمجتمع واحد، تستعمل الآيات تَعَابِيرَ بالجمع، فمن البديهي أنه ليس كل المؤمنين سيتزوجون من كلّ المهاجرات، ولا كل المؤمنين سيتزوجون هذه المهاجرة... مثلما كان بديهيا أن {وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا} إعطاء الكافرين ما أنفقوا، لا يشير لتوزيع المال على كل الكفار، بل على خصوص من كان له زوجة آمنت وهاجرت وكان قد دفع لها مهرا... فالكلام بالجملة ينطبق على أي واحد منكم حصلت معه الحالة التي تتحدّث عنها الآية.

{وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ}، فمن كان عاصما لكافرة، فكانت كافرة على عصمته، كافرة محسوبة عليه، متزوّج من كافرة، فلا يمسك عصمتها، فلتخرج من عصمته.

لاحظ الآية لم تعبّر عن انفصال المؤمنة عن زوجها الكافر بالطلاق، ولم تعبّر عن فصل المؤمن زوجته الكافرة عنه بالطلاق، بل عبّرت بإرسال العصمة، يعني بإخبارها أو التصرّف معها بأنها لم تعد زوجته إن لم تؤمن، فإن لم تؤمن فلتذهب في حال سبيلها.

{وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ}، عَبِّرُوا عن إرادتكم للحصول على ما صرفتموه، فطالبوا به، فَإِنْ كان الزوج المؤمن أعطاها مالا أو بيتا... لتصير زوجته فليطالبها به، {وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا}، فالكفار أيضا لهم الحقّ أن يسألوا عمّا أنفقوه عليه حين تزوّج من الكافرة، فلنقل أن أهلها أعطوه بيتا، فلهم الحقّ باسترداد البيت، فقد مرّ معك أن الكافر يحقّ له المطالبة بمهر زوجته المؤمنة التي هاجرت، وهنا الكلام ليس تكرارا لهذا بل لحالة تقديم الكفّار للزوج شيئا حين تزوّج، كحالة تقديم بيت له، أو شيء من أثاث البيت... أو مَوَاشٍ، أو محل تجاري أو قطعة أرض... فيحق لهم المطالبة بما أعطوه إن فصل المؤمن زوجته الكافرة عنه.

{ذَلِكُمْ}، المنع عن ردّ المؤمنة المهاجرة إلى زوجها الْكَافِرِ، وإرسال الزوجة الكافرة من عصمة الزوج المؤمن، ودفع المهر، ورد ما تمّ أخذه بسبب الزواج... {حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ}، فهذه نقاط تحتاج لقرار فيها وَسَمِعْتُمْ حكمه، قراره بالصوابية سبحانه.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ}، فيعلم كلّ شيء، ومن هذا العلم الهائل صدر حكمه، فكل المعلومات لديه تعالى فلن يكون حكمه بشأن الزوجات المؤمنات... مَبْنِيّاً على معلومات ناقصة، والله، {حَكِيمٌ}، فيرى الصوابية في الأمور ولا يتسلّى ولا يعبث، وهنا حكمه في الزوجات المؤمنات المهاجرات... مَبْنِيٌّ على كونه التصرف الصواب الصحيح.

فمهما بلغ علمكم وفهمكم وحكمتكم فلن تصلوا إلى مستواه تعالى، وهذا الحكم صدر منه سبحانه.

(وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ{11})

{وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ}، فكان لكم شيء أو معكم شيء وذهب وصار صعبا تحصيله، كما نقول بالعامية: راح عليك. {مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ}، فكان لكم شيء وفاتكم إلى الكفّار من أزواجكم، فلم يعد معكم ولا بإمكانكم تحصيله فقد صار عند الكفّار بسبب أزواجكم، فأي واحدة من زوجاتكم لم تؤمن وتركتكم ولحقت بالكفّار، وأخذت مهرها معها أو هي بنفسها صارت عندهم وخسر زوجها المؤمن ما دفعه لها سابقا من مهر، {فَعَاقَبْتُمْ}، فبعد هذه الحادثة عُوقِبَ بِشَيْءٍ، فحصل شيء آخر، وتعرفه من بقية الكلام وهو أن الذي فاته قد عُوقِبَ بشيء، فذهبت زوجته وتزوّج بأخرى... {فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ}، إلى الكفّار، {مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا}، إذا كانت غَادَرَتْ ولم تردّ له المهر، فيجب على المسلمين أن يدفعوا له ذلك المهر، إمّا مما يسمّى بيت مال المسلمين، أو عبر تجميعهم للمال من بعضهم لأجل هذه المسألة.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}، تَجَنَّبُوا غضبه وعقابه، فلا تخالفوا كلامه، {الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ}، إن كنتم فعلا معتقدين به تعالى إلها لكم، فَهَا هُوَ أَمَرَكُمْ بأن لا تردّوا المهاجرة المؤمنة، وأن تدفعوا المهر لزوجها الكافر... وأن تدفعوا المهر للمؤمن الذي هجرته زوجته الكافرة... فلا تخالفوا أوامره سبحانه هذه إن كنتم فعلا مؤمنين به تعالى وبدينه.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{12})
{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}، يا أيها الشخص الذي يصله نبأ، فيصله خبر غير منتشر بين الناس، وكلمة نبي صارت مصطلحا دينيا يشير إلى الذين يصلهم وحي منه تعالى. {إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ}، يُقَدِّمْنَ لك شيئا على أن يحصلن على شيء بالمقابل، فيقدّمن لك اعتقادهن بأنك نبي ويصير لهنّ حقوق المسلمات، فقدّمن لك تَعَهُّدَهُنَّ، {عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا}، فَيُعْلِنَّ أنه تعالى الإله الأحد.

ويبايعنك أن، {وَلَا يَسْرِقْنَ}، لَا يأخذن أغراض الناس ويتصرّفن بها من بدون إذن أو بيع أو إعارة... ومن دون أن يراهنّ صاحب الغرض.

ويبايعنك أن، {وَلَا يَزْنِينَ}، لا يقمن بعلاقات جنسية من دون زواج.

{وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ}، عِنْدَمَا يحبلن لا يقمن بإسقاط الجنين، عبر شرب مواد تسبب موت الجنين وبالتالي سقوطه أو... أو يقتلن الطفل بعدما يولد بقتله مباشرة أو برميه في البرية لتأكله الحيوانات... وتلاحظ أن الآية لم تتحدّث عن أسباب احتمال قتلهن لولدهن، ولكن كان من الشائع "ولا يزال" إسقاط الجنين أثناء الحمل لانتفاء رغبتها بتربية ولد، أو لأسباب أخرى... فهذا سوء وعليه عقاب إلهي.

{وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ}، لا يفعلن شيئا من غير المتوقّع منهن فعله "لأنهن مؤمنات"، {يَفْتَرِينَهُ}، يخترعنه وهنّ يعلمن أنه اختراع لا أساس له، {بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ}، فهناك أمور خاصّة بالنساء يتحكّمن بها، فبيديها قد تبدّل ولدها بولد آخر... أو تنسب ولدها من الزنا "أرجلهن" لرجل ما غير أَبِيهِ الحقيقي، وقد تلد ولدا "من بين أرجلها" وتعطيه لأحد ما وتقول لأبيه أنه مات... وأمور من هذا القبيل حيث من الصعب على الزوج أو الْآخَرِينَ التأكّد من كلامها بما يخصّ الأمور النسائية.

{وَلَا يَعْصِينَكَ}، ولا يخالفن أوامرك أيها النبي(ع)، {فِي مَعْرُوفٍ}، في الأمور الْمُتَعَارَفِ عَلَيْهَا بين عقلاء المؤمنين وعلى مقياس الدين الإلهي أنها حسنة جيّدة، فلا يخالفن أوامرك فيها، وفي الروايات عن النبي(ع) نجد الكثير من النصائح للنساء كأمرهنّ بحسن التبعّل، فتكون بعلة "زوجة" حسنة مع زوجها... وتفاصيل ذلك كثيرة من معاملتها اللطيفة مع زوجها وأولادها... والعناية بنظافتها ونظافة أولادها وبيتها... ونهيها عن العويل وأن لا تمزّق الثياب عند عموم أي عزاء... فهذه أمور متعارف عليها أنها حسنة، فيجب أن يُطِعْنَ الرسول(ع) بها.

... {فَبَايِعْهُنَّ}، فعلى هذه الشروط كلّها أعطهن حقوق المسلمات بشكل كامل، {وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ}، اطْلُبْ من الله تعالى أن يسامحهن عَلَى ذنوبهن، {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ}، يسامح من آمن وتاب، {رَحِيمٌ}، فلديه معاملة خاصة للمؤمنين ولا يعامل بها سبحانه بقية الناس، فيغفر للمؤمنين ويضاعف لهم الحسنات ويكفّر عنهم السيئات...

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ{13}

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {لَا تَتَوَلَّوْا}، لا تعتبروا أنفسكم تابعين، لَا تَسْمَعُوا وتنفّذوا كلام، {قَوْمًا}، أُنَاساً لهم كيان الجماعة المتفاعلة من دينه تعالى، {غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ}، قَامُوا بأعمال سيئة لا يمكن تمريرها أو السكوت عليها وتستوجب ردّا قاسيا، وَتَحَدَّثَتِ السورة عن الكفّار المعادين وعن أهل الكتاب المعادين للمسلمين كمثال عن عموم من غضب تعالى عليه، وسبب المنع عن تولّيهم لأنهم، {قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ}، هُمْ فَاقِدُونَ الأمل نهائيا من قدوم الآخرة التي يقول عنها الدين أنها ستأتي من بعد انتهاء الأولى "الدنيا"، سَمِعُوا بهذا الكلام قديما ولم يحصل أي شيء، فصاروا لا يخافون العقاب ولا يتوقّعون الحصول على ثواب حسن لأنهم صاروا لا يتوقّعون حصول الآخرة، فهؤلاء لا توالوهم لأن أي كلام يصدر منهم سَيَكُونُ مستندا على إنكارهم للآخرة وبالتالي فلن يقولوا لكم أي كلام يصبّ بمصلحتكم في الآخرة.

{يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ}، مثلما انقطع نهائيا أمل المنكرين لهذا الدين الإلهي من الذين كانوا معهم وماتوا وصاروا في القبور مع من سبقهم من أموات، انْقَطَعَ أملهم من الذين صاروا في الأماكن التي عليها علامات تحدّد أماكن دفنهم، فهم لا يتوقّعون الآن في الدنيا عودة ميّت من قبره ولا يتوقّعون حدوث ذلك في الآخرة، وعمليا لَمْ تَعُدِ الآخرة في حساباتهم وبالتالي كُلُّ تصرفاتهم لا تراعي الحساب عليها في الآخرة.

قارنها مع مؤمن تتحدّث معه ليفعل السوء، فمن المفروض أن يعارضك وينبّهك من الآخرة، أمّا لو كان الكلام مع عموم من لا يؤمن بالآخرة، فهذا على أحسن الافتراضات سينبّهك من مخاطر العقوبة أو الفضيحة من الناس، فإن استطعت فعلها بدون عقاب فسيشجعك عليها.

لاحظ الآية صنّفت الكفّار وَحْدَهُمْ، وأنهم يئسوا من الذين في القبور فلا يؤمنون برجعتهم إلى الحياة، وصنّفت المغضوب عليهم اليائسين من الآخرة وَحْدَهُمْ، مع تشبيههم بالكفّار، فالمغضوب عليهم عنوان يشمل الكفّار ويشمل حتى الموحدين له تعالى ولكنهم يقومون بأعمال سيئة لا يمكن تمريرها بدون ردّ إلهي عليها.

ولاحظ تعبير الآية باليأس من أصحاب القبور، تَذَكَّرْ أن عامة كلام القرآن عن نماذج لأن طبيعتنا البشرية تقتضي ذلك، وهنا في سياق الكلام فإذا أردنا الحديث عن الأموات، وأردنا تفعيل صورة في ذهننا عن ذلك، فإننا نختار كلمة القبور التي تفعّل في بالنا صورة المكان الذي فيه أموات من دون أن نتصوّر الأموات، ولنفس السبب استعمل القرآن مختلف التعابير بسبب اختلاف ما يريد قوله أو تفعيله فينا، أَشَارَ للأجداث وللقبور والمراقد... وهنا أَنْتَ تنظر للقبور كمكان محدّد، وتعلم أن فيه أمواتا، والكفّار قطعوا الأمل من عودة هؤلاء الأموات إلى الحياة.

سورة الصف (61) ص 551

محورها بخصوص الالتزام مع الرسول الإلهي عموما وخصوصا في موضوع القتال في سبيله تعالى، وترينا نماذج تاريخية من أناس مثلنا أعلنوا انتماءهم لدينه تعالى، فبعضهم تخاذل "قوم النبي موسى(ع)" وآخرون تراصّوا "حواريو النبي عيسى(ع)" وتريك نتيجة ذلك عليهم في الدنيا والآخرة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{1})

{سَبَّحَ لِلَّهِ}، قام بتنزيه صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" جلّ جلاله، نَزَّهَهُ عن الصفات السيّئة والتي دون مستوى الْأُلُوهِيَّةِ، كالاحتياج للمساعدة من غيره... أو صفة المزاجية والعبث... أو صفة الظلم والجور والكذب... اللَّهُ سبوح عن ذلك أي منزّه عن ذلك، قَامَ بهذا التنزيه، {مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، وهذه هي حدود كلّ دنيا المخلوقات، وهذا التعبير القرآني يرادف التعبير بكل شيء، كُلُّ الموجودات سواء كانت في السماوات ولم نرها ولم نعرفها، أو الموجودات التي في الأرض فهي تسبّحه تعالى.

وكلمة سماء نقولها لعموم ما علا ويقابلها أرض، سواء أكانت أَرْضاً وَاحِدَةً أو أراض، كَوْكَبُ الأرض أرض لسمائنا وسطح القمر أرض لسمائنا وسطح الشمس أرض... وهكذا لبقية السماوات السبع ما يناسبها من أرض أو أراض كما نفهم من الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}.

{وَهُوَ الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... هُوَ فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره...

{الْحَكِيمُ}، يَرَى الصوابية في الأمور وَقَرَارَاتُهُ وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب وَقَرَارَاتُهُ وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول بأن أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فلا يفعل لغاية له سبحانه.

فيا من تقرأ القرآن خذ علما أن كل بقية الكائنات في الدنيا تسبّحه تعالى، وإن أنت لم تسبّحه تعالى فأنت شاذّ عن الصواب. وَرَدَ في عموم القرآن تعابير تفيد بأن كل المخلوقات في كل الدنيا تسبّحه تعالى، كما ورد في سورة الْإِسْرَاءِ الآية 44، وطالما الآيات تتوجّه بكلامها مع سامع مكلّف بتنفيذ ما فيها، فهي على معنى: كل الآخرين يسبحون وبقي أنت "أيها الإنسان"، فهل ستسبّح؟

قَالَتْ تلك الآية هناك في سورة الإسراء بأننا لا نفقه تسبيحهم، {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}، ورغم ذلك ترى الناس يفسّرون معنى تسبيحهم؟! فكيف يفسرونه وهم لا يفقهونه؟! بَعْضُهُمْ يقولون إنَّ الموجودات تسبّح بوجودها، نَفْسُ كونها موجودة ولها كيان فهو تسبيح منها يدل على تنزيه من خلقها عن الصفات الناقصة، حسن، فَقِهْتَ تسبيحها إِذَنْ؟ فلماذا قالت الآية أنك لا تفقه تسبيحها؟ بعضهم قال إنَّ سباحة الكواكب هو تسبيحها وزغردة العصافير تسابيح... ووقوف الجبال شامخة تسبيح... وهذا الكلام محض افتراض وغير صحيح، فلا تتعب نفسك في فهم تسبيحهم، لأنك أصلا لن تفهم أن للجبال وللأرض وللقمر وللسماء... وعيا ما، فنحن لا نستطيع التعامل معها بنوعية وعيها فقدراتنا محدودة، فهي جماد بالنسبة لنا، ولكن الإله خالقها يتعامل معها بقدر وعيها، وبطريقة ما تقوم بتسبيحه تعالى.

على أي حال هُنَاكَ بشر لا يسبّحونه تعالى، وهناك شياطين وكفرة الجنّ، وهذا معلوم، فليس كلّ من في السماوات والأرض يسبّحه تعالى، وهذا القرآن وصلنا وفيه تهديد لمن لا يسبّحه تعالى، الْآيَةُ هنا تخبر المكلّفين من الجنّ والإنس أنه كل من يوجد في السماوات والأرض يسبّحه تعالى، الموصوف بالعزيز الحكيم، فتسبيحهم له صحيح، فكونوا معهم بتسبيحه.

نلاحظ أن التسبيح "التنزيه" متضمّن كاملا "تقريبا" في صفتي العزيز الحكيم، أو قُلْ عن هاتين الصفتين أنهما تنفيان عموم أي صفة ناقصة أو معيبة عنه تعالى، الْعَزِيزُ من جهة تعني أنه تعالى فوق الجميع والأشياء والحاجات... ويقابلها صفة معيبة ناقصة وهي الذليل الذي تحت غيره أو له أنداد... ويحتاج لغيره وللأشياء... الْعَزِيزُ ضمنيا تعني أنه تعالى لا يوجد معه إله آخر ولا آلهة... ويفعل ما يشاء ولا يفعل ما يشاء غيره... ولا أحد يفرض عليه... ولا يتأثّر بأي شيء... ولو كفرت كلّ مخلوقاته فلن يتغير أي شيء بالنسبة له لأنه لا يحتاج لتسبيحهم ولا لإيمانهم.... ومن ناحية الحكيم لَا يَعْبَثُ ولا يلهو ولا يظلم ولا يتراجع عن وعوده ولا يغيّر قراراته... ولا يأخذ موقفا واحدا نهائيا صلبا طالما الطرف الثاني تغيّر للأحسن، فيغفر لمن كفر به إن تاب... وهكذا تلاحظ أن أي صفة معيبة أو سلبية فلن تتماشى في نفس الوقت مع وصفه تعالى بالعزيز الحكيم.

الْعَدِيدُ مِنَ السُّوَرِ لها افتتاحية تعطي معنى: انْتَبِهْ كلام من تقرأ. وهنا في السورة على معنى: انْتَبِهْ فهذا كلام العزيز الحكيم الذي خضع له كل شيء، فهل ستخضع أنت؟

لاحظ ورود نفس الآية في افتتاحية سورة الحشر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ{2})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الناس الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين، {لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ}، لماذا تقولون أشياء ولكنكم لا تفعلونها وَلَا تلتزمون بما قلتم؟ وهذا هو المحور الذي تدور حوله السورة.

لِمَاذَا تقولون: نحن مؤمنون بالله تعالى ورسوله (ع) وسنطيعهما، ولكن عندما يصلكم أمر منه تعالى عبر رسوله(ع) أَنْتُمْ لا تنفّذونه؟

سَوْفَ نرى في بقية السورة تركيزها على الجهاد في سبيله تعالى، حيث على ما يبدو أَنَّ بعض المؤمنين في عهد الرسول محمّد(ع) حاولوا التفلّت من القتال ولم يلتزموا به...

لاحظ وصف الآية لأناس بأنهم مؤمنون، ولكن في نفس الوقت تقول بأنهم يفعلون شيئا عَاطِلًا؟ كَمَا في عصرنا ترى قرية أو مدينة فيها الكثير من المحجبات والكثير من مربي الذقون، وتقول في نفسك بأنهم من المؤمنين، ولكن، هل كلهم ملتزمون دينيا ولا يرتكبون بعض المحرمات؟ بالطبع لا.

اَلْقُرْآنُ الكريم يتحدث مع هذه المجتمعات التي تعلن عن نفسها أنها مسلمة ومؤمنة، يَقُولُ لهم: أنتم أعلنتم أنكم مؤمنون، وهذا يعني أنكم ستلتزمون بعموم ما يقوله الدين الإلهي، وحين أمركم الرسول(ع) بالجهاد لم تنفّذوا أمره، لِمَاذَا لا تفعلون ما تقولون عن التزامكم بهذا الدين؟

لَيْسَ من الطبيعي أن يقول القرآن الكريم لمجتمع كافر: يا أيها الذين آمنوا لَا تَسْتَغِيبُوا ولا تسرقوا... ولكن من الطبيعي أن يقول لمجتمع من المفروض أنه مؤمن: يا أيها الذين آمنوا لا تستغيبوا وَلَا تَسْرِقُوا...

نَفْهَمُ بأن صفة الإيمان لا تعني بأنهم كلهم مؤمنون أتقياء صالحون، فأين يوجد مجتمع مسلم كله ملتزم على أتم وجه؟ وليس فيهم شخص لا يرتكب السوء؟ لا يوجد. إِذَنْ من المنطقي أن يخاطبهم القرآن فيقول: طالما أنتم أعلنتم إيمانكم، فيا أيها الذين آمنوا لا تسرقوا ولا تغتابوا، لا تقولوا ما لا تفعلوا... وهذا الكلام يوجّهه تعالى إليهم عموما في القرآن بصفة "الذين آمنوا".

(كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ{3})
{كَبُرَ مَقْتًا}، عمل منفور منه بشكل كبير لقبحه، {عِنْدَ اللَّهِ}، {أَنْ تَقُولُوا مَا لَا}، غير الذي، {تَفْعَلُونَ}.

سنفهم من بقية السورة أنهم قالوا للرسول(ع) شيئا محدّدا ولم يلتزموا به، ولكن السورة افتتحت الكلام بالمجمل العمومي عن أي حالة أي أحد قال شيئا لأي أحد آخر ولم يلتزم به، بِغَضِّ النظر عن كونكم مخالفين لأمره تعالى ولأمر رسوله(ع)، إِذْ إِنَّ نَفْسَ قولكم شيئا ما وتفلّتكم من التزامكم به هُوَ أمر ممقوت، وَهُوَ قبيح من القياس الكبير عنده تعالى.

عُمُومُ أي رسول هُوَ نموذج بارز عن قائد لن يأمر إلا بما يرضى به تعالى، وسترى هنا كلام السورة عن ثلاثة رسل: محمّد وموسى وعيسى صلواته تعالى عليهم كنموذج، ولذلك نجد القرآن يتحدّث بالعموم عن عموم ولاية المؤمنين لبعضهم البعض، والتي عمليا تعني ولايتهم للرسول إن كان بينهم رسول، وتعني ولايتهم لأي قائد فيه أقرب الصفات الإيمانية للنموذج الرسول.

بعبارة أصرح، كَلَامُ القرآن عن الرسول محمّد(ع) وغيره من الأنبياء والحوادث... إنما هو كلام عن نماذج، ففي عصرنا لا يوجد رسول، إِذْ إِنَّنِي لن أخالف قول الرسول لأنه ليس موجها مباشرة وصراحة لي بقتال أناس محددين في زمن محدد... هَلْ قراءة السور التي مثل سورتنا هذه تكون فقط للبركة وكسب الحسنات من القراءة؟ وَهَلْ هذا دين؟ وهل هذا هو الغرض من كتاب إلهي؟ لا، بَلْ هُوَ كلام للتطبيق على أي زمان أو مكان تتشابه في الظروف، وَوَاقِعُ الحال أن يكون للمجتمعات قادة وَحُكَّامٌ ورؤساء... بغض النظر عن طريقة وصولهم إلى الحكم، ومن المفروض نظريا أن المجتمعات المسلمة يحكمها الصالحون للحكومة، المتّخذون دينه تعالى شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا، وهكذا ينطبق على المجتمع الحالي وعلى الحاكمين ما تقوله الآيات عن النموذج القائد محمّد(ع) وعن المؤمنين في عصره.

وهكذا ترى عمومية آيتنا هذه بصراحة لتشير إلى أي زمان ومكان فيه مجتمع مسلم.

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ{4})
{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ}، لَدَيْهِ تقييم إيجابي جدا لـ، {الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ}، وليس في سبيل أَوْ في مسلك له هدف شخصي سيّء أو ثأري أو طائفي أو عدائي... يُحِبُّهُمْ تعالى حين يقاتلون فيما يرضيه، {صَفًّا}، يَبْقَوْنَ صامدين كمجموعة ملتزمة بالصف في خطوط القتال، فلا يهربون أو يتخاذلون، {كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ}، بحيث يَكُونُونَ كالبناء كالشيء الذي تجمّع من أجزاء مختلفة، كالبيت أو الهرم أو البرج وغيره، {مَرْصُوصٌ}، المتماسك وليس فيه فراغات.

نلاحظ هنا طريقة تسلسل وترابط الآيات على الطريقة التالية: لِنَفْتَرِضَ مديرا لمعمل يقول لأحد الموظفين: لِمَاذَا تفعل غير ما تقول؟ أنا أريد عاملا ملتزما بالوقت مُجِدًّا في العمل... وهكذا نفهم بأن العامل ليس ملتزما بالدوام فيغيب أو يأتي متأخرا، وغير مجدّ في العمل. مَعَ أَنَّهُ عامل، مِنَ المفروض به الالتزام بالدوام والعمل بشكل فاعل. وَسَيَبْدُو لك من بقية الآيات أن الرسول محمّد(ع) تَحَدَّثَ مع المؤمنين عن قتال الأعداء، وقالوا له أَنَّهُمْ سيلتزمون بذلك، وحين وجّه (ع) أمرا لهم بقتال الأعداء، لم يستجيبوا.

اسْتَظْهَرَ بعضهم أن كلمة صفتّ هنا تشير للوقوف على خطّ واحد، وهذا من آثار مشتقات وتطبيقات معنى كلمة الصفّ وليس المعنى للكلمة، إِذْ إِنَّ تَرْتِيبَ مواضع العسكريين هو صفّهم بما يناسب المعركة وليس وقوفهم كلهم في خطوط مستقيمة! وما هو شائع الآن في تصورات الناس عن الحروب القديمة أنها كانت تخاض بصفوف مستقيمة من العساكر هُوَ نوع من التشكيلات وليس الحالة الدائمة لكل تشكيلات الحروب، والآن في التشكيلات العسكرية لا تزال كلمة صفوف مستعملة على معناها الأصلي لوصف التشكيلات المنتظمة، فأي شخص أو أشخاص لا يلتزمون بمواقعهم في القتال سَيَكُونُونَ مخلّين بالصفوف.

ضع في بالك في عموم ما ورد في القرآن أنه تعالى لا يحبّه، وَرَدَتْ حيث لا داعي للكلام القاسي، وخذ مثلا كلامك معي حيث تريد تحذيري وتنبيهي فتقول: سأكسر عظامك لو فعلت كذا وكذا... فهذه نبرة عالية لا مبرر لها لأنك تعلم أني حاليا لست نَاوِيًا لفعل السوء، والجملة الأنسب: لا أحب أن تفعل كذا وكذا... وعلى هذا المفهوم جاءت الآيات التي وجّهت كلامها مع المؤمنين مستعملة عبارة مشابهة لعبارة "الله يحب أو لا يحب".

بقي شيء من الفضول، مَا يقولونه عن إعجاز تكرّر بعض كلمات القرآن بعدد مُلْفِتٍ، كقولهم عن تكرار كلمة ليل 12 مرة وكلمة نهار 12 مرة... تَتَبَّعْتُ غالبية الكلمات التي قالوها ووجدت غالبية كلامهم كَذِبًا إلا في أقل من عشر كلمات، ومما تحققت وتأكدت منه كلمة شهر بالمفرد "شهر، شهرا" تَكَرَّرَتْ 12 مرة، وتكررت كلمة شهر بالمثنى "شهرين" مرتين فقط. كلمة "رجل" بالمفرد تكررت 24 مرة، وكلمة "امرأة، امرأت" أيضا تكررت 24 مرة. كلمة "يأمرون" تكررت 7 مرات، وكلمة "ينهون" أيضا تكررت 7 مرات. كلمة "الخبيث" بالمفرد تكررت 7 مرات، وكلمة "الطيب" بالمفرد تكررت 7 مرات. وهناك كلمات أخرى فيها الكثير من التراخي والاستنسابية بحيث يلغون كلمة أو كلمات لسبب غير وجيه ويدّعون أن الأعداد متساوية كقولهم عن تكرار كلمة ملائكة والشيطان.

اَلْغَرِيبُ أن الحالة الوحيدة الصادقة بالتمام والوضوح لَيْسَتْ منتشرة في مقالاتهم وكتبهم! فِعْلًا تكررت في القرآن جملة "الله يحب" سِتَّ عَشْرَةَ مَرَّةً، وجملة "الله لا يحب" سِتَّ عَشْرَةَ مَرَّةً.

لكن، هل هذا يعني أي شيء؟ لا، فلا يحتاج القرآن لِخُزَعْبَلَاتٍ من هذا النوع ليصير له قيمة أو لنؤمن بأنه من مصدر إلهي، فما فيه من حقّ وصلاح هو قيمته.

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ{5})

من هنا تبدأ السورة بمثال ممتدٍّ تاريخيّاً من رسول "موسى(ع)" لم يُطِعْهُ قومه "بنو إسرائيل" بالقتال، فكانوا يقولون ولا يفعلون ما قالوه، وبسبب ذلك تعرّضوا لحياة قاسيةٍ، وبعدها نفس القوم "بنو إسرائيل" جاءهم رسول آخر "عيسى(ع)"، وأيضا خالفوه، ولكن القلّة اتبعته(ع)، فعلوا ما قالوا، وصاروا حاكمين على بني إسرائيل.

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى(ع) لِقَوْمِهِ}، للناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة معه، وهم بنو إسرائيل، قال(ع) لهم:

{يَا قَوْمِ}، يا أيها الذين أنتمي لجماعتهم، {لِمَ تُؤْذُونَنِي}، لماذا تقومون بأشياء تجعلني أتأذّى وتجعلني أشتكي منكم، أتّفق معكم على شيء وبعدها تخالفونني، وتقولون كلاماً معيباً مهيناً عني حتى تبرروا مخالفتكم لما آمركم به ولما اتّفقنا عليه، {وَقَدْ تَعْلَمُونَ}، فتحقق عندكم وتأكدتم، {أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ}، أني ناقل لكم كلاماً من الله تعالى.

لاحظ تركيب الجملة، {وَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ}... {وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي رَسُولُ}... {وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ}... التي تعطي معنى: تحقَّق علمكم بأني رسول. صار معلوماً لكم أني رسول. ومعلوم لك أن الكثير من الآيات حصلت مع النبي موسى(ع) والتي تدل بشكل قاطع على أنه رسول إلهي.

لا تتناسب أذيتكم لي مع علمكم بأني رسول منه تعالى، فيجب أن تطيعوني. ومن المعلوم في القرآن والتاريخ أن بني إسرائيل في عهد النبي موسى(ع) رفضوا الخوض في معركة أمرهم بها النبي موسى(ع)، وكانت سبباً في دخولهم الشهير في التيه لأربعين سنة حتى مات النبي موسى(ع) ولم تحصل أي معركة في زمنه(ع)، وراجع في ذلك ما نقلته الآية 24 وما بعدها من سورة المائدة {قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}... {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}.

{فَلَمَّا زَاغُوا}، عندما مالوا عمَّا هو مفروض منهم، ولم يبقوا على ما يجب أن يكونوا عليه كمؤمنين موالين لرسول إلهي، {أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}، حيث إنَّ أساس نفسيتهم وتفكيرهم صار مائلاً عمَّا يجب أن يكونوا عليه كمؤمنين، {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي}، لا يضع على الشيء الصحيح الذي يوصل لغاية صحيحة، {الْقَوْمَ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة، {الْفَاسِقِينَ}، الخارجين عن صراحة ما يقوله الدين الإلهي.

من آثار خلقه تعالى لنا مع حرية الاختيار والإرادة أن يتقولب فكرنا ونفسيتنا بسبب تصرفاتنا، ومن تمرّس على تكرار شيء ما، فسيعتاد عليه ويصير ملتصقاً به، ومن زاغ عن أوامره تعالى وأوامر رسوله، وتكرّر منه الزيغان، فقلبه، ومركز نفسيته وفكره، لا يَعُودُ يَقبَلُ بالحقّ، والله تعالى يهدي الناس عبر إرسال رسول ينقل لهم الكلام الإلهي، وهذا الكلام سيكون حقّاً صحيحاً صائباً حسناً... فيه مصلحتهم، والآن نسأل، كيف سيهتدي هؤلاء بعد خروجهم علناً وبإرادتهم عن طاعة رسول أتاهم بالعديد من الآيات؟ فسبحانه وتعالى لن يتلاعب بعقولهم ليهديهم غصباً عنهم، ولن يجبرهم على الإيمان بضربهم على يدهم كلما ارتكبوا خطأً ما... وهذا معنى الكلام القرآني عن أنه تعالى لا يهدي الفاسقين، فهم اختاروا الخروج بشكل علنيٍّ عن الدين الواضح صحَّتُهُ، وهم لم يتركوا أي مجال لدخول الهداية إلى قلوبهم. وأمّا من لديه قرار بالالتزام بالدين، فقلبه يحب الهداية، وهذا من المنطقي والطبيعي أن ينال مساعدة إلهية ليزداد إيمانه.

نرى بشكل واضح ارتباط الآيات بموضوع السورة، ولا معنى للروايات التي تفسّر الآية عن أذيتهم للنبي موسى(ع) بكلام سيئٍ عن شخصه لمجرد التقليل من قيمته، بل آذوه لِيَظْهَرَ أمام الناس أن مخالفتهم لأوامره سببها عيوب فيه(ع)، كعذر لهم عند مخالفتهم لأوامره(ع).

ضع في بالك أننا سنرى في بقية السورة إشارة لوقوع هذه النوعية من الناس تحت حكم غيرهم، حيثُ سيقع بنو إسرائيل تحت سيطرة النصارى بسبب تكرار نفس العطل في عقليتهم ونفسيتهم التي تعاملوا بها مع النبي موسى(ع).

يا من تسمع هذا القرآن انتبه، فمِنْ قبلُ مرّ أناس آذوا رسولهم، وقالوا ما لم يفعلوا، واستمروا على هذا الزيغ حتى أزاغ تعالى قلوبهم، فاسمع لكلام رسولك "وقائدك" حتى لا يصيبك ذلك.

(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ{6})
ننتقل الآن في الزمن إلى شيء آخر حصل مع نفس القوم بعد سنين بعيدة جداً ومع رسول آخر:

{وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ} عليهما السلام:

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}، يا أبناء النبي يعقوب(ع) والذي لقبه إسرائيل، {إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ}، أنقل لكم كلامه تعالى، {مُصَدِّقاً}، مؤكّداً غير مخالف، {لِمَا}، للذي، {بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ}، فأنا على نفس خط الرسالة الإلهية السابقة، فلا أقولَ بأني رسول إلهي على دين جديد، لا، فالدين ممتدٌّ من أوّل تكليف البشرية وصولاً إلى كتاب التوراة، فأنا مصدّق له ولست مغايراً له ولا معارضاً ولا ناقضاً له، ولست منحرفاً عن الدين الذي جاء به الأنبياء من قبلي، وما سأنقله لكم عن الله تعالى سيكون متوافقاً مع التوراة التي بين أيديكم، فلو خالفتها لكان لكم الحقّ أن تظنوا بأني أكذب.

{وَمُبَشِّراً}، أحمل خبراً سارّاً لكم، {بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}. فإن لم تقتنعوا بأني أنا شخصيّاً رسول، لأني لست على قدر توقعاتكم، ومواصفاتي لا تتناسب مع المواصفات التي في أوهامكم عن الرسول، وكلامي لا يتماشى مع ما تحبّون... لأنه مرّ عليكم زمن طويل من دون رسول... فهذا كلّه لا معنى له لأني على خط التوراة، وها أخبركم أنه من بعدي أيضاً سيأتي رسول آخر على نفس الخط، واسمه أحمد مما يعني أنه عربي وليس من بني إسرائيل.

{فَلَمَّا}، عندما، {جَاءَهُمْ} الرسول عيسى(ع) {بِالْبَيِّنَاتِ}، بالأمور الواضحة، بالأشياء التي تؤكد بشكل واضح أنه رسول إلهي، كإحياء الموتى وشفاء المرضى... التي ذكرتها الآية 49 من سورة آل عمران {...أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ...}، {قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}، بشكل واضح هذه خدعة جعلتنا نتوّهم أنها حقيقية، فلا نرى دليلاً على كونك رسولاً، وبشكل واضح جدّاً أنت ساحر يريد أن يسحرنا عبر التلاعب بعقولنا وحواسّنا لتجعلنا نتوّهم أن ما تفعله حقيقة، وجعلتنا نرى الخطأ صواباً...

كما ترى فالآيات تلفت انتباهك لترابط الرسل، فلا يحقّ لك كمؤمن ولا بأي شكل أن تتهاون وتخترع الأعذار حتى لا تتبّع الرسول الإلهي، أو القائد المؤمن، فإن خطر ببالك أن النبي موسى(ع) عظيم جدّاً، وجرت على يديه الآيات "المعاجز" الكبيرة الكثيرة... خُذْ علماً أن من كان في عصره وأعلنوا أنهم مؤمنون فالغالبية منهم آذوه ولم يؤمنوا به بشكل صحيح كرسول إلهي... والنبي عيسى(ع) أيضاً شخصية عظيمة فعلت العجائب، ومن المشهور جدّاً في تاريخه (ع) رفض بني إسرائيل للإيمان به كرسول... والذين في عصر الرسول محمّد(ع) وما بعده، نجد من لم يؤمن به (ع) ونجد من أعلن أنه مؤمن ولكن قلّل من قيمة أوامره(ع) فلم يُطِعْهُ، سواء في عصره أو فيما بعد.

خُذْ علماً أن الرسولين العظيمين السابقين جرت مخالفتهما من قوم يفكّرون بنفس الطريقة، والرسول محمّد(ع) على نفس خطّ الرسولين، وقيمته كرسول لا تختلف أبداً عن قيمة الرسولين العظيمين السابقين، وتكذيبه ومخالفته ليسا حالة خاصّة به(ع) وكما ترى حصل التكذيب والمخالفة من قبل مع الرسل من قبله.

ضع في بالك أن السورة إلى الآن تحدثت عن عموم قول أحدهم لشيء ما ومغايرٍ لما يفعله، ووصفت هذه الحالة بالممقوتة، وانتقلت لقول شيء لرسول إلهي ومخالفته... وسيأتيك في بقية السورة أمور أخرى تتعلّق بذلك كنتيجة، من الثواب في الآخرة... والعزّة أو الذلّة في الدنيا...

نلاحظ ما هو دارج الآن في بعض الدول العربية، حيث ينادون الشخص الذي اسمه عبد الله بـ عبدو، والذي اسمه محمد بـ حمودة وحمادة... ونجد في الكثير من المجتمعات الناطقة بلغات أجنبية أنهم أيضاً يطلقون عدة أسماء على الشخص الواحد، وكما ترى هنا لسبب أو لآخر نقل لنا القرآن تسمية النبي عيسى(ع) للنبي محمّد(ع) باسم: أحمد بدلاً من محمّد، مما يشير لتناسب كلمة أحمد مع اللغة التي تكلّم بها النبي عيسى(ع)، ولاحظ أن نفس اسم عيسى ليس بنفس لهجة نطق النبي عيسى(ع) لاسمه "عيسى" بلغته ولهجته، بل هي طريقة لفظ اسمه(ع) بما يناسبها بلهجة العرب لكلمة عيسى، وفي الفقرة بعد التالية ستجد شيئاً عن هذا الموضوع، ويبدو نفس الشيء هنا عن استعمال النبي عيسى(ع) لكلمة أحمد بسبب تناسبها مع لغته.

لاحظ في الآية 157 من سورة الأعراف قولها إنّ النبي الأمّي مكتوبٌ في التوراة والإنجيل، فلوقت نزول الآية 157 من سورة الأعراف ووقت نزول آيتنا هنا لا بد أن يكون لهذا النبي "العربي أحمد" ذكر في الكتابين، ومن بين العديد من الأبحاث التي قرأتها حول هذا الموضوع لفت انتباهي البحث عن كلمة "بارقليط" الواردة في إنجيل يوحنا، وسياق الكلام هناك كان عن شخص سيأتي بعمل رسالي إلهي... وهذه الكلمة حتى بعد ترجمة هذا الإنجيل إلى العربية "وغيرها من اللغات" تركوها في غالبية التراجم كما هي على لفظها اليوناني بلا ترجمة، مما يدل على أنها اسم منحول من وصف فتركوها كما هي، وبدا لي بشكل قوي من مراجعة الترجمات المختلفة والقواميس أنها المرادف اليوناني لكلمة أحمد... على كلّ حال لم يقصد القرآن أن يكون ذكر اسم الرسول محمّد(ع) في الكتب الإلهية السابقة الدليل الوحيد على صحّة رسولية محمّد(ع)، وإن لسبب أو لآخر لم تجد هذا الاسم الآن في نسخ التوراة والإنجيل المتداولة بين الناس، فأنت تعلم أنها تعرّضت للتحريف، على كل حال هو مجرد خبر ولفت انتباه لكون الرسل الإلهية بينهم اتصال على خط واحد، فهم سلسلة مترابطة وليس لكلّ واحد منهم دين خاص به.

نتذكّر دائماً تركيز القرآن الكريم على تسمية النبي عيسى(ع) هكذا: "عيسى ابن مريم". ورد في تاريخ اليهود الكثير من الشخصيات المهمة التي تحمل اسم عيسى، وبحسب اطلاعي مرّ معي أكثر من عشر شخصيات، كلهم يحملون الاسم عيسى ولكن بعدة تصريفات، فهناك عدة تصريفات لهذا الاسم في اللغة العبرية والآرامية، والآرامية هي اللغة "اللهجة" التي كانت محكية بين بني إسرائيل في زمن النبي عيسى(ع)، ومن تلك التصريفات: عيسو، يسوع، يشوع، جشوا، يشوا... وكلها بالنسبة للعرب ترجع في اللغة العربية إلى اسم عيسى، ولذلك وحتى يتميز ويتحدد النبي عيسى ابن مريم عليهما السلام بالضبط عن هؤلاء، وحتى يتميز عن الأشخاص المزيفين الذين ادعوا أنهم المسيح، سمَّاه القرآن باسم أمّه التي ولدته من دون أب، وهذه ميزة واضحة جدّاً.

بالنسبة للسحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شيئاً غير حقيقيٍّ أنه حقيقي. الساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد بأنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع أنها لم تختفِ، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر. وما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب ومجرد كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، هذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، ونقل القرآن عن الكفّار اتهامهم للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقولهم عن الآيات الإلهية أنها سحر، هذا كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

بقيت أشياء مفيدة جدّاً عرضتها الآية هنا والتي سبقتها، أشرت لها في طيّات الكلام، الرسولان موسى(ع) وعيسى(ع) اشتهرا بكثرة الآيات التي جرت على أيديهما، هل ستقول بأنك لو كنت في زمان واحد منهما ورأيت الآيات، فستؤمن أو سيكون إيمانك أقوى؟ لا، أنت على ما أنت، وأنا على ما أنا، وبنو إسرائيل على ما هم عليه، منهم من آمن ومنهم من نافق وفسق وكفر، ومَن يقل إنّ الرسول محمّد(ع) لم تحصل على يديه آيات، ويبرّر بذلك لكفره أو فسقه أو نفاقه أو لإيمانه الضعيف... وها تذكّرنا الآيتان هنا برسولين من أشهر الرسل واللذين جرت على يديهما آيات عديدة ومتنوّعة... ولم يؤمن غالبية من رأى تلك الآيات. المشكلة ليست في الآيات بل في قلوب الناس الكارهة للهداية.

هناك شيء آخر عن سبب ذكر النبي عيسى(ع) للرسول الآتي من بعده، بنو إسرائيل في عصره(ع)، لم يعجبهم النبي عيسى(ع)، بالرغم من أنه منهم، ومن سلالة عائلة الأنبياء، وجاءهم بالآيات، ويتكلّم بلغتهم، ويتلو كتابهم... فيخبرهم عن رسول سيأتي اسمه "أحمد"، وهذا اسم عربي، إذَنْ قرّر تعالى أن يكون الرسول التالي من غير بني إسرائيل، ماذا سيفعلون حين يأتي؟ هل سيؤمنون برسول ليس من بني إسرائيل؟

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{7})
{وَمَنْ أَظْلَمُ}، مَن هو الذي يوصف بأنه الأشد ابتعاداً عن الحقّ والإنصاف، {مِمَّنِ}، من الذي، {افْتَرَى}، اخترع كلاماً وألصقه، لفّق، {عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ}، وصله إشهار وإعلان للانقياد له تعالى وبدلاً من الإسلام عارض معتمداً على تلفيق كاذب قاله عنه تعالى. هؤلاء الرسل الثلاثة "موسى وعيسى وأحمد" دعوا الناس للإسلام، للانقياد له تعالى، فأوامرهم(ع) نقلاً عنه تعالى، أو على المقياس الذي رأوه يتماشى مع أوامره تعالى، وبشكل واضح هم رسل، والإنصاف والحق والعدل أن يتبعهم الناس، ومن الظلم معارضتهم واختراع أمور كاذبة عن قصد وعن علم بأنها كذب عليه تعالى.

الافتراء هو نسبتك كلاماً أو عملاً... للآخرين، تلفّقه وتلصقه بالآخرين وأنت لا تعلم إن هم فعلوه أو قالوه... وقد تلصق بهم شيئاً ويتبين لك فيما بعد أنهم فعلاً قالوه أو فعلوه، فتكون فقط مفترياً لأنك اخترعته ونسبته لهم من دون أن تعلم بأنه صحيح، وقد تلصق بهم شيئاً لا علاقة لهم به أصلاً لم يفعلوه ولم يقولوه وهذا هو الافتراء الكاذب.

لو أنا قلت إنَّهُ تعالى يوحي إليّ، فأنا أفتري عليه تعالى لأنه لم يُوحِ إليّ، ولو قلت مفاهيمَ مغايرةً لما قاله تعالى مدّعياً أنه تعالى قالها، أو قلت عنه تعالى بأنه سيفعل شيئاً وفي الحقيقة سبحانه لن يفعله، ففي هذه الأمثلة أنا أفتري الكذب عليه تعالى لأنه أصلاً لم يقل هذا الكلام، وأصلاً لن يفعل ما قلت أنا إنَّهُ تعالى سيفعله.

كما ترى من الآيات السابقة الرسل دعوا الناس للإسلام وفي المقابل قال بعض الناس عن الآيات الإلهية التي جاء بها الرسل إنَّهَا سحر! وهذا افتراء واضح على آياته تعالى الواضحة أنها ليست سحراً، مضافاً إلى ذلك الافتراء بتكذيب ما يقوله الرسل لهم، وكلام الرسل إمّا منقول مباشرة منه تعالى أو يتماشى مع كلامه تعالى، والالتزام بكلام الرسل هو التطبيق العملي للإسلام له تعالى، فأمام هذا تسأل الآية: من ليس معه حق ولا بأي شكل، ظلماً يفتري عليه تعالى كاذباً فيخالف ما هو واضح أنه منه تعالى، فهل هناك أظلم منه؟

{وَاللَّهُ لَا يَهْدِي}، لا يضع "غصباً عنهم" على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {الْقَوْمَ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع دينه تعالى، الجماعة التي توافقت على الافتراء ورفض الانقياد له تعالى، {الظَّالِمِينَ}، الذين لم يكونوا عادلين ولا منصفين، فلم يكن معهم حقّ حين كذبوا عليه تعالى، ظلماً كذّبوا...

تذكّر ما قلناه منذ قليل إنَّهُ تعالى لم يشء إجبار الناس بالقوّة على الإيمان واتباع الرسل، فلن يبرمج عقولهم ولن يتلاعب بنفسية من لا يريد أن يهتدي، أمّا الذي من داخله يريد الاهتداء فهذا سينال نوراً في قلبه ولديه كتاب إلهي يهتدي به...

لاحظ أن الآية هنا عمومية تنطبق على كلّ من وصلته دعوة الانقياد لله تعالى، فرفضها واخترع ديناً على مزاجه، وبهذا الشكل تنطبق على نوعين من الناس، تنطبق على الذين يقولون عن أنفسهم أنهم من المؤمنين ولكنهم لا يفعلون ما يقولون، وتنطبق على الكافرين أصلاً بكل دينه تعالى، وهذا ما ستراه من الآية التالية.

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ{8})
{يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا}، هؤلاء الرافضون للإسلام والمفترون عليه تعالى كذباً لديهم رغبة أن يخمدوا، {نُورَ اللَّهِ}، الانكشاف والوضوح الذي انتشر منه تعالى عبر آياته ورسله وكتبه، {بِأَفْوَاهِهِمْ}، بما يتفوهون به، بما يستعملونه للكلام، بما يخرج من كلام من فمهم، والنور الإلهي لا يمكن إطفاؤه بالكلام الباطل. {وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ}، إلى النهاية وبلا انقطاع سيستمر النور الإلهي كاشفاً للخط الصحيح، {وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}، حتى لو المنكرون لدينه تعالى لم يتطاوعوا ولم يتماشوا برغبة منهم مع النور الإلهي، فهم خارج النور ولكن النور الإلهي مستمر بلا انقطاع حتى نهاية الدنيا.

مهما صدر منهم من كلام لتشويه الدين الإلهي، فلن ينجحوا وسيستمر الدين الإلهي بوضوحه لمن أراد الهداية، ورغم تحريفهم لكتبه تعالى، وتكذيبهم لرسله، ورغم الكلام العاطل عن رسله، ومعصيتهم لرسله... كلُّهُ لا يهمّ، ومَن يطلب الهداية سيرى النور الإلهي ليمشي عليه.

نلتفت إلى التشابه بين: يقولون ما لا يفعلون... وبين: يريدون {لِيُطْفِئُوا} نور الله تعالى "بأفواههم"، مما يشير للتشابه بين الحالتين.

لاحظ أن الظلام من حولك سيمنعك من معرفة طريقك، والنور يكشف الأشياء أمامك، فلا تفكّر بأن كلمة النور استعارة أو مجاز، أو كناية عن الانكشاف، لا، فحقيقة النور هي كشف ما حولك لك بشكل واضح، ودينه تعالى إذا نويت اتّباعه أمَّنَ لك سبحانه النور الذي سيكشف لك الطريق الصحيح.

كيف نتعرّف على النور الإلهي:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ{9})
حتى يُتِمَّ الله تعالى نوره، {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى}، فأطلق سبحانه رجلاً ينقل للناس الأمور التي تدل على الطريق الصحيح، وهنا كما ترى صار الحديث عن الرسول محمّد(ع) بالتحديد بعد أن أشار له من قبل الرسول عيسى(ع)، وكما ترى هذه طريقة إلهية لتوصيل نوره تعالى إلى الناس، أرسله تعالى بالهدى، {وَدِينِ الْحَقِّ}، فما يدين به الناس لربّهم سبحانه، وما عليهم من تبعات لإلههم من توحيد وطاعة وتنزيه وطاعة لرسله... وصلنا عبر الرسول محمّد(ع)، {لِيُظْهِرَهُ}، ليجعل تعالى ما ينقله هذا الرسول من دين الحقّ ظاهراً متفوقاً، {عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}، فكلُّ بقية الأديان، وكلُّ بقية ما تعتقد الناس أنها تدين به، وكلُّ ما يعتقدون به كتبعات عليهم، سيكون ما ينقله الرسول محمّد(ع) ظاهراً عليه، متفوّقاً عليه ويغلبه، لا لأنه دين جديد وسيغلب حتى ما قاله الرسل السابقون، بل لأن الناس حرَّفوا الدين

الإلهي، وعصوا الرسل، وافتروا عليه تعالى... وهذا الرسول محمد(ع) ينقل دينه تعالى بشكل واضح وصحيح مرّةً جديدةً وبضمانة إلهية أن يبقى دينه تعالى هذه المرّة معروضاً بشكل صحيح وواضح لكل الناس عبر القرآن.

{وَلَوْ}، وحتى لو، {كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}، فعموم من جعل معه تعالى إلهاً آخرَ فهذا سيعمل على إطفاء نوره تعالى كُرْهاً بنوره تعالى، وكُرْهاً بدينه تعالى، ولكنه لن ينجح.

كما ترى فالآية هنا مجرد خبر بلا تفاصيل، والتفاصيل عن كيفية إظهار هذا الدين ستجدها منتشرة في عموم القرآن الذي نقله لنا الرسول محمّد(ع)، فهو نفسه القرآن الذي وصلنا عارضاً دينه تعالى كما هو بالأصل، ومصحّحاً لما في الكتب التي تحرّفت، ومصحّحاً للأفكار الدينية التي صارت متداولة بين من يسمّون أنفسهم بالمؤمنين المنتمين لدينه تعالى... ودعمه تعالى لهذا الرسول(ع) بالنصر وتكوين نواة مجتمع إسلامي سبّب بقاء استمرارية هذا الدين...

كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، فهي ليست اصطلاحاً مخصّصاً كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، فهي عامّةُ تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئاً ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف...

الله تعالى خلقني فأنا مدين له، فخلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعاً بسبب سَعَةِ تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... فكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة فهناك ندان بأعمالنا، فما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة كلامه تعالى هي التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضاً يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسباً بحكمته يَدِينُنَا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

كلمة إسلام تعني: عامّة الانقياد لشيء. فما هو دارج بيننا عن كون كلمة إسلام اسم لديننا، فهي بالأصل وصف لعموم حالة من انقاد لدينه تعالى، أو لأي دين غيره، فلا تفهم من آيتنا هنا أنها تشير فقط إلى من لم يؤمن بديننا نحن المسلمين، لا، فهي نفس الجملة لها نفس المعنى لو قيلت في زمن النبي عيسى(ع) أو في أي زمن كان، فهي وصف لعامة الانقياد له تعالى في أي زمن كان، وهذا ما تفهمه بوضوح من الآية 78 من سورة الحج {...مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ...} فهو النبي إبراهيم(ع) وصف نفسه بأنه مسلم ووصف بنفس الكلمة كل من انقاد لدينه تعالى... وهكذا نفهم كلام الآية عن دينه تعالى أنّها تشير لكلّ دينه الممتدّ عبر تاريخ تكليف البشرية به.

ما نراه من طروحات عقائدية تشريعية مختلفة وكلها باسم الدين الإسلامي، فكيف تتوافق مع إتمام نوره تعالى؟ فكيف تصدق كلمة نور إلهي على حالة الضياع العقائدي والتشريعي والسلوكي والسياسي والاجتماعي... الذي نعيشه نحن المنتمين لدينه تعالى؟

أول ما يخطر بالبال أن الدين كان واضحاً في عصر الرسول(ع) ومن بعده صار مشوّشاً، وثاني ما يخطر بالبال أن كل واحد منّا يقول عن مذهبه أنه هو الدين الإلهي الصحيح والبقية ضالون، وكلا القولين غير صحيحين، فبالتدقيق لن تجد متمذهبين على نفس المذهب وكلّهم متوافقون في كل شيء ديني، سواء في العقيدة أو الشريعة، وما تراه من كتب مختلفة لفتاوى الشريعة لنفس المذهب فهو أبسط دليل على ذلك، ولا ترفض كلامي اعتماداً على الصورة الضبابية التي في بالك عن مذهبك والمذاهب الأخرى حيث وبضبابية ومن دون تدقيق تفترض أن مذهبك له عقيدة وشريعة واحدة... لا، لم أجد مذهباً واحداً للمسلمين له عقيدة وشريعة وسلوكيات واحدة.

أمّا بالنسبة لعصر الرسول(ع) فالرسول كان مقوّماً داعماً لإظهار الدين الحقّ، وما قدّمه من أساسيات والعديد من التطبيقات كان كافياً على مرّ الزمن لنرى دينه الحقّ تعالى، هذا لو وصلنا تاريخه (ع) من دون التحريف والإضافات...

أمّا بالعمق، فالقرآن وحده هو الضمانة الملموسة لاستمرارية نوره تعالى، فعلى مستوى العقيدة طرحها القرآن كاملة وواضحة بلا أي تشويش، وعلى مستوى الشريعة طرح أساسيات نضمّ إليها القليل الصحيح الذي توافق عليه عموم المسلمين من تطبيقات تشريعية وصلتنا عن النبي(ع) فنكون على الهدى.

الشعور بأن دينه تعالى مطموس الآن بسبب كثرة اختلاف المسلمين فيما بينهم، وبالتالي فخبر الآية عن ظهور الدين أنه كان محصوراً في عهد النبي محمّد(ع)، وصار منحرفاً فيما بعد، فهو كلام غير صحيح البتّة، فلا يزال القرآن بين أيدينا منهاجاً لأساسيات الدين الإلهي، وأي خلافات بين المسلمين لا تتعارض مع أساسيات القرآن فهي ثانوية، أو هي من هامش المرونة المتروك لنا عن قصد لنتحرك فيه بما يناسب زماننا ومكاننا.

مَن يتبع هدى القرآن فسيجد نوره تعالى يكشف له الطريق، هذا إن استعملنا العقلانية بسلامة قلب لدراسة القرآن، فما هو دارج منتشر من تفاسير ودراسات، والتي تظنّها تراثاً فكريّاً مرموقاً وجهوداً جبّارةً، فغالبيته مجرد زوبعة في فنجان، فبالنسبة لك هو شيء عظيم، ولكن غالبيته للعقلانيين المراقبين فهو منهج دراسي غير علمي، فلا تضحك على نفسك بالعبارات الرنّانة التي يستعملونها لتغترّ بها، فالقرآن ليس كتاباً عظيماً بالأسرار التي فيه والتي لا نفهمها، وليس عظيماً بالمعاني المتعدّدة للآية الواحدة، وليس عظيماً لإثباته صحّة مذهبك وفساد مذهب الآخرين، وليس عظيماً لأنه رفع الشخصيات الدينية التي تخصّ مذهبك... فهذه ترهات غرق بها الغالبية الساحقة من المسلمين، فالقرآن عظيم بطرحه العقلاني للعقيدة والشريعة والسلوكيات التي من المفروض أن نراها حسنة بسبب القابلية التي جعلها تعالى فينا لتمييز الخير من الشر والحسن من السوء.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ{10})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، أيها الناس الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ}، على معاملة أخذ شيء مقابل شيء بقصد زيادة ما تربحونه على ما لديكم، وهذه التجارة كما سترى من الآية التالية لتطبيقها العملي علينا، تجارة {تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}، فتحيدون بتلك التجارة عن الوقوع في ضرر لا يمكن تحمّله أو الاعتياد عليه.

سَتَرَى أن السورة عادت للتركيز على أبرز نموذج عن قول المؤمنين شيئا وفعلهم شيئا آخر، وهو تركهم للقتال في سبيله تعالى، طبعا مضافا لأساسيات وصفهم بالإيمان.

مَا هي هذه التجارة؟:

(تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{11})
{تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}، تَعْتَقِدُونَ به تعالى وبرسوله وبالتالي تطيعونه تعالى وتطيعون رسوله(ع) بدلا من التكذيب والعصيان، {وَتُجَاهِدُونَ}، تقومون بعمل مجهد فيه مشقّة وتعب، {فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، لا في مسلك غايات شخصية سيئة كالمنصب والجاه والشهرة والمال... {بِأَمْوَالِكُمْ}، تُجَاهِدُونَ بما تملكون من أموال نقدية من ورق أو ذهب أو فضّة... وعينية من طعام وأغراض... وَتُقَدِّمُونَهَا في سبيله تعالى على المحتاجين وعلى حاجات المجتمع الاسلامي بشكل عام وعلى نفقات الحروب التي في سبيله تعالى... وتجاهدون بـ {أَنفُسِكُمْ}، بشخصكم، تُشَارِكُونَ أنتم بالأعمال التي في سبيله تعالى، ومن أبرزها المشاركة في القتال، حَيْثُ حفظ الأمن والقيام بمختلف الوظائف الضرورية للمجتمع أيضا جهاد ولكن لخطورة وأهمية القتال ينصرف ذهننا من الجهاد بالنفس إلى المشاركة في القتال، إِذْ كُلُّ الأمور الأخرى الوظيفية الإدارية كجهاد بالنفس، يُمْكِنُ أن تَجِدَ حلولا لها بشرط أن تبقى حيا وأن يبقى المسلمون حَاكِمِينَ، أمّا التخاذل عن قتال الأعداء فَسَيَمْحُو المسلمين من أصلهم...

{ذَٰلِكُمْ}، المجاهدة بالمال والنفس، {خَيْرٌ لَّكُمْ}، أفضل لكم من ترك المشاركة، {إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}، إن لم تبق هذه الكلمات مجرد كلمات مرّت على مسامعكم، فإن دخلت فعلا في علمكم، فعندها ستتصرفون على أساسها وسترون أن الإيمان... والجهاد في سبيله تعالى أفضل لكم من تركه.

لاحظ أن شخصا ما يَتَكَلَّمُ عن الأخلاق الحميدة ويحاضر فيها من كلّ جوانبها وَآثَارِهَا... ولكن هو نفسه بلا أخلاق ولا يلتزم بما يقوله، لِأَنَّ معلوماته عن الأخلاق مجرّد معلومات لا يعلمها بل يكرّرها ويخترع فيها ولا يقولها عن علم حقيقي في داخله، وهذا ما تشير له الآية هنا، إِذِ الَّذِينَ آمنوا سَبَقَ لهم أن سمعوا الرسول(ع) وهذا القرآن يحدثانهم عن أجر المجاهدين، ولكن لو علم الذين آمنوا فعلا بهذا الكلام، وَصَارَ جزءا من علمهم لكانوا التزموا به.

لَسْنَا بحاجة لتطويل الكلام عن أهمية التكافل المالي للمجتمع، إِذْ كُلُّ المجتمعات اعتمدت في تاريخها على هذا التكافل، وبغض النظر عن سوء التطبيق من جباية ضرائب مرهقة من الناس، وبغض النظر عن اختلاسها أو صرفها تبذيرا وإسرافا... رَاحَةُ المجتمعات وصولا إلى السعادة والرفاهية، مِنْ أهم مقوماتها التكافل المالي للمجتمعات، وذلك لتجميع المال وصرفه على المحتاجين وعلى الشؤون العامّة للناس من مستشفيات ومدارس وطرقات...

الزَّكَاةُ الواجبة سنويا وبمقدار يحدّده الْمَسْؤُولُونَ عن المجتمعات والذي يجب أن لا يتجاوز "العفو" كما نفهم من الآية 219 من سورة البقرة، لَيْسَتْ حصريا الجهاد بالمال، بل وكما يبدو من عموم مفاهيم القرآن، لَيْسَ هناك شيء اسمه صدقة مستحبّة إن كنت تملك المال وهناك شخص بحاجة للمساعدة، أو كان المجتمع بحاجة للمال للدفاع ضد الأعداء... فهذه الصدقة واجبة حتى لو كنت دَفَعْتَ الزكاة والخمس، ولمزيد من التفاصيل عن الخمس راجع ما ورد في الآية 41 من سورة الأنفال.

بِالنِّسْبَةِ للجهاد بالنفس، هُوَ الحالة الطبيعية لأي مجتمع من الناس له أعداء فِعْلِيُّونَ أو مُحْتَمَلُونَ، هَلْ نضحك على أنفسنا ونخنع ونستسلم للأعداء خوفا من أن يقتلونا أو لأننا مُسَالِمُونَ! أَيُّ دين سيبقى وأي شريعة سنطبّق إن حكمنا الآخرون! طبعا لا تخلط بين ما يقوله تعالى وبين ما يفعله الناس باسم دينه تعالى، إِذْ سُبْحَانَهُ لا يقبل بالاعتداء على الآخرين المسالمين ولا بأي شكل حتى لو كانوا كفّارا، وسورة الممتحنة تعمّقت في هذه النقطة بالذات، ولكنه سبحانه في نفس الوقت لا يقبل بالتغابي والاستهتار من خطر الأعداء...

بِالنِّسْبَةِ للجهاد في سبيله تعالى لَدَيْنَا في بعض أدبياتنا تعابير لنفي أي مصلحة شخصية لنا وكأن سبيله تعالى شيء له تعالى شخصيا ولا علاقة لنا به، وصار يبدو مخجلا عنوان الدفاع عن الأرض وعن الأموال وعن الموارد... ونريد دائما جعل القضايا دينية كخلاف عقائدي ونكون فيه نحن الطرف المدافع عن دين الإله، بينما القرآن مشحون بالتبريرات التي بسببها أذن وسمح وأمر... سبحانه لنا بقتال الأعداء، وكانت بسبب أنهم هم الأعداء قاتلوكم أو هجّروكم أو منعوكم من ممارسة تدينكم... وَصْفُ الجهاد في سبيله تعالى ما هو إلا تقاطع بين مصالحنا وبين ما يرضى عنه تعالى، وهذا أصلا هو أساس دينه تعالى المعروض علينا في قرآنه، مَعْرُوضٌ علينا الإيمان بالمعلومات التي نراها حَقًّا، وَمَعْرُوضٌ علينا فعل الصالحات وترك السوء، بِغَضِّ النظر عما صارت عليه كلمة دين من اصطلاح، هِيَ التبعات التي علينا لإلهنا ومع ما يعرضه القرآن من معلومات حقّ وشريعة حقّ، ترى أنه لا يوجد شيء اسْمُهُ في سبيل الله ولا علاقة لنا به، بل هو ما نحن نحتاجه ونريد فعله فإذا فعلناه ملتزمين بالخير والصلاح فنحن موصوفون بأننا على سبيله تعالى، على ما يتماشى مع ما يرضى عنه تعالى.

ترجع للسورة، هَذَا ما تقدّمونه بالتجارة من طرفكم، وتحصلون في مقابله على:

(يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{12})
{يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}، يَتَجَاوَزُ سبحانه عن أعمالكم السيئة التي قمتم بها، {وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ}، يَجْعَلُكُمْ في أماكن موصوفة بروعة ما فيها، إلى أماكن فيها بساتين وحدائق وما يسبّب البهجة... {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، وكما تعلم من الآية 15 من سورة محمد أنها أنهار من المياه والمشروبات مُخْتَلِفَةِ الطعم واللون، وتجري من تحتهم يعني أنها من هناك وهناك تجري بشكل جميل بين البقع الخضراء... فلا تبالغ لتتصوّرها كمستنقعات {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى...}.

يُدْخِلُكُمْ إلى، {مَسَاكِنَ}، أماكن تسكنون فيها فَتَكُونُونَ فيها في حالة سكون، فلا تَقُومُونَ فيها بأنشطة من نوع الأعمال والأشغال، تلك الأماكن، {طَيِّبَةً}، محبوبة من كل المواصفات، وليس فيها أي شيء خبيث، شَكْلُهَا محبوب، وهندستها

ورائحتها وألوانها وزخرفتها والخدمة فيها وأثاثها والمتاع الذي فيها... كله محبوب مرغوب، حَيْثُ إِنَّهَا أماكن فقط وفقط للراحة والتسلية.

تلك المساكن، {فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ}، في أماكن موصوفة بروعة ما فِيهَا وهي عدن أي دائمة الإقامة والاستقرار فيها، وليست مؤقتة وبعد ذلك تَخْرَبُ أو يتم طردكم منها، أو تَحْصُلُ مشاكل تدفعكم للخروج منها... لا، إِذْ إِنَّهَا دائمة، ودائما طيبة.

{ذَٰلِكَ}، الدخول إلى جنات عدن الطيبة هو، {الْفَوْزُ}، هو الحصول على شيء ذِي قيمة عالية، {الْعَظِيمُ}، الكبير الضخم الهائل، فلا شيء يمكن أن تحصل عليه أعظم من الدخول إلى الجنّة، وَكُلُّ ما تتصوره في الدنيا من فوز بشيء ما، وكل ما تتصوره من سعادة... كلّه لا شيء أمام ما يوجد في جنات الآخرة، وأقل درجة من جنات الآخرة هي أعظم روعة من أي شيء في الدنيا.

تُتَاجِرُ معه تعالى وَتُقَدِّمُ مالك ونفسك في سبيله ويعطيك هذه الجنّات في الآخرة، وهنا في الدنيا أيضا تجارتك لها أثر آخر ستذكره الآية التالية.

بِالنِّسْبَةِ لوصف الجنّات بالعدن، بَعْضُهُمْ اختلط عليه التوصيف بما ورد في مرويات عن الجنّة التي كان فيها آدم(ع)، وَفِي التراث الديني لأهل الكتاب، وانتقالا منهم إلى تراثنا، صارت كلمة "عدن" اسْمَ مكان خاص على الأرض، "أو في السماء حاليا كما يقولون"، بينما هي باللغة العربية وصف لأي مكان للإقامة الدائمة بسبب توافر ما تحتاجه فيه ولسعادتك فيه... وَوَصْفُ القرآن لجنّة الآخرة بأنها "عدن" لا تخلطه مع الموروث الذي سمّى الجنّة التي كان فيها آدم وزوجته بأن اسمها عدن، إِذِ القرآن لم يذكر هذه الصفة لها، بل حصر استعماله لهذه الصفة فقط وفقط بجنّة الآخرة التي ليست موجودة الآن لأننا الآن في الدنيا، وحين تنتهي الدنيا بتبدّل السماوات والأرض، نصير في الآخرة، وتصير جنّة العدن الخالدة.

هَلْ قديما جدا منذ آلاف السنين كلمة عدن "وما يشبهها في اللفظ في اللغات القديمة" كانت وصفا عموميا وَصَارَتْ اسْمًا لمكان ما على الأرض؟ أو كانت اسْمًا لمكان مرغوبة الإقامة فيه وبعدها صارت وصفا لعموم أي مكان مرغوبة الإقامة فيه؟ وهكذا نفسّر كيف اشتركت الكلمة بين الوصف والتسمية لأماكن هنا على الأرض سمّاها الناس قديما وحديثا "عدن" وهم لا يقصدون الجنّة التي كان فيها آدم، وهكذا نفسّر كيف اشترك الوصف أو التسمية مع الجنّة على الأرض التي كان فيها آدم وزوجته، واشترك الوصف مع جنّة الآخرة التي وصفها بِـ عَدْنٍ لأن الإقامة فيها مرغوبة...

(وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ{13})
{وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا}، وأمور أخرى يكون تقييمكم لها إِيجَابِيًّا فترغبون بها، وَمِنْ تجارتكم بالنفس والمال ستحصلون في الآخرة على الجنّة، وأنتم أيضا تحبّون الحصول على شيء ما في الدنيا وستحصلون عليه من تجارتكم معه تعالى: {نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ}، يُؤَيِّدُكُمْ تعالى لتحقيق ما تريدونه من عدوّكم، {وَفَتْحٌ قَرِيبٌ}، مَا كان مغلقا أمامكم ولا تصلون إليه فبتلك التجارة تصلون إلى ما هو مغلق أمامكم في زمن غير بعيد، وعمليا الْفَتْحُ هو بسط السيطرة على مناطق غير منطقتكم.

{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}، احْمِلْ هذا الخبر السارّ عن الوعد الإلهي بالفتح لمن اعتمد التجارة التي وصفتها الآية ما قبل السابقة.

لَا يمكن ولا بأي طريقة أن تستشفّ من السورة أي فتح هو المقصود، وفي عموم القرآن هناك إشارة متكررة للفتح والنصر والغلبة... وأيضا غالبيتها لم تخبرنا عن الحادثة، وفي كل آية ستجد العلماء غير متفقين على تحديد الغلبة على من كانت، والفتح لأي حادثة هو... والسبب أن القرآن لم يردك أن تقرأه ككتاب تاريخ، ذَكَرَ لك ما يفيدك في هدايتك فقط وفقط، وعلى هذا الأساس، لَا قيمة عمليا لمعرفتك بتاريخ أو اسم أي فتح، وَبِالتَّالِي عَمَلِيًّا يكون كلام القرآن عموميا، ويشير لعموم أي فتح كان، سواء لحادثة محدّدة حصل فيها انتشار لسيطرة المسلمين على بقعة محدّدة كخيبر مثلا، أو فتح آخر في زمن آخر كفتح مكة مثلا... ومثلا آياتنا هنا التي تدل أن التزام المؤمنين بالقتال في سبيله تعالى ملازم للفتح، أَيُّ قتال يعقبه نصر فهو الفتح الذي تشير له الآية كنتاج دنيوي عن المتاجرة معه تعالى بالنفس والمال، لَوْ حصل

النصر لمرة واحدة أو تكرّر لمرات، مُجَرَّدُ ابتداء المؤمنين بالقتال في سبيله تعالى فهو بداية الفتح، وأثناء ذلك أَيُّ نصر هو فتح، وَالْوَعْدُ بالفتح ليس وعدا لجماعة محددة في زمن الرسول محمّد(ع) لتنتصر على جماعة محدّدة، مَا في بالك أنت من أهمية كبرى لفتح الحديبية أو خيبر أو مكّة أو حنين... فهذا من منظورك أنت مهمّ، وأمّا من النظرة الإلهية فكل مشاركة في قتال في سبيله تعالى بنيّة خالصة فهو متشابه تماما مع بعضه، كُلُّهُ فتح في غاية الأهمية، وبغض النظر عن نتيجة هذه المعركة من بسط السيطرة على مدينة كبيرة أو صحراء خالية أو عدو بجيش كبير... وبغض النظر عن حصوله في زمن قبل زمن النبي محمّد(ع) أو أثنائه أو بعده... فلا أهمية لذلك.

بعبارة أصرح وأوضح، أَيُّ تفسير قرآني بأسلوب يعتمد على ما في كتب التاريخ من روايات، فهذا يعني أني أحتاج لكتب التاريخ مع القرآن حتى أفهمه، مما يعني أن القرآن لوحده غير قابل للفهم ويحتاج لمصادر خارجية لفهمه، وهكذا لا يعد القرآن كتاب هداية كَافِيًا لوحده، إِذْ هُوَ غير كاف لإيصال المعاني التي يطرحها.

هذا خطأ، وفي بداية هذه الدراسة لاحظت هذا الخطأ، وأنه سبب للكثير من التفاسير المتخالفة، وأنه سبب رئيسي لحرف وجهة كلامه تعالى عن مقصده العمومي ليصير كلاما خاصا لحوادث خاصّة حدثت في أزمنة وأمكنة خاصّة.

بَعْدَمَا جمعت خلاصة أمّهات التفاسير، ونقّحتها، وبدأت باعتماد أسلوب تحديد المعنى الأدق للكلمات، واعتماده كأساس، ومن بعده الاستئناس بالروايات، وبعد مراجعات ومراجعات للدراسة كلّها من أوّلها، وأثناء ذلك إعادة البحث عن المعنى الدقيق للكلمات والجمل، صارت الآيات أوضح وأسهل على الفهم، وأبعد عن الارتباط بالتاريخ، وخاصة بعد ترسيخ مبدأ كلام القرآن عن نماذج.

هَكَذَا صرت رويدا رويدا أحذف الروايات التاريخية التي ربطوها بالآيات بشكل إجباري لفهم الآيات، وصرت استخرج المعنى العمومي من الآيات، وما تريد قوله السورة، ووجدت أن كل ما تريد السورة قوله فهو موجود فِيهَا ولا حاجة لمصادر خارجية لفهمها.

بِالنَّظَرِ لمجموع المبادئ المعتمدة في هذه الدراسة، وغالبيتها لم أبتدعها بل طوّرتها، والتي جمعها مع بعض هو أسلوب جديد، تَقَدَّمَتْ هذه الدراسة عن غيرها بتقديم معنى قرآني شبه صَافٍ منفصل عن الروايات والخلفيات الثقافية الدينية.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ{14})
خاتمة السورة بمثال عمّن قبل التجارة الإلهية المعروضة عليه، لنرى أثر قبوله لها، أمّا الذي رفضها فرفض الإيمان والجهاد فسنرى أثر ذلك الرفض.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا من تسمعون هذا الكلام وأنتم أعلنتم اعتقادكم والتزامكم بهذا الدين، {كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ}، حَقِّقُوا ما يرضيه تعالى، {كَمَا}، مثلما، {قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ}، للأشخاص الذين يرافقونه كثيرا فصاروا منسوبين له (ع) كحواريين كأصحاب مرافقين خاصين به، قَالَ (ع) لهم:

{مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ}؟ مَنْ سيحقّق ما أطلبه؟ وما أطلبه ليس لمصلحة شخصية خاصة لي بل إلى الله تعالى أطلب منكم نصرتي، إِذْ مَا أريد تحقيقه ليس لأصير زعيما أو ملكا أو أكسب مالا... بل إلى الله تعالى أطلب نصركم لي حتى تتحقّق مرضاته تعالى على شؤون حياتنا، فنعتقد بالحق ونفعل الصلاح.

{قَالَ الْحَوَارِيُّونَ}، قال الذين يترددون عليه دائما، ويرافقونه بشكل شبه دائم:

{نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ}، نَحْنُ سنعمل على تحقيق ما يرضيه تعالى.

كَمَا تعلم من عموم القرآن ومما هو مشهور في التاريخ إِنَّ وضع النبي عيسى(ع) ووضع أتباعه كان صعبا جدا وسيئا للغاية بسبب المعارضة العنيفة له(ع) من علماء اليهود وَرُؤَسَائِهِمْ، ومن الحكومة الرومانية... والعرض الذي يقدّمه النبي عيسى(ع) للمرافقين له لنصرته كما يأمر الله تعالى، هُوَ بالحسابات العملانية: عرض لفشل حتمي، وكما ترى عَرَضَ عليهم التجارة الإلهية التي جانبها المضمون هو دخول الجنّة في الآخرة، والنصر في الدنيا إن اجتمعت الظروف المناسبة لذلك...

{فَآمَنَت طَّائِفَةٌ}، اعْتَقَدَتْ به (ع) مجموعة من جماعة، {مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ}، من المنسوبين للنبي يعقوب(ع) الذي لقبه إسرائيل، {وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ}، أَنْكَرَتِ الدين الذي يعرضه النبي عيسى(ع) جماعة ثانية من جماعة بني إسرائيل، وكما ترى النَّبِيُّ عيسى(ع) أعلن مضادته لانحراف الذين حوله ممن يقولون بأنهم مؤمنون، فَاتَّبَعَهُ الحواريون، وبدأ التضاد ينتشر بين بني إسرائيل، قِسْمٌ منهم صار من أتباع النبي عيسى(ع) وآخرون بقوا على معارضتهم ومحاربتهم له (ع).

{فَأَيَّدْنَا}، دَعَمَ وساعد تعالى، {الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين اعتقدوا به (ع) كرسول إلهي وطبعا التزموا بنصرته (ع)، {عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ}، على من عارضهم ولم يتعامل معهم بشكل سلمي، {فَأَصْبَحُوا}، أَوَّلَ ما صارت طائفة المؤمنين على أعدائهم بعد إعلان الانقسام والتضاد، {ظَاهِرِينَ}، متفوقين يفعلون ما يريدون وعدوهم تحت السيطرة.

لاحظ فيما مرّ في السورة عن بني إسرائيل وخذلانهم للنبي موسى(ع) وأذيتهم له، وما هو مشهور جدا عن ضياعهم في الصحراء لأربعين سنة "التيه" عقابا على تخاذلهم في قتال الأعداء... كما ورد في الآية 26 من سورة المائدة {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}، وبعد مرور الزمن على بني إسرائيل، مرّ فيهم مؤمنون من الدرجة العالية على عهد النبيين داوود(ع) وسليمان(ع) اللذين حكما كملوك... إلى أن وصل بنو إسرائيل من جديد إلى انحراف كبير... ووقعوا تحت حكم غيرهم... وجاءهم النبي عيسى(ع)، وعرض عليهم من جديد التجارة الإلهية التي علمت أثرها مما سبق من كلام عن الحصول على جنّة الآخرة وفتح في الدنيا، فرفضها البعض منهم وقبلها آخرون، وكانت النتيجة تفوّق أتباع النبي عيسى(ع) على بقية بني إسرائيل وبقية من عاداهم.

التفت بانتباه لما حصل من وضع كان مستحيلا، إلى تفوّق كاسح! وكلّ ذلك بسبب التزام الذين آمنوا بما يقولون، وقبلوا التجارة معه تعالى وحصلوا على جنات عدن ونصر في الدنيا.

أمّا بالنسبة للحواريين، فهذه الكلمة لا تدل على أي شيء سوى أنهم كانوا من مرافقيه وأصحابه (ع) بشكل دائم، ومن المشهور في التاريخ بين الناس أنهم كانوا أحد عشر شخصا قاموا بنشر الدين المسيحي بعد وفاة النبي عيسى(ع)، ويقولون أنهم كانوا اثني عشر ولكن أحدهم خانهم... ولا معلومات قرآنية عن هذا الموضوع، وكل ما تسمعه فهو منقول من تراث المسيحيين، وهو بقيمة الروايات عندنا من حيث الحاجة للتدقيق في صحّته...

مَا تجده في عموم كتب التفسير من كلام عن الآية هنا وغيرها، فهو على خلفية الرفض لمدح انتصار أتباع النبي عيسى(ع)، ونحن بغالبيتنا وبسبب ما لدينا من معلومات تاريخية عن حقبة النبي عيسى(ع) وما تلاها، إِنَّنَا أيضا نشعر برفض داخلي لمدح القرآن انتصارهم، على أساس أن دينهم تشوّه فورا وصار فيه شرك به تعالى، وصار فيه طقوس اخترعوها... وتساهلوا في التشريعات الدينية الأساسية حتى لم يبق منها إلا آثار من الدين الإلهي، حَيْثُ الصَّلَاةُ والصوم والزكاة... بالكاد يشبهون أصل الأوامر الإلهية... وقاموا بتحريف الإنجيل... فكيف تمدح الآية تلك الفترة من انتصار ساحق لأنصار النبي عيسى(ع) رغم الانحراف الكبير عند المسيحيين؟

الجواب تعرفه بالتعمّق أكثر في تاريخ تلك الحقبة، إِذِ الجيل الأول كان فيه متدينون فعلا، بلا شرك، وملتزمون بتشريعات متماشية مع تشريعات التوراة "وهي نفسها أساسيات تشريعات القرآن"، وأمّا بالنسبة لعدد الملتزمين فعلا وعن حق بالدين الحنيف، فهو مشابه لعدد من التزم بالدين في عهد بقية الرسل والأنبياء، إنْ كنت تتصوّر أن غالبية من أسلم في عهد النبي محمّد(ع) وبعد وفاته أنهم بغالبيتهم من المؤمنين الأتقياء من الدرجة العالية، وأفضل ممن أسلم في عهد النبي عيسى(ع) وبعد وفاته، هَا أَنْتَ عَلِمْتَ أن سبب رفضك لمدح القرآن لهم مبني على فكرة غير صحيحة، وحركات الردّة بعد وفاة النبي محمّد(ع) كانت النموذج الأبرز للانحراف العميق للعدد الأكبر من الناس الذين أعلنوا أنهم مؤمنون... واغتيال الخليفة الثاني والثالث والرابع على أيدي مسلمين... والحرب بين المسلمين جماعة الإمام علي والمسلمين جماعة معاوية... وبعدها قتل الحسين ابن علي على أيدي "مسلمين"... والروايات الكثيرة التي تشير للنوعية السيئة للعدد الأكبر من المسلمين، كَمْ تكرّر في الروايات كلام عن جيش مسلم غالبية أفراده لا يجيدون الوضوء ولا الصلاة! ويشربون الخمر...

هَا أنت أمام سورة تحدّثك عن الذين آمنوا في عهد النبي محمّد(ع) وهم يقولون ما لا يفعلون؟ ولن أطيل عليك بذكر صراحة القرآن عن عصر النبي محمّد(ع) بما فيه من منافقين وفاسقين وخونة متعاونين مع الأعداء ومتخاذلين... إِذِ المدح القرآني للمؤمنين لا علاقة له بعددهم، لَوْ كان واحدا مؤمنا حقيقيا طامعا بحقّ في مرضاته تعالى والبقية التزموا

بالأمر الْإِلَهِيّ على "أمل" صحّة هذا الدين، أو كانوا كلّهم أقل من الوسط في التديّن ولكن التزموا بشكل ما بأمر إلهي بالجهاد في سبيله تعالى... الْمَجْمُوعُ وصفهم القرآن بأنهم من الذين آمنوا، وإذا طابق مجمل قولهم على مجمل فعلهم، فاحتمالية النصر الإلهي تكون لصالحهم...

هَكَذَا لن ترى فرقا بين أتباع النبي عيسى(ع) الذين نشروا دينه وانتصروا على أعدائهم وبين الأجيال الأولى من المسلمين الخليط من مؤمنين أتقياء من الدرجة العالية ومعهم فَاسِقُونَ وَمُنَافِقُونَ... ولكن جهود المجموع أَدَّتْ إلى تكوين مجتمعات يستطيع فيها المؤمنون الحقيقيون ممارسة إيمانهم...

سورة الجمعة (62) ص 553
تتحدّث السورة عن الذين يظنون أنفسهم أتمّوا واجباتهم بإعلان الانتماء لهذا الدين وهم ليسوا ملتزمين بما في كتابه تعالى ولا بما قاله رسوله، وكأن الانتماء لهذا الدين فخري ولا يحتاج لأي التزام، السُّورَةُ تنبّه من التديّن الفارغ من المضمون والمعنى.

ذَكَّرَتْ بالذي لم يتبع ما في التوراة... ونبّهت من لا يسمع ما يقوله الرسول... وأعطتنا تطبيقا عمليا لزمان ومكان نلتزم به لنعرف أحكامه تعالى المتعلّقة بنا كأشخاص وكمجتمع، وهي صلاة الجمعة، وذلك حتى يكون لتديننا معنى تطبيقي.

هَا الكتب بما فيها من مقتطع خطب منقولة عن الرسول(ع) وعن الجيل الأوّل من المسلمين، كتطبيق لما تقوله السورة هنا عن ضخّ حياة إيمانية نابعة من القرآن في حياتنا الشخصية والاجتماعية، حتى لا نكون مثل الحمار... وها خطب أئمة المساجد في عصرنا تسمعها وتراها شخصيا بنفسك أو منقولة على التلفاز أو على أشرطة مسجّلة وفيديوهات... قَارِنْ بينها وأخبرني عن الفرق؟

مدّة الخطبة ومحتواها ومن يقولها... ما الهدف منها؟ وما الاستفادة منها؟ وما هو عمقها القرآني؟ وما شبهها بخطب الرسول(ع)؟

تسمع خطباء بكلام مذهبي طائفي عن خصوصيات مذهبهم وطائفتهم! وتسمع خطبا على منوال: حدث في مثل هذا اليوم، حيث يتلو عليك الخطيب أحداثا تاريخية لا فائدة من معرفتها بينما هو مقتنع بأن معرفتها من أساسيات الدين... وتسمع خطباء يقولون كل شيء إلا ما يرضيه تعالى عن الوحدة بين المسلمين! وتسمع خطباء لا علم لهم بشرعه تعالى! ولا بأحوال المسلمين! ولا يتعاطون الشأن العام ليتحدّثوا عن مصالح مجتمعهم من النظرة الدينية... وتسمع خطباء لا يفقهون ما يقولون عن السياسة والاقتصاد وعلم الاجتماع والطبّ والفلك... وتسمع خطباء لا يتحدّثون إلا على مستوى عال من السياسات وَالِاقْتِصَادِيَّاتِ والنزاعات العالمية وهم لا يدرون بأسباب فساد مجتمعاتهم، وتسمع خطباء نَاهِبِينَ لمال الله، وَمُسْتَغِلِّينَ لمناصبهم، وَيُوَرِّثُونَ مال الله تعالى والمناصب، والأوقاف...

تسمع وعّاظ السلاطين، وهم أبواق للحكّام الفاسدين.

بَقِيَ من صلاة الجمعة مظهرها، ولم نفهم أن الذي حمل التوراة كَتَبَهَا بالذهب ونمّق خطوطها على أغلى الجلود وأثمنها... ويحفظها غيبا... ورغم ذلك فهو كالحمار يحمل كتبا لن يفهم ما فيها، ونحن مثل ماذا حين نجتمع تحت منبر خطيب يحدّثنا عن الكرامات الخرافية للصالحين! وعن مواليد القدّيسين ونبذة من سيرتهم! وعن تفسير القرآن بالباطن وكأنه انتهى من فهم الظاهر وتطبيقه!... بينما المجتمعون مفلسون ماليا ونفسيا وأخلاقيا ودينيا... ويحكمهم الفاسدون، ويقاتلون المسلمين الآخرين...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ{1})
{يُسَبِّحُ لِلَّهِ}، يقوم بتنزيه صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" جلّ جلاله، وَيُنَزِّهُهُ عن الصفات السيّئة والتي هِيَ دون مستوى الْأُلُوهِيَّةِ، كالاحتياج للمساعدة من غيره... أو صفة المزاجية والعبث... أو صفة الظلم والجور والكذب... وَاللَّهُ سبوح عن ذلك أي منزّه عن ذلك، قَامَ بهذا التنزيه، {مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، وهذه هي حدود كلّ دنيا

المخلوقات، وهذا التعبير القرآني يرادف التعبير بكل شيء، إذْ كُلُّ الموجودات سواء كانت في السماوات ولم نرها ولم نعرفها، أو الموجودات التي في الأرض تُسَبِّحُهُ تعالى.

كَلِمَةُ سماء نقولها لعموم ما علا ويقابلها أرض، سواء أكانت أَرْضًا وَاحِدَةً أو أَرَاضِيَ، فَكَوْكَبُ الأرض أرض لسمائنا وسطح القمر أرض لسمائنا وسطح الشمس أرض... وهكذا لبقية السماوات السبع ما يناسبها من أرض أو أَرَاضٍ كما نفهم من الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...}.

{الْمَلِكِ}، الذي يتبعون له بالتحكّم والسيطرة والسلطة عليهم، إذْ كُلُّ شيء في الدنيا مملوك له تعالى، وبناء عليه تَسْبِيحُهُ تعالى هو تنزيه لصاحب السلطة والسيطرة المطلقة بلا أي شريك أو ندّ له تعالى.

{الْقُدُّوسِ}، الذي له اعتبار ومكانة عالية بسبب الصفات العالية جدا التي يتميّز بها، وعلى هذا الأساس الْكَائِنَاتُ تسبّح الذي يوصف بالمكانة العالية جدا جدا.

{الْعَزِيزِ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... إذْ هُوَ فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره...

{الْحَكِيمِ}، يَرَى الصوابية في الأمور وقراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب لِأَنَّ قراراته وأفعاله كلها متقنة وَحَقٌّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول إنَّ أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فَهُوَ لا يفعل لغاية له سبحانه.

وَرَدَ في عموم القرآن تعابير تفيد بأن كل المخلوقات في كل الدنيا تسبّحه تعالى، كما ورد في سورة الْإِسْرَاءِ الآية 44، وطالما الآيات تتوجّه بكلامها مع سامع مكلّف بتنفيذ ما فيها، فَهِيَ على معنى: كل الآخرين يسبحون وبقي أنت، فهل ستسبّح؟

لَا الآية في سورة الإسراء ولا الآية هنا كانت تقصد الملائكة فقط بأنها التي تسبّح، بل تشير لكل الكيانات من كواكب وجبال فيها وسماوات... {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...}، وَذَكَرَتْ أَنَّنَا لا نفقه تسبيحهم، ورغم ذلك ترى الناس يفسّرون معنى تسبيحهم؟! فكيف يفسرونه وهم لا يفقهونه؟! بَعْضُهُمْ يَقُولُونَ إنَّ الموجودات تسبّح بوجودها، إذْ نَفْسُ كونها موجودة ولها كيان هُوَ تسبيح منها يدل على تنزيه الذي خلقها عن الصفات الناقصة، حَسَنًا، فَقِهْتَ تسبيحها إذًا؟ لِمَاذَا قالت الآية أنك لا تفقه تسبيحها؟ بعضهم قال إنَّ سباحة الكواكب هو تسبيحها وزقزقة العصافير تسابيح... ووقوف الجبال شامخة تسبيح... وَهَذَا الكلام محض افتراض وغير صحيح، فلا تتعب نفسك في فهم تسبيحهم، لأنك أصلا لن تفهم أَنَّ للجبال وللأرض وللقمر وللسماء... وعيا ما، إذْ نَحْنُ لا نستطيع التعامل معها بنوعية وعيها وَقُدُرَاتُنَا محدودة، وهي جماد بالنسبة لنا، ولكن الإله خالقها يتعامل معها بقدر وعيها، وبطريقة ما تقوم بتسبيحه تعالى، ولمزيد من التفاصيل راجع مَا وَرَدَ في الآية 72 سورة الأحزاب {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ...}.

عَلَى كل حال هُنَاكَ بشر لا يسبّحونه تعالى، وهناك شياطين وكفرة الجنّ، وهذا معلوم، وَلَيْسَ كلّ من في السماوات والأرض يسبّحه تعالى، وهذا القرآن وصلنا وفيه تهديد لمن لا يسبّحه، تُخْبِرُنَا الآية عن وجود من يسبّحه تعالى في السماوات والأرض، الموصوف بالعزيز الحكيم، وَتَسْبِيحُهُمْ له صحيح، فكن معهم.

نُلَاحِظُ أن التسبيح متضمّن كاملا "تقريبا" في صفتي العزيز الحكيم، أو قُلْ عن هاتين الصفتين أنهما تنفيان عموم أي صفة ناقصة أو معيبة عنه تعالى، وَالْعَزِيزُ من جهة تعني أنه تعالى فوق الجميع والأشياء والحاجات... ويقابلها صفة معيبة ناقصة وهي الذليل الذي تحت غيره أو له أنداد... ويحتاج لغيره وللأشياء... وهذه تعني أنه تعالى لا يوجد معه إِلَهٌ آخر ولا آلهة... ويفعل ما يشاء ولا يفعل ما يشاء غيره... ولا أحد يفرض عليه... ولا يتأثّر بأي شيء... ولو كفرت كلّ مخلوقاته فلن يتغير أي شيء بالنسبة له تعالى لأنه لا يحتاج لتسبيحهم ولا لإيمانهم.... ومن ناحية الحكيم هُوَ لا يعبث ولا يلهو ولا يظلم ولا يتراجع عن وعوده، ولا يأخذ موقفا واحدا نهائيا طالما الطرف الثاني تغيّر، حَيْثُ يَغْفِرُ حتى لمن كان كافرا به... وهكذا تلاحظ أن أي صفة معيبة أو سلبية لَنْ تتماشى في نفس الوقت مع وصفه تعالى بالعزيز الحكيم.

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{2})

{هُوَ}، الذي لا يليق به إِلَّا التسبيح وهو الملك القدوس... {بَعَثَ}، أنهض وَأَقَامَ، {فِي الْأُمِّيِّينَ}، في الأشخاص المنسوبين لأساسهم، المنسوبين لوصف حالتهم عندما ولدتهم "أمّهم" من الخلو من معرفة شيء ما، وبتعبيرنا الحالي هُمْ يجهلون شيئا ما ويمكنهم تعلّمه، وهنا الكلام عن تعليمهم الدين الإلهي، إِذْ هُمْ في حالة الأميّة بالدين الإلهي، كما نقول: أميّ بالزراعة. ونقصد أني لا أعرف شيئا عن الزراعة. وما تجده في الكثير من الكتب كتفسير لكلمة "أميين" بَعْضُهُ من تطبيقات معنى الكلمة لمن لا يعلم القراءة والكتابة، وبعضه لا أساس لُغَوِيًّا له...

بعث تعالى في الأميين، {رَسُولًا مِّنْهُمْ}، شخصا من الناس العاديين "ومثلهم أمّي"، بَعَثَهُ تعالى لينقل كلامه لهم، {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ}، يقرأ كلاما مميزا غَيْرَ مُسْتَنِدٍ إِلَى الأميين، يَنْقُلُ لهم كلامه تعالى مستندا إلى الوحي الإلهي، وهذا الكلام آيات حَيْثُ إِنَّهُ مميّز وله دلالات مميزة لهداية الناس، {وَيُزَكِّيهِمْ}، يَجْعَلُ الأميين لائقين، خالين نقيين من الخبث الفكري أو النفسي أو التشريعي...

{وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ}، هُنَاكَ كتاب إلهي مخصّص للناس فيه ما يلزمهم ليهتدوا إلى الأمور الصحيحة، وهذا القرآن وما سبقه من كتب كالتوراة والإنجيل... كُلُّهَا تُوصَفُ بأنها كتاب إلهي، وَهَذَا الرسول محمّد(ع) يطرح معلومات من كتاب إلهي "القرآن" ليعلمها الأميون ويخرجوا من أميّتهم.

ويعلمّهم {الْحِكْمَةَ}، يُعَلِّمُهُمْ كيف يرون ويتعاملون مع الأمور بصوابية بعيدا عن الفساد والعبثية والخرافات والأهواء... وَالْحِكْمَةُ ليست شيئا مختلفا عمّا في الكتاب بل هي التطبيق العملي لما في الكتاب بشكل صائب، إِذِ الْكِتَابُ حكيم لا فساد ولا عبث فيه، وتطبيقه بشكل حكيم نتعلّمه من النموذج الرسول(ع) بسيرته، هُنَاكَ تفاصيل كثيرة في الحياة تَطَرَّقَ القرآن لبعضها حيث ذكر لنا الأساسيات التي يمكننا منها معرفة ما نفعله مع المستجدات، والرسول(ع) بتصرفاته ومواقفه كان يمثّل التطبيق العملي للحكمة المتماشية مع ما في الكتاب.

كَمِثَالٍ على الحكمة ما ورد عن تقسيمه (ع) للميراث بحصص مختلفة في حالات متشابهة، وفي التدقيق ترى أنه (ع) التزم بالحصص التي ذكرها القرآن وتصرّف بالثلث "إلى النصف" من التركة بحسب ما رأى فيه مصلحة الورثة... مَرَّةً أعطى الأعمام والأخوال مع البنات ومرّة لم يعطهم... وما تراه من صلابة في بعض الأحكام المذكورة في كتب الفقه مُقَابِلُهَا مرونة في الكثير من الروايات الواردة عنه (ع)، خُذْ مثلا توريث أو حرمان المرأة من العقار، بِالصَّلَابَةِ والحديّة أفتى البعض بطردها من بيت زوجها الميّت وتعويضها بحصتها ماليا، فَأَيْنَ الحكمة في طرد امرأة عجوز لن ترتاح ولن يرتاح أولادها إذا سكنت عندهم! وإلى أين ستذهب إن كانت فقيرة! وهكذا نرى أن القرآن طرح الأساسيات الحكيمة للتشريعات ومن الرسول (ع) تعلّمنا التعامل مع مختلف الحالات بحكمة، فَالْأَرْمَلَةُ الشابة التي في بيت زوجها مع أمّه وأبيه، مِنَ الأفضل تعويضها بالمال بدلا من حصّة في البيت ستصير ملكها وَتَتَزَوَّجُ في حصّتها برجل يأتي ويعيش مع أهل بيت زوجها السابق... هَذَا غير مقبول. أمّا غير الراغبة في الزواج أو التي لا مسكن آخر لها، فَأَيْنَ الحكمة من حرمانها من العقار إن كانت مصلحتها السكن في بيت زوجها المتوفّى!؟

{وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ}، في زمن سبق بعث هذا الرسول على الأميين كانوا، {لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}، كانوا بشكل واضح على شيء غير صحيح، عَقِيدَتُهُمُ الشرك وشريعتهم فاسدة وسلوكياتهم ظالمة، يعبدون الأصنام، وَيَئِدُونَ البنات، ويسحقون المستضعفين... هَذَا ضلال واضح كانوا فيه قبل تزكيتهم بتعليمهم الكتاب والحكمة.

وكما ستلاحظ هَذَا هو لبّ السورة: رسول وكتاب. وَالِانْتِسَابُ للدين الإلهي لا معنى له من دون اتباع الرسول والكتاب الإلهي.

(وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{3})

{وَآخَرِينَ مِنْهُمْ}، أَشْخَاصٌ غَيْرُ الأميين الَّذِينَ بعث تعالى الرَّسُولَ فيهم وهم منهم من الأميين، إِذْ هذا الرسول(ع) وكتابه لَيْسَا مَحْصُورَيْنِ فقط بمن جاوره من الناس في مكّة أو المدينة، فهؤلاء وصلهم العلم وَيُوجَدُ آخَرُونَ أُمِّيُّونَ، وهؤلاء الْآخَرُونَ، {لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ}، حَتَّى زمن هذه الجملة لم يلحقوا بمن انتقل من الأمية إلى الزَّكَاءِ الفكري والعملي

وتعلّم الكتاب والحكمة، حِينَ بعث تعالى في مكّة رسولا، وأهل مكة ومحيطها يوصفون بالأمية وبحاجة لرسول، ولكن الرسول محمّد(ع) ليس مبعوثا خصيصا لهم، بل أيضا للأميين الآخرين أيضا، لكل العالمين.

{وَهُوَ الْعَزِيزُ}، الْمَنْفِيُّ عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... إذْ هو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... ومن هذه العزّة فرض تعالى ما يريده، وأرسل في الأميين رسولا... ومن ناحية ثانية لَا يضرّه تعالى ولا ينفعه إرسال رسول ولا إيمان أو كفر الناس...

{وَهُوَ الْحَكِيمُ}، الذي يرى الصوابية في الأمور لَا يعبث ولا يلهو، إذْ هذا الرسول الذي جاءنا منه تعالى جاءنا حاملا معلومات ينقلها عن حكيم، معلومات ترينا الصوابية.

لَاحِظْ أن الآخرين الَّذِينَ تتكلم عنهم الآية هم نموذج، إذِ الكلام تطبيقيا عن الجدد الذين سينضمون لدين الإسلام... وفي أي زمن كان تَحْصُلُ صحوة لشخص ما في مسألة ما، في مسألة فساد أخلاقي أو حكومي أو مالي... أو تَحْصُلُ صحوة لمجموعة، ويعملون على نشرها للآخرين، حَتَّى لا يشعر بالتميّز القريبون من الصحوة زمانيا ومكانيا، تلفت الآية الانتباه للآخرين الذين سينضمون للصحوة.

فِي الأساس كلكم أُمِّيُّونَ، وبعدها صار التغيّر لكم تدريجيا وتباعا... وهذا شيء يحصل دائما وباستمرار عبر الزمن، لأن المجتمعات ولأسباب عديدة تمرّ بفترات فتور ومزاج استهتار وتفلّت من الدين... وتمرّ بفترات صحوة...

(ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{4})
{ذَٰلِكَ}، البعث للرسول للتزكية وتعليم الأميين الكتاب والحكمة، {فَضْلُ اللَّهِ}، إذْ ليس فرضا واجبا عليه تعالى بعث الرسول بين أهل مكّة، ولا في ذلك الزمان، ولا حتى في أي زمان ومكان كان، إذْ ليس للناس من أولهم لآخرهم عليه تعالى أي فرض واجب ليبعث فيهم رسولا، بل هكذا من فضله تعالى "ولأسباب حكيمة وبرحمته" بعث فيهم رسولا.

قارن ما تقوله الآية مع السؤال الذي تقوله أنت أو تسمعه من الآخرين: لماذا لا يوجد في زمننا رسول؟ ولماذا أنا لم أولد في زمن رسول؟ وهذه الأسئلة وأشباهها تنطلق من عدة خلفيات، منها افتراض خاصيّة مميّزة للناس الذين كانوا في عهد الرسول(ع)، وحتى هُمْ أهل مكّة سألوا هذه الأسئلة بطريقة معاكسة: لماذا من بين كلّ المدن بعث تعالى في مكّة رسولا؟ لِيَتْرُكْنَا وشأننا وَلْيَهْدِ غيرنا... وأهل مدينة يثرب والطائف... سألوا نفس الأسئلة: لماذا لم يبعث الإله رسوله في مدينتنا من عشيرتنا... ولحدّ الآن لا تزال هذه الأسئلة تصدر من بلدان وقارات... وهكذا ترى أن الاستجابة لما يرونه مناسبا تكون ببعثه تعالى رسولا في كل بلدة وبادية وغابة وصحراء وَبَوَادٍ وجبال... على وجه الأرض، وفي زمان متواصل ليتواصل كل إنسان خرج على وجه الأرض مع الرسول الإلهي، هَلْ هذا سيجعلهم مؤمنين؟ أولم يكفر غالبية الناس بالرسول الذي كان في زمانهم؟

إن لم تر الكفاية ببعث رسول واحد لينقل رسالته تعالى للناس، وبعدما ينتشر كلامه تعالى بين عموم الناس على مرّ الزمن، إن لم تر ذلك واخترت الحلّ الأول ببعث الرسل بشكل متواصل في كل الأمكنة، فَاتَكَ أن المجتمع من الناس إمّا أن يملك واحد منهم الصفات المناسبة لحمل الرسالة أو لن يكون بينهم رسول، إذْ سبحانه لا يقوم بالتلاعب بعقل إنسان ما ليجعله مؤمنا وَيُنَصِّبُهُ رسولا، لا، وليس عنده تعالى علبة فيها رسل، يَفْتَحُهَا وَيُنْزِلُ وَاحِدًا منها في الزمان الذي يراه مناسبا، لا، بل قبل خلقه تعالى للناس عَلِمَ أنه سيكون منهم أشخاص مؤهلون لحمل رسالته، وهم أشخاص صادقون طاهرون لم يتبعوا شهواتهم وغرائزهم السيئة، وهذا هو ما تذكره الآية 31 من سورة البقرة بكلامها أَطْهَارٍ مُمَيَّزِينَ جدا جدا من ذرية آدم(ع) "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"، وحين ولد أولئك الأشخاص ووصلوا إلى المرحلة المناسبة لحمل الرسالة الإلهية، جعلهم تعالى رسلا، هَلْ تقبل برسول إلهي على شاكلة أَبِي جهل وَأَبِي لهب؟! قَاتِلٍ، زَانٍ، نَصَّابٍ، غَشَّاشٍ، كَذَّابٍ لا حرمة عنده لأي حرام... ويقول لك إِنَّ الوحي الإلهي نَزَلَ عليه ليهدي الناس! وحتى لو كان بمواصفات سيئة تعتبرها عادية "مثلي ومثلك" فهل تقبل بي رسولا وأنا سلوكياتي عليها تعليق منك! فأنت لن تقبل شخصا ليكون رسولا إلا إذا كان لا تعليق عليه حتى تصدّقه ولا تشكّ في صدقه ولا من أي ناحية، وإذا لم يتوافر فيك أو في مجتمعك شخص بهذه الصفات فمن أين سيأتيك تعالى برسول؟

هنا تبرز حالة النبي عيسى(ع) الذي خلقه تعالى بتدخّل منه بدون أب، فإذا قارنتها مع ولادتك أنت، فأنت أيضا خرجت إلى الحياة بقرار منه تعالى من أب وأمّ، والنبي عيسى(ع) خرج إلى الحياة بقرار منه تعالى من أمّ فقط، ولم يخلقه تعالى مبرمجا ليكون رسولا، لا، مِنْ علمه السابق سبحانه بما ستكون عليه مواصفات هذا المولود من أمّ بلا أب، تعامل معه تعالى من قبل ولادته مرورا بطفولته ووصولا إلى رجولته على أنه سيكون رسولا وصار رسولا.

نَفْسُ الشيء، نَفْيُ القرآن لخروج نبي من الناس من بعد النبي محمّد(ع) كما ورد في الآية 40 من سورة الأحزاب "مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ..."، لَمْ يكن إلا عن علمه تعالى بأنه من بعد النبي محمّد(ع) لن يخرج إنسان إلى الحياة ويحمل المواصفات اللائقة لنزول الوحي الإلهي عليه.

{وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}، وصاحب هذا الاسم المحدد المميز الله منسوب إليه صفة الفضل، صفة تقديم أشياء جيّدة للآخرين من دون أن تكون فرضا واجبا عليه سبحانه، وتقديماته سبحانه توصف بأنها عظيمة بأنها من أعلى المواصفات.

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ{5})

{مَثَلُ}، شَبَهُ، {الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ}، نَزَلَ فيهم الكتاب الإلهي المسمّى بالتوراة والمشهور نزوله على الرسول موسى(ع)، {ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا}، لَمْ يكن حملهم لها له المعنى الحقيقي لحمل كتاب، بَعْضُهُمْ لم يقرأه ولم يتدبّره ولم يدرسه ولم يعمل بما فيه... {كَمَثَلِ}، كَشَبَهِ، {الْحِمَارِ}، وهو الحيوان المستعمل كثيرا لنقل الأغراض، {يَحْمِلُ أَسْفَارًا}، يحمل كتبا مكتوبة بشكل واضح، مَنْ يريد قراءتها يجدها مكتوبة بشكل واضح.

إذَنِ الحمار حيوان يستخدمه الناس لنقل الأغراض، إذَا حمل كتبا موصوفة بأنها أسفار، كما نقول أسفر الصبح، ونقصد أنه صار واضحا، هِيَ كتب واضحة لمن قرأها، فَإِنَّ الحمار الحامل لها لن تزداد ثقافته، وَمَنْ حمل التوراة بيده أو احتفظ بها في منزله، أو قرأها ولم يؤمن بها أو يطبّقها... فَلَمْ يحملها كما هو مفروض من إنسان لديه إمكانية الاستفادة من معلومات في كتاب، فَهُوَ مشابه للحمار الذي يحمل كتبا مكتوبة بخطّ وجمل واضحة ولا يستفيد منها.

إعْلَانُ الانتماء لدينه تعالى لا معنى له من دون تطبيق كلامه تعالى الذي وصلنا عبر كتبه، وهناك نموذج بارز عن أناس وصلهم كتاب إلهي ولكن غالبيتهم لم يدرسوه بقصد التعلّم منه وتطبيق ما فيه، مثل حالتنا اليوم حيث ترى نُسَخَ الْقُرْآنِ منتشرة في كل البيوت، والقليل منّا قارئون له، والأقل منّا ملتزمون بما فيه...

الْآيَةُ لم تقصد إهانة الحمار، بل قصدت إهانة الناس الذين حملوا الكتب الإلهية ولم يستفيدوا منها، إِذِ الْحِمَارُ وضعه الطبيعي العادي أن يحملها ولا يستفيد منها، ولكن هل هم وضعهم الطبيعي العادي أن يحملوها ولا يقرؤوها ولا يستفيدوا منها؟!

{بِئْسَ مَثَلُ}، ما أَسْوَأَ شبه، {الْقَوْمِ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الكتاب الإلهي، {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ}، لَوْ صدّقوا بكلامه المميز سبحانه، مَا كانوا ليهملوه، ولكنهم "من داخلهم" كذّبوه وَلَمْ يصدّقوه وَأَهْمَلُوا محتواه، {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي}، لا يضع "غصبا عنهم" على الشيء الصحيح الذي يوصل لغاية صحيحة، {الْقَوْمَ}، الناس الَّذِينَ لَهُمْ كيان الجماعة المتفاعلة مع كتابه، {الظَّالِمِينَ}، الَّذِينَ لم يكونوا منصفين ولا عادلين ولا محقّين، إِذِ الإنصاف والحقّ هو الاستفادة من الكتاب الإلهي، والظلم هو إهماله.

مَنْ لم يكن منصفا ولا محقّا فَلَنْ يغيّر سبحانه فكره ونفسيته ليدلّه على الطريق الصحيح، بل سيتركه يتصرّف كما يريد، وانتماؤه وحمله لكتاب إلهي لَنْ يفيده بأي شيء.

نَنْتَبِهُ جيدا، إِذِ الَّذِينَ حملوا التوراة يعتبرون أنفسهم متدينين، وَهُمْ بالكلام مع الآخرين يحترمون التوراة ويعتبرونها كتابهم المقدّس، وبعضهم يُصَلِّي ويصوم وَيُزَكِّي و... كَيْفَ تصفهم الآية بأنهم ليسوا على هدى التوراة؟ حَسَنًا، لا تبتعد كثيرا إلى هناك وانظر إلى نفسك ومن حولك، هَلْ أنت تعتمد عمليا على القرآن كمصدر لثقافتك الدينية؟ هَلْ تقرأ القرآن يوميا أو غالبا لتدرسه وتفهمه؟ ربما تقول: أحاول أن أفهمه ولكن لا أستطيع. أو تقول: أعتمد على كتب العلماء الذين

يعتمدون على القرآن وهذا يعني أني أعتمد على القرآن. أو تكون أكثر جرأة وتقول: ليس معي وقت لقراءة القرآن ودراسته. أو أكثر جرأة من ذلك وتقول: أنا أصلي وأصوم وَأُزَكِّي... أَنَا ملتزم بكل ما يقوله القرآن ولا داعي لقراءته إِذْ لَنْ أجد شيئا جديدا فيه. أو تكون أكثر جرأة وتقول: أنا منتسب للقرآن مؤمن بأنه كتاب إلهي وكفى، لِأَنَّ هَذَا شيء كثير أقدّمه.

هذه أوضاع عامّة المسلمين وهي مشابهة لأوضاع عامّة اليهود الذين نبّهنا القرآن مرارا وتكرارا أن لا نقع فيما وقعوا فيه، ومضافا إلى الشبه بيننا وبينهم نتذكّر أن اليهود مذاهب وطوائف متعادون متنافرون مَرَّتْ عليهم أزمنة ارتكبوا فيها المجازر ضدّ بعضهم... وهذا معلوم من التاريخ والقرآن أشار إليه في الآية 85 من سورة البقرة "ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ..."، أضف إِلَى الشبه بيننا وبينهم أنهم اعتمدوا التلمود كتابا أساسيا للعقيدة والشريعة ونصائح الحياة... وهو كتاب من تأليف علمائهم، وعبر التاريخ أجروا عليه إضافات وتعليقات... وهو كتاب لا يختلف كثيرا عن كتب الروايات المبوّبة عندنا، ولا عن كتب فتاوى الفقهاء، إِنْ كنت تنظر بالقداسة للروايات المنسوبة للنبي محمّد(ع) رغم ما فيها من خلل ودسّ وكذب، وتخلط بين تقديسك واحترامك للنبي محمّد(ع) بشخصه وبين تلك الروايات المنسوبة له، لَوْ كانت فعلا صادرة عنه(ع) كما هي بدون نقص أو تشويه وكانت كاملة حتى نفهمها... لَمَا نَاقَشْنَا في احترامها وتقديسها، أمّا على الوضع الحالي المزري للروايات، ومضافا لها الروايات عن الصحابة والتابعين والرموز الدينية لمختلف طوائف المسلمين، وبالنظر لكتب الفقهاء في كل المذاهب المشحونة بالاختلافات، فَفِي هذه النقطة بالذات: لا فرق بيننا وبين اليهود.

كُلُّ السورة هنا لبّها حول الفرق بين الانتساب الحقيقي للدين الإلهي عبر اتباع الرسول والكتاب الإلهي، وبين اعتبار أنفسنا من أتباع الدين ونحن في العمق لسنا مهتمين بالمعلومات التي يطرحها الدين ولا بتطبيقه كما هو بالحقيقة.

أَخِيرًا لِنَضَعْ في بالنا دائما أن القرآن غالبا حينما تحدّث عن بني إسرائيل فَهُوَ لم يقصد إهانتهم، بل قصد أن يرينا ما فعلوه من سوء حتى لا نفعل مثلهم، هَلْ نفعنا ذلك؟ هَلْ تستصعب القول: مثل الذين حمّلوا القرآن ولم يحملوه كمثل الحمار يحمل أسفارا؟ إذا استصعبت ذلك فَأَنْتَ متعصّب أعمى ولست ترى الحقيقة المرّة.

ما يسمّى الآن بالتوراة هُوَ مجموعة كتب جمعها أحبار اليهود على مرّ التاريخ، وتوراة النبي موسى(ع) بقي منها الشيء القليل في التوراة الحالية، ويقولون بِأَنَّ الأسفار الخمسة الأولى الموجودة الآن في كتاب التوراة، هي التوراة المنسوبة للنبي موسى(ع) وبقية الأسفار من تأليف أنبياء آخرين ومن تأليف الأحبار، ولكن بمراجعة الأسفار التي ينسبونها للنبي موسى(ع) ستجد أن غالبيتها الساحقة مقولة عنه (ع) وليست مقولة منه ولا مقولة من الله تعالى، وهذا شيء لا ينفيه اليهود الذين يقرّون بأن كتب التوراة أُحْرِقَتْ وتلفت في زمن سبي البابليين، وَكَتَبَهَا من جديد الكاهن "عزرا" ممّا يتذكّره منها "وما أعجبه مما تذكّره"، وَكَتَبَهَا قبل ميلاد السيد المسيح(ع) بِحَوَالَيْ خمسمئة عام، ومن بعده أضاف علماء اليهود إليها أسفارا جديدة... وهذا هو الكتاب المنتشر حاليا بين الناس والمسمّى بالتوراة.

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{6})
قُلْ يا أيها الذين هادوا، يا أيها الذين قالوا أنهم منيبون إليه تعالى مطيعون له، {إِن زَعَمْتُمْ}، قُلْتُمْ شيئا لا يستند في صحّته إلا على قولكم، {أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ}، تابعون له تعالى فتسمعون وتنفّذون فقط كلامه تعالى وبالتالي سيعتبركم خاصّين به كمؤمنين مميّزين، {مِن دُونِ النَّاسِ}، إِذْ بقية الناس بزعمكم ليسوا أولياء له تعالى، وأنكم أنتم لوحدكم أولياء له، {فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ}، إِذْ في العادة لا يرى الإنسان أن موته قريب، ارْغَبُوا في أن يكون قريبا الموت الذي تستبعدون حصوله "قريبا"، {إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}، بأنكم أولياء له تعالى لوحدكم.

الْوَلِيُّ الحقيقي لله تعالى سَيَدْخُلُ إلى الجنّة حتما، وأنتم تزعمون أنكم كذلك، فلماذا لا تتمنون الموت حتى تدخلوا إلى الجنّة الخالدة الرائعة؟

مِنْ عموم القرآن تلاحظ أن الموت شيء عادي في نظره تعالى، لأننا كلنا سنموت وستنتهي الدنيا ونعود إلى الحياة في الآخرة وبعدها لا نموت أبدا في الجنّة أو في النار، وهذا الشيء مذكور في التوراة، وأنتم تقولون أنكم أولياؤه تعالى،

الخاصّون به تعالى المميزون عنده، فلماذا لا تتمنون الموت حتى تدخلوا إلى الجنّة الخالدة؟ والعكس هو المعلوم منهم، إذْ هُمْ بغالبيتهم يكرهون الموت لشدّة تعلّقهم بالدنيا وبما يعلمونه في داخلهم من عقاب لهم على سوئهم كما ستقرأ في الآية التالية.

مَنْ حمل التوراة "أو القرآن" عن علم وفهم، وعمل بما فيها، سَيَتَمَنَّى الموت للدخول إلى الجنّة الخالدة، أمّا هؤلاء فَقَطْ يزعمون أنهم هادوا وأنهم أولياء له تعالى، لِأَنَّهُمْ حملوا التوراة كما لو أن حمارا يحملها، فلا علاقة لهم بالتوراة إلا بالاسم انتسابا إليها، مثل الذين تراهم حولك من الذين يفتخرون بأنهم مسلمون، وكتابهم القرآن العظيم، ومتعصبون لدينهم، ويزعمون أنهم سيدخلون إلى الجنّة... وفي الحقيقة هم لا يصلّون أو لا يصومون، أو لا يزكّون... إذْ هُمْ غير ملتزمين فعلا بما يقوله القرآن! ويشيع بينهم أن المسلم من مذهبهم لا يدخل النار! وهنا السورة تتحدّث معهم وتحذّرهم من ذلك.

فِي القواميس العبرية المرموقة نجد كلمة "يهود" واشتقاقها من هاد هدنا "هداية"، وتطبيقيا فسروها على معنى الإنابة والحمد له تعالى "المنيبين الحامدين"، إذْ في اللغتين العربية والعبرية هي في الأساس نفس الكلمة بنفس المعنى من الاهتداء "الهداية"، وعندما تشتق منها تسمية أو فعل مباشر يصير تصريفها مثل قول النبي موسى(ع) المنقول في الآية 156 من سورة الأعراف "وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ..." فنعتبر هدايتنا نحوك، وترى ذلك في استعمال اشتقاق فعل منها عدة مرات في القرآن ومنها ما ورد في الآية 62 من سورة البقرة "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ...".

(وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ{7})
{وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا}، مَهْمَا جاء من زمن فلن يرغبوا أبدا بأن يموتوا، {بِمَا}، بسبب الذي، {قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ}، إذْ في السابق عن اللحظة التي تسألهم الآية فيها عن تمنّي الموت، هُمْ بأيديهم بأنفسهم بأفعالهم الشخصية، قد قدّموا لحدّ هذه اللحظة أعمالا سيئة، وبسببها لن يتمنّوا الموت، كما نقول قدّم لي الطعام، وَهُمْ قدّموا لأنفسهم السيئات ولذلك لن يتمنّوا الموت لأنهم يعلمون أنهم سيتحاسبون بالعقاب على سيئاتهم، هذا إن كانوا يؤمنون بالآخرة.

هُمْ اليهود "النموذج السيّء منهم" لَيْسُوا مؤمنين عن حقّ بما يقولونه، إذْ يعلمون بالمحرمات التي يرتكبونها وبالواجبات التي يتركونها فَلَيْسُوا أولياءه تعالى.

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}، لَدَيْهِ كل المعلومات بشكل تام تفصيلي عن الذين لم يكونوا محقّين منصفين، فلم يكن معهم حقّ بتكذيبهم لكلامه تعالى، إذْ ظُلْمًا لم يؤمنوا بالشكل المطلوب، وظلما يقولون أنهم أولياؤه سبحانه.

رُبَّمَا ترى تناقضا بين إيمانهم بالآخرة وحسابها العسير وفساد دينهم، فتفترض أن من يؤمن بعذاب الآخرة يجب أن يكون ملتزما بالدين الإلهي ويتمنّى الموت حتى يدخل الجنّة، وهذا الافتراض غير صحيح، خُذْ مثلا أنت نفسك، وقارن درجة إيمانك مع ما هو مفروض منك فعله لو كنت مؤمنا حقيقيا، إِذِ الْمُؤْمِنُ الحقيقي من الدرجة العالية يتصرّف كالأنبياء، من صلاة الليل والنوافل والمستحبات وتمضية الوقت في كسب الحسنات من مختلف أنواع الأعمال التي يرضى عنها تعالى... ولكننا لسنا كذلك! وخذ مثلا إبليس الذي يعلم بوجود آخرة ونار، ورغم ذلك خالف أوامره تعالى ولا يزال "راكبا رأسه ومصرا" يعمل على تضليلنا ليثبت له تعالى أنه أفضل من البشر! وكذلك اليهود مكتوب في كتابهم عن الآخرة ولكنهم لا يتصرّفون على هذا الأساس، والسورة تنبهنا أن نكون مثلهم، وكما ترى، أَكْثَرُنَا مثلهم...

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{8})
{قُلْ}، لهذه النوعية من الناس، يهود أو مسلمين أو نصارى... قل لهم عبر هذا القرآن: {إِنَّ الْمَوْتَ}، إنَّ فقدان الحياة، {الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ}، تبتعدون عن قربه والكون فيه، {فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ}، سوف تلتقون به وستصيرون فيه فتموتون، {ثُمَّ تُرَدُّونَ}، يتم ردّكم إرجاعكم، {إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ}، إلى الذي يعلم كلّ ما غاب عنكم، ويعلم، {وَالشَّهَادَةِ}، ما شهدتموه وتعلموه، إِذِ الْأُمُورُ التي فعلتها أنت فشهدتها أنت وغابت عنّي، والأمور التي حصلت بعد موتي من آثار أعمالي وغابت عني فلم أشهدها لأني كنت ميتا، والأمور التي من أفعالي والتي قمت بها شخصيا، والأفعال التي قمت بها أنت وشهدتها

أنا... سَنَرْجِعُ من الموت لنقف بين يدي الذي يعلم الغيب والشهادة وسيحاسبنا، {فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}، إِذْ عُمُومُ أي عمل قمتم به ونسيتموه أو حصل ولم تدروا به... إِخْبَارُكُمْ به يكون نبأ لأنه خبر غير منتشر علمه بينكم.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{ 9})

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين: {إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ}، سمعتم الصوت الموجّه إليكم "الآذان" ليخبركم بوقت الصلاة، بوقت التوجّه نحوه تعالى، {مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ}، فِي كل يوم نداء للصلاة "آذان" والكلام هنا عن خصوص الآذان للصلاة في يوم الجمعة، ومن المشهور المعلوم بين المسلمين أن الكلام عن آذان صلاة الظهر يوم الجمعة، {فَاسْعَوْا}، قوموا بحركة تقصدون بها، {إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ}، توجّهوا إلى حيث استحضاره تعالى في فكركم وعملكم، {وَذَرُوا}، لا يعد لكم علاقة بـ، {الْبَيْعَ}، بعموم أي نوع من تبادل أي شيء مع الآخرين عبر إعطائهم شيئا ما للحصول على المنفعة، {ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ}، التَّوَجُّهُ إلى الصلاة لذكره تعالى وترك البيع حينها فهو موصوف بأنه حسن جيد، {إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}، إن كانت لديكم قناعة بأن هذه الفكرة واقعية حقيقية، إن فعلا كنتم مقتنعين بكلامه تعالى عن الصلاة جماعة يوم الجمعة بأن المكسب منها أفضل من مكسب البيع.

لَاحِظِ اختيار الآية للبيع لتقارن بينه وبين صلاة الجمعة لتقول أن هذه الصلاة خير من البيع، إِذِ الْبَيْعُ مجرد نموذج عن شيء فيه استفادة لن نتركه عادة، ولكن هذا بوضوح لا يعني أن الانشغال بشيء آخر غير البيع يجيز لنا ترك صلاة الجمعة، لا، فَقَدِ اختارت الآية نموذج البيع على أساس أهميته وأنه قد تأتي فرصة بيع لا تعوّض... وهذا عادة الأعلى أهمية بالنسبة لنا من الكثير من الأمور الأخرى، أمّا لو كان هناك ما هو أهم من البيع، كمريض أو جريح في حالة حرجة وبحاجة للمساعدة... أو حريق أو غريق... أو حراسة... فَلِأَجْلِ هذه العناوين التي بسهولة ترى أهميتها، اسْتَعْمَلَتِ الآية نموذج البيع لتشمل معه كل ما تحته وأقل أهمية منه أو يمكن تأجيله... وتخرج بقية الأمور الحرجة ذات الأهمية الأعلى من البيع، فتلك الأمور ممنوع تركها للتوجّه نحو الصلاة التي في يوم الجمعة أو في غيرها، حَيْثُ يُمْكِنُ تأدية الصلاة في بقية الوقت من النهار...

وكما تلاحظ انْتَقَلَتِ السورة الى محور الاستفادة ممن يذكر الله تعالى بحقّ، وَكَمَا تعلم "وكما افترضت السورة أنك تعلم"، مما هو مشهور بين عامّة المسلمين عن صلاة الظهر في يوم الجمعة، أنه يحصل فيها إلقاء خطبة عن الدين وعن أمور تهمّ المسلمين، وحين نزول هذه السورة كان المجتمع الاسلامي محصورا "أو شبه محصور" في مدينة يثرب حول الرسول محمّد(ع)، واعتبرت السورة "واقعيا" أنه ليس كلّ خطيب سيكون مصدرا حقيقيا للمعلومات الدينية، ولذلك ذكرت الرسول(ع) في الآية التالية كنموذج مضمون لأفضل خطيب ديني يمكنه تزويد الناس بمعلومات صحيحة مئة بالمئة.

مِنَ المثال السابق عمّن يحمل الكتاب الإلهي ولا يستفيد منه، والمثال الحالي عن وجود فرصة لذكر الله تعالى مرّة في الأسبوع من الرسول شخصيا "كنموذج عن أفضل مصدر بشري للذكر الإلهي الصحيح"، تَكُونُ السورة قد نبّهت على المصدرين "القرآن والرسول" اللذين يجب على الذي أعلن أنه مؤمن أن يتعلّم منهما دينه.

أمّا ترك القرآن وترك الرسول(ع) والاعتماد فقط وفقط على الانتساب لهذا الدين من دون تعلّمه من مصدريه الأساسيين، فَهَذَا ليس تدينا.

وكما ترى سُبْحَانَهُ لم يرد إرهاقنا بالالتزامات الدينية، إِذْ مَعْلُومٌ الثواب الجزيل لعموم صلاة الجماعة في كل أوقات الصلوات وفي كلّ الأيّام، ولكنها ليست واجبة جماعة ولا في المسجد، أمّا صلاة الجمعة فَتُوجِبُهَا سورتنا هذه على كلّ المكلّفين "ما عدا المرضى و..."، كمحطّة أسبوعية لكل أفراد المجتمع للاطّلاع على شيء ديني وعلى آخر المستجدات التي لهم علاقة بها دينيا واجتماعيا وسياسيا وإنمائيا...

حَالِيًّا أنت بشكل يومي يمكنك الاطلاع على أخبار الكرة الأرضية، وحتى أن عموم الناس صار لهم اهتمام يومي بالأخبار وبتداولها، فَنَدَرَ من لا يسمع نشرات الأخبار وليس منتسبا لمجموعات أخبار على وسائط التواصل الاجتماعي، وهذا ليس وضعا سليما بهذا الشكل الذي نراه، إِذْ غَالِبِيَّةُ الناس بسطاء أمام الثعالب التي تدير نقل الأخبار، فيظن الناس

أنهم لهم قيمة بمعرفة معلومات عن الأحداث، فيتابعوها، وهم لا يدرون أنهم تتم السيطرة عليهم وتوجيههم بالأخبار التي يسمعوها، وهم لا يعلمون أن عمق أسباب حصول الحوادث أَبْعَدُ مما يرونه ويسمعونه...

ولذلك هُمْ بحاجة لمن يقدّم لهم الحقائق البسيطة القليلة، وليسوا بحاجة لتجميع معلومات كثيرة لا تهمهم ولا تفيدهم ولا علاقة لهم بها... ولهذا تقدم لك السورة هنا النموذج الرسول خطيبا لصلاة الجمعة كمصدر للمعلومات للمسلم حول ما يجري حوله من الشؤون العامة، وإن لم تكن وظيفة المسلم اليومية لها علاقة بالشؤون العامة، فَلْيَكْتَفِ بالملّخص عن الأجواء، فلا داعي له لتضييع وقته بمتابعة أخبارها بالتفاصيل وليجد شيئا آخر يعمل به.

أَطَلْتُ عليك لأننا في موجة الاهتمام بالأخبار والأنباء والتحاليل... وكأننا كلنا مطلوب منا ذلك؟ وصرنا نعيب على من لا يتابع الأخبار، وصرت مجبرا على سماع التحاليل من أصدقائك وجيرانك وما تنقله لك زوجتك عن تحليلات صديقاتها للأوضاع العالمية... وصارت خطب الجمعة عند الكثيرين من هذا المعيار الدولي أيضا...

(فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ{10})
{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ}، كَانَ مطلوبا منكم التوجّه نحوه تعالى وقمتم به، وهنا الحديث بالخصوص عن صلاة الجمعة، {فَانتَشِرُوا}، تَوَزَّعُوا، {فِي الْأَرْضِ}، إِذْ لَمْ يعد مطلوبا منكم البقاء حيث تجمّعتم للصلاة، فَاذْهَبُوا حيث شئتم، {وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ}، فِي مجالات الحياة المختلفة يوجد أمور تَفَضَّلَ بها تعالى عليكم فصارت متاحة لكم من دون أن تكون فرضا واجبا عليه تعالى لتقديمها لكم، كالعمل لكسب المال أو شراء الحاجيات أو التجارة أو التعلّم... فَابْتَغُوهَا وَاعْمَلُوا على تحصيل ما تريدونه منها.

{وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا}، اسْتَحْضِرُوهُ تعالى في فكركم وعملكم، إِذْ إِنَّ قِيَامَكُمْ بالصلاة الواجبة وَانْتِهَاءَهَا لا يعني أنكم صرتم أحرارا لتفعلوا السيئات، بل داوموا على استحضاره تعالى في فكركم وعملكم.

{لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، إِقَامَةُ الصلاة وَالْمُدَاوَمَةُ على ذكره تعالى مِنَ المفروض ومن المتوقّع أن تجعلكم توصفون بأنكم أفلحتم، أَجَدْتُمْ عملا، وَقُمْتُمْ بالعمل الصواب الصحيح.

لَاحِظِ الآيتين السابقتين تحدثتا عن وجوب الانضمام إلى صلاة الجمعة، ولم تتحدّثا عن تفاصيل صلاة الجمعة لأنها أمور ثانوية بالنسبة لأمر الاجتماع للصلاة لكل المسلمين في يوم محدّد من أيام الأسبوع، ومما سيأتي عن قيام الرسول(ع) "بإلقاء خطبة" في يوم الجمعة "وانفضاضهم عنه" سترى أن الآية هنا تتحدث عن الانتشار بعد انقضاء الصلاة سَبَقَتْهَا خطبة للرسول(ع). الْمَشْهُورُ بين المسلمين أن الرسول(ع) كان يلقي كلمة على الناس بعد آذان الظهر، وبعدها يُصَلِّي بهم ركعتين "صلاة الجمعة" عوضا عن أربع ركعات لصلاة الظهر.

تُلَاحِظُ أنه فقط وقت الصلاة مطلوب التوقّف عن التجارة، وليس قبلها ولا بعدها، فإن كان هناك خطبة على المواصفات المطلوبة، فالنهي عن البيع أَثْنَاءَهَا بديهي.

(وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ{11})
{وَإِذَا رَأَوْا}، إذا صار عندهم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: إذا شافوا، {تِجَارَةً}، عملية تبادل بين طرفين ليأخذا ما يستحقانه من البيع والشراء، وأحد الطرفين أو كِلَاهُمَا يَقْصِدَانِ زيادة الربح على رأس المال، أو رَأَوْا {لَهْوًا}، عملا غير مهمّ بالمقارنة مع عمل آخر، وهنا المقصود أنهم تركوك وذهبوا لفعل شيء آخر أقل أهميّة من البقاء معك لسماع ما تقوله، {انفَضُّوا}، غَادَرُوا قبل الأوان من حيث كان يجب أن يتواجدوا، {إِلَيْهَا}، تَرَكُوكَ وَتَوَجَّهُوا نحو التجارة أو اللهو، {وَتَرَكُوكَ قَائِمًا}، تَرَكُوكَ واقفا منتصبا تقوم بتفعيل شيء ما، تقوم بإنجاز شيء ما، وهنا الكلام عمّا هو مشهور معروف بين المسلمين عن قيام الرسول(ع) بإلقاء خطبة في يوم الجمعة، فَيَتْرُكُونَهُ يخطب وَيَذْهَبُونَ من المسجد...

{قُلْ}، أيها الرسول(ع) عبر هذا القرآن للتاركين سماع خطبتك للتوجّه نحو التجارة أو اللهو:

{مَّا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ} ، إِذِ الْبَقَاءُ لسماع ما يقوله الرسول(ع) يقابله عنده تعالى ثواب أفضل من التجارة واللهو، وكما ترى التِّجَارَةُ في غاية الأهمية في حياتنا العادية واللهو ليس له أهميّة، وكلاهما ليسا أفضل من البقاء لسماع كلامك الديني أيها الرسول، وَلَيْسَا أفضل من سماع ما يهمّ المسلمين في أمورهم.

وقل لهم: {وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} ، فإن كنتم تخافون أن يفوتكم رزق ما، وَيَذْهَبَ الزبون، وَتَفْقِدُونَ ما له ارتباط بما تحتاجونه، أَيْ تَفْقِدُونَ المال أو الطعام... فتذكّروا أنه تعالى هو الرازق وأنه أفضل من رزق، إِذْ أَصْلًا ما معكم من رزق، من أمور تسدّون بها حاجاتكم ورغباتكم، سُبْحَانَهُ الذي أتاحه لكم.

نَتْنَبِهُ جيدا إِذْ عَامَّةُ القرآن تَعْتَبِرُ الرسول محمّد(ع) كنموذج، وهنا هو (ع) نموذج عن خطيب لصلاة يوم الجمعة، كَمُؤْمِنٍ لن تناقش في ضرورة الاستماع للرسول(ع) لتعلّم دينك، بل الآن لدينا مشاعر تِجَاهَهُ(ع) نَتَمَنَّى لو أننا نستطيع سماعه والجلوس معه... أمّا وقد مات(ع) فالقرآن لم تمت معانيه، والذي تنصّب بدل الرسول(ع) ليلقي خطبة دينية أو خطبة تتحدّث عن شؤون المسلمين في يوم الجمعة، فَمِنَ المفروض أن يتحلّى بأفضل مواصفات ممكنة تؤهلّه ليكون مصدرا دينيا للناس، إِذِ الْمُؤَهَّلُ الأول وصاحب المواصفات التامة الذي اتخذه القرآن نموذجا هو رسول إلهي، ولا مقارنة بينه وبين بقية الناس، ومن بعده نتنزّل بمواصفات الخطيب إلى الحدّ الأقل حيث لا تفقد فيه خطبة الجمعة معناها الديني، وكما ترى هنا في السورة خُطْبَةُ صلاة الجمعة هي ثاني مصدر لتعلّم الدين وللتعرّف على ما هو مطلوب منك كمؤمن من بعد القرآن.

لَنْ أطيل عليك الكلام وسأترك لك تكملته، هَا هِيَ السورة نتلوها ونسمعها تنبهنا من تقليد اليهود الذين حملوا أسفارا لم يلتزموا بما فيها، وصرنا مثلهم... وتنبهنا من ترك صلاة الجمعة كمصدر ثان لتعلّم ديننا ومتابعة شؤوننا العامّة، هَلْ جُمُعَاتُنَا كذلك؟ تَسْمَعُ العجب من خطباء المسلمين، من كلام مذهبي طائفي... وتحريضي ضد بعضنا... بالتحقير وتسفيه المذاهب الأخرى... وتسمع كلاما تافها سخيفا متشابكا غير مدروس ولا عن تحضير من الخطيب... وتسمع لنصف ساعة أو ساعة كلاما فائدة ما فيه "إن كانت فيه فائدة" لَا تَزِيدُ عن بضع دقائق... وتسمع وتسمع... وهم يتلون هذه السورة التي تأمرهم بالتمسك بكتابه تعالى! ألا ينتبهون أَنَّهُمْ حِينَ يَعْتَلُونَ الْمِنْبَرَ يُمَثِّلُونَهُ تعالى؟ إِذْ هُمْ يَمْتَثِلُونَ لأمر إلهي سَبَقَهُمْ إليه الرسول محمّد(ع) الذي اعتلى المنبر يوم الجمعة تمثيلا له تعالى، هَلْ تسمع آذانهم ما يقولون؟

سورة المنافقون (63) ص 554

وصفت من يعتبر نفسه يضفي الشرعية على الرسول الإلهي بالنفاق، هُنَاكَ من لا يعتبره رسولا إلهيا بحقّ، ويعتبر اتِّبَاعَهُ له ودعمه بالمال إضفاء للشرعية على "محمّد(ع)" ليكون أمام الناس في منصب رسول الإله، وتحذّر المؤمنين من الوقوع في تصرفات مشابهة لتصرفات المنافقين، أو الوقوع في تصرفات نتيجتها مشابهة لنتيجة تصرفات المنافقين...

مَا يَقُومُ به الرسول ليس عملا شخصيا له حتى نتعامل معه على مزاجنا، إِذْ هُوَ (ع) لا يبني حزبا خاصا به، بل هو (ع) يتعاطى الشؤون العامّة التي تهمّ كل المسلمين ومن ضمنهم أنت، وبناء على كونك جُزْءًا من هذا المجتمع فعليك القيام بدورك متماشيا مع دينه تعالى... وإلا فما الفرق بينك وبين المنافقين؟

تَمَاشِيًا مع مفاهيم القرآن التي تطرح ما جرى مع الرسول(ع) كنماذج، إِنَّ النِّفَاقَ الذي تتحدّث عنه السورة منتشر على مرّ العصور فيما يفعله الناس الذين يرون لأنفسهم أهمية إعطائهم الشرعية لخط الدين الإلهي، لَا تحصرها بتاريخ وزمن الرسول(ع)، إِذْ إِنَّهَا قصدت أن تكون عمومية، وأشارت تلميحا لنماذج حوادث جرت في عصره(ع)، وسترى حين تقرأ السورة أنك حتى لو جهلت تاريخ سيرته (ع)، فلن يتغيّر فهمك لما تقوله السورة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ{1})

أيها الرسول محمّد(ع):

{إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ}، الذين يظهرون للناس أنهم مؤمنون ولكنهم من داخلهم ليسوا مقتنعين بالدين، عِنْدَمَا صاروا عندك، {قَالُوا}: {نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ}، فبشكل عام بسبب سلوكك وبسبب ما تقوله وبسبب كتابك وبسبب حججك... وبسبب إعلانك عن نفسك أنك بهذا المنصب... فنحن نؤكّد على صحة وظيفتك بعنوان ناقل للكلام الإلهي.

كما ترى، هم منافقون، إذْ أصلاً من داخلهم لا يؤمنون بأن محمّدا(ع) رسول إلهي، وبلسانهم فقط يقولون إنه رسول.

{وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ}، فشهادتهم التأكيدية هذه لا تعني أي شيء، فعلى فرض أنك لم تكن رسولاً إلهياً بحق، وفرضاً كنت تدّعي ذلك، فما نفع شهادتهم؟ وإن كنت فعلاً رسولاً بشهادة إلهية، فشهادتهم لن تقدّم ولن تؤخّر.

{وَاللَّهُ}، في مقابل شهادة المنافقين بإيمانهم برسالتك، {يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}، فهم لم يؤمنوا من داخلهم بك كرسول، لِذا يعتبرونك كذّاباً تَرَأَّسْتَ على الناس، حين يقولون: نشهد إنك رسول، فهم لا يقولون هذا عن قناعة، بل يكذبون.

عليك أن تقرأ هذه السورة من نفسية المنافقين كما تعرضها السورة، فهم لا يؤمنون فعلاً بأن محمّدا(ع) رسول، ويعلنون أنهم يؤمنون به كرسول، وها هُمْ يذهبون إليه ليقولوا له إنهم يشهدون على صحّة ادّعائه كرسول.

هم ينظرون إليه كشخص وضع نفسه في منصب عَالٍ جداً جداً فوق منصب الملك وتحت الإله، إذْ هو في أعلى منصب رئاسة على عموم الناس، وهم هكذا ينظرون إليه لأنهم من داخلهم لا يؤمنون به أنه فعلاً رسول من الإله، وهنا الآية تصوّر لك مشهد تعاملهم معه(ع) بتقديم شهادتهم "المنافقة" له لتأكيد منصبه، على أساس أنه مثلهم يمثّل دوراً دينياً في مسرحية، حيث يمثّل عليهم دور الرسول وهم يمثلون دور المؤمنين.

في مقابل هذه الشهادة هم يتوقّعون منه(ع) أن يعتبر لهم قيمة عالية، لأنهم دعموا موقفه وأضفوا على منصبه دعماً وشرعيةً ليجلس على رئاسة الناس في منصب الرسول الإلهي.

بعبارة أخرى، المنافق لا يؤمن بأن محمّدا(ع) رسول إلهي، وبالتالي يعتقد أن محمّدا(ع) بذات نفسه يعتقد عن نفسه بأنه يكذب ويمثّل دور الرسول الإلهي، والمنافق يرى "محمّدا(ع)" متربعاً على الرئاسة، بأعلى منصب، لِذا يذهب إليه ليعلن له دعمه، ويتوقّع من محمّد(ع) أن يعطي قيمة لهذه الشهادة وهذا الدعم، إذْ بسببها سيصير لمحمّد قوّةٌ في مجتمعه، وسينضم إليه عدد أكبر من الناس...

حالة الدعم هذه للشخص الذي يتنصّب على رئاسة، هي الحالة المنتشرة بين الناس عبر التاريخ، هكذا يصير أحدهم مَلِكاً أو رئيساً أو رئيس وزراء أو رئيس عائلة أو قبيلة أو حزب... إذْ بسبب دعم الآخرين له سيتمكّن من التمركز في السلطة، وانطلاقاً من هذه العقلية جاء المنافقون ليقولوا لمحمّد(ع) إنهم يعطونه الشرعية ليصير رئيساً على الناس بمنصب الرسول الإلهي.

هكذا نفهم أن السورة لم تمت معانيها بموت الرسول محمّد(ع)، بل معانيها تنطبق على أي شخص ترأّس الناس، فإن كان مؤمناً حقيقياً فلن يحتاج لشهادة المنافقين المتملقين الانتهازيين الوصوليين... ليدعموه في منصبه، ولن يحابيهم ويقرّبهم منه... وأصلاً لن يهمّه المنصب والبقاء فيه، والبقاء في المنصب عبر الطرق الملتوية من دعم تلك النوعية السيئة يعني أنه ليس مؤمناً حقيقياً ولم يتنصّب الرئاسة قُرْبَةً لله تعالى...

الشائع المنتشر بيننا هو ما تعرضه السورة علينا من رؤساء لا يرجون القربة لله تعالى، وشرعية رئاستهم مستمدّة من منافقين مثلهم لا يرجون لقاءه تعالى، وحتى لو كانوا بلباس ديني، وحتى لو كانت لحاهم بطول المتر، وحتى لو كانت الدمغة على جبهتهم بحجم الكفّ، وحتى لو كانوا يتكلّمون عن الدين ويحاضرون فيه... فهم منافقون يسقطون عند أول مفترق مع امتحان إيماني حقيقي، ومستعدون لتدمير الدنيا إن لم يحصلوا على منصب أو على فائدة ممن دعموه ليكون في منصب... أو على اختلاس مال الزكاة أو المال العام... أو نهب أموال الدولة اختلاساً أو من التلزيمات والصفقات واستغلال المناصب للرشاوى...

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{2})

هؤلاء المنافقون، {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ}، حيث جعلوا من تأكيدهم القوي على رسوليتك، وجعلوا من شهادتهم على أنك رسول، {جُنَّةً}، بالضمة على حرف الجيم، شيئاً يستترون خلفه، إذْ كانت شهادتهم لك أنك رسول، كانت جنّةً لهم يستترون بها كفرهم بك، إذْ إنّ كفرهم الذي في داخلهم بك كرسول يسترونه بإعلانهم لإيمانهم بك كرسول، {فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ}، إذْ بنفاقهم منعوا أنفسهم عن السلوك على المسلك الإلهي، وفي نفس الوقت وتحت ستار إعلان الإيمان والقيام بأعمال وتصرفات مخالفة للإيمان سيمنعون الآخرين من الإيمان، لأن الآخرين سيكرهون تصرفات المنافقين وهم لا يدرون بأنهم منافقون ولا يمثّلون دينه تعالى، وأيضاً سيقلّدهم الناس ويعتبرون أن أفعال وتصرفات المنافقين عادية ومتماشية مع الإيمان وليست مخالفة للدين، كما سيتعاملون مع الخط الديني الإلهي أنه يستمدّ الشرعية من تأييدهم له... وهكذا بسببهم يمتنع الناس عن فعل ما يصبّ على المسلك الذي يرضاه تعالى لهم، وسترى نموذجاً عن ذلك في ختام السورة.

{إِنَّهُمْ}، المنافقون، {سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}، إذْ إنّ توصيف عملهم أنه سيّئٌ عاطل فاسد.

ربما لا تفهم الآية هنا وتعتبرها كلاماً عادياً، ولكن فكّر فيها عندما لا تجد أي مشكلة في الأحزاب والجمعيات والدول التي تراها من حولك، فإن كنت مستفيداً من تركيبة الطبقة الحاكمة، فلك فيها معارف وأصدقاء أو أقرباء، وتحصل على امتيازات من حكومتهم، فلن ترى أي عطل فيهم، بل ستراهم تمام التمام، وتراهم مؤمنين، وربما ترى العطل والسوء والفساد إن كنت متضرراً فلم تحصل من حكومتهم على الاستفادة المالية والاجتماعية والصحية... وآخر همّك النظر إليهم بنظرة إلهية، وربما على أساس أن النظرة الإلهية ترف ومثاليات فارغة وليست حقيقة قابلة للتطبيق، لأن الكلام عن رئيس يخاف الله تعالى هو شيء من التاريخ، بل ربما لا تؤمن بأنه مرّ في التاريخ أناس طاهرون لم يستغلّوا مناصبهم وعملوا فقط بما يرضيه تعالى! متناسياً القاعدة الإلهية الأساسية التي تتحدّث سورتنا هنا عن جانب منها: الرئاسة على الناس تحتاج لشرعية إلهية فقط، وإلا فالناس ورئيسهم في ورطة أمامه تعالى.

لو أطلت عليك، كثيرا ما نرى علماء دين منافقين، وسياسيين وزعماء يدّعون أنهم متدينون ولكنهم منافقون... وأناساً يعتبرهم الناس من المنتمين للمؤمنين وهم منافقون... فهؤلاء أولاً بنفاقهم صدّوا أنفسهم عن سبيله تعالى، ويصدّون الآخرين أيضاً، حيث إنّ بقية الناس سيقولون: هؤلاء الذين يمثّلون الإيمان فاسدون، فدينهم فاسد. أو يقول آخرون: فرضاً دين الفاسدين ليس فاسداً وهم منافقون ويخالفون دينهم الأصلي، ولكن دينهم لم يقنعهم ليؤمنوا به! وهم يعلمون بعقيدته وشريعته، فإن هم لم يقنعهم دينهم ليكونوا صالحين فهل سيقنعني أنا الذي لست من دينهم!

أكثر وأخطر من ذلك حالة النفاق الجماعي، حيث الرئيس الديني منافق، وحوله داعمون منافقون، ويعلمون أنهم كلّهم منافقون، والكثير من هؤلاء مع التمرّس على النفاق يصيرون في حالة الاعتقاد بأنهم هم الدين الصحيح، ورغم تحريضهم الطائفي والمذهبي ضدّ الآخرين... ورغم تحليلهم وتحريمهم على هواهم... ورغم تخريجاتهم لفتاويهم الدينية المنحرفة... وتبريراتهم لمواقفهم الاجتماعية المخالفة لدينه تعالى... ولمواقفهم السياسية المعادية لمصالح المسلمين... ولدعمهم للمحسوبيات ومن ينفعهم... يغرقون ويغرقون حتى يصير الدين مطموساً عندهم وفي نفس الوقت هم مصرّون أنهم مؤمنون أصيلون... وسترى ذلك من الآية التالية:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ{3})
{ذَلِكَ}، الوصف لعملهم بالسوء وصدّهم أنفسهم والآخرين عن سبيله تعالى، {بِأَنَّهُمْ}، بسبب أنهم، {آمَنُوا}، أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بالدين، {ثُمَّ كَفَرُوا}، وبعدها أنكروا الدين الإلهي، إذْ لم يعجبهم ولم يستطيعوا التماشي معه... والكلام هنا عن منافقين كافرين بالسرّ ولم يعلنوا كفرهم الذي في داخلهم، {فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ}، أي قلبهم أساس تفكيرهم ونفسيتهم صار عليه طبع، وصارت طبيعته، حيث صار فيه شيء مترسّخ متجذّر، وكما ترى من الجملة إنها تشير لصيران الكفر من طبيعتهم، {فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}، إذْ لا يربطون المعلومات بشكل سليم والنتيجة لن تكون جيدة أو صحيحة، إذْ فقط ما يتعارض مع الدين الإلهي يدخل إلى قناعتهم.

من المشتقات الدارجة من معنى الطبع أن تطبع يدك على الطين، أو تطبع الأشكال على الشمع الذائب، ولكن أصل المعنى هو الطبيعة، وهو ما يصير عليه الشيء مترسّخاً كصفة لا تنفصل عنه.

لاحظ كم تكرّر في القرآن الكلام عن القرار الذي نتّخذه وتتقولب أفكارنا ونفسيتنا على أساسه، إذْ إنّ تكرار إنكار الحقّ وبعده تكرار ارتكاب الحرام فهذا سيجعل قلوبنا "مركز تفكيرنا ونفسيتنا" متقولبة، لتقبل الباطل والسوء وترفض الحقّ والواجب والحلال. وبتعبيرنا الحالي في فيزيولوجيا الدماغ، حيث تبيّن تغيّر في ترابطه الداخلي من كثرة تكرار عمل ما، إذْ من كثرة تكرار رفض الحقّ وارتكاب السوء تترابط عصبونات الدماغ "سينابس" بشكل قوي على ذلك، وبالتالي من بعدها سيرفض دماغنا ولن يتماشى مع الحقّ، وسنشجّع الآخرين على تبنّي أفكارنا، ونعارضهم عند قيامهم بأعمال تخالف أفكارنا، وهذا هو الطبع على القلوب والذي ينتج عنه الصدّ عن سبيله تعالى لأنفسنا وللآخرين.

لا تَنْسَ أن الآية "وكل القرآن" تعتبر الإيمان هو الحقّ، هو الواضح، وهو السهل إن لم تعارضه بالهوى السيِّئ، فهؤلاء عندما تواجهوا أول مرة مع الدين اعتنقوه، لأنه يطرح العدالة بشريعة تعطيهم حقوقهم بالكامل، ويطرح عقلانية أمام عبادة الحجر والخشب... ولكن حين بدؤوا يجدون في الدين التزامات لا تتماشى مع قلوبهم، ولم يجدوا في الدين ما يناسب أهواءهم السيئة، ولم يؤمّن لهم امتيازات على غيرهم، فعندها كفروا به، ولحد الآن فإنّ السورة لا تزال تتحدّث عن منافقين، عن أشخاص كفروا من داخلهم بالدين ولا يزالون يظهرون التدين أمام الناس.

(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ{4})
{وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ}، إذا صار عندك صورة محدّدة لهم، كما نقول بالعامية: إذا شفتهم. {تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ}، ترى أنه غير عادي طولهم أو تناسق جسمهم أو صحّتهم... لأنها مختلفة بشكل محبوب عن الآخرين، إذْ عادةً أجسام الناس مختلفة، وبعضهم جسمهم أفضل من الآخرين، {وَإِن يَقُولُوا}، أي يتكلّموا أمامك، {تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ}، لأنهم بارعون في اختيار الكلمات والجمل.

هذه الصفات الجسمانية والقدرة الكلامية... ليست حصرية لكل منافق، لذا لا تعني أن كل منافق سيكون جسمه جيّداً وكلامه منمّقاً، بل هذه أوصاف لنماذج منهم وبالخصوص هي أوصاف لعامّة من يريد الوصول إلى المناصب، ويريد أن يكون قريباً من الرؤساء، ويعتني بمظهره ليشابه المسؤولين المتأنقين، ويهتم بجسم رياضي مفعم بالحيوية للإشارة إلى القوة والمتانة والرصانة والهيبة... بطقم وقميص وقصّة شعر على المسطرة... ومشية متميّزة بظهر مستقيم للفت الانتباه، وجلوس في أول الصفّ باستقامة وهيبة... ووقوف مستقيم مع توزيع النظرات على "عوام" الناس... ويعتني بكلامه المنمّق الذي يختاره بما يرضي المسؤولين سماعه، من مدح ودعم لأفكار المسؤولين...

لو ضربت السورة مثالاً بمنافقٍ مستهتر بكلامه وبمنظره، لما كان نموذجاً يبيّن أسوأ حالات النفاق، لأن النفاق هو تلميع المظهر ليخفي الجوهر، وأدواته تحسين المنظر وتنميق الكلام، ولذلك اختارته السورة كأبرز نموذج عن المتملقين الوصوليين ذوي نوايا المشاركة في الاستفادة من السلطة والحكومة...

{كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ}، الخشب من الشجر، وحين تقصّ الشجرة وتنزع عنها أغصانها... فقد صارت تسمى خشبة، وهؤلاء حين تراهم ويعجبونك فاعلم أنه لا شيء فيهم يستحقّ الإعجاب، إذْ عادةً يجلسون في الاجتماعات مستندين على أريكة على جنبهم أو على ظهرهم، ولكنهم منظر فقط، ليس فيهم القوّة والقيمة الحقيقية التي بدت لك وأعجبتك، فإن استبدلتهم بخشبة وسندتها ودعمتها بشيء ليبقيها واقفة لتثبت مكانها، فهم وهي بنفس القيمة، لأنهم منظر فارغ، إذْ لا قيمة لجلوسهم في الاجتماعات ولا لمنظرهم ولا لكلامهم.

{يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ}، من دون أي تفكير وأول ما يخطر ببالهم إن سمعوا صيحة، أي سمعوا صوتاً قوياً مقصوداً منه أن يسمعه عدد كبير من الناس، فعندها أوّل ما يخطر ببالهم أنه يقصدهم فينهارون.

الصلابة والمتانة والتقانة والجودة التي تراها في جسمهم وكلامهم وفي مظهرهم وشكلهم ومنطقهم، وهي بتعبيرنا الحالي: ديكور من جفصين ملوّن مزخرف جميل. ولكنه يتكسّر بأقل ضربة، والإسمنت "الباطون" غير المزخرف يصمد ولكن منظره لا جمال فيه. في الحرب لا تراهم، بينما في السلم يقصّون عن بطولاتهم، وفي الأزمات هم المستفيد الأول مالياً وبالمناصب... وأي صيحة حقّ يرتعبون منها، مثل شخص يحترف السرقة، وكان مارّاً في السوق ولم يسرق، وصاح الناس: حرامي حرامي... فسيحسب بأن الصياح موجّه له فيخاف وينهار... وهؤلاء المنافقون عند أي

صيحة حقّ أو تهديد جدّي بمحاسبة المنافقين الفاسدين الكاذبين... سيحسبون أنهم هم المقصودون، لأن الصيحة بالحقّ تنطبق عليهم.

{هُمُ الْعَدُوُّ}، هذه النوعية من الناس، إذْ إنّ هؤلاء لا يحبّون أن يتعاملوا معك بسلم وتوافق، طبعاً لأنك لن تتماشى مع مطالبهم، {فَاحْذَرْهُمْ}، لأنهم مصدر خطر محتمل إذا اكتملت الظروف، وانتبه منهم، لأنهم في أي لحظة يرونها مناسبة سينقلبون عليك.

{قَاتَلَهُمُ اللَّهُ}، إذْ يستحقّون أن ينهي تعالى حياتهم بأذية مباشرة في جسدهم، ولا يستحقّون تركهم ليموتوا من الشيخوخة أو المرض أو بحادث... بل يستحقون أن يتعرّضوا مباشرة منه تعالى بأذية في جسدهم فيفقدوا حياتهم التي لا يستحقّونها، {أَنَّى يُؤْفَكُونَ}، كيف وبأي طريقة هم ينقلبون من الإيمان إلى الكفر!

لاحظ، إنّ هذه النوعية من المنافقين هم الذين شهدوا لمحمّد(ع) أنه رسول على أساس أنهم يعطونه الشرعية لمنصبه أمام الناس، وهنا ترى الآية تحطّ من قيمتهم، إذْ إنّ وجودهم وغيابهم لن يشكّلا أي فرق لأنهم كخشبة أسندتها لتقف، وبالتالي تحطّ الآية من قيمة دعمهم الكاذب المنافق للرسول(ع).

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ{5})
{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ}، قال أحد ما لهؤلاء المنافقين:

{تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ}، رافقونا حتى نلاقي الرسول(ع) ليطلب لنا من الله تعالى المسامحة عن ذنوبنا، على أساس أنكم من المؤمنين الذين أتيحت لهم فرصة تاريخية لمعاشرة رسول إلهي، فاستفيدوا منها ليطلب لكم الرسول الإلهي المسامحة عن ذنوبكم من الإله سبحانه.

{لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ}! قاموا بحركة ميلان برؤوسهم، وتململوا، كعلامة على أنهم ليسوا مقتنعين بجدوى استغفاره(ع) لهم على أساس أنهم هم أعطوه الشرعية ليكون في هذا المنصب، وهو مجرد ممثل وليس شخصاً بقيمة رسول إلهي حقيقي، فلا منفعة لهم من الذهاب إليه (ع) ليستغفر لهم، لأنهم أصلاً ليسوا مؤمنين به كرسول ولا مؤمنين بالجنّة والنار، ولا يعتبرون أعمالهم سيئة بحاجة لاستغفار...

{وَرَأَيْتَهُمْ}، أي صار عندك صورة محدّدة لهم، ونقول بالعامية: بتشوفهم. {يَصُدُّونَ}، يمنعون الآخرين عن الذهاب إليك لتستغفر لهم! إذْ يقولون للآخرين: ماذا فعلتم حتى يستغفر لكم؟ أعمالكم جيدة حسنة فلماذا تذهبون إليه ليستغفر لكم؟ وإن كانت أعمالكم سيئة فبماذا سينفعكم استغفاره لكم، وبماذا يختلف عنكم حتى تكون له هذه الميزة، ما هذه السخافة!

{وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ}، إذْ يرون أنفسهم أكبر من أن يكونوا تحت الرسول(ع)، وأكبر من أن يستغفر لهم الرسول(ع)، فهل سيذهبون إليه (ع) ليكونوا من تحت وهو من فوق! لأنهم المذنبون وهو يطلب لهم المغفرة! بينما هم يرون أنفسهم هم جعلوه فوق بدعمهم له وشهادتهم له بأنه رسول... وكل الموضوع بالنسبة لهم مجرد مسرحية تمشي على الآخرين ولن تمشي عليهم...

بالنسبة للفرصة التاريخية لتواجدهم في عصر رسول يستغفر لهم، سنرى أثر ذلك في الآية التالية:

(سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ{6})
{سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ}، نفس الشيء بلا فرق بالنسبة لهم، {أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ}، أي قمت بطلب المسامحة عن ذنوبهم من الله تعالى، {أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ}، فعلى كل الحالات هم منافقون وخارج من يصنّفهم تعالى كمستحقين للمغفرة.

نتذكّر دائماً من القرآن أن من ارتكب ذنباً فيجب أن ينال العقاب عليه، إلا من آمن، إذْ لديه امتيازات بسبب تعامله تعالى مع المؤمنين بصفة الرحيم، التي ينتج عنها معاملة خاصة للمؤمنين من مغفرة وتكفير للذنوب ومضاعفة الحسنات... وهؤلاء منافقون، ومحسوم أمرهم: لا مغفرة لهم طالما هم منافقون، واستغفارك لهم لن يغيّر أي شيء.

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي}، لا يضع "غصباً عنهم" على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {الْقَوْمَ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع دينه تعالى، {الْفَاسِقِينَ}، الخارجين عن الأمور الصريحة التي قالها الدين الإلهي.

ننتبه للاصطلاح الدارج في ثقافتنا الدينية عن معنى النفاق والفسق، إذْ قالوا إنّ الفسق هو الخروج عن شيء ديني علناً أمام الآخرين، والنفاق خروج بالسرّ عن الدين، وهذا كلام غير دقيق، لأن النفاق هو عموم إظهار الإيمان مع كفر من الداخل، سواء فعل بالسرّ حراماً أو لم يفعل، والفسق هو عموم مخالفة ما صرّح به الدين، فهناك شيء معلوم أن الدين يحرمّه ويمنعه، والذي يفعله مع علمه بحرمته يوصف بالفسق، وسواء فعله بالسرّ أو بالعلن فهو فاسق لأنه وصله بصراحة ما قاله الدين الإلهي ولكنه فسق أي خرج عنه.

لاحظ أن المهتدي هو الذي يسير على الخطّ الإلهي، ولا يوصف شخص ما بالسير على الخط الإلهي وهو حامل للذنوب، وتصور نفسك ترى شخصاً يسير على طريق "الهداية" الواضح بالنور، وهذا الشخص يحمل أكياساً من الذنوب يجرّها خلفه! فهذه الصورة لا تركب مع بعضها، لأنه تعالى يغفر للمؤمنين "الحقيقيين المستغفرين التائبين..." فكونهم على الهدى يعني أنهم مغفورة ذنوبهم، أمّا الفاسق، فلا تركب صورته مع صورة طريق الهدى، إذْ لا يمكن أن يقف على طريق الهدى وهو منافق أو فاسق، والله سبحانه لن يجعله "غصباً عنه أو بأي طريقة أخرى" على طريق الهدى طالما هو باق على فسقه.

ترى بوضوح أن الفرصة التاريخية للحياة في زمن رسول إلهي، لا استفادة منها للمنافقين، إذْ حتى لو استغفر لهم الرسول فلا مغفرة لهم، وبالنسبة للمؤمنين هل تنفعهم مغفرة الرسول؟ نعم إنها من نوع الشفاعة هنا قبل الآخرة، وإن كانوا مستحقين للشفاعة بحسب الحكمة الإلهية فسينالونها بإذن الله...

هل نحن محرومون من هكذا فرصة ففاتنا التواجد مع رسول إلهي يمكن الاستفادة من استغفاره لنا؟ لا، لأن الملائكة (ع) تقوم بنفس الدور، وسبحانه وتعالى بذات نفسه يشفع ويغفر... والذي نفتقده أننا لا نرى نموذجاً من الأرقى إيمانياً والمضمون بتصرفاته أنها على الأوامر الإلهية، وربما من الأفضل لنا ألا نكون في عصره(ع) لأن الحساب الإلهي على الفسق والنفاق سيكون أعلى لمن عاصر نموذجاً إيمانياً راقياً صافياً... والأجر على الإيمان والعمل الصالح في غير زمن الرسول ربما يكون أعلى...

(هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ{7})
{هُمُ}، المنافقون، {الَّذِينَ يَقُولُونَ}، للناس من حولهم:

{لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ}، أموالكم وأملاككم وأرزاقكم لا تعطوا منها للذين حول الرسول(ع)، {حَتَّى يَنفَضُّوا}، من حوله، فإذا ابتعدوا عنه ولم يعودوا يجتمعون معه فعندها أنفقوا عليهم.

كما ترى انتقلت السورة إلى موقف من المواقف التي يقوم بها المنافقون أثناء حياتهم وتعاملهم مع القائد "الرسول"، إذْ لا تزال السورة تتحدّث عن منافقين يرون لأنفسهم الأهمية في المجتمع، ويرون أن محمّدا(ع) بدعمهم تنصّب الرئاسة بصفة رسول الإله، ولسبب أو لآخر، وفي ظروف ما، قرروا سحب شرعيتهم عن "محمّد(ع)" وإضعافه، وقرروا إبعاد الناس عنه(ع) عبر قولهم لمن حولهم من المسلمين أن يقطعوا المعونات عن أتباع "محمّد(ع)"، على أساس أن هذا التصرّف سيجعل محمّدا(ع) خاضعاً لهم ويريد رضاهم لأنهم يؤثّرون على الناس من حوله... فيجعلهم مشاركين له في القرارات... أو يصير (ع) ضعيفاً وهم يستلمون مناصب القيادة...

سبق وأخبرتنا السورة أن المنافقين يظنون أنهم هم أعطوا الشرعية "المحمّد (ع)" ليكون في منصب الرسول الإلهي، والآن تعرض علينا أنهم يظنون أنهم قادرون على التحكم بمن حوله (ع)، إذْ لن يأخذ شرعيته من الآخرين إن هم المنافقون لم يوافقوا عليها، وذلك عبر الضغط على الأغنياء أن يستفيدوا من غناهم ليكون مالهم أداةً تطوّع الرسول(ع) عبر حرمان المؤمنين الفقراء من أي مساعدة إن لم يتركوا الرسول(ع) ويصيروا أتباعاً لهم.

بعبارة أخرى، هل تريد يا محمّد أتباعاً لك وجماهير؟ نحن بيدنا ذلك، إذْ يمكننا سحب الناس من حولك لأنهم بيدنا وهم بحاجة لمساعدتنا المالية لهم، لأنهم عمّال عندنا، أو لديهم مصالح تجارية معنا، أو فقراء بحاجة لدعمنا... وهكذا ترى أننا نحن الذين جعلناك في موقع المسؤولية بتأمين الجماهير لك، ويمكننا إضعافك ساعة نريد... وبالتالي لدينا مطالب يجب أن تحقّقها لنا وإلا أضعفناك سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، فتعامل معنا على هذا الأساس ولا تحتكر الحكومة لوحدك، فإمّا أن نكون شركاء معك في الحكومة أو سنطيح بحكومتك عبر إبعاد الناس عنك بحرب اقتصادية.

{وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، أي كل ما له قيمة بالنسبة للكائنات، وهو موجود في أماكن لم تصر بحوزتهم بعد، أو صارت معهم، فهي أصلاً ملك له تعالى، إذْ إنّ الذهب والفضّة والعملة والأراضي والخضروات والطعام... لم تأت من الحائط، بل خلقها تعالى وأتاحها لنا في البيئة التي نعيش فيها، فهي من خزائنه تعالى، وصارت موجودة بسبب تصميمه وخلقه للسماوات والأرض، ومن أوامره سبحانه خرجت، فما معنى كلامهم عن سحب الشرعية عن رسوله (ع) عبر توقيف الدعم عمّن حوله(ع)؟ لأنهم أصلاً لا يملكون ما في أيديهم! فكيف يهدّدون رسول الإله بقطع المعونة عمّن حوله؟

ننتبه جيداً، إذْ دائماً ترى الفرق الواضح في كلام القرآن عن كلامنا نحن، حيث نجد ردّاً غريباً لا يخطر ببالنا على كلام الكفّار والمنافقين والفاسقين، ونجد ردّاً من نظرته تعالى للأمور، فهنا نحن لا يخطر ببالنا أن نردّ على قول المنافقين كما تردّ الآية، لأنه من وجهة نظرة الإله المالك الحقيقي لكلّ شيء، فإنّ أول ردّ منه تعالى سيكون من هذه النظرة، بأنكم تهددون بقطع المعونة... وأنتم أصلاً لا تملكون ما تهددون به، وهو تعالى الرزّاق.

{وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ}، إذْ يرون غناهم وفقر بعض الذين مع الرسول(ع) ولا يفقهون أن الرازق المالك لكل شيء جعل بعض المؤمنين فقراء، فبيده تعالى تغيير ذلك وليس بيد المنافقين، ولذلك نبّههم أنهم يهددون بشيء أصلاً ليس تهديداً، إذْ يمكنه تعالى وبكل سهولة أن يجعل المنافقين فقراء وأن يجعل الفقراء الذين حول الرسول(ع) أغنياء، فما معنى تهديداتهم؟!

طبعاً هناك سور أخرى عديدة تناولت أسباب وقوع المؤمنين في الفقر والعوز، والسورة هنا لم تدخل في التفاصيل لأن تركيزها الردّ على ما قاله المنافقون باختصار.

كما ترى عادةً القرآن يختار نماذج بارزة للكلام عنها، إذْ مع الرسول(ع) كان هناك مؤمنون حقيقيون وأثرياء، ولكن الأثرياء عادة عددهم قليل، والفقراء أكثر، وهناك منافقون فقراء... فركّزت السورة على صورة النموذج الفاقع، وهي صورة أثرياء منافقين يهدّدون مالياً الفقراء المؤمنين حتى يصيروا بأمرهم، فإن أمروهم بترك الرسول تركوه، وإن أمروهم بدعم الرسول دعموه...

ضع في بالك أن خزائن الله تعالى هي الأشياء التي يمكن خلقها ولم يخلقها ربنا سبحانه، أو الموجودة ولكنها بحاجة لأمر إلهي لتصير متاحة لنا، لذا يعبّر عنها القرآن أنها في الخزائن. الله سبحانه ليس عنده خزائن من حديد أو غرف أو مستودعات، بل قدرته تعالى على فعل أي شيء يريده هي الخزائن بالنسبة له، فأنا أسحب الماء من خزان المياه، وأسحب الطعام من خزانة الطعام "البرّاد، الثلّاجة"، وأسحب المال من الخزنة الحديدية... أما ربنا سبحانه فقد صمّم السماوات والأرض وخلقها وجعل فيها ما نحتاجه، وبتعبير يشرح كلمة الخزائن نقول: جعل تعالى فيها ما سينتج عنه مما نحتاجه، فنحتاج للمطر، وسينتج عن البيئة التي صمّمها وخلقها تعالى نزول الماء منها. وهذا الشرح لا يلغي تدخّله تعالى بطرق لا نفهمها من خارج ما نحن معتادون عليه لحصول الأمور، إذْ حتى لو لم تكن الأجواء التي نعرفها مناسبة لنزول الماء، فسبحانه وبآليات أخرى غير التي نعرفها ربما يقرّر حصول المطر، فحدوث الأشياء ليتكوّن ما نريده ونحتاجه فهي بالنسبة لنا خزائنه سبحانه، وعادة نربط خزائنه سبحانه برحمته، فمن رحمته حصلنا على أشياء من خزائنه.

(يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ{ 8})

{يَقُولُونَ}، يقول المنافقون للناس من حولهم:

{لَئِن رَّجَعْنَا}، أي حين نرجع، {إِلَى الْمَدِينَةِ}، إلى المكان الذي فيه بيوت ثابتة، وهنا الكلام عن نموذج المنافقين في عهده(ع) وعن إشارتهم لعودتهم إلى مدينة يثرب فعندها، {لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}، فسيقوم الذين يوصفون بالعزّة، بالاستقلال فهم ليسوا تابعين لغيرهم، وهم يقصدون أنفسهم بالعزّة، فسيجعلون الأذلّة الذين يوصفون بأنهم تحت الآخرين والفاقدين للسيطرة واتخاذ القرارات، فسيجعلونهم خارج المدينة.

في النموذج الذي اختارته السورة، كان المنافقون خارج المدينة "وبقية المسلمين معهم"، وحصل شيء ما لم يعجب المنافقين، فأعلنوا أنهم عندما يرجعون إلى حيث هم أقوياء "في المدينة" سيقومون بإعادة الأمور إلى مجراها الصحيح، ففي الوضع الذي هم فيه الآن، يشعرون بالذلّة، إذْ كلامهم غير مسموع ولا أحد يطيعهم، ولكن حين يرجع الكلّ إلى المدينة فهناك ترجع الأمور إلى وضعها الطبيعي، لأنهم الأثرياء وأصحاب المصالح في المدينة، وهم زعماء "أعزّة" فيها والآخرون أذلّة بحاجة إليهم، إذْ هم بحاجة للعمل عندهم، أو بحاجة لمساعدتهم أو للبضائع منهم... وهناك سيقومون بطرد الأذلّة منها.

{وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ}، صاحب هذا الاسم المحدد المميز يوصف بأنه لا ينقاد لأي أحد، {وَلِرَسُولِهِ}(ع)، العزّة، لأن الرسول(ع) ينقاد لله تعالى، وهذه مفخرة، {وَلِلْمُؤْمِنِينَ}، العزّة، فهم منقادون لله تعالى ولرسوله(ع) وأيضاً هذا فخر لهم.

{وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ}، الذين من داخلهم إنكار للإيمان، {لَا يَعْلَمُونَ}، إذْ هذه المعلومات الحقيقية لم تدخل إلى فكرهم على أنها حقيقة، فهم لا يزالون يرون العزّة والذلّة من وجهة نظرهم هم، وعلى مقياس هم مقتنعون به، ولكن الحقيقة غير ذلك، ولم تدخل هذه الحقيقة إلى فكرهم "لا يعلمون بها".

ضع في بالك دائماً أن كلام القرآن نماذج، فالمنافقون الذين كانوا أشخاصاً موجودين في عصر الرسول(ع) اعتمدتهم السورة كنموذجٍ للمنافقين لتخبرنا عنه ونستفيد منه على طول الزمن، فلا يهمّ من هم المنافقون تحديداً بشخصهم، ولا تهمّنا مدينتهم، ولا ماذا جرى معهم بالتفصيل... لذا فإنّ أي موقف مشابه لما فعله أولئك المنافقون فهو دليل على نفاق فاعله.

في ظرف ما ستجد المنافق في أي عصر وزمان، يقوم بتكرار ما فعله أولئك المنافقون، إذْ في بلده، في مدينته، في حيّه، في شارعه، قرب بيته... يخترع عزّة لنفسه هناك، ويرى سلطته مبسوطة وتنتهي سلطة الله تعالى عليه هناك، فليس مضطراً لاتباع الدين ولا الرسول ولا الشرع... في مكان سيطرته، ويهدّد المؤمنين بعزّة مصطنعة، إذْ إنّ العزّة أساساً وبأعلى المواصفات، هي لله تعالى، والعزّة لمن كان مرضياً عنه من صاحب العزّة الحقيقية، أمّا المنافق، فديك يصيح على مزبلته، لا أكثر.

ما ركّز عليه المفسّرون لهذه السورة في كتبهم عن عبد الله بن أبي بن سلول، أنه المنافق الذي تتحدّث عنه السورة، ويشيرون له عادة بـ: ابن أُبَيّ. بالضمّة على الهمزة والفتحة على الباء في كلمة "أبي". من المفيد أخذ فكرة عن الأوضاع في حينها، ولكن ضع في بالك أنه لم يكن المنافق الوحيد، بل وبمراجعة التاريخ نجد في مجريات معركة أحد أن قرابة الثلاثمئة مقاتل يطيعون عبد الله هذا، إذْ انسحبوا وتراجعوا بأمره أثناء سير المسلمين إلى أحد... وها لديك رسمياً ثلاثمئة منافق مثله معه...

يقولون في الكتب أنه في حادثة مسمّاة بغزوة بني المصطلق، حصل خلاف حادّ بين واحد من المهاجرين وآخر من الأنصار، واحد من سكان يثرب وواحد من المهاجرين إليها... وأن عبد الله بن أبي لم يعجبه ما حصل على أساس أن المهاجر درجة ثانية وكان يجب أن يتنازل للأنصاري... وأقسم ابن أبي أن يجعل المهاجرين يرون قيمتهم الحقيقية حين يرجعون إلى المدينة، لأنهم مهاجرون وهو وأتباعه السكّان الأصليون ليثرب...

ضع في بالك العديد من المنافقين الآخرين من الزعماء والوجهاء التابعين لعبد الله بن أبي، وآخرين غير تابعين له، وكلّ هؤلاء جمعهم النفاق، وحتى لو كان عبد الله بن أبي هو فعلاً النموذج الذي اختارته السورة ليمثّل النفاق عبر التاريخ بتناول أفعاله ومواقفه في سورتنا هنا، فلا تجعله أكثر من نموذج عن النفاق، ولا تحصر معاني السورة فيه فقط، لا، بل هي عامّة الانطباق عبر التاريخ على كلّ من كرّر أفعاله.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ{9})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الناس الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ}، أي لا تنشغلوا بهم عن شيء أهمّ، {عَن ذِكْرِ اللَّهِ}، عن استحضاره سبحانه في فكركم وقولكم وعملكم، {وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ}، بأن يرفع اهتمامه بالمال والأولاد فوق اهتمامه بذكره تعالى، {فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}، فهم الذين فقدوا أموراً لها أهمية "كبيرة"، إذْ كان بإمكانهم الحصول على شيء له قيمة عالية ولكنهم فوّتوه عليهم، والمقصود كما تعلم هو تفويتهم فرصة الحصول على الحسنات، وصبّ الاهتمام على أمور ليست من مستوى أهمية وقيمة ذكره تعالى.

ورد في الآية 91 من سورة المائدة "إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ"، وهذا نهي عن أسوأ النماذج التي تلهي عن ذكره تعالى، وهنا اختارت السورة أهم نماذج يجب أن نهتم بها مع التنبيه من الاستغراق في الاهتمام بها لدرجة التلهي عن ذكره تعالى، فهل تقصد الآية التنبيه من ترك الصلاة أو تأخيرها أو تأجيلها... أو ترك الصوم... نعم تقصده بدليل ما ستراه من الآية التالية من التنبيه على ترك الصدقة التي اعتبرها القرآن واجبة دائماً طالما هناك من يحتاج للمساعدة، فالتنبيه هنا من التلهي عن الواجبات عموماً، ويشمل التنبيه من التلهّي عن ذكره تعالى: ترك الجهاد وترك الزكاة وترك صلة الأرحام... فهذا كلّه ذكر لله تعالى.

بعضهم فهم من آياتنا هذه حصرها ذكره تعالى بالصلوات النوافل وقراءة القرآن والدعاء والتسبيح... وترك المستحبات والنوافل خسارة ولكن لم يرد في القرآن توصيفٌ بالخسران لمن التزم بالواجبات فقط وكان تاركاً للمستحبات.

الصورة التي أتعارك معها لأوضّحها لك، هي التصوّر المتعشّق في أذهاننا عن الإيمان العالي لمن تفرّغ للعبادة صوماً وصلاةً وقراءة قرآن وأدعية... إذْ إنّ هذه الصورة المبالغ فيها ليست من تراث الأنبياء، لأن الأنبياء من أكثر الناس ذكراً له تعالى في بعض الليل بالصلوات والأدعية والأذكار... مع الاهتمام بأهلهم... ومع النوم لمدة تكفيهم للراحة، ونهاراً بالعمل في سبيله تعالى، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في تعليم دينه تعالى للناس، في الجهاد، في كسب قوتهم، في صلة أرحامهم، في العناية بأهلهم...

ما نفع ذكره تعالى من الذين تفرّغوا لذلك تاركين الواجبات الأخرى؟ كتاركي الجهاد، والمبتعدين عن الاختلاط بالناس لتعليمهم الدين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر... والتاركين لمهمّات يحتاجها المسلمون للحفاظ على كيانهم ووجودهم... هذا الذي تتصوّره الأعلى والأرقى إيماناً بتفرّغه للعبادة، لولا الآخرون المجاهدون بأموالهم وأنفسهم لما ولد في بيئة تسمح له بممارسة إيمانه، إذْ حتماً كان سيولد في بيئة لا تسمح له بممارسة إيمانه، وفي عصرنا تجد عائلات من نسل أحفاد رسول الله(ع) وهم على ملّة أديان أخرى، مسيحيين أو غيره! والسبب أن الغالبية لم يقوموا بواجباتهم حتى فُرِضَ عليهم ترك إسلامهم...

هكذا نفهم أن التنبيه في الآية عن الانشغال بالأموال والأولاد وهما أمران مهمّان جداً، وذلك في مقابل التلهي عن ذكره تعالى، يشير لعموم الواجبات التي علينا، والتي قد نترك البعض منها، وهذا قرآنياً يوصف بالخسارة.

مما سبق في السورة علمنا أن بعض المنافقين اعتبروا أن شرعية منصب الرسول(ع) مستمدّة من دعمهم له(ع)، وعند حصول أي شيء ليس على خاطرهم، يهدّدون بقطع الشرعية عن الرسول(ع) وبأسلوب المقاطعة المالية عن المؤمنين الملتفين حول الرسول(ع) حتى يتركوه...

المؤمن عادةً ليس من المفروض به أن يشعر أو يفكّر بأنه هو أعطى الشرعية "المحمّد(ع)" ليصير في منصب الرئاسة من مستوى رسول الإله سبحانه، بل يفكّر دائماً أنه مؤمن وعليه واجبات تجاه ربّه تعالى، ولكن من لم يكن إيمانه كاملاً وواعياً، ربما يقع في بعض التصرفات المشابهة لتصرفات المنافقين، فإذا حصل شيء ما وليس على خاطره من القائد أو من المجتمع المسلم، ربما يفكّر بقطع نشاطه الديني والانشغال بأمور أخرى كالانشغال بمصالحه المالية والتكسّب وتوسيع نشاطاته المنتجة مالياً... وإعطاء مزيد من الوقت للعناية بأولاده وتمضية الوقت معهم... فيصير في باله أن هذه الأمور هي المهمّة ولها الأولوية، ولم يكن يعطها حقّها من الاهتمام بسبب تضييعه لوقته في العمل الإسلامي، لذا يرى أن نشاطه الإيماني مع الرسول(ع) ومع بقية أفراد المجتمع المؤمن كان لهواً.

ردّة الفعل هذه التي ربما لا يبدو فيها أي عيب، حيث إنه لم يقصد سحب الشرعية عن القائد "الرسول(ع)"، ولم يقصد الكفر بالدين، ولا تضعيف الدين وموقف القائد "الرسول(ع)"... بل اعتبر ابتعاده عن الرسول(ع) ليهتمّ بأوضاعه المالية وبأولاده، اعتبره فعلاً يتماشى مع إيمانه.

من هنا نرى النظرة الإلهية لحالته، إذْ فيها عطل ولا تتماشى مع الإيمان، لذا أقحمها القرآن هنا مع كلامه عن المنافقين، لأن هذا التصرّف يشابه تصرفات المنافقين حين يضغطون على القائد "الرسول" وعلى من حوله... وحين لا يقومون بما هو مطلوب منهم، ويعطّلون حركة المجتمع المؤمن... فنتيجة هذا العمل من المنافقين ونتيجة عمل المؤمن الذي سحب مشاركته من النشاط الإيماني، النتيجة واحدة: ترك ذكره تعالى، بل تعطيل ذكره تعالى.

الآية لا تريد منا إهمال أموالنا وأولادنا، وسترى ذلك ضمنياً من الآية التالية، ولكن تريدنا ألا نرفع أي شيء إلى مستوى أهمية ذكره تعالى بكل أشكاله، ولدينا العديد من الآيات القرآنية التي شرحت بالتفصيل أن الأموال والأولاد من المنطقي جداً أن يكونوا من الأولويات في الحياة الدنيا، ولكن مع الاندماج في ذكره تعالى الذي يبقى أولى الأولويات وأعلاها بالنظر إلى تأمينه بيئة لنمارس فيها تديننا وبالنظر إلى الآخرة الخالدة، فتلاحظ أن الآية هنا لم تذكر النساء والذهب والبيوت والخيول... لم تذكر الأمور التي تعتبر ترفاً أو أقل أهمية أمام المال والأولاد، إذْ عادةً المؤمن الذي لسبب أو لآخر يقرر ترك نشاطه الإيماني، لن يقول: سأصب اهتمامي من الآن وصاعداً على ملاحقة النساء وزخرفة بيتي... بل سيقول: سأصبّ اهتمامي على الانشغال بمصالحي وعائلتي. وهذا تصرّف نتيجته مثل النفاق فانتبهوا منه.

(وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ{10})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، {أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ}، من الأشياء التي صارت معكم منه تعالى والتي تحتاجونها لسد حاجاتكم ورغباتكم الحياتية، كالأكل والمال الذي تحصلون به على ما تحتاجونه... اصرفوا منها على عموم سبيله تعالى، وبالخصوص على مساعدة المحتاجين كما سترى من سياق الكلام، أنفقوا، {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ}، {فَيَقُولَ}، من جاءه الموت: {رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {لَوْلَا أَخَّرْتَنِي}، بدل ما سيحصل الآن لو أبعدت زمن الموت عنّي، {إِلَى أَجَلٍ}، إلى موعد آخر، {قَرِيبٍ}، فليكن التأخير لمدة قليلة فقط، {فَأَصَّدَّقَ}، فلا تمتني الآن ولست أطلب إلا مدّة قليلة من الزمن حتى أتمكّن من فعل الصدقة، لأتمكّن من توزيع بعض أموالي لمن يحتاجها وأصرفها على أمور يستفيد منها المسلمون، {وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ}، إذْ الآن لو أنا مِتُّ فأنا طالح سيِّئٌ لأني لم أنفق مالي في سبيلك، وها سأموت وأتركه خلفي، فما الفائدة منه! لذا أريد فرصة وقت ولو قصيرة لأفعل به ما أمرتني به، وبالتالي لأكسب بمالي الحسنات التي أنا بحاجة إليها لما بعد الموت.

فَلْنَنْتَبِهْ جيداً، ولا نَسْتَخِفَّ بأنفسنا بضيق الرؤية، إذْ ليس كلّ مؤمن سيتعرّض لهذه الحالة، وليس كلّ مؤمن سيكون له فرصة معرفة حالته بأنه سيموت عمّا قريب، وليس كلّ مؤمن معه المال ليتصدّق... بل تذكر لك الآية نموذجاً واضحاً سهلاً الفهم، إذْ إنّ الذي امتنع عن دعم القائد أو أفراد المجتمع أو المجتمع الإسلامي ككلّ، وكانت هناك حالات تستدعي منه المساعدة، فهذا سيندم فيما بعد...

بشكلٍ عام، إنَّ الذي سنحت له فرصة التصدّق بماله لكسب الحسنات، ولم يهتمّ بهذه الفرصة وكدّس المال، تريده الآية أن يتصوّر نفسه وصار في وضع يرى فيه قرب الموت، لِنَقُلْ إنه صار في الشيخوخة على فراشه ينتظر الموت، أو أصابه مرض شديد، أو وقع في ظروف أمنية فيها احتمال الموت... عندها إن صرت في هذه الحالة فماذا سيكون رأيك بالمال الذي جمعته في الدنيا ولم تنفقه كما أمرك تعالى، ولم تكسب منه الحسنات إلى حيث أنت ذاهب، بل كسبت منه السيئات برفضك الإنفاق منه كما أمرك تعالى؟

هل تريد أن تكون مؤمناً فعلاً أم منافقاً؟ لأن المنافق يضغط على القائد وعلى المجتمع ليعطوه ما يريد من امتيازات أو مناصب وإلا فلن ينفق من ماله، إذْ لا ينفق ماله إلا إذا كان له مكسب دنيوي من الإنفاق، هل أنت مثله؟ أم ستنفق مالك لكسب الحسنات؟ أم ستصل إلى آخر لحظة وتنتبه أنك ستغادر الدنيا وما جمعته من مال لم يعد لك؟...

كما ترى، ضمنياً أنت مأمور بمتابعة شؤونك المالية وإلا كيف سيصير معك مال لتتصدّق منه؟ ما قالته الآية السابقة عن تنزيل أهمية جمع المال والاهتمام بالأولاد أمام أهمية ذكره تعالى، كان مُتَجَارِياً مع سياق الحديث لتنبيه المؤمن ليبتعد عن تصرفات مشابهة لتصرفات المنافقين.

كم ترى من الناس المنغمسين في الاهتمام بأموالهم، وبمصالحهم وأشغالهم... وأولادهم ليعيشوا برفاهية ويشتروا السيارات... ويدخلوا الجامعات... وهم يرون أنفسهم ناجحين إيمانياً ودنيوياً إذْ إنهم لا يرتكبون السيئات، ولكنهم بعيدون عن الاهتمام بأمور عامّة المسلمين، وكأنهم ليسوا من المسلمين؟! فيرون عدواً يخطّط للاعتداء والهجوم عليهم عسكرياً أو ثقافياً أو اقتصادياً... وهم آخر همّهم وكأن الموضوع لن يؤثّر عليهم! وينشغلون بأموالهم وأولادهم، وهذا عمل مَرْضِيٌّ عنه وعليه أجر، ولكن إن كان على حساب وجود فراغ في متابعة الشؤون العامّة للمسلمين، فهناك حساب عسير على ترك المشاركة في المجالات العامّة.

لست أتحدّث عن المشاركة في الاحتفالات والمناسبات، بل عن العمل المطلوب إنجازه منّي ومنك ومنه... حتى نبني مجتمعاً صلباً نطبّق فيه دينه تعالى، ويكون قوياً حاكماً لا خطر عليه من المعادين...

(وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاء أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ{11})
انتبهوا إن جاءكم الموت وأنتم كانت لديكم فرصة لكسب الحسنات ولم تغتنموها.

{وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا}، أي أجلها، موعدها المحدّد لأخذها من الحياة، فإذا جاء وقت موتهم فلن يتم تأخيره إلى وقت آخر، ومَن يفكّر بأنه تعالى يُمْهِلهُ ولو دقائق حتى يتصدّق قبل أن يموت، فليعلم أن هذا لن يحصل، لذا لا يَسْتَغْبِ وينتظر حتى آخر لحظة، لأن كل لحظة هو فيها الآن ربما تكون هي آخر لحظة.

{وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}، أي عمل تقومون به، من مقاطعة ذكره تعالى واعتباره درجة ثانية، ومن مقاطعة الإنفاق في سبيله، ومقاطعة الرسول، ومقاطعة القائد، ومقاطعة العمل الإسلامي، ومقاطعة الشؤون العامّة... والابتعاد عن الاستعداد لكافة المواجهات والاحتمالات الخطرة التي يمكن أن تضرّ المسلمين... كلّه يعلمه تعالى، وهذا تصرّف منافقين لذا لا تَفْعَلْ مثلهم.

سورة التغابن (64) ص 556
تعرض السورة ملخص الإيمان والمسار الإجباري لحياة عامّة الناس من الدنيا إلى الآخرة حتى تقنعك باختيار المسار الأفضل لتكون مترفعاً عن الدنيا ومنتبهاً للآخرة وماشياً على هدى الرسل.

البداية مع صفات الإله سبحانه الذي قرّر لنا هذه الحياة وبلاءها، ونهايتنا في عالم الآخرة ...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{1})
{يُسَبِّحُ لِلَّهِ}، يقوم بتنزيه صاحب الاسم المحدّد المميّز "الله" جلّ جلاله عن الصفات التي دون مستوى الألوهية، كالاحتياج للمساعدة من غيره... أو صفة المزاجية والعبث... أو صفة الظلم والجور والكذب... لأنّ الله سُبُّوحٌ عن ذلك أي منزّه عن ذلك، وقام بهذا التنزيه، {مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، وهذه هي كلّ دنيا المخلوقات، وهذا التعبير القرآني يرادف التعبير بكل شيء، كل الموجودات سواء كانت في السماوات السبع ولم نرها ولم نعرفها، أو الموجودات التي في الأرض تسبّحه تعالى.

يا من تقرأ هذا الخبر، هل ستتماشى مع الحالة الطبيعية المفترضة بك وتسبّحه تعالى كما تفعل كل بقية ما في السماوات والأرض من كائنات وظواهر، أم ستكون شاذّاً عن ذلك؟

تكرّر الكلام في دراستنا عن تسبيح الكائنات من سماوات وأرض وجبال... والظواهر من رعد وبرق... وأننا لا نفقه تسبيحهم، وسبحانه بقدراته الإلهية يمكنه التواصل مع كل الكائنات مهما كان نوعها، كالجبال والسماوات والأرض

والشجر... ولمزيد من التوسع راجع دراسة الآية 44 من سورة الإسراء "تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...".

{لَهُ الْمُلْكُ}، إذْ منسوب له حصرية الوصف بتمام معنى الملك، وحصرية الاتصاف بتمام السيطرة والتحكّم له تعالى، لأنه سبحانه وتعالى المالك الحقيقي الأصلي الأساسي لكل شيء من مستوى إلهي، ويتحكّم بها ويفعل بها ما يشاء، وستلاحظ في هذه السورة "وفي عموم القرآن" أنه تعالى من ملكه الإلهي لنا "ولكل شيء" حكم علينا لنخرج كبشر إلى الدنيا ليمتحننا، ونموت، ويعيد إحياءنا ويحاسبنا، وندخل إلى الجنّة أو النار... وكما ترى إنَّ صفة الملك له تعالى تشير لتحكّمه بنا وبكل شيء، طبعاً مع التماشي بوصفه تعالى بالحمد...

{وَلَهُ الْحَمْدُ}، تمام معنى كلمة حمد ينطبق عليه تعالى حصرياً، وحصرية الاتصاف به تعالى بأن كل ما يفعله حميد جيّد صحيح ولا سبب وجيه للاعتراض عليه. ورغم ملكه تعالى لكل شيء وبالتالي حرية تصرّفه بنا، فلن يصدر عنه تعالى أي عمل سيّء يمكن الاعتراض عليه لسبب ما، إذْ إنّ ما يصدر عنه تعالى يوصف بالحمد دائماً، بأنه جيّد وصحيح، وسترى في بقية السورة أنه تعالى حتى عندما يرمي الكافر في النار فعمله حميد، لأن معاقبة المجرم شيء حميد، وأمّا ترك المجرم بلا عقاب فهو عمل غير حميد، عمل سيّء، ليس حقاً، إذْ هو عمل يمكن الاعتراض عليه لأنه مخالف للحكمة... وهذه نقطة شرحتها آيات أخرى من القرآن بالتفصيل، ومنها ما ورد في الآية 35 من سورة القلم "أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ".

هذا هو الحمد وأما الشكر، فهو الاعتراف بجميل ما حصل معك أو حصلت عليه، ولا يكون إلا على ما تحبّ، إذْ لا شكر على المرض أو الفقر... ونحمده تعالى في حالة المرض أو الفقر على أساس اعتقادنا بأن ما حصل له أسباب وجيهة لا يمكننا الاعتراض عليها... وبالعمق إنها مرتبطة بقرار خلق كائنات ذات إرادة، وتميّز تلك الكائنات الحقّ من الباطل، ولديها جسد ينتج عنه رغبات... وستتعرّض للبلاء... لذا نحمد على البلاء من فقر أو مرض .... لأنه الامتحان للفوز بجنة خالدة.

{وَهُوَ} سبحانه {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، إذْ لديه القدرة على فعل أي شيء يريده بأي شيء، وبالنسبة لموضوع السورة هنا، لأنه سبحانه قادر على جعل قراره فينا يتنفّذ، وصِرْنَا في الدنيا معرّضين للبلاء، ونحن ذاهبون إلى الآخرة للحساب، ولن يستطيع أي أحد إيقاف تنفيذ ما قاله تعالى.

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {2})
{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ}، الذي ركّبكم وألّفكم من المواد.

مَن ركّبنا وألّفنا؟ بديهي قبل ذلك أن تسأل عمّن خلق المادة التي تألّفنا منها ولكنه سؤال عميق لا يفيد قوله مثل السؤال مباشرة عن إلهنا، عمّن خلقنا، ركّبنا وألّفنا حتى صار لنا كيانٌ.

من الواضح أن المادة لا تتركّب لوحدها لتؤلّفنا، ولا القوانين الطبيعية "الفيزيائية" صارت لوحدها وانبثقت من لا شيء لتؤلّفنا، إذْ إنّ أي تركيب لشيئين على بعض ومهما كان التركيب بسيطاً، فهذا خلق، فهذا عمل يحتاج لمن يخلقه لمن يركّبه، وهذا التعقيد الذي في تركيبنا وتركيب بيئتنا لا يمكن أبداً أن ينتج إلّا عن إله عظيم صمّم وخطّط وخلق.

{فَمِنْكُمْ كَافِرٌ}، أي جماعة منكم تنكر أنه تعالى الخالق، {وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ}، وجماعة منكم يعتقدون به تعالى خالقاً.

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}، إذْ لديه دراية تفصيلية بما يصدر عنكم، لأن الكاميرا تسجّل ما يجري أمامها ولكنها لا تفهمه، أمّا تعالى فيرى كلّ شيء ويعي ما يجري، فمن كفر ومن آمن كلاهما تحت المراقبة، وكلاهما سيتحاسبان ويتجازيان بناءً على القرار الذي اتّخذاه.

لاحظ اعتماد القرآن على كلمة "خلق" لنفهم منها أموراً كثيرة، فسبحانه لا تنطبق عليه كلمة مخلوق، لأن الخلق هو تركيب شيء ما ليصير كائناً، فهو تركيب المواد من ماء وكربون وكالسيوم... لتصير إنساناً، وتركيب الجنّ من النار، وحتى الملائكة التي نقول إنّ تركيبها بسيط، فهذا التعبير لا يعني أنها ليست مركّبة من شيء ما، فطالما هي كيانات مخلوقة فهي مركّبة من شيء ما يناسب طبيعتها المختلفة عن المادّة الطينية التي نحن تركّبنا منها، فهي مجردة عن

المادة الطينية، وسبحانه وتعالى وحده خارج عن هذا الكلام فهو ليس مخلوقاً لأنه أصلاً ليس مركّباً من شيء، وأصلاً هو تعالى ليس كمثله شيء كما وصف نفسه في الآية 11 من سورة الشورى: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ...}.

نحن مجرد مخلوقات ضعيفة القدرات على تصوّره تعالى، بل من المستحيل على أي مخلوق أن يتصوّر أو يفهم طبيعته تعالى بسبب البعد الهائل بينه تعالى وبين مخلوقاته، ونفهم منه تعالى أنه خلق كائنات من أعلى ما يمكن من صفات وقدرات، وهي الملائكة العالية، ولكن يبقى الفرق هائلاً بينه تعالى وبينهم، لا لأنه تعالى يريد أن يبقى الفرق كبيراً بينه وبين مخلوقاته، بل لأن طبيعته الفائقة سبحانه تجعل من المستحيل أن ينخلق كائن قريب بالطبيعة منه تعالى، وأقرب شيء بيننا وبينه تعالى هو البعض من صفاته سبحانه والتي منحها تعالى لنا، طبعاً مع الفرق الهائل بين وصفه تعالى بها على مستواه الإلهي الفائق، وبين وصفنا نحن بها، فأنا أرى، ولكن بقدرات محدودة، فلا أميّز ولا يستوعب عقلي إلا بقعة صغيرة من الأحداث أو الأشياء أمامي، أمّا سبحانه فيرى كل شيء... وهكذا نفس الشيء بالفرق بيننا وبينه تعالى في كل بقية الصفات من حياة وسمع و...

بعبارة مباشرة وصريحة، أنا أسأل عمّن خلقني، لأني مخلوق، لأني مركّب مؤلّف من المواد، ولا معنى لسؤالي عن الذي خلقه تعالى، لأنه سبحانه ليس مخلوقاً، فليس مركّباً ولا مؤلّفاً، ولأن طبيعته تعالى ليس كمثلها شيء، وقد خلقنا مع تصميمنا المتضمّن التفاتنا للسؤال عمّن خلقنا حتى نتعرّف عليه سبحانه، فهذا مخطّطه سبحانه لنا...

يركّز القرآن على لفت انتباهنا للخلق، فطالما الشيء، أي شيء كان، ملاكاً جنياً إنساناً... فطالما هو مخلوق، وطالما هو مركّب مؤلّف من شيء، فهناك خالق له، أي هناك من ركّبه. وها خالقنا في كلامه في كتبه وعلى لسان رسله يخبرنا عن نفسه مباشرة بكلام منه أن اسمه الله عزّ وجلّ، وصفاته كذا وكذا... ومن بقية هذه السورة ترى أنه تعالى يخبرنا بما خطّطه لنا لننتبه لآخرتنا.

في كتبنا الفلسفية والعقائدية والتفسيرية للقرآن... الدارج استعمال الترديد الأرسطي بين النفي والإثبات، فحتى يحصر أرسطو ما أمامه وبالرغم من جهله لكل المعطيات، يستعمل طريقة الإثبات لشيء، ومقابله النفي له، فهذا حائط وذاك ليس حائطاً، إذْ ربما هو باب أو شبّاك أو سجادة... وهذه الطريقة الفكرية القديمة لا تزال مستعملة ونافعة في العلوم عندما نتواجه مع ما لم نتمكّن من تصنيفه. وقديماً صنّفوا الدنيا لمادّي، وغير مادّي، على أساس أن ما يمكننا اختباره بحواسنا "لَمْساً شَمّاً رؤية..." فهو مادّي، وما لا يمكننا اختباره بحواسنا ولكن له وجود فهو لا مادي.

إلى هنا لا مشكلة في التصنيف بهذا الفهم الأساسي لعمق التصنيف، فنصير نحن البشر مادّيين، والجنّ والملائكة والإله سبحانه لا مادي. ولكن هذا الكلام لم يبق دقيقاً مفهوماً على أساس التصنيف، فصار ممنوعاً أن تقول عن الجنّ أنهم مخلوقون من مادّة ما، والسبب أنهم قديماً لم يفهموا عمق التوصيف للمادّة، ففهموا أنها شيء فيه صلابة ما، وهناك شيء آخر ليس صلباً وتتألّف منه كائنات أخرى، وبشكل أو بآخر وصلوا إلى مفهوم البساطة مقابل التركيب، وبشكل ضبابي قالوا عن الجنّ والملائكة إنها مركّبات بسيطة، وقالوا عنه تعالى إنه وحده البسيط بشكل منفرد عن كل بقية الكائنات، فلا ماهية له تعالى...

هذا عرض سريع لكلام طويل جداً مذكور في كتب الفلسفة، وسبب تناوله هنا، اللغط والاشتباه في تحديد مصطلحات وصف الكائنات، فحالياً نصنّف الذرات بأنها مادّة، ومعها الفوتونات وما تتركّب منه الذرات من إلكترونات وعناصر أولية أخرى كمضادات المادة... ومقابلها الطاقّة، وفي العمق تأخذنا الدراسات إلى وجود شيء آخر غير الجسيمات الأولية التي تتألّف منها الذرات، فهناك أثر لطاقة معتمة ولشيء آخر سمّوه بالمادة المظلمة، لأننا لحد الآن لم نستطع التعامل معها بشكل مباشر...

في العمق أيضاً، نجد أن الجسيمات الأولية ما هي إلا شكل من تكتّل للطاقة، وهكذا تصير المادة المؤلفة من الذرات الصلبة، تصير في عمق تكوينها طاقةً لا توصف بأنها صلبة...

الآن صار بإمكاننا إعادة صياغة الكلام الأرسطي عن المادّة واللامادة، فالذرات مادّة، وعمقها نسمّيه طاقة، والجنّ مخلوقون من نار، وحالياً النار بتصنيفنا طاقة لأنها فوتونات "موجات كهرومغناطيسية"، ولا أقول لك هذا الكلام

ليصير مقدساً عندك ككلام القرآن، لا، فهذه نتائج علومنا الحالية التي حتماً ستتبدّل وتتغيّر فتتحسّن معرفتنا عمقاً وتصنيفاً...

ما يهمّنا من كل هذا الكلام أن نضع في بالنا، أن كلمة خلق التي استعملها القرآن تشير لتركيب وتأليف الشيء بغض النظر عن نوعية ما تركّب منه، والكلمات التي بين أيدينا من لغتنا البشرية، ليس فيها كلمات وصفية لشيء لم نره ولم نختبره، وفي هذه الحالة سنخترع كلمات جديدة لذلك، وإلى حينها، سنقول إنّ مادّة تكوين الجنّ هي النار، وهناك مادة مختلفة تكوّنت منها الملائكة، ولا نقصد بالمادّة الذرات التي نتألّف نحن منها، بل عموم أي شيء تكوّنوا منه، فربما الجنّ فعلاً مكوّنون من شيء شبيه بالفوتونات، وربما الملائكة مكوّنة من شيء شبيه بالفوتونات ذات الطاقة العالية، ربما وربما... وكلّه لحد تاريخنا الحالي ربما، وتقريباً للصورة وليس كلاماً دقيقاً لأننا لم نختبره ولم يصلنا خبر من مصدر موثوق عنه...

نضع هذا في بالنا وسنفهم عمق الكلام القرآني عند لفت انتباهنا لما خلقه تعالى، فوصفها بالمخلوقات يعني أنها مركّبة من شيء ما، وسبحانه وتعالى وحده طبيعته مختلفة ولا يمكن وصفها بالمخلوقة أو المركّبة، فلا معنى لسؤالك عنه تعالى: مَن خلقه؟

أطلت عليك يا عزيزي ويا عزيزتي لأن ما يقولونه كأدلة "عقلية" عن وجوده وتوحيده تعالى، ويستند على دليل الدور والتسلسل، وهما دليلان مبنيان على افتراض استحالة اللانهاية، وهي مفهوم تخيّلي، فتسأل: مَن خلقني؟ وهكذا تعيد السؤال... سائلاً عمّن خلق الذي خلقني... وصولاً إلى السؤال عمّن خلقه تعالى، فيقولون إنّ الاحتمالين لذلك أن تستمر بالسؤال والجواب إلى ما لا نهاية، فالإله خلقه إله، وهذا الإله خلقه إله آخر، وهكذا... وهذا هو التسلسل الذي لن ينتهي، وبالتالي فهو مرفوض عقلاً. أو تقول إنّ هذا الإله خلقه ذاك الإله، وذاك الإله خلقه هذا الإله، فتدور من هذا إلى ذاك لترجع إلى هذا، وهذا هو الدور المرفوض عقلاً.

هذه الأدلة فيها نوع من القابلية الجدلية للنقاش في أسسها الفكرية... ولم يشر إليها القرآن صراحة، واكتفى بالقول في الآية 11 من سورة الشورى أنه تعالى ليس كمثله شيء، وهو الأوّل كما ورد في الآية 3 من سورة الحديد، وأنه خالق كل شيء، كما ورد في الآية 102 من سورة الأنعام، وقوله عن كل ما عداه أنه مخلوق مع الإشارة أنه تعالى ليس مخلوقاً كما ورد في الآية 20 من سورة النحل: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ}.

هكذا ترى سبب تطويلنا للكلام، فقد اكتفى القرآن ببساطة معنى كلمة خلق ومخلوق التي تفهمها بالبداهة، وتفهم منها أن كلّ الكائنات مركّبة من شيء ما إلا هو سبحانه وتعالى، فهذه طبيعته.

النتيجة أنه تعالى لا معنى أصلاً للسؤال عمّن خلقه، ولا داعي لبرهان الدور والتسلسل لإثبات وجوده ووحدانيته تعالى، وهذا القرآن دليل ملموس منه تعالى كدليل على وجوده ووحدانيته، ونظام الكون والآيات الكثيرة المتنوّعة التي تقصّد سبحانه بثّها فيه لتكون دليلاً سهلاً واضحاً عليه تعالى، فهي أدلة على وجوده ووحدانيته، وقد صرّح القرآن عن ذلك في الآية 22 من سورة الأنبياء: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}، ونختار الآية 164 من سورة البقرة كنموذج عن مئات الآيات التي لفتت انتباهنا لما حولنا كدلالة على وجوده ووحدانيته تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}.

ومضافاً لكل ما سبق زرعه تعالى فينا التعلّق به عند فقداننا الأمل بالنجاة من الورطات كما ورد كمثال في الآية 65 من سورة العنكبوت: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ}، وزرعه تعالى فينا البحث عنه عند مواجهة عموم أي شيء لا ندري كيف حصل، ولا قدرة لنا على التحكّم به، كما ورد في الآية 6 من سورة آل عمران: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، وكما ورد في الآية 99 من سورة الأنعام: {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}، وغيرها الكثير من الآيات التي ركّزت على ما نسمّيه اصطلاحاً بالفطرة، إذْ لغوياً كلمة "فطر" أعمّ من معنى: شيء مزروع فينا ليكون بديهياً. ولكن تماشياً مع الاصطلاح عليها بهذا المعنى، فأكثر

آيات القرآن أشارت لزرعه تعالى فينا قابلية التعرّف عليه من تعاملنا مع أنفسنا وما حولنا، هذا سواء علمنا بآليات نشأة حياتنا وكيف تكوّنت الأرض، وكيف نزل الماء... أو لم نعلم، فحين نعلم بالآليات المسببة لحدوث الأشياء فنحن تعرّفنا بقدر ما نفهم على آلية فعله تعالى للأشياء.

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ {3})
{خَلَقَ}، أي ألّف وركّب، {السَّمَاوَاتِ}، وهنّ سبع سماوات كما تعلم من عموم القرآن، {وَ}خلق {الْأَرْضَ}، وهذا التعبير يشابه قولنا: خلق كلّ شيء. فهذه هي كل دنيا المخلوقات، خلقها تعالى، {بِالْحَقِّ}، أي بالصواب.

ننتبه ونتوقّف قليلاً عند هذه النقطة المتكررة في القرآن، ونفهمها بشكل أبسط إذا افترضنا اعتراضاً من أحد ما على خلقه تعالى لنا عموماً، أو على خلقه تعالى لنا في هذه البيئة وبهذا الشكل خصوصاً... أو نعترض على خلقه تعالى لنا وفرضه علينا المرور بالبلاء ويكون مصير من كفر النار... لأن من سيدخل الجنّة لن يعترض على خلقته... من بعد أمثال هذه الافتراضات تأتي جملة: خلق تعالى كل شيء بالحقّ.

إذْ إنّ أساس قرار خلقه تعالى لنا فهو حقّ، فهو الصحيح الصواب، والتصميم والطريقة التي انْخَلَقْنَا بها فهي حقّ، فهي الصحيح الصواب.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائماً أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...} وهي إشارة الى وجود سبع أَرَضِينَ مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراض.

بناء عليه، الكلام عن خلق ما بين السماوات والأرض لا يشير إلى أرضنا بالتحديد، بل يشير ضمنياً لعموم الأراضي التي تقابل السماوات.

{وَصَوَّرَكُمْ}، أي جعل سبحانه لكم صورةً من بعد ما ركّبكم، وهذا شيء عادي سينتج عن تركيبه تعالى لنا من المواد، إذْ سيصير لنا صورة للهيئة والقوام والشكل، ولكن اختلاف صورتنا بين بعضنا البعض وبيننا وبين بقية الحيوانات، أيضاً هو دليل على تصميم إلهي ليحصل الحيوان أو عموم أي كائن على صورة مختلفة عن الآخر، فما السبب الذي يوصلنا إلى الخروج إلى الحياة بصور مختلفة؟

في عصرنا الحالي نجد بعض المشدوهين بالجينات ناسبين لها خلقتنا وصورنا، فهل المادّة التي تتألّف منها الجينات هي صمّمت نفسها؟ أم القوانين الفيزيائية التي على أساسها تركّبت الجينات تلك القوانين خرجت من الحائط؟ أو كانت تحصيل حاصل وهكذا بلا سبب لتكون مترابطة مسبّبة لخلقتنا... هذا جنون! إذْ إنّ معرفتنا للآلية التي صمّمها تعالى ليخلقنا، ليست لاغية له تعالى، بل هو تعرّف على جانب من آلية خلقه تعالى لنا، فما تفسيرهم لتنوّع الصور في الكائنات؟ ولماذا لسنا كلّنا على نفس الصورة؟ وجواباتهم السخيفة عن كون الجينات والتحوّر فيها أنه سبب صورنا المختلفة، فهو جواب سخيف مثل الجواب عمّن خلق النبات؟ إذْ يقولون إنها من البذرة والماء والتراب والهواء... فمن أين أتت البذرة والماء والتراب؟ ومن أين ترابطت وتوالفت؟ وما معنى مليارات الصدف التي شكّلت مليارات التفاصيل؟ فهذه ليست إجابات، والكفر هو الابتعاد عن أبسط جواب: الإله خلقنا وصوّرنا عبر سلسلة من الأحداث "آليات" التي صمّمها تعالى لتسير وينتج عنها الدنيا وكوننا وكوكب الأرض... والإنسان وبيئته...

هذا من نوع التفكّر الذي أمرنا به تعالى لنرى أسباب الأشياء، ونراه تعالى خلفها كلّها، فخلف كل المخلوقات يوجد مصمّم لها، فالمادة والطاقة وقوانين الفيزياء... ما هي إلا البيئة التي صمّمها تعالى لنتركّب ونخرج فيها إلى الحياة بصور.

{وَصَوَّرَكُمْ}، {فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ}، أي كانت صوركم حسنة. إذْ بشكل عام صورنا وهيئتنا التي نتجت عن تركيبنا، كانت حسنة، فتوصف بأنها جيّدة، طبعاً هناك النادر من الصور المشوّهة، بلا رِجْل أو بلا يدّ أو معاقة بالولادة... والتي نتجت عن حوادث ما قبل الحمل وأثنائه، فهذه الحوادث مثل الحوادث التي تحصل معنا بعد الولادة فتتشوّه صورتنا بسبب الحريق أو التعرّض للمرض... وهذه أمور تنتج من تصميم خلقتنا هنا في الدنيا بضعف سيسبّب لنا الموت في النهاية، فهذه الدنيا ليست داراً للخلود، فنتذكّر دائماً حين ننظر للدنيا أنه من ضمن تخطيطه تعالى لنا أن نكون على الحال التي نحن عليها لنمرّ في بلاء الضرر الجسدي والتشوّه... فافهم الآية على الغالب الأعم لخلقتنا، وافهمها على ما قبل وقوع الحوادث لتشوّه الصورة، وبالأخير، فافهمها كما تريدك الآية أن تفهمها: من صورّكم؟ فالصور الحسنة التي أنتم عليها مَن فعلها؟ ولا يوجد ولا أي تفسير آخر غير وجود إله بقدرات فائقة صمّمنا "التعبير القرآني: سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" بصور مختلفة، وحسنة.

ألفت انتباهك للحسن والجمال الذي نرغبه في الصور، فهذا الانتباه وهذه الرغبة والمتعة بالنظر للأشياء التي نرى صورها جميلة، من أين جاءت؟ إذْ بالجفاف الفيزيائي هي مجرد أشكال لا تختلف عن الأشكال التي نراها كريهة، فما معنى وصول البشر إلى مرحلة تمييز حسن الأشكال؟ والكلام ليس فقط عن صور البشر، بل يتعدّاه لصور الحيوانات، والحجارة والأزهار... والثياب والبيوت... وأحيلك إلى الآية 6 من سورة النحل {وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ} وهي مثال عن تقصُّدِهِ تعالى تصميمنا بحيث نميّز الجمال والحسن، وهذا الكلام لا يلغي وجود صور غير محبوبة، لأنّ آيتنا هنا لم تقل أن كل صورنا ستكون حسنة جميلة، بل لفتت انتباهنا لخلقه تعالى للحسن.

إذا أردت التعمّق في الحكمة من حُسْن البعض وقبح آخرين، في التحليل أحيلك إلى حالة حكمة غنى البعض وفقر الآخرين، فهو بلاء مثله مثل أي بلاء آخر.

{وَإِلَيْهِ}، أي إلى من خلقنا وصوّرنا، {الْمَصِيرُ}، أي آخر ما تصل إليه الأمور، فنهاية الأمور وخاتمتها إليه تعالى، فلا صيرورة ولا حال أخرى بعدها، فلن نتخلّد هنا، ولن نموت ونختفي، ولن نذهب إلى عالم لا يملكه تعالى، ولن ولن... بل سنذهب في النهاية لنقف بين يديه تعالى في الآخرة.

كما ترى، عرضت السورة لنا لحدّ الآن، تصميمه تعالى لنا من هنا إلى الآخرة، فلم يخلقنا سبحانه هنا ويتركنا لنموت وتنتهي قصّتنا، لا، بل مرجوعنا إليه تعالى، وكما تعلم من ثاني آية من السورة هنا ومن عموم القرآن أننا عندما نرجع من الموت إليه تعالى فسنتحاسب على الكفر أو الإيمان به تعالى.

(يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {4})
{يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وسياق الكلام عن علمه تعالى بأي شيء يحدث في دنيا المخلوقات، مهما كان صغيراً أو كبيراً، {وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ}، أي ما تخفونه ولم تقولوه من معلوماتكم أو تفاعلكم أو دار في بالكم، {وَيَعْلَمُ}، {مَا تُعْلِنُونَ}، أي ما تقولونه بالعلن أمام الآخرين، {وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}، أي ما هو منسوب للصدور، فحيث تتفاعلون مع ما يحدث معكم فسبحانه يعلم به.

عندما نصير إليه تعالى، فنحن سنقف أمام الذي يعلم كل شيء، فيعلم حتى ما يدور في صدورنا من تفاعل، من كره أو بغض أو حبّ... يعلمه تعالى حتى لو لم يظهر علينا أي أثر لما تفاعلنا به.

بالنسبة لكلمة "صدر، صدور" إن لم يكن القصد بها لأعضاء الجسد للقفص الصدري وما تحته من أعضاء... فقد استعملها القرآن كما يستعملها الناطقون باللغة العربية وكما هي مستعملة في العديد من اللغات الأخرى، إذْ نشير بالصدر للتفاعل الداخلي للإنسان مع ما يراه ويسمعه ويشعر به مما يتعرّض له... فنحن عندما نتعرّض لمختلف الظروف، نشعر بالانقباض أو الانشراح... في صدرنا، فاستعملنا كلمة صدر لتوصيف حالة تفاعلنا مع الأمور، وحتى لو لم تشعر بأي شيء في قفصك الصدري، من انقباض أو صعوبة في التنفّس أو راحة... فمجرد تفاعلك مع ما

تعرّضت له، فإن مختلف اللغات البشرية تعبّر عن هذا التفاعل بأن شيئاً حصل في صدرك، وحتى السرّ الذي تخفيه عن الآخرين تعبّر عنه مختلف اللغات بأنه في صدرك، وكلّنا نعلم أن السرّ ليس في القفص الصدري، فليس تحته في الرئة أو القلب أو المريء... بل هو تعبير يشير لحالة تفاعلنا مع ما ندركه سواء بقي مخفياً أو ظهر له أثر حسّي في منطقة الصدر أو على تعابيرنا وحركاتنا.

(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{5})
{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ}، أي ألم يصلكم خبر غير منتشر علمه بين الناس عن، {الَّذِينَ كَفَرُوا}، عن الذين أنكروا خلقه تعالى لهم وتصميمه لهم وصيرورتهم إليه تعالى، {مِن قَبْلُ}، من زمن قبل زمنكم؟ ألم تصلكم أخبار عن أناس كفّار كانوا في الزمن الماضي، {فَذَاقُوا}، أي تحسسوا ولمسوا، {وَبَالَ}، أي ثقل نتيجة، {أَمْرِهِمْ}، أمور كفرهم، إذْ إنّ أمر موضوع كفرهم نتج عنه وبال فنتج عنه شيء ثقيل، وأنتم الآن تسمعون عمّا جرى معهم من عذاب دنيوي نزل بهم، حيث إنكم تسمعون النبأ ولكن هم ذاقوه فعاشوه.

{وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، إذْ معلوم أن لهم في الآخرة ضرراً آخر غير الذي أصابهم هنا في الدنيا ولن يمكنهم تحمّله أو الاعتياد عليه.

الكلام هنا عن الأقوام التي أصابها عذاب في الدنيا، مثل قوم النبي نوح(ع) وعاد وثمود... إذْ إنّ أخبار ما حصل معهم ليست معلومات منتشرة بين الناس، لأنها أنباء حين يسمعها الكفّار، تكون شبه جديدة أو جديدة كليا، ولكن هناك من وصلته هذه الأنباء عبر تناقل الناس لها، وفي الكتب الإلهية السابقة أخبار عن تلك الأقوام، وها قد وصلتهم عبر هذا القرآن نبأ الكفّار الذين من قبلهم وقد أصابهم عذاب دنيوي.

ليس على خاطركم ومزاجكم أن تكفروا وتقرّروا أنه لا عواقب لذلك، أو أن تقولوا: إن كان يوجد إله فهو لا علاقة له بنا وبما نفعله، أو هو لا يتدخّل بنا ولا يهمّه أمرنا، أو لا يحق له التدخّل بنا فنحن أحرار وسنفعل ما نريد... هذه الاختراعات هي زوبعة في فنجان، لأنها لا قيمة لها أمام الحقيقة، إذْ إنّ الإله المالك الخالق قد رسم لنا طريقاً، ولا يمكننا تغييره، وكمثال على ذلك وما سمعنا عنه من زلزال وفيضان وبركان... ضرب أقواما كانت كافرة، فهي تدخّل إلهي واضح كدليل تاريخي ملموس على أننا لسنا متروكين على هوانا.

القرآن تحدّث بالخصوص عن الحوادث "الكوارث" التي كانت نتيجة أعمال سيئة قامت بها الناس، لأن الزلازل والبراكين والأوبئة... تحصل من طبيعة تركيبة وبيئة الأرض، ولكن لو كان الناس مؤمنين يستغفرون لَتَدَخَّلَ سبحانه لمنع الكوارث الطبيعية عنهم، وهذا ما تكرّر عدّة مرات في القرآن وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 30 من سورة الشورى {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} وما قالته الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

هذه النقاط مرّت معنا عدّة مرات في دراستنا، أمّا هنا، فالحوادث المشهورة جداً كالطوفان في عهد النبي نوح(ع) وزلزال ثمود، وعاصفة عاد، وبركان وخسف قوم النبي لوط(ع)، وغرق فرعون... هي حوادث عناوينها معلومة عموماً بين الناس، وإليها تشير الآية هنا، ولتلفت انتباهنا للعقاب الإلهي على الكفر، إذْ مَن يقول بأن الإله سبحانه لا يتدخّل بنا بسبب الكفر فليتذكّر الأخبار التي وصلته عن أقوام نزل عليها العذاب هنا في الدنيا بسبب الكفر وبناء عليه فهي دلائل تاريخية ملموسة ونماذج مصغّرة عن العذاب في الآخرة.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ{6})
{ذَلِكَ}، العذاب في الدنيا، {بِأَنَّهُ}، أي بسبب أنه، {كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ}، أي الأشخاص الذين ينقلون كلامه تعالى كانوا يأتون لأولئك الكفّار بالبينات بالأمور الواضحة التي تدل على وحدانية الإله وخلقه لنا وصراحة وجود آخرة وحساب، وتدلّ ضمنياً بشكل واضح على صحّة صفة الرسول كناقل لكلامه تعالى لهم... وتدل بصراحة ووضوح على تهديده تعالى لمن يخالف أوامره.

نتذكّر أن وصول الناس بمخالفتها لأوامره تعالى إلى الحدّ الحرج، بحسب المقاييس الإلهية، فهو سبب نزول العذاب عليهم هنا في الدنيا، إذْ ليس كل قوم خالفوا كلامه تعالى سينزل عليهم عذاب جماعي، لا، بل هناك مقاييس إلهية لذلك، منها شيوع السوء من العيار الثقيل بينهم بلا اعتراض منهم، ومعرفتهم الواضحة بأن ما يفعلونه هو سوء، ومعرفتهم بالعقاب الإلهي عليه... ومن شروط نزول العذاب عليهم علمه تعالى أنه لن يكون من ذريتهم في المستقبل مؤمنون صالحون...

{فَقَالُوا}، أي قال الكافرون ردّا على الأمور الواضحة التي جاءهم بها الرسل:

{أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا}! ما هو السبب الذي يجعل الإله يرسل لنا رجلاً مثلنا لا يختلف عنّا بأي شيء؟ ولماذا لا تأتي لتهدينا الملائكة(ع) التي يقولون عنها، فتضعنا على الشيء الصحيح الذي يوصلنا لنتيجة صحيحة؟ ولماذا لا يقوم الإله شخصيا بهدايتنا؟ طالما تواصل مع رجل منّا فليتواصل معنا كلّنا... لا لا يدخل في عقلنا أن الإله يرسل شخصاً عادياً لهدايتنا، إذْ إنّ أي واحد منّا يمكنه ادّعاء ذلك فيقول أي واحد منّا أنه رسول من الإله...

تجد في مختلف سور القرآن ردا مفصلا على هذه الأقوال أمّا هنا فاكتفت السورة بردّ سريع ستراه بعد سطر. لفتني قول قرأته في أحد كتب التفاسير، أنهم لم ينكروا أن يكون إلههم حجرا! لأن البعض ممن اعترضوا على كون الرسول من البشر وهو نفسه كان يعبد تمثالا من الحجر ويقول أنه إلهه! وأضيف على قوله ما تراه بالبداهة، لنقل أن إرساله تعالى واحدا من البشر كرسول، فهذه طريقة ولسبب ما فهي غير مقبولة، ولكن هم الرافضون لهذه الطريقة، من أين أتى دينهم؟ إذْ إنّ عقيدتهم شريعتهم قوانينهم... من أين أتت؟ ألم يخترعوها هم البشر؟ فكيف يقبلون بدين من اختراعهم هم، من اختراع فلان وفلان من البشر، ولا يقبلون برسول منه تعالى من البشر؟ فليحاكموه على ما يقول إن كانت عقيدته وشريعته فيها سوء، أمّا رفضهم له لكونه من البشر، فما معناه! وهذا ملخص ما ذكره القرآن متفرقا في عدة سور ومضافا له العديد من الردود الأخرى... وراجع كمثال دراسة الآية 9 من سورة الأنعام {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ}.

{فَكَفَرُوا}، أي لم يؤمنوا، {وَتَوَلَّوا}، أي توجّهوا باتجاه آخر غير اتجاه الإيمان.

{وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ}، إذْ لم يكن أصلاً بحاجة لإيمانهم، لأنه سبحانه لن ينقص منه شيء إن لم يؤمنوا، ولا يوجد لديهم شيء يحتاجه تعالى ولم يعطوه له، {وَاللَّهُ غَنِيٌّ}، فلا حاجة له بشيء، إذْ أنا بالمال اصير غنيا لأني بالمال أشتري ما أحتاجه، أمّا تعالى فأصلاً لا حاجة له بأي شيء، لأنه يملك سبحانه كل شيء ولكنه ليس لهذا السبب غنيا فهو أصلا مستغن عن كلّ شيء، إذْ إنّ ما فيه تعالى من صفات فائقة هي السبب أنه تعالى لا يحتاج لأي شيء.

وصفه تعالى بالغني ليس تفسيرها أنه تعالى يملك كل شيء وبالتالي يصير المعنى أنه سبحانه يملك ما يحتاجه، لأن هذا غير صحيح، إذْ إنّ كلمة "غني" تفيد معنى الاستغناء، وهو عموم انتفاء عموم الحاجة لعموم أي سبب، إمّا لأنك لا تحتاج أصلا للشيء، وهذه حالته تعالى "الغني" بالنسبة لكل شيء، وحالة الملائكة بالنسبة لطعامنا... أو غني لأنك لديك ما تحتاجه وهذه حالتنا حين نملك الطعام والشراب... أو غني لأنك تملك ما يمكّنك من الحصول على ما تحتاج، وهذه حالتنا حين نملك المال لنشتري به ما نحتاجه. وترى هذا المعنى للاستغناء بشكل مباشر وواضح لأصل معنى كلمة "غني" في تعبير {... وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} كما ورد في الآية 97 من سورة آل عمران، فبوضوح يشير الوصف بالغني للاستغناء، إذْ لا حاجة له تعالى بهم ولا بإيمانهم ولا يتضرّر منهم مهما فعلوا.

{وَاللَّهُ حَمِيدٌ}، إذْ إنّ كل أعماله وأقواله وعموم ما يصدر عنه يوصف بأنه جيّدٌ حَسَنٌ، ولا عقلانية ولا حكمة في الاعتراض على ما يفعله تعالى، وهنا الكلام عن اعتراضاتهم على رسله كونهم من البشر، وأن هذا عمل غير حميد بنظرهم، ومن ناحية ثانية فبنظرهم أن الإله قد خلقنا وتركنا، ولو تدخّل هنا في الدنيا ليعطينا الأوامر ويهددنا بالعذاب لكان هذا عملا غير حميد... فتردّ الآية عليهم باختصار: الله حميد. لأن اعتراضاتكم كلّها ليست في محلّها إذْ أنه سبحانه لا يفعل إلا ما هو صحيح وجيّد.

أول ما يخطر بالبال أن رمي من كفر في جهنم ليس عملا حميدا، وعلى هذا الخاطر فقوانين الدول التي تعاقب من سرق وقتل وتجاوز إشارة مرور... ليست حميدة، فهل هذا صحيح؟ لا، لأن نفس الجملة التي في قوانين البلدان والتي تنصّ على عقوبة على جرم ما، هي نفسها كلام حميد، وتنفيذها على من أجرم أيضا عمل حميد.

ضع في بالك أن الشكر هو التعبير عن حصولك على شيء ترغبه ويعجبك، فلا شكر على مرض وفقر... أمّا الحمد فهو تعبير عن وصف حسن العمل، فالحمد على المرض تعبير عن أنك لست معترضا على ما حصل معك من تقديره تعالى لك بالمرض، لأنك تعلم أنك في دار فتنة وبلاء، وهذا المرض من ضمن تصميمه تعالى لنا هنا في الدنيا ليكون امتحانا لنا بجسد طيني وبيئة تحدث فيهما المصائب... وننال عليها ثوابا إن صبرنا...

(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ {7})
{زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا دينه تعالى، والكلام هنا عن إنكارهم لكلام رسله تعالى عن الآخرة والحساب، يقولون شيئاً لا يستند إلّا على كلامهم: {أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا}. يقولون إنّه لن يتم إنهاضهم، إقامتهم، من الموت. وهذا الكلام هو زعم، فلو سألتهم: على ماذا تستندون عندما تقولون إنّكم لن تقوموا من الموت؟ فلا حجّة ولا دليل لديهم، سوى ما يقولونه هم، سوى قناعتهم هم بذلك. ولكن ما قيمة هذا القول وهذه القناعة؟ فهم مخلوقات تحت ملك الإله سبحانه، وسبحانه يقول بأنه سيبعثهم، فما معنى قولهم أمام قول الإله سبحانه؟!

{قُلْ}، لهؤلاء الناس عبر هذا القرآن: {بَلَىٰ}، نفي لقولهم إنّهم لن يبعثوا، بالتأكيد {لَتُبْعَثُنَّ}، {وَرَبِّي}، وأؤكّد على صحّة ذلك بالمسؤول عني من مستوى إلهي، بالتأكيد سوف تتمّ إقامتكم من الموت، {ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ}، سوف يتم إخباركم بأمور نسيتموها أو لم تعلموا بحصولها... {بِمَا}، بالذي، {عَمِلْتُمْ}، فأي عمل قمتم به ومخالف لأوامره تعالى فبعد الموت سنخبركم عنه، {وَذَٰلِكَ}، البعث والإنباء، {عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}، يمكن تحقيقه من دون أيّة صعوبات أو معوّقات، بقدراته الفائقة سبحانه التي منها علمه الذي لا يغيب عنه شيء، بكلّ يسر سيخبرهم تعالى بتفاصيل كل ما عملوه، وسياق الكلام عن محاسبتهم على ما عملوه.

(فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ {8})
بناءً على حقيقة حصول بعثكم حتماً:

{فَآمِنُوا}، أعلنوا اعتقادكم، {بِاللَّهِ}، إلٰهاً أَحَداً مَلِكاً قَادِراً بَصِيراً... سيبعثكم ويحاسبكم... وأعلنوا اعتقادكم بـ، {وَرَسُولِهِ}، بالشخص الذي ينقل لكم كلامه سبحانه، وآمنوا بـ، {وَالنُّورِ}، بما يكشف لكم طريقكم، {الَّذِي أَنْزَلْنَا}، على الرسول(ع) نزل منه تعالى ما يكشف لكم الطريق أمامكم لتمشوا عليه، حيث نزل هذا القرآن بما فيه من عقيدة وشريعة وسلوكيات وبما فيه من هداية...

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}، لديه أخبار كل ما قمتم به أو شاركتم به أو وافقتم عليه... سواء أنهيتموه أو لم تُنهوه، نويتم به أو نفّذتموه.

لم يرسل لكم تعالى رسوله(ع) ويترككم من دون مراقبة، وحقّاً سيتم بعثكم، والاختيار الأفضل هو أن تؤمنوا.

كما ترى الأمور مرتبطة متشابكة ببعضها، صفاته تعالى التي نتعرّف عليها من أنفسنا، من كونه تعالى خالقنا "خالق"، مالكنا "مالك"، صمّمنا خطّط لنا "التعبير القرآني: سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا"... فكيف يتركنا هكذا بلا معنى لنعيش ونموت وننتهي؟ فمن الطبيعي أن يخبرنا بما يأمرنا به لنلتزم به هنا في الدنيا، وها أخبرنا عبر رسله بأن الآخرة ستأتي بعد انتهاء الدنيا، فمن الطبيعي بالنسبة لصفاته تعالى أن يراقبنا ويعلم كلّ أخبارنا، هذه الصفات العالية هي صفاته هو تعالى بالأصل، لا يجري أي شيء من دون أن يعلم به تعالى، طبيعته كإله هكذا، وليس علمه بما يحصل في كل نقطة في الدنيا شيئاً يتطلب منه تعالى بذل جهد أو تخصيص انتباه... لا، فالقدرات الفائقة تجعله تعالى يَخْبُرُ بكل شيء.

أطلنا الكلام عن الخبير لأن القرآن أراد منا الالتفات لهذا المعنى، بعض الناس الذين أنكروا الإله تعالى أو اخترعوا أوصافاً من أوهامهم للإله، أو زعموا أموراً ونسبوها للإله تعالى... فهؤلاء يضيق فكرهم عن استيعاب علم الإله الواسع الهائل الفائق، وبعضهم يستسخف نفسه ويصغّر من قدراته تعالى، ويعتقد أنّه في لحظة ما أو في مكان ما... الإله لا يراه

أو لا يهتم أو لا يراقب أو يكون مشغولاً بشيء آخر... لذلك كرّر القرآن وبتعابير مختلفة عن علمه تعالى الهائل وانتشار مراقبته حتى لأماكن لا يحصل فيها أي شيء، لا يوجّه الإله اهتمامه بالمراقبة عليّ وعليك وهنا وهناك... لا، فهو الإله طبيعته مختلفة عن كل الكائنات، ولا يمكننا تصوّره تعالى، وحتى الملائكة العالية جدا، بعيدة جدا جدا جدا... في تكوينها عن طبيعته تعالى، ولا تقدر على تصوّر أي شيء عن حقيقة كيانه عزّ وجلّ.

(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{9})

{يَوْمَ}، في الزمن الذي، {يَجْمَعُكُمْ}، تكونون متفرقين متبعثرين ويجعلكم سبحانه مع بعض لتقفوا أمامه، {لِيَوْمِ الْجَمْعِ}، للزمن المحدّد لتجميعكم، وهذا تعبير آخر عن يوم القيامة من الموت والتركيز هنا في الآية على إعادة إحياء الأموات من الأزمنة الممتدة عبر تاريخ البشرية من كل الأماكن التي ماتوا فيها، وتجميعهم في زمان ومكان واحد.

{ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ}، المغبون هو من فاتته فرصة للحصول على الشيء الجيّد، فحصل على ما هو أقلّ منه، أو لم يحصل على الشيء نهائياً، علماً أنّه كان متاحاً له وبمقدوره الحصول عليه، يوم يجمعنا تعالى سيشعر الكثيرون منّا بأن حياتنا الدنيا كان بإمكاننا قضاؤها في تجميع الحسنات التي تنفعنا في يوم جمعنا من الموت، فاتتنا الفرصة. ومن صيغة التفاعل "تغابن" يبدو أن الشخص نفسه عندما يقارن بين ما حصل عليه من سيئات وخلوّه من الحسنات، وبين ما حصل عليه الآخرون من حسنات وكانوا معاصرين له، فكانت ظروفه مثل ظروفهم، وكانت فرصة الحصول على الحسنات متاحة له، فهو سيشعر بالغبن، ومن يراهما سيحكم عليه بالغبن...

تجد في بعض الروايات ما يوحي لك بأن المؤمنين يندمون في الآخرة لأنهم كان بمقدورهم الحصول على حسنات أكثر في الدنيا، وتجد لآياتنا هنا روايات توحي بهذا المعنى أيضاً، فانتبه لأن القرآن يقول لك إنّ المؤمن الداخل إلى الجنّة لن يشعر بأي شعور سيّء من لحظة فتح عينيه في الآخرة، ولا حتى شعور الندم البسيط على قلّة حسناته، لا، فلن يشعر المؤمن أبداً بتاتاً بأي شعور مزعج مهما كان نوعه، وأصلاً لن يشعر بأنّ ما حصل عليه أقل مما حصل عليه المؤمنون الآخرون... كمثال على ذلك الروايات التي تقول بأنّ من حفظ عن ظهر قلب "عن الغايب" سورة من القرآن ونسيها، ففي يوم القيامة سيرى في الجنّة مكاناً رائعاً... فتقول له السورة القرآنية إنّه لن يحصل على هذا المكان الرائع ولن يرتفع إلى تلك الدرجة لأنه نسي السورة... وهذا كلام غير صحيح ومخالف للقرآن... يَحصُل شيء منه مع غير المؤمنين من الدرجة المنخفضة جدا والذين يتحاسبون "ويتعذبون" ويحتاجون للشفاعة...

مثلُه الروايات التي فيها بكاء المؤمنين في الآخرة على إعادة المشاهد لقتل المؤمنين في الدنيا حين يتحاسب المجرمون عليها... فهي مخالفة للقرآن الذي يؤكّد أنّ المؤمن ولا بأي شكل سيتضايق من أي شيء، فحالة السعادة والفرح ملازمة له من أوّل لحظة يرجع فيها إلى الحياة في الآخرة وإلى الأبد... راجع دراسة الآية 43 من سورة الأعراف {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، لدينا أمثالها عدّة آيات عن حالتهم يوم القيامة التي ستكون بالنسبة لهم كجنّة مصغّرة.

ربما تقول هناك أناس من ضعاف المؤمنين، وهؤلاء سيدخلون إلى الجنّة ولكن من بعد حساب عسير، وشفاعة... وهؤلاء سيندمون على ما فاتهم، ولكن حتى هؤلاء لم ينقل القرآن لنا أخباراً عنهم بهذا المعنى للتغابن، وبالتحليل يمكنك القول إنّ ضعاف المؤمنين سيمرون بحالات تغابن، ولكن أبداً بتاتاً ولا بأي شكل سيشعرون بأي انزعاج من بعدما يصدر الحكم فيهم بدخول الجنّة، وها كل القرآن أمامك يصرّح بذلك.

{وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ}، من يعتقد بصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز "الله" جلّ جلاله إلٰهاً أحداً بصفاته الحسنة، {وَيَعْمَلْ صَالِحًا}، يَكُنْ وصف أعماله التي قام بها في الدنيا بأنها جيدة غير عاطلة وليست فاسدة، وعملياً تكون أعماله بهذه الصفة فقط وفقط حين تتطابق وتتماشى مع كلامه تعالى، خلقنا سبحانه مع قابلية تمييزنا للخير من الشر، وبناءً عليه سيحاسبنا لأن أوامره تعالى كلّها خير... عندها، {يُكَفِّرْ}، يغطّي ويستر تعالى، {عَنْهُ}، عن المؤمن العامل للصالحات، {سَيِّئَاتِهِ}، الأعمال السيئة التي قام بها، فلا تظهر ولا يراها أحد ولا يتحاسب عليها، حتى لا يشعر المؤمن بأي إهانة وانزعاج سيستر سبحانه على ذنوبه فلا يراها أحد... {وَيُدْخِلْهُ} تعالى، {جَنَّاتٍ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها من

حدائق وبساتين وما يسبّب السعادة، {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، ولا تبالغ لتتصورها كمستنقعات بل هذا وصف لروعة المكان من جداول وأنهار وشلالات من المياه والعسل والخمر... تجري بين الأشجار والمروج والحدائق... كما تقرأ في الآية 15 من سورة محمد {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى...}، {خَالِدِينَ فِيهَا}، لا يموتون ولا يفنون ولا يتم إخراجهم منها ولا لأي سبب، {أَبَدًا}، مهما مرّ من زمن سيبقون خالدين في الجنّات.

{ذَٰلِكَ}، التكفير والخلود في الجنّات هو، {الْفَوْزُ}، الحصول على شيء له قيمة، {الْعَظِيمُ}، الضخم الهائل الروعة والقيمة.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ{10})
{وَالَّذِينَ كَفَرُوا}، أنكروا فلم يؤمنوا به تعالى وبصفاته الحسنة، ولا بما يقوله تعالى لنا عن البعث والحساب... {وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا}، قالوا عن الأمور المميزة المنسوبة له تعالى إنّها غير صحيحة، فلم يصدّقوا كلام هذا القرآن الذي يشرح العقيدة والشريعة بشكل يبدو واضحاً جداً أنّه من منظور إلهي، ويبدو واضحاً أنّها صالحة جيّدة... وكذّبوا بالأمور غير العادية التي حصلت على أيدي الرسل، والتي تدل بشكل مميز أنّهم على اتصال بالإله سبحانه... ولم يصدّقوا بتعذيب الأقوام الكافرة هنا في الدنيا... وكذّبوا بآيات خلقنا وخلق ما في الدنيا...

{أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ}، هم الذين سيكونون مع بعض في نار الآخرة، {خَالِدِينَ فِيهَا}، لا يموتون ولا يفنون، ولا يخرجون منها ولا لأي سبب، {وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}، النار موصوفة بأنها أسوأ ما تصير إليه الأمور، فهي أتعس نهاية ونتيجة.

(مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ{11})
{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ}، أي شيء يصيب فيحصل مع أحد ما، {إِلَّا}، فقط، {بِإِذْنِ اللَّهِ}، بسماح منه تعالى، فلا شيء يحصل بقوّة قاهرة فوق قدرته تعالى، فما يصيبنا من خير أو شرّ، سبحانه يسمح بحصوله، وبالتالي يمكنه تعالى بكل سهولة أن لا يسمح بحصول المصائب أو أن يسمح بحصولها، فكل ما يحصل معنا من خير أو شرّ سبحانه يراه وتحت سيطرته.

إذنُه تعالى لحصول المصائب لا يعني أبداً براءة المجرم من جرائمه ونسبتها إلى الإله سبحانه لأنه أذن له بفعل الجريمة، لا بتاتاً، فمعنى الإذن لا يتماشى مع هذا الفهم، لأن الإذن هو تركها تحصل من دون إيقافها، ولا يعني الرضا عنها، مثلما تترك الطفل يمشي لوحده وأنت تعلم أنّه سيتعثّر، أذنت له بالمشي لوحده ولم تمنعه، فلو وقع وتألّم، فالطفل هو الفاعل، وأنت طبعاً غير راضٍ عن حصول الألم ولكنك أذنت له فسمحت للألم أن يحصل... هذا المثال فقط لتقريب معنى الإذن وليس لتقريب تعامله تعالى معنا.

نتذكّر دائماً من القرآن أنّ المصائب الحسنة منه تعالى، والمصائب السيئة سببها نحن، ورد ذلك صراحةً في الآية 79 من سورة النساء، {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ...}، فسبحانه صمّمنا "التعبير القرآني: سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" مع احتمالية وإمكانية حصول المصائب الحسنة والسيئة معنا، وكلّها تحصل بإذن منه وليست تحصل وهي خارجة عن سيطرته تعالى، ولو كنّا مؤمنين لما حصلت معنا المصائب الناتجة عن أفعال البشر من فساد واستهتار... وعندها سيتدخل سبحانه مانعاً حدوث الكوارث الطبيعية...

لاحظ السورة الآن انتقلت لتتحدّث معك عن بقائك على اختيارك الأفضل في حياتك أمام ما يحصل معك "المصائب"، فتريدك أن تختار الإيمان عندما تتعرّض لظروف الحياة المختلفة، وأن لا تتأثّر بصعوبة الظروف لتنجرف في حالة ضعف نحو الكفر.

{وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ}، الله تعالى، {قَلْبَهُ}، فإذا صدّق بالمعلومات الدالة عليه تعالى كإله واحد أحد خالق سيبعث ويحاسب... فسيجعل سبحانه أساس تفكير هذا الإنسان ونفسيته متوافقاً متماشياً متناغماً مع الأشياء الصحيحة التي توصله للغاية الصحيحة، فعندما يتعرّض لأي شيء فإنّه سيهتدي لاختيار الصلاح.

{وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، من علمه الواسع الهائل يعلم بكل شيء، فيعلم بما سيحصل، وأذن للمصائب الحسنة أو السيئة أن تحصل، فهي وبحسب علمه تعالى لن تؤثّر في المؤمنين الحقيقيين لأن قلبهم مهتدٍ.

بالنسبة لكلمة آمن لم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإسلام أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتّقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، بمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها "مؤمنون..." في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، فآمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كلاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ{12})
{وَأَطِيعُوا اللَّهَ}، اسمعوا ونفذّوا ما يقوله سبحانه، وهو ما وصلكم عبر القرآن أو عبر وحي خاص للرسول، {وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}، هناك أمور تطبيقية لكلامه تعالى ولا ينزل فيها وحي ويقوم الرسول باتخاذ القرارات فيها، كتوزيع المهام والوظائف على الناس، وحصص توزيع الصدقات، والأمر بقتال مجموعة ما من الناس... في كل أحوالكم وكل ما يصيبكم فابقوا على طاعته تعالى وطاعة رسوله(ع)، {فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ}، حوّلتم وجهتكم لناحية أخرى فأدرتم ظهركم لهذه الطاعة ولم تهتمّوا بها، {فَإِنَّمَا}، فقط وفقط، {عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}، مطلوب منه توصيل كلامه تعالى بشكل تام وواضح، ومن بعد ذلك فلا مسؤولية على الرسول، ولا عذرٌ مقبولٌ لكم أمامه تعالى.

بعضهم يخطر بباله أنه لم يؤمن لأن الآيات الإلهية لم تكن كافية، فيأتيه كلام القرآن المشير لنماذج كبيرة وصغيرة متنوّعة من الآيات فيه وحوله، ليخبرنا أنها أكثر من كافية لمن يريد أن يؤمن... ويخطر بباله ويخطر... إلى أن يقول: لم أؤمن لأن الرسول الذي اختاره تعالى لنا فاشل، لأنه لم يستطع إقناعي. لا، ليس مطلوباً من الرسول إلا توصيل الكلام الإلهي لك بشكل تامّ وواضح، ومن بعد ذلك ليس مطلوباً منه أي شيء، والمسؤولية عليك إن لم تؤمن، وصلك كلام من الإله، فهل الإله عجز ولم يستطع إقناعك!

نفس الكلام عن الذين في عصرنا إن لم يعجبهم هذا الشيخ وذاك العالم وهاك المؤمن... يخترعون أعذاراً واهية أنهم وبسبب الضعف في الطرح الديني لم يؤمنوا، ها كتابه تعالى وصلكم عبر رسوله، فإن لم يقنعكم كلامه تعالى، ولم تروه حقّاً، فحتماً أنتم قرّرتم الكفر سلفاً ومتعلقون بأفكاركم وحبّ الدنيا بسوء، ولن تقتنعوا حتى لو رأيتم الله تعالى جهرة مع أنه مستحيل.

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ{13})
{اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد، {لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ}، لا يوصف بالألوهية أحد غيره، سبحانه وحده صفاته وقدراته فائقة فوق الجميع، وعلى هذا الأساس يجب عليكم أن تطيعوه سبحانه وتطيعوا رسوله(ع).

من يستسخف نفسه وينسب صفة الألوهية لغير "الله" تعالى، فهو يتوهّم ويخرّف، لأنه وكما مرّ معنا كثيراً في القرآن، صفة الألوهية لا تتحمّل أصلاً وجود إلهين أو أكثر، ولا تتحمّل وجود نصف إله أو ربع إله أو كائن بنفحة إلهية... وفي مختلف السور تجد دلائل على ذلك، أبرزها ما ورد في الآية 91 من سورة المؤمنون {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ}.

لكن ننتبه دائماً لشيء آخر غير الأدلة والبراهين على وحدانيته تعالى، نحن أمام كلام صادر منه تعالى، فهو يخبرنا أنه لا يرى إلا نفسه من جهة، والمخلوقات التي هو تعالى خلقها من جهة أخرى، وعليك أن تفهم جملتنا هذه أنه هو تعالى يخبرنا بصراحة أنه لم يلمس ولم يَرَ ولا بأي شكل، ولا أي أثر لأحد غيره إلا الذين خلقهم هو سبحانه، فيخبرنا سبحانه بشفافية أنه لا يرى إلٰهاً إلا هو وحده.

طبعاً قبل هذا الكلام تتذكّر أن كلمة إله هي وصف لمن يملك صفات وقدرات فائقة فوق الآخرين، وتعلم أن الناس اخترعوا آلهة وجعلوا لها أوصافاً تفوق قدرات البشر، وبعضها كان وهمياً من خيالهم، وبعضها كان لكائنات حقيقية

ولكنها ليست آلهة، بعضهم عبدوا الجنّ والملائكة... يعني وباختصار، اختراع إله أو وصف كائن ما بأنه إله، لن يجعله إلٰهاً، وسبحانه يخبرنا أنه خلق كل شيء، فكلّهم صفاتهم وقدراتهم تحت صفاته وقدراته تعالى، وبصراحة يخبرنا أنه لا يرى ولا يلمس أي أثر لوجود إله غيره.

هذا الكلام ضعه في بالك لترى الفرق بين ما نقوله نحن من أبحاث عقائدية وكلامية وفلسفية، وبين كلامه تعالى من رؤيته هو سبحانه للواقع، عندما يصوّب سبحانه معلوماتنا فيخبرنا عن وحدانيته وعن صفاته وعمّا فعله، كمعلومات هي الواقع. وعندما تشعر بأنه تعالى يكلمك بطريقة الأدلة والبراهين، سبحانه أيضاً يخبرك عن معلومات وليس عن تخمين أو افتراض، يخبرك عن نفسه، وكمثال عن هذا ما ورد في الآية 91 من سورة المؤمنون {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ}.

إذًا، صاحب هذا الاسم المحدّد الله عزّ وجلّ يخبرنا عن وحدانيته بالألوهية، فإذا لم نخترع آلهة وصفات لآلهة من أوهامنا، وتماشينا مع سلامة القلب التي صمّمها تعالى فينا لتدلّنا عليه حين نتفكّر في خلق أنفسنا والسماوات والأرض... سنتعرّف على الإله الخالق الفائق القدرات والصفات الحسنة... وسنعلم بوحدانيته، وهذا شيء طرحته العديد من السور وفصّلت به بشكل واضح وبالخصوص عند حديثها عن النموذج إبراهيم الشاب العادي الذي وصل لأعلى المعرفة به تعالى بسبب سلامة قلبه ومن قبل أن ينزل عليه أي وحي، فلم يذكر القرآن ولا أي شيء صريح عن نزول الوحي على إبراهيم من حين ما جادل قومه إلى حين ما حاولوا إحراقه، لا بالتصريح ولا بالتلميح، إلا اللهم الآية 75 من سورة الأنعام {وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} فراجع دراستها لترى أنها ليست صريحة في نزول الوحي عليه(ع).

{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}، المعتقدون به تعالى إلٰهاً أحداً ذا صفات حسنة سيعتقدون أنه تعالى يسيّر أمورهم كما يجب على الأحسن لهم.

إذا استعملنا تعابير دارجة بيننا، يمكننا أن نفهم أكثر ما يقوله القرآن عن الاعتماد على الإله الأحد، لنقل إنّك تملك سلاحاً فتّاكاً، ستعتمد عليه وتشعر بالسيطرة على الآخرين... لنقل إنّك صديق مقرّب لرجل نافذ غني وقوي وله سلطة، ستشعر بالراحة لأن الآخرين لن يؤذوك خوفا من صديقك، حتى لو كان صديقك هذا مجرماً، ولكنه مسالم معك ولا يؤذيك، ستشعر بالقوة والراحة لأن الآخرين يهابونه وسيحميك... الآن لننتقل إلى التوكّل على أقوى قوّة في الدنيا، وهي قوّة فائقة من مستوى إلهي ومتفرّدة لا يشبهها أي شيء ولا يقارن بها أي شيء، وهذا ما يدعوك القرآن إليه عبر الإيمان به تعالى بشكل حقيقي، ولو كان لدينا شعور توكّل عليه تعالى مشابه لشعورنا بالتوكّل على قوتنا وعضلاتنا وسلطتنا... أو مالنا... أو شخص نعرفه ونعتمد على قوته وسلطته، لكنّا من أعلى درجات المؤمنين.

في المصائب أتمنّى لو أن فلاناً الثري وكيلي، فسينفق على علاجي، وفي فقدان السلم أتمنّى لو القوّة العسكرية والسلاح الفتّاك معي، وفي أمور حياتي أتمنّى لو كنت أملك الملايين لتحقيق ما أريد... هذا الشعور لو تحوّل إلى الله تعالى، لو توكّلت عليه تعالى، لكنت من المؤمنين من الدرجة العالية جدا جدا، ولكنت مررت من الدنيا غير مغبون، ولحصلت على خلود في جنات الآخرة.

بعض الناس يعتقدون أن هذا الكلام مثالي خيالي، على أساس أن السعادة في الغنى والقوّة، نعم هما سعادة حسنة، ولكن فقدانهما وبقاء الإيمان أفضل طالما الخلود في الآخرة سيكون في الجنّة أو النار، بالإضافة إلى ذلك، هنا في الدنيا يعيش المؤمن الحقيقي أماناً وراحة لا يشعر بها الآخرون، حتى لو كان فقيراً أو مريضاً، الآخرون ليسوا محميين من المصاعب، أمّا المؤمن ففي كلّ الأحوال مرتاح البال بسبب توكّله عليه تعالى، ولو ساد الإيمان بين غالبية الناس، لما حصلت أصلاً أية مصاعب...

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{ 14}()

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين الإلهي، {إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ}، فلا تفترضوا أن من تحبّونهم وهم أقرب الناس إليكم أنّهم دائماً يريدون لكم الخير ويتعاطون معكم بشكل يوافق

مصلحتكم، لا، البعض منهم هم أعداء لكم، وموضوع السورة عن الإيمان والكفر، والعداوة هنا عداوة كفر بعموم ما يخالف كلامه تعالى وكلام رسوله(ع)، البعض من الزوجات والبعض من الأولاد يجرّونكم لمخالفة كلامه تعالى، {فَاحْذَرُوهُمْ}، انتبهوا منهم فالاحتمال وارد أن يؤذوكم بدفعكم للقيام بأمور مخالفة للإيمان، ويصير الاحتمال أكيداً إذا اكتملت شروط حصوله، فانتبهوا من الأمور السيئة التي يَدفعكم لفعلها أقرب أقرب الناس إليكم.

{وَإِنْ تَعْفُوا}، إنْ تمرّوا ولا تتوقّفوا، على محاولتهم لدفعكم لارتكاب السوء، فتعتبروا أفعالهم ليست من النوع القوي في سوئه، {وَتَصْفَحُوا}، لا تهتمّوا بما فعلوه معكم من دفعكم لفعل السيئات بالرغم من سوئه، {وَتَغْفِرُوا}، تتجاوزوا عن فعلهم فمع أنه سيّء جداً فسامحوهم، {فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ}، يتجاوز عن السيئات فيسامح عن الذنوب، سبحانه ليس لئيماً قاسياً لا ينسى السيئات ويأخذ موقفاً صلباً، لا، بل يغفرها، طبعاً يغفرها لمن آمن وتاب وعمل صالحاً كما تعلم من عموم القرآن، وسنفهم ذلك من كلمة رحيم التالية.

والله، {رَحِيمٌ}، لديه عناية خاصة بالمؤمنين فقط، عبّر القرآن عن عنايته تعالى بكل مخلوقاته باستعمال صفة الرحمن، وعبّر عن العناية الخاصة بالمؤمنين بصفة الرحيم، فهم وحدهم يغفر تعالى لهم، ويضاعف لهم الثواب... فالآخرون بكفرهم خرجوا من تحت مظلّة الرحمة الإلهية...

ما سبق من أمره تعالى لنا بالعفو والصفح والمغفرة لمن حاول جرّنا على السوء، لأنّه تعالى يغفر، ونحن نعلم أنّه تعالى لا يغفر إلا للمؤمنين، ومن كل ذلك نفهم أنّ أقاربنا إن آمنوا وعملوا الصالحات فسيغفر تعالى لهم، ونحن يجب أن نغفر لهم.

انتقلت السورة لتنبيهك حتى تختار الإيمان حين تتعامل مع أقرب الناس إليك، فالزوجة والأولاد الذين تحبّهم وتهتم بهم، يدفعونك لارتكاب السوء، تعاملهم أنت من إيمانك معاملة حسنة، فيردّون عليك بدفعك لفعل السوء، ومن يدفعك لارتكاب السوء فهو عدو لك حتى لو كان من أقرب الناس إليك. ولكن حين ترفض طاعتهم في السوء، وتراهم تابوا واقتنعوا معك، فانسَ ما فعلوه معك في السابق، وهذا أيضاً أمر إلهي لك كمؤمن.

هناك العديد من الأمثلة، فمنها محاولة منعهم لك من الخروج للقتال في سبيله تعالى، أو تثبيطك وتهديم معنوياتك عنه ليجعلوك تكرهه... ومنها قيامهم بعمل سيّء كالتعدّي على الآخرين أو تعاطي المخدرات والقمار... وإجبارك على التغطية عليهم... والأكثر شيوعاً اغتيابهم للناس أمامك ورفضهم لنهيك لهم عن ذلك ومعاداتهم لك بسبب ذلك... ومضافاً له كثرة طلباتهم الدنيوية التي لن تستطيع تأمينها لهم من مدخولك فيضطرّونك لكسب المال بالحرام من الغش والنصب والاحتيال...

كما ترى فليست كل الأفعال السيئة من نفس المستوى، فبعضها تعفو عنه فهو سوء لكنّه من النوع البسيط، وبعضه تصفح عنه فهو سوء مزعج بدرجة ما ولكن أقل من العيار الثقيل، وبعضه تغفره فهو من العيار الثقيل ورغم ذلك تتجاوز عنه.

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ{15})
{إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ}، هم فقط شيء تتعرّض له فتتغيّر بسببه، إمّا أن ترتكب السوء لتحصل على المال، أو تصرف المال في السوء، أو تعمل على تحصيله بالحلال وتصرفه بالحلال... والأولاد تعمل أنت بالحرام من نصب وغش... لتؤمّن لهم مصاريف حياتهم... يرتكبون الحرام فتدعمهم وتدافع عنهم... تربّيهم على الإيمان مهما حصل ولا تنصحهم بفعل السوء مهما كانت الظروف قاسية... فهذه الحالات المختلفة التي تتعرّض لها، هي الترجمة العملية للفتنة، للتغيّر الذي سيحصل معك أثناء تعاملك مع المال والأولاد، فتؤمن أو تكفر.

{وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}، إن التزمت بكلام صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز فسيعطيك مقابلاً حدّده تعالى سلفاً على ذلك وسيكون عظيماً، ومعلوم أنّها جنّات خالدة.

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{16})

{فَاتَّقُوا اللَّهَ}، تجنبّوا غضبه وعقابه، {مَا اسْتَطَعْتُمْ}، لأقصى قوّة يمكنكم تقواه تعالى قُومُوا بها، كما نقول: اضربني ما استطعت. بأقصى قوّة يمكنك أن تضربني بها فاضربني. أنتم لديكم القابلية على تقواه تعالى بالكامل بدون أي نقص، فليكن هذا هدفكم وسلوككم. كما ترى هذا التعبير مرادف لما ورد في الآية 102 من آل عمران {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ...}، لا تفهم الآية هنا أنّها تطلب منك أن تتّقي بقدر ما تستطيع، إن لم تستطع فلا مشكلة، لا، بل تقدر وتستطيع أن تتقيه تعالى فالتزم بتقواه بأقصى ما يمكنك.

{وَاسْمَعُوا}، لا تسمعوا لمصدر غير موثوق أو تسمعوا وتفسّروا الكلام على هواكم، بل أديروا أجهزة التقاط الصوت ووعيه فقط لجهته تعالى.

{وَأَطِيعُوا}، التزموا بما وصلكم منه تعالى ونفّذوه.

{وَأَنْفِقُوا}، اصرفوا من أموالكم وأملاككم، {خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ}، أنتم بحاجة للخير للأمور الجيدة لكم في الآخرة، فأنفقوا هنا وسيكون هذا لكم خيراً، فستجدونه هنا في الدنيا خيراً، وفي الآخرة بحصولكم على الرحمة الإلهية الخاصة بالمؤمنين.

{وَمَنْ يُوقَ}، يَحصُل عنده تجنّب، فتحصل له الوقاية من، {شُحَّ نَفْسِهِ}، نفسه التي ترفض إعطاء إلا القليل للآخرين مما تملكه، الشحيح هو الذي يعطي القليل مع قدرته على إعطاء الكثير. فمن يكن في حماية من هذا الشحّ لا تأمره نفسه بالاحتفاظ بالمال والأملاك لنفسه، {فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}، هم الذين قاموا بعمل فالح، فأجادوا فيما عملوا لأنهم عملوا الصحيح.

تذكّر دائماً أنّ الأصل هو تقواه تعالى في كلّ شيء، بالضبط تقوى كاملة تامة بلا أي خطأ، ولكن إن ضعفت وزللت فلا تستسلم، لأنّه تعالى غفور رحيم، فتب واستغفر وتمرّن على عمل الصالحات وترك السيئات...

بقي شيء نتذكّره دائماً، لا يوجد شيء اسمه صدقة مستحبّة إن كنت تملك المال وهناك من يحتاج للمساعدة، فالصدقة في هذه الحالة واجبة، حتى لو تصدّقت من قبل، أو دفعت ما عليك من حقوق شرعية، فأدبياتنا وتفاسيرنا مشحونة بتفسير كلام القرآن عن الصدقة والإنفاق والإيتاء... أنّه كلام عن صدقة مستحبّة، لكن تركيز القرآن كان على الأكثر أهمية، فكان على محتاج للمساعدة ويجب مساعدته، على شأن من شؤون المسلمين بحاجة للمال، لبناء مستشفى أو جامعة أو دار عجزة أو ميتم... فيجب دفع المال لذلك...

(إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ{17})
{إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ}، تقدّموا شيئاً يمكنه تعالى ردّه بسهولة لكم، {قَرْضًا حَسَنًا}، ما تقدّموه يكن حسناً جيداً، تنفقون من مالكم على المحتاجين وعلى أمور المسلمين قربة له تعالى بلا منّة ولا كبرة ولا فوقية... وليس من فضلاتكم وما استغنيتم عنه لعطل فيه... أنت تتعامل معه تعالى ويعتبر الصدقة قرضاً له تعالى شخصيا، فانتبه ماذا تقرضه سبحانه.
{يُضَاعِفْهُ لَكُمْ}، عندها يزيد تعالى في قيمة ما أنفقتموه.

{وَيَغْفِرْ لَكُمْ}، يتجاوز عن سيئاتكم، ويسامحكم على ذنوبكم، يبدو هنا من الآية أنّها جعلت المغفرة من نتائج القرض لله تعالى، من نوى إنفاقه كقرض له تعالى فهذا سيحصل أيضاً على مغفرة لذنوب قام بها.

{وَاللَّهُ شَكُورٌ}، يُعلن توصيفه الجيّد لشخص قام بعمل جيد معه تعالى، عندما تقرضه سبحانه فسيعلن لك أنّك فعلت شيئاً جيداً لأنك أطعته بالإنفاق في سبيله، عملياً سيجعلك مكرّماً معزّزاً عنده تعالى ويعتني بك بما يراه مناسباً.

{حَلِيمٌ}، بتعبيرنا الدارج "طويل البال"، فلا يمكن استفزازه تعالى بسبب مخالفة أوامره، لا يعجل، كما نقول: باله طويل. لن يردّ سبحانه فوراً أو مباشرة على ذنب ترتكبه ولن يأخذ موقفاً سلبياً دائماً منك، لا، بل يمهلك لتتوب، والإنفاق على المحتاجين وعلى أمور تنفع المسلمين وأنت تنوي أخذ ما قدّمته منه تعالى، بنية قرض له تعالى، فسيردّه لك هو تعالى، فهو تعبير منك على التقرّب منه سبحانه، ومن آثاره مغفرة ذنوبك السابقة التي حَلُمَ تعالى عليك حين فعلتها، ولم يأخذ موقفاً نهائياً صلباً قاسياً سلبياً منك حين ارتكبت الذنب.

لاحظ أنّ المضاعفة لشيء ما هي عموم الزيادة عليه بأكثر من حجمه أو كميته أو نوعيته... على الأقل بمرة واحدة، مضاعفة التفاحة تكون على الأقل بتفاحتين، ومضاعفة قيمة التفاحة تكون على الأقل بثمنها مرتين... والمقياس الإلهي لقبول العمل الحسن وتعبير القرآن عن مضاعفة الحسنات، هو تحويل العمل الصالح إلى ثواب حسن على المقياس الإلهي، مباشرةً تحصل مضاعفته من تفاحة "لست بحاجة لها" وتصدّقت بها فيتحوّل ثوابها إلى قصر وبستان وحديقة... وثواب تفاحة تصدّقت بها "وأنت لست مستغنياً عنها" فمضاعفة ثوابها لقصرين وحدائق وبساتين... طبعاً نحن نستنبط ونقرّب الصورة لأن القرآن لم يفصّل بقيمة التحويل المضاعف للحسنة في الدنيا إلى الثواب في الآخرة، لم يقل إنّ الصدقة بتفاحة تساوي قصراً وبستاناً... ولكن بسّطنا الفكرة للتقريب حتى بسهولة نفهم أنّ الصدقة بتفاحة لن يردّها تعالى للمؤمن مضاعفة كصندوق تفاّح في الآخرة، بل بأمور أخرى، بقصور وحدائق...

الخلود في جنّة خالدة بالروعة التي وصفها بها القرآن، فإذا قسته للحسنات التي تقدّمها أثناء حياتك القصيرة جدا، فسيكون ضعفاً من المستوى الإلهي لقبول أعمالك، تعابير القرآن عن مضاعفة الحسنة معناها أنّه في لحظة قبول العمل وتسجيله حسنة فسيكون قد تضاعف من تفاحة إلى قصر، أكرّر لك أنّ هذا تقريب يمكن استنباطه بسهولة من القرآن ولكن ليس بهذا التفصيل "الصدقة بتفاحة مقابلها قصر"، الواضح فقط من القرآن أنّ عموم أي حسنة نقوم بها في الدنيا فعند قبولها وتصنيفها كحسنة فستتم مضاعفة أجرها على المقياس الإلهي، ونبّه القرآن على أن نفس العمل يصدر من شخصين "كلاهما تصدّق بتفاحة" ولكن أحدهما كانت صدقته فقط وفقط للقربى منه تعالى، والآخر خلط القربى مع توقّع الشكر من الفقير، فكلا العملين تصنيفهما حسن وقبولهما يعني مضاعفتهما، ولكن الصدقة بنية صافية له تعالى تكون مضاعفتها أكبر وأضخم وأفضل بكثير من الصدقة غير الصافية للقربى منه تعالى.

هنا تحفّزك السورة على اختيار طريق الإيمان عبر شرحها لك عن قيمة ما تحصل عليه من إقراضه تعالى في مقابل من اختار طريق الكفر وحرم نفسه من مضاعفة الحسنة ومن غفران الذنوب...

ما هو دارج في ثقافتنا الدينية عن تفسير جملة "قرض لله تعالى" أنّها تقصد القرض الذي تقرضه للناس وأنّه تعالى يعتبره قرضاً له، فسياق الآيات التي ورد فيها هذا التعبير "قرض لله تعالى" يدلّ على الصدقة وليس على إقراض الناس، وتفصل الآيات بين الصدقة على أساس أني مأمور بها منه تعالى، وبين الصدقة على أساس أني أعتبر نفسي أقرضتها له تعالى وسيردّها لي، فهذه النفسية تعبّر عن علاقة قوية معه تعالى، وترى ذلك واضحاً في الآية 20 من سورة المزّمّل التي استبدلت التعبير عن الإنفاق وعن الصدقة بالقرض له تعالى {... وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...} وهذا الكلام لا يعني أبداً بتاتاً أنّ إقراض الآخرين ليس عليه أجرٌ إن كانوا بحاجة له ويساعدهم على تحسين حياتهم، بل هو عمل حسن مثله مثل أي عمل حسن آخر ولكنه ليس المعنى الذي قصدته الآيات من التعبير بإقراضه تعالى.

ضع في بالك دائماً أنّ كلمة دين لعموم التبعات التي صارت على شخص ما لأي سبب كان، فأخذت منك مالاً فصرت مديناً لك، فعليّ تبعات أخذ المال منك، فيجب عليّ ردّها إليك، أمّا القرض فيبدو من استعمال العرب والقرآن أنّه وصف لخصوص الحالة التي تأخذ فيها شيئاً من الآخرين ويمكنك بسهولة ردّه، ولم يعبّر تعالى عمّا نقدّمه في سبيله أنّه دين له تعالى، ودائماً عبّر تعالى عن استقباله لما يقدّمه المؤمنون بأنّه قرض، فبكل سهولة يمكنه تعالى أن يردّه بسبب قدراته الإلهية الفائقة.

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ{18})
من تعاملت معه بقرض هو:

{عَالِمُ الْغَيْبِ}، يعلم كل ما غاب عن مخلوقاته، فما حصل معك في حياتك ومع الآخرين... وعموم ما حصل في السماوات والأرض ولم تكن حاضراً عليه فهو غيب بالنسبة لك، وسبحانه يعلم الماضي والحاضر والمستقبل في كل الدنيا والآخرة.

لو افترضنا أنّ المخلوقات منتشرة في كل مكان في السماوات والأرض، لا واحد منها يمكنه معرفة ما حصل في الماضي قبله، ولا ما يحدث في الحال مع الآخرين، ولا المستقبل، فالمخلوقات يمكنها فقط وفقط أن تعلم بما أمامها وتطاله حواسّها، وبقية المعلومات والحوادث هي غيب بالنسبة لها، ووحده سبحانه علمه فائق بما لا يمكننا تصوّره.

وعالم بـ {وَالشَّهَادَةِ}، كل ما تعلم به أنت وغيرك لأنّه حصل أمامك، أيضاً يعلمه تعالى.

علمه سبحانه محيط بما غاب عنكم وبما حصل أمامكم، فاختياركم لطريق الإيمان معلوم عنده تعالى، وإقراضكم له بنية صافية معلوم عنده تعالى... فأنتم تحت المراقبة الإلهية.

{الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... فلا يحتاج سبحانه لقرضكم وهذا واضح جداً، فهو تعالى اعتبره قرضاً له لتحفيزكم على فعل الخير، وحتى مراقبتكم لا تنفعه سبحانه، فلا يتسلّى بها ولا يفرح بها... وأصلاً إيمانكم أو كفركم لا يؤثّر به تعالى، وقبل ذلك كلّه فسواء كنتم موجودين أو غير موجودين فنفس الشيء بالنسبة له تعالى.

{الْحَكِيمُ}، يرى الصوابية في الأمور وقراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب فقراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول بأنّ أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنّه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فلا يفعل لغاية له سبحانه.

خلقه سبحانه لكم، ووضعكم أمام اختيار الإيمان أو الكفر، ومحاسبتكم، ومجازاتكم، والتفاصيل الكثيرة بين تلكم الأمور... كلها نبعت من حكمته تعالى، من الصوابية، ومن عزّته التي تجعل كل الباقين أذلاء لقراراته وما شاءه...

سورة الطلاق (65) ص 558
تتحدّث عن أحكام الطلاق كأحكام إلهية واجبة التنفيذ والالتزام بها كما هي.

فيها وعد إلهي بتيسير أمور من يلتزم بهذه الأحكام إن اتقى، مع التهديد الشديد من المخالفة للفرد وللجماعة.

تلاحظ تناولها للتشريع بتوجيه الأوامر للرجال لحفظ حقوق النساء.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً{1})
{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}(ع)، يا أيها الشخص الذي يصله نبأ غير منتشر علمه بين الناس، وكلمة نبي صارت مصطلحا يشير لمن يصله النبأ منه تعالى، والكلام عن النبأ العمومي الشامل لكل ما يتعلّق بالهداية... {إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ}، الكلام موجّه لك ولبقية الذين آمنوا بنبوّتك إذا قررتم إنهاء الزواج، وقررتم قطع العلاقة الزوجية مع إحدى النساء، {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}، هناك زمن محدّد العدد لمفارقة الزوجة وبعده يتنجّز ويحصل الطلاق، ويصير الطلاق حاصلا بعد مرور العدد الزمني الذي ستذكره السورة في الآية الرابعة.

{وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ}، ليمرّ عليكم العدد المحدّد، ولا يكن تخمينا أو تتهاونوا بالانتباه لمروره، أو قبل انتهائه تسرّحوا المطلّقة... بل انتبهوا لعدده بالضبط.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ}، تجنّبوا غضبه وعقابه، وهنا الكلام بالتحديد عن الالتزام بالعدّة، وتسريح المطلقة بعد ذلك لحال سبيلها لتتزوّج ممن تشاء.. فمن لم يلتزم بذلك سيتعرّض لغضبه وعقابه تعالى.

نحن أمام أوّل حالة تتعرّض فيها المرأة للمضايقة، هناك من يكره زوجته ويهملها ولا يطلقّها وبذلك يمنعها من الزواج بغيره، أو يطلقها ويمسكها في بيته ويمنعها من الزواج من غيره، أو حتى لو طلّقها وخرجت من بيته فهو يمنعها من

الزواج من غيره... أو يطلّقها لخلاف يمكن حلّه ولا يصبر ويسرّحها فورا... يأتي الحكم الإلهي الذي يأمره ببقاء المطلّقة في بيته لمدة ستذكرها الآية الرابعة، لعلّه يتراجع عن قراره خلال تلك المدّة.

{لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ}، لا يحق لكم أن تقولوا للمطلقة أن تخرج من بيت طليقها وهي في عدّة الطلاق، ولا يحق لها مغادرة بيت زوجها وهي في العدّة، ويجب عليها البقاء في بيت طليقها حتى تنتهي عدّة الطلاق، وتمرّ ثلاث فترات نقاء من الحيض أو ثلاثة أشهر على من كانت لا تحيض... سيأتي تفصيل العدّة في الآية 4.

{لَا تُخْرِجُوهُنَّ... وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ}، إذا قامت المطلقة بعمل جنسي سيّء بشكل مبين واضح فعندها فقط يحق لطليقها إخراجها من منزله قبل انتهاء العدّة، ولا يحق للطليق أن يأمرها بمغادرة بيته لأنه يشكّ أو يحتمل أنها قامت بعمل جنسي حرام، بل يجب أن يكون متأكدا.

إذا طلقها لا يحق له إخراجها من البيت إلا إذا قامت بعمل جنسي سيّء وكان ذلك سببا للطلاق أو قامت به بعد الطلاق.

لا يحق له إخراجها من بيته بعد طلاقها لأنه متأكّد أنه لن يرجعها، أو أنها تزعجه أو لأنه لم يعد يطيقها... لا، ولا يحق لها هي أن تخرج من البيت على مزاجها كردّ فعل غضبٍ على طلاقه لها، أو لأي سبب آخر، لا، بل تبقى المطلقة في البيت حتى انتهاء عدّتها، ومن بعدها تغادر إن لم يتراجع الزوج عن قراره.

ننتبه جيدا، افترض القرآن دائما أساسيات بديهية فينا، وتخطّاها وتحدث بناء عليها، حيث إنّ نفور الزوج من زوجته لدرجة طلاقه لها له أسباب متنوّعة وعديدة، وبعضها من عطل في الزوج وبعضها من عطل في الزوجة، أو يكون العطل فيهما معا، وتخطّت السورة ذلك وتكلّمت عن مهلة العدة كهدنة للزوجين، سيأتيك بعد قليل كلام موسّع عن ذلك.

{وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ}، بقاؤها في البيت حتى مرور العدّة يجب أن تلتزموا به، {وَمَن يَتَعَدَّ}، ومن يتخطّى ويتجاوز، {حُدُودَ اللَّهِ}، ويخالف ما قاله تعالى عن الطلاق والعدّة، {فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}، أي لم يكن منصفا محقّا مع نفسه، والحق والانصاف أن لا تسبب لنفسك شيئا يؤذيها، وأنت أمام أمر إلهي صريح وتهديد، فإذا تجاوزت الحدود الإلهية فقد سبّبت لنفسك مشكلة، وسيعاقبك سبحانه عليه.

نلاحظ غالبيتنا نجهل أحكام الطلاق، وإن علمنا بها نخالفها! تغادر المطلقة بيت زوجها فورا بعد طلاقه لها ولا تمضي العدّة عنده، وإذا بقيت عنده من جهل الناس يقولون: طلّقها وما زالت عنده في البيت! ما هذا؟ وكما ترى أمر الله تعالى أن تقضي عدّتها في بيت زوجها...

{لَا تَدْرِي}، لحدّ الآن يا من اتخذت قرار طلاق زوجتك، لا تعلم ماذا يحصل فيما بعد، ولأنه ربما لديك توقعات وتعتقد أنك متأكّد مما سيحصل ولكن طالما لم تعش فيه فأنت لا تدري، {لَعَلَّ اللَّهَ}، من المفروض ومن المتوقّع أن، {يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْراً}، أي يحدث "الله تعالى" بعد ذلك، بعد حصول الطلاق وبقاء المرأة في البيت، أمرا، من المفروض ومن المتوقّع أن يحدث شيء ما يجعلك تتراجع عن الطلاق، وأنت الآن تشعر بأنه قرار حاسم لا رجعة عنه ولكن لا تدري ماذا يمكن أن يحدث لتغيّر رأيك أثناء العدّة، لأنّ الزمن قد يكون كفيلا بإطفاء الغضب والنعرات والكره... وكثيرا ما يحدث ذلك، تسمع زوجين يشتكيان وبصرامة قرار الحلّ الوحيد بالطلاق، حتى يقنعاك بحالتهما، ولكن بعد ساعة أو أيام تراهما في أحسن حال، وبناء عليه جاء تشريعه تعالى لعدّة الطلاق، لأنّ الكثير من الحالات تتحسّن بمجرد إعطاء الزوجين فرصة قبل تنجّز "تحقّق" الطلاق.

ننتبه جيدا، في الفترة التي تبقى فيها المطلقة في البيت، هي ليست مطلّقة تماما، إنما هي في فترة الطلاق، وإن تراجع الزوج عن قراره بالطلاق أثناء فترة العدّة، فعندها يلتغي الطلاق، وأي كلام من الزوج أثناء العدة يعبّر عن تراجعه عن الطلاق، أو لمسه لزوجته بما يعبّر عن رغبته فيها، فالطلاق فورا يلتغي، ويعودان زوجين كما كانا بلا حاجة لإجراء عقد زواج جديد. ولأن السورة تتحدّث عن حالة نفور الزوج من زوجته لسبب ما، فمن المفروض ومن المتوقّع في فترة العدّة أن تقوم المرأة بتحسين علاقتها مع الرجل إذا كانت راغبة بإنهاء الطلاق والرجوع إلى الزوجية، يمكنها أن تتزيّن له، وأن تغريه... ومجرد تجاوبه معها فهو إنهاء للطلاق، وكما ترى فإنّ الحكم الإلهي ببقائها في البيت لمدة تقارب الثلاثة أشهر، يجعل احتمال تراجع الزوج عن طلاقه أعلى إن هي وجدت طريقة لتتآلف معه وتقنعه بإلغاء الطلاق، أو اقتنع بها الزوج كما هي على طبيعتها وقرّر إلغاء الطلاق...

طبعاً الكلام له جانب آخر عن الرجل، الذي ربما هو بحاجة للتغيّر، وأثناء العدّة من المفروض أيضا أن يراجع هو نفسه وتصرفاته ليرى إن كان هو الظالم لزوجته... ويرى نفسه إن كانت رغبته بها تجدّدت وقرّر التنازل عن مطالبه، وتنزيل معاييره المثالية الخيالية الترفية "المستحيلة" لصورة الزوجة التي يريدها في زوجته... في بعض الأحيان يتصابى الرجال ناسين واقع الحال وتسرح خيالاتهم مما يرونه من ممثلات أجرين بضعة عمليات تجميل، ويتصرفن بلطافة في المسلسلات... تماما مثلما تنسى الزوجة الواقع وتعيش حالة "الأميرة" ولا تهتم بزوجها وبيتها وأولادها...

بقي شيء في أحكام الطلاق، حيث إنّ فترة العدّة ثلاثة قروء، وهي ثلاث فترات نقاء من المحيض، ولا يحصل إيقاع الطلاق من الزوج إلا في فترة نقاء من الحيض لم يحصل فيها مقاربة جنسية تامّة، لذا لا يحصل الطلاق في فترة الحيض. بعبارة أخرى حتى يكون الطلاق صحيحا يجب أن تكون المرأة في حالة طهر ولم يقاربها الرجل منذ نقائها من الحيض، عندها يمكن للزوج أن يعلن أمام شاهدين أنه طلّق زوجته، وكما ترى هذا مبني على حصول حالة كره ونفور حقيقية للزوج من زوجته ولذلك لم يقاربها طوال هذه المدّة التي مرّت من بعد الحيض إلى حين الطهر... وإن كان الزوج قارب زوجته منذ مدة قليلة فهناك رغبة له بها، وفي هكذا حالة تُعَدُّ مسألة طلاقها بناء على الكره والنفور يعتبرها التشريع مزاجية بشكل ما.

ننتبه جيدا، الآية 231 من سورة البقرة تحدّثت عن حالة طلاق الرجل للمرأة ومشكلة إجبارها على البقاء عنده حتى بعد انتهاء العدّة، وعن منعه لها من الزواج من غيره بعد انقضاء العدّة حتى لو خرجت من عنده... وهنا السورة بنت على ذلك وركّزت على الحكم الإلهي ببقاء المرأة في بيت زوجها إلى انتهاء عدّتها ومن بعد ذلك إمساكها بمعروف أو تسريحها بإحسان.

درج بيننا تعليل الحكم الإلهي لعدّة المرأة في الطلاق بأنه "فقط" للتأكّد من كونها ليست حاملا، ونتج عن ذلك كلام كثير وتحليلات... وبعضهم يقولون إنّ جسد المرأة يحتاج لوقت حتى يتحمل معاشرة رجل آخر لها... وكلها تحليلات بعيدة عن تصريحات القرآن.

هنا في السورة ترى شيئا مختلفا، حيث ترى أن الحكم بالعدّة لبقائها في بيت زوجها لمدة كافية لها وله ليجدا حلا للمشكلة التي سبّبت الطلاق، أو أن يجدا طريقة للتوافق فيما بينهما والبقاء على حالة الزواج، أو يتنازلا عن مطالبهما ويلينا... هذا الأمر الإلهي بالعدّة حتى يحصل زواجهما على فرصة كبيرة بالاستمرار وإلغاء الطلاق.

معلومٌ المشاكل الناتجة عن الطلاق وبخاصة في حال تواجد أولاد، ومعلوم حالات بعض المجتمعات التي لا تتحمّل فيها الإناث أن تكون بلا رجل معيل وكفيل، ولذلك تلاحظ في الحكم التشريعي تقصّد المطّ والإطالة لتنفيذ الطلاق، من مرور الزوجة بطهر لم يحصل فيه علاقة... وبعدها مرور العدّة مع بقائها في بيت طليقها، بالإضافة إلى الحاجة لوجود شاهدين بمواصفات ملائمة أثناء إيقاع الزوج للطلاق كما سترى في الآية التالية.

هناك كلام كثير حول الطلاق ثلاث مرّات، وإن طلّق الرجل زوجته أمام شاهدين عدلين ثلاث مرات، وخلال ثوانٍ، أو طلّقها مرتين أخريين أثناء العدّة، فما حكمه؟ بالرجوع إلى الآية 229 من سورة البقرة، وبضمّ ما تجده في السورة هنا، ترى أن الطلاق هو مرّة واحدة لعدّة واحدة، ولا معنى لأي طلاق آخر ثانٍ أو ثالث قبل مرور العدّة أو قبل زواج جديد من بعد انقضاء العدّة، إذ أصلاً الطلاق الأول لن يتنجّز إلا بعد مرور العدّة، ولا معنى لإيقاع لفظ طلاق ثانٍ بينما الطلاق الأول لم يتنجّز، ويمكنك تشبيه الحالة بأنه لا معنى لتكرار الأنثى قولها عن تزويجها لك بالمهر كذا... وتكرارها لنفس الجملة مرارا ومرارا... لن يتغيّر أي شيء، ولن تصير زوجتك مرتين وثلاث مرات.

العدّة فرضها تعالى كما ترى هنا في السورة لتكون فرصة للزوجين لإيجاد حلّ، وهدّد تعالى من يتلاعب بحدوده، ولكن تراكم لدى المسلمين روايات متشابكة متداخلة عن هذا الموضوع، وبدل ردّ تلك الروايات إلى كتاب الله تعالى، للأسف حصل ردّ لكتاب الله تعالى ليوافق الروايات؟

تلك الروايات عن أحكام الطلاق نموذج واضح عن مشكلة تأصلت فينا، عملياً أعطينا الروايات هالة قدسية تفوق قداسة القرآن! وصارت أخطاء الصحابة والتابعين في الأحكام، واشتباهاتهم، وأخطاء فهم الراوين عن الرسول(ع)، ودخول آرائهم فيما رووه عنه (ع)... صارت حاكمة على القرآن الذي لم يذكر أي شيء يؤيّد ما يقولونه، بل يخالف بشكل

صريح ما يقولونه، وها أنت أمام آية صريحة واضحة تخبرك أنّ حدوده تعالى هي الالتزام ببقاء المرأة في بيت طليقها حتى انتهاء العدّة، وحتى لو كان الزوج كارها مُبْغِضاً نافرا من زوجته، تبقى عنده حتى انتهاء العدّة، {لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً}، فما معنى هذا الأمر الإلهي بالعدّة إن كان يمكن للزوج إنهاء الطلاق بالثلاث في دقيقة واحدة؟! وتصير زوجته حراما عليه حتى تنكح زوجا غيره! فما معنى هذا؟!

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً{2})

{فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ}، إذا وصلت المرأة إلى موعد انتهاء عدّتها، "قبيل" انتهاء الوقت لبقائها في بيت طليقها ولو في آخر يوم من العدّة، {فَأَمْسِكُوهُنَّ}، تَرَاجَعُوا عن الطلاق ولو في آخر الوقت، لأنه بعد انتهاء العدّة يجب إجراء عقد زواج جديد بموافقة الطرفين، {فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ}، لِتَبْقَ زوجته ولكن بما هو متعارف عليه بين المؤمنين العقلاء بما يتماشى مع الدين الإلهي، لَا يتراجع عن طلاقها ويهملها أو يعاملها بقلّة أدب أو... {أَوْ فَارِقُوهُنَّ}، لِتَذْهَبْ من عندكم، {بِمَعْرُوفٍ}، بحسب ما هو متعارف عليه بين المؤمنين العقلاء، فَصَّلَتْ آيات أخرى من القرآن عن هذه الحالات، حَذَّرَتِ الرجل من إهمال زوجته وَتَعَامُلِهِ معها بغير ما هو متعارف عليه بين المؤمنين العقلاء، وحذّرته من منعها من الزواج من غيره إن انتهت عدّتها...

نَتْنَبِهُ جيدا لوجود أزواج لا يعرفون حقوق زوجاتهم من التعامل بالمعروف، دَرَجَ بين الناس أن حقّ الزوجة "الدائمة" هو فقط تأمين المسكن والملبس والطعام ومقاربتها جنسيا مرة على الأقل كل ثلاثة أشهر، فهل هذا هو المعروف؟ لا، هذا أقل الحقّ، وبعد ذلك يجب على الزوج معاملة زوجته بما هو متعارف عليه بين المؤمنين العقلاء بحسب ما يوافق الدين، يَتَشَارَكُ معها على مائدة الطعام، ويذهبان في نزهة وفي زيارات عائلية وللأصدقاء... فما يفعله الكثيرون من إهمال لِزَوْجَاتِهِمْ بالتلهّي بالسهر مع الأصدقاء أو ممارسة ألعاب الرياضة والتسلية... بشكل متكرر وكثير، فهذا ليس من الزواج بالمعروف أصلا، ناهيك عن معاملتها هكذا بعد إرجاعها في العدّة.

إذَا طلّقتم النساء، أو أرجعتموها قبل انتهاء العدّة، {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ}، مَنْ قرر أن يطلّق فعليه أن يوقع الطلاق أمام شاهدين أو أكثر، ومن تراجع عن الطلاق أثناء العدّة فعليه أيضا إخبار شاهدين، وأن يتصف الشاهدان بالعدالة، أَنْتُمْ كمجتمع فيه أفراد كثر، لِيَكُنْ اختيار الشهود من الأشخاص العدول منكم لَا تَخْتَارُوا أشخاصا كشهود وهم يميلون عن الحقّ، ولا تَخْتَارُوا مَنْ يمكن أن يُغَيِّرَا تاريخ الطلاق أو يُنْكِرَا بطلب من أحد الزوجين وقوع الطلاق... أو مَشْهُورَيْنِ بين الناس بكذبهم وتلاعبهم بالكلام... وصفة العدالة تعرفها في الذين تعلم أنهم لا يكذبون ويحترمون كلامهم ولديهم تركيز على ما يسمعونه، ولا يرتشون...

{وَأَقِيمُوا}، فَعِّلُوا ولا تُعَطِّلُوا ولا تُهْمِلُوا، {الشَّهَادَةَ لِلَّهِ}، لَا تستهتروا بوجود شهود على الطلاق أو على إرجاع المطلّقة ضمن العدّة، هَذَا أمر إلهي والشهادة فيه لله تعالى على شيء أمر به تعالى، ضِمْنَاً تستنبط أن من شهد على طلاق فلا يحقّ له كتم شهادته لأي سبب كان، فهي شهادة لله تعالى يُرَاقِبُهَا سبحانه، {ذَلِكُمْ}، التفعيل للشهادة، {يُوعَظُ بِهِ}، يَكُونُ كلاما يحدّد لكم ما تفعلونه وما تتركونه حتى لا تقعوا في المشاكل، {مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}، يَعْتَقِدُ به تعالى إلها ويعتقد بالزمن الذي سيأتي في الآخر بعد انتهاء الدنيا التي نحن فيها الآن وهي الأولى. فمن يعتقد بأن الله تعالى إلهه ويعتقد بقدوم يوم سيقف فيه بين يديه تعالى ليتحاسب فيجب عليه إقامة الشهادة على حالتي الطلاق والإمساك.

{وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ}، يَتَجَنَّبُ غضبه وعقابه وَيَلْتَزِمُ بأوامره تعالى، {يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً}، هذا في العموم، وهنا بالخصوص الكلام مع الرجل الذي طلّق زوجته، والمرأة التي وقع عليها الطلاق، وَقَعَ الطلاق بسبب المشاكل، وتعدهما الآية هنا بإيجاد مخرج لهما من مشكلتهما إذا التزما بما يأمر به تعالى، ومن ضمنهم الشَّاهِدَانِ على الطلاق فَهَذَانِ عَلَيْهِمَا أَلَّا يَكْتُمَا شَهَادَتَهُمَا ولا يُبَدِّلَانِهَا تحت أي ظرف، وسبحانه سيجعل لهما مخرجا من أي مأزق...

لَاحِظْ قول بعض المسلمين عن الشهادة أنها ليست واجبة عند إيقاع الطلاق، ومستحبّة عند بعضهم وواجبة عند آخرين عند انتهاء العدّة أو إرجاع الزوجة خلال العدّة، وهذا كلام لا معنى له إذا نظرت إلى سياق الآيات وإلى محصّل فهمهم لها، مَا معنى إقامة الشهادة لله تعالى! وما معنى انتفاء الحاجة للشهود عند إيقاع الطلاق بين الزوج وزوجته بدون علم أي أحد، ثمّ إخبار الشهود بأنك طلّقتها وانتهت عدّتها؟ كَيْفَ تضمن حقّ المرأة؟ وما معنى إخبار الشهود أنك أرجعتها

خلال العدّة وهم لا يعلمون أصلا بأنك طلّقتها؟ كما ترى، المَعْنَى الأبسط والأنسب والموافق للسياق من بداية السورة: {إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ} فكذا وكذا... وصولا إلى: {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ}... مِنَ الواضح أن الإشهاد للطلاق وللإرجاع.

عَمَلِيّاً نسمع الصرخة بين المسلمين الذين اتبعوا مذهب فتاوى يقول بانتفاء وجوب وجود شهود عند إيقاع الطلاق، والصرخة الأكبر نسمعها من متبعي مذهب المعتقدين بوقوع التطليقات الثلاث في جملة واحدة أو قبل انقضاء العدّة! وبدون شهود! وهذه فتاوى مخالفة لظاهر القرآن، اعْتَمَدُوا على فتاويهم تلك بروايات كان من الأجدر بهم ضربها عرض الحائط بدل تقديسها وَصَيْرُورَتِهَا حاكمة على كلام القرآن الواضح.

لِيَكُنْ هذا نموذجا واضحا لك عن تحكّم خلفياتنا الثقافية بنا عند قراءة القرآن، بَدَلَ رمينا لما نعلمه لنتعلّم من القرآن، تجد كلاما دينيا صدر عن أحدهم، نُقَدِّسُهُ ويرسخ عندنا كثقافة ثابتة، ونفسّر القرآن على أساسه! بِالرَّغْمِ من الوضوح الشديد للآيات هنا، رَغْمَ وضوحها ترى تَفَاسِيرَ لها تخالف ظاهرها البسيط المفهوم لأي واحد يقرؤها بلا خلفية، والسبب تقديسهم لفتاوى المقدّسين عندهم، على حساب تنزيل قدسية كلام الإله عزّ وجلّ.

بَقِيَ شيء عن عقد الزواج ومن المناسب ذكره هنا في موضوع الطلاق، تَخَطَّتْهُ السورة لأنها اعتبرته افْتِرَاضِيّاً وأنك تعرّفت عليه من سور أخرى من القرآن، الزَّوَاجُ عقد، بكل ما تحمله كلمة عقد من معنى، طبعا مع خصوصيات المعقود عليه، عَقْدُ الإيجار فيه خصوصيات الكلام عن الإيجار، ومثله عقد البيع وعقد الشراكة... تَشْتَرِكُ بالأساسيات للعقود، وتختلف بخصوصيات كل نوع منها، والزواج له خصوصياته ولكنه يبقى عقدا بين طرفين.

بِنَاءً على ما جرى في عقد الزواج سَيَحْصُلُ أثر في متعلقات الطلاق.

بِوُضُوحٍ ترى أنه تعالى شرّع لنا في قرآنه الأساسيات في كلّ الأمور، تَارِكاً التفاصيل كهامش ومساحة نتحرّك فيها لتناسب مختلف الثقافات والعصور، وفي الكلام عن الزواج والطلاق فيما يتعلّق بحقوق الزوجة من بعد طلاقها، واستنادا على كلام الآيات هنا بالمفارقة بالمعروف، نَبْحَثُ عن بعض الأساسيات التشريعية لهذا المعروف، ونبدأ مع ما قالته الآية 20 من سورة النساء {وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا}، القِنْطَارُ "يقارب" الأربعة آلاف دينار "ذهبي"، وكلام الآية عن مهر الزوجة الذي يجب أن يدفعه الزوج إن طلّقها حتى لو كان مبلغا ضخما.

أقول لك هذا لأن بعض المجتمعات وصلت فيها المرأة إلى حالة مقبولة لاستقلاليتها المالية، لَدَيْهَا إمكانية العمل وتحصيل ما يكفيها لتعيش بكرامتها... ولكن في العديد من مجتمعاتنا الإسلامية لَا تَزَالُ المرأة تعاني فيها من تبعيتها المعيشية لرجل، وبناء عليه إنْ تطلّقت فمن المحتمل أن يكون وضعها سيّئا، فِعْلاً نجد حالات مزرية وقعت فيها بعض المطلقات، ونجد حالات كثيرة نجحت فِيهَا المطلّقة فِي تدبير أمورها المعيشية...

لن أطيل عليك الكلام، وأكتفي بتنبيهك لضخامة التفاصيل التي تجدها في كتب التشريعات عن الطلاق، والتي يقابلها في القرآن بضع آيات لا تصل في حجمها لصفحة واحدة، والسبب أنه تعالى تَقَصَّدَ ترك هامش واسع يمكننا التحرّك فيه بحسب ما يناسب مختلف الثقافات والأزمنة، لَمْ يحدّد قيمة المهر، ولم يجبرنا على النفقة بعد الطلاق، ولم ... وفي مقابل ذلك نجد تَحَجُّراً وَصَلَابَةً في بعض الفتاوى التي لم تراع اختلاف الظروف...

والأنكى منه توظيف قضاة فَاسِدِينَ جَهَلَةٍ في المحاكم الشرعية، وهم ليسوا نموذجا عن المؤمنين العقلاء ليحكموا بالمعروف، كَلِمَةُ "معروف" التي استعملها القرآن تقصّد سبحانه بها هامش المرونة في الأحكام بما يناسب مختلف الظروف للحالات والثقافات والأزمنة... وللأمانة بَعْضُ القضاة أتقياء يخافونه تعالى، ولكن الكثير من القوانين التي يقضون بين الناس على أساسها عَفِنَةٌ من غابر الزمان ولا تناسب زماننا.

دَرَجَ في بعض الدول الإسلامية اعتماد عقد زواج فيه بنود مبنية على أساسيات تشريعه تعالى، وفيه ضمانة للزوجة "والزوج" لاحترام كلا الطرفين عقد الزواج، وحصول كل واحد منهما على حقّه إذا حصل الطلاق من طلب منها أو من طلب منه... وهذا شيء يجب نشره واعتماده بدلا من تحكّم الذكر بالأنثى لدرجة إجبارها على التنازل عن المهر بينما هو الذي يريد أن يطلقها... وأمور سيئة أخرى...

انْتَبِهْ من الانجرار مع الأنثوية ضد الذكورية لدرجة تبرئة المرأة من السلوكيات السيئة الدافعة للزوج لطلاقها...

يكفي هذا المقدار وننتقل لشيء آخر افترضه القرآن فينا كبديهي افتراضي في الذين آمنوا، لَا تَجِدُ في القرآن كلاما مخصّصا عن تربية الأولاد، لأنه افترض فيك سلوكيات الإيمان، وهذه السلوكيات كافية لتربية الأولاد بشكل سليم، لَمْ يقل لك أن لا تكذب على الولد، لأن الكذب أصلا حرام على الولد أو على الآخرين...

ونفس الشيء في موضوع الزواج والطلاق، لَمْ يدخل القرآن في التفاصيل لأنه افترض فينا الرجوع إلى أساسيات السلوكيات الإيمانية، مَا معنى شكاية الرجل من صلافة وسوء لسان... زوجته؟ أو شكايتها من بخله أو إهماله لها؟

أطلت عليك الكلام لأن الآية ذكرت كل ما يمكن أن يخطر ببالك لتكتبه في مجلدات عن الزواج والطلاق بكلمة واحدة: بالمعروف. وها صار لديك أساس ترى منه أساسيات المعروف في القرآن، وصرت ترى المساحة والهامش المتروك منه تعالى عن قصد لتكيّف التشريعات بما يناسب مختلف الثقافات والحالات، طبعا مع الاعتماد على أساسيات قرآنية.

تَوَسَّعَ بعض الفقهاء في "المعروف"، وجعلوه حاكما لأي عقد أو إيقاع أو معاملة ومهما كان نوعه، جَعَلُوا له أساسا من المعروف بين العقلاء، وحتى لو لم يكن ذلك مذكورا في بنود عقد المعاملة، يَكُونُ الاستناد في ذلك إلى وساعة مفهوم "المعروف" والذي ترى العديد من تطبيقاته في الروايات، ومنها المهر للتي أجري عقد زواجها من دون ذكر المهر، العَقْدُ صحيح رغم إثم العاقد، ولا يضيع حقّ المعقود عليها لأن مهرها يتحدّد بما تعارف عليه الناس للتي في حالتها...

بعبارة أبسط، أَيُّ معاملة جرت، من زواج أو بيع أو شراكة... وسواء كتب الطرفان ما اتفقا عليه أو لم يكتباه، وسواء انتبها لكل ما يمكن أن يحصل ليتفقا عليه سلفا أم لم ينتبها، فِي حال الخلاف بينهما، يمكن دائما الرجوع إلى "المعروف"، مَا هو متعارف عليه بين العقلاء في حالتهم، فهو الأساس الجديد الذي سينحلّ عليه الخلاف.

فِيمَا يخص الكلام هنا، فَرْضاً ظلموا الأنثى بمهر بخس حين عقدوا القران، فِي حال وقع طلاقها فحقوقها بالمعروف، حُقُوقُهَا "المؤجّل" يكون بما يناسب زمنها وما يشابه حقوق بقية النساء المشابهة لها...

(وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً{3})
{وَمَن يَتَّقِ}، {يَرْزُقْهُ}، يَصِيرُ معه منه تعالى ما يحتاجه لسدّ حاجاته، كالأكل والمال الذي يشتري به ما يحتاجه... {مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}، من مصدر لم يكن في حساباته أن يحصل على الرزق منه، المَرْأَةُ إِذَا اتقت ولم تتلاعب بمواقيت عدّتها ولم ترتكب السوء حتى يتراجع زوجها عن طلاقها... خوفا من خروجها من عنده وفقدانها للمسكن وما يؤمّن معيشتها... فإن اتقت فَسَيَأْتِيهَا رزقها من مصدر لا تتوقّعه. وَالرَّجُلُ إذا اتقى ورأى أن الطلاق أفضل له ولها بدلا من المشاكل بينهما وخاف من تبعات الطلاق المادية... تَعِدُهُ الآية هنا بحصوله على الرزق من مصدر لا يتوقّعه إن اتقى ولم يرتكب السوء، وَالشَّاهِدَانِ على الطلاق أو التراجع عنه أيضا يَتَعَرَّضَانِ لضغط لمنعهما من الشهادة، أو لتبديلها... بالتهديد بقطع أَرْزَاقِهِمَا...

{وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}، مَنِ اعْتَمَدَ أنه تعالى سيسيّر أموره كما يجب وعلى الأحسن، {فَهُوَ حَسْبُهُ}، يَكْفِيهِ تعالى ولا يحتاج لأحد آخر يساعده غيره سبحانه، {إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ}، الْأَمْرُ، الشَّيْءُ، الْمَوْضُوعُ الذي يريده تعالى أن يحصل سَيَبْلُغُ ذلك الأمر وَسَيَصِلُ إلى حيث أمر تعالى، حَتْمَاً سيحصل.

هُنَا الكلام عن الوعد الإلهي بإيجاد مخرج وتأمين الرزق لمن يتّقيه والتكفّل بمن اعتمد عليه تعالى عموما، وبالخصوص هنا الكلام مع رجل وامرأة وقع بينهما الطلاق، ومع الشهود على الطلاق.

{قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}، كُلُّ شيء محدّد محسوب له زمنه وبيئته وصفاته... مَنِ اتّقاه تعالى والتزم بالأوامر الإلهية فما يحصل معه مقدّر محسوب وستجري معه الأمور بحسب ما قدّر تعالى له، وَسَيَجِدُ مخرجا ورزقا ولن يتأثّر بأي شيء إن اتقى.

بَقِيَ شيء، سَتَجِدُ في كتب التفاسير روايات عن شخص اشتكى للنبي(ع) الفقر، وروايات أخرى أَنَّ نفس الشخص اشتكى الفقر وفقدان ابنه حيث أسره الكفّار... حَيْثُ أَمَرَهُ النبي(ع) بالإكثار من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله... وَعَادَ ولده يسوق ماشية للكفّار بعد أن قتلهم... وَقَالُوا في الروايات إِنَّ الآيات هنا نزلت في تلك الحادثة، اجْعَلْ هذا النوع من الروايات أمام عينيك لترى تساهل الراوين في تعابيرهم عن لصق القصص بالآيات القرآنية، لِأَنَّ كُلَّ السورة عن

الطلاق، وسياق الآيات واضح أنه عن الرجل والمرأة اللذين وقع بينهما الطلاق وعن الشهود، ورغم ذلك لا ننفي عمومية المخرج لكل من اتقى في عموم أي موضوع، ولكن نؤكّد على خصوصية المورد، فلا مجال للقول بأن آخر الآية السابقة نزل في قصّة ذلك الرجل وابنه... عُمُومُ من اتقاه تعالى سيجعل له تعالى مخرجا ويرزقه... وهذا شيء متوافق تماما مع عموم القرآن، ولكن الكلام هنا في مورد الطلاق ومن له علاقة به، وَيَحِقُّ لنا تحويل الآيات نحو العموم، ولكن لا يحق لنا تحويلها نحو قصّة لا علاقة لها بموضوع السورة لا من قريب ولا من بعيد، لِأَنَّ هَذَا سيشوّه وحدة موضوع السور القرآنية.

(وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً{4})

{وَاللَّائِي}، وقع عليهن الطلاق، {يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ}، احْتِمَالُ حيضهنّ الذي كنّا فيه في السابق صار مقطوعا الأمل منه، وهذا شيء يحصل عادة مع المرأة التي تقدّمت في السنّ ويختلف هذا العمر بين منطقة وأخرى وعرق وآخر، هُنَاكَ نساء ييأسن بعد الأربعين وأخريات قبيل الستين... مَنْ وقع عليهن الطلاق وهذه حالتهن، {إِنِ ارْتَبْتُمْ}، كُنْتُمْ تميلون إلى الاعتقاد بانقطاع الحيض عنهن ولكن هو مجرّد إحساس بسبب فقدانكم للقدرة على التأكد من يَأْسِهَا من الحيض، لأن حالتها غير محسومة، رُبَّمَا يُعَاوِدُهَا المحيض، وخاصة إذا وصلت إلى العمر الذي يبدأ فيه التحوّل في جسمها نحو انقطاع الحيض، وَلَا تستقرّ عندها حالة الحيض أو انقطاعه، {فَعِدَّتُهُنَّ}، الْعَدَدُ الذي يجب أن يلتزمن به ليتنجّز الطلاق، ثلاثة أشهر. ويقولون إنَّ اليائس لا عدّة لها لأن الآية قيّدت حالتها بـ {إِنِ ارْتَبْتُمْ}، ولكن الأسهل على الفهم أَنَّ الحكم واحد لليائس ولغيرها ممن لم تعد دورتها مستقرة فَكِلْتَاهُمَا عِدَّتُهُمَا ثلاثة أشهر، وهذا يتوافق مع أساس تشريع العدة حتى تكون فرصة طويلة لمراجعة الطلاق والتراجع عنه إن كان الزوج هو المصرّ على الطلاق.

{وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ}، بِالْأَصْلِ هنّ لم يحصل معهن الحيض، وَكُنَّ في عمر من تحيض ولكن تأخّر عَنْهُنَّ الحيض، أو استمرت معهن هذه الحالة ولم يحصل لهنّ الحيض... هَؤُلَاءِ النِّسْوَةُ أيضا حكمهن بالعدّة ثلاثة أشهر.

اليَائِسُ ومعها القريبة من سنّ اليأس التي تكون دورتها غير مستقرة، ومعهن الشابة التي لم تحض من الأساس، فَهَؤُلَاءِ عدّة طلاقهن ثلاثة أشهر، إِذَا طلّقها زوجها وهي راغبة بالبقاء معه، تَبْقَى في بيته ثلاثة أشهر.

{وَأُوْلَاتُ الْأَحْمَالِ}، المطلقات اللاتي يحملن في بطنهن جنينا، {أَجَلُهُنَّ}، الزمن المحدّد لهن لتنجّز الطلاق، {أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}، تَبْقَى في بيت الذي طلّقها حتى تضع طفلها، سواء سقط الجنين قبل ذلك بحادث أو بسبب مرض أصاب الجنين أو الأمّ... أو أكملت الحمل وأنجبت الطفل، إِلَى أن يخرج الطفل منها تبقى في حالة طلاق غير منجز، وَيُمْكِنُ لمن طلّقها أن يرجعها خلال فترة الحمل إلى ما قبل أن ينزل الجنين.

وإن وضعت من بعد الطلاق وقبل اكتمال ثَلَاثَةِ أشهر على طلاقها، فمن حين الطلاق مرورا بالولادة تكمل الثلاثة أشهر لتكتمل عدّة طلاقها. لِنَقُلْ مثلا إِنَّهُ طلقها وهي في شهرها الثامن، وأنجبت "وضعت" بعد شهر، تُكْمِلُ عدة طلاقها من بعدها شهرين ليصير المجموع ثلاثة أشهر.

تَذَكَّرْ دائما أَنَّ الآيات هنا تتكلم عن الطلاق، وأمّا من تُوُفِّيَ زوجها وهي حامل فإن عدّتها مذكورة في الآية 234 في سورة البقرة "وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا..." إِنْ كانت الأرملة حَامِلاً، فمن حين وفاة زوجها مرورا بالولادة تكمل الأربعة أشهر وَعَشَرَةَ أَيَّامٍ، وَهُنَا المطلقة تكمل الثلاثة أشهر.

{وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ}، يَتَجَنَّبُ غضبه وعقابه تعالى وينفّذ أوامره، {يَجْعَل لَّهُ} تعالى {مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً}، الْأُمُورُ التي يريدها ستمشي براحة وَسَتَتَحَقَّقُ من دون صعوبات، وهذا الكلام الإلهي عام يصدق على كل من اتقى، وهنا بالخصوص الكلام مع المرأة التي طلّقها زوجها، فإن كان الأمر الذي تريده هو البقاء مع زوجها، أو تخاف من الطلاق والمصير المجهول من بعده... أو غضبت من طلاق زوجها لها... فلا ترتكب السوء، وَتَلْتَزِمُ بأوامره تعالى، وَلَا تكذب وتقول إِنَّهَا حامل حتى تطول مدّة العدّة، أو تقول بأنها ليست حاملا حتى تنتقم من طليقها وتأخذ الولد... لِأَيِّ سبب كان، لِتَلْتَزِمِ المطلّقة بأوامره تعالى وإن اتقته تعالى فسييسّر لها تعالى أمورها.

(ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً{5})
{ذَلِكَ}، الكلام عن الطلاق وأحكامه، {أَمْرُ اللَّهِ}، موضوع قرّره تعالى بهذا الشكل، {أَنزَلَهُ} تعالى {إِلَيْكُمْ}، فلا تتعاملوا مع هذه الأوامر باستخفاف، أو تتلاعبوا بها، فهي أوامر من الإله عزّ وجلّ، {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ}، فيتجنّب غضبه وعقابه وينفّذ أوامره تعالى، {يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ}، فيستر تعالى عنه الأعمال السيئة التي قام بها، ففي يوم القيامة لن يراها الآخرون وهو لن يتحاسب عليها، وهذه كرامة منه تعالى للتقي فيبقى محترما مكرّما لا يتعرّض لمضايقات محاسبته... {وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً}، فما سيحصل عليه مما حدّده تعالى في مقابل حسناته فسيكون عظيما، وهذا الكلام وعد من ذي قدرات فائقة وكنموذج عن قدراته خلقه السماوات والأرض وما فيهن، وسور أخرى توسعت في لفت الانتباه لوعوده تعالى بأنه قادر على فعل ما يريد... أمّا هنا فالكلام تركيزه على الطلاق.

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى{6})
تكملة الكلام في أحكام المرأة التي لا تريد الطلاق وزوجها هو من قرّر الطلاق، ونضع في بالنا خصوصية اختلاف الوضع إن كان الطلاق الثَّالِثَ، ففي أول طلاقين يمكن التراجع عن الطلاق، ولكن بعد الطلاق الثالث يؤمّن الطليق ما تذكره الآية هنا لطليقته حتى تنتهي عدّتها أو تضع حملها... ولكن من دون السماح لهما بالتعامل مع بعضهما كزوج أو زوجة أبدا حتى تنتهي العدّة وتتزوج من رجل آخر، وبعدها إذا طلّقها ذاك الآخر يمكن لزوجها الأول الزواج منها من جديد... وراجع في ذلك الآيات 229 وَ230 من سورة البقرة.

{أَسْكِنُوهُنَّ}، أمّنوا مكانا للسكن للمطلقات "اللَّاتِي في العدّة"، {مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ}، مَا تجدونه وَمَا هو متاح لكم لتسكنوا فيه لِيَكُنِ المسكن للمطلّقة مثله، أَسْكِنُوهُنَّ في مكان مماثل للمكان الذي أنتم تسكنون فيه بحسب قدراتكم المالية.

{وَلَا تُضَارُّوهُنَّ}، لا تصيبوهن بالضرر فتغيّروا حالتهن لحالة سيّئة، {لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ}، حتى يشعرن بالضيق انتقاما أو إهمالا واستهتارا، أو حتى تكرهكم ولا تبادر لإصلاح الأوضاع لترجع إلى زوجها... فِي فترة العدّة تبقى المطلقة في البيت الذي فيه زوجها أو يؤمّن لها الزوج مسكنا لائقا لها، ولا يضعها في مسكن غير لائق أو يصرف عليها بما لا يكفيها أو يحرمها مما تحتاجه... حتى يضايقها ولا تفكّر بالرجوع إليه... أو لينتقم منها...

{وَإِن كُنَّ}، المطلقات، {أُولَاتِ حَمْلٍ}، وَكَانَتْ حَامِلاً بجنين، {فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ}، اصْرِفُوا عليهن في معيشتهن للطعام والشراب واللباس وتكاليف العلاج... {حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}، حتى ينزل الجنين بولادة سليمة عند تمام مدّة الحمل أو حتى نزول الجنين قبل ذلك لسبب ما... فإذا مرّت الثَّلَاثَةُ أشهر ولم تضع المطلقة فعلى طليقها الْإِنْفَاقُ عليها حتى تضع.

{فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ}، وَلَدَتِ الحامل وقبلت بإرضاع طفل الطليق، {فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}، أَعْطُوا الأمّ ما تستحقّه كبدل محدّد عن إرضاعها للطفل، وإعطاء الأم غير المطلقة أو المطلقة أجرا على إرضاع الطفل فهو أمر لم يعد دارجا في أيامنا، وفي عصرنا بعض النساء القادرة على إرضاع الطفل ترفض إرضاعه وتطعمه من الحليب الناشف... على أي حال، فإن رفضت الأم إرضاع طفلها مع وجود بدائل لِإِطْعَامِ الطفل فهذا حقّها، ويمكنها مطالبة الزوج بِأُجْرَةِ الرضاعة...

{وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ}، الْأُمُورُ التي بينكم من إرضاع وَأُجْرَتِهِ، لِتَكُنْ موافقة لما هو متعارف عليه بين المؤمنين العقلاء بما يتماشى مع الدين الإلهي، فلا تستغل المطلقة الظروف وتطلب مبلغا أكبر مما هو متعارف عليه، أو يستغلّ الرجل ظروفها ويعطيها مبلغا أقل مما هو متعارف عليه، {وَإِن تَعَاسَرْتُمْ}، لِعُمُومِ أي سبب كان لم تمش أمور إرضاع المطلقة للطفل براحة للطليقين، فسترضع له أخرى، فإن كانت الظروف تسبّب مشاكل أو عُسْراً لأحد منهما فلا يحق للرجل إجبار المرأة على إرضاع الطفل وأن تتحمّل هي الحالة العسيرة، فلنقل أَنَّهُ تقدّم أحد للزواج بها وطليقها يجبرها على إبقاء الطفل معها لإرضاعه، فهذا غير مقبول. ولا يحق للمرأة أن تفرض على الرجل أنها هي سترضع وليتحمّل هو العسر الناتج عن ذلك... فلنقل أَنَّهُ يريد أن يسافر ويأخذ الطفل معه، فلا يحقّ لها أن تجبره على ترك الطفل معها لإرضاعه... فلأي سبب يعسّر أمور أحدهما فَلْيَنْتَهِ الخلاف حتى لو كان الحلّ بإرضاع الطفل من امْرَأَةٍ غير أمّه، أو بالقنينة من الحليب الجاهز...

كما ترى فَإِنَّ السُّورَةَ لا تزال تتحدّث عن التي في عدّة الطلاق، ولم تدخل في تفاصيل كثيرة لأنها مرتبطة بما اتفق عليه الرجل والمرأة قبل الزواج، وعادة في مجتمعاتنا نفكّر في المطلّقة التي لن تقدر على تأمين مسكن ونفقات معيشة بسبب الصعوبات المعيشية، ولكن القرآن افترض أن لها مهرا لم تفرّط به، وافترض أن الدولة الْإِسْلَامِيَّةَ يجب أن تؤمّن المعيشة لمواطنيها، وافترض أن المطلقة لن تبقى بلا زواج بعكس النظرة السلبية المنتشرة في العديد من مجتمعاتنا عن المطلقة، وبعكس ما هو دارج في عصرنا من اكتفاء الرجل بزوجة واحدة وإعابة الناس من يتزوّج مرّة ثانية... بل وإعابتهم ممن يتزوّج من مطلّقة! فالحالة المعيشية السيئة التي نتصوّرها للمطلقة مخالفة تماما لما افترضه القرآن عن ظروف المجتمع المسلم، ولذلك ترى بعض الفقهاء يبحثون في موضوع إجبار الرجل بالنفقة على طليقته حتى بعد انتهاء العدّة والسبب أن ما شاع بين الناس من قيمة للمهر ومن تعامل غير سليم مع المطلقة... فهو مخالف لكلامه تعالى، ولولا شذوذ الناس عن العرف الديني وتعلّقهم بأعرافهم الجاهلية لما كان على المطلقة أي مشكلة.

(لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً{7})

{لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ}، مَنْ كان رزقه واسعا غير محدود بحدّ قليل أو ضيّق عليه، فكان ميسورا، فليصرف على طليقته في أثناء العدّة بحسب قدرته المالية، فلا يحقّ له الإنفاق عليها بأقل من إمكانياته المالية، {وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ}، لَمْ يكن معه ما يكفيه ليسدّ به حاجات طليقته الحياتية، فكان فقيرا أو أموره متعسرّة، {فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ}، لَا يحقّ للمطلّقة مطالبته بنفقة على المسكن والطعام واللباس... أكثر مما يقدر عليه.

{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا}، الْغَنِيُّ أعطاه تعالى مالا كَثِيراً يُكَلِّفُهُ تعالى بالإنفاق على المطلقة بشكل مريح لها فوق الوسط، والفقير الذي أعطاه تعالى مالا بقدر محدود، يُكَلِّفُهُ تعالى بالإنفاق على المطلقة بشكل لا يجعله هو نفسه يحتاج للمساعدة بعد إعطائها مما يملكه.

{سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ}، بعد فترة لا تمشي فيها الأمور براحة، وهنا الكلام عن فترة غير مريحة ماليا، سيجعل تعالى، {يُسْراً}، سَتَأْتِي مرحلة تكون فيها الأمور مريحة تمشي بسهولة، وهذا الكلام موجّه بالخصوص إلى الذي طلّق زوجته وصار واجبا عليه النفقة عليها، ففي حساباته هي طليقة لم يتمّ "يتنجّز" طلاقها بعد، فالإنفاق عليها لمدة ثلاثة أشهر أو حتى تضع حملها فهذا ليس أمرا عسيرا على الغني، أمّا متوسّط الحال والفقير فهذا الإنفاق سيكون عبئا عليه، فتنبهه الآية أن لا يفكّر بهذه الطريقة، ففي عموم حياتنا أَمَرَنَا تعالى بالاعتماد عليه لتغيّر الحال من العسر إلى اليسر.

(وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً{8})

{وَكَأَيِّن}، مثل أي، {مِّن قَرْيَةٍ}، من تجمّع للناس، {عَتَتْ}، بالغت لأقصى درجة، {عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا}، عن الأمور التي وصلتهم من المسؤول عنهم من مستوى إلهي، وعتت عن أمر، {وَرُسُلِهِ}، بَالَغُوا في مخالفة ما يقوله الذين أرسلهم الله تعالى لهم، {فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً}، مَا فَعَلَتْهُ القرية كان يستحقّ مقدارا من المعاملة الشديدة معهم على أساسه، {وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُّكْراً}، أَصَابَهُمْ تعالى بضرر منكر، لا يستسيغونه ولا يرغبون به، طبعا بسبب شدّته في تسبيب الألم والخوف لهم.

الآيات السابقة شدّدت كثيرا على تقواه وعلى تولّيه سبحانه لشؤون من يتقيه بالعموم، وبالخصوص في مسألة الطلاق، وهنا تأتي الآيات لتهدّد من لا يتقيه تعالى وتذكّره بأقوام نزل عليهم العذاب في الدنيا قبل الآخرة. فلينتبه كل من يبدي رأيه بشكل مخالف للأوامر الإلهية، والرجل أو المرأة اللذان يحصل بينهما طلاق ويتلاعبان بالأوامر الإلهية... فهناك عذاب دنيوي شديد وأخروي أشدّ.

في العديد من مجتمعات عصرنا لم تعد المرأة مستضعفة، فصار بإمكانها الحصول على حقوقها، ولكن هذا شيء جديد في تاريخ عموم المجتمعات، فمنذ زمن ليس ببعيد كانت المرأة مهضومة الحقوق في غالبية المجتمعات البشرية، فتأتي سورتنا هذه لتعطينا نموذجا عن أمر من أوامره تعالى عن تشريعات الطلاق، وتأتي الآيات هنا لتهدّد المجتمعات إن لم تلتزم بأوامره تعالى.

الْكَلَامُ فيما سبق عن طلاق، عن شيء يحصل بين شخصين، لِنَنْتَبِهَ للتهديد هنا لكل القرية، بكل أشخاصها، وكما ترى في المجتمعات من حولك، كُلُّ التجمّع الإنساني مسبّب رئيسي لالتزام الآخرين بحقوق المرأة، فانتقال السورة من تهديد شخص، من تهديد الطليق أو الطليقة من مخالفة أوامره تعالى، إلى تهديد القرية، المجتمع من الناس، لأن الجميع مشترك فيما يحصل، فهم كجماعة إن لم يعترضوا على الظلم، فسيتجرّأ أفراد آخرون من مجتمعهم على الظلم، وإن لم يعملوا على تطبيق كلامه تعالى وإجبار الآخرين عليه كقانون عليه عقاب وفيه سلطة إجبار، فَسَيَتَصَرَّفُ الناس على هواهم بظلم بعضهم البعض ولن يكترثوا بشيء، لِأَنَّهُمْ غير واقعين تحت أي تهديد من مجتمعهم، فمثلا يطلق الرجل زوجته ويمنعها من الزواج بغيره، وتبقى على هذه الحالة لأن القرية "المجتمع" لا يطبّق قانونا يعطيها حقوقها، بَلْ رُبَّمَا يجد الرجل دعما من مجتمعه فيما فعله بها! وهكذا تفهم انتقال السورة إلى تهديد المجتمع من مخالفة أوامره تعالى في مسألة رُبَّمَا تعتبرها شخصية محصورة بين شخصين، بين طليق وطليقة.

(فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً{9})
{فَذَاقَتْ}، لَمَسَتْ وتحسّست القرية، {وَبَالَ أَمْرِهَا}، النَّتِيجَةُ الثقيلة لِأَمْرٍ، لموضوع مخالفته تعالى، {وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا}، كَانَ ما عَقِبَ، أَيْ ما أتى بعد مخالفتها لأوامره تعالى، {خُسْراً}، لَوْ اتقوه تعالى واتبعوا أوامره وأوامر رسله لكانوا فازوا بعنايته تعالى وثوابه، ولكنهم خسروا هذا، وَفَقَدُوا رحمته ومغفرته وثوابه تعالى، ونالوا العذاب بدله.

(أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً{10})
{أَعَدَّ اللَّهُ}، جَهَّزَ وَهَيَّأَ سبحانه، {لَهُمْ}، للمخالفين لكلامه تعالى ولكلام رسله، {عَذَاباً شَدِيداً}، بَعْدَ الضرر في الدنيا هُنَاكَ ضرر في الآخرة لا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ}، تَجَنَّبُوا غضبه وعقابه والتزموا بأوامره، {يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ}، يا أيها المنسوب لهم اللبّ، يا من ليسوا مجرّد جسد فارغ بلا لبّ، بل فيهم ما يستوعب ويفهم ما يسمعونه من أوامره تعالى، فَرْضَاً أَنَّهُمْ لم يفهموا أهمية كلامه الذي ينظّم حياتهم وَيُسَبِّبُ لسعادتهم، فَبَنَاتُ الناس لعبة تحت يدي لأطلّقها بمزاجي، وغدا بنتي بيد من سيعاملها على مزاجه... إلا إذا انتشر بيننا كلّنا تقواه تعالى وتطبيق قوانينه... أو على الأقل لديهم لبّ يستوعب التهديد خَوْفَاً من عقابه تعالى يلتزمون بالأوامر الإلهية.

{أُوْلِي الْأَلْبَابِ}، {الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين الإلهي، الْإِيمَانُ ووجود اللبّ مترابطان، والكلام هنا متوجّه لمن أعلن إيمانه، إنْ كان إيمانه حقيقيا فَلُبُّهُ، فِيهِ شيء سيستوعب ما يقوله تعالى عن التقوى والثواب والعقاب.

{قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً}، هَذَا الرسول(ع) بما ينقله لكم من قرآن سَيَجْعَلُكُمْ تستحضرونه تعالى في فكركم وقولكم وعملكم، فلا تتركوه أو تتهاونوا به.

الكلام السابق عن الطلاق وأحكامه، وَالتَّهْدِيدُ هنا لمن لم يلتزم به كفرد، والتهديد لمجتمع لديه تشريعات مخالفة لتشريعه تعالى.

يَخْطُرُ بالبال أن إعطاء المرأة حقوقا زِيَادَةً شيء جيّد، لا، الْكَلَامُ الإلهي دقيق، والتهديد أيضا دقيق، لأن قانونه تعالى أعطى للطليق والطليقة حقوقهما، أمّا فرض أمور أخرى على المطلّق لتحسين حال طليقته من خارج ما أمر به تعالى، ومن خارج ما اتفقا عليه حين أَجْرَيَا عقد الزواج... ومن خارج ما هو متعارف عليه بين العقلاء، فهو ظلم للرجل.

(رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً{11})
أرسل سبحانه إليكم {ذِكْرًا} عبر {رَسُولًا}، شخصاً ناقلاً لكلامه تعالى، {يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ}، يقرأ لكم الأمور المميّزة المنسوبة لصاحب الاسم المحدّد المميّز الله تعالى، ينقلها لكم عن مستند فهي تصل الرسول منه تعالى، {مُبَيِّنَاتٍ}، تلك الآيات تجعل الأمور واضحة لكم، فلا تكن مسألة الطلاق مزاجية بلا أحكام عادلة، فيستقوي الرجل

على المرأة ويحرمها حقّها، أو يطردها من البيت قبل انتهاء عدّتها... أو تكذب المرأة على الرجل في مدة عدّتها وحبلها... أو تحرّموا الطلاق من أصله... أو تسلّطوا المرأة على أموال طليقها... فكل هذه الأمور مخالفة لأوامره تعالى.

سبب بعثه تعالى للرسول(ع) مع هذا الكتاب، {لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين وقاموا بالأعمال التي توصف بأنها صالحة جيدة حسنة، يخرجهم، {مِنَ الظُّلُمَاتِ}، من العتمة، {إِلَى النُّورِ}، إلى الانكشاف إلى الوضوح أمامهم، لولا أوامره تعالى عن أحكام الطلاق، لم نكن لنعلم ما هو الحكم الذي سنمشي عليه ويكون مُرضياً له تعالى، وبدونه سننتقل لمزاجية الزوج أو الزوجة أو الزعيم أو الشخص الذي يقضي بين الناس... بتشريع مزاجي لا يراعي الحقوق البعيدة والقريبة المدى التي يراها تعالى...

{وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ}، يعلن اعتقاده والتزامه بدينه تعالى، {وَيَعْمَلْ صَالِحًا}، يقوم بالأعمال الموصوفة بأنها صالحة، سبحانه صمّمنا وخلقنا مع القدرة على تمييز الخير من الشر، ولا يأمرنا سبحانه إلا بالخير ولا ينهانا إلا عن الشرّ، عملياً الوصف بـ {عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} هو الالتزام بكلامه تعالى فيقوم بالواجبات ويترك المحرمات، وهذا، {يُدْخِلْهُ} تعالى {جَنَّاتٍ}، يجعله في أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين ووسائل الترفيه والسعادة، {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، فلا تبالغ في تصورها كمستنقعات بل هو منظر جميل للخضار مع مختلف أنواع السوائل من عسل وخمر... ومياه جارية من هنا وهناك كما ورد في الآية 15 من سورة محمد {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ...}، {خَالِدِينَ فِيهَا}، لا يموتون ولا يفنون ولا يخرجون منها، {أَبَدًا}، مهما مرّ من زمن.

{قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا}، فمن {آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا} سيصير معه هناك في الجنّة ما يحتاجه لسدّ حاجاته ورغباته وسيكون من النوع الحسن على معيار وصف خالق السماوات والأرض للحسن.

لاحظ ميلنا لفهم كلمة "حسن" أنّها لا تعبّر عن شيء عظيم لأننا نستعمل عادة كلمة ممتاز، ولكن القرآن استعمل كلمة حسن بكل تدرجاتها من الحسن على معنى الجيد المقبول، إلى الحسن على معنى أقصى الجودة وهو ما نقول عنه: ممتاز.

ماذا يعرض علينا القرآن؟ وما هو دينه تعالى؟

قبلما نبدأ ببحثنا ألفت انتباهك أنّه مبني على الإيمان بإلهية مصدر القرآن، هو نفسه عرض الدين الإلهي في القرآن هو الدليل على إلهية مصدره، دليل على أن توحيد الإله هو الواقع الوحيد الصحيح، وهذا هو غالبية كلام القرآن، وصلاح تشريعات القرآن دليل على صدوره من الإله، ومضافاً لذلك الدقة في التعابير القرآنية باستعمال اللغة العربية بمستوى إلهي، ومضافاً لذلك العجز عن الإتيان بكتاب مثله... وأي نقطة تخطر ببالك عن مسألة إلهية مصدر القرآن فستجد لها بحثًا في عناوين الأبحاث في أول هذا الكتاب، كالكلام عمّا في القرآن من نقل لأحداث تاريخية حصلت فيها تدخلات إلهية "معاجز" مما يعتبره البعض أساطير، وتحليلات بعض الناس للقرارات الإلهية التي تحدّث عنها القرآن، مما يعترض عليه البعض... أمّا في بحثنا الآن فتركيزنا على الدين في شقيه، الإيمان بالإله والعمل الصالح، لذا لنبدأ بموضوعنا:

أنت تعلم من التفكير بنفسك ومما يلفت القرآن انتباهك له، أنّه تعالى عندما خلقنا جعل فينا قدرة تمييز الأمور الحسنة من السيّئة، ومنحنا حرية الإرادة لنختار بينهما، وعلى أساس هذا التمييز والإرادة سيحاسبنا ويجازينا، وسبحانه يعرض علينا عبر قرآنه دينه: ما ندين به، ما علينا تبعاته، ويعتبر أن ما فينا من قابلية لتمييز الصالح من الفاسد سيكون دليلنا على أن ما نسمعه في القرآن هو كلام إلهي لنؤمن بالإله ونوحده، وأن القرآن فيه تشريع إلهي حكيم لأن صلاحه واضح، وهذا ما سيدفعنا للالتزام بدينه سبحانه.

يعني ما يعرضه علينا سبحانه كدين "ندين به وعلينا تبعاته"، هو ما نراه نحن حقاً وصلاحاً، وأي إنسان من أي عرق كان، ومولود في أي مكان أو ثقافة، ولديه قرار باتباع الحق والصلاح، فهذا الإنسان على دينه تعالى، لذا لا تقارن هذا الإنسان بإيمان وسلوك الأنبياء، إذ على هذا الميزان كلنا هالكون ولسنا مؤمنين... بل قارنه مع نفسك ومحيطك من "المسلمين" الذين تعتقد أنهم بشكل ما هم على الدين الصحيح حتى لو كان لديهم بعض السلوكيات السيئة، قارنه معهم

لترى أنه مثلهم... وإذا جاء لهذا الإنسان كلامه تعالى المعروض في القرآن، فلن يجده غريباً عجيباً أو ثقيلاً... بل سيتماشى معه بشكل عام، وهذا ما ذكرته العديد من الآيات وكنموذج منها راجع دراسة الآية الثانية من سورة البقرة {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}. حيث إنّهم كانوا "بدرجة ما" متقين، وجاءهم الكتاب الإلهي وتماشوا معه... طبعاً نقول عن تماشي ذلك الإنسان مع القرآن قاصدين القرآن الكتاب الإلهي كما هو بدون التفسيرات الإجرامية والذكورية والمذهبية...

دين القرآن هو عرض للإيمان بالحق وهو: توحيد الإله، ويأتي بعدها دمجاً الإيمان بصفاته الحسنى سبحانه، ويعرض القرآن علينا فعل الصالحات، ولا يعتبر سبحانه هذا الدين "التوحيد وفعل الصالحات" كشيء إضافي على حياتنا أو كشيء نازل من السماء وغريب علينا ويجب علينا الالتزام به، لأنّ تسمية الدين الإلهي حالياً بـ "الإسلام" ليس المقصود منها إخراج الآخرين من الإيمان بالحق والعمل الصالح لأن تسمية دينهم مختلفة وهم لا ينتمون لهذا الدين الذي اسمه "إسلام"، بل الإسلام وصف لحالة التوافق مع الحق والصلاح، ولذلك المؤمنون عبر التاريخ قبل النبي محمّد(ع) هم مسلمون على معنى توافقهم مع الحقّ والعمل الصالح حتى لو كان اسم دينهم موحدين أو نصارى أو يهود أو صابئة... وترى ذلك في كل صريح وفحوى كلام القرآن وكنموذج عنه الآية 62 من سورة البقرة {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}.

بعبارة أخرى ما يميّز الملتزمين دينياً عن الآخرين من الطقوس والنسك والشعائر الدينية، كالصلاة والحج والصوم... والمستحبات والسنّة كرخي اللحية وحفّ "تقصير" الشوارب... وتفاصيل الكثير من التشريعات كحرمة استخدام العطور أثناء تأدية مناسك الحج... فهذه ليست الدين الإلهي، بل هي أمور دينية كمكملات، ولذلك لا تجد تصريحاً قرآنياً بوجود عقاب لتارك هذه الطقوس والسنن ولا تجد تفاصيل للتشريعات، وتجد وجوباً لفعل بعض الطقوس على أساس حاجتك الشديدة أنت لها بسبب حاجتك لصقل إيمانك وعملك الصالح... الصلاة حسنة تمحو السيئات كما تقرأ في الآية 114 من سورة هود {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}، والصوم للتقوى كما تقرأ في الآية 183 من سورة البقرة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، والحج لتنتفع الناس من اللقاء مع بعضها ولتشكره تعالى ويزيدهم من فضله كما تقرأ في الآية 28 من سورة الحج {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ}.

أقول لك هذا لأن الناس عادة يخافون من الاعتراف بصحة الدين "القرآني" خوفاً من الالتزام بهذه التفاصيل الدينية الكثيرة والتي فيها ما يجب عليهم فعله وتركه، لذا يشعرون بالثقل من التزامات لا يريدون التقيد بها، وبشكل ما معهم حقّ، إذ إنّ التيار القوي لما يسمّى بالمتدينين هو للتزمّت وزيادة الالتزامات الدينية وزيادة التفاصيل والتدقيق فيما تفعله وفيما تتركه... وعندما تعرض دينه تعالى على الآخرين، فإن كانوا صالحين بدرجة مقبولة فسيرونك تعرض عليهم الفتاوى الإجرامية والذكورية والكثير من الالتزامات التي تضيّق على الحياة الطبيعية والعادية للإنسان، مع اعترافهم بأن الدين في طياته يحمل أيضاً الكثير من الإيجابيات... المشكلة في الأديان المعروضة أنها كلها أديان من صنع الناس، وحتى الدين الإسلامي بمذاهبه وطوائفه هو دين من صنع الناس، إذ إنّ الجميع تركوا كلام الله تعالى الظاهر الصريح في قرآنه، وأسقطوا أفكارهم المسبقة "الذكورية المذهبية الإجرامية..." على كلام القرآن، وهذا هو الدين الذي يعرضونه على الناس.

أمّا دينه تعالى فخذ عنه مثلاً كلام القرآن عن قوم النبي شعيب(ع)، إذ إنّهم "وكما يبدو من كلام القرآن عنهم" لم يكونوا من المنتمين لدينه تعالى سابقاً، حيث كانوا في زمن النبي شعيب(ع) مشركين، وجاء بينهم رجل "شعيب" نقي القلب يرى الحقّ ويتبعه ويرى الباطل ويتركه، وقرية قومه "مدين" كانت المركز التجاري في منطقتها، وتحكّموا بالناس المضطرين للتعامل معهم "للشراء وبيع الحاجيات والبضائع في سوق مدين" رغم علم الناس بالغشّ الذي يتعرضون له، مثل حالة الدول الفقيرة في زماننا "وغالبيتها فاسدة حكومياً"، وتتدمّر قيمة عملتها أمام الدولار، بينما بلد الدولار يطبع بلا رقيب ولا حسيب ويحافظ على قيمته! والكل مضطرون للتعامل بالدولار بسبب الهيمنة، وبسبب الحاجة لضخّ السيولة لاستمرار النظام الاقتصادي الرأسمالي العالمي...

المشكلة مع قوم النبي شعيب(ع) لم تكن لأنهم لا يصلّون ولا يصومون ولا يذهبون للحجّ... بل لأنهم يؤذون الناس بالغشّ، وهذا شيء أساسي يعارضه الدين الإلهي، ويمكنك ملاحظة هذه النقطة في كلّ الحالات التي ذكر فيها القرآن سبب نزول عذاب إلهي هنا في الدنيا على بعض الأقوام، لذا راجع دراستنا هذه لترى أنها كلّها كان سببها أذيتهم للآخرين ولم يكن سببها الأساسي كفرهم أو شركهم، ومن هذا المثال خذ المعنى من عرض دينه تعالى على مدين وعمّمه ليكون هو نفسه عرض دينه تعالى على الناس في كل الأزمنة والأمكنة، إذ هو بالأساس عرض للإيمان بالحق وفعل الصلاح.

لاحظ أن شعيباً ومحمّداً وإبراهيم... لم يرثوا الدين الإلهي من أبويهم، ولم يعتبرهم تعالى من الصالحين إيماناً وعملاً بسبب التزامهم بكتاب كان نازلاً من قبلهم أو بسبب التزامهم بدين آبائهم. والفكرة عن الدين أنه موروث، تنطبق على الذين اتبعوا دين آبائهم رغم سيئاته التي تعاموا عنها، وهذا ما حاربه القرآن، وليس من المنصف وصف الدين الإلهي "القرآني" بالموروث لأنه يعرض دينه تعالى على الناس بدعوتهم للحقّ والصلاح، وبضبابية وبدون تدقيق ترى البعض يشمل الأنبياء مع الذين ورثوا الدين الإلهي من آبائهم، وهذا غير صحيح، إذ إنّ محمّداً وشعيباً وإبراهيم... هم أشخاص عاديون مثلهم مثل بقية أفراد مجتمعاتهم ولكنهم تميّزوا بالقلب السليم، فوظّفهم سبحانه رسلاً... وتلاحظ بينهم من القرآن أن إبراهيم لم يكن نبياً ولا رسولاً حين كسر الأصنام وحين حاول قومه إحراقه، طبعاً هذا الكلام تخالفه بعض المرويات ولكنه قرآنياً واضح، ويمكنك مراجعة أي آية تظنّها تعارض ذلك لترى معناها في دراستنا هذه. يعني هو كان رجلاً عادياً مثلنا مثله بدون أي تواصل إلهي معه، ولم يرث دينه من أهله، ولكن نقاء قلبه جعله يتحرك ليعارض الفساد العقائدي لقومه المشركين.

تلاحظ أيضاً النبي عيسى(ع) الذي جاء لتصحيح دين قومه المنتمين بالاسم لدينه تعالى! حيث إنّ حركته التصحيحية كانت لإرجاع الأمور إلى نصابها ليرى الناس أن دينه تعالى هو الحقّ والصلاح وليس الدين "المحرّف الموروث" الذي عليه بنو إسرائيل، ولم يقبله تعالى وأرسل رسولاً لذلك... وحالتنا نحن المسلمين من بعد النبي محمّد(ع) هي نفس حالة بني إسرائيل حين جاءهم النبي عيسى(ع) رافضاً الدين الموروث وطارحاً لتقويمه... وبالنسبة له تعالى "قرآنياً" فإنّ الدين "الإسلامي المنتشر بين الناس" والموروث، ليس مقبولاً إلا إذا كان حقاً وصلاحاً...

غالبية الناس ترث دينها من أهلها ومجتمعها، والوارثون "عموماً" يرون ما ورثوه هو الأفضل، حتى العلمانية هي دين يرثه الأولاد عن أهلهم... على أي حال لنأخذ الدين القرآني كنموذج، في البداية لم يكن الالتزام به وراثة، بل جرى عرضه على العرب ليؤمنوا به، وللحقيقة هو بالنسبة لبني إسرائيل هو تقريباً نفس دينهم بعقيدته وشريعته وطقوسه... قبل التحريف، مع تغيرات تشريعية طفيفة جداً جداً، حيث إنّ نزول القرآن وعرضه على بني إسرائيل كان بمثابة حركة تصحيحية داخل الدين، ولكنها جاءت على يد رجل من أحفاد النبي إسماعيل(ع) وهو من خارج مجتمعهم الديني العرقي، إذ إنّهم أحفاد النبي إسحاق(ع) أخي النبي إسماعيل(ع)، ولذلك ولأمور أخرى كان رفضهم للقرآن...

كما ترى من القرآن بدون المرويات وبدون سيرة الحكّام المسلمين، في البداية كان القرآن يمثل عرضاً لدين إلهي قديم "من عهد آدم(ع)" على العرب وعلى عموم من سيصله القرآن من كل الناس، إذ إنّه عرض لدين تقتنع به أو ترفضه، وتبعات الإيمان به تقع عليك فقط في الآخرة، وبلا أي تبعات دنيوية عليك إلا إذا حاربت المؤمنين... بعبارة أصرح، إن رفضت عرض الدين القرآني عليك، فهو لا يجعلك عدواً للمؤمنين بل يخبرك عن مشكلة بينك وبين إلهك خالقك، ويخبرك عن أسباب المشكلة الكامنة فيك مختصراً ذلك بأنك تحبّ فعل السوء ولذلك ترفض الحقّ والصلاح القرآني...

فيما بعد تحوّل موضوع الدين القرآني تاريخياً إلى ثلاث طرق: طريق فرض إعلان الإيمان به على الآخرين بالقوة، وهذا كان سلوك غالبية الحكّام المسلمين الأوائل. وطريق الايمان به عن قناعة، وهذا ما يخبرنا به التاريخ عن حالات فردية أو حالات مجتمعات كانتشار الاسلام في أندونيسيا وماليزيا وغيرهما... وأخيراً طريق وراثة الدين بالولادة، والوراثة بالولادة هي الطريق الذي يحافظ على استمرار كل الأديان بمذاهبها، وهذا الدين "الإسلامي" ليس شاذاً عن هذه القاعدة.

الشواذ هو طرح الإيمان والعمل الصالح كدين ضيّق له اسم محدّد وله منتمون، وأن هذا الدين لجماعة لا تسع الآخرين الذين لا ينتمون بالاسم لهذا الدين حتى لو كان إيمانهم بدرجة مقبولة وعملهم صالحٌ بدرجة مقبولة، وعلى هذا الأساس

ترانا نفسّر الآية 19 من سورة آل عمران {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...} بينما كلامها ليس عن الإسلام كاسم لدين لجماعة من الناس، بل عن الانقياد له تعالى عموماً. الشواذ هو طرح دين لا عقلاني إجرامي متزّمت. الشواذ هو طرح الدين من خلفية المذهبية والطائفية التي تجعل إضافات الناس هي الدين بل أساسه.

الشواذ هو طرح الاسلام كدين على طريقة انطراح بقية الأديان الأخرى، وكأنه دين مثل بقية الأديان، وهذا ما يفعله الناس، أمّا في القرآن فتقرأ شيئاً مختلفاً، تقرأ أن الإيمان بالله تعالى وحده هو شأن شخصي لكل واحد منّا، والحساب عليه يكون بين الله والعبد فقط وفقط ولا دخل للآخرين بهذه المسألة، ويصير للآخرين علاقة فقط إذا حصلت أذية بسبب عداوة الآخرين للمؤمنين بسبب دينهم، وهذا هو التفسير لكل كلام القرآن من دون إسقاط الأفكار الإجرامية عليه، ولطالما برّر سبحانه وتعالى للسماح بقتل الآخرين لأنهم هم بدأوا بالاعتداء على المؤمنين المسالمين...

سأختصر لك كل كلام القرآن عن هذا الموضوع في الآية الثامنة والتاسعة من سورة الممتحنة {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}، وحتى لو كان الآخرون يعبدون الحجر، فطالما هم مسالمون فلا يحقّ لك أذيتهم بل يأمرك سبحانه ببرهم وقسطهم.

من ناحية الإيمان "العقيدة" فهذا هو الطرح القرآني: لا إله إلا الله. وبقية الآلهة من اختراع الناس ولا حقيقة لها، وإن لم تؤمن بهذا التوحيد، فلا يحق لأي أحد التعرّض لك، وحسابك بينك وبين ربّك في الآخرة. هذا هو دين الله الإسلامي القرآني، وأي آية تظنها تخالف ما نقوله فراجع في هذه الدراسة لترى الإسقاطات الإجرامية لتفسيرهم للقرآن.

في القرآن تقرأ عن التشريعات وترى أن أساسها ما ذكرته مختصراً الآية 90 من سورة النحل {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}، وأي عاقل سيرفض هذا! إذ إنّ كلّ التشريعات القرآنية جاءت لحفظ حقوق الناس ومنعهم من أذية بعضهم البعض، وأمّا الطقوس والنسك والشعائر... فهي شأن خاص بين الفرد وربّه.

الآن نأخذ مثالاً بسيطاً عن الدين الإسلامي الذي من صنع الناس، المؤمن بالتوحيد، التارك للصلاة، عند البعض من مشاهير الفقهاء "المسلمين" يجب قتله!!! لقد قفزت بك عن مخالفتهم لصريح كلام القرآن عن حرمة دم المشرك العابد للتمثال والحجر والقمر... وأن الله تعالى يحب المقسطين مع الآخرين حتى مع هؤلاء الكافرين المشركين، بينما العديدون من المنتمين بالاسم لدينه تعالى قد أفتوا دينياً بجواز بل بوجوب قتل الآخرين من غير المسلمين "وأحياناً من غير مذهبهم"، إلا أن يصير الآخرون من أهل الذمة أو يسلموا أو ينتقلوا للمذهب الحقّ!!! قفزت عن ذلك لأريك مدى تلاعبهم بدينه تعالى لدرجة تجويزهم بل توجيبهم قتل المسلم التارك للصلاة أو للصيام!!! وتوجيبهم جلد المسلم الذي يحلق ذقنه على الشفرة! وجلد المسلم الذي لا يذهب لصلاة الجمعة! بل بعضهم يصف بالكفر الذين لا يؤمنون بجواز شرب بول البعير، ويجيز قتلهم!!! وبعضهم يقول لك إنك إن لم تؤمن بالولاية التكوينية لأهل البيت فأنت لست مؤمناً! وإن لم تحبّهم فلست مسلماً! وإن أعلنت كرههم يجوز قتلك!!! ولست أفهم كيف يكره الإنسان شخصية تاريخية إن لم يقرأ عنها أفعال السوء، أو منقول عنها كلام السوء، أو محسوبة على أناس يعتبرونه عدواً! وبعضهم يفرض عليك الإيمان بتميّز ديني إيماني لكل الذين رأوا النبي محمّداً(ع)! ويجب عليك الإيمان بعصمة كل الصحابة! ويكفّرونك إن لم تعلن ذلك! رغم كلام القرآن الصريح عن منافقين وفاسقين ضمن ما يسمّى بصحابة الرسول(ع)!

نرجع لموضوعنا، ونكمل الكلام عن التشريعات، وهذا هو الطرح القرآني: أساسيات قليلة جداً جداً، أساسها العدل والإحسان والبرّ... والتفاصيل متروكة كهامش مرونة ليتحرك بها الناس بما يرونه مناسباً. أمّا فيما يعرضه الناس على الآخرين كدين فهو مجموعة تشريعات تراكمت وصار الالتزام بها واجباً على عماه بغض النظر عن المرونة التي تركها القرآن، وبغض النظر عن الاختلاف في الظروف والأزمنة لتلك التشريعات عن ظروف وأزمنة الحاضر.

خذ مثلاً عن تراكم وانحراف التشريعات عن صريح القرآن مسألة الميراث، ويمكنك مراجعة الآية 11 من سورة النساء في هذه الدراسة لترى البعد الشاسع بين موروث تشريعات تقسيم الميراث وبين كلام القرآن.

كلام القرآن بأكثريته عن فعل الصالحات لا عن توصيف الأعمال بالتشريعات بالمعنى الحقوقي للكلمة، ولا عن تبنيد التشريعات، حين يصف سبحانه بعض الناس بأنهم عملوا الصالحات، فالقصد أنهم هم يرون ما عملوه صالحاً، وهم قصدوا فعله لأنه صالح، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، لذا ستتماشى أوامره تعالى مع ما يرونه هم صالحاً، وهذا التماشي ترتفع استقامته كلّما ارتفعت درجة سلامة قلوبنا من الابتعاد عن الهوى للسيئات...

ومن نتائج هذا الكلام أنك إن سمعت بشيء منسوب له تعالى ورأيته سيئاً فأنت أمام حالتين، إمّا ما سمعته هو من اختراع الناس وليس من كلامه تعالى، أو من كلامه تعالى ولكن في قلبك عطل جعلك تراه سيئاً، وكمثال عن ذلك كلامه تعالى في سورة الطلاق عن الأحكام الأساسية للطلاق، إن رفضت البعض منها فحتماً أنت لم تفهم عمقها، أو سواد قلبك منعك من قبولها لأنك من مجتمع ذكوري متسلّط على النساء ومستضعف لهن ولا ترى أي قيمة للكلام عن حقوقهن...

خلاصة الكلام، هكذا تقرأ كل كلام القرآن عن التوحيد والعمل الصالح أنّه هو دينه تعالى، أمّا الشعائر والطقوس الدينية، فهي ليست الدين بل طقوسه وشعائره، والدين هو التوحيد والعمل الصالح وليس مهماً اسم دين أبويك الذي ورثته منهم، وترى في القرآن المنع من اختراع الطقوس والشعائر التي لم يسمح بها تعالى لأن الطقوس والشعائر التي يخترعها الناس ينتج عنها تزمّت وتضييق وأذية للنفس أو الآخرين، بينما المهم هو التماشي مع التوحيد، والعمل الصالح.

هذا هو الإسلام له تعالى كدين "التوحيد والعمل الصالح" حتى من دون معرفة أي شيء عن التاريخ الإسلامي أو المسيحي أو اليهودي أو... بل حتى من دون معرفة القرآن وما فيه، اللهم إلا السبب من نزول القرآن، لأنّنا نحن البشر بغالبيتنا الساحقة فسدت عندنا رؤية الحقّ من الباطل بسبب فساد قلوبنا واتباعنا لأهوائنا، وقد نزل القرآن ليكون التقويم لذلك، من لم يكن لديه القرآن لتقويم رؤيته، فهذا فاقد لمصدر مهم جداً لمعرفة الحقّ والصلاح.

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً{12})

{اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {الَّذِي خَلَقَ}، الذي ركّب وألّف، {سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}، إذ إنّ التقابل بين أرض وسماء يعطي معنى الفوقية للسماء كفضاء فسيح كفراغ أو فيه شيء ما بعيد عن بعضه، ويقابله عموم أي أرض أو أراض متفرقة، حيث إنّ كلمة سماء أصلاً تعني وجودها فوق أرض، وكلمة أرض تعني وجود سماء فوقها، وبالتالي أي أرضية فوقها شيء ومهما كان نوعها وتركيبتها نطلق عليها كلمة أرض. ولا تقصد الآية أبداً وجود سبع كواكب تشبه الأرض تحت كلّ سماء، لا، بل لكل سماء أرض خاصّة بها، وسماؤنا يقابلها أرضنا وأرض سطح القمر وأرض سطح زحل والزهرة والمشتري... فأي شيء موصوف بأنه أرضية فهو أرض مقابل السماء التي في عالمنا، وبقية السماوات لكل واحدة منها ما يقابلها من أرض أو أراض بما يناسب طبيعة تكوين تلك السماء، لذا ربما تكون تلك الأرض كوكباً أو كواكبَ أو شيئاً لا نعرفه...

{يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ}، عبر السماوات وأراضيها ينتقل منه تعالى الموضوع الذي يريد وصوله لكم، فهذا القرآن تعبر به الملائكة(ع) من السماء العالية بين السماوات وصولاً إلى أرضنا، {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، إذ يقدر على فعل أي شيء يريده، وهنا تنبّهنا الآية إلى كلامه تعالى عن العقاب الشديد والجنّات، حيث إنّ بعض الناس المزاجيين الذين يريدون أحكاماً للطلاق على مزاجهم سيرفضون ما يقوله القرآن عن أحكام الطلاق، والتهديد بالعقاب والوعد بالثواب لن يعني لهم أي شيء وكأنه تعالى غير قادر على تنفيذ تهديداته، لذا تذكّرهم الآية هنا بأن الذي خلق الضخامة الهائلة لسبع سماوات وينزّل الأمر الإلهي عبرهن ليصل إليكم، فهذا ليس شيئاً لتستهينوا به، وليس كلاماً فارغاً، ولا من قاله ضعيف عن تنفيذ وعوده.

{قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}، لا تفلت منه ولا تغيب عنه سبحانه أي معلومة، إذ من اتقى سيكون تحت المراقبة ومن عصى فهو تحت المراقبة. لم تنزل أوامره تعالى من دون متابعة تنفيذكم لها أو إهمالها، لا، إذ إنّ الكل تحت المراقبة الإلهية ليرى سبحانه من التزم ليدخله الجنة، ومن طغى وسيجعله في النار.

سورة التحريم (66) ص 560
تعرض السورة حادثة جرت مع النبي محمّد(ع) وبعض زوجاته لتكون نموذجاً نتعلّم منه، حيث إنّ الزوجة "وعموم من له علاقة بمؤمن" تنبّهه السورة من استغلال مراعاة المؤمن لهم بسبب التزامه بإيمانه، وحتى لا يضغطوا عليه بتقييد حريّته وصولاً لدفعه لارتكاب مخالفة لأوامره تعالى.

أكملت من ذلك إلى تقويم إيماني يتضامن ويتكافل به الأهل بين بعضهم بدلاً من قيام بعض الأفراد بسلوكيات سيئة تخلخل ثقافة وعادات أصغر دائرة من المجتمع "دائرة الأهل" لتنتقل منه إلى عموم المجتمع...

قدّمت أتعس نموذجين أنثويين لزوجتين لنبيين، حتى ينتفي من بالنا أي اعتماد لنا على إيمان الآخرين لنجاتنا نحن من العقاب إن كنا نحن عاصين...

قدّمت أرقى نموذجين إيمانيين لأنثيين، واحدة عزباء اعتنى بها تعالى والأخرى زوجة أعتى كافر في تاريخ البشرية.

السورة تشير لحوادث فردية لها أثر على الفرد وعلى محيطه الأصغر "أهله" وعلى محيطه الأكبر "مجتمعه"، وهكذا نرى خطورة التصرفات الفردية السيئة علينا وعلى الآخرين، ونرى ما وعد به تعالى المتقين...

بشكل واضح تتوجّه السورة بالخصوص للإناث المتزوجات والعزباوات لتحفيزهن على تقاه تعالى عبر الالتزام بكلامه سبحانه، مبتعدات عن التفكير الضيّق بالمصالح الشخصية، ومشيرة إلى ذلك بنموذج الزوجة التي تريد التحكّم بزوجها مانعة له من فعل ما حلّله تعالى له...

لا تنسَ أن كلام السورة عن الرسول وزوجاته ما هو إلا نموذج تعليمي إذ إنّ كل القرآن لم يقصد التأريخ لأجل التأريخ، بل قصد الهداية بالعبرة من التاريخ، والحال مثل حال الكلام عن بني إسرائيل، فإن فهمته حصراً على قصد المذمّة لهم، فأنت لم تفهم معنى تنزيله تعالى للقرآن، وإن فهمته كنموذج لمن سبقنا وانتسب لكتاب إلهي حتى ننتبه أن لا نكون مثلهم فقد فهمت معنى الهداية.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{1})
{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}، يا أيها الشخص الذي يصله نبأٌ، يصله خبر غير منتشر علمه بين الناس، وكلمة نبي صارت مصطلحا دينيا يشير لمن يصله النبأ منه تعالى، {لِمَ تُحَرِّمُ}، كما نقول بالعامية "ليش" تمنع منعا باتا، {مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ}، ما قال عنه تعالى لك أنك حرّ في فعله فلماذا تمنعه نهائيا عن نفسك؟ {تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ}، تحرّم على نفسك ما أحلّه تعالى وتقصد قبول زوجاتك لتصرفاتك؟!

{وَاللَّهُ غَفُورٌ}، يتجاوز عن السيئات، فهذا عمل سيّء وسيغفره تعالى لك لأنك مؤمن، {وَاللَّهُ}، {رَحِيمٌ}، لديه عناية خاصة بالمؤمنين، وأنت من المؤمنين ولذلك سيغفر تعالى لك، وأمّا غير المؤمنين فخرجوا بإرادتهم من تحت مظلّة الرحمة الإلهية فلا مغفرة لهم. هذا التحريم عمل سيّء، ولكن بسبب عنايته الخاصة تعالى بالمؤمنين يغفر لهم ذنوبهم التي تراجعوا عنها وتابوا منها.

هناك أمر حلّله تعالى لك وحرّمته على نفسك حتى ترضى "بعض" أزواجك عنك، فلماذا قمت بهذا التصرّف؟

قارنها مع شيء يتركه النبي(ع) ليرضى عنه ربّه تعالى، ومع شيء يفعله(ع) حلّله تعالى، والآن انظر لشيء حلّله تعالى وحرّمه النبي(ع) على نفسه لمرضاة أزواجه، وسيبدو لك من تكملة كلام السورة أن ضغطا تعرّض له النبي(ع) من بعض زوجاته حتى حرّم على نفسه شيئا ما.

كعادة القرآن اتخذت السورة هنا من النبي محمّد(ع) نموذجا حتى نقتدي به ولا نفعل ما حذّرته السورة منه، فلا نحرّم على أنفسنا شيئا حلّله تعالى لمرضاة المخلوقات، فليكن تحريمنا لشيء ما لمرضاته تعالى فقط وفقط، وإن كان تركنا لشيء حلّله تعالى يسبب رِضاً لشخص ما، فهذا الشخص صار رضاه مخالفا لرضاه تعالى، ونفس الشيء الذي حلّله تعالى ذاك الشخص لا يرضى عنه، فالمشكلة في ذاك الشخص، ويجب عليك كنبي "نموذج إيماني للناس" أن لا تعمل

على رضى أي مخلوق مقابل رضاه تعالى، وعلى البقية اتّباعك والعمل على رضاه تعالى فقط، وأمّا المعترض فليراجع إيمانه...

المعترض هنا في السورة هو بعض زوجاته(ع)، فالتنبيه ليس لهن حصرا، بل لكل زوجة تعتبر نفسها مؤمنة معتقدة ملتزمة بهذا الدين حتى لا تضغط على زوجها ليحرّم شيئا حلالا على نفسه حتى يرضيها.

كما ترى من كلّ سيرة النبي محمّد(ع) اختار تعالى خلافا بينه(ع) وبين "بعض" زوجاته حول شيء حلّله تعالى وهنّ يكرهْنَهُ، يعني هو رجل مؤمن وفي دائرته الخاصة من بيته ومن أهله، تعرّض لضغط حتى لا يفعل شيئا حلّله تعالى، وبالخصوص تنبّه السورة الزوجات عن المزاجية أمام أوامره وأمام ما حرّمه وحلّله تعالى، وتعرض السورة نموذجين عن زوجتين سيئتين جدا، وعن امرأتين حسنتين جدا...

اعذرني من تكرار الكلام حيث في عموم كتب التفاسير كلام كثير لا يتماشى مع ما تقوله السورة، إذ من عموم القرآن نفهم أن العمل السيّء يبقى توصيفه سيئا مهما تغيرت بيئته وظروفه، فالقتل عمل سيّء، وحتى قتل الكافر المحارب، فهو عمل سيّء، ولكن يعفو تعالى عنه إذا نُفِّذَ بناء على أوامره الحكيمة سبحانه... وهنا لا يختلف الموضوع عن هذا، فأي تحريم لحلال حلّله تعالى فهو مخالفة لأوامره تعالى، وهو عمل سيّء، فالحلال يمكنك أن تفعله أو لا تفعله، باختيارك، ولكن عندما تحرّمه على نفسك، تكون حرّمت شيئا حلّله تعالى، وهذا عمل سيّء، وسمح تعالى بتركك للحلال ولكن يبقى توصيفه سيئا إن حرّمته على نفسك، وهو مغفور لك لأنك مؤمن مشمول برحمته تعالى الخاصّة بالمؤمنين.

سبحانه سمح لنا أن نحرّم على أنفسنا شيئا حلالا لسبب ما نراه مناسبا لنا، فلنقل إنّ أحدهم تأذّى من حسك السمك فحلف يمينا أن لا يأكل السمك، فهذا عمليا حرّم على نفسه شيئا حلالا، وسبحانه سمح بذلك، وسمح بالتحلّل فيما بعد من هذا اليمين، وورد ذلك في الآية 89 من سورة المائدة {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}..

إن كان مسموحا للمؤمنين قسم اليمين لتحريم شيء حلال على أنفسهم، فلماذا تعترض السورة على النبي(ع) بتحريمه شيئا حلالا على نفسه؟ المشكلة ليست هنا، المشكلة أن النبي(ع) حرّمه على نفسه ليرضي بعض زوجاته، ولم يتحلّل منه أيضا لتبقى بعض زوجاته راضيات عنه، فالمشكلة أنه(ع) نبي، وهو نموذج للناس، وأفعاله تقتدي بها الناس، وبضغط من زوجاته راضاهن ففعل ما يرضيهن ولم يفعل ما يرغبه هو، ومن داخله لديه رغبة في ذلك الحلال، ويمكنه في شريعة الله تعالى التحلّل من يمينه كما سترى من الآية التالية، ولكن أيضا ولمرضاة أزواجه، منع على نفسه التحلّل من اليمين، وهنا المشكلة، فالنبي القائد النموذج يقسم يمينا يحرّم فيه على نفسه الحلال ليرضي زوجاته، ولا يتراجع عن يمينه أيضا بسبب زوجاته!

التنبيه لنا كمؤمنين أن لا نفعل ذلك، فلا نحرّم على أنفسنا شيئا لرضا الآخرين، ولا نضغط على الآخرين حتى يحرّموا على أنفسهم شيئا حلالا لهم.

ما هو الذي حرّمه النبي (ع) على نفسه لترضى عنه بعض زوجاته؟ كما تلاحظ السورة لم تذكره، واكتفت بالعناوين لأن التفاصيل غير مهمّة... وهكذا سيدفعك الفضول للبحث في الروايات، وستجدها مختلفة ومتخالفة مع بعضها البعض، وستحاول الخروج منها بنتيجة ولو تقريبية، ولكن ما الفائدة من ذلك؟ فهل تكلّمت الآية عن شيء محدّد ممنوع علينا تحريمه على أنفسنا لمرضاة الآخرين؟ أم تركت الكلام عمومياً لنتعلّم أن عموم أي شيء ممنوع علينا تحريمه على أنفسنا لمرضاة الآخرين؟ وتركت الكلام عمومياً لننتبه من الضغط على الآخرين ليحرّموا أي شيء على أنفسهم لنرضى نحن عنهم.

ذهبوا في الروايات إلى العصبية المذهبية، فصار الناس فرقا متضادة، فهؤلاء يفسّرون الآيات بشكل يعيب على زوجات للنبي (ع) محسوبات كقدّيسات عند المذهب الآخر، لينزّلوا من قيمتهن، وأولئك برّروا لنفس الزوجات لأنهن

قدّيسات في مذهبهن، وآخرون حاولوا أن يكونوا وسطيين ولكنهم سقطوا في نفس الفخّ، فالقرآن لم يهتم بذكر التفاصيل لأنها غير مهمّة، والمهمّ أن أتعلم أنا وأنت وهي وتلك من العبرة.

حالتنا مع هذا النوع من الآيات مثل حالة خطيب على المنبر يحاضر في الأخلاق، وكلّ واحد منّا يقول بينه وبين نفسه: لو ينتبه سمير ومحسن لكلام الخطيب لأنهم بلا أخلاق. وسمير ومحسن يقولون في أنفسهم: لو ينتبه فلان وفلان لهذا الكلام لأنهم بلا أخلاق... وهكذا يذهب فكر كل السامعين إلى الآخرين، ولا واحد منهم يعتبر الكلام مُوَجَّهاً له!

هنا السورة توجّه كلامها لي ولك وله ولها... لنتعلم ونتّعظ، فما معنى تجاهل خطابها معنا وقصدها لنا بالهداية والبحث في الروايات لنرى عمّن تحدّثت ومن قصدت! وبتفاسيرهم هذه أضاعوا الهداية والغرض من القرآن، وصار بدلا منه مصدرا لشحن الأضغان والأحقاد والفرقة بين المسلمين، وبدل الانتباه من تحريمنا نحن لما حلّله تعالى أو ترك الضغط على الآخرين لتحريم ما حلّله تعالى، وبدلاً من ذلك انشغلنا بتعميق الفرقة بين المسلمين، والبرهنة على فساد هذه الزوجة للنبي وتلك، أو بعلو مقام هذه الزوجة وتلك، وكأن السورة أرادتنا أن نذهب في هذا الاتجاه السخيف من التناحر البايخ، وفي نفس الوقت نستسخف الشباب المتناحرين بسبب تشجيعهم لفرق مختلفة لكرة القدم... وكأننا لسنا بنفس عقلية السخافة حين نتناحر على تقديس أو إهانة شخصيات من التاريخ الغابر!

(قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ{2})
{قَدْ فَرَضَ اللَّهُ}، أوجب حتماً، {لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ}، أن تتحلّلوا فلا يَعُدْ لكم ارتباط بالرابط القوي، حيث إنّ اليمين هو التزامك بشيء ما وارتباطك بما أعلنته بشدّة بقوة، وللخلاص منه تحتاج لمن يفرض قراره عليك، وفرض تعالى لنا أن نتحلّل من هذا الرابط، فكما فرض علينا أن نلتزم باليمين فرض لنا التحلّل منه، فتقول: حرّمت على نفسي شرب الماء البارد. يمكنك قول ذلك لتحرّم على نفسك حلالاً حلّله تعالى، وإذا لم تلتزم به فكفارته مذكورة في الآية 89 من سورة المائدة، إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة، ومن لم يستطع فعل أي شيء مما سبق يَصُمْ ثلاثة أيام، وهذه الخيارات للكفارة سواء خالفت يمينك وشربت الماء البارد أو قررت أن تتحلّل من يمينك ومن بعدها شربت الماء البارد، فعلى كلا الحالين ليس عليك إثم طالما التزمت بالكفّارة، فمقابل يمينك القوي هناك فرض، إذ هناك شيء قوي أوجبه تعالى وحتمه، فأجاز لك التخلّص من يمينك القوي.

{وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ}، أنتم كمؤمنين تابعون له تعالى، وسمح لكم بالتحلّل من يمينكم، فلماذا تبقون على يمينكم لترضوا غيركم؟

{وَهُوَ الْعَلِيمُ}، الذي من علمه الواسع بكل شيء سمح لكم باليمين وبالتحلّل منه، فعن معلومات شاملة كاملة وافية محيطة... كان التشريع الإلهي بحلية اليمين وحلية التحلّل منه. لم يكن "اليمين والتحلّل منه" قراراً إلهياً تبيّن فيما بعد تعارضه مع بقية القرارات الإلهية، لا، فالعليم يعلم كل شيء، ويعلم أن هذا التشريع ليس فيه مشكلة أو تعارض مع تشريعات أخرى.

{الْحَكِيمُ}، يرى الصوابية في الأمور وقراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب إذ قراراته وأفعاله كلها متقنة وحقٌّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول بأن أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فلا يفعل لغاية له سبحانه.

وهنا بالتحديد الكلام عن اليمين والتحلّل منه، إذ يخطر ببالنا أنه تعالى حلّل لنا اليمين وفيما بعد تبين أنها ثغرة يمكننا من خلالها التلاعب بتشريعه تعالى فنحرّم على أنفسنا حلالاً إلهياً، لا، فخالقنا أعلم منّا بنفسيتنا ورغباتنا، والحلال مباح فعله أو تركه من الأساس، فهو ليس حراماً شرّعته حلالاً بيمينك، ولا واجباً شرّعته حراماً بيمينك، لا، فهو من الأصل شيء حلال "مباح" وباختيارك يمكنك فعله أو تركه، وهذا التشريع بالحلية وباليمين والتحلّل منه، لم يكن عبثياً، إذ في حالات تشعر فيها بضغط يدفعك لتحريم شيء حلال على نفسك، كالسكّر لمرضى السمنة والسكّري، والدهن لمرضى السمنة والدهنيات... وفيما بعد تبين ضرورة تناولك لبعض الدهنيات والسكريات، فهل علقت بيمينك؟ لا، حيث يمكنك التحلّل منه.

(وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ {3})

{وَإِذْ أَسَرَّ}، حيث بالسر بالخفاء عن البقية قال، {النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا}، نقل لزوجته كلاماً عن شيء حصل، {فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ}، أخبرت آخرين بالسرّ، {وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ}، أخبر سبحانه رسوله(ع) بأن زوجته أفشت السرّ، {عَرَّفَ}، النبي(ع)، {بَعْضَهُ}، أخبر الزوجة بعض الذي أفشته، {وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ}، إذ هناك كلام آخر أفشته ولكن النبي(ع) لم يذكره، تركه ولم يذكره لها. لم يختر النبي(ع) معاتبتها على كل المعلومات التي أفشتها بل أخبرها القليل واحتفظ بالبقية المزعجة، {فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ}، عندما أخبرها ببعض ما أفشته للآخرين، {قَالَتْ} الزوجة: {مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا}؟ من أخبرك بشيء لم ينتشر فلا يعرف به إلا الذين أسررت لهم وهم لن يقولوه لأحد؟

{قَالَ}، النبي(ع): {نَبَّأَنِيَ}، أخبرني أنك أفشيت سرّي، {الْعَلِيمُ}، الذي يعلم كلّ شيء، {الْخَبِيرُ}، الذي لديه كل الأخبار.

كما ترى عرّجت السورة على حدث فرعي له أهمية لننتبه له ونتعلم منه، إذ حدّثتنا عن زوجة ائتمنها زوجها على سرّ خاص به، ولم تحتفظ بالسرّ وأخبرت الآخرين، وأنت تعلم أن الكلام لم يكن عن أسرار الدولة... بل عن شيء خاص بين الرجل وزوجته، ومن المؤذي للزوج أن يعلم به الآخرون، وهناك كلام كثير لطيف بين الزوج وزوجته، وهو نفسه يصير كلاماً فجّاً إن علم به الآخرون، فلنقل مثلاً أنّه قال لزوجته: أحبّ حديثك، يعجبني اهتمامك بنفسك... فتنقل الزوجة هذا الكلام للزوجات الأخريات، أو لأمّه وأبيه وأولاده لتريهم أنه لا يحبّ حديثهم ولا مجالستهم مثلما يحب حديثها ومجالستها... وكما ترى فهذا مثال بسيط، وتتدرّج الأمثلة في سوئها لتصل إلى أذيّة وضرر بليغ للزوج...

قفزت السورة عن التفاصيل واكتفت بالتنبيه من هذا السلوك المعيب للزوجة، وفي مقابل هذا تجد الفضوليين مصرين على معرفة السرّ الذي أفشته الزوجة! وكأن الأهمية في السرّ وليست في الانتباه من هذا السلوك! أو كأن معرفة التفاصيل سنتعلّم منها ما هي الأسرار التي يجب أن نحتفظ بها ولا نخبرها للآخرين! وللأسف حتى هذا التبرير لا يسري على ما فعلوه في الكتب، فهم لم يهتمّوا بالتعلّم من السورة، واهتمّوا بشحن أسلحتهم الطائفية والمذهبية... والشكوى منهم إلى الله تعالى...

(إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ {4})

{إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ}، تعلنا له تعالى عن فتح صفحة جديدة، وتندمان على ما فعلتماه، والآن صار الحديث موجّهاً للزوجة التي أفشت السر وللزوجة الثانية التي سمعت بالسرّ، {فَقَدْ صَغَتْ}، مالت عن الاستقامة، {قُلُوبُكُمَا}، مركز تفكيركما ونفسيتكما لم يعد مستقيماً، فأنتما مررتما في حالة صغي حيث لم تبق قلوبكم مستقيمة على ما تعرفانه مما يجب عليكما الالتزام به "من الآداب" فصرتما في حالة تستوجب منكما التوبة والانتهاء عن تكرار ما فعلتما.

تلاحظ عدة أمور هنا، حيث صار جانبٌ من حياة النبي(ع) الشخصية معلناً، يقرؤه الناس عبر هذا القرآن الذي لم يدخل في التفاصيل واكتفى بالإشارة لما يهمّك أن تعلمه "تعلمينه" وتتعلّم منه "تتعلّمي منه"، فاترك التفاصيل التي أغفلها القرآن لأنها ليست مهمّة، وتعلّم درسك، وتعلّمي درسك فقط مما عرضته الآيات. فنحن لسنا هنا أمام فضائح قرآنية عن حياة الرسول(ع) والأمور الخاصة بزوجاته، بل هم نموذج طرحه القرآن لنا حتى نتعلّم منه مكتفياً بالإشارة والتلميح لما جرى.

{وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ}، إن تعاونت تلك الزوجتان ضدّ الرسول(ع)، {فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ}، يتولّى شؤونه فيعتبره تعالى تابعاً له، {وَجِبْرِيلُ}، وهذا الملاك مولى للرسول(ع) فيتولّى أيضاً شؤونه، {وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ}، أيضاً موالي للرسول(ع)، {وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ}، إذ من بعد الملاك جبريل (ع) وصالح المؤمنين فبقية الملائكة في صفت الرسول كمساندين (ع).

في الروايات نجد تحديد أشخاص مختلفين للمقصود بصالح المؤمنين، وشدّ كل فريق من المسلمين الجملة لناحيته، ولدى كل فريق منهم روايات تشير لشخصياته التي يقدّسها أنهم المقصودون بصالح المؤمنين، ففريق يشير بها إلى علي ابن

أبي طالب، وفريق يشير بها إلى أبي بكر وعمر...! وكما ترى فما الفائدة من هذا الكلام الجدلي المذهبي التعصّبي الطائفي سوى زيادة الفرقة بين المسلمين؟ فالآية عمّمت لتشمل أصلح المؤمنين أنهم من أنصار الرسول(ع)، وهذا يكفي ولا فائدة من أي كلام بعد ذلك، فالشخصية ذات القيمة المرتفعة إيمانياً لن تنزل إذا لم يدرجها هذا الفريق أو ذاك في رواياته، والشخصية ذات القيمة الإيمانية المنخفضة لن ترتفع إلا في أوهام من فسّروا بها الآيات، فلا شيء يتغيّر عنده تعالى في تقييم الإيمان للأشخاص، لا برواياتهم ولا بجدلهم...

نرجع للآية، فأنتما إن لم تتراجعا وتتوبا حتى تستقيم قلوبكما، وأصريتما على التعاون ضدّه(ع)، فأمامكم الله تعالى وبعده الملاك جبريل(ع) والصالحون من المؤمنين ومن بعدهم الملائكة(ع) يعينون الرسول(ع)، فكلّهم ضدّكما.

أنتما زوجتان للرسول(ع)، وقيمتكما هذه إن تحافظا عليها فتكونا محترمتين، أمّا إذا لم تحافظا على ذلك فأنتما أمام عداوة لله تعالى، ولملاك من الدرجة العالية، ولأفضل المؤمنين، ولبقية الملائكة، فمن بقي ليقف في صفّكما؟ ماذا فعلتما وتفعلان بأنفسكما؟ ما هذا الخيار السيّء الذي اخترتماه؟ مقابل ماذا تخلّيتما عن رضا الرسول(ع) المرتبط برضاه تعالى ورضا الملائكة العالية ورضا المؤمنين من الدرجة العالية وبقية الملائكة؟ مقابل ماذا آذيتما الرسول(ع) وضغطتما عليه ليحرّم على نفسه حلالاً ويمتنع عن التحلّل من يمينه؟ أين تضعان نفسيكما بهذا التصرّف في جهة وفي مقابل من؟

كان العتاب في بداية السورة للرسول(ع) الذي بإنسانيته وطيبة قلبه حرم نفسه من حلال ليراضي زوجاته، ولم تخبرنا الآيات ما هو هذا الحلال، وليس مهمّاً معرفته، وليس مهمّاً معرفة أسماء الزوجات اللاتي قمنا بهذا العمل، فما الفائدة من ذلك لنا إن كانت السورة تريدنا الانتباه للعتاب الموجّه للنبي(ع) ولم تقبل السورة تبرير ما فعله الرسول(ع) لمحاباة زوجاته، ثم انتقلت السورة لتنبيه الزوجتين إلى شدّة خطورة ما فعلتاه، حتى تنتبه الزوجات المؤمنات من هكذا تصرفات، وبالخصوص حتى تنتبه زوجات الذين لأزواجهنّ مواقع مسؤولية، إذ هو وهم تحت مراقبة الناس لسلوكياتهم وتصرفاتهم، وقيمتها تكون عالية كزوجة لرجل مهمّ إن حافظت على قيمة زوجها وقيمتها. وكل رجل مؤمن مهمّ، وكل امرأة مؤمنة مهمّة، ولكن يبقى الأثر الناتج عن السلوكيات السيئة لزوجات أصحاب المناصب، كالقادة والعلماء... يبقى أثره أعمق في المجتمع.

لست أنا ولا أنت بقيمة الرسول(ع) المعنوية الإيمانية، وليست زوجاتنا بأفضل من زوجات الرسول ولا أسوأ منهن، فهذا القياس شأن إلهي وليس من شأني وشأنك، ومن المعيب والحرام عليّ وعليك أن نتلهّى بزوجات النبي(ع) لنقيّمهن، وكأننا نحن وزوجاتنا من الأطهار كاملي الإيمان...!

(عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً{5})
{عَسَى رَبُّهُ}، من المحتمل المرجّح غير الأكيد حصوله ولكنه مرجّح بشكل قوي أن يقوم المسؤول عن النبي (ع) من مستوى إلهي، {إِنْ طَلَّقَكُنَّ}، فأنهى النبي زواجه بكن، {أَنْ يُبْدِلَهُ}، ربّه سبحانه، {أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ}، فماذا تعتبران نفسيكما بأي قيمة؟ وهل تريان أنكما بقيمة عالية فوق قيمة الرسول(ع) فتصرفتما بشكل لم تراعيا فيه مكانة زوجكما على أساس أنكما بقيمة عالية؟ فهل تعتقدان أنكما أفضل نسوة يمكن للرسول أن يتزوّج منهن؟ فماذا لو طلقكما الرسول(ع) وتزوّج من أخريات؟ إذ هناك نساء غيركن أفضل منكن ومثلكن وَأَسْوَأَ منكن، فما قيمتكما إن طلّقكنّ؟ وبأي حق تفترضان أنكما أفضل ما يمكن للرسول(ع) الحصول عليه من زوجة وأنه لا يوجد أفضل منكن؟

{مُسْلِمَاتٍ}، منقادات لله تعالى، {مُؤْمِنَاتٍ}، معتقدات وملتزمات بدينه تعالى، {قَانِتَاتٍ}، تحت طاعة الله تعالى وتحت طاعة رسوله(ع)، {تَائِبَاتٍ}، يفتحن صفحة جديدة فلا يصرّن على عمل سيّء، {عَابِدَاتٍ}، يتصرفن على أساس أنهن مفروض منهن الطاعة له تعالى، {سَائِحَاتٍ}، سياحتهن حركتهن تَنَقُّلُهُنَّ على أساس ما سبق من صفات، فيذهبن إلى المساجد والحجّ وَيَسْعَيْنَ في عمل الخير.

{ثَيِّبَاتٍ}، تزوجن من قبل، {وَأَبْكَارًا}، لم يتزوّجن من قبل، فإن كانت الواحدة منكما ترى ميزة أن الرسول(ع) هو أول زوج لها، والثانية تخترع لنفسها ميزة أنها كانت متزوجة من قبل "أرملة أو طليقة" ورغم ذلك اختارها الرسول(ع)... إذ هناك نساء أخريات متاحات وثيبات وأبكارا وبمواصفات إيمانية عالية، فما قيمتكما وقيمة ما فعلتما إن طلقكما واستبدلكما؟

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ{6})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين الإلهي، {قُوا}، قوموا بوقاية بتجنيب، {أَنْفُسَكُمْ}، {وَأَهْلِيكُمْ}، والناس المنتمين لكم، {نَارًا وَقُودُهَا}، نار مادة احتراقها، الذي يحترق فيها، {النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}، فحجارتها محترقة ويصدر عنها حرارة محرقة ولهب، كحجارة الحمم أو كحجارة الفحم الحجري، والناس الذين فيها يحترقون ويصدر عنهم حرارة ولهب.

من المعلوم من القرآن أن الوقاية من تلك النار فقط وفقط عبر الالتزام بأوامره تعالى، فالتزموا بها ونبّهوا المنتمين لكم بالالتزام بها، فنبّهوا زوجاتكم "أزواجكم" وأولادكم وأبويكم...

{عَلَيْهَا}، على تلك النار، {مَلَائِكَةٌ}، كائنات توصف بامتلاكها لشيء، موصوفة بقدراتها العالية وطاعتها التامّة له تعالى، {غِلَاظٌ}، لا يتهاونون ولا يتساهلون، {شِدَادٌ}، لديهم قوى شديدة، {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ}، مهما أمرهم تعالى بأي شيء كان فهم لا يخالفون أوامره أبداً، {وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}، أيّ أمر إلهي يصلهم فهم يقومون بفعله بلا اعتراض.

فلا يوجد أي حلّ مع تلك الملائكة لتخفّف عنكم العذاب أو تساعدكم على تحمّله أو على الهرب من النار... حين يأمر سبحانه برمي أحد ما في النار، فالملائكة ستعمل على تنفيذ أوامره تعالى ولن تشفق على المجرمين...

قارنها مع سجّان يَحِنُّ قلبه على سجين، أو سجّان تضغط عليه بتهديده أو برشوته... إذ هناك في الآخرة لا مجال أبداً بتاتاً مع الملائكة لتجعلها تخالف أوامره تعالى ولو لشعرة.

كما ترى، انتقلت السورة من الزوج الذي ضغطت عليه زوجته ليحرّم على نفسه التحلّل من يمينه، إلى نصيحة إلهية بالعمل على تجنيب من يهمّنا أمرهم من عقابه تعالى، فلا نتماشى معهم في السوء الذي يَفْعَلُونَهُ، وانتقلت من دائرة فردية صغيرة لترينا أثر نفس الأفعال على دائرة أوسع قليلاً، وتحفّزنا على التضامن الإيماني لينجو أقرب الناس لنا من النار.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{7})
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا}، يا أيها الذين أنكروا هذا الدين الإلهي، {لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ}، هنا الآية خبر عن كلام موجّه في الآخرة لمن أنكر هذا الدين الإلهي، في الزمن الذي يتم فيه محاسبتكم وتعذيبكم، لا تقولوا الأسباب التي جعلتكم تنكرون الدين الإلهي، إذ إنّ أعذاركم غير مقبولة ولن تنجيكم من العقاب، {إِنَّمَا}، فقط، {تُجْزَوْنَ}، تحصلون على مقابل، {مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، هذا العذاب الذي أنتم فيه "في الآخرة" هو فقط عملكم الذي قمتم به والآن تنالون الجزاء عليه، والاعتراف بأنه كان خطأً تندمون عليه وتبررون له... فلا ينفع الآن.

هذا خبر لنا جميعاً أن التقوى الآن هي الحلّ الوحيد الذي لا حلّ غيره للنجاة من نار الآخرة، حيث إنّ بعض الناس يستسخفون أنفسهم ويفترضون من خيالهم أنّه تعالى سيسامحهم في الآخرة إذا اعتذروا منه وأبدوا ندمهم، وبكوا وانتحبوا وصرخوا واسترحموا... أو يقولون أنّه تعالى سيصدر عنه عفو عام عن الجميع... لا، إذ إنّ التقوى الآن هنا في الدنيا تنفع ولا شيء غيرها ينفع في الآخرة.

لاحظ أننا لا زلنا أمام كلام قرآني مع مَنْ دفعت زوجها ليقسم يَمِيناً على تحريم حلالٍ على نفسه، وضغطت عليه أن لا يتحلّل من يمينه، وأفشت سرّه الخاص أمام الآخرين... إذ من عادة المفسرين اعتبار الكلمات القرآنية اصطلاحية، وتصير عندهم عبارة "الذين كفروا" تشير حصراً لمن عبد الأصنام وأشرك... وهذا غير صحيح، إذ إنّها عبارة عامّة تشير لعموم من أنكر الدين كلّه أو أنكر شيئاً منه ولم يلتزم به، إذ علم بسوء ما قام به، فهو على أقل توصيف: منكر للدين في هذه النقطة، كافر بالدين بهذه النقطة. وهناك كافر بأمرين وكافر بأمور... حتى نصل إلى من كفر بالرسول محمّد(ع) وبعدها نصل في الأخير إلى أقصى الكفر وهو إنكار التوحيد، وهكذا ترى في عموم القرآن اختلافاً في أوصاف الكفر، إذ إنّ كلّ كلمة كفر في القرآن تشير لتوصيف: عموم إنكار شيء أو أشياء. ولا تشير كل كلمة "كفر"

في القرآن إلى عبّاد الأصنام حصراً أو المشركين فقط... وهنا الكلام لا يزال مع زوجات النبي(ع) بل وحتى مع النبي(ع) نفسه إن تعارض عمله أو قوله ولو مع أمر إلهي واحد، في يوم القيامة فإنّ الاعتذار لن ينفع على كفر ولو بشيء واحد.

طبعاً المقاييس للكفر تختلف، حيث إنّ التوصيف بالكفر مشترك، ولكن بعض الكفر عياره أقل من الآخر، وحسابه أقل من الآخر، قرآنياً تبدأ المعايير من توصيف المخالفة لأوامره تعالى بأنها ذنب، وهو عموم مخالفة الأوامر، وأقل درجاته فعلك لشيء سيّء "ارتكبته" ورغم ذلك لم يكن لك رغبة في مخالفة أوامره تعالى، ويصل إلى ارتكابك له مع تقصّد مخالفة أوامره تعالى لنصل للإثم، وهو ارتكاب شيء سيّء تعلم بحرمته ولا يهمّك ذلك، انتقالاً لأعلى درجة في الكفر، حيث يعلن مرتكب السيّئة أنّه مصرّ عليها ولن يتوب منها ولن يعتبرها سوءاً. يُوصَفُ المسلم بكل هذه الأوصاف في مختلف الأعمال، وهنا الآية تنبّه مسلمين كفروا بارتكابهم لسيئات لا يريدون التوبة منها ولا يهمّهم مخالفتها لأوامره تعالى...

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {8})

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يا أيها الذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {تُوبُوا إِلَى اللَّهِ}، افتحوا صفحة جديدة، أعلنوا إليه تعالى أنكم لا تنوون تكرار مخالفة أوامره تعالى، {تَوْبَةً نَصُوحًا}، فتح صفحة جديدة لا غشّ فيها، بالتزام تام صحيح بالإقلاع عمّا سبق من سوء.

إن تبتم بهذا الشكل، {عَسَى}، من المحتمل المرجّح غير الأكيد، {رَبُّكُمْ}، المسؤول عنكم من مستوى إلهي، {أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ}، يُغطِّي أعمالكم السيئة التي قمتم بها، فلا تظهر أثناء محاسبتكم ولن يعلم بها الآخرون وبالتالي لن تتحاسبوا عليها، ولن تشعروا بالإهانة أو عموم أي انزعاج أثناء محاسبتكم في الآخرة.

لِنتنبه جيدا، حتى لا يحصل معنا خلل في الاعتقاد كالذي نسمعه من بعض الناس بطرق مختلفة، ونقول بأننا صالحون، قلبنا طيّب، ولدينا يقين بالإله وصفاته، وليس لدينا نية بمعصيته تعالى، ونحن لا نؤذي الناس... ولذلك نحن مغفور لنا ذنبنا مهما فعلنا، لا، هنا الآية وعموم القرآن لا يعطيك أي ضمانة من الآن أنك ستدخل إلى الجنّة، بل يعطيك الضمانة فقط وفقط إن بقيت لآخر لحظة من عمرك مؤمنا عاملا للصالحات، ولذلك تأتي كلمة "عسى" هنا لتدل على هذا المعنى، فإن تبت الآن فهذا لا يعني أن دخولك للجنّة صار مضموناً، لا، بل إن بقيت على إيمانك وتوبتك فسيرتفع احتمال مرجّح لدخولك إلى الجنّة.

بعبارة أبسط، "عسى" ليست من ناحيته تعالى، إذ من تلك الناحية محسوم إدخاله تعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات إلى الجنّة، ولكن "عسى" من ناحيتنا نحن، لأننا ربما نغيّر تصرفاتنا لتصير سيئة ولذلك يستعمل معنا سبحانه كلمة عسى.

{وَيُدْخِلَكُمْ} تعالى {جَنَّاتٍ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين ووسائل ترفيه وسعادة... {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، وهذه إشارة لروعة المكان الذي تجري فيه الجداول والأنهار والشلالات من هنا وهناك ومن مختلف أنواع المشروبات بالنكهات والألوان كما ورد في الآية 15 من سورة محمد {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى...}، فلا تبالغ لتتصور المكان كمستنقعات لأنّ الصورة لأماكن في الجنة فيها أنهار بكثرة ومنظرها رائع.

{يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ}، النبيّ محمّد(ع) والذين صاروا في حالة اعتقاد بدينه في عصره أو فيما سيأتي من عصور، في الزمن الذي سيتحاسبون فيه لن يجعلهم تعالى يشعرون بالمهانة من عمل قبيح قاموا به في الدنيا، إذ تابوا منه، وكفّره تعالى عنهم فلم يعد يظهر أنهم فعلوه فلن يراه الآخرون ولن يعلموا به أصلاً.

{نُورُهُمْ}، الكشف أمامهم، {يَسْعَى}، يتحرك عن قصد مع حركتهم، {بَيْنَ أَيْدِيهِمْ} أمامهم، {وَبِأَيْمَانِهِمْ}، فهم يتحكمون بالنور ويشعرون بأنه من قواهم وتابع لهم كجزء منهم، ويكشف لهم المساحة التي يقصدون كشفها حتى لو كانت بعيدة.

{يَقُولُونَ رَبَّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا}، اجعل ما يكشف أمامنا بشكل مستمر لا ينقطع منّا، إذ إنّ الكلام عمّا بعد يوم القيامة والحساب لم ينته بعد، وهم يرون نوراً يصدر منهم بسبب أعمالهم الحسنة فيريدونه أن يستمر معهم بلا انقطاع، وعلى نفس التصوير ما ورد في الآية 13 من سورة الحديد {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ...} {وَاغْفِرْ لَنَا}، تجاوز عن سيئاتنا وسامحنا على ذنوبنا التي ارتكبناها، {إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، تقدر على فعل أي شيء تريده.

كما ترى، بعكس الذين كفروا حيث لا يقبل تعالى أعذارهم ويتحاسبون حتى على أصغر ذنب، بالعكس هناك راحة للذين فتحوا أعينهم في يوم القيامة ليتحاسبوا ووجدوا نوراً يصدر منهم، يسألونه تعالى أن لا يقطع نورهم وأن يسامحهم على ذنوبهم، إذ إنّهم يتذكّرون غالبيتها أو ما يعتقدون أنه سيّء جدا... ولا يريدونها أن تظهر أمام الآخرين، ولا يريدون أن يتحاسبوا عليها لأنهم كانوا تائبين... وكما ترى فإنّه سبحانه من الآن يعدهم بأنهم من أوّل لحظة يرجعون فيها إلى الحياة في الآخرة لن يشعروا ولا بأي شيء يسوؤهم، حيث سيتم تكفير سيئاتهم ولن يراها أحد...

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ {9})
{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}، يا أيها الشخص الذي يصله نبأ، يصله منه تعالى خبر غير منتشر علمه بين الناس، فينزل عليه الوحي الإلهي، {جَاهِدِ}، قم بعمل فيه جهد وليس سهلاً، ضدّ، {الْكُفَّارَ}، المنكرين علناً لهذا الدين الإلهي، {وَالْمُنَافِقِينَ}، المنكرين سراً لهذا الدين، {وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ}، لا تتساهل ولا تتهاون معهم، عندما تتعامل معهم بأي طريقة، فلا تتساهل معهم في النقطة التي يعلنون فيها مخالفة أوامره تعالى.

{وَمَأْوَاهُمْ}، المكان الذي سيستقرون فيه من بعد حياتهم الدنيا، {جَهَنَّمُ}، المكان الموصوف بسوء ما فيه تتأجّج فيه النيران وفيه كل ما يؤذيهم، {وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}، وهو أسوأ وأتعس آخر ما تصل إليه أمورهم، فلهم النهاية الأسوأ.

بعد أن تعرض عليهم الدين والتوبة والثواب والعقاب، فإن لم يستجيبوا فلا تكن متهاوناً معهم محابياً لهم، بل خذ موقفاً صلباً من موقفهم الصلب ضد الدين الإلهي.

السورة لم تنتقل من حادثة الزوجتين، بل هي تهديد قوي لكل منتم للاسلام ولكن لا يزال لديه عقلية كفر أو نفاق ومستعد للتهاون بشرعه الصريح تعالى، ولو بتفصيل واحد مثل ما روت الحادثة هنا. تتذكّر أنهما دفعتاه(ع) بالضغط عليه ليحرّم شيئاً حلالاً على نفسه.

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ{10})
{ضَرَبَ اللَّهُ}، أقام سبحانه، {مَثَلًا}، شيئاً للتقريب للتشبيه، {لِلَّذِينَ كَفَرُوا}، للذين أنكروا الدين الإلهي، {امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ}، فهاتان المرأتان الكافرتان تشبههما أي امرأة تفعل مثلهما ويصير تصنيفها كافرة مثلهما، أو على الأقل تصير كافرة بالإيمان بالنبي، أو بالآخرة أو بالأمر الإلهي للزوجة أن لا تستغل وضعها كزوجة وتضغط على زوجها ليفعل السوء، أو يترك واجباً، أو يحرّم حلالاً على نفسه...

{كَانَتَا}، تلك المرأتان، {تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا}، فالنبي نوح(ع) والنبي لوط(ع) مفروض منهما طاعته تعالى، {صَالِحَيْنِ}، فكانا يتصرفان بما يريانه صالحاً جيداً حسناً، وعملياً كانا ملتزمين بأوامره تعالى الذي لا يأمر إلا بما هو صالح.

لاحظ توصيف الآية لهما أنهما كانتا تحت عبدين من عبادنا، يعني كانتا مرتبطتين بزواج يجعلهما تحت رباط الزوجية مع اثنين من الذين يتصرفون على أساس أنهما عبيد لنا، حيث يتصرف الزوجان على أساس أنهما مفروض منهما طاعته تعالى وكانا صالحين فلا يفعلان السوء، {فَخَانَتَاهُمَا}، إذ كان المتوقّع من زوجة نبي يتصرف كعبد صالح مطيع له تعالى أن تطيعه زوجته على أساس أنه مؤمن لا يأمرها إلا بالمعروف والابتعاد عن المنكر، ولكن المرأتين فعلتا عكس ذلك، {فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}، إذ إنّ الزوجتين بحاجة للنجاة من عقابه تعالى لأنهما ارتكبتا ذنباً، وزوجاهما النبيان لن يستطيعا تقديم أي شيء لزوجاتهما ليغنياهما عن العذاب الإلهي.

{وَقِيلَ}، للمرأتين، {ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ}، فلم ينفعهما كونهما زوجتي نبيين، ومصيرهما لم يختلف بتاتاً عن مصير الآخرين الداخلين إلى النار، ولن ترافقا زوجيهما إلى الجنّة.

تعلم أنه بين النبيين نوح(ع) ولوط(ع) عشرات مئات "أو آلاف" من السنين، وتعلم من القرآن أن امرأة النبي لوط(ع) التفتت للخلف عندما بدأ العذاب ينزل على قومها وكانت من الغابرين فماتت في لحظتها، وكرّر القرآن الكلام عنها عدّة مرّات حتى أن كلمة غابرين كرّرها القرآن سبع مرّات فقط وكانت كلّها تتحدّث عن هذه المرأة، راجع كمثال الآية 83 من سورة الأعراف {فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ}، وأمّا عن امرأة النبي نوح(ع) فلم يذكر القرآن أي شيء عنها، إلا الكلام هنا عن مخالفتها لزوجها النبي(ع).

في الروايات ستجد كلاماً حول المرأتين، أنهما كانتا كافرتين تنقلان أسرار زوجيهما للكفّار، فقيل إنّ امرأة النبي لوط(ع) هي التي أخبرت أهل القرية عن الضيوف الغرباء في بيت زوجها... وقيل إنّ امرأة النبي نوح(ع) كانت تشارك قومها في السخرية من زوجها حين كان يبني السفينة...

على كلّ حال، ما تعرّفك عليه السورة أن زوجة المؤمن عموماً، وبالخصوص زوجة النبي، لا حصانة لها ولا استفادة من زوجها مهما كان مقامه ومكانته عند الله تعالى، فهي ستتحاسب ولن ينفعها زوجها بأي شيء.

تلفت الآية انتباهك أيضاً أن المرأة التي زوجها نبي فهذا لا يعني أنها مميزة، إذ قد تكفر، وفي بعض الأحيان نفكّر بأننا لو كنّا في عصر النبي محمّد(ع) لكان إيماننا أقوى ولاستفدنا منه(ع)... وهذا مشابه لما نقله القرآن عن قول الكفّار أنّه لو نزل عليهم الوحي لكانوا مؤمنين! فلا نزول الوحي سيجعل الشخص مؤمناً، ولا معاشرة النبي ستزيد في إيماننا، ولا كون المرأة زوجة نبي سيزيد في إيمانها، فها نحن أمام نبيين عظيمين وزوجتيهما ستدخلان النار.

بالرجوع إلى ما كانت تتحدّث عنه السورة ترى الكلام هنا موجّهاً بالخصوص لزوجتي النبي محمّد(ع)، إذ لن ينفعهما زوجهما النبي إن ارتكبتا حراماً، والكلام بالعموم موجّه لكل النساء، إذ أيّ تصرّف مخالف لأوامره تعالى مع زوجهن فسيتحاسبن عليه ولن ينفعهما زوجهما ولا مكانته عند الله تعالى، وقد تدخل النار مثل امرأة نوح(ع) أو امرأة لوط(ع).

عامّة المسلمين ومن دون أن يعلنوا فهم يقدّسون الأشياء القديمة كشعور منتشر بين عامّة الناس لتكبير قيمة الأمور التي عمرها قديم، كهالة العظمة للسيوف القديمة والتماثيل والعملة القديمة... والفسيفساء ولوحات الرسم والنقوش القديمة... وللمومياوات وللأهرامات... وللشخصيات القديمة... وتجد دائماً هالة من العظمة عند هذه الفرقة وتلك الفرقة من المسلمين لشخص ما كان معاصراً للرسول(ع)، مفترضين ضمناً قيمة عالية مستمدّة لذلك الشخص بسبب وجوده في عصر الرسول محمّد(ع)، والأغرب من ذلك ما تجده عند بعض المسلمين من تقديس لكل من رأى الرسول(ع) ولكل من سمع من كلامه(ع)! ليصير توصيفه: صحابياً. وتقديس لكل من شارك معه(ع) في قتال، بل تقديس لعامة من عاش في عصره(ع) حتى لو كان رضيعاً! بينما القرآن مشحون بالآيات التي تذمّ الكثيرين ممن عاصروا النبي محمّد(ع) بوصفهم بالكفر والنفاق والفسق... وهنا وكما ترى، كلام إلهي عن زوجتين لنبيين، ستدخلان النار ولن يغني عنهما زوجاهما شيئاً، ومن قبلها في بداية السورة تحذير شديد اللهجة لزوجتين من زوجات النبي محمّد(ع)، فما معنى الدفاع المستميت عن زوجتين للنبي(ع) ارتكبتا سوءاً نزلت فيه سورة قرآنية جعلتهما فيه نموذجاً لبقية الناس حتى يتّعظوا؟!

بالعكس، ما معنى الهجوم على زوجتين للنبي(ع) وتنقيب التاريخ عن زلاتهما؟! وما الفائدة؟! في سورتنا هنا حفصة وعائشة هما محور خلاف المفسرين وعموم علماء المسلمين من مختلف الطوائف حول قيمة هاتين المرأتين، على أساس تسجيل نصر لهذه الفرقة إن أثبتت أنهما كانتا سيئتين، أو تسجيل نصر لتلك الفرقة عندما يُثْبِتُونَ أن المرأتين كانتا عظيمتين، وما الفائدة من كلا النصرين؟ والمعنى الذي تريدك السورة فهمه ضاع في حرب ضروس هدفها زيادة الفرقة بين المسلمين، نعم هذا هو هدف خلافات "الكثير من علماء المسلمين" ولا يقولنّ أحد إنّ هدفهم توحيد المسلمين على الحقّ بإثبات فساد رأي الآخرين، فهذا المرض مخالف لما يأمر به القرآن من الوحدة والألفة والمحمل الحسن بين المسلمين، فهل بالأساس بين أبناء مذهبكم المتوافقين فيما بينهم على أغلب ما تقولونه، فهل بينهم إلفة ومودّة واتحاد؟! إذ ها هو التاريخ مشحون بمختلف أنواع الجرائم الجماعية بين أبناء المذهب الواحد! ناهيك عن مخالفة صريح القرآن الذي يأمرك أولاً وقبل كلّ شيء بإصلاح نفسك قبل إصلاح الآخرين، فما همّك إن أثبتّ عطل زوجتين للنبي(ع)؟ وبماذا تستفيد إن أثبتّ قدسيتهما؟ فأنت على مستواك الشخصي أمام ربّك سبحانه أين ستصل؟

لاحظ وانتبه، إذ إنّ السورة تخبرك أن زوجة نبي لن تستفيد من مقام زوجها العالي عنده تعالى، وستتحاسب وتدخل النار، فما فائدتك أنت إن رفعت مقامها لدرجة القديسين؟ وما فائدتك إن أنزلت مقامها لدرجة الكافرين المنافقين الفاسقين؟ حسناً، أثبتَّ أن الفرقة الأخرى من المسلمين ليس معها حقّ في تقييمها لهذه الزوجة أو تلك من زوجات النبي(ع)، وبعدها ماذا أيها المنتصر؟

كن عاقلاً واعياً مسلماً قرآنياً، راع زوجتك وأمرها بالمعروف وانهها عن المنكر، ولكن لا تجعلها تضغط عليك لفعل شيء لا يرضى عنه تعالى، وكوني أيتها الزوجة عاقلة واعية مسلمة قرآنية فلا تستغلي الزواج من رجل مؤمن يراعيه تعالى في معاملتك ويحترمك... لتجعليه يفعل ما تريدين حتى لو كان مخالفاً لأوامره تعالى، ولا تعتمدي على إيمان زوجك فتستغليه... ففي الآخرة لن ينفعك مقامه حتى لو كان رسولاً نبياً. فهذا ما تريدكم السورة أن تفهموه، فافهموه وذروا التناحر الطائفي والمذهبي.

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{11})
{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا}، أقام شيئاً للتشبيه، {لِلَّذِينَ آمَنُوا}، للذين أعلنوا أنهم معتقدون وملتزمون بهذا الدين، {امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ}، والقرآن تحدّث فقط عن الفرعون الذي عارض النبي موسى(ع) فهذه تكون زوجة ذاك الفرعون، {إِذْ قَالَتْ} زوجته:

{رَبِّ}، المسؤول عني من مستوى إلهي، {ابْنِ}، عمّر فركّب أجزاء، {لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ}، في المكان الموصوف بروعة ما فيه، طبعاً هي تقصد جنّة الآخرة، فهناك في الآخرة أسألك يا ربي أن تبني لي بيتاً، {وَنَجِّنِي}، خلّصني، {مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ}، فأعماله سيئة، فهو يدّعي الربوبية من مستوى إلهي، ويقتل ويسجن ويعذّب من يعارضه، ويستعبد الناس... فلا أريد أي علاقة بأفعاله، فلست موافقة عليها ولا دخل لي بها.

نكمل مع كلام زوجة فرعون، ونجّني، وخلّصني، {مِنَ الْقَوْمِ}، من الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفعلّة مع دينك، {الظَّالِمِينَ}، الذين ليس معهم حقّ وليسوا منصفين ولا عادلين حين كفروا بدينك الواضح سبحانك.

كما ترى فهذه المرأة كانت زوجة لأعظم رجل في تاريخه، بل ربما أعظم رجل بسلطته الفائقة عبر التاريخ، فحتى لو قارنته مع رئيس دولة عظمى في عصرنا فستجد الفارق هائلا، لأن الرئيس في عصرنا محكوم ممن حوله ومن الشركات الكبرى والبنوك... ومن دول تضغط عليه ويحسب لها حسابا... أمّا فرعون فقد كان عاليا بشكل غير طبيعي، فكان كلامه وما يريده يتنفّذ على كل المنطقة التي وصلت إليها جنوده... فنحن أمام امرأة كانت زوجة لرجل بسلطات غير عادية في تاريخ البشرية، وهي امرأة كانت تحتلّ مركز السيدة الأولى في هذه السلطة العظيمة، ولكنها رفضت السلطة والجاه والمكانة، وتبرّأت من أفعال زوجها وقومها الظالمين، وفضّلت بيتا متواضعا في جنّته تعالى بدل القصور الضخمة لفرعون.

ننتبه جيدا، فقد نقل لنا القرآن معنى كلامها حرفيا: بيتا في الجنّة. يعني هذه القصور وما فيها والسلطة... كلّها لا تعني لها أي شيء، وتستبدلهم ببيت في الجنّة. طبعا من عموم القرآن تعلم أن أقل درجة في الجنّة هي أروع من كل روائع الدنيا، فلا مقارنة بتاتا بين أقل ما هناك وأعلى ما هنا، وافترضت السورة أنك تعلم هذا، فنقلت لك حرفيا كلام تلك المرأة الطاهرة التي طلبت ولو بيتا عاديا في الجنّة تستبدله بقصور فرعون وقومه الظالمين.

فيا أيتها المرأة "المسلمة"، هل تظنين أن زوجك يؤثّر عليك حتى لا تكوني مؤمنة ملتزمة؟ وتبرّري لنفسك وتظنين أنك بريئة من أي عمل ترتكبينه وهو مخالف لأوامره تعالى؟! لا، لا مبرر لأي أحد، وها أنت أمام نموذج زوجة فرعون، التي عارضت كفر زوجها المجرم وتبرأت من أفعاله...

بقي شيء، فقد قيل في الروايات أمور مختلفة عن زوجة فرعون التي اشتهر بين المسلمين بأن اسمها: آسيا "آسية". وأغلب الروايات تقول بأن فرعون قتلها، وأخرى تقول بأنها خرجت مع النبي موسى(ع) من مصر.

وبقي شيء آخر، حين حاولنا تحديد الفرعون الذي عاصر النبي موسى(ع)، توصلنا بقوّة إلى كونه "خوفو"، وراجع دراستنا هذه في أي آية ورد فيها اسم هامان، أو راجع ما قلناه في دراسة الآية 17 من سورة النازعات، وآيتنا هنا بكلامها عن إيمان زوجته، ترجّح كون الفرعون المقصود هو خوفو لأننا في الآثار لا نجد قبرا لزوجة خوفو.

(وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ{12})
وضرب الله تعالى مثلا للذين آمنوا، {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ}، أمّ النبي عيسى(ع)، {الَّتِي أَحْصَنَتْ}، صانت ولم تعرض، {فَرْجَهَا}، ما بين رجليها، فلا بالحرام ولا بالحلال عرضت نفسها على الرجال، فلم تقدم على أي عمل جنسي بل ولم تعلن رغبتها به.

{فَنَفَخْنَا فِيهِ}، جعل تعالى في داخل رحمها، {مِنْ رُوحِنَا}، شيئا صافيا أساسيا من عنده تعالى، وكما تعلم من القرآن فالمقصود أن النفخة سبّبت لها بداية تشكّل جنين في بطنها، وبضمّ الكلام هنا مع ما ورد في الآية 19 من سورة مريم {قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} نفهم أن الملاك جبريل(ع) هو الذي نفخ في بطنها(ع).

هناك تعابير قرآنية عديدة عن نسبة أمور له تعالى، كعبدنا، رحمة منّا... من لدنّا... وهذه التعابير لا تعني أي شيء سوى أنه تعالى منسوبة له هذه الأمور، فكلمة روحنا تعني: الشيء الصافي الأساسي بلا إضافات والمنسوب لنا. ولا تعني ولا بأي شكل أنها شيء كجزء منه سبحانه. وقد وردت كلمة روح في القرآن في عدّة مواضيع، مرة للنفخ في طينة آدم(ع) ومرة للنفخ في بطن السيدة مريم(ع) ومرة لتوصيف الملاك جبريل(ع) أنه روح، ومرّة لتأييد المؤمنين بالروح... وهذا كلّه يعني أن شيئا صافيا جرى استعماله، وذلك في مقابل الأشياء غير الصافية المركّبة التي فيها إضافات.

{وَصَدَّقَتْ}، لم تكذّب بل أعلنت اعتقادها بصحّة، {بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا} سبحانه، فما قاله المسؤول عنها من مستوى إلهي قد اعتقدت بصدقه، وكما تعلم فقد تحدّثت معها الملائكة(ع) وأخبرتها عن أمور قالها تعالى عن ولدها وما سيكون عليه من الأهمية وعن ضرورة حبلها به بلا زواج... فلم تكذّبهم... وصدّقت {وَكُتُبِهِ} تعالى التي أنزلها على الرسل، فاعتقدت بما في تلك الكتب والتزمت به، {وَكَانَتْ}(ع) {مِنَ الْقَانِتِينَ}، من الذين أعلنوا طاعتهم بناء على اعتقادهم للحاجة له تعالى.

نتذكّر أنه تعالى يدعم بعض رسله بأمور تفحم الناس وتجعلهم عاجزين أمامها، وقد شاء تعالى أن يدعم الرسول عيسى(ع) بولادة غير عادية، بولادة من أمّ بلا أب، وجعل تعالى الدليل على صدق طهارة السيدة مريم(ع) التي لم تكن متزوجّة حين حبلت وأنجبت النبي عيسى(ع)، فحتى لا يتّهموها بالزنا فقد جعل تعالى الطفل الحديث الولادة يتكلّم، راجع الآية 29 وما بعدها من سورة مريم {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ...}، ورغم هذه الحادثة غير العادية، فقد أصرّ أصحاب القلوب السوداء على كفرهم واتهموا السيدة الطاهرة مريم(ع) بأنها زنت! ولا يزال اليهود إلى عصرنا يتهمونها بالزنا ويكفرون بابنها النبي عيسى(ع)، وها قد جاء القرآن، وهو كتاب إلهي على نفس خط الكتب والرسل السابقين ليؤكّد أن السيدة مريم(ع) لم تزن وقد حبلت من بأمر إلهي ومن دون زواج...

العبرة من القصّة أنها امرأة طاهرة في مجتمع ندر فيه المؤمنون، وثبتت على إيمانها، ودخلت في أقصى امتحان يمكن أن تتعرّض له الطاهرة، وهو امتحان اتهامها بالزنى، فتجاوزته ولم يهتزّ إيمانها رغم تمنيها الموت حتى لا تسمع اتهامهم لها بالزنى، ولكن أبدا بتاتا لم تشكّ به تعالى ولم تعصه.

ويمكنك مقارنتها مع شيء صعب جدا يحصل معنا، فيتزلزل الإيمان على أساس أنه تعالى لم يقف معنا ولم يساندنا، بل يبدو لنا من ضعف إيماننا أنه تعالى يعمل ضدنا وعلى أذيتنا! وهذا شيء تسمعه ممن عاكسته الظروف فيقرّر ترك الدين والإيمان "ترك التقيّد بالصالحات" وكل هذه الأمور التي لم تسانده ولم تنفعه ليشفى من مرضه، أو تدفع الموت عن حبيبه، أو تؤمّن له الغنى والزواج والنجاح... أمّا مريم(ع) فقد فرض عليها تعالى أن تحبل بلا زواج ويتم اتهامها بالزنا، ولم يتراجع إيمانها ولو شعرة.

فمن أرادت الوصول إلى الدرجات الإيمانية العالية وواجهت الصعاب، فلن تكون ظروفها أصعب من العيش كزوجة لفرعون الطاغية مدّعي الربوبية والمجرم... ولن تكون ظروفها أصعب من اتهام الناس لها بالزنا مثلما فعلوا مع السيدة مريم(ع)، فلا الزواج من نبي ضمانة لدخول الجنّة، ولا العيش تحت ظروف صعبة مبرّر لارتكاب السوء.

سورة الملك (67) ص 562
محور السورة حول انعكاس "تطبيقِ" صفاته العالية الفائقة سبحانه وتعالى، وبالخصوص صفات الملك والقدرة للذي تبارك، بانعكاسها على خلقه تعالى للحياة والموت والبيئة التي نحن فيها، وبتكليفنا وحسابنا في الآخرة، ورغم وضوح عظمة الإله بقدراته وصفاته ووضوح ضخامة ودقة تقانة أفعاله تعالى، ورغم وصول إنذار من عقابه تعالى على فعل السوء، فهناك من يكفر به تعالى بالآخرة!

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {1})
{تَبَارَكَ}، يُوصَفُ بأن أعماله وأقواله وكل ما يصدر عنه خير نقي لا سوء فيه، البركة درجات، من البركة في شيء واحد، كوصف لإنسان أو شيء أو مكان... فيه شيء أو أشياء توصف بالخير الفائض الزائد، وصولا إلى درجة المستوى الإلهي للبركة في كل شيء، {الَّذِي بِيَدِهِ}، بما يُحَقِّقُ به شيئا ما، بقدراته التنفيذية، {الْمُلْكُ}، تحت سيطرته كلّ شيء، يتحكّم بكل شيء، لَمْ يُعْطِ لأي أحد غيره سيطرة ملوكية منفردة خارجة عن سلطته تعالى، السيطرة من مستوى إلهي محصورة به تعالى.

{وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، يَقدِرُ على فعل أي شيء يريده، طبعا هذا بناء على الملك الذي بيده، فلا أحد يمكنه معارضته تعالى أو أن يُفَشِّلَ ما يفعله تعالى.

محور السورة حول هذه النقاط الثلاث "{تَبَارَكَ}، {بِيَدِهِ الْمُلْكُ}، {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}"، وما نتج عنها من خلق ما في الدنيا وتكليفه تعالى لنا بدينه، قبل كل شيء هو تعالى تبارك، كل ما يفعله تقييمه ممتاز مَرضِيٌّ عنه لأنه خير من الدرجة النقية، وكل ما يجري في الدنيا تحت إرادته تعالى، ويمكنه سبحانه فعل أي شيء يريده. بناء عليه ستكمل السورة مع ما فعله تعالى حين خلقنا في هذه البيئة، وما حكم به علينا من بلاء وثواب وعقاب في الآخرة.

هكذا يخبرنا سبحانه أن كل ما نحن فيه هو انعكاس تطبيقي لصفاته، لصفة البركة والملك والقدرة. بناء عليه:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ {2})
{الَّذِي خَلَقَ}، الذي ركّب وألّف، {الْمَوْتَ}، ما لا يفعل ولا ينفعل ولا يتفاعل، وخلق {الْحَيَاةَ}، وهي وصف للكائنات التي تفعل وتنفعل وتتفاعل.

ضع في بالك أن كلمة حياة لها مستويات في الانطباق على مختلف الأشياء، معنى الكلمة هو التفاعل والانفعال والفعل، وتبدأ من مستوى بسيط جدا جدا من التفاعل فقط، ونرى نحن ذلك في الحجر والتراب... مرورا بالتفاعل والانفعال الذي نراه في النبات... مرورا بالفعل والانفعال والتفاعل الذي نراه في الحيوانات، مرورا بنا كحيوان له وعي وفكر أعلى من بقية الحيوانات... وتنتهي بالمستوى العالي جدا جدا من الفعل فقط، وهذا هو المستوى الإلهي من الحياة، لأنه سبحانه لا ينفعل ولا يتفاعل. وهنا تتكلّم الآيات عنّا ومعنا، نحن مخلوقات تفعل وتنفعل وتتفاعل عن وعي، تكون ميتة ويحييها تعالى في الدنيا، ثم يميتها في الدنيا، وأخيراً يحييها سبحانه في الآخرة، وتجد ذلك في الآية 28 من سورة البقرة "كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ".

بما أنه لا يوجد شيء اسمه موت ككائن هكذا لوحده، ولا يوجد شيء ككائن اسمه حياة، بل هي المركّبات، المخلوقات، تصير موصوفة بالحياة أو بالموت، ولذلك قالت الآية عن الحياة والموت أنه تعالى خلقهما، هما يحصلان مع المخلوق، وبالتالي ما يحصل مع المخلوق هو أيضاً يوصف بأنه مخلوق، ومثله التعبير بخلق الليل والنهار، حيث لا يوجد شيء هكذا لوحده اسمه ليل وإنما هو ظاهرة تحدث من خلق الأرض والشمس.

خلقكم سبحانه بخاصية الحياة والموت، {لِيَبْلُوَكُمْ}، ليصيبكم بشيء ويرى كيف تتفاعلون معه، {أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً}، ردّة فعلكم وقراركم في تعاملكم مع الأشياء، هو ما يحدّد وصفكم بمن عمل حَسَناً، وبالتالي يتحدّد من منكم كان عمله سيّئاً.

بالإضافة لملكه وقدرته الفائقة.

{وَهُوَ الْعَزِيزُ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... هو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... هكذا فرض سبحانه ما أراده لنا من ابتلاء ليرى أيّنا أحسن عَمَلاً ولا يمكننا فعل أي شيء سوى المشي غَصْباً عنّا على هذا القرار الإلهي، الذي آمن نهايته إلى الجنّة، والذي كفر نهايته إلى النار ولا يمكننا تغيير ذلك.

وهو {الْغَفُورُ}، ابتلانا ولكنه تعالى لا يوصف بالصلابة والقسوة، لا يأخذ مَوْقِفاً واحِداً ممن أساء، بل حتى آخر وقت من عمرنا فإن آمنّا فسيغفر لنا، وسيتجاوز عن سيئاتنا سيسامحنا حتى لو من قبل كفرنا به سبحانه وعصيناه.

نرجع للموت والحياة، لم يكن هناك شيء في الدنيا، لنقل كان الفراغ، ولم تكن كلمة ميّت تنطبق على أي شيء، لم يكن لها معنى، وخلق تعالى ما في الدنيا، خلق الحياة، وصار لكلمة ميّت معنى، الذي لم يصر حَيّاً بعد هو ميّت، والذي سيفقد الحياة سيوصف بالميّت. ضع هذا في بالك لأن القرآن على هذا المعنى وصفنا بالأموات قبل خلقنا أول مرة.

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ {3})
{الَّذِي خَلَقَ}، ركّب وَألّف، {سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً}، كلمة سماء وصف لعموم أي فضاء علا أي أرض، الكرة الأرضية وسطح القمر وسطح الشمس... كلها أرض بالنسبة لسماء كوننا، وكذلك بقية السماوات لها ما يناسبها من أرض أو أرَاضٍ...

كل واحدة من تلك السماوات لها حدود ولكنهن فوق بعضهن وغير مفصولات عن بعض ومتوافقات على بعض كتوافق طبقات المباني السكنية، {مَّا تَرَى}، لا يَصِيرُ عندك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما بتشوف. {فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ}، بالعموم لا ترى إلا التطابق فيما يركبّه ويؤلّفه الذي يعتني بعموم ما يخلق، فلا ترى خللا في التصميم أو التركيب، إنَّهُنَّ سبع سماوات فوق بعض ومتناسبات بلا خلل...

{فَارْجِعِ الْبَصَرَ}، عُدْ مرّة ثانية بقدرتك على وعي وفهم الصورة، كَرِّرْ نظرك إلى السماوات، {هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ}؟ هل تعي وتفهم صورة للسماوات وتجد بقعا تبرز منها أشياء متفاوتة؟ لا، بل ستعي تطابقا بلا تفاوت، كل سماء لوحدها طبقة لا تتشقّق وتظهر منها السماء التي تحتها أو فوقها. هذا التعبير يشابه التعبير الذي ورد في الآية 6 من سورة ق، "أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ".

ضع في بالك العديد من الآيات التي تخبرنا عن مشاهد تبدّل السماوات والأرض قبل يوم القيامة من الموت وأثنائه، الآن لا فطور في السماوات، لكن سيأتي زمان يحصل فيه انفطار للسماوات، وراجع كمثال ما ورد في الآية الأولى من سورة الانفطار "إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ".

القرآن يعتبر السماوات السبع "بشكل ما" أنها كتلة واحدة، وهو تعبير يشابه بشكل ما قولنا: كل الدنيا، كل الوجود. لكن التعبير القرآني الأدق كان بالسماوات والأرض، وكلّ شيء. الواحدة من تلك السماوات نموذج عن الأخريات، هذا لا يعني أنهن من نفس التركيب، بل يعني أن النظر إلى واحدة منها نموذجي يعبّر لك عن النظر إلى الأخريات، هذه سماء والتي بعدها سماء... والسماء التي تراها بعينك نموذج لبقية السماوات، فلو كان يوجد ضعف عند من ركّبها وركّب بقية السماوات التي فوقها للاحظت خللا في السماء التي تنظر إليها، ويدلّك على خلل في السماء التي تليها، لكننا وبكل وضوح نرى السماء مخلوقة بشكل منسّق ليس فيه أي خلل في التصميم ولا التنفيذ. وسترى من الآية بعد التالية أن النيازك والاصطدامات بين الكواكب والمجرات وانفجار الكواكب... هو من ضمن التصميم الإلهي لبيئة ليست الجنّة.

(ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ {4})

{ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ}، في المرّة الأولى نظرت بتركيز، أَعِدِ التركيز على صورة السماوات مرة ثانية لتبحث عن وجود أي خلل فيها، {يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً}، لن يستطيع أن يوصلك إلى نتيجة معاكسة لما قلناه عن تطابق السماوات، مهمة البحث عن تفاوت التي أوكلتها لبصرك سَيَفْشَلُ بها، ويرجع إليك {خَاسِئاً}، موصوفا بعجز قدرته على فعل شيء ما، وهنا الكلام عن فشله في إيجاد أي خلل.

{يَنقَلِبْ إِلَيْكَ}، {وَهُوَ حَسِيرٌ}، متراجع تَجَدَّدَ تراجعه، لم يستطع إيجاد خلل في المرّة الأولى وفي المرة الثانية عاد مرة ثانية بنتيجة فشل متكررة.

بعبارة أخرى إذا لم تجد خللا من التأمّل والنظرة الأولى فحاول ثانية، والنتيجة ستكون هي نفس النتيجة الأولى: لا خلل.

لاحظ وتذكّر دائما أن رسم الكلمات دائما يتغيّر بحسب ما يراه الناس أنسب للرسم والدلالة على لفظ الكلمة واتباعا لقواعد اسْتَنْسَبُوهَا ولجمالية الرسم... كلمة "خاسئا" هنا مثلها مثل العديد من الكلمات التي تغيّر رسمها مِرَاراً عبر التاريخ، وكما ترى حتى في عصرنا الحالي ستجد جمعية ما لعلماء اللغة، أو واحدا من علماء اللغة دَقَّقَ في القواعد واستنسب كتابة كلمة ما بشكل يتوافق مع القواعد التي تنطبق على كلمات مشابهة للكلمة التي غيّر رسمها، وترى البقية ما زالوا يرسمون الكلمة بما تعلّموه في المدارس أو بما استنسبوه لسهولة لفظها أو جمالية رسمها... كلمة "خاسئا" لن يتغيّر لفظها إذا رسمت الهمزة على الألف "خاسأ" وكذلك لن يتغير لفظها لو رسمتها على السطر مع التنوين على الهمزة "خاسء"، ولن يتغير لفظها مع ألف عليها علامة التنوين "خاسءا". تذكّر دائما أن القرآن نزل باللفظ على الرسول محمّد(ع) الذي بدوره نقله لمن حوله باللفظ، وهم كتبوه بحسب ما رأوه مناسبا للّفظ، بحسب ما لديهم من معرفة عن قواعد رسم الكلمات، ولذلك تجد اختلافات في رسم الكلمات من عصر الرسول(ع)، ومرورا في بقية الأزمنة، وهذا شيء لا يزال مستمرا إلى الآن في عموم رسمنا للكلمات، لم نتوقّف عن تغيير رسم الكثير من كلمات اللغة، وخاصة الكلمات التي فيها همزة "ء"، والتي فيها أحرف علّة "ا، و، ي". الهمزة حرف نبدأ به في تعداد أحرف الهجاء، "ألف"، وحرف العلّة "ا" هو لمدّ الصوت عَمَلِيّاً لَيْسَ حرفا مستقلا، ونشير إليه عند تعداد أحرف الهجاء بـ "لا، لام ألف" لأنه لا صوت مستقل له.

دراستنا هذه اعتمدنا فيها رسم كلمات القرآن على القواعد الدارجة في عصرنا، وما انتشر مَطْبُوعاً من مصاحف فهو على رسم اعتمدوه من أقدم النسخ التي كتبها الجيل الأوّل من المسلمين، وسمّوا تلك الطريقة بالرسم العثماني، نسبة للخليفة الثالث عثمان بن عفّان الذي اعتمد المصحف الرئيسي الذي جمعه الصحابة في عهد الخليفة الأوّل أبي بكر ليكون أساسا ينسخ البقية عنه، نَسَخَ منه عثمان "في أيام خلافته" أربع "أو خمس أو أكثر" نسخ وأرسلها إلى المدن الرئيسية في عصره لينسخ الناس عن تلك الكتب، اتّخذوا هذا القرار تفاديا لاجتهادات الناس في رسم غير صحيح للكلمات مما سيؤدي إلى تخالف رسمها مع لفظها الصحيح... وما يسمّى بالرسم العثماني يبقى مرجعا أَسَاسِيّاً مُهِمّاً جِدّاً للباحثين عن تطوّر اللغة العربية، عِلْماً أن تحسينات على الرسم دخلت عبر التاريخ على الرسم العثماني، ومجموع ما توافق عليه علماء الرسم عبر التاريخ هو ما وصلنا وصرنا نسميه بالرسم العثماني الذي ترك علماء الرسم تَغْيِيرَ ما لم يجدوا ضرورة في تغييره طالما يَفِي بغرض المساعدة على اللفظ المحفوظ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ.

(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ {5})
عندما تبصر السماء سترى نِقَاطاً بيضاء ثابتة وَنِقَاطاً بيضاء تتحرك: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا}، جعلناها تبدو أجمل، {السَّمَاءَ الدُّنْيَا}، والكلام هنا عن السماء التي في مقابل سماء الآخرة، ومنها التي نراها نحن بأعيننا وهي غير السماوات الستّ الأخرى، {بِمَصَابِيحَ}، بأشياء يصدر منها الضوء، وهي النقاط البيضاء التي تجعل السماء في الليل جميلة، حالياً نعرف أنها شموس وأشباهها من الأجرام التي فيها طاقة عالية يصدر عنها ضوء... {وَجَعَلْنَاهَا}، السماء الدنيا، {رُجُوماً}، رميا من بعيد بقاذف، {لِّلشَّيَاطِينِ}، للكائنات التي تقوم بأعمال الضلال "أعمال السوء" لنفسها أو لإضلال الآخرين، {وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ}، جهّزنا وَهَيَّأْنَا للشياطين، {عَذَابَ السَّعِيرِ}، ضَرَراً بشيء متأجّج إلى الحدّ الأقصى، بنار لها ألسنة لهب طويلة وحرارتها عالية جِدّاً.

ربما تسأل كيف تتعذّب شياطين الجنّ بالنار وهم مخلوقون من نار؟ عليك دائما أن تتذكّر أننا نحن وكل ما نراه من حولنا مُرَكَّبُونَ من نفس المادّة التي في عناصر الجدول الدوري للعناصر، كلنا من حديد ونحاس وماء وكربون... كلنا من طين، ورغم ذلك نتأذّى من ضرب الحجر والعصا... وكذلك الجنّ يَتَأَذَّوْنَ من النار.

ضع في بالك دائما أن الكون المرئي بالتلسكوبات البصرية أو الراديوية... هذا ليس كلّ السماء الدنيا، القرآن لديه تعبير وصفي لحالتين: الدنيا والآخرة. كل ما هو موجود الآن أينما كان فهو في الدنيا، وبعد فنائها وتغيّرها تأتي الآخرة بسماوات وَأَرَاضٍ غير الأولى. الرجوم للشياطين لا تعني الشهب أو النيازك التي نراها في السماء التي نطالها بالعين المجردة والتلسكوبات وَالرَّادَارَاتِ، أيّ شيء مقذوف وله لهب أو ذيل فهو يوصف بأنه شهب، من عموم القرآن نتذكّر أن الملائكة (ع) في سمائها العالية "التي لا نراها" تقوم برمي مقذوفات على الجنّ الذين يحاولون اختراق تلك السماء أو الاقتراب منها، ونحن لا نرى تلك المقذوفات، وراجع كمثال الآية 8 من سورة الصافات "لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ"، وتلك المقذوفات بسبب مواصفاتها تناسبها كلمة شهب حتى لو لم تكن تحصل في سمائنا، وحتى لو لم تكن مادتها من المادة التي في سمائنا، مقذوف المنجنيق شهب، والشعلة شهب... وما يدخل غلاف الأرض ويحترق شهب... وتلك المقذوفات التي ترميها الملائكة على الشياطين في تلك السماء العالية التي لا نراها لأننا لا نرى إلا سماءنا نحن والحادثة ليست في سمائنا، فتلك المقذوفات أَيْضاً وصفها شهب.

إذًا، التصميم الذي ليس فيه تفاوت ولا فطور ويتضمن زينة للسماء ويتضمّن حالة الرجوم للشياطين، وخلاله البلاء الذي يتخلّل حياتنا وموتنا، فكل ذلك متناسق ضمن تصميم وتخطيط هو انعكاس للذي تبارك والذي بيده الملك وهو على كلّ شيء قدير، وكل ما ستجده في بقية السورة هنا فهو عن هذا الانعكاس لهذه الصفات الإلهية.

(وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ {6})
لِلَّذِينَ كفروا بربهم، أَنْكَرُوا الإيمان بتوحيده أو بصفات المسؤول عنهم من مستوى إلهي، وهنا بالخصوص الكلام عن الذين لم يؤمنوا به تعالى أنه تبارك وله الملك وقدير... وخلق كل ما في الدنيا... فهؤلاء، لهم، عذاب جهنّم، لَهُمْ ضرر في المكان الذي يوصف بسوء ما فيه من نيران تتأجّج... وبئس المصير، أَتْعَسَ وَأَسْوَأَ ما يمكن أن تصل إليه أمورهم، جَهَنَّمُ أتعس نهاية سيبقون فيها.

(إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ {7})
{إِذَا أُلْقُوا فِيهَا}، حِينَ يُجْرَى إلقاء الكافرين، رميهم لتتلقاهم جهنّم، {سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً}، صوت سحب النار، الشَّهِيقُ بالنسبة لنا هو أخذ نفس عميق، وألسنة النار في جهنّم تشهق وكأن لها مَدْخَلاً وَمَخْرَجاً للهواء فيمر فيها فيسبب تطاول ألسنة اللهب إلى جهة وانكماشها من جهة أخرى... {وَهِيَ تَفُورُ}، تَخْرُجُ النار من جوانبها.

نَحْنُ نسمّي الأسطوانة التي نضعها على الفحم حتى يشتعل بسبب سحب الهواء، نُسَمِّيهَا "شاروق، شاهوق"، وإذا كَانَتْ طَوِيلَةً "بما يناسب" فستسمع بقوة صوت سحب الهواء فيه. وهنا الكلام في الآية عن حالة تيارات نارية تسحب في جهنّم ويصدر عنها صوت مرعب.

(تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ {8})
{تَكَادُ}، عَلَى شعرة، {تَمَيَّزُ}، تصير أجزاؤها "متميزة عن بعضها" متفرّقة يُمْكِنُكَ تحديد كل جزء منها بشكل منفصل، عَلَى آخر حدّ قبل قليل من وصول حالتها المتهيجة إلى الحدّ الذي تتفكّك فيه، {مِنَ الْغَيْظِ}، من ظهور آثار الانزعاج الشديد عليها، وهذا التعبير يشير لشدّة النار والحمم التي تتطاير ألسنة لهبها باستمرار ولا تخمد ولا تهدأ لدرجة يبدو معها وكأن جهنّم كلها ستنفجر وتتفكّك.

{كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا}، كلما رمت الملائكة(ع) في جهنّم، {فَوْجٌ}، دفعة من مجموعة كبيرة، هُنَاكَ مجموعة كبيرة للكافرين وهي مقسّمة لمجموعات وكل مجموعة تشترك في سيئة من العيار الثقيل، ويتم رميهم مجموعات مجموعات في النار، فوج وراءه فوج... كما نقول نحن: فوج الإطفاء، فوج الْمَغَاوِيرِ... {سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا}، الْمَسْؤُولُ عن مخزن أو مستودع أو مستوعب أو مكان لوضع الأشياء فيه يصير وصفه: خازن. كاسم فعل من التخزين. والكلام هنا عن الملائكة المسؤولة

عن تولّي شؤون مكان المرميين في جهنّم، يُعَبِّرُ الخازنون عن إرادتهم للحصول على جواب من كل فوج رمته الملائكة الأخرى إلى جهنّم، ومن عموم القرآن تعلم بملائكة لها عمل في ساحة يوم القيامة، وملائكة أخرى عملها في جهنّم، وملائكة مُكَلَّفِينَ بجهنّم، هُمْ خزنتها، هُمْ مسؤولون عن حركة الدخول إلى جهنّم، يَسْأَلُونَ كل فوج يأتيهم:

{أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ}؟ يا أيها الذين كفروا ألم يأت لكم شخص ينقل لكم الخبر عن الرمي في هذه النار لمن توافرت فيه شروط دخولها؟

هل وصلكم خبر كم هي مؤلمة وشديدة وأنها عقاب على السوء؟ وهذا الكلام يتضمّن توبيخا وإهانة وَاسْتِهْزَاءً بالمرميين في جهنّم، مثلما نحن عندما ننذر أحدا ما ولكنه لا يعيرنا اهتمامه، وبسبب ذلك تحصل معه مشكلة كبيرة فنقول له: ألم ننذرك ألم نخبرك بأنك حتما ستقع في مشكلة... لِمَاذَا لم تسمع الإنذار يا مستهتر.

ضع في بالك دائما الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى مَعَانِيَ قرآنية رائعة، تَصَوَّرْ شخصا أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، هُنَا تحذّره من سلوك الطريق السيّء، هُوَ حاليا ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية "وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ..."، والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران "لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ...".

أمّا إذا سلك طريق الخطر، فتنذره، لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. الْإِنْذَارُ تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتما ما يضرّه، تُنْذِرُ الكافر حيث هو في حالة ستسبّب له العقاب حتما، وَرَدَ هذا كثيرا في القرآن. وَالتَّحْذِيرُ تتوجّه به لمن لا تريده أن يتلبّس بما سيسبّب له الضرر، تُحَذِّرُ المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

هَذَا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، قَدْ يقوم المؤمن بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، تُنْذِرُهُ من العقاب الحتمي عليه كحالة المسيحيين المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف "وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا"، وعموم المؤمنين المشمولين بالتهديد من فكرة فعل السيئات على أساس أن يحمل أحد ما السيئات عنهم "وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ"، والمشمولين بالتهديد إن لم يتغيّروا نحو الأحسن مَوْعُودِينَ بالمغفرة كما ورد في الآية "إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ"، ونفس المفهوم في الآية 45 من سورة النازعات "إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا".

(قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ{9})
{قَالُوا بَلَى}، نفي لجملة ألم يأتكم نذير نُؤَكِّدُ أنه، {قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ}، جَاءَ من يخبرنا عن هذا الخطر الأكيد الذي توافرت شروط حصوله لنا، سَمِعْنَاهُ مباشرة أو عبر آخرين أو عبر كتاب، {فَكَذَّبْنَا}، لَمْ نصدّق الإنذار، {وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ}، الْإِنْذَارُ الذي وصلنا عبر النذير قلنا إِنَّهُ تخريف ومن اختراعه وهو يكذب، وقلنا إِنَّهُ لم ينزل من الله تعالى أي إنذار، {إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ}، قلنا عن الرسل أنهم ليسوا على الشيء الصحيح وليس بين قولكم عن الإنذار وعن الحقيقة فرق صغير بل كبير جدا.

كَثِيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، لَكِنَّ معناها أوسع من ذلك، هِيَ لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيرا أم شرا، إِذَا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضَلَّ عنك صيدها. اسْتَعْمَلَ القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، لَمْ تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، لَنْ يفيدوه بشيء. اسْتَعْمَلَهَا القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون هُوَ ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

هنا قول الكافرين إنَّ رسله تعالى في ضلال، يُشِيرُونَ به إلى كون ما يقوله الرسل لا ينفع ولا يأخذ إلى نتيجة مرغوبة.

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ {10})
المعنى التامّ للجواب عن ظاهر سؤال الخزنة انْتَهَى، "{بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ}..."، الْآيَةُ هنا "{وَقَالُوا لَوْ}..." هي الجواب الذي تفهم منه ما قصده الخزنة بسؤالهم، الْخَزَنَةُ يعلمون أن المرميين في النار جَاءَهُمْ نذير، مِنَ الجواب هنا تعلم أن الخزنة كانوا يقصدون لوم وتوبيخ واستحقار المرميين في النار: كيف وصلتم إلى هنا يا أشقياء رغم وصول نذير لكم؟

{وَقَالُوا}، الكفّار: {لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ} نُدِيرُ أذننا للإنذار، نَسْمَعُهُ بدل النفور منه، {أَوْ نَعْقِلُ}، لَوْ كَانَتْ تدخل المعلومات إلى عقلنا إلى استيعابنا، {مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ}، لم نكن مع الذين في النار التي تأجّجت لأقصى هيجانها وصار لها ألسنة لهب طويلة وحرارة عالية جدا.

هذه الآيات هي خبر لنا الآن عن شيء سيحدث في المستقبل ممن يعلم الغيب سبحانه، وكما ترى مِنْ مجمل التصميم والتخطيط الإلهي يمكنك الوصول إلى هذه النتيجة حيث سيعترف الكافرون بأن النذير أتاهم وأنهم نادمون متحسّرون...

(فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ {11})
اعْتَرَفُوا بذنبهم، لم ينكروا مخالفتهم لأوامره تعالى ومعصيته، {فَسُحْقاً}، بُعْداً كبيرا، كما نقول: وَادٍ سحيق. ونقصد أن عمقه بعيد، {فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ}، بُعْداً كبيرا للذين مع بعض في المكان الذي تتأجج فيه النيران في أقصى درجة هيجانها.

لاحظ أننا هنا في الدنيا نجد أشخاصا يحلفون ويصرّون على الكذب، ويستمرون على إِصْرَارِهِمْ مهما تعرضوا للضغط، يُنْكِرُ أنه سرق حتى لو واجهته بعرض صورته على الكاميرا أثناء حصول السرقة، وحتى لو قلت له أنك شاهدته بعينك... يُصِرُّ على الإنكار... يَكْذِبُ عليك على أساس أنك ستصدّقه وَتُكَذِّبَ عينيك! لاحظ أن القرآن ينقل لنا عن عموم الكفار في يوم القيامة أنه يمرّ عليهم فترات ينكرون فيها ما فعلوه، فيشهد عليهم الناس والملائكة (ع) وأعضاء جسدهم... لَكِنْ يُؤَكِّدُ القرآن أيضا أنهم في الأخير يعترفون، لا يَهُمُّ اعترافهم بذنوبهم أثناء محاكمتهم لأن الأدلة الكثيرة تؤكّد فعلهم للسيئات، لَكِنَّهُمْ مثلما هنا في الدنيا ينكرون ويبرّرون لأي عمل سيّء، فهناك في الآخرة أيضا يبقى سلوكهم وعقليتهم هِيَ نَفْسُهَا، وتلاحظ العديد من آيات القرآن ترينا أنهم يبدؤون بالاعتراف بذنوبهم أثناء محاسبتهم وُصُولاً إلى حين تجرجرهم الملائكة باتجاه جهنّم... هُنَا الآيات تنقل لك مشهدا عمّن صار في النار وهناك اعترف أنه أوصل نفسه إلى هذا المصير، فعندما لم يبق هناك أي مجال ليكذب حتى على نفسه، فلم يعد بإمكانه أن يقول: لا لست أتعذّب... صَارَ فِعْلاً في النار المتأجّجة التي لا خلاص منها، عَلَى أثر الرعب والألم، ينهار تماما ويعترف ويندم ويتحسّر...

(إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ {12})
{إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ}، الذين يشعرون بضرورة العمل على تجنّب الخطر من المسؤول عنهم من مستوى إلهي، يخشونه تعالى، {بِالْغَيْبِ}، بشيء غاب عنهم، وهو خطر العذاب في جهنّم الذي غاب عنهم فلم يروه ولم يشعروا به بل سمعوا عنه من التحذير والإنذار، {لَهُم مَّغْفِرَةٌ}، سَيَتَجَاوَزُ سبحانه عن سيئاتهم، لَهُمْ مُسَامَحَةٌ على ذنوبهم، وَلَهُمْ، {أَجْرٌ كَبِيرٌ}، هُنَاكَ شيء حدّده تعالى وسيعطيه لمن خشيه وسيكون كبيرا، خَشْيَتُهُمْ عمليا تعني أنهم التزموا بأوامره تعالى فَعَلُوا الصالحات وتركوا السيئات... حتى لا يتعذّبوا في جهنّم التي سمعوا عنها من النذير، لَهُمْ مُقَابِلٌ محدّد على هذا، لَهُمْ شَيْءٌ كبير يحصلون عليه من هذه الخشية، وتعلم أنه خلود في جنّات.

تُلاحِظُ أن السورة تحدّثك عن نفس النقطة التي تحدّثت بها من قبل عن الكافرين الذين وصلهم الإنذار عن جهنّم التي غابت عنهم فلم يخافوه وخالفوا أَوَامِرَهُ تعالى.

بقي شيء ضعه في بالك دائما، الْخَشْيَةُ ليست مرادفة للخوف، الْخَوْفُ شعور سببه تصوّر التلبّس بحصول الضرر المعنوي أو المادي من شيء تشعر بفقدان إمكانية تجنب ضرره، والحلّ باقتحامه لتحمّل نتائجه أو الفرار منه إن استطعت. أمّا الخشية فشعور سببه تصوّر التلبّس بحصول الضرر المعنوي أو المادي، لَكِنْ مَعَ الشعور بضرورة تجنّب

الشيء غير المرغوب والذي تتوقّع حصوله، تَشْعُرُ بإمكانية تجنبّه، ولا تريد اقتحامه. كمثال الْمُؤْمِنُ يخاف من عقابه تعالى إن عصاه لأنه يعلم أن العقاب لا يمكن تجنّبه، الْمُؤْمِنُ يَخْشَاهُ تعالى لا يَرْتَكِبُ الذنب لأنه يتوقّع العقاب. فِي حالة الخوف تصير المواجهة مع الخطر حتمية، أمّا في حالة إمكانية تجنّب الخطر فهي الخشية. ضع هذا المعنى في بالك وسترى روعة في الدقّة القرآنية عند استعمال هذه التعابير.

(وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ {13})
{وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ}، أخفوه وَلا تَقُولُوهُ علنا، {أَوِ اجْهَرُوا بِهِ}، أو قولوه علنا بشكل واضح ومباشر، لا فَرْقَ، {إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}، مَا هُوَ مَنْسُوبٌ لِصُدُورِكُمْ، مَا تَتَفَاعَلُونَ معه، أَفْكَارُكُمْ ونفسيتكم الناتجة عن تفاعلكم مع ما يحدث معكم، وموقفكم ورأيكم، سواء بقي في داخلكم أو قلتموه سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ بِهِ.

أَنْتُمْ تحت المراقبة الإلهية، والكلام هنا عن تهديد من كفر به تعالى بالعذاب، سَيَتِمُّ على أساس مراقبته الدقيقة تعالى لكم.

بالنسبة لكلمة "صدر، صدور" فإن لم يكن القصد بها لأعضاء الجسد للقفص الصدري وما تحته من أعضاء...
فَاسْتَعْمَلَهَا القرآن كما يستعملها الناطقون باللغة العربية وكما هي مستعملة في العديد من اللغات الأخرى، نُشِيرُ بالصدر للتفاعل الداخلي للإنسان مع ما يراه ويسمعه ويشعر به مما يتعرّض له... نَحْنُ عندما نتعرّض لمختلف الظروف، نشعر بالانقباض أو الانشراح... في صدرنا، اسْتَعْمَلْنَا كلمة صدر لتوصيف حالة تفاعلنا مع الأمور، وحتى لو لم تشعر بأي شيء في قفصك الصدري، من انقباض أو صعوبة في التنفّس أو راحة... فمجرد تفاعلك مع ما تعرّضت له، إنَّ مختلف اللغات البشرية تعبّر عن هذا التفاعل بأن شيئا حصل في صدرك، وحتى السرّ الذي تخفيه عن الآخرين تعبّر عنه مختلف اللغات بأنه في صدرك، وكلّنا نعلم أن السرّ ليس في القفص الصدري، لَيْسَ تحته في الرئة أو القلب أو المريء... بل هو تعبير يشير لحالة تفاعلنا مع ما ندركه سواء بقي مخفيا أو ظهر له أثر حسّي في منطقة الصدر أو على تعابيرنا وحركاتنا.

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ {14})
{أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ}؟ هَلْ من المعقول أن الذي ركّب وألّف الإنسان لا يعلم بما ركّبه وألّفه؟ مَنْ صنع السيارة يعلم كل تفاصيل قطعها، مَنْ رسم رسمة يعلم بكل خط فيها... وهو تعالى صمّمنا "التعبير القرآني: سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وجعلنا قادرين واعين مفكرين وشاعرين، وقادرين على حبس أَفْكَارَنَا ومشاعرنا أو البوح بها، لَمْ يُرَكِّبْنَا تعالى ومن دون تخطيط منه صار لدينا شعور وأفكار ونفسية، أو خلق سبحانه الطبيعة وَأَكْمَلَتْ مسارها لوحدها وهكذا من دون أي تصميم أو تخطيط منه تعالى هَكَذَا لوحدنا تركّبنا وصار لنا وعي وفكر وشعور، لا، مِنَ الأساس هو تعالى صمّم كل شيء حتى يصير لنا جسد ووعي وفكر ومشاعر، وهنا السؤال هكذا: من ركّبكم وألّفكم بجسدكم وكل الخصائص التي فيكم هو الله تعالى، هَلْ من المعقول أنه لا يعلم بما تسرّون أو تعلنون أو يدور في صدوركم؟

{وَهُوَ اللَّطِيفُ}، موصوف بالرقّة بحيث يمكنه التعامل مع الأمور الدقيقة الخفيفة، مع المشاعر والأفكار، وهو {الْخَبِيرُ}، الذي لديه أخبار كلّ شيء.

بِالنِّسْبَةِ لَنَا، أَنَا أعلم عنك أفكارك ومشاعرك مما تقوله، ومن حركاتك، ومن آثار وعلامات جسدك عندما ترتجف من الخوف أو تحمرّ من الخجل... هذه حدود علمي بك، أمّا الإله الخالق، فيسمع الأفكار التي تدور في رأسك، ويرى المشاعر التي تصيبك، هُوَ لَطِيفٌ لهذه الدرجة التي يتخلّل علمه كل نقطة في الدنيا.

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ {15})
هو الذي تبارك وبيده الملك القدير... {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ}، التي تحتكم، {ذَلُولاً}، منقادة لكم تَتَصَرَّفُونَ فيها بقرار منكم، تَحْفِرُونَهَا أو تَرْفَعُونَهَا... وتشقون فيها الطرقات وتزرعوها وتستخرجون منها المعادن... هِيَ عَلَى المعنى الذي ورد في الآية 72 من سورة يس "وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ"، تَذْلِيلُ الأنعام هو تصرفكم فيها بقرار منكم وكذلك تذليل الأرض لتتصرفوا بها بقرار منكم.

{فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا}، انْتَقِلُوا في تضاريسها، يُمْكِنُكُمُ التنقل عليها بين مرتفعاتها وسهولها... {وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ}، اسْتَهْلِكُوا من الأشياء التي معكم وهي منه تعالى والتي تحتاجونها لسدّ حَاجَاتِكُمْ ورغباتكم، من مائها ونباتاتها وحيواناتها، {وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}، بَعْدَ موتكم واندماج جسدكم البالي مع تراب الأرض، مَرَّةً ثانية سَيَنْشُرُكُمُ الذي جعل لكم الأرض ذلولا، سَيُعِيدُ توزيعكم ككيانات، سَيُعِيدُ خلقكم لتصيروا منتشرين بعد أن كنتم مندمجين متحلّلين لتراب.

هَذِهِ الحياة على الأرض والتنقّل فيها والأكل منها، ليست كلّ شيء ومن بعده لا شيء من الموت وتحلّل الجسد والانتهاء، لا، بل من بعده نشور، مِنْ بعده عودة إلى الحياة في الآخرة.

(أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ {16})
{أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ}، هل استبعدتم أن يصيبكم ضرر من السماء، من الذي فوقكم معنويا، منه تعالى، {أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ}، يَجْعَلَكُمْ تحت مستوى سطحها وَتَهْبِطَ من تحتكم، {فَإِذَا هِيَ تَمُورُ}، فتتحرّك باهتزاز بتموجات.

مَا هو عادي جدا بالنسبة لكم، بسيركم على الأرض والأكل من رزقها، هَلْ حصل لوحده وهو تحصيل حاصل وسيبقى كذلك ولا يوجد إله جعل بيئتكم على الأرض كما هي الآن... وهي لن تنخسف ولن تهتز؟

طبعا لا يوجد لدينا أمان من هبوط بقع من الأرض، وهذا يحصل بشكل متكرر في مختلف البلدان، تُرِيدُ الآية تنبيهك أنك لست مسيطرا على كل شيء، فلا ترى نفسك فوق ما يقوله لك الإله سبحانه عن الآخرة على أساس شعورك بذلّ الأرض أمامك، فِي حالة انخساف الأرض بك وبمنزلك وببنائك وبشركتك... أَنْتَ ضعيف.

نَنْتَبِهُ لتعبير الآية عنه تعالى بأنه في السماء، فلا تتصوّر أنها تقصد الاشارة لمكان فيه الإله عزّ وجلّ، بل كل ما هو فوقك فهو سماء، والإله سبحانه فوقك بالصفات والقدرات، وبتكوينه الذي ليس كمثله شيء، ويتحكّم بك فهو فوقك... يَكُونُ التعبير بلغتنا عنه تعالى أنه في السماء معنويا، فهو فوقك وحكم عليك بخسف الأرض...

لَوْ أطلت عليك، عَلَى ما يبدو أن التعبير عن تعامله تعالى معنا من السماء، ونزول الرزق من السماء... والذي يوحي أنه تعالى موجود في السماء، وليس معنا على الأرض، يبدو أن هذا النوع من التعابير بحرفيته ورد قديما في الكتب الإلهية التي نزلت سابقا، وسذاجة فهمها قديما أدّت إلى تنامي ثقافة دينية عنه تعالى أنه فوق، في السماء، وفي ثقافتنا رفع اليدين إلى السماء أثناء الدعاء، ومن عادة النَّاسِ النظر إلى السماء عند التوجّه بالكلام إليه تعالى... بسذاجة التفكير البسيط سيعتقد البعض أنه تعالى فوق، وأنه محصور هناك بمكان ما في السماء، وهذا يتعارض مع وصفه تعالى لطيفا واسعا محيطا... وأن سَعَةَ كرسيه كَسَعَةِ السماوات والأرض... وأنه ما من غائبة في السماوات والأرض إلا يَعْلَمُهَا... وأنه السميع البصير الخبير لكل شيء...

التَّعَابِيرُ عنه تعالى بالسماوية لا تشير للمكان وإنما تشير على أصل معنى الكلمة لعموم ما هو فوق، فهو تعالى فوقنا بالسيطرة علينا، وفوقنا بتكوينه وقدراته وصفاته الفائقة... ومن جهة ثانية نَحْنُ على الأرض، نَحْنُ تحت سبع سماوات، والأوامر الإلهية تصدر من السماء العالية حيث الملائكة(ع) العالية والكتاب الرئيسي، ومن هناك تقوم الملائكة بتنفيذ أوامره تعالى، ولا يمكن وصف هذه الحالات إلا بالتعبير عنه تعالى أنه من السماء يأمر ويسيطر...

(أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ {17})
{أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً}، الَّذِي فوقكم معنويا يُقَرِّرُ إِصَابَتَكُمْ بحجارة متطايرة، بحجارة تطير من البراكين أو من النيازك المتفتتة أو من رِيَاحٍ قوية تحمل الحصى من الأرض وتقذفها... هَلْ لديكم ضمانة أَلَّا يقرر تعالى ذلك؟

{فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ}، الْخَبَرُ عن الشيء السيّء الأكيد لكم بسبب توافر شروط حصوله فيكم، لَنْ يبقى خبرا بل سيكون علما، سَتَرَوْنَهُ وتشعرون به.

مَنْ يشعر منكم بالعظمة لأن البيئة التي حوله لا تبدو عنيفة معه، ويبدو له أنه يتحكّم بها وتسير كما يريد، فليعلم أنه مُخْطِئٌ، الْكَوَارِثُ ستقع، وسترى في الآيات التالية شرحا لحصول الكوارث.

(وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ {18})
{وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ}، لَمْ يصدّقوا بأنه يوجد إله مصمّم ومخطّط ومسيطر على الأمور، وأنه سيعيد إحياءهم لمحاسبتهم، ولم يؤمنوا بأنهم هنا في الدنيا هم أيضا تحت سيطرته تعالى وخطر عقابه، {فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ}؟ الشيء النكر الشيء الذي ينفر منه العقلاء لسوئه، لا يحبّون أن يصيبهم، العذاب الذي لا يحبه أحد فينكره ولا يريده ولا يريد أن يراه أو يتعرّف عليه، أَخَذَهُمْ تعالى به، كَيْفَ تراه؟ وماذا تقول عنه؟ مَا رأيك بالعذاب الذي فعلناه بهم؟

تَعْلَمُ من القرآن أن عدّة أقوام أصيبت بكوارث عنيفة هنا في الدنيا بسبب كفرهم ولم يتمكنّوا من النجاة منها، كعاد وثمود وقوم النبي نوح(ع) وقوم النبي لوط(ع) وفرعون...

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ {19})
{أَوَلَمْ يَرَوْا}، ألم تحصل لديهم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شافوا، ما التفتوا. {إِلَى الطَّيْرِ}، الطيور، {فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ}، أجنحتها مصفوفة ممدودة، والاستعمال الدارج: "صفيف" الطير ونقصد أن أجنحتها ممدودة. {وَيَقْبِضْنَ}، ويسحب الطير جناحيه إلى جسده، {مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ}، لا تقع الطيور لأن الذي يعتني بهن يمسكهن، {إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ}، يدرك "بمستوى إلهي" ويعي معنى صورة ما يحصل، لَدَيْهِ دراية بكل ما يحصل، لَيْسَ مثل الكاميرا التي تسجّل الصوت والصورة ولا تعي ما تسجّله.

لَمْ تصر الطيور لوحدها أو من الطبيعة لوحدها أو بالصدفة... تطير، بل البصير، الذي يدري بكل شيء جَعَلَهَا تطير، ولولاه لما طارت.

تَذَكَّرْ دائما أن تركيز السورة على صفاته تعالى "تبارك الملك القدير" التي انعكس منها تطبيقا خلقنا في هذه البيئة بهذا التصميم وفي النهاية محاسبتنا في الآخرة، فِي بداية السورة رأينا التصميم الإلهي لنا في بيئة الابتلاء، وعظمة وضخامة السماوات... وصولا إلى الآخرة والحساب... ثم انتقلت إلى البيئة الذلولة حولنا وأننا لسنا مسيطرين عليها كما يبدو لنا، هُنَاكَ كوارث تحدث فيها، وبعضها يحدث بأمر إلهي لإبادة أقوام كافرة.

الآية هنا تلفت انتباهك للطيور التي تمدّ أَجْنِحَتَهَا لوقت طويل كالبط والأوز والنورس... ثم ترفرف لمدة قليلة وتعود لتمد أجنحتها وعادة هذه الطيور يمكنها السفر لمسافات طويلة، هَذَا المنظر ليس عاديا، صَحِيحٌ أنه يتكرر وكأنه عادي، ولكن إذا كنت لا تَلْتَفِتُ ولا تنبهر إلا بما تراه لأول مرّة في المجلات أو على التلفاز أو على الأجهزة المحمولة... كصور المجرات والسدم... والأسماك والنباتات... التي شكلها غريب... لَفَتَ القرآن انتباهك حتى للأرض التي تمشي عليها، وهو أمر تعتبره عَادِيّاً جدا، ويلفت انتباهك للطيور وانتقالها في السماء، هَلْ هكذا صَارَتِ البيئة وقدرات الحيوان على الطيران لوحدها بلا إله؟ وهذه اللفتة مشابهة لما قاله القرآن عن طعامنا وشرابنا وعوم السفن على الماء ونزول الماء وتصريف الرياح... طَيَرَانُ الطيور في الهواء واحد من الأمثلة عن تصميمه تعالى لنا ولبيئتنا...

تَكَرَّرَ عدة مرات في دراستنا هذه أن تتصوّر نفسك أنت تقوم بخلق كائنات وبيئة، من الصفر ومن دون أن ترى أي نماذج سابقة، وبعدها تلتفت للمخلوقات من حولك وصفاتها وبيئتها والتفاصيل الهائلة المتنوعّة... لتقارن ما يمكن أن تصمّمه وتفعله مع ما تراه من أفعاله تعالى، وطيران الطيور مثال عن قدراته الفائقة سبحانه وتعالى وَالْإِبْدَاعِ في خلقه.

تَكَرَّرَ أيضا الكلام عن خلقه تعالى للسفن وتعويمه تعالى لها على الماء، وإخراجه تعالى للنبات ومسؤوليته عن عمل الخير الذي نقوم به نحن، وإنزاله للمطر... وهنا تقول الآية أنه تعالى هو يمسك الطير، الطَّيْرُ لا يقع على الأرض ويبقى مستمرا في طيرانه لأنه تعالى يمسكه، كُلُّ هذه الأمور متشابهة، فإذا وضعت مكعبات للتركيب بيد طفل، وهذه المكعبات لها جوانب للتركيب، فأنت من الأساس تعلم بالأشكال التي يمكن أن تتركّب من المكعبات ولن يفاجئك الطفل بتركيب شكل لم يخطر على بالك، وهذا على مستواك أنت والفرق بينك وبين الطفل، أمّا على المستوى الإلهي والفرق الهائل جدا بينك وبينه تعالى، كُلُّ ما تفعله كلّ الكائنات أَسَاساً كان تعالى يتوقّعه ويعلم به، طَيَرَانُ بعض الحيوانات أصلا من ضمن تصميمه تعالى للدنيا، ومن جانب آخر، لا يُوجَدُ أَيُّ مخلوق لديه قدرة ذاتية على فعل أي شيء لوحده بشكل منفصل عنه تعالى، أبدا بتاتا، وتتصورها بسهولة لو تصوّرت أنه عزّ وجلّ فجأة ترك كلّ شيء، فَرْضاً سهى أو نام أو

انشغل... مَاذَا سيحصل؟ سَيَنْهَارُ كل شيء بلمحة، لأن كلّ شيء متعلّق به تعالى، وهذا ما قالته صراحة وبوضوح الآية 41 من سورة فاطر "إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ..."، وهكذا بكل سهولة تفهم أن الطير لا يطير لوحده بقدرته الذاتية المنفصلة عنه تعالى، ولا أنا ولا أنت مَوْجُودَانِ بقدرتنا الذاتية، ولا نفعل ولا ننفعل بقدرتنا الذاتية المنفصلة عنه تعالى، ولا الطبيعة كيان مسيطر على ما يحصل فيها، ولا بالصدفة صارت بيئتنا وصرنا فيها... وهذا الجانب أرادتك السورة أيضا أن تفهمه في سياق عرضها لقدرة الطيور على الطيران حتى ترى أنك وكل ما حولك في بيئة من تصميمه تعالى ومرتبطين به سبحانه، وبالتالي فِي أي لحظة يقدر تعالى على فعل ما يشاء بنا الآن، وبالتالي بِسُهُولَةٍ ستؤمن أنه تعالى يقدر على فعل ما يشاء بنا في الآخرة...

هُنَاكَ مقاربة أخرى لنفس الموضوع، تَصَوَّرْ فراغا لا شيء فيه، وقرّر سبحانه خلق كائنات في بيئة، ونعلم من القرآن أن ما يمكن أن نسمّيه بالدافع لفعله سبحانه الخلق، هو الرحمة، صَمَّمَ البيئة والكائنات، ونعلم من القرآن أن ما يمكن أن نسمّيه بالدافع الإلهي هو الرحمة مع الحكمة لتصميمنا، وخلق سبحانه الدنيا ونحن من ضمنها، الآن قارن بين ما تراه في الدنيا وبين الفراغ الذي كان سابقا، تَرَى طيرا في الجو، مَنْ يمسكه هناك في الجو؟

من بعيد يمكن تشبيه هذه الحالة التي تعرضها الآية مع طائرة مروحية تطير في الجو، سَائِقُهَا يمسكها حتى لا تقع، سواء أكان سائقها بداخلها أو يتحكّم بها عن بعد أو يقود الطائرة برنامج آلي، لا معنى لوقوف أو سيران الطائرة في الجو من دون صانع لها صمّمها لتفعل ذلك. ونفس الشيء كلام الآية هنا عن الطير، مع الفارق بين آلية صنعنا نحن للطائرة، وبين آلية صنعه تعالى للطير، مِنَ الصفر خلق سبحانه ما في الدنيا بتصميم يتضمّن وصولها إلى مرحلة يصير فيها حيوان يطير، سُبْحَانَهُ هو الذي بسبب أصل تصميمه وخلقه صار الطير، هُوَ الذي يمسكه من السقوط، وسبحانه بسبب متابعته لإبقاء ما في الدنيا مستقرا، بَقَاءُ كل شيء متعلق به تعالى كما فهمنا من الآية 41 من سورة فاطر، مِنْ هذه النظرة أيضا سبحانه هو الممسك للطير من الزوال وهو الممسك لحالة طيران الطير من الزوال...

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ {20})
{أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ}، من هو الملتزم بتنفيذ أوامركم، {يَنْصُرُكُمْ}، يحقق لكم ما تريدونه، {مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ}؟ كما نقول: ذهبتم من دوني، ونقصد أنكم ذهبتم وتركتموني. إذا تركوا المسؤول الحقيقي عن العناية بهم وتعرّضوا لشيء سيئ منه تعالى فمن هذا الذي سيكون مساعداً لهم ليمنع حصول الأذية لهم؟ هنا في الدنيا إن قرّر تعالى حصول كارثة بكم، فمن يستطيع ردّها عنكم؟

{إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا}، المنكرون للدين الإلهي هم فقط، {فِي غُرُورٍ}، في حالة الاغترار، في حالة من انخدع بشيء غير حقيقي ولا واقعي، الحقيقة أنه تعالى وحده الملك القدير، وبناء عليه فهو تعالى وحده القادر على منع حصول شيء سيئ معنا، والاعتماد أو الإيمان بأي أحد غيره تعالى على أساس أنه قادر على الوقوف بوجهه تعالى ليحميكم من عذابه، هو اغترار، وهو انخداع بشيء غير حقيقي، لا أنت ولا أنتم مسيطرون على بيئتكم، ولا غيركم مسيطر عليها، بل هو تعالى وحده الملك القدير.

ننتبه جيداً، في الآية وفي عموم السورة هنا ترى بوضوح التركيز على انعكاس صفاته تعالى علينا وعلى بيئتنا، حتى في كلامها عن عقاب إلهي كضرر يصيب الكافرين منه تعالى، استعملت السورة وصفه تعالى بالرحمن، على أساس أنه تعالى حتى في عقابه لمن كفر، لم تتغيّر صفاته، فليس لئيماً ولا حاقداً ولا صلباً جلفاً... بل حتى في لحظة العقاب تبقى صفة الرحمن ملتصقة به تعالى، ونحن الذين لم نقبلها ولم نفعّلها، فخرجنا من تحتها بكفرنا واستحققنا العقاب، فهو تبارك دائماً في كل أفعاله، حتى حين يعاقبنا، ونحن السيئون الأشرار المستحقون للعقاب، وبيده الملك فمن حقّه تعالى فعل ما يريده بما يملكه، وهو على كل شيء قدير وفعل ما يريده.

(أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ {21})
{أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ}، من الذي يجعل معكم ما تسدّون به حاجاتكم ورغباتكم؟ وأهمّه ما تحافظون به على حياتكم فتأكلونه "أو تشترون به ما تأكلونه"، {إِنْ أَمْسَكَ} تعالى {رِزْقَهُ}؟ كما كل ما حولكم محكوم بيد الذي بيده الملك، لستم

تحصلون على رزقكم لو لم يتحه تعالى لكم، ولن تحصلوا عليه إن لم يسمح به تعالى، إن منعه سبحانه عنكم، فمن لديه القدرة على معارضته سبحانه وتوفير الرزق لكم؟

{بَل لَّجُّوا}، دخلوا بعمق، {فِي عُتُوٍّ}، في المبالغة في شيء، ولجّوا في {نُفُورٍ}، في ابتعاد عن الإيمان به تعالى، فمن لم يؤمن بأنه تعالى الذي وفّر لنا الرزق، فهذا لجّ دخل بعمق، في {عُتُوٍّ} في المبالغة بشكل قوي، {وَنُفُورٍ} وابتعاد، عن الإيمان الصحيح به تعالى أنه الرازق.

كما تلاحظ الآيات عمومية، لم تتحدّث عمّن آمن بأن الأصنام ترزقه، أو الجنّ أو الأرواح أو الظروف والطبيعة أو ذكاءه وجهده... بل تتحدّث مع عموم أي فكرة عن أي أحد أو سبب يعتقدون أنه يؤمّن لهم الرزق غيره تعالى، فهذا دخول عميق مبالغ فيه في الكفر والابتعاد عنه تعالى.

(أَفَمَن يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ{22})
{أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ}، هل الذي يمشي في أي وجهة كانت، فلا يثبت على وجهة ولم يفكّر فيها أصلاً قبل أن يتّجه فيها... هل هذا، {أَهْدَى}، يعرف الأشياء الصحيحة التي توصله للغاية الصحيحة، فيعرف الطريق الصحيح وهو لا اتجاه محدّد له! {أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا}، متناسباً بالتمام كما هو مفروض، {عَلَى صِرَاطٍ}، على طريق أساسي، {مُسْتَقِيمٍ}، يوصف بأنه على الأحسن فلا اعوجاج فيه، فأيهما أهدى؟

الطريق الصحيح هو الإيمان به تعالى والانتباه من الآخرة، فهذا خطّ واحد يمشي عليه المؤمن، وأما غير المؤمن فمرة على هذا الرأي ومرة على رأي آخر في نفس المسألة... ومرة لا رأي له فيها... مرة يؤمن به تعالى في مسألة ما، ومرة يؤمن بالآخرة للانتقام ممن آذاه... ومرة يكفر بنفس تلك الأمور... وهذا هو التخبّط، بينما المؤمن مستقر على خط واحد.

(قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ{23})
{قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ}، هو الذي ركّبكم من شيء سابق، فجعلكم مركّبين من نطفة وبويضة ومن خلايا صارت أعضاء... {وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ}، صار لديكم القدرة على سماع الأصوات، وجعل لكم {الْأَبْصَارَ}، صرتم قادرين على رؤية الصور، وجعل لكم {الْأَفْئِدَةَ}، استعمل القرآن كلمة الفؤاد بما يرادف بشكل ما تعبيرنا الحالي: الوعي الإدراكي. بدون الأفئدة تصيرون مثل الكاميرا التي تسجّل الصورة والصوت بلا وعي ولا فهم لما تسجّله، ولكنه تعالى جعل لكم الفؤاد وهو أصل أساس قابلية الوعي لما تستقبله الحواس، وما يدور في الذهن.

{قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}، في مقابل نعمة السمع والبصر والفؤاد، التي يجب أن تشكروه عليها تعالى، تعلنوا وتعترفوا لمن جعلها لكم أنه فعل معكم شيئاً جيداً، في الواقع إنّ اعترافكم له تعالى بالعمل الحسن معكم، قليل جدا بالمقارنة مع ما حصلتم عليه. لنقل إنَّ شخصاً أعطاك تفاحة، وقلت له شكراً، أو تصرفت معه بلباقة مميزة عن تصرفك مع الآخرين بناء على إعطائه التفاحة لك، والآن لنقل إنَّ شخصاً أعطاك مليار دينار، فمن المفروض أن يكون شكرك له أكبر، تسأل خاطره دائما، وتساعده من دون أن يطلب منك، وتستضيفه... الآن لننظر كيف يمكن أن تشكر من زوّدك بالكيان وبالحواس والوعي، فماذا تفعل له لتعبّر عن شكرك له على هذه النعمة التي لا يمكنك أن تحصل عليها إلا منه سبحانه.

تذكّر أن السورة تلفت الانتباه لعظمته تعالى ولما حصلنا عليه نحن بسبب هذه الصفات العظيمة، والآية هنا تلفت انتباهنا أنّه حتى الشكر الذي يقدّمه المؤمنون الملتزمون من درجة الأنبياء، هو شكر قليل بالمقارنة مع ما حصلنا عليه منه تعالى، وتركت السورة لك تقدير الفارق مع من كفر وأنكر وجحد... هؤلاء أصلاً لم يشكروه تعالى ناسين ومتناسين للقدرات التي معهم، ومتغابين ومتعامين عن نسبتها لمن فعلاً زوّدهم بها وينسبونها للطبيعة وقوانين الفيزياء أو الصدفة...

لاحظ وجود اتصال بين بعض الواجبات الدينية والشكر، اعتبر القرآن أن القيام بالحجّ في جانب من جوانبه هو طقوس عبادية "الشكره" تعالى على بهيمة الأنعام، وراجع الآية 28 من سورة الحج كمثال، وفي ثنايا القرآن ستجد الزكاة والصلاة أيضاً في جوانبها تعابير عن شكره تعالى... ناهيك عن التلفّظ بشكل مباشر بكلمات الشكر له تعالى، ولكن ما

هو حجم كل ذلك منك أمام ما حصلت عليه من كيان وحواس وإدراك؟ ولا تَنْسَ أن استبدال الأذن بأذن صناعية لا يقلّل من قيمة أصل حصولك على قدرة السمع، فالأذن الاصطناعية لن تجعل الحائط يسمع.

كلمة فؤاد بحسب استعمال العرب لها، ومن تقويم دقة الاستعمال القرآني لها، تشير لما تعيه مما تدركه، هي الفكر الواعي لما يصلك، وبتعابيرنا الحالية هو الوعي الإدراكي الناشئ عن الوعي للذات، هو قابلية وعي النفس ووعي ما يصلك. وعادة تصلك المعلومات عبر الحواس، عبر عينك، جلدك، أنفك، أذنك، لسانك... ولديك قابلية وصول المعلومات مباشرة إلى فكرك بدون وسيلة الحواس، كالوحي مباشرة في الوعي، وحيث تصل تلك المعلومات إلى وعيك الإدراكي لها فهذه حالة الفؤاد.

خذ مثلاً عندما تتعرّض لشيء قوي جدا كخوف شديد أو فقد حبيب... يطيش فكرك، لا تعد تسمع ولا ترى ما حولك رغم عمل عينيك وأذنيك بشكل طبيعي، حصل هذا مع أم النبي موسى (ع) حين ألقته (ع) في اليمّ كما ورد في الآية 10 من سورة القصص "وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا..."، أو عند تعرّضك لسؤال في موقف حرج، أو كما يحصل مع بعض الطلّاب عند تعرّضهم للامتحانات... تطير المعلومات من رأسك في تلك اللحظات... الحالة التي تصيبك من تلك المواقف ونسميها "فراغاً ذهنياً" هي حالة فراغ الفؤاد بالتعبير العربي الذي تقوّم معناه بدقّة الاستعمال القرآني له، وعند استعادتك للانتباه لما تلتقطه حواسك، فؤادك عاد للعمل.

(قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ{24})
{قُلْ}، للناس عبر هذا القرآن: هو الذي تبارك وبيده الملك وهو على كلّ شيء قدير، {الَّذِي ذَرَأَكُمْ}، نشركم من شيء، {فِي الْأَرْضِ}، من الطين صرتم بشراً تتوالدون "كذرية" من بعضكم، {وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}، بعد هذا الكيان والصفات التي فيكم وبعد موتكم، لن تنتهوا ولن تختفوا بموتكم، بل سيتم حشركم، جمعكم من بعد تفرقكم الزمني في موتكم وحياتكم هنا في الدنيا، ومن بعد تفرّق أجزاء بدنكم على مختلف بقاع الأرض، سيتم "حشركم" جمعكم بقرار منه تعالى سواء قبلتم أو رفضتم، الحشر هو التجميع للموافق وأيضاً للمعترض على الانجماع.

فإن كنتم لا تصدّقون بحشركم في الآخرة فمن الذي ذرأكم هنا في الدنيا؟ فالذي نشركم هنا من الطين هو نفسه يقول لكم أنّه سيعيد خلقكم في الآخرة.

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{25})
{وَيَقُولُونَ}، ردّاً على كلام الإله عزّ وجلّ: {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ}؟ في أي زمن سيحصل هذا الحشر والحساب والعقاب الذي تقولون عنه إنَّ الإله سيفعله؟ {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، إن كان فعلاً سيحصل ولستم تكذبون لا بدّ أن للحشر والحساب والعقاب توقيتاً، فمتى هو؟

تذكّر دائماً ورود العديد من جمل القرآن بشكل مقطوع مثل الجملة هنا التي تعرف تكملتها لوحدك، {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، وتكملتها: فيما تقولونه. مثل قولنا: هل ستأتي إلى الغداء؟ وتكملة السؤال معروفة بالبداهة، هل ستأتي إلى الغداء لتتغدّى؟ وسترى في الآية بعد التالية أيضاً جملة مقطوعة.

(قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ{26})
{قُلْ}، لهؤلاء الناس عبر هذا القرآن:

{إِنَّمَا}، فقط وحصراً، {الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز وحده سبحانه يعلم متى سيحصل الحشر والحساب والعقاب، {وَإِنَّمَا}، فقط وحصراً، {أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ}، أحمل لكم بشكل واضح الخبر عن خطر قادم وهو العقاب في الآخرة لمن توافرت فيه شروط حصول العقاب له.

لاحظ القرآن ردّ على هذا السؤال من عدة جوانب، وكان الجواب متناسباً مع سياق وتركيز كلّ سورة، وهنا ترى أن الجواب عن السؤال من الأصل، حصراً العلم بزمن حصول يوم القيامة من الموت "والعقاب"، حصراً وفقط عنده

تعالى، لا الملائكة(ع) تعلم به ولا الجنّ ولا الأنبياء ولا الرسل... ولا أحد، هكذا هي الحال من قبل ولن تتغيّر من بعدما تسألون عنها، وليس من شغلكم السؤال عن زمنه، بل ليكن تركيزكم على الإنذار الواضح.

نتذكّر سوراً أخرى تحدّثت عن أناس من مختلف العقليات والعقائد، أجابت عن سؤالهم عن موعد يوم القيامة بعدّة طرق، بعض السور أخبرتنا عن استحالة معرفة أي كائن بموعد القيامة، حتى الملائكة العالية الموكّلة بحمل العرش ومتابعة تنفيذ أوامره تعالى على مستوى كلّ السماوات، حتى هؤلاء العظام ليس لديهم القدرة على معرفة التوقيت، سيمرّ على هذه الدنيا زمن تفنى فيه وتتبدّل ويعيد تعالى خلقها من جديد بمواصفات مختلفة، فما معنى الزمن حين يفنى ما في الدنيا من مخلوقات؟... وهذا ما فهمناه من الآية 15 من سورة طه "إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى"، والآية 187 من سورة الأعراف "يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ".

ضمناً الكلام القرآني يشير لفقداننا للوعي بعد الموت واسترجاعه بعد الإحياء وأننا لن نشعر بمرور الوقت مهما كان طويلاً، حتى لو مرّت مليارات السنين لن نشعر بمرور الوقت، وترى ذلك في العديد من الآيات التي تشير لجهلنا بكمية الوقت التي مرّت علينا أثناء موتنا، ومنها الآية 113 من سورة المؤمنون "قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ"، فما معنى السؤال عن زمن يوم القيامة إن كان بيني وبينه غمضة عين، لا أكثر ولا أقل... وهناك إجابات أخرى تركتها السورة هنا لأن تركيزها على من لديه صفات عالية خلقنا في هذه البيئة بقدرات الحواس والفكر والشهوة والغريزة... فإن التفتنا لعظمة خالقنا فيجب أن نؤمن بكلامه عن مخطّطه لنا بإعادة إحيائنا ومعاقبة من خالفه تعالى.

(فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ{27})
{فَلَمَّا رَأَوْهُ}، عندما صارت عندهم صورة محدّدة للعذاب الذي في الآخرة، {زُلْفَةً}، يقترب على مراحل، ومن عموم القرآن تعلم أن النار في الآخرة تكون بعيدة عن مكان حشر الناس، وتقترب منهم كلما انتهت مراحل من حسابهم كما نفهم من الآية 91 من سورة الشعراء "وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ"، عندها، {سِيئَتْ}، صارت في حالة سيئة، {وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا الحشر والعقاب ستكون علامات الشعور بالسوء على وجوههم حين يرون جهنّم تقترب منهم، {وَقِيلَ}، قال أحد ما لهم في حينها، {هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ}، ادعيتم وأشهرتم وأعلنتم أنه لا حشر ولا عقاب، وها أنتم في الحشر وترون العقاب يقترب منكم.

كما ترى، هذه الجملة مقطوعة مثل الجملة في الآية ما قبل السابقة، وتعرف تكملتها بالبداهة: هذا الذي كنتم به تدّعون، وتكملة تدّعون: أنه لن يحصل. بعبارة أخرى كانوا يقولون: لا يوجد حشر ولا عقاب. في الآخرة في الحشر يقول تعالى لبعضهم، والملائكة(ع) يقولون لغيرهم، والمؤمنون يقولون لآخرين: هذا الذي كنتم به تدّعون أنه لن يحصل.

إذاً، فما معنى سؤالكم الآن عن موعد الآخرة؟ وما الفائدة منه؟ وما سيتغير إن علمتم بوقته؟ علماً أنكم ذاهبون إليه حتماً، وحينها ستكونون فيه، وستتأكدون من حصوله، فماذا ستفعلون؟...

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ{28})
{قُلْ}، عبر هذا القرآن للناس:

{أَرَأَيْتُمْ}، أسألكم حين يصير عندكم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: شفتوا. التفتوا، {إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ}، فاستنفد حياتي حتى أنهاها، فأماتني، {وَمَنْ مَعِيَ}، من المؤمنين أيضاً ماتوا، {أَوْ رَحِمَنَا}، نالنا بعناية منه وأبقانا أحياء، {فَمَنْ يُجِيرُ}، من يؤمّن الحماية ويدفع الخطر عن، {الْكَافِرِينَ}، عن المنكرين لهذا الدين، {مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}، من ضرر لا يمكن تحمّله أو الاعتياد عليه؟

إن كنتم تعتقدون بأي شكل من الأشكال أنّ المشكلة فينا، فمهما حصل معنا وحتى لو مات الرسول(ع) والمؤمنون الآن وفوراً أو رحمهم تعالى وأبقاهم أحياء، فماذا سيتغيّر؟ لنذهب لأبعد تصوّر، لو قتلتموهم أو ماتوا بحادث أو وباء أو

مرض أو شيخوخة... وانتهى المؤمنون ولم يؤمن بالآخرة بعدهم أي أحد، فماذا سيتغيّر؟ أو إن بقي الرسول والمؤمنون أحياء ينقلون لكم الإنذار، أيضاً ماذا سيتغيّر بالنسبة لكم؟

حين ننقل لكم الخبر عن الآخرة والعقاب، ولم تؤمنوا به ولم تعملوا على أساسه، هل نحن المؤمنين لنا أي علاقة بما سيحدث؟ هل ممارستنا نحن لهذا الدين واعتقادنا به هو الذي يجعل هذا الكلام صحيحاً، وستختفي هذه الحقيقة إن متنا ولم ننقلها لكم ولم يمارس الدين الإلهي أي أحد؟ لا، موضوع الحشر قرار إلهي حتمي ولا علاقة له بأي شيء آخر، هو سيحصل حتماً، وموضوع العذاب له علاقة بالكفر، فإن كفرتم فهناك عقاب حتماً.

قارنها مع حالة الذي تحدّثه عن الآخرة والعقاب على السيئات، يفكّر بالموضوع، ويشعر بالخوف... ولكن بعد ساعات حين يعود إلى حياته العادية، فإن لم يتماشَ فكره ونفسيته مع كلامه تعالى، فسيقول بينه وبين نفسه: لو لم أسمع بالكلام عن الآخرة لكانت حياتي عادية كما هي الآن ولن أفكّر في مراقبة سلوكياتي، من الأفضل أن لا أسمع الكلام الديني ومن الأفضل إكمال حياتي كما هي... وكأن هذا الموقف سيغيّر القرار الإلهي؟ وكأن الآخرة لن تحصل إن فكّر بهذا الشكل! وهذا ما تقوله الآية هنا.

(قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ{29})
{قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ}، الذي يوصف بالعناية بمخلوقاته، {آمَنَّا بِهِ}، اعتقدنا به رباً إلهاً بصفاته العالية الحسنة، {وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا}، اعتقدنا أنه يسيّر أمورنا كما يجب على الأحسن في الدنيا والآخرة، {فَسَتَعْلَمُونَ}، في الآخرة حين ترون العذاب يقترب منكم، {مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}، من هو بشكل واضح ليس على الشيء الصحيح.

هذا الإيمان بالمستوى العالي هو مقابل حقيقة واقعية لا تقبل الشكّ، شيء عادي طبيعي أن نؤمن بالذي خلقنا جاعلاً فينا هذه الصفات الإنسانية وفي هذه البيئة، وبسبب تعرّفنا على قدراته العالية وصفاته الفائقة بكل سهولة سننساب مع التوكّل عليه للعناية بنا في الدنيا والآخرة.

ضع في بالك دائماً أنه تعالى من ناحيته على المؤمنين الحقيقيين لا يوجد أي احتمال أن يصيبهم بسوء، لا هنا ولا في الآخرة، ويدافع تعالى عنهم ويدعمهم وينصرهم على الذين يريدون أذيتهم، المؤمنون من الله تعالى هم برحمة، حتى أنه تعالى إن كان المجتمع مؤمناً فسبحانه يتدخل لمنع الكوارث الطبيعية ولجعل البيئة هانئة... كما نفهم من الآية 96 من سورة الأعراف "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"، لكن من الكفّار والمنافقين والفاسقين وبسببهم يصيب المؤمنين السوء...

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاء مَّعِينٍ{30})
{قُلْ}، عبر هذا القرآن لهؤلاء:

{أَرَأَيْتُمْ}، أسألكم حين يصير عندكم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: شفتوا. التفتوا، {إِنْ أَصْبَحَ}، أول ما صار، {مَاؤُكُمْ}، الذي تشربونه وتسقون زرعكم ومواشيكم منه والذي هو متوافر في مناطقكم، إن تغير الحال من توافره إلى أن صار فجأة، {غَوْرًا}، نازلاً في عمق الأرض، غير متاح لكم، {فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ}؟ كنتم تستعينون بالماء لسدّ حاجة جسدكم له وتشربونه، ويعينكم على ريّ مزروعاتكم وسقاية مواشيكم، إن غار الماء ونزل عميقاً في الأرض وصار بعيداً عن قدرتكم على استخراجه فمن سيوفّره لكم؟

لاحظ السورة ختمت كلامها بشيء من الأساسيات جداً في حياتنا، حاجتنا للشرب، وتصميمنا بحيث تتعلّق حياتنا بالماء، إن لم تلتفت له ولم يدّلك على إله خلقك، فضع هذه الفكرة على جنب، وانظر إلى التصميم من حولك لتوافر الماء، لنقل إنَّ كمية صغيرة من الماء كانت كافية لاستمرار حياة البشرية لآلاف السنين، ولسبب أو لآخر انتهت هذه الكمية، أو لسبب أو لآخر غارت المياه إلى عمق كيلومترات تحت الأرض، فماذا سيحصل؟ الآن فكّر فيها بالعكس، استمرار حياة البشرية مع توافر الماء الذي يمكننا الحصول عليه بسهولة، من صمّم هذه البيئة بهذا الشكل؟ إن قرّر تعالى أن يغور الماء في باطن الأرض، فمن يمكنه تأمين الماء لكم لتشربوه؟

سورة القلم (68) ص 564
بدأت بالردّ على من اتهم الماشين على طريق الإيمان بأنهم مجانين عاطلين، وأرتنا فكر ونفسية ونيّة من اختار طريق الإيمان والعمل الصالح، وعرضت النبي محمّد(ع) كنموذج عن المؤمنين...

أرتنا الذين اختاروا أي طريق غير الإسلام، وأرتنا أنهم مجرمون، عرضت لنا السورة صفاتهم ونفسياتهم العاطلة التي نتج عنها نوايا عاطلة... وتطرح عليهم أسئلة عن سبب تركهم للإيمان واختيارهم الطريق الآخر لتبين أن العقلانية كل العقلانية والصفات الحسنة الصالحة العالية للإنسان في اتباع طريق الإيمان والعمل الصالح، وكل اللاعقلانية "الجنون" والصفات السيئة في الطرق الأخرى.

بناءً عليه تجد في آخرها تركيزاً على نفي تساوي المجرم مع المسلم، وتجد بياناً حاسماً منه تعالى يؤكّد ويبرهن فيه أنه تعالى في الآخرة سيفرّق بين المسلم والمجرم، بالعقاب وبالجنّة، وعليه ننتبه هنا من اختيارنا للإسلام أو الإجرام.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
هذا حرفٌ نتهجّاه هكذا: نون.
هو حرف مشابه للأحرف المقطعة التي بدأت بها بعض سور القرآن، مثله مثل الم وحم وكهيعص... وقال بعضهم إنَّ كلمة "نون" تشير للدواة، للمحبرة التي فيها حبر والمستعملة للكتابة، وتكون تكملة الجملة في الآية التالية تأكيداً بالمحبرة التي تستعملها الملائكة(ع) للكتابة... وردّ على ذلك الجوهري صاحب كتاب الصحاح فقال: لو كان المقصود بالنون هنا الدواة "أو الحوت، السمكة" لكان كتّاب المصحف كتبوها "نون" ولكنهم كتبوها حرفاً "ن". بالإضافة لهذا التعليق، ما نجده في عموم السور التي بدأت بأحرف مقطّعة لا يساعد على تفسير أي منها بكلمة من لغتنا، نفس الكلام هنا عن احتمالات افترضوها لحرف النون يجري على قاف وصاد وطه ويس، البعض افترضوا لها معانيَ تخرجها من الأحرف المقطعة الأخرى، الم الر... في افتراضهم أحرف مقطعة، و"ق، ص، ن، يس، طه" ليست أحرفاً مقطعة عند البعض، بل اختصار لكلمات أو هي نفسها كلمات لها معنى مكتوبة على شكل حرف، وهذا غير صحيح، وستجد توسعاً عن ذلك في الكلام التالي.
الواضح من بعض آيات القرآن أن هذه الأحرف نماذج عن أحرف الأبجدية العادية للغة العربية "أ، ب، ت، ث..."، وهي تشير للعلاقة اللغوية بين القرآن الذي نزل على النبي محمد (ع) وبين كتاب إلهي أساسي حوّلَ سبحانه قسمًا منه إلى اللغة العربية "طبعاً باستعمال أحرف اللغة العربية" فصار قرآنًا: حيث صار يمكننا قراءته من بعدما تحوَّلَ إلى لغة يمكننا نحن البشر قراءتها.

نحن البشر ليس لدينا القدرة على فهم تلك المعلومات التي في الكتاب الأساسي إذا لم تتحوَّلْ إلى لغة من لغاتنا، وترى هذا المعنى في الآية الأولى والثانية من سورة يوسف {الر، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الثالثة من سورة فصلت {حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}، والآية الثالثة من سورة الزخرف {حم، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، والآية الأولى من سورة القلم {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ}.

من هذه الآيات وغيرها يبدو واضحًا أن القرآن قسم من كتاب إلهي أكبر منه بكثير، ولذلك الكتاب عدة أوصاف، منها: الكتاب المبين، الكتاب الحكيم، إمام مبين، كتاب مكنون... راجع الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}، والآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، والآية 37 من سورة يونس {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والآية 61 من سورة يونس {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}.

هذا الكتاب الرئيسي فيه معلومات عن كل ما سيحصل في الدنيا والآخرة، فيه معلومات عن كل شيء له علاقة بالسماوات والأرض الدنيوية والأخروية، وما فيهن من عوالم للملائكة (ع) والجن والإنس، ومسجَّلٌ فيه ما سيفعلونه ومصيرهم... كما يبدو لك من الآيات التي ذكرناها.

إن هذا الكتاب 'الأصل' يتجاوز المفهوم المادي للأوراق أو حتى الأنظمة الرقمية الحديثة، فالتسمية هنا 'وصفية' تشير إلى الحفظ والتدوين لا إلى مما يتكوَّن "الماهية الفيزيائية". وبما أن قدراتنا التخيلية محصورة في عالم المادة، فإن إدراك كُنه ذلك الكتاب يظلُّ أبعد من مداركنا البشرية القاصرة. مثلما نحن الآن في الدنيا لا يمكننا تصوّر الملائكة (ع) لأن تكوينها مختلف جدًّا جدًّا عن تكويننا، وكذلك الحال بالنسبة لذلك الكتاب، حيث قدراتنا الفكرية والتخيلية أقل من كافية "بكثير" لتصوّره ومعرفة تكوينه.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا مما نقرأه من القرآن بكلامه عن ذلك الكتاب، نفهم احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات عن الدنيا والآخرة، وأن الكتب الإلهية السابقة "توراة إنجيل صحف الأنبياء..." نزلت من عنده تعالى من ذلك الكتاب الأساسي.

نفترض ضمنًا واشتقاقًا من احتواء ذلك الكتاب على كل المعلومات... وأن الكتب التي تُسجَّل فيها أعمالنا متصلة به، وحين يتم نشرها علينا في الآخرة فهي محفوظة فيه...

نرجع للكلام عن الأحرف المقطعة، التي بدأت بها بعض السور وهي مجرد نماذج عن بقية أحرف الهجاء التي ينطق بها البشر ليحوِّلوا ما في ذهنهم إلى كلمات يفهمها الآخرون، ونفس الشيء حصل عند تحويل بعض ما في الكتاب الرئيسي إلى كلام يفهمه البشر عبر استعمال أحرف الهجاء العربية ليصير قرآنًا "كتابًا يمكن للبشر قراءته".

أما بالنسبة لما تجده في الكتب عن تحديد معانٍ خاصة لهذه الأحرف المقطعة، أو عن سبب اختيارها من بين الأحرف الأخرى لذكرها في بداية بعض السور، فهناك آراء عديدة بالعشرات حول هذا الموضوع، ولن تجد لأي رأي منها أي استناد قرآني، إلا ما قلناه عن كونها مجرد أحرف عادية اختارها تعالى كنموذج ليخبرنا سبحانه عن تحوّل بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى اللغة العربية لتصير قرآنًا، وبسبب ما هو منتشر بيننا من استغراب وفضول حول هذه الأحرف، يبدو أنه تعالى تقصّد استفزازنا بهذه الأحرف ليزيد اهتمامنا بكتابه، أو ربما هناك فعلاً شيء مميز فيها ولكني شخصيًّا لم أقتنع بأي كلام قالوه لحد الآن، وأي تفسير لتلك الكلمات يجب أن يكون منضبطًا متماشيًا مع مفاهيم القرآن، ولا يحق لنا بلا دليل عقلاني اختراع معنى لها لا يستند على القرآن، أو لا يثبت صحة نفسه.

أما البحث عن معنى سحري لتلك الكلمات بالطريقة التي يستعملها السحرة والمشعوذون وكُتّاب الأحجبة والأحراز... وبطريقة "حساب الجمل" بحيث يكون لكل حرف قيمة عددية ينتج عن تركيبهم مع بعض مفعول سحري، فهذه خرافات لا تتماشى مع مفاهيم القرآن، ومن المعيب إدخالها في دين إلهي محترم.

المعيب أكثر منه محاولة تجميع تلك الأحرف لتشكيل جمل، فلو كان هناك ضابطة كقاعدة قرآنية لتشكيل كلمات وجمل من تلك الأحرف، عندها على الرأس والعين، ولكن أبناء هذا المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية، لتمدح علي بن أبي طالب، وأبناء ذاك المذهب جمعوها لتركِّب جملة تمدح شخصيتهم الدينية التي لا يعترف بمدحها أبناء المذهب الآخر! لتمدح الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر، وببحث بسيط على شبكة الإنترنت ستجد العديد من الجمل التي ركّبها الناس من الأحرف المقطعة، وستجد أنها مجرد تسلية لا أساس قرآني لها.

البحث عن معنى خفي لتلك الأحرف من مستوى الرمزية السرية بينه تعالى وبين نبيه محمد (ع)، أو بينه تعالى وبين المؤمنين من الدرجة العالية، هذا أيضًا لا يتماشى مع مفاهيم القرآن الذي أخبرنا مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنه كتاب هداية ومبين ويمكن لأي إنسان "متوسط الثقافة" فهمه إذا درسه وتأمل فيه "بقلب سليم"، ويمكنك مراجعة دراستنا هذه لأي آية تعتقد أن فيها سرًّا لترى أنها عادية كآية للهداية وواضحة ولا سرَّ فيها.

الأسرار الصوفية والعرفانية... التي يذكرونها عن تلك الأحرف تحتاج لتخصصٍ في مصطلحاتهم المطاطة... المحاطة بهالة قداسة التصوف والعرفان التي ترهبنا من نقدها ونقد كلام الذين جعلهم الناس قديسين، بينما كلامهم هو مجرد تخمينات لا أساس له من الصحة، ولا دليل عليه سوى كلام منمقٍ مزخرفٍ لكنه في الحقيقة لا يعني أي شيء.

تفسير تلك الأحرف بكون كل حرف منها يشير إلى اسم من أسمائه الحسنى تعالى، وبدون ضابطة لها مرجعية قرآنية أو ثقافية دينية واضحة، يجعل هذا الاحتمال مفتوحًا للاستذواق لاختيار أسماء مختلفة لنفس الحرف... حيث قالوا: الألف

آلاؤه تعالى، واللام لطفه تعالى، والميم رحمته تعالى... وفي المقابل تجد تفسيرًا آخرَ لنفس الأحرف لأوصاف إلهية أخرى! وبدون دليل ولا مستند ولا مرجعية لتصويب الآراء عليه؟!

تفسير هذه الأحرف على المعنى القديم لأصل أحرف الهجاء، على أساس أن كلمة "ألف" في الأصل تشير للأليف "الثور" الحيوان الأليف، أو تشير لمشتقات معنى أليف... على أساس لغوي سرياني أو آرامي أو فينيقي أو حميري... لهذه الكلمة، أو لاستعمال كلمة ألف في معنى محدد ككلمة، مثل حالة: وقى بالماضي، يقي بالمضارع، "ق" بالأمر. "وهذا الحرف ورد مقطعًا في سورة ق"، هذا أيضًا باب مفتوح على مصراعيه في الاحتمالات جاعلًا من فهم الأحرف مستعصيًا إلا على قلة قليلة من الناس الخبراء باللغات، والذين لم ولن يتفقوا فيما بينهم على معانيها بسبب انتفاء وجود ضابطة لغوية أو تاريخية لغوية صريحة، وبسبب غياب أي دعم قرآني لهذه المقولات التي لا معنى لها مع بقية كلام السورة الذي وردت فيه، وهكذا يبقى الموضوع مرتبطًا بالاستذواق، مما لا يتماشى مع تفسير كلام القرآن على أنه كتاب هداية لعموم الناس.

القول بأن الأحرف المقطعة ستكون جاذبة مستفزة للكفار الذين كانوا يسدون آذانهم، وبسماعهم لهذه الأحرف سيلتفتون لشيء غريب يدفعهم لسماع المزيد من القرآن، فيه وجهة نظر فقط من ناحية لفت الانتباه لشيء غير عادي، وهذا مؤثرٌ ليس في الكافرين فقط بل للجميع، وهكذا نُقَيِّمُ هذا الاحتمال ليكون عامًّا في غرابته للجميع وأنت وأنا من ضمنهم، وبالنسبة لتصور مشهد انطباق هذا التحليل فقط على الكافرين الذين يسدون آذانهم، فهو تصور بعيد عن الواقع، وبخاصة عندما تعلم أن سورًا تبدأ بأحرف مقطعة نزلت في مجتمع المؤمنين في يثرب "المدينة".

يبدو أن أقرب شيء للعقل مما قالوه عن احتمال كون هذه الأحرف لها رابطة بموضوع السورة التي وردت فيها، على أساس احتمال وجود تشابه جوهري في شيء ما بين السور التي اشتركت بالأحرف في أولها، وعليه يصير حرف الألف "كمثال" يشير لموضوع ما، ويتكرَّرُ نفس الموضوع في السور التي ابتدأت بنفس الحرف "مقطّعًا"... ودراستنا هذه بالرغم من كونها "باعتقادي" من أكثر الدراسات تقدمًا في تحديد موضوع لكل سورة، فإني لم أجد في دراستي ولا عند من اقترح هذا الاقتراح، لم أجد أي نجاح ملحوظ يمكن الاعتماد عليه في ربط مواضيع السور بالأحرف المقطعة المذكورة في أولها.

أكرر لك حتى لا تبقى الصورة ضبابية عندك عن تلك الأحرف، وحتى لا تشعر بالإحباط إن قرأت عنها هنا أنها مجرد أحرف عادية من اللغة العربية، وماذا كنت تتوقع منها؟ السحر؟ القوة الخارقة؟ الاسم الأعظم حتى تسيطر على الدنيا من حولك وتصير رغباتك أوامر؟ السر الخاص بينك وبين الإله سبحانه وبقية الناس أقل منك؟ أم هي أحرف لها معنى وأثر وقوة وغموض... حتى لو لم تعلمه، فهي شيء تفتخر به كمسلم على الآخرين؟

أو تسلك الطريق الأسهل لتجعل لتلك الأحرف قيمة غير عادية على أساس أنها أسرار إلهية، حتى لو لم نفهم سرها الغامض، وتصير هذه الأحرف في سحابة القداسة الخاصة بك لتصوراتك الدينية العظيمة التي تدل على إيمانك العظيم...

كل ما سبق هو كلام فارغ في الهواء ولا قيمة له، ولا هذه هي الهداية ولا هذا هو الإيمان ولا هذا هو العمل الصالح...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي من الانجراف مع موجات الهوى، وحب التميز، واختراع تفسير لا يستند إلى القرآن، أو اقتراحِ تفسيرٍ للأحرف يتماشى مع مفاهيم القرآن، ويكون أي إنسان عادي "بقلب سليم" يمكنه الوصول إلى نفس المعنى من دراسة القرآن، لا من دراسة اللغة السريانية بطريقة ملتوية! وعلم الفلك! والطريقة الصوفية! وكتب الشعوذة!

كن يا عزيزي ويا عزيزتي مؤمنًا بالحق وملتزمًا بالصلاح، وهذا هو نفسه أوامره تعالى، وهذا تميز ما بعده تميز، ونتيجته فوز ما بعده فوز، واترك الشواذ وحب الظهور والبحث عن الأسرار الدينية التي هي أصلًا غير موجودة، بل ومن غير المعقول أن يكون هناك أسرار دينية، أو أسرار للكلام الديني... وأي منطق هذا؟ وأي دين هذا؟ بينما دين الله تعالى للعالمين وليس حكرًا على جماعات أصحاب الأسرار هنا وهناك...

(وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ{1})

حرف الواو "أو التاء أو الباء"، وبعده اسم مجرور يفيد التأكيد بأنواعه المتعددة: القسم أو الحلفان، أو مجرّد التأكيد، وبعدها تأتي جملة نسميها جواب التأكيد. هنا الآية جملة للتأكيد على ما في الآية التي بعدها بأن الرسول محمّد(ع) رجل عاقل...

{وَالْقَلَمِ}، تأكيد بأداة للكتابة، بوسيلة لتدوين المعلومات، {وَمَا يَسْطُرُونَ}، ما يكتبونه بالقلم سطراً بعد سطر. وكلمة قلم أصلها من التقليم، قديماً كانوا يقلّمون يقصّون الأغصان أو القصب برأس مائل مسنّن قليلاً ليكون رأساً للكتابة، القلم اسم وصفي لعموم العصا الخشبية القصيرة الرفيعة، وبعدها صار اسماً وصفياً لما نكتب به، ويبقى الوصف عمومياً لكل ما يمكن الكتابة به حتى لو لم يكن شكله أو مادة تكوينه معلومةً لنا، فالملائكة يكتبون ولكن بأداة لا نعلم شكلها ولا مادة تكوينها على الوصفية هي قلم للكتابة.

الآية كما ترى لم تذكر مَنِ المستعملون للقلم، لم تذكر من هم الكتبة، ولكن من عموم القرآن الذي تجد فيه توظيفاً إلهياً للملائكة ستفترض أنهم الملائكة(ع) الموكلة بكتابة شيء ما، وسترى ما يوحي بذلك من سياق الآية التالية، التأكيد هنا على أساس أن هذه الملائكة(ع) يكتبون بأمره تعالى، وباستعمال أحرف، والنون نموذج عن الأحرف التي يكتبون بها... ونحن أمام جملة كخبر منه تعالى عمّا هو مكتوب عنده تعالى عن محمّد الرسول الذي اتهمه بعض الناس بأنه مجنون فيما يقوله من وحي "قرآن" نازل عليه، يخبرنا تعالى أن ما يقوله محمّد (ع) من قرآن هو منقول عمّا تكتبه الملائكة(ع) باستعمال أحرف اللغة العربية، وذلك حين تحوّلت بعض المعلومات التي في الكتاب الرئيسي إلى قرآن، إلى شيء يمكن للبشر قراءته لأنه تحوّل إلى أحرف من لغتهم، ذكرنا ذلك في الكلام في الآية السابقة عن الأحرف المقطعة.

(مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ{2})
{مَا أَنْتَ}، لست أيها النبي محمد(ع)، {بِنِعْمَةِ رَبِّكَ}، بسبب الشيء الجيد الذي أنت فيه من المسؤول عنك من مستوى إلهي، لست، {بِمَجْنُونٍ}، لست فاقداً للفكر المنتظم المستقيم المنطقي العقلاني.

هذه العبارة مشابهة لقولنا: أنا "والحمد لله" بصحّة جيدة. أنا "بنعمة الله" عاقل. أنا لست بنعمته تعالى فقيراً. من نعمته تعالى عليّ أني لست فقيراً. هنا الجملة بشكل أبسط تصير هكذا: من نعمته تعالى عليك لست مجنوناً يا محمد.

ما ينزل عليك من وحي هو من عنده تعالى عبر الملائكة(ع) التي استعملت أحرف اللغة العربية وكنموذج منها حرف النون، وكتبت الملائكة(ع) كلماته تعالى وأنزلتها عليك، وأنت بدورك نقلتها للناس، أنت لست مجنوناً تخترع من أوهامك أنك رسول إلهي، بل فعلاً أنت رسول.

القرآن في مختلف السور نقل تهمة الكافرين للنبي محمّد(ع) "ولغيره من الرسل" بالجنون، لم يكن كوصف دائم لحالته كشخص فاقد للعقل يمشي على الطرقات تائهاً وشكله وهيئته غريبة... بل الاتهام بالجنون موجهٌ فقط له(ع) على أساس ادّعائه أنه رسول إلهي، اعتبره الكفّار كلاماً جنونياً.

تركيز السورة على هذه النقطة ليس على أساس إثبات أرجحية عقل النبي محمّد(ع)، والبرهنة على كمال قواه العقلية، بل هي ردّ على نفس الاتهام: اختيار الإيمان به تعالى وبدينه ليس جنوناً، وستعرض السورة فكر ومشاعر الآخرين الذين اعتبروا أن كلامه (ع) جنون والإيمان بدينه جنون، وسترى أنهم هم صفاتهم الذاتية منخفضة، ولو آمنوا لارتفعت صفاتهم وارتقت.

ضع في بالك أن السورة اتّخذت من النبي محمّد(ع) نموذجاً عن شخص اختار الإيمان، كأرقى نموذج، وستقابله بالذين لم يختاروا الإيمان.

(وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ{3})
{وَإِنَّ لَكَ}، أيها النبي محمّد(ع)، {لَأَجْراً}، مقابلاً حدّده تعالى كشيء تستحقّه على إيمانك وعلى نقلك لكلامه تعالى إلى الناس، {غَيْرَ مَمْنُونٍ}، لن نفرض عليك ولا نطلب منك الشكر على الأجر الذي ستحصل عليه.

اختيار محمّد(ع) للإيمان ليس جنوناً، بل اختيار الإيمان عليه أجر هائل وهو الخلود في جنّة الآخرة بحيث لا يتوجب عليه فعل أي شيء هناك.

تلاحظ القرآن لم يستعمل كلمة "منّة" للجنة التي يحصل عليها المؤمنون، إذا مننت عليك يعني أني فعلت معك شيئاً حسناً "يستوجب" منك أن تشكرني عليه، وهي حالتنا هنا في الدنيا حيث يجب علينا شكره تعالى، وأمّا في الجنّة فلا يوجد أي شيء يجب على المؤمنين الذين دخلوا إليها أن يفعلوه، ولا أي شيء واجب، حتى شكره تعالى غير واجب عليهم، ولذلك لم يقل القرآن أبداً أن الجنّة أو ما فيها منّة، بل وصفها بالفضل والإحسان... وهذه أوصاف لا تعطي أبداً معنى وجوب الشكر بل معناها أن خلق الجنّة وإدخال المؤمنين إليها ليس فرضاً واجباً عليه تعالى، بل بفضله وإحسانه فعل تعالى ذلك، وهم فيها لا يجب عليهم أي شيء، لا صلاة ولا صوم... وحتى شكره تعالى غير واجب عليهم. وما تجده هنا وهناك في السور عن شكر أهل الجنّة وحمدهم له تعالى، هو ردّ فعل عفوي منهم لشدّة ما يدهشهم روعة ما هم فيه من سعادة.

من هذا نفهم وصف الآية للأجر أنه غير ممنون، رغم ضخامته لا منية فيه ولا يستوجب حتى التعبير بالشكر ممن حصل عليه.

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ{4})
{وَإِنَّكَ}، أيها النبي(ع)، {لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ}، تملك أخلاقاً، سلوكاً وطباعاً حميدة وليس بشكل صغير بل بشكل عظيم.

نجد شخصاً شديد التهذيب مع والديه ولكنه قليل الأدب مع زوجته أو أولاده، وربما نجد شخصاً شديد التهذيب مع الغرباء ولكن قليل الأدب مع أهل بيته، هذا الشخص من جانب عنده أخلاق ومن جانب آخر بدون أخلاق، هنا يقول سبحانه عن نبيه(ع) أنه على خلق عظيم، نوعية أدب وأخلاق وذوق النبي(ع) هي نوعية عالية، من كل النواحي، ومع كل من يتعامل معه(ع)، عنده أخلاق وأدب رفيع.

بعد الانتهاء من سخافة قولهم عنك مجنون، أنت مميز بشيء مهم جداً يفقدونه هم، بناءً على تحلّيك بأخلاق عظيمة اختارك سبحانه من بين الناس كرسول ناقل لكلامه، ومن تكملة السورة ترى أن هذا الكلام يأخذنا إلى جانب مهم جداً، يأخذنا للمقارنة بين الذين اتهموه بالجنون بينما هو عاقل رزين وأخلاقه عالية جداً، وبين صفاتهم هم العاطلة جداً...

بقي شيء، في الروايات الناقلة لسيرة حياة الرسول محمّد(ع) ستجد أموراً تتعارض مع الوصف القرآني له بالتحلّي بالخلق العظيم، والسبب أن الرواة لتلك الروايات، والمؤلفين لها، والمضخمين لها... إنما عكسوا نفسيتهم هم وأفكارهم هم على ما قالوه، وبالرغم من هذا التشويه المقصود وغير المقصود، من المجموع العام المنقول عن تصرفاته(ع) ترى خطاً قوياً من علامة دامغة لأخلاقه العالية، لا تفهم إنكاري لكل ما نقلوه في السيرة عنه(ع) ولكن ألفت انتباهك أن القسم الصحيح من تلك السيرة، وبغض النظر عن الكثير من الروايات الكاذبة المؤلفة زوراً وبهتاناً عنه (ع)، حتى القسم الصحيح منها هو منقول بناءً على ما فهمه الناقل مما يظنّه سليماً وصحيحاً...

لأقرّب لك الصورة لنتذكّر الآيتين 210 و 211 من سورة الشعراء "وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ"، محتوى هذا القرآن من الحقّ والصلاح يفوق قدرة الشياطين على تأليف مثله، حتى على المستوى النظري لن يكونوا قادرين على قول الحقّ والصلاح أفكارهم ونفسيتهم الشيطانية ستظهر حتماً وبشكل واضح في كلامهم، ونفس الشيء في كل شيء، نحن حين ننقل ما نراه أمامنا، أو ننقل ما سمعناه نقلاً عن الآخرين... سننقله مع إسقاط أفكارنا ونفسيتنا عليه، نضيف ونحذف ونجري بعض التعديلات ومن دون أن نشعر، وحتماً ستصل لدرجة مدحنا لسوء ما نحن نرغبه، وهذا ما حصل في الكثير مما يروونه من سيرته(ع).

بالرغم من ذلك التشويه المقصود لتنزيل مستوى الرسول(ع) إلى المستوى الذي يريدونه هم أن يكون مقبولاً لأنه مستواهم، ومن التشويه غير المقصود كانطباع غير مقصود لأفكار ونفسيات الراوي والناقل "والمؤلّف"، سترى كمّاً هائلاً من الخطوط الدامغة الدالة على أخلاق عالية غير عادية في سيرة حياته(ع)، وبالتشبيه هي كحالة سباب الإمام علي على المنابر في خطب الجمعة وفي الاجتماعات وجلسات دروس التاريخ والفقه وتفسير القرآن... لأربعين سنة، إلى أن منعها عمر بن عبد العزيز، وبعد مماته عادوا لعشرين سنة أخرى من الشتائم والسباب للإمام علي، ودسّوا ما

دسّوه من كلام كاذب عنه... ولكن كل ذلك اختفى ولم يجد له سبيلاً للاستمرار أمام شخصيته كعلم منارة في التقى والشجاعة والعلم والفقه...

على ما يبدو في تلك الفترة لم يهتم الكذّابون الوضّاعون "المؤلّفون" للروايات، لم يهتموا كثيراً بتأليف روايات تذمّ الإمام علي، أو تهيّبوا من ذلك! لا أدري، اكتفوا بالسباب والشتم له... أمّا الرسول(ع) وبقية الصحابة فكانت سيرة حياتهم متاحة للكذّابين والمبالغين والمستهترين... للخوض فيها، وصلهم طرف خيط عن حادثة ما، نسجوا عليها رواية، وعلى هذه الرواية نسجوا أخرى... وهكذا أكملوا النواقص لتكتمل سيرة تفصيلية لحياته (ع)، وفيها كمّ هائل من الكذب والمبالغة.

أقول لك هذا حتى تتعامل بواقعية مع سيرة حياته (ع) المنقولة في الروايات وكتب السيرة، ولتسير فيها بين الخطوط الشائكة منتبهاً للكذب أولاً، ومنتبهاً لنفسية وأفكار الناقل ثانياً، مستواه الفكري والنفسي سينعكس حتماً على ما ينقله لك، يحذف أو يضيف أو يبالغ أو... وهو لا يشعر بذلك، أنت لست أمام أشخاص متخصصين في نقل الوقائع بشكل منفصل عن التحليل وعن آرائهم الشخصية، بل أنت أمام عوام من الناس تميّزوا تاريخياً بمعاصرتهم للرسول(ع)، وهم خليط من مستويات فكرية ونفسية مختلفة، لا أكثر ولا أقل.

(فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ{5})
سيصير عندك صورة تعي معناها، وهم سيصير عندهم صورة ويعُونَ معناها. كما نقول بالعامية: حتشوف وحيشوفوا. ومن تكملة الكلام نفهم أنك ستبصر الأثر لإيمانك وسيبصرون الأثر لكفرهم.

(بِأَيِيّكُمُ الْمَفْتُونُ{6})
{بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ}، الفتنة هي التأثّر وتغيّر الحال "معنوياً أو مادياً" بعد التعرّض لشيء ما، وتتدرج من أُعجب به فتعلق به وتغيّر بسببه، إلى أُجبر عليه وتماشى معه فتغيّر بسببه، أو تعرّض للشيء ولم يتغيّر، افتتن ولم يتغيّر. وهم يقولون بأن محمداً(ع) افتتن، ففكرة أنه رسول إلهي إنما هي فكرة خطرت بباله وافتتن بها فتغير حاله وصار مجنوناً يدّعي أنه رسول، والآيات هنا تقول لهم أنهم سيرون من الذي يوصف بأن حاله تغيّرت، هل الذي آمن أو أنتم؟ فستبصرون.

كما تعلم في يوم القيامة من الموت سيعلمون أن اختيار الإيمان كان كما نقول: ضرب ذكاء. هو عمل صحيح وعقلاني، النبي محمد(ع) بالتأكيد هو أعقل الناس لأنه مهتدٍ ويطيعه سبحانه، ولكن الكافرين هم المفتونون حيث جاءتهم أفكار الكفر وتأثروا بها وغيّرتهم بشكل سلبي سيئ، وفي الآخرة سيبصرون بأم أعينهم ما نتج عن فتنتهم هذه من عذاب...

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ{7})
{إِنَّ رَبَّكَ}، إنَّ المسؤول عنك من مستوى إلهي، {هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ}، يعلم من لم يكن على المسلك الذي رسمه سبحانه والذي يوصل إلى مرضاته تعالى والجنّة وهو طريق الحقّ، {وَهُوَ}، ربّك، {أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}، بالذين هم على الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة.

من البديهي جداً أن الإله الأحد يعلم فعلاً طريق الضلال لأنه هو تعالى رسم طريق الهدى، وما أنت عليه "يا محمّد(ع)" فهو الهدى وعليه موافقة إلهية، والكافرون هم ضالون بتأكيد من مستوى إلهي على ضلالهم.

هناك طريقان لا ثالث لهما في هذه الحياة، إمّا طريق الضلال وإمّا الهدى، واختار محمّد(ع) وهو النموذج الذي تتحدّث السورة عنه، اختار طريق الهدى، وهذا القرآن يؤيّد اختياره ويعتبره صحيحاً وهدى.

لن نفهم القرآن إن لم ننتبه أن "محمداً" هو إنسان مثلي ومثلك، والفرق بينك وبينه نزول الوحي عليه، واختياره لنزول الوحي عليه حصل لأن قلبه سليم، نزول الوحي عليه وتوصيفه بأنه نبي ورسول، لا يعني أبداً أنه مميّز عنك بذلك، فلو كنت بسلامة قلبه لنزل الوحي عليك أيضاً... من الدارج بين الناس أن يقولوا: هو نبي وأنا لست نبياً فمن الطبيعي أن يكون مؤمناً أكثر منّي. هذا صحيح ولكن ليست صفة النبوة التي تجعله مؤمناً أكثر منّي، بل هو بالأصل مؤمن طاهر القلب لا يكذب ولا يخون... ولهذه الأسباب جرى اختياره لنزول الوحي عليه وصار نبياً.

هكذا نفهم القرآن حين يتحدّث عن "محمّد(ع)" ويعتبره نموذجاً، كإنسان عالي المواصفات، وهنا في السورة وفي الآية هنا ترى كلامها عن اعتبار السبيل الذي يتبعه "محمّد(ع)" هدى، فتعتبره نموذجاً عن أي إنسان آخر اختار اتباع هذا الوحي الإلهي.

مرّ في هذه الدراسة في سور متفرقة كلام عن أنه لا تأثير لنزول الوحي على الإيمان، نزول الوحي عليّ وعليك وعلى محمّد(ع) وعلى أبي جهل... لن يغيّر فينا أي شيء أبداً بتاتاً، وسنبقى كما نحن بفكرنا، نفسيتنا، سلوكنا... فلا شيء سيتغير، فالكلام الذي تسمعه بأذنك وتراه حقاً فتقتنع به وتنفّذه، أو تراه حقاً ولا يعجبك فتعارضه، فهو نفسه الكلام لو نزل على "وعيك" مباشرة وحياً من دون المرور بأذنيك.

هنا في السورة وفي عموم القرآن، علينا أن نفهم أن كل الأنبياء تحدّث عنهم القرآن كأناس مميزين، ولكنهم ليسوا مميزين بالنبوة ولا بالرسالة ولا بكتاب نزل عليهم... لا، هم بالأصل مميزون، هم نموذج لما يمكن أن يصل إليه أي إنسان صفّى قلبه من الخزعبلات والهوى السيئ والتخريف... ومن شروط التوظيف بالرسالة الإلهية أن يكون الشخص سليم القلب من أوّل وعيه... هكذا أرى لماذا لم أصر أنا نبياً رسولاً...

الكلام يجرّ الكلام، فلهذا السبب صارت مناطق فيها أنبياء وأخرى لم تصر فيها أنبياء، من آلاف السنين انحصرت النبوة في ذرية آدم(ع) وبعده انحصرت في ذرية النبي نوح(ع)، وبعده انحصرت في ذرية النبي إبراهيم(ع)، لا لأنه تعالى مزاجياً لم يختر أنبياء من الأقوام الأخرى، بل لأن هذه الذرية هي الوحيدة التي تأهّل منها من فيه صفات ملائمة لينزل عليه الوحي الإلهي.

(فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ{8})
حين يضغطون عليك باتهامهم لك بالجنون بسبب إيمانك بالدين الإلهي، أو حين يعرضون عليك المداهنة، أو تبديل الدين، أو إدغام دينهم في دينك... أو يقولون عن دينهم أنه الهدى... فلا تسمع كلامهم واثبت على إيمانك، أنت مهتد وهم ضالون، وها أتاك تأكيد إلهي على ذلك.

الذين يتهمونك بالجنون بسبب اختيارك للإيمان، هم أصلاً كذّابون في دينهم، وأنت صادق في دينك فلا تطعهم.

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ{9})
{وَدُّوا}، لديهم رغبة وسيكون على خاطرهم، {لَوْ تُدْهِنُ}، لو تسايرهم ولا تعارضهم حتى لو لم تغيّر دينك ولم تعلن اقتناعك بدينهم، {فَيُدْهِنُونَ}، عندها يسايرونك فلا يهينونك أو يهاجمونك بالكلام رغم كفرهم بدينك.

النبي محمّد(ع) يؤمن بإله واحد أحد بصفات حسنى، ويؤمن فقط بشريعة الحقّ شريعة ذلك الإله، فيقول المشركون: ليبقَ على إيمانه ولكن لا يهاجم آلهتنا بقوله بأنها وهمية ليست حقيقة، ولا يقول بأن شريعتنا ضالّة... ليسايرنا "فليدهن" ونحن بالتالي سنسايره "نُدهن" فلن نهاجمه ونقول بأنه مجنون وإيمانه ضلال. فترد الآية بالأمر أن لا تطعهم ولا بأي شكل يخالف الأوامر الإلهية.

خذ مثلاً حين ترى "مؤمناً" يقول لشخص يعمل نادلاً "خادماً" يقدّم الخمر في مطعم ما، فيقول النادل "الكرسون" للمؤمن أنها الوظيفة الوحيدة المتاحة له وإن تركها سيموت من الجوع... فيقول المؤمن له: تقديمك للخمر ليس حراماً، ولكن ترك الصلاة حرام. على أساس المداهنة والمسايرة، ليصلِّ أولاً وبعدها سنقول له بأن تقديم الخمر حرام، وهكذا نكسبه للإيمان بالهداوة. لا، هذا ممنوع، فهذا دين من اخترعك وليس دين الله تعالى، فأوامره تعالى لا تسمح بالكذب في العقيدة والشريعة، ولا بالمداهنة "المسايرة والمسايسة" في العقيدة والشريعة... الكذب سمح به تعالى في حالات نادرة، كما في حالة تعرّضك أو تعرّض الآخرين لخطر الموت أو التعذيب، فيجوز لك الكذب للخلاص من ذلك كما نفهم من الآية 28 من سورة آل عمران "لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً..."، ويجوز الكذب في الإصلاح بين الناس، فتقول للمتخاصمين أنك سمعت الآخر يمدحه... أمّا في الظروف العادية فلا يجوز الكذب بتاتاً أبداً، على معنى: إنما أنت نذير. فإن آمنوا أهلاً وسهلاً وإن لم يؤمنوا فمع ألف سلامة وليس من وظيفتك ولا من مهامّك إقناعهم بالدين الإلهي بطرق ملتوية.

تقول السورة للنبي محمّد(ع)، لا تفكر ولا بأي طريقة أنه سبحانه يسمح لك أن تطيعهم أو تداهنهم حتى يميلوا إليك ويؤمنوا، لا، فيجب عليك البقاء صلباً في العقيدة والشريعة مهما حصل، ولا تهتمّ إن آمنوا أو لم يؤمنوا فهذه مشكلتهم وليست مشكلتك...

السورة بدأت بعرض صفات الذي اختار الطريق الآخر غير طريق الإيمان، فالذي يداهن لا يكون لديه إيمان حقيقي بدينه، لأنه يقبل المسايرة، يقبل التغيير في العقيدة، ولا يهتم إن مدح عقيدة مخالفة لعقيدته، على أساس أنه منفتح! لا، فالإيمان طريق واحد، والضلال هو كل الطرق الأخرى، والإله سبحانه لا يوافق على سلوك طرق الضلال وتسميتها بطرق الهدى، لا، فالضلال ضلال وعليه عقاب.

(وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ{10})
{وَلَا تُطِعْ}، لا تسمع وتنفّذ كلام، {كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ}، شخص يحلف كثيراً، وهو مهين ليس له قيمة.

الحلفان هو كلام تؤكّد به صحّة تبرير شيء حصل "في الماضي"، فالذي عارض طريقك أيها النبي محمّد(ع) فعلى ماذا يحلف لك؟ على صحّة دينه؟ على صحّة قدرات آلهته؟ أنها تشفي وترزق وتنصر... وعلى ماذا يحلف لك لتترك إيمانك أو لتداهنه؟ قيمة الحلفان من قيمة الذي يحلف، والرجل الكريم "المحترم" حين يحلف ستصدّقه، أمّا الذي يخترع آلهة ويعبدها، وخذ مثلاً الذي عبد الحجر! أو ينكر توحيده تعالى، أو يخترع الشريعة التي تناسب هواه السيئ... فهذا من أين له الاحترام حتى تصدّقه إن حلف لك على صحّة دينه أو على احتمال إيمانه لو داهنته؟ وهو مهين، هو بلا قيمة ولا مكانة ولا كرامة.

لنكمل مع صفات الذين يحلفون لك عن صحّة دينهم:

(هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ{11})
{هَمَّازٍ}، بشكل متكرر يقوم بالضغط بالشدّ على شيء، وهنا من السياق ترى أنه يشدّ بيده بإصبعه بعكّازه... على من بقربه ليلتفت إلى أناس آخرين يريد السخرية منهم، فلنقل إنّه كان يقف مع شخص ما ومرّ شخص ثالث، حتى لا يسمعه الشخص الثالث فإنّه يقوم بهمز الذي بقربه، بإصبعه يضغط على خاصرة الذي بجنبه حتى ينتبه للشخص الثالث الذي يريد السخرية منه.

{مَشَّاءٍ}، بشكل متكرّر يمشي من مكان إلى مكان، {بِنَمِيمٍ}، يقول عن الناس أموراً لم يفعلوها أصلاً، ينقل الأحاديث الكاذبة من جماعة لجماعة أخرى، والكلام هنا عن أشياء سيئة يقولها حتى تُحْتَقَرَ أو تتخالف الناس مع بعضها.

هذا الشخص الذي اختار طريقاً آخر غير طريق محمّد(ع)، فهو بلا أخلاق، ولديه مزاج ورغبة السخرية والحطّ من قيمة الناس عبر الإشارة إليهم للسخرية منهم، وعبر اختراع أحاديث كاذبة سيئة عنهم والتنقّل لقولها للآخرين...

هو "يمشي" يبذل جهده ووقته في أمور عاطلة باطلة مؤذية مخرّبة لحياة الناس، فإن لم يكن هذا الضلال فكيف يكون الضلال؟ وهذا النموذج كيف يكون خياره الديني مستقيماً ونصائحه وكلامه عن الدين جيدة؟

بسبب صفاته الحسنى سبحانه، فإنّه يتحدّث معنا بشفافية دائماً، سيأتيك في آخر السورة تصرّف غير مقبول قام به نبي من الأنبياء... يونس(ع) صاحب الحوت، ولم يستر سبحانه على ذلك ولم يتجاهله بل ذكره ونبّه بقية الأنبياء منه، وحين تأتيك الآيات سترى الخطأ وقصّته، ولكن ضع في بالك أنّه ليس من مستوى سوء خطأ الكافرين بدينه تعالى، بل هو على مقياس: سيئات المقربين. هذه النوعية الراقية إيمانياً ليس من المتوقع منها ارتكاب هذا النوع من الأخطاء التي لو فعلها غيرهم لما حسبها تعالى عليهم سيئة، لأن مستواهم أقل من معيارها...

(مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ{12})
{مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ}، نقول عن شخص إنّه معطاء، ونقول بالعكس إنّه منّاع، فهو عنده مجال لفعل الخير مع الآخرين بمساعدتهم مالياً أو علمياً أو طبياً... ولكنه لا يفعل ذلك، يمنع نفسه والآخرين عن فعل الخير.

{مُعْتَدٍ}، يتجاوز مجاله، يتعدى حدوده سواء مع ربّه سبحانه فيشرك ويكفر بكلامه، وسواء مع العباد يعتدي على حقوقهم.

{أَثِيمٍ}، يفعل الآثام، يفعل الأمور التي يعلم أنّها سيئة وعليها عقاب لأنّها معصية لأوامره تعالى، ليس بالخطأ وعن غير قصد يقوم بالسيئات، بل عن علم بسوئها وبوجود عقاب عليها يفعلها.

هنا الكلام يأخذك إلى معرفتنا نحن وتمييزنا للأمور الحسنة والسيئة حتى لو لم يصلنا منه تعالى أي كلام، الآيات تتحدّث مع وعن كافر لا يؤمن بدينه تعالى وبالتالي فهو لا يؤمن بقدسية كتبه تعالى، وحين تصفه بالإثم، تقصد ما جعله تعالى فيه من تمييز للخير والشرّ، واختياره لفعل الشرّ، وهذا هو نفسه معصيته تعالى.

لتبسيط الفكرة نتذكّر وصف سورتنا هذه للرسول(ع) بأنّه هو أصلاً وأساساً على خلق عظيم، ونزل عليه الوحي، وآمن به بشكل عادي لأنّه تماشى مع قلبه... ومقابله أناس كفروا، ترينا الآيات أنهم أصلاً ليسوا على خلق، فهم تافهون سافلون مهانون... وهم هكذا من قبل نزول القرآن وبقوا هكذا حتى من بعد ما سمعوه، حين يقررون فعل شيء سيئ ما، فهم يعلمون أنّه لا يتماشى مع دينه تعالى الذي يحرّم فعل السوء، وهكذا يصيرون موصوفين بالإثم، سواء علموا ما يحرّمه تعالى، أم لم يعلموا، فهم لديهم قدرة على تمييز الحسن من السوء، ويعلمون بتحريمه تعالى لفعل أي سوء، وبفعلهم للسوء فهم يعلمون أنهم يخالفون أوامره تعالى وبذلك يصحّ وصفهم بالآثمين.

(عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ{13})
{عُتُلٍّ}، شديد الخصومة، وعنيف في النقاشات، لا يتنازل ولا يتراجع عمّا هو عليه حتى لو برهنت له بألف برهان فإنّه يركب رأسه ولا يتراجع، {بَعْدَ ذَلِكَ}، بعد هذه المواصفات السيئة التي يتّصف بها، من كذب ومداهنة وأنّه همّاز مشاء بنميم مناع للخير... فهو، {زَنِيمٍ}، ينسب الأمور لغير محلّها، يقول أموراً غير مترابطة ولا منطقية في النسبة بينها.

هو بعد هذه الصفات السيئة كلّها: عتل زنيم، شديد الخصومة لا يتراجع عن موقفه، رغم أنّه يقول أشياء غير مترابطة؟!

من التاريخ للمجتمعات البشرية ترى بروز أشخاص يراهم الآخرون مميزين بأخلاقهم وأفعالهم الحسنة، سواء أكانوا من المنتسبين لدين أو لحزب أو جماعة أو أصدقاء... يمدحهم الناس، ويرغب البعض في الانضمام إليهم ليصير على عقيدتهم وفكرهم... وهنا السورة تعرض لك نموذجين، نموذج محمّد ذي الأخلاق العظيمة، ونموذج الكفّار ذوي الأخلاق العاطلة، فأيهما تختار؟

في العديد من التفاسير كلام غير الذي قلناه عن معنى الآية هنا وما سبقها، اعتمدوا في ذلك على كلام بعض الأجيال الأولى من المسلمين، وبمراجعتي لذلك الكلام تبيّن أنّه افتراض من البعض منهم لتفسير الآيات، وهم ليسوا معاصرين لنزول هذه الآيات، وما قالوه ليس المعاني العربية للكلمات، وما تقرؤه هنا "وفي هذه الدراسة عموماً" من معان للكلمات، هو خلاصة مراجعة القواميس وأشعار العرب قبل الإسلام، ومقارنتها مع استعمال القرآن مع تقويم استعمال الناس بميزان استعمال القرآن، فهو كلام الإله سبحانه، وحتماً هو أدقّ من كلامهم. وأمّا الكلمات التي وردت في القرآن مرّة واحدة، فالاعتماد في فهمها على استعمال العرب لها أولاً، اعتمدت في ذلك أشعارهم قبل الإسلام، وثانياً على القواميس، مبتعداً عمّا هو منسوب للمفسرين ولم يكن له استناد لغوي، فتفاسيرهم تلك أكثرها افتراضات غير مدروسة.

الكلام يجرّ الكلام وسيخطر ببالك لتسألني: كيف يمكن لك معرفة معاني الكلمات بدقة وتقول بأن الأجيال الأولى من المسلمين جهلوها وهم فصحاء أقحاح؟! سأقول لك إنّ هذا الوصف لهم هو المشكلة التي سبّبت تقديس أقوالهم ناسين أن الناس أجناس، وبعضهم معارفه أكثر من الآخرين، نفترض أن الجيل الأول من المسلمين كانوا على مستوى رفيع من العلوم باللغة والتاريخ والجغرافيا والطبّ والفلك... وهم ليسوا كذلك، وأبسط دليل على ذلك تخالفهم مع بعضهم في معاني الكلمات والجمل القرآنية، بل تخالف الواحد منهم مع نفسه بروايتين عنه بتفسيرين مختلفين لنفس الكلمة أو الآية! وخذ مثلاً ما تراه في قاموس تاج العروس الذي حاول بكل أمانة العمل على استخراج معاني الكلمات، فذكر ما قاله الذين قبله ونقاشهم، وذكر لك ما قيل في تفاسير القرآن والروايات التفسيرية مفصولاً عن الدراسة اللغوية، وكثيراً ما أشار هو وغيره من كتّاب القواميس إلى كون التفاسير لم تعتمد المعنى اللغوي، واعتمدت التطبيق أحياناً، والتخمين أحياناً أخرى، ويشيرون لوقوع المفسّرين عموماً في الخطأ والسهو والاشتباه... في معنى كلمة ما.

(أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ{14})
تكمل السورة حديثها عن أبرز النماذج التي تختار طريق الضلال:

{أَنْ كَانَ}، هذا الذي بهذه المواصفات، {ذَا مَالٍ}، منسوب له مال، عنده أموال من نقود وعقارات وبضائع...
{وَبَنِينَ}، لديه أولاد يشكّلون له قوّة في المجتمع، يتعدّى على الناس بأولاده، أو يعتمد على خوف الناس من أولاده...

ما يهم إن كان الكافر لديه أموال وأولاد ذكور بكثرة؟ ما قيمته الحقيقية إن كانت صفاته سيئة؟ كثرة المال والبنين مقياس مهم عند بعض البشر وليس عند الله سبحانه، وترى في عصرنا رؤساء دول وأحزاب وجمعيات وطوائف... حمقى مجانين! جعلهم الناس زعماء بسبب ما معهم من مال وقوة. الغنى وكثرة الأولاد كنموذج عن أي شيء آخر يؤمّن القوة فهذا لا يعني أن الرجل لديه مصداقية أو أنه مُحترم وأقواله وآراؤه يجب أن تكون مقبولة، النبي محمد(ع) كان فقيراً وليس عنده "بنين" أولاد ذكور، ولكنه على خلق عظيم، وجدير بأن تكون أقواله صادقة ومسموعة.

في الكثير من المجتمعات عندما يتحدث شخص لديه أموال كثيرة، أو شخص عنده أولاد يؤلفون عصابة أو مجموعة، أو عنده أنصار... فهذا الشخص عندما يتحدث فإن الناس العاديين لا يوجّهون إليه الملاحظات عندما يخطئ! لأنهم يخافون حتى من جرح شعوره! وهنا الآية تقول إنّه حتى لو كان غنياً وعنده أولاد فما معنى هذا؟ فهذا لا يغيّر بمواصفاته السيئة، فإذا كان في نظركم له قيمة، وهو يرى نفسه له قيمة، فأنتم وهو بلا قيمة ولن ترتفع قيمتكم أبداً.

أنت تعلم أن كلام القرآن غالباً عن نماذج بارزة، واختارت السورة هنا الكافر الثري ذا الأولاد كنموذج، من البديهي أنّه ليس كل كافر لديه أموال وأولاد، ولكن الكفّار الفقراء ليسوا نموذجاً صالحاً لضرب المثل بهم، فهؤلاء استضعفوا أنفسهم ليكونوا تابعين للكفّار أصحاب المال والسلطة، فهؤلاء من أغبى الأغبياء، باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم، فهم ليسوا هنا في الدنيا مرتاحين، ولا من كفرهم مستفيدين، ويقدّمون الدعم الجماهيري للكافر الغني صاحب السلطة، فتزيد سلطته ويستفيد بعزّ الدنيا، وهم يزداد فقرهم وذلّهم لأنه لن يعاملهم بالحسنى... قفز القرآن عنهم هنا مركّزاً على الذي على الأقل لديه سبب يدفعه للتعلّق بالدنيا كارهاً الدين الإلهي الذي يدفعه للتعلّق بالآخرة، مركّزاً على من لديه أموال وأولاد، وأمّا الكافر الفقير وبلا سلطة، فما سبب تعلّقه بالدنيا ليرفض الدين الذي يؤمّن له رفاهية الدنيا والآخرة؟! وهذا موضوع ترى القرآن تناوله بكلامه عن التابعين والذين يقولون إنّهم كانوا مستضعفين... وراجع كمثال ما ورد في الآية 47 من سورة غافر "وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ".

(إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ{15})
{إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا}، إذا جرت القراءة عن مستند للأمور المميزة المنسوبة له تعالى على هذا الشخص، والناس تخترع أموراً عديدة، حتى إنهم يخترعون أموراً إلهية، وهذا النموذج الكافر إذا سمع كلاماً عن أمور إلهية مميزة ولها مستند إلهي حقيقي، كهذا القرآن الذي يتلوه النبي(ع) نقلاً عن الوحي نقلاً عن الكتاب الرئيسي الإلهي، الذي يخبرهم عن أفعاله وصفاته تعالى وقراراته... قال، فيقول الكافر عن الآيات الإلهية إنها {أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}، فهي فقط كلام قديم سطّره فكتبه سطراً بعد سطر الناس الذين كانوا أولاً قبلنا، وهي فقط قصص خرافية وهمية اخترعها الناس قديماً، وليس لهذا الكلام أي ارتباط بمصدر إلهي، وتسطيرها لتصير مكتوبة منذ زمن قديم لا يعني أنها صارت صحيحة.

نحن هنا أمام نموذج عن شخص بصفات سيئة، تغاضى عنها الناس وصار زعيماً أو وجيهاً وله مكانة بينهم لأنه غني أو بسبب كثرة أولاده، فهل هذا الشخص "النموذج السيّء" مؤهل ليحكم على آياته تعالى بأنها أساطير خرافات ولا قيمة لها؟ وكما ترى أوصلتك الآيات حيث تقول لك: شخص بلا قيمة حقيقية، مهين كذّاب فاسد... يقول عن آيات الإله سبحانه إنها بلا قيمة!

(سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ{16})
تحقيراً للغني القوي الذي قال عن آيات ربه إنها {أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}، سبحانه سوف يسمه فيميّزه بعلامة ودمغة، {عَلَى الْخُرْطُومِ}، على أنفه، وهي كلمة مشهورة لأنف الفيل، ولكنها عامة لكل أنف له مجرى خارجي.

هو الآن شامخ بأنفه ويرى نفسه مميزاً، وفي يوم القيامة سيضع له تعالى علامة على وجهه وبالتحديد على أنفه، ومن سياق الكلام تعلم أنها شيء يجعله يبدو محقّراً ذليلاً بلا قيمة، وذلك بسبب سخريته وتحقيره لآيات الله تعالى.

الآيات تتحدث عن أشخاص كانوا معاصرين للنبي محمد(ع)، وقيل إنها تتحدث عن الوليد بن المغيرة أو الأخنس بن شريق، وعلى كل حال فالآيات تصف لنا نموذجاً من الناس الذين لا يريدون اتباع دينه تعالى الذي وصلهم عبر الرسول محمّد(ع)، والحجج التي يطرحونها أو حلفانهم لا قيمة له إذا كانوا بلا مبادئ وأخلاقهم وضيعة، ويعتمدون على مالهم وقوتهم واستخدام نفوذهم الاجتماعي عند طرحهم لرأيهم في مقابل وضد ما يأمر به الله تعالى صراحة عبر النبي محمد(ع). وفي أي زمان أو مكان وجدنا شخصاً يسخر من الدين الإلهي أو يحلف بأن الدين خطأ ويؤثّر بذلك على غيره من الناس... فبالبحث والتدقيق ستجد هذه الآيات تنطبق عليه وليست محصورة فيمن كانوا في زمن النبي(ع).

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ)

{إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ}، جعلهم سبحانه يتعرّضون لشيء ليرى كيف يتعاملون ويتفاعلون معه، {كَمَا} مثلما، {بَلَوْنَا} امتحنا، {أَصْحَابَ الْجَنَّةِ} الذين مع بعض في جنة، والكلام هنا عن أشخاص لديهم مكان موصوف بروعته، وفيه بساتين وحقول تسبب البهجة من جمالها وخضرتها وثمارها... وهناك أشخاص كان لديهم أشجار وزرع وهذه نعمة حصلوا عليها منه تعالى كابتلاء ليرى ماذا سيفعلون بها، وستتابع السورة قصتهم...

أولئك الذين اختاروا الطريق الآخر غير طريق الإيمان، ويعتبرون سلوك طريق الإيمان جنوناً، والنماذج البارزة منهم هم الذين لديهم نعمة المال والولد، وهناك نماذج أخرى حصلت على نعم أخرى... وبالعموم هم في البلاء ليرى تعالى كيف يتصرفون إن حصلوا على نعمة ما، وهل يكفرون أم يشكرون؟ وستذكر لنا السورة نموذجاً عن بلاء حصل مع جماعة كانت في نعمة وكفرت...

القصة التي ستقولها الآيات التالية تبين لنا أننا مجرد بشر، فإن حصلنا على النعمة فنحن في ابتلاء، وهناك قدرة فوقنا تستطيع ساعة تشاء اتخاذ قرار بحرماننا من النعمة في الدنيا، وسترى أن القرآن اختار أناساً مؤمنين تعرّضوا للبلاء وسقطوا، ولم يختر أناساً كافرين تعرضوا للبلاء وسقطوا، ولو اختارت حادثة جرت مع كافرين حيث احترق رزقهم أو خسرت تجارتهم أو... ففي النهاية لن نحصل على المغزى الذي تريدك السورة الانتباه له، وهي تريدك رؤية جميع الناس تحت حكم البلاء بما هو متاح لهم، والمؤمن والكافر كلاهما في البلاء، وتريك أنه تعالى لا يحابي أي أحد، فمن أساء وخالف الأوامر الإلهية فسينال العقاب المناسب، وتريك أن خط الرجعة مفتوح لمن أساء، ونقلت لك دعاء أصحاب الجنّة بعد انتباههم لسوء فعلهم بأنهم يأملون ويتوقعون منه تعالى أن يرزقهم من جديد...

قبل إكمال القصة نلاحظ في الكتب روايات تخمينية عن تحديد من هم أصحاب الجنّة وأين كانت جنّتهم... وهذا كلّه من الفضول الذي لا قيمة له، والسورة عرضت القصة بالعمومية لتنطبق على كلّ من فعل مثل أصحاب هذه الجنّة، وأصلا العبرة والاستفادة لا علاقة لها بمعرفة أي تفاصيل أخرى غير التي ذكرتها السورة، ومع ذلك، فهذه القصة تنطبق على الكثيرين عبر التاريخ ممن لديهم بساتين وحقول ويحاولون جهدهم ألا يحرجهم فقير ما ليطلب منهم صدقة من إنتاجهم، على أساس أنها تعبهم وهم لوحدهم يستحقونها... فليذهب الفقير وليعمل ويجتهد ولا يأكل تعبنا الذي حصلنا عليه بمجهودنا...

نكرر ما تريد السورة عرضه علينا حيث ستقول في القصة: الذين يملكون المال أو البنين أو الصحة والأمان أو البيوت أو الشركات... ويعتقدون أنهم بمجهودهم الذاتي حصلوا على ذلك وليس بفضل منه تعالى، ويعتقدون أنه يحق لهم التصرّف بها كما يشاؤون من دون الانتباه للأوامر الإلهية... فقصتهم تشبه قصة أصحاب الجنة، وهي التالية:

أيضاً ننتبه لسبب اختيار السورة لهذه القصة، وهل كإنسان وكعاقل ستناقش في أهمية مساعدة الآخرين المحتاجين للمساعدة؟ إن لم يأكلوا ماتوا جوعاً، أو انحرفت صحّتهم واعتلّوا بالأمراض، أو فقدوا قواهم ولن يعودوا قادرين على انتظار تغيّر الظروف التي ستتغيّر معها أوضاعهم المالية... وهل تناقش في ذلك؟ ألا تضع نفسك مكانهم وقد عاكستك الظروف وصرت بحاجة للمساعدة؟ أم أنت مسيطر على ظروفك ومستحيل أن تتعثّر أمورك لأنك فهيم عليم محنّك... ألا تنتبه أن أكثر مآسي الآفات الأمنية سببها السرقة والسطو والاعتداء الذي يؤدّي إلى إرعاب الناس وجرحهم بل

وقتلهم أحياناً، وأن الفقر وفقدان الأمان المالي سبب رئيسي لتلك الحوادث؟ ولهذه الأسباب وغيرها اختارت السورة نموذجاً لن يناقش عاقل في وضوح سوء مخالفة أوامره تعالى، وهو موضوع مساعدة المحتاجين من فائض الأرزاق.

تذكّر دائماً أن كلمة جنة ليست مخصصة لمكان رائع في الآخرة، وهي كلمة لعامة أي مكان رائع، والقرآن والعرب استعملوها لوصف أماكن هنا على الأرض، وقلّ استعمالنا لهذه الكلمة وبقي استعمالنا لتصغيرها "جنينة"، وضع هذا في بالك حيث تدعو الحاجة، وفي كلام القرآن عن الجنة التي كان فيها آدم(ع)، درج بين ثقافة عوام الناس أنها جنة الآخرة التي سيدخلها المؤمنون خالدين، ولم يقبلوا أنها جنة هنا على الأرض! علماً أن الآخرة أصلاً ليست موجودة الآن! ونحن في الدنيا، وبعدما تتبدّل الدنيا ستأتي الآخرة...

(إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ{17})
{إِذْ أَقْسَمُوا}، حيث أصحاب الجنّة أكّدوا الاتفاق بينهم، فقالوا مثلا: والله. {لَيَصْرِمُنَّهَا}، لسوف ينزعون الثمار عن زرعهم، فيجنون كامل محاصيلهم، {مُصْبِحِينَ}، عند أوّل النهار، عند الصباح.

بعبارة أخرى، حان وقت قطاف وجني المحاصيل من الجنّة، وأقسموا أن يجمعوا كل محاصيلهم عند الصباح، ونكمل مع الآية التالية:

(وَلَا يَسْتَثْنُونَ{18})
ولا يتركون منها شيئاً من دون جني، فاتفقوا أن يصرموها فيقطفوها ويجنوها، كلها بدون استثناء في يوم واحد.

سيبدو لك من تكملة الآيات أنهم كانوا يسكنون في قرية فيها فقراء، والفقراء كانوا يتوقعون أن تنالهم حصة من الحصيد والقطاف عبر تصدّق أصحاب الجنّة عليهم... ولكن أصحاب الجنّة ينوون جني محصولهم بالسرّ وبسرعة في صباح واحد حتى لا يعلم الفقراء بذلك ويقصدوهم إلى الجنّة لينالوا صدقة منها...

يبدو أن جنّتهم كان محصولها كبيراً بشكل ما، والقسم "التأكيد" هنا بينهم على تحصيل كامل الإنتاج وتخزينه أو بيعه بسرعة في صباح نهار واحد، أو خلال نهار واحد، وقبل أن يعلم أي أحد ويحرجهم ليتصدّقوا عليه.

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ{19})
{فَطَافَ}، جال ومرّ ثم انتقل، {عَلَيْهَا}، على الجنّة، {طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ}، شيء أمر به المسؤول عنهم من مستوى إلهي أن يجول على جنّتهم، فقدّر سبحانه أن يمر الهواء البارد جداً أو الساخن جداً أو الريح القوية أو الحشرات... على جنتهم، {وَهُمْ نَائِمُونَ}، وأصحاب الجنة فاقدون للوعي والإحساس بمحيطهم، في بيوتهم نائمون ليلاً.

(فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ{20})
{فَأَصْبَحَتْ}، كانت الجنّة صالحة للقطاف والجني وأول ما صار حالها بعد أن طاف عليها الطائف، {كَالصَّرِيمِ}، كأنها محصودة ومقطوفة... فصارت خالية لا شيء فيها للقطاف بسبب ما طاف عليها.

الأمور كانت على التمام، وفي الليلة التي نووا فيها نية سيئة بحرمان الفقراء من محصول جنّتهم، مرّ طائف على جنّتهم فجعلها بلا محصول.

ضع في بالك دائماً أن القرآن استعمل اللغة العربية ولكن بدقّة بمستوى إلهي، وكلمة "أصبح" ومشتقاتها من أبرز النماذج عن ذلك، واستعملها القرآن "هي وبقية الكلمات" على أساس المعنى، وكلمة "أصبح" على أساس معناها تعطي معنى: أوّل ما صار عليه الشيء بعد حالة سابقة. ففترة الصباح من اليوم هي أول حالة صارت لليوم من بعد الليل، {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً} كما ورد في الآية 10 من سورة القصص فهو يشير إلى أوّل حالة أصابتها من بعد إلقاء الطفل في النهر، فوعيها الإدراكي صار فارغاً فلا شيء فيه، بالعامية نقول: طاش فكرها، فضي راسها... ومثلها ما ورد في الآية 103 من سورة آل عمران {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً}، فأول ما صارت عليه حالتكم من بعد إيمانكم أن انتهت العداوة بينكم

وصرتم إخواناً... هذه الآيات وأمثالها من الواضح أنها لا تشير لفترة الصباح من اليوم، ولذلك تجد المفسرين عموما يستبدلون كلمة أصبح بكلمة صار على أساس التفسير بالمرادف، وهذا غير دقيق كما ترى، وحتى أنك لو دقّقت سترى من كلام المفسرين أنهم غير مقتنعين باستعمال القرآن لكلمة أصبح في هذه النوعية من الجمل! لأنهم يعتبرون القرآن كتاباً إلهياً فيجب أن يكون دقيقاً، وكلمة أصبح تقابل كلمة أمسى، فلماذا لم يستعمل القرآن كلمة صار؟

ولو أطلت عليك فلنستفد من التوسّع بالكلام قليلاً، فهل كلمة أمسى على أساس معناها تشير لآخر ما صار عليه الشيء من بعد حالة سابقة؟ فهل هي المقابل لكلمة أصبح على أساس المعنى للكلمتين؟ لا، لا يحقّ لنا التعامل مع اللغة بهذا الشكل، فالناطقون باللغة العربية وبحسب ما لدي من مصادر، لم يستعملوا كلمة أمسى بهذا الشكل، وكثيراً ما استعملوا كلمة أصبح على معنى أول حالة الشيء، وحتى نحن في كلامنا العامي كثيراً ما نستعمل كلمة أصبح ولا نشير بها لفترة الصباح...

في آيتنا هنا لم يقل القرآن "صارت كالصريم" لأنه أراد التعبير بدقّة، فعبّر عن أوّل ما صارت بعد الطائف عليها كالصريم، فهناك عوامل تصيب المحاصيل ولا تخربها فوراً بل يبقى الأثر مؤذياً ويفسد المحصول بعد أيام، أمّا في حالتنا هنا، فأول ما مرّ العامل المؤذي على الجنّة صارت كالصريم.

(فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ{21})
أصحاب البستان كانوا نائمين حين مرّ الطائف على بستانهم ووقعت الكارثة، وهم لا يعلمون بما حصل:

{فَتَنَادَوْا}، توجّه كل منهم للآخرين بالكلام، وتنادوا، {مُصْبِحِينَ}، عند أول ما استيقظوا عند الصباح، في أول بداية النهار.

والنداء هو عموم إصدار صوت ضعيف أو قوي يتوجّه به إلى سامع محدّد. ومن مشتقاته: يريد المنادي من السامع الالتفات للكلام أو يعلن المنادي للسامع أنه متوجّه إليه حصراً بكلامه. وكما ترى فالنداء ليس محصوراً في الكلام بالصوت القوي، فبعد الآية التالية سترى أنهم يتخافتون...

(أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ{22})
النداء لبعضهم البعض كان: {أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ}، فلننطلق حتى نستغل فترة الضوء من اليوم لنكون على الحرث على الشيء الذي تمّت تهيئته للإنتاج، وهنا الكلام عن صرم الجنّة.

فعليكم بالاستعجال واستغلال كامل فترة الضوء من اليوم، {إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ}، إن كنتم ستصرمون وفعلاً قررتم جني وحصد المحصول.

(فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ{23})
{فَانْطَلَقُوا}، بدأ أصحاب الجنة تحرّكهم من بيوتهم وتوجّهوا إلى جنّتهم، {وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ}، يتحدثون بصوت خافت منخفض، حتى لا يسمعهم أحد من الجيران ويستيقظ على صوتهم.

فعل النداء الذي ورد في الآية ما قبل السابقة لا يشير إلى الصوت العالي، وبمراجعة استعمال القرآن لكلمة نداء ومشتقاتها سترى أنها وصف لعامة توجيه الكلام إلى سامع محدّد، سواء بصوت عالٍ أو منخفض، وهنا التخافت لخصوص الصوت الخافت، المنخفض النبرة والحدّة حتى لا يسمعهم الآخرون.

وبماذا كانوا يتحدثون:

(أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ{24})
{أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا}، من المحسوم قرارنا أن لا يدخل الجنة، {الْيَوْمَ}، في زمننا هذا، {عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ}، حتى لو شخص ما يوصف بأنه بحاجة للمساعدة، وحتى لو كانت ظروفه المالية متعثّرة، فلن ندعه يدخل إلى الجنّة ليأخذ حصّة منها.

وهذا القول هو نيّتهم السيئة التي تتمحور حولها القصّة، وتعاهدوا بالليل على حرمان الفقراء من أي عطاء، وعلى الطريق كانوا يؤكّدون على بعضهم حتى لا يحنّ أو يلين قلب أحد منهم ويساعد مسكيناً ما... وسترى أن واحداً منهم "أوسطهم" كان لديه ميول للمعارضة وأبدى اعتراضه... ولذلك هم يعيدون التأكيد على قرارهم ليلتزم الجميع به.

والمسكين وصف لعموم من تعرّض لظروف متعثّرة أو صعبة، واستعملها العرب لوصف الذي حالته المادية متعثرة أو معدومة، ووصفوا بها الذي حالته النفسية سيئة بسبب تعرّضه لظروف صعبة. فيوصف بها الفقير الذي لا يملك قوت يومه ويوصف بها الذي يمرّ بظروف مالية صعبة حتى لو كان يملك بيتاً أو متجراً أو أرضاً... ولكن ظروفه متعسرة، وهذا واضح في الآية 79 من سورة الكهف {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ... وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً}، وكانوا يملكون السفينة ولكن إنتاجها لا يكفي ليعيشوا بأمان اقتصادي.

(وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ{25})
{وَغَدَوْا}، في فترة الضوء من اليوم وصلوا وكما هو مقرّر إلى جنّتهم، {عَلَى حَرْدٍ}، على العنف والشدة التي لا يمكن ردّها من عنفها وشدّتها، طبعاً بمنع المساكين من دخول الجنّة، {قَادِرِينَ}، مستطيعين.

فانطلقوا صباحاً وهم في حالة يظنون فيها أنه لا يوجد قوة تجبرهم على إعطاء الفقراء والمساكين من محصول جنّتهم، بل مصممون على الحرد أي استعمال العنف والقسوة بشكل حاسم في منع من يطلب منهم صدقة.

كلمة حرد لم ترد إلا مرّة واحدة هنا في القرآن.

(فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ{26})
{فَلَمَّا رَأَوْهَا}، عندما صار عندهم صورة محدّدة للجنة، بدون ثمار، علموا مباشرة أن نيتهم السيئة سبّبت هذا الخراب، ومباشرة قالوا: {إِنَّا لَضَالُّونَ}، لم نكن على الطريق الصحيح، فنيتنا كانت ضلالاً.

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شراً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك البندقية التي ترمي لمسافات بعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضلّ عنك صيدها. واستعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، فلم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} رداً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ{27})
{بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ}، بسبب ضلالنا جاء قرار بحرماننا وهذا ما نراه من جنّتنا المصرومة، فنحن ممنوعون حتى من تعبنا، كان أمامنا ولكننا الآن لم نعد نستطيع الاستفادة منه.

أصلاً كان واضحاً لهم أن قرارهم بحرمان المساكين هو ضلال، والآن يرون أن قدرة فوقهم قررت بحرمانهم هم مما تعبوا فيه.

(قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ{28})
سيبدو من الآيات أن نقاشاً دار بينهم في السابق وأن أحدهم وهو أوسطهم في نظرته للأمور، أي أعدلهم وأحسنهم رأياً، فهذا الشخص يذكّرهم أنه: {أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ}؟ في الليلة السابقة حين قرروا حرمان المساكين من محصول جنّتهم قال لهم قبل ذلك بأن يسبّحوه تعالى فينزهوه عن الصفات الناقصة المعيبة، فالاعتقاد بأنهم هم بمجهودهم وقدراتهم الذاتية صار لديهم نتاج زراعي بمعزل عنه تعالى، وبالتالي لا يحقّ له تعالى أن يأمرهم بالتصدّق مما هو لهم، فهذا

اعتقاد لا يتماشى مع تنزيهه تعالى، لأن الإله رزقهم، والإله أمرهم بالتصدّق على الفقراء، منحهم الجنّة بمحصولها الزراعي ليبلوهم، ليرى ماذا سيكون ردّ فعلهم، فهل يشكرونه؟ وهل يسبحونه؟ وهل يطيعون أوامره...

يمكن أن تفهم الجملة المختصرة التي قالها أوسطهم إذا تصوّرت نفسك ترى الشجر الوارف والثمار وتقول: سبحان الله. يعني أنت تعترف بالإله الذي سبّب وجود هذه الجنّة، وتنزّهه عن أي صفة ناقصة. أمّا بالعكس، فمن لا يرى الإله سبحانه سيقول: هذا من تعبي وجهدي لوحدي.

يبدو مما سبق من كلام السورة أن هذا الأوسط لم يستطع إقناعهم وتغيير رأي البقية، واتخذوا قراراً بالأغلبية على حرمان المساكين، وصار صوته وحيداً بينهم، ومشى مجبوراً غصباً عنه على قرارهم. أقول لك هذا لترى أن مؤمناً أصابته المشكلة ضمناً بسبب سلوك الذين حوله، فرغم إيمانه خسر أيضاً تعبه بسبب المشاركين له، وهكذا يكون بلاء المؤمن، فسبحانه يعتني بالجميع إلى أن يقرّروا هم الخروج من تحت مظلّة الرحمة الإلهية حين يتصرفون بشكل سيّء، فيبتلي المؤمن معانياً بما نتج عن تصرفاتهم السيئة، ووعده تعالى على ذلك بالثواب...

(قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ{29})
{قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا}، تنزه المسؤول عنّا من مستوى إلهي عن الصفات السيئة، نعترف أنه رزقنا وأمرنا بالصدقة على المساكين، {إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ}، لم نكن منصفين ولا عادلين، ولم يكن معنا حقّ حين لم نعتقد بأنه تعالى هو الرازق وحين لم نسمع أوامره بالصدقة، وظلماً اتّخذنا قرار حرمان المساكين.

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ{30})
{فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}، بدل التفرّق والاشتغال بجني المحاصيل صاروا، {يَتَلَاوَمُونَ}، وكلّ واحد منهم يقول للآخر: لم يكن من المتوقّع ولا من المفروض بك كمؤمن القبول بقرارنا بل كان من المفروض منك كمؤمن معارضته... والآخر يقول له: بل أنت كان من المفروض بك أن لا تقبل... أنت صاحب فكرة حرمان الفقراء...

وهكذا صار كل واحد منهم يقول للآخرين: لو أنتم عارضتم لما كنّا مشينا بقرارنا الذي أوصلنا لهذه الخسارة... حتى لو أنا طرحت الفكرة فلماذا لم توقفوني وتعارضوني...

(قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ{31})
{قَالُوا}، أصحاب الجنة المدمرة: {يَا وَيْلَنَا}، يا مصيبتنا الكبيرة، {إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ}، كنّا متعدين ومتخطين لحدودنا.

سبحانه رزقهم وأمرهم بالصدقة على المساكين، ولكنهم طغوا، فتخطوا حدودهم كعبيد له تعالى، واعتقدوا أنهم بمجهودهم الذاتي حصلوا على الرزق وليس منه تعالى، وقرروا أن لا يتصدقوا على المساكين...

(عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ{32})
{عَسَى}، من المحتمل المرجّح غير الأكيد، {رَبُّنَا}، المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا}، هذه الجنّة ليست أفضل جنّة يمكن الحصول عليها، ولأننا صحّحنا اعتقادنا به تعالى ونوينا من الآن التصدّق على المساكين فمن المحتمل غير الأكيد أن يعطينا تعالى جنّة أفضل من التي خربت.

{إِنَّا إِلَى رَبِّنَا}، إلى المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {رَاغِبُونَ}، نريد تحقيق علاقة طيبّة معه تعالى وبحسب أوامره.

من يعلن توبته عن نيّة سيئة سببت له الخسارة، فهذا لا يمكنه ضمان نفسه أن لا يكرر نيته السيئة مرّة ثانية إذا تحسّنت ظروفه... ولا يحق له أن يفرض عليه تعالى أن يعطيه الغنى لمجرد تحسّن نيته، ولذلك نقلت لنا الآية أدقّ تعبير قالوه "أو قصدوه"، عسى... تعني فهمهم الآن أنهم ليس بقدرتهم الذاتية يمكنهم الحصول على الرزق الوفير، بل بقرار منه تعالى، وهم من ناحيتهم لا يمكنهم الفرض عليه تعالى ليغنيهم، ولكن يمكنهم العمل بجدّ واجتهاد بنية صافية، ومن بعدها يأتي القرار الذي يراه الإله تعالى مناسباً، إمّا أن يرزقهم كحسنة في الدنيا، أو ليبلوهم... أو لسبب ما يحرمهم...

القصة هنا لم تتناول كل جوانب أسباب الحصول على الرزق والغنى وأسباب الفقر... وهذه أمور تراها في سور عديدة من القرآن، أمّا السورة هنا فتركيزها حصراً وفقط على: البلوى الإلهية لامتحان الناس ليرى سبحانه أي طريق سيختارون، وتضمّنت العقاب الإلهي حتى على النية السيئة. اختيار طريق الإيمان رغم الظروف الصعبة فهو آخر ما وصل إليه أصحاب الجنّة، لأنهم ميّزوا بسهولة بين الخير والشر والصلاح والفساد، واعترفوا فوراً بفساد ما فعلوه وصحّحوا... وهناك من اختار طريق السوء بسبب ظروفه الميسّرة، فبسبب المال والولد، والجنّة ذات المحصول الوفير... أنكر دينه تعالى جزئياً أو كلياً، وهي حالة أصحاب الجنّة في البداية.

الكلام لننتبه أننا في مختلف الأحوال نكون في بلوى، في امتحان، وكيفية تصرّفنا بما معنا هو بالأصل الهدف من إتاحة تلك الأمور لنا لتكون بمتناولنا ليرى تعالى ماذا سنفعل بها.

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ{33})
{كَذَلِكَ الْعَذَابُ}، هذا الخراب لمحصول الجنّة هو العذاب الإلهي هنا. {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ}، التي ستأتي بعد الدنيا الأولى، {أَكْبَرُ}، هناك العذاب لا يمكن تحمّله ولا الاعتياد عليه ولا ينقطع ولو لثانية... {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}، لو دخل هذا الخبر فكرهم وصار معلومة يتعاملون على أساسها في أمور حياتهم لما كانوا نووا نية سيئة عليها عقاب.

السورة لا تقصد أن كل فشل يصيبك في عملك أو تجارتك سيكون سببه نيّتك السيئة، لا، لأن الأوسط من أصحاب الجنّة لم تكن نيته سيئة ولكن المشاركين له فرضوا عليه التماشي معهم فأصابه السوء بسببهم...

لا تقصد السورة أن كل من كانت نيته سيئة سيخسر، لا، فهناك مجرمون وأشرار يحصلون على الغنى والثروة من الحلال أو من الحرام على الأغلب، ويموتون وهم أثرياء، ويكون هذا البلاء من أعظم الابتلاءات بحساب عسير جداً جداً لهم في الآخرة، حيث صرّح القرآن أن الناس الذين اسودّ قلبهم بالكامل، البعض منهم يترك له تعالى المجال ليحصل على ثروة أكبر فأكبر حتى يعذّبه بها في الآخرة أكثر فأكثر بسبب سواد قلبه وهذا ما تجده في الآية 55 و 56 من سورة المؤمنون {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ}.

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ{34})
في مقابل الذين وصفوا من اختار طريق الإيمان بالمجنون، وهم يكذبون ويداهنون... وفي مقابل أصحاب النية السيئة... فهناك المتقون: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ}، إن الذين يتجنبون، وسياق الكلام عن تجنّب فعل السوء عموماً، وخصوصاً السوء الذي ذكرته الآيات السابقة، وهو نفسه تجنّب غضب وعقاب ربهم سبحانه فيلتزمون بدينه تعالى، {عِنْدَ رَبِّهِمْ}، لهم عند المسؤول عنهم من مستوى إلهي، {جَنَّاتُ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها، ففيها حدائق وبساتين وأنهار وما يسبّب السعادة، {النَّعِيمِ}، حيث يتنعمون فيفرحون بكل الأمور الجيدة الرائعة التي في الجنات.

نتذكّر من عموم القرآن أنهم خالدون في جنّة خالدة لا تخرب ودائمة التجدّد، ولا يشعرون فيها ولا لحظة بالملل أو بتمني شيء آخر غير موجود فيها، وأصلاً كل ما يتمنونه سيحصلون عليه، بل سيجدون فيها ما لم يخطر ببالهم...

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ{35})
هل نعتبر ونتعامل مع الذين أعلنوا انقيادهم وتبعيتهم، مثل الذين ارتكبوا الأعمال التي يستحقون عليها العقاب!؟

من هنا ستنتقل السورة لتوجيه أسئلة للذين تركوا طريق الإيمان، وأوّل سؤال هو هذا: هناك أناس أعلنوا انقيادهم وتبعيتهم له تعالى، فيسمعون كلامه تعالى وينفذونه، ولم يرتكبوا السيئات... وهناك من خالف أوامره تعالى وفعل أموراً وعد الله تعالى عليها بالعقاب، فكيف تتوقعون أن يساوي تعالى بين من أطاعه وبين من عصاه؟

تذكّر وصف الكافرين لاختيار طريق الإيمان بأنه جنون، فالآيات من هنا ستسأل عن العقلانية والمنطق والحقّ في اختيار الطريق الآخر، وهو طريق الإجرام، طريق ارتكاب السيئات التي يجب أن يكون عليها عقاب، فلا تضع في بالك أن المجرم هو القاتل للأبرياء فقط، لا، فكلمة مجرم تنطبق على كلّ من فعل أي عمل يستوجب ويستحقّ أن ينال

العقاب عليه، وسبحانه يأمر بتجنب كل السوء ويهدد بالعقاب على فعله، فمخالفة أي أمر من أوامره تعالى هي جريمة وعليها عقاب ويصير وصف من خالف ولم يسلم بأنه مجرم.

بغضّ النظر عن نوعية وعمق إيمان الناس به تعالى، قد يكونون مشركين أو منكرين للإله من أصله وهم الذين اصطلاحاً نسميهم بالملحدين، فالسورة من هنا تسألهم عن مستندهم ودليلهم الذي جعلهم مرتاحين لا يخافون عقابه تعالى للمجرمين مع وضوح وظهور أن مخالفة كلامه تعالى هي الإجرام، فسبحانه لم يأمر إلا بالصلاح، ولم ينه إلا عن الفساد.

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ{36})
{مَا لَكُمْ}، كما نقول بالعامية: إيش بيك، شو بيك، مالك فيه أي... {كَيْفَ تَحْكُمُونَ}؟ فكيف وصلتم إلى هذا الحكم بتساوي المسلم والمجرم؟

طبعاً لا تقصد الآية أنهم اجتمعوا في محكمة وحكم القاضي أن المسلم كالمجرم، ولكن هي نفسها الكلمات ونفس التصوير عن أي شخص يرى مسلماً مطيعاً لربّه تعالى، ويرى شخصاً آخر يخالف الأوامر الإلهية بفعله للسيئات، فهو ارتكب جريمة، فأي عمل سيّء هو جريمة، لأن الفاعل يستحق العقاب، كجريمة إنكار إلهه الواحد الأحد، أو جريمة الشرك بإلهه، أو جريمة الكذب والمداهنة والحلفان بالكذب والهمز والنميمة... وحرمان المساكين من المساعدة... واتهام من اختار طريق الإسلام له تعالى بالجنون والسخرية منه ومعارضته... فكيف يحكمون بتساوي المسلم والمجرم؟

لنتصور بلداً بلا قانون نهائياً، ويمكنك فعل ما يحلو لك ولن يعاقبك أي أحد، فهذا الكلام غير منطقي ولا عقلاني بتاتاً، لأنك بمجرد أن تصير الموضوع الذي وقعت عليه أفعال الآخرين الإجرامية، فضربك وأهانك الآخرون الذين لن يعاقبهم أي أحد، فستعترض! وإن تمكنت من الانتقام منهم "بمحاسبتهم" فلن تتركهم، وإن أعانك الآخرون على الانتقام منهم... فصار لديك قانون، صحيح هو قانون الغابة، حيث يأكل القوي الضعيف، ولكنه في النهاية قانون.

الآن لننتقل إلى أي مجتمع، فسيكون فيه قانون، مهما كان نوعه "ديني أو علماني..."، ومخالفة القانون جريمة، كعمل عليه عقاب، وإلا فما معنى القانون إن لم يكن هناك عقاب لمن خالفه؟ فحتى على مخالفة قوانين السير غرامة وعقاب... وهذا ما تقوله الآيات هنا، فما معنى حكمك على المسلم أن الإله سبحانه يساويه بالمجرم؟ فهناك حتماً عقاب للمجرم فهو فاعل للسيئات، وحتماً هناك ثواب حسن للمسلم.

هناك بلدان جعلت العقاب متسامحاً به جداً لبعض الجرائم، فمنعت عقوبة الإعدام للقاتل... ونرى نجاحاً في انخفاض معدّل الجريمة في بعض تلك البلدان، ولكن لم تنخفض الجريمة بسبب تخفيض العقاب، بل تلك المجتمعات انسحبت فيها العديد من ذرائع ارتكاب الجرائم، فهناك فرص عمل متكافئة متوافرة للجميع بحسب الكفاءة، والمجال مفتوح للراحة في المعيشة، ويقدّمون مساعدات اجتماعية تغني المواطنين عن ارتكاب الجريمة، ولديهم تساهل في الممنوعات التي لا تؤثر على بقاء كيان الدولة "في المدى المنظور" كالزنا والمخدرات... ولسنا هنا نناقش تلك القوانين فتناولتها سور أخرى، ولكن إذا خطر ببالك أن القانون الإلهي قاسٍ بالمقارنة مع مجتمعات تعيش بسلام بقانون غير قاسٍ، فاعلم أن القانون المتساهل في عقوباته هو نتيجة مجتمع قلّت فيه الجريمة، وليس العكس، فلو تساهلت في الأحكام في بلد لم يصل أهله إلى مستوى انسحاب ذرائع ارتكاب الجرم، فسترى غابة حقيقية.

(أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ{37})
المنطق والعقلانية والحق أن المسلم لا يتساوى مع المجرم ولكن:

{أَمْ}، إن سبب تركِكم للإسلام على أساس تساويه مع الكفر أنه، {لَكُمْ كِتَابٌ}، فعندكم شيء مكتوب كمرجع ترجعون له لتقرروا على أساسه حكمكم، {فِيهِ}، في ذلك الكتاب، {تَدْرُسُونَ}، فتقرؤون محتواه لتفهموه وتطبّقوا ما فهمتموه؟

سواء كان هذا الكتاب من تأليفكم، أو من تأليف أناس قبلكم، أو تقولون إنه منه تعالى، أو من آلهة وهمية تخترعونها... فإما أن يقول الواحد منكم: رأيي الشخصي الذي أراه صحيحاً أن المجرم كالمسلم. وهذا كلام فارغ لا يقبل به أي أحد، فبمجرد الاعتداء عليه بالكلام أو بسلب ماله أو بالضرب... فلن يبقى على موقفه وسيطالب بمعاقبتك، وهذا ما عرضته

الآيات السابقة، وهنا تسأل الآية عن مرجع آخر اعتمدوا عليه للحكم بالتساوي بين المسلم والمجرم، فعلى أي كتاب اعتمدوا؟

مرة واحدة من مادة "درس" وردت في القرآن في الآية 105 من سورة الأنعام {وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ} على معنى الاندراس القريب من معنى انتهى فاندثر وانمحى، ومشتقات كلمة درس وردت خمس مرات في القرآن في الآية 79 من سورة آل عمران، و 156 من سورة الأنعام، و 169 من سورة الأعراف، و 44 من سورة سبأ، والآية هنا. وكانت تشير لدراسة الكتب، وكلمة درس تشير لعموم أي شيء تمعن النظر الفكري والحواسّي "التجريبي" فيه لتفهم كيفية عمله أو صفاته أو تطبيقاته... فحين تقرأ القرآن واصفاً نفسه بأنه مبين، وميسّر للذكر... هذا لا يعني أنه ليس بحاجة للدرس حتى نفهمه، حيث غالبية آياته واضحة الدلالة بأقل مجهود درس من القراءة مرّة واحدة، والعديد من الآيات بحاجة لتمعّن بإعادة القراءة والمقارنة، واستحضار أساسيات وبديهيات وأوليات... والقليل بحاجة لدراسة معمقة...

(إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ{38})
{إِنَّ لَكُمْ فِيهِ}، هل تجدون في ذلك الكتاب الذي تعتمدون عليه تأييداً لقولكم أن المجرم يماثل المسلم، وبالتالي فلا أهمية للإيمان أو الكفر، ويمكنكم اختيار الطريق الذي تريدونه... ففي ذلك الكتاب، {لَمَا تَخَيَّرُونَ}؟ فهناك طريقان أساسيان في الحياة، طريق الإسلام لله تعالى وهو نفسه طريق الخير والصلاح، أو طريق الإجرام، فهل في ذلك الكتاب مكتوب أنكم أحرار ولا فرق بين الطريقين؟ فيمكنكم اختيار أي الطريقين ولا مشكلة؟ فيمكنكم المشي على أي طريق ولا يوجد عقاب ولا ثواب؟

الجواب واضح: لا يوجد لا كتاب إلهي ولا كتاب من تأليف البشر "واتخذه الناس ككتاب مرجع" وفيه أن مخالفة القانون مشابهة لطاعة القانون. فحتى لو استسخف أحد ما نفسه وقال بأنه يعتمد كتاباً يساوي بين المجرم والمسلم، ولا عقاب على الجرم، فما قيمة كلامه عندما يتعرّض هو للإجرام؟

فهمنا الآيات السابقة على عموميتها، سواء على العقاب نحن بيننا للمجرم، وبين عقابه تعالى للمجرم، مع العلم أن كل السورة تشير لخصوص مسألة أمره تعالى لنا بالإسلام له، والعقاب لمن لم يسلم، وفي نفس الوقت فالآيات تنطبق على ما بيننا نحن بالتمام.

أمّا بخصوص الإسلام له تعالى وعقابه تعالى... هذه المسألة لا نقررها نحن، نحن لا يمكننا القول هكذا من فكرنا: لا فرق عند الإله سبحانه بين من أطاعه وبين من عصاه، ولا فرق بين المسلم له وبين المخالف لأوامره تعالى... فنحن نحتاج لسماع القرار الإلهي بهذا الموضوع، وهنا تسأل السورة عن كتاب مرجع تدرسونه ويتبين لكم أن الإله سبحانه لا فرق عنده بين المسلم والمجرم، فهل لديكم مرجع كهذا تستندون له؟ وقبل ذلك بدأت بسؤال أوّلي أساسي، فهل بالأصل يوجد منطق وعقلانية وحقّ يجعلكم تماثلون بين المجرم والمسلم؟

طبعاً لم ينزل كتاب من ربنا سبحانه يقول فيه بالتساوي بين المجرم والمسلم، بل بالعكس فكل ما نزل منه سبحانه يؤكد العذاب للمجرم، فهل لا زلتم ذاهبين في الطريق الذي نهايته العقاب!

تذكّر أوصاف المسلم التي اختصرتها السورة بالتقى، وقارنها مع ما ذكرته السورة عن بعض أوصاف الآخرين من غير المؤمنين، فهم مكذّبون مدهنون حلّافون كذباً، همّازون مشّاؤون بنميم... فهل من المقبول أن لا يكون هناك عقاب إلهي لهؤلاء؟ فنحن البشر جعلنا غرامة على مخالفة قوانين سير السيارات لدرجة تصل إلى العقاب بالسجن، وإلى غرامات مالية بعضها يفوق المدخول الشهري لمتوسّطي الدخل. فكيف يستسخف البعض أنفسهم ويقولون إنه تعالى لن يحاسبهم على إجرامهم؟! أم وصلهم منه تعالى كتاب وفيه أنه لن يحاسبهم؟

(أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ{39})
طالما ترون معاقبة المجرم حقّاً، وها قد أخبركم تعالى أنه سيعاقب المجرمين، فمن أين لكم هذا الاطمئنان بنجاتكم من العذاب الإلهي:

{أَمْ}، هل لن يحاسبكم تعالى لأنكم، {لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا}، فهل قال تعالى شيئاً قوياً مؤكداً، {بَالِغَةٌ}، تلك الأيمان تلك التأكيدات مستمرة، {إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ}، إلى زمن قيامكم من الموت؟ فهل وصلكم أنه تعالى أكّد لكم بشكل قاطع من وقت ما تكلّفت البشرية إلى يوم قيامتها من الموت في الآخرة أنه تعالى يساوي بين المسلم والمجرم ولا فرق عنده بينهما، ولن يحاسب المجرم؟

{إِنَّ لَكُمْ}، يكون لكم، {لَمَا}، الذي، {تَحْكُمُونَ}، فحكمكم على تساوي المجرم والمسلم يكون صحيحاً إن فعلاً وصلكم يمين منه تعالى أنكم تفعلون ما تشاؤون ولن يعاقبكم.

لاحظ تعبير الآية الذي يتضمّن ويشير لما يلي: فلنقل إنّ بعض الناس ومن دون الرجوع إلى مصدر إلهي يخترعون من رأسهم أموراً وينسبونها للإله سبحانه، وهذه حالة الذين تخاطبهم السورة هنا، ويوم القيامة من الموت كما تعلم من عموم القرآن، فهو اليوم الذي من بعده يجري الحساب والثواب والعقاب... فقبل ذلك اليوم، هل أكّد لكم تعالى أنه لن يعاقب المخالفين لأوامره؟ وهل سيستمر قراره تعالى حتى يوم القيامة من الموت وهناك لن يغيّر قراره فلن يعاقب المجرمين؟

نفهم هذا الكلام بسهولة عندما نقرأ ونسمع بعض المسلمين وبكل جرأة يقولون: الله تعالى حرّ ويفعل ما يشاء، وربما يشاء جعل المجرمين في الجنّة والمؤمنين في النار، فطالما هو الإله فعل هذا، فسيكون فعله حسناً جميلاً حتماً دائماً مهما فعل...

كما ترى فهذه النوعية من المسلمين لا تختلف في هذه النقطة مع الذين تتحدّث معهم السورة، فهل من المعقول أن يجعل تعالى المسلم كالمجرم؟ بل هل من المعقول أن يجعل المسلم في النار والمجرم في الجنّة! وهم يقولون إنّ ما نقرؤه الآن في القرآن يؤكّد أنه تعالى سيعاقب المجرم حتماً، ولكن ربما في يوم القيامة سيغيّر "رأيه" لأنه حرّ ويفعل ما يشاء!

هنا تقول الآية لهذه النوعية من الناس: هل لديكم مصدر منه تعالى يؤكّد لكم أنه سيجعل المسلم كالمجرم من الآن إلى يوم القيامة؟ فإن كنتم هنا لا تملكون مصدراً يؤكّد لكم الآن أنه تعالى لا يساوي بين المسلم والمجرم، فهل لديكم مصدر إلهي يؤكّد أنه في يوم القيامة سيجعل تعالى المجرمين كالمسلمين؟ لا، لا يوجد فكيف تنسبون له عزّ وجلّ هذا القرار؟! بأي جرأة! وبالعكس كل الكلام الإلهي صريح وواضح بالوعد بالجنّة للمؤمن العامل للصالحات والعقاب بالنار للآخرين.

(سَلْهُم أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ{40})
{سَلْهُمْ}، اسألهم، عبّر لهم أيها النبي محمد(ع) عن إرادتك للحصول على جواب منهم:

{أَيُّهُمْ}، أي واحد منهم، {بِذَٰلِكَ}، الكلام عن وجود يمين إلهي بتساوي المجرم والمسلم، {أَيُّهُمْ}، {زَعِيمٌ}، يقول هذا الكلام ويستند فيه إلى نفسه بصحتّه؟

هل يوجد بينهم من يقول بأنه هو شخصياً ومن دون المشاركة مع أي أحد، ومن دون مستند يضمن صحّة الكلام عن وجود يمين إلهي بمساواة المجرم والمسلم، فعلى مسؤوليته الشخصية واستناداً إلى مصداقيته الشخصية يقول بأن الإله لن يعاقب المجرمين؟

أيضاً نفهمها "ونفهم عموم السورة" إذا التفتنا إلى ما يقوله بعض الناس للمتدينين: اترك الصلاة واشرب الخمر وافعل الفواحش... وافعل ما تشاء... وعلى ضمانتي وكفالتي فالله تعالى لن يحاسبك. هذا كلام فارغ، فعلى ماذا تستند بأنه تعالى لن يعاقب المجرم؟ وما هي قيمة كلام من يزعم بأنه تعالى يساوي بين المسلم والمجرم؟

لم تذكر الآية أية طريقة يمكن لشخص ما إثبات تواصله مع الإله تعالى والحصول منه تعالى على يمين عن المساواة بين المسلم والمجرم، فتركت كل شيء مفتوحاً، فليتحفنا من يقول هذا الكلام ويخبرنا عمّا استند عليه؟ فهل نزل عليه الوحي؟ أم هل أخبرته الملائكة(ع)؟ أو تحدّث مع رسول إلهي وأخبره بذلك؟...

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ{41})

{أَمْ}، فهل سبب تركهم للإسلام أن، {لَهُمْ شُرَكَاءُ}؟ فالذين يزعمون أنه تعالى يساوي بين المجرم والمسلم، فهل لديهم من يشاركهم بهذا الزعم؟ {فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ}، في وجود آخرين يؤكّدون صحّة هذا الكلام.

تفهمها بسهولة إذا تذكّرت بعض الناس الذين يقولون: المؤمنون قلائل جداً جداً، فهل من المعقول أنهم معهم حق والبقية الأكثرية الساحقة على خطأ! فنحن الذين لم نختر الإسلام لدينا شركاء كثر من الناس لم يختاروا الإسلام... وهنا تسأل السورة إن كان يوجد شخص واحد بينكم يزعم "على مصداقيته ووثوقيته" أنه تعالى يساوي بين المجرم والمسلم، فليقف وليقل ذلك، وإن كان يوجد آخرون كثيرون اختاروا ترك طريق الإيمان مستهترين بالعقاب الإلهي ومعتبرين أن المسلم ليس أفضل منهم عنده تعالى، ويشتركون في زعمهم بذلك، فليأتوا بهؤلاء المشاركين لهم، وليقولوا لنا على ماذا يستند الأكثرية في زعمهم؟

درج بيننا استعمال كلمة "زعم" على أساس أنه أي شخص يقول أي كلام، فهو زعم، لا، فمثلما هناك حلفان وقسم ويمين كاذب لا قيمة لها، فهناك "زعم" أيضاً ولا قيمة له، فلو قال أحدهم: أنا أزعم أن الإله يساوي بين المجرم والمسلم. وجملته هذه تعني أن الآية انكسرت بكلامه وتحداها وربح، لا، فكما يوجد حلفان ويمين صادق لا يمكن أن تردّه لأنه يصدر عن شخص لا يكذب وليس لديه استفادة من الكذب ولا يتضرر من الصدق... فهناك من يزعم شيئاً ما ويكون زعمه فعلاً مستنداً إلى موثوقيته، ولديه مستند... وقد استعمل القرآن هذا التعبير عندما تكفل وضمن أحدهم للقافلة التي فيها إخوة النبي يوسف(ع) أنه "زعيم" بمنح حمل بعير من الحنطة لمن يعيد صواع الملك... فهو في منصب ومكانة وسلطة تؤهله للتأكيد على صحّة كلامه ولتحقيق كلامه، وقد ورد ذلك في الآية 72 من سورة يوسف {قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ}.

السورة هنا تنبّه من كان فيه ذرة عقل أن يفكّر في الطريق الذي اختاره وعلى ماذا اعتمد حين اختاره... فإن لم يكن في البعض ذرة عقل، وهذه الحالة منتشرة في عموم البشرية، فليختاروا طريقهم الذي نهايته حتمية في جهنّم كما يقول كلّ القرآن، وكلّ الكتب الإلهية السابقة، والآية التالية:

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ{42})
{يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ}، في الزمن الذي يحصل فيه ظهور للساق التي لم يكونوا في الدنيا يرونها، وكما تعلم من عموم القرآن أننا في يوم القيامة سيتغيّر تكويننا وسنرى الملائكة(ع) والجنّ، وسنرى كتاب أعمالنا ينطق... وستنطق أعضاء جسدنا... ويحصل لدينا يقين به تعالى بأنه الربّ الإله الأحد... وأننا نواجهه تعالى ويحاسبنا... فالساق كلمة تفيد عموم ما يقوم عليه شيء ما، فبدننا يقوم فينتصب على ساقين "ما بين القدم والفخذ"، والنبات له ساق، وعرشه تعالى له ساق، والملائكة(ع) لهم سيقان... والحرب حين تشتد نقول بأنها كشفت عن ساقها... والآخرة تقوم على سيقان... فلا تحصر معنى كلمة ساق بالرجل "قدم قصبة فخذ..."، ولا بشكل ساق الكرسي الاسطواني، لأن أصل كلمة ساق لغوياً وصف لعموم أي شيء يقف عليه فيقوم عليه شيء آخر، بغض النظر عن أساس الاشتقاق من التسمية ابتداءً أم من الوصف، ففي النهاية صارت الكلمة وصفاً، ويبدو هنا أن الساق شيء "مادي أو معنوي" سنراه في الآخرة، ويفيد عن قيام القدرة الإلهية بوضوح بالسيطرة على كلّ شيء، فيشعر المجرمون بالخوف والرهبة لأن قيامة حسابهم قد قامت، ففي عالم الدنيا الآن نرى السماء والأرض والألوان والأشكال والعلاقة بين الكائنات والبيئة... وكلّها آثار لإله خلقها سبحانه، وبعضنا لا يشعر بالخوف من الحساب والعقاب لأننا متروكون على حريتنا ولا نرى النار ولا الحساب، أمّا في الآخرة فسنرى الأشياء التي تدل على قدرته تعالى بشكل مباشر، فسنرى قيام الحساب والعقاب، وهذا معنى انكشاف الساق هناك، فلن نراه عزّ وجلّ، ولن نرى ساقه أو وجهه أو يده... على أساس أنه عزّ وجلّ له جسم وأعضاء، لا، بل سنرى ما تفيده معاني تلك الكلمات بما يناسب الإله سبحانه وتعالى، فسنرى بوضوح أن عالم الآخرة تحت سيطرته هو تعالى، ولن يكون لدينا أي شكّ أن ما نراه من حشر وحساب وملائكة(ع) وجنّة ونار... يقوم على قدرته تعالى، وهذه هي الساق المكشوفة التي تسبّب الرعب والخوف للمجرمين.

بعد أن يروا الساق، {وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ}، فيتم الإعلان والإشهار بتوجيه الكلام للذين اختاروا طريقاً آخر غير طريق الإيمان أن يسجدوا فيعبّروا عن خضوعهم واحترامهم له تعالى، {فَلَا يَسْتَطِيعُونَ}، السجود! رغم كونهم مرعوبين من عقابه تعالى فلا يستطيعون التعبير عن احترامهم وخضوعهم له تعالى! وسنرى من الآية التالية أنهم غير

سالمين جسدياً ولذلك لم يستطيعوا السجود، فهناك خلل في جسدهم يمنعهم من التعبير عن الخضوع الجسدي له تعالى، فلا يتمكنون من الانحناء أو وضع جبهتهم على الأرض.

كما ترى، وصلت بنا الآيات السابقة في كلامها مع الذين يعتبرون اختيار طريق الإيمان جنوناً، وأنه لا يوجد عقاب لمن اختار الطرق الأخرى على أساس أن الإله تعالى لا يفرّق بين من أسلم وبين من أجرم... فانتقلت بنا السورة إلى مشهد من مشاهد الآخرة حيث ينفرز المسلمون له تعالى في جهة، والبقية في الجهة الثانية، وحتى يستعيدوا حالة إنكارهم الإسلام له تعالى هنا في الدنيا، فسيرون قدرة عظيمة له تعالى، في خلقهم من جديد ومحاسبتهم ومسخهم... وسيرون النار... ولن يتمكنوا من التعبير عن خضوعهم له تعالى بالسجود، مما يؤكّد بأنهم أبداً لم يخضعوا من قبل له تعالى، فهم لم يكونوا في الدنيا من المسلمين، وبالتالي، فهل هم والمسلمون متساوون هناك؟ لا، وهذا واضح جداً حينها.

لاحظ أن الدعوة للسجود موجّهة فقط لهؤلاء وليس لهم وللمسلمين، فوضع وهيئة وحالة المسلمين تدل على تكريمه تعالى لهم بناءً على إسلامهم له في الدنيا، فلا داعي لامتحانهم في الآخرة حيث سيتبين بشكل واضح ويتميّز من كان مسلماً يسجد له تعالى في الدنيا فيكون ذلك ظاهراً من هيئته المرتاحة المستبشرة المسرورة... والذي كان مجرماً عاصياً له تعالى فسيكون وجهه كالحاً وممسوخاً... وكما تعلم من عموم القرآن فالمجرمون سيحاولون فعل أي شيء للنجاة من النار، وهنا ترى محاولتهم للسجود له تعالى كتعبير عن خضوعهم ولكن لن يطيعهم تكوين وهيئة جسدهم على السجود.

لا تتصوّر أنهم سيعترضون ويقولون: لقد مسخنا تعالى ولذلك لم نعد نستطيع التعبير عن خضوعنا له بالسجود، ونحن من داخلنا في الدنيا كنّا خاضعين له رغم كل ما يبدو لكم بعكس ذلك... لا، فهم يعلمون أن سبب انتفاء قدرتهم على السجود في الآخرة مرتبط وسببه أنهم لم يسجدوا له تعالى في الدنيا، فيعلمون أنه تعالى لم يمسخهم ويغيّر تكوين جسدهم بشكل سيّء ظلماً وعدواناً، لا، بل يعلمون أن مسخهم هو نتيجة أعمالهم الإجرامية... مثل من يقفز عن علو ويكسر ظهره، فهو سبّب الكسر لنفسه، ولن يستطيع تحريك ظهره... ونفس الشيء بالنسبة لهؤلاء، فهم وبشكل واضح من أفعالهم السيئة سبّبوا التشويه في خلقتهم هناك في الآخرة...

(خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ{43})
{خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ}، قدرتهم على فهم ووعي الصور تعبّر عن ضعفهم نتيجة فقدانهم للقدرة على فعل أي شيء للنجاة من العقاب، {تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ}، تصيبهم حالة سيئة من ذلة، من شعور الانقياد غصباً عنهم لمن هو حاكم عليهم وينفذّون ما يريده هو ولا يفعلون ما يناسبهم هم.

وقد {كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ}، هنا في الدنيا أُعلن وأُشهر لهم تعالى ليعبّروا عن خضوعهم واحترامهم له، {وَهُمْ سَالِمُونَ}، حين كان جسدهم سليماً فكان يمكنهم القيام بالحركات التي تعبّر عن احترامهم وخضوعهم له تعالى بتقريب وجههم من الأرض أو وضع جبينهم على الأرض.

في الدنيا وصلتهم دعوة للسجود له تعالى، وكانوا يستطيعون ذلك ولكنهم لم يفعلوا، وفي الآخرة سيحاولون السجود له تعالى ليعتبروهم من المؤمنين، ولكنهم لن يستطيعوا السجود لأن جسدهم ممسوخ بسبب أعمالهم السيئة...

(فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ{44})
{فَذَرْنِي}، لا يعنيك أمرهم ولا تهتمّ واتركني، {وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ}، مع من لا يصدّق بالفرق بين من أسلم وأجرم وعن الحساب والعقاب... {سَنَسْتَدْرِجُهُمْ}، سنجعلهم يصلون إلى حيث نريد من دون أن ينتبهوا، فنريدهم أن يغرقوا أكثر فأكثر في إجرامهم، فسوف يقدم سبحانه للبعض منهم المال والصحة والعمر وغير ذلك... وهم سيزيد كفرهم، {مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ}، بطريقة وبأمور لا يعلمون أنها وسائل لاستدراجهم، فلن يتوقّعوا أبداً أنه تعالى يستدرجهم بل قد يظنون بأنه تعالى يكرمهم.

تذكّر أن السورة في أولها اختارت نموذجاً من الذين تركوا طريق الإيمان وكان لديهم مال وأولاد، ومثّلت لهم بأصحاب الجنّة الذي أساؤوا التعامل مع نعمته تعالى وكانت نتيجتهم خسارة تعبهم كإنذار لهم للتراجع عن الخطأ، وقد نفعهم

الإنذار، أمّا من لم ينفعه الإنذار، وأصرّ على ترك الإسلام، فكل ما يحصل عليه من أمور تعجبه فهو استدراج له ليصل إلى أقصى عقوبة.

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ{45})
...سنستدرجهم... {وَأُمْلِي لَهُمْ}، فهم يستحقون العقاب فوراً ولكنه تعالى سيمنحهم فترة زمنية أطول قبل معاقبتهم، وكما ترى من الآية السابقة ففي هذه الفترة سيزدادون تجميعا للذنوب وبالتالي سيزيد عقابهم، {إِنَّ كَيْدِي}، إن الأمور التي يفعلها تعالى وهي مضادة لمصلحة المجرمين، {مَتِينٌ}، لا خلل ولا ضعف فيه.

وكلمة "كيد" نقولها لعموم أي عمل مضاد لمصلحة الآخرين وليس المقصود منه حصول مصلحة للفاعل، وقد يكون علنياً أو بالسرّ، وتشابه كثيرا الكلمة العامية: جكارة. وسبحانه عندما يستهدف أحداً ما بعمل ضد مصلحة المستهدف، فلا يمكن للمستهدف التخلّص من النتائج السيئة.

سبحانه يتدخل في حياة الناس وهم لا يلاحظون ذلك، فإذا قرروا فعلاً أن يكونوا مؤمنين فسبحانه يساعدهم من دون أن يشعروا أو قد يشعروا ويروا أساليب العناية بهم، وإذا قرّروا الكفر فسبحانه يكيدهم، فيصير كل شيء في حياتهم مسبباً لمزيد من العذاب في الدنيا والآخرة وهم لا يشعرون.

(أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ{46})
{أَمْ}، إن سبب تركهم للإسلام أنك أيها النبي محمد(ع)، {تَسْأَلُهُمْ}، تعبّر لهم عن إرادتك للحصول على، تطلب منهم، {أَجْراً}، أجاراً، مقابلاً مالياً محدداً كبدل عن أتعابك لتبليغك رسالة الإله؟ {فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ}، من هذا المطلوب منهم ولا يمكنهم التخلّص منه، من هذا المفروض عليهم دفعه لك، {مُثْقَلُونَ}، يصيرون تحت ثقل تحت عبء خسارة مالية كبيرة لدفع أجارك.

هل رفضوا الإسلام بدينك لأنك طلبت منهم أجاراً كبيراً كبدل عن أتعابك في تبليغهم الرسالة الإلهية؟ فإذا أرادوا التعرّف على كيفية إسلامهم لإلههم سيقعون تحت مغرم لأن أجار إجابتك عن أسئلتهم عالٍ؟ فبعض رجال الدين من مختلف الأديان، يحتكرون المعرفة الدينية ويحصرونها فيهم، فيحتاجهم الآخرون لمعرفة دينهم، وبذلك يفرضون عليهم بشكل مباشر أو غير مباشر أن يقدّموا لهم المال كأجار بدل أتعاب، أو هدايا، أو نذورات للإله والمعبد...

انتبه لمعنى الآيات التي أمرت بالصدقة قبل النجوى مع الرسول، فهناك كان الكلام عن النجوى وليس عن تعلّم الدين الإلهي، وراجع في ذلك دراسة الآية 12 من سورة المجادلة وما بعدها.

الجواب: لم يسألهم النبي محمّد(ع) أن يعطوه أي مبلغ مالي خاص له، لا كبير ولا صغير، والجميع يعلم ذلك، ويمكن لأي أحد أن يسأله (ع) عن دينه... وبالنسبة لعموم الصدقة وخصوص الزكاة التي فرضها الدين فهي أولاً: من العفو مما لا يضرّ المسلم لأنها لا تجب إلا مما زاد عن حاجته، فهي ليست مغرماً وأصلاً ليست مفروضة كأجار للرسول(ع)... وثانياً فالنبي(ع) وبأمر إلهي لا يحق له قبول الصدقات لنفسه، وهذا مشهور جداً جداً في عموم الثقافات الدينية، وثالثاً فما يأخذه النبي(ع) من بيت المال فهو مساوٍ لما يأخذه بقية المسلمين، ومصروف الزكاة مع بقية الصدقات محدّد في الآية 60 من سورة التوبة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}، فلو فرضنا أن من ينقل لكم الكلام الإلهي قد طلب منكم مبالغ مالية ضخمة لتدفعوها له حتى يعلّمكم دينه تعالى، لكنّا قلنا إنه نفّركم من الدين وكرّهكم به لأنه أفلسكم وفرض عليكم ما لا طاقة لكم به، ولكن هذا من أساسه لم يحصل، فالآية هنا تسخر منهم لأنه (ع) لم يطلب لا مبلغاً صغيراً ولا كبيراً منهم ليعلّمهم الدين الإلهي.

(أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ{47})
{أَمْ}، الذين لم يختاروا الإسلام على أساس تساويه مع الكفر، {عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ}، لديهم وسيلة للاطلاع على ما غاب عنهم، فوجدوا في علمهم للغيب أنه تعالى سيجعل المسلم كالمجرم، {فَهُمْ يَكْتُبُونَ}، فالذي اطّلعوا عليه من الغيب يثبتونه

بالكتابة على الورق، فهل هم مثلك مستندون إلى الإله سبحانه الذي يعلم الغيب وأنزل عليك كتاباً يخبر الجميع بأنه تعالى لن يساوي بين المسلم والمجرم، فهل هم مثلك لديهم وسيلة ما للاطلاع على هذه المعلومة غير المتوافرة بالطرق العادية بل هي غائبة عنهم لأنها معلومة من الإله سبحانه نفسه، وهم بعد اطلاعهم على مصدر غيبي كتبوا المعلومة التي تقول بأنه لا فرق بين المسلم والمجرم؟

ضع في بالك دائماً أن الغيب يشمل كل الأمور الغائبة عنا، مثل الحوادث التي جرت في قديم الزمان والحوادث التي ستأتي، وأيضاً ما يجري الآن ولا اطلاع لنا عليه كعالم الملائكة(ع) وما يجري هناك وما يجري مع الناس في مختلف بقاع الأرض... كلّه غيب طالما لم تعلمه، وهنا بالتحديد فمسألة قرار واعتبار الإله سبحانه بتساوي أو لا تساوي المجرم والمسلم، فهي معلومة غير متوافرة لنا بالطرق العادية، ولا يمكننا الحصول عليها إلا عبر الاطلاع على ما غاب عنّا، وهو الاطلاع على علمه تعالى، وقد حصل ذلك فعلاً مع النبي محمّد(ع) حيث جاءه هذا القرآن بمعلومات من الغيب الإلهي. أمّا الآخرون، فبغض النظر عن طريقة وأسلوب حصولهم على هذه المعلومة عن قراره تعالى، فهل عندهم الغيب، فهل بطريقة أو بأخرى صار عندهم علم ما، ومنه علموا أنه تعالى يساوي بين المسلم والمجرم؟

من الواضح أنه لا يملك أحد منهم قدرة على الاطلاع على الغيب حتى يكتب ما يشاهده أو يسمعه، فالنبي محمّد(ع) وحده من بينهم اتّصل به من يعرف كل الغيب سبحانه.

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ{48})
{فَاصْبِرْ}، أيها النبي محمد(ع) لا تتصرف بشكل غير مناسب أو سيّء بسبب تعرّضك لشيء غير مريح أو لا تحبّه أو تكرهه، وهو اتهامهم لك بالجنون لأنك مسلم، فهذه بلواك، فهذا ما تتعرّض له وعلى أساس تصرّفك معه ستتحاسب، وما تتعرّض له له حلّ ولن يستمر، فعلى أقصى احتمال فهذه هي الدنيا الفانية بعمرك القصير وستأتي الآخرة الخالدة... وقد أطلت عليك الكلام لأن كلمة صبر تتضمّن نفي استمرار ما يسوءك.

{لِحُكْمِ رَبِّكَ}، فالمسؤول عنك من مستوى إلهي عنده حكم على هؤلاء، ففيهم قرار منه تعالى فسيعاقبهم، فانتظر حتى ترى عقابهم على ما يقولونه لك ويفعلونه معك... {وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ}، لا تكن كالذي كان مع السمكة الكبيرة، ومن المشهور في تراث الدين الإلهي أن النبي يونس(ع) ابتلعه الحوت لأنه لم يصبر على قومه، وأراد تنفيذ حكم العقاب الإلهي عليهم بسبب كفرهم، ولكنهم في الوقت المناسب استغفروا فنجّاهم تعالى من العذاب... ولم يصبر النبي يونس(ع) على هذا وقرّر مهاجرة كل المنطقة... فسافر في البحر وابتلعه الحوت بأمر منه تعالى عقابا له على قلّة صبره... وراجع ذلك من الآية 139 وما بعدها من سورة الصافات {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}...

{إِذْ نَادَىٰ}، توجّه النبي يونس(ع) بكلام إليه تعالى، وتعلم أنه (ع) طلب منه تعالى إخراجه من بطن الحوت، {وَهُوَ مَكْظُومٌ}، يشعر بالهمّ والكرب والمضايقة في داخله ولا يرتاح حتى لو عبّر عنه، وحتى لو عفا تعالى عنه... لأنه أخذ قراراً بالدعاء على قومه ولم يصبر، وغادرهم... وكان من المفروض أن يرجع إلى قومه بعد إعلانهم إيمانهم، فعندما وقع في بطن الحوت، علم (ع) أنه قد أخطأ، فانحبس شعور المضايقة والحزن الشديد في داخله ولم يفارقه، فصار مكظوماً، فحتى لو عفا تعالى عنه فهو لن يرتاح من بعدما علم بشدة سوء ما فعله. وهذه حالته الحالية، أمّا فيما بعد فمن المفروض أن أساريره انفرجت ولكنه لم ينس درسه...

أنت ترى أيها الرسول محمد(ع) الكفر منتظراً بين قومك، فلا تقطع الأمل منهم، فقد حصل قبلك مع يونس النبي(ع) أنه قطع الأمل من إيمان قومه، وكان سبحانه يعلم أن فيهم أناسا سيؤمنون فيما بعد، ولكن النبي يونس(ع) لم يصبر عليهم، وتبيّن أن حكم ربه سبحانه بالعفو عنهم كان الأفضل، فقوم النبي يونس(ع) أعلنوا إيمانهم قبل نزول العذاب... وهذه هي النتيجة المطلوبة.

بقي شيء، هل ترى النبي يونس(ع) مخطئاً؟ على أساس أنك لو كنت مكانه لحلمت على الكفّار وصبرت؟ لا، لا أضع نفسي مكانه لأني لست مثله، فأنا أقطع علاقتي مع أقرب أقاربي إن قلّلوا الأدب معي بكلمة من زلة لسان لم يقصدوها، ولا مشكلة لي معهم إن كانوا من التاركين للصلاة والصوم والزكاة! وهكذا ترى أن النبي يونس(ع) بعكسي، فعنده مشكلة مع قومه من كفرهم، ولا مشكلة شخصية له (ع) معهم...

(لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاء وَهُوَ مَذْمُومٌ{49})
{لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ}، لولا أن لحقته ووصلته، {نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ}، شيء جيد من المسؤول عنه من مستوى إلهي، فاستجاب سبحانه لندائه (ع) وعفا عنه، ولولا ذلك، {لَنُبِذَ}، لجرى إبعاده وعزله، لأخرجه تعالى من جوف الحوت وعزله، {بِالْعَرَاءِ}، في الأرض العارية من دون غطاء، وهي الأرض المكشوفة من غير سقف ولا شجر، {وَهُوَ مَذْمُومٌ}، فيستمر وصفه بأنه فعل شيئاً سيئاً.

نادى (ع) من بطن الحوت وسبحانه استجاب، ويمكن أن يخرجه تعالى من الحوت مذموماً، فينجو ويبقى موصوفاً بأنه فعل شيئاً سيئاً فلا يعد بقيمته كنبي ورسول إلهي كما كان سابقاً، هذا لولا نعمته تعالى حيث استقبل من النبي(ع) توبته واستغفاره وأعاد له اعتباره المعنوي.

ننتبه للنقاط، الأولى مشكلة النبي يونس (ع) حيث لم يصبر على قومه، وهي التي سبّبت المشكلة الثانية وهي وضعه (ع) في بطن الحوت، وهناك دعا معترفا بخطيئته فاستجاب له سبحانه وأخرجه من الحوت وأعاد له مكانته المعنوية. وما تجده في القرآن من كلام يعبّر لك عن وضعه (ع) في بطن الحوت عقابا له على فقدانه الصبر على قومه، وحتى لا يظنّن أي أحد أن الأنبياء "عليهم خيمة زرقا" فيمكنهم أن يفعلوا ما يحلو لهم، وأن أمره تعالى لعبده بحمل الرسالة ونقلها للناس ليس اختيارياً، بل واجب كوجوب الصلاة والصيام عليّ وعليك، وتركها أو إهمالها عليه عقاب... وهذا بلاء الأنبياء بالناس، وسبحانه لا يحابي أحداً، فحتى الأنبياء إن أساؤوا فسبحانه يحاسبهم.

هنا ترى الآية تشير للنقطتين معاً، فهناك احتمال بقائه(ع) على موقفه وإصراره على رأيه بوجوب تعذيب قومه، وهذا الإصرار نراه في مثل قرآني عن إبليس الذي ركب رأسه وبقي على عناده حتى بعدما وضّح له تعالى كلّ شيء عن أفضلية آدم(ع) وذريته... ولكنّ النبي (ع) سبّحه تعالى من بداية وقوعه في بطن الحوت، حيث أدرك خطأه وتراجع عنه، وصارت حالته إمّا إخراجه(ع) من بطن الحوت مذموماً، فلا يعفو تعالى عن تقصيره(ع) في وظيفته كرسول ولكن يستجيب له كمؤمن وقع في ورطة، فيخرجه من بطن الحوت، وإمّا إخراجه(ع) قد عفا تعالى عن فقدانه لصبره كرسول، فأعاد له موقعيته واحترامه كرسول، وهذا ما حصل وستراه في الآية التالية.

ما العبرة من هذه القصة؟ فهل تسلينا بقراءتها؟ وهل تخصّ النبي محمّد(ع) والنبي يونس(ع) ونحن نقرؤها كمن يشاهد فيلماً أو مسلسلاً؟ أم تشملنا نحن؟

نعم تشملنا، فهي تتحدّث عن نموذج راقٍ "النبي يونس(ع)"، ومع نموذج راقٍ "النبي محمّد(ع)"، ومعي ومعك، فأمور الدين الإلهي ليست شخصية، فلا تأخذ موقفاً شخصياً على مزاجك من الأوامر الإلهية، فلا تفقد صبرك مهما حصل، ولا تكن ضيّق الأفق حين تقع في المصاعب فتغرق ولا ترى أبعد من أنفك...

(فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ{50})
{فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ}، اعتبره المسؤول عنه من مستوى إلهي من الذين اختارهم ويعتبرهم مضمومين إليه تعالى، فقبل ذلك كان النبي يونس(ع) من المجتبين فقد كان مطيعاً تماماً لأوامره تعالى ويصنّفه من المضمومين المنسوبين له تعالى، كمؤمن صالح وكنبي رسول... وبعد ذهاب النبي يونس(ع) مغاضباً فقد خرج من اعتباره مجتبى مضموماً له تعالى، وها قد قبل تعالى توبته وأعاد له تصنيفه السابق، فجعله تعالى، {مِنَ الصَّالِحِينَ}، من الموصوفين بقيامهم بالأعمال الصالحة الجيدة.

نتذكّر دائماً من القرآن أن أي عمل سيّء فلن يتغيّر تصنيفه عنده تعالى، حتى لو سهواً أو نسياناً أو بالخطأ قام أحد ما بعمل سيّء، فستبقى نظرته تعالى لذلك العمل أنه سيّء، وحتى لو غفر تعالى تلك السيئة، فلن يتغيّر السوء ليصير تصنيفه حسناً، لا، وكما تعلم فإن من صنّفه تعالى: غير مسلم. فلن يقبل تعالى منه ولا أي عمل، ولن يعطيه تعالى ولا أي ثواب. وهذه حالة تعامله تعالى مع من يخالف أوامره، وقد صار فيها النبي يونس(ع) "مذموماً"، ولولا قبول دعائه (ع) لما كان وصف تعالى أعماله الحسنة بأنها صالحة، ولذلك ترى الآية هنا تعطيه من جديد تصنيف الصالحين، بناءً على قبول ما سيصدر عنه من أعمال صالحة.

(وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ{51})
بعد أمره سبحانه للنبي محمد(ع) بالصبر، وأن لا يجعل مسألة الدعوة مسألة شخصية مثلما حصل مع النبي يونس(ع)، أراد تعالى أن يبيّن لنبيّه عن علمه بحجم المعاناة التي يعيش فيها:

{وَإِنْ يَكَادُ}، على شعرة كان، {الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا ما تقوله عن دينه تعالى، كادوا، {لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ}، فيوجّهون قدرتهم على وعي وفهم الصورة نحوك ومن شدة كرههم لك فعلى شعرة سيجعلوك تزلق، تتزحلق تزحط، لا تثبت قدمك على الأرض... فتقع على الأرض من نظراتهم الحاقدة والكارهة، فتقع ميتاً أو معطوباً أو جامداً... {لَمَّا}، عندما، {سَمِعُوا الذِّكْرَ}، سمعوا منك ما يجعلهم يستحضرون ذكره ودينه تعالى في فكرهم ونفسيتهم وعملهم، {وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ}، فهذا الذي يقول "الذكر" لنا ليس عاقلا، فكلامه كلام مجانين.

طبعاً لا يقصدون أنه (ع) فاقد لعقله في كل تصرفاته، فوصفهم له(ع) بالجنون مثل وصفنا لأي شخص قام بعمل مجنون، فالذي يقود السيارة بسرعة عالية... نقول عنه مجنون... ومن يدخل في مغامرة المشي على حافة شاهق بلا وسائل أمان... نقول إنه مجنون...فهم يتهمونه بالجنون لخصوص كلامه(ع) عن الدين الإلهي، فيقصدون أن كلامه(ع) ليس عقلانياً...

نتذكّر محور هذه السورة حول صحّة اختيار الإسلام له تعالى بدلا من الإجرام، وقد بيّنت من خلال كلامها أن كلّ العقلانية والحقّ والمنطق هو هذا الذكر الذي يقوله الرسول(ع).

وتلاحظ أن أعضاء الجسد المتحركة كاليد والرجل، يمكنها تسبيب الأذية الجسدية للآخرين، أمّا تركيز البصر على شيء تكرهه فلن يسبّب له الأذية الجسدية، وقد درج بين الناس تفسير هذه الآية على ما يسمونه "صيبة عين"، أي الأذية بمجرد النظر إلى شيء ما، ولديهم خرافات يروونها عن هذه القوّة الخارقة بالنظر، وهذا كلام فارغ، فلم يثبت في التاريخ بطوله ولا أي حادثة اغتيال لشخص مكروه بمجرد تركيز البصر عليه، ولا أي حادثة ضرر جسدي أو مادي أو معنوي لأي شخص بصيبة عين، ولو كانت هذه الخرافات التي يروونها حقيقة، لكانت "صيبة العين" سلاحاً فتاكاً يستعمله الناس للتخلّص من أعدائهم... ولكن الآية تعبّر عن شدّة كرههم للنبي محمّد(ع) بحيث يقع مشلول الحركة ليتخلّصوا منه، فإذا وعمليا هو وصف حالة كرههم الشديد له (ع) فينظرون إليه(ع) بأعينهم، فعلى شعرة، فلو أن العين يمكنها فعل الأذية كاليد، لكانوا آذوه(ع) بنظرهم من شدّة كرههم لما يقوله(ع) لهم.

(وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{52})
هم بأعينهم يكادون يزلقونك، فما الذي تفعله أيها الرسول حتى يكنّوا لك هذا الكره؟:

{وَمَا هُوَ}، فقط الذكر الذي تقوله لهم، {إِلَّا ذِكْرٌ}، ليس سوى شيء يستحضرونه في فكرهم ومشاعرهم وعملهم، {لِلْعَالَمِينَ}، لكل الناس وليس لأهل مكة فقط.

فما معنى هذا الكره العميق القاسي لدرجة أن الكافرين تكاد أعينهم تؤذي شخصاً ينقل لهم الذكر الإلهي! فكرههم له لأنه ناقل لكلامه تعالى حتى يستفيدوا منه بالفوز بجنّة خالدة والنجاة من جهنّم!

الخلاصة: حتى لو قال الكفّار عنك إنك مجنون، وحتى لو كذبوك، وحتى لو عاندوك ولم يؤمنوا، فانتبه أيها النبي(ع) واصبر، ولا تكن كصاحب الحوت، لأن الذكر الذين نزل عليك موجّه لكل الناس، فمهمّتك عالمية فكن على قدر هذه المهمة، واصبر، فلا تطلب الهلاك للناس، أو تتراجع عن أداء مهمّتك... ومن التاريخ نعلم أن الدين الإلهي انتشر، وفي مدة قليلة أسلم كل الكفّار المجاورين لمكة... وذريتهم أكملت تاريخها مسلمة وانمحى دين الكفر من المحيط الذي كان معادياً للنبي محمّد(ع)...

سورة الحاقة (69) ص 566
تتحدث عن عودتنا إلى الحياة في الآخرة حقيقية، وبعض مَنْ كذّب بها ناله عذاب كنموذج مصغّر عن عذاب الآخرة...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(الْحَاقَّةُ{1})
المتحقّقة، الشيء الذي سيتحقّق، بما أننا نقرأ كلاما إلهيا نحن نتوقّع أنه شيء حتما سيحصل، ومن تكملة السورة سترى أنها يوم القيامة وما سيليها من الحساب على أعمالنا، فهي ستتحقّق، وستحصل حتما.

(مَا الْحَاقَّةُ{2})
سؤال استفهام عن الشيء المبهم الذي سيتحقّق، على أساس أن السامع لا يدري ما الحاقة والقائل يعلم بها عن حقّ، يسأل القائل السامع عنها ليلفت انتباهه لعظمة الخبر.

كما نقول نحن لشخص لم يعش في حرب، وسمع بها ولكن لم يَبْدُ عليه استشعار فظاعتها، نقول له: الحرب، ما الحرب. لأننا نحن نعلم بفظاعتها نكرّر السؤال لنلفت انتباهه لإعطائها قيمتها حتى لا يستهتر بها.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ{3})
وما أدراك ما الحاقة، هي معلومة لم ترها، لم تعش فيها... وأي شيء تعلمه ولكنك لم تعش فيه ولم تعاينه فأنت لا تدري به فعلا. يمكنك القول: عندي معلومات عن الحاقّة، ولكن لا يمكنك القول: أدري بها. لأنك لم تعشها ولم تعاينها فلا تعلم بهولها... سترى في السورة عرضا لمعلومات عنها تجعلك تتصورها كأنك تعايشها.

أيضا تفهم الآية عندما تسمع أحدهم يتحدّث عن أهوال الحرب وفظاعتها وهو لم يمرّ في حرب ولم يعشها، لأنه يتحدّث عن معلومات سمعها، ولا يتحدّث عن حقيقة عاشها، لذلك هذا لا يدري بها، والفرق كبير جدا بين الحالتين، ومن تكملة السورة سترى أن هذه الافتتاحية المبهمة بالأسئلة عن شيء لم نره ولم نلمسه تريدنا أن نميّز الفرق بين معلومة سمعناها عن القيامة والحساب والعقاب وبين العيش فعلا في تلك الحالات.

ربما تقول بأن هذه السورة من أوائل السور التي نزلت على الرسول(ع)، وطريقة افتتاحيتها المبهمة على أساس أن الناس يسمعون عن القيامة والحساب لأول مرّة، أمّا بالنسبة لي كمسلم فأنا أعلم الكثير عن يوم القيامة... لا، كلمة {أَدْرَاكَ} معناها أن شيئا لم تعش فيه ولم تره ولم تلمسه... وسمعت عنه، وهذا لا يزال ينطبق علينا الآن حتى نعود إلى الحياة في يوم القيامة ونعيشها.

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ{4})
{كَذَّبَتْ}، أعلنت أنها لا تصدّق، {ثَمُودُ}، وهو اسم لقبيلة عربية كبيرة كانت منتشرة في عدة أماكن في شبه الجزيرة العربية، والقرآن تحدّث بالخصوص عن ثمود الذين جاءهم النبي صالح(ع)، وكذّبت {عَادٌ}، وهي أيضا قبيلة كانت منتشرة على مختلف مناطق شبه الجزيرة العربية والقرآن تحدّث بالخصوص عن الَّذِينَ جاءهم النبي هود(ع)، هم كذّبوا {بِالْقَارِعَةِ}، بالشيء الذي يضرب ويجعلهم يصطدمون به، وهنا المقصود العقاب الإلهي.

ضع في بالك أن السورة وبشكل مختصر جدا بدأت من هنا تشير لحاقة الآخرة القارعة بنماذج حصلت في الدنيا، وستشير لأقوام نزل عليها العذاب الدنيوي كنماذج عن عذاب الآخرة.

(فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ{5})
{فَأَمَّا ثَمُودُ}، وثمود اسم لقبيلة عربية كبيرة، كانت منتشرة في عدة أماكن في شبه الجزيرة العربية، والقرآن تحدّث عن القرية التي كان فيها النبي صالح(ع) الذي أرسله الله سبحانه على ما يبدو من الآية 80 من سورة الحجر إلى مدينة الحجر {وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ}، ويوجد إلى الآن آثار لبيوت منحوتة في الصخر في مدينة الحجر، وتسمى أيضا مدائن صالح، وهي تقع في ما يسمّى الآن بالمملكة السعودية، لجهة الشمال الغربي من المدينة المنورة.

أنذرهم النبي صالح(ع) من الآخرة ولم يرتدعوا، {فَأُهْلِكُوا}، وجرى استنفاد حياتهم بإنهائها بإماتتهم، {بِالطَّاغِيَةِ}، بحدث تعدّى حدوده "الطبيعية"، ومن القرآن تعلم أن زلزالا أصابهم، والزلازل تحصل عادة، ولكن الزلزال الذي أصاب ثمود كان طاغيا، وكان بعيدا في قوته عن الزلازل العادية حيث دمّر قريتهم وهدم بيوتهم المبنية في الصخر...

القرآن يصف ثمود وعادا بأنهم طغوا بشكل كبير على بقية الناس، وكفروا وأسرفوا بشكل هائل، غيرهم من الأقوام كفروا وطغوا... ولكن هاتين القبيلتين كانتا متميزتين بالطغيان والعتو، لذلك جاء الوصف في السورة هنا عن إهلاك إحداهما بالطاغية والأخرى بالعاتية لمناسبة وصفهم بالطغيان.

(وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ{6})
{وَأَمَّا عَادٌ}، وعاد اسم لقبيلة كبيرة كانت منتشرة في عدة أماكن في شبه الجزيرة العربية، وهود(ع) أرسله تعالى في منطقة الأحقاف أي التي فيها تلال رملية كما ورد في الآية 21 من سورة الأحقاف {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ...}، ومدينتهم اسمها إرم كما ورد في الآية 7 من سورة الفجر {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ}، ويقال إنها تقع بين اليمن وعمان.

أنذرهم نبيّهم ولم يرتدعوا، {فَأُهْلِكُوا}، وجرى استنفاد حياتهم، إماتتهم، {بِرِيحٍ}، بهواء قوي، {صَرْصَرٍ}، لها صوت قوي، تصفر بقوة، {عَاتِيَةٍ}، بأقصى شدّتها، شديدة القوّة في جريانها، وتقلع الأشياء من الأرض مهما كانت مثبّتة.

(سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ{7})
{سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ}، في الأصل الريح مسخّرة لنا وتعمل على تغيير الهواء ونقل الغيوم وتبخير الماء وتلقيح النبات... أمّا عاد فسخّر تعالى الريح عليهم لتعمل على تدميرهم، ولم تكن كارثة من أسباب طبيعية بحتة، ولم تكن صدفة حصلت حينها، بل بقرار إلهي ضربتهم الريح القوية جدا لتدمّرهم، سخّرها تعالى، {سَبْعَ لَيَالٍ}، سبع فترات ظلمة من الأيام، {وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ}، ثمانية فترات زمنية، يعني هناك ليل ناقص من الأيام الثمانية، ومرت عليهم سبع ليال وثمانية نهارات، وبناء على المتعارف عليه من بداية اليوم من المغرب لذلك يبدو أن العذاب بدأ نهارا، ومرّت ثمانية أيام مرّت فيها سبع ليال وثمانية نهارات، وكانت {حُسُوماً}، ولم تتوقف قبل أن تحسم وتنهي بالكامل تدمير قريتهم، وتدمرهم بشكل حاسم.

{فَتَرَى}، أول صورة محدّدة تصير عندك من بعد الريح، كما نقول بالعامية: فبتشوف. {الْقَوْمَ}، الناس الذين لهم كيان الجماعة المتفاعلة مع الريح، تراهم {صَرْعَى}، مطروحين على الأرض، وهنا الكلام عن موتهم، {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ}، كعب آخر شجرة البلح، {خَاوِيَةٍ}، فارغة من الداخل، حيث صار شكل الواحد منهم كالقسطل الخشبي، له قشرة وداخله فارغ. والنخلة لها رأس وبدن وعجز، وليس لها في عجزها جذور سميكة مثل بقية الأشجار وحين تقلعها تجد كتلة خشبية كالخيطان المتشابكة، وحين تيبس يصير بدنها فارغا من الداخل وتشبّه الآية حالة أجسادهم من بعد الكارثة بجذع النخل المحافظ على غلافه والفارغ من داخله.

(فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ{8})
{فَهَلْ تَرَى لَهُم}، هل عندك صورة محددة لعاد، كما نقول بالعامية: شفت شي لعاد، {مِّن بَاقِيَةٍ}؟ هل بقي أشخاص من عاد أو قرية لعاد؟

عندما ينزل عليك الوحي أيها الرسول محمّد(ع) ويخبرك عن الحاقة، وينكرها الناس، فلينتبهوا أنّ نماذج تاريخية ملموسة مصغّرة جدا عن عذاب الآخرة مرّت على البشرية، وليتّعظوا بها، وبالخصوص وليلتفتوا لأقوام جبابرة طغاة من المستوى العالي، تدمّروا...

تاريخيا، عادٌ وثمود دُمّرتا بعد الطوفان وقبل النبي إبراهيم(ع) كما هو مشهور في التراث الديني، وسؤال الآية عن بقاء باقية من عاد في زمن النبي محمّد(ع) بعد آلاف السنين قد يبدو غريبا لك، إذ من الطبيعي جدا أن يكونوا انقرضوا وانمحى أثرهم بسبب طول المدة، أليس كذلك؟ حسن، هذا العادي الطبيعي هو ما تسألك عنه الآية، لأنه ليس عاديا ولا

طبيعيا بل سببه طغيانهما، لو كانوا من المؤمنين لبقي امتداد عاد إلى الآن، وبعدهم ببضع مئات من السنين جاء النبي إبراهيم(ع) الذي لا تزال ذريته منتشرة ومعروفة رغم مرور آلاف السنين عليها.

(وَجَاء فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ{9})
{وَجَاءَ فِرْعَوْنُ}، وهو لقب لأعلى حاكم في مصر في فترات مرّت عليها، وهذا اللقب مشابه للقب كسرى للفرس وقيصر للرومان وتبّع لليمنيين... وعادة القرآن يشير إلى واحد من الفراعنة وهو الفرعون الذي كان في عهد النبي موسى(ع).

{وَمَن قَبْلَهُ}، والذين كانوا قبل فرعون، {وَالْمُؤْتَفِكَاتُ}، والمنقلبات وهي القرى التي كان فيها النبي لوط(ع) وانكفأت فانقلبت، جاؤوا {بِالْخَاطِئَةِ}، بالأعمال الخطأ غير الصحيحة وغير المقبولة ولا بأي شكل.

في القرآن نجد توصيفا لعذاب قوم النبي لوط(ع) بجعل عالي القرية سافلها في الآية 82 من سورة هود {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا...}، وهذا تعبير آخر عن إفكها، فالكلام هنا عن قرية النبي لوط(ع) التي انكفأت.

(فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً{10})
{فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ}، لم يطيعوا الناقل لكلام المسؤول عنهم من مستوى إلهي، أرسل تعالى لكل قوم منهم "ثمود وعاد وفرعون والمؤتفكات" شخصا ينذرهم ولم يطيعوه، {فَأَخَذَهُمْ} سبحانه {أَخْذَةً رَّابِيَةً}، لم يتركهم بل تعامل معهم بشكل زائد، في العادة يموت الناس بالتتالي من المرض والحوادث... موزعين على الأيام، أما هؤلاء فأخذهم تعالى دفعات كبيرة في أزمنة قصيرة، أخذة رابية بشكل زائد في العنف عن العادي. نقول: ربا يربو رُبُوّاً... لما زاد عن عموم أي شيء.

(إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ{11})
{إِنَّا لَمَّا طَغَى}، عندما زاد عن حدّه، {الْمَاءُ}، طاف وغمر المنطقة، {حَمَلْنَاكُمْ}، أيها الناس، {فِي الْجَارِيَةِ}، في التي تجري، تنتقل بالتحرّك المتتابع، والكلام عن السفينة التي بناها النبي نوح(ع) بأمر إلهي حتى ينجو المؤمنون من الطوفان.

أنتم أيها الناس بقية من ذرية الذين نجوا في تلك السفينة، وأنتم دليل ملموس على حصول عقاب إلهي أباد الناس في منطقتكم ولم يَبْقَ إلّا أجدادكم الذين نَجَوْا في السفينة.

(لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ{12})
{لِنَجْعَلَهَا}، لتلك الجارية، {لَكُمْ تَذْكِرَةً}، شيئاً تستحضرونه في فكركم ومشاعركم وعملكم، حين ترونها تتذكّرون أن عذابا إلهيا نزل على الكافرين ونجا المؤمنون في هذه السفينة، {وَتَعِيَهَا}، تستوعب تلك المعلومات عن السفينة الناجية، {أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}، تعي تستوعب ما تسمعه، هناك أشخاص سمعوا بهذه القصة واعتبروها خرافة، أو لم يهتمّوا بها على أساس أنها لا تعنيهم... وهناك من سمعها ودخلت المعلومة إلى أذنه وَوَعَاهَا "وعاء" فاستقرت المعلومة عنده، مثلما تصب الماء في الوعاء فيستوعبه.

لاحظ انتشار حادثة الطوفان في مختلف ثقافات أهل الأرض، وهي ليست منتشرة بنفس النص والحرفية التي ذكرها القرآن، ولكن حصول الطوفان ونجاة بعض الناس في سفينة كبيرة، هو المنتشر بين الثقافات المختلفة في الشرق الأقصى والأدنى، وبغض النظر عن سبب انتشار خبر هذه الحادثة، سبحانه يلفت انتباهنا لوصولها إلينا، ويسألنا إن كانت لنا تذكرة، لِتجعلنا نستحضر تدخّله تعالى هنا في الدنيا لمعاقبة الكافرين، وبالتالي تكون دليلا تاريخيا ملموسا لنا ونموذجا مصغّرا عن عذاب الآخرة.

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ{13})

بعد انتهاء السورة من عرضها المختصر لنماذج عن عقاب في الدنيا لمن كفر، تنتقل للحاقة، لتنبّهنا أنها فعلا ستتحقّق أوّلا بدليل قوله تعالى عنها، وثانيا بالنظر إلى النماذج المصغّرة التي حصلت هنا في الدنيا:

{فَإِذَا نُفِخَ}، أحدٌ ما قام بجعل شيء، {فِي الصُّورِ}، في الشيء الذي يوصل الصوت إلى عدد كبير، {نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ}، لا يحتاج لنفخة ثانية، ومن تكملة الكلام نرى أنها نفخة إحياء الأموات.

من الآية 68 من سورة الزمر {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ}، علمنا أن حادثة النفخ في الصور ستحصل مرتين، وأوّل نفخة ستسبّب موت كلّ المخلوقات في الدنيا "إلا من شاء تعالى"، وثاني نفخة ستحصل بعدما تتبدّل الدنيا وتأتي الآخرة، وهذه النفخة ستسبّب عودتنا إلى الحياة، ويسميها القرآن بالساعة لأنها بالنسبة لنا هي أول ساعة من يوم قيامنا من الموت. والمشهور بين المسلمين أن مَلَكاً اسمه إسرافيل(ع) يقوم بالنفخ في الصور، وتذكّر دائما أن القرآن لم يذكر اسم النافخ ولم يقل أصلا أنّه مَلَكٌ ولكن اشتقاقا من عموم ما نفهمه من القرآن عن توظيفه تعالى للملائكة للقيام بهكذا أعمال، ومما هو مشهور في عموم ثقافة المنتمين لهذا الدين الإلهي من اليهود والمسيحيين، سنقول إنّ مَلَكاً اسمه إسرافيل هو النافخ في الصور.

الصور في اللغة هو الشيء الذي نستعمله لنصدر صوتا قويا، فيسمعه عدد كبير من الناس، كالبوق قديما، وكمكبر الصوت حاليا. طبعاً، الصور الذي تتحدّث عنه الآية هنا ليس بوقا مصنوعا من خشب أو من معدن، وليس مكبرا للصوت، ولكنه "على الوصفية" شيء يستعمله "المَلَكُ إسرافيل(ع)" ينفخ فيه، ويجعل في داخله "شيئا لا نعرفه"، مثلما نجعل نحن الهواء داخل البوق "أو البالون"، لِيصدر من الصور "شيء" يسبّب قيام كل الناس من موتهم، دفعة واحدة.

وصف النفخ في الصور مثل الوصف بالصيحة الوارد في العديد من الآيات ومنها الآية 53 من سورة يس {إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ}، أمام عدد هائل من المخلوقات الميتة، يصدر أمر إلهي بإعادة هذا العدد الهائل إلى الحياة بنفخ "المَلَكِ" في شيء ينشر الأمر الإلهي على عدد كبير، ونفس الحدث يوصف بالصيحة كتعبير عن أمر إلهي سينتشر على عدد كبير، فهي ليست صرخة "علما أن كلمة صرخة أصلا غير مناسبة لوصف الحالة"، وليست الصيحة مسموعة بالصوت، بل التعبير بالنفخ في الصور وبالصيحة هو وصف لانتشار الأمر الإلهي على عدد كبير ليتنفّذ.

النفخ في الصور ليس كما ننفخ نحن البالون بالهواء، فكلمة "نفخ" استعملها القرآن مرارا لتوصيف حالة سريان الحياة في المادة الجامدة مثل التراب، الآيتان 29 من سورة الحجر و72 من سورة ص تنسبان النفخ له سبحانه في آدم(ع) وصار حيا، والملائكة(ع) نفخت في بطن السيدة مريم(ع) وصارت حبلى، وراجع في ذلك الآية 19 من سورة مريم {قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} مع الآية 12 من سورة التحريم {وَمَرْيَمَ ... فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا...}، والنبي عيسى(ع) كان ينفخ في الطين ويصير طيرا، كما ورد في الآية 110 من سورة المائدة {... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي...}، وهنا ينفخ المَلَكُ في الصور ونتشكل(ع) نحن من التراب ونعود إلى الحياة.

صِرتَ تعلم أن استعمال هذه الكلمات "نفخ وصور وصيحة..." على معناها الوصفي الحقيقي وليست تعابيرَ مجازية، ولكن تصوّرها في ذهننا غير ممكن لنا حاليا لأنها توصّف شيئا من عالم آخر، من عالم الملائكة التي لا يمكننا رؤيتها الآن، في عالمها صور "بوق" يناسب تكوينه تكوين الملائكة، والنفخ فيه فعل يناسب تكوين الملائكة، نحن لدينا رئتان ننفخ منهما، والملائكة تكوينها مختلف، ولكن لديها فعل توصف فيه بأنها تنفخ. ونفس الشيء الكلام عن الشهب التي ترجم بها الملائكة لتبعد الشياطين عن السماء العالية، فالشهب توصيف لشيء يناسب تكوين تلك السماء، ليست شهبا من المادة التي يتشكّل منها كوننا "سماؤنا"... ونفس الشيء وصف سجود الملائكة بتعبير يناسب تكوينها...

هذه النفخة في الصور هي بداية الحاقة، ويليها:

(وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً{14})
{وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ}، وجه الأرض مع ما ارتفع منها، {فَدُكَّتَا}، جرى ضربهما وسحقهما وضغطهما، {دَكَّةً وَاحِدَةً}، وصارتا كتلة واحدة، وكما تعلم من عموم القرآن أن الجبال ستنهار وتصير كالغبار، والأرض ستصيبها

الزلازل... وفي النهاية تتبدّل الأرض ويصير سطحها مستويا تماما بلا أي تعرجات كما ورد في الآية 107 من سورة طه {لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا}.

نتذكر من آيات أخرى أن الناس حين سمعوا الكلام عن خراب الدنيا بتبدلها قبل الآخرة تساءلوا عن الجبال، هي ضخمة وقوية وقد اعتقدوا أنها بنيان أزلي لا يمكن ليوم القيامة أن يحدث ويدمّر الجبال، مِن ضخامتها يستحيل أن يصيبها شيء، وتقرأ ذلك في الآية 105 من سورة طه {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا}، ولذلك ترى القرآن يردّد لهم أن الجبال التي ترونها ضخمة، ستنهار وتتساوى مع الأرض لتصيرا دكة واحدة ككتلة واحدة، مثلما نعبّر عن دكّ البارود في البندقية القديمة، ندكها عدة مرات، وفي النهاية نحصل على دكّة "واحدة" للبارود.

(فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ{15})
{فَيَوْمَئِذٍ}، في تلك الفترة الزمنية، حين يحصل النفخ والدكّ للأرض والجبال، {وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ}، حصلت التي ستحصل، هذه بداية يوم القيامة.

(وَانشَقَّتِ السَّمَاء فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ{16})
{وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ}، ما فوقنا صار أقساما متباعدة، {فَهِيَ يَوْمَئِذٍ}، السماء في ذلك الزمان في زمن يوم القيامة، {وَاهِيَةٌ}، فاقدة لأي قدرة على التماسك.

لاحظ من أشعار العرب قبل الإسلام استعمالهم لكلمتي واهي وواهن على أنهما كلمة واحدة باستبدال آخر حرف فقط لفظا، حيث ورد على نفس المعنى: واهي القوى، واهن القوى. وربما هناك فرق بينهما ولم يظهر لي.

الآية تصف عالم الآخرة حيث السماء، وهي ما سيكون فوق المخلوقات في يوم القيامة، لن تكون مثل سمائنا التي نعرفها الآن، وأصلا نحن لن يكون تكويننا مثل تكويننا الآن، لأننا سنرى الملائكة(ع) كما هي بتكوينها الحقيقي، وسنرى الجنّ وسنرى كتاب أعمالنا وآثارها... ومن القرآن نعلم أن الملائكة(ع) ستنزل من فوق في يوم القيامة، في مشهد يصفه القرآن بتشقّق السماء بالغمام، كما ورد في الآية 25 من سورة الفرقان، وهذا مشهد نستصعب تصوّره الآن، وعلى كلّ حال، كما كانت الكوارث التي أصابت ثمود وعاد وفرعون والمؤتفكات... كوارث غير عادية، ومن الصعب تصوّرها إن لم ترها، تَصَوُّرُ ما تصفه السورة "وعموم القرآن" عن مشاهد يوم القيامة سيكون أصعب، فلا ندري بها لأننا لم نرها ولم نعشها، فأي صورة تخطر في بالك عنها فهي مجرد خيال بعيد جدا من الواقع.

(وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ{17})
{وَالْمَلَكُ}، الكائنات الموصوفة بأنها تملك شيئا ما، وهي الملائكة التي تملك قدرات وفيها صفات عالية عن بقية المخلوقات، {عَلَى أَرْجَائِهَا}، منتشرة على مختلف بقع السماء، وليست كلمة أرجاء مرادفة لناحية، عند استعمالهما لوصف انتشار شيء، تصير الكلمتان قريبتين في المعنى، حيث إن الانتشار في النواحي يشير إلى ابتعاد الأشياء عن بعضها بمسافات بعيدة "البعد نسبة لحجم الأشياء والمكان"، أما الانتشار في الأرجاء فيشير للتفرق في مختلف البقع بدون فراغات كبيرة بين الأشياء.

{وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ}، فهناك مركزية لإدارة ما يجري، يحملها، {فَوْقَهُمْ}، فوق الملائكة(ع) والمخلوقات، {يَوْمَئِذٍ}، في ذلك الزمان، {ثَمَانِيَةٌ}، ومن المشهور بين عموم المنتسبين لدين التوحيد "يهود نصارى مسلمين..." أنهم ثمانية ملائكة من الرتبة العالية جدا جدا، وهم الذين خلقهم تعالى بقدرات هائلة تمكنهم من أداء وظائف في عالم الدنيا وعالم الآخرة.

سبحانه أخبرنا عن عظمته الفائقة، وتحتها بكثير هناك مخلوقات بقدرات هائلة إذا قيست قدراتها لبقية المخلوقات، وهم الملائكة(ع)، وبين تلك الملائكة يوجد من لديه قدرات عالية جدا عن بقية الملائكة كما نفهم من الآية الأولى من سورة فاطر {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ...}، والمشهور بين المسلمين وعموم أهل الكتاب أن الملائكة جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام هم من الملائكة العالية جدا جدا، وذكر القرآن منهم بالاسم فقط جبريل(ع) وميكال(ع)، وورد ذلك في الآية 98

من سورة البقرة {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ}، ونجد في بعض تراثنا وتراث أهل الكتاب أن فوق هذه الملائكة يوجد ملائكة أعلى يسمونهم بالكرّوبيين، ومرة يذكرون هذه الملائكة الأربعة معهم ومرّة يجعلونهم تحتهم، ولكن هذه أمور لم يشر لها القرآن، بل فقط أخبرنا عن وجود ملائكة بقدرات مختلفة كما ورد في بداية سورة فاطر، وعن مَلَكٍ موظّف بتوفّي الأنفس كما ورد في الآية 11 من سورة السجدة {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ...}، وآخر مسؤول عن جهنّم كما ورد في الآية 77 من سورة الزخرف {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ}، وعن كائنات تحمل العرش فنفهم أنهم من الملائكة العالية جدا جدا والموظفة بالإدارة المركزية لعالم الدنيا، ونفس الشيء في عالم الآخرة، هنا في الدنيا يوجد عرش له تعالى، وهناك يوجد عرش له تعالى، وهو تعبير عن الإدارة المركزية للآخرة.

بالنسبة لكلمة "عرش"، العرش الذي نعرفه نحن هو الكرسي الفخم الضخم الموضوع على منصّة ويجلس عليه الملك أو الحاكم، وأصلا كلمة عرش وصف لعموم ما علا ويقابلها فرش، وعرشه سبحانه تعبير عن الإدارة المركزية من مستوى ربوبي، فهو تعبير عن مركزية السيطرة والقرار لكل ما في الدنيا "والآخرة"، وبما أن سيطرته تعالى ممتدة على كل الدنيا "والآخرة" فعرشه سبحانه ممتدّ بامتداد الدنيا "والآخرة"، على كل ما في الدنيا والآخرة كما هو واضح من تعبير الآية 255 من سورة البقرة {... وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}.

لدينا تراث ديني ثقافي يشير البعض منه إلى وجود شيء محدّد كعرش له سبحانه، كشيء مشابه بشكل ما لمكان تتم فيه إدارة شؤون الدنيا، واستندوا على ذلك قرآنيا بالآية 17 من سورة الحاقة {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، وكلامهم خليط من تصوّرات مختلفة، بعضها سببه استعمال لغتنا لتوصيف أمور لا يمكننا نحن البشر تصوّرها، وبالتالي الكلمات التي نستعملها لذلك تنقل نفس المعنى ولكن لأمور مختلفة، هناك مُلْكٌ صلب لا يهتز وإدارة إلهية مركزية لما في الدنيا، ولكنه سبحانه واسع محيط، وهناك ملائكة بقدرات عالية خلقها سبحانه ووظّفها لإدارة بعض شؤون ما في الدنيا، وأشهرها وضوحا من القرآن مَلَكُ الموت، وهذه موصوفة "بلغتنا" أنها حاملة للعرش، لأنّ الكلام القرآني الذي يشير لقوّة الملك ولنواة الحكم والسيطرة لا يشير إلى مكان، ولا إلى شيء، بل إلى حالة، وهذا واضح جدا من تعبير الآية 255 من سورة البقرة بوصفها سَعَةَ الكرسي بِسَعَةِ السماوات والأرض.

فمن السذاجة تصوّره تعالى جالسا على كرسي على منصّة وثمانية ملائكة يحملون المنصّة، ضاربين بعرض الحائط كلامه سبحانه عن نفسه بأنه واسع محيط وليس كمثله شيء فلا يمكن لأي مخلوق تصوّره...

الوصف القرآني لملائكة حافين حول العرش أو حاملين له هو وصف حالة وليس وصف مكان.

بعبارة أخرى، كل السماوات... وهذه الأرض التي نحن عليها، هي كل ما في دنيا المخلوقات، خلقها كلّها ربنا الله سبحانه، ويخبرنا سبحانه أنه هو بنفسه ولوحده ركّبها وألّفها في ست فترات زمنية، وبعد اكتمالها، لم يتركها سبحانه لغيره ليديرها، بل استوى على العرش فكل شيء صار بالتمام فانبسطت سلطته عليها كلها، ومن دون تهديد من أحد بالقدرة على التدخل.

بناءً على الاسمية لكلمة عرش كاسم لشيء، كل السماوات والأرض "كرسيه" عرشه تعالى، وعلى الوصفية للمُلْكِ القوي والسيطرة والإدارة المركزية والتي بلغتنا البشرية نستعمل لها وصف العرش، سبحانه حالته أن عرش السماوات والأرض منسوب له، ذو العرش، واستوى على العرش، وهناك ملائكة موظفون منه تعالى بتنفيذ مهمات "رئيسية" فيكون وصف حالتهم كحاملين للعرش وحافّين حول العرش.

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ{18})
{يَوْمَئِذٍ}، في ذلك الزمان، في زمان يوم القيامة وما بعده، {تُعْرَضُونَ}، يتم عرضكم وإظهاركم لحدث مهمّ وهو محاسبتكم، {لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ}، فأي شيء متعلق بكم وبكل واحد منكم فلن يكون مستترا بقصد الاختباء، فكلكم ستظهرون.

نفهمها بشكل أبسط إذا تصور أحد ما أنه في زحمة يوم القيامة وما بعده يمكنه التخفّي فلا يظهر بسبب عدد الناس الكبير جدا، لا، فكلكم ستكونون معروضين لمحاسبتكم ومعروفين بشكل واضح ولا يمكنكم الاختباء أو التستّر.

كما تلاحظ، فإنّ الآية السابقة أخبرتنا أن الملائكة(ع) في حينها ستكون منتشرة فوقنا، والعرش فوقهم، مما يعني أن السلطة، الحكومة، السيادة... الإلهية كلّها بشكل واضح ظاهرة، فتريدك الآيات هنا أن تتصوّر كثرة الملائكة(ع) المنتشرة على أرجاء السماء، وتتصور السيطرة علينا كلّنا بشكل لا يمكن لأي أحد منّا أن يتخفّى.

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ{19})
{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ}، جعلوا معه كتابا "مسجلة فيه أعماله"، {بِيَمِينِهِ}، بما يستسهله ويشعر بالقوة والراحة فيه، {فَيَقُولُ}: {هَاؤُمُ}، ها يا جماعة أعرض عليكم كتابي، مَنْ يرد منكم فلينظر في كتابي. ولو كان الكلام مع شخص مفرد لكان التعبير مشابهاً لتعبيرنا الحالي: هاك كتابي. {اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ}، انظروا في المعلومات التي فيه.

من عموم القرآن تعلم أنه تعالى أوكل بكل شخص منّا ملكين أساسيين مع ملائكة آخرين لتسجيل كل أعمالنا وأقوالنا ونوايانا... وتقرأ ذلك في الآيتين 17 و 18 من سورة ق {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}، وفي يوم القيامة من الموت يتم توزيع الكتب التي سجّلتها الملائكة(ع) على الناس، ودرج بيننا تسمية تلك الكتب بكتاب الأعمال، وهنا نحن في الآية أمام شخص مؤمن أُوتُوا كتابه المسجّل فيه ما عمله في حياته الدنيا، وهو مسرور به ويعرضه على أي واحد يريد الاطلاع عليه، وبالخصوص، يعرضه على الملائكة(ع) التي تعمل على محاسبة الناس واحتساب الحسنات والسيئات.

لاحظ الآيات السابقة انتهت بالتاء المربوطة "القصيرة"، وهنا وفيما يلي من آيات ستلاحظ انتهاء بعضها بحرف الهاء، ويسمونها: هاء السكت. وهي ليست أكثر من مجرد إضافة جمالية للنطق بالكلمات حتى يتم التلفظ بالحركة على الحرف السابق لهاء السكت.

تلاحظ في عموم اللغات التي تنتهي بأحرف ساكنة، كهاء السكت، أو لها حركة موحدّة غالبة في آخرها، تلاحظ جمالية في نطق كلماتها وسهولة تركيب جمل موسيقية منها، كالإيطالية والفارسية واليابانية...

(إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ{20})
{إِنِّي ظَنَنتُ}، اعتقدت استناداً إلى علم وصلني، {أَنِّي مُلَاقٍ}، سوف أتلاقى وأتواجه مع، {حِسَابِيَهْ}، احتساب تعداد وتقييم أعمالي. ولذلك استعددت لهذا اللقاء والحساب وقمت بما هو مطلوب.

"الظنّ" هو اعتقادك بشيء ما مستنداً إلى شيء ما، فإن كان ما تستند عليه صحيحا كان ظنّك صحيحا، وهذه حالة المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم سبحانه كما ورد في الآية 46 من سورة البقرة {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، فهم مستندون في ظنّهم على آياته وكلامه تعالى. وإن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران {... وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ...}، واستناداً للحالة الحرجة التي كانوا فيها ظنّوا أنه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء. وبين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند عليها ولكنه ليس مقتنعا بها، فلا تزال الأمور عنده مرجّحة لاحتمالات أخرى، فهذا ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}، فهم يريدون أن يلمسوا مباشرة حصول ساعة قيامهم من الموت حتى يعتقدوا بها ولا يكفيهم الاستناد إلى معلومات تدلّ عليها، فيريدون اليقين بها عيانا حتى يؤمنوا. وهذه الحالة قريبة جدا من الاصطلاح "في علم المنطق" والدارج لمعنى كلمة ظنّ على معنى وجود عدة احتمالات. هنا صرت تعلم المعنى اللغوي الأساسي لكلمة "ظنّ" فانتبه للفرق بينه وبين المعنى الاصطلاحي حتى لا تفسّر القرآن على أساس المعنى الاصطلاحي.

في عموم كتب التفاسير ستجد كلاماً آخر عن الظنّ، ولا ينطبق معناه على كلّ آيات القرآن، فستجدهم لا يثبتون على معنى واحد للظنّ، حيث مرة يرادفونه باليقين، ومرّة بالشك، ومرة بالحسبان... وهي معانٍ غالباً ستجدها صحيحة لأن الآيات واضحة وتدل على المعنى الذي ذكروه بالشكل العمومي الذي يتحمله الاشتقاق والتدرّج من أصل معنى كلمة ظنّ، ولكنها ليست المعنى الدقيق لكلمة ظنّ، بل كلامهم توصيف لحالة العلم الذي استند إليه الظنّ، هنا صرت تعلم

معنى الكلمة العام، وأن القرآن دائما يوضّح لك نوع العلم الذي يستند الظنّ له إن كان صحيحا أو فاسدا، فلن تضيع في معرفة الظنّ الصحيح من الظنّ الخطأ.

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ{21})
{فَهُوَ}، هذا الذي كتابه في يمينه وقد استعدّ للّقاء، {فِي عِيشَةٍ}، في تمضية حياة، {رَّاضِيَةٍ}، يوافق عليها بسرور ولا يعترض عليها بتاتاً. كما نقول بالعامية: عيشة هنيّة تعجبه.

كما تعلم من عموم القرآن فلا ملل ولا ضجر ولا تأفّف في جنّة الآخرة، ولا يخطر في بال ساكنيها ولو لثانية أنه يوجد شيء أفضل مما هم فيه، وتجد كل هذه المعاني مختصرة فيما ورد في الآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}.

نتذكّر دائماً أن كلمة رضا ومشتقاتها، معناها في كلام العرب وفي القرآن: وصف شعور كتعبير عن القبول وانتفاء الاعتراض بل بالعكس فهو الموافقة المتدرجة من السرور إلى الحبّ عن فعال أحد ما، والوصف يشمل شعورك على العمل أو على صاحب العمل. فهي ليست وصفاً لقبول شيء مكروه، فهذا وصفه الصبر، ففي أدبياتنا نجد كلاماً عن الصبر على المكروه، وأن الرضا بالمكروه أعلى من الصبر، وهذا معنى لم يستعمله القرآن في كلامه، ومخالف للمعنى اللغوي لكلمة رضا، ويحمل في طياته معانيَ أخرى مرفوضة إذا قارنتها مع مفاهيم القرآن، فسبحانه لا يخصّص "من عنده" مكروها لمؤمن حتى يكون إيمانه عالياً بالرضا على المكروه، فأي مكروه غير محبوب يحصل مع المؤمن فهو بسبب ذنب ارتكبه المؤمن أو ذنب ارتكبه غيره، وليس منه تعالى أبداً بتاتاً وهذا واضح من عموم كلام القرآن ومنه الآية 30 من سورة الشورى {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}.

نعم لا مشكلة بالتهاون في معاني الكلمات في الأدبيات التي بيننا إلا إذا كانت تعبّر عن شيء ديني منسوب له تعالى، فالقرآن دقيق في تعابيره ولا يتهاون أو يتساهل أو يتراخى في معاني الكلمات التي يستعملها، وعندما نتهاون نحن ويصير للكلمات معانٍ نظنها من مفاهيم قرآنية، وعندما تترسخ هذه المعاني المتراخية للكلمات في ذهننا، فعندها سنقع في مشكلة تفسير كلام القرآن على أساس المعنى والمفهوم الذي أصلاً تراخينا فيه.

لدينا كم هائل من الآيات التي تصف روعة الجنّة وأن من يدخلها سيبقى مذهولاً بروعة ما فيها أبداً، بلا ملل ولا أي رغبة في شيء آخر، فكل ما يرغب به يجده في الجنّة، بل يجد فيها ما لا يخطر على باله... وكمثال جامع لذلك ما ورد في الآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} فهو راض بها، وراض عنه تعالى، وهذا هو معنى كلمة الرضا لغوياً وهكذا استعملها القرآن، وهي لا تتحمّل ولا تتوافق مع ما درج في أدبياتنا عن الرضا على شيء مكروه، والذي سيعني ضمناً احتمال حصول شيء مكروه في الجنّة، ورغم ذلك سيرضى عنه المؤمن، لا، فانتبه دائماً من ذلك.

(فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ{22})
{فِي جَنَّةٍ}، في مكان موصوف بروعة ما فيه، فيه حدائق وبساتين وكل ما يبهج ويسبب السعادة والفرح، {عَالِيَةٍ}، قارنها مع توصيف القرآن لجهنّم بالحفرة والهوّة والمكان السحيق... نفهم أن تصميم الجنّة يجعل من فيها يشعر بأنه في مكان عال وليس في حفرة أو في مكان ضيّق، حوله فسحات ومناظر تحت نظره.

جنّة الآخرة بِسَعَةِ السماوات والأرض في ضخامتها، وجهنم مجرد مكان صغير جداً جداً في الآخرة، فالوصف للجنة بالعالية قياساً مع حفرة جهنم فلا أظنه التوصيف المقصود هنا ليكون توصيفاً حرفياً، بل الوصف أكثر معنويٌّ لعموم علو أي مكان في الجنّة بسبب روعته، في مقابل انخفاض جهنّم كهاوية معنوية لسوئها.

لجهنّم حيطان وحواف فيها حفرة عميقة، ويشعر من فيها بأنه يختنق من الضيق وهو في حفرة، وبالعكس، فمن في الجنّة يشعر أنه مرتاح، فهي جنة سَعَتُها فوق تصورنا، فهي بوسع السماوات والأرض، ولا ندري إن كانت مشابهة لدنيانا بالمجرات المنتشرة فيها والتي فيها تريليونات الكواكب...

(قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ{23})
{قُطُوفُهَا}، الأشياء التي يتم قطفها ونزعها من الأشجار أو العرائش... {دَانِيَةٌ}، قريبة، وليست بعيدة عمّن يريد قطفها.

وهذا شيء نفهمه بالنظر إلى ما حولنا من أشجار عرائش... للفاكهة، حيث تكون الفاكهة أحياناً بمتناول يدنا بدون أي أدوات نطالها، وأحيانا تكون الفاكهة عالية ونحتاج للتسلّق على الشجرة أو على سلّم أو درجات... للوصول إليها، أمّا في الجنّة فأهلها لا يحتاجون سوى لمدّ يدهم براحتهم لقطف الثمار.

طبعاً لا تأخذ الكلام على حرفيّته، فهذا لا يعني أن كل أشجار الجنّة قزمة، ولا يعني أنها طويلة وثمارها فقط من تحت، بل المشهد عن سهولة تناول الفاكهة من أشجار الجنّة.

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ{24})
{كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا}، بمسرّة ومن دون أي نوع من الأذى، بلا تكدير ولا تنغيص، بلا أي شعور بالانزعاج من الأكل والشرب ولا بأي طريقة، جسدهم تغيّر هناك ليصير مستقبلا فقط للأحاسيس اللطيفة، فلا غصّة ولا خلل أسنان ولا حموضة مزعجة ولا ملوحة منفرة... وهذا الهناء، {بِمَا}، بسبب الذي، {أَسْلَفْتُمْ}، فعلتموه سلفا وفعلتموه من قبل، {فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ}، في الأزمنة التي مضت، في حياتكم الدنيا.

في أيام حياتكم في الدنيا قمتم بالاستعداد لحساب الآخرة، وها صرتم فيها ودخلتم الجنّة بسبب ما أسلفتم من أعمال حسنة قمتم بها سلفا، وقمتم بها قبل دخولكم الجنّة.

لاحظ القرآن لم ينقل لنا عن أهل النار أي قول عن تعذيبهم الشديد أنه زائد وجائر عن حدّه، لأنهم يرون المساواة بين قيمة جرمهم وقيمة تعذيبهم، ويشعرون بالمهانة والاحتقار من أنفسهم بسبب ما فعلوه من سيئات... وهنا بالعكس تعرض عليك الآية أهل الجنة وهم يعلمون أن هذا الهناء هم استحقّوه بما أسلفوا بحسب الوعد الإلهي لهم، لديهم شعور بالرضا والفخر بأنفسهم بسبب نجاحهم في الدخول إلى الجنّة، وهذا هو الشعور الذي تريدك الآية أن تنتبه له.

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ{25})
{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ}، جعلوا كتابه معه، {بِشِمَالِهِ}، بما يستصعبه ويشعر بالضعف فيه، {فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي}، أرغب بشيء قد فاتني ومن المستبعد حصوله الآن، {لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ}، أرغب لو أن كتاب أعمالي لم يصر معي، ولكن هذا شيء من الصعب حصوله لأنه حصل بقرار إلهي لا يمكن أن يتغيّر.

في المشاهد التي نقلها القرآن عن يوم القيامة وما بعده تجد تصريحا بوصف المكان وتوزيع الأشياء فيه، مَنْ يقف في مقابل حفرة النار فستكون بالنسبة له الجنة على جهة اليمين وحفرة النار على جهة الشمال، والداخلون إلى النار في جهة النار وبالتالي فهم على جهة الشمال وأصحاب الجنة على جهة اليمين. ونفس الكلام عن تناول كتب أعمالنا من كتاب على جهة اليمين لأهل الجنة وكتاب آخر على جهة أهل النار.

ومضافاً لكون التوزيع فعلا له جهات مادية فأيضا له جهات معنوية، حملُ أهل النار لكتابهم بشمالهم فعلى جهة الشمال كتاب فيه كل أعمالهم السيئة، ومعنويا الشمال في مقابل اليمين تشير للضعف وفقدان الراحة لأن اليمين تعبير يشير للقوة والاقتدار.

(وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ{26})
ويا ليتني، {لَمْ أَدْرِ}، لم أعلم ما صرت فيه الآن، {مَا حِسَابِيَهْ}، ما هو تعداد وتقييم الأمور المتعلقة بي.

تذكّر أن القرآن عبّر عمّا سيحدث في يوم القيامة بأننا الآن في الدنيا لدينا خبر به وعلم، ولكن لم تحصل لنا الدراية، لأن الدراية بالشيء هي العيش فيه ومشاهدته والاحتكاك به... وليس مجرد معلومة، وهنا ترى استعمال الآية للتعبير الدقيق عن لسان الذي وجد في كتابه أعماله السيئة مسجّلة ويرى أنه سيتحاسب عليها، ويتمنى منية بعيدة الحصول، فيتمنى لو أنه لم يعش في حالة يوم القيامة ولم يعش في حالة المحاسبة، أيّ حالة أخرى ستكون أفضل من هذه الحالة بالنسبة له، لو بقي ميتا لكان أفضل له، ولو اختفى أو انتقل لعالم آخر أو... كُلُّهُ أفضل من محاسبته.

(يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ{27})
{يَا لَيْتَهَا}، أرغب لو أنها كانت الموتة القاضية النهائية الحاسمة ولا يحصل بعدها حياة من جديد، ولكن هذا قد فاتني فها قد عدت إلى الحياة ومن المستبعد بل المستحيل الآن أن تكون موتتي نهائية ولا حياة بعدها، هذا لم يحصل وها قد عدت إلى الحياة. كما نقول عن لاعبي الملاكمة وبقية الألعاب القتالية: قضى عليه بالضربة القاضية. أنهاه بضربة لم يحتج بعدها لضربة أخرى، وهنا فهو يرغب لو أن موتته الأولى كانت القاضية النهائية التي ما بعدها أي شيء.

(مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ{28})
{مَا أَغْنَى عَنِّي}، لم يسبب لي الاستغناء ورفع الحاجة، {مَالِيَهْ}، المال الذي أملكه وكنت غنيا به في الدنيا، أشتري به ما أريده، أما هنا في الآخرة فلا يسبب لي الغنى، أريد النجاة من العقاب وأموالي لا تنفعني.

الآية تعرض نموذجا ولا تتحدّث عن كل من أوتي كتابه بشماله أنه كان غنيا في الدنيا، لا، وليست تتحدّث عن شخص محدّد كان في عهد النبي محمّد(ع)، لا، بل تشير لعموم الذين يظنون أن مالهم، غناهم، ثراءهم الفاحش... الذي يفخرون به ويعتمدون عليه، كلّه لن ينفعهم في الآخرة ولن يغني عنهم شيئا.

وقد نبّهنا القرآن مرارا وبشكل متكرر من الافتخار والاعتزاز والزهو والتكبّر والشعور بالراحة والسيطرة المطلقة... بسبب الغنى بتوافر المال معنا وإمكانية الحصول على ما نريد، وبالتالي رفض الخضوع للدين الإلهي الذي يحرّم ويحلّل ويفرض علينا بعض الأمور التي لن نرغبها ولن نحبّها لأنها ستقيد غنانا فلن نستطيع فعل أي شيء نريده بمالنا... وهذا أبرز نموذج عمّن رفض الالتزام بالدين الإلهي، ولذلك تذكره الآية "وعموم القرآن" كنموذج، فيخبرنا القرآن عمّا سيقوله الغني في الآخرة حتى من الآن ننتبه ونستعدّ ولا نقع في تلك الحالة، ولنعمل على أننا سنلاقي حسابنا.

لاحظ هنا "هاء السكت" قد استعملت لإظهار حركة الحرف الذي قبلها، فلو وقفت "ياء" على مالي لكانت الياء ساكنة.

(هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ{29})
{هَلَكَ عَنِّي}، نَفِدَ حتى نهايته، {سُلْطَانِيَهْ}، قد كنت قاهرا غالبا بقدراتي، بقدراتي المالية بمركزي بقوتي... كنت أقدر على فعل ما أريد، ولكن هذا انتهى هنا في الآخرة.

والهاء في آخر الجملة تسمى هاء السكت، هي تجعل آخر حرف قبلها ملفوظا متحرّكا.

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ{30})
{خُذُوهُ}، لا تتركوه ولا تهملوه بل تعاملوا معه، {فَغُلُّوهُ}، ضعوا الأغلال عليه، ضعوا القيود الثقيلة عليه، كبّلوا رقبته ويديه ورجليه برباطات ثقيلة، الآمر هنا سبحانه يأمر ملائكته(ع) بالتعامل مع هؤلاء بالقوّة...

وتلاحظ من القرآن أن الأغلال لأهل النار ليست لمنعهم من الهرب، فالهرب مستحيل، بل لتقيد حركتهم بشكل مزعج مؤلم مهين.

ولدينا تعابير قرآنية مختلفة عن نوعية الأغلال، فمنها الحبال "المعدنية الخشنة" باليدين والرجلين، ومنها الأطواق المعنية الخشنة على العنق، ومنها السلاسل "الجنازير"... وكمختصر عن ذلك ما ورد في الآية 71 من سورة غافر {إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ}.

(ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ{31})
{ثُمَّ}، بعد وضع الأغلال عليه، {الْجَحِيمَ}، المكان الموصوف بضخامة شدة سوء ما فيه، الذي تتأجّج فيه النيران وسيّء جدا، {صَلُّوهُ}، فاجعلوه متوجها لها، فيتعرّض لها.

ومن دراسة أشعار العرب قديما قبل الإسلام وجدت فرقا بسيطا بين كلمتي جحيم وجهنّم، فجهنّم باستعمال القرآن هي اسم مكان مشتق من الوصف بجهنم الذي يشير لسوء الحالة أو المكان، واستعمال هذا الوصف لمكان تعذيب في الآخرة، فهو وصف للأنواع المختلفة المسببة للعذاب مما في المكان، ففيه النار المحرقة وفيه الضرب وفيه طعام كريه ورائحة كريهة... وتفهم ذلك من فحوى الآية 49 من سورة غافر {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ...}. وفي بيتين من الشعر قبل الإسلام وجدت إشارة بكلمة جحيم لضخامة النار، ويناسبها ذلك في القرآن كما ورد في الآية 97 من سورة الصافات {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ}، فالجحيم وصف الضخامة في السوء.

(ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ{32})
{ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ}، في حلقات مترابطة، {ذَرْعُهَا}، إذا قيست بالذراع، بطول اليد من الأصابع إلى الكتف، وهذا بشكل عام فهناك اختلاف في قياس الذراع كوحدة قياس بين مختلف المناطق، فبعضهم يعتبرها من الأصابع إلى المرفق، وآخرون من الأصابع مرور بالكتف إلى الكتف الآخرى... وعلى أي حال تشير الآية إلى طول الذراع الذي يتم سلكه فيها، فقياسها، {سَبْعُونَ ذِرَاعاً}، وهذا التعبير يشبه قولنا: مترها سبعون مترا، طولها سبعون طولا. طبعا الذراع لا يساوي المتر، ولكنه كان قديما وحدة قياس لطول الأشياء القصيرة، وهنا استعملته الآية كوحدة قياس نتصوّرها لطول تلك السلسلة لنفهم كم هي طويلة، {فَاسْلُكُوهُ}، فاجعلوه على خطّ تلك السلسلة.

يبدو هذا التعبير يشير إلى جررته على الأرض بتلك السلسلة التي تسحبها الملائكة(ع)، في عموم القرآن نجد تعابيرَ عن سحبهم في جهنّم وجرجرتهم على وجوههم وجباههم... ويتنقّلون بين هذه الجرجرة وبين الركض والضرب... فعموم التصويرات تريدنا أن نفهم أنهم لن يرتاحوا ولن يأخذوا نفسا ولو لثانية، فلن يستطيعوا التوقّف عن الحركة الناتجة عن ألم أو رعب.

أمّا بالنسبة للطول بسبعين ذراعا، فلم تذكر السورة أي سبب لتحديد طولها بسبعين، وما ورد في الآية 80 من سورة التوبة {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ...}، ومن عموم استعمال العرب لهذا العدد في كلامهم، فهم يستعملونه للإشارة إلى العدد الكبير، وكانوا أيضا يستعملون أعدادا أخرى "عشرين أربعين..."، مثلما نحن نستعمل العديد من الأرقام للإشارة إلى الأعداد الكبيرة، فنقول: مليون مرّة طلبت منك أن تدرس... وهكذا نفهم التعبير القرآني بأنه مجرد إشارة إلى أنها سلسلة طويلة.

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ{33})
{إِنَّهُ}، الذي يتعرّض لهذا التعذيب، {كَانَ لَا يُؤْمِنُ}، لم يعلن اعتقاده، {بِاللَّهِ الْعَظِيمِ}، بصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز الله الموصوف بأقصى درجة بالتميّز كإله.

أيضا تجد في عموم القرآن تصويرات ننتبه لها إذا تصوّرت ذبابة تتحدّاك، فعلى مستواك أنت ومستواها، فهذا التحدّي تافه، رغم أنها قد تتمكّن من إزعاجك، أمّا على مستوى الإله العظيم الذي لا يؤثّر فيه أي شيء بسبب صفاته وقدراته الفائقة، فما معنى الكفر به! وما معنى أن لا يؤمنوا به! فإنسان مخلوق من طين أمام الله العظيم، ولا يؤمن به!

نتذكّر أنه تعالى لا يغفر أبداً بتاتاً نهائياً أن يشرك به كما نقرأ في الآية 48 من سورة النساء {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ...}، وهنا السورة اكتفت فقط بذكر قيمة عقاب الكفر به تعالى، ولدينا العديد من السور التي شرحت بالتفصيل ما فعله الإله سبحانه وتعالى لنا، حين تفضّل علينا بالحياة والفكر والوعي وحرية الإرادة... والبيئة التي نحن فيها... وشرحت لنا عقلانية ومنطقية وأحقية عبادته وطاعته تعالى... ووعده تعالى لنا بالجنّة وتهديده لنا بالنار... لنفهم من الآن أن العقاب الشديد هو عقاب يستحقّه بالضبط من لم يؤمن به تعالى.

القرآن دائما قرن بين الإيمان به تعالى وبين العمل الصالح، وفي تكملة الآيات سترى نماذجَ عن الأعمال الصالحة التي من المفترض أن نقوم بها حتى ننجوَ من العذاب وندخل الجنّة، فالإيمان لوحده لا يكفي، والعمل الصالح بلا إيمان لا معنى له عنده تعالى.

وبالنسبة لكلمة آمن فلم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإسلام أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها "مؤمنون..." في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، فآمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كلاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ{34})
{وَلَا يَحُضُّ}، لا يَتَشَجَّعُ ولا يشجّع ولا يحفّز الآخرين، {عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}، حتى لو علم بشخص يحتاج للطعام ليسدّ جوعه أو سيموت أو تتدهور حالته الصحيّة، كان لا يساعده بالطعام أو المال، ولا يشجّع الآخرين على ذلك.

لاحظ الآيات لا تزال تعرض نموذجاً من أسوأ النماذج، لا تقصد الإشارة لشخص محدّد بعينه، بل تلفت انتباهك لوجود نماذج سيئة جدا كهذا النموذج الذي يرى الناس حوله جياعا ويمكنه مساعدتهم ولكنه لا يفعل، ولا يشجّع الآخرين على مساعدتهم.

طبعاً الكلام هنا نموذج عن أشدّ حالة لا يمكن التغاضي عنها، وهي حالة الذي بحاجة لطعام، هناك أشخاص يحتاجون لأنواع أخرى من المساعدة، لِنَقُلْ إنَّهُمْ بحاجة للمسكن أو للتعليم أو للملبس... أمّا الذي يحتاج للطعام فحياته متعلقة بوجبة طعام، وإذا لم يحصل عليها مات أو اعتلّ، لذلك تعرض لك السورة أسوأ حالة يأمرنا تعالى فيها بمساعدة الآخرين ويرفض البعض منّا المساعدة.

بالعكس، حتى نَنْجُوَ من العذاب يجب علينا أيضاً الحضّ على مساعدة الآخرين، وهكذا يتقاطع الكلام هنا مع وصف حالة تواصي المؤمنين بالخير والصبر والحقّ، وترى ذلك في الآية 114 من سورة النساء {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ...}، لذلك واجب علينا تشجيع الآخرين على فعل الخير.

في العديد من المناسبات نجد القرآن يربط الإيمان به تعالى بعمل يتعلق بنا، نجد ربطه ببرّ الوالدين، وبالإنفاق، لأنّ دينه تعالى ليس إلا الصلاح وهو نفسه مصلحتنا وسعادتنا نحن في الدنيا والآخرة.

المسكين وصف لعموم من تعرّض لظروف متعثّرة وصولاً إلى الذي ظروفه صعبة، استعملها العرب لوصف الذي حالته المادية متعثرة أو معدومة، ووصفوا بها أيضاً الذي حالته النفسية سيئة بسبب تعرّضه لظروف صعبة. يُوصَفُ بها الفقير الذي لا يملك قوت يومه ويوصف بها الذي يمرّ بظروف مالية صعبة حتى لو كان يملك بيتاً أو متجراً أو أرضاً... ولكن حالياً ظروفه متعسرة، وهذا واضح في الآية 79 من سورة الكهف {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ... وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} كانوا يملكون السفينة ولكن إنتاجها لا يكفي ليعيشوا بأمان اقتصادي.

(فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ{35})
{فَلَيْسَ لَهُ}، هذا الذي لم يؤمن ويتعذّب لن يجد، {الْيَوْمَ}، في هذا الزمن، {هَاهُنَا}، في هذه الحالة والمكان حيث يتعذّب، {حَمِيمٌ}، شخص له علاقة حميمة معه، علاقة وصلت لأشدّها، كلّ الذين هناك يكرهونه، المؤمنون يكرهونه، ومن معه في جهنّم يكرهونه، ولن يجد شخصاً يريحه بالمواساة أو بكلمة طيبة أو بابتسامة... بل كلّهم يكرهونه.

(وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ{36})
{وَلَا طَعَامٌ}، ليس له هناك شيء يأكله وله طعم، {إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ}، فقط من شيء ينتج عن غسل شيء آخر، وكما تعلم من عموم القرآن أهل النار يحترقون وتتساقط جلودهم ولحومهم وأعضاء جسدهم بسبب الحمم، ثم تنبت لحومهم وجلودهم من جديد، هنا في الدنيا عندما تغتسل يتساقط عنك الغبار والجلد الميّت... وهناك عندما تغسلهم الحمم سيتساقط جلدهم ولحمهم، وهو المتوافر لهم ليطعموه ليأكلوه.

نلاحظ في القرآن بالنسبة لأطعمة أهل النار أن الروايات عن الشارحين بدل أن تشرح فإنها تزيد الأمر تعقيداً! وسبب ذلك إقحامهم لتصوراتهم وتخيّلهم أثناء الشرح من دون الالتزام بالتحديدات التي قالها القرآن، القرآن لم يذكر الأشواك الخشبية ولا الثمار النباتية المقرفة... بل حصراً تحدّث عن حمم وسوائل حامية، جهنّم التي وقودها الناس والحجارة، ليس فيها نبات ولا خشب، هذه بالنسبة للحمم نعمة، ويمكنك مراجعة دراستنا لأي آية تعتقد إشارتها لشيء نباتي في جهنّم لترى أنه غير صحيح.

(لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ{37})
هذا الطعام المقرف المقزّز النتن، {لَا يَأْكُلُهُ}، لا يجعله في فمه ويبلعه، {إِلَّا الْخَاطِؤُونَ}، إلا الذين قاموا بعمل غير صحيح. لم يؤمنوا ولم يتصدّقوا، حيث جاع المساكين بسببهم في الدنيا ولذلك سيأكلون الغسلين في الآخرة.

ننتبه كيف عرضت الآيات العمل السيئ للممتنع عن مساعدة المساكين بالطعام، ثم عرضت لنا إطعامه من غسلين في الآخرة كعقاب له.

وكلمة خطأ يقابلها عموم أي صحيح، هي لعامة أي عمل أو شيء غير صحيح، وفي الاستعمال فرق بين من لم يقصد ومن قصد فعل السوء، فاعل السوء عن قصد هو فاعل لشيء خطأ غير صحيح، وفاعله خاطئٌ ارتكب خطيئة، وفاعل السوء عن غير قصد هو بالخطأ فاعل لشيء غير صحيح، هو أخطأ.

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ{38})
ما الذي يؤكّد على صحّة الكلام السابق عن الآخرة ونعيمها وعذابها؟ {فَلَا أُقْسِمُ}، لست بحاجة للتأكيد على الكلام السابق بالقسم، {بِمَا تُبْصِرُونَ}، بالذي تعونه وتفهمونه من صور الأشياء التي أمامكم، بما يقع عليه بصركم مما هو حولكم وأنفسكم، مجرّد النظر لأنفسنا وما حولنا لوحده يدل على صحّة الكلام السابق.

بعبارة أخرى نجدها مشروحة في مختلف سور القرآن ونختصرها بما ورد في الآية 191 من سورة آل عمران {... وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}، ما معنى وجودنا في هذه البيئة؟ كيف ولماذا؟ وما هذه التفاصيل الهائلة فينا وحولنا؟ من صمّمها ونفّذها ولماذا؟... وكما ترى، وبكل بساطة هي تدل على إله عظيم، وها يخبرنا عن الحساب والجزاء لنا في الآخرة...

سبحانه يقسم على نحو تأكيد كلامه ولا يقسم لتثبيت صدقه. من قدراته الفائقة على فعل أي شيء سبحانه لا يطلب من السامع تصديقه بل التأكّد من حتمية حصول ما يقوله تعالى، وكمثال واضح عن ذلك ما ورد في الآية 68 من سورة مريم في مسألة حشر الكافرين مع الشياطين، هل سيغيّر سبحانه قراره فيما بعد؟ كلا، {فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا}. هل يمكن أن يؤثّر عليه تعالى شيء ما ليغير قراره؟ وهل هو تعالى مزاجي وسيغيّر رأيه ولن يعيدنا ويحاسبنا؟... لا، القسم القرآني هو تأكيدات منه تعالى على ثبات كلامه وحصوله حتماً.

(وَمَا لَا تُبْصِرُونَ{39})
فلا أقسم بـ {مَا لَا تُبْصِرُونَ}، هناك كائنات وبيئات كثيرة لا تحصل عندكم وعي وفهم لصورها لأنكم لا ترونها، أنتم الآن ترون ما على الأرض، وترون نقاطاً بيضاءَ في السماء، ولكن ما لا ترونه، ما لا يحصل له عندكم فهم ووعي لصورته هو أكثر من ذلك، وكما نعلم من القرآن هناك ست سماوات غير سمائنا، ونحن بالكاد نفهم ونعي صور السماء التي نحن فيها، فيها الكثير الكثير من الأمور التي لم نرها ولا نعرف عنها شيئاً.

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{40})
{إِنَّهُ}، إنّ الكلام عن الحاقّة، عن الآخرة والحساب والنعيم والعقاب... {لَقَوْلُ رَسُولٍ}، شيء يقوله لكم شخص ينقل الكلام منه تعالى، والرسول، {كَرِيمٍ}، له مكانة وشأن عالٍ، بتعبيرنا العامّي الحالي نقول: محترم.

ضع في بالك دائماً أن القرآن لم يستعمل كلمة كريم في خصوص معنى الجود والعطاء، على معنى رجل كريم وليس بخيلاً، فيعطي من ماله لغيره، فيصرف على غيره بالضيافة... لا، بل دائماً كانت تعني: ما له قيمة ومكانة. وضدّها: مهين.

(وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ{41})
{وَمَا هُوَ}، وليس الكلام عن الحاقّة، عن الآخرة والعقاب والنعيم، {بِقَوْلِ شَاعِرٍ}، والشاعر كلمة مخصوصة لمن يصفّ الكلام المنمّق على وزن نستلطف سماعه لأنه عادة كلام مشاعر، وبغض النظر عن صحّته أو معرفتنا بأنه كلام مبالغ فيه... هذا الرسول عندما ينقل لكم هذا القرآن هو ليس من تأليفه، وقيمة كلام الرسول مختلفة عن قيمة كلام الشاعر الذي يبالغ أو يصيغ الأوهام والخيالات بكلام، هذا القرآن كلام إلهي ينقله رسول.

{قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ}، وتكملة الجملة واضحةٌ: قليلاً ما تؤمنون بهذا الكلام عن الآخرة... عدد قليل منكم يؤمن بهذا الكلام بأنه منقول عبر رسول عن الإله تعالى.

ضع في بالك أنهم يرمون الاتهامات جزافاً، يرمونها ولا يهمّهم معناها، هم لا يقصدون أن القرآن مشابه للقصائد من حيث التركيب، بل يقصدون الإشارة لكلام الشعراء الذي لا يعبّر عن حقيقة ويعبّر عن تضخيم وعن تصورات خيالية... يقصدون أن القرآن مثله، كلام منمّق لا يعبّر عن حقيقة، لأنه يضخم مسألة الإيمان والتوحيد ومسألة العقاب على الشرك وأفعال السوء...

والاتهام للرسول بأنه شاعر هذا النوع من الاتهامات التي يرمونها مثل العديد من كلامهم الفارغ، ومنها اتهامهم للرسول بأنه مجنون، أو علّمه القرآن أحد ما من البشر، أو أنه يتلقّاه وحياً من الشياطين... أول ما يخطر ببالهم كاتهام هم يقولونه من دون التفكير به إن كان صحيحاً! وأصلاً لا يهمهم إن لم يكن الاتهام صحيحاً.

(وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ{42})
وَلَا، هذا الكلام عن الحاقّة، عن الآخرة... بِقَوْلِ كَاهِنٍ، الرسول ليس شخصا يوصف بأوصاف الكهنة وهم الذين يتكهنون فيقولون كلاما عن الماضي أو الحاضر أو المستقبل تكهنا، وذلك بناء على توقعاتهم عبر ادعائهم لرؤيتهم للأحداث بقدراتهم الخارقة "الحاسّة السادسة كما يسمّونها" في منامهم أو يقظتهم، أو ادعائهم أن الجنّ أو الملائكة أو الأرواح... يجعلونهم يرون الأحداث... لا ليس محمّد(ع) كاهنا، والكلام عمّا سيحصل معكم في المستقبل في الآخرة هو كلام منقول عن الإله سبحانه.

{قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ}، وتكملة الجملة واضحةٌ: القليل منكم يستحضر في فكره ومشاعره، هذا الكلام عن الآخرة.

نقف قليلا هنا لنرى ماذا يقول الكاهن عادة: سيكون هناك حرب ونار عظيمة من المشرق وتنزل النسور بالموت ويصير الدم كالبحيرات... وسيأتي ملك يحكم بالجور ويسوق الناس إلى الموت بالسيف... كلام الكهنة من هذا القبيل، ما علاقته بالتهديد بالعقاب لمن لم يؤمن به تعالى ولمن فعل السيئات؟ وما شبهه بتهديد القرآن للذين لم ينفقوا على المساكين!؟ ستفهمها بشكل أوضح عندما تتذكّر من القرآن مقارنته بين محتواه وبين ما يمكن أن يقوله الشيطان أو الجنّ أو المشعوذون أو الذين يريدون السلطة... هل هؤلاء سيقولون للناس أن يوحدوه تعالى؟ أم سيتركونهم يعبدون ما يشاؤون بشرط البقاء على الطاعة لهم؟ وهل هؤلاء يأمرون ببرّ الوالدين وإكرام اليتيم والابتعاد عن الكذب والغيبة والسرقة والزنا...؟ وهنا نفس الشيء، قارن بين ما يقوله كاهن أو شاعر، وبين ما يقوله القرآن وسترى الفرق هائلا.

(تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ{43})
الكلام عن الحاقّة، عن الآخرة والعقاب... الذي ينقله الرسول(ع) لكم، ليس شعرا ولا كهانة، بل هو: {تَنزِيلٌ}، تم نقله من علو لكم، {مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ}، من المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس.

بالنسبة لما تجده في بعض الكتب عن الفرق بين كلمتي نزل وتنزيل، كلاهما وصف لعموم الانتقال من علو "ماديا أو معنويا" إلى مكان منخفض ماديا أو معنويا. معنويا نقول: نزلت رتبته العسكرية. وكلا الكلمتين "نزل وتنزيل" تتحملان

معنى النزول دفعة واحدة أو على دفعات، ويتحدّد ذلك مما تتكلّم عنه، وتتحملان النظر للفاعل لوحده، أو للمفعول لوحده، أو للحالة. لا فرق بالمعنى بين الأصل "نزل" وبين الاشتقاق "تنزّل تنزيل نزول..."، خصوصا فيما يقولونه عن الفرق بينهما في نزول القرآن دفعة واحدة أو بالتدريج على دفعات.

ما تجده هنا وهناك في ثقافتنا عن نزول القرآن كلّه من السماء السابعة إلى السماء الرابعة... ومن الرابعة جرى تنزيل القرآن "فنزل" على دفعات على الرسول(ص)، بهذا التفصيل "وأشباهه" يقصدون تفسير كلمتي نزل وتنزيل بتوصيف مختلف للفعل، وهذا تفصيل لا ضرورة له وأصلا لا دليل قرآني عليه، ويمكن فهم نزول القرآن تدريجيا على دفعات وفهم نزوله كلّه كوجهين لعملة واحدة، بعضه نزل "تنزّل" في ليلة القدر، ثم نزل "تنزّل" بعضه في زمن بعدها... وبالنظر للقرآن كلّه جرى تنزيله "نزوله" على دفعات استمرت لقرابة العشرين سنة حتى وفاة الرسول(ص).

يبدو أن الفهم الضبابي لكلمة "قرآن وكتاب" دفع بالكثيرين للبحث عن فرق بين التنزيل والإنزال بالمعاني التي ذكروها، حيث فهموا أن كلمة قرآن تشير لكل ما بين الدفتين، لكل القرآن من أوله لآخره، وفهموا كلمة كتاب كذلك أنها تشير لكل القرآن من أوّله لآخره، وبناء عليه أرادوا تبرير الآيات التي تذكر نزول "كتاب القرآن" على أساس أنها تشير لنزول كتاب القرآن كلّه من أوّله لآخره دفعة واحدة، ومن المعلوم أنه كلّه لم يكن نازلا على الرسول(ص) حين جاءت الآيات التي تقول إن القرآن نزل...

بناء على فهمهم هذا، بدأت تبزغ الآراء المختلفة لتبرير الموضوع، قال بعضهم أنه كلّه من أوّل مرّة نزل على الرسول(ع)... وبعدها عاد ونزل عليه (ع) على دفعات. وآخرون قالوا: لم ينزل أولا كلّه على الرسول(ع) وإنما نزل كلّه من السماء السابعة إلى الرابعة، ومن هناك صار ينزل على دفعات على الرسول(ع)... وغيرها من التبريرات التي لا داعي لها، الآية الواحدة قرآن، والسورة قرآن، والسورتان قرآن... كلمة قرآن وصف إمكانية قراءتنا لما نزل منه تعالى، أيّ تعبير يشير لنزول أو تنزيل "القرآن" هو لا يعني أكثر من نزول شيء يمكن قراءته، لا داعي لنفهم أن التعبير يشير إلى نزول كلّ القرآن.

كلمة كتاب تشير لعموم أي موضوع تامّ، السورة الواحدة كتاب، والفقرة أو الآية الواحدة من السورة إن كانت تامّة الموضوع فهي كتاب، وكلّ القرآن كتاب، وهكذا عندما تجد آية تتحدّث عن نزول القرآن أو نزول الكتاب فهي ليست بالضرورة تشير إلى نزوله كلّه، لو نزلت آية فهي قرآن، ولو نزلت آية موضوعها تامّ فهي نزول لكتاب...

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ{44})
{وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا}، لو فرضا قال هذا الرسول قولا علينا لم نقله له، {بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ}، أدخل كلاما من عنده فيما قلناه له، زاد من عنده كلاما على القرآن، عدّل أو تلاعب ببعض معلومات القرآن.

(لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ{45})
{لَأَخَذْنَا مِنْهُ}، لم نتركه بل تعاملنا معه، {بِالْيَمِينِ}، بقوة واقتدار.

هذا الكلام ضمانة إلهية على التزام الرسول(ع) بنقل ما يصله من الوحي حرفيا كما هو للناس، فيخبرنا القرآن أنه "لو فرضا" غيّر الرسول(ع) ولو قليلا بالرسالة لكان سبحانه أخذه وتعامل معه بقوّة بشدّة، ولأنهى حياته فورا بقطع الوتين كما سترى في الآية التالية.

لا تفهمه كتهديد للرسول محمّد(ع) حتى لا يتقوّل عليه تعالى بالتلاعب بالقرآن، لا، فهو ضمنيا تهديد ولكنه بالأساس خبر عن أنه تعالى لن يسمح لمن توظّف كرسول أن لا يكون أمينا في نقل كلامه تعالى إلينا.

هذا الكلام خبر تؤمن به إن آمنت أنّ هذا القرآن من مصدر إلهي، وأن هذا الرسول لا يكذب، وقد نبّه القرآن كثيرا على الصفات العالية لبعض الأشخاص عبر التاريخ، وبسبب هذه الصفات نزل عليهم الوحي، ومن كانت صفاته أعلى تكلّف بالرسالة، ومن كانت صفاته أعلى نزل عليه كتابا، وبناء عليه اختار تعالى محمّدا(ع) ليكون نبيا رسولا مع كتاب، وهو شخص يعرفه الناس بصدقه وأمانته، وبناء عليه، إمّا أن تعتقد أنه فعلا ينقل لنا الكلام من الوحي، فتؤمن من بعد الاستماع لما يقوله من كلام عقلاني منطقي، أو لا تعتقد بذلك، الخبر الإلهي للرسول هنا هو خبر ينقله الرسول نفسه،

فإن كان لدى أحد ما احتمال بأن القرآن من تأليف الرسول(ع) فلن يعتبر هذا الكلام ضمانة إلهية لصدق الكلام، وسيكون مجرد تهديد بكلام لا قيمة له وقد اخترعه "محمّد(ع)"، وهذا موضوع تحدّثت عنه بالتفصيل العديد من السور التي نبّهت للفرق الكبير بين الكلام الإلهي وبين كلام المخلوقات، من حيث المحتوى والرؤية والمعنى... والاختلاف الهائل الواضح بين طريقة القرآن وطريقة "محمّد(ع)" في الكلام والخطابة... والفرق الهائل بين اهتمامات القرآن وعرضه للنظرة الإلهية للأمور وبين اهتمامات عموم الناس ومنهم محمّد(ع)... وما يتضمنه هذا القرآن من تشريع وأخبار يعجز محمّد(ع) الأمّي عن معرفتها...

ستلاحظ بعد آيتين أن هذا الكلام متوجّه وله معنى ويهتمّ به: المتقون. هؤلاء يميزون بين الحق والباطل والخير والشر، سيرون القرآن كلاما إلهيا... وسيرون ضمانة إلهية بوصول القرآن كما هو... أمّا الآخرون فلن يعنيهم أي شيء، سيعتبرون محمدا يهدد نفسه هنا ليكذب عليهم ويقنعهم بأن القرآن منه تعالى، هؤلاء أصلا لا يهمهم الحق ولا الباطل، لا يريدون دينا يعرض عليهم الصلاح، ولا يحبون الأشخاص الذين يأمرون بالصلاح...

سؤال: هل هناك احتمال أن يقوم محمّد(ع) بالتلاعب بما نزل عليه؟ فلو لم يهدّده تعالى لكان تلاعب بمحتوى القرآن؟ لا، فلولا الصفات العالية التي فيه (ع) لما اختاره تعالى لنزول القرآن عليه، فلو لم يكن (ع) سليم القلب، صادقا أمينا تقيا... لما اختاره تعالى ليكون رسولا، وهذا معلوم من عموم القرآن الذي يتحدّث عن الأنبياء على أنهم أشخاص عاديون مثلنا مثلهم، وقد مدحهم سبحانه بسبب ما فيهم من صفات عالية من سلامة القلب، فلم يمدحهم لأنهم أنبياء، بل مدحهم لأنهم مميزون ولذلك جعلهم أنبياء، وبناء عليه من المستحيل أن يتقوّل عليه تعالى شخص اختاره تعالى ليكون رسولا، لأنه أصلا من المفروض أنه كريم، فهو أصلا شخص محترم ليس من عادته الكذب ولا المبالغة.

قد مرّ في هذه الدراسة كلام كثير عن شخصية الذين جعلهم تعالى أنبياء، ونفهمه ونتذكّره بسهولة عندما نقارن بين سلوكيات الذين جعلهم تعالى أنبياء وبين الآخرين، ولو اخترنا نموذج أبا جهل وأبا لهب، وافترضنا أنه تعالى اختارهما ليكونا رسولين، لانتبهت بسهولة انهما أصلا لن يتماشى فكرهما ونفسيتهما مع ما يصل إلى وعييهما، سيرفضان التوحيد والزكاة والصدقة والصوم واحترام حقوق الآخرين... لن يؤمنا بما يصلهما وحيا، وسيجنّ جنونهما إن لم يتوقّف الكلام الذي يسمعانه في رأسيهما...

ننتقل إلى الذي هو بين سليم القلب وبين المختوم على قلبه بالكفر، ننتقل إلى من لديه أخلاق وأفكار وتصرفات مقبولة، مرّةً يضبط تصرفاته لتكون مستقيمة ومرة تفلت منه... هذا لو نزل عليه الوحي الإلهي، سيؤمن ببعضه وسيتضايق من بعضه الآخر، بعض الوحي يتماشى مع فكره ونفسيته وبعضه الآخر لا يتماشى، وننتبه جيدا، فهذه ليست حالة الذين يختارهم تعالى ليكونوا أنبياء، هناك أشخاص قلبهم سليم من الدرجة العالية جدا، وحين يصلهم وحي منه تعالى فإنهم وبشكل عادي يتماشون معه فلا يستغربون ولا يعترضون على محتواه لأنه متوافق تماما مع فكرهم ونفسيتهم.

الآن نسأل، لماذا سيغيّر الرسول بعضا مما ينزل عليه وحيا منه تعالى طالما هو مقتنع تماما بما نزل عليه ويراه صالحا!؟ وهو أصلا في حياته العادية لا يكذب، وطالما أنه لا يسعى وراء مصالحه الشخصية... فلماذا ولأي سبب سيغيّره؟! وهكذا ترى أنك لن تجد ولا أي سبب يجعل الرسول يتقوّل عليه تعالى ولو بحرف.

الآن صرت ترى أن آيتنا هنا ضمانة إلهيةٌ إضافية لمن آمن بهذا القرآن، سبحانه لن يسمح لرسوله ولا بأي شكل أن يتقوّل عليه تعالى بالرغم من أن الصفات التي أهّلت محمّدا ليصير رسولا فهي نفسها تمنعه من التقوّل عليه تعالى، فهذه تصرفات الكاذبين بينما هو صادق أمين وعلى خلق عظيم.

ها وصل بنا الكلام إلينا نحن، الذين نتقوّل عليه تعالى في العقيدة والشريعة والتفسير والتاريخ... ما وردنا عن تاريخ الرسول محمّد(ع) نجد فيه أنه (ع) سكت ولم يقل حرفا في مسألة لا يعلمها، ولم يخمّن، ولم يبد رأيه... وانتظر الوحي الإلهي ليخبره بالجواب، وكمثال ترى ذلك صريحا في الآية الأولى من سورة المجادلة {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} تدخل سبحانه ليخبر رسوله عن التشريع الصالح في حالة الظهار... وقبل نزول الوحي كانت المرأة تتجادل مع الرسول الذي أخبرها أنه لا يملك جوابا أو حلا لمشكلتها لأنه لا يجد فيما نزل عليه من وحي أي شيء يتعلّق بمسألتها... هذا رجل لن يتقوّل عليه تعالى، أمّا نحن، فمن الواضح

من اختلاف آرائنا الدينية أننا نتقوّل عليه تعالى، ومن الواضح أننا لا نسكت عمّا لا نعلم، في كل المسائل لنا رأي! وهنا في الدنيا لن يأخذنا تعالى باليمين لأننا لسنا رسلا، ولكن ينتظرنا في الآخرة حساب عسير.

(ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ{46})
لفصلنا العرق المتّصل من القلب إلى الرأس مرورا بالعنق. حاليا يسمى البعض الوتين بالشريان الأبهر الرئيسي الذي يخرج مباشرة من القلب ولكن قديماً كانوا يشيرون بالوتين للشريان الكبير الواضح في العنق، ومعلوم أن قطع هذا الشريان سيسبب الموت، فالكلام هنا عن إنهاء حياة الرسول حتى يتوقف عن التقوّل عليه تعالى، هذا فرضاً لو تقوّل عليه تعالى.

(فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ{47})
{فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ}، لا واحد منكم، {عَنْهُ}، عن الرسول، {حَاجِزِينَ}، يحجز يمنع حصول أخذه تعالى للرسول (ع) باليمين وقطع وتينه (ع)، فلا أحد يمكنه منع إنهاء حياته (ع).

(وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ{48})
{وَإِنَّهُ}، هذا الكلام، هذا القرآن الذي ينقله لكم الرسول (ع) "عن الحاقّة"، {لَتَذْكِرَةٌ}، لهو شيء تستحضرونه في فكركم ونفسيتكم، {لِّلْمُتَّقِينَ}، للذين يتجنبون ويتحاشون، والكلام عن عموم المتجنبين للسيئات، وهو نفسه تجنّب غضب وعقاب ربّهم سبحانه، فيطيعونه ولا يخالفون أوامره.

في عموم القرآن تجد تصنيفا أساسيا للناس، هناك الأحياء وهناك الأموات، وهناك الأعمى والبصير، والمؤمن والكافر، والتقي والمجرم... بالأصل هم هكذا بهذه الصفات قبل أن ينزل القرآن، مثل جملة: ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين... نزل الكتاب وهم بالأصل متقون وبعدها اهتدوا بالكتاب، وهناك العديد من جمل القرآن التي تعطي نفس المعنى، وهنا نفس الشيء، فمن كان بالأصل تقياً، قلبه سليم، فسيستحضر كلام القرآن في فكره وعمله وأحاسيسه.

والذي كان متعلقا بحبّ الدنيا وشهواتها وتابعا لخبالاته وأوهامه... فسيرفض القرآن، وبالتالي سيرفض الكلام عن الآخرة والحساب، وبالعكس، المتّقي سيؤمن بأنه تعالى من الأساس لن يختار رسولا يكذب أو يتلاعب بالكلام.

الذي يكذب ويبالغ، والذي يعلم أن عقائده وشريعته على هواه السيّء، والذي يريد تحقيق شهواته ورغباته مهما كان الثمن... فهذا لن يصدّق أن أمامه شخصاً صادقاً لا يكذب ويتصرّف بعقلانية، سيعتقد بأن الجميع مثله يكذبون ويبالغون... وهكذا نفهم أن المتقين هم بالأساس أشخاص سيرتهم الذاتية راقية، ولذلك عندما يسمعون الكلام الصادق يحترمونه، ويعملون به لأنه يتماشى مع فكرهم ونفسيتهم... طبعا نحن نتحدّث عن طرفي النقيض، عن نموذجين متباعدين لأقصى درجة، عادةُ القرآن أشار بكلامه للكافرين من جهة وللمتقين من جهة، وبينهما نماذج أخرى من أشخاص عندهم القليل من التقوى مرورا بالأكثر... وصولا للتقوى من الدرجة العالية، وكل واحد منهم بحسب تقواه سيكون لديه شك أو ظنّ أو يقين بما يقوله القرآن.

(وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ{49})
لم يتفاجأ سبحانه بتكذيب الناس لكلامه المنقول لهم عبر رسله، ولم يتفاجأ بكثرة المكذبين للقرآن بأنه كلام إلهي، من الأساس يعلم سبحانه أن المصدّقين لكلامه سيكونون قلةً، وتجد ذلك صريحا في العديد من الآيات منها الآية 103 من سورة يوسف {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}، ورغم ذلك بعث إلينا رسولا لتهتديَ القلّة القليلة التقية.

(وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ{50})
{وَإِنَّهُ}، هذا الكلام عن الحاقّة، عن الآخرة وما يجري فيها، {لَحَسْرَةٌ}، لشيء يرغب به الكافرون ولكنه بعيد المنال، المنكرون للدين الإلهي والمنكرون للحاقة خصوصا، في الآخرة سيتحسرون على الإيمان الذي فاتهم حين يرون كم هو مرغوب ومفيد... هناك في الآخرة سيتمنون لو آمنوا وسيكون هذا بعيدا عنهم لأنه فاتهم الإيمان في الدنيا حيث كان يجب أن يؤمنوا.

وكما سترى من الآية التالية {وَإِنَّهُ} هنا يناسبها الكلام عن الحاقة، وهو قسم من تكذيبهم لكلامه تعالى، هم بسبب عموم تكذيبهم لكلامه تعالى سيتحسرون، وسياق الكلام عن خصوص تكذيبهم بالحاقة.

(وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ{51})
{وَإِنَّهُ}، هذا الكلام عن الحاقة، {لَحَقُّ}، لهو شيء مطابق للصحّة، {الْيَقِينِ}، الاعتقاد المطابق للواقع والحقيقة، كما نقول: حقيقة حقيقية، الحقّ أنها حقيقة، الشيء الصحيح تماما.

إن كان لدى أحد ما اعتقاد بشيء مطابق للواقع، فهذا الكلام عن الحاقّة هو المطابقة التامة للواقع.

بتعبير آخر، اليقين هو الاعتقاد بشيء حقيقي فعلا، القرآن لا يعتبر أي اعتقاد مهما كانت قوته، لا يعتبره يقينا إلا إذا تطابق مع الواقع، فمن كان لديه عقيدة مخالفة لما يقوله القرآن، حتى لو كان من يصدّقها يؤمن بها لأعلى درجة، ومستعداً للموت من أجلها، لا يسميها القرآن يقيناً، بل هي ظنّ يستند لعلم غير صحيح، فقط وفقط ما يطابق الواقع يسمّيه القرآن: يقيناً.

الحاقة شيء يقيني، وسبحانه بقدراته الفائقة على فعل ما يريد، وبقدراته الفائقة يعلم الغيب، قرر حصول الآخرة، وصمم وخلق السماوات والأرض الدنيا بشكل يسير بها إلى الآخرة، يخبرنا عن حتمية "يقينية" حدوث الآخرة.

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ{52})
{فَسَبِّحْ}، قم بتنزيهه تعالى عن الصفات الناقصة والمعيبة، {بِاسْمِ رَبِّكَ}، باسم المسؤول عنك من مستوى إلهي، {الْعَظِيمِ}، صاحب أقصى درجة في وصف التميّز، الذي يملك صفات وقدرات فائقة جدا جدا، حيث لديه صفات وقدرات فائقة وبعضها أصلا ليست موجودةً عند الآخرين.

دائما اعتبر القرآن أنه تعالى لو خلقنا وتركنا لنموت وننتهي، لكان عملا يشير إلى نقص في صفاته، سيكون عابثا لاهيا متسليا لاعبا مستهترا... ولذلك تنبّهنا الآية أنه عظيم في الصفات التي فيه، لن يخلقنا ويتركنا بدون نهاية نتحاسب ونتجازى فيها على ما مررنا به في حياتنا، ولذلك تأمرنا أن ننزهه تعالى عن الصفات الناقصة المعيبة، وعادة لا نستعمل الوصف السلبي له تعالى، لا نستعمل تعابير نفي الصفات السيئة، لا نقول: ليس لئيما، ليس عابثا، ليس كاذبا... وبدلا من ذلك نستعمل الوصف الإيجابي ونسبّحه تعالى بذكر صفاته الحسنة، فهو غفور رحمن رحيم، حكيم، الحقّ... عليم بصير... ولذلك قرّر حصول الحاقة.

سورة المعارج (70) ص 568
محور السورة حول من يرى يوم القيامة بعيداً زمنُ حصوله، ولذلك يستبعد حصوله، وليس على معنى إنكار حصوله، بل على معنى أنه خبر عن شيء يسمع عنه، ويبدو أنه مصيريٌّ ففيه حساب وجزاء، ولكن المدة الطويلة بالنسبة له والتي مرّت من حياة البشرية، والمدة الطويلة التي مرّت من حياة من يفكّر بهذا الموضوع، تجعله يفقد اهتمامه بالآخرة.

وصفته السورة بأنه عملياً كافر بها، لأنه لو آمن بها لجعل تصرفاته على المسطرة التي خطّها تعالى للنجاة من العقاب هناك، عبر الإيمان والعمل الصالح.

نلاحظ السورة لم تهتم بدرجة إيمان السائل عن الآخرة، ربما هو مشرك يسأل فضولاً عن خبر أثار اهتمامه، وربما هو مؤمن بشكل ما بالإله وربما هو مسلم غير مؤمن بكل العقيدة ولا ملتزم بكل الشريعة، وربما يصلّي ويصوم... مهما كانت خلفية السائل فالمشترك بينهم استبعادهم زمن حصول القيامة من الموت والحساب، وبناء عليه التعامل مع الواقع الحالي وكأنها لن تحصل، فما يعجبه يفعله ولا يهتم بكلامه تعالى عن الحساب في الآخرة...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ{1})
{سَأَلَ سَائِلٌ}، عموم من عبّر عن إرادته للحصول على جواب، {بِعَذَابٍ وَاقِعٍ}، السؤال كما سيبدو لك عندما تجيب السورة بأنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً، فالسؤال كان: هل يوجد آخرة فيها عذاب "تعرّض لما يضرّ" ومتى ستأتي؟ والجواب تعرضه الآية متضمناً مع عرضها للسؤال المطروح، فأنت تسأل عن العذاب الواقع حتما، فما تسأل عنه سيحصل ويصير واقعاً متحقّقاً. كما نقول لشخص يسأل عن الحرب إذا كانت ستقع، وأنت تعلم حتما أنها واقعة فتقول: سأل عن الحرب التي حتما ستقع. والضعفاء ليس لهم من الحرب من دافع...

مما سيأتي من آيات سترى أن السائل لم يؤمن عملياً بعذاب الآخرة لأنه يراه بعيداً... فتأتي هذه السورة لتجيبه بأنه واقع فسيحصل بغض النظر عن طول أو قرب موعد حدوثه، عادةً نحن نقيس الأمور على مدّة حياتنا، فنسأل عن موعد حصول الآخرة متوقّعين أن يكون الجواب بمدة زمنية قريبة، فإن قيل لنا أنها بعد مليار سنة، فلسبب أو لآخر سنتعامل معها وكأنها لن تحصل، ورد هذا المعنى في الآية 47 من سورة الحج {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}، وما سيرد بعد آيتين من هذه السورة يريك أن الزمن الطويل شيء عاديٌّ جداً عنده تعالى وعند الملائكة (ع) والروح (ع)، فربما تمتدّ حياة البشرية في الدنيا لملايين أو مليارات السنين، فهذا لن يغيّر أي شيء بالنسبة ليوم القيامة الذي حتما سيحصل، فالبشر يستعجلونها ولكنه تعالى ليس مستعجلاً.

نتذكّر الآيات العديدة التي لفتت انتباهنا لموتنا وبالتالي لفقداننا لوعينا، وأننا حين نستعيده في يوم القيامة من الموت، فإننا لن نشعر بمرور الزمن حتى لو مرّت مليارات السنين على موتنا، ورد ذلك في الآية 113 من سورة المؤمنون {قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ}، وورد نقلاً عن فتية الكهف الذين لبثوا ثلاثمئة سنة كما ورد في الآية 19 من سورة الكهف {وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ...}، والسورة هنا لم تتطرّق لذلك واكتفت بالكلام عن تعامله تعالى وتعامل ملائكته (ع) مع الأزمنة من نظرة مختلفة عنّا نحن الذين حياتنا قصيرة، فإن قيل لنا أن يوم القيامة بعد مليار سنة، فسنستهتر بها، فتأتي الآيات هنا وأشباهها من القرآن لتخبرنا أن موعد وقوع القيامة محدّد عنده تعالى، وطول أو قصر المدة لحصوله فلن يغير أي شيء من واقع حدوثه، فسنحيا حياتنا القصيرة، ونموت، ولن نشعر بمرور الزمن، وسنفتح أعيننا لنجد أنفسنا في الآخرة، فماذا سيتغير إن علمت أن القيامة غداً أو بعد شهر أو بعد مليارات السنين؟ وهذا ما ستركّز عليه سورتنا هذه.

بقي شيء، فالفضول دفع من سبقنا للبحث عن سائل للسؤال، واقترحوا أسماءً لذلك، ولكن من عموم القرآن ترى أن الكثيرين من البشر إن لم نقل كل من سمع بهذا الخبر عن الآخرة، سأل عن زمن القيامة من الموت، وأنا وأنت وهو وهي... نسأل عنها، وليس بالضرورة من خلفية إنكارها، والسورة لم تركّز على من أنكر الآخرة من أصلها، واهتمّت بالتركيز على من استبعد زمن حصولها، وشملت معه من أنكرها، وذلك في مقابل من آمن بها والتزم بالعقيدة والشريعة والسلوكيات التي يأمرنا بها تعالى حتى لا نتعذّب في الآخرة، وهي أوامر أصلاً عقلانية وحكيمة وليست تكاليف مرهقة أو صعبة أو حارمة لنا من الملذات أو فارضةً علينا ما نكرهه...

إذاً، فليبقَ السائل عمومياً كما تركته السورة، بحيث ينطبق على من سبقنا وعلى من سبقهم، وينطبق علينا وعلى من سيأتي بعدنا، فكلّنا من خلفيات مختلفة نسأل عن زمن حصولها، فبعضنا مؤمن بها ويسأل، وبعضنا كافر بها ويسأل، وبين المؤمن والكافر تدرجات مختلفة من الإيمان والكفر، وكلهم يسألون عنها.

(لِّلْكَافِرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ{2})
العذاب، {لِّلْكَافِرِينَ}، للمنكرين لدينه تعالى، سواء أنكروا شيئاً من المعلومات عنه تعالى والتي نسميها بالعقيدة، أو أنكروا شيئاً من التشريعات.

{لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ}، لا يوجد أي شيء سيصدّ فيردّ ويبعد... العذاب عن الكافرين.

سترى في تكملة السورة أن الكافرين، وهم المنكرون لشيء ما، فهم ينكرون الآخرة عملياً بتصرفاتهم، كحالة المسلمين غير الملتزمين دينياً، أو ينكرون الدين عقائدياً كحالة الكافرين بكل الدين الإلهي، أو مما بينهما من تدرجات للكفر بالآخرة، وهذا الإنكار ينطلق من خلفية البعد الزمني لحصول الآخرة.

لاحظ وانتبه جيداً، فاختصار الموضوع بالعذاب للكافرين، فهو يتضمّن معنى إنكارهم للحقّ وفعلهم للسوء، فهذا هو التطبيق العملي للكفر، وهل العذاب على ذلك يحتاج لسؤال؟ ألا يستحق الكافر العذاب؟

(مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ{3})
العذاب للكافرين، {مِّنَ اللَّهِ}، من صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {ذِي الْمَعَارِجِ}، المنسوبة له المعارج، وكلمة معارج كما يبدو من استعمال القرآن والعرب لها فهي وصف عموم الانتقال غيرِ مستقيمٍ بسبب التواء أو انعطاف أو محطات بمعنى ما، أو بسبب اختلاف وسيط الانتقال من الأرض لهواء، أو بسبب اختلاف وسيط السماء، من السماء الأولى للثانية فتكون السماوات كمحطات... ومنه التعرجات وأعرج وعرّجت عليه في طريقي، وغلب استعمالها في الصعود. ومن الآية التالية سترى أنه تعالى ينسب المعارج لنفسه نظراً للملائكة (ع) العارجة عبر سماوات مختلفة، فيعرجون من سمائنا مروراً بسماوات فوقها، ففي دنيانا سبع سماوات غير السماء التي نراها بأعيننا مليئةً بالنجوم، فهذه السماء الأولى بالنسبة لنا وطباقاً ملتصقاً بها سماء أخرى، وبعدها سماء أخرى... ولمزيد من التوسع عن السماوات راجع ما ورد في الآية 3 من سورة الملك {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا...}.

قرار حصول العذاب صدر من ذي المعارج شخصياً، فتصميمه وخلقه تعالى للسماوات الدنيا حتى صار فيها كائنات تعرج بين السماوات، فهي ظاهرة تدلّ على قدراته الفائقة سبحانه وتعالى، وبالتالي فقرار حصول الآخرة حتميٌّ بالنظر للقدرات الفائقة لمن قال إنها ستحصل.

هنا وصفه تعالى بذي المعارج كوصفه تعالى بالعزيز الحكيم، وعلى كل شيء قدير... من بعد الكلام عن شيء سيفعله تعالى، لترى أن هذه الأوصاف التي فيه سبحانه فهي الدليل على صدق ما يقوله.

من الآية هنا والتي تليها سترى الإشارة بالكلام إلى ناحيتين، إلى ناحية الصفات الفائقة له تعالى، وبالتالي حتمية تحقّق ما يقوله سبحانه، فذي المعارج إله فائق القدرات حتى حصلت ظاهرة المعارج التي صمّمها وخلقها سبحانه، والناحية الثانية أن طول الزمن شيء عاديٌّ بالنسبة له تعالى وللملائكة التي هي كائنات خلقها سبحانه بقدرات عالية وفترة حياة طويلة بالمقارنة مع فترة حياتنا القصيرة التي تدفع البعض منّا لإنكار الآخرة لأنهم كبشر بحياة قصيرة يرونها بعيدة.

(تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ{4})
{تَعْرُجُ}، الانتقال عبر السماوات ليس انتقالاً في نفس الأجواء لأنها سبع سماوات، ولذلك يناسب وصف الانتقال فيها بالعروج، العرب استعملوا هذه الكلمة غالباً للصعود، ولكنها أعمّ من ذلك، وتشير للانتقال غير المستقيم بسبب التواء أو انعطاف أو محطات بمعنى ما، ومنه التعريجات وعرّجت عليك... {الْمَلَائِكَةُ} (ع)، وهي الكائنات التي توصف بأنها تملك شيئاً ما مميزاً، فتملك صفات وقدرات مميزة، ويوظّفها عادة سبحانه للقيام بمهمّات... {وَالرُّوحُ}، وهو وصف قرآني لنفس ما تفهمه العرب من هذه الكلمة حين يتكلمون عن الكائنات من خارج عالمنا، وهو وصف قرآني لكائنات صافية، وبالدقة فهو الوصف القرآني لكائنات من النوع العالي جدا من الملائكة كما يبدو من الكلام القرآني عنها "فجبريل(ع) روح"، الروح نوع من الملائكة كما يبدو من توصيف القرآن للقاء السيدة مريم(ع) مع الملائكة في الآية 42 من سورة آل عمران "إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ..."، ونفس اللقاء تضمّن لقاءها مع الروح كما ورد في الآية 17 من سورة مريم "...فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا"، وكما يبدو من عموم القرآن الذي تكلّم كثيرا عن الملائكة وضمّن الروح معهم حين لم ير مناسبة لفصل الروح عن الملائكة... وكما يبدو من عموم القرآن عند حديثه عن تنزيل القرآن على النبي محمّد(ع) تعلم أن الملاك جبريل(ع) يوصف بأنه روح، راجع الآية 193 وما بعدها من سورة الشعراء "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ"، والآية 97 من سورة البقرة "قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ..." وهكذا ترى أن جبريل(ع) نزل بالوحي على الرسول محمّد(ع) وموصوفٌ بأنه روح.

كما ترى فهذا لا يعني حصر صفة الروح بالملاك جبريل(ع)، من المشهور في ثقافتنا الدينية وجود ملائكة آخرين بمرتبة الملاك جبريل(ع) ومنهم الملاك ميكال(ع) الذي ذكره القرآن في الآية 98 من سورة البقرة "مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ..."، كلام القرآن لم يقل بحصر هذا الوصف بالروح للملاك جبريل(ع)، وهكذا نفهم

أن كلمة "روح" وصف لجنس من الكائنات ككلمة ملائكة، فهناك مخلوقات عديدة موصوفة بأنها من جنس الملائكة الروح. الروح وصف لنوع مميز من جنس الملائكة.

كلمة "روح" في اللغة هي الشيء الأساسي الخالي من الإضافات، الجوهر، "الإسانس". درج أن يقول العرب قديماً "وحديثاً" عمّا ينتج من عملية تقطير السوائل: روح العنب، روح الزهر، روح النعناع... ويعنون الشيء الصافي من العنب من الزهر من النعناع... ومنه وصف بعض المشروبات بأنها مشروبات روحية على أساس أنها نتجت من التقطير الذي يصفّيها من الشوائب. وبناء عليه فالروح التي نفخها تعالى في آدم(ع) والروح الذي نزل بالوحي وروح العنب... يشتركون بوصف الخلو من الإضافات ولكنهم ليسوا من نفس النوع.

حتى نرى كيف يفهم العرب الكلام عن الروح ككائن من خارج عالمنا نتذكّر سؤالهم عن الروح، والذي ذكرته الآية 85 من سورة الإسراء "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا"، قديماً في عموم ثقافات المنتمين لدينه تعالى، وفي ثقافة عموم بقية الناس درج استعمال هذه الكلمة لتسمية الكائن الذي من خارج عالمنا ويتواصل مع بعض الناس، ويبدو من كلامهم وصفهم لكل أنواع الملائكة بأنها أرواح، وهذا توصيف غير دقيق إلا حين يقصدون به الملائكة العالية فقط كجبريل وميكال اللذين ذكرهما القرآن بالاسم، وعزرائيل وإسرافيل.... وغيرهم من الذين انتشرت أسماؤهم بين الناس ولم يذكرهم القرآن بالاسم، ولكن مشهور بين الناس أنهم من الملائكة العالية...

الذي يمكننا فهمه من وصف بعض الملائكة بالروح أن تكوينهم أصفى وأنقى وأقل شوائبَ أو بلا شوائب... من الملائكة الأخرى، علماً أنها مجرد كلمات بالنسبة لنا لأننا لا معلومات لدينا عن "مادّة" تكوين الملائكة، ونفترض أن ذلك سينتج عنه قدرات وصفات أعلى، وهذا ما نفهمه بالتحليل من الآية الأولى من سورة فاطر "الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ".

بديهيٌّ أن الكلام هنا في الآية عن العروج، فهو لا يشير لانتقال كل الملائكة وكل الروح إلى السماء العالية، الكلام هنا خبر عن عروج البعض منهم لمرّة أو مرّات خلال يوم ما.

الملائكة والروح يعرجون، {فِي يَوْمٍ}، في زمن محدّد لحدث أساسي ويتخلّله ساعات وينتهي بانتهاء ذلك الحدث الأساسي، {كَانَ مِقْدَارُهُ}، كميّته وعدده الزمني لذلك اليوم، {خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}، هناك يوم لم تحدّده الآية، فهل هو يوم القيامة من الموت، أو يوم من الأيام الذي يأتي بعده من أيام الحشر وعرض الأشهاد... أو هو يوم لشيء جرى هنا في الدنيا واستغرق انتهاء أحداثه خمسين ألف سنة... هذا غير مهم معرفته لأن الآية تريد أن تريك طول مدّة يوم ما قامت فيه الملائكة والروح بعمل ما، واستغرق خمسين ألف سنة وحصل خلاله عروج واحد أو متعدّد.

يا أيها المستبعدون زمن حصول القيامة من الموت، هل الخمسون ألف سنة زمن بعيد جداً في نظركم أيها الناس؟ نعم الخمسون ألف سنة زمن بعيد جداً جداً بالنسبة لنا كبشر، فبيننا وبين النبي محمد أكثر من ألف سنة، وبيننا وبين النبي عيسى قرابة الألفي سنة... وتاريخنا كبشر والمكتوب بالآثار لا يتعدى عشرة آلاف سنة... فمن يستبعد يوم القيامة فهو يقيس الأمور على حياة البشرية وعلى حياته القصيرة، فلنقل إن عمره أربعون سنة، فيرى زمناً طويلاً مرّ، ويسأل عن يوم القيامة التي طالت مدّتها ولم تحصل أثناء حياته... وكما ترى، تأتي آيتنا هنا لتخبره أن حدثاً عادياً حيث تعرج الملائكة(ع) والروح(ع) إليه تعالى بشكل متكرر، ويحصل في يوم "في مدّة زمنية" مقدارها خمسين ألف سنة. بالنسبة لكم هذه الأزمنة طويلة ولكنها أحداث عادية له تعالى حيث الملائكة والروح يقومون بحدث يستغرق خمسين ألف سنة.

ننتبه جيداً، الآيات هنا لم ترد في الأساس إلّا للفتِ انتباهنا للفرق الهائل بين قياسنا نحن لطول الزمن بالنسبة لأعمارنا والحوادث التي نتعامل معها، وبين تعامله تعالى وتعامل ملائكته مع الأحداث، فنحن عشرات السنين نراها طويلة، بينما آلاف السنين شيء عادي عنده تعالى عندما تتعامل الملائكة مع وظيفة حدّدها سبحانه لهم، والآيات بعد التالية "إنهم يرونه بعيداً، ونراه قريباً" مبنية على خبر الآية هنا، فبعدما تفهم أن آلاف السنين ليست مدّة طويلة بالنسبة له تعالى، ولا بالنسبة للملائكة التي تنفّذ أوامره تعالى، ستفهم أن السؤال عن المدّة الباقية بيننا وبين القيامة ليس شيئاً مهماً عند من يسمّى الخمسين ألف سنة بيوم.

من عموم القرآن تعلم أن الملائكة لا تنزل من السماء العالية إلا لتنفيذ أوامره تعالى، ورد هذا في الآية 64 من سورة مريم "وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ..."، ومن سمائها تنزل "بطريقة ما" لتنزيل الوحي الإلهي على الرسل، وللقيام بأعمال أخرى، نعلم منها زيارتهم للنبيين إبراهيم(ع) ولوط(ع)، وزيارتهم للسيدة مريم(ع)... ونعلم من القرآن أن الملائكة ترمي الشياطين بالشهب لتطردهم عند محاولتهم استراق السمع من السماء العالية... وهكذا نفهم أن كلام الآية هنا عن عموم عروج الملائكة(ع) من مختلف السماوات الأخرى إلى "السابعة".

لا يذهب فكرنا إلى أن نسبة عروجهم له تعالى تعني عروجهم إلى مكان يتواجد فيه سبحانه على معنى تواجده تعالى في السماء السابعة وخلوّه تعالى عن السماوات الأخرى، لا، بل هم يعرجون لتلك السماء لتلقي الأوامر الإلهية وحياً أو من وراء حجاب... ومن عموم القرآن نعلم أنه يوجد كتاب رئيسي فيه كل ما يتعلّق بالدنيا والآخرة، كما نفهم مما ورد في الآية 59 من سورة الأنعام "وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ"، ونعلم أن الملائكة وبأمر منه تعالى يمسّون ذلك الكتاب لتنفيذ ما فيه، كما ورد في الآية 79 من سورة الواقعة "لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ". عزّ وجلّ واسع محيط لطيف، لا يغيب عنه ولا نقطة في الدنيا، وأصلاً الملائكة(ع) لا تتواصل معه تعالى مباشرة حتى نقول بأنها تذهب إليه تعالى، ولا أي كائن يمكنه التواصل معه تعالى مباشرة، بل وحياً أو من وراء حجاب يحصل التواصل معه تعالى بسبب الفارق الكبير الهائل بين طبيعة المخلوقات وبين طبيعته تعالى "إن جاز التعبير بكلمة طبيعته تعالى"، وترى هذا المعنى من الآية 12 من سورة الأنفال "إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا...". وهكذا نفهم عروج الملائكة ومتعلقاته، فعروجهم إليه تعالى يشير إلى عودتهم إلى مركزهم، وهناك عادة يتلقون أوامره تعالى، ولا يشير العروج إليه تعالى إلى تواجده تعالى هناك وذهابهم للقائه عزّ وجلّ.

أمّا بالنسبة للخمسين ألف سنة التي قالت الآية إنها مقدار اليوم، فكلمة يوم في أساس اللغة ليست مخصّصة لليل ونهار، بل هي وصف لعموم أي زمن لحدث أساسي، مروراً بساعات فيها أحداث فرعية وهكذا ينتهي اليوم سواء كان مقداره من الليل إلى الليل التالي، أو من بداية تكليف البشرية بدينه تعالى إلى نهايته، أو من زمن نزول الإنجيل إلى زمن نزول هذا القرآن... أو من بداية تشكّل الأرض حتى انتهاء مدّ سطحها، أو من بداية تشكل النبات إلى صيرانه مناسباً كقوت للبشر، فهذه هي الأيام الستة التي تحدّث عنها القرآن، فهي مراحل نعلم الآن أنها امتدت لمليارات السنين حتى تشكّل كوننا، ولمزيد من التوسع حول كلمة يوم راجع دراسة الآية 19 من سورة القمر "إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ".

يوم القيامة الذي انتشر ذكره في القرآن، فهو أوّل يوم من أيام الآخرة بالنسبة لنا، فهو يوم قيامتنا من الموت الذي يبدأ بساعة النفخ في الصور واستعادتنا لوعينا، تكرر في القرآن تعبير "يوم تقوم الساعة" بالإشارة إلى أول ساعة، ومنها ما ورد في الآية 55 من سورة الروم "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ"، ويلي يوم القيامة من الموت أيام من حشرنا زمراً ومحاسبتنا الفردية والجماعية وعرض الأشهاد، وصولاً إلى آخر يوم وآخر ساعة تحدثت عنها الآية 46 من سورة غافر وأيضاً بتعبير "يوم تقوم الساعة" "النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ".

درج في عموم ثقافتنا الدينية تسمية الفترة الزمنية من قيامنا من الموت إلى دخولنا الجنّة أو النار، درج تسميته كلّه بيوم القيامة، وهذا ما توحي به الآيات عموماً لأنها ركّزت على أوّل يوم كبداية لزمن محاسبتنا، فشملت أيام محاسبتنا بالإشارة ضمناً مع أول يوم من الإجراءات لمحاسبتنا، وهو طبعاً قيامنا من الموت.

بمقارنة آيتنا هذه مع الآية 5 من سورة السجدة "يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ"، مفترضين أن اليوم في الآيتين هو نفس اليوم، فهذا لن يوصلنا إلى أي نتيجة صحيحة، فستة أيّام من خلق ما في الدنيا فهي مختلفة بالمدّة عن يومنا الحالي من ليل ونهار، ويوم القيامة مختلف بالمدّة عنهما أيضاً، وهكذا نفهم آيتنا هنا إشارتها ليوم طويل من أيام تقوم بها الملائكة(ع) بأعمال أمرها بها تعالى، كنموذج وليس مهماً تحديد اليوم وما جرى فيه حتى استغرق خمسين ألف سنة.

هناك في دراسة الآية 5 من سورة السجدة التي ذكرت يوم عمل للملائكة ممتد لألف سنة، افترضنا تصوراً متابعة البعض منهم لشؤون متعلقة بالنبي نوح(ع) بناءً على ما ورد في الآية 27 من سورة المؤمنون "فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا..." فافترضنا أنه أمر إلهي معلوم بالغيب له تعالى عن تقدير طوفان لقوم النبي نوح(ع) الذي عاش بين قومه يدعوهم قرابة الألف سنة، فلو أخذنا هذه الحالة كمثال فسيسهل علينا تصوّر يوم عمل لملائكة تنفّذ أوامره تعالى بمتابعة رسوله نوح(ع) ومتابعة بنائه للسفينة، وصولاً إلى تنفيذ إغراق قومه، فقد استغرق ذلك قرابة الألف سنة، فهو موضوع واحد نفترض أنه توظّفت بشؤونه مجموعة من الملائكة... وواضح لك أن هذا الكلام تحليلي اشتقاقي والمقصود منه فقط تقريب الفكرة، ولتعلم أن يوماً من خمسين ألف سنة يشير لمهمّة ووظيفة ما لبعض الملائكة ويستغرق تنفيذها هذه المدة الطويلة جداً بالنسبة لنا ولكنها مجرد يوم عمل عادي عند الملائكة، ولنقل إنه يوم من أيام خلق الأرض، ولنقل إنه مدة بداية تعادل الأوكسجين في غلافنا الجوّي من نتاج البكتيريا ليتشكل غلاف جوي صالح للكائنات التي تحتاج الأوكسجين كوقود للخلايا... أو أي شيء آخر من شؤون الدنيا...

(فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً{5})
{فَاصْبِرْ}، لا تتصرّف بشكل غير مناسب ولا عقلاني بسبب تعرّضك لشيء مزعج سيزول، {صَبْراً جَمِيلاً}، أثناء انتظارك لمرور ما يزعجك فلا تكن منزعجاً متأففاً...

حين يسألك الكفّار عن العذاب الذي يرونه بعيداً، خذ علماً أنك أنت وهم بالنسبة للكائنات ذات القدرات العالية "ملائكة وروح" أنتم حياتكم واهتماماتكم الحياتية قصيرة الأمد، لا معنى لرؤيتكم للآخرة أنها بعيدة بالنظر لحالتكم القصيرة، اصبر، ما تسمعه من كفرهم وكلامهم الجارح والتكذيب لك لن يستمر، العذاب سيقع، وسيرونه.

(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً{6})
{إِنَّهُمْ}، الكفّار، {يَرَوْنَهُ}، عندهم صورة محدّدة للعذاب، كما نقول بالعامية: بيشوفوه، {بَعِيداً}، وهم يرونه بعيداً حصوله لدرجة قريبة من الاستحالة، لو قلت لأحد ما إنه بعد سنتين سيأكل من ثمار شجرة ما، أو بعد خمس سنين، فهذا زمن بعيد ولكنه قادم، ولو قلت له إنها ستثمر بعد خمسين سنة فالكثيرون سيصرفون اهتمامهم بزراعة شجرة كهذه، أما لو صار الكلام عن إثمارها بعد مئة أو مئتين أو أكثر، فمن الصعب أن تجد من سيهتم بزراعة هكذا شجرة، وهنا الكلام عن كفّار من مختلف الأنواع دفعتهم رؤيتهم لبعد زمن الآخرة إلى إنكارها.

(وَنَرَاهُ قَرِيباً{7})
{وَنَرَاهُ}، سبحانه لديه صورة محدّدة للعذاب في الآخرة أنه، {قَرِيباً}، وقته ليس ببعيد.

فهمت مما سبق أننا نحن بحياتنا القصيرة لا نهتم عادة لسماع كلام عن شيء سيحصل بعد زمن طويل، بعد خمسمئة أو ألف أو خمسين ألف... أو مليون سنة أو... هي أخبار عن أمور من الصعب جداً أن تجعلنا نغيّر نمط حياتنا لأجلها، إلا إذا آمنا بآياته تعالى، ومنها كدلائل وبراهين آمنّا بالآخرة، والتزمنا بأوامره تعالى خوفاً من العقاب وطمعاً بالثواب حتى لو بعد مليارات السنين من موتنا.

(يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ{8})
متى ستأتي الآخرة بالعذاب والثواب؟ بعد قليل ستبدأ الآيات بالكلام عن مصير من كفر بالآخرة، وبعده ستتكلم عن المؤمنين ومصيرهم...

{يَوْمَ}، في الزمن الذي، {تَكُونُ السَّمَاءُ}، التي فوقنا، {كَالْمُهْلِ}، كتموجات سائل سميك من شدّة السخونة، كتموجات سطح الزيت المغلي.

ننتبه للتعبير هنا باليوم عن حدث ليس مرتبطاً بيومنا الأرضي من ليل ونهار، هنا بسهولة تفهم التعبير باليوم أنه إشارة لزمن يحدث فيه شيء أساسي، يمتد الحدث لزمن طويل، أكثر من 24 ساعة، بل يمتد لملايين السنين، لا تجد نفسك مضطراً هنا في الآية لتتصور يوماً من 24 ساعة لتكون السماء كالمهل، وبكل بساطة تغض النظر عن طول المدّة، لأن

كلمة يوم في عموم اللغات ليست مخصّصة للأربع وعشرين ساعة، فيقولون مثلاً: يوم الانتقام. يحصل ذلك في ساعة، أو ليلة، أو أسبوع أو أشهر... ونقول مثلاً: يوم انتفضت الجزائر على المحتلّ وطردته... وأنت تعلم أنها سنين سقط فيها قرابة المليون شهيد.

ضع هذا الكلام عن معنى كلمة يوم في بالك دائماً ولا تسقط في الفخّ الذي سقط فيه من قبلنا الذين فسّروا كلامه تعالى عن خلق ما في الدنيا في ستّة أيام، فسّروها بأيام الأسبوع "من الأحد إلى الجمعة"، وأضافوا من عندهم أنه تعالى في اليوم السابع "يوم السبت" استراح، هذه سذاجة طفولية مبنية على معطيات غير دقيقة.

(وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ{9})
في الزمن الذي، {تَكُونُ الْجِبَالُ}، التي نراها على الأرض صلبة شامخة، {كَالْعِهْنِ}، كشيء بلا قوام، كشيء لا يقدر على التماسك، ككومة القطن أو ككومة من الصوف.

تعلم من عموم القرآن أن الجبال تنهار، ويصير وجه الأرض مستوياً تماماً بلا اعوجاج، وراجع كمثال ما ورد في الآية 107 من سورة طه "{لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا}"، وهنا وصف الجبال كالعهن يشير إلى انهيارها بأدنى قوّة تتعرّض لها.

أيضاً كما تعلم من القرآن، بعد الصيحة الأولى التي تميت كلّ المخلوقات إلا من شاء تعالى كما ورد في الآية 68 من سورة الزمر "{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ}"، يتم تسيير الجبال ونسفها وجعلها على مستوى الأرض، وحين يقع النفخ الثاني نقوم من الموت ولا تزال الجبال تسير والأرض تتزلزل، وهذا ما نفهمه من العديد من الآيات منها سورة الزلزلة "{... وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا...}".

أيضاً نتذكّر من القرآن أن الناكرين للآخرة يلفتون انتباهنا للجبال على أساس أنها ضخمة ولن تنهار ولن يصيبها أي شيء، كيف يقول القرآن إنّ السماوات والأرض الدنيا ستخرب وبعدها تأتي الآخرة! هذه الجبال الضخمة لن تخرب... يشير عادة القرآن في إجابته عن الآخرة إلى انهيار الجبال، وراجع ما ورد عن ذلك في الآية 105 من سورة طه "{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا}".

نفهمها مثلما نفهم حالة الغني الذي يظن أن ماله وقوّته لن تبيد... يشعر بالخلود بسبب غناه وقوّته وسلطته وسيطرته... وكذلك هم يشعرون بعظمة الجبال ورسوخها وبقائها، فيستبعدون زوالها وبالتالي يستبعدون حصول الآخرة، ولذلك نرى القرآن يمرّ على ذكر انهيار الجبال.

(وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً{10})
من هنا تبدأ السورة بعرض مشاهد عن الآخرة التي يرونها بعيدة حتى يأخذوا علماً من الآن بمدى فظاعتها، ليقارنوا بين استهانتهم بها استبعاداً لحصولها، وبناء عليه تفلّتهم من الالتزام بأوامره تعالى، ليقارنوا إن كان ما سيستفيدون منه بإنكارهم لها استبعاداً لحصولها، إن كان يستحقّ تفضيله على ما سينالونه من عذاب فيها.

{وَلَا يَسْأَلُ}، لا يعبّر عن إرادته للحصول على جواب، {حَمِيمٌ}، شخص بينه وبين شخص آخر علاقة وصلت لأقصى درجة، {حَمِيماً}، شخصاً آخر يبادله نفس الشعور بالعلاقة القوية.

هنا في الدنيا إذا كان يوجد شخصان يعتبران أن العلاقة بينهما قوية جداً، فهي علاقة حميمة، علاقة مودّة واستلطاف... وتصل الحميمية لدرجة تحمّل الأذى عن حميمه، فيتلقى عنه الضربة أو يقدّم له كل ما يملكه... أمّا هناك في ذلك اليوم فلن يسأل أي واحد منهما الآخر ليساعده في شيء ما، وطبعاً تقصد الآية أنهما كلاهما يتعذبان، يعني بالعبارة العاميّة: في ذلك اليوم "ما حدا لحدا" حتى لو كانوا في الدنيا من أشد الأحباب. وسترى في الآيات التالية تفصيلاً أكثر لهذا المشهد الذي يتحدّث حصراً عن الذين لم يكونوا من المؤمنين:

(يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ{11})
{يُبَصَّرُونَهُمْ}، لم نحرمهم من قدرة فهم ووعي صور الآخرين، بل في البيئة التي هم فيها هناك سنجعل الحميم يبصر حميمه، لم يسأل الحميم حميمه إذا كان يريد مساعدة أو خدمة... ليس لأنه لم يبصره، لا، بل يبصره، "بالعامية يبصرونهم يعني بيشوفوا بعضهم" ورغم ذلك لا هذا يسأل لمساعدة الذي كان حميمه، ولا ذاك يسأل.

{يَوَدُّ الْمُجْرِمُ}، الذي ارتكب أعمالاً يستحقّ عليها العقاب فيرغب بحصول شيء على خاطره وهو ما يلي: {لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ}، يقدّم أولاده وعموم من كان يحبّهم كأولاده بدلاً عنه ليتعذّبوا وينجو هو من العذاب. وأنت تعلم أن عموم البشرية بغالبيتهم يفدون أولادهم بحياتهم إن تعرّضوا للأخطار، تريك الآية هنا الكافرين في الآخرة ومن شدّة رعبهم وألمهم، لو استطاعوا أن يتعذّب أولادهم بدلاً منهم، سيقدمونهم.

قبل أن نكمل لنرى بمن يودّ الافتداء لنتوقّف قليلاً مع مسألة العمى والبصر التي ذكرها القرآن كحالات للكافرين في الآخرة، نضع في بالنا أن العمى وبقية الأعطال في الحواس والذي يذكره القرآن عن حالة الكافرين في الآخرة، كالبكم والصمم، إنما يشير إلى فقدان حقيقة ما هو مطلوب من الحاسّة، فما معنى الرؤية بالعينين إن لم تنفع للاهتداء إلى الطريق الصحيح؟ وما معنى الرؤية إن لم تر إلّا ما يرعبك ويؤذيك؟ وما معنى القدرة على الكلام إن كان لن ينفع في تبرير ما فعلوه... ونجد في القرآن تعابيرَ تشير إلى حرمانهم من أبسط أنواع الراحة والمتعة بأي حاسّة، الرؤية بشكل واضح هي نوعاً ما تسبب الراحة، وهم لن يتمتّعوا بهكذا رؤية.

لا تجمد على جملة قرآنية تقرؤها، الآخرة مليئة بالأحداث، مرةً يسمح تعالى للمجرمين بالكلام ومرة يخرسهم لتشهد جلودهم عليهم... ومرة يصيبهم العمى من الدخان الكثيف الكريه الرائحة... ومرة يعميهم تعالى كما عموا عن آياته... ومرة يبصرون ليروا سوء عملهم ولترعبهم جهنم...

(وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ{12})
يودّ المجرم لو يمكنه أن يفتدي من العذاب ويقدّم صاحبتَه، عموم أي أنثى كان مرافقاً لها في الحياة، كزوجة كحبيبة... وأخاه، أيضاً يودّ لو يفتدي من العذاب به، وهو عموم أي إنسان كان يعتبره مشابهاً أو مشاركاً له في شيء أساسي يجمعهما معاً، هما من نفس الأبوين، أو من نفس الأم، أو من نفس الأب، أو من نفس الجد أو الجدّة أو من نفس الدين بعلاقة إيمان قوية، أو كانا متجاورين...

(وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْويهِ{13})
{وَفَصِيلَتِهِ}، وهو وصف لعموم أي جماعة صغيرة تعتبر نفسها منفصلة بشيء خاص بها عن جماعة كبيرة كانت مشمولةً معها، فهم مترابطون بالنسب كونهم مولودين من جدّ واحد، كالعشيرة والعائلة... {الَّتِي تُؤْوِيهِ}، التي تهتم بكونه فيها، عامةُ كلام القرآن عن نماذج، فليس كل من مات له صاحبة أو أخ أو فصيلة تُؤْوِيهِ...

حتى كل الذين كانوا حوله من الناس الذين كان ينتسب لهم، ويهتمون به، وكان يشعر بأن له ظهراً بهم، فله عائلة تسانده، فله قوّة بشرية خلفه... ففي الآخرة سيودّ لو يتعذّبون بدلاً منه لينجو هو.

(وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ{14})
{وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً}، بدون أي استثناء يودّ لو يفتدي بهم، {ثُمَّ يُنجِيهِ}، بعد أن يفتدي بهم يودّ لو يخلّصه هذا الفداء بهم من العذاب.

طبعاً لاحظت قوة عرض الآيات للحالة المرعبة التي لا يمكن تحمّلها، والتي تجعل من سيتعذّب يود الافتداء بتقديم أعزّ الناس على قلبه، بل حتى تقديم كل أهل الأرض من أولهم لآخرهم ليتعذّبوا وهو ينجو.

هذا ما يودّه، ولكنه لن يحصل.

(كَلَّا إِنَّهَا لَظَى{15})

{كَلَّا}، لن يتحقّق ما يودّه فلن يفتدي المجرم ولا بأي شيء، {إِنَّهَا}، العذاب في جهنّم، {لَظَى}، وهذا وصف للشيء الذي تصدر عنه حرارة عالية حارقة، كما نقول عندما تكون الشمس حارقة ظهراً: لظى الشمس. نقصد أن التعرض المباشر لها يسبّب حرارة مرتفعة وإحراقاً للجلد، وهنا وصف جهنّم بلظى، فحرارتها عالية تسبب الاحتراق.

(نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى{16})
{نَزَّاعَةً}، تنزع بقوّة، تبعد بقوّة شيئاً عن شيء، {لِّلشَّوَى}، فما شوته فما جعلته ينضج تجعله ينفصل، وهنا المقصود أن جهنم بلظاها تحرق من يتعرّض لها وتنزع ما أحرقته، فيسقط جلده ولحمه.

(تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى{17})
{تَدْعُو}، تعلن وتشهر جهنّم، {مَنْ أَدْبَرَ}، من أدار قفاه وظهره، وتدعو، {مَنْ تَوَلَّى}، من توجّه باتجاه آخر. والكلام عمّن أدبر وتولى عن دينه تعالى، فتدعوه جهنّم ليكون فيها.

نتصوّر من وحي القرآن مشاهد متنوعةً لهذه الدعوة، منها اقتراب جهنم منهم رويدا رويدا أثناء محاسبتهم، ومنها صورتها كهاوية كحفرة وهم ذاهبون باتجاهها بدفعهم غصباً عنهم نحوها كما تصوّر الآية 9 من سورة القارعة "{فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ}"، ومنها شهيق جهنّم وزفيرها الذي تتطاير فيه ألسنة لهبها لتحويهم وتسحبهم كما تصوّر الآية 12 من سورة الفرقان "{إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا}"، والآية 7 من سورة الملك "{إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ}"، ومنها كلام جهنّم كما ورد في الآية 30 من سورة ق "{يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ}".

(وَجَمَعَ فَأَوْعَى{18})
وتدعو جهنّم من، {جَمَعَ}، فجعل أشياء في مكان واحد، {فَأَوْعَى}، فجعل تلك الأشياء في وعاء في حاوية، ومن عموم القرآن تفهم أنها إشارة لمن جمع المال في أكياس أو صناديق أو خزائن... ودعوة جهنّم له ليتلظّى بها وتشويه لا لسبب جمعه للمال في حاويات، بل لجمعه وجعله في أوعية فلم يُزَكِّ ولم يتصدّق على المحتاجين من ذلك المال.

علماً أن القرآن عموماً تحدّث عن العقاب على جمع المال من أعمال حرام كالربا... وتحدّث عمّن جمع المال وشعر بأنه قوي حتى أقوى من كلامه تعالى كما تقرأ في الآية 3 من سورة الهمزة "{يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ}"، ولكن التعبير بالجمع والوضع في وعاء يشير إلى كنز المال وأنه لم يزكّه ولم يتصدّق منه.

ورد في القرآن العديد من الآيات التي ربطت الإيمان به تعالى مع عمل له علاقة بنا، فربطت التوحيد ببرّ الوالدين، وفي العديد من المرات ربطت التوحيد مع الإنفاق على المحتاجين، وهكذا ترى أن دينه تعالى كتلة واحدة من الحقّ، فليس التدين أعمالا فردية لا أثر لها على الآخرين، فالفكرة عن المؤمن أنه يختلف عن الآخرين بأمور تافهة، فهو يصلّي ويصوم ويقرأ القرآن، ويرخي لحيته... فهذه صورة ممسوخة عن دينه تعالى الذي يشمل كل جوانب الحياة ويأمر بكل ما هو صالح ويسعدنا في الدنيا والآخرة.

آيتنا هنا والتي سبقتها والآية 22 و24 الآتية، هي صيغ مختلفة لما ورد مراراً في العديد من السور عن الإيمان به تعالى والإنفاق والزكاة وإيتاء المال...

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً{19})
{إِنَّ الْإِنسَانَ}، النوع المعروف بخصائصه المختلفة عن بقية المخلوقات وهو نحن، ويستعمل القرآن كلمة إنسان ليشير بها إلى الأكثرية الساحقة منّا بسبب شيء متعلّق بنوعنا، أو كشيء منتشر في غالبيتنا... {خُلِقَ}، فعل مبني للمجهول، فجرى تركيب وتأليف الإنسان، {هَلُوعاً}، يصيبه الهلع وهي حالة الخوف المبالغ فيها، سواء الخوف من شيء يتخيله كالخوف من البعبع وخطاف الليل وأبو كيس... أو كخوف بعضهم من الصرصار والعنكبوت والفأرة...

وصف القرآن الإنسان بأوصاف تبدو سيئة من الخلقة، فهنا قد تفهم أنه تعالى خلقه هلوعا، فما ذنب الإنسان إن كان خالقه خلقه بصفة سيئة؟ لا، فهذه الصفات ضرورية للإنسان، مثل شهوة الأكل والنظر والجنس... "التي يعيبها بعض

المنتمين لدينه تعالى"، فلنتصوّر الإنسان بلا شهوة، أو فلنتصوّره بشهوات ضعيفة أقل مما هي فينا، فكيف سنكون وما هو مجرى حياتنا؟ ويمكنك الاستنتاج بكل سهولة أننا سنفقد الكثير من دوافع الاستمرار بالحياة، وسنفقد الكثير من دوافع العمل وبذل الجهد... وسينقطع نسلنا... فمن يرتكب السوء ويبرّر لنفسه أنه مخلوق بشهوة قوية، فلا ذنب عليه والحقّ على من خلقه هكذا، فهذا كلام سخيف غير مدروس، فالرغبات والشهوات بهذه القوّة المناسبة تماماً لنا، والسيطرة عليها أيضا من القدرات الموجودة فينا، فكما ترى بكل سهولة كيف نفهم ضرورة قوّة الشهوة كنعمة دافعة لنا للتمتّع بإشباعها، فعلينا أن نفهم ضرورة قوّة الأحاسيس، من حبّ وكره وخوف... وهلع وجزع... وسترى من تكملة الآيات أن السيطرة على هذه الصفات مثل السيطرة على سيّارة صغيرة بمحرك ذي ثماني اسطوانات سعتها ست ليترات، فيمكنك الإسراع بها بجنون... إلا المصلين والمتصدقين والمؤمنين بيوم الدين... فيقودونها بالحكمة المناسبة.

الكلام يجرّ الكلام، فمعاناتنا مع شهواتنا وغرائزنا ورغباتنا... فمن المعيب تحميل الذنب فيها لمن خلقنا وجعلها فينا، فهي نعمة رائعة، وإشباعها يفجّر مشاعر وأحاسيس رائعة، ومشكلة معاناتنا معها إن لم نستطع إشباعها فأسبابها ليست فيه تعالى، بل فينا، فالتزامنا بتشريعاته تعالى كفيلٌ بتأمين حاجات الجميع، ومن فقد السيطرة ولم يعد يشبع إلا بتجاوز الحدود الطبيعية العقلانية... فهذا صار مريضا بحبّ الدنيا واغترّ بها وهي ليست بمستوى ما في جنّة الآخرة، فهناك يكون المؤمنون بجسد خالد في أقصى درجات الإحساس بالسعادة، فهناك الحياة بكل ما للكلمة من معنى، والدنيا مجرد لعب ولهو كما تقرأ في الآية 64 من سورة العنكبوت "{وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}".

هكذا تفهم أن خوفنا وهلعنا... أيضا من المشاعر الضرورية التي لولاها لما استمرّت حياة البشرية، فالأطفال والأحداث والفتية إن لم يخافوا ولم يهلعوا فسيرمون أنفسهم في المخاطر المميتة مراراً وتكراراً إلى أن يموتوا.

تفهم وصف القرآن مراراً للإنسان أنه كفور، فيحمل في جنبيه الكفر بالحقّ، والكفر بالباطل، فلدينا كمثال عن الغالبية بتعبير الآية 67 من سورة الإسراء "{... فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا}"، ولدينا في المقابل كمثال عن الأقلية ما ورد في الآية 4 من سورة الممتحنة "{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ...}".

القرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموماً ذكوراً وإناثاً، وأنهم يتناسلون... أو متعلق بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً{20})

{إِذَا مَسَّهُ}، إذا أحسّ وأصابه، {الشَّرُّ}، الشيء الذي يضرّه ويَسُوءه، عندها صار، {جَزُوعاً}، يفقد صبره ويظهر خوفه ويتصرف على أساس أنه لم يتحمّل ما أصابه. يصير في حالة الضعف أمام شيء ربما فعلاً هو ضعيف أمامه وربما يمكنه التغلّب عليه، يمرض أو يتعرّض لخسارة أو لمشاكل... يشعر أنه ضعيف أمامها، وأن مقاومتها وردّها عمل شاق... يظهر عليه فقدان الصبر.

طبعاً لا تتحدّث الآية عن كل الناس، بل الغالب الأعم هم هكذا أمام الأمور الصعبة جداً، بل والكثيرون ضعفاء حتى أمام الأمور الصغيرة، فكلمة جارحة تزعجهم من شخص أهانهم ستجعلهم يعيشون حالة الاكتئاب، ويجزعون من أصغر شرّ يصيبهم.

كما ترى فالكلام هنا يقارن بين المؤمن الصابر على البلاء، فلا يخالف الحقّ والصلاح، ويبقى ملتزماً بأوامره تعالى حتى في أصعب الظروف، ويمكنك ضرب مثل هنا عن شخص تخالف بالكلام مع شخص آخر ليس متوقعاً منه إلا الأذية بالكلام، فضربه أو قتله! لأنه أذّاه بالكلام!

يمكنك تصوّرها كحالة الذي مرض مرضاً مميتاً، وصار من جزعه يتعلّق بحبال الهواء، فهو مستعد حتى بالاستعانة بالشياطين إن استطاع... أو كالذي وقع تحت احتلال العدو الأقوى منه عسكرياً فجزع منه وتعامل معه ضد المؤمنين...

(وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً{21})
الإنسان، الغالب الأعم من الناس، {إِذَا مَسَّهُ}، إذا أحسّ وأصابه، {الْخَيْرُ}، الأمور التي تسرّه وتنفعه، {مَنُوعاً}، لا يعمّم ما انتفع به على الآخرين، يمنع الآخرين بأن لا يشاركهم في الخير الذي أصابه.

هذه الصفات النفسية الثلاث "الهلع الجزع المنع" إن لم يسيطر عليها الإنسان، واتّصف بها بشكل مفرط سيّء، فحتماً سيفعل السوء وعندها يصير مستحقاً للعذاب الإلهي لأنه.

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ{22})
{إِلَّا الْمُصَلِّينَ}، إلا الذين يتوجّهون ويقبلون، ومن الواضح أنها وصف لمن يقوم بالعبادة، فكلمة صلاة صارت منذ القدم مصطلحاً دينياً لحركات وكلمات تعبّر عن العبادة له تعالى، والتي نسمّيها الصلوات اليومية الخمس... المصلّون ليس فيهم المواصفات السابقة بشكل سيّء، ولن يطالهم العذاب لأنهم ليسوا هلوعين ولا جزوعين ولا منوعين بشكل سيّء.

ستأتيك في الآيات التالية بقية صفات المصلين، حتى تنتبه أن الصلاة لوحدها كحركات وكلام هي ليست كافية، بل التلبّس الحقيقي بحالة الصلاة، بحالة التوجّه والإقبال عليه تعالى، هي التي لها قيمة وهي التي تبعد العذاب عن فاعلها.

هذا لا يعني أنني سأتوقف عن الصلاة لأني لا أركّز فيها، ولا أتوجّه فيها ويسرد فكري، ولا زلت أرتكب المعاصي... لا، فلتبقى هذه العبادة فعّالة ولأعمل على تحسينها وتحسين سلوكي.

هذا الشرح لمعنى الصلاة الحقيقي لا يعني أن كاتب هذه السطور من المصلين بهذه الصفات، لا، المواعظ والمحاضرات الأخلاقية والكلام في الآداب والعرفان والسلوك والصوفية... والقرب منه تعالى، يمكن لأي شخص التنظير بها، صفصفة الكلام شيء سهل جداً، أمّا حقيقة التطبيق فتنتبه له إذا قارنت ما تعرفه بحقّ مع ما يشبهه، كم سيكون تركيزي وتوجّهي لشخص أتوقع الحصول منه على مبلغ مالي ضخم؟ أو على منصب؟ أو على صفقة تجارية أو عقارية أو مقاولاتية...؟ سأكون بكامل تركيزي عليه... هذا شيء أعرفه، الآن، فلنقم بقياس توجّهي في الصلاة إليه تعالى مع توجّهي إلى ذاك الإنسان الذي أتوقع الاستفادة الكبيرة منه، وهكذا أفهم الفرق، وأعلم كم أنا بعيد عن الشعور بالوقوف بين يديه تعالى، أمام هيبته وعظمته... أمام الذي خلقني ومنحني الحياة... أمام من وعدني بجنّة خالدة... وهكذا أعلم أنه يوجد أشخاص يشعرون فعلاً بالصلاة الحقيقية... طبعاً هذا لا يعني أني سأتوقّف عن الصلاة لأني لا أركّز أثناءها، بل سأستمرّ بها وأحاول تحسينها...

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ{23})
{الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ}، على توجّههم بالعبادة له تعالى، {دَائِمُونَ}، مداومون لا يقطعونها ويؤدونها باستمرار، المداومة لا تعني أنهم كل الوقت يصلّون ولا يفعلون أي شيء آخر بل تعني أنهم في أوقات الصلاة دائماً يصلون، لا يمر وقت صلاة ولا يصلون.

أنت كمسلم تعلم أن الصلاة واجبة خمس مرات في اليوم، وربما تستغرب ما تقوله الآية عن دوام المصلّي على الصلاة لأنها معلومة تعرفها، ولكن هذا القرآن هو من نزل بهذه الأوامر التي صرت تعرفها، وهذه الآية واحدة من الآيات التي عرّفتنا وجوب الدوام على الصلاة، وتلتفت إلى هذا المعنى إذا سمعت شخصاً يقول: صلّيت مرّة، فلماذا التكرار؟ قد أعلنت عبادتي للإله ولا حاجة للتكرار... أو عندما تسمع أحداً ما يقول إنه صلّى كثيراً لمدة أيام، يمكنه التوقّف عن الصلاة حين لا يكون بالمزاج أو حين يكون مشغولاً أو في مكان يشعر فيه بالإحراج... لا، بل يجب الدوام على الصلاة خمس مرات في اليوم بلا انقطاع طالما بقي لك وعي...

من المشهور جداً بين المسلمين أن الصلاة يجب تأديتها تحت أي ظرف كان، وبأي شكل قريب للصلاة المعروفة، حتى لو كنت مربوطاً ممنوعاً من الوضوء أو التيمم، وممنوعاً من الحركة، يجب عليك ولو بأي طريقة أن تصلّيَ، والحدّ الأدنى للصلاة في أصعب الظروف أن تنويَ للصلاة بقلبك وتكبّر لمرّة واحدة، لو لم يكن باستطاعتك الحركة ولا بأي

شكل، ولا تركيز لديك لتقرأ الفاتحة... أو لتوميَ للركوع والسجود... فنية وتكبيرة واحدة هي من مصاديق الدوام على الصلاة.

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ{24})
{وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ}، في عموم ما يملكونه وله قيمة مالية، النقود من عملات معدنية ذهبية أو فضيّة أو غيره... والأوراق المالية، والأموال العينية كالطعام، ونتاج الثمار... والأملاك... طالما لها قيمة مالية فهي أموال، وفيها، {حَقٌّ}، شيء واجب على المؤمنين لغيرهم، {مَّعْلُومٌ}، ليس مجهولاً، فهو للسائل والمحروم كما ستقول الآية التالية. الكلام هنا ليس عن تحديد حصّة للمحتاج، بل عن وجوب إعطائك له حصّة "ما" من مالك، وجود حصة له في مالك معلوم، أمّا كم هي حصّة المحتاجين فهذا لم يدخل القرآن في تفاصيله وترك لنا فيه هامشاً واسعاً يتناسب مع مختلف الأزمنة والظروف والمجتمعات...

أموالك لك، والتعابير القرآنية عن عموم الإنفاق لم تجعل الآخرين شركاء لك في مالك، عملياً لا يتميّز هذا عن حالة للآخرين حق في مالك على معنى لهم حصّة من مالك في حال توافرت الشروط المناسبة في أوضاعك وكمية أموالك وما مطلوب منك... لأنك إن لم تدفع وطالبتك الحكومة يجب عليك أن تأذن لها بالأخذ من مالك، وإن لم تأذن لها يحقّ للحكومة إجبارك على الدفع، وهكذا تبقى المرونة في تحديد ظروفك إن كانت مناسبة لتدفع وبأي نسبة وكيف ومن ماذا... التعابير القرآنية المتنوّعة تبقي الملكية لك وتوجب عليك أن تدفع من مالك، وطالما لم يخرج شيء من مالك فهو باقٍ على ملكيتك له وليس للآخرين ملكية فيه، بل للمحتاجين والعناوين الأخرى التي أمرنا تعالى بالإنفاق من مالنا عليها، لهم حقّ فيه، وتنوب عنهم الحكومة الموكلة بإدارة المصاريف، لها الحقّ بمطالبتك، وراجع الآية 60 من سورة التوبة التي عبّرت عن ذلك بالفريضة "{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}".

التعبير بالمعلوم لم يقصد أن كمية ومقدار ما ستدفعه معلومة، بل قصد أن الإنفاق معلوم وجوبه عليك، ومن الآية 219 من سورة البقرة نعلم أن نسبة الإنفاق هي "العفو" بحيث لا تتضرّر من الكمية القليلة التي تقدّمها لهم، "{...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ...}"، هذا الكلام عمومي عن الضريبة المفروضة على الإنتاج والأموال... والتي نسمّيها الزكاة، وهو نفسه الكلام يشمل الصدقة على المحتاجين حتى بعدما تدفع ضريبة الزكاة، ويشمل الجهاد بالمال في حالة الحرب... كل ذلك معلوم وجوبه، ولن تجد في القرآن تحديداً لنسبة الزكاة، قد اكتفى بوصفها بالعفو، وبما لا يجعلك تقعد ملوماً محسوراً كما ورد في الآية 29 من سورة الإسراء "{وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}".

ستجد في الروايات عن النبي محمّد(ع) بعض الاختلافات في تحديد نسبة هذه الضريبة، لأنها تتبع لمختلف الظروف الاقتصادية العامّة والظروف الخاصة بمن وجبت عليه... بنظرة سريعة على الروايات تجدها تراوحت بين الإثنين والنصف وبين العشرين بالمئة. نفس الكلام عن عموم الصدقة على المحتاج، لن تجد تحديداً لقيمتها لأنها تتحدّد بقدرتك المالية على المساعدة من جهة وعلى ما يحتاجه المسكين من جهة أخرى، والضابطة لهذا الموضوع ما ورد في الآية 29 من سورة الإسراء "{وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}".

(لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ{25})
{لِّلسَّائِلِ}، لمن عبّر للآخرين عن إرادته للحصول على مساعدة، فسألك أن تساعده، فطلب المساعدة، فيجب مساعدته من مالك.

{وَالْمَحْرُومِ}، الذي لسبب أو لآخر حُرِمَ، فلم يتمكّن من الحصول على المال، فهذا له حق معلوم في مالك، تَعْلَمُ أنه واجب عليك مساعدته.

تَعْلَمُ من عموم الأوامر الإلهية وجوب مساعدة من يحتاج المساعدة، سواء سألك أن تساعده، فتكلّم معك وطلب منك وانتظر جوابك بالمساعدة، أو كنت تعلم أنه محروم لا يملك المال، فحتى لو لم يسألك فيجب عليك المبادرة لمساعدته.

دائماً عندما نمرّ على آيات فيها كلام عن الإنفاق أو الصدقة أو الزكاة... نجد في كتب التفاسير كلاماً عن بداية وجوب الزكاة على المسلمين بعد الهجرة في المدينة، وكلاماً عن تحديد مقدارها في المدينة... على أساس أنها لم تكن واجبة في بداية الدعوة حين كان النبي محمّد(ع) في مكّة، وبناء عليه قالوا إنّ كل ما نزل من القرآن في مكّة وتحدّث عن الإنفاق المالي، فهو لا يتحدّث عن الزكاة الواجبة لأن التاريخ يقول عن النبي(ع) إنّه أخبر الناس عن وجوب دفع مقدار محدّد من أموالهم في سبيله تعالى، وحدّد مقدار ما يجب دفعه، في المدينة أي بعد هجرته(ع) من مكّة.

هنا تجد كلاماً في الكتب حول هذه الآيات فبعضهم قال إنّها تشير للزكاة الواجبة، وبناء عليه فالآية نزلت بعد الهجرة إلى المدينة، وآخرون يقولون إنّها لا تشير للزكاة الواجبة والآية نزلت مع السورة كاملة دفعة واحدة في مكّة قبل الهجرة...

لكنّ كلّ كلامهم لا علاقة له بما يقوله عموم القرآن عن الإنفاق الذي أمر به تعالى، فضع في بالك دائماً أنّه تعالى في قرآنه أمرنا بمساعدة من يحتاج للمساعدة "دائماً". فكلّما تعرّض إنسان ما لظروف صعبة وصار محتاجاً للمساعدة، فيجب على كلّ من يستطيع المساعدة مساعدته، طبعاً المساعدة في أمور الحياة الأساسية بحسب حالة كل شخص، فالطعام والشراب واللباس والمسكن والأمور التي من هذا النوع وهي أساسيات فيجب علينا كلّنا، كلّ الناس، أن نندفع لمساعدة المحتاجين لهذه الأمور، أمّا الذي أو "التي" غير مندفع للزواج، وحتى لو كان بعمر متقدّم، فلا يجب علينا الاقتحام وإقحامه في مشروع الزواج، وأمّا المندفع للزواج فيجب علينا مساعدته... اضطررت لضرب الأمثلة حتى لا يكون الكلام جافاً، وكما رأيت في دراسة الآية السابقة، القرآن أصلاً لم يحدّد مقاديرَ للزكاة، ولم يقل لنا كم يجب أن ندفع من مالنا، بعض الناس يقولون: دفعنا الزكاة، ولا يجب علينا أن ندفع أكثر من ذلك، لا، أساس الأمر الإلهي هو مساعدة من يحتاج للمساعدة دائماً، كلّ القرآن من أوّله لآخره يقول هذا، وهكذا ترى أن كلامهم عن تحديد معنى الآيات بالصدقة الواجبة والصدقة المستحبّة، والزكاة الواجبة والزكاة المستحبّة... فهو كلام بعيد عن مقاصد القرآن الذي يوجب على كلّ إنسان مساعدة أي إنسان بحاجة للمساعدة إلا الكافر علناً بالله تعالى المحارب علناً للمؤمنين، فهذا فقط خرج من الأمر الإلهي بمساعدته.

الكلام يجرّ الكلام، تذكّر دائماً أنّ الزكاة ليست شيئاً جديداً طرحه هذا القرآن، فهي من أساس الدين الإلهي، ومأمور بها في الكتب الإلهية السابقة... جدّد القرآن طرحها، فلا يوجد شيء اسمه: تشريع الزكاة في المدينة بعد الهجرة. بل الحالة في حينها أن المسلمين من بعد الهجرة إلى المدينة صار لهم حكومة يمكنها التعامل مع الزكاة، فتشريع الزكاة مثل تشريع الصلاة، فهو قديم في دينه تعالى، ومثل تشريع حرمة الزنا وشرب الخمر والسرقة... فهذه العناوين أيضاً لا تجدها مطروحة في السور التي نزلت قبل الهجرة، فهل تقول بأنه تعالى شرّعها بعد الهجرة ومن قبل ذلك لم تكن حراماً؟

للأسف درجت هذه الخلفية في عقلية الكثير من متعاطي الثقافة الدينية تفسيراً وتشريعاً، قال الكثيرون كلاماً حول تشريع حرمة الخمر في المدينة، وبتدرّج... وهذا غير صحيح، فلا الزنا ولا السرقة ولا النصب والاحتيال ولا... ولا أي عنوان من عناوين الأعمال المعلوم سُوؤُها شُرِّعَ في المدينة أو في هذا القرآن بشكل شاذّ عن الكتب الإلهية السابقة، بل أعاد سبحانه طرحها في هذا القرآن، وبعض التشريعات كانت جديدة على النبي محمّد(ع) وعلى من حوله لأنهم لم يطّلعوا على الكتب الإلهية السابقة "كأحكام الميراث والظهار والتبّني..."، وأصلاً من أسباب إرساله تعالى لمحمّد(ع) بكتاب جديد أن الكتب السابقة تحرّفت فيها التشريعات...

(وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ{26})

{وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ}، فيعتقدون بصحّة، {بِيَوْمِ الدِّينِ}، بصحّة الزمن الذي ندان فيه، فيطالبنا تعالى بالتبعات، بما له علينا ويطالبنا الناس بما لهم علينا ونحن نطالب الآخرين بما لنا عندهم من حقوق ومظالم...

كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، فهي ليست اصطلاحاً مخصّصاً كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، فهي عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني

أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئاً ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف...

الله تعالى خلقني فأنا مدين له، فخلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعاً بسبب سَعَةِ تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... فكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة فهناك ندان بأعمالنا، فما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة كلامه تعالى هو التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضاً يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسباً بحكمته يديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ{27})
{وَالَّذِينَ هُم}، بالإضافة لكل ما سبق فهم، {مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم}، من الضرر من المسؤول عنهم من مستوى إلهي، {مُّشْفِقُونَ}، يعايشون حالة التعرّض للعذاب، فيتلبسون شعور التعرّض للعذاب.

الشفقة هي عموم معايشة شيء سيّء بشكل تخيّلي، فهو شيء لم تتعرّض له، ولكنك تعلمه، أو ترى شخصاً يتعرّض له، فتضع نفسك مكانه كأنك تعيش تلك الحالة فعلاً، وهنا بالتحديد، المؤمنون يعلمون بالعذاب الإلهي، ويعيشون حالة التلبّس به كأنهم يتعرضون له، وعلى أساس هذا الشعور فهم لا يفعلون أي شيء سيعرضّهم للعذاب الذي يتصوّرونه فهم يريدون الابتعاد عنه.

لاحظ الفرق بين معرفتك بوجود عذاب كمعلومة تقرأها أو تسمعها، وبين معلومة تشعر بها كأنها حصلت معك، كخوف الاحتراق بالنار القوية، فقبل الاحتراق يكون للأطفال جرأة الاقتراب منها، وبعد احتراقهم بها يتعلمون ألم الاحتراق وبعد ذلك، يعيشون حالة الألم من الإحراق كلّما شاهدوا النار، وهذا هو الإشفاق على النفس، وإذا رأيت شخصاً يحترق وعايشت حالة الألم التي يشعر بها فهذا الإشفاق على الآخرين، وهكذا إذا شاهدت فقيراً أو مريضاً... وعايشت حالة الفقر والمرض على نفسك كأنك فيها، فهذه شفقة على الآخرين، وهذا هو المعنى الأساسي لكلمة شفقة.

(إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ{28})
{إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ}، إن الضرر والألم الذي يسببه المسؤول عنهم من مستوى إلهي، {غَيْرُ مَأْمُونٍ}، فلا أمان منه، فلا يمكن استبعاده لأنه حتمي وأكيد لمن عصاه تعالى.

نفهمها أكثر عندما نرى أنفسنا والآخرين نقوم بالسيئات وكأننا بأمان من العذاب الإلهي رغم معرفتنا به! فتقول لنا الآية إنّ عذابه تعالى لا أمان منه إذا فعلنا السوء، فلا تشعر بأنه مستبعد حصوله لك إن عصيته تعالى.

قطع أي جملة عن محيطها في السورة سينتج عنه معنى غير صحيح غالباً، هنا ترى أن عذابه تعالى مأمون منه الذي آمن واتقّى، وسياق الكلام عن صفات الآمنين من عذابه تعالى، ولكنهم في نفس الوقت لا يتصرفون على أساس الشعور بالأمن من عقابه تعالى على أي حال، فهذه حالة من أعطى لنفسه جواز سفر إلى الجنّة، كأمثال المستهترين بدينه تعالى وغير الملتزمين به ويتبجّحون بأنهم حتماً ناجون من النار وداخلون إلى الجنّة لأنهم يحبّون القدّيس الفلاني، أو لأنهم من المذهب الفلاني، أو لأنهم من الناطقين بالشهادتين، وكأن التلفظ بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمّداً رسوله، وكأنه كلمة سحرية كافية لوحدها للنجاة من النار؟ وهذا مشابه لما وصل إليه تديّن الكثير من المسيحيين الذين اختصروا كل دينه تعالى في جملة واحدة بسيطة: آمن بالمسيح أنه انصلب لأجلك فستنغفر كل خطاياك. فإن كنت بسهولة ترى هذا ساذجاً خذ علماً أنّه بنفس مستوى سذاجة الكثير من الكلام المنتشر بين مختلف طوائف المسلمين عن خصوصيتهم عن الآخرين بشيء ما سيسبّب لهم لوحدهم دخول الجنّة!

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ{29})
{وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ}، الفُرجة الفتحة بين شيئين، وهنا المقصود هو الأعضاء التناسلية التي بين الفخذين، الرحم للأنثى والإحليل للذكر، {حَافِظُونَ}، يصونون يراعون، فلا يعرّضون ولا يستعملون فروجهم، ومن الآية التالية سترى أنهم حافظون لفروجهم فيستعملونها في الحلال فقط فيحفظونها من استعمال السوء.

لاحظ الآية هنا والآيتين التاليتين وردتا في سورة المؤمنون من الآية 5 وما بعدها {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ}.

(إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ{30})
{إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ}، فالمرأة لا تحفظ فرجها من زوجها، والرجل لا يحفظ فرجه من زوجته، فالزوج والزوجة مسموح لهما معاً فعل كل ما يرغبان به مع بعضهما بفرجيهما، وبالتالي الاستمتاع ببقية جسدهما.

{أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ}، أيضاً لا يجب على الرجل الحفاظ على فرجه من الأنثى التي يملكها بالاقتدار بالتحكّم "الأمة، العبدة"، ولا هي تحفظ فرجها منه، فليسا بحاجة لعقد نكاح حتى يصيرا حلالاً على بعضهما ويكفي كونها مملوكة وراغبة بالمقاربة، {فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ}، فلا لوم عليهم، فهم كمؤمنين من المفروض ألا يفعلوا السوء، وهم لم يرتكبوا أي خطأ بهذا التصرّف، فلا عتاب ولا عقاب لهم على العلاقة مع زوجاتهم أو ما ملكت أيمانهم.

كلام الآية عن نفي اللوم يشير إلى سماح إلهي صريح بالمتعة الجسدية المقوننة بزواج أو ملك يمين بين ذكر وأنثى، وبالتالي تحريم أي علاقة جسدية أخرى غير مقوننة بعقد زواج أو ملك يمين، وبالدقّة فنفي اللوم يجيز للمؤمنين الزواج للمعاشرة ويجيز ملك اليمين للمعاشرة أيضاً، ولا يوجبه على المؤمنين، فهو متروك لرغبتهم، فقد يرغبون بالبقاء عزّاباً ولا تمنعهم الآية من ذلك.

ضمناً كلام الآية "بنفي اللوم" يشير إلى ما تجده هنا وهناك في ثقافات دينية مختلفة حتى من المنتمين لدينه تعالى، فبعضهم "يلوم" معتبراً العلاقة الجنسية حيوانية غرائزية منحطّة، ويجب الترفّع عنها، ويصفون من لم يقم بعلاقة جنسية من المتدينين بأنه من الأرقى إنسانياً ودينياً! ويشجعون على ترك العلاقات الجنسية... أو التعامل معها فقط لإنجاب الأولاد مع حكمهم بارتكاب الإثم "اللوم" إن تلذّذت بالعلاقة الجسدية الحلال! وتجد ذلك منتشراً في عموم أدبيات اليهود والمسيحيين، والبوذيين... وللأسف فهنا وهناك في بعض أدبياتنا الإسلامية يختلط التنبيه السلوكي والأخلاقي من الانجراف مع الشهوة إلى درجة الوصول إلى الحرام بالزنا... وهذه التنبيهات مهمّة جداً... ولكنها تختلط مع كلام عن تشويه نعمة المتعة الجسدية التي جعلها تعالى فينا، فبعضهم يبالغ لدرجة التنفير منها والتعامل معها بجفاف وعند الاضطرار!

هم يبنون كلامهم على مبدأ الابتعاد عن التعلّق بزينة الحياة الدنيا، وبحسب قول بعضهم فهذا هو الطريق إلى الإيمان العالي! طبعاً بعضهم عقلاني في طرحه وملتزم بكلامه تعالى المتماشي مع الآية 32 من سورة الأعراف {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ...}، فنبّه من الانجراف المتطرّف بالغريزة الجنسية لدرجة الفحش بالزنا أو الشذوذ، ونبّه من دوام التفكير فيها وجعله هدفاً مستمراً وهماً... فهذا مثله مثل التنبيه العادي من أي رغبة أو غريزة أو شهوة، كنهم الطعام والسكريات والدهنيات والتسوّق بشراء الثياب وغيره إلى حدّ التبذير والإسراف... فالتطرف "إسرافاً وتبذيراً" في كثرة أي شيء قد يوصل في النهاية إلى فعل السوء...

بعضهم الآخر من موزّعي النصائح الأخلاقية والعرفانية والصوفية، لم يميّز حالته التي فرضت عليه ترك الملذات لأنه شاخ وهرم جسده، فصار يوزّع نصائح مناسبة لعمره ولم ينتبه أنها غير مناسبة للشباب، ومخالفاً بذلك سنّته تعالى في خلقه حيث تفضّل عليهم بنعمة الشهوة والغريزة بجسد ونفسية يصلان مع بعض إلى مرحلة الشباب للتمتّع بفضله تعالى...

من عجوز متصوّف أو عجوز عرفاني أو عجوز سالك أو عجوز مؤمن مستنير... تسمع نصائح بالترفّع عن الملذات الجسدية "الجنس والأكل..." على أنها حجب مانعة من التقرّب منه تعالى! بينما هذه هي حالته هو كعجوز أصلاً، فهو مترفّع عنها غصباً عنه لأن جسده لم يعد قادراً عليها! فليحتفظ بنصائحه لنفسه ولينتبه لكلامه مع الشباب المفعمين بالحيوية، فهم سيشعرون من كلامه بأن إيمانهم ناقص لأن رغبتهم وشهوتهم قوية... بينما هم الطبيعيون والعجوز هو المتطرّف بعرض دين متزمّت على الآخرين، وهذا دين من اختراعه هو وليس دينه تعالى.

الحريُّ بنا دراسة أوضاع مجتمعاتنا وشبابنا لتأمين حياة سعيدة لهم بتنفيس شهوتهم بالحلال عبر تأمين أشغال لهم تدرّ عليهم مداخيل تكفي للزواج... بدلاً من كبتهم بالنصائح الدينية عن المتعة الجسدية وتكريههم بها بكلام ننسبه لدينه تعالى.

هكذا ترى آيتنا "فإنهم غير ملومين" تاركة المجال للحالات المختلفة باختلاف الظروف ولاختلاف تدرجات الرغبات من القوّة إلى الضعف، فإنهم غير ملومين إن فعلوا ما حلّله تعالى لهم، بينما تجد بعضاً من المنتسبين لدينه تعالى منّا وممن سبقنا من أهل الكتاب يقولون بحليّة الزواج، ولكنهم يلومون من يقوم به لأجل المتعة، وكأنه يفعل شيئاً معيباً يلام عليه، ويقولون إنّ الزواج ضرورة لاستمرار النسل ومن المعيب التلذّذ به!

الكلام يجرّ الكلام، أيُّ فعل بين الزوجين بجسديهما وبرضاهما فهو حلال لهما.

كما ترى، فقد صار كلامي عميقاً بعض الشيء وخرج أو يكاد يخرج عن اللياقة، وصرت ترى أن التعبير القرآني "غير ملومين" يقصد ما قلناه وأكثر، ولكن عبّر القرآن بطريقة لطيفة وراقية ومهذّبة.

بالنسبة للعبودية، فعلى مرّ التاريخ اختلفت نظرة الناس للعبودية، فقد كانت العبودية دارجة قديماً في غالبية الأمم، ومنذ مدّة قليلة في القرن العشرين صار دارجاً النفور من العبودية، فنسي الجميع ما كان دارجاً متعارفاً عليه أنه مقبول لدرجة جعلت المفسرين والفقهاء والمفكرين المسلمين، جعلتهم في عصرنا يشعرون بالحرج من الآيات التي تتحدّث عن العبيد، وتراهم مباشرة يغيّرون الموضوع ويشيرون لعدالة الإسلام، ومسحه للعبودية عبر تحرير العبيد وعتقهم ومكاتبتهم، وجعل تحريرهم فداءً كتكفير عن بعض السيئات...

كلامهم صحيح، ولكن الصحيح أيضاً أن العبودية كانت منتشرة، ولها تشريعات في القرآن، ولست بوارد نفي أفضلية كون جميع الناس أحراراً، فإن كان المزاج العام للناس الآن مضاداً للعبودية، فأين المشكلة! ففي حين نزول هذا القرآن وإلى زمن غير بعيد لم يكن هذا المزاج العام، بل كانت العبودية واقعاً منتشراً بين الناس، فإن وقع المسلمون تحت الأسر من أعدائهم فقد كان مصيرهم العبودية، فلم يكن المسلمون وحدهم يستعبدون...

لننظر لأحكام العبيد في القرآن، ولن تجد فيه حكماً أو تشريعاً يأمر باستعباد أحد، وأقصى ما ستجده عن تقييد الحرية فهو عن أسر الأعداء المحاربين فقط، وما فعله الرسول محمّد(ع) من استعباد للأسرى "كما نقلوا في التاريخ" فقد كان حكم الأمر الواقع بسبب اعتماد الطرف الآخر له، وبسبب الخيارات الأخرى الضيقة، فإما قتل أسرى الأعداء أو تركهم أحراراً وفي ذلك خطر إعادة تشكيل قوّة معادية، أو سجنهم ليموتوا في السجن أو سجنهم لمدة طويلة جداً وهذا ليس حلاً عملياً للسجين أو للساجن له، أو استعباد الأسرى.

قونن النبي محمّد(ع) هذا الواقع بناءً على مبادئ القرآن، بتحرير أسرى الأعداء من بعد أسرهم إن كانت الأمور تشير لاستبعاد الخطر منهم، أو استعبادهم وتفريقهم إن كان هناك خطر من تجمّعهم من جديد كمعادين مقاتلين.

علماً أننا لا نجد في التاريخ سوى "زعم بعضهم" استعباده(ع) لبعض أعدائه، بينما لا تجد ولا أي أثر في التاريخ بعد ذلك لأولئك الذين قيل عنهم مستعبدين! فلا تجد ولو اسماً واحداً لرجل أو امرأة من الأقوام الذين قيل عنهم إنّ الرسول(ع) استعبدهم ولا يزالون عبيداً، فيبدو واضحاً أن كلامهم عن استعباد الرسول(ع) لبعض أسرى أعدائه كان في حدّه الأقصى لمدة قصيرة جداً جداً لا تتعدّى الأيام، وبعدها إطلاق سراحهم، ولكن أصحاب العقلية الإجرامية تعاموا عن ذلك مبيحين استعباد الآخرين واغتصاب نساءَهم...

أكرّر لك لتنتبه جيداً، فرغم ما قاله البعض عن استعباد الرسول(ع) لأعدائه، ورغم التعارف على ذلك أنه من المسلمات التاريخية، فبأدنى نظرة عقلانية لكل التاريخ ستجد أن هذا الزعم كاذب أو مبالغ فيه، والدليل عليه واضح لأنك لا تجد في التاريخ ولا اسماً واحداً لعبد في المدينة من الذين أسرهم الرسول(ع)، ولا تجد ولا اسماً واحداً لأي طفل منهم صار

بعد ذلك مسلماً، علماً أن كفّار العرب كلّهم أسلموا بعد مدة قليلة من الزمن، ولا تجد في التاريخ اسماً ولو لابن واحد من أبناء الصحابة ولّدته عبدة مأسورة من الأعداء في زمن الرسول(ع)، نعم تجد في التاريخ زواجاً من مملوكات وتجد أولاداً منهم، وكمثال على ذلك إبراهيم ابن النبي محمد(ع) من ماريا القبطية التي أعتقها(ع) ثم تزوجها، وتجد فيما بعد وفاة الرسول(ع) ولادة أولاد لمسلمين من مملوكات...

كل الكلام المنتشر عن حالات استعباد الرسول (ع) لأسرى الأعداء لمدة طويلة، وعن استعباد واغتصاب نساء الأعداء، فهو كذب من أوهام المسلمين المجرمين، ومن أحلامهم بالبقاء على دين الجاهلية...

هذا ما تراه من تاريخ تطبيق الرسول محمّد(ع) للقرآن، فلم يكن له (ع) عبيد سوى ما قالوه عن زيد بن حارثة الذي اشترته السيدة خديجة ولداً صغيراً ووهبته لمحمّد(ع) قبل أن يصير نبياً، والذي ربّاه كولد له وليس كعبد، وبلال بن رباح الذي قالوا عنه في كتب التاريخ إنّ أبا بكر اشتراه لتحريره من ظلم أمية بن خلف ويقولون إنّه وهبه للرسول(ع)، ومعلوم من التاريخ أن بلالاً لم يعش بين المسلمين كعبد، ولم يعمل عند الرسول(ع) أصلاً لا في بيته للخدمة ولا كعبد في وظيفة ما...

بالنسبة للنساء، فكلهن أعتقهن النبي(ع) وتزوجهن، فلم يقارب ولا واحدة منهن وهي مملوكة يمين "عبدة أو أمة". وأساساً جاء كلام القرآن عن حلية مقاربة الأمة فقط بعد موافقتها وبدون الحاجة لعقد.

بحسب ما نقلوه في كتب التاريخ، فحالات تسريح الرسول محمّد(ع) للأسرى أو فداؤهم أكثر بكثير من حالات استعبادهم "التي زعموها ولا تجد لها بعد ذلك أثراً في التاريخ"، وأشهرها طلقاء مكّة من بعد الفتح، وبعدهم تسريح هوازن من بعد معركة حنين، وقبلها فداء أو تسريح حصل لمختلف جماعات يهود المدينة وخيبر... وهكذا ترى أنه تعالى ترك لنا هامشاً واسعاً في القرار المناسب لمختلف الظروف والأزمنة والمجتمعات... لاستعباد الأعداء أو سجنهم أو مفاداتهم أو قتلهم "إن ثبتت عليهم جرائم...".

أكرّر لك لتنتبه أشدّ الانتباه مما يقال عن إبادة الرسول(ع) لكل ذكور بعض أعدائه، ولما يقال عن سماحه(ع) لأصحابه باستعباد نساء الأعداء ومعاشرتهن غصباً عنهن... فهذه أكاذيب ألّفها مجرمون مشابهون في إجرامهم لبعض المعاصرين للرسول(ع)، أولئك بقوا على عقليتهم الإجرامية القديمة بلا ناموس ولا قرآن، واستمرّ الحال هذا من بعد الرسول عملياً وفتوائياً مخالفاً لكلام القرآن الصريح حتى صار من المتعارف عليه والمنتشر فتاوى تبيح اغتصاب العبدات "ملك اليمين"، وقد درج ذلك بين المسلمين! وصار منتشراً في ثقافتنا الحريم والجواري...

التصرفات المشهورة عن الرسول(ع) هي وحدها العاكسة لدينه تعالى، وأمّا تصرفات كل بقية المسلمين وفتاويهم فهي عاكسة لدينهم هم، فهو (ع) لم يكن له عبيد يخدمونه، ولا قارب أنثى "أمة عبدة ملك يمين" قبلما يتزوجها، وما ينقله البعض من أخبار شاذّة عن ذلك، وما قاله البعض كفتوى تجعل اغتصاب المملوكة رغماً عن إرادتها حلالاً، فما هو إلا انعكاس لعقليتهم الذكورية الإجرامية.

ما قاله القرآن يساوي بين الزوجة وملك اليمين من ناحية حليّة المقاربة كما ورد في الآيتين 6 من سورة المؤمنون والآية 30 من سورة المعارج {إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ}، فلمقاربة مملوكتك لا تحتاج لعقد قران عليها ويكفي موافقتها، وإن رفضت وطلبت الزواج من مالكها حتى تسمح له بمقاربتها، أو طلبت الزواج من أي أحد آخر حراً كان أم عبداً، فهي وشأنها، وهذا واضح من كل كلام القرآن الذي عليك بإعادة قراءته من دون أفكار "ذكورية إجرامية" مسبقة عن هذا الموضوع، وسترى بوضوح أن للعبدة "الأمة المملوكة" حرية اختيار من تقاربه ومن تتزوجه، وهذا واضح وصريح من الآية 25 من سورة النساء {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ۚ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ۚ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ...}.

نعيد فنقول إنّ القرآن لم يذكر من موضوع تشريع تقييد الحرية إلا الأسر للأعداء، فلم يذكر أي شيء عن الكيفية التي تبيح استعباد الآخرين، ومن ناحية ثانية فقد كان الأمر الواقع المنتشر بين الناس استعبادهم للشعوب الضعيفة من أي دين

أو عرق كان، فهل تشريعات القرآن التي تضمّنت كلاماً عن العبيد وملك اليمين قصدت واقع الحال هذا، أو قصدت فقط الهامش المسموح التحرّك به في حالة استعباد الأسرى من الأعداء المقاتلين من غير المسلمين؟

من عموم القرآن وبالخصوص من سورة الممتحنة وبالأخص من الآية 8 منها {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، تجد منعاً قرآنياً بكل أشكاله من التعرّض بالأذى لأي إنسان كان مهما كان عرقه أو دينه إلا إذا كان معادياً محارباً، وأي آية قد يفسّرها أحدهم ويقول بأنها تشرعن استعباد المسالمين من الكفّار أو من أهل الكتاب، فراجع دراستنا هذه لترى معناها، وسترى أن كلامهم غير صحيح. أمّا ما في الروايات عن هذا الموضوع ومخالف لصريح القرآن فمصيره الرمي والإهمال وتكذيب ناقليه عن الرسول(ع)...

ننتقل الآن إلى واقع الحال الذي كان عليه الناس في عصر النبي محمّد(ع)، حيث كانوا يشترون ويبيعون العبيد المسالمين المخطوفين من مختلف الجنسيات ومختلف الأديان، فهل في عهده (ع) تعامل المسلمون بذلك أم انحصرت تعاملاتهم في العبيد من الأعداء؟

طبعاً حين نقول "المسلمون" نقصد المؤمنين الحقيقيين منهم، فقد اشتهر في عهده (ع) بعض المسلمين "المنافقين والفاسقين" الذين يجبرون عبداتهم على الزنا، وقد منعهم النبي(ع) من ذلك بأمر إلهي كما ورد في الآية 33 من سورة النور {... وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا...}، ومن منطوق الآية بكلامها عن الإحصان تفهم أنه حتى مالكها لا يحقّ له مقاربتها إن لم تقبل، وبالتالي فلا يحق له السماح للآخرين بمقاربتها غصباً عنها... ويحقّ لها اختيار زوجها مع موافقة أهلها ومن ضمنهم مالكها...

أكتفي بهذا المقدار الذي فيه الأساسيات القرآنية لترى نظرة قرآنية مختلفة عن العبيد مما هو دارج في مختلف الكتب المسمّاة إسلامية.

ما تجده في القرآن عن العبيد وما تجده في كتب التاريخ من تصرفات المؤمنين الحقيقيين مع العبيد والإماء، كتطبيق عملي للإيمان في التعامل مع الآخرين، ترى فيه فرقاً عمّا تجده في الكثير من كتب الفقه عند كلّ المسلمين، التي بعضها كتبها فقهاء مجرمون، يحلّون استعباد أي إنسان ليس من طائفتهم أو مذهبهم! بل يهدرون دم وعرض الآخرين! حتى المسلمين المسالمين! وقد اعتمدوا في ذلك على روايات كاذبة رواها مجرمون أمثالهم، واعتمدوا على سيرة مجرمين من المسلمين اتخذوا منهم منارة للدموية، فها القرآن أمامك، وها دراستنا له، فراجع أي آية قالوا إنها تدعم كلامهم لترى أنهم كاذبون ومجرمون.

بالنسبة لتعبير ملك اليمين، فمعنى كلمة ملك: هو عموم أي شيء يرجع إليك أمره فيتبع لك مع التحكّم به والسيطرة عليه. وكلمة يمين لعموم التعامل مع أي شيء براحة واقتدار وقوة وتحكّم. فيصير تعبير ملك اليمين يعني: السيطرة مع اقتدار. فهو شخص تتصرّف به فتأمره بقوة اقتدارك عليه. وكلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

من هذا المعنى اللغوي الأساسي للكلمات ترى أن استعمال القرآن لها للتعبير عمّا يقصده فهو بعيد كل البعد عن الممارسات السيئة للناس مع المملوكين ملك يمين والمستعبدين، فقارن معنى كلمة "ملك يمين وعبد" مع خادم أو خادمة أو عامل أو عاملة مقابل المبيت والطعام، وسترى أن القرآن يقصد هذا المعنى حصرياً، أمّا ممارسات "المسلمين" ورواياتهم وفتاويهم فهي تمثّلهم هم ولا تمثّل دينه تعالى المطروح في قرآنه.

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ{31})
{فَمَنِ ابْتَغَى}، مَن أراد وكان مطلبه، {وَرَاءَ ذَلِكَ}، عَرَضَ فرجه على غير زوجته أو ملك يمينه، أو عرضت فرجها على غير زوجها أو مالكها، ابْتَغَى أو ابتغت، الزنا أو الشذوذ... {فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ}، هم المتخطون، هم الذين تجاوزوا حدود ما سمح به تعالى.

كما تلاحظ كلام الآيات عن الاستمتاع الجسدي بين ذكر وأنثى، وما قيل عن الاشتقاق من الآية بحرمة الاستمناء بيد الشخص لنفسه أو بالآلات أو أي وسيلة، فهو اشتقاق تتحمّله الآية بقوة، علماً أن هذا التحريم مشهور في ثقافة المنتمين لدينه تعالى، ولكنهم ضخّموا سوءه لدرجة جعله أسوأ من الزنا وهذا قرآنياً ليس بصريح، وهذا يأخذنا إلى موضوع آخر عن الواجبات التي ذكرها القرآن ولم يذكر عقاباً في الآخرة على تركها كالصوم والحجّ... وعن المحرمات التي لم يذكر عقاباً على فعلها كالغيبة والخمر والقمار... وينسحب الكلام على الواجبات والمحرمات المتعارف عليها من الروايات "السنن" ولم يذكرها القرآن أصلاً، كالختان وتغسيل الميّت والعادة السرية... وملخص الموضوع تفهمه بالتحليل من عموم كلام القرآن عن بني إسرائيل حيث توعّد البعض منهم بالخلود في النار بسبب فسادهم في الأرض، علماً أن بعضهم ملتزم ببقية الواجبات ومبتعد عن المحرمات! يبدو من القرآن أن الكفر والشرك به تعالى سبب رئيسي لدخول النار، وأن الفساد في الأرض بأذية الناس "قتلا وإفقاراً..." هو السبب الثاني، وأمّا السيئات الصغيرة المحصور ضررها، والسيئات من نوع مخالفة السنن، فهذه ليست لوحدها سببا رئيسياً للخلود في النار أو حتى لدخول النار.

أمّا بالنسبة للاستمناء فمخاطره مجهولة للبعض منّا بسبب فقدان التجربة الشخصية معه، ولكن الدراسات الحديثة تشير إلى مشاكل جسدية ونفسية مدمّرة للفتيان وللبالغين "من الذكور والإناث"، ونفس الأخطار بل وأكثر منها "بحسب قولهم" تنتج عن المشاهد الإباحية...

لسبب ولآخر المؤمنون في عصرنا ليسوا من رواد الأبحاث والدراسات، ولذلك نعتمد على دراسات الآخرين التي ستكون محكومة بمزاجهم، بعبارة أصرح رغم وضوح الآثار المدمّرة لتعاطي المخدرات والخمور والزنا والقمار والربا... ترى غالبية الآخرين يتعامون عن ذلك محاولين ربط الآثار السلبية بالإدمان فقط، ونفس هذه الخلفية تنطبق على العادة السرية ومشاهدة الإباحية، تجد الغالبية من الأطباء رافضين الاعتراف بربطهما بالآثار المدمرة نفسياً وجسدياً.

أحيلك لمعرفة خطورة الاستمناء ومشاهدة الإباحية إلى مواقع إنترنت "للآخرين" تعالج هذه المشكلة وتضيء على الآثار السلبية الناتجة عنها، وكلام الدارسين والمتعرضين لهذه التجربة ليس نابعاً من خلفية دينية تحرّم الاستمناء ومشاهدة الإباحية خوفاً من العقاب في الآخرة، بل نابع من تعرّضهم لآثار دمّرت حياتهم...

تجد تفاصيل مهمّة جداً تحت عناوين مختلفة منها وأهمها "الدماغ تحت تأثير الإباحية"، والريبوت...

في تلك الدراسات معلومات كثيرة جداً وتفاصيل مذهلة لا يصدقها عقلك عن الآثار الناتجة عن مشاهدة الإباحية، وخاصة عند الفتيان الذين صاروا عاجزين جنسياً بسبب ذلك، ومعاقين نفسياً بالانطواء والانزواء والفشل في الدراسة والعمل وشؤون الحياة...

في تلك الدراسات ترى أيضاً دماراً للزواج والعلاقة بين الجنسين بسبب الانتكاسات الجسدية والنفسية الناتجة عن مشاهدة الإباحية...

انتبه لحسمهم بموضوع الآثار السلبية المدمرة لمشاهدة الإباحية، وبالنتيجة برأيهم يجب تركها بالكامل نهائياً بلا رجعة لاستعادة العافية الجسدية والنفسية، ولكن بالنسبة للعادة السرية لا يزالون بعقلية الرغبة بالسوء رغم علمهم بالآثار المدمرة لكثرة الاستمناء، بناءً على الرغبة والممارسة المنتشرة بينهم لفعل ذلك، ستجد النصائح بالإقلال من الاستمناء بدلاً من الإقلاع عنه نهائياً... وعلى أي حال هذا أفضل من النصائح الطبية القديمة الصادرة من أطباء "ومجتمع" لا يريدون الإقلاع عن العادة السرية، هؤلاء يتعامون عن آثارها المدمّرة بل وهم "كانوا ولا زالوا" بغالبيتهم يُحَفِّزُونَ الفتيان على الإكثار من ممارستها على أساس أنها لا ضرر منها! فعلوا ذلك لدرجة أوصلت مجتمعاتهم لتكون الأولى في استهلاك أدوية المقويات الجنسية للشبّان!

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ{32})
{وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ}، للأموال أو الأملاك التي لغيرهم وضعوها عندهم، {وَالَّذِينَ هُمْ لِـ}، {عَهْدِهِمْ}، للأشياء التي أعلنوا أنهم سيلتزمون بها، {هُمْ}، {رَاعُونَ}، يراعون الأمانة والعهد فلا يفرطون بهما فلا يخونون من أمّنهم، أو من تعاهدوا معه، ولا يتهاونون ولا يستهترون بالأمانة أو بالعهد.

الأمانة عندما تضع عندي مالاً أو أي شيء لأحفظه لك، أو تضع عندي شيئاً وتسمح لي باستعماله ولكنك ستأخذه فيما بعد، أو تضع عندي مالاً أو شيئاً أستعمله في العمل أو التجارة لإنتاج المال... فرعاية الأمانة أن أحافظ على ما وضعت عندي، فلا أفرّط به، ولا أخربه أو أقلل من قيمته... ولا آخذه غصباً عنك ولا أنصبه عليك... وإن كانت أمانة شراكة فلا أعطيك أقل من حقّك من الأرباح...

العهد أن أتفق معك على شيء، وأعلن لك أني سألتزم بالاتفاق، كأن تعمل لي عملاً على أن أعطيك أجرك ألف درهم، أو أن أعمل لك شيئاً محدداً، أو نتفق على شراكة في العمل، أو نتفق على البيع والشراء بمواصفات محددة... فالإخلال بأي اتفاق هو مخالفة لرعاية العهد وعليه عقاب.

نلاحظ شيوع الإخلال بالأمانة والعهد بين الناس، لا العامل يقوم بعمله مثلما اتفقت معه، ولا أنت تقوم بعملك كما اتفقت مع الآخرين، ولا تقدّم للعامل ما يستحقّه من أجر، وأنت تطلب أكثر مما تستحقّ... ويسرق الشركاء بعضهم...

مراعاة الأمانة والعهد أمر عام يشمل ما بيننا نحن وما بيننا وبينه تعالى، قَبِلْنَا أمانة الخلافة الإلهية، وتعهدنا أن نعبده وحده تعالى... فمنطوق الآية عامّ شامل لكل أنواع العهد والأمانة ولكن سياق الكلام هنا عن خصوص تعاملات الناس بين بعضهم البعض. وردت نفس الآية في الآية 8 من سورة المؤمنون وهناك توسّعنا قليلاً حول الأمانة.

بقي شيء، قرأ "ابن كثير" كلمة لأمانتهم بالمفرد "لأمانتهم" بدلاً من "لأماناتهم". وبدل أن يعارضه من سمعه لأنه خالف قراءة عموم المسلمين، اعتبروا قراءته صحيحة! بل وبدون أي دليل، جعلوا هذه القراءة منسوبة للرسول(ع)! لديهم قاعدة تقول أن كل القراءات صحيحة وترجع للرسول(ع)! وهذا الكلام عملياً يعني أن الرسول(ع) قرأ هذه الآية مرّة "لأماناتهم" ومرة "لأمانتهم"، وإن كان يوجد شيء اسمه هرطقة وتحريف وتسخيف للقرآن فهذا هو التحريف والتسخيف والهرطقة بعينها، من ابن كثير ومن الذين لم يعارضوه، وممن برّروا له، ابن كثير هذا "وغيره من القرّاء" كان لديهم الجرأة على مخالفة قراءة عموم المسلمين على أساس أنهم أعلم من الآخرين بقواعد اللغة العربية، وأعلم من الآخرين بمعاني الكلمات... والبقية أخطأوا! وهنا استنسب ابن كثير جعل كلمة أمانة بالمفرد مثل كلمة عهدهم، وافترض أن الكلمتين يجب أن تكونا كلتاهما إمّا مفرداً وإمّا جمعاً، ولمّا لم يرد في القرآن استعمال جمع لكلمة عهد "عهود" قرّر تصحيح ما رآه خللاً وقرأ أماناتهم بالمفرد "أمانتهم"، وهكذا وبرأيه وبهذا التصحيح يختفي السؤال عن سبب استعمال أماناتهم بالجمع وعهدهم بالمفرد.

فاته أن الدقّة على المقياس الإلهي استوجبت استعمال التعبير باسم الجنس بدل جمع التكسير، وأن تصحيحه لم يكن بسبب تسرّب ذاكرة من حوله ووقوعهم جميعاً في الخطأ غير المقصود، بل بجرأة منه عليه تعالى، وهذه الجرأة كانت منتشرة في حينها في زمنه، خلطاً بين روايات حصل فيها تسرّب غير مقصود لذاكرة أعلام من الجيل الأول والثاني من المسلمين، حيث وردنا عن هذا وذاك منهم قراءة بعض الكلمات بما يخالف قراءة الآخرين من جمهور المسلمين، وخلطاً بين جرأة من بعضهم على مخالفة قراءة الآخرين بشكل صريح...

فات ابن كثير وغيره أن نصف العلم: لا أدري. وأنا أيضاً لا أدري لماذا الأمانة بالجمع الصريح والعهد بالمفرد الذي يبدو عليه بشكل واضح من عمومية السياق أنه اسم الجنس يشير للجمع، ككلمة طير وجنّ وملك ونهر... التي استعملها القرآن لتدلّ على الجمع بدل ذكر الكلمة بتصريف الجمع السالم أو المكسور، وهذا شيء منتشر في عموم اللغة العربية، وسببه لم يحدّد بعد، بحسب اطلاعي، وهكذا ترى أننا لم ندرس بعد ولم نستفد من كيفية استعمال الإله عزّ وجلّ للّغة العربية، حيث حظيت اللغة العربية بامتياز إلهي باستعماله تعالى لها، بالقدرات الإلهية الفائقة، الدقيقة جداً، التي أضعناها بهرطقات القراءات المختلفة، والشكّ في صحة قراءة الرسول(ع) والشكّ في قراءة عموم المسلمين الذين اعتمدوا الحفظ سماعاً نقلاً عن الرسول(ع)... بدل أن ندرس حصراً بشكل علمي دقيق كيفية صياغة الإله سبحانه للغتنا، بدلاً من ذلك التهينا بفنون القراءات، وبالتفسير المذهبي، وتأويل الباطن، وبالإعجاز العددي الكاذب... والأنكى من ذلك كلّه التلخبط والشكّ في القرآن والتلاعب بقراءاته عند ورود بيت شعر يبدو فيه مخالفة قواعدية أو صرفية أو بالمعنى لما قاله القرآن، ناسين أنّنا نؤمن بإله أنزل القرآن! في مقابل إنسان قال بيتاً من الشعر!

(وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ{33})

{وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ}، بشيء شهدوه، سمعوه أو رأوه، {قَائِمُونَ}، يُفَعِّلُونَ لا يُعَطِّلُونَ، فإذا كانوا شهوداً على بيع أو اتفاقية أو طلاق... أو على حادثة أو جريمة... فحين يُطْلَبُ منهم الشهادة فهم يقومون بها، فلا يعطلونها ولا بأي شكل، فلا يزوّرونها ولا يتلاعبون بها ولا ينقصونها ولا يتمنّعون عن أدائها... ولا يقبلون الرشوة لتغييرها أو الامتناع عن أدائها... ولا بأي شكل يعطلون الشهادة.

لن أطيل عليك في أهمية هذا الأمر الإلهي خصوصاً فيما يتعلّق بالمعاملات بين الناس، هناك أمور متنوّعة تحصل فيها خلافات بين الناس على أساس تعارض أقوالهم، هذا يقول بأن الاتفاق كان على شيء ما، وذاك يقول بأن الاتفاق كان على شيء آخر، فيحصل الخلاف، دَرَجَ في قوانين عصرنا اعتماد كتابة الاتفاقات، وهذا شيء أكّد عليه القرآن بأطول آية فيه وهي الآية 282 من سورة البقرة، وأضاف إليه توقيع الشهود.

فلا يذهب بالك إلى اعتماد الوثائق والشهود فقط مع أناس لا تثق بهم أو لديك شكوك حولهم، لا، بل اعتمدها مع أقرب الناس لك ومع من تثق بهم أيضاً، لأن نسيان التفاصيل حالة شائعة بين الناس، وإهمال التفاصيل أثناء الاتفاقات حالة شائعة أيضاً، والخلاف فيما بعد بسبب إهمال التفاصيل هو حالة شائعة بكثرة أيضاً.

أقول لك هذا لننتبه للفرق بين اعتماد الشهود على أصل الاتفاقات، وبين الاعتماد عليهم في تذكّر التفاصيل، الآية 282 من سورة البقرة ذكرت الشهود وكتابة الوثيقة معاً، لأن الكلام القرآني لم يقصد اعتماد ذاكرة الشهود على التفاصيل، خصوصاً إن كانت التفاصيل كثيرة...

(وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ{34})
{وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ}، على توجههم وإقبالهم، وأول ما يتبادر إلى ذهنك من استعمال القرآن لكلمة صلاة أنها مخصّصة للحركات والكلام المعلوم الذي نقوم به خمس مرّات في اليوم، للتوجّه بالعبادة لمن خلقنا، وهذا صحيح بالنسبة لكلام القرآن معنا نحن المسلمين الذين من سنّة النبي محمّد(ع) تعلّمنا أن هذه الصلاة في الأوقات المخصصة بالحركات والكلام المعلوم، هي الصلاة المطلوبة منّا، فالمؤمنون عليها، {يُحَافِظُونَ}، فلا يضيّعونها بالإهمال أو تأخيرها لما بعد وقتها، أو النوم أثناء وقتها... ويؤدونها بطريقة صحيحة... كل ذلك ينطبق عليه الحفظ مقابل التضييع والإهمال.

لاحظ تكرار الإشارة للصلاة، فيما سبق في هذه السورة قالت أنهم على الصلاة دائمون، وهنا على صلاتهم يحافظون، وعملياً المعنيان قريبان من بعضهما، ولكن المحافظة على الصلاة بالنظر لها كشيء تحافظ عليه، فلا تضيّعه ولا يفوتك كصلاة، وتنتبه للكلام الذي تقوله ولمعنى الحركات.

(أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ{35})
{أُولَئِكَ}، الذين بالصفات "العملية" المذكورة في الآيات السابقة، {فِي جَنَّاتٍ}، في أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين وأنهار وما يسبّب البهجة، ومن عموم القرآن تعلم أن هذا النوع من سياق الكلام يشير لجنّة الآخرة، وهم فيها، {مُكْرَمُونَ}، لهم قيمة ومكانة ومحترمون.

قد تعطي أحداً ما أجره وزيادة وترميه له على الأرض، فهذا ليس أجراً كريماً، أمّا أهل الجنّة فيأخذون أجرهم وهم يشعرون بقيمتهم العالية وأنهم محترمون.

كلمة كريم لها معنى دارج غير معناها اللغوي الأساسي القديم، دَرَجَ أن معناها: العطاء بكثرة. ولكن معناها الأساسي هو القيمة والمكانة العالية، فيقابلها مهين وإهانة، وبهذا المعنى فقط استعملها القرآن، ومن الاشتقاق التطبيقي لذلك أحياناً الوصف بالكرم لما تعطيه بكثرة للآخرين. ولنفهمها ببساطة تصوّر رميك لأجر العامل على الأرض ليلتقطه، فهذا أجر مهين، بينما تسليمه للأجر باليد مع ابتسامة وكلام لطيف، سيشعر منه بالكرامة، وهذا ما قصده القرآن بوصف الأجر بالكريم، وكثرة ما يسبب السعادة ونوعيته العالية في الجنّة هما الترجمة العملية لوصف الأجر بالكريم.

(فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ{36})

{فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا}، المنكرون لهذا الدين ولعذاب الآخرة، ما لهم، كما نقول بالعامية: شو بهم. {قِبَلَكَ} "كسرة على القاف" قبالتك أمامك، {مُهْطِعِينَ}؟ يصوبون رؤوسهم ونظرهم ويمدونها باتجاهك؟

(عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ{37})
{عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ}، عن الجهتين، {عِزِينَ}، يتقاسمون نصيبهم. ما لهم حولك من كل الجهات كأنهم مجتمعون ليأخذ كل واحد منهم نصيبه؟ والآية التالية ستشرح بماذا يفكّر المجرمون.

نقرأ الآيات هنا على طريقة تهكّمها بهم، فهي سخرية منهم بكلام الفصحى، والعامية أسهل علينا: شو بهم الكافرين، عن يمينك وشمالك ناطرين... ليفوتوا على الجنّة...؟!

(أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ{38})
{أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ}، هل يرغب كل واحد منهم ولديه أمل بالحصول على ما يرغبه وهو، {أَنْ يُدْخَلَ} "مبني للمجهول بالضمّة على الياء" فيجعله الآخرون يدخل إلى، {جَنَّةَ نَعِيمٍ}؟ إلى مكان موصوف بروعة ما فيه، وكل ما فيه يوصف بأنه نعيم بأنه أمور جيدة، نعم الأمور.

حين يسمعونك تتحدّث عن الجنّة وروعتها، يخطر ببالهم أنهم ومع حالة كفرهم يوجد أمل يمكن أن يتحقّق بإدخاله تعالى لهم إلى الجنّة الرائعة!

حالتهم هذه بالطمع لدخول الجنّة هي حالة إنسانية من التعلق حتى بما تستبعد حصوله، فهم يسمعون عن روعة جنّة الآخرة، وبغض النظر عن مستوى كفرهم بها فهم يطمعون أن يكونوا في مكان رائع بهذه الصفات، ولو على الاحتمال الضئيل يتمنون لو أن الجنّة موجودة وأنهم سيدخلون إليها.

وهكذا ترى أنه لا داعي لتضييق من تقصده الآيات بالكفر ليكون مسلماً منافقاً أو فاسقاً، أو لخصوص الكافر المشرك، فالكلام عمومي وينطبق على من بشكل ما، لديه إيمان ما، ولو على نحو الاحتمال الضئيل، ولو على الأمل التخيّلي، ولو على فرض حصول المستحيل في نظره... فسواء أكان كافراً أو مسلماً فحين يسمع الكلام عن الجنّة يطمع أن يكون فيها، بينما هو ليس على العقيدة والسلوكيات والشريعة التي تؤهّله لدخولها.

(كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ{39})
{كَلَّا}، لن يتم إدخالهم إلى الجنّة، وكما قرأت منذ قليل عن صفات المؤمنين الداخلين إلى الجنّة بينما هؤلاء الطامعون بدخولها ليسوا من المؤمنين.

{إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ}، ركّبناهم ألّفناهم، {مِمَّا}، من الذي، {يَعْلَمُونَ}، ومن عموم القرآن تعلم أن هذا الكلام يشير لخلقنا من الطين والنطفة لنصير إنساناً يميّز بين الخير والشرّ ويتمتع بحرية الإرادة والاختيار، وبالتالي تعرّضنا لأمور سنختار منها، ويعبّر القرآن عن ذلك بالبلاء، وبالتالي وصولنا إلى الحساب والجزاء على ما اخترنا فعله، سواء كفرنا وعصينا أم كنّا من المصلين المزكين...

الكلام هنا مع من سأل عن عذاب الآخرة وهو منكر لها، وعندما سمع بالجنّة طمع بها رغم كفره! ورغم مخالفته لما سمعه من شروط لدخول الجنة! ورغم سماعه لمصيره بالعذاب إن بقي على عقيدته وسلوكه! تخبره الآية هنا أن هذا لن يحصل، فأنت تعلم مما خلقك سبحانه، فتعلم كيانك وما فيك، وتعلم أنّك مكلّف بالطاعة له تعالى ولن تدخل الجنّة إلا إذا حقّقت الشروط الإلهية من الإيمان والعمل الصالح.

(فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ{40})
{فَلَا أُقْسِمُ}، لا أستعمل التوكيد لتأكيد الشيء الذي ستذكره الآية التالية، لا أؤكّد، {بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ}، بالمسؤول من مستوى إلهي عن ظاهرتي المشارق والمغارب، فالشمس على كل بقعة من الأرض، فإذا توجّهت بنظرك نحو جهة شروقها، فخلال السنة سترى تغيّر مكان شروق الشمس، ليصل إلى نقطة ما لجهة الشمال، ثم يوماً بعد يوم

تتجه نقطة الشروق باتجاه الجنوب، ثم من جديد يوماً بعد يوم تتحرك إلى جهة الشمال وهكذا، فتلك النقطتان على جهة الشمال والجنوب وما بينهما من نقاط لأماكن شروق الشمس، هما المشارق، وبالنسبة للمغارب مثلهم لأن الشمس من جهة الغرب تنزل تحت الأفق في كل يوم من نقطة بعيدة قليلاً عن نقطة اليوم السابق...

مجرد النظر والالتفات لظاهرة انتقال الشمس في مشرقها ومغربها يدلّك على قدرته العظيمة سبحانه، ومن المفروض أن تكفيك هذه المشاهد وتغنيك عن تأكيده تعالى بالقسم على... قدرته... فلنقل أنك تريد أن تعلم عن قدرتي على بناء منزل صغير، وأنا منذ مدّة بنيت برجاً فأقول لك: لا أقسم بالبرج الضخم الذي بنيته أني قادر على بناء بيت صغير. فمن رؤيتك للبرج يصير بديهياً عندك أني قادر على بناء بيت.

{إِنَّا}، الذي سبّب ظاهرة المشارق والمغارب، {لَقَادِرُونَ}، فيمكننا أن نفعل ما يلي:

(عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ{41})
قادرون، {عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ}، فهم مخلوقات كفرت، ويمكن له تعالى أن يميتهم ويخلق مخلوقات أخرى أفضل منهم، وكما ترى فالكلام هنا عن قدرته تعالى على خلق مخلوقات تعيش على الأرض ولا تكفر به عزّ وجلّ ولا تفعل السوء.

على ماذا استند الكافر حين لم يهتم بتهديده بالعذاب؟ وعلى ماذا استند حين سأل عن العذاب وهو منكر له مستبعد حصوله؟ وهو مجرد مخلوق واقع تحت قدرته تعالى!

{وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}، فلا يوجد قدرة تسبق قدرته لتمنعه تعالى من تبديلهم لو أراد، فلو اتّخذ سبحانه قراراً بتبديلهم فلا يوجد أي أحد يمكنه أن يسبقه تعالى ليمنع التبديل، فتنفيذ أي شيء تريده أنت، إن سبقك أحد ما ونفّذ بعكس ما تريده أنت فقد أغلق عليك الطريق، وهنا تعبير الآية من مستوى إلهي، فإذا أراد سبحانه استبدال الكفّار بمخلوقات أخرى لا تكفر ولا تفعل السوء، فالمانع لحصول هذا القرار أن يقدر كائن بقدرات إلهية على سبقه تعالى ويفعل شيئاً لا يريده تعالى، فيمنع التبديل ويمنع خلق الكائنات المطيعة، وهذا مستحيل لا يمكن أن يحصل، فلا أحد ولا سبب ولا مانع يمكنه منع حصول ما يريده عزّ وجلّ.

وهذه المشارق والمغارب التي تحصل بشكل متكرر يومياً، تحصل لأنه تعالى صمّمها ولا يمكن لأي قوّة منع حصول ظاهرتي المشارق والمغارب لأنها من مستوى ربوبية إلهية، فكذلك قرار تبديل الكفّار وخلق من هو أفضل منهم، فلو اتخذه الإله سبحانه، لكان حصل حتماً.

من الآية التالية سترى أن الآيات هنا تشير للكفّار حتى يعرفوا حجمهم الصغير أمام الإله العظيم الذي وعد بتعذيب من يكفر به، فيمكنه سبحانه فعل أي شيء بهم، حتى أنه يمكنه أن يبدّلهم، فيميتهم ويخلق غيرهم، فمسألتهم مسألة قرار بسيط ينهي وجودهم لو أراد تعالى ذلك.

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ{42})
{فَذَرْهُمْ}، لا تهتمّ بهم واتركهم، {يَخُوضُوا}، يشاركوا بشكل فعّال في أحاديث الكفر وإنكار عذاب الآخرة، هم يدخلون في هذه الأحاديث ويجادلون ويطرحون آراءهم وإشكالاتهم وليسوا مراقبين من بعيد. قارنها من نظرة على مجتمع كفّار، بعضهم في أشغاله وحياته بعيداً عن الجدل الديني، وبعضهم مستمع، وبعضهم من الخائضين فيه محاورةً وجدلاً ونقاشاً...

ذرهم، {يَلْعَبُوا}، يقوموا بأمور تسرّهم وتفرحهم وليست جديّة، ما يبدو من جديّة من حواراتهم ونقاشاتهم وأسئلتهم وإشكالاتهم... أثناء خوضهم في الكلام الديني، فهو في عمقه لعب، لأن الحق في دينه تعالى واضح ما معنى كفرهم به أو ببعضه ودخولهم في كلام فيه؟ هل الكلام الإلهي عن الآخرة لعبة ليتسلّوا بها؟ اتركهم ولا تهتم، {حَتَّى يُلَاقُوا}، حتى يتواجهوا مع، {يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ}، هناك زمن قال تعالى لهم أنه سيأتي، والكلام هنا عن موعد لإعادتهم إلى الحياة ومحاسبتهم، وهو نفسه اليوم الذي يخوضون في الكلام فيه لعباً، اتركهم يتحدثون عنه وكأنه لعبة يتسلون بها... حتى يتواجهوا مع نفس اليوم الذي يكفرون به.

قرار تركهم أحياء وهم كفرة ليس لأنه تعالى غير قادر على فعل شيء معهم، وأمره تعالى لك بتبليغهم الدين... واستهتارهم به واستهتارهم بالتهديد لمن كفر... فهذا لا يعبّر عن قوتهم، ولا عن قوة يستندون إليها، هم مخلوقات كان قرار خلقهم بيده تعالى، ولا يزال قرار بقائهم أحياء بيده تعالى، ويمكنه تعالى الآن أن يبدّلهم ويأتي بغيرهم، من بعد إنذارهم اتركهم أيها الرسول(ع) ولا تهتم بما يفعلونه، هناك يوم سيلاقونه تعالى، وسيكون يوم محاسبتهم وتعذيبهم.

(يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ{43})
{يَوْمَ}، الزمن الذي سيلاقونه، {يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ}، يخرجون من الأماكن التي ارتمت فيها جثّتهم الميتة، من قبورهم أو على وجه الأرض أو... فأي مكان كانت فيه جثّتهم، فسيخرجون منها إلى الحياة، {سِرَاعاً}، يقومون من الموت بسرعة، هنا في الدنيا يكون وصول الدور إلينا لنخرج إلى الحياة، يكون عبر تلقيح البويضة بنطفة، ومرور أشهر على تكويننا، وبعدها مرور سنوات لاكتمال قوانا... أمّا هناك في الآخرة ففوراً نرجع إلى الحياة بوعي وجسد كاملين.

يخرجون من أماكن جثثهم سراعاً، {كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ}، مثل لو أنهم إلى شيء محدّد له رمزية معنوية، {يُوفِضُونَ}، يتم تجميعهم مع بعض، هنا في الدنيا ولأسباب مختلفة تحصل تجمعات لبعض الناس، في ساحة أو في الشوارع أو أماكن للعبادة أو مسارح... تُصوِّر الآية هنا حالة استعادتهم لحياتهم وتوجّههم نحو شيء، نحو نقاط تجمّعهم لحشرهم زمراً.

كلمة يوفضون لم ترد إلا هنا في القرآن، ومعناها الشيء، المكان، الجعبة... التي تجمع فيها الأشياء، فإذا مشت الأشياء لوحدها إلى مكان يحيطها، فهي توفض إلى المكان، وتصوّر الآية المشهد، أن الكفّار لهم مكان في يوم القيامة لتجميعهم فيه مع بعض، يصير وصف المكان "وفضة" وحركتهم باتجاهه وصفها "يوفضون"، والمؤمنون بكرامة تسير بهم الملائكة إلى مكان تجميع المؤمنين لوحدهم بعيداً عن الكافرين.

تعبير الآية يشير إلى كونهم فاقدين للحرية ويتم تحريكهم غصباً عنهم إلى مكان، وهذا ما يحصل مع الكفّار الذين يتم تجميعهم في الآخرة بالقوة لجهة النار.

(خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ{44}
{خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ}، قدرتهم على وعي وفهم صورة يوم القيامة تعبّر عن ضعفهم وفقدانهم القدرة على فعل أي شيء هناك للخلاص من العذاب، عبّر القرآن عن تعابير خشوع مختلفة في يوم القيامة، من خشوع البصر والصوت والجوارح... كلها تعبّر عن موقفهم الضعيف هناك حيث لا قدرة لهم على فعل أي شيء للخلاص من العقاب، وفي المقابل نجد في عموم القرآن كلاماً عن الذين تتلقاهم الملائكة(ع) بالبشرى، راجع كمثال الآية 103 من سورة الأنبياء {لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ}.

{تَرْهَقُهُمْ}، تصيبهم حالة سيئة متعبة من، {ذِلَّةٌ}، من الانقياد وفقدان الحرية، الذلة، وهي الانقياد لغيرهم وفقدان الحرية يسبب لهم الرهق، أي يسبب لهم الحالة السيئة من تعب. وما ورد من كلمة رهق في القرآن يناسبه معنى الحالة السيئة من تعب.

{ذَلِكَ الْيَوْمُ}، تلك هي الفترة الزمنية، {الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ}، التي كان يقول تعالى لهم عنها أنه سيجعلها تحصل وها هي حصلت.

تذكّر بداية السورة عن السائل عن العذاب، ونكرانه لحصوله، وها هي السورة اختتمت كلامها بإخباره بما سيحصل معه حين يصير في اليوم الذي سيتحاسب فيه، ومن بعده العذاب.

سورة نوح (71) ص 570

افترضت السورة معرفتك ببقاء النبي نوح(ع) قرابة الألف سنة يدعو قومه، وخلالها بدأ بأمر إلهي بصنع السفينة التي سينجو فيها من آمن، وخلال ذلك لم يترك (ع) طريقةً يعرفها حتى يؤمن قومه، ولم يؤمن معه إلا قليلٌ، ومن هذه المعلومات بدأت السورة بعرض ما قاله النبي نوح(ع) لقومه، وهو نفسه الكلام موجَّهٌ لكل من يسمعه عبر هذا القرآن، وترى فيه الحقّ والعقلانية، في مقابل اختراعهم لآلهتهم وشريعةٍ من هواهم السيّء... وترى عرضاً مغرياً بالمغفرة وبركات دنيوية عليهم إن آمنوا، وترى إنذاراً عنيفاً إن استمروا على كفرهم... ولم ينفع كل ذلك معهم.

لا تقرأ السورة على أساس أنها قصّة النبي نوح(ع) مع قومه، لا، فالسورة ركّزت على نموذج علينا الاستفادة منه كلنا كمجتمع، وهذا من الفروقات الجوهرية بين عرض إلهي لرؤية الأمور، وبين عرض البشر والذي ترى نموذجه في التوراة حيث الأقصوصة مع التفاصيل التي نراها تهمّنا... بينما القرآن مختلف وبعيد عن الأسلوب البشري في التعاطي مع التاريخ...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{1})
{إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ}، حمّلناه كلاماً إلى الناس الذين لهم كيان الجماعة وهو (ع) ينتمي لجماعتهم، {أَنْ أَنذِرْ}، قُم بتوصيل الخبر عن شيء سيّئٍ أكيد سيصيب من توافرت فيهم شروط حصوله، أنذر، {قَوْمَكَ}، الناس الذين تنتمي لجماعتهم وأنت متفاعل معهم، أنذرهم، {مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، ضرر لا يمكنهم تحمّله ولا ردّه...

سترى من بقية السورة أن الكلام عن الإنذار عمومي من عذاب في الدنيا وعذاب في الآخرة، ليس عن احتمال نزول عذاب في الدنيا بل عن حتمية حصول عذاب في الدنيا، كما ستلاحظ في بقية السورة أن القوم كانوا في حالة استحقاق حتمي لعذاب في الدنيا، وعذاب حتمي في الآخرة... لذا جاءهم الرسول...

بالنسبة لما تجده في كتب المسلمين عن أجداد النبي نوح(ع) وصولاً إلى آدم(ع)، فهو كلام منقول من التوراة وبعض كتب اليهود والمسيحيين، حيث عمل بعض المسلمين من الجيل الأول والثاني وما بعدهم، عملوا على ملء الفراغ التاريخي عندنا من تراث أهل الكتاب، ولم يشيروا إلى مصدر معلوماتهم، ولذلك ظنّ من جاء بعدهم أنها معلومات منقولة عن الرسول(ع) مباشرة عبر الناقلين... وهذا غير صحيح أبداً بتاتاً، ولا علاقة للرسول(ع) به، وبسهولة ترى نقلهم لنسب الأنبياء من التوراة وإلصاقهم به نسب النبي محمّد(ع) من فرع جدّه النبي إسماعيل(ع)...

غالب الظنّ أنها معلومات غير دقيقة نظراً للمعلومات الأخرى الكثيرة غير الدقيقة التي نجدها في التوراة وعموم كتب أهل الكتاب، ونفس السبب الذي يجعل رواياتنا عن الرسول(ع) بغالبيتها مهترئة متضاربة ناقصة كاذبة... هو نفسه السبب الذي نتج عنه المعلومات الزائفة في كتب أهل الكتاب، لذلك لا يمكن الاعتماد عليها.

شجرة نسب الرسول محمّد(ع) التي تمرّ بالنبي إبراهيم(ع) مروراً بالنبي نوح(ع) ووصولاً إلى آدم(ع) هي كلام لا دليل عليه بتاتاً، والأكيد منها فقط القليل من الأسماء، من الأجداد الأقدمين إسماعيل وإبراهيم ونوح، ومن أجداده الأقربين أبوه وجدّه وأبو جدّه(ع)، وأمّا بقية السلسلة مع الأسماء فمن المؤكّد فساد صحة غالبية أسمائها، ولا ندري إن كانت بعيدة كثيراً عن الواقع، لذا لا يغرّك الكلام عن أشخاص متخصصين بالأنساب "نسّابة" لأنه بالتدقيق التاريخي مع الوثائق القليلة سترى أنَّ أكثر كلامهم فارغ وعن تخمين واختراع...

على كل حال من عموم القرآن ومن التراث الديني تعلم أن بيننا وبين النبي نوح(ع) آلافاً من السنين، وفي الروايات كلام متضارب عن مكانه وزمانه(ع)، ولا يمكن الخروج منها بنتيجة لشدّة اختلافها وضعفها وركاكتها، والإشارات القرآنية لتحديد زمانه ومكانه (ع) متعلقة بتحديد مكان حصول طوفان، ومتعلقة بعبادة الأصنام التي تذكرها السورة هنا بأسمائها، وبالسفينة التي حملت المؤمنين... وحالياً لم يبق أي شيء من هذه الأمور، وربما في المستقبل نصل لأثر ما.

لو قرأت سورتنا هذه مبعداً عن فكرك مسألة تحديد مكان وزمان النبي نوح(ع)، وعن إيجاد سفينته، وتمعّنت ما فيها من دلائل وكلام منطقي عقلاني عن سلوكيات المجتمع، لاستغنيت عن فكرة مطابقة ما ورد في القرآن مع آثار تاريخية، ففي بعض الأحيان نفقد التركيز على المهمّ ونلهث خلف الفضلات أو التفاهات، على أساس حبّ الفضول لإيجاد

السفينة، ولتحديد تاريخ الطوفان... هذا على أساس أننا متدينون وهذه الأمور مجرد فضول، ولكن غرقنا في الفضول يُوصلنا إلى ترك جوهر هدف القرآن من ذكر حادثة الطوفان، ويُوصل الآخرين إلى الشكّ بصحّة الدين الإلهي إذا لم نجد السفينة! وهذه مشكلة علينا تجنّبها وتجنّب المشاركة فيها، سواء وجدنا السفينة أم لم نجدها فما الفرق؟ لأن الذين كانوا أثناء بنائها لم يؤمنوا حتى عندما بدأ الطوفان! والأجيال من بعد الطوفان لمسوا آثاره وشاهدوا السفينة التي نجا فيها فقط المؤمنون... ولم يؤمنوا! كيف ستكون السفينة آية تسبّب الإيمان لمن كفر إذا كانت وعبر تاريخ وجودها "وطوفان معها" لم تسبّب الإيمان للكافرين!

مسألة إيجاد السفينة في ذهنية أكثر الناس مثل انتظار المهدي، هل ستصير مؤمناً نقياً تقياً ورعاً إن ظهر؟! الآن أنت مكلّف بالإيمان وعمل الصالحات، ولن يتغيّر فيك أي شيء إن ظهر المهدي، ستبقى كما أنت... والأنكى من ذلك كلام الناس عن العدالة وأخذ حقوقهم والرفاهية بعد ظهور المهدي، على أساس أنهم هم قدّموا له تعالى كامل حقوقه الإلهية عليهم، ولا حقوق للناس عندهم؟! وعند ظهور المهدي سيعطيهم حقّهم ويبين قدرهم ومكانتهم العالية! والباحثون عن السفينة حالهم مشابه، هل سيزدادون إيماناً؟ أم سيصير عندهم يقين بكلام القرآن والكتب السابقة ويتأكدون أنها من مصدر إلهي؟ لا، الآية هي شيء مميز، فقط وفقط، والسفينة آية، ولكنها لا تسبّب زيادة الإيمان، وأصلاً لا تسبّب الإيمان إلا لمن كان لديه بذرة إيمان، نيّة الإيمان، وما حجم آية السفينة أمام ما تعرضه السورة وعموم القرآن عن لفت انتباهك للآيات من حولك؟ من سماوات وأرض وظواهر طبيعية... من لم تكفه هذه الآيات ليؤمن، فلن يؤمن إن رأى السفينة وركب فيها، دعك من هذا الموضوع وليكن التركيز على الكلام الإلهي ليصلح حالنا.

بقي شيء عن قراءة السور القرآنية أو بعض فقراتها من خلفية قراءة التاريخ لا من خلفية الاهتداء، قراءة سورتنا هذه على أساس أنها تنقل لنا شيئاً حدث في التاريخ، هي ما يسبّب فقدان الجوهر والتلهي بموضوع البحث عن السفينة وزمن الطوفان، إن كنت ترى نفسك مؤمناً والسورة لا تتحدّث معك، ولا عنك، ولا عن قومك، فالسورة تتحدّث عن نموذج مجتمع فاسد وليست تؤرّخ لقوم النبي نوح(ع)، ومن آمن فاستمراره على خطّ الإيمان يحتاج لتذكيره بنماذج، ومن كفر فالسورة تتوجّه له بنموذج ليتّعظ منه، وإذا لم يتّعظ فهي حجّة عليه، وذنبه على جنبه.

(قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ{2})
{قَالَ}، الرسول نوح(ع): {يَا قَوْمِ}، يا أيها الناس الذين أنتمي لجماعتهم، {إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ}، أحمل لكم خبراً عن شيء سيّئٍ قادم حتماً بسبب توافر شروط حصوله فيكم، {مُّبِينٌ}، بشكل واضح، أُنذركم بشكل واضح.

كما قرأت في المقدمة وستراه في بقية السورة فإن الإنذار كان من عذاب جماعي سينزل بهم هنا في الدنيا، ضَعْ في بالك ما هو منتشر في مختلف سور القرآن ومشهور بين الناس، أنَّ القرار الإلهي بتعذيبهم اتُّخِذَ "إن لم يؤمنوا"، وبدأ النبي نوح(ع) بصنع السفينة التي استغرق بناؤها سنينَ طويلة جداً، والرسول(ع) يخبرهم عن طوفان قادم حتماً ليُبِيدهم إن لم يؤمنوا، وأنه لأجل ذلك يبني هذه السفينة بأمر من الإله سبحانه... والسورة افترضت علمك بهذا بسبب شهرة القصّة بين الناس، وركّزت على ما قام به النبي نوح(ع) من جهد لتخليص قومه من العذاب، وركّزت على إصرارهم على كفرهم وأنهم لم يتراجعوا عنه ولو لشعرة.

(أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ{3})
{أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ}، من المفروض منكم طاعة صاحب هذا الاسم المحدد المميز فتصرّفوا على هذا الأساس، ونفّذوا أوامره تعالى.

كلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك. وما تعارفنا عليه بتسمية العبادة من صلاة ومناجاة... هو من تطبيقات العبادة وليست حصرية فيها لأنها شاملة لكل ما تطيعه به تعالى.

سترى من بقية السورة أنهم كانوا يعبدون بعض الأصنام، يتصرفون على أساس أن الأصنام آلهة وأنهم عبيد لها... {وَاتَّقُوهُ}، تجنّبوا غضبه وعقابه، فلا تفعلوا ما لا يرضى عنه، وعملياً يعني أنكم إن عصيتموه فسيغضب عليكم سبحانه ويعاقبكم.

{وَأَطِيعُونِ}، أطيعوني واسمعوا كلامي ونفّذوا ما أقوله. طبعاً على أساس الرسالة التي يحملها(ع) ليطيعوه فيما ينقله لهم من أوامر إلهية ولا يقصد أن يطيعوه هو بما يريده هو شخصياً بل يطيعوه بما هو مرسل به.

كما ترى فإن الرسول(ع) يتكلّم معهم على أساس أن العذاب الدنيوي سينزل حتماً إن لم يطيعوه(ع).

(يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ{4})
إذا عبدتموه تعالى واتقيتم وأطعتموني فيما أنقله لكم عنه سبحانه:

{يَغْفِرْ}، الله تعالى، {لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ}، مخالفتكم لأوامره تعالى سيتجاوز عنها، {وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى}، الآن أنتم في حالة تستوجب نزول عقاب هنا في الدنيا عليكم، ولكن إن فعلتم ما قلته لكم فسيتم تأخير أجلكم، تأخير الموعد الذي ينتهي فيه الوقت، وهنا المقصود تأخير موعد محاسبتكم على ذنوبكم، {إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى}، محدّد معلوم عنده تعالى.

بدل محاسبتكم الآن على ذنوبكم ونزول عذاب الآن عليكم، فإن آمنتم سيتأخر حسابكم إلى أجل مسمّى، وهو يوم القيامة، مما يعني بوجود أمل لكم أثناء ذلك حتى تعملوا بتقواه تعالى فيما بقي من حياتكم.

{إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ}، إنَّ الزمن لانتهاء الأشياء والمنسوب لله تعالى، الأجل الذي يحدّده تعالى، {إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ}، سيحصل في وقته بالتمام من دون أي تأخير، {لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}، وتكملة الجملة تعرفها بالبداهة: لو كنتم تعلمون أن أجله تعالى سيأتي في حينه بالضبط.

ها صرتم تعرفون من كلامي أن أجله تعالى لا يؤخّر ولا بأي شكل، ولكن هذه المعرفة لم تصر علماً عندكم، فبقيت مجرد كلام سمعتموه ولم تصر معلومة مقبولة تعتقدون بصحَّتها.

لاحظ أن المفسرين تكلموا طويلاً في معاني الأجل والأجل المسمى، افترضوا أن الأجل حصراً معناه الموت، وتكلّموا طويلاً عن تبرير الأجل وتأخيره وكيف يتأخّر إذا كان مسمّى... ولكن في عموم القرآن تجد كلمة الأجل عامّة المعنى لأي شيء له نهاية محدّدة، سواء موعد نهايتنا بالموت، أو موعد محاسبتنا أو موعد ردّ الدين المالي... وهنا الأجل يشير إلى نهاية زمن تركهم على كفرهم، ومحاسبتهم ومجازاتهم، وعلى هذا الأساس تجد المعنى بسيطاً ومفهوماً.

تصير الجملة بتعبير أبسط هكذا: الآن أجلكم محدّد، مثلاً الآن معاقبتكم هنا في الدنيا على ذنوبكم مقررة بطوفان سيحدث بتاريخ حدّده تعالى، إذا لم تؤمنوا، وها أعرض عليكم فرصة تأخير محاسبتكم على ذنوبكم، ولكن اعلموا أنكم إن لم تؤمنوا وجاء الأجل الإلهي، أي جاء انتهاء مدّة ترك محاسبتكم، فلن يتأخّر حصوله، حتماً سيحصل.

حين قالت الآية أنه تعالى يغفر لهم "من" ذنوبهم إن آمنوا... ولم تقل يغفر لهم "كلّ" ذنوبهم إن آمنوا، ذلك لأن تعابير القرآن دقيقة جداً، ما في بالنا من مغفرة كل ذنوب الذي انتقل من الكفر إلى الإيمان، هو كلام غير دقيق، المغفورة هي الذنوب التي تاب عنها فقط، كذنب الشرك وذنب إنكار الآخرة... وأمّا حقوق وأموال الناس التي استمرّ في أكلها بعد تركه الكفر، ولم يردّ للناس حقوقهم بعد أن آمن، فكيف سيغفره تعالى له؟ ما تقوله الآية هو الدقّة القرآنية: يغفر لكم ذنوبكم التي تبتم منها وأصلحتم ما يمكن إصلاحه من نتائجها. هذا هو المضمون لكم غفرانه إن أعلنتم إيمانكم.

ننتبه أكثر، محور كلام النبي نوح(ع) هنا عن خطر حصول عذاب في الدنيا وعذاب حتمي آخر في الآخرة، فإن آمنوا واتقوا و... فخطر نزول عذاب في الدنيا يرتفع عنهم، ويبقى خطر محاسبتهم على ذنوبهم التي لم يتوبوا منها أو ارتكبوها من بعدما آمنوا، هذا الخطر يبقى موجوداً، وهذا شيء عامّ يشمل كل الناس.

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً{5})

{قَالَ}، النبي نوح(ع): {رَبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي}، أشهرت وأعلنت للناس الذين أنتمي لجماعتهم، {لَيْلًا وَنَهَارًا}، أستغلّ أي فرصة متاحة للحديث مع أي واحد منهم لدعوتهم للإيمان.

من الواضح أن دعوته(ع) ملخصها الكلام الذي في الآيات السابقة من دعوتهم لعبادته تعالى وتقواه... للنجاة من عذابي الدنيا والآخرة.

أمّا توجهه (ع) إلى ربّه تعالى بهذا الكلام فهو بناء على إرساله لهم لينذرهم من العذاب الدنيوي الذي سيحصل، وربما ترى الكلام معه تعالى كتحصيل حاصل لأنه سبحانه يعلم كلّ شيء، ولكن اقرأها وتذكّر أنه (ع) توظّف بنقل الرسالة الإلهية للناس، وبدأ بعمله، وبعد سنين طويلة لم يؤمن منهم إلا القليل، فأخبره تعالى بطوفان مبيد سيحصل وأمره ببناء سفينة... وهنا يبدو أن بناء السفينة انتهى، وبانتهاء بنائها سيبدأ الطوفان، وها يقدّم النبي(ع) هذا التقرير عن حاله وما جرى معه كشكوى لهمّه إلى الله تعالى.

(فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً{6})
{فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي}، هم كانوا في حالة سابقة وهي الكفر، ودعائي لهم، إعلاني وإشهاري لهم للانضمام إلى الدين الإلهي، بدل أن تقرّبهم إلى الإيمان زادتهم دعوتي لهم، {فِرَارًا}، ابتعاداً إلى أي وجهة كانت مع كره لما أقوله لهم، فزادوا ابتعاداً عن الإيمان!

{وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا}

{وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ}، كلما أعلنت وأشهرت لهم أن يؤمنوا حتى تتجاوز عن ذنوبهم، وبالتالي لترفع "التلغي" قرار تعذيبهم في الدنيا، {جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ}، وهي حركة منهم تعني أنهم لا يريدون سماع كلامي فيسدون آذانهم بأصابعهم! {وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ}، حرّكوا الثوب الذي عليهم ليحيط بوجههم كلياً أو جزئياً عندما ألاقيهم كإشارة منهم أنهم لا رغبة لهم بالحديث معي على أساس أنهم لم يروني! لأن الثوب حجبهم عنّي!

الكلام عن نماذج تبيّن أنهم لم يعودوا يخجلون منّي وصار تجنبّهم لي علنياً وبفجاجة...

{وَأَصَرُّوا}، مهما قلت لهم من كلام منطقي وحجج وأدلّة فهم لديهم قرار بألّا يتغيّروا، {وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا}، رأوا أنفسهم أكبر من الإيمان خوفاً من العقاب، بعض الأحيان يستكبر الإنسان ولكن يبقى عنده بعض المرونة، أمّا قومه(ع) فقد استكبروا بأقصى درجات الاستكبار، فلم يقبلوا ولا بأي شيء قاله لهم (ع) عن الدين وعن العذاب... رأوا أنفسهم أكبر من الإيمان بكلامه.

تصوّرها مثل نقل تهديد لك من شخص ما، وأنت تشعر بأنك كبير جداً، وأكبر ممن يهدّدك بكثير، فلا تهتمّ نهائياً بالتهديد، وهنا الكلام نفس الشيء، كلّما سمعوا التهديد بتعذيبهم استكبروا، رأوا أنفسهم أكبر من التهديد وأكبر من أن يرضخوا لتهديد...

(ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً{8})
{ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ}، أشهرت وأعلنت لهم، {جِهَاراً}، نقلت لهم كل ما أعرفه بشكل صريح وواضح وبدون أي مواربة.

عادة يذهب فكرنا من كلمة "جهر" إلى الكلام أمام العموم، ولكن استعمال العرب لها وفي القرآن يشير إلى الابتعاد عن المواربة، بشكل مباشر وصريح أخبرهم بدينه تعالى وبالمخالفات التي يقومون بها، سفّه عبادتهم للأصنام بشكل واضح وصريح، وعارض شريعتهم السيئة بشكل واضح وصريح...

(ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً{9})
{ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ}، وجّهت كلامي لمن يهمّه الأمر أمام الجميع، فلم تكن دعوتي سريّة لأشخاص محدّدين، {وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً}، فاجتمعت بشكل منفرد مع شخص أو بعض الأشخاص، وتحدّثت معهم بشكل منفرد من دون أن يسمعنا الآخرون وأخبرتهم عن دينه تعالى وعن العذاب...

بالتحليل نفهم أنه (ع) فكّر أن بعضهم ربما بالسرّ سيعترفون أمامه أن كلامه حق، ويؤمنون ولو بالسرّ حتى لا يكون موقفهم محرِجاً أمام بقية الكفّار... ويخافون من العذاب... ولكن حتى هذا لم ينفع معهم!

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً{10})
جهاراً وإعلاناً وإسراراً، قلت:

{اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ}، اطلبوا من المسؤول عنكم من مستوى إلهي أن يتجاوز عن سيئاتكم، {إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً}، يغفر بكثرة، سبحانه ليس صلباً قاسياً يأخذ موقفاً حاداً، بل من تراجع عن الخطأ فسيجده تعالى يقبل تراجعه ولا يحاسبه مهما كانت ذنوبه.

أنتم الآن في حالة ارتكاب لمعاصٍ تجعلكم تستحقون نزول العذاب عليكم، والحلّ الوحيد بالاستغفار من سيئاتكم، ونتيجة الاستغفار مضمونة لأنه تعالى غفّار.

بعض الناس لا يغفرون ولا بأي شكل لمن أخطأ معهم ولو لمرّة، وبعض الناس يغفرون لمن أخطأ معهم مرّة، وأمّا من أخطأ كثيراً معهم فلا يغفرون له مهما فعل أو قال، سواء تاب أو ندم... فيعاقبونه حين يستطيعون، أمّا هو تعالى فغفّارٌ، فمهما كثرت معاصيك له، ومهما كان حجمها، يغفرها لك ولا يعاقبك عليها إن تبت فعلاً منها وندمت عليها.

(يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً{11})
مضافاً لنجاتكم من العذاب بالاستغفار، ستحصلون منه تعالى على ما يحصل عليه أي قوم استغفروا، فينتج من غفران ذنوبكم ما يلي:

{يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً}، سبحانه يجعل ما فوقكم يدرّ بالماء، كمخزن لا ينقطع منه المطر، فلا تمر مواسم جفاف عليكم بل ينزل الماء بين وقت وآخر "بما يناسب طبيعة الأرض بلا أضرار". كما نقول درّة البقرة الحلوب، تدرّ "اللبن" الحليب، فهذا لا يعني أن المحلوب يخرج منها باستمرار بلا توقّف، بل يتجمّع ويخرج في وقته المناسب.

انتبه إن كنت من سكّان المدن ولم تشعر بأهمية المياه لأنها متوافرة دائماً في الحنفية "الصنبور"، فأهمية المياه في حياتك أكبر بكثير مما تتصوّر، وأهمية نزول الماء عامل مهمّ جداً جداً في توفير المياه الحلوة للبشرية، للشرب ولريّ المزروعات، وشرب الماشية والدواجن، والنظافة... فحين تنقطع المياه نعي أهمية تساقط الأمطار...

ضع في بالك دائماً العديد من تصريحات وتلميحات القرآن عن تغيّر حال المجتمع إن شاع فيه الاستغفار، بشكل واضح يخبرنا القرآن أن بركات السماء تنزل على المجتمع الذي يستغفر كما ورد في الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}...، فيتدخل سبحانه مانعاً للكوارث وجاعلاً الطبيعة وديعة مثلما تصف الآية هنا والتالية.

(وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً{12})
من آثار الاستغفار أيضاً:

{وَيُمْدِدْكُم}، فلا يقطع عنكم بل يستمر في إعطائكم، {بِأَمْوَالٍ}، بعموم ما له قيمة مالية سواء النقدية أو الأملاك... {وَبَنِينَ}، يمدكم بالأولاد، {وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها من حدائق وبساتين تسبّب البهجة، {وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً}، تجري المياه الضرورية لكم للشرب ولري النباتات بقربكم وفي جنّاتكم وتضيف لمسة جمالية على حياتكم.

لاحظ العرض الذي يقدّمه لهم النبي نوح(ع) من تحوّل الحال من التهديد بالتعذيب في الدنيا إلى النعيم في الدنيا إن استغفروا.

(مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً{13})

{مَّا لَكُمْ}، كما نقول بالعامية: شو بكم؟ اشمالكم؟ {لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ} تعالى {وَقَاراً}؟ فمن المفروض أن توقروه تعالى فتتصرفوا على أن له ثقلاً ووزناً معنوياً، فتتصرفوا معه تعالى باحترام وانتباه لمكانته وألوهيته وربوبيته ولعظمته... ولكنكم أصلاً لا ترجون فلا ترغبون في هذه الحقيقة أن تكون موجودة؟!

بعبارة أوسع، هم لديهم آلهة يوقّرونها ولا يناسبهم أن تكون آلهتهم وهمية والوقار الحقيقي لله تعالى، فهم لا يرجون له تعالى وقاراً، فلا يريدون أن يكون ذلك صحيحاً، علماً أن الوقار، أي التصرّف بقيمة عالية له تعالى فهو الصحيح!

بقي شيء، اشتق المسلمون من التعبير هنا ومن تعبير ورد في الآية 9 من سورة الفتح {لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} أنه تعالى له صفة: الوقور. وهي صفة لم ترد بهذا الشكل الصريح في القرآن، بل هي اشتقاق، ويمكن اشتقاق صفات أخرى على نفس الطريقة ولكنهم لم يستنسبوا اشتقاقها، كالغضوب والكاره والمعذّب... وليست المشكلة هنا، بل عندما يتكلمون عن لائحة الصفات والأسماء التي استنسبوها، والدارجة بلائحة التسعة والتسعين اسماً، فالمشكلة عندما يقولون أنها توقيفية! ففي الكثير من الكتب الإسلامية تجد طريقة صلبة حادّة جافة قاسية في الكثير من المواضيع، وهذه الطريقة تسبّب تحجّر الفكر، وتبعدك عن التفكير السليم، فالتوقيفية أو الوقفية تعني الوقوف عندها كما هي بدون تغييرها، والسبب أن لها مصدراً أساسياً حدّدها، من القرآن أو حديث عن الرسول(ع) أو عن الصحابة... وقد استعملوا هذه العبارة "توقيفية" بكثرة، ومفهوم هذه العبارة مستعمل بكثرة في الكثير من المواضيع، ككلامهم عن شخص اسمه بسر بن أرطأة، وهو مجرم في رقبته الكثير من أبرياء المسلمين وأعراضهم وأموالهم، فنقلوا له حديثاً عن الرسول(ع) في حرمة حدّ السارق إذا كان مسافراً! فإذا سرق أثناء السفر فلا يتم قطع يد السارق! وبسر هذا كان طفلاً حين مات النبي(ع)، فجعلوه ملحقاً بالصحابة على قاعدة: كل من رأى النبي(ع) فهو صحابي، وله حرمة الصحابة العظام "المعصومين"... فرغم إجرام بسر، صار لزاماً عليك احترامه، والاعتقاد بهالة قدسية صحبته، وكما يقولون فإن أصاب فله أجران من الله تعالى وإن أخطأ فله أجر!

أطلت عليك لترى هذه العقلية العصبية المتحجّرة التي يريدونك منها أن ترى شرار قومك خيراً من خيار قوم آخرين، على قاعدة فكرية وعقلية ونفسية مشابهة تماماً لتوقيفية صفاته وأسمائه تعالى، وقد صار الكثيرون ممّن يسمونهم بالعلماء كالعصابة المتفقة فيما بينها على نهج ما، ويدفعونك خارجها، بل يتهمونك بالكفر إن صحّحت كلامهم! فمن ناحية اللغة والعقيدة، لا يبدو وجود مشكلة في توصيفه تعالى بالوقور، ولكنها لم ترد في القرآن ولا في حديث "صحيح" عن النبي(ع)، واشتقاقها من القرآن يسمح لنا باشتقاق صفات أخرى، والبعض من تلك الصفات الاشتقاقية لا يتماشى مع هيبته عزّ وجلّ، كغضوب، ومكّار وكايد... فهي كلمات ثقيلة المعنى ولا نستحسن وصفه عزّ وجلّ بها، ولكن من حيث الاشتقاق فهي صحيحة ككلمة وقور.

(وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً{14})
{وَقَدْ خَلَقَكُمْ}، ركّبكم ألّفكم الله تعالى، {أَطْوَاراً}، طوراً بعد طور، مرحلة تتبعها مرحلة أخرى، من نطفة فعلقةٍ فمضغةٍ... فجنينٍ فطفلٍ فولدٍ فشابٍّ... وقبل ذلك من سلالة من طين.

أنتم لم تخرجوا إلى الحياة بكيان كامل فجأةً بل تركّبتم وتألّفتم طوراً بعد طور، مرحلة تليها مرحلة متغيّرة أخرى، فمن البديهي أن قدرة عظيمة فائقة قد خلقتكم، فكيف لا توقّرون خالقكم؟ فكيف لا ترغبون أن يكون فعلاً لخالقكم الحقيقي ثقلٌ معنويٌّ ويجب الاعتراف به والتعامل معه تعالى على أساسه؟

أنت تعلم أنهم كانوا مشركين وستأتيك في السورة بعض أسماء آلهتهم، فإن كانت آلهتهم خلقتهم، وهي آلهة عمرها ليس طويلاً فهي لم تكن معبودة من قبل ولم تكن معروفة من قبل، فمن خلق الذين لم يعرفوا أصلاً بتلك الآلهة؟ فمن البديهي وجود إله وحده الخالق لكل الناس، وسترى مزيداً من الكلام عن ذلك في الآية التالية.

صارت الجملة السابقة أوضح، كما لو قلت لشخص لا يؤمن بنبوة النبي محمّد(ع): النبي محمّد(ع) تحمّل جهداً كبيراً وأذيةً ومشقةً في نشر هذا الدين، فله فضل علينا، ويجب أن نقدّر له عمله ونحترمه... فإذا قدّره واحترمه فهذا سيعني أنه آمن برسالته وقيمة عمله. ولكنه إن كان لا يزال رافضاً لرسالته(ع)، فلن يقدّر ما فعله(ع)، وفوق ذلك، فمن داخله لا يريد ولا بأي شكل، لا الإيمان بالنبي(ع) ولا حتّى التعبير عن تقدير أعمال النبي(ع)، فلا يرجو أساساً أن يكون

النبي(ع) فعلاً قد قام بعمل جيّدٍ. هنا الآيات تقول لهم: الله تعالى خلقكم، فعلى الأقل يجب أن تقدّروا له ذلك، ولكنكم أصلاً لا ترجون أن يكون فعلاً هو خالقكم، لأنكم تعلنون عن آلهة أخرى أنها خلقتكم.

نعيد صياغة ما سبق مع لمسة مختلفة، قديماً استطاع إبليس تحفيز البلاهة والسخافة عند البشر حتى عبدوا الحجر، وكثيراً ما استصعب المشركون التخلّص من فكرة وجود إله كبير مع آلهتهم المتعدّدة، ومن بعدها صاروا مهملين للإله الكبير ومتعلقين بآلهتهم الصغيرة الخاصّة بهم... وهكذا تجد بشكل ما تداخلاً بين صفاته تعالى وصفات إلههم الكبير، وأحياناً قد يسمّون إلههم الكبير بالاسم الذي يتداوله الأنبياء عنه سبحانه، فمشركو العرب كانوا مؤمنين بالله تعالى إلهاً، ومعه آلهة أخرى، ومشركو اليونان والرومان كان لإلههم الكبير أسماء أخرى "زوس...".

من العديد من عبارات القرآن المنقولة عن الرسل السابقين من نوح(ع) وهود(ع) وصالح(ع) وإبراهيم(ع)... ترى اسم "الله" تعالى مستعملاً في الحوارات...

الآن ننتقل إلى انتقال إبليس مع اتخاذ البلاهة والسخافة فينا أشكالاً متطوّرة، فلم يعد يحاول إقناعنا بعبادة الحجر، بل أعاد صياغة الفكرة "مثلما قديماً جعلها تدخل في عقول الأذكياء المتفصحنين"، فلنعبد ما يمثّله الحجر! ولنتقرب بهذه العبادة إلى الله تعالى! أو فلنعبد الإنسان القديس لنتقرّب بذلك إليه تعالى...

وصلنا الآن إلى ما قالته الآية 45 من سورة الزمر {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}، والتي لا زالت سارية المفعول مع المسيحيين بشكل فجّ فأي كلام ديني عن الله تعالى بدون ذكر للنبي عيسى(ع) أو أمّه(ع) أو لأحد القديسين فهو كلام منفور منه، واليهود عموماً بشكل أقل مثلهم، والنفور من ذكره تعالى وحده تراه حتى من مسلمين لديهم شخصيات دينية مقدّسة يتقربون بها إليه تعالى!

آيتنا هنا بكلامه (ع) مع قومه أنهم لا يرجون لله تعالى وقاراً، تراها تنطبق على الكثيرين من الذين أدعيتهم المفضّلة تتضمّن ذكر القديسين! وكأنهم لا يرجون له تعالى وقاراً! وكأن حصر العلو والقداسة به تعالى وتنزيل قيمة كل ما عداه شيءٌ معيبٌ؟ أكتفي بهذا المقدار وأترك لك تقدير الحال.

(أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً{15})
ألم تروا، ألم يحصل لديكم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفتوا، ما التفتّوا. كيف خلق الله، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز "الله" كيف ركّب وألّف، {سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً}، مثل طبقات المباني المتناسبة بالانطباق على بعضها، طبقة فوق طبقة، فهي سماء فوقها سماء وبينهما حدّ "أرض".

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائماً أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}... وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراض.

بناء عليه فالكلام عن خلق ما بين السماوات والأرض لا يشير إلى أرضنا بالتحديد، بل لعموم الأراضي التي تقابل السماوات.

من هنا تبدأ السورة بعرض ملخّص وزبدة ما قاله النبي نوح(ع) لقومه حتى يؤمنوا، والبداية في الآية السابقة للفت انتباههم لمن يجب أن يوقّروه لأنهم لم يخلقوا أنفسهم وإلا فما معنى تدرّجهم بالخلقة بأطوار؟ حتماً هناك إله خلقهم، وهنا يخبرهم (ع) عن أن الخلق الإلهي غير محصور بسمائنا، فهناك ست سماوات أخرى.

في سور عديدة من القرآن تجد كلاماً عن سخافة الآلهة التي يخترعها الناس لتكون آلهة خاصّة لهم وبهم، ولا تكون آلهة للآخرين! فهو تخريف ناتج عن قلّة فهم وضيق نظر، وخلقتنا كلنا أطواراً بنفس الطريقة يدلّ على أن نفس الإله قد خلق كل الناس، وهنا الآية تعرض وساعة في الرؤية، فتريدك أن تخرج من الفنجان لترى الوساعة والضخامة، فحتى لو لم ترها بعينك، فخذ علماً بوجودها الذي يدلّ عليها ما أنت فيه، فسخافة اختراع آلهة خاصة لمجتمع صغير، هو نفسه سخافة حصر الدنيا فقط بما نراه بأعيننا، فمن اخترع آلهة ومثّلها بصنم فهو بنفس العقلية اعتبر أن السماء التي يراها هي الوحيدة ولا شيء بعدها، فلا جنّ ولا ملائكة ولا إله واحد بطبيعة مختلفة عن المخلوقات... وهذا الكلام نسمعه من العديدين الذين يعتبرون "فكرة" وجود إله وملائكة، فكرة قديمة غير علمية ولا يمكن اختبارها، ولا التعامل معها، فهي غير موجودة!

عليك بالخروج من الخطأ الشائع عن تطورنا وسذاجة عقلية من سبقنا، غالباً ننظر لقوم بيننا وبينهم آلاف من السنين أنهم تحت مستوانا الفكري بكثير، وهكذا نظر قوم النبي نوح(ع) لمن كان قبلهم، وقوم النبي إبراهيم(ع) لمن كان قبلهم... وقوم النبي محمّد(ع) لمن كان قبلهم... ودرج بيننا النظرة الدونية "فكرياً" لكل من كان قبلنا، ولكن وكما ترى، فرسول وآيات وعذاب نزل... وخلق بأطوار وظواهر وتفاصيل فينا ومن حولنا، وقد اعتبرها المتطورون فكرياً في عصرنا أنها ليست دليلاً على وجود الإله! ويريدون شيئاً يلمسونه ويرونه فيختبرونه... وهذه هي نفس عقلية من اخترع إلهاً يمكن رؤيته ولمسه، ونفس عقلية من حصر إلهه بمجتمعه، ونفس عقلية من حصر الدنيا بما يراه بعينه... فتأتي آيتنا هنا وأشباهها لتخبرنا عن وساعة للدنيا فوق تصوّرنا، فهناك ستّ سماوات غير سمائنا، والملائكة(ع) التي نقلت رسالة الإله عزّ وجل للعديد من البشر، لها سماء خاصّة بها...

نحن لحد الآن نشاهد سماء واحدة من تلك السماوات السبع، وهي التي نسميها الكون، ومن القرآن تعلم أن الجنّ يمكنهم التنقّل في تلك السماوات وصولاً إلى السماء العالية التي تحرسها الملائكة(ع)، ومن القرآن تعلم أننا نحن البشر بدورنا سنصل إلى مرحلة نستطيع فيها اختراق سمائنا والوصل للسماوات الأخرى التي سبقنا الجنّ في الوصول إليها، راجع الآية 33 و 35 من سورة الرحمن {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}... {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ}، وعندما يتحدّث القرآن عن السماوات السبع مع من لم يشاهدها ولم يمرّ فيها، معنا ومع قوم النبي نوح(ع)، فالكلام خبر عن سمائنا التي نعرفها، وعن سماء فيها الملائكة(ع)، ووصول الأنباء من الإله سبحانه إلى النبي نوح(ع) يتم عبر الملائكة(ع) التي تمرّ خلال تلك السماوات لتصل إلى سمائنا.

تصوّر نفسك أمام النبي نوح(ع)، وهو يقول بأن رسالة من الإله وصلته لتبليغها للناس، فأول ما سيخطر ببالك: كيف وبأي وسيلة وصلته(ع) الرسالة الإلهية؟ ومن المفترض أن يشرح(ع) لك، وقبل ذلك من المفترض أن الإله سبحانه قد شرح لرسوله عن طريقة وصول الرسالة... فهنا الآية ليست أول كلام من النبي نوح(ع) إلى قومه، بل سبقه كلام كثير افترض القرآن أنك تعرفه، وافترض أنك صار معك خبر عن نزول الوحي عبر الملائكة(ع) من السماء العالية إلى سمائنا.

(وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً{16})
وجعل، الله تعالى، {الْقَمَرَ}، وهو التابع للأرض الذي نراه كبيرا واضحا في الليل، جعله تعالى، {فِيهِنَّ}، في السماوات، {نُوراً}، فبالنظرة الواسعة للإله سبحانه لكلّ السماوات، يخبرنا أن القمر يكشف العتمة وهو فيهنّ في السماوات، لا يكشف العتّمة في كل السماوات، بل هو فيهن، في سماء منهن، ويكشف العتمة في واحدة منها.

مثلما بالبداهة تفهم أنه نور لنا حين يكون ربعاً وبدراً وليس في كل الأوقات، تفهم بالبداهة أنه ليس نوراً لكل السماوات. مثلما أقول أني على الأرض، وهذا بالنظرة الواسعة، أما بالنظرة الضيقة فأنا لست على كلّ الأرض بل في قارة، بل في بلد، بل في بقعة صغيرة. وتعلم أن القمر لا يصدر منه الضوء بل يعكس ضوء الشمس، فهو منير، وسترى فرق توصيفه مع الشمس فيما يلي:

وجعل سبحانه {الشَّمْسَ}، وهي النجم الذي يضيء فترة النهار على الأرض، جعله تعالى، {سِرَاجاً}، شيئاً له مداد ليصدر منه الضوء، فالقنديل فيه زيت أو كاز أو نفط.. يشتعل ليضيء، واللمبة أو المصباح الكهربائي فهو يستمد الكهرباء ليضيء، والشمس يصدر عنها الضوء من تفاعلات نووية في داخلها وعلى سطحها كما نعتقد الآن، ففيها مادة ينتج عنها الضوء فصار وصفها باللغة العربية أنها سراج.

مع أن الجملة تحتمل كون القمر يكشف العتمة في السماوات السبع، ولكن يذهب فكرنا إلى كون السماوات مختلفة الطبيعة لأن للملائكة سماء منها، فنحمل معنى الآية على معنى جملة: جعل تعالى في الرجال عنفواناً. وأنت تعلم أن بعضهم جبان رعديد. أو جعل تعالى في الزهور رائحة جميلة. وأنت تعلم أن بعض الزهور رائحتها كريهة، فيكون الكلام عن المجموعة وأن في واحد منها قمراً منيراً. فالقمر لا يتخطّى نوره مجموعة الكواكب التابعة للشمس، وبناء على تصوّرنا للأماكن وعلمنا بوساعة سمائنا ملنا لتفسير الآية كما ذكرت لك، ولكن ماذا لو كان تكوين السماوات ومكانها يتحمّل وصول نور القمر إليها؟ فماذا لو كان للمكان مفهوم آخر؟ وراجع الآيات من بعد الآية 6 من سورة النجم فهناك سترى شيئاً عن ملاك من أعلى سماء يفتح قناة إلى سمائنا، ويبقى هناك ويتدلّى إلى هنا...

على أي حال فالمقصود لفت الانتباه لهاتين الظاهريتن، بنفسهما كمنير وسراج، ولحاجتنا لنورهما، فبأي منطق وتفكير يعتقدون أنها لوحدها حصلت! فهذه الضخامة الرائعة والتناسب معنا ومع الحياة النباتية والحيوانية، ومع طبيعة الأرض... فهل حصلت لوحدها هكذا بدون إله "واحد وأحد" لكل أهل الأرض ولكل السماوات!

وانتبه دائماً أن الآيات هنا والمشابهة لها في مختلف السور تلفت انتباهنا لإله صمّم وخلق، وفي نفس الوقت تلفت انتباهنا أن ما نراه يدل حتما على صدوره من إله واحد، لأن التصميم متجانس وعام، وفي نفس الوقت تأخذك الآيات إلى نتيجة كون الإله أحد لا إله غيره لأن كل الأفعال دالة على إله واحد.

(وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً{17})

{وَاللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز عن بقية أسماء الآلهة التي اخترعها الناس، {أَنْبَتَكُمْ}، نَمَّاكُمْ وكبّركم، {مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}، وهذا وصف كيفية نشوئنا من المواد الموجودة على الأرض، فهو وصف نشوئنا من الطين، من ماء وتراب، من كربون وكالسيوم وهيدروجين... وهو نفس الوصف لخروج النباتات كالشجر والبقول والورود... من الأرض، هذه تمتص الماء والمغذيات من الأرض ومن جوّها من الرطوبة... ويصير لها هيكلٌ، ونحن البشر في أصلنا من الأرض، وبعدها ننمو ونكبر بأكل وشرب ما تحوّل من مواد الأرض، فنشأتنا من الأرض، وتكملة نشأتنا منها أيضاً.

آيتنا هنا وغيرها من كلام القرآن تجعل نشأتنا مشابهة لنشأة النبات من حيث الإنبات، من حيث الخروج والنمو من الأرض، من موادّها.

ضع في بالك دائماً أننا نحن البشر في نظر الملائكة(ع) والجنّ، نحن طين، ولا نختلف عن الحجر والحائط والخشب والتراب والمعدن... الجنّ مخلوقات من نار، ولكنهم مثلنا لكل واحد منهم كيان وصفات وأعضاء... ويعيشون في بيئة من نار... مثلما نحن من تراب وماء وكل ما حولنا هو تراب وماء، المعادن والغازات والسوائل... يجمعها كلمة طين، تراب وماء، هكذا نحن في نظره تعالى وفي نظر الملائكة(ع) والجنّ، لحمنا ليس سوى تركيبات من الطين، وكيان الجنّ ليس سوى تركيبات من نار، فعندما تصفنا الآية هنا بأننا نبتنا من الأرض، فهو توصيف حقيقي دقيق لكون نشأتنا منها، ولاستمرارنا منها، بكل ما تحمله كلمة نبت من معنى نحن نبتنا منها.

بعبارة نتساهل فيها لتقريب الفكرة، النبتة مخلوقة من طين ولها جذور تربطها بالأرض، والإنسان مخلوق من طين ونبت من الأرض ولكنه ليس مغروساً في الأرض.

هل نبتنا من الأرض بالصدفة أو من كثرة تكرار الحوادث أو من خاصية لا ندري كيف صارت في الطاقة التي صارت مادّة... وتلك الطاقة لا ندري من أين جاءت... هل بهذه الطروحات وغيرها نبتنا ومن دون إله صمّم وخلق! وهكذا بهذا التركيب وهذه الصفات والتفاصيل والوعي والفكر والمشاعر... هكذا مشت الظروف لوحدها ونبتنا! من دون إله صمّمنا وصمّم بيئتنا!

في دراستنا هذه كرّرنا الكلام مراراً عن مشكلة طرح دينه تعالى من كلام المفسّرين لكلامه سبحانه، فصار كلامهم هو الدين، والآخرون يحاسبون هذا الدين بناءً على كلام المتدينين. والمتدينون ولأسباب عديدة لم يلتزموا بكلامه تعالى حرفياً، حاولت في هذه الدراسة بناء تفسير دقيق لكلامه تعالى معيداً البحث في ما قاله المتدينون ولم أتعامل مع كلامهم بقدسية.

هكذا تبيَّنَتْ سذاجة وطفولية في فهمنا لكلامه تعالى، وقع فيها الغالبية الساحقة ممن سبقنا، وحتماً نحن سنقع فيها أيضاً، لأن علومنا ليست نهائية، بل تتطوّر، وكلما تقدّمنا كلّما تبين لنا عمقاً لم نره سابقاً، ما نذكره في هذه الدراسة من عقلانية هو ليس نهاية العقلانية، لا، بل هي بذرة التعامل بفصل معطياتنا واحتمالاتنا وفرضياتنا عن كلامه تعالى، وعرض ما فهمناه من القرآن على أنه ما فهمناه، وليس عرضه ليقدّسه الآخرون ويصير كلامنا هو دينه تعالى.

في كلامه تعالى تجد تصميمه وخلقه لنا بحيث جعلنا نتعرّف عليه سبحانه بسهولة، والبداية مع الفكر بخلقنا وخلقة ما حولنا من كائنات وظواهر، وينتج عن ذلك مشاعر، ومنها الخوف من فقداننا السيطرة على قوى الطبيعة، وخوفنا من الموت لنا ولمن نحبّ، وشعورنا بالعجز أمام حوادث لا قدرة لنا على تغييرها... ورؤيتنا لحجمنا الصغير في كون لا علاقة لنا بما يجري فيه من نجومه ومجراته وأرض نشأنا عليها، نأكل ونشرب مما متاح لنا فيها، ونتمتع بقدرات وصفات لا علاقة لنا بتصميمها وتنفيذها... هذا وغيره مما أشارت له العديد من الآيات القرآنية التي تحدّثت كمثال عن تعلقنا به تعالى خوفاً في ظلمات البحر الهائج... وعن النجوم والأرض والرزق المتاح لنا فيها... تفكّراً فيها ومشاعر ناتجة عن رؤيتنا لها وتعاملنا معها...

مضافاً إلى التفكّر والمشاعر للتعرّف عليه سبحانه أمَّنَ لنا طرقاً عديدة أخرى للتعرّف عليه، من رسل وأنبياء نقلوا كلامه، وبحوادث تدخّل فيها تعالى مباشرةً وكان لها مفعول نراه، كانفلاق البحر وإطباقه على فرعون وجنوده... وبقرآن فائق الدقّة في كلامه ومعانيه ودلالاته... وغيرها من الأمور التي لن نهتم بها هنا لأن كلامنا عن القسم الأوّل، هو كلام عن الأمور الخارجة عن سيطرتنا.

ما جعله تعالى فينا دالاً عليه، فهو نفسه الذي انحرف عند الكثيرين وصار منه الشرك به تعالى، ففقداننا للمعلومات عن سبب نزول الماء ليس إلا طريقة طفولية ساذجة للإيمان بإله للمطر يسبّب حصوله، وهذه الطفولية مشتركة تاريخياً بين الموحدين الذين اعتقدوا بإله يسبّب المطر ويسبّب الزلازل والعواصف وخروج النبات... وبين المشركين الذين اخترعوا لكل ظاهرة إلهاً، صار لديهم إله النار وإله آخر للمطر وإله للحبّ وللحرب...

تطوَّرَتْ لدى الموحدين ثقافة الإيمان به تعالى أنه يأمر فتحدث الأمور بلا أسباب وهكذا فجأة تحدث. آدم(ع) خلقه تعالى فجأة من نفخ الروح في تمثال من طين، والمطر ينزل فجأة لأنه تعالى أمر بذلك... وهذا ما صار تفسيراً لكلامه تعالى أنه يقول للشيء كن فيكون فوراً. بينما الجملة تشير أنه سيكون حتماً وليس بالضرورة فوراً.

كما ترى لدينا خلفية عقلية فكرية تقبل حدوث الأمور بلا سبب، بكلمة سحرية ننطقها يحدث شيء ما، وهذا مسحوب من أو منسحب على فهمنا لكيفية فعله تعالى للأمور، وهذا خطأ شنيع.

هذه هي العقلية التي تُطْرَح على أنها دينه تعالى، وحين تطوّرت علومنا وبدأنا نفهم آليات حدوث الأمور، بقي المؤمنون مُصِرِّينَ على فعله تعالى للأمور بلا أسباب وفقط بكلمة "سحرية خارقة" منه تعالى تحدث الأمور، دفعوه تعالى إلى الوراء، إلى خلف ما نعلم آليات حدوثه، آلية نزول الماء من تكاثف بخار الماء إذا اجتمعت ظروف مناسبة من تكاثفه على غبار، أو بفرق الشحنة بين الغيمة وأخرى... دفع المؤمنون السؤال إلى الخلف، طالما علمنا آلية نزول المطر، لم تعد تنزل بفعل من الإله، نسأل عمّن خلق الماء من الأساس؟ كما ترى المتدينون قديماً علموا مثل غيرهم عن أسباب حدوث بعض الأمور، أنا أزرع وأسقي، وآخذ ثمراً... ولكن كيف تنمو النبتة؟ قلنا إنَّ الله تعالى بدون آلية أو سبب ينبتها، وحين علمنا بعمق تكوين الخلايا وانقسامها متّبعة خريطة جينية... دفعناه تعالى إلى الخلف، قلنا إنَّه الخالق لأول خلية هكذا فجأة وبدون آلية...

هو نفسه الكلام عن خلقتنا نحن البشر، تفسيرنا القديم لخلقه تعالى مباشرةً لأول بشري بيديه من طين على أنه حصل فجأة وبدون آليات، فهو مبني على نفس هذه العقلية. وبناء عليه رفضنا أي كلام عن نشأة الحياة أطواراً... ولست

بكلامي هذا أثبت صحّة نظرية النشوء والارتقاء "قرآنياً"، ولكن ألفت انتباهك للفرق بين كلامه تعالى وبين تفسيرنا له كمؤمنين به، وعارضين تفاسيرنا على أنها دينه تعالى وأن أي كلام آخر هو كفر.

الآن يأتي السؤال: كيف خلق سبحانه ما في الدنيا؟ هل قال لها كوني فكانت فجأة؟ لا، صريح كلامه تعالى يشير إلى خلقها في ستة أيام، في الآية 10 من سورة فصلت ترى بوضوح أنها ست مراحل {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ}.

والسؤال الثاني: كيف خلقنا تعالى؟ هل عجن تمثالاً من الطين ونفخ فيه وصار آدم(ع)؟ من أين جاءت حوّاء؟ ومن أين جاءت بقية الحيوانات؟ من الواضح من العديد من الآيات وجود آليات لنشأة الحياة على الأرض، وراجع ما قلناه مطولاً عن تسوية آدم(ع) والنفخ فيه في دراسة الآية 29 من سورة الحجر {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}، وراجع دراسة الآية 7 وما بعدها من سورة السجدة {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ}، هناك ستجد الكلام عن بداية خلقنا من طين عبر مراحل.

الخلاصة أن تعرّفنا على آليات نشأة كوننا ونشأة الأرض ونشأة الحياة، وبغض النظر عن صحّة تلك الفرضيات، فهو محاولة تعرّفنا على الآلية التي صمّمها تعالى لحدوث الأمور. والقرآن كان صريحاً بلفت انتباهنا لما نعرف آلية حدوثه، فهو أيضاً منه تعالى، وليس فقط ما نجهل آليته منه تعالى، السفن التي صنعناها نحن بأيدينا من ملاحظة عوم الخشب على الماء... ينسبه تعالى لنفسه على أساس أنه تعالى حين صمّم ما في الدنيا وخلقها جعل فينا وفيما حولنا ما سيوصلنا إلى صنع السفن، وترى ذلك في الآية 12 من سورة الزخرف {وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ}، ونفس الكلام تراه صريحاً في سلسلة أسئلة انطرحت في سورة الواقعة من الآية 57 وما يليها بالبداية مع خلقتنا التي نعرف أنها من علاقة تلقيح بالمني، وبعدها عمّا نزرعه بأيدنا وسبب نموّه عنايتنا به، وبعدها عن نزول الماء من الغيم الذي عادة من شكله نعلم أن مطراً سينزل منه، من المزن، وبعدها السؤال عن النار التي نشعلها من الخشب القابل للاحتراق... هذه الأسئلة خليط بين لفت الانتباه للآليات التي صمّمها تعالى لتعمل الأشياء، وبين حتمية وجود من صمّمها وخلقها لأننا نستخدمها ونتعامل معها بأيدينا ونحتاجها... ولا علاقة لنا لا من قريب ولا من بعيد بتصميمها ولا بخلقتها لتكون هكذا.

الكفر به تعالى بسبب تعرّفنا ولو بسطحية على آليات نشأة كوننا والحياة فيه، فهو كفر بالدين الذي طرحه المتدينون كتفسير لكلامه تعالى، هم قالوا بسحرية وعجائبية وخارقية... حدوث الأوامر الإلهية بلا سبب ولا آليات، بينما كلامه تعالى صريح بخلق ما في الدنيا على مراحل مترابطة، تلت بعضها لتكتمل وصولاً إلى نشأة الحياة على الأرض من طين. تعرّفنا على آليات حدوث الأمور إنما هو تعرّف على كيفية فعله تعالى للأمور.

طبعاً هذا لا يعني أن ما نفهمه نحن، وما يمكننا فهمه عن الآليات والأسباب، هو فقط المتاح لفعل الأشياء، بل هكذا نحن نفهم الأشياء، حين نتحدث عن آليات فعله تعالى للأمور، لا نقصد حصر أفعاله تعالى بما نفهمه نحن، بل نتحدّث عمّا يمكننا فهمه، وإلا هناك أمور لا نعرفها، بل ولن نفهمها حتى لو عرفناها، بل لن نقدر على معرفتها لأن قدراتنا أقل من المطلوب، دماغي بحجم جمجمتي، ولو كان بحجم عشر جماجم لنتج عنه علوم مختلفة، ماذا لو كان دماغي بحجم سيارة؟ وهكذا ترى الفرق الهائل بين قدراتي الفكرية، وبين قدراته سبحانه وتعالى، وبالتالي حتماً هناك شؤون إلهية لفعل الأمور ونحن لن نفهمها.

{ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً{18}}
ثم، بعد أن أنبتكم سبحانه، {يُعِيدُكُمْ فِيهَا}، حيث نموت ونتحلّل ويصير لحمنا وعظمنا تراباً كما كان، ونعود إلى التراب، {وَيُخْرِجُكُمْ}، الله تعالى من الأرض، {إِخْرَاجاً}، أيضاً وصف لحالة إعادة تكويننا من جديد من تراب مثلما كنّا متكوّنين من قبل.

نلاحظ العديد من الآيات التي أشارت إلى النبات والإنبات موجّهةً كلامها إلى منكري عودتنا إلى الحياة، ها نحن نبتنا من الأرض، نبتنا من الطين، ونموت، ونرى النبات من حولنا ينبت ويموت، ثم يعود ويخرج إذا لامست الماء تربته... ومراراً ساوى القرآن بين حياتنا وحياة النبات، واعتبرهما نفس الشيء كحياة تحصل من المواد، لماذا نرى النبات

يخرج إلى الحياة ولا نصدّق بأننا نحن سنعود إلى الحياة بالرغم من علمنا أننا الآن نبتنا من الطين، ما المانع من إنباتنا منه مرّة ثانية؟

كما ترى الآية خبر ممّن خلقنا عبر رسوله بأننا سنعود لننبت مرّة ثانية كما نبتنا أول مرّة، ولو أطلت عليك فهذا الخبر هنا مدعوم بما سبق وسيأتي ذكره من لفت الانتباه إلى من صمّم وخلق ويخبرك بأنه سيعيد إحياءك، ولكن سوراً أخرى كانت تضيء على جوانب أخرى ذكرت لنا دلائل مختلفة عن خروجنا من الأرض وعودتنا إلى الحياة، ولمزيد من التوسّع راجع الآيات 257 وما بعدها من سورة البقرة، هناك ركّزت على حوادث عودة الطيور إلى الحياة على يدي النبي إبراهيم(ع)، وعلى عودة رجل إلى الحياة بعد مئة عام، وكمثال آخر ما قاله القرآن عن حصول إعادة الأموات إلى الحياة على يدي النبي عيسى(ع) كما ورد في الآية 49 من سورة آل عمران {وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ}...

(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً{19})
{وَاللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد له الذي يميّزه عن الآلهة التي اخترعها الناس، {جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ}، التي تعيشون عليها، {بِسَاطاً}، مبسوطة، ونقول عن وجه الأرض أنه: وجه البسيطة. ونقصد أنها ممدودة، فلو كانت كلّها وعرة بنتوءات صخرية، أو كانت كلها جبال... لما كان اسمها بسيطة. ومن الآية التالية ستفهم أكثر، ولكن قبل ذلك، ورد في القرآن عدّة آيات أوحت "للبعض" بأن القرآن يقول عن الأرض أنها مسطحة وليست كروية، أولاً، لا مرّة تحدّث القرآن عن الأرض لمن يشاهدها من الفضاء، من هناك ستراها كروية، بل وجّه كلامه مع من يقف على سطحها، وهذا لن يراها كروية، حين تحدّث القرآن عن حركة الشمس لم يقصد أن الأرض ثابتة والشمس تتحرك حولها، بل من يقف على الأرض سيرى الشمس تسير من الشرق إلى الغرب، فلو كان كلام القرآن موجّهاً لمن يرى المشهد من الفضاء، ويرى المجموعة الشمسية تدور حول الشمس، فهذا أصلاً مشهد لا يمكننا رؤيته إلا من مسافة بعيدة جداً ولمدة طويلة من المراقبة، نحن بالحسابات لما نشاهده من حركة الكواكب كان أفضل استنتاج لها أنها تدور حول الشمس، ولم نصل إلى هذه النتيجة من رؤية الأرض من الفضاء تدور حول الشمس.

هنا وبقية الآيات الواصفة للأرض هي نفس الشيء، من يقف على الأرض يراها مبسوطة مثل بسط السجادة أو البساط أو الحصيرة... لتسير عليها، كل الكلام موجّهٌ لشخص يعيش ويتحرّك على الأرض، لا لشخص يراها من الفضاء.

أكرر لك هذه النقطة لأن ما درج بين الناس عن الإعجاز العلمي في القرآن جعلنا كمتدينين نصطدم بالحائط، كل كلامهم هراء وسخافة وتلاعب بمعاني الكلمات، من لم ير الهداية التي في القرآن من كلامه العقلاني عنه تعالى، ولم ير الصلاح المطروح فيه والذي يؤمّن علاقة صحيحة محترمة بين الناس وربّهم سبحانه، وبين الناس فيما بينهم... ولم ير لفت الانتباه للظواهر البسيطة من حوله والتي يفهمها أي إنسان عادي، وأصرّ على تفسير الآيات على أساس النظريات العلمية، فهذا عنده مشكلة ما فهو إما مخبول، أو يكذب، أو لم يعجبه الكلام الإلهي كما هو ويريد التفخيم به، ويرى نفسه منقذاً للدين ومسبّباً لتعظيم الدين... لولاه لبقيت معاني القرآن سطحية دون المستوى المقارن للكتب العلمية وكلام كبار العلماء، يظنّ أنه رفع القرآن ليصير كتاباً مهماً! فاتهم أنه لا يوجد لدينا ولا نظرية علمية ثبتت على صحّتها على طول التاريخ من دون تعديل أو طرح واستبدال بأخرى.

نظرياتنا العلمية الحالية التي انبهروا بها سيعفّ عنها الزمان وتصير من التاريخ بعد استبدالها أو تعديلها في المستقبل، وحين تقول لهم هذا سيقولون لك: لا يهمّ، المهمّ أننا في عصرنا أثبتنا للناس أن القرآن عظيم، وإذا تبيّن للناس فيما بعد أن كلامنا غير صحيح، فلا يهمّ، فإن كانوا أسلموا بناءً على كلامنا، فلن يتراجعوا عن إسلامهم لأنَّ هناك أموراً أخرى عظيمة في ديننا ستبقيهم على الإسلام، ولن يكتشف الآن أي أحد تعارض كلامنا مع التفسير الدقيق لمعاني كلمات القرآن، لأننا كلّنا نريد أن يكون القرآن عظيماً، سنقبل بأي كلام يثبت بأن الليزر وصناعة مكوك الفضاء والسفر عبر الزمن وتشكّل الكون... كلّه مذكور في القرآن، لأن ديننا أقوى شيء، وكتابنا أقوى من كلّ الكتب، ونبينا (ع) أعظم من كلّ الناس، وكلامه(ع) علمي فيزيائي كيميائي أحيائي نووي فلكي...

كما ترى يا عزيزي ويا عزيزتي فهذه عقلية مشجعي فريق كرة القدم، كل مشجّع يبرّر لك أسباب تعلّقه بواحد من الفرق، ويضخّم بفريقه وقدراتهم، ويدخل في سجالات ونقاشات مظلومية التحكيم التي سبّبت خسارة فريقه... ويدافع عن

الأخطاء التي ارتكبها فريقه... وفريقه منذ سنوات يصارع للبقاء في الدرجة الأولى ولم يحقّق أي كأس! فما المنطق والعقلانية في هذه السلوكيات؟ من الواضح جداً أنها مجرّد نزعة للانتماء، ورغبة الشعور بالانتماء لشيء معنوي "ولعصابة أو جماعة"، وهذه السلوكيات هي نفسها يمشي عليها الكثيرون في تعاملهم مع دينهم، دينهم أقوى شيء، وكتابهم فيه كلّ شيء، وشخصياتهم الدينية فظيعة وأقدس من كل ما في الدنيا...

هذه العقلية جعلت بني إسرائيل يرون بقية الناس حيوانات بقيمة البهائم، وبكل جرأة ذكروا ذلك صراحة في كتب ملحقة بالتوراة. وجعلت المسيحيين يجعلون النبي عيسى(ع) إلهاً! فما قيمة إبراهيم وموسى وداوود وغيرهم من الأشخاص أمام المسيح الذي يخصّهم وينتمون له؟ فليكن الشخص المحوري لنا: إلهاً. وهذا أقوى شيء، فبماذا سيغلبنا الآخرون من بعد ذلك؟

هذه العقلية هي نفسها التي انطلق منها ناسبوا النظريات العلمية للقرآن، كتابنا أقوى شيء، وفيه كلّ شيء، لدرجة تفوق الخيال، فيه تفاصيل كل ما سيجري مع كل إنسان، حتى لو أضاع أحد ما شراك نعله "شريط الحذاء"، بدل أن يبحث عنه في البيت، فإنه يقرأ في القرآن، يدلّه القرآن على مكان الشراك! نعم وللأسف هذا الكلام وأمثاله منقول عن الكثير من "علماء" المسلمين!

وللأسف الكتب والمقالات والخطابات من هذا النوع، مرغوبة محبوبة مطلوبة، لأنها تدغدغ وتفعّل حسّ الانتماء للفريق الأقوى الأعنف الأفظع... الذي يغلب يحطّم يدوس... باقي الفرق. نحن معنا الحقّ، والبقية كلّ كلامهم باطل، ونحن اكتشفنا كلّ شيء، والبقية مزيّفون...

أطلت عليك لأنك لن تقتنع بالمعاني الحقيقية لكلمات القرآن إن بقيت على عقلية الانتماء بالعصبية للمجموعة، وسيخطر ببالك أننا في دراستنا هذه نقوم بالتلاعب بمعاني الكلمات وإخراجها عن معناها الحقيقي، لأن أفكارهم تلك عن الإعجازات القرآنية والنبوية... منتشرة، وتجعلك لا ترى حقيقة الآيات، وستكبّر كل ما تسمعه، ولن تقبل بأن آيتنا هنا تتحدّث مع شخص واقف على الأرض لا مع شخص يرى الأرض من الفضاء، وأصلاً الشخص الواقف على الأرض لا يرى "كلّ" الأرض مسطحة، حيث يرى بحدود نظره فقط جزءاً صغيراً جداً من سطح الأرض، وهذا الفهم البسيط للأرض "ليس لكوكب الأرض" بل للأرض التي يقف عليها ويراها، القرآن وجّه كلامه لعموم الناس التي تفهم هذه المعاني البسيطة، لا يوجد في القرآن آيات لا يفهمها الناس العاديون، ولا يوجد آيات مخصّصة لعلماء الفلك والفيزياء والطبّ... لا، بل كل الآيات موجّهة لكل الناس، وبعضها يحتاج لدراسة وتمعّن إن لم نكن على دراية بالموضوع الذي تتكلّم عنه...

القرآن كلام الإله عزّ وجلّ، وفيه من القوّة ما يفوق الخيال، فيه دقّة التعبير من مستوى إلهي، وفيه المعلومات الدقيقة الصحيحة من مستوى إلهي، عن العقيدة والشريعة والسلوكيات، وعن تصميمه وما خطّطه تعالى لنا... من لم ير هذه الأمور عظيمة، ولهث خلف النظريات العلمية، فهو مريض بهوس تشجيع فريقه... وفاته ما تقوله الآية هنا عن جعله تعالى لنا الأرض بساطاً، هل بالصدفة أو من دون سبب، أو بسبب كثرة الكواكب صدف أن صارت الأرض بهذا الشكل... وهكذا من دون إله! ما هذه الصدفة! أم الطبيعة هي توائم نفسها! كلامهم عن الطبيعة وعن قوانين الفيزياء بهذا الشكل يجعلها إلههم الواعي! أم إله محلّي خاص بقوم ما جعل الأرض بساطاً لبقية الناس؟ هذه هي الأسئلة التي تطرحها الآية.

(لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً{20})
جعلها تعالى بساطاً، لتسلكوا منها سبلاً، مسالك ممرات توصلكم إلى حيث تريدون الذهاب، {فِجَاجاً}، وصف للسبل، فبين المرتفعات المنخفضة والمتوسطة والعالية تجدون ممرات يمكنكم سلوكها فهي سبل لكم فهي ما يوصلكم إلى حيث تريدون الذهاب.

لم يجعل سبحانه كلّ وجه الأرض أملس، ولم يجعله كلّه وعراً، بل صمّمها بحيث يمكنكم التنقل فيها من مكان لآخر عبر مسالك.

هذه الأمور العادية بالنسبة لنا، والتي لا نلتفت لها، هي من ضمن التصميم الإلهي لنا ولبيئتنا، تصوّر نفسك أنت تخلق الأرض والحياة عليها، وتصوّر تريليونات التفاصيل الدقيقة لاستمرار الحياة التي نحن فيها، تعقيدها وكثرة تفاصيلها قصد منها سبحانه وتعالى أن نتعرّف عليه منها، فنراه مصمماً خالقاً لها، فلو كانت بتفاصيل قليلة جداً، وعلى قدر استيعابنا لها، فكانت أيضاً ستدلّ على إله خلقها ولكن كثرة التفاصيل من المفروض أن تجعلنا نلتفت بسهولة إلى عظمة خالقها، ورغم ذلك تجد من يكفر بهذا الكلام، وقوم النبي نوح(ع) نموذج من الكافرين بهذا الكلام.

تشكيل سطح الأرض كما هو الآن، تقول الآية أنه تعالى صمّمه وجعله يصير هكذا، لا الطبيعة ولا قوانين الطبيعة ولا المادة لوحدها ولا الصدفة... جعلت سطح الأرض كما تراه، بل عبر آليات صمّمها تعالى صار هناك ما نسمّيه الطبيعة بموادّها وخصائصها وظواهرها... التي نتج عنها سطح للأرض...

(قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً{21})
قال نوح:

{رَّبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {إِنَّهُمْ عَصَوْنِي}، لم يطيعوني، فكفروا ولم يؤمنوا، {وَاتَّبَعُوا}، كانوا على كلام، {مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً}، هناك أشخاص في قومي وعندهم أموال من معادن ثمينة وأملاك... وعندهم أولاد كثر، فهم زعماء على الناس بسبب قوتهم المالية وقوتهم القتالية بأولادهم، ترك الناس ما أقوله واتبعوا ما يقوله هؤلاء، علماً أن زيادة المال والأولاد منك سبحانك لهؤلاء لم تزدهم قيمة بل خسارة، فهم كفّار وكلما كان تأثيرهم على الآخرين أكبر كلما كان عذابهم أكبر، وكلما زاد مالهم وأولادهم، زاد نفوذهم ووجاهتهم، فتبعهم أناس أكثر على الكفر، وبالتالي ستزيد خسارتهم فسيزيد فقدهم لرحمته ومغفرته وثوابه تعالى.

تذكّر دائماً أن كلام القرآن عن نماذج، الناس يعجبهم الثري أن يكون زعيماً، والذي عنده أولاد كثيرون فهو أيضاً من الذين بسهولة يفرضون زعامتهم على الآخرين... فلا تفهم من الآية هنا أو ومن بقية كلام القرآن أن كل زعيم فهو ثري وعنده أولاد كثر، لا، بل هم أبرز نماذج.

تذكّر اهتمام القرآن بتوجيه كلامه للملأ، للنافذين وأصحاب السلطة... والذين يتبعهم الناس، الملأ هم عادة المشكلة الأكبر، فهم بنفوذهم مؤثّرون على الآخرين وقادرون على الصدّ عن سبيله تعالى. والكلام عنهم لا يلغي التابعين لهم، بل ضمناً الكلام يشمل من يتبعهم، ويحمّل تعالى الجميع مسؤولية كفرهم، فلا يوجد شيء اسمه: قالوا لي. لا، أنت وصلك كلامه تعالى ووصلك كلام الوجهاء من قومك، واخترت الكفر وستتحاسب عليه.

ضمناً تستوحي من كلام القرآن تبريراً سيّئاً لسوء الأغنياء الذين لديهم أولاد كعصابة لهم، وهذا طبعاً لا يعني أن كل كافر هو غني وعنده أولاد، ولكنه يشير بشكل ما إلى سبب دافع لهؤلاء للكفر، وترى ذلك في الآية 178 من سورة آل عمران كمثال {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}، وبالتالي فالفقير المحروم من المال والأولاد النافعين له ليكون زعيماً وجيهاً، فما سبب كفره؟ فأي متاع في الدنيا أغراه وسقط في فخّه! ونحن نسأل من نظرة مراقب يرى تفاهة كفر الفقير مقابل كفر زعيمه الذي يتمتع بخيرات انحرم منها الفقراء أتباعه.

هذا الكلام يأخذنا إلى إيمان الفقراء بسبب فقرهم الدافع لهم للتعلّق بوعدهم بجنة الآخرة، وهذا صحيح، وعلى مقياس متاع الدنيا الممزوج بالمرض والتعب وخطر الموت وفقدان المتعة من الملل وخطر الفقر والكوارث... مقابل جنّة خالدة رائعة، فهو فعلاً دافع للجميع حتى يؤمنوا رغبة بجنة رائعة، وهذا العرض الإلهي المغري ليس مقدّماً فقط للفقراء ليؤمنوا، فحتى أغنى الأغنياء سيغريه العرض بسبب الفرق الهائل بين سعادة الدنيا وسعادة جنّة الاخرة.

العديد من تركيز كلام القرآن عن الأغنياء ذوي الأولاد، وعن الملأ، قد كان يشير إلى نماذج لمدى تأثير حالتهم على اختيارهم الكفر، فيرون في دينه تعالى خطراً على فقدانهم للسلطة والسيطرة على الآخرين، ويرون ما لديهم ومحروم منه الآخرون أنه أقصى المتاع ولا حاجة لهم بوعود الدين بجنة الآخرة... ولأنهم بمعارضتهم لدينه تعالى لهم تأثير دافع لغيرهم حتى يكفروا... فلهذه الأسباب وغيرها ذكرهم القرآن متخطياً الأتباع الفقراء ومتوسطي الحال.

(وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً{22})
{وَمَكَرُوا مَكْراً}، خطّطوا تخطيطاً لعمل سيّء، {كُبَّاراً}، من العيار الثقيل.

أصحاب المنصب والوجاهة والزعامة الذين لديهم قوّة مالية وقتالية قد عارضوا كلام النبي نوح(ع)، ولكن هل قالوا للناس أن كلام النبي نوح(ع) يضرّ بزعامتهم ورئاستهم؟ لا، بل أقنعوا الناس أن كلام النبي نوح(ع) يضرّ بالناس، فيضرّ بحياتهم وبملذاتهم، ويضرّ بعلاقتهم مع آلهتهم المحترمة التي ستغضب عليهم إن تركوا عبادتها... وهذا مكر، مكراً كبّاراً، فهو تخطيط كخدعة من القياس الكبير، من جهة هناك كلام النبي نوح(ع) عن عذاب سيحصل إن لم يؤمنوا، ومن الجهة الأخرى هناك كلام الزعماء عن عذاب سيحصل إن ترك الناس آلهتهم، والناس أصلاً تعبد تلك الآلهة الوهمية، والزعماء كلامهم يستند إلى الكذب والأوهام والخيالات، فهذا مكر من القياس الكبير، فهو مكر جعل الناس تؤمن بالخرافات وتترك الحقيقة!

(وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً{23})
وقالوا، فقال الملأ الذين فيهم صفات تعجب الناس وكمثال عن ذلك الأثرياء الذين لديهم أولاد...:

{لَا تَذَرُنَّ}، لا تتركوا بلا اهتمام، {آلِهَتَكُمْ}، من تعتبرونها بصفات مميزة غير موجودة في المخلوقات، {وَلَا تَذَرُنَّ} فلا تتركوا بلا اهتمام: {وَدّاً}، {وَلَا سُوَاعاً}، {وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً}. فهذه خمسة أسماء لآلهتهم يقوم الزعماء بتحفيز الناس على الاستمرار بعبادتها، والابتعاد عن عبادة الله عزّ وجلّ لوحده، وإلا لوقعت الكوارث عليهم من غضب تلك الآلهة.

ليس لدينا الآن مصدر موثوق غير القرآن عن تفاصيل عقيدة قوم النبي نوح(ع) وعن تلك الآلهة، فكما ترى فهي وهمية خيالية لم تستمر عبادتها بين الناس، وتغيّرت أسماء وصفات الآلهة التي اخترعها الناس فيما بعد، فلم نعد ندري إن كانت أسماء لمجموعات نجمية أو كواكب أو أسماء لأرواح أو جنّ أو أشخاص أو هكذا مجرد أسماء لأصنام... أو خليط مما سبق.

على أي حال، إن كنت الآن ترى سخافة اختراع إله من الأوهام والخيال، وسخافة صنع صنم والتعبّد له، فاعلم أن هذه البذرة ما زالت موجودة في عقلية من لم يؤمن بشكل سليم على أساس قرآني، فلا تزال الناس تعتقد أن الخاتم من الحجر الأصفر يجلب الرزق! وخاتم فيه حجر أزرق غامق يجلب الهيبة والزعامة! وأن بعض الأشخاص لديهم قدرات شبه إلهية فيقولون للشيء كن فيكون، ويعلمون الغيب... هذا والكثير من الكلام الموجّه للذين يقولون عن أنفسهم أنهم متدينون بدينه تعالى، وأمّا الذين يسمّون أنفسهم بالعلمانيين العلميين فإلههم الصدفة أو الطبيعة أو قوانين الفيزياء أو الزمن أو الدهر أو التفاعلات الكيميائية والفيزيائية... ولا فرق بين سخافة قوم النبي نوح(ع) ولا سخافة هؤلاء إلا بالأسماء، فالعقلية واحدة.

بالنسبة لأسماء آلهتهم، هناك احتمال لاشتقاق تلك الأسماء من جذور بعض الكلمات العربية، هذا على فرض أن اللغة من عصر النبي نوح(ع) إلى الآن لم يتغيّر جذرها، أو على فرض أن القرآن قد عرّب معاني تلك الأسماء مثلما نشتقها نحن من اللغة العربية، والتعريب هو الأرجح كما يبدو من استعمال بعض كفّار العرب لهذه الكلمات بالذات للتعبير عن آلهتهم، "ودّ" يكون اشتقاقها من الودّ كآلهة للحبّ، وتسمع بالاسم المشهور: عمرو بن عبد "ودّ" العامري، ويغوث من الغوث كإله للنجدة، وتجد العديد من أسماء الجاهلية باسم عبد يغوث. ونسراً كإله ينقضّ كإله الحرب... ولكن هذه تبقى احتمالات قويّة جداً ولكن لا دليل عليها، ولا فائدة إيمانية من البحث فيها، رغم أنها تدلّ بدراستها على نفسية وعقلية اختراع الآلهة عند الناس من منشأ نفسي نابع من رغبات وشهوات، كالحبّ والحرب والثروة والتجارة والزراعة والمطر... حيث في مختلف ثقافات الكفّار تجد آلهة متخصصة لتلك العناوين.

في دراستنا هذه استفدنا من اسم "هامان" لتحديد الفرعون الذي عاصر النبي موسى(ع)، فهل سيكون من أسماء آلهة قوم النبي نوح(ع) هذه فائدة في تحديد زمن الطوفان؟ ربما بين أيدينا آثار تدل عليهم ولم ننتبه لها.

(وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً{24})
{وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً}، أولئك الزعماء بدعوتهم لعبادة الآلهة الوهمية قد جعلوا الآخرين على طريق غير صحيح، وتعلم من الآية 40 من سورة هود أن القليلين منهم آمنوا {وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}.

{وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً} ويا رب، لا تزد الظالمين، الذين لم يكونوا منصفين ولا محقّين حين كفروا وعصوني، فلا تزدهم، {إِلَّا ضَلَالاً}، ابتعاداً عن الطريق الصحيح.

ما أقوله لهم منقول عنك يا إلهي، فمن الحقّ والعدل والإنصاف أن يؤمنوا، ولكن ظلماً لم يؤمنوا، فلم يكن معهم حق حين كفروا بالحقّ، فبسبب حالتهم هذه، أطلب منك يا ربي أن تزيدهم ضلالاً حتى يستحقّوا تعذيباً أكثر.

لاحظ معنىً قريبا من هذا ورد عن لسان النبي موسى(ع) في سورة يونس الآية 88، حين دعا على فرعون {وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}، وهذا الدعاء ليس طلباً خارجاً عن الإرادة الإلهية بالأصل، فمن المستغرب أن تدعو على أحد ما ليضلّ، حيث ندعو للآخرين بالهداية، ولكن حين يكونوا معاندين ظالمين لأقصى درجة، فهم أصلاً صاروا على الطريق الذي ينحدر أكثر فأكثر، ومن عموم القرآن تعلم أن من اتخذ قراراً عميقاً بالكفر ظلماً، فسينطبع وينختم قلبه، ويزداد كفراً يوماً بعد يوم، فما يدعو به النبي نوح(ع) على الظالمين من قومه ليس إلا تحصيل حاصل، فهم أصلاً سيغرقون أكثر فأكثر في ضلالهم، فهذه هي الطبيعة التي خلقنا سبحانه عليها، ولكن دعاءه (ع) عليهم يعبّر عن وصوله إلى طريق مسدود معهم، وانقطاع الأمل منهم نهائياً، وكما سترى فقد صادق سبحانه وتعالى على هذه النتيجة وأنزل العذاب عليهم...

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شراً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فقد ضلّ عنك صيدها. وقد استعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، فلم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} رداً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

(مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً{25})
{مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ}، مما قاموا به من أعمال خطيئة، من مجموع ما فعلوه من أعمال غير صحيحة، {أُغْرِقُوا}، وضعهم سبحانه تحت الماء، فماتوا بسبب غمر الماء لهم وانقطاع نفسهم، {فَأُدْخِلُوا نَاراً}، فبعد غرقهم سيأتي يوم القيامة وتتم محاسبتهم وإدخالهم إلى النار، {فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً}، كما نقول: ذهبتم من دوني. وأقصد أنكم تركتموني وذهبتم مع غيري، فهنا تقول الآية أنهم داخلون إلى النار وبحاجة لمن ينصرهم، لمن يحقّق لهم ما يريدون، وهو الخروج من النار، ولكن فقط وفقط الله تعالى قادر على فعل ذلك، ولن يجدوا أي أحد لينصرهم لأن الناصر فقط هو الله تعالى.

الآية هنا جواب على الكلام السابق للنبي نوح(ع) الذي يعيد ما جرى بينه وبين قومه لله تعالى شاكياً من عنادهم على الكفر... والنبي نوح(ع) يعلم أن قومه موعودون بعذاب في الدنيا والآخرة، ولكن لحدّ اللحظة التي كان يقول فيها هذا الكلام لربّنا سبحانه، لم يكن النبي (ع) قد شاهد مصير قومه، فتقطع الآية هنا كلامه(ع) لتخبرنا عن مصيرهم كأننا نراه.

نعيد الكلام بصيغة أخرى، ونأخذ نموذجاً فنتذكّر الآية 36 من سورة آل عمران والتي نقلت كلام امرأة النبي عمران(ع)، حيث قطع سبحانه نقل كلامها ليقحم فيه جملة ضرورية {فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ}...، وهذا متكرر في القرآن بأشكال مختلفة أكثرها الاستثناء بما شاء تعالى حتى لا نتصور أن الأمور يمكن أن تنفلت من سيطرته تعالى، وخذ مثلاً الآية 108 من سورة هود {وَأَمَّا

الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} فهم خالدون ولكن بقرار دائم منه تعالى، وخذ مثلاً الآيات 6 و 7 من سورة الأعلى {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ}...، فحتى لا نفهم أن الرسول محمّد(ع) صار لديه قدرة من مستوى إلهي بحيث لا ينسى، فيأتي مباشرةً الاستثناء بتعليق الذاكرة بمشيئته تعالى، وهذه أمثلة من عشرات وردت في القرآن.

هنا الآية كلامه تعالى استقطاعاً وتعقيباً على كلام النبي نوح(ع) في الآية السابقة، فليس النبي(ع) صاحب القرار بالحكم على قومه، وليس مخبراً لله تعالى ما لا يعلمه عزّ وجلّ، فمما خطيئاتهم أغرقوا... فلهذا السبب الذي يعلمه تعالى تحدّد وتقرّر تعذيبهم وليس من كلام النبي نوح(ع) اتّخذ تعالى القرار بتعذيبهم.

لاحظ الآية تتحدّث كأن يوم القيامة قد حصل ووقع وأن قوم النبي نوح(ع) صاروا في النار، وقد فهم البعض أن الكلام هنا عن نار فيما يسمونه بعالم البرزخ، ويقصدون به عالم ما بعد الموت وقبل يوم القيامة حيث توجد الجنّة التي يدخلها المقتولون في سبيل الله تعالى كما نفهم من الآية 169 من سورة آل عمران {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}، ولكن في عموم القرآن تجد الكثير من الكلام الصريح عن مشاهد يوم القيامة وبنفس الطريقة في التعبير، كأنها مشاهد حصلت، فالجملة خبر عمّا سيحصل، ولكن بطريقة الحديث عنها كأنها حصلت، فهي بطريقة نقل المشهد كأنه أمامك وشاهدته، وخذ مثلاً ما ورد في هذه الآية 20 من سورة ق {لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}، فمن الواضح جداً من سياقها أنها عن الآخرة، فهي ناقلة لما سيحدث بصيغة أنه حدث لأنه سيحدث حتماً، وهنا الكلام نفس الشيء.

وهنا قطعت الآية سياق كلام النبي نوح(ع) وأخبرتنا أنهم أغرقوا، وهذا لم يحدث بعد حين كان النبي نوح(ع) يدعو، ونفس الشيء، فدخولهم نار الآخرة لم يحدث بعد إلى الآن لأن الآخرة ستأتي بعد انتهاء الدنيا.

من الواضح من الآية 169 وما بعدها من سورة آل عمران وجود جنّة الآن في الدنيا ويدخلها المقتولون في سبيل الله تعالى، والآيات 26 و 27 و 28 في سورة يس {قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ}... تتحدّث عن شخص دخل جنّة ما بعد الموت الآن وقبل يوم القيامة كما هو واضح، فاحتملنا أنه قتل في سبيل الله تعالى لأننا لم نجد في القرآن أي إشارات أخرى لدخول الصالحين أو الأنبياء أو الرسل إلى تلك الجنّة، وربما ستقول أن الرسول من بعد موته حتماً يدخل إلى جنّة هنا في الدنيا لأنه أفضل من المقتول في سبيل الله تعالى، ولكن هذا استنتاج لم يذكره القرآن لا صراحة ولا تلميحا، فلا يمكنني نسبته للقرآن، علماً أنه موجود في الروايات، ولكن دراستنا هذه اعتمدت حصراً على ما ورد في القرآن، وبمراجعة الآيات التي فيها احتمال أو إشارة لوجود نار في الدنيا فستجد أنها أقرب للحديث عن نار يوم القيامة وليس عن نار في عالمنا الحالي، ويدعم نفي وجود نار هنا في الدنيا لتعذيب الأموات الكافرين فيدعم نفي ذلك استذكار العديد من الآيات التي تتحدّث عن مفاجأة الظالمين بيوم القيامة، والتي تنقل لنا تحيّرهم في مدّة لبثهم، ودهشتهم من خروجهم من قبورهم... وكمثال ما ورد في الآية 52 من سورة يس {قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا}...، والآية 31 من سورة الأنعام {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ}...، وهي آيات عديدة تقول بكل وضوح أنهم فقدوا وعيهم تماماً بعدما ماتوا، واستعادوا وعيهم في يوم القيامة، ولم يمرّوا فيما يسمونه بنار في البرزخ.

لو نظرت بعقلانية إلى الروايات التي جاءت على سيرة ما يسمونه بالبرزخ كعالم وسطي بين حياتنا وبين الآخرة، لما برّرت تعارضها واختلافها وتضاربها، ولانتبهت أنك تنقّب فيها لتجد ما يناسب قرارك السابق قبل قراءتها، أو سيتكوّن لديك مزاج من قراءتها... ففي الروايات دائماً ستجد رواية توافق هواك، من وجود نار في البرزخ، إلى نفي وجود نار البرزخ، إلى تشبيه البرزخ بحالة النائم الذي يرى الأحلام، إلى تداخل البرزخ مع عالمنا حيث يسير الأموات في الصحراء عطشى مكبّلين بالأصفاد! وهذه هي حال الروايات في عامّة المواضيع، ففيها الشيء ونقيضه! فلا ترفع قيمتها لتصير بمستوى القرآن، فلو كانت حتماً صادرة عن الرسول(ع) وبنقل دقيق لكلامها، لكانت قيمة محتواها ممنوحة من القرآن الذي أمرنا بأخذ ما قاله الرسول(ع)، فإن كان لديك رواية كهذه فعلى الرأس والعين.

(وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً{26})

وقال، النبي نوح(ع): {رَّبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {لَا تَذَرْ}، لا تترك بلا اهتمام منك، {عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ}، من المنكرين لدينك، {دَيَّاراً}، أي أحد له دار، له مساحة تدور فيها أمور حياته فيتحرّك فيها ليعمل أو يتسلّى أو يرتاح... يعني: اقطع نشاطهم بالكامل فلا تترك ولا واحد منهم. وهذا الكلام تكملة الكلام السابق بعد دعائه (ع) بزيادة ضلالهم، فالآية السابقة جاءت مستقطعة منه تعالى لكلام نبيّه(ع).

(إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً{27})
{إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ}، إن تركتهم ولم تهتمّ بمعاقبتهم، {يُضِلُّوا عِبَادَكَ}، سيجعلون الذين مفروض منهم طاعتك، سيجعلونهم يمشون على طريق الضلال. {وَلَا يَلِدُوا}، لن يخرج منهم أولاد، {إِلَّا فَاجِراً}، إلا ويوصف أولادهم بصدور أمور قوية منهم، سيقوم أولادهم بالأعمال السيئة الكبيرة ولا يرون أي شيء يردعهم، {كَفَّاراً}، وسيوصف أولادهم بالإنكار الشديد، ومن سياق الكلام تعلم أنهم سينكرون عموم ما يقوله الدين الإلهي. بناءً على خبرة تسعمئة وخمسين سنة للنبي نوح(ع) مع قومه كما ورد في الآية 14 من سورة العنكبوت {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}، يتخلّلها وصول خبر من الإله سبحانه عن نزول العذاب على قومه، مروراً بصنع السفينة لسنوات طوال، وليلاً نهاراً من دعوتهم... مع خبر آخر من الإله سبحانه للنبي نوح(ع) بأنه لن يؤمن من قومه (ع) إلا من قد آمن كما ورد في الآية 36 من سورة هود {وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ}...، وبعده قال النبي نوح(ع) هذا الكلام الوارد هنا في السورة، فطلب (ع) أن يبدأ تنفيذ إبادة الكفّار.

(رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً{28})
{رَّبِّ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي، {اغْفِرْ لِي}، فتجاوز عن سيئاتي ولا تعاقبني عليها، {وَلِوَالِدَيَّ}، أمي وأبي اللذين ولداني، أيضاً اغفر لهما فلا تعاقبهما، واغفر، {وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً}، من جاء إليّ منتسباً تابعاً لي وقد أعلن أنه معتقد وملتزم بهذا الدين فأيضاً تجاوز عن سيئاته، قد يدخل على بيتي الكفّار من أقاربي وليس بيني وبينهم مشاكل شخصية، وتكون علاقتي معهم عادية، ولكنهم كفّار بإرادتهم، وظالمون باختيار الكفر لأن الحقّ واضح... فهؤلاء لا أطلب لهم المغفرة، وأطلبها فقط للمؤمنين، ومعلوم أن المسألة ليست واسعة جداً فهي بينه وبين قومه، فالمؤمنون من قومه نفترض أنهم زاروه في بيته أو من المداومين على زيارته، وقد يكونوا مساعدين له في بناء السفينة... لا تنسَ أننا في سورة تتحدّث عن خبر إلهي بنزول العذاب على قومه(ع) لأنهم ارتكبوا السوء، وارتكاب السوء قد يحصل بالخطأ من النبي(ع) من دون قصد، وقد يقع من المؤمنين العاديين من دون قصد أو زللاً أو عن قصد ولكن يستغفرون منه، فالنجاة من العذاب الذي سينزل على المخطئين فمن المفترض أن يشمل جميع من أخطأ، ولذلك يطلب النبي(ع) المغفرة له، ولمن كان من زوّاره من المؤمنين من قومه، حتى لا يطالهم العذاب، وبالطريق يستغفر لوالديه كواجب عليه ببرّهما والدعاء لهما كلما دعاه تعالى، وبالطريق يستغفر لعموم المؤمنين عبر التاريخ. واغفر، {وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}، لعموم من أعلن الاعتقاد والالتزام بدينك في الماضي والمستقبل، فيا ربي تجاوز عن ذنوبهم. ومن المهم جداً الانتباه أنه (ع) قد استغفر لك أنت، وهذا شيء تراه عموماً في كلام الصالحين عن كل المؤمنين، ولهذا الكلام عمق تراه فيمن لم يعاصر نبياً، فهل انحرم من استغفار نبي له؟ لا، فالأنبياء لا يميّزون بين المؤمنين عبر التاريخ، ويستغفرون لهم كلهم، ويشفعون لهم كلهم. {وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ}، فالذين لم يكونوا منصفين ولا محقّين حين كفروا، فلم يكن معهم حق أن يكفروا بل ظلماً كفروا بدين الحقّ، فلا تضيف عليهم، {إِلَّا تَبَاراً}، مثلما نصف القطع الصغيرة من معدن الذهب بأنها تبر، فقط فتّت الظالمين، فأَمِتْهُم بشكلٍ يُفَتِّت كفرهم وجبروتهم وقوّتهم وظلمهم... فقد انقطع الأمل منهم نهائياً ونزول العذاب صار حتمياً. نحن أمام نموذج عن قوم كفروا، فأنذرهم تعالى برسول قام بعمل جبّار شاق دؤوب لهدايتهم، وبلا نتيجة، فلم يؤمنوا لا لأن الدين لم يكن واضحاً فها نقلت لك السورة بعضاً مما لفت له النبي نوح(ع) انتباههم لخلقتهم أطواراً، ولفت انتباههم للشمس... ولا لعطل في الرسول، ولا بظلم منه تعالى حين قرّر تعذيبهم، بل بسبب خطيئاتهم حصل العذاب وأبيدوا بالكامل غرقاً... كما رأيت في السورة بشكل واضح، فالاستغفار الجماعي يسبب نزول بركات السماء، والكفر الجماعي يسبب نزول العقاب. بقي شيء، فما الفائدة العملية من استغفار النبي لوالديه وللمؤمنين؟ إذا كان عليهم سيئات عليها عقاب، وهم ماتوا ولم يستغفروا منها، فهل تنغفر لأن النبي استغفر لهم؟ هذا هو نفسه الكلام عن الشفاعة، فلو استغفروا من سيئاتهم قبل موتهم فأصلاً سيغفرها تعالى لهم، فالشفاعة تكون عن سيئات لم يستغفروا منها أو اعترفوا بسوئها وحاولوا الإقلاع عنها... ولم ينجحوا. وبما أن ذنوبهم لم تكن من العيار الثقيل، فيأذن سبحانه للملائكة وللمؤمنين بالشفاعة لهم، وحتى هو سبحانه يشفع، ولا يبدو من القرآن أية معايير صريحة مباشرة لنعلم منها من يشفع له الإله عزّ وجلّ ولكن بالتحليل لكلام القرآن ستجد أن بعض الأعمال اعتبر سبحانه لها قيمة عالية جداً، وبالتالي نفترض أن من قام بها فسينال شفاعة الإله ذات نفسه، كالمقتول في سبيله تعالى، والمهاجرين في سبيله تعالى، والمتصدقين مما يحبون في يوم ذي مسغبة... الكلام يجر الكلام فنسأل عن إهداء الثواب، فتقوم أنت بعمل حسن، كصدقة أو قراءة قرآن أو صلاة أو صوم... وتهدي ثوابه لميّت أو لحيّ، ولم أجد لهذا الكلام تصريحاً قرآنياً بالنفي أو بالتأكيد، فالمؤكد عليه قرآنياً وبصراحة أن عمل السوء يتحاسب عليه فاعله ومسببه والمساعد على حصوله كما نفهم

من عموم كلام القرآن وخصوص الآية 25 من سورة النحل {لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗأَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ}. أمّا إهداء ثواب عمل الخير للآخرين فلم أجد في القرآن ما يشير له، بل تجد ما يؤكد العكس وكمثال عنه كلام الآية 39 من سورة النجم {وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ}، وأصلاً هذا باب ينفتح منه نقاشات لا جواب عليها، فماذا لو مات إنسان ما عن عمر مئة سنة ولم يشرك به تعالى، ولم يك من المصلين ولا الصائمين ولا المتصدقين ولا الحاجّين... وأولاده أثرياء فاستأجروا له من يصلي ويصوم ويحجّ عنه لألف سنة، وأطعموا بلادا فقيرة وأهدوا ثواب ذلك لأبيهم... لنقل أنه يوجد إنسان آخر في نفس حالته الإيمانية بالتمام، وأولاده لم يفعلوا ولا أي شيء له... فهل هناك حظوظ في الآخرة؟ بناءً على إمكانية إهداء الثواب سيجد الأول أطناناً من الحسنات الموهوبة له، وسيستفيد منها بغفران ذنوبه... والآخر لن يجد شيئاً! تذكّر أن هذا الافتراض ليس مبنياً على أي شيء قرآني، ففي القرآن لن تجد إلا الاستغفار والشفاعة، وأمّا إهداء ثواب الأعمال فهذا من تراثنا الديني، فلا حظوظ فيما يتعلق بالثواب في الآخرة.

سورة الجن (72) ص 572

تخبرنا السورة عن بعض الجنّ الذين آمنوا لنرى أنّ من يهتم بمعرفة الحقّ فسيجد طريقه لذلك، واتصال الملائكة(ع) من السماء العالية بمحمّد(ع) كان واضحًا للجنّ، ولو اهتموا بما حصل لكان دليلًا على "محمّد" كرسول للإله... لكنهم لم يؤمنوا كلّهم به (ع) كرسول...

تعرض السورة جانبًا آخر نفهمه بشكل أبسط لو استبدلنا الجنّ بكائنات واعية مفكّرة وجدناها تعيش على كوكب ما، وأديانهم وعقائدهم وطوائفهم ومذاهبهم ستكون مماثلة للبشر بما يناسب تاريخ تلك الكائنات، وسيكون بينهم موحدون صالحون، وموحدون على مذاهب وطوائف، وكافرون وملحدون ومشركون وفسقة ومنافقون... وهكذا توصّف السورة الجنّ لنرى أنّ هذا الدين الإلهي المعروض في هذا القرآن هو الحقّ، وتركّز السورة على التوحيد الذي هو لبّ الدين الإلهي، وتركّز على الابتعاد عن تقديس من مستوى إلهي لغيره تعالى، وتذكر لنا نتيجة الإيمان والكفر في الدنيا والآخرة...

السورة بلاغ إلهي للمهتمّين بالتعرّف أو بالتواصل مع الجنّ، حتى يعرفوا حقيقة الجنّ من النظرة المهمّة فعلا، وهي ما يتعلّق بالهداية لدين الحقّ.

تتوقّع من سورة تتحدّث عن الجنّ أن تجد فيها طريقة أو خيطًا للتواصل معهم، ماذا تريد من ذلك؟ وما نجده في تراث البشر عن الجنّ كان لتحقيق مطالب ورغبات دنيوية للذين خاضوا مجال محاولة تجربة التواصل مع الجنّ، وأيضا عرّجت السورة على ذلك صراحة، وفي بقية ثنايا كلامها تقويم لهذا التفكير.

خبر القرآن عن الجنّ محفّز لفضولنا للتعرّف عليهم ومحاولة التواصل معهم... لِيَكُنْ محتوى هذه السورة مُقَوِّمًا لذلك حتى لا يدفعنا فضولنا إلى مجالات تتعارض مع الهداية...

قيل إنّ هذه السورة نزلت بعد سورة الأنعام لأنها تقول إنّ الجنّ سمعوا من القرآن أنه تعالى لم يتّخذ صاحبة، ولم يرد كلام في القرآن عن صاحبة إلّا في سورة الأنعام مما يرجّح ما قالوه.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً{1})

{قُلْ} للناس يا أيها النبي محمد(ع) عبر هذا القرآن:

{أُوحِيَ إِلَيَّ} وصلتني معلومات إلى وعيي وفكري بلا كلام أسمعه بأذني، قل وصلتني معلومات إلى وعيي، {أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ} أشخاص نفروا فتحركوا لهدف، وسترى أنهم تحركوا بهدف مراقبة النبي محمّد(ع)، {مِنَ الْجِنِّ} من الكائنات التي تسمّى جنّ، وهم مخلوقون من نار كما تعلم من عموم القرآن ومنه صريح الآية 15 من سورة الرحمن "وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ"، {فَقَالُوا} الجنّ: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا} شيئًا تتم قراءته، {عَجَبًا} نراه غير عادي.

إذًا في مرّة من المرّات التي كان النبي محمّد(ع) يقرأ القرآن، سمعه بعض الأفراد من الجنّ، وسترى من بقية السورة ما يشير إلى أنّ بعض الجنّ تتبّعوا مسار الملائكة(ع) النازلة بالوحي، ووصلوا إلى النبي محمّد(ع)، وسمعوه يقرأ القرآن.

ننتبه جيدًا، فالنبي محمد(ع) لم يرهم، ولم يسمعهم، بل علم من الله تعالى عبر هذه السورة بأنهم كانوا بقربه يستمعون إليه يقرأ القرآن.

من القرآن نتذكّر أنّ الجنّ خلقهم تعالى قبلنا من النار كما ورد في الآية 27 من سورة الحجر "وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ"، وفيهم ذكور وبالتالي فيهم إناث كما سيرد في الآية السادسة من هذه السورة، وهم يتزاوجون ويلدون كما ورد في الآية 50 من سورة الكهف التي تكلّمت عن أولاد لإبليس "...فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ... أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ..."، وفيهم المؤمنون وفيهم الكافرون، وإبليس منهم كما هو واضح من الآية ولديه أعوان منهم...

أمّا بالنسبة لما هو منتشر بين الناس عن رؤية بعض البشر للجنّ، وكلامهم معهم واستخدام الجنّ وتسخيرهم... فلم يرد في القرآن إلا تسخيرهم للنبي سليمان(ع)، ولم يرد في القرآن أي شيء آخر غير أنّ الأشرار منهم يوسوسون للناس كما يفعل إبليس، ولم أصادف ولا مصدرًا موثوقًا، ولا شخصًا موثوقًا يمكن الاعتماد عليه لتصديق ما هو منتشر بين الناس عن رؤيتهم للجنّ أو تسخيرهم.

ستجد في هذه السورة بعض الكلام حول هذا الموضوع، وسترى أنّ التعامل مع الجنّ ليس فيه أي فائدة لنا، فهم أقوى منّا بكثير، وليس لديهم القدرة على التعامل معنا بشكل مباشر إلّا بالوسوسة، وهذا واضح جدًا من حياتنا اليومية التي لا نرى فيها أثرًا ملموسًا لهم بالرغم من وجود شياطين بينهم، ووجود فاسدين وكافرين... فلو كان لديهم القدرة على الاحتكاك بنا فما الذي يمنع الفاسدين الطائشين منهم من الاحتكاك بنا؟

بالنسبة لكلمة {قُرْآنًا} فمعناها: الشيء المقروء، الشيء القابل للقراءة للتكلّم به. فأيّ مصدر "كتاب أو وحي أو نقلٌ عن شخص ما..." ويمكنك التكلّم بالمعلومات التي فيها أو منه، ويمكنك فهم المعلومات بلغتك حتى لو قرأتها بعينيك فهي: قرآن. صارت هذه الكلمة اصطلاحًا خاصًا بالكلام الإلهي الذي نزل على النبي محمّد(ع)، ولكنها عامّة لكل ما يمكن قراءته، فالآية الواحدة قرآن، والسورة قرآن، وكلّ "المصحف" قرآن. وعندما قال الجنّ إنهم سمعوا القرآن، فهذا لا يعني أنهم سمعوا كلّ ما نزل على النبي محمّد(ع) في كل حياته، بل سمعوه يقرأ مما يوصف بالقرآن، سواء آية أو آيات أو سورة أو سور... فكلها قرآن.

الوحي هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع يصدر مباشرة من القائل، سواء أكان خيرًا أم شرًا، وبناء عليه فكل أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وحيًا لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، وترى ذلك في الآية 51 من سورة الشورى "وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ"، وحتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال "إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...".

ينطبق فعل الوحي على أي كائن كان "إنسانًا حيوانًا مَلَكًا أو جنًّا" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم.

طرق فعل الوحي أنواعها متعددة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم "فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا". ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا"، وما ورد في الآية 193 و 194 من سورة الشعراء "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ". أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات "فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ..."، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل كما هو مشهور في تراثنا الديني. ووحي عبر إصداره تعالى صوتًا في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص "فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ"، مضافًا لها الآية 13 من سورة طه "وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى"، فكلامه تعالى معه(ع) وحي لأن

الكلام ليس صادرًا مباشرة منه تعالى فهذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، ويصير وصف الحالة أنّ كلامي يصلك وحيًا.

هناك وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ"، ففي النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

الوحي يصدق على وحي الخير والشر، فالشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام "وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا..." ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... فالوسوسة في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيرًا أو شرًا فهو وحي.

(يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً{2})

الشيء المقروء الذي سمعناه، {يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ}، يضع على الشيء الصحيح الذي يوصل إلى الغاية الصحيحة، يضع على الرشد على التفكير والعمل الصحيح السليم على تمام العقل والمنطق السليم، وبناء عليه، {فَآمَنَّا}، وصرنا في حالة الاعتقاد والالتزام بما سمعناه من قرآن، {وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا}، لأنّ المسؤول عنّا من مستوى إلهي لن نجعل أي أحد له شريكًا في الربوبية، كائنًا من كان.

القرآن رسالة واضحة من الإله سبحانه لعباده، فبكلامه يدل على الأشياء الصحيحة التي توافق التفكير السليم، واختراع الآلهة والأرباب ما هو إلا تخريف من الأوهام، ولذلك أعلن هؤلاء الجنّ أنهم موحّدون...

كما ترى، فمن هذه الآية والتي تليها ومن عموم كلام القرآن عن الجنّ، يمكنك الفهم منها أنّ من أشرك به تعالى من الجنّ فبشكل مشابه لشرك البشر، فيبدو أنّ نوعية عقلية الشرك واحدة بين مشركي الجنّ ومشركي الإنس، وهي عقلية اختراع الآلهة والأرباب من الأوهام والخيال، ولكن لا يمكننا الذهاب بعيدًا في الاشتقاق لنقول إنّ لديهم أصنامًا وتماثيل يعبدونها، لأنّ هذا شيء لم يذكره القرآن، وليس معلومًا لنا طبيعة عالمهم إن كان فيه شيء كالتماثيل.

(وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً{3})

ومن القرآن الذي سمعناه علمنا، {أَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا}، {رَبِّنَا} أي المسؤول عنّا من مستوى إلهي، يوصف بأنه {تَعَالَى}، {جَدُّ} حقيقته الواقعية أعلى من جدّ غيره، وحقيقة وواقع غيره تكون تحت وأقل من صفة الجدّ عند ربّنا سبحانه، وسيأتيك بعض الكلام عن معنى كلمة جدّ في آخر دراسة الآية.

{مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً}، لم يحدّد أو يعيّن من مخلوقاته أنثى لتكون صاحبة له تعالى، مرافقة زوجة عشيقة... {وَلَا وَلَدًا}، لم يحدّد من مخلوقاته واحدًا كولد له.

لاحظ وانتبه لدقّة التعبير الذي ينقله القرآن عنهم، لأنّ هؤلاء الجنّ بالعقلانية فهموا أنّ طبيعة الإله حتمًا مختلفة عن طبيعة مخلوقاته، إذ لا يوجد في الدنيا إلا الإله ومخلوقاته، وبالتالي ما معنى ما يقوله البعض عن صاحبة له تعالى وعن ولد له تعالى؟ هل هناك إلهة أنثى؟ لا، إذ لا أثر لها. وهل هناك ولد إله؟ لا، إذ لا أثر له. بقي الكلام عن "اتّخاذه" تعالى زوجة أو ولدًا من مخلوقاته، هل لهذا معنى؟ لا، بل هو مجرد اختراع من أوهام الناس.

نحن بالتساهل في فهم معاني كلامه تعالى سنردّ على الذين قالوا إنّ الإله عنده صاحبة أو ولد ونقول إنّه لم يخرج منه تعالى شيء كنسخة إلهية عنه ليكون ولدًا، أو نسخة عن صفاته بمستوى إلهي، أو يحمل من صفاته تعالى بالاشتقاق التكويني مثلما نحن نورّث الدنا "DNA"، إذ لا يوجد كائن مشتق منه تعالى بتكوينه، لأننا نلد وهذا يعني أنّه منّا خرج شيء وصار كيانًا يشبهنا، وهذا لا ينطبق عليه عزّ وجلّ. وسنحصر كلامنا عن الولد لأن الكلام عن أنثى صاحبة له تعالى سخيف تافه يجعله تعالى بطبيعة لا تناسب أبدًا بتاتًا صفاته الفائقة.

إذًا، ما معنى أن يكون سبحانه له ولد منه؟ وما معنى خلقه تعالى للمخلوقات؟ ومن أين وكيف سيكون له تعالى ولد إن كان خلقه لأي مخلوق هو نفسه، خلق.

هكذا ترى قفز الآية هنا عن هذا الكلام، وتوجّهها فقط نحو الاحتمال الذي فيه نظرة ما، فقيل إنّه تعالى خلق كائنًا مميزًا واتّخذه ولدًا، فاعتبره ولدًا له، وهذا كلام منمّق ولا معنى له أيضًا، ما معنى هذا الاعتبار وماذا سيغيّر من الواقع؟ هل سيصير الولد إلهًا؟ وبماذا سيتميّز عن المخلوقين الآخرين؟ بالقدرات أو بالقيمة الاعتبارية؟ وهكذا ترى أنّه كلام لا معنى له، وخاصّة مع وضوح اختراعهم لهذا الكلام ونسبته له تعالى، من قبل الولد الذي قالوا عنه، ما حال المؤمنين الملتزمين بدينه تعالى السابقين على ولادة هذا الولد؟ هل كان إيمانهم ناقصًا؟ وما معنى كتبه تعالى التي نزلت سابقًا وتأمر بتوحيده؟ وما معنى هذا القرآن المؤكد لتوحيده تعالى؟

إذا ذهب فكرك إلى المسيحيين الذين اعتبروا النبي عيسى(ع) ولدًا له تعالى، وبالتالي صارت السيدة مريم(ع) صاحبة له تعالى، فهما نموذجان متضمنان بكلام الآية لمن كان من المسيحيين يعتقد بهذا الشيء، لأن أديانًا أخرى عديدة اخترعها الناس وتتضمّن نفس الكلام.

لاحظ في أشعار العرب قبل الإسلام أنك لا تجد استعمال كلمة جدّ بمعنى العظمة بشكل صريح كما قالوا في بعض التفاسير، بل تجدها بمعنى الواقع والحقيقة، في مقابل الهزل والخيال والتوقعات... مثلما نقول نحن: عن جدّ عم تحكي؟ إذا جدّ الجدّ... وهكذا تصير الآية بالعامية: عن جدّ ربنا... لم يحدّد لنفسه من مخلوقاته صاحبة.... وتلاحظ في كتب التفاسير أنهم فسّروا كلمة "جدّ" التي وردت في الآية هنا بالعظمة، والله فعلًا عظيم وصف نفسه بذلك مرارًا، فلن تجد مشكلة في جعل كلمتي "جدّ وعظيم" مترادفتين، ولكن من مشتقات الكلام عن جدّه تعالى، عن حقيقته الواقعية، أنّه عظيم، وليس معنى كلمة جدّ أنّه عظيم.

نلاحظ أنّ الآية الوحيدة في القرآن التي تحدثت عن الصحبة لربنا هي في سورة الأنعام الآية 101 "بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"، مما يعني أنها من ضمن السور التي سمعها الجنّ من قبل نزول هذه السورة.

(وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً{4})
{وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا}، وهم جماعة من الجنّ الذين قولهم لا ينبع من تفكير سليم وليس فيه منطق، وعن بساطة وخفّة في التفكير يقولون، وتتذكّر أنّ السفاهة تتدرّج من البساطة في العقل، إلى اختيار أن لا نستعمل العقل، وهذا أحيانًا نسمّيه بتعبيرنا الدارج: سخيف. وينتج عن السفاهة كلام فاسد أو قلة أدب أو...

{عَلَى اللَّهِ شَطَطًا}، كلامًا يبتعد عن الوصف الصحيح فيبتعد عن الحق، لأنّ هناك من يخترع ويؤلف من عنده ولا يقول الصواب والحقيقة عن الله تعالى.

الجنّ المؤمنون يقارنون بين ما سمعوه من قرآن وبين ما سمعوه من الجنّ المشركين، وكانوا أصلًا يعتبرون الشرك سفهًا وشططًا، وبعد سماعهم للقرآن صار لديهم مستند يؤكّد أنّ كلام الشرك والأوصاف السيئة له عزّ وجلّ، هي سفه وخفّة عقل وسخافة، وشططٌ، ابتعادٌ عن الحقيقة الإلهية.

حين تقرأ هذه السورة لا تشعر بأن الجنّ يتحدثون إليك بشكل صريح ويخبرونك بما جرى معهم وعن بعض أحوالهم، وتلاحظ أنهم أيضًا لا يتحدثون مع جنّي آخر بشكل صريح، إذ الجمل قصيرة ولكنها ليست موجّهة لشخص محدّد يسمع من الجنّ أو من الإنس، وتلاحظ أيضًا أنها لا تبدو كلامًا موجّهًا له تعالى من الجنّ، وكما ترى فعلى ما يبدو أنّ القرآن نقلها لك بهذا الشكل لأنها جمل تصف الحال، مقول الحال، وواقع حالتهم هذه ينقلها القرآن بجمل. وهذا مشابه لاستعادة وتذكّر عرض الأفكار، كحديث بين أصدقاء يتذاكرون ما حدث معهم، مع إضافة بعض التحليل، مثلما تجلس مع أصدقائك وتتحدثون عن حادثة جرت معكم في السابق، وتقومون بالتعليق عليها... الحدث الأساسي هو سماع النفر من الجنّ للقرآن، ومن بعدها جرت جلسات بينهم وتداولوا فيها الحديث عن القرآن وما سبق سماعه من قومهم مع تحليلهم وتعليقاتهم على ما جرى وعلى حالتهم... صاغ القرآن حالتهم بجمل وعرضها علينا نقلًا عن لسانهم، لأنها لسان حالهم، فهي وصف حالتهم، وهي من أقوالهم ومن أفكارهم ومن واقع حالهم.

(وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً{5})

{وَأَنَّا ظَنَنَّا}، كان لدينا اعتقاد يستند على علم "وسيتبين لك أنه استناد لعلم غير صحيح"، {أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ}، المنسوبون لنوع الإنسان، {وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}، كلامًا غير صحيح، كان هناك توافق في الآراء بين جماعة من البشر مع جماعة من الجنّ في الشرك، ويبدو أنهم كانوا مثل بعض المسيحيين الذين جعلوا السيدة مريم(ع) صاحبة له عزّ وجلّ، وجعلوا ابنها ولدًا له عزّ وجلّ، والتوافق بين صنفين من المخلوقات على نفس الكلام، جعل الجنّ يظنّون أنهم لا يكذبون وأنها حقيقة.

تصوّر الآن أننا تعرّفنا على كائنات تعيش على كوكب آخر، وعلمنا أنّ لديهم جماعة توافق في عقيدتها جماعة ما من البشر، لنقل إنهم يؤمنون بأن الإله عنده صاحبة وولدٌ، ستعتبر هذا دليلًا على صحّة هذه العقيدة، بسبب الانفصال التام بيننا وبين ذلك الكوكب، مما يعني أنّ الإله سبحانه هو قال نفس الكلام لأهالي الكوكبين، وبالتالي ستعتقد أنّ هذا الكلام صحيح، وهذه حالة هؤلاء الجنّ الذين وجدوا بين البشر مجموعات تتوافق عقيدتها مع مجموعات من الجنّ، فظنّوا أنّ كلا المجموعتين من صنفين مختلفين من المخلوقات لن تكذب عليه تعالى وتنسب له صاحبة وولدًا، ولكن تبيّن لهم بعد سماعهم للقرآن أنّ هذا التوافق في العقيدة بين مجموعات من البشر مع مجموعات من الجنّ، لا قيمة له ولا يدلّ على أي شيء صحيح.

"الظنّ" هو اعتقادك بشيء ما مستندًا إلى شيء ما، فإن كان ما تستند عليه صحيحًا كان ظنّك صحيحًا، وهذه حالة المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم سبحانه كما ورد في الآية 46 من سورة البقرة "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"، فهم مستندون في ظنّهم على آياته وكلامه تعالى. وإن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران "... وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ..."، واستنادًا للحالة الحرجة التي كانوا فيها ظنّوا أنّه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء. وبين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند عليها ولكنه ليس مقتنعًا بها، فلا تزال الأمور عنده مرجّحة لاحتمالات أخرى، فهذا ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية "وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ"، فهم يريدون أن يلمسوا مباشرة حصول ساعة قيامهم من الموت حتى يعتقدوا بها ولا يكفيهم الاستناد إلى معلومات تدلّ عليها، فيريدون اليقين بها عيانًا حتى يؤمنوا. وهذه الحالة قريبة جدًا من الاصطلاح "في علم المنطق" والدارج لمعنى كلمة ظنّ على معنى وجود عدة احتمالات. وها صرت تعلم المعنى اللغوي الأساسي لكلمة "ظنّ" فانتبه للفرق بينه وبين المعنى الاصطلاحي حتى لا تفسّر القرآن على أساس المعنى الاصطلاحي.

في عموم كتب التفاسير ستجد كلامًا آخر عن الظنّ، ولا ينطبق معناه على كلّ آيات القرآن، ستجدهم لا يثبتون على معنى واحد للظنّ، حيث مرة يرادفونه باليقين، ومرّة بالشك، ومرة بالحسبان... وهي معاني غالبًا ستجدها صحيحة لأن الآيات واضحة وتدل على المعنى الذي ذكروه بالشكل العمومي الذي يتحمله الاشتقاق والتدرّج من أصل معنى كلمة ظنّ، ولكنها ليست المعنى الدقيق لكلمة ظنّ، بل كلامهم توصيف لحالة العلم الذي استند إليه الظنّ، وها صرت تعلم معنى الكلمة العام، وأن القرآن دائمًا يوضّح لك نوع العلم الذي يستند الظنّ له إن كان صحيحًا أو فاسدًا، فلن تضيع في معرفة الظنّ الصحيح من الظنّ الخطأ.

(وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً{6})
{وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ}، على أساس أنّ الجنّ سيمنعون عنهم شيئًا ما، فيلجؤون إليهم للحماية على أساس أنّ للجنّ قوى عظيمة تحميهم، {فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}، فرجال الإنس بالأصل كانوا رهقًا فكانوا في حالة سيئة متعبة من شيء ما، والتجاؤهم إلى الجنّ لم يحل المشكلة بل زاد من الحالة السيئة التي عند البشر الذين تعوّذوا فالتجؤوا للمنعة للحماية التي سيؤمنها لهم الجنّ.

عطفًا على الكلام السابق من توافق بعض جماعات الجنّ والإنس على نفس العقيدة المخالفة للقرآن، فهنا يتحدّث الجنّ المؤمنون عن نوع آخر من التواصل والتعامل بين مجموعات من البشر مع مجموعات من الجنّ، ونتيجته تلاعب من الجنّ بمن عاذ بهم من البشر، فبدل أن يساعدهم الجنّ فقد تسلّوا بهم وزادوهم رهقًا.

قارنها مع العياذ بالله تعالى ونتيجته، فالإيمان به تعالى مانع لما تكره، فله نتيجة، وهؤلاء تركوا العياذ به تعالى وعاذوا بالجنّ.

من أبرز مصاديق الرهق وتلاعب الجنّ ببعض الإنس هي تصوّر بعض الناس أنهم بإمكانهم تسخير الجنّ ليكونوا كالعبيد عندهم، فيأمروهم بتنفيذ أمور عادية أو خارقة، من قطع المسافات بلحظة وإخراج الكنوز وجلب الغائب والحبيب، وتزويج العانس... والشفاء من الأمراض، والانتقام من الآخرين وأذيتهم... وكلّ هذا كلام فارغ سخيف، فترى الذي يذهب الناس إليه للشفاء عن طريق الجنّ والأرواح والملائكة(ع) والقرآن والتعاويذ والحجابات والتمائم... تراهم هم أنفسهم الذين قصدوهم ليشفوهم يمرضون! بل أولادهم وأحباؤهم مرضى! ولو لاحظت ما يفعلونه من صيام عن اللحوم وخلوات في غرف منعزلة... وبخور بأثمان مرتفعة... وقارنتها بالنتيجة التي يحصلون عليها من الجنّ، لوجدت أنهم في حالة الرهق المضاف إليه رهق التعامل مع الجنّ الذين بشكل أو بآخر يتلاعبون بالإنس ويجعلونهم يتوهمّون بأن الجنّ صاروا عبيدًا عندهم!

أكرر لك يا عزيزي، إنّ الآية هنا ليس هدفها الكلام عن تحضير الجنّ وتسخيرهم، بل قارنت مع الآية السابقة بين توافق بعض الجنّ والإنس في الشرك، ودلالته "الوهمية" على صحّة شركهم، وبين تعامل "بشكل ما" بين الجنّ والإنس، وأنه تعامل غير مفيد وبدون نتيجة جيدة منه، بل نتيجته مزيد من الرهق، فتوافق أو تواصل البعض من الجنسين ليس دليل خير بل شرك باطل أو كلام تافه ورهق...

تلاحظ أنّ الآية تشير لرجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ... ولم تعمّم للإناث علمًا أنّ البعض من الإناث من الإنس أيضًا يعوذون بنساء أو برجال من الجنّ، فالآية على التعميم الذي لا تحتاج معه إلى التفصيل، لأنّ المتكلمين رجال من الجنّ ويقارنون بين حالتهم كرجال آمنوا وبين حالة رجال من الجنّ والإنس.

بقي شيء، فرغم وضوح آيتنا هنا عن نتيجة محاولة تواصل الإنس مع الجنّ للاستفادة منهم، أنها لن تزيدنا إلّا رهقًا، فرغم ذلك ترى الكثيرين مصرّين على هذا الطريق؟ وإذا فتحت أي كتاب عن تحضير الجنّ، وقرأت فهرسه، فستجد كل رغباتنا مذكورة فيه، بل فيهم رغبات لم تخطر ببالك، وهكذا ترى سبب تعلّق الناس بهذا الطريق الذي لم يؤدّ ولن يؤدّي إلى أي نتيجة مرجوّة، وكلام الناس عن نتائج إيجابية من تحضير الجنّ، ما هو إلّا هراء وكذب، وللأسف تسمع الكثيرين يتحدّثون عن حوادث وقصص لها علاقة بالجن والسحر والشعوذة... وعن إيمان بصدقها، وهي إمّا منقولة عن كاذبين أو سفهاء أو خرفين أو متوهمّين... أو مبالغات... ولو تتبعتها لتتأكّد بنفسك من صدقها فلن تجد إلّا الهواء، ولن تلمس شيئًا، وانتبه أنك لن تقبل بهذا الواقع إن كانت لديك رغبة بشيء ما ولست متمكّنًا من تحقيقه، ويقولون لك إنّ الجنّ يمكنهم فعلها لك.

أمّا بالنسبة لما جرى في عهد النبي سليمان(ع)، فراجع الآيات التي تحدّثت عن ذلك في دراستنا هذه لترى أنّ تسخير شياطين الجنّ كان له (ع) حصريًا، ومن غير المعلوم إن كان بقية الناس رأوهم أو تعاملوا معهم في حينها...

للأسف تجد علماءَ كبارًا محترمين مرموقين إيمانيًا وفكريًا وقعوا في فخّ تحضير الجنّ على أساس الاستفادة منهم بتسخيرهم! والنتيجة معلومة: لا نتيجة.

على أي حال، إنّ كلام القرآن عن الجنّ يستفز الفضول فينا، وما سبق في التاريخ من محاولات للتعرّف عليهم والتواصل معهم كان على الطريقة التي تعرفها من بخور وتلاوة عزائم للاستفادة من قدراتهم ولتسخيرهم. الآن حان الوقت لرمي كل ما سبق والتعامل مع هذا الموضوع بعقلانية، واعتماد القليل الذي جاء في القرآن عنهم لمحاولة التعرّف عليهم كفضول معرفي، ولكن ليس عبر الأساليب القديمة، بل عبر مراكمة معلومات تجريبية عن طبيعة المادة التي يتكونون منها والمختلفة عن مادتنا الطينية، وهذا مجال حاول البعض الدخول فيه عبر دراسة الموجات الكهرمغناطيسية... ولم يصلوا إلى نتيجة، ومن يدري ربما إذا تطوّرت علومنا أكثر فسنلمس للجنّ أثرًا تجريبيًا مباشرًا.

أكرّر لك، إنّ الدخول إلى هذا العالم لن يحصل إلّا بالعقلانية، وأي محاولة للدخول فيه بعقلية ما هو موجود في كتب السحر والشعوذة فهو خطير إيمانيًا، وورد التنبيه الخطير عن ذلك في الآيتين 101 و 102 من سورة البقرة "وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ،

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ..."، فراجع دراسة تلك الآيات لترى أنّ العناوين التي تدفع بعض الناس للتواصل مع الجنّ هي عناوين سيّئة، فهم إمّا طالبون لحصول أمور سيئة لينفّذها الجنّ لهم، أو محاولون إشباع رغباتهم وهواهم بطرق ملتوية، أو محاولون إلغاء سنّته تعالى في دنيا البلاء طالبين الصحة وطول العمر والمال وأن يحبّهم الناس... تاركين كتابه تعالى كدستور للحياة، ومتعلّقين بكتب تحضير الجنّ، بل جاعلين آياته تعالى من قرآنه تعاويذَ لتحضير وتسخير الجنّ!

بقي شيء، معلوم من عموم القرآن أنّ الجنّ يروننا، ومعلوم أنّ شياطين الجنّ لديهم قدرة الوسوسة لنا في وعينا، ونشعر بوسوستهم كأفكار تخطر على بالنا، ولكن ليس لديهم قدرة فرض ما يريدونه علينا فلا يمكنهم التلاعب بعقولنا لنأخذ قرارًا هم يريدونه، فوسوستهم في فكرنا مشابهة لوسوسة الواحد من البشر للآخر بالكلام في أذنه، وهذا ما عناه القرآن حين نفى سلطة الشيطان على البشر كما تفهم من الآية 42 من سورة الحجر "إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ" وغيرها عدة آيات تؤكد بأن من بدأ بسماع الوسوسة الشيطانية وتنفيذها، فمع تمرّسه على التنفيذ يصير تابعًا للشيطان، وهكذا يتحكم به الشيطان عبر الوسوسة التي ستتنفّذ فورًا...

الذين يقومون بطقوس شعوذات تحضير الجنّ لتسخيرهم أو لاستعمالهم أو لطلب المعرفة منهم... هم أصلًا واقعون تحت تهديد وسوسة شياطين الجنّ لهم، فهي حالة عادية لتواصل شياطين الجنّ معنا عبر الوسوسة في أفكارنا، وأنا الآن إذا بدأت بشحذ الأفكار السيئة عن أشخاص أزعجوني بتصرّف ما، وصرت أفكر بالانتقام منهم بطرق سيئة... فأنا في حالة تحضير للشياطين من دون بخور ولا تلاوة عزائم.

الآن أضف على هذا بخورًا يسبب لي الهلوسة من المواد التي فيه، أو تحصل الهلوسة بسبب نقص الأوكسجين في الدم بسبب تنشق البخور مع الهواء... وأضف لهذا توقعاتي وخيالاتي وآمالي... فالنتيجة خبيصة من خيالات أظن أني أراها... ومضافًا لها ما يمكن لشياطين الجنّ فعله من الوسوسة في أفكاري...

أكرر لك مؤكّدًا عن تجربة أنّ هذا الطريق للتواصل مع الجنّ هو مضيعة للوقت وليس منه نتيجة عقلانية، فبغض النظر عن أحلام تسخير الجنّ لتحقيق أحلام بشرية... التواصل مع الجنّ كمخلوقات غريبة عنا كان حلمًا لي... وللأسف كل ما هو بين أيدي الناس عن التواصل مع الجنّ ليس إلّا ما تقوله الآية هنا، {فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}، فلحدّ الآن ليس لدينا قدرة على التواصل معهم، لرؤيتهم أو لسماع كلامهم أو لرؤية عالمهم.... ولا لحد الآن هم لديهم قدرة على التواصل معنا إلّا عبر الوسوسة، وربما في المستقبل سنتمكن نحن من فتح نافذة مع عالمهم، أو هم سيتمكّنون من فتح نافذة مع عالمنا لنراهم، ولكن حتمًا وبالتأكيد لن يحصل ذلك عبر البخور وتلاوة العزائم والطلاسم.

(وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً{7})
لا يزال الكلام نقلًا عن جنّ سمعوا القرآن ويتحدّثون مع بعضهم:

{وَأَنَّهُمْ}، الإنس، ظنوا، اعتقدوا استنادًا لعلم "غير صحيح"، كما {ظَنَنْتُمْ}، أنتم أيها الجنّ، {أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا}، فقالوا إنّه لن ينهض رسول من عنده تعالى. ولمزيد من التوسع حول كلمة "ظن" راجع دراسة الآية الخامسة.

ضمنيًا هذا الكلام يعني أنّ رسولًا "جديدا" بعثه تعالى، وعموم الجنّ ظنّوا أنّه لن يأتي رسول جديد، مثلما ظن اليهود رافضين الرسول عيسى(ع) ومثلما كلاهما رفضا الرسول محمد(ع)، فهذا شيء مشترك بين الجنّ وبين عموم الإنس الذين ظنّوا أنّه تعالى لن يبعث رسولًا، فما بين أيديهم من عقائد وأديان مختلفة فهو الوضع القائم الذي عليهم الاختيار منه إذا لم يأت رسول إلهي ناقل لدينه تعالى بالحقّ.

(وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً{8})
{وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ}، لم يخبرنا أحد عنها بل قمنا بأنفسنا بالتحقّق منها، وسترى من بقية الآيات أنها سماء الملائكة العالية(ع) التي كان الجنّ يقتربون منها في السابق، {فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا}، حرّاسًا من الملائكة(ع) الشديدة القوية يقومون بمنع الجنّ من الاقتراب أو من دخول السماء العالية، ومُلِئت {شُهُبًا}، مقذوفات نارية مشتعلة.

عادة يذهب فكرنا للسماء السابعة على أنها سماء الملائكة، ولكني لم أجد في القرآن أي تفصيل عن ذلك، وبالتدقيق حتى السماء التي نراها ليلًا وفيها النجوم والمجرات فلن تجد في القرآن تصريحًا بأنها أول سماء، وعلى أساس يليها ست سماوات، فهذه تفاسير من معطياتنا نحن لتحديد المصاديق وليست تصاريح قرآنية صريحة، وهذا ما نفسّر به الآية 12 من سورة النبأ "وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا"، فانتبه إلى أنّ التصريح القرآني مختلف عمّا تعارفنا عليه ومنه كخلفية نفسّر القرآن، فغير معلوم أي سماء يحاول الجنّ الاقتراب منها إن كانت السابعة أو السادسة أو الخامسة...، وحتى من غير المعلوم إن كانت سماؤنا بمجراتها هي السماء الأولى بالترتيب المطلق، فهي ربما الأولى بالنسبة لنا، وربما السابعة بالنسبة لسكان سماوات آخرين، أطلت عليك لتنتبه من أي تحديد لأي سماء أنها السابعة أو الأقل منها... لأنني لم أجد تصريحًا قرآنيًا بذلك، وأي كلام عن ذلك فهو من الروايات أو من التخمينات.

هنا ننتبه، فهذه السماء يسكنها نوع من الملائكة "العالية"(ع)، والجنّ يمكنهم رؤيتهم وسماعهم، ووجدوا على تلك السماء ملائكة(ع) للحراسة بشكل فوق العادي في فترة ما، فوجدوا ملائكة تمنع الجنّ من الاقتراب من تلك السماء، ومن يصرّ على الاقتراب فإن الملائكة تقذفه بالشهب، وسترى من بقية الآيات تفاصيل أكثر.

ولكن قبل ذلك لنضع في بالنا أنّ هذه السماء ليست سماءنا نحن التي نراها في النهار زرقاء أو المليئة بالنجوم ليلًا، فنحن لا نرى الملائكة ولا نرى الجنّ، وكذلك نحن لا نرى تلك الشهب التي ترميها الملائكة على الجنّ، فكلمة شهب نصف بها عموم ما له نار أو ضوء ممتدّ، فنقول إنّ النار تشهب، وورد هذا الاستعمال في الآية 7 من سورة النمل "إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ"، وغالبًا نستعملها لوصف المقذوفات التي يمتد خلفها ضوء أو نار، فنستعملها للأحجار وكتل الغاز المتجمّد التي تخترق غلاف الأرض وتحترق فيه بحيث نرى لها ذيلًا، فهذه شهب نراها، ولكنها غير الشهب التي تقذفها الملائكة على الجنّ، فتلك الشهب نحن لا نراها لأنها تحدث في سماء لا نراها وبين كائنات لا نراها.

أكرر لك يا عزيزي، لو كان في سماء الجنّ شيء له سطح وقوائم يضعون الأشياء عليه، فهو باللغة العربية توصيفه: طاولة. أنت لم ترها وليست من خشب، ومن المفروض أن تكون مادّتها النار، ولكنها طاولة... ولو كان عند الجنّ مدفع وقذيفة، فلن تكون من نفس مادة قذائفنا، ولكن بما أنها مقذوفة فيجري رميها بسرعة من مكان لآخر، فوصفها باللغة العربية أنها قذيفة... وكذلك الشهب، فأي مقذوف مشتعل، في عالمنا ومن المواد التي نعرفها نحن، أو في عالم الجنّ ومن موادّ عالمهم، فطالما هو شيء له ذيل من النار أو نور، فوصفه أنّه شهب، فالشهب التي تتحدّث عنها الآية هنا ليس المقصود بها الشهب التي نراها في سمائنا، بل شهب في سماء أخرى، ونوع مادّة تلك الشهب مختلف عن شهبنا ولكنهما بنفس المواصفات: مقذوفات لها ذيل من النار أو نور.

(وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً{9})
{وَأَنَّا} نحن الجنّ، {كُنَّا} قبل الآن، {نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ}، نقترب من تلك السماء ونقعد في أماكن مناسبة لسماع الكلام الذي يدور في تلك السماء، ومن عموم القرآن ومما سيلي من آيات سترى أنّ الجنّ كانوا من قبل يقتربون من سماء الملائكة العالية(ع) ويسمعون أحاديثهم، والآية هنا بتعبير دقيق تخبرنا أنّ اقتراب جنّي ما من تلك السماء لا يعني سماعه لكل الكلام الذي يجري فيها، بل نفترض أنّه في النقاط المختلفة يسمع كلامًا مختلفًا بين ملائكة(ع) قريبة من مكان قعوده.

{فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ}، الذي يقترب لدرجة تمكّنه من سماع كلام يجري بين الملائكة في تلك السماء، الآن، في زمن نزول القرآن، {يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا}، يجد شيئًا له ذيل من شعلة "مقذوفًا مشتعلًا يصير له ذيل عند قذفه" بانتظار حركته حتى يتوجّه نحوه. تتذكّر أنّ النار تشهب وهي ليست مقذوفة فالوصف بالشهب للذيل، وهنا الكلام عن مقذوفات جاهزة للرمي.

من قبل كان الجنّ يقتربون من سماء الملائكة العالية، ويسمعون بعض الكلام الذي يجري هناك، والتوصيف يوحي لنا بأنهم أصلًا ممنوعون من دخول تلك السماء، وممنوعون من الاقتراب منها كثيرًا، ولكن بشكل أو بآخر بقيت بعض

الأماكن القريبة من تلك السماء، فبقيت صالحة للقعود فيها لسماع كلام الملائكة(ع) التي نفترض أنها (ع) تمرّ قريبة من تلك المقاعد، ونقول نفترض لأننا نقيس حالتهم على حالتنا لو كان هذا سيحصل في عالمنا عند محاولتنا استراق السمع.

وفي فترة ما، لاحظ الجنّ تغيرات، فلاحظوا حرسًا شديدًا يمنعهم من الاقتراب نهائيًا من أي نقطة يمكنهم فيها سماع كلام الملائكة العالية(ع)، فصاروا معزولين تمامًا عن السمع، ويبدو واضحًا أنّ شيئًا مهمًا جدًا يجري، لأن الحراسة مشدّدة بشكل غير عادي، والشهب تملأ المكان، وبمجرد محاولة الاقتراب ولو من بعيد، فإن شهابًا ينطلق باتجاه الجنّي الذي يحاول الاقتراب من تلك السماء.

وكما ترى فهذا خبر استفزازي لفضولنا، فكيف يمكن الوصول إلى تلك السماء؟ فهي سماء غير سمائنا، والقرآن فيه الكثير من الأخبار الاستفزازية للفضول والمعرفة، ومنها كلام بشري مع الطيور والنمل، ومنها نقل عرش من سبأ إلى أرض كنعان بأسرع من رمشة عين، ومنها هنا الكلام عن الجن وعن سماء الملائكة التي يستطيع الجن الوصول إلى حافتها... ومنها وجود سبع سماوات، ومنها قدرتنا في المستقبل على النفوذ فيها كما ورد في الآية 33 من سورة الرحمن "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا..." وكما ترى سبقنا الجنّ بالنفوذ وبقي دورنا حيث سيحصل ما تقوله الآية 35 من سورة الرحمن من إرسال الشواظ على المخترقين للسماء "يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ".

(وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً{10})
{وَأَنَّا لَا نَدْرِي}، نحن الجنّ، لا ندري، فهناك شيء تقرّر ولكننا لم نعلمه ولم نره يحصل، {أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ}؟ فهل هذه التحضيرات لحراسة السماء ينتج عنها شرّ على أهل الأرض، من ضرر وسوء على البشر، {أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا}؟ فالمسؤول عن أهل الأرض من مستوى إلهي أراد إرشاد أهل الأرض، فأراد أن يوصل لهم شيئًا يرشدهم، فيوصل لهم كلامًا يجعلهم يفكرون ويتصرفون بشكل صحيح.

تلاحظ أنّ هذه المجموعة من الجنّ تعلم أنّ تدبيرات الحراسة الشديدة في السماء العالية مرتبطة عادة بقرار إلهي سيحصل على الأرض، وعادة أهم حدثين تسبقهما هذه التدبيرات غير العادية هما: نزول عذاب على أهل الأرض، أو نزول وحي، والجنّ يرون التدبيرات وسبق لهم أن رأوا ما يحصل بعدها مع أهل الأرض، ولكن قبل حصوله، فهم لا يدرون ماذا سيحصل.

وصلنا إلى نقطة البداية حيث لاحظ أولئك الجنّ وجود حركة غير عادية في السماء العالية، ومن بعدها سترى أنهم تابعوا الأحداث ووصلوا إلى حيث نزل الوحي، على الرسول محمّد(ع)، فراقبوه ومن بعدها سمعوه يقرأ القرآن...

وسترى من الآية التالية ومن بقية الكلام أنّ ما يجري وصفه هنا عن السماء العالية فهو مجرد مناظر يراها عموم الجنّ، يخطر ببالك أنك لو تستطيع رؤية ما يرونه لكنت مؤمنًا أكثر، أو لكان الكفّار من البشر آمنوا، ولكن انتبه دائمًا من هكذا فرضيات، فإبليس تكلم معه تعالى شخصيًا، وحيًا، وكان إبليس بين الملائكة في سمائهم العالية، ونفترض أنّه كان داخل السماء التي هنا يجري الحديث عن الرمي بالشهب لمن يحاول الاقتراب منها، ولم ينفع معه ذلك ليطيع أمره تعالى... وهذا شيء ذكرته عدة سور.

(وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً{11})
{وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ}، نحن الجنّ يوجد، الصالحون، الموصوفون بالصلاح عقائديًا وسلوكيًا في مقابل الفساد بالشرك والكفر والشرائع والسلوكيات الفاسدة.

{وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ}، ما هو أقل من الصلاح، لأنّ البعض منّا في بعض الأمور صالحين وفي بعضها فاسدين... وصولًا إلى أقصى الدونية بالكفر. {كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا}، يوجد بيننا فرق ومجموعات كل واحدة لها طريق، {قِدَدًا} أي منقطعة عن بقية المجموعات، إذ تنظر لقطع الشيء عن أصله فتقول: منفصل. وهنا النظر إلى الأشياء بغض النظر عن الأصل فتقول: قدد. أي كل قطعة لوحدها. وهذا مثل توصيف مجموعاتنا البشرية، فكل مجموعة لها طريق يختلف ولا يوصل لطريق مجموعة أخرى، يعني كنّا أديانًا وعقائدَ وطوائفَ ومذاهبَ مختلفة.

ولكن ما معنى هذا التوصيف هنا؟

حسنًا، لقد كان واضحًا لكل الجنّ أنّ أمرًا مهمًا جدًا يحصل في السماء العالية بسبب تشديد الحراسة عليها، والذين تتبعوا الموضوع علموا أنّ هذا الأمر ممتد من تلك السماء وصولًا إلى أرض البشر، وإمّا أن يكون شرًا أو خيرًا، لاحق الصالحون الموضوع لأنهم احتملوا أن يكون فيه رشد وهداية، وهم يطلبون الهداية والرشاد، إذ توجد أديان ومذاهب عديدة منتشرة بين الجنّ "طرائق قددًا" ضاع فيها الحقّ، والآخرون من الجنّ لم يهتمّوا بالموضوع لأنهم بالأصل لا يهمّهم الهداية للحقّ فهم راضون بعقائدهم وشرائعهم.

وماذا حصل بعد ذلك؟:

(وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً{12})
الجنّ المؤمنون لاحقوا الموضوع من السماء وصولًا إلى الأرض، وهناك لم يحاولوا اختراق المنطقة التي تحرسها الملائكة(ع)، فهم مؤمنون وطالما الملائكة تحرس بأمر منه تعالى فهم لن يخالفوا ذلك.

{وَأَنَّا ظَنَنَّا}، اعتقدوا استنادًا لعلم صحيح، بأنه كما في السماء التي امتلئت بالحرس بأمر الله تعالى، فكذلك بأمره سبحانه يمتد الحرس من هناك إلى الأرض، فاعتقدوا اعتقادًا مبنيًا على علم صحيح، {أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ}، لا نملك القوة والقدرة التي تجعله تعالى عاجزًا عن منعنا من استراق السمع، {وَظَنَنَّا} فاعتقدنا استنادًا لعلم صحيح، {لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا}، لا نملك القوة والقدرة على الهروب، على الابتعاد إلى مجال يعجز فيه تعالى عن معاقبتنا. فبعد الاقتراب لاستراق السمع فلن يعجز سبحانه فسيطالنا بعقابه أينما ذهبنا. ولمزيد من التوسع حول كلمة "ظن" راجع دراسة الآية الخامسة من هذه السورة.

القرآن لم يستعمل كلمة هرب إلّا فقط لمرة واحدة هنا في هذه الآية.

هؤلاء الجنّ يعلنون أنّ مراقبتهم ومرافقتهم للمنطقة التي تحرسها الملائكة(ع) لم يكن بهدف محاولة الاختراق، لأنهم يعلمون أنّ قدراته تعالى أعلى بكثير من قدراتهم، وأنّه تعالى خلق ملائكة(ع) قوية جدًا أقوى بكثير من قدرات الجنّ، ومن عموم القرآن ومن الآيات السابقة تعلم أنّ بعض الجنّ حاولوا فعلًا الاقتراب لاستراق السمع ولكن جرى ضربهم بشهاب، وهنا تسمع المؤمنين من الجنّ يعترفون بأنّ قراره تعالى بمنعهم من استراق السمع سيتحقّق وهم العاجزون عن كسر القرار، فلا يمكنهم الاقتراب من المنطقة المحمية في السماء ولا في الأرض حين يصل الوحي إلى الرسول(ع).

(وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً{13})
{وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى}، عندما سمعنا بالأشياء الصحيحة التي توصل للغاية الصحيحة، ومن بداية السورة تعلم أنهم سمعوا القرآن أثناء تلاوة النبي محمّد(ع) له، {آمَنَّا بِهِ}، صرنا في حالة الاعتقاد والالتزام بالهدى، {فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ}، الذي يصير معتقدًا ملتزمًا بالمسؤول عنه من مستوى إلهي، {فَلَا يَخَافُ}، لا يصير عنده شعور من خطر لا يمكنه تجنّبه، {بَخْسًا}، إنقاصًا تقليلًا لقيمة أعماله، ولا يخاف، {رَهَقًا}، التلبّس بحالة سيئة من التعب.

الذي يؤمن ويقم بالأعمال الصالحة فلن يذهب إيمانه وعمله بلا فائدة، فلن يبخس سبحانه له ايمانه وعمله بل سيعطي لهما قيمة، ولن تصبه حالة التعب بل من لم يؤمن بالهدى فكفر وأشرك ولم يعمل صالحًا فهذا عليه أن يخاف من الرهق الذي سيصيبه ومن ضياع لكل أعماله الحسنة التي لن ينتج عنها ثواب حسن.

تذكّر الآيات السابقة المقدمة للآية هنا، فالبداية كانت حين لاحظ مجموعة من الجنّ أنّ السماء ملئت حرسًا... وصولًا إلى متابعتهم للملائكة(ع) التي نزلت بالوحي على النبي محمّد(ع)، وأخيرًا سماعهم للنبي(ع) يتلو القرآن، وهو ما تخبرنا الآية به هنا عن سماعهم للهدى.

(وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً{14})

{وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ}، نحن الجنّ، هناك من انقاد من الجنّ لله تعالى فصار يمشي على الأوامر الإلهية، {وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ}، الذين انحادوا ولم يستقيموا على الإسلام، فلم يلتزموا بالأوامر الإلهية.

{فَمَنْ أَسْلَمَ}، من انقاد وأطاع أوامره تعالى، {فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا}، بحثوا وحققوا لمعرفة الحقيقة المطابقة للواقع، مثل صفة تحرّي الجرائم وتحرّي الخبر الصحيح... تحرّي الدين الصحيح، فتحرّيهم أوصلهم للإسلام وهذا تحرّي يوصف بأنه، {رَشَدًا}، تفكير وتصرّف سليم عقلي منطقي على التمام.

ضع في بالك دائمًا أنّ كلمة اسلام اسلم استسلم مسلم... تعني: انقاد لغيره وأطاع غيره. وقد صارت مصطلحًا يشير للدين المنسوب للنبي محمّد(ع) وللقرآن، أمّا بالأصل والأساس ومن عموم استعمال القرآن لكلمة أسلم ومشتقاتها فحين تشير للدين فهي تشير لعموم الانقياد له تعالى في كل الأزمنة، فهذه الكلمة لم يستعملها القرآن لخصوص دين النبي محمّد(ع)، وأصلًا لا يوجد شيء كهذا، بل هو الدين الإلهي كلّه الإسلام له تعالى، وأوّل من استعمل كلمة مسلم لوصف نفسه ووصف المؤمنين هو النبي إبراهيم(ع) وبالتالي فكل الأنبياء وكتبهم ومن اتبعهم، هم مسلمون، وتقرأ ذلك صريحًا في الآية 78 من سورة الحج "... وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ...".

هنا لا يتحدّث الجنّ عن خصوص اتباع النبي محمّد(ع)، بل عن عموم الإسلام له تعالى، من قديم الزمان إلى ما بعدما سمعوا القرآن، فهناك بعض الجنّ من الأساس مسلمون له تعالى، وهناك من تعرّف على الإسلام له تعالى ولكن انحاد عنه ولم يستقم عليه. بعبارة أخرى فقد سمعوا الأنبياء والرسل السابقين فمنهم من اسلم ومنهم من قسط.

الكلام يجر الكلام فمن الآية 130 من سورة الأنعام "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي..." فهمنا أنّ الجنّ فيهم أيضًا رسل منه تعالى، وما تقرؤه في الآية 30 من سورة الأحقاف عن لسان مؤمنين من الجنّ "قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ"، وما تقرؤه هنا في هذه السورة، فهو نقل لأمور يمكننا نحن البشر فهمها والتعامل معها، فالقرآن موجّه لنا نحن البشر، ويبدو أنّ الجنّ يمكنهم فهم ما فيه من تشريعات وسلوكيات بشرية... فمعلوماتنا نحن قليلة عن عالم الجنّ، وبالتالي فلا نعلم إلّا بمسألة الإيمان، وأما التشريعات وما معناها بالنسبة لهم، وما نسمّيه بالعبادات من صلاة وصوم وحجّ... وكيفية تطبيقها لهم، وهل هناك أمور غريبة علينا كفتنة وبلاء لهم، كفتنتهم بنا بحيث يمكنهم الوسوسة لنا... فهذه أمور نجهلها، وما ذكره القرآن عنهم ويمكننا فهمه فهو ما تقرؤه هنا عن منعهم من اختراق سماء الملائكة وعن تتبعهم لمسار تواصل بين تلك السماء مع واحد من البشر.

يعني حتمًا هناك أمور لشؤون ناتجة عن كون الجنّ من نار، وهي شؤون مختلفة عن الناتج من عالمنا الطيني، ولم ينقل القرآن أي شيء عن تشريعات تخص عالم من نار، فكلامه معنا نحن البشر، ومرّر فيه تعالى كلامًا عن الجنّ بالمقدار الذي يمكننا فهمه، فلم يخبرنا عن رسل من الجنّ هدوا قومهم، وأخبرنا عن جنّ اهتدوا عبر سماعهم لهذا القرآن، فهذا شيء يهمنا نحن سماعه، فهذا القرآن يهدي أي عاقل طالب للهداية من أي نوع كان من المخلوقات، وهذا هو الهدف من كل هذه السورة.

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً{15})
{وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ}، الذين انحادوا ولم يستقيموا على الإسلام، {فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ}، للمكان الذي يوصف بسوء ما فيه، كانوا له، {حَطَبًا}، فهم سيشتعلون فيه ويزيدون من قوة اشتعاله.

هذا الكلام بناء على معلومات عند تلك المجموعة المؤمنة من الجنّ، فهم لم يتعرّفوا على دينه تعالى الآن وفجأة حين سمعوا القرآن، لا، بل من الواضح أنّ لديهم مخزونًا ثقافيًا دينيًا، ويقارنوه مع ما سمعوه من القرآن.

ومثلما نحن مخلوقون من طين، وهو ما نسميه حاليًا بعناصر الجدول الدوري من هيدروجين وكربون وكالسيوم وحديد... ونتألم من الضرب "بالطين" من حجارة أو خشب... فكذا الجنّ مخلوقون من نار فهم مركّبون من عناصر نارية، ويتألمون من أشياء من النار.

(وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً{16})
من الآية التالية سترى بوضوحٍ أنّنا هنا تنتقل بنا السورة لكلام إلهي كتعليق على لسان حال عموم الجنّ:

{وَأَلَّوِ}، وأن لو، {اسْتَقَامُوا}، كانوا يوصفون بأنهم على الأحسن فلم يكونوا منحرفين بل متماشين، {عَلَى الطَّرِيقَةِ}، وتكملة الجملة واضحة: على الطريقة الصحيحة، لو كانوا على الإسلام. {لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا}، ماءً كميته كبيرة جدًا.

هنا اختصر سبحانه الخير الوفير والرزق الواسع بكمية الماء الضخمة، لأنّه حيث يوجد ماء بكمية كبيرة توجد إمكانية للعيش برغد ونعيم هنا في الدنيا.

دائمًا يربط القرآن بين الالتزام بالدين الإلهي وبين نزول الخيرات على العباد في الدنيا، وهنا الكلام مع عموم العباد من الجنّ والإنس، لأنهم لو مشوا فقط على الطريق الإلهي لحصلوا على الكثير من الماء، وهذا اختصار لعموم النعمة الإلهية، وإشارة لأبرز نماذج النعم الإلهية: الماء.

نلاحظ أنّ سياق الآيات يتحدّث عن عموم سقاية الماء لمن استقام، وتفهمها بالنسبة لنا بنزول الماء وجريان الينابيع... أمّا بالنسبة للجنّ فلا نفهمها إلّا بمعاني الكلمات، يبدو أنهم لديهم حاجة للشرب مثلنا، ولديهم ما يوصف بأنه ماء بالنسبة لهم، فحتى لو كان عالمهم من نار، فعالمنا من طين وفيه ماء، ولا اختلاف بين تكوين مادة الطين والماء في عالمنا، لأنّ الاختلاف هو بالخاصية السائلة لمواد الماء المشابهة تمامًا "كمادّة" للطين، وهكذا نفهم أنّ للجنّ حاجة للشرب، ولديهم ماء، مشابه في تكوينه للنار، ولكنه له خاصية مختلفة كونه صالحًا للشرب لهم.

بعبارة أخرى، مثلما فهمنا الشهب على الوصفية التي تناسب شهب سمائنا، وتناسب الشهب التي في سماء أخرى لا نراها، فكذا الماء، لأنّ الجن يشربون ويرتوون من مادة ليست مثل مائنا، فبماذا ستقول باللغة العربية البشرية لما يشربه الجنّ ويرتوون منه؟ كما ترى ستقول له ماء علمًا أنّ مادة تكوينه النار.

(لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً{17})
{لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ}، لنرى التغيّر الذي يحصل معهم بعد حصولهم على كمية وافرة من الماء، وبالتالي بعد حصولهم على رزق وفير وراحة مالية، فهل ينسوه تعالى كإله رازق؟ وهل يعودون للكفر للشرك؟...

{وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ}، الذي من بعد علمه بما يجعله يستحضر المسؤول عنه من مستوى إلهي في فكره وقوله وعمله، من بعد ذلك أعرض فلم يهتمّ، فالله تعالى، {يَسْلُكْهُ}، يجعله غصبًا عنه يسلك فيمشي على ممر إجباري، {عَذَابًا صَعَدًا}، يجعله يتعذب غصبًا عنه في طريق له ارتفاع، كالذي يصعد إلى جبل.

لنتصور هذا التعذيب بوجود واد سحيق تتطاير منه ألسنة اللهب، والكافر في الوادي يهرب صعودًا، وكلما صعد فألسنة النار تلحقه، فهو غصبًا عنه يركض صعودًا، فإضافةً للنار التي تحرقه فهو يكاد يموت من الإرهاق ولكنه لا يتوقف بل يعيش دائمًا وفي كل لحظة في حالة النار تحرقه، ونفسه يكاد ينقطع من الصعود والخوف من المكان...

وتلاحظ في بعض كتب التفاسير فسّروا "صعدا" بالمشقّة، ولكنها في عموم أشعار العرب قبل الإسلام كانت تعني: الاتجاه أو المتّجه نحو الأعلى عاموديًا. ومن تبعات ذلك مشقّة السير عليه، فالمشقّة ليست مرادفًا للصعود ولكنها من تبعاته.

وسبحانه لا ينصب الأفخاخ للمؤمنين، فلا تفهم ولا آية من القرآن أنّه تعالى يفتن المؤمن ليرى إن كان سيبقى مؤمنًا، لا، فالفتنة هي عموم التعرّض لشيء ما والتغير من بعده، للتغير نحو الأحسن أو الأسوأ، أو من صلب لسائل، أو من سائل لغاز... من مؤمن لكافر، من كافر لمؤمن، من مريض لمعافى... وهكذا كما ترى فأي حالة سنكون فيها فهي فتنة، فالفقر والمرض والحرب... فتنة، والغنى والصحّة والأمان... فتنة، ودائمًا نحن في الدنيا في حالة فتنة، وكل آيات القرآن وآيتنا هنا تتحدّث عن هذه العمومية، فقبل أن يرزقنا تعالى ماءً غدَقًا فنحن في فتنة، وبعد أن يرزقنا تعالى فنحن في فتنة.

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً{18})
نكمل مع نقل السورة للسان حال عموم نظرته تعالى لنا وللجنّ:

{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ}، حركات السجود، حركات التعبير القوية عن الخضوع والانقياد والتبعية والاحترام... فقط نفعلها لصاحب هذا الاسم المحدّد المميّز الله. وبالنسبة للبشر فالسجود حركة الانحناء باتجاه الأرض وتقريب الرأس منها كثيرًا أو ملامستها بشيء من الوجه، وعادة نلامس الأرض بالجبهة.

{فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}، لا تشهر أو تعلن مع الله أحدًا، فحين تعبّر بأقصى درجات التعبير عن الاحترام والخضوع عبّر بذلك لله تعالى وحده، ولا تعلن لأحد غيره عن احترامك وخضوعك الفائق.

الآية تقصد أنّ أقصى درجات التعبير عن التبعية لإله يجب أن تكون حصرًا لصاحب الاسم المحدّد المميّز الله عزّ وجلّ. وبعبارة أبسط حين تسجد معبّرًا عن فائق الخضوع والاحترام لإلهك خالقك رازقك... لا تعلن عن ذلك لغير الله، ولا تذكر اسمًا آخر كإله غير الاسم المحدّد: الله عزّ وجلّ.

الآية هنا هي لبّ التوحيد، فالتعابير الجسدية القوية في إشارتها للخضوع لإله، كإحناء الرأس للاقتراب من الأرض، أو وضع الجبهة أو الجبين أو الخدّ على الأرض، تعابير قوية جدًا عن الخضوع وفائق الاحترام ويجب أن تكون فقط موجّهة منّا لله تعالى.

بقي شيء بالنسبة للدعاء، في عموم استعمال العرب الكلمة يائي وواوي "دعوت ودعيت" مثل "طغوت وطغيت". أمّا في القرآن استعملها فقط بالواو من الأصل الصرفي "دعو"، ووردت مرتين بالياء في الآية 12 من سورة غافر "... إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ..."، وفي الآية 53 من سورة الأحزاب "... وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا..."، وهذا ممّا جرى به لسان العرب في حالة تصريف الفعل بصيغة المبني للمجهول، وأيضًا فيما جرى عليه لسان العرب بالياء ما ورد في الآية 4 و 37 من سورة الأحزاب "أَدْعِيَاءَكُمْ، أَدْعِيَائِهِمْ" فهذا التصريف لا يعني أننا أمام كلمتين واحدة بالواو والأخرى بالياء، وبالتالي لا يعني أننا أمام معنيين لكلمتين. ويمكن حمل التصريفين "بالواو أو بالياء" على معنى عموم الإشهار والإعلان بكل أنواعه، كالإعلان والإشهار لعبادة كذا، أو للحضور إلى مكان ما، أو لفعل شيء ما... ومن ضمنه الإعلان والإشهار لطلب تحقيق شيء كالوارد نادرًا في القرآن ومنه ما في الآية 38 من سورة آل عمران "هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ".

ضع في بالك دائمًا أنّ أكثر الجمل القرآنية المشابهة لآيتنا هذه لم تقصد بشكل خاص أنهم يدعون على معنى يطلبون أشياء وأمورًا منه تعالى، فيطلبون النجاح أو الثروة أو الأولاد... لا، فغالبية جمل القرآن قصدت الإعلان والإشهار عن الألوهية، فما تسجد به تعبيرًا عن فائق الخضوع فليكن إعلانًا منك خضوعًا لألوهية الله تعالى فقط، فهذا معنى الآية، وللأسف ما هو منتشر بكثرة في أدبياتنا عن الدعاء لطلبات نريد منه تعالى تحقيقها، والآيات التي نظنّها تتحدّث عن هذا الموضوع، فغالبيته ليس صحيحًا.

(وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً{19})

{وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ}، عندما تفعّل الشخص الذي مفروض منه الطاعة، فعندما قام تفعّل فصار في حالة عمل لشيء ما، والكلام هنا عن الذي سمعه الجنّ يتلو القرآن وهو النبي محمّد(ع)، فقام، {يَدْعُوهُ}، يشهر ويعلن، وسياق الكلام عن إعلانه وإشهاره توحيده تعالى، {كَادُوا}، على شعرة، {يَكُونُونَ عَلَيْهِ}، على العبد الذي يدعو الله تعالى، {لِبَدًا}، ملتصقون به بعدد كبير، والكلام هنا توصيف لحالة الجنّ الذين استمعوا له يقرأ القرآن، وسيبدو لك من الآيات التالية أنهم أعجبوا بالنبي محمد(ع) بشدّة، ومن شدّة إعجابهم به(ع) اقتربوا منه كثيرًا وعلى شعرة لتكوّموا عليه.

تصورها مثل شخصٍ تزاحم عليه المعجبون، فحتى لو كان عددهم قليلًا، فتزاحمهم للاقتراب كثيرًا منه، سيكون قبل حالة تكوّمهم عليه بقليل.

طبعًا هو (ع) لم يشعر بتزاحمهم حوله، ولن يشعر بهم حتى لو تلبّدوا عليه، ولذلك استعملت الآية الفعل "كاد" لتشير إلى اقتراب حصول تلبّد الجنّ عليه (ع) من شدّة اقترابهم منه.

وتتذكّر أنّ النبي محمّد(ع) لم ير الجنّ ولم يشعر بهم، وفقط من الوحي الإلهي علم بأن الجنّ استمعوا له.

وراجع ما ذكرناه في الآية السابقة عن كلمة دعاء.

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً{20})
{قُلْ}، أيها النبي(ع) عبر هذا القرآن، وبالخصوص قلّ للجنّ الذي سيسمعون هذه السورة:

{إِنَّمَا}، حصرًا وفقط، {أَدْعُو رَبِّي}، أعلن وأشهر فقط للمسؤول عني من مستوى إلهي.

{وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا}، لا أجعل أحدًا آخر إلهًا معه، لا صنمًا أو تمثالًا أو روحًا أو إنسانًا أو ملاكًا... فلا أتوجّه نحوهم بالكلام مثلما أتوجّه إلى الله تعالى، لأنه وحده الإله، فوحده الكائن بالصفات والقدرات الفائقة.

وراجع ما ذكرناه في الآية ما قبل السابقة عن كلمة دعاء.

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً{21})
{قُلْ}، أيها النبي محمّد(ع) عبر هذا القرآن لعموم من يسمعك، ولخصوص الجنّ: {إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا}، فلا قدرة ذاتية لي منفصلة عن إذنه تعالى حتى أغيّر بها أحوالكم إلى الأسوأ، {وَلَا رَشَدًا}، فالكلام العقلاني المنطقي عن التفكير والتصرّف الصحيح فلا تتوقعوه منّي أنا شخصيًا، من ذاتي، فأنا شخصيًا بذاتي لست مصدرًا أساسيًا منفردًا للمعلومات الصحيحة عن التفكير والتصرّف الصحيح.

وبما أنّ الكلام يشمل الذين يسمعونه من الجنّ وهو (ع) لا يقدر أصلًا على ضرّهم في الدنيا، فنفهم أنّ نفي الضرّ يقصد الضرّ في الآخرة، فهو (ع) لا يقرّر من عنده من سيدخل النار.

ونفي الرشد ليس مقصودًا منه نفيه بالكلية عنه (ع)، بل هو نفي لكونه (ع) مصدرًا مستقلًا أو بديلًا عن المعلومات التي تصلنا منه تعالى، فلا هو ألّف القرآن بما فيه من رشد وهذا معلوم محسوم، ولا هو مشارك في تأليفه، ولا هو بديل عنه ولا رديف له.

بالمختصر، فليكن إعلانٌ منك أيها الرسول محمّد عن أنك مجرد شخص عادي ينقل كلامه تعالى للناس، ولست موكلًا بقرارات من مستوى إلهي بالضرّ للآخرين بقرار تعذيبهم في النار بما تراه أنت... ولست مصدرًا للعقيدة والشريعة والسلوكيات التي تطرحها كدين له تعالى.

وإذا قارنت ما تقوله الآية هنا عمّا يقع فيه عموم الناس الذين يقدّسون الأشخاص، كاعتبار كلام الأنبياء والرسل مصدرًا للتشريع منفصلًا عن كلامه تعالى، فعلى المستوى النظري هم لا يقولون ذلك ولكن عمليًا ترى العديد من الأمور التي لا مصدر لها من القرآن وليست من الهامش الذي تركه القرآن للمرونة وليست مما افترضه فينا بالعقلانية... وترى رفضًا لمراجعة أي شيء لم يذكره القرآن لنرى إن كان عقيدة حقّة أو تشريعًا إلهيًا أو موروثًا من العادات والتقاليد...

وللأسف تجد تساهلًا وتوسّعًا في مفهوم الشفاعة التي يسمح بها تعالى للصالحين من الدرجة العالية في الآخرة، فتتوسع الفكرة ليصيروا وبقرار منهم يقررون مصير الآخرين رميًا في النار، وهذا شيء مرفوض قرآنيًا جملة وتفصيلًا، ففي الآخرة لا يوجد قضاة من الملائكة ولا من البشر، لأنّ كل كلام القرآن عن حساب أمامه عزّ وجلّ، والقرار النهائي فقط وفقط يصدر منه تعالى.

(قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً{22})
{قُلْ}، أيها النبي محمد(ع) عبر هذا القرآن لعموم من يسمعه وبالخصوص للجنّ: {إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي}، لن يؤمّن لي الحماية ودفع الخطر، {مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ}، فإن أراد سبحانه لي الضرر فلا أحد يمكنه تأمين الحماية لي، وكما ترى فهذا بالعموم عن تأمين الحماية من أي مكروه، ولكن خصوص الكلام عن مخالفة أوامره تعالى الذي يتبعه العقاب، وهذا شيء لا يمكن لأي أحد أن يجيرنا منه.
{وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا}، لو التحدت فحدت أو ملت عنه تعالى إلى غيره فلن أجد من أتحوّل إليه ويكون من مستوى إلهي دونه تعالى، وعمليًا لن أجد مكانًا أكون فيه غير الأماكن التي تتبع له تعالى ويطالني فيها إن أراد تعذيبي، فأنا الآن في ملكه، ولا يمكنني أن ألتحد عن ملكه فلا يمكنني التحوّل عن ملكه إلى ملك غيره، فأصلًا لا توجد إمكانية للهرب منه تعالى، فيمكننا الهرب إليه سبحانه ولكننا لا يمكننا الهرب منه. بدل أن يقول لهم عبر هذا القرآن إنّه هو نفسه الرسول

محمّد(ع) لا يجيرهم منه تعالى، وهو ليس ملتحدًا لهم، قال لهم من الأصل إنّه هو "محمّد" شخصيًا لن يجد مجيرًا ولا ملتحدًا من دونه تعالى.
تذكّر في بداية السورة ما نقلته عن الجنّ حيث البعض منهم نسب له تعالى صاحبة وولدًا، فهنا بصريح العبارة تجد وضعًا للرسول محمّد(ع) في مكانه الصحيح، فهو عبد مخلوق مثلنا مثله، وتميّز بنقله للرسالة الإلهية لنا بناء على تميّزه بقلب سليم، لا أكثر ولا أقل، فلا يملك أي صفات غير عادية من مستوى إلهي، والتقرّب منه(ع) والابتعاد عنه تعالى لن يفيد بل هو الضرر... فلا تقعوا فيما وقع فيه الذين قبلكم حين قدّسوا شخصياتهم الدينية وجعلوا لها صفات إلهية بشكل مباشر أو غير مباشر.

(إِلَّا بَلَاغاً مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً{23})
{إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ}، لا تنظروا إليّ إلّا كناقل للبلاغ منه تعالى، إلّا كعامل لتوصيل الشيء من مصدره "الله سبحانه" إلى نهايته "إليكم". فلا أضرّكم ولا أرشدكم من عندي، ولا أجيركم... فأنا فقط ناقل للبلاغ من الله تعالى، وناقل لـ {رِسَالَاتِهِ}، فأنا موظّف حيث تصلني رسالة وأنقلها، وتصلني أخرى فأنقلها وهكذا... فلا تنظروا إليّ إلّا من هذا المنظار.
الجملة هنا مثلما نحن نرى شخصًا في حقل ويحمل مجرفةً ومعولًا، ويعمل في الأرض ونسأله: ما هو عملك؟ فيجيب باستغراب لأن عمله واضح من حمله لأدوات زراعية وما يفعله، فبدل أن يقول مزارع، يقول: مجرفة ومعول. يعني تراهم معي وهما أدوات زراعة، فهل حقًا تسألني عن عملي! وهنا الآية جاءت بكلمتي "بلاغًا" و"رسالاته" على هذا السياق، فتروني أبلّغ عنه تعالى، وأنقل لكم رسالاته، فهذا أنا، فلا تزيدوا عليّ أوصافًا ليست موجودة فيّ.
{وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}، يخالف أوامره تعالى ويخالف أوامر رسوله(ع)، {فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ}، له نار في مكان موصوف بسوء ما فيه، {خَالِدِينَ فِيهَا}، لا يموتون ولا يفنون ولا يخرجون من جهنّم ولا هي تخرب... {أَبَدًا}، مهما مرّ من زمن.
على هذا التفكير والسلوك كونوا، على طاعته تعالى، وطاعتي فقط وفقط على أساس بلاغي عنه تعالى ونقلي لرسالاته، لا أكثر ولا أقل، وإلّا فمصيركم: الخلود في النار.
ضع نفسك في صورة معجب بالرسول(ع)، معجب بإيمانه وسلوكه وبكونه مقرّبًا جدًا منه تعالى لدرجة اختياره لنزول الوحي عليه، الآن انتبه لسلوكك وتفكيرك به (ع)، فهل ستتعامل معه على أساس أنه رسول أم صار مقدّسًا بنفحة إلهية؟ وهل صار في نظرك بصفات إلهية من دون أن تشعر؟ أو وأنت تشعر وتعلم وبسبب شدّة إعجابك به قررت رفعه لدرجة أعلى مما هو عليها؟
هذا ما تريد الفقرة هنا قوله للجنّ الذين أعجبهم الرسول محمد(ع) وآمنوا به، فتنبههم من المبالغة والغلو... أنت تعلم من التاريخ أنّ النبي محمّد(ع) ومن شدّة ما نبّه الناس مرارًا وتكرارًا عن نفسه أنّه مجرد رجل عادي، وقبله من شدّة ما نبّه القرآن مرارًا وتكرارًا على كون كل الرسل هم رجال عاديون من البشر، ولهذا السبب نجونا من فرقة تجعله (ع) إلهًا أو ولدًا للإله أو بنفحة إلهية... ولكن لم ننجُ من تقديسه(ع) فوق حدوده، فما نراه نحن مهمًا جعلناه فيه، ناسبين له مئات المعجزات، فجاءت الشجرة إليه والحصى سبّح بيده وانفلق القمر بأمره... ونسبنا له معرفة بالطب والفلك والزراعة... واللغات... ومعرفة الغيب... وأنه أبلغ العرب وأشجع العرب وأكرم العرب... وكل هذا أمور بالنسبة لنا مهمّة، أمّا بالنسبة له تعالى فلم تكن هي الأسباب التي من أجلها عيّنه تعالى رسولًا، لأن القيمة العالية عنده تعالى للقلب السليم، وينتج عن صاحبه العمل الصالح، نقطة انتهى.
طار وارتفع وخرق سبع سماوات... وعلم بالغيب لآخر الدنيا وصولًا للآخرة... ويقول للشيء كن فيكون... كلها أمور لا ترفع من قيمة الإنسان عنده تعالى، ولن يكون فاقدها قليل القيمة.

(حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً{24})
{حَتَّى إِذَا رَأَوْا}، وصولًا للحالة التي يصير فيها عندهم صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: حتى يشوفوا. {مَا يُوعَدُونَ}، ما قال تعالى عنه أنّه سيفعله، وهو تخليدهم في جهنّم، فعندها، {فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا}، هذه السورة كما يبدو نزلت قبل الهجرة حين كان النبي (ع) في مكّة حيث كان أنصاره ضعفاء وعددهم قليل، فالأشخاص الذين يعملون على تحقيق ما يريده (ع)، أي المؤمنون، كانوا ضعفاء فليس لديهم القوّة المطلوبة لتحقيق ما يريده الرسول(ع) لأن عددهم قليل جدًا أمام عدد الكافرين، ولكن حين يأتي الوعد الإلهي بتعذيب الكافرين في الآخرة، فهناك سيرون القوة المدعوم بها النبي (ع) والمؤمنون، فهم مدعومون منه تعالى بملائكة عالية القدرات...

(قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً{25})
{قُلْ}، أيها النبي محمّد(ع) عبر هذا القرآن لعموم من يسمعه، وبالخصوص للجنّ: {إِنْ أَدْرِي}، لو كنت أدري، فأنا لست أدري، فهناك شيء سمعت عنه ولكني لم أطّلع عليه، فلا نفوذ لي ولا علاقة لي بالقرار فيه ولا بتنفيذه، {أَقَرِيبٌ مَا

تُوعَدُونَ} ؟ هل ما قاله الإله تعالى عن رمي العصاة في جهنّم، هل زمن حصوله قريب؟ {أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا} ؟ أم هل المسؤول عني من مستوى إلهي سيجعل لوعد رمي العاصين في جهنّم أمدًا، فسيكون للموعد مدة بعد، فيكون له مدة معلومة الطول ولكنها بعيدة.
كما ترى نعود لكلام السورة حول شخصية النبي محمّد(ع) الذي آمن به نفر من الجنّ وأعجبوا به، فتتوجّه لهم السورة بكلام توضّح فيه الاعتقاد الصحيح بشخص الرسول محمّد(ع)، وتأمره (ع) بأن يعلن للجميع أنّه لا يعلم ولم يحصل على توقيت حصول يوم القيامة والحساب، فحتى بهذه المعلومة المهمّة جدًا لم يتميّز عنّا بمعرفتها. نتذكّر دائمًا من القرآن أنّ السؤال عن زمن حصول يوم القيامة سؤال متكرّر من عموم الناس، فمن آمن يسأل عنه لأول وهلة سمع به، ومن كفر يسأل عنه عندما يسمع به، وهنا كما ترى الجنّ ليسوا مختلفين عنّا، وتخبرهم الآية أنّ النبي محمد(ع) الذي أعجبهم وأحبّوه هو أيضًا لا يدري بموعد يوم القيامة.

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً{26})
{عَالِمُ الْغَيْبِ} ، الله تعالى يعلم كلّ ما غاب عن مخلوقاته، في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وسياق الكلام هنا عن زمن يوم القيامة والحساب وما بعده، وهذا شيء غائب عنّا لا ندري به، ومن عموم القرآن علمنا أنه لا أحد غيره تعالى يعلم توقيت القيامة، فلا يظهر تعالى على غيبه أحدا، هذه المساحة الهائلة والمعلومات الضخمة للغيب، الغائبة الخفية علينا، فلا قدرة لأي مخلوق على استيعابها، وسبحانه وتعالى لم يخلق كائنا يتحمّل العلم بكلّ الغيب، وبالخصوص الحديث عن معلومة محدّدة، عن موعد يوم القيامة، وهي من ضمن الغيب الذي لم يُطْلِعْ تعالى مخلوقاته عليه.

هذا الاستثناء في الآية منقطع بالآية التالية، فالغيب يبقيه تعالى غير منشور فلا يظهره، إلا على من ارتضى من رسول...

يمكننا من القرآن استنباط شيء عن المعلومة الغائبة "موعد يوم القيامة"، فلولا وجود آثار لإعادة خلق الناس عبر أحداث جرى فيها هنا على الأرض إعادة أموات إلى الحياة على يد النبي عيسى(ع)، وحادثة الذي مرّ على قرية... كما ورد في الآية 259 من سورة البقرة، وحادثة رقاد أصحاب الكهف... وخروج النبات من الأرض الميتة... وخروجنا نحن إلى الحياة، واستمرار الحياة البشرية بخروجها منّا بالتوالد... فلولا هذه الأحداث لما كان لنا أي علم ملموس بشيء عن إمكانية إعادة خلقنا، والملائكة (ع) أيضا لولا رؤيتهم لهذه الأحداث ربما لم يخطر ببالهم شيء عن يوم القيامة من الموت للبشر، وبعد أن أخبرنا سبحانه عن يوم القيامة، فإننا نسأل عن زمنها، والملائكة(ع) أيضا ليسوا مطّلعين على زمانها، ولكنهم يعلمون بالتقريب متى هي، لأنهم مطّلعون على الكتاب الأساسي، ويرون فيه نهاية للدنيا، ولكنهم لا يرون في الكتاب موعد إعادة بعثنا لأنهم غير قادرين على مجاراة القدرة العلمية للإله سبحانه، أمّا نحن البشر فوضعنا أصعب لتقريب معرفة زمنها، ولمزيد من التوسّع راجع ما ورد في الآية 15 من سورة طه "إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا...".

سبحانه لم يخبر الملائكة عن موعد الآخرة ولم يخبر رسله لأنهم أصلا غير قادرين على استيعاب الموضوع، حين تبدأ السماوات بالتبدّل، فعلى أي مرجعية سنفهم الزمن بالتوقيت؟ هي مثل الحالة حين خلق تعالى السماوات أوّل مرّة، وأخبرنا عن مراحل تكوينها بستة أيام، وهذا لم يكن تحديدا لأزمنة المراحل، لا معنى لتلك الأزمنة بدون مرجعية للزمن، حتى الملائكة العالية لم يخف تعالى عنهم موعد يوم القيامة ولكنهم غير قادرين على استيعاب المكان والزمان الذي سيتبدل، وبالتالي لديهم تقريب لزمن حصولها، وهو ليس تقريبا بالسنين بل بالمراحل، لأن السنين تفقد معناها في مرحلة ما من مراحل تبدل السماوات، وهذا تحليلنا المبني على معطياتنا وفهمنا لتبدل السماوات الدنيا بحيث يصير لا معنى للأيام والأسابيع والشهور... من بعد انهيار المنظومة الشمسية ومن بعد انهيار عموم المنظومات الزمنية في السماوات الأخرى التي سيصيبها التبدل.

من ناحية ثانية الكلام عن عموم علم الغيب للماضي والحاضر والمستقبل، لم يخلق سبحانه كائنا قادرا على تحمّل هذا العلم، ويبدو من عموم مفاهيم القرآن أن هذه القدرة ينفرد بها سبحانه وسجل المعلومات في كتاب حتى يسهل على الملائكة تنفيذ ما وظّفهم تعالى به من أعمال...

(إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً{27})

{إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ}، الذي يقبله تعالى ولا اعتراض له عليه كشخص سليم القلب، ووافق عليه تعالى "بمحبّة" ليجعله رسولا، هذا الشخص يطّلع على الغيب، طبعا على بعض الغيب، مثلما حصل مع النبي محمّد(ع) حين نزل عليه الوحي ليخبره عن وعد حصول يوم القيامة، هذا خبر من الغيب، {فَإِنَّهُ} تعالى، {يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ}، من أمام الرسول يجعل ممراً إجبارياً، و{مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً}، وأيضا من ورائه هناك ممر اجباري فيه من يرصد. من الأمام بالأمور التي يراها الرسول(ع) ليتعامل معها يوجد رصد، ومن خلفه بالأمور التي لا يراها ليتعامل معها أيضا يوجد رصد، من كل الجهات يوجد من يرصد طبعا للحماية.

الرصد وصف لعامة شيء جاهز لشيء ولن يفلت من عموم التعامل معه إذا صار في مجاله، سواء الاكتفاء بالاعتناء بتحركاته وأفعاله، أو الهجوم عليه أو منعه من شيء... ونتذكّر من عموم القرآن أن الملائكة(ع) حين تنزل بالوحي على الرسول(ع)، فإنها تقوم بحماية منطقة مرور ونزول الوحي، وترصد تنتظر وتراقب كل من حولها في مدى إمكانية الاختراق للوحي، وتتعامل معه إذا شكّل خطرا على الوحي، ونحن البشر "حاليا وسابقا" ليس لدينا القدرة على رؤية تلك الأحداث، ومن القرآن عموما ومن السورة هنا نعلم أن الجنّ لديهم القدرة على رؤية هذه الأمور، وتعلم أن الملائكة (ع) ترمي بالشهب كل جنّي يحاول الاقتراب من منطقة نزول الوحي.

كما ترى عمّمت الآيات كلامها عن الغيب، ما تحمله الملائكة(ع) منه تعالى إلى الرسول(ع) فهو غيب، هو شيء غائب عنّا، ويوم القيامة انحسم أمره قبل قليل حين علمنا أن الرسول محمّد(ع) لا يدري أقريب أم بعيد، ها ترى أن معلومة موعد يوم القيامة لم تنزل على الرسول(ع).

بقي شيء، تذكر كلام القرآن عن الشفاعة حين نفاها وحين أثبتها، هذه المعاني متعارضة في الظاهر، ولكن في سياق الآيات التي وردت فيها فهمنا أن الشفاعة موجودة، ولكن الشفيع ليس لديه قدرة ذاتية على فرض الشفاعة على الله تعالى، فإذا رفضها تعالى فلا يمكن للشفيع أن يضرب برجله الأرض ويقول: أريد تنفيذ الشفاعة ويجب أن تتنفّذ. وهذه هي الشفاعة التي نفاها القرآن. ونفس الشيء بالنسبة لعلم الغيب، عموم الغيب مما هو موجود ويحصل من أحداث في السماوات السبع، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، هو كمية هائلة من المعلومات، ولا يمكن لأي مخلوق تحمّل معرفتها، أمّا سبحانه وتعالى فكلّ الغيب حاضر دائما أمامه بكل تفاصيله، نحن نتذكّر وننسى، أمّا تعالى "إذا جاز التعبير" فدائما في حالة تذكّر لكلّ شيء، وهذا هو علم الغيب الذي تنفيه الآيات عن أي مخلوق، هذا يحتاج لقدرة إلهية.

من ناحية ثانية أثبت القرآن حصول بعض الأشخاص على علم الغيب، وبحسب سياق الآيات تعلم ما هو العلم المحدّد الذي حصلوا عليه، بالتأكيد لم يحصلوا على كلّ علم الغيب، هذا مستحيل لأنهم لا قدرة لهم على تحمّل ذلك، وهنا بحسب سياق الآيات ترى أن الغيب الذي علمه الرسول(ع) هو ما نزل عليه وحياً منه تعالى، وهو هذا القرآن الواصل إلينا من السماء العالية، وما فيه من معلومات كان بعضها غائبا عنّا.

بقي شيء آخر، هناك كلام عن أشخاص غير الأنبياء والرسل يعلمون الغيب، ويعلمون بعض الغيب بالتحديد، وهناك كلام عن نزول الملائكة(ع) على أولئك الأشخاص، واعتماداً على القرآن نعلم باحتكاك الملائكة(ع) بطريقة أو بأخرى بالمؤمنين، تنصرهم وتؤيّدهم وتربط قلوبهم وتشجعهم... ولكن ما يقولونه عن احتكاك مباشر بين شخص ما والملائكة(ع) عبر رؤيتهم أو سماع كلامهم هنا في الدنيا، فهذا ما لا نجده صراحة في القرآن، ومن أراد عبر كلامه بهذا الموضوع البرهنة على علو مقام شخصياته الدينية، من صحابة وأولياء وأئمة وصوفيين وعرفاء... التي قال عنها أنها ترى أو تسمع الملائكة(ع)، هذا شيء لا يسمن ولا يغني من جوع، لأنهم ولا واحد منهم يجيز لنا اتباع ما أوحي إلى قدّيسه، لا في العقيدة ولا في الشريعة، نعم، شذّ القلّة القليلة النادرة منهم وقالوا بأن هؤلاء الأشخاص يتّبعون ما تقوله لهم الملائكة(ع)، وشطح آخرون بشكل فظّ سخيف "البهائية" واتبعوا نبياً كان بناء نبوته مبنياً على كلام منحرف لدى الصوفية والعرفانيين، هؤلاء قالوا أن الملائكة تتحدّث مع المؤمنين من الدرجة العالية ويتمثلون لهم على شكل بشر مثلما حدث مع السيدة مريم(ع)، بينما من القرآن ترى أنها حوادث استثنائية واستثنائية جدا ولن تتكرّر... هل تتحمّل وزر المشاركة في كلام نهايته مخالفة صريح القرآن بادعاء النبوة من بعد النبي محمّد(ع) خاتم النبيين؟! وادعاء نزول كتاب إلهي؟!

للأسف، العمى مرض منتشر جعل الناس لا يرون أن البرهنة على علو مقام شخصياتهم الدينية الخاصّة بمذهبهم وطائفتهم، لا يرون أنه هو نفسه السلاح الذي استعمله الآخرون من مذهب وطائفة أخرى ليبرهنوا على علو مقام شخصياتهم! المتمذهبون لشخصية ما أنزلوا عليها الملائكة، والشخصية الأخرى التي يستحقرونها ويقدسها الآخرون، الآخرون أنزلوا عليها الملائكة! الذي تجده في طائفة ما مبجلاً نزلت عليه الملائكة أو حدّثته... ستجد عنه العكس تماماً عند الطائفة الأخرى!

لو التزمنا بالقرآن الذي ينبّه الجنّ في هذه السورة من التوقّف عند الحدّ الصحيح في احترام شخص النبي محمّد(ع)، لما شطحنا وعميت قلوبنا في تقديس الأشخاص، وهذا الكلام موجّه لكل طوائف المسلمين بلا استثناء، فمن عمي قلبه وظنّ أنه لا يقدّس شخصياته، فلينتبه لأني لم أجد طائفة من المسلمين لا تقدّس شخصيات خاصة بها، سواء كانت شخصية من الأجيال الأولى أو من علمائهم ورؤساء طوائفهم ومذهبهم، على الأقل الأقل ستجد تقديسهم لعالم يعتبرونه مرجعاً للفقه، وستجدهم رافضين على العمى ما يفتي به غيره من علماء المذاهب الأخرى!

(لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً{28})
{لِيَعْلَمَ}، بهذه الطريقة لنزول الوحي بالغيب مع ملائكة(ع) راصدة ومعها الشهب يعلم سبحانه، {أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ}، المسؤول عن الملائكة(ع) من مستوى إلهي والذي كلّفهم بالنزول بالوحي محمياً من أي تدخلات تشوّه معلوماته، وزودهم بقدرات هائلة تؤهّلهم لتوصيل الرسالة الإلهية بالتمام كما هي.

تذكّر أن السورة توجّه كلامها لعموم من يسمعها عبر توجيه كلامها للجنّ، والجنّ يعلمون بالملائكة(ع) الراصدة وشهبها، ويعلمون استحالة اختراق مجموعة الملائكة(ع) أثناء نزولهم بالوحي، بل، هم أصلاً النفر من الجنّ وصلوا إلى النبي محمّد(ع) بسبب تتبعهم للملائكة(ع) التي في فترة ما تصرّفت بشكل غير معتاد، فراقبوها من بعيد، وبعدما أنهت الملائكة(ع) توصيل الوحي الإلهي للنبي محمّد(ع) تتبعه أولئك النفر من الجنّ، وسمعوا القرآن... وهذه السورة موجّهة للجميع عبر الكلام مع الجنّ وعنهم، وتخبرهم بما رآه الجنّ وبما يعلمونه من القدرات الهائلة جداً للملائكة...

لو تأخّرت عليك بالإشارة إلى إعجاب الجنّ بسلوك الشخص الذي نزل عليه الوحي، مما استدعى تدخلاً إلهياً لوضع الأمور في مكانها الصحيح، ليعلم الجنّ أن تميّز الرسول محمّد(ع) لا يجعل فيه نفحة إلهية، فلو كانت هذه الفكرة في بالك من الأول لسهل عليك الانتباه لما تقوله السورة، ولكن لو درستها ثانية وافترضت شخصاً علم الجنّ بنزول الوحي عليه، فراقبوه، ووجدوه ذا سلوك مشين معيب، لنفروا منه ولن يقتنعوا به كناقل للرسالة الإلهية، فمن ضمن ما يجب أن تضعه في بالك كشيء معاكس لخطورة تعظيم الرسول(ع) بشكل مُغَالٍ ومبالغ فيه، أنه فعلاً شخص رائع المواصفات، ويسبّب فعلا الإعجاب والتعلّق به، وخاصة من الجنّ الذين يراقبونه وهو لا يراهم، وأصلاً لا يعلم بأنهم يراقبونه.

{وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ}، من كل النواحي يعلم تعالى بما عند الملائكة(ع)، فلا يخفى عليه تعالى ما ينقلونه للرسول(ع)، حتى الملائكة(ع) بقدراتهم الفائقة على حماية محتوى الرسالة، لا يمكنهم حجب الرسالة عنه تعالى، بل هو سبحانه محيط بها، ويعلم إن كانت وصلت لرسوله بالتمام كما أمر وبدون نقص أو زيادة.

{وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً}، الإحصاء هو ذكر الأشياء واحداً بعد واحد، ولا يفلت منها شيء، كله يمرّ تحت التسجيل أو الرؤية أو المراقبة... {عَدَداً} كتعداد رقمي أو اسمي أو كمي أو نوعي... أصل الكلام الذي وصلنا منه إلى هنا كان عن الغيب ونزوله منه تعالى، والرسالة الإلهية لها محتوى غيبي، ومن نظرته تعالى يرى كلّ الأمور وكلّ الأشياء محصية بالعدد، وتفهمها بشكل سهل إذا قلت أنه تعالى أحصى البشر ويعلم عددهم، وأحصى الملائكة(ع) والجنّ ويعلم عددهم... وأحصى الذرات... وصولاً إلى إحصاء المعلومات والأحداث، لو كان بين يديك تسجيلات لصور أو لأصوات أو لكاميرات مراقبة أو لتقارير... فأنت أحصيت بالعدد كلّ الأحداث، ها تخبرك الآية عن الغيب، وأنه تعالى أحصى كلّ شيء، بدون استثناء، مهما كان نوعه، هو معدود عنده تعالى ومعلوم القيمة.

أطلنا الكلام عن الإحصاء والعدّ، لا ننسى أن الآية تقول أنه بناء على هذه القدرات الإلهية الفائقة هو تعالى يؤكد أن رسالته وصلت بالتمام إلى رسوله(ع)، وطريقة الكلام الإلهي عادة بشفافية مثل هذه الشفافية، وهذا من روائع صفاته الفائقة سبحانه.

سورة المزّمِّل (73) ص 574
كلام السورة عن أهمية استغلال وقت الفراغ ليلا للعبادة، وأنه تعالى أمر "بشكل غير واجب، نافلة" نبيّه (ع) بذلك، ويبدو من افتتاحيتها ومن آخر آية فيها أن بعض المسلمين ألزموا أنفسهم بقيام الليل بأقصى مدة ممكنة تتناسب مع حصولهم على مقدار كافٍ من النوم، وافتتحت السورة كلامها مع النموذج الذي قلدوه في هذا العمل، الذي حفّز فيه تعالى نبيّه(ع) فقط على ذلك.

لبّها يشير لاهتمام كل فرد في المقام الأول بنفسه إيمانياً بما ينفعه هو أولا لآخرته، بالزيادة في الذكر والدعاء على الواجبات لدرجة قيام الليل. وتذكر السورة الرسول(ع) كنموذج وتوجّه التحفيز الإلهي له شخصيا "كنموذج" ليهتمّ بنفسه ويزداد بأقصى ما يمكنه من الذكر والتقرّب إليه تعالى.

في مقابل هذا السلوك ستحصل اعتراضات، ولن يتقبل المحيط الكافر هذا السلوك، وأصلاً هو معترض على أصل فكرة الالتزام بالواجبات الدينية ناهيك عن النوافل، أنا وأنت كمسلمين نتقبّل فكرة قيام الليل للعبادة حتى لو لم ننفذها، ولكن غير الملتزمين بهذا الدين سيرونها فكرة سخيفة لا فائدة منها بل مزعجة، ومضيعة للوقت، وبالنسبة لهم أي شيء آخر سيكون أفضل من العبادة.

هذا ما تعرضه السورة، وإذا قرأتها من عيون شخص مسلم ملتزم يعيش في محيط معارض له، فستفهم موقفهم منه حين يقوم بالذكر والدعاء ليلا ولا يشارك في نشاطاتهم السيئة "أو اللهو"، ولا يسهر معهم مفضلاً قضاء الوقت بما نسميه بالعبادة من صلاة ودعاء وقراءة قرآن.

لو قرأتها من عيون شخص غير ملتزم، لرأيت النفور من هذا الكلام الذي يتعارض مع السهر والسمر والمرح والمجون والسكر... أو اللهو.

في سورة الإسراء الآية 79 (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا) جرى توصيف صلاة الليل بالنافلة مما يشير بشكل صريح بأنها حتى على الرسول(ع) غير واجبة، ومن نهاية السورة ترى بشكل واضح أن كلّ قيام الليل بكل أشكاله غير واجب.

سياق السورة بين بدايتها ونهايتها يدل على أنها نازلة دفعة واحدة بلا انقطاع، ولا يناسبها أن تكون من أوائل أوائل السور النازلة كما يقول البعض أنها الأولى أو الثانية أو من العشر الأوائل، حيث فيها وجود عدد من المسلمين الملتزمين بالقيام، وفيها أمر بقراءة ما تيسّر من القرآن أثناء قيام الليل، وهذا لا يناسبه أن يكون في زمن نزول هذه السورة كل ما نزل من القرآن سورتان أو بضع سور! ومن طريقة كلامها عن المكذبين يبدو واضحاً أنها نازلة قبل الهجرة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ{1})
يقول ربنا سبحانه لنبيه محمد(ع):

يا أيها المزَّمل، المتزمّل، يا أيها المتلفلف، المتغطي بثياب أو بغطاء.

تعلم من عموم القرآن أن الوحي كان ينزل على النبي(ع) بالقرآن وهو مستيقظ، فلا تفترض أنه (ع) كان نائماً "فاقداً لوعيه" وجاءه الوحي يوقظه ويوصل له سورتنا هذه، لا، بل كان (ع) متزملاً متلفلفاً بثيابه أو بغطاء، ونزلت هذه السورة، وسيبدو لك من كلامها أن الوقت حين نزولها كان ليلاً.

بعبارة أبسط، يبدو من كلامها أنها نزلت ليلاً وكان الرسول جالساً أو مستلقياً متزملاً، متلفلفاً بثوب أو لحاف ما، وجاءت لتحفيزه على النهوض للعبادة في الليل.

هناك شيء ألفت انتباهك له، حيث درج اصطلاح كلمة "عبادة" على الصلاة الواجبة والمستحبة وعلى الصوم وعلى الدعاء... بينما أصل معنى كلمة عبادة لا يعني ذلك مباشرة، ولم يستعملها القرآن بهذا المعنى المباشر، لأن العبادة لغوياً هي شيء له علاقة بالطاعة بتنفيذ كلام الآخر، وفي هذه الدراسة استعملنا كلمة عبادة كما اصطلح عليها الناس "صلاة ودعاء..."، وعندما تقرأ أنه تعالى أمر بالعبادة، فعادة سيذهب فكرك للصلاة، وهذا الحصر للمعنى ليس صحيحاً.

(قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً{2})
{قُمِ اللَّيْلَ}، تفعّل تجهّز لعمل شيء في فترة العتمة من اليوم، {إِلَّا قَلِيلاً}، من الليالي. يعني فليكن برنامجك اليومي يتضمّن قيامك بالعبادة كل ليلة إلا قليلاً من الليالي، وقارنها مع وجوب أداء الصلوات الخمس التي ولا بأي مسموح تركها، حتى لو أشرت للصلاة برمش العين أو بتكبيرة واحدة في أصعب أصعب الظروف... فقيام الليل كل ليلة ليس بهذه القوّة، ولذلك تركت الآية للظروف الصعبة كالمرض والتعب والبرد الشديد... تركت الرخصة للنبي(ع) "النموذج" بترك القليل من الليالي بدون قيام.

إن فعل الأمر "قم" ليس مقصوداً منه الوجوب، وبالتالي يكون على تركه عقاب، وهذا واضح جداً من وصف الآية 79 من سورة الإسراء للتهجّد عموماً بأنه نافلة، أي ليس واجباً (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا)، وكثيراً ما نستعمل في كلامنا العادي فعل الأمر لغير الوجوب، ونستعمله للنصيحة: لا تشرب القهوة على الريق. وللتذكير بشيء كما يقول لك زميلك: انتهت الاستراحة قم للعمل. وهكذا من المجالات العديدة لاستعمال صيغة فعل الأمر ليس للوجوب.

الكلام هنا مبني على حاجتنا نحن لفعل القيام، حيث نحن نحتاج لمزيد من الطاعات التي تمحو السيئات، ونحتاج لكسب المزيد من الحسنات حتى ننجو من العذاب... ولنحصل على المزيد من ارتفاع الدرجات في الجنّة... ومن هذا المنظور تحدّثنا السورة عن ضرورة القيام في أكثر الليالي.

يبدو لك بالبداهة مما هو منتشر جداً بين المسلمين أن الكلام عن القيام بالليل هو القيام بالصلاة التي اشتهر بين المسلمين تسميتها بصلاة الليل، ولا تجد في القرآن تحديداً لعدد ركعات صلاة الليل، وتجد في الروايات أن أقلها ركعتان والأفضل منها ثلاث ركعات على شكل ركعتي "شفع" وركعة واحدة "وتر"، والأفضل منها إحدى عشرة ركعة، ركعتان منفصلتان مثل صلاة الصبح، ثم مثلها ركعتان وركعتان بعدها... وبالأخير ركعة واحدة منفصلة. وكما تعلم فهذه الصلاة تستغرق أقل من نصف ساعة، وسترى في بقية السورة أن باقي الوقت لأمر قيام الليل هو لقراءة القرآن.

لا تنسَ ما درج بيننا أن قيام الليل بالصلاة وقراءة القرآن يكون من بعد منتصف الليل، وهذا لم يتحدّد من القرآن، ويمكنك الاستنتاج من مواقيت العبادات "الصلوات اليومية الخمس الواجبة" أن قيام الليل يبدأ من بعد صلاة العشاء، أقول لك هذا حتى لا تتصوّر أن التحفيز على قيام الليل يعني ترك النوم، أو النوم لمدة قليلة غير كافية، لا، فسترى في نهاية السورة لحاظها حالات التعب وحاجة الجسم للنوم لمدة أطول من المعتاد في بعض الظروف، وفي حالات الراحة فالجسم يحتاج لساعات نوم أقل، وهذا هو الأساس الذي حفّزت عليه الآية النبي(ع) بقيام ثلثي الليل كحدّ أقصى مناسب لبقاء وقت من الليل للنوم.

بعبارة أوضح، من كلمة الليل عند استعمالها في كلام عن القيام، يتبادر إلى ذهننا كل فترته من الغروب إلى الفجر، ولكن يمكن فهم كلام القرآن هنا على البديهة حيث نستثني مقدار النوم من الكلام عن قيام الليل للعبادة، ويكون الكلام عن ليل السهر العادي "مثلاً من المغرب حتى الثانية عشرة ليلاً، كما هو دارج في زماننا".

على كلّ حال إن مدة النوم الكافية لكل شخص تختلف عن الآخر، وبالاعتياد والتكرار تتغيّر حاجة الجسم للنوم، ويمكننا تدريب جسمنا على النوم بين الأربع والستّ ساعات، أو لاثنتي عشرة ساعة، فلا تقس الآية على مواقيت نومك ومدته، بل على ما يمكنك نومه لو اعتدت عليه.

ضع في بالك أنني أنا وأنت لا نجد هذا التحفيز الإلهي بالقيام لصلاة الليل محبباً لنا، ولو دعانا أحد ما لسهرة مع أصدقائنا أو أحبائنا لربما قبلناها بسرور، أو لو وصلتنا دعوة لالتقاط عملة ذهبية من أول الليل إلى الصباح، لتقبلناها

بكل سرور... فهذه الآيات يستقبلها النبي محمّد(ع) "والمؤمنون من الدرجة العالية" كدعوة لتحصيل المزيد من رضاه تعالى، وهم لا يرون أي شيء في هذه الدنيا أفضل من هذه الدعوة.

ننتبه أيضاً أن الدارج حالياً بيننا لتقسيم التوقيت لشؤون حياتنا، فهو "عند البعض" يختلف عمّا نصح به القرآن لتقسيم الوقت، وورد ذلك في الآية 58 من سورة النور بالاستيقاظ من وقت صلاة الصبح، "للعمل" حتى الظهيرة، وبعدها الاستراحة بالقيلولة قبل العصر، وفترة نشاط أخرى بين العصر والمغرب، والنوم بعد صلاة العشاء "المغرب"، مما يعطي وقتاً طويلاً للنوم ليلاً من بعد المغرب إلى الفجر، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ...".

لاحظ أن الحركة على الميم في فعل الأمر "قم" ليست حركة إعراب، بل حركة تلفّظ، حيث كلمة "قم" فعل أمر ساكن الآخر، وبعده "أل" التعريف ساكنة، وبفصل الكلمتين عن بعضهما يمكنك التلّفظ بكلمة "قم" بالسكون على الميم، ولكن حين تصلها بالكلام مع الكلمة التالية، وكنت من الناطقين باللغة العربية، فستجد نفسك تلقائياً تكسر الميم، لأن التلفظ بهذه الطريقة أنسب لك كعربي، ووصف اللغويون هذه الحالة بقولهم إنها: التقاء الساكنين. إن حركة الكسرة التي تراها على حرف الميم، ليس منشأها الإعراب، بل من كيفية تلفّظ العرب للكلمات بشكل متوالٍ.

(نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً{3})
{نِّصْفَهُ}، قم نصف الليل، {أَوِ انقُصْ مِنْهُ}، من الليل، {قَلِيلاً}، أقلَّ من النصف.

فلا تبذل جهداً مستمراً في حساب كم من الوقت قمت للقيام "للصلاة والدعاء وقراءة القرآن"، بل فليكن هدفك قيام أطول وقت ممكن من الليل، وعلى التقدير فليكن نصف وقت الليل.

ضع في بالك أن الآيات ناظرة أيضاً إلى اختلاف طول الليل في الفصول المختلفة، وبشكل مختلف على بقع الأرض، وتطبيق الآيات بحرفيتها لا يصدق على بعض مناطق على الأرض في بعض الفصول من السنة، فهناك مناطق لا يحصل فيها ليل لمدة أيام، وبالعكس تستمر العتمة التامة لأيام... وفي المناطق القريبة من خط الاستواء أيضاً يوجد تفاوت يصل إلى ست عشرة ساعة نهاراً مقابل ثمانٍ ليلاً وبالعكس... وهذا من الأمور التي نستنبط لحاظ الآية لها، فمن طال ليله اقتصر على مقدار اعتيادي من قدرته على قيام الليل، ومن قصر ليله أيضاً يقتصر على الوقت الذي يناسبه حتى لو كان وقت ليله فيه ضوء للشمس، فالعبرة بالكلام عن الليل هنا كونه الوقت الخاص بك، والذي تنقطع فيه عن التعامل مع الناس وتتوقّف عن الأشغال والأعمال، وليست العبرة بالعتمة للقيام.

تذكّر أن الكلام يتجاهل الوقت الذي تحتاجه للنوم، ويحدّثك عن الليل الذي عادة تسهر فيه.

(أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً{4})
{أَوْ زِدْ عَلَيْهِ}، فليكن زيادة عن نصف وقت الليل، فالزيادة جيدة، ولا داعي لتحديد وقت تلزم نفسك به، فعلى راحتك بالأنقص قليلاً عن النصف أو بالزيادة قليلاً، {وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً}، فلا تقرأه بسرعة ولا ببطء شديد، بل اقرأه متتابعاً تلفظ كلماته بطريقة صحيحة، واجعل الحروف تخرج صحيحة وواضحة... قارنها مع من يقرأ الفاتحة في صلاته كرّة واحدة بنفس واحد بكلمات متلاصقة! وقارنها مع من يقرأ الفاتحة ويكمل القراءة حتى عندما يسترجع نفسه! فهذه أسوأ قراءة "معنوياً" وأبعد قراءة عن الترتيل، ولا تعبّر إلا عن نيّة رفع الواجب ولا تعبّر عن الصلاة بمعناها الحقيقي للتوجّه والإقبال عليه تعالى للتقرب منه...

ما درج في أيامنا "وقبلها بكثير" من أحكام الترتيل أو التجويد، من إدغام وقلقلة ومدّ... فهو تطوّر لفنّ القراءة، ونظنّ أن الفصحى العربية القديمة هي القراءة المسمّاة بالترتيل الدارجة الآن، وهذا غير صحيح، فما تسمعه من تسجيلات مسمّاة بترتيل، فهي مستحدثة من بعد النبي(ع) وهي ليست العربية الفصيحة التي كانت محكية في زمن النبي(ع)، أو نظنّ أن الرسول(ع) كان يقرأ بهذا الشكل الذي تسمعه من القرّاء ترتيلاً، وهذا غير صحيح أيضاً، مثلاً المدّ لست حركات "تطويل وقت التلفّظ بالحرف" السما.....ء، الحا....قة، فهو فنّ "مستحدث" للقراءة ولا علاقة له باللغة العربية

الفصحى، وأصلاً لا أحد من العرب كان يتكلّم بهذه الطريقة. ودرج بين المسلمين تغيير طريقة مدّهم وتلفّظهم بالأحرف عندما يقرأون آية من القرآن أثناء كلامهم العادي، وهذا شيء راج بعد الرسول(ع) وليس في عصره.

نعم، للقرآن تركيب كلمات يعطي القابلية لتلفظه بشكل "موسيقي"، وهناك روايات عن استحباب القراءة على مهل أقل من الكلام المعتاد، وبنمط حزين... أكرر لك هذا لتنتبه لما يفعله بعض أئمّة المساجد في أثناء صلاة الجماعة عندما يقرؤون مثل مشاهير قرّاء القرآن، مبدئياً لا عيب تشريعياً في تلك القراءة ولا مانع منها، ولكن خذ علماً أن الرسول(ع) لم يكن في صلاته يقرأ بهذا الشكل.

بقي شيء، ما تسمعه مما يسمّونه بتجويد للقرآن، زاد كثيراً عن الحدّ المعقول المقبول، وفي الكثير من طريقة قراءاتهم تجد الكثير من قلّة الأدب، فصارت القراءات مبتذلة كمن يسمع أغنية في حفلة طرب! وصار المقرئون يتبارون في قلّة الأدب بالغناء ومدّ وترجيع الصوت طرباً للمستمعين! وصاروا يعتمدون قراءات شاذّة بالإمالة ورخي الحنك وغيرها... حتى يطربوا المستمعين! وليست كلّ قراءاتهم سيئة، فمنها الجيد والممتاز، وأحياناً يتخلله بعض من قلّة الأدب في طريقة تلاوة كتاب إلهي.

(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً{5})
سوف يلقي سبحانه عليك كلاماً، كما نقول: ألقى كلمة، ألقى خطاباً... وهذا الكلام سيكون، {قَوْلاً ثَقِيلاً}، له وزن فوق وزن الكلام العادي، ومن الواضح أن وزنه المعنوي فوق العادة، فهو كلام من الإله سبحانه، والوصف بالثقل المعنوي هو لعموم ما سينزل وحياً قرآنياً منه تعالى، وكنموذج عنه ما ستجده ثقيلاً في هذه السورة بكلامها عن يوم القيامة والعذاب فيه وفي النار.

بعبارة أخرى قيام الليل يساعد على تحمّل ثقل ما يلقيه تعالى، فيرتفع القائم ليلاً بالقيمة، ويصير أهلاً لتلقّي الكلام الإلهي الثقيل معنوياً.

(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً وَأَقْوَمُ قِيلاً{6})
{إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ}، فترة العتمة التي تنشأ من اليوم، فتحصل من خلال فترة من اليوم، فينشأ فيصير عندنا ليل، {هِيَ أَشَدُّ وَطْءاً}، فهي فترة يكون وقوعك تحتها أشدَّ بالمقارنة مع وقوع فترة النهار عليك، ففترة النهار فترة النشاط عند الإنسان، والصلاة فيها نشاط عادي، وفترة الليل فترة الخمول والراحة، والصلاة فيها أشد وطءاً، {وَأَقْوَمُ قِيلاً}، فما تقوله في الليل يكون أقوم فيكون موصوفاً بأنه على الأحسن، فيكون أفضل إذا قارنته بما تقوله في وقت النهار، فالآية تفترض أنك وبدافع التقرّب منه تعالى في زمن وطأته شديدة عليك، فسيكون اهتمامك بما تقوله أعلى.

نعيد الكلام بشكل مبسّط، لو طلبت مني في النهار مساعدتك في عمل ما، فهذا سيختلف وقعه عليّ لو طلبته منّي في الليل، ففي الليل سيكون أشد وطءاً عليّ، وهنا الآية تصف القيام بالليل للصلاة وقراءة القرآن عن رغبة بمقاومة الاستراحة واللهو والنعاس والشعور بالسكينة أو البرد... لذكره واستغفاره تعالى، وبناء عليه فالذي هذه هي حالته فسيكون تركيزه أعلى بالعبادة.

هذا الكلام موجّه للنموذج الراقي إيمانياً محمّد(ع)، فهو بسبب شدّة صفاء قلبه "فكره ونفسيته" سيتأثّر بقيام الليل بهذا الشكل، بسبب حبّه للتقرّب من ربّه تعالى، وبسبب إيمانه العميق بعظيم ما سيحصل عليه من أجر في الآخرة على هذا القيام... أمّا بقيتنا فأقل منه (ع)، وصولاً إلى الذين منّا يرون فكرة الصلاة المستحبة مزعجة من أصلها، وبالكاد يؤدّون الصلاة الواجبة... وصلاة الصبح عندهم فقدت تسمية صلاة "الصبح" لتصير الركعتان بعد صلاة الظهرين قضاء.

كما تتذكّر فالسورة "وعموم القرآن" اختار النبي محمّد(ع) كنموذج لنا لنقتدي به، وتحدّث القرآن معه(ع) براحة وصراحة، على أساس استفادتنا منه(ع) كنموذج لنمشي على خطاه، وحين يقترب قلبنا من سلامة قلبه(ع) فعندها سنفهم كيف يكون قيام الليل الأشد وطءاً أقوم قيلاً، وأمّا بغير تلك الحالة، فسنكون على حالتنا العادية من ببغائية الكلام الذي لا ندري ما قلناه أثناء الصلاة حتى وصلنا إلى آخر التشهد والتسليم.

(إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً{7})
{إِنَّ لَكَ}، أيها النبي محمّد(ع)، {فِي النَّهَارِ}، في فترة الضوء من اليوم وهو وقت النشاط العادي فإن لك فيه، {سَبْحاً}، ساحة ومتّسعاً، {طَوِيلاً}، ممتداً، بعبارة أخرى لك مساحة ممتدة طويلة لتتحرّك ولتفعل ما تحتاجه ويناسبك في النهار.

قيام الليل ليس أمراً لك لإنقاص فترة النوم التي تحتاجها والتي ستعطّل عليك حياتك النهارية لتبقى تشعر بالنعاس وفتور الهمّة نهاراً، ومعلوم لك أن فترة الليل ليست عادة للمعاش ولقضاء الحاجات والتسلية... فلك في النهار مجالاً طويلاً لتفعل ما تشاء، فإذا قمت بالليل لذكره تعالى فلن تتأثّر حياتك بأخذ وقت تحتاجه لمعاشك وقضاء حاجاتك وتسليتك...

كما ترى فالسورة لم تأمره (ع) بالقيام كلّ الّليل والنوم في النهار، لا، بل تحدّثت عن العبادة ليلاً في جزء من الليل، وضمناً تركت وقتاً من الليل بما يكفيه ليشبع من النوم، وهكذا لن تتأثّر أعماله وأشغاله فالنهار ممتد ويكفيه طوله للاستفادة منه بأمور حياته.

عادة الناس لا تعمل بشكل متواصل بلا انقطاع من الصباح حتى المساء وكلّ يوم من أيام الأسبوع، ويكفينا بضع ساعات لإنجاز أعمالنا اليومية وبعدها يوم آخر نكمل فيه أعمالنا... وعادة لا نعمل طوال فترة النهار، فنرتاح فيه، ونفعل أموراً أخرى غير العمل، وتشير الآية إلى هذا، إلى كون النهار فترة طويلة أكثر مما نحتاج للقيام بأعمالنا اليومية الضرورية لاستمرار حياتنا وأيضاً للترويح عن النفس.

بعبارة أخرى، الكلام عن القيام في الليل ليس مستغرقاً للوقت الذي نحتاجه للنوم، بل الكلام عن الوقت من الليل الذي نسهر فيه عادة للتسلية مع الأهل... فلهذا قم بالذكر "بالعبادة" في قسم منه، ومعلوم أن فترة النهار طويلة وأكثر من كافية للقيام بأي نشاط نريده، فالفترة التي سيقضيها المؤمن ليلاً في العبادة، لن تأخذ من يومه زمناً مهمّاً يحتاجه لأمور معاشه أو راحته.

بقي شيء سيبدو لك أنه من خارج سياق السورة ولكنه بشكل أو بآخر مرتبط بها، درج في عصرنا اعتماد ثماني ساعات للعمل لكسب المعاش كمعدّل عام، وبعض الأشخاص يعملون لأكثر من ذلك "ست عشرة ساعة" للحفاظ على وظائفهم أو لتحصيل مزيد من المال... وفي العديد من الدراسات ستجد أن الوقت الذي يبذله عامّة العمّال في العالم، أكثر من اللازم لو توزّع على كل البقية، وبحسب بعض الدراسات على التقدير ساعتان أو أربع ساعات عمل "وتطوير مهارات..." لكل فرد، فهي أكثر من كافية لتأمين حاجات البشرية، بل وتؤمّن الرفاهية للجميع.

الآن صرت ترى أن الدارج في عصرنا من الانغماس في العمل بلا توقّف حتى انقطاع النفس لتحصيل مزيد من المال في بعض الحالات، أو لتحصيل ما بالكاد يكفي من مال لتعيش في البلاد التي يعاني أهلها الفقر "بسبب الفساد أو التلاعب الخارجي باقتصادها"، فكلاهما حالتان شاذتان.

أقول لك هذا حتى لا نشعر بسورتنا هنا تغرّد في وادي المثاليات البعيدة عن التطبيق بالنظر لما هو دارج من أعمال وارتباطات تملأ يومنا.

للأسف تمرّد "العمّال" على النظام الحالي القائم، والذي يصبّ في مصلحة مراكمة مزيد من الملايين والمليارات للأثرياء، ومزيد من ساعات العمل للفقراء "ومتوسطي الدخل"، سيرتد فقراً وعوزاً على المتمرّد على ذلك، فمن الصعب علينا "متوسطي الدخل" النجاح في تأمين ما يكفينا بالعمل بأقل مما تعمل بقية الناس... فتكاليف الحياة التي يتداخل فيها الضروري مع الترفيهي، بحيث صارت الترفيهيات من الضروريات، ليس العيب فيه كرفاهية، ولكن العيب فيه تحكّم القلّة بنا لمصلحتهم فقط، ومعاملتنا كبقرة حلوب، يطعمونها بما يزيد إدرارها للحليب، وليس بما ترغب أكله...

الخلاصة، ما نحن فيه من مشاغل وارتباطات "وملاءٍ" تجعلنا ننظر بسلبية للكلام عن القيام بالليل "استحباباً" على حساب فترة الراحة القصيرة المتاحة لنا، فالخطأ ليس منه تعالى، فسبحانه يعرض علينا في ساعة أو ساعتين، شحذاً لإيماننا وتحفيزاً للقيام بالصالحات، وكسباً للحسنات، ومقابل ذلك جنّة خالدة، ولكن أنظمة حياتنا المشحونة بتكديس الواجبات والمشاغل، من عمل ودراسة... هي الخطأ، وليس العمل والدراسة خطأً، بل النظام الذي دفعنا إلى هذا الضغط الزائد عن حدّه لحياتنا القصيرة هو الخطأ...

(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً{8})
وفي قيام الليل، {اذكر}، فاستحضر في فكرك وقولك وعملك، {اسْمَ رَبِّكَ}، الكلمة "الكلمات" المحدّدة للمسؤول عنك من مستوى إلهي، الله الرحمن الرحيم الغفور... {وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ}، فارفع اليدين بالدعاء إلى ربك كما نفعل في قنوت الصلاة، وليكن، {تَبْتِيلاً}، بكل ما تحمله كلمة تبتّل من معنى، فليكن بخضوع من سائل يطلب بتهذيب وأدب من ربه أن يغفر له أو يسامحه أو يساعده أو يعطيه الثواب الجزيل في الآخرة...

(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً{9})
الربّ الذي تذكره وتتبتّل إليه أثناء قيام الليل:

{رَبُّ}، المسؤول من مستوى إلهي عن، {الْمَشْرِقِ}، حالة شروق الشمس، حالة ظهور قرص الشمس، وربّ، {وَالْمَغْرِبِ}، المسؤول من مستوى إلهي عن حالة غياب قرص الشمس خلف الأفق.

{لَا إِلَهَ}، لا يوجد كائن بالصفات الفائقة، {إِلَّا هُوَ}، ربّك وحده يوصف بأنه إله، وحده لديه الصفات والقدرات الفائقة وبقية الجميع أقل منه تعالى بكثير، لأنهم مخلوقات، وحالة شروق الشمس وغروبها نموذج عن قدراته الفائقة سبحانه.

أنا أحمل خمسين كيلوغراماً، وأنقلها من مكان لآخر، فهذه قدرتي، ولكن ما تراه من شروق وغروب، وما يتبعهما من ضوء وعتمة، وتكرار لهذه الظاهرة... فهو يدل على قدرة هائلة لمن صمّمها وجعلها تحصل، وهذا هو إلهك ربّك، وهذا الموصوف بالقدرات الفائقة الهائلة الذي تقوم للتقرب منه ليلاً.

{فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً}، فليكن سبحانه بالنسبة لك من تعتمد عليه لِتَسِيرَ أمورك على الأحسن.

كما ترى وصلت بنا السورة إلى حيث نفهم ما يلي: بناء على قدراته الفائقة سبحانه فتقرّب منه بأفضل الطرق المعبّرة عن إيمانك به، وتأكّد أن ما فيه مصلحتك فستحصل عليه منه تعالى.

ولا تنسَ أن لبّ السورة يركّز على اعتناء كل فرد منّا برفع مستوى إيمانه الشخصي أولاً، وهي تخبرك أنك إن تَوَكَّلْتَ فأنت ستحصل على ما يهمّك، فلا تجعل الاهتمام بتدين الآخرين أول همّك، بل فليكن أوّل همّك رفع مستوى تدينك أنت شخصياً.

تذكّر دائماً أننا كبشر جعل سبحانه فينا الفكر والمشاعر الدافعة للتعرّف عليه سبحانه من ملاحظة أفعاله "آياته في خلقه" ومن ملاحظتنا لروعة الأشياء...وينتج عن ذلك مشاعر التعلّق بالقوّة الإلهية الفائقة عند الوقوع في الشدائد... فوضعنا كلمة نصف بها الكائن ذَا الصفات والقدرات العالية جداً عن قدراتنا، وهي كلمة "إله" كوصف لذي القدرات الفائقة الخالق والذي نتعلّق به عند الوقوع في الورطات...

وفي الحقيقة إن الكائن الوحيد ذو الصفات والقدرات الفائقة، والذي ليس مخلوقاً فهو الله سبحانه، وتساهل الناس في استعمال كلمة إله لتنطبق على أشياء ليس فيها صفات أو قدرات فائقة، فيطلقونها على حجر منحوت! وكان التساهل يصل إلى مستوى وصف فرعون نفسه بالإله وقبول من حوله بذلك، على أساس أن فرعون يملك صفة الملك العالي على الناس، وتقرأ ذلك في الآية 38 من سورة القصص "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي...".

والقرآن يستعمل كلمات اللغة العربية بدقة من مستوى إلهي، فيقوّم اللغة ككلّ، ويقوّم دقة معاني كلماتها، وبخصوص كلمة "إله"، يخبرنا أنها في حقيقة معناها لا تنطبق إلا على الله وحده سبحانه وتعالى، ويمنعنا سبحانه من التدرّج في استعمال كلمة إله "قارنها مع كلمة ربّ".

انتبه جيداً، إن المشركين الناطقين باللغة العربية، ومن أقحاحها وفصحائها وبلغائها... وغيرهم من أهل اللغات الأخرى استعملوا كلمة إله "بالعربية أو بما يرادفها من اللغات الأخرى" بتطبيق غير صحيح ولا متوافق مع معناها الحقيقي حين وصفوا بها غيره تعالى.

قارنها مع كلمة "ربّ"، أنا ربّ بيتي وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... فهذه كلمة تتحمّل التدرّج في مستوى المسؤولية ونوعها، أمّا الربوبية من مستوى إلهي، فهي لا تتحمّل التدرّج، فهي حصراً له تعالى ومن الخطأ توصيف غير الله تعالى بالربوبية التي من مستوى إلهي.

إن كلمة إله في حقيقة معناها لا تتحمّل التدرج ليوصَف بها كائن آخر غيره تعالى. ضع هذا في بالك وسترى معنى كلامه تعالى عن أفعاله بشكل أوضح، حين يخبرك أنه خلقك، وخلق بيئتك، وخلق الظواهر التي فيها... ورزقك... ويميتك... وسيبعثك... ولم يشاركه أي أحد في هذه القرارات ولا في تنفيذها، وسبحانه وظّف الملائكة(ع) التي خلقها لتنفيذ بعض أوامره... وهكذا ترى بوضوح أنه لا معنى لوصف أي كائن آخر بالألوهية، فماذا فعلت تلك الكائنات حتى نصفها بالألوهية إن كان الكائن صاحب الاسم المحدّد له والمميّز "الله" جلّ جلاله فعل كل شيء، فما معنى ألوهية غيره! وهذا ملخّص مبسّط للكثير من الكلام القرآني حول فساد عقيدة الكفر والشرك به تعالى.

ألفت انتباهك للديانات القديمة التي انتبه المثقفون من المنتمين لتلك الديانات للفرق بين الإله والربّ، فحصروا استعمال كلمة إله للإله الكبير، واستعملوا للآخرين وصف الربّ، كربّ المطر المختلف عن ربّ الحرب المختلف عن ربّة الجمال... أمّا عامّة الناس فيقولون: إله المطر وإله الحرب... وعلى كل حال القرآن رفض توصيف غيره تعالى بالألوهية أو بالربوبية من مستوى إلهي، حيث إن المشركين يعتقدون بوجود كائن "ربّ" مسيطر على المطر من مستوى إلهي وبقدرة ذاتية منفصلة عنه تعالى، وهذا غير صحيح، ولذلك اعتبر القرآن توصيفهم لأربابهم أنه توصيف لألوهية أربابهم.

من ناحية ثانية لدينا التطبيق العملي للاعتقاد بإله ما، يصير الهوى إلهاً كما ورد في الآية 43 من سورة الفرقان "أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ..."، وهي لا تشير لاعتقاد الشخص بأن هواه كائن بصفات فائقة، بل تشير لتركه لدينه تعالى واختراع دين من هواه، لدين فيه ما يهواه، عملياً هو يعبد هواه.

بالنسبة لأصل كلمة "الله" فهناك كلام كثير حولها، ويبدو من تتبّع جذور اللغة العربية ولغات جاراتها المسمّاة حالياً بالسامية... أن الاحتمال الأقوى هو وضع البشر لكلمة واصفة لذي القدرات الفائقة "إله" ومنها جرى اشتقاق اسم العلم "الله"، وهذا الاسم لم يكن متداولاً في اللغات البعيدة عن منطقة الشرق الأوسط حيث للآخرين نفس الوصف والتسمية ولكن بألفاظ أخرى، فكلمة إله واشتقاقاتها جرت من اشتقاقات ما يسمّى بأصل اللغة السامية.

أمّا كيف حصل الاشتقاق لكلمة الله من وصف الإله ومتى، فهل هو اشتقاق بشري أو اشتقاق إلهي علّمه تعالى للبشر قديماً عبر الوحي، فالأرجح عندي "استذواقاً" أنه اشتقاق بشري مقوّم بتأكيد إلهي لتثبيت الاشتقاق كاسم علم له تعالى بلغة من لغات البشر. أقول لك "استذواقاً" لأن المواضيع من هذا النوع من البحوث التاريخية التي تتخطى آلاف السنين إلى الوراء بلا مستند صريح لتأكيد كلام ما، فهو بطبيعته يصير استذواقياً لاختيار شيء من احتمالات مفتوحة، وحتى أنا ذات نفسي في سياق كلام آخر أستذوق أنه تعالى هو سمّى نفسه، فليس من المعقول ولا من المقبول منك أن تطلب حسماً من الباحث في موضوع كهذا ونحن لم نجد عليه دليلاً حاسماً، ولا مقبولاً من أي باحث تقديم رأيه في هكذا مواضيع بشكل حاسم على أنه الصحّ إلا اللهم إن قدّم دليلاً دامغاً، وهذا لا يبدو ممكناً في مسألتنا هذه.

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً{10})
{وَاصْبِرْ}، أيها النبي محمد(ع) لا تتصرف بشكل غير مناسب أو سيئ بسبب تعرّضك لشيء غير مريح أو لا تحبّه أو تكرهه... فهذه أمور لها حلّ أو ستزول، فاصبر على ما يقولون، وكما ترى افترضت السورة علمك بمخاطبتها للنبي محمّد(ع) وبالتالي تعلم بوجود من يقول له كلاماً يعارض كلامه الديني(ع)، فيكذّبه في ربّه إلهه الأحد كما رأيت فيما سبق وسترى من الآية التالية، فاصبر على تكذيبهم لك.

{وَاهْجُرْهُمْ}، ابتعد عنهم واتركهم بالمرّة، واقطع العلاقة معهم، {هَجْراً جَمِيلاً}، من دون قلّة أدب بكلام مشين أو معيب لهم، بل تعلن بشكل جميل هجرهم، ولا تصدر منك حركات معيبة... على أساس أنه تعالى أمرك بهجرهم فتتصرف بعصبية وقلّة أدب بقطع علاقتك معهم، لا، فليكن هجراً جميلاً، فتتركهم وأنت محافظ على أدبك وأخلاقك.

هناك حالة تصيب بعض الناس حين يقررون ترك عملهم القديم والانتقال لعمل جديد، فيسيئون معاملة رفاقهم السابقين على أساس أنهم لم يعودوا يهمّونهم لأنهم سيغادرونهم ولن يروهم مرّة ثانية، وعلى أساس أنهم كانوا يضغطون على أنفسهم لتحمّلهم... أو مثل الولد أو البنت حين يبدأ بالعمل ويصير لديه مدخول مالي يستقل به عن والديه، فبعض الأولاد

لا يعود يرى نفسه مضطراً ليكون مهذباً لطيفاً مع أهله... هنا تنبّه السورة النموذج الرسول من هذه السلوكيات البشرية، ولننتبه نحن من هجرنا لأشخاص بسبب ديني إيماني، فلا نهينهم أو... بل نهجرهم ونحن محافظون على أدبنا وأخلاقنا.

تذكّر دائماً أن لبّ السورة عن ضرورة اهتمام كلّ واحد منّا برفع مستوى تقرّبه إلى الله تعالى، ومن كذّبك في دينك فلا تجعله أوّل همّك.

طبعاً أمثال هذا الكلام القرآني ليس عن هجران كافرين معادين مقاتلين للمؤمنين بسبب إيمانهم، فهؤلاء تقاتلهم، فالكلام عن عموم حالة كافرين يخوضون في الكلام الديني من العقلية المتحجرة الرافضة للحق مهما جئتهم بأدلّة.

الآية هنا شبيهة بالعديد من الآيات التي ترى فيها بوضوح أمراً إلهياً بأننا كمنتمين لدينه تعالى فلا علاقة لنا بعقائد الآخرين، حتى لو كنّا قادرين على منعهم بالقوّة، فممنوع علينا ذلك، والفكر الإجرامي أو الضلالي، فسّر آيتنا هنا وأشباهها من الآيات على أنها منسوخة فهي ملغية إذا كان بإمكاننا منعه ولو بالقوة من كفره، بل العديدون أوجبوا قتل الكافر مستدلين بآيات قرآنية سلخوها عن سياقها الذي كان خاصاً بالكافرين المعادين للمؤمنين بسبب إيمانهم، فقط لا غير، وكمثال واضح جداً عن ذلك ما قالته الآية الثامنة من سورة الممتحنة (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) ومثلها في المعنى الواضح الآية 90 من سورة النساء (إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا).

(وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً{11})
{وَذَرْنِي}، أيها النبي(ع) لا تهتم ولا يعنيك أمرهم واتركني، {وَالْمُكَذِّبِينَ}، بنبوتك وبما تبلغهم مني، أولئك المكذبين، {أُولِي النَّعْمَةِ}، "بالفتحة على النون"، لا يريد القرآن توصيف الخير الذي هم فيه بأنه نِعمة "بالكسرة على النون" حتى لا يبدو كشيء منه تعالى ككرامة لهم، ولذلك وصفها بنَعمة بفتحة على النون، فهي مجرد أشياء توصف بأنها نَعمَة بغض النظر عمّن يملكها، فهي للرفاهية وسعادة الحياة، سبحانه يخصص المؤمنين بالنِّعمة "كسرة على النون"، والآخرين لا قيمة لهم عنده تعالى ولكن النَّعمة "بالفتحة على النون" متاحة لهم. الذين أتاح تعالى لهم فحصلوا على ما يوصف بأنه نَعمَةٌ جيدةٌ حسنةٌ، من جسد بصفات مناسبة وأرض يعيشون عليها وفيها موارد، ومن الصحة والمال والولد والمكان المريح والطعام وغيرها من النعم التي أعطاها سبحانه لهم. هؤلاء النماذج من الكفّار المتمتعين بنعم منه تعالى بدل أن يكونوا أكثر الناس شاكرين لربهم على هذه النعم، إذا بهم أشدّ الناس كفراً وتكذيباً!

من أين لهم هذه الأمور التي معهم وتوصف بأنها نعمة؟ أليست من ربّهم إلههم الذي أرسلك؟ وهم يكذبونك! اتركهم لي ولا تهتمّ، ومعلوم أنه تعالى توعّدهم بعذاب حتمي في الآخرة.

{وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً}، أعطهم وقتاً وانتظرهم قليلاً، وهي مدة حياتهم في الدنيا القليلة جداً جداً والتي بعدها بعث وحساب وجزاء.

من الواضح أن أقل نعمة حصلنا عليها منه تعالى هي حياتنا وجسدنا وما فينا من خصائص كالفكر والحواس... عموم ما نحن فيه هو نعمة كما قالت الآية 18 من سورة النحل (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا...)، والآية هنا بدأت كلامها بقسوة مع نموذج الذين أنعم تعالى عليهم وبدل اعترافهم بذلك كذّبوا رسوله(ع) وكفروا بربّهم...

نتذكّر من عموم كلام القرآن تركيزه على المرتاحين مالياً وصحياً ولديهم أولاد أكثر من تركيزه على الكافرين الفقراء، وخذ مثلاً ما ورد في الآيتين 14 و 15 من سورة القلم (أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) لا لأن الفقراء غير مهمّين، بل لأن النعمة التي على الأغنياء من المفروض أن تكون دافعاً لهم لشكر من أتاحها لهم، أمّا الفقراء فما الدافع لكفرهم بدين حقّ؟ عقائد دينه تعالى تجعلهم أرقى فكرياً ونفسياً، وتشريعاته لصالحهم تعطيهم حقوقاً وتأمينات مالية واجتماعية...؟ وبسبب كفر المجتمع نتج فساد في التشريعات والسلوكيات، فصاروا فقراء فاقدين لبعض ما أنعم به تعالى علينا بسبب الأفعال السيئة للآخرين، هؤلاء ما معنى كفرهم؟

الكلام هنا عن أولي النعمة عموميّ للجميع لأننا كلنا في نعمة بتدرجات مختلفة، ولكي ننتبه أننا نكفر بالذي منحنا النعمة، ولكن عموم بقية كلام القرآن الذي اختار نموذج الأثرياء من الكافرين ليسألهم عن سبب كفرهم بالذي أنعم عليهم بينما هم من المفروض منهم أن يكونوا أكثر الناس شكراً له، وما سيأتي في الآية 15 من كلام عن النموذج فرعون، يجعلنا هنا في الآية نلتفت للأثرياء كنموذج بارز.

(إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً{12})
بعد أن يصيروا بين يديه تعالى ماذا سيحصل مع المكذبين؟:

{إِنَّ لَدَيْنَا}، عنده تعالى، {أَنكَالاً}، عقاب تنكيل، عقاباً شديداً جداً يجعل الآخرين يرتعبون منه عندما يرونه، فهو مرعب لمن يصيبه ولمن يراه، ولديه تعالى، {وَجَحِيماً}، مكاناً يوصف بشدة سوء ما فيه، وتعلم بأنه مكان تتأجج فيه نار كبيرة جداً، وهو مكان تعذيب الكفار في الآخرة.

بعد دراسة أشعار العرب قديماً قبل الإسلام، وجدت فرقاً بسيطاً بين كلمتي جحيم وجهنّم، جهنّم باستعمال القرآن هي اسم مكان مشتق من الوصف بجهنم الذي يشير لسوء الحالة أو المكان، واستعمال هذا الوصف لمكان تعذيب في الآخرة، هو وصف للأنواع المختلفة المسببة للعذاب مما في المكان، فيه النار المحرقة وفيه الضرب وفيه طعام كريه ورائحة كريهة... وتفهم ذلك من فحوى الآية 49 من سورة غافر (وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ...). وفي بيتين من الشعر قبل الإسلام وجدت إشارة بكلمة جحيم لضخامة النار، ويناسبها ذلك في القرآن كما ورد في الآية 97 من سورة الصافات (قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ)، والجحيم وصف الضخامة في السوء.

(وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً{13})
ولدينا للمكذبين "بدلا من النعمة التي كانوا يتمتعون بها في الدنيا"، {وَطَعَاماً}، شيئاً للأكل وله طعم تستذوقه، {ذَا غُصَّةٍ}، يعلق في البلعوم أثناء بلعه ويسبّب الانزعاج، وكما تعلم من عموم القرآن إن ذاك الطعام بسبب صلابته وتشويكه وطعمه ورائحته الكريهة وحرارته... لا يمكن مضغه وابتلاعه، ولكن من شدّة جوعهم يزقمونه فيبلعونه... ولمزيد من التفاصيل عن الأكل في جهنّم راجع دراستنا لما ورد في الآية 62 وما بعدها من سورة الصافات.

ولدينا للمكذبين، {وَعَذَاباً أَلِيماً}، ضرراً يصيبهم لا يمكنهم تحمله أو الاعتياد عليه.

(يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً{14})
قالت الآيات السابقة: اصبر... للمكذبين أنكالاً... وهذه الأمور ستحصل:

{يَوْمَ}، في الزمن الذي فيه، {تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ}، تهتز وترتجّ وتتحرك البقع على الأرض من مكانها والجبال ترتجّ وتهتز وتضطرب بشدة. {وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً}، مثل جبال الرمل التي في الصحراء التي تتحرك وتنزل فيها القدم إذا وقفت عليها. في زمان ما لن تبقى الجبال صلبة ومتماسكة، بل ستكون {مَّهِيلاً} أي تنهال، تتهاوى، تتساقط لأنها غير متماسكة.

تذهب بنا الآية حيث تتبدل الأرض ويتغير حالها، حين يبدأ تبدل السماوات معلناً انتهاء الدنيا وتحصل الصيحة الأولى التي تميت كل من كان حيّاً من الكائنات كما ورد في الآية 68 من سورة الزمر (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)، وبعدها تبدأ الآخرة، وفي زمان منها يتم تسيير الجبال ونسفها وجعلها على مستوى الأرض كما نفهم من الآية 107 من سورة طه (لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا)، ويقع النفخ الثاني، ونقوم من الموت ولا تزال الأرض تتزلزل والجبال تتهاوى كما تفهم من بداية سورة الزلزلة إلى الآية الثالثة (وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا)، وحينها يحصل المكذبون على جزائهم.

تكرر كلام القرآن عن انهيار الجبال بناء على نظرة الناس لها ككيانات ضخمة صلبة تدل على بقاء الأرض واستبعاد حصول دمار لها، وبالتالي استبعاد حصول الآخرة، وأيضاً تأتي على البال فكرة الاختباء في الجبال في الآخرة، يأتي الكلام الإلهي بخبر عن انهيارها كما ورد في الآية 105 من سورة طه (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا).

رجفان الجبال هنا في الدنيا معلوم من تأثرها بالزلازل، وانهيار كيان الجبال يبدو أنه من آثار تبدّل الأرض الدنيا لأن أرض الآخرة تركيبها مختلف... وغير معلوم لنا إن كانت المادة الحالية "نحاس حديد..." ستتغيّر في الآخرة أو ستبقى ولكن الأكيد الواضح أن التركيبات منها للمخلوقات ستكون مختلفة في الآخرة.

(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً{15})
{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً}، شخصاً ناقلاً لكلامنا لكم، {شَاهِداً عَلَيْكُمْ}، حاضراً بينكم يرى ويسمع ما تفعلونه، فما أنتم عليه من إيمان وشريعة وسلوكيات سيئةٌ وباطلة، وها وصلكم من ينقل لكم الإيمان والشريعة من الإله سبحانه، وصار شاهداً عليكم بتكذيبكم له وترككم للكلام الإلهي والبقاء على الباطل والسوء... {كَمَا}، مثلما، {أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً}، أرسل تعالى له الرسول موسى(ع)، فأنتم أولو نعمة وهي لا شيء أمام ما كان لدى فرعون، وتعامل تعالى معكم ومعه بنفس الطريقة وأرسل سبحانه لكم رسولاً...

تضرب السورة لكم مثلاً عن نموذج أكبر وأضخم منكم بكثير من ناحية المال والقوّة والسلطة... وتعلمون كما هو منتشر بين الناس أن فرعون تدمّر بعقاب إلهي...

وكلمة فرعون هي صفة لصاحب أعلى سلطة عند المصريين القدماء في بعض فترات تاريخهم، وليست اسماً لشخص محدد، فهي كصفة الملك عند العرب، أو الشاه عند الفرس أو القيصر عند الرومان... والقرآن أشار بهذا اللقب خصوصاً للفرعون الذي كان على عهد النبي موسى(ع).

أشار القرآن مراراً إلى الفرعون الذي كان على عهد النبي موسى(ع) بأنه نموذج عن أعتى وأقوى وأغنى شخصية ظالمة كافرة عبر تاريخ البشرية، وبما لدينا من آثار إذا قارنّاه بما يقوله القرآن، فإن أقرب تحديد لشخصية ذاك الفرعون تكون الفرعون خوفو، وراجع في ذلك دراستنا للآية 24 من سورة غافر، أو أي آية ورد فيها اسم "هامان"، وعلى أي حال، ربما يخطر ببالك أن القوّة العسكرية والمالية التي في عصرنا عند بعض الدول كروسيا والصين وأميركا... أقوى من أي فرعون، وربما يبدو لك أن التمثيل للقوّة الضخمة والسلطة بذاك الفرعون هو شيء من التراث وكلام قديم، ولكن خذ علماً أن ذاك الشخص لم يكن يراعي أي شيء نهائياً، لا توازنات ولا خوف من أي قوّة أخرى في عصره، والذين حوله ينفذّون كلامه على أساس أنه كلام ربّ وإله... وانتشرت سلطته إلى الامتداد الذي تصل إليه جيوشه وإلى كلّ المدن التي يعرفها في عصره... الآن قايسه مع أي شخص آخر من التاريخ وسترى الفرق، وعادة يذكره القرآن كنموذج عن أعلى ما وصل إليه إنسان في السلطة والقوة عبر التاريخ القديم للناس، فلنرَ من الآية التالية مصيره:

(فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً{16})
{فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ}، خالف فرعون أوامر النبي موسى (ع)، {فَأَخَذْنَاهُ}، لم يتركه تعالى على عصيانه، {أَخْذاً وَبِيلاً}، بشكل عواقبه سيئة، ما بعد الأخذ حصلت مع فرعون أمور سيئة جداً، ومعلوم أنه غرق وانتقل للموت الذي بعده جزاء عسير في الآخرة.

يا كفّار مكّة "النموذج عن بقية الكفّار" ماذا تتوقعون أن يكون مصيركم مع تكذيبكم للرسول محمّد(ع)؟ وها أخبرناكم ماذا فعلنا بمن هو أعتى وأقوى وأغنى منكم.

(فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً{17})
{فَكَيْفَ تَتَّقُونَ}، كيف تتجنبون وتتحاشون، {إِن كَفَرْتُمْ}، إن أنكرتم الرسول وما ينقله لكم من الإله سبحانه، فكيف ستتجنبون، {يَوْماً}، زمناً لأحداث محدّدة، والكلام هنا عن يوم القيامة من الموت الذي من شدَّته ورعبه، {يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً}، الأولاد الذكور والإناث الصغار في السنّ سيجعل شعرهم أشيب أي أبيض، وتعلم أن المقصود أن شعرهم سيبيض من الخوف، وهذه حالة نعرفها من حياتنا، وسمعتم عن أولاد أو شباب صار لون شعرهم أبيض بعد تعرضهم لحالة خوف شديد.

أنتم في حالة الكفر التي تستوجب عقاباً شديداً فكيف ستتجنبون اليوم الذي تتحاسبون فيه وهو يوم مرعب لدرجة يجعل فيها الولد يشيب رأسه من الخوف؟

ننتبه جيداً، في يوم القيامة يرجع الجميع إلى الحياة، ومن ضمنهم الذين ماتوا وهم أولاد، فهناك أولاد في يوم القيامة ولكن الآية هنا لا تتحدّث عن أولئك الأولاد، فهم لن يشيبوا من الرعب والخوف، ومن عموم القرآن تعلم أن التكاليف الإلهية لا تشمل إلا الواعين المدركين لما يفعلونه "البالغين"، فلا يتحاسب على أعماله إلا من هو راشد عاقل "بمقدار عقله ورشده"، أمّا الأولاد فلا حساب لهم، ولكن الآية تشبّه رعب يوم القيامة بما نعرفه الآن من أشدّ حالات الرعب التي تجعل الولد يشيب شعر رأسه من الخوف، وهي حالات نادرة ولكنها نموذج عن أقصى حالة رعب، وفرضاً لم يحيّد سبحانه الأولاد في يوم القيامة عن مشاهد الرعب، فرضاً لم يحصل ذلك فشعرهم سيشيب من الرعب، فهو يوم لو شاهده الأولاد فسيجعل شعر رأسهم يشيب من الرعب.

بعبارة أصرح الآية لا تقول بأن الأولاد في يوم القيامة سيشيب شعرهم، فهذا لن يحصل لأن الأولاد لا يتحاسبون، بل تقول بأنه يوم شديد الرعب لدرجة جعله الأولاد يشيبون، طبعاً إن تعرّض لرعبه أولاد.

(السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً {18})
{السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ}، ما فوق الناس سيكون مشقوقاً وفيه بقع وسيخرج منه شيء في ذلك اليوم، فلن تبقى السماوات طباقاً كل سماء طبقة لوحدها بل ستتداخل السماوات، {كَانَ وَعْدُهُ}، كلامه تعالى الذي قال إنه سيفعله، {مَفْعُولاً}، سيتنفّذ ويحصل فعلاً.

بمقارنة الآية هنا مع الآية 3 من سورة الملك التي تصف السماوات الحالية بأنها طباقٌ بلا تفاوت فلا ترى فيها فطوراً "الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ"، نفهم أنه في الآخرة لن تبقى السماوات طباقاً، وهذا ما يبدو أنها تشير له الآية 19 من سورة النبأ "وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا".

هنا في الآية المقصود هو سماء يوم القيامة وما بعده وهي غير السماء التي نعرفها الآن، فلن تكون مثل السماء الحالية متناسقة بل ستتداخل مع السماوات الأخرى ويصير فيها بقع وشقوق، وعموم ما سيكون فوقنا سيكون منفطراً، وسيظهر وينبثق منه أشياء.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائماً أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ..." وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراضٍ.

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً {19})
{إِنَّ هَذِهِ}، المعلومات عن تعذيب المكذّبين وعن رعب يوم القيامة الذي ذكرته الآيات السابقة هي، {تَذْكِرَةٌ}، معلومات تستحضرونها في فكركم وعملكم، {فَمَن شَاء}، أمامكم خيارات عديدة بسبب حرية الإرادة الممنوحة لكم، فمن شاء منكم، {اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً}، جعل لنفسه مسلكاً إلى المسؤول عنه من مستوى إلهي، على أساس هذه التذكرة صار بإمكانكم اتخاذ طريق يوصلكم إلى المسؤول عنكم من مستوى إلهي، ومن لم يشأ اتباع هذه التذكرة فقد اتخذ طريقاً يوصله إلى مخالفة ربّه وبالتالي إلى جهنم.

تعابير القرآن المشابهة لتعبير آيتنا هنا لا تقصد القول إنك حرّ لتختار أي طريق وانتهى الكلام، لا، فأنت أمامك خيارات عديدة، ويمكنك اختيار أي منها، فأنت حرّ في الاختيار، ولكن لكل طريق تختاره نهاية مختلفة عن الأخرى، وها تعرض عليك السورة نهاية طريق التكذيب، الذي يمكنك اختياره ولكن عليك بتحمّل نتيجته، لم يقل لك القرآن ولا مرة ولا بأي طريقة بأنك حرّ لتختار ما تشاء من دون تنبيهك من نتيجة ما اخترته، فأنت تختار آخرتك حين تختار طريقك، فاختر ما شئت.

(إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{20})

كما عَلِمْتَ من بداية السورة أن قيام الليل بالأعمال المستحبة "نوافلَ" ليس واجباً حتى على النبي(ع)، ولكنه مهمٌّ جداً للرقي الإيماني وكسب الحسنات ولمحو السيئات، حاول النبي(ع) إلزام نفسه ببرنامج عبادي مكثّف ليلاً، وأيضاً حاول ذلك جماعة من المؤمنين، ويبدو واضحاً شعورهم بالتقصير أو الذنب لعدم قدرتهم على قيام الليل كل ليلة ولمدة طويلة، ولذلك نزلت هذه السورة.

بدأت السورة كلامها عن قبوله تعالى أصلاً لعموم هذه المقادير من القيام ليلاً للذكر بقراءة القرآن والصلاة والدعاء، وهو ما نسميه بالعبادة.

يمكنك تصوّر الكلام بالتقريب كحالة الذي فجأةً صار مداوماً على الذكر من صيام وصلوات مستحبة وأدعية... فبين الحين والآخر يمرّ أشخاص بحالات كهذه بحيث يتفرغون للعبادة، ولا تستمر معهم هذه الحالة طويلاً، فغالبيتهم سرعان ما يتوقفون عن ذلك ويرجعون لحياتهم العادية مكتفين بالواجبات وربما مع بعض المستحبات، إلا اللهم بعض الذين يدخل على برنامج حياتهم وقت عبادي أطول من المعتاد.

هنا كلام الآية يبدو منه وقوع البعض من الجيل الأول من المسلمين في حالة فجائية من التفرغ للعبادة، أو تقديم وقت طويل جداً للعبادة، تُعيد السورة تصويب المسار الذي يدمج بين أهمية العبادة في الليل مع الأخذ بعين الاعتبار الظروف المختلفة لكل إنسان، حتى لا نظن أن الدين الإلهي يأمر بالتفرغ للعبادة...

{إِنَّ رَبَّكَ}، إن المسؤول عنك من مستوى إلهي، يعلم أنك تقوم {أَدْنَى}، أقل من ثلثي الليل، وتقوم، {نِّصْفَهُ}، وتقوم، {وَثُلُثَهُ}، فتختلف مدّة قيامك بالليل للعبادة بين ليلة وأخرى، {وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ}، المسلمون مجموعة وفيهم مجموعة صغيرة قلّدوك في قيام الليل، فصار وصفهم أنهم طائفة فهم شخص أو أشخاص التزموا بشيء لم يلتزم به الآخرون من المسلمين، وأيضاً التزموا بقيام الليل وأيضاً كانت مدّة قيامهم تختلف من ليلة لأخرى.

{وَاللَّهُ يُقَدِّرُ}، يجعل مقداراً فيحدّد مدّة، {اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}، يختلف مقدار الليل مع مرور أيام السنة فيصير أطول من النهار وفي فترات أخرى يصير أقصر من النهار، {عَلِمَ} الله {أَن لَّن تُحْصُوهُ}، فلن تقوموا بإحصاء، بتعداد كل الأوقات بدقة من بدايتها لنهايتها، عملياً لن تقوموا كل يوم بحساب مدّة الليل حتى تعلموا أنكم قمتم أكثره ونمتم بالمقدار الذي تحتاجونه... {فَتَابَ عَلَيْكُمْ}، فتح لكم صفحة جديدة، حيث أعلنتم التزامكم بالقيام بأطول مدّة من الليل "ثلثيه وأكثر" ولكنكم لم تستطيعوا الوفاء بهذا الالتزام، ولن يحاسبكم سبحانه على ما مضى من إخلالكم بهذا الالتزام، ومن تكملة الكلام ترى أنه تعالى لن يحاسبهم على ما سيأتي من ليال لن يفوا فيها بهذا الالتزام.

{فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ}، قوموا بقراءة ما كان سهلاً عليكم قراءته من دون صعوبات، فليكن الوقت الذي تقضونه في قراءة القرآن بمقدار ما يكون سهلاً عليكم، فلا تقرؤوا مجبرين أنفسكم غصباً عنكم ولمدة طويلة حتى لو نعستم وصرتم لا تستوعبون ما تقرؤونه.

{عَلِمَ}، الله سبحانه، {أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى}، سيكون منكم أشخاص حالتهم الصحية غير سليمة فتسبّب لكم التعب وفقدان التركيز والهمّة مما يمنعكم من قيام الليل ومن قراءة أجزاء عديدة من القرآن، المريض في بعض الحالات يفقد القدرة على البقاء مستيقظاً.

وعلم تعالى أن سيكون منكم، {وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ}، يسافرون فيها، {يَبْتَغُونَ}، يطلبون فيقصدون، {مِن فَضْلِ اللَّهِ}، من أمور قدّمها تعالى لهم من دون أي مقابل منهم، ومن دون أن تكون واجبة عليه سبحانه، كالتجارة والعمل لكسب المال والأملاك... لأن السفر أيضاً يسبب التعب المانع من قيام الليل، حيث إن المرهق يفقد السيطرة على نفسه وينام حتى لو حاول البقاء مستيقظاً.

وعلم تعالى أن سيكون منكم، {وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، لا في سبيل غايات شخصية سيئة أو منفعة سيئة لا يرضاها تعالى، والقتال وما يتعلّق به من تحضيرات سيسبّب التعب والإرهاق المانع من تخصيص وقت لقيام الليل على حساب المجهود العسكري، وأيضاً بعد المجهود يفقد الإنسان القدرة على البقاء مستيقظاً.

هذه أبرز نماذج عن أمور تجعلكم غصباً عنكم غير قادرين على القيام بالليل وقراءة الكثير من القرآن، وبالتالي لا معنى لإلزام أنفسكم ببرنامج عبادي ليلي طويل بينما واقع الحال مانع لكم من ذلك.

{فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ}، اقرؤوا ما كان سهلاً عليكم قراءته من القرآن في وقت مدّته لا تجعل أموركم صعبة. وستجد روايات عديدة تحدّد مقادير مختلفة من عدد الآيات التي ينطبق عليها وصف "ما تيسّر"، وفي مجمل تلك الروايات تجد مئة آية هي أقل ما يقرؤه المؤمن ليلاً... ولكن هذا مجرّد تقدير، والتقدير الحقيقي متروك لك على ما يناسبك أنت، من سورة صغيرة تفهمها وتستوعب ما تقوله إلى سورة أكبر... إلى صفحة أو صفحتين أو حزب أو جزء... فما تجده يسيراً عليك فافعله.

ولكن هل السماح لكم بالتساهل بقيام الليل يجيز لكم التساهل في بقية الواجبات؟ هل بقية الواجبات يمكن التراخي فيها؟ لا:

{وَأَقِيمُوا}، فعّلوا لا تعطّلوا ولا تتركوا أو تهملوا، {الصَّلَاةَ}، التوجّه والإقبال على شيء ما، وهذه الكلمة "الصلاة" صارت مصطلحاً يشير للتوجّة بالحركات والكلام المعروف بالصلاة الواجبة، وهي الفريضة الدينية التي نقيمها خمس مرات في اليوم وتعبر عن ذكرنا "عبادتنا" لله تعالى، علماً أن كلمة صلاة عمومية لأي توجّه وإقبال، عبادي أو غيره.

{وَآتُوا الزَّكَاةَ}، اجعلوها عند من يوزّعها أو وزّعوها أنتم بحسب ما أمر سبحانه.

كلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، فتشير لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكية، مال زاكٍ، طعام زاكٍ..."، ومنذ القدم صارت مصطلحاً دينياً يشير إلى دفع نسبة محدّدة "عفو" من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ..."، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، فيدفع منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة "...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ..."، فتكون نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة "موثوقة" مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ".

وعندما نمرّ على آيات فيها كلام عن الإنفاق، الصدقة والزكاة... نجد في كتب التفاسير كلاماً عن بداية وجوب الزكاة على المسلمين بعد الهجرة في المدينة، وتحديد مقدارها في المدينة... على أساس أنها لم تكن واجبة في بداية الدعوة حين كان النبي محمّد(ع) في مكّة، وبناء عليه قالوا إنَّ كل ما نزل من القرآن في مكّة وتحدّث عن الإنفاق المالي، حتى لو ذكر كلمة زكاة، فهو لا يتحدّث عن الزكاة الواجبة لأن التاريخ يقول عن النبي(ع) أنه أخبر الناس عن وجوب دفع مقدار محدّد من أموالهم في سبيله تعالى، وحدّد مقدار ما يجب دفعه في المدينة أي بعد هجرته(ع) من مكّة.

بينما الزكاة ليست شيئاً جديداً طرحه هذا القرآن، فهي من أساس الدين الإلهي، ومأمور بها في الكتب الإلهية السابقة... جدّد القرآن طرحها، فلا يوجد شيء اسمه: تشريع الزكاة في المدينة بعد الهجرة. بل الحالة في حينها أن المسلمين من بعد الهجرة إلى المدينة صار لهم حكومة يمكنها التعامل مع الزكاة، تشريع الزكاة مثل تشريع الصلاة، فهو قديم في دينه

تعالى، ومثل تشريع حرمة الزنا وشرب الخمر والسرقة... هذه العناوين أيضاً لا تجدها مطروحة في السور التي نزلت قبل الهجرة، فهل تقول بأنه تعالى شرّعها بعد الهجرة ومن قبل ذلك لم تكن حراماً؟

للأسف درجت هذه الخلفية في عقلية الكثير من متعاطي الثقافة الدينية تفسيراً وتشريعاً، قال الكثيرون كلاماً حول تشريع حرمة الخمر في المدينة، وبتدرّج... وهذا غير صحيح، فلا الزنا ولا السرقة ولا النصب والاحتيال ولا... ولا أي عنوان من عناوين الأعمال المعلوم سوءُها تشرّع في المدينة أو في هذا القرآن بشكل جديد عن الكتب الإلهية السابقة، بل أعاد سبحانه طرحها في هذا القرآن، وبعض التشريعات كانت جديدة على النبي محمّد(ع) وعلى الذين حوله لأنهم لم يطّلعوا على الكتب الإلهية السابقة "كأحكام الميراث والظهار والتبنّي..."، وأصلاً من أسباب إرساله تعالى للرسول محمّد(ع) بكتاب جديد أن الكتب السابقة تحرّفت فيها التشريعات ولم يعد هناك بين الناس مزاج عام لقبول تطبيقها...

نرجع للآية، {وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً}، إن القرض هو ما تعطيه للآخرين ليردّوه لك فيما بعد بسهولة، فلا يشعرون بالضيق حين يردّونه، ومن عموم القرآن تفهم أنه تعالى يعتبر ما يعطيه المؤمن للناس كمساعدة "عموم الصدقة وضمنها الزكاة" للمحتاجين فهو قرض له تعالى وسيردّه تعالى للمؤمن.

ضع في بالك ما استظهرته من استعمال القرآن والعرب لكلمة قرض وفرقها عن كلمة دين أو سلفة... فالقرض نوع من الدين بحيث إنَّ من أخذه يكون ميسوراً عليه ردّه فيما بعد، ولم يستعمل القرآن وصف ما نقدّمه في سبيله تعالى أنه دين، بل قرض، وذلك للدقّة بأنه تعالى يردّه بسهولة.

تذكّر دائماً أن ما هو دارج بين الناس من استعمال جملة "القرض الحسن" المأخوذة من عبارة القرآن عن إقراضه تعالى كما ورد في الآية هنا وأمثالها، فيعتبرونها كجملة قرآنية في خصوص إقراض الناس، فهو غير صحيح فالآيات التي استعملت هذه العبارات لم تقصد إقراض الناس بل قصدت اعتباره تعالى ما تتصدّق به أنت على المحتاجين إقراضاً له تعالى، فأي عمل خير مالي، من صدقة أو مساعدة أو هبة... لمحتاج، فسبحانه يعتبره قرضاً له وسيردّه لك. علماً أنه لا مانع من شمل إقراض الآخرين لأفعال الخير، فهذا عمل خير ممدوح أيضاً.

تذكّر دائماً أن القرآن أكّد على الزكاة كنسبة يدفعها المؤمن من ماله، ولكن بعد دفعه للزكاة فهل يتحرّر المؤمن من أي واجبات مالية أخرى فيصير مخيّراً إذا أراد مساعدة المحتاجين؟ لا، فطالما هناك من يحتاج للمساعدة الضرورية فيجب على كل مسلم أن يساعده حتى لو كان قد دفع الزكاة طالما بإمكانه المساعدة، وها ترى الآية هنا وغيرها الكثير من الآيات التي تفصل بين الزكاة كواجب محدّد، وبين الصدقة "القرض لله تعالى" الواجبة دائماً على المؤمن الميسور كلما واجه شخصاً بحاجة لمساعدة ملحّة.

{وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ}، مثلما تقدّم لي الطعام، فأي عمل من الأعمال التي أمر بها تعالى فإذا قمتم بها فقد قدّمتم لأنفسكم خيراً، شيئاً جيداً، {تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً}، فكما كان وصف ما قدمتوه من تلاوة وقيام الليل وصلاة وزكاة وصدقة أنها أمور خير جيدة حسنة، فسيبقى توصيفها عنده تعالى كما هي على أنها خير جيّدة حسنة، فعندما يردّها تعالى لك ستجدها جيّدة قد قيّمها تعالى على أنها جيّدة، وأعظم أجراً، فالأجر، المقابل المحدّد سلفاً الذي ستأخذه بسبب ما قدّمته سيكون أعظم أضخم أكبر مما قدّمته.

قارنها مع شخص ساعدته في أصعب ظروفه حتى صار مرتاحاً، فقد قدّمت له خيراً، ولكنه فيما بعد نسي ذلك ونسي قيمة ما فعلته معه، بل وربما لا يساعدك إذا وقعت في ورطة... بل ربما يسيء لك ويتحدث عنك بالسوء... الآن قارنها مع ما تقوله الآية من ضمانة إلهية لبقاء الأعمال الحسنة التي قمت بها على قيمتها عنده تعالى، فمرور الوقت على ما قمت به من خير لن يؤثّر عليه تعالى لينسى قيمة ما قمت به، لا، بل سيبقى توصيفه خيراً، وفوق ذلك سيضاعف سبحانه لك الأجر على أعمالك.

تذكّر دائماً أن الصدقة بتفاحة لا يعني أن يردّ سبحانه لك التفاحة في الآخرة، فالأجر العظيم لا يعني أن يردّها سبحانه لك بصندوق من التفاح أو بستان تفاح... لا، فعموم مفاهيم القرآن تشير لبساتين وقصور... ناتجة عن عمل خير في سبيله تعالى، فللمؤمنين العاملين للصالحات جنّات فيها كل ما يسعدهم، ويزداد شعورهم بالسعادة ويتضخّم وتزيد وسائل السعادة ونوعيتها كلما تراكم ما قدّموه لأنفسهم من خير.

{وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ}، فاطلبوا منه تعالى التجاوز عن سيئاتكم فلا يعاقبكم على الأعمال السيئة التي قمتم بها، {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ}، فمهما كانت الذنوب فسبحانه يغفرها، فليس قاسياً صلباً يأخذ موقفاً واحداً ممن عصاه ولا يغيّر موقفه، لا، بل يغفر لمن استغفره مهما كانت نوعية وكمية ذنوبه، {رَّحِيمٌ}، فلديه تعالى عناية لمصلحة المؤمنين بالخصوص، فالقرآن ميّز بين صفتين له تعالى، صفة العناية لمصلحة عموم خلقه "الرحمن"، وصفة العناية لمصلحة المؤمنين بالخصوص "رحيم"، ففي عموم القرآن تجد النور والتأييد الإلهي والمغفرة والشفاعة وتكفير الذنوب ومضاعفة الحسنات... فهذه أمور لا يحصل عليها إلا المؤمنون، وهذا ناتج عن الرحمة الخاصة لهم لأنهم بقوا تحت مظلّة الرحمة الإلهية المتاحة للجميع، وأمّا الآخرون فبقرار منهم خرجوا من تحت الرحمة الإلهية.

سورة المدّثر (74) ص 575
سياقها يناسب نزولها بعد سورة العلق "مباشرة أو بعد عدّة سورٍ"، حيث في سورة العلق جرى ذكر الزبانية وهنا ذُكِرَ كم هو عددهم.

لبّ السورة تحفيز الرسول(ع) على القيام بمهمة الإنذار وتنبيهه من الاعتكاف عن هذه المهمّة بسبب الضغوط التي يتعرّض لها، إذ هناك مجموعة حوادث قاسية ضايقت النبي (ع)، ودفعته للجلوس في بيته مُبْتَعِداً عن الناس، على أساس أنه (ع) قام بواجبه وبلّغهم الإنذار وليس مُضْطَرّاً بعد الآن للتعاطي مع الناس وسماع تكذيبهم له وكلامهم المزعج المسيء الجارح... فجاءت هذه السورة لِتُفْهِمَهُ(ع) وَتُفْهِمَنَا أن إنذار الناس أمر إلهي وواجب علينا تبليغه للناس حتى لو كُنْتَ تَتَوَقَّعُ تكذيبهم لك أو إهانتهم لك...

هذا لا يتعارض مع الآيات التي نبّهت النبي محمّد(ع) من الاستغراق في محاولة هداية اللطفاء معه من الكافرين، هؤلاء اللطفاء والآخرون المزعجون سبحانه يأمر بإنذارهم وانتهى الموضوع، فلا يحجم (ع) عن إنذار المزعجين ولا يستغرق جهده ووقته مُكَرِّراً محاولة هداية اللطفاء...

بناء عليه وفي نفس الوقت تضيء السورة على تحويل الكافرين للموضوع إلى مسألة شخصية، لأنهم لم يؤمنوا بتواصل الإله مع محمّد(ع)، وبالتالي تعاملوا معه متهمين له بمحاولة شخصية لتغيير دينهم بغض النظر عن تحديد غايته من ذلك، السورة ركّزت فقط على جانب محاولة إسكاتهم له(ع) وإنهاء موضوعه، أتت السورة هنا بكلام يريهم أن محمّدا(ع) لم يتبع أسلوب إقناعهم بأي طريقة كانت، فلو كان هذا القرآن والدين الحاوي له من اختراعه، لكان حاول استمالة الناس بما يهوونه، وبذلك يتجنّب تكذيبهم له... ولكنه (ع) لم يفعل ذلك، انعزل حين عارضوه وكذّبوه، ولم يغيّر كلامه، وها جاء أمر إلهي له لينطلق ويعيد نفس الكلام، وَمُضَافاً لما سبق تأتي السورة هنا بأسلوب هجومي يبيّن بوضوح أنه تعالى من بعد إنذارهم بشكل واضح وصريح، فليس مهتما بمراعاة مشاعرهم، وقالت السورة ما قالته حتى أنها وصفتهم بالحمير...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ{1})
يَا أيها المُتَدَثِّر، أيها الواضع فوق ثيابه عباءة أو لِحَافاً... عندما نريد النوم أو عندما نشعر بالبرد نتدثّر، نضع على جسدنا وفوق ثيابنا العباءة أو اللحاف، وعندما نريد الاستلقاء والراحة أثناء النهار في الأيام المعتدلة أو الباردة أيضاً نتدثّر.

يبدو من تكملة الآيات أن السورة نزلت في النهار على النبي محمّد(ع) بعد حديث جرى بينه (ع) وبين بعض الكفّار الذين كذّبوه واتهموه بتأليف القرآن... تركهم وعاد إلى منزله وفي داخله (ع) مشاعر قوية من الانزعاج بسبب ردود فعل الكفّار السلبية والسيئة على ما نقله لهم من الرسالة الإلهية... نزلت هذه السورة في نهارها أو في نهار يوم تَالٍ غير بعيد عن تلك الحادثة، حيث تراخت وفترت همّة النبي (ع) عن نشر الإنذار الإلهي لشعوره (ع) بأنه لا فائدة من الكلام مع هؤلاء سوى سماع تكذيبهم وإهاناتهم.

يبدو من معاني السورة أنها نزلت في بدايات السنين الأولى لدعوة الرسول(ع) الناس في مكّة، ويمكنك تصوّر شعوره (ع) بالفشل والملل لأنه لا يرى جدوى من إنذاره للناس...

ننتبه جَيّداً، لأن القرآن تحدّث مع الرسول محمّد(ع) كنموذج لنا، ما تقوله السورة هنا موجّه لنا جَمِيعاً، طَبْعاً على مقياسنا ومقياس تكليفنا ومقياس من يحتاج للإنذار... مهما كانت الظروف فيجب أن لا يعتكف المؤمن عن إنذار الآخرين...

(قُمْ فَأَنذِرْ {2})
قُمْ، تَفَعَّلْ، اِنْتَصِبْ، تَجَهَّزْ لعمل ما... اترك الدثار، أنذر، أَنْقُل الخبر للآخرين عن الشيء السَّيِّئ الأكيد الذي سيحصل لهم بسبب توافر شروط حصوله فيهم، فإن لم يؤمنوا فهناك شيء سَيِّئٌ بالتأكيد سيصيبهم، ومن عموم القرآن تعلم أنه الغضب الإلهي ومعاقبتهم حَتْماً في جهنّم على أعمالهم السيئة، وقد يسبق ذلك عذاب في الدنيا لهم.

للوهلة الأولى يظهر من الآية وكأن النبي(ع) مُقَصِّرٌ في تبليغ الرسالة، وكأن هذه الآية تأمره (ع) بالقيام من تحت الدثار وإنذار الناس على أساس أنه (ع) كان نَائِماً أو مُسْتَلْقِياً كَسُولاً مُقَصِّراً في وظيفته كرسول، ولكن هذه ليست الحالة، الآية وبقية السورة إنما هي لتشجيع وتحفيز النبي(ع) على تبليغ الرسالة الإلهية بالرغم مِمَّا يتعرض له (ع) من مضايقات شديدة من الكافرين.

ضع في بالك دَائِماً الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى مَعَانِيَ قرآنية رائعة، تَصَوَّر شَخْصاً أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، هنا تحذّره من سلوك الطريق السَّيِّئ، لأنه حَالِيّاً ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية "وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ..."، والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران "لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ...".

أمّا إذا سلك طريق الخطر، فتنذره، لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. الإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حَتْماً ما يضرّه، تُنْذِر الكافر حيث هو في حالة ستسبّب له العقاب حَتْماً، ورد هذا كَثِيراً في القرآن. التحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يتلبّس بما سيسبّب له الضرر، تُحَذِّر المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

هذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، إذ قد يقوم المؤمن بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، فَتُنْذِرُهُ من العقاب الحتمي عليه كحالة المسيحيين المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف "وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا"، وعموم المؤمنين المشمولين بالتهديد من فكرة فعل السيئات على أساس أن يحمل أحد ما السيئات عنهم "وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ"، والمشمولين بالتهديد إن لم يتغيّروا نحو الأحسن مَوْعُودِينَ بالمغفرة كما ورد في الآية "إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ"، ونفس المفهوم في الآية 45 من سورة النازعات "إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا".

(وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ {3})
{وَرَبَّكَ}، المسؤول عنك من مستوى إلهي، {فَكَبِّرْ}، قُلْ إِنَّ كل ما عداه أصغر منه، لِأَنَّ رَبَّكَ سبحانه بالمقارنة مع غيره يكون كلّ البقية أصغر منه بالقدرات والصفات والأفعال، لِذَلِكَ رَبُّكَ سبحانه أكبر من كلّ البقية.

سترى من بقية السورة نزولها في زمن حيث كانت الأجواء شديدة جِدّاً بمعارضة من الكفّار للرسالة الإلهية، يُنْكِرُونَ التوحيد والرسول والشريعة والسلوكيات، تَأْتِي الآيات هنا للإعلان أنه سبحانه أكبر من كلّ شيء في كلّ شيء، والإشارة إلى صغر الكفّار وما يقولونه وما يعبدونه أمامه تعالى وأمام كلامه، وَتَأْمُرُ الرسول(ع) بإعلان هذه الصفة الإلهية أمام الناس بَدَلاً من التدثّر.

ضِمْنِيّاً ومما تعلمه من عموم القرآن، فَإِنَّ صفاته تعالى لا تتضمّن صفات سَيِّئَةً، ولا يقوم تعالى بأعمال سيئة، يَنْحَصِرُ كبره عزّ وجلّ بالصفات والأفعال الحسنة، وَهُوَ كبير في الرحمة والحكمة والقدرة والسمع والبصر والعزّة...

(وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ {4})
{وَثِيَابَكَ}، القماش أو الجلد أو أي شيء مفصّل على قياسك لتغطي به جسدك، {فَطَهِّرْ}، لِيَكُنْ خَالِياً من الأمور المكروهة السيئة، لِأَنَّكَ في حالة التدثّر بثياب ومعتكف بها عن الإنذار، وهذه ليست حالة مقبولة، إِذْ إِنَّهَا حالة معيبة ومكروهة، طَهِّرْ ثيابك، تَطَهَّرْ من تزملك بها وأنت معتكف، وَانْطَلِقْ للإنذار.

بعبارة أخرى، هذه الثياب ليس من الطهارة استعمالها الآن للتدثر مُتَقَوْقِعاً في وقت يحتاج لقيامك بالإنذار.

السورة تأمره(ع) بالتحرك من تحت دثاره والانطلاق لإنذار الناس، وبتعبيراتنا الدارجة سنقول: انفض ثيابك عنك لِأَنَّ الركود حالة غير مقبولة وتجهّز للعمل... رتّب نفسك وانطلق للعمل... ضع عنك ثياب الراحة والاعتكاف وانطلق للعمل... والآية هنا تقصد هذا المعنى.

مَا درج فيما بعد بين المسلمين عن معنى الطهارة والنجاسة الذي يخطر ببالك الآن حين تسمع بهذه الكلمات، من دم وبول وغائط وماء واغتسال... وقع على الثوب، إِنَّمَا هي اصطلاحات لم يستعملها القرآن بهذا المعنى الدارج فِقْهِيّاً، لِذَلِكَ لَا تفهم هذه الكلمات في القرآن بالمعنى الدارج في كتب الفقه، بل افهمها على أصل معناها، حَيْثُ إِنَّ الطهارة هي الخلو من الشية، الخلو من الأمور المكروهة المعيبة السيئة التي ينفر منها المحترمون. وبهذا المعنى تراها تنطبق على غالبية ما يقولونه في كتب الفقه، ولكن هناك اصطلاحات فقهية مدرجة تحت كلمة طهارة ونجاسة ليست من أصل المعنى، وإذا دقّقت فيها ستجدها لا تتماشى مع اللغة، مَثَلاً الدم نجاسة في الفقه، هَلْ تصف دمي وهو في عروقي بأنه نجس! وروث البقر طاهر فِقْهِيّاً هَلْ هذا يعني أن أضعه عليّ وأمشي في الشارع! هَلْ هذه طهارة؟ وكما ترى فَإِنَّ الفرق واضح بين المعنى العربي لكلمتي الطهارة والنجاسة، وبين الاصطلاح الفقهي، لِيَبْقَ هذا دَائِماً في بالك.

بِنَاءً عليه فَإِنَّ جملة "طهّر ثيابك" الواردة هنا لا تقصد حَصْراً ما يخطر ببالك من تطهير الثوب من نجاسة الدم أو البول... بل اجعله خَالِياً من عموم ما ليس مَحْبُوباً من أي شيء كان، والكلام هنا عن التدثّر بالثوب قُعُوداً عن الإنذار، تَطَهَّرْ من ذلك وليكن لبسك للثوب للعمل لا للاعتكاف والانزواء.

رَاجِعْ في دراستنا هذه الآيات التي وردت فيها كلمة طهارة ونجاسة لترى أن القرآن لم يستعملهما بالمعنى الفقهي.

(وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ {5})
{وَالرُّجْزَ}، وهو عموم الاضطراب، وهنا الكلام عن شيء لا خير فيه ومضاد للإيمان والصلاح، لِأَنَّ عموم ما هو سَيِّئٌ مسبّب لحالة الاضطراب بتنافيه مع الحقّ والخير، {فَاهْجُرْ}، أُتْرُكْهُ بالمرّة، نِهَائِيّاً ابتعد عنه.

أَيْضاً هذا أمر إلهي لرسوله(ع) بإعلان هجرانه لأي شيء يوصف بأنه سَيِّئٌ مكروه، والابتعاد عن كل ما وصفه سبحانه بأنه عاطل لا خير فيه اِبْتَعِدْ عنه، من عقيدة الكفر والشرك... وُصُولاً إلى سلوكيات شرب الخمر والكذب والزنا...

بعبارة أخرى، قم وليكن هذا وصفك، هَاجِراً للرجز، لِأَنَّ هذا دينك فَانْشُرْهُ.

نتذكّر أنه تعالى لا يعرض علينا في القرآن دِيناً غَرِيباً عَجِيباً، بل يعرض معلومات كما يراها تعالى عن نفسه وأفعاله وقراراته، وَهِيَ معلومات صحيحة، ونسميها بالعقيدة، ويعرض تشريعات وسلوكيات لنا من نظرة حكمته تعالى للأمور، ونحن من المفروض أن نراها صالحة بسبب ما جعله تعالى فينا من قدرة على تمييز الخير من الشرّ، وسورتنا هذه من أَوَائِلِ السور التي نزلت، هِيَ وما سبقها من سور نزلت قبلها لَا تَتَضَمَّنُ كل العقائد والتشريعات والسلوكيات والتي نسمّيها بالدين، وبالتالي فَإِنَّ الاعتماد عُمُوماً على ما فينا من قابلية لتمييز الصلاح من الفساد حتى ينذرنا تعالى من العقاب على السيئات، ومن بعدها جاءت سور لتقويم ديننا بسبب فساد قلوبنا وفقدانها القدرة على تمييز الخير من الشرّ... وتعلم بأن القليل منّا قلوبهم سليمة والبقية قلوبهم متدرجة بالسلامة وُصُولاً إلى عمى القلب...

(وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ {6})
{وَلَا تَمْنُنْ}، لَا تعتبر ما قمت به للآخرين من إنذار وهداية يستوجب منهم شكرك، {تَسْتَكْثِرُ}، تَرَى ما فعلته لهم كَثِيراً.

من هنا في بداية السورة ومما سيأتي سترى أن موضوعها عن الأذية التي سبّبت للرسول(ع) الانعزال والاعتكاف والانزواء... من شدّة الانزعاج من المكذبين له كرسول إلهي... وها نصل إلى نقطة تنبّه السورة الرسول(ع) من شعور المنّة والاستكثار من قيامه بواجبه في تبليغ الرسالة، حتى لا يرى أنّ ما قدّمه(ع) في محاولته لنشر الرسالة الإلهية، حتى لا يراه كَثِيراً جِدّاً، وحتى لا يرى أن الناس يجب أن يشكروه على مجهوده الكبير الذي قام به.

قارنها مع شخص اعتبر نفسه خدم الإِسْلَامَ لسنين طويلة، قَدَّمَ وقته وجهده وفكره وماله.... مُحَاوِلاً إصلاح الناس وإقناعهم بالالتزام بالدين... وبعدها سمع منهم كَلَاماً سَيِّئاً، ومعارضة، وشعر بالمضايقة وأنه لا جدوى من جهوده.... سَيَعْتَكِفُ، ويفكّر بينه وبين نفسه أنه بدل أن يناله الشكر من الناس على مجهوده نَالَ الإساءة، لِأَنَّهُ قدّم لهم الكثير، حَيْثُ قَدَّمَ لهم من وقته وجهده وماله... وَيَشْعُرُ بالمنّة عليهم، وهذا ما تريدك السورة أن تفهمه، وضربت لك الرسول محمّد(ع) نَمُوذَجاً تعرّض لأقصى أنواع الإِسَاءَاتِ، وأصابه الانزعاج... ولكنه عاد إِلَى مهمّته... ونجحت وأثمرت جهوده بفضل الله تعالى...

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ {7})
{وَلِرَبِّكَ}، وللمسؤول عنك من مستوى إلهي، {فَاصْبِرْ}، لَا تتصرف بشكل غير مناسب أو سَيِّئٍ بسبب تعرّضك لشيء غير مريح أو لا تحبّه أو تكرهه لِأَنَّ هذه حالة لها حلّ وستزول، وليكن تحمّلك لربّك سبحانه، إِذْ هُنَاكَ من يتحمّل سوء أخلاق زوجته لأجل أولاده، أو يتحمّل ربّ عمله لأجل معاشه... أمّا تحمّل الرسول(ع) لما يزعجه من الناس فَلِأَجْلِ ربّه سبحانه الذي أمره بتبليغ الإنذار.

عَمَلِيّاً سيحصل الرسول(ع) على أجره منه تعالى كجزاء على الصبر، وَيَكُونُ صبره لربّه معناه توقّع الحسنات من المسؤول عنه (ع) من مستوى إلهي.

لَمْ يأمرك سبحانه بتحمّل شيء لن يتغير حاله، بل معنى كلمة الصبر أن تتحمّل شَيْئاً له نهاية ولن يستمر، لِأَنَّ كُلَّ مَا تتعرّض له من تكذيب ومضايقات وَإِسَاءَاتٍ وإهانات... وشعور بالفشل... لَهُ نهاية، إمّا في الدنيا بموتك أو موتهم أو انتصارك وانتشار دينك... أو في الآخرة بإثابتك بشكل حسن ومعاقبتهم بشكل سَيِّئٍ... أُتْرُكِ الدثار وقم للإنذار...

نَعْلَمُ من التاريخ أن الإِسْلَامَ انتشر بشكل غير عادي في مدّة قصيرة وما زال مُمْتَدّاً إلى عصرنا، وسترى في الآيات التالية الأمد البعيد للصبر، وهو الصبر على كلّ الدنيا بانتظار الآخرة التي فيها الحساب الحقيقي، لِنُتَابِعْ:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ {8})
الإنذار ونهاية الصبر:

{فَإِذَا نُقِرَ}، أَيْ قَامَ أحد ما بالضرب الخفيف السريع بشيء صغير، {فِي النَّاقُورِ}، في شيء مخصص للنقر، كما نقول: طبّل على الطبل، زمّر بالزمور... إِذْ هُنَاكَ شيء للنقر عليه وَقَامَ أحد ما بالنقر عليه، كضرب الطائر للأشياء بمنقاره فَهَذَا هُوَ الْـنقر.

فِي عموم القرآن لا تجد عبارة مماثلة لآيتنا هنا، وتجد تَعَابِيرَ عن النفخ في الصور وعن الصيحة اللَّذَيْنِ يليهما قيامنا من الموت، ويبدو أن تعبير الآية هنا مرادف في النتيجة للنفخة الواحدة، الصيحة الواحدة، لِأَنَّ تلك النقرة "الواحدة" التي تسبّب قيامنا من الموت كما يبدو من الآية التالية، هِيَ نفسها تعبير آخر عن عملية النفخ في الصور نفخة واحدة، وَرَدَ ذلك في الآية 53 من سورة يس "إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ"، وورد في الآية 13 من سورة الحاقة "فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ".

تتذكّر دَائِماً أن القرآن استعمل الكلمات على الوصفية حين تحدّث عن أمور لا تطالها حواسنا حَالِيّاً، أو لن تطالها حواسنا، إِذْ إِنَّ الإدارة المركزية تحصل من ملك يجلس على كرسي على العرش، وَعَلَى الوصفية تصير الإدارة المركزية لما في الدنيا منسوبة له تعالى ذي العرش. ونفس الكلام عن الشهب التي ترميها الملائكة على الشياطين، حَيْثُ إِنَّ الحادثة تحصل في سماء غير سمائنا، ومن مواد ربما من غير مواد عالمنا، ولكن المقذوف عندنا وصفه شهب، وذاك المقذوف وصفه بِلُغَتِنَا شهب. ونفس الكلام عن نسبة الوجه له تعالى، إِذْ إِنَّ رحمته تعالى لكائن ما، هِيَ توجّه

بالرحمة عليه، وَبِوَجْهِهِ تعالى توجّه، على الوصف لتوجهه تعالى بالرحمة. ونفس الكلام عن يده تعالى، لِأَنَّ مَا يفعل به تعالى وصفه يد...

النَّقْرُ في الناقور، والنفخ بالصور، والصيحة، كأوصاف لشيء سيحدث ومن بعده سنرجع إلى الحياة في الآخرة، كُلُّهَا تعابير وصفية متشابهة ونتيجتها واحدة. لَيْسَ في الآخرة بوق أو مكبّر صوت ينفخ فيه الملاك، يَنْقُرُ صوتا فيه، فَتَصْدُرُ صيحة، حتى نقوم من الموت، لا، لِأَنَّ الكلام ليس عن نفس الأشياء التي نراها ونلمسها في عالمنا، بل توصف الحادثة بهذه الكلمات من لغتنا.

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ {9})
ذَلِكَ يومئذ، في الزمن الذي تحدث فيه النقرة، يَوْمٌ، زمن لحدث أساسي، وهو قيامنا من الموت وحشرنا لمحاسبتنا وبعدها مجازاتنا، يوم عسير، لِأَنَّ الأمور لا تمشي فيه براحة.

(عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ {10})
{عَلَى الْكَافِرِينَ}، على المنكرين للدين الإلهي والإنذار ورسالتك أيها الرسول(ع)، سيكون ذلك اليوم، {غَيْرُ يَسِيرٍ}، لِأَنَّهُ لَنْ يمرّ من دون صعوبات ومشقات.

ضع في بالك دَائِماً أَنَّ كلمة "كفر" يرادفها أنكر ولم يَصِرْ في حالة إيمان والتزام بشيء ما. إِذْ إِنَّهَا عامّة، وتنطبق على من كفر بوجوده تعالى، أو على من أنكر وحدانيته تعالى، أو أنكر رسوله، أو الملائكة(ع) أو الكتب أو الشريعة أو الآخرة... وهي توصيف حتى لمن كفر بدين الشرك، حَيْثُ إِنَّ القرآن يصف إنكار أي شيء بأنه كفر، وَوَرَدَ ذلك في الآية 4 من سورة الممتحنة "قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ... كَفَرْنَا بِكُمْ...".

مَا درج بين عامّة المسلمين من ربط أي توصيف بالكفر ببعضه وإعطائه نفس الحكم بالكفر به تعالى مع المحاربة للمؤمنين ودينهم، فهو اصطلاح فقهي "مبني بغالبيته على نفسية الإجرام" ولا علاقة له بالقرآن، إِذْ تَسْمَعُ كَثِيراً بعبارة: كافر يجوز قتله، كافر يجب قتله، كافر مباح دمه وعرضه وماله... يَقُولُونَهَا عن المسلم التارك للصلاة، وعن المسلم الملتزم ولكنه من مذهب غير مذهبهم... وهذه عبارات غالبيتها صدرت عن مجرمين منافقين فاسقين بلباس ديني، حَيْثُ فِي القرآن استعمال لكلمة "كفر" على أساس معناها اللغوي، وأباح القرآن دم القاتل عن عمد، وقتل المفسد في الأرض من القياس الكبير، وأباح دم الكافر بالتوحيد وبالرسول(ع) المحارب المقاتل فقط وفقط، وحرّم دم أي ناطق بالشهادتين حتى لو لم يكن مُلْتَزِماً بأي شيء آخر من تعاليم الإسلام، حتى لو لم يكن مُلْتَزِماً بالصلاة ولا الصيام ولا الزكاة... وهذا مشهور جِدّاً ويسمّونه: الإسلام بالسيف. حَيْثُ يَنْطِقُ أحدهم بالشهادتين فقط وفقط حتى يصير له حرمة، وَتَصِيرُ له حرمة المسلم حتى لو لم يلتزم بأي شيء من تعاليم الدين الإلهي... وهذا مشهور معلوم ولكنهم تعاموا عنه واستبدلوه بفتاوى الإجرام.

اِشْتَقَّ العلماء المجرمون من المسلمين حُكْماً تَعْمِيمِيّاً بإباحة دم كل من صنّفوه مُخَالِفاً لهواهم العقائدي والفقهي والتاريخي... وفسّروا كل كلمة كفر في القرآن والحديث على أنها إشارة لإباحة دم ومال وعرض الموصوف بها! لِذَلِكَ صَارَ عند بعضهم تارك الصلاة كَافِراً يجوز قتله! والكاره لأهل البيت كَافِراً يجوز قتله! والسابّ للصحابة كَافِراً يجوز قتله! وأهل الكتاب الَّذِينَ لا يدفعون الجزية كُفَّاراً يجوز قتلهم!...

هؤلاء من داخلهم مجرمون لم يستطيعوا رؤية دينه تعالى إلا من عيون الإجرام، وَتَحَوَّلَتْ كل الآيات والأحاديث إلى ذريعة لهم لارتكاب الجرائم بقتل الأبرياء حتى من المسلمين، تحت اسم الدين الإلهي! وعلى مرّ التاريخ ومنذ عهد النبي محمّد(ع) وُصُولاً إلى عهدنا كانت هذه النوعية من المجرمين منتشرة ولها جمهور عريض من الأوباش المجرمين.

حَتَّى ترى مدى بعدهم عن القرآن راجع دراسة سورة الممتحنة خُصُوصاً الآية 8 منها "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ"، حيث ترى وبكل وضوح وصراحة أنه لا مانع من برّ الكافر المسالم.

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً{11})
{ذَرْنِي}، لا يعنيك ولا تهتمّ، لا تتدخّل، {وَمَنْ خَلَقْتُ}، مع الذي ركّبت وألّفت، {وَحِيداً}، لا أحد معه ليحميه من المجازاة على سيئاته.

كما نقول: اتركني ومن آذاني لأنتقم منه. تَقُولُ الآية للرسول(ع) الذي تعرّض للتكذيب والإهانة وَانْعَزَلَ وتدثّر... اصبر إِذْ هُنَاكَ يَوْمٌ عسير على الكافرين، ويومها، لا يَعُودُ لك أي علاقة مع الذين كذّبوك وآذوك، إِذْ إِنَّ كُلَّ واحد منهم سيقف أمامي وَحِيداً لا ناصر له ولا معين، وتعلم من عموم القرآن أن عذابه تعالى شديد جِدّاً لهؤلاء...

ضع في بالك دَائِماً أن لا تكون صُلْباً جَافّاً أمام النص القرآني الناقل للأحداث، إِذْ مِنْ عموم القرآن تعلم أننا كلنا سنقوم من الموت، وسيتم حشرنا في زمر، والكافرون لهم زمرة وَهُمْ جماعة كبيرة مقسومة لمجموعات، فلا تكن جَافّاً فيخطر ببالك التعارض بين وقوف الكافر وَحِيداً أمامه تعالى وبين الآيات التي تقول أَنَّهُمْ محشورون جماعات جماعات، حَتَّى لو كانوا بالمليارات، فإن كل واحد منهم لا يوجد له أي أحد من الواقفين معه ليعينه وينصره ويدافع عنه ويفديه أو يتبرّع بأخذ العقاب عنه... بل كل واحد منهم يتمنّى لو يدخل كل الخلائق إِلَى النار وينجو هو منها، وهكذا ترى أن كل واحد منهم وحيد لا معين له ولا حبيب ولا شفيع ولا صديق حميم... كما ورد مِرَاراً، وَكَمِثَالٍ عن ذلك ما ورد في الآية 18 من سورة غافر "وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ".

وننتبه دَائِماً أن القرآن تحدّث عن نماذج عمومية، فلا تفهم القرآن ولا الآيات هنا أنها تتحدّث عن شخص محدّد، لا، بَلْ عن نموذج، كَمَا أَنَّ كلّ السورة لن يعود لها أي معنى لو فهمتها على أساس أنها تخاطب النبي محمّد(ع)، وأنها تروي لنا ما جرى معه، وَتَصِيرُ السورة بذلك مجرد رواية وَتَارِيخٍ لا فائدة منها إلا البركة من القراءة! بل يجب أن نرى كل ما في القرآن من أحداث وأشخاص على أنها نماذج، أَنَا وأنت يجب أَنْ لَا تُصِيبَنَا حالة الكآبة والانزواء والاعتكاف و... متمثلين بالنموذج الذي طرحته السورة عن أقصى أنواع الأذية التي تعرّض لها الرسول(ع)...

وهنا في الآية تبدو السورة تخاطب كَافِراً مُحَدَّداً في عصر النبي محمّد(ع)، وَأَيْضاً لن يكون للسورة معنى بحصر ما تقوله في شخص مات منذ مئات السنين، بل الكلام عن أقصى مواصفات السوء في نموذج ما، وستجد شَبِيهاً له بالتمام في كل زمان ومجتمع، وستجد أَشْبَاهاً له في غالبية صفاته... فلا تتعب نفسك في تحديد هوية للشخص الذي خاطبته السورة بالمفرد على أنه شخص مُحَدَّدٍ، فلا تعطه قيمة البحث عنه والاهتمام به، لِأَنَّ القرآن أَغْفَلَهُ وترك تسميته ليكون نَمُوذَجاً عُمُومِيّاً، ولذلك ترى أنه حتى الجيل الأول من المسلمين لا يعلمون بالتحديد من هو الشخص "أو الأشخاص" صاحب المواصفات التي تذكرها الآيات، ومن فضولهم يقولون مَرَّةً أنها نزلت في فلان، ومرّة نزلت في فلان آخر وآخر...

وكما تلاحظ ما في نفسك من فضول لمعرفة الشخص الذي تشير له الآيات، فَإِنَّ من سبقك من المسلمين كان عندهم نفس الفضول، وبما لدى كلّ واحد منهم من معلومات اِسْتَنْسَبَ لصق شخص ما بالآيات، وهو نفسه ستجد له رواية أخرى ينسب فيها نفس الآيات لشخص آخر غير الذي قال عنه في السابق! والسبب أن القرآن تركه عُمُومِيّاً ليكون نَمُوذَجاً، ونحن نصرّ على التحديد لتصير الآيات محصورة المعنى بشخص مُحَدَّدٍ، وهذا بعكس ما أراده القرآن.

حَسَناً، لو بقيت مُصِرّاً على تحديد الشخص ففي العديد من الروايات تجد أنه الوليد بن المغيرة، ولكن من تبعات هذا التحديد وهذا الفضول أن الغالبية من المفسرين فهموا الآية أنها تخاطب ذلك الشخص، في حينه، وَلَمْ يفهموا أن الآية تصفه وَحِيداً في الآخرة حين حسابه! وصار لكلمة وحيد معان غريبة عندهم، منها أنه تعالى سيكون وحيدا أمام الوليد! ومنها أن الوليد وحيد لأن أباه غير معروف! ومنها أنه تعالى حين خلق الوليد كان وحيدا حَيْثُ لِوَحْدِهِ تعالى خلق الوليد! ومنها أنه تعالى خلق الوليد وحيدا حَيْثُ حِينَ تركّب الوليد كان بلا مال ولا أولاد! وَمَعَانٍ أخرى من هذا الطراز، وتنفيها كلها الآية 17 الآتية والتي تقول بِوُضُوحٍ أن المشهد منقول مما سيحصل في المستقبل في يوم القيامة، فانتبه لما يوصلك له فضولك من تضييع لِمَعَانِي القرآن ومن غرق في التحليل لدرجة التضليل.

(وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً{12})

{وَجَعَلْتُ لَهُ}، صَارَ مع الشخص الذي يكذّبك ويؤذيك، {مَالاً مَّمْدُوداً}، غير مقطوع، لَدَيْهِ موارد يأتيه المال منها، من تجارات أو من محلات تجارية، أو من مَوَاشٍ أو من بساتين... وَهُوَ ثري ولديه موارد تدر عليه المال بكثرة.

مِنْ أين حصل على المال الذي جعله يشعر بالراحة وأنه كبير وفوق كلام الرسول وفوق الدين الإلهي؟

السورة تأمر الرسول(ع) باستئناف إنذار الناس مهما حصل من تكذيب ومضايقات، ولكن من ناحية ثانية تخبر الرسول(ع) بأنه تعالى ليس رَاضِياً عمّا يجري في الدنيا من كفر ولديه سبحانه عقاب على ذلك، وَبَدَأَتِ السورة بعرض نماذج من النعم التي حَصَلَ عَلَيْهَا الكافر منه تعالى، فَمَا حجم ما فعله الكافر معك أيها الرسول(ع) مقابل ما قدّمته أنت له من جهد ووقت وتحمّل لتكذيبه لك، وَمَا حجم ذلك أمام كفره بالإله وتكذيبه لرسوله؟ الإله الذي خلقه وأتاح له كل ما في الحياة! لِذَا اِنْسَ مشكلتك الشخصية أنت مع هذه الناس، لِأَنَّ مشكلتهم أكبر بكثير مما تتصوّر مع إلههم.

نتذكّر في سور عديدة من القرآن تَفْصِيلاً وَاسِعاً حول هذه النقطة، فِي نظرته تعالى لنا كمخلوقات صمّمها وصمّم بيئتها، وصمّم طريقة حياتها... وَهُوَ تعالى منح المال لهذا وذاك... تَصَوَّرْ دَائِماً هذا النوع من الآيات على أنك أنت تقوم بتصميم مخلوق وبيئة لذاك المخلوق، لِلْمَخْلُوقِ صفات، والبيئة مناسبة لتلك الصفات، وَالْمَخْلُوقُ يأكل ليعيش، والبيئة فيها الأكل، وأنت صمّمت الشعور بالأكل في المخلوق ووفّرت الأكل في البيئة، وحصل عليه المخلوق... وكذلك من نظرة إلهية جعل تعالى فينا الرغبة والحاجة للمال، ووفّر سبحانه المال في بيئتنا، وحصل النموذج العاطل الذي اختارته السورة، حصل على المال الذي وفّره تعالى في بيئتنا.

سَيَأْتِيكَ في الآية التالية كلام إضافي عن اختيار السورة لنموذج الكافر الغني.

(وَبَنِينَ شُهُوداً{13})
{وَذَرْنِي وَمَنْ جَعَلْتُ لَهُ}، {بَنِينَ}، أَوْلَاداً، {شُهُوداً}، يَشْهَدُهُمْ أمامه، قارنها مع الذي له أولاد ولكنهم ماتوا وَاحِداً بعد الآخر، أو غادروه لسبب أو لآخر، لِأَنَّ هذا النموذج كان أولاده معه، وهذه من أكبر النعم الإلهية على إنسان ما.

ننتبه، حِينَ تكون بحاجة لشيء ما ينقصك، فسترى أن ما ينقصك هو أهم شيء في الحياة، ولكن حين تحصل عليه عَادَةً يفقد أهميته ويصير شيئا آخر أهمّ منه في نظرك، ومن القرآن نعلم أننا لو حصلنا على كل شيء أو فقدنا كلّ شيء، فإن أكبر نعمتين سيتمحور حولهما غالبية الشعور البشري بالأهمية القصوى: المال والولد. وَرَدَ هذا في العديد من الآيات، وهنا ترى السورة لم تذكر إلا هاتين النعمتين كأبرز نموذج.

طَبْعاً ضِمْناً لا معنى للسعادة بلا صحّة وأمن، وهاتان النعمتان أَيْضاً ذكرهما القرآن حين كان محور الحديث عن أمور تتعلّق بهما، أمّا هنا، فالأمان والصحّة ليستا من الأسباب الرئيسية التي جعلت هذا النموذج العاطل يكفر، بل وفرة المال الذي به تتأمّن الكثير من الرغبات، ووفرة الولد، لِأَنَّ هذا ما جعله يتكبّر ويزهو ويفخر ويعتزّ بنفسه وبقدراته... لِذَلِكَ كفر وكذّب الرسول(ع) وآذاه...

غَالِباً ما يختار القرآن في كلامه الكفّار الأغنياء الذين لديهم أولاد كنماذج، ويختار الملأ "الوجهاء وأصحاب السلطة..." كنماذج، ويختار أصحاب المال والأولاد كنماذج، ومن الواضح أنه ليس كل كافر غَنِيّاً، ولا كل كافر لديه أولاد، ولكن لن يكون للكلام عن الكفّار الفقراء نفس التأثير مثل الكلام عن الكفّار الأغنياء ذوي الأولاد، لِأَنَّ الفقير الكافر غبي باع آخرته باتّباعه للأغنياء والوجهاء الذين يأمرونه بالكفر فَيُطِيعُهُمْ، بينما مصلحته الشخصية الدنيوية بانتشار دينه تعالى الذي يعطيه حُقُوقاً هضمها الأغنياء، إِذْ إِنَّهُمْ يسلبونه تعبه، ووقته، ورزقه... ويورطونه ليقاتل في حروب لن يستفيد منها... تَحَدَّثَتْ عن حالة غبائهم آيات متفرقة من سور عديدة حين ادّعوا أنهم كانوا مستضعفين وتابعين للملأ، وعلى دين الأجداد وملتفين حول العائلة... ومن ذلك كَمِثَالٍ ما ورد في الآية 47 من سورة غافر "وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ".

(وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً{14})

{وَمَهَّدْتُ لَهُ}، هَيَّأْتُ للكافر سُبُلَ العيش والكَسب والحصول على المناصب الاجتماعية... في الحياة الدنيا، {تَمْهِيداً}، بكل ما تحمل كلمة تمهيد من معنى، بِشَكْلٍ مريح كانت هذه الأمور متاحة له، لِذَلِكَ صار غَنِيّاً ولديه أولاد وأملاك... وصار زَعِيماً وَرَئِيساً وتطيعه الناس...

لاحظ أَيْضاً أن السورة لم تدخل في تفاصيل مذكورة في سور أخرى عن التمهيد للكفّار حتى يزدادوا إِثْماً... واكتفت هنا بالإشارة فقط للنموذج الذي حصل على أمور جيدة من كل النواحي، ورغم ذلك أنكر دين الإله الذي أتاح له ما معه وما هو فيه! لِذَلِكَ لَا تفهم الآية هنا على معنى إمداده تعالى لهم بمتاع الدنيا، هَذَا صحيح ولكن الآية هنا تتحدّث عمّا متاح لهم منه تعالى وقد استفادوا منه، والفرق بين الْمَعْنَيَيْنِ دقيق.

(ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ{15})
{ثُمَّ}، بعد المال والبنين والتمهيد في عموم أموره، {يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ}، يَرْغَبُ الكافر مع أمل بتحقّق ما يريده أن يزيده له تعالى فيما لديه من مال وبنين وسلطة... حَيْثُ يأمل بأن المزيد ممكن الحصول عليه.

كلام الآية عمومي عن الطمع بالمزيد في الدنيا والآخرة، إِذْ إِنَّ الكافر لا يطمع بالحصول على المزيد من الله تعالى على أساس أنه مؤمن صالح، بل النظرة الإلهية التي يجب أن تضعها دَائِماً في بالك حينما تقرأ آيات من هذا النوع، مِنْ هذه النظرة منه تعالى لنا، هُوَ تعالى المانح والمتيح لما حصل عليه الكافر هنا في الدنيا، والكافر يطمع في الحصول على المزيد، وهذا المزيد سيكون منه تعالى، مِنْ أين سيأتي المزيد إذا لم يكن من البيئة ومما أتاحه تعالى لنا؟ حتى لو لم يكن مؤمنا به تعالى فَإِنَّ طمعه بالمزيد فِعْلِيّاً وَعَمَلِيّاً هو طمع بأن يمنحه تعالى المزيد لأنه تعالى المصدر الوحيد لكل ما لدينا، وبالنسبة للآخرة الكافر يسمع بها وفي خياله يطمع بدخولها، وهذا المعنى ورد صَرِيحاً في الآية 36 من سورة الكهف "وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا".

بغض النظر عن درجة كفر الكافرين، عُمُوماً هم في الدنيا يطمعون بالمزيد من متاعها، وَعَمَلِيّاً هو طمع بتزويده تعالى لهم بالمزيد... وَعُمُوماً يطمعون بدخول الجنّة حتى ولو على مستوى التخيّل. وأنت تعلم عن عموم كلام القرآن عن نماذج، ربما هناك كافر لا يطمع بالمزيد من الدنيا، لَدَيْهِ مشاكل نفسية ويرغب بإنهاء حياته... وربما هناك كافر وصل به سواد قلبه إلى نفي وجود جنة في الآخرة وحتى على مستوى التخيّل، ومع أنه صعب ولكن نقول ربما، إِذْ إِنَّ كلام القرآن في أمثال هذه الحالات هو عَادَةً عن نماذج وليس عن تعميم شامل.

بالنسبة لموضوع السورة فَإِنَّ الآيات تعرض لك كائنا "إنسانا ما" في بيئة، وهو وبيئته خلقهم سبحانه، وكل ما يحصل عليه الكائن لن يكون من خارج ما صمّمه وخلقه تعالى، وهذا الكائن "الإنسان" يكفر بربّه خالقه ويكفر ويهين رسوله...! وفوقها يطمع بالحصول على المزيد من الخير!

(كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً{16})
{كَلَّا}، لن ينال الكافر ما يطمع به، لَنْ يحصل على المزيد، وسترى من بقية الآيات أنها انتقلت للآخرة، هنا في الدنيا طمع بالمزيد وَرُبَّمَا يحصل عليه، ولكن المزيد الحقيقي الذي له قيمة عالية هو الحصول على جنّة الآخرة، {كَلَّا}، لن يحصل عليها.

{إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا}، للأمور المميزة المنسوبة له تعالى كان، {عَنِيداً}، يرفض الاقتناع بها أو التماشي معها، وَيَرْفُضُ رؤيتها مميزة وتدل على الدين الإلهي. وسترى بعد قليل نَمُوذَجاً من الكفر بآياته تعالى، وهو الكفر بهذا القرآن الحاوي على دينه تعالى.

(سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً{17})
{سَأُرْهِقُهُ}، سأجعله يشعر بحالة سيئة من التعب، من التحرّك، {صَعُوداً}، باتجاه عَمُودِيٍّ، وهي نفس الحالة التي تصيبنا من صعود الدرج أو على جبل.

تفهم الكلام بسهولة أنه يشير لجهنّم حيث سيضطر الكافر للتوجه نحو الأعلى على جبل ما مُحَاوِلاً الهرب من شيء مؤلم، أو تجبره الملائكة(ع) بجرجرته للصعود على جبل ما...

ولا تجمد على نَصٍّ قُرْآنِيٍّ ما، إِذْ فِي جهنّم يوجد أشكال متعدّدة من التعذيب، عَرَضَهَا القرآن بشكل موزّع على مختلف السور، وبعض أنواع العذاب كانت تشير أنها لنوع محدّد من السيئات، كالنار المؤصدة التي وردت في سورتين للكفّار محبي جمع المال، في الآية 20 من سورة البلد "عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ"، والآية 8 من سورة الهمزة "إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ"، ومن الصعب من القرآن تحديد كل نوع عذاب لجرم محدّد، مع العلم أننا من عموم القرآن نفهم أن جهنّم دركات "درجات في شدّة التعذيب" وهذا يشير لتنوّع التعذيب من الإرهاق صَعُوداً والأكل من الزقوم والجرجرة على الوجه... لعموم من في النار، لِأَنَّ القرآن أرادنا أن نفهم أن النار ليس فيها مكان سهل يمكن تحمّله في مقابل أماكن أخرى التعذيب فيها أشدّ، مثلما أرادنا أن نفهم أن الجنّة كلّها رائعة بالرغم من وجود درجات فيها أشدّ شُعُوراً بالسعادة من الدرجات الأخرى.

الإرهاق صَعُوداً كما ورد أَيْضاً في الآية 17 من سورة الجنّ بشكل صريح "لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا"، وبشكل غير صريح في الآية 37 من سورة المائدة "يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ"، إِذْ إِنَّ الإرهاق صَعُوداً هو نوع من التعذيب الذي سيتعرض له الكفار، وسيتعرضون لأنواع أخرى ثم يعودون للإرهاق صَعُوداً... وهكذا... كل منهم مرهق ويشعر بألم شدّته مختلفة عن الآخرين المرهقين صَعُوداً، لأن شدة شعور كل واحد منهم بالألم ستكون على مقياس السيئات التي ارتكبها، إِذْ إِنَّ الذي سيئاته أكبر سيشعر بالألم أكثر من الذي سيئاته أقل، والكل في ألم شديد.

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ {18})
{إِنَّهُ}، ذاك الكافر "النموذج"، {فَكَّرَ}، جال بالمعلومات التي سمعها من النبي محمد(ع) وقارنها، {وَقَدَّرَ}، حدّد قيمة ما فكّر فيه، أي حسب حساباته وسأل نفسه: هل لي مصلحة باتباع هذا الدين؟

(فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ {19})
نتيجة تفكيره وتقديره يستحقّ عليها القتل، يَسْتَحِقُّ الضرر الكبير الذي يؤدّي إلى إِنْهَاءِ حياته، كما نقول بالعامية: يقطع عمرو على هلحكي، يضرب على هالعملة، تخسرو أمّه على هالتفكير...

بعبارة أخرى ما أسوأ التقدير الَّذِي وصل إليه الكافر من تفكيره بالكلام الإلهي، ويستحقّ عليه الضرر الذي ينهي حياته. بسبب تفكيره الضيق لم يحسب أن الدين الإلهي يضمن السعادة له ولغيره من الناس في الدنيا والآخرة.

(ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ {20})
فِعْلاً يستحقّ إنهاء حياته، كما نقول بالعامية عندما نكرّر تقييمنا لمن قال كَلَاماً فَارِغاً سَيِّئاً جِدّاً: عن جدّ يقطع عمره.

(ثُمَّ نَظَرَ {21})
ثم، بعد مهلة من تقديره، نظر، وجّه اهتمامه العام، فقدّر ما سمعه ففكّر فيه بشكل عام، ومعلوم لك أَنَّهُ لم يكن قصده اتباع النتيجة السليمة التي يخرج بها من "تقديره ونظره" من تفكيره بما سمعه من الرسول(ع)، بل قدّر ما سمعه إن كان يناسبه إعلان تصديقه والإيمان به، ثم نظر ليرى شيئا يناسبه غير الإيمان بكلام الرسول(ع)، لأن كلام الرسول(ع) لا يناسبه.

هَا صرت في أجواء ما سبّب للرسول(ع) أن يذهب إلى بيته ويتدثّر تاركا الإنذار بسبب هذه النوعية من الناس.

مَعْلُومٌ لك أن كلام الرسول حقّ، فالمعلومات التي يقولها منقولة عن الإله الذي يعلم كل شيء والذي لِوَحْدِهِ أخذ القرارات في كل شيء، وهذا ما نسميه بالعقيدة، والشريعة التي ينقلها الرسول عنه تعالى فما هي إلا الصلاح، فنظر الكافر وتقديره للدين الإلهي ليس نظرة تقييم لصحته بل إن كان يناسبه، فالإيمان الحق بالإله الواحد الأحد الذي سيبعثنا ليحاسبنا ويجازينا على فعل السيئات، فهذا الإيمان لا يناسب الكافر النموذج الذي تشير له السورة.

(ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ {22})
{ثُمَّ عَبَسَ}، عَبَّرَ بحركات بحواجب عينيه وجبهته أنه ليس رَاضِياً عمّا سمعه، {وَبَسَرَ}، عَبَّرَ بحركات في منطقة الفمّ أنه ليس رَاضِياً عَنْ ما سمعه، أَرْخَى شدقه، وهي حركة يظهرها الإنسان بتحريك عضلات وجهه في منطقة الفم لِيُدَلِّلَ على كرهه لشيء ما سمعه أو رآه أو تقابل معه.

لَمْ تعجبه الحالة التي هو فيها من الضعف أمام كلام الرسول(ع) الصحيح العقلاني الصالح الذي يثبت أن كفره وشريعته خطأ وسوء، فعبّر عن شدّة انزعاجه من هذه الحالة، فهو لا يريد تغيير دينه ويعتبر نفسه مَغْلُوباً مُنْهَزِماً مُهَاناً إذا أعلن أن دينه خطأ وكلام محمّد(ع) صحيح! ويشعر بأنه سيكون الخاسر ومحمّد(ع) الرابح!

لاحظ أن هذه الحالة التي تصفها الآيات نراها في أنفسنا وفيمن حولنا عند أي جدل أو نقاش، فكل واحد منّا لا يقبل أن يكون رأيه أو تصرّفه غير صحيح، وبدل أن نسمع كلام الآخرين كَامِلاً فإننا نقاطعهم حتى نبرهن أننا نفهم أكثر منهم وأن الكلام الصحيح سأقوله أنا، وأنا معي حق، وأنا تصرفي صحيح، وأنا خبير بالأمور... فهذه عقلية: أنا معي حق دَائِماً ولا أقبل ملاحظات أو كلام الآخرين التي تبين أنهم أَفْهَمُ منّي وأني على الخطأ.

هنا تريك السورة نَمُوذَجاً كَامِلاً عن أَسْوَإِ حالة ممكنة، عن شخص يسمع كلام الرسول(ع)، فيفكّر فيه، وهو يعتبر أن كلام الرسول(ع) اعتداء عليه شَخْصِيّاً، لأن كلام الرسول(ع) يثبت أن كلام الكافر خطأ غير صحيح، فيقول الكافر في نفسه: هل أنا وديني وقومي سخفاء وليس معنا حق! هذا غير مقبول، يجب أن أجد طريقة أبيّن فيها أنني أفهم وأغلب بها كلام محمّد... ولا يهمّني إن كان كلامه صَحِيحاً وَعَقْلَانِيّاً وَصَالِحاً، فما يهمّني أنني لا أتحمّل أن يغلبني أحد ويبيّن أنه أَفْهَمُ منّي، ولا أتحمّل أن يفرض عليّ أحد شَيْئاً لا أرغب به لأنه يتعارض مع أهوائي ومشتهياتي ومصالحي السيئة.

(ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ {23})
{ثُمَّ أَدْبَرَ}، أدار دبره، أعطى ظهره لكلام الرسول(ع)، {وَاسْتَكْبَرَ}، رَأَى نفسه أكبر من أن يعلن إيمانه، فحتى لو كان كلام الرسول(ع) صَحِيحاً مَنْطِقِيّاً عَقْلَانِيّاً صَالِحاً... فلا يناسبه الإيمان به فهو أكبر من أن يترك دينه ويتبع دين محمد حتى لو كان فِعْلاً رَسُولاً من الإله.

(فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ {24})
{فَقَالَ}، هذا الكافر "النموذج" لنفسه وللناس: {إِنْ هَذَا إِلَّا}، كَلَامُ محمّد فقط وفقط، {سِحْرٌ}، شيء يخدعنا به لنرى كلامه صَحِيحاً، {يُؤْثَرُ}، هُوَ سحر متروك ممن سبق من سحرة، يَتِمُّ أخذه بالأثر كالعلوم التي تتراكم ممن قبلنا وتصير أَثَراً فتصير شَيْئاً تركوه ونعمل على تطويره، نَتَعَلَّمُ منهم مباشرة ونعلّم الآخرين... أو نقرأ كتبهم ونكتب كُتُباً جديدة ويأتي آخرون يقرؤون ما كتبناه ويكتبون كُتُباً جديدة... لِذَلِكَ فَهُوَ ساحر تعلّم السحر من سحرة سابقين تعلموا السحر من سحرة سابقين...

ضع في بالك دَائِماً أن السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شَيْئاً غير حقيقي أنه حقيقي. فالساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد بأنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع أنها لم تختف، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر والذي تراه صَرِيحاً في الآية 66 من سورة طه "قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى". ما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، فهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، ما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية أنها سحر، فهذا كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

هُنَا كما ترى، فَإِنَّ الكافر "النموذج" لم يجد أي شيء عقلاني منطقي يقوله ليردّ على ما يقوله الرسول(ع)، قَالَ كَلَاماً فَارِغاً يسبب التشويش، خذ مَثَلاً عن أحد ما يقول بأن البصل طعمه مكروه جِدّاً مع الحَلْوَيَاتِ، فهذا كلام واضح جدا

ويوافق عليه كلّ الناس "إلا فاقدي حاسة الذوق"، ولكن هناك شخص يريد معارضتك وتسخيفك ليبين للآخرين أنك لا تفهم وكلامك غير صحيح، فيقول لك: لا، فهناك حَلْوَيَاتٌ مشهورة بالبصل النيء في كولومبيا... وبقية السامعين إن كانوا أَيْضاً يريدون تَسْخِيفَكَ فسيستهزئون بك! مع أنهم يعلمون أنها كذبة. وهذا ما تريدك السورة رؤيته من قول هذا الكافر عن النبي محمّد(ع) أنه ساحر، فبكل بساطة يردّ على الكلام المنطقي العقلاني بسخافة الاتهام بالسحر! فبماذا سيقتنع إن لم يقتنع بالكلام العقلاني؟! ويقول بأنه ليس عَقْلَانِيّاً وإنما نتعرّض للسحر فننخدع ونراه عَقْلَانِيّاً؟

ننتبه لتكرار القرآن عدة مرّات الاتهام له وللرسل بالسحر، وهذا الاتهام بكلمة سحر لم يعد دَارِجاً كَثِيراً في عصرنا من الكافرين بالدين الإلهي، ولكن تسمع المرادف لها والذي يعطي نفس المعنى، فيقولون أن الدين للبسطاء، وهذا معناه أن البسطاء ينخدعون بالكلام الديني الخرافي ليروه حقيقة، وَلُغَوِيّاً هذا هو معنى كلمة سحر.

اَلْقُرْآنُ كرّر عدة مرّات هذا القول عن لسان هذه النوعية من الناس باتهام الأنبياء بالسحر، وهذه الجملة لم تعد دَارِجَةً كَثِيراً في عصرنا من الكافرين بالدين الإلهي، ولكن تسمع المرادف لها والذي يعطي نفس المعنى، فيقولون أن الدين للبسطاء، وهذا معناه أن البسطاء ينخدعون بالكلام الديني الخرافي ليروه حقيقة، وَلُغَوِيّاً هذا هو معنى كلمة سحر.

حَسَناً، هذا ما يقوله الكافرون، فهل نحن المُتَدَيِّنِينَ نمارس السحر حين نَتْلُو الآيات؟ نعم، فما تسمعه الآن على القنوات من دعاة الإِسْلَامِ، فِي أغلبيتهم الساحقة لا يختلف كلامهم عن كلام أهل العقائد الكافرة أو المنحرفة، فتسمع الدعاة يعرضون الكذب بالإعجاز العلمي والطبّي والليزر والثقوب السوداء... التي تكلّم عنها القرآن! وتسمع الكذب عن أسرار الحلال والحرام التي لم تظهر إلا بعد تقدّم العلم لِيَتَبَيَّنَ أن السجود على الأرض يسحب منك الطاقة السلبية ويجعل الدم يتحرّك ليصل إلى المخيخ... وعن الجرثومة التي في لحم الخنزير والتي لا تموت بالتجميد ولا بالطهي... وعن وعن... وهو كلام فارغ وهراء ما أنزل الله به من سلطان. فهذا الجانب المنحرف من ديننا الذي يخترعه الناس هو المساوي للسحر الذي يمارسه أهل العقائد الأخرى.

مِثْلُهُ في الكذب والانحراف والسحر: الكلام المذهبي بين المسلمين، الذي فِعْلاً يوقع الأغبياء تحت تأثيره حتى يرتكبوا السوء بالفرقة بين المسلمين وُصُولاً إلى قتل المسلم الآخر!

أمّا القرآن، بدون التلاعب به، فهو الحقّ، وليس بسحر لأنه لا يخدعنا بل يقدّم الواقع والحقيقة، وعلينا عرضه على أنفسنا وعلى الناس كما هو، والأمور غير العادية التي ذكرها القرآن كفلق البحر للنبي موسى (ع)، ولبث النبي يونس (ع) في بطن الحوت وغيرها... فهي أمور حقيقية حصلت بتدخّل إلهي لتكون آيات، ولتكون نَمُوذَجاً عن تدخله تعالى فيما يطلبه الناس من تدخّل إلهي مباشر... ونؤمن بها لأن القرآن بمحتواه العقائدي الحقّ والتشريعي الصالح يدلّنا بوضوح أن مصدره إلهي... وأمّا خزعبلات الإعجاز العلمي والعددي... وأشباهها، وخزعبلات الروايات الكاذبة، وخزعبلات الطائفية والمذهبية والعصبية... فهي سحر خادع لا علاقة للقرآن بها.

إِنْذَارُ وتبشير الرسول للناس بكلام عقلاني وعليه أدلة تبيّن فساد كلام الكافرين وصحّة كلام الرسول المنقول عنه تعالى، حِينَ لم يجد الكافرون أي ردّ يدافعون به عن عقيدتهم، قالوا عن كلام الرسول أنه سحر، على أساس أن الرسول بكلامه تلاعب بعقولهم فجعلهم يرون دينهم الصحيح فَاسِداً، وجعلهم يرون دينه الفاسد صَحِيحاً.

(إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ {25})
يُضِيفُ الكافر: {إِنْ هَذَا إِلَّا}، كَلَامُ محمّد هو فقط وفقط، {قَوْلُ الْبَشَرِ}، لَمْ ينزل أي شيء من الإله سبحانه بل محمد اخترع هذا الكلام.

تَذَكَّرْ لبّ السورة وسترى أن هذا الكلام الذي يغلق على الرسول(ع) أي باب لنقل الإنذار للناس، وهو هذا النوع من الكلام الذي بسببه تأذّى فتدثّر النبي(ع) شَاعِراً بانتفاء جدوى نقل الكلام الإلهي لعموم الناس، فبماذا سيرد على من اتهمه بأنه ساحر؟! مهما بيّن لهم وبرهن لهم ووضّح لهم عن فساد عقيدتهم وشريعتهم، يُمْكِنُهُمْ بكل سهولة أن يقولوا له أن كلامك يبدو صَحِيحاً حَقِيقِيّاً مُقْنِعاً ولا نجد رَدّاً عليه ولكنه مجرد سحر تخدعنا به. الآن صرت تفهم شعور النبي(ع) وحالته النفسية، وتفهم ما تريد السورة تنبيهك له: عليك بإنذار الناس مهما قالوا لك وَبَعْدَ ذَلِكَ لَا تَهْتَمَّ بما يحصل فحسابهم على إلههم سبحانه.

(سَأُصْلِيهِ سَقَرَ {26})
{سَأُصْلِيهِ}، سَأُنَصِّبُ هذا الكافر "النموذج" وأجعله وَاقِفاً أمام، {سَقَرَ}، وهذا وصف لمكان في جهنّم يسبب الإحراق عن بعد بسبب شدّة حرارته، وهذا المفعول الوصفي واضح من الآية بعد التالية.

كَلِمَةُ سقر وردت في القرآن أربع مرات فقط، في هذه السورة هنا ثلاث مرات، ومرة واحدة في سورة القمر الآية 48.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ {27})
{وَمَا أَدْرَاكَ}، أَنْتَ تسمع عنها فقط ولم ترها ولم تعش فيها حتى تعلم ماذا تفعل سقر بمن هو مُصْلًى أمامها.

تَقُولُ: لا أدري. هُنَاكَ شيء لحد الآن لم تعشه ولم تحتك به، وَرُبَّمَا يكون لديك معلومات عنه... اَلشَّيْءُ الذي احتككت به وعشته تَقُولُ: أدري، والشيء الذي لا تعلم عنه لأنك لم تعشه تَقُولُ لا أدري.

(لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ {28})
{لَا تُبْقِي}، من الواضح من سياق الكلام أنها نار لا تترك من الجسد شَيْئاً إلا وأحرقته، {وَلَا تَذَرُ}، لَا تترك شَيْئاً لا تطاله، وتعلم من بقية القرآن أن من في جهنّم يحترقون وينبت لهم جلد ولحم جديد، ويحترق وينبت من جديد... وهكذا باستمرار كما تقرأ في الآية 56 من سورة النساء "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ..."، وسقر كوصف للنار تَحْرِقُ كل جسد من يتواجد في مجال حرارتها الشديدة.

(لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ {29})
كما يُلَوِّحُ الناس المشاوي على النار لتغيير لونها إلى البني، وإذا لوّحوها أكثر تسودّ وتحترق، والتلويح يعطي معنى مرور وقت قبل الاحتراق، {سَقَرُ} تلوّح {لِّلْبَشَرِ}، الذين لديهم بشرة، لَدَيْهِمْ جلد رقيق ناعم، والكلام عنّا نحن البشر، ذوي الجلد الناعم كفرق بيننا وبين البقر مَثَلاً ذي الجلد السميك.

(عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ {30})
{عَلَيْهَا}، على سقر، {تِسْعَةَ عَشَرَ}، ومن الآية التالية ومن عموم القرآن تعلم أنهم ملائكة(ع) مُوَكَّلُونَ بتعذيب من في النار، وهنا الكلام عمّن يتعذّب في سقر.

ضع في بالك أن الآية حدّدت لمنطقة سقر تِسْعَةَ عَشَرَ مَلَكاً، وغير معلوم عدد الملائكة العاملة في كل جهنّم.

نَتَذَكَّرُ أن لبّ السورة عن شدة انزعاج النبي(ع) من تكذيبهم واتهامهم له بأن كلامه سحر خادع وليس حقيقة، وهذا يعني في نظرهم أن محمدا(ع) لن يقول لهم شَيْئاً إلا ليخدعهم ليصدّقوه ويؤمنوا به، هَا عبر هذه السورة ينقل لكم كَلَاماً لن تصدّقوه، وهو وأنتم تعلمون أنكم لن تصدّقوا هذا الكلام، بل ستقولون: ما هذا الكلام الذي لن نصدّقه أَبَداً؟ تِسْعَةَ عشر مَلَكاً هو عدد قَلِيلٌ جِدّاً بالنسبة لعدد الكفّار، لِأَنَّ الكفّار الكثر سيغلبون هذا العدد من الملائكة بسهولة! لَوْ كان محمد(ع) يسحركم فهل سيقول لكم كَلَاماً يعلم وتعلمون أنكم لن تقتنعوا به؟ هَلِ الساحر يفعل ذلك؟ وهل هدف محمد(ع) خداعكم؟

(وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ {31})
{وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ}، الذين مع بعض مشتركون في العمل على تعذيب من في سقر، لَمْ يجعلهم تعالى، {إِلَّا مَلَائِكَةً}، فهم من نوع الكائنات التي تملك صفات وقدرات مميزة عن بقية المخلوقات، وليسوا من البشر أو من الجنّ، ومن عموم القرآن تعلم أن الملائكة(ع) مطيعة له تعالى بالتمام، فلا مجال لرشوتهم أو التلاعب بولائهم أو عواطفهم... ولديهم قدرات عالية جِدّاً، ولا يهملون أو يقصرون في عملهم، وتفهم عموم ذلك من الآية 6 من سورة التحريم "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ".

{وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ}، تعدادهم عددهم، كما ورد في الآية السابقة أن عدد الملائكة(ع) المُوَكَّلَةِ بتعذيب من في سقر عددهم تسعة عشر، لَمْ يجعل تعالى هذا العدد، {إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا}، فمن أنكر هذا الدين وأنكر ما يقوله الرسول(ع) سيسمع هذه الجملة ومن بعدها سيرى تعالى تغيّره وماذا سيقول، وهذه هي الفتنة، وبالطبع تعلم أن الكافر سيسخر من هذا العدد القليل للملائكة(ع) المُوَكَّلَةِ بتعذيب عدد كبير جِدّاً من البشر الكفّار، عَنْ قصد جعل تعالى عددهم قَلِيلاً حتى يخبرنا به الآن، ويقع الكافر في الفتنة فيسخر من قلّة عددهم، على أساس أن العدد الكبير من البشر سيتغلب بسهولة على تسعة عشر مَلَكاً.

تَذَكَّرْ أن هذا الكافر "النموذج" كان يقول عن الرسول(ع) بأنه ساحر فيستعمل الخدعة والحيلة ليقنعهم بدينه، والآن اسمع أَيُّهَا الكافر كَلَاماً لا يمكنك القول عنه بأنه سحر أو خدعة أو من قول البشر، لِأَنَّ عدد ملائكة سقر تسعة عشر، وهذا العدد قليل بالنسبة لك، وستستغربه ولن تقتنع به، فهل محمّد "الساحر" سيقول لك شَيْئاً يعلم أنك سترفضه ليبعدك عنه؟

{وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ} تسعة عشر، {لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، اَلَّذِينَ أتاهم سبحانه كتاب من عنده ككتاب التوراة الذي نزل على اليهود والإنجيل الذي نزل على المسيحيين، وغيرهم من الملل الذين وصلتهم صحف يحيى وشيث ونوح وإبراهيم عليهم السلام... عندما يسمعون بالعدد تسعة عشر للملائكة المُوَكَّلَةِ بتعذيب من في سقر سيصير عندهم يقين لِأَنَّ هذه المعلومة ستصير عندهم مطابقة للحقيقة، فسيرونها صادقة صحيحة، لأنهم من كتبهم يعلمون أن الملائكة(ع) كائنات قوية جِدّاً جِدّاً بالمقارنة مع البشر والجنّ، إِذْ إِنَّ مَلَكاً وَاحِداً من الملائكة العالية "جبريل، ميكال..." يمكنه فعل ما يشاء بمليارات البشر بكل سهولة، فلو سمع أهل الكتاب من القرآن أن الملائكة عددها كبير جِدّاً حتى تتمكّن من السيطرة على أهل النار، لعلموا أن هذا من كلام البشر وليس من كلام الإله سبحانه، ولعلموا أن محمّدا(ع) يخترع الكلام حتى يقنع الكافرين بالانضمام لدينه.

أُكَرِّرُ لك، كما ترى مما ورد سَابِقاً في هذه السورة أنهم لم يجدوا شَيْئاً عَقْلَانِيّاً يَرُدُّونَ به على دينه تعالى إلا أن قالوا عن القرآن الذي ينقله الرسول محمّد(ع) لهم بأنه سحر يخدعهم به، وهنا ترى السورة تذكر لنا عَدَداً قَلِيلاً عن ملائكة النار(ع)، فلو كان القرآن من تأليف ساحر من البشر لكان هدفه اقناع الناس بكل الطرق الممكنة، ولحاول الذي ألّفه إقناع السامعين فيقول لهم أن أعدادا هائلة من الملائكة(ع) تعمل على تعذيب أهل النار.

{وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً}، الذين هم في حالة الاعتقاد والالتزام بهذا القرآن وبهذا الرسول فيزيد إيمانهم إيمانا، فتشتد حالة اعتقادهم والتزامهم بهذا الدين الإلهي، لأن القرآن لم يَتَمَاشَ مع ما يخطر ببالنا، بل التزم بمعلومات مترابطة عن القدرات العالية للملائكة(ع).

سترى في تكملة الآية أن من يسمع محمّدا يدعو الناس للانضمام إِلَى دينه، سَيُرَاقِبُهُ ليرى إن كان محمد يحابي الناس ويتماشى مع أهوائهم ويقول لهم ما يعجبهم ويقنعهم حتى ينضموا إِلَى دينه، ولكن التزام نقله (ع) لنفس الكلام الذي يعارضونه ولا يوافق أهواءهم، سيسبّب لمن آمن بهذا الدين أن يزيد إيمانه، لِأَنَّ هذا الرجل "محمد" لا يخترع الكلام من عنده، بل ينقله كما هو حتى لو لم يعجب الكفّار. ضع هذا في بالك عندما تقرأ تكملة هذه الآية.

جعلنا عدد الملائكة(ع) المُوَكَّلَةِ بأهل النار تسعة عشر حتى، {وَلَا يَرْتَابَ}، حتى لا يصيب أقل درجات الإحساس بكون هذا القرآن من تأليف البشر، فلا يرتاب، {الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} كاليهود والمسيحيين والصابئة والمندائيين... وغيرهم من الناس الذين لديهم كتب للأنبياء، ولا يرتاب، {وَالْمُؤْمِنُونَ}، الذين هم في حالة الاعتقاد والالتزام بدينه تعالى وبالرسول محمّد(ع)، حَيْثُ عندما يسمعون بالعدد القليل لملائكة النار(ع) لن يشعروا ولو بشكل طفيف بإنكار صحّة هذا الكلام.

جعلنا ملائكة النار(ع) تسعة عشر، {وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم}، في أساس تفكيرهم ونفسيتهم، {مَّرَضٌ}، فيه خلل فهو غير سليم، ويقول {وَالْكَافِرُونَ}، المنكرون لهذا الدين الإلهي، إِذْ لدينا أشخاص ينكرون هذا الدين بشكل رسمي علني فهم كافرون، ولدينا أشخاص لا يكفرون به وليسوا في حالة إِيمَانٍ تَامٍّ به أَيْضاً، يعجبهم بعض ما في الدين الإلهي وبعضه الآخر لا يعجبهم لأن قلوبهم مريضة، وكلا النوعين يقولان: {مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً}؟ هذا الوصف التشبيهي لسقر وعدد الملائكة(ع) عليها، ماذا أرادنا تعالى أن نصير عليه من بعد هذا الكلام؟ من المفروض أن يقول لنا كَلَاماً نقتنع به، وها نسمع كَلَاماً والكلّ يعلم بأننا سنرفضه ولن نقتنع به، فلو كان حَقّاً الله تعالى قاله، فماذا أرادنا أن نصير من

بعدما نسمعه وهو يعلم بأنه سيجعلنا ننفر! فلن نصير من المؤمنين من بعد سماعه، ونحن أَصْلاً كفّار أو قلوبنا لا تقبل بكل هذا الدين فماذا أراد الإله بهذا مَثَلاً؟

{كَذَلِكَ}، بهذا النوع من الأمور، {يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ}، أمامه تعالى خيارات عديدة، وشاء منها أن يضع على الشيء الخطأ الذي يوصل للنتيجة غير الجيدة من قرّر أن لا يقتنع بالكلام العقلاني المنطقي الصحيح الحقيقي الذي يقوله الرسول(ع) عبر هذا القرآن، فلن يجبره تعالى على الاهتداء، ولن يحابيه، ولن يتماشى مع هواه ليبقى كما هو على كفره أو مرض قلبه وفي نفس الوقت يعتبره مُؤْمِناً، لا، بل سيتقصّد تعالى أن يعرض علينا أمورا تجعل ذوي القلوب المريضة والكافرين لا يهتدون بسبب قرارهم السابق أَصْلاً بالنفور من هذا الدين الحقّ الواضح.

{وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ}، أمامه تعالى خيارات عديدة وشاء منها أن يضع على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة من قرّر قبول الحقيقة والصلاح واتباعهما.

{وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ}، الكائنات الملتزمة بتنفيذ أوامره تعالى، التي تعمل على تحقيق ما يأمرها به المسؤول عنك من مستوى إلهي، لا يعلمها، {إِلَّا هُوَ}، سبحانه وتعالى، فعددها غير معلوم لنا، ونحن نسمع بالقدرات العالية للملائكة العالية(ع)، وهم جنود له تعالى فيحققون ما يأمرهم به تعالى، ولكن في الحقيقة لا نعلم عددهم ولا مدى قدراتهم العالية، وكما يبدو لك فَإِنَّ الآية هنا تريدك أن تنتبه أن أَيَّةَ معلومات تعلمها عن القدرات العالية للملائكة(ع) من طرد إبليس، ورمي الجنّ بالشهب، ومنع الجنّ من الاقتراب من الوحي، وتدمير مدن حكم عليها تعالى بالعقاب الدنيوي كالمؤتفكة... وتوّفي الأنفس... هذه أمور أقل بكثير مما يمكن للملائكة(ع) فعله، والذي خلقها يعلم بمدى القُدُرَاتِ العالية التي منحها لهم(ع)، فتسعة عشر مَلَكاً(ع) بكل سهولة يمكنهم التعامل مع كلّ أهل النار.

{وَمَا هِيَ}، هذه المعلومات عن عدد ملائكة النار(ع) واختلاف موقف الناس منها، {إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ}، هي أمور ليستحضرها البشر في فكرهم ومشاعرهم وعملهم، وها نحن نقرؤها فمن المفروض أن نفهم ما يقوله تعالى عبر رسوله(ع) في قرآنه فهو كلام إلهي، ولا يتماشى مع هوانا ورغباتنا الفاسدة ليقنعنا.

لتفهمها بشكل أبسط، قارنها مع الذين يخترعون إعجازا علميا في القرآن، أو إعجازا عدديا، فيقولون وردت كلمة ليل 12 مرة وكلمة نهار 12 مرة، وكلمة يوم 365 مرّة، وكلمة ساعة 24 مرة... وهم يعلمون أن كل هذا غير صحيح! ويعلمون أنهم يكذبون! وغيرها الكثير من الأكاذيب حول إعجازات القرآن العددية والحسابية والعلمية الطبية والفلكية... ويؤلفون أحاديث ينسبونها للنبي(ع) وللصالحين عن أدعية إن قلتها نزل عليك المال كالمطر ومن دون عمل! وتشفى من أصعب علّة! وتتزوّج العانس!... والأمثلة كثيرة جِدّاً، وكلّها تنبع من نفس المشكلة التي تريدك الآية أن تستذكرها: الله سبحانه وتعالى يقول الحقّ الصحيح دَائِماً حتى لو كان سيسبب كفر بعض الناس، الله عزّ وجلّ ورسوله(ع) لا يكذبان ولا يتماشيان مع أهواء الناس حتى يجعلوهم مؤمنين. لن تجد في القرآن كَلَاماً صَرِيحاً عن دعاء أو صلاة أو صوم أو... تفعله ويحقّق لك ما تريد، فهذا شيء تفعله مع جنّي الفانوس الخرافي وليس مع الإله الحكيم، فلا تسوّق لدينك بهذه الأكاذيب حتى تستجلب الناس للإيمان لأنهم يفقدون الأمل من الحصول على ما يرغبون به بالطرق العادية، فتجعلهم يبحثون في الدين عمّا يحقّق لهم طلباتهم الدنيوية، وهذا لو كان فِعْلاً مثلما يصوّره الناس، لكان النبي محمّد(ع) دعا لأولاده الثلاثة الذين ماتوا وهم صغار السنّ من مرض أو علّة...

الكلام يجرّ الكلام، لست أنفي استجابته تعالى لأدعية تتضمّن طلبات دنيوية، ولكن مراجعة ما نقله القرآن من استغراب النبي زكريا(ع) عندما ردّت عليه الملائكة باستجابته تعالى لطلبه، والذي تجده في الآية 8 من سورة مريم "قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا"، مع إيمانه (ع) بأنه تعالى على كل شيء قدير فذلك الاستغراب يريك الفرق بين ما نطلبه نحن ونريد منه تعالى تحقيقه وكأننا نتعامل مع جني الفانوس السحري، وبين الصالحين من الدرجة العالية حين يطلبون...

بقي شيء، ستجد في الروايات كَلَاماً حول هذه الآية مفاده أن الآية التي حدّدت عدد الملائكة نزلت أَوّلاً، وسأل الكفّار: ماذا أراد الله بهذا مثلا؟ فنزلت آيتنا هذه، وهذا غير صحيح، كما رأيت من دراستنا للآيات، نزلت السورة تخبرنا عن عدد الملائكة(ع) وتخبرنا عمّا سيحصل بعد سماع الناس لها، حَيْثُ سَلَفاً تخبرنا الآيات عن موقف المؤمن منها عندما يسمعها، وعن موقف الكافر. وهذا مشابه لحالة الأمر بالصدقة قبل النجوى وإلغائه في أرضه مباشرة، وتجد ذلك في

الآية 12 وما بعدها من سورة المجادلة "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ".

(كَلَّا وَالْقَمَرِ {32})
{كَلَّا}، اعتراض الكفار والذين في قلوبهم مرض على سقر وعدد ملائكتها(ع)، ليس اعتراضا في محلّه.

{وَالْقَمَرِ}، وتأكيدا على ذلك نلفت انتباهكم للقمر، فمن الواضح جِدّاً أن قدرة عظيمة فائقة صمّمته وخلقته وجعلته يضيء ويدور حولنا ويتغير طوره من هلال لربع ونصف وبدر بشكل متكرر يعيننا على معرفة الشهور... فهل سيعجز خالق القمر بهذه المواصفات أن يخلق سقر وملائكة(ع) بقدرات عالية؟! أو هل يمكنكم أيها الكفار منع هذه الظاهرة من الحصول حتى تتوهّموا أنكم بإمكانكم التغلّب على ملائكة سقر(ع)! وهذا المعنى الاشتقاقي للآية هنا والتاليتان ترى مثله في محاججة النبي إبراهيم(ع) التي وردت في الآية 258 من سورة البقرة "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ... قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ...".

(وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ {33})
وتأكيدا بـ، {وَاللَّيْلِ}، بفترة العتمة من اليوم، {إِذْ أَدْبَرَ}، إذا ابتعد وسحب آخره معه، فانتهت العتمة بالتمام.

وهذه الظاهرة التي تتكرر كل يوم، من صمّمها؟ ومن نفّذها؟ وكم هو حجم القدرة الهائلة المطلوبة لحصول الليل وذهابه؟ فهو نفسه سبحانه الذي خلقها يقول لكم عن سقر وملائكتها(ع) عبر هذا الرسول(ع) الذي ينقل لكم الإنذار... فهل لديكم القدرة على منع حصول الليل على الأرض!

(وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ {34})
{وَالصُّبْحِ}، وتأكيدا بأول النهار، {إِذَا أَسْفَرَ}، إذا صار واضحا فانتشر ضوؤه.

فشروق الشمس وانتشار الضوء ظاهرة ضخمة هائلة، ومن فعلها أرسل لكم هذا الرسول... فهل يمكنكم منع حصول الصباح! أو هل حصل الصباح لوحده من دون إله صمّمه وخلقه؟!

(إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ {35})
بعد كل التأكيدات السابقة بالقمر والليل والصبح، يأتي ما تريد السورة تأكيده: {إِنَّهَا}، هذه الذكرى عن عدد ملائكة سقر(ع)، {لَإِحْدَى الْكُبَرِ}، واحدة من الأمور الكبرى، فهي من الأمور التي توصف بأنها كبيرة، فسيسأل الكفار عنها ويستغربونها ويعتبرونها كَلَاماً من المستحيل تصديقه، ولكن بعد لفت انتباههم لثلاث ظواهر ضخمة تتكرر من حولهم، فهل من المستحيل عليه تعالى خلق كائن بقدرات تمكّنه من تعذيب ملايين أو مليارات البشر؟ فالتسعة عشر مَلَكاً(ع) لتعذيب الذين في سقر هو من الأمور الكبرى فِعْلاً، مثلها مثل أية كشيء من الأمور الكبرى، كآية تحوّل العصا لحيّة، ويوم القيامة، والعذاب في الآخرة، وحتى نار الآخرة وصفتها الآية 12 في سورة الأعلى بأنها الكبرى "الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى".

(نَذِيراً لِّلْبَشَرِ {36})
هو الرسول(ع) ونقله لهذا الكلام الإلهي عن سقر وملائكة التعذيب فيها: {نَذِيراً}، خبر عن شيء سَيِّئ قادم بالتأكيد لمن توافرت ظروف حصوله فيه، {لِّلْبَشَرِ}، لهذا النوع من المخلوقات التي لها بشرة، وهذا التعبير مرادف لتعابير القرآن الأخرى: للعالمين، للناس... ولكن بسبب ما سبق وقيل عن النار وأذيتها لنا لأننا كائنات ذات بشرة، فأكملت السورة كلامها بوصفنا بشرا.

(لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ {37})
هذا الإنذار، {لِمَن شَاء مِنكُمْ}، فأمامكم خياران ويمكنكم اختيار واحد أساسي منهما، {لِمَن شَاء}، {أَن يَتَقَدَّمَ}، فلا يدير ظهره ويبتعد عن الإيمان بهذا الكلام، بل يتقدم نحوه فيقترب منه ويصير فيه ويتماشى معه، {أَوْ} لمن شاء منكم أن، {يَتَأَخَّرَ}، فيبتعد عن الإيمان بهذا الكلام، فيدبر ويتولّى ويعرض...

بعبارة أخرى، فهناك عقاب في سقر لمن توافرت فيه شروط العقاب وهو الكفر، وها نخبركم بهذا الإنذار، فمن شاء فليتقدم في الإيمان ويبتعد عن حالة انطباق الإنذار عليه، ومن شاء فليتأخّر وليقترب من حالة انطباق الإنذار عليه.

فالله سبحانه يرسل الأنبياء منذرين ولا يُجبر الناس لا على الكفر ولا على الإيمان، بل للناس كامل حرية الاختيار في أن يتقدموا ويقتربوا من الإيمان والصلاح، أو أن يتأخروا ويبتعدوا فيكفروا، ولكن ننتبه فخيار الإيمان نتيجته الجنّة، وخيار الكفر نتيجته النار، فلم يخيّرنا تعالى على أساس أن النتيجة واحدة، لا، وسترى ذلك من الآية التالية:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ{38})
فاختاروا ما شئتم ولكن: {كُلُّ نَفْسٍ}، كل شخص كل واحد منكم، {بِمَا كَسَبَتْ}، بالذي حصلت عليه مما نتج من عملها، {رَهِينَةٌ}، متعلقة به لا تنفكّ عنه.

فما سيحصل مع أي شخص فهو مرهون "مرتبط" بما حصل عليه ذاك الشخص مما نتج من عمله، فلن يكون مصيره مُرْتَبِطاً بما حصل عليه الآخرون، ولا حظوظ في الآخرة.

فمن شاء منكم التقدم فنفسه بأعمال التقدّم نحو الإيمان متعلقة، فسيتحاسب عليها وينال الحسنات ويدخل الجنّة، وبالعكس لمن شاء أن يتأخّر، فنفسه مرهونة بالأعمال السيئة التي حصل عليها، فسيتحاسب بالعذاب عليها.

(إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ{39})
{إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ}، الذين مع بعض يشتركون بأنهم من الموصوفين بحالة السهولة والشعور بالراحة والتحكّم، فيحملون كتابهم باليمين وهم على جهة اليمين كجهة معنوية لمن لهم قيمة عالية، وهم على جهة الجنّة، وحسابهم باليمين فهو سهل... والملائكة تكرمهم... فهؤلاء ليسوا مرهونين بأعمالهم.

ومن عموم القرآن تعلم أننا كلّنا نتحاسب، ومن كان من الصالحين من درجة عالية كالرسل والأنبياء، فهؤلاء يتم حساب حسناتهم فقط لأننا نفترض أنهم لا سيئات "مقصودة" لديهم... وهؤلاء حتى فيما بينهم يوجد فرق في كمية الحسنات فيتحاسبون لأن بعضهم سينال أكثر وأفضل مما سيناله الأخرون، ويتم مضاعفة حسناتهم فهم من الأصل غير مرهونين بأعمالهم لأن أعمالهم كلّها حسنة، وأمّا الأعمال السيئة فقد استغفروا منها... وقد خصّصهم القرآن في سورة الواقعة بوصفهم بالسابقين... وبالنسبة لبقية المؤمنين فلو كانوا مرهونين بكل أعمالهم لتحاسبوا وتجازوا حَتْماً على أعمالهم السيئة، ولما حصلوا على المغفرة والصفح والعفو والتكفير عن ذنوبهم والشفاعة، فالمرهون بشيء ما سيكون مُلْتَصِقاً به، بينما أصحاب اليمين غير مربوطين بأعمالهم السيئة لأنها اختفت بالمغفرة والتكفير "إخفائها" والصفح والعفو والشفاعة.... فهم مفكوكون من هذا الارتباط.

(فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ{40})
أصحاب اليمين، {فِي جَنَّاتٍ}، في أماكن موصوفة بروعة ما فيها من عموم ما يسعدهم من حدائق وبساتين ووسائل راحة وترفيه وسعادة... {يَتَسَاءلُونَ}، فيعبّر العديد من أهل الجنّة عن إرادتهم للحصول على أجابات من العديد من أهل النار كما سترى من الآيات التالية.

كلمة سأل معناها الأساسي: عامّة التعبير لآخر عن ارادة شيء ما منه. بهذا المعنى تكون مرادفة تَقْرِيباً لكلمة "طلب" كما نستعملها، ومن سياق الكلام يتحدّد المطلوب: جَوَاباً أو غَرَضاً أو فِعْلاً أو اسْتِعْلَاماً أو اسْتِفْهَاماً أو تَعَجُّباً... ومن الدارج بيننا استعمال اشتقاق كلمة "مسؤول، مسؤوليتي..." بالمعنى الذي تعرفه، وهذا من تبعات استعمال كلمة "سأل" على أساس أن هذا الشخص "المسؤول" ستتوجّه له الأسئلة عن شيء ما، والكلمة التي استعملها القرآن لهذا المعنى الدارج لكلمة "مسؤول مسؤوليتي" هي "وكيل، حفيظ".

بالنسبة لتصريف "تساءل يتساءلون" فالدارج بيننا أنه تصريف مستعمل للاستفهام والاستغراب، فلدينا "سؤال" ولدينا "تساؤل"، أمّا المعنى الأساس لأي تصريف من مشتقات كلمة "سأل"، فسياق الكلام يحدّد إن كانت الجملة للاستفهام أو الاعتراض أو إرادة الجواب... المعنى الأساسي لها هو المرادف تَقْرِيباً لمعنى كلمة "طلب" حَالِيّاً، ولم يستعمل القرآن

كلمة "طلب" بالمعنى الدارج حَالِيّاً واستعمل بَدَلاً منها كلمة "سأل" لعامّة إرادة شيء ما من أحد ما، سواء أراد جَوَاباً "بكل أنواعه ومن ضمنه الاستفهام" أو أراد غَرَضاً أو مساعدة... وكلمة يتساءلون تشير لحالة توجيه سؤال من أكثر من شخص إلى عدة أشخاص.

هنا أهل الجنّة عديدون، ويسألون العديد من أهل صقر...: ما سلككم في سقر...

(عَنِ الْمُجْرِمِينَ{41})
يتساءل أصحاب اليمين: {عَنِ الْمُجْرِمِينَ}، عن الذي قاموا بأعمال يستحقون عليها العقاب.

(مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ{42})
والسؤال هو التالي: {مَا سَلَكَكُمْ}، ما الذي جعلكم على مجرى إِجْبَارِيٍّ أوصلكم لتكونوا، {فِي سَقَرَ}، في المكان الذي تصل حرارته المرتفعة المحرقة للجلد واللحم إلى مسافات بعيدة؟

المسلك هو أي ممر يجعلك فيه بشكل متتابع، حيث تكون خطواتك وكلامك وأفعالك... على تتابع على خطّ بعضها، فنقول: سلوكه حسن. يعني تصرفاته متتابعة على الوصف الحسن، وهنا السؤال مع علم أصحاب اليمين بالأسباب التي أوصلت المجرمين ليكونوا في سقر، ولكن حتى يشمت بهم المؤمنون يسألونهم، وحتى يتعذّب المجرمون نَفْسِيّاً أكثر...

تذكّر أن الرسول محمّد(ع) عرضته السورة كنموذج عن المؤمنين الذين تعرّضوا للمضايقات الشديدة لدرجة ابتعاده (ع) عن الناس وتدثّره كشكل من الاعتكاف... السخرية منه (ع) ومن كلامه واتهامه بالسحر... هو أذى نفسي، وهناك في الآخرة سيتعرض المجرمون لأذى نفسي كعقاب على ما آذوا به المؤمنين نَفْسِيّاً في الدنيا.

نقل لنا القرآن بعض الحوادث التي يتحدّث فيها أهل الجنّة مع أهل النار، ونستصعب تصوّر ذلك الآن لأن القرآن لم يذكر تفاصيل كثيرة عن المشاهد التي تساعدنا على تصوّر كيفية حصول تواصل بين أهل الجنّة وأهل النار، بل ركّز على نقل المحاورة فقط، ويبدو من القرآن أن المؤمنين وحين يرغبون فيمكنهم رؤية المجرمين يتعذبون، وهذا ما نفهمه من الآيات حول الآية 55 من سورة الصافات "فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ"، حيث كان واحدا من أهل الجنّة يبحث عن قرين سوء كافر مصيره النار...

ونفترض أن المجرمين سيتعذّبون نَفْسِيّاً حين يرون النعيم الذي فيه المؤمنون، وأقول نفترض لأن مشهدا منقولا من يوم القيامة وما بعده "وليس من بعد دخول المؤمنين للجنة" قد ذكر ذلك، ولا نجد كَلَاماً قُرْآنِيّاً عن رؤية المجرمين لأهل الجنّة في الجنّة، ولمزيد من الاستفادة راجع الآية 50 من سورة الأعراف "وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ..."، وبالنسبة لكيفية حصول تواصل من في الجنّة مع من في النار فلا يوجد في القرآن معلومات عن كيفية حدوث ذلك، فلا تتعب نفسك في تصوّر عالم غير عالمنا. فلن يشعر المؤمنون بأي مضايقة من رؤية الكافرين، ولن يشعر الكافرون بأي تسلية من رؤية نعيم المؤمنين.

لدينا حالة مشابهة ذكرتها سورة الصافات تجدها حول الآية 55 "فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ" حيث واحد من أهل الجنّة أراد رؤية مصير قرين له كان سيئا... وتحدّث معه...

(قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ{43})
{قَالُوا}، المجرمون: {لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ}، لم نكن من الذين يقبلون ويتوجّهون، والكلام عن التوجّه إلى الله تعالى بالذكر والتعبير عن الخضوع، وهو ما نسمّيه بالعبادة، حيث وصلهم أمر بذلك ولكنهم لم يفعلوه. وهذا الوصف لهم يختصر عموم إعراضهم عن ذكره تعالى وعن إيمانهم به تعالى كإله يتوجهون إليه.

فِي الغالب الأعم من سور القرآن ترى تَرْكِيزاً شَدِيداً لأمره تعالى للناس بأن يصلّوا له سبحانه، وتجد سُوَراً تناولت جوانب مختلفة لسبب هذا الأمر، ماذا لو آمنت ووحدّته تعالى ولكني لم أُصَلِّ؟ وماذا لو صليت له تعالى ولغيره معه؟... في تلك السور تجد أجوبة لهذه الأسئلة وغيرها، ولكن بغضّ النظر عن إعلان عبوديتك له تعالى بالصلاة، وهو السبب الرئيسي لأمرنا بها، يليه إعلان شكرك وحمدك له... تجد في القرآن أن الصلاة فرصة لنا لمحو سيئاتنا كما ورد في

الآية 114 من سورة هود "وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ".

كَلِمَةُ صلاة تعني: عموم الإقبال والتوجه على الشيء، مع فعل شيء حسن أو سَيِّئٍ، وأكثر استعمالها في القرآن للعمل الحسن. فهذا معناها العام، وبحسب استعمالها يتخصّص معناها، فَرَبُّنَا سبحانه يصلي علينا معناها أنه تعالى يتوجّه ويقبل علينا، وبماذا سيتوجّه ويقبل سبحانه على مخلوقاته؟ بالاهتمام بالرحمة بالمغفرة... والنبي(ع) يصلي على المؤمنين، فيقول اللهم صَلِّ على المؤمنين... وهذا طلب منه سبحانه للتوجّه على المؤمنين بالمغفرة وهدايتهم... ونحن نصلي على النبي(ع)، بعبارة اللهم صَلِّ على محمّد... فنطلب منه سبحانه التوجّه والإقبال على الرَّسُولِ(ع) بزيادة حسناته... ونحن نصلي لربنا سبحانه فلا ندير ظهرنا لعبادته ودعائه، بل نقبل عليه تعالى ونتوجه إليه سبحانه بالعبادة بالمديح...

تَبْقَى كلمة صلاة على معناها العام أَيْضاً في صَلْيِ المجرمين أمام النار، أو لأي تعريض لشيء ليصير مُتَوَجِّهاً لشيء آخر.

مِنَ الواضح من سياق الكلام أن المجرمين الذين رماهم عزّ وجلّ في سقر، لَنْ يقولوا أن سبب دخولهم سقر أنهم لم يصلّوا للأصنام، وهكذا ترى أن كلمة صلاة هنا تُفْهَمُ منها بوضوح أنها التوجّه والإقبال عليه تعالى، إِذْ إِنَّهُمْ لم يصلّوا له تعالى، وهذا النوع من افتراض القرآن لشيء تعلمه بالبداهة، مُنْتَشِرٌ في القرآن.

ننتبه جَيِّداً، مَا هو دارج الآن عن حصر معنى الصلاة له تعالى بالصلوات الخمس اليومية، هُوَ اصطلاح ديني إسلامي، أمّا القرآن فلم يحصرها فقط بهذه الصلوات، بل جعلها أعم منها، فتشمل أي صلاة بأي كلام وبأي شكل كان، لِأَنَّ الكلمات والحركات التي نفعلها خمس مرات في اليوم هي آخر صلاة شرّعها سبحانه وتعالى للناس، وقبلها شرّع تعالى صلاة بكلام وحركات مختلفة، وقبلها أَيْضاً صلاة مختلفة وهكذا مُرُوراً بالصلاة التي نقلها النبي عيسى(ع) للناس، وقبلها الصلاة التي نقلها النبي موسى(ع) للناس، وقبلها الصلاة التي نقلها النبي إبراهيم(ع) للناس... ولكن من عموم القرآن نفهم أن كل تلك الصلوات كانت متشابهة جِدّاً جِدّاً، ففيها وقوف وركوع وسجود، وفيها ذكر له تعالى بالحمد والتسبيح والاستغفار... وما علمته عن صلاة اليهود ورأيته مُصَوَّراً ففيه وضوء كوضوئنا، ومواقيت كمواقيتنا وَمُضَافاً لها ركعتان بعد منتصف الليل، وحركات صلواتهم مشابهة تَمَاماً لحركات صلواتنا من وقوف وركوع وسجود... وما هو دارج بيننا عنهم أن صلواتهم الواجبة هي الاهتزاز إلى الأمام والخلف، فهذا غير صحيح.

هَذَا لا يعني أَنَّهُ يحق لي اختراع صلاة على مزاجي، وهكذا أعتبر نفسي من المصلّين، أو أصلي الصلوات الواجبة كلها دفعة واحدة ولا أوزعها على فترات اليوم، أو أصلّي في يوم واحد عن عدّة أيام، لا، مِنَ الواضح جِدّاً في القرآن وجوب الصلاة تَقْلِيداً للحركات والكلمات التي قام بها الرسول(ع)...

(وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ{44})
وَصَلَهُمْ الأمر الإلهي بمساعدة المسكين وهو الذي أوضاعه المالية متعثرّة، من الفقير جِدّاً إلى الذي يعمل أو يملك مَحَلّاً تِجَارِيّاً ولكن تعثّرت ظروفه المالية وصار بحاجة للمساعدة، وهنا ترى أن المجرمين علموا بأشخاص تعثّرت أَحْوَالُهُمْ رُبَّمَا لدرجة جوعهم بسبب فقدانهم للطعام، ورغم ذلك لم يساعدوهم مع أنهم كانوا قادرين على مساعدتهم، حَيْثُ تَوَعَّدَ تعالى عبر رسله وأنبيائه وكتبه بالعذاب الشديد لمن لا يساعد المحتاجين.

تَتَذَكَّرُ العديد من السور التي فصّلت نفسيات وأعذار الذين لا يساعدون المحتاجين، ومنها سورة الحديد...

نَسْأَلُ: هل كل من في سقر قام بكل الأعمال السيئة التي ذكرتها الآيات؟ لا، بل تنقل لنا الآيات نَمُوذَجاً عن أَسْوَأِ حالات الإجرام، رُبَّمَا كان الكافر فَقِيراً أَصْلاً ولا يملك المال لمساعدة الآخرين، مِنَ البديهي أنه مستثنى من هذا السوء، ولكن عموم القرآن يعرض أَسْوَأَ نماذج عن الكفر، وأحسن نماذج عن الإيمان، وبعض الأحيان القليلة يتحدّث عن الحالات الوسطية بين ما تحت أقصى الكفر والإجرام بقليل وُصُولاً إلى ما دون الإيمان العالي، وهنا نحن أمام أَسْوَأِ نموذج كفر، فنحن أمام كافر كان معه مال أو طعام يستطيع به مساعدة المحتاجين ولكنه لم يساعدهم، وهذه جريمة كبيرة لا يناقش عاقل في ضخامة سوئها.

هَلِ الكلام عن المسكين المسلم أم عموم أي مسكين؟ من الواضح جِدّاً أن الكافر الغني سيتحاسب لأنه لم يساعد أي مسكين كان، والكلام هنا موجّه له لأنه لم يساعد المساكين الكفّار، لِأَنَّ هذه السورة من أوائل ما نزل من القرآن، وفي حينها لا معنى لحصر المسكين بالمسكين المسلم، فتلك البيئة غالبيتها الساحقة كفّار، لِذَلِكَ فَإِنَّ الكلام موجّه لكافر لم يتصدّق على المساكين الكفّار، فهذا واقع الحال حين نزول هذا الكلام، وهو نفسه الكلام لا يتغيّر فلم يقصد حصر الداخلين إلى سَقَرَ بالكفّار الأغنياء الذين لم يتصدقوا على كفّار فقراء، بل عُمُومِيٌّ لكل غني ومهما كان دينه ولم يتصدق على مسكين مهما كان دين المسكين.

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ{45})
{وَكُنَّا نَخُوضُ}، نُشَارِكُ بشكل أساسي في الأحاديث الدينية، {مَعَ الْخَائِضِينَ}، مع الذين يدخلون كمشاركين أساسيين في الكلام عن الدين الإلهي، ومن أجواء السورة تعلم أنهم شاركوا بشكل أساسي في كلام مضاد لكلامه تعالى ضد كتبه ورسله تعالى مع الآخرين الذين سخروا واستهزؤوا وعلّقوا على دينه تعالى، إِذْ إِنَّهُمْ لم يكونوا من المراقبين أو المؤيدين للكفر وهم ساكتون، ولا كانوا يتحدثون عن دينه تعالى بعقلانية وبحث عن الحقيقة... بل شاركوا واعتبروا أنفسهم من المشاركين الأساسيين الضروري مشاركتهم، لأنهم من المثقفين العالمين بهذه المواضيع... بَدَلَ التسليم لعقلانية ما يسمعونه من كلامه تعالى دَخَلُوا فيه معارضين، وَخَاضُوا فيه مكذبين له.

(وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ{46})
{وَكُنَّا نُكَذِّبُ}، لَا نصدّق، {بِيَوْمِ الدِّينِ}، بالزمن الذي ستتم مطالبتنا بما علينا من تبعات، بما ندين به.

ضع في بالك أن التكذيب بيوم الدين هو تكذيب له تعالى، لِأَنَّهُ الذي قال لنا عنه، وتكذيب لرسله ولكتبه التي ذكرت ذلك، وهذا من جانب، ومن جانب آخر عَمَلِيّاً التكذيب بيوم الدين معناه ترك الاهتمام بالأوامر الإلهية على أساس أنه لا يوجد يوم ندان به، لِذَلِكَ لَمْ يلتزموا بالدين الإلهي لأنهم لم يؤمنوا بيوم يدانون به، وهذا شيء تراه مُنْتَشِراً في مختلف سور القرآن.

كَلِمَةُ دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، وَهِيَ ليست اصْطِلَاحاً مُخَصَّصاً كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الاسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، حَيْثُ إِنَّهَا عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، أَنْتَ مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شَيْئاً ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف...

اَللهُ تعالى خلقني لِذَا أَنَا مدين له، لِأَنَّ خَلْقَهُ سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى وَاسِعاً بسبب وساعة تبعات الخلقة، إِنْ كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فَأَنَا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لَدَيْنَا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، هَذَا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... كُلُّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بِالنِّسْبَةِ للآخرة هُنَاكَ ندان بأعمالنا، مَا قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة كلامه تعالى هو التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أَيْضاً يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مُنَاسِباً بحكمته قَدْ يديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ{47})
تكذيبنا بيوم الدين بقي مُسْتَمِرّاً، {حَتَّى أَتَانَا}، حتى جاءنا، {الْيَقِينُ}، حتى صار لدينا قناعة بيوم الدين أنه حقيقة وصحيح ومطابق للواقع، فِي الدنيا كانوا يكذّبون المعلومة عن يوم الدين، وأمّا في الآخرة فهذه لم تعد معلومة سمعوها بل صارت حقيقة يعيشون فيها، وَصَارَتْ يَقِيناً بسبب مطابقتها للواقع الملموس، اِسْتَمَرَّ تكذيبهم للآخرة حتى صاروا فيها وعندها صاروا في حالة يقين بوجودها.

كَلِمَةُ يقين بحسب استعمال العرب لها وبحسب استعمال القرآن تعني: معلومة مطابقة للواقع. كَمِثَالٍ: عندي معلومة بأن الخبز في المطبخ. وَوَاقِعاً في الحقيقة كان الخبز هناك، لِذَلِكَ هَذِهِ معلومة يقينية لأنها مطابقة للواقع. أمّا لو كنت لسبب أو لآخر مُتَأَكِّداً بأن الخبز في المطبخ، وعندي براهين على ذلك، وفي الحقيقة والواقع لم يكن الخبز في المطبخ، فحالتي لا توصف باليقين لأنها لم تتطابق مع الواقع، وَبِهَذَا المعنى حَصْرِيّاً استعمل القرآن كلمة يقين، إِذْ إِنَّهَا معلومة مطابقة للواقع، وأمّا درجة تأكدي من معلومة ما، فَلَا تُوصَفُ باليقين إلا إذا طابق الواقع.

(فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ{48})
{فَمَا}، ما نافية بمعنى "لا"، وهي لا محلّ لها من الإعراب، {تَنفَعُهُمْ}، لَا تفيدهم ولا بأي شكل، {شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ}، فِي الآخرة يتدخّل سبحانه وتعالى بقيمته المعنوية في بعض الحالات ويشفع بنفسه لعبد عليه ذنوب، بسبب حسنة غير عادية قام بها ذلك العبد في حياته كالمقتول في سبيله تعالى، أو بسبب كثرة حسناته مقابل سيئاته الكثيرة من العيار الخفيف... ويخبرنا القرآن أَيْضاً أن المؤمنين يتدخّلون لإنجاء أَحِبَّائِهِمْ من العذاب، وكذلك الملائكة(ع) يتدخلون... ولكن كل هذه الشفاعة لمن كان مُوَحِّداً وارتكب بعض الذنوب التي لم يستغفر منها ولم تكن من العيار الثقيل الذي توعّد عليه تعالى بالخلود في النار، أو قصّر في بعض الواجبات... وأما الكافر، والمجرم عموما، فلا شفاعة له أَبَداً، فَرْضاً حتى لو أحد ما شفع لكافر عنده تعالى، فَرْضاً، لَنْ تنفع الكافر أي شفاعة من أي كان.

بعبارة أخرى، من حكم عليه تعالى أنه مجرم فهذا لا حلّ له، فحتى لو فَرْضاً تدخّل أحد ما ليشفع له، فلن تنفع الشفاعة لأنه تعالى سيرفضها. ونفهم الجملة بشكل أفضل حين نفهم أن الشفاعة لا يمكن فرضها عليه تعالى، لا أحد يمكنه في يوم القيامة أن يضرب رجله بالأرض "يحتجّ معترضاً" ويقول: أنا معي حقّ الشفاعة وأنا أشفع لهذا الشخص فاتركوه مهما كانت ذنوبه. وهذا ما نفاه القرآن دَائِماً، فإن تصوّر الكافر أن أَحَداً ما من المؤمنين سيشفع له، فلنقل أنه اعتمد على ولده المؤمن أن يشفع له، هذا وهم وخيال ولن يحصل وَأَصْلاً لن ينفع لو فَرْضاً حصل، وَالسُّورَةُ بدل أن تخبرك أنه لن يحصل، أخبرتك أنه أَصْلاً ولو تصورت حصوله بأي شكل، وَافْتَرَضْتَ حصوله، فهو لن ينفع.

ما تجده في مختلف كتب التفسير عن آيتنا هنا أنها تعني: بماذا تنفع المجرمين الشفاعة؟ وهذا يعني أن أَحَداً ما سيتدخّل ليشفع لهم ولكن بسبب حالتهم العويصة، بسبب إجرامهم لن تنفعهم الشفاعة، وهذا الكلام لا يتماشى مع مختلف آيات القرآن بل يخالف الكثير من الآيات التي تؤكّد أن المجرمين ليس لهم شفيع ولا حميم ولا ناصر ولا خليل...

من آيتنا هنا ومن بعض آيات أخرى في القرآن نرى بشكل غير واضح تماما أن الشفاعة تَحْصُلُ حتى بعد انتهاء الحساب في يوم القيامة، إِذْ إِنَّ المؤمن الذي عليه ذنوب لم تغتفر أثناء الحساب ودخل النار، وحكمه أن يبقى فيها ليوم أو شهر أو ملايين السنين... بَعْدَ مدّة تناله الشفاعة فَيَخْرُجُ من النار قبل انتهاء مدّة تعذيبه، اِنْتَبِهْ أن هذا المعنى يتماشى مع آيتنا هنا ومع غيرها من الآيات التي تتحدّث عن الشفاعة، ولكنه اشتقاق وليس من صريح الكلام القرآني، والأرجح أن لا يكون صَحِيحاً.

اَلْوَاضِحُ الصريح من القرآن أن الشفاعة تحصل أثناء الحساب، فإمّا تسري بالكامل ويدخل المشفوع له إلى الجنّة، وإمّا بسبب بعض الذنوب الكبيرة يتم تخفيف مدّة بَقَائِهِ في جهنّم، وهذا ما نستوحيه من كلام القرآن، والسؤال هنا إن كان هناك شفاعة أثناء تواجد أحد ما في النار، وهذا ما لا نجده صَرِيحاً في القرآن.

بعبارة أخرى، عَلَى ما يبدو من القرآن أن الشفاعة إن طالت أَحَداً ما كانت نتيجة حسابه دخول النار، لِأَنَّ الشفاعة تجعل حكمه مُخَفَّفاً بتقليل مدة تعذيبه، مِنْ بعد دخوله للنار لقضاء مدة تعذيبه فيها، لَا شفاعة لإخراجه منها قبل انتهاء المدّة التي تقرّرت له فيها.

اَلشَّفَاعَةُ هي عموم استخدام القيمة المعنوية أو السلطوية لتغيير الظروف نحو الأحسن، والآيات القرآنية التي تحدّثت عن الشفاعة تَنَاوَلَتْهَا من عدّة جوانب، أهمّها نفي الشفاعة لأي مخلوق كحقّ مفروض ملزم "مرغم" للإله سبحانه وتعالى، كحقّ النقض "الفيتو"، وتقرأ ذلك في الآية 255 من سورة البقرة "... مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ..."، لَا تتصوّر أن مَلَكاً أو شَخْصاً من خيرة المؤمنين يملك حقّ الشفاعة وسيفرض تنفيذها على مجرم لينقذه من العذاب، يَضْرِبُ رجله

بالأرض "يحتجّ معترضاً" ويقول: معي حقّ الشفاعة وأريد أن يدخل فرعون إلى الجنّة. هذا شيء لا يمكن أن يحصل لأنه لا أحد يمكنه فرض أي شيء من أي نوع عليه تعالى.

هُنَاكَ آيات أخرى أكّدت على وجود شفاعة من الملائكة (ع) والمؤمنين من الدرجة العالية للمؤمنين من الدرجة المنخفضة، وكمثال عن ذلك الآية 28 من سورة الأنبياء "... وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ"، إِذْ إِنَّ الشفاعة تتنفّذ بعدما يسمح الإله سبحانه بها، ضِمْنَ القرار الإلهي الأساسي يوجد أشخاص على ميزان العدل المستقيم يجب أن يتعذّبوا حَتْماً، ولكن القرار الإلهي فيه رحمة، مَنِ ابتعد عن الشرك والكبائر كقتل الأبرياء والزنا... قَرَّرَ له تعالى أن يكون له مخرج من العذاب، وَسَمَحَ بالشفاعة له، أمّا المشركون والمرتكبون للكبائر من السيئات فلا تنفعهم الشفاعة كما ورد في الآية 123 من سورة البقرة "وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ..."، نَفْيُ الشفاعة هنا في الآية ينبهنا أن لا نفعل ما نريد من سيئات معتمدين على شفاعة أحد ما لنا في الآخرة، لِأَنَّ هَذَا طريق يؤدي إلى فعل سيئات لا تنفع معها الشفاعة.

لَا تَنْسَ أن الشفاعة لا تعني دَائِماً أنها للنجاة من النار، بل التخفيف من عذابها أو التخفيف من وقت المكوث فيها هُوَ أَيْضاً من آثَارِ الشفاعة.

اَلْجَانِبُ الثالث من الشفاعة الذي تجده في بعض الآيات هو نفيها عن الآلهة التي اخترعها المشركون، إِذْ إِنَّ آلهتهم الوهمية التخيلية كإله الحرب وإله الخمرة... أو التي لها كيان كَمَلَكٍ أو إنسان أو جنّي، لَيْسَ لهم قدرة حتى على الوساطة عنده تعالى للعفو عمّن عبدهم، عَادَةً سياق كلام هذا النوع من الآيات يريك أنه تعالى وحده الإله وأن الآخرين ليس لهم سلطة من مستوى إلهي بل حتى ليس لديهم القدرة على فرض قيمتهم المعنوية عليه تعالى، وكمثال عن ذلك الآية 51 من سورة الأنعام "وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ"، سُبْحَانَهُ وحده بسلطته يشفع ويسمح بالشفاعة. ومثال آخر الآية 13 من سورة الروم "وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ"، حيث كان الكلام عن الذين أشركوهم معه تعالى في الألوهية، وسبحانه لا شريك له، بَيْنَهُمْ وبين آلهتهم شراكة وهمية بين عبد وإله، وَلَا قدرة لها لتشفع لهم... ومثال آخر الآية 43 من سورة الزمر "أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ"، هَذِهِ شاملة لكل أنواع الآلهة التي اخترعوا ألوهيتها، حَتَّى لو كان لها فِعْلاً كيان ولم تكن وهمية كإله الخمرة وإلهة الحبّ، وَكَانَتْ مَلَكاً أو إِنْسَاناً أو جِنِّيّاً، فهؤلاء لا يملكون شَيْئاً من مستوى إلهي.

(فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ{49})
من بعد ما سمعوا الكلام السابق عن سقر والمجرمين، فَمَا لَهُمْ، كما نقول بالعامية: شو بهم، اشمالهم... عن التذكرة، عن الشيء الذي نقوله لهم ليستحضروه في فكرهم وعملهم، معرضين، لا يهتمون بها!

من المفروض بالعاقل ان ينتبه إذا سمع بهذا الكلام عن عذاب سقر، فيفكّر حتى لا يذهب إليها، ولكن هؤلاء النماذج السيئة جِدّاً لم يهمّهم الموضوع! ولا يهتمون بهذا الكلام!

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ{50})
{كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ}، كشبه قطيع حمير، {مُّسْتَنفِرَةٌ}، نفرت، ليست في حالة الهدوء بل متحركّة، وسترى من الآية التالية أنها نفرت فغيّرت مكانها لأنها مذعورة.

ستجد في الكتب أن كلمة حمر هنا معناها: الحمير الوحشية. وستفهمها الآن أنها إشارة للحمير البيضاء المخططة بخط أسود، ولكن هذا غير صحيح، لِأَنَّ أي حيوان يعيش في البرية فهو حيوان وحشي، ثيران وحشية، أحصنة وحشية... وهذا ما كانوا يقصدونه بالحمير الوحشية، لِذَلِكَ التشبيه بالحمر هنا لمطلق أي قطيع من الحمير يعيش في البراري، سواء كان مخططا أو عاديا.

(فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ{51})

{فَرَّتْ}، كانت قريبة وابتعدت، {مِن قَسْوَرَةٍ}، من شجاع يهاجم، وعند العرب قَدِيماً هذا الوصف بالقسورة لأسد أو نمر أو لبوة... أو حتى لرجل شجاع يهاجم، وفيما بعد صار العرب ينسبون كل وصف من هذا النوع كاسم للأسد، قسورة عبّاس ضرغام... ووصلت للمئتي اسم! وهي ليست أسماء للأسد ولكنها صفات شجاعة أو إقدام أو هيبة أو ملك... كلمتنا هنا وصف ينطبق على الأسد وعلى غيره، وسياق الكلام عن نفورهم من عموم أي حيوان مفترس.

تَذَكَّرْ محور السورة حول شدّة إزعاجهم للنبي(ع) أثناء نقله للكلام الإلهي لهم، واتهامهم له (ع) بأن كلامه سحر يريد خداعهم به ليقنعهم بدينه، هَا ترى السورة للمرة الثانية تعرض شَيْئاً لا يمكنهم القول عنه أن محمّدا(ع) يريد خداعهم به، بل تهينهم بِصَرَاحَةٍ، وهذا شيء لن يفعله محمّد(ع) لو كان هو من يؤلّف القرآن، فلن يقول شَيْئاً يهينهم به لأنهم سينفرون منه ومن دينه، لِأَنَّ الساحر لن يهين المشاهدين بتوصيفهم كالحمير الهاربة من أسد أو من أي حيوان مفترس لهم.

التشبيه هنا للمجرمين هو مجرد تشبيه لحالة الاستنفار، وقد درج استعمال كلمة استنفار بمعنى الاستعداد ولكن أصل معنى الكلمة باستعمال العرب لها قَدِيماً هو النفير، هو التحرّك من مكانك بسبب شيء ما، وإعراضهم عمّا ينقله لهم الرسول(ع) وهروبهم من كلامه، هو مثل حالة هروب قطيع حمير من رؤيتهم لحيوان مفترس.

(بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفاً مُّنَشَّرَةً{52})
{بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ}، كل واحد منهم يريد، {أَن يُؤْتَى}، أن يجعل تعالى عنده، {صُحُفاً}، أشياء مكتوب عليها كأوراق الدفاتر أو الجلد... وثائق مكتوبة، {مُّنَشَّرَةً}، موزعة عليهم. لِذَلِكَ لَنْ يؤمنوا حتى ينزل على كل واحد منهم "وثيقة" ورقة أو أوراق مكتوب عليها كلام منه تعالى موجّه لكل شخص منهم لوحده!

في مختلف سور القرآن تجد العديد من الفقرات التي تحدّثت بالتفصيل عن هذا الموضوع ومن عدّة نواحي، وعلمنا منها أن الوحي ليس هو السبب الذي جعل محمدا(ع) مُؤْمِناً، فَرْضاً لو نزل الوحي على الكافر، فلا شيء سيتغيّر، أَبَداً بَتَاتاً، إِذْ إِنَّهَا مجرد معلومات ستنزل على وعيه، ولن تجبره على اتباعها أو الإيمان بها، وإذا لم يقتنع بتلك المعلومات أو لم تعجبه حين يسمعها بأذنه أو يقرأها من كتاب، فلا شيء سيتغير حتى لو نزلت على فكره منه تعالى مباشرة وصارت في وعيه... ونفس الشيء بالنسبة للكتاب الإلهي، فحتى لو نزل مكتوبا على ورقة لكل شخص من الناس، فهذا لن يغيّر أي شيء، لِأَنَّ المعلومات هي ذاتها تصلك عبر الرسول(ع) وعبر قراءة القرآن، فما الفرق إن نزلت على الكافر ورقة من السماء أو انبثقت فجأة أمامه... وعليها كتابة تقول بأنها من الإله سبحانه؟

الآية فيها عمق نفهمه بشكل أوضح إذا تصوّرنا رَئِيساً أرسل استدعاء لبعض الناس عبر رسول للجميع، فيقول أحدهم: أنا لن أذهب إلا إذا وصلتني دعوة خاصة. لن أذهب إلا إذا وصلني مكتوب باسمي. وهذا ما تسألهم عنه الآية هنا، فهل يريدون مراسيل "مكاتيب" خاصة لكل واحد منهم كدعوة شخصية لهم للانضمام لدينه تعالى؟

طَبْعاً هذا لن يحصل، لِأَنَّهُ سبحانه وتعالى لا يمشي على مزاج وأهواء وتخريفات الكفّار، وقد شرحت لنا عدة سور من القرآن أن هذا الاقتراح وأشباهه من الاقتراحات إِنَّمَا هي مجرد كلام فارغ لن يسبّب الإيمان حتى لو حصلت.

من الأساس إمّا أن يتماشى الإنسان مع الحقّ، مع العقلانية والمنطق والصلاح، فيكون رَافِضاً للكذب وَمُحِبّاً للخير وَرَافِضاً للشرّ، وإما أن يكون مُعَارِضاً لما يتعارض مع هواه ورغباته السيئة حتى لو كان صَحِيحاً وَصَالِحاً، إِذْ إِنَّ نزول الوحي على أبي لهب لن يجعل أبا لهب يتغيّر، لِأَنَّ أبا لهب عنده مشكلة في معارضة عبادة الأصنام لأنها دين مدينته وقبيلته، ولأن أهل زوجته الذين جعلوه غَنِيّاً هُمْ رافضون لدين ابن أخيه محمّد... وسيجن جنونه إن مدّة بعد مدّة نزلت عليه سور تقول في رأسه أن الإله أحد... وهكذا ترى أن وصول كلامه تعالى إلينا وحيا أو على ورقة خاصّة لكل واحد منّا أو بأي طريقة... فلن يغيّر أي شيء، إِذْ من يتماشى قلبه مع دينه تعالى، فهذا سيؤمن بأي طريقة يصله فيها الكلام الإلهي، وبالعكس فهناك من لن يؤمن ولا بأي طريقة.

ولمزيد من التوسّع راجع دراسة الآية الثانية من سورة البقرة "ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ".

(كَلَّا بَل لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ{53})
{كَلَّا}، هم لم يؤمنوا ليس لأنه لم ينزل على كل واحد منهم صحف فيها دعوة لكل واحد منهم من الإله ليؤمنوا بدينه، فهذا ليس السبب الحقيقي لكفرهم، بل السبب الحقيقي هو أنهم، {لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ}، فلا يشعرون بخطر أكيد لا يمكن تجنّبه في عالم الآخرة الذي سيأتي بعد الدنيا والذي نقوم فيه من الموت لنتحاسب ونتجازى.

عندما يسمعون من الرسول(ع) عبر هذا القرآن كَلَاماً عن عذاب الآخرة، فهم لا يشعرون بأنه خطر إذا حصل فلا يمكن تجنّبه، فهم لا يصدّقون بحصوله، وإن حصل ففي نظرهم فإن الحلول كثيرة... سيهربون، أو سيقاتلون الملائكة(ع)، أو سيدخلون إلى الجنّة بالقوة، أو سيدفعون المال لشراء أرض في الجنّة، أو سيبكون ويشفق عليهم سبحانه... أو آلهتهم ستنصرهم... وغيرها الكثير من الأمور التي ذكرها القرآن ونبّهنا بأنها لن تفيد أَبَداً بَتَاتاً.

ولأنهم لا يخافون من الآخرة فهم لا يرون أنفسهم ملزمين باتباع الدين الإلهي، فيريدون البقاء على حالتهم، حيث يخترعون دينهم على مزاجهم السيّء...

(كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ{54})
{كَلَّا}، كل ما في بال الكفّار ومخالف لما يقوله القرآن فهو غير صحيح، فتكذيبهم لعذاب الآخرة غير صحيح، ومطالبهم المختلفة حتى يؤمنوا، كنزول صحف على كل واحد منهم... أَيْضاً غير صحيحة... {إِنَّهُ}، القرآن الذي ينقله لكم الرسول محمّد(ع)، {تَذْكِرَةٌ}، شيء تستحضرونه في فكركم وعملكم.

بعبارة أخرى، نهاية الكلام معكم أيها الكفّار أن كل ما خضتم فيه وقلتموه فلن ينفع، وما في هذا القرآن أكثر من كاف لكم ولغيركم لتؤمنوا، ولا تتعبوا أنفسكم بالتفكير في اقتراحات تريدونها أن تحصل حتى تؤمنوا، {كَلَّا}، إن هذا القرآن كاف ليجعلكم تستحضرون إلهكم الأحد في فكركم وقولكم وعملكم.

(فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{55})
هناك خياران أمامكم، إمّا أن تنكروا محتوى القرآن وتكذّبوه، وإمّا أن تذكروه فتستحضروه في فكركم وعملكم، فتعتقدوا به وتعملوا على أساسه، وَمَعْلُومٌ لك أننا نحن سنتحمّل نتيجة ما اخترناه.

أنت حرّ في اختيار اتباع الذكر أو تركه، فقد وهبك سبحانه هذه القدرة على الاختيار، والتي نسميها بحرية الإرادة، ولكن لكلا الاختيارين نتيجة مختلفة، فواحد يوصلك للنار وآخر للجنة، فانتبه ماذا تختار.

(وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ{56})
{وَمَا يَذْكُرُونَ}، لَا يستحضرون هذه المعلومات في فكرهم وعملهم، {إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ}، أمامه تعالى خيارات عديدة، شَاءَ تركنا على حرية الإرادة والاختيار التي منحها لنا، مَنْ آمن فهذا ليس بقدرته الذاتية المنفصلة عن إرادته تعالى آمن، ومن كفر فليس بقدرة قاهرة كفر.

ننتبه جيدا، الآية هنا تحتمل مَعَانِيَ أخرى صحيحة، ولكن سياق الكلام يعطي المعنى الذي ذكرناه، حَيْثُ هُنَاكَ نقاش بين مختلف طوائف المسلمين حول معنى مشيئته تعالى ومشيئة عبيده، فَهِمَ البعض أن مشيئته تعالى يجب أن تكون فوق مشيئة مخلوقاته بشكل تام كامل، وهكذا تصير المخلوقات بلا إرادة، ويقولون إنَّ ما نعتقد أننا أحرار فيه إنما هو مجرد تمثيلية، كأننا دمى يحرّكها تعالى، وهذا تطرّف وغرق في الوحل لمخالفته لصريح القرآن ولمعنى أصل التكليف الإلهي لنا، لِأَنَّهُ تعالى لا يظلم مثقال ذرة، فما معنى رمي الكافر في النار وهو كان مجبورا على الكفر! أَجَابُوا بأن ما يفعله تعالى سيكون حسنا جميلا عادلا، حتى لو أجبر سبحانه إنسانا ما على الكفر ورماه في النار! وهذه سخافة ما بعدها سخافة، والآيات التي فهموا منها هذه المعاني كَانَتْ تشير لـمَعَانٍ أخرى، كُلَّمَا قرأت آية قالوا عنها إنَّ معناها يفيد إجبار المخلوقات وسلبهم الإرادة وأنه تعالى يظلم، وأنه تعالى يفعل ما يشاء حتى لو كان ظلما... رَاجِعْهَا في دراستنا هذه لتجد أن الآيات كانت تشير لـمَعَانٍ أخرى أصرح وأوضح...

مِنْ ناحية ثانية هُنَاكَ مسلمون قالوا بأننا أحرار ومشيئتنا مساوية لمشيئته تعالى، على أساس أنه تعالى تركنا أحرارا ويمكننا أن نفعل ما نشاء، وإلى هنا وبهذا المعنى كَلَامُهُمْ صحيح مطابق للقرآن، ولكن بعد ذلك هُمْ يَنْفُونَ أن يكون ما يجري معنا إنما يجري بسماح منه تعالى، حَيْثُ يَرَى بَعْضُهُمْ أنه يمكنه فعل ما يشاء ولن يستطيع تعالى منعه! وهذا مخالف للعديد من الآيات التي نبّهت دائما أننا نفعل ما نشاء ولكن دائما وأبدا نبقى تحت سلطانه تعالى، يُمْكِنُهُ تعالى منعنا في أي لحظة، ولا يمكننا أن نفرض عليه عزّ وجلّ شَيْئاً لا يريده...

الَّذِينَ فكّروا بهذه الطريقة وقعوا في المشكلة حينما فهموا "ببساطة تفكير" أنه تعالى يريدنا أن نؤمن، رَغْبَتُهُ تعالى أن نؤمن، حلمه أن نؤمن، يفعل أي شيء لنؤمن... فإذا كفرنا نكون غلبناه! وهنا آيتنا تعطي المعنى الصريح المعاكس لقولهم هذا، هِيَ بعمومية معناها تقول: أنتم تشاؤون وَتَخْتَارُونَ فعل شيء ما، ولكن فقط وفقط إن شاء تعالى حصول ما شئتم، تَفْعَلُونَ ما تريدونه إن ترككم سبحانه تفعلون ما تريدون فعله، لَا يمكنكم ولا بأي شكل أن تفعلوا شيئا غصبا عنه عزّ وجلّ، وكفركم به تعالى ليس غصبا عنه عزّ وجلّ، بل هو سبحانه شاء أن يترككم تكفرون به، وشاء أن تتحقّق إرادتكم، خَلَقَكُمْ وهو سبحانه يعلم أن أكثركم سيذهب إلى النار... ولا مشكلة عنده سبحانه حتى لو كفرت كلّ المخلوقات به... لَنْ يضره كفركم ولن ينفعه إيمانكم...

ملخص الكلام عن المشيئة أن تستبدل في القرآن كلمة شاء ومشتقاتها بالمعنى التالي: خيارات عديدة أمام الفاعل. وأن تتذكّر ما أخبرك تعالى أنه شاءه، وبهذا تستغني عن كل كلامهم وأبحاثهم عن المشيئة، وهنا مثلا نَحْنُ لا نشاء الإيمان أو الكفر إلا أن يشاء تعالى، وماذا شاء تعالى لنا؟ أَخْبَرَكَ عن ذلك، شَاءَ تركنا بحرية الإرادة لنختار الإيمان أو الكفر.
ونفس المعنى في 30 من سورة الإنسان {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}، ومرارا ورد في القرآن تعليق حدوث شيء أو تعليق استمرار حدوثه بمشيئته تعالى، ولم تقصد تلك الآيات إيقاف حدوث الشيء، بل قصدت تنبيهك على تعليق كل شيء يحدث بأنه يحصل لأنه تعالى شاءه يحصل أو شاء تركه يحصل، كحالة {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ} الواردة في الآية 6 و 7 من سورة الأعلى، ومعلوم أنه تعالى شاء أن لا تنسى.

مِثْلُ حالة الخلود في النار والجنّة الواردة في الآية 107 و 108 من سورة هود {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ...} مِنَ الآيتين واضح جدا أنه تعالى شاء خلود أهل الجنّة في الجنّة وخلود أهل النار عموما في النار إلا بعض الذين يتعذبون فيها لمدة ويخرجون منها، ويساعدنا على فهم تعليق كل شيء به تعالى استيعاب وهضم ما ورد صريحا بتعليق كل شيء به تعالى والوارد في الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ...}.

نرجع للآية، هو، الله سبحانه، {أَهْلُ التَّقْوَى}، التقوى التجنّب وتحاشي شَيْءٍ ما لِذَا هِيَ مَنْسُوبَةٌ وتنتمي له تعالى، هَا نَحْنُ نُخْبِرُكُمْ أن تجنّب مخالفة أوامر أحد ما، وتجنّب عقاب أحد ما، اللهُ سبحانه هو الأهل لهذا التجنّب لهذه التقوى، صِفَاتُهُ وقدراته سبحانه تجعل التقوى منسوبة له تعالى، بِحَقٍّ تنطبق عليه تعالى أنك يجب أن تتقيه.

دَرَجَ استعمال كلمة "الأهلية" التي تعني أن فيه الصفات المناسبة التي تسأل عنها، نَقُولُ: فلان مؤهّل لمنصب وزير. ونقصد أن فيه الصفات المناسبة ليكون وزيرا، وهذا المعنى قريب جدا من أصل معنى كلمة "أهل" ومقبول بشكل ما كتفسير لما تقوله الآية.

والله سبحانه هو {وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ}، الْمَغْفِرَةُ تنتمي وتنتسب له، أَنَا أغفر لَا أعاقب من أخطأ معي، ولكن لو تكرر منه الخطأ كثيرا، وَقَتَلَ كلّ أهلي وأحبائي وعذّبني... فحتى لو تاب فمن الصعب أن أغفر له، أمّا سبحانه وتعالى فيغفر وبكثرة مهما كان الذنب بمجرد إعلاننا للتوبة الحقيقية. إنْ كان هناك أحد ما لتستغفره فسبحانه أهل لذلك لأنه يغفر بشكل غير عادي.

مِنْ هذه الجملة نفهم أننا أمام خيار الكفر وخيار الإيمان، إنْ آمنّا فنحن نؤمن بأهل التقوى وأهل المغفرة، نُؤْمِنُ بمن تنتسب له التقوى في معناها الحقيقي لأن عقابه وغضبه شديد جدا، وَآمَنَّا بمن تنسب له المغفرة بشكل حقيقي لأن غفرانه غير عادي، وبالتالي ثوابه سبحانه لمن انغفرت ذنوبه أيضا غير عادي، ومن هذا نفهم أن باب التوبة مفتوح دائما، مَنْ كفر ووصلت إلى مسامعه هذه الكلمات فليعلم أن طريق العودة إلى الإيمان مفتوح أمامه.

أَنْتَ تعلم أن الكلام عن المغفرة لمن هنا في الدنيا استغفر، وليست متاحة في الآخرة لمن مات كافرا أو فاعلا للسيئات من العيار الثقيل ولم يتب، فهؤلاء لا مغفرة لهم.

سورة القيامة (75) ص 577
محور السورة عن المهتمّ بيوم القيامة وهي في حساباته فيلوم نفسه إن أساء لأنه سيتحاسب في يوم القيامة... وعن الذي لا يؤمن بيوم القيامة ولا يرى نفسه مُضْطَرّاً لفعل الصالحات ولا الابتعاد عن السيئات...

تَمَحْوَرَتْ حول منكر الآخرة في نفسيته وتفكيره ومصيره... في مقابل اللّوام الذي أشارت له السورة في البداية وفي حديثها عن مصيره السعيد في الآخرة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم
(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ{1})
{لَا أُقْسِمُ}، لست بحاجة للتأكيد، {بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ}، بزمن قيام الناس من الموت.

فِي الآية بعد التالية جملة: {أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ} وهي جملة بداية الحديث وبعدها: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ}. لو أعدت ترتيب الكلام بشكل بسيط لبدأت مما يحسبه الإنسان "الغالب الأعم من الناس"، وحسبانهم غير صحيح، وبعدها التأكيد على عكس ما حسبه بالقسم بيوم القيامة... فأسلوب افتتاحية السورة يدفعك لإعادة التفكير فيما قرأت.

كَمَا سترى السُّورَةُ تركيزها على الناكر لحصول يوم القيامة، وتبدأ كلامها بأنه تعالى "لن" يقسم بيوم القيامة ليؤكّد صحّة حصول جمع عظام الأموات ليعودوا إلى الحياة، مثلما تهدّد شخصا بضربه بالمدفع، وهو لا يرى المدفع ولا يصدق أنك تملكه، فتؤكّد له أنك سَتَضْرِبُهُ بالمدفع وتقسم بالله تعالى، ويمكن أن تؤكّد له بقسمك بمدفعك الذي تراه أمامك وهو ينكره، ويمكن أن تقول له بأنك لن تقسم له بالمدفع الذي ينكر وجوده معك... فحين تقصفه به سيتأكّد أنه موجود حتما. هُنَا سبحانه هو قرّر إرجاعنا إلى الحياة، فهذا سيحصل حتما، وهناك من الناس من ينكر حصول ذلك، فهل سيقسم لهم تعالى بشيء ما ليتأكّدوا بأن عظامهم سترجع إلى الحياة؟ وبماذا سيؤكّد لهم، فبماذا سيقسم لهم أن هذا سيحصل؟ وماذا لو أقسم لهم بيوم القيامة، باليوم الذي سيتم فيه تجميع عظامهم من التراب؟ وهو نفسه اليوم الذي يفكرون به؟ وماذا لو قال تعالى لهم بأن ما تنكرون حصوله سترونه قد حصل ولا داعي لِأُقْسِمَ بأنه سيحصل؟

مِمَّا تعلمه عن يوم القيامة ومن بقية السورة سترى أننا سنعود إِلَى الحياة ونرى عظامنا أَعَادَ تعالى تجميعها، فما الداعي ليقسم تعالى بيوم القيامة أو بأي شيء آخر حتى نصدّق بأن عظامنا سيتم تجميعها؟

نَتَذَكَّرُ دائما أن يوم القيامة هو تعبير قرآني عن زمن يبدأ من ساعة قيامنا من الموت ويأتي من بعده أيام حشرنا وفرزنا زُمَراً وحسابنا الفردي والجماعي وحساب حسناتنا وسيئاتنا... وتنتهي تلك الفترة بآخر يوم بساعة دخول آخر واحد منّا إلى الجنّة أو إلى النار.

بعبارة أوضح، أَوَّلُ يوم بالنسبة لنا من الآخرة هُوَ يوم القيامة، يوم قيامنا من الموت، وبعده أيام من الحساب... وعادة يشمل القرآن كل تلك الفترة ويختصرها بتسميتها بيوم القيامة في إشارة ضمنية للأيام التي ستليه.

(وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ{2})
{وَلَا أُقْسِمُ}، لَسْتُ بحاجة لتأكيد جمع عظامكم لتعودوا إلى الحياة، {بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ}، بعموم أي شخص في حالة لوم، مَنْ لم يكن من عاداته ولا من صفاته فعل السوء، وفعله، فلن يكون راضيا عن نفسه، يَلُومُ نفسه لأنه ليس من عادته ولا من صفاته فعل السوء، أو هناك شيء جيّد يجب أن يفعله ومن عادته وصفاته أن يفعله، ولكنه أهمله أو تركه، وهذا هو معنى اللوم، فيلوم نفسه، وأنت أيضا تلومه على أساس أنه من غير المفروض منه ارتكاب السوء أو ترك الواجب، وهنا في الدنيا يلومه القرآن لأنه مؤمن ومن المفروض أن لا يرتكب المعصية أو يترك واجبا...

سُبْحَانَهُ وتعالى يرى قيمة عظيمة لعموم أي نفس، أي شخص، أي إنسان من عاداته وصفاته القيام بالواجبات التي عليه، وترك السيئات، ولكن "لسبب أو لآخر" إن قام بسوء أو ترك عملا واجبا، "وحتما أي إنسان سيقع في خطأ ما"، فسيلوم نفسه، يَسْتَعِيبُ من نفسه بسبب قيامه بشيء لا يجدر به القيام به، أو يستعيب نفسه لتركه عملا كان يجب عليه القيام به.

أَنْتَ لا تلوم شخصا تلفّظ بكلام بذيء إن كان من عادته التَّلَفُّظُ بِهِ، وتلوم المؤمن الذي ليس من عادته التلفّظ بكلام بذيء، والشخص يلوم نفسه إن كان السوء ليس من عادته، أَمَّا إن كان الشخص من عادته ارتكاب السيئات ولم تتغير نفسيته وعقليته، ولسبب أو لآخر، رأى سوءا ما قام به وتمنّى لو لم يفعله، فهذا ليس لوما، بل ندم. يُمْكِنُكَ مراجعة استعمال القرآن لكلمة ندم ومشتقاتها لترى الدقة بين اللوم والندم بالمعنى الذي ذكرناه.

كَمَا تعلم، الْمُؤْمِنُونَ ينتظرون يوم القيامة، فيراقبون تصرفاتهم، ولا يرتكبون المعاصي لأنه يوجد يوم للحساب والعقاب، والكافرون لا يؤمنون بيوم القيامة، ولذلك يرتكبون السيئات، لأنهم لا يعتقدون بوجود حساب وجزاء على أعمالهم.

هُنَا السورة بدأت بمن يراقب نفسه واعتاد على السلوك الإيماني الصحيح ولكن لسبب أو لآخر صدرت منه سيئة، فيلوم نفسه، لَا يبرّر لنفسه، ولا يتجاهل ما فعله ولا يعتبره عاديا... في مقابل من يقوم بالفجور لأنه لا يؤمن بالحساب والجزاء في الآخرة، وهذا لبّ السورة ومحورها.

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ{3})
{أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ}، هل يخطر في بال الأغلب الأعم من الناس ومن دون تفكير، {أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ}؟ فإذا مات وتحلّل لحم جسده وعظام هيكله لم تعد مترابطة، فهل هذا معناه أنه انتهى، وأن لن يجمع سبحانه عظامه من جديد ليعيد تكوينه كإنسان؟ ومعلوم أن العظام تتحوّل لرماد بعد مدة طويلة، ولكن اختارت السورة أن تتشكّل لدينا صورة ذهنية عن بقايا إنسان ميّت، فتسألنا إن كنّا لا نؤمن بأنه تعالى سيعيد العظام إلى الحياة...

كما ترى، فالكلام مع من لا يؤمن بأننا سنعود إلى الحياة من بعد الموت لِنُجَازَى، وهو يستصعب إعادتنا إلى الحياة بعد تحلّل جسدنا، بل يحسبه مستحيلاً، بل وبمعنى أدقّ يشير إليه القرآن غالباً: لماذا خلقناه؟ فهل خلقناه ليعيش هنا في الدنيا ويموت وينتهي كلّ شيء؟ هكذا ومن دون تفكير عقلاني يعتقد بأنه إذا تحلّل جسده سينتهي كلّ شيء بالنسبة له ولن نعيده إلى الحياة مرّة أخرى لنحاسبه؟ ولماذا خلقناه بحرية الإرادة والاختيار مع قابلية فهم الخير من الشرّ؟

ضع في بالك دائماً أن القرآن استعمل كلمة {الْإِنْسَانُ} لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموما ذكراً وأنثى، وأنهم يتناسلون... أو متعلقٍ بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

الأنبياء والمؤمنون يعتقدون أن ربنا سبحانه سيجمع عظامهم، ولكنهم أقلية، وأغلبية بقية الناس لا يؤمنون بذلك ولهذا عبّر القرآن عن هذه الحالة بأن {الْإِنْسَانَ} يحسب أن لن يجمع تعالى عظامه.

بَقِيَ شيء تكرر الكلام عنه في دراستنا هذه ونعيد منه ما يناسب الآيات هنا، والكلام الإلهي عن إعادتنا إلى الحياة هو خبر مدعوم بأدلّة "آيات" منها إعادة بعض الأموات هنا في الدنيا إلى الحياة كما فعل النبي عيسى(ع) كما ورد في الآية 49 من سورة آل عمران {أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ}... {وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ}، ومنها الآيات من 258 وما بعدها من سورة البقرة {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ}، وبعدها الذي مرّ على قرية خاوية... فأماته تعالى مئة عام ثم بعثه، وبعدها طلب النبي إبراهيم (ع) رؤية كيفية إحياء الموتى... وغيرها من الأدلة القرآنية المشابهة... ومنها أيضاً ما نراه من إحياء الأرض بالنبات، ومنها نفس تناسلنا ومن قبلها أساس نشأة خلقتنا... ولفت انتباهنا لعظيم قدرة خالق سبع سماوات وبالتالي يمكنه خلقها مرّة ثانية...

الكلام عن إعادة خلقنا فيه جوانب عديدة يتحدّث عنها الناس في أبحاثهم، ففي جانب منها كلامهم عن استحالة إعادة خلقنا، وجانب آخر يبحث عن كيفية إعادة خلقنا، وبالنسبة لاستحالة إعادة خلقنا ففي الفقرة السابقة اختصرت لك الأدلة القرآنية على سهولة إعادة خلقه تعالى لنا. أمّا بالنسبة لآلية عودتنا إلى الحياة، فخاض فيه الكثير من المؤمنين بشكل مخالف لما يقوله القرآن، وأبرزهم من أنكر الحشر الجسماني وقال بأن الحشر روحاني بلا مادّة، وهذا الرأي يظهر فساده بأقل تأمّل في القرآن، وآيتنا هنا واضحة الدلالة على إعادة خلقنا بجسد من عظام، وأصحاب هذا الرأي يفسّرون القرآن بغير ظاهره، بتأويل لباطن يستنبطونه مبنياً على أفكارهم المسبقة، فيتلاعبون بمعاني كلمات القرآن حتى تتناسب مع أفكارهم.

بعدهم تجد من تحدّث عن استحالة إعادة المعدوم، وهؤلاء بعدما اخترعوا اصطلاحاً لمعنى العدم، حكموا به فكرياً على الواقع الحقيقي الذي لا عدم فيه من أصله، وليحلّوا مشكلة الفكرة التي اخترعوها قالوا بأن الجسد يموت، وننعدم، ولكن الروح أو النفس أو الجوهر... يبقى، وهذا هو كياننا الذي يعيد تعالى تلبيسه في جسد، وكلامهم هذا لا استناد قرآنياً له، لأن القرآن استعمل كلمة نفس لا ليدلّ على شيء منفرد فينا، بل ليدلّ علينا، على الواحد منّا، على الشخص، على الفرد. ومن ناحية ثانية لن تجد في القرآن لا تصريحاً ولا تلميحاً ولا إشارة لأي شيء يتعلّق بالروح في موضوع إعادة خلقنا. وأصلاً كلمة جوهر لم ترد في القرآن...

كما ترى، فكلام القرآن كان مع الجميع ليؤمنوا بالآخرة، ومنهم من أنكر ذلك، فردّ عليه القرآن بالذي قلنا بعضه، وبعضهم آمن ولكن تاه في آلية حصول ذلك ويصرّ على إيجاد جواب عن تلك الآلية من القرآن أو من الأحاديث، علماً أن القرآن عموماً يذكر مراحل حدوث الأشياء، فستة أيام لخلق ما في الدنيا وحصل فيها كذا وكذا، كما ورد في الآية 30 من سورة الأنبياء {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}، وكما ورد في الآية 10 من سورة فصلت {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ}...، ونفس الشيء عن نشأة الحياة البشرية على الأرض من طين كما ورد في الآية 7 من سورة السجدة {وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}.

نفس الشيء بالنسبة لإعادة إحيائنا، ولن تجد ذكراً لآلية حدوث ذلك وستجد إشاراتٍ وأخباراً عن بعض المراحل، وبناء عليه فالباب مفتوح فكرياً وتجريبياً للتعرّف على آلية لمحاولة إعادة الحياة إلى الأموات، وسيكون رائعاً لو تمكنا من إعادة الحياة للأموات... لأن النبي عيسى(ع) فعلها بدعم إلهي مباشر "ربما" متخطياً الطرق العادية التي نعرفها نحن، وربما يمكننا نحن فعلها بطريقة مختلفة، من يدري؟

بهذا الكلام أفتح أمامك الأفق لترى القرآن بشكل مختلف، فلا تفرض عليه أن تجد فيه آلية نشأة الكون أو آلية نشأة الحياة أو آلية إعادتنا إلى الحياة، لأن هذا كتاب هداية فيه ما يكفي لنهتدي ونؤمن، وأي تفاصيل أخرى وهي متروكة ولا تهمّ فيما يخص الهداية، إذ إنّ معرفة آلية حدوث الأشياء لا علاقة لها بالهداية، وأبسط لفت انتباه لذلك أننا بقدراتنا الفكرية والمعرفية بعيدون جداً عن قدراته تعالى، سبحانه يفعل الأشياء بطريقة لا يمكننا فهمها إلا إذا كان لها وجه نتمكّن من التعامل معه، وفهمنا لها محدود بحدود معارفنا وتجاربنا، وما نحن فيه الآن من تطوّر علمي رائع، سيكون مضحكة لمن سيأتي بعدنا بألف سنة، وعلومنا ستكون منسية مستبدلة بما هو أفضل منها... وهكذا ترى أنه تعالى لو أخبرك وبطريقة مبسّطةٍ عن آلية إرجاعه لنا إلى الحياة، ولو بدأ معنا من الصفر مستعملاً لغتنا ومضافاً لها كلمات جديدة اصطلاحية يشرحها لنا... ولو من الآخر تكلّم معنا سبحانه بأقصى ما يمكننا فهمه مستعملاً آخر ما يمكن أن نتوصّل إليه بعلومنا، فلن نفهم أي شيء إلا إذا بسّط لنا الموضوع لنراه بالطريقة التي تمكننا نحن من فعل إعادة الحياة للأموات، وهكذا نعود للأول حيث كنّا نريد معرفة آلية إعادة الحياة بالطريقة التي سيفعلها تعالى، ووصلنا إلى معرفة طريقة أخرى لذلك، فهي طريقة يمكننا نحن فعلها.

على أي حال، هناك أمور فكرية بحثها الناس قديماً عن هذا الموضوع، واستجدّ بعدها أمور أخرى بسبب تطوّر علومنا، ولو تعمّقت فيما قيل وقالوه، لوجدت تقاطعاً بين كلامهم، وخاصة في مسألة الأصل والنسخة، فحين أموت، ويتحلّل جسدي، ويصير تراباً، ويختلط مع تراب الأرض، وتنبت عليه نبتة تمتصّ ترابي، ويأكلها شخص آخر، ويصير تراب جسدي متداخلاً مع كيان جسده، ويموت، ويتحلّل لتراب، فهذا التراب صار لكلينا، وسمّوا قديماً هذه الحالة بشبهة الآكل والمأكول.

ننتقل إلى كلام آخر متخطّين الكلام الأول انطلاقاً من فرضية بقاء تراب جسدي لوحده، فلو أعاد تعالى تكوينه فهل هو نسخة جديدة أم الأصل؟ فما الفرق بين إعادة تكويني كما كنت من تراب جسدي الذي تحلّل، وبين إعادة تكويني من تراب آخر؟

هكذا ترى أنه لا معنى للنسخة والأصل، ولا معنى للأصل لأننا مخلوقون مركّبون ولا أهمية للمادة التي تكوّنا منها، فإن خلقنا تعالى من مادة مختلفة ينتج عنها نفس الخصائص التي نتجت عن مادة الكالسيوم والكربون والهيدروجين... فما معنى الأصل والنسخة؟

هكذا ترى أن الكلام الفكري في موضوع إعادة خلقنا، ما هو إلا ترف فكري طالما لم ينتقل إلى التجربة الملموسة، ولا مانع من وضع الفرضيات والنظريات والتجربة... إنما المشكلة في الاعتقاد بأن الأجوبة التجريبية وآلية إعادة خلقنا شيء ديني وجوابه محصور في المصادر الدينية، في القرآن والأحاديث أو في كلام علماء الدين، وهذا هو الخطأ الذي لا يختلف في أساسه الفاسد عن موضوع الأفلاك "حركة كواكب المجموعة الشمسية" بحصرها في المصادر الدينية، ورفض أي كلام من خارجه كما فعلت الكنيسة قديماً.

فعل المسلمون ذلك بطرحهم لنظرية دينية لنشأة الحياة، رافضين أي نظرية أخرى ومعتبرين أنها كفر!

ضع هذا في بالك دائماً، وافتح الأفق للبحث فكرياً وتجريبياً في كل ما يخطر ببالك، فلا يوجد مواضيع دينية محرّم البحث فيها تجريبياً أو فكرياً، وعليك باعتماد القرآن كمرجع لك عن أخبار إلهية، تؤمن بها، وإن اعتقدت أنك فهمتها فانتبه، لأنها لا تتحدّث عن آليات حدوث الأشياء حتى ترفض أي كلام آخر. ويمكنك الاستفادة مما يقوله الإله سبحانه لتصوّب بعض أفكارك التجريبية، ولكن ننتبه دائماً أن قدراته تعالى فائقة ومختلفة عن قدراتنا، فإن شممت رائحة لآلية عمل إلهي ما من القرآن، فمن المحتمل ألا تتمكّن من اتباع تلك الآلية لتقليدها، ومن المحتمل أن تفيدك، وإذا توصلت إلى آلية لفعل نفس الشيء "بطريقة ما" فهذا سيكون رائعاً، ولكنها ستكون آلية محكومة بالقدرات التي منحها تعالى لك، فستتلاعب بخصائص المواد وتراكيبها، وتخترع مواد جديدة منها، ولكنك ستبقى محدود القدرات ومحدود الإمكانيات أمام إله لا تعجزه الوسائل وهو على كل شيء قدير.

لمزيد من التوسع حول حالة الموت والحياة وإعادة الحياة، راجع دراسة الآية 67 من سورة مريم {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا}.

(بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ{4})
{بَلَى}، نفي لجملة {أَلَّن نَّجْمَعَ}، بالتأكيد سنجمع عظامه، ليس لدينا أي مشكلة من أي نوع في ذلك، ونحن {قَادِرِينَ} على أن {نُسَوِّيَ}، على أن نصيّر على التمام، نخلقها بالتمام كاملة، {بَنَانَهُ}، والبنان وصف لعموم ما هو نافر، كطرف من الجسم، وغالب استعمال العرب لها للأصابع ولليد، ويناسب الكلام هنا عن خصوص كفّ يد الإنسان وأصابعه التي كان يستعملها كثيراً في شؤون حياته، وأثناء استعماله لها لم ينتبه إلى الإله العظيم الذي بناها له بهذه الدقة الرائعة.

هم كانوا يسألون عن عموم عظام الجسد الذي تحلّل، فأجابهم تعالى بأنه يستطيع إعادة تلك العظام، بل ويستطيع إعادة البنان كإشارة إلى حالتكم الآن وأنتم أحياء فالذي خلق بنانكم التي تستعملونها ألا يمكنه إعادة خلقها مرة ثانية؟

بعضهم استخرج من الآية قصدها أنه سبحانه سيعيد بصمات الأصابع أيضاً، ولكن لم يستعمل العرب كلمة بنان للإشارة إلى بصمة الإصبع، والكلمة العربية المستعملة لطرف الإصبع هي الأنملة.

(بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ{5})
بل يريد {الْإِنسَانُ}، الذي يناقش في إمكانية أو استحالة إعادة إحياء الموتى، يريد من إنكاره للآخرة، {لِيَفْجُرَ}، ليقوم بارتكاب أمور قوية، فيرتكب الفجور فيقوم بأكبر أعمال السوء ولا يهمّه أي شيء ليردعه عنها، {أَمَامَهُ}، فيما هو بين يديه فهو يعلم بفظاعة ما يفعله، فلا يريد أن يؤمن بعودتنا إلى الحياة لِنُحَاسَبَ وَنُجَازَى لأنه إذا أعلن إيمانه بها فمن المفروض أن يترك السيئات التي توعّد عليها تعالى بالحساب والعقاب، وهذا ما لا يريده...

ننتبه جيداً، فقبل قليل قرأنا إشارة للنفس اللوامة، وهنا ترى المقابل لها، وهي النفس التي تريد الفجور، وهما محور كلام السورة.

(يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ{6})
{يَسْأَلُ}، يعبّر الإنسان الذي يريد أن يفجر، ولذلك لا يريد أن يؤمن بعودتنا بعد الموت، يعبّر "بسخرية واستهزاء" عن إرادته للحصول على جواب، فيقول: {أَيَّانَ}، متى وفي أي زمن، {يَوْمُ الْقِيَامَةِ}؟ فالزمن الذي نقوم فيه من الموت متى سيحصل؟ بعد سنة أو بعد عشر سنين أو بعد ألف سنة...؟ متى زمانه؟

لماذا سأتوقّف عن فعل ما تسمونه فجور سوء، وأنا أريد فعله وأرغب به؟ أتقولون بأننا سنرجع إلى الحياة بعد الموت لِنُحَاسَبَ وَنُجَازَى! فمتى ذلك؟ لست أراه سيحصل، وما أراه أننا نموت ونبلى وينتهي كلّ شيء، فلا داعي لأترك ما تسمونه حراماً لأني لن أعود إلى الحياة لِأُحَاسَبَ وَأُجَازَى عليه.

ننتبه دائماً أن الناس عادة تنظر إلى الزمن الذي تعيش فيه على أنه أهمّ زمن، لأنهم هم موجودون فيه، فالزمن الذي مرّ قبلهم هو مجرد تاريخ وأخبار عن أشياء حصلت ولم تعد مهمّة، والمهمّ بالنسبة لهم هو ما يحصل الآن، والزمن الذي سيأتي بعدهم لن يكونوا فيه، فلتخرب الدنيا من بعدهم وهذا عموماً لا يهمّهم، والأهمّ هو ما يحصل الآن وهم موجودون فيه أثناء حياتهم، فيريد الكافرون رؤية يوم القيامة الآن، فلا تحدّثهم عن شيء سيحدث ولا يعرفون تاريخ حدوثه، أو عن شيء سيحدث بعدما يموتون، لأن هذا تهديد بشيء لا قيمة له بالنسبة لهم.

تلاحظ في عموم القرآن جوابه عن هذا السؤال بطريقة مختلفة عمّا تتوقّعه، حتى أنت كمؤمن لديك الفضول لتعرف زمن يوم القيامة، ولكن سواء أكان يوم القيامة غداً، أو بعد مليون أو مليارات السنين فما الفرق بالنسبة لنا؟ نحن سنكون أمواتاً فاقدين للوعي، حتى لو مرّ علينا مليارات السنين، فبماذا سنشعر بعد أن نستيقظ؟ بالتأكيد لن نشعر بالزمن الذي مرّ علينا، سنشعر كأننا نمنا وغفت عيننا مدة قصيرة من الوقت. هذا ما كرّره القرآن مراراً واصفاً حالة الكافرين حين استعادوا وعيهم في الآخرة، وخذ مثل ما ورد في الآية 113 من سورة المؤمنون {قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ}. إذن فما الفرق بالنسبة لنا إن كان يوم القيامة غداً أو بعد مليار سنة؟ لا فرق.

هناك شيء آخر، فما معنى تحديد زمن ليوم القيامة بالسنين والأيام إن كانت السماوات والأرض ستمرّ في فترة تبدّل، فما معنى الزمن حينها؟ ولو فرضنا أنك قمت بتقريب زمن لحياة الكون ودمار مجرتنا وكوكبنا... وفرضنا أن تقديراتك مبنية على معلومات علمية صحيحة، فهل تظن أنك ستعلم زمن يوم القيامة؟ لا، فبالتقريب قمت بمعرفة زمن خراب سمائنا، وليس زمن قيامنا من الموت الذي سيحصل بعد فترة من إعادة تشكيل السماوات والأرض من جديد بشكل غير الشكل القديم، وهذا ما تقوله الآية 48 من سورة إبراهيم {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}.

كما تفهم من ثنايا آيات القرآن فحتى الملائكة(ع) لديهم تقديرات لزمن يوم القيامة، وهي أقرب من تقديراتنا، ولكنها أيضاً ليست دقيقة... فتقديراتنا وتقديرات الملائكة تصفها الآية 15 من سورة طه {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى}. وهكذا فهمنا من القرآن أنه تعالى لن يعطينا وقتاً ليوم القيامة، فهذا مستحيل علينا فهمه، وأخبرنا سبحانه عن زمن وقوعها بذكر الظواهر التي ستحصل قبلها:

(فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ{7})
فإذا {بَرِقَ}، والبرق هو عموم أي ضوء قوي لامع سريع خاطف غير مستمر، ويتدرج من أعلى درجات السرعة كبرق الغمام إلى المتقطع غير الثابت كبرق الثياب البراقة، وسياق الكلام عن لمعة ضوء قوية غير مستمرة لـ {الْبَصَرُ}، للقدرة على فهم ووعي الصور، لحاسة رؤية الأشياء وللقدرة على فهم الصورة، فإذا تعرّض بصرنا لضوء قوي جداً وينتج عن ذلك عادة ما نسميه بحرق في شبكة العين بشكل مؤقّت ويمنعها من نقل الصور إلى وعينا وفهمنا.

لاحظ أن سور القرآن المختلفة تنقل لنا مشاهد مختلفة عن يوم القيامة وما يسبقه، فبحسب موضوع كل سورة وسياق فقرتها ستجد مشاهد مختلفة، وهنا الفقرة تريك ضعفك الشديد فلا حول لك ولا قوّة أمام ما سيحدث، فسؤال الفاجر عن

زمن يوم القيامة نابع من شعوره بالانفصال عن الإله عزّ وجلّ، فلا إله فوقه ليحاسبه ويجازيه، وهكذا سترى الآيات هنا تصف مشاهدَ ترينا ضعفنا وعجزنا أمام ما سيحدث.

في عموم الثقافة الشعبية للمتدينين نجد اعتقادهم بأن آخر ناس أحياء على الأرض سيرون يوم القيامة، وهذا نابع من التساهل في التعبير على أساس أن يوم القيامة في مفهومهم يبدأ من خراب الدنيا حين تتبدّل وتأتي الآخرة، وضمنها خراب الأرض وصولاً إلى قيامنا من الموت ومحاسبتنا، فيسمّون كل ذلك "تساهلاً" بيوم القيامة، وهذا كلام غير دقيق، فهناك أيام "مراحل" لتبدّل الدنيا، وهي نفسها بعد تبدّلها يصير اسمها الآخرة، وهناك فترة يموت فيها كل البشر بطريقة غير معلومة، وغير مذكورة في القرآن، فهل بنيزك يضرب كوكب الأرض، أم بانفجار الشمس، أو بحرب نووية أم بجرثومة تبيد البشر... فالاحتمالات مفتوحة، والأكيد فقط أن الكلّ سيموتون، وبعدها يبدأ تبدّل الدنيا، وخلال تشكّل الآخرة يأتي يوم نقوم به في اليوم، وهذا هو يوم القيامة من الموت، فنستعيد وعينا ونرى أنفسنا والآخرين نعود إلى الحياة، ونرى بعض ظواهر استكمال تبدّل الدنيا، ومنها ما تذكره الآيات هنا.

(وَخَسَفَ الْقَمَرُ {8})
صار القمر في السواد ولم نعد نراه، فالخسف هو عموم صيران شيء في شيء آخر يستره بأي طريقة كانت، فسواء حصل الخسف من الوقوع أو السحب أو السقوط... في أو داخل شيء، فانخسفت الأرض يعني سقوط بقعة من وجهها إلى تحت مستوى البقع الأخرى، وخسف القمر هو وقوعه وصيرانه في العتمة، وهذا تعبير تفهمه كلّ الناس عندما ترى هذه الظاهرة.

القليل من علماء الزمان القديم يعلمون أن خسوف القمر يعني أن الأرض صارت بين الشمس والقمر، فصار الثلاثة على خط واحد، ولكن عامّة الناس لم تكن تعلم ذلك، وكانوا يعبّرون في وصفهم لذاك المشهد بأنه خسوف، فهو وقوع للقمر في الظلّ، وعليك يا عزيزي أن تترك المعنى كما هو، فهو تعبير صحيح يعبّر عن وصفك للمشهد حتى لو لم تكن تعلم السبب من حصول ذلك، فلا تفترض أن خسوف القمر فقط ينتج عن وقوع الأرض بينه وبين الشمس، فانطفاء نور الشمس أيضاً يسبب خسوفاً للقمر، فيصير القمر في السواد.

لا تفسّر الآية هنا "ولا أي آية من القرآن" حصراً على معان علمية من معطيات علومنا الحالية، فهذا خطأ توارثناه وصار متجذراً فينا ونستصعب الخروج منه، وحتى رغم معرفتي بخطأ التفسير المبني على مقارنة المعلومات القرآنية بالعلوم الأكاديمية، فإني أقع فيه ولا أنتبه، وهنا مثال واضح عمّا أريدك الانتباه منه، فالواقف على الأرض الجاهل بالسبب لظاهرة الخسوف، فهذا يمكنه وصف المشهد كما يراه، ويصفه الناس الناطقون باللغة العربية بأنه خسوف، وهو يعني صيران القمر في العتمة، وهكذا نقلها القرآن كما هي وكما يراها ويفهمها أي إنسان حتى لو لم يعلم سبب الخسوف.

(وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ {9})
بعدها سيحصل اجتماع الشمس مع القمر.

قد نتصور فلتان القمر من مدار الأرض وذهابه باتجاه الشمس ليجتمع بها، أو نتصور الأرض مع القمر يذهبان باتجاه الشمس، أو نتصور الشمس توسّعت فصارت نجماً غازياً عملاقاً وحوت القمر والأرض، أو نتصوّر اصطدام مجرتنا بمجرة ثانية فيتعرض نظامنا الشمسي لقوة جاذبية عالية تسحبه كله مع بعض فتتشوّه نظامه الحالي... أو نتصور أن الشمس والقمر صارا بالنسبة لمن يراهما من الأرض مجتمعين يسيران معاً حتى لو لم يقتربا من بعضهما، وهذا أقرب شيء إلى فهمي.

على أي حال، الآية بسيطة، فهي تقول إنّ الشمس والقمر سيجتمعان مع بعض، فستراهما مع بعض، أمّا كيف؟ فلم تقل، فالمهمّ أنها حالة فوق قدرتنا على التعامل معها، فهي حالة من مستوى تغيرات في الشمس والقمر الخارِجَيْنِ عن قدرتنا على التحكّم بهما.

(يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ {10})
حصل تبدّل الدنيا وصرنا في الآخرة، وجاء يوم قيامتنا من الموت...

يقول {الْإِنسَانُ}، فيقول الغالب الأعم من الناس: أين المفرّ؟ يسأل عن الطريقة أو الطريق أو... للابتعاد عمّا هو فيه، فهل هناك مكان لنهرب إليه أو هناك وسيلة للخلاص؟

صاروا وجهاً لوجه مع تحقّق تبدّل السماوات والأرض، وصاروا في يوم القيامة فأين سيذهبون؟

جمع تعالى عظامه وأعاده إلى الحياة، وسيتحاسب ويتجازى على فجوره... وأمّا الذي كان لوّاماً فهذا لن يسأل عن المفرّ لأنه تجهّز لهذا اليوم.

(كَلَّا لَا وَزَرَ {11})
{كَلَّا}، لا يوجد مفرّ بل لا يوجد {وَزَرَ}، لا يوجد من يؤازره، من يساعده في مصيبته، فحتماً كل واحد منكم سيتحاسب على أعماله التي قام بها.

الوزر وصف لعموم الأشياء "المعنوية والمادية" القابلة للحمل ولكنها ثقيلة، وكلمة وزير كوصف لمساعد الحاكم أو الرئيس أو الملك، فالوصف ينطلق من أساس هذا المعنى، فالوزير يحمل من أعباء وظائف الحكومة بدل أن يكون كل الثقل والحمل على الرئيس، فهو وزير فهو مساعد على حمل الوزر، وهنا الكلام في الآية عن فقدان الفاجر لأي مساعدة من أي كان في الآخرة.

(إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ {12})
{إِلَى رَبِّكَ}، إلى المسؤول عنك من مستوى إلهي، {الْمُسْتَقَرُّ}، الثبات من بعد رحلة الحياة الدنيا، فمن بعد القيام من الموت فسيكون استقرارنا وثباتنا من بعد تلك الرحلة إليه تعالى، فلن نختفي ولن ننمحي ولن نذهب إلى مكان خارج سلطته تعالى...

كلمة ربّ تقال لعامة من لديه مسؤولية عناية بالآخرين، كربّ البيت كوصف للأب، وربّة المنزل كوصف للأم، وربّ العمل... فعلى مستوى كل واحد ومسؤلياته يكون الوصف، وبالنسبة له تعالى فهو ربّ من مستوى إلهي.

(يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ {13})
{يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ}، هناك نبأ، فيوجد خبر غير منتشر علمه، فربما نسيناه أو أصلا لم نعلم به أو علمنا به بشكل عامّ، أو يعلم به البعض والآخرون لا يعلمونه... فيومئذ في يوم القيامة يتم إخبار الكافر، {بِمَا قَدَّمَ}، بالذي قدّمه لآخرته، كما نقول قدّم لي الطعام، فكل عمل نقوم به فهو تقدمة لأنفسنا، فإن كان عمل خير فقد قدّمنا لأنفسنا الحسنات، وإن كان عمل شرّ فقد قدّمنا لأنفسنا السيئات، ويصير أيضا عنده خبر بما {أَخَّرَ}، فإذا قدّم الفعل الحسن فقد أخّر الفعل السيّء، وبالعكس فإن قدّم الفعل السيّء فقد أخّر الفعل الحسن.

بعبارة أخرى الآية تنطبق على من قدّم السيئات فكانت كثيرة وأخّر الحسنات فكانت قليلة، وتنطبق على من قدّم الحسنات وأخّر السيئات فلم يكن من عادته القيام بها، ولكن سياق الآيات هنا يركّز على المجرمين.

تعلم من العديد من الآيات أنه سيتم توزيع كتب مذكور فيها ما عملناه في حياتنا، راجع كمثال الآية 7 من سورة الانشقاق وما بعدها {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ}... والمشهور تسميته بكتاب الأعمال، ومما في ذلك الكتاب يصير عند كل واحد منّا خبر بما قدّمه لنفسه وبما أخّره ولم يفعله، وتسمّى هذه المعلومة بالنبأ لأننا لا نتذكر كل ما فعلناه.

لاحظ أننا الآن مهما جهدنا على إحصاء ما قمنا به من أعمال من أول وعينا، سننسى الكثير الكثير منها، حتى أننا لو شاهدناها مصورة على الفيديو أو بالصور فسنستغربها ونستغرب وجودنا في تلك الصور لأننا نسيناها تماماً... وهنا الآية تحدّثنا عن يوم القيامة حيث سيصير عندنا خبر بكل شيء، وليس فقط بالأمور التي نتذكّرها وفعلناها في آخر

حياتنا، بل كل شيء فعلناه فسنراه في كتاب أعمالنا، وكل ما تركنا فعله أيضاً سنراه، فسنرى ما أخّرناه، فسنرى ترك الأمور التي أمرنا تعالى بفعلها ولم نفعلها، وسنرى سيئات تركنا فعلها...

لاحظ تعبير الآية بـ {الْإِنسَانُ} حيث تقصد الغالب الأعم من الناس سيتم إخبارهم بما فعلوا، وليس الكلّ، فهناك أناس أخبرنا القرآن أنهم يتم التكفير عن ذنوبهم، فحتى لو تذكّروها فإنهم لا يجدوها مسجلة في كتاب أعمالهم، والذين حولهم من الناس ومن الملائكة(ع) قد نسوا تلك الحادثة أو أخفاها تعالى عنهم... راجع كمثال الآية 2 من سورة محمّد {وَالَّذِينَ آمَنُوا...كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ}، فليس كل الناس ينبّئهم تعالى بما قدّموا وأخّروا، ولذلك استعملت الآية تعبير {الْإِنسَانُ} الذي تقريباً يرادف معنى: الغالب الأعم من الناس.

(بَلِ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ{14})
الغالب الأعم من الناس يتحاسبون على أعمالهم السيئة، وكل واحد منهم {عَلَى نَفْسِهِ}، على شخصه، على حاله، {بَصِيرَةٌ}، يفهم ويعي ما فعله، فلديه دراية تفصيلية عن نفسه، فهو ليس بحاجة حتى نخبره بأنه كان سيئاً، فهو يعلم بأنه ارتكب السيئات وترك الصالحات... ومع الآية التالية سنفهم أكثر.

هنا في الدنيا قد تخوننا الذاكرة ونرى أنفسنا في مقطع مصوّر قد نسينا حادثته، ونسينا الذين كانوا معنا فيه... أمّا في الآخرة فسيتذكّر الكافر كل ما فعله حين يقرؤه في كتاب أعماله، وسيتذكّر أن هذه هي نفسيته السيئة التي بسبب فعل السيئات... وهذا ما تقصده الآية هنا بأنه بصير بنفسه.

ننتبه جيداً، فاستعمال الآية لكلمة "نفس" هو ذاته "بنفس" المعنى لكل كلمة "نفس" ومشتقاتها في كل القرآن، أقول لك هذا لتنتبه مما هو دارج في عموم ثقافتنا الدينية عن كلمة نفس بمعنى يشير لكونها شيء غير جسدنا، فهذا اصطلاح لا يحقّ لنا تفسير كلام القرآن على أساسه، ولا أقصد أننا لا يحق لنا وضع مصطلحات لبعض الكلمات، ولكن ننتبه لفصلها عن معناها اللغوي حين نفسّر القرآن، ومثل كلمة "نفس" فلدينا كلمة روح ونجاسة وطهارة... وظنّ وشكّ... فقد وقع الكثيرون في الخلط بين معناها الاصطلاحي وبين معناها اللغوي، وهذا يؤدي إلى تفاسير غير صحيحة لكلامه تعالى.

(وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ{15})
{وَلَوْ أَلْقَى}، حتى لو طرح شيئاً ليتلقاه الذي يقابله، {مَعَاذِيرَهُ}، أعذاره، فحتى لا يتحاسب ولا يتجازي يقوم بقول الأسباب التي دفعته لإنكار الآخرة ومخالفة الأوامر الإلهية، فيبرّر لفعله للسيئات وتركه للصالحات، فلو قال: يا ربّ لم أقصد ولم أنتبه ولم أظن أن الموضوع جدّي ومهمّ، وكنت تحت ضغط شهواتي ورغباتي وأصدقائي وأهلي ومجتمعي... فهذه الأعذار لن تفيده بأي شيء، فسيتحاسب وينال عقابه، وهو يعلم ببصيرته بنفسه أنه فعل السيئات برغبة منه.

أخبرنا القرآن مراراً وتكراراً أنه في يوم القيامة نتحاسب فقط ولا مجال لأي شيء آخر، لا للاعتذار ولا لطلب فرصة ثانية...

تذكّر دائماً أن الكافر لا نجاة له من العقاب في يوم القيامة، ولا حلّ له ولا بأي شكل، وهناك سور فصّلت في مختلف الأفكار التي قد تخطر على البال للنجاة من العقاب لمن كفر، وتنبّهنا أنها مجرد تخيّلات، فسبحانه رحمان ولكن ليس لمن عصاه ومات على حالة العصيان، فهذا بإرادته اختار الخروج من تحت مظلة الرحمة الإلهية، وسبحانه غفور ولكن لمن تاب واستغفر هنا في الدنيا وآمن وعمل صالحاً هنا، وسبحانه أعطانا هذه الفرصة هنا في الدنيا ولا فرصة غيرها، فلا رجوع من الآخرة إلى الدنيا، وسبحانه سيحشرنا جميعاً ولن ينسى أحداً، والنار فيها ملائكة متوكّلة بتعذيب من فيها ولن ينسوا أي أحد من التعذيب...

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ{16})
من تكملة الآيات سترى أن الفقرة هنا تتحدّث عن نزول الوحي على النبي محمّد(ع)، وفي مرّة من مرّات نزول الوحي على النبي محمد(ع) حرّك(ع) لسانه أثناء نزول الوحي وقبل انتهاء نزول الآيات عليه، ليردّد بلسانه الآيات التي تتنزل، وربما حصل معه ذلك أثناء نزول هذه السورة، فأتت الآية هنا لتخبره وتخبرنا أن:

{لَا تُحَرِّكْ بِهِ}، بالقرآن، {لِسَانَكَ}، أثناء نزول الوحي عليك، {لِتَعْجَلَ بِهِ}، لتحصل عليه قبل أوانه، فالوحي لا يزال ينزل ولم ينتهِ وأنت تقوم بتحريك لسانك بما نزل عليك قبل أن ينتهي، وهذا استعجال. والآيات هنا مشابهة في المعنى تماماً لما ورد في الآية 114 من سورة طه {وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ}.

نتذكّر أن القرآن كان ينزل وحياً منه تعالى عبر ملائكته(ع) على رسوله(ع)، حيث تقوم الملائكة(ع) بتوصيل المعلومات وحياً، وتوصله بدون كلام إلى الرسول(ع)، وتجعل الملائكة(ع) الكلمات مباشرة في وعي الرسول(ع)، وكما ترى قام الرسول(ع) بتحريك لسانه بالكلمات التي لا تزال تنزل عليه، وكان يقولها مباشرة وقبل انتهاء كامل وصول المعلومات، لنقل إنّ أول آية من سورة ما وصلت على وعيه(ع)، وأثناء نزول الآية الثانية قام الرسول(ع) بالتلفّظ بالآية الأولى... أو لنقل إنّ الكلمة تصل إلى وعيه ويلفظها أثناء وصول الكلمة الثانية...

الآيات تقول للنبي(ع) أن ينتظر حتى انتهاء الملائكة(ع) تماماً من نقل المعلومات إلى وعيه، ومن بعدها يمكنه التلفّظ بها، وتقصد الآيات إخبارنا أنّ كل كلمة ينقلها الرسول(ع) لنا من القرآن فهي بالتمام مطابقة للوحي الذي نزل عليه، فهو وحده سبحانه وتعالى حدّد كلمات القرآن الكريم وليس للنبي محمد(ع) أي تدخّل.

سترى من الآيات التالية أن النبي(ع) كان يريد التأكّد من حفظه في ذاكرته للوحي الذي ينزل عليه، ويخاف من نسيان الكلمات، وتعلم من فقرتنا هنا ومن عموم القرآن أنه سبحانه ضمن لنا وصول القرآن إلينا من الرسول(ع) بالتمام، فلن يخطئ الرسول ولو بحرف لأنه تعالى سيثبّت القرآن في ذاكرته، وهذا ما قالته صراحة الآية 6 من سورة الأعلى {سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى}.

ما درج بين الناس من بعد وفاة الرسول(ع) من تعدّد للقراءات نسبوها للرسول(ع) فهو تخريف، حيث تجد روايات عن أشخاص من الجيل الأول من المسلمين الذين صحبوا الرسول(ع) يقولون فيها: سمعت رسول الله(ع) يقرؤها هكذا... ويقرأ آية من القرآن بشكل مخالف لبقية الناس... وتجد روايات أخرى مشابهة يقولون: أقرأنيها رسول الله(ع) هكذا... سمعته (ع) في الصلاة يقولها هكذا... على المنبر قالها هكذا... ويقرأ الراوي الآية بشكل مخالف لبقية الناس ناسباً القراءة للرسول(ع)...

بدل أن يقولوا عن ذاك الصحابي أنه سها أو نسي أو اشتبه عليه أو لم يسمع بشكل جيد... أو كبر في العمر وخرف عقله... للأسف قاموا بتقديس الصحابة واعتبروهم معصومين، ونسبوا القراءة للرسول(ع)! وصار شائعاً فيما بعد بين الناس أن الرسول قرأ القرآن بكلمات مختلفة...

هم لو حكّموا عقولهم لوجدوا أن تلك الروايات أصلاً جاءت بسبب اعتراض هذا الصحابي أو ذاك على ما سمعه من الآخرين، وتفلسف ليصحّح للناس قراءتهم وقال إنه سمع الرسول(ع) يقولها بشكل مختلف، يعني هي الروايات التي اعتمدوا عليها ليقولوا إنّ الصحابي لا يكذب، وفعلاً قرأ الرسول(ع) بكلمات مختلفة، فهي نفسها الروايات كانت اعتراضاً من الصحابي على ما سمعه، فلماذا أصلاً سيعترض ويصحّح للآخرين إن كان يعتقد بأن الرسول(ع) قرأ بكلمات مختلفة؟!

يعني أصلاً لم يكن بين الجيل الأول من المسلمين توافق على تعدّد القراءات للقرآن نقلاً عن الرسول(ع)، وكانوا يعترضون على قراءة سمعوها من الآخرين ويستشهدون بما سمعوه هم أنفسهم من الرسول(ع) على أساس أن ما يسمعونه من الناس غير صحيح لأنه مخالف لما قاله الرسول(ع)! وما اخترعه المسلمون فيما بعد من تعدّد القراءات ونسبتها للرسول(ع) اعتماداً على تلك الروايات، فهو المفارقة بحدّ عينها، لأن تلك روايات قصد قائلها تصحيح ما سمعه بناءً على ما قال الرسول(ع) لتكون القراءة واحدة!

لأختصر عليك الكلام في هذا الموضوع الذي تكرر عدة مرات في دراستنا هذه، عامة المسلمين كانوا يقرؤون بالضبط كما قرأ الرسول(ع) قراءة واحدة، ولسبب أو لآخر شذّ بعض الأحيان القليل النادر منهم في بعض الكلمات واشتبه عليه المعنى أو اللفظ أو السماع، أو نسي أو سها... وقرأها بشكل مخالف للبقية، وفي مرات أخرى عاد هو نفسه وقرأ كالبقية! ولدينا روايات عنهم بذلك.

القراءة التي بين أيدينا المنقولة عن "حفص" ليست قراءة حفص في مقابل باقي القراءات، بل هي قراءة عامّة جمهور المسلمين من فم الرسول(ع) كما هي إلى آذان من حوله، وبعدها إلى الأجيال التالية... وهي لا تعتمد على القراءة عن المكتوب بل قراءة حفظ عن غيب "الببغاء بالمعنى الإيجابي" الضامنة لوصول الكلام الإلهي إلينا بلا تحريف ولا تلاعب ولا إبداء للرأي، وهي قراءة من احترم نفسه ودينه وإيمانه والتزم بلفظ الكلمات كما وصلته ونقلها للآخرين... أمّا بقية القراءات فهي غير صحيحة ولم يقلها الرسول(ع).

بأقل نظرة إلى قراءة المتأخرين من المسلمين من علماء اللغة العربية، سترى بشكل واضح جرأتهم على تصحيح كلام القرآن لأنهم رأوا معانيه وتصريفاته لا تتناسب مع معلوماتهم عن اللغة العربية، كابن أبي عبلة والكسائي... وغيّروا الكلمات! وسترى إجراماً في التطرف في الجرأة على كلامه تعالى في قراءات كاملة كقراءة ورش وغيره، الذين أجازوا لأنفسهم القراءة بلهجة مختلفة تماماً عن لهجة الرسول(ع) بدلاً من محاولة تطويع لسانهم للقراءة بلهجة الرسول! وبمراجعة التاريخ سترى بشكل واضح مرور فترة صار فيها التلاعب بكلمات القرآن وبطريقة لفظ كلماته، صار فنّاً يتميز به من اخترع لفظاً جديداً أو كلمة جديدة! وكلّ هذا غطّاه الأغلب الأعمّ من علماء المسلمين! وألّفوا فيه الكتب موافقين عليه وداعمين له! ووضعوا له التبريرات والتخريجات! ضاربين بعرض الحائط صراحة الآيات التي تقول بأن الرسول(ع) وبضمانة إلهية نقل لنا الوحي القرآني تماماً ومطابقاً للفظه (ع) للقرآن بلهجة قريش تماماً ودائماً بنفس الكلمات والألفاظ وبضمانة منه تعالى.

بقي شيء، فما علاقة هذه الفقرة بالسورة؟ سيبدو لك يا عزيزي شيئان، الأول أن الطبع الإنساني عجول، وحتى الرسول(ع) في بعض الأمور عجول، وهي صفة غير مناسبة في بعض الأحيان، وهنا غير مناسبة للرسول(ع) لأن الإله سبحانه ضمن له ولنا ألا ينسى (ع) ولا حرفاً من القرآن، وسترى أن الناكر للآخرة الذي تتحدّث معه السورة أيضاً عجول في شيء لا يناسبه الاستعجال، ورأيت أثناء كلامنا أن النقطة الثانية التي نراها في الفقرة تخبرنا أن ما بين أيدينا من قرآن معلومات منقولة بالضبط بالحرف من الوحي الإلهي، وخبرها عن الآخرة ليس فيه أي تدخّل للنبي محمّد(ع) ولو بحرف واحد.

(إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ{17})
{إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ}، يتكفّل سبحانه بجمع الوحي النازل عليك، وكما تعلم من القرآن أنه هو القرآن ذات نفسه معلومات منتقاة من كتاب أساسي عنده تعالى، ويتم تفصيل تلك المعلومات كما ورد في العديد من الآيات منها ما ورد في الآية 114 من سورة الأنعام {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا}، فجمعه عليه تعالى، فهو سبحانه يختار المعلومات التي ستنزل كمجموعة، وإن عليه تعالى {قُرْآنَهُ}، وتحويله لشكل مقروء أيضاً تكفّل به سبحانه وتعالى.

تذكّر دائماً أن كلمة قرآن تعني: الشيء الذي يمكن قراءته، أي شيء، حتى ما نكتبه نحن وما نقوله للآخرين ينطبق عليه لغوياً وصف القرآن، والسورة قرآن، والآية الواحدة قرآن... ولكن كلمة قرآن صارت مع مرور الزمن مصطلحاً عند المسلمين لخصوص كل ما نزل على النبي محمّد(ع) من وحي من الكتاب الإلهي، وأول ما يتبادر لذهننا أن كلمة قرآن تعني: كل ما في هذا الكتاب من أوّله لآخره. ونقول: قرآن فيه سور وفيها آيات. وهذا صحيح ولكن أصل الكلمة ينطبق حتى على السورة الواحدة وعلى الآية الواحدة، فهي مقروءة فهي قرآن.

بالنسبة لما نزل منه تعالى على رسله وحياً، يتم تحويل المعلومات إلى اللغة التي يفهمها الرسول، وتنزل المعلومات على وعيه(ع) مع لفظها، وهنا تخبرنا الآية أن المعلومات تصل لوعي الرسول محمّد(ع) وتحويلها لكلمات أيضاً متضمّن فيما نزل، فسبحانه وتعالى يختار المعلومات والكلمات المعبّرة عنها، ثم يأمر ملائكة(ع) بتوصيلها وحياً إلى وعي الرسول(ع).

بعبارة أخرى، صياغة كلمات القرآن إلهية، ولم يكن الوحي ينزل بالمعاني على وعي الرسول على أساس أن يحوّل الرسول المعاني إلى كلمات، لا.

تصوّرها مثل نقلك لكلمات شخص ما بالمعنى، فلا تنقل حرفياً ما قاله ولكن تنقل معنى ما قاله، والآيات هنا تخبرنا أن هذا لم يحصل مع الرسول محمّد(ع)، بل القراءة للمعاني التي نزلت على وعيه(ع) أيضاً هي منه تعالى. مرة ثانية أكرر لك بعبارة مباشرة وصريحة: لم ينزل القرآن بالمعنى على وعي الرسول(ع) بل وصله ككلمات قالها سبحانه.

فلا داعي لتحريك لسانك أيها الرسول بالقرآن لأن الكلمات أيضاً من اختياره تعالى وسوف تصير في وعيك وتثبت في ذاكرتك. كررت لك لأن بعض الشاطحين فيما يسمّونه بحالة الرقي الروحي وانكشاف الحقائق لهم، من عرفاء ومتصوفين، تفهم من كلامهم أن شخص النبي محمّد(ع) له علاقة بما نزل عليه من قرآن، فيقولون إنه (ع) مرآة انعكس عليها ما انكشف له(ع) من الحقائق... ومن ضمنها المعلومات التي بشكل ما هو (ع) صاغها مقروءة... وهذا كلام بدون أصل قرآني له، بل مخالف لصريح القرآن، وهو مجرد ترف فكري تخيّلي يدّعون أن من فهمه يحتاج لإيمان عالٍ!

الآن صار يبدو لك واضحاً من معاني كلمات الآيات، أن لفظ الوحي القرآني نقله الرسول(ع) بالضبط كما نزل عليه، ولم يتدخّل (ع) به ولم يغيّره، وبضمانة إلهية ثبت في ذاكرته، وما تجده منتشراً في عموم كتب المسلمين عن القراءات المختلفة ونسبتها للرسول(ع) هو هرطقة واستهتار وسخافة وزخرف... ويعبّر عن قلّة دين بل عن انعدامه في البعض منهم، فما الوصف لمن تلاعب بكلمة من القرآن وهو يعلم أنه هو نفسه اخترعها! ومهما كان عذره فأقل وصف يناسبه أنه كذّاب مستهتر.

(فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ{18})
إذا قرأناه، فصارت المعلومات في وعيك وذاكرتك مقروءة بلغتك، {فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ}، فكن على قراءته، فاقرأه كما وصلك بالضبط.

ترى هنا تصريحاً قرآنياً آخر ينفي صدور قراءات متعددة من الرسول(ع)، فالكلام صريح جداً جداً عن القراءة بلفظ واحد حدّده الإله سبحانه.

(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ{19})
يتكفّل سبحانه ببيان القرآن، فيجعله جاهزاً للفهم وواضحاً لمن يمكنه فهمه.

عملياً هذا يشير إلى منع الرسول محمّد(ع) من تغيّر أي شيء من القرآن، ففرضا فرضاً خطر في باله(ع) تسهيل تعبير قرآني ما ليكون أبين "أوضح"، فيخبره تعالى ويخبرنا أن مستوى البيان القرآني يحدّده تعالى، فاختيار الكلمات واختيار تركيب الجمل للكلام الإلهي، لا رأي فيه ولا تدخّل لأحد غيره تعالى، وما ينتج عن ذلك من بيان سهل لبعض الآيات، أو بيان وسطي بحاجة لتأمّل، أو بيان بحاجة لدراسة وتمعّن لفهمه، فقد تقصدّ سبحانه أن يكون بيان القرآن بهذه الحالات.

تذكّر دائماً أن القرآن لم يستعمل كلمة "واضح وضوح..."، واستعمل "بيّن مبين بيان..."، وهما "واضح وبيّن" حاليا في استعمالنا مترادفتان، ولكنهما في الأصل قريبتان في المعنى، فالتوضيح يتضمّن معنى فهمك لما صار واضحاً، أمّا البيان فهو جعل الشيء فيه مواصفات كاملة ليكون مفهوماً واضحاً، وكما تعلم فإنّ بعض القرآن ليس واضحاً من دون تأمّل ودراسة، فهو كتاب من مستوى إلهي للبشر، ومن المفروض أن يكون مستواه أعلى من مستوى كتب البشر، ومن المفروض أن يكون أسلوبه مختلفاً عن كتب البشر، وبالتالي فلن يكون واضحاً سهلاً وبسيطاً ككتب الأطفال، ولهذا السبب توجد له شروحات وعليه دراسات. وفي نفس الوقت ليس مبهماً وليس معقّداً لدرجة الصعوبة، وأيضاً ليس سهلاً لدرجة البساطة، فلو كان بسيطاً جداً ككلامي وكلامك، وكنت عاقلاً وفهمك سليماً، "مثقّف بشكل ما أو عندك خلفية ثقافية أو قدرات فكرية مقبولة..." فلن تقتنع أن الإله سبحانه وتعالى ألّفه ببساطة كلام الأطفال، ولذلك جعله الإله سبحانه بهذا الشكل الذي تراه، بين الصعوبة والسهولة ولكنه بيّن فيصير واضحاً لمن درسه بقلب سليم.

بعبارة أبسط، بما أن القرآن نزل باللغة العربية فيكون البيان بجعل كلماته وجُمله بالعربية الفصيحة الصحيحة بدقّة لغوية من مستوى إلهي "قوّمت لنا لغتنا العربية"، ومعانيه صحيحة بجمل دقيقة المعنى، أمّا فهمه فالكثير من آياته مفهومة بالقراءة المتأنية لمتوسطي الثقافة، والبعض من آياته بحاجة لتمعّن، وبعضها بحاجة لدراسة، وقد مرّ في القرآن

مراراً كلام عن ضرورة دراسة الكتاب الإلهي منها ما ورد في الآية 44 من سورة سبأ {وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ}، ومن بعد الدراسة يتبين لنا معناه، فهو مبين بهذا المعنى.

(كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ{20})
الفقرة السابقة أشارت إلى طبيعة الاستعجال عند عموم البشر، وكانت مناسبة الكلام عن هذه الصفة الإنسانية ربطها بالمعلومات التي في هذا القرآن عن يوم القيامة والتي ينكرها بعض الناس ويسألون مستعجلين عن موعدها، وهي معلومات من كلامه تعالى بالضبط وبالحرف رغم انجرار الرسول(ع) إلى الاستعجال في تلفظه لكلمات القرآن قبل انتهاء الوحي من التلقين، لأن الطبيعة الإنسانية تدفعه لذلك، ومن تلك الفقرة علمنا بالضمانة الإلهية لوصول القرآن بالحرف منه تعالى إلينا.

{كَلَّا}، إنكار الإنسان للآخرة غير صحيح، {بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ}، فهذا هو السبب لإنكاركم للآخرة، وسياق الكلام أنكم تريدون الحصول على ما ترغبون به قبل أوانه، فقد وعدكم سبحانه بالسعادة الخالدة في الآخرة وأنتم تريدون الحصول عليها الآن في الدنيا، وترفضون انتظار الآخرة.

الإيمان بالآخرة يعني الإيمان بالحساب والجزاء على مخالفة أوامره تعالى، وبالتالي فمن آمن بالآخرة سيمتنع هنا في الدنيا عن السيئات حتى لو رغب بها ويفعل الصالحات حتى لو لم يرغب بها في مقابل وعده تعالى بالحصول على جنّة في الآخرة، وهؤلاء لا يريدون الانتظار حتى الآخرة ليحصلوا على السعادة، فهم بطبعهم يحبّون الاستعجال، ولذلك أنكروا الآخرة.

أطلت عليك الكلام وكرّرت ليكون نموذجاً لك عن التفسير بمعاني الكلمات مقابل التفسير بالاستنساب الموجود في بعض الكتب، فستجد في تلك الكتب أن الدنيا هي بنفسها العاجلة، فاسمها ووصفها العاجلة، وبناء عليه صار التفسير مختلفاً عما تريد الآية قوله.

(وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ{21})
{وَتَذَرُونَ}، تتركون ولا تهتمّون بـ {الْآخِرَةَ}، الحياة التي ستأتي في الآخر، الحياة الثانية التي بعد الحياة الدنيا الأولى، وهي التي تبدأ بعد إعادة إحيائنا في يوم القيامة وتستمر إلى الأبد.

ماذا سيحصل في الآخرة:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ{22})
{وُجُوهٌ} محددة، وليس كل وجوه البشر، فمعلوم أن الكلام فقط عن وجوه المؤمنين، وهي التي فيها العينان والأنف والفم... {يَوْمَئِذٍ}، في يوم القيامة من الموت وما بعده، {نَّاضِرَةٌ}، تعبّر عن حالة الراحة والسعادة الجسدية والنفسية، فهي متوردة ومشرقة وفرحة ومسرورة. لأنها مرتاحة ولا تتعرض لأي نوع من المضايقة أثناء الحساب، وترى أمامها الجنة التي ستدخلها.

(إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ{23})
{إِلَى رَبِّهَا}، إلى المسؤول عنها من مستوى إلهي، {نَاظِرَةٌ}، توجّه اهتمامها العام إليه عزّ وجلّ، وعمليا هم يوجهون اهتمامهم العام إلى رحمته وفضله سبحانه، فلا تنظر وجوههم لأي شيء آخر. وتفهمها بمقارنتها مع الآيات التي تتحدّث عن الكفّار الذي لم يبنوا مع ربّهم سبحانه أي علاقة طيبة، وفي الآخرة هم يعلمون أنه تعالى لن ينظر إليهم ليغفر لهم أو ليعطيهم حسنات... وتقول لهم الملائكة(ع) أن ينظروا إلى ما عملوه وما عبدوه وإلى ما اعتمدوا عليه في الدنيا، ولن ينفعهم ذلك...

نتذكّر دائماً أن كلمة "نظر" ليست مخصصة للعين، وبمراجعة لهذه الآيات: الآية 50 من سورة النساء {انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا} - حين يزكون أنفسهم -، والآية 75 من سورة المائدة {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}.

والآيات 24، 46 من سورة الأنعام. والآية 15 من سورة الحجّ. ومن سورة النمل 28 ، 33 ، 41 . ومن سورة القصص الآية 40. والعنكبوت 20. والصافات 102. والحشر 18. والمدثر 21. فستجد بعضها بشكل واضح جداً جداً لا تقصد النظر بالعين، وهذا ليس فقط في استعمال القرآن لهذه الكلمة، بل العرب استعملوها هكذا، وأنت تستعملها هكذا، فتنظر في الموضوع، وتنظر فيما قيل لك... وهذه تعابير لا تشير لاستعمال عينيك فيها.

الحمد لله أنّ أكثرية علماء المسلمين فهموا هذا المعنى وربطوه مع مختلف الآيات التي تقول إنه سبحانه وتعالى لا يمكن رؤيته بالعين، وأنه تعالى ليس كمثله شيء، فترفّعوا عن الفهم الساذج الطفولي لرؤيته تعالى بالعين، ولكن للأسف سقطوا بغاليتهم الساحقة في فخ الرؤية القلبية، ففسّروها بإمكانية رؤيته عزّ وجلّ بالقلب، وهذا تعبير يقولون عن أنفسهم أو عن الآخرين من العرفاء والمتصوفة أنه يحصل معهم الآن هنا في الدنيا، ودعموه بروايات، ولكن ما معنى الرؤية بالقلب؟ فالانبهار بجماله وبرحمته سبحانه ما معناه؟

بالتدقيق في كلامهم ستجد معناها: الشعور القوي جداً به تعالى. وستجد أن الخلاف بينهم على معنى هذه الرؤية القلبية لا معنى له بعد أن ترجع لأساس ما يقصدونه، فلا المعتزلة ينفون هذا الشعور به تعالى، ولا المتصوفة والعرفاء يقولون برؤية شكل له عزّ وجلّ، فالرؤية القلبية عندهم تعني في أساسها المشترك بين المختلفين حول معناها: الشعور القوي به تعالى.

أمّا البسطاء الذين جعلوا له عزّ وجلّ جسماً ووجهاً ويداً ورجلاً وحمارا يركب عليه تعالى ويتنزّه بين الناس... فلا كلام معهم لأنهم جعلوا أنفسهم بسطحيتهم في مستوى أقل بكثير من القدرة على الحديث معهم وإقناعهم، فهم على مقياس ما ناقشت جاهلاً إلا وغلبني، وهؤلاء لا تجد بينهم شخصا محترما فكرياً وإيمانياً، وتجد في تاريخهم الكذب والاستهتار بدينه تعالى بشكل واضح فاضح.

الآن نسأل، فهل التعبير عن رؤيته تعالى بالقلب له تأيد قرآني؟ لا، فهذا اللفظ بحرفيته لم يرد في القرآن، ويمكن مراجعة الفرق الدقيق في التعابير بين القلب والفؤاد ومعنى الرؤية... في دراستنا هذه لتراجع في أي آية تخطر على بالك، كمثال راجع دراسة الآية 11 من سورة النجم {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى}.

بعبارة أبسط لمعنى النظر إليه تعالى، فالناس العابدون للمال والنار والكواكب وغير ذلك من الأرباب، هؤلاء لن "يروا" أي فائدة مما عبدوه، لأن تلك الأرباب لن تنفعهم بأي شيء في يوم القيامة، وأمّا المؤمنون بالله تعالى فإنهم "سيرون" أن الله سبحانه هو وحده له القدرة والسلطة والقوة في يوم القيامة، وسيرون ربهم سبحانه أنه هو الذي يجازيهم بما فعلوا في الدنيا، وبما أنَّ باقي الآلهة المزعومة ليس لها سلطة أو أصلا هي خيالية فلن نرى لها أي أثر أو تأثير.

الوجوه ناظرة إلى من يسيطر على كلّ شيء في يوم القيامة، إلى من أنعم عليها ونجّاها من النار وسيدخلها إلى الجنّة، فهي ناظرة إلى رحمته تعالى وإلى مغفرته، وإلى مضاعفة الحسنات، وإلى الخدم حولهم الذين خلقهم تعالى لخدمتهم...

(وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ{24})
{وَوُجُوهٌ} أخرى غير الوجوه الناضرة، {يَوْمَئِذٍ}، في يوم القيامة من الموت وما بعده، {بَاسِرَةٌ}، فعلى وجوههم "في منطقة الفم وما حولها" يوجد علامات وحركات تعبّر عن انزعاجهم، فشدقهم مرخي من الانزعاج، ومن الآية التالية تعلم أنها وجوه المنكرين للآخرة وعليها تعابير الخوف والندامة والقهر والألم... تجمعها تعبير حركة البسر على وجوههم.

(تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ{25})
{تَظُنُّ}، تلك الوجوه واستنادا لما تراه من حولها من شدّة التعامل معها بسوء، تظن أن يفعل بها {فَاقِرَةٌ}، أن يتم اقتلاع العيون من تلك الوجوه.

في عموم القواميس والتفاسير تجد تخصيصاً لكلمة فقأ بمعنى إزالة العين، وكلمة فقر لتكسير فقرات الظهر، وعليه فسّر بعضهم الفاقرة هنا بتكسير ظهور الكافرين، ولكن العامية العربية في مختلف البلدان تستعمل كلمة فقر العين، فقر فقأ الحبّة الملتهبة على الجلد... وسترى من مراجعتك للكتب "الفصيحة" أن استعمال كلمة فقأ يعني ترك الشيء مكانه

وإخراج شيء منه، فقأ الحبّة الملتهبة... وفقر هي استخراج الشيء بالكامل، قلعه من مكانه، ومن سياق الآيات هنا بكلامها السابق عن الوجوه سترى من الأنسب أنهم ظنوا أن عيونهم سيتم فقرها أي قلعها من وجوههم.

"الظنّ" هو اعتقادك بشيء ما مستندا إلى شيء ما، فإن كان ما تستند عليه صحيحاً كان ظنّك صحيحاً، وهذه حالة المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم سبحانه كما ورد في الآية 46 من سورة البقرة {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}، فهم مستندون في ظنّهم على آياته وكلامه تعالى. وإن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران {وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ}...، فاستنادا للحالة الحرجة التي كانوا فيها ظنّوا أنه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء. وبين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند عليها ولكنه ليس مقتنعا بها، فلا تزال الأمور عنده مرجّحة لاحتمالات أخرى، فهذا ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية {وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ}، فهم يريدون أن يلمسوا مباشرة حصول ساعة قيامهم من الموت حتى يعتقدوا بها ولا يكفيهم الاستناد إلى معلومات تدلّ عليها، فيريدون اليقين بها عيانا حتى يؤمنوا. وهذه الحالة قريبة جدا من الاصطلاح "في علم المنطق" والدارج لمعنى كلمة ظنّ على معنى وجود عدة احتمالات. وها صرت تعلم المعنى اللغوي الأساسي لكمة "ظنّ" فانتبه للفرق بينه وبين المعنى الاصطلاحي حتى لا تفسّر القرآن على أساس المعنى الاصطلاحي.

في عموم كتب التفاسير ستجد كلاماً آخر عن الظنّ، ولا ينطبق معناه على كلّ آيات القرآن، فستجدهم لا يثبتون على معنى واحد للظنّ، حيث مرة يرادفونه باليقين، ومرّة بالشك، ومرة بالحسبان... وهي معاني غالباً ستجدها صحيحة لأن الآيات واضحة وتدل على المعنى الذي ذكروه بالشكل العمومي الذي يتحمله الاشتقاق والتدرّج من أصل معنى كلمة ظنّ، ولكنها ليست المعنى الدقيق لكلمة ظنّ، بل كلامهم توصيف لحالة العلم الذي استند إليه الظنّ، وها صرت تعلم معنى الكلمة العام، وأن القرآن دائما يوضّح لك نوع العلم الذي يستند الظنّ له إن كان صحيحا أو فاسدا، فلن تضيع في معرفة الظنّ الصحيح من الظنّ الخطأ.

هنا في الآية توصف شدّة ما يتعرضون له من تعنيف وإهانة وضرب، ومن علمهم بسوء ما فعلوه، فاستنادا لهذه الحالة صار لديهم اعتقاد بأن عقابهم سيكون شديدا جدا فعيونهم سيتم قلعها من وجوههم لتعذيبهم بالألم والعمى.

فقر العيون نموذج تعرضه السورة عن شيء سيّء تصوروه سيحصل معهم، فمن البديهي أنهم تصوّروا سلخ جلدهم وتقطيع أيديهم... كعقاب على سوء ما فعلوه.

(كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ{26})
كلا، فاستعجالكم بالحصول على ما تحبّون لا معنى له ولن يغيّر في حقيقة حصول الآخرة، إذا بلغت التراقي، والترقوة هي العظام النافرة في أعلى الصدر وأسفل البلعوم، فإذا وصل إلى آخر صدره آخر نفس قبل أن يموت، ومن بعدها حياته ستنتهي، فحياته صارت على آخر لحظة.

المقصود كما نقول نحن في تعابيرنا الدارجة: روحه في بلعومه، عم تطلع روحه، رح ينقطع نفسه...

(وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ{27})
في تلك الحالة، {قِيلَ}، فقال الذين حول الذي يموت: {مَنْ رَاقٍ}؟ من يرقيه؟ من يمكنه رقيته ليعالجه برقية؟ فهل يوجد شخص أو طبيب معه أي شيء أو أي دواء يرقيه فيعالجه من حالته، فيمنع خروج نفسه منه، فيمنع موته.

ضع في بالك أنهم قديماً كانوا يستعملون كلمة رقية لتشمل كل أنواع الأشياء التي تخلّصك من حالة مستعصية، فيقولونها للأشياء التي يظنون أنها تشفي من المرض سواء أكانت عشبة أو دواء أو كياً أو قطع لعضو... أو تعويذة...

لا تنسَ دائماً أن القرآن يعرض نماذجَ عن حالات عامّة، فليس كل من يموت سيموت وحوله أناس يحاولون إسعافه، بل تعرض لك الآيات نموذجاً عن موت شخص وحوله أناس لا يمكنهم فعل أي شيء له، وقبل ذلك فهو أصلاً في حالة الموت ولا يمكنه فعل أي شيء لنفسه.

(وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ{28})
{وَظَنَّ} الذي في حالة وصول نفسه إلى آخر صدره، فصار لديه اعتقاد يستند لحالته تلك، {أَنَّهُ الْفِرَاقُ}، أنه مفارقة للحياة.

منذ قليل في الآية 25 توسعنا في معنى كلمة ظنّ.

(وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ{29})
جرى لفّ شيء على الساق وعلى الساق الثانية، فكلاهما التفّا بشيء واحد. فمات وجرى لفّ ساقيه بالكفن. والساق هي الجزء الذي تحت الركبة "تحت صابونة الرجل" إلى ما قبل القدم، ونعبّر عنها بما نقف ونمشي عليه.

لو جرّبت تعابيرَ أخرى، لفهمت أن الآية هنا لا تقصد أن رجليه سيتم لفّهما على بعض، وستفهم من الآية أن عملية اللفّ بدأت من ساق للساق الثانية، فأثناء تكفين الميّت يكون القماش تحت الساقين، ويتم طيّه ولفّه من ساق إلى ساق، فيكون لفّ الساق بالساق. أطلت عليك لأنه قد يتبادر للوهلة الأولى من الجملة أن الساقين تلتفان على بعضهما، ولكن هذه الجملة لا تعطي هذا المعنى بل تعطي معنى لفّهما معاً بالكفن.

يعني مات ذلك الشخص وصار في الكفن، وتلك السيقان التي كان يقف عليها ويتحرّك بها صارتا ملفوفتين مع بعض في الكفن. ومعلوم لك أن عموم كلام القرآن عن نماذج فليس كل إنسان يموت ويتم تكفينه فلفّ القدمين كان دارجاً بين الناس الذين نزل القرآن في منطقتهم، ومعلوم أن بعض الناس يموتون غرقا ويبقون في الماء وبعضهم تأكله الوحوش... ولكن السورة هنا اختارت وصفاً يفعّل في ذهنك صورة ميّت نموذجي.

(إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ{30})
{إِلَى رَبِّكَ}، إلى المسؤول عنك من مستوى إلهي، {يَوْمَئِذٍ} في ذلك الزمن الذي فارق فيه الحياة وصارت سيقانه ملفوفة بالكفن، {الْمَسَاقُ}، فلم يعد هو يحدّد أين سيذهب مثلما كان يفعل بتلك السيقان، بل صار مساقه إلى المسؤول عنه من مستوى إلهي، فشاء أم أبى فإليه سبحانه سيذهب.

(فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى{31})
{فَلَا صَدَّقَ}، فهذا النموذج ينوصف حاله أنه لم يعتقد بهذا الدين الإلهي أنه صادق فقال أنه كذب وغير صحيح، فلم يصدّق بالتوحيد ولا بالرسل ولا... وخصوصا فهو لم يصدّق بالآخرة.

{وَلَا صَلَّى}، فلم يقم بالتوجّه والإقبال، ومن الواضح أن الآية تقصد أنه لم يتوجّه ولم يقبل على ربّه سبحانه بالذكر بما نسمّيه بالعبادة.

ضع في بالك دائماً أن كلمة صلاة معناها عموم التوجّه والإقبال على شيء ما، وهذه الكلمة صارت مصطلحاً يشير للتوجّه بالحركات والكلام المعروف بين المسلمين عن الفريضة الدينية التي نقيمها خمس مرات في اليوم وتعبّر عن ذكرنا وخضوعنا لله تعالى، وهذا أيضاً صرنا نصطلح عليه بالعبادة، علماً أن كلمة صلاة عمومية لأي توجّه، سواء أكان للذكر أو تعبير الخضوع "للعبادة" أو غيره، فسبحانه يصلي علينا تعني أنه تعالى يقبل علينا بالاهتمام، والنبي(ع) يصلي علينا بقوله: اللهم صلِّ على المؤمنين... فهو(ع) يطلب توجه ربنا سبحانه إلينا بالرحمة والمغفرة، ونحن نصلي على النبي(ع)، بقولنا: اللهم صلِّ على محمّد... فنطلب من ربنا سبحانه الاهتمام به (ع) بتزكية زائدة، نحن نصلي لربنا سبحانه معناها: نتوجه إليه بالذكر والمديح وتعابير الخضوع.

لا تفهم من الآية قصدها بشكل مباشر أن ذاك الكافر لم يقم بالحركات والكلمات التي نقوم بها خمس مرّات يوميا، فهذا ضمنا صحيح، ولكن افهمها على أصل معنى الكلمة، فذاك الكافر لم يتوجّه إلى الله تعالى "بالعبادة" بالذكر وإعلان الخضوع والتقدير... فإمّا عبد غيره تعالى، أو أشركه تعالى مع غيره، أو لم يعبد أي أحد يعتبره من مستوى إلهي... وكما ترى فقد صارت كلمة صلاة بمعناها العمومي تشير لامتناع ذاك الكافر "النموذج" من التعبير عن احترامه

وخضوعه للمقام العالي لإلهه، فلم يعبّر عن امتنانه وشكره ومدحه لإلهه خالقه رازقه... فلم يخصّص وقتاً للتوجّه إلى ربّه الحقيقي كإعلان عن إيمانه به وتقديسه وشكره... وطلبا للثواب.

(وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{32})
{وَلَكِن}، فعل العكس فكذّب بما يقوله النبي(ع)، {وَتَوَلَّى}، فلم يتبع النبي(ع) وذهب إلى شيء آخر، فلم يقبل بالإسلام دينا واتخذ دينا آخر.

نتذكّر دائماً أن القرآن عموما يضرب نماذج ولا يقصد الحديث مع وعن أشخاص محددين من التاريخ، فلا تفهم الآيات هنا قصدها شخصا كان في عهد النبي محمّد(ع)، لا، بل كان هناك نموذج بل نماذج سيئة جداً في عهده (ع)، فتحدّث عنها القرآن كنموذج يقرؤه الآخرون لينتبهوا، فمن يريد أن يؤمن ينتبه ويبتعد عن عقائد وأفعال تلك النماذج العاطلة، ومن كان مثلهم فليأخذ علما بمصيره المشابه لمصيرهم...

هناك الكثيرون ممن كذّبوا، وذهبوا بالتمطّي إلى أهلهم... وفي كل عصر هناك أمثال لتلك النماذج.

(ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى{33})
{ثُمَّ ذَهَبَ} الناكر لهذا الدين الإلهي، {إِلَى أَهْلِهِ}، إلى الذين ينتمي إليهم، وهنا المقصود أنه بعد سماعه للكلام الإلهي ذهب إلى الكافرين الذين ينتمي إليهم، {يَتَمَطَّى}، يقوم بتمطيط عضلات جسده، فيقوم بحركات مدّ اليدين والرجلين بقوة مثلما نفعل حين نقوم من النوم أو حين نشعر بالنعاس أو الملل، وهي حركات تدلّ على جلوسنا لمدة طويلة أمام شيء ممل ومضجر.

بعد جلوس الكافر مع الرسول(ع) وسماعه للكلام الإلهي، رجع إلى أهله الكفّار الذين ينتمي لهم، فرجع يتمطّى فيقوم بالحركات التي تدل على ضجره ومله وميله للنعاس من الكلام الإلهي الذي كان يسمعه.

(أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى{34})
{أَوْلَى لَكَ}، فقال لأهله عنك أيها الرسول أنك من الأولى لك، من الأرجح الأفضل الأحرى بك أن تكون مثلهم، {فَأَوْلَى}، فأكثر الكلام وشدّد على أهمية تركك لما أنت عليه من دين، فالأولى بك فعل كذا، وكذا وكذا... وهذا ما تشير له كلمة "فأولى".

بعدما سمع كلامك وذهب إلى أهله، فكان رأيه فيك أنه من الأولى لك ترك هذا الكلام الديني، ففي رأيه كلامك فارغ سخيف وليس من المفروض أن يقتنع به أي أحد.

نفهمها لو سمعتني أتحدّث عن مشاريعي التجارية الفاشلة بشكل واضح، وأحاول اقناعك بها لتشاركني فيها، وذهبت لتقول رأيك عنّي للآخرين، وتريد التعبير لهم عن اعتبارك لي كإنسان عاقل ليس من المفروض بي الدخول في مشاريع فاشلة، فتقول لهم عنّي: من الأولى به، من الأفضل له، والمتوقّع منه كعاقل لو ترك تلك المشاريع... ومن الأولى به لو دخل في مشروع كذا، أو مشروع كذا... وهنا نحن أمام نموذج سمع كلام النبي محمّد(ع) عن الدين الإلهي
وبالخصوص عن الآخرة، وكان رأيه بكلام النبي محمّد(ع) أنه غير صادق، فمن الأولى "بمحمّد" أن يقول الكلام الذي نحن مقتنعون به بدل كلامه الفارغ السخيف، فمن الأولى تركه الكلام عن الإله الأحد، ومن الأولى تركه الكلام عن الآخرة...

في الكتب ستجد تفاسيرا عديدة لهذه الجملة، وقد رجّح الغالبية أنها جملة تهديد من الكافر للرسول(ع)، على معنى أنه سيؤذي "محمّداً" جسديا بالضرب أو القتل أو المقاطعة... إن لم يتوقّف عن كلامه... وقيل معان أخرى عديدة، ولكن ما ذكرته لك هو الأقرب لمعاني الكلمات، وهو الأوضح استعمالا في أشعار العرب قبل الإسلام، ويمكن اشتقاق معنى التهديد من هذه الجملة ولكن بشكل غير مباشر، مثلما يمكن اشتقاق أي معنى آخر رديف للتهديد، فعندما أقول أن الأولى لك منّي الضرب. فيمكنني أن أقول أيضاً أن الأولى لك منّي المحبة، وهكذا تجدها في أشعار العرب على معناها

العمومي بمعنى: المتوقّع لك منّي أو المتوقّع منك كأولوية، كأبرز نتاج لما يمكن أن يصدر عني أو عنك في حالة ما. فهي غير مخصصة للتهديد.

(ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى{35})
{ثُمَّ أَوْلَى لَكَ}، فقال الكثير من التعليقات عليك وعلى كلامك، وأنك من الأولى بك كذا ومن الأولى بك كذا... فمن أولوياتك ومن المفروض منك ترك هذا الكلام الفارغ عن توحيد الإله وعن العودة إلى الحياة بعد الموت والحساب والعقاب... {فَأَوْلَى}، فكان لديه الكثير من الآراء التي يطرحها عنك كأمور من الأولى بك الإيمان بها...

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى{36})
{أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ}، هل يخطر في بال الغالب الأعمّ من الناس ومن دون تفكير أو دليل، {أَنْ يُتْرَكَ سُدًى}، يتركه تعالى سُدًى هكذا مُهمَلاً بدون هدف أو أي تعامل معه، وهنا بالتحديد المقصود: أنه يخطر بباله أنه تعالى خلقه فعاش ومات، وانتهى من دون أي تعامل معه على ما قضاه في حياته، وبدون أن يحاسبه تعالى على أفعاله؟

هذا الذي لم يصدّق وكذّب ولم يصلّ... وقال عن النبي محمّد(ع) إنه من الأرجح والأفضل له أن يترك هذا الكلام الفارغ عن الآخرة... هل هذا ومن دون أي تفكير يخطر بباله أن خالقه سيتركه هكذا يموت ويفنى؟ لماذا خلقه من الأساس ومنحه الوعي والفكر وحرية الإرادة... وحياة اجتماعية... وفترة لحياته في الدنيا... فهل هكذا يكون التفكير الصحيح الذي من الأولى "بمحمّد" أن يفكّر به!

آيتنا هذه من نوع الآيات التي لوحدها ومن دون أي تفكير عميق تدفعك لإيقاظ الإيمان المزروع في داخلك، علماً أن تكملة الكلام في السورة تفصيل عن الآية هنا، فالذي خلقك من نطفة... أهكذا سيتركك لتذهب سُدًى. نحن في مخزوننا الكثير من المعلومات عن خلقتنا وصفاتنا، فتأتي آيتنا هنا كصادمة تجعل الإيمان العميق يستيقظ.

لو أطلت عليك، فالإيمان على الورقة والقلم، والإيمان المبني على قناعة عقلية منطقية، يختلف عن الإيمان المدعوم بمشاعر، وليس هذا أفضل من ذاك، ولا ذاك أفضل من هذا، ولكن إيقاظ المشاعر أسهل من إيقاظ العقلانية عند المؤمن أو عند من لديه ميول للإيمان، وآيتنا هنا تكملة الكلام عنها في الآيات التالية عقلاني يشير بالإصبع إلى الأشياء، ولكنها لوحدها توقظ المشاعر.

الكلام يجرّ الكلام، فالسؤال عن سبب خلقنا ولماذا نحن موجودون... وصولاً إلى فكرة أنه يوجد إله خلقنا، هي البذرة التي زرعها تعالى فينا للتعرّف عليه كإله خلقنا، واعتبار هذا السؤال عن سبب خلقنا، اعتباره بدائياً، كأي أفكار أو سلوكيات بشرية بدائية ورثناها من سلوكيات الإنسان القديم، كالخوف من المرتفعات أو من الأصوات القوية أو الخوف من النار والبرق... أو كالتقام الطفل لثدي أمّه من أول لحظة ولد بها... فهذا ليس اكتشافاً علمياً حديثاً خارقاً، بل تكرار للبديهيات، فنحن مشحونون بأمور كهذه، وانشدادنا نحو قدرة خارقة فائقة عند الخوف أو عند التفكير في سبب وجودنا... وتسمية تلك القدرة بالإله، ووصف حالتنا هذه بأنها "بدائية"، ليس معيباً ولا مبرهناً على خطئها، فكيف سنتعرّف عليه تعالى لو لم تكن هذه البذرة البدائية مزروعة فينا؟

سبحانه في كلامه معنا في هذا القرآن صرّح مراراً وتكراراً أن هذه المشاعر والأفكار والسلوكيات "البدائية" التي تدفعنا إليه تعالى، هي ما زرعه تعالى فينا، وهي مشاعر صحيحة، وتكرّر الكلام عن ذلك وبوجوه متعددة في مختلف سور القرآن، ومنها الآية 32 من سورة لقمان {وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ}، فخوفاً من الغرق مع الشعور بفقدان القدرة على النجاة إلا بتدخّل قدرة فائقة، يدفعنا للتعلّق به تعالى.

منها الآية 12 من سورة الرعد {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا}...، كظاهرة أكبر من قدراتكم على التحكّم بها وتدل على قوّة فائقة خلقتها... وما ورد في الآية 63 من سورة الأنعام {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} وهذا الكلام تضمّه مع ما ورد في الآية 10 من سورة الأعراف {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} لترى أن الخوف ليس البذرة الوحيدة المزروعة فينا

للتعرّف عليه تعالى، بل الحصول على النعمة أيضاً دافع للبحث عمّن أنعم علينا وصولاً إلى التعرّف على قدرة فائقة صمّمت وخلقت فأنعمت...

هنا الآية تؤكّد على الشعور والتفكير "البدائي" السائل عن سبب وجودنا، فليكن بدائياً موروثاً من الإنسان القديم، وكمؤمنين فلنفترض أنه تعالى صمّمنا لنصل إلى وجود هذه البذرة فينا من تراكمات خبرات الإنسان البدائي، أو فلننسَ النقاش في هذا ولنركّز على النتيجة بغض النظر عن منشأ السؤال، فما هو الجواب عن السؤال؟ لماذا نحن هنا وكيف صرنا هنا؟

أي جواب عن ذلك غير أن إلهاً قرّر تصميمنا وخلقنا، فهو كلام تافه.

(أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى{37})
{أَلَمْ يَكُ}، أما كان الإنسان، {نُطْفَةً}، شيئاً صغير الحجم جداً، وكلمة نطفة مستعملة كثيراً "حالياً ومن قبل" لوصف مكونات المني، وحالياً نستعملها بالعاميّة اسماً للحيوانات المنوية، ولكن بالأصل معنى الكلمة: أي شيء صغير الحجم، من البهار أو الملح أو الماء...

ألم يكن الإنسان صغيراً جداً، {مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى}؟ من سائل يخرج منّا كالترشيح والنزّ والسيلان، {يُمْنَى} يخرج ترشيحاً سيلاناً، وهذا وصف لخروج السائل من الذكر أثناء عملية التخصيب.

نلاحظ أن غالبية المفسرين تجنّبوا تفسير كلمة "{مَنِيٍّ} و {يُمْنَى}" على معنى وصف لسيلان النطفة من الرجل، ربما استقبحوا هنا أن يستعمل القرآن هذا التوصيف ورأوا من الأنسب تفسيرها بالمنية "أمنية" على معنى تقدير الأشياء، فتتطور النطفة لتصير إنساناً، ولكن لا يوجد دليل لغوي قديم على هذا المعنى، بل هذا المعنى لا يتوافق مع تعبير القرآن بـ {مَنِيٍّ يُمْنَى}، إذن فليبقَ المعنى على أساس معاني الكلمات ولن تجد مشكلة فيها، فهي وصف لعموم أي سائل رشح ونزّ من شيء ما.

تلاحظ القرآن في غالبية الآيات "أفعاله تعالى" التي يلفت انتباهنا لها، بسيطة مما يعرفه أي إنسان عادي، ففي كلامه عن خلق الإنسان من أبويه لا تجد كلاماً عن بويضة المرأة لأن الآيات لا تقصد إعطاءنا درساً في البيولوجيا، هنا تلفت الآيات انتباهنا لما نعرفه بالبساطة، فخلق الإنسان يبدأ من شيء صغير جداً، من نطفة، تُمنى تسيل من ذكر في أنثى.

(ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى{38})
{ثُمَّ} بعد النطفة من مني، {كَانَ} الإنسان، كان الغالب الأعم من الناس بسبب شيء يتعلّق بطبيعتهم، {عَلَقَةً}، وهذا وصف لقطعة صغيرة من الخلايا التي تُشبه قطعة الدم الجامد، ولا يتجاوز حجمها السنتمتر، ومن المتعارف عليها قديماً وحديثاً أنها وصف عام لأي علقة، وهناك دودة يسمّونها على الوصفية بالعلقة لأنها تعلق على جلد الحيوان. وينطبق الوصف أيضاً على مرحلة من مراحل تأتي بعد تلقيح البويضة بالحييمن، فيصير الإنسان كقطعة دم صغيرة جامدة عالقة بجدار رحم الأنثى.

{فَخَلَقَ}، سبحانه الإنسان، فركبه وألّفه من المواد، فصار يتألّف جسمه من تراكم المواد بنمو العلقة، {فَسَوَّى}، فجعله بالتمام متناسباً، فعملية الخلق بشكل عام ينتج عنها أشكال عديدة، فهناك خلق للملائكة وللجنّ ولمختلف الحيوانات والنباتات... وبالنسبة للإنسان فعملية النطفة والعلقة وما يليها من مراحل، ينتج عنها إنسان "الغالب الأعمّ من الناس" مستوي الخلقة، يعني على التناسب مع مواصفات الإنسان، فلن تتوقع ولادة فيل أو نمر من إنسان.

نكمل مع لفت الانتباه للتصميم والتخطيط الإلهي لخروجنا إلى الحياة مع البقاء في بالنا للسؤال الذي سبق وانطرح: هل خلقنا تعالى ليتركنا سُدًى؟

كما ترى أيضاً هذه معلومات بسيطة عن مراحل خلق الإنسان، ويعرفها الناس من حالات سقوط الأجنّة غير المكتملة، فيرون نزول علقة من الأنثى، ويعلمون أنه شيء كان سيصير إنساناً ولكن لم يكتمل وسقط. ومن هذا تعرف الناس مراحل تكوّن الجنين في بطن الأنثى.

(فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى{39})
{فَجَعَلَ مِنْهُ}، من المني الذي تحول إلى علقة، والذي يصير أخيراً واحداً من {الزَّوْجَيْنِ}، واحداً من الجنسين: إمّا {الذَّكَرَ} فيصير رجلاً أو {الْأُنْثَى} فتصير امرأة.

هذه الآية ليست لنستنبط منها بأن كل مخلوق من مني فهو إمّا ذكر وإمّا أنثى، بل فقط للفت انتباهنا لكيفية خلق البشر، وكيف تنتهي بأن يكون هناك ذكر وأنثى، فالذي يحسب أن يتركه تعالى سُدًى، ألم يفكّر في كلّ هذه التفاصيل من تصميم وتخطيط وتنفيذ، فهل هكذا هذه الأمور تحصل بلا هدف وبلا غاية وبلا حكمة وبلا سبب ممن جعلها تحصل؟ أم لوحدها حصلت هكذا من دون إله؟

هنا لا تفهم الكلمات بجفاف، وتقول: هناك خنثى أيضاً، هناك ولادات مشوّهة، هناك عقيمون أصلاً لا ينجبون... فهذا معلوم للجميع، والآيات هنا لا تتحدّث عن علوم الأحياء وتصانيف الحيوانات وأنواع الولادات... وليس موضوعها سبب تشوّهات الخلقة... بل هي فقط تتحدّث عن النموذج العام المنتشر الغالب على الإنسان، فهناك ولادات ذكور وولادات إناث، من نطفة صارت علقة وبعدها تسوّت إنساناً بما فيه من صفات وخصائص... فهل هذا التصميم والخلق بدون هدف ولا غاية! هكذا سُدًى؟

فكّر فيها من ناحيتين، الأولى من ناحية حياة بلونين الأبيض والأسود، وبأقل درجات الوعي، وبتركيب بسيط لا تعقيد فيه، كمخلوق مركّب من شيئين صغيرين، فلنقل من ذرتين، وفي بيئة موحدّة وبسيطة جداً بلا تعقيد، ففي هكذا بيئة بسيطة جداً، يمكن القول إنّ خالقها لم يرد منها شيئاً مهماً، فخلقها بسيطة، أمّا في خلقتك بتفاصيلها الهائلة، وبمواصفاتك التي حصلت عليها من الخلقة كالوعي والفكر والإرادة والأحاسيس والمشاعر... فهل هكذا بلا أي هدف ولا غاية ولا سبب ولا حكمة... ستموت وينتهي كلّ شيء؟ لماذا هذه الخلقة من الأصل؟ ولماذا تصميمها وتنفيذها بهذه التفاصيل الهائلة؟ وهذا الكلام مرتبط بالآية التي وردت سابقاً والتي سألت المنكر للحياة من بعد الموت إن كان الخالق سيتركنا سُدًى.

من ناحية ثانية الآية التالية بنت على ما سبق وأكملت لتعود من جديد إلى إنكار الكافر لرجوعنا إلى الحياة.

(أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى{40})
{أَلَيْسَ ذَلِكَ}، الخالق للإنسان بهذا التصميم والتنفيذ، {بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى}! ألا يكون لديه القدرة على إعادة الحياة إلى الميّت!

قبل أن تصير إنساناً، ماذا كنت؟ من أين جئت؟ ما كان كيانك؟ أمن الفراغ جئت ومن لا شيء؟ أي جواب ستجيبه، سيمنعك من إنكار إعادة الحياة لك بعد موتك، فحتى لو قلت أنك هكذا من الفراغ جئت، من الصدفة، فأولاً أنت مجنون تستسخف نفسك، ومن عهد النبي نوح(ع) منذ آلاف السنين كانوا يظنون أنفسهم أذكياء ومتطوّرين جداً، والبعض منهم يدّعون أنهم يعلمون كيف نشأت الحياة بلا إله... وعلى مرّ السنين حمل مشعل السخافة عديدون كثر، وفي عصرنا لم يتغيّر الوضع، فترى وتسمع وتقرأ للدكاترة والبروفيسورات والباحثين من مختلف المجالات، أن بعضهم ينكرون الإله الخالق ويعتقدون بالصدفة، فهكذا صدفة ومن دون أي تدبير أو تصميم أو تخطيط، تكوّن الكون، وخرجت الكائنات إلى الحياة! أو من الطبيعة، أو باستبدال كلمة طبيعة بكلمة رنانة أكثر، من قوانين الفيزياء؟! كل هذه التفاصيل الدقيقة بالتريليونات، هي صدفة والتكرار! أو من قوانين الفيزياء وكأنها هي تلك القوانين خالقة لنفسها وكأنها هي الإله! إن لم تكن هذه هي السخافة، فما هي السخافة!

على أي حال، إن خرجت إلى الحياة أول مرّة، فما المانع من خروجك مرّة ثانية؟ فالذي خلقك أول مرّة بالطريقة التي تعرفها من عملية التزاوج بين ذكر وأنثى، أليس بقادر على خلقك مرّة ثانية؟ وبطريقة مختلفة.

تلاحظ العديد من سور القرآن تحدّثت بتفصيل كبير عن هذه النقطة وغيرها من النقاط، أمّا هنا، فحصراً حديثها مع ناكر الآخرة الذي لا يلوم نفسه ولا على أي عمل يقوم به لأنه لا يؤمن بأي عقاب إلهي في الآخرة.

سورة الإنسان (76) ص 578
كانت تسمى سورة الدهر، وسورة هل أتى.

بناءً على مخزوننا الثقافي الديني لن نرى لهذه السورة محوراً ملفتاً، ناسين أن هذه السورة وأمثالها هنّ بُناةُ ثقافتنا الدينية، فلنقرأ السورة وكأننا فارغون من أي معلومات لنرى أنها تعرض أساس أساس تكليف الإنسان باختصار، والبداية مع {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً}... ومن بعدها تعرض عليك نتيجة السبيلين.

فيها ترغيب بالسلوكيات الإيمانية العالية وبنتيجة تلك السلوكيات.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً{1})
سؤال: {هَلْ أَتَى} حين، هل مرّ فكان هناك مدّة محدّدة، {مِّنَ الدَّهْرِ}، من الزمن الذي لا بداية له ولا نهاية، {عَلَى الْإِنسَانِ}، على النوع البشري بشكل عام، {لَمْ يَكُن} الإنسان في ذلك الحين {شَيْئاً مَّذْكُوراً}؟ مرّ زمن والإنسان لا شيء، فلا كيان له فلا ذكر له، فلا وجود له لنتحدّث عنه، ليتم استحضاره في الكلام أو الفكر أو التعامل؟

الجواب تعلمه بالبداهة، نعم مرّت مدّة من الزمن لم يكن الإنسان فيها {شَيْئاً مَّذْكُوراً}، مرّت مدة لم يكن الإنسان مخلوقاً فيها، فلم يكن له كيان.

خذ مثلاً التلفاز منذ ألف سنة، فلم يكن مذكوراً لأنه لم يكن شيئاً موجوداً، وبعدها صار موجوداً تعرفه وتذكره أثناء كلامك أو تعاملك أو في فكرك، فمن أين جاء التلفزيون؟ هل لوحده هكذا من لا شيء صار موجوداً فجأةً؟ وهل تغذيته بالكهرباء ليعرض الصورة والصوت بالصدفة حصلت؟ تسألنا السورة عنّا نحن الإنسان الذي لم يكن {شَيْئاً} موجوداً من قبل، وفي حين ما صار الإنسان موجوداً، فصار شيئاً، فمن أين جاء؟ فهو بكيانه ومواصفاته كإنسان له جسد حيّ ووعي وفكر وحواس... من أين جاء وكيف صار؟

الجواب في الآية التالية، وقبل الانتقال إليها أُلفت انتباهك لما يحاول الكثيرون نشره في وسائط التواصل الاجتماعي، وعلى صفحات الإنترنت أو على البرامج التلفزيونية أو الكتب... من أن الكون تكوّن بالصدفة من العشوائية والتكرار وطول الزمن، وأن قوانين الفيزياء والطاقة الأولية لوحدها تولّد الذرات، وقوانين الذرات لوحدها تولّد المركبات العضوية، والمركبات العضوية لوحدها تولّد البيئة، وكلاهما معاً يولّدان الحياة، وهكذا بالزمن الطويل للتكرار والعشوائية خرج الإنسان للوجود من المركبات العضوية... وهذه الفكرة صارت مقبولة من كثرة الترويج لها في المدارس والجامعات والبرامج الوثائقية والأفلام والكتب...

أول سبب لانتشار هذه الفكرة هو النظرية الدينية المنتشرة بين المتدينين عن خلق آدم(ع) كتمثال من الطين وجرى نفخ الروح فيه فصار إنساناً فوراً، وخلق حواء من ضلعه... حرفياً كما هي الجملة، فتعابير الكتب الإلهية من صحف "منسوبة" للأنبياء، والتوراة والإنجيل، ومعهم تراث ديني يشترك فيه المسلمون بالروايات والقناعات، فكلهم يقولون هذا الكلام حرفياً، وحتى ما ورد في القرآن جرى إلحاقه بالتراث الديني العتيق وتفسيره على أساسه، وفهم الناس كلامه تعالى أن الأرض كانت ولا شيء عليها، فصنع الإله سبحانه تمثالاً على شكل الإنسان من التراب والماء، ونفخ فيه، ففوراً صار التمثال لحماً ودماً وعظماً، وصار فيه حياة وفكر ومشاعر... وهذه هي النظرية المنسوبة للدين "الإبراهيمي" من يهودٍ ونصارى ومسلمين، وبقية الملل المتفرعة من هذه الديانات تقول نفس الكلام. وتشاركنا في هذه النظرة "بشكل عام" أيضاً الأديان الطاوية والأرواحية: بوذية هندوس...

هاتان النظريتان، خلقنا بدون إله، وخلقتنا من تمثال طين، ليستا جديدتين، ويوجد لهما العديد من النسخ المشابهة التي كانت منتشرة منذ القدم بين الناس، فكمؤمن بالدين الإلهي لا تظنّ أن ما تسمعه الآن من نظريات عن نشوء الكون ونشوئنا هو شيء جديد، بل هو نسخة محدّثة من كلام قيل منذ آلاف السنين، وتنقل نسخة عنه الآية 24 من سورة الجاثية {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ}، يقول الكفّار إنه لا إله صمّم وخلق وإنما مرور الزمن يتكفّل بخلقنا وإماتتنا...

نقل لنا القرآن عن قوم النبي نوح(ع) كلاماً ينكرون فيه الإله خالقهم، وبالتالي فهم لديهم نظرياتهم حول خلقتنا، وكلامهم عمره آلاف السنين، وبعدهم مروراً بالكلام الذي قالته الأقوام الكافرة على مرّ التاريخ وصولاً إلى ما كانت تقوله الناس في عصر النبي محمّد(ع)، فكل أصول العقائد والنظريات المخالفة لتوحيد الخالق ذكرها القرآن، إن بسرعة خطر ببالك أن الأقدمين جهلة بالنسبة لعلومنا الحالية، فخذ علماً أن من سيأتي بعد ألف أو عشرة آلاف سنة، سيرى كل علومك أقل من ابتدائية... ففي نظره سيرى نظرياتك ليست أعلى بالقيمة كثيراً من نظريات الإنسان القديم...

السؤال في الآية هنا يكون رداً على كلام الذين يقولون: لا خالق لنا، خلقنا الدهر. بالصدفة، بالعشوائية، بالتكرار والفشل، بقوانين الفيزياء والكيمياء... يعني: لا يوجد إله صمّم وخلق، ولا يوجد حكمة من وجودنا، وبالتالي فأي كلام عن محاسبتنا ومجازاتنا في الآخرة على ما فعلناه في الدنيا فلا معنى له، وهذا هو لبّ ما تركّز عليه السورة هنا، فهذا أساس أساس الدين الإلهي، وأيضاً هو محور عموم ما يركّز عليه القرآن.

أطيل عليك الكلام يا عزيزي ويا عزيزتي، وأخاف أن يكون كلامي غير صحيح مثل كلام الذين سبقوني من المتدينين الذين تكلموا باسم الدين بكلام غير صحيح، فصار كلامهم هو الدين، فصار "رأيهم" عن خلق آدم(ع) من تمثال طيني فوراً هو كلام الدين الإلهي، وكلامهم عن خلق حواء من ضلع آدم(ع) هو كلام الدين الإلهي، والتخريفات عن خلق بقية الحيوانات هي الدين الإلهي، وفي الغالب تجدهم ينسون تأليف نظرية دينية عن خلق النباتات؟

أولاً وقبل كلّ شيء، الكلام الإلهي لا يطرح نظريات علمية، ولا يتحدّث عن تفاصيل آليات فعله تعالى للأشياء، فالقرآن بكلام يمكن للناس فهمه، فهو يقول بأن أصل خلقة الإنسان من طين، من المادة، من العناصر التي نسمّيها في الجدول الدوري للعناصر "المشهور بجدول مندلياف، كربون وحديد وكالسيوم..."، وهذا لا يحتاج لذكاء شديد لمعرفته، فهذه هي المادة التي في بيئتنا، وبديهي أننا مخلوقون منها، وحينما نموت ترانا نصير تراباً...

الواضح من الآية 30 من سورة البقرة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا} -خليفة- {مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، أن الملائكة(ع) كانت ترى مخلوقات تسفك الدماء في أرضنا، وكان الكلام عن بشر على الأرض يقتلون بعضهم البعض، وتساءلت الملائكة(ع) عن الحكمة الإلهية من جعل واحد من تلك المخلوقات "آدم(ع)" خليفة له تعالى على الأرض... ومن الواضح جداً في كلام القرآن أن البشر "سلالة" من طين... وبعدها جعل تعالى نسلنا من ماء من مني...

هذا لا يعني أني أؤمن بنظرية النشوء والارتقاء "التطوّر"، ولا يعني أني أنفيها بالكامل، وأصلاً لا يوجد مشكلة دينية في طرح أي نظرية لنشوء الكون والمخلوقات التي فيه طالما لا تعتبرها عقيدة ينتج عنها إنكار الإله الخالق، فالمشكلة في طرح نظريات يقصدون منها نفي وجود الإله الخالق، ولا مشكلة في طرح نظريات مخالفة لما يقوله المتدينون، لأنه ليس نفياً لكلام الإله سبحانه بل نفيٌ لكلام المتدينين الذين هكذا فهموا كلامه تعالى.

وكما ترى بكل سهولة ترى مشكلة الكنيسة مع كوبرنيكوس باعتبار كلامه هرطقة مخالفة للدين الإلهي، تكلّم عن محورية الشمس بالنسبة لدوران الأرض حولها، بينما للكنيسة نظرية دينية عن محورية الأرض... فترى في هذا سذاجة وطفولية وظلماً لدينه تعالى ولكوبرنيكوس، ولكنك تستصعب قبول نظرية النشوء والارتقاء وتراها بالعقلانية مخالفة لدينه تعالى، أليس كذلك؟

لنركّز جيداً على ما طرحه علينا آخر كتاب إلهي نعتقد أنه لا يزال سالماً من التحريف، لم يقل القرآن مباشرة وبشكل صريح أن آدم(ع) أول إنسان، وقال صراحة إن آدم(ع) أوّل خليفة، فهو أوّل ممثّل للإله سبحانه على الأرض، فهو أوّل من تكلّف بالأوامر الإلهية من الحلال والحرام والواجب... فتفهم أنه أوّل بشري تأهّل بالصفات المناسبة ليتلقّى التكاليف الإلهية.

لم يقل القرآن صراحة إن آدم(ع) صُنع مباشرة على شكل تمثال طيني من دون أبوين، وقال صراحة إن بداية خلق الإنسان من طين كما ورد في الآية 7 من سورة السجدة {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}، وقال صراحة إنه كان هناك بشر قبل آدم(ع)، راجع الآية 30 من سورة البقرة {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ}... فمن أين علم الملائكة(ع) بفساد البشر وسفكهم لدماء بعضهم إن

لم يروهم يفعلون ذلك؟ وإن قلت إنهم بشكل ما علموا الغيب فلماذا لم يعلموا بأسماء الطاهرين من البشر والذين لأجلهم شاء تعالى أن يجعل منهم خليفة، وهم الذين عرضهم تعالى على الملائكة سائلاً عن أسمائهم كما ورد في الآية 31 من سورة البقرة {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، ومن ناحية ثانية لم يذكر القرآن أي شيء عن خلق حواء وبقية الحيوانات.

التسوية التي وصف بها القرآن خلق آدم(ع) وعموم الإنسان لا داعي لتصوّرها تسوية فورية وهذا صريح في الآية 37 من سورة الكهف {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً}، الكلام في الآية عن رجل عادي انولد من أبوين، وواضح لك أن الكلام ليس عن تسويته فوراً من تمثال طيني، لم يقل القرآن إن الطين تحول مباشرة إلى لحمٍ ودمٍ وعظمٍ، بل بالطين أشار للمادة التي تركّب منها الإنسان، تراب "بما فيه من كالسيوم وكربون وحديد..." وماء.

كما ترى، المتدينون عبر التاريخ وصلتهم عبر الأنبياء نفس المعلومات التي ذكرها القرآن، ولكن فسّروها بحسب ما يتناسب مع معلوماتهم الناشئة من معطياتهم وقناعاتهم، اللحم والدم والعظم في نظرهم شيء، والتراب والماء شيء آخر، وبالتالي فهموا الكلام الإلهي عن خلق آدم(ع) أنه تحويل إلهي مباشر لتمثال من الطين إلى لحم ودم! ونسجوا على تفسيراتهم تكملة لبقية الأسئلة، اخترعوا نظرية خلق زوجة لآدم(ع) من ضلعه الملتوي الذي في آخر صدره لجهة حوضه، وتناسب هذا التفسير مع نظرتهم لعقلية المرأة الملتوية المشابهة للضلع الملتوي الذي نشأت منه! وبقية الحيوانات نزلت في كيس مع آدم(ع) من جنّة "الآخرة"! والنباتات لم تأخذ عندهم عموماً أي قيمة ليخترعوا لها نظرية دينية، علماً أن القرآن كرّر مراراً أننا نحن وبقية الحيوانات والنباتات متشابهون جداً من حيث المنشأ، فكلنا أنبتنا سبحانه من الأرض نباتاً، راجع الآية 17 من سورة نوح {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً}.

عذراً أطلت عليكم، لنكمل مع أمثال هذه النظريات المنسوبة للدين الإلهي، ما يقوله المتدينون هو الدين الإلهي في نظر الآخرين، وصار لدينا كلام مقدّس للمتدينين لا يمكن مخالفته لأنه الدين الإلهي المقدس. وهذا ما أخاف منه عندما أخرج عن تفسير الآيات لغوياً إلى تفسيرها بما أفهمه أنا بمخزون معلوماتي ومعطياتي عن التاريخ والفلك والطب والفيزياء والشريعة والعقيدة... فأخاف من المشاركة في اختراع كلام يصير منسوباً إلى الدين الإلهي وهو من اختراعي أنا، فمهما كنت متأكداً مما أقوله، فلن يكون بمستوى الدقّة التي يقولها عزّ وجلّ، وفهمي لما يقوله سبحانه لن يخرج أبداً عن مستواي العلمي وصفاء تفكيري وابتعادي عن شهواتي وهواي وغرائزي السيئة، ولن يكون بعيداً أبداً عن مستوى تقواي وإيماني وسلامة قلبي، وأعلم من نفسي أني مهما جهدت على حيادية نفسي من كلّ شيء للالتزام بالنص القرآني بالتمام، فستحكمني أفكاري المترسخة في ذهني من موروث سنين حياتي وما مرّ عليّ فيها، فلا أنا ولا أنت يمكننا تفسير القرآن وفهمه إلا بقدر ما يكون قلبنا سليماً.

أنا لست النبي إبراهيم(ع) ولا النبي محمّد(ع)، ولكني بذلت غاية جهدي ليكون كلامي "أنا" منفصلاً عن كلام القرآن، وحتماً لم أنجح بالتمام في ذلك، ولكني وبكل ثقة أعطيت لنفسي علامة العشرة على مئة من فهم القرآن، ولا تسألني بكم قيّمت عمل الآخرين، فلست أتكبّر عليهم، فبالرغم من الترهات الكثيرة التي نجدها في كتبهم، فهناك بعض اللؤلؤ المكنون فيها، ولولا ما بذله بعضهم من جهد حقيقي دقيق بقدر ما استطاعوا، لما تطوّرنا في تقويم فهمنا للقرآن لنصل إلى هنا، فكل الاحترام والتقدير بالأخص لصاحبي تفسير الميزان وكتاب روح المعاني، ولولا نزعة عصبية مذهبية عند الثاني أقوى مما هي عند الأول، لكانا قدّما لنا تفسيراً للقرآن أروع بكثير مما وصلنا منهما، وأضيف معهما التقدير لصاحب تفسير جوامع الجامع وآخرين...

هكذا تفهمني حين أقول لك في دراستي هذه أني أطلت عليك، وأعتذر عن الإطالة، فها صرت تفهم ما أخاف منه حين أفسّر وأطرح بحثاً أو موضوعاً مشتقاً من القرآن، فأخاف أن يصير كلامي هو الدين الإلهي، فبكل سهولة ترى فيديوهات وتقرأ مقالات لأناس يخوضون في تفسير القرآن ويستخرجون ترهات من غرائب وعجائب طبية وفلكية ولغوية... وترى الناس يجترّونها فيقبلونها ويعتبرونها دينهم العظيم! فأنبهكم يا أعزائي للتمييز بين الدين الإلهي وبين كلام المتدينين، وأنبهكم من تأليف كلام ديني منكم ويصير منسوباً للدين الإلهي.

(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً{2})
{إِنَّا}، نحن الإله الذي يقول لكم هذا القرآن، {خَلَقْنَا}، ركّبنا وألّفنا، {الْإِنسَانَ}، هذا النوع من المخلوقات، {مِن نُّطْفَةٍ}، من شيء صغير الحجم جدّاً، وكلمة {نُّطْفَةٍ} وصف لعامة أي شيء صغير وهنا المقصود نقاط المني التي تخرج من الرجل وتتلقّح منها البويضة، {مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ}، مكوناتها تختلط ببعضها وغير واضحة التفاصيل، والأمشاج تعبير وصفي قرآني يختصر وصفي العلقة والمضغة التي نمرّ بها في رحم أمهاتنا.

{نَّبْتَلِيهِ}، نعرّضه لأمور ونرى ما يكون تصرفه فيها، ومن عموم القرآن تعلم أننا في رحم أمهاتنا يحصل تكوننا الأساسي لوعينا وفكرنا وأحاسيسنا ومشاعرنا... وهذه ما سَنُبْتَلَى بها، ليرى سبحانه كيف نتصرف بها.

{فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً}، يفقه الأصوات ويصير لها معنى في فكره، {بَصِيراً}، يدرك ويفهم معنى صورة ما يحصل، فليس مثل الكاميرا التي تسجّل الأصوات والصور ولا تفهم أو تعي معناها.

لاحظ كيف تختصر الآية الردّ على من لم يؤمن بأن إلهاً خلقنا وله حكمة في خلقنا، مرّ زمن لم نكن فيه موجودين وبعد ذلك خرجنا إلى الحياة بصفات الوعي والفكر والأحاسيس والسمع والبصر... هذا من جانب الدلالة على الذي خلقنا، ومن جانب سبب خلقه تعالى لنا، ليبتلينا سبحانه، ليرى كيف سنتصرف.

بعبارة أخرى هناك الذي خلقنا بقدرة على تمييز الخير من الشرّ، وخلقنا بحيث نتعامل مع الأمور، ولدينا حرية إرادة للاختيار منها، وسيحاسبنا ويجازينا تعالى على ما نختاره، فهذا سبب وجود الإنسان. وهذه ليست عقيدة دينية يعرضها علينا القرآن لنؤمن بها بالمعنى الدارج لتصانيف ما تعتقد به الناس من مختلف الديانات والثقافات، بل هي معلومات صحيحة واضحة تصدّق بها لأنها عقلانية ومنطقية.

الآن ما هو ردّ غير المتدينين على هذا الكلام؟ كيف يفسرون صيرورة الإنسان بهذه الكيفية والصفات؟ وكيف يفسرون وجود الصفات التي فينا من وعي وفكر وأحاسيس... ونميّز بين الخير والشرّ ونتمتع بحرية إرادة؟

لاحظ وانتبه كيف يفسّر القرآن سبب وجودنا، خلقنا سبحانه بهذه الصفات ليبتلينا، ليرى كيف سنتصرّف، ومن تكملة السورة ومن عموم القرآن سترى أن الحكمة الإلهية تقتضي أن يخلقنا سبحانه بهذه الصفات ويحاسبنا على كيفية التصرّف بها.

لاحظ أنك في القرآن تجد كلاماً عميقاً حول خلقنا وبلوانا، تجد كلاماً تفهم منه عرض الأمانة على كل ما خلقه تعالى ورفضهم لها وتصدّي الإنسان لقبولها، مما يعني اختيارنا نحن لبلوانا، راجع الآية 72 من سورة الأحزاب {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً}، فبشكل أو بآخر، ولسبب أو لآخر، نحن قبلنا الأمانة، فنحن قبلنا التكليف بالبلوى، ولمزيد من التوسّع راجع دراسة الآية 72 من سورة الأحزاب.

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً{3})
{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ}، وضعنا الإنسان على الطريق الذي يوصله للغاية الصحيحة، وعرّفناه بإلهه وبدينه وبما فعله تعالى معه حيث خلقه بهذه الصفات التي فيه، ومن بعد الهداية فهو: {إِمَّا شَاكِراً}، إمّا معتقداً ومعلناً له تعالى أنه فعلاً حصل منه تعالى على أمور جيّدة حين خلقه تعالى بصفاته الإنسانية وفي هذه البيئة... وهذا يختصر عموم الإيمان به تعالى وتوحيده والإيمان بكتبه ورسله والآخرة... {وَإِمَّا كَفُوراً}، إمّا ناكراً لجميل ما صنعه تعالى به وله، وهذا يختصر عموم الكفر به تعالى والشرك به وإنكار رسله وكتبه والآخرة...

خلقناه وأمّنّا هدايته، ومن بعد ذلك فالخيار للإنسان: يكفر أم يؤمن ويعمل الصالحات. ولكل واحد من الخيارات عواقب سيتحمّلها كما سترى من الآيات التالية:

قبل ذلك لنتوسع في دراسة هذه الآية لأنها أساس أساس الحكمة من خلقنا ويتفرع عنها مواضيع مهمّة، وفي مختلف الآيات المشابهة لآيتنا هذه تناولنا كلاماً متنوعاً، أمّا هنا فسأختار لك مسألة الكفر بكل أو ببعض الدين الإلهي على أساس أن شخصاً ما لم يصله الدين الإلهي عبر رسول أو عالم ديني مؤمن أو عبر كتاب... أو وصله هذا الدين الإلهي ولكن

وصله مشوّهاً ومطروحاً بشكل سيّء ينفر العاقل منه... وبالتالي كانت عقائد هذا الشخص وتشريعاته وسلوكياته مخالفة لدينه تعالى، فهل يتحاسب ويتجازى بالعقاب علماً أن الدين الإلهي لم يصله؟

خذ مثالاً آخر من الذين هم مسلمون، ويقرؤون القرآن، وواضح فيه العقاب بالخلود في النار لمن قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض، ورغم ذلك يستحلّ قتل أبرياء بالقصف أو العبوات الناسفة لأسواق وأحياء سكنية لمسلمين! وهو يعتقد بأنه يتقرّب إلى الله تعالى بما فعله والذين قتلهم إن كانوا أبرياء فلا مشكلة لأنهم سيذهبون إلى الجنّة!

نقول بأن الآمرين للانتحاريين، ضحكوا عليهم واستغلوا نقاط ضعفهم وأقنعوهم بأن قتل الأبرياء عمل يرضى عنه تعالى...

هل هؤلاء يتجازون بالخلود في النار؟ نعم، فها آيتنا والعديد من أمثالها الصريحة في قدرتنا على تمييز الخير من الشرّ ومضافاً لهم كل كلام القرآن عن المجازاة والذي يستند على قدرتنا على تمييز الصلاح من الفساد.

لنعُد للبداية، هل ما جعله تعالى فينا من فكر وملاحظة، كافٍ للتعرّف عليه تعالى وتوحيده من رؤيتنا لآيات أفعاله من خلقنا وخلق ما حولنا من كائنات وظواهر؟ للجواب عن هذا السؤال بجواب حاسم لا جدل فيه فلدينا مصدر معلومات من الإله عنه، وها القرآن أمامك من أوّله لآخره يبني كل تهديداته تعالى للكافرين بالنار بناءً على إنكارهم لوضوح توحيده تعالى من آيات أفعاله بخلقهم وخلق ما يطالونه بفكرهم وحواسّهم من آيات الليل والنهار والنوم واليقظة والنباتات والحيوانات والنجوم...

هذه لوحدها أكثر من كافية لنا لنتعرّف على إلهنا الواحد الأحد، ولنتعرّف على العديد من صفاته الحسنى، بشرط محافظتنا على سلامة قلوبنا، فإن حافظنا على سلامة أساس فكرنا ونفسيتنا، فلم نقبل بتصديق الأكاذيب لأنها توافق رغباتنا، ولم نقبل بالسوء لأنه يوافق أهواءنا، فبالدرجة العالية من السلامة والتي لدينا كلنا قابلية البقاء عليها من بعد ولادتنا... فسنصل كلنا إلى حيث وصل النموذج الإنساني الأرقى الذي اختار تعالى منهم الذين ذكرهم في سورة الأنبياء، فراجع دراستها لترى أنهم مجموعة تميّزوا بسلامة قلوبهم ولذلك صاروا مؤمنين عاملين للصالحات من الدرجة العالية، وبعلمه تعالى بما سيكونون عليه اختار منهم سلفاً أنبياء ورسلاً... فهم خلفاؤه تعالى على معنى تمثيله تعالى بصفاته الحسنى، وهم وأمثالهم الذين سبحانه بقدرته الفائقة على علم الغيب عرضهم على الملائكة(ع) وعلموا أنهم أمام نماذج طاهرة من الدرجة العالية من البشر ويستحقون أن يكونوا خلفاء له تعالى...

لفهم هذا الكلام نحتاج للاعتماد على القرآن لفهم معنى تميّز الأنبياء والرسل كونهم بشراً عاديين مثلنا مثلهم ولكنهم حافظوا على سلامة قلوبهم فاختارهم تعالى أنبياء ورسلاً، وكلنا في الأساس لدينا القابلية لنكون مثلهم ولكننا لم نحافظ على سلامة قلوبنا فتدرّجنا بالصلاح نزولاً وصولاً إلى أقصى سواد القلب بالكفر به تعالى.

تذكّر يا عزيزي ويا عزيزتي المشاهد التي نقلها لنا القرآن من الآخرة حيث تجري محاسبة ومجازاة الكافرين والمنافقين والفاسقين، فكلها مبنية على أساس أن الآيات في خلقنا نحن وفي خلق ما حولنا من كائنات وظواهر، فهي كفاية وزيادة لنؤمن به تعالى ونوحّده.

بالنسبة لمسألة التشريعات الإلهية وجهل بعض الناس بها، والسؤال عن محاسبتهم ومجازاتهم عليها، فما جعله تعالى فينا من قدرة على تمييز الخير من الشرّ، فهو الأساس الذي سنتحاسب عليه كلنا إن فعلنا ما نراه شرّاً حتى لو جاءنا من أي مصدر كان، فحتى لو عالم دين مشهور بمرجعيته لملايين الناس أفتى بما تراه أنت سوءاً، فستتحاسب على فعله إن فعلته، وإلا فما معنى التكليف والحساب والجزاء؟

دقّق وسترى أن هناك أساسيات بسيطة وقليلة هي التي توعّد تعالى على فعلها أو تركها بالخلود في النار، ولا تحتاج لدراسة أو ذكاء حادّ لرؤية حسنها أو سوئها بل تحتاج إلى القليل من سلامة القلب فقط، كقتل الأبرياء والاعتداء عليهم والزنا والهروب من قتال الأعداء وترك المحتاجين للمساعدة المالية بلا مساعدة... وبقية الأمور تتدرج من ذلك بمعرفتنا لفسادها أو صلاحها بحسب اختلاف درجة سلامة قلوبنا فبعضها يحتاج لدراسة ومقارنة... والكلام بعد ذلك عن التشريعات التي لا يمكن بالقلب السليم رؤية فسادها لأن متعلقاتها أكبر من الخبرات الشخصية العادية وتحتاج لبعد

نظر... فالكلام يصير عميقاً ومتشعباً، كالصوم وتقاسيم الميراث والحجّ... فحتى لو كان قلبنا صافياً فلن نشرّع هكذا أمور عن معرفة بحكمتها وبخاصة إن كانت شؤوننا عادية كأشخاص لا خبرة كبيرة لهم في أمور ذات نظرة عامّة...

الخلاصة من الكلام أن ما يعرضه علينا سبحانه في القرآن ليس إلا تقويماً لقلوبنا، فأصحاب القلوب السليمة من الدرجة العالية سيصلون لتلك المعلومات التي نصفها بالعقيدة والتشريع والسلوكيات الصالحة الحقّة فسيصلون إليها لوحدهم، كرّر لنا القرآن ذلك مراراً عبر طرحه النموذج إبراهيم(ع) كمثال عن ذلك، ومعه (ع) بقية الأنبياء والصالحين، وبناء عليه فسواء وصلنا كتاب أو رسول منه تعالى، أو لم يصلنا، فطالما فينا أهلية تمييز الخير من الشرّ وحرية الإرادة فسنتحاسب ونتجازى على سوء ما آمنّا به وما فعلناه، وواضح لك أن كل كلام القرآن مع الكافرين عن الآيات فيما فعله تعالى بخلقتهم وبخلقة بيئتهم، كان تقريعاً لهم على كفرهم بآيات إلهية أكثر من كافية ليؤمنوا، وفي جانب منه تقويماً لإيمان ضعفاء الإيمان الذين لم تكف سلامة قلبهم للوصول إلى كل المعلومات المكملّة للإيمان، فالردّ على الإشكالات التي طرحها الكفّار فهو ضمناً تقويمٌ لإيماننا فنحن قد نسأل بعض تلك الأسئلة وقد يتأثّر إيماننا سلبياً من بعد سماعنا لتلك الإشكالات...

معلومٌ لك أن كلام القرآن عن السيئات ركّز على السيئات من العيار الثقيل والتي لا يناقش عاقل في سوئها، كجبروت فرعون على بني إسرائيل، وإسراف ثمود، وطغيان عاد، وغشّ مدين، والشذوذ والاعتداء جنسياً على الناس كما فعل قوم النبي لوط(ع)... وبعدها كلام القرآن لتقويم التشريعات والسلوكيات التي يحصل فيها اشتباه بسبب فساد في القلوب كالربا وأكل الميتة والظهار... وبعدها تأتي تقويمات سلوكية عليها عقاب ولم يتوعّد تعالى عليها بالخلود في النار، كالغيبة والسرقة... ولكنها كلها واضحة السوء بلا تأمل أو من أدنى تأمّل، وكل بشري فيه أهلية تمييز سوئها فسيتحاسب على فعلها.

ننتقل الآن إلى ما يسمّى بالأمور العبادية والمناسك، كالصوم والصلاة والزكاة والحجّ... فهذه نتحاسب ونتجازى على تركها إن وصل إلينا أمره تعالى بها، وبديهي لك أن انتماءنا لدينه تعالى وإيمانك بكتبه ورسله فهذا سابق على إيمانك بوجوب فعل هذه العبادات... فرضاً وصل إنسان ما بسلامة قلبه إلى توحيده تعالى وفعل الصلاح وترك السوء من دون أي وحي أو كتاب أو نبي أو مؤمن... ولكنه لم يصله التكليف بالصلاة أو الصوم... فهل يتحاسب عليها؟

فرضاً حصل ذلك، فليس في القرآن أي كلام عن عقاب لمن لا يدري بالشيء، فطالما لم يكن تقصيراً من الإنسان لأنه لم يسأل ولم يحاول الوصول للمعلومة.

على أي حال فواضح لك من القرآن أن أهمية الأمور العبادية كالصوم والصلاة... تأتي من بعد أهمية التوحيد والتقوى بفعل الصالحات وترك السيئات، فهي ليست فضلة وبلا قيمة بل تظهر قيمتها العالية من بعدما تصير مؤمناً موحّداً فعموم العبادات حسنات يذهبن السيئات كما هو واضح من الآية 114 من سورة هود {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}.

أخيراً فلكل الذين يعتقدون أن ولادتنا في بيئة مسلمة تعطينا امتيازاً وأرجحيةً دخول الجنّة، وسينحرم منها المولودون في بيئة كافرة، فمن المفيد جدّاً لهؤلاء أن يتذكّروا أن أهل الكتاب "المولودون في بيئة دينية"، أكثر القرآن من ذمّهم لأنهم فسقوا ونافقوا بغالبيتهم، وكمسلمين فحالنا مثل حالهم بالتمام، وبالتالي فلا فرق بين جميع البشر فيما يرونه ويدلهم عليه تعالى ليؤمنوا به، ولا فرق بينهم فيما يرونه سيّئاً ويفعلونه، والمنتمون لدينه تعالى ليسوا محظوظين، فالفرق الأساسي بينهم وبين الآخرين هو الشرك، وها ترى بعضهم مشركٌ علناً بالثالوث "الآب والابن والروح القدس"، والكثير من علماء دينهم مشركون علناً بعبادتهم للمال، وعبادة القديسين...

باختصار ما تراه من فرق بين أمّة بوذية أو أرواحية... وبين أمّة مسلمة، ومعتبراً أن الأمة المسلمة محظوظة وستدخل الجنّة، فهذا ليس كلاماً قرآنياً، فهم في العمق مثل بعض، ففيهم المشركون وفيهم الفاسدون، وفيهم الموحدون وفيهم الصالحون.

(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً{4})

{إِنَّا أَعْتَدْنَا}، جهّزنا وحضّرنا، {لِلْكَافِرِينَ}، للمنكرين لتوحيده تعالى ولفضله عليهم، والمنكرين للآخرة... {سَلَاسِلَ}، أشياء مرتبطة ببعضها، جنازير لها حلقات متصلة ببعضها، والكلام عن ربط الكافرين بها، وأعتدنا {وَأَغْلَالاً}، أشياء يقيّد بها تعالى فيربط بها الكافرين، وأعتدنا {وَسَعِيراً}، ناراً مستعرة متأججة لأقصى الهيجان، فيصدر منها حرارة عالية وألسنة لهب طويلة وأصوات مرعبة.

هم رقابهم وأيديهم وأرجلهم مربوطة بالأغلال، والأغلال مربوطة بسلسلة لسحبهم وجرجرتهم، في مكان فيه النيران بحالة أقصى الهيجان.

(إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً{5})
الذي كان شاكراً له تعالى:

{إِنَّ الْأَبْرَارَ}، إن الذين حافظوا على الصلة، والكلام عن الذين حافظوا على صلة طيبة معه تعالى، وكمثال عن ذلك شكروه على فضله عليهم، {يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ}، يستهلكون السوائل من كوب له خصر وله قاعدة وتدخل الأصابع في الخاصرة أثناء حمله، {كَانَ مِزَاجُهَا}، المشروب الذي في الكأس كان ممزوجاً ومخلوطاً بـ، {كَافُوراً}، وهي مادة "زيت أو معجون أو بودرة..." عطرية مستخرجة من العديد من النباتات وبخاصة من نباتات الفصيلة الغارية "ورق الغار"، وله عدّة تركيبات مختلفة باللون والخصائص، والمعروف منه بيننا الآن ما نستخدمه في غسل الأموات، ولم يعد في ثقافتنا المنزلية الحالية مادة منكّهة للماء أو الطعام، وننفر من ذكره بسبب استخدامه الشائع في غسل الأموات، والرائحة غير المحببة لبعض أنواعه، أمّا قديماً كان شائعاً استعمال بعض أنواعه في الطعام والشراب والعطور، وطعمه كان مرغوباً جدّاً، ووجدته لا يزال منتسراً في ثقافات أخرى "غير العربية" كمادة منكّهة، ومادة مرغوبة لخصائصها الطبية، علماً أنه مثل غالبية بقية المواد العطرية "مستكة، محلب، لوز مرّ، مشمش مرّ..." يكون سامّاً بتركيزات عالية... وطبعاً من عموم القرآن تعلم أن ما في الجنّة مختلف تماماً عمّا في الدنيا، وهذا الشراب الذي تتحدّث عنه الآية مع مزيج الكافور مثله مثل أي تقريب آخر ذكره القرآن، فيتشابه مع ما في الدنيا ولكنه في الجنّة بصفات أعلى وأفضل بكثير من حيث الطعم...

لاحظ الآية 26 من سورة المطففين ذكرت المسك كنكهة أخرى لشراب في الجنة {خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}، وهنا في السورة سترى نكهة الزنجبيل أيضاً فراجع دراستها لمزيد من التفاصيل عن النكهات المرغوبة وغير المرغوبة بحسب الأزمنة...

ضع في بالك دائماً أن القرآن في الغالب الأعم عندما يضرب نماذجَ فهو يتحدّث عن قسمين من الناس: أقصى الكفر، وأقصى الإيمان. وما بينهما لا يتحدّث عنه لأنه لا يصلح أن يكون نموذجاً، يتحدّث القرآن عن أشدّ العقوبات لأشدّ الكفر... وأشدّ التنعيم لأشدّ الإيمان، وهكذا يصير أمامك نموذجان لتختار منهما، فيرغّبك لتكون على أشدّ الإيمان ويريك عاقبة أشدّ الكفر، وهناك آيات متفرقة أشارت لمصير الحالات الوسطية، ونبّهتهم أن لا يرضوا بأقل من درجات الإيمان العالية، لأن مصير متوسطي الإيمان في يوم الحساب غير محسوم النجاة، فلا تغامروا بمصيركم بخلط عمل صالح مع عمل طالح... وهكذا ترى هنا في السورة طرحها لنموذجٍ راقٍ جدّاً جدّاً للمؤمنين، لنكون مثلهم...

(عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً{6})
{عَيْناً}، فتحة، والكلام هنا عن فتحة ينبع منها السائل، {يَشْرَبُ بِهَا}، يقومون بفعل الشرب بـ تلك العين، {عِبَادُ اللَّهِ}، الذين مفروض منهم طاعته تعالى، فكلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك، وهنا الكلام عن الذين تصرّفوا في الدنيا على أساس أنهم عباد له تعالى، {يُفَجِّرُونَهَا}، يجعلون السوائل تخرج من تلك العين، {تَفْجِيراً}، بأتم مواصفات الخروج للسائل بقوة، فلا تخرج ضعيفة وخفيفة بل بقوّة وغزارة.

لاحظ بعض التعابير القرآنية الفصيحة جدّاً على مقياس مستعملي اللغة العربية في زمن نزول القرآن، فلو قالت الآية: عيناً يشرب منها... يفجرونها... لفهمت أنها عين واحدة، تختفي ومن ثم يفجرها الأبرار ويشربون منها. ولكنك تعلم أن

المقصود أنها عيون تنفجر بأمر من الأبرار ليشربوا منها، وتعلم أن التعبير بـ "يشرب بها" يختلف عن "يشرب منها"، الآن جرّب تركيب جملة تعطيك معنى تفجير الأبرار للعديد من العيون، وستجد أن التعبير بـ "يشرب بها" معناه أن فعل الشرب ارتبط بالعين التي يفجرونها هنا وهناك، فهنا عين فجّرها أحدهم وتلك عين فجّرها الآخر... وليست عيناً واحدة يشرب منها الجميع.

طبعاً التعبير بالانفجار لا يعني تطاير التراب والصخور، فهذا انفجار قوي للأرض، بل هو انفجار خفيف كوصف لخروج السائل بقوة من تحت الأرض، وفي العديد من الأماكن الجبلية نرى مياهاً تنبع بشكل لا يمكن وصفها إلا أنها تتفجّر، فترتفع وتنخفض وتتدفق بقوّة... وتريدك الآية أن تتصوّر الغزارة كوفرة غير عادية لما يرغب به المؤمنون لشربه، من الآية 15 من سورة محمد {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى}... نرى نماذجَ عن السوائل المتوافرة في الجنّة، وتضيف عليها نماذج نكهات المسك والكافور والزنجبيل...

نرى في الآية 60 من سورة البقرة {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً}... نرى توصيفاً لنفس ما تصفه الآية هنا، والتي لم تذكر أي شيء عن كيفية حصول تفجير السائل بأمر من الأبرار، فهل يضربون الأرض بيدهم أو بشيء أو بمجرد أن يطلبوا تنفجر... فهذا غير معلوم.

مَن في الجنّة يصدرون أمرهم فيخرج النبع من الأرض، ولكن هذا لا يعني أنهم صاروا آلهة بصفات إلهية، ولا يعني حصولهم على قدرات إلهية للتحكّم بتفجير الأرض بأمر منهم، ولذلك عبّرت عنهم الآية وهم في تلك الحالة أنهم "عباد الله تعالى"، فرغم امتلاكهم لقدرة أمر الأرض بالانفجار وخروج السائل فهم لا يزالون عبيداً له تعالى، وتفهمها أكثر عندما تقارنها مع خزعبلات يتوهمها بعض الناس الذين يقولون بأن من في الجنّة يصير بقدرات إلهية... لا، بل يبقى عبداً لو أمره تعالى بشيء ما فيجب عليه الطاعة، ولكن يصير بقدرات عالية.

(يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً {7})
{يُوفُونَ}، والوفاء هو عموم بلوغ التمام للشيء بما له من حقّ، كأخذ ما لك بالتمام وإعطاء الآخرين ما لهم بالتمام، أو كنضوج الثمر بالتمام، أو الالتزام بشيء ما بالتمام، {يُوفُونَ بِالنَّذْرِ}، بما أوجبوه على أنفسهم، ومن عموم القرآن تفهم أن النذر هو أن تقول عن شيء ما أنه واجب عليك الالتزام به من دون أي مقابل أو أي أمر من الآخرين لك، مثل نذر امرأة النبي عمران(ع) التي نذرت ما في بطنها لله تعالى ليكون عاملاً متفرّغاً في سبيل الله تعالى، كما ورد في الآية 35 من سورة آل عمران {إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي}... أو يكون هناك مقابل للنذر، كقولك نذرت لله تعالى نعجة أوزعها على الفقراء إن شفيت من المرض... وهنا الآية عمومية لم تخصّص نوع النذر ولكنها وصفت الأبرار بأنهم يقومون بالتمام بما نذروا به، طبعاً من عموم القرآن تفهم أن النذر يكون لله تعالى وحده.

{وَيَخَافُونَ}، يشعرون بخطر لا يمكن تجنّبه، {يَوْماً}، زمناً، {كَانَ شَرُّهُ}، كانت الأمور السيئة التي فيه، {مُسْتَطِيراً}، ينتشر الشرّ فيه بالعرض والطول. مثلما نقول عن الفجر أنه استطار ونقصد أن الضوء انتشر بالعرض والطول.

يشعرون أنهم إذا لم يفوا بالنذر سيتعرضون في يوم القيامة من الموت لشرّ لا يمكنهم تجنّبه لأنه شرّ متطاير يصيب كلّ من عصاه تعالى.

ننتبه جيداً، مِن بين كل الواجبات والمحرمات اختار تعالى في سورتنا هذه التركيز فقط على نقطتين، الوفاء بالنذر وإطعام المحتاجين. لم تذكر الصوم ولا الحجّ ولا برّ الوالدين... وفي سور أخرى ترى أيضاً تركيزها على بعض الواجبات والمحرمات ولا تجدها تذكرها كلّها، فانتبه دائماً أنها نماذج تتناسب مع محاور السورة التي ذكرتها، وهنا آيتنا تحدّثك عن شيء له علاقة فقط وفقط بين الناذر والمنذور له، بين الشاكر وربّه سبحانه، فتتحدّث عن نذر تحقّق فعبّر الناذر عن شكره، ووفى بالنذر، تريدك السورة أن تلتفت لعلاقة مباشرة محصورة بين العبد وربّه سبحانه، وحالة النذر تختصر كل بقية العلاقات بين العبد وإلهه، كالصلاة...

في الآية التالية تجد النقطة الثانية، تجد علاقة الإنسان الشاكر مع بقية الناس، بماذا يستفيد تعالى من إطعامك أنت للآخرين؟ لا شيء، تفهم من السورة أن شكره تعالى، الإيمان به تعالى، ليس ديناً للعلاقة بينك وبين إلهك فقط وحصراً، بل هو دين للعلاقة بينك وبين بقية الناس أيضاً، وسترى أن مقابل هذا الإطعام على حبّه تعالى، سينالون جنّة خالدة رائعة وسيكون لهم خدم يقدمون لهم الطعام والشراب... كمقابل عن إطعامهم للمحتاجين في الدنيا، هذا ما يعرضه عليك القرآن أيها القارئ، لم يعرض عليك ديناً يشمّ فيه الإله رائحة البخور فيفرح ويعطيك ما تريد... بل عرض عليك ديناً يعدك بجنّة رائعة خالدة إن ساعدت الآخرين...

هذا نموذج عن هداية السبيل، ونموذج راقٍ عن الشاكرين...

(وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً{8})
الأبرار، {يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ}، يقدمون للآخرين ما يأكلونه من أشياء أكلها مرغوب، {عَلَى حُبِّهِ}، من محبتهم له تعالى يقدّمون الطعام للناس المحتاجين، هم لا يطعمونهم للشفقة ولا ليقول الناس عنهم إن قلبهم طيّب ولا ليحصلوا على أي شيء من الذين أطعموهم... ولا ليحصلوا على الحسنات... بل حبّاً له تعالى، فهم يحبّونه تعالى ويعلمون أنه تعالى يحبّ هذا العمل ولذلك فهم يفعلونه.

يطعمون {مِسْكِيناً}، المسكين وصف لعموم من تعرّض لظروف متعثّرة وصولاً إلى الذي ظروفه صعبة، استعملها العرب لوصف الذي حالته المادية متعثرة أو معدومة، ووصفوا بها أيضاً الذي حالته النفسية سيئة بسبب تعرّضه لظروف صعبة. يُوصف بها الفقير الذي لا يملك قوت يومه ويوصف بها الذي يمرّ بظروف مالية صعبة حتى لو كان يملك بيتاً أو متجراً أو أرضاً... ولكن ظروفه متعسرة، وهذا واضح في الآية 79 من سورة الكهف {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ... وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً}، كانوا يملكون السفينة ولكن إنتاجها لا يكفي ليعيشوا بأمان اقتصادي.

ويطعمون {يَتِيماً}، شخصاً فقد أباه الذي كان يؤمّن له الطعام، ويطعمون {وَأَسِيراً}، وهو الشخص الذي تقيّدت حريته بسبب عمل عدائي قام به ضدّ المسلمين وبسبب ذلك لا يمكنه العمل لتحصيل المال ليأكل.

ننتبه جيداً، اختار بعض مفسري القرآن أن يكون "على حبّه" مقصوداً به: على حبّهم للطعام، على أساس أنهم بحاجة له ورغم ذلك أنفقوه، وهذا المعنى لا مشكلة فيه وتدعمه الآية 92 من سورة آل عمران {لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}... ولكن الآية السابقة ورد فيها الوفاء بالنذر من دون تحديد المنذور له، كما هناك فهمنا أن النذر له تعالى، فهنا نفهم أن الحبّ له تعالى، وفي الآية التالية صراحة القربى له تعالى بتقديم الطعام، وكل ذلك فيه ضمناً أنهم ينفقون مما يحبّون وليس من الفضلات أو مما يكرهون، وهذا معنى ضمني وليس معنى صريحاً، والصريح من سياق الآيات أنهم بسبب حبّهم له تعالى ينفقون لأنه سبحانه يحبّ ذلك.

ننتبه أيضاً، هذا المعنى نفهمه إذا قارنّاه مع تصرفاتنا نحن مع من نحب، مع ولدنا مع حفيدنا مع من لا نتوقّع منه أن يردّ لنا الجميل، ويحبّ شيئاً ما فنقدّمه له فقط وفقط لأنه يحبّه.

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُوراً{9})
{إِنَّمَا}، فقط وحصراً، {نُطْعِمُكُمْ}، نقدم لكم ما تأكلونه، {لِوَجْهِ اللَّهِ}، سبحانه يتوجه نحو هذا العمل بمحبة، وفقط نريده تعالى أن يرانا نفعل ما يحبّه، فلا نريد منكم، أيها المسكين واليتيم والأسير، {جَزَاءً}، أي مقابل تعطونه لنا على إطعامكم، فلا نريد منكم أن تخدمونا أو تردّوا لنا الجميل ولو بأي طريقة، ولا نريد منكم، {شُكُوراً}، حتى إعلانكم لنا واعترافكم بأننا فعلنا شيئاً جيداً معكم، حتى هذا لا نريده.

ضع في بالك دائماً أننا من عموم القرآن نفهم أن عمل الخير بنيّة القربى له تعالى سيسبّب الحصول على الأجر منه تعالى، أمّا من عمل الخير بدون نيّة القربى منه تعالى، فلماذا سيعطيه تعالى أجراً!

في الكتب كلام حول الأشخاص الذين تتحدّث عنهم السورة، والغالبية يؤيدون كونهم علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم سلام الله وصلواته، ولكن تخصيص ما عمّمه القرآن ليصير على قياس شخص ما، فهذا فيه مشكلة، لأن عموم

القرآن يطرح نماذج لتكون عمومية، حتى الحديث عن شخص النبي محمّد(ع) لم يكن إلا لجعله (ع) نموذجاً، وهنا الآيات يبدو أن مصداقها كان هؤلاء الأطهار، وتبقى عمومية شاملة لكل من يتّصف بالصفات المذكورة، ربما نزلت من بعدما هؤلاء فعلوا ما فعلوه، وربما نزلت قبل ذلك وهم كانوا مصداقاً لها، وربما نزلت بعد فعلتهم، لا يهمّ، فالآيات تتحدّث عن نماذج عمومية.

أمّا إن كان الكلام في تفسير هذه الآيات نابعاً من عصبية مذهبية، وكل مذهب يفسّرها ويؤيد تفسيره بروايات بحيث تنطبق على شخصياته الدينية الخاصّة بمذهبه، وينكر نزولها في شخصيات منسوبة لمذهب آخر على أساس أنها ستكون داعمة لأعدائه... فالشكوى إلى الله تعالى ممن تنصّبوا ويتنصّبون لمنصب عالم دين إسلامي وهم يبثون العصبية والمذهبية والفرقة بين المسلمين، فأين وجهه تعالى فيما يفعلونه؟ أليس من المفروض أن نتمثّل بصفات الأبرار التي تذكرها السورة ويكون عملنا لوجه الله تعالى؟

تصوّر قراءتنا للسورة من دون أي خلفية مذهبية أو عصبية، بحيادية، ومن دون أن يكون هناك طرف يؤثّر علينا، فمهما قلنا فلن نسمع اعتراضاً، عندها ستكون محبّاً لكل من آمن عبر كل تاريخ البشرية، ولن ترى الحسن والحسين أفضل من إبراهيم وموسى! ولن ترى عُمَرَ أفضل من محمّد وأن جبريل بالخطأ نزل على محمّد!

مع احترامنا لكل مؤمن في أي عصر كان، ومنهم بعض الشخصيات الدينية المقدسة عند المذاهب، فسورتنا هذه سواء نزلت في أهل البيت أو انطبقت عليهم وعلى غيرهم، فهذا لن يغيّر أي شيء من الحقيقة التي حصلت فعلاً، ولن يغير من فهمنا للسورة كونها تتحدّث عن نموذج راقٍ، حتى لو لم نعرف من هو، فلن يتغيّر أي شيء، نعم العصبية المذهبية تدفعنا لمعارك مع الآخرين للإعلاء من رموزنا والحطّ والتقليل من قيمة رموز الآخرين، فهي معارك تفرقة وتمذهب منعها تعالى وهدّد من يدخلها، وورد ذلك مراراً في القرآن وكمثال عن ذلك الآيات 52 و 53 من سورة المؤمنون {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ، فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}.

(إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً {10})
{إِنَّا نَخَافُ}، لدينا شعور بخطر لا يمكننا تجنّبه، {مِن رَّبِّنَا}، من المسؤول عنّا من مستوى إلهي، {يَوْماً}، زمناً لحدث أساسي، وهو يوم القيامة الذي يبدأ من ساعة إعادة إحيائنا وقيامنا من الموت، وبعده أيام محاسبتنا وصولاً إلى آخر يوم وآخر ساعة بدخول آخر واحد منّا إلى الجنّة أو النار، وهم يخافون يوماً، {عَبُوساً}، وكلمة عبس على عمومية المعنى فهي تعبير عن اللا رضا، في الإنسان يكون بزوي ما بين العينين، وفي البيئة يكون بالضباب الأسود، وفي يوم القيامة يكون بالدخان والعتمة... ومن الواضح أنه يوم اللا رضا عن العاصين له تعالى، وعملياً في ذلك اليوم يوجد الدخان والشعور بالاختناق وفيه الملائكة(ع) التي تعبس في وجه العصاة... وتهينهم وتضربهم، فهذا عملياً عبوس يوم القيامة، {قَمْطَرِيراً}، وهذه الكلمة لم ترد في القرآن إلا هنا، وخلاصة ما يناسبها هنا مما قاله الزبيدي في تاج العروس أن تكون وصفاً للضخامة في العبوس، فسياق الكلام عن يوم فيه الشدائد والويلات، وعملياً في يوم القيامة الضرب والإهانات والجوع... للعاصين.

وكما ترى فالآية تعلمنا أن لا نضمن لأنفسنا الجنّة وأن يبقى الخوف من العقاب حاضراً في بالنا.

القرآن استعمل تعابير مختلفة للحديث عن مشاعر المؤمنين، وكل تعبير كان مرتبطاً بسياق الكلام، مرّة يصفهم أو يصفون أنفسهم بالخوف منه تعالى ومن الآخرة، ومرّة بالخشية، ومرة بالحذر ومرة بالرجاء... وهذه الكلمات ليست مترادفة بل قريبة بالمعنى، استعمل القرآن التعبير بالخوف للدلالة على خطر لا يمكن تجنّبه، وهنا في السورة يقصد الأبرار أنهم لو عصوه تعالى، فلو لم يفوا بالنذر بالتمام، ولو أطعموا الطعام للمساكين رياءً، فهم أمام خطر العقاب الذي لا يمكن تجنّبه ولا بأي شكل، ولو كان التعبير بأنهم يخشون ربّهم سبحانه لكان قصدهم أن خطر يوم القيامة يمكن تجنّبه بالوفاء بالنذر والإطعام على حبّه تعالى، وكما ترى بعض الآيات تقبل تبديل كلمة خوف بكلمة خشية فيتغير معنى الآية قليلاً، ولكن آيات أخرى لا تقبل التبديل ويخرب معناها إذا استبدلت الخوف بالخشية أو الخشية بالخوف، وراجع كمثال دراسة الآية 173 من آل عمران {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً}... وغيرها العديد من الآيات التي استعملت كلمات خوف وخشية وحذر وإنذار...

(فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً{11})
{فَوَقَاهُمُ اللَّهُ}، جنبّهم وحماهم تعالى من، {شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ}، في يوم القيامة من الموت وما بعده يوجد شرّ العقاب وسبحانه وقى الأبرار من ذلك، {وَلَقَّاهُمْ}، جعلهم سبحانه يلاقون فيواجهون، {نَضْرَةً}، شعوراً بحالة نفسية وجسدية رائعة، ولقاهم تعالى، {وَسُرُوراً}، كل ما يتعاملون معه يكون على التمام بالنسبة لهم فيسبب لهم الشعور بالراحة والانشراح.

(وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً{12})
{وَجَزَاهُم}، أعطاهم سبحانه المقابل، {بِمَا صَبَرُوا}، بسبب التزامهم بالعقلانية وضبط النفس ولأنهم لم يتصرفوا بشكل غير مناسب رغم تعرّضهم لأمور عانوا من التعامل معها فجزاهم تعالى، {جَنَّةً}، مكان يوصف بروعة ما فيه من حدائق وبساتين وكل ما يسعدهم، وجزاهم تعالى، {وَحَرِيراً}، وهي كلمة لعامّة أي شيء ناعم الملمس، وفي الدنيا هنا ما نستخرجه من دودة القزّ لصنع الثياب منه فهو أبرز نموذج للثياب الخفيفة الناعمة الملمس.

كلمة حرير لوحدها ومن دون أي تفصيل، تعطيك معنى السعادة والترف والراحة بأقصى درجاتها، وعندما تسمع بأنه تعالى جازاهم بجنة وحرير، فهي مثلما نقول نحن في تعابيرنا: عايش على حرير. فهذا التعبير لوحده يختصر كل السعادة الممكن الحصول عليها، ورغم ذلك ورغم أن الآية يبدو أنها تقصده، فأهل الجنّة فعلاً لديهم ألبسة حريرية، ألبسة ناعمة سواء كانت من خيطان دود القزّ أو من أي مادة أخرى، لا فرق، وورد ذلك في الآية 33 من سورة فاطر {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ}.

(مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً{13})
{مُتَّكِئِينَ}، يلقون ثقلهم على جنبهم، {فِيهَا}، في الجنّة، {عَلَى الْأَرَائِكِ}، المفرد منها أريكة وهي الكلمة العربية لـ "كنبة، صوفا" مع يدين على طرفها للاتكاء عليهما، وقديماً لم تكن مرادفة لكلمة مسند كما هو دارج في بعض الأدبيات، فهم على الأريكة مستندون على مساند أو على يدي الأريكة. {لَا يَرَوْنَ فِيهَا}، لا يحصل للأبرار صورة محدّدة في الجنّة، لـ، {شَمْساً}، كوكباً يصدر منه الضوء القوي والحرارة، ولا يرون، {وَلَا زَمْهَرِيراً}، برداً شديداً قارساً.

يوجد في الجنّة أجواء الصيف، ولكن لا تزعجهم الشمس بضوء قوي وحرارة حارقة مزعجة، ويوجد أجواء الشتاء، ولكن لا يزعجهم البرد. فلا تنسَ أن الجنّة بوساعة كعرض دنيا المخلوقات كما ورد في الآية 21 من سورة الحديد {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}... وبتصوراتنا الحالية سيخطر ببالنا أنها كواكب، ومختلف أنواع الطقس متاح لأهل الجنّة لينتقلوا من طقس إلى آخر، ويمكنك فهمها بالتقريب مع مقارنتها بالبلدان التي لها شاطئ بطقس صيفي وخلفه جبل على رأسه ثلج، طبعاً الآية لم تقصد هذا المعنى وإنما قصدت أن أهل الجنّة لا ينزعجون من حرارة أو من نور الشمس القوية أو من البرد، وفي نفس الوقت لفتت انتباهك لوجود أماكن في الجنّة فيها طقس وبيئة مختلفة عن الأخرى، ويتنقّل فيها عامّة أهل الجنّة كما يشاؤون.

في الجنّة في مختلف بقاعها يوجد اختلاف في البيئة، ويبدو من القرآن أن في البعض من تلك البيئات يوجد شروق وغروب، وورد ذلك في الآية 62 من سورة مريم {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلَّا سَلَاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً}.

ورد في بعض أدبياتنا أنه في النار مكان بارد جداً للتعذيب، واسمه الزمهرير، ولا مستند قرآني لذلك، فكل كلام القرآن عن مكان حرارته مرتفعة بالنار، ولا إشارة لا من قريب ولا من بعيد لمكان بارد في الآخرة للتعذيب.

(وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً{14})
{وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ}، قريبة من الأبرار، {ظِلَالُهَا}، ظلال الجنّة، الحاجب للضوء كأغصان الشجرة التي عليها أوراق فهي قريبة منهم، {وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا}، ما يمكن قطفه وفصله عن تلك الأغصان فهو مذلل لهم وتحت أمرهم، {تَذْلِيلاً}، بكل ما تحمله كلمة تذليل من معنى، فلا يشتهون حبّة فاكهة من تلك الأغصان إلا وطالتها أيديهم.

تصوّرها كمن يجلس تحت عريشة أو شجرة رمان... فالأغصان تظلّله وهي قريبة منه ويمكنه بسهولة مدّ يده للحصول على الفاكهة من تلك الأغصان، أو اشتقاقاً مما سبق من تفجير العيون بأمر من أهل الجنّة فيمكن أن تتصوّر أيضاً أنهم بمجرد رغبتهم بفاكهة ما فالغصن يلتوى نزولاً ليقرّب الفاكهة منهم وهكذا يصير الوصف أنها دانية.

ضع في بالك أن كلامه تعالى عن الجنّة قصد منه تعالى أن ترى الرفاهية غير العادية فيها، فهنا كلما زاد مالنا كلما تغيرت أجواء معيشتنا، فالفقير يشتري أي لباس رخيص، والأغنى منه يختار من الثياب الرخيصة، والأغنى منه يختار من الثياب المتوسطة الثمن... وصولاً بالغنى إلى تفصيل الثياب عند مصمّم أزياء... ونفس الكلام عن الرياض والحدائق، تزيينها وهندستها وتهيئة مكان للاتكاء فيها ويكون متناسباً مع ما يحيط بالمكان من أشجار وورود... فهو ما يريدك القرآن رؤيته كرفاهية... ونفس الكلام عن نوعية الطعام وأوانيه... وسيأتيك بعض الكلام في الآية بعد التالية عن الرفاهية في أواني الشرب.

(وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا {15})
يُطافُ عليهم، يجولُ ويمرّ على الأبرار وهم في الجنّة تحت الظلال، يجول عليهم بشيء ثم ينتقل عنهم، بآنية، بإناء بوعاء صغير، من فضّة، وهو المعدن المعروف بلونه الرصاصي الفاتح ومتميزٌ عن غيره من المعادن بأنه لا يصدأ... من الآية 17 و 18 من سورة الواقعة {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ} تعلم بوجود خدم في الجنّة، ومما سيأتي في الآية 19 نفهم أن الخدم يحملون الأواني الفضيّة ويتجوّلون على الأبرار، ويطوف الخدم حاملين، {أكواب}، كبايات، وهي عامّة الأوعية الصغيرة التي نحملها باليد ونستعملها للشرب، كانت، تلك الأكواب، قواريرَ، شكلها كالأنبوب الطويل، لنقل إنها كالكباية الأسطوانية التي فتحتها بعرض إصبعين أو ثلاثٍ وطولها شبر أو شبرين.

ننتبه جيداً، فعموم مسلمي الجيل الأول لم يكونوا من أهل الترف والثراء، وعموم المنطقة العربية في حينها لم يكن فيها مترفون كُثُرٌ من الدرجة العالية، من درجة القصور... ولذلك تجد تفاسير الجيل الأول من المسلمين "وما يليهم" لبعض كلمات القرآن التي لها علاقة بالترف والرفاهية، تجد تفاسيرهم لها غير دقيقة، والأريكة والكأس والقارورة والإستبرق واللؤلؤ والمرجان... كلمات سمعوا بها ولكن الكثيرين منهم لم يروا أشياءها لأنها أشياء تجدها في القصور لا في الخيام وبيوت الطين، ولو تركوا تفسير الكلمات التي جهلوها، لوصلنا معناها الدقيق بكل سهولة ممن يعلم معناها، ولكن البعض من الصحابة والتابعين اعتمدوا التخمين فيما جهلوه، واعتبرهم من حولهم عالمين بما يقولونه، فلم يصلنا المعنى ممن يعلمه لأنه لم يكن من الصحابة "المشهورين" أو من العلماء... حتماً ستجد في زمنهم بحّاراً يعلم أن المرجان هو نبات "حيوان" بحري، ولكنهم لم يتركوا معنى الكلمة له، وخمّنوا له معانيَ عديدة يمكنك أن تقرأها في القواميس القديمة، ومن أواخر الاحتمالات لمعنى كلمة مرجان في كتاب لسان العرب: نبات بحري. وقبلها قرابة الصفحة من المعاني الأخرى! ومثلها أريكة وقارورة... سفر ودسر وإستبرق... مما صعّب علينا الوصول لمعنى دقيق للكلمة.

هنا التعبير بالأكواب القوارير، لسبب أو لآخر خمّنوا له أنها من الزجاج، ويبدو أنه من بعد ذلك درج في أشعار العرب بعد الإسلام استعمال وصف القارورة لشفافية الأكواب، ولكن كلمة قارورة قديماً كانت مستعملة لوصف الشكل الأسطواني، ولا نزال في بعض الدول العربية نقول: قارورة غاز. لأنها أسطوانية، وسترى من الآية التالية أن الكوب من فضة.

(قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً {16})
{قوارير}، أكواب أسطوانية، {من فضّة}، من معدن مرغوب لونه وأناقته ودوام لونه لأنه لا يصدأ... {قدّروها تقديراً}، الحجم والنوع والشكل... كلّه على مقدار مضبوط بكل ما تحمله كلمة تقدير من معنى. لا نجد أي أهمية للكوب الذي نشرب به، وأي شكل من أي مادة سيكون كافياً للشرب، وهذا غير صحيح، لأنك لن تشعر بالراحة لشرب الشاي بكوب معدني يحرق شفتك ولسانك، ولا ترتاح لشرب أي شيء ساخن بقارورة، والشراب البارد تجد شربه أنسب بالأكواب المعدنية، وكوب الحديد أو النحاس سيغيّر من طعم المشروب... ومن المعلوم من الدراسات أن الفضة تؤثّر بشكل إيجابي على طعم بعض الأشربة، مثلما تؤثّر الأواني النحاسية على تغير طعم الأشربة والأطعمة "لبعضها سلباً ولبعضها الآخر إيجاباً"، ولذلك عبّرت لك الآية عن تقدير قوارير الفضّة لتلفت انتباهك للعناية الإلهية بأدق التفاصيل

لرفاهية وسعادة الأبرار، ومن اختلاف أسماء الأواني التي في الجنّة سترى هذا الاهتمام حتى بهذه التفاصيل من الرفاهية والترف.

(وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً{17})
{ويسقون فيها}، في الجنّة يتم إيصال الشراب للأبرار، {كأساً}، كوباً لا خصر له ولا عروة "بلا مسكة لليد" وله قاعدة وتدخل الأصابع في خاصرته لحمله، {كان مزاجها}، كانت ممزوجة مخلوطة بـ {زنجبيلاً}، وهو نبات كالقصب يأخذون جذوره لتنكيه الطعام والشراب.

أيضاً واحدة من مشكلات فهم القرآن هي التعامل معه بمعلومات ناقصة، فنكهة الزنجبيل الآن مشهورة منتشرة بسبب الصناعات الضخمة للمشروبات الجاهزة، سواء للمشروبات الحلوة أو الغازية "صودا" أو مع ماء الشعير... وصار عامّة متوسطي الدخل من أهل عصرنا يميزون بين الشراب الحلو وبين الشراب ذي النكهة، فمن لم يعتد الرفاهية "بأقل مستوياتها" فلن يستذوق إلا الشراب الذي فيه سكّر مع أو بدون نكهة، وأي نكهة أخرى غير الحلاوة فسيجدها غريبة، ولن يجدها لذيذة، ومرّ معنا مشكلة استصعاب فهم المفسرين لمزيج الشراب بالكافور، وهنا ستجد في غالب الكتب مشكلة استصعابهم لمدح لذّة شراب بالزنجبيل، لأنه حادّ الطعم جداً، وبمراجعة دراسات النكهة والألوان وحرارة المشروب ونوع حاويته وشكلها... ستجد أن الأكثرية الساحقة من مفسري القرآن لم يعلموا بهذه المعلومات، ولم يهتمّوا بالبحث بهذا الموضوع على أساس أن كل ما في الجنّة سيكون رائعاً حتماً، فحتى لو كان رأي المفسّر أن مزيج الشراب مع الكافور والزنجبيل والمسك ليس مرغوباً له، فهذا المزيج في الجنّة حتما مرغوب، وهذا كلام صحيح، ولكن فاتهم أن الأشربة اللذيذة لا تتحدّد نكهتها بالسكر أو العسل أو الدبس فقط، أو بعصير الفاكهة فقط، فهذه لذّة الفقراء المختلفة كثيراً عن لذّة المترفين بالطعم المختلف عن الحلاوة، فهناك لذّة استذواق ما له طعم مع لذعة...

لن أطيل عليك الكلام بسبب سهولة الاطلاع على الدراسات المنتشرة عن الأشربة وطعمها ولونها وحرارتها وحاويتها... وأن الكثير من الأشربة بحاجة لأول خطوة وبعدها ستجده لذيذاً جداً، كمنقوع الشعير غير المخمّر، وعرق السوس، والتمر الهندي، والشراب بماء الزهر أو بماء الورد، أو بالزنجبيل أو القرفة، أو دبس الرمان... وأبسط ما ألفت انتباهك له في عصرنا هو نكهة الكافيين في المشروبات الغازية، فالكافيين كريه الطعم لوحده، ولكن مزجه مع الماء والسكّر المحروق "الكراميل" وغاز ثاني أكسيد الكربون... يجعل له طعماً رائعاً... وفي الأسواق مشروبات عديدة بنكهة الزنجبيل، غفر تعالى لي ولك ولكل من لم ينتبه من التعامل مع القرآن بمعلومات ناقصة عن غير قصد، وجعلنا من الشاربين لمزيج الزنجبيل في الجنّة.

(عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً{18})
{عيناً}، مكاناً ينبع منه السائل الممزوج بالزنجبيل، {فيها}، في الجنّة، تُسمّى العين: {سلسبيلاً}، وأقرب كلمة للسلسبيل هي السلاسة وسبيل، وهذا ما فهمه عامّة الأدباء من هذه الكلمة، سأستنسب السلاسة، فسائل تلك العين يكون شربه سلساً وسهل المرور في الحلق بعكس الماء الذي يشربه أهل جهنم.

لم أجد فيما لدي من مصادر أي استعمال لكلمة سلسبيل فيما وصلنا من أشعار العرب قبل الإسلام، وهذا لا يعني أن ما لدينا من أشعار العرب قديماً حاوٍ لكل كلمات اللغة العربية، لسبب أو لآخر هناك الكثير من الكلمات العربية الأصيلة التي لن تجدها في أشعارهم لأنهم لم يستنسبوا استعمالها أو لم ترد مناسبة لاستعمالها أو لم يصلنا شعر استعملوها فيه... وتجد بعد الإسلام استعمالاً مكثفاً لكلمة سلسبيل، واستعملوها بمعنى تأثروا فيه بما توارثوه من المعاني التي في تفاسير القرآن، وهذه مشكلة منتشرة في عموم الكلمات التي وردت في القرآن، فقد استعملها الناس من بعد نزوله اعتماداً على ما اشتهر من معانٍ لها في التفاسير، وبعد ذلك عادت ودخلت تلك المعاني المستحدثة على الكلام من حيث هم اخترعوا لها المعنى، وليس من أصل معناها اللغوي كما كان يستعملها العرب قبل وأثناء نزول القرآن.

ما انتقل بين الناس أنه تفسير لكلمات القرآن فقد هيمن على الفهم الصحيح لمعاني الكلمات الأصيل، فتجد في غالبية القواميس تحاشياً وتجنباً لمخالفة ما ورثناه من معنى للكلمات من تفاسير القرآن، بدل أن يصحّح اللغويون أهل الاختصاص بمعاني الكلمات، وبدل أن يصححوا ما قاله المفسرون مما هو واضح أنه تخمين أو على التقريب أو خطأ

لتفسيرهم لمعنى كلمة قرآنية، بدل ذلك جعلوا لتلك المعاني هالة القداسة وتركوها كما قيلت وأدرجوها في قواميسهم! الحمد لله لم يفعل الجميع ذلك، فهناك محاولات جبارة بذلها العديدون لتحديد معنى دقيق لمعاني الكلمات، ورغم ذلك فقد استقر في عموم ثقافتنا أن القواميس ضعيفة أمام كتب التفاسير! وهذا غير صحيح، وسترى بعد قليل كلاماً عن السندس والإستبرق يوضّح لك الصورة أكثر.

(وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً{19})
{يَطُوفُ} فيذهب ويأتي، {عَلَيْهِمْ}، على الأبرار في الجنّة، {وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ}، كائنات ولدت من شيء ما وهم دائمون أبداً على هذه الحالة، نحن نولد عادة من أم وأب، وأمّا هؤلاء فاكتفى القرآن بوصفهم بالولدان، وتحمل هذه الكلمة في ضمنها معنى حداثة السنّ، لذكر أو لأنثى بلا فرق، وهم دائمون أبداً على حالة حداثة السنّ، حيث يبقون على عمر صغير، وكما يبدو من سياق الكلام فهؤلاء هم خدم الأبرار.

{إِذَا رَأَيْتَهُمْ}، إذا صار عندك صورة محدّدة للولدان، {حَسِبْتَهُمْ}، لأول وهلة ومن دون تفكير يخطر في بالك أنهم، {لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً}، واللؤلؤ هي حبّة بحجم حبّة الحمّص، هنا في الدنيا يتم استخراجها من صدفة حيوان يعيش في الماء، وهي كروية الشكل ولونها أبيض أو عاجي "وهناك ألوان أخرى" وعليها لمعات مزيج من الألوان.

التشبيه باللؤلؤ هنا للولدان كما ورد للحور العين في الآيتين 22 و 23 من سورة الواقعة {وَحُورٌ عِينٌ، كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ}، هو تشبيه للون جلدهم باللمعات الملونة لحبات اللؤلؤ، {مَّنثُوراً}، المتوزّع بشكل عشوائي، والكلام هنا عن شيء يشبه اللؤلؤ، والوصف بالمنثور يشير لشيء نقي جداً جديدٍ لمّاعٍ تحسبه الآن انتثر من الصدف، نُثِرَ خرج حديثاً من صدفه، ألوانهم دائماً بهيّة جديدة كأنهم لؤلؤ خرج الآن من صدفه.

بالنسبة للحور والولدان هم كائنات لم تمرّ في البلاء لتتجازى بالجنّة، وبالتحليل نقول إنهم كائنات لا قابلية لهم للتكليف، ولمزيد من التوسّع حول ذلك راجع دراسة الآية 35 من سورة الواقعة {إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً}.

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً{20})
{وَإِذَا رَأَيْتَ}، إذا صار عندك صورة محددّة هناك لما في الجنّة، إذا وقعت عينك على ما هناك، {ثَمَّ} "فتحة على الثاء" {رَأَيْتَ}، الشيء الذي وقعت عليه عينك، كلمة "ثم" المستعملة هنا نشتق منها كلمة "ثمّة" للإشارة للشيء، مثلما نقول: ثمّة شجرة هناك. {نَعِيماً}، أشياء توصف بأنها نعمة بأنها جيدة ممدوحة، ورأيت، {مُلْكاً كَبِيراً}، الثري جداً عندما يكون في قصره الفخم وفي جنتّه المزينة والمرتبة، وحوله الخدم وأفخر أنواع الطعام والشراب... يشعر بأنه في ملك كبير، والآية تعكس لك هذا النوع من الشعور للأبرار في الجنّة حيث يشعرون بأنهم في ملك كبير لهم.

الجملة بترتيب تبسيطي تصير: إذا وقعت عينك على ما هناك، فهناك نعيمٌ وملكٌ كبيرٌ لتراه.

قارنها مع فقير يحلم بامتلاك بيت وحديقة، ثم قارنها بشعور من هو فرح مسرور ببيته وحديقته، الآن طبّق ذلك على ما تقوله الآية من شعور الأبرار بأنهم مالكون لهذه الروعة التي يرونها كيفما التفتوا، بعد حصول صورة لملك كبير مما رأيته و{ثَمَّ رَأَيْتَ} ما سيصير عندك صورة له أيضاً سيكون بنفس الوصف ملكاً كبيراً، بعبارة أخرى، كل ما ستراه سيتكرر وصفه بالملك الكبير، لنقل إنّ ثرياً بنى قصراً يدل على ملك كبير، ولكن الخدم طباعهم سيئة، أو الحديقة فيها عيوب، أو تلك الحديقة ممتازة والحديقة الأخرى معيوبة... هنا الآية تريدك أن تفهم أن أي شيء تراه، هنا وهناك وفيما بعد... أو كرّرت التمعّن فيما تراه وهذا المعنى تحويه جملة {ثَمَّ رَأَيْتَ}، كلّه موصوف مثل بعضه، كلّه يدل على ملك كبير.

لا يخفى عليك روعة الإحساس بملكية المكان وما فيه، ومعه الشعور بالخلود والصحّة والنشاط الدائم... هذا ما وعد به تعالى المتقين.

(عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً{21})

{عَالِيَهُمْ}، يعلو الأبرار، على الأبرار، {ثِيَابُ}، قطع "قماش أو غيره" مفصّلة على قياسهم، {سُندُسٍ}، ذات لون نقي، {خُضْرٌ}، ليست ثقيلة بل طرية، وعاليهم ثياب، {إِسْتَبْرَقٌ}، أقمشة أو غيره مما يعكس الضوء، مثل الأقمشة التي عليها بقع صغيرة وتصير براقة عند تعرضها للضوء.

تلاحظ التعبير بـ: {عَالِيَهُمْ}. وتكملة الجملة بـ {حُلُّوا}، و{سَقَاهُمْ}، فيها إشارة إلى قيام أحد ما بتلبيسهم الثياب، وضع عليهم سندساً...

{وَحُلُّوا}، أحد ما وضع عليهم الحليّ، الأشياء التي تحلّيهم، الأشياء الحلوة المنظر، {أَسَاوِرَ}، وهي شيء يطوّق معصم اليد والساعد، {مِن فِضَّةٍ}، وهو المعدن المعروف بلونه الرمادي والرصاصي ومقاومته للصدأ، وعندما نصوغ منه الحلي نصقله فيصير وجهه أملسَ نقياً لمّاعاً أو باهتاً بلا لمعة، ولكن الرغبة فيه لأن لونه لا يتغيّر، وبالدقّة الفضّة التي في دنيانا تحتاج لوقت طويل حتى يتغيّر لونها.

{وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ}، قدّم لهم المسؤول عنهم من مستوى إلهي سائلاً، {شَرَاباً}، للشرب لتناوله عبر الفم للتلذّذ بطعمه، {طَهُوراً}، خالياً من الشية، شراباً خالياً من أي طعمة غير محبوبة.

قارن هذا الشراب مع ما ذكره القرآن عن شراب أهل النار الذي ليس فيه ولا من أي ناحية أي شيء جيّد، هو حار حارق يذيب الأمعاء، وطعمه كريه جداً، ولا ينزل في الحلق إلا مع تسبيب الألم، ويبقون عطاشى بعده... وقارنها مع الشراب هنا في الدنيا والذي أحيانا تجد فيه علّة ما مانعة له من كمال المذاق الرائع، حلوه زيادة، أو لذعته قوية زيادة... وهكذا تفهم معنى الطهور لشراب الجنة بأنه من كلّ النواحي رائع.

انتبه لاستعمال كلمة طهور ومشتقاتها في كل القرآن ولا تخلط بينها وبين المعنى الفقهي الاصطلاحي في مقابل اصطلاح النجاسة للدم والبول... هنا في الآية من الواضح جداً بُعْدُ المعنى الاصطلاحي عن المعنى الأساسي اللغوي للكلمة، وهكذا كل كلمات القرآن افصلها عن المعاني الاصطلاحية.

بالنسبة للسندس والإستبرق، هما وصفان للثياب، الإستبرق وصف للقماش الذي يبرق أو عليه قطع صغيرة تعكس الضوء، والسندس وصف لنقاوة لون القماش. وعلى التخمين وبدون أي دليل قال بعضهم إنهما نوعان من الحرير، رقيق وغليظ، وقالوا كلاماً كثيراً كلّه على التخمين، وورد في استعمال العرب في أشعارهم قبل الإسلام لكلمة "سندس" كوصف لنقاوة اللون الأسود للجلد أو القماش، وفيما لدي من مصادر لأشعار العرب قبل الإسلام لم أجد استعمالهم لكملة الإستبرق "كاسم أو وصف"، فرضاً لم تكن مستعملة عندهم، أو كانت مستعملة ولم يصلنا شعر يذكرها، ربما اشتقها سبحانه من كلمة البرق، وحالياً نقول قماش برّاق، كوصف لانعكاس الضوء عنه أو عن قطع صغيرة عليه.

تلاحظ يا عزيزي ويا عزيزتي وكما ذكرت لكم سابقاً في هذه السورة، تلاحظ اقتحام المفسرين في كتبهم لمعاني الكلمات بالتخمين، وهذا شيء نقع فيه جميعاً مهما حاولنا الخروج منه، ولكن بعضنا يتهاون به والبعض الآخر يدقّق، وإن لم يجد شيئاً فعندها يخمّن أقرب المعاني، هناك شيء آخر أسوأ من التخمين، هناك اعتبار الكلمات القرآنية معرّبة، أي أصلها من لغة غير العربية وجرى إدخالها إلى العربية، وهذه بالأساس ليست مشكلة لأن كل اللغات تستورد من بعضها، ولكن هذا باب فتحوه قديماً وهم كانوا أعجز من دخوله، المصادر التي كانت بين أيديهم غير كافية للتعرّف على منشأ الكلمة من أي لغة، فإن كانت نفس الكلمة مستعملة في لغتين أو أكثر، وتلك اللغتان ليستا من نفس العائلة اللغوية، حتماً أحدهما استعملها قبل الآخر، والآخر سمعها ونقلها إلى لغته، أو اشتقها أحدهم من لغته قبل أن يشتقها الآخرون، وبعدها إما سمعوها ونقلوها إلى لغتهم، أو هم لوحدهم اشتقوا الكلمة من لغتهم وتوافق اشتقاقهم للكلمة مع الآخرين الذي يتقاربون معهم في أصل اللغة، لنقل مثلاً إنّ كلا اللغتين من أصل سرياني.

ما تجده في الكتب العربية القديمة "والجديدة المنقولة عن القديمة" حول أصل الكلمات، غالبيته على التخمين، والأكثر الغالب لما ورد في الكتب القديمة عن هذا الموضوع هو هراء وتخريف أو تخمين سيّء وليس عن دراسات علمية، جرفهم تيار حبّ التميّز، وصاروا يتبارون بلصق الكلمات العربية بأصل أجنبي! وكأن باقي اللغات أصيلة واللغة العربية تقليد ونسخ لبقية اللغات! وهم في نفس الوقت يقدّسون اللغة العربية بمفرداتها التي فيها من الغنى لدرجة وصف

الأسد والجمل والحصان والسيف... بمئات الكلمات! ولا نزال نجد بسطاء كُثراً يستهويهم نسبة الكلمات العربية القرآنية لأصل أجنبي! يفعلون هذا في عصرنا بالرغم من توافر دراسات لغوية علمية رصينة تتعارض كثيراً مع ما قيل قديماً!

سأكتفي بمثال السندس الذي ورد في أشعار العرب قبل الإسلام، ويمكنك أن تفهم من تلك الأشعار أنه وصف لنقاوة اللون، ولكن التخمين أسهل من التدقيق، وحبّ التميّز بالمعرفة التي يجهلها الآخرون أرغب من الطبيعي العادي، جعلوها كلمة من أصل فارسي وحبشي وسرياني... واخترعوا لها معانيَ ما قالها العرب وما استعملوها!

نفس الشيء فعلوه بالعديد من الكلمات، وأحيلك إلى بدائع ما قالوه عن كلمة إستبرق، ولتكن نموذجاً لك عن تخريفات بعضهم وعن قلّة رصانتهم العلمية، وستجد فيها واحداً من الآراء "لأبي حيان" يوافق ما قلناه ولكنهم لم يستحسنوه! وأيضاً ألفت انتباهك لكلمة أساور التي وردت في هذه السورة، مع احترامي الشديد للراغب الأصفهاني وأصله الفارسي، واحترامي الشديد لكتابه اللغوي المعروف بمفردات القرآن، إلا أن كلمة إسوارة ليست من أصل فارسي "دستوارة" لمجرد التشابه في اللفظ، هذا النوع من الحليّ ضارب قِدَماً في تاريخ البشر لآلاف من السنين كما يبدو من الآثار، ولو افترضت لهذا الشيء كلمة لها أصل انتشر منه لكل بقية اللغات، فيا أيها الأصفهاني المنسوب لتلك البلدة الجميلة، تخطيت اللغة التي تكلّم بها آدم(ع) رجوعاً إلى أول ما نطق به البشر من الأصوات... لأن الإسوارة كانت من عهد الإنسان القديم في يد الناس وبالتأكيد لها اسم عندهم.

(إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً{22})
{إِنَّ هَذَا}، الطواف بالشراب بأنواعه المختلفة الرائعة والخدم وروعة كل ما تقع عليه أعينهم، وشعورهم بالملك لهذه الروعة وبالخلود لجسدهم بنشاط ولكل ما يملكونه... {كَانَ لَكُمْ}، أيها الأبرار، {جَزَاءً}، مقابل ما عملتموه، {وَكَانَ سَعْيُكُمْ}، كانت أفعالكم التي قمتم بها وتقصدون منها شيئاً ما، مرّ معنا نموذج عن سعيهم حين وفوا بالنذر وأطعموا لوجهه تعالى، كان هذا العمل المقصود منه وجهه تعالى، {مَّشْكُوراً}، فلم يذهب عملكم بلا فائدة وهذا شيء تفهمه من كلمة جزاء، والمقابل الذي حصلتم عليه جعل سعيكم يوصف بأنه مشكور، ليس مذموماً وليس هباءً بلا قيمة، وعملياً يعطي الإله سبحانه لسعيهم قيمة تعبّر عن قيمة عالية لعملهم.

الكلمات التي نستعملها فيما بيننا ثم نستعملها معه تعالى، يجب أن نزيل منها ما يكون على مستوانا ومتعلقاتنا البشرية، ونحتفظ بلبّ معناها المناسب لوصف الإله عزّ وجلّ بها، الشكر واحدة من الكلمات التي تعني لنا: الاعتراف والإعلان عن جميل فعله أحد ما. ولكن من عموم القرآن تفهم أننا لا يمكننا ولا بأي شكل تقديم أي شيء له تعالى، لأنه الغني العزيز... وحتى نحافظ على هذه القاعدة العقائدية نضطر في بعض الأحيان إلى التلاعب بمعاني الكلمات حتى لا يكون وصفه تعالى بها متعارضاً مع مكانته الإلهية، وهذا سببه ضعف فهمنا لمعاني الكلمات، أنا أشكر لك ما فعلته أنت مع أخي، فأنا لم أستفد بأي شيء، ورغم ذلك أعبّر لك عن كون عملك ممدوحاً. وبهذا المعنى تفهم أنه تعالى يشكر لعباده وليس القصد أنه استفاد منهم، أو اعترف بجميل ما فعلوه معه، بل يعبّر تعالى لهم عن كون عملهم جيداً ممدوحاً ويرضى تعالى على ما قاموا به، الإله لن يقول للأبرار: شكراً. على أساس أنهم قدّموا له عزّ وجلّ شيئاً ما أعجبه أو استفاد منه... لا، وألف لا، بل سيعبّر لهم سبحانه وتعالى عن تقييمه العالي لما قاموا به من عمل جيد ممدوح، ويعطي سبحانه لعملهم أهمية عالية.

بقي شيء، ما تقدّم من أوصاف لحالة الأبرار في الجنّة هو مشهد من مشاهدها، فلا تجمد عند مشهد واحد ينقله القرآن لك، وليبقى تصوّرك مفتوحاً على حياة خالدة فيها مشاهد متنوعة، في الخيام، في القصور، في الحدائق، بين الأنهار... جلسات منفردة خاصة، جلسات عامة، حفلات... وكذلك الزينة وأنواع الشراب والطعام والثياب... فلا تجمد عند مشهد منها، فهنا نقلت الصورة مشاهد تتضمّن أكواباً من فضّة وأساور من فضّة، وفي غيرها تجد مشاهد أخرى لحليّ من ذهب... وأخرى لموائد الطعام... وغيرها للملذات الجسدية، وأخرى للمناظر والأصوات... وبعضها عن حفلات للمؤمنين كما نفهم من تعبير الآية 47 من سورة الحجر {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ}.

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً{23})

{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا}، نقلنا من العالي من السماء، {عَلَيْكَ}، أيها الرسول محمّد(ع)، {الْقُرْآنَ}، ما يمكن قراءته، {تَنزِيلاً}، مثل ضربته ضرباً، اتهمته اتهاماً... فتقصد أن الضرب لم يكن عادياً، والاتهام لم يكن عادياً، وكذلك نزول القرآن ليس نزولاً عادياً مشابهاً لأي شيء آخر ينزل، فمصدره غير عادي ومحتواه غير عادي ومن نزّله وأوصله غير عادي ومن تلقاه غير عادي، ومعلوم لك أنه نزل على دفعات منه تعالى.

الكلام السابق من أوله لآخره هو قرآن، وهو شيء يمكن قراءته وها نحن نقرؤه، وهذه المعلومات نزلت من عنده تعالى، فقيمة وصحة هذا الذي نقرؤه مستندة له تعالى.

تذكّر بداية السورة ومحور حديثها عن كون الإنسان مرّ عليه حين من الدهر لم يك شيئاً مذكوراً، ثم خلقه تعالى وهداه السبيل، وها نحن نختار إمّا الشكر وإمّا الكفر، ونتيجة الكفر الأغلال والسعير... ونتيجة الشكر الجنّة... فهذا الكلام الذي نقرؤه يستند في قيمته وصحته إلى الإله عزّ وجلّ.

بالنسبة لما تجده في بعض الكتب عن الفرق بين كلمتي نزل وتنزيل، فكلاهما وصف لعموم الانتقال من علو "مادياً أو معنوياً" إلى مكان منخفض مادياً أو معنوياً. فمعنويا نقول: نزلت رتبته العسكرية. وكلا الكلمتين "نزل وتنزيل" تتحملان معنى النزول دفعة واحدة أو على دفعات، ويتحدّد ذلك مما تتكلّم عنه، وتتحملان النظر للفاعل وحده، أو للمفعول وحده، أو للحالة. فلا فرق بالمعنى بين الأصل "نزل" وبين الاشتقاق "تنزّلٍ تنزيلٍ نزولٍ..."، خصوصاً فيما يقولونه عن الفرق بينهما في نزول القرآن دفعة واحدة أو بالتدريج على دفعات.

ما تجده هنا وهناك في ثقافتنا عن نزول القرآن كلّه من السماء السابعة إلى السماء الرابعة... ومن الرابعة جرى تنزيل القرآن "فنزل" على دفعات على الرسول(ص)، فبهذا التفصيل "وأشباهه" يقصدون تفسير كلمتي نزل وتنزيل بتوصيف مختلف للفعل، وهذا تفصيل لا ضرورة له وأصلاً لا دليل قرآنياً عليه، ويمكن فهم نزول القرآن تدريجياً على دفعات وفهم نزوله كلّه كوجهين لعملة واحدة، فبعضه نزل "تنزّل" في ليلة القدر، ثم نزل "تنزّل" بعضه في زمن بعدها... وبالنظر للقرآن كلّه جرى تنزيله "نزوله" على دفعات استمرت لقرابة العشرين سنة حتى وفاة الرسول(ص).

يبدو أن الفهم الضبابي لكلمة "قرآن وكتاب" دفع بالكثيرين للبحث عن فرق بين التنزيل والإنزال بالمعاني التي ذكروها، حيث فهموا أن كلمة قرآن تشير لكل ما بين الدفتين، لكل القرآن من أوله لآخره، وفهموا كلمة كتاب كذلك أنها تشير لكل القرآن من أوّله لآخره، وبناءً عليه أرادوا تبرير الآيات التي تذكر نزول "كتاب القرآن" على أساس أنها تشير لنزول كتاب القرآن كلّه من أوّله لآخره دفعة واحدة، ومن المعلوم أنه كلّه لم يكن نازلاً على الرسول(ص) حين جاءت الآيات التي تقول أن القرآن نزل...

بناءً على فهمهم هذا، بدأت تبزغ الآراء المختلفة لتبرير الموضوع، قال بعضهم إنه كلّه من أوّل مرّة نزل على الرسول(ع)... وبعدها عاد ونزل عليه (ع) على دفعات. وآخرون قالوا: لم ينزل أولاً كلّه على الرسول(ع) وإنما نزل كلّه من السماء السابعة إلى الرابعة، ومن هناك صار ينزل على دفعات على الرسول(ع)... وغيرها من التبريرات التي لا داعي لها، فالآية الواحدة قرآن، والسورة قرآن، والسورتان قرآن... فكلمة قرآن وصف إمكانية قراءتنا لما نزل منه تعالى، فأي تعبير يشير لنزول أو تنزيل "القرآن" فهو لا يعني أكثر من نزول شيء يمكن قراءته، فلا داعي لنفهم أن التعبير يشير إلى نزول كلّ القرآن.

كلمة كتاب تشير لعموم أي موضوع تامّ، فالسورة الواحدة كتاب، والفقرة أو الآية الواحدة من السورة إن كانت تامّة الموضوع فهي كتاب، وكلّ القرآن كتاب، وهكذا عندما تجد آية تتحدّث عن نزول القرآن أو نزول الكتاب فهي ليست بالضرورة تشير إلى نزوله كلّه، لو نزلت آية فهي قرآن، ولو نزلت آية موضوعها تامّ فهي نزول لكتاب...

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً{24})

{فَاصْبِرْ}، أيها النبي محمد(ع) فلا تفلت أعصابك وتتصرف بشكل غير مناسب أو سيّء بسبب تعرّضك لشيء غير مريح أو لا تحبّه أو تكرهه، فأنت في بيئة أناس يتصرفون على هواهم ويفعلون ما يشتهون ويخترعون العقيدة التي تناسب هواهم السيّء، فاصبر فإن السعادة التي وصفناها لك في الجنّة ستكون لك ولكل من يصبر ولا ينجرف خلف شهواته وهواه وعصبيته... {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ}، فالمسؤول عنك من مستوى إلهي حكم للمؤمنين بالسعادة الرائعة في

الآخرة الخالدة، كلمة "حكم" عندما تكون فعلاً له تعالى فهي تحمل الناحيتين من معناها، فتحمل على أصل المعنى الصوابية في الأمور وأنها حقّ عدل، وهي عموم ضبط الأمور كما هو مطلوب. وهذا أصل وأساس معنى الكلمة، وتحمل معنى الحكومة وهو معنى اشتقاقي من الحكم ويشير إلى تنفيذ ما حكم به، وتشير للسلطة على تنفيذ الحكم.

{وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ}، لا تنفّذ كلام الذين يوصفون من الناس بأنهم، {آثِماً}، شخصاً عليه تبعات ارتكاب المعاصي وهو يعلم بأنها مخالفة لأوامره تعالى وعليها عقاب، {أَوْ كَفُوراً}، شخصاً ناكراً للدين الإلهي من الأصل.

ها قد وصلك قرآن فيه الأمور الصحيحة، ومخالفتها ونكرانها لن يغيّر أي شيء، فالآخرة بجنتها ونارها، قادمة وحتماً ستحصل.

لاحظ الأمر الإلهي بالمنع من طاعة كلا الحالتين: آثماً إن أخبرته بما يقوله تعالى عن العقاب فربما يقول لك: أعلم، ولا يهمّني ولن أغيّر أفعالي. فهو يعتبر أفعاله إثماً. وحالة الكفور هو الناكر لأمور دينه تعالى، فقد يكون كفوراً ناكراً لألوهيته تعالى أو لوحدانيته أو لآخرته... فهذا لا يعتبر أفعاله السيئة إثماً، ونحن نعتبرها إثماً، وهو يعرض عليك أن تكون مثله كافراً بهذه الأمور، فلا تطعه.

لاحظ بعض الناس يتغابون ويتجاهلون الحقائق على أساس أن هذا التغابي سيغيّر الواقع! وهذا شيء منتشر في حياتنا من مستويات مختلفة، فلا تكثر من أكل السكر والدهنيات بسبب مرضك... يكون الجواب عليه: هل قطعة حلوى صغيرة ستقتلني! سآكلها ولن يحصل شيء... وننتقل لمستويات أعلى من التغابي والاستهتار، كم من الناس "المدنيين" بقوا في مناطق النزاعات العسكرية وهم يتعرضون للقصف أثناء الحروب! علماً أنهم يعلمون بما سيحصل، أو لديهم فرصة مغادرة مناطق النزاع! وتجد في القرآن تنبيهاً من التغابي والاستهتار بالمصير في الآخرة، وهنا الآية نموذج عن هذا التنبيه، لو رأيت الناس من حولك يتغابون ويتجاهلون ويتعامون عن عذاب الآخرة، ويأثمون ويكفرون، وهم يشعرون بالسعادة لأنهم غير مقيدين بأوامر الدين الإلهي، فلا تطعهم، لأن الآخرة قادمة حتماً، والشيء الوحيد الذي سيتغير إن أطعتهم أنك ستكون معهم في العقاب.

(وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً{25})
بدل أن تطيعهم وتصير آثماً أو كفوراً، اذكر اسم ربّك، استحضر في فكرك وقولك وعملك اسم المسؤول عنك من مستوى إلهي، {بُكْرَةً}، في أول الوقت، أول النهار عند الفجر والصباح، {وَأَصِيلاً}، اذكره تعالى عند الأصيل في آخر الوقت، آخر النهار قبيل الغروب، اذكره تعالى من أوّل النهار إلى آخره، وهذه الأوقات عادة هي فترة النشاط والحركة عند الإنسان، وهذا التعبير القرآني مشابه لقولنا: من الصبح للمساء، من الفجر للغروب... يعني داوم على ذكره تعالى.

طبعاً لا تقصد الآية جعلك تترك بقية شؤون حياتك لتتفرّغ للذكر بالصلاة والصوم وقراءة القرآن والأدعية، لا، ولا تقصد ما يدرج بين الناس بين الحين والآخر من حمل للسبحة وتعداد حبّاتها بالتسبيح وحتى أثناء حديثك مع المسبّح فهو لا يتوقّف عن التسبيح! أو حمل عدّاد بدل السبحة لحساب التسبيحات بالآلاف! فهذه بدعة لم يفعلها أرقى الناس إيماناً، فلم يفعلها الأنبياء ولا الرسل ولا الصالحون ولا الأوصياء... كانت حياتهم عادية مثل حياة بقية الناس، فلديهم أشغالهم وأعمالهم واهتماماتهم ورغباتهم وتساليهم... ولكن ذكره تعالى لا يذهب من بالهم.

من الآية التالية مع آيتنا هنا سترى أن القيام بالصلاة الواجبة تطبيق كافٍ لآيتنا هنا، فهو ذكر لاسمه تعالى بكرة في صلاة الصبح، وأصيلا بما مرّ من وقت صلاة الظهرين.

(وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً{26})
{وَمِنَ اللَّيْلِ}، من فترة العتمة من اليوم، {فَاسْجُدْ لَهُ}، عَبِّرْ جسدياً عن احترامك وخضوعك له تعالى، وأقصى تعبير عن ذلك أن تضع جبهتك على الأرض، والتعبير بـ: من الليل... لأنك حتماً ستنام في فترة منه وفي الفترة الأخرى قم بالسجود، فليس المطلوب أن تسجد كلّ الليل.

{وَسَبِّحْهُ}، نزّهه عن الصفات الناقصة والمعيبة والتي لا تليق به تعالى، {لَيْلاً طَوِيلاً}، الوقت ممتد لك من أول الليل إلى بكرة النهار التالي.

لاحظ، لو شخص واحد كان مؤمناً عاملاً للصالحات متقرباً منه تعالى، ولو واحد، فسبحانه يقابله كنموذج مع كل الذين كفروا، وقبل ذلك أصلاً حتى لو لم يؤمن ولا واحد من الناس من أولهم لآخرهم فسبحانه لا يهمّه الموضوع ولن يتأثّر بتاتاً، وهكذا تفهم الآيات هنا بكلامها عن النموذج محمّد(ع) كشخص مهتم بالتقرّب منه تعالى لدرجة التفرّغ للتقرب في أي وقت متاح ليس له فيه مشاغل أو اهتمامات حياتية.

دَرَجَ بين المفسرين وعامّة الناس اعتبار هذا النوع من الآيات أنه يشير إلى مواقيت الصلاة حصراً، وهذا غير صحيح، فهذا النوع من الآيات يتضمّن مواقيت الصلاة ولكنه لا يشير لها حصراً، فمن التزم بالصلاة الواجبة كان من المطبقين لأوامره تعالى في هاتين الآيتين، وعليه أن يضيف صلاة الليل "النافلة غير الواجبة" حتى يطبّق جملة: {سَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً} . ومن زاد في عبادته عن الصلاة الواجبة خلال النهار أو الليل بالدعاء والتسبيح... فهو أيضاً من المطبقين للآيتين.

سترى الآيات هنا لا تشير حصراً لمواقيت الصلاة إذا انتبهت لبعض الناس حين يقولون: ساعة لك وساعة لربّك. فتأتي عليهم أوقات يفعلون فيها السيئات وهم فعلاً يعتقدون بأنه من غير المعقول أن يكون الإنسان مضبوطاً كل يومه في كل حياته... وإذا انتبهت لبعض أهل الديانات الذين يعتقدون بأن إلههم في المعبد فقط، فعبادة وطاعة إلههم محصورة في المعبد فقط، وتصرفاتهم تشبه تصرفات المسلمات اللواتي يضعن الحجاب عند دخول المسجد، وثيابهن في حياتهن العادية غير محتشمة! وإذا انتبهت أن بعض الناس يعتقدون أن آلهتهم تنام في الليل، أو آلهتهم لا تراهم في العتمة، أو آلهتهم لا تنتبه لهم ولا تحضر عندهم إلا إذا استدعوها بطقوس دينية... وإذا انتبهت أن من ليس له تاريخ إيماني فهو يجهل صفاته تعالى، فلا يعلم بأنه تعالى معه ومع غيره وفي كل مكان وفي كلّ زمان، ومن خلال هذا القرآن علمنا بصفاته تعالى، ومن خلال الآيات التي مثل آيتنا هنا تعلّمنا أنه تعالى يقبل منّا ذكره في كلّ حين، وهو السميع البصير... فنحن دائماً تحت مراقبته.

(إِنَّ هَؤُلَاء يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً{27})
{إِنَّ هَؤُلَاء} الآثم والكفور الذين أمرناك بأن لا يكون تفكيرك وسلوكك مثلهم فهؤلاء، {يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ}، لديهم رغبة في تقدّم حصول الشيء المرغوب قبل وقته، فالقرآن وعدهم بالسعادة في جنّة في الآخرة، وهم يريدون حصول السعادة لهم الآن، ولذلك السعادة المتاحة لهم في الدنيا لا يريدون التخلّي عنها وتقييدها بترك السوء والذي بالاصطلاح الديني يصير تصنيفه بالحلال والحرام والواجب.

{وَيَذَرُونَ}، يتركون ولا يعد لهم علاقة بما، {وَرَاءهُمْ}، لا يجعلونه أمامهم، {يَوْماً}، زمناً، {ثَقِيلاً}، ليس خفيفاً، وتفهم من عموم القرآن أن المقصود هو يوم القيامة من الموت وما بعده، فهو الزمن الثقيل في حسابه وعذابه، فهم يتركونه وراءهم بلا اهتمام به ولا يجعلونه أمامهم ليتصرفوا على أساسه.

تكرر هذا المعنى في القرآن بتعابير مختلفة، فيعتبر القرآن أن من أسباب الإثم والكفر هو التعلّق بالشهوات والغرائز السيئة لدرجة رؤية الحياة فرصة لن تعوّض، فهذا ما يعتقده الكافرون بالآخرة، فما فات من لذّاتها راح، وليس هناك حياة ثانية...

فاصبر ولا تكن مثلهم محبّاً للعاجلة تاركاً غير مهتم بالآخرة، وطبعاً هذا الكلام تعليمي له (ع) وتعليمي لنا، فلا تفهم منه قلة قيمة للرسول(ع) على أساس أنه (ع) نبي رسول وشخصية عظيمة وأوّل المؤمنين... وعليه فهذا الكلام موجّه له ولكن نحن المقصودون به، لا، فهو (ع) مقصود به أيضاً، أساساً هو (ع) تعلّم دينه من هذا القرآن ومن أمثال هذه الآيات، وهذا ما تعنيه الآية 7 من سورة الضحى {وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى}، وهو (ع) نموذج لنا كمؤمنين مثلما هو مطروح كنموذج إيماني للكفّار، فهو (ع) شخص وبكل سهولة التزم بالتمام بدينه تعالى.

(نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً{28})
{نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ}، ركّبناهم وألّفناهم من المواد، وتذكّر ما ورد في بداية السورة عن كون الإنسان لم يكن شيئاً مذكوراً وبعدها خلقه تعالى، {وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ}، أسرهم، ما هو مرتبط ببعضه ليكون إنساناً شددناه، من ترابط المواد التي يتألّف

منها الجسد إلى ترابط الخلايا وترابط الأعضاء وترابط كلّ ذلك مع الوعي والفكر... وهذا التعبير شبه مرادف لأحسن تقويم الذي ورد في الآية 4 من سورة التين {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}، ومشابه لتعبير الآية 2 من هذه السورة {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً}.

{وَإِذَا شِئْنَا}، أمامه تعالى خيارات عديدة وقد خلق هذه البشرية ويمكنه أن يقرر غير ذلك، فلو شئنا، {بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ}، لخلقنا مخلوقات تشبههم بالصفات البشرية بشكل مطابق أو كائنات بصفات أخرى... ونهديهم السبيل، فتحلّ تلك الكائنات محلهم، {تَبْدِيلاً}، بكل ما تحمله كلمة تبديل من معنى فلا يبقى منهم أي أحد، وتلك المخلوقات البديلة أيضاً سيكونون في نفس الحالة، إمّا شاكراً وإمّا كفوراً، فبالنسبة له تعالى لن يتغيّر أي شيء، ولكن بالنسبة لنا فكنّا سنتوقف عن التكاثر ومن كان سيأتي بعدنا من الناس من نسلنا وبوعيه الخاص به، فلن يأتي.

تفهمها أكثر إذا التفتّ لما يقوله بعض الناس إنّ الإله بحاجة لمخلوقاته، فهو بحاجة لنا، فيحتاج لوجودنا ولعبادتنا له ولدعائنا له... حتى يكون له قيمة، فبدوننا لا قيمة للإله... وآخرون يقولون إنّ الإله يفرح بنا فنحن لعبته المفضلّة، ويتسلى بنا ولا يمكنه الاستغناء عنّا... وآخرون يظنون أنفسهم متدينين بل يظنون أنفسهم وحدهم المتدينين العارفين بالإله فيقولون إنّ الإله لديه حاجة بنا، فهو يحبّ أن نعرفه، ويحب أن نرى جماله وعظمته... فتأتي الآية هنا وأمثالها من الآيات لتنبّهنا أنه تعالى ليس بحاجة لنا ولا بأي شكل، ولسنا نؤثّر عليه تعالى ولا بأي شكل.

ضع في بالك أن الآية هنا مع سياق السورة تريدك أن تفهم أنه تعالى خلقنا بالمواصفات التي نحن عليها، ولو شاء لبدّلنا فخلق مخلوقات أخرى بنفس مواصفاتنا من تمييز الخير من الشرّ وحرية الإرادة، فهل أتى على "الإنسان" حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً... نعم، ويمكن أن يأتي زمن لا يكون لنا فيه أي ذكر "وجود"، ولا يخرج ولا واحد منّا إلى الوجود، ويكون بدلاً منّا كائنات أخرى، سواءٌ كائنات بشرية أو من نوع آخر...

وها قد صار لبّ السورة واضحاً أمامك، فمن أين جئت إلى الحياة بوعيك الخاص بك؟ فلو تفلسفت وبرّرت بأي طريقة لوجود جسدك، فماذا عن وعيك أنت أنت؟ فمن أين لك هذا الوعي الخاص بك المختلف عنّي؟ وهل انتبهت أن الذي خلقك يمكنه استبدال خلقك بكائنٍ آخر له وعي مختلف، وأنت تبقى لا شيء، فتبقى غير مذكور.

(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً{29})
{إِنَّ هَذِهِ}، المعلومات التي وردت في هذه السورة، {تَذْكِرَةٌ}، شيء تستحضرونه في فكركم وقولكم وعملكم، {فَمَن شَاءَ}، من وصلته هذه التذكرة فلديه خيارات، وإذا قرّر، {اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً}، جعل لنفسه مسلكاً يوصله إلى المسؤول عنه من مستوى إلهي، وهو الإيمان بالحقّ وفعل الصالحات.

طبعاً مرّ عليك في هذه السورة من أولها، وتجده متفرقاً منتشراً في عموم القرآن، أننا نشاء الشكر له تعالى، أي الإيمان به وصولاً إلى التعبير عن شكره... أو الكفر، وهناك عواقب لكل خيار، فبعض الناس يفهم هذه الآيات بسذاجة، فيفهمها تخبره أنه حرّ ويمكنه فعل ما يشاء، وهذا صحيح ولكن بقية الآيات تخبرك عن تحمّلك لعواقب ما اخترته.

(وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً{30})
{وَمَا}، ولستم، {تَشَاؤُونَ}، تقررون من الخيارات المتاحة لكم، {إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ}، ومعلوم أنه تعالى شاء منحنا حرية الإرادة لنشاء، وشاء تركنا نختار ما نريد حتى لو كان الكفر به سبحانه، فأنتم ليس لديكم قدرة ذاتية منفصلة لتشاؤوا، فأمامه تعالى خيارات عديدة، فيمكنه سبحانه ترككم تشاؤون، ويمكنه تعالى إجباركم لتتصرّفوا كما يريد وتكونوا بلا مشيئة، ويمكنه تعالى أن يحدّد لكم ما تشاؤون... فالإله سبحانه وحده يشاء ما يشاء بلا أي سلطة فوقه، أمّا البقية فيشاؤون إن شاء تعالى، فإن قرر ترككم يشاؤون.

تفهمها عندما تنتبه للناس الذين يشعرون بالعظمة، فهم يتمتعون بحرية الإرادة، بحرية المشيئة، ويمكنهم اختيار الإيمان بأي دين أو شريعة يريدونها، ويمكنهم أن يكفروا... فيشعرون أنه لا يوجد قوّة فوقهم، ويشعرون بمطلق الحرية، وعملياً فهم يشعرون بمستوى إلهي من الإرادة! وهذا شيء نبّهنا عليه القرآن مراراً وتكراراً، شاء الإله سبحانه تركنا نشاء،

ويمكنه تعالى جعلنا كالآلات فيبرمجنا لنصير مجبورين على الإيمان، فنصير بلا إرادة، ويمكنه منعنا من فعل أي شيء، ويمكنه...

{إِنَّ اللَّهَ}، إن صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {كَانَ عَلِيماً}، فيوصف بأنه يعلم كلّ شيء، وهنا بالتحديد الكلام عن استناد كل ما يشاؤه تعالى لعلم، {حَكِيماً}، فيرى الصوابية في الأمور وقراراته وأفعاله كلها على الصوابية، فلا يعبث ولا يلعب فقراراته وأفعاله كلها متقنة وحقّ ولا يوجد فيها سوء، وبالتساهل نقول بأن أفعاله تعالى لها غايات وأهداف سامية ولكن بالتدقيق ترى أنه لا معنى للأهداف والغايات بالنسبة له سبحانه، فلا يفعل لغاية له سبحانه. والكلام هنا عن منح البشر حرية الإرادة، فعن حكمة شاء تعالى جعلنا بحرية إرادة.

تفهمها أكثر إذا التفتّ لما يقوله البعض عن مفاجأة حصلت له تعالى من بعدما خلقنا، فالكثيرون منّا لم يؤمنوا به! على أساس أنه تعالى كان يتوقّع أن نكون شاكرين له على خلقنا بهذه الصفات الرائعة، لا، فقد كان تعالى عليماً، سلفاً كان يعلم بأن الأكثرية لن تؤمن وسيكفرون وقد ورد ذلك مراراً في القرآن ومنه ما ورد في الآية 7 من سورة يس {لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}، ولكنه تعالى حكيم فقراراته وأفعاله صائبة على الحقّ، فرغم علمه بكفر الأكثرية فخلقه لنا كان عملاً صائباً.

أيضاً تفهمها إذا خطر ببالك أنك لست مرتاحاً لهذه الحياة التي تتقيّد فيها بأوامر الدين وتعيش تحت التهديد بعذاب خالد في الآخرة، فلا ترى الحكمة من خلقك في ظروف كهذه... ولا ترى الحكمة من خلق مليارات الناس التي ستدخل النار... وهذه وجهة نظر من يريد العاجلة، الآثم والكفور، الذي يريد الثروة ولو سرقها واغتصبها أو حرم الفقراء منها... ويريد السلطة حتى لو حرم الآخرين من حريتهم... بل ويصل فيها إلى حدّ استعباد الآخرين...

بعضهم يقول: لا، أنا لست مجرماً، فأنا فقط أريد حريتي ولا أريد التقيّد بالدين الإلهي. فليخبرنا عن شيء قاله هذا القرآن وهو لا يحبّه ويراه مقيّداً له؟ الزنا أم الغيبة أم السرقة أو عقوق الوالدين أو التعدّي على الآخرين أو المنع من اختراع آلهة... فأي شيء ورد في القرآن ولا يراه مناسباً؟ إن لم أكن حكيماً في التصرّف بكياني فهذه مشكلتي وليست مشكلة فيمن خلقني. وإن لم نكن حكماء في التصرّف مع بعضنا، فنعتدي ونقتل ونغصب ونهين... فهذه مشكلتنا وليست مشكلة فيمن خلقنا.

(يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً{31})
العليم الحكيم، {يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ}، فأمامه تعالى خيارات عديدة، وقد أخبرنا عن قراره بإدخال الأبرار في رحمته، في عنايته التي فيها مصلحتهم.

{وَالظَّالِمِينَ}، الذين لم يكن معهم حق حين اختاروا الكفر لأن الإيمان واضح، فلم يكونوا منصفين ولا عادلين حين اختاروا الكفر، {أَعَدَّ لَهُمْ}، جهّز وحضّر لهم تعالى، {عَذَاباً أَلِيماً}، ضرراً لا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه.

انتبه لبعض ما تجده في الكتب من كلام حول مشيئته تعالى، وانتبه لما يخطر ببالك بضبابية ومن دون تفكير حول هذا الموضوع، فعبارة: يدخل من يشاء في رحمته. لا تعني أبداً أنه تعالى قد يقرر جعل فرعون وقارون وهامان وأبي لهب وقوم النبي نوح(ع) الكافرين... في رحمته ويدخلهم إلى الجنّة، فقد قال بعضهم إنّه تعالى حرّ ويفعل ما يشاء ويمكنه أن يقرر إدخال كافر ما إلى الجنّة! فهذه سخافات وقلّة فهم وترهات، فتكملة الجملة هنا: والظالمين أعدّ لهم تعالى عذاباً أليماً. وأشباه هذه الجملة منتشرة في القرآن، والعليم الحكيم هل يلعب ويرمي المؤمن في النار ويجعل الكافر في الجنّة! وراجع الآيات 38 وما بعدها من سورة الدخان {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ}. وراجع الآية 35 و 36 من سورة القلم {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}، والآية 28 من سورة ص {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}.

أساس هذه المشكلة بدأ من التفكير السطحي والتعامل الساذج مع كلامه تعالى، فسبحانه مشيئته مطلقة ويمكنه تعالى أن يفعل ما يريد، ولكن من أين لكم الفلسفة عليه تعالى بعدما أخبركم بما قرّره وبما يشاء وبما يريد؟ فهل تجد في القرآن

كلّه آية واحدة صريحة بأنه تعالى سيغيّر قراره؟ أو قد يغيّر قراره ويرمي مؤمناً ما في النار؟ أو سيجعل كافراً ما في الجنّة؟ فهل في القرآن آية تفيد بذلك؟ فطالما أخبركم تعالى بما قرّره وشاءه فلماذا قلتم ما لم يقله تعالى!

يقولون إنّه تاريخياً جاء علماء السوء بهذا الكلام ليبرّروا للملوك والحكّام الفاسقين أعمالهم السيّئة، فيقول هؤلاء العلماء للناس: لا تخالفوا أوامر الحاكم أو الملك أو الرئيس... حتى لو كان فاسقاً يرتكب السيئات... فأنتم لا تدرون إن كان تعالى في الآخرة سيجعله من أهل الجنّة، فسبحانه يشاء ما يشاء... وحالة علماء السوء شيء نراه منتشراً عبر التاريخ وفي كل العصور، ولكن دعك من التاريخ وانظر للشخص الذي يقول هذا الكلام، وابحث عن سلوكه، وستراه حتماً منحرفاً يرتكب السوء ويتغابى ويستغبي الآخرين ويقول: حتى لو ارتكبت السوء فاحتمال دخولي إلى الجنّة وارد، ولو التزمت بالدين فاحتمال دخولي إلى النار وارد، فلأتصرف على راحتي وأفعل ما أحبّه من سوء...! وهكذا يبرّر لنفسه فعل السوء باختراع عقيدة يلصقها بالقرآن!

سورة المرسلات (77) ص 580
تأكيدات بعدها الجواب بوقوع الوعد، والويل للمكذبين بالوعد، بعدها لفت انتباه المكذبين للدلائل على إمكانية تحقيق الوعد بإعادتهم إلى الحياة فعلى ماذا التكذيب بذلك وهو وعد إلهي؟

فرقها عن بقية السور التي تمحورت حول إنكار الآخرة هو تركيزها على التصديق بالآخرة كونها وعداً إلهياً، ولا ترى فيها شيئاً آخر غير وصفهم بالمكذبين، وإشارةً لكونهم مجرمين، وليسوا متقين، ولم يركعوا، بدون أي تفاصيل أخرى، فهناك سور تحدثت عن منكري الآخرة المشركين به تعالى، مع تفاصيل عن شركهم، وسور عن الطغاة المنكرين للآخرة مع تفاصيل عن طغيانهم، وسور عن المتعجبين من التدخّل الإلهي بنا... أمّا هنا ففقط وفقط توجّه السورة كلامها للمكذبين بالوعد الإلهي بحصول الآخرة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً{1})
{وَالْمُرْسَلَاتِ}، تأكيداً بأشياء يتم إرسالها، والإرسال وصف لعموم إطلاق شيء من كمون، فيكون الشيء كامناً ويجري إطلاقه، ومن تكملة الآيات تفهم كلامها عن ملائكة(ع) جاهزة ويرسلها تعالى كناقلة للوحي من السماء إلى الرسول محمّد(ع)، {عُرْفاً}، بالتتابع ملاك يتبعه ملاك، مجموعات متتابعة مع بعض.

من الآية 97 من سورة البقرة "قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ ..." نفهم أن الملاك جبريل(ع) هو الناقل الأساسي للوحي منه تعالى إلى رسوله محمّد(ع)، ووصفته الآية 193 من سورة الشعراء بأنه(ع) روح "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ"، وتحصل عملية النقل بمرافقة عدد كبير من الملائكة(ع) للملاك جبريل(ع)، ونقرأ ذلك في الآية 2 من سورة النحل "يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ...". وتجد في سور أخرى تفاصيل حول هذا النزول، والملائكة(ع) أمينة ولديها القدرة على نقل الوحي بالتمام كما هو بدون أي خطأ، والملائكة(ع) أقوى من بقية الكائنات التي خلقها تعالى فلا أحد يمكنه اعتراض طريقها، ولا أحد يمكنه التلاعب بمحتوى الوحي...

ضع في بالك أن السورة تفترض وصول هذه المعلومات عن الملائكة(ع) وصفاتها وقدراتها وكيفية نزول الوحي إليك من سور سابقة، ولفتت السورة هنا انتباهك للتأكيد على وقوع يوم القيامة بلفت انتباهك لمن نقل إليك هذا الخبر، وتفهمها بسهولة إذا كان ناقل الخبر عن يوم القيامة شخصاً كذّاباً، أو شخصاً صادقاً ولكنه إذا تعرّض للضغط فسيخاف ويكذب، أو شخصاً صادقاً ولكنه وثق بكاذب ونقل لك الكذب... فتؤكّد سورتنا لك صحّة الكلام عن يوم القيامة بالنظر إلى القدرات العالية جدا للملائكة(ع) الناقلة لهذا الخبر، وبالتالي فالذي خلقها بقدرات عالية وجعلها رسلاً فقدراته فائقة.

بقي شيء نتذكّره دائماً، في العديد من اللغات يوجد لديهم تذكير وتأنيث لفظي، والذكر والأنثى يكون حقيقياً في الحيوانات والنباتات، ولا معنى له في الأشياء، ولكن الكلمات التي نسمّي بها الأشياء، فهي الكلمات يستنسب أهل اللغة أن تكون مذكّراً أو مؤنّثاً، فهذه الشمس، وهذا القمر. كما ترى فلا الشمس أنثى ولا القمر ذكراً، ولكنك كناطق باللغة العربية تستنسب التعامل مع هذه الكلمات بالمذكّر والمؤنّث اللفظي، وفي اللغة الفرنسية وغيرها تجد نفس الشيء،

والملائكة(ع) ليسوا ذكراً ولا أنثى ولا خنثى... فهم كائنات لا تتوالد ولا تتكاثر وليس لديهم شهوة ولا غريزة ولا أعضاء جنسية، ولكن كلمة ملائكة لفظها مؤنّث، مثل لفظة مدفأة، ملعقة، طاولة... وحتى كلمة "رجال" لفظها مؤنّث، فتقول: هذه الرجال الشجعان، فهنا الكلام عن الملائكة بجمع المؤنّث السالم فهو تابع لتأنيث لفظ كلمة ملائكة.

(فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً{2})
{فَالْعَاصِفَاتِ}، المارّات بسرعة وقوّة تسبّب تحرّكاً لما تمر به، {عَصْفاً}، بكل ما تحمله كلمة عصف من معنى، بأقوى ما يكون من تحريك، وورد في القرآن: الريح عاصفة. ولم يرد عاصفة لوحدها، مما يشير لكون العصف صفة غير مختصة بالريح وتدل على شدة المرور بالسرعة أو القوة بقابلية تحريك أو تكسير ما تمر به.

فالملائكة(ع) التي يُرْسِلها سبحانه عاصفة لما في طريقها.

(وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً{3})
{وَالنَّاشِرَاتِ}، اللاتي ينشرن فيقمن بتفريق شيء عن شيء كامن، {نَشْراً}، فيقمن بالنشر بالتمام كما هو مطلوب.

وأيضاً من عموم القرآن تعلم أن المعلومات التي صارت وحياً كانت كامنة في الكتاب الأساسي وسبحانه أرسل الملائكة(ع) لنشرها، وهنا الكلام بالتحديد عن نشر هذا القرآن على الرسول محمّد(ع)، وبالتحديد أكثر لمحور سورتنا هنا، فهو نشر المعلومات عن يوم القيامة والحساب.

(فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً{4})
التفريق هو إبعاد أشياء عن بعضها حتى تصير بلا تماس، وعموم استعمال القرآن لكلمة فرقان، يفرق... تفهم منها قصدها الفرق بين الحقّ والباطل، فالذي تنشره الملائكة(ع) هو الحقّ الذي يفرق عن الباطل، {فَرْقاً}، فما يفعلونه يوصف بأنه تفريق بالتمام بين الحق والباطل، بأتم مواصفات التفريق، فيصير هذا واضحاً لوحده، والآخر واضحاً لوحده.

(فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً{5})
{فَالْمُلْقِيَاتِ}، اللاتي يلقين، فيتركن شيئاً ليصير عند الآخر، فالإلقاء يستدعي وجود طرف آخر، وإلّا فهو عموم الرمي.
{ذِكْراً}، شيئاً ليتم استحضاره في الفكر والقول والعمل، وهو الوحي بهذا القرآن فيلقونه على الرسول(ع) وهو ذكر له(ع) ولنا، لنسمعه أو نقرؤه فنستحضره كمعلومات في فكرنا ويكون منهاجاً لنا في عملنا وقولنا.

ما تجده في مختلف كتب التفاسير عمّا سبق من آيات، وبعضها مخالف لتفسيرها كأوصاف للملائكة(ع)، فآيتنا هنا بشكل واضح تفهم منها أن ما سبق كان وصفاً للملقيات ذكراً، وهذا لا يتحمّل إلا أن تكون أوصافاً للملائكة(ع).

(عُذْراً أَوْ نُذْراً{6})
وهذا الذكر:

{عُذْراً}، أمور تتيح لمن اتّصف بها أن يكون غير ملوم، فالعذر عامّة أي سبب يتيح لك فعل شيء بدون ملامة أو عتب أو مطالبة الآخرين لك.

{أَوْ نُذْراً}، خبر عن شيء سيء قادم بالتأكيد بسبب توافر ظروف حصوله.

كلّ ما يفعله المؤمنون الملتزمون بما يقوله القرآن، فهم معذورون فيه أمامه تعالى، فلا لوم ولا عقاب... وفي مقابلهم هناك من هم في حالة استحقاق العقاب بسبب أعمالهم السيئة، فينذرهم هذا القرآن مما هم فيه ومن النتيجة.

ضع في بالك دائماً الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى معانيَ قرآنية رائعة، فتصوّر شخصاً أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، فهنا تحذّره من سلوك الطريق السيئ، فهو حالياً ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية

"وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ..."، والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران "لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ...".

أمّا إذا سلك طريق الخطر، فتنذره، لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. فالإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتماً ما يضرّه، فتنذر الكافر حيث هو في حالة ستسبّب له العقاب حتماً، وورد هذا كثيراً في القرآن. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يتلبّس بما سيسبّب له الضرر، فتحذّر المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

وهذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، فقد يقوم المؤمن بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، فتنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة المسيحيين المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف "وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا"، وعموم المؤمنين المشمولين بالتهديد من فكرة فعل السيئات على أساس أن يحمل أحد ما السيئات عنهم "وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ"، والمشمولين بالتهديد إن لم يتغيّروا نحو الأحسن موعودون بالمغفرة كما ورد في الآية "إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ"، ونفس المفهوم في الآية 45 من سورة النازعات "إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا".

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ{7})
كل ما سبق كان تأكيدات لـ: إنّما، إنّ ما، إنّ الذي، توعدون، فقيل لكم إنّه سبحانه سيفعله، لواقع، فسوف يحصل حتماً.
ستعلم من تكملة السورة أنّه الوعد الإلهي بقيامنا من الموت ومجازاتنا على أعمالنا.
تأكيداً بالملائكة الناقلة للوحي منه تعالى، ومضمون الوحي عذراً أو نذراً من الآخرة، فهذا وعد منه تعالى، وسيحصل حتماً.
هكذا ترى أن التأكيدات السابقة مشابهة بشكل ما لرفع اليد بالقبضة تهديداً بالضرب، مع القول: والله سأضربك. تريه ما ستضربه به. هنا الكلام السابق عن الملائكة التي أوصلت وعده تعالى لنا بإعادتنا للحياة في الآخرة، ووصفها بالمختصر بأنها عاصفة، فهو كافٍ للانتباه للقدرة الفائقة للخالق لكائنات بقدرات عالية، وبالتالي فهذا الوعد منقول عن كائنات بقدرات عالية أرسلها إله بقدرات فائقة، فما معنى تكذيب هذا الكلام؟
العديد من سور القرآن كانت افتتاحيتها تتضمّن كلاماً عنه تعالى أو وصفاً له سبحانه، وترى من ذلك قصده تعالى أن ننتبه ونعرف أننا أمام كلام الإله عزّ وجلّ، على معنى: انتبه لحجمك وانتبه لقائل الكلام الذي تقرؤه.
متى سيحصل الوعد بمجازتنا بعد قيامنا من الموت؟

(فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ{8})
{فَإِذَا النُّجُومُ}، الأجرام التي في السماء، النقاط البيضاء التي نراها ليلًا في السماء، {طُمِسَتْ}، هي لا تزال موجودة ولكنها مطموسة فلم يعد أثرها يظهر، وهذا يحصل إذا اختفى ضوؤها، بسبب انطفائها أو ستر شيء لها أو انفجارها...

هذه الظاهرة تُعْلَمُ من القرآن أنها حالة انتهاء الدنيا بتبدّل السماوات والأرض لتتشكّل الآخرة.

ضع في بالك دائمًا أن كلمة نجم أو نجوم، بحسب استعمال القرآن واستعمال العرب لها في أشعارهم قبل الإسلام، تشير لأي جرم، لأي شيء، له مكان في السماء، سواء أكان منيرًا بذاته مشتعلًا كشمس، أو غازيًّا ساخنًا، أو كان صلبًا يعكس ضوء غيره كالأرض والمشتري... وعلى هذا المعنى الوصفي استعملها القرآن واصفًا الملاك في السماء كما فهمنا من أول آية من سورة النجم {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى}، وما هو دارج حاليًا من تصنيفات فلكية جَعَلَ كلمة نجم اصطلاحًا لما يشبه شمسنا وجعلت الكوكب لما يشبه أرضنا والمشتري... بينما كلمة كوكب قديمًا كما تجدها في أشعار العرب قبل الإسلام كانت في الأصل لوصف عموم أي شيء مضيء في السماء، فلا مشكلة في وضع الاصطلاحات، ولكن لا تخلط بينها وبين المعنى القديم للكلمة.

(وَإِذَا السَّمَاء فُرِجَتْ{9})

السماوات الآن هنّ سبع سماوات طباقًا فوق بعض كما ورد في الآية الثالثة من سورة الملك {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}، وسماؤنا الآن ما لها من فروج (شقوق) كما ورد في الآية 6 من سورة ق، وآيتنا هنا تتحدّث عنها حين تتبدّل السماوات والأرض قبل وأثناء يوم القيامة، وأثناء هذا التبدّل سيصير لسمائنا فروج، ستصير فيها فتحات تنبثق منها السماوات الأخرى والملائكة(ع)... وتتشقّق كما ورد في سورة الرحمن الآية 37 {فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ}، وغيرها... وتصير أبوابًا كما ورد في الآية 19 من سورة النبأ {وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا}، السماء الدنيا لن تبقى كما هي بل ستتبدّل وينبثق منها شيء آخر، حيث إن السماوات الأخرى ستدخل في سمائنا ونصير نحن والملائكة(ع) والجنّ تحت سماء مختلفة عن السماوات التي في الدنيا، وليس معلومًا إن كانت ستصير سماء واحدة أو ترجع سبع سماوات.

(وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ{10})
{وَإِذَا الْجِبَالُ}، الأكوام الضخمة العالية من الصخور والتراب التي على سطح الأرض، {نُسِفَتْ}، صارت فتاتًا وقطعًا صغيرة. تَعْلَمُ من بقية القرآن أن الجبال تنهار وتصير مستوية مع سطح الأرض كما تقرأ في الآية 107 من سورة طه {لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا}.

أشار القرآن مرارًا لانهيار الجبال ردًّا على المنكرين للآخرة الذين يرون الجبال ككيانات ضخمة توحي بأنها ستبقى، وبالتالي يستبعدون أي كلام عن تبدّل الدنيا، راجع كمثال الآية 105 من سورة طه {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا}.

(وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ{11})
{وَإِذَا الرُّسُلُ}(ع) من الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى لينقلوا كلامه إلى الناس، {أُقِّتَتْ}، جرى تحديد وقت مُحدَّد لكل واحد منهم، ومن عموم القرآن ومن محور سورتنا هنا تَعْلَمُ أن هذا التوقيت لكل واحد من الرسل ليقف ويشهد في يوم القيامة على الناس الذين أخبرهم بوجود يوم للحساب وأنكروه.

الرسول محمّد وعيسى وزكريا وإلياس وموسى... عليهم صلوات الله تعالى، نقلوا رسالته تعالى للناس، وأخبروهم عن يوم القيامة، وهناك من آمن وهناك من كفر، وفي يوم القيامة من الموت لكل رسول منهم وقت محدّد ليقف ويشهد أن الكلام الإلهي عن يوم القيامة وصل للناس.

ننتبه جيدًا، السورة تقول عن المنكر ليوم القيامة: ما عذره لإنكاره لها؟ نتذكّر السورة من بدايتها إلى هنا وما يليه، الكلام عن يوم القيامة صادر منه تعالى، نقلته الملائكة(ع) إلى الرسل، والرسل نقلوه للناس، وجلّ جلاله الإله الأحد بالصفات الفائقة لا يكذب ولا يبالغ ولا يرمي الكلام كيفما كان، فوعده بحصول يوم القيامة وعد حقّ سيحصل حتمًا، والملائكة(ع) بقدراتهم العالية جدًا وبالأمانة المعلومة عنهم نقلوا هذا الخبر إلى الرسل(ع)، والرسل (محمد، عيسى، يحيى، زكريا، إلياس... عليهم السلام) شخصيات نادرة من الناس في سلامة القلب، أي في سلامة الفكر والنفسية، وهم لا يكذبون ولا يبالغون ولا يخونون... فالذي لا يؤمن بيوم القيامة من سيتّهم بالكذب؟ أيٌّ من هؤلاء (سبحانه، أو الملائكة، أو الرسل) يوجد احتمال أن يكذب أو يبالغ أو يتوهم؟

المشهد الذي تنقله الآية 109 وما بعدها من سورة المائدة {يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} وصولًا للآية 116 {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}، هو من المشاهد التي تتحدّث عنها الآية هنا، فللرسل موعد ليشهدوا على عموم ما فعله أقوامهم، ومنه إنكار أقوامهم لوعده تعالى بحصول الآخرة.

(لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ{12})
الرسل(ع) حين كانوا في الدنيا، كان مخططًا لهم وقتٌ في الآخرة ليقفوا ويشهدوا فيه على الناس، ليشهدوا أنهم نقلوا لهم الخبر الإلهي عن يوم القيامة، وهذا الوقوف له وقت محدّد:

{لِأَيِّ يَوْمٍ}، لأي زمن، {أُجِّلَتْ}؟ لم يعجّل تعالى وقوف الرسل(ع) ليشهدوا على الناس بل أجلّه تعالى ليوم القيامة كما سترى من تكملة الآيات، وتعرض عليك السورة هنا هذه المعلومة بصيغة السؤال حتى تلتفت لأهمية الموضوع.

(لِيَوْمِ الْفَصْلِ{13})
أجّل تعالى وقوف الرسل(ع) للشهادة:

{لِيَوْمِ الْفَصْلِ}، لزمن يحصل فيه إبعاد شيء عن شيء، ومن عموم القرآن تَعْلَمُ أنه الفصل لما كان ممتزجًا مبهمًا، وهو الحقّ الذي مزجوه وأبهموه بالباطل، فهناك زمن سيكون الانفصال بين الحقّ والباطل واضحًا.

عمليًا في يوم القيامة، ستظهر سيئات الأعمال التي سببها الباطل الفاسد وتظهر حسنات الأعمال التي سبّبها الحق الصالح، وأيضًا عمليًا سينفصل الملتزمون بالحق (المؤمنون) في جانب، والبقية في جانب آخر.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ{14})
النبي محمّد(ع) النازلة عليه هذه المعلومات، فعليًا لا يدري ما هو يوم الفصل، لا يدري بزمن إظهار الحق بعيدًا عن الباطل؟ سمعنا به ولدينا معلومات عنه ونؤمن به، ولكن عمليًا لم نعشه ولم نحتك به ولم نره... وفي هذه الحالة نوصف بأننا لا ندري به.

تلاحظ أغلب الأحيان آيات القرآن تقول {وَمَا أَدْرَاكَ} عندما تذكر لنا أشياء تتعلق بيوم القيامة أو مشاهد ستحصل في يوم القيامة، أو العذاب في جهنم... لأننا فعلًا لا ندري شيئًا، بل فقط لدينا المعلومات والتوصيفات التي أخبرنا الله تعالى بها، وهذا التعبير يشبه قولنا بالعامية: الحكي غير الشوف. المشهد والأحاسيس ستكون أعظم بكثير عندما نكون موجودين هناك في يوم الفصل.

وصف مشاهد وأحداث يوم الفصل وصيران هذه المعلومات عندك، يختلف كثيرًا حين تصير فيه، لأنه مشهد ضخم وأحداث عظيمة، فهو الحساب وبعده الخلود في الجنّة أو النار...

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{15})
{وَيْلٌ}، الويل وصف لعموم المصيبة الكبيرة، والكلام هنا عن مصيبة سيئة كبيرة، {يَوْمَئِذٍ}، في يوم القيامة، {لِلْمُكَذِّبِينَ}، للذين كذّبوا ولم يؤمنوا بيوم الفصل وميقات الرسل للشهادة والحساب على الأعمال التي قمنا بها في الدنيا... وأهمّ شيء هو الويل لتكذيب وعد جاء من الإله عزّ وجلّ.

بربط آيتنا هنا المتكررة عشر مرات في السورة مع آية: {إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ}، نحصل على لبّ وتركيز السورة على هؤلاء المكذبين بالوعد الإلهي وهو واقع حتمًا.

(أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ{16})
يُذَكِّرُ سبحانه أولئك المكذبين:

ألم نهلك، ألم نستنفد حياة، ألم نُمِت، الأولين، الناس الذين كانوا أولًا، الناس الأوائل، الناس الذين كانوا قبلكم؟ ومن الآية بعد التالية سترى أن المقصودين هم المجرمون الذين أهلكهم تعالى بعذاب هنا في الدنيا كدليل تاريخي ملموس ونموذج عن عذابهم في الآخرة، فهو دليل على وجود عقاب إلهي لمن كذّب بيوم الدين، وبناءً عليه كذّب بالحقّ وفعل السيئات.

الذين كانوا أولًا وقبلكم من المكذبين بالوعد الإلهي، كقوم نوح(ع) وعاد وثمود... ألم تصبهم كارثة أهلكتهم؟ سمعتم عنهم في الكتب الإلهية وصحف الأنبياء ومن الناس وترون آثارهم... وتعلمون حتمًا أنهم هلكوا، وها نخبركم أنهم هلكوا بسبب تكذيبهم بالوعد الإلهي. وكما تعلم من عموم القرآن تخويفًا لهم ولأمثالهم أهلك تعالى في الدنيا هذه النوعية من الناس كما تفهم من الآية 6 من سورة الرعد {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ...}،

وليكونوا نموذجًا عن تعذيب الآخرة، وليكونوا دليلًا تاريخيًّا ملموسًا عن تعذيبه تعالى للمكذبين، فعلى ماذا التكذيب بالوعد الإلهي بعقاب الآخرة إن كنتم تعلمون بعقاب إلهي حصل في الدنيا؟

لاحظ السورة لم تكتفِ بعرض دليل واحد على صدق الوعد الإلهي، حيث بدأت بذكر مصدر وطريقة وصول "الوعد الإلهي" لنا عبر الملائكة(ع) إلى الرسول(ع)، وانتقلت هنا إلى شيء آخر، إلى نموذج عن عقاب هنا في الدنيا نزل على الكافرين، وبعدها ستنتقل لأمور أخرى... كلّها تدل على صدق الوعد الإلهي بالجزاء في الآخرة.

(ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ{17})
{ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ} "بالكسرة على الخاء"، نجعل الناس الذين في الآخِر "بالكسرة على الخاء" على نفس مسار الهلاك للناس الذين كانوا في الأول، بعد إهلاكنا وإماتتنا للأولين بكارثة بسبب تكذيبهم للوعد، أيضًا فعلنا نفس الشيء مع المكذبين الآخرين، فنالهم عقاب في الدنيا.

(كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ{18})
{كَذَلِكَ}، بهذا الإهلاك هنا في الدنيا، {نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ}، المرتكبين للجرائم، وهم الفاعلون للأمور التي يستحقون العقاب عليها، فمصيرهم الإهلاك.

ضع في بالك دائمًا أن القرآن أخبرنا عن الهلاك لهؤلاء بسبب إجرامهم لدرجة استحقاقهم لنزول عذاب دنيوي على معيار قرّره تعالى ليكونوا آية لغيرهم فيتعظ بهم من يأتي بعدهم، فلا تخترع مقاييس من عندك وتستغرب لأنه لم يحصل إهلاك لأقوام تراهم أنت مستحقين للإهلاك، لا، فعلى المقاييس الإلهية ربما يستحق قومك الإهلاك بسبب تركهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو بسبب سوء منتشر بينهم كحالة قوم من بني إسرائيل جعلهم تعالى قردة وخنازير لهذا السبب كما ورد في الآية 60 من سورة المائدة {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ}، فهؤلاء مثلنا منتمون للدين الإلهي وأصابهم العذاب... أو بسبب تفرقتهم بين المسلمين، أو بسبب كرههم للمسلمين الآخرين، وقتلهم... كما فعل منتمون لدينه تعالى من قبلنا كما ورد في الآية حول الآية 85 من سورة البقرة {ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}، العذابات التي أصابت بني إسرائيل وذكرها القرآن مرارًا، كانت تشير لأهل كتاب لم يميّزهم سبحانه عن البقية حين ارتكبوا الإجرام، وسورتنا هذه ليس موضوعها هذا، ولكنها تشمل في كلامها عموم أي مجرم مهما كان تسمية دينه.

فلا تسأل عن سبب رفاهية دول تعتبرها أنت كافرة تستحقّ نزول عذاب إلهي عليها، ربما قومك "المسلمون" أقرب لاستحقاق نزول العذاب الإلهي عليهم أكثر من الآخرين بسبب سوئهم...

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{19})
بعد إهلاك المجرمين هنا في الدنيا وانتقالهم للآخرة :

{وَيْلٌ}، وهو عموم المصيبة الكبيرة والكلام هنا عن مصيبة كبيرة من النوع السيّء، {يَوْمَئِذٍ}، في يوم القيامة، {لِلْمُكَذِّبِينَ}، للذين كذبوا ولم يؤمنوا بيوم الفصل وميقات الرسل للشهادة والحساب على الأعمال التي قمنا بها في الدنيا... وأهمّ شيء هو الويل لتكذيب خبر جاء من الإله عزّ وجلّ عن وعده تعالى بالآخرة.

تكرّر السورة التهديد للمكذبين وبعدها تلفت انتباههم لشيء آخر يؤكّد صدق الوعد الإلهي:

(أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ{20})
{أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ}، ألم نركّبكم نؤلّفكم، {مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}؟ "فتحة على حرف الميم"، من سائل ليس له قيمة وبلا شأنية، وعكسها كريم. ماء المني هو ماء الحياة علميًّا بما فيه من قابلية لتشكيل الحياة، ولكنه في ثقافة عموم الناس شيء

يخجلون من اسمه ومن الكلام عنه، وأنت تعلم أن الخجل من ذكره لأنه يخرج من العضو التناسلي وبسبب ارتباطه بالعلاقة الجنسية... أمّا هنا فنفترض أن الآية تقصد معنى كلمة نطفة، مثلما كلام القرآن عن خلقنا من نطفة، من شيء صغير، قصد به إعادتنا لحجمنا الطبيعي كبشر مخلوقين كما تفهم من عدة آيات منها الآية 77 من سورة يس {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ}، فهنا الآية تعطي نفس المعنى للفت انتباهنا لخلقنا من شيء لا قيمة له كتركيبة لشيء قليل من الطين.

واستعمل القرآن وصف المهين بالفتحة على حرف الميم في الآية 10 من سورة القلم {وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ} وهناك من الواضح أنها مشتقة مما يعطي معنى المهانة، وهنا في الآية نفس المعنى.

بداية خلقك من شيء صغير مركّب من طين، فعلامَ استعلاؤك على الكلام الإلهي لتكذيبه! ومن ناحية ثانية أنت لا علاقة لك بولادتك، حيث إن هناك إله صمّمك وخلقك وأنت صرت كيانًا كإنسان تتوالد بهذه الطريقة بناءً على قرار لا علاقة لك به، فما معنى تكذيبك للوعد الإلهي وكأن كل شيء سيحصل معك فلك علاقة به وتقرّره أو تشارك في قرار حصوله؟! وبعد آية سترى تصريحًا عن قصد السورة لهذا المعنى بكلامها عن القدر المعلوم.

من ناحية ثالثة قدرة الإله واضحة على إعادة خلقك حيث خلقك أول مرة فما المانع من خلقك مرة ثانية؟ وقبل ذلك كلّه ضمنًا الكلام يشير إلى دلالة خلقنا على إله فائق القدرات خلقنا...

(فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ{21})
{فَجَعَلْنَاهُ}، جعل تعالى الماء المهين، {فِي قَرَارٍ}، في ما يوصف بأنه يستقرّ فيه فيثبت فيه كمكان له للبقاء فيه، {مَكِينٍ}، فيه المواصفات التامة للمكان المناسب له، وبما أن الوصف للنطفة في مكان استقرارها فالوصف بالقرار المكين لرحم الأنثى وهذا يعني أن النطفة تثبت فيه بالقوة التي تتماشى معها وتناسبها، والحيوان المنوي صار في البويضة التي في الرحم" بالتحديد في قناة فالوب على عنق الرحم"، وهي مستقرّة هناك بشكل جيّد جدًا. فلا ينفلت منها الحيوان المنوي، إلا في حالات قليلة، وبما أن الآية تتحدّث عمن خرجوا إلى الحياة، فهذا يعني حكمًا أنهم كانوا بشكل مستقر في البويضة، ولم يتزعزع استقرارهم، والآخرون سقطوا ولم يكملوا نموّهم.

هذا التصميم لعملية انتقال الحيوان المنوي إلى بويضة في الرحم فمن الذي صمّمه؟ ومن جعله ينجح؟

(إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ{22})
يبقى الماء في قرار مكين في رحم الأم ويتحول إلى جنين تدريجيًّا إلى أن يصل:

{إِلَى قَدَرٍ}، إلى شيء محدّد، والكلام عن مدّة تحوّله لجنين، وهي تقريبًا بين الستة والتسعة أشهر، يصير الجنين فيها جاهزًا للولادة، وهذا {الْقَدَرُ}، {مَعْلُومٍ}، فهو إلى حين اكتمال الجنين... فلا تلد كل الحوامل بنفس التوقيت على الثانية.

ننتبه جيدًا، سبحانه وتعالى يعلم كلّ شيء، يعلم كم سيبقى كل إنسان في رحم أمّه، والآية هنا لا تشير لما يعلمه تعالى بل لما نعلمه نحن، الآية قبل السابقة لفتت انتباهنا للماء المهين "مني الذكر"، وبعدها للقرار المكين "رحم الأم"، وكلاهما نعرفهما، وهنا تلفت انتباهنا إلى مدّة المكوث التي نعلمها أيضًا، والتي تقارب التسعة أشهر، وتزيد قليلًا أو تقل بشهر أو شهرين...

في عملية خلقكم يوجد روتين، يوجد تكرار، يوجد نظام، وليس عشوائيًّا وغير معلوم النتائج حتى يخطر ببالكم أنها صدفة تحصل وقد لا تحصل، فمن صمّمها هكذا وهي تتكرر بانتظام؟ وأنتم ما علاقتكم بما يحصل؟ فمن الواضح أنكم على قدر قدّره غيركم، ونفس الشيء بالنسبة لذهابكم إلى الآخرة، فهو قدر قدّره الذي صمّمكم وخلقكم وستذهبون إليه حتمًا.

بقي شيء، في عموم ثقافة المنتمين لدينه تعالى، من يهود ومسيحيين ومسلمين، من الشائع جدًا بينهم الكلام عن القضاء والقدر، صار لهذه الكلمات معانٍ اصطلاحية يستعملونها في وصف حالة تعامله تعالى معنا، ولوصف ما يحصل معنا من حوادث، فقالوا بشكل عامّ، إنّ القضاء قرار إلهي بحصول شيء ما حتمًا، والقدر قرار إلهي غير محسوم قد يتغيّر

إذا تغيّرت الظروف، فيكون قدري الموت غدًا، ولكن بسبب صدقتي اليوم على فقير تأجّل موتي، يسمّون هذا قدرًا. ولو كان موتي غدًا من القضاء، فسوف أموت حتمًا مهما كانت الظروف.

أوّل تعليق على هذا الكلام هو لفت انتباهك إلى أن القرآن من أوّله لآخره لم يستعمل كلمة قدر أو قضاء بشكل مباشر لتعطي هذه المعاني، فانتبه مما قالوه واصطلحوه على معنى الكلمتين، لا تجعله يدخل من هناك على تفسيرك لكلامه تعالى.

هذا لا يعني المنع عن التفكير والتحليل ووضع المصطلحات، بل تنبيه عن خلط ذلك بكلامه تعالى حتى لا نفرض على أنفسنا وعلى الآخرين أفكارًا ومفاهيمَ لم يقلها تعالى، لأنها بالنسبة لهم ستصير من الدين الإلهي. بضبابية ومن دون تدقيق ترى الكثير من المسلمين يقحمون الآيات التي فيها كلمة قدر في أبحاثهم الفكرية، ويعلق في ذهنك أن تلك الآيات تستعمل المعنى الاصطلاحي لكلمة قدر، ويترسّخ ذلك حتى تصير رافضًا لقبول المعنى اللغوي الأساسي للكلمة! من سماعك لكلمة قدر ينصرف ذهنك لما هو متعارف عليه ومنتشر بين الناس، وهكذا بدلًا من فهمك لكلامه تعالى صرت تسقط معلوماتك على كلامه تعالى وتفسّره على أساسها.

آيتنا هذه من أبرز نماذج وقوع المفسرين والباحثين الدارسين لكلامه تعالى في فخ خلط المصطلحات بمعاني الكلمات، وبالتالي وقوعهم في فخ ترك التفسير بما قصده تعالى ليعرضوا علينا معلوماتهم، بحيث يفسّرون كلامه تعالى بما يطابق أفكارهم.

بهذا الكلام القليل من المفترض أن نكون انتهينا من مسألة إقحام أفكارنا ومصطلحاتنا التي تتحكّم في تفسير كلامه تعالى، وهو فخّ من الصعب تجنّبه، خذ مثلًا التصاق المعنى الاصطلاحي لكلمتي "طهارة ونجاسة" في بالنا، ونسياننا للفرق بينهما اصطلاحًا وبين المعنى الأساسي العربي الذي استعمله القرآن، بضبابية نعتقد أن الاصطلاح الفقهي لهما هو مفهوم قرآني، علمًا أن هذا أبدًا بتاتًا غير صحيح، ولم يستعمل القرآن هاتين الكلمتين بما في ذهنك فقهيًّا عنهما.

أخيرًا، الفضول يدفعك لتسأل عن القضاء والقدر إن كانا مفهومين متوافقين مع القرآن، نعم، بشكل ما يمكن استخراج مفاهيمهما من القرآن ولكن هناك الكثير من التفاصيل التي تحتاج لتقويم الكلام فيها على مقياس قرآني، وبالمختصر، قبل خلق ما في الدنيا كان يعلم تعالى بكل ما سيحصل فيها بالتفصيل وتفصيل التفصيل وصولًا إلى الآخرة وتفاصيل التفاصيل فيها إلى الأبد، سبحانه لا يحتمل ولا يرجّح ولا يظنّ... بل يعلم بالدقة الفائقة بكل ما سيحصل في كلّ نقطة من الدنيا والآخرة.

أنا أراك تسير مغمّض العينين باتجاه الحفرة، وصارت سرعتك أكبر من قدرتك على التوقف قبل وصولك إلى الحفرة، فأجزم حتمًا أنك ستقع فيها. بهذا التقريب للفكرة يرى سبحانه الأمور التي ستحصل معنا حتى من قبل أن يخلقنا، وحتى لو كنّا نحن لم نعلم بما سنقرّر فعله... وخذ مثلًا عن ذلك ما ورد في الآية 59 من سورة الأنعام {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، كل ما سيحدث مسجّل سلفًا في كتاب... بالنسبة له سبحانه وبسبب قدراته الفائقة من مستوى خيالي بالنسبة لنا، سبحانه يرى الأمور بحتمية، نحن بدماغنا الصغير نرى بعض الأمور التي حتمًا ستحصل، ولو كانت قدرتنا بقدرة دماغين لزادت توقعاتنا بالدقّة، ولو كانت بقدرات مئة دماغ أو ألف أو مليون دماغ... فماذا سنرى؟ وهكذا بكل سهولة تتصوّر بالتقريب قدراته الفائقة سبحانه وتعالى ليعلم بكل شيء... أي فعل سأقوم به، وحتى لو كنت أنا لا أعرف نتيجته، فأغمضت عيني وركضت متخليًا عن معرفتي بما سيواجهني، أو كنت أرغب بشيء وتركته عن قصد لأفعل ما لا أرغب به، أو... سبحانه سلفًا يعلم ماذا سيحصل معي.

هذا من ناحيته تعالى، أمّا من ناحيتنا فنحن نجهل الكثير مما سيحدث معنا، ونجهل الكثير من قراراته تعالى، بالنسبة لنا الأمور مفتوحة على احتمالات عديدة، قد يحدث هذا أو لا يحدث، قد أنجح أو أرسب، قد أتوفّق في تجارتي أو أخسر... قد يأتي وباء ينتشر ويدمّر كل مخططاتي... من ناحيتنا نرى احتمالات مرتبطة بالظروف، فسمّينا ما تغيّر بأنه قدر، وسمينا ما حصل بأنه قضاء إلهي.

هكذا ترى أن الكلام عن القضاء والقدر هو فقط كلام من ناحية رؤيتنا نحن للأمور، وحين يتعاطى سبحانه معنا من نظرته فلا معنى لوصف الأمور بالقدر والقضاء، لأنه تعالى يعلم بما سيحصل. وحين يتعاطى سبحانه معنا من نظرتنا نحن للأمور، فعندها يفتح سبحانه أمامنا الاحتمالات، تفهم الآية 3 من سورة الإنسان {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} أنها تنطبق عليّ وعليك، أنا وأنت الاحتمالات أمامنا مفتوحة، قد نشكر أو نكفر، فهذا لنا غير معلوم، أنا الآن أشكر، ولكن هل سأبقى هكذا؟ وذاك الآن كافر فهل سيبقى هكذا؟ من منّا يعلم ماذا سيحصل؟

بهذا العمق نفهم الآية 66 من سورة الأنفال {الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ...}، سبحانه يتكلّم معنا بحسب ما نراه نحن، لأنه سلفًا كان يعلم، والآن لم يتغيّر أي شيء مما يعلمه، عَلِمَ أن فيكم ضعفًا فخفّف عنكم...

الكلام يجر الكلام، سبحانه قال لنا كلامه في قرآنه بشكل حاسم من عليم، أخبرنا عن العناوين المحسومة، المؤمنون إلى الجنّة والكافرون إلى النار، وأمّا التفاصيل، فنادرًا ما دخل فيها، أخبرنا عن انتصار الروم في الآية 3 من سورة الروم، وأخبرنا بشكل نادر عن تفصيل دقيق لنهاية إنسان، عن أبي لهب أنه لن يؤمن وسيموت كافرًا... وغيرها من الأمثلة التي حتى لو بدت لك كثيرة فهي في الحقيقة نوادر أخبار أمام الكمّ الهائل من المعلومات التي لم نعرف نهايتها إلا بعد حصولها.

الآن، فكّر فيها لو تكلّم معنا سبحانه بصراحة حتمية ما سيحصل في الدنيا في كلّ شيء وبالتفصيل، أخبرنا عن حتمية تأييده بنصر المؤمنين، وعن حتمية إهلاك من توافرت فيهم شروط الإهلاك في الدنيا، وأخبرنا... وكلها عناوين، وحين تدخل في التفاصيل، تراه سبحانه فتح الاحتمالات أمامنا ولم يخبرنا بما سيحصل، فهي بالنسبة لنا أقدار على المعنى الاصطلاحي لكلمة قدر.

يكفي هذا المقدار، ما تسمعه عن القضاء والقدر صار بإمكانك مقارنته بملخص الكلام هنا لتصوّب ما يقولونه على مقاييس قرآنية.

(فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ{23})
{فَقَدَرْنَا} "بالفتحة على الدال من دون شدّة"، قَدَرَ الله تعالى فجعل مقدارًا، فجعل تحديدًا لتكويننا لنمرّ بالمراحل ونصير إنسانًا، وحدّد تعالى موعد خروجنا إلى الحياة من بطن أمهاتنا... {فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ}، فإن كنتم تصفون من يحدّد المقادير والكميات بأنه أتقن التقدير، فهو تعالى يوصف تقديره لخلقنا بأنه ممدوح بالجودة. وبالنسبة لمعنى كلمة قدر وربطها بالقضاء... راجع الآية السابقة.

انتهت الفقرة، وبكل سهولة يفهمها المكذّب بالوعد الإلهي أنها تلفت انتباهه لخلقته التي حصلت بتقديره تعالى، فإن كان واقعًا تحت قدرة تتحكم بخلقه، وهو لا علاقة له بأي شيء، فكيف ينكر فيكذّب كلام الذي خلقه والذي يقول بأنه سيعيد خلقه في الآخرة مرّة ثانية؟

لاحظ سورًا أخرى فصّلت أكثر عن هذه النقطة، وهنا اكتفت بعرضها ببساطة، وتركت الأسئلة للقارئ، هل بالصدفة صار خلقكم بهذا الشكل؟ أم لوحدها الطبيعة خرجتم منها هكذا! وبدون إله صمّمكم هكذا لوحدكم صرتم! من خلقكم هكذا أوّل مرّة ألا يستطيع خلقكم مرّة ثانية؟ لماذا تكذّبون وعده تعالى بإعادة خلقكم؟! وهذا المعنى قصدته سور أخرى منها الآية 78 من سورة يس {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ}، أمّا هنا فترى التركيز على حصول خلقتنا بشكل لا علاقة لنا به، فعلى أي أساس ننكر وعد الذي خلقنا هنا حين يقول بأنه سيخلقنا مرّة ثانية؟

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{24})
الذين لم يروا خلقتهم دليلًا على صدق الوعد الإلهي فـ {وَيْلٌ}، المصيبة الكبيرة، {يَوْمَئِذٍ}، في يوم القيامة، {لِّلْمُكَذِّبِينَ} للذين كذبوا ولم يؤمنوا بيوم الفصل وميقات الرسل للشهادة والحساب على الأعمال التي قمنا بها في الدنيا... وأهمّ شيء هو الويل لتكذيب الوعد الإلهي بإعادة خلقنا.

تكرّر السورة التهديد للمكذبين وبعدها تنتقل لتلفت انتباههم لشيء آخر:

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً{25})
من بعد لفت الانتباه أننا لا علاقة لنا بتصميم وتنفيذ خلقتنا تنتقل بنا السورة إلى بيئتنا:

ألم يجعل سبحانه الأرض {كِفَاتًا}؟ ألم يجعلها مكان كَفْتٍ، مَكَانًا تعيش الناس على ظاهره وتموت لتصير في باطنه؟

كلمة {كِفَاتًا} لم ترد في القرآن إلا هنا، وأنسب معنى لها هو ما ذكرناه، الكفت يصدق على طرح عموم أي شيء، نقول: هو كفت الطعام من الصحن. أي رماه منه وصار على الأرض فلم يبق على الصحن، أو كفت الطعام في الصحن فطرحه من الحاوية "من الطنجرة" على الصحن.

هذه الفقرة تفهمها بشكل أفضل إذا تصوّرت نفسك تصمّم بيئة فيها كائنات، فكيف ستكون مواصفات الكائنات؟ وما هو شكلهم ووظائفهم الحيوية وأعضاؤهم وما يرتبط بهم من حسّ... وعيهم فكرهم خيالهم... تناسب تعاملهم وتعايشهم مع بعضهم في بيئتهم... بيئتهم التي تناسبهم من هواء يتنفسونه وطعام يأكلونه وأرض ينتقلون عليها... ستجد ترليونات الترليونات من التفاصيل، الآن ستلتفت إلى ما تريدك هذه الفقرة فهمه، الإله عزّ وجلّ يلفت انتباهك "باختصار" إلى البيئة التي أنت فيها، هو الذي خلقك في هذه البيئة، ويقول لك إنّه سيعيدك مرة ثانية إلى الحياة، فما معنى تكذيبك لكلامه؟ هل أنت خلقت بيئتك أو لك أي علاقة بتصميمها وخلقها؟ فإذا وعدك خالقها بحصول شيء لك ولها، فعلى أي أساس تكذّب كلامه؟

(أَحْيَاء وَأَمْوَاتاً{26})
الأرض {كِفَاتًا} للناس:

{أَحْيَاءً}، الذين جسدهم ووعيهم فعّال ويتفاعلون مع ما حولهم، هم {كِفَاتًا} طرحتهم الأرض من موادّها على وجهها، حيث انخلقوا من موادها، و{أَمْوَاتًا}، وهم الفاقدون للتفاعل والفعل مع ما حولهم، هم كفاتٌ مطروحون على الأرض لأنهم سيتحللون ليعودوا ترابًا. الكفت نقوله لمن ملأ الصحن بالطعام حيث كفته بالطعام من الإناء، كما نقوله لمن كفت الطعام من الصحن على الأرض، وهنا تصف الآيات حالة انكفاتنا أحياءً من الأرض، وانكفاتنا أمواتًا على الأرض.

أيضًا ستفهمها بشكل أفضل إذا التفتّ للتصميم الذي نحن عليه من حياة يليها موت، يمكنك أن تكون علمانيًّا ملحدًا منكرًا للإله... ولديك نظريات حول نشوء الحياة... ولكن الحياة كوصف لحالة تنتج عن تركيب المواد التي صارت كائنات، والموت كوصف لحالة تنتج عن توقّف تفاعل الكائنات، فما هذا؟ وكيف تفسّره؟ والسؤال ليس عن آليات حدوث الموت، وهذا معلوم، ولكن السؤال أعمق بكثير، إنما هو سؤال عن أصل حالة الحياة والموت.

تذكّر الفقرة السابقة عن تحوّل المني بعد استقراره في الرحم إلى مخلوق اسمه إنسان، وهنا الآية تلفت انتباهنا للحياة والموت، للفرق بين السجادة والكرسي والكنبة والتلفاز والحائط... وبيني أنا كإنسان حي ويموت، فما تفسيرك لهذا علمًا أن كمية من التراب مع الماء التي تتكوّن منها الطاولة والبراد هي نفس المواد التي أتكوّن منها؟ الأرض التي صارت فيها كائنات توصف بالحياة على ظهرها والموت في باطنها، وأنت لا دخل لك بهذا التصميم، الذي جعلها هكذا يقول لك إنّه سيعيد خلقك ليحاسبك فتكذّبه؟

مرارًا كرّر القرآن لفت انتباهنا للموت والحياة، ما نحن فيه الآن ونعتبره تحصيل حاصل وعاديًّا، نحن أحياء وسنموت ويأتي أحياء... هذا ليس عاديًّا، الحياة ليست عادية، والموت ليس عاديًّا، هذه حالات صمّمها تعالى لتحصل.

(وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاء فُرَاتاً{27})
{وَجَعَلْنَا فِيهَا}، في الأرض، {رَوَاسِيَ}، أشياء مستقرة، {شَامِخَاتٍ}، لها أساس وممتدة للعالي فوقه، نقول رست السفينة أي ثبتت مع أنها ما تزال في الماء وقابلة للحركة، وهنا المقصود بالرواسي الجبال بسبب وصف الرواسي بالشامخات، وإلا لكان الوصف بالرسو لعموم وجه الأرض، لأنها مثل السفينة راسية أي ثابتة ولكنها ما تزال قابلة للتحرك، ورد الكلام عن وصف الجبال بالرواسي صراحة في الآية 32 من سورة النازعات {وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا}،

ومعلوم لكل الناس أن الجبال تهتز بسبب الزلازل لدرجة أنها تتحرّك ويتغيّر مكانها أحيانًا، وهكذا بدون تعمّق في جيولوجيا الصفائح التكتونية للأرض يفهم أي إنسان عادي معنى وصف الجبال بالراسيات.

{وَأَسْقَيْنَاكُمْ}، جعل تعالى لكم لتشربوا، {مَاءً فُرَاتًا}، يرويكم ويسدّ العطش. تفهمها وتلتفت لها بالانتباه لحالة العطش وانتهائها بعد شرب الماء، تتوقف عن الشرب وتنتهي حالة العطش، ويتخلّل ذلك لذّة شرب الماء الذي لا نشعر بطعم له! وهي لذّة غريبة فعلًا!

هذه الآية تضرب لنا مثلين من الأمور التي نراها عاديّةً ونتعامل معها كل يوم، نحن نعيش على سطح الكرة الأرضية ونرى الجبال الشامخة علوًّا، ونحن نشرب الماء والسوائل يوميًّا، ومن صمّم هذه الظواهر يقول بأنه يعدنا بالعودة إلى الحياة ليحاسبنا ويجازينا.

ورد العديد من الآيات القرآنية الشبيهة بالفقرة هنا، ونتحيّر في مقصدها مع أننا نفهم معناها، وهذا شيء يحصل معنا في غالب القرآن لسبب بسيط جدًّا جدًّا: لسنا نقرؤها بعين من كانت تتحدّث معه. هنا السورة تتحدّث مع الذي لم يصدّق الوعد الإلهي بحصول الآخرة، سأفترض أنك أيها القارئ والقارئة لهذه الأسطر لست من المكذبين، ولذلك لم تحاول رؤية السورة من هذا المنظار، وأنا مثلك لا أرى نفسي متقمّصًا لكل من تحدّث معه القرآن، وأستصعب رؤية الكلام من ناحيتهم، خذ مثلًا الكافر، ككلمة بسيطة واحدة، وهي كلمة في ذهننا لا تعبّر عن شيء فيه تفاصيل كثيرة، الكفر كفر، أمّا في القرآن، فالكفر أنواع عديدة، وتحدّثت سور مختلفة مع وعن حالات الكفر المختلفة، ولدينا النفاق بأنواعه العديدة، والفسق بمستوياته المختلفة، والإجرام بأشكاله المتنوعة... وغيرها وغيرها من نفسيات البخل والجبن والإهمال والاستهتار... هنا لو نظرنا إلى الفقرة من عين المكذّب، فعندها نفهم منها أن الذي خلقكم في هذه البيئة، وأنتم لا علاقة لكم لا بتصميمها ولا بخلقها، فكيف تكذّبون كلام من خلقها عندما يقول بأنه سيعيد إحياءكم في الآخرة؟

تصوّر حالة غني ملياردير جمّع ثروته بمجهوده من التجارة والأعمال... وفرضًا صار لهذا الملياردير صديق من الفقراء، وهذا الفقير عمره قرابة الستين سنة وقضى حياته فقيرًا، الآن تصوّر نظرة الملياردير لكلام صديقه الفقير عن الطرق الناجحة في التجارة وإدارة الأعمال! هنا الآيات تقريبًا تعرض علينا نفس الفكرة، خلقني سبحانه من الصفر وجعل لي وعيًا وكيانًا، وخلقني في البيئة التي تؤمّن استمرار حياتي... ومن هنا أتنطّح وأتطاول وأتحدّث بأمور أكبر من رأسي حين يأتيني كلام من خالقي، فأكذّبه ولا أقتنع به! ولي فيه نظريات وإشكالات! وهذا ما تقصده السورة.

بناءً عليه بقي شيء، هنا وهناك تجد من تأتي فكرة على رأسه، ويلبّسها للقرآن، يخطر بباله أن الآية هنا يناسب تفسيرها بحقول الجاذبية! أو يناسب إشارتها للصفائح التكتونية المسببة لتحرّك الجبال، أو... يدغدغ مشاعرك وأحاسيسك بكلام ترى فيه عظمتك! يحدّثك عن عظمة دينك والقرآن الذي اكتشف الصفائح التكتونية قبل ألف وأربعمئة سنة، وتنجرّ معه لتشعر بالعظمة على العلم وعلى العلماء وعلى بقية الأديان... وحتى المنتمين بالاسم فقط لهذا الدين، وهم لا يلتزمون بأي من تشريعاته، ولا يصومون ولا يصلّون... تراهم أحيانًا أكثر من المؤمنين الحقيقيين يشعرون بعظمة دينهم الذي قرآنه خرق المستقبل والعلوم وجعلها تافهة أمامه!

هذه العقلية ليست دينًا، فدينه تعالى عظيم بما فيه من خير، من حكمة، من رشد... وليس بما فيه من فظاعات وخوارق ومعجزات... وأولئك الذين يبهروننا بخيالهم حين يستخرجون من القرآن آيات تشير بالاسم والتوقيت والصفات لوباء فيروس السارس أو الكورونا... وتشير لليزيرات وللهواتف النقالة وللهولوغرام... وللطائرتين اللتين ضربتا برج التوأمين في نيويورك مع توقيت حصول الضربة... وللجاذبية وحركة الشمس حول ذراع المجرة... وأن الكعبة في نقطة النسبة الذهبية بالنسبة لخريطة الأرض... فهؤلاء لديهم مشكلة في أساس تديّنهم الذي انبنى على تقبّل الترهات، الذي في حياته العادية يتعاطى في أفكار سخيفة، ويبلع أي خرافة تُعرض عليه، وخاصّة إذا تلبّست بلباس ديني، بمجرد إقحام أي آية لم يفهمها في موضوع لا يفهم فيه، فهو وبهالة القداسة يبلع ما يسمعه ويؤمن به على العمى، فهؤلاء كيف تتوقّع منهم الترقّي للتفكير مرتين قبل تفسير كلامه تعالى بالأوهام والتخيّلات؟ وكيف تتوقّع منهم التفكير مرتين بما يسمعونه إذا كانوا مستسلمين سلفًا لأي شيء يؤكّد لهم عظمتهم لأن دينهم عظيم؟

القاعدة عندهم أن ديننا عظيم وأديان الآخرين هراء، وأي كلام سواء فهمناه أم لم نفهمه، ولكن خلاصته أن ديننا عظيم، فلن نفكّر فيه مرتين، سنؤمن به وننشره، وحتمًا لنا أجرٌ وقربى منه تعالى بسبب ما نفعله، وحتى لو تبيّن فيما بعد أنه

غير صحيح، فلا مشكلة، لأن نيّتنا الرائعة تغطي على أي عيوب، وسنبقى في عينه تعالى من المحبوبين لأننا كنا نرفع من قيمة دينه، نحن داعمون له تعالى وأنصار دينه...

أكتفي بهذا المقدار من العرض لملخّص ما شهدته بنفسي من الكلام مع أمثال هؤلاء الناس من المخترعين للترهات ومن البالعين لها، ما تراه كتحليل إنما هو كلام صريح توجّهت به مباشرةً للعديد من هذه النوعية من الناس، حتى أن واحدًا من المشهورين جدًّا في عصرنا بكتبه وبرامجه عن الإعجاز العلمي في القرآن، قرأ لي مقالًا عن هذا الموضوع، وبعدها طلب منّي عبر مساعد له أن لا أحضر إلى مؤتمره...

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{28})
الذين لم يروا ما ذكرته الفقرة السابقة دليلًا على صدق الوعد الإلهي فـ {وَيْلٌ}، المصيبة الكبيرة، {يَوْمَئِذٍ}، في يوم القيامة، {لِّلْمُكَذِّبِينَ} للذين كذبوا ولم يؤمنوا بيوم الفصل وميقات الرسل للشهادة والحساب على الأعمال التي قمنا بها في الدنيا... وأهمّ شيء هو الويل لتكذيب الوعد بالآخرة الذي جاء من الإله عزّ وجلّ.

(انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ{29})
{انْطَلِقُوا}، كما يبدو لك من فحوى الآيات الكلام موجّه للمكذبين الذين في يوم القيامة عادوا إلى الحياة، كانوا في حالة الموت التي تقيّدهم وانفكّوا عنها، فيأتيهم الأمر الإلهي بأن ينطلقوا من بعدما صاروا أحياءً، فليتوجّهوا، {إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ}، كنتم تكذبون بالوعد الإلهي بالحساب وبجهنم، ولكن عندما تعودون إلى الحياة مرة ثانية، فوصف حالتكم سيكون: الانطلاق إلى ما كنتم تقولون إنه كذب، الانطلاق إلى الحساب وبعده الجزاء بجهنّم.

(انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ{30})
{انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ}، إلى مكان فوقه شيء يجعل ظلًّا تحته، يجعل تحته بقعة سواد من حجبه للضوء، وهذا الظلّ، المكان، {ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ}، يوصف بأن له ثلاث تفرعات.

من تكملة الآيات تفهم توصيفها لدخولهم إلى جهنّم، ومحاولتهم الاحتماء من لهبها، وانطلاقهم إلى مكان يرون فيه ظلًّا يحجب عنهم لهب النار، وفعلًا يوجد مكان له ظلّ، يوجد ثلاثة ممرات بين جوانب عالية.

الآيات هنا خبر توصيفي، وفضولنا يدفعنا للبحث عن معنى كون الشعب ثلاثًا وليست أربعًا أو أكثر، وأبسط ما يبدو مما سبق بحثًا عن شيء تكرّر ثلاث مرات، ستجد الويل للمكذبين الذين لم يأخذوا العبرة من إهلاك الأولين، وثاني ويل للمكذبين الذين لم يعتبروا من خلقتهم، وثالث ويل للمكذبين الذين لم يقدّروا البيئة التي خلقهم تعالى فيها، وبناءً عليه وبالتحليل نفترض أن الشعب الثلاث متكونة من وصف تكذيبهم بهذه العناوين الثلاث، ولكن هذا افتراض وليس صريحًا، والأرجح أن الكلام عن نموذج مما في جهنم من أماكن فيها شعب، فغالبية كلام القرآن عن نماذج وهنا سنفهم الكلام عن نموذج، ولربما هناك مكان غير ذي أربع شعب أو خمسة...

(لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ{31})
الظلّ، البقعة التي فيها ظل ولها ثلاث شعب: {لَا ظَلِيلٍ}، لا يؤدّي وظيفة التظلّل بالاحتماء تحته، المظلة تقف تحتها للاحتماء من المطر أو من حرارة الشمس، ولكن حين يكون المطر بريح خبط عشواء ويضربك حتى من الجوانب ومن تحت، فالمظلة التي فوقك لا يُعَدُّ وصفها مظلّةً بالنسبة للحالة التي أنت فيها، وكذلك الظلّ للشعب الثلاث، فهو {لَا ظَلِيلٍ} فلا يوصف بأنه مانع للحرارة والأذية من تساقط الحمم والحجارة، {وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ}، فهم بحاجة لطريقة تغنيهم عن التعرّض لألسنة النار وذلك الظلّ لا يغنيهم عن الاحتراق فلا يمنع وصول اللهب إليهم.

تصور منطقة جبلية، فيها ثلاث فجوات، ثلاثة أودية صغيرة، سيخطر ببالنا أن الوقوف في تلك الأماكن المحمية بالجوانب الصخرية، سوف يخفف من لهب جهنم، سيحمي من ألسنة النار، ولكن لا، فتلك الشعب لا تنفع، ألسنة النار تضرب خبط عشواء من كل الجهات ولا تقف الجوانب بوجهها. وبعد قليل سوف يكون لدينا تصور أوضح عن المكان:

(إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ{32})

{إِنَّهَا}، إن جهنم، {تَرْمِي بِشَرَرٍ}، تصير قطع من النار متطايرة، مثل الشرارات وهي القطع التي تطير من الفحم عندما يكون مشتعلًا ويتفرقع، ولكن حجم الشرارة التي تطير، {كَالْقَصْرِ}، كقطع الفحم الكبيرة جدًّا.

يبدو من كلام العرب قديمًا أن كلمة "قصر" اشتقاق مما يعطي معنى المقصورة، وهو الجزء المقطوع من شيء أكبر منه، والمشهور منه في استعمالنا اسم مقصورة من حافلات القطار، وهكذا تكون القصر من هذا الاشتقاق مخصّصة للقطع الكبيرة المتطايرة، وكلمة شظايا تعبير مخصّص للأشياء المتطايرة الصغيرة.

(كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ{33})
هذا الشرار المرمي كأنه قصر، {كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ}، كأنه شيء مجمول، شيء جرى جمعه ليصير كتلة واحدة، {صُفْرٌ}، نحاس، فإذا ارتطم بالأرض تطايرت أجزاؤه لتصيب من حوله، بتعبيراتنا الحالية تلك الشرارات الكبيرة كأنها من نحاس ذائب أو شبه ذائب مثل الذي ينتج عن انفجار البراكين، تتطاير وتصيب كل من حولها حتى لو كان في ظلّ الشعب.

تصور هذا يحصل بشكل مستمر في كل لحظة، من دون أي فترة راحة... وحالة الخوف والرعب من قطع الحمم التي تتساقط، وألسنة النار التي تلفح من هنا وهناك... والركض الدائم بلا انقطاع من هذه الفجوة ليتظللوا بها ولكنها لا تنفع، ثم يهربون إلى تلك الظلّة... ولكنها أيضًا لا تنفع... والألم من وقوع تلك القطع الملتهبة شديد... فلا تنقطع محاولات الهروب منها... وهكذا يبقون في دوامة لا تنتهي من العذاب والألم الشديد...

بالنسبة لكلمة قطر ونحاس وصفر، يبدو أنهم قديمًا أطلقوا كلمة "صفر" من اللون الأصفر للمعدن الذي حاليًا نسمّيه "نحاس" فصار اسمًا له "صفر"، والمتساهلون في التعبير من العرب قديمًا كانوا يتحدثون أحيانًا عن الذهب بوصف لونه فيقولون له "صفر أو الأصفر" أيضًا. وكلمة "نحاس" قديمًا أطلقوها على ما كان مشتقًّا من معدن "النحاس" ولكن لونه متغيّر عن الصفار، فيشمل البرونز وأشباهه، واستخراج النحاس كان قديمًا من قطع الكبريت التي يجدونها في الطبيعة والتي فيها نحاس، فيتم إحراقها ويصدر عنها دخان الكبريت بلا نار ويبقى النحاس. وقالوا في بعض الكتب إن القطر هو النحاس الصافي، ولم أجد دليلًا على قولهم.

على أي حال من الواضح أن المتطاير كتل ضخمة من المعدن المائع، وحين نزول هذا القرآن كانت فقط بضعة معادن صلبة معروفة للناس، فضربت السورة نموذجًا تشبيهيًّا معروفًا عند الناس من المعادن، ويبدو أنه ما نسميه حاليًا بالنحاس، ولا تَنْسَ أنها عبّرت بـ "كأنه" للتشبيه.

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{34})
التعذيب المذكور سابقًا هو للمكذبين فـ {وَيْلٌ}، المصيبة الكبيرة، {يَوْمَئِذٍ}، في يوم القيامة، {لِلْمُكَذِّبِينَ}، للذين لم يصدّقوا بيوم الفصل وميقات الرسل للشهادة والحساب على الأعمال التي قمنا بها في الدنيا... وأهمّ شيء هو الويل لتكذيب خبر عن الوعد بالآخرة جاء من الإله عزّ وجلّ.

(هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ{35})
{هَذَا يَوْمُ}، هذا زمن لحدث أساسي، وهو يوم القيامة وما يليه من أيّام محاسبتنا وصولًا إلى آخر يوم بدخول آخر واحد إلى الجنّة أو إلى النار، {لَا يَنْطِقُونَ}، لا يصدر عنهم أي صوت له معنى في ذلك اليوم.

كما تعلم من عموم القرآن عامّة الذين لم يكونوا من المؤمنين وبالخصوص هنا الكلام عن المكذبين للوعد الإلهي، فهؤلاء ليس مسموحًا لهم بالكلام كلّ الوقت، تصوَّرْها مثل قاعة محكمة حيث المتّهم ممنوع من الكلام "من النطق" إلا بإذن من القاضي، ويمكن أن يكون المتّهم مشاغبًا ولا يسكت ويقاطع المتكلمين الآخرين في المحكمة... أمّا في الآخرة فهم مرعوبون ولا ينطقون إلا بإذن، فوق رأسهم ملائكة(ع) يضربونهم...

(وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ{36})

هذه على معنى: أخطأت وها نأذن لك لتتكلّم وتعتذر لنعفو عنك. لا، لن يحصل هذا مع المكذبين بيوم الدين. قارنها مع الآية 84 من سورة النحل {وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}. لن يحصلوا على فرصة ليقولوا الأسباب التي تبرّر تكذيبهم للوعد الإلهي.

هم في أوّل فرصة متاحة لهم للكلام فورًا سيبدؤون بتقديم الأعذار... لم نقصد... لم نأخذ الموضوع جدّ... يمكن تصحيح ما مرّ بفرصة ثانية... يبررون ويتمسكنون ويبكون... ولكن آياتنا هنا وغيرها العديد من الآيات تخبرنا من الآن أنه تعالى لن يعطيهم الإذن بالكلام ليعتذروا ليعفو عنهم، فهم سيستغلون أي فرصة تسنح لهم للاعتذار ولكن بالأساس لا فائدة من الاعتذار، سبحانه سيسمح فقط لهم بالكلام ليحاسبهم على أعمالهم ويسألهم عنها، لا ليسمع أعذارهم، فهي غير مقبولة ولا بأي شكل...

انتبه يا عزيزي ويا عزيزتي ولا نجمد على كلام القرآن وإلا سنرى تعارضًا بين آياته، مرّة تقرأ أنهم يبرّرون ومرّة تقرأ أنهم لا ينطقون... هذه مشاهد مختلفة ستحصل في يوم القيامة، المكذّب حين يسمحون له بالكلام سينكر ما فعله من سيئات، سيكذب، سيطلب الرحمة، سيطلب فرصة ثانية، سيقول ارموا جميع أهلي في النار واتركوني... سيعتذر... وهذه مشاهد نقلها لنا القرآن، الجملة هنا لا تقول بأنه لن يعتذر، بل تقول إنه لا يوجد شيء اسمه: تفضّل واعتذر حتى نسامحك. سيحاول النجاة من النار بكل الطرق الممكنة، وبعدما يعرضون عليه سيئاته والأدلة على ارتكابه لها، في كل فرصة يسمحون له فيها بالكلام سيعتذر وينوح ويبكي... ولكن بلا فائدة.

نتذكّر دائمًا أن فاعلي السيئات في يوم القيامة سيرون سيئاتهم بالتمام والكمال بدون أي زيادة أو نقصان، وسيرون أن العقاب عليها عادل لا ظلم فيه، لا تفهم آيتنا هنا ولا غيرها من القرآن أنها تمنعهم من تقديم تبريراتهم الصحيحة التي تثبت أنهم أبرياء، لا، لن يظلمهم تعالى ولو مثقال ذرّة، وتجد في مختلف سور القرآن سلفًا أن أي عذر يفكرون به الآن ليقولوه في يوم القيامة له جواب، من سيقول: لم أستطع مقاومة إغراء السوء... سيقف أمامه الصالحون الذين تعرّضوا لنفس ظروفه وقاوموا ارتكاب السوء... وفي يوم القيامة سيظهر بشكل واضح أن تمرسّه على السوء ختم على قلبه من رؤية الآيات الإلهية الواضحة للإيمان بالآخرة... لا تفهم لا آيتنا هنا ولا غيرها أنها تمنعهم من الدفاع عن أنفسهم إذا كانوا أبرياء، لا، الذنوب التي يتحاسبون عليها ارتكبوها عن وعي وإدراك ولا مجال لتقديم تبريرات لها...

كما ترى في دراستنا لهذه الآية أطلت عليك وكان يكفيها سطران لشرحها، ولكن يا عزيزي ويا عزيزتي نجد تفسيرات وتحليلات متوزعة في مختلف الكتب حول اختلاف مشاهد يوم القيامة مرّة ينطقون ومرّة لا ينطقون... ونجد كلامًا يبدو للوهلة الأولى تعليقًا نقديًّا للتفاسير بل وللقرآن... لذلك تجدني في بعض الأحيان أطيل الشرح، إن نجحت في مسعاي سترى كلامي سهلًا بسيطًا، وستملّ من التطويل، ولكن خذ علمًا أن التطويل يتضمّن تفاصيل عن ردود على تفسيرات غير صحيحة منتشرة هنا وهناك، وستراها إن راجعت الآية هنا في هذه الدراسة لأنك قرأت أو سمعت تفسيرًا لم تقتنع بصحته.

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{37})
يتم إسكاتهم ولا يفسحون المجال لهم للاعتذار فـ {وَيْلٌ}، المصيبة الكبيرة، {يَوْمَئِذٍ}، في يوم القيامة، {لِّلْمُكَذِّبِينَ} للذين لم يصدّقوا بيوم الفصل وميقات الرسل للشهادة والحساب على الأعمال التي قمنا بها في الدنيا... وأهمّ شيء هو الويل لتكذيب خبر جاء من الإله عزّ وجلّ.

(هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ{38})
هذا يوم الفصل، من عموم القرآن نفهم أنه زمن يظهر فيه الحقّ بعيدًا واضحًا عن الباطل، ولا يعودان مَمْزُوجَيْنِ مُبْهَمَيْنِ، هنا في الدنيا تحتار وتسأل، مع من الحقّ؟ وسبب ذلك هو إفسادنا لقلوبنا حتى فقدنا قدرة تمييز الحقّ من الباطل... أمّا يوم القيامة وما بعده سيكون الحقّ واضحًا.

في هذا اليوم، جمعناكم، بعد أن كنتم متفرقين بالموت جمعكم تعالى في يوم القيامة أنتم والناس الأولين، الذين كانوا أولًا وقبلكم، فكل الناس سيتم حشرها ولكن سياق الكلام هنا يشير للذين كانوا يُكَذِّبُونَ مثلكم.

(فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ{39})
إنْ كان لكم كيد، إنْ كان يمكنكم فعل أي شيء للضرر به تعالى حتى لو لم يكن لكم استفادة منه، {فَكِيدُونِ}، حاولوا أن تصيبوه تعالى بالضرر.

مصيركم في يوم الفصل إلى النار، وها نخبركم من الآن أن كل المكذبين أمثالكم سيتم جمعهم معكم، وسيصير عددكم كبيرًا، فإن كان هناك أي مجال لتتعاونوا لتهاجموه تعالى أو لتغيّروا ما يريده... فافعلوه.

طبعًا لا يمكنهم فعل أي شيء ولكن الآية تريدهم من الآن أن يفهموا ذلك، فمن يخطر بباله أنه لو حصل يوم القيامة، فسيكون عدد المكذبين هناك أكبر من عدد المؤمنين، ولا بد أن ينفع هذا العدد، فيقومون بانقلاب، ويسيطرون على ساحة يوم القيامة، فيرمون المؤمنين والملائكة(ع) في النار ويدخل المكذبون إلى الجنّة... فمن الآن تقول الآية لهم: هذه أوهام لا جدوى منها.

تذكّر أن سورًا أخرى من القرآن بيّنت لنا أن مَلَكًا واحدًا قادرٌ على التعامل مع كلّ البشر، وكمثال على ذلك ملك الموت(ع)، والتسعة عشر مَلَكًا على جهنّم... وبعض السور تحدّثت عن ضعف الإنس أمام قدرات الجنّ المخترقين للسماوات، وتحدّثت عن الضعف الشديد جدًّا للجنّ أمام الملائكة(ع)... وبالتالي تفهم ضعفنا الشديد أمام الملائكة(ع)، لن يتدخل تعالى بنفسه لضبط الأوضاع في يوم القيامة فهذا الموضوع وغيره لا يستدعي تدخّله تعالى بنفسه، خلق سبحانه الملائكة(ع) لمثل هذه الأعمال ومنحهم قدرات عاليةً جدًّا عن بقية المخلوقات.

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{40})
لا يمكنهم فعل أي كيد فـ {وَيْلٌ}، المصيبة الكبيرة، {يَوْمَئِذٍ}، في يوم القيامة، {لِّلْمُكَذِّبِينَ}، للذين لم يصدّقوا بيوم الفصل وميقات الرسل للشهادة والحساب على الأعمال التي قمنا بها في الدنيا... وأهمّ شيء هو الويل لتكذيب خبر عن وعد جاء من الإله عزّ وجلّ.

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ{41})
{إِنَّ الْمُتَّقِينَ}، إن الذين تجنّبوا وتحاشوا، والكلام عن الذين تجنّبوا غضبه وعقابه تعالى فأطاعوه، فهؤلاء، {فِي ظِلَالٍ}، تحت شيء يظلّلهم، تحت أشياء تفصل بينهم وبين الضوء والحرارة، ومن عموم القرآن تعلم أنها ظلال الأشجار والأبنية المختلفة من خيام وبيوت وقصور... والمتقون في، {وَعُيُونٍ}، في فتحات لمنابع الماء وللمشروبات المختلفة، ووصفها القرآن بأنها عيون جارية جداولَ وأنهارًا، ولمزيد من التوسّع راجع الآية 15 من سورة محمد {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى}...

كما تلاحظ هذا الوصف للمتقين في الجنّة في مقابل المكذبين الذين في جهنّم في ظلّ ذي ثلاث شعب...

كلّ القرآن يؤكّد بأن الإيمان مع العمل الصالح، كلاهما معًا، ينجيان من النار ويسببان دخول الجنّة، وغالبية آيات القرآن ذكرت هذا المعنى بصراحة، وهنا اختصرت السورة هذه المعاني بمقابلتها المتقين ضد المكذبين، فعلى مستوى العقيدة "الإيمان" هما مختلفان، وعلى مستوى السلوك "العمل"، فهما مختلفان أيضًا، سبق ووصفت السورة المكذبين بالمجرمين، فالتكذيب بالوعد الإلهي بالآخرة سينتج عنه حتمًا قيامهم بأعمال سيئة يستحقون عليها العقاب، لأنهم لن "يتّقوه" تعالى، فتنبّهنا السورة بكلمة مختصرة أن التصديق بالوعد الإلهي بالآخرة ليس لوحده كافيًا للنجاة من العقاب، بل "التقوى" المبنية على الاعتقاد بصدق الوعد بالآخرة، والتي ترجمتها بالعمل الصالح، فهي مع الإيمان تسبّب دخول الجنة والنجاة من العقاب.

(وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ{42})
والمتقون في، {وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ}، ومن عموم القرآن تفهم أن أهل الجنّة لا يشعرون بإزعاج الجوع، بل يشعرون برغبة الأكل للتلذذ، ونفهم ذلك من وصف المأكولات بالفاكهة فهي وصف المأكولات التي تأكلها للتلذذ بها وليس لسدّ جوعك، وهم يشتهونها يرغبون أكلها.

تفهم هذا المعنى عندما ترى أذواق الناس هنا في الدنيا مختلفة، فبعضهم يحب التفاح والآخر لا يرغبه... وبعض الناس لا رغبة لهم أصلًا بتناول الفاكهة والحلويات... تفهم من الآية أن أهل الجنّة يشتهون ما يأكلونه، فيرغبون به بشدّة ويسعدون بتناوله.

(كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{43})
{كُلُوا}، من الفاكهة أيها المتقون، {وَاشْرَبُوا}، من عيون الماء والمشروبات المختلفة، {هَنِيئًا}، بمسّرة لا يتبعها أي نوع من الأذى، {بِمَا}، بسبب الذي، {كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}، من فعلكم للواجبات وترككم للمحرمات في الدنيا.

مشروبكم وطعامكم في الجنّة هنيءٌ لن يسبّب لكم ولا بأي شكل أي نوع الأذية أو الإزعاج، فقط وفقط تسعدون به وتفرحون، فلا تخمة ولا لمعان أضراس ولا غصّة ولا خوف من زيادة السكريات والدهون...

(إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{44})
{إِنَّا كَذَلِكَ}، بهذه الطريقة، بالظلال والعيون والهناء... {نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}، نعطي هذه الجنّة بما فيها مقابل العمل الموصوف بأنه حسن، فالمحسنون هم الذين قاموا بالأعمال الموصوفة بأنها حسنة جيّدة، فتركوا السوء وفعلوا الصالحات، وجزاؤهم أي المقابل على عملهم الموصوف بأنه حسن سيكون تلك الجنّة.

تذكّر ما سبق من جزاء سيّء للمكذبين بالآخرة والمسيئين عملًا، وهنا الجزاء بالعكس للمتقين.

تفسيرنا هنا لكلمة محسنين سيبدو كتفسير الماء بعد الجهد بالماء، ومثلها العديد في دراستنا هذه، ولن ننتبه إلا إذا قارنا بين ما نجده هنا مع ما نجده في مختلف التفاسير، في الكثير من الكتب ستجد تفسيرهم للمحسن بأنه الذي تنازل عن حقّه، وهناك العدل وهو التعامل مع الأمور بدقة، فتأخذ حقّك وما لك بالكامل، وهناك الإحسان حيث تتنازل عن حقّك، ولكن هذا ليس معنى كلمة إحسان بل هو اشتقاق منها، لأن ترك ما لك للآخرين إن كانوا بحاجة له أو لإنهاء نزاع... هو فعلًا موصوف بأنه إحسان ولكنه ليس المعنى الحصري لها، لأنها أوسع من ذلك وعامٌّ لكل عمل حسن مهما كان نوعه، وبمعناها الأساسي الواسع استعملها القرآن.

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{45})
في نفس الزمن الذي يتمتع فيه المحسنون، {وَيْلٌ}، المصيبة الكبيرة، {يَوْمَئِذٍ}، في يوم القيامة، {لِلْمُكَذِّبِينَ} للذين لم يصدّقوا بيوم الفصل وميقات الرسل للشهادة والحساب على الأعمال التي قمنا بها في الدنيا... وأهمّ شيء هو الويل لتكذيب خبر عن وعد جاء من الإله عزّ وجلّ.

(كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ{46})
{كُلُوا}، أيها المكذبون هنا في الدنيا، {وَتَمَتَّعُوا}، انتفعوا باستعمال الجسم الذي أعطاكم سبحانه إياه، وانتفعوا باستعمال خيرات الأرض التي سخّرها تعالى لكل البشر... {إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ}، وصفكم وأنتم على حالة التمتّع بما في الدنيا أنكم من الفاعلين للأمور التي تستحقون عليها العقاب. تمتّعكم فيما أنتم فيه لا يعني ولا بأي شكل رضاه عنكم سبحانه، ولا يعني أن قيمتكم عالية.

انتبه دائمًا لوصف القرآن لهم عمومًا بالمجرمين، فهي كلمة تختصر فيها الكثير من المعاني إذا انتبهت لأصل معناها، فهي وصف لمن فعل شيئًا يستحقّ العقاب عليه، فهو يعلم بأن ما فعله سيّئٌ، ويعلم أنه يستحقّ العقاب عليه إن فكّر بعقلانية، وهكذا ترى أن ما يعرضه القرآن علينا من دين، فهو الابتعاد عن عموم الإجرام، وستفهم قصدي إن استحضرت في بالك ما يظنّه بعض الناس عن معنى الالتزام بدينه تعالى، بحيث بضبابية وسذاجة يحصرونه بالصلاة والصوم ورخي اللحية والحجاب وحمل السبحة... بينما هذه بعضها له أهمية فعلًا ولكنها ليست كل دينه تعالى، بالأساس يدعونا القرآن إلى عموم عمل الصالحات وعموم ترك السيئات، ولم يضع معايير غريبة عجيبة لذلك، بل هي نفسها الأعمال التي نحن لدينا القدرة على رؤية صلاحها فيدعونا لفعلها، والأعمال التي لدينا القدرة على رؤية سوئها فيدعونا لتركها.

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{47})
هؤلاء المكذبون المجرمون الذين يتمتعون الآن: {وَيْلٌ}، المصيبة الكبيرة، {يَوْمَئِذٍ} في يوم القيامة، {لِلْمُكَذِّبِينَ}، للذين لم يصدّقوا بيوم الفصل وميقات الرسل للشهادة والحساب على الأعمال التي قمنا بها في الدنيا... وأهمّ شيء هو الويل لتكذيب خبر عن وعد جاء من الإله عزّ وجلّ.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ{48})
ما معنى هذا السلوك الغريب؟! بعد الأدلة والتوضيحات والتهديدات... {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ}، للمكذبين بالوعد الإلهي، فقال لهم الرسول أو هذا القرآن أو المؤمنون، قالوا للمكذبين: {ارْكَعُوا}، انحنوا تعبيرًا عن احترامكم وخضوعكم، قوموا بحركة تعبّر عن تراجعكم عن التكذيب وتعبّر عن انصياعكم لكلامه تعالى، {لَا يَرْكَعُونَ}! لا يتجاوبون بالقيام بتعبيرٍ عن خضوع!

كما ترى اختصرت الآية رفضهم التعبير عن الخضوع له تعالى بكل أنواعه، قد يكون رفضهم سببه حبّ الدنيا، أو التكبّر، أو العناد... وكل الأسباب المختلفة نتيجتها واحدة: لم يركعوا له تعالى، فلم يعبروا عن خضوعهم له تعالى.

الكلام عن الركوع هنا اختارته السورة كنموذج عن عموم أي تعبير جسدي عن الخضوع له تعالى، فمثله الوقوف والسجود.

معلومٌ لك أنه تعالى لا يستفيد من تعبيرنا له بالركوع أو السجود، بل نحن المستفيدون، أولًا الركوع واجب علينا لنعبّر عن شكره تعالى على خلقنا وما أتاحه لنا، وثانيًا هو ضروري لنا بحيث يعتبره تعالى برًّا "صلة معه" ويعطيه قيمة حسنة تنفعنا لمحي سيئاتنا كما ترى من الآية 114 من سورة هود "وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ". ومعلوم لك الفرق الهائل في معاملته تعالى مع الذي ارتكب بعض السيئات وتاب منها معبّرًا بالركوع أمامه تعالى عن ندمه... فهذا له مغفرة وشفاعة... وبين الذي ارتكب نفس السيئات ولكنه لم يركع له تعالى معبّرًا عن ندمه ولا طالبًا لمغفرته، فهذا حتى لو اعترف بينه وبين نفسه بأن ما فعله كان سيئًا، وحتى لو قرّر بأنه لن يفعله ثانية، فلا مغفرة له ولا بأي شكل.

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{49})
من لا يركع هنا أمامه تعالى فهو من المكذبين به تعالى وبدينه فـ {وَيْلٌ}، المصيبة الكبيرة، {يَوْمَئِذٍ}، في يوم القيامة، {لِلْمُكَذِّبِينَ}، للذين لم يصدّقوا بيوم الفصل وميقات الرسل للشهادة والحساب على الأعمال التي قمنا بها في الدنيا... وأهمّ شيء هو الويل لتكذيب خبر الآخرة الذي جاء من الإله عزّ وجلّ.

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ{50})
{فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ}، بعد هذا الكلام الذي يسمعونه عن أحداث نزول الملائكة بهذا الكلام الإلهي... وعن إهلاك الأقوام المكذّبة، وعن خلقهم وما حولهم... وعن الجنّة وما فيها والعقاب بالنار... إن لم يؤمنوا به، إن لم يصيروا في حالة الاعتقاد بصحتّه، {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ}، يصيرون معتقدين بصحته!

هذا حديث إلهي، مصدره إلهي، وفيه ما يدل على أنه من مصدر إلهي، وفيه كل ما يلزم ليؤمنوا، ولا يزالون مصرين على تكذيب الوعد الإلهي!

ضع في بالك أن سورتنا هنا وسورًا عديدة من القرآن ركّزت على هذه النقطة، الإله سبحانه الذي خلقنا وهو أدرى بنا، وهذا الإله سبحانه هو نفسه نزّل هذا الكلام الذي تقرؤه في هذه السورة، وفي نهايتها يقول تعالى: هذا كلام تامّ كاف لمن يريد أن يؤمن، ولا يوجد فيه نقص، ولا تشويش فهو واضح، فمن لم يؤمن به فبماذا يؤمن؟! وبناءً عليه فلا حجّة لهم عليه تعالى في يوم القيامة.

لا يمكنهم أن يقولوا إن الكلام لم يكن مقنعًا، أو كان ناقصًا، أو لم يكن واضحًا، أو من نقله نشكّ بصدقه... لا، هذا كلام الإله عزّ وجلّ وقد نقلته الملائكة(ع) الأمينة القوية لرسول صادق أمين(ع)، ومحتوى الكلام يدل على صدقه، وأنتم قررتم أن لا تؤمنوا به مهما كان مقنعًا، فالويل للمكذبين.

بالنسبة لكلمة آمن، لم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإسلام، أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب..."، ولم يستعملها القرآن بهذا المعنى، وبمراجعة استعمال كلمة آمن مؤمنون... في القرآن، تجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، فآمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كلاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

أخيرًا لاحظ وانتبه لكل مضمون السورة، الذي وصله وعلم بالقرآن ككتاب يزعمون أنه إلهي، ولم يهتم، فهذا أولًا مستهترٌ وسيتحاسب على استهتاره مضافًا لكفره. أمّا إذا لم يتيسّر له الاطلاع على القرآن أو فرضًا لم يسمع به، فراجع ما قالته السورة مما يعمله أي إنسان عادي ويلتفت له لوحده، كلام السورة لفت انتباهنا لخلقتنا ولبيئتنا، وهذه آيات لوحدها دالة عليه تعالى، ولا تحتاج لذكرها في سورة حتى تصير آيات، لا، هي لوحدها دلالات عليه تعالى.

الآن ننتقل لكلام أعمق، محور السورة حول كلام وصل للناس عن وعده تعالى بالآخرة والجزاء، فهل من الآيات التي نراها فينا وحولنا يمكن أن نصل إلى نتيجة وجود آخرة نُجَازَى فيها على أعمالنا، ومن دون أن يصلنا هذا الكلام منه تعالى عبر وحي على واحد منّا؟

ما هي المعلومات التي يمكننا استخراجها بفكرنا عنه تعالى وعن قراراته من مجرد النظر فيما خلقه سبحانه؟ هذا باب قابل للأخذ والردّ فيه، ولكن بناءً على اعتبار النموذج إبراهيم كأرقى قلب سليم، وبمراجعة ما ذكره القرآن عنه من تعرّفه على ما نسميه بالعقيدة من الآيات وبدون وحي، وأكرر لك لأنك لن تجد في القرآن ولا تصريح عن نزول الوحي على إبراهيم من حين محاورته لأبيه وقومه... إلى ما بعد محاولتهم إحراقه. وبناءً عليه كل الكلام الذي نقله القرآن عنه كان من تعرّفه مما فكّر به فيما رآه من آيات.

فيما نقله القرآن عنه ما تقرأه في الآية 81 و 82 من سورة الشعراء {وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ}، إن صدقت دراستنا النافية لأي نوع من تواصل إلهي معه (ع) طيلة الأحداث مع قومه، النتيجة أنه (ع) وصل لوحده إلى التعرّف على يوم الدين. وعلى نفس المفهوم سترى آية 191 من سورة آل عمران {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}، من بعد التفكّر بالآيات رأوا أنه تعالى لم يخلق هذا باطلًا، فهناك كائنات بحرية إرادة وبقدرة تمييز الخير من الشر، فقنا عذاب النار، حتمًا هناك مجازاة في آخرة...

لسنا كلنا بمستوى سلامة قلب إبراهيم(ع)، فنتدرج وصولًا إلى إنكار الآخرة حتى من بعدما يصلنا خبر عنها من رسول إلهي وفي كتاب إلهي، وهكذا تصير الكتب الإلهية وآخرها هذا القرآن، هي المصدر بالنسبة للكثيرين لمعلومة وعده تعالى بالآخرة لمجازاتنا.

ما هو المقدار المطلوب وصوله من المعلومات لنا حتى ننتبه للآخرة ونحسب لها حسابا لأنها وعد إلهي بالمجازاة؟ فهل يقبل سبحانه عذر الذي سيقول: مع أني سمعت بالآخرة ولكني لم أؤمن بها ولم أقرأ الكتب التي ذكرتها لأن المنتمين لتلك الكتب سيئون ومجرمون، ولأن الكثيرين يقولون إن تلك الكتب فيها أشياء سيئة...

لا ليس عذرًا مقبولًا حتى لو أنه فعلًا لم يسمع بهذا الوعد، الكلام في القرآن عن نماذج، حين تراه يحدثك عن الرسل والكافرين فهو كلام عن نماذج، وستنتبه لمعنى ذلك لو رأيته يتحدث مع وعن شخص لم يسمع بالرسل ولا بالكتب، وبالتالي لم يصله هذا القرآن، فكيف سيوجّه له الكلام؟ ولماذا سيوجّه لك أنت الكلام عنه؟

ما تقرأه هنا في السورة خليط من سبل الهداية المتاحة لنا، واختارت السورة البداية مع الذين أنزلوا هذا القرآن... وبعدها التهديد بالذين أهلكهم تعالى، وبعدها الآيات في خلقنا وفي بيئتنا والدالة عليه تعالى وعلى حتمية المعنى من خلقنا بقدرة تمييز الخير من الشرّ وبحرية إرادة... حتى يصير بيننا الموصوفون بالمجرمين وبالمتقين، فهل سيمر ذلك ونموت بلا مجازاة بعدها؟

حجّته تعالى علينا ليجازينا بالعذاب على السوء أننا لدينا القدرة على التعرّف على السوء ولدينا القدرة على التعرّف عليه سبحانه من دون أي وحي ينزل على واحد منّا أو كتاب يصلنا، وهذا ضمنًا تجده في الآيات المشابهة للآية الثانية من سورة البقرة {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}، فهم بالأصل متقون، وهذا بسبب قدرتهم على تمييز الخير من

الشرّ، وأنهم اتقوا السوء... وبعدها جاءهم كتاب إلهي فتماشوا معه، بالأساس هم لم يؤمنوا بشيء جديد، بل تماشوا مع الكتاب الإلهي لأنه يعرض العقلانية والصلاح.

ضع هذا في بالك وستنتبه لناحيتين في كلامه تعالى معنا، هناك من وصله خبر عن هذا الكتاب الإلهي، وهناك من قرأ بعضه، أو سمع بعض ما فيه... فهذا سيجد الكتاب يتحدّث معه وعنه مهما كانت حالته. وهناك من لم يسمع بالكتاب الإلهي، وبالتالي لا معنى للكلام معه ولا عنه، ولكن ضمنًا هو مشمول بالكلام القرآني حين يلفت انتباهنا لما نعلمه ببساطة التفكير غير المعقّد في آيات خلقه تعالى لنا ولما حولنا، وهي آيات أكثر من كافية للتعرّف عليه تعالى إذا حافظنا على سلامة قلبنا بترك السوء... وعلى هذا الأساس يتحاسب الجميع ومن ضمنهم الذي لم يصله الكتاب الإلهي.

ختامًا، لا عذر لنا إن لم تكن آيات الخلقة دالة لنا عليه تعالى لأن قلبنا فاسد، فسنتحاسب على ما سبّب فساد قلبنا، فقد فسد من قراراتنا بفعل ما رأيناه سيئًا ورغم ذلك فعلناه.

سورة النبأ (78) ص 582
كانت تسمّى أيضاً بسورة عمّ.

السورة تتحدث حصراً مع وعن نوعية الناس الذين "يتساءلون ومختلفون ولا يرجون حساباً وكذّبوا بالآيات" فلم يؤمنوا بالنبأ الذي جاءهم عن الآخرة...

بعد المقدمة التي فيها لفت انتباههم لأنفسهم وما حولهم ودلالة ذلك على الإله الخالق العظيم... فهذه هي المقدمة التي من المفروض أن تجيب عن سؤالهم، وبعدها تخبرهم السورة بمصير الطاغين المكذبين حتى تنذرهم أن لا يبقوا على هذه الحالة إن كانوا فيها، وتشجعهم ليكونوا من المتقين لينالوا السعادة الخالدة.

موضوع سورتنا هذه بكلامها عن المكذبين لنبأ الآخرة، فهو ليس بعيداً عن المواضيع التي تطرحها غالبية السور، وإنما تعيد طرحه من جانب آخر وبجمل مختلفة ومن زوايا مختلفة، ومن هذا نرى أنه تعالى زوّدنا في كتابه بما هو أكثر من كافٍ للهداية حيث تناول نفس المواضيع بعبارات متنوعة ومن زوايا مختلفة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم
(عَمَّ يَتَسَاءلُونَ{1})
هناك نبأ عظيم يتساءل عنه بعض الناس، تبدأ السورة بنقل هذا الخبر لتركّز عليه، إذ يتساءلون، ويسأل بعضهم البعض، ويعبّر أحدهم للآخرين والآخرون يعبّرون له عن إرادتهم للحصول على جواب عن النبأ العظيم، فتقول السورة: ما هو الداعي لتساؤلكم عن النبأ العظيم؟ فماذا فيه لتتساءلوا عنه؟

بعدها تبدأ السورة بلفت الانتباه إلى وصول خبر من الإله سبحانه عن يوم القيامة، ولفت انتباهٍ لما ترونه حولكم وفي أنفسكم إذ كلّه يدل على إمكانية حصول يوم القيامة، ويدل على وجوب وجود حكمة إلهية من خلقكم في الدنيا، وها أخبركم تعالى أن الدنيا مرحلة انتقالية للآخرة الخالدة، فما الذي يدعوكم لطرح الأسئلة عن صحّة هذا أو ذاك!

نلاحظ أنّ كلمة "عمّ" وردت "بدون ألف" مرّة واحدة في القرآن هنا في هذه الآية، ووردت العديد من المرات "عمّا" وكان معناها: عن ما، عن الذي. فلو كانت هنا بالألف لكان المعنى: ما هو الذي يتساءلون عنه؟ عن النبأ العظيم يتساءلون؟ ولكنها هنا بدون ألف، وتساؤلهم عن النبأ العظيم معلوم، ولا تسأل عنه الآية، بل تخبرك أنهم يتساءلون عن النبأ العظيم، واستعملت "عمّ" لتعطي معنى: هؤلاء لماذا يسألون عن النبأ العظيم؟

تصوّر شخصاً أضاع إبرة في كومة قشّ، وأنت تعلم أنه يبحث عنها، ولكنك تعلم أيضاً أنه من شبه المستحيل إيجادها بالبحث عنها بنظره وبيديه، وسيحتاج لوقت طويل جداً جداً ليجدها، فتقول له: عمّ تبحث، عن إبرة في كومة قش؟ وهنا الآيتان تقولان نفس الشيء: عمّ يتساءلون، عن النبأ العظيم؟ فما الداعي لسؤالهم عن شيء طالما هو حقيقي وسيحصل؟

بالنسبة لتصريف "تساءل يتساءلون" فالدارج بيننا أنه تصريف مستعمل للاستفهام والاستغراب، لدينا "سؤال" ولدينا "تساؤل"، أمّا المعنى الأساسيّ لأي تصريف من مشتقات كلمة "سأل"، فسياق الكلام يحدّد ما إذا كانت الجملة للاستفهام أو الاعتراض أو إرادة الجواب... فالمعنى الأساسي لها هو المرادف تقريباً لمعنى كلمة "طلب" حالياً، ولم يستعمل القرآن كلمة "طلب" بالمعنى الدارج حالياً واستعمل بدلاً منها كلمة "سأل" لعامّة إرادة شيء ما من أحد ما، سواء أراد جواباً "بكل أنواعه ومن ضمنه الاستفهام" أو أراد غرضاً أو مساعدة... وكلمة يتساءلون تشير لحالة توجيه سؤال من أكثر من شخص إلى عدة أشخاص.

(عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ{2})
يتساءلون، عن النبأ، عن الخبر غير المنتشر علمه، العظيم، فهو ليس خبراً عادياً وسترى في الآية 17 من هذه السورة أنهم يتساءلون عن يوم الفصل، عن يوم القيامة من الموت والحساب والجزاء الخالد...

النبأ "نبو" هو عموم ظهور الشيء، وهو الخبر غير المنتشر علمه فلا يعلم به الكثيرون، حيث يعرفه واحد ويجهله الآخرون، أو سمعوا بشيء عنه ولم تصلهم التفاصيل... والنبي هو من وصلته الأنباء، وكلمة نبي استعملت قديماً أيضا لعموم من يدّعي وصول الأنباء إليه، وحي من الإله أو غيره، لذا قيلت أيضا بالتوازي كوصف للكهنة والعرافين والمشعوذين... نساءً ورجالاً كما تقرأ في التوراة، ولكنها مع الزمن بقيت متخصّص أكثر كمصطلح ديني لخصوص الذين يصلهم نبأ منه تعالى من المنتمين للدين الإبراهيم، فالنبي تصله منه تعالى أمورٌ "معلومات" غير منتشر علمها بين الناس عادةً، وكمثال عن ذلك كلام النبي محمّد(ع) عن الآخرة، فهي منه(ع) نبأ لأهل مكّة، فهو خبر سمعوا به وجاءتهم التفاصيل، فتساءلوا عنه.

(الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ{3})
الذي، نبأ يوم القيامة الذي يسألون بعضهم البعض عنه، هم فيه مختلفون، فهم لم يتماشوا مع النبأ الذي وصلهم فلم يؤمنوا به واختلفوا معه، وقالوا: لا يوجد آخرة.

سترى في الآية 27 و 28 من هذه السورة أنهم كانوا لا يرجون حساباً وكذّبوا بآياته تعالى، فهنا الآية لا تتحدّث عن أقوالهم المختلفة حول الآخرة، على أساس أن أحدهم يقول بالحشر الروحاني والآخر يحتمل رجوعنا إلى الحياة وغيره ينكر هذا بالكلية... لا، فهم مختلفون عن النبأ الذي جاءهم، إذ اختلفوا عنه، ولم يؤمنوا به من أصله ولهم آراء أخرى غيره عن مصيرنا، حيث يقولون مثلاً إننا نموت ونفنى وبهذا الشكل ينتهي الواحد منّا ولا يَعُودُ له أثر ولن يعود إلى الحياة.

تلاحظ سوراً أخرى من القرآن تناولت أنواعاً أخرى من منكري الآخرة، فبعضهم أنكر صحّة ألوهية مصدر هذا القرآن وبالتالي أنكر كل ما يقوله القرآن، وعليه أنكر قول القرآن عن يوم القيامة من الموت... وبعضهم متمسّك بعقيدته عن الدهر أو عن الطبيعة أو الصدفة... وآخرون يعتقدون أنه تعالى خلقنا ولكن فقط وفقط في هذه الدنيا ولا آخرة بعدها... هذه الأنواع من العقائد وغيرها الكثير كانت تناولتها سور أخرى من القرآن، أمّا سورتنا هنا فهي تتحدث فقط مع المنكرين للنبأ عن يوم القيامة، كنبأ وصلهم فكذّبوه واختلفوا فيه فلم يتماشوا معه.

كما تلاحظ فالسورة لم تخبرنا عن مصدر النبأ ما إذا كان من القرآن، حيث تركته عمومياً، حتى لو سمعته من أناس ليسوا منتمين لدينه تعالى، فهو نبأ، وسترى من بقية السورة تركيزها على الآيات في خلقنا وخلق بيئتنا أنها دالة على صدق هذا النبأ عن الآخرة.

(كَلَّا سَيَعْلَمُونَ{4})
كلا، فلا يحق لهم الاختلاف عن النبأ بل يجب أن يوافقوه، سيعلمون، سيصير عندهم قناعة مطابقة للواقع حيث سيدخل إلى قناعتهم أنّ يوم القيامة حقيقة، وأن تساؤلهم عن نبئه كان بلا معنى.

هم سيعلمون بأن يوم القيامة حقيقة عندما يقومون من موتهم ويرونه بأعينهم ويشعرون به بكيانهم.

(ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ{5})
كان صدر منهم العديد من الأسئلة من بعضهم لبعض، فللتأكيد مرّةً ثانية في مقابل أسئلتهم العديدة لبعضهم عن النبأ:

ثمّ مرّة ثانية يؤكّد لهم سبحانه، كلا لم يكن معهم حقّ بالتساؤل، والنبأ صحيح، وسيعلمون، حيث ستصير عندهم قناعة بالشيء الصحيح عندما يعودون إلى الحياة وسيرونه ويشعرون به...

(أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً{6})
ضع في بالك أن السورة بالأصل تتحدّث مع منكري النبأ العظيم، فتلفت انتباه الجميع بشكل عام، وتلفت انتباه المنكرين لصحّة النبأ بشكل خاص، إذ تلفت الانتباه إلى ما حولهم وأنفسهم:

ألم نجعل الأرض، التي تعيشون عليها، مهاداً؟ أرضية ممهدة مهيئة لحياتكم عليها، كمكان للوقوف والجلوس والمشي والنوم والزراعة وجريان الأنهار... إذ إنّ فيها أرض صلبة وفيها منبسطات صالحة للعيش عليها، وصالحة لزراعتها والتنقل فيها...

ألا ترون في هذه الأرض وتمهيدها أي شيء من مستوىً إلهيّ! ألا ترونها تحتاج لقوة عظيمة لتصميمها ولصنعها بهذا الشكل! والأهم من ذلك كلّه: ألا ترونها تمّ إعدادها بهذا الشكل لتناسب خروجكم للحياة منها ولتعيشوا عليها، فهي مهاد لكم، ممهدة لكم، مجهّزة مهيئة. ما نسمّيه بالمهد للطفل ليس أكثر من صندوق من الخشب، فإن لم يستعمله الطفل فهو ليس مهداً، إذ هو مجرد صندوق فيه فراش، وكذلك الأرض فمهما كانت صفاتها وخصائصها فلن تكون مهداً إن لم يوجد من يتفاعل ويتعامل مع تمهيدها، فليس صدفة ولا من الحائط ولا لوحدها هكذا تهيأت الأرض لتكون مكاناً صالحاً لحياة الإنسان عليها.

بعبارة ثالثة، فإن كنتم تسألون بعضكم عن صحّة يوم القيامة، فنسألكم قبل ذلك عن الأرض الممهدة لكم لتعيشوا عليها، من جعلها هكذا ممهدة لكم؟ ولماذا؟ وما الحكمة منها لأيّ غاية؟ والأجوبة: سبحانه جعلها هكذا، لأجل أن تخرجوا إلى الحياة عليها، وحتى يمتحنكم ويحاسبكم ويجازيكم على سلوككم فيها.

بعبارة رابعة، ما معنى وجود أرض ممهدة للحياة عليها؟ والجواب العقلاني الوحيد: الإله سبحانه خلقها هكذا. ولكن ما المعنى من خلقها؟ لماذا سبحانه خلقها وجعلها صالحة للحياة عليها؟ وها وصلكم نبأ منه عزّ وجلّ عن تخطيطه تعالى لإعادة إحيائكم ومحاسبتكم، كمعنى لخلق الأرض وخلقكم عليها، فقبل أن تسألوا بعضكم البعض عن نبأ إعادة خلقكم ومحاسبتكم أجيبوا عن: من وكيف ولماذا... الأرض ممهدّة لكم لتكونوا أحياءً عليها؟

ننتبه دائماً ولا يذهب فكرنا لاستخراج دليلٍ على كروية الأرض من القرآن، أو الظنّ بأنّ القرآن يقول عن الأرض إنها مسطّحة، فلا كروية ولا تسطيح الأرض أشار لهما القرآن. هنا كلام عن تمهيد الأرض وفي آية غيرها دحو الأرض وفي أخرى طحوها...وهذا ليس إلا كلاماً مع الواقف على الأرض، حيث تكلّم القرآن معك ومعي على أساس أننا واقفون على الأرض، إذ إنّ هذه الصفات القرآنية للأرض ليست لمن يعيش على القمر وينظر للأرض، فهذه الصفات للأرض التي أنت عليها وما حولك وليست صفات "الكوكب" الأرض ككوكب تنظر إليه من الفضاء، بل كأرض تعيش عليها وتنظر إليها من مكانك عليها، وستراها ممهدة، مطحية، مدحوة...

وهكذا عموم كلام القرآن حيث غالباً اكتفى بلفت الانتباه "للآيات" لما نراه ونفهمه بدون تعقيدات ولا دراسات معمّقة، فلا يطرح نظريات علمية ولا يمنعنا من طرح نظريات علمية مهما كان نوعها، بل يأمرنا تعالى كثيراً بالتفكّر في خلق السماوات والأرض للتعمّق بالإيمان به كإله خالق فائق القدرات، وبالطريق سنبحث نحن عن العلاقات بين الأشياء ونكتشف أموراً جديدة... والعقلانية دائماً متوافقة مع الدين الإلهي، وما نظنه دينياً ولا يتوافق مع العقل فيجب إعادة النظر في نسبته للدين الإلهي، إذ سبحانه في هذا القرآن طرح علينا ما يتماشى مع ما جعله سبحانه فينا من قدرة على فهم الأمور، وبناء عليه سنؤمن بدينه تعالى بسهولة، وطرح علينا سبحانه ما يمكننا رؤية صلاحه لنفعله ورؤية فساده لنتركه...

(وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً{7})
ألم يجعل ربنا سبحانه، الجبال أوتاداً، الكيانات الصخرية والترابية الضخمة جعلها بارزة فوق سطح الأرض، فالوتد هو قضيب الخشب أو المعدن الذي نغرس قسماً منه في الأرض ويبقى قسمه الآخر بارزاً فوق سطح الأرض، والجبال كالوتد، فهي بارزة عالية عن سطح الأرض.

تلفت الآية انتباهنا لظاهرة الجبال، بوقوفها شامخة تناطح السحاب، فهي لم تتكون هكذا لوحدها، بل جعلها ربنا سبحانه بقدرته العظيمة بهذا الشكل، ونحن نبحث عن طريقة تكوّنها فنقول حالياً إنّ انجراف الطبقات "التكتونية" كدّس الصخور ورفعها بقوة الدفع الجانبي للطبقات، ونقول لنوع آخر من الجبال إنها تكونت من فعل دفع الرياح للرمال وتكوّمها، ونقول عن نوع آخر إنه تراكم لطبقات الحمم البركانية... وكل هذه الأسباب لتكوّن الجبال فهي من وجهة نظرنا نحن، أما بالنسبة لربنا فسبحانه قرّر تكوّن الجبال بطرقها المختلفة، فلم تتشكل الجبال بالصدفة، أو كنتيجة غير متوقعة، لا، بل القرار بتشكلها كان متضمّناً من حين ما صمّم وخلق سبحانه ما في الدنيا في ستة أيام "في ست مراحل"...

من صمّمها وجعلها هكذا؟ ولماذا؟ أيها الطارحون أسئلة عن النبأ العظيم كتخطيط إلهي لما بعد موتكم، التفتوا لما حولكم هنا وأجيبوا عن معنى ما حولكم قبل سؤالكم عن نبأ جاءكم من الإله سبحانه، وعندها ستفهمون المعنى من وجودكم ووجود ما حولكم، وأن الخبر عن الآخرة صحيح وعقلاني ومنطقي ولا داعي للسؤال عنه بشكل استنكاري.

(وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً{8})
{وَخَلَقْنَاكُمْ}، ركّبناكم ألفناكم، {أَزْوَاجاً}، ذكوراً وإناثاً، من الذي ركّبنا جنسين وكيف ولماذا؟ ومن الذي صمّم وخلق ما يتبع من صيراننا ذكراً وأنثى من حواس ورغبة للعلاقة التي ينتج عنها التناسل... وهذه الغريزة واحدة من أساسيات دوافع النشاط والحركة في الحياة...

تلاحظ أن كلّ ما ذكره القرآن من هذا النوع من الآيات يلفت انتباهنا لاستحالة كونه بالصدفة أو من لا شيء أو من الطبيعة لوحدها بلا إله... إذ إنّ التفاصيل في الدنيا بالتريليونات، والعلاقة بين الأمور متشابكة بتعقيد يفوق قدرتنا على تصوّره، وما تقرؤه بكلمتين في هذه الآية يختصر تركيب جسدنا وأعضائنا وطعامنا... وحواسنا ومشاعرنا... وشهواتنا وغرائزنا... وتناسلنا... وعلاقاتنا الاجتماعية... والعاطفة والاهتمام... وحبّ الولد... من وكيف ولماذا حصل كل هذا؟ التفتوا لهذا قبل أن تسألوا عن النبأ العظيم.

كلمة زوج نقولها لعموم أي شيء مادي أو معنوي له خاصية الاقتران بشيء أو الانتماء لصنف أو نوع، فهم أو هما أو هو مقترن مع آخر بالشبه أو بالنوع أو بالتلازم مع بعض... فهو زوج. وتقال للأنثى البشرية كزوجة بخاصية الاقتران بالذكر، كالاستعمال في الآية 39 من سورة القيامة "فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى" فليس القصد أنهما متزوجان من بعض بعقد نكاح، بل القصد أنهما من نفس النوع وبينهما تشابه وإمكانية اقتران... ومثله ما ورد في الآية 21 من سورة الروم "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا...".

نقول زوج للنبات بخاصية تشاركهم لوحدهم في شيء ما والاختلاف عن الأزواج الأخرى في الشكل أو الثمر كما ورد في الآية 53 من سورة طه "... وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى"، وللإنسان بخاصية الانتماء لجماعة والاختلاف عن الآخرين في المال أو السلطة كما ورد في الآية 88 من سورة الحجر "لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ..." فالكلام ليس عن زوجات الكفّار بل عن أصناف من الكفّار.

تشير لعموم التنوّع في نفس الصنف كاختلاف أصناف التفّاح، وتشير للاختلاف بين الأنواع كاختلاف التفّاح عن الموز، وحتى أنها مستعملة في التشابه في شيء والاختلاف في شيء آخر معنوياً كما ورد في الآية 57 و 58 من سورة ص حيث وصفت أصناف العذاب بالأزواج "هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ، وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ"، ومعنوياً في الآية 7 من سورة الواقعة "وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً"، فجماعة مؤمنين من الدرجة العالية وجماعة مؤمنين من الدرجة الأقل وجماعة أخرى لبقية عموم من سيدخل النار، فهذه أزواج ثلاثة.

(وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً{9})
{وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ}، حالة فقدانكم للوعي والإحساس بالمحيط من دون أي عطل فيكم جعلناه، {سُبَاتاً}، تسبتون وتتوقفون عن الحركة الاعتيادية والنشاط مع بقاء إمكانية إعادة التفعيل.

لا نزال نستكشف سبب حاجتنا للنوم، وما نعرفه أننا من دونه سنصاب بحالة هلوسة وهذيان بفقدان التركيز، وأعضاء جسدنا تبدأ بالانهيار... ولولاه لما استطاع دماغنا إعادة ضبط نفسه للخروج من الأزمات، وكمثال فإننا ننام بدلاً من استمرار التركيز على ما أحزننا... وبسبب النوم يعيد الدماغ ترتيب المعلومات وتصنيفها بحسب ما دربناه بخياراتنا، وبحسب اللاوعي العميق فينا... ولا نزال نستكشف معنى الوعي وكيفية فقداننا للوعي بالنوم، ونستكشف سبب فقداننا للإحساس بجسدنا وتعطّل حواسنا أثناءه...

النوم خاصية رائعة ضرورية جداً لتركيبة جسدنا الدنيوية، قبل أن تسألوا عن النبأ الإلهي أجيبوا عن سبب حالة النوم السابت التي تصيبكم، ما سببها، ومن صمّمها وخطّط لها ونفّذها، ولماذا؟ أليست آية دالةً لكم على إله جعلها فيكم وقادر على إعادتكم إلى الحياة من بعدما تموتون؟

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً{10})
{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ}، وهي فترة العتمة من اليوم، جعلناه، {لِبَاساً}، وكما أنّ اللباس يستر جسدنا، فعتمة الليل تسترنا وتستر محيطنا كحالة تنتشر، حيث لا نرى ما حولنا ولا يرانا الآخرون في حالة الليل، وهذه حالة دافعة لنا للتوقّف عن النشاط والنوم.

طبعاً هناك ليالٍ مقمرة، وهناك أماكن يعكس فيها الثلج أقل كمية من الضوء فترى لمسافات بعيدة في الليل، وهناك أماكن يمر عليها أيام من الضوء بلا ليل... وهناك من يعمل ويسافر... ليلاً... هذا كلّه معلوم، ولكن حياة الغالبية منّا على غالبية الأرض، وعموم ما يختبره الناس ليلاً هو العتمة وهي غير مناسبة للنشاط، فمن صمّمها هكذا؟

ننتبه جيداً، كما نفهم المناظر الجميلة التي لفت القرآن انتباهنا لها، من شفق وفجر وقمر بأطوار وجبال بألوان ومعادن ملفتة لنا كالذهب والفضّة وجواهر كاللؤلؤ... نفهم النوم ليلاً كلذةٍ وراحة للجسد وخروج مؤقّت من الهموم والمشاكل... من صمّمنا هكذا؟ هذا التفصيل الرائع في حياتنا المتوافق مع سعادتنا وراحتنا والمتماشي مع بيئتنا التي تعتم ليذهب الضجيج ويتوقف النشاط، الذي صمّمه ونفّذه لأيّ حكمة خلقه؟ ولأي سبب تقولون إنه ليس بقادر على تحقيق النبأ عن الآخرة؟

(وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً{11})
{وَجَعَلْنَا النَّهَارَ}، وهي فترة الضوء من اليوم، جعله تعالى، {مَعَاشاً}، فالحركة والقصدية منها هي المعنى للعيش، والأكل وتحصيل ما تأكله... وبقية تفاصيل معيشتنا عادة تحصل في فترة الحركة وهي عادة في فترة النهار، والآية هنا تعرض الوجه الآخر من اليوم، ففي الليل سبات "نوم" وفي النهار معاش "حركة".

(وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً{12})
كانت بداية الفقرة مع الأرض التي نعيش عليها، والآن لفت الانتباه لما فوقنا: {وَبَنَيْنَا}، راكم سبحانه المواد "المناسبة" لتشكّل كيانات، {فَوْقَكُمْ}، في مقابل الأرض التي تحتكم، {سَبْعاً}، ومن عموم القرآن تعلم أنها سبع سماوات كما ورد في الآية 29 من سورة البقرة "هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ..."، {شِدَاداً}، فبناؤها ليس رخواً أو هشّاً، فهي مستقرة.

هذه الجملة القرآنية وأمثالها بالكلام عن سبع سماوات هي خبر نعرف منه سماء واحدة، وهي ما نسمّيه الكون بمجراته، وهذه الآية لا تعني أننا نرى تلك السماوات بعيننا أو نتعامل معها بشكل مباشر، بل يفترض القرآن فهمنا لوجودها استناداً لمعرفتنا بسمائنا كنموذج عن سماوات أخرى فوقها "طباقا" كما ورد في الآية 15 من سورة نوح "أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا".

كما ترى فيما سبق كان كلام السورة عن أشياء نتعامل معها ونراها، من أرض وجبال وليل وإنسان... وهنا عندما تحدثت الآية عن السماوات السبع، فهي انتقال مما تعرفه إلى ما لا تعرفه، فهو انتقال مما على الأرض وفيك وحولك إلى سمائك، ومنه إلى ست سماوات أخرى لا تعرف عنها إلا الخبر من دون القدرة حالياً على التعامل معها بشكل مباشر، علماً أنه في المستقبل سنتمكن من النفوذ في أقطار السماوات لنتعرف على بقيتها، وانتقل الجنّ بين السماوات ونحن سنفعل ذلك في المستقبل وكما يبدو من الآية 33 و 35 من سورة الرحمن "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ... يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ".

بعبارة أخرى، لفتُ القرآن انتباهنا لآيات خلقه تعالى لما في الدنيا، فهو لا يقتصر على الأمور التي نعرفها من نوم وليل و... بل يذكر لنا أيضاً بعضاً مما لا نعرفه، كالكلام عن ست سماوات أخرى غير سمائنا.

(وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً{13})
{وَجَعَلْنَا}، ربنا سبحانه، {سِرَاجاً}، وهو شيء يصدر منه الضوء، {وَهَّاجاً}، فضوؤه له هالة انتشار قوية، فينتشر ضوؤه لمسافات بعيدة. ومن الآية 16 من سورة نوح نتأكد أنه وصف للشمس "وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا"، التي يصدر منها الضوء فهي موصوفة بأنها سراج "ومن أمثال السراج: لمبة، قنديل، مصباح..." التي تتوهّج فينتشر نورها على مساحة واسعة على الأرض.

نعلم الآن أن وهج ضوء الشمس يصل إلى ما هو أبعد من الأرض بكثير، ولكن الآية تشير لما نراه من حولنا، فأي مصدر حالي من صنع الإنسان للضوء فسيكون وهجه منتشراً على بقعة محدّدة جداً، ونحتاج لتوزيع كميات هائلة من المعدات على كل بقعة من الأرض لنماثل انتشار ضوء الشمس عليها، ونحتاج لطاقة كهربائية هائلة لفعل ذلك، والآن لدينا معلومات جيدة عن الطاقة الهائلة التي تصدر من شمسنا، ولكن على أي حال فالآية تشير لوهج ضوء الشمس في فترة النهار من اليوم، وهذا يكفيك لتلتفت إلى عظمة قدرة من صمّمها وصمّم أثرها المتناسب مع بيئتنا...

قبل أن تسألوا عن نبأ يوم القيامة أجيبوا عن: من وكيف ولماذا؟ هذا السراج الوهّاج المتناسب والمتماشي مع بقية الظواهر التي نعيش في بيئتها، أليس الذي خلقه ذا قدرة فائقة؟ وصاحب تلك القدرة أنبأنا بالآخرة، فكيف لا نؤمن بها!

(وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجاً{14})
أنزل سبحانه، {مِنَ الْمُعْصِرَاتِ}، من الواضح أنّ الكلام عن الغيوم التي تعصر الماء علينا، حيث من خلال غيومها ينزل الماء، {ثَجَّاجاً}، وهذا وصفٌ لحالة ماء المطر حين يصير على الأرض يسيل متجمّعاً كسيل أو نهر أو بركة... وكما ترى فإنّ الكلام عن نزول نقاط متفرقة في الجو، تجتمع على الأرض فيصير وصفها ثجّاجاً، فتسيل وهي متجمّعة. وكلمة "ثجّاج" لم ترد في القرآن إلا مرة واحدة هنا فقط.

بدل قول الآية إنّه سبحانه أنزل من الغيوم المطر الكثير، عبّرت بطريقة ملفتة أكثر، فوصفت الغيوم والسحب عندما ينزل منها المطر بأنها تعصر قطرات المطر الكثير نزولاً، والذي يصل إلى الأرض ليجتمع ويسيل ويتجمّع نهراً أو بركة...

بقي شيء كان من الأنسب الإشارة إليه من بداية السورة، ولكن ذكر المطر هنا جعله أنسب للآية هنا، المطر من أكثر الظواهر التي اختبرها الناس قديماً وأثّرت بهم، فهم بحاجة للماء، ونزوله ظاهرة خارجة تماماً عن قدرتهم وسيطرتهم فلا تحكّم لهم به لتوقيت حصوله ساعة يشاؤون، ولا تحكّم لهم بكمية ما ينزل... وأصحاب القلوب السليمة عندما فكّروا في نزول الماء، آمنوا بإله واحد خالق لهم ولكل شيء، والآخرون اخترعوا من أوهامهم آلهة متعددة للظواهر المتعدّدة، بل إنهم جعلوا بعض الكائنات والحالات... آلهة، فصار لديهم إله للمطر وآخر للرعد وغيره للبرق، وجعلوا الشمس إلهاً والنار إلهاً... واخترعوا إلهاً للحرب والجمال...

في بعض الأبحاث الحالية يقولون إنّ منشأ فكرة الإله بدائية، فاخترع الإنسان البدائي القديم آلهة لكل ما هو خارج عن سيطرة البشر، ولما هو مخيف...

ما يسمّونه بالبدائية نسبة للإنسان البدائي القديم، له وجه آخر طرحه القرآن مراراً وتكراراً، إذ أخبرنا أنه تعالى زرع فينا بذرة التعرّف عليه سبحانه من خلال التفكير والانتباه لضرورة وجود قوّة فائقة صمّمت وخلقت هذه السماوات والأرض بما فيها من كائنات وظواهر، وإلا فكيف سنتعرّف عليه سبحانه؟

المشكلة ليست هنا، بل المشكلة في الطريقة التي نؤمن بها، ما هو دارج كسبب نتج عنه عقيدة الإيمان بإله، في بعضه خلل، منذ القدم كان المؤمنون بإله واحد ومعهم المشركون المخترعون لآلهة متعددة، كان ولا يزال عند الأغلبية منهم اعتقاد بقوّة فائقة "بإله" يفعل ما لا نعلم كيفية "آلية" حصوله، حيث في عقيدتهم ينزل الماء لأن الإله أمر بنزوله هكذا فجأة ومن دون آليات مترابطة مسبّبة لنزوله، وكانوا يعتقدون بإله قادر وبأمر منه وبدون أي سبب يأمر فنخرج من المأزق ونتخلّص مما يخيفنا...

كمؤمنين للوهلة الأولى لا تبدو لنا المشكلة، فنقول إنّ الإله بقدراته الفائقة يفعل ما يفعله وبطرق لا يمكننا فهمها، وهذا صحيح، ولكن المشكلة في وضعه تعالى حيث نجهل آليات وأسباب حدوث الأمور، فإن علمنا بسبب حصولها وكان لحصولها ترابط بخصائص بيئتنا، وعلمنا أنّ حرارة الشمس مع الريح يسببان تبخر الماء، وبعدها بسبب فرق الحرارة والضغط تتشكّل الغيوم، وبعدها بسبب الغبار أو فرق الشحنة أو ... يتكاثف البخار الذي يكوّن الغيوم ليتساقط مطراً... بعد علمنا بأسباب نزول الماء لم نعد بحاجة لنؤمن بإله سبّب نزول الماء.

من جديد يأتينا المنتمون للدين الإلهي بحلّ، حيث يدفعونه تعالى إلى الخلف، إلى حيث نجهل الآليات والأسباب، ظاهرة المطر حدثت بسبب المواد وخصائص البيئة، والإله خلقها هكذا بهذه الخصائص، ولكن يتوقف هذا الدفع للإله إلى ما خلف الأسباب بعدما تُطرح نظرية علمية تشرح ترابط نشأة الكون بالتسلسل، والبداية بتشكّل كوننا من بذرة أولية، انفجرت متوسعة... لتتشكل العناصر الأولية للذرات وغيرها، وبعدها تتشكل الذرات... ويصير لها خصائص فيزيائية... وتتشكّل الكواكب والمجرات... وتبدأ التفاعلات الكيميائية من تكتلات الذرات... ليصير لها تفاعلات كيميوبيولوجية، فتتكوّن الخلايا الحيّة... وتنشأ الحياة بتعقيد تناسخ وانقسام الخلايا... وهكذا نفسّر "نظرياً" حصول كل شيء منذ بداية نشأة الكون من بذرة، وصولاً إلى نشأة الحياة على الأرض، وصولاً إلى ظهور النباتات والحيوانات ومنها الإنسان... ولا حاجة بنا إلى الاعتقاد بإله.

هذه هي المشكلة التي سبّبها الإيمان البدائي غير السليم، والمشكلة الثانية أنّ المؤمنين الموحدين طرحوا إيمانهم البدائي "غير السليم" على أنه الإيمان الصحيح، وعليه فسّروا كلامه تعالى، فصار إيمانهم هو الدين الإلهي، ولم نعد نميّز بين كلامه تعالى وبين كلامهم، لأن كلامهم صار هو الدين. هذه المشكلة ليست جديدة، بل قديمة بقدم كتبه ورسله تعالى، وهي من أسباب تكرار تنزيله تعالى لكتب جديدة تقوّم ما حرّفه المنتمون لدينه تعالى.

هذه المشكلة لها سبب نابع من اعتقادنا بإمكانية حدوث شيء ما هكذا من لا شيء، وبلا سبب وفقط لأنه تعالى أمر بحصوله، مثلما نؤمن بأن كلمة سريّة سحرية نقولها فتحدث الأمور، وكالذي يؤمن بالاسم الأعظم، على أساس أنه تعالى لديه اسم إن علمته وتلفّظت به أو نويته... من بعدها كل ما تريده سيتحقّق! كذلك نؤمن بأنه تعالى يقول للشيء كن فيكون فوراً وبدون أي آلية لحدوثه.

طرحت عليك الأمور بشكل متشابك فلنضعها بالترتيب، أولاً: عندما يأمر سبحانه فيقول للشيء: كن. حتماً سيكون. وليس بالضرورة أن يصير فوراً، إذ هناك أمور مترابطة بآليات مطلوبة لحدوثها، حيث خلق سبحانه ما في الدنيا في ستة أيام، ست مراحل، وترى ذلك واضحاً في العديد من الآيات منها الآية 54 من سورة الأعراف {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ}...، وراجع الآيات من 9 إلى 12 من سورة فصلت {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ}...، {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ}...، ...، {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ}... ونقدر حالياً مدّة تكون سمائنا بين 13 إلى 20 أو 30 مليار سنة.

هذا الكلام الإلهي القرآني عن نشأة السماوات والأرض الدنيا مدعوم بكلام عن نشأة الحياة على الأرض على مراحل، وتجد ذلك في العديد من الآيات منها الآية 7 من سورة السجدة وما بعدها {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ

مِنْ طِينٍ}... وهذا الكلام الإلهي القرآني هو نفسه مذكور في الكتب الإلهية السابقة، والتي تحوّرت لتوائم عقيدة الذين أعادوا صياغة تلك الكتب بتصرّف لتوضيح كلامه تعالى بحسب ما يرونه هم مناسباً!

ها أمامك كلامه تعالى في القرآن عن خلق ما في الدنيا والإنسان بالحرف ومن دون تصرّف، ومثله كان كلامه تعالى فيما سبق من كتب نزلت، ولكن الذين سبقونا من الموحدين فسّروه بحسب معارفهم ومعطياتهم، وصار كلامهم هو الدين الإلهي التوحيدي المفروض على الآخرين الإيمان به وإلا فالآخرون ليسوا مؤمنين!

فسروه بناء على اعتقادهم بأنه تعالى يفعل الأشياء بكلمة منه وبدون أسباب، وأن كل ما يحدث ولا سيطرة لنا عليه فلا أسباب لحدوثه إلّا كلامه تعالى، فيأمر سبحانه فيتشكّل ما في الدنيا، ويأمر فتتشكل الأرض بكل صفاتها وتضاريسها وظواهرها، ويأمر فيتشكل أول إنسان "فوراً"... طبعاً صرت ترى الضبابية في كلامهم لأن بعض الأمور يعتقدون بآلية ما لحدوثها، وحتى لو كانت آلية غير صحيحة، كخلق آدم فوراً من تمثال طيني فهذه بشكل ما آلية، لأن التراب والماء جرى عجنهما فصارا طيناً... وككلامهم عن خلق زوجة لآدم من ضلع من صدره... فهذه بشكل ما آلية لحدوث خلقها...

هكذا صار واضحاً لك أنه سبحانه أخبرنا عن خلقه لما في الدنيا على مراحل لها آليات مترابطة، ومحاولة تعرفّنا على كوننا عبر نظريات حول نشأته، إنما هو محاولة تعرّف على الآلية التي خلق بها تعالى ما في الدنيا، وصولاً إلى التعرف على الآليات التي صمّمها تعالى لينتج عنها كل ما في الدنيا، فمعرفتنا بأسباب تشكّل الكائنات وحدوث الظواهر، ليس لاغياً للإله كفاعل لها، بل هو محاولة التعرّف على الآليات التي فعل بها تعالى الأشياء.

ثانياً، هل يمكننا نحن البشر فهم تقنيات وآليات وطرق كل ما يفعله تعالى؟ لا، إذ بدماغ يقارب وزنه الكيلوغرام فيه تريليونات العصبونات المترابطة، أستطيع مراكمة قدر محدود من المعارف وتشكيل عدد محدود من المعارف الجديدة، وفرضاً لو كان دماغي بحجم دماغين لكانت قدراتي أعلى... ولكان من الصعب جداً عليك فهم ما أفهمه، فماذا لو كان دماغي بقدرة مليون دماغ؟ وهكذا ترى أن قدراته الفائقة سبحانه وتعالى تتخطّى بشكل هائل ما يمكننا فهمه، فلنجمّع الآليات والتقنيات والطرق التي نفهمها لحدوث الأمور، ولنقارنها مع ما يمكن للإله فعله، فما هو في حدود قدراتنا سنفهمه، وما هو خارج عن حدود قدراتنا فلن نفهمه، وهذا ما دفع المؤمنين قبلنا للاعتقاد بحصول الأمور بدون أسباب ولا آليات، فهم ونحن وغيرنا... لن نقدر على فهم عمق آليات وأسباب وطرق أفعاله تعالى.

الفرق بين الإيمان البدائي السليم والإيمان البدائي الفاسد، أنّ الإيمان الفاسد مبني على دفعه تعالى إلى الخلف، إلى فعل ما نعتقد أنه يحصل بدون أسباب، والإيمان السليم هو الاعتقاد بفعله تعالى لكل الأشياء بأسباب وآليات وطرق، بعضها يفوق قدرتنا على فهمه تماماً، وبعضها المرتبط بعالمنا فيمكننا فهم جانب منه.

ثالثاً، كلامه تعالى في كتبه وفي هذا القرآن الذي لحدّ الآن سلم نصّه من التحريف، ولم يسلم تفسيره من الفساد، يقول سبحانه لنا فيه وبوضوح أنه تعالى صمّمنا "التعبير القرآني: سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا جاعلاً فينا القدرة على التعرّف عليه، وسمّى المراحل وما سبّبت وما يسببها... من خلق لما في الدنيا وسمائنا وأرضنا ضمنها، ونحن ضمن الأرض، ومعنا صفاتنا وخصائصنا وارتباطنا ببيئتنا بظواهرها وما فيها من كائنات نباتية وحيوانية وصخور وماء ومطر... سمّاها: آيات. أمور مميزة تدل على كائن بصفات وقدرات فائقة صمّمها وخلقها.

أمّا الإيمان البدائي كإيمان طفولي ساذج لإنسان بدائي يسكن الكهوف، فهذا الإيمان هو البذرة التي جعلها تعالى فينا لنتعرّف عليه، ومن سلم قلبه، فسلم تفكيره ونفسيته، فهذا سيصل إلى توحيده تعالى بسهولة عبر التفكير بالآيات، والنموذج "إبراهيم(ع)" نشر القرآن الكلام عنه في مختلف السور ليرينا تطبيقاً نموذجياً لأرقى ما يمكن لإنسان الوصول إليه في الإيمان، ومن دون أي تواصل مباشر للإله سبحانه معه(ع)، في طفولة إبراهيم(ع) وشبابه وصولاً إلى حادثة محاولة إحراقه، لن تجد في القرآن ولا أي كلام صريح عن أي شكل من تواصل الإله تعالى مع إبراهيم(ع) لا وحياً ولا عبر إنسان ينقل له دينه تعالى...

من فسد فكره ونفسيته، فهذا سيصل إلى الشرك مخترعاً آلهة متعددة وصولاً إلى سخافة عبادة حجر أو نار أو كوكب... أو سيصل إلى الكفر به تعالى "ملحداً منكراً لوجود الإله من أصله"، وليس سبب كفره مشكلة في قابليته على استيعاب

آياته تعالى لتدلّه على إلهه، بل المشكلة في رفضه لها بعدما تبيّنت له، كثيراً ما حسم القرآن موضوع ما فعله تعالى من آيات لنؤمن "فكرياً" وأخبرنا سبحانه أن الآيات أكثر من كافية لنؤمن، وأن المنكرين لإحساسهم بوجود الإله هم كاذبون... وكثيراً ما أخبرنا سبحانه عمّا سينتج عملياً عن هذا الاعتقاد من ترك الالتزام بالصلاح وفعل السوء، ومن هنا يصير المؤمنون "الحقيقيون" في جانب، والبقية الآخرون كلهم في جانب آخر، إذ دينه تعالى يحتّم علينا الالتزام بما زرعه تعالى فينا من تمييز للخير والشرّ، فأمرنا بعمل الصالحات وترك السيئات، ومن يرد متاع الدنيا حتى لو كان سيئاً، فحتى لو كان فقيراً يحلم بها ولم يطل ما يتمناه منها، فهو يكره فكرة تقييد حريته حتى لو كانت رغبته في شيء يعلم أنه سيّئ فاسد مضرّ مدمّر... المسكرات والمخدرات والزنا... كمثال، فهي مشتهيات يبرّرون لها متغابين متعامين عن شرّها وتدميرها للفرد والعائلة والمجتمع...

الكلام يجرّ الكلام، وصرنا خارج موضوع السورة، وأكتفي بلفت انتباهك لما كرّره القرآن مراراً حين سأل عن شيء واحد، ولو شيء واحد، قاله القرآن آمراً بفعله أو ناهياً عنه، وليس على مسطرة رؤيتنا نحن له حقّاً وحكمة، حتى إنّ القرآن أطلق الكلام واصفاً أرقى الناس بأنهم مؤمنون، عاملون للصالحات، على أساس أنهم يفعلون ما يرونه هم صالحاً، ومن ناحية ثانية سبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، وهكذا عملياً هم ملتزمون بكلامه تعالى.

(لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً{15})

ليخرج سبحانه، {بِهِ}، بالماء الثجاج النازل من المعصرات على الأرض، {حَبّاً} وهي عامّة الحبوب من فول وعدس وقمح... ويخرج سبحانه بالماء، {نَبَاتاً}، وهي عامّة بقية النباتات كالخسّ والجزر والملفوف والقرع...

نتذكّر أنّ كلمة حبّة نستعملها الآن تقريباً كمرادف لكلمة واحدة، ولكن معناها الأساسي ليس واسعاً لهذه الدرجة فهي لخصوص ما كان صغيراً منفرداً، كحبّة لؤلؤ أو حبّة رمان... ومن سياق الكلام يتخصّص معناها لتشير لحبوب النبات، وبالخصوص للكيان النباتي شبه الكروي الذي يتم أكله كما هو بلا غلاف عليه، كالقمح والشعير والفول... في مقابل الخضروات والفاكهة...

يبدو واضحاً لك ارتباط الظواهر التي تشير لها السورة من الآية 12 وصولاً إلى هذه النقطة، من السماء والشمس ونزول الماء، وصولاً إلى خروج النبات، فقبل أن يسألوا عن النبأ فليجيبوا عن هذه الظواهر، كيف ولماذا حصلت؟

(وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً{16})

يخرج ربنا سبحانه من ماء المطر، {جَنَّاتٍ}، والجنّة وصف لعموم أي مكان يوصف بروعة ما فيه من عموم ما يسعدك، من حدائق وبساتين ومناظر طبيعية جميلة وصولاً إلى وسائل الترفيه... وهنا سياق الكلام عن خصوص البساتين والحدائق، {أَلْفَافاً}، ملتفّة بعضها على بعض، متشابكة أشجارها.

كلمة جنّة ليست مخصصة لجنّة الآخرة، بسبب ابتعادنا عن استعمالها لوصف أماكن على الأرض، "وبعض البلاد العربية تستعمل التصغير منها فنقول: جنينة"، وبضبابية صار لدينا مفهوم أنّ كلمة جنّة مخصّصة للمكان الرائع الذي في الآخرة، وهذا غير صحيح، وترى أثر هذه الضبابية بوضوح في الكلام عن الجنّة التي كان فيها آدم(ع)، إذ في ذلك الكلام تجد الكثيرين يخلطون الأمور ببعضها، لدرجة قولهم إنّ آدم(ع) كان في نفس الجنّة التي سيدخلها المؤمنون في الآخرة، وكأن تلك الجنّة موجودة الآن! بينما جنّة في "الآخرة" التي ستأتي بعد انتهاء الدنيا، ونحن لا نزال في حالة الدنيا، والآخرة ستأتي بعد انتهاء الدنيا، وهناك ستتشكّل جنّة الآخرة، فهي ليست موجودة الآن.

الكلام يجر الكلام، في أدبيات الناس يقولون عن الميّت إنّه انتقل للآخرة، انتقل إلى الدار الآخرة، صار في الآخرة... بينما نحن في حالة الدنيا الأولى، والميت لا يزال هنا في الأولى.

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً{17})

{إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ}، ومن عموم القرآن تفهم أنّه زمن يظهر فيه الحق مفصولاً بعيداً عن الباطل، حيث يظهر الحقّ فيصير واضحاً توحيده تعالى حيث لا سلطة لغيره سبحانه في الآخرة، وسيبدو واضحاً أنّ رسله صادقون... والسيئات واضح

سوءها... عملياً الفصل في يوم القيامة بين الحقّ عن الباطل يتبعه فصل للمؤمنين عن الكافرين، {كَانَ مِيقَاتاً}، كان زمناً محدداً سلفاً ومن قبل.

النبأ الذي تتساءلون عنه له موعد محدّد سيحصل فيه، وعندما يحصل وتقومون من الموت سيتم الفصل بين الحقّ والباطل، وستكونون في موقف محاسبتكم على أعمالكم... وقبل ذلك نفس وقوفنا هناك هو بنفسه يثبت أنّ يوم القيامة لم يكن باطلاً بل حقّاً صحيحاً صواباً، فها قد حصل... وهذا اليوم سيأتي بكل تأكيد لأنه سبحانه جعل له ميقاتاً، أي جعل له موعداً وتحديداً.

ليأخذ الجميع علماً من الآن، أنّ ما يسألون عنه له ميقات وله زمن محدّد ليحصل فيه، ولا يخطر ببال أي أحد أنّه سبحانه يغيّر قراره ويتركنا أمواتاً، ويلغي يوم القيامة، لا، من الواضح جعله سبحانه ليوم القيامة موعداً محدّداً، ولا يخطر ببال أحد ما أنّه سبحانه لا يقدر على تحقيق ذلك، لا. الذي خلقنا وخلق البيئة التي نحن فيها بتفاصيلها الهائلة كما مرّ معنا من لفت انتباه لنماذج من أفعاله تعالى في الفقرة السابقة، يمكنه وبكل سهولة خلقها مرة ثانية، وأصلاً تقصّد سبحانه خلق ما في الدنيا بشكل هائل الضخامة وبتفاصيل هائلة حتى نتعرّف عليه سبحانه بسهولة من رؤيتنا لقدراته الفائقة، ولهذا المعنى أشارت الآيات القرآنية العديدة بكلامها عن خلق السماوات، وبالتالي بسهولة نؤمن بكلامه سبحانه عن الآخرة التي سيخلقها كما خلق ما في الدنيا.

(يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً{18})

يوم الفصل سيكون، {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ}، ومن الآية 68 من سورة الزمر "وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ"، علمنا أنّ حادثة النفخ في الصور ستحصل مرتين، وأوّل نفخة ستسبّب موت كلّ المخلوقات في الدنيا "إلا من شاء تعالى"، وثاني نفخة ستحصل بعدما تتبدّل الدنيا لتصير الآخرة، وهذه النفخة ستسبّب عودتنا إلى الحياة، وأحياناً يشير لها القرآن بالساعة لأنها بالنسبة لنا هي أول ساعة من يوم قيامنا من الموت. والمشهور بين المسلمين أنّ ملاكاً اسمه إسرافيل(ع) يقوم بالنفخ في الصور، وتذكّر دائماً أنّ القرآن لم يذكر اسم النافخ ولم يقل أصلاً إنّه ملاك ولكن اشتقاقاً من عموم ما نفهمه من القرآن عن توظيفه تعالى للملائكة للقيام بهكذا أعمال، ومما هو مشهور في عموم ثقافة المنتمين لهذا الدين الإلهي من اليهود والمسيحيين، فسنقول إنّ ملاكاً اسمه إسرافيل هو النافخ في الصور.

الصور في اللغة هو الشيء الذي نستعمله لنصدر صوتاً قوياً، فيسمعه عدد كبير من الناس، كالبوق قديماً، وكمكبر الصوت حالياً. طبعاً الصور الذي تتحدّث عنه الآية هنا ليس بوقاً مصنوعاً من خشب أو من معدن، وليس مكبراً للصوت، ولكنه "على الوصفية" شيء يستعمله "الملاك إسرافيل(ع)" فينفخ فيه، فيجعل في داخله "شيئاً لا نعرفه"، مثلما نجعل نحن الهواء داخل البوق "أو البالون"، فيصدر من الصور "شيء" يسبّب قيام كل الناس من موتهم، دفعة واحدة.

وصف النفخ في الصور مثل الوصف بالصيحة الوارد في العديد من الآيات ومنها الآية 53 من سورة يس "إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ"، أمام عدد هائل من المخلوقات الميتة، يصدر أمر إلهي بإعادة هذا العدد الهائل إلى الحياة بنفخ "الملاك" في شيء ينشر الأمر الإلهي على عدد كبير، ونفس الحدث يوصف بالصيحة كتعبير عن أمر إلهي سينتشر على عدد كبير، فهي ليست صرخة "علماً أنّ كلمة صرخة أصلاً غير مناسبة لوصف الحالة"، ولا الصيحة مسموعة بالصوت، بل التعبير بالنفخ في الصور وبالصيحة هو وصف لانتشار الأمر الإلهي على عدد كبير ليتنفّذ.

النفخ في الصور ليس كما ننفخ نحن البالون بالهواء، فكلمة "نفخ" استعملها القرآن مراراً لتوصيف حالة سريان الحياة في المادة الجامدة مثل التراب، فالآيتان 29 من سورة الحجر و72 من سورة ص تنسبان النفخ له سبحانه في آدم(ع) فصار حيّاً، والملائكة(ع) نفخت في بطن السيدة مريم(ع) فصارت حبلى، وراجع في ذلك الآية 19 من سورة مريم "قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا" مع الآية 12 من سورة التحريم "وَمَرْيَمَ ... فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا..."، والنبي عيسى(ع) كان ينفخ في الطين فيصير طيراً، كما ورد في الآية 110 من سورة المائدة "... وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ

كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي..."، وهنا ينفخ الملاك في الصور فنتشكل نحن من التراب ونعود إلى الحياة.

صرت تعلم أنّ استعمال هذه الكلمات "نفخ وصور وصيحة..." على معناها الوصفي الحقيقي وليست تعابيرَ مجازيةً، ولكن تصوّرها في ذهننا غير ممكن لنا حالياً لأنها توصّف شيئاً من عالم آخر، من عالم الملائكة التي لا يمكننا رؤيتها الآن، ففي عالمها صور "بوق" يناسب تكوينه تكوين الملائكة، والنفخ فيه فعل يناسب تكوين الملائكة، فنحن لدينا رئتان ننفخ منهما، والملائكة تكوينها مختلف، ولكن لديها فعل توصف فيه بأنها تنفخ. ونفس الشيء الكلام عن الشهب التي ترجم بها الملائكة لتبعد الشياطين عن السماء العالية، فالشهب توصيف لشيء يناسب تكوين تلك السماء، فليست شهباً من المادة التي يتشكّل منها كوننا "سماؤنا"... ونفس الشيء وصف سجود الملائكة بتعبير يناسب تكوينها...

نرجع للآية، بعد النفخ في الصور، {فَتَأْتُونَ}، أيها الناس من موتكم، {أَفْوَاجاً}، دفعات من جماعات، فالفوج هو الدفعة من مجموعة أكبر منها، كمجموعات لكل جماعة تخصّص، فوج رجال اطفاء، فوج مغاوير، فوج كشافة... فكل الأموات سيقومون وأثناء ذلك تبدأ الملائكة بفرز الناس زمراً... وهكذا سيأتون إلى ساحة واحدة فوجاً مؤمناً من هنا وفوجاً مؤمناً من هناك... وفوجاً مشركاً من هنا وفوجاً مجرماً من هناك...

(وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَاباً{19})

{وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ}، ما هو فوق صار مفتوحاً على السماوات الأخرى في يوم القيامة وما بعده، {فَكَانَتْ أَبْوَاباً}، فلم تعد سماء منفصلة عن الأخريات بل صارت موصوفة بأنها أبواب ممرات، فيمرّ عبرها من في السماوات الأخرى.

من عموم القرآن تعلم أنّ هذا الكلام يقصد نزول الملائكة(ع) العالية ونزول الروح من السماوات العالية إلى أرض يوم القيامة، حيث تتشقّق السماء بالغمام كما ورد في الآية 25 من سورة الفرقان "وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا" وغيرها من التعابير عن انفطار السماء وانفراجها... فيصير فيها أبواب ممرات عبر شقوق فيها...

لاحظ تكرار القرآن عدّة مرات لمشهد نزول الملائكة(ع) من سماواتها إلى "أرض" يوم القيامة، ومن صريح تلك الآيات تفهم أننا سنرى الملائكة، وأنّ لديهم شيء يقولونه ويفعلونه ووظائف... ولكن لا يوجد لدينا تفاصيل صريحة أخرى عنهم، ومن ثنايا كلام القرآن يمكننا استخراج بعض الأمور المتعلقة بهم (ع) وبنزولهم، فهم (ع) يقدّمون شهادتهم على توصيلهم للأوامر الإلهية للرسل والأنبياء، ويشهدون على تصرفات الناس، ومنهم من كان موظّفاً لكتابة أعمالنا كما تجد في الآية 17 من سورة ق "إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ".

على أي حال، دائماً تفهم من هذا النوع من الآيات تركيزها على عظمة المشهد وضخامته، فتصوّر الآن السماء فوقك تنزل منها الملائكة(ع) بأعداد كثيرة، وأنت تعلم أنّهم ليسوا معك ولا لمصلحتك، بل للشهادة عليك ومحاسبتك ومعاقبتك، فهذا ما تريد الآية هنا لفت انتباهنا له.

لا ننسى أنّ الأرض في يوم القيامة تتبدل والسماوات تتبدل ونحن نتبدل بحيث يصير بإمكاننا رؤية الملائكة(ع).

بقي شيء، أيّ سماء ستنفتح لتصير أبواباً؟ فهل هي مثل السماء الزرقاء التي فوقنا في النهار؟ أم هل هي سماء سواد الليل؟ أم هل هي حافّة كوننا؟ إن كنّا نسأل هذه الأسئلة فهذا يعني أننا لم ننتبه لأمرين، الأول أنّ كل فضاء فسيح تحته أرض أو أراضٍ فهو سماء، وإن لم تكن تقصد أنّ تحته أرضاً فهو فقط فضاء، وهذا هو معنى كلمة سماء، وثانياً إنّ سماء الآخرة غير سماء الدنيا. وعلى كلّ حال أيّ انبثاق، أيّ خروج لشيء من فوقك من الهواء أو من فوق الغلاف الجوي، أو تراه ينبثق من زرقة السماء أو من فضاء عتمة الليل... فهو نزول عليك من السماء. يعني ليس بالضرورة أن يوجد حافّة محدّدة للون السماء التي فوقك وفيها يصير أبواب، لا، فأيّ مسافة عالية من فوقك في الغلاف الجوي أو في الفضاء خارج الأرض، وقد خرج منها شيء ما، فهو بالنسبة لك انبثاق، فهو بنظرك شيء خرج من لا شيء، وبنظرك هو شيء يصير فوقك فجأة، لأنك لا ترى السماء الأخرى التي خلف سمائك، بينما هو انتقال للملائكة من سمائها إلى سمائنا، من عالمها ستدخل إلى عالمك من الفراغ الذي فوقك، والفراغ الذي فوقك اسمه سماء.

من المفيد هنا التعرّف على معنى كلمة باب، فالباب في اللغة هو الوسيلة أو الممر للوصول إلى شيء، فباب البيت هو ممر الدخول وليس ما نسدّ به الفتحة، فهذه التسمية لباب الخشب والحديد... درجت فيما بعد، فكما يبدو من أشعار العرب قبل الإسلام فما نسدّ به الفتحة اسمه رتاج.

في فترة نزول القرآن لم يكن دارجاً في مكة والمدينة ولا عند عموم العرب، لم يكن دارجاً إغلاق مداخل بيوتهم بلوح خشبي أو عصيان خشبية... فكانوا يضعون قماشاً أو جلد حيوان أو لا شيء على مدخل البيت، وكانوا يعتمدون أحياناً بناء البيوت بممر ملتوٍ بين المدخل الأساسي والغرف الداخلية لحمايتها من إمكانية رؤية ما فيها من المدخل... وترى من أثر ذلك إلى الآن أننا نقول "باب" لفتحة الدخول إلى البيت أو الغرفة "أو الخيمة"، ونفس الكلمة نقولها للوح الخشب أو الحديد... الذي نسدّ به المدخل، وهناك كلمة عربية مستعملة في أشعار العرب قبل الإسلام يبدو أنها تشير لما نسدّ به الباب وهي كلمة: رتاج.

بتذكّر كلمة نافذة يسهّل علينا فهم كلمة باب، فالنافذة هي عموم الفتحة وليس ما يسدّ الفتحة، وبالأصل فالنافذة مادياً عموم الممر الصغير كمعبر أو إطلالة... ومعنوياً عموم الوسيلة للاطلاع أو التواصل مع شيء... والباب مادياً هو عموم الممر الواسع للوصول إلى الشيء، ومعنوياً هو الوسيلة للوصول لشيء. على كلّ حال سريعاً درج بين الناس وضع "رتاج" لبيوتهم قبيل وفاة النبي(ع) بقليل بحسب ما يبدو من التاريخ.

ترى في القواميس فقداناً للدقة للتفرقة بين كلمة باب ورتاج ومغلاق، وكما يبدو واضحاً استسهل الناس التوسعة في استعمال كلمة باب "ونافذة..." التي هي أصلاً واسعة التطبيقات لمعناها فاستعملوها لتشمل عموم الممر وما يسدّ الممر، فألغوا كلمة رتاج ومغلاق من الاستعمال.

ستجد في الأشعار قبل الإسلام وفي بعض ما وردنا من كلام عن الجيل الأول من المسلمين أنّ بعضهم استعمل كلمة رتاج ليشير إلى ما نسدّ به الباب. وصرت تعلم أنّ كلمة رتاج لم تكن دارجة بكثرة بين الناس لأنهم لم يكونوا يسدّون أبواب بيوتهم به، وكانوا يرونه في القصور والبيوت الكبيرة، ولهذا ظنّ بعضهم أنّ الرتاج اسم للباب "المغلاق" الكبير فقط، أو للباب "المغلاق" الصغير في الباب الكبير الذي يرونه على مداخل القلاع والحصون، وهذا ما ذكره بعضهم في القواميس.

(وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً{20})
{وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ}، الكيانات الصخرية والترابية الضخمة التي على سطح الأرض، سيتم تسييرها تحريكها من مكانها، {فَكَانَتْ سَرَاباً}، فتتحرك ذاهبة كسرب السمك في الماء، فالجبل هو تراكم لصخور أو تراب لارتفاع شاهق، وتماسك الصخور والتراب هو الذي يجعل الجبل قائماً كجبل، فالزلازل أو الانهيار للكيان الداخلي للجبل سيجعلها تسرب، فتتحرك، وبعدها تنهار، فالمشهد هنا وصف للجبال قبل أن تنهار على الأرض، والآية 88 من سورة النمل وصفت نفس المشهد، فوصفت سيران الجبال التي لم يعد لها تماسك داخلي بأنك تحسبها جامدة ولكنها في الحقيقة تمر مرّ السحاب، فسيكون الجبل هشّاً كسحابة كغيمة "وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ...".

أيضاً لا نزال مع نقل مشاهد ضخمة ستحصل في يوم القيامة، على أساس أنّ بعض الناس يسألون عن نبئها وها تخبركم السورة عن عظمة أحداثها.

(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً{21})
{إِنَّ جَهَنَّمَ}، إنّ المكان الموصوف بسوء ما فيه، فتتأجج فيه النيران، {كَانَتْ مِرْصَاداً}، كانت مكاناً متجهّزاً لتطال بسوئها... الطاغين...

من دراسة أشعار العرب قديماً قبل الإسلام وجدت فرقاً بسيطاً بين كلمتي جحيم وجهنّم، فجهنّم باستعمال القرآن هي اسم مكان مشتق من الوصف بجهنم الذي يشير لسوء الحالة أو المكان، واستعمال هذا الوصف لمكان تعذيب في الآخرة، فهو وصف للأنواع المختلفة المسببة للعذاب مما في المكان، ففيه النار المحرقة وفيه الضرب وفيه طعام كريه ورائحة كريهة... وتفهم ذلك من فحوى الآية 49 من سورة غافر "وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ...". وفي بيتين من الشعر

قبل الإسلام وجدت إشارة بكلمة جحيم لضخامة النار، ويناسبها ذلك في القرآن كما ورد في الآية 97 من سورة الصافات "قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ"، فالجحيم وصف الضخامة في السوء.

والرصد عامّةً شيء جاهز لشيء لن يفلت من عموم التعامل معه إذا صار في مجاله، سواء الاكتفاء بالاعتناء بتحركاته وأفعاله "بمراقبته"، أو الهجوم عليه أو منعه من شيء... وهنا الكلام عن ترصّد جهنّم للطاغين ليكونوا فيها من بعد انتهاء حسابهم. بعبارة أبسط فهي تنتظرهم لتحرقهم.

(لِلْطَّاغِينَ مَآباً{22})
{لِلطَّاغِينَ}، للمتعدين حدودهم، للذين يتصرفون بغير ما هو مسموح لهم، فجهنّم المرصد لهم، {مَآباً}، مكاناً للإياب، هم هنا في الدنيا عاشوا وفعلوا وقالوا... "وهذه حالة الذهاب"، وبعدما يموتون ويعيد تعالى إحياءهم "هذه حالة الإياب" يتم رميهم في جهنم التي جعلها تعالى مكاناً معدّاً لهم، التي تترصد قدومهم إليها لتصير جهنّمهم.

أيها القارئون لهذه السورة المتسائلون عن النبأ، خذوا علماً بمصير الطاغين، ننذركم من جهنّم إن كنتم من الطاغين، بعبارة أخرى: توقفوا عن طغيانكم وآمنوا بالنبأ الإلهي فتوقفوا عن الكفر والسوء وإلا فجهنّم تترصدّكم.

(لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً{23})
الطاغون: {لَابِثِينَ}، يمّر عليهم الزمن، {فِيهَا}، في جهنم، {أَحْقَاباً}، فترات غير محددة من الدهر، حقبة تليها حقبة إلى ما لا نهاية، وهذا تعبير آخر عن خلودهم في جهنّم.

لن يشعروا بمرور الوقت بسرعة لأنه سيكون بطيئاً عليهم، وقارنها مع المحكومين بالسجن القادرين على تمثيل حالة الحرية في خيالهم، أو القادرين على إشغال تفكيرهم بشيء آخر غير السجن والعذاب... في جهنّم ومن شدّة عذابها، لن يقدروا على إشغال أنفسهم بشيء آخر للتخفيف عن أنفسهم، وسيشعرون بمرور الوقت الطويل، وهذا الشعور لوحده مؤلم جداً، فكيف إذا كان مع عذاب أليم.

بدراسة ما هو متوافر من مصادر لغوية تبيّن أنّ الحقبة بالضمّة على الحاء، هي فترة زمنية محددة من الدهر، وجمعها: حُقُباً، وتبقى الضمّة على الحاء كما ورد في الآية 60 من سورة الكهف "وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا"، أما الحقبة بالفتحة على الحاء، فهي مدّة غير محددة من الدهر، وجمعها: أحقاباً. هكذا يكون التعبير بالأحقاب مشابهاً للتعبير بالخلود. وإن لم تصدق هذه النتيجة اللغوية، وتبيّن معنى آخر، عندها يجب أن يكون متناسباً مع خلود الطاغين في جهنّم، وهذا مفهوم قرآني محسوم، والآيات هنا لا تتحدّث عن أناس لن يخلدوا في جهنّم، حيث من المعلوم أنّ الفاعلين للكبائر يخلدون في النار، وبالتحليل للقرآن هناك آخرون يقضون فيها وقتاً ويخرجون منها، فهؤلاء فعلوا السيئات ولكن لم يفعلوا الكبائر التي توعّد عليها القرآن بالخلود في النار، وليس لديهم حسنات كافية لنجاتهم من النار.

(لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً{24})
طوال تلك الأحقاب، {لَا يَذُوقُونَ}، فلا يتحسّس ولا يلمس الطاغون، {فِيهَا}، في جهنم، {بَرْداً}، لا حرارة منخفضة عن حرارة النار، لا بالظل ولا بالهواء... ولا يذوقون في جهنّم، {شَرَاباً}، سائلاً ينعشهم أو يخفف عطشهم.

تنبّهنا الآية من التعذيب الدائم المستمر بلا انقطاع، وبلا تخفيف طوال تلك الأزمنة التي يشعرون بطول مدّتها، فالذي في جهنم هو في حالة دائمة من الشعور بالاحتراق والعطش.

لكنهم من شدة العطش يشربون! ولكن ماذا يشربون؟:

(إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً{25})
{إِلَّا} فقط، يوجد شراب واحد لا غير، {حَمِيماً}، سائلٌ حرارته مرتفعة، يسبّب المزيد من العطش والمزيد من الألم.

{وَغَسَّاقاً}، من عموم المعاني المذكورة لهذه الكلمة في التفاسير، وفي شعر واحد قديم وجدته قبل الإسلام، إنها تشير لشيء غير صالح للشرب، ولم يتحدّد معي الوصف الدقيق لسبب فقدان صلاحية الشرب، فهل ملوحته، نتانته، رائحته... وأنت تعلم أنّ المتاح هناك لهم للشرب هو السوائل الكريهة النتنة المقرفة التي تسبب الغثيان والشعور الشديد بالانزعاج والقرف.

هل هذا التعذيب الشديد فيه مبالغة؟ لا:

(جَزَاء وِفَاقاً{26})
هذا التعذيب الخالد القاسي جداً جداً، {جَزَاءً}، مقابلاً على ما فعلوه، {وِفَاقاً}، يوافق ويناسب ما فعله الطاغون، فليس فيه أي زيادة، إذ لا يظلمهم سبحانه أبداً، بل يحاسبهم بهذه الشدة لأنهم يستحقونها.

ها ترى في هذه السورة أنّ يوم القيامة والحساب فيه والجزاء بعده، نبأ إلهي، مدعوم بآيات القرآن، وبآيات منتشرة من حولنا وفينا، فبأي حق يسألون عنه على أساس أنهم غير مقتنعين به؟ على أي أساس يكفرون بخالقهم ويفعلون السيئات؟ وبذلك هم اختاروا بكامل إرادتهم الوصول إلى العذاب، بالتغابي، بالتعامي، بالاستهتار... بالكفر بآياته تعالى الخالق العظيم وفعلهم للسيئات، فهم يستحقون هذا العقاب الشديد وهو الجزاء لهم.

أنت كمؤمن لديك أمل بالنجاة من النار، ربما ترى هذا العذاب الشديد للكفّار فيها مبالغة، وبعض الأحيان تراجع الذنوب التي ارتكبتها أنت فتجدها صغيرة ولا تستحق عقاباً شديداً، وحتى الذنوب الكبيرة لا تراها تستحق الخلود في النار، فليكن العقاب طويلاً ولكن ليس بهذه القسوة المؤبدة.

احتفظ برأيك، وانتبه لكلامه تعالى، فأنت إن كنت ممّن لا يصرّ على فعل السيئات، وتستغفر منها، فلتكن هذه الأفكار دعاء منك لإلهك ليرحمك ولا يعذبك فيغفر لك، وإن عاقبك فادع أن يكون العقاب خفيفاً، هذا ما يجب أن تعمل له وتدعو به لنفسك كمؤمن.

أمّا الطغاة الناكرون لآياته ولكلامه تعالى، فأنت لا دخل لك بهم أولاً، فليس عليك حسابهم ولن تتحاسب عنهم، وثانياً في يوم القيامة سترى "وسيرون" أنّ العقاب بالضبط على قدر السيئات، ولا يظلم ربّك سبحانه أحداً كما تفهم من العديد من الآيات ومنها الآية 281 من سورة البقرة "وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ".

إن سمعت أحدهم هنا يقول: ما هذا التهديد الفظيع. فليتّعظ هذا القائل من شدّة التعذيب على الكفر بالحقّ وفعل السوء بدلاً من التفلسف بتحليل النفسية الإجرامية لإله المسلمين! فهذا كلام تجده هنا وهناك في كتب ومقالات وكلام المتفلسفين من السائلين عن النبأ الإلهي، فقبل إشفاقك عليهم انظر إلى قلّة أدبهم مع الإله عزّ وجلّ، ولن أذكر لك بقية سفاهاتهم مع الإله سبحانه، ولن أنقل لك شناعة تعبيراتهم وتعليقاتهم وسخريتهم... على ذي العزّة والجلال.

في السور الطوال حدّثتك عن أمور لم أذكرها لك في السور القصار، إذ إنّ غالبية المؤمنين يهتمون بقراءة تفاسير السور القصار أكثر من الطوال، ولم أرد إدخالهم في متاهات فكرية وتاريخية، ولكن لفتني هنا ما قالوه عن قراءة نسبوها لأبي حيوة، وأبي بحرية، وابن أبي عبلة، حيث قرؤوا "وفاقاً" بالكسرة على الواو والشدّة على الفاء، وهؤلاء من عصر انتشار الاختلاف في قراءات القرآن، وبشكل أدق هم من عصر التجرّؤ على القرآن واختراع قراءات، فأمام قراءة عامّة المسلمين التي اختار مؤلفو الكتب لها قارئاً واحداً يمثّلها وهو "حفص"، وبدا لنا وبسبب بعدنا الزمني عن تدويناتهم أنّ "حفصاً" واحد من القرّاء، مثله مثل البقية، فبدل أن ينبّهونا في كتبهم أنّ حفصاً واحد من كثيرين قرؤوا مثله، وأنهم اختاروه نموذجاً عن قراءة جمهور المسلمين بدلاً من ذكر مئات وآلاف من القرّاء المماثلين له بالقراءة، وبدل أن ينبّهونا في كتبهم أنّ أمثال أبي حيوة وأبي بحرية وابن أبي عبلة وابن كثير والكسائي و... أنهم الشواذ، وقراءاتهم منسوبة لهم وليست للرسول(ع)، وبدل أن يقوموا بمحو هذه الاختراعات فعلوا العكس! إذ كتبوها وأثبتوها وصارت تبدو لنا كأنها قراءات كانت منتشرة بين المسلمين!

ها ضربت لك مثالاً فيه ابن أبي عبلة وهو ربما من الأكثر شذوذاً بين القرّاء، وربما من أكثرهم اختراعاً في ألفاظ كلمات القرآن، لا نقلاً عمّن سبقه، بل اختراعاً واستنساباً برأيه اللغوي للمعنى أو الصرف أو الإعراب! "ومثله ابن كثير وغيرهم" وهذا حال بقية القراءات المخالفة للقرآن المنتشر بين أيدينا، وأضف إليه قراءات ضعاف الذاكرة الذين شوّهوا الكلمات من دون قصد، وبدل التنبيه في الكتب على فلتان ذاكرة هؤلاء وتصحيح ما قالوه بالمقارنة مع ما هو منتشر بين عامّة المسلمين، قام مدوّنو الكتب بتثبيت الكلمات الشاذّة على أنها قراءة! وكل هذا ولا زلنا في أجواء إلصاق النيّة الطيبة لهم وأنهم لم يقصدوا السوء، ولكن لو تتبّعت هذا الموضوع فلن تتحمّل حملهم على محمل حسن، فما معنى اختراعهم للفظة أو لكلمة قرآنية لم يسمعوها ممن قبلهم أو ممن حولهم؟ لمن يصحّحون؟ ألللإله يصحّحون الكلام ليصير متوافقاً مع قواعد اللغة ومعانيها!؟ يكفي هذا ولن أقول أكثر منه عنهم.

لمزيد من التوسع حول تعدّد القراءات راجع دراسة الآية السادسة من سورة الأعلى {سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَى}.

(إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَاباً{27})
إنّ الطاغين، {كَانُوا لَا يَرْجُونَ}، لا يحبّون ولا يتوقّعون ولا يرغبون بحصول {حِسَاباً} إلهي لهم، فكانت تصرفاتهم وأفكارهم مبنية على أساس نفي حدوث قيام من الموت، ولن يحصل لقاء معه تعالى، ولن تحصل محاسبتهم، وعلى هذا الأساس قضوا حياتهم، ففعلوا السيئات وعملياً هذا هو نفسه أنهم لم يطيعوا أوامره تعالى، وأصلاً لم يعطوا لأوامره أي قيمة، ولذلك سيكون العذاب الشديد جزاءً وفاقاً لهم.

(وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً{28})
الطاغون، {كَذَّبُوا} فلم يصدقوا، {بِآيَاتِنَا}، بالأمور المميزة من مستوى إلهي والمنسوبة له تعالى، {كِذَّاباً}، فبكل ما تحمله كلمة تكذيب من معنى فهم أعلنوا تكذيبهم للآيات! وبشكل قاطع حاسم لم يصدّقوها؟!

الدلائل والبراهين الإلهية الكثيرة التي ذكرت السورة نماذج منها عن خلقتنا وخلق بيئتنا والدالة عليه تعالى وعلى حتمية وجود آخرة وجزاء... كذّبوا بها كلّها تكذيباً قوياً! ورفضوا تصديق كلّ الآيات الإلهية! كلّها! فلا خلقهم ولا تكوينهم ولا صفاتهم... ولا بيئتهم... ولا ما فوقهم ولا ما تحتهم ولا ما على جنبهم ولا ما في داخلهم... ولا رسله ولا كتبه تعالى، كل ذلك كذّبوا به ولا واحدة صدّقوا بها أنها آية إلهية!

(وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً{29})
{وَكُلَّ شَيْءٍ}، وكل ما فعله الطاغون من إنكار وتكذيب للآخرة، ومن أعمال سوء... {أَحْصَيْنَاهُ}، فلم يفلت منه ولا أي شيء، {كِتَاباً}، فكان مكتوباً مسجّلاً محفوظاً.

كل شيء يحصل، فهو مسجّل بالضبط ولا يفلت منه أي شيء، فطغيانهم وتكذيبهم وما يقومون به كلّه يتم تسجيله لحظة بلحظة، فحسابهم ليس على التقدير أو التخمين أو على مستند تسجّل فيما بعد... لا، وكل شيء عنهم يتسجّل فوراً وبوضوح، وعليه سيكون حسابهم جزاءً وفاقاً.

هو هذا الكتاب الذي سيتوزّع عليهم في الآخرة ليتحاسبوا على أساسه، ذكره القرآن مراراً وكمثال عن ذلك ما تجده في الآية 14 من سورة الإسراء "اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا"، حيث كتب فيها الملائكة المرافقة لنا في الدنيا كل ما فعلناه كما تفهم من الآية 17 و 18 من سورة ق "إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ".

(فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً{30})
{فَذُوقُوا}، فتحسسوا والمسوا العذاب النفسي والجسدي الشديد في جهنم أيها السائلون عن النبأ الإلهي، فلن يبقى الكلام عنه نبأ بل ستصيرون فيه وتعايشوه، {فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً}، فلن تمر عليكم أي فترة راحة، بل العذاب دائماً في ازدياد.

انتهت الفقرة التي تهدد الذين لا يؤمنون بالنبأ الإلهي "عن الآخرة والحساب"، ويتعدون حدودهم فيطغون بكفرهم وفعلهم للسوء... ولكن الذي يؤمن بالآخرة، ولا يتعدّى حدوده، ماذا سينال في المخطط الإلهي للحياة الآخرة للبشر؟:

(إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً{31})
{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ}، إنّ للذين تجنبوا وتحاشوا، وسياق الكلام عن الذين تجنّبوا السوء وهو نفسه تجنّب غضب وعقاب ربهم سبحانه، وعملياً آمنوا "بالآخرة" وعملوا الصالحات وهو نفسه أنهم أطاعوه تعالى، فإن لهم، {مَفَازاً}، فسيكون وصف حالة ما حصلوا عليه: الفوز. فهم سيحصلون على أشياء لها قيمة عالية.

كما ترى فهم الذين وصلهم النبأ الإلهي عن حساب في الآخرة، فآمنوا بالنبأ، وحسبوا حساباً للآخرة، على أساس تصديقهم بالآيات الإلهية، فالتزموا بأوامره تعالى، وهو التطبيق العملي للتقوى، لتجنب غضبه وعقابه تعالى، وسيحصلون من ذلك على شيء له قيمة عالية.

(حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً{32})
الفوز سيكون بـ:

{حَدَائِقَ}، أماكن فيها أشجار قريبة من بعضها، فهنا حديقة وهناك حديقة أخرى وهكذا... وهذه التعابير القرآنية نفهم منها الوساعة الهائلة والتنوّع في أماكن الجنّة، فمكان واحد فيه الأشجار سيكون رائعاً، ولكن أماكن كثيرة مختلفة عن بعضها بتصميمها وأنواع ما فيها من أشجار... فسيكون التنقّل والسكن فيها أروع.

وللمتقين، {وَأَعْنَاباً}، وهي الفاكهة التي فيها عنقود من الحبوب "عنب" ومنه نصنع الزبيب.

انتبه جيداً لفاكهة العنب التي تذكرها الآية كشيء فاز المتقون به، فلا يذهب فكرك أنها مثل العنب الذي هنا في الدنيا، فاسمها عنب لأنها حبات معلقة بعناقيد، أما طعمها فيفوق تصورنا الآن، فعندما يعدنا سبحانه أنه لا ملل في الجنة، ولا لحظة من الفراغ، بل فرح دائم مستمر وحماسة وتشوّق لما هو جديد آت... كما تفهم من العديد من الآيات ومنها الآية 108 من سورة الكهف "خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا"، فستنتج أنّ كل حبة تأكلها ستكون بطعم رائع جديد.

القرآن استعمل الكلام العربي على أساس الوصفية، فهي شكلها عنب، وفيها صفات العنب، أمّا الطعم فليس بالضرورة أن يكون هو نفسه الذي هنا في الدنيا، ومثله كلام القرآن عن بقية الفاكهة والمشروبات والمأكولات في الجنّة، فحتماً سيكون مختلفاً لأننا نحن في الآخرة ستكون أجسادنا مختلفة وتشعر باللمس وبالطعم بشكل مختلف...

تلاحظ العكس تماماً للتعذيب، فكما الألم مستمر بلا انقطاع في جهنم، فالفرح بلا انقطاع في الجنة.

(وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً{33})
للمتقين في الجنة: {كَوَاعِبَ}، "كعب كاعب" شيء يوصف بأنه من مستوى رفيع، ففي الجنّة فتيات وفتيان فائقو الجمال في الوجه والجسد "والنفسية وبقية الصفات ولكن هنا التركيز على الجمال"، وهم الكواعب، {أَتْرَاباً}، أي متشابهون متقاربون في الحسن والجمال، فكلهم فائقو الحسن والجمال وليس بينهم واحدة أو واحد أجمل من الآخرين.

بكلمة {أَتْرَاباً} تقصد الآية القول أنّهم ليسوا متشابهين كنسخة واحدة، بل متشابهون في الجمال من مستوى عالٍ.

هناك تفاسير أخرى لهاتين الكلمتين ولكنها تفاسير تجعل الكلمات مخصّصة لمعنى محدّد وهي بعيدة عن الفهم الأولي للآية، وصف الشيء بأنه كعب، هو لعموم أي شيء من مستوى رفيع، للأخلاق العالية، للشكل المتناسق، للمكانة العالية بين الناس... وهكذا، فهذه الكلمة ليست مخصصة لوصف حالة من حالات أثداء الإناث كما قال بعضهم، بل تشملها ولا تنحصر بها، فالشابّ المتناسق الهيئة "الجميل جدا" أيضاً تنطبق عليه صفة "كعب" لكون تناسقه من مستوى رفيع، آيتنا هنا عامّة لوصف الإناث والذكور، ولكن درج في ثقافتنا حصر هذا النوع من التعابير بوصف الإناث مثلما حصر الكثيرون التعبير بالحور العين للإناث.

نلاحظ القرآن اكتفى بالقول عن سكّان الجنّات أنّ لهم كل ما يشتهونه ويرغبون به، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً، ولم يُفصِّل للإناث صراحة كما فصّل للذكور من ناحية الأزواج، حتى إنّ بعض الناس يظنون أنّ القرآن لم يذكر أي شيء للإناث في الجنّة لأن الله تعالى سيقلب الإناث ذكوراً في الجنة! والبعض الآخر يظن أنّ المرأة مُلزمة بالبقاء مع الذي كان زوجها في الدنيا! حتى لو كانت تكرهه في الدنيا! هذه وغيرها من الأقوال كلُّها خرافات، والصحيح أن للنساء في الجنة ثواباً بحسب أعمالهن في الدنيا مثلهن مثل الرجال، وينطبق عليهن نفس الذي ينطبق على الرجال من الثواب، ولكن القرآن اكتفى فقط بالإشارة من دون أي تفصيل، لأنه كما في أمور الشرع هنا في الدنيا أراد سبحانه للمرأة المسلمة أن تكون وتبقى عفيفة فلم يصرّح بما لها في الجنّة، فأراد إبعادها عن أفكار الشهوة خارج إطار الزوجية، لذلك أشار لما لها في الجنّة إشارة فقط، بدون أي تفاصيل، ويدعم ذلك عبارة "الحور العين، وكواعب أترابا" التي جاءت عامّةً وتنطبق على الذكور والإناث.

أبسط سؤال عن ثواب المؤمنات اللاتي كنّ عوانس في الدنيا... ويكفيك هذه الإشارة ولن أدخل في تفاصيل تحليلية أكثر طالما القرآن لم يرد الدخول فيها ولم يذكر أية تفاصيل مباشرة وصريحة، فعلياً نحن لا ندري ماذا سيجري هناك، ولكننا متأكدون مما يقوله القرآن بأنّ المؤمن والمؤمنة سيكونان في غاية السعادة حتماً.

بقي شيء، نقلوا قديماً عن عموم الكفّار في أوائل دعوة النبي محمّد(ع) وما بعد ذلك، ونقلوا عن آحاد أشخاص عاشروا الجيل الأول من المسلمين بعد انتشار الإسلام، وعن بضعة أشخاص من العهدين الأموي والعباسي، نقلوا في الكتب تعليقات أبداها أولئك الأشخاص على القرآن، وكانت تعليقات ساخرة من وعود القرآن بالجنّة للمؤمنين، وتسخر مما ذكره القرآن عن الإناث التي يحظى بها المؤمنون في الجنّة، على أساس أنّ القرآن تخطّى وكسر حدود الخجل والحشمة المفترضة بالكتاب الإلهي ليصير كتاباً فيه إيحاءات وتعابيرَ جنسيّةً.

استمرّت هذه النوعية من الناس بالظهور، واستفحل في عصرنا انتشار مقولاتهم على الإنترنت عن هذا الموضوع المعيّب على القرآن، وهي صفحات لها تمويل مخابراتي بشكل واضح، لها تكاليف لن يتحمّلها شخص عادي ليفرّغ وقته وماله لها... وبعض تلك الصفحات يبدو وراءها فريق عمل غير قليل العدد، ومتفرّغون بكامل وقتهم لمتابعة الأحداث ونشر المقالات التي بشكل مباشر تشكّك في الإسلام، وتلك الصفحات تعمل في نفس الوقت بشكل مباشر وغير مباشر على الفرقة بين المسلمين، وهناك صفحات مدعومة من جهات دينية "مسيحية ويهودية وغيرها" مناهضة للإسلام...

على تلك الصفحات إحياء لكلام قديم من التعليقات على هذا الدين الإلهي القرآني، وإعادة صياغة وتنميق لذلك الكلام والإضافة عليه... وللوهلة الأولى قد تصدّقهم وتشعر بالخلل في القرآن والدين الإلهي، ولكن بأدنى جهد تفكير سترى أنهم كاذبون، وكلامهم مغرض وليس منطقياً ولا عقلانياً...

في تلك الأكاذيب ستجد تجميعاً لبضع آيات قرآنية تحدّثت عن المتعة الجنسية في الجنّة، ويبالغون في الكلام عن تلك الآيات ليجعلوا القرآن يبدو ككتاب إباحي جنسي، ويسخرون مما يعرضه القرآن على أساس أنه كلام معيب وتحفيز جنسي وإغراء ووعد بالجنس حتى يرغب الناس في الدخول إلى الإسلام... كدعاية جنسية للانضمام للدين.

أولاً، القرآن يزيد عن ستة آلاف آية، والآيات التي أشارت لإناث الجنّة بشكل مباشر أو غير مباشر هي قرابة ستّ عشرة آية، والصفات التي ذكرها القرآن لتلك الإناث: حور عين، عُرُباً أَتْرَاباً، كَوَاعِبَ أَتْرَاباً، كأنهن الياقوت والمرجان، بيض مكنون، أَبْكَاراً، كأمثال اللؤلؤ المكنون، أزواج مطهّرة، والطمث. هذه هي الكلمات التي بالكاد تزيد عن سطر واحد وهي كلّ الإيحاءات الجنسية الفظيعة التي حوّلت القرآن لكتاب جنسي إباحي كما يقولون!

ننتقل للداخل، هناك مسلمون أصرّوا على مخالفة ظاهر القرآن حين ادّعوا أنّ الجنّة "روحانية" ليس فيها مادة ولا ملمس حسّي، وفسروا الآيات التي وصفت ما في الجنّة على أنها لذّة روحية وليست حيوانية "فالمتعة الجنسية حيوانية دونية المستوى بحسب تعبيرهم"، وبرّروا لما يظهر من القرآن على أنها لذّة حيوانية "بحسب تعبيرهم" بأنّ غالبية الناس لن تفهم ولن تقتنع باللذّة الروحانية، لذلك عبّر القرآن عن اللذات الروحانية بتعابير ماديّة، مما يعني أنهم هم وحدهم تلك المجموعة فهموا القرآن على حقيقته، وغشّ القرآن بقية الناس حين وعدهم بمتاع جسدي جنسي!؟

ما هذه الترهات؟! نعم هناك انشراح وراحة نفسية غير عادية لأهل الجنّة عبّر عنها القرآن مراراً، وتلك المشاعر الداخلية هي بحدّ ذاتها سعادة رائعة، "وهم يستبدلون كلمة نفسية بالمعنى الدارج حالياً بكلمة روحية"، ولكن ما معنى تأويلهم لصريح ما يقوله القرآن بغير معناه الصريح؟ فالأكل والشرب والإناث والأبكار والطمث... ذكرهم القرآن صراحة وفصّل في بعض مواصفاتهم!

أنتم أيها المجموعة الغارقة في حبّ التميّز عن الآخرين، أنتم الذين تدّعون أنكم من أقرب الناس إلى الله تعالى وأكثرهم معرفة به سبحانه وبكلامه، وقعتم في الفخر والزهو والتكبّر من حيث لا تشعرون، تطرّف من أنكر وسخر من ملذات الجنّة، وأنتم غاليتم بها وجعلتم فهمها حكراً عليكم حتى أفقدتموها معناها! فلا التعابير القليلة المؤدبة عن الملذات الجنسية التي ذكرها القرآن أقنعتكم، ولا أقنعت من رفض الدين الإلهي، فكلاكما في نفس المشكلة.

(وَكَأْساً دِهَاقاً{34})
للمتقين في الجنة، {كَأْساً}، كوباً بلا عروة "بلا مسكة لليد" وله خصر وقاعدة، وتدخل خاصرته بين الأصابع أثناء حمله. {دِهَاقاً}، مملوءاً حتى الشفة، وفيه الماء العذب أو العسل أو اللبن أو العصير... كما تفهم من الآية 15 من سورة محمد "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى...".

كلمة دهاق لم ترد إلا مرّة واحدة فقط هنا في القرآن.

تذكّر دائماً ما ورد في الآية 108 من سورة الكهف "خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا" فهي تختصر حالة السعادة الدائمة لهم بحيث إنّهم ولا لثانية يفكرون بشيء آخر، لا يخطر ببالهم رغبة بترك الجنّة ولا لأي سبب، والآيات هنا لم تذكر لنا كل ما في الجنة، بل اختصرته، وذكرت لنا عينات ونماذج في مقابل بؤس وحريق وألم وعطش أهل النار.

(لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا كِذَّاباً{35})
{لَا يَسْمَعُونَ}، لا يمر على سمع المتقين في الجنة، {لَغْواً}، كما نقول بالعامية: كلام بلا طعمة وحكي فاضي، وفي نفس الوقت مزعج ينفر العقلاء المحترمون من سماعه، ولا يسمعون، {كِذَّاباً}، كلاماً غير صحيح.

تخبرنا الآية عن النفسية الرائعة لكل من في الجنة، فهي محببة ولطيفة ومرحة... فلن يسمع أحد منهم كلاماً سيئاً مهما كان نوعه، فلن يتأذّوا ولا بأي نوع من الكلام حتى عن غير قصد، هنا في الدنيا لا أقصد أذيتك، فأمزح معك بكلام لا تتقبله وتنزعج منه، رغم أني لا أقصد إزعاجك، بل بالعكس أقصد ممازحتك... وهذا شيء لا ولن يحصل في الجنّة أبداً بتاتاً، فلن يسمعوا فيها أي كلام مزعج نهائياً، لأنه تعالى سينزع ما في قلوبهم من غلّ كما ورد في الآية 47 من سورة الحجر "وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ"، فسيحبّون بعضهم لأقصى درجة، فيتمازحون ولا يوجد في بالهم أي شيء مزعج، وأصلاً لن يكون في بالهم فعل أي شيء سيّء، ولا يوجد ولا أي دافع لفعل أي شيء سيّء، فما حولهم سيكون فوق تصوّرهم وخيالهم بالروعة، فما تحلم به هنا يكون نابعاً عن خيالك وتصوراتك، أمّا هناك، فبشكل متجدّد ستحصل على ما يفوق قدرتك على التصوّر، وكما ترى لا يوجد أي مجال للانزعاج من الآخرين الذين يحبونك أشد الحبّ...

تلاحظ نوعين من الكلام الكريه تذكرهما الآية قافزة عن الكثير من الأوصاف الكريهة للأنواع الأخرى من الكلام، فقفزت عن الإهانات والمشاحنات والسباب... هذا مفروغ منه فلن يقوله من في الجنّة، واختارت الآية اللغو الشامل لكل أنواع الكلام الفارغ المزعج المكروه سماعه، ويشمل كلام البسطاء المتعارض مع بعضه وغير العقلاني... والنوع الآخر الكذب، من المبالغة إلى تقصّد تغيير الحقائق، وهذا شيء لا يبدو منه أي ضرر هناك في الجنّة، فلا معاملات تجارية ولا مصالح مشتركة ولا تحتاج لأي شيء من الآخرين... ولكنه يبقى سبباً للنفور ممن يفعله... وكلاهما اللغو والكذب ليسا كلاماً جارحاً موجّهاً لك، ولكنك تكره سماعهما، أو هما من المستوى المتدني للكلام وهذا غير مناسب للمستوى العالي لرقي أهل الجنّة... اللغو والكذب لن يسمعه أهل الجنة من أي أحد، لا من المتقين ولا من الخدم ولا من غيرهم...

طبعاً لا تبالغ مانعاً أهل الجنّة من المزاح مع بعضهم، هذا ليس ما تنفيه الآية.

(جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَاباً{36})
ما مرّ سابقاً من نعيم الجنّة، {جَزَاءً}، فهو المقابل على ما فعله المتقون، {مِنْ رَبِّكَ}، من المسؤول عنك من مستوى إلهي، {عَطَاءً حِسَاباً}، حيث سيعطيهم سبحانه كل هذا وغيره حساباً، فهو على مقدار إيمانهم وعملهم الصالح.

ضع في بالك دائماً أنّه ليس حساباً يستحقونه كفرض واجب على الله تعالى، بل عطاء من نوع تفضّله سبحانه، بقرار من ربّك سبحانه حاسب المتقين بهذا العطاء.

قرّر سبحانه أنّ كل عمل نقوم به في الدنيا فعليه جزاء، فتكذيب أنبائه وآياته تعالى والطغيان... جزاؤه جهنّم، والإيمان والتقى جزاؤه الجنّة. ولكن هل يفرض التقي في يوم القيامة على ربّنا سبحانه أن يدخله الجنة؟ لا، إنما الدخول إلى الجنة والتمتع بما فيها هو عطاء من ربنا سبحانه وليس فرضاً واجباً، وهو سبحانه قرر أن يكون هذا العطاء والفضل حساباً على أعمال التقوى التي يقوم بها المؤمن.

نبهتنا عدة آيات أنّه لا يوجد أحد له شيء على ربنا سبحانه، ولا يوجد أحد يمكنه أن يفرض عليه سبحانه، فحتى عندما نطيعه سبحانه فهذا لا يعني أننا أعطيناه شيئاً، ولا يعني أنّه سبحانه استفاد منا، ولا يعني أني أستطيع مطالبته تعالى بشيء ما لأني أطعته، فليس لأي أحد منّة على ربنا سبحانه وتعالى، وهنا الآية تنبهنا فتقول إنّ التقوى لها جزاء عنده سبحانه، وحساب التقي عطاء منه تعالى وليس فرضاً واجباً عليه، وحساباً بناءً على ما قرّر تعالى إعطاءه للمؤمنين فيحسب لكل واحد ما يستحقّ. راجع كمثال الآيات من الآية 51 من سورة الدخان {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ} إلى الآية 57 من نفس السورة {فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.

(رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً{37})
ربك المجازي عطاءً حساباً هو:

{رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، فهذه حدود كل دنيا المخلوقات وهو تعالى المسؤول من مستوى إلهي عنها، {وَمَا بَيْنَهُمَا}، ما بين السماوات السبع والأرض من كائنات، فكل سماء مقابلها أرض، وليس بالضرورة أن تكون صلبة مثل أرضنا، أو كوكباً ما... أيّ أرضية للتحرك والثبات عليها بما يناسب سكّانها فهي أرض، فبقية السماوات يقابلها أراضٍ بما يناسب طبيعة تلك السماوات والكائنات التي فيها، وهذا واضح من الآية 12 من سورة الطلاق {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...}، فكوكبنا أرض بالنسبة لسمائنا وسطح القمر أرض لسمائنا وسطح المشتري الغازي أرض... وبقية السماوات لها أرض أو أراضٍ تناسبها.

{الرَّحْمَنِ}، الموصوف بعنايته بالمخلوقات لما فيه مصلحتهم، {لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً}، طالما هو الربّ فهو الذي يعطينا كلّ شيء، ويسمح بحصول الأحداث، فإن لم يسمح سبحانه لأحد ما "من الناس" بأن يخطب، بأن يقول كلاماً ذا أهمية، بأن يقول شيئاً مهمّاً والآخرون ينصتون له، فهذا لن يحدث.

لا زلنا في أجواء الآخرة حيث لا أحد من الناس يتكلّم فيها إلا بإذن الرحمن الذي لا يعامل المسيئين بعصبية أو يفرط عليهم بغضبه أو تفلت أعصابه... بل يفرض عزّ وجلّ على المخلوقات ترتيبات ومراسم الآخرة، فيصير كلامهم في الآخرة محصوراً فقط وفقط بما يسمح به عزّ وجلّ، وعلى كلّ حال لا يزال سبحانه يوصف بالرحمن وهم المكذبون حرموا أنفسهم من رحمته سبحانه.

تذكّر أنّ السورة توجّه كلامها للذين الآن يسألون بعضهم البعض عن الآخرة، وبكلامهم هذا يكذّبون كلامه عزّ وجلّ، فهم الآن يستطيعون قول أي كلام يريدونه، أمّا في الآخرة فلا أحد منهم يملك القدرة على مخاطبة الآخرين بحرية.

هذا الوصف "إسكات الكافرين" له أهمية كبيرة ولذلك كرّره القرآن في العديد من السور، فأنت كمؤمن تشعر بقيد يمنعك من قول أمور باطلة من هواك ونزواتك السيئة، إذ تقواك تمنعك من ذلك، أمّا المتسائل عن النبأ الإلهي، فهو

يشعر بالحرية لدرجة تكذيب كلام الإله عزّ وجلّ، فيخبره القرآن أنّ هذا الوضع سيتغيّر في يوم القيامة وما بعده، فهناك سيخرس ولن يتجرّأ على النطق بحرف إلا من بعد أن يأذن له تعالى.

(يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً{38})
الآية السابقة خصّصت كلامها عن عموم الناس وفقدانهم للخطاب في الآخرة، وهنا سنرى كائنات عالية القدرة جداً وأيضاً يمشي عليها القرار الإلهي هناك...:

{يَوْمَ}، في الزمن الذي، {يَقُومُ}، يتفعّل ينتصب يتجهز لعمل ما، {الرُّوحُ}، الكائن "الكائنات" الذي يوصف بأنه بلا إضافات، {وَالْمَلَائِكَةُ}(ع)، أيضاً يقومون، {صَفّاً}، فيكونون مجتمعين معاً على هدف وغاية محددة، وهي القيام بإجراءات المحاسبة للناس، {لَّا يَتَكَلَّمُونَ}، لا يقولون شيئاً لإيصال المعاني للآخرين، {إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ}، فقط الذي سمح له الموصوف بالعناية بمخلوقاته لما فيه مصلحتهم، فقط هذا يمكنه أن يتكلّم، {وَقَالَ صَوَاباً}، فحين يتكلّم أحد ما من الروح(ع) أو الملائكة(ع) صواباً سيقول، أموراً صائبة صحيحة ليس فيها كذب، ومن عموم القرآن تعلم أنهم سيشهدون بالحق على الكفّار والطغاة والمجرمين والمنافقين... ويطلبون تعذيبهم، ويطلبون الرحمة للمؤمنين.

كلمة روح وصف لعموم الصافي بلا إضافات، فنحن البشر مركّبون من مواد مختلفة من ماء وكربون وكالسيوم... والجنّ مركّبون من نار، أمّا الملائكة(ع) فهم مركبون من شيء أبسط من تركيبنا، والروح كائن تركيبه بسيط جداً أبسط من تركيب بقية الملائكة(ع). فلنقل مثلاً ولتقريب الصورة إنّ إنساناً وزنه مئة كيلو، فتركيبه من سبعين كيلو من الماء وخمسة كيلو كربون، وثلاثة كيلو كالسيوم والبقية حديد ونحاس... فلنقل إنّ قنديل البحر تركيبه من 90 بالمئة من الماء، فتركيبه أبسط من تركيبنا، ولنقل إنّ مخلوقاً ما تركيبه كلّه فقط من الماء، فهذا المخلوق يوصف باللغة أنه مخلوق من روح الماء، وكما نقول عن ماء الورد وماء الزهر أنهما "روح الورد، روح الزهر، روح النعنع..." وكما يقولون "مشروبات روحية" ويقصدون أنها مقطّرة لتصير صافية خالية من الإضافات... فهناك كائن أو كائنات خلقها تعالى وهي مركّبة من شيء بسيط بلا إضافات، فيصير وصفها بأنها: روح.

تعلم من القرآن أنّ الملاك جبريل(ع) يوصف بأنه روح، وترى ذلك من الآية 97 من سورة البقرة {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ...}، مع الآية 193 من سورة الشعراء {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ}، فالروح كائنات من الملائكة ولكن تكوينها مختلف، وترى ذلك من الكلام عن الملائكة التي جاءت للسيدة مريم(ع) في الآية 45 من سورة آل عمران {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ}، ووصف من جاءها (ع) أنه روح في الآية 17 من سورة مريم {... فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا...}.

(ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً{39})
{ذَلِكَ}، الذي ذكرته السورة عن زمن القيام من الموت والحساب وسكوت الجميع... هو: {الْيَوْمُ الْحَقُّ}، زمن الصدق الذي سيحصل حقاً وليس كذبة، فيا أيها السائلون عنه ها يخبركم إلهكم عبر هذا القرآن أنّ النبأ عن القيامة من الموت حقّ وليس كلاماً باطلاً كاذباً، {فَمَنْ شَاءَ}، فأي واحد منكم لديه خياران أمامه، أن لا يصدّق بهذا النبأ أو، {اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً}، فشاء ترك كلّ شيء والعودة في أموره إلى المسؤول عنه من مستوى إلهي. فالإياب هو حالة ترك شيء والتوجّه نحو شيء آخر، والإياب إليه تعالى هو التوجّه نحوه، وعملياً فهو الإيمان به تعالى وبكلامه وإطاعة أوامره سبحانه وترك كل شيء غير ذلك.

ننتبه جيداً، فعموم آيات القرآن المشابهة لآيتنا هنا عندما تتحدّث عن مشيئة الإنسان فهي تقول: أنت حرّ في اختيار التصديق بالنبأ الإلهي أو تكذيبه، فيمكنك أن تشاء الإيمان أو الكفر... فقد منحك سبحانه هذه القدرة على الاختيار، ولكن لكلا الطريقين نتيجة مختلفة، فواحد يوصلك للنار وآخر للجنة، فانتبه ماذا تختار.

بعض الناس يستسخفون أنفسهم ويتوقّفون عند نصف العبارة، فيقول إنّ القرآن قال لي أني حرّ في اختيار ما أريد فعله، فمن شاء آمن، وأنا لم أشء الإيمان... هذا صحيح، ولكن القرآن دائماً أخبرك أنّ لكل شيء تشاؤه عواقب ستتحمّلها غصباً عنك، فنهاية الإيمان الجنّة ونهاية الكفر النار، فاختر ما تشاء، وتحمّل نتيجة اختيارك.

(إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً{40})
{إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ}، أوصلنا لكم الخبر عن العقاب الشديد القادم بالتأكيد إذا بقيتم على ما أنتم عليه من تكذيب النبأ الإلهي وتكذيب آياته تعالى والطغيان... أنذرتكم، {عَذَاباً قَرِيباً}، ومن عموم تعابير القرآن ترى أننا عندما نموت سنفقد وعينا، وتمرّ آلاف أو ملايين أو مليارات السنين من دون شعورنا بمرورها، وسنفتح أعيننا لنجد أنفسنا فجأة في يوم القيامة، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 40 من سورة الأنبياء {بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ}، وما ورد في الآية 55 و 56 من سورة الروم {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ، وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}، وهكذا يكون العذاب قريباً جداً لمن لم يشء أن يتّخذ إلى ربّه مآباً، فيموت فاقداً وعيه ولا يشعر بمرور الزمن ويستعيد وعيه ليجد نفسه في الآخرة.

{يَوْمَ}، في الزمن الذي، {يَنْظُرُ الْمَرْءُ}، يوجّه كلّ واحد منكم اهتمامه العام إلى، {مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ}، كما نقول قدّم لي الطعام، فينظر إلى ما قدّمه لنفسه من حسنات أو سيئات، فينظر لما فعله هو بنفسه لنفسه، فلن يجد أعمالاً يتجازى عليها ولا علاقة له بها، لا، بل كل ما له علاقة به فسيكون أمامه، فإن قدّم لنفسه الحسنات عبر الإيمان والعمل الصالح، فقد فاز بالجنّة، وأمّا إن شاء الطريق الآخر وقدّم لنفسه السيئات، {وَيَقُولُ الْكَافِرُ}، فيقول المنكر للنبأ وللآيات ولدينه تعالى، يقول: {يَا لَيْتَنِي}، فأرغب بشيء قد فاتني ومن المستبعد حصوله الآن، {كُنْتُ تُرَاباً}، فبقيت ميتاً متحللاً تراباً ولم أتركّب لأصير بشراً من جديد، وهذا من المستبعد حصوله بل مستحيل لأنه تركّب من التراب وعاد إلى الحياة بقرار إلهي ليتحاسب ويتجازى.

سورة النازعات (79) ص 583
تتحدث السورة عن المعتدّين "المعتزّين" بقدراتهم المنكرين للبعث الجسماني والحساب، مشيرة لأبرز نموذج منهم فرعون كأعتى العتاة وأكثرهم تَجَبُّرًا وَقُدْرَةً، وَنَطَقَ بأقسى الكفر بإعلان نفسه رَبًّا أعلى، وَوَصَفَتْ لك بداية السورة نهاية فرعون المدّعي للربوبية والذي لم يتمكّن من إنقاذ نفسه من الغرق!

تُلاحِظُ فيها تَمَيُّزًا عن بقية السور في توجيه كلامها إلى المتجبرين المعتدّين بأنفسهم من فرعون المدّعي للربوبية وصولا إلى قوله تعالى: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا}.

إِلَى كل من يجد في نَفْسِهِ اعْتِزَازًا بشكل من الأشكال، ويدفعه جبروته للتكبّر على إلهه وأوامره، فليأخذ عبرة من فرعون الذي ضربه القرآن دائما كأعتى قُوَّةٍ.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً{1})
{وَالنَّازِعَاتِ}، النازع هو من يأخذ وَيَسْحَبُ شَيْئًا من شيء، {غَرْقًا}، من كان تحت الماء، يَأْخُذُ الذي تحت الماء.

كَمَا ترى أَوَّلَ آيات في السورة استعملت أَوْصَافًا حركية لأمر غامض، لتستفزّك لتبحث عن المقصود بها، ولكنك حين تدخل في وسط السورة ترى شَيْئًا مُمَيَّزًا وَحِيدًا، وهو الحديث عن النبي موسى(ع) وفرعون، ومن المشهور بين الناس وفي التراث الديني قبل نزول هذا القرآن أن فرعون الذي كان في عهد النبي موسى(ع) مَاتَ هو وجنوده غَرَقًا، وهكذا تفهم التأكيدات في أول السورة أنها توصيف لحادثة إهلاك فرعون وجنوده، وَيَكُونُ الوصف هنا للملائكة(ع) الذين نزعوا الغرقى، وَنَزَعُوا الحياة من فرعون وجنوده الذين ماتوا غَرَقًا.

بِالنِّسْبَةِ لصيغة التأكيد، "الواو" قبل كل آية، -وـ {النَّازِعَاتِ}... ـو- {النَّاشِطَاتِ}... فضع في بالك دَائِمًا أن التأكيد أنواع عديدة منها مجرد التأكيد، ومنها القسم، ومنها الحلفان، ومنها اليمين... فلا تظنّ أن كل "واو" في بداية أي جملة هي للقسم، لا، ولا تظن أن كل تأكيد معناه أن الذي يؤكّد يريدك أن تصدّقه في مقابل احتمال كذبه، لا، لِأَنَّ أَكْثَرَ

التأكيدات الإلهية في القرآن كان المقصود منها أنه تعالى ثابت على ما قال إِنَّهُ سيفعله، "لن يغيّر قراره"، وهنا التأكيد من نوع التذكير بما جرى سَابِقًا مع فرعون للتأكيد على ما سيأتي لَاحِقًا وسيحصل في الآخرة.

بِالنِّسْبَةِ لتفسيرنا للفاعل في هذه الآيات أَنَّهُمْ ملائكة(ع) فهذا مما نفهمه من عموم القرآن الذي ذكر دَائِمًا الملائكة ككائنات تقوم بتنفيذ أوامره تعالى، حَيْثُ تنزل بالوحي وتتوفّى الأنفس...

(وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً{2})
{وَالنَّاشِطَاتِ}، والجاذبات الرافعات من الماء، {نَشْطًا}، بكل ما تحمله كلمة نشط من معنى، حَيْثُ نَقُولُ: نشطت الدلو من البئر. أي سحبت الدلو وجذبته إلى خارج البئر. وَ{نَشْطًا}، تعني أن هذا العمل تَمَّ على أحسن مواصفات النشط.

تكمل السورة مع وصف الملائكة(ع) وهي تتوفّى الذين ماتوا تحت الماء، وَكَمَا تسحب السطل "الدلو" من الماء، وتعبّر عنه بالنشط، فكذلك توفّت الملائكة(ع) أنفس الموتى في الماء، ولا نزال نكمل مع توصيف فرعون الذي مات هو وجنوده غَرَقًا.

(وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً{3})
{وَالسَّابِحَاتِ}، العائمات فوق سطح الماء، {سَبْحًا}، بكل ما تحمله كلمة سبح من معنى.

إلى هنا انتهت المقدمة التي تحدّد الأماكن التي قامت فيها الملائكة(ع) بتوفّي أنفس الذين ماتوا: سَحْبًا لأنفس الغرقى في قعر الماء، وَنَشْطًا من فوق قعر الماء وتحت السطح "من وسط الماء"، وَسَحْبًا للأنفس سَبْحًا عن وجه الماء. وهذه حالات موت فرعون وجنوده.

بالتحليل ترى أن النموذج "فرعون" اخْتَارَتْهُ السورة بسبب اعتزازه بقوته وقدراته لدرجة دفعته ليقول إِنَّهُ الربّ الأعلى فلا ربّ فوقه، وأي ربّ آخر فهو تحته كما نقلت عنه الآية 24 من هذه السورة. هكذا تفهم هنا توصيف الملائكة(ع) تقوم بعملها مُتَوَفِّيَةً لمدّعي الربوبية ولجنوده، فَأَيُّ ربّ هو فرعون ولا يمكنه إنقاذ الذين هو ربّ لهم! بل أي ربّ هو ولا يمكنه إنقاذ نفسه من الغرق! وهذا شيء عرضته لك السورة لتستنتجه بنفسك من فحوى كلامها.

(فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً{4})
{فَالسَّابِقَاتِ}، الْمَلَائِكَةُ(ع) المسرعات لتنفيذ مهمة سحب الأنفس، {سَبْقًا}، وَيُوصَفُونَ بأنهم على أتمّ حالة السبق، حَيْثُ بِسُرْعَةٍ يُنَفِّذُونَ الأمر الإلهي بالتعامل مع فرعون وجنوده.

نتذكّر آيات عديدة منتشرة في القرآن تصف الملائكة(ع) بأنهم مطيعون وينفّذون أعمالهم بدقة وبسرعة من دون أي كلل أو ملل أو خطأ، ومنها الآية 6 من سورة التحريم "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ".

نَتَذَكَّرُ دَائِمًا بأن لفظة كلمة "ملائكة" مؤنثة، وهو تأنيث لفظي وليس حَقِيقِيًّا، مثل لفظة كلمة "شمس" وَهِيَ أَيْضًا ككلمة نميل نحن الناطقون باللغة العربية لاعتبارها مؤنثة، حَيْثُ نَقُولُ: هذه الشمس. ولكن الشمس في الحقيقة ليست ذَكَرًا وليست أُنْثَى، وغيرها الكثير من الكلمات "هذه طاولة، هذا كرسي..."، وحتى كلمة "رجل وجمعها رجال" التي هي للذكور فإن اللفظة مُؤَنَّثَةٌ، لِذَلِكَ نَقُولُ: هذه الرجال. وكذلك الملائكة (ع) وَهِيَ ليست ذَكَرًا ولا أُنْثَى، ولا شهوة لها ولا أعضاء تناسلية... والسورة هنا تتبع لفظية تأنيث "اسم" الفاعل، وَتَتَحَدَّثُ عن أفعال قامت بها الملائكة(ع) بالمؤنّث.

(فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً{5})
{فَالْمُدَبِّرَاتِ}، الْمَلَائِكَةُ(ع) الذين يقومون بِتَدْبِيرٍ، بِالتَّعَامُلِ وَالتَّصَرُّفِ كما هو مطلوب منهم مع {أَمْرًا} ما، مع موضوع ما، حَيْثُ هُنَاكَ "أمر" شيء تقوم الملائكة(ع) بإدارته نَظَرًا لما سيحدث بعده، وهذا الأمر الموضوع الشيء... ستراه في الآية التالية وهو التحضير ليوم القيامة.

سنرى الآيات القادمة تتحدّث مع أناس يؤمنون بأنهم بعدما يموتون سيفنى جسدهم ولا يمكن إعادته إلى الحياة من جديد، ولكن سبحانه يخبرهم بأن الملائكة(ع) التي تتوفاهم هنا إنما هي تدبّر شَيْئًا ما، حَيْثُ بَعْدَ وفاتنا سنعود إلى الحياة، وبجسد.

السورة تقول لنا إِنَّ الوفاة لَيْسَتْ أَمْرًا يحصل هكذا لوحده، بل تقوم به ملائكة(ع) مخصصة لهذا العمل، بحيث الذي ينكر إمكانية عودتنا إلى الحياة بجسدنا بعدما نموت، هو ينكر أن الملائكة(ع) تتوفاه، ويعتبر أن جسده هلك وفقدت أعضاء جسده قدرتها على المحافظة على حياته، هذا تخبره السورة أن الملائكة(ع) تقوم بعملها كآخر جزء من آلية فقدنا للحياة، الذي يبدأ بفساد الجسد وبتوفّيها لنا، ثم يتحلل جسدنا، ثم يأتي يوم القيامة وتقوم الملائكة(ع) بعكس العملية، وَتَقُومُ بإعادة جسدنا وإعادة الحياة إليه.

الملائكة مُدَبِّرَاتٌ أَمْرًا ستذكر تكملته الآية التالية:

(يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ{6})
{يَوْمَ}، في الزمن الذي، {تَرْجُفُ}، تضطرب وَتَهْتَزُّ بِقُوَّةٍ، {الرَّاجِفَةُ}، وهذا وصف لمن سيرجف، وكما تعلم من عموم القرآن فهذا وصف للأرض في بداية تبدّل السماوات والأرض كنهاية للدنيا وبداية للآخرة، وهذا تعبير مشابه لما ورد في الآية الأولى من سورة الزلزلة "إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا".

الأرض سيصير وصفها بالراجفة حين تضطرب وتهتز بقوة، ومن آيات أخرى تعلم أن زِلْزَالًا سيصيبها وستتعرّض للدكّ كما ورد في الآية 21 من سورة الفجر "كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا".

(تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ{7})
{تَتْبَعُهَا}، تكون من بعد الراجفة، {الرَّادِفَةُ}، ما سيردف، التالي، الشيء الذي سيأتي بعد شيء، فَرَجْفَةُ للأرض أردفتها رجفة أخرى، وأردفتها رجفة أخرى وهكذا...

(قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ{8})
{قُلُوبٌ}، البعض من القلوب، أساس فكر ونفسية "الكافرين"، {يَوْمَئِذٍ}، في يوم القيامة من الموت، {وَاجِفَةٌ}، فيها حركة مُضْطَرِبَةٌ. عَمَلِيًّا هو وصف لمركز الفكر والمشاعر والأحاسيس الخائفة المرتعبة، وهذا الشعور عادة ملازم لخفقان غير طبيعي في عضلة القلب، ومن تكملة الكلام سترى أن الآية هنا دمجت بين وجفان عضلة القلب ووجفان أساس الفكر والنفسية، فَهُمَا القلب المعنوي الذي عادة يشير له القرآن.

من فتح عينيه في يوم القيامة وهو يعلم بأنه لم يحسن التصرّف في الدنيا، سيكون مَرْعُوبًا، وأفكاره ومشاعره "واجفة" أي مضطربة.

نتذكّر دَائِمًا أن قلوب المؤمنين يومئذ مطمئنة.

(أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ{9})
{أَبْصَارُهَا}، أبصار تلك القلوب، قدرتهم على وعي وفهم صورة، يوم القيامة، {خَاشِعَةٌ}، تعبّر عن ضعفهم وفقدانهم القدرة على فعل أي شيء هناك، وَعَمَلِيًّا المقصود فقدانهم القدرة على الخلاص من العذاب مع علمهم بأنهم ذاهبون إليه.

القرآن عبّر عن تعابير خشوع مختلفة في يوم القيامة، من خشوع البصر والصوت والجوارح... كلّها تعبّر عن موقفهم الضعيف هناك حيث لا قدرة لهم على فعل أي شيء للخلاص من العقاب، وفي المقابل نجد في القرآن الذين تتلقاهم الملائكة (ع) بالبشرى بدخولهم الجنّة، وهم المؤمنون، الذين أبصارهم وأصواتهم خاشعة ليس من الخوف بل تَعْبِيرًا عن فقدانهم لأي سيطرة... وبعد مرور الوقت يرتفع هذا الخشوع ويحلّ مكانه الراحة والاعتياد على يوم القيامة...

(يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ{10})

أصحاب القلوب الواجفة، يقولون الآن وهم في الدنيا:

{أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ}، هل سَيَرُدُّونَنَا وسيتم إرجاعنا إلى الحياة مرة ثانية حال كوننا، {فِي الْحَافِرَةِ}! في الحفرة تحت الأرض، في القبر! سيتم ردّنا إلى الحياة ونحن في حفرة تحوي جسدنا الميّت تحت الأرض!

هذا الدين المستند على كلامه تعالى يقول إنَّ كلّ الناس سيرجعون إلى الحياة بجسدهم، فلنركّز على هذه النقطة "بجسدهم"، وهناك أناس نفوا أي رجعة إلى الحياة ولا بأي شكل، ويقولون إنَّنَا نموت فنفنى نهائيا، وهناك آخرون اخترعوا عقيدة من خيالهم، قائلين إنَّنَا نموت ولكن يبقى وعينا ونعيش في عالم الأحلام، وهناك عقائد أخرى كالاستنساخ، وعذاب أو راحة الضمير... كل هذه العقائد ردّ عليها القرآن بجملة واحدة: إلهكم ربّكم خالقكم... يقول إنَّكُمْ سترجعون بجسدكم إلى الحياة. نضع هذا في بالنا لأن عموم القرآن ركّز كلامه على إنكار العودة إلى الحياة "بالجسد"، وسنتحدّث بعد قليل عن فرعون وقومه الذين اشتهر عنهم من آثارهم "كتاباتهم ورسومهم" إيمانهم ببقاء الوعي بعد الموت...

لاحظ حين قلنا مرارا أَنَّ عادة كلام القرآن عن نماذج، فالكلام المنقول هنا عن لسان المنكرين للآخرة أيضا يتضمن استعمال النموذج، هم يقولون: هل من بعد اهتراء جسدنا في الحفرة سنرجع إلى الحياة؟ ويقصدون حفرة القبر، ومعلوم للجميع أن بعض الناس يحترقون وآخرون تأكلهم الحيوانات وغيرهم يغرقون ويأكلهم السمك... ونفس الشيء حين أشار القرآن لقيامنا من القبور ومن الأجداث، حيث كان كَلَامًا عن نماذج يسهل استحضار صورتها في ذهننا لنتماشى مع الموضوع المطروح.

(أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً{11})
يقولون: {أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً}، إذا تنخّرت وَصَارَ في العظام ثقوب من كثرة ما مرّ عليها من زمن ونحن في الحفرة، فصارت نخرة "منخورة" مثل الخشبة التي نخرها السوس وأحدث فيها ثُقُوبًا صغيرة.

هم يستغربون! هل بعد موتنا وتحلل لحمنا وتنخّر عظمنا، هل من المعقول رجوعنا مرة ثانية إلى الحياة؟

الجسد المتحلّل إلى تراب، والعظام البالية، ستعود الحياة إليها!

(قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ{12})
{قَالُوا}: {تِلْكَ}، الرجعة إلى الحياة، {إِذًا} هي {كَرَّةٌ}، هي رجعة وعودة، {خَاسِرَةٌ}، لن تعطيهم شيئا له قيمة، فهم مهددون بالعذاب في تلك الرجعة، وهذه رجعة خاسرة إن حصلت لهم.

(فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ{13})
ألا تصدّقون برجعتكم إلى الحياة بجسدكم!

{فَإِنَّمَا}، فَقَطْ وَفَقَطْ، {هِيَ}، الشيء الذي سيعيد الحياة إلى أجسادكم، {زَجْرَةٌ}، صيحة فيها عنف وقوّة، {وَاحِدَةٌ}، فلا تحتاجون لزجرتين لتقوموا من موتكم.

ليس شَيْئًا صَعْبًا عليه تعالى إرجاع الحياة إلى جسدكم، وليس مَشْرُوعًا ضَخْمًا، بل مجرد صيحة عنيفة واحدة كفيلة وبكل سهولة بإرجاع الناس كلهم إلى الحياة.

القرآن عبّر عن هذه الزجرة بالصيحة مرات وبالنفخ في الصور مرات أخرى، ومن المشهور في التراث الديني الإبراهيمي أن الملاك إسرافيل(ع) يصيح عبر نفخة في الصور، فتجعل تلك الصَّيْحَةُ كلّ الناس يرجعون إلى الحياة، وتكون صيحة نَاعِمَةً سَلِسَةً على المؤمن، ولكنها تكون زَجْرَةً عَنِيفَةً مُرْعِبَةً للكافر، وهنا تتحدث الآية عن الزجرة مع هؤلاء المنكرين للحياة الآخرة.

هي تعابير متشابهة لتصوّر لك انتشار الأمر بالعودة إلى الحياة على كل الناس وهم عدد كبير، فتأتي عبارات النفخ في الصور، والصيحة، وهنا التعبير بالزجرة، تأتي هَذَا التَّعْبِيرُ كوصف للعنف بالأمر الذي وصل لمن كان كَافِرًا ليعود إلى الحياة مَرْعُوبًا.

هناك سور تناولت مواضع أخرى متعلقة بدينه تعالى وأخبرتنا عن نماذج ملموسة لعودة الأموات إلى الحياة، منها ما ورد في الآية 259 من سورة البقرة عن الذي أماته تعالى مئة عام ثم بعثه، ومنها ما ورد في الآية 260 من سورة البقرة عن الطيور المقطعة التي استجابت لنداء النبي إبراهيم(ع) وعادت إليها الحياة، ومنه إحياء النبي عيسى(ع) للموتى كما ورد في الآية 49 من سورة آل عمران، وغيرها... وَمِنَ الْخَطَأِ التعامل مع أمثال هذه المواضيع على أنها دينية، إذْ إنَّ آلِيَّةَ استعادة الحيوان لحياته في الآخرة أو في الدنيا، مِنَ الْخَطَأِ البحث عن آلِيَّتِهَا في كتبه تعالى أو في التراث الديني لأنبيائه، ومن الخطأ الاعتماد على كتب وكلام علماء الدين للتعرّف على آليات عودة الحياة للإنسان، ومثله الخطأ في محاولة التعرّف على آليات نشأة الكون ونشأة الحياة ونشأة الإنسان... من الكلام الإلهي.

في كلامه تعالى تجد تَلْمِيحَاتٍ وَكَلَامًا عن مراحل، ومن الصعب جِدًّا أن تجد أكثر من ذلك، والبحث عن آليات حدوث الأشياء بالطريقة التي نفهمها نحن، متروك لنا لاستكشافه بما وهبنا سبحانه من قدرة فكرية وتخيّلية وتجريبية... التي هي أقل بكثير من قدراته تعالى التي فعل بها الأشياء، فمهما تقدمت علومنا فهي محدودة بحدود قدراتنا بينما علمه وقدرته تعالى فائقة ولا مجال لمقارنتها بنا.

أخبار القرآن العديدة الاستفزازية لفضولنا، ككلامه عن سماوات ست غير سمائنا، وعن كائنات بتكوين مختلف عن تَكْوِينِنَا "جنّ وملائكة"، وكلامه عن نقل أحدهم لعرش من سبأ إلى أرض كنعان برمشة عين، وكلامه عن إمكانية فهم منطق الطير، وعن نفوذنا في أقطار السماوات... كلّه كلام استفزازي من الرائع استكشافه.

إن توصّلنا لطريقة تمكّننا من إرجاع الحياة إلى الأموات، فسيكون شَيْئًا رَائِعًا، ومثله في الروعة لو تمكّنا من تخليق الحياة مباشرة من المواد الأولية، ومثله لو تمكّنا من النفوذ في أقطار السماوات "وهذا حَتْمًا سيحصل" وفهم كلام الحيوانات...

مثله لو استطعنا التواصل مع الجنّ، طَبْعًا تاركين الطرق القديمة المعتمدة على البخور والتعاويذ والتي لم ولن توصلنا إلى أي نتيجة، ومستبدلين ذلك باستخدام طرق علمية رصينة...

حَالِيًّا النظريات تقول بإمكانية استخراج الجينات من الأموات لإعادة نسخة طبق الأصل عنهم إلى الحياة، فهل سنبقى محدودين بهذا القدر أم سنتقدّم أكثر لنكتشف طريقة ما تعيد نفس الميّت إلى الحياة؟ هذا غير معلوم، ولكنه سيكون رَائِعًا، وسنفك أَلْغَازًا حيّرت البشرية من أوّل ما صارت موصوفة بالعقلانية.

في القرآن نقف أمام خبر من الإله الفائق القدرات، ويقول سبحانه إِنَّهُ سيعيدنا نحن بذات أنفسنا إلى الحياة، وتراب جسدنا له علاقة بذلك، فلننتبه من التعامل مع هذا الخبر لتحليله بمعلومات ناقصة ستوصلنا إلى متاهات فكرية، وَقَارِنْ مقاربتك الآن للموضوع مُسَلَّحًا بمعارف رائعة عن البيولوجيا والكيمياء، وقارنها مع شخص كان يبحث في نفس الموضوع منذ ألف سنة بمعلومات بدائية جِدًّا أمام معلوماتنا الحالية، والآن قارن نفسك مع شخص سيأتي بعد ألف سنة ويبحث في نفس الموضوع، وَمُسَلَّحٍ بمعلومات متقدمة جِدًّا عن معلوماتك. وهكذا ترى أن محاولاتنا الآن لفهم كلامه تعالى بالعمق لمعرفة آلية حدوث قيامتنا من الموت، مَا هِيَ إلا مقاربة، وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ بذرة صحيحة يمكن البناء عليها لتطوير الأبحاث، وَيُمْكِنُ أن تكون غير صحيحة...

(فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ{14})
{فَإِذَا هُمْ}، الكفّار من بعد الزجرة، {بِالسَّاهِرَةِ}، وهي الأرض السهلية التي لا ينبت في ترابها الزرع ولا يوجد فيها ماء.

الْمُسْتَغْرِبُونَ من عودتهم إلى الحياة ها نخبرهم بأنهم بعد زجرة واحدة سَيَكُونُونَ واقفين على أرض جرداء لا زرع فيها ولا ماء.

وكما نعلم من آيات أخرى، فِي يَوْمِ القيامة تقوم الملائكة(ع) باستضافة المؤمنين في أماكن مريحة فيها الماء والطعام ووسائل الراحة... كما تفهم من أجواء الآيات حول الآية 50 من سورة الأعراف "وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ"، أمّا الكفّار فيقومون من قبورهم ومن بين التراب... وتحشرهم الملائكة(ع) على أرض مظلمة معتمة لَيْسَ فِيهَا ماء ولا طعام، وَبَعْدَ قيامهم من حفرهم ووقوفهم على الأرض سيشعرون بالعطش والجوع ولن يجدوا ما يَشْرَبُونَهُ أو يَأْكُلُونَهُ.

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى{15})
هل صار عندك كلام نقله الآخرون لك عن النبي موسى(ع)؟ والجواب أَنَّ القرآن تناول هذا الحديث من جوانب مختلفة، وبين عموم الناس تجد قصصا عديدة عن هذه الشخصية، وَقَدْ وصل بعضها للنبي محمّد(ع) عبر هذا القرآن وعبر ما هو منتشر بين الناس وخصوصا من اليهود والنصارى... وسترى خلال هذه الفقرة اعتمادها على أن القارئ لديه تفاصيل ما عن قصّة النبي موسى(ع) وفرعون.

إنَّ النبي موسى(ع) شخصية مشهورة جِدًّا، وسيرته منتشرة بين عموم الناس في منطقة الشرق الأوسط، بغضّ النظر عن صحّة أو فساد بعض القصص التي يروونها عنه (ع)، ولكنه مشهور، وضربته السورة لنا كنموذج عن رسول ينقل الكلام الإلهي ويتعرّض للتكذيب، وعموم سور القرآن تلفت انتباهنا للامتداد التاريخي لهذا الدين الإلهي عبر رسل منه تعالى بيننا وبينهم آلاف من السنين، ويلفت القرآن انتباهنا لوحدة كلمة الرسل وتطابقها تَمَامًا مع بعضهم البعض، وأيضا يلفت القرآن انتباهنا لأمّة الكفر أنها لا تختلف عن بعضها في الجوهر وإن اختلف الأشخاص وأساسيات أو تفاصيل عقيدتهم، فالمنكرون للعودة إلى الحياة بجسد في الآخرة، فبأنواعهم المختلفة هم نفس العقلية على مرّ التاريخ، ونفس الكلام الإلهي توجّه لهم عبر الرسل، وينقل لنا القرآن بعضا من سيرتهم للعبرة من مصيرهم السيّء في الدنيا كنموذج تاريخي ملموس عن مصير أسوأ في الآخرة.

كما ترى فَإِنَّ مقدمة السورة كانت تصويرا لمشهد هلاك فرعون، تلاه كلام عن مصير أمثاله حين عودتهم إلى الحياة، وهنا عادت السورة لتشير إلى ما يهمّنا من قصّة فرعون الطاغية مع النبي موسى(ع).

(إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى{16})
{إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ}، فتوجّه إلى النبي موسى(ع) المسؤول عنه من مستوى إلهي بكلام، {بِالْوَادِ}، بالمنخفض بين مرتفعين، {الْمُقَدَّسِ}، وصف الوادي بالمقدّس يعني أن للمكان اعتبار ومكانة عالية بسبب حصول الكلام الإلهي مع النبي موسى(ع) في ذلك الوادي، واسم الوادي: {طُوًى}. ومن المشهور أن هذه الحادثة وقعت في منطقة سيناء التابعة لمصر اليوم، ومن سورة طه نعرف تفاصيل أكثر عما جرى في الوادي بين النبي موسى(ع) وربّه سبحانه.

إنَّ النبي موسى(ع) حصل له اتصال مع ربّه سبحانه، وسنفهم أكثر هذه الجملة لو قرأناها كما وردت في القرآن: موسى الشخص العادي الذي لم يسبق له أن نزل عليه أي وحي، ولا أي نوع من الاتصال الإلهي به، ففي الوادي المسمّى طوى سمع نداء من ربّه عزّ وجلّ. ربما لا تلتفت للفرق بين الجملتين إلا أننا لم نذكر كلمة نبي ولا عليه السلام، ولكن هذا فرق له معنى عميق لأننا وبسبب تراكم معلوماتنا الدينية لم نعد نلتفت أن موسى كان شخصا عاديا مثله مثل أي شخص آخر، واختلف عن بقية الناس بقلبه السليم، ولهذا السبّب كان مؤهّلا ليتّصل به سبحانه ويحمّله رسالة.

وهناك شيء مهم تراه بوضوح في سورة النجم، فهناك كان تركيزها على الرسول محمّد(ع) أنه وبالإضافة للوحي كوسيلة اتصال مع ربنا سبحانه، فقد شهد محمّد(ع) ما يمكن لبشري مشاهدته من السماوات العلا، بحيث صار شاهدا بنفسه على ما ينقله (ع) لنا من كلام عن الملائكة(ع)، ذلك في مقابل أقوال بعض المشركين عن الملائكة أنهم بنات له تعالى وأنهم أرباب... وهنا في الآية شيء من ذلك، فموسى(ع) كلّمه ربّه بطريقة لا يمكن الشكّ فيها بأن المتكلّم هو الله تعالى... وبذلك يصير موسى(ع) بشكل ما شاهدا بذات نفسه على التواصل الإلهي مع البشر، في مقابل فرعون الذي من جنون عظمته ادّعى الربوبية من مستوى إلهي، وبدون أي دليل أو إثبات يأمر الآخرين بتصديقه.

لاحظ أن كلمة وادي نكتبها حاليا مع الياء في آخرها وقديما كانوا يكتبونها بلا ياء، وهذا ليس خطأ إملائيا، فعلى مرّ الأزمنة يتغيّر "رسم" الكلمات بالرغم من محافظتها على لفظها، لأن اللفظ منقول بالسماع، ولم تثبت أي لغة مكتوبة عبر التاريخ على رسم واحد لكلماتها، وكل اللغات لا تزال يتغيّر رسمها، واللغة العربية ليست استثناء عن بقية اللغات، ويمكنك مراجعة الكتب المتخصصة لترى تطوّر رسم عموم اللغات عبر التاريخ، ويمكنك مراجعة الكتب التي تتناول ما يسمى برسم القرآن... ولا تزال تجري اقتراحات جديدة لرسم الكلمات بطرق جديدة...

نرجع للسورة، فقد مرّ معنا عدّة مرات في دراستنا هذه كلام عن هذا الشخص الحامل للإنذار الذي تكلم مع ربنا سبحانه، "من وراء حجاب"، فمن دون واسطة الملائكة تلقى موسى(ع) رسالة واضحة من ربه تعالى، وملخص الرسالة سيأتيك في الآيات التالية.

ولكن قبل أن نكمل بقي شيء، فقداسة هذا الوادي الذي حصلت فيه هذه الحادثة، فسببها كلامه تعالى مع رسوله هناك، فهل اللغة التي تكلّم بها تعالى أيضا صارت مقدّسة؟ وبغض النظر عن اسم تلك اللغة أو اسم لهجتها، فهل حظيت بالقداسة عن بقية اللغات واللهجات؟ ربما أوّل ردّ فعل عندك سيكون الرفض، لأنك عربي ومسلم، وبنظرك فتلك اللغة تخصّ اليهود، ولن تتحمّل أي مدح لهم ولا للغتهم... ناسيا الله سبحانه وناسيا كليمه موسى(ع) ومركّزا على خطورة تحطيم صورة العظمة والقداسة لدينك وقرآنك ونبيّك ولغته...

سأختصر لك الكلام، فلا يوجد لغة مقدّسة، ولا لغة بصفات فوقية في كل شيء لغوي على بقية اللغات، لا بكثرة كلماتها، ولا بغناها التعبيري، ولا بقواعدها... نعم يوجد لغة تميّزت لأنه تعالى استخدمها، وقد استخدم سبحانه لغات عديدة للتواصل مع رسله الذين كانت لغاتهم مختلفة، وبحسب ما استخدمه تعالى من تلك اللغات فستتميّز اللغة إن كان ما استخدمه تعالى منها كافيا لرؤية صياغتها واستخدامها بتقانة ودقّة من مستوى إلهي، وكمثال عن ذلك هذا القرآن الذي أغنى اللغة العربية باستعمالها بدقّة من مستوى إلهي، وللأسف لم نستفد من ذلك كما ينبغي...

وباختصار شديد بمراجعة أي كتاب علمي حقيقي مرجعي في الألسنيات والقواميس، ستجد أن اللغات عموما تتفاضل في كمية أصل كلماتها، وستجد أن اللغة العربية والعبرية من بين أفقر اللغات بأساس المفردات، وستجد الكثير من اللغات أغنى منهما في تصاريف الأفعال، وهناك لغات أسهل منهما ليتعلّمها الأجنبي، وهناك لغات لديها تعابير بكلمة واحدة تحتاج في مقابلها لجملة من العربية أو العبرية للتعبير عن نفس المعنى... وهناك وهناك...

فدعك من ترهات قدسية اللغات، وكن واقعيا علميا، وليكن هذا لفت انتباه لك لتراجع كل ما تقدّسه لترى إن كان فعلا مقدّسا، أم ورثت قداسته الوهمية من تراث مجتمعك أو مذهبك أو دين الناس...

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى{17})
النداء الرباني لموسى(ع) الذي منذ لحظات توظّف ليكون رسولا إلهيا، كان النداء:

{اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}، فتعدى حدوده كعبد، فقام بأعمال فوق ما هو مسموح له.

وتعلم من القرآن ومن عموم كتب أهل الكتاب وما هو منتشر بين عموم المتدينين أنه في عصر النبي موسى(ع) كان بنو إسرائيل مواطنين من الدرجة الثانية، وقتل فرعون مواليدهم الذكور حتى لا يزيد عددهم عن قدرة القوة الأمنية الفرعونية الموكلة بحفظ الأمن...

نتذكّر دائما أن فرعون هو لقب حمله أعلى حاكم في بعض فترات مصر القديمة، كما تقول العرب ملك، ويقول الرومان قيصر والفرس كسرى... ومرّ على تاريخ منطقة مصر العديد من الحكّام الذين لقّبوا بفرعون وآخرون لقّبوا بما يرادف الملك، فالفراعنة كثر، وبالنسبة لفقدان ذكر بني إسرائيل والنبي موسى(ع) من الآثار الفرعونية، فهذا ليس إلا دليلا على مدى كره المصريين القدماء لتأريخ حادثة مأساوية، فمعلوم تلاعب عموم السلطات بالتأريخ هربا من الاعتراف بالهزائم ولهذا لن تجد ذكرا لغرق فرعون وجنوده بآية ربانية...

بالنسبة لتحديد الفرعون الذي عاصر النبي موسى(ع) فراجع في دراستنا هذه أي آية ورد فيها اسم هامان لتجد أننا وبناء على المعطيات التي بين أيدينا استنسبنا أنه خوفو.

بقي شيء، فبسبب الخلفية المتوارثة بيننا عن "استعباد" فرعون لبني إسرائيل، فقد طغت هذه الخلفية على رؤيتنا لكلامه تعالى، ومن دون أن نشعر نفسّر القرآن مستعملين كلمة استعباد لبني إسرائيل، بينما في القرآن لم ترد إلا كلمة واحدة عن ذلك وليست صريحة في استعباد بني إسرائيل على المعنى المشهور في أذهاننا عن العبيد الذين يضربونهم بالسياط أثناء عملهم... وكانت الآية الوحيدة هي الآية 22 من سورة الشعراء "وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ".

أمّا بقية كلام القرآن عنهم فهو يشير لطغيان فرعون عليهم بقتل مواليدهم الذكور، ويشير لطغيان جنود فرعون عليهم كما في حادثة الشجار بين الإسرائيلي والفرعوني وتدخّل النبي موسى(ع) المذكورة في الآية 15 وما بعدها من سورة القصص "وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ"، فكلام القرآن يشير أيضا لكونهم مواطنين من الدرجة الثانية، فقارون من بني إسرائيل وكان فاحش الثراء، والسحرة فعلى الأقل كان قسم منهم من بني إسرائيل، وهم لديهم مهنة السحر.

يعني لا تبالغ في تصوّر الحالة لدرجة الاستعباد والحالة المزرية، ولا أقصد أنهم كانوا بكرامتهم الكاملة كمشاركين في الحكومة والقرارات، أو كمواطنين من الدرجة الأولى، فآل فرعون شيء، والملأ بعدهم في القيمة، وبعدهم المصريون الجنود، وبعدهم الناس درجات، وصولا إلى ما قبل العبيد، فبنو إسرائيل مواطنون من الدرجة الثانية.

(فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى{18})
قل، أيها الرسول موسى(ع) لفرعون: {هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى}؟ هل تقبل معي أن أعرض عليك ما يجعلك زاكياً، لائقاً؟ وما أعرضه عليك ويخالف عقيدتك وسلوكك فهو شيء يجعلك لائقاً، فتكون عقلانياً وعلى الحقّ.

فرعون يعلم أن تصرفاته طاغوتية، حيث إنَّ اعتبار بعض الناس درجة ثانية وقتلهم وتشغيلهم بالسخرة أو بأقل مما يستحقون... وفرض دين الشرك عليهم... هو طغيان واضح، واختراع عقيدة وشريعة ما هو إلا ناحية أخرى من الطغيان، وتركيز السورة هنا على طغيان فرعون عقائدياً، لأنه كان مشركاً به تعالى، ومؤلّفاً للعقيدة التي تناسب هواه كما سترى بعد قليل.

نلاحظ كيف أمر تعالى نبيه(ع) بالتحدث بلطف ولباقة مع فرعون، حيث لم يأمره أن يقول: يا فرعون أنت طاغية ويجب أن تسمع كلامي وإلا عاقبك الله تعالى. لا، بل بلطافة يسأله إن كان يريد ويرغب أن يكون زاكياً فيكون لائقاً بالملك والسيطرة...

ننتبه جيّداً، لسبب ما، لم يصدر قرار منه تعالى بمعاقبة فرعون على طغيانه فوراً هنا في الدنيا، ومن سور أخرى من القرآن ترى أن مهمّة النبي موسى(ع) كانت عرض دينه تعالى على فرعون وملئه، وأن يسمح فرعون لبني إسرائيل بمغادرة مصر، سواء آمنوا أم لم يؤمنوا فلن يبقى النبي موسى(ع) بينهم وسيغادر مع بني إسرائيل، وهنا السورة عمداً لم تذكر أي شيء عن بني إسرائيل لأن تركيزها فقط على فرعون كأسوأ نموذج للكفر بالآخرة بعودة الحياة إلى جسد البشر للحساب...

تذكّر أنه تعالى تقصّد إمهال فرعون وملئه سنينَ طويلةً جرت خلالها آيات إلهية واضحة، حتى يكونوا نموذجاً عن الذين لن يؤمنوا مهما جئتهم بآية...

(وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى{19})
هل لك أن، {أَهْدِيَكَ}، أضعك على الشيء الصحيح الذي يوصلك للغاية الصحيحة، {إِلَى رَبِّكَ}، إلى المسؤول عنك من مستوى إلهي، {فَتَخْشَى}، يصير عندك شعور بوجوب تجنّب خطر العقاب الإلهي، وتغيّر عقيدتك وتصرفاتك من بعدما أهديك.

هذا الكلام المختصر يتضمّن إخبار فرعون عن عودتنا إلى الحياة بجسد بعد الموت، والوقوف بين يدي الرب سبحانه لنتحاسب ونتجازى بعدها على أعمالنا، ولم تذكره الآيات هنا لأنه معلوم من التراث الديني والذي ستذكره السورة هنا فيما سيأتي من كلام...

بعض الناس يقولون إنَّ فرعون كان لا شيء أمام القوى العظمى المالكة للقنابل النووية وحاملات الطائرات والطائرات حاملة القنابل النووية العابرة للقارات، والأقمار الصناعية الحاملة للقنابل النووية... والقدرات المالية والاقتصادية والإعلامية... الهائلة... وهذا في جانب منه صحيح، ولكن يبدو أنه لم يصل أي حاكم إلى درجة فرعون الذي كان يأخذ قراره في منطقة نفوذه من دون أي عوائق ولا حساب لأي عواقب، لا المظاهرات تهمّه، ولا الرأي العام، ولا يخاف من قنبلة نووية يملكها غيره... كان حاكماً مطلقاً بلا أي قيود، وهذا شيء ندر وجوده في التاريخ، وإن وجدناه في أمثال جنكيز خان والإسكندر ونبوخذ نصّر، وهتلر وجبروت بريطانيا وأميركا وفرنسا وروسيا... إلا أنهم "على ما يبدو" لم يصلوا في كل النواحي إلى درجة جبروت وطغيان فرعون، إذ إنَّ الذي منهم كانت قراراته بلا نقاش لم يعلن نفسه ربّاً، ومن كان قوياً خارج بلاده كان في داخلها محكوماً بمجلس النواب والشيوخ... ومن كان يبدو قوياً فهو محكوم بقرارات أصحاب المليارات الغائبين عن النظر والإعلام... أمّا ذاك الفرعون فليس له مثيل.

لذلك اختاره القرآن مراراً كنموذج لأسوأ شخص ملك قدرات الحكم على الأرض، وهنا السورة تضربه لنا مثالاً عن أسوأ شخص أنكر رجوعنا إلى الحياة بجسد وأنكر محاسبتنا بالحقّ على أعمالنا... فمهما ارتفعت فلن تصل إلى ما وصل إليه فرعون، وسترى مصيره أيها المنكر للآخرة والحساب، وهذا هو محور السورة.

(فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى{20})
ذهب النبي موسى(ع) إلى فرعون، وعرض عليه التزكية والهداية...:

{فَأَرَاهُ}، تعقيباً على المحادثة بينهما جعل النبي موسى(ع) فرعون يصير عنده صورة محدّدة للـ، {الْآيَةَ الْكُبْرَى}، للشيء المميز الكبير في تميّزه، ومن عموم القرآن تعلم أنها آية تحوّل العصا لحيّة، حيث إنَّ صيران يده(ع) بيضاء آية، ولكن من تكرار القرآن للكلام عن آية الحيّة نرى بوضوح أنها المقصودة بالآية الكبرى. وتركت السورة ذكر الحية حتى يتفعّل في ذهن القارئ السؤال عن الآية، ويتذكّر أنها الخشبة التي تحوّلت لحيّة، وينتبه أنه إحياء لخشبة لتصير حيواناً.

لاحظ وانتبه جيّداً، إذ إنَّ هذه أشهر وأوّل آية حصلت من النبي موسى(ع) أمام فرعون، وكما ترى في سورتنا هنا تركيز على عودتنا إلى الحياة بجسد، وها تلاحظ أن صيران الحياة في عصا خشبية دليل واضح جدّاً على قدرة الإله سبحانه على إعادة الحياة إلى أجسادنا المتحللة وعظامنا النخرة.

ننتبه أكثر لسننه تعالى، لعادته تعالى في فعل الأمور وتأقلمنا معها، وهذا يجعلنا نرى حصول الحياة الحيوانية من التكاثر بالتناسل عبر الولادة والبيض... ولا نرى حصولها من المواد "الخام" بشكل مباشر، وتحوّل الخشب إلى لحم ودم وكائن حي، هو آية، هو شيء مميز جدّاً من مستوى إلهي، وليس بالنسبة له تعالى عملاً ضخماً، ولكن خلق الحياة، أكرر لك: خلق الحياة، عمل كبير عظيم جدّاً، وسبحانه يعلم كم هو عمل مميز.

انظر لهذا الموضوع من جانب آخر، أنا أرى والإله سبحانه يرى، ولكن أنا أرى على مستواي وبقدر محدودية قدراتي، أمّا سبحانه وتعالى فيرى ولكن بقدرات إلهية فائقة، ويرى كلّ شيء في السماوات والأرض... والرؤية ليست صفة إلهية مميزة إن قستها على قدرتك أنت على الرؤية، ولكن حين تفكّر في فعل الرؤية من مستوى القدرات الفائقة، فعندها تصير الرؤية بتلك الصفات الفائقة من مستوى إلهي، ولا يوجد أي كائن غيره عزّ وجلّ فيه هذه القدرة، وهذا هو المعنى الذي أشار إليه القرآن كثيراً، وركّز على أعمال وصفات لا يقوم بها ولا يتّصف بها إلا هو عزّ وجلّ، وعلى رأسها: وهب الحياة، جعل الحياة، خلق الحياة... وفي مقابلها سحب الحياة... وفي النهاية: إرجاع الحياة لكائن.

عموم القرآن مليء بالآيات التي تنسب كلّ شيء له تعالى، حتى صنعنا نحن للسفن واكتشافنا لركوب الخيل وصنع الأسلحة والميزان... وكلّها منسوبة له تعالى لأننا لم نأتِ بها من الفراغ، بل أتينا بها من قدرة حصلنا عليها منه تعالى، وسلفاً كان يعلم سبحانه ما سينتج عن قدراتنا... وترى ذلك في العديد من الآيات منها الآية 32 من سورة إبراهيم {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ}، والآية 41 و 42 من سورة يس {وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ}، والآية 64 من سورة الواقعة {أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}.

هنا بالإشارة لحصول الحياة في خشبة، لفت انتباهنا لعمل مميز كبير من مستوى إلهي، ومن بعدها لا يمكن لفرعون وملئه وأمثالهم إنكار عودة الحياة لعظامنا النخرة طالما بقدرة إلهية دبّت الحياة في خشبة.

(فَكَذَّبَ وَعَصَى{21})
كذّب فرعون الآية، فلم يعلن أنها صادقة صحيحة وتدل على قدرات إلهية، وعصى، فلم يطع ما أمره به تعالى على لسان رسوله.

تعلم من عموم القرآن أن فرعون علم من داخله أنها آية صحيحة ولكنها تتعارض مع نزواته وجنون العظمة... فقال إنها سحر. وحالة فرعون عامة تنطبق على عموم الناس عبر العصور، وفي عصر نزول القرآن وبعده تجد أشخاصاً بنفس العقلية والمواصفات والتكذيب.

أطلت عليك سابقاً وها أطيل عليك مرّة أخرى، فمن المعلوم عندنا حالياً مما حصلنا عليه من آثار الفراعنة أن غالبيتهم اخترعوا عقيدة عن الحياة بعد الموت، على أساس أن الجسد يموت ولكن الوعي يبقى فعّالاً، وبتعبيرنا الدارج بين الناس "وليس قرآنياً": النفس أو الروح لا تموت بل تنتقل إلى عالم الأرواح أو عالم الأشباح أو عالم الأحلام... وعموماً كانوا يضعون في قبور موتاهم نقوداً ذهبية ليعطوها لربّ الموت الذي ينقلهم بقاربه إلى عالم ما بعد الموت... وهناك يأخذون أماكنهم بحسب طبقتهم الاجتماعية التي كانوا عليها هنا في الدنيا، فالذي كان حاكماً هنا سيرجع حاكماً هناك، والغني يرجع غنياً هناك... والفقير يرجع فقيراً هناك... ومن لم يُعطِ النقود لسائق المركب تتوه روحه أو تفنى...

هذه العقيدة يقول عنها غالبية الملحدين إنها الأساس للعقيدة الدينية للأديان السماوية الثلاثة "يهودية نصرانية وإسلام"، على أساس أنها الأصل، وحوّرها إبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد (صلوات تعالى عليهم) وصارت أساساً في الدين التوحيدي... وهذه النظرة منتشرة في الغالبية الساحقة من الكتب والدراسات التي تناولت الدين الإلهي وعقيدته وتاريخه وارتباطه بالأمم التي سبقته أو عاصرته، والكاتبون لهذا الكلام مع الأكثرية من الناس فهم لا يؤمنون ولا بأي آية، وكلامهم ليس علمياً كما يدّعون، بل نابع مما يهوون...

للأسف كثرة الكذب والمبالغة والتحريف من المنتمين لدينه تعالى، دعمت أقوال المتهمين للاستيراد من دين الشرك لتحويله إلى دين إبراهيمي، وأقل ما أذكره لك هنا هو سخافة التاريخ المكتوب من المنتمين لدينه تعالى، والمشحون بالخرافات وتحوير القصص الشعبية "كمسألة ثالوث الأب والابن وروح القدس"... ومنه تحديدهم للفرعون المعاصر للنبي موسى(ع) بأنه رعمسيس... وتحديدهم لمدة قليلة بين النبي موسى(ع) وبين النبي إبراهيم(ع) وبين النبي نوح(ع) وبالتالي تصير عقائد المصريين والبابليين القدماء، أقدم من النبي نوح(ع)! بينما العكس هو الصحيح كما يبدو من الدراسة التي ذكرتها لك في دراستي هذه عن هامان...

القرآن هنا في هذه السورة وفي عموم سوره نبّه وبتكرار على نفس الخطّ الإلهي من آدم(ع) مروراً بسلسلة طويلة من الرسل والأنبياء وصولاً إلى النبي محمد(ع)، فكلّهم على خط عقائدي واحد، بلا أي تعديلات ولا إضافات ولا تغيرات... أعود وألفت انتباهك، من آدم(ع) إلى محمّد(ع) مروراً بآلاف من السنين والرسل خلالها، على نفس العقيدة. وأشار القرآن لمختلف العقائد الأخرى التي اخترعها البشر، وفنّدها وردّ عليها، وشرح أسباب اختراعها... واختلاف بقية عقائد الأديان الأخرى عن بعضها، فهو واضح من أي مطالعة ومن أي مصادر لتاريخ أديان الشرك.

ترى أنه حتى أشدّ العلمانيين كفراً بالدين الإلهي، فلن ينكر التوافق شبه التام بين الأديان السماوية الثلاثة "يهودية نصرانية وإسلام"، فهو يرى أنها دين واحد مع اختلافات بسيطة، ويسمّونه بالدين الإبراهيمي، وهذا صحيح، ولكنه لا يدل على تحوير ديانات البشر لتصير سماوية، بل يدل على تحوير البشر لأشياء من دينه تعالى لتصير دين شرك وكفر.

كمثال على ذلك دين النبي إسماعيل(ع) الذي مع مرور الزمن حوّله أولاده "قريش الذين في مكّة" إلى دين شرك...

كما تلاحظ، القرآن اعتبر أي عقيدة أخرى غير ما يقوله تعالى، فهي باطلة وضلال ووهمية لا حقيقة لها، والسبب أن كلام القرآن كلام الإله الذي يعطينا معلومات عن نفسه وعن أفعاله وعن قراراته... ففي مقابل كلامه تعالى عن رجوع الحياة إلينا بجسد، ووقوفنا بين يديه تعالى ليحاسبنا على أعمالنا على مقياس الخير والشرّ، وهو نفسه مقياس أوامره

تعالى، فأي كلام آخر لا معنى له. فحتى لو كانت عقيدة الفرعون المعاصر للنبي موسى(ع) تتضمّن بقاء الوعي "النفس الروح الشبح..." فهي تنكر عودتنا بجسد إلى الحياة، وحتى لو كانت عقيدته تتضمّن حياة "بشكل ما" لما بعد الموت، فعقيدته تنكر محاسبة الإله تعالى لنا على أعمالنا على مقياس الخير والشرّ.

ما معنى عقيدته التي لا تحاسبه في الحياة بعد الموت على طغيانه واستعباده للناس وقتلهم وتشويه دينهم؟ وما معناها وهي تجعله فرعوناً أيضاً في عالم ما بعد الموت! فحتى لو وجدت نقاط توافق بين عقيدته والكلام الإلهي، فهذا توافق لا معنى له، فأساس العقيدة الإلهية هو محاسبتنا ومجازاتنا على أعمالنا كما تقدّم في سورتنا هنا من بدايتها وصولاً إلى {وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى}، فنخشاه تعالى هنا تجنباً للعقاب وطمعاً بالفوز بالجنّة.

(ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى{22})
{ثُمَّ أَدْبَرَ}، ذهب وأدار ظهره عن الآية، {يَسْعَى}، يعمل وهو قاصد لشيء ما. وكما تعلم من عموم القرآن أن فرعون سعى في جمع سحرة ليقوموا بتحويل عصيّهم لحيّات، وتعلم أن فرعون اتفق مع النبي موسى(ع) على موعد محدّد حتى يعرض السحرة ما صنعوه، ويعرض لهم النبي موسى(ع) عصاه التي تتحول إلى حية.

تركت السورة ذكر التفاصيل حتى تدفعك لاستعادة الأحداث والتفكّر فيها... وتجدها قرآنياً حول الآية 59 من سورة طه {قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى}.

(فَحَشَرَ فَنَادَى{23})
{فَحَشَرَ}، بقرار من فرعون انجمع الناس وفي مقدمتهم السحرة، فاجتمعوا في اليوم الذي اتفقوا عليه للتحدّي،
{فَنَادَى}، توجّه بكلامه إلى السامعين:

لاحظ كيف اعتمدت السورة على أساس أنك أتاك حديث النبي موسى(ع)، كما ورد في بداية هذه الفقرة من الآية 15، ومن عموم القرآن وبكل سهولة ترى أن الآيات هنا تشير لحادثة جمع السحرة أمام الناس ليتحدّوا النبي موسى(ع)، وهذه الحادثة وردت بالتفصيل في الآيات 111 وما بعدها من سورة الأعراف.

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى{24})
{فَقَالَ}، فرعون أمام جموع الناس: {أَنَا رَبُّكُمُ}، أنا المسؤول عنكم، {الْأَعْلَى}، فلا ربّ فوقي.

فرعون حاكم على جميع من حوله، مسؤول عنهم، وهذه صفة ربوبية ولكنها ليست من مستوى إلهي، بل من مستوى بشري، وتعبيره هذا صحيح على المستوى البشري، مثلما أنا ربّ أسرتي، وذاك ربّ العمل، وتلك ربّة منزل... ولكن فرعون كان يقصد أنه أعلى وفوق الربّ الذي يقول عنه النبي موسى(ع)، وهنا المشكلة، فبسبب قوّة سلطته على جيش ضخم قوي، وبسبب سيطرته على العديد من الأمم من حوله، وبسبب قوّته الاقتصادية... فهو لم يعد يشعر بأي سلطة فوقه، فنسي أنه مجرد كائن بشري، ورأى نفسه كبيراً جدّاً، ورفض النزول تحت أمر إلهه الذي خلقه.

أي شخص أنكر عودة الحياة إلى جسدنا، فهل وصل إلى ما وصل إليه هذا الفرعون في العظمة والسلطة؟ فيمكن لأي شخص ادّعاء الربوبية، ويمكنه الوصول لأقصاها فيقول إنه ربّ الأرباب ولا ربّ فوقه، ولكن هذه الربوبية "بين البشر" صدقت في حالة فرعون فقط، لأن كل الذين يعرفهم فرعون، وكل من سمع بهم، وكل من حوله، وكل من طالته جنوده... فكلّهم كانوا فعلاً تحت أمره ويفعل بهم ما يشاء، ففرعون نموذج أعلى في السلطة على البشر، ونموذج أعلى في إنكار كلام الرسل الإلهية، ونموذج أعلى في إنكار عودتنا إلى الحياة بجسد لنتحاسب على مقياس الخير والشرّ... فيا أيها السامع لهذه السورة تابع لترى مصير هذا الطاغية الجبّار الذي لا مثيل له في تاريخ البشرية:

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى{25})

{فَأَخَذَهُ اللَّهُ}، من بعد ما قاله وفعله فرعون، لم يتركه تعالى بل أخذه، {نَكَالَ}، عاقبه بشدّة بشكل يجعل من يسمع عن عقابه يخاف الإصابة من نفس العقاب، {الْآخِرَةِ}، عندما سيرميه تعالى في جهنم، ونكال {الْأُولَى}، وهي الحياة الدنيا حين أماته تعالى غرقاً.

ما قيمة فرعون في تجبّره وتكبّره على ربنا سبحانه! فهو لا شيء أمام عظمة قدرة ربنا سبحانه وتعالى.

نتذكّر مقدمة السورة التي تحدثت عن الغرق بطريقة جعلتنا نتوقف قليلاً أمامها لنفهمها، وها فهمنا أنها كانت تشير لنهاية قصة فرعون الذي أخذه تعالى في البحر.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى{26})
{إِنَّ فِي ذَلِكَ}، الذي ذكرته السورة عن النبي موسى(ع) وفرعون، {لَعِبْرَةً}، يمكن لمن يسمعها أن يستخرج منها شيئاً ليستفيد منه، ولكن ليس كل من يسمعها ستكون له عبرة، فهي مفيدة {لِّمَن يَخْشَى}، لمن يشعر بخطر عليه القيام بشيء لتجنبّه، فيشعر بخطر العقاب الإلهي الذي يمكن تجنّبه بالإيمان والعمل الصالح، وهو يعمل على تجنّب هذا العقاب.

بقي شيء من العبرة التي طرحتها السورة وأطرحه عليك، فأنا وأنت والآخرون نشعر في بعض الحالات بأننا نريد الإفلات من أوامره تعالى، فنخالفها لشدّة رغبتنا بما هو سيّء، كالغيبة، والاستهزاء بالناس، والمبالغة بالكلام... والنظرة الحرام... وربما نفعل أكثر من ذلك... هذا ونحن مؤمنون! أمّا غيرنا فلديه تقديراته "الخاصّة" عن السلوك الحسن، ولا يهمّه ما يحرّمه تعالى، فلا يرى غيبته للآخرين سوءاً، ويرفض أن يستغيبه الآخرون، ولا يرى الزنا سوءاً إلا إذا فعلته زوجته أو أمّه أو اخته أو ابنته... وهكذا في عموم مسائل حياته، لأنه في أساس تفكيره لم يؤمن بوجود حياة في الآخرة بجسد سيتألّم بالعقاب على السيئات.

لكن ولا واحد منّا صارت لديه دوافع إنكار للآخرة من المستوى الذي وصل إليه فرعون، والذي جنّ بعظمة السلطة على كل من حوله من الناس، ففرعون الذي أعمته القوّة، وكانت رغباته أوامر ولا قيمة عنده للآخرين بتاتاً، لا لغيبتهم، لا لعرضهم وعقّتهم، لا لمالهم، لا لوقتهم... وحتى حياتهم لا قيمة لها عنده! فلم يعد لديه أي سبب ليرى الآخرة وعقابها من شدّة ما أعمته سلطته، ونهايته كانت غرقاً، ولم يستطع إنقاذ نفسه من الماء، ولن يستطيع إنقاذ نفسه من عقاب الآخرة الخالد، فبصريح العبارة تقول السورة لكل منكري عودتنا إلى الحياة بجسد لنتحاسب: هل وصلتم لما وصل إليه فرعون؟ وهل أنقذ نفسه من العقاب الإلهي؟ وهل تريدون أن يكون مصيركم كمصيره؟

السورة هنا استفزازية، فإذا لم يكن عندك مخزون عن تاريخ الدين الإلهي، فتدفعك السورة للبحث عن تفاصيل ما جرى مع فرعون... وطبعاً بسهولة ستتمكّن من الحصول على الكثير من التفاصيل مما جرى... فقصّة النبي موسى(ع) مع فرعون مشهورة جداً...

بالنسبة لكلمة "خشية" فهي ليست مرادفة للخوف، فالخوف شعور سببه تصوّر التلبّس بحصول الضرر المعنوي أو المادي من شيء تشعر بفقدان إمكانية تجنب ضرره، والحلّ باقتحامه لتحمّل نتائجه أو الفرار منه إن استطعت. أمّا الخشية فشعور سببه تصوّر التلبّس بحصول الضرر المعنوي أو المادي، ولكن مع الشعور بضرورة تجنّب الشيء غير المرغوب والذي تتوقّع حصوله، فتشعر بإمكانية تجنبّه، ولا تريد اقتحامه. وكمثال فالمؤمن يخاف من عقابه تعالى إن عصاه لأنه يعلم أن العقاب لا يمكن تجنّبه، والمؤمن يخشاه تعالى فلا يرتكب الذنب لأنه يتوقّع العقاب. ففي حالة الخوف تصير المواجهة مع الخطر حتمية، أمّا في حالة إمكانية تجنّب الخطر فهي الخشية. ضع هذا المعنى في بالك وسترى روعة في الدقّة القرآنية عند استعمال هذه التعابير.

(أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا{27})
{أَأَنْتُمْ}، هل أنتم أيها المنكرون لإعادة الحياة إلى الموتى، السائلون عن ردّكم من بعدما تصيرون في الحافرة، السائلون عن ردّكم من حفرة قبركم أحياء بجسد، {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً}، هل تعتقدون أن تركيبكم وتأليفكم من المواد أشدّ من خلق بقية المخلوقات؟ {أَمِ السَّمَاءُ}، أم ما فوقكم أشدّ خلقاً من خلقكم؟ {بَنَاهَا}، جمّعها من تراكمات المواد "المناسبة" المختلفة، ومن تكملة الآيات سترى أنها تشير للسماء التي فوقنا.

إن كنتم تعتقدون أن إعادة الحياة إلى جسدكم البالي شيء صعب جداً بل مستحيل، فهل تفترضون أن خلقكم تركيبكم تأليفكم هو أشدّ من خلق السماء؟ فبنيانها أشدّ من خلقكم. وهذا المعنى ورد في الآية 57 من سورة غافر {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.

مستوى التعقيد فيها والضخامة أشدّ من مستوى تعقيد تركيبكم، فانظروا إليها لتروا الظواهر التي تنتج عنها وكم هي متقنة وضخمة، فافهموا أنكم لستم مميزين في تعقيد خلقتكم، بل السماء أشدّ تميزاً منكم في خلقتها وبنائها.

لنأخذ مثلاً من معطيات عصرنا، فالإنسان حجم تركيبه وتعقيده أقل من حبة رمل بالنسبة لحجم الأرض وتعقيد بيئتها... والأرض أقل من حبة رمل بالنسبة لذراع المجرة... وفي السماء تريليونات من المجرات بتعقيدات خلقها وتفاصيله وضخامته، فما مدى صعوبة خلق الإنسان أمام خلق سماء بتريليونات المجرات وفيها ظواهر متنوّعة لم تخطر على بالنا، وربما فيها كائنات حيّة؟

نلاحظ استعمال تعبير خلق السماء الذي هو تركيبها من الأجزاء، والتعبير ببنائها وهو تجميع أجزائها مثلما نجمع الحجارة لنبني بيتاً، والتعابير القرآنية الكثيرة جداً استعملت كلمة "خلق" لوصف تركيب السماء، وهنا استعملت الآية كلمة "بنى" من بعد "خلق" لوصف تجميع الكيانات لتصير السماء التي نراها بأعيننا، ومع الآية التالية تفهم أنها بنيت من لبنات، فبنيت من تراكمات.

(رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا{28})
أثناء بناء السماء: {رَفَعَ}، سبحانه، سمك السماء، فجعلها سميكة فجعلها تكبر، {فَسَوَّاهَا}، فصارت متناسبة بالتمام كما يريد، فصارت بالتمام على المواصفات التي قرّرها لها تعالى، وسترى من الآية التالية أن الإشارة لسمائنا التي نراها فوقنا بزرقتها نهاراً وقبّة نجومها ليلاً.

كما نبني نحن الجدران بوضع الحجارة فوق بعضها فيرتفع الحائط، كذلك بنى سبحانه السماء، رفعها وعلّاها بزيادة سماكتها، فسواها وصنعها سماء، لم تكن موجودة وسواها سبحانه بطريقة رفعها بالتسميك.

انتبه عندما تقرأ أمثال الآيات هنا، فلا يذهب فكرك متوقعاً نظرية علمية لم يكتشفها البشر بعد، أو متوقعاً معلومات من الصعب فهمها وتحتاج لتطوّر علومنا، ولا تحاول فهمها بأكثر مما يفهمه أي إنسان عادي، فإن لم تفعل ذلك وشطحت، فأنت لم تفهم غالبية القرآن لأنه بغالبيته يريد فقط لفت انتباهك لما تفهمه وتعلمه بسهولة ويريك آياته تعالى.

لسنا بحاجة لدراسة علم طبقات الجو أو الفلك لنتعرف على ضخامة وإتقان السماء التي نتنفّس من هوائها، ونشرب من ماء غيومها... وفي النهار نراها زرقاء والغيوم تمشي من تحتها، وكلنا نعرف بهذه المشاهدة البسيطة أن فوق رؤوسنا غلافاً يتلون بالأزرق نهاراً عندما تسطع الشمس، ويختفي اللون الأزرق عندما تختفي الشمس لنرى النجوم والكواكب، فسماكة السماء تبدأ من سطح الأرض امتداداً إلى اللون الأزرق الذي نراه بنظرنا، وهو لون السماء من ناحيتنا، ويختفي اللون الأزرق رويداً رويداً إلى أن يستحكم الليل وتصير قبة سوداء... وبنظرنا فتلك حدود السماء التي فوقنا، وهذا البنيان من المواد الغازية وغيرها خلقه ربنا سبحانه فجعله سميكاً سميكاً... حتى ارتفع وصار السماء التي فوق كل الأراضي المنتشرة كنجوم وكواكب، فسماؤنا ليست سماء لأرضنا فقط، بل كل الفضاء سماء لكل الأراضي، فهو سماء لأرض القمر ولأرض المريخ...

حتى تفهم هذه الآية لست بحاجة لاكتشاف طبقات الجو باختلاف تكونها الغازي، ولست بحاجة لمعرفة سبب زرقة السماء "الناتجة عن انعكاس الضوء على ذرات الهواء في الطبقات المشتتة للفوتونات ذات التردد باللون الأزرق..."، ولا تحتاج لمعرفة الجاذبية والمادة المعتمة والمظلمة... ولا تشطح بالآية أكثر مما تشير له من السماء التي فوقك ليلاً ونهاراً، فهي إنما تشير للمظهر الواضح الذي يراه أي إنسان عادي، وهذا يكفي حتى تفهم أن السماء التي فوقك هي بناء ضخم جدّاً، بخصائص عديدة لها ارتباط جذري بحياتك.

تذكّر دائماً أنه وبالرغم من كثرة ذكر السماء في القرآن إلا أنه لم يصفها باللون الأزرق ولا مرّة حتى حين كان الكلام حصرياً عن السماء التي فوقنا.

(وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا{29})
{وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا}، فترة اليوم التي تعتم فيه السماء، جعلها سبحانه مظلمة جدّاً لدرجة صيران السماء سوداء، وعندها تظهر النجوم كنقاط بيضاء على صفحة سوداء، وطبعاً هناك ليال ينيرها القمر، وهناك فترات على بعض بقع الأرض القريبة من القطبين يمر عليها ليال فيها ضوء، ولكن الكلام هنا عن عامّة حصول ليل حالك ذي سماء سوداء.
{وَأَخْرَجَ} سبحانه {ضُحَاهَا}، ففي فترة أخرى من اليوم يخرج الضحى وهو فترة الصباح من بعد شروق الشمس وحتى الظهر إلى ما قبل العصر، ففي فترة الضحى تصير السماء زرقاء وينتشر الضوء الأبيض.

ضع في بالك أن الآية لا تشير لدوران الأرض حول نفسها، بل تشير فقط وفقط لعتمة السماء ليلاً وانتشار الضوء فيها نهاراً، فهاتان الظاهرتان الضخمتان المتكررتان هما آيتان تدلان مع العديد من الظواهر الأخرى، وتدلان على أن بناءه تعالى للسماء أشدّ خلقاً من خلقنا.

(وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا{30})
{وَالْأَرْضَ}، التي نعيش عليها الآن، {بَعْدَ ذَلِكَ}، بعد أن رفع تعالى سمك السماء وسوّاها، وبعد حصول تعاقب الليل والنهار على الأرض، {دَحَاهَا}، والدحو هو تسوية الشيء عن محيطه، فتدحو الأرض بيدك أي تملس ترابها أو تجعل فيها حفرة، ويدحو المطر الحصى أي يزيل عنه التراب، والكلام هنا عن مدّ سطح الأرض على الشكل الذي نراه الآن من سهول وهضاب وجبال وبحار وصحارٍ.

ما نسميه نحن بعوامل التعرية من رياح ومطر وانجرافات وزلزلة... التي تسبب ظهور منبسطات وشبه منبسطات على وجه الأرض، فهو بتخطيط من ربنا سبحانه الذي بقدرته العظيمة جعلها هكذا، فدحاها أي صارت كما هي الآن من بعد العوامل البيئية التي تعرّضت لها.

تذكّر دائماً أن القرآن يتحدّث مع شخص يعيش على الأرض، ولا يتحدّث مع شخص ينظر إلى الأرض من الفضاء، فالدحو للأرض هو ما تراه وأنت واقف عليها، فهي أمامك منبسطة بسهولها وهضابها وجبالها، وهذا هو الدحو، فلا المقصود منه كروية الأرض، ولا كونها كروية كالبيضة... ولا المقصود منه أنها مسطّحة كصفحة عائمة في الفضاء، فهذه أصلاً ليست معانيَ أساسية لكلمة دحو وهي توصيفات لمن يرى الأرض من الفضاء، والقرآن يوجّه كلامه للواقف على الأرض، والواقف على الأرض يراها أمامه ممهدّة ممدودة منبسطة مدحوة...

هذا الدحو للأرض عمل سهل!؟ وإعادة خلقكم عمل صعب أو مستحيل!؟ قارنوا لتروا أن إعادة خلقكم ليست أشدّ من دحو الأرض.

بقي شيء، بعضهم مصرٌّ على مقاربة كلامه تعالى في القرآن عن الأرض والنجوم... مع اكتشافاتنا العلمية، متجاهلاً أن كلام القرآن عادي جدّاً ويتحدّث بما يفهمه أي إنسان واقف على الأرض، وأصلاً هو الكلام عن لفت انتباهنا لما فعله تعالى من حولنا، وهذا ما تراه كيفما تلتفت، ورغم هذا فبعضهم لديه إصرار! فقالوا عن الدحو إنه وصف لشكل بيضاوي، وأنه يتماشى مع حالة كوكب الأرض المنتفخ على خط الاستواء، وأصلاً التفسير غير صحيح كما أشرنا لأن كلام القرآن مع واقف على الأرض، وهذا سيرى دحوها أمام نظره لسطحها الممتد، وليس الكلام مع واقف في الفضاء ينظر إلى كوكب الأرض، وعلى أي حال، فحتى الواقف في الفضاء لن يلحظ للأرض شكلاً بيضاوياً، فنسبة انتفاخها على خط استواء محور دورانها حول نفسها أقل بكثير مما يمكن ملاحظته بالعين.

(أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا{31})
{أَخْرَجَ} سبحانه {مِنْهَا} من الأرض، {مَاءَهَا}، فتشكّل الماء من المواد التي في الأرض وخرج سائلاً أو بخاراً... وصار غيوماً ومطراً... وتجمّع في برك ومستنقعات وبحار... وسال في أنهار وجداول...

وأخرج سبحانه من الأرض، {وَمَرْعَاهَا}، وهي أماكن النباتات التي ترعاها فتأكلها عامّة الحيوانات مثل الحشائش وأوراق الأشجار... وأكل الحيوانات للنباتات من الأرض يوصف بالرعي.

ما زالت السورة تعرض خلقاً فعله تعالى وأكبر من خلقنا، وترى فيه ما يتماشى مع نظرياتنا الحالية لمراحل تشكل الأرض وتكوّن الحياة عليها، أولاً تماسك الكوكب، فصار له كيان وعليه ظاهرة الليل والنهار، وبالعوامل المختلفة توجّهت الأمور نحو استقرار نسميه حالياً جيوفيزيائياً وكيميوبيولوجياً موائماً لتشكل غلاف جوي للأرض... والماء تشكل رويداً رويداً كسائل خلال تشكّل غلاف جوي للأرض، ومن بعده رويداً رويداً تناغم مع تشكل فطريات صارت نباتاً يتغذّى بالماء وتربة الأرض المدحوة.

هنا الآيات تريك بعضاً من مراحل بناء السماء والأرض، وإذا قستها على نظرياتنا الحالية فبحسب فهمك للكلمات وإصرارك على مخزونك العلمي، تراها مراحل متتابعة أو كلاماً عن مراحل منفصلة ومتداخلة، أو إشارات لمراحل مختلفة مع تقديم وتأخير. الآية التالية تتحدّث عن إرساء الجبال، عن استقرار جيولوجي للأرض، فهل حصل ذلك أولاً وبعده نشأ الغلاف الجوي وتراكم الماء وخرج النبات، أم أثناء الاستقرار الجيولوجي تقارن تشكل الغلاف وتشكّل الماء، أم تترك الآيات على ترتيبها وتكون النسبة من اكتمال البناء أكبر للغلاف الجوي والماء والنبات في حين أن الاستقرار الجيولوجي للجبال كان لا يزال نشطاً...

على أي حال، لا تقرأ الآيات كدرس عن نشأة الأرض، فهنا الكلام بالأساس للفت انتباهك لخلق السماء والأرض أنه أكبر من خلقنا بالمقارنة بيننا من حيث الضخامة والتفاصيل والمراحل... وتفهمها بشكل أبسط إن تصوّرت كل ما حصل كمقدمة لخلق الإنسان على الأرض، وشبّهته بما تحتاجه لصنع طائرة، فتحتاج لمناجم لاستخراج المواد الخامّ، ومعامل لتصفيتها وتنقيتها، وقبل ذلك تحتاج لطاقم أفنى سنوات من الدراسة والجهود في الأبحاث... وتحتاج لتراكم سنين من الخبرات لتصميم الطائرة... وتحتاج لمعدات كثيرة لتنفيذ التصميم... وبهذا المثل التقريبي ترى جانباً مما تقوله السورة، فخلق الإنسان جاء في نهاية خلق واستقرار نظام ضخم هائل للسماء والأرض، فصار خلقه سهلاً هيّناً من بعد توافر كل المقدمات اللازمة لخلقه.

طبعاً كلّه هيّن عليه تعالى، ولكن الكلام فقط للمقارنة بين هيّن وأهون منه، وترى ذلك واضحاً من الآية 27 من سورة الروم {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ...}.

(وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا{32})
{وَالْجِبَالَ}، التراكمات الضخمة للصخور والتربة المرتفعة عن الأرض، {أَرْسَاهَا}، فجعلها سبحانه تستقر ولكن مثل رسو السفن في الماء، فهي واقفة في مكانها على الماء ولكنها غير مثبّتة وكذلك الجبال راسية على الأرض، فهي واقفة ولكنها غير مثبّتة.

لا تحتاج لفهم جيولوجيا الأرض لتفهم الآية، فالزلازل تحصل وتحرّك وجه الأرض والجبال معها، فبمعلوماتنا الحالية نقول إنَّ وجه الأرض كله طبقة عائمة على وجه طبقات، مما يفسّر حركة وجه الأرض وحصول زلازل... وانطلاقاً من هذه المعطيات توصف الجبال بأنها راسيات، فهي واقفة على طبقة قابلة للحركة وهذا صحيح، ولكن الآية لا تحتاج إلى هذا العمق الجيولوجي لفهمها، بل هذا العمق بالكلام عن الطبقات فهو فهمنا نحن لسبب ما نراه ونعلمه بالمشاهدة العادية لوجه الأرض والجبال التي تهتز وتتحرّك حين تحصل الزلازل والهدّات...

بنظرة سريعة على معلومة الزلازل التي تعرفها من حياتك، ستنتبه إلى أنَّ كل وجه الأرض يهتز فليس مستقراً، وهكذا تتذكّر ملتفتاً أنَّ الجبال أيضاً تهتز بالزلازل، فهي راسية.

(مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ{33})
كل هذه البيئة من سماء وليل ونهار وأرض مدحُوّة وماء ومرعى وجبال... كانت ضمن مخطط إلهي لتكون:

{مَتَاعاً}، منفعة للاستفادة من هذه البيئة والطعام... {لَّكُمْ}، أيها الناس، {وَلِأَنْعَامِكُمْ}، وللحيوانات التي توصف بأنها نعمة بأنها جيّدة نافعة لكم، فأنتم تحتاجونها لتأكلوها أو تتنقلوا عليها...

كل هذه الاستفادة من هذه الأشياء ستبقى كما هي حتى يوم القيامة، ونتابع في الآية التالية عن انتهاء هذا المتاع حين مجيء الطامّة...

قبل المتابعة لا ننسى أنَّ الفقرة انتهت من التنبيه على الفرق الهائل بين شدّة خلقنا وبين شدّة خلق السماء والأرض والظواهر التي فيهما، فإعادة خلقنا ليست مستحيلة وهي أهون من خلق السماء والأرض.

(فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى{34})
{فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ}، الشيء الذي يَطِمُّ فيغمر، وهي المصيبة الكارثة التي تصيب كل من لم يؤمن بدينه تعالى، {الْكُبْرَى}، الكبيرة الأكبر من أي طامّة أخرى، لأنها عامّة وضخمة وقوية ولن ينجو منها أحد من الذين لم يطيعوا ربهم سبحانه بناءً على إنكارهم لعودتنا إلى الحياة بجسد بعد الموت.

نعلم من العديد من آيات القرآن استثناء المؤمنين من الشعور بأي سوء في يوم القيامة من الموت، فهو سيكون يوم بشرى وفرح لهم بدخول الجنّة الخالدة.

(يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى{35})
{يَوْمَ}، في الزمن الذي، في زمن القيامة من الموت، {يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ}، يستحضر الغالب الأعم من الناس في فكرهم، {مَا سَعَى}، الأمور التي فعلها عن وعي وقصد بها شيئاً ما.

تذكّر الإنسان لكلّ شيء فعله لا يعني حضور كلّ المعلومات دفعة واحدة في ذهنه، فلا قدرة لنا على ذلك، فحضور كلّ المعلومات عن كلّ شيء هي قدرة من مستوى إلهي وينفرد بها الله سبحانه وتعالى، وليس لدينا معلومات إن كانت الملائكة(ع) لديها القدرة على استحضار كل معلوماتها دفعة واحدة، وعلى أي حال، فهناك أمور تلتصق بذهننا وتكون حاضرة أغلب الأحيان معنا، وهناك أمور ننساها فيتم تذكيرنا بها فنتذكّرها، وعموم القرآن يتحدّث عن تحميل كل إنسان كتاباً فيه كلّ أعماله، وهكذا يرى أعماله أمامه فيبدأ يتذكّرها، وهذا ما تقصده الآية هنا.

نلاحظ كيف عبّرت الآية عن الأعمال التي نقوم بها هنا بأنها سعي، فكل ما نفعله هنا في الدنيا فهو بنظر ربنا سبحانه سعي للآخرة، فكما أعمل وأنا أسعى للحصول على المال، وأدرس سعياً للنجاح، ففي الحقيقة كل أعمالي في حياتي لها نتائج في الآخرة، فهي سعي للآخرة، فهي أعمال لها نتيجة في عالم الآخرة.

ضع في بالك دائماً أن القرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموماً ذكراً وأنثى، وأنهم يتناسلون... أو متعلقاً بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

هنا الكلام عن الإنسان الذي سعى، فالسقط الجنين والطفل إنسان، ولكن بموتهم قبل التأهّل للتكليف، يصير خارج كلام الآية، ومعهم المجنون الفاقد للعقلانية، فهو إنسان، ولكن بالبداهة خارج عن مقصد الآية.

(وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى{36})
{وَبُرِّزَتِ}، فأخرج أحد ما إلى المواجهة، {الْجَحِيمُ}، المكان الموصوف بضخامة السوء، المتأجج بالنيران، {لِمَنْ يَرَى}، لمن يمكنه أن تصير عنده صورة محدّدة للجحيم، فهي ظاهرة متاحة لرؤيتها لمن يمكنه الرؤية. فجهنمّ وصف لما هو سيء، والجحيم وصف لما هو ضخم في سوئه، فالمعنيان متقاربان وينطبقان معاً على مكان التعذيب بالنار في الآخرة.

نتذكر من آيات عديدة توحي لنا بأن جهنم حفرة ضخمة ترتفع منها ألسنة النار، وترى ذلك من تعبير الآية 103 من سورة آل عمران {... وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ...}، وكلما تحاسب الناس وكلما تسجل لهم عذاباً أثناء محاسبتهم فإن جهنم يزيد اشتعالها وحجمها... وهكذا كلما تحاسبت مجموعة كفار كلما ازداد اشتعال وتوسّع جهنم، وهكذا نفهم معنى بروزها أكثر فأكثر مع الوقت، ولكن لا حاجة لحصر وصف الجحيم بأنه حفرة لتفسير بروزها، ففي بداية قيامتنا من الموت تكون جهنّم بعيدة، ورويداً رويداً تقترب فتبرز أكثر، راجع الآيات 12 من سورة الفرقان {إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ

مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً}، فتكون بعيدة ثم تقترب وتأخذهم كما تقول الآية 51 من سورة سبأ {وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ}.

في عموم القرآن تجد توصيفاً لانفصال المؤمنين في ناحية الجنّة وغيرهم في ناحية النار، فالمؤمنون لا يرون تفاصيل النار ولا يشعرون بلهبها... ويرون الجنّة وبعض تفاصيلها... أما الآخرون فيرون الجحيم وبعض تفاصيلها المرعبة، ونظن أنهم يرون الجنّة حسرةً، فلا يتمتّعون بالنظر إليها برؤية تفاصيلها ولكن هذا افتراض منّي فلم يمرّ معي في القرآن.

هكذا يصير التعبير عن الجحيم بأنه مرئي لمن يرى، فللكلام وجهان، فالمؤمنون سيرونها كمكان مشتعل بشدّة ولا داعي للخوف منها لأنهم لن يدخلوها، فيرونها كما نرى من بعيد ناراً مشتعلة لا يعنينا المشهد بأكثر من كونها ناراً مشتعلة، أمّا غير المؤمنين فهم يعلمون أن مصيرهم للرمي فيها، ولذلك فهي بالنسبة لهم جحيم.

أما تعبير الآية بـ {لِمَنْ يَرَى}، فهو على معنى كلامنا بالعامية: ها شوفوا إذا بتشوفوا. فالجحيم التي في الدنيا أنكروها فها هي في الآخرة بارزة لمن يرى. فالكلام لا يقصد الإشارة إلى تقسيم الناس بقسم يرى وقسم لا يرى، بل التركيز على الجحيم البارزة التي يمكن رؤيتها بسهولة، بينما هنا في الدنيا كان الكافرون بالآخرة ينكرون حدوثها.

(فَأَمَّا مَن طَغَى{37})
هناك في يوم القيامة صنفان من الناس:

{فَأَمَّا مَنْ طَغَى}، فخرج عن حدوده وعملياً لم يلتزم بما أمره به ربنا سبحانه.

نتذكّر النموذج "فرعون" الذي ضربته الآية كنموذج لأسوأ طاغية، فهو الأسوأ والبقية من أمثاله الذين تعدّوا حدودهم وتصرّفوا على هواهم السيّء على أساس أنه لا يوجد عودة إلى الحياة في الآخرة ولا حساب...

لو استحضرنا طريقة عرضه تعالى دينه علينا في قرآنه، على أساس أن فينا قابلية تمييز الخير من الشرّ، وحرية الإرادة لنختار ما نشاء منهما، وعلى أساسهما تأهلنا لنتكلّف بدينه سبحانه... فبالدقة سنفسّر الطغيان أنه بالأساس هو توصيفنا نحن للأفعال السيئة التي لولا سواد قلوبنا لرأيناها سيئة، فتفسير الطغيان بالخروج عن حدود ما رسمه تعالى لنا من اعتقاد وشريعة فهو عملياً نفس الكلام عن الخروج عمّا نرى نحن وجوب التقيّد به، وخذ مثلاً شناعة وفظاعة قتل طفل رضيع، فهذا لا يحتاج لالتزامك بتشريعات دينه تعالى لترى سوءه، فعله طغيان على معيار ما فينا من قابلية لرؤية سوئه ووجوب وقوفنا على حدودنا في تصرفاتنا فلا نفعله.

{فَأَمَّا مَنْ طَغَى}، يصير معناها القرآني وصفاً لفاعل السوء الذي يرى وجوب الوقوف على حدود ما يراه سيئاً فلا يفعله، هذا بالأساس، وبعدها تأتي حالة عمى القلب وهي وصف للذين هنا في الدنيا لم يعودوا يرون السيّء سيئاً، فيفعلونه ولا يعتبرون أنفسهم طاغين، فيقتلون الأطفال مثلاً، ولكن الآخرين العقلانيين الذين حتى لو لم يكونوا منتمين لدينه تعالى، ولكن لم تسود قلوبهم في مسألة قتل الأطفال، فسيرون هذا الفعل طغياناً.

الخلاصة أن نضع في بالنا أنه تعالى لم يعرض علينا في قرآنه ديناً غريباً عجيباً، بل يعرض علينا اتباع الحقّ وفعل الصلاح، وكل ما عرضه في القرآن جاء مع شروحات لتقويم فكرنا ونفسيتنا التي تشوهت في مسألة ما بسبب إصرارنا على فعل السوء...

(وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{38})
{وَآثَرَ}، الإيثار هو عموم تركك لشيء جيّد مع تفضيل غيره، ومرّةً بالنظر لما تركته وفضّلت غيره، ومرّةً بالنظر لمن أعطيته له وفضلته على نفسك أو على الآخرين الذين لم تعطهم. وهنا الكلام عن الذي فضّل الحياة الدنيا التي نعيش فيها الآن على الآخرة، فتعلّق بها وفضّلها على الآخرة لأنها في نظره أحسن، فأهمل الآخرة ولم يهتم بها على أساس أن الحياة الدنيا رائعة والآخرة لن تحصل.

(فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى{39})

{فَإِنَّ الْجَحِيمَ}، المكان الموصوف بشدّة وضخامة سوء ما فيه، فهو متأجج بالنيران وفيه الضرب والإهانات، {هِيَ الْمَأْوَى}، هي المكان المحدّد له ليكون فيه.

نتذكّر أنهم لم يؤمنوا بالجحيم، وآمنوا بالفناء النهائي بعد الموت، أو بعالم الأنفس والأرواح والأشباح... وهنا تخبرهم الآية أن لهم بسبب طغيانهم مأوىً لهم "مكاناً محدّداً لهم" ليستقرّوا فيه هناك في الآخرة وهو الجحيم الذي أنكروه.

من دراسة أشعار العرب قديماً قبل الإسلام وجدت فرقاً بسيطاً بين كلمتي جحيم وجهنّم، فجهنّم باستعمال القرآن هي اسم مكان مشتق من الوصف بجهنم الذي يشير لسوء الحالة أو المكان، واستعمال هذا الوصف لمكان تعذيب في الآخرة، فهو وصف للأنواع المختلفة المسببة للعذاب مما في المكان، ففيه النار المحرقة وفيه الضرب وفيه طعام كريه ورائحة كريهة... وتفهم ذلك من فحوى الآية 49 من سورة غافر {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ...}. وفي بيتين من الشعر قبل الإسلام وجدت إشارة بكلمة جحيم لضخامة النار، ويناسبها ذلك في القرآن كما ورد في الآية 97 من سورة الصافات {قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ}، فالجحيم وصف الضخامة في السوء.

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى{40})
الصنف الثاني في يوم القيامة:

{وَأَمَّا مَنْ خَافَ}، شعر بخطر لا يمكن تجنب ضرره، فخاف، {مَقَامَ رَبِّهِ}، المسؤول عنه من مستوى إلهي له صفات فائقة فعّالة، قائمة غير معطّلة، وعملياً خوفهم هو الخوف من عقابه تعالى ومما يمكن أن يفعله تعالى، طبعاً الخوف إن عصوه، فالمؤمنون هنا في الدنيا في حالة خشية دائمةٍ منه تعالى فيشعرون بخطر منه ويمكنهم تجنّب هذا الخطر بالإيمان والعمل الصالح، وأمّا الخوف فهو التلبّس بشعور الخطر الذي لا يمكن تجنّبه إن عصوه تعالى.

من خاف... {وَنَهَى النَّفْسَ}، نهائياً أوقف نفسه بالتمام بلا عودة، {عَنِ الْهَوَى}، عن الأشياء التي ترغب بها نفسه، وتحب فعلها نفسه، والكلام هنا عن الذي منع نفسه نهائياً عمّا تشتهيه من الأمور السيئة، وهي نفسها التي حرّمها المسؤول عنه من مستوى إلهي. وعملياً كلّما خطر في نفسه أن يقوم بعمل سيّء فبسبب خوفه مما يمكنه أن يفعله به المسؤول عنه من مستوى إلهي، فهو ينهى فيمنع نفسه دائماً من القيام بأي سوء.

ضع في بالك أن العرب حين نزول القرآن لم يكونوا يستعملون كلمة "مقام مقامي" على معنى مكانتي، قيمتي، مركزي... بشكل صريح مباشر، ولا على معنى تقدير القيمة "بتصريف تقييم" ولا على معنى المسؤولية "بتصريف قيّم"... ولا على معنى المكان أو كاسم مكان "مقام للعبادة"، درج فيما بعد استعمال هذه الاشتقاقات بهذه المعاني. لم يستعمل القرآن كلمة "قوم" واشتقاقاتها إلا بمعناها كما كان يستعملها العرب حين نزوله: حيث أقوم بعمل ما، وضعي حين أكون مفعّلاً... ما أقوم به من أعمال في مكان ما... والمعنى الجامع لمختلف الاستعمالات: الكون مفعّلاً على ما هو محمود. وكما ترى عملياً هذا المعنى سيأخذك إلى الاشتقاقات بالمعاني التي درجت بين الناس، فتصير الكلمة مشيرة لمكان أو قيمة أو مسؤولية...

وما هو دارج عن معنى كلمة "قيّم، قيمة، مقام" كتقدير للشيء، "قيمته عالية"، فهو من مشتقات معنى الكلمة وليس معناها الصريح، فإلى حين نزول القرآن لم أجد في أشعار العرب "قبل الإسلام" أي استعمال لهذه الكلمة بهذا المعنى الصريح الذي نعرفه الآن، بل معناها مثل ما تفهمه الآن عندما تقول: تقويم الأسنان، فهذا لا يعني جعلها كلّها متشابهة بالطول أو الانحراف، بل جعلها مفعّلة على الأحسن المناسب، والدين القيم، دينا قيما... وصف للتفعيل الذي على الأحسن المناسب. ومن مشتقات المعنى أنه له قيمة عالية ولكنه ليس أصل معنى الكلمة.

القرآن عادة يطرح علينا جانبين من الناس، جانب من أقصى الكفر، وجانب من أقصى الإيمان، وأمّا التدرجات التي بينهما أشار لهم القرآن وتحدّث في بعض السور بتفصيل عنهم، ولكن هذه التفاصيل لا تناسب كلّ مواضيع السور، ولذلك وكما في سورتنا هنا، تراها تعرض الدرجة العالية من المؤمنين الذين نهائياً بتاتاً أبداً لا يخطر ببالهم فعل السوء، وهو نفسه أن لا يخطر ببالهم مخالفة كلامه تعالى، فنهوا أنفسهم عن أي هوى سيّء، وأمّا المؤمنون من الدرجات الأقل، نهوا أنفسهم عن بعض الأهواء السيئة، فيصلّون ويصومون... لا يزنون... لا يسرقون... أو يغلبهم هواهم أحياناً فيتركون الصلاة... أو يزنون... ولكن باب التوبة مفتوح والاستغفار متاح لهم ليتوقّفوا عن السوء ويفعلوا الصالحات

ويرتقوا إلى مستوى نهي النفس عن الهوى السيّء... كما ترى فهذه التفاصيل ليست مناسبة لسورتنا هنا، لأن الكلام هنا مع منكري عودتنا إلى الحياة وليس مع ضعفاء الإيمان، فترينا وتريهم مصير الداخلين إلى الجنة من المؤمنين من الدرجة العالية.

(فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى{41})
{فَإِنَّ الْجَنَّةَ}، فإنَّ المكان الذي يوصف بالروعة ففيه كل ما يسرّك ويسعدك، من أشجار وأنهار وبساتين ووسائل سعادة... {هِيَ الْمَأْوَى}، هي المكان المحدّد ليكون فيه هؤلاء الخائفون من مقام ربهم سبحانه الناهون أنفسهم عن الهوى.

طبعاً الكلام هنا عن جنّة الآخرة الخالدة.

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا{42})
{يَسْأَلُونَكَ}، يعبّرون لك أيها النبي محمد(ع) عن إرادتهم للحصول على جواب منك، {عَنِ السَّاعَةِ}، عن الزمن الذي سيقع فيه حدث من يوم فيه ساعات عديدة، والمقصود هنا هو ساعة قيامنا من الموت من يوم القيامة، فهي الساعة التي ينكرها البعض، فأوّل يوم في الآخرة فهو بالنسبة لنا يبدأ من تلك الساعة، وبعده أيام حشرنا وفرزنا لمجموعات... وأيام الحساب الفردي والحساب الجماعي والوقوف أمام الأشهاد... وصولاً إلى آخر يوم وآخر ساعة حيث يدخل آخر واحد إلى الجنّة وآخر واحد إلى النار، وهو ما فهمناه من الآية 46 من سورة غافر {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ}، وبذلك ينتهي يوم القيامة وما بعده من أيام ويأتي الجزاء بالنار أو بالجنة.

يسألونك عن ساعة قيامنا من الموت، {أَيَّانَ}، في أي زمن، {مُرْسَاهَا}، استقرارها، فالزمن يسير ويمشي وأنت يا محمّد تقول بأنه في فترة منه سنقوم من الموت، فمتى يرسو الزمن على تلك الفترة؟ متى يقف ويستقر عند الذي تقوله لنعود إلى الحياة بعد الموت؟ بعبارة أخرى: متى سيأتي ويحصل يوم القيامة. فحدّد لنا سنة أو شهراً أو يوماً.

بعد كل ما قالته السورة من أدلة على قيامة بجسدنا من الموت فإن بعض الناس يقولون: حسن، فهمنا أن الإله يمكنه إعادة خلقنا من الموت، وهذا لا يعني أننا آمَنّا، ولكننا نريد أن نعرف متى سيحصل هذا اليوم للقيامة؟

ننتبه دائماً أن نقل القرآن لحوار حصل مع النبي محمّد(ع) أو لسؤال توجّه له(ع)، لا يعني بتاتاً أن هذا النقل لشيء خاص من تاريخه (ع)، بل النبي محمّد(ع) نموذج تحدّث عنه القرآن، كواحد من أبرز النماذج الإيمانية الراقية، مثلما قرأنا في السورة هنا عن فرعون وهو من أبرز أسوأ النماذج، فالسؤال هنا طرحه أحد ما بصيغة ما، ولكن عبر التاريخ منكرو الآخرة يطرحون نفس السؤال على المؤمنين.

(فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا{43})
الجواب: {فِيمَ}، في أي شيء، {أَنْتَ} أيها النبي(ع)، {مِنْ ذِكْرَاهَا}، من ذكر زمنها، من الإجابة عن السؤال عن زمنها ليستحضر من سألك موعدها الزمني في فكره؟

بعبارة أخرى أين أنت من الإجابة عن هذا السؤال؟ أنت بعيد جدّاً عن الإجابة عن هذا السؤال، ومن عموم القرآن نعلم أنه ولا أي مخلوق ولا حتى الملائكة(ع) يمكنها الإجابة عن هذا السؤال "متى ساعة قيامنا من الموت"، وهذا واضح من الآية 15 من سورة طه {إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى}، تخمّن المخلوقات زمناً للقيامة ولكن يستحيل عليهم التحديد بدقّةٍ.

ضع في بالك أنه يوجد أمور "صفات أفعال قدرات معلومات..." من مستوى إلهي حصرياً، فقط الإله يتّصف بها ويفعلها ويقدر عليها ويعلمها... فحتى الملائكة العالية جدّاً عاجزة عن تقليد الأفعال من مستوى إلهي، وعلم ساعة قيامنا من الموت فهو علم يحتاج لمستوى إلهي لمعرفته، وهكذا تصير الآية هنا على معنى: أين أنت أيها الرسول محمّد(ع) من الجواب عن هذا السؤال الذي هو من مستوى إلهي؟

نتذكّر من القرآن أن السماوات والأرض الدنيا تتبدّلان، وحينها من سيعدّ الزمن وعلى أي مقياس، وعلى أي نقطة مرجعية، وبأي أداةٍ... فما نسميه نحن الآن بالكون، فهو سماء واحدة من السماوات السبع التي ستتبدّل قبل يوم القيامة، وبانهيار الكون "المكان الذي نحن فيه" ماذا يبقى من الزمن؟ على أي مرجع ومقياس سنقيس الزمن؟ وكما ترى من المستحيل قياس زمن لا نكون فيه أحياء فنكون فاقدين للوعي، ومن المستحيل قياس الزمن وقد انهار الكون وتبدّل حيث لا يبقى أي معنى للزمن لأن التبدّل يفوق قدرتنا على فهم آلياته... أمّا على المستوى الإلهي حصراً هو الله عزّ وجلّ سيتعامل مع التغيرات الجديدة للسماوات، ويعلم متى ستحصل ساعة قيامنا من الموت.

(إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا{44})
{إِلَى رَبِّكَ}، إلى المسؤول عنك من مستوى إلهيّ، {مُنْتَهَاهَا}، علم منتهى الساعة، فإليه تعالى علم انتهاء العدِّ الزمني لحصول الساعة، كما نقول للتلاميذ: انتهى وقت المسابقة، وحان وقت تسليم أوراق الامتحانات. لنفترض أنهم لا يعلمون بالوقت المحدّد للامتحانات متى ينتهي، فتجيبهم بأن منتهاه عند المدير، وهنا نفس المعنى لأن السؤال عن علم توقيت الساعة، {فَإِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا}، فهو يعلم متى ينتهي الزمن ما قبل ساعة قيامنا من الموت.

بعبارة أبسط، عندما أخبرنا تعالى عبر رسله عن الساعة، آمنّا بأن لها توقيتاً معلوماً عنده تعالى من بداية ما خلق السماوات والأرض، وانتهاء الزمن ما قبل الساعة وبداية حصولها، منتهى الزمن لحصولها، {إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا}.

لا إلى الملائكة(ع) ولا إليك أيها الرسول(ع)، ولا إلى أي مخلوق، فقط وفقط إلى المسؤول عنك من مستوى إلهي علم وصول الساعة إلى زمن حصولها.

لو بحثت في الآيات التي تتحدّث عن توقيت الساعة لعلمت أنه تعالى حين صمّم السماوات والأرض الدنيا وخلقها قرّر أن يكون علم الساعة مستحيلاً على كلّ المخلوقات وحتى على الملائكة العالية، فلم يحرمهم من المعرفة وإنما معرفتها مستحيلة عليهم.

(إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا{45})
{إِنَّمَا أَنْتَ}، فقط أنت أيها النبي(ع) كأرقى نموذج للمؤمنين وحامل للرسالة الإلهية، أنت فقط وفقط، {مُنْذِرُ}، توصِل الخبر السيّء عن قدوم خطر "الساعة" الأكيد لمن توافرت فيه شروط حصوله على العقاب الإلهي، {مَنْ يَخْشَاهَا}، من يعلم بالخطر من تلك الساعة ويعلم أنه يمكنه تجنّب هذا الخطر، فإذا آمن وعمل صالحاً تجنّب الخطر.

بعبارة أخرى، نقلك أيها الرسول(ع) للكلام الإلهي عن ساعة القيام من الموت، ليس معناه أنك تعلم توقيتها، ولا ليسألك الناس عن زمن حصولها، فلا علاقة لك بهذا الموضوع، وفقط أنت تبلّغ الذين يتصرفون بطريقة ستؤدّي بهم حتماً إلى العقاب "فتنذرهم" لتحصل عندهم خشية فيغيّروا سلوكهم، فيصير عندهم شعور بخطر العقاب مع إمكانية تجنّبه بالإيمان والعمل الصالح.

ضع في بالك دائماً الفرق بين الإنذار والتحذير، وسترى معانيَ قرآنيةً رائعةً، تصوَّرْ شخصاً أمامه طريقان، واحد يوصله إلى مصيبة والآخر إلى السلامة، ولم يسلك أي منهما بعد، فهنا تحذّره من سلوك الطريق السيّء، فهو حالياً ليس في حالة وقوع الخطر الأكيد عليه، ولن يصيبه الخطر إن سلك طريق السلامة، كالحالة التي تصف المؤمنين في الآية {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ...}، والحالة التي تذكرها الآية 28 من سورة آل عمران {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ...}.

أمّا إذا سلك طريق الخطر، فتنذره، لأنه صار في حالة حصول الخطر الأكيد عليه إن استمر على حاله. فالإنذار تتوجّه به للمتلبّس بما سيسبّب له حتماً ما يضرّه، فتنذر الكافر حيث هو في حالة ستسبّب له العقاب حتماً، وورد هذا كثيراً في القرآن. والتحذير تتوجّه به لمن لا تريده أن يتلبّس بما سيسبّب له الضرر، فتحذّر المؤمنين من مخالفة دينه تعالى.

هذا لا يعني حصر الإنذار بالكافرين والتحذير للمؤمنين، يقوم المؤمن بعمل واحد مخالف لدينه تعالى، فتنذره من العقاب الحتمي عليه كحالة المسيحيين المشمولين بما ورد في الآية 4 من سورة الكهف {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً}، وعموم المؤمنين المشمولين بالتهديد من فكرة فعل السيئات على أساس أن يحمل أحد ما السيئات عنهم {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}، والمشمولين بالتهديد إن لم يتغيّروا نحو الأحسن موعودون بالمغفرة كما ورد في الآية {إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}، ونفس المفهوم في الآية "هنا" 45 من سورة النازعات {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا}.

(كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا{46})
أمّا الذي يصرّ على معرفة التوقيت ليوم القيامة فإليه الجواب:

{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا}، في الزمن الذي يصير عندهم صورة محدّدة لساعة قيامهم من الموت فسيصيرون مثل الذين، {لَمْ يَلْبَثُوا}، لم يبقوا زمناً، في الدنيا، {إِلَّا عَشِيَّةً}، إلا فترة من عتمة من اليوم، كأنهم لم يلبثوا إلا بعضاً من ليلة، كأنهم ناموا واستفاقوا، فمعدّل نومنا يقارب الثماني ساعات، فمن مات في فترة العتمة واستعاد وعيه في يوم القيامة فهو معتاد على النوم، معتاد على فقدان الوعي لفترة من اليوم، وسيشعر أثناء موته بمرور ليلة على فقدان وعيه. {أَوْ ضُحَاهَا}، أو لبثوا فترة من الضوء من اليوم، فمن مات في فترة الضوء من اليوم، واستعاد وعيه في يوم القيامة، فسيشعر بمرور بعضٍ من النهار عليه، ولن يشعر بمرور آلاف وملايين ومليارات السنين...

لماذا تسألون عن التوقيت والتأريخ والزمن المحدد لحصول ساعة القيام من الموت إن كنتم لن تشعروا بمرور الوقت؟ وها نخبركم أنكم حين ترون حصول ساعة قيامكم من الموت فستتفاجؤون كم كانت قريبة منكم، وستشعرون على الأكثر بمرور بضع ساعات على فقدانكم لوعيكم.

عندما نموت سنفقد وعينا، ولو بقينا ملايينَ من السنين فاقدين للوعي، فبماذا سنشعر؟ لن نشعر بشيء، ولن نشعر بمرور الوقت، فإذا متّ وأغلقت عيني فإني عندما أفتحهما في المرة الثانية في يوم القيامة فسأشعر بأني "البثت" فبقيت نائماً لعشية، فنمت عشاء ليلة عادية واستيقظت في الصباح، أو أشعر بأني نمت ضحىً، ففي النهار غفت عيني واستيقظت بعد بضع ساعات.

ما ورد في الآية 45 من سورة يونس {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ...}، كان يشير لشعورهم بالمدة التي قضوها في حياتهم الدنيا، أمّا الآية هنا فهي تشير لشعورهم بالمدّة التي كانوا فيها في حالة الموت.

بقي شيء، في القرآن نجد تقدير غير المؤمنين لزمن لبثهم في القبر بساعة، وبعض يوم، ويوم وأيام، وكمثال على ذلك ما ورد في الآية 55 من سورة الروم {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ}، وتلاحظ في سياق الآيات أن تلك التقديرات تخمينية لأنهم كانوا فاقدين للوعي، وهنا الآية تعطيك تقديراً على عادة فقدانهم للوعي، فعادة ننام ونستيقظ بعد ست أو ثماني أو تسع ساعات تقريباً، فلو نمت في غرفة مغلقة بلا نوافذ، واستيقظت، فسيكون تقديرك بقرابة الثماني ساعات للوقت الذي مرّ عليك وأنت نائم، وهذا الشعور هو الشعور الحقيقي الذي تنقله لك الآية هنا عن مدة موتنا، فسنشعر بمرور ثماني ساعات جرياً على عادتنا في النوم.

بقية التخمينات التي نقلها القرآن عن لسان غير المؤمنين، فهي تخميناتهم بيوم أو أيام، فالتغيّر الضخم الذي سيرونه في الأرض والسماء، سيجعلهم متحيرين بين عادة شعورهم بمرور بضع ساعات من النوم، وبين ما يرونه من تغيرات تحتاج لوقت طويل لتحصل، فيخمّنون تخميناً، لأن السؤال موجّه لهم عن شعورهم بالفترة التي ماتوا فيها، وليس سؤالاً لتقديرهم للمدّة التي يحتاجها ما يرونه من تبدّل للدنيا، يقدّرون ذلك بملايين السنين، ولكن الكلام عن شعورهم هم بالمدّة التي ماتوا فيها... فيقولون فترات مختلفة ولكن كلها قليلة بالأيام، ففي الحقيقة هم لبثوا لسنين طويلة ولم يشعروا بمرورها، وهذا ما نبّههم عليه القرآن من الآن حتى لا يسألوا عن الساعة لأنها قريبة جداً جداً منهم، فسيفقدون وعيهم هنا بالموت، ويستعيدونه هناك ولن يشعروا بمرور الزمن، فما نفع السؤال عن توقيتها؟ وما معنى تعليق إيمانهم بها بمعرفة زمنها؟ فإذا لم يعلموا متى ستحصل لن يؤمنوا بها! فهل لهذا الكلام أي معنى؟!

هل لا زلتم تسألون عمّن يعيدنا إلى الحياة بجسد من بعدما صارت العظام نخرة في حفرة قبرها، ومتى سيحصل هذا؟

سورة عبس (80) ص 585

تقول لك السورة إنّك كمؤمن عليك الاهتمام بالمؤمنين بالدرجة الأولى، ومن الخطأ الاعتقاد بأن العمل على هداية شخص كافر أهم من الاهتمام "إيمانيًّا" بمن آمن، فهو خطأ مهما كانت المكانة الاجتماعية لمن تحاول هدايته، ومهما كان مدى أهمية أثره في المجتمع إذا آمن، ومهما ومهما... فهو لن يصل إلى قيمة وأهمية من آمن حتى لو كان المؤمن فقيرا معدوما لا مكانة اجتماعية له، بل حتى لو كان ضريرا يحتاج لرعاية المجتمع به بدل تأثيره المنتج هو على المجتمع.

بعدها تبدأ فقرة عن القيمة العالية لهذا الدين الإلهي في كل تشعباته، من مصدره الإلهي لناقليه... وصولا لمن آمن به، وتنتقل بعدها لتريك القيمة المنخفضة لمن كفر ويتدلّل معطيا لنفسه أهمية... وترينا مصيره المناسب لقيمته المنخفضة.

تمرّ السورة على أمور بسيطة جدا تدل بكل وضوح على إله فوقنا خلقنا وخلق بيئتنا وجاعلٍ رابطا وعلاقة فيما بيننا... وفي مقابلها هناك من يأتي ويذهب ويفكّر في موضوع الإيمان، ويأخذ وقته ليدرسه ويفكّر فيه... ويعطي لنفسه أهمية! {قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ}...

هذه السورة واستنادا على المشهور في ثقافتنا والروايات نزلت بعد إسلام عبد الله بن أم مكتوم، وسيأتيك بعض الكلام عنه، ولا منفعة في تضييق معنى السورة به أو بغيره، لأنها تعرض نموذجا لأي حادث يحصل فيما بعد بين المؤمنين الذين ينسون القاعدة الأساسية: المؤمن مهما كان وضعه وصفاته فقيمته أعلى من أي كافر مهما كان، ولتبين للكافرين قيمتهم الحقيقية أينما كانوا في كل زمان ومكان.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(عَبَسَ وَتَوَلَّى{1})

{عَبَسَ} هو صفة عامّة للتعبير عن اللارضا عن شيء لم تحبّ حصوله "سماعه أو رؤيته أو التواجه معه..."، وفي الإنسان هو التعبير بزوي "تقطيب" حاجبيه حول عينيه، {وَتَوَلَّى}، أعرض عن الاهتمام به، والآيات التالية ستشرح لنا ما القصة.

(أَن جَاءهُ الْأَعْمَى{2})

{أَنْ}، بسبب أن، {جَاءَهُ الْأَعْمَى}، فهناك شخص يوصف بالعمى، فلا يرى، وحين جاء عبس وتولّى عنه شخص ما.

المشهور جدا في كتب الروايات أن شخصا اسمه عبد الله ويناديه الناس بابن أم مكتوم، أسلم، وكان أعمى، وفي مرّة كان النبي محمّد(ع) جالسا مع جماعة من وجهاء قريش يحاورهم ليقنعهم بالإسلام، وجاء الأعمى ليجلس معهم، ويعلم النبي(ع) أن الأعمى لن يجلس ساكتا وسيسأل عن الدين والقرآن... ولن يستطيع النبي(ع) أخذ راحته في حديثه مع جماعة الكفّار الذين يأمل بإقناعهم ليسلموا، فعبس (ع) معبّرا بعفوية عن حضور الأعمى في هذا الوقت، وتولّى فلم يهتمّ بما يريده الأعمى... وسترى من الآيات التالية أن الأعمى كان أسلم وجاء ليسأل عن الدين الإلهي، وفي بال النبي (ع) أنه يمكنه مجالسة الأعمى وتعليمه الدين في وقت آخر، أمّا الآن فالأولوية هي الاهتمام بالكفّار الذين يجالسهم وعنده (ع) احتمال أن يؤمنوا... وهذا واضح من الآيات هنا.

ترى في الكتب كلاما يشير إلى تعارض وصف القرآن للنبي(ع) بالعبوس مع وصفه بأنه(ع) على خلق عظيم، على أساس أن العبوس في وجه الأعمى عمل لا أخلاقي، وعلى أساس أن العبوس تعبير عن الغضب والكره والنفور... وكما تلاحظ فالعبوس تعبير يبدأ من اللارضا عن شيء ما، ويتدرّج من ذلك إلى الكره الشديد، فمن مجرد تفضيل حصول شيء آخر، إلى كره ما يحصل، فكلّها أسباب للعبوس، ولدينا الكثير من الروايات التي تصف النبي(ع) بالغضب الشديد، واكفهرار وجهه، واحمراره... بسبب أمور فعلها الناس... وهذه تعابير لا تتنافى مع خلقه العظيم لأنها حدثت في ظروف تستدعي منه (ع) ردّ فعل طبيعي...

لا مشكلة ولا تعارض بين عبوسه (ع) وبين خلقه العظيم، فما الحلّ مع أعمى لا يرى اجتماع النبي(ع) مع جماعة من الكفّار؟ فكيف سيطلب منه النبي(ع) أن يجلس ساكتا لأن الاجتماع مع تلك الجماعة للتحدّث معهم عن الدين الإلهي ليس متاحا في كل حين، فهي فرصة لا تتكرر... وكما ترى من الآيات فالنبي(ع) لم يقل للأعمى أن ينصرف ويأتي في وقت لاحق، وهذه نقطة مرتبطة أشد الارتباط بلبّ السورة ومحور حديثها، فلو صرفه النبي(ع) لكانت فعلا مشكلة كبيرة، فالأعمى لم يأته (ع) لزيارة شخصية بل ليسأل عن الدين، ولو طلب منه النبي(ع) المجيء في وقت آخر بسبب انشغاله بالكفّار لكانت فعلا مشكلة، فحتى تعبيره (ع) عن عدم رضاه عن توقيت حضور الأعمى، فحتى هذا اعتبره ربنا سبحانه خطأ... وسترى روعة وعظمة هذا الدين الإلهي الذي لم يقبل بالاهتمام بإقناع بعض "وجهاء" الكفّار ليؤمنوا على حساب مؤمن أعمى، أكرّر لك: أعمى فقير عادي جدا جدا، وتفترض من فقره وعماه البساطة الفكرية، لأنه لا يتعاطى شؤونا من مستوى الأهمية العالية... أعطاه هذا الدين الإلهي قيمة عالية جدا على وجهاء الكفّار لأنه مؤمن، فهذا الدين يعطي قيمة للمؤمن كيفما كان وضعه الجسدي أو الاجتماعي أو المادي.. ولا يعطي أي قيمة للكافر مهما كان غنيا أو وجيها أو قويا... وهذا هو لبّ السورة.

بقي شيء، قيل إنّ الذي عبس في وجه الأعمى ليس النبي محمّد(ع) بل شخص مسلم كان في الاجتماع، ولكن لا يتناسب هذا الكلام مع ظاهر سياق الآيات، فكيف تفسّر الآيات: {وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى، وَهُوَ يَخْشَى، فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى}... فمع وجود النبي محمّد(ع) هل سيكون سعي الأعمى لملاقاة ذاك المسلم الذي قالوا بأنه عبس! أم يسعى لمقابلة النبي محمّد(ع) ليتعلم الدين؟ فمن الواضح أن العابس هو (ع)، ومن الواضح أن العبوس له تدرجات في أسبابه، وأقلها أنك غير راض عمّا يجري، فليس بالضرورة اجتماع الكره والغضب... مع العبوس.

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى{3})
{وَمَا يُدْرِيكَ}، فأنت تدري لو اهتميت بالأعمى ورأيت نتيجة اهتمامك به، أمّا وقد توليت عنه، فما يدريك، {لَعَلَّهُ}، فمن المتوقّع ومن المفترض بالأعمى أن، {يَزَّكَّى}، فيصير لائقا، خاليا من الخبث والفساد العقائدي والتشريعي والسلوكي.

مهمّتك هي هذه، أن تساعد الذي يريد التعرّف على الدين الإلهي حتى يصير زاكيا، وها جاءك شخص من المتوقّع أن يصير زاكيا لائقا إيمانيًّا وخاليا من الكفر لأنه أعلن إيمانه وقصدك ليتعلم الدين، فلماذا لم تهتم به؟ فالعمى والفقر وضعف المكانة الاجتماعية... ليس لها أي اعتبار، والقيمة والاعتبار للشخص بإيمانه، وها أتتك فرصة أيها النبي(ع) ليصير هذا الشخص زاكيا...

إذا اعتبرت هذا الأعمى منتهيا موضوعه الأساسي لأنه أسلم، وإسلام أناس جدد أهمّ من الاهتمام به، وأنك ستهتم بالأعمى لاحقا، فهذا تصرف غير مقبول منك أيها الرسول (ع).

(أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى{4})
أو لعلّ الأعمى، {يَذَّكَّرُ}، فيسمع منك كلاما ويستحضره في فكره وسلوكه، {فَتَنْفَعَهُ}، فيستفيد من، {الذِّكْرَى}، من قول شيء ديني له ليستحضره في فكره وسلوكه.

هذه الآيات هي درس عام لكل المسلمين في توجيه اهتمامهم واحترامهم لبعضهم وتفضيلهم على الكافرين، مهما كان الكفّار أغنياء أو لديهم مراكز سياسية أو اجتماعية، فالمؤمن أهم منهم حتى لو كان أعمى فقيرا عاديا بلا أي مكانة اجتماعية...

(أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى{5})
أمّا مَن استغنى، فاعتبر نفسه بالغنى عن دينك، فلا يشعر بحاجة للإيمان بدينك، فهو مكتفٍ بدين الكفر.

المقصود هم جماعة الكفّار الذين كنت تجالسهم ومهتمّاً بهم عندما جاءك الأعمى، فهم جالسون عندك على أساس أن دينهم يعجبهم وليس لديهم فيه أي مشكلة، وهم بالغنى عن دينك، بينما أنت تحاول جعلهم يهتمون بدينك.

(فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى{6})
أنت، أيها النبي(ع)، له، لذاك المُستغني عن الدين الإلهي، تَصَدَّى، تهتم به وتحادثه لتمنعه من الاستمرار في كفره وتمنعه من استمراره في الاستغناء عن دينك.

(وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى{7})
إن لم يَزَّكَّ، وإن لم يَصِرْ لائقاً بعقيدته وشريعته وبقي المستغني كافراً، فما عليك؟ ولماذا تحمل همّه؟ وما هو السبب المتعلّق بك للاهتمام به؟ فَلْيَبْقَ كافراً فذنبه عليه وأنت ما دخلك به؟

من عموم القرآن نرى أن مهمة النبي محمد(ع) هي تبليغ الناس رسالة الله سبحانه والإجابة عن استفساراتهم، فقط وفقط لا غير، فلا يتحمّل مسؤولية كفرهم، ولن يتحاسب عن كفرهم، فليس وكيلاً عليهم ولا حفيظاً ولا رقيباً... وليست مهمته أن يبقى وراءهم حتى يقتنعوا...

هل حمّلك سبحانه مسؤولية إيمانهم حتى تهتمّ بهم وتترك الذي أسلم؟ لا، فلماذا أنت مهتمّ بمن كفر وهو مستغنٍ عن الإيمان ليؤمن؟

في آيات أخرى عديدة من القرآن نرى النبي محمّداً(ع) يبذل جهده وكلَّ وقته ولا يترك أي فرصة تسنح له في محاولة هداية الكافرين، فتنبهه الآيات العديدة أن يقوم بتبليغ الرسالة فقط، ومنها الآية 48 من سورة الشورى "فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ..." وأمّا أن يؤمنوا أو يكفروا فهذه ليست مشكلة النبي محمد(ع).

(وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى{8})
أمّا مَن جاءك، انتقل إليك، يَسْعَى، حركته بمجيئه إليك لها قصد، وهنا الكلام عن قصده منها الوصول إليك ليتعلّم الدين. في مقابل من تجالسهم وهم يشعرون بالغنى عن الحديث معك عن دينك فهذا الأعمى يسعى إليك ليتعلّم الدين.

(وَهُوَ يَخْشَى{9})
هو، هذا الساعي إليك، يَخْشَى، يشعر بخطر عليه القيام بشيء ما ليتجنبّه، ويشعر بخطر العقاب الإلهي لمن كان اعتقاده وسلوكه مخالفاً لأوامره تعالى، وهو عبر تعلّم الدين منك يريد أن لا يصيبه خطر العقاب.

(فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى{10})
أنت، أيها النبي(ع)، عنه هذا الذي يريد تعلّم الدين، تَلَهَّى، تتلهى! تشتغل بشيء آخر أقل أهمية وتترك الحديث معه! تتصدّى للمستغني وتترك الساعي؟!

هذه الآية هي لبّ السورة، حيث قارن سبحانه بين أهمية الإجابة عن أسئلة هذا المسلم الفقير الأعمى الذي لا مكانة اجتماعية له... ولا فعالية له ولا بأي شكل في المجتمع لأنه أعمى والآخرون يصرفون عليه ليأكل، ولا يتنقّل بدون مساعدة الآخرين إلا في أماكن محدودة... وأحاديثه ستكون بسيطة لأنه يخالط البسطاء... تقارن السورة بينه وبين الحديث مع الكفّار المستغنين عن الدين، فحتى لو كانوا من وجهاء القوم ومن الأغنياء، فلا قيمة لهم ولا يستحقون من النبي(ع) الاهتمام بهم على حساب اهتمامه بالمسلم الفقير الأعمى.

لذلك وجّه سبحانه وتعالى العتاب لنبيه محمّدٍ(ع) حتى يقتدي به المسلمون في احترامهم واهتمامهم ببعضهم البعض، والأهم من ذلك فالآيات تنبهنا أن قيمة المؤمن عنده سبحانه هي أعلى بكثير من قيمة الكافر، وهذا شيء نعرفه، ولكن حتى الاهتمام بالكافر بالحديث معه لإقناعه بالدين فلا يجب أن يكون مفضّلاً على مؤمن أعمى فقير جاء يتعلّم الدين...

(كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ{11})
كَلَّا، نفي لكل ما سبق، غير صحيح أن تتلهى عن المسلم، وغير صحيح أن الاهتمام بهداية الكافر المستغني أهم من الاهتمام بالمسلم.

إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ، ستعرف من الآية بعد التالية أن الكلام هنا عن القرآن، فالرسالة التي أنزلها تعالى عليك أيها الرسول محمّد(ع) إنما هي فقط لتذكير الناس، لجعلهم يستحضرون كلام ربهم سبحانه في فكرهم وسلوكهم.

المطلوب منك عرض الدين عليهم، وإن رفضوه فلن نطالبك بأي شيء، وإن جاءك من يسألك عن الدين فالمطلوب منك أن تجيبه، بغضّ النظر عن حالته الجسدية أو الاجتماعية...

بعبارة صريحة وبسيطة: لا يقبل سبحانه بإظهار دينه أو رسوله بشكل ضعيف أمام الناس، وكأنه يستجدي انتماءهم، لأن الرسالة من الإله العظيم الخالق، والرسول الحامل لهذه الرسالة العظيمة يجب أن لا يتملّق الناس مروّجاً لدينه، بل هو داعية لدين عظيم.

بعبارة أخرى: لم يطلب الإله سبحانه من رسول(ع) أن يجمع له تعالى الجماهير، فلو كفر كلّ الناس من أولهم لآخرهم فلا أهمية للموضوع عنده تعالى، وهذا ما تراه في عموم القرآن ومنه الآية 7 من سورة الزمر "إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ..."، فلن ينزعج ولن يتضايق ولن يستفيد... ولو آمنوا من أولهم لآخرهم فأيضاً لن يستفيد سبحانه وتعالى ولا بأي شيء، فلا يكن همّك أيها الرسول إقناع الناس بالدين، فقط أعرضه عليهم.

(فَمَن شَاء ذَكَرَهُ{12})
فَمَنْ شَاءَ، أمام الناس خياران، إمّا أن يختاروا الكفر بالذكر الإلهي، وإما أن يذكروه فيستحضروه في فكرهم وسلوكهم.

ننتبه دائماً أن الناس أحرار في اختيارهم للإيمان أو الكفر، ولكن لكلا الخيارين نتيجتان مختلفتان، فواحد يوصلنا إلى الجنة والآخر يوصلنا إلى النار، وسنرى ذلك في الآيات القادمة، فلينتبهوا ماذا يختارون.

(فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ{13})
هذه التذكرة التي تُبلِّغها للناس، هذا القرآن:

فِي صُحُفٍ، في أشياء لها وجه مبسوط للكتابة عليها، في أوراق أو ما يماثلها للكتابة عليها، مُكَرَّمَةٍ، فلها اعتبار وقيمة عالية وليست مبتذلة أو مهانة.

كما تعلم من الكثير من السور فالقرآن يقول عن نفسه بأنه قبل نزوله على الرسول محمّد(ع) كان مكتوباً في الكتاب الرئيسي الذي في السماء العالية، وهذا يماثل وصفها بتعابيرنا أنه في صحف، وتلك الصحف، مكرمة أي لها قيمة عالية.

ما أمرك به سبحانه لنقله إلى الناس فهذا هو مصدره، فهو شيء مكتوب وله قيمة عالية، فما معنى إجهادك لنفسك وتتلهّى عن مسلم لتعرض كلاماً من قيمة عالية من مستوى إلهي على من أعلن أنه كافر به مستغنٍ عنه!

ننتبه جيداً، فالآيات السابقة كان تركيزها على الاهتمام بالمسلم الأعمى الفقير، وأن قيمته أعلى من أي كافر، وهنا الفقرة تركّز على القيمة العالية لهذا الدين الإلهي الذي هم مستغنون عنه...

كلمة "صحف صحيفة" تشمل كل شيء يمكن التسجيل عليه مثل: الورق من معجون الخشب أو من بسلات الأرزّ... أو الجلد أو لوح الخشب... وبما أنها معلومات مسجلة على شيء ما، فوصفها بلغتنا أنها صحف، وهي صحف تكتبها وتنقلها الملائكة(ع) كما سيأتي في بقية كلام السورة، وتنزل بها على الرسول(ع)، فتلك الصحف لا يمكننا معرفة نوع مادتها لأنها من عالم آخر، فهي بكل تأكيد ليست من ورق أو لوح خشب أو قرص كمبيوتر... فلا تتعب نفسك بتصورها لأننا لن نعرفها مثلما أننا لا يمكننا الآن تصوّر أو معرفة شكل الملائكة(ع)، أمّا عندما ننتقل من الدنيا إلى الآخرة فسوف نتعرف على الملائكة(ع) ونراهم شخصياً، وسنتعرف على تلك الصحف لأن حواسنا وتكويننا سيتغير...

(مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ{14})
تلك الصحف المكرّمة التي نزل بها القرآن:

مَرْفُوعَةٍ، فليست بمتناول أيٍّ كان، فليست موضوعة بطريقة يمكن لأيٍّ كان قراءتها، كما نقول: وضعت الطعام على المائدة فصار بمتناول الجميع. تقول: رفعت الطعام عن المائدة فلم يعد بمتناول أي أحد. فهنا التوصيف للصحف بأنها ليست موضوعة للجميع لتناولها، وأنت تعلم أن الملائكة(ع) لا تضعها في متناول أي شخص بل تنقلها فقط للرسول محمّد(ع). وتعلم بأن الجنّ ترميهم الملائكة بالشهب حين يحاولون الاطلاع على تلك الصحف...

تلك الصحف، مُطَهَّرَةٍ، خالية من أي شيء يجعلها موصوفة بأنها سيئة مكروهة. فمحتواها من إملاء إلهي، ومن يكتبها ملائكة(ع)، وتنقلها ملائكة(ع)، وتنزل على شخص من مستوى عالٍ في سلامة القلب... وكل ذلك يجعلها مطهرة، منفيّ عنها أي شيء سيئ.

لاحظ استعمال القرآن لكلمة طهارة هنا في الآية، فهو نفسه المعنى الذي استعمله القرآن في كلّ كلامه، فافصل بينه وبين الاصطلاح الفقهي للطهارة ولا تجعل هذا الاصطلاح تفسيراً لأي آية من القرآن، لأن الكلمة تشير للخلو من عموم ما هو منفور منه أو سيئ... سواء أكان مادياً أو معنوياً.

(بِأَيْدِي سَفَرَةٍ{15})
تلك الصحف، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ، فالملائكة(ع) الكاتبون لتلك الصحف يوصفون بأن ما يكتبونه يكون واضحاً، فالتسفير هو فعل الكتابة بشكل واضح، وهم سَفَرَةٍ، فهم الكاتبون بشكل واضح.

لاحظ أنك تحتمل معنى سفراء "ناقلين" لكلمة "سفرة" على أساس أنها جمع تكسير ثانٍ، ولكن ورود هذا الوصف في القرآن على معنى الوضوح لما يوصف بها، فجاءت كوصف لكتاب كما تقرأ في الآية 5 من سورة الجمعة "مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا"، وجاءت كوصف للصباح كما تقرأ في الآية 34 من سورة المدثر "وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ"، وللوجه كما في الآية 38 من هذه السورة "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ"، فهذا الاستعمال يجعلنا نميل هنا في الآية لفهم السفرة بما يتعلق بمن يكتب المعلومات بوضوح.

كما سحبنا الخصائص البشرية من أسماء الأعضاء عند وصفه تعالى بها، فحملناها على أصل معناها، فالوجه للتوجّه واليد لما تفعل به الأشياء... فبالنسبة للملائكة هو نفس الشيء، فهم ليسوا بشراً بأيدٍ من خمسة أصابع، ولكنهم يفعلون، وبما يفعلون به "من أعضاء كيانهم" فيناسب وصفه بلغتنا بأنه يد بالنسبة لهم.

(كِرَامٍ بَرَرَةٍ{16})
هؤلاء السفرة الذين في أيديهم الصحف هم:

كِرَامٍ، فلهم كرامة فلهم مكانة عالية بأمانتهم وصدقهم... فليسوا مهانين أو وضعاء، وهم، بَرَرَةٍ، أي بارُّون فلا يقطعون صلتهم معه تعالى، فيفعلون كلّ ما يبقيه تعالى راضياً عنهم عبر الالتزام التام بكل أوامره تعالى، فيقومون بكتابة ونقل تلك الصحف للرسول(ع) بكل أمانة كما هي وبدون أي تأخير، وهذا جانب عملي من برّ الملائكة(ع).

تعلم من الآية 97 من سورة البقرة "قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ..." ومن آيات أخرى عديدة منها الآية 4 من سورة القدر "تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ" أن الملائكة(ع) يترأسهم الملاك جبريل(ع)، فهم يقومون وبأمر منه تعالى بنقل معلومات من الكتاب الرئيسي، ومحدّدة منه تعالى لتنزيلها على النبي محمد(ع)، وهنا الآيات تتحدث عنهم وهم السفرة الكرام البررة النازلون بهذا القرآن.

إلى هنا أفهمتنا الآيات أن الرسالة الإلهية النازلة "القرآن" لها قيمة عالية فهي نازلة منه تعالى، وحتى الذي ينقلها من الإله سبحانه فهم كائنات لها مكانة واحترام عالٍ، فما معنى شعور بعض الناس بالاستعلاء والاستغناء عن هذه التذكرة! ولماذا أنت أيها النبي(ع) ستهتم بمن هو مستغنٍ عمّا في هذه الصحف!

(قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ{17})

{قُتِلَ الْإِنْسَانُ}، الغالب الأعم من الناس، ولصفات ارتبطت بغالبيتهم، هم يستحقّون القتل يستحقّون إنهاء حياتهم بعامل خارجي يصيب جسدهم السليم فيميتهم، {مَا أَكْفَرَهُ}، كم هو مُنْكِرٌ. وهنا ترى أن الكلام عن إنكار الغالب الأعم من الناس للكلام الإلهي.

تعبير "{قُتِلَ الْإِنْسَانُ}..." يعادل ما نقوله بالعامية: يقطع عمرك... تخسرك أمّك... يوجد شخص فعل شيئا سيئاً جدا وتعلن أنه يستحق إصابته بشيء سيئ جدا بسبب ما فعله، وأسوأ شيء هو انتهاء حياته، وهنا الآية تقول نفس الشيء، مَنْ يكفر قام بعمل سيئ جدا، ويستحقّ أن تنتهي حياته فورا حتى لا يستمر بعمله السيئ.

ضع في بالك دائما أن القرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموما ذكرا وأنثى، وأنهم يتناسلون... أو متعلقٍ بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

بقي شيء، بعض المستغنين عن هذا الدين وجدوا بيوت شعر قيل إنها منسوبة لامرئ القيس وفي شطرها نفس عبارة آيتنا هنا، "{قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ}"، ولديهم أشعار أخرى مشابهة لبعض آيات القرآن، وهم يذكرونها على أساس أن القرآن فيه اقتباس من الشعر، وعلى أساس أن محمّدا بن عبد الله(ع) ليس نبياً ولم ينزل عليه القرآن من الإله، وأنه (ع) ألّف القرآن مقتبساً من أشعار العرب، أو ساعده آخرون على تأليف القرآن... ردّ القرآن قديما على هذا الكلام الفارغ غير الدقيق، من ناحية النبي محمّد(ع) كلامه خلال حياته لمدة تقارب الأربعين سنة كان عاديا ولا يشبه القرآن، وبعد سنّ الأربعين نزل عليه (ع) القرآن، وهو(ع) لم يكن شاعراً بل كان مثل عامّة الناس في الشعر، لم يؤلّف شعراً ولم يكن حافظاً ناقلاً للشعر... كيف وفجأة يصيغ هذا القرآن؟ بالنظر إلى محتوى القرآن فهو لا يتوافق بالتمام مع ما في كتب اليهود والنصارى، تلك الكتب تعرّضت للتحريف وصحّح القرآن العديد من المعلومات الواردة فيها، كيف تمكّن محمّد (ع) من التعامل مع معلومات وتفاصيل لا تعرفها الناس لو لم تصله عبر الوحي الإلهي؟ بالنظر ثانية لمحتوى القرآن معانيه فوق ما يقوله أي إنسان، بل فوق ما يمكن أن يقوله الجنّ والإنس كلّهم مجتمعين مع بعض، وهو فوق ما يمكن لمحمّد(ع) أن يقوله...

أمّا بالنسبة لتوافق بعض الآيات مع بعض الأشعار، فبالتدقيق بتلك الأشعار ستجدها موضوعة ومؤلفة بعد نزول الإسلام ومنسوبة لشعراء قبل الإسلام، ووضع الشعر بهذا الشكل معروف وكان منتشراً... وعلى كل حال على مرّ التاريخ من نزول القرآن إلى الآن جمعوا فقط وفقط ما يقارب الخمس عشرة جملة قرآنية تشابه شطر شعر، من قرابة الستة آلاف وأربعمئة آية، استطاع المستغنون عن الدين الإلهي تجميع خمس عشرة آية فقط! وبأقل تدقيق تجد أن بعضها موضوع "ألّفه شخص ما ونسبه لشاعر قديم" بشكل فاضح واضح، وبعضها يشابه من بعيد ما ورد في القرآن، وبعضها كلام عادي جدا من الكلام الذي يقوله كل العرب عادة في حياتهم العادية... وبعد ذلك تجد المستغني عن الدين الإلهي يقول لك: هذه بعض الآيات التي نقلها محمّد من الشعر ليؤلّف القرآن... والحقيقة أنه موضوع استمرّ بالعمل عليه العديدون من المستغنين عن الدين عبر التاريخ، وهذا ليس بعضاً من الآيات، بل هي كل الآيات التي استطاعوا إيجاد توافق لها مع شعر ما، ولو كتبت الآن أنت بيتا من الشعر مستخدما آية من القرآن، وانتظرت عليها سنة أو سنتين، فسيجدها أحد المستغنين عن الدين الإلهي، وينسبها لشاعر جاهلي، ويضيفها إلى لائحة الآيات التي استخدمها محمّد لتأليف القرآن! هكذا وبكل بساطة لا مشكلة عندهم بالكذب، ولا بنقل الكذب، ولا بتضخيم الكذب... من خمس عشرة آية لفّقوا لها تشابها مع الشعر نسفوا ستّة آلاف آية! ولم يجدوا آيتين أو ثلاثاً أو فقرة تشبه أي شعر أو نص كتبه البشر! حقاً: {قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ}.

(مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ{18})

{مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}، مما ركّبه وألّفه ربنا سبحانه؟ الإنسان الكافر به تعالى ألم ينتبه كيف خرج إلى الحياة مركّباً مؤلّفاً؟ ممّا هو مركّب؟

بعبارة أخرى هل جاء الإنسان من لا شيء؟ هل تألّف وتركّب من دون تخطيط؟ وهل هكذا بالصدفة أو من الطبيعة لوحدها خرجنا إلى الحياة؟ بالطبع لا، والسؤال الأول: كيف بدأ تركيبه؟ من أي شيء؟

صحيح أن الكلام في الفقرة هنا هو لعامّة من كفر، ولكن بخصوص موضوع سورتنا الكلام عن الذين اهتمّ بهم النبي(ع) ليؤمنوا وهم مستغنون عن الكلام الإلهي، حصل بينه (ع) وبينهم كلام طويل... تأتي الفقرة هنا بكلام قليل تلفت فيه انتباهنا لغرابة كفرهم وسخافتهم وتفاهتهم أمام وضوح كونهم مخلوقات لإله عظيم.

تذكّر هذا لأن الفقرة هنا تتحدّث عن المستغنين عن الدين بطريقة فيها إهانة لهم لتحقيرهم، القيمة التي أعطوها لأنفسهم، والتي أعطاها لهم الناس بسبب غناهم ومكانتهم الاجتماعية، أو القيمة التي يعطونها هم الكفار لبعضهم البعض، والقيمة التي أعطاها لهم النبي(ع) حين تلهى عن المسلم الأعمى ليقنعهم بالدين... كلّ ذلك تريد السورة لفت انتباهنا له، وترينا أن الكفّار لا قيمة "فكرية وأخلاقية وسلوكية..." لهم أبدا بتاتاً.

(مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ{19})
{مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ}، من شيء صغير الحجم جدا ركّبه وألّفه سبحانه حتى صار إنسانا.

بالنسبة لكلمة نطفة هي وصف لعموم أي شيء صغير الحجم جدا، ونستعمل هذه الكلمة "عادة" لوصف مكونات المني، وحاليا بالعاميّة نستعملها اسما للحيوانات المنوية، علماً أنها في أساس معناها ليست مخصصة لذلك، يمكنك القول عن أي كمية صغيرة جدا من الماء العادي أو البهار أو الملح أو...: نطفة.

{فَقَدَّرَهُ}، حدّد له تعالى ما سيصير عليه من بعد النطفة، وهذا التعبير مرادف لما ورد في آيات أخرى عن مرور الإنسان في مراحل مختلفة في بطن أمّه وصولاً إلى اكتمال خلقته كجنين وبعدها كطفل...

يا أيها الكافر المستغني عن الدين الإلهي، عَلَامَ ترى نفسك مهمّاً ولك قيمة؟ اعرف أولاً قدرك ومن أنت، بداية تركيبه تعالى لك لتصير إنسانا بدأت من نطفة وهي صغيرة جدا، تنمو وتكبر بمقادير لتصير جسداً كاملاً، الإله خلقك من نطفة أم هكذا لوحدها ومن لا شيء صارت النطفة، والنطفة صارت إنسانا، وصرت تناقش ولك آراء... أهكذا لوحدك خلقت نفسك أم المواد لوحدها انوجدت، أم لوحدها المواد تركّبت وأنتجتك... أم إلهٌ عظيمٌ خلقك؟ وأنت تكفر به! وتستغني عن دينه! وتعطي لنفسك أهمية وأنت كافر بخالقك!

بالنسبة لكلمة "قدّره" راجع ما قلناه مطولاً عن القضاء والقدر في دراسة الآية 22 من سورة المرسلات، هناك نبّهنا من الخلط بين المعنى الاصطلاحي للكلمات مع المعنى اللغوي لها...

(ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ{20})
{ثُمَّ السَّبِيلَ}، المسلك الذي سيمشي عليه ليصل إلى مقاصده، {يَسَّرَهُ}، تمشي الأمور براحة، والكلام هنا عن خلق الإنسان وصيرانه واعياً، المقصود بتيسير السبيل هو التناسب بين تكوينه ومحيطه.

أعضاء جسده من يدين ورجلين ورأس فيه عينان وأذنان وفم وعقل... وما فيه من رغبات وغرائز وشهوات... متوافق مع بيئته ومحيطه، يرضع من أمّه بشكل آلي مدفوع بالجوع وفطرة استعمال الفم للامتصاص، وتتفعّل حواسه وفكره مع محيطه بشكل آلي، ويكبر متابعاً حياته مستعملاً جسده وفكره وغرائزه بشكل آلي... وخلال ذلك يتطور لديه الفكر الخاص به ليستعمله بتمييز الخير من الشرّ وفي خياراته في حياته، وهذا هو السبيل المسلك الذي سهّله له تعالى.

كما ترى، هذه الجملة القصيرة جدا اختصرت طفولة الإنسان وحداثته وشبابه وفتوّته وشيخوخته، عموم مسيرة حياته هي السبيل الذي يسّره تعالى ليسير عليه متناسباً مع بيئته كإنسان.

الفقرة لا تزال توجّه كلامها مع المستغني عن الدين الذي يشعر بأهمية لنفسه، هذه مسيرة حياتك التي تمشي عليها، مَن يسّرها لك هكذا لتتوافق مع بيئتك وتعيش وتقضي عمراً؟ من؟ مهما تفلسفت لن تجد جواباً منطقياً عقلانياً عن تركّبك من المواد وصيران حياة لك بجسد متوافق مع محيطك لتعيش، إلا جواباً واحداً: هناك إله عظيم صمّمك وصمّم بيئتك، كفرت به عزّ وجلّ وأعطيت لنفسك أهمية!

(ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ{21})
{ثُمَّ}، بعد تيسّر الإنسان لسبيله، {أَمَاتَهُ}، جعل سبحانه الإنسان يفارق الحياة، {فَأَقْبَرَهُ}، جعله في القبر، عادة نحن نقوم بوضع الأموات في مكان يسترهم وهذه العملية هي قبرهم والمكان هو القبر، جعله تعالى يموت ويقبره الآخرون، يدفنونه في حفرة تحت الأرض أو في خزائن في حيطان... وعادة يضعون على المكان علامة تشير إلى كونها تحوي جثّة لميّت.

ننتبه للتعبير الذي ابتدأت به هذه الفقرة عن الإنسان، وتقصد الغالب الأكثر من الناس وليس كلهم، هنا أيضا ننتبه أن الغالب من الناس يتم قبرهم، سواء بجسدهم أو حرقهم ووضعهم في مستوعب... وهناك من يموت في البحر أو تأكله الحيوانات... ولا يقوم أحد بقبره، ولكن الغالب الأعم من الأموات يتم قبرهم، وهذا ما ينصرف إليه ذهننا عند الكلام عن ميّت ولذلك استعمل القرآن مراراً الإشارة للقبور كنموذج لتتفعّل في ذهننا صورة تعاملنا نحن مع الأموات.

على كلّ حال، يا أيها المستغني عن الدين الإلهي هل تستطيع فعل شيء ما للموت؟ هل تستطيع ردّه عنك؟ وأصلاً لماذا تموت ولا تبقى حياً؟ ألم تلاحظ أن فوقك إلها صمّمك بهذه النهاية؟ أين أهميتك وعلو شأنك؟ وما معنى استغنائك عن دين خالقك ومميتك؟

(ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ{22})
{ثُمَّ}، بعد أن نموت ونسكن القبر، {إِذَا شَاءَ}، أمامه تعالى خيارات عديدة، يمكنه تركنا أمواتاً، ويمكنه نقلنا لحالة أخرى، ويمكنه إعادتنا إلى الحياة... التصرّف بنا بيده تعالى ويفعل ما يشاء بنا، وإذا شاء سبحانه، {أَنْشَرَهُ}، جعله يفترق عن موته وقبره فيصير حياً من جديد، كما نقول: نشرت الغسيل. والمقصود أنه كان في الغسالة مجموعاً وافترق عن بعضه بوضع كل قطعة لوحدها على الحبل. ومن مشتقات معنى النشر: صيران الشيء معروضاً بشكل منفردٍ.

هنا الآية تبيّن لنا الخلاصة من الفقرة: نحن تحت سيطرته سبحانه من البداية حتى النهاية، فإذا شاء سبحانه أخرجنا مرة ثانية إلى الحياة، أخبرنا سبحانه في كتبه أنه قرّر إحياءنا مرة ثانية، هنا الآية تلفت انتباهنا إلى كون قرار رجوعنا فقط وفقط بيده سبحانه، ونحن لا يمكننا فعل أي شيء، بل ولا أحد من بقية المخلوقات له علاقة بقراره سبحانه وتعالى.

بعبارة أخرى، أنت وفي حالة الموت أيها المستغني عن الدين الإلهي وترى لنفسك أهمية، ماذا يمكنك أن تفعل أيها الشخص المهمّ؟ هل يمكنك أن تشاء الخروج إلى الحياة مرّة ثانية؟ أم هل يمكنك أن تشاء البقاء ميتاً؟ هل انتبهت أن موتك وحياتك فوق قدرتك على التحكّم؟ وأنها مثل خروجك إلى الحياة من نطفة حيث لا قدرة لك على اختيار ما تشاء، لا قرار لك بما حصل لأنه سبحانه يسّر سبيلك بجسدك وخصائصه وصفاتك...؟ ما معنى استغنائك عن الدين الإلهي والشعور بالأهمية! بينما أنت محكوم بما صمّمه الإله سبحانه لك لبدايتك وحياتك وموتك ولما بعد موتك!

(كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ{23})
كلا، كلّ ما سبق كان من المفروض بالإنسان الالتفات له ليؤمن بهذا الدين الإلهي ولكن كلّا هذا لم يحصل، {لَمَّا} "حرف جزم ونفي" {يَقْضِ مَا أَمَرَهُ}، أمر سبحانه الإنسان بالإيمان بهذا الدين وبعمل الصالحات، ولكن الإنسان لَمَّا يَقْضِ ما أمره به تعالى، فما هو مطلوب أن يحصل من الإنسان لَمَّا يحصل، ومن الماضي إلى الآن لم يقم الغالب الأعمّ من الناس بفعل ما أمرهم به تعالى.

بالنظر إلى ما ذكرته الفقرة السابقة من وقوع الإنسان تحت السيطرة الإلهية بشكل واضح من بداية خلقته مروراً بحياته وصولاً إلى مماته وبعدها قيامه من الموت بمشيئته تعالى، بعد ذلك كلّه لم يقم الإنسان بما أمره به ربّه تعالى! بل كفر واستغنى وأعطى لنفسه أهمية!

هناك فرق بين حرفي جزم الفعل المضارع "لم" و"لمّا"، فـ"لم" لمطلق النفي وليست ناظرة إلى زمن النفي إلا حين الكلام، و"لمّا" لنفي حصول شيء من الماضي إلى الوقت الحالي ولكن مع إمكانية الحدوث في المستقبل. وهنا الآية

استعملت "لمّا" لتشير من الماضي إلى حين الكلام أنه لم يقم الإنسان بفعل ما أمره به تعالى، والكلام هنا مع وعن المستغني عن دينه تعالى.

(فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ{24})
{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ}، مِنْ بعد الذي قلناه فَلْيُوَجِّهْ اهتمامه العام إلى طعامه إلى ما يأكله وله طعم "الحاسة الذوق".

هذه الجملة على فهمها البسيط لها عمق واضح، مَنِ الذي جعل فينا رغبة استطعام المأكول والمشروب؟ ومن صمّمنا نتغذّى منه؟ ومن أتاحه لنا في بيئتنا؟

لِيَنْظُرْ للآيات لو أنت قمت بتصميم كائنات وتصميم بيئة لتعيش فيها الكائنات، وجعلتها تنمو وتتكاثر، ووضعت شعور الجوع فيها، ووضعت فيها حاسّة التذوّق لترغب الطعام، وأتحت لهم في بيئتهم ما يأكلونه... فهل سيؤمنون بك أنك أطعمتهم أم يريدون الطعام ينبثق من الفراغ مطهيّاً ساخناً حتى يؤمنوا بك تطعمهم؟ وهكذا ترانا نحن من جهة بحاجة للطعام وترى الطعام متوافراً في بيئتنا، فكيف حصل ذلك إن لم يكن هناك إله صمّم وخلق؟

ربما تصل فعلاً إلى وضع فرضية صحيحة تفسّر نشأة كوننا وآليات وصول الأمور إلى نشأة الحياة على الأرض، وآليات صيراننا كائنات تجوع وصيران بيئة فيها ما نأكله، فهذا لا يلغي أن إلهاً عظيم القدرات صمّمنا وخلقنا، بل هو محاولة تعرّف على الآليات التي جرت عليها أوامره تعالى حتى صار الكون وصرنا فيه.

تكرّر مراراً في دراستنا هذه لفت الانتباه للفرق بين كلامه تعالى وبين كلام المنتمين لدينه سبحانه، حيث إنّ المتدينين جمّدوا تفسير كلامه تعالى على حالة أن الإله يفعل بعض الأمور فوراً وبلا أي آلية، فيقول للشيء كن، فيكون فوراً، وصرت تعلم أن أوامره تعالى تكون حتماً، وأمّا حدوثها فوراً فشأن مختلف، بعض الأمور فورية "عبر آلية ما" وبعضها له آليات تحتاج لوقت لحصولها، ما معنى خلق ما في الدنيا في ستة أيام؟ وخلق الإنسان من سلالة من طين؟... هذا كلامه تعالى عن أفعاله أمر أن تكون فكانت حتماً وليس فوراً.

وهكذا ترى بوضوح أن تعرّفنا على آليات حدوث الأمور ليس إلغاءً لوجود الإله سبحانه، بل تعرّفاً على الآليات التي صمّمها تعالى لينشأ عنها كوننا ونحن فيه.

(أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً{25})
{أَنَّا}، الإله، {صَبَبْنَا الْمَاءَ}، جعلناه ينزل من إفراغ الغيوم مطراً، {صَبّاً}، بكل ما تحمله كلمة صبّ من معنى، نزول الماء يوصف على التمام وبكل مواصفات الصبّ. كميات هائلة من الأمطار تنزل علينا.

أيضاً ستفهم هذا النوع من الآيات لو نظرت إليها من منظوره تعالى، عندما تقوم أنت بتصميم بيئة فيها كائنات، وجعلت الكائنات تجوع وعندها حاسّة ذوق، وصمّمت لبيئتها نظاماً ينتج فيه النبات ليأكلوها، وخلقت موادَّ لها خصائص تتماشى مع تصميمك، يتركّب الماء، وتحتفظ به الأرض، ويتبخّر، ويتجمّع في غيوم في السماء، وتمطر السماء على البيئة التي فيها الكائنات..."وينبت النبات وترعى الحيوانات..."، وهكذا ترى نفسك فعلياً ومن منظورك أنك أنت صببت ماء المطر على تلك البيئة... وبهذا الشكل يعرض علينا القرآن وصفه تعالى لنا ولبيئتنا من منظوره سبحانه وتعالى.

نحن على مقياس قدراتنا نصنع آلة ينتج عنها خبز، نستخدم المواد وخصائصها، ونغذّي الآلة بالطاقة وبالمواد الأولية اللازمة لصناعة الخبز... ونفكّر في إرسال آلات إلى الكواكب لتعمل لوحدها هناك وتصنع آلات... وَيُهَيِّئُوا لنا بيئة صالحة لنعيش فيها... وبالبداهة كلّ ما ينتج عن ذلك هو من تصميم وصنع الإنسان.

أمّا على المستوى الإلهي فالتخطيط أعمق لأن القدرات أعلى بشكل هائل، وتماشياً مع الفرضية الرائجة في عصرنا عن الانفجار الأعظم لبذرة صغيرة تشكّل منها كوننا مروراً بتشكّل المواد.. وصولاً إلى تشكّل الأرض، ونشأة الحياة عليها... تماشياً مع هذه النظرية التي قد تكون صحيحة أو غير صحيحة، هناك نظريات أخرى غيرها وليست رائجة، على أي حال، تماشياً معها نرى نموذجاً عن تصميم إلهي فائق بخلق كون من بذرة تسير باتجاه ما أراد سبحانه حصوله...

بهذه النظرة التقريبية نفهم أن نزول الماء ظاهرة من تصميم إلهي، تقصّد سبحانه وصول نشأة كوننا "في ستة أيام" إلى حيث تصير أرضٌ ويحصل عليها ظاهرة المطر...

الكلام يجرّ الكلام، أنا أخمّن ماذا سيحدث بحسب المعطيات التي بين يدي، متوقّعاً نزول الماء على بقعة ما من الأرض بعد أيام... أمّا سبحانه فلا يخمّن ولا يحتمل، بل من أوّل ما صمّم سبحانه السماوات والأرض الدنيا وبدأ خلقها فقدراته الفائقة تمكّنه من التأكّد من توقيت نزول الماء في أوقاته المختلفة وعلى البقع المختلفة مع العلم الدقيق بكل قطرة ستنزل... وهذا هو العلم من مستوى إلهي، راجع كمثال عن وصفه تعالى بهذا العلم الفائق ما ورد في الآية 59 من سورة الأنعام "{وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا، وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ، وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}".

(ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً{26})
{ثُمَّ} بعد صبّ الماء، {شَقَقْنَا الْأَرْضَ}، تَفَارَقَتْ تربتها عن بعض في بقع منها، {شَقّاً}، بكامل مواصفات حصول الشقوق.

كما تعلم من الآية السابقة والتالية الحديث هنا عن الطعام "النباتي"، الذي تشقّ بذوره وفسلاته التراب لتخرج كنباتات.

(فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً{27})
{فَأَنْبَتْنَا}، جعل سبحانه شيئاً ما ينمو من تلك الشقوق، {فِيهَا}، في الأرض، {حَبّاً}، نما فيها نبات له حبوب، كالقمح والفول... وهذا يصير طعاماً للإنسان "ولغيره من الحيوانات".

نلاحظ أن كلمة "حبّة" نستعملها الآن تقريباً كمرادف لكلمة "واحدة"، نقول "بتساهل": ناوليني حبتين من ذاك. ونشير بها للسجّاد أو الغسّالات... كبضاعة. ولكن معناها الأساسي ليس واسعاً لهذه الدرجة فهي لخصوص ما كان صغيراً منفرداً، كحبّة لؤلؤ وحبّة رمان... ومن سياق الكلام يتخصّص معناها إذا كانت تشير لحبوب النبات، وبالخصوص للكيان النباتي شبه الكروي الذي يتم أكله كما هو بلا غلاف عليه، كالقمح والشعير والفول... في مقابل البقوليات كالخسّ والبقدونس، ومقابل الخضراوات كالبندورة والخيار...

(وَعِنَباً وَقَضْباً{28})
أنبت سبحانه من الأرض، {عِنَباً}، وكلنا يعرف الأنواع والنكهات العديدة للعنب الذي نصنع منه الزبيب، وأنبت سبحانه، {قَضْباً}، وفي أشعار العرب قبل الإسلام وردت للنبات لما يوصف بأنه قضيب كالعصا، ووردت على معنى إمكانية قضبها أي أكلها بالقطع منها فيقضمها الإنسان أو الحيوان مثل الخس والهندباء والبقدونس، وهذا هو المقصود الأنسب للكلام هنا بغض النظر عن تشارك المعنيين "العصا والقضم" اشتقاقاً من أصل وضع الكلمة واستعمالها...

يكون المقصود أنه أخرج سبحانه لنا نباتاً طريّاً جدا كالعنب لا يحتاج للجهد لطحنه بالأسنان، ونباتاً قليل القساوة ويتم قضبه بأخذ قطعة منه بالأسنان كالهندباء والخسّ والبصل...

(وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً{29})
أنبت سبحانه من الأرض، {زَيْتُوناً}، وهو شجر أوراقه تبقى خضراء على مدار السنة، ويعيش طويلاً وثماره حبّات بحجم رأس الأصبع تقريباً، ويكون لونها أخضر ويصير أسود، ولها بذرة خشبية قاسية، يأكل الناس تلك الثمار بعد تخليلها، أو يعصرونها ويستعملون زيتها مع الطعام. وهي شجرة معروفة ولكن حاولت تعريفها لألفت انتباهك لمشكلة قراءة القواميس القديمة التي تأتي على ذكر شيء كان منتشراً ومعروفاً في عصر مؤلّف كتاب اللغة، ولكن في عصرنا لم يعد معروفاً، فيقول لك عن الأترنج أنه معروف، ولا يخبرك أي شيء عنه! وأكثرنا حالياً لا يعرف الأترنج! على أي حال، في عصرنا يمكنك البحث على شبكة الإنترنت لترى صوراً لأسماء الأشياء، وتبقى المشكلة قائمة لأنك لن تجد بسهولة صوراً لأشياء بأسمائها العربية القديمة.

أنبت سبحانه، {نَخْلاً}، وهو الشجر الذي يُنتج البلح والتمر والرطب.

(وَحَدَائِقَ غُلْباً{30})
أنبت سبحانه، {حَدَائِقَ} جمع حديقة، وهي الأماكن التي تنتشر فيها الأشجار ويكون فيها فسحات، وتوصف تلك الحدائق بأنها، {غُلْباً}، في تلك الحدائق أشجار غليظة لها جذع كبير وأغصان كثيرة.

(وَفَاكِهَةً وَأَبّاً{31})
أنبت سبحانه، {فَاكِهَةً}، وهي النباتات التي نأكلها عادة بقصد التحلية ورغبة في طعمها اللذيذ، مثل التفاح والليمون والموز... وأنبت سبحانه، {أَبّاً}، وهي أنواع النباتات التي ترغب بأكلها الحيوانات مثل الحشائش والنباتات الطرية، الآية التالية ذكرتنا وذكرت الأنعام، الفاكهة لنا والأب للأنعام كنباتات يرغبون بها كالفاكهة بالنسبة لنا.

(مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ{32})
هذه النباتات المتنوعة: {مَتَاعاً لَكُمْ}، تستفيدون منها عبر سدّ جوعكم وعبر التلذّذ بطعمها، {وَلِأَنْعَامِكُمْ}، وللحيوانات التي تصفونها بأنها نعمة لكم لأنكم تستخدمونها للنقل مثل الجمال والخيل والحمير... أو للأكل مثل الغنم والبقر والدجاج والحمام...

هذا مختصر عن الطعام الذي تأكلونه وتأكله حيواناتكم الأليفة، فهل هذا حصل من دون إله صمّم وخلق؟ عَمَّنْ تستغنون بكفركم؟ عن الذي خلقكم وخلق طعامكم؟!

(فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ{33})
في الفقرة ما قبل السابقة وصلنا إلى نقطة: {إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ}. وهذا القرار وصلنا الخبر عنه بشكل متكرّر جداً في القرآن، فسيحصل النشر:

{فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ}، إذا صارت عندكم التي لها صوت قوي جداً والمزعج جداً، وأحيانا تسبّب الأزيز في الرأس.

الصاخة تعبير مرادف للزجرة وللصيحة وللنفخ في الصُور، فبسببها يرجع الأموات إلى الحياة، وربط الكلام مع الفقرة السابقة هو الكلام عن الانتقال إلى عالم الآخرة حيث التصميم الإلهي لها لا يتضمّن إتاحة الطعام المرغوب طعمه لكلّ الناس، ولا يتضمّن كل توابع الطعام من جسد سليم وتلذذ بالطعام وهضمه والشعور بالراحة والشبع... فهذا سيكون هناك في الآخرة حصراً للمؤمنين وليس لكل الناس.

نتذكّر دائماً أن النفخ في الصور لطيف على المؤمنين، فيستعيدون حياتهم بلطافة، والكافر يسمعها قوية مزعجة مخيفة.

نلاحظ أن التعذيب يبدأ من أول لحظة رجوع الكفّار إلى الحياة، فالصيحة التي تجعلهم يخرجون من التراب هي أول شيء سيسمعونه، وهي مزعجة مرعبة لهم.

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ{34})
{يَوْمَ}، في الزمن الذي تجيء فيه الصاخّة، في ذلك الزمن، {يَفِرُّ}، يكون بقرب شيء ويبتعد عنه، {الْمَرْءُ}، الشخص، {مِنْ أَخِيهِ}، ممن يشاركه في شيء، وأقرب المشاركين من تتشارك معه بالأم والأب، فيكون الواحد منهم بقرب أخيه فيبتعد عنه لأطول مسافة ممكنة!

سترى سبب الفرار مذكوراً بعد آيتين.

(وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ{35})
يفرّ يبتعد الشخص من قرب، {أُمِّهِ}، التي ولدته أو ربّته، ويفرّ من {أَبِيهِ} الذي ولده أو ربّاه.

كلمتا "أم وأب" عامتان تشملان "الوالد والوالدة" اللذين خرج منهما الولد، وتشملان الذي قام بمهمات العناية بالطفل حتى لو لم يلده.

(وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ{36})
يفرّ يبتعد أيضاً من، {صَاحِبَتِهِ}، وهي عموم أي أنثى كانت مرافقة له بشكل خاص، كزوجته... ويهرب من {بَنِيهِ}، من الذين انولدوا منه أو الذي اعتنى بهم وكان أباً لهم.

(لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ{37})
{لِكُلِّ امْرِئٍ}، لكل شخص، {مِنْهُمْ}، من الابن وأخيه وأمّه وأبيه وصاحبته وبنيه، {يَوْمَئِذٍ}، في زمن يوم القيامة وما بعده، لكل واحد منهم، {شَأْنٌ}، أمر خاص به لوحده، {يُغْنِيهِ}، يكفيه فيشغله ذلك الأمر الخاص عن غيره، فلن يهتمّ بالآخرين حتى لو كانوا من أقرب الناس إليه فهو بالغنى عن أمور غيره وما فيه يكفيه.

كل إنسان "غير المؤمنين" سينشغل بمصيبته عندما يرى الأعمال السيئة التي ارتكبها في حياته ويرى أنواع العقاب الذي ينتظره، فبدل اشتياقه لأحبائه الذين فقدهم في الدنيا، والذين بكى عليهم حين ماتوا... يوم القيامة سوف يراهم ولكنه لن يعانقهم ولن يسلِّم عليهم بل لن يهتم بهم أصلاً، بل إذا كانوا بقربه فسيفرّ منهم ليبتعد عنهم، فأهل النار في جانب لوحدهم يوم القيامة، والمؤمنون في جانب، فإن كان أحباؤه بقربه فهم مثله من أهل النار.

يمكنك تصوّر هذه الحالة عند الخوف الشديد جداً في يوم القيامة والتي لا يمكن مقارنتها بأي نوع من الرعب في الدنيا، فينشغل كل واحد منهم بسيئاته ويبتعد عن بقية الكفّار كريهي المنظر والرائحة... أمّا لو كان المرء مؤمناً وكان أقاربه مؤمنين:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ{38})
في مقابل الناس الذين يفرّون من أقاربهم المحشورين معهم في ناحية الكفّار، هناك المؤمنون المجموعون مع بعض في ناحية ثانية:

{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ}، في ذلك الزمن، في يوم القيامة، {مُسْفِرَةٌ}، معالمها واضحة وظاهرة، مثل إشراقة الصباح بلا غيوم فنقول إنه أسفرت الشمس أو أسفرت السماء... فصارت المعالم واضحة... وجوههم نظيفة ونقيّة وسليمة، وعملياً بشرتهم ناعمة نظيفة وعيونهم مرتاحة ووجناتهم متوردّة...

تعلم أن الكلام هنا عن المؤمنين وهم الذين سيعودون إلى الحياة بجسد رائع المواصفات من الصحّة والقوّة والنشاط والشعور بالراحة... وتبشّرهم الملائكة(ع) بالجنّة... فينعكس كلّ ذلك على تعابير وجوههم.

نتذكّر أن السورة تحدّثت في بدايتها عن المسلم الأعمى المؤمن كنموذج يجب على بقية المسلمين التعامل معه باهتمام، ودخلت في أهمية الإنسان المسلم عنده تعالى، ولكنها لم تردك أن تفهم منها أن ذلك الأعمى دخوله إلى الجنّة مضمون، لذلك انتقلت للكلام بالعموم عن قيمة عموم المؤمنين عنده سبحانه وعن المصير الرائع لعموم المؤمنين في الآخرة، مِنْ غير المعلوم لنا إن كان ذاك الأعمى سيبقى مؤمناً حتى مماته ليكون في الآخرة مع زمرة المؤمنين، ولم ترد السورة مدحه بشخصه بالتحديد، بل ذكرته كنموذج فقط، فهنا تصوير الحالة الرائعة للمؤمنين في الآخرة وتصوير الحالة المزرية للكافرين في الآخرة يهدف فقط للتركيز على أهمية المؤمنين عنده تعالى وقيمتهم العالية، ومهانة الكافرين وقيمتهم المعدومة.

نقول ذلك علما أن الذي ذكروه في الروايات عن الحادثة يشير إلى عبد الله بن أم مكتوم أنه الأعمى الذي حدثت معه هذه الحادثة، وأنه صحابي حسن السيرة، عينه النبي(ع) إماما للصلاة عدة مرات، ومؤذنا... ويقولون استشهد حاملا الراية في معركة القادسية. رغم ذلك الذين نعرفه نحن عنه، ونراه أكثر من رائع، لكن عادة القرآن أن لا يعطي ضمانة لأي شخص بأنه سيدخل الجنة طالما ذاك الشخص حي وقد يتغيّر حاله، وكعادة القرآن إغفال التسميات لجعل الكلام يبدو

عموميا وقابل للانطباق عبر التاريخ وليس مخصوصا بحادثة بعينها، لذلك تماشينا مع عادة القرآن ولم نركّز على الأشخاص والرتاريخ طالما دلالة الآيات واضحة وكافية وتعطي المعنى المطلوب.

(ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ{39})
وجوه المؤمنين، {ضَاحِكَةٌ}، عليها تعابير السرور من الابتسام وصدور صوت الفرح، {مُسْتَبْشِرَةٌ}، تستبشر الخير، فتتوقع حصول أمور جيدة، لأنها آمنت وأسلمت وتتم معاملتها بكرامة... فتتوقع الدخول إلى الجنة.

كما ترى بعكس الكفار، فإن المؤمنين يرجعون إلى الحياة ومن أول لحظة تكون الابتسامة العريضة على وجوههم من بعدما تبشّرهم الملائكة بالجنّة، ويعاملونهم بإجلال وكرامة، وتقرأ ذلك في الآية 30 من سورة فصلت "إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ".

طبعاً الكلام عن المؤمنين من الدرجة العالية، وأما الذين خلطوا عملاً صالحاً بآخر سيئاً فهؤلاء إلى حين انتهاء حسابهم يبقون قلقين من الحكم النهائي عليهم...

(وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ{40})
{وَوُجُوهٌ}، الكفّار، {يَوْمَئِذٍ}، في زمن يوم القيامة، {عَلَيْهَا غَبَرَةٌ}، غُبار، وعادة ينصرف ذهننا من كلمة غبار إلى التراب الناعم الذي يتطاير في الهواء، ولكنه أعمّ من ذلك ويشمل سخام الدخان والذي نسميه بالعامية "شحتار" كما سترى من الآية التالية.

من هذه الآيات نفهم أن المكان الذي يقف فيه المؤمنون مريح وهادئ ونظيف، والمكان الذي يقف فيه الكفّار وسخ بغبار التراب والحرائق كما سنرى من الآية التالية.

(تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ{41})
{تَرْهَقُهَا}، تصيب تلك الوجوه حالة سيئة متعبة، {قَتَرَةٌ}، سخام الدخان الأسود، الأثر الأسود على الوجه من التعرّض لدخان النار.

يشعرون بالانزعاج من أثر الحرائق على وجههم، كما نقول: يرهقه الحمل الثقيل. فالتعرض للدخان الكثيف يجعلهم متعبين من تنفسّهم منه، ويعلق على وجوههم من شدّة كثافته.

(أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ{42})
{أُولَئِكَ} أصحاب الوجوه التي عليها غبرة وترهقها قترة، {هُمُ الْكَفَرَةُ}، هم الذين أنكروا بكثرة، وهنا الكلام عن إنكارهم لكل ما يقوله دينه تعالى، {الْفَجَرَةُ} هم الذين تَصْدُرُ منهم أمور قويّة، فيقومون بأعمال الفجور، فيفعلون السوء من العيار الثقيل ولا يهمّهم أي شيء ليردعهم عن أعمالهم الفظيعة.

فأين قيمتهم؟ أين أهميتهم؟ وكيف يمكن مقارنتهم بمسلم؟ فحتى لو كان المسلم فقيراً أعمى فهو له قيمة أعلى بكثير من قيمة أي كافر مهما كان الكافر غنياً أو وجيهاً ومهما كان مركزه الاجتماعي...

سورة التكوير (81) ص 586
المَوْءُودَةُ من أعلى نماذج الإجرام الذي ارتكبه البشر، فركّزت عليه السورة ومحورت كلامها حوله لنفهم أنه من غير العقلاني ولا المنطقي تمرير الإله سبحانه لهذا العمل الإجرامي الشنيع من دون حساب، وهو نموذج لن يناقش أي أحد عقلاني في إجرامه.

تَبْدَأُ السورة بتصوير المشاهد الضخمة للتغيّرات في السماوات والأرض قبل يوم القيامة، وتقحم خبر المَوْءُودَةِ في تلك المشاهد، وتتبعه بنشر صحف الأعمال على الناس، والنهاية أن كل واحد منّا سيعلم ماذا أحضر معه إلى يوم القيامة من

أعمال حسنة أو سيئة. وبعدها تلفت انتباهنا لمصدر هذا الكلام كلّه، فليس من تأليف محمّد(ع)، وليس من وهمه أو من ضياع في عقله... وعليك ربط هذا الكلام بِالمَوْءُودَةِ، هذه الفعلة الإجرامية، فهل يقبل عقل العاقل بترك هكذا عمل يمرّ من دون حساب! فكيف سيقبل الإله عزّ وجلّ بتمرير هذا النوع من الإجرام من دون حساب! وَهُنَا عَبْرَ طرق موثوقة جدا، عَبْرَ هذا القرآن أَخْبَرَنَا سبحانه عن الحساب في الآخرة على كلّ أنواع الإجرام.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ{1})
التكوّر هو جذب الأطراف ليتّخذ الشيء شكلا مُتَكَوِّراً أي مُلْتَوِياً على بعضه، تقريبا كُرَوِيّاً. فإذا قرّبت أعضاء جسدي من بعضها كحالة الجنين في بطن أمّه، فوصفي يكون أني تكوّرت، وإذا تلاعبت بشكل المعجون ولملمته على بعضه ليصير كُرَوِيّاً كَوَّرْتُهُ، وإذا لففت القماش على بعضه ليصير عمامة كَوَّرْتُهُ... هذا هو معنى كلمة تكوير، وسياق الكلام عن انطفاء الشمس، وَوَصَفَهَا القرآن بالسراج كما ورد في الآية 16 من سورة نوح {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا}، وتكوير شيء موصوف بأنه سراج والمقصود ذهاب ضوئه، سَيُعْطِيكَ مشهد مسح الضوء عن الشمس عبر لفّها على بعضها، أو التفاف شيء عليها...

فَهْمُنَا لتكوّر الشمس الآن على معنى ذهاب ضوئها ونهاية مصيرها، اعْتِمَاداً على معلوماتنا الفلكية الحالية، سَنَقُولُ إنَّ شمسنا ستتحوّل إلى قزم أحمر أو أبيض، مثلها مثل بقية الأجرام التي نراها في السماء والتي نحسب لها أنها كانت شُمُوساً فقدت الحدّ الحرج من وقودها الهيدورجيني فانكمشت على نفسها بفعل الجاذبية... ولكن، ربما لا يكون هذا صحيحا، لأن هذا التبدل للشموس يحصل هنا في ظروفنا الحالية في الدنيا، وما تنقله السورة يحصل أثناء تبدّل لكل السماوات، رُبَّمَا ستكون الظروف الفيزيائية حينها مختلفة عن ظروف فيزيائنا الحالية؟ وهو الأرجح.

إذَنْ، تنقل لنا مقدمة السورة مشاهد تغيّر الدنيا في مرحلة تبدّل السماوات والأرض قبل وأثناء يوم القيامة من الموت. هِيَ حالة انتهاء الدنيا وبداية الآخرة، فإذا تكوّرت الشمس وانكدرت النجوم... وحصلت بقية الظواهر والأمور الضخمة العظيمة التي تذكرها الآيات من هنا إلى الآية 13 ، وتمرّر السورة مع تلك المشاهد العظيمة عملا عظيما بسوئه قام به الناس وهو المَوْءُودَةُ... وبعد كل تلك الأمور الضخمة نصل إلى ما يشبه النتيجة في الآية التي تقول: {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ}.

(وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ{2})
النجوم وبحسب استعمال القرآن واستعمال العرب لهذه الكلمة في أشعارهم قبل الإِسْلَامِ، هِيَ أي جرم، أَيْ أي شيء له مكان في السماء، سواء أكان منيرا بذاته مشتعلا كالشمس أو غَازِيّاً سَاخِناً... أو كان صُلْباً يعكس ضوء غيره كالأرض أو غَازِيّاً كالمشتري... وراجع دراسة سورة النجم حَيْثُ وُصِفَ الملاك جبريل(ع) بأنه نجم... وَعَادَةً أي جرم "أي شيء" له مكان في السماء ويمكننا رؤيته سَيَكُونُ له ضوء أو ينعكس عنه الضوء.

إذَنْ {النُّجُومُ انْكَدَرَتْ}، تَعَكَّرَ صفاؤها، مثلما نقول للماء الذي كان صَافِياً فَتَكَدَّرَ نَقْصِدُ أنه لم يعد صَافِياً شَفَّافاً، ونفهم تكدّر النجوم أنه تغيّر سيحصل في لونها الأبيض، هِيَ نقاط بيضاء الآن ولكن سيبهت لونها في الزمن الذي تتحدّث عنه السورة، وبربطها مع ما في الآية 8 من سورة المرسلات {فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ}، نَفْهَمُ أن الانكدار سيصل إلى درجة ذهاب النقاط البيضاء من السماء، فتصير النجوم بلا ضوء.

حَالِيّاً، وبالاستناد لمعلوماتنا عن فيزياء الفلك، سنفهم تكوّر الشمس وانكدار النجوم كأحداث مترابطة، فتكوّر الشمس سيعني تَغَيُّراً في ضوئها، مِنْ حَيْثُ المبدأ سَيَحْصُلُ نفس الشيء لبقية النجوم، فسيحصل فيها تبدّل وتغيّر سيظهر على لونها الذي نراه، لَنْ يبقى لونها كنقاط بيضاء، وسيصير بَاهِتاً خَافِتاً وضوؤها لن يصل إلى الأرض بوضوح كما هو الآن، هذا إن كانت النجوم من نوع الشمس، أمّا إن كانت من النوع الذي يعكس الضوء فأيضا وبسبب التغيّر في مصدر الضوء الذي تعكسه فسيتكدّر لونها.

أمّا سبب ذلك وآلية حصوله فلم تذكره الآيات، وبمعطياتنا الحالية هُنَاكَ عدة احتمالات منها أن مرور ملايين أو مليارات السنين كفيل بإطفاء كل النجوم إن لسبب ما توقّفت ولادة نجوم جديدة...

نلاحظ في كتب التفاسير قولهم عن الانكدار أنه وصف للسقوط وَالتَّبَعْثُرِ، وَاسْتَنْسَبَ أحد الأقدمين هذا التفسير بِنَاءً على مناسبته للآية 2 من الانفطار التي تقول {وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ}، وبالنظر لما في الآية 8 من المرسلات {فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ}. ولما في عموم القواميس وبالخصوص ما ورد في تاج العروس وبمراجعة أشعار العرب قبل الإِسْلَامِ، ستجد أن الكدورة يقابلها الصفاء، هِيَ كلمة مخصصة لوصف اللون والشفافية، فَانْكِدَارُ النجوم هو تعبير وصفي للونها المتغيّر عن صفائه السابق وليس عن انتثارها الذي يوصّف تفرّقها والذي يعني رؤية فراغات أكبر بينها، وبمعطياتنا الحالية سَنَقُولُ إنَّ انطماس النجوم بالتدريج سيسبب رؤية فراغات أكبر في السماء إلى حين انطماس كل النجوم.

(وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ{3})
{وَإِذَا الْجِبَالُ}، وهي الكيانات الضخمة التي على سطح الأرض ولها ارتفاع من الرمال والتراب والصخور، {سُيِّرَتْ}، حُرِّكَتْ من مكانها باتجاه محدّد لها، حَرَّكَهَا أحد ما.

مِنْ عموم القرآن نَعْلَمُ أَنَّ كيان الجبال سينهار وَلَنْ تَعُودَ متماسكة أثناء تبدّل الأرض، فستتحرك من مكانها، وبمحاولة تصوّرنا لهذا المشهد الآن نستنسب له أن تتحرّك الأرض محركة معها الجبل، وعلى كل حال هَذَا التصوّر مبني على تخيّلنا لما تصفه الآية بِنَاءً على معلومات الْجِيُولُوجِيَّةِ الحالية وَرَبْطاً بما نجده في آيات أخرى عن زلزلة الأرض وانهيار الجبال، وأمّا في وقت حصول هذه الحادثة فلا ندري إن كَانَ شَيْءٌ آخَرُ سيسبّب تحرّك الجبال.

(وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ{4})
{الْعِشَارُ}، وهذا لقب مشهور جِدّاً لأنثى الجمل التي مرّ عَشَرَةُ أَشْهُرٍ على مدّة حملها لجنين في بطنها، حَيْثُ إِنَّهَا على وشك الولادة، ولمربّي الماشية ألقاب كثيرة يطلقونها على حيواناتهم في مختلف مراحل حياتها، يَقُولُونَ: فطّيمة. للحيوان الذي للتو ترك الرضاعة. ويقولون عوس ومكنز ومشحم وعلّيفة...

{وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ}، لَمْ تُفَعَّلْ، وَلَمْ يَهْتَمَّ بها أحد، هِيَ على وشك الولادة ولكنها مهملة لا يهتم بها أحد، لِأَنَّ النَّاقَةَ التي ستلد لن يعطّلها مالكها بل سيعتني بها لأهمية إنتاجها لحيوان آخر سيكون مُفِيداً له... أمّا في يوم القيامة فلن يهتمّ بها.

هَذِهِ إِشَارَةٌ إلى انْتِهَاءِ أهمية أي شيء بالنسبة لنا في يوم القيامة وما بعده أثناء الحساب، لَا الْأَمْوَالُ ولا الذهب ولا السيارات ولا البيوت... لَنْ نَهْتَمَّ بأي شيء، والعشار هنا تطرحها الآية كنموذج لشيء مُهِمٍّ جِدّاً لم نكن لنتركه في الظروف العادية.

تُلَاحِظُ أَنَّ غَالِبِيَّةَ الناس حَالِيّاً لا يتعاطون تربية الماشية، مع أنهم يأكلون لحمها ويستفيدون من ألبانها وجلودها وسمنها... وقد لا ينتبهون لأهمية الماشية في حياتهم لأنهم يجدونها متوافرة عند القصّابين "اللحامين الجزارين..."، وأمّا الذي يتعاطى تربية المواشي فسيفهم بعمق ما تقوله الآية هنا، فالناقة حيوان مُهِمٌّ جِدّاً كمصدر للّحم واللّبن والجلد والصوف... وتتحدّث عنه الآية كنموذج ويمكنك تصوّر بقية النماذج الأخرى، كالبقر والدجاج في عصرنا...

آيَتُنَا هُنَا والآية التي تليها تتحدثان عن رجوع الحيوانات إلى الحياة مرة ثانية مثلنا، كَمَا يَبْدُو، إنَّ النفخ في الصور في الآخرة سيسبب رجوع كل الذين كانوا أحياء في الدنيا هنا، حتى الحيوانات، ولم يقل القرآن شَيْئاً عمّا سيحل بهم في يوم القيامة وما بعده، وَوَرَدَ صَرِيحاً رجعة الحيوانات في الآية 38 من سورة الأنعام {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}.

(وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ{5})
{وَإِذَا الْوُحُوشُ}، وهي الحيوانات التي تعيش في البراري والغابات سواء أكانت مفترسة أو آكلة أعشاب، وهي بعكس الحيوانات الأليفة، إذًا في يوم القيامة تلك الوحوش، {حُشِرَتْ}، جَرَى إحضارها لجمعها بقرار منه تعالى.

الْآيَةُ السابقة تحدثت عن عودة الحيوانات الأليفة، بكلامها عن نموذج العشار "أنثى الجمل"، وهنا أيضا نعلم أَنَّ الحيوانات الوحشية ستعود إلى الحياة، ولكن من دون إعطائنا أي تفصيل عمّا سيحصل معها.

سَتَرَى من تكملة السورة أن اختيار كلمة الوحوش للكلام عن حشر الحيوانات مُرْتَبِطٌ بوحشية ما فعله بعض الناس بقتلهم للبنات لمجرد أنهن إناث.

ضع في بالك أن عودة الحيوانات إلى الحياة هِيَ من حوادث يوم القيامة، وَوَرَدَ في الآية 38 من سورة الأنعام أن كل الدواب والطيور سترجع إلى الحياة في الآخرة {وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}.

(وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ{6})
{وَإِذَا الْبِحَارُ}، وهي التجمعات الضخمة لكميات كبيرة من السائل أو المائع، {سُجِّرَتْ}، اضْطَرَبَتْ وتحركت بشدة في مكانها، والعديد من المفسرين افترضوا أن هذا سيصيبها بسبب شدّة الحرارة، ولكن أيضا من الزلزلة يحصل التسجير للماء الكثير.

لَا يزال المشهد عن تبدّل الأرض، فالبحار التي عليها ستتعرّض لحرارة عالية جدا وتتسجّر فتضطرب بشدة من ذلك، ولا يبدو أن الكلام مباشر عن بحار في جهنّم، بل مثلما الجبال سَتُسَيَّرُ وتنهار، فالبحار ستصير مضطربة بقوّة.

(وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ{7})
{وَإِذَا النُّفُوسُ}، هذه النفس وتلك النفس والنفس الأخرى... إذا أفراد الناس، {زُوِّجَتْ}، صَارُوا أَزْوَاجاً، وَكُلُّ صنف منهم صار مع بعضه، وهذا المعنى واضح من استعماله في الآية 7 وما بعدها من سورة الواقعة {وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً، فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ...}، ومعلوم أن الملائكة(ع) تسوق الناس لحشرهم زمرا في مجموعات...

تَزْوِيجُ النفوس يعني جمعها بحسب صنفها، وتقرأ هذا المعنى في الآية 7 من سورة الواقعة {وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً}، حَيْثُ قَسَّمَتِ الناس في يوم القيامة إلى فئتين مؤمنتين، واحدة من الدرجة العالية جدا والأخرى أقل منها، والقسم الثالث عموم الكفّار، هَذِهِ أزواج ثلاثة أساسية، وعموم القرآن تحدّث عن قسمين أَسَاسِيَّيْنِ، عن الكفار من الدرجة العالية وعن المؤمنين من الدرجة العالية، وفي بعض السور فصّل القرآن كلامه عن مجموعات المؤمنين، وعن مجموعات من الكافرين، فلدينا الْكَافِرُونَ من أصحاب الثروة والسلطة ولدينا الْكَافِرُونَ من عامّة الناس... والآية هنا تتحدّث عن عموم تزويج النفوس، لَدَيْنَا أولا تزويج نفوس المؤمنين وَحْدَهَا، ويقابل ذلك تزويج نفوس الكافرين وَحْدَهَا، وبعدها تزويج المؤمنين من الدرجة العالية جدا مع بعضهم وَحْدَهُمْ، ويليهم الأقل منهم فالأقل...

كلمة زوج نقولها لعموم أي شيء مادي أو معنوي له خاصية الاقتران بشيء أو الانتماء لصنف أو نوع، فهم أو هما أو هو مقترن مع آخر بالشبه أو بالنوع أو بالتلازم مع بعض... فهو زوج. وتقال للأنثى البشرية كزوجة بخاصية الاقتران بالذكر، كالاستعمال في الآية 39 من سورة القيامة {فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ} فليس القصد أنهما متزوجان من بعض بعقد نكاح، بل القصد أنهما من نفس النوع وبينهما تشابه وَإِمْكَانِيَّةُ اقتران... ومثله ما ورد في الآية 21 من سورة الروم {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا...}.

نَقُولُ زوج للنبات بخاصية تَشَارُكِهَا وَحْدَهَا في شيء ما والاختلاف عن الأزواج الأخرى في الشكل أو الثمر كما ورد في الآية 53 من سورة طه {...وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ}، وللإنسان بخاصية الانتماء لجماعة والاختلاف عن الآخرين في المال أو السلطة كما ورد في الآية 88 من سورة الحجر {لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ...} فالكلام ليس عن زوجات الكفّار بل عن أصناف من الكفّار.

تُشِيرُ لعموم التنوّع في نفس الصنف كاختلاف أصناف التفّاح، وتشير للاختلاف بين الأنواع كاختلاف التفّاح عن الموز، وحتى أنها مستعملة في التشابه في شيء والاختلاف في شيء آخر معنويا كما ورد في الآية 57 و 58 من سورة ص حيث وصفت أصناف العذاب بالأزواج {هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ، وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ}، ومعنويا في

الآية 7 من سورة الواقعة {وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً}، جَمَاعَةُ مؤمنين من الدرجة العالية وأخرى للمؤمنين من الدرجة الأقل وأخرى لبقية عموم من سيدخل النار.

(وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ{8})
{وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ}، وهذه الكلمة تعني التأدية الأداء، وهو ذهاب الشيء إلى وجهة محدّدة، كأودى به إلى الموت، أدّى الأمانة... وهذه الكلمة القرآنية بنيت على ما قاله العرب عن البنت التي يَقْتُلُونَهَا وهي صغيرة وَيَدْفِنُونَهَا، وأدها، ويقصدون أنه ذهب بها إلى موتها، وهكذا صارت الْمَوْءُودَةُ مصطلحا للبنت التي قتلوها ودفنوها.

إذا {سُئِلَتْ} الطفلة التي قتلوها، أَحَدٌ ما عبّر للطفلة في يوم القيامة عن إرادته للحصول على جواب منها، فسألها تعالى أو الملائكة(ع) أو المؤمنون:

(بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ{9})
هَذِهِ الجملة خبر عن السؤال، وصياغة السؤال: بأي ذنب قتلوك؟ فما هو العمل الذي قمت به واعتبروه سيئا يستحقّ العقاب بإنهاء حياتك؟

كَمَا ترى مِنْ بين الأمور الكثيرة التي ستحصل في يوم القيامة اخْتَارَ تعالى في هذه السورة القصيرة التركيز على الطفلة البريئة التي قتلها أهلها بدم بارد لمجرد أنها أنثى، وهذه جريمة شنيعة فظيعة عظيمة ضخمة كبيرة حَصَلَتْ، فهل من المعقول أن تمرّ من دون عقاب؟ قِيمَةُ الحياة العالية التي حصلنا عليها كلنا، فكيف يقومون بإنهائها لطفلة ليس لها ذنب إلّا أنها أنثى؟ وكيف يمكن لمن وهبنا الحياة أن يمرّر هكذا عمل من دون عقاب؟ غَيْرُ منطقي ولا عقلاني هذا الكلام، فلا بدّ من عقاب على هذا العمل وعلى أمثاله من الأعمال السيئة من العيار الثقيل، وهذا هو لبّ السورة.

نَتَذَكَّرُ الآية 58 و 59 من سورة النحل التي نقلت لنا حالة الذي تلد زوجته بنتا وهو يكره أن يكون له بنت {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}، ومن المشهور في تاريخ العرب قبل الْإِسْلَامِ "وفي بداية الْإِسْلَامِ" أنهم كانوا "بشكل عام" لا يحبون خلفة البنات، فلم يكن لديهم رغبة أن تلد نساؤهم إِنَاثاً، وهذا شيء وللأسف لا تزال تسمعه وتراه في الكثير من المجتمعات، حيث يدعونه تعالى للحامل بأن تنجب صبيا! وتسمع بالعديد من المشاكل الزوجية وتحميل الزوجة مسؤولية إنجابها لبنت، وتقع حالات طلاق لهذا السبب... وتحصل حالات إهمال للبنات واهتمام بالصبيان... وحالات تزويج البنات من أي شخص كان للخلاص منهن... وحالات حرمانهن من الميراث... وإذا تحدّثت البنت مع شابّ ولم يلمسها... قتلوها، وإذا زنى الصبي ستروا عليه، بل وافتخروا به!...

في التاريخ كلام عن حالات قتل الأجِنَّة الإناث من أول لحظة ولادتهن، وحالات قتلهن بعمر الطفولة بدفنهن وهنّ أحياء! ومن البديهي أن قتل الإناث لم يكن حالة عامّة، فلم يقتلوا كلّ الإناث، ولكن حصول هذا العمل الإجرامي من دون اعتراض البقية عليه إلا ما ندر كما يقولون عن جدّ الشاعر الفرزدق الذي كان يفتدي البنت التي يريد أهلها وأدها، فيدفع لهم المال ليتركوها حيّة... فهذا العمل الإجرامي كان يمرّ في المجتمع من دون معاقبة الفاعل، بل تأييده "بشكل عام" أو السكوت عنه فهو ما جعل من هذه الجريمة محور هذه السورة، فإن كنتم أيها الكافرون بهذا الدين، وَكَافِرِينَ بيوم الحساب، فإن كنتم لا ترون أي مشكلة في وأد الإناث، فاعلموا أن من منحكم الحياة لن يمرّر هذه الجريمة، ومن غير المعقول أن يمرّرها، وها جاءكم كلام من خالقكم يخبركم عن الحساب في الآخرة، وَكَفَرْتُمْ بالآخرة لأنكم لا يناسبكم حصولها، فأنتم مجرمون، ونموذج الموؤدة وصمة عار على جبينكم، وغيرها من الأمور الإجرامية الأخرى التي تقومون بها ولا يناسبكم أن تتحاسبوا عليها، ولكنكم ستتحاسبون.

بقي شيء من فحوى الآيات السابقة والآية التالية، تَفْهَمُ أن الموؤدة "الطفلة البريئة التي ليس عليها ذنوب"، عِنْدَمَا ترجع إلى الحياة فلا صحيفة أعمال لها لأنهم قتلوها قبل تأهلها للتكليف بالأوامر الإلهية، الْمَلَاكُ الذي سيقف عندها عندما ترجع إليها الحياة، لَنْ يجد لها صحيفة أعمال ليعطيها لها، وَسَيَجِدُهَا ماتت مقتولة؟ فإن كانت بلا ذنب فلماذا قتلوها؟!

هل كلام السورة عن الموؤدة صار من الماضي لأن الناس ما عادوا يقتلون البنات؟ لا، فهي نموذج، ومثله الرمي بالرشاشات والقصف من بعيد بالصواريخ والقذائف والطائرات... على الأحياء لقتل الأبرياء من أطفال ونساء وشيوخ ومدنيين مسالمين لا دخل لهم بالصراع المسلّح.

مِنْ كثرة ما انتشرت مشاهد قتل الأطفال صرنا نراها ولا نتأثر! يَعْرِضُونَ مشاهد أطفال ضحايا حروب، ونمرّ على المشهد وكأنه عادي ولا نتأثّر! فَرْضاً لم تره، وسمعت عنه، فكيف نتحمّله؟ أم فقدنا إنسانيتنا لدرجة تأثرنا فقط على الذين نعرفهم، أو من محيطنا ونعتبر لهم علاقة معنا، فصرنا مجرمين باستهتار الأبيض بحياة الأسود، والأسود بحياة الأبيض، والعربي يستهتر بحياة الأوروبي والأفريقي والآسيوي.. وبالعكس... فلا يتأثر الأوروبي إلا لأبناء منطقته، ولا مشكلة عنده ببيع الأسلحة للمسلمين وللأفارقة ليقتلوا بعضهم... وهؤلاء الأغبياء لا مشكلة عندهم ليشتروا السلاح ليقتلوا بعضهم!

هل ستمر كل هذه الجرائم ولن يحاسبنا عليها الذي خلقنا؟!

(وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ{10})
{وَإِذَا الصُّحُفُ}، وهي عموم الأشياء التي لها وجه مبسوط للكتابة عليه، وثائق مكتوبة، إذَا، {نُشِرَتْ}، كَانَتْ محفوظة وجرى توزيعها.

مِنْ عموم القرآن تَفْهَمُ أن الصحف هي الأشياء التي كتبت عليها الملائكة(ع) ما كنّا نفعله في الدنيا من سيئات وحسنات، ويدعم ذلك ما في الآية 18 من سورة ق {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}، وسيتم نشر تلك الصحف علينا في الآخرة، كما نقول: دار النشر. ونقصد أنه مكان تنتشر منه الكتب وَتَتَوَزَّعُ منه، فنشر الصحف في يوم القيامة هو توزيعها على أصحابها ليتحاسبوا على أساسها.

نَتَذَكَّرُ دَائِماً أن الأمور التي في الآخرة تشترك مع الأمور التي في الدنيا بالوصف فقط، فالصحف هنا في الدنيا تَكُونُ من ورق مكتوب عليه، أو من الجلد أو من البردي أو الحرير... أمّا صحف الآخرة فهي مختلفة، حَيْثُ فِيهَا الصوت والصورة والشعور والأثر الناتج عن العمل... فلا تتصورها أَوْرَاقاً مَكْتُوباً عليها ما فعلناه، لا، تِلْكَ الصحف تنطق أيضا وتشهد على صاحبها...

كَمَا تُلَاحِظُ، أَوْصَلَتْنَا الآيات لضرورة يوم للمحاسبة، ليوم ضروري جِدّاً لأخذ الحق ومعاقبة مرتكبي الجرائم، وبالخصوص لمرتكبي الجرائم من نموذج وأد البنت، وغيرها من الأمور الإجرامية.

(وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ{11})
{وَإِذَا السَّمَاءُ}، التي فوق الناس في زمن الحساب، وبعد توزيع الصحف، {كُشِطَتْ}، نُزِعَت بشيء يمر تحت طبقة منها، حَيْثُ إِنَّ السلخ يكون بتمرير سكين، والكشط يكون بِتَمْرِيرِ مقشط "مشحاف..."، لِلسَّمَاءِ طبقة سيتم إِزَالَتُهَا ويظهر ما وراءها.

مِنْ عموم القرآن تَعْلَمُ أن سماء يوم القيامة ستكون غير السماء التي نعرفها الآن، فسماء يوم القيامة ستتشقّق وتصير أَبْوَاباً وَتَنْزِلُ منها الملائكة(ع)... فَالسَّمَاوَاتُ الآن طِبَاقٌ ليس فيها تفاوت، كما ورد في الآية 3 من سورة الملك {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ}، وهنا المشهد عن تبدّل يحصل في السماء في الآخرة، فتصير السماء متداخلة وَأَبْوَاباً كما نفهم من الآية 19 من سورة النبأ {وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا}.

بقي شيء، لِأَنَّ القرآن مشحون بلفت انتباهنا لنماذج مما فعله تعالى بخلق ما في السماوات والأرض، والتي يصير وصفها "آيات" لأنها أفعال مُمَيَّزَةٌ، لأنها تحتاج لقدرة إلهية لفعلها، وتلك النماذج كانت سهلة جِدّاً على الفهم من خلقنا من طين وخلق النبات بعد المطر وحركة الشمس والقمر وظاهرتي الليل والنهار... والطعام والشراب...

هذه الأمور السهلة على الفهم هِيَ نماذج أكثر من كافية لنتعرّف منها عليه تعالى، ونؤمن به وبصفاته وقدراته... ورغم تقصّده تعالى أن تكون سهلة جِدّاً على الفهم، ترى رَفْضاً لذلك وَتَعْقِيداً للكلام بحيث يقترحون عليك المعاني العديدة للكلمة وللجملة فتتوه أمام كلام بسيط سهل!

وترى رَفْضاً وَبَحْثاً عن مَعَانٍ عميقة غير السهلة! وترى رَفْضاً وَبَحْثاً عن معلومات لا نعرفها كاكتشافات جديدة! وترى وترى... وكل هذا الطريق غير صحيح لأن القرآن كتاب هداية، ولفت انتباهنا لأمور نفهمها بسهولة لنتعرّف عليه تعالى هو المطلوب.

هذا من جانب، ومن جانب آخر هُنَاكَ أمور تحدّث عنها القرآن ولم نختبرها، ككلامه عن الآخرة وما سيجري فيها، فاستعمل تعالى أبسط كلمات وتعابير ممكنة، وفي نفس الوقت مُحَافِظاً على الدقة في التعبير وفي استعمال اللغة، لنفهم قدر الإمكان أُموراً لم نرها بعد، ومختلفة عن عالمنا الحالي.

هنا نفهم وقوع المفسرين في استصعاب فهم الصورة، ولكن لو التزمنا بالمعنى الحرفي للكلمات، وانتبهنا أن الأوصاف للآخرة هي مجرد تقريبات، وانتبهنا أن لا نفسّر الكلام القرآني بِنَاءً على معطيات متغيّرة، فلا نفسره بِنَاءً على نظريات علمية لأن القرآن لم يقصد ذلك، عِنْدَهَا سنضع فكرنا على الطريق الصحيح لفهم المشاهد التقريبية عن الآخرة، ونكتفي بمقدار ما تعطيه الكلمات من معنى على البساطة، فليس مَطْلُوباً منّا أكثر من ذلك، بل الأكثر من ذلك فما هو إلا مجرد تخمينات وافتراضات، وإذا التصقت بتفسير كلامه تعالى، صرنا نعرض افتراضاتنا وتخميناتنا على الآخرين على أنها ما يقصده تعالى في كلامه، وهنا الخطورة.

أَيُّ تفسير في هذه الدراسة أو في غيرها، وأي رواية ومهما كان سندها وقائلها، فارفضه إن وجدته تَفْسِيراً مَبْنِيّاً على معطيات غير مفهومة لمن كان قبلنا، وإن كان تطوّر المعطيات في المستقبل سيغيّر المعنى، فهذا يعني أن الكلام ليس تَفْسِيراً صَحِيحاً أو دَقِيقاً لكلامه تعالى، ويعني إسقاط معلوماتنا على كلامه تعالى لتغيير معناه.

(وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ{12})
{وَإِذَا الْجَحِيمُ}، المكان الموصوف بضخامة سوء ما فيه، من نار وتعذيب... {وَإِذَا الْجَحِيمُ}، {سُعِّرَتْ}، تأججت لتصل إلى أقصى الهيجان، كما نقول: حيوان مسعور. جَرَى تفعيل اشتعالها لدرجة ارتفاع ألسنة النار منها وبالتالي ارتفاع سخونتها وصوتها.

عَادَةً، نَفْهَمُ من إشعال النار وجود استعمال لها، كتحضير الموقد للطهي، وهنا الآيات تتحدّث عن تحضيرات الحساب والعقاب، وَتُشِيرُ الْآيَةُ هنا لتحضير وتجهيز مكان التعذيب للمجرمين.

(وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ{13})
{وَإِذَا الْجَنَّةُ}، وإذا المكان الذي يوصف بروعة ما فيه من المناظر الطَّبِيعِيَّةِ الخضراء وما يسبب السعادة، {أُزْلِفَتْ}، جَرَى تقريبها على مراحل، لِأَنَّهَا أَصْلاً ليست بعيدة كثيرا عمّن سيدخلها من المؤمنين الواقفين في يوم القيامة في جهة لوحدهم بَعِيداً عن الآخرين، ولذلك استعملت الآية توصيف الإزلاف لها لتشير إلى كونها قريبة ويجري تقريبها على مهل.

أَيْضاً، نَفْهَمُ من القرآن بأن الجنة تقترب من المؤمن أثناء محاسبته، فيراها بوضوح ويشمّ رائحتها... وتقترب أكثر فأكثر مع انتهاء حساب كل مؤمن وهكذا حتى تصير أبوابها بالقرب منهم.

(عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ{14})
بعد كل الآيات من أول السورة وَصْفاً لتبدّل الدنيا وحصول الآخرة... وُصُولاً إلى هنا:

{عَلِمَتْ نَفْسٌ}، عموم أي شخص، كُلُّ وَاحِدٍ، وَكُلُّ نَفْسٍ ستتحاسب مِنْ صحيفتها صار في ذاكرتها، {مَّا أَحْضَرَتْ}، ما جلبته معها للآخرة.

مَا قُمْنَا به في حياتنا من أعمال حسنة أو سَيِّئَةٍ سنراها في صحيفتنا، فأعمالنا التي قمنا بها في الدنيا هي ما أحضرناه معنا إلى وقت محاسبتنا في الآخرة. وهذا الكلام يختصر حالتنا، فلم نحضر أموالنا ولا جيشنا ولا شركاتنا ولا مناصبنا... فقط أعمالنا معنا.

في كلّ ما سبق من كلام في السورة لا نجد إلا إشارة واحدة عن نموذج واحد لعمل سَيِّئٍ، الموؤدة، ولا نجد ولا أي ذكر لعمل آخر سواء سَيِّئٍ أو جَيِّدٍ، فتريدنا السورة الالتفات للموؤدة كنموذج لا يمكن للإله سبحانه تمريره بدون عقاب، فاكتفت به ولم تذكر غيره للإضاءة عليه جَيِّداً وبوضوح، وأمّا ما نحضره معنا إلى الآخرة فَقَدِ اعْتَمَدَتِ السورة على تفكيرنا بمقاربته ومقارنته مع نَمُوذَجِ الْمَوْءُودَةِ، فكما يوجد أمور أخرى من نفس مستوى الإجرام ولا يمكن تمريرها من دون عقاب، فهناك أمور حسنة ولن يمررها سبحانه من دون أجر حسن.

(فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ{15})
{فَلَا أُقْسِمُ}، تَأْكِيداً للكلام السابق عن المشاهد المستقبلية التي تنقلها السورة عن الآخرة، وَتَأْكِيداً بكلام سيأتي "إنه لقول رسول كريم"، تَصْدِيقاً لما سبق ولما سيأتي، {لَا أُقْسِمُ}، لا أؤكّد كلامي، {بِالْخُنَّسِ}، بالتي يكون لها ظهور ثم تتوارى. ومن تكملة الكلام عن الليل والصبح سترى أن الكلام هنا عن عموم النجوم التي في السماء حَالِيّاً، حَيْثُ تَبْدَأُ بالظهور من أول الليل ثم تبدأ بالتواري أول الصباح وَتَذْهَبُ وتختفي، وهذا وصفه "خُنَّسٌ".

مُجَرَّدُ النظر إليها كَافٍ لتعلم أن كلام خالقها صحيح، فلا داعي للتأكيد بها للفت انتباهكم لعظمة من يقول هذا الكلام القرآني عبر هذه الآيات هنا عن الحساب في الآخرة.

كَلِمَةُ خنس ليست من الكلمات الكثيرة الاستعمال، وستجدها في أشعار العرب قبل الْإِسْلَامِ كتوصيف لاشتعال النار وظهور ألسنة لهبها ثم خنس النار أي يذهب لهبها، وستجدها وَصْفاً للحيوان البرّي الذي تراه يخنس فَيَغِيبُ عن نظرك بسبب حركته للتواري في مكمن خلف الأشجار... ووصف النجوم بالخنس يناسب تواريها عند ابتداء انتشار ضوء الصباح وَتَدْرِيجِيّاً تختفي ولا نعد نراها، فالكلام هنا عن شيء نراه في الدنيا يدلنا على عظيم قدرة الإله الذي يذكر لنا في هذه السورة عمّا سيفعله في الآخرة.

(الْجَوَارِ الْكُنَّسِ{16})
تكملة الوصف للنجوم التي تخنس، فهي توصف بأنها:

{الْجَوَارِ}، التي تَجْرِي تسير، نَرَاهَا تجري من جهة الشرق باتجاه الغرب، {الْكُنَّسِ}، وهذا اسم مكان ووصف لمن يدخل في "الكنّس" ولا يظهر، مثلما البيت اسم مكان ووصف لمن يبيت فيه، فالنجوم بالنسبة للواقف على الأرض بَعِيداً عن القطبين الجنوبي والشمالي، وَقَرِيباً من خط استواء الأرض، فهذا بوضوح ستبدو له النجوم تَجْرِي إلى خلف الأفق لجهة مكان غروب الشمس، فيكون كنسها خلف الأفق، فتدخل بجريانها إلى ما وراء الجبال والبحار... فَلَا تَعُودُ ظاهرة لك.

كَلِمَةُ كنس أَيْضاً قليلة الاستعمال وستجدها في أشعار العرب قبل الْإِسْلَامِ تشير إلى مكان مبيت الحيوانات الوحشية "البريّة" كالغزال والظبي والأسد...

هُنَاكَ توصيفان للشيء الذي تتحدّث عنه الآيتان، فِي الليل ترى النجوم، وقبيل الصباح تخنس النجوم حَيْثُ تَبْدَأُ بالتواري بسبب ضوء الصباح الذي ينتشر رُوَيْداً في السماء، وفي الليل ترى النجوم تجري من جهة الشرق إلى جهة الغرب وبعضها تكنس حَيْثُ تَنْزِلُ تحت الأفق قبل الصباح، والأخريات تخنس مع الصباح.

{فَلَا أُقْسِمُ}، فلا داعي لتأكيد كلامه تعالى بالقسم بهذه الظاهرة الضخمة، لأنها لوحدها ولمجرد لفت الانتباه لها ستشير إلى إله عظيم صمّمها وخلقها، والذي صمّمها وخلقها يقول لكم بأن يوم القيامة والحساب آت حَتْماً.

حَاوَلَ البعض تطبيق وصف هذه الآيات على "الثقوب السوداء"، وهي كيانات نفترض وجودها في السماء ونحاول رؤيتها بشكل غير مباشر عبر دراسة محيطها... على أساس أنها لا يمكن رؤيتها لأنها تسحب إليها كل شيء يصل إلى

أفقها، فتسحب حتى الضوء... أو حاولوا تفسير الآيات على "الْكَوَازَارَاتِ" التي تنبض بالأشعة أثناء دورانها السريع جِدّاً... أو على الأقزام البيضاء وهي الشموس التي ماتت... أو على ظواهر فلكية أخرى كالحركة الرجعية لبعض كواكب المجموعة الشمسية التي يرى من يراقبها من الأرض أنها ترجع بعض الأحيان إِلَى الخلف لأن مدارها أبعد من مدار الأرض حول الشمس، وفي مرحلة ما من المراقبة من الأرض ستسبق الأرض حركة الكوكب أثناء سَيَرَانِهِ، فيبدو لمن يراقبه يَوْمِيّاً أن الكوكب قام بحركة رجوع إلى الخلف ثم عاد بعد أيام ليسير إلى الأمام...

لَكِنَّ كل هذه التفسيرات غير صحيحة، لأن القرآن يصف مَشَاهِدَ يراها الجميع، ويعرفها الجميع بسهولة، لأنه يريدنا جَمِيعاً أن نلتفت لهذه المشاهد، ومن غير المعقول أن يكون هذا النوع من الآيات مُخَصَّصاً لمن درس علم الفلك! فحتى في عصرنا تجد الكثير من الناس لا يفهمون بالثقوب السوداء ولا بالكوازرات! والأصعب من ذلك شرح الحركة الرجعية لبعض الكواكب السيارة! فالآيات تتحدث مع كل الناس الذين يمكنهم مشاهدة النجوم تظهر لَيْلاً وتختفي نَهَاراً أو تختفي خلف الأفق، لتلفت انتباههم للخالق العظيم لهذه المشاهد، وهذا كَافٍ وأكثر من كاف لرؤية الصانع العظيم.

رُبَّمَا يحصل عند شخص ما قَنَاعَةٌ بانطباق هذه الصفات في هذه الآيات على بعض المكتشفات في علم الفلك الحديث في عصرنا، فلينتبه أن لا ينجرّ في هذه القناعة، فإننا نجد في التفاسير القديمة أشياء علمية كانوا مقتنعين بها في عصرهم، ففسروا الآيات على أساسها، ونحن الآن نجد تلك المعلومات غير صحيحة، وكن على ثقة بأنه بعد عشرات ومئات السنين وربما آلاف السنين، سيأتي أناس غيرنا، وسيجدون أن الكثير من معلوماتنا الحالية غير صحيحة، فلماذا نقع في نفس خطأ المفسرين القدماء للقرآن! فنفسّر الآيات بحسب مكتشفاتنا العلمية التي سيأتي عليها زمان ويظهر أنها غير صحيحة أو غير دقيقة! فَلْنَكْتَفِ بما يقوله القرآن حتى لا نقع في خطأ يكلّفنا حِسَاباً عَسِيراً، فكما هو واضح، فإن هذا النوع من التوصيف للظواهر الطبيعية في القرآن هو لمشهد عادي يراه كل الناس ويفهمونه، وهذا يكفي للهداية بكلام بسيط مفهوم بسهولة يريك نَمُوذَجاً من أفعاله تعالى والتي تحتاج لقدرة إلهية لفعلها، فمستواها مستوى فعل في السماء والنجوم...

(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ{17})
وَلَا أقسم بـ {اللَّيْلِ}، بفترة العتمة من اليوم، {إِذَا عَسْعَسَ}، إذا تداخلت العتمة في الضوء، إذا بدأت العتمة تدخل على مهل في النهار، وهذا تصوير لوقت غروب الشمس حيث يبدأ الليل رُوَيْداً بالانتشار محل الضوء.

الْعَسْعَسَةُ تشبه الحريق البطيء للصوف، فالنار الخفيفة تمشي فيه على مهل، والآية تصور مشهد مغيب الشمس وعسعسة الليل بدخوله البطيء.

هَلْ تحتاجون لأكثر من الالتفات لهذه الظاهرة الضخمة العظيمة لتؤمنوا بإله عظيم صمّم وخلق وأخبركم عن يوم القيامة والحساب؟ وهل يحتاج إلهكم ليقسم لكم بظواهر كهذه لتؤمنوا بكلامه؟ أليس هذا المشهد الهائل كَافِياً لكم لتؤمنوا بإلهكم وما يقوله... تلاحظ أني كررت الكلام لأننا حتى نحن كمؤمنين صار الإيمان والدين روتينا "متكررا" عاديا عندنا، كَالْبَبْغَاءِ نقول كلمات الصلاة ونقوم بحركاتها بشكل آلي فارغ من أي توجّه حقيقي، فكذلك يأتي الليل كل يوم وكأنه شيء عادي... قَارِنْهَا مع خبر عن قدوم نيزك ليمرّ قرب الأرض، فسنهتمّ به لأنه حدث غير عادي "ليس روتينا"، ونتابع الأخبار، ونتذكّر قدرة إلهية فوقنا صمّمت دنيانا بهذا الشكل...

قَارِنْهَا مع أمري لك بالسجود لي، بأن تضع جبهتك على الأرض تَعْبِيراً للخضوع لي أنا، فعندها ستنتبه لمعنى سجودك لإلهك في الصلاة وأنه أقصى درجات التعبير عن خضوعك له عزّ وجلّ... {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ}، ظاهرة هائلة الضخامة، فمن صمّمها؟ ومن نفّذها؟ فلو رأيت سيارة لقلت فَوْراً إِنَّ مهندسين بارعين صمّموها، وهي مجرد سيارة لم يخلق الْمُهَنْدِسُونَ معدنها ولا دخل لهم بخصائصه... وَأَصْلاً لا علاقة لهم بالفكر الذي معهم لتصميم السيارة، فهم لم يمنحوا أنفسهم الفكر والعقل والخيال... فكيف بظاهرة من حجم انتشار العتمة على وجه الأرض، ومع ما يرتبط بها من شمس وفلك وغلاف جوي وخصائص الضوء...

رَبْطاً بِالْآيَتَيْنِ السابقتين، مَعَ عسعسة الليل تبدأ النجوم التي كانت خانسة بالظهور، ومع مرور ساعات الليل تكنس بعض النجوم خلف الأفق.

(وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ{18})
ولا أقسم بـ {الصُّبْحِ}، بفترة بداية انتشار ضوء الشمس أول النهار، {إِذَا تَنَفَّسَ}، وهذا تصوير لحالة خروج الضوء من جهة شروق الشمس وانتشار الضوء إلى قبّة السماء، كمن يتنفّس فيستنشق الهواء ويملأ به رئتيه، فالصباح يملأ بالضوء على مهل الجو بين قبّة السماء وسطح الأرض.

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ{19})
{إِنَّهُ}، هذا القرآن بكلامه عُمُوماً وَخُصُوصاً ما ورد في الآيات السابقة عن مشاهد تغيّر السماوات والأرض ويوم القيامة من الموت والحساب... {لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ}، فهذا الكلام لم يصلكم مباشرة من إلهكم سبحانه ولكنه وصلكم عبر من نقل الكلام الإلهي لكم، والرسول الناقل يوصف بأنه كريم، فله شأن ومنزلة عالية عنده سبحانه.

مِنَ الآية التالية تعلم أن الكلام هنا عن الملاك الرسول(ع) الناقل للكلام الإلهي إلى الرسول محمّد(ع)، وتعلم من الآية 97 من سورة البقرة أنه الملاك جبريل(ع) {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ...}.

لاحظ والتفت أَنَّ الإله عزّ وجلّ يصف هذا الملاك بأنه كريم، فهذا يعني أن الوصف ملتصق بخلقة هذا الملاك، دَائِماً هذا الملاك موصوف بالقيمة العالية والشأن العالي، فلو كان في مرحلة ما سيفقد صفة الكرامة فسبحانه لن يصفه بها إلا مع قيد يخبرنا فيه أَنَّهُ حَالِيّاً كريم، وتعلم من متفرقات سور القرآن أن الملائكة(ع) بينهم أشياء مشتركة فكلّهم مطيعون له تعالى، ولكنهم يختلفون عن بعضهم البعض بالقدرات كما نفهم من الآية الأولى من سورة فاطر {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ...}، وتوصيف الملاك الرسول الذي نقل هذا القرآن بأنه كريم عَمَلِيّاً هذا الوصف يشير إلى المسؤوليات الكبيرة التي ينفذّها هذا الملاك بأمر منه تعالى، وإلى تولّيه لوظائف كبيرة على مستوى السماوات والأرض... فصفة الكريم صفة عملية للملاك، وليست وجاهية أو لقب فَارِغٍ.

أطلت الكلام لأنه في بعض تراث أهل الكتاب وبعض أدبياتهم ستجد كلاما غير صحيح عن الملائكة(ع)، فبينهم وبين المسلمين من يظن أن إِبْلِيسَ كان ملاكا... وهذا غير صحيح، وتراه جَلِيّاً في الآية 50 من سورة الكهف {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ...}، وَبِنَاءً على هذا الظن الفاسد عمّموا إمكانية فسق الملائكة عن أمر ربهم سبحانه، ولديهم قصص عن الملائكة العالية "جبريل(ع) وميكال(ع)..." يصفونهم بالغيرة والحسد للبشر بسبب تفضيله تعالى لهم... وَهَا هُوَ كل القرآن أمامك مَادِحٌ بشكل مطلق لكل الملائكة، ويصفهم بالكرامة والأمانة وأنهم لا يفعلون أي شيء إلا بأمره تعالى، وراجع كمثال الآية 64 من سورة مريم {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ...}.

كَلِمَةُ كريم لها معنى دارج غير معناها اللغوي الأساسي القديم، دَرَجَ أن معناها: العطاء بكثرة. ولكن معناها الأساسي هو القيمة والمكانة العالية، فيقابلها مهين وإهانة، وبهذا المعنى فقط استعملها القرآن، ومن الاشتقاق التطبيقي لذلك أحيانا الوصف بالكرم لما تعطيه بكثرة للآخرين. ولنفهمها ببساطة تصوّر رميك لِأَجْرِ العامل على الأرض ليلتقطه، فهذا أَجْرٌ مهين، بينما تسليمه للأجر باليد مع ابتسامة وكلام لطيف، سيشعر منه بالكرامة، وهذا ما قصده القرآن بوصف الْأَجْرِ بالكريم، وكثرة ما يسبب السعادة ونوعيته العالية في الجنّة هما الترجمة العملية لوصف الْأَجْرِ بالكريم.

(ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ{20})
الرسول الناقل لهذا القرآن: {ذِي قُوَّةٍ}، موصوف بأن القوة منسوبة له، فلديه القدرة على القيام بعمل ما، والكلام هنا عن القوة التي تمكّن الملاك جبرائيل(ع) من تأمين خط تواصل آمن وسليم ودقيق وموثوق لوصول كلامه تعالى إلى نبيه محمد(ع).

تعلم من آيات منتشرة في سور القرآن أن الكلام الإلهي يتم نقله من الكتاب الرئيسي الذي في السماء العالية، مُرُوراً بِسَمَاوَاتٍ وُصُولاً إلى الأرض، وذلك عبر فتح قناة كما نفهم من الآيات التالية من سورة النجم {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ،

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ، وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ، فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ} فهذا لوحده يحتاج لقوّة كبيرة.

نَقْرَأُ في القرآن عن الجنّ المنتشرين في السماوات والذين لديهم قدرة على التداخل في نزول الوحي لولا القوّة الهائلة للملاك جبريل(ع) وللملائكة(ع) المرافقة له، وراجع في ذلك دراسة الآيتين 9 و 10 من سورة الجن {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا، وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا}.

هذا الملاك الرسول(ع)، {عِندَ ذِي الْعَرْشِ}، عند الموصوف بنسبة العرش له، من له السلطة المطلقة والإدارة المركزية، فالعرش هو المكان الذي يجلس عليه الملك ليدير شؤون مملكته، وعادة هو كرسي على منصّة، فهذا هو العرش على المستوى البشري، لَكِنَّ الله تعالى واسع محيط لطيف... عَرْشُهُ من مستواه الإلهي منتشر على كل السماوات والأرض، فمعنى وصفه تعالى بأنه ذو العرش يشير لمركزية الإدارة وللسلطة المطلقة له تعالى على كلّ شيء، وهذا الملاك الرسول(ع) فهو عند الذي له السلطة من مستوى إلهي على كلّ الدنيا، {مَكِينٍ}، فهو في مكان معنوي يوصف بأتم الصفات، مثل تعبير الملك للنبي يوسف(ع) الوارد في الآية 54 حين قال له {...إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ}، فصار لديك مكانة معنوية توصف بأنها على التمام، فصرت حَاكِماً غَيْرَ محكوم إلا للملك، وهنا فهذا الملاك(ع) أَسَاساً قبل توظيفه بتنزيل الوحي جعله تعالى مَكِيناً، فجعل فيه قدرات وإمكانيات تُؤَهِّلُهُ لوظائف وصلاحيات من مستوى عَالٍ جِدّاً، وها تخبرك الآيات عن الذي يصفه الإله عزّ وجلّ بأنه ذو قوّة ومكين، فقد جعله تعالى رَسُولاً نَاقِلاً للكلام الإلهي إلى الرسول محمّد(ع).

من الآية الأولى من سورة فاطر تَعْلَمُ أَنَّ بعض الملائكة لديهم قدرات عالية أكثر من الآخرين، وهؤلاء لديهم مسؤوليات عالية، وملائكة أقل من ذلك بالقدرات والمسؤوليات... ولم يصف القرآن الملائكة العالية بأوصاف تعطي معنى المساعدة له تعالى على فعل شيء ما، ولا كونهم أعوانه تعالى، ولا معنى المستشارين ولا معنى الوزراء، ولا معنى المدافعين عنه تعالى... فهذه الأوصاف عادة نعطيها لأعوان الملوك والرؤساء، ولا تنطبق عليه عزّ وجلّ ولا على الملائكة(ع)، والتفت جيدا لدقة تعابير القرآن عند وصف الملائكة العالية، فهو وصف يحافظ على المعنى الحقيقي للألوهية التي يجب أن تكون عزيزة جبّارة قوية قاهرة عليمة حكيمة... بصفات فائقة، ويحافظ على المكانة العالية للملائكة العالية بوصفهم أقوياء مخلصين أوفياء... ولن تجد للملائكة تَوْصِيفاً قُرْآنِيّاً يتعارض مع حقيقة الألوهية الأحدية الصمدية، فلن تجد وَصْفاً لهم كوزراء مُعَيَّنِينَ مُسَاعِدِينَ... فهذه الأوصاف ستعني أن الإله عزّ وجلّ يحتاج إليهم، وهذا غير صحيح بل ومستحيل، ولو كان صَحِيحاً لما اكتملت مواصفات الألوهية لله عزّ وجل، فصفة الألوهية الموصوف بها "الله" فهي تامّة كاملة ليس فيها أي نقص، وهذا واقع حال، وهو سبحانه وتعالى يقول لنا في هذا القرآن إِنَّهُ لو كان فيه نقص بالصفات الكاملة ولو بمقدار شعرة، لانتفت صفة الألوهية عنه.

أَطْلُبُ عليك لنتذكّر دَائِماً أَنَّهُ مهما علت صفات الملائكة(ع)، فهم مجرد كائنات خلقهم تعالى بِقُدُرَاتٍ عالية ولكن قدراتهم لا تزال بَعِيدَةً جِدّاً جدا جدا... عن قدراته تعالى، فكل قدرات كلّ الملائكة والجنّ والإنس من أولهم لآخرهم مع كل قدرات كل الكائنات الأخرى... فلا يمكن مقارنتها كلّها مع بعض بقدرته عزّ وجل، ومهما كان لملاك ما مكان عَالٍ فهو مجرد كائن يأمره تعالى بتنفيذ بعض المهمّات، لا أكثر ولا أقل.

بِالنِّسْبَةِ لكلمة "عرش"، فالعرش الذي نعرفه نحن هو الكرسي الفخم الضخم الموضوع على منصّة ويجلس عليه الملك أو الحاكم، وَأَصْلاً كلمة عرش وصف لعموم ما علا ويقابلها فرش، وعرشه سبحانه تعبير عن الإدارة المركزية من مستوى ربوبي، فهو تعبير عن مركزية السيطرة والقرار لكل ما في الدنيا "والآخرة"، وبما أن سيطرته تعالى ممتدة على كل الدنيا "والآخرة" فعرشه سبحانه ممتدّ بامتداد الدنيا "والآخرة"، على كل ما في الدنيا والآخرة كما هو واضح من تعبير الآية 255 من سورة البقرة {...وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}.

لَدَيْنَا تراث ديني ثقافي يشير البعض منه إلى وجود شيء محدّد كعرش له سبحانه، كشيء مشابه بشكل ما لمكان تتم فيه إدارة شؤون الدنيا، واستندوا على ذلك قُرْآنِيّاً بالآية 17 من سورة الحاقة {وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، وكلامهم خليط من تصوّرات مختلفة، بعضها سببه استعمال لغتنا لتوصيف أمور لا يمكننا نحن البشر تصوّرها، وبالتالي فالكلمات التي نستعملها لذلك تنقل نفس المعنى ولكن لأمور مختلفة، فهناك ملك صلب لا يهتز

وإدارة إلهية مركزية لما في الدنيا، ولكنه سبحانه واسع محيط، وهناك ملائكة بقدرات عالية خلقها سبحانه ووظّفها لإدارة بعض شؤون ما في الدنيا، وأشهرها وُضُوحاً من القرآن ملك الموت، وهذه موصوفة "بلغتنا" أَنَّهَا حَامِلَةٌ للعرش، فالكلام القرآني الذي يشير لقوّة الملك ولنواة الحكم والسيطرة فهو لا يشير إلى مكان، ولا إلى شيء، بل إلى حالة، وهذا واضح جِدّاً من تعبير الآية 255 من سورة البقرة بوصفها وساعة الكرسي بوساعة السماوات والأرض.

مِنَ السذاجة تصوّره تعالى جَالِساً على كرسي على منصّة وثمانية ملائكة يحملون المنصّة، ضاربين بعرض الحائط كلامه سبحانه عن نفسه بأنه واسع محيط وليس كمثله شيء فلا يمكن لأي مخلوق تصوّره...

اَلْوَصْفُ القرآني لملائكة حَافِّينَ حول العرش أو حاملين له فهو وصف حالة وليس وصف مكان.

بعبارة أخرى، كل السماوات... وهذه الأرض التي نحن عليها، فهي كل ما في دنيا المخلوقات، خَلَقَهَا كلّها ربنا الله سبحانه، ويخبرنا سبحانه أَنَّهُ هو بنفسه ولوحده رَكَّبَهَا وألّفها في ست فترات زمنية، وبعد اكتمالها، لم يتركها سبحانه لغيره ليديرها، بل استوى على العرش فكل شيء صار بالتمام فانبسطت سلطته عليها كلها، ومن دون تهديد من أحد بالقدرة على التدخل.

عَلَى الاسمية لكلمة عرش كاسم لشيء، كُلُّ السماوات والأرض "كرسيه" عرشه تعالى، وعلى الوصفية للملك القوي والسيطرة والإدارة المركزية والتي بلغتنا البشرية نستعمل لها وصف العرش، فسبحانه حالته أن عرش السماوات والأرض منسوب له، ذو العرش، واستوى على العرش، وهناك ملائكة موظفون منه تعالى بتنفيذ مهمات "رئيسية" فيكون وصف حالتهم كحاملين للعرش وحافّين حول العرش.

(مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ{21})
تكملة لمواصفات الملاك جبرائيل(ع) فهو: {مُطَاعٍ}، تُطِيعُهُ(ع) الملائكة(ع) التي يأمرها، حَيْثُ إِنَّ هُنَاكَ ملائكة(ع) تنفّذ أوامره، ومن سياق الكلام عن هذا الملاك بخصوص كونه رَسُولاً نَاقِلاً للوحي الإلهي من الكتاب الرئيسي إلى الرسول محمّد(ع)، ومن عموم القرآن الذي أخبرنا عن نزول العديد من الملائكة بالوحي، ومن ذلك ما ورد في الآية 2 من سورة النحل {يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}، نفهم أن هذا الملاك الرسول يرافقه العديد من الملائكة أثناء قيامه بمهمّة إيصال الوحي، وها تخبرنا الآية أن الملائكة المرافقة له مطيعة لأوامره، والقرآن ذكر لنا أنهم يرجمون الشياطين لإبعادهم لعزلهم عن الوحي النازل، ونفهم ذلك من فحوى الآيات التالية من سورة الشعراء {وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ، وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ، إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ}. ولا ندري إن كان لها مهامّ أخرى تقوم بها أثناء نزول الوحي.

{ثَمَّ}، "فتحة على الثاء" بَعْدَ وصفه بما سبق فهو موصوف أيضا بصفة، {أَمِينٍ}، فلا يخون، فيقوم بما هو مطلوب منه على التمام بدون أي نقص أو تهاون أو تفريط... فيفعل ما يطلبه تعالى منه بالضبط وبالتمام.

(وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ{22})
{وَمَا صَاحِبُكُم}، وليس الشخص الذي معكم في المكان والزمان، {بِمَجْنُونٍ}، فلا عطل في عقله وتفكيره أو سلوكه.

لاحظ كيف اكتفت السورة بالتعبير بكلمة {صَاحِبُكُم}، التي تتحدّث عمّن يصاحبه الناس، فهو واحد منهم، فانتقلت السورة من الملاك الرسول جبرائيل(ع) إلى الذي ينزل بالوحي الإلهي على صاحبكم، على الرسول محمّد(ع) الذي بدوره ينقله لكم، وَنَقَلَ لنا القرآن في العديد من الآيات أنهم اتهموا الرسول محمّد(ع) بالجنون، وأنت تعلم أنهم لم يقصدوا أنه (ع) فاقد لعقله في حياته العادية كالمجانين الَّذِينَ يتيهون في الطرقات ويتصرفون بلا عقلانية... لا، بل بخصوص كلامه(ع) عن الدين يصفون كلامه بأنه غير منطقي ولا عقلاني، مثلما نقول عمّن دخل في مغامرة تجارية أنه مجنون، أو كما نصف الذي يقود بسرعة عالية جدا بأنه مجنون... فهذا ما يقصدونه باتهامهم له(ع) بالجنون.

مَا يقوله لهم(ع) عن الآخرة والحساب يصفونه بأنه كلام غير عقلاني ولا يقوله إلا مجنون.

تذكّر دائما أن السورة اختارت التركيز على جريمة وأد البنات من بين مشاهد يوم القيامة من الموت، وانتقلت للحديث عن مصدر هذا الكلام منه تعالى، عبر مَلَاكٍ رَسُولٍ، ووصلت إلى الشخص الإنسان الذي ينقل هذا الكلام ويصفون كلامه بالجنون، فهل الكلام عن المحاسبة الإلهية على جريمة وأد البنات كلام جنون! وهذا ما تريدك السورة الالتفات له.

اَلْغَالِبِيَّةُ الساحقة من سور القرآن التي ذكرت قوما أو أقواما أهلكهم تعالى في الدنيا، تَكَرَّرَتْ تلك النماذج في مختلف السور لا لمجرد التكرار، بل لأن ما فعلوه لا يناقش عاقل في سوئه، فإن كان مريض القلب يناقش في الغشّ وأنه عمل لا يستحقّ العقاب الشديد الذي نزل بِمَدْيَنَ قوم النبي شعيب(ع)، وربما لأنه هو غشّاش، أو ربما لم يتعرّض للغش ليعرف مدى أذاه، وربما فكره محدود لا يفهم بالفساد الاقتصادي... فماذا عن قوم النبي لوط(ع) الذين كانوا يعتدون جنسيا على الغرباء المارين بالقرب من قراهم، فهل تراه عملا سيئا؟ وهكذا ترى أن مختلف السور اختارت النماذج التي بالتأكيد واحدة منها ستوقظ ضميرك ووجدانك...

هنا كررنا الكلام عن تركيز السورة على الْمَوْءُودَةِ لأن لبّ السورة سَيُفْقَدُ إن لم تبق تلك الجريمة في بالنا، فأي مجنون سيناقش في بشاعة الوأد؟ أم المجنون من ينقل كلام الإله سبحانه عن حتمية الْمُحَاسَبَةِ والمجازاة على هذا العمل الإجرامي؟!

(وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ{23})

{وَلَقَدْ رَآهُ}، اَلَّذِي تتهمونه بالجنون حصلت عنده صورة محدّدة للملاك الرسول، رَأَى النبي محمّد(ع) الملاك جبريل(ع)، {بِالْأُفُقِ} في آخر حدود الرؤية، وطبعا الكلام هنا عن أفق بين سمائنا وبين سماء الملائكة، {الْمُبِينِ}، الواضح، حَيْثُ كَانَتْ رؤية متوافقة مع قابلية النبي محمّد(ع) على الرؤية ولم يكن الأفق مشوّشا، فلم يخترع (ع) من أوهامه صورة للملاك... عَلَى الأكيد رآه وتأكّد أنه يراه، فلم يكن وهما أو تخيّلا أو هلوسة.

نَحْنُ عندما ننظر إلى الأفق فإننا ننظر إلى آخر نقطة يمكننا رؤيتها على الأرض أو في البحر أو في السماء، وإذا كان هناك غيوم أو غبار أو ضباب فإن الأفق لا يكون مبينا، فلا يكون واضحا، أمّا عندما رأى النبي محمد(ع) الملاك جبرائيل(ع) فإن الأفق كان مبينا كان واضحا، مثلما نرى الشمس أو القمر بوضوح في أفق نظرنا رغم بُعْدِهِمَا عنّا.

اَلْأُفُقُ الذي حصلت فيه هذه الرؤية للملاك جبريل(ع) هو ليس السماء الزرقاء، أو حافة الكواكب السيارة للمجموعة الشمسية، أو آخر كوننا المرئي، وبعضهم يسمّيه بحافة الكون المرئي، بل هو أفق بين آخر مجال للرؤية للنبي محمد(ع) في عالمنا وصولا إلى سماء الملائكة(ع)، نَحْنُ البشر في حالتنا العادية وفي هذه الدنيا لا يمكننا رؤية الملائكة(ع) بتكوينها الحقيقي، أمّا هنا فالحالة استثنائية للنبي محمد(ع) حتى يكون شاهدا بنفسه على ما ينقله للناس، وهذه مسألة توسّعت فيها سورة النجم من أولها حيث فحواها مقارنة بين اختراعات وخزعبلات جاعلي الملائكة بنات له تعالى وَأَرْبَاباً أو أشباه آلهة... في مقابل ما رآه الرسول محمّد(ع) بفؤاده من ملائكة وبعض ما في السماوات العالية...

نتذكّر من متفرقات سور القرآن أن حادثة نزول الوحي على الرسول(ع) عبر الملاك جبريل(ع) لا يحصل فيها حركة بالمعنى الذي نفهمه نحن لحركة الأشياء من مكان لآخر، عَلَى ما يبدو من الآيات في سورة النجم تصويرها الملاك جبريل(ع) كوصلة بين السماء العالية ووعي النبي محمّد(ع)، {إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ، عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ، ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ، وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ، ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ، فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ}، على كلّ حال مهما حاولنا تصوّر المشهد فلن نستطيع لأنه مشهد يتضمّن الملائكة(ع) وَسَمَاءَهَا وحركة الملائكة(ع)... وهذه أمور من عالم آخر مختلف بتكوينه عن عالمنا، وَرَآهُ النبي محمّد(ع) بشكل استثنائي بأمر منه تعالى...

مَا يرد هنا وما ورد في سورة النجم، وما نجده في سور أخرى، فيه خبر إلهي لنا أن الرسول محمّد(ع) وبشكل استثنائي عن بقية البشر، وبطريقة ما، مكّنه تعالى من رؤية الملاك جبريل(ع) وسماء الملائكة العالية، وبذلك لم يعد محمّد(ع) ناقلا لكلام يسمعه من وراء الحائط، صَارَ شَاهِدَ عِيَانٍ للملاك وللسماء العالية.

هُنَا تتداخل الأمور، لِأَنَّ هَذَا الخبر منقول عن محمّد(ع)، فماذا لو كان يكذب؟ وَحَاوَلَ بعض المغرضين الدخول من هذه النقطة لتوهين القرآن والرسول الناقل له، على أساس أن محمّدا(ع) ألّف القرآن، ومدح نفسه، واخترع كلاما عن نفسه أنه رأى الملاك جبريل(ع)...

كما قلت لك، هُنَا تتداخل الأمور، لأن القرآن فصلها عن بعضها، وجعلها مترابطة، وبطرق عديدة مختلفة بيّن لنا استحالة كون هذا القرآن إلا من تأليف إله، دِقَّةُ كلامه، وتماشيه بالتمام مع الكتب الإلهية السابقة إلا ما شذّ فيها من تحريف فيها واضح لأي عاقل، وَمُحْتَوَى القرآن الهادي، والحكيم بتشريعاته... هذا من جانب، ومن جانب آخر فهو نفسه القرآن ذكّرنا أن محمّدا(ع) أُمِّيٌّ ولم يفلت منه في كل حياته أي كلام شخصي مشابه لكلام القرآن في طريقة صياغته، ولم يسبق منه أي كلام ديني من المستوى الذي يعرضه القرآن، ولا هو ولا أي إنسان لديه ذاكرة خارقة تمكّنه من الحفاظ على عقائد وتشريعات وقصص ومفاهيم... القرآن دون أي تغيير لمدة تقارب العشرين سنة التي استغرقها نزول القرآن. وغير ذلك من العديد من الأدلة التي تثبت أن هذا القرآن كلام الإله سبحانه.

هَكَذَا فنّد الإله سبحانه عبر قرآنه كل ما يمكن أن يخطر بالبال من شكّ في مصدر هذا القرآن، من بعد هذا لَا تَعُودُ الأمور متداخلة، ويصير خبر القرآن عن الرسول محمّد(ع) كناقل لكلامه تعالى كشاهد عيان للملاك الناقل للكلام الإلهي... يصير هذا خبرا يستند في صحّته إلى اعتمادك على ما سبق وقاله القرآن مثبتا أن مصدره إلهي.

ضع هذا في بالك ولا تنخدع بكلام الكاذبين الذين يصوغون كلامهم وكأنه كلام علمي رصين، متناسين أن إنكار سوء جريمة ما، سَيَكُونُ نوعا من المشاركة في فعلها، وهذا القرآن الإلهي في هذه السورة أفلت العنان لخيالك لتتصوّر مدى غضبه تعالى على المجرمين الوائدين للبنات مكتفيا بذكر الجحيم المسعّرة، وما نراه من إجرام الجيوش بالحروب وإجرام العصابات وإجرام الأفراد بقتل الأبرياء، ما كان ليحصل لولا محاربة الناس لدينه تعالى، ولولا ابتعاد الناس عن قرآنه تعالى، فليخوضوا في كلامه تعالى إنكارا وتسفيها، وليستسخفوا أنفسهم ظانين أنهم لن يتحاسبوا على كل جريمة ارتكبت وكانوا هم من مُشَجِّعِي ارتكابها عبر صدّ الناس عن قرآنه تعالى بتسفيهه والتعليقات السيئة الكاذبة عليه.

(وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ{24})
{وَمَا هُوَ}، لَيْسَ صاحبكم النبي محمد(ع)، {عَلَى الْغَيْبِ}، على ما غاب عنكم وعنه من معلومات، مَا وصله (ع) من الملاك جبريل(ع) هي معلومات كانت غائبة عنه وعنكم، والرسول محمّد(ع) على هذه المعلومات ليس، {بِضَنِينٍ}، لَمْ يحتفظ بها لنفسه، وَصَلَتْهُ وأخبركم بها كلّها.

كُلُّ ما يوحيه سبحانه عبر جبريل(ع) إلى النبي محمد(ع) فهو بدوره لا يضنّ به وَلَا يحتفظ به لنفسه، بل يخبركم به.

ضَنِينٌ ليست مرادفا لبخيل أو شحيح حَيْثُ إِنَّ الْبَخِيلَ هو المحتفظ بشيء حبا بالشيء ليبقى معه، حب الاقتناء. والضنين هو المحبّ لمنع الآخرين مما معه، والشحّ وصف لعموم القلّة.

نتذكّر دائما أن كلمة غيب تعني أي شيء غاب عنّا، سواء حدث في الماضي ولم نعلمه، أو حدث الآن مع غيرنا ولم نعلمه، أو سيحدث فِي الْمُسْتَقْبَلِ، كُلُّ معلومة لم نعلمها فهي غيب بالنسبة لنا، وَاسْتَعْمَلَ القرآن كلمة غيب لعموم ما غاب عن أحد ما، ومن سياق الكلام القرآني تعلم عن أي غيب يتكلّم، عن هذا القرآن أم عن قصص الأنبياء أم عن خلقة ما في الدنيا أم عن الآخرة أم عن كلّ شيء...

هُنَا كما ترى مما سبق وما ستراه من الآية التالية اَلْكَلَامُ عن المعلومات التي يقولها هذا القرآن، وبالخصوص عن الآخرة والحساب، وتفهم الآية أكثر إذا تصوّرت نفسك أنت تنقل هذا القرآن للناس، حَيْثُ بَدَأَ بالنزول عليك، وبدأت بنقله، وبدأ الناس بتكذيبك وقالوا إِنَّهُ من تأليفك... واتهموك بالجنون والتخريف، وبدأوا بالسخرية منك والسباب لك وتهديدك... فهل ستكمل إيصال ما نزل عليك إليهم؟

فِي القرآن نجد الآيات التي أمرت النبي محمّد(ع) بنقل ما ينزل عليه إلى الناس مهما قالوا ومهما فعلوا... وسواء أعجبهم أم لم يعجبهم، وهنا وغيرها من الآيات تخبرنا بأنه (ع) التزم بالأمر الإلهي وقام بنقل كلّ ما نزل عليه بالتمام ومهما كان محتواه، لَمْ يحتفظ بها لنفسه كشيء يتفوّق بعلمه على الآخرين الذين يجهلونه، وبين الحين والآخر يخبرهم

ببعض منه ليتباهى عليهم... ولم يحتفظ به استهتارا بالآخرين حتى يبقوا على ضلالهم ووحده يهتدي... هُنَاكَ العديد من الأسباب التي تَدْفَعُ أَحَداً ما بالاحتفاظ بالمعلومات وكتمها عن الآخرين، أمّا الرسول محمّد(ع) فلم يفعل ذلك، بَلَّغَ الناس كلّ ما وصله منه تعالى بالتمام.

(وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ{25})
{وَمَا هُوَ}، وليس هذا الوحي الذي نزل على صاحبكم، {بِقَوْلِ شَيْطَانٍ}، ليس من كلام الذي يقوم بأعمال الضلال، فيضلّ نفسه والآخرين عن الحقّ، {رَجِيمٍ}، اسم مفعول بمعنى المرجوم، المرمي بالشهب.

مِنْ عموم القرآن تعلم أنه أثناء نزول الوحي على الرسول محمّد(ع) تحاول الشياطين الاقتراب، ولكن الملائكة تَرْجُمُهَا بمقذوفات مشتعلة، وهذه أمور تحصل في سماء غير سمائنا، فَلَمْ يرها أحد من البشر، ولكن أخبرنا القرآن عنها، وراجع في ذلك دراسة الآية 27 من سورة الجنّ {إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا}.

عَادَةً عندما نسمع كلمة شيطان يذهب فكرنا إلى إبليس، وهذا غَالِباً صحيح، ولكن حين نلتفت لمعنى كلمة شيطان وأنها وصف لعموم الذي يفعل الضلال لنفسه وللآخرين لجعلهم يقومون بأمور سَيِّئَةٍ مُنْكَرَةٍ فَاحِشَةٍ... غير جيّدة... سننتبه للفرق بين ما يمكن صدوره عن الموصوف بالشيطان وبين هذا القرآن.

مِنَ الأقوال السخيفة الاتهامية التي وجهها بعض الناس إلى الرسول محمّد(ع) أن هذا القرآن توحيه له الشياطين، هَكَذَا يرمون هذا الاتهام بلا دليل ولا تفكير فيه... ويردّ القرآن بمثل آيتنا هنا أن هذا القرآن ليس من وحي الشيطان، وَلَمْ يَقُلْ أنه ليس من وحي إبليس أو الجنّ، وهنا يظهر لك الفرق بين هذه التعابير، فهل سيوحي الشيطان لنا بتهديدنا بالآخرة وحسابها وعقابها إن وأدنا البنات؟ أم هو الذي يوسوس مُشَجِّعاً على هذا النوع من الجرائم؟

طَبْعاً لَا تَنْسَ أنهم هم يرمون هذا الاتهام هكذا بلا دليل أَصْلاً، فكيف يعلمون أن الشيطان تواصل مع النبي محمّد(ع)؟ وها تخبرهم الآية من الإله سبحانه الذي يعلم بأن الشياطين مرجومة فيتم إبعادها عن الرسول(ع) أثناء نزول الوحي، فالمعلومات التي تصله(ع) بالتمام كاملة وسليمة بالضبط كما يريدها سبحانه وتعالى.

(فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ{26})
مِثْلَمَا نقول "طوائف، مذاهب" ونقصد أنهم جماعة من الناس "مذاهب، يذهبون" في فكرهم أو سلوكهم أو دينهم مَذْهَباً يختلف عن الآخرين، فَهَا هُوَ القول الذي تسمعونه من هذا القرآن من الرسول محمّد(ع) من الملاك الرسول جبريل(ع) من الله عزّ وجلّ، تَتْرُكُونَهُ وتذهبون؟ إلى أين؟! إلى أي دين تذهبون تاركين دينه عزّ وجلّ!؟

تَذَكَّرْ دَائِماً الموؤدة، كنموذج بارز فاقع الوضوح، فهل هذا ما تذهبون إليه تاركين دينه تعالى! قتل طفلة هو مذهبكم الذي تعتبرونه سَلِيماً عَقْلَانِيّاً مَنْطِقِيّاً! أم اعتقادكم بتمرير خالقكم لهذه الفعلة الإجرامية بدون عقاب في الآخرة هو مذهبكم!

(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ{27})
{إِنْ هُوَ}، هذا الكلام الذي يقوله النبي محمد(ع) لكم فهو فقط، {ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ}، شيء يستحضره كلّ الناس في فكرهم وسلوكهم وقولهم وعملهم.

تَذَكُّرُ الشيء هو استحضاره في فكرك كالذكريات، أو بالقول فتذكره بلسانك، أو عَمَلِيّاً تلتزم بشيء بعد أن صار في فكرك... هَذَا الكلام القرآني نقله الملاك(ع) إلى الرسول(ع) الذي نقله للناس، فأي واحد من الناس وصله هذا الكلام فسيكون له ذكر، كشيء يستحضره في فكره عن الآخرة والحساب والجزاء فيها على فعل السيئات وهو نفسه مخالفة أوامره تعالى.

(لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ{28})
{ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ}:

{لِمَن شَاءَ مِنكُمْ}، بعد سماعكم للذكر سيكون لديكم خيارات أن تتبعوه كلّه أو بعضه أو تعارضوه... عَلَى كلّ حال فالخيار متروك لكم، وهذا القرآن ذكر لمن شاء منكم أيها الناس، {أَن يَسْتَقِيمَ}، أن يصير مَوْصُوفاً بأنه على الأحسن، والكلام هنا عن التماشي مع ما هو حقّ صحيح صالح بلا انحراف عن ذلك.

بعبارة أخرى، مَنْ يرد منكم الاستقامة على الخط الصحيح في فكره وقوله وعمله، فهذا الذكر يدله على الخطّ الصحيح.

اَلْآيَةُ هنا وَغَيْرُهَا الْمُشَابِهَةُ لها في القرآن لا تقول إِنَّكَ حرّ في اختيار اتّباع الذكر أو تركه من دون عواقب، لا، يُمْكِنُكَ أن تشاء الاستقامة على الصلاح ويمكنك أن تشاء الانحراف عنها، فقد وهبك ربّك هذه القدرة على الاختيار مع القدرة على تمييزهما من بعض، ولكن لكلا الطريقين نتيجة مختلفة، فواحد يوصلك للنار وآخر للجنة، فانتبه ماذا تختار.

(وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ{29})
{وَمَا تَشَاؤُونَ}، ولستم تقررون اختيار الاستقامة على الحقّ أو الانحراف عنه، {إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز أمامه خيارات ومنها تركِكم تشاؤون، وهو، {رَبُّ الْعَالَمِينَ}، المسؤول عن كل الناس من مستوى إلهي.

لاحظ دَائِماً في كل آية قرآنية تتحدث عن الإرادة والمشيئة عند الناس، فإننا نجد بعدها تَنْبِيهاً أَنَّ إرادتهم ليست مطلقة بل عندما يشاء ربنا سبحانه ويسمح لهم فعندها يكون لديهم قدرة على الاختيار والتصرّف بحرية.

تَقُولُ الآية: عندكم أيها الناس مساحة من حرية الإرادة للاختيار بين فعل هذا أو ذاك، فَإِذَا شئتم استقمتم، وإذا شئتم لم تستقيموا، ولكن هذا لا يعني أن لديكم مشيئة تتغلب على مشيئة الله تعالى، فلا تَسْتَطِيعُ القول: أنا أملك مشيئة أَنْ أؤمن أو أكفر وهي قدرة ذاتية عندي.

بل الله تعالى هو الذي أَعْطَاكَ هذه القدرة على الاختيار، فأنت تشاء أَنْ تؤمن لأن الله تعالى شاء خلقك مع قدرة الاختيار أن تؤمن.

هُنَاكَ جانب آخر لهذه الجملة يفسّرها البعض به، فبعض الناس يعتقدون أنه تعالى شاء لنا أن نؤمن فكفر البعض منّا مُخَالِفِينَ المشيئة الإلهية، بعبارة أبسط: يرغب ويريد سبحانه أن نؤمن ولكن البعض خرّبوا المشروع الإلهي وفرضوا عليه تعالى مخالفتهم لأوامره. فهم شاؤوا الكفر وسبحانه كان يشاء لهم الإيمان. وهذا المعنى أَصْلاً مخالف لمعاني الكلمات، وليس تَفْسِيراً صَحِيحاً لكلمات الآية، فكلمة شاء صارت على معنى يرغب ويحبّ ويريد... بينما هي تشير لتوافر خيارات عديدة أمام الفاعل، ويختار منها ما يريد، فشاء سبحانه تركنا بحرية الإرادة والاختيار، فأمامه تعالى خيارات أخرى، ولو اختار منها، فشاء، لجعلنا غَصْباً عنّا مؤمنين بسحب الإرادة الحرّة منّا فنصير مبرمجين تَمَاماً وبالكامل... أو يجعلنا تعالى نشعر بالألم الشديد عند ارتكاب سَيِّئَةٍ ما فَخَوْفاً من الألم نلتزم بدينه.... أو...

نَفْهَمُ المشيئة بشكل أبسط إذا تصوّرت أنه تعالى خلقك مُبَرْمَجاً كَمُؤْمِنٍ ولا يمكنك اختيار الكفر، فماذا يمكنك أن تفعل؟ لا شيء، فستبقى كما أنت مُؤْمِناً ولا يمكنك أن تشاء الكفر، فهل يمكنك منح نفسك القدرة على الاختيار؟ لا، فأنت مبرمج، ولكن الذي خلقك إذا منحك القدرة على الاختيار فهل تصير هذه القدرة ذاتية لك وفوق قدرة الإله؟ لا، فلا يمكنك القول بأني بقدرتي الذاتية القاهرة اخترت الكفر غَصْباً عن الإله "عزّ وجلّ"، فهذا ما يريدك القرآن أن تفهمه، فلا أحد يشاء بقدرته الذاتية المنفصلة عن قدرته تعالى، بل نحن نعيش حالة الحرية التي منحها لنا تعالى، وعلى أساسها نختار الاستقامة على دينه تعالى أو الانحراف عن دينه تعالى، وهذا الاختيار نتيجته الجنّة وذاك الاختيار نتيجته النار.

أطلت عليك لأن الكثير من الناس تقرأ أو تسمع قصار السور أكثر من الطوال، ويحصل عندهم تشويش عند قراءة بعض الآيات مثل آيتنا هذه، لأننا متعلقون بالدنيا ونحبّ بعض شهواتها السيئة... فنستسخف أنفسنا، ونفسّر هذه الآيات بأنها تعطينا الحرية على اختيار ما نريد فلماذا سيحاسبنا تعالى طالما هو يقول بأنه شَاءَنِي أن أكون كما أنا؟ فها صرت تعلم أنها نصف الجملة، والجملة الكاملة أنه تعالى أعطانا حرية اختيار ما نريد مقابل جَنَّةٍ فائقة الروعة وخالدة لمن اختار الإيمان، وَنَارٍ فظيعة الألم لمن اختار الكفر.

الخلاصة أَنْ تَتَصَوَّرَهُ تعالى وَحْدَهُ، ولا شيء في الدنيا، فسبحانه أمامه خيارات عديدة ليصمّم ويخلق... وشاء خلق كائنات تشاء، فهو تعالى كان أمامه خيارات عديدة ليختار منها ما سيخلقه، وشاء خلق كائنات فيها القدرة على أن تشاء

من خيارات عديدة أمامها، فمن الأساس هم لا يشاؤون إِلَّا إِنْ شَاءَ خالقهم جعلهم يشاؤون، وبما أن كل المخلوقات مرتبطة به تعالى كما هو واضح من الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ...} فنحن نستمر في حالة المشيئة، حالة حرية الإرادة، لأنه تعالى يبقينا موجودين فهو الماسك لكل شيء حتى يستمر، وهكذا فنحن نشاء لنفعل ما نريد إن شاء تعالى إِبْقَاءَنَا مَوْجُودِينَ وأحياء ونشاء...

اَلْمَعْنَى العام لكلمة "شاء" هو وجود خيارات أمام الفاعل. فاستبدل بهذا المعنى أي كلمة من مشتقات "شاء" وسترى أن معنى الجمل يصير وَاضِحاً سَهْلاً، فسبحانه شاء لنا أن نتمتع بحرية المشيئة، ولكنه لا يرضى لنا الكفر، فحين تشمّ من كلام أحد ما عن المشيئة مُحَدِّداً استعمالها أنها تشير لمعنى ما يحبّ ويريده ويرضاه تعالى... بَدَلاً من كون هذه الأمور من تبعات المعنى بحسب سياق الكلام فتذكّر الآية 7 من سورة الزمر {إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ...} فهذا ما يرضاه تعالى منّا في استعمالنا للمشيئة التي منحها لنا سبحانه.

بقي شيء، هُنَاكَ من يستسخف نفسه ويغرق في وحل الأفكار النابعة عن انحراف إيماني وسلوكي وسياسي وحبّ التقرّب من السلاطين والحكّام وحب الشهرة والمنصب وحبّ التميّز بالتفرقة واتباع طائفة من الناس له... فيفسّر هذه الآيات بأنه تعالى هو يشاء لي الإيمان أو الكفر، فيلغي سبحانه إرادتي ويجبرني على الكفر أو على الإيمان.

كَمَا ترى، الجمل القرآنية قصدت ما سبق وقلناه منذ قليل بشكل واضح، ولكن من يرد التبرير للمحرمات التي يرغب بها، فسيلغي كلّ القرآن الذي يهددني "أنا" بمحاسبتي "أنا" على اختيار الكفر، ويبشّرني "أنا"، باختياري "أنا"، للإيمان، ولا يفهم أن هذا النوع من الآيات ينفي فقط وفقط أي قدرة لي "أنا" على الاختيار من مستوى "إلهي" بشكل منفصل وذاتي لي أنا، فأنا لم أخلق نفسي، وأنا لم أمنح لنفسي قدرة الاختيار، وأنا لا يمكنني فرض ما أشاءه إن شاء من خلقني شَيْئاً آخر... هذا هو ما تريدك الآيات أن تفهمه، وأي فهم آخر لها فهو من الهوى والشهوة والغريزة وحبّ التميّز وحبّ التفرقة... أو تقليد أعمى لمذهب ضلال...

سورة الإنفطار (82) ص 587
تحذّر من لم يلتزم بالدين من الاغترار بكرم ربنا سبحانه، فهذا الاغترار لن ينجيه من العقاب على السيئات، وتبشّر المؤمنين العاملين للصالحات كسبيل وحيد لدخول الجنّة.

تعرض السورة أمورا حتمية ستحصل ولن تتغيّر إذا استسخفنا أنفسنا واستهنّا بها، واغتررنا بكرمه سبحانه حين خلقنا وسوّانا وقلنا بأنّه تعالى أيضا لن يهيننا ويدخلنا النار في الآخرة، وعمليا هذا الاعتقاد المبني على هذا الاغترار ليس نوعا من الإيمان، بل هو تكذيب بدينه تعالى، وحتما عليه عقاب.

بعبارة أخرى بعض الناس يقولون إنّه تعالى أحسن معنا بخلقنا ووهبنا الحياة والفكر والأحاسيس... كريم بمكانته الإلهية وصفاته الحسنى... فلن يعذبني مهما فعلت... لا، فقط المؤمن العامل للصالحات لا يتعذب والبقية سيتعذبون...

بعض الناس لا يؤمنون به تعالى ولكنهم يسمعون بصفاته الحسنى، بضبابية يخترعون عقيدة من خيالاتهم أنّ الإله بهذه الصفات هو أكبر من معاقبتهم على أفعالهم السيئة... لا، سواء كانت السيئات صغيرة أو متوسطة أو كبيرة في سوئها، فعليها حساب وعقاب...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ{1})
{إِذَا السَّمَاءُ}، إذا التي فوقكم، {انْفَطَرَتْ}، فلم تبق كما هي طِبَاقًا، فانشقت وخرج منها شيء ما، ومن عموم القرآن تفهم أنها حالة تداخل السماوات مع بعضها حين تتبدل السماوات والأرض قبل يوم القيامة وأثنائه، وورد ذلك في الآية 48 من سورة إبراهيم "يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ"، فتصير السماء وردة كالدهان كما ورد في الآية 37 من سورة الرحمن "فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ"، فتتشقق وتنفطر، وتنكشط كما ورد في الآية 11 من سورة التكوير "وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ"، وتنفتح فتصير أبوابا كما ورد في الآية 19 من سورة النبأ "وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا"... وكلّها أوصاف تبدو مترادفة ولكنها تصف حالات دقيقة ستمرّ بها السماء أثناء

تبدّلها، فالسماوات الآن طِبَاقٌ وحين تتبدّل لتصير الآخرة فلن تبقى طِبَاقًا ستتداخل وتنفطر فتظهر السماوات الأخرى متداخلة مع سمائنا، وتنزل منها الملائكة كما ورد في الآية 25 من سورة الفرقان "وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا".

(وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ{2})
{وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ}، فصار الفراغ بينها أكبر.

الكوكب بحسب استعمال القرآن وعموم استعمال العرب لها في أشعارهم قبل الإسلام يعني: أي نقطة في السماء لها ضوء، بغضّ النظر عن كون الضوء يصدر منها أو تعكسه، حيث إنّ الشمس كوكب والأرض كوكب والقمر كوكب... وبقية النقاط المضيئة التي نراها منتشرة في السماء أيضا كواكب، وكلمة نجم قديما كانت تشير لعموم ما له موقع في السماء. فلا تخلط بين المعنى اللغوي الأساسي للكلمات وبين معناها الاصطلاحي الجديد.

كل النقاط البيض ستنتثر حيث سيصير في السماء فراغات، ومن الآية 2 من سورة التكوير "وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ"، تعلم أنّه سيكون خفوتٌ لضوئها مع تباعدها عن بعضها. ولذلك نحن أمام حالتين لهما نفس أثر الانتثار، إذ إنّ ابتعاد الكواكب والنجوم عن بعضها مع خفوت ضوئها سنراه كانتثار، كما أنّ انكدار ضوئها لدرجة ألا نراه سيجعل منظر السماء فيه بقع فراغات من النجوم التي انكدر ضوؤها...

لا تحاول تفسير آيتنا هذه وأمثالها بناءً على نظرياتنا العلمية الحالية، لأنّ معطيات كثيرة غير متوافرة لنا لمحاولة تصوّر آلية حدوث هذا الانتثار، ولحدّ الآن لا علم لنا بتكوين السماوات الست الأخرى، ولا بتأثيرها على سمائنا، هذا إذا افترضنا أنّ معلوماتنا الحالية عن سمائنا وافية، ولكنها أيضا ما تزال في أجواء الفرضيات التي لم تحسم بعد، لدينا على الورقة والقلم "رياضيا" المادة المعتمة والمادة المظلمة كجزء أساسي من كوننا، ونحاول تلمّس أثر مباشر لهما... ومن يدري من بعد ذلك ماذا سنفترض وماذا سنجد...

(وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ{3})
{وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ}، حيث إنّ الكلام في الآية عن حالة ستحصل عند تبدّل الأرض قبل وأثناء قيامتنا من الموت، إذ إنّ المشهد مثل مشهد تزلزل الأرض وسيران الجبال، وهو يشير إلى فوران وتقاذف قوي لعموم تجمعات المياه الكثيرة، وهذا وصف آخر لما ورد في الآية 6 من سورة التكوير "وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ". والكلام ليس صريحا في الآية هنا والآيات الأخرى عن أن البحار المائية على الأرض ستصير جهنّم أو من جهنم، بل الوصف لخصوص وجه الأرض المعروف لنا أنّه سيتبدّل بشكل عنيف.

عموم أي تجمّع كبير لسوائل أو موائع فهو بحر، وعموم وصف قوة خروج من شيء فهو انفجار، فثوران البركان انفجار، والنفخ بكيس حتى يتمزّق وخروج الهواء منه بقوّة هو انفجار... فلا يذهب فكرك فقط إلى ما نعرفه في عصرنا من المتفجرات، حيث قديماً حين نزول القرآن لم يَرَ العرب حالة قوية مثل المتفجرات التي في عصرنا، فلا تفهم تعبير الآية بانفجار البحار بتشبيهها بالمتفجرات التي في عصرنا، لأنّ غليان الحمم والبراكين هو انفجار أيضا، وعبّر القرآن مرّة واحدة هنا عن انفجار البحار، ومرة عن تسجيرها وهو اضطرابها في مكانها بقوّة، كما تقرأ في الآية 6 من سورة التكوير "وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ"، وكلا الوصفين يشيران لتجمُّعٍ كبير لسائل أو مائع يتحرك بقوة ويندفع بعنف، وما افترضوه عن حرارة عالية للبحار المائية وتحوّلها لحمم ولتصير هي جهنّم، فهو تطبيق منهم لتصوراتهم عن المشهد، بينما ليس صريحا في القرآن صيران البحار المائية جهنّم، بل الصريح من الآيات الاضطراب والهيجان بشدة للبحار المائية، وما ورد في الآية 72 من سورة غافر "فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ" فهو توصيف الاضطراب الشديد للمرميين في الحميم ولم يكن وصفا لتسجير الحمم مع أنّه صحيح كما تفهم من الآية 32 من سورة المرسلات "إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ" عن فورانها وانفجارها برميها.

الكلام هنا عن البحار المائية أنّها ستصير في حالة اضطراب عنيف ويحصل فيها انفجارات... مثلما ستسير الجبال وتنهار أثناء تبدّل الأرض...

(وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ{4})
{وَإِذَا الْقُبُورُ}، وإذا الأماكن التي وضع الأحياء فيها الأموات، وعادة يضعون على تلك الأماكن علامات تحدّد مدافن الأموات، فإذا، {بُعْثِرَتْ}، فلم تبق قُبُورًا مُرَتَّبَةً مغلقة على من فيها، وفُتِحَت وتمّ نبش ما فيها من جثث ورفات وتراب، وعمليا تقصد الآية خروج الأموات من قبورهم.

هنا الآية تعبّر عن عودة الناس إلى الحياة مرة ثانية، بحيث سيخرجون من قبورهم من بين حبات التراب، وتتشكّل أجسادهم من جديد، ولكنها ستكون مختلفة عن الأجساد التي نتكوّن منها الآن، لأنّها أجساد خالدة لا تموت، وتشعر أجساد الكفّار بالألم الشديد جدا عند تعذيبها... وتشعر أجساد المؤمنين بالسعادة البالغة من أي لمسة أو طعام...

ضع في بالك دائماً أنّ القرآن أشار لحالات الموت التي لا قبر لجثثها، كالميّت في غابة أو في الماء أو في الفضاء... وتجد ذلك في الآية 148 من سورة البقرة "... أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"، ولكن ركّز أكثر على ذكر القبور، وهي أماكن الأموات الذين دفنّاهم نحن بأيدينا ووضعناهم تحت التراب، وهي حالة تصوّرنا لموتنا حيث سيضعنا الآخرون في قبر، فإعادة الناس إلى الحياة ليست مقتصرة على من في القبور، بل للكلّ أينما ماتوا، والقبور نموذج عن مكان يوجد فيه أموات، ولم يدخل القرآن أصلا في تفاصيل عملية "ميكانيكية وبيولوجية" إحياء الأموات، واكتفى بالقول بأنّنا كما خرجنا إلى الحياة أول مرّة فسنعود ونخرج مرّة ثانية، واكتفى بذكر القبور كأبرز نموذج أولي يخطر بالبال عن مكان فيه أموات حتى تتفعّل صورة محددة في ذهننا أثناء قراءة كلامه تعالى.

بعد حدوث الأمور التي ذكرتها الآيات الأربع السابقة حيث وصلت إلى عودة الأموات إلى الحياة:

(عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ{5})
{عَلِمَتْ نَفْسٌ}، علم كل شخص كل واحد، {مَّا قَدَّمَتْ}، كما نقول قدّم لي الطعام، حيث يعلم كلّ واحد ما قدّم لنفسه من حسنات أو سيئات، على كلا الوجهين فالذي قدّم الأفعال الصالحة سيعلم بها وسيراها مسجّلةً في كتاب أعماله، والذي قدّم لنفسه الأفعال السيئة سيعلم بها... {مَا أَخَّرَتْ}، ما تركت من أعمال ولم تقم بها، وأيضًا على كلا الوجهين فالذي أخّر تاركا السيئات سيعلم أنّه تركها وحصل على الثواب لأنه تركها ونجا من العقاب، ومن أخّر الصالحات فتركها ولم يفعلها سيعلم بما فعله... وهذا نفس المعنى الوارد في الآية 14 من سورة التكوير "عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ".

بعبارة أخرى بمجرد أن نفتح أعيننا في الآخرة، سيعلم كل واحد منّا الأعمال السيئة والحسنة التي قام بها، حيث سيراها مكتوبة في كتاب أعماله.

(يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ{6})
من بعد المقدمة السابقة التي أخبرتنا عن أمور ستحصل حتما، يسألنا سبحانه وتعالى سؤالًا هو خبر عن واقع حال بعض الناس:

{يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ}، يا أيها الغالب الأعم من الناس، {مَا غَرَّكَ}، ما الذي جعلك تنخدع فتقتنع بشيء غير واقعي وغير صحيح وتظنّ أنّه صحيح، {بِرَبِّكَ}، بالمسؤول عنك من مستوى إلهي، {الْكَرِيمِ}، الذي مكانته عالية جدًا، فله صفات المكانة الرفيعة والمقام العالي؟ ومن الآيات التالية ترى أنّ انطباع صفات كرمه تعالى واضحة علينا بخلقتنا وتسويتنا، فمن اغترّ بما هو فيه الآن من كرم إلهي عليه فلا يستسخف نفسه ويخترع من أوهامه أنّه تعالى لن يعاقب المسيئين، لا.

تذكّر دائمًا أنّ كلمة كريم في القرآن وفي استعمال العرب قبل الإسلام ليست مقابل بخيل، بل مقابل مهين "مهان"، فهي وصف لمن كانت صفاته عالية موقّرة محترمة، ومن مشتقات هذا المعنى أنّ الكريم: الموقّر العالي الشأن... سيكون كذلك في كلّ ما يفعله، فإن أعطى فسيعطي بكثرة وبنوعية عالية، وإن قللت أدبك معه وفيما بعد تبت واعتذرت فسيسامحك... وإن خلقك فستنعكس صفاته العالية على عملية خلقك وتكون مستويًا معتدلًا...

تلاحظ أنّك لا تجد في هذه السورة أي كلام عن العقائد أو الواجبات الدينية التي يجب على الإنسان الالتزام بها، ولا نجد ثوابه عليها ومعاقبته على مخالفتها... حيث بقيت السورة على عموم الكلام ولم تدخل في تفاصيل الدين الإلهي، لأنّ أصل الكلام فيها عن أصل الاقتناع بأصول الدين الإلهي القائم على وعده تعالى لنا بالحياة بعد الموت والحساب

والجزاء على الأعمال الحسنة أو السيئة التي قمنا بها في الدنيا، وعلى هذا الأساس تنذر الذي اغترّ بما يجده في نفسه من خلقة تامّة وما أتيح له من متاع الدنيا... وفعل السيئات على أساس أنّه تعالى أيضًا في الآخرة سيكون كريمًا معه مثلما كان في الدنيا كريمًا معه...

نفهمها بشكل أبسط إذا قارنتها مع غني يعيل فقراء، فإن أعطاهم المال الكثير ولم يعودوا محتاجين للغني، فربما فيما بعد ينسونه وربما ينكرون فضله بل وربما يؤذونه... وهنا تقريبًا السؤال نفس الشيء، إذ إنّ ربّك الكريم خلقك وأتاح لك ما يسعدك، فهل هذا سبب حتى تغترّ بمخالفة أوامره لتشرك به أو لتفعل السيئات بدلًا من شكره والالتزام بطاعته! ماذا لو كان تعامله تعالى معنا مختلفًا، فإن لم نشكره فورًا حرمنا، وإن أسأنا أحسسنا بالألم فورًا... عندها لن تغترّ!

ننتبه أيضًا إلى ما نجده في سور أخرى عن الظنون الفاسدة الأخرى التي يظنّها الناس، حيث ذكر القرآن مرارًا كلامًا عن هذا الموضوع، كظنّ أهل الكتاب أنّهم سيدخلون الجنّة لمجرد أنّهم من أهل الكتاب، كما ينتشر الآن ظنّ المسلمين غير الملتزمين دينيًا بأنّهم سيدخلون الجنة لمجرد أنّهم من المسلمين أو من محبّي النبي(ع)... وكظنّ الوثنيين عبّاد الأصنام بأنّه لو صدق وكان هناك آخرة فآلهتهم ستعتني بهم ولن تذهب عبادتهم لها سدى... وكظنّ المنافقين أنّهم يمررون نفاقهم عليه تعالى وإذا صدق وكان هناك آخرة فهم بلباس المؤمنين وسيدخلون إلى الجنّة... وغير ذلك من الظنون الفاسدة... والسورة هنا تتحدّث بالخصوص مع من تمتّع بخلقة وتسوية وصورة إنسانية واغترّ بهذه الحالة الحسنة، وأهمل العمل للآخرة القادمة حتمًا، واخترع من أوهامه أنّه تعالى سيكمل تعامله معه بكرمه في الآخرة حتى لو فعل السيئات.

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ{7})
ربّك الكريم، {الَّذِي خَلَقَكَ}، الذي ألّفك وركّبك من المواد، {فَسَوَّاكَ}، جعلك تصير بالتمام متناسبًا كإنسان، وهنا المقصود أنّه سبحانه جعل خلقتك لها جسد من يدين ورأس ورجلين ودماغ... {فَعَدَلَكَ}، جعلك تعتدل فتحمل مواصفات الاعتدال التي تناسب كيانك كإنسان، كما نقول نحن لشخص جالس بطريقة ملتوية أو يتكلّم بطريقة ملتوية فنقول له: اعتدلْ. ونقصد أن يتحوّل إلى صفات الاعتدال ويترك الشواذ، لأنّ هناك مواصفات عامة أساسية لتكون إنسانًا، حيث جعلك سبحانه على مقياسها، من جسد وأحاسيس وفكر...

عندما نصنع نحن آلة ما، فإنّنا نركّبها من المواد، وهذا بناء وإنشاء مشابه للخلق، وحتى تختلف هذه الآلة عن الأخريات فطريقة تركيبنا لها هي تسويتها، إذ إنّ كلّ الآلات مصنوعة من المواد وعندما نجعل آلتنا على الشكل التمام الذي يناسب ما نريد ومميّز عن بقية الآلات فهذا هو التسوية، وعندما تحصل آلتنا على كامل المواصفات الأساسية للآلة المطلوبة لتعمل ما هو مطلوب منها، فهكذا نكون عدلناها، وهكذا عبّرت الآية عن إيجاد الإنسان وصولًا إلى صيرانه كيانًا كإنسان تامّ المواصفات الإنسانية الأساسية.

بتعبير أبسط، إنّ خلقنا هو جعل كيان لنا من المواد، والتسوية هي تركيب الأعضاء على شكل إنسان، والاعتدال هو ما يجعلنا نختلف عن بقية الحيوانات في تصرفنا الإنساني بهذا الجسد، وهذا هو المعنى العربي للكلمات.

وتريد الآية لفت انتباهنا أنّه سبحانه هو فعلًا كريم مع الإنسان، وبسبب صفاته العالية الموقّرة سبحانه وتعالى خلقنا فسوانا فعدلنا.

بقي شيء، حيث إنّ القرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عمومًا ذكرًا وأنثى، وأنّهم يتناسلون... أو متعلّق بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

بناءً عليه هناك أناس بخلقة غير معتدلة، كالمعاقين منذ الولادة، وصحيح أنّ عددهم قليل جدًا بالمقارنة مع المليارات من الناس، ولكن هل وجود معاقين يتعارض مع ما تقوله الآية؟ لا، لأنّها تتحدّث عن الغالب الأعم من الناس باستعمالها كلمة إنسان، وهكذا استعملها كل القرآن، ولأن حالات الإعاقة شاذّة وليست شائعة، فإنّ النموذج العام هو ولادة إنسان معتدل، والشاذّ هو الإعاقة، وغالبًا القرآن يتحدّث مع وعن نماذج عامّة وليس عن حالات شاذّة وقليلة.

أمّا لماذا لا تولد كل الناس سليمة الخلقة؟ فمعلوم أنّ ظروفنا البيئية وما نفعله بجسدنا يسبب خللًا في اللقاح والتلقيح والحمل... وهذا مماثل للسوء الذي نفعله بأيدينا وعن قصد لأنفسنا لنخرّب جسدنا أو جسد الآخرين، فلاحظ مليارات الدجاج المتولّد في المزارع في بيئة نتحكّم بها، أنّها شبه خالية من الولادات غير السليمة، ونفس الشيء ستكون ولادات البشر سليمة في بيئة نتحكّم بها، ولولا ما نفعله نحن من سوء في أنفسنا وبيئتنا لما نتجت ولادات غير سليمة.

لولا النظام الذي جعله تعالى في خلقتنا لإصلاح جسدنا بالتحوّر الجيني والتكيّف العضوي... لانمحت البشرية منذ زمن بعيد على الأرجح، وهذا التكيّف والتعديل هو التدخّل الإلهي من التصميم حتى نكون في أحسن تقويم، وأمّا تصوّرنا وافتراضنا لضرورة تدخّله تعالى في كلّ ولادة بشريّة ليمنع فساد جسده، فهذا خليط لأمانينا مع ما يمكن أن يفعله سبحانه، وأخبرنا أنّه لن يفعله، مثلما تركنا سبحانه بحرية الإرادة لدرجة الكفر به ولن يتدخّل سبحانه ليجعلنا مؤمنين غصبًا عنّا، فما نفعله من سوء ينتج عنه ولادات غير سليمة فسنتحاسب عليه نحن وليست المسؤولية عليه تعالى في ذلك، وهذا معنى خلقه تعالى لنا في دار بلاء لدينا فيها إمكانية فعل الخير أو الشرّ...

(فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ{8})
ربّك الكريم الذي خلقك... {فِي أَيِّ صُورَةٍ}، في أي هيئة وقوام، في أي شكل خارجي من طول وقصر ولون... {مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ}، جمع سبحانه القطع "الأعضاء المختلفة المواصفات" لتتألف صورتك التي اختارها تعالى لك. وأنت تعلم أنّك لا تختار صورتك، ولا تختار هيئتك، ولا تتحكّم بشكلك حين تولد، وهذا الشكل هو صورة تنطبع في ذهن من يراك، فتولد حيث اختار تعالى لك صورتك من بين خيارات عديدة أمامه.

بعبارة أخرى أمامه تعالى العديد من الخيارات، وشاء صورة لك أيها الإنسان الذي يقرأ هذه الآية، من طولك ولونك وبقية صفات جسدك التي تميّزك عن صورة الناس الآخرين، وربما تتشارك مع غيرك في الصورة، حيث إنّ بعض الناس تتشابه...

وما نعلمه الآن عن صيران صورة لنا من أثر الخريطة الجينية، فهو الآلية التي صمّمها تعالى ليصير لكل واحد منّا صورة، فلا تفهم من الآية مباشرته سبحانه لتصوير كل واحد منّا بدون جريان ذلك بأسباب عبر آليات، فهذا الفهم الساذج الطفولي والذي فسّروا به قديمًا ولادة آدم(ع)، فهذا ليس متماشيًا مع بقية كلامه تعالى عن سننه في فعل الأمور، حيث خلق السماوات والأرض في ستة أيام، في ست مراحل وهذا ضمنًا يشير لخلقها بآليات... ونفس الشيء خلقتنا نحن عبر آليات، إذ من المعلوم للجميع أنّ الولد سيرث صورته حتمًا من أبويه وأجداده أو سيكون خليطًا منهم، لذا فإنّ تصويره تعالى لنا يشير لهذا الشيء المعلوم ولا يشير لتصويرنا بشكل يختاره تعالى بلا آليات...

وبالرجوع للسورة، من كرمه تعالى صار لنا صورنا الإنسانية المميزة عن بقية الحيوانات، هل ردّ الجميل لمن خلقنا وصوّرنا يكون بمخالفة دينه؟! أو بفعل السيئات معتمدين على كرمه تعالى معنا في الآخرة وأنّه لن يعاقبنا هناك؟

(كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ{9})
{كَلَّا}، لأنّ الاغترار لن يغيّر أي شيء مما سيحصل من بعد موتنا وعودتنا إلى الحياة، {بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ}، ما تدينون به، أي عموم التبعات التي عليكم، سواء التبعات التي عليكم من تمييزكم للخير والشرّ وحرية الإرادة للاختيار منها، وهي نفسها التبعات التي عليكم للذي خلقكم لتؤمنوا به لأنّه الحقّ وتطيعوه لأنّه العمل الصالح، والاغترار بالنعمة التي أنتم فيها هو عمليًا تكذيب بضرورة الالتزام بعموم التبعات التي عليكم وعمليًا هو تكذيبه لدينه تعالى.

هذا الدين الإلهي مبني على الثواب والعقاب، وما معنى تركهم للإيمان والعمل الصالح مستهترين بالعقاب على ذلك! وما معنى استسخافكم لأنفسكم بالاغترار بما أنتم فيه من نعمة منه تعالى وكنموذج عن ذلك ما أنتم فيه من خلقة وصورة!

سيبدو لك الكلام أسهل إذا نظرت لمن يصنّف نفسه بأنّه مؤمنٌ متديّنٌ رغم مخالفته لأوامره تعالى! حيث يشرب الخمر أو يزني أو يغشّ الناس أو يغتابهم... أو لا يصلّي أو لا يصوم أو لا يزكّي... وبالأخير يصنّف نفسه مؤمنًا وسيدخل

الجنّة اعتمادًا على كرمه تعالى! اعتمادًا على صفاته العالية سبحانه! ومعتبرًا أنّ إعلانه الإيمان بالله سبحانه شيء كبير ومنّة له عليه سبحانه!

والسورة أشمل من هذه النظرة، فهي لعامّة كل من صار إنسانًا واغترّ بحالته وكذّب بدينه تعالى، سواء آمن به تعالى أو لا، وسواء أشرك به تعالى أو لا، وسواء أسلم أو لا... فكلّ من كذّب بالدين على المعنى العمومي للتبعات التي عليه كإنسان فهو اغترارٌ بما حصل عليه منه تعالى، من حالته الإنسانية، بقدراته، بفكره، بأحاسيسه وشهواته وحاجات جسده... وكذّب بالدين الإلهي فلم يؤمن به مع أنّه الحقّ، ولم يعمل صالحًا، فهو حتمًا ذاهب إلى ورطة ما بعدها ورطة في الآخرة.

وكلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، فهي ليست اصطلاحًا مخصّصًا كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، فهي عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، وأنت مدين لي بالمال لأنّني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأنّني فعلت لك شيئًا ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف...

والله تعالى خلقني لذا أنا مدين له، وخلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعًا بسبب وساعة تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنّه عاملني برحمة ورأفة...

ولدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... وكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

وبالنسبة للآخرة هناك ندان بأعمالنا، وما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة كلامه تعالى هي التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضًا يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسبًا بحكمته قد يديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ{10})

وإنّ عليكم "في أثناء حياتكم في الدنيا"، لحافظين، جعلنا عليكم حفظة يقومون بحفظ وبصون ما يصدر عنكم، وكما سنرى من الآية التالية فإنّهم حفظة يحفظون بالتسجيل بالكتابة لما نقوله ونعمله.

من عموم القرآن تعلم أنّهم ملائكة(ع) وظّفهم تعالى لمرافقتنا أثناء حياتنا لتسجيل أعمالنا، وبالتالي لمحاسبتنا ومجازاتنا عليها في يوم القيامة، وورد نفس المعنى في الآيات التالية من سورة ق "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18)"، فهناك جاء التوصيف بالمراقب الجاهز "رقيب عتيد"، وهنا جاء الوصف "حافظين" فهم يسجّلون بدقة.

(كِرَاماً كَاتِبِينَ{11})

{كِرَامًا}، لهم كرامة ولهم مكانة ومقام عالٍ عند ربنا سبحانه، {كَاتِبِينَ}، يكتبون يدوّنون يسجّلون، وسترى من الآية التالية أنّهم يكتبون ما نفعل، وسبق في مقدمة السورة الكلام عن علم كل نفس في يوم القيامة بما عملت، وذلك حين تصير معها صحيفة أعمالها، وتلك الصحف هي هذه التي كتبتها الملائكة(ع) التي تتحدّث عنها الآية هنا.

عمليًّا هذا المدح الإلهي لهم بكونهم كرامًا يعني أنّهم ليسوا مزاجيين ولا مستهترين... فهم دقيقون وملتزمون حرفيًّا بأوامره تعالى، فيكتبون أعمالنا بدقة بدون زيادة أو نقصان.

من عموم القرآن بكلامه عن الملائكة(ع) تلاحظ أنّهم مخلوقات تتمتّع بحرية الإرادة واختاروا طاعته تعالى دائمًا، وبعلمه سبحانه بالغيب أنّهم لن يعصوه دمجًا مع علمه تعالى بخصائصهم التي صمّمهم بها والتي سينتج عنها أنّهم ورغم حرية إرادتهم لن يعصوه، مدحهم سبحانه دائمًا.

لو كان الملائكة(ع) مبرمجين غصبًا عنهم على طاعته تعالى فلا معنى لمدحهم، فلولا تمتعهم بحرية الإرادة واختيارهم دائمًا لطاعته تعالى، لما مدحهم سبحانه.

الكتابة هنا وصف أعم من رسم الكلمات على شيء ما، فهو عموم تسجيل المعلومات بأي طريقة مناسبة، وبالنسبة لنا فنقش الكلمات على الصخور، هو كتابة، ورسم الكلمات على الورق، وتخزين الكلمات والصور والأفلام... على الكمبيوتر هو أيضًا كتابة، وهكذا يتوسّع أفق معنى الكلمة ليشمل ما تتعامل به الملائكة لتسجيل أعمالنا... مثلًا لو أهدانا أحد ما وردة، فهذا عمل حسن يتسجّل له، وهم يسجّلون ما شممناه وما شعرنا به من سعادة وهذا أيضًا بطريقة مناسبة يتسجّل كحسنات له...

(يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ{12})
هم ليسوا مثل كاميرات المراقبة التي تسجّل الصوت والصورة ولا تعي ما تسجّل، لا، بل هم يعلمون ما في بالنا ومشاعرنا وأحاسيسنا ونوايانا وما نقصده... وواعون عالمون للبيئة التي نحن فيها، فهم عالمون بما يتوجّب علينا فعله أو تركه بالنسبة لتديننا ولمجتمعنا... وبالتالي فهم يعلمون إذا كان العمل خيرًا أو شرًّا فلا يخطئون في معرفته وتحديد نوعه... ويعلمون إن كنّا نقصده أو حصل بالخطأ أو سهوًا... أو لم نقدر على تجنّبه أو كنا معذورين بفعله كشرب الخمر عند انقطاع الماء والوصول لحالة الموت من العطش... أو معذورين بتركه كترك الصيام بسبب مرض مانع من الصوم...

نعود لمقدمة السورة التي تحدثت عن يوم القيامة من الموت، وصولًا إلى علم كل نفس بما فعلت، وها ترى أنّ كل شخص منّا يرافقه ملائكة(ع) تكتب أعماله في الدنيا، لأنّ الأمور ليست مفلوتة على ضبابية الاغترار بربنا الكريم وأنّه لن يحاسبنا ولن يجازينا، لا، فالنتيجة في الآخرة من تسجيل أفعالنا في الدنيا:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{13})
{إِنَّ الْأَبْرَارَ}، إن الذين على صلة طيّبة، والكلام عن الملتزمين بالعلاقة الطيبة مع ربهم سبحانه فلم يكونوا عاقين معه سبحانه، ولم يقطعوا العلاقة معه بل آمنوا وعملوا الصالحات... فهؤلاء موصوفون بأنّهم أبرار، {لَفِي نَعِيمٍ}، بالتأكيد سيكونون في النعيم، في مكان كل شيء فيه موصوف بأنّه نعمة، نِعْمَ ما هو، جيد ممدوح، وهي جنة الآخرة.

من الآية 177 من سورة البقرة نعلم أساسيات برّ العبد مع ربه سبحانه "... وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ..."، فهؤلاء سجّلت لهم الملائكة(ع) أعمالهم الحسنة هذه، والموصوفة بأنّها برّ، بأنّها صلة وتقرّب منه تعالى، والتي ثوابها في الآخرة الدخول إلى الجنّة الموصوفة بأنّها نعيم فكل ما فيها نعمة.

(وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ{14})
{وَإِنَّ الْفُجَّارَ}، إن الموصوفين بالفجور، إن الذين صدرت منهم أعمال توصف بأنّها قويّة، وعمليًّا هو وصف للمعتقدات الفاسدة كالكفر... وللأعمال السيئة من العيار الثقيل كالقتل والزنا... وتركهم لما أمر به تعالى كالامتناع عن الزكاة ومساعدة المحتاجين... هؤلاء، {لَفِي جَحِيمٍ}، في مكان يوصف بضخامة سوء ما فيه، ففيه النار المتأججة بحرارة عالية جدًّا... فكلمة جهنّم وصف للسوء في الشيء، وكلمة جحيم وصف لضخامة السوء في الشيء كما بدا لي من أشعار العرب قبل الإسلام.

لاحظ أنّ السورة لم تذكر أي شيء مما نسميه نحن بالعقائد والتشريعات، فاكتفت بمعاني كلمات توصيف الناس لتشتق منها ما فعلوه، فالفجور هو وصف العمل القوي، وعادة نشير به للعمل السيّء القوي، فاكتفت السورة بهذا الوصف المتضمّن لكل عمل سيّء، ونفس الشيء بوصف البرّ الذي يعني عمليًّا فعل ما يرضاه تعالى وبذلك لا تكون قطيعة معه تعالى بسبب فعل ما يكرهه.

كل القرآن مبني على أساس تأهلنا للتكليف، وهو ابتلاؤنا بما نختار مما نميّز خيره من شرّه، ويأتي بعد ذلك كتابه تعالى مُقوِّمًا لعقائدنا وتشريعاتنا وسلوكياتنا عارضًا علينا ما كان بالأصل يمكننا رؤيته وتمييزه من صلاح أو فساد، ولكن بسبب فعلنا لبعض السوء تتشوّه بصيرة قلوبنا ونحتاج لكتاب هداية...

وهذا الأساس القرآني إن تخمّر في ذهنك فسترى قرآنًا عجبًا يهدي إلى الرشد... بدلًا من الضياع فيمن نزلت فيهم الآيات وفي مدحها لشخصيات مذهبك... وفي تأييدها لمذهبك... وفي التأويلات اللغوية الترفية والتأويلات الباطنية التي ما أنزل تعالى بها من سلطان...

(يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ{15})
تلك الجحيم، {يَصْلَوْنَهَا}، فيقف أمامها الفجّار، فيتعرّضون لنارها، {يَوْمَ الدِّينِ}، في الزمن الذي يطالبهم سبحانه بما يدينون به، والكلام عن الزمن الذي يتحاسبون فيه ليتجاوزوا على التبعات التي عليهم لأنّهم تمتعوا بقدرة تمييز الخير من الشرّ، وتمتعوا بحرية الإرادة للاختيار منهما، ورغم ذلك اختاروا أن يكونوا فجّارًا.

وللتوسع في معنى كلمة دين راجع ما ذكرناه في ذيل الآية 9 من هذه السورة.

أمّا بالنسبة لكلمة يوم فهي لعموم أي زمن لحدث أساسي، ولكن لا تصدق على وصف زمن الخلود، فهو أيّام، وها استعمال القرآن أمامك لكلمة يوم ولا يشير لوصف الزمن في النار ولا في الجنّة بالمفرد حتى لو حملتها على معنى اسم الجنس. والكلام هنا عن يوم الإدانة وهو من يوم القيامة مرورًا بأيام الحساب، وهم سيصلَوْن النار من ذلك اليوم وما بعده.

لا تجمد على مشهد من مشاهد الآخرة، فمن البداية نقوم من الموت وبعدها يتم حشرنا وفرزنا زُمَرًا وبعدها أيام محاسبتنا... وخلال ذلك يتم عرض الفجّار على النار، فيصلونها، كما نفهم من الآية 46 من سورة غافر "النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ"، ونفس الوصف لبقية المجرمين ورد في الآية 45 من سورة الشورى "وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ..."، وبعد انتهاء الحساب يتم رميهم فيها كل واحد بالدركة "الدرجة" المناسبة.

(وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ{16})
{وَمَا هُمْ}، وليس الفجّار، {عَنْهَا}، عن جهنم، {بِغَائِبِينَ}، فليسوا ذاهبين لمكان آخر ليس فيه نار، فهم سيكونون دائمًا فيها، وهذا تعبير آخر عن أنّهم خالدون في جهنم.

يعني أثناء الحساب يصلونها، وبعدها سيصيرون فيها.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{17})
يمكنك القول: عندي معلومات عن الزمن الذي يدين فيه تعالى الناس بما فعلوه، ولكنك لا يمكنك القول: أنا أدري به. لأنّك لم تحتكّ به، فلم تعشه، ولم تره فعلًا كم هو قاسٍ وشديد وعسير الحساب فيه.

عندما تسمع ما يقوله القرآن عن الحساب في الآخرة فلا تستهن بهذا الكلام، وبالعكس فإذا حاولت تصوّره فلا تظنّ أنّك قدرت على ذلك، فهو أضخم بكثير مما يمكنك تصوّره الآن.

تلاحظ استعمال القرآن لعبارة "ما أدراك" وأشباهها عندما يريد لفت انتباهك للفرق بين المعلومة التي سمعتها، وبين المعلومة التي رأيتها وعايشتها.

(ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ{18})
ثمّ مرة ثانية يكرّر ربنا سبحانه السؤال لننتبه جيّدًا أنّ سماع الأخبار عن ذلك اليوم لا يعني حصول صورة حقيقية له في بالنا، ويمكنك مقارنتها مع خبر عن شيء لم تره هنا في الدنيا، عن منتزه وصفوا لك روعته، فيمكنك تصوّر أشجاره وأزهاره وهواءه النقي ومناظره الخلابة... ومهما كان رائعًا فلن يكون بعيدًا كثيرًا عمّا تصوّرته، أمّا ما ينقله لنا القرآن عن أوصاف يوم القيامة وما بعده، فمهما حاولنا تصوّره الآن فستبقى الصورة أقل بكثير جدًّا جدًّا من الحقيقة، وهذا سبب تكرار السورة للسؤال عن إدراك يوم الدين، فهو فوق ما يمكن تصوّره الآن من شدّة وأهوال على غير المؤمنين.

(يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ{19})
يوم الدين، {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً}، فهو زمن حيث لا أحد منكم يمكنه فعل أي شيء لأحد آخر، فلا يملك سلطة ولا قدرة ولا قوّة ولا حيلة... فكل نفس مرهونة بما هو مسجّل في كتاب أعمالها، {وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} تعالى، فأي شيء سيحصل في زمن يوم الدين فسيكون تنفيذًا فقط وفقط لأوامره تعالى، فالسلطة المطلقة يوم الدين فهي لله تعالى فقط.

ننتبه جيّدًا، فتركيز سورتنا هنا على عموم وأساسيات يوم الدين، لأنّه سبحانه أخبرنا في عدة آيات من القرآن عن سماحه تعالى للملائكة(ع) وللمؤمنين بأن يشفعوا في يوم القيامة لأشخاص ليس لديهم حسنات تكفيهم لدخول الجنة، فيتوسط الملائكة(ع) والمؤمنون عند الله تعالى لهؤلاء حتى يمسح عنهم ذنوبهم... وسبحانه أيضًا يشفع... ولكن من المحسوم أيضًا في القرآن أنّ الشفاعة لا تجري على الفجّار، وأصلًا لن يقوم أي ملاك أو أي مؤمن بطلب الشفاعة لفاجر، وآياتنا هنا التي تقول: لا تملك نفس لنفس شيئا، ليست متعارضة مع الشفاعة التي عمليًّا تعني أن المؤمن من درجة عالية يمكنه أن يشفع للمؤمنين من الدرجة الأقل، ونتذكّر جيّدًا ما قاله القرآن عن الشفاعة، فهي بإذنه تعالى تحصل، ويقبل بها سبحانه، لأن الشافعين لن يشفعوا لمشرك أو لمرتكب للجرائم الكبيرة... بل سيشفعون للمؤمنين العاديين الذين خالفوا بعض أوامره تعالى ولم يرتكبوا الفجور... وهكذا تفهم الآيات التي نفت حصول الشفاعة لأنها كانت تقصد الفجار الذين سيدخلون جهنّم حتمًا وبدون أي تخفيف عنهم، فهؤلاء لا شفاعة لهم أبدًا كما تفهم من الآية 123 من سورة البقرة "وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ"، وأيضًا تفهم الآيات التي نفت وجود حقّ الشفاعة كمنحة مفروضة عليه تعالى كما ورد في الآية 255 من سورة البقرة "... مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ..."، فكانت تلك الآيات تقول بأنّه لا الملائكة العالية(ع) ولا أعلى المؤمنين من الرسل، يمكنهم أن يضربوا رجلهم بالأرض في يوم القيامة ويقولوا: معي حقّ الشفاعة وأريد تنفيذه على من أشاء حتى لو كان الحكم الإلهي عليه بأنّه يستحقّ الخلود في جهنّم.

وهكذا تفهم الآن هنا في الدنيا بأنّه فعليًّا لا أحد يمكنه فعل أي نفع لأحد آخر في يوم القيامة وما بعده، فلا أحد لديه القدرة الذاتية على نفع أحد آخر، ولا أحد يمكنه أن يفرض عليه تعالى نفع أحد آخر... والأمر لله تعالى فهو تعالى يسمح بالشفاعة للمؤمنين من الدرجة الأقل أو لا يسمح.

وما سبق كان تعليقًا على الآية من جانب الشفاعة، لأننا كمتدينين لدينا ثقافة دينية تدفعنا لفهم القرآن من منظور ثقافتنا، أمّا الآية فهي أعمّ من ذلك بكثير، فمن عموم القرآن ترى آيات تنفي أي قدرة لآلهة عبدوها أن تنفع عابديها، سواء أكانت آلهتهم آباءهم وأجدادهم، أو أرواح أجدادهم... وتجد آيات تتحدّث عن جنودهم، وأصدقائهم، وأحبائهم، وأولادهم، وناديهم... فهؤلاء أيضًا لن يشكّلوا قوّة عسكرية لمقاومة الدخول إلى النار... وأيضًا لا أحد سيتبرع بحمل ذنوب أحد آخر كما هو واضح من الآية 18 من سورة فاطر "وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى..."، وفرضًا لو تبرع أحد ما بالتعذّب بدل أحدٍ آخر "مع أنّه لن يحصل" فلن يقبل تعالى بذلك... فكما ترى هناك جوانب عديدة لمعنى آيتنا هنا، والتي تشابهها آية: كلّ نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين.

سورة المطففين (83) ص 587
رجّحوا في بعض الكتب أنّها أوّل سورة نزلت حين هاجر الرسول(ع) إلى المدينة.

تعرض السورة نموذجًا بارزًا عن إجرام الغشّ في تعامل الناس بين بعضهم في المكيال والوزن، هذا العمل الموصوف بالإجرام عند أصحاب القلب السليم هو يتماشى مع نهي الدين الإلهي عنه، لأنّ دينه تعالى يأمر بالعدل والحق، لذا ركّزت السورة على هذا النموذج على أساس أنّ الغشاشين لو كانوا يؤمنون بالحساب في الآخرة لما فعلوا الغشّ. وفي المقابل تعرض السورة النهاية السعيدة لمن آمن بيوم الدين وفعل الصالحات، وبالخصوص بالنسبة لموضوع السورة فإنّ تركيزها على الذي لم يغشّ الناس في تعامله معهم.

سوف تلاحظ أنّ جريمة واحدة كالغشّ المبنية على إنكار الحساب عليها في الآخرة، تكون نموذجًا بارزًا عن عموم تصرفات من لا يؤمن بالآخرة، إذ إنّ السورة لا تقول بأنّ من لا يغش سيكفيه ذلك وعلى أساسه سيدخل الجنّة، وكأن الغشّ هو السبب الوحيد لدخول النار، لا، بل الغشّ واحد من نتائج إنكار الآخرة، والإيمان بالآخرة من نتائجه الكيل والوزن بالقِسْطَاس وبقية أعمال البرّ...

تلاحظ أنّ السورة هنا لم تذكر قوم النبي شعيب(ع) المشهورين بعذاب نزل عليهم بسبب الغشّ، ولم تذكر أي شيء عن المشركين العابدين لآلهة أخرى معه تعالى، ولم تذكر العقاب على الغش بناءً على أنّه أمر إلهي، بل ذكرته على أنّه سوء واضح لنا، وسبحانه يعاقب عليه. ولم تطرح الموضوع كتشريع إلهي يمنع الغشّ في مقابل تشريعات الناس، أو أعرافهم، أو ما توافقوا عليه، بل التركيز على وضوح سوء الغشّ ووضوح وجوب وجود عقاب إلهي عليه في الآخرة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ{1})
{وَيْلٌ}، الحدث الجلل، يا للمصيبة الكبيرة، والكلام هنا عن التهديد بشيء سيّء ضخم، {لِّلْمُطَفِّفِينَ}، للذين يجعلون الإناء أو الوعاء يمتلئ للآخِر.

لكن، لماذا يتوعد سبحانه بالويل والعقاب لمن يملأ الإناء أو الوعاء؟ فلنَرَ.

(الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ{2})
الويل للمطففين الذين:

{إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ}، استعملوا الكيل ليشتروا قمحًا أو عدسًا أو زيتًا... من الناس، فإنّهم، {يَسْتَوْفُونَ}، يأخذون حقهم بالتمام. حيث قالت الآية السابقة بأنّهم مطففون أي يملؤون الكيل حتى يطفو ويمتلئ لأنّهم هم يأخذون ما لهم من الناس.

الكيل هو وعاء اتفق بعض الناس فيما بينهم على حجمه، وبعض الناس استعملوا الليتر وآخرون الغالون أو التنكة أو البرميل... كأوعية نبيع ونشتري على أساس حجمها، وكلنا كجماعات متفقون على توحيد أحجامها... فنشتري تنكة زيت، أو تنكة بنزين، أو غالون مازوت... وأيضًا نستعمل الكيل لغير السوائل، ونكيل بالمكيال "بالكيلة، بالصاع..." الطحين والحمص والفول...

الآيات تتحدّث عن الذين إذا اشتروا بضاعة من أحد ما، فإنّهم يأخذون حقّهم كاملًا بالتمام وذلك عبر تطفيف الكيل حتى يستوفوا حقّهم بالتمام، ويدفعون بالضبط ثمن ما اشتروه بدون نقصان، وهذا حقّ لهم، ولكنه ليس حقًّا حصريًّا لهم، بل هو حقّ عام لهم ولغيرهم، إذ إنّ الجميع يجب أن يستوفوا حقّهم بالكيل وغيره.

(وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ{3})
هؤلاء الناس إذا اشتروا لأنفسهم من الآخرين طفّفوا الكيل طافحًا بالتمام، ولكن إذا باعوا الآخرين:

{وَإِذَا كَالُوهُمْ}، كالوا هم للناس، وباعوا للناس أو تبادلوا معهم شيئًا يتم كيله بالليتر أو الغالون، {أَوْ وَزَنُوهُمْ}، وزنوا للناس، وباعوهم أو تبادلوا معهم شيئًا يتم وزنه بالكيلو أو الباوند... فإنّهم، {يُخْسِرُونَ}، يجعلونه خاسرًا، فاقدًا لشيء له أهمية، ناقصًا عن حجمه أو وزنه، وبالتالي ستحل خسارة بالناس الذين تعاملوا معهم.

عند المطففين مكيال مغشوش حجمه أقل من المكيال المتفق عليه، ولديهم ميزان مغشوش يزن بأقل من الوزن المتفق عليه، فإذا اشتريت منهم ليتر زيت، فإنّهم يكيلون لك بوعاء حجمه أقل من الليتر بقليل، مما يجعلك تخسر، لأنّك دفعت ثمن ليتر كامل، بينما استلمت أقل من ليتر فلنقل استلمت 950 مللتر، وأيضًا إذا اشتريت منهم كيلو عنب، فإنّهم يستعملون ميزانًا مغشوشًا ويعطونك أقل من كيلو، فلنقل يعطوك 940 غرامًا.

بالبداهة يشعر كلّ واحد منّا بأنّه من حقّه الحصول بالتمام على قيمة بضائعه أو ماله، إذ إنّ الغشّاش لا يقبل أن تغشّه، لذا فالويل له لأنّه يقبل أن يغشّ الآخرين!

نلاحظ الشبه في التعبير القرآني بين هذه الآيات والآية 4 من سورة الماعون "فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ"، حيث إنّ الصلاة عمل واجب، وما المشكلة فيه حتى يكون الويل لمن يصلي؟ وتكمل الآيات لتفهمنا أنّ الصلاة ليست المشكلة بل المشكلة في من يسهو عن صلاته، والمشكلة فيمن يرائي في صلاته. وهنا شراؤك بتطفيف المكيال ليس المشكلة، لأنّ هذا حقّك، ولكن بيعك بتخسير المكيال أو الوزن هو المشكلة.

لو كنت تأخذ ما تشتريه ناقصًا، وتبيع بنفس المكيال ناقصًا، فعندئذ أنت لا تقصد الغشّ، ولذلك الويل لك إن طففت لنفسك وأنقصت لغيرك.

تحدّثوا في الكتب عن ملاحظة ذكر الآيات للتطفيف في الكيل والاستيفاء "الأخذ بالتمام" من الناس بدون ذكر "الوزن"، ثم ذكرت الآيات التلاعب بإنقاص الكيل "والوزن" عند بيع الناس، ولم تذكر الوزن عندما أخذ الغشاش من الناس، وذكرت الوزن عند بيعه البضائع للناس. وافترضوا أسبابًا مختلفة لتبرير ذكر الآيات "للوزن" مع التطفيف، ولكنها تعاليل بلا دليل تاريخي ولا لغوي، وفاتهم أنّ كلمة "تطفيف" لا تصدق إلّا على المكيال ولا يصح استعمالها على الوزن، والسورة أرادت افتتاح كلامها على طريقة "ويل للمصلين"، على أساس أنّ القارئ سيفهم بالبداهة أنّ الويل أيضًا لمن استوفى حقّه بالميزان من الناس، وغشّهم حين وزن لهم... لأنّ هذا بديهيّ.

بالنظر لأساليب الغشّ المتنوعّة في مختلف أنواع معاملات الناس في نوعية القماش والثياب وجودة المعدات وحالة السيارات... والعمالة "العمّال" والحرفية والأشغال... وفي التعداد والمقياس ونوع البضاعة ونوعية العمل وتقانته... فإنّ كلّ أنواع الغشّ حرام، وإنّما ذكرت السورة نموذجًا "واحدًا" بارزًا عن الغش، في الكيل والميزان، وجعلت التركيز عليه لبّ السورة، وأصلًا لن تجد في كل القرآن تفاصيل لتحديد كل أنواع الغشّ، وبناءً عليه هل يمكنك القول أنّ القرآن لم يذكر حرمة الغشّ بذراع القماش وبالتالي الإنقاص منه حلال!؟ أو يجوز للمتعهدين إنقاص الباطون في مواد البناء؟

هذا الكلام ينقلنا للفرق بين القرآن ككتاب تشريع إلهي وبين كتب الفقه الديني أو العلماني، وهي كتب تشريعات البشر التي فيها تفاصيل كثيرة لم يذكرها القرآن عن أنواع الغشّ في مختلف أنواع معاملات الناس، وستزيد وتنقص تلك التفاصيل مع تغيّر طرق التعامل بين الناس، أمّا القرآن فقد أعطانا العنوان الكبير الأساسي: الغشّ حرام بكل أشكاله. وكلّ واحد منّا "بقلب سليم" سيدرك ما هو الغشّ في الأمور التي تمرّ عليه في حياته حتى لو لم يقرأ كتب الفقه، وحتى لو قرأها ولم يجد ما يسأل عنه فيها، إذ إنّ الغشّ في الكمية التي نكيلها أو نزينها، لا يختلف عن الغشّ بالتي نقيسها بالمتر أو بالقيمة المالية أو بالتقانة والحرفية، كحرفية النجّار والحدّاد والطبّاخ... وتقانة الأجهزة والآلات والسيارات والهواتف والموتيرات...

هكذا تفهم أنّ القرآن كتاب أساسي للتشريع وقد ذكر كلّ ما يهمّنا، حيث إنّ الأساسيات كلّها مذكورة في القرآن، والتفاصيل متغيرة عبر الزمن وبين المجتمعات، وتركها القرآن على أساس أنّه تعالى زودّنا بفكر "إذا كان سليمًا من الهوى" فإنّه سيدلّنا على الحلال والحرام.

هل تتوقّع أن تجد في القرآن أنّ الغشّ في التعهدات العامة لتزفيت الطرقات ومدّ المجاري وخطوط المياه والكهرباء... حرام!؟ لا تتوقّع ذلك لأنّه في حين نزوله لم تكن هذه المعاملات متداولة، ولكنّك بالبداهة تعلم أنّها غشّ وسوء، وإن تعاميت عن ذلك لسبب أو لآخر، يأتيك كلام القرآن عن نموذج الغشّ في الكيل والميزان لترى أنّ كلّ أنواع الغشّ سوء عليه عقاب.

الغشّ نموذج بارز عن سوء لا تجد إنسانًا محترمًا يناقش في كونه مشكلة، وكونه عملًا سيّئًا، وعملًا يدمّر معاملات الناس، ويأكل تعبهم وحقوقهم، وسوسةً مسبّبةً للفساد الاقتصادي الإنتاجي والتبادلي... وقد توسّعنا قليلًا في ذلك عند دراسة الآية 8 من سورة المؤمنون "وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ".

(أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ{4})

ألا يظن أولئك المطففون الغشاشون، ألا يعتقدون استنادًا لكلامه تعالى، أنهم مبعوثون؟ من عموم القرآن ومن بقية الآيات هنا تعلم أنّ الكلام هنا عن بعثهم، عن إقامتهم من موتهم في الآخرة.

هم عندما غشّوا الناس ألم يعتقدوا أنّهم سيرجعون من الموت ليتحاسبوا ويتجازوا على غشّهم وستتم معاقبتهم عليه؟

بعبارة أبسط، ألم يشعروا بأنّهم يفعلون السوء؟ ربّما بعدما تمرسوا على الغش لم يعودوا يشعرون بالسوء الذي يفعلونه، ولكن على الأقل لنتكلم حين بدؤوا بفعل الغشّ، ألم يشعروا بأنّه سوء؟ وهذا الشعور أليس معناه أنّه هناك عقابٌ إلهيٌّ على السوء؟ وأيضًا هناك كلام وصلنا منه تعالى ويخبرنا بشكل مباشر عن العقاب على الغش، وكل هذا لم يكن كافيًا للغشاشين حتى يستندوا عليه ليصير عندهم ظنّ بأنّه يوجد بعث، حيث يوجد إنهاض لنا من موتنا لمحاسبتنا ومجازاتنا.

لاحظ فهمك من الآيات الأولى ما يلي: إن لم ترض أن يغشّك الآخرون واستوفيت حقّك منهم بالكامل فكيف ترضى أن تغشّهم؟ وستفهم منها أنّه من البديهي أن نتعامل كلنا مع بعضنا بالحقّ... وهذا صحيح، وهذا شيء تفهمه من عموم القرآن عندما أخبرنا تعالى أنّه أنزل الميزان... إذ إنّ فكرة اختراع المكاييل والأوزان كانت بذرتها مزروعة فينا عندما خلقنا سبحانه... ولكن الآية هنا تعرض منظورًا إلهيًّا للموضوع، فالذي خلقنا وضع فينا فكرة ضرورة الحصول على حقّنا من الآخرين وبالتالي ضرورة إعطاء الآخرين حقّهم كاملًا، ووضع عقابًا وثوابًا على ذلك، وهذا يشبه فكرة توحيده تعالى وفكرة اختراع آلهة، حيث من الوهم والخيال والكذب والدجل اخترع الناس آلهة غيره تعالى، وبفكر وقلب سليم سيجد الإنسان نفسه موحّدا لإله عظيم خالق للسماوات والأرض وليس كمثله شيء... وقد وضع سبحانه عقابًا وثوابًا على هذه المعتقدات، فمن حيث المبدأ ترى أنّ أي شيء ديني "قرآني" فله أساس مزروع فينا "في فطرتنا" في فكرنا أو في نفسيتنا، إذ إنّ توحيده تعالى وتنزيهه وعبادته... والنفور من الكذب والغشّ والسرقة... لها بذور فينا، وأساسها قابليتنا على تمييزنا للخير من الشرّ، والحقّ والباطل، فأنت تأخذ حقّك كاملًا وتعلم بحسن معنى ذلك، وإذا أنقص لك الآخرون تشعر بسوء ذلك، فكيف تغشّ الآخرين؟ وعلى هذا الأساس جعل تعالى المجازاة على أفعالنا.

بعبارة أخرى إنّ الدين الإلهي "القرآني" لم يطرح علينا أمورًا فلسفية ودستورية معقدة لا تخطر على بالنا ولا نفهمها، ولم يطرح علينا معلومات وتشريعاتٍ وسلوكيات غريبة عجيبة عليك أن تقنع نفسك بها... بل نبّهنا لما نعرفه ونشعر به، مثل رؤيتي لأخذ حقّي من الآخرين عندما أشتري منهم، فمن حقّي أخذ ما لي، ورؤيتي لغشّهم لي أنّه باطل، حيث نبّهني سبحانه أنّ الآخرين لديهم نفس حقوقي أيضًا وبالتالي يجب على الجميع ألّا يغشّوا بعضهم، وليس مسموحًا لك لوحدك أن تغشّ الآخرين... فمن غير المنطقي أن أغشّهم ولا أقبل أن يغشّوني، ومن غير المنطقي أن يقبلوا هم أن أغشّهم... وكما ترى فهذا نموذج واضح تطرحه الآية عن الأوامر الإلهية التي من ناحية فيها تنظيم لحياتنا، ومن ناحية ثانية هناك عقاب إلهي على مخالفتها.

الظنّ هو اعتقادك بشيء ما مستندًا إلى شيء ما، فإن كان ما تستند عليه صحيحًا كان ظنّك صحيحًا، وهذه حالة المؤمنين الذين يظنون أنّهم ملاقو ربّهم سبحانه كما ورد في الآية 46 من سورة البقرة "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"، فهم مستندون في ظنّهم على آياته وكلامه تعالى. وإن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران "... وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ..."، حيث استنادًا للحالة الحرجة التي كانوا فيها ظنّوا أنّه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء. وبين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند عليها ولكنّه ليس مقتنعًا بها، فلا تزال الأمور عنده مرجّحة لاحتمالات أخرى، فهذا ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية "وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ"، فهم يريدون أن يلمسوا مباشرة حصول ساعة قيامهم من الموت حتى يعتقدوا بها ولا يكفيهم الاستناد إلى معلومات تدلّ عليها، فيريدون اليقين بها عيانًا حتى يؤمنوا. هذه الحالة قريبة جدًّا من

الاصطلاح "في علم المنطق" والدارج لمعنى كلمة ظنّ على معنى وجود عدة احتمالات. وها صرت تعلم المعنى اللغوي الأساسي لكلمة "ظنّ" فانتبه للفرق بينه وبين المعنى الاصطلاحي حتى لا تفسّر القرآن على أساس المعنى الاصطلاحي.

في عموم كتب التفاسير ستجد كلامًا آخر عن الظنّ، ولا ينطبق معناه على كلّ آيات القرآن، حيث ستجدهم لا يثبتون على معنى واحد للظنّ، حيث مرّةً يرادفونه باليقين، ومرّةً بالشك، ومرّةً بالحسبان... وهي معانٍ غالبًا ستجدها صحيحة لأنّ الآيات واضحة وتدل على المعنى الذي ذكروه بالشكل العمومي الذي يتحمله الاشتقاق والتدرّج من أصل معنى كلمة ظنّ، ولكنّها ليست المعنى الدقيق لكلمة ظنّ، بل كلامهم توصيف لحالة العلم الذي استند إليه الظنّ، وها صرت تعلم معنى الكلمة العام، وأنّ القرآن دائمًا يوضّح لك نوع العلم الذي يستند الظنّ له إن كان صحيحًا أو فاسدًا، فلن تضيع في معرفة الظنّ الصحيح من الظنّ الخطأ.

(لِيَوْمٍ عَظِيمٍ{5})
ألا يظنون أنّهم مبعوثون:

{لِيَوْمٍ عَظِيمٍ}، لزمن فيه حدث أساسي يوصف بأنّه غير عادي، وهو يوم القيامة غير العادي بكل ما سيحدث فيه وفيما بعده من أيّام، والبداية مع رجوعنا إلى الحياة، وانفتاح السماوات على بعضها، وتفعيل النار الهائلة وتفعيل الجنّة الخالدة الرائعة... وهنا الكلام بالخصوص عن عظمة الحساب والمجازاة في ذلك اليوم.

فهناك كلام سمعوه من مصدر إلهي عن وجود يوم غير عادي، فهو يوم نعود فيه إلى الحياة، ونلاقيه سبحانه ليحاسبنا ويجازينا... ورغم ذلك قاموا بعمل غشّ الناس وهو عمل عليه عقاب شديد.

(يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ{6})
بداية توصيف يوم البعث بأنّه عظيم:

{يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ}، في الزمن الذي يتفعّل فيه الناس من حالة موتهم لينتقلوا إلى حالة الحياة، {لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}، فيرجعون إلى الحياة ليقفوا بين يدي المسؤول من مستوى إلهي عن كل الناس.

فلن يرجعوا إلى الحياة ليعيشوا في عالم الأرواح، أو عالم المنامات، أو ليذهبوا إلى عالم آخر لا علاقة لله تعالى به... ولا لأي شيء مما يخترعه الناس من عقائد عن أفكار توهّموها عن الحياة بعد الموت، بل حصرًا وفقط ولا نهاية أخرى لكل الناس إلّا إلى ربّهم سبحانه، وعمليًّا هو الوقوف بين يديه تعالى ليتحاسبوا.

ضِمنًا هذا الكلام القرآني عن الآخرة سواء آمنت به أم لم تؤمن، فهو ليس كلامًا خاصًّا بالمسلمين أو بالعرب لأن الله تعالى ربّهم وليس ربّك، لا، فسبحانه رب العالمين كلهم من أولهم لآخرهم، وسواء أكانوا منتمين لدينه أم كافرين به فالجميع سيرجعون إلى الحياة ليقفوا بين يديه تعالى ليحاسبهم.

ها ترى نموذج الغشّ الذي لا يحتاج لانتمائك لدينه تعالى حتى تعلم بأنّه سوء، فمهما كانت عقيدتك فمن المفروض أن ترى سوء الغشّ، وهذا أصل توجيهه تعالى للكلام معنا عمّا يمكننا نحن رؤية صلاحه وفساده في كل شيء، سواء في العقيدة أو التشريعات أو السلوكيات، فيحاسبنا ويجازينا على هذا الأساس.

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ{7})
هم لا يظنون أنّهم مبعوثون ولا يظنون أنّه يوجد حساب.

{كَلَّا}، نفي لظنّهم هذا فهم مبعوثون حتمًا، {إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ}، ومن عموم القرآن تعلم أنّه يوجد كتاب مسجّل فيه أعمال كلّ إنسان، فهو شيء فيه معلومات محدّدة عمّا فعله أو قاله أو نواه... كل واحد منّا، والفجّار هم الذين قاموا بأعمال قوية في سوئها، وكتابهم، {لَفِي سِجِّينٍ}، وبعد الآية التالية سترى أنّ سِجّينًا وصف لكتاب مرقوم، وأقرب أصل لهذه الكلمة هو السجن، فهو كتاب مجموع فيه كتب الفجّار الذين سيتم سجنهم في جهنّم، ومسجّل فيه ما سيحصل معهم

عند سجنهم في جهنّم. وسجّين تعطينا معنى التشديد في المعنى، فكتاب الفجّار من الغشاشين الذي ركّزت عليهم السورة سيكون ملحقًا بالكتاب المخصّص لمن سيتم سجنهم مؤبّدًا وبعذاب شديد.

سيأتيك في الآية 19 من هذه السورة أنّ كتاب أعمال الأبرار في عِلِّيِّينَ، وهكذا ترى بسهولة المقابلة بين عليين كمكان رائع، وسجين كمكان سجن سيّء، فهي مثل قولنا عن كتاب عالم محترم إنّ الكتاب على الرأس والعين، ونختصر ذلك قائلين إنّه كتاب الرأس والعين، كتاب خير... مقابل كتاب آخر سيّء، فهو كتاب السوء. فمن هذا التقريب يكون تعبير الآية أشبه بالقول إنّه كتاب السجناء.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ{8})
يمكنك القول: عندي معلومات عن سجّين الذي فيه كتاب الفجّار، لكن لا يمكنك القول: أدري به. فما أدراك به وأنت لم تره ولا تعلم كيف هو... فأنت تعلم أنّ الكتاب فيه تسجيل للأعمال التي قاموا بها، وتعلم أنّهم موصوفون بالفجور، وتعلم أنّ تعذيبهم سيكون شديدًا، وتعلم أنّه يوجد درجات عالية من التعذيب... ولكن كل ذلك لا يمكنك قياسه على ما رأيته في الدنيا وتقول أنّك تدركه، فما في الآخرة أعظم وأضخم بكثير مما يمكنك تصوّره.

بعبارة أخرى، فما هو مسجّل في ذلك الكتاب كعقاب للفجّار، فهو بالعدل والإنصاف، وبالتفصيل الدقيق لكل ما له علاقة بأي عمل مهما كان صغيرًا تافهًا...

(كِتَابٌ مَّرْقُومٌ{9})
سجّين: كتاب، شيء محدّدة فيه المعلومات، مرقوم، والرقيم هو عموم العلامة الدامغة، فالمعلومات فيه مدموغة مثبتة وواضحة.

وكلمة كتاب لا تعني فقط ما هو مكتوب على الورق أو على الجلد... فهي كلمة عامّة لأي وسيلة يتم تحديد معلومات عليها، فالنقش على الحجر كتابة وفي هذه الحالة فالحجر كتاب، والطباعة على شاشة الكمبيوتر كتابة والذاكرة الرقمية كتاب... ونتذكّر من القرآن أنّ الكتاب الذي تحدّدت فيه المعلومات عن أعمالنا التي قمنا بها في الدنيا، فهذا الكتاب في الآخرة سينطق معيدًا المشاهد والصور والأحاسيس... راجع الآية 29 من سورة الجاثية "هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ"، وكما نحن نقول عن أي كتاب أنّه مرقوم، ونقصد أن خطّه واضح، ومعانيه واضحة، ونفهم ما فيه... فكتاب سجّين المخصّص لمن سيتم سجنهم في أسوأ الأماكن، هو مرقوم، فكلّ ما فيه ثابت بوضوح، فالمشاهد والصور والأحاسيس... لما قام به الفجّار ستكون فيه واضحة.

نفهم ما تقصده الآيات هنا إذا التفتنا إلى حفل توزيع للشهادات هنا في الدنيا، فعادة يتم إقامة حفل لتوزيع الشهادات على الناجحين فقط، ولكن ماذا لو أيضًا تضمّن الحفل توزيع نتائج الراسبين؟ مع إذاعة فشلهم وعلامات رسوبهم؟ ولو فعلنا ذلك لكان لدينا ملفات منفصلة، فملف فيه شهادات الناجحين، وملف لشهادات الراسبين، وملف للذين سيعيدون السنة الدراسية، وملف للمطرودين... وهكذا بالتقريب نتصوّر ملفًّا خاصًّا بالفجّار، وتسمية الآيات بكتاب سجيّن.

(وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{10})
ويل، وسياق الكلام عن المصيبة السيئة الكبيرة، {يَوْمَئِذٍ}، في الزمن الذي يقوم فيه الناس لربّ العالمين، {لِّلْمُكَذِّبِينَ}، للذين لم يصدّقوا، وهذا كلام عام لم يحدّد ما هو الذي لم يصدقوه وستذكره الآية التالية، وهذا أسلوب قرآني حتى تتحفّز في ذهنك الصور والمعلومات ويكون تأثير الكلام أقوى.

(الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ{11})
{الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ}، فلا يصدقون، {بِيَوْمِ الدِّينِ}، بزمن محدّد لإدانتهم لمطالبتهم بالتبعات التي عليهم، فلا يؤمنوا بزمن المطالبة بما فعلوه في حياتهم من خير أو شرّ.

وكلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، فهي ليست اصطلاحًا مخصّصًا كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، فهي عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال

لأنّني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأنّني فعلت لك شيئًا ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف... والله تعالى خلقني فأنا مدين له، فخلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعًا بسبب وساعة تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنّه عاملني برحمة ورأفة... ولدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختيار... فكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

وبالنسبة للآخرة فهناك ندان بأعمالنا، فما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة أوامره تعالى هو التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضًا يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسبًا بحكمته فقد يديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ{12})
{وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ}، فلا يقول عن يوم الدين أنّه كذب لن يحدث، {إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ}، كل شخص يتعدّى حدوده فيتجاوزها، فقد رسم سبحانه لنا خطًّا لا يحقّ لنا أن نتعداه، وبالنسبة لما تركّز عليه السورة هنا، فالغش سوء، ولا يقول عن يوم الدين أنّه كذب وليس حقيقة إلا كل من يتعدّى على ما يراه سيئًا فيفعله، فهو يعلم بأنّه يقوم بعمل سيّء، وبالتالي يعلم بأن عليه عقابًا حتمًا من الذي خلقه جاعلا فيه قدرة تمييز الخير من الشرّ...

فمن هو الذي لديه مشكلة مع وجود يوم للحساب في الآخرة؟ "المعتدي" الذي قام بأعمال الاعتداء، وهو يرى سوءها، {أَثِيمٍ} أي الذي يعلم بأن عليها عقاب، فهذا لديه مشكلة مع يوم سيتحاسب فيه على تعدّيه وإثمه.

قارنها مع مجتمعاتنا، فالذي لديه نفسية إجرام، ويريد ارتكاب الجرائم، فهذا لديه مشكلة مع القانون العادل، ويعمل على الهروب منه، بل ويعمل على إفساده، فيرشي ويهدّد القضاة ورجال الأمن... بل ويعمل على تنظيم الجريمة لتصير أقوى من الدولة... بل يسيطر على الدولة وينفّذ القانون على الآخرين ولا ينفّذه على نفسه ولا على عصابته.

هنا الآية والعديد غيرها من آيات القرآن تشرح لنا نفسية وعقلية المخالفين للدين الإلهي من باب عرض نموذج سهل عمّا نراه نحن بسهولة أنّه سيّءٌ جدًّا ويستدعي عقابًا عليه، فالسورة تحدّثك عن نموذج الغشّاش، الذي لا يريد التوقّف عن الغشّ، فيريد الاستمرار بفعل السوء وهو يعلم بأن الغشّ لا بد من عقاب عليه، فهو مستفيد ماليًّا من الغش، وحياته مبنية على الربح من الغش، وبعض الغشاشين صاروا معتادين على المصروف العالي والشقق الفخمة والسيارات الضخمة والخدم... والتوقّف عن الغشّ سيقضي على ثرائهم... وبعض الغشّاشين الصغار الذين مستوى غشّهم يؤمّن لهم حياة عادية متوسطة، فهم أيضًا يشعرون بأن توقفهم عن الغشّ سيقضي عليهم، وسيجعلهم فقراء، على أساس أن طرق تحصيل الرزق محصورة بالغشّ فقط؟

وسنطيل الكلام لأنّ الآية هنا تعرض بوضوح أساسًا قرآنيًّا له عمق، فمن دون أي معرفة بدينه تعالى، فبدون معايشة نبي أو مؤمن صالح أو قراءة كتاب إلهي، فنحن نرى السوء من العيار الثقيل بوضوح، وتفسد رؤيتنا له كسوء بسبب تمرّسنا عليه أو رغبتنا الشديدة فيه، أو... ونخاف من عقاب الناس لنا، فنتحايل عليهم وعلى القانون... ولكن فكرة وجود مراقبة من مستوى إلهي لا تغفل عن الصغيرة والكبيرة، ووجود عقاب حتمي في الآخرة على أفعالنا السيئة، فهذه سنكذّب بها لأنها لا تناسبنا، علمًا أنّ هذا الشعور بضرورة وجود عقاب إلهي في الآخرة فهو مزروع فينا كنتاج لتفكّرنا بآيات خلقه تعالى لنا ولما حولنا، وكنتاج تمييزنا بين الخير والشرّ بشعورنا بسوء ما فعلناه وأنّه يجب أن يكون عليه عقاب... ولكن المعتدي الأثيم يطمس هذه الفكرة وهذا الشعور ويكذّب بالآخرة.

ولهذا الكلام عمق آخر يدعمه قناعتي من هذه الدراسة أنّ إبراهيم(ع) إلى ما بعد إلقائه في النار لم يتلق وحيا منه تعالى يخبره فيه عن قراره تعالى ببعثنا في الآخرة، ورغم ذلك فقد وصل إبراهيم(ع) إلى معرفة ذلك كما تقرأ في الآية 82

من سورة الشعراء "وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ". فإبراهيم(ع) ركّز عليه القرآن مرارًا كأبرز نموذج عمّا يمكننا الوصول إليه دينيًّا إذا كان قلبنا "أساس فكرنا ونفسيتنا" سليمًا تمامًا.

ولفكرة معرفة الآخرة فقط من التأمل في آياته تعالى، فلها دعم من الآية 191 من سورة آل عمران "الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ".

وبالتالي فالقلب الأقل سلامة سيعتقد بالآخرة بدرجة أقل، فأقل... وصولًا إلى المعتدي الأثيم الذي سيمحي هذه الفكرة من رأسه معاندا لها.

وكما ترى فهذا الكلام هو الأصل الذي على أساسه وجّه تعالى لنا كلامه عبر قرآنه، ويدعم هذه الفكرة العديد من الآيات ومنها الآية 2 من سورة البقرة "ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ"، والآية التالية من هذه السورة تقصد هذا المعنى، فالقرآن كتاب يعرض علينا ما يتماشى معه القلب السليم، فمعلوماته عن الإله وقراراته والتشريعات والسلوكيات التي يثيب عليها بالعذاب أو السعادة... ففي الأصل نحن يمكننا معرفة أساسياتها من دون كتاب إلهي لو حافظنا على سلامة قلوبنا.

(إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ{13})
{إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ}، فإذا أحد ما قرأ للغشّاش عن مستند، {آيَاتُنَا}، الأمور المميزة المنسوبة له تعالى، فأحد ما قرأ على المعتدين الآثمين أمورًا مميزة من مستند صادر عنه تعالى، فنقل له كلام ربنا سبحانه من هذا القرآن أو من الكتب الإلهية التي نزلت سابقًا أو نقلًا عن الوحي الذي نزل على الأنبياء والرسل...

قال المعتدي الآثيم عن الآيات: {أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}، أسطر، مجرد أشياء مسطورة، فتقرؤون علينا كتبا قديمة، قد قالها الناس الذين كانوا أولا، كانوا قبلنا. فبدل تماشيه معها يكذّب بها لأنه ينفر من فكرة العذاب على السوء الذي يرغب بفعله.

ومثلما الآن نسمع من يقول عن القرآن وعن الكتب الإلهية السابقة بأنها كتب تراثية، والقرآن كتاب من آداب العرب! والتوراة كتاب تراثي يهودي... وهما كتب ميثولوجيا! مثل كتاب الإلياذة لهوميروس... فحتى يهرب من الإيمان بالآخرة، لأنّه معتد أثيم، فإنه يرتكب جرمًا إضافيًّا، فيقول عن كلام ربنا سبحانه بأنّه خرافات قديمة!

وهكذا ترى بوضوح نموذجًا عن الصلاح المطروح في كلامه تعالى بتحريمه للغشّ الذي لا يناقش عاقل في شدّة سوئه، وترى قولهم عن العذاب الإلهي عليه أنّه أساطير بدلا من التماشي مع الاعتراف بالسوء وتركه...

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ{14})
كَلَّا، فآيات ربنا سبحانه ليست أساطير وواضح أنّها حقّ وأنّ سعادتنا في الدنيا بتطبيقها... بل ران، فانتشر واستحكم، على قلوبهم، على أساس فكرهم ونفسيتهم، ما كانوا يكسبون، ما كانوا يحصلون عليه مما نتج من أعمالهم.

قارنها مع ما كسبوه من مال من غشّهم للناس، حيث حصلوا على مال حرام من الغشّ، ولكن عمل الغشّ له مكسب آخر، وهو الأثر الذي يتركه عمل الغش في "قلوبهم": في أساس تفكيرهم ونفسيتهم بتعلقهم به، بحبّهم له واعتباره عملًا محببًا جيّدًا مربحًا... فهذا كسبوه من الغشّ وقد انتشر هذا التفكير والشعور فيهم، وهو الذي منعهم من التصديق بالآخرة.

الكسب هو عموم ما نحصل عليه كنتاج من أي عمل قمنا به، سواء أكان الناتج مرغوبًا أو مكروهًا.

تذكّر دائمًا ما يقوله القرآن عن دمغ وطبع القلوب، فمن كرّر فعل شيء ما، فالتكرار يجعله معتادًا عليه، فمن كذّب وروى قصصا كاذبة لتسلية الناس، فمع التكرار يصير الكذب متركزًا في تفكيره ونفسيته، ففكره يستسهل الكذب ولا تراه نفسيته معيبًا، فيفقد المنطق في فكره، ومشاعره تستحبّ الكذب لأن الناس معجبون بحديثه الغريب، فقد صار شخصًا مهمًّا مميزًا لما يرويه من قصص لا يرويها غيره لأنها من خياله... وكذلك من بدأ بفعل سوء ما، وكرّره، وكرّره، حتى اعتاد فكره ومشاعره عليه، ولم يعد يستطع تركه، وهذا هو معنى الطبع والدمغ على قلوب الكافرين والمجرمين والفاسقين والمنافقين...

الرين، كما نقول: ران الصدأ على الحديد. ونقصد أن الصدأ انتشر على كلّ الحديد. وكما نقول: ران عليه النعاس. ونقصد أن النعاس استحكم به وانتشر فيه... فالتعبير بالرين يشابه التعبير بالغشاوة الذي استعمله القرآن لوصف قلوب الذين لم يؤمنوا، فالمنطق والعقلانية من أصل فكرك، والمشاعر الصحيحة من أصل نفسيتك، ولكن مع بداية فعل السوء سنضع غطاءً رقيقًا على فكرنا ونفسيتنا.

لنأخذ الغشّ مثلًا، فسنراه مربحًا مع أننا نراه عملًا سيئًا، ومشاعرنا ستفرح بالربح بالرغم من شعورنا بأنّه سوء، ولكن مع تكرار الغشّ، ستزول من بالنا فكرة كونه عملًا سيئًا، لأن الروابط الدماغية ستتغيّر لتتوافق مع تكرار الغشّ، وفي النهاية يصير الغشّ هو المنطق والعقلانية وعملًا محبوبًا مرغوبًا... وهذا هو سبب إنكارهم للآخرة ففكرهم ونفسيتهم صارت ترفض وجود حساب على شيء يرونه صحيحًا ومحبوبًا... مثل رين الحديد، مثل انتشار الصدأ في الحديد الذي يبدأ رويدًا رويدًا ومع الوقت تصير كلّ القطعة الحديدية مغطاة بالصدأ.

هذا المعنى أشار إليه القرآن بتعابير مختلفة واصفا له من نواحي مختلفة، من الحجاب والغشاء والدمغ والطبع... على القلب.

كلمة قلب بمعناها العامّ عند العرب تعني: أساس الشيء وما هو مركزي فيه. فمعنويًّا تشير لأساس الفكر والنفسية فينا، ولأساس ما يجعل الشيء يعمل... وماديًّا تشير لعضو أو لجهاز... مركزي في الشيء، كالعضو مضخة الدم، وكقلب المحرّك...

في عموم اللغات نستعمل التعبير بالقلب للدلالة المعنوية على مركز الشعور والأحاسيس والفكر، فنقول: أحبك من قلبي. قلبي لم يهتف له. قلبي تعب من شدة الهم. قلبي معمي ولا أستطيع التركيز... ولا أي لغة تقصد بهذا الكلام خصوص العضو الذي يضخ الدم، بل المقصود هو مركز شعورنا وأحاسيسنا وتفكيرنا، وبهذا المعنى استعملها القرآن "معنويًّا لنا" مثلما يستعملها أهل اللغة كمعنى حقيقي لمركز الشعور "النفسية" والفكر.

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ{15})
{كَلَّا}، نفي لتكذيبهم بعقاب الآخرة، فالتهديد بالعقاب في الآخرة حقيقي، وأقوال الفجّار غير صحيحة:

{إِنَّهُمْ}، إن الفجّار وبالخصوص الغشّاشين، {عَن رَّبِّهِمْ}، عن المسؤول عنهم من مستوى إلهي، {يَوْمَئِذٍ}، في اليوم الذي لا يصدّقون أنّه سيحصل، في يوم القيامة وما بعده، {لَّمَحْجُوبُونَ}، حيث يوجد شيء يحول بينهم وبينه سبحانه.

ننتبه جيّدًا للآية السابقة والآية هنا، حيث هناك مكسب مالي من الغشّ، ومكسب نفسي وهو الشعور بالفرح من الربح السيّء، وهناك مكسب تسويد القلب من الغشّ لدرجة رين القلب بالرغبة بالغشّ الذي سيمنعهم من التصديق بالآخرة التي سيتحاسبون فيها على الغشّ، وهو نفسه هذا الرين على قلوبهم من الغشّ سيكون الحجاب الذي بينهم وبينه تعالى في يوم القيامة، فهم وضعوا هذا الحجاب على أنفسهم حتى صاروا عمليًّا منفصلين عن رحمته تعالى فلن تنالهم المغفرة ولا العفو...

هناك من يقول بأن المؤمنين في الآخرة سيرون ربّهم عزّ وجلّ، ويفسّرون الآية هنا بأن الفجّار محجوبون عن رؤيته تعالى، ولو قرأت كتبهم لما فهمت منهم ماذا يقصدون برؤية المؤمنين له تعالى، فمن بينهم من يقول بأنّه تعالى على شكل رجل عادي مثلنا، فيقول الآخرون عنهم أن كلامهم غير صحيح، فهذا كلام عوام البسطاء الساذجين... فيقولون أن رؤيته تعالى لا تعني أن له جسدًا، بل له تعالى أنوارًا... فيقول آخرون يظنون أنفسهم أرقى بأن النور لا يمكن أن يكون مباشرة منه تعالى لأننا لن نتحمّل، بل هو نور صادر منه تعالى ومخفّف حتى نتحملّه، فيقول آخرون يظنون أنفسهم أرقى فكريًّا وإيمانيًّا ممن سبق أن الرؤية أصلًا بالقلب وليست بالعينين... وهكذا كما ترى، فالذين قالوا برؤيته تعالى في الآخرة قد تدرجوا من رؤيته عزّ وجلّ بالعين المجردة وعلى شكل إنسان، فتدرجوا من ذلك وصولًا إلى الكلام المنمّق عن رؤيته تعالى بالقلب، وحين تسألهم كيف يكون ذلك؟ يقولون لك لن تفهم حتى تصير من العرفاء والصوفيين ومن أهل الله تعالى... أو ستفهمه في الآخرة؟ وكما ترى فهو كلام مهما برّرت له وكيفما فلسفته فستدور في حلقة السخافة مرورًا بالسذاجة وصولًا إلى حيث لا أحد يمكنه أن يجعلك تفهم قصده.

صريح القرآن يخبرنا عن أعلى الملائكة(ع) أنّه بينهم وبينه تعالى حجاب بسبب الفرق الهائل جدًّا بينهم وبينه تعالى كما تفهم من الآية 12 من سورة الأنفال "إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا..."، وهو تعالى يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار كما في الآية 103 من سورة الأنعام "لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ"، فيستحيل رؤيته بالعين، وليس كمثله شيء كما ورد في الآية 11 من سورة الشورى "... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ...".

فلن نراه تعالى ولا بأي شكل، فلن نرى نوره بشكل مباشر ولا بشكل غير مباشر، ولن نرى نوره مخففا فلا معنى لهذا الكلام، وكل ما يقولونه لو قارنته مع بعض ودقّقت فيه بدقة لرأيت أن القرآن لم يقل ما يقولونه بصراحة ولا بالتلميح، فهم يخترعون المعاني ويلصقونها على القرآن، وحتى ما يقولونه بالرؤية القلبية لأنواره تعالى فهو كلام لم يرد تصريحا ولا تلميحا في القرآن، وتفسيراتهم التأويلية الباطنية العرفانية الصوفية الإشراقية... لكلامه تعالى فهي التفسير بالرأي الفاسد بالرغم من توافق غالبية علماء المسلمين عليها، فراجع دراستنا هذه لأي آية تظنّ أنّها تؤيّد كلامهم وسترى عكس ذلك، وهذا من الأسباب التي سيتهمون بها هذه الدراسة بأنّها قشريةٌ سطحيةٌ بسيطةٌ متعلقة بظاهر الكلام الذي للبسطاء... ويدّعون بأنهم الأرقى فكريًّا وإيمانيًّا وأنّ أمثالي المتعلقين بظاهر كلام القرآن سطحيون، فلو كان كلامهم صحيحًا فعلى الأقل لأتحفونا بتفسير يتوافق مع بعضه البعض بدل ما نجده من تفاسير مختلفة ومتخالفة حتى بين حاملي الألقاب الرفيعة صوفيًّا وعرفانيًّا...!

(ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ{16})
{ثُمَّ إِنَّهُمْ}، الفجّار وبالخصوص الغشّاشين، {لَصَالُوا الْجَحِيمِ}، فهم المتعرضون الواقفون أمام الجحيم، أمام المكان الذي يوصف بضخامة سوئه، وتعلم أنّه مكان تتأجج ناره بشكل عنيف، فهم سيقفون أمام نار الجحيم ليحترقوا بها.

(ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ{17})
{ثُمَّ يُقَالُ}، فتقول الملائكة(ع) والمؤمنون للفجّار:

{هَذَا}، الذي تتعرضون له الآن فهو نفسه، {الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ}، فكنتم تقولون عنه أنّه كذب ولا نصدّقه، فماذا تقولون الآن؟

لاحظ الآية خبر الآن لمن يقرأها أو يسمع بها من الفجّار، فتخبره أنّه سيصير فيما يقول عنه الآن أنّه كذب، فهو يقول هنا في الدنيا أنّ الكلام عن الآخرة والحساب والعقاب... كذب غير صحيح، فتخبره الآية أنّه حين يصير في العذاب، فسيقولون له: هل هذا ما قلت عنه أنّه غير صحيح؟

(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ{18})
{كَلَّا}، فتكذيبهم للآخرة والحساب غير صحيح، بل هناك آخرة وثواب و:

{إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ}، وهم الذين لم يعقّوا ربهم سبحانه فبقيت الصلة والعلاقة الطيبة بينهم وبينه سبحانه لأنّهم فعلوا ما يرضى عنه سبحانه، ومما سبق من كلام السورة ومن عموم القرآن تعلم أنّ كتاب الأبرار هو الكتاب الذي تسجّلت فيه الأعمال التي قام بها كل واحد منهم في الدنيا، وسيتم جمعها وإلحاقها بكتاب آخر لجميع الأبرار، {لَفِي عِلِّيِّينَ}، حتمًا في مكان عال جدًّا، ومما سبق وفهمناه من الآية 7 من هذه السورة بكلامها عن كتاب الفجار في سجين، ومما سيأتي في الآية بعد التالية، نفهم الكلام بتقريب الصورة أنّها كتب مفصولة عن بعضها كحالة توزيع الشهادات على التلاميذ، فشهادات الناجحين في ملف منفصل عن ملف فيه شهادات الراسبين، وهنا وصف كتاب أعمال الأبرار أنّه في كتاب أساسي لجميع الأبرار ووصفه عليون، كوصف ملف المتميزين من الناجحين، فهو ملف للعالين بالقيمة.

نعلم من الآية 177 من سورة البقرة أساسيات تفصيل المواصفات العملية للأبرار "... وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ...".

وبالنسبة لموضوع السورة تعلم أنّ الأبرار هم الذي لم يغشّوا الآخرين، فالتزموا بالصلة معه تعالى بفعل ما يرضاه بالتعامل مع الآخرين بالقسط.

نتذكّر دائمًا أنّ القرآن في الغالب يشير إلى أقصى الكفر وأقصى الإيمان، وكما ترى هنا في السورة فالأبرار مقابل الفجّار، وما بينهما من تدرجات فلا معنى للحديث عنه هنا في السورة، لأنّ تركيزها على الغشاشين وتهديدهم، وعلى المطيعين وتبشيرهم، وسترى السورة تنقل لنا أفضل ما في الجنّة لتشجيعنا على الحصول عليه، وتحذّرنا من جهنّم حتى لا نغشّ.

وانتبه جيّدًا لمفهوم قرآني ليس منتشرًا بيننا، فقد علمنا أن الغش جريمة عليها عقاب شديد، وغيره نعلم بالزنا والسرقة والاحتيال والكذب... فكلها عليها عقاب. وعادة نعدّد الأعمال الصالحة فنقول أن الصلاة والصوم وبر الوالدين والصدقة... عليها ثواب.

هنا لننتبه جيّدًا لتحليل مبني على مفاهيم القرآن، فالذي قام بعمل ما، وفيه امكانية الغشّ فيه، ولم يغش، فهذا له أجر، طالما هو لا يغشّ فهو في حالة كسب الأجر. ومثله الصادق بكلامه فهو يكسب أجرًا بصدقه، ومثله الساكت عن غيبة الناس فهو يكسب أجرًا بسكوته... بحيث كل عمل سيّء نقوم به وعليه عقاب، يكون لتركنا له عليه ثواب، حتى لو لم يخطر ببالك الكذب أو الغيبة أو الغش... وتكلّمت بكلامك العادي، طالما نيتك أن لا تفعل السوء فأنت تكسب أجرًا على تركك السوء بالعكس تمامًا لما يكسبه فاعل السوء.

منذ قليل أخبرتك أن تنتبه، والآن أطلب منك أن تلاحظ، فبداية السورة نبّهت من العقاب على الغشّ بدخول النار، وها وصلت للكلام عن الداخلين للجنّة، ولم تقل لك بصراحة وبكلام مباشر أنّهم ليسوا غشّاشين، وأخبرتك عن صفاتهم كأشخاص محترمين، ومن هذا تفهم أنّهم ليسوا غشّاشين، ومن هذا تفهم ما قلته لك عن الثواب المستمر الدائم لكل لحظة لا يفعل المؤمن السوء، لأنّه تارك كل أنواع السوء، فيتسجّل له أجر تركه لها كلّها وفي كل لحظة... فالغشاش غشّ عشرة زبائن في النهار، وتسجّل عليه عقاب على عشرة عمليات غشّ، أمّا البرّ التقي لم يغش، ويتسجل له أجرٌ على ذلك في كل لحظة، فغشّ عشرة زبائن استغرق عشر دقائق، وعقابها سنين طوالًا في النار، وأن لا تغشّ في يوم عملك يتسجّل لك أجرٌ على ذلك على طوال النهار مع ليله ومع أيام عطلتك...

هذا بالتحليل ما تفهمه من إخبار السورة لك عن أجر الأبرار من دون أن تذكر لك أنّهم لا يغشّون. وهكذا تلاحظ كل بقية كلام القرآن عن المتقين والصالحين والمهتدين...

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ{19})
يمكنك القول: عندي معلومات عن علو كتاب الأبرار، ولكن لا يمكنك القول: أدري به. لأنك لم تعشه ولم تره، ونبّهنا القرآن مِرَارًا للفرق الهائل بين ما في الآخرة وبين ما هنا في الدنيا، فوصف ما في الدنيا من سعادة بأنّه لعب ولهو وأنّ الدار الآخرة لهي الحيوان... ووصف العذاب هناك أيضًا بأنّه عظيم، فكذلك وصف كتاب الأبرار فوق قدرتنا على التصوّر الآن.

من عموم مفاهيم القرآن عن الثواب الإلهي الحسن، وعن مضاعفة الثواب، مُتذكّرين أنّنا هنا لم نتصدّق بالقصور على الفقراء، وصلّينا وصمنا وزكّينا وجاهدنا... والأجر خلود في جنّة رائعة بقصور وحور وخيام... وما لا يمكن أن يخطر ببالنا... فهذا مسجّل كأجر في كتاب الأبرار.

تصوّرها مثل حالة "شيك بنك" كأجرٍ لك على عملك، أو كهبة، وأقصى ما تتوقّعه كمبلغ مسجّل فيه أن يكفيك لتعيش بكرامة، أو يفيض عن ذلك، أو تتوقّع مبلغًا ضخمًا، وهذا الصكّ "الشيك" في كتاب، فماذا ستصير حالتك لو كان مسجّلًا فيه تريليونات الدنانير؟ وبهذا التقريب نفهم ما تقوله الآية هنا عن الجزاء المسجّل للأبرار في كتاب وصفه عِلِّيُّونَ، فلكل واحد منهم روائع فوق تصوّره ولم تخطر بباله.

(كِتَابٌ مَّرْقُومٌ{20})
الكتاب الذي في عِلِّيِّينَ: {مَّرْقُومٌ}، محدّدة فيه المعلومات فهي دامغة واضحة.

راجع الآية 9 لتقارن بين حفل توزيع الشهادات هنا في الدنيا على الطلاب، وبين توزيع كتب الأعمال في الآخرة، وسنلتفت حينها إلى معنى وجود كتاب للأبرار في عِلِّيِّينَ، كالكتاب الذي يحوي شهادات الناجحين الفخورين بعلاماتهم العالية.

(يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ{21})
كتاب الأبرار، {يَشْهَدُهُ}، يحضره يراه يكون بقربه... {الْمُقَرَّبُونَ}، وهم الذين قرّبهم سبحانه منه، بعكس الفجّار الذين بينهم وبينه تعالى حجاب، فكتاب عِلِّيِّينَ وصفه العلو والمكانة العالية، وفقط من كانوا عالين بالبرّ منه تعالى فيمكنهم الاطلاع عليه، فهو كتاب مسجّلةٌ فيه أعمالهم وثوابهم عليها.

بعبارة تصويرية أبسط، الفاجر ليس له علاقة بكتاب عِلِّيِّينَ، فأعماله ليست مسجّلةً فيه، فكتاب أعماله في سِجِّينٍ، والمنطقة التي فيها كتابه والتي سيكون هو أيضًا فيها ليتحاسب، فهي منطقة مقرفة نتنة محرقة خانقة... أمّا كتاب عِلِّيِّينَ فمن اسمه تعلم أنّه كتاب أخبار السعادة وموجود في مكان محترم مريح يشرح القلب... يشهده المقربون لأنّه يتحدّث عنهم وعمّا لهم من ثواب.

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ{22})
{إِنَّ الْأَبْرَارَ}، إن الذين لم يقطعوا صلتهم معه تعالى ففعلوا ما يرضاه، {لَفِي نَعِيمٍ}، في مكان يوصف بأنّ كل ما فيه نعمة وممدوح محمود، وهو الجنّة التي كل شيء فيها ممدوح جيّد محبوب.

(عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{23})
الأبرار في النعيم، {عَلَى الْأَرَائِكِ}، والمفرد هو أريكة، وهي الكلمة العربية للكنبة وللصوفا، ومن حيث الشكل والاستعمال فهي كالكرسي العريض ولكن عادة تكون للاستراحة عليها والاتكاء على جنبها، فليست كرسيًّا للجلوس للعمل عليه وراء مكتب أو في غرفة استقبال أو احتفال... بل مريحة مثل ما نجده في غرف الاستراحة "غرفة الجلوس" التي في منازلنا. وهم على الأرائك، {يَنظُرُونَ}، فيوجهون اهتمامهم العام لمنظر أمامهم، وحيث قالت لك الآية السابقة أنّهم في النعيم مما يعني أنّهم في الجنّة، يتكئون على الأرائك ويمتّعون نظرهم بالمناظر الخلابة في الجنة، من مناظر للطبيعة من حدائق وجبال وشلالات مياه... وحفلات...

(تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ{24})
{تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ}، عندما تنظر إلى وجوه الأبرار، {تَعْرِفُ}، {نَضْرَةَ النَّعِيمِ}، بمجرد رؤيتك لوجوههم تعرف انعكاس النعيم عليها، فأثر الراحة والسعادة من النعيم واضح على وجوه الأبرار، فوجوههم مُتَوَرِّدَةٌ، مُشْرِقَةٌ.

تذكّر دائمًا أنّ الغشّ سبّب للغشاشين الحصول على المال في الدنيا، ويمكنهم استعماله للرفاهية، واعتبروه مكسبًا لا يمكن التخلّي عنه حتى لا يخسروا المال... فترى الآيات هنا تعرض علينا ما حصل عليه في الآخرة الذي لم يغشّ في الدنيا، وابتعد عن بقية الأعمال السيئة، وتتركك الآيات لتقارن بين الجنّة الخالدة بنعيمها وبجسد خالد لا يفنى ولا يتألّم ولا يمرض... وبين ما حصل عليه الغشّاشون في الدنيا من رفاهية في وقت قصير جدًّا، ومقابله عذاب خالد لا ينتهي في الآخرة، فأيهما نختار؟

يُلاحَظُ أنّ القرآن لم يستعمل ولا مرّةً في حقّه تعالى كلمة "عرف" أو أي من مشتقاتها، فالمعرفة من التعرّف وهي العلم بالاعتماد على الأَمَارَات بطريقة غير مباشرة، عبر مقارنة ما دخل حواسك وتصوراتك ومفاهيمك مع ما في ذاكرتك والخروج بنتيجة من ذلك، أو تسجيل معلومة جديدة كالعلم حديثًا بشيء لم تكن تعلمه، أو العلم بالتلقين من آخرين لشيء لم تكن تعلمه... هو التعرّف، ولذلك لا يوصف تعالى بالمعرفة ويوصف فقط بالعلم، لأنه سبحانه لا تغيب عنه أي معلومة حتى يتعرّف عليها أو حتى يقارن بينها وبين ما يعلمه، فعلمه فائق.

(يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ{25})

وبينما الأبرار في النعيم، فإذا طلبوا شرابًا، فالخدم يُسْقُونَهُم من {رَّحِيقٍ} وهو عموم أي مشروب صافٍ لم ينخلط مع شيء آخر، كماء الورد المركّز فهو رحيق فتضيف له الماء لتشربه... وبالخصوص فالرحيق هو السائل الحلو الطعم الذي يكون في الأزهار، وهو الذي تمتصه الفراشات والنحل، وهذا الرحيق الذي يشربونه، {مَّخْتُومٍ} ففي ختام الشرب منه ففي نهاية الشرب منه يوجد طعم مميّز ستذكره الآية التالية.

لاحظ في المعاجم القديمة قولهم عن الرحيق أنّه الشراب الصافي غير المغشوش، وهذا من ضمن تعريفاتهم العديدة لهذه الكلمة، وفسّره الكثيرون بأنّه الخمر غير المغشوش، وتفهم من كلام أكثرهم أنّ تفسيرهم لكلمة الرحيق بالخمر غير المغشوش ليس على أساس أصل المعنى اللغوي لكلمة رحيق "عموم أي مشروب صافٍ" بل على أساس أنّ كلمة رحيق مخصّصة للخمر غير المغشوش، ولو دقّقت لرأيت أنّ بداية هذا المعنى من مفسري القرآن، وبعدها أدرجه أصحاب القواميس كمعنى للكلمة...

عموم أي شراب صافٍ فهو رحيق، ويصدق الوصف على الخمر إذا لم يضيفوا الماء له، وما ورد في الكتب لتفسير آيتنا هنا خصوصًا بالخمر غير المغشوش كمرادف لكلمة رحيق، فهو غير صحيح لأنّ الكلمة عامّة الانطباق على الخمر وغيره.

أطلت عليك الكلام في هذه الكلمة لتنتبه لمشكلة عامّة موجودة في القواميس القديمة والتفاسير، فأصحاب المعاجم المشهورة كانوا من العلماء ومن المثقفين في عصرهم، ولديهم معلومات عن مختلف العلوم والصناعات والحرف... ولكن ليس بالدرجة المتاحة لنا في عصرنا الآن، فعلى الإنترنت يمكنك بدقيقة التعرّف على أي مهنة في أي بلد...

لو راجعت تلك القواميس القديمة عن كلمة عسل لوجدت كلامًا ساذجًا عن النحل وما يأكله ومن أين يأتي العسل... وستنتبه لضعفهم الشديد في مجال تخصصي لا يعلمه إلا القليل من الناس في زمانهم، ولن تجد كلمة رحيق واردة في كلامهم عمّا تأكله النحلة! فضع دائمًا هذا المثال في بالك حتى لا تقدّس القواميس القديمة على أساس أنّها مراجع لا يجوز مخالفتها، وهناك العديد من أمثال كلمة رحيق، فستجد كلامًا غريبًا عن المرجان والدسر وإثم وأريكة وصلاة وقرض...

هذه المشكلة منتشرة في كتب التفاسير، حيث حصروا أنفسهم في رواية عن صحابي ما أو عن تابعي تعلّم من الصحابة أو... ولم يفكروا مرّتين إن كان ما وصلهم تخمين أو تحليل أو افتراض... أو حقيقي. وتعاملوا معه على أنّه مقدّس! ولم يتركوا المجال لمن يعرف معنى الكلمة أن يصلنا كلامه لأنّه ليس مقدّسًا، فكان عاملًا بالنحل والعسل ولم يكن صحابيًّا ولا تابعيًّا ولا من مفسري القرآن العظام... فلم يصلنا كلامه.

(خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ{26})
{خِتَامُهُ} الرحيق الذي يشربونه، ففي نهاية ما يشربونه طعم، {مِسْكٌ}، وهو نوع من العطور، وهنا في الدنيا يتم استخراجه عادةً من الحيوان النوع المعروف باسم غزال المسك، ويكون المسك في كيس على غلاف بطن الغزال الذكر، والكمية القليلة جدًّا من المسك مع المشروبات، ستترك أثرًا تلحظه بعد ابتلاع السائل، مثل الأثر الذي تلاحظه للقليل من ماء الزهر مع الماء...

ننتبه أشد الانتباه، فمهما بلغت حلاوة ولطافة وروعة الرحيق والمسك هنا في الدنيا، فهي لا شيء بالنسبة لما في جنة الآخرة، فلا تتصور أنّها أطيب بقليل أو حتى بكثير، بل تصور أنّه لا يمكننا المقارنة بينهما، فالرحيق من أزهار الآخرة، والمسك من عطور الآخرة، والشارب لهما يتمتّع بجسد خالد ارتفعت فيه درجات الإحساس بالسعادة أضعافًا مضاعفةً، وللتقريب قارنها مع الطفل ذي الحواس الجديدة بالمقارنة مع الكبير في السن بحواسه التي نزلت إلى حدّها الأدنى بسبب ضعف مستقبلات الحواس عنده...

ننتبه أيضًا فالدارج الآن قولهم "مسك" لحبوب من صمغ الشجر يتم استخدامها في العلكة ومكونات الطعام، والكلمة العربية القديمة المشابهة لها في تسمية بعض أنواع صمغ الشجر هي: لبان. وأول تسمية للمسكة المعروفة حاليًّا كان: مستكة. فتغير لفظ هذه الكلمة في بعض المناطق ليصير مسك، فانتبه فهذا شيء جديد وليس هو المسك المعروف قديمًا.

على كل حال، فطعم المستكة "الصمغ" قريب بشكل ما من طعم المسك "الإفراز من الغزال"، وكلا المادتين للتنكيه بكميات قليلة جدًّا، فالكمية الكبيرة منهما سامة، ونفس الحالة للمحلب واللوز المرّ...

{وَفِي ذَلِكَ}، في النعيم الذي يجلس فيه الأبرار على الأرائك يشاهدون المناظر الخلابة الرائعة، ويطوف عليهم الخدم بكؤوس الرحيق التي نهاية طعمها المسك مثلما يفعل ماء الزهر في المشروبات والحلويات، {فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}، فهو شيء مرغوب الحصول عليه، فليعمل الراغبون في الحصول عليه، كما نقول: نافسني على الجائزة. ونقصد أنّنا كلانا لدينا رغبة بها، وكلانا نعمل بجهد للحصول عليها. وطبعًا فما يعرضه تعالى لنا في الآخرة ليس محدودًا بجائزة واحدة، بل يعرض سبحانه علينا مرتبة واسعة تتسع لكل من يعمل للوصول إليها، فالمنافسة لا تعني أنّك ستأخذ الجائزة وتنفرد بها لوحدك إذا التزمت بالتمام بأوامره تعالى، لا، بل كل المشاركين يفوزون.

بعبارة أخرى: إذا كان هناك شيء يستحق أن يكون عليه تنافس للحصول عليه، فهو هذا النعيم الذي وصفت الآيات القليل منه، فليتنافسوا للحصول عليه. فالتنافس هنا مثل التنافس لدخول الجامعة العلمية، فالجامعة لا تأخذ تلميذًا واحدًا، بل تأخذ الناجحين فقط، والتلامذة يتنافسون للدخول عليها عبر الاجتهاد بالدراسة، وكذلك النعيم تعرضه السورة علينا لنتنافس كلّنا لنكون فيه.

لمزيد من التفاصيل عن نكهات المشروبات راجع الآية 17 من سورة الإنسان "وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا".

(وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ{27})
لم يتوقف التوصيف على الرحيق المختوم بالمسك الذي يستحق التنافس عليه، إنّ: {وَمِزَاجُهُ}، خليط ذاك الشراب، {مِن تَسْنِيمٍ}، وكما سترى من الآية التالية هذا الوصف لنبع ماء مرتفع عن الأرض، وأقرب كلمة لـ "تسنيم" هي السَّنَام، وهي وصف لما هو مرتفع، كسنام الجمل، كسنام الهضبة...

(عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ{28})
التسنيم: {عَيْنًا}، فتحة في الأرض أو في الصخر يخرج منها السائل، {يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ}، حيث إنّ أولئك الذين قرّبهم تعالى منه فأكرمهم وجعلهم في الجنّة، يشربون من هذه العين، الموصوفة بأنّها تسنيم فهي نبعٌ عالٍ.

هنا في الدنيا نشعر بميزة العيون التي تنبع على رؤوس الجبال، فهي عادة تكون نقية وذات مذاق مميز، وإذ إنّ الآيات هنا تعرض مَشْهَدًا عن عين على مرتفع يخرج منها سائل مشروب يتم مزجه مع الرحيق الذي ختام طعمه مسك.

الآيات تعرض عليك الرفاهية والترفّه في الجنّة عبر عرضها لنموذج عن مشروب خليط من عدة نكهات، وما ورد في الآية 15 من سورة محمد عن أنهار من مختلف أنواع المشروبات "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى..." ما هو إلا نموذج عن النوعية والوفرة، وهنا في الآيات ترى قابلية مزج النكهات لإنتاج مشروبات عديدة متنوّعة الطعم والمذاق.

(إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ{29})
من هنا تعرض السورة نموذجًا من معاناة الأبرار التاركين للغشّ وبقية السيئات، حيث تعرض معاناتهم مع الفجّار لتريك أنّهم الأبرار فعلًا يستحقون رفاهية الجنّة، والمجرمون فعلًا يستحقون عذاب الجحيم.

{إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا}، ارْتَكَبُوا الجرائم وقاموا بالأعمال التي يستحقون عليها العقاب، وبالخصوص الذين فعلوا الغشّ كنموذج سيّئ جدًّا من بقية السيئات، حيث إنّ المجرمين ومنهم الغشّاشون، {كَانُوا} "هنا في الدنيا" {مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا}، من الأشخاص الذين صاروا في حالة اعتقاد والتزام بهذا الدين، {يَضْحَكُونَ}، يظهر عليهم تعابير السرور بالابتسامة العريضة وصدور صوت الفرح، وذلك تعبيرًا عن سرورهم ساخرين من الذين آمنوا بالآخرة والحساب، فيعتبرونه تهريجًا ويسبّب الضحك.

كان المجرمون يضحكون من صلاح المؤمنين وإيمانهم الذي يدعوهم لترك الغش وترك بقية السيئات التي نهى الله تعالى عنها... وخذ مثلًا من أجواء السورة عن قوم النبي شعيب(ع) الغشاشين الساخرين منه عندما أنذرهم من العذاب على الغش، كما تقرأ ما ورد في الآية 87 من سورة هود "قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ" فهذا نموذج عن ضحكهم على المؤمنين.

(وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ{30})

{وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ}، الذين أجرموا إذا مروا بالمؤمنين، إذا مجرمان أو ثلاثة... شاهدوا في مكان عام أو في الطريق، شاهدوا شخصًا أو جماعة مؤمنة لا تقوم بالغش، ولا ترتكب بقية الجرائم، فإن المجرمين {يَتَغَامَزُونَ} يشيرون إلى بعضهم البعض بسخرية بطرف العين أو باليد أو بالإصبع إلى المؤمنين، إذ إنّ الغمز هو الشدّ بالعصر على أي شيء، والتغامز على الناس عادة يحصل حين يشدّ أحدهم ثوب الذي بقربه ليلتفت إلى من يريدون السخرية منه، أو يغمزه في كتفه، أو يغمز له بعينه...

تجد في القرآن نماذج أخرى عن سخريتهم وتغامزهم من الموحدين ومن المصلين ومن المزكّين ومن المتصدقين ومن... وفي حياتنا العادية نرى العديد من نماذج التغامز على المحجبات وعلى الصائمين وعلى مرتادي الجوامع... وعلى المحتشمين باللباس والأقوال والأفعال... وكأن أفعالهم معيبة وتستحق التغامز عليها!

(وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ{31})

هؤلاء المجرمون، {إِذَا انقَلَبُوا}، تَحَوَّلُوا من الأماكن العامة من الطرقات وأماكن العمل والأسواق... {إِلَى أَهْلِهِمُ}، إلى أماكنهم الخاصة بهم وبمن ينتمون إليهم، إلى بيوتهم والأماكن التي يجتمع فيها هذه النوعية من الناس كالمقاهي والنوادي والبارات... {انقَلَبُوا فَكِهِينَ}، تحوّلوا إلى مجتمعهم الخاص بهم وهم موصوفون بحالة الفكاهة، فيقومون بأمور لا جديّة فيها، ويحدّثون "أهلهم" المجرمين الآخرين بالأمور والحركات المضحكة عن المؤمنين.

في حضور المؤمنين يتغامزون عليهم للسخرية، وفي غياب المؤمنين يتسلون بهم بالكلام الساخر عنهم...

(وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاء لَضَالُّونَ{32})

{وَإِذَا رَأَوْهُمْ}، صار عند المجرمين صورة محدّدة بالعين للمؤمنين، {قَالُوا} عنهم: {إِنَّ هَؤُلَاء}، الذين لا يفعلون كما نفعل ولا يعتقدون كما نعتقد، {لَضَالُّونَ}، لأنّ طريقتهم في العمل والتفكير غير صحيحة ولن توصلهم لشيء صحيح، وكنموذج إنّ تركهم للغشّ بناءً على تجنّب عقاب الآخرة هو عمل غير صحيح ويسبّب لهم الخسائر.

بغضّ النظر عن السلوك الإجرامي لهؤلاء الناس، إنّهم يقومون بتقييم سلوك غيرهم! وبما أنهم يقومون بأعمال الإجرام سبحانه يبيّن لنا مدى خطورة ما يقومون به، تصوّرْ: مجرم غشّاش يقول عن المؤمن إنّه ضال!

كثيرًا ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواءً أكان خيرًا أم شرًّا، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضَلَّ عنك صيدها. اسْتَعْمَلَ القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، ولم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنّه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، ولن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضال عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردًّا على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له(ع) بالكفر.

(وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ{33})

أولئك المجرمون الذين يطلبون من الناس التصرف مثلهم حتى يكونوا مهتدين: ما أرسل سبحانه أولئك المجرمين على بقية الناس حافظين، صائنين راعين للآخرين من الضلال!

سبحانه يوظّف أشخاصًا مناسبين لتبليغ رسالته للناس، ولم يجعل رسله حفظة على الناس أصلًا، فلم يوكل إليهم مهمة تغيير سلوك وأفكار الناس، بل فقط أمرهم بتبليغ الرسالة، أمّا المجرمون الذين لم يوظفهم سبحانه لهداية الناس، وأصلًا هم أبعد ما يكون عن الهداية حتى يهدوا غيرهم، فهؤلاء المجرمون يتصرفون على أساس أنّهم هداة للآخرين! بل يتصرفون على أنّهم حافظون لهم، فمهمّتهم جعل الآخرين مثلهم! فبالإضافة لعملهم على هداية الناس إلى الإجرام فهم يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن إقناع الآخرين بصحّة الإجرام!

كلام الآية عن عموم نماذج الإجرام، فالذين يحلّلون الزنا والمسكرات والمخدرات والشذوذ... يحاولون إجبار الآخرين على اتباع قوانينهم، فهذا الإجبار للآخرين على المشي على قانونهم الضّال، واعتبارهم لأنفسهم مسؤولين عن نشر هذه القوانين، عبر الترويج لها إعلاميًّا وإجبار الآخرين على تقبّلها، فهو ما تشير له الآية هنا، وتعتبره شيئًا غريبًا! فإن كان الواحد منهم فاعلًا للسوء وتعامى وتغابى فأقنع نفسه بأنّ معه حقًّا، فعلى أي أساس يسمح لنفسه بإقناع الآخرين ليصيروا مثله؟ وكما ترى فهم يمنعون المؤمن من الصلاح، بينما هم يفرضون سوءهم على الآخرين!

نتذكّر من التاريخ فترة انتشار الفكر الشيوعي والبعثي والقومي... في بلداننا العربية، وقيام هؤلاء بحملة توعية وتدريس لفكرهم! وعملهم بجدّ وحماسة وتحمّل للمسؤولية على جمع أكبر عدد من المناصرين، حيث إنّ هؤلاء نموذج ينطبق عليهم دور الرسل الحافظين، إذ لديهم رسالة يجب توصيلها، وفوق ذلك فهم يشعرون بالذنب إذا لم ينضمّ الآخرون إليهم!

حاليًّا في زمن كتابة هذه الدراسة، راج في العالم العمل على نشر الحرية والديموقراطية، وهي الحرية من كلّ شيء، من الدين من الأخلاق من الأعراف... فهي الحرية من كلّ شيء إلا مما يعارض مصالح القوى الكبرى اقتصاديًّا، وضمنًا عسكريًّا وإعلاميًّا! وإلا من التبعية لهم والتماشي مع مصالحهم وبسط نفوذهم، حيث هناك فئة من المجرمين الكبار الذين يمتصون تعب الناس والموارد الطبيعية ويكدّسون المليارات... وبعدهم يأتي نادي الموظفين الجامعين للملايين... ومن خلف الكواليس يلعبون بدمى الرؤساء والملوك والحكّام وعلماء الدين والوزراء والنواب والأحزاب والجمعيات وأئمة المساجد... ويتركونهم يفسدون بل ويشجعونهم على الفساد في بلدانهم في مقابل تركهم في الحكم، ومقابل منح المجرمين الكبار منهم حقوق تصريف المنتجات والتحكّم بالموارد الطبيعية والقوى البشرية...

اعذرني إذ أطلت عليك ولكن هذا ما تقوله الآية هنا، وهذا ما يقوله عموم القرآن، ولا نراه ولا نهتم به، بل وننجرف إلى التفكير بالرفاهية التي تعيشها بعض البلدان التي لا تمشي على دينه تعالى، على أساس أنّ الدين بشكل عام "والدين الإسلامي بشكل خاص" لا يجلب لنا الرفاهية في الحياة، بل يجلب لنا التعاسة! وها نرى الفرق الهائل بين المجتمعات التي تدّعي التديّن، وبين المجتمعات التي تركت الدين. وهذا الكلام نسمعه من حولنا ونراه على مختلف وسائل الإعلام، وهذا كلّه على أساس أنّ دولنا التي تسمّى "دولًا إسلاميّةً" هي فعلًا دول إسلاميّة، وحكّامها، ما شاء الله عنهم، ملتزمون بدينه تعالى وليسوا فاسدين مفسدين هم وأقاربهم وعصابتهم الحاكمة، خزاة العين عنهم، ويكتفون بمعاشهم آخر الشهر وبالكاد يكفيهم، وليس لكل واحد منهم حساباتٌ وشققٌ وقصورٌ وأراضٍ وشركاتٌ... سرقوها ونهبوها من المال العام والالتزامات الوهمية... ما شاء الله عنهم، آية في الطهارة ونموذج للحاكم المسلم العادل.

أمّا الأكثرية الساحقة من علماء الدين المسلمين، فالخضر الأخضر يحرسهم، لا ينشرون الفتنة والتفرقة والمذهبية بين المسلمين، لا، ولا يحللون دماء ومال وأعراض المسلمين، لا، وليسوا في العلن ولا في السرّ يكفّرون بقية المسلمين، لا، ولا يبررون بفتاوى دينية لأعمال الملوك والأمراء والحكّام والرؤساء... لا، فالغالبية منهم ما شاء الله وبارك، متفقّهةٌ في دينها واعيةٌ لأحكامه، عاملةٌ بجدّ ونشاط على توحيد المسلمين وتطبيق الشريعة السمحاء...

يا عزيزي ويا عزيزتي، إن لم تروا علماء السوء الذين يعملون بجدّ ونشاط عمل "المجرمين بدور المرسلين الحفظة" على هدم الدين الإلهي، فلن تروا ما تقوله الآية عن المجرمين، ولن نفهم أنّ الغشّ الذي ركّزت عليه السورة هو نموذج واضح عن أسوأ وأوضح أنواع الإجرام، فبقية أعمال الإجرام اكتفت السورة بشملها بتوصيف الفجور والإجرام...

أنا واحد من الناس الذين يخافون من تطبيق دينه تعالى على الطريقة التي يروّج لها غالبية علماء الدين، فدينهم مختلف كثيرًا عن قرآنه تعالى، وأكثرهم فاسقون منافقون ساعون لمنافع مصالحهم الشخصية، وداعمون أو مشاركون للسلطة

الفاسدة، وبسبب هؤلاء يتشوّه دينه القرآني سبحانه، وتصير الدعاية ضدّه مدعومة بواقع سوء حال المسلمين، بينما هم في الحقيقة مجرّد منتمين بالاسم لدينه تعالى...

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ{34})
{فَالْيَوْمَ}، في زمن القيامة من الموت وما بعده، {الَّذِينَ آمَنُوا}، الذين هم في حالة الاعتقاد به تعالى وفي حالة الالتزام بأوامره تعالى، فهم، {مِنَ الْكُفَّارِ}، من الناكرين لربهم سبحانه ولدينه وللآخرة... {يَضْحَكُونَ}، فتظهر عليهم تعابير السرور بالابتسامة العريضة وصدور صوت الفرح من الشماتة بالحالة المزرية للكفّار.

وصّفت الآيات السابقة كيف كان الكفّار هنا في الدنيا يسخرون من الذين آمنوا علانيةً، وبالتغامز، وفي جلساتهم الخاصة... ونتيجة لذلك في الآخرة سيضحك المؤمنون عليهم.

ننتبه دائمًا لما يشير إليه القرآن من نتائج لأعمالنا التي نقوم بها هنا في الدنيا على ما سيحصل معنا في الآخرة، وهنا في السورة ترى إشارات عديدة من هذا النوع، فالتعلّق بالغشّ فكريًّا ونفسيًّا هنا في الدنيا، يسبّب الرين على القلب، وهو نفسه حجاب في الآخرة على الغشّاشين فلا يرون رحمته تعالى ولا مغفرته... وما كسبوه من مال حرام من الغشّ سيسبّب لهم الصلي في جهنّم، ومن ترك الغش ومكسبه الحرام، فسيحصل على النعيم... وسخريتهم وضحكهم من المؤمنين هنا في الدنيا سيسبّب لهم ضحك المؤمنين وسخريتهم منهم في الآخرة...

(عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ{35})
{عَلَى الْأَرَائِكِ}، ومفردها أريكة، وحاليًّا درج أن نقول صوفا وكنبة، فهم على المقاعد الواسعة المريحة التي لها مساند على جنباتها، يجلس المؤمنون، {يَنظُرُونَ}، يوجّهون اهتمامهم العام إلى حالة الكفّار أثناء تعذيبهم.

الكلام عام من بعد قيامنا من الموت وأثناء محاسبتنا فالمؤمنون يتنعمون ويضحكون من المجرمين وتفهم ذلك من الآية 50 من سورة الأعراف "وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ" الناقلة لمشهد مما قبل دخول النار والجنّة، وتستمر الحالة إلى ما بعد دخول المؤمنين إلى الجنّة كما تقرأ ما قبل وبعد الآية 55 من سورة الصافات "فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ" الناقلة لمشهد مؤمن نجا من وسوسة قرين السوء فدخل الجنّة وطلب مشاهدة قرينه ليرى مصيره...

(هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ{36}
ينظر المؤمنون: {هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ}، فهل رجع على المنكرين، {مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}؟ بعبارة أخرى: إنّ المؤمنين الذين تأذّوا من ضحك الكفّار عليهم هنا في الدنيا، يريدون حقّهم من الذين أهانوهم وسخروا منهم واستهزؤوا بهم، وجعلوهم مضحكة في سهراتهم ونواديهم وباراتهم وأفلامهم ومسلسلاتهم وكتبهم... فتسألهم الآية كخبر منه تعالى لنا الآن، فهو تعالى وعدنا بالثواب الحسن على طاعته وها نقلت السورة لنا خبرًا عن النعيم في الآخرة، ونقلت لنا السورة خبرًا عن الثواب السيّء بالعقاب لمن كفر وفجر، فهل ترون أيها المؤمنون أن الكفّار الفجّار قد نالوا الثواب الذي يستحقونه؟

نعم نالوه بالتمام حريقًا وسخرية منهم، وحرمانًا من أي شيء يريحهم أو يسرّهم، والمؤمنون مستريحون يشاهدون حصول الكفّار والمجرمين على ثوابهم السيّء.

ربّما يخطر ببالك الآن أنك طيب القلب ومتسامح وتستصعب الشماتة من الكفّار، ولكن لا تَنْسَ، أنّهم ينالون ثواب ما فعلوه، وبالمعنى الحرفي لكلمة ثواب: يرجع عليهم ما فعلوه. فرضًا فرضًا كان هناك كافر ما لم يسخر من المؤمنين، فهذا لن يتعرض للسخرية في الآخرة، وإذا لم تتعرض أنت للسخرية على إيمانك بشكل مباشر من الآخرين، فلم تشعر بشدة سوء الأذية من ذلك، فعليك تصوّر شعور الذي سخروا منه وأهانوه وأذلّوه لأنه مؤمن، وفي يوم القيامة كل شيء سينكشف وستتفاجأ بنوعية شدة سوء السخرية التي حصلت عليها أنت كمؤمن من الكفّار، فلا يخطر الآن ببالك أبدًا أن الشماتة بالكفار في يوم القيامة شيء قاسٍ زيادة عن اللزوم، فهم سيحصلون على كل ما يستحقونه بدون أي زيادة،

فسيرجع عليهم ما عملوه من سخرية بالمؤمنين وبدينه تعالى، وسيؤذيك أن تراهم نالوا رحمة ولو على قدر شعرة، وها تخبرك الآية من الآن أنهم لن ينالوها.

سورة الانشقاق (84) ص 589
خبر قرآني منه تعالى لكل إنسان كي ينتبه لنهايته في الآخرة، لأن كل ما نفعله هنا في الدنيا هو كدح من المنظور الإلهي لنا، وأي نوع من القول أو العمل نقوم به فهو سعيٌ له أثر في الآخرة، وعليه عقاب أو نعيم، وتنبّهنا السورة لاختيار كدحنا على أساس أوامره تعالى لننال النعيم وتحذّرنا من الكدح بمخالفة أوامره تعالى حتى لا ننال العقاب.

تبدأ السورة بعرض ما سيحصل حتما من تبدلات ستحدث في السماوات والأرض قبل قيامة الناس من الموت وصولا إلى الحساب على ما كدحناه في الدنيا.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ{1})
{إِذَا} التي فوقنا صار فيها شقوق، فتباعدت أجزاؤها عن بعضها، وتعلَمُ من آيات أخرى من القرآن أنه قبل يوم القيامة ستتبدّل السماوات، فهي الآن طِباقٌ غير مفتوحة على بعضها وفي الآخرة ستنفتح على بعضها ويصير بينها ممرات وفيها أبواب وتنزِلُ منها الملائكة(ع)، راجع مثلا دراسة الآية 19 من سورة النبأ "وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا"، وانشقاق السماء هو وصف لسمائنا عندما ستتداخل معها السماوات الأخرى، ومن الآيات التالية التي تتحدث عن إخراج الأرض لما فيها من أموات نفهم هنا "ومن العديد من السور القرآنية" أن انشقاق السماء تمهيد لنزول الملائكة(ع)، من فوق "السماء" ستنشق وتنزل منها الملائكة(ع) إلى ساحة القيامة، ومن تحت "الأرض" ستلقي الأموات إلى سطحها.

نتذكّر دائما "من القرآن" وجود سماوات أخرى غير سمائنا، فهناك ست سماوات غيرها، ونعلم من القرآن أن السماء العالية فيها الملائكة(ع) العالية، وربما هي السابعة أو السادسة أو... وبقية السماوات يعيش فيها الجنّ، ويحاول بعضهم الاقتراب من سماء الملائكة... راجع كمثال دراسة الآية 8 من سورة الجنّ "وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا"، وما نسميه نحن بالكون إنما هو السماء التي نعيش فيها نحن، وهي آخر سماء كما يبدو من الآية 12 من سورة النبأ "وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا"، ونتذكّر أيضا من الآية 33 من سورة الرحمن "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ"، فالجنّ سبقونا وتنقّلوا بين السماوات، ونحن سيأتي علينا زمن سننتقل فيه من سمائنا إلى سماوات أخرى وسنتعرض للشواظ كما ورد في الآية 35 من سورة الرحمن "يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ"، ونتذكّر أيضا من القرآن تكراره لوصف تبدّل السماوات قبل يوم القيامة بوصفها بالانشقاق والانفطار وكوردة كالدهان وصيرورَةِ أبواب فيها...

وهنا أول آية في سورتنا تخبرنا عن بعض الأمور التي ستحصل حتما في الآخرة، وسترى كل السورة تريدنا أن نفهم أننا كلّنا ذاهبون إلى تلك المرحلة التي فيها حساب على ما عملناه في الدنيا، وعندما تصل إلى الآية التي تذكر لبّ السورة "عن الكدح" سترى أن انشقاق السماء وإلقاء الأرض ما فيها هو ساعة ملاقاته تعالى بعد كدحنا في الدنيا.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضا على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضا على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائما أن التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنويا" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ..." وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراضٍ "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضا بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراضٍ.

عادة نحن في كلامنا نتساهل بالتعبير فنستبدل تعبير السماوات والأرض بالدنيا، فنقول: خلق سبحانه الدنيا. أو له ملك الدنيا... ولم يستعمل القرآن هذا التعبير لأنه ليس تعبيراً صحيحاً دقيقاً بالنظر إلى معنى كلمة دنيا التي تُوَصِّفُ الدنو بما نحن فيه من مكان وزمان وحالة... في مقابل الآخرة، والتعبير القرآني الآخر القريب هو ما ورد في الآية 25 من سورة النجم "فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى". فسبحانه دقيق في تعابيره ويحدّثنا بدقّة عمّا يعلمه، وكلامه تعالى عن السماوات والأرض هو كلام عن علم بما أمامه سبحانه، فسبحانه دائما يتكلم بشفافية عمّا أمامه فقط، أمّا الكلام عن كلّ ما في الدنيا، فـهو كلام عمومي ويشمل "نظرياً" ما هو خارج العلم، ولذلك لم يستعمله تعالى، بينما ترى استعماله في كلام عموم البشر لأننا نتساهل ونتراخى في التعبير.

(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ{2})

{وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا}، والإذن هو عموم السماح للآخرين بالقيام بشيء، ويتدرج من عموم علمك بما سيفعله وتركه يفعل ما يريد مع قدرتك على منعه أو الاعتراض، إلى خصوص سؤاله لك ليفعل الشيء وسماحك له مع قدرتك على منعه أو الاعتراض. وبالعموم، كلمة "إذن" غير ناظرة إلى الموافقة ولا الاعتراض ولا الرضا ولا السخط... من السياق يتحدد ذلك. هنا الكلام عن استجابة السماء لما سيفعله بها ربّها من تبدّل فتماشت معه، {وَحُقَّتْ}، فقامت بما هو حقيق بها، فقامت بما هو متوقّع منها، فانشقّت حين أمرها تعالى بالانشقاق. مثلما نقول: حقيق عليّ أن أساعدك. يعني أني سأقوم بما هو متوقّع ومفروض مني فعله، وهو مساعدتك.

بعبارة أخرى، صدر أمر منه تعالى يسبّب للسماء التبدّل فنفّذته، وهذا شيء متوقّع مفروض حصوله منها.

نتذكّر دائماً من القرآن أن كل شيء له كيان فله وعي، السماوات والأرض والجبال... لها وعي، طبعاً من ناحية الإله سبحانه الذي يملك القدرة على التعامل معها، فهي لها وعي من نوع ما، وأمّا من ناحيتنا نحن وبسبب قدراتنا الضعيفة فإننا نراها كجمادات، وستجد في كتب التفسير كلاماً مختلفاً حول هذا الموضوع أثناء تفسيرهم للآيات التي تخبرنا عن حوار جرى بينه تعالى وبين السماوات والأرض كما ورد في الآية 11 من سورة فصلت "ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ"، والآيات الأخرى التي مثل آيتنا هنا والتي تتحدّث عن أمر إلهي نفّذته "الجمادات" عن وعي وفهم للأمر الإلهي، والآيات التي تتحدّث عن تسبيح وسجود عموم الكائنات كما ورد في الآية 18 من سورة الحج "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ...".

علماءُ المسلمين تبدأ آراء بعضهم من النفي المطلق لوجود أي نوع من الوعي "للجمادات"، ويقولون عن الآيات إنها تعابير مجازية، ويُخَرِّجون معانيَ الآيات على أنها استجابة طبيعية ومطاوعة قسرية لتنفيذ أوامره تعالى، مثلما ألوي الحديد بيدي، فلا وعي للحديد، ولكنه مطاوع لتنفيذ قوّتي عليه، فيلتوي، فيقولون إنَّ أوامره تعالى للجمادات هي طريقته تعالى لفعل شيء بها، فأنا بيدي التي بكفّ وخمسة أصابع أفعل اللَّيَّ بالحديد، والأمر منه سبحانه للجمادات، كأمره تعالى للسماء أن تنشقّ، مشابهٌ لما أفعله أنا بيدي للحديد، فلا الحديد عنده وعي ولا السماء عندها وعي.

بقولهم هذا يصير ما قاله القرآن عن كلام صدر من السماوات والأرض "قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ" يصير لسان الحال، هما لم تقولا ولكن حالتهما تعبّر عن طاعتهما... ويصير التسبيح للجمادات لسان الحال أيضاً... وهكذا تصير الآيات مجازية، وفاتهم أنهم ينظرون "للجمادات" من ناحيتهم هم كبشر بقدرات محدودة لا تمكّنهم من التعامل مع نوع ومستوى الوعي الموجود في تلك الكائنات، وفاتهم أننا كلّنا "كائنات" بالنسبة له تعالى، فمن حيث التكوين، أنا وأنت لا نختلف عن الجبل، ولا عن السماء، فكلنا مصنوعون من نفس المادّة، وفاتهم أن اللحم الذي علينا ودَمَنا وعَظْمَنا إنما هو مركّب من الماء والتراب، من الماء والكربون والكالسيوم والحديد... فأنا كائن والجبل كائن... وفاتهم أن كلام الإله سبحانه صريح ويخبرنا عن وجود وعي خاص مختلف عن وعينا لكل بقية الكائنات، وهو وعي لا نفقهه، فلا نفقه تسبيحهم كما ورد في الآية 44 من سورة الإسراء "تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ..."، ورغم ذلك نفوا التسبيح والوعي عنهم! واعتبروا كلامه تعالى مجازياً!

علماءُ آخرون فهموا أن للجمادات وعياً خاصاً بها، وفهموا أنها فعلاً وبشكل ما تسبّح، ولكنهم لم يتوقّفوا هنا وأكملوا وشرحوا كيف تسبّح... وفاتهم أن القرآن يقول صراحة أننا لا نفقه تسبيحهم فكيف فقهوه هم! طبعاً لا أقصد أننا بالمرّة لن نقترب من فهم وعي تلك الكائنات قد يحصل هذا بشكل سطحي تقريبي، ولكنه لن يصل إلى نفس المستوى الإلهي حين يتعامل سبحانه مع تلك الكائنات.

من المفيد في هذه المسألة تذكّر تسبيح الجبال من النبي داوود(ع) والذي ذكرته الآية العاشرة من سورة سبأ "وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ"، فيبدو أنه(ع) وبتدخّل إلهي خاص، صار لديه نوع من فهم وعي الجبال، ولمزيد من التفاصيل راجع دراسة الآية.

إذن واستناداً للقرآن، هناك وعي ما لكل الكائنات، وخالقها يتعامل معها بالتواصل وبالأوامر، ونحن لا قدرة لنا على التواصل مع من نسمّيه بالجمادات، ويمكننا التعامل معها بتحريكها وتفكيكها ورؤيتها والتلاعب بموادّها... وما قالوه في الكتب ويخالف صريح ظاهر القرآن، فهو نابع من إنكارهم لشيء يفوق قدرتهم على استيعابه، وكأن قدراتهم الفكرية هي المعيار لصحّة كل الأمور والشؤون، ناسين أن إلها بقدرات فائقة يقول بأنه يتعامل مع كل الكائنات وأن لها وعياً ما مختلفاً عن وعينا.

أقوالهم نابعة من قبول الغالبية لوجود مجاز واستعارة وكناية... في كلامه تعالى، بحيث لا يعكس كلامه تعالى الحقيقة! وكأن العبارة تخونه تعالى فيضطر لاستعمال كلمات وعبارات يخالف معناها معنى ظاهرها! أو كأنه تعالى ترك التعبير المباشر الصريح واستعمل البلاغة على المعايير التي وضعوها هم ليثبت لنا أن القرآن كلامه! وأقوالهم نابعة من إصرارهم على تنزيل مستوى الكلام الإلهي ليصير على قياس أفكارهم هم بدلاً من أن يرموا أفكارهم ليتعلّموا من كلامه تعالى.

أقوالهم نابعة مما سمّوه بالتأويل ولديهم اصطلاح خاص بهم لمعنى كلمة تأويل ويخالفون به المعنى الأساسي العربي الذي استعمله القرآن، ومما سمّوه بالباطن كتفسير لكلامه تعالى، وبذلك صار سهلاً عليهم ومقبولاً منهم ترك ظاهر الكلام بحثاً عن تأويله وباطنه بما يخالف ظاهر ما تفهمه من الكلام العادي... وراجع في دراستنا هذه أي آية قالوا إنَّها لها باطنٌ أو تأويلٌ مخالفٌ لظاهرها لترى أن كلامهم مسخ لكلامه تعالى حتى يوافق معلوماتهم ومعطياتهم وهواهم.

(وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ{3})
أثناء تغيّر حال السماء قبل يوم القيامة فإن الأرض سيحصل فيها تغيّر أيضاً:

{وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ}، صارت ممدودة ليس فيها جبال أو هضاب، وبالتالي لم يعد فيها وديان أو منخفضات.

نتذكّر من القرآن أن الجبال التي على الأرض ستنهار وتصير مستوية مع سطح الأرض، ونرى ذلك من الآية 47 من سورة الكهف "وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا"، والآيات من سورة طه "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ...".

يمكننا تشبيه تصوّر الأرض ممدودة بلا جبال أو وديان بحالة بعض أقمار كوكب المشتري التي تقارب حجم الأرض ولا نشاطَ داخليٌّ لها، فنرى سطحها أملس.

طبعاً هذا التصوّر مطوّر عن تصورات الأقدمين من المنتمين لدينه تعالى الذين معطياتهم كانت غير كافية لتوسيع أفقهم، كانوا عموماً يعتقدون أن الأرض الحالية هي ستصير الجنّة وفي حفرة منها النار، وهذا لا يتماشى مع وصف القرآن لِسَعَةِ الجنة بِسَعَةِ السماوات والأرض المذكور في الآية 133 من سورة آل عمران "وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ"، بينما بالنسبة لمعطياتنا الحالية وتطبيقها على الآيات التي تشير لِسَعَةِ الجنّة بعرض السماوات والأرض، نخمّن أن الجنّة ربما تكون كواكب في مجرات... فالكلام هنا فعلاً عن الأرض "الكرة الأرضية الحالية" التي متنا عليها، ولكن من عموم كلام القرآن تفهم أنها فقط ساحة للقيامة من الموت وللحساب، بينما الجنّة والنار شيء آخر غيرها.

لنُطِلِ الكلام، في أدبيات أهل الكتاب كلام ضبابي مشوّش، ودخل على أدبياتنا الدينية، فبعضهم يشير لوجود جنّة الآخرة الآن في السماء... وبعضهم يشير إلى الأرض الحالية "كوكب الأرض" أنه سيصير الجنّة، وصرت تعلم أن هذا الكلام غير صحيح، فجنّة الآخرة ليست موجودة الآن لأننا الآن في الدنيا، ومن بعد تبدّل السماوات والأرض تتشكّل جنّة ونار الآخرة، وكوكب الأرض كوكب، بينما الجنّة في الآخرة جنّات بِسَعَةِ السماوات والأرض.

(وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ{4})

{وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا}، تعلَمُ من عموم القرآن أن تراب ورفات وجثث الأموات ستخرج من الأرض في يوم القيامة من الموت، فهم سيكونون في حالة إمساك الأرض لهم، وفي يوم القيامة ستلقي بهم خارجها، سيعودون إلى الحياة ولن يبقوا مندمجين معها، {وَتَخَلَّتْ}، لم تعد الأرض محتفظة بما كان فيها، تخلّت عن الأموات الذين كانوا فيها.

بعبارة أخرى، كل المخلوقات على وجه الأرض مُرَكَّبُونَ مُؤَلَّفُونَ من المواد التي على الأرض، من طين، من ماء وتراب، من كالسيوم وكربون وحديد... وماتوا وتحللوا، وصاروا موادَّ طبيعية مُندمجين مع تراب الأرض، فاحتفظت بهم حتى يوم القيامة، وعندما تبدّلت الأرض، وصدر أمره سبحانه برجوع المخلوقات إلى الحياة، فإن الأرض تلقيهم خارجها وتتخلى عنهم بعد احتفاظها بهم لسنين طويلة.

طبعاً لا تنسَ أن عموم الكلام القرآني عن نماذج عمومية لأن التفاصيل الكثيرة ليست مهمّة، فمعلوم أن بعض الناس يموتون في البحار أو حرقاً أو تأكلهم الحيوانات... أو سيموتون في الفضاء... فالكلام القرآني عن القبور نموذج عن مكان عادة نضع فيه الأموات، وبالتالي فذكره مناسب لتفعيل صورة تريدها الآيات أن تتفعّل في ذهنك، وهنا نفس الشيء بالكلام عن إلقاء الأرض ما فيها من أموات فهذا ليس كلاماً حصرياً، وترى ذلك من الآية 148 من سورة البقرة "... أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"، فمن مات في الفضاء سيأتي به تعالى إلى أرض الحساب في الآخرة.

بقي شيء، نقلوا في كتب التفاسير رأياً يقول عن تفسير الآية هنا بأن الأرض تلقي الأموات وتلقي الكنوز "الأموال المعدنية والأواني المعدنية والحليّ والأساور..."، وقَبِلَ البعض بهذا التفسير، وآخرون لم يجدوا فيه مشكلة مع ترجيحهم لإلقاء الأرض للأموات فقط، وهنا نسأل: من أين جاءت مناسبة تفسير ما تلقيه الأرض بالكنوز؟ فقال بعضهم إنَّ آية "أخرجت الأرض أثقالها" أيضاً تعني إخراجها للكنوز، وكما ترى، الكثير من الآيات التي بشكل واضح تتحدّث عن خروج الأموات من الأرض لمحاسبتهم، فرغم ذلك انجرف البعض نحو شيء آخر لا معنى له ولا يتماشى مع ما تقوله السور... أذكر لك هذا لا للتعليق على هؤلاء المفسرين، بل لألفت انتباهك أننا كلّنا نقع في مثل هذه الأخطاء، لأن الثروة تهمّنا ونحبّ أن نكون مرتاحين مالياً لأقصى درجة، وذهننا ولشدّة تفكيرنا بالكنوز المدفونة فسينصرف لتصوّر الكنوز عندما يتعرّض لكلام عن شيء مدفون تحت الأرض وخرج منها... وهذا نوع من التداعي للأفكار اللاواعية من الدرجة المهمّة بالنسبة لنا، والذي سيخرج ويظهر ونطبّقه على ما نقرأه وما يحدث معنا، وهي شبيهة جداً بالمنامات التي تستيقظ فيها أفكارنا الدفينة التي تأثرنا بها بشدّة... وهكذا تفهم سبب التفاسير الطائفية والمذهبية للقرآن، فهي إسقاطات لرغبات على كلامه تعالى، ونستصعب رؤية ما نفعله، ومن شبه المستحيل إقناعنا بتفسير آخر غير الذي يتناسب مع هوانا ومذهبنا... وبهذا تفهم سبب التفاسير المنحرفة المخالفة لبعض الآيات بشكل يخالف بصراحة ما يقوله بقية القرآن...

أمّا بالنسبة لآلية عودتنا إلى الحياة، فراجع ما قلناه مطولاً في دراسة الآية 51 من سورة يس "وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ".

(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ{5})

{وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا}، استجابت الأرض لأمر المسؤول عنها من مستوى إلهي، {وَحُقَّتْ}، قامت بما هو حقيق بها، قامت بما هو متوقّع منها. فلم يبق فيها ولا ميّت فأخرجتهم كلّهم.

هذه الآية سبق وقالتها السورة في الآية 2 عن السماء التي نفّذت أمره تعالى بانشقاقها، وهناك تحدثنا مطولاً عن معنى تنفيذها لأمره تعالى.

(يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ{6})
{يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ}، يا أيها الغالب الأعم من الناس، يا أيها المخلوق بصفات تجعلك في حالة: {إِنَّكَ كَادِحٌ}، تظهر عليك علامات من شيء ما، وهنا الكلام عن علامات كالتعب أو الخدوش على الجلد... أو من مرور الزمن عليك فتظهر عليك علامات التقدّم في العمر، {إِلَى رَبِّكَ}، إلى المسؤول عنك من مستوى إلهي، {كَدْحاً}، بشكل توصف فيه بالتمام بأنك كدحت بأن العلامات ظاهرة عليك، {فَمُلَاقِيهِ}، سوف تقابله سبحانه من بعد كدحك.

غالبيتنا سوف "نكدح" ونقضي حياتنا "الطويلة أو القصيرة"، ونموت، "وتتبدّل السماوات والأرض"، وبعدها تنشقّ السماء وتنزل منها الملائكة(ع) وتلقينا الأرض على سطحها ونعود إلى الحياة، ونجد أنفسنا أمامه عزّ وجلّ يحاسبنا.

وأول ما يخطر ببالنا من كلمة "كدح" التي لم ترد إلا هنا في القرآن أنها تعني العمل بكدّ وجهد، وهذا هو المعنى الدارج، فنقول: العمّال الكادحون... ولكن من أشعار العرب قبل الإسلام يبدو أن الكدح وصف لعامّة أي أثر يحصل في الإنسان من عموم أي شيء، فانخداش الجلد من شيء ما، أو التعب من العمل، أو اسمرار الوجه من الشمس، أو تعب الأقدام من المشي الطويل باتجاه ما، أو علامات التقدّم في السنّ كالتجاعيد في الوجه... فكلها علامات على الإنسان من عمل ما والكلمة المخصصة لهذه العلامات هي الكدح، وتنطبق على عموم السعي والعمل وأي شؤون من قضاء حياتنا في الدنيا...

الآية لا تقول مباشرة إنَّ كلّ إنسان يعمل بكد وجدّ، بل تشير لعامّة أي كدح، فحتى لو لم يجهد إنسان ما نفسه بأي عمل في حياته فمجرد مرور الزمن عليه سيترك عليه آثاراً، ومرور الزمن عليه هو كالمشي باتجاه الآخرة، ومن نظرة الذي خلقنا وقرّر لنا أن نقضي الحياة ونموت لنحيا من جديد ليحاسبنا، فمن هذه النظرة سيرانا ونحن في الحياة الدنيا أننا نكدح فيها باتجاه الآخرة، حتماً نحن ذاهبون لملاقاته تعالى في النهاية.

تمضية الحياة بمشقة أو بالعبادة أو حتى تمضية الوقت لهواً ولعباً، فهو في نظره تعالى مرور لحياتنا ونحن في حالة ما، وفي النتيجة على كل الحالات حساب في الآخرة، فحتى لو قضينا الحياة في اللهو واللعب فيما حرّمه تعالى، وكنّا مرتاحين ونتسلّى، فهذا ينطبق عليه وصف الكدح.

الآية خبر لنا جميعاً لنفهم أننا نسير على خط له نهاية واحدة حتمية: ملاقاته تعالى.

ضع في بالك دائماً أن القرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموماً ذكراً وأنثى، وأنهم يتناسلون... أو متعلق بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

هناك إنسان يموت في حالة الجنين وآخر في المهد... وهناك الساقط عنهم التكليف كالمجانين... فهؤلاء لم تشملهم الآية بوصف الكدح، وأصلاً يفترض بك القرآن علمك بهذه التفاصيل وأنك ستفهمها لوحدك فهي بديهية، وبقي كلامه دقيقاً فاستعمل كلمة إنسان ليشير للغالب الأعم من الناس.

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ{7})
بعدما تكدح في الدنيا ستلاقيه تعالى:

{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ}، حين حصل اللقاء معه تعالى بعد إلقاء الأرض لنا، ونزول الملائكة(ع) من السماء لتقوم بإجراءات محاسبتنا، وقيام الملائكة(ع) بنشر الكتب المسجّل فيها ما قمنا به من أعمال في الدنيا، لنرى ما كدحناه... فأمّا من صار معه كتاب أعماله، الشيء الذي فيه أمور مكتوبة محدّدة، {بِيَمِينِهِ}، وهذا التعبير القرآني على المعنى الأصلي لكلمة "يمين" التي تعني عموم أي تعامل مع أي شيء براحة واقتدار وقوّة، ولأن غالب الناس يستعملون يداً أكثر من

الأخرى، ولديهم تحكّم بها أكثر من الأخرى، فصارت كلمة اليمين ملتصقة باليد، ولغوياً مَن يستعمل يده اليسرى "العسراوي" فلو طلبت منه استعمال يده اليمين "ساعدني فضع يمينك معي" فعلى أساس المعنى الوصفي الأصلي للكلمة تطلب منه المساعدة، هذا لن يستعمل يده اليمين بل سيستعمل اليد التي يتحكّم بها أكثر من الأخرى، سَيَسْتَعْمِلُ اليد اليسرى. وهكذا تفهم التعابير القرآنية المتنوّعة عن الكتاب باليمين في الآخرة للمؤمنين فهو تعبير عن أخذهم لكتاب أعمالهم بسهولة وبراحة واقتدار.

ذاك الكتاب ليس من ورق، ولا مثل قرص الكومبيوتر، ولا مثل بطاقة الذاكرة... بل هو كتاب فيه المشاهد والصور والأحاسيس... وفيه الثواب على الأعمال... وينطق كما ورد في الآية 62 من سورة المؤمنون " ... وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ"... فلا تحاول تصوّر شكله الآن لأنك لن تستطيع.

(فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً{8})
{فَسَوْفَ يُحَاسَبُ}، ستتم محاسبته عبر تحديد قيمة ما عمله، {حِسَاباً يَسِيراً}، حساباً سهلاً ليس فيه أي صعوبة فتمشي أموره براحة.

قارنها مع ما سيأتي بعد قليل من كلام عن الحساب العسير الذي يولول فيه مَن يُحاسَبون... تفهم هنا أن من حصل على كتابه بيمينه فلن يتعرض للإهانات ولا للتأنيب ولا للضرب... بل سيكون مرتاحاً جداً أثناء محاسبته، ويأكل ويشرب جالساً مرتاحاً يتحدث مع بقية المؤمنين... أيام المحاسبة طويلة جداً جداً، والمؤمن سيكون مرتاحاً ولا يشعر بأي شيء مزعج، لأن سيئاته مغفورة وممسوحة من الكتاب، ويجري حساب ومضاعفة حسناته فقط...

وأجواء راحة المؤمنين أثناء الحساب، نقلها القرآن في عدة مناسبات، ومنها ما نقلته سورة الأعراف حول الآية 50 من سورة الأعراف "وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ".

(وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً{9})
{وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ}، ينتهي حسابه ويتحوّل من محاسبته إلى أهله إلى الذين ينتمي لهم، ينتقل إلى الآخرين الذين أوتوا كتابهم بيمينهم، ويصير مع جماعة المؤمنين، {مَسْرُوراً}، لديه شعور بأن الأمور على التمام وبما يناسبه.

تعلَمُ من عموم القرآن أن الملائكة(ع) يعاملونه بلطافة واحترام ويخبرونه عمّا سيجده في الجنّة من نعيم... وأن الناس مفروزون محشورون زُمَراً، والمؤمنون زمرتهم لِوَحْدِهِم، يتحاسب المؤمن ويعود لأهله، ويعود للذين ينتمي إليهم، ويعود ليجلس مع زمرة المؤمنين مسروراً بالنتائج، ويبقى هناك منتظراً انتهاء حساب البقية بانتظار الدخول إلى الجنّة.

كلمة أهله هنا على معناها العمومي لمن ينتمي إليهم، سواء أكانوا من أقاربه أم لم يكونوا منهم، طالما انتماؤه إلى جماعة ما فهم أهله، مثلما وصف القرآن المنتمين للنار في الآية 64 من سورة ص "إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ"، وأنت تعلم أن الكلام عن المنتمين لبعضهم بالكفر والعقاب في النار، وليس كلاماً مقصوداً منه الأقارب بالنسب أو المصاهرة.

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ{10})
في مقابل من أوتي كتابه بيمينه:

{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ}، وصله الكتاب الذي تسجّلت فيه أعماله التي قام بها في الدنيا، {وَرَاءَ ظَهْرِهِ}، تعلَمُ من العديد من الآيات أن الكتاب الذي فيه سيئات كبيرة وكثيرة سيحمله صاحبه كَوِزْرٍ وكثقل على ظهره، والآية تعبّر هنا عن حمله لكتاب سيئاته على ظهره كحمل ثقيل.

تلاحظ تعابيرَ قرآنية أخرى وصفت هذا المشهد بأن الكافر وأشباهه كالمنافق والفاسق هذا يحمل كتابه بشماله، تحدثنا منذ قليل عن معنى كلمة "يمين"، ومنها تفهم أن "الشمال" تعبير عن التعامل بصعوبة مع الشيء، وهنا في الآية لو كان

حمل الكتاب خفيفاً لحمله الإنسان بيسر، ولكنه كتاب السيئات، الثقيل المزعج المؤذي، سيحمله غصباً عنه بصعوبة ومشقّة، على ظهره من شدّة ثقله، بشماله بالعسرى بالمشأمة... كَوِزْرٍ، وتجد معنى ذلك في الآيات 100 و 101 من سورة طه "مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا، خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا".

(فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً{11})
مَن أُوتِيَ كتابه وراء ظهره، {فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً}، سيصدر منه كلمات التعبير كإعلان وإشهار عن وقوعه في المصيبة الكبيرة التي هو فيها.

تذكّر دائماً أن الدعاء ليس محصوراً بالتوجّه بكلمات الطلبات من أحد ما، بل هي كلمة لعامّة أي إعلان وإشهار عن أي شيء، سواء تريد حصوله، كدعوة أحد ما للحضور، أو الدعاء له تعالى لشفاء مريض... وهنا الداعي يعلن ويُشْهِرُ بالتعبير عن حالته السيئة.

(وَيَصْلَى سَعِيراً{12})
{وَيَصْلَى}، يواجه بجسده، {سَعِيراً}، النار المستعرة، المؤججة لأقصى الهيجان، تتطاير منها ألسنة اللهب وتتعالى أصواتها.

سيقف أمام النار ويحترق بها، ونعرف من آيات أخرى أن مَن يتم تعذيبه بالنار، فإن جلده يحترق، ويتبدل، ثم يحترق وبعدها يتبدّل... وهكذا إلى ما لا نهاية كما ورد في الآية 56 من سورة النساء "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ".

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً{13})
{إِنَّهُ}، هذا الذي أعطوه كتابه وراء ظهره، {كَانَ فِي أَهْلِهِ}، كان في الذين ينتمي إليهم وهم أهل الكفر أو الفسق أو النفاق، كان في الدنيا بين جماعة الناس أمثاله الذين لم يؤمنوا ولم يعملوا الصالحات، {مَسْرُوراً}، كان يشعر بالانشراح والراحة بالعيشة بين الكفار، كان مرتاحاً وعلى التمام في بيئة الكفر، فعقائدها الباطلة وتشريعاتها الفاسدة تناسبه.

(إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ{14})
{إِنَّهُ}، {ظَنَّ}، اعتقد واستناداً لعلم ما، استناداً إلى سروره في الكفر وبيئة الكفر، {أَن لَّن يَحُورَ}، أنه سيبقى على حاله ولن يذهب إلى حالة أخرى، والكلام هنا عن اعتقاده بأنه لن يذهب لملاقاة ربّه سبحانه، ظنّ أنه لن يتحول عن هذه الحياة إلى الحياة الآخرة، واعتقد أنه بعد موته لن يرجع إلى ربه سبحانه ولن يتحاسب ولن يتجازى...

السورة تخبرنا عن حتمية نهاية كدح الإنسان في الدنيا لملاقاة ربّه سبحانه في الآخرة، ها ترى السورة تحدّثنا عمّن لم يؤمن بهذا اللقاء، وكان مسروراً بالكفر وبالعيشة بين أهل الكفر، وأخبرتنا عن نهايته التعيسة...

بالنسبة لكلمة يحور، حار، احتار... تعني الذهاب والإياب من مكان إلى آخر أو من فكرة إلى أخرى أو من حال إلى حال... وكلمة "يحور" فعل المضارع من "حور، حار" وهو الذهاب من مكان إلى آخر، من فكرة إلى أخرى... وهنا المعنى أنه ظنّ أنه لن يذهب من الدنيا إلى الآخرة.

في الآية عمق تراه بسهولة في أهل البلاد الذين يعيشون في راحة مالية وأمنية واجتماعية، فلا يرون أنفسهم مضطرين للإيمان بأي دين يجعلهم يقيّدون أنفسهم بالحلال والحرام، فما هم فيه من سرور كافٍ لهم، وترى الكثيرين منهم عندما يصلون إلى عمر الشيخوخة ويفقدون قواهم وتمتّعهم بالحياة وهم موقنون بالموت حتماً، ترى الكثيرين منهم محاولين العودة إلى شيء يعطي لموتهم معنى، فاتهم القطار لأنهم بعد عمر طويل مِن الصعب عليهم تغيير تفكيرهم ونفسيتهم لتصير على الصراط المستقيم... على أي حال الكلام في الآية عن حالة السرور، هو أعمّ من الذين أوضاعهم كلّها تمام التمام، الإنسان يتأقلم مع الظروف السيئة، وحتى خلالها يجد ما يتعلّق به هواه ورغباته... فيعيش به مسروراً حتى لو كان سيئاً.

"الظنّ" هو اعتقادك بشيء ما مستنداً إلى شيء ما، فإن كان ما تستند عليه صحيحاً كان ظنّك صحيحاً، وهذه حالة المؤمنين الذين يظنون أنهم ملاقو ربّهم سبحانه كما ورد في الآية 46 من سورة البقرة "الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ"، فهم مستندون في ظنّهم على آياته وكلامه تعالى. وإن كان ما تستند عليه غير صحيح فظنّك غير صحيح، كالحالة التي تنقلها الآية 154 من سورة آل عمران "... وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ..."، استناداً للحالة الحرجة التي كانوا فيها ظنّوا أنه تعالى تركهم ليقتلهم الأعداء. وبين هاتين الحالتين هناك حالة الذي أمامه معطيات ليستند عليها ولكنه ليس مقتنعاً بها، فلا تزال الأمور عنده مُرَجَّحَةً لاحتمالات أخرى، هذا ظنّ من النوع الذي تذكره الآية 32 من سورة الجاثية "وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ"، فهم يريدون أن يلمسوا مباشرة حصول ساعة قيامهم من الموت حتى يعتقدوا بها ولا يكفيهم الاستناد إلى معلومات تدلّ عليها، فيريدون اليقين بها عِياناً حتى يؤمنوا. وهذه الحالة قريبة جداً من الاصطلاح "في علم المنطق" والدارج لمعنى كلمة ظنّ على معنى وجود عدة احتمالات. وها صرت تعلم المعنى اللغوي الأساسي لكلمة "ظنّ" فانتبه للفرق بينه وبين المعنى الاصطلاحي حتى لا تفسّر القرآن على أساس المعنى الاصطلاحي.

في عموم كتب التفاسير ستجد كلاماً آخر عن الظنّ، ولا ينطبق معناه على كلّ آيات القرآن، ستجدهم لا يثبتون على معنى واحد للظنّ، حيث مرة يرادفونه باليقين، ومرّة بالشك، ومرة بالحسبان... وهي معانٍ غالباً ستجدها صحيحة لأن الآيات واضحة وتدل على المعنى الذي ذكروه بالشكل العمومي الذي يتحمله الاشتقاق والتدرّج من أصل معنى كلمة ظنّ، ولكنها ليست المعنى الدقيق لكلمة ظنّ، بل كلامهم توصيف لحالة العلم الذي استند إليه الظنّ، وها صرت تعلم معنى الكلمة العام، وأن القرآن دائماً يوضّح لك نوع العلم الذي يستند الظنّ له إن كان صحيحاً أو فاسداً، فلن تضيع في معرفة الظنّ الصحيح من الظنّ الخطأ.

(بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً{15})
بلى، نفيٌ لظنّه أنه لن يحور، فبالتأكيد سيحور، سيلاقي ربه سبحانه وسيتحاسب، {إِنَّ رَبَّهُ}، إن المسؤول عنه من مستوى إلهي، {كَانَ بِهِ}، بهذا المسرور بالكفر وبين الكفّار، {بَصِيراً}، فسبحانه وتعالى يعلم "بمستوى إلهي" ويعي معنى صورة الحركات التي قام بها الكافر، ويعلم سبحانه الكلام والنوايا والمشاعر... التي صدرت من الكافر.

يا من تصلك هذه المعلومات القرآنية خذ علماً أنك تحت مراقبة من يسجّل كل ما يصدر عنك، و"يعي" كل ما يصدر عنك، فليس مثل كاميرات المراقبة التي تسجّل ما يحدث ولا تفهمه، لا، لأنه خلقك وأمرك بأن تطيعه وهو سبحانه بصيرٌ، يراقبك.

(فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ{16})
{فَلَا أُقْسِمُ}، فلا حاجة لتأكيد صحّة ما أقوله لكم عن لقائكم بي في الآخرة، {بِالشَّفَقِ}، وهي ظاهرة تدرجات اللون الأحمر إلى البرتقالي في السماء عند غروب الشمس، سواء بقي قرصها ظاهراً أو بعد نزوله تحت الأفق.

مجرّد النظر إلى ظاهرة الشفق يدلّ على إله فائق القدرات صمّمها وخلقها، وتدل على صدق كلام من صنع تلك الظاهرة، فهي لم تحدث لوحدها من دون إله صمّم البيئة التي تجعل ظاهرة الشفق تحدث.

ضع في بالك أنه تعالى يعتبر أي شيء كان يدلّ عليه عزّ وجلّ، بالتقريب مثلما يدل البيت على البنّاء، والأثر على المسير، والباب الخشبي على النجّار... فأي شيء في الدنيا سيدل على إله صمّمه وخلقه، وفوق ذلك يركّز القرآن في العديد من الآيات على اللمسات الجمالية التي تدل على عظمة الخالق، وشبّهها مع الأشياء المصنوعة فقط لتلبّي حاجتك من دون أي مميزات جمالية، كبيت مبنيٍ كعلبة كصندوق، كسيارة بهيكل مستطيل، كقميص من قماش بلون واحد ومفصّل كالكيس... فما نفع الشفق كلون في الأفق؟ لا شيء، ولكنه مجرد لمسة جمالية تحدث بسبب تصميم الشمس وتصميم الضوء الذي سيصدر منها... وتصميم الأرض وغلافها الجوّي... فهذا المشهد يدل على أن الذي صمّمه لديه قدرات فائقة، وهو نفسه يقول لنا بأننا نكدح في الدنيا لنلاقيه في الآخرة، فمن بعد رؤيتك لأفعاله، وكنموذج منها الشفق، فهل يحتاج ليقسم لنا لنصدّقه بأننا سنلاقيه؟

أسهل فهم لهذا النوع من الآيات هو مقارنتها بالقدرة، فالذي قدر على صنع ظاهرة الشفق، ألا يقدر على إعادتنا إلى الحياة؟ فهل يوجد داعٍ ليقسم خالق الشفق حتى نؤمن بأن كلامه عن لقائنا به في الآخرة صحيح؟

لاحظ ما درج حالياً من تسمية كلا حالتي الشمس تحت الأفق "الفجر والمغرب" مع بزوغ نور منها أنه شفق، وهذه تسمية حديثة فلم أجد فيما لدي من مصادر أي استعمال قديم للعرب لهذه الكلمة لحالة الفجر وما يليه، فعلى ما يبدو كانت عندهم مخصّصة لاحمرار السماء عند غروب الشمس فقط.

(وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ{17})
ولا أقسم بـ {وَاللَّيْلِ}، بظاهرة فترة العتمة من اليوم، ولا أقسم بـ {وَمَا وَسَقَ}، بما أتى الليل به، بما وسقته وحملته فترة العتمة معها، من سكون وهدوء ونجوم في السماء... فكلمة وسق مشابهة لكلمة حمل، فالجمل يحمل وسقاً، والحمّال وسق الجمل أي جعل عليه الحمل، فالليل يأتي بأشياء، فهو لا يحملها بمعنى الحملان، بل يسقها بمعنى الإتيان بها معه.

يعني اسم الظاهرة "الليل" وحين يأتي تأتي العتمة معه، فالليل محمّل بوسق العتمة.

أيضاً هذا التغيّر غير العادي في بيئتنا، وبهذه الضخامة الهائلة من العتمة وما يليها بالتفاصيل الكثيرة وبحجم ضخم، أيحصل لوحده؟ أليست ظاهرة تحتاج لقدرة من مستوى إلهي لتحصل؟ وهذا الإله هو نفسه الذي يقول بأننا سنلاقيه، فهل يحتاج ليقسم حتى نؤمن بكلامه؟

(وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ{18})
ولا أقسم بـ {وَالْقَمَرِ}، وهو الكوكب التابع للأرض فيدور حولها، {إِذَا اتَّسَقَ}، إذا صار متّسقاً، إذا اكتمل تدوّره وصار بدراً.

توقّف يا عزيزي ويا عزيزتي قليلاً هنا، لأن المناظر التي تذكرها السورة متكررة يومياً، والتي صمّمها سبحانه بهذا الشكل حتى يسهّل علينا معرفته عزّ وجلّ كخالق فائق القدرات، وبلمسة جمالية من مستوى هائل الضخامة، فلوحة الرسم مهما كبر حجمها، لن تصل إلى لوحة رسمها تعالى بحجم السماء التي فوقنا بداية من شفق أحمر برتقالي، إلى عتمة بنجوم، إلى قمر هلال ثم ربع ثم بدر.

(لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ{19})
وردت كلمة طبق ثلاث مرات فقط في القرآن، هنا وفي الآية 3 من سورة الملك، والآية 15 من سورة نوح، وهناك كانت تشير لطبقات السماء، والآيات السابقة كان كلامها عن حوادث سماوية، فلا تزال الإشارة في الكلام إلى ما فوقنا،

ليس بحاجة سبحانه وتعالى ليقسم ليؤكّد لنا، {لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ}، حتماً سوف تركبون أيها الناس سوف تكونون على طبق وبعده طبق، فالسماوات الدنيا "سبع طِبَاقاً" كما ورد في الآية 15 من سورة نوح "أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا"، تقريباً مثل توافق طبقات المباني السكنية المتناسبة بالانطباق على بعضها، وسماؤنا طبق أول منها بالنسبة لنا، وسيأتي زمن نركب فيه على الطبق الأول لنصل إلى طبق بعده.

ويؤيّد هذا المعنى ما ورد في الآية 33 من سورة الرحمن "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا..."، فسيأتي زمن تستطيع فيه البشرية الانتقال من سمائنا إلى الأخريات، ربما في وقت قريب، وربما بعد آلاف أو ملايين أو مليارات السنين، وفي تلك السماوات سنتعرض لشواظ من نار ونحاس كما ورد في الآية 35 من سورة الرحمن "يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ"، ما هو مترسّخ في عموم ثقافة المنتمين لدينه تعالى عن أن الدنيا باقي لها عمر قصير قبل يوم القيامة، فهو مبنيٌّ على تفسيرات غير صحيحة لكلامه تعالى، فراجع في دراستنا هذه أي آية تخطر ببالك وتظنّ أنها تشير لعمر قصير للدنيا وسترى أن ذلك غير صحيح، استناداً للقرآن قد يمتد عمر البشرية في الدنيا إلى مليارات السنين، أمّا التراث الديني، فمن المفروض وبحسب الكثير منها قبل الإسلام عند من سبقنا من أهل الكتاب أن الدنيا مرّ زمن انتهائها، وبعد الإسلام بناءً على العديد من الروايات أيضاً مرّت أزمنة حدّدوها لدمار الأرض، وها نحن جاوزنا الألفين ميلادي، وبعمري الواعي لقرابة الأربعين سنة وأنا

أسمع الناس يتنبؤون بدمار الأرض بعد سنة وسنتين وثلاث... ومرّت تواريخهم، وسنوياً يأتي غيرهم ويتنبأ... وتمر التواريخ ولا يحدث شيء... وتجترّ عوام الناس بغالبيتها هذا الكلام... ويتحدثون به وكأنه أمر واقع، فيمرّ ولا يحصل شيء، ويأتي كلام غيره ويجترونه، وهكذا... وستمر آلاف وملايين السنين وربما مليارات ولا يزال ينبُزُ من هنا وهناك من يتنبأ بدمارنا بعد أيام أو أشهر أو سنة! بينما صريح القرآن يشير لنفوذنا في أقطار السماوات، وها بدأنا بالسياحة في قطر سمائنا الأولى، وسيأتي زمن سياحتنا في أقطار السماوات الأخرى، وكم سيستغرق ذلك؟ ألف آلاف أو مليون سنة؟ لا ندري، ولا يوجد كلام قرآني عن تحديد قصير لعمر الدنيا.

(فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ{20})
{فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} ! بعد سماعهم الكلام السابق وأشباهه من القرآن كيف لا يصيرون في حالة الاعتقاد بلقائه تعالى؟!

إذا كان كل ما حولنا يدل على أن خالقنا يهتم بأصغر التفاصيل، وصولاً إلى جمالية المناظر من أضخم المشاهد، وصولاً إلى خلق سبع سماوات سيتعرفون عليها أو على بعضها، فكيف لا يكون عنده سبحانه تخطيط لما بعد موتنا! وكيف لا نؤمن بكلامه عندما يقول بأننا سنلاقيه؟

بالنسبة لكلمة "آمن" لم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإسلام أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، فآمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كلاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

(وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ{21})
{وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ} ، فقرأ أحد ما لهم هذا القرآن، فوصل إلى سمعهم الشيء المقروء، وهنا الكلام عمّا نزل من عنده تعالى على الرسول محمّد(ع)، فما بالهم، {لَا يَسْجُدُونَ} ! لماذا لا يعبّرون عن أقصى احترامهم وخضوعهم لربهم سبحانه!

نتذكّر دائماً أن الذي أنزله سبحانه عبر الوحي إلى رسوله محمد(ع)، فهو شيء مقروء، ولذلك صار اسمه: قرآن. فكل الرسالة التي نزلت على النبي محمّد(ع) قرآن، والسورة الواحدة قرآن، وكذلك الآية الواحدة وصفها قرآن لأنها مقروءة. وعليه فالآية هنا لا تقول بأن كل القرآن من أوله لآخره جرت قراءته عليهم ولم يسجدوا، لا، فأي قسم مما نزل على الرسول محمّد(ع) ويتضمّن كلاماً عن تخطيطه تعالى لنا للقائه في الآخرة لمحاسبتنا، فهو يستدعي ممن يسمعه أن يسجد، فيعبّر عن خضوعه واحترامه له تعالى.

تلاحظ السورة لم تتحدّث عن توحيده تعالى وعن الإيمان بملائكته(ع) ورسله(ع) وكتبه... ولا عن وجوب الصلاة والصيام والصدقة وبرّ الوالدين و... فلم تقل إنَّ اللقاء معه تعالى سيكون للمحاسبة على هذه الأمور، واختارت السورة أن تكون عامّةً بكلام أساسي عن حتمية حصول لقاء معه تعالى لمحاسبتنا بالكتب التي فيها تسجيل أعمالنا، وعملياً فالحساب سيكون عن شيء أساسي: السجود. ليس بمعنى محاسبة من لم يضع جبهته على الأرض، لا، بل على معنى محاسبة من لم يعبّر عن أقصى أشكال الخضوع له تعالى، فعمليا السجود هو التعبير عن طاعته تعالى وتنفيذ أوامره كلّها، وحركياً فالسجود يكون بوضع جبهة الوجه على الأرض، وأنت تعلم أنه لا معنى لهذه الحركة إن كانت فارغة من المضمون، فالمنافقون والفاسقون منهم مصلّون ساجدون، ومعلوم لك أن هؤلاء بعضهم يخلد في جهنّم لشدة سوء أفعاله.

ضمناً فالكلام يشير لأهمية هذا القرآن، فهو كتاب إلهي، ومحتواه من مستوى إلهي للبشر، وعند سماعه فمن المفروض الشعور بعظمة قائله والتعبير عن ذلك بالسجود.

الكلام القرآني المتعلّق بالهداية عموماً مع وعن أحد ما، فبالبداهة تعلم أنه لا معنى لكلام القرآن مع شخص لم يسمع بالقرآن في حياته، فسيكون كلاماً مع شخص لن يسمع ما تقوله عنه! ولا معنى للكلام معي عن شخص لم يسمع بالقرآن

في حياته لأعرف مصيره في الآخرة، فهذا فضول لا معنى له، ولذلك اكتفى القرآن بالكلام عن النماذج التي سمعته أو سمعت به ككتاب يقولون إنه من مصدر إلهي، واكتفى بالإشارة لأساس ما جعله تعالى في الإنسان من تمييز بين الخير والشرّ، وأننا كلنا على هذا الأساس سنتحاسب.

ما تجده في القرآن من كلام عمومي واصف لكل الناس بالعمى أو البصيرة، فهذا الوصف ضمناً شامل حتى للذين لم يسمعوا بهذا القرآن، وشامل للذين سمعوا شيئاً منه مع تفسيره بشكل يجعله يبدو سيئاً، فهذا ليس المعيار الإلهي لمحاسبة الناس، بل المعيار هو ما فيهم من قابلية لتمييز الخير من الشرّ، فإن سمعوا تفسيراً سيئاً لكلامه تعالى، ورأوه سيئاً، وكان فعلاً سيئاً، ورفضوه ورفضوا القرآن بسببه، فهؤلاء مدحهم القرآن ضمناً حين مدح أصحاب البصيرة والمتقين...

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ{22})
{بَلِ} ، تفيد التصحيح ويسمونه الإضراب عما سبق ذكره وله أنواع: الإبطالي والانتقالي والإضرابي. أمَّا المعنى الأوسع والأسهل هو: هناك شيء تظنه وتأتي "بل" لتنقلك إلى ما لم تظنه. فهم بعد سماع القرآن لم يسجدوا {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا} ، الذين أنكروا هذا الدين الإلهي، {يُكَذِّبُونَ} ، يقولون عن القرآن إنه كذب وليس من الإله سبحانه، وكلامه عن الآخرة كذب غير صحيح ولن يحصل، ولهذا السبب لم يسجدوا حين سمعوا القرآن.

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ{23})
ما في وعيهم "وِعائهم الفكري والنفسي"، في باطنهم في داخل عقولهم ونفسيّتهم، الله تعالى يعلمه.

ورد هنا في هذه السورة أنه سبحانه بصير بما نعمل، وهنا الآية تقول بأنه تعالى يعلم ما في داخلنا من أفكار وأحاسيس، فهذا التكذيب الموجود في داخلهم للقرآن سبحانه يعلمه وسيحاسبهم عليه.

ضمناً الكلام يشير إلى أن تكذيبهم للقرآن لم يكن عن قناعة مستندة على الحقّ، تَصَوَّرْ حالة متخاصمين أمامك يختلفان على شيء ما، فلو كنت تعلم بما يوعون، لهان عليك تمييز الذي يكذب والذي يحتال... فهذا يُقْنِعُكَ ببكائه أنه مظلوم... وما قلناه في الآية السابقة كمثال عن الذي سمع تفسيراً سيئاً للقرآن، سبحانه يعلم بما وعاه هذا الشخص، يعلم إن كان فعلاً من داخله محبّاً للحقّ... وبالعكس، الذي سمع القرآن ورأى الهداية والحقّ والصلاح فيه، وكذّبه، فهذا سيلاقي في الآخرة من يعلم بما وعاه من القرآن.

آيتنا هنا من المنفردات قرآنياً في وصف حالة علمه تعالى بما وعيناه، عادةً يستعمل القرآن ما يفيد علمه تعالى بما في صدورنا وما في أنفسنا، ويعلم ما نخفي وما نعلن... أما هنا فالتعبير يشير إلى علمه تعالى بما أَعِيهِ، على البساطة هو علمه تعالى بما دخل على فكري ونفسي وبما كان رأيي أو شعوري تجاهه، وبالعمق الوعي من أعقد الكلمات لتعريفها، ومن أعقد الظواهر لفهمها، وهي باب جدل ومجال مفتوح لمختلف مجالات العلوم للبحث فيه، وستفهم ما أقوله إذا انتبهت للفرق بين تعاريف: فكري ونفسي وذاكرتي وحياتي وخيالي ووعيي وإدراكي...

(فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ{24})
تتهكّم "تسخر" الآية منهم وتقول للنبي محمّد(ع) أن يقول لهذه النوعية من الناس عبر هذا القرآن، ليقل للذين لم يسجدوا حين سمعوه وكذّبوا به:

{فَبَشِّرْهُم} أخبرهم بالشيء الذي سيحصلون عليه ويتوقعون أن يكون بشرى بما يسرّهم، {بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} ، هم سيحصلون على عذاب لا يمكنهم تحمّله ولا الاعتياد عليه.

ضع في بالك أن انتظار خبر عن شيء تهتمّ به، عن شيء حصل ولم تعلم به وتريد معرفة ما جرى، أو خبر عن شيء سيحصل وتنتظر حصوله، عادةً تريده أن يكون خيراً لك موافقاً لما تحبّ، وهذه الحالة تسمى بالاستبشار "خيراً"، فإن جاء الخبر سيئاً، فيكون وصف حالتك الاستبشار بالسوء، وهنا الكلام عن الكافرين بالآخرة، أخبرهم من الآن ألا يتوقّعوا خيراً، أن لا يستبشروا خيراً حين تحصل الآخرة، بل بشّرهم بعذاب أليم.

هذه نتيجة كدح الكافرين، والآية التالية فيها نتيجة كدح المؤمنين...

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ{25}
{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا}، الكلام عن الذين هم في حالة اعتقاد بهذا الدين الإلهي، يعتقدون به تعالى إلهاً أحداً وأنه أرسل نبياً ليبلغهم رسالته... وأنه يوجد آخرة.... {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، هم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، عملياً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادةً نفسّر "عملوا الصالحات" على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إنهم صلّوا وصاموا... وهذا عملياً صحيح، ولكن بالأصل الكلام أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموماً وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، حتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، هذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائماً أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به.

هذا الكلام له عمق، لا توجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلاً سيئ" فسيكون في الحقيقة اختراعاً من البشر لصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمراً إلهياً.

{لَهُمْ أَجْرٌ}، لهم شيء سيأخذونه كبدل محدّد سلفاً، كأجرٍ على إيمانهم وعملهم، {غَيْرُ مَمْنُونٍ}، يحصلون على الأجر ولن يكون منّة عليهم، ليس مطلوباً منهم التعبير عن شكره تعالى على الأجر.

هنا ما نحصل عليه في الدنيا منه تعالى، فهو منّة، فهو شيء جيّد حصلت عليه ويستوجب منك أن تشكره تعالى كتعبير عن إيمانك به ومدحك له... ولكن في الآخرة، لم يستعمل القرآن ولا مرّة أي نوع من التعبير الذي يتضمّن أو يشير بأن أهل الجنّة يجب عليهم شكره تعالى، ورد أنهم يشكرونه تعالى وتُفْهَمُ تلك التعابير أنها صادرة عنهم بعفوية من شدّة سعادتهم، ولم يرد في القرآن ولا بأي شكل ما يوحي أنهم مطلوب منهم شكره تعالى.

بصريح العبارة: لا يجب على أهل الجنّة القيام بأي شيء. لا شيء واجب عليهم. حتى كلمة شكراً لله تعالى على الروعة الخالدة التي هم فيها، فهي غير واجبة عليهم، ولن يطالبهم أي أحد إن لم يقولوها، ولن ينقص من روعة جنتهم ولو شعرة إن لم يقولوها...

ما نقله لك القرآن عن حمدهم له تعالى كان يريك أنهم في غاية السعادة، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 74 من سورة الزمر "وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ".

وصَف القرآن ما يحصل عليه المؤمنون في الجنّة بأنه فضل: أصلاً لا يجب عليه تعالى إثابتهم بالسعادة، ولا أحد يمكنه أن يفرض عليه تعالى أن يثيبهم بالجنّة، بل هو سبحانه قرّر ذلك هذا فضل منه تعالى، يعني عمل حسن قرّر سبحانه أن يفعله معهم وليس مفروضاً عليه سبحانه بل هو قرّره عزّ وجلّ، وهذا ورد مراراً في القرآن بعبارات متنوّعة منها نفي ما يحصلون عليه أنه بحساب كما ورد في الآية 38 من سورة النور "لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ"، وكما ترى لم يصف القرآن ولا مرّة ما يحصل عليه أهل الجنّة بأنه منّة، لأنها تعني وجوب شكر الذي منّ عليك.

نتذكّر دائماً تأكيد القرآن للجمع بين الإيمان والعمل الصالح، كلاهما معاً يسببان دخول الجنّة، لا العمل الصالح لوحده ينفع ولا الإيمان لوحده ينفع.

سورة البروج (85) ص 590

محور السورة عن حادثة إحراق كافرين لأناسٍ بسبب إيمانهم، وتركّز على نوع إيمانهم، بالعزيز الحميد المالك لكل شيء، وتسأل هل هذا سبب لقتلهم! لإحراقهم! للتلذّذ بمشهد إحراقهم!

تريدنا السورة أن نلتفت لفظاعة هذا العمل الذي تكرّر حصوله في التاريخ بصور مختلفة، من الكره والبغضاء الكامنة... إلى إظهاره بالأذية بالكلام والمعاملة... وصولاً إلى الأذية الجسدية... إلى التعذيب والقتل... وصولاً إلى أبشع ما يمكن فعله وهو ما ركّزت عليه السورة هنا، وهو الوصول إلى إحراق المؤمنين وهم أحياء، والقعود قرب النار للتلذّذ بمشاهدة المؤمنين يحترقون!

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ{1})

{وَالسَّمَاءِ}، تأكيداً بما فوق في مقابل أرضٍ، {ذَاتِ الْبُرُوجِ}، التي لها بروج، وكلمة بروج في استعمال العرب لها في أشعارهم قبل الإسلام تشير لعموم ما اتسع في الوصف، الوجه حُسْناً، البناء طُولاً، الحاجبين وُسْعاً، زيادة مساحيق التجميل "مكياج" المرأة، وَسَعَةِ نجوم السماء كمجموعة... وهنا الكلام عن السماء فالبروج هي النجوم التي بالنسبة لنا على الأرض شبه ثابتة في مكانها في السماء، والتي قسمها الناس من مختلف الثقافات عبر التاريخ إلى مجموعات، والأكثرية من الثقافات قسمتها إلى اثنتي عشرة مجموعة، وأطلقت كل ثقافة "وكل جماعة تواجه وجهاً مختلفاً من السماء" أطلقوا أسماء مختلفة على هذه المجموعات، فما يراه أهل الأرض المتواجدون للجهة الشمالية من خط الاستواء يختلف عمّا يراه الذين في الجهة الجنوبية من خطّ الاستواء، وجرى استخدام تلك المجموعات لمعرفة مواعيد أشهر السنة بالتقويم الشمسي، وبذلك يعرفون بداية الفصول ونهايتها، وأيضاً يعرفون بها الاتجاهات في الليل.

إذاً تلفت الآية انتباهنا إلى مواقع النجوم في تشكيلاتها في السماء التي فوقنا، جعلها تعالى بشكل يمكننا تقسيمها لمجموعات نسميها بالبروج، فهذه الظاهرة صنعها سبحانه بهذا الشكل عن قصد، ككل شيء فينا أو من حولنا اكتشفنا أو سنكتشف استخداماً ما له... وللتوسّع في هذا المعنى راجع كمثال دراستنا للآية 97 من سورة الأنعام "وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"، وهنا يلفت سبحانه انتباهنا لعظمة هذه الظاهرة، وقد لفت سبحانه انتباهنا للبروج في آيات أخرى، منها ما ورد في الآية 75 من سورة الواقعة "فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ"، وما ورد في الآية 16 من سورة الحجر "وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ"، وغيرها... ضع هذا في بالك لأنّ أي تفسير آخر لكلمة بروج هو غير صحيح ولم يستعمله العرب لبروج السماء، كلمة برج هي لعموم ما اتّسع في الوصف، البناء طولاً هو برج، في استعمال مساحيق التجميل هي متبرجة، في سَعَةِ مجموعة نجوم في السماء هي برج.

ننتبه جيداً، التنجيم عبر معرفة الحظ والطالع والفَأْل والغيب وغيره... باستخدام البروج، هو تخريص وكلام فارغ، وكذب، ودجل... ويحاربه القرآن بشدة بالغة، وإنما الإشارة للبروج في القرآن هي إشارة لما نسميه: ظواهر سماوية، وما يدرسه علماء الفلك الأكاديميون الجامعيون... أمّا التنجيم، علم التنجيم، الأبراج والحظ، الأبراج والغيب، مشايخ التحضير، مشايخ ضرب الرمل والحساب الفلكي... فهي سخافات تستهوي ذوي العقول الفارغة... وللأسف بضبابية يستعملون في كلامهم آيات قرآنية يبرهنون بها أنّ ما يفعلونه له مستند قرآني، بينما الآيات تشير لمعاني أخرى لا علاقة لها لا من بعيد ولا من قريب بكذبهم ودجلهم.

بالخلاصة، كما لفتت سور أخرى انتباهنا لعظمة الخالق المصوّر بدقة لكل ما حولنا، للسماوات والطير والنبات والمطر والجبال والفلك في البحر والشفق... هنا تلفت الآية انتباهنا لعظمة مشهد البروج، وكما سنرى عندما نتابع السورة فهي تريد الافتتاح بعظمة قدرة الخالق الذي يمكنه فعل كل ما يريد ومهما كان ضخما، وكنموذج عن ذلك مشهد البروج.

الآية هنا ضمناً في عمقها على معنى الآية 27 من سورة النازعات "أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا"، فباني البروج في السماء هو الواعد بعودتكم إلى الحياة.

(وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ{2})
وتأكيداً بـ، {الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ}، وهو اليوم الذي وَعَدَنا سبحانه بقدومه، أخبرنا أنّه حدث حدّد له تعالى زمناً لحصوله، ومن عموم القرآن تعلم أنه الوعد الإلهي، أنّه قوله تعالى عن حصول يوم القيامة من الموت والحساب.

(وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ{3})
تأكيداً بـ، {شَاهِدٍ}، وهو من كان متابعاً مُدْرِكاً لحدث ما، وتأكيداً بما هو، {مَشْهُودٍ}، ما حصل وحدث وشاهده أحد ما.

هناك شاهد حاضر واعٍ مُدْرِكٌ للأمور التي حصلت، وهناك مشهود وهو الأحداث التي وقعت.

لاحظ أنّ الحساب في يوم القيامة مبني فقط على: شاهد ومشهود. فسبحانه شاهد يراقبنا، والملائكة(ع) شاهدة تسجّل، وأعضاء جسدنا شاهدة علينا، وهذا بديهي لأنها معنا حين قيامنا بعمل ما، والرسل والأنبياء شهداء على قومهم، ونحن شهود على أنفسنا وعلى الآخرين. والمشهود هو ما صدر منّا، ما فعلناه، ما قلناه، ما نويناه... وكما ترى فالحساب سيكون محوره: شاهد ومشهود.

هذا بشكل عام ولكن في سورتنا هنا هناك شيء خاص تركّز عليه، هناك شيء ضخم غير عادي، وسترى في الآيات التالية حديثها عن عملية قتل جماعية لمؤمنين قام بها كفّار، وشهد هذه العملية: الله سبحانه، المقتولون، والملائكة(ع). والمحاسبة على هذه الجريمة لها يوم وعد تعالى بحصوله، والبروج التي فوقنا في السماء تشهد على عظيم قدرة من خلقنا وسيحقّق وعده بمحاسبة المجرمين.

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ{4})
تأكيداً بما سبق من السماء وبروجها واليوم الموعود والشاهد والمشهود:

{قُتِلَ}، يستحق القتل فيستحق إنهاء حياتهم بضرر جسدي، {أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ}، الذين مع بعض فاشتركوا بالأخدود، وهو الشقّ الطويل في الأرض، الحفرة غير العميقة كثيراً وطويلة نسبياً في الأرض هي أخدود.

هنا تذكر السورة لنا حادثة تاريخية حصلت قبل زمن النبي محمد(ع) كنموذج، وسنرى بعضاً من تفاصيلها.

كما نقول أصحاب المال أو أصحاب التاكسي فالآية اختصرت اسم أصحاب الأخدود، أو اسم قريتهم، أو حتى من هم، وأشارت فقط إلى أنهم أناس حفروا شِقاً "أخدوداً" في الأرض. وقبل البدء بسرد حكايتهم، بدأت بكلام قاسٍ في حقهم {قُتِلَ} كما ندعو بالقتل على شخص مجرم أو نقول: شلّت يدك. هنا الآية تستحضر الحادثة وكأننا في زمن حدوثها وتبدأ بالكلام القاسي عن المشاركين فيها بأنهم يستحقون إنهاء حياتهم قتلاً بسبب العمل الإجرامي الذي ارتكبوه، وبقية الآيات ستحدثنا عن بقية التفاصيل:

(النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ{5})
الأخدود، الحفرة التي في الأرض:

{النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ}، ففي الأخدود نار لها مدد، ونفترض بحسب معلوماتنا عن الزمن القديم أن لها حطباً يَقِدُها ويُشعلها، ليست حفرة اشتعل ما فيها من وقود وانتهت النار، لا، بل لها وقود يتم تزويد الحفرة "بالوقود" بالحطب بالنفط بالزيت..." لتبقى مشتعلة.

هذه المجموعة من الناس، أصحاب الأخدود، أشعلوا في الأخدود ناراً، ووضعوا وقوداً أي خشباً أو زيتاً أو نفطاً... لبقاء النار مشتعلة.

نحن حالياً درج استعمالنا لكلمة وقود فقط لمشتقات النفط مثل البنزين والمازوت، ولكن كلمة وقود معناها كل شيء يُغذّي النار ويزيدها اشتعالاً، مثل الحطب والقطن والزيت...

(إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ{6})

بعد إشعالهم النار في الأخدود:

{إِذْ هُمْ عَلَيْهَا}، على تلك الحفرة المشتعلة، {قُعُودٌ}، قعدوا قرب النار.

ولكن لماذا اتخذوا مقاعد للجلوس قرب تلك الحفرة المشتعلة؟ ماذا كانوا يشاهدون:

(وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ{7})
{وَهُمْ}، قعود، جالسون، {عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ}، على ما يفعلونه من حرق للأشخاص الذين هم في حالة اعتقاد والتزام بدينه تعالى هم، {شُهُودٌ}، يشاهدون ما يفعلون بالمؤمنين! يتفرجون ويتابعون إحراق المؤمنين وكأنهم يحضرون مسرحية أو فيلم!

لم تذكر الآيات بشكل بسيط أنهم أحرقوا المؤمنين بالنار، بل عبّرت الآيات بطريقة غير مباشرة، حتى تجعل القارئ يعيش صورة ضخامة سوء استنتاج المشهد من الآيات.

قالت: هناك مجموعة من الناس حفروا شقاً في الأرض، أخدوداً، واهتموا ببقائه مشتعلاً فمدّوه بالوقود، وقعدوا حوله. ثم تأتي آيتنا الحالية لتقول: إنّهم يشهدون ما يفعلونه بالمؤمنين. يعني هم كانوا يحرقون المؤمنين في تلك النار! وهم يشاهدون احتراقهم!

الآية مرتبطة بالآيات في أول السورة، فهؤلاء الذين أشعلوا النار في الأخدود لن يستطيعوا الإفلات من العقاب على فعلتهم الفظيعة، أو أن ينكروا ما فعلوه بالمؤمنين في يوم القيامة، فهم شهود على أنفسهم.

في زمننا تناقلت وسائل الإعلام مشاهد عن إحراق بعض البوذيين لمسلمين وهم أحياء في "بورما" القريبة من "بنغلادش"، بدون أي سابق خلاف حربي أو عسكري بينهم، فقط لمجرد أنهم مسلمون أحرقوهم وقطّعوا وقتلوا الآلاف منهم... وفي تلك المشاهد المروعة ترى في البعض منها نفس ما تصوّره الآيات هنا، فترى أناساً يهلّلون فرحاً ويرمون الوقود على المسلمين المشتعلين، ويتمتعون بمنظر إحراقهم وهم أحياء بالكاد يتحركون من ألم النار!

الآيات تعرض نموذجاً من أقصى أنواع الإجرام ضد المؤمنين فقط لمجرد أنهم آمنوا، فالكثير من الحوادث الفردية أو غارات أو معارك أو حروب... شنّها الكافرون على المؤمنين عداوة لهم فقط فقط لأنهم آمنوا، وكل هذا عليه حساب عسير ولكن يبقى نموذج إحراق المؤمنين والجلوس لمشاهدتهم يحترقون هو من الأشد قسوة...

قارنها مع سورة التكوير التي من كل الجرائم البشرية اختارت الموءودة للتركيز عليها كنموذج عن الجرائم التي لا يمكن تمريرها بدون عقاب إلهي، وهنا التركيز على نموذج جريمة إحراق للمؤمنين ومشاهدتهم يحترقون.

(وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ{8})
{وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ}، لَمْ يشعروا بالنقمة من الذين أحرقوهم، وَلَمْ ينووا الضرر لمن أحرقوهم، وَلَمْ يبيّتوا نية الضرر للمؤمنين والتي تنفّذت فعلياً بإحراق المؤمنين، {إلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ}، فقط نقموا منهم بسبب صيرانهم بحالة اعتقاد به تعالى، {الْعَزِيزِ}، المنفي عنه عموم الذلّة بأي شكل كان، من التبعية والحاجة وفرض الإرادة... فهو فوق الجميع، ويقابلها صفة الذليل الذي تحت غيره ويحتاج لغيره أو يحتاج للأشياء من غيره... {الْحَمِيدِ}، الموصوف بأن كلّ الأعمال التي تصدر عنه حميدة جيدة ممدوحة.

بعبارة أخرى، أين المشكلة في الإيمان بألوهية ووحدانية من فيه هاتان الصفتان؟ وما معنى النقمة على من آمن بالعزيز! بمن كل البقية أذلاء له وهو فوقهم في كل شيء فهو أعلى موقع وسيطرة وقوة في الدنيا! وبمن كل ما يصدر عنه موصوف بأنه جيّد؟ فرضاً لو كانوا مؤمنين بإله يأمرهم بالتعدّي على الآخرين لكنّا فهمنا سبب قتلهم... ولكن ما معنى قتل بل إحراق بل التلذذ بمشاهدة إحراق من آمن بالعزيز الحميد!

إلى هنا انتهت القصة المختصرة التي لم يُرِد سبحانه إعطاءنا عنها تفاصيل أكثر من ذلك، لا نعلم من هم هؤلاء الناس ولا متى وقعت الحادثة، لأنّه تعالى أرادها كنموذج، هذه الحادثة ليست نادرة بل حصلت عدة مرات في التاريخ، وفي

عصرنا حصل العديد منها بأشكال متنوعة من الحرق إلى القصف بالقنابل الحارقة والكيميائية إلى التقطيع بالألغام، إلى التلذّذ بالتعذيب وبقطع الرؤوس والأعضاء...

وَرَدَ في الكتب روايات عديدة مختلفة مشوشة عَمَّنْ ومتى وقعت هذه الحادثة، ولكن لا فائدة من البحث فيها، الآيات هنا قصدت أن يكون فقط "القعود ومشاهدة الحرق" واضحاً، وكل شيء آخر غامضاً، حتى تكون الحادثة نموذجاً ينطبق على كل زمان ومكان يتم فيه قتل إنسان فقط لأنّه مؤمن بالله العزيز الحميد، وليكون التركيز على هذه النقطة: أين الخطأ وأين السوء وأين المشكلة في الإيمان بمن صفته العزيز الحميد!

الكلام يجرّ الكلام، ها القرآن كلام العزيز الحميد أمامك، ينهى عن قتل أي إنسان لم يرتكب جُرْماً، وينهى عن قتل الكافر إلا إذا كان مُعادياً ومُحارباً، وما تجده من خارج القرآن من فتاوى إجرامية باسم الدين الإلهي، فهي ليست من دينه تعالى، بل من أناس لم يستطيعوا التخلّص من نفسية الإجرام، وسأختصر لك كل ما قاله القرآن عن هذا الموضوع بمراجعتك لدراستنا للآية 8 من سورة الممتحنة "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ"، وفي مقابل هذا الكلام الإلهي عن أمره تعالى لنا بمعاملة البرّ حتى لمن كفر به عزّ وجلّ طالما لم يكن مُعادياً مُحارباً، تأتيك السورة هنا بعرض نموذج عن إجرام بعض الناس بقتل مؤمنين مسالمين أبرياء، وتريك أن هذا العمل لن يمرّ بدون عقاب شديد.

ضِمْناً الآيات تؤكد لنا أن الإجرام الذي يفعله الآخرون ولا حول ولا قوّة لك به لمنعهم أو ردّهم أو صدّهم... سيأتي يوم يتحاسبون فيه على عملهم الإجرامي، وهو يوم القيامة وما بعده، لَنْ يمرّر تعالى ما فعلوه، السورة هنا مثل ما عرضته سورة التكوير عن تفعيل شيء في وجداننا عن ضرورة محاسبة ومجازاة الإله للذين خلقهم بقدرة تمييز الحقّ من الباطل، وبقدرة اختيار فعل من نريد منهما، نموذج قتل الطفلة وَأْداً، ونموذج إحراق المؤمنين والتفرّج عليهم يحترقون، هي أعمال لن تمرّ بدون عقاب شديد.

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ{9})
العزيز الحميد: {الَّذِي لَهُ} لوحده، {مُلْكُ}، ملكية، {السَّمَاوَاتِ}، السبع التي تشمل سماوات الملائكة(ع) وصولاً إلى سمائنا التي نسميها الكون، وله تعالى ملك، {وَالْأَرْضِ}، التي نعيش عليها وأي أرض تقابل السماوات الأخرى، وهذا التعبير القرآني "السماوات والأرض" هو التعبير عن كل شيء في الدنيا ويشابه قولنا: مالك كل شيء. {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}، كُلّ ما يحصل في السماوات والأرض يشهده تعالى لأنه سبحانه حاضر في كل مملكته فيسمع ويرى كلّ شيء.

نحن البشر نطلق اسم السماء على اللون الأزرق الذي نراه في النهار فوقنا، ونطلقه أيضاً على قبّة النجوم التي نراها ليلاً ونطلقه أيضاً على عالم الملائكة(ع) ونطلقه معنوياً على الجنّة... لذلك ضع في بالك دائماً أنّ التعبير بالسماء يشير لعموم ما علا "معنوياً" أو من فضاء أو غيره، ويقابله أرض لعموم ما كان تحت، حيث لا يصحّ أن تقول "سماء" لجهة ما إلّا إذا كان يقابلها أرض، وهذا لا يعني أن الأرض ترابية، أو كوكب... لا، بل عموم أي جهة لتحت يقابلها فضاء من فوق فهي أرض، ولذلك ورد في سورة الطلاق الآية 12 "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ..." وهي إشارة إلى وجود سبع أرضين مقابل سبع سماوات ولم تقصد وجود أرض "كوكب" أو أراض "كواكب" تحت كل سماء، بل أشارت لعموم جهة فوق التي هي طبقات سبع ويقابل كل واحدة منها عموم ما هو تحتها فهو أرض، وهكذا يصير كوكبنا الترابي أرضاً بالنسبة للسماء التي فوقه، ومثله سطح القمر فهو أرض بالنسبة للسماء التي فوقه، وسطح المشتري الغازي أرض بالنسبة للسماء التي فوقه... ولبقية السماوات ما يناسبها من أرض أو أراض.

الآن لنركّز على الصفات الأربع له تعالى والتي ركّزت عليها السورة، هل اخترع المؤمنون إلهاً وهمياً من خيالهم؟ لا، هو الإله الحقيقي المالك لكل شيء. وهل الإله الذي آمنوا به صدرت عنه أفعال سيئة حتى يكرهه غير المؤمنين به؟ لا، هو حميد، كل أعماله حميدة جيدة حسنة، وتعلم من كلّ رسله وأنبيائه وكتبه أنه تعالى يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وبرّ الوالدين... ويحرّم السرقة والكذب والزنا وشهادة الزور... هذا من ناحية التشريع وأمّا من ناحية الأفعال فقد خلقنا ووهبنا الحياة ووهبنا البيئة الرائعة التي نحن فيها... وهل هو إله ضعيف يحتاج لشيء ما من غيره؟ لا، هو

العزيز، وهو إله تفتخر بعبوديتك له... وبالأخير، هو إله شهيد فيسمع ويرى كلّ شيء، أين سيذهب من عذابه من آذى وقتل وأحرق المؤمنين به؟

بقي سؤال: بماذا كان يؤمن الذين قتلوا المؤمنين بالعزيز الحميد؟ بصنم للجنّ أو الملائكة؟ بصنم آلهة وهمية من خيالهم؟ بتمثال بوذا والأرواح؟ بتماثيل القديسين؟ بالدهر بالطبيعة بالصدفة... بماذا آمنوا حتى قتلوا من آمن به تعالى؟ وكيف يجري القتل حرقاً مع التلذذ بقتل من آمن بالشيء الصحيح؟

أمام هذه المشاهد الفظيعة سيقول ضعفاء الإيمان: أين هو الله؟ ولماذا لم يتدخّل؟ وسيقول الذين لم يؤمنوا نفس هذا الكلام للتأكيد على أن الإيمان بالله تعالى غير صحيح. ولكنه تعالى تدخّل كثيراً في حوادث كثيرة، وبعض الحوادث ذكر لنا تدخله تعالى فيها بشكل صريح، كنجاة النبي إبراهيم(ع) من النار، ونجاة بني إسرائيل من فرعون، ورفع النبي عيسى(ع) حينما حاولوا صلبه... وبعض الأحيان اكتفى سبحانه بالإشارة إلى تدخله بشكل غير ظاهر لإفشال بعض الأعمال الإجرامية ضد المؤمنين، ولكنها تدخلات بقرار إلهي رأى فيها تعالى حكمة للتدخّل، لا أنا ولا أنت نقرر متى وكيف يتدخّل سبحانه، ومن عنده شكّ بحكمته تعالى فسيقول هذا الكلام الاعتراضي عليه تعالى، ومن يعتبر نفسه أفهم وأرحم منه تعالى فسيقول هذا الكلام، في الأساس لم يفرض سبحانه وتعالى على نفسه التدخّل لحماية الناس المؤمنين من الآخرين إلا بشروط، لأننا كلّنا في الدنيا في حالة الامتحان، والتدخلات الإلهية التي تحصل لها أسبابها، وحين لا يتدخل سبحانه لصالح المؤمنين لهذا أسبابه أيضاً.

هنا في السورة لاحظ وانتبه، لَمْ يقل سبحانه عن المقتولين إلّا أنهم مؤمنون به، وأن الآخرين قتلوهم لهذا السبب فقط، ولم تمدح السورة المقتولين، رُبّما فيهم منافقون أو فاسقون، وربما لا يعرفون من الانتماء لدينه تعالى إلا الاسم بلا أي تطبيق، رُبّما لا يصلّون ولا يزكّون... لا تفترض بضبابية أنهم كالأنبياء وبلا ذنوب وملتزمون بكل واجباتهم، لو كانوا كذلك، لأعدوا لعدوّهم ما استطاعوا من قوّة، هذا أمر إلهي واضح للمؤمنين وتراه جليّاً في الآية 60 من سورة الأنفال "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ"، ولو فعلوا ذلك لم تصل الأمور إلى التجزير بهم ولكان سبحانه نصرهم...

السورة فقط وفقط تعرض علينا الإجرام بالتجزير حرقاً مع التلذّذ بذلك لأناس ليس لهم ذنب إلا الإيمان به تعالى، تركيزها على المجرمين الذين قتلوا المؤمنين، لأيّ سبب قتلوهم! ولأي سبب عادوهم! ويكرهونهم لهذه الدرجة! فقط لأنهم مؤمنون به تعالى!

هكذا صرت ترى بوضوح أن طرح اعتراضات على تركه تعالى لقتل الأبرياء يحدث من دون تدخل مباشر منه سبحانه لمنع حصوله، هي اعتراضات ضبابية لم تدرس الظروف والحيثيات وغير عقلانية، وقبل لومه تعالى أنه لم يتدخل، فاسأل نفسك أنت المكلّف المأمور: ماذا فعلت أنت؟ أنت ستتحاسب إن لم تقم بواجبك، لا تذهب إلى ما لا علاقة لك به، واهتمّ بما لك علاقة به، لا تحاسبه تعالى معتقداً أنه لم يتدخل، وأنه كان يجب عليه أن يتدخّل، وحاسب نفسك لأنه تعالى سيحاسبك أنت الذي لم تستعدّ ولم تأخذ القرارات المناسبة، أنت الذي تمرّ في الدنيا بالابتلاء وليس الله تعالى من يمرّ بالابتلاء.

(إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ{10})
{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}، الذين جعلوا الأشخاص الذين أعلنوا أنّهم في حالة اعتقاد به تعالى، جعلوهم يتعرّضون لشيء ما حتى يتغيّروا، يتراجعوا عن إيمانهم به تعالى، وهنا السورة تحدّثت عن أسوأ وأبشع نموذج للفتنة، هددوهم بالحرق بالنار إن لم يتركوا إيمانهم به تعالى، فهؤلاء الذين فتنوا المؤمنين، ثم لم يتوبوا، لم يفتحوا صفحة جديدة متوقفين عن هذه الفتنة للآخرين، وماتوا قبل أن يتوبوا، فلهم عذاب جهنم، وهي المكان الذي يوصف بأن كل ما فيه سيّء جداً، هو متأجج بالنار، وفيه الأصفاد والأثقال والعطش والجوع والروائح الكريهة والتعذيب الجسدي والنفسي... ولهم أيضاً عذاب الحريق، سوف يتم حرق جسدهم بالنار، وتعلم من بقية القرآن أنهم يحترقون ويتم استبدال جلودهم ثم

حرقهم، ثم استبدال جلودهم وهكذا بلا نهاية، وورد ذلك في الآية 56 من سورة النساء "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ...".

لاحظ أنه ورغم شدة سوء ما ارتكبوه، الإله سبحانه وتعالى يعطيهم فرصة للتوبة، فإن كانت صادقة وآمنوا وعملوا الصالحات فسيسامحهم تعالى حتى على حرقهم للمؤمنين.

ضع في بالك دائماً أنّ القرآن لا يشجعنا على ارتكاب الذنب على أساس أن نتوب منه فيما بعد، بل يحذّرنا من أي عمل سوء لأنه سيطبع قلبنا ويدمغه ولن نستطيع بعدها التوبة بسهولة، من شبه المستحيل التوبة من بعد التمرّس على فعل السوء.

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ {11})
{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا}، كانوا في حالة اعتقاد به تعالى وبدينه تعالى، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، عملياً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

{لَهُمْ جَنَّاتٌ}، وهي الأماكن الموصوفة بروعة ما فيها، {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، من تحت أشجارها تمشي الأنهار هنا وهناك، وتعلم من الآية 15 من سورة محمد "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى..."، أنّها أنهار من مياه طعمها لذيذ غير عادي ومن مشروبات متنوعة... وعبارة {جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} هي اختصار شديد يحوي في داخله كل معاني السعادة الموجودة في الآخرة للمؤمنين العاملين للصالحات، وبالخصوص فهي اختصار لروعة المكان وما فيه، لا تبالغ وتتصوّره كمستنقعات بل تصوّره بروعة الشلالات والأنهار والجداول مع الأشجار فوقها وعلى جنباتها الورود والأزهار...

{ذَلِكَ} هو {الْفَوْزُ الْكَبِيرُ}، هو الحصول على شيء ذي قيمة بشكل كبير، الفوز هو عامةً الحصول على شيء له قيمة من بعد المشاركة في شيء ما.

نتذكّر دائماً أنّ القرآن يقرن بين الإيمان والعمل الصالح مع بعض، والنتيجة للاثنين معاً هي دخول الجنة، لا الإيمان بدون عمل صالح ينفع، ولا العمل الصالح من دون إيمان ينفع، بل كلاهما معاً ينفعان.

لاحظ وانتبه جيداً، الآية السابقة تعرض التوبة على حارقي المؤمنين به تعالى! وهنا تريهم ما سيحصلون عليه منه تعالى إن تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات! وهذا النوع من الكلام يريك الفرق الهائل بين كلام أي مخلوق وبين كلامه تعالى، وبعض الناس يعتقدون أن قلبهم طيّب، ويرون كلامه تعالى عن عذاب الآخرة مبالغاً في شدّته، وها ترى أنّه تعالى رحمانٌ لأقصى درجة، ولكن الفرصة هنا في الدنيا متاحة لنا للبقاء أو الرجوع لتحت مظلة الرحمة الإلهية، وأمّا في الآخرة فحساب فقط، وكل منّا سينال ما سيناله بالجزاء الأوفى... بلا ظلم...

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ{12})
{إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ}، إنّ التعامل مع شيء ما بعنف والذي يقوم به المسؤول عنك من مستوى إلهي، {لَشَدِيدٌ}، تحمّله أو ردّه أو منع حصوله مستحيل.

الذين يقرر سبحانه التعامل معهم بعنف، فلن يستطيعوا الوقوف في وجه ما سيحصل معهم ولن يستطيعوا تحمّله. من سيجازيهم سبحانه هنا في الدنيا أو الآخرة فلن يستطيعوا منع حصول الضرر الشديد عليهم.

وهذا تهديد كبلاغ منه تعالى للجميع حتى ينتبهوا لمصيرهم.

(إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ{13})

{إِنَّهُ}، هو الله سبحانه، {يُبْدِئُ}، يبدأ بخلق الكائنات يُنشِئ الأشياء من لا شيء، وهو الذي، {يُعِيدُ} يكرر خلق الكائنات مرة ثانية.

ومن عموم القرآن تعلم أنّه تعالى بدأ بخلق كل شيء من لا شيء، خلق السماوات السبع والأرضين والملائكة(ع) والجنّ والإنس والحيوانات والنباتات... وسيفنى كلّ شيء إلا ما شاء تعالى كما تقرأ في الآية 68 من سورة الزمر "وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ"، سيعيد سبحانه خلق كل شيء من جديد في زمن الآخرة.

الآية هنا تشير لقدرته الفائقة سبحانه وتعالى على الابتداء بخلق كل شيء، وبالتالي عندما يقول سبحانه بأنّه سيعيد خلقنا من جديد فهذا حتماً سيحصل، وتعلم أنّ إعادة خلقنا ستكون لمحاسبتنا ومجازاتنا، هذا الكلام مع وعن الذين لم يؤمنوا ولم يعملوا الصالحات ليعلموا مع من يتعاملون، إلههم بقدرات فائقة، وسيعيدهم إلى الحياة كما وعد ليحاسبهم...

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ{14})
{وَهُوَ}، الله سبحانه، {الْغَفُورُ}، يُلغي العقاب على الذنب، وكما تعلم هذه المغفرة لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، وهو {الْوَدُودُ}، الذي يتعامل مع الباقين بما يناسب خاطرهم انطلاقاً من الرضا عنهم، سبحانه شديد العقاب فقط مع من يستحق العقاب، أمّا من تقرب منه تعالى وأطاعه وطلب مغفرته، فسبحانه غفور ودود يلغي العقوبة عن ذنوبه ويكافئه بمعاملة على خاطره.

نتذكّر دائماً وصفه تعالى نفسه في القرآن بالغفور لننتبه بأنّه تعالى ليس لئيماً صلباً قاسياً جافاً حقوداً... حتى من كفر به عزّ وجلّ، وقتل المؤمنين به تعالى بأبشع أنواع القتل، بالحرق، فباب التوبة والمغفرة يبقى مفتوحاً له، وإن تاب وآمن وعمل صالحاً، فكل ما سبق من ذنوب ومهما كان حجمها ونوعها فهي مغفورة وسيعامله تعالى بودّ.

أكرّر لك ما تسمعه عن أوصاف يتهمه سبحانه بها الناس بالقسوة حين يقرؤون كلامه تعالى عن الخلود في النار، هذه القسوة يستحقونها لأنّهم هم خرجوا بإرادتهم من تحت مظلة رحمة الغفور الودود.

(ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ{15})
والله سبحانه، {ذُو الْعَرْشِ}، الموصوف بنسبة العرش له، صاحب مالك مدير... العرش. والعرش الذي نعرفه نحن هو: كرسي مع منصة، وتحيط بها الزخرفة، ويجلس عليها الملك أو الحاكم. وبما أنّ الله سبحانه موجود في كل مكان، سواء في عالمنا، أو في عالم الملائكة(ع)، وفي العوالم التي لا نعرفها... فعرشه سبحانه في كل مكان، أو بالأحرى، عرشه في كل الدنيا. وجملة ذي العرش من مستوى إلهي تعني السلطة المركزية المطلقة على كل ما في الدنيا، على كلّ شيء.

والله سبحانه هو {الْمَجِيدُ}، الموصوف بالمجد، الموصوف بانتساب الصفات العالية الحسنة له مع انتساب الأعمال الضخمة الجيّدة الحكيمة له سبحانه.

بعبارة أبسط قارنها مع الملوك والأمراء والزعماء والرؤساء وغيرهم من أصحاب السلطة الذين نصفهم بالمجد إذا قاموا بأعمال جيّدة، وقارنها مع العلماء والشهداء الذين نصفهم بالمجد بسبب صفاتهم العالية التي نتج عنها عمل عالٍ، هي لا شيء أمام صاحب الصفات والأعمال الإلهية، مجده، وصفه بالمجد عزّ وجلّ، نابع من صفاته الإلهية الفائقة ومن أعماله الضخمة، وربط صفة المجد مع ذي العرش يعطينا معنى خاصاً للمجد، من له السيطرة على كلّ شيء، مجيد.

قارنها مع ملك له السيطرة على بلده ولكنه غير موصوف بالمجد بسبب ضعف رؤيته للأمور المهمّة والمفيدة، وبسبب استهلاكه للقدرات في أعمال أقل أهمية من أعمال أخرى... وصولاً إلى وجود صفات سيئة فيه وقيامه بأعمال فاسدة... وهكذا تفهم تعريفنا بوصفه تعالى بالمسيطر على كل شيء وصفاته فائقة وأعماله ممدوحة ضخمة.

سترى من الآية التالية سبب ذكر السورة للصفات السابقة له تعالى، ولكن قبل ذلك لنتحدث عن كلمة عرش.

العرش الذي نعرفه نحن هو الكرسي الفخم الضخم الموضوع على منصّة ويجلس عليه الملك أو الحاكم، أصلاً كلمة عرش وصف لعموم ما علا ويقابلها فرش، وعرشه سبحانه تعبير عن الإدارة المركزية من مستوى ربوبي، هو تعبير

عن مركزية السيطرة والقرار لكل ما في الدنيا "والآخرة"، وبما أنّ سيطرته تعالى ممتدة على كل الدنيا "والآخرة" فعرشه سبحانه ممتدّ بامتداد الدنيا "والآخرة"، على كل ما في الدنيا والآخرة كما هو واضح من تعبير الآية 255 من سورة البقرة "... وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ".

لدينا تراث ديني ثقافي يشير البعض منه إلى وجود شيء محدّد كعرش له سبحانه، كشيء مشابه بشكل ما لمكان تتم فيه إدارة شؤون الدنيا، واستندوا على ذلك قرآنياً بالآية 17 من سورة الحاقة "وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ"، وكلامهم خليط من تصوّرات مختلفة، بعضها سببه استعمال لغتنا لتوصيف أمور لا يمكننا نحن البشر تصوّرها، وبالتالي الكلمات التي نستعملها لذلك تنقل نفس المعنى ولكن لأمور مختلفة، هناك ملك صلب لا يهتز وإدارة إلهية مركزية لما في الدنيا، ولكنه سبحانه واسع محيط، وهناك ملائكة بقدرات عالية خلقها سبحانه ووظّفها لإدارة بعض شؤون ما في الدنيا، وأشهرها وضوحاً من القرآن ملك الموت، وهذه موصوفة "بلغتنا" أنّها حاملة للعرش، الكلام القرآني الذي يشير لقوّة الملك ولنواة الحكم والسيطرة لا يشير إلى مكان، ولا إلى شيء، بل إلى حالة، وهذا واضح جداً من تعبير الآية 255 من سورة البقرة بوصفها وساعة الكرسي بوساعة السماوات والأرض.

من السذاجة تصوّره تعالى جالساً على كرسي على منصّة وثمانية ملائكة يحملون المنصّة، ضاربين بعرض الحائط كلامه سبحانه عن نفسه بأنّه واسع محيط وليس كمثله شيء لا يمكن لأي مخلوق تصوّره...

الوصف القرآني لملائكة حافين حول العرش أو حاملين له هو وصف حالة وليس وصف مكان.

بعبارة أخرى، كل السماوات... وهذه الأرض التي نحن عليها، هي كل ما في دنيا المخلوقات، خلقها كلّها ربنا الله سبحانه، ويخبرنا سبحانه أنّه هو بنفسه ولوحده ركّبها وألّفها في ست فترات زمنية، وبعد اكتمالها، لم يتركها سبحانه لغيره ليديرها، بل استوى على العرش كل شيء صار بالتمام انبسطت سلطته عليها كلها، ومن دون تهديد من أحد بالقدرة على التدخل.

على الاسمية لكلمة عرش كاسم لشيء، كل السماوات والأرض "كرسيه" عرشه تعالى، وعلى الوصفية للملك القوي والسيطرة والإدارة المركزية والتي بلغتنا البشرية نستعمل لها وصف العرش، سبحانه حالته أنّ عرش السماوات والأرض منسوب له، ذو العرش، واستوى على العرش، وهناك ملائكة موظفون منه تعالى بتنفيذ مهمات "رئيسية" يكون وصف حالتهم كحاملين للعرش وحافّين حول العرش.

(فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ{16})
ذو البطش الشديد الذي يبدئ ويعيد، ذو العرش المجيد:

{فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}، إذا أراد سبحانه أن يفعل شيئاً ما، فلا أحد يمكنه الوقوف في طريقه لمنعه، لا أحد يمكنه أن يصدّه أو يمنعه أو يعارضه...

عملياً هذه الجملة تعني: إذا أراد سبحانه خلق الكائنات، فعل وخلقها. وإذا أراد إفناء وإماتة الكائنات، فعل وأماتها. وإذا أراد إعادة إحياء الكائنات، فعل. وإذا أراد تعذيبهم في الدنيا أو الآخرة أيضاً يستطيع ذلك، ولا يوجد أي شيء يمكنه منعه أو يؤثّر على إرادته سبحانه وتعالى.

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ{17})
نصل الآن إلى مثال عملي هنا في الدنيا كنموذج عمّا يمكنه سبحانه فعله، وبالخصوص بما تتحدّث عنه السورة والمثال عمّا فعله تعالى بمن آذى المؤمنين:

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ}؟ هل وصلك ونقل لك الآخرون كلاماً عن الجنود، عن الملتزمين بتحقيق ما يريده غيرهم؟ وهنا الكلام عن جنود فرعون وجنود ثمود كما سترى من الآية التالية.

(فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ{18})

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ جُنُودِ}: {فِرْعَوْنَ}؟ وكما تعلم من عموم القرآن الكلام فيه محدّد عن فرعون محدّد واحد من الفراعنة، وهو الفرعون الذي كان في عصر النبي موسى(ع) حين أمره تعالى بإخراج بني إسرائيل من مصر، وتعلم أيضاً أنّه لحق ببني إسرائيل ليقتلهم... وغرق هو وجنوده في البحر...

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ جُنُودِ}: {ثَمُودَ}؟ وهذا اسم لقبيلة كبيرة كانت منتشرة في بقع مختلفة على الجزيرة العربية، والقرآن تحدّث بالخصوص عن ثمود الذين كانوا قوم النبي صالح(ع) ومدينتهم الحجر، طغوا فدمّرهم سبحانه بزلزال...

هذان مثالان أراد سبحانه تعذيبهم هنا في الدنيا ففعل ولا أحد تمكن من منعه سبحانه.

حين تفكّر في تدخله تعالى لنصرة المؤمنين، وحين تطلب منه تعالى الانتقام من الكافرين، وحين تفكر كيف ترك تعالى بعض الكافرين يجرمون، وحين تريد هنا في الدنيا دليلاً ملموساً عن عذاب الآخرة... فهل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود؟ حين تتذكر ما جرى معهما سترى الأجوبة عن كل أسئلتك.

أمّا الكافر المجرم، فليتذكّر هذين النموذجين ليعلم بالدليل التاريخي الملموس أنّ كلامه تعالى عن العقاب ليس حبراً على ورق.

(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ{19})
{بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا}، أنكروا هذا الدين فهم، {فِي تَكْذِيبٍ}، وصلهم خبر فرعون وثمود وغيرهم ولكنهم لا يؤمنون بهذه القصص ويعتبرونها خرافية، وبالتالي لا يصدّقون بأنّه تعالى يعاقب المجرمين، وبالتالي فهم لن يتوبوا لأنهم لا يؤمنون بإله يجازيهم على إجرامهم.

ليأخذوا علماً أنّ العقاب الإلهي هنا في الدنيا قد ينزل على من يؤذي المؤمنين إذا أخذ تعالى قراراً بذلك، وحصل سابقاً مع فرعون وثمود، ولا مانع من حصوله مع غيرهم، فليتوبوا قبل حصول ذلك.

(وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ{20})
{وَاللَّهُ} سبحانه {مِنْ وَرَائِهِمْ}، من وراء الكافرين بدينه، أي من حيث لا يرونه، فهو سبحانه {مُحِيطٌ}، من كل الجوانب هو تعالى موجود، بمراقبته بقدرته بسلطته... من كل جوانبهم موجود سبحانه.

من ناحية العلم بتكذيبهم وما يفعلونه فهو تعالى محيط من كل الجوانب بذلك، ومن ناحية قدرته سبحانه عليهم فسلطته وقدرته تعالى عليهم أيضاً من كل الجوانب.

الآية هنا خبر عن وضعهم وحالتهم، فهم لا يرون أنهم في ملكه تعالى وتحت سلطته، على هواهم وراحتهم يتصرفون، بينما في الواقع هو تعالى محيط بهم، فبمن يستهترون ومع من يلعبون؟

(بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ{21})
{بَلْ هُوَ}، الكلام الذي سبق وقالته السورة وكذّبوا به، ولم يؤمنوا به تعالى ولا بدينه ولا بآخرته... فهو، {قُرْآنٌ}، شيء يمكن قراءته، {مَجِيدٌ}، يُوصف بصفات العظمة.

نتذكّر دائماً أنّ ما نزل وحياً منه تعالى على رسوله محمّد(ع) كان معلومات في الكتاب الأساسي، وجرى تحويل بعض من معلومات ذلك الكتاب إلى اللغة العربية، فصارت قابلة لأن نقرأها نحن البشر، وصار اسمها قرآناً "مقروءة"، فالآية قرآن والسورة قرآن وكل السور التي نزلت هي قرآن، وبما أنّه كلام نازل من الإله الأحد المجيد، فكلامه سيكون موصوفاً مثله تعالى بالمجد، بعظمة الصفات، فهو شيء مقروء صحيح دقيق وقيمته عالية...

(فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ{22})

القرآن، {فِي لَوْحٍ}، في شيء له سماكة ملساء أقل من عرضه وهو قطعة منفصلة لوحدها، ومن سياق الكلام تعلم أنّه لوح له مساحة للكتابة عليها، {مَحْفُوظٍ}، مصون لا يتغير محتواه، فلا يتم التلاعب به ولا يحصل خلل للمكتوب عليه، ولا تتداخل المعلومات مع معلومات أخرى لتشوّهها...

من عموم القرآن نعلم أنّه في السماء العالية يوجد كتاب مبين، وفي ذلك الكتاب يوجد ألواح، في تلك الألواح يوجد كل شيء من معلومات متعلقة بالدنيا والآخرة، وفيها أيضاً كل الكتب التي نزلت على الرسل، وفيه كل الصحف التي نزلت على الأنبياء، وفيه كل التشريعات، وفيه كل ما حصل وسيحصل في الدنيا، وفيه ما سيحصل في الآخرة... وهذا القرآن أيضاً كان مسجّلاً على واحدة من تلك الألواح قبل تحويله إلى اللغة العربية ونزوله على الرسول محمّد(ع).

هذا اللوح الذي كان فيه القرآن هو لوح من نوع آخر غير ألواح عالمنا، ولا نعلم مما يتألف، وليس لدينا القدرة على التعرف عليه أو القراءة منه، وكما تعلم من فحوى كلام القرآن فالبعض من الملائكة(ع) العالية لديهم الصلاحية والقدرة على الاطلاع عليه، وحتى النبي محمد(ع) لا يطّلع عليه بشكل مباشر، بل الملاك جبريل(ع) يقوم بنقل المعلومات من اللوح إلى النبي(ع) كما نفهم من الآية 97 من سورة البقرة "قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ...".

هذا اللوح محفوظ، فلا يتشوه، ولا يفسد، ولا تقع فيه أخطاء... ربنا سبحانه خلقه بطريقة خاصة، وأيضاً جعل سبحانه حوله من يحفظه من يصونه من يحميه، من التلاعب به...

هذه كانت خاتمة السورة، فالقرآن الكريم ليس من اختراع البشر، والمعلومات التي فيه صحيحة مائة بالمائة، لأنها بالكامل من عند الله تعالى، فلينتبه الذين كفروا من عقابه تعالى لأنّه قد يحصل في الدنيا عقاب إذا قرّر تعالى ذلك، وعندها تفوتهم فرصة التوبة، وحتماً سيحصل لهم عقاب في الآخرة.

سورة الطارق (86) ص 591
محورية السورة حول حفظ كل ما يصدر منّا، وأن عليه حساباً ومجازاةً، وهذا الكلام صادر من الإله الفعّال لما يريد، بدليل قدرته الواضحة من خلقِهِ السماء والأرض وخلقنا نحن...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(وَالسَّمَاء وَالطَّارِقِ{1})
{وَالسَّمَاءِ}، تأكيداً بما هو فوق مقابل أرضٍ تحته، وتأكيداً بـ، {وَالطَّارِقِ}، الضارب في وجهة ما فيلاقي أو يصطدم بشيء ما.

تُفهم الآية من النظرة الأولى أنها تشير لشيء في سمائنا سيطرق الأرض، ولكن ربطاً على ما ورد في سورة النجم نفهم أن السماء التي فوقنا تمتد وصولاً إلى السماء السابعة، فكلهن فوقنا وبالتالي فكلهن سماء بالنسبة لنا، والطارق يكون من أي سماء فيها نازل باتجاهنا ليلاقي شيئاً ما، وفي سورة النجم فهمنا أن النجم وصف للملاك جبريل(ع) الذي له موقع في السماء، الطارق نجم ثاقب كما ستقول الآية بعد التالية، وسنتحدّث بتفصيلٍ عن هذا بعد الآية التالية.

لاحظ كلمات: طرق طريق طريقة طرائق طارق... ولاحظ شبهها بالمعنى مع: قرع قارعة قارع... والآن لاحظهما مع: ضرب مضرب ضارب... ومع جبه وصفع ودقّ... حصول الصوت من هذه الأفعال ليس من أصل معاني الكلمات، هي ليست مثل عزف وصرخ ونبح، هي ليست أسماء لأفعال إصدار الأصوات. طرق لا تعني حصول صوت من ضرب شيء بشيء، بل تعني توجّهاً حركياً "معنوي أو مادي" لشيء باتجاه شيء حتى يلاقيه أو يصطدم به.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ{2})
يمكنك أن تقول: عندي معلومات عن الطارق، أو تقول صار عندي معلومات عنه، لكنك لا يمكنك القول: أدري به. لأنك لم تره ولم تتعامل معه وهو في حالة وصفه بالطارق.

(النَّجْمُ الثَّاقِبُ{3})

{الطَّارِقُ} هو: {النَّجْمُ}، وبحسب استعمال القرآن واستعمال العرب لكلمة "نجم" في أشعارهم قبل الإسلام، هي تشير لأي جرم "لأي شيء" له مكان في السماء، سواء أكان منيراً بذاته مشتعلاً كشمس أو غازياً ساخناً، أو كان صلباً يعكس ضوء غيره كالأرض أو غازياً كالمشتري... {الثَّاقِبُ}، قويٌّ جداً بالنسبة لما هو أمامه فيخترق ما يقع أمامه.

الطارق هو نجم وهو شيء له موقع في السماء، وثاقب فيخترق، وكما ترى هذه الأوصاف تتماشى تماماً مع وصف ملاك في السماء العالية يثقب السماوات الستّ نزولاً نحو الأرض، وترى شبه الكلام هنا في السورة مع ما ورد في سورة النجم، على أصل معنى الكلمات لغوياً يناسبها أنها توصّف ملاكاً.

ما ستجده في مختلف الكتب من تفسير لهذه الآيات عن هذا النجم أنه نيزك سيضرب الأرض... هذه الجملة ليست صحيحة، النيازك أو الشهب يمكن أن تضرب الأرض، ولم ينتبهوا للفرق بين كلمة نجم وكلمة نيزك وشهب، وتراهم يتماشون بكل سهولة في كلامهم عن شهب أو نيزك وهم يقولون عنه بأنه "نجم" سيضرب الأرض قبل يوم القيامة، أو قبل ظهور المهدي...! العرب لا قديماً ولا حديثاً سمّوا النجم شهاباً أو نيزكاً أو الشهب أو النيزك نجماً، ووصفوا معنوياً الشيء الذي له قيمة عالية بأنه نجم تشبيهاً بعظمة النقاط البيضاء التي لها موقع في السماء.

الآن نسأل عن معنى هذه المقدمة، والجواب المتاح لنا من القرآن والمستفاد من مختلف السور أن الملائكة(ع) لا ينزلون من سمائهم إلا بأمر منه تعالى، وفيما نعلم نزلوا لتوصيل الوحي للرسل، ولتعذيب أقوام كتعذيب قوم النبي لوط(ع)، ولنقل بشارة كتبشيرهم لسارة بولد، ولتصيير السيدة مريم(ع) حبلى... وهنا الكلام عمومي ولكن فيما سيأتي من كلام السورة هو يشير لنزول الملائكة بالوحي وبالخصوص بالجملة التالية "الآية الرابعة"، الطارق نجم ثاقب نقل الخبر التالي: كل نفس لمّا عليها حافظ.

بقي شيء، مدةً بعد مدّة يتداول الناس كلاماً عن توقيت واسم لنيزك سيضرب الأرض ويدمّرها، مرّت عشرات ومئات السنين ولم تصدق نبوءاتهم، علمياً لا أسرار مخفية، الفلكيون بعشرات الآلاف من متخصصين وهواة، ويمكنهم حساب مسارات الأجسام التي تمر بقرب الأرض، ولا مرة وصلنا منهم كلام عن اصطدام شيء مدمّر بالأرض، إلا ما تسمعه من المعتوهين المستهترين، وكلام هؤلاء له جمهور واسع من السخفاء، فيصدّقونه على عماه وينشرونه من دون التحقّق من مصدره.

لست أنفي احتمال ضرب شيء من الأجرام السماوية للأرض، هذا يحصل يومياً وبكثرة، حيث تحترق في الغلاف الجوّي للأرض وتتساقط علينا كغبار مع بعض الحجارة، ولكنها حوادث عادية جداً وليست شيئاً جديداً، ولكن الاهتمام بالأجرام الكبيرة نسبياً والتي تسبّب ضرراً على مقياس كبير، أو حتى قد تسبّب إبادة لكل الجنس البشري على الأرض... ونعلم بمرور أجسام كبيرة بقرب الأرض ويمكنها تسبيب أضرار جسيمة للأرض لو أصابتها، وحساباتنا الحالية لا تشير إلى إصابتنا بأي منها، ونعلم أن حساباتنا قد تكون غير صحيحة، يمكن أن يصيب واحد منها الأرض...

لكن المشكلة هي في إدخال هواجسنا إلى تفسير القرآن، خوفنا من كارثة اصطدام جسم فضائي كبير بالأرض، هو خوف مبرّر حين تفكّر في كثرة احتمالات ذلك، وفي نفس الوقت غير مبرر حين لا ترى بوادر مؤكدة لذلك، وحين تتذكّر الوساعة والفسحة الهائلة للفضاء وأن اصطدام شيء بالأرض ليس مستحيلاً ولكن ليس متوقعاً... وخوفك غير مبرّر حين تفكّر بأن حياتك حتماً منتهية بعد سنوات سواء ضربنا نيزك أو لم يضربنا، فما الفرق؟ فهل تحمل هم انتهاء وفناء البشرية؟ نحن فانون على أي حال.

حسناً، هل في القرآن كلام صريح مباشر عن ضرب جسم فضائي للأرض ليدمّرها ويكون سبب فناء البشرية؟ لا، حتى الآيات هنا لو بشكل أو بآخر أصريت على تفسيرها بنجم يضرب الأرض، هي ليست صريحة بتسبيب فناء البشرية.
ومن ناحية ثانية هل لدينا ضمان قرآني أنه لن يصيبنا أجسام كبيرة من الفضاء؟ لا، قد تصيبنا، ولكنها لن تكون فانية للبشرية في الزمن المنظور، لأن أموراً مستقبلية ذكرها القرآن ستحصل معنا ولم تحصل بعد، كنفوذنا من أقطار السماوات كما ورد في الآية 33 من سورة الرحمن "يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ"، ودخول المسجد الأقصى كما ورد في الآية 5 وما بعدها من سورة الإسراء "فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا"، وفيه تكرار أكيد مرة ثانية لنفس الحادثة، والمرة الثالثة والرابعة... مفتوحة الاحتمالات بالنسبة لنا...

هل في القرآن تحديد لزمن الدنيا ومنه تعلم زمن خراب الأرض بكارثة؟ لا، ما يتداوله المنتمون لدينه تعالى منذ القدم عن قرب فناء البشرية على الأرض، ويقدّرون ذلك بالسنين والأشهر... وأننا لن نتجاوز العام ألفين ميلادي أو الألفين هجري... كله كلام لا مستند قرآني له، بل أخبار القرآن لنا عن النفوذ في أقطار السماوات تستفيد منه أن فناء البشرية لن يحدث قبل ذلك، وغير معلوم بعد ذلك كم مئة أو ألف أو ملايين السنين قد تمرّ على البشرية...

(إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ{4})
تأكيدٌ بالطارق النجم الثاقب:

{إِنْ كُلُّ نَفْسٍ}، كل شخص كل واحد من الناس، {لَمَّا عَلَيْهَا}، إلا وعليها، {حَافِظٌ}، ما يصون. مما ورد في سورة الانفطار "وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (10) كِرَامًا كَاتِبِينَ (11) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (12)"، نفهم الآية هنا تشير للملائكة(ع) المرافقين لكل شخص منّا لحفظ ما يصدر عنه عبر تسجيل ما يفعله وينويه ويقوله... في كتاب خاص بكل شخص منّا، ويوم القيامة تُعرض علينا تلك الكتب، هو يوم تبلى السرائر كما سيأتي في الآية 9 من هذه السورة.

وَرَدَ في الآية 11 من سورة الرعد تعبير مشابه لآياتنا هذه "لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ..."، راجع دراسة تلك الآية التي في شقيّها من كلامها عن "الحفظ وعن التغيير" تفسير غير صحيح منتشر بين الناس، فسروا به أيضاً آيتنا هنا، على أساس أننا نتعرّض لما يميتنا والملائكة تحفظنا منه! هذا كلام لا معنى قرآنياً له.

الآية هنا هي محور السورة، كل ما يصدر عن كل إنسان، هناك "ملاك" يحفظه بالتسجيل ويكون شاهداً علينا، وعلى هذا الأساس سنتحاسب ونتجازى في الآخرة، وهذا الكلام القرآني وبالخصوص هذه الجملة هي منقولة منه تعالى عبر ملاك يوصف بالطارق وبالنجم الثاقب حين يوصل كلامه تعالى وحياً إلى رسوله(ع).

لمزيدٍ من التوسّع حول ما يمكننا فهمه من كيفية نزول الملاك بالوحي القرآني، راجع دراسة الآيات حول الآية 8 من سورة النجم "ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى".

(فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ{5})
{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ}، من بعد الكلام عن الحافظ على كل نفس، ليوجّه الإنسان اهتمامه العام إلى، {مِمَّ خُلِقَ}؟ ممّا تركّب وتألّف؟ ما "ومن" الذي كوّنه ليصير إنساناً؟

خلقٌ فتركيبٌ فتأليفُ كيان ما، يستدعي حتماً خالقاً ركّبه وألّفه، الأشياء لا تنخلق لوحدها، فلا تصير فوق بعضها متركّبة لتصير كياناً هكذا لوحدها بدون خالق لمادّتها وبدون مصمّم لتركيبها... وهي نفس كلمة "خلق مخلوق" تتضمّن أنّ خالقاً خلق الإنسان، ممّا خلق الإنسان؟ السؤال عمّا تألّفنا وتركّبنا منه يشير لوجود قوّة وقدرة سبّبت خلقتنا.

بقي شيء من المفيد الكلام فيه هنا، في الآية التالية سترى كلاماً عن خلق الإنسان من ماء الرجل الدافق، والنبي عيسى(ع) لم ينخلق بهذه الطريقة، لأنه لا أب له، وكذلك نجد في القرآن وصفاً للإنسان بأنه كفور هلوع... والأنبياء حتماً ليسوا بهذه الصفات، وهكذا نفهم استعمال القرآن "والعرب" لكلمة إنسان أنها لا تقصد كل شخص، بل تشير للغالب الأعمّ على أساس أنّ ما يجعلهم إنساناً يجعل هذه الصفات منتشرة فيهم، وتفهمها بسهولة عندما تقول: الإنسان حيوان ضاحك. الإنسان حيوان ناطق. وعندما يولد إنسان ما ويبكي ويموت فوراً قبل أن يضحك وقبل أن ينطق، فلا نقول بأن الجملتين السابقتين خطأ لأن هذا الإنسان لم يضحك ولم ينطق، وبالعكس أيضاً فلا نقول بأن الذي مات قبل أن يضحك أو ينطق: ليس إنساناً. فلا أحد يقول بذلك، لأننا نعلم أنّ كلمة إنسان تشير لما يتعلق بوصف الكائن على أساس وجود أساس في تكوينه لهذه الأوصاف، فهو سبب شيء يرتبط بتكوينه، كولادته من أبوين، أو لكونه عموماً ذكراً وأنثى، وأنه يتناسل... أو متعلق بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال... وبتعبير بسيط كرّرنا استعماله كثيراً في هذه الدراسة، فالإنسان هو: الغالب الأعمّ من الناس.

لاحظ وصفه تعالى لنفسه يتخطّى السؤال عمّن خلقه سبحانه، فهم معنى كلمة مخلوق لوحده يجيبك عن الكثير من الأسئلة حوله تعالى، لو قيل إنّي أسأل عمّن خلقني، ويقولون إنّه الله الإله، فبعدها سأسأل عمّن خلق الإله. ولكن السؤال عمّن "خلق" الإله هو سؤال عمّن ركّب وألّف الإله، بينما الله سبحانه ليس كمثله شيء ولم يكن له كُفُواً أحد، فهو أصلاً لا يصح وصفه بالمخلوق لتسأل عمّن خلقه.

(خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ{6})
{خُلِقَ}، تركّب وتألّف الإنسان، {مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ}، من سائل يَدْفُق، يندفع بقوة، وهو المني الذي يندفع نحو البويضة.

بداية تركيب جسدنا هي من السائل "ماء المني" الذي يخرج من الرجل.

لم تَرِد في القرآن كلمة دفق أو مشتقاتها إلا هنا في هذه الآية. والعرب قديماً وحديثاً يستعملون كلمة ماء لعموم السوائل وليس لخصوص مياه الشرب التي تنزل من المطر، من سياق الكلام تعلم تحديد نوع السائل إن كان من نوع ماء المطر أو ماء البطيخ أو ماء الورد والزهر... أو ماء المني مثلما تفهم هنا الكلام عن خلق الإنسان من {مَاءٍ دَافِقٍ}.

مراراً ذكّرنا القرآن بخلقنا من نطفة حتى يذكّرنا بأننا مخلوقون "من شيء صغير" وهناك خالق لنا، وحتى نعرف حجمنا أمام كلام خالقنا، والكلام هنا يقصد الناحيتين معاً.

(يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ{7})
{يَخْرُجُ}، الماء الذي نتكون منه، {مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ}، وهو الأساس، {وَالتَّرَائِبِ}، وهو الشبه، استعمل العرب كلمة صلب للدلالة على البنوة الأساسية غير التبني، وغير أولاد الزوجة من زواج سابق، فيقولون: هذا من صلبي. ويقصدون أنه منّي، من مائي. واستعمل القرآن كلمة ترب "أتراب، أتراباً" لوصف الحور بأنهن متشابهات في الحسن والجمال، كما ورد في الآية 37 من سورة الواقعة "عُرُبًا أَتْرَابًا"، وهكذا يصير الوصف للماء الذي سيتكون منه الإنسان أنه إمّا أن يكون تام الشبه بأبيه أو شبيهاً بشكل ما بأبيه "الذي دفق منه الماء". وهكذا نفهم أنّ القسم الثاني من الكلام تعرفه بالبداهة، فإن شابه أباه "أو أجداده من ناحية أبيه" كثيراً فلن يشبه أمّه كثيراً، وإن شابه أباه قليلاً فسيشبه أمّه "وأجداده من ناحية أمّه" أكثر.

بعبارة أخرى، الماء الذي تركّب منه الإنسان يخرج من بين شيئين: الصلب وهو الأساس، فيخرج بمواصفات أبيه الذي دفق منه الماء، أو يشبه أجداد أبيه، والترائب أي الشبه بمواصفات من أبيه وأجداد أبيه ولكن بنسبة أقل من نسبة الشبه بأمّه وأجداد أمّه. ومعلوم لدى كل الناس أنّ المولود بشكله ولون جلده ولون عينيه... هو خليط بين مواصفات أمّه وأبيه معاً، وبالتالي فهو خليط من مواصفات أجداده، ومعطياتنا الحالية تريك آلية ذلك عبر النقل للموروثات بالجينات والدنا وبعض تركيبات الخلايا الداخلية الأساسية... ولكن الآيات هنا لا تحدّثنا عن درس في البيولوجيا "علم الأحياء"، بل تحدّثنا بما يعرفه كلّ الناس من أولاد تشبه أباها تماماً بالشكل "صلب"، وأولاد تشبه أباها قليلاً "ترائب"، وعلى المستوى البيولوجي ظاهر الآية وظاهر ما نراه من أشكالنا وتشبيهها بأهلنا يتوافق مع مفاهيمنا الحالية للجينات وبقية الموروثات، فإن كان الولد "ترائب" بالنسبة لأبيه، فهذا يعني أنه ورث صفات جينية لشكله من الجينات التي تحملها أمّه أكثر مما أخذه من جينات أبيه.

ننتبه يا عزيزي ويا عزيزتي أنّ ما قلناه مبني على معاني الكلمات بحسب استعمال القرآن لها، وليس مبنياً على إقحام البيولوجيا الجينية في الآيات، ونتذكّر دائماً أنّ القرآن دقيق في كلامه ولكنه لا يغوص في أكثر مما يمكن أن يفهمه الإنسان العادي من الكلمات التي يقولها القرآن، فحتى من دون أي معلومات طبيّة "بيولوجية" يمكنك فهم الآيات كما يفهمها أي إنسان عادي ينظر إلى الأولاد ليرى أن هذا يشبه أباه كثيراً وذاك يشبه أمّه أكثر والآخر يشبه جدّه لأبيه وذاك يشبه أخواله... فهذه هي معاني كلمات صلب وترائب، وما ذكروه من معانٍ كثيرة في التفاسير فهو بعيد عن المعاني الصريحة اللغوية للكلمات، ومبني على خلفيات حكمتهم لتوجيه الآية نحو المعاني التي يعتقدون أنها صحيحة، وكمثال عن ذلك تفسيرها "علمياً" بناء على المعطيات التي كانوا يظنونها "علمية" في زمنهم حيث اعتقدوا أن أضلاع القفص الصدري مشاركة في عملية خروج المني... وكلام آخر من هذا النوع، فراجع تلك التفسيرات وانتبه أن لا تقع فيما

وقعوا، فلا تفسّر القرآن بناء على معطيات علوم زمانك ظاناً أنّك في أعلى سلّم الرقي العلمي، فمثلما معلوماتهم القديمة مضحكة لك، فمعلوماتك مضحكة لمن سيأتي بعدنا بألف أو ألفي سنة، فلا تَنْسَ ذلك.

(إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ{8})
{إِنَّهُ}، الله تعالى الذي خلق الإنسان من ماء يخرج من بين الصلب والترائب، إنّه سبحانه، {عَلَى رَجْعِهِ}، وتفهم من عموم القرآن ومن بقية الآيات قصدها أنه سبحانه على إرجاع الإنسان إلى الحياة مرّة ثانية، {لَقَادِرٌ}، لديه سبحانه القدرة، لديه إمكانية إرجاعه إلى الحياة، فيستطيع إرجاعه إلى الحياة بعد موته بسبب وجود صفات فيه تعالى تمكّنه من ذلك.

الذي خلقنا أوّل مرة لماذا تكذّبون كلامه وتقولون إنّه لا يستطيع خلقنا مرّة ثانية؟ على أي أساس هذا الإنكار ومن الواضح تصميمه تعالى لكم وخلقكم من ماء... وما المانع من خلقه لكم مرة ثانية من تراب؟

(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ{9})
سوف يقوم سبحانه بإرجاع الإنسان إلى الحياة، {يَوْمَ}، في الزمن الذي يقع فيه حدث أساسي وهو زمن عودتنا إلى الحياة، {يَوْمَ تُبْلَى}، في الزمن الذي يُصيبه فيه ما يغيّر حالته، {السَّرَائِرُ}، ما في السريرة، فيظهر ما في سرّ كلّ إنسان في ضميره من نوايا ومشاعر وما في باله من أفكار، فأسرارنا ستتعرّض لما يغيّر حالتها لتصير معلنة.

البلاء هو عموم وصف الإصابة بما غيّر حالك، مثلاً: سأبليك. أي سأصيبك بما سيغيّرك. والسرائر من اشتقاقات كلمة "سرّ" وهو ما لا يعلم به الآخرون، والكلام هنا عمّا في ضمير كل واحد منّا، وهذا لن يبقى سرّاً إلى الأبد، سيبليه تعالى، سيعرّضه لما يغيّر حاله ولن يعد سرّاً بل سيكون ظاهراً معلناً في كتاب أعمالنا لنتحاسب بناءً عليه.

الكلام عن نموذج، فيما بعد القيامة ستبلى سرائر الذين سيتحاسبون لينالوا عقاباً على سرائرهم كما هو واضح من الآية التالية، أمّا المؤمنون فسبحانه يكفّر عنهم سيئاتهم كما تعلم من الآية "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ"، فيغفرها لهم ولا يراها أحد في يوم القيامة.

(فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ{10})
سياق الكلام تهديدي لمن كفر، {فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ}، يكون الإنسان "الكافر" فاقداً للقوة للقدرة على فعل أي شيء ليمنع معاقبته على سرائره السيئة التي صارت علنية، {وَلَا نَاصِرٍ}، وما له من أحد يعمل على تحقيق ما يريده، فلا أحد سيعينه أو يدافع عنه.

لا الإنسان لوحده يستطيع دفع العذاب عن نفسه، ولن يستطيع الاستعانة بأحد يساعده، فلا أبوه ولا أخوه ولا عشيرته ولا عصابته ولا جيشه... ولا أحد أبداً له القدرة في يوم القيامة على منع العقاب عمّن كفر، وفقط الله تعالى هو الحاكم هناك.

طبعاً تتحدث الآية عن "الكافر" الذي يتمنى لو أنه يستطيع تغيير ما يحصل معه في يوم القيامة، أمّا المؤمن سيكون سعيداً بمحاسبته، ولا يفكر بتغيير ما يحصل معه، بل بالعكس، لأن المؤمن كان ينتظر هذا اليوم وهذه النتيجة.

(وَالسَّمَاء ذَاتِ الرَّجْعِ{11})
{وَالسَّمَاءِ}، تأكيداً بما هو فوق مقابل أرضٍ، {ذَاتِ الرَّجْعِ}، الموصوفة بأنها سترجع، وتعلم من عموم القرآن أنّ السماوات السبع يشير لهن القرآن أحياناً بوصفهن جميعاً مع بعض بكلمة "سماء"، وتعلم أنّ السماوات ستتبدّل قبل يوم القيامة، وكما بدأ سبحانه خلقهن أوّل مرّة سيعيد سبحانه خلقهن مرّة ثانية كما تقرأ في الآية 104 من سورة الأنبياء "يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ"، وهنا الآية تصف السماء بأنها منسوب لها وصف الرجوع، فهي موصوفة بأنها ستتبدّل وسترجع مرّة ثانية لتكون سماءً ولكن بشكل مختلف كما يبدو من الآية 48 من سورة إبراهيم "يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ".

سماء يوم القيامة مختلفة عن سمائنا الحالية، وتعلم أنّ أجسادنا نحن في يوم القيامة لن تكون هي ذاتها التي كانت في الدنيا، فستكون أجسادنا خالدة لا تفنى، والكفّار أجسادهم تتلقّى كل شيء بألمٍ، فيشعرون بالألم من أي شيء يلمسهم، وأجساد المؤمنين تتلقى كلّ شيء بسعادة، ولا يشعرون بأي ألم مهما حصل لهم...

ننتبه جيداً ولا نترجم معنى الآية على النظرية الفلكية: الانفجار الأعظم. ولا على وصول الكون في توسّعه إلى الحدّ الحرج الذي يستوجب الانكماش على نفسه من جديد... فلا تستخرج من الآيات أكثر مما تقول، وحتى لو ظننت مطابقتها مع نظرية علمية نعرفها، فلا تطبّقها عليها، أخبار القرآن إلهية ثابتة لا تتغير، وتلك النظريات تتغير، وحتماً ستتغير مع مرور الزمن، وهناك من يؤمن بصحة هذه النظريات، وهناك من يعارضها ويؤيد نظريات أخرى... وهذا شأن العلماء ولا علاقة للدين ولا للقرآن بما يبحثون به، الدين لا يطرح نظريات أو قوانين علمية، ولا يؤيد أو يعارض أي نظرية علمية، بل يقول لنا أخباراً إلهية عما حدث أو سيحدث بأقرب طريقة للتوصيف باللغة التي نزل بها القرآن، أمّا وجهة نظرنا العلمية فهي خاصة بنا، وتتطور مع تطورنا، وتتخلّف مع تخلفنا، خالقنا زودنا بالعقل والحواس، وتركنا سبحانه نكتشف هذا الكون على راحتنا، وأن نبحث فيه ونتعرف على روائع تصميمه على مهلنا، هناك الكثير الكثير من التطور الذي ينتظرنا.

أقصى ما يمكنك فهمه من القرآن عن هذا الموضوع، أنّ السماء كانت دُخاناً وصارت سبع سماوات كما نفهم من الآية 11 من سورة فصلت "ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ"، وهي الآن على هذه الحالة التي تراها، وبعد زمن سيتغير حالها، وترجع إلى حالة الدخان، ويعود تشكّلها من جديد وستكون مختلفة عن الحالة السابقة. ولم يذكر القرآن أي شيء آخر غير هذا، فيمكنك افتراض النظريات العلمية التي تراها متماشية مع المعلومات التي عندك، وحتى لو ظهر لك أنّ نظريتك تتعارض مع ما يقوله القرآن، فلا مشكلة، رُبّما نظريتك غير صحيحة ولكنها ستكون بذرة لنظرية أخرى صحيحة، وربما نظريتك صحيحة ومتماشية مع الآيات ولكن المشكلة أنّك لم تفهم كلمات الآيات بشكل صحيح، رُبّما هناك شيء آخر تشير له الآيات ولا علاقة له بنظريتك... رُبّما... ورُبّما... ولا مشكلة في كل ذلك، والمشكلة هي لصق النظريات العلمية بالآيات، فلا تفعل ذلك، وقل إنّه يبدو لك تماشي النظرية مع الآية، ويمكنك القول أيضاً أنّ النظرية تبدو لك لا تتماشى مع الآية، وعلى كِلْتَا الحالتين لا يوجد أي مشكلة نهائياً بتاتاً، فهذا لا يعني أبداً أنّ القرآن على خطأ والنظرية صحيحة، وأنّ الدين الإلهي تهدّم، لا، لا، فلا علاقة لهذا بذاك، وحتماً الفهم البسيط لمعاني الكلمات القرآنية مانع للتعارض بين ما يمكننا معرفته وبين ما يقوله القرآن لأنه لم يغص في آليات حدوث الأشياء واكتفى بالكلام عن مراحل يمكن التعرّف عليها بسهولة...

رسخ في ذهننا أنّ القرآن فيه إعجاز علمي، على أساس أنّ القرآن ذكر معلومات "علمية" فلكية وبيولوجية وكيميائية وفيزيائية وطبيّة... تؤكّد بأنه كتاب إلهي، ويا عزيزي ويا عزيزتي هذا هو التخريف الديني، وهذا عين البلاهة والسخافة، وهذا هو التزمّت الديني، القرآن تضمّن أخباراً إلهية عن بداية الخلق ونهايته، وأشار لنا بالأمور السهلة البسيطة التي يفهمها أي إنسان عادي، فأشار لأمور نراها ونحتك بها حتى ننتبه لوجود تريليونات تريليونات التفاصيل التي تشير حتماً لوجود كائن بصفات فائقة صمّمنا وصمّم بيئتنا وخلق كلّ شيء، وأكثر ما ركّز عليه القرآن لتؤمن به أنه كتاب إلهي هو: كن بقلب سليم. اترك الأوهام والاختراعات، فلا تخترع آلهة من خيالك، ولا تخترع عقيدة من أوهامك، ولا تكن عبداً للهوى والشهوة السيئة، وسترى الله تعالى إلهاً أحداً فرداً صمداً، وستفهم ما يخبرك به إلهك عن مرورك في الدنيا إلى الآخرة لتتحاسب، وستفهم شريعة إلهك التي تدل على حكمة قائلها. هذا ما يقوله القرآن فقط لا غير، ولم يكن كلام القرآن عنّا وعن بيئتنا طرحاً لنظريات علمية دينية، لا وألف لا، بل لفت انتباه لما حولنا ويمكننا فهمه بسهولة، وخبر عمّا فعله تعالى وسيفعله.

أخيراً أقولها لك بكل صراحة، حتى لو خطر على بالك نظرية علمية ورأيت أنها تخالف ما يقوله القرآن، فلا مشكلة، رُبّما نظريتك تصحّح لنا فهم ما يقوله القرآن، ولكن لا تفسّر القرآن على نظريتك، واتركه لأنه إما أشار بشكل عادي لما حولك مما تراه بنظرة عادية، من شفق وقمر وشمس وليل ونهار وجبال ونبات وتوالد الحيوانات... أو أخبرك عن شيء من أفعاله تعالى من وجهة نظره تعالى، وإذا رأيتها أنت بشكل مختلف، فلا مشكلة، وحتى تفهم كلامي فلا تترك تفكيرك ضبابياً في الهواء، وانظر للنظريات التي يقولون إنّها توافق القرآن، وللنظريات التي يقولون إنّها تتعارض مع القرآن، وادرسها، وسترى أنها لا توافق القرآن ولا تعارضه لأنها لا علاقة لها بما يقوله القرآن.

خذ مثلاً قولهم عن نظرية النشوء والارتقاء لأصل الإنسان، فهم المتدينون عبر التاريخ الديني أنّ آدم(ع) أول إنسان، وخلقه الله تعالى على شكل تمثال من الطين ونفخ فيه فصار حيّاً، ولمّا لم يجدوا كلاماً إلهياً عن كيفية نشوء زوجة آدم(ع) عندها اخترع المتدينون نظرية خلق "حواء" من ضلع آدم(ع)! ولن تجد عندهم جواباً لكيفية خلق بقية الحيوانات! هل أيضاً خلق الله تعالى تماثيل على شكل الحيوانات ونفخ فيها؟ وماذا عن النباتات؟ بعيداً عمّا قاله المتدينون شملنا القرآن نحن البشر مع الحيوانات والنباتات ولم يفرّق بين حياتنا وحياة النبات، وشملنا كلّنا بوصف الإنبات من الأرض... فما ينطبق على أساس تكوّننا ينطبق على بقية الحيوانات والنباتات، وهذه أمور قرآنية أغفلها المتدينون لأنهم أسقطوا أفكارهم على القرآن وقبله أسقطوها على كتبه السابقة...

من دون "نظرية التطور" سترى أنّ المتدينين المصرّين على وجود نظريات دينية علمية، سترى أنهم لوحدهم وبسبب نظرياتهم العلمية الدينية، لوحدهم عندهم مشاكل في نظرياتهم! من أين أتت الحيوانات والنباتات؟ وكما ترى ليست المشكلة في الدين بل بالنظريات العلمية المنسوبة للدين، كلام القرآن عن خلقة آدم(ع) هو من وجهة نظر الإله سبحانه، سبحانه والملائكة(ع) والجنّ لا يروننا من لحم وعظم، بل يروننا طيناً، ماءً وتراباً، من كربون وكالسيوم و... وهم لا يرون فرقاً بين تكوين إنسان وتمثال من طين، فكلانا من المواد التي في التراب والماء، فَكِّر فيها لو رأيت الجنّ المخلوقين من نار، فلكل واحد منهم كيان، مادته الأساسية: نار. فهم في نظرك لن يختلفوا عن أي نار... فرضاً في عالمهم لديهم بيوت، فمادة تكوينها ستكون من النار، ومن وجهة نظرك أنت فلا فرق في التكوين بين الجنّي وبين حائط بيته... وهكذا تفهم من منظوره تعالى لنا بأننا من طين ولا نزال طيناً، وَصَفَ إبليس آدم(ع) بذلك كما ورد في الآية 61 من سورة الإسراء "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا".

كلامه تعالى "في القرآن" عن خلقة آدم(ع) قارنه مع كلامه تعالى "في القرآن" عن خلق الإنسان، عن خلقك أنت، فستجده نفس التوصيف بالحرف، من خلق وتسوية وتصوير وحياة ووعي وتكليف... نفس الكلام، ولن تجد أبداً بتاتاً إلا كلاماً عن أنّ آدم(ع) كأوّل إنسان تكلّف بالحلال والحرام، فقط وهذا فقط، ولن تجد أنه أول إنسان أو أول بشري...
وترى بصراحة في الآية 30 من سورة البقرة أنّ الملائكة رأوا قبل آدم(ع) بشراً، آدم كان معاصراً لبشر آخرين "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ...".
نعم ستجد أنه بشكل أو بآخر أنّ آدم(ع) أب للبشر، ولكن لن تجد كلاماً صريحاً يقول بأن آدم(ع) والد لكل البشر الحاليين...

لا تفهم كلامي بأني من مؤيدي نظرية النشوء والارتقاء، فهذا ليس مجال اختصاصي أصلاً لأجادل فيها رفضاً أو إيجاباً، فهي نظرية، وقوية، وتبدو حالياً صحيحة "بشكل ما"، ولكن ما علاقتها بما يقوله القرآن؟ لو قال القرآن صراحة بأن آدم(ع) أوّل بشري ولا أحد قبله وأنه تعالى خلقه فجأة في لحظة، فهنا ستتعارض النظرية "بشكل ما" والواقع الملموس من الأحافير والآثار مع الكلام الإلهي، ولكن القرآن قال بأنه تعالى جعلنا سلالة من طين، وبدأ خلق الإنسان من طين، وأن آدم(ع) حين يخرج إلى الحياة سيكون أوّل من يتكلّف بالحلال والحرام... هناك قبله بشر يسفكون الدماء كما ورد صراحة في الآية 30 من سورة البقرة، من وجهة نظره تعالى اختصر مراحل تكوّن آدم(ع) وذكرها لنا مثلما يختصر خلقتي وخلقتك حين يتحدّث عنّا بخلقتنا من ماء، من تراب، من طين، من سلالة من طين... فخلقنا المضغة علقة... خلقك فسواك فعدلك...

بهذا المطوّل تنتبه ولا تخترع نظريات علمية أو تستورد نظريات علمية لتفسير القرآن، وإلا فحتما ستقع في مشكلة، وستتحاسب إن سبّبت ضلالاً للآخرين بسبب كلامك الذي نفّرهم من كتابه تعالى، كالكلام السخيف الساذج الذي تسمعه عن الليزرات في القرآن!

(وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ{12})
تأكيداً بـ {الْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ}، الموصوفة بأن فيها صدعاً، فيها شقّ أو شقوق عميقة وليست كتلة واحدة. وتعلم من عموم القرآن أنّ الأرض ستصيبها الزلازل والتي سببها أنّ الأرض "ذات صدع" فليست كتلة صلبة واحدة كصخرة مضغوطة.

تعلم من عموم القرآن أنّ الأرض ستتبدّل قبل يوم القيامة، فيحصل فيها زلازل وتنهار الجبال، وهنا الآية تشير لكون الأرض أصلاً ليست كتلة واحدة كصخرة وهذا معلوم مما يحصل فيها من الزلازل، وستتزلزل بشكل غير عادي قبل يوم القيامة، راجع كمثال ما ورد في الآية 21 من سورة الفجر "كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا".

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ{13})
تأكيداً بالسماء الموصوفة بأنها سترجع والأرض التي ستتصدّع:

{إِنَّهُ}، يوم تبلى السرائر، يوم القيامة من الموت والحساب، {لَقَوْلٌ فَصْلٌ}، كلام غير متداخل مع كلام آخر، كلام حاسم للموضوع، حتماً هذا الكلام عن رجوعنا إلى الحياة لمحاسبتنا سيحصل.

لاحظ أنّ التأكيد بالسماء ذات الرجع وبالأرض ذات الصدع يتضمّن تأكيداً على صحة الكلام عن رجوعنا إلى الحياة ومحاسبتنا، السماء لن تبقى على حالها وستتبدّل، والأرض لن تبقى على حالها وستتبدّل، ومن لديه القدرة على خلقهما أوّل مرة فلديه حتماً القدرة على إرجاعنا إلى الحياة.

(وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ{14})
الذي قاله الله تعالى عن إعادتنا إلى الحياة لمحاسبتنا، {مَا هُوَ بِالْهَزْلِ}، ليس مثل كلام التسلية البعيد عن الجدّية. الكلام الذي يكون بعيداً جداً عن الواقع والحقيقة ونقوله للتسلية والضحك، كقصّة نخترعها عن إنسان يطير... فهذا هزل.

الكافرون وصل بهم كفرهم بالآخرة وتكذيب الكلام الإلهي بأن اعتبروه فتعاملوا معه على أساس أنه كلام هزلي، كلام بعيد جداً عن الواقعية، وهو أبعد عن الواقعية والعقلانية حتى من كلام المزاح.

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً{15})
{إِنَّهُمْ}، إنّ الذين يعتبرون هذا الكلام هزلاً، فلم يؤمنوا بيوم القيامة والحساب، {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ}، يقومون بأعمال ويقولون كلمات يقصدون منها فقط وفقط مضادة الدين الإلهي، فهي أعمال وأقوال لا مصلحة لهم بها، {كَيْداً}، بكل ما تحمله كلمة كيد من معنى، فأعمالهم تماماً معارضة للكلام الإلهي ولا مصلحة لهم منها.

(وَأَكِيدُ كَيْداً{16})
في مقابل كيدهم، {أَكِيدُ كَيْداً}، يقوم سبحانه بأعمال مضادة لهم، {كَيْداً}، أعمالاً تامّة الوصف بأنها كيد.

كلمة "كيد" وصف لعموم أي عمل مضاد لمصلحة الآخرين بدون أهمية حصول مصلحة للفاعل فالتركيز على الضرر للآخرين، يكون العمل الكيدي علنياً أو بالسرّ، وتشابه كثيراً الكلمة العامية: جكارة.

تعلم من عموم القرآن أنّ الكيد الإلهي سيغلب كيد الكفّار حتماً، وبداية الكيد الإلهي بختم قلوبهم، وينتج عنه تسهيل غرقهم في الكفر أكثر، وينتج عنه زيادة سيئاتهم وبالتالي زيادة عقابهم... وعلى هذا المعنى جاءت العديد من الآيات منها الآية 178 من سورة آل عمران "وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ".

(فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً{17})
يا أيها المؤمن عموماً، ويا أيها النبي محمد(ع) كنموذج عن المؤمنين، {مَهِّلِ الْكَافِرِينَ}، أَعْطِ الناكرين للكلام الإلهي عن الآخرة والحساب، أعطهم وقتاً، فسيأتي من بعده وقت ينالون فيه ما يستحقون، {أَمْهِلْهُمْ}، أعطهم وقتاً، {رُوَيْداً}، قليلاً بدون استعجال، فلا تكن مستعجلاً لترى كيدنا بهم، فأعطهم وقتاً حتى ترى كيدنا بهم.

كما نقول: تمهّل فستكون في منصب الرئيس في الشركة رويداً رويداً. ونقصد أن "تتمهّل" فتعطي لنفسك الوقت ولا تستعجل، "رويداً" قليلاً قليلاً تسير باتجاه حصولك على المنصب في الشركة. عملياً هو وصول الكافرين حتماً إلى

العقاب الإلهي، فمهما طال عمرهم فهم رويداً، قليلاً قليلاً مع مرور الأيام يسيرون باتجاه الكيد الإلهي بهم، فسيصلون في النهاية إلى لقائه تعالى وعقابه.

سورة الأعلى (87) ص 591
محورية السورة حول السُّبُّوحِ الأعلى، ومن هاتين الصفتين الجامعتين لكل صفاته عزّ وجلّ تنطلق السورة لتذكر ما فعله فخلق وسوّى وقدّر وهدى، وهذا عامّ منتشر في كل ما يصدر عن السُّبُّوحِ الأعلى، وبما يخصّنا نحن القُرّاءَ لكلامه تعالى أرسل لنا رسولا ينقل كلامه تعالى بدقة، ليحذّرنا وينذرنا من العقاب ويبشرنا بالثواب، وهذا هو تقديره تعالى وهدايته للذين خلقهم وسوّاهم.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى{1})
{سَبِّحِ}، قم بالتنزيه عن الصفات الناقصة أو المعيبة، {اسْمَ رَبِّكَ}، ما تسمّي به المسؤول عنك من مستوى إلهي، {الْأَعْلَى}، لا أحد فوقه في أي شيء، لا في الصفات ولا القدرات.

تسبيحه هو تنزيهه لا نصفه بصفات ناقصة أو معيبة، ولا نقول عنه تعالى بأنه عابث أو لاعب أو مزّاح أو حقود أو لئيم... لأن هذه الصفات غير موجودة فيه سبحانه، وعمليّاً عندما نصفه سبحانه بصفاته التي فيه، وكلّها حسنى، فنحن نسبّحه، لو قلنا: يا حكيم يا غفور يا رحيم... فهذه أوصاف حسنة تعني أنه تعالى ليس موصوفا بعكسها، ليس مزاجيا ولا حقودا ولا لئيما... هي تنزيه، وهي تسبيح.

الأمر بتسبيح {اسْمَ رَبِّكَ}، أنا ربّ لبيتي لأني مسؤول عنه بحسب مستواي، تأمين المسكن والملبس والمأكل وما يحتاجه أفراد أسرتي، والعناية بهم وبدراستهم... من واجباتي، وزوجتي ربّة منزل لأنها مسؤولةٌ عن الأمور الداخلية للمنزل، وذاك ربّ العمل، لأنه مسؤول عن العمل... أمّا ربنا كلّنا، فهو المسؤول عنّا كلنا ولكن من مستوى إلهي، وجودنا بيده تعالى، وحياتنا بيده، هدايتنا ومغفرة ذنوبنا وسماع دعائنا... هذه أمور من مستوى إلهي وترجع كلّها إليه تعالى، وتسمية ربّ كل شيء بالتنزيه تكون عمليا بتسميته بالأسماء الحسنى بالرحمن الرحيم الغفور الرزّاق...

بعبارة أخرى {الْأَعْلَى} وصف لأي شيء فوق الآخرين، وتسبيح {الْأَعْلَى}، معناه أن من تنزهه لديه صفات حسنة وقدرات فائقة عالية أعلى من صفات وقدرات كلّ الآخرين.

تلاحظ أنه سبحانه له اسم علم "على ما يبدو" مشتق من الألوهية وهو "الله"، يكون الاسم "الله" مشتقاً من صفة "الألوهية"، وستتساءل عن الفرق بين الاسم والصفة بالنسبة لله تعالى، إذا انتبهت أنه تعالى سمح لك بمناداته بصفاته "يا رحمن، يا كريم، يا رازق، يا غافر..." فالمناداة تجعل الصفة اسما حقيقيا له تعالى، لأنه فعلا عنده صفة الكرم وأنت تناديه بهذه الصفة تصير الصفة اسما حقيقيا له تعالى، نحن نسمّي شخصا ما: كريم، عادل، سلام... هذا اسم له فقط، وأمّا إن كان حامل هذا الاسم فعلا كريم عادل سلام... فعندها يكون الاسم صفة له في نفس الوقت، وهكذا بدا لك واضحا الفرق بين نسبة الاسم والصفة للإله سبحانه وللبشر، ربّك سبحانه لديه كل الصفات الحسنة، وكلها تصير أسماء حقيقية له تعالى عندما تناديه بها، وليس هناك أي صفة سيّئة فيه تعالى حتى يصير له اسم سيئ، بل كل صفاته تعالى من أحسن الصفات وتصير أسماؤه من أحسن الأسماء.

يعني في اللغة هناك أسماء مشتقة من صفات، كيعقوب الذي تسمّى بوصف عقبه "سيأتي بعد" إسحاق، وهذا الحال بغض النظر عن أصل وضع الكلمات تاريخيا في زمن أول اختراع البشر للغة، وبغض النظر عن صيرورة أسماء الأشياء صفة أوسع لتشمل أشياء أخرى لها نفس الصفة، كاليد، يدي من لحم وعظم، ويد الرجل الآلي من معدن، ويده تعالى ليست وصفا لعضو بل للوسيلة التي يفعل بها تعالى...

أسماؤه تعالى هي أوصاف له، وهي أسماء مشتقة من صفات، وكلامه تعالى بتسمية نفسه ليس مثل تساهلنا نحن في تسمية أولادنا بصفات ليست فيهم، نسمّي ثريا ونجمة وآسيا... وعفيفة وطاهرة وساجدة... وكريم وأسد وغضنفر وحسام... هذه مجرد أسماء ليس بالضرورة اتّصاف الناس بها، أمّا سبحانه فأسماؤه أوصاف حقيقية له.

ما هو منتشر بين الناس عن الأسماء التسعة والتسعين له تعالى بناء على ما نسبوه من كلام للرسول (ع)، لن نبحث هنا إن كان كلامهم فعلا مستندا إلى كلام صدر عن الرسول أو لفقوه للرسول، سواء عن قوله (ع) بما يعطي معنى حصرية الأسماء بتسعة وتسعين، "وبعدها الاسم الأعظم لتصير مئة كما يقولون"، أو بما يعطي معنى الكثير من الأسماء الحسنى وتحفيزا للتفكير بها... بغضّ النظر عن صحة الأحاديث أو صحة الاستنباط منها، هم لم يتوافقوا على الأسماء التسعة والتسعين! ستجد في الكتب العديد من الصيغ التي في بعضها ما لا تجده في الأخريات من أسماء.

نسأل إن كان كلام القرآن عن أسماء حسنى له تعالى يشمل اشتقاق أوصاف من أفعال العقاب ومواقف من الكافرين، يكون لدينا صفات المعاقب الغضوب الكاره الكائد اللاعن... بالبداهة ستقول بأنها ليست أسماء حسنى حتى لو كانت أوصافا لأفعاله تعالى كنتيجة للسوء من الآخرين، وهذا بناء على أنه تعالى الحميد دائما، عذابه للمجرمين عمل حميد... وهكذا ترى أن ما يتحدث عنه القرآن بالأسماء الحسنى له تعالى يقصد الوجه الآخر غير موقفه ومعاملته تعالى مع المجرمين... وهذا واضح مما تقوله الآيات التي ذكرت جملة "الأسماء الحسنى" والتي وردت في الآية 180 من سورة الأعراف "وَلِلّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"، وفي الآية 110 من سورة الإسراء "قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى..."، والآية 8 من سورة طه "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى"، والآية 24 من سورة الحشر "هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى..."، سياق الآيات يشير إلى توجهك نحوه تعالى بذكر أسمائه كإعلان منك عن تعرّفك عليه تعالى بهذه الأسماء الحسنى، أو تعريف منه تعالى لك بأن أسماءه سبحانه حسنى.

هناك تعليقات كثيرة على أبحاثهم عن الأسماء الحسنى، لا نفع من ذكرها لأن كل الموضوع في النهاية لا يعدو كونه كلاما ثقافيا تراثيا، ويجب حصره بالعديد من التنبيهات وإلا فالنتائج سيئة، ها هم أحصوا لنا التسعة والتسعين اسما لله تعالى، بل وهناك عدة لوائح مختلفة بذلك، ومنها محصورة بما ذكره القرآن وعددها يختلف عن التسعة والتسعين... لنقل أنك قرأتها كلّها وحفظتها غيبا هل هذا ضمان لك لتدخل الجنّة كما ورد في أحاديثهم؟ لا، التقاطع بين الحديث والقرآن يشير إلى معرفتك بمعنى تلك الأسماء وبالإيمان العميق بها، وهذا طريق يوصل إلى الجنّة، وهكذا يمكن حمل الحديث المنسوب للنبي(ع) بدخول الجنّة للذي يحصي 99 اسما له تعالى على معنى فهم الكثير من أسمائه تعالى هو طريق يؤدّي إلى الجنّة، هذا إن صدقت نسبة الكلام للرسول.

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى{2})
{الَّذِي خَلَقَ}، الذي ركّب وألّف، {فَسَوَّى}، جعل ما خلقه بالتمام متناسبا، ركّب سبحانه الإنسان فجعل خلقته سوية، بجسد من يدين ورأس ورجلين... وله دماغ وفكر... وخلق تعالى الملائكة(ع) فسوّاها على كيانها وقدراتها... وخلق الأرض وسوّاها فصارت بيئة مناسبة للحياة عليها...

بما أن ربّك منزّه عن الصفات الناقصة وقدراته فائقة، خلق كائنات بالتمام متناسبة مع التصميم الذي قرّره تعالى، ها نحن كبشر متناسبون بالتمام مع بشريتنا، لدينا جسد يتحرك وفيه حواس وفكر... ومتناسبون مع البيئة التي حولنا، نمشي عليها ونأكل ونشرب منها... بالعموم ترى كل شيء يتوافق مع كل شيء، وحالات اللا توافق قليلة شاذّة وليست هي القاعدة، وعلى كل حال من ناحيتنا تبدو بعض الأمور غير سوية، ولكن بالنظرة الشاملة العامّة ما هو غير سوّي إنما هو نتاج متضمّن في تصميمه تعالى للدنيا لأنها دار بلاء وفيها متغيرات ومن أفعالنا السيئة تنتج العاهات...

يخطر ببالنا أن بعض الناس يولدون مشوّهين أو بقدرات ناقصة، وهذا يعني أنهم ليسوا مستوين، وهذا صحيح ومعلوم ويعرفه كلّ الناس، وهذا لا يتعارض مع ما تقوله الآية، لأننا نفهم من القرآن أنه تعالى صمّمنا "التعبير القرآني: سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" بهذا الشكل الفاني الذي يمرض ويتعرّض للعطب والضرر، وفي الأخير نموت، وما يصيبنا من أمراض وما نتأثّر به من بيئة غير صحيّة و... سيسبّب ولادات متشوّهة، لا تفهم تعابير القرآن بالتسوية وأحسن تقويم بأنها صفات الكمال التامّ، لا، في الآخرة سيكون لأهل الجنّة أجساد لا تفنى ولا تمرض ولا تهرم ولا تتأذّى... هناك التسوية التامّة المثالية للإنسان، وأمّا في الدنيا فالتسوية على مقياس دنيا البلاء، نكون متناسبين مع تصميمه تعالى لنا في حالة الحياة المؤقتّة غير الدائمة والتي نتعرّض فيها للبلاء... ويتضمّن ذلك مرور حالات لا تكون فيها الخلقة مستوية،

وهذا ليس من أصل التصميم بل من تدخلات ظروف لتصرفاتنا علاقة بها، نحن نخرّب جسدنا وبيئتنا، وبنسبة كبيرة ينتج عن ذلك مواليد مشوهة...

(وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى{3})
وسبّح، {الَّذِي قَدَّرَ}، والقدر هو عامة تحديد القيمة أو الكمية أو المدة أو الشكل والهيئة... حدّد سبحانه عامّة الأمور المناسبة للمخلوقات، وحدّد صفات المخلوقات وتناسبها مع بيئتها، وحدّد لها ما تسير عليه وحدّد لها مصيرها، {فَهَدَى}، وضع المخلوقات على الأشياء الصحيحة التي توصلها للغاية الصحيحة.

لم يخلق سبحانه المخلوقات ويتركها من دون تخطيط مسبق لما سيحصل معها، ولم يخلقها عبثا أو تسلية، أول آية في السورة فهمنا منها أنه تعالى منزّه عن الصفات المعيبة والناقصة، وبالتالي سينعكس ذلك على أفعاله ولن يخلق المخلوقات إلا عن حكمة وتقدير وهداية، ومن أبسط أشكال الهداية هو نمو الكائنات التي تنمو بشكل مناسب لها ومتناسب مع بيئتها، لتسير في حياتها مع تفاعلها وانفعالها بشكل يناسبها ويناسب ما في بيئتها، وصولا إلى هدايتنا نحن البشر إلى أوامره تعالى التي توصل لثوابه تعالى بالجنّة... وكما ترى حتى الملائكة (ع) توصف بأنه تعالى قدّر لها وهداها، مع العلم أنها لا تتحاسب، وأنها مؤمنة به تعالى ولن تكفر ولن تعصيه... بما يناسبها قدّر لها تعالى وهداها لتكون بهذه الصفات، لتحيا ولها قدرات تتيح لها تنفيذ أوامره تعالى وتعبده تعالى...

في دراسة الآية 2 من سورة القدر "وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ" توسعنا حول معنى كلمة قدر وعن الفرق بين استعمال القرآن لها بمعناها اللغوي وبين الاصطلاح المختلف عن المعنى اللغوي الذي وضعوه لها.

(وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى{4})
وسبّح، {الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى}، والمرعى هو النبات الذي يصلح كأكل للحيوانات، وأخرجه تعالى من الأرض.

الآية هنا تعطينا مثالا بسيطا سهلا على الفهم عن الخلق والتسوية والتقدير والهداية، رغم أنّه بسيط في نظرنا لأن النبات هو بذرة أو جذور تكون في الأرض، وعندما تلامس رطوبة تنمو، ولكن من نظرة الذي خلق النبات خلق تعالى شيئا وسوّاه بصفات مقدّرة ومن بعد ذلك صارت النباتات، وقدّر لها أن تنبت وتنمو، وهداها لتكمل نموّها بشكل صحيح، وصارت مناسبة للحيوانات لترعاها لتأكلها.

بعبارة أوضح، انظر للموضوع من الصفر، من لا شيء، حيث لا سماوات ولا أرض ولا نبات، وبعدها انظر لما حولك، سبحانه صمّم وخلق والنتيجة هي ما تراه، وصار هناك نبات لترعاه الحيوانات.

تصوّر نفسك أنت قرّرت خلق كائنات وبيئة لها، وبدأت بتصميمها بصفاتها وخصائصها... وبحسب قدراتك ستتعامل مع الموضوع، ابتكارك لصفاتها وخصائصها ولبيئتها تحدّده قدراتك الفكرية والتخيّلية والتنفيذية... وطريقة خلقك لها أيضا تحدّدها قدراتك، العلماء يخططون الآن لإرسال آلات إلى كواكب أخرى لتقوم الآلات بصنع آلات من الخامات التي على تلك الكواكب، ولتبني لنا الآلات بيئة مناسبة على تلك الكواكب... لنذهب بعد سنين لنجد مباني ومنشآت جاهزة للسكن، ونجد مزارع جاهزة للحصاد... وهكذا يمكنك رؤية ما نحن فيه الآن كنتاج لأفعاله تعالى التي بدأها من لا شيء، من الصفر، وهذا ما تتحدّث عنه الآيات هنا، وتلفت انتباهك لترابط الكائنات مع بيئتها، هناك مرعى، وهذه جملة مختصرة تعني أنه يوجد نبات مناسب لتأكله الحيوانات، الحيوانات لا علاقة لها بتجهيز بيئة مناسبة لها لتعيش... فمن البديهي وجود كائن بصفات وقدرات فائقة أوصل الأمور إلى ما هي عليه...

الآن ننتقل باختصار إلى ما نشره المتدينون بدينه تعالى وصار يبدو للآخرين أنه الدين الإلهي، وصار الآخرون يعتقدون أنهم يعلّقون على كلامه تعالى بينما هم يعلقون على كلام المتدينين الذين فسّروا كلامه تعالى بسذاجة وطفولية، نقول هذا بعد أن حكمنا عليهم بحسن النوايا، وإلا فأنت تعلم أن في المنتمين لدينه تعالى فسقةً ومنافقين وساذِجين...

المتدينون قديما جدا فسّروا غالب كلامه تعالى على أنه يفعل الأشياء فورا، يقول تعالى للشيء كن، فيكون الشيء، فورا، وهذا ليس صحيحا، لأن الأشياء ستكون حتما، وبعضها يكون فورا. والمتدينون جعلوه تعالى فاعلا مباشرا لكل ما يجهلون سبب حصوله، قالوا قديما عن نزول الماء أنه من فعله المباشر سبحانه بلا أسباب ولا آليات لحصوله! وخلق

البشر حصل مباشرة بصنع تمثال من الطين ونفخ الروح فيه بلا آليات ولا أسباب... ولن أطيل عليك هنا كثيرا فراجع في دراستنا هذه أي آية تخطر ببالك عن هذه المواضيع لترى معناها الذي يتضمّن آليات ومراحل لحصولها... وكمثال عن ذلك راجع عن خلقتنا دراسة الآية 7 وما بعدها من سورة السجدة "الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ"، وعن خلقة السماوات والأرض راجع الآية 9 وما بعدها من سورة فصلت "قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ...".

باختصار، محاولة اكتشافنا لمراحل وآليات نشوء كوننا وصولا إلى نشأة أرضنا والحياة عليها، عبر طرح فرضيات ونظريات ليست إلغاءً لوجود إله صمّم وخلق، بل هو إلغاء لإله الذين لم يفهموا كلامه تعالى، وتكذيب لتفسير المتدينين لكلامه تعالى، وليس تكذيبا لكلامه تعالى، تلك الفرضيات والنظريات عن نشأة الكون محاولة منّا للتعرّف على الآليات التي صمّمها تعالى لخلق ما في الدنيا ونشأة الحياة فيها.

(فَجَعَلَهُ غُثَاء أَحْوَى{5})
{فَجَعَلَهُ}، جعل سبحانه المرعى "النبات"، {غُثَاءً}، وفي أشعار العرب قبل الإسلام تجد استعمالهم كلمة "غثّ وغثاء" في معنى ما لم يعد له قيمة، كمقابل مضاد لكلمة سمين، وتفهم أن الآية تصف النبات الذي كان له كيان نباتي تامّ المواصفات، وكان أخضرَ ومزهراً... وانتهت حياته وصار باليا يابسا، {أَحْوَى}، لم يعد لونه كما كان أخضرَ، وصار لونه غامقا، بنيّاً غامقاً أو أسودَ وهذا نموذج عن نهاية حياة النبتة ليس كل النبات ينتهي بصيرورته غثاءً أحوى. ضربوا في التفاسير والروايات مثلا عن الغثاء الأحوى بأنه كالنبات الذي نجده على مسار سيلان الأمطار، وهذا مثال وليس المعنى الحصري للكلمات الواصفة للنبات حين يبلى ويسوّد، في أرضه بعدما يموت يصير غثاءً أحوى، وإذا أخذه السيل على جنبه يصير غثاءً أحوى...

(سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنسَى{6})
{سَنُقْرِؤُكَ}، سنجعلك تقرأ القرآن أيها النبي محمد(ع)، {فَلَا تَنْسَى}، سيستقرّ في ذاكرتك.

نحن حتى نحفظ القرآن نحتاج للمداومة على قراءته حتى لا ننساه، أمّا النبي محمد(ع) فمن لحظة نزول الوحي بالقرآن على وعيه، بتدخّل إلهي يركّز القرآن في ذاكرته ولن ينساه بعد ذلك.

هذا القرآن رسالة هداية منه تعالى لنا، وضمن سبحانه وصوله لنا بالضبط كما نزل من عنده، وذلك عبر تركيزه في ذاكرة النبي محمّد(ع)، الذي سيكرّره بالضبط كما هو على المسلمين، وبالتالي ما يرد في القرآن فهو كلامه تعالى بالضبط، وليس كلام الرسول(ع)، وليس فيه نقص أو إضافات من الرسول(ع)، وبالتالي ذكّر بتلاوة كلامه تعالى إن نفعت الذكرى، كما سيأتيك بعد آيتين.

تعلم من التاريخ أن النبي محمّد(ع) كان فورا يطلب ممن حوله من المسلمين أن يكتبوا ما نزل عليه، والعديدون منهم كانوا يترددون عليه(ع) ليكتبوا السور الجديدة التي نزلت، وكانوا يراجعون ما كتبوه وما حفظوه أمامه (ع) ويصحّح لهم...

قراءات القرآن

بالنسبة لاختلاف القراءات، والتغيير في بعض كلمات القرآن، فسببه ليس نسيان الرسول (ع) لما نزل عليه، وليس اختلاف قراءته (ع) لنفس الآيات... بل سببه "الطبيعي" أن اللغة العربية "مثل بقية اللغات" ليس لديها طريقة كتابة مبنية على اللفظ "ليست فونوتيك"، الحروف المرسومة لا تعبّر عن جميع طرق نطق الكلمات، وحين نزول القرآن كانت كتابة اللغة العربية شبه بدائية بالنسبة لما هي عليه الآن، ولم يكن من السهل القراءة بدقة، وكان الاعتماد على الحفظ باسترجاع ما في الذاكرة بمساعدة النظر إلى المكتوب بخط لا نقط لحروفه، وبلا حركات تشكيل "ضمّة فتحة كسرة سكون شدّة مدّة..."، وقواعد التصريف كانت شبه بدائية، مما سيسبّب حتما ورود أخطاء إملائية لأن قواعد رسم الكلمات لم تكن أكاديمية بحتة، كان فيها ما يمكن أن تسمّيه مزاجية استنسابية بما يجده هذا أو ذاك أنسب وأقرب رسما للتلفّظ بالكلمة، مضافا إليه اختلاف اللهجات العربية، القرآن نزل بلهجة قريش والآخرون لديهم بعض الكلمات التي يلفظونها بطريقة مختلفة، وحتى قواعدهم النحوية والصرفية لم تكن شبه التمام...

هذه هي بعض الأسباب "الطبيعية" لحصول اختلاف في قراءة أو رسم كلمات القرآن، حتى في زمن الرسول(ع) حصل بين المسلمين القليل النادر من الاختلاف في قراءة بعض كلمات القرآن، بعضهم كانت ذاكرته أقوى من الآخرين، وبعضهم كان يعتمد على ما فهمه من السورة والآية أكثر من اعتماده على استرجاع النص بدقة، وبعضهم ضعفت ذاكرته مع الوقت... وبعضهم أصلا ذاكرته ضعيفة وكان يعتمد على القراءة عن مستند...

نتج عن كلّ ذلك حصول بعض الاختلافات في قراءة بعض الكلمات، وتجد في تاريخ القراءة للقرآن أن قراءة مجموع عموم المسلمين وغالبيتهم كانت متوافقة، والشذوذ من هذا أو ذاك يظهر في كلمة ما، ومرة من هذا الصحابي ومرة من ذاك، فالذي قرأ كلمة ما بطريقة مختلفة ستجد أنه هو شذّت قراءته لأن مجموع البقية يقرؤون بطريقة صحيحة حرفيا كما سمعوها من الرسول(ع).

إلى هنا ترى سبب حصول اختلاف في قراءة بعض الكلمات ورسمها أمرا طبيعيا، ولم يكن مؤثّرا لأن الذاكرة الجماعية للمسلمين تكفّلت بنقل قراءة القرآن للأجيال التالية بالتمام مثلما نزل على الرسول(ع).

في زمن الجيل الأول من المسلمين كانت مسألة الاختلاف في قراءة كلمات القرآن محصورة ببضع كلمات وببضعة أشخاص، يعني فلان وفلان من الجيل الأول من المسلمين الذين نقلت عنهم كتب التاريخ أنهم قرؤوا كلمة ما بشكل مختلف عن الآخرين، ترى بوضوح أن اشتباههم أو ضعف ذاكرتهم جعلهم يخطئون في القراءة، وأن بقية المسلمين لم يتبعوهم ويقرؤوا مثلهم، هناك قراءة عامّة منتشرة بين عموم المسلمين، والبعض بسبب ضعف الذاكرة أو الاشتباه... قرأ كلمة ما بشكل مختلف. ويبدو لنا هذا جليا واضحا عندما نجد أن نفس الذي قرأ كلمة ما بشكل مخالف لبقية المسلمين، قرأ مرّة أخرى مثلما يقرأ بقية المسلمين.

ما يقولونه عن ورود مختلف القراءات عن الرسول(ع)، فهذه هرطقة، وواضح فسادها من نفس الروايات التي فيها قراءة مختلفة عن قراءة عامّة الناس، الصحابي راوي القراءة الشاذّة عن البقية، هو نفسه يؤكّد بأن ما يقوله الآخرون لم يقله الرسول(ع) وأنه هو شخصيا سمع الرسول يقرؤها بشكل مختلف...! أمثال هذه الروايات تؤكّد لك أنهم كانوا لا يقبلون بوجود قراءتين واردتين عن الرسول(ع)، وأن هذا أو ذاك كان يحاول تصحيح قراءة الآخرين لأنه ظنّ أنهم مشتبهون... ولكن مع قليل من التقديس للصحابة "وأنهم معصومون لا يخطئون"، وقليل من استسخاف النفس تبعا للهوى، وتعامى الكثير من علماء المسلمين عمّا هو ظاهر وواضح من خطأ واشتباه الصحابة، من هذا وذاك نسبوا كل القراءات التي قالوها للرسول(ع)!

الآن ننتقل إلى الجيل الثاني من المسلمين، وبالتالي ننتقل إلى عدد أكبر من المسلمين، فمن الطبيعي أن ما حصل مع الجيل الأول سيحصل بشكل أكبر وأوسع مع الجيل الثاني، لدينا العديد من الذين سيعتمدون على ما هو مكتوب بدل اعتمادهم على تذكّر القراءة ممن سبقهم من المسلمين، ونأخذ مثالا على ذلك الحسن البصري ومحمد بن سيرين، اللذين ينقل لنا التاريخ عنهما قراءة مختلفة لبعض كلمات القرآن عن بقية المسلمين، هما ولدا بعد وفاة الرسول(ع) وكلاهما من كبار علماء عصرهما، صدور قراءة عنهما مختلفة عن قراءة بقية المسلمين ما معناه؟ معناه أن ذاكرتهما لم تسترجع بدقة ما سمعاه ممن علّمهما قراءة القرآن، أو سببه شيء آخر!

ننتبه أنهما وغيرهما "كزيد بن علي وإبراهيم النخعي..." ما قرؤوه بشكل مخالف لعامّة المسلمين بقي محصورا بهم، بقية المسلمين اعتمدوا على الذاكرة الجماعية، وبقوا يقرؤون كما يقرأ الأغلبية والتي هي قراءة الرسول(ع) بالحرف.

الآن ننتقل إلى الجيل الثالث من المسلمين، وهنا صارت القراءات أكثر اختلافا، صار عدد الكذّابين المخترعين لأحاديث عن النبي(ع) وعن الصحابة كثيراً، ومن جملة كذبهم تأليف روايات عن قراءة مختلفة للقرآن نسبوها لهذا وذاك من الصحابة، ولكن ننتبه جيدا، ما قالوه لم يغيّر من قراءة عموم المسلمين للقرآن، وبقيت هذه الروايات بلا قيمة ولم يعتمدها عموم المسلمين لتغيير قراءتهم.

في هذا الجيل الثالث صارت علوم اللغة العربية أكثر تطورا، وصار لديهم أسس معتمدة للقواعد النحوية والصرفية ورسم الكلمات، وهنا برزت مشكلة أخرى سببها واضح، الذي لم يعتمد على الذاكرة الدقيقة لقراءة القرآن ونقله للآخرين، وتجرّأ واعتمد على القواعد العلمية الجديدة للغة العربية، وقرأ القرآن اعتمادا على ما استنسبه هو من معاني

للكلمات بحسب تصريفها ومناسبتها النحوية! رأى أن كل الناس يقرؤون بطريقة غير صحيحة، وقام هو بتصحيح قراءتهم اعتمادا على قواعد اللغة العربية، أو اعتمادا على تصحيح معاني الكلمات التي رأى أنها لا تتوافق مع معاني الآيات!

ترى هذا بكل وضوح من قراءة الكسائي وابن كثير وابن أبي عبلة... وغيرهم... وننتبه دائما أن قراءة هؤلاء لم تنزل إلى الشارع ولم تصر قراءة يعتمدها الناس في المدن الإسلامية الكبيرة، بل بقيت مجرد قراءات شاذّة مخالفة لقراءة عموم المسلمين.

هؤلاء المعتمدون على أسس قواعد النحو والصرف "الجديدة"، والمعتمدون على ما استنسبوه من معاني الكلمات لاقتراح تغيير مختلف عن القراءة المتداولة بين الناس للقرآن، هؤلاء لمن يصححون؟ ولا تقل لنفسك أن قراءتهم منقولة عن الرسول(ع)، فهذا هراء وكلام فارغ وواضح أن قراءتهم من اختراعهم هم، إذاً لمن يصححون؟ هل لله تعالى يصححون؟ أم يصححون لكلام وراءه جمهور عربي طويل عريض؟

الآن ننتقل إلى الذين قرؤوا بلهجة بعيدة عن لهجة قريش، ما تسمعه الآن من اختلاف لهجات العرب بين اللهجة المصرية واللهجة الخليجية واللهجة العراقية واللهجة اللبنانية واللهجة في المغرب العربي... كان شيءٌ مثله موجودا منذ القدم وقبل الرسول(ع)، وعندما أسلم هؤلاء بعضهم قرؤوا القرآن بلهجتهم بسبب صعوبة لهجة قريش عليهم، وأغرب لهجات القراءة "حاليا" منسوبة لقالون وورش... وكان بالحري بالقادرين على تقليد لهجة قريش ترك اللهجات الأخرى، وللأسف في بعض المناطق لم يحصل ذلك، درجت عندهم القراءة بلهجتهم الخاصّة وصارت معتمدة حتى عند المثقفين منهم والقادرين على تقليد لهجة قريش... أجازوا ذلك لأنفسهم بناء على ترخيص نسبوه للرسول(ع) أجاز فيه للعرب من لهجة مختلفة عن لهجة قريش للقراءة بلهجتهم الخاصة، ولكن هذا كان للمتعذّر عليهم القراءة بلهجة قريش وليس ترخيصا للمستطيع، ومضافا لذلك ما معنى تغيير قالون وورش وغيرهم لتصريف كلمات يمكن للناس قراءتها بلهجة قريش؟ ما معنى تغييرهم لاسم إبراهيم بإبراهام سوى السذاجة أو الاستهتار أو حب الظهور والتميّز...

ها تكوّنت لديك صورة مبسّطة عن أسباب وجود لهجات مختلفة لقراءة القرآن، وأسباب وجود اختلاف في تغيير القليل جدا جدا من بعض كلمات القرآن، وأسباب وجود تغيرات عديدة في تحريك وتصريف البعض من كلمات القرآن، ولكن لا تنسَ أبدا ودائما أن هذه الأمور في البداية لم تنتشر بين عموم المسلمين، الغالبية كانوا يقرؤون مثلما نقرأ نحن الآن على ما نسمّيه برواية حفص عن عاصم عن... عن الرسول (ع)، الآن في عصرنا نجد بعض الناس يخطئون في قراءة بعض الكلمات، ونسمع بعض الناس تفلت منهم ذاكرتهم ويضيفون أو يحذفون كلمات من الآيات، حتى أننا نسمع بعض الناس الذين يعتقدون أن جملة "في الجنّة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" وجملة "تؤلّف ولا تؤلفان" يعتقدون أنها آيات من القرآن! وكما ترى هذه الأمور "الشواذ" لم تؤثّر على بقية المسلمين وما زالت الغالبية الساحقة تقرأ بنفس الطريقة وبالتمام كما قرأ الرسول(ع) بنفس الكلمات "مع تغيّر في طريقة لفظ الأحرف...".

المشكلة الكبيرة هي تبرير تلك الشواذات من القراءات، وجعلها صحيحة! والكلام عنها وكأنها عادية وكأنها ليست شواذا بل معتمدة من المسلمين! هنا المشكلة، فهذا غير صحيح، وأخطر التبريرات عندما يقولون أن كلّ القراءات صحيحة ومروية عن النبي(ع)! فكيف يكون ذلك! ألا يكفينا افتراءات الكافرين بالقرآن على القرآن حتى يشارك علماء المسلمين بافتراءات مدموغة بتأييد نبوي!

من الواضح أن من أقرّ بعموم صحة القراءات هرب من اتهام الصحابة والتابعين وشخصيات مرموقة من علماء المسلمين، هرب من اتهامهم بالكذب، على أساس أنهم ثقة، ولكن لماذا الهرب من ضعف ذاكرتهم ومن الاشتباه؟ ما معنى وصفهم كلّهم بأنهم ممن قرأ فلا ينسى؟ وأصلا بأي حق يجبروننا على الاعتقاد بأن كل المسلمين معصومون من الخطأ والسهو والنسيان!

بعد ذلك تراهم يقولون أحيانا عن بعض القراءات بأنها اشتباه من القارئ، وأحيانا يقولون عن بعض القرّاء بأنهم غير ملتزمين بالحفظ غيبا ويقومون بالقراءة بحسب ما يرونه مناسبا للمعنى ولقواعد اللغة العربية، وبعض الأحيان يقولون عن بعض القراءات أنها افتراء... يقولون هذا هنا وهناك في كتبهم، ولكن عموما وبضبابية شاع بينهم صحّة ورود قراءات مختلفة من عصر النبي(ع) وبتأييد من النبي(ع)! وهنا لبّ المشكلة.

بدل إشارتهم بالأصبع إلى الشواذ في القراءة، قاموا بتعصيم قارئها من الخطأ والزلل والنسيان والاشتباه... والكذب. وهذه مشكلة ناتجة عن تقديس المسلمين لشخصياتهم الدينية، فكل المذاهب ورد عن قدّيسيها قراءات لبعض الكلمات بشكل مخالف لقراءة بقية المسلمين، وأمام تقديس القديسين، سفّهوا كتاب ربّ العالمين، الذي ضمن لنا وصول الوحي إلى الناس عبر شخص النبي محمّد(ع) بالتمام كما نزل، وآية {سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنْسَى} واحدة من عدّة آيات تؤكّد ذلك.

لنقل الكلام بشكل واضح، قراءة عموم المسلمين من أولهم لحدّ الآن هي واحدة، ونحن الآن نسميها قراءة حفص عن عاصم عن... وصولا إلى النبي(ع)، وهذه التسمية لهذه القراءة في مقابل قراءات أخرى جعلتنا نتوهم أن بقية القراءات هي قراءات كانت منتشرة بين عموم الناس، لا، فهذا غير صحيح، ولم يكن حفص منفردا بقراءته كما يبدو لك حين تسمع بالقراءات السبع والعشر، والقراءات الأخرى... فيبدو لك أن حفصا قارئٌ من بين القرّاء، لا، بل اختاروا حفصا كنموذج عن بقيّة القرّاء المتماشين مع قراءة عموم المسلمين للقرآن، وبقية القراءات هي الشواذ ولم تكن منتشرة في حينها، وانتشر البعض منها بعد ذلك بسبب تبريرات بعض علماء الدين لتلك القراءات حيث ادّعوا أنها صحيحة وصادرة عن الرسول(ع)!

نفس الكلام السابق ينطبق على كتابة القرآن، قديما وقعت بعض الأخطاء في كتابة بعض الكلمات أثناء كتابتهم للقرآن وأثناء نسخهم للقرآن، وتلك الأخطاء إمّا نتجت عن محاولة الناسخ لتحسين كتابة الكلمات لتتناسب مع اللفظ، أو لتتناسب مع القواعد الجديدة للغة العربية، وإمّا سهوا... وإمّا اعتمد على الحفظ أثناء الكتابة، وخانته ذاكرته، فأضاف أو حذف أو غيّر... ولكن عموم مصاحف المسلمين كانت متشابهة كثيرا ويمكنك بسهولة تمييز الأخطاء القليلة التي وقعت في البعض منها "قديما"، من بين قرابة الستة آلاف آية ستجد ما لا يزيد عن خمسين كلمة مكتوبة خطأ في هذا المصحف أو ذاك، وهذا شيء طبيعي عادي جدا لأن النسخ كان باليد، فالنسخ بالآلات وحده يعطيك نسخة مطابقة.

هذا التقدير بالخمسين كلمة للأخطاء الإملائية بين النسخ ليس جزافا، راجعت دراسات قارنت بين مختلف النسخ القديمة جدا "القرن الأول"، وراجعت كتبا كان موضوعها عن تطوّر اختلاف رسم القرآن عبر التاريخ، وميّزوا بسهولة بين أخطاء الإملاء بينها، وأنها كانت موزعة ولم تكن موحدة، وبالتالي لم يحصل ما يمكن تسميته بالتحريف لأنك لا تجد نفس الخطأ في كل النسخ...

ننتبه للذين كتبوا القرآن في عهد النبي محمّد(ع) أنهم لم يكونوا كلّهم من المحترفين للكتابة، فكل من يجيد الكتابة كتب... وعندما قرّر الصحابة اعتماد مصحف واحد للنسخ عنه بسبب اختلاف استنساب المسلمين لرسم الكلمة بما يناسب لفظها، وقع في ذلك المصحف الأول أخطاء إملائية أيضا، وتلك الأخطاء لم تكن مؤثّرة على اللفظ الصحيح، ككتابة التاء المربوطة طويلة في كلمة رحمة "رحمت" شجرة "شجرت"... وزيادة ألف الأفعال بعد واو الجماعة على الأسماء... تلك الأخطاء لم تؤثّر على اللفظ الذي يعتمد على الحفظ، وبالتأكيد أثّرت على لفظ الذي لم يعتمد على الحفظ.

لا تزال إلى الآن المصاحف التي بين أيدينا والمرسومة "تقريبا" برسم من عهد الخليفة عثمان، لا تزال في بعض كلماتها القليلة جدا جدا صعوبة في قراءتها اعتمادا على رسم الكلمة إن لم تكن قد سمعتها من أحد ما قبلك، لأن رسم الكلمات تغيّر من ذاك الزمن إلى الآن، وفي دراستنا هنا اعتمدنا رسم الكلمات بحسب القواعد الدارجة في عصرنا، وأنت تعلم أن كل اللغات على الأرض تعاني من نفس المشكلة، رسم الكلمات لا يعطيك لوحده طريقة صحيحة للفظها، ويمكنك مراجعة الكلام عن أسلوب الأحرف الصوتية "الفونوتيك" وهي طريقة تعتمد رسم حرف لكل طريقة لفظ، فكلمة صلاة التي نلفظها الآن أثناء قراءتنا للقرآن، سيبدو "بالتحليل"من الكتابة القديمة "صلواة" أنهم كانوا يلفظونها كما نلفظها نحن في كلامنا العادي في بعض لهجاتنا المحلية، حرف اللام في هذه الكلمة نلفظه بالإمالة إلى الواو قليلا في كلامنا العادي، وفي قراءتنا للقرآن نلفظه بالفتحة من دون أي إمالة، فيبدو أن الجيل الأول من المسلمين حين رسموا هذه الكلمة وأشباهها حاولوا رسم صوت إمالة اللام للواو.

إذا دققت في قواعد الترتيل الحالية، والتي تحدّد النطق الصحيح للأحرف والإدغام والمدّ... لوجدتها فنّا وليست قراءة عادية، هل كان الناس في عهد الرسول(ع) يتكلمون مع بعضهم البعض على قواعد الترتيل فيمدون حرف الألف في كلمة سماء لست ثواني! سمااااااء! بالطبع لا، ولكن مع مرور الزمن تفنّن الناس في قراءة القرآن، وجعلوا لها قواعدَ، وصولا إلى ما صرنا نعرفه الآن من الترتيل والتجويد، وهذه طريقة حديثة في القراءة لم يكن لا الرسول(ع) ولا الجيل

الأول من المسلمين يقرؤون بها، ونشأت هذه القراءة "بشكل جدّي" في الجيل الثالث من بعض قرّاء المسلمين، ولم تنتشر بين عموم الناس الذين بقوا يقرؤون بطريقة عادية كما يقرأ العربي أي كلام عادي، وانتشرت تلك القراءة "الفنيّة" بين المتعلمين "اللغة العربية وللعلوم الدينية" على أساس أنهم مثقفون ولديهم الوقت لدراسة وإتقان القراءة على القواعد الجديدة لفنّ القراءة... وهكذا انتشر فنّ الترتيل وصار لدينا مشاهير قرّاء للقرآن يقرؤون في المساجد والمناسبات... حتى صرنا نعتقد أنها الطريقة التي كان يقرأ بها الرسول(ع) والصحابة! وصرنا نعتقد أنها القراءة الأفضل للقرآن ويجب علينا تعلّمها... وهذا غير صحيح أبدا بتاتا.

في علم الترتيل صار حرف اللام في كلمة "صلاة" بلا إمالة نحو الواو، حيث وحدّوا عموم لفظ الأحرف بلا إمالة إلا القليل القليل منها بقي مع إمالة للياء أو الواو، كما في كلمة مجراها ومرساها من الآية 41 من سورة هود "وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا..."، ونفس الحالة أصابت كلمة زكاة التي رسمها المسلمون الأوائل بواو إمالة "زكواة"، لا تفهم أن هذه الإمالة تعني ظهور حروف الواو وكأنها الكاف مضمومة، لا، بل انتبه لكلام أي شخص عادي من العرب وستجد الكثيرين يلفظونها بإمالة نحو الضمّة، قارنها مع كلمة "ماما" كنداء للأم وكلمة "بابا"، والفظها بالفصحى على قواعد مخارج الحروف في علم الترتيل، والآن الفظها كما يلفظها الناس، هل لاحظت الفرق؟ في لفظنا العادي لها نميلها نحو الواو قليلا وكأن عليها حركة ضمّة خفيفة، ونفس الشيء لكلمة صلاة زكاة...

هذا النموذج ليس تغييرا في كلمات القرآن، بل نتاج طبيعي لتغيّر لفظ الأحرف من جماعة لأخرى، وهذا منتشر بالتأكيد في كل اللغات الرئيسية على الأرض، في الصينية والإنجليزية والإسبانية... وبقية اللغات أظنها نفس الشيء.

{إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى{7}}
{سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنْسَى} القرآن ولكن ليس بقدرتك الذاتية، بل:

{إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ}، إذا أراد سبحانه أن تنسى فستنسى، أمامه تعالى خيارات عديدة وليس مجبوراً على تثبيت القرآن في ذهنك ولا أنت بقدرتك الذاتية لن تنساه.

{إِنَّهُ} سبحانه يعلم {الْجَهْرَ}، يعلم الشيء الظاهر الواضح كاللفظ المسموع بصوت عالٍ، وهنا المقصود ما نقوله علناً بوضوح وبصراحة بلا تورية، ويعلم سبحانه {مَا يَخْفَى}، ما هو مستور عن الآخرين عن قصد الإخفاء، كالنوايا وما في البال والأفكار.

أنا كبشريّ لا يمكنني أن أضمن أنك حفظت كلامي الذي قلته لك، حتى لو كررته أمامي عشرين مرةً، فلا أضمن أنك لن تنسى منه كلمة أو لن تنسى بعضه بعد أيام، أو تنساه كلّه بعد سنة... أمّا سبحانه الذي يعلم ما يظهر من كلامنا وما في بالنا، وهنا الكلام بالتحديد عن علمه سبحانه بما في ذاكرتنا... فيمكنه سبحانه أن يضمن لنا أن رسوله محمّداً(ع) لم ينسَ ولا حرفاً من القرآن، لأنه تعالى يعلم في كل لحظة ما في ذاكرة رسوله(ع)، ويعلم كيف يجعله لا ينسى، وشاء سبحانه ترسيخ القرآن في ذاكرة رسوله(ع)، وها تسمع منه تعالى تأكيداً بضمان منه تعالى أن ذاكرة رسوله(ع) لن يفلت منها القرآن ولن يتشوّش.

من عموم القرآن تعلم أن النبي محمداً(ع) كان أمياً لا يجيد الكتابة ولا القراءة، وكان ينزل عليه الوحي بالقرآن، فيخاف (ع) أن ينساه، فهو لا يمكنه تسجيله بالكتابة ومراجعته فيما بعد، وحاول في مرات تكرار جمل القرآن أثناء نزولها عليه خوفاً من النسيان، كما تفهم من الآية 16 من سورة القيامة "لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ"، ومن الآية 114 من سورة طه "... وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ...". وهنا تقول الآية له "ولنا" إنّه لن ينساه بضمانة من يعلم ما في ذاكرتك وشاء أن يثبّت القرآن فيها.

ليس معنى الآية أنه تعالى يشاء جعل نبيه(ع) ينسى بعض الآيات، مع أن هذا ممكن إن شاء تعالى فعله، ولكن الآية تقول بأنك أيها النبي(ع) لن تنسى القرآن وهذا قرار ربّانيّ، ولكن ليس بقدرتك الذاتية لن تنسى، بل بمشيئته تعالى لن تنسى. ونجد هذا التنبيه بتعليق أمر ما بمشيئته تعالى متكرراً كثيرا في القرآن، مثلاً تحدثت الآية 108 من سورة هود عن بقاء المؤمنين في الجنّة ما دامت السماوات والأرض "إلا ما شاء ربك" "وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ"، وهذا لا يعني أنهم سيفنون! فهم خالدون في الجنّة

بكل تأكيد، ولكن هل خلودهم يعني خلودهم بقدرتهم الذاتية؟ فيصيرون كالإله الذي لا يفنى؟ لا، لا السماوات ولا الأرض لديها قدرة ذاتية على البقاء، ولا نحن ولا أحد يمكنه منع الفناء عن نفسه إلا الله سبحانه وتعالى الذي لا تنطبق عليه أصلاً كلمة فناء أو موت... لا معنى لهذه الكلمات بالنسبة له تعالى لأنه مختلف عنّا وليس مخلوقاً وليس كمثله شيء أبداً بتاتاً...

ضع في بالك دائماً أن الآيات التي فيها كلمة "شاء" ومشتقاتها تعني أن أمامه تعالى خيارات عديدة وغير مجبور على اختيار أحدها بل بحكمته تعالى يختار ويشاء، وضع في بالك أيضاً أن الجمل التي وردت فيها كلمة "شاء" ومشتقاتها كانت تشير إلى كونه تعالى وحده موصوفاً بالمشيئة غير المحكومة بأي شيء إلا بحكمته تعالى، فأنا أشاء، وأفعل وأقول وأذهب وأقفز... ولكن من دونه تعالى هل يمكنني فعل أي شيء؟ أنا وجودي وحياتي والبيئة التي أنا فيها... كلّها لم تكن موجودة أصلاً لولاه تعالى، وإذا للمحة بصر وفرضاً غفل تعالى عنّي وعن بيئتي، ففوراً سنزول، وترى هذا واضحاً من الآية 41 من سورة فاطر "إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا"، فأنا أشاء وأفعل ما أريد ولكني لست إلهاً ولست ربع إله، بل عبد مخلوق تتعلّق حياته ووجوده بإلهه عزّ وجلّ، وهكذا تفهم معنى "ما شاء الله تعالى" إذ ذكرها القرآن كثيرا ليشير إلى تفرّده سبحانه وتعالى باختيار ما يريد، ونحن لدينا مساحة اختيار لما نريد، ولكن لا يمكن أبداً ولا بأي شكل أن نفرض عليه تعالى، ولا أن نمنعه تعالى من أن يفرض علينا ما يريده هو سبحانه.

هنا تقول الآية إن الرسول محمّداً(ع) سيقرأ القرآن ولن ينساه، وحتى لا يخطر ببالك ولا بأي شكل أن الرسول محمّداً(ع) لديه قدرة ذاتية خارقة تجعله لا ينسى، تذكّرك بأنه تعالى شاء ذلك، ولن ينسى رسوله(ع) طالما سبحانه قرّر ذلك.

بقي شيء، قال بعضهم إنّه تعالى شاء لرسوله(ع) نسيان بعض السور، ويسمّون ذلك بنسخ التلاوة، على أساس أن سورة ما نزلت، أو آيات نزلت، وفيما بعد قرّر تعالى مسحها من ذاكرة رسوله! وسبب قولهم هذا تقديس شخصياتهم الدينية الذين ورد عنهم اعتقادهم بجمل في بالهم أنها آيات من القرآن، ولمّا لم يوافقهم بقية المسلمين عليها، استغربوا مدّعين أنهم سمعوها من الرسول(ع)... وهذا أمر طبيعي يمكن حصوله مع أي كان بسبب تفلّت الذاكرة وخيانة الحافظة أو الاشتباه... وربما تكون الحادثة لا أصل لها وملفّقة من الكذّابين الذين يألّفون الروايات، ربما من الأساس لم تحصل... ولكن لا، الشخصية التي ورد عنها هذا الكلام مقدّسة، يجب إيجاد مخرج لإبقائها مقدّسة مهما كلّف الأمر، هذا دفاع مقدّس وواجب ديني! لنقل إن الرسول وبقية المسلمين محا تعالى الآيات من ذاكرتهم، وبقيت في ذاكرة القديس! أمّا لماذا بقيت في ذاكرته، فهذه لا بد من البحث لها عن حكمة إلهية... وهكذا ننسف القرآن ودينه تعالى لتقديس شخص ربما سها وربما اشتبه وربما أصلاً لم تحصل الحادثة وألّفها كذّاب ما من الذين ألّفوا الروايات... والأنكى من ذلك أننا نخترع عقائد ومفاهيم دينية جديدة ونلزم الآخرين بالإيمان بها! كبدعة نسخ التلاوة حيث تختفي سور وآيات من القرآن من ذاكرة النبي وبقية المسلمين إلا من ذاكرة واحد من الصحابة!

(وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى{8})
{وَنُيَسِّرُكَ}، نجعلك على الشيء السهل بدون عقبات، {لِلْيُسْرَى} بحيث تمشي الأمور براحة.

من ناحية ما يتعلّق بربّك سبحانه أمورك تمشي براحة، القرآن ثابت في ذاكرتك، وما نزل عليك لا يكلّفك "لا يأمرك" إلا بما تستطيع، وستحصل على تأييد إلهي في أمورك، وتنال العناية المخصصة للمؤمنين في الدنيا والآخرة...

(فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى{9})
{فَذَكِّرْ}، بعد الضمانة الإلهية بتثبيت كلامه سبحانه في ذاكرتك، وبالتالي ما تنقله للناس سيكون بالتمام كما وصلك منه تعالى، {فَذَكِّرْ}، قل للناس أموراً تجعلهم يستحضرون كلاماً ما في سلوكهم، وهنا المقصود تذكير الناس بالقرآن عبر قراءته عليهم ليستحضروا ما فيه من كلام ربّهم سبحانه في قولهم وعملهم ونواياهم... {إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى}، ربما يستفيد من يسمع القرآن، معلومٌ أن قراءتك للقرآن لن تنفع مع كلّ الناس، بعضهم يصرّ على الكفر... ولكن على كلّ حال قم أنت بواجبك واقرأ القرآن عليهم.

ضع في بالك أنه تعالى لم يقل إن من يسمع هذا القرآن حتما سيؤمن، وكأن القرآن شيء سحري بالمعنى الخرافي لكلمة سحر، لا، الإيمان بالقرآن مرتبط بنفسية وعقلية الذي يسمعه، فإن لم يؤمن فالعطل فيه، في تفكيره ونفسيته وليس في القرآن، استعمل القرآن عادة التعبير بـ "العل"، لعلهم يؤمنون... لنفهم أن القرآن تامّ كامل وفيه كل ما يلزم لنؤمن، ومن المفروض ومن المتوقّع أن نؤمن حين نسمعه، وهذا معنى كلمة "العلّ"، وهنا الآية تعطي معنىً قريباً من معنى "العلّ"، وتعطي معنى قريب من عبارة: ربّما تنفع الذكرى، طبعاً مع الفرق بين المعاني الدقيقة لكل جملة من الجمل، ضع في بالك دائماً أن هذا النوع من الجمل القرآنية يعني: من المفروض ومن المتوقّع أن يؤمنوا. وليس معناها أنه تعالى لا يعلم إن كانوا سيؤمنون فجرّب أيها الرسول معهم واقرأ القرآن عليهم فربما يؤمنون. لا، وأكرر لك لأن كتب التفاسير علقت عند هذه النقطة وهذه التعابير، كل الجمل القرآنية المشابهة لآيتنا هنا تعني: بما أن القرآن كلام إلهي حقّ مبين... من المفروض ومن المتوقّع أن يؤمن الناس به حين يسمعونه إن كانوا عقلانيين باحثين عن الحق، وهذا ما ستراه في الآيتين التاليتين.

(سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى{10})
{سَيَذَّكَّرُ}، سيستحضر في قوله وسلوكه ما تقوله من قرآن، {مَنْ يَخْشَى}، من يشعر بخطر يمكن تجنبّه وعليه القيام بشيء ما لتجنبّه، فتنفعه الذكرى إن التزم بما يقوله القرآن.

الخشية شعور سببه تصوّر التلبّس بحصول الضرر المعنوي أو المادي ولكن مع الشعور بضرورة تجنّب الشيء غير المرغوب الذي تتوقّع حصوله فتشعر بإمكانية تجنبّه، فهو أمر لا تريد اقتحامه، سواء أكان مادياً أو معنوياً، كالكره والعداوة والضرب والقتل... من الناحية العملية الخشية تشابه التقوى كتصرّف لتجنّب الشيء، ومن ناحية الشعور تشابه الخوف.

أمّا الخوف فشعور سببه تصوّر التلبّس بحصول الضرر المعنوي أو المادي من شيء تشعر بفقدان إمكانية تجنب ضرره. المؤمن يخشاه تعالى فلا يفعل السوء، ويخاف من عقابه تعالى إن فعل السوء.

(وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى{11})
يتجنبها، فيبتعد ولا يواجه الذكرى، الأشقى، الموصوف بأنه قام بأكبر الأمور التي تسبب تعاسته من دون أن يحسب حساب النتائج.

سترى من الآية التالية أن من تجنّب الذكرى فمصيره النار، فالشقاء هو تجنّب الذكر الذي يسبّبُ التعاسة لمن تجنّبه ولم يتماشَ معه.

(الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى{12})
{الَّذِي} يتجنّب الذكرى وبهذا التجنّب يكون موصوفاً بالأشقى فهذا، {يَصْلَى}، يتوجّه ليتعرّض ويواجه، {النَّارَ الْكُبْرَى}، وكما تعلم فالعقاب في الآخرة متفاوت، وهناك سبعة قياسات أساسية للعقاب ويتفرع من كل نوع أنواع أخرى، فهو من الأشد عقوبة إلى الذين يدخلون إلى أخف درجة من العقاب... ونفهم ذلك من عموم القرآن ومن ضمّ الآية 44 من سورة الحجر "لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ"، مع ما في الآية 145 من سورة النساء "إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ"، فهناك نار أصغر من نار، مع العلم أن الوقوع في أصغر نار هو مصيبة كبيرة لأن العذاب فيها شديد جدا كما هو واضح من الآية 185 من سورة آل عمران "... فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ..."، وهكذا نجد عذاباً أخفّ من عذاب النار الأكبر، فالأكبر وصولا للنار الكبرى التي يصلاها من تجنّب الذكر الإلهي فلم يدخل الإيمان إلى قلبه ولو بمقدار شعرة.

ضع في بالك دائماً أن القرآن يتحدّث أكثر الأحيان عن نموذجين، نموذج أقصى الإيمان، ونموذج أقصى الكفر، وأمّا ما بينهما من درجات من الأقل إيماناً إلى من خلط إيماناً بكفر إلى الأقل كفراً، فقد تحدّثت عنهم بعض السور ولكن عموم القرآن يشير لأصل وأساس الإيمان والكفر، فيشير للإيمان التامّ الكامل، وللكفر الأسوأ، ليدعوك للإيمان وليريك الفرق بين مصير المؤمن والكافر، وما بينهما من تدرجات فلهؤلاء كلام آخر...

(ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى{13})
عندما يحترق الإنسان في الدنيا فإنه يموت، ولكن عندما يحترق في الآخرة في النار الكبرى فإلى أين سيذهب بعدها؟:

{ثُمَّ} بعد صليه أمام النار الكبرى، {لَا يَمُوتُ فِيهَا}، فلا يفقد حياته من الاحتراق بها، {وَلَا يَحْيَى}، فلا يسترجع مواصفات الإنسان الحي.

سيلازمه شعور مزعج مؤلم، كالذي نفسه تكاد تخرج من جسده من شدة الألم طوال الوقت، فلا هو ميت، ولا هو حي، بل في حالة دائمة من الشعور بلحظات الموت، ورد نفس المعنى في الآية 74 من سورة طه "إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى".

انتبه جيداً لهذا التحذير، فالشعور الدائم بالألم الشديد لدرجة قبل الموت بلحظة، فهو دائم الاستمرار، فلا يموت الأشقى وينتهي الألم، ولا يرتاح حتى نقول عنه حي، بل باستمرار يشعر في حالة بين الموت والحياة.

(قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى{14})
مقابل الشقي الذي تجنّب الذكرى:

{قَدْ أَفْلَحَ}، أجاد، أصاب عملاً، قام بما هو صحيح ومناسب، {مَنْ تَزَكَّى}، من كان لائقاً، فعمله وعقائده لائقان، خاليان من الخبث والفساد كما هو مفروض منه كإنسان يميّز بين الخير والشر وعُرضت عليه الهداية الإلهية.

من اتّبع الذكر سيكون موصوفاً بأنه زاكٍ، موصوفاً بأنه لا خبث ولا فساد في أفكاره وأعماله، وتفهمها عندما تنظر لمن نصفه بالخبث والفساد لأنه قام بأمور معيبة مكروهة... أفلح من كانت أعماله محبوبة جيّدةً.

نتذكر بداية السورة التي كانت تتحدث عن خلقنا وهدايتنا، وهنا نرى بشكل مختصر وبكلمة واحدة "أفلح" كنتيجة لمن اهتدى للطريق الصحيح، وأنت تعلم من عموم القرآن أن هذا الفالح سيكون مصيره جنّةً خالدةً.

(وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى{15})
أفلح من، {ذَكَرَ}، استحضر، {اسْمَ رَبِّهِ}، ما يُسمّى به المسؤول عنه من مستوى إلهي، {فَصَلَّى}، توجّه نحو ربّه سبحانه، وطبعاً تفهمها أنه توجّه إلى ربّه سبحانه بالذكر من مدح وشكر وحمد.

الترجمة العملية لمن تذكّر وخشيه تعالى، تكون بالتوجّه إليه تعالى. كلمة صلاة عامّة لأي توجّه، فالله سبحانه يصلّي على المؤمنين، فيتوجّه إليهم بما يناسب توجّه إله إلى الذين يحبّهم، فيتوجّه إليهم سبحانه برحمته ورأفته ومغفرته... ونحن نصلّي على النبي(ع) فنتوجّه إليه بما يناسب توجه الذين يحبونه ويقدّرونه ويحترمونه، فنطلب منه تعالى أن يزيد له من ثوابه(ع)... وهكذا تفهم أن كلمة صلاة هنا عامّة لأي توجّه يقوم به الذي يخشى، وعلى رأس التوجّه إليه تعالى هو ما نسمّيه بالعبادة، وهي الذكر الذي نقوم به خمس مرات في اليوم والتي نسمّيها الصلوات الخمس الواجبة.

لاحظ أن القرآن لا يعطي قيمة لما يسمّيه بعض الناس: الإيمان بالقلب. ويقصدون أن الصلوات اليومية الخمس لا قيمة لها وليست مهمّة والمهم هو الإيمان بالقلب، لا، فالصلوات الخمس واجبة بالحركات والكلمات التي وردتنا عن النبي محمّد(ع)، وهي وغيرها من الواجبات العبادية "والتشريعية" هي التطبيق العملي للإيمان الحقيقي، فالآية هنا وجه آخر من تعابير "آمن وعمل صالحاً" معاً يؤمّنان رضاه تعالى ودخول الجنّة.

(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا{16})
{بَلْ}، بدل التزكّي والصلاة، {تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}، فحياتكم التي أنتم فيها الآن والموصوفة بأن أقصى السعادة فيها لا شيء ولا قيمة لها إذا قارنّاها مع الحياة في جنّة الآخرة، ورغم ذلك تفضّلون الحياة الدنيا على جنّة الآخرة.

الإيثار هو عموم تركك لشيء جيد مع تفضيل غيره، ومرة بالنظر لما تركته وفضّلت غيره، ومرة بالنظر لمن أعطيته له وفضلته على نفسك أو على الآخرين الذين لم تعطهم. فالحياة في جنّة الآخرة ممتازة والعمل للحصول عليها فلاح،

ويكون عبر التزكية والصلاة كتعبير آخر عن الإيمان والعمل الصالح، ولكن هناك من فضّل الحياة الدنيا على جنّة الآخرة، ففعل هنا ما يحبّه وعلى هواه... حتى لو كان عليه عقاب في الآخرة وسيحرمه من جنّة الآخرة.

(وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى{17})
{وَالْآخِرَةُ}، والحياة الثانية التي في الآخر بعد الحياة الدنيا الأولى هي، {خَيْرٌ}، فهي موصوفة بأنها حسنة جيدة، والآخرة {أَبْقَى}، فما يحصل عليه المؤمنون هناك من أمور رائعة لن يفقدوها، فهم المؤمنون خالدون والجنّة خالدة، بالمقابل مع الدنيا التي نموت فيها فنفقد ما فيها، في الآخرة لا يموت المؤمن ولا الجنّة تخرب...

(إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى{18})
{إِنَّ هَذَا} الذي ذكرناه في هذه السورة، {لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى}، فهو مكتوب من قبل في صحيفة وصحيفة... على عموم ما له وجه منبسط من جلد أو ورق أو منحوت على خشب... مكتوب عليها أولاً من قبل هذا القرآن نفس الكلام الوارد هنا. وبتعبيرنا الدارج: هذا الكلام عن نهاية الأتقى والأشقى مكتوب وموثّق في صحف قديمة وليس كلاماً جديداً وصل للناس.

(صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى{19})
{صُحُفِ}، الأشياء التي لها وجه مبسوط، للكتابة عليها، الوثائق المكتوبة المنسوبة لـ، النبيين {إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} (ع).

هما نبيان كان ينزل عليهما وحي بكلام إلهي موجّه للناس ومحتواه مشابه لهذا القرآن، وكانا يكتبانه "هما (ع) أو من حولهما من المتدينين" وينشرونه للناس. والصحف التي نزلت على النبي موسى(ع) هي المسمّاة أصلاً بالتوراة، وهي جزء صغير مما نسميه حالياً بكتاب التوراة الكبير الموجود حالياً بين أيدينا، فمع مرور الزمن ضمّ علماء اليهود إلى التوراة الأساسية أسفاراً إضافية من تأليفهم...

أمّا صحف النبي إبراهيم(ع) فليس لدينا نسخة منها الآن بحسب ما بحثت وتحرّيت.

التاريخ القرآني وأساطير الناس

نجد في بعض الكتب كلاماً منقولاً من كتب "الفيدا" عن شخصية هندية "هندوسية" بينها وبين النبي إبراهيم(ع) شبه في بعض النواحي المميزة، منها الاسم "براهما"، واسم الزوجة "ساراساتوي"، والإحراق بالنار وتقديم الأضحية وطقوس الحج... ولتلك الشخصية كلام مكتوب قالوا إنه صحف النبي إبراهيم(ع)... ولا أثق بتلك الكتب التي تتحدّث عن مقارنة الأديان والتي ورد فيها هذا الكلام، فمحتواها يبدو "علمياً مقارناً" ولكنها ركيكة فيما يتعلق بالتدقيق وفي نقل الكلام من الكتب، وطريقتهم في تشبيه الأمور بين مختلف عقائد وقصص الحضارات والديانات سخيفة متراخية...

على كلّ حال، يبدو أن انتقال قصة حياة النبي إبراهيم(ع) إلى منطقة الهند وما جاورها، مشابه لانتقال قصص أخرى إلى مختلف الحضارات القديمة، كقصة آدم(ع) وحوّاء، وكانتقال قصّة طوفان النبي نوح(ع)، وقصّة ابتلاع الحوت للنبي يونس(ع)... بمراجعة تراث منطقة الشرق الأقصى، كالصين حالياً وما يجاورها من ثقافات، والهند حالياً وما يجاورها من ثقافات، وإيران حالياً وما يجاورها... تجد في تراث الكافرين والمشركين ما يشبه كثيراً قصص الأنبياء التي مرّت فيها أحداث غير عادية، وهذه الأمور كتب عنها بعض المدّعين للعلمية والأكاديمية وأنهم باحثون مدققون محللون... في البحث في الأديان، والنتيجة أن الروايات الدينية عن الأنبياء الموجودة في التوراة والإنجيل والقرآن أصلها من كتب وعقائد الكافرين والمشركين! كيف هذا وتلك الأديان معلوم انقطاعها عن بعضها فلا امتداد تاريخي لها سوى عنوان الشرك، فلهؤلاء القوم آلهة مختلفة عن آلهة الذين يجاورونهم ومعهم في نفس الزمن! ولكل قوم عقيدة وشريعة مختلفة عن الآخرين! بينما دينه تعالى واحد على نفس الكلام من أوّل ما كلّف سبحانه البشرية، من آلاف السنين من آدم(ع) مروراً بنوح(ع) مروراً بإبراهيم(ع) وموسى(ع) وعيسى(ع) وصولاً إلى محمد(ع)، وخلالهم أنبياء ورسل كثيرون، فمن الأصل ومن التقليد؟

في كتب المدّعين للعلمية في البحث بين الأديان، تجدهم يجمعون شواذّ العقائد والتشريعات التي اخترعها الفسقة والمنافقون من كل المنتمين بالاسم لدينه تعالى، وعلى أساسها يحاسبون دينه تعالى! وكمثال تراهم يركّزون على

موضوع تثليث الألوهية عند المسيحيين، ويركزون على ما استورده المنتمون لدينه تعالى من ثقافات الآخرين وأدخلوها في الدين الإلهي، كالحداد لأربعين يوماً جرياً على عادات مراسم المصريين القدماء بتحنيط الميّت والتي تستغرق أربعين يوماً لتحنيطه... ويتناولون هذه التفاصيل متجاهلين عن قصد أنها ممارسات ليست من أصل دينه تعالى، ومن الواضح أن المنتمين لدينه تعالى أدخلوها على الدين الإلهي، ولكن أساس دينه تعالى واحد وله امتداد تاريخي لآلاف من السنين، وهذا شيء تراه مما يطرحه هذا القرآن، وترى الفرق الهائل بينه وبين العديد من الطقوس والتشريعات والعادات... التي ينسبها الناس لدينه تعالى ولا تجد لها أي أثر في كتابه تعالى.

على كل حال، ليس مطلوباً منّا البحث عن صحف النبي إبراهيم(ع) لنقرأها حتى نتعرّف على دينه تعالى، فدين النبي إبراهيم(ع) معلوم مشهور بالتوحيد وأفعال الخير... ودين النبي موسى(ع) مشهور أنه مثله، وهذا القرآن على نفس الخطّ، وكلّهم يخبروننا بنفس النتيجة للأتقى وللأشقى.

سورة الغاشية (88) ص 592

آخر آيتين: {إِنَّا إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}. هما الخلاصة من السورة: وهو رجوع الناس لربهم سبحانه، ومحاسبتهم، وبديهي أنه يتضمن معنى مجازاتهم. بداية السورة تعرض علينا نتيجة الحساب، سواء السيئ أو الجيد، وبين بدايتها وخاتمتها لفت انتباه لما خلقه قائل هذا الكلام هنا في الدنيا.

تركيز سورتنا هنا هو من المرات القليلة التي نجد فيها سورة تربط فقط بين كلامه تعالى عن الآخرة وبين لفت الانتباه لمخلوقاته التي خلقها تعالى في الدنيا وتشير لصفاته الفائقة سبحانه كتأكيد على قدرته تعالى على تنفيذ ما يقوله من خلق للجنة والنار.

عادة نجد كلاما قرآنيا يلفت انتباهنا لخلقتنا ولما حولنا ليشير إلى سهولة تكراره تعالى لخلقنا مرة ثانية، أمّا هنا نجد لفت الانتباه لما حولنا مُشِيرًا لسهولة خلقه تعالى للجنة والنار.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ{1})

{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ}، هل وصلك كلام عن حدث، {الْغَاشِيَةِ}؟ التي تحط فتصيب بشكل محيط ومنتشر؟

سترى من بقية السورة أن الغاشية وصف ليوم القيامة من الموت وما بعده، وهو حدث يغشى الجميع ويقع على الجميع، كما نقول: غشيهم النعاس، ونقصد أن النعاس وقع عليهم فأصابهم، لأن يوم القيامة حدث سيصيب كل الناس، وسيكون فيه الجميع قياماً من الموت ويحصل معهم ما ستذكره الآيات التالية.

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ{2})

{وُجُوهٌ}، هناك وجوه، وما تتوجه به، {يَوْمَئِذٍ}، من بداية زمن الآخرة، في زمن القيام من الموت وما بعده، {خَاشِعَةٌ}، تُعَبِّرُ عن فقدان أصحاب الوجوه للقدرة على فعل أي شيء مقابل ما يحصل معهم.

بديهي أن الكلام عن وجوه الكفار والمشركين والمجرمين والفاسقين والمنافقين... ومن عموم القرآن تعلم أنهم من أول لحظة يستعيدون فيها حياتهم في الآخرة، يعلمون بأنهم في ورطة، ولا يوجد أي حل للمصيبة التي هم فيها، ووجوههم تُعَبِّرُ عن الخشوع، عن حالة فقدان أي قدرة على فعل أي شيء للنجاة من العقاب الإلهي، وهذا المعنى منتشر في عدة آيات منها الآية 22 من سورة الفرقان "يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا".

قارن ما تجده في عموم القرآن عن أوصاف هذه النوعية من الناس في يوم القيامة، وقارنه مع مجرم هنا في الدنيا حكموا عليه بالسجن أو التعذيب أو الموت... وهو يتصرف كأنه غير مهتم ولا يبالي... فستجد القرآن يؤكد بأن كل من خالف الدين الإلهي سيكون في يوم القيامة وما بعده مرتعبا خائفا خاشعا... لا قوة شخصية ولا شخصية جبارة ولا نفسية متعالية ولا صبر ولا تحمل... وكله سينهار هناك في يوم القيامة.

(عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ{3})
أصحاب تلك الوجوه:

{عَامِلَةٌ}، ماذا عاملة؟ ما وصف عملها الذي قامت به أصحاب تلك الوجوه الخاشعة؟ {نَاصِبَةٌ}، تشعر بالوهن والتعب الشديد النفسي والجسدي في الآخرة الناتج عن مسيرة حياتها السيئة في الدنيا.

بعبارة أخرى، أولئك الناس عملوا في الدنيا أعمالا {عَامِلَةٌ} جعلتهم {نَاصِبَةٌ} في تعب شديد جدا في الآخرة. ويمكنك مقابلة آيتنا هنا مع الآية 9 الآتية "لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ" لترى أن {عَامِلَةٌ} و{سَعْيِهَا} تشيران لما قام به الإنسان في حياته الدنيا ونتيجته في الآخرة {نَاصِبَةٌ} أو {رَاضِيَةٌ}.

بعبارة أبسط، نقول: عملت لأرتاح، واجتهدت لأتقاعد وأنا كبير... سعيت وأنا راض بالنتيجة لأن مصاريفي واحتياجاتي مؤمنة... وبالعكس، عملت بشكل لا يؤمن لي راحتي، وأنا عامل ناصب، حيث عملت وسبب لي عملي النصب، التعب والوهن الشديد، ولم أعمل بما يؤمن لي سعادتي. وهذا ما تصفهم به الآية.

(تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً{4})
أصحاب تلك الوجوه عملت ما يصيبها بالنصب في الآخرة لأنها:

{تَصْلَى}، تواجه، تقف أمام، {نَارًا حَامِيَةً}، نارٍ حرارتها عالية.

من بعد محاسبتهم صاروا في جهنم يتعذبون في نارها.

(تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ{5})
{تُسْقَى} أصحاب تلك الوجوه إذا عطشت، {مِنْ عَيْنٍ}، من فتحة يخرج منها السائل، من نبع للسوائل، {آنِيَةٍ}، بلغت أقصى ارتفاع في درجة الحرارة.

نعرف من آيات أخرى أنهم يشربون من الحميم وهي السوائل التي تغلي، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 15 من سورة محمد، "... كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ"، وهنا تصف الآية الحميم ينبع من عين من نبعة آنية، وبلغت الدرجة القصوى من النضج ووصلت لأقصى حرارة مرتفعة، ويمكنك تشبيهها بفوهة بركان تخرج منه الحمم، أو فتحة مياه كبريتية...

سوف تسأل نفسك: كيف يشربون من الحمم؟ حتى لو عطشت هنا في الدنيا وكدت تموت وفقدت الأمل بإيجاد ما تشربه لن تقترب من مياه كبريتية تغلي لتشرب منها، ولكنك قد تجبر نفسك على شرب مياه المجاري النتنة الكريهة... أمّا في الآخرة فشعورهم بالعطش أشد بكثير من الشعور الذي يحصل معنا في الدنيا، ومن شدته سيجربون إسكاته بالشرب من الحميم.

(لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ{6})
{لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ}، لا يوجد شيء له طعم يضعونه في فمهم، {إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ}، إلا من شيء لا يحمل المواصفات المطلوبة ليكون طعاما فيكون وصفه ضريع، مما يجعلهم في حاجة أكثر إلى الطعام، لأنه الطعام الذي لا يشبعهم ولا يفيدهم بل يبقيهم على الشعور بحالة الجوع كما هو واضح من الآية التالية.

نعرف من آيات أخرى أن الطعام الوحيد في جهنم هو من شجرة اسمها الوصفي الزقوم، وهي فقط شكلها شجرة، ولكنها ليست من نوع الشجر النباتي الذي نراه على الأرض هنا، لأنها شجرة من حميم، ويأكل منها أهل النار زقما ويبلعون منها من دون مضغ لشدة نتانة الطعم وتشويكه وحرارته، وبسبب حماوة الشجرة الشديدة ينزل منها حميم وتكون السوائل غسلين من تلك الشجرة لأن الحمم تنزل كأنها انغسلت عن الشجرة.

تجد في الكتب تفسيرا لكلمة ضريع حيث يذكرون مصاديقَ لها، ويقولون عن النبات الذي لا يسمن منه الحيوان أنه ضريع وسموا بعض أنواع الأشواك النباتية... وعمموا تلك المواصفات كتفسير للآية لتكون الأشواك التي يأكل منها أهل النار، وهذا غير صحيح، إذ لا يوجد في النار نبات مثل نبات الأرض، ولا شجر مثل أشجار الأرض، بل يوجد فقط حمم ومشتقاتها، وهناك بعض المفسرين قالوا هذا أيضا، ومن عموم القرآن نفهم أن ما قاله بعض المفسرين عن الأشواك النباتية المرة كتعذيب لأهل النار، لأنه لو فعلا توافر في النار لكان فاكهة لهم وطعاما لذيذا بالمقارنة مع ما هو موجود فعلا هناك، ولمزيد من بعض التفاصيل راجع دراسة الآية 62 من سورة الصافات "أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ".

(لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ{7})
من المفروض أن يسبب تناول الطعام نشاطا وصحة وعافية، وأن يسبب الشعور بالشبع، أمّا طعام الضريع فهو:

{لَا يُسْمِنُ}، لا يسبب النمو للجسد بالصحة والعافية، وأيضا، {وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ}، حيث سيبقون في حالة الشعور بالجوع، في حالة الشعور بضرورة تناول الأكل لأن الشعور بالجوع لم يسكت.

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ{8})
انتقلت السورة إلى وصف حال المؤمنين في الجنة:

{وُجُوهٌ}، فهناك وجوه، {يَوْمَئِذٍ}، من بداية زمن الآخرة، في زمن القيام من الموت وما بعده، {نَاعِمَةٌ}، ملمسها أملس طري، لا تجاعيد فيها ولا قساوة، لا يوجد فيها تعابير ناتجة عن أي نوع من التعرض لظروف بيئية أو نفسية قاسية، وهي بعكس وجوه الكفار الخاشعة التي عليها علامات تعكس حالتهم النفسية والفكرية والبيئية المزرية.

(لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ{9})
{لِسَعْيِهَا}، للذي سعت إليه، للحركة التي قامت بها وهي تقصد شيئا ما، {رَاضِيَةٌ}، حيث تقبل ولا تعترض.

تفهم من عموم القرآن ومن بقية آيات السورة أن الآية هنا تشير للمؤمنين الذين سعوا في الدنيا للحصول على جنة الآخرة، وسَعْيُهُم، وعملهم المبني على الاعتقاد الصحيح كان بهدف الحصول على ثوابه تعالى بالجنة، وهم في الآخرة راضون بما حصلوا عليه من سعيهم، حيث إنهم من جهة سعيدون ومن جهة لا يعترضون ولا ينزعجون مما يجدونه كنتيجة لسعيهم.

نتذكر دائما أن كلمة رضا ومشتقاتها، معناها في كلام العرب وفي القرآن: وصف شعور كتعبير عن القبول وانتفاء الاعتراض بل بالعكس وهو الموافقة المتدرجة من السرور إلى الحب عن فعال أحد ما، والوصف يشمل شعورك "بالرضا" على العمل أو على صاحب العمل. وهي ليست وصفا لقبول شيء مكروه، لأن هذا وصفه الصبر، حيث في أدبياتنا نجد كلاما عن الصبر على المكروه، وأن الرضا بالمكروه أعلى من الصبر، وهذا معنى لم يستعمله القرآن في كلامه، ومخالف للمعنى اللغوي لكلمة رضا، ويحمل في طياته معاني أخرى مرفوضة إذا قارنتها مع مفاهيم القرآن، إذ سبحانه لا يخصص "من عنده" مكروها لمؤمن حتى يكون إيمانه عاليا بالرضا على المكروه، لأن أي مكروه غير محبوب يحصل مع المؤمن فهو بسبب ذنب ارتكبه المؤمن أو ذنب ارتكبه غيره، وليس منه تعالى أبدا بتاتا وهذا واضح من عموم كلام القرآن ومنه الآية 30 من سورة الشورى "وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ".

نعم لا مشكلة بالتهاون في معاني الكلمات في الأدبيات التي بيننا إلا إذا كانت تعبر عن شيء ديني منسوب له تعالى، لأن القرآن دقيق في تعابيره ولا يتهاون أو يتساهل أو يتراخى في معاني الكلمات التي يستعملها، وعندما نتهاون نحن ويصير للكلمات معانٍ نظنها من مفاهيم قرآنية، وعندما تترسخ هذه المعاني المتراخية في ذهننا، عندها سنقع في مشكلة تفسير كلام القرآن على أساس المعنى والمفهوم الذي أصلا تراخينا فيه.

لدينا كم هائل من الآيات التي تصف روعة الجنة وأن من يدخلها سيبقى مذهولا بروعة ما فيها أبدا، بلا ملل ولا أي رغبة في شيء آخر، إذ كل ما يرغب به يجده في الجنة، بل يجد فيها ما لا يخطر على باله... وكمثال جامع لذلك ما

ورد في الآية 108 من سورة الكهف "خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا" وهو راض بها، وراض عنه تعالى، وهذا هو معنى كلمة الرضا لغويا وهكذا استعملها القرآن، وهي لا تتحمل ولا تتوافق مع ما درج في أدبياتنا عن الرضا على شيء مكروه، والذي سيعني ضمنا احتمال حصول شيء مكروه في الجنة، ورغم ذلك سيرضى عنه المؤمن، لا، فانتبه دائما من ذلك.

(فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ{10})
في جنة، في مكان يوصف بروعة ما فيه من المناظر الطبيعية الخضراء الرائعة من حدائق أزهار وورود وأشجار وجلول وأنهار... ووسائل السعادة والترفيه... تلك الجنة، عالية، وتكملة الجملة تعرفها بالبداهة، فمواصفاتها عالية، لأن كل ما فيها رائع وأي شيء آخر فهو تحتها في المواصفات والروعة وهي العالية.

في مقابل جنات الدنيا، مواصفات جنة الآخرة أعلى، ولو كانت جنة الآخرة لوحدها فإن ما فيها يوصف بأنه من مواصفات عالية، وبدون مقارنتها مع أي جنة أخرى من الدنيا ستصفها بأنها عالية، وحتى لو لم تر أي جنة أخرى ورأيتها هي فقط، بسبب روعة ما فيها ستصفها بأنها عالية لأنها ليست من نوعية منخفضة.

تعابير القرآن مرة بالجنة ومرة بالجنات، لأنها مثل بلد فيه قصور وحدائق وقصور وحدائق غيرها... فالوصف لكل البلد جنة وفيها جنات، ومعلوم لك أن مساحة الجنة بعرض السماوات والأرض كما تقرأ في الآية 133 من سورة آل عمران "وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ"، وبالتقريب على معطياتنا الحالية نتصور أنها مجرات فيها كواكب بالتريليونات... وكلها روعة بالمواصفات.

(لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً{11})
{لَا تَسْمَعُ فِيهَا}، في تلك الجنة العالية لا يصل إلى سمعك، {لَاغِيَةً}، واللغو في استعمال القرآن والعرب قديما يناسبه بتعبيرنا الحالي: الكلام الفاضي، كلام بلا طعمة، كلام كيف ما كان، شربحة وحكي فاضي. ويتدرج من الأسوأ وهو الكذب وتكذيب الحق، مرورا بالتعليقات والانتقادات غير المحقة والمعيبة على الدين الإلهي أو على الناس، ومرورا بشهادة الزور والغناء بكلام معيب... وصولا إلى المبالغة بالكلام والمزاح الثقيل...

أهل الجنة يتمازحون ويتسلون ولكنهم لا يزعجون بعضهم البعض بكلام مزعج.

(فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ{12})
{فِيهَا}، في تلك الجنة يوجد، {عَيْنٌ}، فتحة تخرج منها السوائل، نبع سوائل، {جَارِيَةٌ}، تسيل منها السوائل وتمشي في جداول وأنهار. ونعرف من آيات أخرى أنه في الجنة أنهار من مشروبات من عدة أنواع، من ماء ولبن وخمر... كما ورد في الآية 15 من سورة محمد "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى..."، وفيها العديد من العيون والكلام عن عين منها كنموذج للعديد من العيون الأخرى.

ونلاحظ أن السورة لم تركز على التفاصيل، فاكتفت بالمقارنة بين الحالة المزرية بمكان وشراب وطعام ونفسية أهل النار، وبين روعة مكان ومشرب ومأكل ومسمع ونفسية المؤمنين في الجنة.

(فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ{13})
{فِيهَا}، في الجنة، {سُرُرٌ}، جمع كلمة سرير، وهو نوع من الأثاث المرتفع ولو قليلا عن الأرض بلوح أو قوائم وعليه فراش يَتَّسِعُ للاستلقاء عليه، سواء بقيت صاحيا أو نائما، لأن السرير ليس مخصصا فقط للنوم عليه بمعنى فقدان الوعي، بل لعموم الاستلقاء سواء نمت وفقدت وعيك أو استلقيت عليه أو جلست عليه.

الوصف لأثاث من نوع الرفاهية بسرر مرفوعة عن الأرض، عالية نسبيا بشكل الأسرة الدارجة للنوم في عصرنا بارتفاع النصف متر، وتذكر أن كلمة سرير لم تكن قديما مخصصة لمكان النوم، لأن الملوك والأمراء كان لديهم في غرفة الجلوس أسرة يستلقون عليها...

(وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ{14})
وفي تلك الجنة، {وَأَكْوَابٌ}، وهي أوانٍ للشرب ليس لها مسكة، وتشمل القوارير وغيرها من الأشكال، وتلك الأكواب {مَوْضُوعَةٌ}، ومثل الكثير من الآيات التي تختصر الجمل الواضحة، حيث إن الآية السابقة قالت: سرر مرفوعة. وتكملة الجملة معروفة: مرفوعة عن الأرض، وهنا تلك الأكواب موضوعة على الطاولات أو الصواني، فهي جاهزة ليشرب منها أهل الجنة في أي وقت.

ولا تزال الآيات تريدنا أن نقارن بين الحالة في جهنم والحالة في الجنة، فهناك الشرب كان من سوائل حارة لأقصى درجة، وهنا فإن الأكواب المملوءة بأطيب المشروبات موضوعة معبأة جاهزة للشرب دائما، وفي اللحظة التي يشتهي المؤمن فيها الشرب فالأكواب دائما حاضرة.

(وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ{15})
وفي تلك الجنة أماكن جلوس للمؤمنين، فيها:

{وَنَمَارِقُ}، شيء مفروش على الأرض، سجاد "أو بلاط"، وهي، {مَصْفُوفَةٌ}، مرتبة بشكل مناسب على أرضية المكان الذي فيه الأسرة.

تجد في بعض كتب التفاسير قولهم عن النمارق أنها الوسائد والمتكآت، ولكن من استعمال كلمة نمارق في أشعار العرب قبل الإسلام وفي كلام ورد في كتاب نهج البلاغة يبدو أنها الشيء المفروش على الأرض، ويمكن المشي عليه أو الاستلقاء عليه وهذا الوصف يناسب السجاد وما نسميه نحن الآن البلاط أيضا، وإذا انتبهت أن البيوت القديمة "في عهد نزول القرآن وفي منطقة نزوله" كانت أرضية غالبية البيوت من التراب، والقليل من البحص الناعم في بعضها، وبيوت نادرة أرضيتها من حجارة مصفوفة شبه مصقولة... والقصور وبيوت الأغنياء فقط أرضيتها بلاط وجهه أملس مصقول، وهذا وبحسب ما لدي من مصادر كان نادرا في منطقة نزول القرآن، وإذا انتبهنا لهذا ستنتبه من كلام بقية العرب أن كلمة نمارق أشاروا بها لعموم أي أرضية غير الترابية، من بلاط أو سجاد، والجيل الأول من المسلمين كانوا بغالبيتهم الساحقة لا يعرفون هذه التفاصيل الترفية للحياة المرفهة والأثاث الفاخر، لذا خمنوا من عندهم معانيَ للكلمات القرآنية التي استعملت كلمات ليست متداولة بينهم، لأن الفقراء لم يروا كأسا وربما لم يلمسوا حريرا ولا ديباجا... وربما لم يروا اللؤلؤ ولا المرجان... وحتى لو كانوا عربا وفصحاء وبلغاء، فهذا لا يعني أنهم يعرفون حتى معاني كلمات الأشياء التي لم يروها ولم يسمعوا بها في حياتهم، وهذا شيء لم ينتبه له المفسرون من الأجيال التالية للجيل الأول من المسلمين المفسرين للقرآن، والذين جهلوا معنى بعض كلمات القرآن لهذه الأسباب وغيرها، ومنها جهلهم الطبيعي بالكلمات الحرفية المستعملة في مهنة أو اختصاص ما، كالتسفير والدسر والرحيق...

(وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ{16})
وفي تلك المجالس:

{وَزَرَابِيُّ}، البسط، بساط، وهي قطعة سميكة أو رقيقة من القماش القطني أو الصوفي... توضع على الأرض، وهي {مَبْثُوثَةٌ}، منشورة، طبعا تعلم أنها منشورة في أماكن المشي.

لاحظ الآيات تخبرنا باختصار عن مكان في غاية الرفاهية والترف، وكما نحن في بيوتنا نضع البلاط على الأرضية وفوقها السجاد والبسط والموكيت والمدات... ففي بيوت في الجنة أثاث رفاهية...

إلى هنا انتهت مقدمة السورة التي نبهتنا لنوعين من النهاية في الآخرة، نهاية سيئة فوق التصور، ونهاية رائعة فوق التصور، وكلا النتيجتين سببهما كما نعرف: الإيمان بالله تعالى وطاعته، والكفر بالله تعالى ومعصيته. وننتقل الآن إلى فقرة تعرض علينا تأكيدا لحصول ما قالته السورة عما في الجنة والنار.

لكن قبل ذلك نلتفت لكلام بعض الكافرين بالقرآن الساخرين من عموم كلامه عن المتاع الذي في الجنة، فيقولون إن كلامه عن المياه الجارية والحدائق والفاكهة... مغرٍ لرجل فقير يعيش في الصحراء محروم من كل شيء، أما الآن فهذا ليس إغراء للكثير من الناس الذين يعيشون الرفاهية بشكل أفضل مما ذكره القرآن، ونماذج كلام القرآن عن فاكهة الجنة من تمر وعنب ورمان، اعتبروها فاكهة غير مغرية أمام المانغا والأناناس والموز و...

ونفس التعليقات عن السرر المرفوعة والشرب بالكؤوس والبيوت والسجاد ولبس الحرير... فيقولون إنها في عصرنا لم تعد مغرية، وبالتالي هم ليسوا مهتمين بالانتماء لهذا الدين لدخول هكذا جنة.

أولا هذا الدين دعوة للإيمان بالحق وعمل الصالحات، ودعوة للكفر بالباطل ولترك السوء، فإن لم يكن هذا مغريا لك، فانسَ إغراءك بالجنة إذ لا أحد يتغير عن السوء بسبب إغرائه بالجنة، إما أن يكون في الإنسان بذرة للخير فيؤمن ويعمل صالحا بسبب حبه للحق والصلاح، وإلا فكل أنواع الإغراءات بأي نوع من الجنة لن تغيره عن الباطل والسوء.

يا أيها المتعلق بالباطل والسوء الذي لم يعتبر كلام القرآن عن الجنة إغراء له، فوق أنك كاذب أنت تعلم أنه إغراء، لأن كل ما ذكره القرآن عن الجنة كان نماذج رائعة، إذ حرفت تركيز المسألة عن الحق والصلاح نحو السخرية من الجنة، متعاميا عن سوئك ومتستراً عليه.

ومن ناحية ثانية هل تكرمتم علينا بتصوير جنة أفضل مما صور القرآن؟! وماذا يكون فيها؟! والمستوى التافه الساخر من كل أنواع الملذات لتسفيهها بطريقة ساخرة، على من تضحكون به وأنتم تشتهون وتحلمون بكل تفصيل ذكره القرآن عن الآخرة، ولماذا تكذبون وتصورون أنفسكم كقديسين بالعفة عن الرغبة الجسدية بينما أنتم من عبادها في الدنيا لدرجة عماكم عن أي سوء في فعلها مهما كان نوعها؟ وأنتم عباد الخمر والمخدرات وتدعون العقلانية؟ وعباد المال حتى من الربا أو من القمار أو من الغش أو... أو من بيع الأسلحة لتتقاتل الناس...

يا أيها الساخر من متاع الجنة وكأن كل دينه تعالى مختصر بالدعوة إلى الجنة، وكأن دينه تعالى لا يهتم ولا يدعو للحق والصلاح، وكأن الدخول إلى الجنة سيحصل عبر تسجيل اسمك مع المؤمنين، وبدون أي متطلبات منك، وتفعل كل ما على خاطرك، ورغم ذلك معروض عليك دخول الجنة وأنت ترفضه لأنه لم يغرك! وأنت لم تتنازل حتى لتسجيل اسمك لأنها لم تغرك!

(أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ{17})
كيف لا يؤمنون بما قاله تعالى سابقاً عن الجنة والنار؟ {أَفَلَا يَنظُرُونَ}، ألا يوجّهون اهتمامهم العام، {إِلَى الْإِبِلِ}، إلى الجمل والناقة، {كَيْفَ خُلِقَتْ}؟ كيف تركبت وتألّفت؟ فالسؤال هنا ليس عمّن خلقها فمن البديهي أن خالقها إلهٌ، ولكن السؤال عن قدرات الإله الذي خلقها، فقدراته تنعكس على صفات ما يخلقه.

الجمل أو الناقة هما نموذج ومثال عن بقية الدواب الموجودة على الأرض، من بقر وغنم ونسور وذئاب... ومن أين وكيف صارت في هذه الحيوانات هذه الصفات؟ مَن خلق الإبل تتحمّل العطش ويمكنها الأكل من بين الشوك وطحن نوى البلح وتنتج اللبن وتزودنا باللحم وتحملنا وتنقل أغراضنا... فمن البديهي أن الذي خلقها يملك قدرات فائقة، وعندما يقول لنا بأنه سيعيد إحياءنا من جديد، وأن قسماً منّا سيتعذّب بشكل فظيع وقسم سيتنعّم بشكل رائع، فمن البديهي أنه تعالى قادر وبكل سهولة على فعل ذلك، ومن النظر إلى ما فعله تعالى حولنا تعلم أنه قادر على فعل ما يقوله عن تعاسة ونعيم في الآخرة.

فكّر فيها مثلما نحن نتعامل مع بعضنا لتأكيد صحّة كلامنا، فنجّار الخشب "الموبيليا" الذي لا تعرفه ولم تر ما صنعه من قبل، سيريك طقم غرفة استقبال صنعه سابقاً كنموذج عن قدراته الصناعية، ويقول لك: انظر إلى هذا الأثاث الذي صنعته فهو يؤكّد لك أني ماهر... ومعلّم البناء سيريك بيتا بناه لترى مهارته في البناء... وهنا الآيات تلفت انتباهنا إلى

بعض ما خلقه تعالى هنا في الدنيا كنماذج تدل على قدراته الفائقة سبحانه وتعالى، وبالتالي فبكل سهولة ترى أنه تعالى سيفعل ما يقول عنه في الآخرة من جنّة أو نار.

(وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ{18})
{وَ}، أفلا ينظرون، {إِلَى السَّمَاءِ} التي فوقنا، بزرقتها نهارا، وبنجومها ليلا، {كَيْفَ رُفِعَتْ}، فكيف ارتفعت وصارت فوقنا؟ أيضا السؤال ليس عمّن رفعها فمن البديهي أنه إله فائق القدرات، ولكن لفت الانتباه إلى ارتفاعها فوقنا الذي يدل على صفات فائقة لمن رفعها، وبالتالي فعندما يتحدّث الذي رفعها عمّا سيفعله في الآخرة فبكل سهولة نرى صحّة كلامه سبحانه وتعالى.

ننتبه، فما نراه من حولنا لم يكن موجودا، وصار موجودا، وفكّر فيها لو أنت قمت بتصميم وصنع كائنات وبيئة تعيش فيها الكائنات، فستنعكس قدراتك وصفاتك على ما تفعله، وكلما كانت قدراتك أعلى كثرت التفاصيل فيما تفعله وكان متقنا أكثر فأكثر، وهكذا تفهم الفقرة هنا التي تشير فيما تشير إلى السماء بالنجوم التي تملؤها في فراغ هائل الضخامة.

لا تنسَ دائما أن أي إنسان عادي ينظر إلى السماء سيرى ضخامتها وعظمة بنائها، فلست بحاجة لدراسة علم الفلك لتنتبه إلى عظمة خالق السماء وصفاته الفائقة، طبعاً بزيادة معلوماتك عن تفاصيل السماء بمجراتها التريليونية وكل واحدة منها بنجومها التريليونية، فستزيد رؤيتك لعظيم قدرات رافعها.

ما فتحت عينيك عليه ووجدته حولك وتحتك وفوقك، فهذا لا يعني أنه عادي، فهذا لم يكن، وخلقه الله تعالى، فضع في بالك دائماً لو أنك أنت ومن دون أي نماذج تستوحي منها، ومن دون وجود أي شيء، ومطلوب منك تصميم بيئة وكائنات، فسترى مدى صعوبة ذلك عليك... وهكذا ستفهم أن رفع السماء ليس أمراً عادياً لا في فكرته ولا في تصميمه ولا في تنفيذه... فأصل تصميم الكون ليكون فيه سماء هو الفكرة التي يجب أن تلتفت إليها، وهذا ما تشير له الآية هنا، ولضعفنا الشديد فكرياً يستحيل علينا تصوّر كون لا فضاء فيه ليكون كسماء لمن تحته، بينما هذا تصميم إلهي من خيارات عديدة أمامه تعالى لتصميم بيئة للمخلوقات...

الذي رفع السماء عندما يقول بأنه سيخلق ناراً شديدة وجنةً رائعة، فمن المفروض بكل سهولة إيمانك بما يقوله.

(وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ{19})
{وَ}، أفلا ينظرون، {إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ}؟ فهي كتلة من الصخر والتراب منتصبة واقفة عمودياً، فكيف صارت هكذا؟ فليس السؤال عمّن نصبها فهذا واضح أن إلهاً فعله، ولكن السؤال عن انتصاب كيان ضخم بالنسبة لنا، فكما ترى الأهرامات وناطحات السحاب التي لا يتجاوز طولها بضعة مئات من الأمتار، وترى من خلالها قدرات الهندسة والعمارة للفريق الذي بناها، وكذلك تسألك الآية عن انتصاب الجبال التي يتجاوز بعضها بضعة آلاف الأمتار ارتفاعاً، وتمتد لسلاسل، فهي تدل على الصفات الفائقة لمن جعلها تنتصب هكذا، وكيفية انتصابها عبر ضغط طبقات الأرض من الانزياح أو بطريقة أخرى، فهذا لا يهمّ، فأشار القرآن لتشكّل ما في الدنيا على ست مراحل أساسية تتضمّن مراحل فرعية... ومنها ضغط طبقات الأرض للسطح حتى تبرز الجبال كما نعرف حالياً من علوم الجيولوجيا، وهذه العملية تدل على عظمة صفات خالقها الذي يقول بأنه سيخلق جنّة ونار في الآخرة.

الإيمان الديني البسيط الساذج

هناك إيمان "ديني علمي" مبني على أسس غير سليمة، تجد في كلام المؤمنين الأقدمين إيمانهم بالخالق "الإله" في الأمور التي لا يفهمون كيفية حصولها، فكانوا يجهلون أسباب نزول الماء فينسبونه إليه تعالى، ويجهلون نوع الجنين في بطن أمّه "ذكراً أم أنثى" فيقولون إن تحديد جنسه بيد الله تعالى، ويجهلون أسباب الأمراض والشفاء منها... فينسبون المرض والشفاء له تعالى... وعندما تقدّمت العلوم، قام المؤمنون به تعالى بدفعه سبحانه إلى ما بعد ما كانوا يجهلونه، فبدل قولهم السابق عن إنزاله تعالى للماء "هكذا بأمر منه وبدون أسباب طبيعية"، وتحديده تعالى نوع الجنين وشفائه للمرضى... فصاروا يقولون إنه تعالى خلق الغيوم التي ينزل منها المطر، وخلق الكروموسومات التي تحدد جنس

الجنين... وهكذا ترى نفس الكلام ينتشر دائماً بين المؤمنين، فيدفعون به تعالى إلى منطقة جهلهم، وتراهم يقولون هذا في كتبهم ومحاضراتهم وكلامهم عن الإعجاز العلمي للقرآن والدليل عليه تعالى...

هذا ليس إيماناً سليماً، فسبحانه وتعالى عرض علينا في قرآنه أنه فاعل لكل شيء، من أبسط الأفعال إلى أعقدها، وتفهم هذه الزاوية من كلامه تعالى بشكل سهل إذا تصوّرت نفسك أنت تصمّم من الصفر حوض مياه، وصممت الأسماك التي فيه، وصمّمتها تجوع وتنمو وتتكاثر... وتموت وتمرض...

الآن نسأل: من الذي خلقها... ومن الذي جعلها تجوع ومن جعلها تموت...؟

الآن، فكّر في رشّك للطعام على تلك الأسماك من فتحة الحوض، فهكذا يفكّر بعض الناس أنهم لن يؤمنوا به تعالى حتى يحصل شيء مثل هذا، فيريدون رؤية عمل قام به تعالى مباشرة ومن دون مقدمات، فلتنزل علينا مائدة من السماء كلما جعنا لنؤمن بالإله... وهذه هي نفس العقلية الساذجة التي بنى عليها غالبية المنتمين لدينه تعالى إيمانهم ناسبين له تعالى أفعالاً لا أسباب ولا آليات لحصولها، ففجأة ومن الفراغ تصير مائدة الطعام أمامنا وعندها نؤمن به تعالى.

الدارج في أدبيات عموم المتدينين أنه تعالى يقول للشيء: {كُن فَيَكُونُ}. على معنى أنه تعالى يأمر، وبشكل سحري وفجأة يصير الشيء حاصلاً، ولهذه المسألة كتبت بحثاً خاصاً بعنوان "كن فيكون"، وما يهمنا هنا من ذلك البحث أنه لا قدرة لنا على فهم كيفية فعله تعالى للأمور لأنه عمل من مستوىً إلهي، فلا قدرة لنا على استيعاب كيفية حصول أوامره تعالى بخلق الأشياء، وعلى كل حال فهل هذا العمل بدون أسباب ولا آليات يشير إلى قدرات عالية للخالق؟ فهل بكلمة منه سبحانه وبعدها فجأة صارت السماوات، وبعدها وبكلمة منه تعالى صار الإنسان فوراً، وبهذا الشكل يكون الإله فائق القدرات وإلهاً حقيقياً؟ لا، فلو كان تصميمك ممتازاً وقدراتك في الخلق عالية، لجعلت البيئة التي فيها الأسماك ستنتج طعاماً لأسماكك، مثلما هي الحال في البحار التي فيها أبواغ تنتج من أبسط تمثيل ضوئي مع بكتيريا... تتغذّى عليها الأسماك... وتنمو فيها الطحالب والأعشاب البحرية...

الآن "ستفهم أنت" أن الأسماك يجب أن تفهم أنك أنت خلقت لها الطعام الذي نتج في بيئتها، وبالتالي فأنت أطعمتها، مثلما نقل لنا القرآن من كلام النبي إبراهيم(ع) في الآية 79 من سورة الشعراء {وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ}. وهذا هو الإيمان السليم بدلاً من كفر الأسماك بك وإنكارهم لإطعامك لهم لأنهم لم يروا الطعام ينبثق أمامهم من الفراغ أو لم يَرَوْكَ تَرُشُّهُ أنت عليهم.

هكذا يخبرنا سبحانه في قرآنه أنه الفاعل لكلّ شيء، فهو تعالى صمّمنا "التعبير القرآني: {سَوَّانَا}، {قَدَّرَ}، {صَوَّرَنَا}" وخلقنا وخلق بيئتنا، فما نعلم سببه فالله تعالى صمّمه، وما لا نعلم سببه فهو لا يختلف عمّا نعلم سبب حصوله، فالله تعالى خلقه أيضاً.

هذا هو الإيمان الذي ينبّهنا له القرآن حين يقول بأنه تعالى يطعمنا ويسقينا ويشفينا ويميتنا ويخرج النبات وينصب الجبال... وكمثال عن ذلك تراه صريحاً في الآية 64 من سورة الواقعة {أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}، فهو سبحانه صمّمك وصمّم البيئة التي سينتج عنها زرع من أفعالك، وبهذا فهو تعالى الفاعل الأساسي مثلما أنت الرازق للأسماك التي صمّمتها وصمّمت بيئة ينتج عنها طعام لأسماكك، وتحيا الأسماك لأنك أنت صمّمتها تتكاثر، وتموت لأنك أنت صممتها تموت...

باختصار عليك التمييز بين كلامه تعالى وبين كلام المنتمين لدينه تعالى، فبعضهم فسّروا كلامه تعالى بسذاجة وطفولية، فبينما سبحانه يخبرنا عن مراحل لخلق ما في الدنيا {فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} "في ست مراحل زمنية"، ويخبرنا عن مراحل لخروج النبات ونشأة الحياة على الأرض، فهم ألغوا كل هذا لجهلهم بآليات حدوثه، فلم يروا معنى كلامه تعالى عن مراحل أنه كلام يشير لآليات مترابطة مشت عليها المراحل، بل فهموه بسذاجة أنه كلام عن أفعال فورية ناتجة عن أوامره تعالى وبلا أسباب.

هكذا، فالفرضيات والنظريات التي نقترحها لنشأة كوننا ولتكوّن الأرض ونشأة الحياة عليها... وانتصاب الجبال... فبغض النظر عن صحّة تلك النظريات، أو حاجتها لتعديلات وتطوير... فهي محاولة منّا لمعرفة آلية فعله تعالى للأشياء بما نقدر على فهمه، ومحاولة معرفة آلية نشأة النبات ونشأة الحياة الحيوانية... ومعرفة سبب نزول الماء وآلية نشأة

الجبال وآلية تشكّل الأرض... فهذا البحث عن الأسباب والآليات ليس إلغاءً له تعالى على أساس أن الأمور تحصل لوحدها، بل بالعكس، فهو محاولة تَعَرُّفٍ على الآلية التي خلق بها تعالى كوننا.

نعم، حين يقول العلمانيون إنهم أثبتوا خطأ الفكر الديني المؤمن بإله، فهم أحياناً محقّون بإثباتهم خطأ كلام المنتمين لدينه تعالى، ولكنهم لم يثبتوا خطأ كلامه تعالى "القرآني"، فبعض المتدينين فسّروا كلامه تعالى بسذاجة وطفولية، وكلامهم انتشر على أساس أنه كلامه تعالى، وحتى في عصرنا الذي ندّعي أنه عصر الانفتاح الفكري المتقدّم على ما سبق من تاريخ البشرية، وحتى مع ادّعائنا بأننا كمسلمين منفتحون على العلوم بل وندّعي أننا من رواد العلوم... فحتى مع هذه الأجواء، يبقى التحجّر صلباً بتقديس ما قاله المتدينون قديماً، فمرفوض قبول نظريات علمية يرونها معارضة لدينه تعالى بينما هي معارضة لما قالوه هم، ومعارضة لما فسّروا به هم كلامه تعالى، فكلامه تعالى فتح أفق البحث والتفكير، وأعطانا لمحات وإشارات وكلاماً عن مراحل خلق الأشياء والظواهر... لنستفيد منها كمحفزات...

الكلام يجر الكلام، فسبحانه ذكر لنا في قرآنه محفّزات تستفزّنا، فالنبي عيسى(ع) بإذنه تعالى شفى بعض الأمراض المستعصية، وهذا شيء صار بمتناول يدنا ويتطوّر بتطوّر الطب... والنبي عيسى(ع) أحيا الموتى، فكم سيكون رائعاً لو تمكّنا من فعل ذلك ونحن لسنا بعيدين عنه، حالياً صرنا نغيّر أعضاء الجسم وربما سنتمكّن من تغيير الدماغ، أو سحب المعلومات من الدماغ وزرعها في دماغ آخر...

ومن الرائع لو تمكّنا من اكتشاف آلية مشابهة لما فعله الذي نقل عرشاً من سبأ إلى أرض كنعان برمشة عين كما تقرأ في الآية 40 من سورة النمل {قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ}...

الأروع منه النفوذ في أقطار السماوات لنصل إلى ما بعد كوننا كما تقرأ في الآية 33 و 35 من سورة الرحمن {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}... {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ}، وهذا بعض من كلامه تعالى، وهو أروع مما نتخيّل...

هذا هو دينه تعالى المحفّز لنا للتفكّر والاستكشاف... وكما ترى فهناك تفاصيل كثيرة عن طرق معرفته تعالى وعن الإيمان بالكلام القرآني الذي يذكر أموراً غير عادية، وستجد في عناوين هذه الدراسة القرآنية أبحاثاً قرآنية مخصصة لذلك.

(وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ{20})
أفلا ينظرون، إلى الأرض التي نعيش عليها، نمشي عليها... كيف سُطِحَتْ؟ كيف صار لها سطحٌ؟ ألا يدلّ سطحها الذي نعيش عليه على قدرات فائقة لمن جعله هكذا؟

يمكنك الرجوع إلى الآيات السابقة لتعيد نفس الكلام الذي قلناه عن صفات الذي خلق، وكيف تنعكس صفاته وقدراته على ما يفعله، وستنتبه أن الآية هنا "وما قبلها" تشير لمن قال بأنه سيخلق ناراً وجنّةً، وأن الالتفات لقدراته وصفاته عبر النظر إلى تسطّح الأرض من المفروض أن يجعلك تؤمن بقدراته على فعل ما يقول إنه سيفعله في الآخرة.

تذكّر دائماً أنّ القرآن لا يعرض نظريات علمية لا يعلمها الإنسان العادي في حياته اليومية، بل يلفت انتباهنا لما حولنا من ظواهر، فلا هذه الآية ولا غيرها تتحدث عن نظريات علمية، فمن استخدم هذه الآية ليبين أن القرآن أخطأ بوصفه للأرض بأنها مسطحة وليست كروية، فهو المخطئ، لأن كل إشارات القرآن هي للإنسان العادي، ولأشياء نراها ونتعامل معها، فالواقف على سطح الأرض، يرى الجمل وبقية الدواب، ويرى السماء، والجبال، والسهول. ولا تتحدث الآيات مع شخص في مركبة فضائية ليرى الأرض كروية!

كل من استخرج من القرآن نظريات علمية فهو يرتكب خطأً كبيراً، حتى لو كانت تفسيراته تتوافق مع علومنا العصرية، وحتى لو كانت تتطابق مع الاكتشافات العلمية، لأن القرآن فقط وفقط يلفت انتباهنا للأشياء التي حولنا ونتعامل معها بحواسنا العادية، بأعيننا وآذاننا ولمسنا... وهي كثيرة جداً، وأكثر من كافية للتأكيد على وجود إله واحد عظيم القدرة.

الإنسان العادي يتعامل في حياته العادية مع سطح الأرض، لا مع كرويتها ككوكب، إذ إنّ الأرض التي يمشي عليها ويزرع عليها وينام عليها... هي سطح، والآية تشير لهذا السطح، ولا تتحدّث عن كروية كوكب الأرض ولا عن كونها مربّعة أو مستطيلة، لأن هذا الكلام يكون مع من ينظر إليها من الفضاء الخارجي البعيد، بينما الآيات تتحدّث مع الواقف عليها ويرى سطحها.

آخر الكلام مع المعلّقين على آيتنا هذه بأنها تقول إنّ الأرض مسطحة، حيث إنهم في كلامهم العادي يستعملون تعبير سطح الأرض، والآية تلفت انتباهنا للذي سطح هذا السطح، وفي كلامهم العادي يقولون إنّ ارمسترونغ وألدرين مشيا على سطح القمر. مع أننا من هنا نراه كروياً! وهكذا تفهم آيتنا هذه التي تشير للسطح للبقعة التي تتعامل معها من الأرض، إذ إنّ كلام الآية هنا لا يشير للكوكب من النظر إليه من الفضاء، بل من تعامل الواقف عليه.

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ {21})
{فَذَكِّرْ} ، يا أيها الرسول(ع) قل هذا الكلام للناس للفت انتباههم لما حولهم ليستحضروه في فكرهم وسلوكهم ليؤمنوا بصفاته الفائقة تعالى وبأنه قادر على خلق الجنّة والنار، {إِنَّمَا} ، حصرا وفقط، {أَنتَ مُذَكِّرٌ} ، فقد أمرناك فقط بتذكير الناس، بجعل الناس يتذكرون فيستحضرون في عقولهم وضمائرهم وعملهم أن ربا عظيما سيحاسبهم في الآخرة.

(لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ {22})
{لَّسْتَ} ، أيها الرسول(ع)، {عَلَيْهِم} ، على الناس، {بِمُصَيْطِرٍ} ، بمسيطر، بمتسلط، لأن وظيفتك كرسول تنحصر في تبليغ رسالة ربك سبحانه، فحتى لو كانت رسالتك صحيحة ومقنعة فهي لا تعطيك سيطرة لجعل الناس يؤمنون كلّهم فهذا لن يحصل.

نلاحظ الآيات تختصر جُمَلاً واضحة، {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ} لمن تذكّر، لمن يريد أن يؤمن، أمّا من لم يرد أن يؤمن فلست عليهم بمسيطر لتجعلهم يؤمنون بالقوة.

نبهت العديد من الآيات النبي محمد(ع) إلى أن وظيفته كرسول لا تعني تحمّله مسؤولية إيمان أو كفر الناس، فلن يطالبه أو يحاسبه تعالى إن لم يؤمنوا، لأنه ليس مثل مدير شركة ومسؤول عن العمّال والإنتاج، وليس مثل مسؤول حزبي مطلوب منه جلب المزيد من المحازبين والحفاظ على انتمائهم للحزب... بل يحاسبه تعالى فقط إن لم يبلّغ الكلام الإلهي بالتمام والأمانة، {إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ} للناس، فقط، ولا تملك القدرة على إجبارهم على الإيمان {لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ} ، ولا مطلوب منك جعلهم مؤمنين بالقوّة.

لاحظ اعتمادنا حالياً كتابة كلمة "مسيطر" بالسين، وقد وردت مرسومة من الأجيال الأولى من المسلمين بالصاد، وهذه الحالة تشبه مسألة تلفظنا بكلمة: استطرد. التي تتداخل فيها مخارج الحروف، فإن تخلّصت من لفظ التاء طاءً لم تستطع التخلّص من لفظ الدال ظاءً، وهناك العديد من الكلمات غيرها، ككلمة "اصطدام" التي نلفظها "اسطضام"... وغالبيتنا نلفظ كلمة "مسيطر" بالصاد إن لم نبذل جهداً خفيفاً للفظها بالسين. وهكذا تفهم أن الجيل الأول من المسلمين، وهم عرب، وفي كلامهم العادي تتداخل مخارج الحروف، لذا استنسبوا هنا رسم الكلمة بأقرب طريقة للفظهم لها بغض النظر عن أصلها الصرفي.

(إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ {23})
{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ} لمن أراد أن يتذكّر:

{إِلَّا مَن تَوَلَّى} ، فقط من أعرض عن الذكر فترك تذكيرك له، {وَكَفَرَ} بالذكر فأنكر صحته ولم يؤمن به، ليس من مهمتك كرسول أكثر من تذكيره، وإذا لم يهتم فاتركه، فلا مشكلة، وإليك ما سيحصل به:

(فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ {24})

سوف يعذب الله تعالى من تولّى وكفر: {الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ}، عذاباً بالقياس الى بقية انواع العذاب فهو أكبر، العذاب الذي لا يمكن تحمّله ولا الاعتياد عليه، فجهنّم لها سبعة أبواب، والعذاب في أقل درجة فيها عياره ثقيل، فكلها عذابها كبير، والذي كفر سيكون في أقسى عذاب يمكن التعرض له.

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ{25})
{إِلَيْنَا} إليه تعالى، {إِيَابَهُمْ}، رجوعهم من بعد ذهابهم إلى الموت، فليكفروا وليتولّوا عن الذكر الذي ارسله تعالى لهم فهم في الدنيا في حالة ذهاب، وفي الآخرة سيكون الإياب فسيرجعون لملاقاة الذي خلقهم.

(ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ{26})
{ثُمَّ} من بعد إيابهم إليه سبحانه، {إِنَّ عَلَيْنَا}، عليه سبحانه، {حِسَابَهُمْ}، فيحاسبهم سبحانه على ما فعلوه، يعطي المقدار والقيمة لما فعلوه، وقد مرّ في بداية السورة ما سيحصل عليه الكفّار من عذاب شديد.

آخر آيتين هما خلاصة السورة، بعد مقدمتين، الأولى وصفت حساب الكفار والمتقين، والمقدمة الثانية لفتت انتباهنا لما حولنا من الأشياء التي تدل على الإله العظيم الذي بكل سهولة يمكنه إنشاء الجنّة والنار، وصلنا إلى الخاتمة هنا كإعلان لكل الناس حتى ينتبهوا من الرجوع والمحاسبة على يدي ربهم سبحانه.

سورة الفجر (89) ص 593
موضوعها: تنبيه المؤمنين لمعيار الكرامة الإلهية للناس، إذ ليست بكثرة ما نملكه في الدنيا، بدليل ما ملكه فرعون وثمود وعاد ورغم ذلك إنهم لم يكونوا مكرمين عنده تعالى حيث أصابتهم المهانة بعذاب هنا في الدنيا قبل الآخرة لأنهم كفروا بالحقّ الواضح وفعلوا السوء وهو عملياً نفسه أنهم لم يلتزموا بالمعايير الإلهية التي تجعل لهم قيمة عنده تعالى.

بعبارة أبسط: من حصل على المال في الدنيا لا يعني أنه تعالى أكرمه وراضٍ عنه، ومن كان فقيراً فهذا لا يعني أنه تعالى أهانه وغير راض عنه، كلا بل الإيمان بالحق والعمل الصالح هو معيار الكرامة والقيمة العالية عنده تعالى.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(وَالْفَجْرِ{1})
{وَالْفَجْرِ}، تأكيدٌ ببداية الخروج القوي لضوء الشمس على جهة أفق شروق الشمس قبل أن يصير قرص الشمس ظاهراً، وهي نفس فترة صلاة الصبح، بضمّ آيتنا هنا مع ما سيرد في الفقرة التالية من السورة، مع الآية 60 من سورة الشعراء {فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ}، سترى أنها إشارة لوقت العذاب الذي نزل على فرعون وجيشه حين لحقوا ببني إسرائيل ليقتلوهم...

سترى من بقية السورة أن الفقرة الأولى فيها توكيدات بذكر فترات زمنية، وتشير السورة في الفقرة الثانية إلى ما حصل في تلك الفترات من عذاب دنيوي لأقوام حصلوا على النعمة الإلهية لكنهم لم يلتزموا بأوامره تعالى.

ضع في بالك دائماً أن التوكيد أنواع عديدة، ويشمل القسم واليمين والحلف والعهد... ولا يعني دائماً أن من يتكلّم يريدك أن تصدّقه على أساس أنه يمكن أن يكذب، لا، فالإله سبحانه يقسم ويؤكّد ليلفت انتباهنا إلى تأكيده على كلامه تعالى وأنه لن يغيّر "قراره"، ولن يستطيع أحد ما مَنْعَهُ تعالى من فعل ما يريد... يقسم ويؤكّد لنا تعالى لينبهنا إلى صحّة ما يقوله عبر لفت انتباهنا لشيء يؤكّد ما يقوله، فهنا التوكيد بالفجر والليالي العشر... والانتقال لثلاثة أقوام من الأغنياء نزل عليهم العذاب الدنيوي فهو للفت انتباهنا لما حصل في الماضي لننتبه لصحّة كلامه تعالى عن الكرامة لمن أطاعه تعالى، وأن الكرامة ليست لمن ملك المال والسلطة.

(وَلَيَالٍ عَشْرٍ{2})
يؤكّد سبحانه بليال، بفترات مظلمة من اليوم عددها عشر. هي ليال تم القضاء فيها على بعض الأقوام الكافرة هنا في الدنيا، وفي الفقرة التالية من السورة ستقرأ عن الهلاك لثلاثِ أمم، عند الفجر لفرعون وجيشه، وسبع ليال لعاد كما ورد

في الآية 7 من سورة الحاقة {سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}، ووعد إلهي بنزول العذاب على ثمود بعد ثلاثة أيام كما ورد في الآية 65 من سورة هود {فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ}.

(وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ{3})
تأكيدٌ بـ {الشَّفْعِ}: حاليا نقول "المزدوج"، مثل الأعداد: 2، 4، 6، وهكذا... {الْوَتْرِ}: المفرد، مثل الأعداد 1، 3، 5... يعني بدل تعداد الأيام بالأعداد تعبّر الآية عن تعدادها بمفرد مزدوج مفرد مزدوج... واحد اثنان، ثلاثة أربعة...

حتى نفهم معنى الكلام نتصور جباراً قادراً قاهراً، وهو ربنا سبحانه، يتكلم عن أقوام عاندوه وكفروا به فقضى عليهم بكل سهولة، فالفجر كان وقت هلاك فرعون وجيشه، والليالي العشر هي فترات من الأيام التي مرّت للقضاء على عاد وثمود، {وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ} هي الأيام المفردة والمزدوجة التي وقع فيها العذاب على تلك الأمم، فلا يهمّ اليوم ولا التوقيت بالنسبة له تعالى، حيث نقوم بالاستعدادات لتجهيز ما يلزم لنفعل ما نريد في الوقت المناسب، أمّا هو تعالى فأول يوم في الشهر أو ثاني يوم أو الثالث... لا يهمّه تعالى، حينما يستحق قومٌ ما العذاب فسينزل العذاب، في يوم واحد والثاني والثالث... مفرد مزدوج مفرد مزدوج...

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ{4})
يؤكّد سبحانه بـ {اللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}، إذا ذهبت ومضت فترة العتمة من اليوم. الكلام عن الليل الذي انتهى فيه نزول العذاب على تلك الأقوام، وجاء نهار جديد ليسوا أحياء فيه.

(هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ{5})
{هَلْ فِي ذَلِكَ}، هل فيما سبق من توكيدات بالفترات الزمنية المرتبطة بأحداث إهلاك في الدنيا لأقوام كافرة، هل فيه {قَسَمٌ}، توكيد، {لِّذِي حِجْرٍ}؟ لمن منسوب له ما يحجره، لمن منسوب له ما يمنعه؟ تُفهم من بقية السورة أنها تشير لمن سمع بما حصل، وهو ذو حجر، فله عقل يحجره يمنعه عن الكفر وفعل السيئات حتى لا يصيبه ما أصابهم؟ بعباراتنا الدارجة: هل الكلام السابق رادع لمن يفكّر؟ لينتبه للعقاب الإلهي لمن كفر ولا يفعل مثلهم؟ ويفهم أن الكرامة عنده تعالى لمن أطاعه وليست لمن يملك المال والسلطة.

كما ترى، بداية السورة استفزاز مقصود بإبهام الكلام عبر التوكيد بأمور ليس واضحاً بسهولة ما المقصود منها، من عموم سور القرآن التي كلها يرتبط كلام كل سورة منها ببعضه، واضحٌ أن المقدمة هنا مرتبطة بالنماذج الثلاثة التي ستبدأ السورة بذكرها من الآية التالية وما بعدها، والمفسرون خمّنوا لبداية السورة معانيَ كثيرة، وبعضهم انتبه لضرورة ارتباطها بالكلام التالي عن عاد وثمود وفرعون ففسّر الكلام بقريب مما قلناه...

الآية هنا لها عمق تجده في عموم كلام القرآن، حين يصلك كلام من الإله عزّ وجلّ، وفيه تهديد، فمن المفروض أن تهتم به وتدرسه حتى لا يصيبك تهديد من الإله سبحانه، لنبالغ ونتصور حالة حياة البشرية وقد فُقد منها أي أثر لشيء يقولون إنه نزل من الإله سبحانه، بينما كنت تنقّب في الآثار وجدت وثيقة تقول بأنها رسالة من الإله سبحانه الذي خلقك وخلق كل شيء، فهل ستهتم بدراستها لفك رموزها؟ إذا كان فيها تهديد بالعقاب الخالد لمن فعل السوء، فهل سيتحرك فيك شيء لتترك ذلك السوء؟ لنقل إنك وجدت هذه السورة، وليس واضحاً فيها ما تقصده بالتوكيد، فعن أي ليال عشر تتحدّث؟ لكنّ التهديد بالعقاب فيها واضح لأقوام ثلاثة طغوا، فهل ستبحث عن تاريخ تلك الأقوام لترى ماذا حدث معهم؟

كما ترى، السؤال المطروح: مع من تتحدّث سورتنا هذه؟ مع الذي لديه مخزون تاريخي ديني، أو مع الذي لا يعرف عن الدين الإلهي أي شيء؟ اقرأ السورة من كلتا النظرتين سترى أن كليهما لديهما شيء مشترك سيفهمانه من السورة، وهو أن معيار كرامة الإنسان عند الإله سبحانه أن يكون فاعلاً للصالحات، الكلام عن الأقوام الثلاثة الذين عاقبهم تعالى في الدنيا، فهو كلام استفزازي للذي ليس لديه مخزون تاريخي ديني حتى يندفع ليبحث عن تاريخهم، توكيدات مقدمة السورة استفزازية له وللمنتمي لدينه تعالى.

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ{6})

من هنا تبدأ السورة بفقرة الحديث عن ثلاثةِ أقوام من الكفار بينهم شيء مشترك، وهو الأبنية الضخمة، التي بنوها بسبب قدرتهم المالية والعسكرية الهائلة، بدأت السورة بقوم عاد. يسألنا سبحانه:

{أَلَمْ تَرَ}، أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت، {كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ}؟ فالتفت إلى ما فعله المسؤول عنك من مستوى إلهي مع أناس من القبيلة التي اسمها: عاد. من القرآن تعلم أنهم أصابتهم ريح قوية جداً "حارة أو باردة" لمدة ثمانية أيام مرّ فيها سبع ليال فماتوا كلّهم... راجع الآية 7 وما قبلها من سورة الحاقة {سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}.

عادٌ اسم لقبيلة قديمة جداً، تعود لعدّة آلاف من السنين السابقة، كانت منتشرة في شبه الجزيرة العربية، أرسل سبحانه نبياً اسمه هود(ع) إلى مدينة إرم كما يبدو من الآية التالية، التي كان يسكنها أناس من قبيلة عاد، لكنهم لم يؤمنوا بالله الواحد ولم يتبعوا التعاليم التي بلّغهم إياها النبي هود(ع)، فعلوا السوء فدمّرها سبحانه.

تلاحظ أن السورة لم تركّز على عقيدة عاد، ركّزت على حالتهم الاقتصادية لتريك أنها ليست دليلاً على رضا الإله سبحانه عنهم، فهم كانوا طغاة، الطغاة يعذّبهم سبحانه...

ما تجده من كلام في الكتب حول ضخامة أجساد قوم عاد، حتى قالوا إنّ طولهم تجاوز الأربعين متراً! فهي أقوال خرافات ممن قالها ووهنت قواه العقلية أو ممن نقلها عن غيره ولم يفكّر في صحّتها أو ممن يحبّ التحدّث بالأمور الغريبة حتى لو كانت نقلاً عن تخريف... أو من كذّاب يريد التحدّث بأمور غريبة ليلفت انتباه الناس إليه وإلى غزارة علمه ومعرفته بأمور غريبة يجهلها الآخرون... أو من كذّاب يريد تشويه هذا الدين الإلهي...

على أي حال، عموم الناس قديماً في منطقتنا كان لديهم قناعة بوجود أناس ضخام الجثّة أكثر بكثير مما هو معقول، تجد في التوراة والتلمود والتراث الديني للمسيحيين، والتراث الصيني والهندي... تجد كلاماً مشابهاً عن عمالقة من البشر يفوق طولهم الخمسين متراً... هي خرافات أكدّت بعضها عند من يراها تأتي من مصادر مختلفة ليس بينها تواصل، فيقول باستحالة تواطئهم على الكذب! كأنها صحيحة بسبب انتشارها بين الناس! ما يقولونه عن قبور طويلة لبعض الأشخاص، كقبر النبي شيث(ع) الموجود في لبنان، أخبركم بأن المقبرة كان فيها العديد من شواهد القبور المتناثرة، عندما قرر أحد ما من العثمانيين أو الفاطميين أو... والترديد بسبب وجود كتابات قديمة من جهات متعددة وغير واضحة التواريخ عن بناء وتجديد بناء القبر ليصير مسجداً ومقاماً، على كلّ حال، عندما قرروا تمييز قبر النبي شيث(ع) عن بقية القبور، ليكون في وسط غرفة سيبنوها على القبر، احتاروا في مكان قبره (ع) بسبب البعثرة في شواهد القبور، فعملوا على اختيار شاهدين بعيدين عن بعضهما ويظنون بأن النبي شيث(ع) مدفون بينهما، هكذا صار القبر بقرابة عشرةِ أمتارٍ طولاً.

(إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ{7})
إرم: هو اسم مدينة كبيرة كان يسكنها قوم من قبيلة عاد، حيث كان لهم مدن أخرى في مختلف أنحاء شبه الجزيرة العربية. بنوا تلك المدينة بأبنية ضخمة، {ذَاتِ الْعِمَادِ}، لها أعمدة، تلك الأبنية مبنية من عواميد عالية ضخمة. ويمكنك تشبيهها بآثار أبنية الرومان والفراعنة ذات العواميد العالية.

أمّا بالنسبة لمكان تلك المدينة، فلا تَنْسَ أنها قديمة جداً جداً وقبل النبي موسى(ع) وكانت مبنية في {الْأَحْقَافِ} بحسب ما قال القرآن، و{الْأَحْقَافِ} وصف للمكان الذي فيه تلال الرمل كتموجات، يحتمل المحترمون من المؤرخين أن يكون مكان المدينة في مكان ما على الطرف الجنوبي الشرقي للجزيرة العربية، ما بين اليمن وعمان حالياً، لكننا لم نكتشف لها أي أثر إلى الآن، وكل ما ستقرؤه عنها في الكتب والإنترنت إلى حين تاريخ هذه الدراسة فهو غير صحيح، راجعته ولم أجد إلا احتمالات واهية بلا دليل أو كلاماً فارغاً من الرصانة العقلية، ومن المحتمل بشدّة أن آثارهم مدفونة عميقاً تحت الرمال، وسيأتي يوم لنكتشفها هناك أو في مكان ما، لأنّ قدرات الأقمار الصناعية الحالية مقبولة للكشف عن شيء ما تحت سطح الأرض ولكنها في المستقبل ستتحسّن لتكشف لنا بشكل أوضح إن شاء الله تعالى.

(الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ{8})
إرم المدينة {الَّتِي}، {لَمْ يُخْلَقْ}، لم يُركّب ولم يُؤلّف بقية الناس {مِثْلُهَا}، شبيهاً لها من قبل، {فِي الْبِلَادِ}، في أي مكان كبير محدّد على الأرض وعادة له اسم. كانت مدينة ضخمة نفترض أنها مبنية من عواميد ضخمة لم يَبْنِ الناس مثلها من قبل. السورة هنا تريك بهذا الكلام عن مدينتهم نموذجاً يعكس لك الرفاهية الاقتصادية غير العادية.

ننتبه لكلمة خلق، عندما يقول القرآن إنّ ربنا سبحانه خلقنا يكون المعنى أنه سبحانه ركّبنا وألّف أجسامنا من المواد، هنا الآية تقصد أنّ قوم عاد خلقوا مدينتهم إرم، أي ركّبوها من مواد البناء، من الحجارة والطين والخشب... استعمل القرآن فعل الخلق لوصف ما فعله النبي عيسى(ع) بتماثيل الطيور كما ورد في الآية 110 من سورة المائدة {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي}، تشكيل الطين كهيئة الطير موصوف بأنه خلق، و {فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي}.

ما ستجده في الكتب من أوصاف لمدينة إرم، فيكفيك أن تعلم أنّ أضخم روايتين هما منسوبتان إلى وهب بن منبه وكعب الأحبار، وكلاهما يهوديان أسلما وكانا ينشران التراث اليهودي بين المسلمين، ونشرا قصصاً مدموجة مع ما قاله القرآن، حتى تلاحظ في أقوالهما بعضاً من تأليفهما الشخصي لقصص لم يذكرها القرآن ولا تجدها في التراث اليهودي! نقل الناس عنهما قصصهما من دون التدقيق في صحّتها ولا في مصدرها! ونشروها وبهّروها وملّحوها حتى وصلت إلينا كخرافات من المعيب ذكرها ووضعها في التراث الديني الإسلامي.

انتهينا، باختصار شديد، من التعرّف على عاد الذين بَنَوْا مدينة ضخمة جداً اسمها إرم، ننتقل لقوم آخرين حيث سترى أنهم أيضاً بنوا مدناً ضخمةً:

(وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ{9})
ألم تر كيف فعل ربك سبحانه بقبيلة {ثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا}، نحتوا وحفروا، {الصَّخْرَ بِالْوَادِ}، كان هناك وادٍ كمنخفض بين مرتفعات في المنطقة التي يسكنها أناس من قبيلة ثمود، حفروا ونحتوا المنحدرات الجبلية والتلال الصخرية لتكون بيوتاً لهم، وليس لحاجتهم لسكنها لأنه كان عندهم بيوتٌ عادية مثل بقية الناس، لكنهم حفروها ونحتوها للرفاهية بالزخرفة المحفورة في الصخر!

مثلما الكلام السابق أراك رفاهية عاد، فالسورة بهذا الكلام عن ثمود ونحتهم بيوتاً في الصخر تريك نموذجاً يعكس الرفاهية الاقتصادية غير العادية.

ثمود اسم لقبيلة عربية كبيرة، كانت منتشرة منذ آلاف السنين في عدة أماكن في شبه الجزيرة العربية، النبي صالح(ع) أرسله سبحانه على ما يبدو من القرآن إلى مدينة وصفها القرآن بالحجر أو كان اسمها الحجر، كما تقول الآية 80 من سورة الحجر {وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ}، يوجد إلى الآن آثار لبيوت منحوتة في الصخر في مدينة أثرية يسمّيها الناس بمدائن صالح، وهي تقع فيما يسمّى حالياً بالمملكة السعودية، لجهة الشمال الغربي من المدينة المنورة، هناك احتمال قوي بين المؤرخين أن تكون هي المدينة التي كان فيها النبي صالح(ع)، أصابها زلزال دمّرها وقتل الكثيرين من أهلها بسبب الترف غير المعقول الذي بذخوه في نحت وزخرفة بيوت في الصخور، هي بيوت لا يحتاجونها ولم ينحتوها إلا للرفاهية، موضوع السورة عن هذه الرفاهية أنها ليست دليلاً على رضا الإله عنهم، أمهلهم سبحانه ليتوبوا من سوئهم، ولم يتوبوا فدمّرهم...

تلاحظ أنّ الناس في مختلف البلدان التي فيها بيوتٌ منحوتة في الصخر، كاليمن والأردن ومناطق أخرى في السعودية... تلاحظ السكّان المحليين يقولون عنها إنها المدينة التي كان فيها النبي صالح(ع)، هذه مشكلة منتشرة في عموم تحديد الأماكن التاريخية لأن الناس في منطقة ما رأوْا بيوتاً منحوتةً في الصخر، ظنّوا أنها البيوت الوحيدة المنحوتة في الصخر في العالم، فاعتمدوا على ظنّهم وقالوا إنها مدائن النبي صالح(ع)! هكذا صار لدينا العديد من البقع المختلفة التي يقولون عنها بأنها هي مدائن النبي صالح(ع)، نفس الشيء حصل مع القصص الأخرى، كقصّة نمرود والنبي إبراهيم(ع) التي في كلّ بلد من البلدان العربية لديهم مكان أو أكثر يقولون إنّ حادثة إحراق النبي إبراهيم(ع) وقعت فيه! حتى في تركيا "حالياً" لديهم مكان مشهور بين الناس أنه مكان حادثة الإحراق! الدراسات الآثارية تدل على أنه لا ارتباط بين تلك الأماكن وبين ما يقوله الناس... النبي صالح(ع) كان قبل النبي موسى(ع) بل وقبل النبي

إبراهيم(ع) بحسب ما هو مشهور في التراث الديني للأديان الثلاثة "عند اليهود والمسيحيين والمسلمين"، أغلب الآثار التي يقول الناس عنها إنها مدائن النبي صالح(ع) هي جديدة ومبنية بعد عهد النبي موسى(ع)... منها آثار البتراء النبطية في صحراء الأردن...

نرجع إلى السورة التي إلى هنا تحدثت عن عاد ومدينتهم إرم، وعن ثمود ومدينتهم المحفورة بالصخر.

(وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ{10})
ألم تر كيف فعل ربك بالشخص الذي لقبه {فِرْعَوْنَ}؟ هو لقب لأعلى مركز عند المصريين القدماء "في فترات من تاريخهم، في فترات أخرى كان هناك ألقاب أخرى"، كما نقول رئيس، ملك، قيصر لملك الروم، وكسرى لملك الفرس... عموم القرآن تحدّث عن فرعون واحد، هو الفرعون الذي كان على عهد النبي موسى(ع)، ولم يذكر القرآن اسمه، هنا الآية عرّفتنا عليه أنه {ذِي الْأَوْتَادِ}، الذي تنتسب الأوتاد له، نفس الوصف ورد في الآية 12 من سورة ص {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ}، استعمل القرآن في الآية 7 من سورة النبأ وصف الوتد للجبال {وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا}، مما سبق كان الكلام عن العمارة، هنا الوصف بذي الأوتاد يشير إلى الأبنية الضخمة عرضاً وطولاً والمثبتة في الأرض تشبه الجبال، أول ما يخطر بالبال أنها الأهرامات، مع العلم أن فرعون بنى القصور والمعابد المرتفعة بعواميد عالية، لكن سبق وصف إرم بأنها ذات العماد هنا وصف فرعون بذي الأوتاد يشير إلى تميّزه بشيء آخر غير القصور والمعابد، يشير إلى تميّزه ببناء الأهرامات والمسلات.

من المشهور في القرآن والتراث الديني أن فرعون هذا غرق هو وجيشه في الماء، لكنّ الإشارة له هنا بأنه ذو أوتاد لأن محور السورة حول الذي حصل على قدرات مالية ضخمة وقدرات عمّالية هائلة وأنفقها على بناء مدن غير عادية، اختارت السورة ثلاثة نماذج مشهورة من التاريخ، إرم ومدينة الحجر وما بناه الفرعون الذي كان على عهد النبي موسى(ع).

في دراستنا للقرآن تبين أنّ تحديد اسم والفترة التي كان فيها الفرعون الذي يتحدّث عنه القرآن في عهد النبي موسى(ع)، والذي حدث لتاريخه تشويش كبير في التراث الديني اليهودي والمسيحي والإسلامي، تبين أن وزيره الذي سمّاه القرآن "هامان" يوجد له تطابق مع وزير الفرعون خوفو الذي بنى الأهرامات الثلاث الكبيرة المشهورة التي في مصر قرب مدينة القاهرة، وخوفو ادعى أنه إله، ولا مدفن لزوجته... فاستناداً لذلك رجّحنا بقوة أن يكون خوفو هو الفرعون الذي غرق مع جيشه في الماء... لمزيد من التوسّع حول ذلك راجع في دراستنا هذه أي آية ورد فيها اسم هامان كالآية 24 من سورة غافر {إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ}، بناءً عليه فالآية هنا يبدو أنها تشير بالأوتاد إلى الأهرامات الضخمة، خوفو بنى أهرامات ضخمة في منطقة الجيزة بمصر، ومعها المسلات.

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ{11})
عاد وثمود وفرعون، الذين طغوا في البلاد، تعدّوا حدودهم وفعلوا أكثر مما هو مسموح لهم في الأماكن المحدّدة على الأرض والتي كانت سلطتهم تنتشر فيها، باستخدام الموارد المالية والبشرية المتاحة لهم، بنوا عمارة باذخة لا حاجة لهم بها إلا للبذخ.

نحن عموماً عند رؤيتنا لآثار البنيان القديم، كالأهرامات ومعابد الرومان واليونان... لا نجد أي مشكلة فيها، بل تعجبنا، ونعتبرها رمزا لحضارات عظيمة، لكنه تعالى يخبرنا أنه ينظر إليها بشكل مختلف، بناها العبيد أو عمّال السخرة، بمالٍ لم يتعب فيه الذي أمر ببنائها بل تحكّم بهذا المال العامّ لأنه على رأس السلطة، ولأنه سلبه قهرا من الأمم المستضعفة... على أيّ، بُنيت بمال ومجهود كان في مقابله فقراء وحاجات أخرى ضرورية للناس، وكانت عمارات لا فائدة منها عمليا للناس إلا كرمز لقوّة الحاكمين... يسمّيها القرآن هنا في الآية بأنه طغيان، حدود العقلانية للمالكين للسلطة والمال والقدرات... أن يتصرفوا فيها بحسب مصلحة عموم الناس، لا للبذخ الترفي وصرف المجهود والموارد والمال والوقت على أمور لا فائدة فيها.

ستفهمها أكثر لو كنت أنت عبداً أو عامل سخرة جعلوك تعمل في بناء تلك المدن، لو كانت لحاجة عقلانية لكان الأمر أهون عليك، لكنها كانت ترفاً وبذخاً لنزوات الحكّام، وأنت تقضي حياتك وجهدك بالعمل لتحقيق نزوتهم! وتقوم بأعمال مجهدة ستجعل عمرك قصيراً، وخطر الموت من الجهد ومن التعامل مع الحجارة الكبيرة... واردٌ عليك في أي لحظة...

لو كنت ميسوراً ربما تقول إنهم أغنياء وهم أحرار بصرف أموالهم، وأنك أنت ذات نفسك تتمنّى لو كنت ثرياً لتلك الدرجة لتبني بيتاً خيالياً في رفاهيته... أمّا لو كنت فقيراً جائعاً أنت وعيالك وثمن باب خشبي لبيوتهم من خشب السنديان المزخرف يكفيك أنت وعيالك مصروف شهر، ويكفي لإسعاد أولادك بالشبع وبثياب لائقة... فهل سترى ترفهم حسناً أم طغياناً؟

ستفهمها عندما ترى الحكومة التي في بلدك تنفق المال العام على الاحتفالات والمناسبات الرسمية والنصب التذكارية والمفرقعات والزينة... بوجود فقراء جياع، وبوجود من لا يملكون ثمن دواء، أو يسكنون فيما يشبه البيوت من خيم وكرتون أو في العراء... هذه هي النظرة الإلهية لتلك العمارات والتي ننظر إليها نحن حالياً بفخر كرمز للحضارة، وهذا هو الطغيان.

لا تَنْسَ أن عادة كلام القرآن عن نماذج، وعادة يختار من التاريخ البشري أبرز نماذج في قصصها ما يكفي لنتّعظ منه، وعند كلامه عن الإسراف بالمال والقوّة والسلطة يختار فرعون، وعند كلامه عن الإسراف والقوة يختار عاد، وعند كلامه عن الإسراف يختار ثمود، فالجامع بين هذه النماذج الثلاثة والذي أرادت السورة هنا الإضاءة عليه، هو الإسراف بما تمتّعوا به من قوّة اقتصادية.

(فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ{12})
فرعون وعاد وثمود طغوا، {فَأَكْثَرُوا فِيهَا}، في البلاد، {الْفَسَادَ}، قاموا بالكثير من الأمور الفاسدة، وهي الأمور التي تتعارض مع مصالح عامّة الناس، الناس ليس لهم مصلحة في صرف المال والجهد والموارد والقدرات على أبنية محفورة أو ضخمة شاهقة لا استفادة منها، وهذا فساد، هذا عمل لا مصلحة لهم فيه.

تلاحظ السورة لم تذكر لك فساد عقيدتهم وشريعتهم علماً أنهم كانوا مشركين به تعالى كما هو واضح من عموم كلام القرآن عنهم، التركيز هنا على طغيانهم في استعمال الموارد التي أتيحت لهم بدلاً من إنفاقها على ما يحتاجه الناس وينفعهم.

تلاحظ السورة لم تقل صراحةً إنهم خالفوا أوامره تعالى، عموم القرآن لم يستند بالأساس على ذلك حين أخبرنا عن العقاب والثواب، بل استند أولاً إلى ما جعله تعالى فينا من قدرة على تمييز الخير من الشرّ، وأخبرنا أننا سنتحاسب على ما نختاره منهما، وهذا القرآن مساعد لنا لتقويم رؤيتنا للفساد والصلاح في الأمور، وليس عرضاً لدين جديد غريب عجيب... نتعلمه لنمشي على أساسه حتى لو لم نجده صالحاً، لا، وكلام سورتنا هنا من أوضح النماذج عن عمق معنى كلامه تعالى معنا في قرآنه عن محاسبته لنا على ما يمكننا نحن رؤية سوئه ورغم ذلك فعلناه.

(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ{13})
{فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ}، المسؤول عنك من مستوى إلهي أنزل من عنده على فرعون وعاد وثمود، {سَوْطَ عَذَابٍ}، والسوط هو أداة مستعملة لضرب الحصان حتى يسير، أو لتأديب أو معاقبة إنسان، والمقصود أنه بسبب طغيانهم وفسادهم عذَّبهم سبحانه بضربة مؤلمة كنموذج ضربة بالسوط.

تلاحظ بوضوح استعمال كلمة سوط على الوصفية، الشيء الذي اسمه سوط "كرباج أو ما شاكل" عمله هو الضرب المؤلم للتأديب أو العقاب، وعلى هذا الوصف غرق فرعون وريح عاد وزلزال ثمود، ضربة مؤلمة لمعاقبتهم، على الوصفية يكون ما تعرّضوا له: {سَوْطَ عَذَابٍ}.

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ{14})
أيها الإنسان الذي لديه حجر، رأى كيف عذّب تعالى الأقوام التي بذخت وترفت وطغت وأفسدت:

{إِنَّ رَبَّكَ}، إن المسؤول عنك من مستوى إلهي، {لَبِالْمِرْصَادِ}، سبحانه جاهز للتعامل معهم من دون أن يفلتوا منه، وأنت تعلم من عموم القرآن أنهم لم يستطيعوا فعل أي شيء عندما نزل عليهم العذاب الإلهي، وكما ترى هم لم يفلتوا من عقابه تعالى.

ننتقل الآن إلى العبرة من تعذيب الأقوام السابقة، فهل ترفهم كان دليلاً على كرامتهم عنده تعالى؟ أو كان دليلاً على أن عقيدتهم وشريعتهم صحيحة؟ لِنَرَ:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ{15}).
{فَأَمَّا الْإِنسَانُ}، الغالب الأعمّ من الناس، {إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ}، أصابه المسؤول عنه من مستوى إلهي بأشياء ليرى كيف تصير حالته من بعدها، ليختبره ليمتحنه، {فَأَكْرَمَهُ}، جعل له قيمة ومكانة وشأناً، {وَنَعَّمَهُ}، جعله يعيش في نعيم في راحة وبحبوحة، أعطاه الصحة وخيرات الأرض والأمن والمال وأشباه ذلك، مثلما أتاح سبحانه للنماذج الثلاثة "عاد وثمود وفرعون".

{فَيَقُولُ} الغالب الأعمّ من الناس: {رَبِّي أَكْرَمَنِ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي أعطاني قيمة عالية، لي كرامة ومكانة عالية عنده.

ضع في بالك دائماً أن القرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموماً ذكراً وأنثى، وأنهم يتناسلون... أو متعلق بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

المؤمنون يرون ما يحصلون عليه إكراماً وإنعاماً، من مال أو قدرات، يرونه بلاءً وفتنةً، فهم مؤمنون أنهم في دار ممر وصولاً للحساب في الآخرة، وترى ذلك من قول النبي سليمان(ع) في الآية 40 من سورة النمل {قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}.

نتذكر كلام السورة عن ثلاثةِ أقوام أكرمهم تعالى فكانوا حاكمين ولم يكونوا محكومين وكان لديهم الموارد والقدرات المالية والعمالية "والعلمية"، بدليل قدرتهم على بناء مدن ضخمة كلّفت الكثير من المال والجهد، لكن هل هذا يعني أن الله سبحانه كان راضياً عنهم ولذلك أكرمهم بالمال والقدرات؟ ستجيب الآية بعد التالية بكلّا، لأنهم طغوا وأفسدوا فدمرهم تعالى ولا كرامة لهم عنده سبحانه، وهذا هو لبّ السورة ومحور كلامها.

بقي شيء، فهل كلام السورة مع المؤمنين لتعليمهم درساً من التاريخ؟ أم لعموم الناس حتى الكافرين؟ هناك من يقول بأنه أصلاً لا يؤمن بأي إله! أو يؤمن بالطبيعة أو بالصدفة، أو يؤمن بإله غير إله المسلمين... الجواب: السورة تتحدّث مع الجميع، هناك بذرة داخلنا تشير نحوه تعالى ولا يمكن اقتلاعها منّا ولا بأي شكل، يمكن كبتها وإخمادها وتعطيلها... والتفوّه بكلام المنكرين لها مدّعين الإلحاد على معنى إنكار وجود الإله من أصله... هذا من جانب، ومن جانب آخر هذه أحداث تاريخية لأقوام مشهورين تعرضهم السورة كأبرز نماذج، علماً أنه يوجد آخرون غيرهم لكنهم إما ليسوا مشهورين أو لم يصلوا إلى مستوى هؤلاء الثلاثة في العمارة... كلام السورة عن تاريخ هؤلاء لتحليل ما حصل معهم من وجهة نظره تعالى لهم، ما ردّ الكافرين والملحدين على هذا التحليل؟ ما أغرق فرعون في ممرات انفلق البحر عنها ثم أطبقت عليه؟ ما نفع جبروت عاد أمام ريح صرصر عاتية؟ ما نفع بيوت منحوتة في الجبال أمام زلزال؟ أليس ظاهراً تدميره تعالى لهم؟

انظر للموضوع كما ينظر بلد ضعيف لبلد أقوى منه بكثير، أو انظر لقومية مستضعفة تحكمها قومية أقوى، فمن القادر على تدمير هذا الجبروت ليخلّصهم من الدونية؟ وهكذا ترى عاداً وثمود والفرعون كنماذج عن قوى عظمى كان كل واحد منهم في زمنه لا يبدو في الأفق المنظور ما يمكن أن يهلكه، قوّتهم البشرية كانت الأعتى، وقوّتهم الاقتصادية غير عادية... وهكذا سنرى أن الكلام عنهم موجّه لجميع الناس، والاستفادة من العبرة متاحة لجميع الناس وفي كل العصور.

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ{16})
الذي أكرمه ونعّمه تعالى يقول إنه مكرمٌ عنده تعالى، والحالة الثانية:

{وَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ}، أصابه سبحانه بأشياء ستغيّره للأحسن أو الأسوأ ليراه أيشكر أم يكفر، {فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ}، كان ما معه من أشياء يسدّ بها حاجاته، كان بمقدار، والمقصود واضح أنها مقدار كمية قليلة، {فَيَقُولُ} الغالب الأعمّ من الناس: {رَبِّي أَهَانَنِ}، المسؤول عنّي من مستوى إلهي جعلني بلا قيمة ولم يهتمّ بي ولذلك جعلني محروماً من النعمة.

إذن نحن أمام حالتين، الأولى حالة الحصول على المال والشعور بأنّ لنا قيمة عنده تعالى ولذلك أعطانا المال، وحالة حصولنا على رزقنا بمقدار، بكمية قليلة، والشعور بأنه تعالى أهملنا وليس لنا قيمة عنده.

هذا شيء تلمسه في عصرنا تطبيقاً على الدول التي من غير المسلمين، تعتبرها أنت لا تستحق ما بها من نعمة أنت المسلم وهم كافرون... تسأله تعالى لماذا لم ينعم عليك؟ هذا موضوع متشعّب بفروعه التي تبدأ من صحّة وصفك ووصف مجتمعك بالإسلام، فهل نحن فعلاً مسلمون حقيقيون حتى نسأل عن عنايته تعالى بنا ونطالبه سبحانه بإجلاء حال الفقر والفساد والفلتان الأمني... المستشري في بلادنا؟ ألسنا بغالبيتنا الساحقة فاسقين ومنافقين؟ ألسنا متفرقين مذهبياً وطائفياً وعرقياً ومناطقياً وعائلياً...؟ ألسنا نحن ننعق خلف الحكّام الفاسدين داعمين لهم؟ قبل المطالبة بالعناية الإلهية بك لأنك على دينه اسأل نفسك إن كنت فعلاً أنت وبقية أفراد مجتمعك على دينه تعالى.

هناك دعاية ساخرة من ديننا لأن مجتمعاتنا الإسلامية تعيش حالة الدونية في كل شيء، في الاقتصاد والأمن والأخلاق والصحة والعلوم... يقولون إنّ ديننا سبّب ذلك بدليل أن الآخرين الكافرين بديننا حالهم أفضل... وكأننا نحن أصلاً ملتزمون بديننا، وكأن دولنا تطبّق ديننا!

هكذا تفهم سورتنا هذه من تحديد نماذج طاغية وبعدها الكلام العمومي عن الإنسان، لتنطبق على شريحة واسعة من النماذج، ومن ضمنها حالة بلداننا الإسلامية حالياً وحالة بلاد الآخرين، فهل أكرمهم تعالى وأهاننا؟ نعم إن كانوا صالحين بالقدر الكافي الذي لم يغضبه تعالى عليهم، فما عندنا من سوءِ تفلّتٍ أخلاقي واجتماعي وأمني... وفساد الذين جعلناهم حكّاماً علينا... يفوق ما عندهم، بالتالي على هذا المعيار هم أحقّ بالكرامة الإلهية منّا.

الآيات التالية تريك ربطاً عملياً بنماذج من تصرفاتنا وهي السبب المباشر لانهيار كرامتنا حتى صرنا حالياً بغالبيتنا فقراء وفاقدين للأمن...

لا تَنْسَ دائماً أنّه تعالى يتدخّل بما يراه مناسباً لتحسين حالة المقبول حالتهم الإيمانية، أو لزيادة حالة السوء... ما ستراه في الآيات التالية من تصرفاتنا نحن التي أدّت عملياً إلى فقداننا الكرامة، على معنى ما قالته الآية 41 من سورة الروم {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، في المقابل هناك التدخّل الإلهي لمنع الكوارث بكل أشكالها عن المؤمنين كما هو واضح من الآية 96 من سورة الأعراف {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}، يدعمه ما قالته الآية 66 من سورة المائدة {وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ}.

(كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ{17})
{كَلَّا}، نفي لما يقولونه، هذا الكلام عن مقياس الكرامة والإهانة عنده تعالى غير صحيح، ليس الفقر والغنى مقاييس لرضى الله سبحانه عنّا، {بَل}، المقياس الصحيح أنكم {لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ}، أنتم "غالبيتكم" لا تعطون قيمة عالية لمن فقد أباه معيله الذي كان يؤمّن رزقه ويحميه، هذا واحد من مقاييس الكرامة عنده تعالى أن تكرموا اليتيم فيكون له قيمة عندكم.

لو كنتم تكرمون اليتيم لكان فعلاً لكم كرامة عند ربّكم سبحانه، عليكم أن تشعروا بذلك ها ربّكم سبحانه يقوله لكم: من أكرم اليتيم فله كرامة عندي، لا علاقة لحالتكم المادية بالكرامة والمهانة عندي، ها عاد وثمود وفرعون كانوا أغنياء

وأقوياء بشكل ضخم، ولم يَعْنِ ذلك أن لهم كرامة عندي دمّرتهم هنا في الدنيا بسبب طغيانهم من المعلوم أن لهم عذاباً شديداً في الآخرة، هذا شيء ستتحدّث عنه السورة في آخرها.

نعيد الكلام بطريقة أخرى، إن كنت غنيّاً وتشعر بأنه تعالى أكرمك، هل فعلاً أنت كريم عنده تعالى مع أنك أهملت الأيتام؟ كيف سيكون لك كرامة عنده تعالى وأنت لم تكرم طفلاً أو ولداً لا يوجد من يعيله ويعينه أنت لم تعينه؟

أعيد الكلام بطريقة أخرى، لو كنت أنت يتيماً فقيراً ولا يوجد من يعيلك أو يعينك وتحتاج للعون، والأغنياء لا يساعدونك، فهل ستقبل أن يكون غناهم كرامة من ربّك سبحانه لهم؟ هل تفهم بأنك بلا قيمة عنده سبحانه وهم لهم قيمة عنده تعالى ولذلك أفقرك وأغناهم؟ لا، هم لم يساعدوك كما هو مفروض منهم ولذلك بقيت فقيراً، ما جعله تعالى فينا ونسمّيه بالإنسانية والتي تدفعنا لمساعدة الآخرين أفراداً أو كدولة تؤمن الحاجات الأساسية لمواطنيها، فهو نفسه ما جعله تعالى تشريعاً أوجب علينا الصدقة دائماً على كل محتاج، وأوجب علينا الزكاة ليتكوّن صندوق يؤمّن الحاجات العامّة للجميع...

الواقعية في رؤية الأمور تزيح الضبابية، سبحانه يتدخّل في مجريات حياتنا بطرق مباشرة وبطرق لا نراها، ولو تدخّل سبحانه في كل الأمور كما نحن نريد، فهذه حالة المؤمنين في جنّة الآخرة، لا تتماشى مع حالتنا في الدنيا للابتلاء والافتتان بما سنتجازى عليه في الآخرة. هكذا ترى أن السوء الذي تتعرّض له سببه إمّا تصرفاتك وقراراتك السيئة التي أدت إلى تفويتك لفرص كانت متاحة لك لتعيش بهناء... أو من ذنوبك التي حرمتك من التيسير الإلهي لأمورك بالكسب الحلال... أو من سيئات غيرك الذين كدّسوا المال بالحرام من استغلالهم لنفوذهم وسلطتهم... حرموك من فرصة تأمين رزقك بالحلال... أو من سيئات الحكّام الناهبين للمال العام والمفسدين... أو من سيئات الأغنياء الذين عصوه تعالى وبخلوا عن مساعدة المحتاجين...

كلنا تحت مشيئته تعالى ليختار ما يريد حصوله معنا، وضمن ذلك مساحة نتحرّك فيها بما منحنا سبحانه من حرية إرادة، ويسمح سبحانه لنا بفعل ما نريد، أو يتدخّل في المجريات بطرقه المناسبة وبحكمته حتى يمنع حصول ما نريد...

هذا الكلام في جانب، وعلمه تعالى بما سيحصل معنا في جانب آخر، عادةً يخلط الناس بين حرية الإرادة الممنوحة لنا وبين علمه تعالى بما سيحصل معي في حياتي، يقولون إننا غصباً عنّا نمشي على ما كتبه تعالى لنا ولا قدرة لنا على تغييره، هذا غير صحيح، سبحانه وبسبب علمه الفائق يعلم بكل تفصيل، كل كبير أو صغير سيحصل في كل الدنيا والآخرة، لا يخمّن ولا يتوقّع بل يعلم يقيناً، مثلما أنت تعلم باصطدام سيارتين تراهما تسيران على خطّ واحد باتجاه بعض.

إذن فقر هذا وغنى ذاك سببه خليط من مجموع ظروف، وحين قرّر سبحانه خلق ما في الدنيا علم حتى بهذه التفاصيل بل وبتفاصيل أدق منها، ما من ورقة تسقط من شجرة إلا وسبحانه كان يعلم بها من "اللحظة" التي قرّر فيها خلق ما في الدنيا، وتجد ذلك صريحاً في الآية 59 من سورة الأنعام {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}، سلفاً علم بالظروف التي ستمر عليّ، وبقراراتي وتصرفاتي، وقرارات وتصرفات من حولي والتي ستؤثّر عليّ، خلق سبحانه الدنيا بحيث تسير فيها الأمور مترابطة بما يراه تعالى مناسباً لذنوبي أو حسناتي، أو مناسباً لإيماني وآخرتي، تتعدّل الظروف وفقاً لهذه الأمور، سلفاً علم سبحانه بما ستتعدل به الظروف ومجريات الأمور...

لمزيد من التوسّع حول تدخله تعالى بما لا نراه تدخلاً صريحاً راجع دراسة سورة يوسف.

(وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ{18})
لَا تحاضّون، فلا تشجّعون ولا تحفزّون ولا تحمسّون بعضكم البعض، {عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}، على تأمين ما يأكله ويسدّ به جوعه {الْمِسْكِينِ}، هو الشخص الذي تعثّرت ظروف حياته حتى صار محتاجاً لمساعدة الناس له، فربما يكون فقيراً لدرجة أنه لا يملك إلا ثيابه التي عليه، أو يملك محلاً تجارياً أو مهنة أو أرضاً يعمل بها... لكن الظروف عاكسته وصار بحاجة للمساعدة.

إن كانت أوضاعك المالية مقبولة أو كنت غنياً، وتشعر بأنه تعالى أكرمك، ولم تنفق على المحتاجين، بل ولم تشجّع الآخرين على الإنفاق عليهم، فكيف سيكون لك كرامة عند ربّك سبحانه؟

نفس ما قلناه في الآية السابقة، لو أنت كنت مسكيناً بحاجة للمساعدة ولم يساعدك الأغنياء، فهل ستعتقد بأنه تعالى أكرمهم بالغنى فهم لهم قيمة عنده تعالى وأهانك بالفقر فلا قيمة لك عنده سبحانه؟ الآية ما قبل السابقة عرضت وجهة نظر المسكين الذي يقول إنّ قَدْر الرزق عليه إهانة له من ربّه، هنا تعرض الموضوع بتوجيه كلامها للغني، كلاهما تنبههما السورة على معيار الكرامة الإلهية الصحيح، فلا فقر المسكين يجعله بلا كرامةٍ عنده تعالى ولا غنى الغني يجعله مكرّماً عنده تعالى، بل قناعة المسكين وإيمانه وعمله الصالح يجعل له كرامة عنده تعالى، وإنفاق الغني على المساكين "مع الإيمان وبقية الأعمال الصالحة" يجعل له كرامة عنده تعالى.

نتذكّر من القرآن نقله لكلام قاله بعض الناس لبعضهم عن موضوع مساعدة المحتاجين، كانوا يسخرون ممن تصدّق واعتبروه إهدارا للمال كما ورد في الآية 79 من سورة التوبة {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ}، وآخرون اعترضوا على أمر ربّهم فبدل أن يأمرنا نحن بمساعدة المحتاجين فليساعدهم هو تعالى كما ورد في الآية 64 من سورة المائدة {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ... بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ...}، وبخل آخرون وأمروا الناس بالبخل كما ورد في الآية 24 من سورة الحديد {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ...}، وسورة الحديد تخصّصت بالكلام عن الإنفاق فراجعها.

هنا الآية بجملة {لَا تَحَاضُّونَ} اختصرت كلّ الأعمال ومهما كان نوعها والتي يقوم بها البعض لمنع الآخرين من التصدّق على المحتاجين، من بخل أو اعتراض على أمره تعالى أو اعتبار الصدقة هدراً للمال...

تفهمها عندما تسمع أحدهم يقول لك: اصرف هذه الأموال على أولادك فهم أحقّ بها بدل التصدّق بها على الفقراء. هذه الجملة التي تبدو منطقية إنما هي في الحقيقة نموذج معاكس عن حضّ الآخرين على الصدقة، قد تكون من متوسطي الحال ولست غنياً لكنْ هناك شخص أفقر منك وبحاجة للمساعدة، إذا لم يساعده أحد ما فسيتأذّى، وتصير حياته أعقد وأصعب... هذا لا يجوز تركه بدون مساعدة، ساعِدْهُ بمقدار ما تستطيع من دون حرمان أولادك لما يحتاجونه، والعديد من الآيات شرحت لنا تفاصيل مختلفة عن الصدقة منها الآية 29 من سورة الإسراء التي نبّهتنا أن لا نتصدّق بما نحن بحاجة له فنصير نحن فقراء من بعد تصدّقنا به {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}، وغيرها من التوجيهات التي اكتفت الآية هنا باختصارها ضمناً بالقدرة على مساعدة الآخرين والتشجيع على مساعدة الآخرين.

(وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً{19})
{وَتَأْكُلُونَ}، تستهلكون، {التُّرَاثَ}، الأشياء التي تُورّث، الإرث، وهي الأملاك التي تنتقل ملكيتها التامة للآخرين بلا استرداد، عادةً هي التي تحصلون عليها بسبب موت أحد ما فترثونه، علماً أنها تحصل أيضاً من المنحة التامّة مثلما يورّث تعالى الجنّة للمؤمنين، يعتبرها سبحانه ملكاً تامّاً لهم فلن يستردّها منهم ولن يتدخّل بهم مهما فعلوا بها... هنا الكلام في الآية عن أكل الميراث ممّا تركه الميّت، {أَكْلاً}، بشكل يوصف بالتمام أنه أكل، {لَّمّاً}، بلمٍّ، لملمة، بأخذ الميراث جمعا لأكله. يصير المعنى: أنكم تأكلون حقّ غيركم من الميراث الذي يتركه الميّت، {لَّمّاً} فتلملمونه فتجمعونه ولا تتركون منه شيئاً للآخرين.

التعبير بالأكل للمال بالمعنى الذي قالته الآية لا يزال دارجاً في اللهجات العربية فنقول: أكل حقّي. أكل حصّتي من الميراث... التعبير بالتراث بدل "ميراث" لا يزال مستعملاً فنقول: تراث ثقافي. ونقصد به ما وصلنا من ثقافة الذين كانوا قبلنا وتركوه لنا، فهو ميراث ثقافي. التعبير {لَّمّاً}، أيضاً لا يزال دارجاً فنقول: لمّيته عن الطريق. لمّيت ما تحت الشجرة من أوراق... على معنى جمعته.

من البديهي أن الآية تتحدّث عن نموذج حالة إن حصلت مع الغالب من الناس فإنهم يتصرفون بهذا الشكل، ليس بالضرورة أن يمرّ كل إنسان بحالة وفاة شخص سيترك ميراثاً له وللآخرين، لا، بل تشير الآية إلى نموذج بارز من الطغيان بالطمع وأكل حقوق الآخرين والاستحواذ على حصصهم.

وكما ترى هناك الكثير من الأعمال السيئة التي لم تذكرها السورة، واختارت منها أبرز ما يتعلّق بمحورها وما يراه تعالى مهمّاً، لدينا السرقة والغشّ والنصب والاحتيال... للحصول على مال الآخرين، لكنّ السورة اختارت رزقاً حلالاً وصلك بدون تعب، وبدل الاكتفاء بحصّتك منه، أكلت حصص الآخرين! فهل سيكون لك كرامة عنده تعالى! وهل شعرت بالانتعاش والراحة حين صار معك أكبر كمية ممكنة من مال الميراث وارتاح بالك وعشت في حالة من أكرمه تعالى فرزقه؟ فخذ علماً أنك بلا قيمة عنده تعالى.

ومن ناحية ثانية، هل تقبل أن يعتبر ربّك سبحانه الذي أكل حقّك من الميراث مكرماً محترماً؟

بقي شيء، قال البعض عن آيتنا هنا إنها تتحدّث عن الميراث فلا بد أن يكون قد نزل قبلها قرآن يحدّد حصص الوارثين من الميراث، وتنزل آيتنا هذه لتحذّر من يتلاعب بالحصص ويأكل التراث... هذا كلام لا معنى له، لأن مفهوم الميراث التطبيقي العملي من الميّت، هو الحصول على حصّة من شيء مشترك بينك وبين الآخرين، لو كان الميّت أباً ترك أولاداً ذكوراً فقط، وقام المحتال بينهم والأقوى بأخذ كلّ الميراث له، هنا لست بحاجة لشريعة ولا لقانون ولا لقرآن... لترى أن عمله فاسد سيّء، وما تحاربه الآية هو قانون القوّة والحيلة والغفلة... التي يستعملها أحد ما ليسيطر على حقوق الآخرين، وتضرب نموذجاً بارزاً عن تقسيم الميراث الذي لا زلنا إلى الآن نرى الخلاف فيه بين الإخوة، ونرى من يخفي وثائق الملكية عن الوارثين الآخرين ويزوّر الإمضاءات ليأكل الميراث لوحده...

(وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً{20})
{وَتُحِبُّونَ} يا أيها الغالب الأعم من الناس، أنتم تحبون {الْمَالَ}، فلديكم شعور التقييم العالي جداً للمال فترغبون بالحصول عليه، {حُبّاً}، موصوفا بأنه على أتم مواصفات الحب، {جَمّاً}، عظيماً وكبيراً.

معلومٌ لك أن المشكلة ليست في حبّ المال، فأنا أحب أولادي وأحب الطعام الشهي وأحب البيت المريح... وأحبّ المال لأصرفه على حاجاتي... ولا مشكلة دينية في ذلك أبداً بتاتاً، وسأختصر لك ذلك بما قالته الآية 92 من سورة آل عمران {لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}، بل المشكلة بالحبّ الجمّ للمال لدرجة تجميعه من الحرام من الغش والنصب والاحتيال... ولدرجة الاحتفاظ به وحرمان المحتاجين منه.

تذكّر أن لبّ السورة عمّن كان مقياس الكرامة الإلهية عنده مرتبطاً بالمال، فإن كان معه مال كثير اعتبر أنّ ربّه سبحانه أكرمه، وإن كان فقيراً فسيعتبر أن ربّه تعالى أهانه، وهذا التفكير والشعور مبني على حبّ المال، فمن محبة الغالب الأعمّ من الناس للمال حبّاً جمّاً بالحصول عليه بكميات كبيرة، نتج عن ذلك تقييمهم للعلاقة معه تعالى على مقياس كمية المال التي معهم.

قارنها مع غني يوزّع من أمواله على الناس، كمواد تموين أو معاش شهري أو هدايا... ولم يخصّصك بشيء، تفكّر بأنه يعطي الذين يحبّهم ولهم كرامة عنده ولم يعطك لأنك ليس لك كرامة عنده. هذا هو تفكيرنا مع الناس، ومن حبّنا الشديد للمال طبّقنا الكلام السابق على العلاقة معه تعالى، وبناء عليه احتفظنا بالمال الذي نحبّه ولم نساعد الأيتام والمحتاجين بل وشجّعنا الآخرين أن لا يفرطوا بالمال الحبيب وأن يحتفظوا به ويجمعوه بدل إنفاقه على المحتاجين، بل وعملنا على الحصول على المال ولو بأي طريقة ممكنة حتى لو أكلنا حقوق الآخرين من الميراث.

الآن لاحظ وانتبه جيداً، فالأمور التي ذكرتها هذه الفقرة عن معيار الكرامة عنده تعالى للإنسان "إكرام اليتيم، إطعام المسكين، أكل التراث، حب المال" مع أنها نماذج عن الأمور السيئة العديدة التي تجعلنا بلا كرامة عنده تعالى إن فعلناها، لكن لاحظ أنه تعالى في السورة لم يذكر أي شيء عن الإيمان به تعالى! ولا عن الصلاة له! ولم يستعمل كلمة زكاة وهي مصطلح ديني، ولم يستعمل كلمة صدقة فهي مبنية على مفاهيم دينية.

هل لاحظت؟ بعكس ما هو دارج ومنتشر في أدبياتنا عن قرآنه تعالى، فطريقة كلامه تركيزها على ما يمكننا نحن رؤيته وتمييزه ومعرفته من الخير والشرّ، وكلامه تعالى في قرآنه مجرد لفت انتباه وتقويم لنصوّب نظرتنا للأمور.

لو كنت أنا سأردّ "دينياً" على الثري الذي يعتقد أن له كرامة عنده تعالى، وسأرد على الفقير الذي يعتقد أنه تعالى أهانه، فسأقول للفقير: لو كنت مؤمناً حقيقياً به تعالى وملتزما بكلامه، ومنتميا لدينه، وعلى المذهب الحقّ... لاعتنى بك.

وللثري سأقول: المال الكثير الذي معك إما لأنك مؤمن به تعالى وتسمع كلامه... ولذلك أغناك، أو لأنه تعالى يكرهك ويريدك أن تفعل السيئات أكثر.

هذه عناوين ذكرها القرآن بشكل متفرق في مواضيع متنوّعة... لكنّ السورة هنا كلامها خصوصاً عن الذي يعتبر نفسه مؤمناً به تعالى، ويعتقد أن هذا الانتماء من المفروض أن يؤمّن له استفادة مالية هنا في الدنيا، وكلامها أيضاً عن الذي لا يعتبر نفسه مؤمناً، لكن لديه نفس الفكرة، فيعتقد أن الانتماء لدين ما فيجب أن ينتج عنه استفادة مالية وإلا فالدين غير صحيح...

يأتي الجواب الإلهي في السورة هنا بعيداً كل البعد عن المتوقّع، أصلاً لم تهتم بالكلام عن الانتماء لدينه تعالى، ولا بالصلاة له، ولا بطاعة كلامه... بل أخذتنا لأبسط أبسط نماذج عن أساسيات ما يجعل للإنسان كرامة: إكرام اليتيم. إطعام مسكين. إعطاء الآخرين حقوقهم، الانتباه من حبّ المال لدرجة العمى.

(كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً{21})
{كَلَّا}، نفي لمعاييركم، غير صحيح ما تقولونه عن معايير الكرامة والمهانة الإلهية أنها تُتَرْجَمُ بحصولكم أو حرمانكم من المال، وستظهر معاييره تعالى التي تبيّن أن معاييركم كانت غير صحيحة، {إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ}، تعرضت للضغط الشديد على سطحها، كما لو أنها ضُربت بنيزك أو انخسفت بالزلازل أو صارت تمتص نفسها أو... {دَكّاً دَكّاً}، ستتعرّض لأتم مواصفات الدكّ ويليه دكّ، سينضغط سطحها بشدة بضغط يليه ضغط.

تعلم من عموم القرآن أنه سيأتي زمن تتبدّل فيه الأرض عند انتهاء الدنيا وبداية الآخرة، وهنا الكلام عن الأرض التي نعيش عليها حيث أحببنا المال حُبّاً جَمّاً وجعلناه مقياساً للكرامة الإلهية، ليس المال والذهب والأملاك والشركات والبيوت والسيارات... ليست وحدها ستذهب، بل كلّ الأرض ستندكّ ليصير كل شيء عليها وفيها بلا كيان مميز، حتى العملة الورقية أو المعدنية... لن يبقى لها كيان حين تندكّ الأرض، كلّ أنواع المال النقدي "كالعملة الورقية والمعدنية..." أو العيني "كالبيوت والأراضي والشركات والسيارات..." أو الافتراضي "على الكومبيوتر أو على الورق..." كلّه لن يبقى له أثر بعد اندكاك الأرض، وهذا ما أرادتك الآية فهمه من التعبير بدكّ الأرض.

أكرر لك، من بين الأمور الكثيرة التي ستحصل قبل يوم القيامة من تبدّل السماوات وتبدلات النجوم والشمس والجبال وخروج الناس إلى الحياة... من بين آلاف التفاصيل اختارت السورة هنا إخبارنا عن اندكاك الأرض، لأن الكلام كان عن حبّ المال بأشكاله المتنوّعة والذي لن يبقى له أي أثر في الآخرة بعد اندكاك الأرض.

بقي شيء، هنا يبدو من تعبير الآية تعرّض الأرض لسلسلة ضربات تدكّها، لدينا الآية 14 من سورة الحاقة التي تقول بأن الأرض والجبال تُدَكَّانِ دكّة واحدة، وهذا مثل دكّ ماسورة البندقية القديمة بالبارود، تضربها عدة ضربات بالشيش "بالسيخ" وتحصل في الأخير على دكّة واحدة من البارود. ستتعرّض الأرض للعديد من الدكّات لتصير في الأخير هي والجبال دكّة واحدة، أمّا كيفية "آلية" حصول ذلك؟ غير واضحة من القرآن الذي لم يذكر آليات حصول ذلك، والأرجح أنه انضغاط داخلي للأرض والذي سينتج عنه زلازل... وليس اندكاكاً من تعرّضها لنيازك.

(وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً{22})
اختصرت الآية السابقة وهذه الآية كل تفاصيل حصول يوم القيامة وما بعده، وانتقلت بنا سريعاً إلى موقف نكون فيه في مواجهة مع ربنا سبحانه ومع ملائكته(ع) لمحاسبتنا.

{وَجَاءَ رَبُّكَ}، المسؤول عنك من مستوى إلهي حضرت محاكمته ومحاسبته، "ويشعر الناس يقيناً أنهم واقفون ملاقوه تعالى ليجازيهم"، {وَالْمَلَكُ}، جاء من هم موصوفون بامتلاك شيء ما، ونفس هذه الكلمة وبنفس هذا المعنى نستعمل منها كلمة "ملائكة" لنشير إلى الكائنات التي تملك قدرات عالية ولا تستعملها في مخالفة أوامره تعالى، جاءت الملائكة(ع)، {صَفّاً صَفّاً}، الملائكة على هدف واحد بالتمام يقومون كلّهم بمهمّة واحدة وهي محاسبة الناس، يحشرونهم زُمَراً يوزّعون عليهم صحف أعمالهم ويشهدون عليهم... وهذا هو معنى مجيئهم صفّاً، لا يعني أنهم واقفون وراء بعضهم وعلى جنب بعضهم بخطوط مستقيمة، لا، هذا من تطبيقات كلمة صفّ وليس معناها الأساسي، العسكر

يقاتلون العدو صفّاً ولا يعني هذا أنهم واقفون بالصف في خطوط متوازية، بل يعني أنهم مجموعة واحدة ملتزمة ببرنامج موحّد لن تتراجع عنه.

هنا في الدنيا لا يمكننا رؤية الملائكة بالعين إلا إذا تمثّلوا بشكل من مادة عالمنا، وفي يوم القيامة سنراهم، لأنه سيحصل تبدّل في خلقتنا بشكل يمكّننا من رؤيتهم، أمّا بالنسبة له تعالى فلا يمكن أصلاً رؤيته لا بالعين ولا بأي وسيلة، لا بشكل مباشر ولا بشكل غير مباشر، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وحتى الملائكة العالية(ع) كجبريل(ع) وميكال(ع) وحملة العرش(ع)... يتعاملون معه عزّ وجلّ وَحْياً بسبب الفرق الهائل جداً بينهم وبينه تعالى، لا يمكنهم التعامل معه عزّ وجلّ مباشرة، ولا أي كائن مهما علت مواصفاته لن يستطيع التعامل مع الواسع المحيط اللطيف، وترى ذلك من الآية 12 من سورة الأنفال {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ...}.

هكذا تفهم من تعبير الآية هنا عن مجيئه تعالى ومجيء الملائكة أننا في يوم القيامة سنتبدّل لدرجة نشعر فيها بوجوده تعالى بشكل قويّ، وفي الكتب تعابير عن ارتفاع حجب من الحجب الكثيرة التي بيننا وبينه تعالى حتى نصير نشعر بوجوده بشكل أقوى هنا في الدنيا أو هناك في الآخرة... وهذه تحاليل افتراضية مستوحاة من منطوق الآية 15 من سورة الشورى {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ...} ومن الآية 15 من سورة المطففين {كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ}، ولكن هذه الآيات التي وردت فيها كلمة حجاب، أو غيرها، ليست صريحة بالقدر الكافي لاستخراج مفهوم لوجود حجب بيننا وبينه تعالى، خاصةً حين يتكلمون عن الشعور به تعالى من بعد الارتقاء إيمانياً أو النزول في الكفر والفسق والنفاق... هذه مشاعر وجدانية لا ننفيها ولكن نستصعب عكسها لحقيقة غير حجمها كمشاعر، ربما عملياً إذا تحدّثنا "كما يتحدثون" عن اختلاف طبيعة تكويننا في الآخرة بحيث يصير لدينا قدرات مختلفة تجعلنا نشعر بوجوده تعالى بشكل أقوى، فربما بهذا الشكل نظنّ سيحصل معنا في الآخرة أن يصير المؤمنون نورانيين كما قالوا عن الملائكة أنها نورانية روحانية بسيطة التكوين... وبسبب تكوينها هي أقرب منّا للتعامل معه تعالى من وراء حجب أقل، هذا احتمال لا يظهر له تأييد مباشر وصريح من القرآن، أصلاً الفرق بين تواصله تعالى معنا وتواصله مع الملائكة يبقى على حاله بدون فرق جوهري كما هو صريح من القرآن، كِلَانَا يستحيل علينا التواصل المباشر معه تعالى بسبب الفرق الهائل بين "طبيعته" سبحانه وبين تكويننا.

بالنسبة للتعبير عن مجيئه تعالى نتذكّر دائماً أنه سبحانه ليس له جسم ولا كيان محدّد... حتى يتنقل في يوم القيامة أو هنا في الدنيا، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} كما ورد في الآية 11 من سورة الشورى، كما نقول جاءت الحرب، جاء فصل الربيع... ليست الحرب ولا الربيع كائنا له جسم، تكون الجملة وصف حالة. أو نقول: قتلته الحرب. الحرب ليست كائنا يطلق الرصاص. أو نقول: أزهر الربيع. هذه الجمل وصف حالة.

مثلما نفهم تعبير حمل العرش الوارد في الآية 17 من سورة الحاقة {وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}، الكلام عن وصف حالة، هناك ثمانية موظفون بمهمات من نوع الإدارة المركزية لما في الدنيا، والعرش وصف للإدارة المركزية، وصف حالتهم أنهم حاملون للعرش.

هنا {جَاءَ رَبُّكَ} تعني صيرانك في زمن محاسبته لك بعد أن كنت متروكاً بإرادة حرّة في الدنيا، هنا في الدنيا نشعر بشكل خفيف بمراقبته سبحانه لنا، لا نشعر بها نهائياً حين ننغمس في معصيته، ولكن حين نخاف ونحتاج لمساعدة من مستوى إلهي نشعر به عزّ وجلّ بشكل أقوى... هذا هو نفس المفهوم عن مجيئه تعالى في يوم القيامة، حيث لن نشكّ بأننا واقفون نتحاسب في حضرته تعالى، وهذا الكلام من ناحية الشعور به تعالى.

الكلام في الآية عن وصف حالة سيطرته تعالى على كل ما يحدث في يوم القيامة وما بعده من حساب، ولا يقصد الإشارة إلى مدى شعورنا به تعالى، ولكن انجرفنا بالكلام عن ذلك بسبب ما هو دارج منتشر في الكتب.

(وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى{23})

{وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ}، تمّ إحضار المكان الموصوف بسوء ما فيه، تعلم من عموم القرآن أصحاب الجنة على جهة اليمين والجنّة من جهتهم، وأصحاب النار على جهة الشمال والنار من جهتهم، ويتم تسعيرها وتقريبها منهم كلما مرّت أيام محاسبتهم، وراجع كمثال الآية 91 من سورة الشعراء {وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ}، وبشكل أصرح في الآية 27 من

سورة الملك {فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا...} {يَوْمَئِذٍ}، في ذلك اليوم، في زمن القيامة من الموت وما بعده، {يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ}، يستحضر في فكره الغالب الأعمّ من الناس ما قيل لهم عن اليوم الذي هم فيه الآن، يستحضرون ما قيل لهم عن عودتهم إلى الحياة وعن العقاب لمن فعل السوء وهو نفسه مخالفة كلامه تعالى، {وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ}، هل هذا الزمن المناسب له ليستحضر ما قيل له عن الآخرة والحساب؟ الزمن المناسب لذلك كان في الدنيا أمّا هنا في الآخرة فهو زمن الحساب ما منفعته من الاستذكار؟

هل سيكرمون اليتيم وينفقون على المسكين ويعطون الناس حصصهم من الميراث... هناك في يوم القيامة؟ أم سيرجعون إلى الدنيا ليكونوا مؤمنين صالحين؟ وأنت تعلم أن الرجوع للدنيا مستحيل انتهت، وأخبرنا القرآن مراراً أنه لا مجال لتعويض ما فات في يوم القيامة وما بعده، ولن يعيدهم تعالى إلى دار كالدار الدنيا، حياتنا الدنيا التي نحن فيها الآن هي فرصتنا الوحيدة للنجاة من العقاب والحصول على الثواب.

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي{24})
يقول الإنسان: {يَا لَيْتَنِي}، أتمنى حصول شيء من المستبعد حصوله الآن، {قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}، قمت بعمل سابق أقدمه لحياتي التي أعيشها الآن، كانت اهتماماته لحياته في الدنيا ولم يقدّم لنفسه شيئاً يستفيد منه في حياته في الآخرة.

بعبارة أخرى، هو واقف ولا حسنات معه، ومعه سيئاته وسينال العقاب عليها، لو في حياته في الدنيا قدّم لنفسه حسنات ليجدها أمامه في الآخرة لكان فاز، والآن يتمنى ذلك.

سؤال، الذي يتمنى ذلك إن حصل على فرصة ثانية ألن يستغلّها جيداً؟ الجواب نختصره بما ورد في الآية 28 من سورة الأنعام {بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}، راجع دراستها لمزيد من التفاصيل.

معيار الكرامة عنده تعالى ليس أن يعطيك المال هنا في الدنيا، بل إيمانك بالحق وفعلك للصالحات نتيجته حصولك أنت على الحسنات التي تنفعك في حياتك الآخرة وعندها سترى كرامتك عنده تعالى.

(فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ{25})
{فَيَوْمَئِذٍ}، في ذلك اليوم، في زمن القيامة من الموت وما بعده، {لَّا يُعَذِّبُ} الله {عَذَابَهُ} لهذا الذي لم يقدّم لحياته، {أَحَدٌ}، وتكملة الجملة تعرفها لوحدك: لن يعذّب تعالى أحداً ما بمثل ما سيتعذب به من لم يقدّم لحياته.

سيخطر ببالك أن الكلام في الآية قد يكون لشخص محدّد حتى تقول الآية عنه بأنه سيتميّز بعذاب لن يتعذّب أحد غيره بمثله، ولكن الكلام عن عموم من لم يقدّم لحياته، عن أقصى من كفر وأجرم، هذه النوعية من الناس لن يعذّب تعالى الآخرين بمثل ما سيعذّبهم به، والكلام في الآيات عن الإنسان عن الغالب الأعمّ من الناس، وليس عن إنسان عن شخص محدّد، من بين الغالب الأعمّ هناك مجموعة سيكون عذابها بشكل أشدّ من عذاب الآخرين.

كما تعلم هناك تدرجات في الكفر ومعصيته تعالى، هناك من لم يقدّم نهائياً ولا أي شيء لحياته في الآخرة، "وهذه النوعية من الناس التي تتحدّث عنها الآية هنا"، وهناك من كان أقل منه في الإجرام، وهناك أقل وأقل... مرّ معك مراراً أن القرآن عادة يتحدّث عن طرفين بعيدين عن بعضهما في الكفر والإيمان، يتحدّث عادة عن أقصى الكفر وأقصى الإيمان، وفي بعض السور نرى تفاصيل عن التدرجات التي بين الكفر والإيمان لأن موضوع السورة يناسب الحديث عن هذه التفاصيل، وهنا الآية تتحدّث عن أقصى الكفر، هذه المجموعة لا يعذّب سبحانه عذابها لأي أحد آخر في جهنّم، البقية سيكون عذابهم شديداً ولكنه أقل من تعذيب هذه النوعية.

كما ترى أول ما يخطر ببالنا أن الآية هنا والتالية تتحدثان عن شدّة العذاب، وأنه مخصّص بهذه الشدة لهذه النوعية من الناس، ولكن كلام الآيات ليس مخصصاً للشدّة، بل هو أقرب للنوعية، هناك نوع خاص من التعذيب لهؤلاء.

هل هذا يعني أننا نرجع لنتكلم عن نفس الموضوع، النوع الخاص من العذاب سيتميّز لأنه يسبب ألماً أشدّ، وبالتالي يرجع الكلام عن العذاب الأشد لهذه النوعية.

حتى لو كانت النتيجة هكذا بالكلام عن نوعية العذاب مرجوعها بالنتيجة للكلام عن شدة العذاب، فهذا لا يعني أن الآيات لن تتحدّث عن نوعية العذاب المميّز لهؤلاء المميزين في سوئهم، مرةً يتحدث القرآن عن اختلاف شدة العذاب، ومرة يتحدث عن اختلاف نوع العذاب.

(وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ{26})
{وَلَا يُوثِقُ}، لا يشدّ سبحانه بإحكام، {وَثَاقَهُ}، ما سينشدّ به هذه النوعية من الناس لتقييد حركتهم وإزعاجهم، {أَحَدٌ}، لا أحد آخر من غير هذه المجموعة سيتم تقييد حركته ومضايقته بالرباط بمثل ما ستناله هذه النوعية الأشدّ سوءاً والتي لم تقدّم أي شيء لآخرتها.

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ{27})
في مقابل الذي فاته قطار الذكرى ويتمنّى لو أنه قدّم لآخرته هناك من قدّم لحياته، وتخبرنا السورة عن وضعه:

{يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ}، يا أيها الشخص الذي توافرت له معطيات تعطيه الشعور بالتأكّد من استبعاد الخطر،

لا يشعر بالقلق من أي شيء، ويشعر بأن الأمور بخير وليس قلقاً من أي شيء.

مما سبق من كلام تفهم أنه شخص مطمئن لأنه متأكّد بأن حياته الآخرة ستكون جيدة وعلى خاطره لأنه آمن وعمل صالحاً، وبالتحديد هو عندما كان في الدنيا أكرم اليتيم وساعد المسكين ولم يأكل حقوق الناس ولم يحبّ المال... وكل ذلك ظهر له في الآخرة في كتاب أعماله كحسنات وسيحصل على أجره.

بقي شيء، كلام السورة من أولها لم يذكر صراحة وصف أعمال السوء بأنها مخالفة لكلامه تعالى، وذكر نماذج نراها نحن بسهولة أنها سيئة أو صالحة، جرياً على هذا الاطمئنان الموصوف به أحد ما، هو ناتج عن فعله للصالحات مع العلم أنها نفسها التي يصفها تعالى بالصالحات، ومع علمه بأن الكرامة عنده تعالى للفاعل للصالحات، وهكذا ترى وساعةً في تطبيق وصفه بالاطمئنان لأنه سيحصل على أجر عظيم في الآخرة، ولأنه حين فعل الصالحات صار مرتاحاً من تماشيه مع ما يراه صالحاً.

بتعابيرنا المؤمن هنا في الدنيا ضميره مرتاح لأنه لا يفعل السوء، ويغفر للآخرين، ويساعدهم ولا ينتظر منهم شكراً... وعند المصائب يصبر ويحتسب أمره إلى الله تعالى... ولا يمدّ عينه إلى ما تمتّع به الآخرون من نعمة... هو دائما في حالة سعادة داخلية، وهذا ينتج عنه الاطمئنان على شكل استقرار نفسي، وهو بالضبط ما تقصده الآية، هي تصفه بالاطمئنان من حين ما كان في الدنيا.

(ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً{28})
{ارْجِعِي}، عودي أيتها النفس المطمئنة، {إِلَىٰ رَبِّكِ}، إلى المسؤول عنك من مستوى إلهي، عودي من الموت، {رَاضِيَةً}، ليس لديها أي اعتراض بل تقبل بمحبّة رجوعها من الموت إليه تعالى، {مَّرْضِيَّةً}، كل ما تقومين به سيكون مقبولاً ولا اعتراض عليه.

من عموم القرآن نفهم التعبير عن رجوعنا إليه تعالى على أساس أننا له تعالى ولسنا تابعين لإله غيره، وعندما نموت لن نختفي ولن نذهب لعالم آخر غير تابع له تعالى، ولن نذهب إلى إله غيره... لا إله إلا هو ونحن سنرجع إليه تعالى ليحاسبنا ويجازينا.

أيضاً من عموم القرآن ترى التأكيد المتكرّر منه تعالى لنا، من آمن وعمل صالحاً سيكون مسروراً جداً في الآخرة، ولن يتأفف أو يضجر أو يعترض أو يملّ من أي شيء سيحصل عليه في الآخرة، لأن الجنّة فوق أي روعة يمكننا تصوّرها، وهي في تجدّد دائم، وترى ذلك مختصراً في الآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا}.

أيضاً من عموم القرآن تفهم أن أهل الجنّة مهما فعلوا سبحانه وتعالى سيكون دائماً راضياً عنهم، ليس مطلوباً منهم أي شيء، حتى كلمة شكراً غير مطلوبة منهم، وتعابير القرآن دقيقة في تصوير هذه الحالة، استعمل تعابيرَ تدل على تمليكهم للجنّة وتوريثهم لها وأنها عطاء لهم بفضله تعالى، لم يستعمل تعابيرَ تدل على وجوب شكرهم له تعالى، كالمنّة

والإحسان... وما تقرأونه من نقل لشكر أهل الجنة له تعالى، إنما يصدر منهم عفوياً وتلقائياً من شدة روعة ما وجدوه من معاملة حسنة وكرامة في يوم الحساب ومما يجدونه من روعة الجنّة، وتتذكّر أنه في الجنّة لا يوجد أي تكليف عليهم، لا صوم ولا صلاة ولا... ولا أي شيء واجب، ويمكنهم أن يفعلوا ما يشاؤون... طبعاً تتذكّر أن نفسيتهم ستكون بلا حسد ولا غلّ ولا أضغان كل المشاعر السيئة سيتم نزعها منهم...

نتذكّر دائماً أن كلمة رضا ومشتقاتها، معناها في كلام العرب وفي القرآن: وصف شعور كتعبير عن القبول وانتفاء الاعتراض بل بالعكس هو الموافقة المتدرجة من السرور إلى الحبّ عن فعال أحد ما، والوصف يشمل شعورك "بالرضا" على العمل أو على صاحب العمل. هي ليست وصفاً لقبول شيء مكروه، هذا وصفه الصبر، في أدبياتنا نجد كلاماً عن الصبر على المكروه، وأن الرضا بالمكروه أعلى من الصبر، وهذا معنى لم يستعمله القرآن في كلامه، ومخالف للمعنى اللغوي لكلمة رضا، ويحمل في طياته معاني أخرى مرفوضة إذا قارنتها مع مفاهيم القرآن، سبحانه لا يخصّص "من عنده" مكروهاً لمؤمن حتى يكون إيمانه عالياً بالرضا على المكروه، أي مكروه غير محبوب يحصل مع المؤمن هو بسبب ذنب ارتكبه المؤمن أو ذنب ارتكبه غيره، وليس منه تعالى أبداً بتاتاً وهذا واضح من عموم كلام القرآن ومنه الآية 30 من سورة الشورى {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}.

نعم لا مشكلة بالتهاون في معاني الكلمات في الأدبيات التي بيننا إلا إذا كانت تعبّر عن شيء ديني منسوب له تعالى، القرآن دقيق في تعابيره ولا يتهاون أو يتساهل أو يتراخى في معاني الكلمات التي يستعملها، وعندما نتهاون نحن ويصير للكلمات معان نظنها من مفاهيم قرآنية، وعندما تترسخ هذه المعاني المتراخية للكلمات في ذهننا، عندها سنقع في مشكلة تفسير كلام القرآن على أساس المعنى والمفهوم الذي أصلاً تراخينا فيه.

لدينا كم هائل من الآيات التي تصف روعة الجنّة وأن من يدخلها سيبقى مذهولاً بروعة ما فيها أبداً، بلا ملل ولا أي رغبة في شيء آخر، كل ما يرغب به يجده في الجنّة، بل يجد فيها ما لا يخطر على باله... وكمثال جامع لذلك ما ورد في الآية 108 من سورة الكهف {خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} فهو راض بها، وراض عنه تعالى، وهذا هو معنى كلمة الرضا لغوياً وهكذا استعملها القرآن، وهي لا تتحمّل ولا تتوافق مع ما درج في أدبياتنا عن الرضا على شيء مكروه، والذي سيعني ضمناً احتمال حصول شيء مكروه في الجنّة، ورغم ذلك سيرضى عنه المؤمن، لا، انتبه دائماً من ذلك.

(فَادْخُلِي فِي عِبَادِي{29})
{فَادْخُلِي}، أيتها النفس المطمئنة، {فِي عِبَادِي}، في الذين مفروض منهم طاعتي، والكلام هنا عن الذين تصرّفوا في حياتهم الدنيا على هذا الأساس، وكما ترى الآية تتحدّث عن دخول النفس المطمئنة في زمرة العباد الذين سيدخلون إلى الجنّة، بعد قيامنا من الموت يتم تجميعنا في مجموعات، في زمر، وهنا الآية تصف دخول النفس المطمئنة في المجموعة التي فيها بقية أصحاب النفوس المطمئنة.

كلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة هي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

نحن نستلطف كلمة عباد على كلمة عبيد، كأن كلمة عبيد قاسية وتشير للعبد المملوك، وكأن كلمة عباد ألطف وتشير لمن عبد الله تعالى وآمن به كإله، ولكن هذا غير صحيح، كلاهما نفس المعنى بلا أي فرق سوى أن عبيد جمع عبد، وعباد جمع عبيد، هي جمع الجمع، أثناء الكلام بدقّة قد تكون الإشارة لمجموعة عبيد بينهم شيء خاص مشترك، فتقول الآيات: عبيد. وردت في القرآن بهذا التصريف خمس مرات وكلّها كانت تشير لمجموعة واحدة مشتركة على تقديم السوء لأنفسهم. وقد تكون لكل العبيد بكل أنواعهم فتقول الآية عباد، كما ورد في الآية 18 من سورة الأنعام {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}، حيث كانت الكلمة شاملة للعبيد المؤمنين وللعبيد غيرهم. وقد تكون لمجموعات العبيد المشتركة على فعل السوء مثل ما ورد في الآية 30 من سورة يس {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}، هي تشير لعبيد جاءهم رسول، وعبيد آخرون جاءهم رسول، وعبيد آخرون... جمع الجمع

"عباد"، كلمة عباد ليست حصرية الاستعمال للمؤمنين كما يقول البعض، وكمثال واضح جداً عن ذلك ما ورد في الآية 17 من سورة الإسراء {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

(وَادْخُلِي جَنَّتِي{30})
{وَادْخُلِي} أيتها النفس المطمئنة إلى، {جَنَّتِي}، إلى المكان الموصوف بروعة ما فيه، بمناظره الطبيعية الخضراء وما فيه من وسائل سعادة وترفيه والمنسوب له تعالى، سيكون ذلك المكان على أعلى المواصفات والروعة، وهذه هي الكرامة عنده تعالى في الآخرة للمؤمن العامل للصالحات.

سورة البلد (90) ص 594
تتحدّث السورة عن وقوع الإنسان تحت سيطرته سبحانه الذي خلق الإنسان في كَبَدٍ، ولا يمكن للإنسان التحكّم في كل مجريات حياته، ولكن يمكنه أن يعمل في حياته ليضمن حُسْنَ آخرته، وإن لم يفعل فآخرته ستكون سيّئة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ{1})
{لَا أُقْسِمُ}، لست بحاجة للتأكيد، {بِهَذَا الْبَلَدِ}، بهذه البقعة المحدّدة من الأرض، بمجرد الإشارة ولفت الانتباه للبلد وما فيه "الكلام عن النموذج مكّة" سترى أن كلامه تعالى صحيح، بعض الناس يشعرون بالسيطرة التامّة على مجريات حياتهم، تأتي السورة هنا لتنفي ذلك عبر لفت انتباهنا إلى مجريات حياتنا الاجتماعية في بلد، والتي تدل بوضوح أننا لسنا مسيطرين على أمور حياتنا.

وجّه القرآن كلامه إلى النبي محمّد(ع) كنموذج لنا جميعاً، فأيُّ واحد منّا يعيش في بلد سيفهم ما تقوله له الآية عن الحياة الاجتماعية للإنسان...

(وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ{2})
{وَأَنتَ}، أيها النبي محمد(ع) النموذج لأي قارئ لهذا الكلام الإلهي، أنت، {حِلٌّ}، حالٌّ، تحلّ، مُتواجد، مُقيم في {هَذَا الْبَلَدِ}. تتحدّث السورة عن حالة الإنسان في بلد أنه سيكابد... وأنت إنسان في بلد، ستفهم بسهولة ما سنقوله لأنك تعيشه.

من المشهور أن هذه السورة حين نزلت كان النبي محمّد(ع) في مكة، فيكون البلد مكّة كنموذج، لكنّ معنى الآية عامّ وينطبق على أي بلد "النبي أو أنت" حلّ فيه، تعيش فيه وترى مجريات الحياة الاجتماعية فيه، من غنىً وفقر وعمل...

(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ{3})
ولا أقسم بـ {وَالِدٍ}، الأب والأم الحقيقيان، ولا أقسم بـ {وَمَا وَلَدَ}، ما توالد من الوالد، الابن أو البنت الحقيقية وليس الذي يتبنّونه. كلمة والد تعني بالتحديد من ورّثك صفاته الجينية، توالدت منه ولا تقال لمن تبناك أو ربّاك أو اعتنى بك، الأم والأب "الحقيقيان" كلاهما تنطبق عليهما كلمة والد.

نحن نتوالد من بعضنا وعادةً يتحمّل الوالد عبءَ تأمين ما يحتاجه ولده، والكلام أيضاً نموذج، بعض الآباء يتخلّون عن أولادهم وتهتم بهم أمهاتهم... وبقية السورة سترينا أننا في كل أحوالنا نعيش تحت ظروف قاهرة ولسنا مسيطرين على أمورنا، فمن بداية حياتنا يتكفّل "والدنا والدتنا" بنا، طبعاً هذا بشكل غالب عام، وهو الوضع الطبيعي المفترض، الطفل سيموت إذا بقي من دون رعاية، وتستمر حاجته للعناية إلى أن يكبر ويستطيع تحصيل رزقه وتأمين مسكنه وطعامه، وهذا ما تشير له الآية هنا مع ضمّها لما قبلها من تواجد الناس في بلد، في بيئة اجتماعية ينتج عنها أمور كثيرة بسبب اجتماع العديد من الناس في بقعة محدّدة، وسترى في بقية السورة كلاماً عن الغنى والفقر، وهذه من نتائج الحلول للوالد والولد في بلد.

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ{4})
هذه الآية والتي تليها هما جواب القسم المنفي، لا أقسم... سبحانه ليس بحاجة ليقسم ليؤكّد أن:

{لَقَدْ خَلَقْنَا}، ركّب وألّف سبحانه، {الْإِنسَانَ}، الغالب الأعمّ من الناس، {فِي كَبَدٍ} "بفتحة على الباء"، في عموم الظروف التي فيها تعامل مجهد من شيء ما أو من أشياء، ويتدرج الجهد من العادي إلى الصعوبة.

حتى يبقى الإنسان حياً، وحتى يُؤَمِّن الإنسان طعامه ومسكنه وما يحتاجه لنفسه ولأولاده، حتى يتعامل مع الآخرين في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والأمنية... سيكابد، سيبذل جهداً، وجوده في بلد مع آخرين سينتج عنه كبد التعامل معهم، الكلّ يسعون لتحصيل ما يحتاجونه سيكون بينهم تنافس وفرص... وطمع وجشع... وغنى وفقر... وسيأتيك في بقية السورة أنه حتى يحصل الإنسان على درجة الإيمان، عليه باقتحام العقبات التي هي نوع من الكَبَدِ هي التي فيها المشقات.

الآن نعيد صياغة الآيات بكلمات بسيطة: كلّ بلد له خصائصه، ولذلك استعملت الآية كلمة بلد ولم تقل مكة أو يثرب... حتى ننتبه أن الموضوع ليس مختصاً ببلد معيّن محدّد، وحتى ننتبه أن الموضوع يتعلق بمشكلة تنشأ عندما يعمر الناس مكاناً ما، حين يجتمع الناس في بقعة جغرافية سينتج عن ذلك كبد لهم، ونحن لسنا غريبين عن هذه المشكلة لأننا نعيش في بلد ونكابد... وهذا ما قصدته الآية بقولها للنبي أنه حلّ بهذا البلد، قصدت أنك تعي تماماً مشاكل المكابدة، ها أنت في بلد وترى المكابدة.

تلفت الآيات نظرنا باختصار شديد لما جعله سبحانه فينا من القدرة على التوالد، فيكثر عددنا، ونصير مجتمعاً سكانياً، وينتج عن ذلك الكبد، سبحانه صمّمنا "التعبير القرآني: سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" وخلقنا لنعيش في كبد، وهي لا تعني المعاناة بل التعاطي بجهد مع الأمور من الدرجة العادية لحياة تسير بهدوء، وصولاً إلى المعاناة الشديدة من الظروف الحياتية.

ضع في بالك دائماً أن القرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموماً ذكراً وأنثى، وأنهم يتناسلون... أو متعلق بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

(أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ{5})
الإنسان الذي في كبد، يقول له تعالى: {أَيَحْسَبُ}، هل يخطر في باله ومن دون أي دليل، {أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ}؟ من الآية التالية ستعلم أن الكلام عن راحته المالية، هل يخطر بباله أن الراحة المالية التي هو فيها لن تتغيّر بل لا يمكن أن تتغيّر ولن ينقص مقدار ما معه من مال؟ لن نقدر عليه، لن نجعل مقدار ما معه من مال أقل.

بعبارة أخرى من أين يأتي هذا الإحساس عند الغالب الأعم من الناس الذين يمرون في حالة مالية مريحة، كيف يشعرون أنهم مسيطرون على كلّ الأمور ولن تتغيّر أحوالهم؟ وكيف يحسبون بأنه حتى سبحانه لا يمكنه تغيير ظروفهم ليصير ما معهم مقدّراً بمقدار قليل!

الآية لا تقصد أن كل إنسان غني أو ثري يحسب أنه لن يصير فقيراً، بل تشير لعموم الناس الذين يمرّون في مرحلة ما من حياتهم ويكونون فيها مرتاحين مالياً، لديهم معاش شهري ثابت، وضمان صحّي... أو لديهم عمل تجاري ناجح... أو لديهم عقارات وشركات... هذا الشعور بالسيطرة واستبعاد أي قدرة يمكنها تغيير حالهم، هذا الشعور يمكن أن يحصل حتى لإنسان عامل يعيش على معاشه الشهري، والسورة في الآية التالية تشير إلى الأثرياء من الناس كنموذج بارز يمكنك فهمه بسهولة وبوضوح، وأن تقيس عليه بقية النماذج الأقل منه ثراءً وصولاً إلى العامل العادي الذي يشعر بثبات ظروفه الاقتصادية.

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً{6})

{يَقُولُ}، الإنسان الذي يشعر بأنه لا سلطة فوقه يمكنها تغيير حاله: {أَهْلَكْتُ}، استنفدت، صرفت، أنفقت، {مَالاً لُّبَداً}، أموالاً ملبدة فوق بعضها، أكواماً من المال، الكثير الكثير من المال، هذه العظمة التي أنا فيها لم تتغيّر رغم صرفي للكثير من المال على ثيابي وبيتي وأثاثه وسياراتي وحفلاتي ورحلاتي...

نلتفت للشعور بالعظمة والزهو والافتخار، وهو شيء تراه بسهولة في الناس غير المتواضعين، في المتكبرين المزهوين الفخورين بمالهم وبوضعهم الاقتصادي المريح، مشيتهم وحركاتهم وطريقة كلامهم وتصرفاتهم وأقوالهم... تدلّك على من يستند إلى راحة وطمأنينة تامّة بأن وضعه المالي ممتاز، ولا يخطر بباله أن أوضاعه يمكن أن تتغيّر، ليس بالضرورة أن يكون ثرياً فاحش الثراء حتى تنطبق عليه الآية، لا، بل الثري عادة يكون نموذجاً بارزاً، يشعر بأنه جبل لا تهزّه الريح، ونفس الإحساس موجود عند الشخص العادي الذي تشكّل له المبالغ المالية الصغيرة قيمة عالية نسبة لمدخوله، الثري أنفق الملايين والمليارات، والعادي أنفق العشرات والمئات، لكنّ نفسية الزهو والافتخار مشتركة بينهما.

(أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ{7})

{يَقُولُ}، الإنسان الذي يشعر بأنه لا سلطة فوقه يمكنها تغيير حاله: {أَهْلَكْتُ}، استنفدت، صرفت، أنفقت، {مَالاً لُّبَداً}، أموالاً ملبدة فوق بعضها، أكواماً من المال، الكثير الكثير من المال، هذه العظمة التي أنا فيها لم تتغيّر رغم صرفي للكثير من المال على ثيابي وبيتي وأثاثه وسياراتي وحفلاتي ورحلاتي...

نلتفت للشعور بالعظمة والزهو والافتخار، وهو شيء تراه بسهولة في الناس غير المتواضعين، في المتكبرين المزهوين الفخورين بمالهم وبوضعهم الاقتصادي المريح، مشيتهم وحركاتهم وطريقة كلامهم وتصرفاتهم وأقوالهم... تدلّك على من يستند إلى راحة وطمأنينة تامّة بأن وضعه المالي ممتاز، ولا يخطر بباله أن أوضاعه يمكن أن تتغيّر، ليس بالضرورة أن يكون ثرياً فاحش الثراء حتى تنطبق عليه الآية، لا، بل الثري عادة يكون نموذجاً بارزاً، يشعر بأنه جبل لا تهزّه الريح، ونفس الإحساس موجود عند الشخص العادي الذي تشكّل له المبالغ المالية الصغيرة قيمة عالية نسبة لمدخوله، الثري أنفق الملايين والمليارات، والعادي أنفق العشرات والمئات، لكنّ نفسية الزهو والافتخار مشتركة بينهما.

(أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ{8})

ألم نجعل له، للإنسان، عينين؟ كيف يرى ما حوله؟ أليس يرى بعينين؟ من أين حصل عليهما؟

كيف نسيت من أين حصلت على عينين، ونسيت أن من أعطاك العينين لترى من البديهي أنه يرى، كيف نسيت أنه يراك حين أهلكت المال على السوء ولم تنفق منه كما أمرك تعالى؟

(وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ{9})

هذا الذي يظن أنه لم يره أحد حتى الله سبحانه، هو أيضاً يحسب أنه لم يسمعه أحد! تقول له الآية:

ألم يجعل الله تعالى لك، لساناً تحرّكه وشفتين تحركهما للتكلم بهما؟

الذي خلق هذه الأدوات التي يصدر عنها الصوت هل من المعقول أنه لا يسمعها؟ كيف سيخلق لنا سبحانه أدوات نستعملها لإصدار الصوت وسبحانه لا يعلم ماذا يمكنها أن تفعل! أو أن يكون سبحانه لا يستطيع سماعها!

سبحانه يسمعك أيضاً حين تتحدّث عن عظمتك وزهوك وافتخارك.

(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ{10})

{وَهَدَيْنَاهُ}، دللناه على الشيء الصحيح الذي يوصل للغاية الصحيحة، {النَّجْدَيْنِ}، الطريقين اللذين يبدوان من بعيد بشكل واضح، دينياً في أدبياتنا نقول بوجود طريقين أساسيين في حياتنا، طريق الضلال ونهايته العقاب، وطريق الهداية ونهايته الجنّة، بيّن لنا سبحانه الطريقين بشكل واضح، وهدانا لهما معاً، دلّنا وعرّفنا عليهما، رأينا الطريق الصحيح،

ورأينا الطريق السيّء بشكل واضح لنبتعد عنه. الهدى ليس محصوراً بالمشي على الطريق الصحيح، بل الابتعاد عن الطريق الخطأ أيضاً هو الهدى، كلاهما عملياً هدىً.

ما معنى شعور الإنسان بالعظمة والانفلات من المراقبة الإلهية طالما يوجد لديه علم بطريقين أحدهما صالح والآخر فاسد؟ لست بحاجة للتفكير المعمّق لتفهم الآية، نحن في حياتنا لدينا تصانيف للأمور، هذه نقول عنها أمور حسنة وغيرها نقول عنها سيئة، وطالما لدينا هذه التصانيف ما معناها إن لم يكن لها قيمة؟ وما معناها إن كان من يملك المال يشعر بأنه عظيم وفوق أي قانون وشريعة ويمكنه إهلاك ماله كما يشاء؟ هل نسي أنه مخلوق اجتماعي توالد ويلد ويعيش في بلد وهذا يستدعي من الجميع أخذ هذه المسألة بعين الاعتبار...

من ثقافتنا الدينية المتراكمة صرنا نتحدث بلغة دينية متقدمة ناسين للأساسيات التي على أساسها وجّه تعالى لنا كلامه في كتبه، أقل ما ذكره القرآن استعمالاً هو الحلال والحرام والواجب والمباح والنافل، وأكثر ما استعمله الخير والشر والسوء والفساد والصلاح... هنا كلام الآية عن هدايتنا لنجدين تشير لأساس أساس كل كلامه تعالى معنا بالتكليف، جعل سبحانه فينا القدرة على تمييز الخير من الشرّ، الحقّ من الباطل، الصالح من الفاسد... هذه هي العناوين التي جمعتها كلّها الآية بالنجدين، ومنحنا سبحانه حرية الإرادة للاختيار منهما، وعلى هذا الأساس سيحاسبنا سبحانه على ما فعلناه.

الآية هنا تعبير آخر عمّا ورد في القرآن ومنه الآية 8 من سورة الشمس {فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}، هذا كلام له عمق من جهة محاسبته ومجازاته تعالى لعموم الناس في أي زمان أو مكان كانوا، سواء عاصروا نبياً أو رسولاً أو مؤمناً صالحاً أو وصلهم كتاب منه تعالى... أو كانوا في صحراء قاحلة أو مجاهل أدغال ولم يسمعوا بأي شيء عن دينه تعالى، هؤلاء لا معنى لكلام القرآن معهم لأنهم لم يسمعوا أصلاً به، وإن كنت تسأل عن حالهم وتريد جواباً من القرآن عنهم، فانتبه أنه لا معنى لكلامه معي عنهم، ما الفائدة لي أو لهم؟ هو الفضول لي، ولا شيء لهم لأنهم لم يسمعوا بالقرآن.

على أي حال، عموم مفاهيم القرآن تريك أنهم مثلك في الأساسيات، هم مثلك لديهم قدرة تمييز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ، وبهذا المقدار الذي يعلمونه سيتحاسبون ويتجازون.

بما أن الكلام عن فرضية وجود قوم أو إنسان لم يصله أي شيء من دينه تعالى، نفترض أيضاً حصول مختلف الحالات من الصلاح الفكري والنفسي فيهم وصولاً إلى الإجرام، ولو افترضت أن حالهم سيتغيّر لو وصلهم أي شيء ليهديهم، فمعلومٌ لك أن طروحات الصلاح والاستقامة والعدالة لا تختفي من أي مجتمع كان.

إذا سألت عن سبب حرمانهم ممن يهديهم، فهذه مسألة تجيبك في نفس الوقت عن سبب انحصار أنبيائه تعالى فيما يسمّى بمنطقة الشرق الأوسط، في هذه المنطقة ومن ذرية آدم(ع) وبعده من ذرية النبي نوح(ع) وبعده من ذرية النبي إبراهيم(ع)، من هؤلاء فقط وفقط تأهّل منهم من فيه الصفات المناسبة ليكون نبياً أو رسولاً، هذه المسألة لا تتم عشوائياً ومزاجياً ليختار تعالى أشخاصاً ليجعلهم أنبياء، لا، لماذا لم يجعلني أنا نبياً؟ واقع الحال أدّى إلى انحصار أعلى الصفات الإنسانية في بعض أفراد هذه العائلة، معلومٌ لك أن فيهم أيضاً أمثال الكافر أبي لهب الذي جدّه النبي إسماعيل(ع) وابن أخيه النبي محمّد(ع)... وفي هذه الذرية أيضاً ابن النبي نوح(ع) وزوجته الكافران، وفيهم الذين غضب تعالى عليهم وجعلهم قردة وخنازير وهم من المنتمين لدينه سبحانه...

من هذا المختصر تنقشع الضبابية من أمامك، لا تظن بتميّز كل المنتمين لدينه تعالى، ولا بالذين من ذرية الأنبياء، ومن ناحية ثانية لا تحكم بضبابية على الآخرين من غير المنتمين لدينه تعالى بأنهم كلهم سيئون، هذا غير صحيح، وكمثال عن ذلك الاحترام البالغ لأرسطو وأفلاطون وسقراط وأفلوطين... وآخرين من فلاسفة اليونان الموحدين، مشهورٌ أنهم لم يكونوا من المنتمين لدينه تعالى، وستفهم كلامي هذا إذا انتبهت كيف يتكلم القرآن عن الموصوفين بأنهم أنبياء، لا فرق بينهم وبين الآخرين سوى بمستواهم المتميز في الصلاح، ولذلك وظّفهم تعالى كأنبياء.

يعني انظر لجميع البشر بدون أي معرفة دينية، لا تحكم عليهم من معلوماتك وتصانيفك الدينية لتقول عن هذا إنه منتمٍ لدينه تعالى وذاك مؤمن بدينه تعالى والآخر كافر... والآن انظر للنماذج الصالحة من البشر والتي اختارها القرآن

ليذكرها لك، بديهيٌّ أنهم انتموا لدينه تعالى لأنهم آمنوا بالحق وعملوا الصالحات، والآخرون الذين لم يذكرهم القرآن بعضهم موحّد وصالح بدرجة ما، ولكنه بعيد عن أن يكون نموذجاً ليذكره لك القرآن لتقتدي به.

تصير المسألة أسهل إذا انتبهت لكلام القرآن عن لقمان(ع)، لم يصنّفه بالرسالة ولا بالنبوّة ولا بنزول الوحي عليه ولو لمرة واحدة... هو مجرد رجل عادي مؤمن بالحق وصالح، ولكن يبدو أنه كان صالحاً بدرجة عالية ويستحق عليها أن يكون كلامه وسلوكه قدوة للآخرين.

أمّا بعض فلاسفة اليونان "كنموذج"، فهم موحدون، ويبدو من سيرتهم أنهم كانوا بشكل ما صالحين، ويبدو أن إيمانهم وسلوكهم كان أفضل من سلوك الكثيرين من المنتمين لدينه تعالى من يهود ومسيحيين ومسلمين... هل هم إلى النار لأنهم ليسوا منتمين لدينه تعالى؟! لا.

هكذا تفهم عمومية آيتنا هنا عن هدايتنا النجدين.

أمّا مسألة قدرتنا على تمييز الخير من الشرّ، فتبقى سليمة بحسب سلامة قلوبنا، إن بدأنا بممارسة ما نعلمه سيئاً، فسيبدأ الرين على قلوبنا إلى أن يعمى وينطبع على السوء، وبعدها نصل في بعض المواضيع إلى فقدان القدرة على تمييز سوئها من حسنها، ترى المجرم يقتل الأبرياء والأطفال ولا يرفّ له جفن، بل ويقنعك بأنه على حقّ! هذا الإجرام ليس خاصاً بغير المنتمين لدينه تعالى، ولا بالذين لم يصلهم أي شيء ديني منه تعالى، بل موجود في المنتمين لليهودية والمسيحية والإسلام، وهؤلاء لم ينفع معهم كتبه تعالى ولا أنبياؤه ولا الصالحون، ونفس الشيء مع الآخرين الذين لم يصلهم أي شيء من دينه تعالى، الذين من هذه الدرجة من الإجرام لن ينفع معهم أي شيء، وإن فرضاً أسلموا بالقوّة أو لأنهم ولدوا في بيئة مسلمة نقول عنهم مسلمون، فالحال معلوم لك، سيصيرون مجرمين منتمين لدينه تعالى بالاسم...

(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ{11})
{فَلَا}، وصلنا لفظها "فَلَ" من دون مدّ حرف المدّ "ا"، "لا" ليست للنفي، فَلْيَقْتَحِمْ، لِيَقْتَحِمْ وَلْيَدْخُلِ الإنسان المؤمن بقوّة في شيء نهاب دخوله، {الْعَقَبَةَ}، في الطريق الذي فيه عقبات، فيه ما يمنع من السير بسهولة، وسترى من الآيات التالية كلامها عن أمور مطلوب من الإنسان اقتحامها لأنها ليست سهلة، كإنفاق المال على المحتاجين في الظروف الصعبة...

لاحظ السورة اختارت حالة أقصى النقيض لمن يشعر بالعظمة المستقرة المستمرة والذي لن يتضرر إذا أنفق على المحتاجين من المال المكدّس عنده، أمرتنا باقتحام العقبة، بإنفاق المال في الظروف الصعبة التي من الواضح أن الإنفاق فيها هو مخاطرة مالية، من غير المعلوم متى ستتحسّن الأوضاع الاقتصادية المؤثّرة عليك وعلى الآخرين، تستمر ويصير الأغنياء فقراء...

يعني الغني يمكنه التصدّق على المحتاجين ولن يكون ذلك عقبة كعمل فيه عقبات، أمّا لو كان وضعه المادي متوسّطاً وتصدّق على المحتاجين، أو كانت الظروف الاقتصادية العامة صعبة ولنقل مثلاً أن الأشغال والأعمال متوقفة أو ... وفي تلك الظروف تصدّق على المحتاجين فهو يقتحم العقبة، يقول له تعالى أن يقتحمها، وهذا ضمناً يشير للغني في ظروف مرتاحة ولم يتصدّق، تقول له آيتنا هنا إنه حتى في الظروف الصعبة يجب عليك مساعدة الآخرين طالما تستطيع ذلك.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ{12})
يمكنك القول: عندي معلومات عن العقبة، عن العقبات، الصعوبات المانعة من سير الأمور بسهولة، ولكن لا يمكنك القول: أدري بالعقبة، لأنك لم تعشها، لم تمارسها أو تحتك فعلاً فيها. وسيأتيك في الآيات التالية أبرز نماذج عن العقبة التي حتى لو قرأت عنها، فأنت صرت تعلم بها، ولكنك لا تدريها حتى تنفّذها وتصير فيها وتشعر فعلاً بالعقبة.

الكلام على الورق وقراءته مختلف عن معايشة حالة اقتصادية صعبة والخوف من انقطاع المؤن... ورغم هذه الظروف الصعبة التصدّق على الآخرين.

(فَكُّ رَقَبَةٍ{13})
هذا التعبير من المشهور جداً بين العرب، يقصدون به فكّ رقبة عبد من العبودية، تحرير عبد أو أمة "عبدة" من العبودية.

العبد مقيّد الحرية، وإذا صار مؤمناً فأمرك سبحانه بإعتاقه أو بدفع المال لتحريره من صاحبه، ولكن لم تقيّد الآية إعتاق العبد المؤمن فقط، ولكننا نفترضه بناءً على رفضنا فكرة إعتاق الشرير وبالتالي فصفات الإيمان فيه هي المرغوبة، ويدعم ذلك ما ورد في الآية 92 من سورة النساء {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}. ولكن هذا لا ينفي الأجر عن إعتاق عبد صالح ليس من المنتمين لديننا...

على أي حال، إن لم تر هذه عقبة فلأنك لم تقع فيها، بدل دفعك للمال على ما ترغب به وتشتهيه وهو زائد عن حاجتك، أو بدل كنزه، أو بدل الاحتفاظ به ليومك الأسود بشكل زائد عن حدود ما قد تحتاجه، أو... فبدل ذلك تقوم بدفعه لشراء حرية شخص وفكاكه من العبودية من دون حصولك ولا على أي مقابل، فبدل شرائه ليعمل عندك مقابل طعامه ومسكنه، دفعت مبلغاً كبيراً ولم تستفد منه شخصياً بأي شيء سوى العمل الحسن والأجر منه تعالى عليه، لأنك أطلقت سراحه وحريته ولم يعمل لديك.

هذه الآية الآن في عصرنا بعيدة عن الفهم أو التطبيق، لأنه في عصرنا الحالي لا يوجد عبيد -بشكل رسمي- في أغلب البلدان منذ العام 1955. وبالنسبة لنبذة عن تاريخ العبيد، ففي الأزمنة القديمة كان بعض الناس يقومون باعتقال أناس آخرين يسكنون في قرية صغيرة وليس لديهم حماية، فيأخذونهم ويجعلونهم يعملون في الزراعة أو رعاية المواشي أو الخدمة في البيوت من دون مقابل مالي، أي من دون أن يعطوهم أجراً، وكانوا أيضاً يبيعونهم. أو كانت تحصل حرب بين مجموعتين من الناس، والرابحون يأسرون الخاسرين كلهم من رجال ونساء وأطفال ويصيرون عبيداً عند المنتصر. حتى أنه إذا ضاع ولد، أو أي شخص، ووجده أناس في الطريق فإنهم يأخذونه ويصير عبداً لهم كما حصل مع النبي يوسف(ع) ومع زيد بن حارثة الذي صار فيما بعد ربيب النبي محمّد(ع)....

إذا كان بعض الناس يستغرب هذا لأنه يعيش في بلد وزمن ليس فيه عبيد، ويستغرب كيف يتحدث الإسلام عن العبيد واستعباد الناس، فبالرغم من أن البلدان الإسلامية هي من أوائل بلدان العالم التي انتهت فيها حالات العبودية، فالإسلام جعل شروطاً قاسية لاستعباد الناس، فحتى يجوز استعبادهم يجب اتصافهم بالكفر والمحاربة معاً، وسهّل تحريرهم، بل وجعل تحرير العبيد المؤمنين من الأفعال التي يعطي الله تعالى عليها حسنات، بل أكثر من ذلك جعل الإسلام تحرير العبيد جزءاً من الكفارات وعملاً من الصدقات كما ترى هنا. فخذ مثلاً الذي يُفطر يوماً من شهر رمضان من دون عذر، فعليه تحرير عبد، والذي يقتل مؤمناً خطأً فعليه تحرير عبد، والعبدة أي الأمة التي تُنجب ولداً فهي تصير حرة... ويستطيع العبد شراء نفسه...

لن تجد في القرآن أي شيء عن تشريع استعباد الآخرين، وستجد كيفية التعامل معهم، وهذا يشير إلى تعامله تعالى مع مسألة الاستعباد كواقع حال، وأفعال الرسول محمّد(ع) التي نعتبرها تطبيقاً مشتقاً من أساسيات تشريعاته تعالى، جاء فيها فقط وفقط استعباد بعض القوم الكافرين المقاتلين، وهذا واقع حال، فمن بعد الانتصار على قوم كافرين محاربين، ووقوعهم أسرى، فما العمل بهم إن لم يسلموا؟ فإن تركتهم عادوا وقاتلوك، أو تقتلهم كلّهم، أو تسجنهم؟ وهكذا ترى أن واقع الحال يفرض نفسه كأفضل حلّ في بعض الأحيان استعبادهم مما يعني تفريقهم بين الناس... وهذا ما فعله الرسول محمّد(ع) مع النادر من الذين انتصر عليهم، والغالبية لم يستعبدهم لأن الظروف ساعدت على الأمن من شرّهم...

نرجع للآية، فعلى المؤمن الذي لديه المال الكافي لتحرير عبد مؤمن، فعليه أن يحرّره كصدقة، ومن دون أن يتوقع أي مقابل من العبد.

هذه أول عقبة يأمرنا سبحانه باقتحامها، فإذا لم نستطع اقتحامها لأنه لم يعد يوجد عبيد في زماننا فلننتقل لنتعرّف على العقبة التالية:

لكن قبل ذلك فلنتوسّع قليلاً في مسألة العبودية، فعلى مرّ التاريخ اختلفت نظرة الناس للعبودية، فقد كانت العبودية دارجة قديماً في غالبية الأمم، ومنذ مدّة قليلة في القرن العشرين صار دارجاً النفور من العبودية، فنسي الجميع ما كان دارجاً متعارفاً عليه أنه مقبول لدرجة جعلت المفسرين والفقهاء والمفكرين المسلمين، جعلتهم في عصرنا يشعرون بالحرج من الآيات التي تتحدّث عن العبيد، وتراهم مباشرة يغيّرون الموضوع ويشيرون لعدالة الإسلام، ومسحه للعبودية عبر تحرير العبيد وعتقهم ومكاتبتهم، وجعل تحريرهم فداءً كتكفير عن بعض السيئات...

كلامهم صحيح، ولكن الصحيح أيضاً أن العبودية كانت منتشرة، ولها تشريعات في القرآن، ولست بوارد نفي أفضلية كون جميع الناس أحراراً، فإن كان المزاج العام للناس الآن مضاداً للعبودية، فأين المشكلة! ففي حين نزول هذا القرآن وإلى زمن غير بعيد لم يكن هذا المزاج العام، بل كانت العبودية واقعاً منتشراً بين الناس، فإن وقع المسلمون تحت الأسر من أعدائهم كان مصيرهم العبودية، فلم يكن المسلمون وحدهم يُسْتَعْبَدُونَ...

لننظر لأحكام العبيد في القرآن، ولن تجد فيه حكماً أو تشريعاً يأمر باستعباد أحد، وأقصى ما ستجده عن تقييد الحرية فهو عن أسر الأعداء المحاربين فقط، وما فعله الرسول محمّد(ع) من استعباد للأسرى "كما نقلوا في التاريخ" كان حكم الأمر الواقع بسبب اعتماد الطرف الآخر له، وبسبب الخيارات الأخرى الضيقة، فإما قتل أسرى الأعداء أو تركهم أحراراً وفي ذلك خطر إعادة تشكيل قوّة معادية، أو سجنهم ليموتوا في السجن أو سجنهم لمدة طويلة جداً وهذا ليس حلاً عملياً للسجين أو للساجن له، أو استعباد الأسرى.

قَوْنَنَ النبي محمّد(ع) هذا الواقع بناءً على مبادئ القرآن، بتحرير أسرى الأعداء من بعد أسرهم إن كانت الأمور تشير لاستبعاد الخطر منهم، أو استعبادهم وتفريقهم إن كان هناك خطر من تجمّعهم من جديد كمعادين مقاتلين.

علماً أننا لا نجد في التاريخ سوى "زعم بعضهم" استعباده(ع) لبعض أعدائه، بينما لا تجد ولا أي أثر في التاريخ بعد ذلك لأولئك الذين قيل عنهم مُسْتَعْبَدين! فلا تجد ولو اسماً واحداً لرجل أو امرأة من الأقوام الذين قيل عنهم إنّ الرسول(ع) استعبدهم ولا يزالون عبيداً، فيبدو واضحاً أن كلامهم عن استعباد الرسول(ع) لبعض أسرى أعدائه كان في حدّه الأقصى لمدة قصيرة جداً جداً لا تتعدّى الأيام، وبعدها إطلاق سراحهم، ولكن أصحاب العقلية الإجرامية تعاموا عن ذلك مبيحين استعباد الآخرين واغتصاب نسائهم...

أكرّر لك لتنتبه جيداً، فرغم ما قاله البعض عن استعباد الرسول(ع) لأعدائه، ورغم التعارف على ذلك أنه من المسلمات التاريخية، فبأدنى نظرة عقلانية لكل التاريخ ستجد أن هذا الزعم كاذب، والدليل عليه واضح لأنك لا تجد في الروايات ولا اسماً واحداً لعبد في المدينة من الذين أسرهم الرسول(ع)، ولا تجد ولا اسماً واحداً لأي طفل منهم صار بعد ذلك مسلماً، علماً أن كفّار العرب كلّهم أسلموا بعد مدة قليلة من الزمن، ولا تجد في التاريخ اسماً ولو لابن واحد من أبناء الصحابة ولّدته عبدة مأسورة من الأعداء، نعم تجد في التاريخ زواجاً من مملوكات وتجد أولاداً منهم، وكمثال على ذلك إبراهيم ابن النبي محمد(ع) من ماريا القبطية التي أعتقها(ع) ثم تزوجها...

كل الكلام المنتشر عن حالات استعباد الرسول (ع) لأسرى الأعداء لمدة طويلة، وعن استعباد واغتصاب نساء الأعداء، فهو كذب من أوهام المسلمين المجرمين، ومن أحلامهم بالبقاء على دين الجاهلية...

هذا ما تراه من تاريخ تطبيق الرسول محمّد(ع) للقرآن، فلم يكن له (ع) عبيد سوى ما قالوه عن زيد بن حارثة الذي اشترته السيدة خديجة ولداً صغيراً ووهبته للرسول الذي ربّاه كولد له وليس كعبد، وبلال بن رباح الذي قالوا عنه في كتب التاريخ إنّ أبا بكر اشتراه لتحريره من ظلم أمية بن خلف ويقولون إنّه وهبه للرسول(ع)، ومعلوم من التاريخ أن بلالاً لم يعش بين المسلمين كعبد، ولم يعمل عند الرسول(ع) أصلاً لا في بيته للخدمة ولا كعبد في وظيفة ما...

بالنسبة للنساء، فكلهن أعتقهن النبي(ع) وتزوجهن، فلم يقارب ولا واحدة منهن وهي مملوكة يمين "عبدة أو أمة".

بحسب ما نقلوه في كتب التاريخ، فحالات تسريح الرسول محمّد(ع) للأسرى أو فدائهم أكثر بكثير من حالات استعبادهم "التي زعموها ولا تجد لها بعد ذلك أثراً في التاريخ"، وأشهرها طلقاء مكّة من بعد الفتح، وبعدهم تسريح هوازن من بعد معركة حنين، وقبلها فداء أو تسريح حصل لمختلف جماعات يهود المدينة وخيبر... وهكذا ترى أنه تعالى ترك لنا

هامشاً واسعاً في القرار المناسب لمختلف الظروف والأزمنة والمجتمعات... لاستعباد الأعداء أو سجنهم أو مفاداتهم أو قتلهم "إن ثبتت عليهم جرائم...".

أكرّر لك لتنتبه أشدّ الانتباه مما يقال عن إبادة الرسول(ع) لكل ذكور بعض أعدائه، ولما يقال عن سماحه(ع) لأصحابه باستعباد نساء الأعداء ومعاشرتهن غصباً عنهن... فهذه أكاذيب ألّفها مجرمون مشابهون في إجرامهم لبعض المعاصرين للرسول(ع)، أولئك بقوا على عقليتهم الإجرامية القديمة بلا ناموس ولا قرآن، واستمرّ الحال هذا من بعد الرسول عملياً وإفتائياً مخالفاً لكلام القرآن الصريح حتى صار من المتعارف عليه والمنتشرة فتاوى تبيح اغتصاب العبدات "ملك اليمين"، درج ذلك بين المسلمين! وصار مُنتَشِراً في ثقافتنا الحريم والجواري...

التصرفات المشهورة عن الرسول(ع) هي وحدها العاكسة لدينه تعالى، وأمّا تصرفات كل بقية المسلمين وفتاويهم فهي عاكسة لدينهم هم، فهو (ع) لم يكن له عبيد يخدمونه، ولا قارب أنثى "أمة عبدة ملك يمين" قبلما يتزوجها، وما ينقله البعض من أخبار شاذّة عن ذلك، وما قاله البعض كفتوى تجعل اغتصاب المملوكة رغماً عن إرادتها حلالاً، فما هو إلا انعكاس لعقليتهم الذكورية الإجرامية.

ما قاله القرآن يساوي بين الزوجة وملك اليمين من ناحية حِلِّيَّة المقاربة كما ورد في الآيتين 6 من سورة المؤمنين والآية 30 من سورة المعارج {إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ}، فلمقاربة مملوكتك لا تحتاج لعقد قران عليها ويكفي موافقتها، وإن رفضت وطلبت الزواج من مالكها حتى تسمح له بمقاربتها، أو طلبت الزواج من أي أحد آخر حراً كان أم عبداً، فهي وشأنها، وهذا واضح من كل كلام القرآن الذي عليك بإعادة قراءته من دون أفكار "ذكورية إجرامية" مسبقة عن هذا الموضوع، وسترى بوضوح أن للعبدة "الأمة المملوكة" لها حرية اختيار من تقاربه ومن تتزوجه، وهذا واضح وصريح من الآية 25 من سورة النساء {وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}.

نعيد فنقول إنّ القرآن لم يذكر من موضوع تشريع تقييد الحرية إلا الأسر للأعداء، فلم يذكر أي شيء عن الكيفية التي تبيح استعباد الآخرين، ومن ناحية ثانية كان الأمر الواقع المنتشر بين الناس استعبادهم للشعوب الضعيفة من أي دين أو عرق كان، فهل تشريعات القرآن التي تضمّنت كلاماً عن العبيد وملك اليمين قصدت واقع الحال هذا، أو قصدت فقط الهامش المسموح التحرّك به في حالة استعباد الأسرى من الأعداء المقاتلين من غير المسلمين؟

من عموم القرآن وبالخصوص من سورة الممتحنة وبالأخص من الآية 8 منها {لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، تجد منعاً قرآنياً بكل أشكاله من التعرّض بالأذى لأي إنسان كان مهما كان عرقه أو دينه إلا إذا كان معادياً محارباً، وأي آية قد يفسّرها أحدهم ويقول بأنها تشرعن استعباد المسالمين من الكفّار أو من أهل الكتاب، فراجع دراستنا هذه لترى معناها، وسترى أن كلامهم غير صحيح. أمّا ما في الروايات عن هذا الموضوع ومخالف لصريح القرآن فمصيره الرمي والإهمال وتكذيب ناقليه عن الرسول(ع)...

ننتقل الآن إلى واقع الحال الذي كان عليه الناس في عصر النبي محمّد(ع)، حيث كانوا يشترون ويبيعون العبيد المسالمين المخطوفين من مختلف الجنسيات ومختلف الأديان، فهل في عهده (ع) تعامل المسلمون بذلك أم انحصرت تعاملاتهم في العبيد من الأعداء؟

طبعاً حين نقول "المسلمون" نقصد المؤمنين الحقيقيين منهم، اشتهر في عهده (ع) بعض المسلمين "المنافقين والفاسقين" الذين يجبرون عبداتهم على الزنا، منعهم النبي(ع) من ذلك بأمر إلهي كما ورد في الآية 33 من سورة النور {وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا}، ومن منطوق الآية بكلامها عن الإحصان تفهم أنه حتى مالكها لا يحقّ له مقاربتها إن لم تقبل، وبالتالي فلا يحق له السماح للآخرين بمقاربتها غصباً عنها... ويحقّ لها اختيار زوجها مع موافقة أهلها ومن ضمنهم مالكها...

أكتفي بهذا المقدار الذي فيه الأساسيات القرآنية لترى نظرة قرآنية مختلفة عن العبيد مما هو دارج في مختلف الكتب المسمّاة إسلامية.

ما تجده في القرآن عن العبيد وما تجده في كتب التاريخ من تصرفات المؤمنين الحقيقيين مع العبيد والإماء، كتطبيق عملي للإيمان في التعامل مع الآخرين، ترى فيه فرقاً عمّا تجده في الكثير من كتب الفقه عند كلّ المسلمين، التي بعضها كتبها فقهاء مجرمون، يحلّون استعباد أي إنسان ليس من طائفتهم أو مذهبهم! بل يهدرون دم وعرض الآخرين! حتى المسلمين المسالمين! اعتمدوا في ذلك على روايات كاذبة رواها مجرمون أمثالهم، واعتمدوا على سيرة مجرمين من المسلمين اتخذوا منهم منارة للدموية، فها القرآن أمامك، وها دراستنا له، فراجع أي آية قالوا إنها تدعم كلامهم لترى أنهم كاذبون ومجرمون.

بالنسبة لتعبير ملك اليمين، فمعنى كلمة ملك: هو عموم أي شيء يرجع إليك أمره فيتبع لك مع التحكّم به والسيطرة عليه. وكلمة يمين لعموم التعامل مع أي شيء براحة واقتدار وقوة وتحكّم. فيصير تعبير ملك اليمين يعني: السيطرة مع اقتدار. فهو شخص تتصرّف به فتأمره بقوة اقتدارك عليه. وكلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك.

من هذا المعنى اللغوي الأساسي للكلمات ترى أن استعمال القرآن لها للتعبير عمّا يقصده فهو بعيد كل البعد عن الممارسات السيئة للناس مع المملوكين ملك يمين والمستعبدين، فقارن معنى كلمة "ملك يمين وعبد" مع خادم أو خادمة أو عامل أو عاملة مقابل المبيت والطعام، وسترى أن القرآن يقصد هذا المعنى حصرياً، أمّا ممارسات "المسلمين" ورواياتهم وفتاواهم فهي تمثّلهم هم ولا تمثّل دينه تعالى المطروح في قرآنه.

(أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ{14})
أو اقتحام العقبة عبر {إِطْعَامٌ}، تقديم الطعام للآخرين، {فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ}، في زمن منسوب له صعوبة الحصول على الطعام، في زمن مجاعة أو ضائقة اقتصادية عامّة.

أنت والآخرون تعيشون ظروفاً معيشية صعبة ولكن وضعك أفضل من وضعهم ولو بقليل، فيأمرك سبحانه في تلك الظروف الصعبة باقتحام العقبة، فتتخطّى الهواجس النفسية عن الفقر والبخل والحرص والطمع، أو استغلال الظروف الصعبة واحتكار ما لديك... تقدّم الطعام للذين يحتاجونه حتى لو كانت ظروفك أنت ليست مرتاحة على التمام.

في عامّة ظروف مختلف البلدان اليوم فإن حالات المجاعة قليلة جداً، وتمرّ بعض الظروف الاقتصادية الصعبة ولكن من النادر وصولها إلى حدّ الموت من الجوع، لكن يمرّ دائماً فتراتُ ركودٍ اقتصاديةٍ بين السنين، وأسباب الركود متنوّعة... وإن كنت تعيش في منطقة لم تشهد في زمن حياتك مجاعة أو فاقة أو ضائقة اقتصادية لدرجة جوع الناس، فانظر إلى البلدان الأخرى الفقيرة حالياً وافهم أنك معرّض لتعيش في نفس الظروف، وصرت تعلم أنه تعالى يأمرك بمساعدة الآخرين حتى في أيامك الصعبة، ولكنك لن تدري ما العقبة حتى فعلاً تقع فيها ومعك القليل من المال فتتبرّع منه للآخرين المحتاجين أكثر منك.

طبعاً لا نَنْسَ الآية 29 من سورة الإسراء {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا} التي منعتنا عن الصدقة لدرجة صيراننا نحن بحاجة لمن يتصدّق علينا، وهنا الآية تعطينا نموذجاً عن أقصى حالة للعقبة التي يشجعك تعالى على اقتحامها كمقابل للغني المرتاح في ظروف مرتاحة ولا يتصدّق، وهي حالة الضائقة الاقتصادية العامة، حالة الجوع الجماعي، فتأمرك بإنقاذ الآخرين من مخزون طعامك حتى يتجاوز الجميع الحالة الصعبة، وتسمّي السورة ذلك الفعل "عقبة"، وإن كنت مؤمناً حقيقياً فعليك باقتحامها.

(يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ{15})
يطعمون في زمن الجوع، {يَتِيمًا}، وهو من فقد معيله، "فقد الوالد عادةً"، وهذا اليتيم {ذَا مَقْرَبَةٍ}، موصوف بأنه بينك وبينه قرابة عائلية. كل يتيم له أقارب فهم مسؤولون عنه ولا يجوز لهم تركه بدون مساعدة، وبالخصوص في أيام الشدّة، فكما يهتمون بأولادهم فهم مجبورون بأقاربهم الأيتام.

إذا خطر ببالك أن الأوضاع صعبة وكل واحد يدبّر حاله، فالآية تطرح عليك نماذج لا تتحمّل ذلك، ماذا عن اليتيم من أقاربك، فمن الأولى بتأمين حاجاته؟ هل ستتركه للغرباء ليعتنوا به؟ وهل من المعقول أن تتركه أنت وهو من أقاربك ليهتم به الغرباء حتى لا يموت من الجوع أو يتعرّض لسوء التغذية؟

(أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ{16})
أو يطعمون في زمن الجوع، {مِسْكِينًا}، وهو الشخص الذي ظروفه المادية متعثرة، وقد يكون فقيراً لدرجة فقدانه للقمة الطعام أو يكون محتاجاً للمساعدة المالية لحين ما تتحسّن ظروفه، والتعبير بالمسكين و {ذَا مَتْرَبَةٍ}، يحدّد من هو موصوف بأن المتربة منسوبة له، وقد قيل أنه لا يملك إلا التراب بين يديه، فهو مسكين في حالة الدرجة الأولى في الفقر، ولكن سياق كلام الآية السابقة يشير لعلاقة بينك وبين المحتاجين للمساعدة، فهي تسألك لمن ستترك يتيماً من أقربائك ليساعده؟ ولمن ستترك شخصاً حالته المالية صعبة أو متعثرة وهو {ذَا مَتْرَبَةٍ}، فهو مقارن مشابه لك، الكلام عن أترابك، عن أصدقائك ومعارفك الذين تتعامل معهم عادةً... ويؤيد هذا المعنى ما ورد في الآية 36 من سورة النساء {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا}، فيه بوضوح تمييز للذين بقربك وتحتك بهم أكثر من الآخرين.

كما ترى فالآيات تذكر حالات إنسانية لا يجادل فيها العاقل المحترم، فمساعدة اليتيم من أقربائك، والمسكين الذي بينك وبينه معرفة والآن يمرّ بظروف صعبة... هي نماذج لن تناقش فيها ولذلك اختارتها السورة حتى تنفي أي مجال للنقاش.

(ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ{17})
{ثُمَّ}، من بعد اقتحام العقبة بما سبق من فك رقبة و... {كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا}، كان من الموصوفين أنهم في حالة اعتقاد بالدين الإلهي، العمل الصالح الذي سبق وذكرته السورة فقد كان معه إيمان، ومعلوم لك أنه مع الإيمان يصير للعمل الصالح أجر منه تعالى.

وكان من الذين {تَوَاصَوْا}، فقام كل واحد منهم بتوصية الآخر، فقال أحدهم للآخر كلاماً يعبّر عن تعليمات ليتصرّف على أساسها، {تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}، بالتصرف بشكل مناسب مهما كانت الظروف التي يتعرضون لها، فالظروف السيئة ستتغيّر ولن تستمر. فيشجّع الآخرين على اقتحام العقبة والتصرّف دائماً بعقلانية. الكلام السابق كان عن ظروف صعبة تمرّ على الناس ويأمرهم سبحانه بالصبر ومساعدة بعضهم، ولكن فقط المؤمنون الحقيقيون سيصبرون وسيساعدون الآخرين، وسيشجعون بعضهم البعض على الصبر على الحالة الصعبة والإنفاق في الظروف الصعبة.

وكان من الذين {تَوَاصَوْا}، فقالوا لبعضهم كلاماً ليلتزموا به، {بِالْمَرْحَمَةِ}، بالتعامل مع الناس بالعناية لما فيه مصلحة الناس، العبد "المؤمن" بحاجة لمن يرحمه فيساعده على إعتاقه من العبودية، واليتيم والمسكين بالخصوص في أيام المسغبة هم بحاجة لمن يرحمهم فيطعمهم.

لاحظ أن علماء اللغة العربية لم يلحظوا تصانيفَ واسعة للأزمنة، لأن اللغة العربية ليس فيها صيغة مباشرة صريحة ومحدّدة لذلك، فليست مثل الإنجليزية أو الفرنسية أو الفارسية أو الألمانية... فهذه اللغات فيها صيغ صريحة في دلالتها الزمنية على الماضي المستمر والمنقطع، والحاضر المستمر والمنقطع... وهنا فواضح إشارة الجملة لزمن الماضي المستمر، فهو قبل اقتحام العقبة كان مؤمناً ولا يزال، ولم تقصد الآيات أنه اقتحم العقبة ثم صار مؤمناً.

(أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ{18})
{أُولَئِكَ}، الذين اقتحموا العقبة في نماذج الصدقة من أموالهم على تحرير العبيد وإطعام اليتامى والمساكين وهم في نفس الوقت مؤمنون بالله تعالى ويتواصون بالصبر ويتواصون بالحق: أولئك الناس هم، {أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ}، الذين مع بعض باليمن، بالتعامل مع الأمور بسهولة وتمكّن وتحكّم، وتعلم من عموم القرآن أنهم سيتعاملون مع قيامهم من الموت في يوم القيامة، ومع ما فيه من كتب أعمالهم ومحاسبتهم ووقوفهم بانتظار محاسبة الآخرين... بتمكّن وسهولة وقوّة، لأنه تعالى عزّزهم وأصلح بالهم... وعندما يدخلون إلى الجنّة فهم أيضاً موصوفون باليمين بالراحة والسهولة بالتحكّم...

من استعمال العرب والقرآن لكلمة اليمين، فإن لم تكن تشير للجهة أو للعضو من الجسم الذي فيه كفّ وأصابع وساعد وعضد، فهي وصف للاقتدار براحة على فعل شيء، للقوّة النابعة عن قدرة وتحكّم، ولأن غالبية الناس تستعمل يداً محدّدة أكثر من الأخرى، فحملت تلك اليد صفة اليمين، اليمنى، وقد استعملها القرآن وصفاً لقوته وسهولة تحكّمه تعالى، وللملائكة(ع) وللإنسان...

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ{19})
{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا}، فأنكروا الأمور المميزة المنسوبة له تعالى، فأنكروا كلامه سبحانه، فلم يقتحموا العقبة ولم يؤمنوا ولم يتواصوا بالصبر والمرحمة، {هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ}، هم مع بعض بتوقّع صدور الشرّ منهم، فمن غير المتوقّع صدور الخير منهم، وقد مرّ أنهم أهلكوا مالهم ولم ينفقوا منه على مساعدة الآخرين المحتاجين حتى عندما كانوا في أوضاع الرخاء والراحة والأمان الاقتصادي، بينما سبحانه يأمر حتى باقتحام العقبة... وسيحملون وصفهم بالمشؤومين إلى يوم القيامة وسينالون عقاباً على ما صدر منهم من سوء.

الشؤم هو الاستبشار شراً من أمر له ربط بشكل ما بشيء سيء قد يحدث بعده، كالتشاؤم من اللعب بالسلاح لإمكانية وقوع حادث، وهنا الكلام عن أناس لا يزالون في الدنيا وهو شؤم، فلا تتوقّع منهم فعل الخير مع الآخرين، وعندما يبعثهم تعالى في الآخرة، فهم أيضاً مشؤومون، فهم متوقّع لهم السوء.

(عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ{20})
{عَلَيْهِمْ}، على أولئك المشؤومين، {نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ}، كما نقول: أوصد الباب. ونقصد أن الغرفة صارت مغلقة من كل الجوانب، فالنار عليهم مؤصدة أي مغلقة عليهم محيطة بهم من كلّ الجوانب، فلا يمكنهم الخروج منها، فلن يمرّ عليهم لحظة واحدة من دون إحراقهم بالنار، ولا يمكنهم المغادرة من ذلك المكان.

ورد في الآية 8 من سورة الهمزة {إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ} التي كانت أيضاً تتحدث عن الذين يُحبون المال ويجمعونه ويظنون أنهم سيعيشون للأبد، وقد ورد فيها أن عقابهم هو نفس عقاب الذين ذكرتهم الآية هنا، وهو: النار المؤصدة.

سورة الشمس (91) ص 595
تدور حول المعنى من خِلْقَتِنَا فيما حولنا من نظرته تعالى، نحن عادة نسأل: لماذا نحن هنا؟ وما معنى وجود هذه الدنيا وما معنى وجودنا فيها؟ وإن كنّا نحن الكائنات العاقلة الوحيدة في كوننا، أو على الأقل في مجال ما نراه من كوننا، فهل هذا يعني أن الدنيا مخلوقة لنا؟

أمّا سورتنا هنا فتخبرنا من نظرته تعالى عن الذي يجعلنا نستحقّ ما نحن فيه. نحن لدينا قابلية تزكية أو تَدْسِيَةِ أنفسنا، ولسنا نستحقّ حياتنا وما هو متاح لنا في الدنيا إن لم نزكّ أنفسنا.

تضرب قوم ثمود كنموذج مميّزٍ جدا في السوء وبتعبير السورة في تَدْسِيَةِ أنفسهم بعمل لا تفهم منه إلا العناد الصلب... ووصلوا لمرحلة لم يستحقوا فيها البقاء أحياء في الدنيا.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا{1})
يؤكّد سبحانه بلفت انتباهنا لـ{الشَّمْسِ} وهي النجم الذي نراه نهارا، ويؤكّد سبحانه بـ{ضُحَاهَا}، بما تسببه الشمس من فترة الضوء القوي من اليوم، الضحى وصف لعموم الفترة التي يكون فيها الضوء قويا من بعد الشروق إلى بداية العصر.

السورة ستبدأ بذكر عدة أشياء وظواهر، لتلفت انتباهنا لعظمة هذه الأشياء التي نعيش فيها لأنها بيئتنا، فهل نستحقّها؟

عادةً نحن لدينا مقاربة مختلفة لفهم حالتنا، أنا حيّ، في الأرض، المرتبطة بالشمس والسماء... فما معنى ذلك؟ وعادةً نطرح أسئلة طفولية أو عميقة، لماذا نحن هنا؟ وكيف؟ وإلى أين...

السورة هنا ترينا هذا الموضوع من نظرته تعالى، أنتم أحياء في بيئة مناسبة لكم، ولا تستحقونها إن لم تزكّوا أنفسكم وتكونوا لائقين بها.

(وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا{2})
تلفت السورة انتباهنا لـ{الْقَمَرِ}، للكوكب التابع للأرض، وهو الذي ننتبه له عادة في الليل ونراه بدرا وهلالا... {إِذَا تَلَاهَا}، إذا جاء بعدها، والكلام هنا عن مشهد القمر ليلا بعد غياب النهار الذي سببه غياب الشمس.

لم يرد في القرآن استعمال من مشتقات "تلا، التالي" إلا هذه الكلمة هنا.

ضع في بالك دائما أن القرآن يصف مشاهدَ نراها نحن الواقفون على الأرض، ولا يتحدّث مع شخص في الفضاء أو يرى الأرض من كوكب آخر، الواقف على الأرض يرى القمر تاليا للشمس، تطلع علينا الشمس مسببة النهار، وتغيب لنصير في العتمة وعندها نلاحظ القمر ليلا.

معلومٌ لك أن عموم كلام القرآن عن نماذج، ليس كلّ ليلة يأتي القمر ليلا، ولكن الكلام هنا عن لفت الانتباه للأيام التي ينير فيها القمر ليلنا.

تكمل السورة مع مشهد ضخم نعيش فيه، بدل السؤال عن سبب وجودنا لنفهم معناه والحكمة منه، تأخذنا السورة إلى حالتنا الحالية وما نحن فيه، فما الذي يجعلنا نستحقّه؟

(وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا{3})
تلفت السورة انتباهنا لـ{النَّهَارِ}، وهو الفترة المنيرة من اليوم، {إِذَا جَلَّاهَا} إذا أجلى النهار ظلمة الليل فجعلها تذهب، إذا جعل النهار سطح الأرض التي نعيش عليها جلياً، واضحاً مضيئاً ليس فيه عتمة.

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا{4})
تلفت السورة انتباهنا لـ{اللَّيْلِ}، وهو فترة العتمة من اليوم، {إِذَا يَغْشَاهَا}، إذا أحاط وانتشر على الأرض التي نعيش عليها.

الآيات بكلمات قليلة اختصرت كلاماً كثيراً عن خالق صمّمنا نرى ونتحرك... في بيئة تمر عليها فترة ضوء وعتمة، وسنفهم هذا الكلام بسهولة إذا حاولنا رؤيتها من منظوره سبحانه وتعالى، تصوّر نفسك أنت تقوم بتصميم كائنات تعيش في بيئة، ولم تر من قبل أي نموذج لتستعين به، وتصوّر الآن أنك تتنافس مع آلاف المهندسين الذين يعملون على مشروع تصميم كائنات وبيئة، فكيف سيكون تصميمك إذا قارنته مع تصميمهم؟ الآن التفت إلى ما صمّمه وخلقه تعالى ولاحظ التفاصيل الهائلة والتقانة البديعة واللمسة الجمالية... ولا تَنْسَ ما تريدك السورة الالتفات له من بعد ذلك، هذا ما أنت فيه من بيئة ضخمة متقنة هائلة التفاصيل، فهل تستحق أن تكون فيها؟

(وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا{5})
أيضا يؤكّد سبحانه بـ{السَّمَاء} التي فوقنا، وهي سبع سماوات نرى منها سماء واحدة بنظرنا ومعداتنا الحالية، {وَمَا بَنَاهَا}، وما تمَّ بناؤها به، ما تركب من أجزاء ليؤلّف سماء، التفتوا للأسباب والظروف وعلى أي تصميم وبأي مواد... صارت هذه السماء، من الجو الذي فوقنا بهوائه وغيومه، إلى القبّة الزرقاء التي نراها نهاراً، وامتدادا إلى فضاء النجوم الذي نراه ليلاً، وصولاً إلى السماوات الأخرى "حين نستطيع ذلك".

تذكّر آيتنا هذه جيداً، لأنها لا تسأل عن الذي بنى، بل تؤكّد بالسماء وكيفية بنائها، كإشارة للبيئة التي نحن فيها، وذلك للتفكير في آلية بنائها التي جعلتها هكذا. الآية تحفّزك للبحث عن الآلية التي أدّت لنشوء السماء ووصولها للحالة التي تراها عليها الآن، وما خطر ببال البشر من فرضيات لتصير نظريات وصولاً إلى ما هو متداول في عصرنا، الآية

ليست مهتمّة بوصولك للنظرية الصحيحة، ولا يعرض عليك القرآن نظريات وفرضيات، الفضول الذي جعله تعالى فينا مع فكرنا وخيالنا سيحفزّنا دائماً للبحث، وكلما تطوّرت علومنا غصنا أكثر وكانت فرضياتنا أقرب للصواب، وما نصل إليه بعلومنا، حتى لو لم يكن معرفة كاملة، فهناك هامش كبير للاستفادة من القليل الذي علمناه... وسيبقى الحال هكذا إلى انتهاء الدنيا لأن عمق آلية خلقه تعالى للدنيا أعمق بكثير مما يمكننا الغوص فيه، لقدراتنا الفكرية حدود بعيدة كل البعد عن قدرات الإله سبحانه، ورغم ذلك، القليل الذي سنطاله بعلومنا بالنسبة للكثير الذي يعلمه تعالى، هذا القليل الذي يمكننا التعمّق فيه لا يزال عميقاً جداً عمّا توصّلنا إليه، لا يزال أمامنا اكتشاف بقية السماوات، والتعامل مع الجنّ، وربما نصل للشفاء من كلّ الأمراض ولإحياء الموتى...

نرجع للسورة مختصرين كل التحليلات والفرضيات والنظريات عمّا بنى السماء، وواضعين في بالنا النتيجة فقط، ها نحن تحتها، فهل نستحقها؟

(وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا{6})
تأكيداً بـ{الْأَرْضِ} التي نعيش عليها، {وَمَا طَحَاهَا}، وما جعلها مطحية، ما هي الظروف التي سارت على التصميم الإلهي الذي أدّى إلى طحو الأرض، والطحو مثلما نقول: طاح على الأرض. ونقصد أنه تمدد على طوله، الطحو وصف عموم الامتداد طولاً وعرضاً، والكلام هنا عن بسط الأرض وجعل سطحها ممتداً. لم يستعمل القرآن من مشتقات كلمة "طحي أو طحو" إلا مرة واحدة هنا، وفي القواميس نقلوا استعمالهم لهذه الكلمة بالجذرين "طحي وطحو".

ما هي الأسباب والآليات التي أدت إلى تشكّل الأرض؟ ليس مهماً جوابك الصحيح بفرضية تشرح آليات تشكّل كوكب الأرض، بل المهمّ التفاتك إلى استحقاقك للكون عليها...

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا{7})
تلفت السورة انتباهنا لـ{نَفْسٍ}، للشخص لكل واحد منّا، للحي بخصائصه كإنسان، والتي نراها في جسد وقدرات عقلية مختلفة عن بقية الحيوانات، {وَمَا سَوَّاهَا} لتلك النفس، التفتوا إلى الأسباب التي أدت إلى تسويتها، إلى جعلها تصير بالتمام متناسبة كإنسان، خِلقتك لها جسد من يدين ورأس ورجلين ودماغ... ما الذي سوّاها هكذا، وهل تستحقّ تسويتها؟

ضع في بالك وتذكّر دائماً أن القرآن استعمل كلمة نفس كما يستعملها عموم العرب في كلامهم للدلالة على الشخص، على الفرد، على الواحد منّا... وما تجده من تقسيم للروح والنفس والجسد والملكات والغرائز والحياة والفكر... والماهية والجوهر والعرض... فهو كلام اصطلاحي وليس من معاني الكلمات العربية لكلمة روح أو نفس أو جسد أو إنسان أو حيوان... لا تخلط بين الأبحاث الكلامية والفلسفية وبين ما ورد في الروايات من تحليل للعقائد وللإنسان... من جهة، وبين معاني الكلمات التي استعملها القرآن من جهة أخرى، والتزم بمعاني الكلمات باللغة العربية لا بالمعاني الاصطلاحية وإلا سنغرق في الوحل بدلاً من غرقنا في فهم القرآن، كلامي هذا لا يعني المنع من وضع الاصطلاحات والدخول في الفكريات والتحليلات... لا، بل فقط ألفت انتباهك حتى لا تَنْسَ المعنى العربي الأساسي للكلمات وتخلطها مع المعنى الاصطلاحي وتفسّر بها القرآن، هذا خطأ يمنعنا من التعلّم من القرآن لنصير بالعكس نفسّر القرآن بما نعلمه نحن...

نرجع للسورة وما ذكرته عن الشمس، وضحاها، والقمر، والنهار، والليل، والسماء، وما بناها، والأرض، وما طحاها، وصولاً إلى: ونفس، وما سوَّاها. هذه إحدى عشرة ظاهرة، وهذه الأشياء مجتمعة هي من الأشياء التي ساعدت على وجود الإنسان على قيد الحياة، وفي نفس الوقت هي البيئة التي يعيش فيها الإنسان، ومن البديهي أن تسأل عن الأسباب والآليات التي أدت لحصول كل هذا، ضع هذا كله في بالك وعلى جانب، وانتبه للنتيجة، ها أنت فيها، فهل تستحقها؟

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا{8})

{فَأَلْهَمَهَا}، ألقى سبحانه في النفس "في الشخص في الفرد في الإنسان" ما يجعلها تفهم وتعي معنى، {فُجُورَهَا}، معنى الأمور القوية في سوئها، وضع سبحانه في الإنسان فهم معنى الأفعال الضخمة في الشرّ والسوء والفساد... وألهمها سبحانه، {وَتَقْوَاهَا}، لتفهم وتعي تجنّب تحاشي فعل بعض الأمور السيئة وتعي وتفهم ضرورة فعل بعض الأمور الواجب فعلها لأنها خير وصلاح...

عندما خلقنا تعالى فمن ضمن تسويتنا، ومن ضمن جعلنا إنسانا يفكّر أو يخطر بباله أمر ما، فإننا نعي ونفهم إن كان هذا الشيء موصوفاً بأنه فجور، بأنه عمل قوي في سوئه، كاختراع آلهة وقتل النفس البريئة والخيانة وشهادة الزور... ونعي ونفهم أننا يجب أن نتقيها ونتجنبها ولا نفعلها، وهذا هو الإلهام الإلهي لنا، استعمل القرآن تعابيرَ مختلفة لنفس المعنى، كالذي ورد في الآية 10 من سورة البلد "وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ"، والذي ورد في الآية 3 من سورة الإنسان "إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا"، لم ترد كلمة إلهام أو مشتقاتها في القرآن إلا في الآية هنا.

جعل تعالى فينا القدرة على تمييز الخير من الشر، الحسن من القبح، وإذا حدث ما حدث من تسويد لقلوبنا وتشابهت علينا وتداخلت مفاهيم الخير والشرّ بسبب فعلنا لبعض السيئات الصغيرة... فهناك أمور كبيرة في سوئها "فجور" ومن السهل جداً تمييزها كشرّ كشيء سيّء من المفروض تجنّبه، كقتل طفل بريء مثلاً. ومهما اسودّ قلبنا وكانت أفعالنا سيئة فيمكننا الانتباه لتمييزنا بين الخير والشرّ بسهولة عندما ننصح أولادنا أو أحبابنا وأصدقاءنا بترك الأمور السيئة حتى لو كنّا نحن نفعلها.

هذه خلقتنا التي تتضمّن وعينا وفهمنا للأمور السيّئة وللأمور الحسنة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو حسن، وترى ذلك منتشراً في القرآن بعبارات مختلفة منها ما ورد في الآية 90 من سورة النحل "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"، وعلى أساس قدرتنا بتمييز الخير من الشرّ، ومنحنا حرية الإرادة لنختار فعل أي منهما، كلّفنا سبحانه بدينه الحسن، وكلّفنا بالاعتقاد بالحقّ، وبالشريعة وعموم السلوك الحسن.

وسأضرب لك مثالاً سخيفاً ولكن سترى منه بسهولة ما أحاول قوله لك، سبحانه وتعالى لم يكلّف بقية الحيوانات بما تكلّفنا نحن به رغم التشابه الكبير بيننا وبينهم جسدياً "فيزيولوجيا"، ولكننا نختلف عنهم كثيراً بالفكر والوعي والفهم وتقييم الأمور، واختصرت آيتنا هنا كل ذلك بتعبيرها أنه تعالى ألهمنا فجورنا وتقوانا، حيث جعل فينا وعياً وفهماً تقييمياً للأمور بشكل مختلف عن البقر والقطط والعصافير...

لنستعد ما سبق وقالته السورة بلفت انتباهنا لما فوقنا وتحتنا وصولاً لأنفسنا التي تميّز الخير من الشرّ، هذا ما نحن فيه الآن، وبدل الذهاب بعيداً في أسئلتنا عن سبب وجودنا، وعن الحكمة من خلقنا، تسألنا الآية من الآخر، بأدنى التفاتة ترون بالبداهة أسباباً وآليات أدّت لنشوئكم في هذه البيئة، وبغض النظر عن عمق معرفتكم بها، ها أنتم فيما أنتم فيه من بيئة وصفات، وتميّزون بين الخير والشرّ، كل ما يمكن أن يصدر عنكم أو يمكن أن يكون لكم علاقة به، يمكن اختصاره بعمل شرّ تبتعدون عنه، أو عمل خير أو عمل لا ضرر منه وتفعلونه، أي طريق اخترتم؟ لنتابع:

(قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا{9})
{قَدْ أَفْلَحَ}، أجاد عملاً، وكان عمله حسناً صحيحاً، {مَن زَكَّاهَا}، من زكّى نفسه، من جعلها لائقة بتخليتها من الخبث والفساد.

من الآية السابقة ومن عموم القرآن تعلم أن الفلاح في نظره تعالى لنا، هو تركنا للأمور الفاجرة الفاحشة والتقوى منها، فهذا أحسن عملاً بذلك، وصار لائقاً كإنسان نفسه خالية من الخبث والسوء، وبالتالي سينال العفو والمغفرة والرحمة والجنّة الخالدة، ولكن سورتنا لم تذكر ذلك، لأنها تريدك أن تركّز وترى فقط حالتك، فانسَ كلّ شيء، وانتبه لدنيا تكوّنت وأنت فيها تميّز الخير من الشرّ ولديك حرية إرادة، فماذا أنت فاعل؟ فهل أنت فالحٌ زاكٍ؟ وهل أجدت في اختياراتك وتصرفاتك لتكون لائقاً بإنسانيتك وبالكون في هذه البيئة؟

من الواضح جداً من غضّ نظر السورة عن الآخرة وجنّتها لمن أفلح فزكّاها، أنها تركّز على حالتنا في الدنيا، فهل نحن أهل لهذا الفضل الإلهي علينا بخلقنا أناساً فيها؟

بعبارة أخرى أساس كلامه تعالى معنا في كتبه مبني على جعله تعالى فينا القدرة على تمييز الخير من الشرّ، وعلى منحنا حرية الإرادة لنختار ما نفعله، فهذا لوحده وبدون أي كلام يصلنا منه تعالى عبر أشخاص أو كتب، هو لوحده أساس لنتحاسب عليه ونتجازى، فهذا شيء مشترك بين المنتمين لدينه تعالى وبين الذين بطريقة أو بأخرى وصلهم دينه تعالى وكفروا به، وبين الذين "فرضاً" لم يصلهم أي شيء منه تعالى.

كما ترى القرآن لم يتحدّث مباشرة وصراحة عن حال الذين لم يحصل بينهم وبين النذير والبشير تواصل مباشر، علماً أنه تعالى أكّد أن لكل أمّة نذيراً كما قالت الآية 24 من سورة فاطر: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}، ولمزيد من التوسّع حول هذا الموضوع راجع دراسة الآية 47 من سورة يونس: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}. على أي حال، لا معنى لكلام القرآن مع هؤلاء وهم لم يصلهم القرآن، ولا معنى لكلامه معي عنهم سوى الفضول، ولكن من أشباه آيتنا هذه ترى أنهم ضمنها، فكلنا ألهمنا تعالى الفجور والتقوى، {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا} و{وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} بتقييمه تعالى لكل واحد منّا، وأيضاً بتقييمنا نحن للآخرين "ولأنفسنا".

ستفهم ما يريد القرآن قوله عندما تستحضر في بالك كيفية توصيفه للأمور بعبارات مختلفة عن توصيفاتنا نحن لها في أدبياتنا، نحن نستعمل تعابير الحرام والحلال والواجب، بينما غالبية كلام القرآن لم تكن كذلك بل استعمل الحسنات والسيئات والصلاح والفساد والخير والشرّ... معتمداً على القدرة التي فينا لتمييز ذلك، وبعده يأتي هذا القرآن هدىً للمتقين، فهو مقوّم للرؤية التي فسدت بسبب فعلنا لسوء من نوع ما، وكنّا نراه سوءاً، ورغم ذلك فعلناه، فانطبعت نقطة سوداء في فكرنا ونفسيتنا شوّهت تمييزنا للخير من الشرّ...

كلام القرآن كلّه يسألك إن كان يعرض عليك شيئاً سيئاً، ويريك أنه لا يهددك بالعقاب على فعلك لعمل صالح، بل بالعكس تماماً، ومن بعدها يسألك عن سبب رفضك الإيمان والالتزام بكلامه تعالى؟

هنا السورة تريك هذا الأساس الفكري والنفسي، وتركّز على نموذج قتل الآية "الناقة" الذي فيه تفاصيل كثيرة متشعبة ممتدة من الكفر بالحقّ الواضح بتوحيده تعالى الذي جاءهم بآية غير عادية... مروراً بالكفر برسوله الناقل لكلامه تعالى... مروراً بفعل السيئات التي فيهم القدرة على رؤيتها سيئة... وصولاً إلى عقابه تعالى على اختيارهم بإرادتهم فعل السوء.

(وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا{10})
{وَقَدْ خَابَ}، فلم يحقّق شيئاً جيداً، {مَن دَسَّاهَا}، من دسّى نفسه، من جعل فيها شيئاً كدسيسة، فلم يتركها زاكية لائقة ودسّ فيها فأدخل فيها فجعل فيها شيئاً ما، فسياق الكلام عن جعله فيها ما يعيبها مخالفاً بذلك تزكيتها.

يبدو من الكلام عمق أن الأصل فينا هو سلامة الفكر والنفسية بتمييز الخير وحبّه وتمييز الشر وكرهه، وبعد ذلك نحن بإرادتنا ندسّ السوء في فكرنا ونفسيتنا، عبر فعلنا بإرادتنا لما نعلم سوءه، ومع تكراره تتشوّه قدرتنا على تمييز الخير من الشر وصولاً إلى العمى وكره الخير وحبّ الشرّ.

ما معنى تمييزنا للخير والشرّ إن فعلنا بإرادتنا واختيارنا ما نراه شراً سيئاً؟ أهكذا يتصرّف من يميّز الحسن من السوء؟

هناك كلام انتشر بين الناس عن جينات الشرّ، ويقصدون بذلك أننا نرث جينات تجعلنا ميّالين أكثر من غيرنا لفعل أمر ما، فقالوا عن جينات يرثها الطفل من والديه فيصير لديه احتمال كبير أن يكبر ويتعاطى الخمور أو المخدرات أو السرقة... وبعضهم بالغ في ذلك لاغياً حرية الإرادة وبرأيهم صرنا مجبورين على ما نحن عليه في كل ما نفعله، وأثبتت الدراسات الرصينة أن هذا الكلام مبالغٌ جداً فيه وغير صحيح... ومضافاً له فأنت من نفسك تعلم أنك تعرّضت لأمور عديدة وكنت ميّالاً لفعلها أو غالبية الذين حولك يفعلونها ولم تفعلها...

بعضهم أقل مبالغة فقال أننا بسبب الموروثات الجينية نصير ميّالين أكثر لبعض الأمور أكثر من غيرنا، وهذا الكلام بشكل ما صحيح، ولكنه أبداً بتاتاً لا يلغي قدرتنا على مقاومة ما نميل لفعله، فكل الأفعال من مختلف تصنيفاتها الجيدة والسيئة، ستجدها بنسب مختلفة في كل المجتمعات المنتشرة على وجه الأرض، فإن كان للجينات دخل فيها فهي ما

يجعلنا كلّنا فينا قابلية فعل كل أنواع الأمور، فالجينات مسؤولةٌ أساسي عن تركيبة دماغنا وجهازنا العصبي المترابط مع كيمياء جسدنا بغدده... حالياً هذا ما نفهمه كآلية لما يجعلنا إنساناً مُلهَماً فجوره والتقوى، ميّالاً لهذا الفعل أو ذاك، فبعد نشأتنا ومن أول وعينا في بطن أمّنا، نبدأ بممارسة حرية الإرادة لاختيار الخير أو الشرّ بالمقدار الذي تُتاحُ لنا معطياته، وتتطوّر الأمور بتطوّر وعينا ومعلوماتنا وما نحتك به...

أغفلت لك الكلام عن تفاصيل أخرى لا علاقة لها بالكلام هنا، كالأمور الجسدية التي ورثناها وتحدّد لنا حاسّة الذوق لنستطيب طعاماً ينفر منه الآخرون... أو الأمور التي نعيشها من بيئتنا وتتخزن في اللاوعي، وتؤثر أو تتحكّم ببعض اختياراتنا، كتقييمنا لجمال الأشكال والألوان ولنكهات الطعام... وغيرها من العناوين والتفاصيل التي ليست أساسية في مسألة تمييز الخير من الشرّ ولا في حرية الإرادة، فهي معلومات إضافية ومهمّة ولكنها غير ذات صلة بالموضوع.

هناك أبحاث عن منشأ السلوك الإنساني الموروث من أسلافنا... وهي أبحاث رائعة لاكتشاف آلية صيراننا إنساناً متميزاً عن بقية الحيوانات، فدراسة سلوك بقية الحيوانات يزوّدك بنظرة فطرية لما نشترك به معهم، كالدراسة التي يتعرّض فيها قردة في قفص لكهرباء في أرضية قفصهم من بعد لمس أحدهم لشيء محدّد في القفص، فبعد علمهم بذلك توقفوا عن لمس ذلك الشيء، وحين وضعوا معهم قردةً جُدُداً فالقردة السابقون صرخوا في القردة الجدد حين اقتربوا من الشيء الذي سيسبب كهرباء مؤذية لهم في القفص، وهكذا إلى أن استبدلوا كل القردة التي فعلاً أصابتها الكهرباء المؤذية، وصار كل الذين في القفص قردة لا تعلم ما يسبّبه لمس ذلك الشيء، ورغم ذلك توارثوا منع القردة الجدد من لمس ذاك الشيء...

أطلت عليك معبّراً عن إعجابي بهذه الدراسة وأمثالها لأنها تريك أموراً مشتركة بيننا وبين بقية الحيوانات، وبدراستها نفهم العديد من الجوانب الخفية في فكرنا ونفسيتنا، والمشكلة بعد ذلك تأتي في التحليل الذي يتحكّم به حب البعض للسوء والتفلت من القيود، والخوف من حاكمية رجال الدين إن انتمى للدين... ومضافاً له سذاجة ما يعرضه المنتمون لدينه تعالى، وهو معارض لبعض نتائج الدراسات العقلانية الرصينة... فتأتيك ضمن نتيجة التحليل أنه لا إله، والعقيدة الدينية خطأ، وها الدراسات تثبت ذلك.

نعم هذه النتيجة صحيحة بالمقارنة مع الدين الذي يعرضه على الآخرين غالبية المنتمين لدينه تعالى، فلو كان فعلاً بعض كلامهم عن العقيدة والشريعة وأخبار خلق الدنيا والإنسان... هو الدين الذي يدّعون أنه وصلهم من الإله، فأنا أول كافر به، بداية بخلق السماوات والأرض في ستة أيام من الأسبوع، وبخلق آدم (ع) من تمثال طين وخلق زوجته من ضلعه... مروراً بتميّز بني إسرائيل عنده تعالى مهما فعلوا، وبألوهية النبي عيسى(ع) وأمّه(ع)، وهكذا من لائحة طويلة عريضة اخترعها عموم المنتمين لدينه تعالى عبر التاريخ، والمسلمون معهم... وها القرآن كتابه تعالى بين يديك كمصدر أصيل، فلا تقبل بأي شيء موروث قبل تماشيه مع صريح كلام القرآن المفهوم من ظاهر كلامه، وإلا فستدخل في الظلمات...

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا{11})

انتهت السورة من لفت الانتباه لعظمته تعالى الظاهرة في ضخامة وتقانة خلقتنا وخلق ما تحتنا وما فوقنا وما حولنا، وصولاً إلى جعل القدرة فينا على تمييز الخير من الشرّ، وأن اللياقة مفروضة منّا وهي فلاح، والدسّ بأمور سيئة هو الخيبة. ومن هنا ستبدأ السورة بعرض نموذج سيّئٍ جداً عن قوم قصّتهم مشهورة وقد خابوا في عملهم السيّئ جداً، ولم يزكّوا أنفسهم وكانوا أسوأ نموذج لمخلوق في هذه البيئة ولديه القدرة على تمييز الخير من الشرّ واختار عناداً وتصلّباً كره الحقّ الواضح جداً وفعل السوء الواضح جداً.

{كَذَّبَتْ}، فلم تصدّق، {ثَمُودُ}، وهو اسم لقبيلة كبيرة كان لها مدن عديدة منتشرة في الجزيرة العربية، ولواحدة من تلك المدن، إلى مدينة سمّاها أو وصفها الحجر كما ورد في الآية 80 من سورة الحجر: {وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ}، أرسل سبحانه النبي صالحاً(ع) ينهاهم عن الكفر وعن الترف بنحت البيوت في الصخور... ويرجّح المؤرخون أنها الآن ما يسمى بمدائن صالح الموجودة فيما يسمى حالياً بالمملكة السعودية... كذّبت {بِطَغْوَاهَا}، بطغيانها بتعدّيها لحدوده، فأعمالهم خارج المقبول الحسن، فقد دسّوا السوء في أنفسهم، وهو نفسه الوصف بفعلهم ما لا

يسمح به تعالى، فهم فعلوا السوء كفراً وترفاً، وعلى ذلك أنذرهم سبحانه من عقابه، وهنا الكلام عن وصولهم إلى مرحلة نهيه تعالى لهم من التعرّض بأي سوء للناقة، وسترى ذلك من الآيات التالية وتراه بوضوح من الآية 64 من سورة هود: {وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ}.

من القرآن لا نجد تفاصيل عن الناقة إلا أنها آية أرسلها تعالى لهم، كما ورد في الآية 27 من سورة القمر: {إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ}، ومن المشهور في تراث المنتمين لدينه تعالى أنهم هم طلبوا خروج ناقة من صخرة حتى يؤمنوا بصالح(ع) كرسول إلهي... ونفترض أن القرآن موافق على هذا المشهور فلم يذكر ما يعارضه، وعلى أي حال، فيبدو من إغفال القرآن لمصدر الناقة أنها جاءتهم بشكل غير عادي، فلنتماشى مع ما هو مشهور طالما ليس لدينا ما يدفعنا لافتراضات أخرى...

(إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا{12})
{إِذِ انْبَعَثَ}، إذ قام وانطلق من بينهم، {أَشْقَاهَا}، أشقى شخص من ثمود، في القبيلة العديد من الأشقياء، والشقي هو الذي يفعل الأشياء التي تسبب التعاسة والأذى من دون أن يحسب حساب النتائج، وواحد من أشقى أشقياء ثمود، وكما سترى من الآية التالية، انطلق ليقتل الناقة وبعلم وموافقة من عموم أهل المدينة، وهي الناقة التي هم طلبوها لتكون لهم آية تثبت صدق النبي صالح(ع) بما يقوله لهم عن الدين الإلهي.

(فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا{13})
{فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ}، بعد رؤية النبي صالح(ع) لهم لم يؤمنوا وبقائهم على كفرهم، ومستائين من الناقة الآية التي تتنقّل بينهم وتثبت أن دينهم فاسد... ويعلم (ع) أنهم سيقتلونها لأنه تعالى أخبره سلفاً أنهم لن يؤمنوا وستكون الناقة فتنة لهم كما ورد في الآية 27 من سورة القمر {إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ}، فقال لهم (ع): {نَاقَةَ اللَّهِ}. بالفتحة على آخر كلمة ناقة، يعني احذروا أذية الناقة المنسوبة له عزّ وجلّ، فهي الناقة التي لا يملكها أحد بل هي لله تعالى، فهي ليست ملكاً لكم لتقتلوها، بل هي له تعالى ولا يحقّ لكم قتلها وأنتم تعلمون أنها آية أنتم طلبتموها، فلو كانت هذه الناقة لواحد منكم فإنكم لن تتجرّأوا على قتلها مخافة أن ينتقم صاحبها منكم، وهذه الناقة لله تعالى خلقها لكم كآية فكيف تتجرؤون على قتلها! فلا تفعلوا ذلك...

{وَسُقْيَاهَا}، اتركوا الناقة وشأنها في شرب الماء، ومن الآية 155 من سورة الشعراء {قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ} تعلم بتقسيم استعمال ماء النبع "الذي يشربون منه"، يوماً لهم، ويوماً للناقة، فهذه الناقة لها سقياها، فلها يوم لتشرب الماء...

(فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا{14})
{فَكَذَّبُوهُ}، لم يصدّقوا النبي صالحاً(ع)، أساساً لم يُصدقوا برسالته وهنا الكلام عن أنهم لم يصدّقوه بأن الله تعالى سيُنزِل عليهم العذاب إذا قتلوا الناقة، {فَعَقَرُوهَا}، عقروا الناقة، ضربوها بما له رأس يسبب اختراق الجسد، بآلةٍ سبّبوا لها أذىً في جسدها وسبّبوا موتها، طعنوها بالسهم أو الرمح أو ضربوها بالسيف فسببوا موتها.

من سور أخرى من القرآن نعلم أن النبي صالحاً(ع) قال لقومه بعد مباركتهم لعقر أشقاهم للناقة، أخبرهم أن العذاب سينزل عليهم بعد ثلاثة أيام كما ورد في الآية 65 من سورة هود {فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ}، وخرج (ع) من القرية هو والذين آمنوا معه، وبعد ثلاثة أيام:

{فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم}، قام المسؤول عنهم من مستوى إلهي بضربهم بما له دمدمة، بما له صوت متكرر، ومن الآية 78 من سورة الأعراف {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ}، تعلم أن زلزالاً أصابهم وكان له صوت يتكرّر، فكانت سلسلة من الهزّات المتلاحقة، {بِذَنبِهِمْ}، بسبب العمل الموصوف بأنه مخالف لكلامه تعالى دمَّر سبحانه قريتهم وهدَّمها، {فَسَوَّاهَا}، صارت مدينتهم بالتمام متناسبة مع سطح الأرض، دمّرها تعالى ولم يعد لها كيان واقف كمدينة.

كما نلاحظ، تحدثت الآية هنا وكأن كل قوم ثمود عقروا وقتلوا الناقة، ولذلك أصاب الزلزال كل قريتهم، مع العلم أن الذي عقر الناقة شخص واحد كما ورد منذ قليل، ولكن الكفّار من قوم ثمود كانوا موافقين وداعمين ولذلك عاقبهم

سبحانه كلهم، إلّا النبي صالحاً(ع) ومن آمن معه، حيث وكما ذكر لنا القرآن فهؤلاء خرجوا من المدينة فوراً بعد قتل الناقة...

ضع في بالك أن قوم النبي صالح(ع) لم يموتوا كلهم، ابتعد عنهم النبي(ع) والمؤمنون بعد موت الناقة قتلاً، فأصابهم الزلزال، ورجع النبي(ع) وتحدث مع من بقي حيّاً وقال لهم: {يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}... هكذا ورد في الآية 79 من سورة الأعراف، لم تحصل إبادة شاملة لهم، ونفس الشيء حصل مع قوم النبي شعيب(ع)، أمّا عاد قوم النبي هود(ع)، وقوم النبي نوح(ع) وقوم النبي لوط(ع)، وفرعون وجنوده، فأبيدوا بالكامل.

(وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا{15})
أخيراً فإن الله سبحانه بعد تعذيبه لثمود فهل يستطيع أحد منهم أن يفعل شيئاً لله تعالى؟

سبحانه {لَا يَخَافُ عُقْبَاهَا}، أيّ عاقبة، أيّ شيء سيعقب وسيأتي بعد تعذيب قوم ثمود، سبحانه لا يخاف، لا يتوقّع أي خطر يمكن أن يصيبه كردِّ فعلٍ من أي أحد يريد أن يؤذيه أو يضرّه عزّ وجلّ.

ثمود ردّاً على تهديده تعالى لهم عبر النبي صالح(ع) إذا تعرّضوا بالأذية للناقة، قالوا له بأنهم لا يخافون من أحد، وأنهم أقوى من أي شيء! بل وهذا التعبير هنا في الآية يعطيك معنى أنهم كانوا يهدّدون النبي(ع) والذين آمنوا معه، وحين هدّدهم النبي(ع) بعقاب سينزل بعد ثلاثة أيام، فيبدو من الآية هنا أنهم هدّدوا النبي(ع) وهدّدوا الإله سبحانه وتعالى وتحدّوه أن يفعل شيئاً سيئاً بهم! وآيتنا هنا من الآيات النادرة التي نقلت في فحواها تهديداً تخويفياً له عزّ وجلّ من الناس الذين كفروا به تعالى وعصوا أوامره.

تجد في الآية 77 من سورة الأعراف أنهم سخروا من تهديد النبي صالح(ع) لهم بنزول العذاب بعد ثلاثة أيام، {فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ}، هنا الآية {وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا} على أساس أنهم يعتبرون أنفسهم طالوه تعالى حين آذوا ناقته، وهم لا يخافون من تهديداته، دمّرهم سبحانه وماذا فعلوا معه؟ لا شيء، فماتوا وفي الآخرة لهم حساب عسير.

هكذا انتهت السورة التي عرضت لنا نموذجاً سيئاً جداً عن قوم لم يزكّوا أنفسهم، فما معنى هذه الدنيا التي هم فيها وبقدرة تجعلهم يميّزون بين الخير والشرّ؟ وما معنى ارتكابهم لفجور، لسوء ضخم جداً، بقتلهم لآية حيّة هم طلبوها لتكون دليلاً على صدق كلام رسولهم المنقول عنه تعالى؟ وكما ترى هم لم يستحقّوا الاستمرار في هذه الحياة، فأنهاهم سبحانه.

لِنُعِدْ صياغة المفهوم بكلمات أبسط، بغض النظر عن أي عقيدة أؤمن بها، ها أنا حيٌّ واعٍ مفكّر... في بيئة مناسبة لأحيا فيها... وتدفعني الأشياء والظواهر في بيئتي للسؤال عن منشئها وكيفية صيرانها، وبغض النظر عن الجواب عن آلية حدوث ذلك، فأنا في حالتي الآن "موجود" في بيئتي في الكون، أميّز بين مفهوم أصف به بعض الأمور بأنها شرّ وسيّئة، فما معنى ذلك؟ فهل أتصرّف على أساس ما أميّزه من خير وشرّ؟ أو أتغاضى عنه وأتصرّف على هواي وما أرغبه بغض النظر عن كونه خيراً أو شرّاً؟ وإذا خالفت الزكاة "اللياقة" بكوني أميّز الخير من الشرّ، فما قيمتي؟ وما معنى وجودي؟ وهل أستحقّ ما أنا فيه من كيان وبيئة؟

من هنا تنتقل السورة لنموذج واضح من السهل فهمه، إلى قوم كفروا، فجروا، فعلوا السوء الواضح بذخاً وترفاً في نحت بيوت تكاليفها المالية عالية، والمجهود العمّالي المبذول فيها هائل، بلا أي فائدة تزيد عن أي بيت مبني بالطرق العادية، وفوق ذلك هم طلبوا ناقة يخلقها تعالى لتكون دليلاً على صدق صالح ليؤمنوا به كرسول إلهي... وقتلوها! فهل يستحقون البقاء أحياء؟ ولماذا لم يزكّوا أنفسهم طالما فيهم قابلية رؤية الخير من الشرّ؟

التحفيز على إنفاق المال في سبيله تعالى على المحتاجين، وربط هذا الإنفاق بالإيمان به تعالى وبدخول جنّة الآخرة، والتهديد لمن بخل واعتباره مكذّباً للدين الإلهي ونهايته النار.

السورة ليست بهذا الجفاف، فهذا الطرح الإلهي يمسّ حياتنا في الصميم، لترى وجهاً مختلفاً لمعنى دينه تعالى ولمعنى التديّن به، فالسورة وعموم القرآن لا يطرح أوامره تعالى بعنوان المرغبات للانضمام لدينه تعالى مثلما نفعل نحن لتشكيل الأحزاب والجمعيات والمنظمات، لا، بل يطرحها كأمور حسنة أصلاً من المفروض أن يكون لدينا رغبة بها، خلقنا تعالى وجعل فينا بذرة الخير وهذا ما أراده تعالى لنا أن نسلكه في حياتنا، ومساعدة المحتاجين من أبرز النماذج التي ليس من المفروض أن يناقش عاقل بحسنها ووجوبها، ويمكن بسهولة البناء على هذه النفسية وهذا المفهوم الذي يتشابك مع إعطاء الآخرين حقوقهم واحترام ملكيات الآخرين... فدينه تعالى ليس سلوكاً فردياً خاصاً بي كصلاة في زاوية لن تؤثّر على الآخرين، وصوم أشعر بجوعه لوحدي، وقراءة قرآن... بل هي حياتنا بكل مفرداتها دينٌ، من أموري الشخصية إلى تعاملي مع كل الآخرين، وليس دينه تعالى تعقيدات ونهياً عن مشتهيات فيها خير... بل عرضٌ لفعل الأمور الحسنة والابتعاد عن الأمور السيئة...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى{1})
تأكيداً بـ {اللَّيْلِ}، وهو فترة العتمة من اليوم، {إِذَا يَغْشَى}، إذا أحاط وانتشر على بقعة من الأرض.

(وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى{2})
تأكيداً بـ {النَّهَارِ}، فترةِ الضوء من اليوم، {إِذَا تَجَلَّى}، عندما يظهر على منطقة ما على الأرض، فينتشر الضوء عليها.

حتى تفهم الآيات لا تبتعد كثيراً يا عزيزي ويا عزيزتي إلى علم الفلك ودوران الأرض حول نفسها كسبب لحدوث الليل والنهار... فمجرد الانتباه لهذين المشهدين، العتمة والضوء، وبضخامة انتشارهما على الأرض، وما يسبّبانه لك من انكشاف الرؤية أمامك أو الظلمات، فهو ما تلفت السورة نظرك له. فإذا ذهب فكرك إلى أبعد من ذلك فهو تفكّر في خلق السماوات والأرض أمرنا تعالى به كما أمرنا بالصلاة والصيام والصدقة... ولكنه ليس تفسيراً للآيات.

(وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى{3})
تأكيداً بـ {مَا خَلَقَ}، ما ركّب وألّف، {الذَّكَرَ وَالْأُنثَى} كجنسين من الحيوان، وهنا الكلام بالخصوص عن الجنسين من الإنسان.

ما ركّبهما حتى يصيرا مختلفين بالصفات التي نعرفها عن الذكر والأنثى؟ وهذا السؤال هنا يدفعك لترى نفسك كإنسان، ككائن ينتمي لما له نوعان "ذكر وأنثى"، فقبل لفت السورة انتباهك لمساعدة الآخرين من مالك، فهي تذكّرك بأنك من النوع الحيواني الذي فيه ذكر وأنثى، فمن ستساعدهم أنت منهم، من نوعهم، فهي على معنى الآية الأولى من سورة النساء "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا"، فمنها فهمنا تقواه تعالى في تعاملنا مع بعضنا البعض لأننا كلنا بالأساس كذكر وأنثى مخلوقون من نفس واحدة...

دائماً ضع في بالك أمام آيات كهذه يذكرها القرآن أنها من المنظور الإلهي لنا، وحاول أن تتصوّر نفسك أنت تقوم بتصميم وخلق كائنات وتصميم خلق وبيئة لها، وقارنها مع خلقتنا وخلقة بيئتنا وسترى تريليونات التفاصيل التي يجب أن تنتبه لها وتنتبه أن لا تتعارض مع بعضها حتى ينجح تصميمك... وستفهم أنه عزّ وجلّ أكثر من التفاصيل عن قصد حتى ننتبه أنّ إلهاً عظيماً فقط يمكنه القيام بهذا، ولننتبه أن هذا التصميم والخلق لا يمكن أن يكون عبثياً، فهنا في السورة وفي غيرها العديد من السور التي تلفت انتباهنا لما حولنا وصولاً إلى لفت انتباهنا لخلقتنا نحن، لتريك ما فيك من

صفات إنسانية مزروعة فيك، وتلفت انتباهك لما فعلته أنت بهذه الصفات والقدرات، فكيف تتصرّف مع بقية أبناء جنسك.

عادةً نحن نسأل عن الحكمة من خلقنا، عن السبب والهدف من خلقنا؟ فنسأل: لماذا أنا هنا حيّ واعٍ مفكّر... في هذه الدنيا؟ فيأتي الكلام الإلهي ليلفت انتباهك لكائنات وظواهر من حولك تدل على إله فائق القدرات صمّمها وخلقها ويتابع شؤونها، وخلقك بالصفات التي تعرفها، فأنت إنسان، فماذا فعلت أنت بنفسك ومع الناس الآخرين؟

قبل أن تتكلّم بكلام كبير بالبحث في الكون عن الأسباب ولماذا وكيف... فالتفت إلى ما فيك من تمييز للخير من الشرّ، وإذا تعاملت معه بالبساطة أو تعمّقت وغصت لتضع المفاهيم والأفكار... فعلى كلا الحالتين يبقى السؤال: ماذا فعلت أنت؟ فهل اتبعت ما تراه خيراً وتركت ما تراه سوءاً؟

السورة هنا اختارت نموذجاً سهلَ الفهم جداً، ويمسّ حياتنا كلّنا في الصميم، فحياتنا مرهونة بتأمين ما يحتاجه جسدنا من طعام وشراب، فهذا أساس يمكننا من بعده الانطلاق لتأمين الاحتياجات الأخرى، فالقرآن حين تحدّث عن مساعدة المحتاجين أضاء كثيراً على هذا الأساس بتأمين الطعام لهم، فتأمين بقية الأمور قد يناقش أحد ما في تفاصيلها كتأمين الدراسة ومساعدة للزواج... ولكن من المفروض أنه لا أحد من الناس سيناقش أو يفكّر مرتين في مسألة مساعدة محتاج للطعام ولذلك كرّرها القرآن كنموذج وليس كحصر للصدقة بما يخص الطعام.

خذ مثلاً الآية 33 من سورة النور "...وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ..."، فهي تأمر بمساعدة من يريد شراء حرّيته، وهذا نموذج من عدة نماذج لترى أن الإنفاق ليس حصراً على إطعام الآخرين.

معلومٌ أن النادر جداً من الناس يولدون بخصائص غير متناسقة مع التكوين الكامل لذكر أو لأنثى، ونسميهم خنثى، ولكنها ليست حالة شائعة بل نادرة جداً، وهنا الآية لا تقول بأن كل إنسان فهو إمّا ذكرٌ أو أنثى، بل تلفت انتباهنا لخلقة النوعين، لنلتفت أننا "غالباً" إمّا من هذا النوع أو من ذاك، وحتى أنها بشكل ما تتحمّل الاشارة لمن هو بين التصنيفين، ففيه صفات ذكورية، وصفات أنثوية، وعلى أي حال فالكلام عمومي والإشارة عمومية للغالب الأعم.

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى{4})
بعد لفت انتباهنا لظاهرتي العتمة والضوء وخلق الإنسان جنسين، وهذه نماذج عن عظمة صفات الإله المصمّم الخالق، بعدها نصل إلى ما تريد السورة تأكيده وهو الحكمة الإلهية من هذه الخليقة للإنسان:

{إِنَّ سَعْيَكُمْ}، إن الأمور التي تقومون بها عن وعي وتقصدون بها شيئاً ما، {لَشَتَّى}، مختلف غير متوافق، فسعيكم في أمور متفرقة، وسترى أن بعض الناس يتماشون مع ما زرعه تعالى فينا من تمييز للخير فيفعلونه، ويرون السوء فيتركونه، ولهذا التصرّف أثر عنده تعالى، فسيثيب سبحانه بالحسنات على ذلك في الآخرة، وبعضهم الآخر لا يهمّه هذا الموضوع ولا يؤمن به أصلاً ولا يسعى له، وفقط يسعى في الدنيا لمصالحه الشخصية ناسياً الآخرين، وناسياً خلقته وأنه منهم ذكراً كان أو أنثى.

عموم الأعمال والأفعال التي تصدر عنّا وكنّا نقصد بها شيئاً ما، فهي مختلفة، وسترى من السورة تركيزها على واحد من نماذج سعينا، وهو الإنفاق على المحتاجين بناءً على ما زرعه تعالى فينا من تمييز للخير من السوء، وبناءً عليه سيجازينا بالحسنات في الآخرة على الإنفاق.

ضع في بالك أن السعي أعمّ من المشي الذي تقصد به الوصول إلى شيء ما، فهو عامةُ أي فعل تقصد منه شيئاً ما، كما نقول: سعى لطلب الرزق بالعمل أو قيادة السيارة أو الجلوس في الدكان... سعى لطلب العلم بالقراءة والدرس...

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى{5})
... {سَعْيَكُمْ لَشَتَّى}: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى}، مقابل {بَخِلَ} التي سترد في الآية 8، والكلام هنا عن إعطاء المال كما سترى في الآية 11، والمقصود إعطاء المال للمحتاجين، {وَاتَّقَى}، تجنّب شيئاً ما، وهي مقابل {اسْتَغْنَى} التي سترد في الآية

8، فيكون التُّقَى هنا هو تجنّب فعل سوء بترك المحتاجين بدون مساعدة، وهو نفسه تجنّب العذاب الناتج عن مخالفة أوامره تعالى، وعملياً نتيجة التُّقَى الحصول على الثواب في الآخرة مقابل من بخل ولم ينفق لأنه لم يؤمن بثواب في الآخرة فهو بالغنى عنه ولا يعمل للحصول عليه.

بتفسير الآيات جرياً على عادتنا من تراكم موروثنا الديني سنقول بأنها تريد التفريق بين من ساعد الآخرين عطفاً أو شفقةً أو كواجب إنساني أو للدعاية ليقول عنه الناس إنّه محسن وفاعلُ خير... وبين من تصدّق بدافع التُّقَى الذي نفسره حصرياً بقصد تجنّب غضبه وعقابه تعالى الذي أمرنا بمساعدة المحتاجين، وطامعاً في الثواب الحسن منه تعالى. لننتبه لهذا جيداً لأنه تعالى يصنّف مساعدة الآخرين بأنها عمل حسن، وواجب، وزرعه تعالى فينا لنراه حسناً وواجباً علينا، عموم أي إنسان يؤمن بأي عقيدة كانت، وتصدّق بالدافع المزروع فينا لحبّ فعل الخير، فهذا يتسجل له فعل الحسنة، أما الثواب عليها منه تعالى فمشروط بالإيمان به تعالى، وإلا فلماذا سيعطيني سبحانه ثواباً على ذلك إن لم أفعله وأنا مؤمن بثواب منه تعالى؟ وهذا جانب من معنى حبط الأعمال الذي تحدّثت عنه سور مختلفة من القرآن، والأعمال الحسنة تبقى موصوفة بأنها حسنة حتى لو فعلها الكافر، ولكنها تحبط، فتفقد قيمتها لتصير بلا ثواب منه تعالى لأن من فعلها لم يؤمن بحصوله على ثواب منه تعالى، فلماذا سيعطيه تعالى عليها ثواباً؟

بالنسبة للصدقة والزكاة... في عموم كتب التفاسير تجد ربطاً بين الزكاة الواجبة والآيات التي تتحدّث عن الإنفاق، على أساس أن الزكاة صارت واجبة على المسلمين بعدما هاجر النبي(ع) إلى مدينة يثرب، وعلى أساس أنها الصدقة الوحيدة الواجبة بحسب ما يبدو من كلام الكثيرين منهم، وبناءً عليه أيُّ آية تذكر الزكاة وتقصد الإنفاق المالي الواجب، ذهب المفسرون إلى أنها يجب أن تكون نزلت بعد صيرورة الزكاة واجبة، وبالتالي يجب أن تكون نزلت بعد مهاجرة النبي(ع) إلى يثرب وليس حين كان (ع) لا يزال في مكّة، وهذا الكلام غير دقيق.

الزكاة واجبة في دينه تعالى من الأساس في تشريعات الرسل السابقين، وهذا القرآن والرسول(ع) لا يطرحان علينا ديناً جديداً، وليس دقيقاً كلامهم حين يقولون إنّ الزكاة فرضها تعالى في المدينة، لأن الزكاة أصلاً واجبة في دينه تعالى، والكلام الدقيق أنّ فريضة الزكاة تفعّلت وتحدّدت مقاديرها وعلى ماذا "بما يناسب زمن الرسول" وحصل العمل على جبايتها والتصرّف بها، وإنشاء بيت لها كإدارة بموظفين لشؤون جمعها وصرفها... حدث ذلك بعدما هاجر النبي(ع) إلى مدينة يثرب وشكّل نواة حكومة هناك.

مقادير الزكاة اختلفت الروايات في تحديدها لأنها أصلاً لم تحدّد في القرآن، حيث ترك سبحانه تحديدها لنا بحسب المقدار الذي نراه مناسباً بحسب الظروف وحالة الأفراد والأزمنة... على قاعدة أن تكون النسبة التي يجب علينا دفعها لا تؤثّر على وضعنا المالي، وتكون من فاضل مالنا، من العفو كما ورد في القاعدة الأساسية التي تطرحها الآية 219 من سورة البقرة "... وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ..." ولذلك ترى تفاوتاً في الروايات لتحديد نسبتها لأن الظروف المالية العامة ولكل شخص، فهي تختلف حتى تبقى الضريبة موصوفة بالعفو.

بالمختصر، الروايات التي اختلفت في تحديد نسبة الزكاة، وبغض النظر عن صحتها أو فسادها، اختلافها يريك تحرّك الرسول(ع) ضمن الهامش المتروك إلهياً عن قصد حتى يناسب مختلف الأفراد والحالات والأزمنة... لذا من الخطأ البحث في تلك الروايات لاستخراج مقادير ثابتة لتطبيقها على كل الأزمنة والأفراد، وهامش المرونة الذي تركه تعالى تحرّك ضمنه الرسول والخلفاء... بما يرونه مناسباً لزمانهم ولحالة الأفراد الذين تعاملوا معهم، وكذلك الحال بالنسبة لنا، نتحرّك ضمن هامش المرونة بما يبقى موصوفاً بالعفو حين ندفع الزكاة.

أمّا ما يجب فيه الزكاة فأيضاً لم يحدّده القرآن واختصره بوصفه بالخير كما نجد في القاعدة العامة التي ذكرتها الآية 215 من سورة البقرة "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ..."، وترك تحديده لنا لتقييمنا، حيث إنّ حاجات المجتمعات تختلف بالمواد التي ترتبط بمعاش الناس لمساعدتهم بها.... من القمح أو التمر أو الزبيب... أو الذرة والأرزّ...

أيضاً من الخطأ البحث في الروايات عمّا يجب فيه الزكاة، لأنه تعالى تركه مفتوحاً بما يناسب مختلف المجتمعات ونتاجها وما تحتاجه كمواد أولية للمعيشة، وما حدّده الرسول(ع) كان بما يناسب زمانه وبيئته.

القرآن ذكر الزكاة المالية وقصد بها الضريبة الدينية الواجبة دفعها للسلطات والجهات التي تتولّى صرفها في مواردها المناسبة، وتصرفها أنت بنفسك في سبيله تعالى في غياب تلك الإدارة، وموارد صرفها تجدها في الآية 60 من سورة التوبة "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ".

الخلاصة أن القرآن لم يتحدّث عن شيء اسمه زكاة واجبة كصدقة واجبة في مقابل صدقة مستحبة، لا، طالما هناك محتاج وأنت قادر على المساعدة، فالصدقة واجبة عليك، وطالما هناك شيء يحتاجه المسلمون وأنت قادر على المساعدة فهو واجب عليك... وليست الزكاة فقط الواجبة.

ضع هذا المفهوم القرآني في بالك وسترى أن فهم الآيات يكون أسهل ومتجانساً، هنا مثلاً لتفهم الآية لست مضطراً للتفريق بين الزكاة والصدقة، وبين الصدقة الواجبة والمستحبة... حيث إنّ الآيات تتحدّث عمّن يحتاج للمساعدة، حتى لو دفعت الزكاة "الضريبة" يجب عليك مساعدة المحتاج طالما تستطيع، والعديد من كتب المفسرين لم ينتبهوا لهذا المفهوم حتى يدخلوه في تفسيرهم للآيات التي تحدّثت عن الإنفاق...

(وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى{6})
{أَعْطَى} {وَاتَّقَى}، {وَصَدَّقَ}، لم يكذّب، {بِالْحُسْنَى}، بما يوصف بأنّه حَسَنٌ، وسترى من الآية التالية أن الكلام عن إيمانه بعاقبة حسنة، بشيء جيد سيحصل عليه منه تعالى مقابل مساعدة المحتاجين، وهذا يتضمّن إيمانه بكلامه تعالى عن الآخرة والثواب بالجنّة فيها، يعني هو وصف لمن آمن بالآخرة وثوابها.

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى{7})
{فَسَنُيَسِّرُهُ}، سنجعله على الشيء السهل الذي تسير فيه أموره براحة، {لِلْيُسْرَى}، إلى الحالة التي تكون فيها أموره ميسرة لا عقبات فيها. ومن عموم القرآن تعلم أن من كان بهذه الصفات {صَدَّقَ} {وَاتَّقَى} فهو يسير باتجاه جنّة الآخرة الخالدة الرائعة، وهي عملياً معنى التيسير لليسرى.

(وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى{8})
والنوع الثاني من السعي الشتّى: {وَأَمَّا مَن بَخِلَ}، أحبّ الاحتفاظ بما لديه ورفض التخلّي عنه ولم يعطِ من ماله وطعامه... للآخرين، {وَاسْتَغْنَى}، وهي مقابل من {اتَّقَى} التي وردت قبل قليل، وشعر أنّه بالغنى وليس بحاجة لاتباع ما يأمره به فكره ونفسيته، وعاند رغبة فعل الخير المزروعة فيه وصولاً للاستغناء عن السعي لكسب الحسنات للآخرة.

(وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى{9})
لم يصدّق بأن هناك شيئاً حَسَناً له منه تعالى إن ساعد المحتاجين، ولم يؤمن بالآخرة والجنّة ولم يهتمّ بالحصول عليها عبر فعل ما يأمر به تعالى.

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى{10})
{فَسَنُيَسِّرُهُ}، نجعله على الشيء السهل الذي تسير فيه أموره براحة، {لِلْعُسْرَى}، إلى حيث الصعوبة واللا راحة. بعبارة أخرى سنسهّل له الطريق الذي يوصل للصعاب، لتكون نهاية حياته ومسيرته في النار، وبسهولة سيصل إلى هناك. كما ترى فسبحانه وتعالى أوصل لنا أمراً بوجوب مساعدة المحتاجين، بل وقبل ذلك جعل سبحانه ذلك محبوباً عند من له قلب سليم، ومن فسد قلبه "فكره ونفسيته" {بَخِلَ وَاسْتَغْنَى}، فهذا قراره هو، ويتحمّل مسؤوليته، وهي مسيرته السهلة نحو العسرى، ولن يضع سبحانه وتعالى عقبات أمامه حتى يجبره على الإنفاق، بل سيتركه على راحته حتى يصل إلى النتيجة السيئة التي اختارها بإرادته.

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى{11})
{وَمَا يُغْنِي عَنْهُ}، ماذا سيغني المال عن الذي بخل واستغنى عن ثواب الآخرة، {إِذَا تَرَدَّى}، إذا وقع متضرّراً، والكلام هنا عن وقوعه ميّتاً على الأرض، فبماذا سينفعه ماله حينئذ؟
عندما نموت نفقد اتصالنا بمالنا وأملاكنا وسياراتنا وشركاتنا... وإذا تكدّست من بخلنا ولم ننفقها لكسب الحسنات منه تعالى، فبماذا ستنفعنا إن متنا؟ لا شيء، بل ستضرنا لأننا سنتحاسب على كيفية جمعنا لها، ولأننا لم ننفق منها كما أمرنا سبحانه.

في الآية عمق، في الحالات العادية نحن مأمورون بالإنفاق على المحتاجين مما زاد عن حاجتنا، فإن جمعت المال لدرجة تفيض عن حاجاتي، ولم أنفق منه، فماذا سيحصل له بعد موتي؟ سيرثه أقاربي، فهم سيتنعمون بما سيحصلون عليه مما أنا بخلت به ولم أتصدّق به، ونفس ذلك المال أنا سأتحاسب عليه! ماذا استفدت منه إن لم أنفق منه كما أمرني سبحانه؟ لا شيء، ولن أحمله معي إلى الآخرة، ولا يمكنني من بعد موتي إعادة حساباتي لينفقوه من بعدي كما أمر تعالى، ومن هنا يأتي السؤال، فإذا انتفع أقاربك من مالك بعد موتك، فأنت بماذا انتفعت منه لآخرتك ومن قبل لم تنفق منه في سبيله تعالى؟ لا شيء.

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى{12})
يقول سبحانه عن نفسه: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى}، فعليه تعالى إرشاد الناس إلى الشيء الصحيح الذي يوصلهم للغاية الصحيحة، ولن يتركهم تعالى على عماهم من دون أن يعرفوا ما هو الشيء الصحيح.

من عموم القرآن، وكمثال من الآية 78 من سورة النحل "وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" ومن أمثال آيتنا هنا والآية 10 من سورة البلد "وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ"، تعلم أنه تعالى جعل فينا وعياً وفهماً للأمور بحيث نستطيع من ذلك تمييز الأمور السيئة من الأمور الجيّدة، ومضافاً لذلك أخبرنا سبحانه صراحة عن ثواب على الأعمال الحسنة، وقوّم لنا رؤيتنا للأمور عبر رسله وكتبه... وهذا هو هداه سبحانه لنا فلم يتركه لأحد غيره ليحدّده لنا.

هذه السورة نموذج عن هداه تعالى لنا حيث أمرنا بالإنفاق ووعدنا بالثواب، وهددنا بالعقاب إن لم ننفق على المحتاجين، فهذا هو الشيء الصحيح.

(وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى{13})
{وَإِنَّ} له تعالى، {لَلْآخِرَةَ}، التي في مقابل الدنيا، وهي حياتنا والبيئة التي ستأتي في الآخر من بعد انتهاء الدنيا، فهي له تعالى وليست لغيره، فسبحانه الحاكم فيها وسترى من الآية التالية أنه تعالى حكم بالعقاب في الآخرة لمن استغنى عن تحصيل الحسنات من الإنفاق على المحتاجين، وحكم بالحسنات لمن أنفق واتقى...

{وَإِنَّ} له تعالى، {وَالْأُولَى}، وهي الحياة التي نحن فيها الآن، فهي أولاً وبعدها الآخرة في الآخر، فهذه أوامره تعالى لنا هنا بالإنفاق على المحتاجين مبنية على حكمه تعالى وملكه لنا ولكل شيء في الأولى هنا الآن.

يعني هنا في الدنيا نحن في ملكه تعالى وأمرنا بالإنفاق المبني على التقى "في الفكر والسلوك"، فلو كانت الدنيا لغيره تعالى لما كان له الحقّ عزّ وجلّ أن يأمرنا، وفي الآخرة نحن سنكون في ملكه تعالى فلن نختفي بعد موتنا، ولن نذهب إلى مكان لا يملكه تعالى... وبناءً عليه فلنأخذ علماً بأن من قال هذا الكلام عن الثواب والعقاب فبيده الملك والقرار هنا وفي الآخرة.

تذكّر بداية السورة التي تحدّثت عن الليل والنهار وخلقة الذكر والأنثى، كنماذج يظهر منها العظمة الفائقة لصفات وقدرات الذي خلقنا وأننا في ملك إله عظيم لا يعبث، وأن الحكمة من خلقنا هي امتحاننا ومحاسبتنا بعد أن هدانا تعالى، وبناءً على ملكه تعالى للآخرة التي سننتقل إليها، وملكه تعالى للأولى التي نحن فيها الآن، والتي لا يحقّ لنا أن نفعل فيها ما نريد، ولا أن نفعل ما يريده غيره تعالى، لأننا ملك له تعالى الآن وسنبقى في ملكه أينما كنّا.

(فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى{14})
{فَأَنذَرْتُكُمْ}، أوصلت لكم الخبر عن شيء سيّء قادم حتماً لمن بخل واستغنى وكذّب بالحسنى، فهؤلاء محسوم لهم النتيجة السيئة وها قد وصلهم الإنذار منها، {أَنذَرْتُكُمْ}، {نَاراً تَلَظَّى}، نار تصدر عنها حرارة عالية حارقة. وهذا الإنذار ليس مجرد كلام بل سيحصل حتماً لأنه كلام الذي له الآخرة والأولى.

ننتبه دائماً لما نجده منتشراً في مختلف كتب التفاسير من تفسيرهم لبعض الكلمات بما يظنون أنها مترادفة بالمعنى، وجهد العديد من اللغويين على تحديد الفوارق بين معاني الكلمات التي تبدو مترادفة، وقدّموا جهوداً جبارةً نجحوا في البعض منها... وهنا في هذه الدراسة استفدنا من جهودهم، وصوّبناها، وتوصلنا لنتائج جديدة، وللأسف كان من

المفروض بي ذكر المصدر الذي استنسبت ما توصّل إليه من معنى لكلمة ما، ولكن هذه الدراسة المجهدة وقبل الابتداء الفعلي بها، استغرقت سنيناً طوالاً على غير هدى في ضياع عن المنهج، فكانت سنيناً من التحرّي والاستقصاء لمعرفة الخلل في التفاسير والمانع من فهم كلامه تعالى... حتى توضّحت بعض معالم الصورة، وبدأت بتجربة المبادئ التي توصلت إليها، ومنها إعادة دراسة معاني الكلمات من الصفر، ومقارناً لها مع ما استعمله القرآن في كل آياته، مع الرجوع إلى أشعار العرب قبل الإسلام، وبعد ذلك راجعت أمّهات القواميس، وأهمّها تاج العروس ومفردات الراغب وقواميس أخرى... وبعدها مراجعة أمهات كتب التفسير وأهمها الميزان وروح المعاني... لأقارن بين النتيجة التي توصّلت لها مع ما قالوه...

قبل ذلك وخلاله قرأت كتباً ومقالات كثيرة في هذا الموضوع، وقرأتها مكتفياً بتسجيل الملاحظات، وراكمتها فيما يشبه القاموس للاستفادة منها فيما بعد خلال البحث، ولم أكن أتوقّع أن أكتب تفسيراً للقرآن، كانت البداية بنيّة فهم كلامه تعالى فقط، ولم أكن حاسماً في تحديد معنى الكلمات، فنقلت كل الملاحظات وراكمتها، واعتبرتها كلها تحت قيد الدرس، وهكذا وصلت إلى مرحلة مئات من الصفحات المشحونة بالملاحظات واستعصى عليّ تحديد من قال هذه ومن قال تلك، حتى أني لم أعد أميّز بين الذي توصّلت إليه ابتكاراً منّي مما تخزّن في ذاكرتي مما قرأته.

إذ أدّعي على ما في هذه الدراسة من تقدّم ملحوظ في تحديد معاني الكلمات بدقّة، فلا أدّعيه كلّه لنفسي، حتى أني لا أعلم كم نسبتي منه، فلكثرة ما قرأت انشحنت ذاكرتي بالكلام الكثير، ولم أعد أعلم بنات أفكاري من أذكاري!

على أي حال، فالأجر عليه تعالى لكل من سلف وقدّم مجهوداً استفدت منه في هذه الدراسة.

هنا في الآية ستجد بعضهم يفسّر الإنذار بالتحذير، أو بالتخويف أو حتى بالخشية والتقى... وتجدهم عموماً في مختلف الآيات يفسرون هذه الكلمات ببعضها، فيفسرون الخوف بالخشية، والتحذير بالتخويف... وهكذا... وما تميّزت به هذه الدراسة هو محاولتها تحديد المعنى الدقيق للكلمة، فأذكره في دراسة كل آية ورد فيها، ومن بعده وللتسهيل على القارئ أذكر عبارة أخرى لأقرب مشابه للمعنى، وبعدها ذكر المعنى الذي كان عليه تركيز الآية باستخدامها للكلمة حتى يسهل فهم مراد الآية.

هنا الآية استعملت الإنذار، وهو الخبر عن شيء سيّء قادم حتماً بسبب توافر شروط حصوله، أمّا الحذر فهو التحرّز والانتباه من عواقب شيء سيّء تتوقع حصوله إن اكتملت شروط حصوله، وهكذا ترى أن الكلام هنا في الآية موجّه لمن هم ذاهبون فعلاً إلى النار، فحالتهم حالة الذاهب إلى النار حتماً إن بقوا كما هم، وأما التحذير فهو لمن ليس على طريق مؤدٍ إلى النار تماماً، فهناك احتمال أن يفعلها ويسلك طريق النار، فهذا تحذّره حتى لا يسلكه.

(لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى{15})
{لَا يَصْلَاهَا}، لا يتوجّه للنار، فلا يقف أمامها، {إِلَّا الْأَشْقَى}، إلا الذي يفعل الأشياء التي تسبب التعاسة والأذى من دون أن يحسب حساب النتائج. وهنا الكلام عن البخل والاستغناء والتكذيب، فهي شقاوة، فيوصف من فعلها بأنه شقي لأنها ستسبّب له الصلي أمام نار تلظّى، ولم يحسب لذلك حساباً.

(الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى{16})
{الْأَشْقَى}، {الَّذِي كَذَّبَ}، لم يصدّق بالكلام الذي تقوله هذه السورة، وكذّب بعموم الكلام الإلهي، {وَتَوَلَّى}، توجّه باتجاه آخر، فلم يكترث ولم يهتم بما يقوله تعالى عن حساب في الآخرة.

(وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى{17})
{وَسَيُجَنَّبُهَا}، سيتم إبعاد ولن يتم تقريب، {الْأَتْقَى}، الذي يتقي فيتجنّب ويتحاشى، والكلام عن عموم تجنّب السوء وهو نفسه تجنّب غضبه وعقابه تعالى، فهذا سيتم إبعاده عن النار.

فالنار والجنة في نهاية مسار جميع الناس، والأتقى سيتم تجنيبه النار.

(الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى{18})

{الْأَتْقَى}، {الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ}، يعطي من ماله للآخرين، وكما تعلم فالمقصود هو مساعدته للمحتاجين عبر إعطائهم من ماله العيني والنقدي، فمؤنة الأرز والقمح... والطعام الجاهز للأكل كربطة الخبز... هي مال عيني، والعملة الورقية أو المعدنية هي مال نقدي، فيؤتيهم من ماله، {يَتَزَكَّى}، يصير لائقاً، والكلام عن صيرانه لائقاً كإنسان "مؤمن صالح"، وماله يصير لائقاً من بعد الإنفاق منه على المحتاجين، فقبل الإنفاق منه فهو مال فيه حقّ للآخرين وليس لائقاً بصاحبه البخل...

من الوضوح أن التزكية هنا أعمّ من الزكاة كمصطلح ديني للضريبة، فالإنفاق بعمومه زكاة على وصفية الزكاة حيث يصير الذي أنفق زاكياً أي لائقاً، ويصير ماله لائقاً وليس مثل مال البخيل الذي حرم منه المحتاجين.

فهناك ضريبة دينية اسمها زكاة، وتتحدّد من العفو ومما هو خير... ولكن عموم الإنفاق في سبيله تعالى فهو أيضاً عملٌ زاكٍ لائقٌ يجعل مَن فعله زاكياً لائقاً.

(وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى{19})
{وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ}، وليس لأحد من الناس عند الشخص الذي صرف ماله ليُزكّى، {مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى}، مَن أنفق على المحتاجين لا يتوقع منهم مجازاته بشيء جيّد، فلا يريد من الذين ساعدهم من ماله أن يقدموا له أي خدمة أو هدية أو أي مقابل... يوصف بأنه نعمة منهم له.

فلا يصير في حسابات من أنفق من ماله على المحتاجين أن له عليهم شيئاً، فلا يضع في باله أنهم سيقومون بعمل ما لردّ جميله وإحسانه، ولا يحقّ له أن يتوقّع منهم مجازاته بشيء حسن، فترى بعض الناس الذين تلقّوا مساعدة مالية من شخص ما، تراهم يركضون لحمل أغراضه، ويهرعون لمساعدته إذا رأوه يفعل شيئاً ما، ويقدمون له هدية ما، ويزورونه ويهتمون بمن يحبّهم... وهذا من جانبهم، وأمّا من جانب من أنفق عليهم وساعدهم فلا يحق له أن يتوقّع منهم أي شيء، ولا أن يقبل منهم أي شيء بسبب إنفاقه عليهم، وإلّا فهو لم ينفق طالباً الأجر منه تعالى، فلنتابع مع الآية التالية:

(إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى{20})
لم يعط من ماله للمحتاجين، {إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ}، إلا طلباً ليتوجّه عليه المسؤول عنه من مستوى إلهي، {رَبِّهِ الْأَعْلَى}، آخر علو فلا شيء أعلى منه والبقية تحت في القيمة والقدرة والصفات... وطبعاً فهو يحبّ أن يتوجّه عليه تعالى برحمته...

آيتنا هذه تشبه في معناها العديد من الآيات، منها ما ورد في الآية 9 من سورة الإنسان "إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا"، وما ورد في الآية 29 من سورة فاطر "إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ"، فهي تجارة معه تعالى وهم لا يرجون من المساكين أي شيء.

وفي آيتنا هنا تعبير عن الفرق الهائل بين الأعلى الذي تتوقّع منه الجزاء، وبين أي جزاء قد تحصل عليه من الناس، فالفرق هائل وأصلاً لا مجال للمقارنة بين تفاهة مديح الناس أو ما يمكن أن يقدموه لك... وبين ما تحصل عليه إن توجّه عليك الأعلى برحمته، فسيجعلك في جنّة رائعة خالدة.

وأنت تعلم أنه تعالى ليس كمثله شيء، كما ورد صريحاً في الآية 11 من سورة الشورى، وتعلم أنه تعالى يتوجّه على عبد بالرحمة وعلى آخر بالغضب، ووصف هذه الحالة باللغة البشرية أنه تعالى وجّه وجهه نحو هذا بالرحمة ونحو ذاك بالغضب، وهنا المتصدّق بغيته التوجّه إليه تعالى برحمته بمغفرته بمضاعفة الثواب، بحسنة في الدنيا والآخرة...

من السهل جداً فهم الآية وعموم القرآن أنه لا يقصد بالوجه لله تعالى عضواً من جسد فيه عينان وأنف وفم ووجنات... بل يقصد ما يتوجّه به تعالى وما نتوجّه به نحن نحوه تعالى، فنحن بالصدقة توجّهنا بها طالبين أن يتوجّه علينا تعالى برحمته.

(وَلَسَوْفَ يَرْضَى{21})
هذا الذي أنفق ابتغاء وجهه تعالى، {لَسَوْفَ يَرْضَى}، سيقبل بمحبّة ورغبة وبدون أي اعتراض على ما سيحصل عليه من ربّه سبحانه، وتعلم أنه سيحصل على جنّة خالدة رائعة.

نتذكّر أن كلمة رضا ومشتقاتها، معناها في كلام العرب وفي القرآن: وصف شعور كتعبير عن القبول وانتفاء الاعتراض بل بالعكس فهو الموافقة المتدرجة من السرور إلى الحبّ عن فعال أحد ما، والوصف يشمل شعورك "بالرضا" على العمل أو على صاحب العمل. فهي ليست وصفاً لقبول شيء مكروه، فهذا وصفه الصبر، ففي أدبياتنا نجد كلاماً عن الصبر على المكروه، وأن الرضا بالمكروه أعلى من الصبر، وهذا معنى لم يستعمله القرآن في كلامه، ومخالف للمعنى اللغوي لكلمة رضا، ويحمل في طياته معاني أخرى مرفوضة إذا قارنتها مع مفاهيم القرآن، فسبحانه لا يخصّص "من عنده" مكروهاً لمؤمن حتى يكون إيمانه عالياً بالرضا على المكروه، فأي مكروه غير محبوب يحصل مع المؤمن فهو بسبب ذنب ارتكبه المؤمن أو ذنب ارتكبه غيره، وليس منه تعالى أبداً بتاتاً وهذا واضح من عموم كلام القرآن ومنه الآية 30 من سورة الشورى "وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ".

نعم لا مشكلة بالتهاون في معاني الكلمات في الأدبيات التي بيننا إلا إذا كانت تعبّر عن شيء ديني منسوب له تعالى، فالقرآن دقيق في تعابيره ولا يتهاون أو يتساهل أو يتراخى في معاني الكلمات التي يستعملها، وعندما نتهاون نحن ويصير للكلمات معانٍ نظنها من مفاهيم قرآنية، وعندما تترسخ هذه المعاني المتراخية للكلمات في ذهننا، فعندها سنقع في مشكلة تفسير كلام القرآن على أساس المعنى والمفهوم الذي أصلاً تراخينا فيه.

لدينا كم هائل من الآيات التي تصف روعة الجنّة وأن من يدخلها سيبقى مذهولاً بروعة ما فيها أبداً، بلا ملل ولا أي رغبة في شيء آخر، فكل ما يرغب به يجده في الجنّة، بل يجد فيها ما لا يخطر على باله... وكمثال جامع لذلك ما ورد في الآية 108 من سورة الكهف "خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا" فهو راض بها، وراض عنه تعالى، وهذا هو معنى كلمة الرضا لغوياً وهكذا استعملها القرآن، وهي لا تتحمّل ولا تتوافق مع ما درج في أدبياتنا عن الرضا على شيء مكروه، والذي سيعني ضمناً احتمال حصول شيء مكروه في الجنّة، ورغم ذلك سيرضى عنه المؤمن، لا، فانتبه دائماً من ذلك.

سورة الضحى (93) ص 596
تركيزها على المتابعة الإلهية لكل ما يجري وبالخصوص متابعته تعالى لرسوله(ع) كنموذج عن متابعته تعالى لكل شخص والعناية بكل مؤمن.

قيل إنّ السورة نزلت بعدما توقّف نزول الوحي على النبي محمّد(ع) في أوائل سنوات الدعوة في مكّة، وذلك لمدة تتراوح بحسب اختلاف الروايات من 15 إلى 90 يوماً، أنت تعلم أن مدّة نزول الوحي عليه(ع) تفرّقت على قرابة 23 سنة، وغالبية السور القصار نزلت في مكّة، ولو أجريت بعض الحسابات البسيطة لوجدت أن 114 سورة من القرآن فحتما سيتخلل نزولها فترات انقطاع بالأشهر، فانقطاع الوحي لخمسة عشر يوماً أو لثلاثة أشهر فهو أمر طبيعي وعادي، ولا نجد في السورة أي إشارة لانقطاع الوحي، بل نجد فيها كلاماً صريحاً عن حالة معاناة من تعسّر الأمور مع النبي محمّد(ع)، فجاءت هذه السورة لتتحدّث مع وعن النموذج محمّد النبي(ع)، ليكون نموذجاً لنا لنفهم نحن أنه تعالى لا يهمل ولا ينفر من المؤمنين ولا يملّ من متابعة أمورهم...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(وَالضُّحَى{1})
يؤكّد سبحانه بـ {الضُّحَى}، وهي فترة الصباح بعد شروق الشمس إلى بداية العصر.

كلمة {ضُحَى} على أصل التصريف حاليا نكتبها "ضحا"، ورثنا رسمها بالألف المقصورة من الأجيال الأولى لكاتبي القرآن الذين حاولوا رسم الكلمات بأقرب طريقة للفظها، لأن كلمة "ضحا" لا يمدّونها حتى يرسموا ألف المدّ في آخرها، ولا يسكّنون الحاء عند الوقف عليها، لذلك رسموا في آخرها ألفاً مقصورةً.

(وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى{2})
يؤكّد الله سبحانه بـ {اللَّيْلِ إِذَا سَجَى}، إذا استقرّ ظلامُه، إذا انتشر سواد الليل تماماً.

يستعمل القرآن التوكيد للفت الانتباه لشيء ما، وهنا يمكننا استحضار عظمته تعالى في خلق ظاهرتي الضحى والليل، وكونهما تدلّآن على عظمة صفاته الفائقة سبحانه، وتدلّآن على جريان الأمور عن تخطيط... ويمكنك إطالة الكلام والاشتقاق لتستخرج من الآيتين أنه إله واحد أحد مسيطر حكيم... ولكن من بقية السورة ستستنتج أن المقصود من التوكيد بالضحى والليل لفت انتباهنا للمتابعة الإلهية في كل لحظة حتى تحصل ظاهرتا الضحى والليل كلّ يوم، هي على المعنى العام الظاهر من الآية 41 من سورة فاطر "إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ..."، وعلى المعنى الخاص الظاهر من الآية 3 من سورة يونس "... ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ..."، وبناء عليه فسبحانه يتابعك أنت أيها النبي محمد(ع) ليلاً ونهاراً، مثلما يتابع حتماً حصول الليل والنهار، وإلا لما حصلتا.

(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى{3})
{مَا وَدَّعَكَ}، "كما نقول: دعه وشأنه"، ما تركك، {رَبُّكَ}، المسؤول عنك من مستوى إلهي، {وَمَا قَلَى}، ولم يتركك عن بغض أو كره أو نفور، فعلى كلا الحالتين لا نفورَ منك ولا تركَ لمجرد الترك، سبحانه لا يزال معتنياً بك.

تعلم من عموم القرآن أنه تعالى واسع محيط عليم خبير بصير سميع... وكل هذه الصفات وأشباهها تعني أنه تعالى متابع لأدق أدق التفاصيل لكل نقطة في كلّ الدنيا، فلا يمكن ولا بأي شكل أن يحصل شيء ولا يعلم به تعالى، بل لا يمكن أن لا يكون سبحانه متابعاً ومراقباً لكل ما يحدث، لأن طبيعته تعالى بصفاته وقدراته الفائقة ينتج عنها متابعته الدائمة سبحانه لكل صغيرة وكبيرة في السماوات والأرض، هذا من جهة ومن جهة ثانية لدينا عنايته تعالى ورحمته... التي خصّصها للمؤمنين، الدعاء طلباً لشيء ما حتماً يسمعه سبحانه وتعالى من كلّ الناس لأنه السميع الذي من طبيعته أن يسمع كلّ شيء، ولكن تعامله سبحانه مع الدعاء يختلف، ذاك مجرم عليه آثام كبيرة فلن يعير سبحانه وتعالى أي اهتمام لدعائه، وذاك مؤمن دعا، على كلّ الحالات ومهما كان نوع الدعاء فسيجيب سبحانه على دعائه بما يراه سبحانه مناسباً، قد يحققه تعالى له إن كان طالباً لشيء في الدنيا وقد لا يحققه له لأنه سيتأثر ويتراجع إيمانه لو تحقّق ما طلبه... ولكن على كل حال فسيحسب تعالى له دعاءه حسنات يجدها المؤمن في الآخرة...

هنا السورة عرضت لنا تعامله سبحانه مع نبيّه محمّد(ع) كنموذج لتعامله سبحانه مع عموم المؤمنين، فلا يُوَدِّع، فلا يترك سبحانه المؤمنين بلا عناية عن عدم اهتمام، ولا يَقْلِيهِم، فلا يتركهم عن بغض لهم أو نفور.

ها الضحى والليل يلفتان انتباهنا لمتابعته تعالى ليومنا من بدايته إلى نهايته، فكيف يمكن أن يهمل تعالى المؤمنين وينساهم؟ ولأي سبب يمكن أن ينفر منهم ويبغضهم؟

كلنا نمرّ في ظروف نشعر فيها بالمضايقة والضغط والانزعاج... وفي تلك اللحظات نريد حلاً سريعاً للخروج من الحالة المزعجة، وترى أصحاب الإيمان الضعيف يتأففون ويعترضون عليه تعالى على أساس أنه تعالى يجب أن يتحرّك سريعاً ويتدخّل ليخلّصهم من أي شيء مزعج يقعون فيه، حيث إن تعاملهم معه تعالى مبني على أساس نفسية التعامل مع جنّي الفانوس السحري الخرافي... أمّا المؤمنون فيتوكلون عليه تعالى ويصبرون لأنهم يعلمون أنه تعالى يراهم ويسمعهم لذلك يتوقعون مساعدته، لذا تأتي سورتنا هنا ليقول تعالى للمؤمنين: إن شعرتم بالضيق ولم تشعروا بتدخلي لمساعدتكم فاعلموا أنكم لستم متروكين عن إهمال "تَوْدِيعٍ" أو عن بغض "قِلًى"، وهناك دائماً عناية بكم حتى حين تكونون في المعاناة... وسيأتيك بعد آيتين كلام تطبيقي عن ذلك من حياة النموذج الرسول محمّد(ع).

(وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى{4})
{وَلَلْآخِرَةُ}، الحياة التي ستأتي في الآخر، {خَيْرٌ لَّكَ}، موصوفة بأنها جيّدة حسنة، {مِنَ الْأُولَى}، من الحياة التي أنت فيها الآن في الدنيا، فهي أولاً وهناك حياة ستأتي في الآخر.

فما تشعر بسببه بالهمّ والضيق والانزعاج هنا في الدنيا، وتريد منه تعالى التدخّل ليحلّ لك كلّ ما يزعجك، وفوراً، فهذا لن يحصل "دائماً"، لأنك مخلوق لتحصل على السعادة الحقيقية في الآخرة، وأي راحة لك هنا في الدنيا فلا قيمة لها لتهتمّ بها على حساب اهتمامك بالآخرة.

لاحظ الآية لم تقل له (ع) ألاّ يعمل على معالجة المشاكل للخروج من الانزعاج والضغط، لا، بل نبّهته "ونبّهتنا" ألاّ نغرق بالاهتمام بمشاغل الدنيا على أساس أنها أهمّ شيء وآخر شيء وفرصتنا الوحيدة... فَكِّرْ فيها بما يفعله الذين لا يؤمنون بالآخرة، لأنهم يسعون بكل جهدهم للحصول على أقصى أنواع السعادة والملذات هنا في الدنيا، لأنهم لا يؤمنون بحياة أخرى بعد الموت، ويؤمنون بأنهم إذا ماتوا انتهوا، وعلى هذا الأساس فأي مشكلة يتعرّضون لها فسيعتبرونها خسارة من حياتهم مرّت بلا سعادة ولا يمكن تعويض ما مرّ من حياتهم، هذا هو الحدّ الأقصى من التفكير الفاسد اللاديني، وأقل منه يتدرج الناس في تفكيرهم، وصولاً إلى ما تعرضه السورة لنا كمؤمنين للتعامل مع كل أنواع المضايقات الدنيوية على أنها زائلة لا تدوم، وأننا على كلّ حال بعينه تعالى، وأن يكون همّنا الحصول على الراحة في الآخرة الخالدة.

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى{5})
هناك في الحياة الآخرة التي هي خير لك من الحياة الأولى، سيعطيك {رَبُّكَ} المسؤول عنك من مستوى إلهي، {فَتَرْضَى}، فتقبل بمحبّة ولا تعترض بتاتاً ولا تملّ مما حصلت عليه منه تعالى، وتعلم أنه تعالى سيعطيك جنّة خالدة.

فليكن همّك الآخرة، لأنك هناك حتماً سترضى إن كنت ملتزماً بما يرضيه تعالى.

نتذكّر أن كلمة رضا ومشتقاتها، معناها في كلام العرب وفي القرآن: وصفُ شعورٍ كتعبير عن القبول وانتفاء الاعتراض بل بالعكس فهو الموافقة المتدرجة من السرور إلى الحبّ لأفعالِ أحد ما، والوصف يشمل شعورك "بالرضا" على العمل أو على صاحب العمل. هي ليست وصفاً لقبول شيء مكروه، هذا وصفه الصبر، حيث نجد في أدبياتنا كلاماً عن الصبر على المكروه، وأن الرضا بالمكروه أعلى من الصبر، وهذا معنى لم يستعمله القرآن في كلامه، ومخالف للمعنى اللغوي لكلمة رضا، ويحمل في طياته معانيَ أخرى مرفوضة إذا قارنتها مع مفاهيم القرآن، لأن سبحانه لا يخصّص "من عنده" مكروهاً لمؤمن حتى يكون إيمانه عالياً بالرضا على المكروه، فأي مكروه غير محبوب يحصل مع المؤمن فهو بسبب ذنب ارتكبه المؤمن أو ذنب ارتكبه غيره، وليس منه تعالى أبداً بتاتاً وهذا واضح من عموم كلام القرآن ومنه الآية 30 من سورة الشورى "وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ".

نعم لا مشكلة بالتهاون في معاني الكلمات في الأدبيات التي بيننا إلا إذا كانت تعبّر عن شيء ديني منسوب له تعالى، لأن القرآن دقيق في تعابيره ولا يتهاون أو يتساهل أو يتراخى في معاني الكلمات التي يستعملها، وعندما نتهاون نحن ويصير للكلمات معانٍ نظنها من مفاهيم قرآنية، وعندما تترسخ هذه المعاني المتراخية للكلمات في ذهننا، فعندها سنقع في مشكلة تفسير كلام القرآن على أساس المعنى والمفهوم الذي أصلاً تراخينا فيه.

لدينا كمّ هائل من الآيات التي تصف روعة الجنّة وأن من يدخلها سيبقى مذهولاً بروعة ما فيها أبداً، بلا ملل ولا أي رغبة في شيء آخر، حيث إن كل ما يرغب به يجده في الجنّة، بل يجد فيها ما لا يخطر على باله... وكمثال جامع لذلك ما ورد في الآية 108 من سورة الكهف "خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا" فهو راض بها، وراض عنه تعالى، وهذا هو معنى كلمة الرضا لغوياً وهكذا استعملها القرآن، وهي لا تتحمّل ولا تتوافق مع ما درج في أدبياتنا عن الرضا على شيء مكروه، والذي سيعني ضمناً احتمال حصول شيء مكروه في الجنّة، ورغم ذلك سيرضى عنه المؤمن، لا، لذا انتبه دائماً من ذلك.

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى{6})
أما على مستوى الدنيا، أيها "النموذج" النبي محمّد(ع) فَنِلْتَ عناية إلهية من قبل:

{أَلَمْ يَجِدْكَ} ربّك سبحانه {يَتِيمًا}، حيث مات أبوك حين كنت طفلاً، {فَآوَى}، أمّن سبحانه لك المأوى، وجعل لك مكانا تأوي إليه، وجعل لك منزلا تعيش فيه وتجد فيه احتياجاتك.

متى ودعك ربّك سبحانه أو قلاك من قبل حتى يدعك ويقلاك الآن بعد أن صرت رسوله؟ مذ كنت طفلاً يتيماً اعتنى سبحانه بك لتكون في مأوى، ولم يتركك لتصير شريداً في الشوارع، ولم تعش في المهانة كما هي حال عموم الأيتام في زمنك.

المشهور في التاريخ أن أباه(ع) مات وهو ما يزال في بطن أمه "أو عمره بالأشهر"، وتوفيت أمّه وعمره سنتان "أو ست سنين"، على أي حال، مِنَ المؤكّد أنه كان طفلاً بلا أبوين وتكفّل به جده عبد المطلب حتى صار عمره(ع) ثماني سنين، ثم تُوُفّيَ جدّه، وتولى رعايته (ع) عمّه أبو طالب. وخلال كل هذه الفترة كان النبي(ع) ينعم برعاية وحنان واهتمام الذين حوله.

نلاحظ من سيرة الأنبياء، أن النبي إبراهيم(ع) عاش يتيماً وربّاه عمّه "أو أحد أقاربه"، ولا نعرف له إخوة أو أخوات، والنبي يوسف(ع) أخذوه صغيراً إلى مصر بعيداً عن أهله... والنبي موسى(ع) نشأ في قصر فرعون، والنبي عيسى(ع) أصلاً ليس له أب، والنبي محمد(ع) لم ير والده وليس له إخوة أو أخوات، بالتأكيد هذه ليست صدفة، هناك شيء ما خلف هذا التشابه... وسترى جانباً منه في الآية 9.

مِنَ المفيد هنا تذكّر قصّة النبي يوسف(ع) من وجهة نظره تعالى والتي عرضها علينا في سورة يوسف، حيث رأينا تدخّلاً إلهياً في مجرى الأحداث وبشكل غير ملموس لنا بتاتاً، لأنّ ما جرى مع النبي يوسف(ع) كان من قرارات اتخذها البشر... إخوته رموه في الجبّ والتقطته السيارة وأخذوه إلى مصر... وكل ذلك حدث من تدخلات إلهية لا نفهم آلياتها وصولاً إلى أن حدث ما قالته الآية 21 من سورة يوسف "وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"، وما جرى بعد ذلك من سجنه وخروجه وصولاً إلى صيرانه عزيزاً في مصر كما قالت الآية 56 "وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ"، يعني من الأساس كان جريان الأمور بحيث يصل يوسف(ع) إلى مصر ويصير رسولاً وذا سلطة.

هنا الكلام عن العناية الإلهية بالنبي محمّد(ع) بكفالة جدّه وعمّه له يتيماً وهدايته وإغنائه... هو مبنيّ على التدخل الإلهي بآليات وطرق لا نفهمها ولا نرى إلا نتائجها.

لنفترض أن يتدخل سبحانه ويبقي والديه (ع) أحياءً بدلاً من صيرانه يتيماً لتأمين العناية به، وبالتحليل نرى أن هذا سيلغي من حياته (ع) شعوره الحقيقي مع الأيتام ومعاناتهم، ويفقد شيئاً من معنى التحفيز على الصدقة عليهم، وسيفقد شيئاً من معنى إنشاء بيت للمال يكفل معاشات للمحتاجين، و... وهذا بالتحليل مشابه لما مرّ به النبي يوسف(ع) من ظلم السجن، وحين صار عزيزاً حاكماً اهتمّ بالمظلومين لأنه عاش معاناتهم...

بهذا التحليل ترى أن بعض المصاعب الكبيرة التي أصابت الأنبياء كانت ضرورية جداً ليلمسوا بأنفسهم معنى المشاعر والأفكار المرتبطة بمعاناة الآخرين، لأنّ الفرق هائل بين من جرّب الصعاب وبين من سمع بها.

(وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى{7})
{وَوَجَدَكَ ضَالّاً}، كنت على الطريق الذي لا يوصلك للغاية الصحيحة، {فَهَدَى}، وضعك سبحانه على الأمور الصحيحة التي توصلك لغاية صحيحة.

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، هي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شراً، إذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، ضلّ عنك صيدها. استعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، لم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، لذا لن يفيدوه بشيء. استعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون لأنه ليس على طريقهم، بل ضالٌّ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} رداً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

كان النبي محمّد(ع) ضالاً قبل نزول الوحي عليه، وضلاله (ع) لا يعني وصفه بكل أنواع الضلال، كوصفه بالكفر أو الشرك أو الظلم... لا، بل على المعنى الوارد في الآية 52 من سورة الشورى "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"، لا تكبّر كلمة "ضالّ" لتصل بها إلى أقصى الضلال من كفر وشرك وقتل النفس البريئة و... ولا يخطر ببالك أنه (ع) كان عنده سلوكيات سيئة، لا.

معلوم أن الذين يختارهم سبحانه ليوظّفهم كأنبياء ورسل، هم ومن قبل نزول الوحي عليهم أصلاً هم مميزون بسلامة قلبهم، لأنّ فكرهم ونفسيتهم سليمة، ولهذا السبب يختارهم سبحانه ليكونوا خلفاءه وليمثّلوا دينه، ويتواصل سبحانه معهم ليوصلوا كلامه إلى الآخرين. الذين على درجة عالية من سلامة القلب هؤلاء قسم كبير مما نسميه بالعقائد والتشريعات والسلوكيات هو واضح أمامهم فيؤمنون بما يرونه حقاً ويمارسون ما يرونه صالحاً، وهكذا يبقى قسم قليل كان النبي محمّد(ع) ضالاً به، وخذ مثالاً عن ذلك السؤال عن زمن الآخرة هل هناك جواب على ذلك؟ نعم والجواب هو أننا لا يمكننا معرفة زمنها. وخذ مثلاً آخر عن التي جادلته (ع) في زوجها الذي ظاهرها ولم يكن (ع) يعلم بالتشريع المناسب لهكذا حالة، انتظر نزول الوحي عليه... ولمزيد من التوسع راجع دراسة الآية الأولى من سورة المجادلة "قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ".

ما درج في ثقافة عامة المتدينين أن النبوة جعلت الأنبياء مميزين، وعلى أساسه نفهم المدح القرآني لهم بسبب كونهم أنبياء ورسلاً، هذا غير صحيح، لأنهم تميزوا فعلاً بنزول الوحي عليهم ولكن فقط بعدما كانوا هم مميزين من الأساس.

مِنْ أوّل ما قال سبحانه "كن" لما في الدنيا، وقبل أن يبدأ بالتكوّن، علم سبحانه فيما علم، أنه من الإنس سيكون فلان وفلان وفلان... مميزين بقلوبهم السليمة، وسيكونون مناسبين كأنبياء ورسل، وهم والصالحون من المؤمنين الذين عُرِضوا على الملائكة(ع) في الحادثة التي تذكرها الآية 31 من سورة البقرة "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ".

هكذا نفهم أن الولادة المميزة للنبي عيسى(ع) ليست السبب الذي جعله (ع) مميزاً، ما هي إلا طريقة ولادة مميزة مختلفة عن طريقة ولادتي، ولو فرضاً فرضاً، جرت ولادتي أنا بتلك الطريقة، فلن يتغيّر فيّ أي شيء مما أنا عليه الآن، ولن أصير من أعلى درجات الإيمان والتقى، أمّا النبي عيسى(ع) فمن الأساس يعلم سبحانه بأنه كشخص سيكون مميزاً بإيمانه وعمله الصالح، ولسبب ما اختار له ولادة مميزة...

الكلام يجرّ الكلام، هل نزول الوحي على الأنبياء جعلهم مؤمنين؟ لا، لأنهم مؤمنون من الأساس بسبب سلامة قلوبهم، وزادهم نزول الوحي هدىً، حيث أراهم الطريق المستقيم.

هل لو نزل عليّ أنا الوحي لزادني هدىً أكثر مما اهتديت عبر قراءة القرآن عن الورق؟ لا، لأن الأساس هو أنا بقلبي، بفكري ونفسيتي، إما أتماشى مع الكلام الذي أسمعه أو أرفضه أو بين بين، لو نزل الوحي على أبي لهب أو على أبي جهل، فماذا تتوقّع سيحصل؟ سيجنّ جنونهم لأن قلبهم لا يتماشى مع ما يصل إلى وعيهم، لذا سيرفضونه، ويبحثون عن طريقة توقف وصول المعلومات إلى وعيهم... هكذا ترى أن نزول الوحي عليّ لن يغيّرني بشكل مختلف عن قراءتي لنفس المعلومات عن الورق أو سماعها من شخص نزل عليه الوحي.

الكلام يجرّ الكلام، ما هو دارج بين عموم المتدينين أن الملائكة(ع) لا تفارق الأنبياء، ويرونهم يومياً، بل يرونهم ساعة بعد ساعة، وأن أي شيء، أي شيء يحصل مع الأنبياء الملائكة(ع) تتدخّل مباشرة وتتحدّث مع الأنبياء... هذا غير صحيح أبداً بتاتاً، فقط وفقط تتدخّل الملائكة(ع) بأمر إلهي بما يخصّ الدين مباشرة، لا تقول الملائكة(ع) للنبي ألاّ يتزوّج هذه الأنثى لأنها سيئة، ولا تتدخّل في حياته اليومية العادية لتخبره عن عيوب في حصان حتى لا يشتريه... بل لا تتدخّل حتى في أوامره القيادية للناس، لأنّ النبي مثلنا مثله مكلّف بالمشي على ما وصله من أوامر إلهية، ويتحاسب إذا خالفها، ويعمل بما فهمه وبما رآه مناسباً... وقد ينجح وقد يفشل... فقط وحتماً يتدخّل سبحانه ليتواصل مع نبيّه بالأمور التي ترتبط بتوصيل دينه تعالى بشكل صحيح سليم إلى الناس، ويتدخّل سبحانه مباشرة في بعض المفاصل التي لها ارتباط بالدين الإلهي...

بعض الأفكار غير الصحيحة تترسّخ ونبني عليها وينبثق منها أفكار أخرى غير صحيحة، ما تجده في الروايات عن سبب نزول هذه السورة حيث قالوا إنّ الوحي انقطع عن الرسول محمّد(ع) لأيّام أو لثلاثة أشهر، وشعر(ع) بشيء غير طبيعي... ونزلت السورة... هذا مبني على خلفية أن الرسول تتواصل معه الملائكة يومياً أو بشكل شبه يومي... وهذا غير صحيح، وواضح من مجريات أحداث حياته(ع)، حيث ترى فيها الواقعية التي لا تختلف عن واقعية حياتنا نحن، خذ حادثة أحد التي أطالت سورة آل عمران الكلام فيها بداية من الآية 121 "وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"... أنت الذي لا ينزل عليك وحي، لو وضعت نفسك مكان الرسول محمّد(ع) لما تغيّر من تلك الأحداث أي شيء، ترى من تلك الآيات أنه (ع) استشار الذين حوله... وتعرّض لتذبذبهم... وتماشى معهم... وحاول ضبط الأمور... وفلتت الأمور من بداية الانطلاق من يثرب إلى مواجهة جيش قريش، وفلتت على الطريق، واختيار كتف جبل أحد كمكان لانتظار العدو كان عن رأي سديد لأحد المسلمين... وفلتت الأمور في المعركة... هكذا ترى أنه (ع) لا في تلك الفترة جاءته الملائكة تخبره بالغيب، ولا لتنصحه، ولا قبلها كانت هذه العادة دارجة.

بهذا الكلام لست أنفي التدخّل الإلهي، ولكن أنفي تدخّله تعالى بالطريقة التي يقولها الناس وهي مخالفة لصريح القرآن وصريح ما نجده من أحداث حياته(ع)...

لو فرضنا أن الملائكة كانت تتواصل معه(ع) يومياً من بعد أول نزول للوحي عليه(ع)، وفرضاً لأشهر أو لسنة كان التواصل شبه يومي وفي حينها مرّت فترة انقطاع، وكما يقولون نزلت هذه السورة لهذا السبب، فأيضاً الضبابية واضحة جداً في هذا الكلام، هل كانت الملائكة تنزل عليه(ع) بالوحي القرآني في تلك المدّة؟ لا، لأنّ عدد السور التي نزلت في بداية الدعوة لا يكفي لتقسيمه على أيام متتالية، لأنّ غالبيتها سور قصار، وأصلاً كل القرآن 114 سورة، لذا مِنَ البديهي ورود فترات أشهر لم ينزل فيها القرآن.

أم هل كانت الملائكة تنزل عليه للحديث معه بشيء غير القرآن ومرّت فترة انقطعت عنه؟ أيضاً لا نفهم معنى هذا الافتراض الذي لا نجد له أثراً في القرآن، ولا معنى له بالنسبة للروايات التي تحدّثت عن سبب نزول هذه السورة، لأنّ في تلك الروايات كلاماً عن انقطاع الوحي بالقرآن، ولم يكن عن انقطاع زيارات الملائكة له(ع).

هكذا ترى السورة توضّح سبب نزولها بنفسها، لأنها تقول بوضوح إنّ ما تمرّ به من أزمات وتشعر بأنك متروك لتواجهها لوحدك، أو متروك عن كره منه تعالى لك، هو غير صحيح، سبق وجرت أمورك برعاية إلهية لم تلحظها، لأنها كانت تبدو كمجريات أحداث عادية تحصل مع أي كان، وما أنت فيه حالياً من أزمات ضمناً فيه رعاية إلهية لم تلحظها.

(وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى{8})
هذه ثالث نعمة منه سبحانه على النبي محمد(ع)، حيث وجدَهُ تعالى {عَائِلاً}، وجده يحتاج لما يعيله، لما يلزمه ليعيش حياته، لأنه صار شاباً من المفروض اعتماده على نفسه لتأمين مستلزمات حياته، {فَأَغْنَى}، جعل معك ما يعيلك مما تحتاجه، مما يرفع عنك الحاجة، فصار ما تحتاجه لتعيش متوافراً معك.

المشهور تاريخياً أنه (ع) عمل في شبابه أجيراً لرعي المواشي، وبعدها أجيراً في رحلات التجارة، ولم تكن هذه الأعمال كفيلة بتأمين مستلزمات حياته ليتزوج... ومعلوم أنه (ع) تزوج بالسيدة خديجة التي كانت ميسورة الحال، وهكذا صار لديه(ع) ما يلزمه ليعيش حياة أي إنسان عادي متزوّجٍ.

ضع في بالك دائماً أن كلمة غني ومشتقاتها لا تشير حصراً للمال الكثير، لأنّ مَنْ يملك القليل من الطعام الذي يكفيه وسيأتيه طعام غيره... فهذا تنطبق عليه كلمة غني بالنظر إلى حصوله على حاجته من الطعام، ونفس الشيء بالنسبة لشاب تزوّج امرأة عندها بيت وميسورة الحال... صار لديه ما يلزمه ليعيش حياته العادية، لأنّ الغنى وصف تدرجاته تبدأ من الحصول على ما نحتاجه مروراً بالحصول على أكثر مما نحتاجه وصولاً إلى الثراء الذي يعني امتلاكنا للكثير الكثير من الأموال التي تفوق حاجة أشخاص عديدين.

بقي شيء، إنّ محبّةَ بعضهم بالنبي(ع)، واستجلاباً للجماهير، وحبّاً للظهور... وغيرها من النفسيات... التي سبّبت وصول روايات كاذبة عنه (ع) وعن حياته، منها ما تجده هنا وهناك عن مهر السيدة خديجة بأربعة آلاف دينار ذهباً

ومئة ناقة... وآخرون قالوا إنّ المهر كان 12 أوقيّةً من الذهب... وقالوا أرقاماً فلكية عن الإبل التي نحرها بنو هاشم في عرسه(ع)، وهي أرقام غير صحيحة ومبالغ فيها، وحتى بالنسبة لذلك الزمان فهي أرقام فوق الخيال، حيث قيل إنهم نحروا في عرسه(ع) ألف بعير! أو كان المهر ألف بعير! علماً أنّ أبا طالب الكفيل للرسول حينها كان فقيراً، بل وكل بني هاشم كانوا بعامتهم متوسطّي الحال، "إلا أبا لهب الذي كان مصاهراً لعائلة بني أمية الأغنياء..."، وهنا في الآية ترى بوضوح أنّ الرسول (ع) نفسه كان فقيراً، فليكن هذا نموذجاً لك عن روايات المبالغات التي يبلعها الناس بسذاجة وهي تقلل من قيمة هذا الدين عند العقلانيين.

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ {9})

بناءً على ما حصل معك من عنايته تعالى بك، {فَأَمَّا الْيَتِيمَ}، الإنسان الذي لم يصل إلى مقدرة الاتكال على نفسه وكان فاقداً لأبيه الذي يعيله، {فَلَا تَقْهَرْ}، لا تفرض عليه ما تريده أنت، يعني انظر إلى ما يريده هو، ساعده ولا تكن متسلّطاً عليه، ليكن حراً في حياته ولا يكن كالعبد لك، فإن كان له حق فطالب له به، وإن كان بحاجة للمساعدة فساعده وأنت تحترمه...

تلاحظ أن يُتْمَ النبي محمّد(ع) درسٌ عمليٌّ له، لأنه (ع) يعرف معنى اليتم، وبالتالي يشعر بالأيتام ومعاناتهم...

بدل أن يخطر ببالك أنه تعالى وَدَّعَكَ أو قَلَى، فكّر فيمن يحتاجون للمساعدة منك أنت، فكّر بالأيتام.

فكّر فيها عندما تسمع الذين يتأففون دائماً من أوضاعهم الصعبة، حيث تمرّ عليهم السنين ويكبر أولادهم... ولا يزالون يتحدثون عن أيامهم الصعبة، ويحتارون في سبب إهماله تعالى لهم وأنه تعالى لا يستجيب لطلباتهم وأدعيتهم! عاشوا وكبر أولادهم... وتزوّج أولادهم... مرّت عليهم حياتهم بشكل عاديٍّ بصعوبات تجاوزوها وهم لا يرون أنهم تجاوزوها! تستمر معهم حالة التأفّف من أوضاعهم! بدل التعامل مع الواقع، والعمل الجدّيّ على تحسين الظروف مع الاقتناع بما لديهم، هناك أناس دائماً لديهم شكوى ويتأففون! هنا السورة "بشكل ما" تتحدّث أيضاً مع هذه النوعية من الناس، بدل الاهتمام بمن هم أفقر منهم بما يستطيعون، تراهم في شكوى دائمة من تعسّر أمورهم وحاجتهم الدائمة للمساعدة... مع العلم أن حياتهم تمضي "ومضت" ولا بأس عليهم، إلّا أنهم معترضون دائماً والشكوى لا تفارقهم... ويريدون مال قارون، وأكثرهم حتى مال قارون لو حصلوا عليه فلن يرضيهم...

الآية لا تقصد ولا بأي شكل أنه (ع) كان يقهر الأيتام وتنهاه عن ذلك، لا، بل تتحدّث معه(ع) على أساس أنه نموذج ونحن نتعلّم منه، لأنّ القاعدة الأساسية في دينه تعالى لكل من خطر بباله أنه تعالى تركه بلا اهتمام: قم أنت بواجبك واهتمّ بالذين يحتاجون للمساعدة. كن أنت الرجل، ولا تأخذ دور المسكين، "خذ دور البطل ولا تمثّل دور الجريح في ساحة المعركة"، كن أعلى من مشاكلك وكن أباً كبيراً يساعد الآخرين...

بعبارة أخرى لله عزّ وجلّ في خلقه شؤون، يحرّك أمورهم بحكمته، ويتدخل في كلّ شيء لصالح المؤمنين بما ينفع آخرتهم، {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}، ويمدّ للكافرين حتى يزدادوا كفراً... فلنخرج أولاً من حالة التأفف الدائم من ظروفنا، ولنساعد الآخرين، لأنّ سبحانه كان يرعانا وسيبقى يرعانا، وها نموذج النبي محمّد(ع) الذي رعاه تعالى عبر كفالة جدّه وعمّه له، وعبر تزويجه بسيدة ميسورة الحال...

(وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ {10})

{وَأَمَّا السَّائِلَ}، الشخص الذي يسألك، يُعبّر لك عن إرادته للحصول على شيء منك، ويطلب منك شيئاً، وهنا الكلام عن الذي يسألك أن تعطيه مالاً أو طعاماً أو ثياباً... {فَلَا تَنْهَرْ}، مِنْ غير المسموح لك أن تنهره لتقول له كلاماً تمنعه فيه من سؤالك، فإمّا أن تساعده وإمّا أن تقول له كلاماً عادياً فلا تَقْسُ عليه بالكلام.

ربما أنت أفقر منه، وربما الآن ليس معك ما تساعده به، وربما أعطيته من قبل وجاءك مرّة ثانية يسألك... وربما تعلم أنه كاذب ويمتهن التسوّل كعمل، وربما... فعلى أي حال هو كان، فأنت كن على حال الالتزام بأخلاقك، فإن سألك المساعدة بأدب فلا يحق لك ولا بأي شكل أن تنهره مانعاً له من السؤال عن المساعدة، فإما تساعده إن كنت قادراً، أو تصرفه بأدب إن لم تكن قادراً على مساعدته أو تعلم بأنه كاذب وليس فقيراً...

ما هو شائع عند بعض المؤمنين من مساعدة المتسوّلين وهم يعلمون أنهم كاذبون، ويعلمون أنهم يمتهنون التسوّل، وأنهم عصابات تجمع المال بإدارة للمتسولين... فهذا ليس تصرّفاً إيمانياً وهذه ليست صدقة، بل إنفاقها عليهم حرام لأنّ هؤلاء لصوص ونصّابون على شكل متسوّل يسألك أن تعطيه من مال الله تعالى.

عموم القرآن استعمل التعبير "بالسائل" حصراً لمن يطلب المساعدة المالية، فلا تعمّمها هنا لأي نوع من الطلب، لأنّ هناك من يسأل أن تعلّمه الدين، ومن البديهي أنك ممنوع من نهره، ولكن لو فسّرت القرآن بطريقة التعميم هذه خارجاً عن معاني الكلمات المتوافقة مع عموم استعمال القرآن لها، وخارجاً عن سياق الكلام، فستواجه عشرات التفسيرات للآية الواحدة، وسنغرق في تفاسير متراخية جداً، حتى نصل للابتعاد عمّا يريدنا القرآن أن نفهمه.

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ{11})
{وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ} سبحانه، بالأمور الموصوفة بأنها جيدة والتي حصلت عليها من المسؤول عنك من مستوى إلهي، {فَحَدِّثْ}، انقل الكلام عن نعمته تعالى عليك إلى الآخرين.

تذكّر ما قلناه من قبل عن الناس الذين لديهم عادة التأفّف والشكوى الدائمة من حالتهم المتعسرّة، حيث مرّت عليهم السنين وتزوّجوا وكبر أولادهم، وتزوّج أولادهم... ولا يزالون يتأفّفون! وكأن حياتهم كانت متوقفة عند الصعوبات، وكأن ما تأفّفوا منه كان عائقاً أمام استمرار حياتهم! فهذه النوعية من الناس عليها أن تعلم أنه تعالى خلقهم في هذه الدنيا لامتحانهم بما يجري فيها، ووعدهم بالحياة التي ترضيهم في الآخرة، {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}، فليركّزوا على الأمور الجيدة التي هم فيها والتي مرّت معهم، وأمّا الشكوى والتأفّف فهو نقص في إيماننا ونقص في فهمنا لشؤونه تعالى فينا.

بقي شيء، هناك كتاب يهاجم الإسلام والقرآن، في مقدمته قال مؤلّف الكتاب إنه كان طالباً للعلوم الدينية في الأزهر بمصر، وبالإضافة لدراسته الدينية انتهج الطريقة الصوفية... التي لم تؤمّن له لقمة العيش ولم تشفه من مرضه... بقي فقيراً معدماً لا يجد ما يأكله والمرض أنهكه، فقام بمراجعة دينه وما يقوله ليفنّده ويردّ على القرآن ويكتشف فيه الكذب... علماً أنه قال عن نفسه إنه ألّف الكتاب في عمر السبعين وما فوق، ولم يخبرنا كيف تحسّنت أوضاعه بتركه للدين الإلهي؟ ولم يخبرنا كيف شفي من مرضه وتحسّنت أحواله المادية ووصل إلى السبعين؟ وأخبرنا أنه حين كان مؤمناً بل ومتصوّفاً كان يتوقّع نزول سلّة فيها المال، هكذا من سقف الغرفة أثناء دعائه!...

على أي حال يبدو من الكتاب أن كاتبه مسيحي الأصل وكلامه عن دراسته في الأزهر كذب، ومن الواضح جداً أنه لم يكتشف ما قاله عن القرآن والإسلام لوحده، لأنّ كلامه منشور من قبل في كتب سابقة، وكلّها ألّفها كذّابون أنجاس مثله، حيث تلاعبوا بالكلام القرآني وتجاهلوا المعاني التي يعلمون أنها حقيقية واستبدلوها بتخريفاتهم... وأقحموا فيها تخريفات تجدها هنا وهناك في بعض الكتب " الإسلامية " التي يقدّس بعض المسلمين كتّابها على أساس أنهم من الأشدّ إيماناً...

على أي حال لسنا نناقش هنا ما كتبه عن القرآن، لأنّ في دراستنا للقرآن ستجد شرحاً يغنيك عن كلامهم المسموم بالكذب... ولكن ما يهمّنا هنا هو مقدمته عن ربط إسلامه وتديّنه بحالته المادية وأوضاعه الاقتصادية، لأنّ كلامه سيكون له أثر على الذي يبني إيمانه به تعالى على أساس العلاقة مع جنّي الفانوس السحري الخرافي الذي من المفروض أن يحقّق له أمانيه...! هذه سورتنا تتحدّث معنا حتى لا نكون مثل هذه النوعية من الناس.

سورة الشرح (94) ص 596
تتحدّث السورة مع وعن النبي محمّد(ع) كنموذج لأي مؤمن تتعسّر أمور علاقته مع الناس بسبب عمله الديني الرسالي، والقلّة القليلة النادرة من المؤمنين يتولّون العمل الرسالي من مستوى عمل الرسل لتأسيس أو إدارة مجتمعات صالحة، وأكثر منهم عدداً الذين يقومون بمهام تبليغ الدين وتطبيقاته، والبقية من المؤمنين من الناس العاديين يتعرضون بين الحين والآخر لعسر من الآخرين بسبب ممارستهم لتديّنهم وفسق الآخرين، وكل هذه الفئات أحيانا تتعسّر أمورهم بسبب

المعارضة والتشويش أو العداوة من غير المتدينين، فتأتي سورتنا هنا لتحدّثنا عن عنايته تعالى بالمؤمن "النموذج محمّد النبي(ع)"، وتعده وتعدنا بأن من التزم حتى آخر نفس بالأوامر الإلهية، ولم يستسلم للصعاب فسوف يأتيه اليسر.

بالنسبة للروايات التي تتحدّث عن شرح صدر الرسول(ع) بشقّ الملائكة(ع) لصدره(ع) بالسكين وتغسيل قلبه... يكفيك أن أحد رواتها وهب بن منبه عن أبي هريرة، لأن الأول شحن التراث الإسلامي بخرافاته ونقله لخرافات اليهود "دينه السابق" وإقحامها في تفسير القرآن وقصص الأنبياء... والثاني راوية لقرابة أربعة آلاف حديث ومدّة صحبته للرسول(ع) لم تتجاوز الأربع سنين على أبعد تقدير، والأرجح عند البعض أنها سنتان، والكمية التي رواها تتجاوز ما رواه الخلفاء الأربعة مجتمعين مع بعض ومعهم عشرات من الصحابة! والروايات الأخرى المشابهة لرواية "وهب عن أبي هريرة" لو قارنتها مع دراستنا للسورة لوجدتها بعيدة كلّ البعد عمّا تتحدّث عنه السورة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ{1})
الصدر باستعمال العرب والقرآن وعموم غالبية لغات البشر، نستعمله لوصف التفاعل الداخلي مع الأمور، وهنا الكلام عن شيء سبّب للرسول محمّد(ع) الانقباض، فشرحه تعالى له وصار مرتاحا، إذ عَرَّفَهُ تعالى على دين الحقّ عبر الوحي.

بعبارة أخرى، ألم تشعر أيها النبي محمّد(ع) النموذج عن بقية المؤمنين، ألم تشعر بالراحة بعدما اتصل بك الإله سبحانه عبر وحيه وعرّفك على العقيدة والشريعة والآخرة... وصرت تفهم معنى الحياة بالنظر إليه من نظرة الحقّ والهدى...

سترى من الآية الخامسة أنه (ع) كان يمر في مرحلة عسر في وظيفته كرسول، وأتت هذه السورة لتلفت انتباهه للعناية الإلهية به من مستوى إلهي ومن منظور الحكمة الإلهية، والبداية لفت الانتباه للفرق الكبير بين من لا يعرف الحقّ ولم يتعرّف عليه، وبين من صدره منشرح بمعرفة الحقّ.

فكّر فيها على مستوى قيادي، على مستوى أوضاع كلّ الناس، من الظلم والفساد والطغيان والسلطة الظالمة... والأخلاق الفاسدة والحقد والأذية... والاعتداء بالضرب أو القتل أو السرقة... فمن المفروض بمن تعرّف على دينه تعالى، وعلم أننا في مرحلة ابتلاء في حياتنا القصيرة في الدنيا وصولا للخلود في الآخرة، فمن المفروض أن تبقى أمور الدنيا على حجمها العادي ولا نكبّرها وكأنها كل شيء، فهناك آخرة أهمّ منها بكثير.

من ناحية ثانية الذي تحيّر بين الانغماس فيما انغمس فيه الناس من فساد وسوء، وبين اتباع ما يقوله له عقله وضميره، فهذا من المفروض من بعد علمه بأوامره تعالى التي تنهى عن الفساد وتعد بالعقاب للمفسدين وبالسعادة للمطيعين، فهذا من المفروض أن يكون صدره منشرحا، لأنه يعلم أين ستذهب الأمور ويعلم القيمة الحقيقية للالتزام بدينه تعالى...

بالنسبة لكلمة "صدر، صدور" إن لم يكن القصد بها أعضاء الجسد للقفص الصدري وما تحته من أعضاء... فقد استعملها القرآن كما يستعملها الناطقون باللغة العربية وكما هي مستعملة في العديد من اللغات الأخرى، إذ نشير بالصدر للتفاعل الداخلي للإنسان مع ما يراه ويسمعه ويشعر به مما يتعرّض له... فنحن عندما نتعرّض لمختلف الظروف، نشعر بالانقباض أو الانشراح... في صدرنا، فاستعملنا كلمة صدر لتوصيف حالة تفاعلنا مع الأمور، وحتى لو لم تشعر بأي شيء في قفصك الصدري، من انقباض أو صعوبة في التنفّس أو راحة... فمجرد تفاعلك مع ما تعرّضت له، فإن مختلف اللغات البشرية تعبّر عن هذا التفاعل بأن شيئاً حصل في صدرك، وحتى السرّ الذي تخفيه عن الآخرين تعبّر عنه مختلف اللغات بأنه في صدرك، وكلّنا نعلم أن السرّ ليس في القفص الصدري، فليس تحته في الرئة أو القلب أو المريء... بل هو تعبير يشير لحالة تفاعلنا مع ما ندركه سواء بقي مخفيا أو ظهر له أثر حسّي في منطقة الصدر أو على تعابيرنا وحركاتنا.

(وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ{2})

{وَوَضَعْنَا}، وأنزلنا عنك أيها النبي(ع)، {وِزْرَكَ}، والوِزْرُ هو الشيء الثقيل حمله، من الأوزان الثقيلة بالكيلو إلى الأمور "المعنوية" الثقيلة كوزر الاتهام بجريمة، أو وزر الديون... وحمل همّ "وزر" هداية الناس، وهذا هو الهمّ الوحيد الذي كان يعاني منه النبي محمّد(ع) على مستوى إيمانه وتكليفه بنقل الرسالة الإلهية للناس.

تلاحظ من عموم القرآن أن النبي محمّد(ع) لم يتخلّص من شعور ضرورة إنقاذ كلّ الناس من نار الآخرة بالرغم من الكلام الإلهي المتكرر معه بأن لا يتعب نفسه بأكثر من تبليغ الرسالة الإلهية لهم، وأنه من بعد ذلك فهو غير مسؤول عن إيمانهم أو كفرهم، ولن يتحاسب إلا على التقصير في تبليغ الرسالة إلى الناس، فقط وفقط، أمّا لو كفروا كلّهم من بعد تبليغه(ع) الرسالة الإلهية لهم، فلن يتحاسب(ع)، فهو ليس وكيلاً عليهم ولا حفيظاً ولا مسيطراً... وترى ذلك واضحا في العديد من الآيات ومنها ما ورد في بداية سورة طه "مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى"، وما ورد في الآية 8 من سورة فاطر "... فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ..."، وما ورد في الآية 54 من سورة الإسراء "... وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا"، وهذا هو الوزر الذي وضعه تعالى عن النبي(ع)، إذ كان النبي(ع) بشكل أو بآخر يحمل همّ مسؤولية جعل الناس مؤمنين، أو يحمل همّ عذابهم في الآخرة... وهذا وزر، هذا حمل ثقيل، ووضعه تعالى عنه فلم يحمّله هذا الوزر بل أخبره سبحانه بأنه أصلا ليس من مسؤولياته.

فتأتي أمثال آيتنا هنا لتخبره(ع) أنه تعالى لن يحمّله مسؤولية اهتداء الناس، وهو(ع) يتحاسب فقط على تبليغهم ما وصله، ومن بعد ذلك فذنبهم على جنبهم.

(الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ{3})
{الَّذِي أَنقَضَ}، قوّض أحنى، {ظَهْرَكَ}، فمن شدّة ثقله "المعنوي" كان ظهرك "المعنوي" مَحْنِيّاً مُلْتَوِياً بسببه.

كما نقول عند خسارتنا لكل مالنا، أو وفاة أعزّ الناس علينا: انكسر ظهري. ولا نقصد انكسار فقرات الظهر بل نقصد أننا فقدنا قدرتنا على التحمّل. فهنا الكلام عن شعوره(ع) عن فقدانه القدرة على التحمّل، عن حالة الشعور بالضغط القوي بسبب معاندة الناس للإيمان، ووضع تعالى عنه (ع) هذا الوزر فلم يحمّله أي مسؤولية على كفر الناس.

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ{4})
عند {ذِكْرَكَ}، عند استحضار ما يتعلق بك، جَعَلَهُ تعالى مُرْتَفِعاً عن ذكر الآخرين، فأنت لست شَخْصاً عَادِيّاً مثلك مثل بقية الناس في قيمتك ومكانتك عنده سبحانه، وبالتالي فكل الموقّرين من ملائكة(ع) ومن مؤمنين، فهم يحترمونك ويقدّرونك بشكل غير عادي يفوق تقديرهم لبقية الناس.

فمهما حصل معك من عسر بسبب معاندة الذين لا يريدون الإيمان برسالاتك، ومهما ضايقوك وأهانوك وأزعجوك وسخروا منك وعادوك وحاربوك... فلا تهتمّ فأنت تتمتّع بمكانة عالية جداً جداً عنده تعالى.

قيل في الكتب إنّ الآية هنا تشير لوضع اسمه (ع) في شهادة الإيمان، فيجب على الذي يريد الانضمام لدينه تعالى أن يعلن إيمانه بلا إله إلا الله وأن محمّداً رسوله. وقيل إنّ الآية تشير لوضع اسمه(ع) في الأذان "أشهد أن محمدا رسول الله". وهذان ليسا تفسيراً للآية، فهي تشير لاعتبار القيمة العالية فِعْلِيّاً له(ع) عنده تعالى، وعند الكائنات الموقّرة كالملائكة(ع) والمؤمنين من الناس.

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً{5})
{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ}، مع الأمور التي لا تمشي بسهولة كما تريد وفيها صعوبات، يوجد، {يُسْراً}، فستمشي الأمور براحة كما تريد.

ربطاً مع ما سبق من آيات فالكلام هنا عن صعوبات ناتجة عن تعامله (ع) مع الناس بناء على التزامه بدينه تعالى، وصعوبات ممارسته (ع) لدينه، وصعوبات نشر الدين الإلهي... ورؤيته(ع) لصعوبات ممارسة بقية المتدينين لدينهم بسبب معاداة الآخرين لهم... فمهما واجهت من صعاب أيها النبي النموذج وأيها المؤمن فلا تظن أنه لا يوجد مخرج بل إن مع العسر، مع الصعوبة في الفترات التي تكون غير مريحة، فمعها، {يُسْراً}، سهولة وفترة تكون فيها الأمور

مريحة، فإذا صعبت عليك الأمور ضع في بالك أن الفترات الصعبة ليست مستمرة، حتى لو كانت طويلة فهي لن تستمر وسيأتي بعدها فترات تتيسّر فيها أمورك.

(إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً{6})
مرّةً ثانية يكرّر سبحانه للتأكيد أنّ الصعوبة وتعثّر الأمور سيأتي معه سهولة وتيسير.

نقول: إن مع العسر يُسْراً، ولكن ليس للمشكلة التي أواجهها الآن، فهذه لا حلّ لها... لا، فبالنظرة الإلهية فكل عسر بعده يسر. وهذه حياتنا العادية مليئة بمطبات صعبة مرّت وانتهت ونسيناها، وفي وقتها كنّا نشعر بأن الدنيا كلّها فوق رأسنا... ولكن تغيّرت الأحوال وتيسرت الأمور... هذا بشكل عام ولكن الكلام الإلهي هنا عن خصوص التدين وممارسة الدين ونشر الدين، وتعلم من تاريخ النبي محمّد(ع) كم واجه من صعوبات شاقّة جداً جداً مع قومه ومع بقية العرب، والآن عندما تنظر لتاريخه(ع) ترى أن الأمور ورغم مرور الصعوبات فيها، فقد مرّت وحقّق (ع) إنجازات هائلة بالقياس إلى الأوضاع الشاقّة والقدرات البسيطة التي كانت متاحة له(ع)، ففي مدّة زمنية قصيرة انتشر الإسلام بشكل سريع جداً أثناء حياته(ع)، ومن بعد وفاته(ع) انتشر بشكل هائل بسبب النواة التي أسسها (ع).

لاحظ أن الكلام التاريخي العام بدون تفاصيل وإحصائيات ومقارنة تاريخية، فلا يُعطيك صورة دقيقة لما حصل معه(ع)، فلا تضخّم الأمور ولا تصغّرها، فلا تتصوّر أن الإسلام انتشر على بقعة كبيرة جداً جداً في حياته (ع) فهذا غير صحيح، إذ انتشر في بضعة مدن رئيسية "يثرب، مكة، الطائف، هوازن..." وفي ما جاورها من قبائل بدوية من عموم مضر، وفي أواخر حياته(ع) اخترع فرع "ربيعة" من العرب نبيّاً خاصّاً بهم "مسيلمة، المشهور بمسيلمة الكذّاب" في مقابل النبي محمّد(ع) الذي من فرع "مضر"، وانضمّت إلى مسيلمة العديد من قبائل وعشائر ربيعة الذين كانوا أكثر عدداً من مضر بحسب ما يقولونه في الكتب... وبدأت المناوشات الحربية بين المسلمين وبين جماعة مسيلمة... وبعد وفاته (ع) حصلت الردّة حيث أعلنت العديد من القبائل تراجعها عن الإسلام، وبعضها أعلن انضمامه لمسيلمة ولسجاح وهي امرأة أعلنت نفسها نبيّة...

عندما نقول إنّ الإسلام انتشر فلا نقصد تضخيم الأمور، ولا نسيان الصعوبات الهائلة التي واجهت الجيل الأول من المسلمين، بل نقصد عرض ضخامة ما حصل عبر تغيير عشرات الآلاف لدينهم من الكفر والشرك إلى الإسلام، على يد شخص واحد، ومن بعد وفاته بمدة قليلة كبرت رقعة انتشار الإسلام بشكل هائل بسبب ما فعله هذا الشخص الواحد، ففي مدّة تقارب العشرين سنة من بداية دعوته (ع) الناس إلى الإسلام، وإلى ما بعد وفاته(ع) بقرابة العشرين سنة، فبعد هذه المدة التي تقارب الأربعين سنة، لم تبق ولا ممارسة علنية لأي دين غير دين الإسلام على منطقة تجاوزت حدود الجزيرة العربية بمرتين أو ثلاث مرات مروراً بما بين النهرين وصولاً إلى بلاد فارس وبلاد الشام ومصر...

هذا ما يجب أن ننظر إليه لنفهم اليسر مع العسر، فضيق النظر إلى المعارك والاغتيالات والغارات... على المسلمين، وحالات القحط والأزمات المالية... والمشاكل الشخصية مع الأقارب والعائلة والجيران... والنفاق والفسق داخل المجتمع الإسلامي... فهي أمور لا تشوّه الصورة الكبيرة، حيث صار الدين الإلهي أساس الحكومة في تلك المنطقة، فمن غير المتوقّع صيران كل الناس على مستوى عال من الإيمان، فهذا لم يحصل سابقاً في التاريخ، ولكن صيران المجموع العام من الناس "في بقعة ما" تحت العقيدة والشريعة الإلهية، فهو ما تحقّق على يديه(ع) بإنجاز غير مسبوق في كل تاريخ البشرية، إذ إن النبي محمّد(ع) من الصفر بنى نواة دولة إسلامية، وهذا هو اليسر الذي كان يبدو مستحيلاً في بداية الدعوة، وهذا ما تتحدّث عنه السورة هنا قبل حصوله.

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ{7})
{فَإِذَا فَرَغْتَ} أيها النبي(ع) وصار عندك وقت فراغ من بعدما كنت مَشْغُولاً، وانتهيت خلال النهار أو الليل من تبليغ الرسالة التي أخذت من وقتك وجهدك وتفكيرك، {فَانصَبْ}، قِفْ واجتهد وأتعب نفسك، وسياق الكلام يشير لتمضية الوقت بالصلاة والدعاء.

آيتنا هنا مثل العديد من الآيات التي وردت في القرآن، حيث سبحانه يلفت انتباه نبيه(ع) إلى الاهتمام بالعبادة والدعاء، وذلك ليُذَكِّره أنّ الدعوة والتبليغ جزء من حياته، والجزء الثاني الأهمّ من حياته هو إيمانه وتدينه الشخصي، فلو آمن كلّ أهل الأرض بالدين الذي ينقله لهم (ع)، وهو نفسه لم يهتمّ بتدينه، فما النفع؟ وهذا شيء يقع فيه عموم المتدينين الذين يفكّرون في إصلاح الكون ونشر العدالة... وينسون تدينهم، فلو كفر كلّ أهل الأرض، وكنت أنت مؤمناً متديناً فلن يضرّوك بأي شيء وستدخل إلى الجنّة الخالدة، ولو آمنوا كلّهم على يديك، وكان عليك ذنوب لم تستغفر منها وسيئات ترتكبها وواجبات دينية تهملها، فلن تستفيد بأي شيء، وستدخل النار الخالدة...

(وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ{8})
{وَإِلَى رَبِّكَ} سبحانه، إلى المسؤول عنك من مستوى إلهي، {فَارْغَبْ}، فما تريد تحقيقه فليكن مُوَجَّهاً باتجاهه تعالى، وكن طَالِباً رضاه ومغفرته ورحمته وثوابه تعالى.

فلتكن بوصلتك دائماً بالاتجاه الصحيح، باتجاه الرغبة بما له علاقة بربّك سبحانه، وهكذا ستنسى كل شيء ولن ترى العقبات التي تعترضك في حياتك.

سورة التين (95) ص 597

لفت انتباهنا إلى قيمتنا التي نحافظ عليها أو نفقدها، والبداية مع لفت الانتباه لبقع على الأرض مرّ فيها أناس وصلوا لأعلى المواصفات الإيمانية والصلاح ونقلوا لنا نفس هذا الكلام الإلهي الذي تنقله السورة هنا عن القيمة الحقيقية للإنسان...

سورتنا هذه من السور النادرة التي توجّهت بكلامها الرمزي للمؤمنين "تين وزيتون وطور سنين"، فالغالبية الساحقة من آيات القرآن كانت مباشرة وصريحة، والكلام الإيحائي غير المباشر نادر في القرآن، وهنا نحتاج لرؤية الأمور من منظوره تعالى، الذي خلقنا لنكون في أحسن تقويم بالاستغلال السليم لجسدنا وفكرنا وحياتنا بطريقة صحيحة، والبعض أحسن الاستغلال فآمن وعمل صالحاً، والآخرون أساؤوا الاستغلال فلا قيمة لهم، وهذا لبّ السورة، والمؤمنون محور حديثها.

قارنها مع رسالة فيها "الجملة الصريحة" لما تريد قوله، جملة واحدة: كيف حالك إن شاء الله بخير. وقارنها مع رسالة لمن تحبّ وتقدّر:... أكتب إليك والشوق يحرق قلبي من الفراق... وذكراك لا تفارق بالي... إلى آخره من الكلام، وقارنها مع رسالة لشخص تعتبره مثقفاً: هبّات النسيم أتت بذكراك ففاح في خيالي طيب هواك... وهنا أول آية في سورتنا عبّرت برمزية بسيطة تصير واضحة بعد قراءة الآيتين التاليتين...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ{1})
يؤكّد سبحانه كلامه بـ {التِّينِ}، و {الزَّيْتُونِ} وكلاهما نوعان معروفان من الشجر.

في الآية بعد التالية ستلفت السورة انتباهنا لهذا البلد الأمين أي مكّة، مما يعني أن الإشارة هنا بالتين لمكان مشهور بشجر التين فيه، وهي ما نسمّيه تاريخياً ببلاد الشام، التي تشمل حالياً سوريا ولبنان وبعضاً من العراق والأردن، والإشارة بالزيتون إلى المنطقة المشهورة قديماً بكثرة شجر الزيتون فيها وهي منطقة بيت المقدس ومحيطها الذي في عصرنا يتوزع بين جنوب لبنان وشمال فلسطين وجنوب غرب سوريا وغرب الأردن.

من الإشارة في الآية بعد التالية إلى البلد الأمين "مكّة" التي فيها من نزل هذا الكلام الإلهي، نفهم أن الإشارة لتلك المناطق تقصد الذين نزل عليهم الوحي بخبر مشابه لما نزل على الذي في البلد الأمين، فمن المشهور تاريخياً أن تلك المنطقة عجّت بالأنبياء والرسل، وندر وجود أنبياء من خارجها.

يحق لك الاستغراب يا عزيزي ويا عزيزتي عن التعبير بالشجر بدلاً من ذكر اسم المناطق، ولكن لو التفتّ لتغيّر أسماء المناطق وتغيّر حدودها الجغرافية عبر التاريخ، لرأيت وجهة نظر بالتعبير بالشجر الذي اشتهرت به تلك المناطق، فلا تقصد الآيات أن الزيتون والتين لم ينبتا إلا في مناطق محدّدة، لا، بل اشتهرت تلك المناطق بكثرة هذا الشجر فيها، مثلما يذهب فكرك إلى البرازيل عند الكلام عن القهوة مع العلم بأن الكثير من البلدان تنتج القهوة وبكميات ضخمة ربما تفوق ما تنتجه البرازيل، وهكذا فإنّ البقع التي كان فيها أنبياء ورسل بكثرة فهي بقع مشهورة بكثرة أشجار التين والزيتون فيها.

لا تذهب أبعد مما تركّز عليه السورة لتغرق في فوائد التين والزيتون حتى تجعلهما شفاءً من كل داء، لا، لأنّ العديد من الناس تتحسّس معدتهم من الزيتون بعصيره وحبوبه، ومرضى السكري يقتلهم التين... فلا تَمْشِ مع الموضة الدارجة دائماً عن فوائد الخيار والرمان والعنب والزنجبيل... لدرجة السخافة والتفاهة، والشفاء من كلّ الأمراض، إذ هناك بسطاء أو سخفاء مغرمون بهذه النوعية من الكلام لدرجة أن نفس الخضرة أو الفاكهة ترفع ضغط من ضغطه منخفض وتخفّض ضغط من ضغطه مرتفع! وفي نفس الوقت توقف الإسهال وتسبب تيسير الكتمان! وتسبب النشاط وتساعد على النوم!... لا أقصد إنكار فوائد الخضار ولكن ألفت انتباهك إلى السخافات التي يغرق الناس بها، لذا تعامل مع الأمور بعقلانية، ولا تعطِ التين والزيتون أكثر من حجمهما، فهما شجرتان لا تختلفان عن بقية ما خلقه تعالى من أشجار مثمرة ففيهما فوائد للبعض وأحياناً فيهما مضار لآخرين.

(وَطُورِ سِينِينَ{2})
يؤكّد سبحانه بـ: {طُورِ}، جبل، {سِينِينَ}، سيناء. وهو الجبل الذي في صحراء سيناء التي بين فلسطين ومصر حالياً، وأشهر حادثة دينية حصلت هناك حين كلّم سبحانه في سيناء النبي موسى(ع) لأول مرة حين كان (ع) عائداً من مدين إلى مصر، وهذا ما تجده في أول سورة طه وغيرها.

(وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ{3})
تأكيداً بـ، {هَذَا الْبَلَدِ}، هذه البقعة المحدّدة من الأرض، وهي البقعة حيث نزلت هذه السورة على شخص فيها، وهي مكّة التي فيها النبي محمّد(ع) الذي نزلت عليه هذه السورة، وهذا البلد الموصوف بأنه، {الْأَمِينِ}، الذي من فيه يستبعد الشعور بالخطر.

مكّة اشتهرت تاريخياً بأنها من الأماكن الآمنة، بالرغم من وقوع بعض الحوادث القتالية فيها، ولكنها بالمقارنة مع بقية المناطق فقد كانت الأفضل أمنياً بكثير بسبب تقديس عموم الناس للكعبة التي فيها، وبالتالي تجنّبهم لافتعال المشاكل في منطقتها، وبناء عليه استفاد سكان مكّة من هذا الأمن، واستفادوا من قدوم الناس إلى الحج في مواسم محدّدة، فصار بلدهم مركزاً تجارياً... وهذا شيء لفت القرآن الانتباه له مراراً كنتاج لتعيينه تعالى بيتاً في مكّة واستفادة المشركين من ذلك كما ورد في الآية 67 من سورة العنكبوت "أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ"، وما ورد في الآية 3 و 4 من سورة قريش "فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ".

لا تَنْسَ أن بداية الأمان في مكّة كان بسبب الشريعة الإلهية التي حدّدت مكّة كبقعة للمناسك الدينية، وترسّخت مناسكه "طقوسه، ما يفعله الحاجّ" في عهد النبي إبراهيم(ع) واستمرّت لما بعده.

هكذا انتهت السورة من الإشارة لأماكن مشهورة بأنبيائها ورسلها، وهم أرقى نماذج الإنسانية:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ{4})
{لَقَدْ خَلَقْنَا}، ركّب وألّف سبحانه، {الْإِنسَانَ}، الغالب الأعمّ من الناس، {فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}، كما نقول: تقويم الأسنان. والمعنى العام للتقويم هو الكون موصوفاً على الأحسن، وسترى من الآيات التالية أن الكلام عن الخلق في أحسن تقويم يشير إلى تركيب الإنسان وفيه القابلية ليكون في أحسن المواصفات الصحيحة فيرى الحقّ ويرغبه ويرى الباطل ويرفضه.

بما أنَّ أحسن المواصفات عند الله سبحانه هي المواصفات التي تحلّى بها المميزون في بلاد التين والزيتون وجبل سيناء ومكّة، أشارت السورة لهم بالأماكن التي كانوا فيها، وهم أنفسهم نزل عليهم وحي يخبرهم بأنه تعالى خلق جميع الناس وفيهم قابلية أن يكونوا في أحسن المواصفات.

عبارة "أحسن تقويم" لا تتحدث أبداً عن الجسد السليم، بل وكما ستؤكد الآية التالية، الحديث هنا عن السلوك والتصرف، فهو عن قابلية الكون في أعلى المواصفات الإيمانية والصلاح.

في الآية عمق تراه منتشراً في عموم كلام القرآن، فبشكل أو بآخر نستعمل في أدبياتنا تعابيرَ تشير للفصل بين صفات الإيمان والصفات الإنسانية الحسنة، على أساس أن الإيمان يتضمّن الصلاة والصوم وقراءة القرآن... وهناك الذي صفاته الإنسانية حسنة ولا يفعل هذه الأمور. ولدينا في أدبياتنا عموماً فكرة عن الالتزام بدينه تعالى كونه تطويعاً لفكرنا وسلوكياتنا لتتماشى مع كلامه تعالى، وبشكل أو بآخر هناك فكرة عن أشياء يأمر بها تعالى ولا تعجبنا، ولكنها أمره تعالى ولذلك نلتزم بها.

هذا الكلام مرفوض إلهياً، بل ومدمّر للدين الحقّ من أصله، إذ سبحانه خلقنا بقابلية تمييز الخير من الشرّ، وبدافع رغبة معاملة الآخرين لنا بالخير، وحتى يحصل هذا علينا مبادلة الآخرين بمعاملتهم بالخير، وهذا الكلام هو أقل المفروض، ولا يحتاج لدراسة لنفهمه، وهناك نوعية ممتازة من الناس لديهم دافع معاملة الآخرين بالخير حتى لو لم يعاملهم الآخرون بالخير.

أساس دينه تعالى ليس شيئاً آخر غير الخير الذي نميّزه نحن عن السوء، فلو نظرنا بمثالية للقابليات التي فينا، على أساس أننا ملتزمون تماماً فقط وفقط بما نراه خيراً تاركين ما نراه سوءاً، فسنصيب أساسيات دينه تعالى، وهذا المفهوم القرآني منتشر في كلامه تعالى عن الأنبياء، أرقى نماذج البشرية، لأنهم وبسلامة قلبهم أصابوا أساسيات دينه تعالى.

هكذا نرى أننا في الحالة المثالية لسلامة قلبنا، يصير التزامنا بدينه تعالى، هو تماشينا معه إذا كان قلبنا سليماً بالدرجة الكافية، لأنه متوافق تماماً بل مطابق لما نراه نحن خيراً وبعيداً عن السوء، لأنه سبحانه لا يأمر إلا بالأحسن ولا ينهى إلا عن السوء.

هنا في الآية نستعمل تعابيرَ مفسّرة لها وتكون متساهلة لدرجة البعد والتعارض مع المفاهيم القرآنية، فلو قلنا أنها تشير بأحسن تقويم إلى الصفات الإيمانية، ولم ننبّه أنه لا فرق بين الصفات الإنسانية الحسنة وبين الصفات الإيمانية، فبذلك لدمّرنا أساس معنى الدين الإلهي.

هذا الكلام تراه بوضوح حين تواجه أنت شيئاً يقولون إنّه أمر "تشريع" إلهي، ولكنه لم يعجبك، ستكون حالتك واحدة من اثنتين، فإمّا ما وصلك لم يكن أمراً إلهياً بل كان من اختراع الناس أو كان تفسيراً فاسداً لكلامه تعالى... أو أنه أمره تعالى فعلاً ولكن أنت عندك خلل في تمييز الخير من السوء بسبب فساد في قلبك ولم تستطع رؤيته حسناً.

القاعدة الأساس استحالة أمره تعالى لنا بفعل السوء، ومستحيل أن ينهانا عمّا فيه خير، وكلاهما "الخير والسوء" على المقياس الذي نفهمه نحن ونراه ونميّزه، وهذا هو معنى تنزيل هذا القرآن الشارح لنا أسباب أوامره تعالى لننتبه للخير فيها، والشارح لنا عمّا ينهى عنه تعالى لنرى السوء الذي فيه، وهذا هو نفسه شرح الآية التي ستأتي بعد آيتين، فما يكذّبك بعد بالدين.

(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ{5})
سبحانه خلق الإنسان مع قابلية وصوله لأعلى المستويات، بأعلى المواصفات، ولكن عندما يرتكب الإنسان السيئات وعلى رأسها الكفر به تعالى: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ}، أرجعنا الإنسان إلى الوراء، إلى تصنيف أقل من أحسن تقويم وردّه تعالى، {أَسْفَلَ سَافِلِينَ}، أخفض ما يكون، بأسوأ المواصفات، معنوياً تقييمه في الأسفل، وعملياً سيكون في العذاب في جهنّم، فهي مكان الذين بلا قيمة.

تصرفات الإنسان وأقواله ونفسيته وعقليته... تحدّد قوامه، مواصفاته، وجسدنا لا يحدد من نحن، إذ خلقنا تعالى وجعلنا قادرين على الوصول إلى أعلى الصفات الإنسانية الراقية، ولكن من قرّر أن لا يصل إلى أحسن تقويم فسيردّه تعالى إلى أسفل سافلين، إلى تحت.

نفهمها عندما ننظر إليها من منظوره تعالى، إذ خلق سبحانه وتعالى كل شيء، وميّز بعض الكائنات ومنها البشر بالوعي والفكر وحرية الإرادة والشهوة والغريزة... وكل هذه الأمور منحة منه تعالى لنا، وجعلها تعالى فينا ليكون لدينا قابلية العلو في الصفات الحسنة، ومن لم يتعامل مع هذه الأمور بطريقة صحيحة، فلا كرامةَ له عند الله تعالى بل يردّه إلى أسفل سافلين.

تصوّرها مثل شخص لديه عقل وتزوّد بالمال ليعيش بكرامته ولا يحتاج للناس، فماذا لو بذّر المال وافتقر؟ فالخطأ منه، وسيرجع فقيراً... هكذا "تقريباً" نحن بنظره تعالى، نحن لم يكن لنا أي قيمة أصلاً لأننا لم نكُ شيئاً، وخلقنا تعالى وركّبنا وألّفنا مع قدرتنا على أن نكون محترمين وموقرين... ووهبنا الوعي بالعقل والفكر والإدراك... وكل هذه الصفات فيها أحسن التقويم لأننا نميّز بها الخير من الشر والحسن من السوء، وأمّا من أساء استخدام ذلك... فهذا سيردّه تعالى من أحسن تقويم إلى أسفل سافلين، فهو كافر مجرم فاجر... أساء استغلال فكره وجسده وحياته، وصار بلا قيمة عنده تعالى.

لاحظ الشعور بالعظمة عند عموم الناس لأنهم مميزون عن بقية الحيوانات بالفكر والإدراك والاكتشاف والاختراعات والأبنية... ويشعرون بأنهم في أحسن تقويم، ولكن هذا جانب بسيط غير مهمّ، والجانب الأهمّ هو استغلال هذه القدرات بالطريقة الصحيحة، وبالتالي الوصول بها إلى الاتصاف بالالتزام بما نراه خيراً تاركين ما نراه شرّاً، للوصول إلى الإيمان بالحقّ والعمل الصالح، فهذا سيكون فعلاً في نظره تعالى في أحسن تقويم، وأمّا من كفر به تعالى، وفجر... فما قيمته؟

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ{6})
هل كل الناس ردّها تعالى بلا قيمة معنوياً؟:

إلا الذين آمنوا، فلا يردّ تعالى إلى أسفل سافلين من هم في حالة اعتقاد والتزام بدينه تعالى، والكلام طبعاً عن اعتقادهم بالحقّ، فسبحانه لم يعرض علينا الإيمان بدينه على العمى من دون أن نراه حقّاً وحكيماً، فنؤمن ونعتقد بالمعلومات عنه تعالى وعن أفعاله وقراراته لأننا نراها صحيحة وعليها أدلة...

وعملوا الصالحات، فقاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، فَعَمَلِيّاً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادةً نفسّر "عملوا الصالحات" على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إنّهم صلّوا وصاموا... وهذا عملياً صحيح، ولكن بالأصل الكلام أنّهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموماً وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائماً أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به.

هذا الكلام له عمق، فلا توجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت مُحِبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلاً سيّء" فسيكون في الحقيقة اختراعاً من البشر لصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمراً إلهياً.

فلهم أجر، فلهم مقابل محدّد سلفاً على إيمانهم وعملهم الصالح، غير ممنون، بلا منّة، فلا يتوجّب عليهم أن يفعلوا أي شيء لمن أعطاهم الأجر.

المنّة هي الحصول على شيء جيّد ويتوجّب عليك ردّ الجميل لمن أعطاك، وعلى الأقل تشكره، ولكن كرّر لنا القرآن مراراً وبطرق مختلفة أن المؤمنين في الآخرة لا يتوجّب عليهم حتى أن يقولوا شكراً لله تعالى على الجزاء الهائل الروعة في جنّة خالدة، فالأجر غير ممنون، والفضل والإحسان والتوريث... للجنّة وما فيها للمؤمنين، كلّها تعابير يقصد القرآن منها أنه لا يجب على المؤمنين فعل أي شيء فيها، فلا صلاة ولا صوم ولا دعاء... وحتى كلمة الحمد لله وشكراً لله... غير واجبة عليهم، وما نقله القرآن عن حمد وشكر وتسبيح أهل الجنّة، فهذه تعابير عفوية من شدّة شعورهم بالكرامة العالية جداً التي عاملهم بها تعالى في الآخرة، فلا يوجد ولا أي شيء مطلوب منهم أن يفعلوه في الآخرة، ولا أي واجب مهما كان صغيراً.

نتذكّر دائماً أن الإيمان لوحده بدون عمل صالح لن ينفع، والعمل الصالح من دون إيمان لن ينفع، بل كلاهما معاً يجعلان الإنسان في أحسن تقويم.

تتذكّر دائماً أنه تعالى من فضله حدّد للمؤمنين العاملين للصالحات أجراً، فليس واجباً عليه تعالى إثابتهم على إيمانهم وعملهم الصالح، فهم آمنوا بالحق، وعملوا الصالحات، وهذا مفروض منهم بما فيهم من قدرة على تمييز الحقّ من الباطل والخير من الشر. وبعضهم يستعمل تعابيرَ تقرّب لك المعنى ولكنها تعابير غير دقيقة، فيقولون إنّه تعالى أوجب على نفسه أن يعطي أجراً للمؤمنين، بينما تعابير القرآن مختلفة، فسبحانه بالحق وبحكمته وبرحمته ومن فضله، قرّر إعطاء الأجر للمؤمنين، وهذا المعنى منتشر في القرآن ومنه تعابير الأجر من فضله، وبغير حساب، كما تقرأ في الآية 45 من سورة الروم "لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ"، والآية 38 من سورة النور "لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ".

(فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ{7})
بعد هذه المعلومات الصريحة الواضحة حول تقييمه تعالى للإنسان، وما سيحصل مع الإنسان كنتيجة لتقييمه تعالى له المبني على إيمان الإنسان أو كفره أو التزامه بالعمل الصالح... فما معنى أن يُكَذبك أحدٌ ما بالدين؟ ما معنى أن لا يعتقدوا بالتبعات التي عليهم لإلههم؟ ولا يعتقدوا بما سينتج عن مخالفتهم لكلامه تعالى؟

كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، فهي ليست اصطلاحاً مخصّصاً كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، فهي عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئاً ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف...

الله تعالى خلقني فأنا مدين له، فخلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعاً بسبب سعة تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... فكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة فهناك ندان بأعمالنا، فما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة كلامه تعالى هو التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضاً يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسباً بحكمته يَدِينُنَا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

يتفلسف بعض الناس ويقولون بأنهم ليسوا متدينين ولا بأي دين، فهم لا يشعرون بأن عليهم تبعات للإله سبحانه، فهم ليسوا مدينين للإله، وليسوا مجبورين على اتباع الأوامر التي تصلهم ويقال بأنها من الإله. الدين هو عامة وقوعك تحت تبعات شيء ما، وهنا الكلام عن تبعات كونك عَبْداً لإله خلقك، عن وجوب عبادتك وطاعتك لإلهك الذي خلقك، وبعض الناس يكذّبون بهذا الدين بالتحديد، ويؤمنون بدين آخر أو يقولون بأنهم علمانيون لا يؤمنون بكل الأديان، وهذه سخافة تسأل عنها آيتنا هنا، ففي مقابل الدين الذي حدّده تعالى لهم، هم اخترعوا ديناً خاصاً بهم، فهم لا يؤمنون بالإله عزّ

وجلّ، أو يحددون الإيمان به تعالى كمجرد فكرة لا يجب أن يكون لها أي أثر عملي، فالتشريعات للحياة لا يأخذونها من كتبه تعالى، فيخترعون التشريعات التي تناسبهم والتي ستكون حتماً سيئة إذا كانت مخالفة لكلامه تعالى، ففي نفس الحالة التي يقولون فيها إنّهم بلا دين، فما يفعلونه هو دين! فهم يؤمنون بتبعات مخالفة التشريعات التي اخترعوها، ولكن لا يؤمنون فقط بدينه تعالى؟!

ما الذي يكفرون به ولا يريدونه من دينه تعالى؟ فإن كانوا يعارضون ما يصلهم من المنتمين لدينه تعالى من تشريعات سخيفة أو طفولية أو مزاجية أو سيئة أو إجرامية، فَلَهُمْ حقّ بالكفر بهذا، ولكن كلامه تعالى الصافي المعروض في هذا القرآن، والبعيد عن الكثير من التفاسير السيئة، فماذا فيه ليكفروا به بناء على سوئه؟ وراجع دراستنا هذه لترى أي آية تخطر على بالك وتظنّ بها سوءاً، وسترى أن السوء من التفاسير...

أيضاً لننظر للآية هنا من منظوره تعالى، فنحن كيفما درنا ومهما فعلنا فنحن على دين ما، فمن ناحية العقيدة لدينا دين التوحيد، دين الإيمان به تعالى إلهاً أحداً فرداً صمداً... وهناك دين الشرك والإيمان بآلهة... وهناك من يعلن أنه لا يؤمن بآلهة أو إله من أصله... فهذه وغيرها كلها عقائد، فحتماً نحن نؤمن بشيء ما، وحتى الذي لا يؤمن ولا بأي دين، فهذا يؤمن بخطأ كل الأديان، فهذا إيمانه.

من ناحية التشريع والقوانين التي على أساسها يكون عمل الإنسان، فهناك من يعتبر كلامه تعالى مرجعاً للتشريعات، وهناك من يستوحي منها، وهناك من يرفض تطبيقها واعتمادها، فهذه كلّها تشريعات، وكما ترى فأي إنسان لديه دين، فالإيمان به تعالى وبكتبه لتطبيقها هو دين، والكفر بها واختراع تشريعات أخرى هو دين، فحتى لو حرّم الكافر السرقة والغش وأذية الآخرين... فتحريمه لها ليس من أساس الإيمان بكتبه تعالى، وليس على أساس الصلابة في اتباع الحق والخير، وليست مبنية على أساس العقاب في الآخرة بالنار لمن فعلها، بل يعتبرها نابعة من الإنسانية والمحافظة على قيمتها... ونابعة مما يراه مناسباً مرغوباً حتى لو كان سيئاً...

الآن صرت ترى بوضوح معنى أحسن تقويم وأسفل سافلين، فحتى من منظورنا نحن لدينا الإنسانية المحترمة ولدينا اللاإنسانية، وصرت ترى معنى السؤال عمّا يُكَذِّبُونَ به، فأحسن تقويم ما معناه؟ أليس معناه اتباع الخير وترك السوء؟ وها دين إلهكم عبر قرآنه وبوضوح ترون أمره فقط بالخير ونهيه فقط عن السوء، فما معنى تكذيبكم بهذا الدين؟ فأي دين تريدون؟ وكيف سيحصل دين آخر على تقييم عالٍ إن كان هذا الدين الإلهي يحوي كل الخير وينهى عن كل سوء؟

أم المسألة ليست عن الحق والباطل والخير والشر، بل عن البعض من هذا والبعض مما نرغبه حتى لو كان سيّئاً؟

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ{8})
{أَلَيْسَ اللَّهُ}، أليس صاحب هذا الاسم المحدّد المميّز، {بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}؟ فإن كانت الأمور بحاجة للضبط على الصوابية على أحسن ما يكون، وهذا هو معنى الحكم، فهل هناك من هو أحسن منه تعالى ليحكم؟ ليضبط الأمور على الصواب الأحسن؟ فأنتم تصدرون أحكامكم، فتعلنون قراركم بالصوابية في الأمور بحسب ما ترونه مناسباً، فلديكم عقائد وتشريعات، ومن المفروض أن أساس تشريعاتكم مبني على فعل الخير وترك السوء، وإلا فلا كلام في الموضوع مع الذي يعلن أن الخير لا يهمّه وفعل السوء لا يراه مشكلة، فهذا مستوى متخلّف لن يسمع إلا التهديد منه تعالى.

محور الكلام عن الخير والشر، عن أحسن تقويم وأسفل سافلين، فهل أنتم راغبون ولديكم القدرة على وضع دين يلتزم تماماً بهذه القاعدة؟ وستكون أحكامكم العقائدية التشريعية والسلوكية جاعلة للإنسان في أحسن تقويم، بشكل أحسن وأفضل مما يمكن أن يفعله صاحب الاسم المحدّد المميّز الله عزّ وجلّ عبر ما يعرضه عليكم في قرآنه هذا؟

الله سبحانه هو الذي خلقكم وجعل فيكم القدرة على تمييز الخير من الشرّ، فهل من المعقول أنكم أنتم ستكونون أحكم منه؟!

نفهمها بسهولة عندما تسمع علمانياً فصيحاً مثقّفاً يحدّثنا عن نظريات الدين والاقتصاد وعلم الاجتماع والشرائع... ويذكر لك نيتشة وهيغل وماركس وماو وبوذا وسارتر وسعادة... فمن هم هؤلاء أمام الله سبحانه وتعالى؟ الأحكام المالية والاجتماعية والعقائدية... التي تصدر عن فلسفاتهم، فما قيمتها أمام الله أحكم الحاكمين! يا لسخافة المقارنة بين إله وعبد.

نعم، هناك مساحة وهامش كبير تركه تعالى لنا كمرونة في التعامل مع التشريعات، فذكر لنا الأساسيات في قرآن، وترك التفاصيل الكثيرة عن قصد، وذلك حتى يبقى لدينا هامش مرونة للتحرّك بما يناسب مختلف الظروف والأزمنة، ومن بعد فهمنا لهذا نحترم أي جهد تشريعي وتنظيمي ضمن هذه الأطر الإلهية.

هناك مشكلة حقيقية بين جملتي "عالم دين" و جملة "رجل دين"، بين مفهوم: أنا ما أقوله هو دين الإله. ومفهوم: هذا دين الإله ولنتعاون كلّنا لنفهمه بطريقة صحيحة.

كما ترى فنحن نتحدّث عن تحكّم بضعة رجال بالناس وباسم الدين، ونقل لنا القرآن نماذج عمّا فعله علماء من بني إسرائيل من تحكّم بدين الناس بآرائهم، كتحريف للدين بأفواههم وصولاً إلى تحريف الكتاب الإلهي كما تقرأ في عدة آيات منها الآية 13 من سورة المائدة "فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ..."، ومثله حصل من رجال الكنيسة المسيحية حتى ثارت النقمة عليهم... ومثله حصل في تاريخنا الإسلامي القديم والحالي وإن كان بشكل أقل حدّة وانتشاراً مما حصل مع المسيحيين واليهود، ولكن المحصلّة واحدة: نفور الناس من الدين الإلهي بسبب تسلّط غالبية رجال الدين على الناس بآرائهم الخاصّة التي صارت هي الدين، وبسبب إشعالهم للنعرات الطائفية والمذهبية بين أهل دينهم، وبسبب استفادتهم الشخصية من مواقع النفوذ والسلطة والمال باسم الدين... وبسبب فتاويهم المزاجية والإجرامية والساذجة...

حتى لا يكون كلامنا تعميماً، مَرَّ العديد من رجال الدين، ومن المثقفين المحترمين الموقرين، ولكن صوتهم غير مسموع لأنهم لم يتمذهبوا...

هذه أمور تحدّث عنها القرآن بشكل مفصّل حين أهان بني إسرائيل، فلم يقصد في ذلك الكلام عنهم إهانتهم لمجرد إهانتهم، بل قصد أن يرينا أن الانتماء لدينه تعالى ليس حصانة من عذابه سبحانه، وذلك حتى لا نفعل مثلهم... أمّا هنا فالكلام عن الأساس، عن أساس الدين لله تعالى، فلا لي ولا لك ولا لفلسفات من تفلسف، فكلّهم جملة واحدة لا يحق لهم اختراع دين أو التلاعب بالدين الإلهي، ولا يقبل سبحانه وتعالى عذرنا إن اعتذرنا عن التزامنا بدينه بسبب الممارسات المنحرفة لغالبية علماء الدين والمتدينين، فلا عذر، فها القرآن أمامك يخاطب رسله واحداً واحداً منفردين، ويقول لهم أن يهتمّوا بتدينهم هم أولاً، وأن لا يهمّهم كفر كلّ أهل الأرض، وأنا وأنت وهو وذاك... كلّنا مكلفون بنفس الشيء، فلو كفر الجميع أو انحرفوا فعليك أنت أن تدين بدينه تعالى ولو لوحدك.

في الختام لسنا نقلّل من قيمة الأبحاث الفكرية الفلسفية التشريعية والاجتماعية والاقتصادية... ولكن البساطة التي تراها في كلامه تعالى لنا في هذا القرآن، وفيها أساسيات لكل ما يمسّ حياتنا، فهي أكثر من كافية لتطبيقها ولتكون حياتنا هانئة وسعيدة، اكتفى القرآن بعرض الأساسيات للعقيدة، وللتشريع، وللسلوك، وعندما نقول أساسيات فلا نقصد أنها قليلة ومن الصعب استخراج المفردات منها، فاحترام حقوق الآخرين، أساس، وإذا التزمنا به فهو عنوان كافٍ لسعادتنا في تعاملاتنا مع بعضنا، وجاء في القرآن بعض التفاصيل له، فالغيبة والبهتان والكذب وشهادة الزور... سوء حرام وعليها عقاب شديد...

هكذا ترى أننا لا نلغي الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية... والعقائدية والفلسفية... ولكن إن أتيح لنا مصدر إلهي، كلام إلهي، فهل نتركه أم نبني عليه؟ فهل نكذّب بالدين الإلهي مخترعين ديناً من أفكارنا متجاهلين أنه تعالى أحكم الحاكمين!

للأسف غالبية المنتمين لدينه تعالى اعتبروا القرآن للبركة فقط، ولا ينظرون إليه كمصدر أساسي للتشريع، فيعتبرونه ناقصاً لا يحوي كل مفردات التشريعات، بينما تقصّد سبحانه ترك التفاصيل لتكون هامش مرونة لنا، وللأسف فهم ليسوا صادقين مع أنفسهم، فيقولون ما يعبّر عن تقديسهم للقرآن، وأن فيه كل شيء... ولكن في طيات كلامهم، وفي ممارساتهم، تجدهم يخالفون صريح القرآن!

سورة العلق (96) ص 597
تعرض السورة نموذجين متناقضين من الناس في تعاملهم مع كلامه تعالى، والبداية عن الخالق صاحب الكلام، والمخلوق الذي وصله كلام الخالق، ثم الدخول في نموذج سيّء جداً رافض لاتباع كلام الخالق وملخص عن نهايته في العذاب، وختام السورة بأمر للخضوع للكلام الإلهي مهما كانت الظروف صعبة على من التزم...

بالنسبة لما تجده من روايات حول ظروف نزول هذه السورة، وكونها أول ما نزل وحياً منه تعالى على النبي محمّد(ع)، فأصلاً لدينا مشكلة مع عموم الروايات التي تتحدّث عن بداية قيام النبي محمّد(ع) بنقل الكلام الإلهي للناس، فمن البديهي وجود أول سورة نزلت عليه(ع)، ولكن ليس من الطبيعي وجود روايات مختلفة في تحديد أول سورة نزلت عليه (ع)!

من الروايات نشأت لدينا ثقافة عن تاريخه (ع) بأنه صار نبياً رسولاً في لحظة نزول أول سورة قرآنية عليه(ع)، وهذا لا يبدو صحيحاً ولا من أي سورة، فلن تجد سورة قرآنية تبدأ من الصفر، من لا شيء قبلها، لا سورتنا هنا ولا المدّثر ولا المزمّل... ولن تجد سورة تعطيك انطباعاً بأنها أول سورة بحيث تشير بكلامها لذلك، ولا تجد سورة تشير لك بالابتداء بعرض هذا الدين من الصفر.

على هذا المعيار ربما أرشّح سورة التوحيد كبداية لعرض هذا الدين الإلهي، بالتعريف بالإله صاحب هذا الدين، وربما بعدها أرشّح سورة الحمد بما فيها من اختصار شديد لأساسيات معنى التزامنا بهذا الدين...

أمّا بالنسبة لسورتنا هذه أدخلوها في معمعة تقطيع نزول السور بشكل متداخل، على أساس أنّ آياتٍ نزلت من هذه السورة، وبعدها نزلت آيات من سورة أخرى، وبعد أيام أو سنوات نزل من جديد تكملة آيات سورتنا هذه... وسترى من دراستنا أنّ موضوع سورتنا واحد مترابط، وسبب تقطيعهم لها هو اعتبار أولها إلى الآية 5، أول ما نزل من القرآن ومن بعدها صار محمّد(ع) نبياً رسولاً... وذهب إلى السيدة خديجة وهو يرتجف كما يقولون... فأخذته إلى ابن عمّها المسيحي نوفل ليخبره بأن الناموس الأكبر نزل عليه... وهذا يبدو لي كلام خرافات على نسق قصص ليلى والذئب... وقالوا إنّ الآيات من الآية 6 وما بعدها نزلت فيما بعد بأيام أو أسابيع أو أشهر... أو سنين! لأنها تتحدّث عن معارضة لدينه تعالى، ومن غير المعقول أن تتنزل أول سورة تتحدّث عن معارضة شخص لم يسبق له أن طرح أي شيء على الناس! وعلى هذا كان الحلّ عند عبّاد الموروث تقطيع السورة هنا إلى قسم نزل في أول لحظة من الدعوة، وجزء نزل بعد معارضة الناس للدعوة، وبعد دراستنا للسورة سترى أنها موضوع واحد، ومثلها مثل كلّ بقية سور القرآن نزلت كاملة بلا تقطيع.

ما سيتبين لك في دراستنا هذه من معارضة "فكرة تقطيع نزول السور"، فهو الواضح مع سياق السور ومواضيعها ومحور حديثها الذي يريك نزولها دفعة واحدة، وربما تجد نفسك مقاوماً متمسكاً بفكرة تقطيع نزول السور، فلا تترك هذا الموضوع ضبابياً مجملاً بلا دراسة أو تحقيق، وما يخطر ببالك من آيات تعتقد لا بد بأنها نزلت منقطعة عمّا سبقها، فراجع في دراستنا هذه لترى أنّ الضباب سينقشع وسترى ترابطاً موحداً في كلّ سورة.

طبعاً لا أدّعي أنّي نجحت بالتمام في عرض لبّ كلّ سورة ومحورها الكامل، فهذا فوق طاقتي وفوق طاقتك، لأنّ ثقافتي مهما كانت عالية فهي محدودة بحدود معلوماتي وخبراتي في الحياة، وحتماً يوجد مواضيع ومفاهيم وأفكار وشؤون وأحكام وعبر... تعرضها السور وهي فوق قدرتي على فهمها، فيفهمها آخرون بشكل أفضل مني، فالقاضي يفهم أمور القضاء أفضل منّي، والقائد يفهم شؤون القيادة أفضل منّي... وحتى الكافر الذي تخاطبه السور فهو يفهم كفره أفضل مما سأحلّله وأفترضه أنا عنه...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ{1})
{اقْرَأْ}، أيها النبي محمد(ع)، فلتدخل الكلمات إلى وعيك لتصير معلومات، لتتعلم، وتعلّم الآخرين، {بِاسْمِ رَبِّكَ}، مُمَثِّلاً المسؤول عنك من مستوى إلهي، {الَّذِي خَلَقَ}، الذي ركّب وألّف، ومن الآية التالية نرى أنّ الكلام بالخصوص عن تركيب وتأليف الإنسان.

الآية هنا وما يليها تلتف على نفسها، فربك خلق الإنسان وجعل فيه قابلية القراءة، وهذا الكلام جاءك من عنده، فعلى كلا الوجهين صارت قراءتك باسم ربك، فأنت تقرأ لأنّ ربّك خلقك بهذه القدرة، وتقرأ ما وصلك منه، والآخرون يسمعونك ليتعلموا لأنّه تعالى خلقهم بهذه القدرة، وأنت تقرأ عليهم ما وصلك من الذي خلقهم.

تصلك أيها الرسول محمّد(ع) معلومات من إلهك ومطلوب منك قراءتها لنفسك وأيضاً توصيلها للآخرين عبر قراءتها عليهم، والذي خلقكم وأنزل هذا القرآن جعل فيكم قابلية فهم كلامه، وعندما تقرأ عليهم هذا القرآن، فأنت ممثل له تعالى بهذا الكلام ومستند له.

كما نقول عن أحدهم أنّه ممثّل الجامعة لشؤون الطلاب، وذاك ممثّل رئاسة الحكومة لشؤون المياه... فإذا تحدّثوا قالوا: باسم الجامعة أعلن لكم ما يلي... باسم رئاسة الحكومة أعلن ما يلي... باسم الملك نعلن التالي... وهنا نفس المعنى مع الفارق الهائل لقيمة نقل الكلام الإلهي للناس.

(خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ{2})
{خَلَقَ}، ركّب وألّف الله سبحانه، {الْإِنسَانَ}، الغالب الأعم من الجنس البشري، {مِنْ عَلَقٍ}، المفرد "علقة" وهي ثاني مرحلة من خلق الإنسان من بعد دخول الحُيَيْمِن إلى البويضة حيث يصير بعدها كنقطة الدم الجامد وتكون عالقة في جدار رحم الأم فهي علقة.

القدرة على القراءة "ممنوحة" للإنسان من ضمن تصميمه وخلقه وليست من "صفاته الذاتية"، فالذي لم يكن شيئاً بتاتاً، ثم كان علقة حيث بدأ يأخذ صفات الإنسان، ونما وصارت فيه الصفات والقدرات ومن ضمنها القراءة، فهذا في مقابل الإله الذي وحده لديه صفات ذاتية منفصلة عن أي شيء آخر، فالإله وحده لم يحصل على قدراته من أي أحد لأنّه ليس مخلوقاً، فطبيعة الإله عزّ وجلّ مختلفة تماماً عن طبيعة مخلوقاته، فهم تجري عليهم أوصاف خلقهم وحصولهم على الصفات والقدرات منه تعالى.

ضع في بالك دائماً أنّ القرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموماً ذكراً وأنثى، وأنّهم يتناسلون... أو متعلق بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ{3})
{اقْرَأْ}، هذا القرآن، وعملياً هو التعلّم من القرآن لفهم المعلومات التي فيه، {وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ}، والمسؤول عنك من مستوى إلهي ذو المكانة العالية الموقّرة.

من موقعه العالي سبحانه "الكريم" خلقك بصفات "كريمة"، فانعكست صفته الكريم فيك فصرت كريماً، فصار لك قيمة ومكانة، وبناء عليه صرت تقرأ، وصرت قابلاً لتلقّي معلومات لها قيمة عالية.

كلمة كريم لها معنى دارج غير معناها اللغوي الأساسي القديم، حيث درج أنّ معناها: العطاء بكثرة. ولكن معناها الأساسي هو القيمة والمكانة العالية، فيقابلها مهين وإهانة، وبهذا المعنى فقط استعملها القرآن، ومن الاشتقاق التطبيقي لذلك أحياناً الوصف بالكرم لما تعطيه بكثرة للآخرين.

(الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ{4})
ربك سبحانه، {الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ}، والقلم هو أداة للكتابة، فصارت لدينا نحن الناس القدرة على استعمال هذه الأداة بسبب خلقته تعالى لنا بهذا التصميم الذي نحن عليه، حيث كان سبحانه سلفاً يعلم بما سنفعله بقابلياتنا ويعلم سلفاً بأننا سنصل إلى مرحلة نستخدم فيها القلم.

كلمة قلم أصلها من التقليم لأغصان الأشجار بقصّها، والقلم اسم وصفي لعموم العصا الخشبية القصيرة الرفيعة، وبعدها صار اسماً وصفياً لما نكتب به، قديماً كانوا يقلّمون ويقصّون الأغصان أو القصب برأس مائل مسنّنٍ قليلاً ليكون رأساً للكتابة من بعد تغطيسه بالحبر... ويبقى الوصف عمومياً لكل ما يمكن الكتابة به حتى لو لم يكن شكله أو مادة تكوينه معلومةً لنا، إذ الملائكة يكتبون ولكن بأداةٍ لا نعلم شكلها ولا مادة تكوينها وهي على الوصفية قلم للكتابة.

الكلام إلى هنا يشير إلى الكرامة، إلى القيمة العالية للإنسان بسبب القراءة والتعلّم وصولاً إلى استخدام أداةٍ متطوّرة جداً وهي القلم.

لست أبالغ حين أصف القلم بالأداة المتطورة جداً كرمز لكرامتنا، لقيمتنا العالية، إذ إنّ السورة تشير لذلك، وها التاريخ أمامك، فأين القيمة في مروره؟ في حروبه أم في حضارته؟ في عنفه أم علمه؟ في سيفه أم قلمه؟

هو ذات نفسه دينه تعالى علم، تعاليم عن العقيدة والشريعة والسلوكيات، وبنظرة بسيطة ترى القلم يختصر الفرق الهائل لنا عن بقية أنواع الحيوانات، فلو سحبته منّا كمُمَثِّلٍ للعلوم، فما الفرق بيننا وبين بقية الحيوانات؟ خصوصاً إذا نظرت للقلم كممثّل للمعلومات التي فيها خير، نَاقِلاً له من جيل لآخر، ونَاقِلاً له من الإله سبحانه إلى عبيده، فمن البديهي أن الكلام هنا عن القلم لا يشير لاستعمالاته السيّئة الشريرة، بل للخير الذي فيه، إذ إنّ الكلام عن الإله الكريم الذي علّم، ومن بعد هذه المقدمة ستتكلّم السورة مباشرة عن الفاقدين لمعنى الإنسان الكريم، وهم أسوأ من الحيوان...

كما ترى فالسورة توجّه كلامها للنموذج محمّد النبي(ع)، الذي لم يكن يقرأ ولا يكتب بيده، ولكنه إنسان، ولديه القدرة على القراءة والكتابة ولكنه لم يفعّل هذه القدرة باستعمال القلم، ولكن لكونه إنساناً، فالكلام معه عن إنسانيته التي فيها قابلية القراءة والكتابة، فمن الفروق الأساسية بيننا وبين بقية الحيوانات أننا نكتب ونقرأ، وليس حصرياً بالقلم، فننقل المعلومات من جيل لآخر، ونراكم المعلومات ويجري تعديلها وتنقيحها... عبر توارثها بالكتب، والآيات هنا تلفت انتباهنا إلى أنّه تعالى جعل فينا قابلية الكتابة والقراءة بالقلم كأداة أساسية لتوريث العلوم ومُتَطَوِّرَةً عن نقلها من الفم إلى الأذن.

تلاحظ أنّ القرآن يعبّر عن نقل النبي محمّد(ع) الوحي الإلهي لنا بأنه قراءة، تلاوة، قول، كلام... على أساس أن القرآن كلام منقول من الكتاب الأساسي الرئيسي، وجرى تحويل قسم من ذلك الكتاب إلى اللغة العربية، وجرى تنزيله على وعي النبي محمّد(ع) وتثبّتت المعلومات في ذاكرته (ع) ومنها صار يقرأ لنفسه ولنا، ومنها كمستند صار يتلوها علينا...

هنا نتذكّر مفهوماً قرآنياً حيث يرانا سبحانه نفعّل القابليات التي فينا وينسبها لنفسه، فنحن لم نفاجئه تعالى بصنعنا للسفن والسيارات والقطارات والطائرات... بل من أوّل ما قرّر وصمّم وبدأ سبحانه خلق ما في الدنيا، وضع فينا القابليات التي يعلم أين سنصل بها، بل ويعلم متى ستتفعّل وكيف وأين... واستعمالنا للقلم لتثبيت المعلومات لم يكن مفاجأةً له تعالى، بل سلفاً كان قراره تعالى حين صمّمنا "التعبير القرآني: سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" أن نصل إلى مرحلة نلتفت فيها إلى ابتكار القلم... ومثله الكلام القرآني عن صنعنا للفلك "السفن"، ومثله ركوبنا للخيل، واحترافنا الزراعة... فهذه نماذج من عصر نزول هذا القرآن، وما في عصرنا من صنع للطائرات والهواتف والآلات الطبية... وما سيأتي من آلات وأدوات نبتكرها، فكلها من القابليات التي جعلها تعالى فينا، والتي يعلم سبحانه سلفاً بما سينتج عنها.

بقي شيء، فأميّة النبي محمّد(ع) على معنى أنه لم يتعلم القراءة والكتابة، فهذه حالة مشهورة، وحين تقرأ هنا مدحاً لإنسانيتنا بالقلم ترى مفارقة لا تفسير لها إلّا أنّ إلهاً أنزل هذا القرآن ولا دخل لمحمد بن عبد الله به ولو بحرف، فلو كان له تدخّل أو حتى رأي، لما مدح القراءة والكتابة التي لا يجيدها.

الكلام يجرّ الكلام فمن أكثر من ستة آلاف آية قرآنية تجد نوادر آيات ذكرت أموراً من حياته الشخصية (ع) ولتكون نموذجاً لنا، والبقية الساحقة من القرآن يستحيل أن ترى فيه شيئاً شخصياً للنبي محمّد(ع)، فذكر النبي موسى(ع) بالاسم هو الأكثر انتشاراً، وبعده كثرة الحديث عن النبي إبراهيم(ع)، وحتى السورة المسمّاة "محمّد" قديماً بين الأجيال الأولى للمسلمين كان اسمها سورة القتال، ولا تجد ذكراً لحبيبه ابن عمّه ولا لأحد من صحابته... والمرأة الوحيدة التي ذكر القرآن اسمها هي الصديقة مريم(ع)، فلا تجد ذكراً لابنته الوحيدة ولا لزوجة من زوجاته(ع)...

فقدان الشخصانية المحمدية من القرآن هو جانب من أمور عديدة تريك أن هذا القرآن إلهي المصدر، وأي آية يخطر ببالك أنها شيء شخصي للنبي محمّد(ع) فراجع دراستها لترى أنها إمّا واقع حال مثل مسألة المودة في القربى، أو مسألة كونه (ع) قائداً، أو كلام عن زوجاته لأنه شخصية رئيسية فيكون مع زوجاته نموذجاً للبقية كما في حالة ما ورد في الآية 32 من سورة الأحزاب "يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا".

(عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ{5})

{عَلَّمَ}، ربك سبحانه، {الْإِنسَانَ}، {مَا لَمْ يَعْلَمْ}، فقارنها معه تعالى الذي يعلم كلّ شيء، وقارنها مع الإنسان حين يكون جنيناً فطفلاً فيافعاً... يتعلم، فتزداد معلوماته، وأعلى نوعية معلومات سيحصل عليها الإنسان فستكون من تراكم معلومات بقية الناس التي انتقلت إليه عبر الكتب، وبالخصوص فهنا الكلام عن المعلومات التي وصلتنا منه سبحانه فهي الأهمّ.

لاحظ أنّ الآيات هنا يمكن فهمها تتحدّث عن عموم المعلومات، سواء التي نحصل عليها من بعضنا من كتبنا أو التي نحصل عليها منه تعالى، ولكن التركيز في السورة على المعلومات التي نحصل عليها ويكون مصدرها منه تعالى، فالمعلومات التي بيننا فهي مفيدة وتسبّب تطورنا وتطور وسائل حياتنا، وتسبب راحتنا ورفاهيتنا... ولكنها لن تكون أبداً بأهمية المعلومات التي وصلتنا منه تعالى لتقويم العقيدة والشريعة والسلوكيات.

الآن نسترجع ما ورد مراراً في دراستنا هنا عن تصوّرك أنت لنفسك تصمّم كائنات وتصمّم بيئة لتلك الكائنات، فإذا أردت جعلها كائنات خلّاقة تستكشف وتخترع فيجب عليك تزويدها بالقدرات التي ستجعلها هكذا، فهي لن تحصل على القدرات من لا شيء، ولن تصير تلك القدرات فيها فجأةً إن لم تصمّمها أنت وتجعل فيها تلك المواصفات، فلو صمّمت كائنات تتحرّك وتنمو بالأكل والشرب، ولم تجعل فيها الوعي والفكر والخيال... فلن تتطوّر تلك الكائنات لتصير تكتب وتقرأ وتخترع وتكتشف... وهكذا تفهم أنه تعالى من الأساس صمّمنا "التعبير القرآني: سوّانا، قدّر لنا، صوّرنا" ووضع فينا قابلية التعلّم والكتابة والقراءة و... ومن المستحيل أن يحصل معنا شيء لم يكن "بحسبانه" تعالى عندما صمّمنا، والتعبير الأدق أنّ كل شيء كان يعلمه تعالى، فنحن لن نفاجئه تعالى ونخترع الكتابة والقراءة، فهذا مستحيل، فلا هذه ولا غيرها من أي شيء يمكن أن يحصل معنا، ويكون من لا شيء أو يكون بدون علم من الذي صمّمنا.

أنت بقدراتك المحدودة قد تتفاجأ بشيء لم تتوقّعه من شيء صنعته، أمّا الإله سبحانه وتعالى بقدراته الفائقة لا يخمّن ولا يحتمل بل يعلم بالتفصيل كل ما سيحصل مع مخلوقاته.

الخلاصة من الآيات هنا أننا مخلوقون مع القدرة على التعلّم، ومع القدرة على الكتابة والقراءة "وهما ناتجان من قدرتنا على التعلّم"، ومسببان لمزيد من الحصول على العلم الخير الذي له قيمة، وهذا القرآن "هذا الشيء القابل للقراءة" فيه معلومات يريدنا تعالى أن نتعلّمها، وبنظره تعالى فهذا القرآن أهمّ معلومات معروضة علينا لنتعلّمها، واقتناعك بأهميتها أكثر من أهمية الطب والصيدلة والهندسة... فهو متعلّق بأهمية القيمة الإنسانية عندك، والتي لرقيّها بالإيمان بالحقّ وفعل الخير تحتاج لتقويم إلهي... ومتعلق بقناعتك بما يقوله تعالى عن الآخرة، فلو قايست حياتك التي معدّلها قرابة السبعين سنة، مع الآخرة الخالدة بلا نهاية، لاقتنعت أنا وأنت بأن أسوأ ما يمكن أن يحصل معنا في الدنيا فلن نجعله يهزّ أملنا بجنّة الآخرة، وأن أحسن ما في الدنيا من صحّة ومال ومركز وسلطة وشهوات... لن يكون بمستوى الخلود في الجنّة التي وصفها القرآن.

ليكن ما تقرؤه من وحي نزل منه تعالى على نبيّه(ع)، فليكن أهمّ معلومات تحصل عليها، وهذا ما تريدك مقدمة السورة أن تلتفت له، وهذا الكلام ليس معناه ترك كل بقية العلوم لتتعلّم القرآن لأنه الأهمّ، لا، وألف لا، بل فليكن تعلّم القرآن الأهم، وتعلم بقية العلوم تبقى على أهميتها، إذ أصلاً لولاها لما استطعنا تعلّم القرآن، فتعلم اللغة مهم، وتعلّم الزراعة بنفس الأهمية، فلولاه لما بقيت حيّاً لأتعلّم القرآن... فلا تنجرّ وراء المبالغة في الكلام عن أهمية تعلّم العلوم الدينية، فالأهمية العالية لتعلّم الجميع للقرآن بالإضافة لتعلم بقية الاختصاصات العلمية والثقافية... فمن ناحية العلم فكلّهم بنفس القيمة، وأمّا الأهمية فتحدّد بحسب الحاجة، ففي المجاعة تصير الزراعة أهم من الطبّ والعمارة...

(كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى{6})
كلاّ، نفي لما سبق، فبدل اعتماد العلم والقلم كأداة لتناقل المعلومات التي فيها خير للإنسان، ليكون انعكاساً للربّ الكريم ليصير الإنسان كريماً، نرى الغالب الأعم من الناس، ليطغى، فيتعدّون حدودهم وما هو مسموح لهم، وسياق الكلام عن الضدّ للكرامة فهم يفعلون الشرّ والسوء.

سبحانه جعل فينا قابلية تمييز الخير من الشرّ، وأوصل لنا كلامه الذي كلّه خير ليهدينا للخير، ولكن الغالب الأعم من الناس يتجهون بالاتجاه الآخر، وعملياً فهم لديهم مصدر إلهي ليتعلموا الخير منه ولكن بعضهم يكفرون به كلياً وآخرون جزئياً...

(أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى{7})
{أَن رَّآهُ}، فحين حصلت عند الإنسان صورة محدّدة لشيء ما، وهنا رؤيته للكلام الإلهي، {اسْتَغْنَى}، فلم يشعر بالحاجة للكلام الإلهي، فرأى أنه بالغنى عنه ولا يفيده ولا يسدّ حاجاته ولا يهمّه...

هو يفكّر ويفهم ويحلّل ويقدّر... فهو مكتف بما عنده ولا يرى نفسه بحاجة لاتباع الكلام الإلهي، فيخترع العقائد والتشريعات والأدبيات التي تناسب مصالحه وهواه ومشتهياته، فهو بالغنى عن أخذ التوجيهات من الكلام الإلهي.

ما سبق من كلام السورة ومدمجا مع عموم مفاهيم القرآن، نرى أن وعده تعالى لنا بمحاسبتنا ومجازاتنا في الآخرة على ما فعلناه في الدنيا، فهو مبني على خلقه تعالى لنا مع القدرة على تمييز الخير من الشرّ، ومع حرية الاختيار بينهما، وإلا فلا معنى لدينه تعالى، ونتج عن خلقه تعالى بهذه الخصائص أننا كمجتمعات لا نناقش في ضرورة وجود تشريعات مبنية على عقيدة ما... وهكذا نفهم آيتنا هنا بكلامها عن الذي استغنى عن العقيدة الإلهية، واستغنى عمّا ينتج عنها من شريعة إلهية حقّة صالحة، فهو رآها واستغنى مكتفياً بما لديه من دين، من عقيدة وشريعة.

المشاكل القديمة الجديدة المشوّهة للخير المحض الذي في كلامه تعالى بسبب تلاعب العديد من علماء الدين بدينه تعالى، فسنضعه جانباً، فسبحانه يعتبر هذا القرآن مصدراً جديداً نقياً للتعرّف على الدين الحقّ، وهكذا سترى ما تقوله سورتنا هذه بشكل أوضح حين تقول "اقرأ"، فهي تشير لهذا القرآن متجاهلة ما سبق من كتب إلهية لأنها تحرّفت، ومتجاهلة كتب علماء الدين المنتمين لدينه تعالى التي يعتبرها المتدينون مرجعاً أساسياً لهم، بينما هي بغالبيتها إسقاطات لهوى أولئك الرجال على الدين الإلهي.

لم نسلم نحن المنتسبون لهذا القرآن من هذه المشكلة، فها هي التفاسير أمامك، تعرض دينه تعالى من وجهات نظر مختلفة، وترى فيها بوضوح التفاسير المذهبية والطائفية، والتفاسير المناسبة لسلطان الزمان، سواء أكان السلطان شخصاً أو حالة أو رغبة في الشهرة... وترى في التفاسير بوضوح مخالفة للنصّ القرآني الصريح الذي أمامهم... وها هي كتب العقيدة أمامك، باختلافها على أساس أنه لكل جماعة عقيدة إسلامية مختلفة عن الأخرى! وها هي كتب التشريعات "الفتاوى" أمامك، كل حزب بما لديهم فرحون!

كثيراً ما نستسخف كلام الأكاديميين من باحثين وحاملين لشهادات الدكتوراة حين يبحثون في موضوع ما ويستشهدون بآية قرآنية ما، فنستسخف استنتاجاتهم على أساس أنهم بعيدون كل البعد عن فهم القرآن الذي له تراثه الضخم من الروايات التي لم يأخذوها بعين الاعتبار، وعلى أساس أن لهذا القرآن ظاهرا وباطنا، والظاهر لن يوصل لنتيجة صحيحة، والباطن مشروح مبيّن فقط وفقط في تراث كتب التفاسير...

لست هنا بصدد محاكمة ما استنتجوه من القرآن في تلك الكتب التي كتّابها ليسوا من خريجي المدارس الدينية، بل وبعض كتّابها علناً يقولون أنهم يتعاملون مع الموضوع من ناحية علمية وليسوا أصلاً من المؤمنين بقداسة القرآن، ولكن رفض علماء الدين لتلك الدراسات كان على أي أساس؟ سأقول لك بصراحة، فهؤلاء عصابة وأولئك عصابة، وكلاهما يتهمان بعضهم البعض بالجهل وفقدان الأهلية العلمية للبحث في المواضيع الفلسفية العقائدية والتشريعية القانونية.

لن أطيل عليك بأكثر من ذلك، فهذا كافٍ لترى أن ما يفعلونه كلهم بغالبيتهم الساحقة، فهو مدمّر لمعنى تمييزنا الخير من الشرّ، فلا واحد منهم يصرّح بأنه يقصد الشرّ وترويج السوء، فكلّهم يدّعون أنهم يعرضون ما فيه الخير والسعادة... وكلّهم يدّعون أن الحقّ معهم! الآن حلّها وأشر بأصبعك على الحقّ! فكيف نقول بأننا نميّز بين الخير والشرّ بينما المعروض علينا أمورٌ متفارقةٌ، وكل واحد يقول إنّ بضاعته هي الخير!

هذا هو معنى آيتنا هنا، أن رآه استغنى، فالكافر صريح علناً برفضه اعتماد الكلام الإلهي القرآني كمصدر يتقيّد به للعقيدة والتشريع والسلوكيات، فهذا إن درس القرآن ليستفيد منه فسيتعامل معه ككتاب من تأليف محمّد(ع) أو ككتاب من تراث العرب، وهو مستغنٍ عنه علناً وعلى مزاجه في الأخذ منه...

لكن المدّعين الانتماء للقرآن، فما معنى تخالفهم في العقيدة والشريعة والسلوكيات... ولست أتحدّث عن المساحة التي تركها تعالى كمجال مرن في التشريعات والسلوكيات، فهم عموماً لا يؤمنون بهذه المرونة، ويفتون بجفاف وصلابة، وكثيراً ما يصطدمون بالواقع فيضطروا لتغيير فتاويهم... بل أتحدّث عن الصلابة في كلامهم التي تعني أنهم متغايرون ومختلفون عن الآخرين، لدرجة أن العديد منهم ينفون صفة الإسلام من أصله عن الآخرين المخالفين لهم في المذهب؟!

نعيد ونطرح السؤال، فإن كان هذا القرآن يعرض علينا نفسه ككتاب ليس فيه إلّا الأمر بالصلاح والنهي عن الفساد، ومعتمدا على قدرتنا على تمييز الخير لنتبعه، وتمييز الفاسد لنتركه، فكيف وصل بنا الحال إلى هذا الاختلاف المجنون بيننا بمذاهب وطوائف متناحرة تكفّر كل واحدة منها الأخرى بل وتلعن أختها!

إن قفز إلى ذهنك أن جماعتك فقط على حقّ، والآخرون منحرفون عنه، فإنما تقول ذلك عن عصبية، وعن ضبابية ترمي بها الكلام متجاهلا فضائح جماعتك ومتعاميا عنها بل ومقتنعا بها على عماها، وأقول هذا عن كل الطوائف والمذاهب، ولا أقوله بضبابية فقد قرأت أمّهات كتبهم، ومشاحناتهم، ومطارحاتهم... إلا اللهم القليل النادر جداً جداً جداً من علماء الدين الذين فعلا تلمس فيهم حبّ معرفة الحقّ، وأولئك النادرون سقط الكثيرون منهم في أوحال الموروث المذهبي والطائفي ولم يستطيعوا الخروج منه...

إلا القليل وليس النادر من عامّة المسلمين، فالكثيرون منهم قلوبهم أطهر من الكثير من علماء دين مذاهبهم وطوائفهم، بل وأطهر من أقدس قدّيسي علماء مذاهبهم وطوائفهم، فتسمع من الكثير من عوام المسلمين رفضاً للتفرقة بين المسلمين، ورفضاً للفتاوى الشاذّة، ورفضاً للتفاسير بالباطن التي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان...

حالة أن رآه استغنى، ليست حالة مسرحية نشاهد فيه الآخرين ولا علاقة لنا بالموضوع، بل نحن حالياً الموضوع، فنحن بما نفعله من مخالفات لكلامه تعالى فقد استغنينا عن قرآنه. فلنرمِ كل الموروث، ولنعد حصرا إلى كلامه تعالى، ومنه ننطلق لتقويم تراثنا الديني كلّه من أوّله لآخره، وإلّا فلن تتفعّل بطريقة مستقيمة قدرتنا على تمييز الخير من الشرّ، وسنراهما من خلفية حاكمة تحدّدهما سلفاً ولا تدعنا نراهما على حقيقتهما.

(إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى{8})
{إِنَّ إِلَى رَبِّكَ}، إلى المسؤول عنك من مستوى إلهي، {الرُّجْعَى}، فكلكم ستموتون، وستكون الرجعى، الرجعة، رجعتكم، إلى الله تعالى، فالطغيان عن حدودنا والاستغناء عن كلامه تعالى فسيكون له عاقبة، فسنموت ونرجع إليه تعالى في الآخرة، وتعلم أنه تعالى سيحاسبنا ويجازينا على تعدّينا لحدودنا واستغنائنا عن كلامه سبحانه.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى{9})
{أَرَأَيْتَ}، فنسألك عن الصورة المحدّدة التي حصلت عندك، وهي صورة، {الَّذِي يَنْهَى}، الشخص الذي يقوم بمنع شخص آخر من فعل شيء ما نهائياً.

(عَبْداً إِذَا صَلَّى{10})
ينهى يمنع، {عَبْداً}، من الذين مفروض منهم الطاعة، والكلام هنا عن الذين مفروض منهم طاعته تعالى، فينهاه، {إِذَا صَلَّى}؟ إذا توجّه، وتعلم أن الكلام عمّن توجّه بالذكر "بالعبادة" له تعالى، وقام أحد ما بنهيه عن ذكره "عبادة" الله تعالى، فلا يريده نهائيا أن يصلي له تعالى.

كما نقول نحن بالعامية: شفت إذا شخص منع شخص آخر عن الصلاة لربّه الحقيقي؟

قبل أن نكمل بدراسة الآية فأحب لفت انتباهك لمشكلة استعمال العبارات بشكلها الدارج، فكلمة عبادة في أصل اللغة تختلف بمعناها عن الدارج بين الناس، فالصلاة لغويا وصفها عبادة لأنك تطيعه تعالى حيث أمرك بالصلاة. ولكن المعاني الدارجة بين الناس تقصد أنك بفعلك للصلاة تعبده على معنى تذكره وتعبّر له عن احترامك وتقديرك وخضوعك، وهذا لغويا ليس من معاني كلمة عبادة.

كما ترى فقد دخلت السورة من هنا في الكلام عن نموذجين، أحدهما اتّبع الكلام الإلهي فتوجّه نحوه تعالى بالذكر "بالعبادة"، فاختارت السورة الصلاة كأعلى نموذج تطبيقي للإيمان بالكلام الإلهي، وفي مقابل ذلك النموذج للكفر بالكلام الإلهي المانع للآخرين من الصلاة له تعالى.

كلا النموذجين هما الحدّ الأقصى، فربما يعجبنا الكلام الإلهي ونحترمه ولكن لا نلتزم به، أمّا اذا التزمنا به فأبرز عمل يدلّ على إيماننا به فهو الصلاة، هو التوجّه نحوه تعالى بالذكر، وفي المقابل يمكن أن لا يعجبنا ولا نلتزم به، ولكن السورة اختارت أسوء نموذج، فاختارت الحديث عمّن لم يؤمن ومنع الآخرين من التعبير عن إيمانهم.

الخير كل الخير في الصلاة لربّك كتعبير عن إيمانك به، وبالتالي تعبير عن التزامك بدينه الحقّ الخير الصالح.... فما معنى منع أحد ما من الصلاة؟! معناه رفض ما يؤمن به ورفض ما يلتزم به وله علاقة بالله تعالى.

من المشهور في عموم التاريخ القديم والحديث قيام بعض الناس بمنع غيرهم من الالتزام بالدين الإلهي، ولدينا تراث إسلامي ضخم مشحون بأحداث حصلت في عهد النبي محمّد(ع) عن أعمال إجرامية قام بها المشركون لمنع المؤمنين من التعبير عن التزامهم الديني، وأشهرها حادثة ياسر وسمية والدي عمّار، وهما وكما يبدو من التاريخ أنهما أول شهيدين في الإسلام، فقد قتلهما الكفّار لمجرد أنهما أعلنا الإيمان بمحمّد كرسول... وغيرهم العديد من المؤمنين الذين تعذّبوا ليتراجعوا عن إسلامهم، حتى لدينا كلام كثير عن الأذى الذي كان يتعرّض له الرسول(ع) حينما كان يصلّي بقرب الكعبة... والسورة اكتفت بعموم الإشارة لأي حادثة يحصل فيها نهي لمؤمن عن عبادة ربّه سبحانه، فهذا النوع من الحوادث حصل معه (ع) وفي زمنه مع المؤمنين الآخرين، وحصل بعدها... ويحصل الآن... وسيحصل في المستقبل...

(أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى{11})
{أَرَأَيْتَ}، نسألك عن الصورة المحدّدة التي عندك، {إِن كَانَ} الشخص الذي يصلّى، {عَلَى الْهُدَى}، على الشيء الصحيح الذي يوصله للغاية الصحيحة.

بعبارة أبسط: شفت إذا كان الذي يصلّى معه حقٌ وعلى الحقٌ في الصلاة، ومعه حقٌ في بقية التزامه بالكلام الإلهي العقائدي والتشريعي، وهناك من ينهاه عن الصلاة وعن الالتزام ببقية ما قرأه من معلومات وصلته منه تعالى.

الأساس والمعيار في تعاملنا مع بعضنا هو الهدى، وإلا فليعلن أحدهم أنه شرير ويأمر بالسوء، فهذا ستكون المشكلة معه واضحة، ولكن المشكلة مع الذي يعلن إرادته للخير بمنع الآخرين من الصلاة له تعالى! وماذا في الصلاة له تعالى من سوء؟ فالصلاة إعلان من المصلّي لنزوله تحت أوامره تعالى، وماذا في ذلك من سوء؟ أفي أوامره تعالى أي سوء؟ أليس من الواضح أن المصلّي لله تعالى على الهدى؟

(أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى{12})
أو هذا المصلِّي، أمر بالتقوى، أمر الآخرين بتجنّب شيء ما، وهنا الكلام عموميّ لتجنّب فعل أي سوء وشرّ، وعملياً تطبيقياً فهو تجنّب غضبه وعقابه تعالى عبر أمره لهم بالالتزام بأوامره تعالى، إذ سبحانه لا يأمر إلا بالخير ولا ينهى إلا عن الشرّ، فما معنى نهي المصلّي عن الصلاة؟ والصلاة انعكاس لسلوكيات تأمر الآخرين بترك السوء.

كما ترى فالسورة تعرض نموذجين لشخصين متضادين تماماً أمام الكلام الإلهي، فواحد لم يتقيّد بالكلام الإلهي وينهى الآخرين عن التقيّد بالكلام الإلهي! والآخر تقيّد بالكلام الإلهي ويأمر الآخرين بالتقيّد به.

لا يذهب فكرك إلى شخص أو أشخاص محدّدين كانوا في عهد النبي(ع) وتتحدّث عنهم السورة، لا، بل هي تتحدّث عن عامّة أي حالة عبر التاريخ الماضي أو الحاضر أو المستقبل وهي مشابهة لحالة أو حالات حصلت في عهده(ع).

(أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى{13})
{أَرَأَيْتَ}، نسألك عن الصورة المحدّدة التي حصلت لديك، {إِن كَذَّبَ} ذلك الذي يَنْهَى الآخرين عن الصلاة وعن الهدى والتقوى، فاعتبر المعلومات التي وصلته من الإله سبحانه أنها ليست صادقة، {وَتَوَلَّى}، فتركها وذهب باتجاه آخر.

هذا إن رآه استغنى، معرضاً عن كلامه تعالى ومشرّعاً بما يراه هو مناسباً ومدّعياً أنه يقصد الخير! فأي خير سيصدر عنه وهو ينهى الآخرين عن الصلاة وعن الهدى وعن التقوى!

(أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى{14})
{أَلَمْ يَعْلَمْ}، ذلك الشخص، {بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى}! فعنده تعالى صورة محدّدة لما يفعله هذا الطاغي المستغني الناهي المكذّب بالكلام الإلهي، فكيف استسخف نفسه وخالف كلامه تعالى بينما هو تحت المراقبة الإلهية حيث قال له تعالى ذلك في هذا الكتاب!

لاحظ أنّ القرآن في العديد من الأحيان يعرض علينا نموذجاً من الأشخاص الذين يستسخفون أنفسهم، فتصلهم المعلومات منه تعالى، ولكن ورغم وضوحها ورغم مستواها العالي ورغم قوّتها في إقناع من يقرأها بأنها كلام إلهي... يستسخف نفسه وينكرها ويكذّب بها! علماً أنها تقول له إنّه تعالى يرى ويسمع كلّ شيء، ويراقبنا، وسيحاسبنا على كل ما فعلناه.

ربما تقول: هو أصلاً كذّب بالإله سبحانه، وبما يقوله هذا القرآن، وبالتالي فهو لا يصدّق بأن الإله سبحانه يراقبه، فلم يعلم بأن الله تعالى يراه. ولكن الآية تقول له: لقد علمت من آياته تعالى في خلقه ومن هذا القرآن أنه تعالى يراك وبالتالي سيحاسبك ويجازيك على ما تفعله، ألم تعلم بذلك؟ خصوصاً وأنت تعلم بأنك لست على الهدى، فأي هدى أنت عليه بعد أن كذّبت بالكلام الإلهي؟! فمن أين لك الهدى؟ من العقائد الفاسدة التي تخترعها؟ أم من الشريعة الفاسدة التي تخترعها؟ فأنت تستسخف نفسك وتنكر حتى المعلومة التي تقول بأنك تحت المراقبة الإلهية!

(كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ{15})
{كَلَّا}، نفي لما سبق، فإن الله تعالى يراه حتماً، {لَئِن لَّمْ يَنتَهِ}، فإذا لم يتوقف نهائياً بلا رجعة عن طغيانه وتكذيبه لما يقرؤه من كلام إلهي، {لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ}، فبالتأكيد سوف نشدّه بقوّة، نجرجره، من الناصية، من مكان الشعر الذي فوق الجبهة، والشعر في تلك المنطقة بعض العرب يسميه "غرة الشعر".

بتعبيرنا الحالي: سوف نجرجره من شعره. وتعلم من عموم القرآن أن هذه النوعية من الناس سيتم إهانتها وضربها وتعذيبها من أول ما تفتح أعينها في يوم القيامة، وسيتم تقييدهم بالسلاسل والأغلال وسحبهم ووجوههم تُشْحَطُ على الأرض...

لاحظ أن نموذج الذي طغى واستغنى، ونهى الآخرين عن الصلاة، هو نموذج لديه سلطة وقوّة فرضها على ولده أو على أبيه أو على جاره أو على بعض الناس في مجتمعه... فله سلطة قوّة أو مكانة أو مال أو جاه... أو يعتبر نفسه مثقفاً فهيماً متكلّماً... أو مؤلّفاً للكتب... فهذا بشكل من الأشكال وبمستويات مختلفة لديه شعور بالعظمة والتفوّق والاقتدار... ولذلك فمن التعذيب الذي سيلاقيه في يوم القيامة اختارت السورة الشدّ والجرجرة من الشعر، لتكسير التكبّر والعظمة التي شعر بها أثناء مخالفته للكلام الإلهي.

(نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ{16})

{نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ}، صاحب تلك الناصية التي سنجرجره منها هو كاذب، فليس صادقاً فيما يقوله ويفعله، فعقيدة وشريعة صاحب تلك الناصية كاذبة، فهي مخالفة لما يعرفه العقلاء من خير ولما قرأه في كلامه تعالى، {خَاطِئَةٍ}، فموصوف صاحب تلك الناصية بأنه يقوم بما هو غير صحيح، فمخالفته للكلام الإلهي خطأ وكل ما يفعله خطأ غير صحيح.

تذكّر ما قالته الآية عن الذي صلّى بناء على إيمانه بالكلام الإلهي، فهو على الهدى ويأمر بالتقوى، فبعكسه صاحب تلك الناصية، فهو كذّاب مخطئ.

نحن أمام من يدّعي فعل الخير بالصدّ عن الإيمان بدينه تعالى، فانظر لما يفعله وانظر لسلوكياته، وسنأخذ المثل نفسه الذي تشير له السورة من الجماعة التي كانت معاصرة لنزول هذا القرآن، فالمعادون كانوا من عبّاد الأصنام، فهل تحتاج لشرح طويل لترى سخافة عقلية عبادة حجرة ولترى أن العابدة للحجرة والخشبة ناصيته كاذبة وخاطئة؟ وأنت تعلم أنهم كانوا بلا ناموس، فيعتمدون تشريعات الضرورة بما يرونه مناسباً لكل ظرف، فيحرمون الضعيف من الميراث ولا أحد يقف معه ليطالب له بحقّه، وإن كان يتيماً راح بين الرجلين... ومع المساكين الضعفاء تأتي النساء عموماً بالتعامل معهن باستهتار من طفولتهن التي لا مشكلة حينها في وأدهن، إلى مبادلتهن كزوجات... إلى حرمانهن من الميراث...

نفس الكلام بنسخة جديدة عن المستغنين من عصرنا عن دينه تعالى، فقد شرّعوا الربا، ونتيجته استفادة صغيرة لمتوسطي الدخل، في مقابل امتصاص بالقطّارة لأموالهم وتكديس فاحشي الثراء لها، وبشكل يجعل الوضع المالي لمتوسطي الدخل هشّاً لا يتحمّل أي زعزعة، ويصيرون كقطيع الأغنام مجبرين على العمل مهما كان نوعه أو ظروفه أو شروطه... لتأمين دفعات أقساط بيوتهم وجامعات أولادهم...

شرّعوا المخدرات كلياً أو جزئياً بالسماح بالتعاطي وحيازة كمية قليلة للاستعمال الشخصي!... مع علمهم بضررها الجسدي والفكري والنفسي والاجتماعي... ومثله تشريع الزنا أو غض النظر عنه... وغيرها من أمثلة تشريعات الضرورة وما يرونه مناسباً لهواهم حتى لو كان سيئاً، فهؤلاء يكرهون انتشار دين حقّ على مجتمعاتهم، فيحاربونه، ويكرهون المنتمين لدين الحقّ خوفاً من تزايد أعدادهم لمرحلة يفرضون فيه دين الحقّ على الآخرين...

(فَلْيَدْعُ نَادِيَه{17})
{فَلْيَدْعُ}، فليشهر وليعلن، مستدعياً وطالباً، {نَادِيَه}، وهم مجموعة الرجال الذين يتنادى معهم، فإذا ناداهم حضروا، وكما ترى فلا زالت السورة تعرض أسوأ نموذج لمن كذّب بما قرأه من كلام إلهي، فهناك من لم يؤمن بالكلام الإلهي ولكنه بحاله لا ينهى الآخرين عن إيمانهم، وهناك أسوأ منه بكثير، فهناك صاحب السلطة والجاه والنفوذ "ومؤلّف الكتب والمقالات والمحاضر في الناس..."، وهؤلاء لديهم جمهور يؤيّدهم ويدعمهم، فأسوأ وضع يتعرض له المؤمن حين يكون في بيئة غير مؤمنة، وسيكون في تلك البيئة جماعات ضد المؤمن وتمنعه من ممارسة تديّنه، وتعرض الآية هنا حالة نهيهم للمؤمن عن الالتزام بدينه بالقوّة، تحت تهديد استدعاء مجموعة لتمنع المؤمن من الصلاة، ومن إعلان إيمانه على الآخرين.

(سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ{18})
سيعلن سبحانه ويشهر، وسياق الكلام عن طلب حضور، فَسَيَسْتَدْعِي تعالى، {الزَّبَانِيَةَ}، وهذا وصف للذين يدفعون الآخرين بعنف وقوة، ومن عموم القرآن تعلم أنه تعالى وظّف الملائكة(ع) بتعذيب الكفّار في الآخرة، فيكون الوصف بالزبانية للملائكة(ع) حيث يعاملون الكفّار بغلاظة الدفع والضرب والجرجرة من الناصية...

جاء في سور أخرى من القرآن بأن تلك الملائكة(ع) غلاظ شداد كما في الآية 6 من سورة التحريم "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" ولديهم قدرات هائلة جداً، ولا يمكن لأي أحد من المخلوقات أن يغلبهم، فلو تعاون كل الكفّار، ولو كانوا بالمليارات، فإن ملاكاً واحداً من الملائكة العالية قادر بكل سهولة على السيطرة عليهم كلّهم، وقد لفت القرآن انتباهنا مراراً للقدرات العالية للجنّ بالنسبة لقدراتنا نحن البشر، ورغم ذلك فقدرات الجنّ لا شيء أمام قدرات الملائكة(ع) التي تمنعهم بسهولة من الاقتراب من السماء العالية عبر رجمهم بالشهب... وهذا ما فهمناه من مقدمة سورة الصافات فراجعها لمزيد من التفاصيل.

نرجع للسورة هنا، فليأخذ علماً من يقرأ هذه المعلومات وهو معتزّ بجماعته الذين يؤيدونه ضد المؤمنين، فليعلم أنه سيلاقي زبانية من أعلى العيار، وبقدرات فوق الخيال لتعذيبه...

(كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ{19})
{كَلَّا}، مهما حصل معك أيها النموذج محمّد النبي(ع) "وأيها المؤمن" من مضايقات، {لَا تُطِعْهُ}، لا تنفّذ ما يقوله لك المكذّب للكلام الإلهي، {وَاسْجُدْ}، فقم بأعلى أنواع التعبير عن احترامك وخضوعك لربّك سبحانه، {وَاقْتَرِبْ}، فلا تبتعد عنه سبحانه تحت التهديد بل اقترب منه تعالى.

لاحظ أن الصلاة لو كانت بلا حركات، فلو بالإمكان تأديتها وأنت واقف فقط، أو جالس، أو نائم، لما كان الآخرون سيلاحظون بسهولة أنك تصلّي، ولكن في الصلاة تعابيرَ جسديةً لأعلى حالات التعبير بالخضوع له تعالى، وهو السجود، وهو وضع الجبهة على الأرض، وهذا تعبير لا يمكن إخفاء معناه عن الآخرين، فحتماً إن كنت ساجداً فأنت تصلّي، ولذلك اختارت الآية هنا الإشارة إلى أقصى تعابير الخضوع من الصلاة، فاسجد، فعبّر بشكل قوي واضح أنك لن تتراجع عن إيمانك، واقترب من إلهك سبحانه.

بقي شيء، فالحالة هنا حالة نهي عن الصلاة، وليست حالة قتل للمصلّي، ولذلك تجد الآية تأمره(ع) بالاستمرار بأداء الصلاة علناً، وإلا ففي حالة التعرّض للأذية الشديدة أو القتل، فهذا موضوع آخر له تفاصيل مختلفة بحسب اختلاف الظروف، وصولاً للهجرة من المجتمع المؤذي...

بقي شيء إذ بعضهم يقولون بوجوب السجود بوضع الجبهة على الأرض عند تلاوة هذه الآية، وآخرون يقولون بأنه مستحب فعله، وسورتنا هذه هي واحدة من أربع سور درجت تسميتها بـ "عزائم"، وهي: سورة العلق، سورة النجم، تنزيل السجدة وتسمى الآن السجدة، وحم السجدة وتسمى الآن فصلت. وهذه السور فيها آيات تستوجب السجود عند قراءتها كما هو مشهور بين عموم المسلمين، وفي كل المصاحف المطبوعة حالياً تجد علامات قرب هذه الآيات تقول: سجدة. وستجد كلمة سجدة واجبة، أو كلمة سجدة فقط أمام آيات أخرى من سور عديدة، والسور الأربع المشهورة باسم سور العزائم قد حكم الغالبية من علماء المسلمين بأنه لا يجوز قراءتها في الصلاة، فإن صدق استنادهم في فتواهم إلى كلام صحيح عن الرسول(ع) فبها ونعمت، وإلا فلا شيء في القرآن يشير إلى فتواهم، ولا إلى وجوب السجود عند قراءة هذه الآيات، وبمراجعة ما وردنا من تراث الجيل الأول من المسلمين لا تلحظ حوادث سجودهم وجوباً عند تلاوتهم لآية ما!

سورة القدر (97) ص 598
تخبرنا بأهمّية أول ليلة نزل فيها القرآن، وسيكون لتلك الليلة أهمية عندك بمقدار ما ترى أهمية الكلام الإلهي النازل ابتداء منها، إذ سبحانه يرى الأهمية الفائقة لكلامه لنا على أساس أنها تعليماته سبحانه لعبيده الذين خلقهم، وهي التعليمات الوحيدة الصحيحة التي يحتاجها عبيده سبحانه ليكونوا على الهدى.

قارنها مع المناسبات والأعياد التي لتاريخها أهمية لدرجة الاحتفال بها سنوياً، كالعيد الوطني للاستقلال مثلاً، أو مناسبة ولادة شخصية علمية أو وطنية أو دينية... أو تاريخ نظرية علمية أو اكتشاف طبّي... الآن قارن ذلك مع بداية نزول كلامه تعالى، وهذا ما تريدك السورة أن تعيش أهميته.

للأسف انحرف مفهوم السورة عن أساسه ليصير مادّة لخرافات تحقيق الأماني الدنيوية في ليلة عجائبية سحرية... بينما هي ليلة لها قيمة عالية جداً، ومرورها كل سنة هو كالعيد إحياء لذكرى بداية نزول القرآن، والمؤمنون ستعني لهم هذه الليلة كثيراً.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ{1})

{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ}، إذ هناك شيء نقله سبحانه من الأعلى إلى تحت، ومن عموم كلام القرآن الذي عبّر بنزول شيء من عنده تعالى لهداية الناس وبدون تحديد ما نزل، فإننا نفهم منه كلامه بنزوله عن نفسه، لذا تفهم من آيتنا هنا قصدها التعبير عن نزول القرآن، إذ أنزله تعالى من الكتاب الرئيسي الذي في السماء العالية "ربما السابعة" إلى الأرض على وعي النبي محمّد(ع)، {فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ}، في فترة العتمة من اليوم، ووصف تلك الليلة المحدّدة التي حصل فيها النزول بأنها ليلة القدر، الليلة التي جرى فيها تقدير شيء ما، ومن عموم القرآن تفهم أنه تعالى اختار المعلومات التي ستتنزل قرآناً على رسوله(ع)، وبالتالي تفهم أن التقدير هنا يشير لما قدّره لما حدّده واختاره تعالى لينزل ومتى سينزل، وهذا تقدير، هذا تحديد للكمية وللنوعية وللمحتوى... لما سينزل، وتحديد لمتى سينزل. تَقَدَّرَ ونزل في ليلة حمّلها سبحانه الوصف بأنها ليلة القدر، الليلة التي تُقَدَّرُ فيها بداية نزول القرآن بمعلومات محدّدة. في الآية التالية سنتوسّع قليلاً في كلمة قدر.

هناك حتماً زمن محدّد، تاريخ محدّد، في ساعة من يوم ما، بدأ فيها نزول القرآن على النبي محمّد(ع)، وجاء في الآية 185 من سورة البقرة "شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ..." وبضمّها مع آيتنا هنا نفهم أن الليلة الموصوفة بالقدر في آيتنا هنا هي واحدة من ليالي شهر رمضان.

لم ينزل القرآن كله في ليلة القدر، وهذا أمر يعرفه الجميع، لأنّ الناس حول النبي محمد(ع) كانوا إذا حصل معهم شيء، أو سألوا النبي محمّداً(ع) عن شيء فالنبي(ع) كان ينتظر نزول الوحي بالقرآن حتى يجيبهم، وعدة سور من القرآن تريك بوضوح حدوث ذلك كحادثة المرأة التي تجادل في زوجها الذي ظاهرها كما ورد في الآية الأولى من سورة المجادلة، إذ إنّ المرأة جاءت تشتكي للنبي(ع)... والنبي لا يعلم بالتشريع الإلهي لحالتها، فانتظر نزول القرآن، ونزلت سورة المجادلة وفيها الجواب التشريعي لحالة المرأة...

نعرف أن القرآن الكريم استمرّ ينزل منذ نزول أول سورة وحتى وفاة النبي، ويقدّرون ذلك بقرابة 23 سنة، وهكذا تفهم أن آيتنا هنا تشير لبداية نزول القرآن وليس لنزول كلّ القرآن دفعة واحدة في ليلة القدر، ولا تشير لمرة نزل فيها القرآن من بعد نزوله سابقاً في شهر أو سنة سابقة، لأنّ هذا الاحتمال بعيد جداً عن سياق كلام السورة.

الآن ننتبه جيداً، درج بين الناس وانتشر اعتمادهم على روايات تقول بأن أوّل بعثته (ع) إلى الناس كان في شهر رجب، ودمجوا المعلومات مع بعضها وصاروا يقولون إنّ سورة إقرأ نزلت في رجب على أساس أنها أول سورة نزلت، ودمجوا ما سبق مع فكرة أن محمّداً(ع) كان شخصاً عادياً، وفي تلك اللحظة التي نزل فيها عليه (ع) أول آيات من القرآن، في تلك اللحظة وبحسب رواياتهم، تعرّف(ع) على الدين الإلهي وصار نبياً رسولاً، وهذا الكلام ليس له أي استناد قرآني، وهو يستند فقط وفقط على الروايات، التي جاء في البعض منها أن أول بعثته(ع) كان في شهر رمضان... وهذا الكلام يتوافق من جانب واحد مع آيتنا هنا، وهو جانب بداية نزول القرآن في شهر رمضان، ولكن لا تجد في بقية القرآن ما يقول بأن محمّداً(ع) فجأة صار نبياً رسولاً، وكان قبل ذلك شخصاً عادياً، وها أمامك نموذج النبي موسى(ع) الذي نقل لنا عنه القرآن كلاماً كثيراً قبل أن يكلّمه تعالى، إذ كان مؤمناً موحّداً رافضاً للظلم... وهرب بسبب ذلك إلى مدين... وأثناء رجوعه إلى مصر حصل الكلام الإلهي معه... وها قبله (ع) النبي إبراهيم(ع) الذي جادل قومه في عقيدتهم... وكسّر الأصنام ورموه في النار، وخلال كلّ ذلك لم يذكر القرآن لنا ولا مرّة أن وحياً ما نزل على النبي إبراهيم(ع)، بل نقل لنا بشكل صريح وواضح أن إبراهيم(ع) قال ما قاله وفعل ما فعله إلى أن رموه في النار... من دون نزول أي نوع من الوحي عليه، فلماذا عندما نصل إلى النبي محمّد(ع) نفترض ونخترع أموراً نستنسبها نحن وهي مخالفة للسيرة التي نعرفها لبقية الأنبياء؟

وصفوه(ع) بأنّه لم يسجد لصنم في شبابه ولم يتعاط الخمر ولا الفواحش... علماً أنها روايات تبدو من تأليف المحبّين المغالين الذين افترضوا بل أيقنوا أن رسولهم حبيبهم يجب أن تكون سيرته هكذا، ولكن ولأنهم لم يعتمدوا على نقل الواقع الحقيقي، ولأنهم اخترعوا بطولات أخلاقية من خيالهم له (ع)، ستجد ثغرات غير منطقية فيما اخترعوه، فهم لم يقصدوا شرّاً، ولكنهم لا يحقّ لهم كتابة "سيناريو"، فهم لا يتكلمون عن شخصية وهمية بل يتكلمون عن شخصية حقيقية، وكان بالحري بهم الاكتفاء بما لديهم من معلومات عن تاريخه (ع) بدل اختراع قصص يقصدون بها إعلاء شأن رسولهم، فهو ليس بحاجة لهذه الخزعبلات والترهات ليحصل على الشأن العالي، فما فيه(ع) يكفيه ويفيض، إذ مدحه الإله سبحانه بأنه على خلق عظيم، ومدحه عملياً حين اختاره ليكون رسولاً، فالرسل ليسوا إلا من أرقى الناس بسلامة القلب...

ملخّص الكلام، إنّ آيتنا هنا وبضمّها لعموم آيات القرآن، هي تشير لكون بداية نزول القرآن على النبي محمّد(ع) كان في ليلة من ليالي شهر رمضان، وحملت تلك الليلة وصف القدر لأنها هي التي "تُقَدِّرُ" وتُحَدِّدُ فيها زمن بداية نزول القرآن وفيها تُحَدِّدُ ما سيكون أول نازل من القرآن.

درج بين الغالب من علماء المسلمين أن القرآن نزل كلّه دفعة واحدة، واختلفوا في مكان نزوله، فقال البعض إنّ القرآن نزل كلّه من السماء العالية من الكتاب الرئيسي إلى سماء تحتها "الرابعة أو الثالثة" ومن هناك صار ينزل دفعات دفعات لمدّة تقارب الثلاث والعشرين سنة على الرسول(ع)، وقال آخرون إنّ القرآن نزل كلّه على الرسول(ع) في ليلة القدر ولكن جريانه على لسانه(ع) تفرّق على الثلاث والعشرين سنة... وقال آخرون أموراً أخرى... وكلّ هذا الكلام مبني على الروايات التي فسّرت القرآن وروت التاريخ... ومبني بالأساس على ضبابية فهمهم لكلمة قرآن وكتاب، فلو تركت الروايات جانباً، لما فهمت من القرآن أبداً بتاتاً هذه المعاني التي يقولونها عن نزول القرآن دفعة واحدة.

بسبب انتشار هذه الأفكار وإلصاقها بتفسير آيات القرآن، ترسّخت تلك الأفكار بشكل ضبابي بالقرآن، ومن شدّة انتشارها وغياب مقاومتها صارت مترسّخة قرآنياً عند الذين لم يفكّروا بطريقة أخرى، وصار لكلمات القرآن عندهم معان تؤيّد ما يعتقدونه، فصار لديهم فرق بين كلمة نزل وتنزّل، على أساس أن نزل تشير لنزول كلّ القرآن دفعة واحدة، وتنزّل تشير لتفرّق نزول تلك الدفعة... ولن أطيل عليك وأكتفي بلفت انتباهك إلى أنّه من القرآن لوحده لن تفهم إلّا أنه نزل على دفعات متفرقة، والآيات التي يقولون بأنها تقصد نزول القرآن كلّه دفعة واحدة يمكنك مراجعتها في دراستنا هنا لترى أنها لا تشير لذلك، وأحيلك إلى مراجعة أول سورة الدخان كنموذج عن دراستنا هذه لهذا الموضوع ولتقارنه مع التفاسير الأخرى.

سأذكر لك الشيء الذي عادةً ما يسبّب أو يساعد على حصول ضبابية في موضوع نزول القرآن، فكلمة قرآن تعني: الشيء القابل للقراءة. فالقرآن قبل نزول آياته على الرسول(ع) كان في الكتاب الرئيسي في السماء العالية، وتحوّل بقرار إلهي قسم من المعلومات التي في ذلك الكتاب، تحوّلت إلى اللغة العربية ونزلت على وعي الرسول(ع)، وهكذا تفهم أن الكلمة الواحدة من تلك المعلومات التي تحوّلت صار وصفها قرآناً، لأنها صارت قابلة لأن نقرأها نحن البشر، وقبل تحوّلها إلى اللغة العربية لم يكن بمقدورنا قراءتها، وبناء عليه فالآية الواحدة قرآن والسورة قرآن، وحين توفي النبي محمّد(ع) وبالتالي توقّف وصول المعلومات إلينا عبره (ع)، فعندها وبعدها شاع عندنا تخصيص هذا الكتاب النازل من عنده تعالى بأنه كلّه اسمه قرآن، بينما أثناء نزوله، فكل كلمة منه لوحدها منفردة توصف بأنها قرآن، وكذلك الآية والسورة... وفهم هذا المعنى لكلمة قرآن سيبين لك أن أكثر الكلام عن نزول القرآن دفعة أو دفعات... فيه خلل بسبب اشتباه معنى كلمة قرآن على الكثيرين حيث انصرف ذهنهم من كلمة قرآن لكل الكتاب، وهكذا نتج خلل في فهمهم لـ: نزل وتنزّل. بناء على خلل في فهم كلمة قرآن معتقدين أنها آيات تشير لنزول كل القرآن.

نفس الشيء نقوله عن كلمة كتاب، فهي ليست حصرية لكل القرآن من أوله لآخره، فأي كلام تامّ الموضوع فهو كتاب، فالقرآن كلّه كتاب، والسورة كتاب، والآية أو الفقرة من الآيات إذا كان موضوعهم تامّاً كاملاً فهي كتاب. فأي آية تتحدّث عن نزول الكتاب فهي لا تشير بالضرورة لنزول كل الكتاب.

هكذا بكل وضوح ترى أن آيتنا هنا تتحدّث عن بداية نزول القرآن عليه(ع) في ليلة من ليالي شهر رمضان، وموصوفة بأنها ليلة القدر، لأنه فيها يُقَدَّرُ محتوى ما سينزل والتوقيت، لا أكثر ولا أقلّ.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ {2})
يمكنك القول: عندي معلومات عن الليلة التي تُقَدَّرُ فيها نزول القرآن، فعندي معلومات عمّا حصل فيها، ولكن لا يمكنك القول: أدري بها. لأنك لم تدر مدى أهميتها، فلم تعلم بذلك من قبل، فأنت نزل عليك فيها القرآن، ولكن هل تعلم فعلاً بضخامة أهمية وصول الكلام الإلهي لواحد من البشر لينقله للآخرين؟ وهل تعلم فعلاً بالقيمة العالية من مستوى إلهي للقرآن الذي بدأ ينزل عليك في تلك الليلة؟ وهل تعلم بالحدث الضخم من نزول ملائكة وروح بهذا القرآن مانعين تداخل الجنّ؟...

القضاء والقدر

القدر لغوياً هو عامّة تحديد القيمة أو الكمية أو المدة أو الشكل والهيئة... وفي عموم ثقافة المنتمين لدينه تعالى، من يهود ومسيحيين ومسلمين، فمن الشائع جداً بينهم الكلام عن القضاء والقدر بمعان اصطلاحية يستعملونها في وصف حالة تعامله تعالى معنا، ولوصف ما يحصل معنا من حوادث، فقالوا بشكل عامّ، إنّ القضاء هو قرار إلهي بحصول شيء ما حتماً. والقدر هو قرار إلهي غير محسوم إذ يتغيّر إذا تغيّرت الظروف. فيكون قدري الموت غداً، ولكن بسبب صدقتي اليوم على فقير تأجّل موتي، فيسمون هذا قدراً. ولو كان موتي غداً من القضاء، فسوف أموت حتماً مهما كانت الظروف ومهما فعلت. هذا بشكل مختصر جداً خلاصة ما درج كاصطلاح عن هاتين الكلمتين.

أقحم غالبية المفسرين هذا المفهوم الاصطلاحي لكلمة قدر أثناء تفسيرهم للآيات التي استعملت هذه الكلمة، ومنها سورتنا هذه، وتخطّوا المعنى العربي للكلمة وتعاملوا معها بالمعنى الاصطلاحي، فارضين عليه تعالى المعنى الذي اصطلحوه ليفسّروا كلامه تعالى على أساسها!

الآن إذ مَيَّزْتَ بين معاني الكلمات كما قالها تعالى باللغة العربية، وبين المعنى الذي اصطلحوه، فلا تخلطهما ببعض حين تقرأ كلامه تعالى، ولا مانع أبداً من الدخول في أبحاث فكرية نخترع فيها مصطلحات وكلمات بمعان محدّدة، ولكن الممنوع هو ترك المعنى اللغوي للكلمات وبدلاً منه تفسير كلامه تعالى بالمعاني التي نحن وضعنا لها اصطلاحات مختلفة عن معناها اللغوي، فالأبحاث الفكرية والعلمية التجريبية... هي المخزون الذي يجعلنا نفهم كلامه تعالى بشكل أوضح إذا وضعنا كلامه "العربي" تعالى أولاً، ونفهم المعنى الظاهر من الكلام الإلهي، ودرسنا الآيات لنستخرج منها مفاهيم، وبعدها نقارن الدراسات الفكرية مع ما يقوله تعالى...

بناءً عليه، هل ما قالوه عن القضاء والقدر يتماشى مع مفاهيم القرآن؟ نعم أساسه مقبول، ولكن يبقى التعليق على بعض التفاصيل، ونختصر ذلك ببداية فهمنا لعمق علمه تعالى بالغيب، فبالنسبة له سبحانه فمن أول ما صمّم وبدأ بخلق ما في الدنيا، عَلِمَ سبحانه بالتفصيل الدقيق بكل ما سيجري فيها ومضافاً إليه ما سيجري في الآخرة، وخلق سبحانه كتاباً سجّل فيه كل شيء يتعلق بخلق ما في الدنيا والآخرة وما سيجري فيهما، وهذا التسجيل ليس لمجرد التسجيل، بل نفهم الكتاب كشيء مرتبط بالأحداث التي ستجري... وترى ذلك في العديد من الآيات ومنها ما ورد في الآية 59 من سورة الأنعام "وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ"، وهكذا نعرف أنّ ما سيحصل معي ومعك ومعه... فكلّه معلوم سلفاً له تعالى، فأنا أخمّن وأحتمل وأتأكّد من حصول بعض الحوادث بالنظر للمعطيات التي بين يدي، والتي تشير لإمكانية أو احتمالية أو تأكيد حصول شيء ما، فأراك تسير بسرعة تجاوزت قدرتك على التوقّف قبل الاصطدام بالحائط، سلفاً أحتمل وأقدّر بنسبة عالية جداً أنّك ستصطدم بالحائط، أمّا سبحانه فيعلم يقيناً بكل ما سيحصل، فحتى لو أغمضت أنا عَيْنَيَّ محاولاً حدوث شيء معي وأنا لا أعلم نتيجته، فأسير مُعْمًى لا أدري بما سأصطدم به، فحتى في هذه الحالة فسبحانه يعلم بما سيحدث...

بالنسبة له تعالى فالأمور محسومة معلومة سلفاً، فكلّها مقضيّة على المعنى الاصطلاحي لكلمة قضاء، وأمّا بالنسبة لنا فالأمور مفتوحة على الاحتمالات، ووضعوا اصطلاحاً لهذه الحالة يسمّونها فيه: القدر. ومن هذه الزاوية يتعامل سبحانه معنا، فنحن لسنا مجبرين بلا إرادة لتنفيذ ما كتبه تعالى لنا، بل حتماً سيحصل معنا ما كتبه تعالى لنا، وبالتساهل نقول إنّه على معنى ما "توقّعه" تعالى لنا، وأنت ترى أننا تسامحنا في التعبير بقولنا إنّه تعالى "يتوقّع"، لأنه تعالى علمه يقيني... وتجد ذلك في الآية 51 من سورة التوبة "قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ"، فهذا الكلام في الآية كان عن حرية إرادتنا في المساحة التي نتحرّك نحن فيها بحرية إرادتنا، فإن أخلصنا النيّة واستعددنا جيداً للحرب ولم نفشل أو نتخاذل أو... فسيكتب تعالى لنا النصر، فالأحداث ستتغيّر فيها المجريات بحسب مساحة مساهمة خياراتنا فيها.

بالعمق بالنسبة للعلم الإلهي للغيب، فلا شيء سيتغيّر، إذ يعلم تعالى بما سيحدث...

هناك بعض الأمور التي تجري معنا ونحن لا مجالات لنا للاختيار فيها، فنقع تحت ظروف قاهرة، كالوقوع في ظروف بيئية أو صحيّة أو حيث الآخرون يتسلطون علينا... ولكن دائماً يبقى لي خيار اختيار الالتزام بكلامه تعالى، وعلى هذا أتحاسب في الآخرة.

الكلام يجرّ الكلام، فلو خيّرني مجرم لأختار بين قتل واحد من أولادي وترك الآخر حيّاً، وإذا رفضت اختيار واحد منهما فسيقتل المجرم الولدين معاً، ففي هذا المثال تحدّدت مساحة خياراتي لتصير خارج ما أريده "أرغب"، وبهذا المثال تدخل المشاعر على الخطّ لتصير الأمور صعبة على استيعابنا، مع أنها حساباً سهلة، فهذه حالة فرض الآخر إرادته عليّ، وهي حالة عادية تحصل معنا في غالبية أمور حياتنا، ونحن نفعلها مع الآخرين بأشكال مختلفة "غير الإجرام"، فهذا هو بلاؤنا بامتحاننا بما سنفعله بأنفسنا ومع بعضنا بالخيارات المتاحة لنا من خير أو شرّ، وكمثال على ذلك ما تقوله الآية 2 من سورة الملك "الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ"، وعلى نفس المعنى جاء توصيف ما تعرّض له المؤمنون في حصار الأحزاب لهم كما قالت الآية 11 من سورة الأحزاب "هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا"، ففي هذه الآيات كلام عن قتل الآخرين للمؤمنين، فنحن لا نرغب بقتل أحد، ولكن الآخرين فرضوا علينا إرادتهم وصرنا مجبورين لاتخاذ قرار بقتالهم...

أطلت عليك الكلام لنميّز بين علمه تعالى بما سيحدث معي، وبين إجباري على ما سيحدث وكأنّ مسألة حرية "إرادتي" ممسوحة في كل شيء، فهذا غير صحيح، فأنا لم أجبرك على الاصطدام بالحائط، وإنما توقّعت مما أراه أنك ذاهب حتماً للاصطدام به. وهكذا علمه تعالى بما سيحدث، فأنا بقدرات دماغي أتوقّع، فماذا لو كانت قدراتي بدماغين؟ أو عشرة أو مليون دماغ؟ وهكذا نفهم معنى العلم من مستوى إلهي فائق، وأنّه تعالى لا يخمّن بل يعلم بكل ما سيحصل وبالتفصيل. وهذا على الأقل من ناحية مقارنة القدرة بالنسبة لدماغي المحدود، ولكن حتماً هناك نوع من العلوم لا أعرفه، ولن أعرفه، ولن أفهمه إذا عرفته، بل لا قدرة لي على معرفته... ومن يملك ذاك العلم، فسينظر بشكل مختلف للموضوع الذي نتكلم به هنا، بشكل لا يمكنني فهمه...

إذن فنحن في حالة وبيئة ستسير فيها الأمور بخليط بين مشاركتنا بالاختيار فيما سيحدث، وبين قلّة خياراتنا بسبب ظروف قاهرة أو إرادة قاهرة للآخرين علينا، كتوقيت ولادتنا، ومكانه وزمانه وبيئته... وتوقيت موتنا وكيفيته... وهذا لا يغيّر أي شيء في مسألة مرورنا في الدنيا بالبلاء ليرى سبحانه "ليفتننا" إن كنّا اخترنا الخير أو السوء، فمن الطبيعي بالنسبة للتصميم الإلهي لنا ولبيئتنا أن تجري عليّ بعض الأمور التي لا خيار لي فيها، فيقتلني مجرم ما غدراً أو استضعافاً... وينهي حياتي... وهذا لا ينفي ولا يلغي المساحة التي كانت متاحة لي لاختيار الإيمان والعمل الصالح.

ماذا عن موت أو قتل جنين لم تسنح له الفرصة لممارسة ولا ثانية من إرادته؟ لا شيء، فهذا مخلوق كان فيه إمكانية المرور بالحياة ولم تكتمل الظروف المناسبة لذلك وانتهى.

هكذا صرنا نرى الفرق بين رسم حياتنا كلوحة جميلة، وبين الواقع الذي نبّهنا تعالى مراراً من الاغترار به، فهذه هي الخلفية التي تحكمنا حين نفكّر في مجريات الأحداث، ونحلّلها بالقضاء والقدر... فهذه الدنيا ليست ولا بأي شكل دار سعادة مطلقة، فهذه الصفة حصرياً لجنّة الآخرة، فهي الحيوان، فهي الحياة بالمعنى المطلق التامّ لكلمة حياة إنسانية، حيث السعادة مؤمّنة ولا يمكن خرقها ولا بأي شائبة، حيث الجسد خالد نشيط لا يخرب ولا بأي شكل، والنفسية منزوع منها الغلّ، وما نتخيّله نحصل عليه، بل وسيتأمّن فيها ما لا يمكننا تخيّله من روائع لأنّ الإله سبحانه بقدراته الفائقة سيجدّد روائع الجنّة...

كما ترى تناولنا موضوع القضاء والقدر بالمعنى الاصطلاحي من مفاهيم القرآن، مع لمسة عقلانية مختصرة، وإلا فالموضوع فيه تفاصيل وتفاصيل، وأكثرها نابعة من أفكار الهوى ولا عقلانية فيها، كفكرة أننا كلنا لا حقيقة لنا وأننا في خياله تعالى! فلا حرية إرادة ولا من يحزنون فنحن أصلاً خيال! وكفكرة أنّي غصباً عنّي أفعل السوء ولست مذنباً، إذ كتب سبحانه سلفاً ما سأفعله وأنا فقط أنفّذ ما كتبه تعالى! وغيرها من التفاصيل التي أعتقد أنّ ما مرّ من ملخص يكفيك لترى الحقّ من الباطل من تلك الأفكار.

لا تَنْسَ أنّ هذا الكلام من خارج معاني الآيات هنا، ولكن وبسبب إسقاطهم لمعنى القدر الاصطلاحي على المعنى اللغوي لكلامه تعالى، دخلنا في مفاهيم قرآنية وتحليلية عن القدر بالمعنى الذي اصطلحوا عليه، وإلا فالآيات هنا لا علاقة لها بما يقولونه عن القضاء والقدر.

(لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ{3})

ليلة القدر، فترة العتمة من اليوم الذي صار موصوفاً بأنه تحدّد فيه نزول القرآن وتحدّد فيه ما سينزل من قرآن، {هِيَ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ}، فليلة واحدة موصوفة بأنها جيّدة وتقييمها عال جداً لدرجة مشابهتها لأمور خير أخرى تحصل خلال ألف شهر، ولو قسمت الألف على اثني عشر شهراً لكان الحاصل قرابة ثلاث وثمانين سنة، وهكذا يبدو لك أن الألف عدد غير مقصود بالتحديد لذاته كقيمة حقيقة بل كتقريب، كضربته ألف ضربة، والمقصود هو التكثير للإشارة إلى كثرة الضرب الذي قد يكون فعلاً خمسين ضربة، فلا تفهم من هذا الكلام أن القرآن كبّر العدد للمبالغة فقط، لا، بل للتقريب التشبيهي بالكثير الكثير، إذ هناك تقدير إلهي لأمور كثيرة دائماً في كلّ لحظة، وتقريباً مجموع ألف شهر من تلك الأمور يقارب في أهميته بداية نزول القرآن في تلك الليلة.

بالنسبة للعدد ألف فهو مثل كلام الآية 80 من سورة التوبة "اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ..."، فكلاهما تقريب عن الكثرة، فماذا لو استغفر لهم الرسول(ع) إحدى وسبعين مرّة؟ أو ألف؟ كما ترى نفس النتيجة فلن يغفر تعالى لهم، فليس المقصود سبعين مرّة كميزة للسبعين، بل المقصود الإشارة للكثرة مع التقريب لشيء واقعي، وترى ذلك لو استعمل تعالى التعبير بتريليون تريليون مرّة، فسينتهي العمر ولن يصل الرسول(ع) إلى هذا العدد من الاستغفار، فسبعين مرّة عدد كثير مقبول لمن وضع في باله أنه سيستغفر، ونفس الشيء هنا، فألف ليلة من الزمن عدد كثير مقبول لمقابلته مع الخير والأهمية لبداية نزول القرآن ليكون هادياً للبشرية.

أطلت عليك الكلام عن الأعداد ليتشكّل عندك عقلانية نفتقدها في العديد من أدبياتنا التي انطلقت من خلفية الاعتقاد بوجود أسرار في الأعداد، كالتسبيح بعدد محدّد بذكر محدّد لتحقيق طلب محدّد... وكالطلاسم والأحراز من الأعداد أو الحروف بناء على الأعداد... وغيرها مما فعله أو تركه لن يغيّر من الواقع أي شيء، إذ بالرغم من أننا لم نلمس أثراً حقيقياً لهذه الأمور على تغيير مجريات حياة أحد ما بسببها المباشر كفعل مقصود ناتج عنها، فلو قررت أنت الآن تغيير بعض مجريات حياتك بناء على تلك الخزعبلات، لما تغيّرت أمورك! ورغم ذلك ترى الناس لديهم تعلّق بها كتعلّق الغريق بقشّة! ولمزيد من التوسّع حول هذا الموضوع راجع الدراسة المطولة عن السحر وتوابعه من خزعبلات منسوبة للدين الإلهي في دراستنا للآية 102 من سورة البقرة.

(تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ {4})
سبب وصف تلك الليلة بأنها خير من ألف شهر هو:

{تَنَزَّلُ}، تتنزّل، تنتقل من مكان عال وترتحل لتصل إلى من وصله هذا القرآن، فتنزل، {الْمَلَائِكَةُ}، على الرسول(ع)، وهي الكائنات التي وصفها القرآن بأنها تملك صفات مميزة وقدرات عالية جداً ومطيعة له تعالى.

مكان النزول بحسب ما نفهم من القرآن حين كلامه عن منع الجن من استراق السمع كما ورد في الآية 9 من سورة الجن "وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا"، تفهم منه أن الملائكة تنزل من سمائها إلى سمائنا، والسماوات سبع كما تعلم، ولكني لم أجد في القرآن أي إشارة لتحديد السماء التي ممنوع على الجنّ تخطيها، فهل هي السابعة أو السادسة أو... قرآنياً غير معلوم.

ينزل، {وَالرُّوحُ}، وهو وصف باللغة العربية لعموم أي شيء خال من الإضافات، وهنا الكلام عن كائن مواصفاته عالية جداً جداً وليس مركبّا من أشياء عديدة، وتعلم من الآية 97 من سورة البقرة أن الملاك جبريل(ع) هو الذي أنزل القرآن، "قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ..."، وصفته الآية 193 من سورة الشعراء بأنه روح "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ"، وهكذا نفهم أن جبريل "جبرائيل"(ع) ملاك لأنه حتماً مشمول بالكلام القرآني عن الملائكة بشكل عمومي كما في الآية 56 من سورة الأحزاب "إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا"، فهو ملاك من نوع الروح، وهذا لا يعني أن جبريل(ع) وحده من نوع الروح، فالتعابير القرآنية التي استعملت كلمة روح لوصف كائنات من الملائكة يبدو منها إشارتها لاسم جنس، فيبدو منها وجود العديد من الملائكة من نوع الروح.

بالنسبة لكلمة "روح" في اللغة هي الشيء الأساسي الخالي من الإضافات، الجوهر، "الإسانس". وقد درج أن يقول العرب قديماً "وحديثاً" عمّا ينتج من عملية تقطير السوائل: روح العنب، روح الزهر، روح النعناع... ويعنون الشيء

الصافي من العنب من الزهر من النعناع... ومنه وصف بعض المشروبات بأنها مشروبات روحية على أساس أنها نتجت من التقطير الذي يصفّيها من الشوائب. وبناء عليه فالروح التي نفخها تعالى في آدم(ع) والروح الذي نزل بالوحي وروح العنب... يشتركون بوصف الخلو من الإضافات ولكنهم ليسوا من نفس النوع.

الروح الذين تحدّث عنه القرآن كنوع من الملائكة فهم مخلوقون من شيء أساسي صافي، ليس من التراب "المادة التي نعرفها في عالمنا"، وليس من نار "المادة التي يتكوّن منها الجنّ" وحتى بالمقارنة مع بقية الملائكة(ع) فتكوين الروح أشدّ نقاء وصفاء من بقية الملائكة، وهذا ما تعطيه كلمة روح لوصفهم بها كتمييز لهم عن بقية الملائكة.

تجد في الروايات تعابيرَ عن تكوين الملائكة(ع) من نور، ولا مستند قرآني لهذا الكلام، وحتى وصفه تعالى بالنور في الآية 35 من سورة النور، "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ..."، لم يكن يشير للمادة التي يتكوّن منها سبحانه، بل يشير لأثره تعالى على السماوات والأرض ككاشف لها... ومن قال بأن الملائكة مخلوقات من نور ويقصد بذلك أنهم ليسوا من تراب ولا من نار ولا من شيء مركّب غليظ، فهذا يبقى على عاتقه "مسؤوليته" تحديد معنى كلمة نور ليصطلح لها معنى مناسباً، فمعناها بالعربي لن ينفعه، والآية الواصفة له تعالى بالنور لا تنفعه لأنها لا تصف مادة تكوينه تعالى.

يتنزلون فيها الملائكة والروح في ليلة القدر، {بِإِذْنِ رَبِّهِم} سبحانه، فهم مأمورون بالنزول بالقرآن من المسؤول عنهم من مستوى إلهي، ونفّذوا عملية النزول بالقرآن وتركهم تعالى يقومون بذلك، {مِّن كُلِّ أَمْرٍ}، فهناك أمور كثيرة، فهناك أشياء يريدها تعالى أن تصلنا، وقد اختار سبحانه لنا ما سينزل ويصلنا وأمر الملائكة(ع) والروح(ع) بتوصيله إلى الرسول(ع).

لم تنزل كل المعلومات التي عنده تعالى على رسول(ع)، وهذا تراه جلياً واضحاً، فحتى ما تجده في القرآن من قصص عن تاريخ الأنبياء، فستجده متفرقا، رغم أن كل المعلومات التفصيلية موجودة عنده تعالى ولكن اختار سبحانه بحكمته من عموم الأمور أموراً محدّدةً وأمر الملائكة(ع) والروح(ع) بتنزيلها في ليلة القدر على رسوله لتكون بداية نزول القرآن.

نزول الملائكة(ع) والروح في تلك الليلة من كلّ أمر، "وليس بكل الأمور"، فهو بداية نزول القرآن في تلك الليلة وهو سبب تميّزها وصيران قيمتها بقيمة تقارب خيرا يحصل في ألف شهر.

(سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ{5})
{سَلَامٌ هِيَ}، تلك الليلة موصوفة بالخلو من الخلل والآفات والشرور والسوء، فهي خير بسبب بداية نزول القرآن فيها، {حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}، من المغرب حتى نهاية تلك الليلة ببداية خروج ضوء الشمس من جهة أفق شروق الشمس، وهو نفسه الوقت الذي تبدأ فيه صلاة الصبح.

في تراثنا الديني كلام كثير عن تميّز ليلة من ليالي شهر رمضان، على أنها هي نفسها الليلة التي نزل فيها القرآن وتتكرّر في كلّ سنة، وعلى أساس أن تكرّرها هو تكرّر لأهميتها أو لما حصل فيها أول مرّة... ففي كل مرة يأتي شهر رمضان ففيه ليلة خير من ألف شهر وسلام هي حتى مطلع الفجر، وهذا الكلام ضبابي في الكتب ولا يبدو منه التدقيق، وبالرغم من كل ما هو عالق في أذهاننا عنها، ونعتقد أنه صلب وله أساس... فهو ضبابي.

هل المقصود أن ما حصل في تلك الليلة يتكرّر كل سنة؟ فهل لا زالت الملائكة والروح ينزلون في نفس الليلة من كل شهر رمضان يأتي؟ فهل لا يزال القرآن ينزل فيها؟ لا. فهل المقصود أنه في تلك الليلة تمّ تقدير الوفيات والأرزاق وعموم ما سيحصل معنا، وكلما مرّت في كل سنة يتكرر ذلك؟ فأين المستند القرآني لهذا الكلام؟ فقالوا إنّها الآيات في بداية سورة الدخان وخصوصا الآية الرابعة "فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ"، علماً أن تلك الآيات يمكن فهمها بسهولة مثلما نفهم الآيات هنا بأنها تصف الأمور الإلهية التي نزلت قرآناً، وليس الأمور الإلهية التي تتعلّق بشؤون حياة الناس، فراجع دراستها.

نسأل أيضاً: هل لا زالت تلك الليلة محافظة على قيمتها على أنها خير من ألف شهر كلما تكررت في مرور شهر رمضان علينا؟ لا يبدو ذلك من القرآن، فهي تلك الليلة التي بدأ فيها نزول القرآن حملت تلك الأهمية، فمن قبل نزول القرآن كانت ليلة عادية، وكما ورد في الآية 3 من سورة الدخان "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ"، فتلك الليلة موصوفة بأنها مباركة، تلك الليلة كانت مباركة، فلا معنى لاستمرار وصف البركة لزمن مضى إلّا كذكرى "حدث في مثل هذا اليوم".

أمّا بالنسبة لتحديد تلك الليلة من أي يوم من أيام شهر رمضان بالتحديد للاستفادة من أهميتها "بركتها" والإكثار من الدعاء فيها، على أساس أن الدعاء فيها يكون مقبولاً مستجاباً، فهذا لا أساس قرآني له، بل والكثير من كلامهم يتعارض مع مفاهيم القرآن التي عمّمت طلب المغفرة منه تعالى على أي مكان أو زمان، وعمّمت عموم الدعاء بلا مواقيت على أساس أنه تعالى السميع البصير الواسع المحيط...

نعم، الأماكن المخصّصة للعبادة تساعد على تأمين أجواء أفضل للعبادة، وتحديد ليال ما للعبادة، أيضاً يساعد على تحفيزنا للعبادة والدعاء وتنبيهنا لما نسيناه أو تغافلنا عنه من ضرورة التوجّه نحوه تعالى بالدعاء للتقرّب منه تعالى، وليلة القدر التي لا يمكن تحديدها من الروايات، "والتي حددها القرآن بشكل غير ملفت"، فلا يجب أن تكون همّنا على أساس التعامل مع جنّي الفانوس السحري الخرافي الذي يحقق لنا طلباتنا الدنيوية، فنختصر حياتنا الإيمانية بليلة نعتبر الدعاء فيها مقبولاً لنطلب ما نشاء من حاجاتنا الدنيوية، وإن أصبنا ليلة القدر فحتماً ستتحقّق طلباتنا! فهذا ليس تديّناً سليماً، ومن فكّر في هذه الليلة ومواصفاتها وبركتها وأهميتها... بهذا الشكل، فليراجع تديّنه، فليس من المفروض أن تكون "ليلة القدر" لنا كمؤمنين إلا كمناسبة مساعدة على تحفيزنا للدعاء والاستغفار، فقارن ما درج بيننا عنها وعن أعمالها وإحيائها في المساجد بصلوات التراويح والأدعية الجماعية... وبين ما كان يجري في عهد الرسول(ع)، وسترى من الروايات أن أقصى ما ورد عن زمن الرسول(ع) في اجتماع الناس في المسجد في عموم ليالي شهر رمضان، وأنهم يصلّون صلاة العشاء جماعة، وبعدها بعضهم يصلّي ركعات نافلة... وأمّا الطقوس الدارجة بيننا الآن فلا استناد لها في سلوكيات الرسول(ع) والجيل الأول من المسلمين، اللهمّ إلا ما وافق العديد من الآيات التي تحفّزنا على قيام الليل "منفردين" بالصلاة والدعاء وقراءة القرآن، فلا تجد في كل القرآن تحفيزا على الاجتهاد بالعبادة في ليلة محدّدة، بل بالعكس تجد التحفيز على ذلك في كل ليلة من ليالي عمرنا، ولا تجد في عهد الرسول(ع) عملاً عبادياً جماعياً إلا الصلوات اليومية الواجبة، وصلاة العيدين والجمعة، وطقوس الحج والعمرة، فكيف انجرفنا إلى هذا البعد عن سنّته(ع) وصار الكلام الموافق للقرآن غريباً مرفوضاً!

أضف إلى ذلك كلّه أنه حتما حين بدأ نزول القرآن في ليلة موصوفة بالقدر لأهمية ما حصل فيها، فحتماً هناك بقعة على الأرض لم يكن فيها ليل أصلاً ولم يمر عليها ليل لعدة أيام، إمّا بالقرب من القطب الجنوبي أو الشمالي، فما معنى الأفكار السحرية عن ليلة نبحث عن توقيتها لندعوا فيها بطلبات ستتحقّق إن كانت لن تحصل في بعض المناطق على الأرض! وما معنى تلك الليلة التي نسجوا عنها من خيالهم تفاصيل لصفات غريبة عجيبة إن كان الاعتماد على القمر لتحديد بداية شهر رمضان سيختلف بيوم أو يومين بين مختلف بقاع الأرض! وهذا ما تراه من إحياء الجماعات المختلفة لليال مختلفة!

هذا بعض الإشكالات التي لا جواب عليها والناتجة من الإضافات على الدين الإلهي، فبكل بساطة سورتنا هنا تتحدّث عن ليلة في حياة الرسول محمّد(ع) ووصفها تعالى بالقدر والبركة لأنها كانت بداية نزول القرآن، ولا أهميّة سحرية لتلك الليلة بل أهميتها فقط وفقط مما حصل فيها من نزول للقرآن وليس مما سينتج عن إحيائنا لها بالدعاء...

الكلام ضمنا يأخذك إلى مراجعة هذا القرآن بكلامه عن الدعاء، وستجده بعيدا كل البعد عمّا هو دارج بين الناس، وحتى الآيات المشهورة جدا بيننا عن تحفيز القرآن لنا بالدعاء، فهي لم تقصد الدعاء على معنى طلب الشفاء والنجاح والعريس... فهذا إسقاط خلفياتنا بما نريده على معنى كلامه تعالى لدرجة اختفاء معنى ما يقصد تعالى قوله وحلول كلامنا نحن محلّه! وتتدرج حالة سوء التدين وصولا إلى اعتبار الإيمان "الدين" وسيلة لتحقيق طلباتنا الدنيوية التي نعجز عن تحقيقها، أو نتكاسل عنها ونريد منه تعالى تحقيقها، وهذا بغض النظر عن الكثير من سوء ما نريد تحقيقه... فأسوأ إيمان هو التعامل معه تعالى من خلفية جني الفانوس السحري الخرافي، وهذا المعنى تفهمه بسهولة من الآية 11

من سورة الحج "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ".

سورة البينة (98) ص 598

تتحدث السورة عن عموم الناس الذين يطلبون البينة الإلهية حتى يؤمنوا بهذا الدين الإلهي، وظاهراً، هذا الكلام منهم يبدو مطلباً عقلانياً حتى يقتنعوا ويؤمنوا، ولكن ماذا كان موقفهم مما أتاهم من بيّنة؟ وهذا هو لبّ السورة.

قسمت السورة الناس قسمين: المؤمنين بهذا الدين من جهة، والذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في جهة ثانية، وكلمة كفر تعني الإنكار وأن لا تعتقد بشيء ما، وهنا سورتنا توجّه كلامها خصوصاً لمن لم يعتقد بمحمّد(ع) رسولاً، ولم يعتقد بإلهية مصدر القرآن الذي ينقله محمّد(ع) لنا، سواء أكان من أهل الكتاب أو من المشركين، فهذا ينطبق عليه وصف الكفر بهذا المعنى، فلا تخلط أبداً بين ما يقولونه في الكتب عن أحكام التعامل مع الكافر وبين ما يقوله القرآن، فشطحوا في تعريف كلمة كفر ومشتقاتها "كافر كافرون..." وطبّقوا اصطلاحاتهم على القرآن فأخرجوا هذه الكلمة القرآنية عن معناها اللغوي الصحيح... حتى أفتى البعض منهم بأن أهل الكتاب مثلهم مثل الكفار بلا حرمة حتى لو لم يكونوا محاربين! علماً أن الكفّار لهم حرمتهم إلا المحاربين منهم.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ{1})

{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا}، الذين أنكروا هذا الدين الإلهي وأنكروا أن يكون ناقله رسولاً إلهياً، {مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}، من المنتسبين لكتاب، والمقصود أنهم منتسبون لكتاب نازل من عنده تعالى، كالتوراة والإنجيل وصحف الأنبياء، ولم يكن، {وَالْمُشْرِكِينَ}، وهم الذين اتخذوا آلهة متعددة، لم يكن هؤلاء، {مُنفَكِّينَ}، لم يكونوا متوقفين فبقوا ملازمين لما هم عليه، {حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ}، وهي الشيء الذي يوضّح ويؤكّد لهم أن محمّداً(ع) رسول إلهي وأن ما ينقله لهم هو الدين الإلهي.

بعبارة أخرى، أهل الكتاب والمشركون لن يتركوا دينهم حتى يأتيهم شيء واضح يدلّهم على دين آخر صحيح.

هذا الكلام "يبدو" منطقياً وعقلانياً، فلماذا سيغيرون دينهم إن لم يأتهم شيء يقنعهم بأن دينهم غير صحيح؟ ولكن سترى من خلال هذه السورة في الآية 4 و 5، أنهم وصلوا فيما وصلوا إلى الدين الذي هم عليه من بعد تلاعبهم بدينه تعالى، وقسم "كبير" منهم لن يقتنع بأي كلام عقلاني منطقي واضح لأنهم اعتادوا على دينهم الذي تلاعبوا به حتى صار على مزاجهم بالتمام.

لا تنسَ دائماً أن دينه تعالى له امتداد تاريخي منذ آلاف السنين من آدم(ع) مروراً بالنبي نوح(ع)... وصولاً إلى النبي محمّد(ع)، وهو دين واحد، وأساسه واحد، وكلامه واحد، مع بعض التغيرات الطفيفة في الشريعة التي كان لها أسبابٌ لتغييرها، ولفت القرآن في بعض سوره لأسباب تلك التغيرات البسيطة، أمّا على مستوى العقيدة وأساسيات الشريعة والسلوكيات، فكل كلام الرسل والأنبياء واحد لا خلاف فيه ولو بمقدار شعرة.

تقسيم السورة للناس سيكون على الحدّ، فستقسمهم لمؤمنين بهذا الدين، ولغير المؤمنين بهذا الدين القرآني بصنفيهما الأساسيين: أهل كتاب ومشركين. وهذا بغضّ النظر عن التفاصيل المختلفة لعقيدة وشريعة أهل الكتاب، وبغض النظر عن التفاصيل المختلفة لعقيدة وشريعة المشركين، وأمّا بالنسبة لما نسمّيهم نحن بالملحدين كأناس لا يؤمنون بكل الأديان ولا يؤمنون بأي إله، فهؤلاء اعتبرهم القرآن كاذبين في إنكارهم للإحساس بإلههم، فباستطاعتهم التصرف على أساس أنهم لا يؤمنون به تعالى ولا بغيره، ولكنه مجرد تصرّف وكلام لا يعكس حقيقة وجود بذرة فيهم تدلّهم على ربهم حتى لو تشوّهت البذرة لأقصى درجة، وحتى لو صارت الصورة عن الإله سيئة بنظرهم... فهؤلاء بعض السور أشارت لهم وتحدّثت عنهم ومعهم ضمناً أثناء كلامها عن المشركين حين لفتت انتباهنا للعقيدة الصحيحة عنه تعالى، وراجع دراسة سورة الواقعة والجاثية كمثال، لأن كلامهما من الصفر عن العقيدة ويشمل ذلك مناسبتهما للكلام عن ومع الذين نصطلح عليهم بالملحدين.

انتبه دائماً لمعنى كلمة كفر، فمعناها اللغوي الذي استعمله القرآن يختلف عمّا درج فيما بعد بين المسلمين، فمعناها عموم إنكار شيء وتكذيبه. وهكذا تفهمها في كل القرآن، وهنا كفر أهل الكتاب سترى أنه لخصوص إنكارهم لهذا الرسول(ع) ولما يقوله من قرآن، وكفر المشركين أيضاً لا يشير هنا إلّا إلى إنكارهم لهذا الرسول(ع) وما يقوله.

(رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً{2})
{رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ}، شخص ناقل لكلام صاحب الاسم المميّز المحدّد الله سبحانه، {يَتْلُو}، يقرأ على الناس من مستند، والمستند هو، {صُحُفاً}، أشياء لها وجه مبسوط، أشياء للكتابة عليها، وثائق مكتوبة، {مُّطَهَّرَةً}، خالية من أي شيء يشوبها، فليس فيها كلام باطل أو سيئ.

أنت تعلم أن هذا القرآن الذي يقرؤه الرسول محمّد(ع) له مستند، فهو (ع) لم يخترعه، بل يستند على الوحي النازل عليه (ع) مما نقلته الملائكة(ع) من الكتاب الرئيسي بأمر من الله سبحانه، فالصحف المطهّرة وصف للكتاب الأساسي الذي في سماء الملائكة(ع) والذي منه نزل القرآن، وهكذا صار وصف الرسول بأنه يقرأ للناس عن مستند، وهذا هو معنى كلمة التلاوة هنا: القراءة استناداً إلى شيء مكتوب من قبل.

ما هي البيّنة التي يطلبونها ليصحّحوا دينهم؟ وما هو الشيء الواضح الذي سيقنعهم بما يقوله النبي محمّد(ع)؟ فهو نفسه الرسول محمّد(ع) بما يتلوه عليهم من معلومات وصلته من الإله سبحانه، فهو نفسه وتلاوته بيّنة، فماذا يريدون أكثر من ذلك؟

سترى في الآيات التي بعد التالية ضماً لما يقوله هذا الرسول(ع) مع ما هو معلوم عن الدين الإلهي الصحيح منذ آدم(ع) إلى وقت الرسول محمّد(ع) فأي بينة أكثر من ذلك!

(فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ{3})
{فِيهَا}، في تلك الصحف، {كُتُبٌ}، أشياء مكتوب عليها معلومات ذات مواضيع تامّة، {قَيِّمَةٌ}، موصوفة بأنها على الأحسن، فلا خطأ ولا فساد ولا شرور ولا انحراف فيها عن الحقّ.

طبعاً وصف الكتب بأنها قيّمة يرجع لانتسابها إلى من كتبها، فهي كلامه تعالى، كلام الإله بجلالة قدره، فماذا تطلبون أكثر من ذلك لتؤمنوا؟ فها أمامكم رسول ينقل لكم كلاماً من الإله سبحانه وتعالى، فأي بينة ستكون أكثر من ذلك!

تذكّر دائماً أن العرب حين نزول القرآن لم يستعملوا كلمة "قيّم قيمة..." بالمعنى الصريح الذي نقصده الآن عن تقدير عال أو منخفض للشيء، على معنى قيمتي عالية، شيء له قيمة... بل استعملوها على معنى: الشيء الذي يوصف بأنه على الأحسن. وهكذا استعملها القرآن، ومن مشتقات هذا المعنى أنه لا انحراف فيه، أنه جيّد، وبتعبيرنا الحالي: له قيمة عالية. ولكن هذا من مشتقات ولوازم المعنى الأساسي.

(وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ{4})
{وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}، لم يذهب كل واحد من المنتسبين لكتاب إلهي في اتجاه، {إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ}! من بعد ما جاءهم الشيء الواضح! فهم الآن في حالة اختلاف فيما بينهم مذاهب وطوائف وجماعات وليسوا على دين واحد، فكيف أصلاً هم وصلوا إلى هذه الحالة؟ وهم أصلاً موصوفون بالانتماء لكتابه تعالى، وتفرّقوا عن دينه تعالى من بعدما جاءهم الدين الإلهي بشكل واضح، فما معنى أنهم لن ينفكّوا عمّا هم عليه الآن ليمشوا على ما يقوله الرسول محمّد(ع) إلا إذا جاءتهم بيّنة!

بعبارة أخرى، هم طوائف من اليهود وطوائف من المسيحيين وطوائف شتّى من صابئة ومندائيين... وطوائف ومذاهب وجماعات تحت ذلك... وكلهم منتسبون لكتاب إلهي جاءهم بالبيّنة، ومعلوم أن الدين الإلهي واحد بعقيدته وشريعته، فكيف تفرّقوا إن كانوا فعلاً يتّبعون البيّنة! فلماذا صاروا يهوداً لوحد ومسيحيين لوحد...

مثال بسيط نتذكّره مما ذكره القرآن عن بني إسرائيل أنه كلما جاءهم نبي ببينة ليصحّح لهم انحرافهم عارضوه! وحين جاءهم الرسول عيسى(ع) ببيّنة عارضوه وحاولوا قتله! وتفرّقوا فصاروا يهوداً ونصارى كما ورد في الآية 87 من سورة البقرة "وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ"، وها جاءهم رسول إلهي بهذا القرآن فعارضوه! فهم تفرّقوا سابقاً مع وجود بيّنة، ولم يتغيّر حالهم الآن مع وجود هذا القرآن "المبين".

آيتنا هنا مثل عدّة آيات أخرى من القرآن قد توحي لك بالقراءة السريعة أن البينة سبّبت فرقتهم، كالآية 213 من البقرة، 19 من آل عمران، 14 من الشورى، والآية 17 من الجاثية: "وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ..."، فهذه الآيات وغيرها كانت تشير إلى وجود شيء صحيح واضح أمامهم، وأمّا هم فبغياً بينهم تركوا العلم الصحيح وتفرّقوا، وكلام سورتنا هنا عن نفس الموضوع ولكن من وجهة نظر أخرى، وتقول آيتنا هنا أنه إن كان شخص أو جماعة من أهل الكتاب يريدون بيّنة ليتبعوا هذا القرآن، فتسألهم الآية هنا: كيف وصلتم إلى ما أنتم عليه من دين متفرقين ومختلفين؟ ألم تأتكم بينات من قبل؟ ورغم ذلك فأنتم على دين مغاير للآخرين الذين يتشاركون معكم بانتسابهم لكتاب إلهي؟ فأصلاً أنتم لم تهتمّوا بالبيّنة الإلهية وتفرّقتم وصرتم أدياناً وفِرَقاً ومذاهبَ وطوائفَ.

اكتفت سورتنا هنا بهذا الاختصار لكل الموضوع على أساس وجود بيّنة ليؤمن أحد ما بهذا الدين الإلهي، وتركت التفاصيل الكثيرة لسور أخرى تحدّثت عن انحرافات وتلاعبات أهل الكتاب بدينه تعالى...

إذا خطر ببالك أن أدياناً متعددة نزلت من عنده تعالى في كتب متعدّدة، فلنقرأ الآية التالية:

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ{5})

{وَمَا أُمِرُوا}، لم يأمرهم تعالى في الكتب التي نزلت عليهم منه، وهم اعتبروا أنفسهم منتسبين لها، وصار توصيفهم كأهل كتاب، {إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ}، وكلمة عبد تشير لمن مفروضة منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك. فهم مفروضة منهم طاعة صاحب هذا الاسم المحدد المميز الله سبحانه وهذا ما قالته كل الكتب التي نزلت من عنده تعالى آمرة لهم بالتصرّف على أساس أنهم عبيد له تعالى، وتحديداً له تعالى المسمّى حصراً باسم "الله" عزّ وجلّ.

{مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}، ما يدينون به يجب أن يكون منفرداً وفقط له تعالى، فالتبعات التي عليهم كونهم عبيداً له تعالى أن يتّبعوا دينه تعالى، وعملياً يجب أن يطيعوه وحده تعالى فقط ويلتزموا بما وصلهم منه تعالى فقط، {حُنَفَاءَ}، مائلين عن كل شيء ومتوجهين فقط نحو شيء واحد، والكلام هنا عن توجههم فقط على دينه تعالى، فيكونون بالتمام على العبادة وإخلاص الدين بلا أي انحراف عنه تعالى بل بانحراف عن الأديان الأخرى، فلا يعبدون قديسيهم وأشخاصهم الدينية ولا يخترعون عقيدة أو شريعة...

{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا} لـ {يُقِيمُوا الصَّلَاةَ}، يُفَعِّلُونَ التوجّه نحوه تعالى بالذكر والتعبير عن الخضوع وفائق التقدير "ودرج الاصطلاح على ذلك بالعبادة"، فلا يُعَطِّلُونَ الصلاة له تعالى.

{وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ}، يجعلونها عند من يوزّعها أو يُوَزِّعُونَهَا بحسب ما أمر سبحانه، وكلمة زكاة في اللغة تشير إلى عامّة اللياقة المحترمة في شيء بالنسبة لشيء، فتشير لشيء موصوف بأنه لائق ومحترم بكذا، "زكّاني عند المدير، نفس زكية، مال زاكٍ، طعام زاكٍ..."، ومنذ القدم صارت مصطلحاً دينياً يشير إلى دفع نسبة محدّدة من الخير، راجع الآية 215 من سورة البقرة "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ..."، أي من الأموال النقدية والمجوهرات ومحاصيل الطعام والماشية... في حال وصلت قيمة أموال الشخص إلى حدّ يوصف فيه الشخص بالغنى الزائد، فيدفع منها ما يوصف بالعفو من الأموال، راجع الآية 219 من سورة البقرة "...وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ..."، فتكون نسبة قليلة مما تملك بقدر لا يؤثّر على معيشتك ومصالحك... ويتم تسليمها لإدارة مختصة بإدارة الزكاة، أو تصرفها أنت مباشرة على مساعدة المحتاجين ومصالح المؤمنين في غياب تلك الإدارة، راجع الآية 60 من سورة التوبة "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ".

{وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}، إن كان أحد ما متديناً، يعتقد ويتصرف على أساس أنه تابع وتحت تبعات، فعبادته تعالى والإخلاص له تعالى وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هي دين قيّم، فهو الترجمة العملية للتبعات التي علينا كعبيد له تعالى، وهو اعتقاد وعمل قيّم، موصوف بأنه على الأحسن، وبما أنه كذلك فهو بتعبيرنا الحالي شيء له قيمة عالية.

هذا لبّ وأساس ما نزل منه تعالى على الناس، بلا أي فرق من زمن آدم(ع) مروراً بالرسل نوح... وإبراهيم... وموسى... وعيسى عليهم السلام، وصولاً إلى زمن الرسول محمّد(ع)، فما معنى تفرّق أهل الكتاب لأديان وطوائف ومذاهب! وما معنى تركهم اتباع الرسول محمّد(ع) طالما ما ينقله لهم موافق تماماً لامتداد الدين الإلهي من أوّل تكليف البشرية بالأوامر الإلهية! وبالتحديد، ما معنى اعتبارهم لما يقوله الرسول محمّد(ع) أنه ليس بيّنة، مع أنه بالتمام موافق للبّ دينه تعالى الذي هم منتسبون له!

هكذا تبيّن لك السورة أن المشكلة في عقلية أهل الكتاب، وليست فيما يقوله الرسول محمّد(ع)، فبقاؤهم على دينهم "الذي انحرف عن الدين الإلهي" ليس سببه أنهم لم يجدوا بيّنة ليتغيّروا ويؤمنوا بهذا الرسول الناقل لهذا القرآن، سبق ونزل الدين الإلهي من الأوّل على نسق واحد وهم تفرّقوا عنه وعن بعضهم ولم يلتزموا به كما هو، فأي بيّنة ستقنعهم!

ستجد في التفاسير كلاماً حول الآيات التي ورد فيها ذكر الصلاة والزكاة، يقولون بأن الآيات نزلت في المدينة على أساس أن الزكاة فرضها تعالى في المدينة بعد هجرة الرسول من مكّة، وبالأصل لا يوجد أي أهمية حقيقية لمعرفة إن كانت السور نزلت في المدينة أو في مكّة إلا من ناحية الفضول بشيء متعلق بالدراسات التاريخية... ولكن وكما ترى في آيتنا هنا، والتي بكل وضوح تقول بأن الدين الإلهي من الأساس فيه أمر بالصلاة والزكاة، وأن ما يقوله الرسول محمّد(ع) ليس شيئاً جديداً، هكذا ترى أن كلامهم في الكتب والتفاسير عن كون الزكاة في الإسلام شُرِّعَتْ بعد الهجرة، هو كلام غير دقيق، ففي أصل الدين الإلهي يوجد صلاة وزكاة، والكلام الدقيق يكون بأن الزكاة تفعلت في المدينة بسبب نشوء حكومة للمسلمين تولّت جمع وتوزيع الزكاة.

كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، فهي ليست اصطلاحاً مخصّصاً كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، فهي عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئاً ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف...

الله تعالى خلقني فأنا مدين له، فخلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعاً بسبب سعة تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنى عميق لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... فكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة فهناك ندان بأعمالنا، فما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة كلامه تعالى هو التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضاً يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسباً بحكمته قد يديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ{6})

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا}، أنكروا هذا الدين الإلهي، ولم يؤمنوا بالرسول محمّد(ع) والقرآن، {مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}، من المنتسبين لكتاب إلهي سابق كالتوراة والإنجيل وصحف الأنبياء... {وَالْمُشْرِكِينَ}، الذين عبدوا آلهة غير الله تعالى وهم بالأساس غير منتسبين إلى كتاب إلهي، فهؤلاء، {فِي نَارِ جَهَنَّمَ}، في المكان الموصوف بسوء ما فيه، {خَالِدِينَ فِيهَا}، لا يموتون ولا يفنون ولا يخرجون منها ولا هي تخرب، فها نخبركم ونخبرهم بمصيرهم السيّئ جداً، {أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ}، من بين الذين براهم تعالى فجعلهم يتكوّنون، فجعلهم يصيرون ولهم كيان، "يخرجون إلى الوجود"، فهؤلاء هم الأسوأ

وصفاً وفعلاً وقولاً وإيماناً... سواء أكانوا من المعاصرين لنزول هذا القرآن أو قبله في زمن أي بيّنة إلهية متوافرة، فهم هذه النوعية موصوفون بأنهم من أسوأ الذين براهم تعالى، من أسوأ من أخرجهم تعالى إلى الحياة.

لاحظ أن الكلام السابق مع وعن أهل الكتاب على أساس أنهم يدّعون اتباعهم لما ينزل منه تعالى، فهم منتمون بالاسم لكتبه تعالى، فتحدّثت الآيات السابقة عمّا نزل سابقاً منه تعالى وما كان موقفهم منه، وعمّا نزل من قرآن وما موقفهم منه... وهذه حال مختلفة عن المشركين الذين لا يدّعون اتباع ما نزل من عنده تعالى، فما هم عليه ستعرفه من الكلام عن أهل الكتاب، فالمشركون اخترعوا دينهم، فهم من الأساس لم يهتموا بأي بيّنة إلهية، فها التاريخ الذي مرّت فيه البينات الإلهية ولم تغيّرهم! فهل سيغيرهم هذا القرآن المبين! بشكل عام، لا.

لبّ السورة عن الإيمان وتغيير الدين بعد وصول البيّنة، فتعرض البيّنة على شخص أو جماعة، فيؤمن أو لا يؤمن، وأنت تعلم أن البعض من أهل الكتاب عبر التاريخ آمنوا بهذا القرآن، والعديد من مشركي العرب آمنوا من تلقاء أنفسهم بعد وصول البيّنة الإلهية لهم وصاروا مسلمين، والبقية من مشركي العرب انمحوا مع الوقت عن دينهم السخيف بسبب ظهور سخافته أمام عقلانية الدين الإلهي، فحتى لو لم يؤمنوا ولم يلتزموا بهذا الدين من رغبتهم واقتناعهم، ولكن مع مرور الزمن وزيادة الوعي والانتباه للفرق بين دين من الاختراع والأوهام ودين ذكره القرآن، انمحى دين الشرك من تلقاء نفسه حين احتك بدين الإسلام، ولا يعني هذا أن الناس في الجزيرة العربية وحيث انتشر الإسلام التزموا بالكامل بتعاليم هذا الدين، ولكن البيّنة الإلهية فرضت نفسها عليهم، وبيّنت الفرق بين دين سخيف من اختراع الناس وبين الدين الإلهي.

بقي شيء، فهل كل أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بالرسول محمّد(ع) والقرآن هم في نار جهنّم خالدين فيها؟ لا، فعموم القرآن حدّد أسباب الخلود في جهنّم، وعلى رأسها الشرك به تعالى، وقتل نفس بغير حقّ، والدرجات العالية من الفساد في الأرض... ومحاربة الدين الإلهي... والكلام عن أهل الكتاب ينقلنا إلى شيء دارج بين المسلمين، وهم أهل كتاب أيضاً فهم منتسبون لهذا القرآن، حيث يقولون أن المسلم ومهما فعل لا يخلد في النار لأنه سبق ونطق بالشهادتين، وهذا الكلام معارض للقرآن، ومشابه لتحريف الدين الإلهي الذي يعتقد به بقية أهل الكتاب، حيث كل فرقة منهم تعتقد أن أبناء فرقتها لوحدهم فقط لا يخلدون في النار مهما فعلوا...

ننتقل لشيء آخر منتشر أيضاً، حيث يقولون أن المسلم لا يدخل النار حتى لو كان فاسقاً. وللأسف تجد هذا الكلام منتشراً في كتب المسلمين، وهو مخالف للقرآن. وأسوأ منه ما تجده هنا وهناك عن كون المنتسب لهذا المذهب الإسلامي أو المنتسب لذاك المذهب فقط لا يخلد في النار أو لا يدخلها أصلاً! وبقية المنتسبين للمذاهب الأخرى لن يدخلوا الجنّة!

هذا النوع الخطير من الكلام كخلفية تراثية ثقافية دينية، لن يسمح لك بفهم سورتنا هذه، ولا بفهم عموم القرآن، فبكل سهولة ستفهم أنه لا مشكلة من دخول كلّ أهل الكتاب إلى النار خالدين فيها، لأنك أمّنت على نفسك بسبب انتسابك للمذهب الذي لن يدخل أبناؤه إلى النار!

تضيف فوق هذا ما ورد في الآية 85 من سورة آل عمران "وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ"، على أساس أن كلمة إسلام تشير إلى ما أنت عليه "وإلى مذهبك بالتحديد" ولا تشير للدين الإلهي الممتد من آدم(ع) مروراً بالرسل وهذا القرآن وصولاً إلى يوم الدين، فيصير في بالك أن من نطق بالشهادتين مسلم ناج، حتى لو كان فاسقاً! بينما هو لا يختلف أبداً في نظر القرآن عن عموم أهل الكتاب الذين فسقوا عن الدين الإلهي، فمثله مثلهم بلا أي فرق.

سورتنا هنا لم تدخل في هذه التفاصيل التي تجدها في أثناء حديث القرآن عن فسّاق ما بعد نزول القرآن، وأطلت عليك حتى لا تستسهل فكرة رمي عموم أهل الكتاب في النار "خالدين"، ففقط سيخلد في جهنّم الذين ارتكبوا ما وعد القرآن عليه بالخلود في جهنّم، سواء أكانوا من أهل الكتاب أو كانوا من الذين أعلنوا إيمانهم بهذا القرآن واتخّذوا صفة المسلمين، فكلّهم مثل بعض والاختلاف بينهم في الإيمان والعمل الصالح.

سيسهل عليك ما أقوله إن تذكّرت أن طوائف من اليهود وطوائف من المسيحيين وكنموذج عن الشبه بيننا وبينهم، فهم لديهم وضوء وصلاة بمواقيت وحركات مثل صلاتنا مع فرق فيما يقولونه أثناءها... ولديهم زكاة وصوم مثلنا...

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ{7})

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا}، صاروا في حالة اعتقاد بهذه البيّنة، واعتقدوا بهذا الرسول محمّد(ع) وبما جاء به هذا الرسول "القرآن"، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، وقاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، عملياً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادة نفسّر "عملوا الصالحات" على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول أنهم صلّوا وصاموا... وهذا عملياً صحيح، ولكن بالأصل الكلام أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموماً وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائماً أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به.

هذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلاً سيئ" فسيكون في الحقيقة اختراعاً من البشر لصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمراً إلهياً.

{أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ}، هم الموصوفون بأنهم من أفضل من براهم تعالى، فهم من أفضل المخلوقات التي صار لها كيان "وخرجت إلى الوجود".

ضع في بالك دائماً أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، هو تعبير قرآني شامل لكل من مرّ في تاريخ البشرية بهاتين الصفتين، على أساس أنهم أعلى نموذج تامّ كامل، ويتم تحديدهم بأنهم ممن آمن بهذا القرآن وآمن بناقله(ع) بحسب سياق الحديث إن كان الحديث عمّا بعد نزول هذا القرآن، وآيتنا هنا في سورتنا هذه، فكلامها عن بيّنة إلهية لتغيير الدين الذي عليه الناس إلى الدين الإلهي الصحيح بعيداً عن تحريفات وتلاعبات تعرّض لها الدين الإلهي، وبالتالي الإشارة هنا إلى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بعد نزول هذا القرآن، ويبقى الكلام عمومياً شاملاً لكل من آمن وعمل صالحاً عبر التاريخ منذ آدم(ع) فهو من خير البرية بالتصنيف الإلهي.

أما الذين هم أقل من هذا النموذج الإيماني العالي، فسور أخرى عديدة من القرآن تحدّثت معهم وعنهم، ولا تجد كلّ سورة من القرآن تدخل في هذه التفاصيل لأن تركيزها يكون على شيء آخر، وهنا تركيز السورة على أفضل وأسوأ نماذج أمام البيّنة الإلهية، وأمّا ما بينهما من إيمان مخلوط بكفر، أو إيمان مخلوط بفسق ونفاق... فتناولته سور أخرى من القرآن الكريم.

ننتبه دائماً لتساوي عموم الناس أمامه تعالى، من آدم(ع) إلى يوم الدين، فمما هو شائع عند المسلمين أفضليتنا على الذين سبقونا من الأمم حتى لو كانوا من المؤمنين العاملين للصالحات، وهذا بتاتاً أبداً غير صحيح، وآيتنا هنا لا تقول بأن من آمن وعمل الصالحات من بعد نزول القرآن هو أفضل ممن سبقه من مؤمنين في زمن الأنبياء والرسل السابقين، لا، بل هو منهم وهم منه، وكلّهم خير البرية.

كلام التفرقة بين المؤمنين نابع من الأفكار المنحرفة الشائعة من العصبية والمذهبية، فالمؤمن العامل للصالحات في عهد النبي موسى(ع) لا يختلف عنده تعالى عن المؤمن العامل للصالحات في عهد النبي عيسى(ع) ولا في عهد أي نبي، أو حتى لو كان مؤمناً على ما يعرفه من حقّ "بقلب سليم" في الفترات والأماكن التي ليس فيها أنبياء ولا كتب منه تعالى، فكلّهم سواسية عنده سبحانه. وأي آية قرآنية فسّروها لتبين أفضلية من آمن بعد القرآن على المؤمنين قبله فهو تفسير مبني على العصبية.

في الموروث الثقافي الديني خصّصنا الرسول محمداً(ع) بالصلاة عليه، بإضافة الاختصار (ص) بعد اسمه، ولكن بعدما انتبهت لهذه العادة المخالفة لما أمر به تعالى، وذلك بما ورد صريحاً في مختلف الآيات ومنها كنموذج ما ورد في

الآية 136 من سورة البقرة "قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ"، غيّرتُ هذه الإضافة (ص) لاختصار عليه السلام (ع)، فكل المؤمنين صلواته تعالى عليهم، وكلهم سلامنا عليهم.

(جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ{8})

{جَزَاؤُهُمْ}، المقابل على إيمانهم وعملهم الصالح، {عِندَ رَبِّهِمْ}، عند المسؤول عنهم من مستوى إلهي، {جَنَّاتُ}، أماكن موصوفة بروعة ما فيها من المناظر الطبيعية الخضراء ووسائل سعادة... {عَدْنٍ}، فهي للاستقرار فيها لأن ما يريدونه موجود فيها، {تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، فتلك الجنات على أراضيها وتحت أشجارها تسير الأنهار كمنظر يضيف روعة لمنظر للأشجار والأزهار والمروج... فلا تبالغ ويذهب بالك أنها كالمستنقعات، لا، بل هو تصوير لمنظر طبيعي يتضمنّه جمالية سريان المياه خلال الخضار، وتلك الأنهار من مختلف أنواع السوائل المشروبة من لبن وخمر وعصائر... كما تفهم من الآية 15 من سورة محمد "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى...".

{خَالِدِينَ فِيهَا}، لا يموتون ولا يفنون ولا يخرجون من تلك الجنّات الرائعة، {أَبَداً}، فمهما جاء من زمن فهم يبقون فيها، وهذه إشارة إلى خلودهم هم وخلود المكان، فلا هم يتغيّر حالهم أو يخرب جسدهم... ولا الجنّة تخرب.

{رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ}، فيقبل سبحانه بمحبّة كل ما صدر ويصدر عنهم، سابقاً كان تعالى راضياً عنهم لأنهم آمنوا وعملوا الصالحات وفي الجنّة سيبقى سبحانه راضياً عنهم مهما فعلوا، {وَرَضُوا عَنْهُ} تعالى، فيرضون بمحبّة كل ما يصدر عنه تعالى لهم، وعملياً فهم لا ينزعجون من أي شيء في الجنّة وفرحون بها دائماً فلا يملّون منها ولا يرغبون بغيرها...

{ذَلِكَ} الخلود في جنّة مع الرضا بها، {لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ}، لمن كان في الدنيا شعر بخطر مخالفة أوامر المسؤول عنه من مستوى إلهي واعتقد أنه يمكن تجنّب ذلك عبر طاعته تعالى، فهذا له الخلود في الجنّة.

نتذكّر أن كلمة رضا ومشتقاتها، معناها في كلام العرب وفي القرآن: وصف شعور كتعبير عن القبول وانتفاء الاعتراض بل بالعكس فهو الموافقة المتدرجة من السرور إلى الحبّ عن فعال أحد ما، والوصف يشمل شعورك "بالرضا" على العمل أو على صاحب العمل. فهي ليست وصفاً لقبول شيء مكروه، فهذا وصفه الصبر، ففي أدبياتنا نجد كلاماً عن الصبر على المكروه، وأن الرضا بالمكروه أعلى من الصبر، وهذا معنى لم يستعمله القرآن في كلامه، ومخالف للمعنى اللغوي لكلمة رضا، ويحمل في طياته معاني أخرى مرفوضة إذا قارنتها مع مفاهيم القرآن، فسبحانه لا يخصّص "من عنده" مكروهاً لمؤمن حتى يكون إيمانه عالياً بالرضا على المكروه، فأي مكروه غير محبوب يحصل مع المؤمن فهو بسبب ذنب ارتكبه المؤمن أو ذنب ارتكبه غيره، وليس منه تعالى أبداً بتاتاً وهذا واضح من عموم كلام القرآن ومنه الآية 30 من سورة الشورى "وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ".

نعم لا مشكلة بالتهاون في معاني الكلمات في الأدبيات التي بيننا إلا إذا كانت تعبّر عن شيء ديني منسوب له تعالى، فالقرآن دقيق في تعابيره ولا يتهاون أو يتساهل أو يتراخى في معاني الكلمات التي يستعملها، وعندما نتهاون نحن ويصير للكلمات معان نظنها من مفاهيم قرآنية، وعندما تترسخ هذه المعاني المتراخية للكلمات في ذهننا، فعندها سنقع في مشكلة تفسير كلام القرآن على أساس المعنى والمفهوم الذي أصلاً تراخينا فيه.

لدينا كم هائل من الآيات التي تصف روعة الجنّة وأن من يدخلها سيبقى مذهولاً بروعة ما فيها أبداً، بلا ملل ولا أي رغبة في شيء آخر، فكل ما يرغب به يجده في الجنّة، بل يجد فيها ما لا يخطر على باله... وكمثال جامع لذلك ما ورد في الآية 108 من سورة الكهف "خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا" فهو راض بها، وراض عنه تعالى، وهذا هو معنى كلمة الرضا لغوياً وهكذا استعملها القرآن، وهي لا تتحمّل ولا تتوافق مع ما درج في أدبياتنا عن الرضا على شيء مكروه، والذي سيعني ضمناً احتمال حصول شيء مكروه في الجنّة، ورغم ذلك سيرضى عنه المؤمن، لا، فانتبه دائماً من ذلك.

سورة الزلزلة (99) ص 599
تعرض السورة مشهداً مختصراً عن القيام من الموت حيث سنتحاسب على ما عملناه في الدنيا من خير أو شرّ.

سورتنا هذه نموذج بارز عن معلومة محدّدة يريدنا تعالى أن نقرأها وأن نكررها، فعموم قصار السور تتناول مواضيع محدّدة قصيرة بدون أي تشعبات، فلو قايستها مع طريقتنا نحن في طرح المواضيع، لقلت: يجب أن يكون الموضوع تاماً كاملاً يتناول كل الجوانب والتفريعات المتعلقة به. ولكن لا تتحمّل كل المواضيع هذه الطريقة بالطرح، فكل المواضيع التي طرحها القرآن متّصلة وتحت عنوان: معلومات يريدنا تعالى أن نقرأها، دينه تعالى، أوامره تعالى، الهداية الإلهية، ما يجعلنا ندخل الجنّة... تخطيطه تعالى... وكل هذه الجمل عملياً هي مرادفة لبعضها، ولا نتحمّل نحن استيعاب طرح موضوع بهذا الحجم الكبير دفعة واحدة، ولذلك قسّمه تعالى لسور.

في بعض السور خبر إلهي وشرح وردّ على ما يقوله المخالفون للقول الإلهي، وبعض السور الأخرى هي مجرّد خبر إلهي لنا، كسورتنا هنا، فلا تجد فيها تفاصيل عن النفخ في الصور ولا عن أحوال تبدّل ما في الدنيا ولا عن تفاصيل الحساب ولا الشريعة ولا العقيدة... بل مجرد خبر يوقظ فينا التجهّز ليوم القيام من الموت، ومن المفروض أن ينتج عنه حالة شعورنا بضرورة تقويم سلوكنا، وهذه هي أهمية السور القصيرة التي في أقل من دقيقة قراءة تحفّزنا على تعميق إيماننا، فلا تطلب من هذه السورة "وأشباهها" أن تطرح عليك مواضيعَ معقّدةً ومتشعّبةً، ولا تتغافل عن أهميتها لبساطة طرحها، فهي موجّهة عن قصد لتكون قصيرة وهادفة لمعنى بسيط.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا{1})
{إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ}، إذا اهتزّت فتحركّت واضطربت الأرض من بعد ثباتها، {زِلْزَالَهَا}، هناك زلزال من المقرر حصوله للأرض، فإذا حصل هزّ الأرض بتحرّكها المقرّر لها.

(وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا{2})
{أَثْقَالَهَا}، عموم الأشياء التي لها شكل ووزن وحجم ستخرج من الأرض، ومن بقية السورة ومن عموم القرآن تعلم أن الكلام هنا عن خروج الأموات من الأرض، فهم متضمَّنون فيها وهي تحملهم كما هو معلوم لك وأشارت له آيات منها الآية 4 من سورة ق "قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ" والآيات 25 و 26 من سورة المرسلات "أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا، أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا"، وفي زمن القيامة من الموت سيخرج الناس من الأرض، وهم ثقل، فهم شيء كان متضمَّناً في الأرض وسيخرج منها.

هناك كلام منتشر في الكتب حيث يفسر البعض كلمة أثقال بأنها الكنوز، من ذهب وفضّة وعملات وجواهر... ويقولون بأنها ستخرج يوم القيامة، وكما ترى، فما معنى خروج الكنوز في يوم القيامة سوى كونها فكرة من أحلام وتمنيات للحصول على كنوز الأرض! وما معنى هذا التفسير نظراً لبقية ما تقوله السورة؟! وما معناه إن كانت الجبال ستنهار وتكوين الأرض سيتبدّل وتصير بلا اعوجاج؟ فعن أي كنوز يتحدثون طالما أن الأرض غير الأرض التي كانت، فهي أرض لا أثر فيها لأي شيء من عمارة أو نبات، فكيف سيصمد فيها كنوز؟ ولأي سبب ولأي منفعة ستخرج الكنوز؟

كما ترى فكرة الحصول على الكنوز المخبأة في الأرض هي هوس عام منتشر كثيراً بين الناس، علماً أنها فكرة هوسية خيالية، فما في البنوك اليوم من ذهب ومجوهرات يفوق بأضعاف كثيرة جداً جداً ما هو مدفون تحت الأرض من آثار القدماء... أطلت عليك لترى كيف نقع "كلّنا" في تفسير القرآن انطلاقاً من أفكار "وهمية" تتحكّم فينا بشدّة ولا ننتبه أنها من خيالنا ولا علاقة للقرآن بها ولا يقصدها بكلامه.

بقي شيء، سورتنا هنا لم تذكر قيامنا من القبور، فعمّمت لقيامنا من الأرض، فماذا لو مات أحد ما في الفضاء وبقيت جثّته هناك؟ ضع في بالك دائماً أن كلام مختلف الآيات من مختلف السور عن قيام الأموات من القبور، هو مجرد تعبير عمّا ينصرف إليه ذهننا عن مكان يتواجد فيه الأموات عادةً، فهو كلام عن نماذج، فلدينا تعابير عن قيامنا من الأجداث وهو لعموم أي مكان ارتمت فيه جثّة مقبورة أو على وجه الأرض، ولدينا تعابير كآيتنا هنا لخروجنا من الأرض وهو

عمومي أكثر، ولدينا تعابير أعمّ كما تجد في الآية 148 من سورة البقرة "...أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"، وهكذا نفهم الكلام القرآني عن عودة الجميع إلى الحياة كيفما وأينما ماتوا، حرقاً غرقاً تبخراً تحلّلاً... في الفضاء في باطن الأرض على وجهها... لا يهمّ فكلّهم سيرجعون بالطريقة المناسبة، وبحسب ما يناسب كل سورة فهي تذكر شيئاً لتفعيل صورة محدّدةٍ في ذهنك، كما في حالة الآية 9 من سورة العاديات "أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ" التي غضّت النظر عن الذين ماتوا في البحر أو أكلتهم الحيوانات... واختارت ما يفعّل صورة الأموات المألوف لك كمكان لتواجدهم فيه...

(وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا{3})
{وَقَالَ الْإِنسَانُ}، قال الغالب الأعمّ من الناس الذين خرجوا من الأرض من بعد حصول الزلزال، قال: {مَا لَهَا}؟ بالعامية: شو بها؟ لماذا تتزلزل وتخرجنا منها؟

لا تنسَ أن الوهلة الأولى التي تصيبنا في لحظة خروجنا من الأرض من الموت إلى الحياة في الآخرة، هي وهلة عامّة للجميع تقريباً، فالمؤمن والكافر تصيبه الوهلة، ولدينا العديد من الآيات التي تصف مختلف مشاعرنا، فالذي لم يتجهّز لذاك اليوم سينصدم ويعلم بأن القادم سيئ من أول لحظة، حيث يقوم من الموت تعبانَ متألماً كئيباً تعنّفه الملائكة(ع) بالكلام والضرب كما ورد في الآية 93 من سورة الأنعام "... وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ..."، ويقوم المؤمن فتتلقاه الملائكة(ع) كما قالت الآية 103 من سورة الأنبياء "لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ".

ضع في بالك دائماً أن القرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموماً ذكراً وأنثى، وأنهم يتناسلون... أو متعلّق بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...

من القرآن تعلم أن الغالب الأعمّ من الناس سيكون وضعهم تعيساً في الآخرة، فأكثرهم كافرون فاسقون منافقون كما هو واضح من عدة آيات منها الآية 179 من سورة الأعراف "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ..."، ولذلك استعملت الآية هنا التعبير بكلمة إنسان التي تشير إلى شيء منتشر بكثرة فينا، فبما أن أكثر الناس مصيرهم النار فهم الغالبية، فالإنسان "فالغالب الأعم من الناس" سيقول: ما لها.

إذاً يبدأ الناس باستعادة وعيهم أثناء تزلزل الأرض الذي يخرجهم منها، ويستمرّ تزلزلها حتى لما بعد استعادتهم لوعيهم، وتقرأ ذلك في الآيتين الأولى والثانية من سورة الحج "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ، يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ". وسيأتيك بعد آيتين أنه أثناء الزلزلة يصدر الناس أشتاتاً.

(يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا{4})
{يَوْمَئِذٍ}، في ذلك الزمان، في يوم القيامة من الموت، {تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا}، فالأرض لن تجيب بالكلام على سؤال الإنسان "ما لها"، بل الخبر عن إخراجها للأموات إلى الحياة يخبرنا: بأن ربك أوحى لها.

مثلما تقول لمزارع أن يحصد قبل قدوم البرد الذي سيتلف المحصول، فيقول لك بأنه سيترك المحصول لبضعة أيام، فتقول له: يومئذ تحدّث أخبارها. فحين يأتي البرد سيفسد المحصول.

(بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا{5})
{بِأَنَّ رَبَّكَ}، بأن المسؤول عنك من مستوى إلهي أيها الإنسان، {أَوْحَى لَهَا}، أوصل سبحانه بلا كلام مباشر إلى الأرض بأن تتزلزل وتقوم بإخراج الأموات.

سيفهم الإنسان من مشاهدة عودته وعودة الآخرين إلى الحياة بأن أمراً إلهياً صدر للأرض فتزلزلت وأخرجتنا منها.

من عموم القرآن تعلم بأن الذي قام من الموت وهو لم يستعدّ للآخرة فهذا سينصدم بالفجأة، ومن أوّل لحظة سيفهم بأنه اليوم الموعود الذي سمع عنه من الدين الإلهي.

بعبارة أخرى، سنعود إلى الحياة في الآخرة أثناء زلزلة الأرض، فنبدأ باستعادة وعينا ونرى الأرض لا تزال تتزلزل ويخرج منها الناس، فما الخبر؟ ماذا يحدث؟ الواضح للجميع أنه تعالى أوحى للأرض أن تعيد تَشَكُّلَ الأموات، فخبر إخراجها للأموات منها سببه وحيه تعالى لها. يعني: وقع يوم القيامة من الموت. وهذا خبر مفرح للمؤمنين الذين يرون عودتهم وعودة الآخرين إلى الحياة، وهو الخبر ذات نفسه مصيبة للآخرين.

نتذكّر ما مرّ معنا في عدة سور بأن للأرض وللجبال وللسماوات... وعياً ما، وعيٌ يتعامل معه الإله بقدراته الفائقة أمّا نحن فبالنسبة لنا نعتبرها جمادات لا وعي لها ولا بأي شكل، ولكن هذا من ناحيتنا نحن، أمّا من ناحيته تعالى فكرّر لنا في القرآن عدّة مرّات أن لها نوعاً من الوعي، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 11 من سورة فصلت "ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ"، فتتلقى الأوامر الإلهية وتنفّذها، فلا يذهب فكرك إلى الابتعاد عن ظاهر ما تقوله الآية عن وحي إلهي موجّه للأرض، فهو هذا ما تقوله الآية صراحة ومدعوم بآيات عديدة تنقل كلامه تعالى مع السماوات والأرض والجبال، فليبقى من ناحيتك اعتبارها جمادات بلا وعي، فهذا صحيح من ناحيتك، ولكن خذ علماً أنها كيانات لها وعي ما، مختلف عن وعيك، ويتعامل معها سبحانه بما يناسب نوعية وعيها الذي لن تفهم معناه كما هو واضح من كلام الآية 44 من سورة الإسراء "تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...".

الوحي هو عموم إيصال المعنى بلا كلام مسموع صادر مباشرة من القائل، سواء أكان خيراً أم شرّاً، وبناء عليه، فكل أنواع تواصله تعالى مع مخلوقاته تكون وحياً لأن التواصل المباشر معه تعالى مستحيل بسبب الفرق الهائل بين طبيعته تعالى وبين المخلوقات، فحتى الملائكة(ع) يوحي سبحانه لها كما تقرأ في الآية 12 من سورة الأنفال "إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ...".

ينطبق فعل الوحي على أي كائن كان "إنساناً، حيواناً، مَلَكاً أو جنّاً" إمّا بالإيحاء بينهم لبعضهم أو بوحي منه تعالى لهم، وطرق فعل الوحي أنواعه متعددة، من الإشارة باليدين لوصول المعنى إلى العينين كما في حالة النبي زكريا(ع) الواردة في الآية 11 من سورة مريم "فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا". ووحي وصول المعلومات إلى الوعي مباشرة كحالة نزول هذا القرآن كما تفهم من عموم السور ومنه ما ورد في الآية 32 من سورة الفرقان "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا" وما ورد في الآية 193 و 194 من سورة الشعراء "نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ". أو الوحي بالمنام... كما تقرأ في الآية 102 من سورة الصافات "فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ..."، وهي حالة الوحي العامّة للأنبياء والرسل. ووحي عبر إصداره تعالى صوتاً في شجرة كما تقرأ من الآية 30 من سورة القصص "فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ"، مضافاً لها الآية 13 من سورة طه "وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى"، فكلامه تعالى معه(ع) وحي لأن الكلام ليس صادراً مباشرة منه تعالى فهذا مستحيل، وحالة الكلام عبر الشجرة مشابهة لحالة استعمالي لآلة تحوّل ما أكتبه إلى صوت، فيصير وصف الحالة أن كلامي يصلك وحياً.

هناك وحي ناتج عن نوع الخلقة بما فيها من قابلية على فعل شيء ما كتعليمات مزروعة، كحالة النحل كما ورد في الآية 68 من سورة النحل "وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ" ففي النحل ما يجعلها تتصرّف بهذا الشكل.

الوحي يصدق على وحي الخير والشر، فالشياطين يوحون كما ورد في الآية 112 من سورة الأنعام "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا..." ومعلوم أنهم يوحون بالشرّ... فالوسوسة في الفكر... والإلقاء في الروع "في الوعي"... مهما كان نوعه خيراً أو شرّاً فهو وحي.

(يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ{6})

{يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ}، بموتهم كانوا قد وردوا إلى الأرض وفي زمن القيام من الموت يصدرون منها، كما نقول: صادرات وواردات عن البضائع. فيفارقونها ويخرجون منها، {أَشْتَاتاً}، متفرقين بشكل وطريقة غير متشابهة، فهذا يصدر من هنا ومجموعة تصدر من هناك، وهذا يقوم مرعوباً وذلك تتلقاه الملائكة(ع) بالبشرى لأنه مؤمن... {لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ}، ليتم جعلهم يرون ما عملوه، وكما تعلم من عموم القرآن، ومن الآية التالية فسوف يجعلهم تعالى يرون الأعمال التي قاموا بها في الدنيا.

لاحظ أن عموم القرآن يعرض عليك مشهد خروج الناس من الأرض إلى الحياة في يوم القيامة، حيث نخرج فرادى مخلوطين من كل الأنواع، فلا يقوم كل المؤمنين من مكان واحد والبقية من مكان آخر، لا، بل أشتاتاً من هنا وهناك ومخلوطين مؤمنين وكافرين، وبعد ذلك يتم فرزنا زمراً ومجموعات، فالمؤمنون إلى اليمين والآخرون إلى الشمال، وهنا الآية تصوّر لك أول مشاهد خروجنا من الموت أشتاتا، فكل واحد يقوم من جهة.

الجواب عن خبر ما للأرض ولماذا تتزلزل، فهو إيحاؤه تعالى للأرض لتتزلزل وتلفظ الأموات منها، ليروا ما عملوه، وليتحاسبوا عليه.

بقي شيء، فماذا عن آلية وكيفية عودتنا إلى الحياة؟ فصريح القرآن يقول بأننا سنرجع من التراب، ولكن هذه إشارة إلى المواد التي سيعيد تعالى تكويننا منها، فكيف سأرجع أنا إلى الحياة؟

المشهور بين عموم التراث الثقافي للمنتمين لدينه تعالى من يهود ومسيحيين ومسلمين، أنه تعالى سيخلق أجساداً من التراب ويجعلها لحماً وعظماً، ويعيد تسقيط الروح أو النفس أو الجوهر أو الطاقة... في الجسد، فالجسد مجرد وعاء، وأنا كنت محفوظاً بشكل مختلف، بروحي بنفسي بجوهري...

بهذا الكلام يتخلصون من تعقيدات وإشكالات عديدة، منها ما يسمّى بشبهة الآكل والمأكول، فأنا متّ وصرت تراباً ونمت نبتة على قبري امتصّت تراب جسدي... وأكلها حيوان... وأكله إنسان... فما كان يتكون منه جسدي صار في أجساد أخرى. فإذا قلنا بأن الجسد مجرد وعاء، وحين أموات يأخذ تعالى روحي أو نفسي أو جوهري، ويحتفظ به، ويعيد وضعه في أي جسد كان، فأنا بذات نفسي سأعود ولا أهمية لمواد الجسد القديم.

بكلامهم هذا عن "الروح والنفس" يتخلصون من مشكلة إعادة المعدوم، حيث اخترعوا اصطلاحات لكلمة معدوم وموجود ونسخة وفناء... وبناء عليه فإذا انعدمت أنا بانهيار كياني إلى مواد أولية لذرات كربون وكالسيوم وحديد... وجرى إعادة تجميع الذرات نفسها على نفس ما كان عليه تركيب ذرات جسدي، فيقولون أن هذه نسخة عنّي ولست أنا بذات شخصي، وهكذا حين يقولون بأن الروح أو النفس هي أنا بذات نفسي، وكانت محفوظة عنده تعالى عندما متّ، وأعادها تعالى إلى جسد جديد، فأنا بذات نفسي عدت... وهكذا يتخلصون من أنواع هذه الإشكالات.

المشكلة في هذا الكلام أنه ليس مدعوماً قرآنياً، ويسري في ثقافتنا وكأنه من أساسيات مفاهيم الدين الإلهي، وكأنه جاء من صريح كلامه تعالى، وهذا غير صحيح، فلن تجد في القرآن أي كلام صريح أو تلميح عن الروح والنفس أنها هي كياني وأنها هي ما سيرجع في الآخرة. فأي آية تخطر على بالك عن ذلك فراجعها في دراستنا لترى معناها، وسترى كم هي بعيدة كل البعد عمّا قيل...

ليست المشكلة في البحث واقتراح افتراضات ونظريات عن آلية عودتنا إلى الحياة، بل لا مشكلة أبداً بتاتاً في محاولتنا نحن إعادة من مات، فقد فعلها النبي عيسى(ع) كما ورد في الآية 49 من سورة آل عمران "... وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ ..."، وجرت على يدي النبي إبراهيم(ع) كما ورد في الآية 260 من سورة البقرة "وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"، بل سيكون رائعاً لو تمكّنا نحن من إعادة الموتى بتقليد جزئي أو محاكاة... للآلية التي سيعيدنا فيها تعالى إلى الحياة في الآخرة، فهناك من التراب "من المواد الأولية" سيعيد تعالى خلقنا، فماذا لو تمكّنا نحن من إعادة الحياة لجثّة، أو إعادة تركيب الذرات بشكل متطابق لجسد ما...

أظنك فهمت الفكرة ولا داعي لمزيد من التفاصيل، فالبحث في كيفية استعادة الميّت لوعيه هنا أو في الآخرة، من جسد أو من مواد أولية، من شيء محفوظ أو من الصفر... فهو بحث مفتوح لم يقيّدك كتابه تعالى بأي فكرة أو فرضية أو

نظرية عنه، فالخطأ كل الخطأ اعتبار هذا الموضوع دينياً، وأن جوابه أو الكلام عنه محصور في كتب الدين، وبين علماء الدين، فهذه مجزرة فكرية بحق دينه تعالى.

لا آليات نشأة الكون ولا آليات نشأة الحياة ولا تبدّل ما في الدنيا، ولا عودتنا ولا الخلود في الآخرة... مطروحة في كلامها تعالى لتكون كلاماً مقدساً ممنوعاً تجاوزه، لا، فالقرآن تكلّم عن مراحل لبعض تلك الأمور، فتكلّم عن ستة أيام لخلق السماوات والأرض الدنيا وعن يومين منها لخلق الأرض، ومن المفيد جداً هنا مراجعة ما درسناه في سورة فصلت من الآية 9 وما بعدها "قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ..". وتكلّم القرآن عن مراحل خلق الإنسان، ومن المفيد مراجعة ذلك في دراستنا من الآية 7 وما بعدها من سورة السجدة "الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ"، وغيرها من المواضيع كنزول الماء وخروج النبات وجريان السفن... فأشار القرآن بعبارات بسيطة يفهمها أي إنسان متوسّط الثقافة وسيدرس القرآن ليرى أنها بعضا من المراحل، وليست كلاماً عن آليات وكيفيات، فالكلام عن مراحلها ومضافاً له كلام القرآن عن أمور من خارج حدود ما تطاله حواسنا وتجاربنا حالياً، فهو ككلامه عن الجن والملائكة وست سماوات غير سمائنا... وكلامه عن أمور خارقة كنقل إنسان لعرش من سبأ إلى أرض كنعان برمشة عين، وكلامه عن أمور لا نفهمها حالياً ككلام الطير مع النبي داوود(ع)، وغيرها... فهي أمور تقصّد منها سبحانه وتعالى استفزازنا لنرى أبعد من أنفنا، ولا نتقيّد بما نراه فقط ونلمسه وكأنه آخر الدنيا ومنتهى العلوم...

بتلك الاستفزازات لفضولنا فتح تعالى الآفاق أمامنا، فبأي حقّ نغلقها ونجعلها أموراً دينية محصور البحث فيها في كتب الدين! فهل قال تعالى ذلك أم قاله بعض الناس؟

بالمختصر فأنا من وحي كلامه تعالى أميل إلى شيء اقترحه ولم يَقُلْهُ المتدينون، فهل يحقّ لي قوله لأني محسوب على علماء الدين؟ وأنت لا يحقّ لك افتراض أو اقتراح آلية لنشأة الكون ونشأة الحياة وعودة الأموات إلى الحياة... لأنك لست من عصابتنا؟

أم سأخاف منك أن تسحب البساط من تحت أرجل "علماء الدين" ولا تترك لنا أي شيء من اختصاص الدين، فنتعرّى من أهميتنا؟

أم أخاف عليك من الكفر إذا قلت أنت كلاماً يتعارض مع الدين، وبذلك ستقع في مصيبة العقاب، بينما أنا يمكنني اللعب بين الخطوط فما أقوله لن يكون كفراً؟ أم...

ما هذه الترهات! فالبحث عن الآليات والطرق لحدوث الأشياء والظواهر، أصلاً كيف يمكن أن يصير كفراً؟ أنا أقول لك كيف يصير كفراً، فهو يصير كذلك بعد أن يصير كلام علماء الدين بقداسة كلامه تعالى، فهذا القرآن كلامه تعالى، وهو فقط وفقط المقدّس، أمّا تفسيرنا له، وآراؤنا التي ندّعي أنها مشتقّة منه، فهي ليست مقدّسة، بل عرضة للخطأ، ويحقّ لأي كان التعليق علينا، ويحق لأي كان محاولة تفسير كلامه تعالى... هذا من جانب، ومن جانب آخر، فكلام المتدينين هو الذي جعل كلام الآخرين كفراً، فجعل بعض النظريات والفرضيات العلمية كفراً، لأنهم وبغالبيتهم الساحقة فهموا كلامه تعالى بسذاجة وطفولية، وفرضوا ما فهموه على الآخرين، فصار ما فهموه هم هو الدين! وأسوأ ما فرضوه على الناس "أنه الدين الإلهي" فهو إعلانهم أن الأمور تحدث بأمره تعالى على معنى أنها تحدث بدون آليات ولا أسباب! فهكذا يأمر تعالى، وتحدث الأشياء، ضاربين بعرض الحائط كل كلامه تعالى عن مراحل لخلق ما في الدنيا، وكلامه عن مراحل خلق الإنسان، وكلامه عن أحوال تبدّل ما في الدنيا لتتشكّل الآخرة... ومن هذا الأساس الفاسد صار كفراً أي كلام عن آلية لحدوث شيء ما!

صار وضع فرضية لنشأة كوننا تشرح آلية تشكّله، كفراً! وصار وضع فرضية لنشأة الحياة على الأرض كفراً! بينما وبكل بساطة تقصّد سبحانه استفزاز ما منحنا من خيال وفكر وفضول... وقدرة على محاكاة الأمور وإجراء تجارب... حتى نتعرّف على جوانب من قدراته الفائقة في التصميم والخلق لنؤمن به كإله فائق القدرات والصفات، فلمسنا السطحي لمعرفة آليات نشأة كل ما في الدنيا، ما هو إلا محاولة للتعرّف على الآلية التي خلق بها سبحانه الدنيا، وليست إلغاء له تعالى واستبدال أفعاله بآليات سبّبت لوحدها نشأة ما في الدنيا، فهذه ترهات سبّبها كلام المنتمين لدينه تعالى اللاغين لآليات حدوث الأشياء، واعتبار البحث فيها كفراً!

إذا أحببت مراجعة كلام يفتح أفق البحث عن خلقنا وعن آلية عودتنا إلى الحياة، فراجع دراستنا للآية 67 من سورة مريم "أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا".

(فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ{7})
{فَمَن يَعْمَلْ} منكم أيها الناس، {مِثْقَالَ ذَرَّةٍ}، يعمل أي شيء له شكل أو وزن أو حجم حتى لو كان صغيراً جداً وبالكاد نراه، {خَيْراً يَرَهُ}، سيحصل عند الإنسان صورة في الآخرة لذلك الشيء الذي قام به في الدنيا وكان موصوفاً بأنه جيدٌ حسنٌ، حتى لو كان بالكاد يمكن رؤيته.

أصل كلمة "ذرّة" "ذرّ" وتشير لأي شيء مفرد منفصل عن غيره، ومنه الذرية للأولاد، وكلمة ذرّة بالاستعمال العربي القديم هي لأي شيء صغيرٍ جداً يمكن رؤيته بالعين فنقول للنمل الصغير جداً الذي يأكل الخشب: ذرّ. ونقول لبذر نبات الخردل الصغير جداً: ذرّ. ونقول للرماد الناعم جداً: ذرّ... فلا يذهب فكرك لذرة المواد التي تتألف من إلكترون وبروتون ونيوترون، فهذا اصطلاح جديد لتتوسّع كلمة ذرة للانطباق عليه.

الذي عمل الخير سيرى الخير مكتوباً في صحيفة أعماله، وسيرى قيمة الأجر عليه... ولكن الكافر والمشرك والمرتكب للسيئات الكبيرة لن ينال الحسنات على أعمال الخير التي قام بها، لأنها تحبط، فتذهب قيمتها، وشرح القرآن لنا ذلك وأخبرنا عن سببين لحبط الأعمال مرتبطين بالإيمان به تعالى، فهم قاموا بالأعمال التي توصف بأنها خير، فآووا الأيتام وساعدوا المحتاجين... ولكنهم لم يقوموا بهذه الأعمال طلباً للثواب منه تعالى فلماذا سيعطيهم سبحانه ثواباً عليها؟ وتفهم ذلك كمثال من عكس معنى الآية 9 من سورة الإنسان "إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا"، والسبب الثاني تفهمه من الآية 65 من سورة الزمر "وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ"، فما نقوم به من خير لوجهه تعالى سننال عليه ثواباً، وأي عمل حسن بنيّة أخرى غير نيّة القربى منه فلن يعطي تعالى عليها ثواباً، سواء كانوا مؤمنين به ولم يفعلوا الخير طلباً للثواب منه أو سواء كانوا مشركين به.

أيضاً سبب حبط الأعمال أن العمل السيّء من النوع الكبير يلغي قيمة الأعمال الحسنة مهما كانت ضخمة إذا مات الإنسان ولم يتب أو يستغفر منها، وترى ذلك صريحاً وموجّهاً للمنتمين لدينه تعالى كما في الآية 2 من سورة الحجرات "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ"، ولنقل أن شخصاً قتل نفساً بريئةً، ولكنه أنقذ ملايين الناس من الموت، فطالما مات ولم يتب ولم يستغفر ولم يندم ولم يشعر فعلاً بأن قتل النفس البريئة عمل سيئ كان من المفروض أن لا يفعله مهما كانت الظروف والأسباب، فهذا لن ينال ولا أي حسنة على إنقاذه لملايين البشر، وفي الآخرة سيرى إنقاذه لملايين البشر عمل خير، وسيرى قيمة الثواب الضخمة عليه، ولكن سيراه حابطاً، فاقداً للقيمة، وهذا ما تقوله الآية 23 من سورة الفرقان "وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا".

أمّا المؤمن الحقيقي، ففي الآخرة يرى عمل الخير الذي قام به، ويرى قيمته كثواب، وهكذا تفهم أن رؤية العمل لا تعني الحصول على أجره، فهي تعني مجرّد رؤيته، وينال الأجر عليه من استحقّ الأجر، ويراه يتبخّر من لم يستحقّ عليه الأجر.

(وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ{8}
{وَمَن يَعْمَلْ} منكم أيها الناس، {مِثْقَالَ ذَرَّةٍ}، أي شيء له وزن أو حجم أو شكل ولو كان صغيراً جداً، {شَرّاً}، موصوفاً بأن لا خير فيه، {يَرَهُ}، سيحصل عنده صورة محدّدة في يوم القيامة عن العمل السيئ الذي قام به حتى لو كان صغيراً جداً جداً.

هكذا باختصار أخبرتنا السورة عن حتمية القيام من الموت في الآخرة، ورؤيتنا بعدها لكل عمل قمنا به في الدنيا، حتى لو كان صغيراً جداً، فسنتحاسب عليه، فمن لم يكن مؤمناً فسيرى أعماله الشريرة ويتحاسب عليها، حتى لو كانت بمقدار بذرة خردل كما تقرأ في الآية 47 من سورة الأنبياء "وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ"، فإلى هذا الحدّ حسابه تعالى دقيق.

بالنسبة للمؤمن فهل يرى ما فعله من شرّ؟ يبدو من القرآن أن المؤمنين من الدرجة العالية يكفّر سبحانه عنهم سيئاتهم، أي يسترها فلا تظهر في صحيفة أعمالهم، فهي مغفورة لأنهم استغفروا منها ولن يتحاسبوا عليها، ومضافاً لذلك فكرامة منه تعالى لهم يمحيها من كتبهم فلا هم يرونها ولا يراها الآخرون، ولدينا آيات عديدة تقول ذلك، منها الآية 271 من سورة البقرة "إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"، وهذه الآية ترى منها أن بعض الأعمال التي يحبّها تعالى جعل لها أثراً عظيماً، فجعلها تستر الأعمال السيئة في الآخرة، وترى في هذا الكلام قصده المؤمنين من الدرجة الأقل، فهؤلاء بعضهم مجموع أعماله من سيئات وحسنات ترجّح منه قراره تعالى بدخولهم الجنّة، ولكنهم لم يصلوا إلى مستوى تكفير كل ذنوبهم، فهؤلاء سيرون أعمالهم السيئة التي سيتحاسبون عليها.

منطوق الآية عمومي نموذجي وليس عن الحالة الاستثنائية للمؤمنين من الدرجة العالية، فهؤلاء لن تظهر لهم ولا سيئة لأنها كلّها مغفورة، فكلام الآية عن الذين سيتحاسبون على أعمالهم السيئة، فمن يعمل مثقال ذرة شراً، سيتحاسب عليه إن لم يكن من المؤمنين، أو كان من المؤمنين من الدرجة المنخفضة، فلم يتب من سوئه، ولم يستغفر. فهؤلاء "المؤمنون من الدرجة المنخفضة" بعضهم يدخل إلى النار لثانية، أو ساعة، أو سنوات، أو ملايين أو مليارات السنين... لأن عليهم ذنوباً لم تغتفر.

سورة العاديات (100) ص 599

تتمحور السورة بشكل مختصر حول الحالة الشديدة على الإنسان في يوم قيامه من الموت ليقف أمام الخبير سبحانه.

بدايتها شبيهة جداً بالعديد من السور التي استعملت الكلمات العربية على معناها الأساسي لتصف الملائكة(ع) أثناء قيامها بعمل ما، كالنازعات والصافات والمرسلات... وإذا راجعت الكتب فستجد أن الغالبية رجّحوا كون مقدمة السورة وصفاً لغارة قام بها المسلمون، وذلك استناداً على بعض الروايات، ولكن لن تجد ربطاً لهذا المعنى مع بقية كلام السورة! ولن تخرج من الروايات إلا بضبابية مجملها حصول غزوة غير معلوم قائدها ولا متى ولا أين حصلت؟!

في كتاب الإرشاد نجد ذكر غزوة ذات السلاسل في زمنين، الأول بعد غزوة قريظة وقبل غزوة بني المصطلق والثاني بعد غزوة تبوك، وذكر في الحادثتين أن سورة العاديات نزلت فيهما؟! وفي القصتين أشياء غامضة وناقصة.

لدينا روايات متفرقة تقول أن غزوة أيضاً تُسمّى "ذات السلاسل" قادها عمرو بن العاص بروايات مختلفة في التفاصيل والأماكن. وبحسب اطِّلاعي فالطبرسي نقلا عن مقاتل قال إن السورة نزلت في سرية على أحياء من كنانة وكان على رأس الغزاة "من المسلمين" المنذر بن عمرو الأنصاري، وقال: أو نزلت في غزوة ذات السلاسل التي قادها الإمام علي (ع)، ولا يبدو أنه يوثق تلك الرواية المنقولة عن الإمام جعفر الصادق ؟! وفي حدود بحثي واطِّلاعي لم أجد أحداً في كتب التاريخ يذكر هذه الغزوة للمنذر غير مقاتل "140 هجري تقريبا" ثم الطبرسي نقلا عنه؟! مما يضعك أمام نموذج ما يمكن أن تخرج منه بنتيجة اعتماداً على الروايات والموروث، هذا ولم أذكر لك الروايات التي تفسّر مقدمة السورة بأنها تصف تنقّل الحجاج من مكّة إلى عرفة ومنها إلى المزدلفة فمنى... فهذا النوع من التفاسير هو إسقاط من المفسّر لحدث يراه مناسباً لوصف الآيات له، وأنا أفعل ذلك أيضاً، وأدّعي أن تفسيري يستند إلى تقريب قرآني، ولذلك تراني أذكر لك آيات من سور أخرى أدعم بها ما اقترحته، فالقرآن كلام الإله عزّ وجل، ويعجز عن الإتيان بمثله الإنس والجنّ حتى لو تعاونوا على ذلك، فدراسته لن تكون كلّها سهلة بلا جهد، ولأسباب عديدة تقصّد سبحانه استفزازنا بعبارات بحاجة للدراسة، لا لتكون حزازيرَ، بل لتكون دافعاً للتعمّق والمقارنة، والمفاجأة بالنتيجة، وصادمة بكلام تحتاج لقراءته مراراً لتفهمه، وذاهبة بك إلى ما هو أبعد من النص البسيط، وبلاءً تظهر منه عيوب قلوبنا المريضة بتفسيرات فاسدة من هوانا السيئ.

هل نجت دراستي هذه من ذلك؟ لا، فاستفد مما يتماشى مع القلب السليم، وقوّم ما يقبل التقويم، وارمِ عرض الحائط ما خالف بقية القرآن، واستغفر لي عن ذلك فإني ما قصدت إلا وجه الكريم.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً{1})
{وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً}، تأكيد بالموصوفة أنها تعدو، فتجري بسرعة ويصدر عنها ضبح، وهو صوت ناتج عن الركض السريع، إمّا صوت النفس من الحيوان أو صوت الريح حول الراكض، كضبح الرمح بإصداره صوتاً في الهواء من سرعته.

الكلام يبدو وصفاً للملائكة(ع) في يوم القيامة أثناء تعاملها مع قيام الكفّار من الموت، فبسرعة تتّجه الملائكة(ع) نحوهم "تعدو"، ويصدر من سرعتها نحوهم صوت "ضبح".

(فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً{2})
{فَالْمُورِيَاتِ} التي توري، فتصنع وتحدث ناراً، {قَدْحاً}، شرارات من الاحتكاك، مثل شرارة القداحة، فبسبب السرعة العالية للملائكة(ع) أثناء حركتها باتجاه الذين قاموا من الموت، تصدر شرارات من عدوها "جريانها" باتجاههم. ولم يستعمل القرآن كلمة قدح أو مشتقاتها إلا هنا في هذه الآية.

لاحظ الآيتين السابقتين وما يلي من السورة فهو يناسب تماماً وصف أحصنة في غارة، فهنا يناسب الوصف لصدور شرر من حدوات الأحصنة أثناء عدوها وضبحها... ولكن بمراجعة الآية 3 من النازعات "والسابحات سبحا" والآية 2 من المرسلات "والعاصفات عصفا"، تفهم أنه كما تلك الأوصاف تناسب الريح والسفن تماماً، فهذا لا يعني أنها لا تنطبق كأوصاف على شيء آخر، وهناك ناسبها تماماً أن تكون وصفاً للملائكة(ع) أثناء قيامها بعمل ما... وهنا نفس تعابير أوصاف غارة فرسان على خيل فالكلمات تناسب هي نفسها لتكون أوصافاً لغارة تقوم بها الملائكة(ع)، وبقية السورة متلائمة تماماً مع غارة الملائكة(ع) على كافر قام من الموت في الآخرة.

حالة تشابه الأوصاف مماثلة للشهب التي ترمي بها الملائكة(ع) على الجنّ المحاولين اختراق السماء العالية، فالحدث ليس في سمائنا، والمواد التي هناك ليست مثل موادّ سمائنا، ولكن باللغة البشرية فوصف تلك المقذوفات أنها شهب، وهنا نفس الكلام، فهي ذاتها الأوصاف مناسبة لفرسان على أحصنة في غارة وللملائكة في غارة، طبعاً مع فارق التكوين بين الكائنات.

(فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً{3})
{فَالْمُغِيرَاتِ}، اللاتي يقمن بالغارة، بالهجمة السريعة، {صُبْحاً}، في أول حدث يسبقه حالة مختلفة، فكانت الحالة الموت فأصبحوا أحياء فحصلت الغارة. وكلمة غارة لم ترد في القرآن إلا هنا.

كلمة "صبح صباح أصبح..." وكما فسّروها في القواميس والكتب فهي لا تناسب ما استعمله القرآن، فالكلام الإلهي دقيق واستعمل الكلمات العربية على أساس معناها طبعاً بدون أي خطأ أو تساهل لأن الكلام صادر منه تعالى ذي الصفات الفائقة، ففي الكتب كلمة "أصبح" مختصة للاستعمال في فترة الصباح، ويقابلها كلمة أمسى المختصّة لفترة المساء، ولكن عندما وجدوا استعمال القرآن والعرب لكلمة أصبح في غير الأوقات الأولى من النهار، قالوا إنّ أصبح تأتي بمعنى صار.

حسناً، فنحن نتساهل في التعبير ونستبدل الكلمة المناسبة بكلمة قريبة لأن الذاكرة تخوننا ولأن معرفتنا بدقة معاني الكلمات متفاوتة ولأسباب أخرى... أمّا سبحانه فلماذا سيستعمل كلمة أصبح بدل صار؟ خذ مثلاً الآية 103 من سورة آل عمران "وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا..." والآية 30 من المائدة "فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ"، وغيرها وغيرها مروراً بالآية 10 من سورة القصص "وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا..."، وغيرها مروراً بالآية 6 من الحجرات "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ"، وغيرها... فلماذا لم يقل القرآن في أمثال هذه الآيات "صار" بدل "أصبح" طالما لم يقصد الفترة الصباحية من النهار؟

الجواب: إنّ أصل الكلمة يدل على أول حصول شيء ما بعد شيء سبقه، فأوّل ما يحصل يوصف بالإصباح، فأول حالة أصابت أمّ النبي موسى(ع) من بعدما تركته(ع) في النهر أن قلبها صار فارغاً، واختصاراً لكل هذه الجملة الطويلة قال القرآن: فأصبح فؤاد... وقلوب المسلمين التي كانت غير متآلفة من قبل وأوّل ما أصابها من بعد تأليفه تعالى بين قلوبهم أن صاروا بنعمته تعالى إخواناً... والصبح كفترة زمنية فهو أول حالة تصيب اليوم من بعد الليل، وهنا الآية يناسبها أن تكون الغارة حصلت في أول ما صار الكفّار أحياء من بعد الموت.

(فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً{4})
{فَأَثَرْنَ بِهِ}، أثارت وهيجت بالذي قام من الموت، {نَقْعاً}، غباراً، فثار الغبار حول الذي وصلته غارة الملائكة(ع)، وتعلم من عموم القرآن أن الكافر حين يقوم من الموت تستقبله الملائكة(ع) بعنف شديد، ويتغطّى وجهه بالغبار كما ورد في الآية 40 من سورة عبس "وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ".

(فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً{5})
فوضعوه في وسط جمعتهم، فحاوطته الملائكة(ع) من كل جانب.

الآية 27 من سورة محمد تعطيك نفس الصورة عن إحاطة الملائكة بغير المؤمنين وضربهم..."فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ".

(إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ{6})
سبب هذه الغارة الملائكية على من قام من الموت في الآخرة: {إِنَّ الْإِنسَانَ}، إن الغالب الأعمّ من الناس، {لِرَبِّهِ}، للمسؤول عنه من مستوى إلهي، {لَكَنُودٌ}، ناكر للنعمة عليه، وهنا الكلام عن نكرانه للنعمة الإلهية عليه، وهكذا ورد استعمال كلمة كنود في شعر عربي قبل الإسلام "فَـإِنَّ أَبـا قـابُوسَ عِنْـدِي بَلاؤُهُ جَـزاءً بِنُعْمَــى لا يَحِـلُّ كُنُودُهـا"، ولم ترد في القرآن إلا هنا.

استعمل القرآن كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموماً ذكراً وأنثى، وأنهم يتناسلون... أو متعلقٍ بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...
وهنا الكلام عن غالبية الناس فهم سيقعون تحت هذه الغارة الملائكية في الآخرة لأنهم بغالبيتهم كانوا في حالة الكنود، في حالة إنكار نعمته تعالى عليهم، وسينالون عقاباً على ذلك.

(وَإِنَّهُ عَلَى ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ{7})
{وَإِنَّهُ}، الإنسان، {عَلَى ذَٰلِكَ}، على كنوده، {لَشَهِيدٌ}، ليست تهمة ملفقّة له أو مبالغاً فيها، ومن عموم القرآن تعلم أن الإنسان لن ينكر في يوم القيامة أنه أخطأ حين لم يكن شاكراً لله تعالى على نعمة الحياة وتوابعها التي حصل عليها منه تعالى، فكفر بربّه سبحانه وعصاه... وفي يوم القيامة لن يستطيع إنكار جحوده لأنه سيرى ذنوبه مسجّلةً عليه والملائكة شهودٌ عليه، وأعضاء جسده ستشهد عليه... فحتى لو حاول التبرير وأنكر التهم... فهو من داخله يعلم "يشهد" على صحّة الاتهامات.

(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ{8})
{وَإِنَّهُ} الإنسان، {لِحُبِّ الْخَيْرِ}، لديه رغبة في امتلاك عامّة الأمور التي توصف بأنها جيّدة، كالمال والصحة والأملاك والبساتين و... {لَشَدِيدٌ}، رغبته قوية جداً جداً للحصول على هذه الأمور.

هذه الأمور التي يحبّها كل إنسان هي غير ممنوعة من طريق الحلال، ولكن إذا لم يَسْعَ الإنسان للحصول على الخير من طريق الحلال، وحصل عليه عبر طرق السوء، فسيتحاسب ويتجازى على ذلك.

لاحظ أن حبّ الإنسان للخير، هكذا كجملة لوحدها، ليس فيها أي مشكلة، فهكذا خلقنا سبحانه، ولكن مما سبق ومما سيلي تفهم أنه أحبّ الخير فسعى للحصول عليه حتى لو بالطرق السيئة الفاسدة، وسعى لها بغض النظر عن الأوامر الإلهية

التي حرّمت بعض طرق الحصول على الخير، وأبسط مثال عن ذلك النصب والاحتيال والسرقة والغصب... للحصول على المال. فحبّ الحصول على المال ليس فيه مشكلة لأننا فعلاً نحتاجه لنعيش، لنصرفه على الأكل والمسكن والحاجات ولتلبية الرغبات... ولكن الانحراف بحبّ المال لدرجة تحصيله بطرق سيئة، كالغشّ والاحتيال... فهو المشكلة التي نتج عنها إغارة الملائكة(ع) في يوم القيامة على من فعل ذلك.

تذكّر أن كلام القرآن كثيراً ما أشار لنماذج، فليست كل مشاكلنا في الآخرة سببها حبّ الخير لدرجة فعل السوء للحصول عليه، ولكن اختارته السورة كنموذج لا نناقش في رغبتنا فيه، ونبهتنا أن الانجرار وراءه وصولاً إلى فعل السوء للحصول عليه، فهذا ليس مبرراً لنا، وعليه حساب عسير، فهناك شرور أخرى من الحسد والغضب والحقد والغيرة وحبّ استعباد الآخرين... وما ينتج عن ذلك من التسلّط على أملاك وحياة وسعادة الآخرين... فقفزت الآية عنها لأن سوءها واضح واختارت السورة شيئاً أكثريتنا الساحقة ضمنياً تسكت عن سوئه...

(أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ{9})
{أَفَلَا يَعْلَمُ}، ألم يصل للإنسان علم، فالإنسان المحبّ للخير لدرجة السوء، ألم يسمع من الكتب الإلهية ومن المؤمنين أنه إذا {بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ}، فالأماكن التي وضع الأحياء فيها الأموات، وعادة يضعون على تلك الأماكن علامات تحدّد مدافن الأموات، إذا بُعْثِرَ ما فيها، لم يَبْقَ ما فيها كما كان مجموعاً في حفرة القبر، فخرجت الجثث من القبور.

نتذكّر دائماً أن كلّ الأموات سيعودون إلى الحياة، فمن مات في البحر أو في الفضاء أو تبخّر جسده... فكلّهم سيرجعون، وتقرأ ذلك في الآية 148 من سورة البقرة "... أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"، فالآيات القرآنية التي مثل آيتنا هنا والتي تتحدّث عن خروج الأموات من القبور أو من الأجداث أو من اللحد أو من المرقد... فهي نماذج عن شيء عام، عن أماكن نعلم أن فيها أمواتاً، فتلفت نظرنا بذكر القبور لمكان نحن وضعنا فيه الأموات، وفي الظروف العادية نعلم بأن الأحياء سيضعوننا فيها عندما نموت، وتلك القبور لن تبقى على حالها حيث الأموات فيها، فما فيها سيتبعثر، فسيخرج الأموات من قبورهم، وهذا ما أرادت السورة تفعيله في بالك من تحديدها للقبور كمكان لقيام الأموات منه، فهو مكان مألوف لذلك.

لمزيدٍ من التفاصيل عن عودتنا إلى الحياة راجع ما ذكرناه في دراسة الآية 6 من سورة الزلزلة.

(وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ{10})
أفلا يعلم الإنسان أنه بعد الخروج من القبور: {وَحُصِّلَ}، جرى إخراج وجمع، {مَا فِي الصُّدُورِ}، كما هناك تعابير تظهر على وجهنا فهناك تعابير داخلية نعبّر عنها بالكلمات بأنها في صدرنا، فأحيانا نشعر فعلاً في القفص الصدري حيث الرئتان والقلب، نشعر بالانقباض أو الانشراح مما يجري معنا... فعمّم عموم الناس من مختلف اللغات عن هذه الحالة بالتعبير بالصدر لكل ما هو في داخلنا من تفاعل مع ما يحصل معنا، سواء شعرنا فعلاً بصدرنا بشيء أو لم نشعر، فصارت كلمة صدر تشير لعموم تفاعلنا الداخلي الفكري والنفسي مع الأمور، وضمناً أسرارنا وما نخفيه.

لا يمكننا في يوم القيامة إخفاء أفكارنا أو مشاعر كرهنا أو حبّنا للأوامر الإلهية من الحلال والحرام والواجب... فتفاعلنا مع الأمور التي حصلت معنا في الدنيا والذي تكوّن داخلنا، وسواء ظهر تفاعلنا علناً أمام الآخرين وبكلامنا أم لم يظهر، فسيحصّله تعالى، فسيسترجعه ويجمعه مهما كان عميقاً ومهما كان قديماً، وسيصير مفضوحاً معلناً.

لا يمكن لشخص ما الوقوف في يوم القيامة ليكذب ويقول: أنا كنت مؤمناً محبّاً للإيمان، وأنا لم أحبّ الخير وأسعى للحصول عليه إلا بالطرق السليمة، وهذه الأمور التي تسجّلت عليّ كمخالفات، فأنا من داخلي في صدري، في مركز تفاعلي مع الأمور، لم أقصدها ولم أحبّها ولم أكن ناوياً مخالفة أوامره تعالى... لا لن يحصل هذا لأن تفاعله مع الأمور في داخله سيكون مفضوحاً مسجلاً معروضاً يراه هو وتراه الملائكة(ع) ويراه الآخرون.

ماذا سيفعل حينها الكنود؟ طالما سمع بيوم يتبعثر فيه ما في القبور فلماذا لم يتجهّز له؟

(إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ{11})

{إِنَّ رَبَّهُم}، إن المسؤول من مستوى إلهي عن هذه النوعية من الناس، {بِهِمْ}، بهذه النوعية من الناس، {يَوْمَئِذٍ}، في ذلك الزمان، في زمن يوم القيام من الموت وما بعده، {لَّخَبِيرٌ}، لديه سبحانه كل أخبار وتفاصيل ما فعلوا في الدنيا، وسيحاسبهم ويجازيهم على ما فعلوه.

كلمة ربّ تقال لعامة من لديه مسؤولية عناية بالآخرين، فربّ البيت كوصف للأب، وربّة المنزل كوصف للأم، وربّ العمل... فعلى مستوى كل واحد ومسؤولياته يكون الوصف، وبالنسبة له تعالى فهو ربّ من مستوى إلهي.

سورة القارعة (101) ص 600
تختصر السورة مشهد يوم القيامة من الموت ونهاية كلّ إنسان من بعد محاسبته على أعماله.

السور القصار بشكل عام تعرض تذكرة مختصرة موجزة لنا لننتبه لأهم شيء، لننتبه للآخرة وحسابها والجزاء، وسورتنا هنا واحدة منها.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(الْقَارِعَةُ{1})
{قَرَعَ}، صدم ضرب شيئاً بشيء، وسترى من بقية السورة أنها تقصد تواجهنا في الآخرة مع يوم القيامة كحدث له وقع قوي علينا.

ستذكر السورة مفردات القارعة، والبداية مع حدث قيامنا من الموت مروراً بمحاسبتنا "ومروراً بدخول الجنة" وصولاً إلى دخول النار. واستعمل القرآن كلمة القارعة مرتين في غير هذه السورة في الآية 31 من سورة الرعد "... وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ..." وفي الآية 4 من سورة الحاقة "كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ"، وكانتا وصفاً لشيء ماديّ كفعل له أثر، مثلما ورد في سورتنا هنا، فلم يستعملها القرآن ولا العرب في أشعارهم قبل الإسلام بشكل معنوي، فالتوسّع في معاني الكلمات الذي تجده منتشراً في التفاسير لتصير القارعة: قرع القلوب بالفزع والخوف. فهو توسّع بالمعنى ولم تقله الآية، وإن كان صحيحاً، ولكن هذا النوع من الكلام لا يحمل وصف تفسير القرآن، بل هو كلام مضاف على كلامه تعالى طالما لم يستعمله العرب قديماً بهذا المعنى، وعموم كتب التفاسير والمقالات والمحاضرات... يقعون بسهولة في هذا النوع من التوسّع بمعاني الكلمات الذي لا يبدو منه أي ضرر طالما هو كلام متوافق مع عموم ثقافتنا الإسلامية وعموم بقية ما يقوله القرآن، ولكن، التفسير هو الالتزام بما يقوله القرآن، والتوسّع بمعاني الكلمات هو خروج عن دقّة ما يقوله القرآن، وهذا يوقعنا هنا وهناك في مشاكل الابتعاد عمّا يريدنا تعالى أن نفهمه من كلامه.

(مَا الْقَارِعَةُ{2})
هناك صورة تحصل في ذهنك عند سماعك لكلمة القارعة، وتسألك السورة عما تصورته وأنت تعلم بأنها ستشير لتواجهنا مع يوم القيام من الموت.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ{3})
يمكنك القول: عندي معلومات عن القارعة، عندي معلومات عن يوم القيامة، ولكن لا يمكنك القول: أدري بالقارعة، لأنك لم تعشها ولم تَصِرْ فيها.

القرع فعل له تدرجات، من الخفيفة كالمشي على الطريق "قارعة الطريق"، إلى قرع الطبول، إلى قرع الزلزال... وفي الآية 31 من سورة الرعد نجد وصف القرآن نزول عذاب دنيوي شديد على قوم ما بأنه قارعة، وهنا الكلام عن القيام من الموت والحساب وبعده العذاب... وكلّها أمور من العيار الثقيل والذي مهما حاولنا تصوّرها فلن نستطيع ولذلك تقول لنا الآية: وما أدراك ما القارعة؟ فلن تعرف حقيقتها الآن مهما حاولت تصوّرها لأنها أشد بكثير جداً جداً مما يمكنك تصوّره.

(يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ{4})
{يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ}، في الزمن الذي تحصل فيه القارعة يكون الناس، {كَالْفَرَاشِ}، كالفراشات وهي الحشرة التي على أجنحتها وبر كالغبار ولها قرون استشعار... {الْمَبْثُوثِ}، المنتشر في الأماكن والاتجاهات المختلفة.

يخرج الناس من الأرض ويعودون إلى الحياة من هنا وهناك متفرقين متبعثرين، ومشهد الفراشات المتطايرة في مختلف الاتجاهات لا يحصل على كل مناطق الأرض، ففي بعض الأماكن له مواسم محدّدة حيث تخرج مجموعة كبيرة من الفراشات دفعة واحدة من شرانقها، وتنبثّ، فتنتشر كغمامة متحركة، وورد في الآية 7 من سورة القمر نفس الوصف ولكن بحالة الجراد بدلاً من الفراشات، "خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ".

(وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ{5})
{وَتَكُونُ الْجِبَالُ}، التي نعرفها الآن بضخامتها كتراكمات للصخور والتراب، تكون في يوم القيامة، {كَالْعِهْنِ}، مثل شبه الصوف أو القطن، {الْمَنفُوشِ}، الذي تباعدت أجزاؤه عن بعضها. كما نقول: نفش العجين. أي كَبُر حجمه لأنه اختمر.

بعد القارعة سوف تصير الجبال هشَّة وكأنها ليست مؤلفة من الصخور والرمال، بل كأنها مؤلفة من كومة صوف أو قطن، فليس فيها قدرة على البقاء على شكل جبل، كما نقرأ في الآية 14 من سورة المزمّل "يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا"، وتنهار كما نقرأ في الآية 106 من سورة طه "فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا"، وستصير الأرض مستوية من دون جبال ولا وديان كما نقرأ في الآية 107 من سورة طه "لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا".

(فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ{6})
من عموم القرآن تعلم أن الآية هنا تشير إلى قيمة الأعمال الحسنة، ففي يوم القيامة من الموت يوجد ميزان لقياس قيمة الأعمال التي قمنا بها، وتقرأ ذلك في العديد من الآيات منها الآية 47 من سورة الأنبياء "وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ"، وبالتحديد فهو ميزان لقياس الأعمال الحسنة لتحديد قيمتها وما يستحقّه صاحبها من حسنات، فالذي أعماله كان لها ثقل عندما وضعوها في الميزان، فلم تحبط، فلم تفقد قيمتها بسبب الكفر أو بسبب ذنب من العيار الثقيل، وبتعبيرنا الدارج فكان لعمله قيمة محترمة، فهو في عيشة راضية...

الميزان كلمة تصف حالة تقييم الأشياء معنوياً أو مادياً، كميزان الكيلو وميزان الحرارة وميزان معايير الجودة وميزان العقلانية... فميزان الأعمال في يوم القيامة ليس ميزاناً بكفتين، ولا يزين الكيلو أو الحجم أو الطول... بل يقيس القيمة المعنوية للعمل، كم كان حسناً، فيحدّد درجة حسنه. وما هو دارج في ثقافتنا من تصوّر ميزان بكفتين توضع في إحداها الحسنات وفي الأخرى السيئات، فإن رجحت الحسنات دخل صاحبها الجنّة وإن رجحت السيئات دخل صاحبها النار، فالفكرة صحيحة كمفهوم، فمن كانت سيئاته غالبة بالقيمة على حسناته فسيدخل النار، ولكن في الواقع وبشكل ملموس فليس في الآخرة ميزان كآلة ملموسة.

حين ندرس الآية بعد التالية سنتحدّث عن قيمة الأعمال وكيفية وزنها.

(فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ{7})
{فَهُوَ}، صاحب الأعمال الذي ثقلت موازينه، {فِي عِيشَةٍ}، في حياة يتفاعل فيها مع محيطه، {رَّاضِيَةٍ}، موصوفة بأن ما فيها مقبول بمحبّة لا يعترض عليها بل يرغبها. وتعلم من عموم القرآن أنه سيدخل إلى الجنّة الرائعة الخالدة ليعيش فيها.

كما ترى فالآيات هنا تعرض محاسبتنا ومجازاتنا كحالة من جاء إلى السوق ليتاجر ويستفيد، فهل معه بضاعة لها قيمة؟ فهل له أعمال لها قيمة ليأخذ أجراً حسناً عليها؟ فالذي وضعوا أعماله في ميزان التقييم وكان لأعماله الحسنة ثقل، فهذا سيكون سعيداً في عيشته...

نتذكّر أن كلمة رضا ومشتقاتها، معناها في كلام العرب وفي القرآن: وصف شعور كتعبير عن القبول وانتفاء الاعتراض بل بالعكس فهو الموافقة المتدرجة من السرور إلى الحبّ عن فعال أحد ما، والوصف يشمل شعورك "بالرضا" على العمل أو على صاحب العمل. فهي ليست وصفاً لقبول شيء مكروه، فهذا وصفه الصبر، ففي أدبياتنا نجد كلاماً عن الصبر على المكروه، وأن الرضا بالمكروه أعلى من الصبر، وهذا معنى لم يستعمله القرآن في كلامه، ومخالف للمعنى اللغوي لكلمة رضا، ويحمل في طياته معاني أخرى مرفوضة إذا قارنتها مع مفاهيم القرآن، فسبحانه لا يخصّص "من عنده" مكروهاً لمؤمن حتى يكون إيمانه عالياً بالرضا على المكروه، فأي مكروه غير محبوب يحصل مع المؤمن فهو بسبب ذنب ارتكبه المؤمن أو ذنب ارتكبه غيره، وليس منه تعالى أبداً بتاتاً وهذا واضح من عموم كلام القرآن ومنه الآية 30 من سورة الشورى "وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ".

نعم لا مشكلة بالتهاون في معاني الكلمات في الأدبيات التي بيننا إلا إذا كانت تعبّر عن شيء ديني منسوب له تعالى، فالقرآن دقيق في تعابيره ولا يتهاون أو يتساهل أو يتراخى في معاني الكلمات التي يستعملها، وعندما نتهاون نحن ويصير للكلمات معان نظنها من مفاهيم قرآنية، وعندما تترسخ هذه المعاني المتراخية للكلمات في ذهننا، فعندها سنقع في مشكلة تفسير كلام القرآن على أساس المعنى والمفهوم الذي أصلاً تراخينا فيه.

لدينا كم هائل من الآيات التي تصف روعة الجنّة وأن من يدخلها سيبقى مذهولاً بروعة ما فيها أبداً، بلا ملل ولا أي رغبة في شيء آخر، فكل ما يرغب به يجده في الجنّة، بل يجد فيها ما لا يخطر على باله... وكمثال جامع لذلك ما ورد في الآية 108 من سورة الكهف "خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا" فهو راض بها، وراض عنه تعالى، وهذا هو معنى كلمة الرضا لغوياً وهكذا استعملها القرآن، وهي لا تتحمّل ولا تتوافق مع ما درج في أدبياتنا عن الرضا على شيء مكروه، والذي سيعني ضمناً احتمال حصول شيء مكروه في الجنّة، ورغم ذلك سيرضى عنه المؤمن، لا، فانتبه دائماً من ذلك.

(وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ{8})
{وَأَمَّا مَنْ} لم يكن عنده أعمال لها ثقل، فعندما وقف لِيَزِنُوا له أعماله، {خَفَّتْ مَوَازِينُهُ}، كانت الموازين خفيفة، لا ثقل فيها، وبالتالي فهو ليس لديه أعمال حسنة ولن يحصل على الحسنات.

تعلم من القرآن أن العمل الحسن يبقى توصيفه حسناً مهما كانت الظروف، حتى لو الكافر فعل عملاً حسناً فسيبقى توصيف عمله حسناً، ولكن في الآخرة ولأسباب عديدة يفقد العمل الحسن قيمته فيحبط، وقد ورد ذلك مراراً في القرآن ومنه ما ورد في الآية 105 من سورة الكهف "أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا"، وما ورد في الآية 23 من سورة الفرقان "وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا". وهذا معنى خفّت موازينه هنا في الآية، فالكلام عن أعماله الحسنة، فهل معه شيء له ثقل؟ فله قيمة ليأخذ أجراً منه تعالى عليه؟ فمن خفّت موازينه، فتبيّن بعد تقييم أعماله أنها لا ثقل لها، لا قيمة لها:

(فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ{9})
{فَأُمُّهُ}، فما سيؤمّ إليه، فما سيرجع ويتبع له ليكون فيه، {هَاوِيَةٌ}، شيء عميق جداً، فَسَيُيَمِّمُونَهُ إلى حفرة عميقة. وتجد في عموم القرآن وصف جهنّم بأنها حفرة وأودية ودركات وأسفل... وهنا الهاوية مثل تلك الأوصاف التي لعموم النار كمكان يحيط به حيطان عالية جداً. فالذي لا حسنات له في يوم القيامة سيكون أساس توجّهه وانتسابه لحفرة عميقة.

تلاحظ تشابهاً لفظياً بين كلمة أمّه على معنى والدته، وعلى معنى ما سيؤم إليه والتي منها اشتقاق التيمم الذي صار فيما بعد مصطلحاً لما هو بديل عن الوضوء بينما هو بالأصل تعبير عربي عن عموم التوجه وقصد شيء كما ورد في الآية 267 من سورة البقرة "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ

مِنْهُ تُنْفِقُونَ..."، وما ورد في الآية 2 من سورة المائدة "... وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ..."، وهنا تعبير الآية "فأمّه هاوية" على نفس المعنى، وبتعبير بسيط فسيؤم "فهو متوجّه ليصير في" الهاوية.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ{10})
يمكنك القول: عندي معلومات عن الحفرة العميقة التي يتحدّث عنها القرآن، ولكن لا يمكنك القول: أدري بها. لأنك لم تعشها ولم ترها ولم تلمسها.

لاحظ رسم كلمة "هي" "هيه"، فقد رسمها الجيل الأول من المسلمين على اللفظ، فعندما تقولها ستلفظ هاء في آخرها، وتتذكّر أنهم في حينها كانوا مكتفين بما لديهم من معلومات عن رسم الكلمات، ولم يكن للّغة العربية قواعد للكتابة كالدارجة في عصرنا كعلم، وحصل الاهتمام بتوحيد كتابة الكلمات على قواعد موحدة بعد أن انصبّ اهتمام الناس على كتابة القرآن، وقد حاول الجيل الأول من المسلمين رسم كلمات القرآن بأقرب طريقة ممكنة للفظها بطريقة موافقة لما سمعوه من النبي(ع)، وكلمة "هي" هنا أوضح مثال على ذلك، وبعد الجيل الأول جاءت أجيال قوننوا اللغة العربية... وصار لهذه الهاء مكان في قواعدهم وأسموها: هاء السكت. على أساس لفظها إذا سكتّ عند كلمة "هي" ولم تكمل الجملة، ويسمونها لهذا السبب أيضاً: هاء الوقف. ولكن غالبية قرّاء القرآن وجمهور المسلمين قد لفظ هذه الهاء حتى عندما وصلوها مع الجملة التالية، فانتبه أن القاعدة الحديثة التي اخترعوها للفظ هاء السكت عند الوقوف على آخر الكلمة وحذفها عند وصل الكلام بما بعدها، فهذه ليست قاعدة متناسبة مع طريقة العرب قديماً بالكلام، فقرّاء القرآن نقلاً مما توارثوه عن أجيال المسلمين وصولاً للرسول(ع) فهم يلفظون الهاء حتى عند الوصل.

(نَارٌ حَامِيَةٌ{11})
الهاوية ليست حفرة عادية، بل حفرة من {نَارٍ} {حَامِيَةٍ}، ساخنة جداً، حرارتها مرتفعة جداً.

حتى هذه المعلومة عن الهاوية لا تجعلك تقول: صرت أدري ما هي. فأي تصوّر عندك عنها فهو أقل بكثير من شدّتها.

سورة التكاثر (102) ص 600
عرض مختصر لنهاية حتمية بموتنا وذهابنا إلى القبر "عادة"، ومن بعده في الآخرة ستتم مساءلتنا عن النعيم الذي أكثرنا منه فنسينا الآخرة.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ{1})
{أَلْهَاكُمُ}، جعلكم تتلهون، تفعلون شيئاً غير مهمّ مع وجود شيء آخر مهم عليكم فعله ولم تفعلوه، {التَّكَاثُرُ}، ألهاكم الإكثار بالعدد لأشياء لتصير معكم أكثر من غيركم، وتجد هذا المعنى في الآية 20 من سورة الحديد "اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ..."، انشغالكم بالإكثار من الأموال والأولاد كأهمّ نماذج من بقية ما تحبّون الإكثار منه، كالإكثار من الزوجات والخدم والملابس... على أساس أنهم هم الهدف، فخذوا علماً أن هذا شيء لا أهمية له، وستعلم من بقية السورة أنه لا أهمية لهذا التكاثر إن كان سبباً لترك الانشغال بما ينفعنا في الآخرة، ففي النهاية سنترك كل ما أكثرنا منه لنزور المقابر وبعدها في الآخرة نتحاسب ونتجازى.

(حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ{2})
التهيتم بالتكاثر، {حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ}، ذهبتم إلى الأماكن التي يضع الناس فيها الأموات مع علامة على تلك الأماكن. على خطّ واحد مضت حياتكم بالتلهي بالتكاثر حتى متّم.

ما قيل عن تفسير السورة قاصدة لأناس من عائلتين عدّدوا أفراد العائلتين ليروا أي عائلة أكثر عدداً، وبعدها عدّدوا قبور عائلاتهم ليعدّوا الأموات مع الأحياء... فهذا شيء ربما يكون حصل في عهد الرسول(ع)، وأنا سمعت به حصل في عدة قرى من عصرنا وقبله... على أي حال، فهذا التفسير للآيات لا يظهر منها بالبداهة ولأول وهلة، والمشكلة أن

الجيل الأول من المسلمين المفسرين للقرآن كانوا يدعمون رأيهم بحادثة تاريخية يفسرون بها القرآن، مما سبّب لنا اعتقاداً بأن كلامهم تفسير صحيح ومدعوم بحادثة، علماً أنه رأيهم بالتفسير، وهم دعموه بحادثة ألصقوها بالآيات.

التلهي بتعداد الأحياء والأموات إنما هو حادثة عابرة لو قايستها مع التلهي بالتكاثر بالأموال والأولاد، فهذا شيء نبّه منه القرآن مراراً وبتعابير مختلفة كالاغترار بالدنيا وزينتها... فهذا أنسب وأسهل وأوضح لتفسير الآيات، خصوصاً عندما تصل حيث سيتم سؤال المتلهين عن النعيم، نعيم المال والولد والأملاك والنساء... الذي أكثروا منه.

كلمة "زيارة" في أصل المعنى هو الميل بالذهاب بعيداً ولو قليلاً عن مسار ما، وعلى أصل هذا المعنى ما ورد في الآية 17 من سورة الكهف "وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ..."، والزيارة وصف فعل الذي عدل عن طريقه إليك، ومنه الأزور، وأكثر الاستعمال العامي على قصدية الاتجاه لعند شيء، وهذا ليس من أصل المعنى، فزيارة الميّت للقبر ليست فعلاً صادراً منه، ولذلك اختلط المعنى على البعض وقالوا إن الأحياء زاروا المقابر...

بينما المحققون ردّوا كلمة "زيارة" إلى "زور" كوصف لعموم ميل عن شيء إلى شيء آخر، فشهادة الزور ميل عن الحقيقة إلى الكذب، وزيارة الأقارب على معنى أساس طريقك إلى بيتك أو عملك... وملت إليهم. وهنا من بعد طريقنا في الحياة نموت فنزور المقابر ونخرج منها فيما بعد في يوم القيامة، نعرّج كأموات على المقابر، ونتركها بعد قيامنا من الموت، فذهابنا إليها زيارة.

زيارة المقابر كلام عمّا ينصرف إليه الذهن حين نذكر الموت، وإلا فمعلوم أن بعض الناس لا قبور لهم، لأنهم ماتوا في البحر أو في الفلاة أو ربما في الفضاء سيموت أحد ما وتبقى جثّته هناك تسبح... فكلام القرآن عن القبور ليس حصرياً كما هو واضح من تعابير أخرى أكثر عمومية بوصف عموم أي مكان لارتماء الجثّة بالجدث، سواء أكان قبراً محفوراً أو عموم أي مكان ارتمت فيه الجثّة، وتقرأ ذلك في الآية 51 من سورة يس "وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ"، وتقرأ في الآية 148 من سورة البقرة تعبيراً أوسع عمومية لأي مكان مات فيه أحد ما "... أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"، فالكلام عن القبور مجرد نموذج عمّا يخطر ببالنا عندما نذكر الموت والأموات وأرادت السورة تفعيل صورة القبور في ذهنك هنا...

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ{3})
الآن أنتم متلهون بالتكاثر على أساس أنكم لا تعلمون بقدوم آخرة وحساب، {كَلَّا}، نفي، تلهّيكم ليس مقبولاً، وهناك حتماً آخرة وحساب لكم، وكان من المفروض أن تجعلوها أوّل اهتمامكم بدل التلهّي عنها، {سَوْفَ تَعْلَمُونَ} أنها ستحصل وكان من الأفضل لكم الاهتمام بها.

الكلام هنا في الآيات الثلاث باستعمالها كلمة كلّا، هو وصف لحالة من يسرح ويمرح بفساده وكأنه لن يتحاسب، كلا، سيتحاسب ويتجازى.

(ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ{4})
{ثُمَّ كَلَّا}، مرّة ثانية نفي لقبول حالة تلهّيهم، فبالتأكيد هناك آخرة فيها حساب وجزاء، {سَوْفَ تَعْلَمُونَ} بالعقاب الذي كان ينتظرهم وهم الآن ينكرونه، وبالتالي يتلهّون بأمور أخرى تاركين الاهتمام بالآخرة.

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ{5})
{كَلَّا}، نفي ثالث للاعتراض على حالة المنشغلين بالتكاثر وكأنه لا آخرة ولا حساب، {لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ}، لو الآن لديكم علم يتطابق مع الواقع وما سيحصل فعلاً، فالآخرة والحساب والعقاب هي أمور حقيقية ستحصل، ولو كان لديكم علم يقيني، علم متطابق مع الواقع بهذه الأمور، لما تلهيّتم عن الآخرة.

لاحظ في الكتب والمقالات والمحاضرات... ستجد كلاماً عن تقسيمات لدرجة التأكّد من شيء ما، فيقسمون العلم إلى: ...شك وظنّ ويقين... ويقسمون اليقين إلى: علم اليقين وعين اليقين وحقّ اليقين... ولكن انتبه أنها اصطلاحات ولا علاقة لها بالمعاني الأصلية للكلمات باللغة العربية، فلا مانع من وضع الاصطلاحات لأمور علمية، ولكن لا يصحّ

تفسير القرآن بمعانٍ نحن وضعناها وتوافقنا عليها ولم يستعملها العرب لحين نزول القرآن، ويمكنك مراجعة معاني هذه الكلمات "يقين، ظن، شك..." في دراستنا هذه لترى أنها بعيدة عن الاصطلاحات التي شاعت وصرنا نعتقد بأنها هي المعنى الأصلي للكلمة.

كلمة يقين بحسب استعمال العرب لها وبحسب استعمال القرآن تعني: معلومة مطابقة للواقع. وكمثال: عندي معلومة بأن الخبز في المطبخ. وواقعاً في الحقيقة كان الخبز هناك، فهذه معلومة يقينية لأنها مطابقة للواقع. أمّا لو كنت لسبب أو لآخر متأكداً بأن الخبز في المطبخ، وعندي براهين على ذلك، وفي الحقيقة والواقع لم يكن الخبز في المطبخ، فحالتي لا توصف باليقين لأنها لم تتطابق مع الواقع، وبهذا المعنى حصرياً استعمل القرآن كلمة يقين، فهي معلومة مطابقة للواقع، وأمّا درجة تأكدي من معلومة ما، فلا يوصف باليقين إلا إذا طابق الواقع.

(لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ{6})
هذه هي المعلومة المطابقة للواقع: {لَتَرَوُنَّ}، سيصير عندكم صورة محدّدة لـ {الْجَحِيمَ}، للمكان الموصوف بضخامة سوء ما فيه، فتتأجج فيه نار كبيرة جداً.

أنتم الآن تنكرون الجحيم ولذلك تلهيتم عنها بالتكاثر حتى متّم وصرتم في المقابر، ولكن تأكّدوا تماماً أنكم سترونها.

كما ترى، الآيات تختصر ضمناً مفهوم الحساب والمجازاة على السيئات، فكلامها عن مكان ضخم في سوء ما فيه، فالتهديد بالجحيم للمتلهين بالتكاثر، يشير إلى أنهم لم يهتمّوا بمصيرهم بعد الموت، فلم يعملوا على تجنّب المكان الضخم في سوئه.

من دراسة أشعار العرب قديماً قبل الإسلام وجدت فرقاً بسيطاً بين كلمتي جحيم وجهنّم، فجهنّم باستعمال القرآن هي اسم مكان مشتق من الوصف بجهنم الذي يشير لسوء الحالة أو المكان، واستعمال هذا الوصف لمكان تعذيب في الآخرة، هو وصف للأنواع المختلفة المسببة للعذاب مما في المكان، ففيه النار المحرقة وفيه الضرب وفيه طعام كريه ورائحة كريهة... وتفهم ذلك من فحوى الآية 49 من سورة غافر "وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ...". وفي بيتين من الشعر قبل الإسلام وجدت إشارة بكلمة جحيم لضخامة النار، ويناسبها ذلك في القرآن كما ورد في الآية 97 من سورة الصافات "قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ"، فالجحيم وصف الضخامة في السوء.

المكان الموصوف بالجحيم عادةً ستعمل على تجنّبه، فإن تلهيّت بأمور أخرى ولم تعمل على تجنّب الجحيم على أساس أنك لا تؤمن بها، فهذا لن يغيّر أي شيء، فستذهب إليها لتراها يقيناً بعد أن كانت معلومة، وكنت لا عقلانياً حين تلهيت عن مصير سيئ جداً كهذا.

(ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ{7})
{ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا}، بالتأكيد سوف يصير عندكم صورة محدّدة للجحيم، {عَيْنَ الْيَقِينِ}، بذات نفسها سترونها، فمطابقة المعلومة بالواقع ستكون برؤية الشيء ذات نفسه.

أنت كمؤمن تعلم أن كلامه تعالى يقيني، فعن مطابقة للواقع يخبرنا سبحانه عن الآخرة، ولكن خبرها الآن في الدنيا هو بالنسبة لك معلومة مصدرها الإله سبحانه الذي لا يقول شيئاً إلا وهو مطابق للواقع، أمّا إذا أنت رأيت الواقع بذاته، بعينه، فأنت صار لديك علم اليقين بعين اليقين، بذات نفس الشيء.

لنقل فرضاً إن واحداً من الكفّار في يوم القيامة أغمض عينيه ولم ير جهنّم، وكل من حوله يخبره أنها وراؤه، وأن الحرارة العالية التي تؤذيه والدخان الأسود الذي يخنقه وصوت اللهيب الذي يسمعه... صادر منها، فلحد الآن كل المؤشرات تجعل المعلومة عن جهنّم يقينية، ولكن لحدّ الآن لم يرها بذات نفسها، لم يرها بعينها "بذات نفسها"، فإذا فتح عينيه ورآها، أو فرضاً بقي مغمض العين ورموه فيها وصارت تحرقه، فقد صار لديه عين اليقين، فجهنّم بعينها، بذات نفسها أمامه يراها، أو تحرقه...

أطلت عليك الكلام لأنهم في الكتب نسجوا أدبيات ومصطلحات لكلمات "العلم، اليقين، حقّ اليقين، وعين اليقين..."، فلا تخلط بين تلك المصطلحات والأدبيات وبين المعنى العربي للكلمات، فالقرآن قصد المعنى العربي منها.

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ{8})
{ثُمَّ}، من بعد رؤيتكم للجحيم قبل دخولكم إليها وأثناء محاسبتكم، {لَتُسْأَلُنَّ}، سوف يتم التعبير لكم عن إرادة الحصول على جواب منكم، {يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}، عن الأمور التي توصف بأنها نعمة، بأنها جيدة، فكل ما حصلتم عليه في الدنيا من أمور جيدة، من مال وأولاد وأملاك... وما يسبّب لكم السعادة.. فسوف يسألكم تعالى عنها كيف تعاملتم معها.

من المعلوم من القرآن ومن ثقافتنا الإسلامية أننا في الآخرة سيسألوننا عن عمرنا فيما قضيناه وعن مالنا وشبابنا وصحّتنا... فمن تلهّى عن الآخرة فقد استغلّ النعيم الذي منحه تعالى له باللهو، وبالأصل فهذه الأمور التي توصف بأنها نعيم، لم يمنحها تعالى لنا لنتلهّى عن الآخرة بل بالعكس، منحها تعالى لنا لتكون معيناً لنا للمرور من الدنيا إلى الآخرة، وليكون متاعها نموذجاً مصغراً يدفعنا للتعلّق بالنعيم الحقيقي الذي في الآخرة.

سورة العصر (103) ص 601
مختصر تحفيزي حتى لا نكون خاسرين، وتُعَلِّمُنا كيف نكون من الفائزين.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(وَالْعَصْرِ{1})
تأكيدٌ بفترة زمنية "طويلة نسبياً" استحكم فيها شيء ما، ففي الشعر قبل الإسلام استعملت كلمة "العصر" بمعنى استحكام شيء بفترة زمنية، كفترة زمنية موصوف بها شيء: آخر الفترة الزمنية للنهار، ولفترة الشباب، ولفترة القوّة... فهي مشابهة تماماً لاستعمالها الدارج في "عصرنا"، كما نقول: عصرنا. عصر الاتصالات، العصر الحجري...
وتلاحظ في تلك الأشعار "قبل الإسلام" ندرة استعمالها للفترة التي بعد الظهر من النهار، وتلاحظ كثرة استعمالها بالمعنى الدارج حالياً للفترة الزمنية الطويلة نسبياً التي انتشر فيها وصف غالب لشيء.

سترى من بقية السورة أنها تتحدّث عن فترة زمنية يتم فيها تقسيم الناس بحسب الخسارة والربح، وهذا سيحصل في زمن الآخرة، فالآية هنا تأكيد بعصر الحساب في الآخرة.

(إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ{2})
إن الإنسان، إن الغالب الأعمّ من الناس، لفي خسر، في حالة فقدان لشيء له أهمية "كبيرة"، فحتما سوف يفقدون شيئا له قيمة، وسيحصل ذلك في العصر، في زمن الحساب وما بعده في الآخرة.
ومن الآية التالية تعلم أن الكلام هنا عن خسارة الإنسان لرحمته ومغفرته وثوابه تعالى، وبالتالي فقدانه للجنّة الخالدة، فالغالبية من الناس سيكونوا موصوفين بأنهم فقدوا شيئا له قيمة، وهذا سيكون في "عصر" الآخرة حين يتحاسبون على ما فعلوه في الدنيا.
والقرآن استعمل كلمة "إنسان" لا ليشير بها إلى كل الناس بدون استثناء، بل ليشير بها إلى الغالب الأعمّ من الناس، إمّا بسبب شيء يرتبط بتكوينهم، كولادتهم من أبوين، أو لكونهم عموما ذكرا وأنثى، وأنهم يتناسلون... أو متعلق بنوعهم الذي يجعلهم يختلفون عن بقية الحيوانات، أو بسبب اتصاف الغالبية بشيء ما، كالكفر والظلم والجهل وحبّ المال...
وهنا الآية تشير لاتصاف الغالبية من الناس بالخسارة فاستعملت كلمة إنسان، ويؤيّد هذا المعنى الكثير من الآيات التي أشارت لكفر أكثر الناس ومنها كمثالا ما ورد في الآية 7 من سورة يس "لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ"، ولدينا آيات عديدة تشير للعدد القليل للمؤمنين من كل البشرية، منها وصفهم بالثلة والقليل كما ورد في الآيات 13 و 14 "ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ" و 39 و 40 من سورة الواقعة "ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ".

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ{3})
الغالبية من الناس خاسرون فلن يدخلوا الجنّة وسيدخلون إلى جهنم: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا}، كانوا في حالة اعتقاد، والمقصود هو الاعتقاد والتصديق بهذا الدين الإلهي الحقّ.

بالنسبة لكلمة "آمن" فلم أجد في الموسوعات الإلكترونية لأشعار العرب قبل الإسلام أي استعمال لكلمة "اعتقد ومشتقاتها" بالمعنى الاصطلاحي الدارج لها "ما انعقد عليه القلب، أو إضمار شيء في القلب مع الاستكانة إليه بالصحّة..."، ولم يستعمل القرآن كلمة "عقد" بهذا المعنى الذي درج استعماله بين العرب من بعد نزول القرآن، وبمراجعة استعمال كلمة "آمن" ومشتقاتها في القرآن، ستجدها شبه مرادفة لكلمة "اعتقد" بالمعنى الدارج بيننا لكلمة اعتقد، فآمن على أصل معناها اللغوي، واعتقد على معناها الاصطلاحي الدارج، كلاهما تعنيان عموم التصديق بشيء ما وتماشيك معه.

{وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قاموا بالأعمال الصالحة الجيدة، خلقنا سبحانه بقدرة تمييز الصالح من الفاسد، وهم باشروا بالتصرفات التي يرونها موصوفة بالصلاح وحسنة جيدة، وسبحانه لا يأمر إلا بما هو صالح، عملياً هو تركهم لما حرّمه تعالى وفعلهم لما أوجبه تعالى.

عادةً نفسّر "عملوا الصالحات" على أنهم أطاعوه تعالى، ونقول إنهم صلّوا وصاموا... وهذا عملياً صحيح، ولكن بالأصل الكلام أنهم قاموا بعموم الأعمال من كل الأنواع وفي كل الشؤون والتي يرونها هم صالحة جيدة.

بشكل أو بآخر يشيع بين الناس عموماً وحتى بين المؤمنين، أن الالتزام بدينه تعالى هو العمل الصالح، فحتى لو كنت غير مقتنع بصلاح ما أمر به تعالى، وقمت به، فأنت عامل للصالحات، وهذا المفهوم غير صحيح، ومخالف لأصل وأساس مفاهيم القرآن التي تؤكّد دائماً أنه تعالى لا يأمر إلا بما هو صالح وأن القلوب السليمة ترى الصلاح وترغب به ولذلك يتماشى أصحابها مع دينه تعالى فيؤمنون به.

هذا الكلام له عمق، فلا يوجد حالة نقول فيها: لست مقتنعاً ولا يعجبني هذا الأمر الديني، من عقيدة أو شريعة أو سلوك. فهذا يعني إمّا أنه في قلبك خلل منعك من رؤية صلاح ما يأمر به تعالى وكنت محبّاً لشيء فاسد، أو أنّ ما ظننت أنه أمر إلهي "وهو فعلاً سيئ" فسيكون في الحقيقة اختراعاً من البشر لصقوه بدينه تعالى ويستحيل أن يكون أمراً إلهياً.

{وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ}، قالوا لبعضهم البعض كلاماً يشجّع على التمسّك بالصواب الصحيح الذي يقوله هذا الدين الإلهي، {وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}، شجّعوا بعضهم البعض على أن لا يتصرّفوا بشكل غير مدروس أمام الأمور السيئة المزعجة التي تضايقهم.

الوصية هي عامّة أي شيء تطلب من الآخر القيام به، كأوامر تصدر منك أو تعليمات... ويتصرّف الآخر على أساسها، فقد ينصرف ذهنك فقط إلى الالتزام بما كتبه الميّت، فتفهم أن الوصية حصراً لتعليمات أو طلبات تركها الميّت لنقوم بها بعد موته، ولكن الوصية أعمّ من ذلك، فسبحانه يوصينا بتوحيده واتباع دينه كما ورد في الآية 131 من سورة النساء "... وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ..."، والأنبياء أثناء حياتهم يوصون الذين يسمعونهم بالالتزام بدينه تعالى كما ورد في الآية 132 من سورة البقرة "وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ"، وهنا المؤمنون يوصون بعضهم البعض بالحقّ وبالصبر.

نفهمها بشكل أبسط إذا قارنتها مع الذين يشجّعون بعضهم البعض على أعمال السوء، فهم يتواصون بالباطل، والذين يشجّعون ويحفّزون بعضهم على ردّة الفعل العنيفة السيئة، سبّه اضربه اقتله استغبه... وهكذا نفهم أن المؤمنين يقولون لبعضهم البعض تعليمات عن الالتزام بالدين الإلهي، وهو الحقّ، وينبّهون بعضهم البعض من فلتان تصرفاتهم إذا واجهوا مشكلة ما، حتى لا يقولوا أو يفعلوا شيئاً لا يرضى عنه تعالى.

كما ترى، مثل العديد من السور التي اختصرت تقسيم الناس إلى أبعد نموذجين عن بعض، سورتنا هنا لم تذكر لنا أسباب أقصى درجات الخسارة مباشرة واكتفت بذكر أقصى درجات الفوز، وبذلك نفهم أن عكس هذه الصفات للخاسرين تكون: أنهم لم يؤمنوا فكفروا أو أشركوا أو كذّبوا ببعض أساسيات الدين الإلهي... ولم يعملوا الصالحات ففعلوا السوء ولم يتركوا ما حرّمه تعالى ولم يفعلوا ما أوجبه، ولم يتواصوا بالحقّ بل العكس شجّعوا بعضهم على ارتكاب السوء وعموم مخالفة أوامره تعالى، ولم يتواصوا بالصبر فأي شيء يزعجهم تفلت أعصابهم وتصرفاتهم ويرتكبون السوء.

سورة الهُمَزَة (104) ص 601
مختصر عن الذي يحسب أنه خالد لا يموت بسبب أمواله.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ{1})
{ويل}، عموم ما يصيبنا ويكون كبيراً، وهنا الكلام عن مصيبة كبيرة سيئة، {لكل همزة}، لكل إنسان يقوم بالهمز فيشدّ بشيء على شيء، وسترى من الآية التالية قصدها الذي يهمز المال في يده، فلنقل إنّه يضغط على العملة المعدنية التي في كفّه الشمال بإصبع يده اليمين.

الويل {لكل}، {لمزة}، لكل من يفعل اللمزة فيشد على شيء، وسترى إشارتها لمن بعد همزه المال في يده قام بلمزها فشدّ بقبضة يده على العملة المعدنية.

سترى من الآية التالية أن آيتنا هنا تقول: هناك مصيبة كبيرة للذي يعشق ويحبّ المال، لدرجة أنه يهمزها فيضغط بأصابع يده عليها وهي في كفّ اليد الثانية ليتَحَسَّسَها ويشعر بها بقوّة، ويلمز عليها فيغلق قبضة يده على العملة، هذا من شدّة حبّه للمال... كما نشد على يد شخص نحبّه بينما نحن نُسلِّم عليه باليد.

قالوا إنّ الهمز هو قول أشياء معيبة عن الناس في غيابهم فنغتابهم أو نسخر منهم، واللمز هو السخرية والاستهزاء بالناس وهم أمامنا، فصحيح أن الويل والعقاب من الله تعالى محتوم لهؤلاء الناس، ولكن أصل معنى كلمة الهمز هو عموم شدّ شيء على شيء، كالمهماز... واللمز هو عموم الشدّ على شيء. وتفسير الهمز واللمز هنا بخصوص الاستغابة وتعييب الناس وهم أمامنا أو وهم غائبون عنّا لا يناسب هذه الآية، لأنها مرتبطة بباقي السورة التي تتحدث عن المال الذي كان مصنوعاً من المعادن في وقت نزول هذه السورة، وعندما نضعه في كف يدنا مع حبّنا له بالضغط عليه لتحسّسه ينطبق عليه معنى كلمتي الهمز واللمز.

(الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ{2})
عن أي همز ولمز تتوعّد افتتاحية السورة بالمصيبة الكبيرة؟:

{الذي جمع مالا}، قام بتجميع المال في أكياس أو صناديق، {وعدّده}، فصار يستعمل الأعداد لحساب المال: واحد اثنان ثلاثة...

أثناء تعداده للمال ومن شدّة حبّه للمال، كان يحمل العملة بأصابعه ويضغط عليها بأصابعه في كفّ يده الثانية، وهذا الهمز، ثم يقبض يده على العملة ويشد عليها، وهذا اللمز.

يقضي وقتاً مع المال يتلمّسه ويتحسّسه ويعدّه رغم معرفته بمقداره ولكنه من شدّة حبّه له، يحبّ قضاء الوقت في تعداد المال.

ذكروا في الكتب أسماء لأشخاص قالوا إنّ السورة تقصدهم، رواية ما تقول إنّها قصدت فلاناً من الناس المعاصرين لزمن النبي محمّد(ع) من الكفّار الأغنياء، ورواية أخرى عن آخر... وهذا النوع من التفاسير يجعل القرآن ككتاب تأريخ قاصداً شخصاً ما، بينما تجد القرآن تقصّد أن يكون كلامه وصفاً عمومياً لينطبق على كل من فيهم هذه الصفات على مرّ الزمان، سواء قبل نزول القرآن وأثناءه وبعده. حتماً هناك أشخاص في عهد نزول القرآن كانوا بالصفات التي تذكرها السورة، ولكنها لم تقصدهم هم

لوحدهم حتى نبحث عمّن قصدت، وليس إنجازاً تفسيرياً النجاح في تحديد من انطبقت عليه مواصفات السورة من عصر النبي محمّد(ع)، فهذا النوع من التفاسير عادة ما يضيّع علينا لبّ السورة، فهنا الكلام عن ومع محبّي المال لدرجة الشعور بالعظمة من القوّة بما يمكن لهذا المال أن يفعله، فهي إنذار لعموم الذين بهذه الصفات، وتحذير للبقية حتى لا يصلوا إلى هذه الحالة، وبيان إلهي لنتيجة الذين هم بهذه الحالة.

(يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ{3})
{يحسب}، يخطر في باله ومن دون دليل، {أن ماله أخلده}، أن ماله سيجعله باقياً على حاله فلا يموت، فمن كثرة ماله يخطر بباله أنه لن يحصل معه أي شيء يسوؤه، لا جوع ولا مرض ولا شيخوخة... فبالمال يمكنه فعل الكثير من الأمور، فيستغرق بالفكرة ويحسب أنه بالمال يمكنه فعل أي شيء يريده، فيشعر بالسلطة والسيطرة... ويستغرق بالفكرة حتى ينسى أن هناك أموراً لا يمكن للمال أن يفعلها! وينسى أن البعض ممن سبقه من الناس الأثرياء قد خسروا كلّ أموالهم! وآخرون مرضوا وتعلعلوا! وآخرون ماتوا غيلة، وغيرهم شاخ وهرم... فهكذا ومن دون تفكير عميق يخطر بباله أن هذا المال سيجعله قاهراً لأي شيء لا يعجبه، وحتى الموت الحتمي يصير عنده فكرة بعيدة جدا!

قارن آيتنا هنا مع ما ورد في الآية 35 من سورة الكهف عن غني يملك بساتينَ يظن أنها لن تبيد "وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا"، فهنا في آيتنا الكلام عن شعور الشخص بنفسه أنه لن يبيد وسيخلد، وهذا الشعور متداخل مع شعوره بأن أملاكه لن تبيد وستخلد. ويمكنك مقايسة كلتا الحالتين مع واقعنا الحالي حيث يشعر الكثير من الناس بالعظمة والكبرياء والفخر والزهو... لأنهم يملكون بيتاً وسيارة وشركة أو محلاً تجارياً ولديهم مدخول شهري عالٍ... ويحسبون أنه لا شيء يمكنه قهرهم... إلى أن جاءت الأزمات المالية أو الأزمات الأمنية الحربية... أو الأوبئة... وأفلسوا أو تراجعوا إلى حال عادية...

ننتبه جيداً، فالسورة مختصرة وتترك لك التفاصيل لما هو مشهور معلوم عندك من ثقافتك الدينية، فالذي يشعر بأن ماله أخلده، فهذا لا يؤمن بالآخرة ولم يعمل لها، وكلّ همّه مصبوب على الدنيا، لأنه يشعر بالخلود فيها، وبالتالي لن يتصرّف في ماله في فعل الخير، ولم تدخل السورة في تفاصيل بخله أو كرمه، أو تكذيبه للدين الإلهي، أو جمعه للمال من السوء... فلبّها وتركيزها على شعور بعض الناس بأن المال قوي لدرجة منع الموت عن صاحبه، على أساس أنه لا آخرة ولا حساب ولا جنّة ولا نار، فالجنّة هنا في الدنيا بنظر هؤلاء، ومالهم هو جنّتهم وكل ما يريدونه.

(كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ{4})
{كلا}، لن يخلّده ماله، {لينبذن}، سيتم إبعاده معزولاً، سوف يتركه تعالى من دون أن يكون له أي أهمية، وعملياً فهو الإبعاد عن الرحمة الإلهية وتركه يتعذّب، {في الحطمة}، في مكان تتحطم فيه الأشياء، حيث يخرب ويفسد من يكون فيها، فيتحطم الجسد بالاحتراق والضرب والتكسّر بالسقوط من أماكن عالية... ومن عموم القرآن تعلم أنه ستتحطم نفسيته المتكبرة المتعالية المتجبّرة ويشعر بأنه مهان.

إذاً وكمقابل لشعورهم بالخلود بمالهم فسيتعرضون للتحطيم، وتلاحظ تركيز القرآن مراراً على مشابهة نوع العذاب في الآخرة مع نوع السوء الذي ارتكبوه، فمن أهان دينه تعالى أو أهان المؤمنين فله في النار

عذاب بالإهانة، ومنه الهزء بآياته تعالى كما ورد في الآية 9 من سورة الجاثية "وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ"، والذي أكل مال الأيتام فسيأكل ناراً كما تقرأ في الآية 8 من سورة النساء "إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا"، وهنا فالكلام عمّن شعر بالخلود بسبب ماله، فله الحطمة، فأي خلود في صحّة أو قوّة أو نشاط... أمّنه له ماله؟ هذا خبر إلهي أن حبّه للمال نابذاً كلامه تعالى عن الآخرة والحساب سيؤمّن له الخلود منبوذاً فيما يستمر في تحطيمه.

بقي شيء، سبحانه رحمته لكل مخلوقاته، ولكن الذي قرّر منهم الخروج من تحت هذه المظلّة للرحمة، فسبحانه سيتركه خارجها، فالذين في جهنّم المرميّون فيها، المنبوذون، المنسيّون... والعديد من التعابير القرآنية الأخرى، كلها عملياً تشير لخروجهم من تحت مظلّة الرحمة الإلهية.

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ{5})
يمكنك القول: عندي معلومات عن المكان الذي تتحطّم فيه الأشياء، ولكن لا يمكنك القول: أدري به. لأنك لم تعشه فلم تشعر بحالة التحطّم فيه، فلم تشعر بالعذاب الأليم جداً الناتج عن التحطّم في ذلك المكان.

(نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ{6})
{الحطمة} هي: {نار الله الموقدة}، لها وقود من الناس والحجارة كما ورد في الآية 6 من سورة التحريم "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ..." التي تجعلها مشتعلة.

بما أنه سبحانه ينسب النار لنفسه، فهي نار أشعلها تعالى في الآخرة لتعذيب النابذين لكلامه، فلا يمكننا الآن تصوّر نوعها ولا مدى شدتها.

(الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ{7})
تلك النار، {التي تطّلع}، فلا يحتمي منها بل تصل وتطلّ بلهبها، {على الأفئدة}، على مركز وعيهم وإدراكهم.

هذه الفئة من الناس عندما قامت بالهمز واللمز للمال، في جزء شرّير من وعيها وإدراكها، كانت تفرح بجمع المال وتفرح بتلمّسه ويعطيها الشعور بالخلود، من دون فؤاد، من دون وعي وإدراك، فالإنسان مجرّد آلة لا يتفاعل مع الأشياء، مثل كاميرا المراقبة التي تسجّل ما يحصل أمامها ولا تعي بما يجري، مثل الخزانة التي فيها أموال، ولكن الأموال لا تعني للخزانة أي شيء... أمّا الإنسان ففؤاده هو ما يجعله يتفاعل مع المال... ولهذا السبب نار الله تعالى سوف تصل إلى فؤاده وتحرقه فتحطّمه إن كان كافراً شاعراً بالعظمة من ماله كالذي تتحدّث عنه السورة.

كما ترى الوصف لتعذيب عميق، قارنه مع من يسرح بفكره إلى ما يحبّه أثناء تعذيبه الجسدي، يتعرّض للضرب والتعذيب ولكن فكره سارح في أفكار أخرى، وقارنها مع المؤمن الذي يسرح فكره إلى الجنّة في أصعب الظروف، الآن نفهم ما تقوله الآية عن الكافر في الحطمة، فهناك لن يسرح فكره في أمور يحبّها، لا، فالنار التي تحطّمه من شدّتها ستنسيه كلّ الأفكار الجميلة، ولن يشعر من داخله إلّا بالألم والحسرة والندم... ففؤاده سيحترق.

كلمة فؤاد بحسب استعمال العرب لها، ومن تقويم دقة الاستعمال القرآني لها، تشير لما تعيه مما تدركه، فهي الفكر الواعي لما يصلك، وبتعابيرنا الحالية فهو الوعي الإدراكي الناشئ عن الوعي للذات، فهو قابلية وعي النفس ووعي ما يصلك. وعادة تصلك المعلومات عبر الحواس، عبر عينك، جلدك، أنفك، أذنك، لسانك... ولديك قابلية وصول المعلومات مباشرة إلى فكرك بدون وسيلة الحواس، كالوحي مباشرة في الوعي، وحيث تصل تلك المعلومات إلى وعيك الإدراكي لها فهذه حالة الفؤاد.

خذ مثلاً عندما تتعرّض لشيء قوي جداً كخوف شديد أو فقد حبيب... فيطيش فكرك، فلا تعد تسمع ولا ترى ما حولك رغم عمل عينيك وأذنيك بشكل طبيعي، حصل هذا مع أم النبي موسى (ع) حين ألقته (ع) في اليمّ كما ورد في الآية 10 من سورة القصص "وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا..."، أو عند تعرّضك لسؤال في موقف حرج، أو كما يحصل مع بعض الطلّاب عند تعرّضهم للامتحانات... فتطير المعلومات من رأسك في تلك اللحظات... فالحالة التي تصيبك من تلك المواقف ونسميها "فراغ ذهني" هي حالة فراغ الفؤاد بالتعبير العربي الذي تقوّم معناه بدقّة الاستعمال القرآني له، وعند استعادتك للانتباه لما تلتقطه حواسك، ففؤادك عاد للعمل.

(إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ{8})
{إنها}، تلك النار، {عليهم}، على هؤلاء الناس، {مؤصدة}، مغلقة فهي مكان لا يمكن الفرار منه.

كما نقول أوصد الباب أي أغلقه وقفله بالمفتاح، من عموم القرآن تعلم أنهم في هاوية ذات جدران شاهقة وسترى ذلك من الآية التالية.

لاحظ أن النار المؤصدة ذكرتها السورة هنا كعقاب للذي يعتقد أن ماله أخلده، ونفس التعبير بالنار المؤصدة جاء في الآية 20 من سورة البلد كعقاب للذي يصرف المال في السوء "عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ"، ونفس المعنى بتعبير التطويق ورد في الآية 180 من آل عمران لمن بخل ولم ينفق ماله في سبيله تعالى، "وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...".

(فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ{9})
الحطمة نار موقدة عليهم مؤصدة، {في عمد}، فيما يعتمد عليه فيستند عليه، {ممددة}، فهي تتمدد في كل الاتجاهات طولاً وعرضاً، فأينما ذهب ذلك الشخص فإن ناره تعالى تحيط به لأنه في مكان مُغلق بعمد بحيطان أو بأشكال طويلة رفيعة نسبياً... يعتمد عليه سقف المكان.

حالياً في عصرنا الصورة الذهنية النمطية للسجن أن يكون السجين خلف القضبان، ولم يصوّر القرآن ذلك بل صوّر صورة نمطية عن السجون في عصر نزوله، فصوّر مكاناً مبنياً مغلقاً وكلّه سجن، ففيه وديان وحمم تتطاير وتسقط... وهنا في الآية يصوّر مكاناً مغلقاً بعمد في تصوير تقريبي للكون خلف القضبان، فحتى الحيطان العريضة التي فوقها سقف يعتمد عليها فهي تسمّى عمد، ولكن يبدو أنه مكان صغير داخل جنهم كسجن انفرادي للواحد منهم أو لهم جميعاً...

معاني الكلمات تعطيك الصورة التالية: الحطمة مكان يتحطّم فيه السجناء وتشتعل فيه النيران وعلى أطرافه عواميد من نار ممتدة ولا يمكن تسلقها، كالحيطان الشاهقة جداً، وهناك سيخلد الذي شعر بالخلود من ماله هنا في الدنيا.

سورة الفيل (105) ص 601
تعرض السورة بشكل مختصر جداً نموذجاً عن التدخّل الإلهي في الدنيا لتكسير قوّة عسكرية جبّارة كافرة لم تجد من يقف في وجهها من المؤمنين.

تشدّق بعضهم بالتعليق على القرآن بأنه منحول من شعر فطاحل العرب قبل الإسلام، حيث ذكروا قصيدة منسوبة لرؤبة بن العجاج تشابه في كلماتها ما ورد في السورة هنا "ومسّهم ما مسّ أصحاب الفيل ترميهم بحجارة من سجيل.."، وذكروا بضعة أشعار أخرى لغيره تشابهت مع بعض آيات القرآن وقالوا إنّ النبي محمّد(ع) اقتبسها وألّف القرآن، ومجموع ما جمعوه لا يتجاوز خمسَ عشرةَ آية، من قرابة الستةِ آلاف وأربعمئة آية من آيات القرآن! فصارت الستةُ آلاف آية قرآنية منحولة من شعر العرب بسبب تشابه خمسِ عشرةَ آية منها مع أشعار العرب!

هذا لو سلّمنا أن هذه الأشعار ليست موضوعة من بعد الإسلام ومنسوبة لشعراء قبل الإسلام، إذ اشتهر في عالم الشعر الراوية حماد بن هرمز وتلميذه خلف الأحمر بأنهما كانا يلفّقان الشعر ويؤلّفانه أو يأخذانه من شاعر مغمور وينسبانه لشاعر مشهور، وهنا يبدو واضحاً سخافة من لا يحقّق في الكلام ويريد التعليق على القرآن ولو بأي طريقة، فرؤبة بن العجاج المنسوبة له الأبيات الشعرية المشابهة لما ورد في سورة الفيل، ولد ومات بعد وفاة النبي محمّد(ع)، يعني لو صحّت نسبة الأبيات لرؤبة فالقرآن قبله قال هذا الكلام فرؤبة استوحى شعره من آيات القرآن، وهذا التاريخ أمامك من أوله لآخره وفي كلّ الكتب يقول ذلك عن رؤبة الذي اشتهر في عصر الأمويين وصولاً للعباسيين ومات في عهد حكم المنصور العباسي.

ها التاريخ أمامك بكتبه يثبت لك أنه لا أحد من الناس علم سبب رجوع أبرهة عن هدم الكعبة، إذ فرّ أهل مكّة كلّهم وابتعدوا هرباً من أبرهة، فالعرب قبل نزول القرآن لم يعلموا ماذا جرى حتى توقّف جيش أبرهة عن هدم الكعبة، وذلك رغم علمهم بأن أبرهة وصل إلى مشارفها قاصداً هدمها، فكيف سيكون هناك شعر عن أصحاب الفيل والأبابيل والعرب أصلاً لم يعلموا بما جرى!

الرواية الوحيدة التي بين أيدينا عن تلك الحادثة، ترجع لشخص واحد شاهد من بعيد سواداً في السماء فوق المنطقة التي فيها جيش أبرهة، ويقولون إنّ هذا الشاهد عبد أو أجير أو ولد لعبد المطلب، وبعد أيام تجرّأ الناس وعادوا إلى مكّة، فقد كانوا هاربين منها إلى أبعد ما يمكنهم خوفاً من جيش أبرهة، وعندما عادوا لم يجدوا أي أثر لأي خراب في مكّة، ولا أثر لدخول جيش أبرهة إليها، ولم يجدوا في المكان الذي عسكر فيه الجيش إلا آثاراً عادية بلا جثث، تفرّد القرآن بخبر ما حصل للجيش، فمما بين أيدينا من وثائق ومعلومات، لم أجد شعراً أو قولاً قبل الإسلام وفيه خبر ما حصل مع أبرهة حتى انسحب ولم يهدم الكعبة.

فرضاً حصل تشابه بين عبارة ما استعملها القرآن وبين بيت شعر قبل الإسلام، أو حصل تشابه مع مثل عربي أو جملة متداولة بين الناس، حصل ذلك حتماً في تعابير عربية مشهورة، قليلة جداً بل تسمّى نادرة بالنسبة لستّة آلاف آية، فهي لا تتجاوز العشرةَ تعابير، كـ "لات حين مناص، من كل حدب ينسلون... وفي الشعر لم تتجاوز الخمسَ عشرةَ آية علماً أنّ أكثر هذه الأشعار قيلت بعد الإسلام "بعد نزول القرآن"، كحالة رؤبة الذي تحدثنا عنه في الفقرة السابقة، فهل هذا يجعل الستةَ آلاف آية من تأليف محمّد اعتماداً على أشعار العرب ومأثور أقوالهم! ما هذه الترهات والسخافات التي من الواضح أن من يقولها يريد فقط رمي السمّ، ويكذّب بالدين ليحرف عنه الآخرين ففوق كفره فهو من الصادّين.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ{1})

{ألم تر} أيها النبي(ع) وأيها القارئ للقرآن، ألم تَصِرْ لديك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: ما شفت، ألم تلتفت. {كيف فعل ربك}، كيف تصرّف المسؤول عنك من مستوى إلهي، {بأصحاب الفيل}، بالذين مع الفيل، وهو أضخم حيوان برّي، ومميّز بخرطومه ونابه العاجي الكبير. ومن المشهور جداً في التاريخ أن المقصود بأصحاب الفيل جيش أبرهة الذي أحضر معه الفيلة ليهدم الكعبة.

المشهور أيضاً أن الرسول(ع) ولد في نفس العام الذي حصلت فيه هذه الحادثة، وهكذا تفهم أنها تسأل الرسول(ع) وتسألك الآن عن علمك بهجوم لهدم الكعبة، فهذه الصورة المحدّدة التي في تصوّرك لهذه الحادثة، ألم تر كيف فعل ربّك تعالى بهم؟ فالصورة التي عندنا أن هجوم أبرهة الذي كان مقرراً لتدمير الكعبة لم يتم، فماذا حصل؟ وتأتي سورتنا هنا للجواب عمّا حصل.

السورة اختارت نموذجاً بارزاً عن القوّة العسكرية، فاختارت قوة قادمة لهدم الكعبة، ومعهم فيل ارتعب الناس منه وشعروا بأنهم لا قدرة لهم نهائياً على ردع هذا الجيش، ويمكنك تصوّرها الآن لو قارنتها مع جيش يملك آلافاً من الطائرات الحربية والصواريخ النووية وأنت لا تملك إلا رشّاشاً ومدفعاً! وهكذا كان الفيل بالنسبة للناس في وقتها، شيئاً مرعباً، فركّزت السورة على هذا النموذج لترينا أن التدخّل الإلهي يحصل هنا في الدنيا بطرق مباشرة ليهزم تعالى أعتى جيش...

على مقياس أسلحة عصرنا يصير تطبيق الآية على معنى، ألم تر كيف فعل ربّك بأصحاب الطائرات القاذفة للقنابل؟ ألم تر كيف فعل بأصحاب القنابل النووية؟ فعلى هذا المعنى ذكرت الآية الفيل كقدرة عسكرية متفوقة ومرعبة في ذلك الزمان.

يُقال في كتب التاريخ إنّ حروباً كانت تقع بين القبائل المقيمة في شبه الجزيرة العربية التي تضم الآن السعودية واليمن وعمان والكويت والإمارات وغيرها، وبين قبائل الحبشة التي كانت ممتدة فيما يسمى الآن بأثيوبيا وما يجاورها من الصومال وجزءاً من السودان وبعض الأراضي المجاورة. وفي فترة من التاريخ قام جيش من الحبشة "أثيوبيا وما يجاورها" باحتلال اليمن، وأقام مستعمرة فيها، وبسط نفوذه على الجزيرة العربية فصار الكثيرون تابعين له وتحت أمره...

يقولون إنّ حاكم هذه المملكة واسمه أبرهة، لفت انتباهه تقديس العرب للكعبة التي في مكّة، وذهابهم إليها للحجّ وتقديم النذور، ويقولون "على ذمّتهم" إنّ أبرهة بنى معبداً كبيراً في اليمن وأمر الناس بالذهاب إليه بدلاً من الكعبة.

يقولون إنّه بعد مدة من الزمن بقي الناس يذهبون إلى الكعبة التي في مكة، وعندها قرَّر أبرهة هدم الكعبة. وبناء عليه مشى بجيشه ومعهم فيل أو فيلة مُدرَّبة على الحرب والتدمير، ويقولون في الكتب إنّه في الطريق حاربتهم القليل من القبائل العربية، ولكن من دون جدوى فانهزموا، وفي النهاية وصل جيش أبرهة مع الفيلة إلى منطقة مكة، وأقاموا معسكراً بعيداً عن مكة بحوالي مسير ساعة أو ساعتين منها، ليرتاحوا فيه ويتجهزوا للهجوم.

عندما علم أهل مكة بقدوم جيش أبرهة، أخذوا ما يستطيعون من أغراض منازلهم وحيواناتهم الأليفة مثل الجمال والغنم وهربوا إلى الجهة المعاكسة لتمركز جيش أبرهة ولم يبق في مكة أحد.

يروون حادثة يقولون إنّها جرت مع عبد المطلب جدّ النبي محمّد(ع) حيث استولى جنود أبرهة على إبل لعبد المطلب الذي ذهب إلى أبرهة يطلب منه ردّها... ولا علاقة لسورتنا هذه مع تلك الحادثة...

أثناء استراحة جيش أبرهة قبل الهجوم على الكعبة، حصل معهم ما ترويه لنا هذه السورة.

قبل أن نكمل بقي شيء نذكره، فقد درج في العديد من كتب التفاسير محاولة ربط موضوع السورة السابقة بالسورة اللاحقة، ففي كلّ سورة تجد بعضهم يقولون مناسبتها للسورة التي قبلها، وقد تحدّثنا مراراً عن هذا الكلام الفارغ في دراستنا هذه، وأكرره لك هنا لترى سوء ربط السورة السابقة بسورتنا هذه، ولو كانوا يربطون مواضيع السور ببعضها على ترتيب نزولها، لكان في محاولتهم لربط تسلسل مواضيع السورة وجهة نظر، ولكنهم اعتمدوا ترتيب السور كما هي مرتبة في القرآن المنتشر بين أيدينا، علماً أنّه ليس مرتباً بحسب ترتيب نزول السور على الرسول(ع)، إذ رتّبه الجيل الأول من المسلمين بهذا الشكل من أطول السور إلى الأقصر، مع بعض الشواذات القليلة في الترتيب لأسباب

مختلفة... وهذا الترتيب من الأطول إلى الأقصر لم يكن منتشراً في عهد الرسول(ع)، فمن أين اخترعوا مناسبة موضوع كلّ سورة مع التي تليها! والعجيب أن فذلكة الربط هذه فاشلة بوضوح في الكثير الكثير من محاولاتهم، وربط موضوع سورتنا هنا مع التي قبلها من أبرز نماذج هذه الفكرة الفاشلة التي ما أنزل بها تعالى من سلطان.

بقي شيء، فهذه الدراسة أكّدت فصل معرفة التاريخ عن التفسير، فإذا لم يخرج المعنى كاملاً من الآيات، فلا ترقيع له من الروايات، فأي تفسير للقرآن ولا يمكنك فهمه إلا مع ضمّ معرفتك لحادثة تاريخية "لم يذكرها القرآن"، فهذا ليس تفسيراً، بل إسقاط لمعلومات خارجية على ما يريد القرآن قوله.

هنا نسأل: إن لم نعرف بهذه المعلومات عن أبرهة وهجومه لهدم الكعبة، مع العلم إنّها حادثة مشهورة جداً، ومشهورة خصوصاً لأنه ولا أحد من الناس يعلم سبب انسحاب أبرهة قبل هدمه الكعبة.

إن خطر ببالك أننا يجب علينا معرفة شيء من التاريخ لفهم هذه السورة، ولم تقبل بالشهرة غير العادية لحادثة الفيل لهدم الكعبة، فعليك بالبقاء على رفضك، وعليك بالنظر لما ستفهمه من السورة لوحدها، والنتيجة: قوّة عسكرية غير عادية كانت تكيد لعمل سيئ، فدمّرها تعالى. نقطة انتهى، وهذا ما تريد السورة قوله.

سواءٌ أضفت هدم الكعبة للقصة، أو أضفت معرفة أبرهة... أم لم تُضِفْهُ، فلا شيء تغيّر سوى تحديد المكان والزمان، وهذان عنصران غير مهمّان بالنسبة لموضوع السورة.

(أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ{2})
{أَلَمْ يَجْعَلْ} ربك سبحانه، {كَيْدَهُمْ}، كيد أصحاب الفيل، والكيد هو عموم أي عمل ليس للفاعل أي مصلحة به، والمقصود منه الضرر بالآخرين فقط، علناً أو بالسرّ، وهذا المعنى قريب من كلمة "جكارة" المستعملة في العامية الدارجة حالياً. أصحاب الفيل الذين قصدوا الضرر بالآخرين، وهذا ما جعله تعالى، {فِي تَضْلِيلٍ}، فصار كيدهم لا يوصلهم إلى ما يريدونه.

المشهور في التاريخ أنهم قصدوا تدمير الكعبة، فهذا كيدهم، فهذا عملهم الذي نووا به إبطال توجّه الناس إلى الكعبة للحجّ وذكره تعالى، ولكنه تعالى جعل تحرّك جيشهم {فِي تَضْلِيلٍ}، في ضلال، فلم ينجحوا في الوصول إلى هدفهم ووصلوا إلى شيء آخر، فتعرّضوا هم للهزيمة.

كما ترى اختصرت السورة التاريخ فلم تذكر ما أرادوه، وركّزت على إنهائه تعالى لكيدهم، فسواء علمت من التاريخ أنهم قصدوا هدم الكعبة أم لم تعلم، فالأمر سيّان، فهم مجرد نموذج أراد كيداً وهو معتزّ بقدرته العسكرية التي في زمانها كانت هائلة، فمعهم فيلة للقتل والتدمير وتسبيب الرعب، وهذا بتعابير عصرنا يساوي التعبير بالأسلحة الاستراتيجية كحاملات الطائرات وقاذفات القنابل النووية...

كثيراً ما يذهب فكرنا لفهم كلمة "ضلّ" كمرادف لتاه أو ضاع، ولكن معناها أوسع من ذلك، فهي لعموم ما لا يوصلك إلى ما ترغبه وتريده سواء أكان خيراً أم شرّاً، فإذا ذهبت إلى صيد الطيور ولم تجلب معك الخرطوش "الطلقات" المناسب للمسافات البعيدة، ومرّت الطيور من أمامك على مسافات بعيدة، فضلّ عنك صيدها. استعمل القرآن هذا التعبير بالضلال لوصف من عبد آلهة ما، وفي يوم القيامة ضلّت عنه، فلم تقصد الآيات أن آلهته ضاعت ولم يجدها أو لم تجده، بل قصدت أنه يحتاج لإله ليساعده وهم ليسوا آلهة، فلن يفيدوه بشيء. واستعملها القرآن لتوصيف حالة ضلال النبي موسى(ع) عن دين فرعون فهو ليس على طريقهم، بل ضالّ عن دينهم ومفتخر بذلك كما ورد في الآية 20 من سورة الشعراء {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} ردّاً على ما نقلته الآية السابقة من اتهام فرعون له (ع) بالكفر.

ضع في بالك أن ما لدينا في الكتب من تفاصيل عمّا جرى مع جيش أبرهة حتى انسحب قبل هدم الكعبة، كلّه لا يبدو أبداً موثوقاً، ولا يمكن الاعتماد عليه، ويبدو أن القصّة تراكمت وكبرت بناءً على ما ورد في سورتنا هذه، كمحاولة لتأليف المسلمين سيناريو تاريخياً لها... وأمّا قبل نزول سورتنا هذه فأهل مكة "وبقية العرب" لم يعرفوا لماذا لم يكمل جيش أبرهة هجومه؟ لماذا لم يدمّر الكعبة؟ فلم يعلموا ماذا جرى معهم حتى انسحبوا، وترى ذلك واضحاً في الرواية التي ذكروا فيها عبد المطلب "جدّ الرسول محمّد(ع)" الذي كان هارباً بعيداً جدّاً عن مكّة هو وكل بقية أهل مكّة، ويقولون

إنّ عبد المطلب أرسل أحدهم لينظر من جبل بعيد إلى مكّة ويخبرهم بما يحصل، وذاك الشخص يقول بأنه رأى سواداً في السماء كغيمة فوق المنطقة التي فيها جيش أبرهة، وبعد يومين أو ثلاثة... أرسل عبد المطلب أحدهم إلى مكّة ليرى ما حصل، فعاد وأخبرهم أنه لم يحصل لها أي شيء، فلا أثر لدخول جيش أبرهة إليها. وهذا فقط ما يمكنك أن تخرج به مما قالوه كنقل عن شهود عيان، وبقية كلامهم الآخر جرى اختراعه من بعد نزول هذه السورة، ونبقى على هذا القول إلى أن يظهر لنا مستند موثوق يقول غير ذلك.

(وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ{3})
{وَأَرْسَلَ} سبحانه {عَلَيْهِمْ}، على أصحاب الفيل، {طَيْراً}، أشياء طائرة تهاجمهم، {أَبَابِيلَ}، جماعات جماعات، فتأتي أول مجموعة تهاجم ثم تأتي مجموعة ثانية، وكلمة أبابيل مثل الكلمة التي لا تزال دارجة الآن: بالة حطب، بالة بلاط... فهي كلمة لوصف حزمة أشياء مجموعة مع بعض، ويبدو أن جمعها تكسير وسالم: أبابيل وبالات.

المشهور بين الناس تفسير هذه الآية بوصفها طيوراً أتت جماعات جماعات إلى أصحاب الفيل، ولكن الشبه بين التعابير هنا في السورة وبين تعابير قرآنية وردت عن حادثة هلاك قوم النبي لوط(ع)، كما سترى من الآية التالية، تجعلنا لا نحتمل أن تكون طيوراً من الحيوانات أرسلها تعالى عليهم، بل هو مجرّد وصف لطيران شيء فوق الجيش، وهو شيء لم تفصّله الآية.

(تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ{4})
تلك الأشياء الطائرة في السماء دفعات دفعات، {تَرْمِيهِم}، ترمي أصحاب الفيل، {بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ}، أي من طين ساخن.

تلاحظ استعمال القرآن الكريم لكلمة "سجّيل" فقط للحديث عن حادثتين: في هذه السورة التي تتحدث عن مهاجمة أصحاب الفيل، وعندما تحدّث القرآن عن عذاب قوم النبي لوط(ع) في سورة الذاريات حيث قالت الملائكة(ع) للنبي إبراهيم(ع) "إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ{32} لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ{33}". ووصف القرآن الكريم بعد ذلك كيف تم العذاب على قوم لوط (ع) فقال في سورة الحجر "فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ{74}". وبهذا الوصف تفهم الكلام هنا عن سقوط رزمات من الحجارة المتطايرة من بركان أو ما شاكل من الظواهر الطبيعية.

قال أكثر المفسرين إنّ طيوراً من الحيوانات حملت في رجليها ومنقارها حجارة ورمت بها على جيش أبرهة، ولكن هذا ليس أكيداً، فالروايات التي اعتمدوا عليها ركيكة المتن والسند وليست قوية، وحتى في تلك الروايات الركيكة لا يوجد أحد يقول إنّه شاهد طيوراً تقذف الجيش بالحجارة، إلّا بيت شعر نسبوه لشخص قالوا إنّه كان مع الجيش وهرب... وحول هذه الأقوال شبهات كثيرة، وأكبر الظنّ أنها أكاذيب.

أهل مكة يعرفون فقط أن جيش أبرهة انسحب قبل الدخول إلى مكة ولا يعرفون السبب، وهذه السورة مفاجئة للجميع لأنها تشرح ما حدث، ومن بعد نزول هذه السورة نسج الناس قصصاً وأشعاراً.

مصير أصحاب الفيل بشكل ما مشابه لمصير قوم النبي لوط(ع) من ناحية سقوط حجارة عليهم موصوفة بأنها من سجّيل، فكما هناك فهمنا إمكانية كونها ثوران بركان، أو نافورة بركانية مفاجئة... فهنا أيضاً نحتمل بشدّة أن أصحاب الفيل أصابتهم حجارة من بركان، وبمراجعة الجغرافيا ستجد أن منطقة جوار مكّة مزدحمة بمئات الفوهات البركانية القديمة.

بالتحليل لكلمة "سجيل" التي لم أجدها فيما لدي من مصادر في أشعار العرب قبل الإسلام، ولكن وجدتها في بيت لواحد من المخضرمين المولودين قبل الإسلام، وفي كلامه تشير للكثرة، ولخصوص ما هو مصبوب: إذا واضَحُوهُ الْمَجْدَ أَرْبَى عَلَيْهِمُ، بِمُسْتَفْرِغٍ ماءَ الذِّنابِ سَجِيلِ. وعليه تصير سجيل وصفاً للكمية الكبيرة، ومن سجيل تعبير يشير لتساقط شيء من مجموعة كبيرة متساقطة. وعلى هذا فالاحتمالات هنا تصير شاملة لتساقط حبّات البرد.

(فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ{5})
{فَجَعَلَهُمْ}، فجعل ربّك سبحانه أصحاب الفيل، {كَعَصْفٍ}، أي مثل ورق النباتات الطرية، {مَّأْكُولٍ}، نخرته الحشرات التي تأكل الورق الطري. فحدث في جلودهم بقع وثقوب من آثار إصابتهم بحجارة من سجّيل.

من الجدير ذكره أن أهل مكة والجوار من بعد قدوم أصحاب الفيل صاروا يؤرّخون بعام الفيل فيقولون: سافرت بعد عام الفيل بخمسة أعوام. وبنيت داراً بعد عام الفيل بعامين، وهكذا... لأن الحادثة كانت غريبة، فالفيل ليس من الحيوانات المنتشرة على الجزيرة العربية، والهجوم كان على الكعبة، وكلاهما أمران عظيمان. ومن المشهور أن النبي محمد(ع) ولد في نفس العام الذي وقعت فيه هذه الحادثة، وعند نزول هذه السورة يكون قد مضى على حادثة أصحاب الفيل بين 40 إلى 50 سنة، لم أجد فيها ولا قولاً عن الحادثة إلا ما قالوه عن إرسال عبد المطلب لكشّاف... ذكرتها لك سابقاً.

إذاً، فالفيل كقوّة عسكرية مرعبة للعرب في حينها، والمقارنة لحاملات الطائرات والقنابل النووية... في عصرنا، فيدمّرها تعالى إن أراد بسهولة بحادثة من الطبيعة، فكلما واجه المؤمنون خطراً لا يملكون الوسائل والمعدات العسكرية المناسبة لمواجهته فليتذكّروا هذه السورة.

سورة قريش (106) ص 602
تعرض السورة نموذجاً عن نعمة من الواضح جداً أنها منحة إلهية ورغم ذلك كفر الناس به تعالى.

قيل إنّ هذه السورة مع التي سبقتها سورة واحدة، وفي كتاب الميزان للسيد الطباطبائي كلام بحثي قصير في الروايات التي تناولت هذا الموضوع، وخلص بنتيجته أنهما حتماً سورتان منفصلتان وأقصى ما يمكن قوله هو جواز قراءتهما معاً في نفس الركعة من الصلاة الواجبة، ولا حاجة إلى مزيد من الكلام بعد الذي ذكره رحمه الله.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ{1})
{لإيلاف} للإلفة، للشيء الذي ألفته اعتادته وتماشت معه، {قريش}، القبيلة التي تسكن في مكّة وينتسب لها النبي محمّد(ع). والآية التالية ستذكر ما ألفوه، ما اعتادوا عليه.

{قريش} وهو اسم لأكبر قبيلة من قبائل مكة، والنبي محمد(ع) منها، ويندرج تحت هذه القبيلة عدّة عائلات منها: بنو هاشم، بنو عبد الدار، بنو عبد مناف، بنو أمية وغيرهم من العائلات... وهم كلّهم أبناء أبناء... أجداد... وصولاً إلى النبي اسماعيل(ع) ابن النبي إبراهيم(ع).

في هذه السورة يضرب سبحانه لنا مثالاً كنموذج ينطبق على كل زمان ومكان، فكما قرأنا في بعض السور بأنه سبحانه يُقسم بالليل والنهار والشمس والقمر... وهي أمور ليست بغريبة عنا، بل نألفها ونراها كل يوم، ولكنه تعالى أقسم بها لننتبه بأنَّ الذي نألفه ونعتاده لا يعني أنه لا قيمة له.

قريش التي كانت تعاند النبي محمد(ع) وتُكذِّبه تنبّههم السورة إلى أمر ألفوه واعتادوا عليه ويظنّون أنه ليس لله تعالى فيه أي تدخل أو إرادة، فما هو هذا الشيء الذي تعوّدت عليه وألفته قريش؟

(إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ{2})
{إيلافهم}، ما اعتادوا عليه وتماشوا معه في حياتهم وهو: {رحلة}، بتعبيرنا الحالي: سفرة، انتقال مؤقّت، في زمنين: {الشتاء والصيف}.

بديهي أنّ الكلام عن النعمة التي يجب أن يشكروه تعالى عليها، فالكلام ليس عن رحلة، عن ارتحال للنزهة والسياحة بل للاستفادة، للتجارة.

من المشهور في التاريخ أن عموم أهل مكّة كانوا يعتمدون في معيشتهم على إحضار البضائع لبيعها في مكّة التي يقصدها عموم العرب للحجّ والعمرة والنذور... وبالخصوص فقبيلة قريش كانت الأبرز من بين قبائل مكّة في القيام برحلتين تجاريتين أساسيتين في السنة، رحلة في الشتاء إلى بلاد اليمن فيشترون من هناك التوابل والبهارات والمنتوجات الرخيصة، ويحملون هذه البضائع معهم إلى مكّة ويبيعونها للحجّاج... ويقومون برحلة ثانية في الصيف إلى بلاد الشام فيشترون منها البضائع ويحضرونها إلى مكّة لبيعها... ويبيعون للشاميين ما أحضروه من اليمن... وبالعكس... وبعد ذلك تطوّرت تجارتهم أكثر فأكثر، وصارت مكّة مركزاً تجارياً معتمداً مشهوراً يقصده الناس للتبضّع...

تجد في الكتب العديد من الحوادث التاريخية الناتجة عن تلك الرحلات التجارية، وأشهرها في الكتب التقاء النبي محمّد(ع) وهو صبي بالراهب بحيرى حين أخذه أقاربه معهم في رحلة تجارية إلى الشام، وأكثر منها شهرة "وثباتا تاريخيا"، هو خروج النبي محمّد(ع) وهو شاباً في رحلة تجارية أوكلته فيها السيدة خديجة بالتجارة في مالها... ومن بعدها تزوّجا...

هذه الرحلات التجارية ألفتها، فاعتادت قريش عليها، وتأمّن لها مصدر رزق بسببها.

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ{3})
قريش من المفروض منهم طاعة المسؤول عنهم من مستوى إلهي والذي ينتسب له البيت الذي في مكّة، وهو المشهور باسم الكعبة. وهي البناء المربّع الشكل الموجود في مكة، والذي تطوف "تدور" الناس حوله عندما يذهبون إلى الحجّ أو العمرة.

لولا هذا البيت الموصوف بنسبته إلى الربّ سبحانه، لما كانت مكّة مقصداً يأتي إليه عموم الناس، وبالتالي فلا زبائن ولا تجارة، ولما كانت مكّة مكاناً يحترمه الناس، وبالتالي فلا أمان من الغارات والسرقة، ولا زبائن. وقريش لم يكن لها اعتبار مميّز عن بقية القبائل لولا انتماؤها لمكّة، وبالتالي فلولا ربّ هذا البيت لم يكن لقريش معاملة تجارية خاصة لها، من دين أو أمانة أو أسعار خاصّة أو ضمانة استمرارية التجارة معهم... فكل هذا نتج عن وجود بيت منسوب له تعالى في مكّة حيث تسكن قريش، فتأمنّت لهم ولبضائعهم ولتجارتهم استقرارٌ أمنيٌّ، وتأمّن لهم زبائن من القاصدين للحجّ والعمرة والنذور...

من الواضح جداً أنّ العزّ التجاري والأمني الذي تمتّعت به قريش، هو ناتج عن كونهم بالقرب من بيت منسوب له تعالى، فبالحري بهم التصرّف على أساس أنهم عبيد لربّ هذا البيت، بدل شركهم وكفرهم برسوله(ع) وقرآنه...

كلمة عبد تشير لمن المفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك. وما تعارفنا عليه بتسمية العبادة من صلاة ومناجاة... فهذه ذكر وهي من تطبيقات العبادة وليست حصريةً فيها لأنها شاملة لكل ما تطيعه به تعالى.

(الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ{4})
ربّ الكعبة سبحانه، {الّذي أطعمهم} من {جوع}، فبدل أن يكونوا في حالة الحاجة للطعام أطعمهم ربّ البيت بسبب ما نتج من توقير واحترام الناس للكعبة وقصدهم لها وبالتالي التبضّع منها، وبالتالي تنعّم قريش بربح التجارة من بيع الحجّاج وغيرهم.

{وآمنهم} ربّ البيت سبحانه، فصاروا لا يشعرون بأي خطر، {من خوف}، من خطر لا يمكن تجنّبه من غارات وهجومات يقوم بها أحد ما من اللصوص أو المحتلّين... فغيرهم من القبائل تعتمد على قوّتها القتالية لإبعاد الأعداء واللصوص، أمّا قريش فبالرغم من قوّتها ولكن بسبب احترام عموم العرب للكعبة فهم لا يفكّرون في مهاجمتها أو التعرّض لسكّانها. ونفس هذا المعنى ورد في الآية 67 من سورة العنكبوت "أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ".

هكذا اختارت السورة نموذجاً بارزاً جداً عن حصول قوم ما على نعمة الاقتصاد والأمان بسبب إلهي مباشر، فلولا تحديده تعالى للكعبة كبيت منسوب له سبحانه، كرمز لتقصده الناس للتقرّب منه تعالى، فلولا ذلك لما صارت مكّة التي فيها الكعبة مقصداً لعموم الناس على مدار السنة، ولما كانت آمنة من الغارات والهجمات، ولما نتجت عن ذلك رحلتان تقوم بهما قريش لجلب البضائع إلى مكّة لبيعها للحجّاج وعموم الناس...

لا يذهب فكرك إلى تحديد خصوصية السورة لقريش ومكّة، لا، فهذه نماذج مثله مثل أي نموذج آخر تحدّث عنه القرآن، ففرعون نموذج، وعاد وثمود... نماذج، والنبي محمّد(ع) والأحداث الشخصية والعامّة التي حصلت معه (ع) وذكرها القرآن هي نماذج... لنستفيد منها كعبرة، فها أمامك نموذج واضح جداً أنّ ربّ البيت سبّب لقريش بحبوحة تجارية وأماناً، فصاروا متآلفين معها وناسين لأهميتها وتعلّقها من أساسها بتحديده تعالى للكعبة بيتاً له تعالى كرمز يقدّسه الناس.

تلاحظ السورة لم تدخل في تفاصيل عقيدة قريش "كاختراعهم لأصنام يعبدونها..."، ولم تدخل في تفاصيل شريعة قريش "كحرمان الأنثى الضعيفة من الميراث ووأد البنات وتشريع الزنا..."، بل ركّزت على نعمة من الواضح جداً أنّها نعمة إلهية عليهم، وكان من المفروض بهم عبادة الربّ الذي أنعم عليهم، ولكنهم عارضوا رسوله(ع) وخالفوا شريعته تعالى واخترعوا آلهة!

يمكنك النظر للموضوع من وجهة أخرى، فبفطنتهم استغل القرشيون مكّة كمكان يقدّسه الناس، وبذكائهم التجاري جعلوا من مكّة مركزاً تجارياً وأحضروا إليها البضائع في رحلتين رئيسيتين... وبقوّتهم أرعبوا من يحاول الإغارة عليهم... وهذا ما لفتت له السورة في أول كلمة فيها "لإيلاف"، فهذه أمور سارت بسهولة واعتادت عليها قريش كأنها شيء عادي، فلنترك جانباً مسألة ذكائهم وفطنتهم وقوّتهم، ولنرجع إلى الأساس الذي نتج عنه نجاحهم، وهو سكنهم بقرب بيت حدّده تعالى كمكان مقدّس للعبادة.

يمكننا فهمها بشكل أفضل عندما ننظر إلى الثروات التي يجمعها الوزراء والنواب والرؤساء ومسؤولو الأحزاب والجمعيات والكثير من علماء الدين... فهؤلاء يعتقدون أنهم بذكائهم وفطنتهم جمعوا الثروات، فيبررون لأنفسهم السرقة من المال العام ومال الله تعالى وموارد الدولة... ويبرّرون الاحتيال والنصب والرشوة... على أساس أنها أمور عادية من حقوقهم لأنهم يؤدّون خدمة كبيرة للناس بتولّيهم لأمور السلطة! وهم لا يعتقدون بأنهم استغلّوا مناصبهم لتجميع الثروات، لا، بل يعتقدون أنهم أفطن وأذكى وأقوى من الآخرين، ولولا تقيّدهم بمناصبهم "لانشغالهم بخدمة الناس" لحصلوا على كمية أكبر من المال، لأنهم هم مبدعون في أفكارهم وبعد نظرهم ورؤيتهم الواسعة للأمور...

هذه ترّهات تبرّر استغلالهم لمناصبهم، ونفس الشيء هو بعينه ما تقوله السورة عن قريش، فهل بقية القبائل أغبياء وليس فيهم فطناء ولا أصحاب رؤية واسعة وبعد نظر... حتى نجحت قريش في التجارة بما يفوق الآخرين وبشكل ملحوظ؟ كما ترى فهذه هي السخافة بعينها، فلولا اعتبار الناس مكّة مكاناً مقدّساً وحجّهم إليها عاماً بعد عام، فمن أين ستتأمّن الزبائن؟ ولولا تقديس الناس لمكّة واحترامها فمن أين سيتأمّن الأمن؟

لا تنسَ أنّ السورة اختارت نموذجاً سهلاً فهمه لا يناقش في صحّته أي عاقل، وتركت لك قياس النماذج الأخرى على نموذج قريش، ونبّهتنا إلى عبادة المسؤول الأحد الحقيقي عنّا من مستوى إلهي، الذي منحنا الحياة والفكر والماء والنفط...

من المعلوم في التاريخ أنّ بعض المدن العربية ومنها مدينة الطائف كمثال، غارت من مكّة وبنت كعبة لأصنامها! على أمل أن تصير مكاناً يقصده الناس... وبالتالي على أمل أن تصير مركزاً تجارياً كمكّة، ولم ينجحوا... وهذا مشابه لما تفعله المدن والدول في عصرنا من الترويج للسياحة والآثار التاريخية والدينية والاحتفالات... وهكذا ترى بوضوح أنّ البيت الذي في مكّة هو العامل الأساسي في نجاح أمنها وتجارتها.

سورة الماعون (107) ص 602

كلام السورة عن المدّعي للتدين حتى لا نكون مثله ونحن نظنّ أنفسنا مؤمنين، توبّخه وتدلنا على صفاته حتى نميّز بين المتدين الحقيقي الذي تنطبق عليه فِعْلاً صفات الإيمان، ونميّزه عن الممثّل الديني.

العبرة منها أنَّ لعب دور الممثّل المتدين، فهذا لن يجعلني مؤمناً في اعتباره تعالى، فإمّا الانتماء الكامل عبر الالتزام بالصالحات، أو الويل.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ{1})
{أَرَأَيْتَ} ، نسألك أيها النبي محمّد(ع) وأيها القارئ للقرآن إذا حصلت عندك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: شفت. التفت إلى {الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ}؟ فهو يعتقد بأن الدين الإلهي كذبة وليس حقيقة.

نحن العبيد مدينون لإلهنا، فعلينا تبعات كوننا عبيده، فندين له بالطاعة والالتزام بأوامره، والذي تتحدّث معه وعنه السورة فهو يكذّب بالدين، فلا يؤمن بأنه صحيح، فلا يؤمن بالتبعات التي عليه لربّه.

بعض الناس يعيش في مجتمع فيه جماعات من المتدينين، وبشكل أو بآخر يصير مجبراً على التماشي معهم ويعلن تدينه للحصول على منصب أو للترويج لتجارته... أو يتماشى معهم حتى لا يكون منبوذاً غريباً بينهم... وحتى لا تكون هذه النوعية من الناس نموذجاً للتدين، تأتي سورتنا هذه لتنبهنا إلى أنهم يمثلون فيقلّدون صفات المتدينين فهم من داخلهم لم يصدّقوا بالدين، فلم يقتنعوا بأنَّ عليهم تبعات لربّهم.

كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، فهي ليست اصطلاحاً مخصّصاً كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، فهي عامَّةُ تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئاً ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف...

الله تعالى خلقني فأنا مدين له، فخلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعاً بسبب سَعَةِ تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنىً عميقٌ لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... فكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة فهناك ندان بأعمالنا، فما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة كلامه تعالى هو التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضاً يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسباً بحكمته قد يديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

كما ترى، فتبعات طاعتنا له تعالى نابعة من حرية إرادتنا، فبحرية الإرادة الممنوحة لنا مطلوب منّا طاعته تعالى، وننتقل لشيء آخر، لتمييزنا بين الخير والشرّ، فبما أننا مزوّدون بهذه القدرة، فعلينا تبعات فعل ما نراه خيراً وترك ما نراه شرّاً، وهذا عمق آخر لكلمة دين، فنحن ندين بفعل الخير وترك السوء.

لهذا الكلام أساس قرآني يبني عليه محاسبتنا في الآخرة، وترى أهميته حين تتذكّر أنَّ هناك أناساً لم يصلهم خبر نبي ولا كتاب إلهي، فهم مدينون مثل الذين سمعوا بدينه تعالى، ومدينون مثل المنتمين لدينه تعالى، عِلْماً أن السورة هنا كلامها عن المنتمين لدينه تعالى.

(فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ{2})

{فَذَلِكَ}، الذي لم يعتقد بأن عليه تبعات فعل الخير بطاعة أوامره تعالى هو {الَّذِي يَدُعُّ}، يصدّ بعنف، {الْيَتِيمَ}، الفاقد لأبيه الذي عادة يعيله ويؤمّن حاجاته.

إذا طلب منه اليتيم مساعدة فهو يصدّه بعنف: يقطع عمرك اذهب من هنا، اغرب عن وجهي، لست مسؤولاً عنك...

لاحظ أنَّ القرآن عموماً يختار اليتيم كأبرز نموذج عن المحتاجين للمساعدة، فليس كلّ يتيم فقيراً، ولكن لو كان الطفل أو الولد أو الفتى أو الفتاة، يتيماً، فاقداً لأبيه الذي عادة يؤمّن له حاجاته، فهنا تكون الحالة نموذجاً بارزاً عن معاناة لإنسان صغير في السنّ ولا معين له.

الذي تماشى مع مظهر المتدينين، فأطال لحيته، أو حمل السبحة، أو وضع القرآن المزخرف على الحائط، أو الذي يستعمل عبارات المتدينين في حديثه، أو يروي قصصاً دينية ومواعظَ... فهذا ستعرف أنَّه ليس مصدّقاً بالدين إن دعّ اليتيم، فتصرّف بعنف مع يتيم يطلب المساعدة.

المؤمن الحقيقي قد لا يكون قادراً على مساعدة يتيم محتاج، ولكن المؤمن الحقيقي لن ينهره أبداً بتاتاً، بل سيكون مهذّباً لائقاً معه حتى لو لم يقدر على مساعدته، أمّا المكذّب بالدين، الذي لم يؤمن بوجوب الالتزام بالأمر الإلهي بمساعدة المحتاجين، ولم يصدّق بالحسنات الضخمة التي نحصل عليها في الآخرة من مساعدة الأيتام، فهذا قد لا يكتفي بتعنيف اليتيم بالكلام بل يلاحقه ويضربه. ويكفيك رؤيته بلا أدب مع اليتيم لتعلم أنّه لم يصدّق بالدين وأنَّ مظهره المتدين هو تمثيلية.

(وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ{3})
{الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ}، {وَلَا يَحُضُّ}، لا يشجّع ولا يحفّز الآخرين، {عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}، فالمسكين هو شخص أحواله المالية متعثّرة، وقد يكون فقيراً معدماً لا يملك حتى وجبة طعام يسدّ بها جوعه، وقد يكون عنده بيتٌ أو محلٌّ تجاريٌّ أو سيّارة... ولكنه يمرّ بظروف متعثّرة، فهذا أيضاً مساعدته واجبة بأمر من الإله سبحانه وتعالى، ولكن الذي لم يصدّق بالدين فلن يساعد المسكين بل لن يحضّ "يحمّس يشجّع" الآخرين على مساعدته.

تذكّر دائماً أنَّ القرآن لم يتحدّث "بشكل مباشر" عمّا نسمّيه "صدقة مستحبّة"، بل كان كلامه دائماً عن شخص بحاجة للمساعدة فيجب مساعدته دائماً، فحتى لو دفعت ما عليك من زكاة وخمس وفطرة... وتبرّعت وتصدّقت... فإن واجهك شخص بحاجة للمساعدة فيجب، أكرر لك، فيجب أن تساعده إن كنت مستطيعاً، وليست مساعدته نافلة أو استحباباً، وهذا هو كلام القرآن.

بدأت السورة بعلامات المكذّب بالدين من نكرانه لمساعدة الآخرين قبل الحديث عن واجباته تجاه ربّه سبحانه، قبل الصلاة، وعامّة القرآن يربط كل الواجبات الأساسية مع بعضها بلا فرق، فيربط التوحيد ببرّ الوالدين، ويربط الصلاة بالزكاة، وهنا شيء مشابه، فبدأت بنموذج عن الصدقة وستنتقل في الآيات التالية إلى الصلاة.

تحسين ناحية التعامل والتكافل بيننا هو قسم أساسي من الدين الإلهي، وكثيراً ما ركّز القرآن على هذه النقطة لينبهنا إلى أنَّ دينه تعالى ليس محصوراً بالعلاقة معه سبحانه، بل فيه جانب عن معاملاتنا نحن البشر مع بعض، وعن تعاملنا مع بيئتنا، وهنا ترى نموذجاً من أوامره سبحانه ولن تجد عاقلاً يعارضها، فاليتيم والمسكين إن كانوا بحاجة للمساعدة ولم تساعدهم، فهذا عمل سوء واضح، ومن ناحية ثانية فعليه عقاب، ولكن السورة تركت ذلك وأخبرتنا أنَّ من يترك مساعدتهم ليس متديناً بدينه تعالى من أصله.

(فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ{4})
{فَوَيْلٌ}، والويل وصف لعموم المصيبة الكبيرة الحسنة أو السيئة، والكلام هنا عن مصيبة كبيرة سيئة، {لِّلْمُصَلِّينَ}، للذين يتوجّهون لشيء ما، وهنا الكلام عن الذين يتوجهون بالذكر "بالعبادة" إلى ربّهم سبحانه، ومن هذه الجملة تعلم أنَّ ما سبق من كلام كان عمّن يتظاهر بالتدين، فهو يعلن نفسه أمام الناس بأنه من المصلين، من الملتزمين بالتوجّه له تعالى، فيرونه يصلّي... ولكنها مجرد حركات وكلمات فارغة من المعنى وليست صلاة حقيقية.

نفهمها بسهولة إذا تصوّرت مجرماً يصلّي، فما معنى صلاته؟ وهنا الكلام عن الويل للمصلين الذين صلاتهم مجرد تمثيلية بلا قصد القربة منه تعالى وبلا قصد الكون مؤمناً صالحاً...

كلمة صلاة معناها عموم التوجّه والإقبال على شيء ما، وهذه الكلمة صارت مصطلحاً يشير للتوجّه بالحركات والكلام المعروف بين المسلمين، وهي الفريضة الدينية التي نقيمها خمس مرات في اليوم وتعبّر عن ذكرنا وخضوعنا لله تعالى، عِلْماً أن كلمة صلاة عمومية لأي توجّه، سواءٌ أكان لذكره تعالى أو لغير ذلك، ويتحدّد نوع التوجه بحسب سياق الكلام، فربنا يصلي علينا فيقبل علينا بالعناية برحمته، والملائكة(ع) والنبي(ع) يصلّون علينا فيطلبون توجّه ربنا سبحانه إلينا بالعناية، ونحن نصلي على النبي(ع) فنطلب من ربنا سبحانه العناية الإلهية به (ع) بتزكية زائدة، ونحن نصلي لربنا سبحانه فنتوجه إليه بالعبادة والمديح، والكافرون يصلون النار فهم موجّهون نحو حرارتها.

(الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ{5})
{الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ}، عن توجّههم بالعبادة له تعالى، {سَاهُونَ}، فتذهب الصلاة عن بالهم ولا يؤدّونها، ويبدو لك من سياق الكلام أنهم أصلاً لا يعتبرون الصلاة شيئاً مهمّاً ولذلك فهي آخر همّهم، فهم أصلاً لم يصدّقوا بالدين ولذلك فهي تذهب عن بالهم ولا يصلّون.

السهو له درجات وله أسباب متعددة، فنحن نسهو أحياناً "في" صلاتنا، ولا ندري إن كنّا في الركعة الثانية أو الثالثة، بالرغم من أننا من المحافظين على الصلاة ونعتقد بوجوبها... وكما ترى فهذا السهو نابع من شيء تحكّم بنا وكان أقوى من تركيزنا على الصلاة، كمشاغل الحياة وهمومها... والآية هنا لا تتحدّث عن هذا، بل عن الذي أصلاً كلّ الصلاة يسهو عنها، فهم "عن" صلاتهم ساهون، فأي شيء آخر حتى لو كان تافهاً فهو دائماً أهم من الصلاة بالنسبة له، ولذلك يسهو "عن" الصلاة فلا يؤدّيها.

هم أيضاً درجات، فبعضهم يصلّي فقط عند المساء، وبعضهم لا يصلّي إن لم يكن بين جماعة تصلّي، فإن كان لوحده لا يصلّي، وبعضهم كل بضعة أيام يصلّي إن كان له طلب ما يريده منه تعالى... وبعضهم لن يصلّي إلا إذا تحقّق ما يريده... وهكذا ترى أنهم درجات متفاوتة أسوأها الذين لا يصلّون بتاتاً إلا إذا انحرجوا مع جماعة يصلّون وحان وقت الصلاة، فبسبب الإحراج يقومون إلى الصلاة... وفي الأوقات الأخرى فهم عن صلاتهم ساهون.

ننتبه، فهناك أناسٌ من المسلمين ومن الآخرين يتصدقون ويساعدون المحتاجين ولا يصلّون، والسورة هنا لا تتحدّث عنهم، بل تنبّه المنتمين لدينه تعالى إلى أنَّ الإيمان المتمثّل بنموذج المحافظة على الصلاة، وعمل الصالحات المتمثّل بمساعدة الآخرين، هما ما يجعلاننا فِعْلاً مؤمنين.

(الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ{6})
{الَّذِينَ هُمْ}، إذا ولسبب ما صلّوا، {يُرَاؤُونَ}، فيصلّون حتى يراهم الناس يصلّون، ففي الحقيقة هم لا يتوجّهون نحوه تعالى بالذكر، بل يقومون بحركات الصلاة فقط ليراهم الناس يصلّون، ليحصل عند الناس رؤية عنهم، صورة عن قيامهم بالصلاة، وهذا هو التظاهر بالتدين، وهذا هو التمثيل المسرحي أمام الكاميرا.

هذه النوعية من الناس لا يعتبرها تعالى مؤمنة، وليست نموذجاً مقبولاً عن التدين، بل هم نموذج سيّئٌ غير مقبول ولا يمثّل التدين الحقيقي.

تفهمها أكثر إذا قارنتها مع مجتمع انصبغت عليه صفة التدين، فظاهرهم الإيمان، فلديهم مسجد، ويذهبون لصلاة الجمعة، ونساؤهم محجّباتٌ، ولديهم لحى، وتحيتهم السلام عليكم... والآيات القرآنية مُبَرْوَزَةٌ "داخل إطار -برواز" على الحيطان... ولديهم كتب ومقالات دينية... بل ويؤلفونها أيضاً، ويظهرون على شاشات التلفاز ليتحدّثوا باسم الدين الإلهي... وهؤلاء هم الذين تريدنا الآية تمييزهم عن التدين الحقيقي، فنميّز أنهم ممثلون يتظاهرون وتنبهنا ألّا نتهاون بالتدين مثلهم.

(وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ{7})

{وَيَمْنَعُونَ}، لا يتركون ما يعين الناس يحصل، سواء هم احتفظوا بما يعين الناس ولم يقدموه للآخرين المحتاجين له، أو منعوا الآخرين من تقديم المساعدة لمن يحتاجها.

{الْمَاعُونَ} هو عموم ما يعين الناس، عموم ما يساعدهم في شيء ما، بداية مع الأمور المهمّة كالزكاة والصدقة بالمال الذي يساعد الآخرين على شراء الطعام واللباس الذي يحتاجونه بشدّة، أو القرض المالي... وصولاً إلى الأمور العادية التي يستعيرها الناس من بعضهم، كمن انقطع من الخبز أو الملح... أو بحاجة لمفك براغي.

فمن لا يعين الناس المحتاجين للعون، مهما كان نوع العون، فهو مكذّب بالدين ولم يصدّق به.

ننتبه، القرآن لا يأمرك أن تكون بسيطاً تستغلّك الناس، فيمكنهم العمل لتحصيل المال ولكنهم مهملون كسالى ويعتمدون عليك... أو يستعيرون أغراضك ولا يردّونها أو يخربونها... فيستعيرون منك مع قدرتهم على شرائها... لا، بل يتحدّث القرآن عن عموم الحالات الصادقة التي يكون فيها الناس فِعْلاً بحاجة للمعونة، وإن كنت مصدّقاً بالدين فستعينهم، وإن تبيّن أنهم استغلوك فهم من المكذبين بالدين، وليس واجباً عليك مساعدتهم.

سورة الكوثر (108) ص 602
تتحدّث السورة عن النبي محمّد(ع) كنموذج عن بقية المؤمنين، وتخبرنا بما له (ع) منه تعالى من أمور كثيرة بسبب إيمانه، وهي الأمور الرائعة عموماً والتي في الجنّة خصوصاً، وفي مقابله (ع) هناك أسوأ نموذج وهو الذي "يعادي" أحسن نموذج مؤمن، وتخبرنا بأنه أبتر فمقطوع عنه الخير منه تعالى، وتفهم من عموم القرآن أن مصيره النار.

باختصار شديد موجز تأمرك السورة أن تلتزم بإيمانك، وسيكون لك الكثير مما تحبّ منه سبحانه، ومن عاداك فهو مقطوع عنه الخير من ربّك سبحانه، والكلام موجّه لك ولي ولعموم من يصله الكلام، وذلك لنعلم أنه تعالى منحاز للمؤمنين ويهدّد من يعاديهم، وهكذا تشعر بالراحة وعظمة كونك محطّ عنايته جلّ جلاله.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ{1})
الله سبحانه يقول للنبي(ع): {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ}، أيها النبي محمّد(ع)، {الْكَوْثَرَ}، الشيء الموصوف بأنه كثير.

في الروايات والتفاسير ذكروا أكثر من عشرين معنىً للكوثر، أبرزها: نهر في الجنّة، وأولاده(ع) من ابنته السيدة فاطمة رضي الله عنها... وبما أن الآية تتحدّث عن عطاء إلهي بكلمات عمومية، ولا ينصرف منها الذهن للكثير مما قالوه كتفسير تطبيقي محدّد لها، لذلك سنختار مقاربتها مع عموم كلام القرآن، وأوضح شيء منه التقريب مع الآية 5 من سورة الضحى {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}، فهناك كان الكلام عن الآخرة التي وعد تعالى رسوله(ع) فيها بجنّة خالدة، وهكذا نفهم آيتنا هنا بوعد بالخير الكثير منه تعالى لرسوله(ع) في الآخرة، وهذا لا يلغي حصوله (ع) على الكثير من نعمه تعالى هنا في الدنيا.

من هنا سأدخل في موضوع يتعلّق بمنهاج التفسير، فيمكنك تخطّيه والانتقال للآية التالية إن لم تكن مهتماً، فبعد السنين من المراجعة بعد المراجعة لهذه الدراسة، والتي بدأت بها أولاً على منهاج المجمل العام لبقية الغالبية الساحقة من التفاسير المشهورة التي اعتمدت على التراكم الثقافي للموروث الديني، من روايات وأقوال الأجيال الأولى من المسلمين، وصولاً إلى ما تبلور من آراء تفسيرية رجّحها أو اقترحها المسلمون على مرّ التاريخ.

بعد الانتهاء من تجميع وتلخيص ذلك، أعدتُ التدقيق في كلّ ما قيل من تفسير لأميّز بين معنى كلامه تعالى وبين تفاسيرهم، على قاعدة أن كلامه تعالى من غير المعقول قبوله لتفاسير متعددة للآية الواحدة، وبمعانٍ مختلفة بل ومتخالفة! فذهبت خلف التدقيق من الصفر بمعاني المفردات، وأحرزت فيها تقدماً ملحوظاً بدأ يوصلني إلى تحديد معنى إجباري واحد للآية الواحدة، وعندها فهمت أن البعض من المفسرين حاولوا إعراب القرآن على قواعد نحوية وصرفية ثابتة، حتى يستطيعوا بناء نمط يخرجون منه بمعنى واحد إجباري للآية الواحدة، فرفضوا ضمناً الموروث الثقافي لتعدد معنى الكلمة الواحدة، وحاولوا جبره بالبحث عن المعنى الإجباري للآية بناء على تركيب الجملة...

ترى في التفاسير عموماً إصراراً من المفسرين على ترجيح معنى واحد للآية والكلمة، وفي نفس الوقت ومع هذا الإصرار الواضح من كلامهم الذي ناقشوا فيه التفاسير الأخرى... فهم عموماً يقبلون بفكرة تعدد المعنى الواحد للكلمة الواحدة، ويقبلون المعاني المتعددة للآية الواحدة!

مراجعةً بعد الأخرى لهذه الدراسة لتقويم معاني الكلمات بمساعدة سياقها في الآيات، صارت معاني الكلمات محدّدة أكثر، وصارت تشير بشكل أوضح لمعنى واحد للآية، وللفقرة، ولكل السورة. طبعاً، لا أدّعي النجاح في كل ما استنسبته من مبانٍ ومعانٍ، ولكني أدّعي أن هذه الدراسة صالحة لتكون بذرة نبني عليها فهماً متجدداً متطوراً لكلامه تعالى.

خلال المراجعات المتكررة، التي كانت كل مرّة تبدأ من أول دراسة القرآن لآخره، صارت الأمور تأخذني إلى مبانٍ جديدةٍ للتفسير، فأدرسها، وتترجّح أو تثبت، فأعيد مراجعة كل الدراسة للقرآن من جديد لأرى إن كانت متناسقة مع ما توصلت إليه من مفاهيم... ومن تلك المفاهيم ما يتعلّق بسورتنا هنا، فعموم التفاسير مصرّة على ربط غالبية كلامه تعالى بحدث تاريخي، وبشخص ما من زمن نزول هذا القرآن، وغالباً لم ينتبهوا أن عموم غالبية كلام القرآن عن نماذج، ولم يقصد التأريخ لخصوص التأريخ. فماذا لو قرّرنا دراسة القرآن متعامين عن قصد عمّا نعرفه من التاريخ؟ فهل يمكننا فهم القرآن؟

هذا الطرح سيبدو لك ككلام من كوكب آخر عن كتاب غير القرآن، لأن موروثنا الثقافي الديني تجذّر فيه ربط كلام القرآن مع رواية تقول إنَّ الآية نزلت في فلان وفي الحادثة الفلانية، وعلى هذا نبني فهمنا للآية، بل ومن الرواية نفهم أموراً أخرى مهمّةً لم تقلها الآية، بل لن نفهم الآية لو لم نعلم سبب نزولها من رواية. وهذا سبب من الأسباب الرئيسية لدمار فهمنا لكلامه تعالى.

بالضبابية ستقول بأن كلامي هو الدمار، ولكن بالتدقيق بالعقلانية في تلك الروايات سترى أنها بغالبيتها الساحقة أوهن من بيت العنكبوت وتتمزّق بأدنى لمسة تحقيقية فيها، فانظر إن كان ورد فيها كلام موحّد حتى نعطيهم الموثوقية والاعتمادية؟ أم هل الواحد منهم وردنا عنه كلام موحّد عن نفس الكلمة أو الآية أو المفهوم الديني؟ وهل نظرت في تاريخ من قالها لتعطيه صفة التقديس لكلامه؟ فكم سنة بلغ عبد الله بن عباس حين توفّي الرسول(ع)؟ وكم سنة عاصر فيها أبو هريرة الرسول(ع)؟ وما رأي الجيل الأول من المسلمين بكلام وهب بن منبه وكعب الأحبار؟... أكتفي بهذا المقدار من لفت انتباهك إلى روايات التفسير، فالعقلانية من بعدها ستفتح لك أبواباً من التعليقات الكثيرة على مراجعة كل الروايات بل وكل الموروث الديني الذي كنت بضبابية تظنّه نقياً يعكس كلامه تعالى ودينه...

هكذا من مراجعة لأخرى لهذه الدراسة، وإعادة النظر فيما تراكم فيها مما جمعته كخلاصة من التفاسير، ومما توصّلت إليه، تبيّن أن الفهم للقرآن ممكن "مبدئياً" حتى مع الجهل بكل تاريخ الرسول(ع)، وهكذا أعدت مراجعة الدراسة من الأول بناءً على هذا المفهوم لأرى انطباقه، وفعلاً بدأت أرى أموراً أخرى لم أستطع الالتفات إليها سابقاً لأني كنت عالقاً في تطبيق الآية على الرواية التاريخية، أو تطبيقها على نزلت في فلان.

هذه هي الطريقة التي اعتمدتها في هذه الدراسة، بالمراجعة من الأول إلى الآخر في كل مرة، وبلورة أو تنقيح أو التقاط مفاهيم جديدة، وإعادة مراجعة كل الدراسة بناءً عليها وعلى الدقّة التي تجدّدت من الدراسة لمعاني الكلمات، وهكذا من جديد إعادة المراجعة من الأول على المفاهيم الحديثة ليظهر منها مفاهيم أحدث، وهكذا...

لهذا السبب ترى انتشار نفس الكلام عن نفس الموضوع، وبصيغ وعبارات مختلفة عند دراسة العديد من الآيات التي أشارت لنفس الموضوع، فلم أوحّد وأفرد لكل موضوع مرجعاً واحداً، بل تعمّدت تكرار دراسة نفس الموضوع مرّة ثانية في آية أخرى، حتى أقارن بين دراستي لها إن كانت ستأتي بنتيجة واحدة.

لو كان القصد بهذه الدراسة التوجّه بها إلى المتخصصين، لكانت صياغة عباراتها أسهل علي، ولم أحمل همّ الابتعاد عن الكلمات والصياغات التي لا يفهمها إلا المتخصصون، ولسحبت الدراسات للمفاهيم القرآنية وجعلتها ملحقاً منفرداً، وأحيل إلى عناوينها من تحت الآيات التي لها علاقة بها، ولكني التزمت التوجّه بهذه الدراسة إلى أكبر شريحة ممكنة

من المهتمين بفهم كلامه تعالى، وثمن ذلك كان الركاكة في العبارة، والتكرار، وتكرار الدراسات للمفاهيم لأن عامّة الناس ليسوا في مزاج الرجوع إلى الإحالات، ويريدون ما يبحثون عنه أمامهم.

اعتمدتُ مبدأ ذكر معنى الكلمات والآية، وربطها بما سبقها وما يليها من كلام، أو ربطها بموضوع السورة، وبعد هذا دراستها بتوسّع، فمن أراد معنى الآية ببساطة، فسيجده تحتها مباشرة، ومن أراد التوسع فليكمل القراءة.

نرجع لسورتنا هذه، فما الذي أفهمه منها لو أني جاهل بتاريخ الرسول(ع)؟ فهل يتحتّم عليّ دراسة التاريخ لأفهم كلامه تعالى؟ أم يكفيني القليل منه؟ أم تكفيني العناوين؟ أم أحتاج فقط لبعض العناوين؟

بعد هذه الأسئلة نسأل عن المصدر التاريخي الذي يمكنني اعتماده لمعرفة تاريخ الرسول(ع)؟ فهل لدينا تاريخ موثوق أصلاً؟ أم يجب عليّ دراسة التاريخ، والتحقيق فيه، وبعدها يمكنني دراسة القرآن لفهمه!

أم أعتمد على من درس التاريخ، واللغة، والفقه... وبعد كل هذا درس القرآن، ومن دراسته أفهم القرآن، ولن أفهمه لوحدي؟

مختصر الكلام، فهذا القرآن كتاب إلهي مطروح فيه أساسيات الدين الإلهي بعبارات غاية في الوضوح والبساطة، ومطروح فيه أمور تحتاج لدراسة، ودراستها تحتاج للقليل من الخلفية الثقافية لفهمها، فإن لم تكن ناطقاً بالفصحى العربية، فعلى الأقل يجب أن تتعلّمها. ومطروح فيه أمور تحتاج لدراسة مقارنة وتحليل بين الآيات مع بعضها، ولكنك لن تحتاج لدراسة التاريخ لتفهمه إلا إذا تشوّهت معلوماتك الثقافية وتحكّمت بعقليتك، وترسّخت حتى صرت لا ترى النص الصريح أمامك، فصرت تعكس معلوماتك على القرآن بدلاً من فهم كلامه.

لن تحتاج لدراسة الفلك والطبّ وأديان الكافرين... ولا علم البلاغة... فلولا الفضول الذي انتشر في دراسة القرآن وبعثر لبّه، حتى صارت التفاسير مجلدات مشحونة بالفضول، ولولا تعليقات تافهة قيلت عن القرآن بمقارنة كلامه مع التاريخ والعلوم، لولا ذلك لما أبقيت في هذه الدراسة إلا ما يتعلق حصراً بكلامه تعالى.

رغم طول هذه الدراسة، اختصرت فيها القيل والقال، محاولاً أن تكون دراسة كل آية حاوية على كل ما تحتاجه حين تقرؤها، وغالباً بشكل مبطّن مصححاً ما رأيته خللاً ذكره الآخرون، وراداً على إشكالات قالها المبطلون، ومنبّهاً على تراث يجب نبذه، ومشيراً لآخر متوافق مع القرآن يجب حفظه...

(فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ {2})
{فَصَلِّ}، توجّه نحو المسؤول عنك من مستوى إلهي، وكلمة صلاة حين يكون استعمالها معه تعالى فهي تعني التوجّه إليه سبحانه بالتعبير بالكلام والحركات عن الإيمان به وعن الالتزام بدينه... {وَانْحَرْ}، وهذه الكلمة تشير لطريقة قتل الجمل بغرز السكين أو الرمح في آخر رقبته من جهة صدره، فالذبح للبقر والغنم وغيره يكون بتمرير شفرة السكين على رقبتها، والنحر يكون للإبل "للجمل والناقة".

عادةُ النحرِ والذبح قديمة ومعروفة عند الناس، وهي من الطقوس التي كان الأنبياء يقومون بها كلما صاروا في نعمة جديدة ما، فكانوا عادة يذبحون شاةً أو كبش غنم ويوزعون لحمها على الفقراء، وهذا ما تجده منتشراً في تراثنا الديني.

بناءً على ما أخبرك به سبحانه من إعطائك أيها النبي محمد(ع) شيئاً يوصف بأنه كثير جداً، فعبّر عن شكرك عبر قيامك بالصلاة وتقديم الأضاحي.

(إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ {3})
{إِنَّ شَانِئَكَ}، إن الذي ينفر منك فيكرهك أو يظهر لك العداوة والبغض، {هُوَ الْأَبْتَرُ}، هو المقطوع، وسياق الكلام عن المقطوع عنه الخير، فأنت لك الكوثر منه تعالى والذي يعاديك ويعارضك ولا يحبّك "دينياً" فلا شيء له.

من المعلوم المحسوم أن من يعادي النبي (ع) دينياً فسينقطع عنه الخير الإلهي ومصيره إلى جهنّم، ولدينا العديد من الآيات التي تشير لانقطاع الخير الإلهي هنا في الدنيا عن المعادين له تعالى، فكل ما يحصل معهم ويحصلون عليه من

متاع الدنيا فلن يكون في صالحهم في الآخرة، فحتى لو حصل بعضهم على المال والصحة والولد... فهذا سيكون وبالاً عليه في الآخرة ليزيد له من حسابه العسير كما تفهم من أمثال الآية 178 من سورة آل عمران {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}.

قيل في الكتب إنَّ شخصاً يدعى العاص بن وائل وصف النبي محمّدا(ع) بالأبتر بعدما مات ابن صغير للنبي(ع)، وأن الآية أو السورة نزلت لتلك الحادثة التي حصلت في مكّة... وبما أنه (ع) مات له ثلاثة أطفال، فلذلك تجد روايات عن الأطفال الثلاثة "ابراهيم والقاسم وعبد الله" مع شانئين مختلفين "العاص وأبي لهب ومنافقي المدينة" في تواريخ مختلفة.

على كلّ حال، فالسورة عرضت لنا النبي محمّدا(ع) كنموذجٍ عن المؤمنين، وسيحصل من ربّه تعالى على شيء يوصف بالكثرة الكثيرة، وفي مقابل هذا النموذج، هناك الشانئ، المعادي المبغض الكاره للنبي(ع)، وليس كرهاً وعداوةً شخصيةً لخلاف شخصي بينهما، بل لكونه (ع) نبياً ينقل رسالة من الإله فشنأه ذاك الآخر، وبالتالي فهو أسوأ نموذج معادٍ للدين والمتدينين، وهذا سيكون أبتراً، فمقطوع عنه الخير منه تعالى، ومن عموم القرآن تعلم أنه سينال العقاب في الآخرة، وسينال في الدنيا ما يوصف بأنه لا خير له فيه لآخرته.

هكذا ترى أن السورة هنا بشارة لعموم أي مؤمن ملتزم بدينه تعالى، فله الكوثر منه تعالى، فله الكثير الكثير منه تعالى في الآخرة، ومن يعادي المؤمنين، فلا شيء له. فعلى الورقة والقلم بحسابات رياضية عددية جافّة، فالمؤمن يستفيد من دخول الجنّة، ولا يستفيد من دخول أعدائه إلى النار، ولكنهم هم يستحقون دخول النار بسبب سوء ما ارتكبوه، ولذلك سنفهم من سورتنا هذه انحيازه تعالى للمؤمنين بتصريح علني عن قطعه الخير عن الآخرين، كتشجيع للمؤمنين ليبقوا على إيمانهم، وليشعروا بقيمتهم العالية عند الإله عزّ وجلّ، وتخويفٍ للآخرين حتى يتراجعوا عن عداوتهم للمؤمنين.

بقي شيء، فبعد تتبّع التاريخ وجدت أن العاص بن وائل، وهو واحد من الذين قيل إنهم المقصودون بالأبتر، فوجدته قد انقطع نسله سريعاً، فوجدتُ له ولَدَيْن أحدهما عمرو بن العاص المشهور بدهائه وقد انقطع نسله فوراً، فلم يعقب، فلم يكن له أولاد، وللعاص بن وائل ولد آخر مات شهيداً على الحقّ وأيضاً لا نسل له، مما يجعل العاص نموذجاً لانطباق السورة عليه بالأبتر من الخير هنا في الدنيا، ولا داعي لحصر السورة به انطباقاً، فإن صدق ما قالوه من سبب نزول ومن تاريخ تبيّن لي منه انقطاع نسله، فالعاص بن وائل يكون نموذجاً عن انقطاع شيء من خير الدنيا عمّن عادى المؤمنين.

سورة الكافرون (109) ص 603
إعلان إلهي لأتباع دينه أنَّه لا تشابه بين دين التوحيد ودين الكفر ولا من أي جهة، فمهما قالوا عن دينهم لجعله يبدو قريباً من دينكم فهذا غير صحيح...

بتوجيه السورة كلامها للنبي محمّد(ع) كنموذج عن المؤمنين الحقيقيين، حتى يعلن الفرق والنفي لأي تشابه بين عبادته لله تعالى وبين عبادة الآخرين لغيره سبحانه، فيمكننا الاستفادة من هذا الفرق الهائل بينه (ع) وبينهم، لنرى الفرق بيننا وبينه(ع)، ولننتبه للشبه بيننا وبين الكافرين.

الإله الحقيقي هو الله سبحانه، وعبر أنبيائه وصلنا كلامه، فأطعناه، وهذا معنى كلمة عبادتنا له سبحانه. وهنا يأتي السؤال: ماذا يعبد الآخرون؟ وكيف يعبدون؟ فإن كانت آلهتهم ليست آلهة، فبالرغم من اعتقادهم بألوهيتها ولكن كيف وصلهم كلامها ليعبدوها؟

معلوم لك فقدان الاتصال من مستوى إلهي مع آلهتهم المزعومة، ولكنهم يقولون بأنهم يعبدونها، أي يتصرفون على أساس أنهم مفروض منهم طاعتها، فبماذا يعبدونها؟

كما ترى فهم بإعلانها آلهة يعبدونها، وبإعلانهم التقرّب منها يعبدونها، وبإعلانهم الشكر لها والنذور لها والصلاة لها... يعبدونها. فَعَمَلِيّاً لم يصل لهم من آلهتهم أي شيء، فلم تخبرهم عن نفسها وصفاتها وقدراتها... ولا عن التشريعات التي ترضاها للناس... ولكن المشركين من طرفهم هم أعلنوا العبودية لها.

أيُّ تصرّف منّا ومشابه لتصرف المشركين فسيجعلنا مثلهم مختلفين عن عبادة الإله الذي يعبده محمّد(ع)، فأي صفة حسنة قالها تعالى عن نفسه، وواضحة من أفعاله، ولم نؤمن بها، فلننتبه من نعبد.

حتى لا يبقى الكلام في الهواء، فإذا مرضت وتألّمت، وطلبت منه تعالى شفائي، وازداد ألمي... أو إذا مات شخص عزيز على قلبي... أو تعست حالتي المالية... ولم أره تعالى يتدخّل، فالشكوك ستأكلني، وسأظن به تعالى الظنون السيئة...

حين أكرّر قراءة هذه السورة من بعدما أمر تعالى "النموذج" الراقي محمّد(ع) بقراءتها، فأنا أحاول أن أعبد ما عبده محمد(ع)، ولست بحاجة ليكون في محيطي مشركون ليصير لقراءة هذه السورة معنى، فيمكنني أن أسأل نفسي عن درجة صدق عبادتي لله تعالى وكم هي مشابهة لعبادة محمّد بن عبد الله(ع) له تعالى.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ{1})
{قُلْ}، أمر إلهي للنبي محمد(ع) ولكل مؤمن أن يقول: {يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}، يا أيها المنكرون. وسترى من بقية السورة أنهم منكرون لشيء أساسي من الدين الإلهي، فهم منكرون لشيء من أساسيات الإيمان كالتوحيد أو منكرون للتشريع.

(لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{2})
{لَا أَعْبُدُ}، أخبركم أني "حالياً" لا أتصرف على أساس أني مفروض منّي طاعة، {مَا تَعْبُدُونَ}، ما تعتبرونه واجباً عليكم طاعته.

كلمة عبد تشير لمن مفروض منه وعليه الطاعة فهي مقابل الحرّ، والملكية من تبعيتها العبودية على معنى فرض الطاعة على المملوك. وما تعارفنا عليه بتسمية العبادة من صلاة ومناجاة... فهي من تطبيقات العبادة وليست حصرية فيها لأنها شاملة لكل ما تطيعه به تعالى.

عملياً فالعبادة عامّة أي تصرّف يدل على عبوديتك، من صلاة ودعاء وتقديم نذور... واعتقاد بصفات إلهية تهمّك فيمن تعبده ككونه رازقاً شافياً محيياً مميتاً ناصراً... واعتماد عقيدة وشريعة من كلام الإله... فكلّ هذا من المفردات العملية وتطبيقات لمعنى العبادة للإله سبحانه أو لآلهة أخرى يخترعها الناس.

الآية هنا أمر من الإله الأحد للمؤمنين بدينه ليعلنوا أن عبادتهم له تعالى ليست مساوية ولا مشابهة لعبادة الذين يعبدون آلهة أخرى معه تعالى، ومن البديهي أنه نفس الاختلاف بين الموحدين وبين الذين أصلاً لا يعبدونه تعالى وفقط يعبدون آلهة أخرى. وتفهمها بسهولة عندما تسمع في عصرنا العلمانيين الملحدين "الذين يقولون إنهم منكرون لكل الأديان وآلهتها"، فيتفلسفون ويصفون كل المتدينين بأنهم يعبدون إلهاً ما أو آلهة ما فكلهم مثل بعض، ولا فرق بين آلهتهم... فالبوذي والطاوي والأرواحي والمسلم والمسيحي واليهودي والوثني... يقولون إنهم كلّهم مثل بعض. فتأتي سورتنا هذه لتخبر الجميع أن دين الحقّ لا يشبه بقية الأديان الباطلة.

أما لماذا لا يرى بعض الناس الفرق بين دين الحقّ وبين الأديان الأخرى الباطلة، فهذا موضوع آخر تناولته طيّات سور أخرى، وهنا قفزت السورة عن تفاصيله لتركّز فقط على لفت الانتباه للفرق الواضح الذي تجده مشروحاً من كل زواياه في مختلف سور القرآن، فتجد كلاماً مفصّلاً عن لفت الانتباه للإله المصمّم الخالق للسماوات والأرض، وأنه واحد أحد...و...

هكذا نفهم أن المشركين الذين لديهم آلهة متعددة غيره تعالى، فهم ينظرون للمتدينين بهذا الدين الإلهي بأنهم مثلهم متشابهون معهم، فنحن لنا إله، وهم لهم إله.

تفهمها أكثر إذا التفتّ أن المشركين لكل جماعة منهم آلهة خاصّة بهم، ولا يجدون أي مشكلة مع المشركين الآخرين الذين يعبدون آلهة أخرى، فلا مشكلة أساساً عندهم بتعدد الآلهة، ولا يقولون بأن آلهتهم لوحدها هي الآلهة الحقيقية والبقية وهمية، بل يعتقد المشركون أن كل من عبد أي إله كان، فعبادته صحيحة، فالمشركون لهم آلهتهم الخاصة بهم، وأنت لك إلهك الخاص بك.

لن أطيل عليك الكلام هنا عن موضوع اختراع الآلهة التي عبدوها، فهي ليست آلهة حقيقية... وأكتفي بتذكيرك أن القرآن ركّز كثيراً على هذا الموضوع وتناوله من جوانب عديدة، وأبرزها والذي لا تجده منتشراً في الكتب والتفاسير، أن الاتّصاف بالألوهية بمعناها الحقيقي لا يتحمّل وجود إلهين أو أكثر. وراجع كمثال عن ذلك دراسة الآية 18 من سورة يونس {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

المشركون يحترمون آلهة غيرهم مع أنهم لا يعبدونها، وكمثال فمشركو مكّة يحترمون آلهة مشركي الطائف المختلفة عن آلهتهم، ولا مشكلة عندهم إن لم يعبد الآخرون آلهتهم، وتحصل المشكلة عندما ينكر الآخرون ألوهية آلهتهم، وهذه النقطة هي سبب معارضتهم لهذا الدين الإلهي الذي يسخّف دينهم، وهذا ليس موضوع سورتنا هنا، فهي تركّز فقط على الإعلان عن الاختلاف الجذري بين عبادته تعالى وعبادة غيره، وأن العبادتين ليستا مثل بعضهما، فهما مشتركتان فقط في استعمال كلمة عبادة لتوصيف الحالة، ولكن وكما تعلم فعبادته تعالى عبادة حقيقية لها قيمة، وعبادة آلهة أخرى فهي عبادة وهمية لا قيمة لها.

(وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{3})
{وَلَا أَنتُمْ}، أيها المنكرون للتوحيد ولهذا الدين الإلهي، {عَابِدُونَ} "حالياً" {مَا أَعْبُدُ}، فلستم تتصرّفون على أساس أنكم عبيد "مفروض منكم طاعة" الإله الأحد الذي أعبده أنا، وبالتالي فعبادتكم مختلفة تماماً عن عبادتي.

هم يظنون أن إعلان عبادتهم لأي إله، هي عبادة لإله، وهذا يكفي حتى يجعلهم مثلنا عابدين لإله، وبالتالي فالخلاف بيننا يكون فقط على التسميات، لا، فهناك إله حقيقي واحد لا إله غيره وهو الله سبحانه، وأي عبادة لغيره معناها أنكم لم تعبدوا الله سبحانه.

لنسأل: لماذا لا تعبدون الله تعالى لوحده؟ لا تعبدونه لأنكم تعتقدون بآلهة أخرى ترزق أو تشفي أو تنصر... فتتركون الوحيد الذي بصفات ألوهية يرزق ويشفي... وتعبدون غيره.

للمشركين أيضاً أسماء مختلفة للإله الكبير، فنحن "المسلمون" نعتمد الاسم الذي وافق عليه الإله، وهو: الله. بينما هم لديهم أسماء أخرى لآلهة يعتقدون أنها بصفات أعلى من بقية الآلهة، وبالتفصيل ترى أنهم لا يعتقدون بإله كامل الألوهية، فحتى الذين يستعملون الاسم الله لإله مع آلهتهم، فلو اعتقدوا أن الله تعالى إله كامل الصفات والقدرات، لما عبدوا غيره ليرزقهم أو يشفيهم أو يستجيب لنذورهم... وهكذا ومن عدة وجوه ترى أنهم لا يعبدون الله إلهنا، حتى لو استعملوا اسم "الله" في أدبياتهم الدينية.

أقول لك هذا لأن النموذج مشركو مكّة الذين نزل القرآن في زمنهم، فبعضهم كان يعتبر الله سبحانه الإله الكبير ومعه آلهة أخرى، فتأتي سورتنا هذه لتخبرهم أن الشبه بينهم وبين المؤمنين الحقيقيين فهو مجرد تشابه في الأسماء، أمّا في حقيقة العبادة فالاختلاف جذري ولا شبه بتاتاً.

(وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ{4})
{وَلَا} في الماضي ولا في الحال أو المستقبل، فأنا لست موصوفاً ولا أتصرّف على أساس أني عبد للذي تعبدونهم. فوجه الشبه الذي يبدو بيننا من حيث الظاهر لأننا كلانا نتصرف كعبيد لإله، فما هو إلا شبه ظاهري فقط.

أكرر لك كما كررت السورة، وتفهمها بسهولة إذا تصوّرت مشركاً يقول لك: أنت تعبد إلهاً واحداً، وأنا أعبده وأعبد آلهة أخرى معه، فإن لم أكن مثلك فأنا أفضل منك لأني أعبد آلهة أكثر. ولو نظرت إلى مسلم وإلى مشرك كلاهما في حالة دعاء، حيث المسلم يدعوه تعالى وحده، والمشرك يدعوه تعالى ويدعو آلهة أخرى، فإذا قلت: لا فرق بينهما فكلاهما يتوجهان بالدعاء لإله. فهذا ما تريد السورة تنبيهنا عليه، فالفرق هائل بينهما، فمن ناحيته تعالى يسمع دعاء من دعاه، وأمّا المشرك الذي يدعو آلهة أخرى، فهو يتكلّم مع الهواء، فالمسلم موصوف "عملياً" بعبادة مختلفة تماماً عن عبادة المشرك، ولا يشتركان ظاهرياً إلا في وصفهما بكلمة عبادة لإله.

(وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{5})
{وَلَا أَنتُمْ} في الماضي أو الحال أو المستقبل، فلستم موصوفين بأنكم تتصرّفون بأنكم عبيد {مَا أَعْبُدُ} لما أعبده أنا.

كلام الآيات عن الاعتبار الوهمي والحقيقي، فيمكنكم الكذب على أنفسكم "التعتبروا" أنفسكم بلا فرق عنّي لأنكم قد تعبدون إلهي مع آلهتكم، ولكن الحقيقة أنكم مختلفون عني، فأنتم لا تعبدون إلهي، لأنكم لا تعرفونه بصفاته الحقيقية.

أمّا السبب الذي كرّرت لأجله السورة ما ستشعر بأنه متكرر بلا فائدة، فكان يكفي جملة واحدة للتعبير عن الفرق الجذري بين عبادة النموذج محمد(ع) عن عبادة المشركين، ولكن استعملت السورة صيغاً قصيرةً مختلفة حتى لا يبقى شكّ ولا بأي طريقة لتفسير الكلام على وجه قد يحتمل تواجد شبه بين الموحّد والآخرين.

(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ{6})
{لَكُمْ دِينُكُمْ}، أيها المنكرون لهذا الدين الإلهي، فما تشعرون بأنه تبعات للإله عليكم، فما تدينون به للإله أو الآلهة التي تعبدونها، فما يحقّ لمن تعبدونه أن يطالبكم به، فما يجب أن تفعلوه من التزام بأوامر الذي تعبدونه، وهذا هو المعنى العامّ لكلمة دين، فأنتم لكم دينكم الخاص بكم، {وَلِيَ دِينِ}، فما أشعر به أنا وأؤمن به كتبعات عليّ لإلهي، فهو خاص بي "كمؤمن بهذا الدين الإلهي التوحيدي" ولا يشبه دينكم.

كما ترى، فلم تدخل السورة في التفاصيل الكثيرة جداً بين عقيدة وشريعة المشركين به تعالى، وبين عقيدة وشريعة هذا الدين الإلهي، وتركت ذلك لسور عديدة أخرى، وركّزت السورة هنا فقط وفقط على الفصل بين دين التوحيد الحقّ الصحيح وبين أي دين آخر يعبد فيه الناس آلهة متعددة، فالفرق جذري ولا شبه بينهما إلا باستعمال الكلمات "الله، إله، عبادة..." ومعناها فِعْلاً حقيقي للمؤمن الموحّد، أمّا ما يفعله المشرك فهو عبادة وهمية لا تعبّر عن واقع.

كلمة دين استعملها القرآن بمعناها اللغوي العام، فهي ليست اصطلاحاً مخصّصاً كاسم لعقيدتنا وشريعتنا "دين الإسلام"، وبحسب سياق الكلام القرآني يتخصّص معناها، فهي عامّة تبعات شيء ما على أحد ما، فأنت مدين لي بالمال لأني أعطيتك المال وصار لهذا العمل تبعات عليك وهو وجوب ردّك للمال لي. وأنت مدين لي بالمعروف، لأني فعلت لك شيئاً ينفعك، ولهذا العمل تبعات اعترافك أو ردّك للمعروف لي بالمعروف...

الله تعالى خلقني فأنا مدين له، فخلقه سبحانه لي له تبعات، وهنا يصير المعنى واسعاً بسبب سَعَةِ تبعات الخلقة، فإن كانت خلقتي تتضمّن أن يرزقني تعالى فأنا مدين له تعالى بما رزقني... وأنا مدين له تعالى بتوحيده... ومدين له بالطاعة، ومدين له بالاعتراف بجميل ما فعله معي عبر مدحه وشكره، ومدين له تعالى بحبّه واحترامه عبر التقرّب منه والعمل على إرضائه لأنه عاملني برحمة ورأفة...

لدينا معنىً عميقٌ لكلمة دين إذا نظرنا لقدرتنا على تمييز الخير من الشرّ والتمتع بحرية إرادة ما نريد منهما، فهذا له تبعات أن نفعل بإرادتنا الصلاح طالما نميّزه عن الفساد وطالما يمكننا اختياره... فكلّ ذلك شمله القرآن بكلمة "الدين".

بالنسبة للآخرة فهناك ندان بأعمالنا، فما قمنا به في الدنيا له تبعات، وفي الآخرة "في يوم الدين" سنتحاسب عليه، وتبعات مخالفة كلامه تعالى هو التعذّب بالنار، وتبعات طاعتنا له تعالى الدخول إلى الجنّة. وهنا في الدنيا أيضاً يوجد تبعات لأعمالنا، وبحسب ما يراه تعالى مناسباً بحكمته قد يديننا بالثواب أو بالعقاب هنا في الدنيا.

سورة النصر (110) ص 603
وعد إلهي بالنصر والفتح، فإذا جاء سيكون مناسبة للتعبير عن تمتين علاقتنا معه تعالى.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{1})
{إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ}، إذا حصل وتحقّق ما يريده تعالى بالرضا أو فَرْضاً بالقوة، وإذا جاء، {وَالْفَتْحُ}، فما كان مغلقاً قبله عوائق فقد صار متاحاً.

عادةً يذهب فكرنا إلى الحالة العسكرية من استعمال كلمتي النصر والفتح، ولكنهما أعمّ من ذلك، فكلمة "فتح" تشمل الحالة العسكرية وتشمل عموم انفتاح ما كان مغلقاً، فانضمام الناس لدينه تعالى برضاهم هو أيضاً فتح.

قبل أن نكمل مع ما تريدنا السورة فعله حين يأتي النصر والفتح الإلهي، نلاحظ التعبير بإذا جاء، فهو تعبير من ناحيته تعالى الذي يمكنه في أي وقت وتحت أي ظروف أن يقرر انضمام الناس لدينه طواعية أو من بعد انتصار المسلمين عليهم... وبما أنه تعالى لم يقرّر حصول النصر في كلّ الحالات، فلنقل إنَّ المسلمين تخاذلوا في القتال، أو لم يستعدّوا كما يجب، أو كان فيهم خونة ومنافقون وفاسقون... فقرّر سبحانه لهم الهزيمة، فلذلك عبّرت الآية هنا بمجيء النصر الجاهز ليأتي بقرار منه تعالى "إذا" كانت الظروف مناسبة متماشية مع حكمته تعالى.

قد تدخّل سبحانه مراراً لنصرة المؤمنين عبر التاريخ إذا توافرت فيهم شروط استحقاقهم للنصر الإلهي، فالناس عبر التاريخ حصلت بينهم حروب كثيرة، وانتصر فيها أحدهم على الآخر... ولكن عامّة الكلام الإلهي في القرآن موجّه للمؤمنين، فالنصر الإلهي هو نصر منسوب له تعالى على أساس أن المقاتلين الذين خاضوا القتال كان هدفهم في سبيله تعالى، وأي هدف آخر سيّئٍ حصل فيه انتصار لأي كان فهو ليس نصراً منسوباً له تعالى، فهو انتصار لا قيمة له، بل هو قتال وعليه حساب عسير.

السورة لم تذكر صراحة فتحاً محدّداً حصل في زمن النبي محمّد(ع)، فكلامها عمومي، وليس هدفها تأريخ فتح مكّة أو أي فتح غيره، بل هدفها تعميم نموذج أي فتح حصل قديماً ليكون نموذجاً لأي فتح سيحصل عبر التاريخ مع المسلمين.

لاحظ أنك أنت وأنا بفضولنا نهتمّ بتحديد نصر نزلت بعده السورة، أو استبقت حصوله السورة، ولا نلتزم بالعمومية التي أرادتها السورة! فهي السورة أرادت أن يكون كلامها عامّاً شاملاً لأي فتح سواءٌ من بعد نصر عسكري أو بعد دخول الناس طواعية في دينه تعالى، فلنتركها هكذا ولنركّز على ما تريدنا أن نفهمه.

(وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{2})
بعد النصر والفتح، {وَرَأَيْتَ}، فحصلت عندك صورة محدّدة، كما نقول بالعامية: شفت. {النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً}، دفعات من جماعات، فمثلاً هذه العائلة أعلنت إسلامها فهي فوج وتلك العائلة أعلنت إسلامها فهي فوج آخر أسلم...

فهذا الدين الإلهي بمضونه، هو التبعات التي علينا لكوننا عبيدا له تعالى فيجب أن نلتزم بما يأمرنا به، وعملياً فهذه التبعات، فهذا الدين، هو الاعتقاد الذي يجب أن نعتقده، والشريعة التي يجب أن نمشي عليها، فإذا رأيت الناس يدخلون تحت عنوان هذه التبعات، فيعلنون التزامهم بما يقوله هذا القرآن وما يقوله الرسول(ع) الناقل لهذا القرآن، كونهما المصدرَيْنِ الأخيرَيْنِ "غير المحرفين" للدين الإلهي، فرأيتهم يدخلون أفواجاً جماعات جماعات، ومن قبل النصر والفتح كان الرسول(ع) كنموذجٍ يدعو الناس للانضمام إلى دينه تعالى، وكان (ع) يعاني لدخول شخص واحد إلى دينه تعالى، وها قد تغيّرت الظروف، وفي زمن قصير جداً صار الناس يدخلون في دينه تعالى جماعات جماعات.

مشهورٌ في التاريخ أن أهل مكّة استسلموا وأسلموا وبعدهم بقية الجماعات المنتشرة حول مكّة... والعديد من العرب البعيدين الذين سمعوا بخبر دخول نبي على مكّة منتصراً... فأسلموا...

ننتبه لدقة التعبير، فلم تقل الآية: ورأيت الناس يؤمنون. بل عبّرت عن دخول الناس في الدين. وهو إعلانهم دخولهم في دينه تعالى، فأعلنوا أنهم مؤمنون وملتزمون بشريعته تعالى، فيكون المظهر العام لهذا المجتمع: إسلامياً. أمّا على صعيد كلّ فرد منهم وعلاقته بربّه سبحانه، فهذا لم تتطرّق له السورة لأن تركيزها على ما ستقوله الآية التالية:

في آخر آية من السورة السابقة ستجد توسّعا في دراسة كلمة دين.

(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً{3})
إذا جاء النصر والفتح ورأيت دخول الناس في دينه تعالى أفواجا:

{فَسَبِّحْ}، فقم بتنزيهه تعالى عن الصفات التي لا تليق به، {بِحَمْدِ رَبِّكَ}، فكل أعمال المسؤول عنك من مستوى إلهي حميدة جيّدة، فقم بتنزيهه تعالى عن نسبة الأعمال غير الحميدة له، فلا تنسب لربك سبحانه أي صفة تدل على أنه قام بعمل سيّئٍ، فنزهه عن الصفات السيّئة عبر إعلانك أن كل أفعاله جيّدة.

{وَاسْتَغْفِرْهُ}، فاطلب منه تعالى أن يتجاوز عن عموم السيئات التي ارتكبتها في حياتك، فاطلب أن لا يحاسبك عليها.

{إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً}، فسبحانه يفتح صفحة جديدة ويتجاوز عن الماضي. فسبحانه ليس لئيماً جافاً صلباً يجمد على موقف واحد، بل يتجاوز عن السيئات عندما تعلنون بأنكم أسأتم وتطلبون التجاوز عن أخطائكم، بل ويفتح صفحة جديدة لكم وكأنكم لم ترتكبوا الأخطاء.

عمومية التعابير في هذه الجمل الثلاث تأخذك إلى عمومية الحالات، فتفتح أمامنا مجال التحليل، فحين تصير منتصراً فاتحاً تذكّر دائماً أنك تحركت بأمر الإله الذي سمح لك بقتال الأعداء، فنصرك له عنوان إلهي، وهذا فرق هائل عن الانتصارات التي يحرزها بقية الناس المتعادين، فأولئك انتصاراتهم ليس لها أهداف كالأهداف الصالحة للمؤمنين، فنصرك نتج عنه دخول الناس أفواجاً في دينه تعالى، فتشكلت مجتمعات تعلن اتباعها للحقّ...

الحالة التي أنت فيها من الانتصار سبقها عقبات، ومررت بحالات عصيبة، في تلك الحالات كنت تسأل عن النصر الذي سيؤمّن لك الأمان والاستقرار، ولم يكن له بوادر، وكنت تراه بعيداً بسبب افتقارك لمسببات النصر، وها صرت فيه، فانتبه وأعلن أن المسؤول عنك من مستوى إلهي ليس فيه صفات ناقصة منعته من تحقيق النصر في السابق، وليس فيه صفات معيبة مزاجية سيئة وبسببها لم يتدخل لينصرك، فربك حميد فكل أعماله جيدة، وبالتوقيت المناسب للظروف المناسبة جاء النصر الإلهي والفتح، ولو حصل قبل ذلك لكانت العواقب غير حميدة...

لا ترى نفسك أنت المنتصر بقدرتك الذاتية، فهذا لن يكون نصراً إلهياً، وإن كنت فرحاً بالنصر فانتبه أن تكون فرحتك حقيقية، فإن كان عليك ذنوب عليها عقاب في الآخرة فهذا النصر لن يكون له قيمة حقيقية لأن العقاب الإلهي على الذنوب أكبر ألماً وأطول مدّة ولا يعادل فرحك بالنصر، فهذا النصر لن ينفعك في الآخرة لتنال عليه ثواباً إن كان عليك ذنوب لم تستغفر منها ولم تتب وستكررها.

في الحرب تقع الأخطاء بشكل أكبر، من القادة في قراراتهم، ومن الجنود في تصرفاتهم، فلا يتمكن القائد العام من السيطرة على التفاصيل في المعركة، حتى لو كان نبياً، لأنه لا يقود جيشاً من الملائكة(ع)، بل يقود جيشاً من البشر المتفاوتين في درجة إيمانهم وانضباطهم الديني، ومتفاوتين في ضبطهم لمشاعرهم وأعصابهم في حالات الخوف أو العنف، فيبدو من المستحيل حصول حرب من دون أخطاء، فمن المؤكد البديهي أن يأمرنا ربنا سبحانه بطلب المغفرة والتوبة مما حصل منّا أثناء القتال.

كما ترى فهناك عمومية حالات كثيرة يمكن تطبيق كلام السورة عليها، وكلها متماشية مع معاني السورة، وتلاحظ الفرق الهائل بين كلامنا نحن وكلامه تعالى، فلو كان الرسول محمّد(ع) سيوجّه خطاباً تاريخياً للمؤمنين المجاهدين المنتصرين، فهل سيختصر النصر والفتح بأمر التسبيح بحمده تعالى والاستغفار؟

لا مخلوق سيخطر بباله هذا، وفقط الإله سبحانه سيبقى على نظرته لأهمية الأمور من نظرة إلهية، فلا قيمة للفتح والنصر إن لم يكن المنتصرون مقبولةً درجة إيمانهم، وإلا فما نفعهم من النصر؟

بقي شيء، فبالنسبة لأمره تعالى لنبيّه محمّد(ع) بالاستغفار، فهل يعني أن النبي(ع) يرتكب الذنوب بفعل السيئات؟ لن أطيل عليك بذكر ما قاله الخائضون في هذا الموضوع، وسأختصره لك بمفاهيم قرآنية وشاهد تاريخي، فسبحانه لن يختار شخصاً ليوظّفه كرسول إن لم يكن أهلاً لذلك بما فيه من صفات عالية، فيجب أن يكون قلبه سليماً، وهذه النوعية أصلاً لا تفعل السوء عن قصد، ولكن بالخطأ يمكن حصول السوء الذي لهم علاقة به، كحالة تبرّء النبي محمّد(ع) مما فعل خالد بن الوليد حين قتل أناساً أبرياء... فالنبي(ع) أرسله كقائد لمجموعة عسكرية، ومنحه القدرة العسكرية والتنفيذية، وما نتج عن ذلك من سوء يتحمّله النبي(ع)، فيجب عليه (ع) الاستغفار من ذلك، وهذا ليس استغفاراً كمسرحية، بل حقيقي، وإن لم يستغفر فسيحاسبه تعالى... وهكذا نفهم أي كلام قرآني عن أمره تعالى للنبي محمّد(ع)

بالاستغفار، فهو حقيقي، ولا يعني أبداً أن النبي محمّدا(ع) ارتكب ذنباً عن قصد وعمد، بل السوء حصل بالخطأ أو يتحمّل مسؤوليته (ع) عن سوء كان له قرار في حصوله...

سورة المسد (111) ص 603
من المشهور جِدّاً أن أبا لهب هو عمّ النبي محمّد(ع)، وبالتحليل يبدو تركيز سورتنا هذه عليه وعلى زوجته لعموم إنذار وتحذير أقارب أي قائد مسلم أو شخص له مكانة اجتماعية أو سياسية أو دينية... فمعاداتهم لقريبهم بسبب تدينه بدينه تعالى فهو أمر عظيم جِدّاً عنده تعالى.

عموم القرآن ذكر لنا الأنبياء وذكر أقوامهم كنماذج، والسورة هنا اختارت النبي محمّد(ع) كنموذج لعموم أي مسلم له منصب معنوي ديني، أو كقائد أو زعيم أو عالم دين... واختارت السورة عمّه كنموذج لأي قريب من العائلة يقوم بأعمال عدائية ضد قريبه المتديّن، وتهدّده بحتمية دخوله النار...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ{1})
{تَبَّتْ}، تعطّلت عن تحقيق ما تريده، فشلت، {يَدَا}، مثنى يَدْ، اليد اليمين واليد الشمال لـ {أَبِي لَهَبٍ}، وهو عمّ النبي محمد(ع) أخو أبيه، {وَتَبَّ}، بكامل مواصفات التَّبَابِ توصف يدا أبي لهب، لا ولا بأي شكل سيتحقّق ما يريده أبو لهب.

من المشهور جِدّاً في التاريخ أن أبا لهب عَمِلَ على معارضة النبي محمّد(ع) حتى يتوقف(ع) عن دعوة الناس إلى دينه تعالى، على أساس أن دعوته(ع) ستضرّ بمصالح أبي لهب المالية، وسنتحدّث عن ذلك في الآية التالية، وكما تعلم تبّت يدا أبي لهب فلم يتحقّق ما يريده، من ناحية انتشر دينه تعالى، ومن ناحية ثانية ركّزت عليها السورة أبو لهب لم يستفد من ماله وعلاقاته استفادة حقيقية، ومصيره في الآخرة إلى النار.

نلاحظ أن أبا لهب هو الشخص الوحيد من المشركين المعاصرين للنبي محمّد(ع) الذي ذكره القرآن وسمّاه بالاسم، وهدده مباشرة هو وزوجته، هذا بالرغم من وجود كفّار كُثُرٍ أهانوه (ع) وآذوه وحاولوا قتله... وسبب تخصيص أبي لهب بذكر اسمه لأن تأثيره على من يدعوهم النبي(ع) إلى الإسلام أقوى، فهو عمّ النبي(ع)، تصوّر مشهداً واحداً مما نقلوه في كتب التاريخ عندما كان النبي(ع) يدعو أهل مكّة وزائري مكّة إلى الإسلام، ويتدخّل أبو لهب ويقول عن النبي(ع): هذا ابن أخي، وهو كذّاب. أيُّ كافر آخر سيقول للناس عن النبي محمّد(ع) أنَّه كذّاب، فلن يكون مؤثّراً فيهم مثلما يقول "عمّه" عنه (ع) أنَّه كذّاب، ولذلك اختار تعالى أبا لهب كأبشع نموذج.

وهكذا تكون السورة تنبيهاً شديدَ اللهجة لأقارب أي مسلم، حتى يدرسوا كلامهم وأفعالهم جَيِّداً، كم رأينا من عالم دين محترم عنده ولد أو بنت فاسدان شوَّها صورة والدهما، أو شخصية إسلامية بارزة لها أقارب فاسدون استغلّوا منصب قريبهم فأفسدوا... سورتنا هذه موجّهة لهذه النوعية من الناس بسبب الأثر الشديد الخطورة لِما يقومون به كونهم أقارب لشخصية بارزة تمثّل الإسلام، وتحطيم صورة من يمثّل الإسلام سيكون عليه عقاب شديد حَتْماً في الآخرة.

السورة لم تدخل في تفاصيل ما نتج عن أفعال أبي لهب من تكريه الناس بشخص النبي محمّد(ع)، وتنفيرهم عن دعوته(ع)، لأنها أمور واضحة، مجرّد اختيار السورة لأبي لهب من بين كلّ الكفّار وتهديده بعقاب حتمي في الآخرة، هذا لوحده يدلّك على أكبر عثرة وقفت في طريق رسالته(ع)، ويدلك بالخصوص على كون قرابته منه (ع) هي التي جعلت المشكلة كبيرة، جملة: هذا ابن أخي وهو كذّاب. وأشباهها... لها مفعول الدمار الشامل بالتحطيم لشخص النبي محمّد(ع)، ستتدمّر صورته (ع) أمامك لمجرد سماعك لعمّه يكذّبه وذلك قبل أن تسمع ما يقوله لك (ع) من كلام إلهي.

بقي شيء، النبي محمّد(ع) وفي كل تاريخه كان معروفاً بالصدق، وعمّه أبو لهب يعلم ذلك علم اليقين، ولكن أعماه حبّه للمال والجاه، ولم يفكّر مرتين قبل تكذيبه ومعارضته للرسول(ع)، من مرّة واحدة قارن فيها أبو لهب بين خسارته لماله ووجاهته وبين الدين الإلهي، فقرّر معاداته(ع) غير مكترث بأي قيمة أخلاقية، وبالكذب والافتراء على الرسول(ع) حاول حماية مصالحه المالية وعلاقاته مع النافذين في مكّة! وسترى تفصيلاً عن ذلك بعد قليل.

(مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ{2})
{مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ}، لم يسبّب مال أبي لهب له أي غنى، {وَمَا كَسَبَ}، وأيضاً لن يغنيه ما كسبه، ما حصل عليه مما نتج من أعماله لن يفيده. الغني بالمال يشتري ما يحتاجه ويريده، ولكن الغني إن كان في الصحراء ومعه أمواله وجاع وعطش، فهل يغنيه ماله عن الجوع والعطش؟ في الصحراء لن يجد ما يشتريه بماله، وهنا الكلام نفس الشيء، ما مع أبي لهب من أموال، وما حصل عليه مما كسبه من عقارات وبيوت... ففي الآخرة لن يؤمّن له النجاة من العقاب الإلهي.

معلوم لك العقاب في الآخرة لمن لم يؤمن، وهنا في السورة لدينا نموذج عمّن لم يؤمن بسبب قناعته بأن الدين الإلهي سيسبب له خسارة مادية، فهل أموال أبي لهب والمكاسب الناتجة عنها وعن نشاطه ستغنيه عن عقاب الآخرة؟ لا لن تغنيه عنه.

مما هو مشهور جِدّاً في التاريخ أن عموم قرابة النبي محمّد(ع) من بني هاشم كانوا متوسطي الحال مائلين إلى الفقر، والقليل النادر منهم كانوا مرتاحين ماليّاً، وأبو لهب كان مرتاحاً ماليّاً بسبب زواجه من أخت "الثري" أبي سفيان الأموي، والأمويون كانوا بالعموم أثرياء، ومن علاقات أبي لهب الجيدة مع تجار وأغنياء مكة الذين بغالبيتهم أعلنوا العداوة للنبي محمد(ع)، وكانوا يعتقدون ويعلنون صراحة أن الدين الذي يدعو إليه النبي محمّد(ع) سيجعل بقية العرب أعداءً لهم إن آمنوا، وبالتالي ستخرب تجارتهم وسينفر العرب من المتاجرة مع أهل مكّة إذا آمنوا بالتوحيد وبالتالي أعلنوا تسفيه آلهة الآخرين... واختارت السورة نموذجاً سيّئاً جِدّاً من بينهم، وبالخصوص من أقارب النبي محمّد(ع)، واختارت أبا لهب الذي يعتبر أصلاً أن راحته المالية المميزة عن عموم أقاربه من بني هاشم سببها علاقاته المميزة مع أثرياء قريش، وهؤلاء اعتقدوا أن تغيير دينهم عن الدين السائد بين العرب سيسبّب لهم مشاكل مالية، فهل تبّت يدا أبي لهب أم نجحت مساعيه؟ من الواضح أنها تبّت فلم تنجح لأن الإسلام انتشر وهو شخصيّاً سيدخل النار.

(سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ{3})
{سَيَصْلَى}، سيواجه وسيقف أمام، {نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ}، لها لهيب، لها نار تمتد في الفضاء، ونصفها بألسنة النار.

ألفت انتباهك إلى أنَّ أبا لهبٍ كنية، واسمه الأساسي كما يقولون هو عبد عُزَّى "أو عبد مناف" بن عبد المطلب، مثل كنية: أبو حديد. التي ليست لشخص عنده ولد اسمه حديد، عبد عُزَّى لم يكن عنده ولد اسمه لهب، وهذه الكنية لم تطلقها السورة عليه بل كان "عبد عُزَّى" مشهوراً بها، وسمّته السورة بكنيته المشهورة والمتناسبة مع تهديده بلهب جهنّم.

انتبه جَيِّداً، السورة نزلت وأبو لهب وامرأته أحياء، وتخبرهما بأنهما من أهل النار حَتْماً، ومعلوم من التاريخ أنهما ماتا بعد ذلك وهما كافران.

(وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ{4})
{وَامْرَأَتُهُ}، والمرأة المنسوبة لأبي لهب، زوجة أبي لهب وهي المدعوة أم جميل، وهي أخت أبي سفيان الرجل الغني جِدّاً من عشيرة بني أمية، وكانت هذه المرأة مثل زوجها وغالبية أقربائها في معاداة النبي محمد(ع)، وتشكّل نفس الخطورة التدميرية لشخص النبي محمّد(ع) أمام الغرباء كونها امرأة عمّه، واشتهر عنها تحدّثها بالسوء وتأليف الكلام الباطل عنه(ع)، وهي أيضاً ستصلى ناراً ذات لهب، وهي موصوفة بأنها {حَمَّالَةَ الْحَطَبِ}، تحمل قِطَعاً من الخشب لإشعالها.

من بعد الكلام عن زوجها المشهور بأذيته للنبي محمّد(ع)، سياق الكلام يشير لعمل عدائي قامت به ضد النبي محمّد(ع) والمؤمنين معه، وشاركت بنفسها بحمل ما يشتعل لتؤذيهم به، لسدّ طريق عليهم، أو لحصرهم في مكان، أو إحراق مكان عليهم... وذكروا في الكتب أنها شاركت بقطع طريق على النبي(ع) وبعض المؤمنين ليحصروهم ويرشقوهم بالحجارة.

وسياق الكلام هنا يبدو منه فقط أن حملها للحطب كان ضد دينه تعالى وضد المنتمين لدينه، وجاء الكلام بالإشارة إليها بوصفها بفعلة كبيرة قامت بها، وهي حمّالة حطب ضد المنتمين لدينه تعالى لتؤذيهم، حتى لو حملت الحطب لمرّة واحدة، وطالما هو العمل الذي يرينا مدى سوئها، بالحديث عنها بالغائب سنقول: تلك المرأة حمالة الحطب...

ومن الآية التالية سيبدو واضحاً أنها حين حملت الحطب، حملته بكل ما لكلمة حمل من معنى، وربطته في جيدها لتحمل كمية كبيرة منه!

تذكّر أنها من عائلة غنية، وزوجة لرجل غني، فحملها للحطب ومشيها به في الشوارع لأذية المؤمنين هو عمل لا يُنسى، ونتوقّع أنها في العادة لن تفعل هكذا أمور، ولكنها يبدو أنها في مرة من المرات تحمّست وحملت الحطب...

(فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ{5})
{فِي جِيدِهَا} في مقدّم العنق، في أعلى صدرها وتحت رقبتها، وهو مكان القلادة وعقد الزينة، فيه، {حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ}، حبل من ليف مجدول، حين حملت الحطب أتقنته بفعالية باستعمال حبل مسد مربوط في رقبتها لتحمل أكبر كمية ممكنة ولا تفلت منها أثناء المشي، ولذلك استعملت الآية السابقة صيغة المبالغة "حمالة" وهي بهذه المرة التي حملت فيها الحطب بذلت جهدها واستعملت حبلاً متيناً وربطته برقبتها حتى تحمل الحطب بيديها مستعينة على تماسكه بالحبل.

حين كان عموم الكفّار لا يتجرؤون على أذية النبي(ع) وذلك خوفاً من تدخل أعمامه وأبناء أعمامه وأقاربه من عشيرة بني هاشم، فإن أبا لهب "الذي هو عمّ النبي(ع)" كان هو وزوجته يؤذيان النبي(ع)، فإنهما سيجعلان الكفار الآخرين يتجرؤون على أذية النبي(ع) أيضاً، وهذا سبب إضافي والذي من أجله اختارته السورة هو وزوجته من بين كلّ الكفّار لتخصّص لهم سورة بتهديد مباشر وحتمي بالعذاب في الآخرة، وليكونا عبرة عبر التاريخ وتهديداً لكل أقارب الشخصيات الإسلامية ذات المراكز الحسّاسة... حتى لا يشوّهوا صورة قريبهم بالكلام الباطل السيّء عنه، أو يشوّهوها بأعمال فاسدة يقومون بها وتسبّب تشويه سمعته الطيبة...

وكما ترى، السورة تنقل لنا صورة حالة جنون جماعي "هستيرية" مرّ بها كفّار مكّة، وشارك فيها بفعالية أبو لهب وزوجته كاسرين حاجز التوقير والخوف من بني هاشم الذين كانوا يحمون النبي(ع)، فها عمّه وزوجة عمّه يشاركان بفاعلية وهستيرية لدرجة أن امرأة من الأثرياء تضع حبلاً في رقبتها لتنقل حطباً وتشعله لأذية النبي محمّد(ع) والمؤمنين!

بقي شيء، معلوم من التاريخ أنَّ أبا لهب وزوجته لم يؤمنا، وماتا كافرين، واختلفوا في تفاصيل كيفية ومتى موتهما، ولا فائدة من التنقيب عن ذلك، والفائدة في خطورة العقاب الإلهي الشديد لأقارب شخص مؤمن له منصب ديني أو قيادي، وهم يشوّهون صورته... وما قيل من كلام كثير حول حكمه تعالى عليهما بالنار في الآخرة، بينما الفرصة متاحة لهما ليتوبا، فماذا لو تابا؟ أو ماذا لو بسبب تهديدهما بعقاب في الآخرة انقطع أملهما من التفكير بالإيمان؟ أو... وكلها احتمالات تذوب عندما ننتبه أن العليم سبحانه قال كلامه عنهما، فلو كان فيهما شعرة أمل، ولو كان احتمال إيمانهما وارداً، لساعدهما سبحانه، ولكن حالتهما مثل حالة قوم النبي نوح(ع) الذين من علمه تعالى بالغيب أخبر نبيّه أنه لن يؤمن منهم ولا من ذريتهم إلا من قد آمن، وترى ذلك من ضمّ الآيتين 36 من سورة هود "وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ..."، والآية 27 من سورة نوح "إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا". أبو لهب وزوجته لن يؤمنا ولن يفكّرا أصلاً ولو لشعرة بالتغيّر، ولذلك أخبرنا تعالى سلفاً عن حالة موتهما كافرين حَتْماً، وكلامه تعالى عنهما بالسوء ليس السبب في منعهما من الإيمان، به أو بدونه سيموتان كافرَيْنِ حَتْماً.

سورة الإخلاص (112) ص 604

تعريف به عزّ وجلّ، وهذه السورة "السبب أو لآخر" كثيرة التكرار في صلاتنا من بعد سورة الفاتحة، وتفسيرنا لها مطوّلاً هنا، وما تجده من كلام كثير لتفسيرها في الكتب، لا يعني أبداً أنني أنا أستحضر في بالي كل ما كتبته من تفسير لهذه السورة أثناء تلاوتي لها في صلاتي، فهذا مستحيل وفوق طاقتي، عادةً نشعر بالنقص في إيماننا عندما نجد في

الكتب كلاماً طويلاً عن معنى سورة الفاتحة وسورة التوحيد... ومعنى تكبيرة الإحرام ومعنى الركوع والسجود والتسبيحات... وبشكل ضبابي نعتقد أن من كتب هذه الشروحات يستحضرها في أثناء صلاته، وهذا غير صحيح.

نعم، هناك فرق بين فهم معاني الكلمات والانتباه لها أثناء الكلام "أثناء الصلاة"، وبين التلفّظ بها كالببغاء، مثل الفرق بين فهم معاني الحركات أثناء الصلاة وبين القيام بالحركات لأنها واجبة، فالركوع حركة تعبّر عن الخضوع له تعالى، والسجود تعبير "قوي" عن شدّة الاحترام والخضوع له تعالى، فإذا استحضرت أنك لن تركع ولن تسجد إلا لله تعالى، فلن تركع أو تسجد لأي مخلوق، عندها تكون استحضرت في بالك المعنى الحقيقي لحركات الصلاة...

نفس الشيء بالنسبة لسورتنا هنا، فافهم معاني كلماتها العادية، وسترى أنها مثل كلامك معي حيث لا تستحضر القواميس لتعريف الكلمات التي توجّهها لي أو التي أوجّهها لك، فكما تفهمني حين أقول لك: ليس في البيت أحد غيري. تفهم أنه الله الإله الأحد ولا إله غيره. وكما تفهمني حين أقول: إنّي صمد. فلا يؤثّر فيّ أي شيء "على مستواي"، فسلطتي فوق سلطة الآخرين، ومالي أكثر من مال الآخرين، وفكري أعمق من فكر الآخرين... تفهم أنه تعالى صمد من مستواه الإلهي، فلا يؤثّر فيه أي شيء إطلاقاً، وبقية السورة كلامها سهل...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{1})
{قُلْ}، أيها النبي محمد(ع) وأيها المؤمن: {هُوَ اللَّهُ}، صاحب هذا الاسم المميّز المحدّد فقل إنَّه {أَحَدٌ}، لا ثاني له، لا بالاسم ولا بصفة الألوهية ولا بالصفات الخاصّة بالألوهية، ولا بالصفات الفائقة.

من عموم القرآن تفهم أن الألوهية، أن يُوصف كائن ما بأنه إله، تعني وجود صفات وقدرات فائقة فيه تفوق صفات وقدرات المخلوقين، وتفهم من القرآن أن المخلوقات مهما ارتفعت مواصفاتها وقدراتها، فهي بعيدة جِدّاً جِدّاً عن صفات الإله عزّ وجلّ، وتفهم من القرآن أيضاً أن الصفات الحقيقية للإله لا تتحمّل ولا بأي شكل أن يكون هناك إلهان. وأقول لك "تفهم من القرآن" لأن القرآن كلام إله حقيقي يخبرنا عن نفسه بما هو من الطبيعي أدرى به منّا، وأنت تعلم أن هذه الأخبار تراها بسهولة من آياته تعالى في خلقتك وما حولك من كائنات وظواهر...

سألفت انتباهك لطريقة كلامه عزّ وجلّ في القرآن، فتعابيره تعالى عند كلامه عن نفسه وعمّا يقوله الناس عن وجود آلهة أخرى، فهي تعابير غير عادية، فالعديد من آيات القرآن تتحدّث معنا بصدق وشفافية، فيقول لنا تعالى إنَّه لا يرى شيئاً آخر إلّا السماوات والأرض التي هو بنفسه خلقها، ويقول عزّ وجلّ إنَّه لا يرى في السماوات والأرض أي كائن آخر إلا الكائنات التي خلقها هو، ولا يرى أثراً لأحد غيره فيهما، وبالتالي فهو سبحانه وتعالى لا يرى إلا نفسه بالصفات والقدرات الفائقة وبقية الموجودين فهو سبحانه وتعالى خلقهم، فهو سبحانه وتعالى لا يرى غيره إلهاً، فكل البقية هو تعالى خلقهم... وهكذا يخبرنا سبحانه وبكل شفافية أنَّه وبحسب معلوماته عن نفسه فهو الأحد بالصفات والقدرات الفائقة التي لا تتحمّل وجود أحد آخر مثله، ومن ناحية ثانية بصراحة وشفافية يخبرنا أنَّه لم يلمس أي أثر لأحد غيره وغير مخلوقاته، فهو وحده الإله في الدنيا، وهذا ما نقرؤه في العديد من الآيات أصرحها ما في الآيتين 18 من سورة يونس "وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ"، والآية 33 من سورة الرعد "أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ".

من ناحية ثانية، يخبرنا سبحانه في قرآنه أن كلمة إله بمعناها الحقيقي الدقيق، فهي لا تتحمّل اتّصاف كائنين بها، فالكائن الذي لا يتحمّل تكوينه أن يخلقه أحد، فهو فِعْلاً إله، فالكائن الذي لا يمكن أن تجري عليه عملية الخلق فهو فِعْلاً إله، وهذا من معاني ما ورد في الآية 11 من سورة الشورى "... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ..."، فنحن تنطبق علينا صفة المخلوق فنسأل عمّن خلقنا، بينما طبيعته تعالى ليست مركبة ولا مؤلفة من شيء فأصلاً هو ليس مخلوقاً حتى تسأل عمّن خلقه...

يمكننا نحن التلاعب أو التساهل بمعنى كلمة إله، ولكن هذا التلاعب والتساهل "والاستهتار" لن يغيّر أي شيء في الواقع، فيمكننا القول عن النار إله أو الشمس إله... ولكن هذا لن يغيّر من حقيقة معنى كلمة إله التي لا تتحمّل أن

يُوصف بها كائن مركّب من المواد، كائن مخلوق، كائن محدود، كائن يمكن لكائن آخر أن يزيله أو يفنيه "ويعدمه" ويمحيه... أو يلغيه أو يلغي قراراته... فهذا لن يكون إلهاً حقيقياً حتى لو استسخفنا أنفسنا أو تساهلنا ووصفناه بكلمة إله.

هكذا نفهم من عموم القرآن، ومن آيتنا هنا بأنه هو الإله اسمه الله وهو أحد. ومن كلّ النواحي أحد، بالتسمية بالألوهية أحد، بالصفات والقدرات الفائقة أحد، بطبيعة الكيان المتميّزة أحد... فلا ولا أي كائن آخر إله، ولا ربع إله، ولا فيه نفحة ألوهية، ولا تجسّد فيه الإله... فهذا مستحيل، فهذا تراخٍ وسذاجةٌ وتساهل في استعمال كلمة إله لتنطبق على الربع إله وثلث إله، أمّا الحقيقة فيخبرنا عنها من لا يرى إلهاً غيره، ويخبرنا عنها من يعلم بأنه "أحد" في الألوهية والكيان.

كلمة "الله" هي اسم علم، فكما للناس أسماء مثل: محمد وعلي وجعفر... فكذلك ربُّنا سبحانه له اسم علم، فله اسم محدّد له تعالى، وهناك كلام كثير عن أصل هذا الاسم واشتقاقه... فبعضهم قال إنَّها من الإله، أو الوله، أو الإلْه بالسكون على اللام على معنى التوجه الكامل نحو الشيء... وأنت تعلم أننا كمنتمين لدينه تعالى، نؤمن برجوع كلمة "إله والله" إلى آلاف السنين وعلى الأقل إلى زمن آدم(ع)، وليس لدينا مصادر "آثار تساعد على توضيح ما نريد معرفته" من ذاك الزمان ولا من الذي قبله حين بدأ الإنسان بالكلام وابتكار المفردات وتركيب الجمل، ولدينا تخمينات نستند فيها لدراسة التشابه بين كلمات اللغات ونستند فيها إلى دراسة لغات نعتقد أنها بدائية كلغات بعض قبائل الغابات... ونرجّح أن أساس اللغة البشرية، أي لغة كانت، انطلق من كلمات صوتية، كأسماء وصفات وأفعال تستند إلى صوت ما يتعلّق بالمسمّى، كعوعو للكلب، ومياو للقطّة، وطقطق للمطرقة... وبعدها اختلطت الأفعال والأسماء والصفات بالاشتقاق من بعضها، فصار لدينا أسماء مشتقة من صفات وأفعال، ولدينا فعل مشتق من اسم أو من صفة، وأيضاً لدينا صفة مشتقة من اسم أو فعل...

بناءً عليه فالبحث في أصل كلمة "الله" على أساس أنها مشتقة من كلمة ما، فهو مجرد بحث تخميني، وأي نتيجة وصلت إليها فلن تغيّر من واقع أنَّ الله تعالى سمّى نفسه بهذا الاسم، سواءٌ بما زرعه فينا من قدرة على اختراع اللغة... وصولاً إلى وضعنا نحن اسم علم خاص له تعالى، وبعد تواصله تعالى وحياً معنا استعمل هذا الاسم، وهذا هو الأرجح عندي استذواقاً، أو هو تعالى اشتق اسمه من كلمة الألوهية التي اخترعها البشر.

بقي شيء، ففي التراث اليهودي والمسيحي ستجد بشكل ما انتشاراً لكلمة "يهوه" فتحة سكون فتحة سكون، وكلمة "يا هو"، على أساس أنها اسم له تعالى، فخذ عِلْماً أنه درج عند غالبية المتدينين قديماً احترامه تعالى لدرجة الابتعاد عن لفظ اسمه "الله" عزّ وجل، واستبداله باسم الإشارة "هو" تعظيماً له تعالى، على أساس أنهم يستحون من التلفّظ باسمه تعالى على ألسنتهم التي تتلفّظ بكلام سيّئٍ، أو لأسباب أخرى... على أيّ حال قصدوا إجلاله تعالى بالابتعاد عن التصريح باسمه، ومن استعمال اسم الإشارة "هو" "يا هو" على معنى أناديه هو، أو أشير له، حصل اشتقاق كلمة "يهوه، ياهو" وهذا ما تجده في دراسات اللغات التي نصنّفها الآن بأنها ساميّة، كالسريانية والعربية والآرامية واليهودية...

أقول لك هذا لأن آيتنا هنا استعملت اسم الإشارة "هو" واستعملها القرآن قرابة الأربعين مرة في آيات أخرى للإشارة له سبحانه، وكمثال عن ذلك ما ورد في الآية 163 من سورة البقرة "وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ"، فما قيل عن اشتقاق الاسم "الله" من ضمير الغائب هو، فهذا ربما يكون صحيحاً، ولكن ليس بالاستناد إلى كلمة ياهوه أو يهوه المعلوم أنَّ استعمالها حصل بعد استعمال كلمة "الله".

(اللَّهُ الصَّمَدُ{2})
{اللَّهُ الصَّمَدُ}، بالنسبة لنا كلمة صمد تعني الصامد المنيع، فنقول: صمدت في وجه العدو، صمد البيت في وجه الريح... أمّا كصفة لله تعالى فستكون بمعنى إلهي، فلا يزحزحه تعالى ولا يؤثّر فيه ولا يضرّه ولا ينفعه... أي شيء مادي أو معنوي ولا بأي شكل.

تلاحظ أننا نفسر كلمة صمد بوجه شيء، لأننا نحاول تصوّر معنى إلهي لصفة الصمد، فنقارنها مع شيء ما، أمّا عمليّاً فمعناها الحقيقي أنه بنفسه سبحانه دائماً كامل من كل النواحي ولا ينقصه أي شيء، فالقوّة والقدرة... دائماً في أقصاها،

ولا تخفت أبداً ولا تنقص، بل صفاته إلهية مطلقة فائقة، وبما أننا لا يمكننا تصور عظمته فلذلك نقرّب معاني الكلمات لنقرّب فهمنا لصفاته تعالى.

خذ مثلاً أي شيء تعرفه، مَلَاكاً أو جِنّاً أو بشراً أو مجرّةً... فكلهم يحتاجون لله تعالى حتى يبقيهم موجودين، ويحتاجونه تعالى حتى يستمرّوا في الحفاظ على مواصفاتهم، فإذا تركهم أو فَرْضاً أهملهم تعالى للمحة، لزالوا كلّهم بلمحة كما جاء في الآية 41 من سورة فاطر {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ...}، فالبصر الذي تتمتع به أنت، يعمل وأنت ترى لأنه سبحانه في كل الوقت يثبّت لك هذه الصفة... وقبل ذلك فهو تعالى يثبّت بقاءك حيّاً، وقبل ذلك فهو تعالى يثبّت بقاء كيانك... وتفهم هذا الواقع من الآية 255 من سورة البقرة {...وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}. أمّا هو سبحانه وتعالى فصمد، فلا يحتاج لأي شيء أصلاً، لأنه كامل تام بنفسه.

صفة الصمد يمكن اشتقاق الكثير من المعاني منها، فكما أننا من كلمة واحدة مثل كلمة الله الإله نستطيع الاستنتاج أن الله حي، فلو لم يكن حيّاً فكيف وهبنا الحياة؟ وبما أنه سبحانه هو أخبرنا باسمه فهو مُكَلِّمٌ لأنه كلّمنا، وقادر لأنه استطاع الكلام، وخالق لأنه يتحدث مع مخلوقاته، وواهب لأنه وهب لنا القدرة على سماع كلامه... وهكذا فإننا من صفة الصمد نستطيع استنتاج الكثير من المعاني منها: بما أنه سبحانه لا يحتاج لشيء فهذا يعني أنه لم يَخْلقه أحد، وأنه لا يحتاج للأكل ليعيش، وليس له أعضاء، ولا شيء يمكن أن يزيد أو ينقص منه، وأنه دائم، لا يتغيّر، وصفاته كلها مطلقة فلا حدود لها... وهكذا الكثير من المعاني طالما نسحب منها الخصائص البشرية لتصير من مستوى إلهي.

الكلمات التي نستعملها نحن بلغتنا البشرية هي بالأصل ليست مخصّصة لوصفه تعالى، فهي لغة للاستعمال بيننا وعلى مستوانا وفيما يمكننا التعامل معه، ولا يوجد أصلاً أي احتمال آخر لاختراع لغة مستواها أعلى من مستوانا كبشر، وفيها كلمات ومعانٍ فوق قدرتنا على الفهم والتصوّر، فلا معنى لهذا الاحتمال.

بناءً عليه، حين أستعمل كلمات اللغة البشرية لوصفه تعالى، يجب سحب الخصائص البشرية من الكلام لوصفه سبحانه لأنه ليس بشريّاً. وخذ مثلاً: أنا حيّ وهو سبحانه حيّ، ولكن بسبب الفرق الهائل بيني كمخلوق، وبينه سبحانه وتعالى كإله، فتطبيق كلمة حيّ سيكون مختلفاً بيني وبينه سبحانه، ونفس الشيء بيني وبين النبتة الحيّة، فهناك تدرّج لمعنى هذه الكلمة من الذي ينفعل فقط، وهي النبتة، وأعلى منها للذي ينفعل ويفعل وهذا نحن، وأعلى منها للذي يفعل ولا ينفعل، وهذا ينطبق عليه فقط تعالى.

مثال آخر أبسط، أنا أسمع، والملاك يسمع وسبحانه وتعالى يسمع، فإذا حاولت وضع تعريف لكلمة "سمع، يسمع" لينطبق على الجميع فستجد أنك مضطر لوضع تعريف فيه تدرجات، من الأضعف إلى الأقوى، كتعريف: وصول الصوت إلى الوعي. فكلنا نسمع، ولكني لا أستطيع وعي إلا صوتٍ واحدٍ أو صوتين أو ثلاثةٍ في نفس الوقت، والملاك العالي يستطيع وعي ملايين الأصوات في نفس الوقت، وسبحانه يعي كل صوت يصدر في كل السماوات والأرض من أي مصدر كان.

كذلك كلمة صمد إذا أردت تعريفها لتنطبق عليك وعليه تعالى، فسيكون فيها تدرجات، فبالنسبة لك أنت تصمد في وجه المصاعب وفي وجه الريح وفي الحرب... وقد لا تصمد... أمّا بالنسبة له تعالى فهو أصلاً صمد، فمن المستحيل أن يؤثّر فيه أي شيء ولا بأي شكل.

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{3})
{لَمْ يَلِدْ}، لم يخرج منه شيء منسوب له، فليس لديه أولاد ولا بأي شكل، لا بالحقيقة بالتوالد، ولا بالاعتبار بالتبنّي، فلا انقسم منه ولا تجزّأ منه، ولا انفصل شيء منه... ولم يحدّد تعالى من مخلوقاته ولداً له.

{وَلَمْ يُولَدْ}، فهو تعالى لم يخرج أو ينفصل أو يتكوّن من شيء، فليس له أب أو أمّ أو مصدر أو أساس...

أيضاً تفهم هذه الآية بشكل سهل إذا نظرت إليها من نظرة الذي قالها، فسبحانه يخبرك عن نفسه، فبغضّ النظر عن الآيات العديدة التي ردّت على من قال بأنه تعالى عنده ولد، سواءٌ أولده أو اتّخذه ولداً، وبيّنت بطلان هذا الكلام فلا

معنى لتحديده تعالى من مخلوقاته ولداً له بالاتخاذ الاعتباري، وترى ذلك في عدة آيات منها ما ورد صريحاً في الآية 26 من سورة الأنبياء {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ}.

بغضّ النظر عن الآيات العديدة التي بيّنت أنه لا يمكن ولا يصحّ وصف كائن ما بأنه إله إذا كان له ولد أو هو مولود، وهذا ما تفهمه من الآية 15 من سورة الزخرف {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ}، وبغضّ النظر عن الآيات العديدة التي تحدّثت عن الذين يقولون عنه تعالى إنَّ لديه بنات من الملائكة(ع) أو الجنّ أو بنينَ من البشر كالنبي عيسى(ع)... فبغض النظر عن ذلك فليكن تركيزك هنا على الخبر منه تعالى عن نفسه، فأنت لست أدرى به تعالى من نفسه، فافهمها ومن دون أي كلام أو تبيان أو فلسفة... فالبراهين والتوضيحات ركّزت عليها سور أخرى من القرآن، فافهمها هنا أنه هو عزّ وجلّ يخبرك عن نفسه أنه: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}. ونقطة انتهى الموضوع.

بقي شيء، من خارج الآيات هنا ولكنه بارتباط معها، في عصرنا اشتهرت العلوم التجريبية والنظرية في مختلف مجالاتها بين المجتمعات المسيحية الأوروبية والأمريكية، وأولئك العلماء تعرّفوا على دينه تعالى مما هو متداول في مجتمعاتهم، ويغلب على مجتمعاتهم انتشار عقائد ساذجة، من تلك العقائد أنه تعالى اتّخذ من البشر "عيسى" كولد له، أو أولد عيسى(ع)... وأن الإيمان بصلب عيسى(ع) لوحده كفيل بمغفرة كل ذنوبك مهما كان نوعها... وهذا على الأقل ما هو منتشر بين علماء الدين عند الكثيرين... وتأتي بعد ذلك عقائد أخرى لها جماهير واسعة حتى من علماء الدين عندهم، وهي في غاية السذاجة ومشتقة من الإيمان ببنوّة حقيقية لعيسى(ع) من الإله كقولهم إنَّ مريم أمّ الله...

عندما تسمع بعلماء تجريبيين أو نظريين كفروا به تعالى، فانتبه بماذا كفروا، فبالتحليل لكلامهم تجدهم كفروا بالعقائد المنتشرة في مجتمعاتهم عن النبي عيسى(ع) وأمّه(ع) والروح القدس(ع)... كونهم آلهة... وغيرها العديد من التفاهات التي أمرنا القرآن بالكفر بها، ويكفرون بخلقه تعالى لما في الدنيا في ستة أيام من أيام الأسبوع... وخلقه تعالى لآدم(ع) كأول إنسان وفوراً من تمثال من طين... وأن الجنّة فوق رؤوسنا الآن في السماء... وبمراجعة دراستنا هذه للآيات التي ذكرت هذه المواضيع وغيرها تعلم أنه تعالى لم يقلها مثلما هو دارج بين المنتمين لدينه...

هكذا ترى أن ما يكفرون به فنحن نكفر به أيضاً، ولكنهم ورغم تراخي كنيستهم بالتشريع حتى لم يبق فيها ولا شيء أساسي وكلّه قابل للتغيير بما يراه الناس مناسباً لهم، لدرجة تشريع بعض الكنائس لزواج المثليين! ورغم توافر هذا القرآن كنصّ لم يطله التحريف بعد، فهم رسخ في ذهنهم ازدراء كل شيء ديني عقائدي أو تشريعي إلا اللهم ما ندر من بعض الأخلاقيات الدينية التي يسمّونها بالإنسانية كمساعدة الآخرين ماليّاً أو طبيّاً...

للأسف لم يقدّم المسلمون دينه تعالى في كتبهم وكلامهم بشكل مختلف كثيراً عمّا فعله اليهود والنصارى، فهناك أمور كثيرة سيئة مشتركة بينهم، والعديد منها ذكرها القرآن لتنبيهنا منها حتى لا نقع فيها، ورغم ذلك فعلناها، ومنها الآية 111 من سورة البقرة {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} فقلنا بأنه لن يدخل الجنّة إلا من كان مسلماً من الفرقة الناجية حصراً من مذهب أو طائفة ما من المسلمين! ومنها ما ورد في الآية 85 من سورة البقرة {ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ...}، ومنها ما ورد في الآية 31 من سورة التوبة {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}، فبعضنا ألّه قدّيسه، وآخرون ربّبوهم فجعلوهم مقصداً للطلب منهم... وغيرها العديد من العقائد والتشريعات والسلوكيات الفاسدة.

فهل تلومهم بعد أن كفروا بدين النصارى ودين المسلمين؟ أم تلوم نفسك لما فعلته بدينه تعالى حين حرّفته وشوّهته حتى صار ساذجاً طفولياً؟

لست أبرّر للعلمانيين كفرهم حتى بالأمور الصحيحة، بل أنبهك قبل التلهي بهم أن تشتغل على تقويم عقيدتك وشريعتك أنت لترى إن كنت مختلفاً عنهم فِعْلاً، أو أنك مجرد نسخة مختلفة...

(وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{4})

{وَلَمْ يَكُن لَّهُ}، لله عزّ وجلّ، {كُفُواً}، كُفُوءاً، مماثلاً أو نظيراً أو شبيهاً، فلا أحد يجاريه أو يقاربه في مواصفاته وقدراته، فليس له شبيه في أي شيء، {أَحَدٌ}، ولا واحد شبيه له أو يقاربه أو يجاريه... كائناً من كان.

الجملة هنا ليست بالتمام مثل جملة: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}. فهذه الجملة عمومية جِدّاً وتشمل جملتنا هنا التي تقول بأنه أي كائن كان فلن يكون متكافئاً معه تعالى، ولا بأي شكل، لا بالقوّة ولا بالتكوين ولا بالألوهية ولا بالصفات ولا بالقدرات...

بقي شيء ذكرناه مراراً في دراستنا، بعبارات بسيطة قالها تعالى في قرآنه، وفيها لفت انتباهنا لاختلاف طبيعته تعالى، كعبارة {...لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ...} التي وردت في الآية 11 من سورة الشورى، وكآيتنا هنا، ومضافاً لذلك العديد من الآيات التي حصرت كل ما هو موجود بنوعين لا ثالث لهما، فهناك الإله الله، ومن جانب آخر هناك المخلوقات التي خلقها الله تعالى، فكل المخلوقين مركّبون مؤلّفون من شيء، فهذا هو معنى كلمة مخلوقين، والتي تعني أنهم لم يكونوا وصاروا، وأن أحداً ما صيّرهم، وبهذا المقدار القليل من الكلام نفهم أن طبيعته تعالى مختلفة، فليست مركّبة ولا مؤلّفة، وبالتالي فلا معنى لتسأل عمّن خلقه تعالى، لأن طبيعته لا تُوصف بأنها مخلوقة.

من ناحية ثانية مهمّة جِدّاً، فسبحانه بشفافية وصدق وصراحة يتحدّث معنا، فيقول لنا إنَّ ما أخبرنا به عن نفسه وعن كونه الإله الأحد، فهو ما يراه تعالى، فهذه هي معلوماته "بشفافية" عن هذا الموضوع، فكل شيء، كل السماوات والأَرَضِينَ، هي تعابير قرآنية متنوعة تشير لكل ما هو موجود، فيخبرنا سبحانه وبكل شفافية أنَّه وحده خلقهم كلّهم، ووحده المتابع لهم، ولم يلمس أي أثر فيهم إلا ما يفعله هو سبحانه، وترى هذا المعنى بشكل واضح وبسهولة في الآية 18 من سورة يونس {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

هكذا ترى أنه تعالى حين يخبرنا عن نفسه، فهي معلومات كمعطيات بنى عليها تعالى براهينه على أنه الإله الأحد، بعبارة أخرى مكرّرة فقد أخبرنا سبحانه عن نفسه وعمّا فعله وعمّا يراه، كمعطيات، كمعلومات، وأخبرنا منها عن براهينه التي تدل على أنه لا إله غيره.

بعبارة أخرى، ما نسمّيه نحن بالبراهين والأدلة العقائدية فيما يتعلّق به تعالى بتوحيده وصفاته وقدراته وقراراته... هي بالأساس مجرد معلومات عن أمور، ويعرضها تعالى علينا في قرآنه كما يراها هو سبحانه، واعتماداً على ما جعله تعالى فينا من قابلية لفهم تلك الأمور، ومن القدرة الممنوحة لنا على عقل الأمور، فبعد ذلك يصير ما يدلّنا عليه تعالى وعلى صفاته وقراراته، يصير موصوفاً بالآيات، فنحن وما خلقه تعالى بعمومه هم أمور مميزة تدل على إله فعلها.

بما منحنا سبحانه من قدرة على الوعي والتفكير والتصوّر... يمكننا من المعطيات المتوافرة في رؤيتنا لخلقتنا وخلقة ما حولنا من كائنات وظواهر، يمكننا الوصول إلى نتيجة أنه تعالى إله واحد أحد لا إله إلا هو، وهذا واحد من الطرق التي صمّمها تعالى لنتعرّف عليه وعلى صفاته، وسورتنا هذه من أبرز الكلام القرآني التعريفي به تعالى، فليست كلاماً للقراءة كأي كلام آخر، فهي خبر منه تعالى عن نفسه، فهي معطيات صادرة منه تعالى يصف بها نفسه كخبر منه تعالى لنا.

فلنفترض أني لم تصلني معلومات لا منه تعالى ولا من الناس عن أي شيء إلهي، ولنفترض أني هكذا فجأة وفوراً صرت إنساناً من لا شيء، فصرت كما أنا الآن وخالياً من المعلومات عنه تعالى، فستبدأ التخمينات عندي للجواب عمّن خلقني، من هو؟ وما هي صفاته وقدراته؟

سبب انبعاث هذه الأسئلة أني أرى طبيعتي مركّبة مؤلّفة، وأرى أني لست متحكّماً بوجودي وكياني، فأنا لم أخلق نفسي، وأنا أتغير بتقدم العمر والمرض... وقد أفقد حياتي... وهكذا نفهم كلامه تعالى حين يصف نفسه بأنَّه يرى في نفسه طبيعة لا معنى للقول عنها بأنها مخلوقة، فيرى قدراته ويشعر بالسيطرة الفائقة... وبشفافية يخبرنا أن هذه هي المعلومات التي عنده، والتي تتخطّى الزمان والمكان، فكان تعالى كذلك ولا يزال ويرى من نفسه سبحانه أنَّه باق على هذه الحال...

من هنا ترى الفرق بين الحقيقة الواقعية للأمور، وبين الأدلة عليها، فصحيح أن الإله واحد أحد، ولكن هذا لا يعني أن كل دليل نخترعه نحن من أفكارنا عن توحيده تعالى أنَّه سيكون دليلاً صحيحاً، لا، فلست مضطراً للدفاع عن كل دليل

على توحيده تعالى، وإلا فسيصير لدينا كمٌّ هائل من الكلام الطويل الذي تراكم من تاريخ طويل من أناس متوارثين الدفاع عن الأدلة على توحيده تعالى، ومع طول الزمن تراكم عندهم ردود على كل ما يقوله الآخرون نقداً للأدلة، وتصير الأمور جدلية بامتياز.

تعمّق في هذه الفكرة قليلاً ووسّع أفقك لترى أنها مشكلة عامّة منتشرة بين كل الناس من مختلف العقائد سواءٌ أكانوا موحدين أو مشركين أو كافرين بكل أنواع الآلهة. فكلّهم لديهم تراث من الأدلة على صحّة ما يعتقدون به، ولديهم جواب عن كل سؤال... فهل كلام القرآن مثل كلامهم؟

لا، كلام القرآن بالأساس يستند إلى علمه تعالى، فما يعلمه تعالى مما فعله ويراه ويسمعه... يخبرنا به وبشفافية، فكلامه تعالى عن نفسه وعن أفعاله وعن قراراته، فهو كلام عن حقائق واقعية.

بما أن كلامه تعالى فقط عن وقائع، فبالفكر السليم يمكن التصديق بهذه المعلومات، لأن أي معلومات أخرى ستواجه مشاكل التعارض والتناقض والتخالف... فيما بينها.

فانتبه دائماً للفرق الهائل بين صريح كلام القرآن، كمعلومات مما يراه تعالى ويعلمه، وبين تراثنا الثقافي الضخم بالأدلة على صحّة عقائدنا، وحتى لو أقحمنا كلامه القرآني سبحانه في أدلتنا، فهذا لن يعني حتمية صدق أدلتنا، لأننا قد نفسّر كلامه تعالى بناءً على معطيات غير صحيحة، وقد نوجّه معاني كلماته تعالى حيث نحن نراه صحيحاً بينما رؤيتنا غير صحيحة، وهذا كلّه وغيره على فرض حسن نيتنا ومحاولتنا الوصول إلى الحقيقة بتجرّد، ولكن واقع الحال غالباً ليس كذلك، فنحن عادة لا نبدأ بقراءة القرآن من الصفر لنتعلم منه، بل تتحكّم بنا خلفيات نفسية وفكرية كثيرة لدرجة تعمينا حتى عن رؤية الظاهر الواضح ببساطة من الكلام العربي القرآني.

الأنكى من ذلك أن الكثيرين منّا يؤمنون بأن الكلام الظاهر المفهوم ببساطة من الكلام القرآني، ليس هو المقصود من كلامه تعالى! بل لكلامه تعالى تأويل وباطن وفيه حقيقة المعنى، والتأويل والباطن عندهم مطّاط يتحمّل وجوها لا حصر لها لمعاني كلامه تعالى، والعاملون بناءً على الباطن والتأويل يعتقدون أنهم الأشدّ إيماناً والأذكى والأعلم... منّا نحن البسطاء الذين لا نرى أبعد من أنفنا حين نصرّ على التعلّق بظاهر الكلام القرآني العربي.

لو جاءنا منكم الحقّ موحَّداً أيها العاملون بالتأويل والباطن، لكنّا اعترفنا بسذاجتنا أمامكم، ولكنكم فِرَقٌ ومذاهب مختلفون ومتخالفون، فهل هذا ما تدعوننا إليه؟ أم كل واحد منكم يدعونا إلى تأويلاته وباطنه على أساس أنه الحقّ وتأويلات الآخرين باطلة؟

لم أجد في قرآنه تعالى ولا أي نوع من التصريح أو الإشارة لأي كلام منسوب للأنبياء ومشابه لما يعرضه علينا الباطنيون وأهل التأويل، ووجدت فرقاً هائلاً بين ما يعرضه القرآن من سلوكيات للأنبياء بالمقارنة مع كثير من سلوكيات العرفانيين والمتصوفة، ونبدأ بمهزلة الرقص الصوفي، مروراً بتكرار ذكر صفاته تعالى حتى نكتسب معارف إلهية وطبيعية وتاريخية وعمّا قبل خلق ما في الدنيا وعن الآخرة... ويقولون إنَّها معلومات غير متاحة بالتعلّم، وبالذكر نكتسب قدرات خارقة... منها رؤية باطن الناس على ظاهرهم فيصير الخبثاء في نظرنا كهيئة الكلب والخنزير والحمار... لننتهي بمهزلة رؤية أنواره تعالى وأنوار ملائكته(ع) وسماع أصواتهم كأزيز وصفير... وأمور أخرى...

الله سبحانه وتعالى في كل قرآنه أخبرنا عن القيمة العالية عنده للمؤمن العامل للصالحات، وعلى هذا الأساس مدح بعض الأشخاص وجعل بعضهم أنبياء ووظّفهم كرسل، بينما نحن لدينا معايير أخرى، فالذي يفسّر المنامات، ويأخذ الخيرة، ويلمّح للناس أنه يراهم على حقيقتهم، وأنه يعلم الغيب، وأن طلباته منه تعالى مستجابة وتتحقّق... فهذا نقدّسه! مع أنه كذّاب كذّاب، أو ساكت عن أكاذيب الناس عنه ويغض النظر عنها ولا يصرّح علناً بأنها ليست من صفاته، بل يلمّح أنها من صفاته! وبالمقابل فليس لدينا أي اهتمام بإنسان مؤمن عادي عامل للصالحات! بينما هذا "العادي" له عنده تعالى كل القيمة.

سورة الفلق (113) ص 604
هناك كائنات بنفسيات سيئة تضمر الشرّ لنا، تنبّهنا السورة مما يمكن أن يحصل منهم مما لا قدرة لنا على دفعه عنّا، وتعلّمنا التوجّه نحو الذي يقدر على حمايتنا منهم، وسترى أنهم أعداء خفيون لا نرى شرّهم موجّهاً مباشرة إلينا.

السورة هنا والتي تليها لا تلغي عنّا بذل الجهد لتجنّب الضرر من الآخرين، بل نفعل ما بمقدورنا فعله، وأثناء ذلك نتوكّل عليه تعالى، وحين نتواجه أو نتعرّض أو نتوقّع تعرضنا... لما لا قدرة لنا "لسبب أو لآخر" على التعامل معه، فعندها نحيل أمرنا كلّيّاً إليه تعالى...

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ{1})
{قُلْ}، أيها النبي محمد(ع) وأيها المؤمن:

{أَعُوذُ}، ألتجئ ليكون مانعاً لي من أمور ستذكرها تكملة السورة، {بِرَبِّ الْفَلَقِ}، بالمسؤول من مستوى إلهي لعموم ما انفلق لعموم ما انفتح وابتعدت منه أشياء كبيرة عن بعضها وصار بينها فراغٌ.

الكلام عموميٌّ عن أي انفلاق، وستحتمل منه مع الآية بعد التالية أن الفلق هنا يشير لبداية النهار بانفلاق الصبح، فهناك سنقرأ كلاماً عن الغاسق إذا وقب بمعنى الليل، والقرآن استعمل تعبير فالق الإصباح في الآية 96 من سورة الأنعام "فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا...". ولكن السورة تأمرنا بالعوذ منه تعالى من شرور شيء ما، ولا يوجد في كلامه تعالى شيء عن شرّ من الليل أو النهار، وهكذا نفهم أن الكلام هنا بالعوذ به تعالى من الشرّ الذي تفعله بعض المخلوقات مستفيدة من ضوء النهار "الفلق" أو من ساتر الليل "الغاسق".

كلمة ربّ نصف بها عامّة من كان مسؤولاً عن شيء ما، فأنا ربّ بيتي كمسؤول عن تأمين حاجات الذين فيه، وتلك ربّة منزل، وذاك ربّ العمل... وهذه الربوبية على مستوانا، وسبحانه ربوبيته من مستوى إلهي بقدراته وصفاته الفائقة على كل من في الدنيا. وبناءً عليه، فهو سبحانه المسؤول عن حصول الفلق وتكوّن الكائنات والظواهر، فأطلب منه الحماية كمانعٍ لي من شرور مخلوقاته كما سيأتي في الآية التالية.

(مِن شَرِّ مَا خَلَقَ{2})
خلق الربّ سبحانه، فركّب وألّف كائنات من المواد، وهذه الكائنات يصدر عن البعض منها أمور شريرة، أمور تسبّب لي السوء والضرر، ومن عموم القرآن نعلم أنه على رأس تلك الكائنات إبليس، ومعه بقية الشياطين، فسبحانه خلق الكائنات، وبعضها تفعل الشرّ، وأنا أعوذ به تعالى من الشرّ الذي تفعله الكائنات سواءٌ أكانت من الجنّ أو من الإنس.

لا تفهم من الآية أنه تعالى خلق شرّاً، أو خلق مخلوقات فقط شريرة، أو خلق الشرّ في المخلوقات، فأصلاً هذه مجرد كلمات مصفوفة ومعناها غير صحيح، فأنت نفسك ألم يصدر عنك أمور شريرة مؤذية للآخرين؟ ولو بكلمة كسرت بها خاطر أحد ما، فهذا شرّ صدر من شيء خلقه تعالى وهو أنت، وإبليس نفس الشيء مثلي ومثلك كائن لديه خيار فعل الخير أو الشرّ، فليس هناك شيء ككائن أشير له أنه شرّ، فأنا أعوذ به تعالى من شرّك أنت، ومن شرّ إبليس... فأطلب منه تعالى أن يمنع عني شرّك فيحميني من شرّك الذي قد أعلم أو لا أعلم بأنك تفعله أو لي قدرة أو لا قدرة لي على ردّه...

نفس الشيء بالنسبة لأي شر من أي مخلوق كان، فإبليس الشيطان الأوّل والأكبر ما هو إلا مثلي ومثلك، فهو كائن لديه القدرة على اختيار فعل الخير والشرّ واختار فعل الشرّ معنا بالوسوسة لإضلالنا وجعلنا نرتكب السوء... مثلما اختار أبو لهب وأبو جهل وأمثالهم أن يفعلوا الشرّ بالمؤمنين، ومثلما شعر العقرب بالخطر فلسع... أو أراد أن يأكل فلسع...

لن أتوسع أكثر بذكر ما قالوه مطوّلاً في الكتب والتفاسير، فالكثير من كلامهم يبدو فيه بوضوح خلفية تبرير الأفعال الشريرة، أو اعتراض على الوقوع تحت شرّ الآخرين، عِلْماً أن التصميم لخلقة ما في الدنيا من الأساس يتضمّن تعرّضنا للبلاء بالشرور من أنفسنا ومن الآخرين، ولننجح فيه لنصل إلى حيث السعادة الخالدة...

(وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ{3})
{وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ}، وهذا وصف لعموم ما انصبّ وكان له شمولية أو كثافة أو كثرة... ونفس التعبير ورد عن الليل في الآية 78 من سورة الإسراء "أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ..."، {إِذَا وَقَبَ}، إذا دخل وصار في شيء آخر. ومع أن الوصف عمومي ولكنه مناسب لوصف الليل وبذلك تصير السورة تشير للعوذ به تعالى من شرّ ما خلق إلى عموم الذين ينشطون بالسوء منذ انفلاق الصبح نهاراً، أو ينشطون لفعل السوء من وقب الليل إلى غسقه، سواءٌ أكانوا من الجنّ أو الإنس، فنعوذ من عموم أفعالهم الخبيثة السيئة ليلاً ونهاراً.

بعبارة أبسط، الآية وصفت الليل بالغاسق، لأن عتمته كبيرة وتغطي مساحة كبيرة، ووَقَبَ وصف دخول وحلول، فإذا وقب الغاسق، فإذا دخل علينا الليل، فمنك يا رب نعوذ من شرّ المخلوقات التي ستتحرك بالشر ضدنا في غسقه في عتمته المنتشرة.

(وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ{4})
{وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ}، النفث هو النفخ مع خروج رذاذ، القليل من البصاق، {فِي الْعُقَدِ}، في نقطة التقاء محكم بين شيئين، رباطات الحبل، وستجد في الكتب كلاماً عن نوع من السحر بحيث يقوم الساحر بالنفخ مع خروج القليل من البصاق على عقدة يعقدها في الحبل أو خيطٍ على أساس أن النفخة تسبّب الضرر لشخص حدّده الساحر بكلامه "السحري" وأن الشر سيلازم المسحور حتى تنحلّ عقدة الحبل. هذا ما قيل، ويبدو مشهوراً جِدّاً.

على هذا نفهم أن الآية اختارت نموذجاً سيّئاً جِدّاً لأناس كثيري النفث "نفّاثة"، كعالم وعلّامة، من الذكور والإناث، فهنا التأنيث لفظي وليس حصراً للنساء الساحرات بل هو تعبير لكل من يكثر النفث فهو من النفّاثات سواءٌ أكان رجلاً أو امرأةً. والسورة عموماً تتحدّث عن أناسٍ شريرين يريدون أذية الآخرين، وآيتنا هنا والتي تليها تشير للذين يحاولون أذية الآخرين بطرق أخرى غير اليد واللسان والأدوات... عبر السحر والحسد.

ضع في بالك دائماً أن السحر هو عموم أي عمل مهما كان نوعه ويجعل الآخرين يتوهمون شيئاً غيرِ حقيقيٍ بأنَّه حقيقيٌّ. فالساحر "لاعب الخفّة" يقوم أمام عينيك بإخفاء الحمامة في القبعة، وأنت متأكّد بأنه أوهمك بطريقة ما أنها اختفت، مع أنها لم تختف، وهذا هو المفهوم الأساسي لكلمة سحر والذي تراه صريحاً في الآية 66 من سورة طه "قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى". ما هو دارج بين بعض الناس عن السحر كونه يشير إلى قوة خارقة عند شخص ما، وتمكّنه تلك القدرة من فعل أشياء عجيبة بمجرد رغبته فيها أو لمجرد تلفّظه بكلمات سحرية، وهكذا من دون سبب وفقط من كلامه أو أمنيته... يتحقّق ما يريد، فهذه خرافات لم ينزل القرآن إلى مستواها، وما نقله القرآن عن الكفّار من اتهامات للرسل بأنهم مسحورون أو سحرة، وقول الكفّار عن الآيات الإلهية أنها سحر، فهذا كان على أساس العقلانية في الوصف، على أساس أن حيلة ما تجعل الكفّار يتوهمون ما يحصل أمامهم، وأن الحقيقة مخالفة لما يرونه، وبهذا المعنى استعمل القرآن والعرب "بعقلانية" كلمة سحر.

ما يعتقده بعض الناس من تأثير الكتابة على الورق وتلاوة التعاويذ لأذية شخص ما من بعيد، فهو كلام فارغ، فالقرآن لم ينف السحر بمعنى الأساليب والوسائل التي تخدعنا وتجعلنا نتوّهم، ولكنه أبداً بتاتاً لم يثبت حقيقة للسحر عبر الكلام والكتابة من بعيد للتأثير على شخص ما، وها أمامك التاريخ الماضي والحاضر يثبتان لك أن السحر هو الخدعة وإيهام الناس، وبهذا المعنى استعمل القرآن هذه الكلمة، ولن تجد قصّةً موثوقةً عن شخص تأثّر بالسحر من بعيد بسبب قراءة التمائم والتعاويذ ضدّه، وإن استسخفت نفسك بتصديق ما يقوله الناس فأنت وشأنك.

كما ترى، فالنفث في العقد عمليّاً لن يسبّب لك أي شرّ بشكل مباشر "بحسب دراستي لهذا النوع من المسائل"، وكذلك الحسد الذي ستتحدّث عنه الآية التالية فلن يسبّب لك أي شرّ بشكل مباشر، ورغم ذلك فهما يبقيان عَمَلَيْنِ مقصود منهما الشرّ للآخرين، ففاعلهما شرير يقصد الضرر بالآخرين بغض النظر عن نجاح أسلوبه، والآيات تعلّمنا التعوّذ به تعالى من شخص فاعلي تلك الشرور، فليحسد الحاسد حتى ينفجر من حسده، فطالما لم يَطُلْكَ عمليّاً بأي شيء، فلن يضرّك بأي شيء، ومثله النافث في العقد فلينفخ حتى تنفجر رئتاه وينشف ريقه، فلن يضرّك بشيء طالما لم يَطُلْكَ عمليّاً بيده أو

بأداة أو بخلطة أعشاب ضارةٍ تأكلها أو تشربها أو تشمّها... والتعوّذ من الحاسد والنافث، هو تعوّذ من شخصهما كنماذج بارزة لأشخاص شريرين يريدون أذية الآخرين.

أكرر لك يا عزيزي ويا عزيزتي، فالنفث في العقد بقصد أذية الناس، ورغم فشله في تحقيق هدفه، إلّا أنه يبقى عملاً شريراً، والاستعاذة بالله تعالى من النافث الذي يحاول أذيتنا بهذه الطريقة، وليست الاستعاذة من النفخ، فالنفخ في العقد لن ينجح في تسبيب الأذية لنا. فالكلام هنا عن الخوف من النفسية الشريرة للنافث، فهو خوف من انتقال الشرير من النفث في العقد، وهي العملية التي تعبّر عن إرادته للأذية لنا، فالخوف من انتقاله من هذه الحركات الفاشلة إلى حركات عملية تسبّب الأذية فِعْلاً، وسترى في الآية التالية نفس المعنى ينطبق على الحاسد، فحسده لن يؤثّر بل الخوف منه إذا تحوّل إلى أذية عملانية.

هذا الكلام كلّه عن الخوف من الأثر الناتج عن الشرّ، فنعوذ به تعالى ونلتجئ إليه تعالى طالبين الحماية حتى لا يصيبنا الضرر، ولكن نفس العبارات تحمل معنى العوذ من الشرّ بحد ذاته كحالة مكروهة، مثلما نرى شخصاً يفعل سوءاً لا ضرر منه علينا شخصيّاً، ونقول: أعوذ بالله. فبسبب كرهنا لحالة السوء نعوذ به تعالى منها كشيء مكروه لا نريد الإصابة به، ولا حتى رؤيته من بعيد.

بقي شيء، فستجد في الكتب كلاماً عن قيام شخص يهودي في مدينة يثرب بعمل سحر ضدّ النبي محمّد(ع)... وهذا شيء يمكن أن يحصل، فها تسمع من حولك عن أناس "مسلمين" يطلبون من المشعوذين القيام بأذية أناس "مسلمين" يكرهونهم عبر السحر والشعوذة والكتبة وتسليط الجنّ... فالقيام بهذه الأعمال كان موجوداً ولا يزال، أمّا حقيقة تأثيره على الناس فهو هراء وسخافات وكلام فارغ يؤمن به قليلو العقل، والناس يحبّون الأمور الغريبة، فيصدّقونها على أمل الاستفادة من هذه الأمور الخارقة لفتح مغارات الكنوز... والناس بغالبيتهم يبالغون، فمن حادثة صغيرة منطقية عقلانية، تتناقلها الألسن، ورشّت عليها البهارات والملح، والخيال الواسع، تصل في النهاية إلى قصّة لبيد الساحر اليهودي الذي نفث في العقد وسبّب المرض والتوهّم للنبي محمّد(ع)! حيث أنقذه(ع) من هذا السحر الملكان جبريل وميكال عليهما السلام... وهذا أتركه لك كنموذج للهراء الذي تجده في الروايات التي نتعامل معها على أساس أنها الدين الإلهي! وهي كلام أناس عاديين مثلنا يقعون في الاشتباه وتداخل الخيال مع الواقع... وبعضهم تقصّد المبالغة وصولاً إلى الكذب.

(وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ{5})
{وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ} {إِذَا حَسَدَ}، من شرّ الشخص الذي يحصل عنده شعور سيّئٌ إذا كان الآخرون بخير ماليّاً أو صحيّاً أو ناجحين... فهو شعور سيء لحصول شيء حسن مع غيرك وتتمنى لو لم يحصل عليه، ومنع الآخرين من الحصول على شيء جيد هو أيضاً حسد.

كما ترى، فالحاسد هو الذي يكره لك الخير، ولن يؤثّر عليك أبداً بتاتاً ولا بأي شكل طالما اكتفى بالشعور ولم ينتقل إلى أي عمل فعلي لأذيتك، فلن تتأذّى من شعوره، فلن تتأذّى إذا لم يقم بعمل لمنع حصولك على الخير، وكما لفتت الآية السابقة انتباهنا من نموذج محاولة بعض الناس أذية الآخرين عبر النفث في العقد، فهنا لدينا من يحاول أذية الآخرين بالمشاعر، فكلا النموذجين من أسوأ نفسية عن شخص يريد حصول الشر للآخرين، ويحاول أذيتهم من بعيد، ولن ينجح، ولكنه شرّير، فهو بشخصه شرّير، وعمله شرّير، والكلام في السورة عن العياذ بالله تعالى منه كشخص شرّير.

هكذا ترى السورة تعلمنا التعوّذ به تعالى من شرور كائنات لا نرى بشكل مباشر توجّههم نحونا بالشرّ، وعمليّاً فسبحانه يتدخّل بما يراه مناسباً بحكمته لما فيه مصلحتنا الإيمانية لآخرتنا، فيغيّر مجريات الأحداث، وسورة يوسف من أولها لنهاية سردها لما جرى مع النبي يوسف(ع) أبرز مثال عن تدخّله تعالى من حيث لا نشعر.

سورة الناس (114) ص 604

عندما تخطر ببالنا أفكار شيطانية، أو يوحي لنا أحدهم بفكرة شيطانية، أو يقوم أحدهم بعمل شيطاني أمامنا، تأتي هذه السورة كتنبيه إيماني لنا من ذلك، وتعلمنا طلب الحماية منه سبحانه القادر على حمايتنا من هذه الأمور.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ{1})
{قُلْ} أيها النبي محمد(ع) وقُل أيها المؤمن:

{أَعُوذُ}، ألتجئ ليكون مانعاً لي من أمور ستذكرها تكملة السورة، {بِرَبِّ النَّاسِ}، بالمسؤول عن الناس من مستوى إلهي.

أنا من الناس، وهناك ربّ للناس، وهناك شرّ أحتاج لمن يمنعه عني، وأحتاج لمن يحميني منه، فأطلب الحماية من المسؤول من مستوى إلهي عنّي وعن الناس.

(مَلِكِ النَّاسِ{2})
قل أعوذ بـ {مَلِكِ النَّاسِ}، بالمتحكّم من مستوى إلهي على الناس، فيملكهم وهم تابعون له، والقرارات التي يأخذها فيهم تُنفّذ...

أنا من الناس، وهناك شرّ أحتاج لمن يمنعه عني، فأطلب الحماية من الذي أتبع له ويملكني وشؤوني بيده.

لاحظ أن كلمتي "رب، ملك" يمكن إطلاقهما علينا أيضاً، فنقول: ربّ العمل، رب الأسرة... ملك البلاد، ملك النروج... فالكلمات التي نستعملها لوصفه تعالى ووصفنا، يجب أن يتضمّن معناها وجود تدرجات فيها حتى تنطبق عليه تعالى وعلينا، فنسحب منها الخصائص البشرية، أنا ربٌّ لمجموعة من الناس "أسرتي" على مستواي البشري، فأنا رب أسرتي، وهو تعالى ربّ الناس من مستواه الإلهي، فأنا لم أخلق أفراد أسرتي ولست من صمّمهم ومنحهم الحياة... أنا فقط أؤمّن لهم المسكن والمأكل والعناية... أمّا من مستواه تعالى فمسؤوليته عن الناس تبدأ من قرار خلقهم وخلق بيئتهم، وتأمين استمرارهم أحياء... وكذلك وصفه تعالى بالملك يكون بمستواه الإلهي الفائق، فملك البلد يتحكّم بالقرارات التي ينفّذها مساعدوه على الناس... وأمّا ملك الناس من مستوى إلهي فهو يتحكّم بكل شيء، وبما أنه ملكي وربّي من مستوى إلهي فأتوجّه إليه طالباً الاستعاذة من الوسوسة...

(إِلَهِ النَّاسِ{3})
قل أعوذ بـ {إِلَهِ النَّاسِ}، من يوصف بأنه يملك قدرات وصفات فائقة فوق الجميع، وهذا معنى كلمة إله، وتنتسب إليه الناس.

نحن كمخلوقات ترجع في شؤونها العالية إلى من صمّمها وخلقها وخلق بيئتها، سواءٌ التفت الناس إليه وآمنوا به أو أنكروه أو التفتوا لغيره، فلن تتغيّر حقيقة أنهم مخلوقات أخرجها إلى الدنيا كائن له صفات فائقة خلقهم ومنحهم الحياة...

أنا من الناس، وهناك شرّ أحتاج لمن يمنعه عني، فأطلب من إلهي حمايتي من الشرّ.

كلمة "إله" لا يصحّ ولا بأي شكل إطلاقها على غير الله عزّ وجلّ، فلم يمنعنا الله سبحانه من تسمية غيره "إلهاً" إلّا لأن كلمة "إله" بمعناها الحقيقي لا تنطبق إلا عليه سبحانه وتعالى، فلم يمنعنا من استعمال كلمة "رب أو ملك" لنصف بها واحداً من الناس لأن كلمتي "ربّ أو ملك" تتحمّلان التدرجات في معناها، أمّا كلمة "إله" فلا تتحمّل التدرجات، وهذا المعنى ضعه في بالك لأن القرآن ركّز عليه كثيراً، فالكائن بصفات تفوق صفات المخلوقات، وبقدرات تفوق قدرات المخلوقات، هو الموصوف بكلمة "إله"، وهذا معنى كلمة إله في استعمال الناس لهذه الكلمة. وحتى لو اخترع الناس من أوهامهم كائناً خيالياً بصفات فائقة فهذا لن يغيّر الواقع، فهذا إله خيالي، والحقيقة أنه وحده الله تعالى لديه صفات وقدرات فائقة على الجميع.

هذا ما كرره تعالى في القرآن مراراً حين أخبرنا أن الدنيا كلّها محصورة في السماوات السبع والأرض، ولا يوجد شيء خارج هذه الحدود "التي لا نعلم كيفية امتدادها، فحتى كوننا "سماؤنا" لحدّ الآن لا نعلم حدود امتدادها وكيفيته"، وهناك ست سماوات أخرى تكوينها مختلف عن سمائنا، فلا نعلم عن مادتها ولا عن حدودها أي شيء، على أي حال، فهذه حدود كل الدنيا وسبحانه خالقها وخالق كلّ شيء فيها، وسبحانه يخبرنا بشفافية أنه لا يرى أحداً إلا مخلوقاته، ولم يلمس

ولا أي أثر لأي كائن بصفات وقدرات فائقة إلا هو، وبناءً عليه يخبرنا أنه لا إله إلا هو، وهذا ما تجده في الآية 33 من سورة الرعد "أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ...".

لو أطلت عليك يا عزيزي ويا عزيزتي فالشيطان إبليس، كائن لديه قدرات تفوق قدراتنا نحن البشر، والملائكة العالية كجبريل وميكال عليهما السلام، لديهم قدرات تفوق قدرات إبليس بل وتفوق قدرات كل بقية المخلوقات، ولكن هذا لا يجعلهم آلهة، ولا يجعل من إبليس إلهاً للشرّ، فقد اعتاد الناس على التراخي في معنى كلمة إله لدرجة غير مقبولة حتى دخلت إلى كلام بعض المتدينين منّا، وصار مقبولاً عندهم استعمال كلمة إله لغيره تعالى! مخالفين بذلك أوّل قاعدة في الدين الإلهي: لا إله إلا الله.

إلى هنا وصل بنا الكلام بالتعوذ برب وملك وإله الناس، وهذا شعور من مستوى إيماني عالٍ جدّاً، فقارنه مع أبيك أو أخيك أو قريبك أو صديقك... الذي يخاف الناس منه، وبالتالي لن يفعل الناس معك الشرّ خوفاً منه، فأنت عمليّاً في حالة العوذ به من شرّ الناس، وهذا الشعور نفسه لو كان لدينا فِعْلاً القليل منه معتمدين على الربّ الملك الإله، لكنّا من المؤمنين من الدرجة العالية، وللأسف فنحن نقول بأننا معتمدون عليه تعالى ولكن فقط بلساننا وليس لدينا الشعور القوي بذلك.

(مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ{4})
قل أعوذ بربّ وملك وإله الناس:

{مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ}، وهو الذي يضع أفكاراً سيئة في بالنا تشجعنا على القيام بأعمال سيئة، وهذا الوسواس موصوف بأنه {الْخَنَّاسِ}، فيقوم بالوسوسة وهو مستتر، فلا يظهر لنا أثناء إلقائه الأفكار السيّئة في وعينا.

كلمة الوسوسة تستعمل لوصف حالة دخول الأفكار السيئة على الفكر والبال، وفي استعمالنا لها تشمل وصول المعلومات من أي مصدر كان يدلّك على فعل الشيء السيّء ولا يجبرك عليه بالقوة، سواءٌ وصلت الفكرة بالكلام من الفم للأذن، من إنسان لآخر، أو وصلت مباشرة إلى الوعي، من شيطان جنّي لإنسان، أو تكوّنت في الوعي، كما توسوس لنا أنفسنا.

كلمة خنس ليست من الكلمات الكثيرة الاستعمال، وستجدها في أشعار العرب قبل الإسلام كتوصيف لاشتعال النار وظهور ألسنة لهيبها ثم خنس النار أي يذهب لهيبها، وستجدها وصفاً للحيوان البرّي الذي تراه يخنس فيغيب عن نظرك بسبب حركته للتواري في مكمن خلف الأشجار... ووصف النجوم بالخنس يناسب تواريها عند ابتداء ضوء الصباح بالانتشار، ووصف الوسواس بالخنس يناسب انتفاء ظهور أثر الوسواس، فتحصل الوسوسة ولكن لا نرى الوسواس أو لا ننتبه أنها وسوسة.

لو كان إبليس علناً يقف أمام أعيننا ونراه ونسمعه يحدّثنا بأمور مخالفة لكلامه تعالى، فإن كنّا مؤمنين فسنرفض ما يقوله، وإلا فما معنى وصفنا بالإيمان بدينه تعالى إن كنّا لن نرفض كلاماً صريحاً مخالفاً لدينه تعالى! ولكننا نقع في وسوسة من خنّاس، فهي كلام أو أفكار غير مباشرة لفعل السوء، كإغراء خفي لنا لنضلّ.

نفهمها بشكل أبسط بمقابلتها مع جملة صريحة تسمعها بأذنيك وترى أمامك من يقولها لك: الخمر الحرام فاشربه. فهذه ليست وسوسة ممن لا نرى وسوسته، فهي ليست وسوسة وليست من خنّاس، بل جملة علنية صريحة، ومن المفروض بك كمؤمن أن ترفضها فوراً، أمّا الوسوسة فهي من نوع: ما الضرر من شرب القليل من الخمر؟ فلن أفقد فكري وتوازني لو شربت رشفة، فسبحانه حرّم الخمر لأنها تفقدنا فكرنا وتركيزنا... فاشربها لأننا لن نأخذ معنا شيئاً بعد أن نموت... ألا يرضى الله تعالى أن أفرح قليلاً من شرب القليل من الخمر... هذه الجمل وأمثالها هي الوسوسة من خنّاس، فهو لا يقول لك مباشرة أن تفعل الحرام.

الحماية منه صعبة جدّاً إذا اتكلنا على أنفسنا، فالوسوسة الخفيّة خطيرة على المؤمنين، وفي الخفاء أيضاً هناك مضاد إلهي لها، ولولاه لضللنا تماماً، وترى ذلك منتشراً في تعابير متنوّعة في القرآن منها الآية 16 من سورة المائدة "يَهْدِي

بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"، فالهداية الإلهية والنور الإلهي المضادان للوسوسة تعملان علينا بالخفاء أيضاً.

طبعاً مثلما هناك تحفيز وتشجيع من الشياطين لنا لنفعل السوء الباطل، فهناك تشجيع وتحفيز منه تعالى لتحفيزنا على فعل الخير الصالح، ولكن الخطورة في الحرب الخفية التي أساليبها غير مباشرة، وعبر الوسوسة التي لا يظهر منها عَلَنِيَّةُ جرّنا لفعل السوء الفاسد، ومقابلها فالدعم الإلهي هو الذي أبقانا على القليل من الإيمان الذي فينا من مداومة على الصلاة والصوم والزكاة... فحتى لو سقطنا هنا وهناك في انجرارنا خلف سوء ما، فطالما لا زلنا نستغفر فهذا من آثار هدايته وتنويره لقلوبنا سبحانه...

(الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ{5})
قل أعوذ بالله تعالى... من الوسواس الخنّاس: {الَّذِي يُوَسْوِسُ}، يلقي بالأفكار السيئة في وعينا، فيرمي أفكاره المخالفة للدين الإلهي، {فِي صُدُورِ النَّاسِ}، حيث يحصل التفاعل مع الأمور التي تتعرّض لها الناس.

بالنسبة لكلمة "صدر، صدور" فإن لم يكن القصد بها لأعضاء الجسد للقفص الصدري وما تحته من أعضاء... فقد استعملها القرآن كما يستعملها الناطقون باللغة العربية وكما هي مستعملة في العديد من اللغات الأخرى، فنشير بالصدر للتفاعل الداخلي للإنسان مع ما يراه ويسمعه ويشعر به مما يتعرّض له... فنحن عندما نتعرّض لمختلف الظروف، نشعر بالانقباض أو الانشراح... في صدرنا، فاستعملنا كلمة صدر لتوصيف حالة تفاعلنا مع الأمور، وحتى لو لم تشعر بأي شيء في قفصك الصدري، من انقباض أو صعوبة في التنفّس أو راحة... فمجرد تفاعلك مع ما تعرّضت له، فإن مختلف اللغات البشرية تعبّر عن هذا التفاعل بأن شيئاً حصل في صدرك، وحتى السرّ الذي تخفيه عن الآخرين تعبّر عنه مختلف اللغات بأنه في صدرك، وكلّنا نعلم أن السرّ ليس في القفص الصدري، فليس تحته في الرئة أو القلب أو المريء... بل هو تعبير يشير لحالة تفاعلنا مع ما ندركه سواء بقي مخفياً أو ظهر له أثر حسّي في منطقة الصدر أو على تعابيرنا وحركاتنا.

الوسوسة في صدري هي التدخّل في تفاعلي مع الأمور، ففي لحظة تعرّضي لفرصة يمكنني فيها فعل السوء أو في فعل الخير، ففي تلك اللحظة يتدخل الشيطان ليوسوس لي لأتفاعل مع الأمور بشكل سيّء فاسد.

(مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ{6})
من هو الوسواس الذي نعوذ بالله تعالى منه؟ {مِنَ الْجِنَّةِ}، من الجنّ، وهم كائنات مخلوقة من نار، {وَالنَّاسِ}، وهم مخلوقات من التراب، من العناصر من كربون وكالسيوم وحديد وأكسجين...

كما ترى، اختصرت السورة هنا كل قصّة الجنّي إبليس وأعوانه من الجنّ، الذين سخّروا حياتهم في مهمّة إضلال الناس بسبب عداوتهم لبني آدم(ع)... وتعلم من عموم القرآن أن الجنّ لا يمكنهم إلّا أن يوسوسوا للبشر، فلا يمكنهم إجبار البشر على مخالفة كلامه تعالى، وتعلم من القرآن أيضاً أن وسوستهم تكون من نوع الأفكار التي تخطر على بالنا، ومن استغرق في تنفيذ تلك الأفكار الشيطانية فإنه سيصير عبداً لها وسيسيطر عليه الشيطان... ومن قاومها واستجاب لما يخطر في باله من طاعة أوامره تعالى واستغرق بها فإن الشيطان لن يجد عليه سبيلاً، وترى ذلك واضحاً في آيات عديدة منها الآية 42 من سورة الحجر {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ}.

اختصرت السورة الكلام عن الناس الذين يشتركون مع إبليس في العداوة للمؤمنين والإيمان، وجمع القرآن كِلَا هذين النوعين من الجنّ والإنس بوصف واحد: "شياطين" الجنّ والإنس. فهناك أناس يوسوسون للمؤمنين حتى يفعلوا السوء.

تذكّر ما قالته الآية ما قبل السابقة عن الوسوسة والخنس، فهي تفترض أنك مؤمن ولن تنجرف إلى ارتكاب السوء الواضح العلني الصريح، فلا معنى لإيمانك إن دعاك أحد ما إلى شرب الخمر وقال لك: تعال نشرب الخمر الذي حرّمه الله تعالى. وتعال نَزْنِ... فالكلام هنا مع مؤمن وسوس له أحد ما من الجنّ أو الإنس، وخنس الوسواس، فلم يظهر لك أنه يحاول جرفك إلى السوء، فيخطر ببالك من بعد وسوسته أن همومك والضغوط النفسية التي تعاني منها ستذهب عنك،

وحاجاتك ستتلبّى... إن شربت الخمر، وأنك مضطر لشربها، ولا بأس بالمحاولة ولو لمرة واحدة، وبعدها تتوب... وهذا هو تفاعل الصدر مع الوسوسة الخنّاسة.

الوسوسة من الناس لا تختلف عن الوسوسة من الجنّ، فمن الناس تسمع كلامهم مباشرة بأذنيك، وترى مغرياتهم بعينك... وتصل المعلومات إلى وعيك وتدور في صدرك، وتبدأ الوسوسة... أمّا الجنّ فلا قدرة لهم على التأثير عليك إلا بتوصيل الأفكار إلى وعيك بشكل مشابه لوصولها إلى وعيك عبر أذنيك.

انتبه، وصول شياطين الجنّ إلى وعيك ضعيف جِدّاً جِدّاً، وعند المؤمنين من الدرجة العالية المتمرسين على طاعته تعالى فإن تلك الوسوسة تكون مفضوحة وفوراً وبلمحة يكتشفها المؤمن أنها وسوسة شيطانية، فيدمّرها في لحظتها ولا يفكّر فيها مرتين، وبعده الأقل منه إيماناً تخطر على باله أمور سيئة فيدمّرها فوراً، وبعض الأمور الأخرى تخطر بباله ويكون متهاوناً معها لأنه يرغب بها، فيعلم أنها شيطانية ولكن لا يمانع من تصوّرها ويسرح خياله بها... فإن استغرق بالتفكير بها فسيميل في النهاية إلى تنفيذها... وهكذا وصولاً إلى من تجرّأ على فعل السوء باستمرار... فهذا سيصير عبداً للوسوسات ويسيطر عليه الشيطان بالكامل، ويصير الخروج من هذه الحالة شبه مستحيل...

كما ترى، السورة هنا تفترض أن قارئها مؤمن، ولديه الرغبة في ازدياد إيمانه، ويتمرّن على ترك السوء والالتزام بالواجب، ولذلك تعلّمه التعوّذ به تعالى من الوسوسة.

بقي شيء، هناك أمور لا نفهمها عن الوسوسة لأننا لا ننظر إلى الأمور من المنظور الإلهي، معتقدين أن تلاوة هذه السورة ستجعل الشياطين تهرب، كأثر سحري لكلامها، أو أن الوسوسة ستنقلب إلى أفكار ملائكية، مثلما يعتقد الناس بتأثير تعاويذ السحر، على أساس أن التلفّظ بالكلام يغيّر حقيقة الأشياء، فأقول الكلمة السحرية ويختفي الأرنب تحت القبّعة، وأقرأ هذه السورة لتختفي الشياطين ويغمرني نور الملائكة(ع)، لا ونعم، فهذا الكلام صحيح ولكن بشرط، ومن دونه يكون الكلام غير صحيح، وحتى نفهم الشرط جَيِّداً لنرجع لما في بالنا عن الوسوسة، وطالما فهمت أن الفكرة التي في بالك هي وسوسة "شيطانية" فأنت في هذه اللحظة صار في وعيك وسوسة الشياطين والهداية والنور و"وحي ملائكي" مع بعض، والفكرة صارت أمامك، ولك الخيار في اتباعها أو مخالفتها، فالاختيار بيدك، وهذه السورة علّمتك التعوّذ به تعالى من هذه الوسوسات، لتتذكّرها، وإن اخترت بسهولة أو وبعد جهد جهيد أن لا تفعل السوء، وشعرت بتقديم التضحيات الكبيرة الضخمة الهائلة في سبيل الإيمان بتركك لأمر سيّء... فاعلم أنك إن كرّرت معارضة الوسوسة ستصل في النهاية إلى راحة الابتعاد عمّا كنت تحلم وترغب به من سوء فاسد وسوء.

أخيراً، كثيراً ما نحتار في فهم الفرق بين وسوسة الشيطان ووسوسة النفس، على أساس أنه لو لم يكن الشيطان إبليس يوسوس لنا، لكنّا كالملائكة(ع)، وهذا غير صحيح.

مع أو بدون إبليس، نحن نمشي في الوسط، على اليمين نعلم أنه طريق المسجد للصلاة واحترام حقوق الناس... وعلى اليسار طريق الخمر والزنا والقمار والنصب والاحتيال... وأمامك الجنّة على اليمين في آخر الطريق، والنار على اليسار في آخر الطريق...

أنت لا تفهم كيف يعيش بعض الناس في حياة مزرية، من تحشيش ومخدرات وسرقة ونصب وتعدٍّ على الآخرين والقتل... والأخلاق الفاسدة والسباب... ووساخة العلاقات... وتراهم بصورة كريهة مقرفة، لتستزريهم وتحتقرهم، وتشمئز من منظر حياتهم، ومن بعيد تتصوّر روائحهم كريهة وبيوتهم مزابل... عِلْماً أنهم قد يكونون من محبي الاستحمام والنظافة! ولكن تراكم تصوّرك للأمور الكريهة سيجعلك تستحضر كل ما تكرهه عندما تفكّر بهذه النوعية السافلة المنحطّة من الناس.

الآن، هل يمكن أن تشرح لنا كيف يمكن لإنسان فيه عقل أن يكون بهذه الصفات!؟ وهل يمكنك أن تشرح لنا كيف اختار هذه النوعية من الناس هذا الطريق؟! هل الشيطان "إبليس" شخصيّاً هو المسؤول عن وسخهم وفسادهم وهم مظلومون أبرياء!؟ لماذا لم يظلمك إبليس ويتعدّى عليك أنت ويجبرك لتفسد إلى درجة النتانة والحقارة؟! مثلما تعلم من نفسك أنك مسيطر على قراراتك، ولا يتحكّم بك أي أحد إلّا إذا أنت قرّرت تركه يتحكّم بك، هكذا ستعلم أن نفسك هي التي تقرّر لتأمرك بالسوء أو تأمرك بالخير، حيث في البداية أنت تأمر نفسك، مع إبليس أو بدون إبليس، فإبليس وبقية الشياطين

من الجنّ والإنس هم صور ويافطات معروضة أمامك، وتراها مغرية ومن الصعب مقاومتها كلّما كان لديك تاريخ سابق في فعلك للسوء وهو عمليّاً مخالفة أوامره تعالى، وستراها كريهة وتنفر منها كلّما كان لديك تاريخ سابق في فعل الخير والصلاح وهو عمليّاً طاعة أوامره تعالى.

إن كنّا غارقين في الوحل فلا يمكنك إقناعي ولا يمكنني إقناعك بأن الذي حرّمه الله تعالى لن يحرمك أو يحرمني من لذّة رائعة، فمن يستسخف نفسه ويقنع نفسه بأنه يبقى واعياً حتى لو شرب الخمر، أو حتى لو تعاطى الحشيش، فلا يمكنك إقناعه بتركها لأنه يلتذّ بها، عِلْماً أنه ليس متعلّقاً بطعمها اللذيذ، بل متعلّق بفقدانه لوعيه وتركيزه! وهذا هو نفسه الشيء الذي يناقشك ويحاول أن يقنعك بأنه لا يحصل معه!

بعد ذلك يغرق في الوحل، ويغرق، ويقوم بأعمال شنيعة مخزية وهو سكران، ليغرق أكثر فأكثر، ويبرر لتلك الأعمال التي كانت من قبل كريهةً في نظره، ولكن من بعد الغرق في الوحل إلى خاصرته، لم يعد يستطيع التصريح بأنها فاسدة، ويغرق ويغرق إلى عنقه وسيحبّ تلك الأمور ويتعلّق بها... ولن يعد يراها أصلاً سيئة فاسدة... ونصير أمام تعابير غريبة عجيبة كعبارة: بار محترم، خمّارة محترمة، بائعة هوى...

غالبية الناس سيصيبها انهيار عصبي إن رأت طفلاً يتم تقطيعه أمامها، وسيكون التأثير أقل إن سمعت بذلك حصل في الحيّ المجاور، ويكون التأثير أقل إن سمعت بذلك يحصل في بلد آخر، وأقل أثراً إن كانت الحادثة قديمة... وأقل أثراً إن مات الطفل فوراً، وأقل من ذلك إن مات في بلد آخر تحت الركام ولم يجدوا جثّته...

هل يمكنك أن تشرح لنا كيف وصل إنسان ما إلى حالة التلذّذ بعملية القتل! وهل يمكنك أن تشرح لنا كيف يصل الحكّام والسياسيون والعسكر والأحزاب... إلى قرار قتل الأبرياء العزّل من السلاح! وهل يمكنك أن تفسّر وقاحتهم في أناقتهم بالبدلات الرسمية في القاعات الرسمية في أعلى المناصب السياسية في بلدانهم وعلى الكرة الأرضية... وهم لا يشعرون بأي ذنب من قتل طفل بريء!

الآن يجب أن تكون فهمت ما يقوله القرآن عن خلقه تعالى لنا ووضعنا على طريق له يمين وشمال وكمثال عن ذلك تعبير الآية 10 من سورة البلد {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}، ونحن نختار الطريق، والشيطان إبليس وأعوانه وجماعته وأمثاله... كيافطات وآرمات وبانوهات وشاشات... معلّقة على الشمال، والهداية والنور الإلهي كإعلانات عن حسومات مغفرة إلهية، وصور للجنّة الرائعة الخالدة، والملائكة(ع) وصالح المؤمنين كمصابيح إنارة معلقة على اليمين... وما يخطر ببالك مما تراه عن الشمال واليمين هو الوسوسة، فإمّا تكون موصوفاً بالقلب السليم، بفكر ونفسية سليمة، وإمّا أن يكون الإنسان كالبهيم ويصل إلى درجة الوقاحة التي ما بعدها وقاحة، ببدلة رسمية وشعر مسرّح ورائحة العطر وقاعة رسمية... رئيساً محترماً موقّراً تتوجّه إليه الكاميرات أثناء حديثه الراقي بطريقة دبلوماسية... وبأمر منه وبموافقته ورضاه ودعمه وتأييده... وبجنوده أو بمخابراته أو بالمرتزقة أو بمن يسيطر عليهم... يتم تقطيع الأبرياء! من بعد هذا حدّثني عن سخرية العلمانيين من كلام المؤمنين عن الشيطان، على أساس أن الشيطان من الأوهام وتخريف وكلام فارغ، وهم بأنفسهم شياطين.

ختاماً، أخبرك بشيء فهمته من القرآن، فهمت الفرق الهائل بين المؤمن الحقيقي والمؤمن الأقل من عادي مثل حالتي، فهمت كيف يكون الإنسان راقياً كالأنبياء، وينفر من كل سوء كما ننفر نحن من الوسخ والقذارة، وفهمت كيف يتعلّق بحبّه لله تعالى ويلتذّ بهذا الحبّ الغامر، ويشعر بالسمو والرقي والعظمة... من علاقته بربّه، ولن يستبدل رضاه تعالى بكل مغريات ومشتهيات الدنيا، فبعض الناس لديهم هذه المشاعر والعقلية مثلما نحن متعلّقون بحبّنا لأمور سيئة لأننا نراها ضرورية ولذيذة ولا يمكننا التخلّي عنها.

فهمت أنهم يرون الجنّة ويطيش فكرهم لما سيكون فيها من روائع طاهرة نقية راضين بها وراضياً عنهم إلههم خالدين فيها... وأنهم يرون النار ويعلمون المدى الذي يمكن أن يصل إليه غضب الجبّار...

فهمت أن القلب المريض يريك العذرة والأوساخ... يريكهم قوالب حلوى، وأن القلب السليم يريك الدنيا والآخرة كما ترى نفسك في المرآة الصافية... فهمت هذا ولست بأفهم منك، وفهم الكلام الإلهي لن يدخلنا الجنّة إن لم يقترن بالعمل الصالح، ولست بأصلح منك، فاستغفر لنفسك ولوالديك، ولي ولوالديَّ، وللمؤمنين.

تمت بحمده تعالى المراجعة في أول حزيران 2026. الموافق 15 ذو الحجة 1447